(٥٠) سُورَةُ قٓ مَكِيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

هذه السورة كسائر السور المكية تعالج قضية الايمان بالله تعالى ، والبعث بعد الموت ، وفيما بين ذلك تعرض مظاهر محسَّة من قدرة الله تعالى ، وحكمته ، ومراقبته عباده لمحاسبتهم ﴿ يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير .) .

تناولت هذه السورة العظيمة قضايا رئيسية خمسة : قضية البعث وانكار المشركين له ، لفت الانظار الى كتاب الكون المفتوح ، الرقابة المباشرة للخلق من الميلاد ومرورا بالموت تنتهي بالبعث والجزاء ، قدرة الله تعالى على فعل ما يشاء ، وظيفة الرسول ﷺ .

● ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح القضية الاولى فذكرت ان الله تعالى الذي بدأ الخلق أول مرة لا يصعب عليه ان يعيده وهو العليم القادر المريد الذي لا يغرب عن علمه شيء ، ولا يندُّ عن مقدوره مراد ، فعلام يعمون ويعجبون من اعادته سبحانه الخلق ؟ قال الله سبحانه ﴿ ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب إذا مِتنا وكنا ترابا ذلك رَجْع بعيد قد علمنا ما تنقُصُ الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذَّبوا بالحق كمّا جاءهم فهم في أمر مَريج .) .

● ثم تحدثت عن كتاب الكون الذي يقرأ فيه العامي والعالم

والساذج والذكي كل بحسب استعداده وأهليته ، فكلٌّ يرى السماء المرفوعة بغير عمد يرونها ، والارض ممدودة محفوظة بالجبال من أن تميد والرياض والبساتين رزقا للعباد ، فليكن بذلك الإعتبار والتذكر ، قال تعالى ﴿ افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّنّاها وما لها من فروج﴾ الى قوله ﴿كذلك الخروج﴾ .

● ثم تحدثت السورة عن رقابة الله تعالى للخلق ، وهي رقابة رافقت الاجيال السالفة حتى اسلمت منكريها الى العذاب ، وهي تراقب الخلق أفراداً وجماعات حتى ينتقل كلٌّ الى جزاء عمله عند الله تعالى ، بصورة يرتعش لها القلب ويمتلىء بها الحس روعة ورهبة . قال سبحانه ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلمُ ما تُوسوس به نفسه ونحن أقربُ إليه من حبْل الوريد﴾ الى قوله ﴿ لا تختصموا لديّ وقد قدّمت اليكم بالوعيد ما يُبدّل القولُ لديّ وما انا بظلاّم للعباد يوم نقول لجهنّم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وأُزلفت الجنة للمتقين غيرَ بعيد هذا ما توعدون لكل أوّابٍ حفيظ مَن خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب .﴾ .

● وتحدثت السورة كذلك عن قدرة الله تعالى في بناء السموات والارض في ستة ايام دون أن يناله سبحانه تعب ولا نصب .. وفي بعث الناس من قبورهم ليحاسبوا على ما اسلفوا من خيرا وشر ، على صورة من البيان القوى يهلع له القلب ويكاد من شدة ظهوره يلمحه البصر ، قال سبحانه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام وما مسّنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ..﴾ الى قوله تعالى ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يومُ الخروج إنّا نحن نحيي ونُميت وإلينا المصير يوم تشقّقُ الارض عنهم سِراعا ذلك حشر علينا يسير .) .
وختمت السورة بالحديث عن وظيفة رسول الله ﷺ ، فماذا هي وظيفة

الإرشاد والدلالة على الخير دون قسر واكراه ، ودعـوة الناس الى القرآن الكريم وتذكيرهم به فيما اودع الله تعالى فيه من عظات وعبر ونماذج من حِجاج وبراهين لمن شاء ان يستقيم ، قال سبحانه ﴿ نحن اعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكِّـر بالقرآن من يخاف وعيدِ . ﴾ .

فضلها : عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه انه ﷺ ﴿ كان يقرأ في العيد بقاف . ﴾ رواه أحمد ومسلم .

وعن أم هشام إبنة حارثة رضي الله تعالى عنها قالت ﴿ ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ الامن في رسول الله ﷺ كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس . ﴾ رواه ابو داود وابن ماجه والبيهقي وابن أبي شيبة .

سورة قٓ

[٨٦٧] أخرج الحاكم(١) وصححه عن ابن عباس أن اليهود أتت رسول الله [ﷺ] فسألته عن خلق السموات والأرض فقال: **«خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة الآجال حتى يموت من مات وفي الثانية التي ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة»** قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد قال: **«ثم استوى على العرش»** قالوا: قد أصبت لو أتممت قالوا: ثم استراح فغضب النبي [ﷺ] غضباً شديداً فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(٢).

[٨٦٨] ك.. وأخرج ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٣) ثم أخرج عن عمرو مرسلاً مثله.

* * *

---

[٨٦٧] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق أبي بكر بن عياش عن أبي سعد البقال عن عكرمة به مثله ص (٢٢٦).

(٢) سورة قٓ: الآية (٣٨و٣٩).

[٨٦٨] (٣) سورة قٓ: الآية (٤٥).

سورة ق

اربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهي أمور:

الأول: أن هذه السورة تُقرأ في صلاة العيد؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] فإن العيد يوم الزينة، فينبغي أن لا ينسى الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم فرحًا فخورًا، ولا يرتكب فسقًا ولا فجورًا، ولما أمر النبي ﷺ بالتذكير بقوله في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ذكرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

الثاني: هذه السورة وسورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف المعجم والقسم بالقرآن وقوله: ﴿بَلْ﴾ والتعجب، ويشتركان في شيء آخر، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان، وذلك لأن في (ص) قال في أولها: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وقال في آخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وفي (ق) قال في أولها: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وقال في آخرها: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فافتتح بما اختتم به.

والثالث: وهو أن في تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد، بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦] وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر، بقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] ولما كان افتتاح السورة في (ص) في تقرير المبدأ، قال في آخرها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] وختمه بحكاية بدء (خلق) آدم؛ لأنه دليل الوحدانية. ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر، قال في آخرها: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

وأما التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قيل: (ق) اسم جبل محيط بالعالم، وقيل: معناه حكمة، هي قولنا: قضى الأمر. وفي ص: صدق الله، وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قُدمت على القرآن؛ ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق.

وذكرنا أيضًا أن العبادة منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها جارحية ظاهرة، ووُجد في الجارحية

ما عُقل معناه، ووُجد منها ما لم يعقل معناه، كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما، ووُجد في القلبية ما عُقل بدليل، كعلم التوحيد، وإمكان الحشر، وصفات الله تعالى، وصدق الرسل، ووُجد فيها ما يُبعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق والجزم بها لولا السمع كالصراط الممدود الأحَدِّ من السيف الأرقِّ من الشعر، والميزان الذي يوزن به الأعمال، فكذلك كان ينبغي أن تكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية منها ما يُعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلاً منه، ومنها ما لا يُعقل ولا يُفهم كحرف التهجي لكون التلفظ به محض الانقياد للأمر، لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض، كقولنا: ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدًا محضًا، ويؤيد هذا وجه آخر، وهو أن هذه الحروف مقسم بها، وذلك لأن الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفًا لهما، فإذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أَوْلى.

وإذا عرفت هذا فنقول على هذا: فيه مباحث:

الأول: القسم من الله وقع بأمر واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ [العصر: ١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ [النجم: ١] وبحرف واحد، كما في قوله تعالى: (ص و ن) ووقع بأمرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] وبحرفين، كما في قوله تعالى: (طه و طس و يس و حم) وبثلاثة أمور، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ . . . ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ . . . ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ وبثلاثة أحرف، كما في (الم) وفي (طسم والر) وبأربعة أمور، كما في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] وفي ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وفي ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١] وبأربعة أحرف، كما في (المص المر) وبخمسة أمور، كما في ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] وفي ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] وفي ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] وفي ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ [الفجر: ١] وبخمسة أحرف، كما في (كهيعص وحمعسق) ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول؛ لأنه يجمع كلمة الاستثقال، ولما استثقل حين رُكب لمعنى، كان استثقالها حين رُكب من غير إحاطة العلم بالمعنى أو لا لمعنى كان أشد.

البحث الثاني: عند القسم بالأشياء المعهودة، ذكر حرف القسم وهو الواو، فقال: (والطور والنجم والشمس) وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم، فلم يقل (وق وحم) لأن القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسمًا به، فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف.

البحث الثالث: أقسم الله بالأشياء: كالتين والطور، ولم يقسم بأصولها، وهي الجواهر الفردة والماء والتراب. وأقسم بالحروف من غير تركيب؛ لأن الأشياء عنده يركبها على أحسن حالها، وأما الحروف إن رُكبت بمعنى، يقع الحلف بمعناه لا باللفظ، كقولنا: (والسماء والأرض) وإن رُكبت لا بمعنى، كان المفرد أشرف، فأقسم بمفردات الحروف.

البحث الرابع: أقسم بالحروف في أول ثمانية وعشرين سورة، وبالأشياء التي عددها عدد الحروف، وهي غير ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ [الشمس: ١] في أربع عشرة سورة، لأن القسم بالأمور غير الحروف وقع في أوائل السور وفي أثنائها، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧] وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا في أوائل السور؛ لأن ذكر ما لا يفهم معناه في أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم، ولما كان القسم بالأشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد، جعل القسم بالأشياء في أوائل السور على نصف القسم بالحروف في أوائلها.

البحث الخامس: القسم بالحروف وقع في النصفين جميعًا بل في كل سبع، وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير، بل لم يوجد إلا في السبع الأخير غير (والصافات)، وذلك لأنا بينا أن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده إلا نادرًا فقال تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [غافر: ١، ٢] ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وُجد ذلك عامًّا في جميع المواضع، ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في سورة العنكبوت.

ولنذكر ما يختص بقاف: قيل: إنه اسم جبل محيط بالأرض عليه أطراف السماء. وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن القراءة الكثيرة الوقفُ، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج؛ لأن من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به. وثانيها: أنه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] وذلك لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقًّا لأن يقسم به، كقولنا: الله لأفعلن كذا، واستحقاقه لهذا غني عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال: زيد لأفعلن. ثالثها: هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب ﴿عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ [الغاشية: ١٢] ويكتب ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي جميع المصاحف يكتب حرف (ق). رابعها: هو أن الظاهر أن الأمر فيه كالأمر في (ص، ن، حم) وهي حروف لا كلمات وكذلك في (ق) فإن قيل: هو منقول عن ابن عباس. نقول: المنقول عنه أن قاف اسم جبل، وأما أن المراد في هذا الموضع به ذلك فلا، وقيل: إن معناه قضي الأمر، وفي (ص) صدق الله، وقيل: هو اسم الفاعل من قفا يقفو، وص من صاد من المصاداة، وهي المعارضة، معناه هذا قاف جميع الأشياء بالكشف، ومعناه حينئذٍ هو قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩] إذا قلنا إن الكتاب هناك القرآن.

هذا ما قيل في (ق) وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها، فنقول: إن قلنا: هي مبنية على ما بينا فحقها الوقف إذ لا عامل فيها، فيشبه بناء الأصوات ويجوز الكسر حذرًا من التقاء الساكنين، ويجوز الفتح اختيارًا للأخف، فإن قيل: كيف جاز اختيار الفتح هاهنا، ولم يجز عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]؟ نقول: لأن هناك إنما وجب التحريك وعُين الكسر في الفعل لشبهة تحرك الإعراب؛ لأن الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر، فاختيرت الكسرة التي لا يخفى على أحد أنها ليست بجر؛ لأن الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فُتح لاشتبه بالنصب، وأما في أواخر الأسماء فلا اشتباه؛ لأن الأسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الأخف. وأما إن قلنا: إنها حرف مقسم به فحقها الجر، ويجوز النصب بجعله مفعولاً بأُقسم على وجه الاتصال وتقدير الباء كأن لم يوجد، وإن قلنا: هي اسم السورة، فإن قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لأنها لا تنصرف حينئذٍ ففتح في موضع الجر كما تقول: وإبراهيم وأحمد في القسم بهما. وإن قلنا: إنه ليس مقسمًا بها وقلنا اسم السورة، فحقها الرفع إن جعلناها خبرًا تقديره: هذه (ق)، وإن قلنا: هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا: هذا داعٍ وراعٍ، وإن قلنا: اسم جبل فالجر والتنوين وإن كان قسمًا.

ولنعد إلى التفسير فنقول: الوصف قد يكون للتمييز وهو الأكثر، كقولنا: (الكلام القديم) ليتميز عن الحادث. و(الرجل الكريم) ليمتاز عن اللئيم، وقد يكون لمجرد المدح كقولنا: (الله الكريم) إذ ليس في الوجود إله آخر حتى نميزه عنه بالكريم، وفي هذا الموضع يحتمل الوجهين، والظاهر أنه لمجرد المدح، وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسمًا للمقروء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] والمجيد: العظيم، وقيل: المجيد هو كثير الكرم. وعلى الوجهين القرآن مجيد، أما على قولنا: (المجيد هو العظيم)، فلأن القرآن عظيم الفائدة، ولأنه ذكر الله العظيم، وذكر العظيم عظيم، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق، وهو آية العظمة، يقال مَلِك عظيم، إذا لم يكن يُغلب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] أي الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا بإطلاعه تعالى، فلا يبدل ولا يغير و﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] فهو غير مقدور عليه فهو عظيم، وأما على قولنا: (المجيد هو كثير الكرم) فالقرآن كريم، كل من طلب منه مقصوده وجده، وإنه مغنٍ كل من لاذ به، وإغناء المحتاج غاية الكرم، ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا: (إنك حميد مجيد) فالحميد هو المشكور، والشكر على الإنعام، والمنعم كريم، فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم.

وفيه مباحث:

الأول: القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا؟ نقول: فيه وجوه، وضبطها بأن نقول: ذلك إما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة، فإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظًا إلا ﴿قٓ﴾ فيكون التقدير: هذا ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أو (ق) أنزلها الله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ كما يقول: (هذا حاتم والله) أي هو

المشهور بالسخاء ويقول: (الهلال رأيته والله)، وإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة، فنقول: ذلك أمران: أحدهما: المنذر. والثاني: الرجع، فيكون التقدير: والقرآن المجيد إنك المنذر، أو: والقرآن المجيد إن الرجع لكائن؛ لأن الأمرين ورد القسم عليهما ظاهرًا: أما الأول: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ١ - ٦]. وأما الثاني: فدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ١ - ٧] وهذا الوجه يظهر عليه غاية الظهور على قول من قال (ق) اسم جبل، فإن القسم يكون بالجبل والقرآن، وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن، فإن قيل: أي الوجهين منهما أظهر عندك؟ قلت: الأول؛ لأن المنذر أقرب من الرجع، ولأن الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلًا ومنذرًا، وما رأينا الحروف ذُكرت وبعدها الحشر، واعتبر ذلك في سور، منها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ [السجدة: ١ - ٣] ولأن القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله، فالقسم به عليه يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم، وليس هو بنفسه دليلًا على الحشر، بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول، وأما إن قلنا: (هو مفهوم بقرينة حالية)، فهو كون محمد ﷺ على الحق ولكلامه صفة الصدق، فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك، والمختار ما ذكرناه.

والثاني: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ [ق: ٢] يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك؟ نقول: قال الواحدي ووافقه الزمخشري: إنه تقدير قوله: ما الأمر كما يقولون ونزيده وضوحًا. فنقول على ما اخترناه: فإن التقدير، والله أعلم ق والقرآن المجيد إنك لتنذر، فكأنه قال بعده: وإنهم شكوا فيه فأضرب عنه.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ ﴾

يعني لم يقتنعوا بالشك في صدق الأمر وطرحه بالترك وبُعد الإمكان، بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، فإن قيل: فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم؟ في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز؟ فنقول: إنما حذف المقسم عليه لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظَّمه، فإذا قال له غيره: (هو لا يذكر في هذا المجلس) يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره، فالله تعالى يقول: لَبيان رسالتك أظهر من أن يُذكر. وأما حذف المضرب عنه فلأن المضرب عنه إذا ذُكر وأُضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين

المذكورين تفاوت ما، فإذا عظُم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب، مثاله: يحسن أن يقال: الوزير يعظم فلانًا بل الملك يعظمه. ولا يحسن أن يقال: البواب يعظم فلانًا بل الملك يعظمه. لكون البون بينهما بعيدًا؛ إذ الإضراب للتدرج، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحًا وأتى بحرف الإضراب، استفيد منه أمران: أحدهما: أنه يشير إلى أمر آخر قبله. وثانيهما: أنه يجعل الثاني تفاوتًا عظيمًا مثل ما يكون ومما لا يذكر، وههنا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد، لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد.

المبحث الثالث: (أنْ) مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر، تقول: أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام، وتقول: ما كان جوابه إلا أن قال، وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال: أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق، ولا يجوز أن يقال: أمرت القيام بل لا بد من الباء، ولذلك قالوا: أي عجبوا من مجيئه؟ نقول: ﴿أَن جَآءَهُم﴾ وإن كان في المعنى قائمًا مقام المصدر، لكنه في الصورة فعل وحرف، وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل، فكان الواجب أن لا يدخل، فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول، فجاز أن يقال: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾ ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ﴾ يصلح أن يكون مذكورًا كالمقرر لتعجبهم، ويصلح أن يكون مذكورًا لإبطال تعجبهم: أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] و﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم؟! وأما الإبطال فلأنه إذا كان واحدًا منهم ويُرى بين أظهرهم، وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومَن بعدهم، كان يجب عليهم أن يقولوا: هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا، فهو من عند الله!! بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه، فإنهم كانوا يقولون: نحن لا نقدر لأن لكل نوع خاصية، فإن خاصية النعامة بلع النار، والطيور الطير في الهواء، وابن آدم لا يقدر عليه. فإن قيل: الإبطال جائز لأن قولهم كان باطلاً، ولكن تقرير الباطل كيف يجوز؟! نقول: المبين لبطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم أنه دليل عليه، ثم يبطله؛ فلذلك قال: عجبتم بسبب أنه منكم، وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب. فإن قيل: النبي ﷺ كان بشيرًا ونذيرًا والله تعالى في جميع المواضع قدم كونه بشيرًا على كونه نذيرًا، فلمَ لم يذكر: عجبوا أن جاءهم بشير منهم؟ نقول: هو لما لم يتعين للبشارة موضعًا كان في حقهم منذرًا لا غير.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

قال الزمخشري: هذا تعجب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذي أشار إليه بقوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] فعجبوا من كونه منذرًا من وقوع الحشر، ويدل عليه النظر في أول

سورة ص حيث قال فيه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ص: ٤] وقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ذكر تعجبهم من أمرين. والظاهر أن قولهم: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ إشارة إلى مجيء المنذر لا إلى الحشر، ويدل عليه وجوه: الأول: هو أن هناك ذكر ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بعد الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ وقال هاهنا: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ ولم يكن ما يقع الإشارة إليه إلا مجيء المنذر. ثم قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الثاني: ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب أيضًا عائدًا إليه لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من جعل قولك ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عائدًا إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه عُلم من قوله: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾ فقوله ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يكون تكرارًا، نقول: ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير، وذلك لأنه لما قال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجيبًا كما قال تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ويقال في العرف: (لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب) فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فكيف لا نعجب منه؟ ويدل عليه أنه تعالى قال هاهنا: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بحرف الفاء، وقال في (ص): ﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] لأن قولهم: ﴿سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ كان تعنتًا غير مرتب على ما تقدم، و﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أمر مرتب على ما تقدم، أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك، فقالوا: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فكيف لا نعجب منه؟ ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] بلفظ الإشارة إلى البعد، وقوله: (هذا) إشارة إلى الحاضر القريب، فينبغي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهذا، وذلك لا يصح إلا على قولنا.

قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

فإنهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه، وهذا كما قال تعالى عنهم ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إنكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ق: ٢] لأن الإنذار لما لم يكن إلا بالعذاب المقيم والعقاب الأليم، كان فيه

الإشارة للحشر، فقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

المسألة الثانية: (ذلك) إشارة إلى ما قاله وهو الإنذار، وقوله: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] إشارة إلى المجيء على ما قلنا، فلما اختلفت الصفتان نقول: المجيء والجائي كل واحد حاضر. وأما الإنذار وإن كان حاضرًا لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك، والرجع مصدر رجع يرجع إذا كان متعديًا، والرجوع مصدره إذا كان لازمًا، وكذلك الرُّجعى مصدر عند لزومه، والرجع أيضًا يصح مصدرًا للازم، فيحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي رجوع بعيد، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي، ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨] وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ [النازعات: ١٠] أي مرجعون فإنه من الرجع المتعدي، فإن قلنا: هو من المتعدي، فقد أنكروا كونه مقدورًا في نفسه.

ثم إن الله تعالى قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾

إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه، وذلك لأن الله تعالى يجمع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجوع منه ببعيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] حيث جعل للعلم مدخلاً في الإعادة. وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ﴾ يعني لا تخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها في تخوم الأرَضين، وهذا جواب لما كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] يعني أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون، ويحتمل أن يقال: معنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء، وذلك لأن العلم إجمالي وتفصيلي، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتابًا ويفهمه، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفًا بحرف، ولا يخطر بباله في حالة بابًا بابًا، أو فصلاً فصلاً، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتحديد نظر، والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الأشياء، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين. أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءًا جزءًا وشيئًا شيئًا. والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ، أي محفوظ من التغيير والتبديل، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئًا منها، والثاني هو الأصح لوجهين: أحدهما: أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء، وهو مستغنٍ عن أن يحفظ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ ردٌّ عليهم، فإن قيل: ما المضروب عنه؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: تقديره لم يَكذب المنذر، بل كذبوا هم، وتقديره هو أنه تعالى لما قال عنهم إنهم

قالوا: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] كان في معنى قولهم: إن المنذر كاذب، فقال تعالى: لم يكذب المنذر، بل هم كذبوا، فإن قيل: ما الحق؟ نقول: يحتمل وجوهًا: الأول: البرهان القائم على صدق رسول الله ﷺ. الثاني: الفرقان المنزل. وهو قريب من الأول لأنه برهان. الثالث: النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فإنها حق. الرابع: الحشر الذي لا بد من وقوعه فهو حق، فإن قيل: بَيِّن لنا معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وأية حاجة إليها، يعني أن التكذيب متعد بنفسه، فهل هي للتعدية إلى مفعول ثانٍ أو هي زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]؟ نقول: فيه بحث وتحقيق، وهي في هذا الموضع لإظهار معنى التعدية، وذلك لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب، لكن النسبة تارة توجد في القائل، وأخرى في القول، تقول: كَذَّبني فلان وكنت صادقًا، وتقول: كَذَّب فلان قول فلان، ويقال كَذَّبه، أي جعله كاذبًا، وتقول: قلت لفلان: زيد يجيء غدًا، فتأخر عمدًا حتى كَذَّبني وكَذَّب قولي، والتكذيب في القائل يستعمل بالباء وبدونها، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] وفي القول كذلك غير أن الاستعمال في القائل بدون الباء أكثر، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] إلى غير ذلك، وفي القول الاستعمال بالباء أكثر، قال الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]. والتحقيق فيه هو أن المفعول المطلق هو المصدر؛ لأنه هو الذي يصدر من الفاعل، فإن من ضرب لم يصدر منه غير الضرب، غير أن له محلًا يقع فيه فيسمى مضروبًا، ثم إذا كان ظاهرًا لكونه محلًا للفعل يستغني بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف، يقال: ضربت عَمْرًا، وشربت خمرًا، للعلم بأن الضرب لا بد له من محل يقوم به، والشرب لا يستغني عن مشروب يتحقق فيه، وإذا قلت: (مررت) يحتاج إلى الحرف ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره في نفسه؛ لأن من قال: مر السحاب يُفهم منه مرور ولا يفهم منه مَن مر به، ثم إن الفعل قد يكون في الظهور دون الضرب والشرب، وفي الخفاء دون المرور، فيجوز الإتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذي فوق ظهور المرور، ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب، ولهذا لا يجوز أن تقول: ضربت بعمرو، إلا إذا جعلته آلة الضرب. أما إذا ضربته بسوط أو غيره، فلا يجوز فيه زيادة الباء، ولا يجوز مروا به إلا مع الاشتراك، وتقول: مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له؛ لأن المسح إمرار اليد بالشيء فصار كالمرور، والشكر فعل جميل غير أنه يقع بمحسن، فالأصل في الشكر: الفعل الجميل، وكونه واقعًا بغيره كالبيع، بخلاف الضرب، فإنه إمساس جسم بجسم بعنف، فالمضروب داخل في مفهوم الضرب أولاً، والمشكور داخل في مفهوم الشكر ثانيًا، إذا عرفت هذا فالتكذيب في القائل ظاهر لأنه هو الذي يصدق أو يكذب، وفي القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ في الجائي وجهان: أحدهما: أنه هو المكذَّب، تقديره: كذبوا بالحق لما جاءهم الحق، أي لم يؤخروه إلى الفكر والتدبر. ثانيهما: الجائي ههنا هو الجائي في قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ق: ٢] تقديره: كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر، والأول لا يصح على قولنا (الحق وهو الرجع)، لأنهم لا يكذبون به وقت المجيء، بل يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢].

وقوله: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي مختلف مختلط، قال الزجاج وغيره: لأنهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر، وطورًا ينسبونه إلى الكهانة، وأخرى إلى الجنون. والأصح أن يقال: هذا بيان الاختلاف المذكور في الآيات، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ يدل على أمر سابق أضرب عنه، وقد ذكرنا أنه الشك، وتقديره: والقرآن المجيد، إنك لمنذر، وإنهم شكُّوا فيك، بل عجبوا، بل كَذَّبوا. وهذه مراتب ثلاث: الأولى: الشك، وفوقها التعجب؛ لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به، والمكذب: الذي يجزم بخلاف ذلك، فكأنهم كانوا شاكِّين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ ويدل عليه الفاء في قوله: ﴿فَهُمۡ﴾ لأنه حينئذ يصير كونهم ﴿فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ مرتبًا على ما تقدم، وفيما ذكروه لا يكون مرتبًا. فإن قيل: المريج، المختلط، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل؛ لأن الشاك ينتهي إلى درجة الظن، والظان ينتهي إلى درجة القطع، وعند القطع لا يبقى الظن، وعند الظن لا يبقى الشك، وأما ما ذكروه ففيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب، بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون، وكذا إلى الشعر بعد السحر، وإلى السحر بعد الشعر، فهذا هو المريج. نقول: كان الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه، فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج، وأما ما ذكروه فاللائق به تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ [الذاريات: ٨] لأن ما كان يصدر منهم في حقه كان قولاً مختلفًا، وأما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة، وفيه لطيفة وهي أن إطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبئ عن عدم كون ذلك الجزم صحيحًا لأن الجزم الصحيح لا يتغير، وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطربًا، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع في اعتقاده تردد ولا يوجد في معتقده تعدد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾.

إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ [يس: ٨١] وقوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾[الأحقاف: ٣٣] . وفيه مسائل:

المسألة الأولى: همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه، وتارة تدخل عليه وبعدها واو، فهل بين الحالتين فرق؟ نقول: فرق أدق مما على الفرق، وهو أن يقول القائل: أزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس؟ يذكره للإنكار، فإذا قال: أو زيدًا في الدار بعد وقد طلعت الشمس؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين، كأنه يقول بعد ما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار: (أغفل وهو في الدار بعد)، لأن الواو تنبئ عن ضيف أمر مغاير لما بعدها وإن لم يكن هناك سابق لكنه يومئ بالواو إليه زيادة في الإنكار، فإن قيل: قال في موضع: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾[الأعراف: ١٨٥] وقال هاهنا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ بالفاء فما الفرق؟ نقول: هاهنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه، فإن قيل: ففي (يس) سبق ذلك بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ﴾[يس: ٧٨] نقول: هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار استدل بدليل آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾[يس: ٧٩] ثم ذكر الدليل الآخر، وهاهنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء. وأما قوله ههنا بلفظ النظر، وفي الأحقاف بلفظ الرؤية، ففيه لطيفة وهي أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ استبعد استبعادهم، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن النظر دون الرؤية، فكأن النظر كان في حصول العلم بإنكار الرجع ولا حاجة إلى الرؤية ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد، وهناك لم يوجد منهم بإنكار مذكور فأرشدهم إليه بالرؤية التي هي أتم من النظر، ثم إنه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقل في السماء لأن النظر في الشيء ينبئ عن التأمل والمبالغة، والنظر إلى الشيء ينبئ عنه؛ لأن (إلى) للغاية فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية. وقوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تأكيد آخر، أي وهو ظاهر فوق رءوسهم غير غائب عنهم.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهي للرجع:

أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر، فبناء السماء أرفع من أساس البدن، وزينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم.

وأما الأولوية فإن السماء ما لها من فروج فتأليفها أشد، وللإنسان فروج ومسام، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفق، والتأليف الأضعف كالنسج الأسخف، والأول أصعب عند الناس وأعجب، فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى؟ قالت الفلاسفة: الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق. وكذلك قالوا في قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك: ٣] وقوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ: ١٢] وتعسفوا فيه لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ صريح في عدم ذلك، والإخبار عن عدم الشيء لا يكون إخبارًا عن عدم إمكانه، فإن من قال: ما لفلان

قال؟ لا يدل على نفي إمكانه، ثم إنه تعالى بيّن خلاف قولهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩] وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقال: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] في مقابلة قوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ وقال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] إلى غير ذلك، والكل في الرد عليهم صريح وما ذكروه في الدلالة ليس بظاهر، بل وليس له دلالة خفية أيضًا، وأما دليلهم المعقول فأضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾

إشارة إلى دليل آخر، ووجه دلالة الأرض هو أنهم قالوا: الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لا تعود إليه تلك القوة. فنقول: الأرض أشد جمودًا وأكثر خمودًا، والله تعالى يُنبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة. وذَكَر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور: في الأرض المد وإلقاء الرواسي والإنبات فيها، وفي السماء البناء والتزيين وسد الفروج، وكل واحد في مقابلة واحد: فالمد في مقابلة البناء؛ لأن المد وضع والبناء رفع، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها، والإنبات في الأرض شقها كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦] وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها، وإذا علمت هذا ففي الإنسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة، وأشياء ثابتة كالأنف والأذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان، وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والأغشية المنسوجة نسجًا ضعيفًا كالصفاق، وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها، فالقادر على الأضداد في هذا المهاد، في السبع الشداد، غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الأجساد. (و) تفسير الرواسي قد ذكرناه في سورة لقمان، والبهيج: الحسن.

وقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾.

يحتمل أن يكون الأمران عائدين إلى الأمرين المذكورين وهما السماء والأرض، على أن خلق السماء تبصرة وخَلْق الأرض ذكرى، ويدل عليه أن السماء زينتها مستمرة غير مستجدة في كل عام فهي كالشيء المرئي على مرور الزمان، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زخرفها، فذكر السماء تبصرة والأرض تذكرة، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجودًا في كل واحد من الأمرين، فالسماء تبصرة والأرض كذلك، والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي، وقوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي راجع إلى التفكر والتذكر والنظر في الدلائل.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

إشارة إلى دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما

بينهما، وذلك إنزال (الماء من) السماء من فوق، وإخراج النبات من تحت، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧] فما الفائدة في إعادته بقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾؟ نقول: قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ استدلال بنفس النبات أي الأشجار تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه حذف تقديره: (وحَب الزرع الحصيد) وهو المحصود، أي أنشأنا جنات يُقطف ثمارها وأصولها باقية، وزرعًا يُحصد كل سنة ويُزرع في كل عام أو عامين، ويحتمل أن يقال: التقدير: (ونبت الحب الحصيد) والأول هو المختار، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ إشارة إلى المختلط من جنسين، لأن الجنات تُقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة كل سنة، لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر، فهو جنس مختلط من الزرع والشجر، فكأنه تعالى خلق ما يُقطف كل سنة ويُزرع، وخَلَق ما لا يُزرع كل سنة ويُقطف مع بقاء أصلها، وخَلَق المركب من جنسين في الأثمار؛ لأن بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه، وأكثر الزرع قوت، والثمر فاكهة وقوت. والباسقات: الطوال من النخيل.

وقوله تعالى: ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ يؤكد كمال القدرة والاختيار، وذلك من حيث إن الزرع إن قيل فيه إنه يمكن أن يُقطف من ثمرته لضعفه وضعف حجمه، فكذلك يحتاج إلى إعادته كل سنة، والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة. فيقال: أليس النخل الباسقات أكثر وأقوى من الكرم الضعيف، والنخل محتاجة كل سنة إلى عمل عامل والكرم غير محتاج، فالله تعالى هو الذي قدر ذلك لذلك، لا للكبر والصغر والطول والقصر.

قوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبله الزرع وهو عجيب، فإن الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما، والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

ثم قال تعالى: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: نصب على المصدر لأن الإنبات رزق فكأنه تعالى قال: أنبتناها إنباتًا للعباد. والثاني: نصب على كونه مفعولاً له، كأنه قال: أنبتناها لرزق العباد.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في خلق السماء والأرض: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ [ق: ٨] وفي الثمار قال: ﴿رِّزۡقٗا﴾ والثمار أيضًا فيها تبصرة، وفي السماء والأرض أيضًا منفعة غير التبصرة والتذكرة، فما الحكمة في اختيار الأمرين؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أن نقول: الاستدلال وقع لوجود أمرين: أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فإن النبي ﷺ كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعد الثواب الدائم والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات

والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر، قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات. ثانيها: أن منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها، ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرًا عائدًا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك. مع أن الأمر بالعكس أولى، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله، وفيها غير ذلك من المنافع، والثمار وإن لم تكن (مَا) كان العيش، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء، فذكر الأظهر للناس في هذا الموضع. ثالثها: قوله: ﴿رِّزۡقٗا﴾ إشارة إلى كونه منعمًا؛ لكون تكذيبهم في غاية القبح، فإنه يكون إشارة (للتكذيب) بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

المسألة الثانية: قال: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨] فقيَّد العبد بكونه منيبًا، وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين.

وقال: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ مطلقًا لأن الرزق حصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكرًا شاكرًا للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، فلم يخصص الرزق بقيد.

المسألة الثالثة: ذكر في هذه الآية أمورًا ثلاثة أيضًا وهي إنبات الجنات والحَب والنخل كما ذكر في السماء والأرض في كل واحدة أمورًا ثلاثة، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقدمين متناسبة، فهل هي كذلك في هذه الآية؟ نقول: قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة، وهي التي يبقى أصلها سنين ولا تحتاج إلى عمل عامل، والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل، والتي يجتمع فيها الأمران، وليس شيء من الثمار والزروع خارجًا عنه أصلاً، كما أن أمور الأرض منحصرة في ثلاثة: ابتداء وهو المد، ووسط وهو الثبات بالجبال الراسية، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ عطفًا على ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾.

وفيه بحثان:

الأول: إن قلنا: إن الاستدلال بإنبات الزرع وإنزال الماء كان لإمكان البقاء بالرزق، فقوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه دليل على الإعادة كما أنه دليل على البقاء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ فإن قيل: كيف يصح قولك استدلالاً، وإنزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الإحياء، والإحياء سابق على الإبقاء، فينبغي أن يبين أولاً أنه يحيي الموتى، ثم يبين أنه يبقيهم. نقول: لما كان الاستدلال بالسموات والأرض على الإعادة كافيًا بعد ذكر دليل

الإحياء، ذكر دليل الإبقاء، ثم عاد واستدرك فقال: هذا الدليل الدال على الإبقاء دال على الإحياء، وهو غير محتاج إليه لسبق دليلين قاطعين، فبدأ ببيان البقاء وقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩] ثم ثنى بإعادة ذكر الإحياء فقال: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾.

وإن قلنا: إن الاستدلال بإنزال الماء وإنبات الزرع لا لبيان إمكان الحشر، فقوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ ينبغي أن يكون مغايرًا لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ بخلاف ما لو قلنا بالقول الأول لأن الإحياء وإن كان غير الإنبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين، جاز العطف، تقول: خرج للتجارة وخرج للزيارة، ولا يجوز أن يقال: خرج للتجارة وذهب للتجارة إلا إذا كان الذهاب غير الخروج، فنقول: الإحياء غير إنبات الرزق لأن بإنزال الماء من السماء يخضر وجه الأرض ويخرج منها أنواع من الأزهار ولا يتغذى به ولا يقتات، وإنما يكون به زينة وجه الأرض وهو أعم من الزرع والشجر لأنه يوجد في كل مكان، والزرع والثمر لا يوجدان في كل مكان، فكذلك هذا الإحياء، فإن قيل: فكان ينبغي أن يقدم في الذكر لأن اخضرار وجه الأرض يكون قبل حصول الزرع والثمر، ولأنه يوجد في كل مكان بخلاف الزرع والثمر. نقول: لما كان إنبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه في الذكر.

الثاني: في قوله: ﴿بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ نقول: جاز إثبات التاء في الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها؛ لأن المَيْت تخفيف للمَيِّت، والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه إثبات التاء لأن التسوية في الفعيل بمعنى المفعول، كقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فإن قيل: لـمَ سَوَّى بين المذكر والمؤنث في الفعيل بمعنى المفعول؟ قلنا: لأن الحاجة إلى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة إلى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظرًا إلى المعنى ونظرًا إلى اللفظ: فأما المعنى فظاهر، وأما اللفظ فلأن المخالفة بين الفاعل والمفعول في الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له، إذا عُلم هذا فنقول: في الفعيل لـم يتميز الفاعل بحرف فإن فعيلاً جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير، وبمعنى المفعول كالكسير والأسير، ولا يتميز بحرف عند المخالفة إلا الأقوى فلا يتميز عند المخالفة الأدنى، والتحقيق فيه أن فعيلاً وُضع لمعنى لفظي، والمفعول وُضع لمعنى حقيقي، فكأن القائل قال: استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلاني، واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول، فصار فعيل كالموضوع للمفعول، والمفعول كالموضوع للمعنى، ولما كان تغير اللفظ تابعًا لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بإزاء المعنى، ولـم يتغير الفعيل لكونه بإزاء اللفظ في أول الأمر، فإن قيل: فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] حيث أثبت التاء هناك؟ نقول: الأرض أراد بها الوصف فقال: ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة؛ لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة، وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء؛ لأن معنى الفاعلية ثبت فيها، والذي بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء،

وتحقيق هذا قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل، ولم يثبت حيث لم يظهر، وهذا بحث عزيز.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كالإحياء ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾ فإن قيل: الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج. فنقول: تقديره ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فتشققت وخرج منها النبات، كذلك تشقق ويخرج منها الأموات، وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع في قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] لأنه تعالى بيّن لهم ما استبعدوه، فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي لناسب أن يقول: كذلك الإخراج. ولما قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فُهم أنهم أنكروا الرجوع فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ نقول: فيه معنى لطيف على القول الآخر، وذلك لأنهم استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي بمعنى الإخراج، والله تعالى أثبت الخروج، وفيهما مبالغة تنبيهًا على بلاغة القرآن مع أنها مستغنية عن البيان، ووجهها هو أن الرجع والإخراج كالسبب للرجوع والخروج، والسبب إذا انتفى ينتفي المسبب جزمًا، وإذا وُجد قد يتخلف عنه المسبب لمانع، تقول: كسرته فلم ينكسر، وإن كان مجازًا، والمسبب إذا وُجد فقد وُجد سببه وإذا انتفى لا ينتفي السبب لما تقدم، إذا عُلم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه وينتفي المسبب عند انتفائه جزمًا فبالغوا وأنكروا الأمر جميعًا؛ لأن نفي السبب نفي المسبب، فأثبت الله الأمرين بالخروج كما نفوا الأمرين جميعًا بنفي الإخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

ذكر المكذبين تذكيرًا لهم بحالهم ووبالهم، وأنذرهم بإهلاكهم واستئصالهم، وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول ﷺ وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل، كُذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونَصرهم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ فيهم وجوه: من المفسرين من قال: هم قوم شعيب. ومنهم من قال: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام، ومنهم من قال: هم أصحاب الأخدود، والرس موضع نُسبوا إليه أو فعل وهو حفر البئر، يقال: رس إذا حفر بئرًا. وقد تقدم في سورة الفرقان ذلك، وقال هاهنا: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وقال: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ لأن لوطًا كان مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط، ونوح كان مرسلاً إلى خلق عظيم، وقال: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ولم يقل قوم فرعون، وقال: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره، وتُبع كان معتمدًا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون، ولم يقل إلى قوم فرعون.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾. يحتمل وجهين: أحدهما: أن كل واحد كذب رسوله فهم كَذَّبوا الرسل، واللام حينئذٍ لتعريف العهد. وثانيهما وهو الأصح: هو أن كل واحد كذب

جميع الرسل، واللام حينئذٍ لتعريف الجنس، وهو على وجهين: أحدهما: أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول. وثانيهما وهو الأصح: أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية. وقوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾. وفيه وجهان: أحدهما: أنه استدلال بدلائل الأنفس؛ لأنا ذكرنا مرارًا أن الدلائل آفاقية ونفسية كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٩] وفي غير ذلك ذكر الدليل النفسي. وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية:

أما (اللفظية) فهي أنه تعالى في الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٩] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩] ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس، وهذا من جنس، فلم يجعل هذا تبعًا لذلك، ومثل هذا مراعى في أواخر يس، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ [يس: ٧٧] ثم لم يعطف الدليل الآفاقي هاهنا؟ نقول: والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقول: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات، ثم نزل كأنه قال: لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك، وفي سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى.

والوجه الثاني: يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات؛ لأنه هو الخلق الأول وكأنه تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ [ق: ٦] ثم قال: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ بهذا الخلق؟ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] فهو كالاستدلال بخلق الإنسان وهو معطوف بحرف الواو على ما تقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الأرض وتنزيل الماء وإنبات الجنّات، وفي تعريف الخلق الأول وتنكير خلق جديد وجهان: أحدهما: ما عليه الأمران لأن الأول عرفه كل واحد وعلم لنفسه، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد.

والوجه الثاني: أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه، كأنهم قالوا: أيكون لنا خلق ما؟! على وجه الإنكار له بالكلية. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ تقديره ما عيينا بل هم في شك من خلق جديد، يعني لا مانع من جهة الفاعل، فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد؛ لأنهم كانوا يقولون: ذلك محال. وامتناع وقوع المحال بالفاعل لا يوجب عجزًا فيه، ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين إنه ظاهر وواضح، ثم إن اللبس يسند إلى الأمر كما قلنا: إنه يقال: إن هذا أمر ظاهر، وهذا أمر ملتبس، وهاهنا أسند الأمر إليهم حيث قال: ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ﴾

وذلك لأن الشيء يكون وراء حجاب والناظر إليه بصير فيختفي الأمر من جانب الرائي فقال هاهنا ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ ومن في قوله: ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يفيد فائدة وهي ابتداء الغاية، كأن اللبس كان حاصلاً لهم من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون ابتداء استدلال بخلق الإنسان، وهذا على قولنا: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] معناه خلق السموات. وثانيهما: أن يكون تتميم بيان خلق الإنسان، وعلى هذا قولنا (الخلق الأول) هو خلق الإنسان أول مرة، ويحتمل أن يقال: هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم، وبيانه أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ كان ذلك إشارة إلى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بيان لكمال علمه، والوريد: العرق الذي هو مجرى الدم يجري فيه ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن، والله أقرب من ذلك بعلمه؛ لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء، ويحتمل أن يقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بتفرد قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِذْ﴾ ظرف، والعامل فيه ما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متروك سدى، وذلك لأن الملك إذا أقام كتابًا على أمر اتكل عليهم، فإن كان له غفلة عنه فيكون في ذلك الوقت يتكل عليهم، وإذا كان عند إقامة الكتاب لا يبعد عن ذلك الأمر ولا يغفل عنه، فهو عند عدم ذلك أقرب إليه وأشد إقبالاً عليه، فنقول: الله في وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب إليه من عرقه المخالط له، فعندما يخفى عليهما شيء يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم، ويحتمل أن يقال: التلقي من الاستقبال، يقال: فلان يتلقى الركب، وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والحبور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم الحشر من القبور، فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما: إنه من أي القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال، يعني الملكان ينزلان وعنده

ملكان آخران كاتبان لأعماله يسألانهما من أي القبيلين كان، فإن كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور، ويرجع إلى الملك الآخر مسرورًا حيث لم يكن مسرورًا ممن يأخذها هو، وإن كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع إلى الآخر محزونًا حيث لم يكن ممن يأخذها هو، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة. وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم، وقول القائل: (جلست عن يمين فلان) فيه إنباء عن تنحٍّ ما عنه احترامًا له واجتنابًا منه، وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] المخالط لأجزائه المُداخل في أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به أكمل من علم الكاتب، لكن من أجلس عنده أحدًا ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناهضًا خبيرًا والملك الذي أجلس الرقيب يكون جبارًا عظيمًا، فنفسه أقرب إليه من الكاتب بكثير، والقعيد هو الجليس، كما أن قعد بمعنى جلس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾

أي شدته التي تُذهب العقول وتُذهل الفِطن، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد منه الموت فإنه حق، كأن شدة الموت تُحضر الموت والباء حينئذٍ للتعدية، يقال: جاء فلان بكذا أي أحضره. وثانيهما: أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لأنه حق وهو يظهر عند شدة الموت، وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يُظهر الإيمان لكنه لا يُقبل إلا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب، ومعنى المجيء به هو أنه يُظهره، كما يقال الدين الذي جاء به النبي ﷺ أي أظهره، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به، والباء حينئذٍ يحتمل أن يكون المراد منها ملبسة يقال: جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى الموت ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق، وحاد عن الطريق، أي مال عنه، والخطاب قيل مع النبي ﷺ وهو منكر، وقيل مع الكافرين وهو أقرب، والأقوى أن يقال: هو خطاب عام مع السامع، كأنه يقول: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أيها السامع.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ٢٠﴾

عطف على قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩] والمراد منه إما النفخة الأولى فيكون بيانًا لما يكون عند مجيء سكرة الموت، أو النفخة الثانية وهو أظهر لأن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إشارة إلى الإماتة، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذكر الزمخشري أنه إشارة إلى المصدر الذي من قوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ أي وقت ذلك النفخ يوم الوعيد. وهو ضعيف لأن (يوم) لو كان منصوبًا لكان ما ذكرنا ظاهرًا وأما رفع (يوم) فيفيد أن ذلك نفس اليوم، والمصدر لا يكون نفس

الزمان وإنما يكون في الزمان فالأَوْلى أن يقال: ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان، فكأنه تعالى قال: ذلك الزمان يوم الوعيد، والوعيد هو الذي أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾

قد بينا من قبل أن السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده، والشهيد هو الكاتب، والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر: ٧١] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إما على تقدير يقال له أو قيل له ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] والخطاب عام، أما الكافر فمعلوم الدخول في هذا الحكم وأما المؤمن فإنه يزداد علمًا ويظهر له ما كان مخفيًّا عنه ويرى علمه يقينًا رأي المعتبر يقينًا فيكون بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل، وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] والغفلة شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه؛ لأن الشاك يلتبس الأمر عليه، والغافل يكون الأمر بالكلية محجوبًا قلبه عنه وهو الغلف.

وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي أزلنا عنك غفلتك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وكان من قبل كليلًا، وقرينك حديدًا، وكان في الدنيا خليلًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وفي القرين وجهان: أحدهما: الشيطان الذي زيَّن الكفر له والعصيان، وهو الذي قال تعالى فيه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] فالإشارة بهذا المسوق إلى المرتكب الفجور والفسوق، والعتيد معناه المعد للنار، وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول: هذا العاصي شيء، هو عندي معد لجهنم أعددته بالإغواء والإضلال. والوجه الثاني: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي القعيد الشهيد الذي سبق ذكره وهو الملك، وهذا إشارة إلى كتاب أعماله، وذلك لأن الشيطان في ذلك الوقت لا يكون له من المكانة أن يقول ذلك القول، ولأن قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ فيكون عتيد صفته، وثانيهما أن تكون موصولة، فيكون عتيد محتملًا الثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون خبرًا بعد خبر والخبر الأول ﴿مَا لَدَيَّ﴾ معناه هذا الذي هو لديَّ وهو عتيد. وثانيها: أن يكون عتيد هو الخبر لا غير، و﴿مَا لَدَيَّ﴾ يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره، كما تقول: هذا الذي عند زيد، وهذا الذي يجيئني عمرو، فيكون الذي عندي والذي يجيئني لتمييز المشار إليه عن غيره، ثم

يخبر عنه بما بعده، ثم يقال للسائق أو الشهيد: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ فيكون هو أمرًا لواحد، وفيه وجهان: أحدهما أنه ثنى تكرار الأمر كما ألق ألق، وثانيهما عادة العرب ذلك.

وقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الكَفَّار يحتمل أن يكون من الكفران، فيكون بمعنى كثير الكفران، ويحتمل أن يكون من الكفر، فيكون بمعنى شديد الكفر، والتشديد في لفظة (فَعَّال) يدل على شدة في المعنى. والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنودًا ومنه العناد، فإن كان الكَفَّار من الكفران، فهو أنكر نعم الله مع كثرتها.

قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: كثير المنع للمال الواجب، وإن كان من الكفر، فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها، فكان شديد الكفر عنيدًا حيث أنكر الأمر اللائح والحق الواضح، وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة، عنيد ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب، والخير هو المال، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] حيث بدأ ببيان الشرك، وثنى بالامتناع من إيتاء الزكاة، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكَفَّار من الكفران، كأنه يقول: كَفَر أنعم الله تعالى، ولم يؤد منها شيئًا لشكر أنعمه. ثانيهما: شديد المنع من الإيمان فهو مناع للخير وهو الإيمان الذي هو خير محض من أن يدخل في قلوب العباد، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكَفَّار من الكفر، كأنه يقول: كفر بالله، ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير.

وقوله تعالى: ﴿مُعْتَدٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون قوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾ مرتبًا على ﴿مَّنَّاعٍ﴾ بمعنى مناع الزكاة، فيكون معناه لم يؤد الواجب، وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضًا بالربا والسرقة، كما كان عادة المشركين. وثانيهما: أن يكون قوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾ مرتبًا على ﴿مَّنَّاعٍ﴾ بمعنى منع الإيمان، كأنه يقول: منع الإيمان ولم يقنع به حتى تعداه، وأهان من آمن وآذاه، وأعان من كفر وآواه.

وقوله تعالى: ﴿مُّرِيبٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ذو ريب، وهذا على قولنا: الكَفَّار كثير الكفران، والمناع مانع الزكاة، كأنه يقول: لا يعطي الزكاة لأنه في ريب من الآخرة والثواب فيقول: لا أقرب مالاً من غير عوض. وثانيهما: ﴿مُّرِيبٍ﴾ يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعًا، وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه، وهو أن يقال: هذا بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله، وإلى رسول الله، وإلى اليوم الآخر: فقوله: ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إشارة إلى حاله مع الله يكفر بعد ويعاند آياته، وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ إشارة إلى حاله مع رسول الله، فيمنع الناس من اتباعه، ومن الإنفاق على من عنده، ويتعدى بالإيذاء وكثرة الهذاء، وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب، ولا يظن أن

الساعة قائمة، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ إلى غير ذلك يوجب أن يكون الإلقاء خاصًا بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها، والكفر كافٍ في إيراث الإلقاء في جهنم والأمر به. فنقول: قوله تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ليس المراد منه الوصف المميز، كما يقال: أعط العالم الزاهد، بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفًا به إما على سبيل المدح، أو على سبيل الذم، كما يقال: هذا حاتم السخي، فقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يفيد أن الكفار عنيد ومناع، فالكفار كافر؛ لأن آيات الوحدانية ظاهرة، ونعم الله تعالى على عبده وافرة، وعنيد ومناع للخير؛ لأنه يمدح دينه ويذم دين الحق فهو يمنع، ومريب لأنه شاكٌ في الحشر، فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝﴾

فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه بدل من قوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] ثانيها: أنه عطف على ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ثالثها: أن يكون عطفًا على قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ كأنه قال: (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) أي والذي جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه بعد ما ألقيتموه في جهنم في عذاب شديد من عذاب جهنم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وهو جواب لكلام مقدر، كأن الكافر حينما يلقى في النار يقول: ربنا أطغاني شيطاني!! فيقول الشيطان: ربنا ما أطغيته، يدل عليه قوله تعالى بعد هذا: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] لأن الاختصام يستدعي كلامًا من الجانبين وحينئذٍ هذا، كما قال الله تعالى في هذه السورة وفي ص: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ [ص: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١، ٦٤].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزمخشري: المراد بالقرين في الآية المتقدمة هو الشيطان لا المَلَك الذي هو شهيد وقعيد. واستدل عليه بهذا. وقال غيره، المراد المَلَك لا الشيطان، وهذا يصلح دليلاً لمن قال ذلك، وبيانه هو أنه في الأول لو كان المراد الشيطان، فيكون قوله: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] معناه هذا الشخص عندي عتيد متعد للنار اعتدته بإغوائي، فإن الزمخشري صرّح في تفسير تلك بهذه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مناقضًا لقوله أعتدته وللزمخشري أن يقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن يقول: إن الشيطان يقول: أعتدته بمعنى زينت له الأمر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان. وثانيهما: أن تكون الإشارة إلى حالين: ففي الحالة الأولى إنما فعلت به ذلك إظهارًا للانتقام من بني آدم، وتصحيحًا لما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ثم إذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الإغواء عذاب، كما قال

تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾[ص: ٨٤، ٨٥] فيقول ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ من غير واو، وقال في الآية الأولى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾[ق: ٢٣] بالواو العاطفة، وذلك لأن في الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين، وأن كل نفس في ذلك الوقت تجيء ومعها سائق، ويقول الشهيد ذلك القول، وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو، والفاء في قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ﴾[ق: ٢٦] لا يناسب قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مناسبة مقتضية للعطف بالواو.

المسألة الثالثة: القائل ههنا واحد، وقال ﴿رَبَّنَا﴾ ولم يقل رب، وفي كثير من المواضع مع كون القائل واحدًا، قال رب، كما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] وقول نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾[نوح: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾[يوسف: ٣٣] وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١] إلى غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص: ٧٩] نقول في جميع تلك المواضع القائل طالب، ولا يحسن أن يقول الطالب: يا رب عمرني واخصصني وأعطني كذا، وإنما يقول: أعطنا لأن كونه ربًّا لا يناسب تخصيص الطالب، وأما هذا الموضع فموضع الهيبة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني أن ذلك لم يكن بإطغائه، وإنما كان ضالاً متغلغلاً في الضلال فطغى.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الوجه في اتصاف الضلال بالبعيد؟ نقول: الضال يكون أكثر ضلالاً عن الطريق، فإذا تمادى في الضلال وبقي فيه مدة يبعد عن المقصد كثيرًا، وإذا علم الضلال قصر في الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيرًا، فقوله: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وصف المصدر بما يوصف به الفاعل، كما يقال: كلام صادق وعيشة راضية، أي ضلال ذو بعد، والضلال إذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بيِّنًا ويظهر الضلال؛ لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق، وربما يقع في أودية ومفاوز ويظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلاً، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع فقال تارة في ضلال مبين وأخرى قال: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢] أي لم يكونوا من العباد، فجعلهم أهل العناد، ولو كان لهم في سبيلك قدم صدق لما كان لي عليهم من يد. والله أعلم.

المسألة الثالثة: كيف قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مع أنه قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٣٩]؟ قلنا: الجواب عنه من ثلاثة أوجه: وجهان قد تقدما في الاعتذار عما قاله الزمخشري. والثالث: هو أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأديمنهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت على الجادة، فلا تتركها، يقال: إنه يضله، كذلك هاهنا، وقوله: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي ما كان ابتداء الإطغاء مني.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾.

قد ذكرنا أن هذا دليل على أن هناك كلامًا قبل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾[ق: ٢٧] وهو قول الملقى في النار ربنا أطغاني، وقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾.

تقرير للمنع من الاختصام وبيان لعدم فائدته، كأنه يقول: قد قلت: إنكم إذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه. فإن قيل: ما حكم الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْوَعِيدِ﴾؟ قلنا: فيها وجوه: أحدها: أنها مزيدة كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[المؤمنون: ٢٠]، على قول من قال إنها هناك زائدة، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾[النساء: ٦] وثانيها: معدية فقدَّمت بمعنى تقدمت كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾[الحجرات: ١] ثالثها: في الكلام إضمار تقديره: وقد قدمت إليكم مقترنًا بالوعيد ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فيكون المقدم هو قوله، ما يبدل القول لدي. رابعها: هي المصاحبة يقول القائل: اشتريت الفرس بلجامه وسرجه، أي معه فيكون كأنه تعالى قال: قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالإنذار.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون قوله: ﴿لَدَيَّ﴾ متعلقًا بالقول، أي ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

وثانيهما: أن يكون ذلك متعلقًا بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ أي لا يقع التبديل عندي.

وعلى الوجه الأول في القول الذي لديه وجوه. أحدها: هو أنهم لما قالوا حتى يبدل ما قيل في حقهم: ﴿أَلْقِيَا﴾[ق: ٢٤] بقول الله بعد اعتذارهم: لا تلقياه، فقال تعالى: ما يبدل هذا القول لدي، وكذلك قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾[الزمر: ٧٢] لا تبديل له. ثانيها: هو قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[السجدة: ١٣] أي لا تبديل لهذا القول. ثالثها: لا خلف في إيعاد الله تعالى كما لا إخلاف في ميعاد الله، وهذا يرد على المرجئة حيث قالوا: ما ورد في القرآن من الوعيد، فهو تخويف لا يحقق الله شيئًا منه، وقالوا: الكريم إذا وعد أنجز ووفى،

وإذا أوعد أخلف وعفا. رابعها: لا يبدل القول السابق أن هذا شقي، وهذا سعيد، حين خلقت العباد، قلت: هذا شقي ويعمل عمل الأشقياء، وهذا تقي ويعمل عمل الأتقياء، وذلك القول عندي لا تبديل له بسعي ساع ولا سعادة إلا بتوفيق الله تعالى.

وأما على الوجه الثاني ففي ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ وجوه أيضًا: أحدها: لا يُكذب لدي ولا يفترى بين يدي، فإني عالم علمت من طغى ومن أطغى، ومن كان طاغيًا ومن كان أطغى، فلا يفيدكم قولكم أطغاني شيطاني، ولا قول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧] ثانيها: إشارة إلى معنى قوله تعالى: ﴿ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] كأنه تعالى قال: لو أردتم أن لا أقول: (فألقياه في العذاب الشديد) كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالإيمان قبل أن تقفوا بين يدي، وأما الآن فما يبدل القول لدي. كما قلنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] المراد أن اختصامكم كان يجب أن يكون قبل هذا حيث قلت: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ثالثها: معناه لا يبدل الكفر بالإيمان لديَّ، فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول، فقولكم: (ربنا وإلهنا) لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله ربنا ما أشركنا، وقوله ربنا آمنا. وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ﴾ إشارة إلى نفي الحال كأنه تعالى يقول: ما يبدل اليوم لديَّ القول؛ لأن (ما) يُنفى بها الحال إذا دخلت على الفعل المضارع، يقول القائل: ماذا تفعل غدًا؟ يقال: ما أفعل شيئًا، أي في الحال، وإذا قال القائل: ماذا يفعل غدًا، يقال لا يفعل شيئًا أو لن يفعل شيئًا إذا أُريد زيادة بيان النفي، فإن قيل: هل فيه بيان معنوي يفيد افتراق ما ولا في المعنى؟ نقول: نعم، وذلك لأن كلمة (لا) أدل على النفي لكونها موضوعة للنفي وما في معناه كالنهي خاصة لا يفيد الإثبات إلا بطريق الحذف أو الإضمار، وبالجملة فبطريق المجاز كما في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [البلد: ١] وأما (ما) فغير متمحضة للنفي لأنها واردة لغيره من المعاني حيث تكون اسمًا، والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الإثبات في الاستقبال، كما يقال: ما يفعل الآن شيئًا وسيفعل إن شاء الله، فاختص بما لم يتمحض نفيًا حيث لم تكن متمحضة للنفي، لا يقال: إن لا للنفي في الاستقبال والإثبات في الحال، فاكتفى في الاستقبال بما لم يتمحض نفيًا لأنا نقول: ليس كذلك إذ لا يجوز أن يقال: لا يفعل زيد ويفعل الآن، نعم يجوز أن يقال: لا يفعل غدًا ويفعل الآن لكون قولك: (غدًا) يجعل الزمان مميزًا فلم يكن قولك لا يفعل للنفي في الاستقبال بل كان للنفي في بعض أزمنة الاستقبال، وفي مثالنا قلنا: ما يفعل وسيفعل، وما قلنا: سيفعل غدًا وبعد غد، بل هاهنا نفينا في الحال وأثبتنا في الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان، ومثاله في العكس أن يقال: لا يفعل زيد وهو يفعل، من غير تعيين وتمييز، ومعلوم أن ذلك غير جائز. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مناسب لما تقدم على الوجهين جميعًا.

أما إذا قلنا بأن المراد من قوله: ﴿لَدَىَّ﴾ أن قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ [ق: ٢٦] وقول القائل في قوله:

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] لا تبديل له، فظاهر؛ لأن الله تعالى بيّن أن قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤] لا يكون إلا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاّمًا للعبيد. وأما إذا قلنا بأن المراد ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدي، فكذلك لأنه أنذر من قبل، وما عذب إلا بعد أن أرسل وبيّن السبل.

وفيه مباحث لفظية ومعنوية:

أما اللفظية: فهي في الباء من قوله ليس ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ وفي اللام من قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ أما الباء فنقول: الباء تدخل في المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهرًا، ولا يجوز إدخالها فيه حيث يكون في غاية الظهور، ويجوز الإدخال والترك حيث لا يكون في غاية الظهور ولا في غاية الخفاء، فلا يقال: (ضربت بزيد) لظهور تعلق الفعل بزيد، ولا يقال: (خرجت وذهبت زيدًا) بدل قولنا (خرجت وذهبت بزيد) لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما، ويقال: (شكرته وشكرت له) للتوسط فكذلك خبر (ما) لما كان مشبهًا بالمفعول، وليس في كونه فعلاً غير ظاهر غاية الظهور؛ لأن إلحاق الضمائر التي تلحق بالأفعال الماضية كالتاء والنون في قولك: لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلاً كما في قولك: كنت وكنا، لكن في الاستقبال يبين الفرق حيث نقول: يكون وتكون، وكن، ولا نقول ذلك في ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذي لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور، فجاز أن يقال: ليس زيد جاهلاً وليس زيد بجاهل، كما يقال: مسحته ومسحت به وغير ذلك مما يعدى بنفسه وبالباء، ولم يجز أن يقال: كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج؛ لأن صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية، وهذا يؤيد قول من قال: (ما هذا بشرًا) وهذا ظاهر.

البحث الثاني: لو قال قائل: كان ينبغي أن لا يجوز إخلاء خبر ما عن الباء، كما لا يجوز إدخال الباء في خبر كان، وخبر ليس يجوز فيه الأمران. وتقرير هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلاً ظاهرًا جعلناه بمنزلة (ضَرَب) حيث منعنا دخول الباء في خبره كما منعناه في مفعوله، و(ليس) لما كان فعلاً من وجه نظرًا إلى قولنا لست ولسنا ولستم، ولم يكن فعلاً ظاهرًا نظرًا إلى صيغ الاستقبال والأمر جعلناه متوسطًا وجوزنا إدخال الباء في خبره وتركه، كما قلنا في مفعول شكرته وشكرت له، و(ما) لما لم يكن فعلاً بوجه كان ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى المفعول إلا بالحرف وكان ينبغي أن لا يجيء خبره إلا مع الباء كما لا يجيء مفعول ذهب إلا مع الباء، ويؤيد هذا أنا فرقنا بين ما وليس وكان، وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للأخرى، فجوزنا تأخير كان في اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل (زيد خارجًا كان) وما جوزنا (زيد خارجًا ليس)، لأن (كان) فعل ظاهر و(ليس) دونه في الظهور، وما جوزنا تأخير (ما) عن أحد شطري الكلام أيضًا بخلاف (ليس)، حيث لا يجوز أن يقول القائل: زيد ما بظلام، إلا أن يعيد ما يرجع إليه فيقول (زيد ما هو بظلام) فصار بينهما ترتيب ما يوجه، وليس يؤخر عن أحد الشطرين ولا

يؤخر في الكلام بالكلية، وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء، فكذلك القول في إلحاق الباء كان ينبغي أن لا يصح إخلاء خبر ما عن الباء، وفي ليس يجوز الأمران، وفي كان لا يجوز الإدخال، وهذا هو المعتمد عليه في لغة بني تميم حيث قالوا: إن ما بعد (ما) إذا جعل خبرًا يجب إدخال الباء عليه فإن لم تدخل عليه يكون ذلك معربًا على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبرًا. والجواب عن السؤال هو أن نقول: الأكثر إدخال الباء في خبر ما ولا سيما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٣]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ﴾ [فاطر: ٢٢]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ وأما الوجوب فلا لأن ما أشبه ليس في المعنى في الحقيقة وخالفها في العوارض وهو لحوق التاء والنون، وأما في المعنى فهما لنفي الحال فالشبه مقتضٍ لجواز الإخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الإدخال، لكن ذلك المقتضي أقوى لأنه راجع إلى الأمر الحقيقي، وهذا راجع إلى الأمر العارضي وما بالنفس أقوى مما بالعارض، وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب إدخال الباء.

وأما الكلام في اللام فنقول: اللام لتحقيق معنى الإضافة، يقال: غلام زيد وغلام لزيد، وهذا في الإضافات الحقيقية بإثبات التنوين فيه، وأما في الإضافات اللفظية كقولنا: ضارب زيد وقاتل عمرو، فإن الإضافة فيه غير معنوية، فإذا خرج الضارب عن كونه مضافًا بإثبات التنوين فقد كان يجب أن يعاد الأصل وينصب ما كان مضافًا إليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لأنه حينئذٍ لم تبق الإضافة في اللفظ، ولم تكن الإضافة في المعنى، غير أن اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول، وصار من باب الأفعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها إلى المفعول بحرف وغير حرف، فلذلك جاز أن يقال: ضارب زيد أو ضارب لزيد، كما جاز: مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له، وذلك إذا تقدم المفعول كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] للضعف.

وأما المعنوية فمباحث:

الأول: الظَّلَّام مبالغة في الظالم ويلزم من إثباته إثبات أصل الظلم، إذا قال القائل: (هو كذاب) يلزم أن يكون كاذبًا كثر كذبه، ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب لجواز أن يقال: فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانًا، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ لا يفهم منه نفي أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه؟ نقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الظلَّام بمعنى الظالم كالتمَّار بمعنى التامر وحينئذٍ يكون اللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ لتحقيق النسبة لأن الفعَّال حينئذٍ بمعنى ذي ظلم، وهذا وجه جيد مستفاد من الإمام زين الدين أدام الله فوائده. والثاني: ما ذكره الزمخشري وهو أن ذلك أمر تقديري، كأنه تعالى يقول: لو ظلمت عبدي الضعيف الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وأما أنا بذلك. فيلزم من نفي كونه ظلامًا نفي كونه ظالمًا، ويحقق هذا الوجه إظهار لفظ العبيد حيث يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي في

ذلك اليوم الذي امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول: لم يبق لي طاقة بهم، ولم يبق فيَّ موضع لهم فهل من مزيد؟ استفهام استكثار، فذلك اليوم مع أني أُلقي فيها عددًا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم. وهذا مناسب، وذلك لأنه تعالى خصص النفي بالزمان حيث قال: ما أنا بظلام يوم نقول: أي وما أنا بظلام في جميع الأزمان أيضًا، وخصص بالعبيد حيث قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ولم يطلق، فكذلك خصص النفي بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق، فلم يلزم منه أن يكون ظالمًا في غير ذلك الوقت، وفي حق غير العبيد وإن خصص والفائدة في التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم. والثالث: هذا يدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه؛ لأنه نفى كونه ظلامًا ولم يلزم منه نفي كونه ظالمًا، ونفي كونه ظلامًا للعبيد، ولم يلزم منه نفي كونه ظلامًا لغيرهم، كما قال في حق الآدمي: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

البحث الثاني: قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ من غير إضافة، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ [النمل: ٨١]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] على وجه الإضافة، فما الفرق بينهما؟ نقول: الكلام قد يخرج أولاً مخرج العموم، ثم يخصص لأمر ما لا لغرض التخصيص، يقول القائل: (فلان يعطي ويمنع) ويكون غرضه التعميم، فإن سأل سائل: يعطي من، ويمنع من؟ يقول: زيدًا وعَمْرًا، ويأتي بالمخصص لا لغرض التخصيص، وقد يخرج أولاً مخرج الخصوص، فيقول: (فلان يعطي زيدًا ماله) إذا علمت هذا فقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ﴾ كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم، فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصًا بهم، بل لكونهم أقرب إلى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى، وأما النبي ﷺ فكان في نفسه هاديًا، وإنما أراد نفي ذلك الخاص فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ وما قال: ما أنت بهادٍ، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

البحث الثالث: العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [يس: ٣٠] يعني أعذبهم وما أنا بظلام لهم، ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين، ووجهه هو أن الله تعالى يقول: لو أبدلت القول ورحمت الكافر، لكنت في تكليف العباد ظالمًا لعبادي المؤمنين؛ لأني منعتهم من الشهوات لأجل هذا اليوم، فإن كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن، لكان إتيانه بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد فائدة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] ويحتمل أن يكون المراد التعميم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾

العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ماذا؟ فيه وجوه: الأول: ما أنا بظلام مطلقًا. والثاني: الوقت، حيث قال

ما أنا يوم كذا، ولم يقل: ما أنا بظلام في سائر الأزمان، وقد تقدم بيانه، فإن قيل: فما فائدة التخصيص؟ نقول: النفي الخاص أقرب إلى التصديق من النفي العام لأن المتوهم ذلك، فإن قاصر النظر يقول: يوم يُدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالمًا له، ولا يقول: بأنه يوم خلقه يرزقه ويربيه يكون ظالمًا، ويتوهم أنه يظلم عبده بإدخاله النار، ولا يتوهم أنه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين، ويتوهم أنه من يدخل خلقًا كثيرًا لا يجوزه حد، ولا يدركه عد النار، ويتركهم فيها زمانًا لا نهاية له - كثير الظلم، فنفى ما يتوهم دون ما لا يتوهم.

وقوله: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ بيان لتصديق قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه لبيان استكثارها الداخلين، كما أن من يضرب غيره ضربًا مبرحًا، أو يشتمه شتمًا قبيحًا فاحشًا، ويقول المضروب: هل بقي شيء آخر؟! ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لأن الامتلاء لا بد من أن يحصل، فلا يبقى في جهنم موضع خالٍ حتى تطلب المزيد. والثاني: هو أنها تطلب الزيادة، وحينئذٍ لو قال قائل: فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن هذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، وفيه لطيفة، وهي أن جهنم تتغيظ على الكفار فتطلبهم، ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين، فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجًا، فيدخل العاصي من المؤمنين، فيبرد إيمانه حرارتها، ويسكن إيقانه غيظها فتسكن، وعلى هذا يُحمل ما ورد في بعض الأخبار، أن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه، والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله. الثاني: أن تكون جهنم تطلب أولاً سعة في نفسها، ثم مزيدًا في الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار. الثالث: أن الملء له درجات، فإن الكيل إذا ملئ من غير كبس صح أن يقال: ملئ وامتلأ، فإذا كُبس يسع غيره ولا ينافي كونه ملآن أو لا، فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقًا للمكان عليهم وزيادة في التعذيب، والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول، أي هل بقي أحد تزيد به.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾

بمعنى قريبًا أو بمعنى قريب، والأول أظهر. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما وجه التقريب، مع أن الجنة مكان والأمكنة يُقرب منها وهي لا تقرب؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن الجنة لا تُزال ولا تُنقل، ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بُعدها، لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب. فإن قيل: فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة، فما الفائدة في قوله: أزلفت الجنة؟ نقول: إكرامًا للمؤمن، كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يُمشى إليه ويُدنى منه. الثاني: قربت من الحصول في الدخول، لا بمعنى القرب

المكاني، يقال يطلب من الملك أمرًا خطيرًا، والملك بعيد عن ذلك، ثم إذا رأى منه مخايل إنجاز حاجته، يقال قرب الملك وما زلت أنهي إليه حالك حتى قربته، فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول؛ لأنها بما فيها لا قيمة لها، ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى، كما قال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى»، فقيل ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «وَلاَ أَنَا»[(١)] وعلى هذا فقوله (غير) نصب على الحال، تقديره قربت من الحصول، ولم تكن بعيدة في المسافة حتى يقال كيف قربت. الثالث: هو أن الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن. وأما إن قلنا: إنها قربت، فمعناه جُمعت محاسنها، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١].

المسألة الثانية: على هذا الوجه وعلى قولنا: قربت تقريب حصول ودخول، فهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي في ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك، وأما في جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول، وأما في الحصول فلأن الدخول قبل ذلك كان مستبعدًا إذا لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة في الدنيا ووعد به في الآخرة فقربت في ذلك اليوم. وثانيهما: أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي أزلفت في الدنيا، إما بمعنى جمع المحاسن فلأنها مخلوقة وخلق فيها كل شيء، وإما بمعنى تقريب الحصول فلأنها تحصل بكلمة حسنة، وأما على تفسير الإزلاف بالتقريب المكاني فلا يكون ذلك محمولاً إلا على ذلك الوقت، أي أزلفت في ذلك اليوم للمتقين.

المسألة الثالثة: إن حُمل على القرب المكاني، فما الفائدة في الاختصاص بالمتقين مع أن المؤمن والكافر في عرصة واحدة؟ فنقول: قد يكون شخصان في مكان واحد وهناك مكان آخر هو إلى أحدهما في غاية القرب، وعن الآخر في غاية البعد، مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العَدْو إذا اجتمعا في موضع وبحضرتهما شيء لا تصل إليه اليد بالمد، فذلك بعيد عن المقطوع وهو في غاية القرب من العادي، أو نقول: إذا اجتمع شخصان في مكان وأحدهما أحيط به سد من حديد ووُضع بقربه شيء لا تناله يده بالمد، والآخر لم يُحِط به ذلك السد يصح أن يقال: هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون نصبًا على الظرف يقال: (اجلس غير بعيد مني) أي مكانًا غير بعيد، وعلى هذا فقوله: (غير بعيد) يفيد التأكيد وذلك لأن القريب قد يكون بعيدًا بالنسبة إلى شيء، فإن المكان الذي هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة إلى البلاد النائية وبعيد

(١) لم أجده بهذا اللفظ، إنما الصواب ما جاء في الصحيحين من رواية أبي هريرة، أخرجه البخاري في كتاب (المرضى)، باب: (نهي تمني المريض الموت) (٥/ ٢١٤٧)، حديث رقم (٥٣٤٩) من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٧٠/ ٢٨١٦)، كلاهما من طريق أبي عبيد، مولى عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله...» الحديث. واللفظ للبخاري.

بالنسبة إلى متنزهات المدينة، فإذا قال قائل: أيما أقرب المسجد الأقصى أو البلد الذي هو بأقصى المغرب أو المشرق؟ يقال له المسجد الأقصى قريب. وإن قال: أيهما أقرب هو أو البلد؟ يقال له: هو بعيد. فقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ . . . ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قربت قربًا حقيقيًا لا نسبيًا حيث لا يقال فيها إنها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة، ويحتمل أن يكون نصبًا على الحال تقديره: (قُربت حال كون ذلك غاية التقريب) أو نقول: على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد، فيحصل المعنيان جميعًا الإقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا للمكان فيحصل معنيان القرب المكاني بقوله غير بعيد والحصول بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مع قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ على التأنيث يحتمل وجوهًا: الأول: إذا قلنا إن ﴿غَيْرَ﴾ نصب على المصدر تقديره مكانًا غير. الثاني: التذكير فيه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] إجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول. الثالث: أن يقال ﴿غَيْرَ﴾ منصوب نصبًا على المصدر على أنه صفة مصدر محذوف تقديره: أزلفت الجنة إزلافًا غير بعيد، أي عن قدرتنا. فإنا قد ذكرنا أن الجنة مكان، والمكان لا يقرب وإنما يقرب منه، فقال: الإزلاف غير بعيد عن قدرتنا فإنا نطوي المسافة بينهما.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قال الزمخشري: هي جملة معترضة بين كلامين، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل عن المتقين، كأنه تعالى قال: (أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ لِكُلِّ أَوَّابٍ) كما في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] غير أن ذلك بدل الاشتمال وهذا بدل الكل وقال: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى الثواب، أي هذا الثواب ما توعدون أو إلى الإزلاف المدلول عليه بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ [ق: ٣١] أي هذا الإزلاف ما وُعدتم به، ويحتمل أن يقال: هو كلام مستقل ووجهه أن ذلك محمول على المعنى لا ما يوعد به، يقال للموعود هذا لك. وكأنه تعالى قال: هذا ما قلت إنه لكم.

ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ بدلاً عن الضمير في ﴿تُوعَدُونَ﴾، وكذلك إن قرئ بالياء يكون تقديره (هذا لكل أواب) بدلاً عن الضمير، والأواب: الرجاع، قيل: هو الذي يرجع من الذنوب ويستغفر، والحفيظ: الحافظ للذي يحفظ توبته من النقض. ويحتمل أن يقال: الأواب هو الرجاع إلى الله بفكره، والحفيظ الذي يحفظ الله في ذكره، أي رجع إليه بالفكر فيرى كل شيء واقعًا به وموجدًا منه، ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء، والأواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة، أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ، وفيه وجوه أُخر أدق، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ما سواه، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيرًا للمتقي؛ لأن المتقي هو الذي

اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما عداه.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾

وفي ﴿مَّنْ﴾ وجوه: أحدها وهو أغربها: أنه منادى، كأنه تعالى قال: يا من خشي الرحمن أدخلوها بسلام. وحذف حرف النداء شائع. وثانيها: ﴿مَّنْ﴾ بدل عن (كل) في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ [ق: ٣٢] من غير إعادة حرف الجر، تقديره أزلفت الجنة لمن خشي الرحمن بالغيب. ثالثها: في قوله تعالى: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول: لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك، فقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بدل عن ذلك الموصوف. هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشري، وقال: لا يجوز أن يكون بدلاً عن أواب أو حفيظ؛ لأن أواب وحفيظ قد وُصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل في حكم المبدل منه، فتكون (مَنْ) موصوفًا بها و(مَن) لا يوصف بها، لا يقال: الرجل من جاءني جالسني، كما يقال: الرجل الذي جاءني جالسني. هذا تمام كلام الزمخشري، فإن قال قائل: إذا كان (مَن) والذي يشتركان في كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان في جواز الوصف بهما؟ نقول: الأمر معقول نبينه في (ما)، ومنه يتبين الأمر فيه فنقول: (ما) اسم مبهم يقع على كل شيء، فمفهومه هو شيء لكن الشيء هو أعم الأشياء، فإن الجوهر شيء والعَرَض شيء والواجب شيء والممكن شيء والأعم قبل الأخص في الفهم لأنك إذا رأيت من البعد شبحًا تقول أولاً إنه شيء، ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول إنسان، فإذا بان ذلك أنه ذكرٌ قلت هو رجل، فإذا وجدته ذا قوة تقول شجاع . . . إلى غير ذلك، فالأعم أعرف وهو قبل الأخص في الفهم، فمفهوم (ما) قبل كل شيء فلا يجوز أن يكون صفة لأن الصفة بعد الموصوف، هذا من حيث المعقول، وأما من حيث النحو فلأن الحقائق لا يوصف بها، فلا يقال: جسم رجل جاءني كما يقال جسم ناطق جاءني لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها، وكل ما يقع وصفًا للغير يكون معناه شيء له كذا، فقولنا: (عالم) معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا، لكن (ما) لمجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الأمر الآخر الذي معناه ذو كذا، فلم يجز أن يكون صفة. وإذا بان القول فمَن في العقلاء كـ(ما) في غيرهم وفيهم فمَن معناه إنسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة، والحقائق لا تقع صفات، وأما الذي يقع على الحقائق والأوصاف ويدخل في مفهومه تعريف أكثر مما يدخل في مجاز الوصف بما دون مَن.

وفي الآية لطائف معنوية. الأولى: الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي، وذلك لأن تركيب حرف (خ ش ي) في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهم جميعًا مهيبان، والخوف خشية من ضعف

الخاشي وذلك لأن تركيب (خ و ف) في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية، ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣]و﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] والمخفي فيه ضعف كالخائف، إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي أن الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه، وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي و﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]مع أن الملائكة أقوياء، وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]أي تخافهم إعظامًا لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم، وقال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]أي لا تخف ضعفًا فإنهم لا عظمة لهم، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة، وقال: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة، فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم، وقال تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] لوحدته وضعفه وقال هارون: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ [طه: ٩٤]لعظمة موسى في عين هارون لا لضعف فيه، وقال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]حيث لم يكن لضعف فيه، وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف، وهذا في الأكثر، وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية.

الثانية: قال الله تعالى هاهنا: ﴿خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ مع أن وصف الرحمة غالبًا يقابل الخشية إشارة إلى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] لأن ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لا يخشاه، فذكر الله ليبين أن عدم خشيته مع قيام المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة، وقد ذكرنا ذلك في سورة يس، ونزيد ههنا شيئًا آخر، وهو أن نقول: لفظة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ إشارة إلى مقتضى لا إلى المانع، وذلك لأن الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق، والرحيم واهب البقاء بالرزق، وهو في الدنيا رحمان حيث أوجدنا بالرحمة، ورحيم حيث أبقى بالرزق، ولا يقال لغيره رحيم لأن البقاء بالرزق قد يظن أن مثل ذلك يأتي ممن يطعم المضطر، فيقال: فلان هو الذي أبقى فلانًا، وهو في الآخرة أيضًا رحمان حيث يوجدنا، ورحيم حيث يرزقنا، وذكرنا ذلك في تفسير الفاتحة حيث قلنا: قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى كونه رحمانًا في الدنيا حيث خلقنا، رحيمًا في الدنيا حيث رَزَقنا رحمة، ثم قال مرة أخرى بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هو رحمن مرة أخرى في الآخرة بخلقنا ثانيًا، واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يخلقنا ثانيًا، ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك في ذلك اليوم، إذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الإنسان لا يكون خوفه خشيةً من غيره، فإن القائل يقول لغيره: أخاف منك أن تقطع رزقي أو تبدل حياتي. فإذا كان الله تعالى رحمانًا منه الوجود ينبغي أن يخشى، فإن من بيده الوجود بيده العدم، وقال ﷺ: «خَشْيَةُ اللَّهِ رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ»(١) وذلك لأن الحكيم إذا تفكر في غير الله وجده محل التغير، يجوز عليه العدم في كل طرفة عين، وربما يقدر الله عدمه قبل أن يتمكن من الإضرار؛ لأن غير الله إن لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر، وإن قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذِّب أو المعذَّب، وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه.

وقال تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي كانت خشيتهم قبل ظهور الأمور حيث تُرى رأي العين، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ إشارة إلى صفة مدح أخرى، وذلك لأن الخاشي قد يهرب ويترك القرب من المخشي ولا ينتفع، وإذا علم المخشي أنه تحت حكمه تعالى علم أنه لا ينفعه الهرب، فيأتي المخشي وهو (غير) خاشٍ فقال: ﴿وَجَآءَ﴾ ولم يذهب كما يذهب الآبق.

وقوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ الباء فيه يحتمل وجوهًا ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]. أحدها: التعدية، أي أحضر قلبًا سليمًا، كما يقال: ذهب به، إذا أذهبه. ثانيها: المصاحبة، يقال: اشترى فلان الفرس بسرجه، أي مع سرجه، وجاء فلان بأهله، أي مع أهله. ثالثها وهو أعرفها: الباء للسبب، يقال: ما أخذ فلان إلا بقول فلان وجاء بالرجاء له، فكأنه تعالى قال: جاء وما جاء إلا بسبب إنابة في قلبه، علم أنه لا مرجع إلا إلى الله، فجاء بسبب قلبه المنيب، والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] أي سليم من الشرك، ومَن سَلِم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيبًا، ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليمًا

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

فالضمير عائد إلى الجنة التي في ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [ق: ٣١] أي لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم: إنها منزلكم بقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢] أذِن لهم في دخولها. **وفيه مسائل:**

(١) ضعيف: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٥٩)، حديث رقم (٤١)، وابن أبي الدنيا في (الورع) (١/ ٤٣)، حديث رقم (١١)، كلاهما من طريق سعيدة بنت حكامة، عن أمها، عن أبيها، عن مالك بن دينار، عن أنس بن مالك . . . به، وفي إسناده حكامة قال ابن حجر في (اللسان) (٢/ ٣٣١)، حكامة لا شيء. وقال العقيلي: أحاديث حكامة كشبه أحاديث القصاص وليس لها أصل. رواه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٢/ ٣٢٣)، حديث رقم (٢٨٦٩)، من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية . . . به، وهذا إسناد مرسل.

المسألة الأولى: الخطاب مع من؟ نقول: إن قرئ (ما توعدون) بالتاء فهو ظاهر إذ لا يخفى أن الخطاب مع الموعودين، وإن قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين، أي يقال للمتقين: ادخلوها.

المسألة الثانية: هذا يدل على أن ذلك يتوقف على الإذن، وفيه من الانتظار ما لا يليق بالإكرام. نقول: ليس كذلك، فإن من دعا مكرمًا إلى بستانه يفتح له الباب ويجلس في موضعه، ولا يقف على الباب من يرحبه، ويقول: إذا بلغت بستاني فادخله، وإن لم يكن هناك أحد يكون قد أخل بإكرامه، بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون: ادخل باسم الله، يدل على الإكرام قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ كما يقول المضيف: ادخل مصاحبًا بالسلامة والسعادة والكرامة، والباء للمصاحبة في معنى الحال، أي سالمين مقرونين بالسلامة، أو معناه ادخلوها مسلَّمًا عليكم، ويسلم الله وملائكته عليكم. ويحتمل عندي وجهًا آخر، وهو أن يكون ذلك إرشادًا للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أُرشدوا إليها في الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] فكأنه تعالى قال: هذه داركم ومنزلكم، ولكن لا تتركوا حسن عادتكم، ولا تُخلوا بمكارم أخلاقكم، فادخلوها بسلام، ويصيحون سلامًا على من فيها، ويسلم من فيها عليهم، ويقولون: السلام عليكم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] أي يسلِّمون على من فيها، ويسلِّم من فيها عليهم، وهذا الوجه إن كان منقولاً فنعم، وإن لم يكن منقولاً فهو مناسب معقول أيده دليل منقول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ حتى لا يدخل في قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى في قلبهم حسرته. فإن قيل: المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خُلد فيها، فما الفائدة في التذكير؟ والجواب عنه من وجهين. أحدهما: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قول قاله الله في الدنيا إعلامًا وإخبارًا، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ فكأنه تعالى أخبرنا في يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود. ثانيهما: اطمئنان القلب بالقول أكثر، قال الزمخشري: في قوله: ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ إضمار تقديره: ذلك يوم تقدير الخلود، ويحتمل أن يقال: اليوم يُذكر ويراد الزمان المطلق سواء كان يومًا أو ليلاً، نقول: يوم وُلد لفلان ابن يكون السرور العظيم. ولو وُلد له بالليل لكان السرور حاصلاً، فتريد به الزمان، فكأنه تعالى قال: ذلك زمان الإقامة الدائمة.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

وفي الآية ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] ولم يقل: (قُرِّب المتقون من الجنة) بيانًا للإكرام حيث جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان، ثم قال لهم: هذا لكم، بقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢] ثم بيّن أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [ق: ٣٣] فإنَّ تصَرُّف المالك الذي مَلَك شيئًا بعوض أتم فيه من تصَرُّف مِن مَلِك بغير عوض؛ لإمكان الرجوع في التمليك بغير عوض، ثم زاد في الإكرام بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ [ق: ٣٤] كما بينا أن ذلك إكرام؛

لأن مَن فتح بابه للناس، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين، لا يكون قد أتى بالإكرام التام، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] أي لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها، فهذا دخول لا خروج بعده منها. ثم لما بيّن أنهم فيها خالدون قال: لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة، كما كنتم في الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج، بل لكم الخلود، ولا ينفد ما تُمتعون به، فلكم ما تشاءون في أي وقت تشاءون، وإلى الله المنتهى، وعند الوصول إليه والمثول بين يديه، فلا يوصف ما لديه، ولا يطلع أحد عليه، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده. هذا هو الترتيب.

وأما التفسير ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣٤] على سبيل المخاطبة، ثم قال: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل (لكم) ما الحكمة فيه؟ الجواب عنه من وجوه. الأول: هو أن قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ مقدر فيه: يقال لهم، أي يقال لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ فلا يكون على هذا التفاتًا. الثاني: هو أنه من باب الالتفات، والحكمة الجمع بين الطرفين، كأنه تعالى يقول: أكرمهم به في حضورهم، ففي حضورهم الحبور، وفي غيبتهم الحور والقصور. والثالث: هو أن يقال: قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ جاز أن يكون كلامًا مع الملائكة، يقول للملائكة: توكلوا بخدمتهم، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها، فأحضِروا بين أيديهم ما يشاءون، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم، ولا تقدرون أنتم عليه.

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن لفظ ﴿مَزِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون معناه الزيادة، فيكون كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم، أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والإهلاك المدرك، وبَيَّن لهم حال مَن تقدمهم، وقد تقدم تفسيره في مواضع، والذي يختص بهذا الموضع أمور.

أحدها: إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل، فلمَ توسطهما قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]؟ نقول: ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع، فذكر حال الكَفور المعاند، وحال الشكور العابد في الآخرة ترهيبًا وترغيبًا، ثم قال تعالى: إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم، فما أنتم في ريب من العذاب العاجل

المهلك الذي أهلك أمثالكم، فإن قيل: فلمَ لم يجمع بين الترهيب والترغيب في العاجلة، كما جمع بينهما في الآجلة، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه؟ نقول: لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم، وكانوا متقلبين في النعم، فلم يذكرهم به، وإنما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به، وأما في الآخرة، فكانوا غافلين عن الأمرين جميعًا، فأخبرهم بهما.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلۡبِلَـٰدِ﴾ في معناه وجوه: أحدها: هو ما قاله تعالى في حق ثمود: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ [الفجر: ٩] من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها، وقطعوا الصخور وثقبوها. ثانيها: نقبوا، أي ساروا في الأسفار ولم يجدوا ملجأ ومهربًا، وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة، أي هم ساروا في الأسفار، ورأوا ما فيها من الآثار. ثالثها: (فَنَقَبُوا في البِلَادِ) أي صاروا نقباء في الأرض، أراد ما أفادهم بطشهم وقوتهم، ويدل على هذا الفاءُ؛ لأنها تصير حينئذٍ مفيدة ترتب الأمر على مقتضاه، تقول: كان زيد أقوى من عمرو فغلبه، وكان عمرو مريضًا فغلبه زيد. كذلك هاهنا قال تعالى: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشًا﴾ فصاروا نقباء في الأرض، وقرئ: ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ بالتشديد، وهو أيضًا يدل على ما ذكرنا في الوجه الثالث؛ لأن التنقيب: البحث، وهو من نقب، بمعنى صار نقيبًا.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾. يحتمل وجوهًا ثلاثة: الأول: على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل أن يقال: هو مفعول، أي بحثوا عن المحيص ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾. الثاني: على القراءات جميعًا استفهام بمعنى الإنكار، أي لم يكن لهم محيص. الثالث: هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد ﷺ: هم أُهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه؟ والمحيص كالمحيد غير أن المحيص معدل ومهرب عن الشدة، يدلك عليه قولهم: وقعوا في حيص بيص، أي في شدة وضيق، والمحيد معدل وإن كان لهم بالاختيار، يقال: حاد عن الطريق نظرًا، ولا يقال: حاص عن الأمر نظرًا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾.

الإشارة إلى الإهلاك، ويحتمل أن يقال: هو إشارة إلى ما قاله من إزلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما، والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة، وهي في نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرًا وذكرى وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ قيل: المراد قلب موصوف بالوعي، أي لمن كان له قلب واعٍ، يقال: لفلان مال، أي كثير فالتنكير يدل على معنى في الكمال، والأَوْلى أن يقال: هو لبيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لا خفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل، كما يقال: أعطه شيئًا ولو كان درهمًا، ونقول: الجنة لمن عمل خيرًا ولو حسنة، فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال له قلب، وحينئذٍ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلاً، كما في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: ١٨] حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يُطلب منها، كذلك من لا يتذكر، كأنه لا قلب له،

ومنه قوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي هم كالجماد، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ [المنافقون: ٤] أي لهم صور، وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ أي استمع، وإلقاء السمع كناية عن الاستماع؛ لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه، فإذا أرسله حصل الاستماع، فإن قيل: على قول من قال التنكير في القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب في قوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ وذلك لأنه يصير كأنه تعالى يقول: إن في ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واعٍ ذكي يستخرج الأمور بذكائه، أو ألقى السمع ويستمع من المنذر فيتذكر. وأما على قولك: المراد مَن صح أن يقال له قلب ولو كان غير واعٍ لا يظهر هذا الحسن. نقول: على ما ذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لأن التقدير يصير كأنه تعالى قال: فيه ذكرى لكل واحد كيف كان له قلب لظهور الأمر، فإن كان لا يحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل. ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع ينبئ عن طلب زائد، وأما إلقاء السمع فمعناه أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً، وإن لم يقصد السماع كالسامع في الصوت الهائل فإنه يحصل عند مجرد فتح الأذن وإن لم يقصد السماع، والصوت الخفي لا يُسمع إلا باستماع وتطلُّب، فنقول: الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها، فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله، سواء استمع باجتهاده أو لم يجتهد في سماعه. فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ للحال وهو يدل على أن إلقاء السمع بمجرده غير كافٍ، نقول: هذا يصحح ما ذكرناه لأنا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما، فإن لم تحصل له فتحصل له إذا ألقى السمع وهو حاضر بباله من القلب، وأما على الأول فمعناه من ليس له قلب واعٍ، يحصل له الذكر إذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه، فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واعٍ، وقد فرض عدمه، هذا إذا قلنا بأن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ بمعنى الحال، وإذا لم نقل به فلا يرد ما ذُكر. وهو يحتمل غير ذلك، بيانه هو أن يقال: (ذلك) إشارة إلى القرآن وتقريره هو أن الله تعالى لما قال في أول السورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ق: ١، ٢] وذكر ما يدفع تعجبهم وبيَّن كونه منذرًا صادقًا وكون الحشر أمرًا واقعًا ورغَّب وأرهب بالثواب والعذاب آجلاً وعاجلاً وأتم الكلام، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي القرآن الذي سبق ذكره ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أو لمن يستمع، ثم قال: ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ أي المنذر الذي تعجبتم منه شهيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ [الفتح: ٨] وقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨﴾

أعاد الدليل مرة أخرى، وقد ذكرنا تفسير ذلك في الم السجدة، وقلنا: إن الأجسام ثلاثة

أجناس. أحدها: السموات، ثم حركها وخصصها بأمور ومواضع، وكذلك الأرض خلقها ثم دحاها، وكذلك ما بينهما خلق أعيانها وأصنافها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى ستة أطوار، والذي يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة في اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل السموات لم يكن شمس ولا قمر، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت، يقال: يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد، وإن اتفقت الولادة أو الموت ليلاً، ولا يتعين ذلك ويدخل في مراد العاقل لأنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت، إذا علمت الحال من إضافة اليوم إلى الأفعال فافهم ما عند إطلاق اليوم في قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقال بعض المفسرين: المراد من الآية الرد على اليهود، حيث قالوا: بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه. فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ردًّا عليهم. والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانيًا، والخلق الجديد كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض، فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الأحد لكان الزمان متحققًا قبل الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أُخر، فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف، فإن الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلاً ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه، فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته. والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول. فبينهما منافاة، ثم إن اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتوا قبل خلق الأجسام أيامًا معدودة وأزمنة محدودة، وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش، فأخطأوا (وضلوا) وأضلوا في الزمان والمكان جميعًا.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قال من تقدم ذكرهم من المفسرين: إن معناه اصبر على ما يقولون من حديث التعب بالاستلقاء. وعلى ما قلنا معناه اصبر على ما يقولون إن هذا لشيء عجيب، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وما ذكرناه أقرب لأنه مذكور، وذِكر اليهود وكلامهم لم يَجْرِ.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون الله أمر النبي ﷺ بالصلاة، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ إشارة إلى طرفي النهار.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى زلفًا من الليل، ووجه هذا أن النبي ﷺ له شغلان: أحدهما: عبادة الله. وثانيهما: هداية الخلق، فإذا هداهم ولم يهتدوا، قيل له: أقبِل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق.

ثانيها: سَبِّح بحمد ربك، أي نَزِّهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكِّرهم بعظمة الله تعالى ونزِّهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذي هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب، فإنهما وقت اجتماعهم ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي أوائل الليل، فإنه أيضًا وقت اجتماع العرب، ووجه هذا أنه لا ينبغي أن تسأم من تكذيبهم فإن الرسل من قبلك أوذوا وكُذبوا وصبروا على ما كُذبوا وأوذوا، وعلى هذا فلقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فائدة جليلة وهي الإشارة إلى ما ذكرنا أن شغل الرسول أمران: العبادة والهداية، فقوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي عقب ما سجدت وعبدت نزِّه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية أدبار السجود. ثالثها: أن يكون المراد قل (سبحان الله)، وذلك لأن ألفاظًا معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم، فقولنا كبِّر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر، وسلِّم يراد به قوله السلام عليكم، وحمِّد يقال لمن قال الحمد لله، ويقال هلِّل لمن قال لا إله إلا الله، وسبِّح لمن قال سبحان الله، ووجه هذا أن هذه أمور تتكرر من الإنسان في الكلام، والحاجة تدعو إلى الإخبار عنها، فلو قال القائل: فلان قال لا إله إلا الله أو قال: الله أكبر، طوَّل الكلام، فمست الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكرر ما في الأول.

وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذي هو فيه، فهي أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزاءهم - كان يوجب في العادة أن يشتغل النبي ﷺ بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم، فقال: فاصبر على ما يقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له، ولا تكن كصاحب الحوت أو كنوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] بل ادع إلى ربك، فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك.

وفيه مباحث:

البحث الأول: استعمل الله التسبيح تارة مع اللام في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، و﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ [فصلت: ٣٨] وأخرى مع الباء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

[الواقعة: ٧٤] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] وثالثة من غير حرف في قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فما الفرق بينها؟ نقول: أما الباء فهي الأهم وبالتقديم أَوْلى في هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] فنقول أما على قولنا: المراد من سبح قل سبحان الله، فالباء للمصاحبة أي مقترنًا بحمد الله، فيكون كأنه تعالى قال: قل سبحان الله والحمد لله. وعلى قولنا: المراد التنزيه لذلك، أي نزِّهه واقرنه بحمده، أي سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه، فإن السعادة الأبدية لمن سبحه، وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر، تقديره: سبح الله بحمد ربك، أي ملتبسًا ومقترنًا بحمد ربك، وعلى قولنا: صلِّ، نقول: يحتمل أن يكون ذلك أمرًا بقراءة الفاتحة في الصلاة، يقال: صلّى فلان بسورة كذا أو صلّى بقل هو الله أحد، فكأنه يقول: صلِّ بحمد الله أي مقروءًا فيها: الحمد لله ربِّ العالمين. وهو أبعد الوجوه.

وأما التعدية من غير حرف فنقول: هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء، وأما اللام فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون كما في قول القائل: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له. وثانيهما: أن يكون لبيان الأظهر، أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة.

البحث الثاني: قال هاهنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [ق: ٣٩] ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ من غير باء، فما الفرق بين الموضعين؟ نقول: الأمر في الموضعين واحد على قولنا: التقدير سبح الله مقترنًا بحمد ربك؛ وذلك لأن سبح الله كقول القائل فسبحه، غير أن المفعول لم يُذكر، أولاً: لدلالة قوله بحمد ربك عليه. وثانيًا: لدلالة ما سبق عليه لم يذكر بحمد ربك، الجواب الثاني على قولنا سبح بمعنى صلِّ، يكون الأول أمرًا بالصلاة، والثاني أمرًا بالتنزيه، أي وصلِّ بحمد ربك في الوقت، وبالليل نزهه عما لا يليق، وحينئذٍ يكون هذا إشارة إلى العمل والذكر والفكر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة، وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى الذكر، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى الفكر حين هدوء الأصوات، وصفاء الباطن، أي نزِّهه عن كل سوء بفكرك، واعلم أنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ونعوت الجلال، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قد تقدم بعض ما يقال في تفسيره، ووجه آخر هو أنه إشارة إلى الأمر بإدامة التسبيح، فقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى أوقات الصلاة، وقوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ يعني بعدما فرغت من السجود وهو الصلاة، فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوِم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك في التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨] وقرئ: (وإدبار السجود).

البحث الثالث: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ ما وجهها؟ نقول: هي تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل، وذلك لأنه يتضمن الشرط، كأنه يقول: وأما من الليل فسبحه، وذلك لأن الشرط يفيد

أن عند وجوده يجب وجود الجزاء، وكأنه تعالى يقول: النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل، فأما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح. أو نقول بالعكس، الليل محل النوم والثبات والغفلة، فقال: أما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزّهه.

البحث الرابع: ﴿وَمِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون لابتداء الغاية، أي من أول الليل فسبحه، وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها، يقال: أنا من الليل أنتظرك. ثانيهما: أن يكون للتبعيض، أي اصرف من الليل طرفًا إلى التسبيح، يقال: من مالك منع ومن الليل انتبه، أي بعضه.

البحث الخامس: قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ عطف على ماذا؟ نقول: يحتمل أن يكون عطفًا على ما قبل الغروب، كأنه تعالى قال: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأدبار السجود) وذكر بينهما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ وعلى هذا ففيه ما ذكرنا من الفائدة وهي الأمر بالمداومة، كأنه قال: سبح قبل طلوع الشمس، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح، وسبح قبل الغروب، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه. فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التسبيح، ويحتمل أن يكون عطفًا على ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ وعلى هذا يكون عطفًا على الجار والمجرور جميعًا، تقديره: وبعض الليل (فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾

هذا إشارة إلى بيان غاية التسبيح، يعني اشتغِل بتنزيه الله وانتظِر المنادي، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الذي يستمعه؟ قلنا: يحتمل وجوهًا ثلاثة: أحدها: أن يترك مفعوله رأسًا ويكون المقصود كن مستمعًا ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين، يقال: هو رجل سميع مطيع. ولا يراد مسموع بعينه كما يقال: فلان وكّاس، وفلان يعطي ويمنع. ثانيهما: استمع لما يوحي إليك. ثالثها: استمع نداء المنادي.

المسألة الثانية: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ منصوب بأي فعل؟ نقول: هو مبني على المسألة الأولى، إن قلنا: (استمع لا مفعول له) فعامله ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] تقديره: يخرجون يوم ينادي المنادي، وإن قلنا: (مفعوله لما يوحى) فتقديره (واستمع) لما يوحى (يوم ينادي) ويحتمل ما ذكرنا وجهًا آخر، وهو ما يوحي أي ما يوحى ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ اسمعه، فإن قيل: استمع عطف على فاصبر وسبِّح وهو في الدنيا، والاستماع يكون في الدنيا، وما يوحى ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ لا يستمع في الدنيا، نقول: ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال: صلِّ وادخل الجنة، أي صلِّ في الدنيا وادخل الجنة في العقبى، فكذلك هاهنا، ويحتمل أن يقال بأنَّ استمِع

بمعنى انتظِر فيحتمل الجمع في الدنيا، وإن قلنا: استمع الصيحة وهو نداء المنادي: يا عظام انتشري، والسؤال الذي ذكره علم الجواب منه، وجواب آخر نقوله حينئذٍ وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قلنا: إن من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة، واستيقظوا لها، فلم تزعجهم، كمن يرى برقًا أومض، وعلم أن عقبيه يكون رعد قوي فينظره ويستمع له، وآخر غافل فإذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع، فقال: استمع ذلك كي لا تكون ممن يُصعق في ذلك اليوم.

المسألة الثالثة: ما الذي ينادي المنادي؟ فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحَصْرها بأن نقول: المنادي إما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الإنس والجن في الظاهر، وغيرهم لا ينادي: فإن قلنا: (هو تعالى) ففيه وجوه: أحدها: ينادي: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. ثانيها: ينادي: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] مع قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣٤] ومثله قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] وقال: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]. ثالثها: غيرهما لقوله تعالى: ﴿يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وغير ذلك، وأما على قولنا: (المنادي غير الله) ففيه وجوه أيضًا: أحدها: قول إسرافيل: أيتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل. ثانيها: النداء مع النفس، يقال للنفس: ارجعي إلى ربك لتدخلي مكانك من الجنة أو النار. ثالثها: ينادي منادٍ: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وعلى قولنا: (المنادي هو المكلف) فيحتمل أن يقال: هو ما بيّن الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] أو غير ذلك إلا أن الظاهر أن المراد أحد الوجهين الأولين؛ لأن قوله: (المنادي) للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم مناديًا معروف عُرف حاله وإن لم يجر ذكره، فيقال: قال ﷺ وإن لم يكن قد سبق ذكره، وأما أن الله تعالى منادٍ فقد سبق في هذه السورة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ [ق: ٢٤] وهذا نداء، وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠] وهو نداء، وأما المكلف ليس كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد، بل يستوي في استماعه كل أحد، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى إذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء، وهو من الله تعالى أقرب، وهذا كما قال في هذه السورة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وليس ذلك بالمكان.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

هذا تحقيق ما بينا من الفائدة في قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ [ق: ٤١] أي لا تكن من الغافلين حتى لا تُصعق يوم الصيحة، وبيانه هو أنه قال: (استمِع) أي كن قبل أن تستمع مستيقظًا لوقوعه، فإن السمع لا بد منه، أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك إلا ما لا بد منه و﴿يَوْمَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: ما قاله الزمخشري

أنه بدل من (يوم) في قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ والعامل فيهما الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي يخرجون يوم يسمعون. ثانيها: أن ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ العامل فيه ما في قوله: (ذلك) ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ العامل فيه ما ذكرنا. ثالثها: أن يقال: (استمع) عامل في (يوم ينادي) كما ذكرنا وينادي عامل في يسمعون، وذلك لأن يوم ينادي وإن لم يجز أن يكون منصوبًا بالمضاف إليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوبًا به، يقال: اذكر حال زيد ومذلته يوم ضَرَبه عمرو، ويوم كان عمرو واليًا، إذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عندما صار زيد يكرم بسبب من الأسباب، فلا يكون يوم كان عمرو واليًا منصوبًا بقوله (اذكر) لأن غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب، لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو يوم كان واليًا، فكذلك هاهنا قال: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ لئلا تكون ممن يفزع ويُصعق، ثم بَيَّن هذا النداء بقوله: ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ يوم يسمعون، أي لا يكون نداءً خفيًّا بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته إلى من في أقصى المغرب كنسبته إلى من في المشرق، وكلكم تسمعون، ولا شك أن مثل هذا الصوت يجب أن يكون الإنسان متهيئًا لاستماعه، وذلك يشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكير فيه، فظهر فائدة جليلة من قوله: (فاصبر، وسبح، واستمع يوم يناد المناد، ويوم يسمعون) واللام في الصيحة للتعريف، وقد عرف حالها وذكرها الله مرارًا كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩] وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] وقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جلز أن يكون متعلقًا بالصيحة، أي الصيحة بالحق يسمعونها. وعلى هذا ففيه وجوه:

الأول: الحق: الحشر، أي الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها، يقال: صاح زيد بـ(يا قوم اجتمعوا) على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذٍ: يسمعون الصيحة بيا عظام اجتمعي وهو المراد بالحق. الثاني: الصيحة بالحق، أي باليقين والحق هو اليقين، يقال: صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين، أي وُجد منه الصياح يقينًا لا كالصدى وغيره، وهو يجري مجرى الصفة للصيحة، يقال: استمع سماعًا بطلب، وصاح صيحة بقوة، أي قوية، فكأنه قال: الصيحة المحققة. الثالث: أن يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود، يقال: (كن) فيتحقق ويكون، ويقال: اذهب بالسلام وارجع بالسعادة، أي مقرونًا ومصحوبًا، فإن قيل: زد بيانًا فإن الباء في الحقيقة للإلصاق فكيف يُفهم معنى الإلصاق في هذه المواضع؟ نقول: التعدية قد تتحقق بالباء، يقال: (ذهب بزيد) على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائمًا به فصار مفعولاً، فعلى قولنا: (المراد يسمعون صيحة من صاح بـ: يا عظام اجتمعي) هو تعدية المصدر بالباء، يقال: أعجبني ذهاب زيد بعمرو، وكذلك قوله: ﴿ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ارفع الصوت على الحق وهو الحشر، وله موعد نبينه في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني: أن يكون الحق متعلقًا بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون الصيحة بالحق، وفيه

وجهان: الأول: هو قول القائل: سمعته بيقين. الثاني: الباء في يسمعون بالحق قسم، أي يسمعون الصيحة بالله الحق. وهو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ذلك إشارة إلى يوم، أي ذلك اليوم يوم الخروج. ثانيهما: ذلك إشارة إلى نداء المنادي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

قد ذكرنا في سورة يس ما يتعلق بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، وأما قوله: ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فالمراد من الإحياء الإحياء أولاً ﴿وَنُمِيتُ﴾ إشارة إلى الموتة الأولى، وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا﴾ بيان للحشر فقدم ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لتعريف عظمته، يقول القائل: (أنا أنا) أي مشهور و ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أمور مؤكِّدة معنى العظمة ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ بيان للمقصود.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ العامل فيه هو ما في قوله: ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] من الفعل، أي يخرجون يوم تشقق الأرض عنهم سراعًا. وقوله: ﴿سِرَاعًا﴾ حال للخارجين لأن قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر، كما يقال: كُشف عنه فهو مكشوف عنه، فيصير سراعًا هيئة المفعول، كأنه قال: (مسرعين) والسِّراع جمع سريع كالكرام جمع كريم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التشقق عنهم، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الإخراج المدلول عليه بقوله سراعًا، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير؛ لأن الحشر عُلم مما تقدم من الألفاظ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي هو علينا هين لا على غيرنا، وهو إعادة جواب قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] والحشر: الجمع ويوم القيامة جمع الأجزاء بعضها إلى بعض وجمع الأرواح مع الأشباح، أي يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الأمم المتفرقة والرمم المتمزقة، والكل واحد في الجمع.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

فيه وجوه:

أحدها: تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبي ﷺ من الصبر والتسبيح، أي اشتغِل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى إلينا فإنا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم. وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ مناسب له، أي لا تقل بأني أُرسلت إليهم لأهديهم، فكيف

أشتغل بما يشغلني عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح؟! فإنك ما بُعثتَ مسلطًا على دواعيهم وقُدَرهم، وإنما أُمرت بالتبليغ، وقد بلَّغت فاصبر وسبِّح وانتظِر اليوم الذي يفصل فيه بينكم.

ثانيها: هي كلمة تهديد وتخويف لأن قوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣] ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لأن من يعلم أن مرجعه إلى الملك ولكنه يعتقد أن الملك لا يعلم ما يفعله - لا يمتنع من القبائح، أما إذا علم أنه يعلمه وعنده غيبه وإليه عوده يمتنع، فقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ و﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ وهو ظاهر في التهديد، وهذا حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

ثالثها: تقرير الحشر وذلك لأنه لما بيّن أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ لكمال قدرتنا، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا، وعلى هذا فقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قولهم ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [المؤمنون: ٨٢] ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] فيقول: نحن نعلم الأجزاء التي يقولون فيها إنها ضالة وخفيه، ولا يكون المراد نحن نعلم وقولهم في الأول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي قولهم، وفي الوجه الآخر تكون خبرية، وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ إذ لا عالم بتلك الأجزاء سواه حتى يقول: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ نقول قد علم الجواب عنه مرارًا من وجوه:

أحدها: أن (أفعل) لا يقتضي الاشتراك في أصل الفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وفي قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثانيها: معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه. والأول أصح وأظهر وأوضح وأشهر.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه للتسلية أيضًا، وذلك لأنه لما مَنَّ عليه بالإقبال على الشغل الأخروي وهو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث، كما أن الملك إذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه في أحدهما، يقول له: أقبِل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عنه منهما، فقال: (اصبر. وسبح، وما أنت. . بجبار) أي فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك، بل كنت بهم رؤوفًا وعليهم عطوفًا، وبالغت وبلَّغت وامتنعوا، فأقبِل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الأول بسبب جبروتك، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٢ - ٤]، ثانيها: هو بيان أن النبي ﷺ أتى بما عليه من الهداية، وذلك لأنه أرسله منذرًا وهاديًا لا ملجئًا ومجبرًا، وهذا كما في قوله تعالى:

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ [الشورى: ١٨] أي تحفظهم من الكفر والنار.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم﴾ في معنى قول القائل: اليوم فلان علينا، في جواب من يقول: من عليكم اليوم؟ أي مَن الوالي عليكم؟ ثالثها: هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد، وذلك لأن النبي ﷺ لما أنذر وأعذر وأظهر لم يؤمنوا كان يقول: إن هذا وقت العذاب، فقال: نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكِّر بعذابي إن لم يؤمنوا من بقي منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط. ويؤيد هذا قول المفسرين أن الآية نزلت قبل نزول آية القتال، وعلى هذا فقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي من بقي منهم ممن يخاف يوم الوعيد، وفيه وجوه أُخر: أحدها: أنا بينا في أحد الوجوه أن قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ﴾ [ق: ٣٩] معناه أقبِل على العبادة، ثم قال: ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكّر المؤمنين ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله: ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فيه وجوه: الأول: فذكّر بما في القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة. الثاني: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي بيّن به أنك رسول لكونه معجزًا، وإذا ثبت كونك رسولاً لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به. الثالث: المراد فذكِّر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير، وحينئذٍ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي ﷺ به، أي اجعل القرآن إمامك، وذكِّرهم بما أُخبرت فيه بأن تذكرهم. وعلى الأول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشي أكثر مما يدل عليه الخوف، حيث قال: ﴿يَخَافُ﴾ عندما جعل المخوف عذابه ووعيده، وقال: ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] عندما جعل المخوف نفسه العظيمة، وفي هذه الآية إشارة إلى الأصول الثلاثة، وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ إشارة إلى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال: ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وقوله: ﴿وَعِيدِ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر، وضمير المتكلم في قوله: ﴿وَعِيدِ﴾ يدل على الوحدانية، فإنه لو قال: (من يخاف وعيد الله) كان يذهب وهم الله إلى كل صوب فلذا قال: ﴿وَعِيدِ﴾ والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الإشراك به وقبول الاشتراك فيه، وقد بينا في أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وقال في آخرها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

وهذا آخر تفسير هذه السورة، والحمد لله ربّ العالمين، وصلاته على خاتم النبيّين وسيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه وذريته أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ق

وهي خمسٌ وأربعون آية

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الآية: ٣٨](١).

وفي صحيح مسلم عن أمِّ هشام بنت حارثةَ بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً، سنتين أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس(٢).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، سألَ أبا واقدٍ الليثيّ: ما كان يقرأُ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأُ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١](٣).

وعن جابر بن سَمُرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، وكان(٤) صلاتُه بعدُ تخفيفاً(٥).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٩.

(٢) صحيح مسلم (٨٧٣): (٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١): (١٤).

(٤) في (ق) و(م): وكانت.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٨٥٤) (٢١٠٠٣)، ومسلم (٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قرأ العامَّةُ: «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «قافِ» بكسر الفاء[١]؛ لأنَّ الكسرَ أخو الجزم، فلمَّا سَكَنَ آخِرُهُ، حرَّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيُّ بفتح الفاء[٢] حرَّكه إلى أخفِّ الحركات. وقرأ هارونُ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «قافُ» بالضم[٣]؛ لأنَّه في غالب الأمر حركةُ البناء، نحو: منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ.

واختلف في معنى «ق» ما هو؟ فقال يزيد[٤] وعكرمةُ والضَّحَّاك: هو جبل محيطٌ بالأرض من زُمرُّدةٍ خضراءَ، اخضرَّتِ السماءُ منه، وعليه طَرَفا السماءِ، والسماءُ عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصابَ الناسُ من زُمرُّدٍ، كان مما تساقطَ من ذلك الجبل[٥]. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس.

قال الفرَّاء: كان يجب على هذا أن يظهرَ الإعرابُ في «ق»؛ لأنَّه اسمٌ وليس بهجاء. قال: ولعلَّ القافَ وحدها ذُكرتْ من اسمه؛ كقول القائل[٦]:

قلتُ لها قِفي فقالتْ قافْ

أي: أنا واقفة[٧]. وهذا وجهٌ حسنٌ. وقد تقدَّم أوّل «البقرة»[٨].

---

(١) قراءة الحسن وابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

(٤) في (ف) و(ق) و(م): ابن زيد. والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٥) ينظر قولهم في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٦) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد سلف ١/ ٢٣٩ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٥ .

(٨) ١/ ٢٣٩ .

وقال وهب: أشرفَ ذو القرنين على جبلِ قاف، فرأى تحتَهُ جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبالُ حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينةٍ إلا وفيها عِرقٌ من عروقي، فإذا أراد اللهُ أنْ يزلزل مدينةً، أمرني فحرَّكتُ عِرقي ذلك، فتزلزلتْ تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمةِ الله؛ قال: إنَّ شأن ربِّنا لعظيمٌ، وإنَّ ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام، من جبالِ ثلجٍ يحطم بعضُها بعضاً، لولا هي لاحترقتُ من حرِّ جهنَّم. قال: زدني، قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تُرْعَدُ فرائصُه، يخلقُ الله من كلِّ رِعدةٍ مئةَ ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يدي الله تعالى، منكِّسو رؤوسهم، فإذا أذِنَ الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلَّا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] يعني قول: لا إله إلا الله(١).

وقال الزجَّاج(٢): قوله: «ق» أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل في «حم» أي: حُمَّ الأمرُ. وقال ابن عباس: «ق» اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به(٣). وعنه أيضاً: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن. وهو قول قتادة(٤). وقال القُرظيُّ: افتتاحُ أسماء الله تعالى قديرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاضٍ وقابض(٥). وقال الشَّعبيُّ: فاتحةُ السورة(٦). وقال أبو بكر

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٩٤: كأن هذه من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أنّ هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق زنادقتهم، يلبّسون على الناس أمر دينهم... وإنما أباح الشارع الرواية عنهم... فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظن كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٤١.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٠.

(٤) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥، وأخرجه عن قتادة الطبريُّ ٢١/ ٤٠٠.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٦.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥، وفيه: اسم السورة.

الورَّاق: معناه: قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما[١]. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيُّ: هو قُرْبُ الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. وقال ابنُ عطاء: أَقسم اللهُ بقوَّة قلب حبيبه محمدٍ ﷺ، حيثُ حَمَلَ الخطابَ، ولم يُؤثِّر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله[٢].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذٌ من كثرة القَدْرِ والمنزلة، لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان[٣] في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: لها[٤] في كلِّ شجرٍ نار، واسْتمجدَ المَرْخُ والعَفار[٥]. أي: استكثر هذان النوعان من النَّار، فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر[٦].

وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي: لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] وهو اختيارُ الترمذيِّ محمد بن عليٍّ قال: «ق» قَسَمٌ باسمٍ هو أعظمُ الأسماء التي خَرجتْ إلى العباد: وهو القدرة، وأقْسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم اقتصَّ ما خَرجَ من القدرة من خَلْقِ السماوات والأرضين وأرزاق العباد، وخَلْقِ الآدميين، وصفةِ يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] فوقع القسمُ على هذه الكلمة، كأنَّه قال: «ق» أي: بالقدرة والقرآن المجيد، أقسمتُ أنَّ فيما اقتصصتُ في هذه

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥ .

(٢) ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٠ أن المفسرين اختلفوا في مدلول «ق» على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها.

(٣) في النكت والعيون ـ والكلام منه ـ : فلان كثير.

(٤) لفظة: لها. ليست في (م).

(٥) المَرْخ والعَفار شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف؛ وهذا المثل يضرب في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتَقدُّمٌ ليس للآخرين. المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٣-١٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

السورة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾[١]. وقال الأخفش[٢]: جوابه محذوف، كأنَّه قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ لَتُبعثُنَّ، يدلُّ عليه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ على تقدير: لأن جاءهم منذرٌ منهم، يعني محمداً ﷺ. والضميرُ للكفَّار، وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً[٣]. ثم ميَّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: فقالوا، بل قبَّح حالَهم وفِعلَهم[٤] وَوَصَفَهُمْ بالكفر، كما تقول: جاءني فلانٌ فأسمعني المكروهَ، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا.

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يُتعجَّبُ منه، وكذلك العُجابُ؛ بالضمِّ، والعُجَّابُ ـ بالتشديد ـ أكثر منه، وكذلك الأُعجوبة[٥]. وقال قتادة: عجَّبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور[٦]. والذي نصَّ عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نُبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الرَّجع: الرَّدُّ، أي: هو ردٌّ بعيد، أي: محال. يقال: رَجَعْته أرْجِعه رَجْعًا، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعاً، وفيه إضمارٌ آخر، أي: وقالوا أنُبْعَثُ إذا متنا. وذِكْرُ البعثِ وإنْ لم يَجْرِ هاهنا، فقد جرى في مواضع، والقرآنُ كالسورة الواحدة. وأيضاً ذِكْرُ البعثِ منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنَّه إنَّما يُنذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٦ بنحوه. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٤) قوله: وفعلهم. من (م).

(٥) الصحاح (عجب).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكلُ من أجسادهم، فلا يَضِلُّ عنَّا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وفي الصحيح: «كلُّ ابنِ آدم يأكلُه التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدَّم[١].

وثبت أنَّ الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكلُ الأرضُ أجسادهم؛ حرَّم الله على الأرض أن تأكلَ أجسادهم. وقد بيَّنَّا هذا في كتاب «التذكرة»، وتقدَّم أيضاً في هذا الكتاب[٢].

وقال السُّدِّي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا منهم من يموتُ ومن يبقى[٣]؛ لأنَّ من مات دُفِنَ، فكأنَّ الأرض تَنقُصُ من الناس.

وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين[٤].

﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: بعدَّتهم وأسمائهم، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ[٥]، أي: محفوظٌ من الشياطين، أو محفوظٌ فيه كلُّ شيء. وقيل: الكتاب عبارةٌ عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظتُهُ. وهذا تَرْكُ الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي: وعندنا كتابٌ حفيظٌ لأعمال بني آدم، لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن في قول الجميع؛ حكاه

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٥): (١٤٢)، وسلف معناه ١٧/ ٤٩٠.

(٢) التذكرة ١/ ١٦٣-١٦٤، وسلف ٥/ ٤٠٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٧ نقلاً عن الثعلبي. ثم قال: وهذا قولٌ أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٦٣.

الماورديُّ[١]. وقال الثعلبيُّ: بالحقِّ: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمدٌ ﷺ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط. يقولون مرَّةً: ساحر، ومرَّةً: شاعر، ومرَّةً: كاهن؛ قاله الضَّحَّاك وابنُ زيد. وقال قتادة: مختلِف. الحسن: مُلتبِس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد[٢]، ومنه: مَرِجَتْ أماناتُ الناس، أي: فسدت؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ: اختلط. قال أبو دؤاد:

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الحارِكِ محبوكَ الكَتَدْ[٣]

وقال ابن عباس: المَرِيج: الأمر المنكر[٤]. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: «مريج»: مختلط[٥]. وأنشد:

فجالتْ فالتمستُ به حَشاها فَخَرَّ كأنه خُوطٌ مَريجُ[٦]

الخُوطُ: الغصن.

وقال عنه العوفيُّ: في أمرِ ضلالة[٧]، وهو قولهم: ساحرٌ شاعرٌ مجنونٌ كاهن. وقيل: متغيِّر.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤١ دون ذكر ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٠٨. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠.

(٣) الصحاح (مرج)، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٩٠، وأمالي القالي ٢/ ٣١٠. قال البكري في سمط اللآلي ٢/ ٩٥٧: الكتد: موصل العنق في الظهر، ومحبوك: مُدمج. اهـ. والحارِك: أعلى الكاهل، وقيل: الحارك منبت أدنى العُرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٦، واستدل عليه ابنُ عباس بالبيت الآتي.

(٥) أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مريج: مختلف. وكذا ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٢٠ دون إسناد.

(٦) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٣. وفيه: فراغت، بدل: فجالت. قال شارحه: راغت، أي: البقرة، وخرَّ السهم: سقط كأنه خوطٌ، أي غصن. مريج، أي: سهل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠ دون ذكر العوفي.

وأصل المَرَج: الاضطراب والقلق. يقال: مَرِجَ أمرُ الناس، ومَرِج الدِّين[(١)]، وَمرِج الخاتم في إصبعي، إذا قَلِقَ من الهزال.

وفي الحديث: «كيف بك يا عبدَ الله إذا كنتَ في قومٍ قد مَرِجَتْ عهودُهم وأمانَاتُهم، واختلفوا، فكانوا هكذا وهكذا». وشبَّك بين أصابعه. أخرجه أبو داود[(٢)]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبار وتفكُّر، وأنَّ القادرَ على إيجادها قادرٌ على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ فرفعناها بلا عَمَد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فَرْج: وهو الشَّق؛ ومنه قول امرئ القيس:

تَسُدُّ به فَرجَها من دُبُرْ[(٤)]

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق[(٥)]. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ تقدَّم في «الرعد» بيانه[(٦)]. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حَسَنٍ يسرُّ الناظرين. وقد تقدَّم في «الحج» بيانه[(٧)].

---

(١) في (م): ومرج أمر الدين، والمثبت موافق لغريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٧ والكلام منه.

(٢) في سننه (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وسلف ١٣/٥٨ .

(٣) ٢/٥٥١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٦٤ ، وصدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

(٥) مجمع البيان ٢٦/١٠٣ .

(٦) ١٢/٨ .

(٧) ١٤/٣٢٥ .

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ أي: جعلنا ذلك تبصرةً لِنَدُلَّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني: جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوف عليه.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: راجعٍ إلى الله تعالى، مفكِّرٍ في قدرته[١].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ التقدير: وحبَّ النبت الحصيد، وهو كلُّ ما يُحصد. هذا قول البصريين[٢]. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، وحقُّ اليقينِ، وحبل الوريد، ونحوها؛ قاله الفرّاء[٣]. والأصل: الحبُّ الحصيد، فحُذفتِ الألف واللام، وأضيف المنعوت إلى النعت.

وقال الضحاك: حبُّ الحصيد: البُرُّ والشَّعيرُ. وقيل: كلُّ حبٍّ يُحْصد ويُدَّخر ويُقتات[٤].

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ نصب[٥] ردًّا[٦] على قوله: «وَحَبَّ الحَصِيدِ» و«بَاسِقَاتٍ» حال. والباسقات: الطِّوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال عبد الله[٧] بن شدَّاد: بُسُوقها: استقامتها في الطول[٨].

وقال سعيد بن جبير: مستويات[٩]. وقال الحسنُ وعكرمة أيضاً والفرَّاء: مواقير

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣.

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٦.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٤٢ دون نسبة.

(٥) في النسخ: نصب على الحال، ولعل قوله: «على الحال» سبق قلم. والصواب حذفه.

(٦) في (ف): معطوف.

(٧) في (م): قاله مجاهد وعكرمة وقال قتادة وعبد الله.. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لتفسير البغوي ٤/ ٢٢١، وغيره.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١٢.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢١.

حوامل؛ يقال للشاة: بَسَقَتْ، إذا ولدت[١]، قال الشاعر:

فلما تَركنا الدار ظَلَّتْ[٢] مُنيفةً ... بِقُرَّانَ فيه الباسقاتُ المَواقرُ[٣]

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ بَسَقَ النخلُ بسُوقاً: إذا طال. قال[٤]:

لنا خمرٌ وليستْ خمرَ كَرْمٍ ... ولكنْ من نِتاجِ الباسقاتِ

كرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طُولاً ... وفاتَ ثمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلانٌ على أصحابه، أي: عَلَاهم، وأبسقتِ الناقةُ: إذا وقع في ضَرْعها اللِّبَأ[٥] قبل النِّتاج، فهي مُبْسِق، ونُوقٌ مباسيق.

وقال قطبةُ بنُ مالك: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ: «بَاصِقَاتٍ» بالصاد؛ ذكره الثعلبيّ[٦].

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبةَ بن مالك قال: صلَّيتُ وصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ فقرأ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ حتى قرأ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال: فجعلتُ أردِّدها، ولا أدري ما قال[٧]. إلَّا أنَّه يجوز[٨] إبدالُ الصاد من السين لأجل القاف[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: إذا بسقت ولدت، والمثبت من (م). وقول عكرمة في النكت والعيون ٥/ ٣٤٣ بنحوه، وأخرجه عنه الحربي في غريب الحديث ٣/ ١١٢٣ بلفظ: بسوقها كبسوق الشاة عند الولادة. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر ضمن قصة كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٢ .

(٢) في (ق): طلَّت.

(٣) البيت للراعي النُّميري، وهو في ديوانه ص١١١ ، فلما تركْنَ الدار قلت منيفة، بقُرَّان منها. . . وقوله: منيفة، أي: تامة الطول والحُسن، وقُرَّان: قرية باليمامة.

(٤) هو أبو نواس، والبيتان في ديوانه ص١١٨ ، وسلفا ٨/ ١٦٩ .

(٥) في (ظ) و(م): اللبن، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للصحاح (بسق) والكلام منه. واللِّبأ؛ كعِنَب: أول اللبن في النِّتاج.

(٦) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٦ : فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقطبة بن مالك هو الثعلبي، ويقال الذبياني. قال البخاري وابن أبي حاتم: له صحبة. الإصابة ٨/ ١٦٥ .

(٧) صحيح مسلم (٤٥٧)، وأخرجه أحمد (١٨٩٠٣).

(٨) يعني في اللغة، لا في التلاوة، ووقع في (م): لا يجوز!

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٢-٢٨٣ والكشاف ٤/ ٥ .

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلْعُ: هو أوَّلُ ما يخرجُ من ثمر النخل؛ يقال: طَلَع الطَّلْعُ طُلُوعاً، وأَطلعتِ النخلةُ، وطَلعها: كُفُرَّاها[١] قبل أنْ ينشقَّ.

﴿نَّضِيدٌ﴾ أي: متراكبٌ قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاريّ: «النَّضِيدُ»: الكُفُرَّى مادام في أكمامه، ومعناه: منضودٌ بعضُه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[٢].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: رزقناهم رزقاً، أو على معنى: أنبتناها رزقاً؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق، أو على أنَّه مفعولٌ له، أي: أنبتناها لنرزقهم[٣]، والرزقُ: ما كان مهيَّأً للانتفاع به. وقد تقدَّم القول فيه[٤].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: من القبور، أي: كما أحيا الله هذه الأرض الميتةَ؛ فكذلك يخرجكم أحياءً بعد موتكم، فالكاف في محل رفع على الابتداء[٥]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٦]. وقال: «مَيْتًا»؛ لأنَّ المقصودَ المكانُ، ولو قال: ميتة، لجاز.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كما كذَّب هؤلاء، فكذلك كذَّب أولئك فحلَّ بهم العقاب؛ ذكَّرهم نبأ من كان قبلَهم من المكذِّبين وخوَّفهم ما أخذهم.

---

(١) الكُفُرَّى: هو وعاء طلع النخل. الصحاح (كفر).

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٤٨٤٨).

(٣) في (م): لرزقهم. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٥ ، والكلام منه.

(٤) ١/ ٢٧٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٥ .

(٦) ١/ ٣٧٤ .

وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحقَّ عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابُ قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾. يقال: عَيِيتُ بالأمر، إذا لم تعرفْ وجهه[1].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في حَيْرةٍ من البعث، منهم مصدِّقٌ ومنهم مكذِّب[2]؛ يقال: لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: الناس، وقيل: آدم[3]. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجرٌ عن المعاصي التي يُستخفى بها. ومن قال: إنَّ المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوستْ به نفسُهُ هو الأكلُ من الشجرة، ثم هو عامٌّ لولده. والوسوسةُ: حديثُ النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسمع للحَلي وَسواساً إذا انصرفتْ كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقد مضى في «الأعراف»[4].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌّ من ناحية حَلْقِهِ إلى

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣ .

(٢) هذا معنى قول قتادة الذي أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٢١ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٩ .

(٤) ٩/ ١٧٥ . والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥ . وسلف شرحه ثمة.

عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمال. روي معناه عن ابن عباس[١] وغيره، وهو المعروف في اللغة. والحبل: هو الوريد، فأُضيف إلى نفسه؛ لاختلاف اللفظين[٢].

وقال الحسن: الوريد: الوتين وهو عِرقٌ معلَّقٌ بالقلب[٣]. وهذا تمثيل للقرب؛ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة.

وقيل: أي: ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي: ونحن أعلمُ بما توسوس به نفسه[٤] من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنَّه عِرقٌ يخالط القلب، فَعِلْمُ الربِّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عِرْقٌ يخالطُ القلب. وهذا القربُ قرب العلم والقدرة، وأبعاضُ الإنسان يَحجبُ البعضُ البعضَ، ولا يحجبُ علمَ الله شيء[٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده حين يتلقَّى المتلقيان، وهما الملكان الموكَّلان به[٦]، أي: نحن أعلم بأحواله؛ فلا نحتاج إلى مَلَكٍ يخبر، ولكنهما وَكِّلا به إلزاماً للحُجَّة، وتوكيداً للأمر عليه.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: «المُتَلَقِّيَانِ»: ملَكان يتلقيان عملك؛ أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متَّ طُويت صحيفةُ عملك، وقيل لك يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عَدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٤) بعدها في (ظ): وأقرب إليه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٤٦-٣٤٧، والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

وقال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحوالِهِ ـ مَلَكين بالليل، ومَلَكين بالنهار يحفظانِ عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[1].

وقال سفيان: بلغني أنَّ كاتبَ الحسنات أمينٌ[2] على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد[3] قال: لا تعجل لعلَّه يستغفر الله.

وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «كاتبُ الحسنات على يمين الرجل، وكاتبُ السيئات على يسار الرجل[4]، وكاتبُ الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا عَمِلَ حسنةً؛ كتبها صاحبُ اليمين عشراً، وإذا عَمِلَ سيئةً، قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعله يَسبِّح أو يستغفر»[5].

وروي من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مقعدَ مَلَكَيك على ثَنِيَّتك، لسانُك قلمهما، ورِيقُك مِدَادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، فلا تستحي من الله ولا منهما»[6].

وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر[7] على الحنك. ورواه عوف عن الحسن

---

(١) أخرجه الطبري بنحوه مختصراً ٢١/ ٤٢٥ .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٤٢٦ ـ والقول مخرجٌ فيه ـ: أمير.

(٣) قوله: العبد، من (ف) و(م).

(٤) في (م): على يساره.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٧١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨ : وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. ورواه الطبراني في المعجم الكبير أيضاً (٧٧٦٥) بنحوه وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ١٤٨-١٤٩ .

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩ الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطأة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مقعد ملكيك» فذكره. اهـ. وأرطاة بن أشعث؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٧٠ : هالك.

(٧) في (م): الثغر.

قال: وكان الحسن يُعجبه أن ينظف عَنْفَقته(١).

وإنما قال: «قَعِيدٌ» ولم يقل: قعيدان، وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه(٢)؛ ومنه قول الشاعر:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما ... عِندكَ راضٍ والرّأيُ مختلفُ(٣)

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتاني ما جنى ... وأَبَى فكان وكنتُ غيرَ غَدورِ(٤)

ولم يقل: راضيان ولا غدورين.

ومذهب المبرِّد: أنَّ الذي في التلاوة أوَّلٌ، أُخِّرَ اتِّساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوَّل عليه. ومذهب الأخفش والفرَّاء: أنَّ الذي في التلاوة يؤدِّي عن الاثنين والجمع، ولا حذف في الكلام(٥).

و«قَعِيدٌ» بمعنى قاعد، كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: «قَعِيدٌ» بمعنى مُقَاعد، مثل أكيل ونديم بمعنى مُؤَاكل ومُنَادم(٦).

وقال الجوهريُّ: وفَعيلٌ وفَعولٌ؛ ممَّا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤](٧). وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ٧٥-٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣.

(٣) البيت لقيس بن الخطيم كما نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥. وسلف ١٠/ ١٨٨.

(٤) الكتاب ١/ ٧٦، ولم نقف عليه في ديوان الفرزدق.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٧٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤.

(٦) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨.

(٧) الصحاح (قعد).

أَلِـكْـنـي إلـيـهـا وخـيـرُ الـرَّسـو ... لِ أعـلَـمُـهُـمْ بـنـواحـي الـخـبـرْ[١]

والمراد بالقعيد هاهنا: الملازمُ الثابت، لا ضدُّ القائم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلَّم بشيءٍ إلَّا كُتب عليه؛ مأخوذٌ من لفظ الطعام، وهو إخراجُه من الفم.

وفي الرقيب ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّه المتَّبعُ[٣] للأمور. الثاني: أنَّه الحافظ؛ قاله السُّدِّي. الثالث: أنَّه الشاهد؛ قاله الضَّحَّاك.

وفي العتيد وجهان: أحدهما: أنَّه الحاضرُ الذي لا يغيب. الثاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ إمَّا للحفظ وإمَّا للشهادة[٤].

قال الجوهري[٥]: العتيدُ الشيء الحاضر المُهَيَّأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً، وأعْتَدَه إعْتَاداً، أي: أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]، وفرسٌ عَتَدٌ وَعَتِدٌ؛ بفتح التاء وكسرها: المُعَدُّ للجري.

قلت: وكلُّه يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئِن كُنتَ منِّي في العِيان مُغَيَّباً ... فـذِكْـرُكَ عـندي فـي الـفـؤادِ عَـتـيـدُ[٦]

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يُكتبُ على الإنسان كلُّ شيءٍ حتى الأنينُ في مرضه[٧]. وقال عكرمة: لا يُكتب عليه[٨] إلَّا ما يُؤجر به أو يُؤزر عليه[٩]. وقيل:

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/١٤٦ ، وقوله: ألِكْني إليها، أي: كُنْ رسولي إليها. وسلف ١٦/١٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٢٢٢ .

(٣) في (ف): المنيع، وفي النكت والعيون ـ والكلام منه ـ: المتتبع.

(٤) النكت والعيون ٥/٣٤٧ .

(٥) في الصحاح (عتد).

(٦) لم نقف عليه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/١٦٠ .

(٨) لفظة: عليه. ليست في (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/٢٢٢ .

يُكتب عليه كلُّ ما يتكلَّم به، فإذا كان آخر النهار مُحيَ عنه ما كان مباحاً، نحو: انطلِق، اقعد، كُلْ، مما لا يتعلَّق به أجرٌ ولا وِزر[١]، والله أعلم.

وروي عن أبي هريرة وأنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من حافظَين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى اللهُ في أوَّل الصحيفة خيراً، وفي آخرها خيراً، إلَّا قال الله تعالى لملائكته: اشهدوا أنِّي قد غفرتُ لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة»[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ لله ملائكةً معهم صحفٌ بيض، فأَمْلُوا في أوَّلها وفي آخرها خيراً، يُغفر لكم ما بين ذلك[٣].

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحاق، قال: حدَّثنا محمد بن موسى الحَرَشيُّ، قال: حدَّثنا سهيل بن عبد الله، قال: سمعتُ الأعمشَ يحدِّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحافظَين إذا نزلا على العبد أو الأمَة، معهما كتابٌ مختوم، فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة، فإذا أرادا أنْ ينهضا، قال أحدُهما للآخر: فُكَّ الكتاب المختومَ الذي معك، فيفكُّه له، فإذا فيه ما كتب سواء، فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» غريبٌ من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلَّا سهيل[٤].

وروي من حديث أنس أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: ربنا قد مات فلانٌ، فأْذَنْ لنا أنْ نصعد إلى السماء، فيقولُ الله تعالى: إنَّ سماواتي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: ربنا نقيمُ في الأرض،

(١) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠ عن الحسن وقتادة.

(٢) أخرجه عن أنس الترمذي (٩٨١). وفي إسناده تمام بن نجيح، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥ : هذا حديثٌ لا يصح، قال ابن حبان: تمام يروي أشياء موضوعة عن الثقات، كأنه المتعمد لها.

(٣) ذكر نحوه الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦ . وعزاه للطبري.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ١٧٣، ٥/ ٥٧ .

فيقولُ الله تعالى: إنَّ أرضي مملوءةٌ من خلقي يسبِّحونني، فيقولان: ياربِّ، فأين نكون؟ فيقولُ الله تعالى: قوما[١] على قبر عبدي، فكبِّراني وهلِّلاني وسبِّحاني[٢]، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: غمرتُه وشدَّتُه؛ فالإنسانُ مادام حيًّا تُكتَبُ عليه أقواله وأفعاله، ليُحاسَبَ عليها، ثم يجيئُهُ الموت، وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحقِّ فيما كان الله تعالى وعدَه وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت، سُمِّي حقًّا؛ إمَّا لاستحقاقه، وإمَّا لانتقاله إلى دار الحقّ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموت[٤]، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما[٥]؛ لأنَّ السَّكرة هي الحقّ، فأُضيفتْ إلى نفسها لاختلاف اللفظين.

وقيل: يجوز أنْ يكون الحقُّ على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي: جاءت سكرةُ أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحقُّ هو الموتُ، والمعنى وجاءت سكرةُ الموت بالموت[٦]؛ ذكره المهدويُّ.

وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أُخالفُ المصحفَ كما خالفه[٧] أبو بكر

(١) في (م): كونا.

(٢) في (ف) و(ق): واذكراني، وفي (ظ): وسبحاني واذكراني.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٣١). وفي إسناده عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٤/ ٩٧ : وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الإثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧-٣٤٨ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨٣ عن أبي بكر ﷺ، وهي عن ابن مسعود في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ .

(٧) في (م): خالف.

الصدِّيقُ، فقرأ: وجاءت سكرة الحقِّ بالموت. فاحتجَّ عليه بأنَّ أبا بكر رُويت عنه روايتان: إحداهما موافقةٌ للمصحف، فعليها العمل، والأخرى مرفوضةٌ، تجري مَجرى النسيان منه إنْ كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث.

قال أبو بكر الأنباريّ: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن مسروق قال: لما احتُضِرَ أبو بكرٍ أرسلَ إلى عائشةَ، فلما دخلتْ عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ[١]

فقال لها أبو بكر: هلَّا قُلتِ كما قال الله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث[٢]. والسَّكْرة واحدة السَّكَرات.

وفي الصحيح عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه رَكوةٌ ـ أو عُلْبةٌ ـ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسحُ بهما وجهه ويقول: «لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالتْ يده. خرَّجه البخاري[٣].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العبدَ الصالح لَيُعالجُ الموتَ وسكراته، وإنَّ مفاصله لَيُسلِّمُ بعضُها على بعض، تقول: السَّلامُ عليك، تفارقني وأفارقُك إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) هو عجز بيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥٠ ، وفيه: النفس. بدل: يوماً. وصدره: أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى

والحشرجة: هي الغرغرة عند الموت وتردد النفَس. الصحاح (حشرج).

(٢) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ١٩٥ ، وأحمد في الزهد ص١٣٦ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي مولى الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في صحيحه (٤٤٤٩)، وسلف ٧/ ٤٠٨ .

(٤) لم نقف عليه.

وقال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين، ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة. يعني: سَكَرات الموت.

وروي: إنَّ الموتَ أشدُّ مَن ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض(١).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرةُ الموت: ذلك ما كنتَ تفرُّ منه، وتميلُ عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحيدُ حُيُوداً وحَيْدَة وحَيْدُودَةً: مال عنه وعَدَل، وأصلُه: حَيَدَودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعْلُولٌ غير صَعْفُوق(٢). وتقولُ في الإخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً: إذا ملتَ عنه(٣)؛ قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبتَهُ وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ(٤)

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخةُ الآخرة للبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾: الذي وعده الله للكفار أنْ يعذِّبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى. والحمد لله(٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ اختُلِف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ من نفسه. وقال الضَّحَّاك: السائقُ من

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/٤١٦ من قول شداد بن أوس.
(٢) الصحاح (حيد)، والصَّعفُوق اللئيم.
(٣) تفسير البغوي ٤/٢٢٣.
(٤) سلف ١٣/٣١٢.
(٥) ٨/٤٣٠-٤٣١.

الملائكة، والشهيدُ[(١)] من أنفسهم؛ الأيدي والأرجل[(٢)]؛ رواه العوفيُّ عن ابن عباس[(٣)].

وقال أبو هريرة: السائقُ: الملَك، والشهيدُ: العمل[(٤)].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: سائقٌ يسوقها، وشاهدٌ يشهدُ عليها بعملها[(٥)].

وقال ابنُ مسلم: السائقُ قرينها من الشياطين؛ سُمِّي سائقاً؛ لأنَّه يتبُعها وإنْ لم يحثَّها[(٦)].

وقال مجاهد: السائقُ والشهيدُ ملَكان[(٧)].

وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ سائقٌ: مَلَكٌ يسوقُها إلى أمر الله، وشهيدٌ: ملكٌ[(٨)] يشهدُ عليها بعملها[(٩)].

قلت: هذا أصحُّ؛ فإنَّ في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ابنَ آدم لفي غفلة ممَّا[(١٠)] خلقَه الله عزَّ وجلَّ له، إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَهُ قال للملَك: اكتبْ رزقَه وأثرَه وأجلَه، واكتب[(١١)] شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك المَلَك، ويَبعثُ الله ملكا آخر فيحفظه حتى يُدْرِك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان

(١) من قوله: من نفسه. إلى هذا الموضع ساقط من (م).

(٢) أخرج القولين الطبريُّ ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٢٢٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦١ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣ دون نسبة.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٠ .

(٨) لفظة: ملك. ليست في (م).

(٩) أخرجه الطبري ٢١/٤٢٩ .

(١٠) في (م): عما.

(١١) في (م): واكتبه.

حسناتِه وسيئاتِه، فإذا جاءه الموتُ ارتفعَ ذلك الملَكان، ثم جاءَه[١] ملك الموت عليه السلام فيقبِضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حفرتَه ردَّ الروح في جسده، ثم يرتفعُ ملك الموت، ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحطَّ عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائقٌ، والآخر شهيد، ثم قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] قال: «حالاً بعد حال»، ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامكم أمراً عظيماً، فاستعينوا بالله العظيم».

خرَّجه أبو نعيم الحافظ من حديث [أبي] جعفر محمد[٢] بن علي، عن جابر. وقال فيه هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [أبي] جعفر، وحديثُ جابرٍ تفرَّد به عنه جابر الْجُعفيُّ وعنه المفضَّل[٣].

ثم في الآية قولان: أحدُهما: أنَّها عامةٌ في المسلم والكافر؛ وهو قول الجمهور. الثاني: أنَّها خاصةٌ في الكافر؛ قاله الضحاك[٤].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ابنُ زيد: المراد به النبيُّ ﷺ؛ أي: لقد كنتَ يا محمدُ في غفلةٍ من الرسالة في قريش في جاهليتهم[٥].

وقال ابن عباس والضحاك: إنَّ المرادَ به المشركون، أي: كانوا في غفلةٍ من عواقب أمورهم[٦]. وقال أكثر المفسرين: إنَّ المرادَ به البرُّ والفاجر. وهو

---

(١) في (م): جاء.

(٢) في النسخ: من حديث جعفر بن محمد بن علي. وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠، وأخرجه أيضاً أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٣٦١ والدر المنثور ٦/ ١٠٦.
قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٤، وضعَّفه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٢.

(٦) أخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ٢١/ ٤٣٤.

اختيار الطبري[١].

وقيل: أي لقد كنتَ أيُّها الإنسان في غفلةٍ عن أنَّ كلَّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد؛ لأنَّ هذا لا يُعرف إلا بالنصوص الإلهية[٢].

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها: إذا كان في بطن أمه فوُلد؛ قاله السدِّيّ. الثاني: إذا كان في القبر فنُشر. وهذا معنى قول ابن عباس. الثالث: وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. الرابع: أنه نزول الوحي وتحمُّل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد[٣].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: يراد به بصرُ القلب، كما يقال: هو بصيرٌ بالفقه؛ فبصرُ القلب وبصيرته تبصرتُه شواهدَ الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تُبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصرُ العين وهو الظاهر[٤]، أي: بصر عينك اليوم حديد، أي: قويٌّ نافذٌ يرى ما كان محجوباً عنك.

قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك[٥]. وقاله الضَّحَّاك.

وقيل: يعاينُ ما يصيرُ إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس[٦]. وقيل: يعني أنَّ الكافر يُحشر وبصره حديد، ثم يزرقُّ ويَعْمَى. وقُرِئ: «لَقَدْ كُنْتِ»، «عَنْكِ»، «فَبَصَرُكِ»؛ بالكسر على خطاب النفس[٧].

---

(١) في تفسيره ٢١/ ٤٣٣ . واختاره أيضاً ابن عطية في المحرر ٥/ ١٦٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ١٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الملَك الموكَّل به في قول الحسن وقتادة والضَّحَّاك[١]. ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي من كتابة[٢] عمله مُعَدٌّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول: هذا الذي وكَّلتني به من بني آدم قد أحضرتُه، وأحضرتُ ديوان عمله[٣]. وقيل: المعنى: هذا ما عندي من العذاب حاضر.

وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قُيِّض له من الشياطين[٤]. وقال ابنُ زيد في رواية ابن وهب عنه: إنَّه قرينُه من الإنس[٥].

فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ قال الخليلُ والأخفش: هذا كلامُ العرب الصحيح[٦]؛ أنْ تُخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحَلاها وازجُراها، وخُذاه وأطلقاه؛ للواحد.

قال الفرَّاء[٧]: تقول للواحد: قُوما عنَّا، وأصلُ ذلك أنَّ أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلامُ الرجل على صاحبيه، ومنه قولُهم للواحد في الشعر: خليليَّ[٨]، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ دون ذكر الضحاك.

(٢) في (ظ): كتاب.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٦) في (م): الفصيح.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٧٨ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣-٢٢٤ .

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ[١]

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[٢]

وقال آخر:

فإنْ تَزْجُرانِي يا ابنَ عَفَّانَ أنْزَجِرْ وإنْ تَدَعانِي[٣] أحْمِ عِرْضًا مُمنَّعَا[٤]

وقيل: جاء كذلك؛ لأنَّ القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازنيُّ: قوله: «أَلْقِيَا» يدلُّ على أَلْقِ أَلْقِ[٥].

وقال المبرد: هي تثنيةٌ على التوكيد، المعنى: أَلْقِ أَلْقِ، فناب «أَلْقِيَا» مناب التكرار[٦].

ويجوز أن يكون «أَلْقِيَا» تثنيةً على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطبُ به الملَكين. وقيل: هو مخاطبةٌ للسائق والحافظ[٧].

وقيل: إنَّ الأصل: أَلْقِيَنْ؛ بالنون الخفيفة؛ تُقلب في الوقف ألفاً؛ فَحُمِل الوصلُ على الوقف[٨]. وقرأ الحسنُ: «أَلْقِيَنْ» بالنون الخفيفة[٩]، نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥].

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة[١٠]. وقال بعضهم: العنيدُ:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٤١ . واللبانات. جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨ ، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) في النسخ الخطية: تدعواني، والمثبت من المصادر.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٣٧ .

(٥) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٨ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤ .

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ ، والقول الأخير اختاره الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤٥ .

(٨) الكشاف للزمخشري ٤/ ٨ .

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٤ .

(١٠) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

المعرض عن الحق. يقال: عَنَد يَعنِد ـ بالكسر ـ عُنُوداً، أي: خالف وردَّ الحقَّ وهو يعرفه، فهو عَنِيد وعانِد، وجمع العَنِيد عُنُد[1]، مثل: رغِيف ورُغُف.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، وكلَّ حقٍّ واجب[2].

﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره، ظالم، ﴿مُّرِيبٍ﴾: شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة[3]. يقال: أراب الرجلُ فهو مُرِيب: إذا جاء بالريبة[4]؛ وهو المشرك[5]. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنَّه كان يمنعُ بني أخيه من الإسلام[6].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تأكيدٌ للأمر الأول.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني: الشيطان الذي قُيِّضَ لهذا الكافر العنيد؛ تبرَّأ منه وكذَّبه.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ وكان طاغياً باختياره، وإنما دعوتُه فاستجابَ لي. وقرينُه هنا هو شيطانُه بغير اختلاف. حكاه المهدويُّ.

وحكى الثعلبيُّ: قال ابنُ عباس ومقاتل: قرينُه المَلَك؛ وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنَّه أعجلني، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما أعجلتُه. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر: ربِّ إنَّه زاد عليَّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما زدتُ عليه في الكتابة؛ فحينئذٍ يقولُ

---

(١) الصحاح (عند).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢١/ ٤٣٩ .

(٤) الصحاح (ريب).

(٥) في (ظ): وهذا للمشرك، وفي (ق): وهذا المشرك.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ ، ونسبه للضحاك.

الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم من الشياطين[١]. قال القشيريّ: وهذا يدلُّ على أنَّ القرينَ الشيطان.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: أرسلتُ الرسل. وقيل: هذا خطابٌ لكلِّ من اختصم. وقيل: هو للاثنين، وجاء بلفظ الجمع.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قيل: هو قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقال الفرَّاء[٢]. ما يكذَّب عندي، أي: ما يُزاد في القول ولا يُنْقص؛ لعلمي بالغيب.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ما أنا بمعذِّبٍ من لم يُجرم؛ قاله ابنُ عباس[٣]. وقد مضى القولُ في معناه في «الحج» وغيرها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر: «يَوْمَ يَقُولُ» بالياء اعتباراً بقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى[٥]، وهي نون التعظيم[٦]. وقرأ الحسن: «يَوْمَ أَقُولُ». وعن ابن مسعود

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ .

(٤) ١٤/ ٣٢٩ ، وعند تفسير الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٥) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٦) في (م): العظمة.

وغيره: «يَوْمَ يُقَالُ»[١]. وانتصب «يَوْم» على معنى: ما يبدَّل القولُ لديَّ يومَ. وقيل: بفعلٍ مقدَّرٍ معناه: وأنذرهم يومَ نَقُولُ لِجهنَّمَ هل امتلأْتِ[٢]، لِما سبقَ من وعده إيَّاها أنَّه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده[٣]، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده.

«وتَقُولُ» جهنم: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي: ما بقي فيَّ موضعٌ للزيادة؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «هل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ من رَبْعٍ أو منزل»[٤] أي: ما ترك؛ فمعنى الكلام: الجحد. ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاستزادة[٥]؛ أي: هل من مزيد فأُزاد[٦]؟ وإنَّما صَلَح هذا للوجهين[٧]؛ لأنَّ في الاستفهام ضرباً من الجَحد.

وقيل: ليس ثَمَّ قولٌ، وإنَّما هو على طريق المثل، أي: إنَّها فيما يَظهرُ من حالها، بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأَ الحوضُ وقال قَطْني   مَهْلاً رويداً قد ملأتَ بطني[٨]

وهذا تفسيرُ مجاهد وغيره؛ أي: هل فيَّ من مسلك، قد امتلأت[٩]. وقيل: يُنطِقُ الله النار حتى تقول هذا؛ كما تنطق الجوارح. وهذا أصحُّ على ما بيَّنَّاه في سورة الفرقان[١٠].

---

(١) قراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٨٤ ، وزاد نسبتها فيه للأعمش والحسن.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨) من حديث أسامة بن زيد ﷺ، وعقيل هو ابن أبي طالب.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٥ .

(٦) في (م) فأزداد.

(٧) في (ظ) هذين الوجهين.

(٨) البيت في الصحاح (قطط)، وسلف ٢/ ٢٥٥ .

(٩) تفسير مجاهد ٢/ ٦١٢ .

(١٠) ١٥/ ٣٧٨ .

وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي[١] عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قَدَمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ[٢]، بعزَّتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فَضلٌ، حتى يُنشئَ الله لها خَلقاً، فيُسكِنَهُم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم.

وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضعَ الله عليها رِجْله تقول[٣]: قَطْ قَطْ. فهنالَك تمتلئ. ويُزوى[٤] بعضُها إلى بعض، فلا يظلمُ الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإنَّ الله ينشئُ لها خلقاً»[٥].

قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا[٦]: قومٌ يقدِّمهم الله إلى النار، قد سبق في علمه أنَّهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل؛ وهو العددُ الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيتُ رِجْلاً من النَّاس، ورِجْلاً من جَراد[٧]، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من النَّاس وانْزَوَى إليهم من الحيِّ اليمانينَ أرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ على ابْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ[٨]

ويبيِّنُ هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما في النار بيتٌ، ولا

(١) صحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨): (٣٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وهو عند أحمد (١٣٤٥٧)، وسلف عند تفسير الآيتين (٤٩ - ٥٠) من سورة الشورى.

(٢) قط بمعنى حسب، فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تكسر، وتلحقها نون الوقاية إذا أضيفت، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء. المفهم ٧/ ١٩٦ .

(٣) في (م) و(ظ): يقول لها، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في (م) و(ظ) وينزوي.

(٥) أخرجه أحمد (٨١٦٤)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): (٣٦). وفي البخاري ومسلم تكرار لفظة: قط. ثلاث مرات.

(٦) بعدها في (م) لفظة: فهم.

(٧) ينظر مشكل الحديث لابن فورك ص١٢٦ ، ١٣٠ .

(٨) ذكر البيت الأول منهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .

سلسلةٌ، ولا مِقمَع، ولا تابوت، إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلٌّ واحدٍ من الخزنة ينتظرُ صاحبَه الذي قد عرفَ اسمه وصفته، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمر[١] به وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحد، قال الخَزَنةُ: قَطْ قَطْ، حسبُنا حسبُنا، أي: اكتفينا اكتفينا، وحينئذٍ تنزوي جهنمُ على من فيها وتنطبق، إذ لم يبق أحدٌ ينتظر. فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهدُ لهذا التأويل قولُه في نفس الحديث[٢]: «ولا يزالُ في الجنَّة فضلٌ حتى ينشئَ اللهُ لها خلقاً، فيسكنَهم فضل الجنة».

وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهَّدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى، والحمدُ لله.

وقال النضرُ بن شُمَيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدمَهُ» أي: مَن سَبَقَ في علمه أنَّه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قُرِّبت منهم. وقيل: هذا قبلَ الدخول في الدنيا؛ أي: قُرِّبت من قلوبهم، حين قيل لهم: اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول؛ قُرِّبتْ لهم مواضعُهم فيها فلا تبعد. «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي: منهم، وهذا تأكيد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ويُقال لهم: هذا الجزاء الذي وُعِدتم في الدنيا على ألسنة الرسل.

وقراءة العامة: «تُوعَدُونَ»، بالتاء على الخطاب. وقرأ ابنُ كثير بالياء على الخبر[٣]؛ لأنَّه أتى بعد ذكر المتقين.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوَّاب، أي: رَجَّاع إلى الله عن المعاصي، يذنب[٤] ثم يرجع، ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضَّحَّاكُ وغيره. وقال ابنُ عباس وعطاء:

(١) في (ظ): فإذا استوفى ما أمر، وفي (ف) و(ق): فإذا استوفى منهم ما أمر. والمثبت من (م)، وهو الموافق للمفهم ٧/ ١٩٥-١٩٦ . والكلام منه.

(٢) يعني حديثَ أنس ﷺ السالف قريباً.

(٣) التيسير ص٢٠٢ .

(٤) قوله: يذنب. ليس في (م).

الأوَّابُ المسبِّح؛ من قوله: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[١] [سبأ: ١٠]. وقال الحَكَم بن عُتيبة: هو الذاكرُ لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبيُّ ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبَه في الخلوة، فيستغفر الله منها[٢]. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه[٣]. وعنه قال: كنا نحدَّث أنَّ الأوَّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال: سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبتُ في مجلسي هذا[٤].

وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله له ما كان في ذلك المجلس»[٥]. وهكذا كان النبيُّ ﷺ يقول.

وقال بعض العلماء: أنا أُحبُّ أن أقول: أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحبُّ أنْ أقول: وأتوبُ إليك، إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان، واتِّباعُ الحديث أولى.

وقال أبو بكر الورَّاق: هو المتوكِّل على الله في السرَّاء والضرَّاء. وقال القاسم: هو الذي لا يَشتغلُ إلَّا بالله عزَّ وجلَّ.

﴿حَفِيظٌ﴾ قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى رجع[٦] عنها. وقال قتادة: حفيظٌ لِمَا استودَعه الله من حقِّه ونعمته وأُتَمنه عليه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢١/ ٤٥٠.

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٤٥٠-٤٥١.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٧) من حديث أبي هريرة. وسيرد ص٥٤٢ من هذا الجزء.

(٦) في (م): يرجع.

(٧) تفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢.

وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظُ لأمر الله(١).

مجاهد: هو الحافظ لِحقِّ الله تعالى بالاعتراف، ولنعمه بالشكر.

قال الضَّحَّاك: هو الحافظُ لوصيَّة الله تعالى بالقبول.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعاتٍ من أوَّل النهار، كان أوَّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي(٢).

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «مَنْ» في محل خفضٍ على البدل من قوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، أو في موضع الصفة لـ «أوّابٍ». ويجوزُ الرفع على الاستئناف، والخبر «ادْخُلُوها» على تقدير حذف جواب الشرط، والتقدير فيقال لهم: «ادْخُلُوهَا»(٣). والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدِّي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق الباب(٤).

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: مقبلٍ على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورَّاق: علامةُ المنيب أنْ يكون عارفاً لحرمته، موالياً له، متواضعاً لجلاله، تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أنْ يكون القلبُ المنيبُ القلبَ السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] على ما تقدَّم؛ والله أعلم.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: بسلامةٍ من العذاب. وقيل: بسلامٍ من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامةٍ من زوال النِّعم(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٣-٣٥٤، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٩ عن البزار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٠-٢٣١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

وقال: «ادْخُلُوهَا» وفي أوَّل الكلام: «مَنْ خَشِيَ»؛ لأنَّ «مَنْ» تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني: ما تشتهي[١] أنفسهم وتلذُّ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم ممَّا لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيدُ: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف[٢].

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعةٍ إلى النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: «الزيادةُ النظر إلى وجه الله الكريم»[٣].

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: أخبرنا المسعوديُّ، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يَبرزُ لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة، في كثيبٍ من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. قال ابنُ المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم[٤] إلى الجمعة[٥] في الدنيا، وزاد: «فيحدثُ الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك»[٦].

قال يحيى: وسمعت غيرَ المسعودي يزيد فيه: وهو[٧] قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) في (م) و(ف) و(ق): تشتهيه. والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٥/ ٣٥٤ . والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣ ، وفيه سَلْم بن سالم البلخي ، وهو ضعيف، ونوح ابن أبي مريم، وهو كذاب. ويغني عنه حديث صهيب ﷺ عند مسلم (١٨١): «إذا دخل أهل الجنة الجنة. . .» وفي آخره: «فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وسلف الحديثان ١٠/ ٤٨٢-٤٨٣ .

(٤) في (م) و(ق): لمسارعتهم. ولم تجود في (ف).

(٥) في النسخ عدا (ق): الجمع.

(٦) هو عند ابن المبارك في الزهد (٤٣٦ ـ زوائد نعيم). وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير (٩١٦٩) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٦) من قول عبد الله بن عتبة. قال ابن فورك في مشكل الحديث: تفرد به المنهال بن عمرو وهو ضعيف. اهـ. قلنا والمسعودي اختلط بأخرة. الميزان ٢/ ٥٧٤ .

(٧) لفظة: وهو. ليست في (ف) و(م).

قلت: قوله: «في كَثِيب» يريدُ أهلَ الجنَّة، أي: وهُم على كثيب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنة ينظرون إلى ربِّهم في كلِّ يوم جمعة، على كَثِيبٍ من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

وقيل: إنَّ المزيدَ ما يزوَّجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدريّ مرفوعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمَّةٍ هم أشدُّ منهم بطشاً وقوَّة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: ساروا فيها طلباً للمهرب[٣]. وقيل: أثَّروا في البلاد؛ قاله ابنُ عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا[٤]. وقال النضر ابن شميل: دَوَّروا.

وقال قتادة: طَوَّفوا[٥]. وقال المؤرِّج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس[٦]:

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟ وقيل: طوَّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. قال الحارث بن حِلِّزة:

---

(١) ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢) وأخرجه أحمد (١١٧١٥) مطولاً.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) أخرج قولي ابن عباس ومجاهد الطبريُّ ٢١/ ٤٦٠.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٥٥.

(٦) ديوانه ص٩٩، وسلف ٥/ ٥٧.

نَـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ت وجـالـوا فـي الأرض كُـلَّ مـجـالِ[١]

وقرأ الحسنُ وأبو العالية: «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها[٢]. والنَّقْب: هو الخرقُ والدخول في الشيء. وقيل: النقْبُ الطريقُ في الجبل، وكذلك المَنْقَبُ والمَنْقَبة؛ عن ابن السكِّيت. ونَقَبَ الجدارَ نَقْباً، واسم تلك النَّقْبة نَقْبٌ أيضاً[٣]، وجمع النَّقْب النُّقُوب، أي: خرقوا البلاد وساروا في نُقوبها. وقيل: أَثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقُب.

وقرأ السُّلَميُّ ويحيى بن يَعْمَر: «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر[٤]؛ للتهديد[٥] والوعيد، أي: طَوِّفوا البلادَ وسيروا فيها فانظروا هَل مِن الموت مَحِيصٌ أو مهرب؟[٦] ذكره الثعلبي.

وحكى القشيريُّ: «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف[٧]، أي: أَكثَروا السيرَ فيها، حتى نَقِبت دوابُّهم.

الجوهريّ: ونَقِب البعيرُ بالكسر: إذا رَقَّتْ أخفافُه، وأنقبَ الرجلُ، إذا نَقِبَ بعيرُه، ونَقِبَ الخُفُّ الملبوسُ، أي: تخرَّق[٨].

والمَحِيصُ مصدرُ حاص عنه يَحِيص حَيْصاً، وحُيوصًا، ومَحِيصاً، ومَحاصاً، وحَيَصاناً، أي: عَدلَ وحَادَ. يقال: ما عنه مَحِيص، أي: مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ. والانحياصُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٧ .

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص١٤٤ لابن عباس وعبيد عن أبي عمرو.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٥ عن يحيى بن يعمر.

(٥) في (ظ) و(م): بالتهديد.

(٦) في (ظ) و(م): ومهرب.

(٧) وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١.

(٨) الصحاح (نقب).

مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ، وللأعداء انهزموا[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرةٌ وموعظةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقلٌ يتدبَّر به؛ فكنَى بالقلب عن العقل؛ لأنَّه موضِعه؛ قال معناه مجاهدٌ وغيره. وقيل: لمن كان له حياةٌ ونفسٌ مميِّزةٌ، فعبَّر عن النفس الحيَّة بالقلب؛ لأنَّه وطَنُها ومعدِنُ حياتها؛ كما قال امرؤ القيس[(٢)]:

أغَرَّكِ منِّي أنَّ حُبَّكِ قاتلي وأنَّكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ

وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

وقال يحيى بن معاذ: القلبُ قلبان؛ قلبٌ محتشٍ بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة، لم يَدْرِ ما يصنع، وقلبٌ قد احتشى بأهوال الآخرة، حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الدنيا، لم يَدْرِ ما يصنع، لذهاب قلبه في الآخرة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استمعَ القرآن. تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعك، أي: استمع[(٣)]. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته[(٤)].

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب؛ قال الزَّجَّاج[(٥)]: أي: قلبه حاضرٌ فيما يسمع. وقال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب[(٦)].

ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنَّها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنَّها في أهل القرآن خاصَّة[(٧)].

---

(١) الصحاح (حيص).

(٢) في ديوانه ص١٣، والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٩.

(٤) ١٤/ ٢٦.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٤٩.

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ دون ذكر مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[١] وغيرها. واللُّغوبُ: التعبُ والإعياء، تقول منه: لَغَب يَلْغُب بالضم لُغُوباً، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوباً، لغةٌ ضعيفةٌ فيه. وألغبته أنا، أي: أنصبته[٢].

قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أنَّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أوَّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحةً، فأكذبهم الله تعالى في ذلك[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ أمرَه بالصبر على ما يقوله المشركون، أي: هَوِّنْ أمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال؛ فهي منسوخة. وقيل: هو ثابتٌ للنبيِّ ﷺ وأمته. وقيل: معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إنَّ الله استراح يوم السبت[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد به الصلواتِ الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس: صلاةُ الصبح، وقبل الغروب: صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً[٥]؛ قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا

(١) ٩/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الصحاح (لغب).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٤) ينظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٠-٢١، والكشاف ٤/ ١٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

القمر، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. متفق عليه، واللفظ لمسلم(١).

وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني: صلاة العشاءين(٢).

وقيل: المراد تسبيحُه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانيُّ وأبو الأحوص(٣).

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال: ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب(٤).

وقال ثُمامة بن عبد الله بنِ أنس(٥): كان ذوو الألباب من أصحاب محمدٍ ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة، فإذا أذَّن المؤذن لصلاة المغرب، ابتدروا السَّواريَ فركعوا ركعتين، حتى إنَّ الرجل الغريبَ ليدخلُ المسجدَ فيحسب أنَّ الصلاةَ قد صُلِّيت مِن كثرة من يصلِّيهما(٦).

وقال قتادة: ما أدركتُ أحداً يُصلِّي الركعتينِ قبل المغرب(٧) إلَّا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمي.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣). وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٨ .

(٣) ذكره عن أبي الأحوص الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ .

(٥) ابن مالك الأنصاري، روى عن جده أنس بن مالك والبراء بن عازب رضي الله عنهما، وكان من العلماء الصادقين، ولي قضاء البصرة، وكان يقول: صحبت جدي ثلاثين سنة. السير ٥/ ٢٠٤ . والأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٩٨٢).

(٦) صحيح مسلم (٨٣٧)، والقطعة الأولى منه عند أحمد (١٣٩٨٣)، والبخاري (٥٠٣) (٦٢٥).

(٧) قوله: قبل المغرب ليس في (م)، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كلّه، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخِرة، قاله ابن زيد[١].

قال ابن العربي: مَن قال: إنه التسبيح في الليل، فيعضده الصحيح: «مَنْ تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله[٢]». وأما مَن قال: إنها الصلاة بالليل، فإنَّ الصلاةَ تسمَّى تسبيحاً لِمَا فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وأما مَن قال: إنها صلاةُ الفجر والعشاء، فلأنَّهما من صلاة الليل، والعشاءُ أوضحه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر وعليٌّ وأبو هريرة والحسن بن عليٍّ والحسن البصريُّ والنَّخَعيُّ والشعبيُّ والأوزاعيُّ والزُّهريُّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقد رفعه ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ركعتان بعد المغرب أدبارُ السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بِتُّ ليلةً عند النبيِّ ﷺ، فصلَّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابن عباس، ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم، وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في (ف) و(م): العلي العظيم. وتمام الحديث كما في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٥: كفر عنه وغفر له. وبنحوه أخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وسيرد ص٥٤٣ من هذا الجزء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٧، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٩-٤٧٢، ٦٠٨-٦١٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٢-٢٣٣، والنكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٥)، وسيرد ص٥٤٦ من هذا الجزء.

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلَّم، كتبت صلاتُه في عِلِّيين»[(١)]. قال أنس: فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: ووقتها ما لم يَغب الشفقُ الأحمر[(٢)].

وعن ابن عباس أيضاً: هو الوتر[(٣)]. وقال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات[(٤)]، ركعتان بعد كلِّ صلاةٍ مكتوبة، قال النَّحاس: والظاهرُ يدلُّ على هذا، إلَّا أنَّ الأَولى اتِّباع الأكثر، وهو صحيحٌ عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ[(٥)].

وقال أبو الأحوص: هو التسبيحُ في أدبار السجود. قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دُبُر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، اللهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[(٦)].

وقيل: إنه منسوخٌ بالفرائض، فلا يجبُ على أحدٍ إلَّا خمسُ صلوات، نَقَلَ ذلك الجماعة[(٧)].

الخامسة: قرأ نافعٌ وابن كثير وحمزة: «وَإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر، مِن: أدبر الشيءُ إدباراً: إذا وَلَّى. الباقون بفتحها، جمع دُبُر[(٨)]. وهي قراءة

(١) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: هذا موضوع، قاله الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩، وقال في اللسان ٢/ ٢٤٨: خبر باطل.

(٢) قوله: الأحمر، من (م).

(٣) الكشاف ٤/ ١٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٥) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٣-٢٤.

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٧١٦، والحديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٧) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٤.

(٨) السبعة ص٦٠٧، والتيسير ص٢٠٢.

عليٍّ وابنِ عباس، ومثالُها: طُنُب وأطناب، أو دُبْر، كَقُفْل وأقفال. وقد استعملوه ظرفاً، نحو: جئتك في دبر الصلاة، وفي أدبار الصلاة.

ولا خلاف في آخر «والطُّورِ»: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الآية: ٤٩] أنه بالكسر مصدر[١]، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقُّ من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهي صيحةُ القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل.

الزمخشري[٢]: وقيل: إسرافيلُ ينفخ، وجبريلُ ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمُّوا إلى الحساب، فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداءَ الكفار بالويل والثُّبور من مكان قريب، أي: يسمعُ الجميع فلا يَبْعُدُ أحدٌ عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن، فكأنَّما ينادي في آذانهم. وقيل: المكانُ القريب: صخرةُ بيت المقدس. ويقال: إنَّها وسطُ الأرض، وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، وذكر الأوَّلَ القشيريُّ والزمخشري[٢]، والثانيَ الماوردي[٣]. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة، فينادي بالحشر: أيتها العظامُ البالية، والأوصالُ المتقطِّعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض ربِّ العالمين. قال قتادة:

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٣.

(٢) في الكشاف ٤/ ١٢.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٥.

هو إسرافيل صاحب الصُّور.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: صيحةَ البعث. ومعنى «الخُرُوج» الاجتماعُ إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾: نميتُ الأحياءَ ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصُّور؛ إلى بيت المقدس ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّن سهل. وقرأ الكوفيون: «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء «المنادي» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافعٌ وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذفَ الباقون في الحالين[(١)].

قلت: وقد زادت السنَّة هذه الآية بياناً، فروى الترمذيُّ[(٢)] عن معاويةَ بن حَيْدة، عن النبيِّ ﷺ في حديث ذَكَره، قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: «هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة؛ على أفواهكم الفِدَام، تُوفُون سبعين أمة، أنتم خيرُهم وأكرمهم على الله، وإنَّ أوَّلَ ما يُعْرِب عن أحدكم فَخِذُه»[(٣)] في رواية أخرى[(٤)]: «فَخِذُه وكفُّه».

وخرَّج عليُّ بن معبد عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره: ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل: «انفخْ نفخةَ البعث، فينفخُ، فتخرجُ الأرواحُ كأمثال

(١) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ ، والنشر ٢/ ٣٧٦ . ووافق الكوفيين في تخفيف الشين من قوله: «تشقق» أبو عمرو البصري من السبعة.

(٢) في (ق): المهدوي.

(٣) أخرجه الترمذي مفرقاً (٢٤٢٤)، (٣٠٠١)، (٣١٤٣). وأخرجه بلفظ المصنف النسائي في الكبرى (١١٣٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٠٠١١) بنحوه. والفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم). وسلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة يس.

(٤) أخرجها أحمد (٢٠٠٤٣).

النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي وجلالي لَيَرجعنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، ثم تدخلُ في الخياشيم، فتمشي في الأجساد مشيَ السُّمِّ في اللَّديغ، ثم تنشقُّ الأرضُ عنكم، وأنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فتخرجون منها شباباً كلُّكم أبناء ثلاثٍ وثلاثين، واللسانُ يومئذٍ بالسُّريانيَّة» وذَكَر الحديث[1]، وقد ذكرنا جميع هذا وغيرَه في «التذكرة»[2] مستوفى، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبك وشتمك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ أي: بمسلَّط تُجْبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخةً بالأمر بالقتال[3].

والجبَّار من الجبريَّة والتسلُّط، إذ لا يقال جبَّارٌ بمعنى مُجبِر، كما لا يقال: خرَّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري.

النحاس[4]: وقيل: معنى جبَّار: لست تُجبِرهم، وهو خطأ؛ لأنه لا يكون فَعَّال مِن أفعل. وحكى الثعلبيّ: وقال ثعلب: قد جاءت أحرف: فَعَّال بمعنى مُفعِل، وهي شاذَّة، جبَّار بمعنى مُجبِر، ودرَّاك بمعنى مُدرِك، وسَرَّاع بمعنى مُسرِع، وبَكَّاء بمعنى مُبكٍ، وعدَّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قُرئ: «وما أهديكم إلا سبيلَ الرَّشَّاد»[5] [غافر: ٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد، وهو موسى.

وقيل: هو الله عزَّ وجلَّ[6].

---

(١) لم نقف على رواية علي بن معبد، وأخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦ المعجم الكبير ٢٥/ ٢٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨) عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٦٩) عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن كثير في تفسير سورة الأنعام الآية (٧٣): هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً.

(٢) ص٢٠٢ ، ٢٠٧ فما بعد.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٢ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣٤ .

(٥) هي قراءة معاذ بن جبل ﷺ كما في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ : يعني بربّ، قاله الضحاك؛ لأن الجبار هو الله تعالى سلطانه.

وكذلك قرئ: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» [الكهف:٧٩] يعني: ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجيّ: تقول العرب: سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط.

وقيل: «بِجَبَّارٍ»: بمسيطر كما في الغاشية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الآية:٢٢].

وقال الفرَّاء[١]: سمعتُ من العرب مَن يقول: جَبَره على الأمر، أي: قهره، فالجبَّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبَّار من قولهم: جبرته على الأمر، أي: أجبرته. وهي لغة كنانية، وهما لغتان.

الجوهري[٢]: وأجبرته على الأمر: أكرهته عليه، وأجبرته ـ أيضاً ـ نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرتُه، إذا نسبتَه إلى الكفر.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددتُه لمن عصاني من العذاب[٣]؛ فالوعيد العذاب، والوعد الثواب، قال الشاعر[٤]:

وإنــيَ إن[٥] أوْعَــدْتُــهُ أو وَعَــدْتُــهُ لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

وكان قتادةُ يقول: اللَّهمَّ اجعلْنا ممن يخافُ وعيدَكَ ويرجو موعدَكَ[٦].

وأثبت الياءَ في «وَعِيدِي» يعقوبُ في الحالين، وأثبتها ورشٌ في الوصلِ دون الوقف، وحذفَ الباقون في الحالين[٧]. والله أعلم.

تَّم تفسيرُ سورة «ق» والحمدُ لله.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٨١.

(٢) في الصحاح (جبر).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٨.

(٤) هو عامر بن الطفيل، والبيت في ديوانه ص٥٨.

(٥) المثبت من (ق)، وهو الموافق للديوان وفي غير (ق): وإن. وسلف ٥/ ٤٧٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٩.

(٧) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦.

سُورَةُ قٓ

مَكِّيَّةٌ، وهي خمسٌ وأربعونَ آيةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ الكَلامُ فيه كما مَرَّ في: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١].

والمَجِيدُ: ذو المجدِ والشَّرفِ على سائرِ الكُتبِ، أو لأنَّه كلامُ المَجيدِ، أو لأنَّ مَن عَلِمَ مَعانيَهُ وامتثَلَ أحكامَهُ مَجُدَ.

(٢) ـ ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إنكارٌ لتَعَجُّبِهم مـمَّا ليسَ بعَجَبٍ، وهو أَنْ يُنذِرَهُم أحدٌ مِن جِنسِهِم أو مِن أَبناءِ جِلدَتِهِم.

﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ حكايةٌ لتَعَجُّبِهم.

و(هـذا) إشارةٌ إلى اختيارِ اللهِ مُحمَّدًا للرِّسالةِ.

وإضـمارُ ذكرِهِم ثمَّ إظهارُهُ للإشعارِ بتَعنُّتِهِم لهذا[١] المقالِ ثمَّ التَّسجيلِ على كُفرِهِم بذلك.

أو عطفٌ لتَعجُّبِهم مِن البَعثِ على تَعجُّبِهم مِن البعثَةِ، والمُبالغَةُ فيه

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بتعيُّنهم لهذا».

بوَضعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ ضَميرِهِم وحكايةِ تعجُّبِهم مبهمًا إن كانَت الإشارةُ إلى مُبهَمٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ.

أو مجمَلًا إن كانَت الإشارةُ إلى مَخُوفٍ دلَّ عليه ﴿مُّنذِرٌ﴾ ثمَّ تفسيرُهُ.

أو تَفصيلُهُ لأنَّه أدخَلُ في الإنكارِ، إذ الأوَّلُ استبعادٌ لأَنْ يفضُلَ عليهِم مثلُهُم[1]، والثَّاني استِقصَارٌ لقُدرَةِ اللهِ عمَّا هو أهوَنُ ممَّا يُشاهِدُونَ[2] من صُنعِه.

(٣) ـ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ أي: أنُرجِعُ إذا متنَا وصِرنَا تُرابًا، ويدلُّ على المحذوفِ قولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ أي: بعيدٌ عَن الوهمِ أو العادةِ أو الإمكانِ.

وقيل: الرَّجْعُ بمعنى المَرجوعِ.

(٤) ـ ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ ما تأكلُ مِن أجسادِ مَوتاهُم، وهو رَدٌّ لاستبعادِهِم بإزاحَةِ ما هو الأَصلُ فيه.

وقيل: إنَّه جوابُ القسمِ، واللَّامُ مَحذوفٌ لطُولِ الكَلامِ.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ حافظٌ لتَفاصيلِ الأشياءِ كُلِّها، أو مَحفوظٌ عَن التَّغييرِ.

والمرادُ إمَّا تمثيلُ علمِه بتَفاصيلِ الأَشياءِ بعلمِ مَن عندَهُ كتابٌ مَحفوظٌ يُطالِعُه، أو تأكيدٌ لعلمِهِ بها بثُبوتِها[3] في اللَّوحِ المحفوظِ عِندَهُ.

(٥) ـ ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني النبوَّةَ الثَّابتةَ بالمُعجزاتِ، أو النبيَّ، أو القرآنَ.

﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وقُرِئَ: (لِمَا) بالكسرِ[4].

---

(١) في نسخة الخيالي: «مثله».

(٢) في نسخة الخيالي: «يشاهدونه».

(٣) في نسخة الخيالي: «بها على ثبوتها» وفي نسخة الفاروقي: «العلمه بها بما يثبتونها»

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٢)، عن الجحدري.

﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ مُضطربٍ، مِن مَرِجَ الخاتمُ في إصبعِه: إذا جَرِجَ، وذلك قولُهُم تارةً إنَّه شاعرٌ وتارةً إنَّه ساحِرٌ وتارةً إنَّه كاهنٌ.

(٦) ـ ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ حينَ كفرُوا بالبعثِ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ إلى آثـارِ قدرةِ اللهِ في خلقِ العالمِ.

﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ رَفَعناها بلا عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكـواكـبِ ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ فُتوقٍ بأنْ خلقَها مَلساءَ مُتلاصقةَ الطِّباقِ.

(٧) ـ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ بَسَطناها ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا ثوابتَ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ مِن كلِّ صنفٍ ﴿بَهِيجٖ﴾ حسنٍ.

(٨) ـ ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ راجعٍ إلى ربِّه مُتفكِّرٍ في بدائعِ صُنعِهِ، وهما عِلَّتانِ للأفعالِ المذكورةِ معنًى وإن انتصَبَتا عن الفعلِ الأخيرِ.

(٩) ـ ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ كثيرَ المنافعِ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ أشجارًا وثمارًا ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ وحبَّ الزَّرعِ الذي مِن شأنِه أن يُحصَدَ كالبُرِّ والشَّعيرِ.

(١٠) ـ ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ طِوالًا أو حَواملَ، مِن أَبْسَقَتِ الشَّاةُ: إذا حملَتْ، فيكونُ مِن أَفْعَلَ فهو فاعلٌ، وإفرادُها بالذِّكرِ لفَرطِ ارتفاعِها وكثرةِ مَنافِعِها.

وقُرِئَ: (باصِقاتٍ)(١) لأجلِ القافِ.

﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ مَنضـودٌ بعضُـهُ فـوقَ بعضٍ، والمـرادُ تَراكمُ الطَّلـعِ أو كثرةُ ما فيهِ مِـن الثَّمرِ.

(١١) ـ ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ عِلَّةٌ لـ(أَنبتنا)، أو مصدرٌ فإنَّ الإنباتَ رِزقٌ.

---

(١) رويت عن رسول الله ﷺ، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٨٢). رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٩١) من حديث قطبة بن مالك.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماءِ ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضًا جَدبةً لا نماءَ[1] فيـها.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كما حَيِيَتْ هذه البلدةُ يكونُ خروجُكُم أحياءً بعدَ مَوتِكُم.

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أرادَ إيَّاه وقومَه ليلائِمَ ما قبلَهُ وما بعدَه.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾[2] إخوانُه لأنَّهُم كانوا أصهارَه.

(١٤) ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبقَ في (الحجرِ) و(الدُّخانِ).

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كلُّ واحدٍ، أو قومٌ مِنهم، أو جميعُهُم، وإفرادُ الضَّميرِ لإفرادِ لَفظِه.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجبَ وحلَّ عليه وعيدي، وفيه تسليَةٌ للرَّسولِ وتهديدٌ لهم.

(١٥) ـ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أفعَجَزْنا عن الإبداءِ حتَّى نعجَزَ عن الإعادةِ، مِن عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يهتدِ لوجهِ عَمَلِه، والهمزةُ فيه للإنكارِ.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هُم لا ينكرونَ قُدرتَنا على الخلقِ الأوَّلِ بل هُم في خِلْطٍ وشُبهةٍ في خَلقٍ مُستأنَفٍ لِمَا فيهِ مِن مخالفةِ العادةِ.

وتنكيرُ الخَلْقِ الجديدِ لتَعظيمِ شَأنِه والإشعارِ بأنَّه على وجهٍ غيرِ مُتعارَفٍ ولا مُعتادٍ.

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ما تحدِّثُه[3] به نَفسُهُ، وهو ما يخطُرُ بالبالِ، والوَسْوَسَةُ الصَّوتُ الخَفِيُّ، ومنها وسواسُ الحُلِيِّ، والضَّميرُ لِـ(ما)

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «ماء».

(٢) في نسخة الفاروقي زيادة: «وإنما قال».

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «ما تحدث».

إن جُعِلت مَوصولةً والباءُ مثلُها في (صوَّتَ بكذا)، أو للإنسانِ إن جُعِلَت مَصدريَّةً والباءُ للتَّعدِيَةِ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: ونحنُ أعلَمُ بحالِهِ ممَّنْ كانَ أقربَ إليه مِن حبلِ الوَريدِ، تجوَّزَ بقربِ الذَّاتِ لقُربِ العلمِ لأنَّه مُوجِبُهُ، وحبلُ الوريدِ مَثَلٌ في القُربِ قال:

والموتُ أَدْنَى لِي مِن الوَرِيدِ[1]

والحَبْلُ: العِرقُ، وإضافَتُه للبيانِ، والوَرِيدانِ عِرقانِ مُكتَنَفانِ بصَفحَتَي العنقِ في مقدَّمِها مُتَّصِلانِ بالوَتينِ يَرِدانِ مِن الرَّأسِ إليه، وقيل: سُمِّيَ وَرِيدًا لأنَّ الرُّوحَ تَرِدُهُ.

(١٧) ـ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مُقدَّرٌ بـ(اذكر)، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ أي: هو أعلَمُ بحالِه مِن كلِّ قريبٍ حينَ يَتلقَّى؛ أي: يتلقَّنُ الحفيظانِ ما يتلفَّظُ به.

وفيه إيذانٌ بأنَّه غنيٌّ عَن استحفاظِ المَلَكينِ فإنَّه أعلَمُ مِنْهُما ومُطَّلعٌ على ما يخفى عليهما لكنَّه لِحكمَةٍ اقتَضَتْه، وهي ما فيهِ مِن تشديدٍ يُثَبِّطُ العبدَ عَن المعصيَةِ، وتأكيدٌ في اعتبارِ الأعمالِ وضبطِها للجزاءِ، وإلزامٌ للحُجَّةِ يومَ يقومُ الأَشهادُ.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: عَن اليَمينِ قَعيدٌ وعَن الشمالِ قَعيدٌ؛ أي: مُقاعِدٌ كالجليسِ فحُذِفَ الأوَّلُ لدلالةِ الثَّاني عليهِ كقولِه:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ[2]

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (١/ ٣٥٦)، والرواية فيه:

موعود ربٌّ صادقِ الموعودِ والله أدنى لي من الوريدِ

والموتُ يلقى أنفسَ الشهودِ

(٢) عجز بيت لضابئ بن الحارث البرجمي، وصدره:

ومَنْ يكُ أمسى بالمدينةِ رحلُه

وقيل: يطلَقُ الفعيلُ للواحدِ والمُتعدِّدِ كقولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

(١٨) ـ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يَرمِي به مِن فِيهِ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يرقُبُ عملَهُ ﴿عَتِيدٌ﴾ مُعَدٌّ حاضِرٌ، ولعلَّهُ يكتبُ عليه ما فيه ثوابٌ أو عقابٌ.

وفي الحديث: «كاتبُ الحَسَناتِ أمينٌ على كاتبِ السَّيِّئاتِ، فإذا عَمِلَ حسنةً كتبَهَا ملكُ اليمينِ عشرًا، وإذا عملَ سيِّئةً قال صاحبُ اليَمينِ لصاحبِ الشمالِ: دعهُ سبعَ ساعاتٍ لعلَّهُ يسبِّحُ أو يستغفِرُ»(١).

(١٩) ـ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ لَمَّا ذكرَ استبعادَهُم البعثَ للجَزاءِ وأزاحَ ذلك بتَحقيقِ قُدرَتِه وعلمِه أعلَمَهُم بأَنَّهُم يلاقونَ ذلك عَن قريبٍ عندَ الموتِ وقيامِ السَّاعةِ، ونبَّهَ على اقترابِهِ بأَنْ عبَّرَ عنه بلفظِ الماضي.

وسَكرةُ الموتِ: شِدَّتُه الذَّاهبَةُ بالعقلِ.

= انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٣٣٩)، و«النوادر في اللغة» لأبي زيد الأنصاري (ص: ١٨٢)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (١/ ٢٥٧)، و«اللباب في علل البناء» لأبي البقاء العكبري (١/ ٢١٣).

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٤٩)، والروياني في «مسنده» (١٢١٥)، والطبراني في «الكبير» (٧٩٧١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٥٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٨): وفيه جعفر بن الزبير وهو كذاب.

ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٠٥٠) من طريق آخر فيه بشر بن نمير قال عنه الحافظ في «التقريب»: متروك متهم.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٧٦٥) من طريق آخر مختصراً بلفظ: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء، فإن ندم واستغفر منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة».

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٨): رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها وثقوا.

والباءُ للتَّعدِيَةِ كما في قولِك: جاءَ زيدٌ بعمرٍو.

والمعنى: وأَحْضَرَتْ سكرةُ الموتِ حقيقةَ الأمرِ، أو الموعودَ الحقَّ، أو الحقَّ الذي يَنبَغِي أنْ يكونَ مِن الموتِ أو الجزاء، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ له، أو مِثلُ الباءِ في ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وقُرِئَ: (سَكْرَةُ الحَقِّ بالمَوْتِ)(١) على أنَّها لشِدَّتِها اقتضَتْ الزُّهوقَ، أو لاستِعقَابِها له كأنَّها جاءَتْ به، أو على أنَّ الباءِ بمعنى (مع).

وقيل: سكرَةُ الحقِّ سَكرةُ اللهِ، وإضافَتُها إليه للتَّهويلِ.

وقُرِئَ: (سَكراتُ الموتِ)(٢).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموتُ ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ تميلُ وتَفِرُّ عنه، والخطابُ للإنسانِ.

(٢٠) ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يعني نفخةَ البعثِ.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: وقتُ ذلكَ يومُ تحقُّقِ الوعيدِ ونَجَازِه، والإشارةُ إلى مصدرِ ﴿نُفِخَ﴾.

(٢١) ـ ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ مَلكانِ أَحدُهُما يسوقُه والآخرُ يشهَدُ بعملِه، أو ملكٌ جامِعٌ للوَصفَيْنِ، وقيل: السَّائقُ كاتِبُ السَّيِّئاتِ والشَّهيدُ كاتِبُ الحسناتِ، وقيل: السَّائِقُ نَفسُه أو قرينُهُ والشَّهيدُ جَوارِحُه أو أعمالُه.

ومحلُّ ﴿مَّعَهَا﴾ النَّصبُ على الحالِ مِن ﴿كُلُّ﴾ لإضافَتِه إلى ما هوَ في حكمِ المعرِفَةِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٨)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص: ٣١٢)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٥٠)، «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥) عن ابن مسعود.

(٢٢) ـ ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ على إضمارِ القولِ، والخطابُ لكلِّ نفسٍ إذ ما مِن أحدٍ إلا وله اشتِغالٌ ما عن الآخرةِ، أو للكافرِ.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاءَ الحاجِبَ لأُمورِ المَعادِ، وهو الغفلَةُ والانهماكُ في المَحسوساتِ والإلفُ بها وقصورُ النَّظرِ عَليها.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافِذٌ لزَوالِ المانعِ للإبصارِ.

وقيل: الخطابُ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ والمَعنى: كنتَ في غَفلَةٍ مِن أمرِ الديانَةِ فكشَفْنَا عنكَ غطاءَ الغفلةِ بالوَحيِ[(١)] وتعليمِ القرآنِ، فبَصرُكَ اليومَ حديدٌ تَرى ما لا يَرونَ وتعلمُ ما لا يعلمونَ.

ويؤيِّدُ الأوَّلَ قِراءةُ مَن كسرَ التَّاءَ والكافاتِ على خطابِ النَّفسِ[(٢)].

(٢٣) ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال الملكُ الموكَّلُ عليه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ما هو مَكتوبٌ عندي حاضرٌ لديَّ.

أو: الشَّيطانُ الذي قُيِّضَ له: هذا ما عندي وفي مَلَكَتِي عتيدٌ لجهنَّمَ هيأتُه لها بإغوائِي وإضلالي.

و(ما) إن جُعِلَت موصوفةً فـ﴿عَتِيدٌ﴾ صِفَتُها، وإنْ جُعِلَت موصولةً فبدَلُها، أو خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

(٢٤) ـ ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ مِن الله للسَّائقِ والشَّهيدِ، أو للمَلَكينِ مِن خزنةِ النَّارِ، أو لواحدٍ، وتثنيةُ الفاعلِ مُنزَّلةٌ مَنزلَةَ تثنيةِ الفعلِ وتكريرِه، كقولِه:

فَإِنْ تَزْجرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا[(٣)]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بالموحى».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥) عن الجحدري.

(٣) البيت لسويد بن كُراع العُكْلي، كما في «سمط اللآلي» لأبي عبيد البكري (١/ ٩٤٣)، و«المحرر =

أو الألفُ بدلٌ مِن نونِ التَّأكيدِ على إجراءِ الوصلِ مجرى الوقفِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (أَلْقِيَنْ) بالنُّونِ الخفيفةِ(١).

﴿عَنِيدٍ﴾ معانِدٍ للحقِّ.

(٢٥) ـ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثيرِ المنعِ للمالِ عن حقوقِه المفروضَةِ.

وقيل: المرادُ بالخيرِ الإسلامُ، فإنَّ الآيَةَ نزلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرَةِ لما منعَ بني أخيهِ عنه(٢).

﴿مُعْتَدٍ﴾ مُتعَدٍّ ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في اللهِ وفي دينِه.

(٢٦) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مُبتدأٌ مُضمَّنٌ معنى الشَّرطِ، وخبرُه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أو بدلٌ من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ فيكونُ: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكريرًا للتَّوكيدِ، أو مفعولٌ لِمُضمَرٍ يُفسِّرُه ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾.

(٢٧) ـ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشَّيطانُ المقيَّضُ له، وإنَّما استُؤنِفَت كما تُستأنَفُ الجُمَلُ الواقعةُ في حكايةِ التَّقاوُلِ فإنَّه جوابٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ كأنَّ الكافرَ قال: هو أطغاني فقالَ قرينُه: ربَّنا ما أطغَيْتُه، بخلافِ الأُولى فإنَّها واجبَةُ العَطفِ على ما قبلَها للدَّلالةِ على الجمعِ بينَ مَفهومَيهِمَا في الحصولِ، أعني: مجيءَ كُلِّ نفسٍ مع المَلَكينِ وقولَ قرينِه.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ فأعَنَتْـه عليـه؛ فإنَّ إغواءَ الشَّـيطانِ إنَّما يُؤثِّـرُ فيمَنْ كانَ

= الوجيز» لابن عطية (٥/ ١٦٣)، وهو في «شرح القصائد السبع» (١/ ١٦)، و«شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (٣/ ١٠٥) دون نسبة.

(١) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٤).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١١٣)، والزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ٢٠٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٧١)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ١٩٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠٤).

مُختَلَّ الرَّأيِ مائِلًا إلى الفُجورِ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿قَالَ﴾ أي: اللهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في مَوقفِ الحسابِ فإنَّه لا فائدةَ فيه، وهو استئنافٌ مثلُ الأوَّلِ.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطُّغيانِ في كُتُبي وعَلى ألسِنَةِ رُسُلي فلم يبقَ لَكُم حُجَّةٌ.

وهو حالٌ فيه تَعليلٌ للنَّهيِ؛ أي: لا تختَصِمُوا عالمينَ بأنِّي أوعَدْتُكم، والباءُ مزيدةٌ أو مُعَدِّيةٌ على أنَّ (قدَّمَ) بمعنى (تقدَّم).

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ حالًا والفعلُ واقعًا على قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: بوُقوعِ الخُلْفِ فيه، فلا تطمَعُوا أن أبدلَ وَعيدِي، وعفوُ بعضِ المذنبينَ لبَعضِ الأسبابِ ليسَ مِن التَّبديلِ، فإنَّ دلائلَ العفوِ تدلُّ على تخصيصِ الوَعيدِ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذِّبَ مَن ليسَ لي تَعذيبُه.

(٣٠) ـ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤالٌ وجَوابٌ جيءَ بهما للتَّخييلِ والتَّصويرِ.

والمعنى: أنَّها مع اتِّساعِها يُطرَحُ فيها الجِنَّةُ والنَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا حتى تَمْتلئَ، لقولِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، أو أنَّها مِن السَّعةِ بحيثُ يَدخُلُها مَن يَدخُلُها وفيها بعدُ فراغٌ، أو أنَّها مِن شدَّةِ زَفيرِها وحِدَّتِها وتَشبُّبِها[1] بالعُصاةِ كالمستكثرِ لهم والطَّالبِ لزِيادَتِهم.

وقرأ نافعٌ وأبو بكرٍ: ﴿يقول﴾ بالياءِ[2].

---

(١) في جميع النسخ عدا نسخة الفاروقي: «وتشبُّثها»، وكتب فوقه: «أي توقدها».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢)، و«النشر» (٢/ ٣٧٦).

والمزيدُ إمَّا مصدَرٌ كـ(المحيدِ)، أو مفعولٌ كـ(المبيعِ).

و﴿يَوْمَ﴾ مقدرٌ بـ: اذكر، أو ظرفٌ لـ(نُفِخَ) فيكونُ ذلك إشارةً إليه فلا يفتقِرُ إلى تقديرِ مُضافٍ.

(٣١) ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَتْ لهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكانًا غيرَ بعيدٍ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا، وتذكيرُه لأنَّه صِفَةُ مَحذوفٍ؛ أي: شيئًا غيرَ بعيدٍ، أو على زِنَةِ المَصدرِ، أو لأنَّ الجنَّةَ بمعنى البُستانِ.

(٣٢) ـ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ علـى إضمارِ القولِ، والإشـارةُ إلى الثَّـوابِ، أو مصدرِ (أُزلِفَتْ).

وقرأ ابنُ كثيرٍ بالياءِ[١].

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رَجَّاعٍ إلى اللهِ، بدلٌ مِن ﴿المُتَّقين﴾ بإعادةِ الجارِّ.

﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لحُدودِه.

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بـدلٌ بعدَ بدلٍ، أو بدلٌ مِن مَوصوفِ ﴿أَوَّابٍ﴾، ولا يجوزُ أن يكونَ في حُكمِه؛ لأنَّ (مَن) لا يُوصَفُ به، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تأويلِ: يُقالُ لهم ادخُلوها، فإنَّ (مَن) بمَعنى الجمعِ. و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعول، أو صِفَةٌ لِمَصدرٍ؛ أي: خشيةً مُلتَبسَةً بالغيبِ حيثُ خَشِيَ عقابَهُ وهو غائبٌ، أو العقابُ بعدُ غيبٍ، أو هو غائبٌ عن الأعيُنِ لا يراهُ أحدٌ.

وتخصيـصُ (الرَّحمنِ) للإشـعارِ بأَنَّهُم رَجَـوْا رحمتَهُ وخافُوا عقابَـهُ، أو بأَنَّهُم يخشونَ خشـيةً[٢] مع علمِهِم بسَـعةِ رَحمَتِه.

---

(١) وقراءة الباقين بالتاء، انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «أو بأنهم ذوو خشية».

ووَصْفُ القلبِ بالإنابةِ؛ إذ الاعتبارُ برُجوعِه إلى اللهِ.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمينَ مِن العَذابِ وزوالِ النِّعَمِ، أو مُسلَّمًا عليكُمْ مِن اللهِ ومَلائِكَتِه.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يومُ تَقديرِ الخُلودِ، كقولِه: ادخلُوهَا خالدينَ.

(٣٥) ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو ما لا يَخطُرُ ببالِهم ممَّا لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ.

(٣٦) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبلَ قومِكَ ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوةً كعادٍ[1] وفِرعونَ.

﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ فخَرقُوا في البلادِ وتصرَّفُوا فيها، أو جالوا في الأرضِ كلَّ مَجالٍ حذرَ الموتِ، فالفاءُ على الأوَّلِ للتَّسبيبِ، وعلى الثَّاني لِمُجرَّدِ التَّعقيبِ، وأصلُ التَّنقيبِ: التَّنقيرُ عَن الشَّيءِ والبحثُ عنه.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: لهم مِن اللهِ، أو مِن الموتِ.

وقيل: الضَّميرُ في ﴿نقَّبوا﴾ لأهلِ مكَّةَ؛ أي: ساروا في أَسفارِهم في بلادِ القرونِ، فهَلْ رَأَوْا لهم محيصًا حتَّى يَتوقَّعُوا مثلَه لأنفسهم، ويؤيِّده أنه قُرِئَ: (فنَقِّبوا)[2] على الأمرِ.

وقُرِئَ: (فنَقِبُوا) بالكسرِ[3] مِن النَّقَبِ، وهو أن يَنتَقِبَ[4] خُفُّ البَعيرِ؛ أي: أكثَرُوا السَّيرَ حتَّى نَقِبَت أَقدامُهُم أو أخفافُ مَراكِبِهِم.

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «وثمود».

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٨٥) عن ابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر ونصر بن سيار.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص:١٤٥) عن أبي العالية ويحيى بن يعمر.

(٤) في نسخة الفاروقي: «يتنقب».

(٣٧) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما[١] ذكرَ في هذهِ السُّورَةِ ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكرةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ واعٍ يَتفكَّرُ في حَقائِقِه ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أو أصغى لاستماعِه.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضرٌ بذهنِه ليفهمَ مَعانِيَه، أو شاهدٌ بصدقِهِ فيتَّعِظَ بظواهرِهِ ويَنزَجِرَ بزواجرِه. وفي تنكيرِ القلبِ وإبهامِه تفخيمٌ وإشعارٌ بأنَّ كلَّ قلبٍ لا يَتفكَّرُ ولا يَتدبَّرُ كَلَا قلبٍ.

(٣٨) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مرَّ تفسيرُه مِرارًا.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ مِن تَعبٍ وإِعْياءٍ.

وهو ردٌّ لِمَا زَعَمت اليَهودُ مِن أنَّه تَعالى بدأَ خلقَ العالمِ يومَ الأحدِ وفَرَغَ منه يومَ الجمعةِ واستراحَ يوم السَّبتِ واستَلْقَى على العرشِ.

(٣٩) ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقولُ المُشرِكونَ مِن إنكارِهِم البَعثَ، فإنَّ مِن قَدَرَ على خلقِ العالمِ بلا إعياءٍ قدَرَ على بَعثِهم والانتقامِ منهم، أو ما يقولُ اليَهودُ مِن الكُفرِ والتَّشبيهِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ونَزِّههُ عن العجزِ عمَّا يُمكِنُ والوصفِ بما يوجِبُ التَّشبيهَ، حامِدًا له على ما أنعمَ عليك مِن إصابةِ الحقِّ وغيرِها.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني الفجرَ والعصرَ، وقد عرفتَ فَضيلَةَ الوَقتينِ.

(٤٠) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ وسَبِّحهُ[٢] بعضَ اللَّيلِ.

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصَّلاةِ، جمعُ دُبُرٍ، مِن أدبَرَتِ الصَّلاةُ: إذا انقضَتْ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «مما».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «فسبح».

وقرأ الحِجازِيَّانِ وحمزةُ بالكسرِ(١).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ، فالصَّلاةُ قبلَ الطُّلوعِ الصُّبحُ، وقبلَ الغُروبِ الظُّهرُ والعَصرُ، ومن اللَّيلِ العِشاءانِ والتَّهجُّدُ، وأدبارُ السُّجودِ النَّوافلُ بعدَ المكتوباتِ، وقيل الوِترُ بعد العشاء.

(٤١) ـ ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لِمَا أخبركَ بهِ مِن أَحوالِ القيامةِ. وفيه تهويلٌ وتَعظيمٌ للمُخبَرِ به.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إسرافيلُ أو جبريلُ فيقول: أَيَّتُها العِظامُ الباليةُ واللُّحومُ المُتمزِّقَةُ والشُّعورُ المُتفرِّقَةُ إنَّ اللهَ يَأمرُكنَّ أَنْ تَجتَمِعْنَ لفَصلِ القَضاءِ(٢).

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيثُ يَصِلُ نِداؤُه إلى الكلِّ على السَّواء.

ولعلَّه في الإعادةِ نظيرُ (كن) في الإبداءِ.

و﴿يَوْمَ﴾ نصبٌ بما دلَّ عليه ﴿يومُ الخُروجِ﴾.

(٤٢) ـ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدلٌ منه، والصَّيحَةُ النَّفخةُ الثَّانيةُ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(الصَّيحة)، والمرادُ به البَعثُ للجَزاءِ.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ مِن القبورِ، وهو مِن أَسماءِ يومِ القيامَةِ، وقد يقالُ للعيدِ.

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدُّنيا ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاءِ في الآخرةِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسير» (٢١/ ٤٧٥) عن كعب.

﴿يومَ تَشَقَّقُ﴾ تَتشقَّقُ. وقرأَ نافعٌ وابنُ كثير وابنُ عامر بإدغامِ التَّاء في الشِّين[١]، وقرئ: (تَنشقُّ)[٢].

﴿ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا﴾ مُسرعينَ.

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ﴾ بعثٌ وجمعٌ ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ هيِّنٌ.

وتَقديمُ الظَّرفِ للاختصاصِ؛ فإنَّ ذلك لا يتيسَّرُ إلَّا على العالِم القادرِ لذاتِه[٣] الذي لا يَشغَلُه شَأنٌ عَن شأنٍ كما قالَ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

(٤٥) ـ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ وتَهديدٌ لهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ بمُسلَّطٍ تَقسُرُهُم على الإيمانِ، أو تفعَلُ بهم ما تريدُ، وإنَّما أنتَ داعٍ.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنَّه لا ينتفِعُ بِهِ غَيرُه.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ «ق» هوَّنَ اللهُ عليه تاراتِ الموتِ وسَكَراتِه»[٤].

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٣٠)، و«البحر» (١٩/ ٣٨٢).

(٣) «لذاته» ليس في نسخة الفاروقي.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤١٨)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٦٢)، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع في فضائل السور سورة سورة المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٠٨).

(٥٠) سورة ق مكية وآياتها خمس وأربعون

هذه السورة هي أول المفصل على الصحيح، وقيل من الحجرات، والدليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه « باب تحزيب القرآن » ، ثم قال قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده[1] ، **بيانه** : (ثلاث) البقرة وآل عمران والنساء، و (خمس) المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، و (سبع) يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، و (تسع) سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، و (إحدى عشرة) الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، و (ثلاث عشرة) الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة ق، وقال الإمام أحمد عن عبدالله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد، قال: بقاف واقتربت[2] . وعن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[3] .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجة .

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد .

وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿ق﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿ص - ون - والم﴾ ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾، أي الكريم العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾، وهكذا قال ههنا ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جلّ جلاله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ أي وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ثم قال عزّ وجلّ مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، قال ابن عباس ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم؛ ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، و «المريج» المختلف المضطرب المنكر، كقوله تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك﴾.

أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾؟ أي بالمصابيح، ﴿وما لها من فروج﴾ قال مجاهد: يعني من

شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ وقوله ﴿بهيج﴾ أي حسن المنظر. ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ أي مشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة ﴿تبصرة﴾ ودلالة وذكرى لكل ﴿عبد منيب﴾ أي خاضع خائف وجل، رجّاع إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً﴾ أي نافعاً ﴿فأنبتنا به جنات﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿وحب الحصيد﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره، ﴿والنخل باسقات﴾ أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: الباسقات الطوال، ﴿لها طلع نضيد﴾ أي منضود، ﴿رزقاً للعباد﴾ أي للخلق، ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عزّ وجل: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم كقوم نوح، وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، ﴿وأصحاب الرس﴾ وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان، ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة، بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقوم تبع﴾ وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان، ﴿كلٌّ كذب الرسل﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم، ومن كذب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل كقوله جلّ وعلا: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾، ﴿فحق وعيد﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك، وقوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة؟ ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾، والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه كما قال عزّ وجل: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو

بكل خلق عليم﴾، وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأن علمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل». وقوله عزّ وجلّ: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ كما قال في المحتضر ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ يعني ملائكته، فالملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فللملَك لَمّة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي مترصد، ﴿ما يلفظ﴾ أي ابن آدم ﴿من قول﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي إلا ولها من يرقبها، معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام[1]، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب[2] على قولين: وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾. وقد روى الإمام أحمد، عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عزّ وجلّ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[3] فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها، وقال الحسن البصري؛ وتلا هذه الآية ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾: يا ابن آدم بسطت لك

(١) وهو قول الحسن وقتادة.

(٢) وهو قول ابن عباس.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقال لك: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ ثم يقول: عَدَل والله فيك من جعلك حسيب نفسك».

وقال ابن عباس ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ قال: يكتب كل ما تكلم بـه من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقرَّ منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾. وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ يقول عزّ وجلّ: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيـه، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قـد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولا فكـاك ولا خلاص، **والصحيح** أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك، روي أنه لما أن ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾. وقـد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لمـا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات». وفي قوله: ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ **قولان**:

(أحدهما): أن (ما) ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتفر، قد حلَّ بك ونزل بساحتك.

(والقول الثاني): أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ قـد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور وذلك يوم القيامة، وفي الحديث، أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنَى جبهته وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، فقـال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل. ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة وهو اختيار ابن جرير، لمـا روي عن يحيى بن رافع قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال أبو هريرة: السائق الملك، والشهيد العمل، وكذا قال الضحّاك والسدي، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه يشهد عـلى نفسه، وبه قال الضحاك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ قيل: إن المراد بذلك الكافر، وقيل: إن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى

الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير[1]، والظاهر من السياق أن الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يعني من هذا اليوم، ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان، وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾، وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿ألقيا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عنيد﴾ معاند للحق معارض له بالباطل مع علمه بذلك، ﴿مناع للخير﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق، لا بر ولا صلة ولا صدقة، ﴿معتد﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره، ﴿مريب﴾ أي شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره، ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم»[2]. ﴿قال قرينه﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الشيطان الذي وكل به، ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أي ما أضللته، ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً، معانداً للحق، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يقول الرب عزّ وجلّ للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما

---

(١) وهو منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي عن منهج الحق، فيقول الرب عزّ وجلّ لهما: ﴿لا تختصموا لديّ﴾ أي عندي، ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبراهين، ﴿ما يبدل القول لديّ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أي لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

* يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت؟ وهي تقول: هل من مزيد؟ أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث، روى البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط». وروى الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة»[1]. (**حديث آخر**): وروى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين؛ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله عزّ وجلّ، للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول: قط قط فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عزّ وجلّ من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عزّ وجلّ ينشئ لها خلقاً آخر»[2]. (**حديث آخر**): روى مسلم في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى بينهما؛ فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار، إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها»[3]. وعن عكرمة ﴿وتقول هل من مزيد﴾: وهل فيّ مدخل واحد؟ قد امتلأت. وقال مجاهد: لا يزال يقذف فيها حتى تقول قد امتلأت، فتقول: هل فيّ مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا، فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿هل امتلأت﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ: هل بقي فيّ مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) تفرد به الإمام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ قال قتادة والسدي: ﴿وأزلفت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غير بعيد﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب، ﴿هذا ما توعدون لكل أواب﴾ أي رجاع تائب مقلع، ﴿حفيظ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عزّ وجلّ، ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عزّ وجلّ كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه»[1] ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي ولقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه. ﴿أدخلوها﴾ أي الجنة ﴿بسلام﴾ قال قتادة: سَلِموا من عذاب الله عزّ وجلّ، وسلّم عليهم ملائكة الله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ولا يظعنون أبداً ولا يبغون عنها حولاً، وقوله جلت عظمته: ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم، عن كثير بن مرة قال: «من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم». وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»[2]. وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة»[3]. وقوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم، وقد روى البزار، عن أنس بن مالك في قوله عزّ وجلّ ﴿ولدينا مزيد﴾ قال: «يظهر لهم الرب عزّ وجلّ في كل جمعة»[4]. وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحوّل، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إنَّ أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب[5].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) هو صنف من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة، والحديث أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود مرفوعاً. (٣) رواه أحمد وابن ماجة والترمذي، وزاد الترمذي: كما اشتهى.

(٤) أخرجه البزار وابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه الشافعي مرفوعاً في مسنده.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

يقول تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة، ولهذا قال تعالى: ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾. قال مجاهد: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب. ويقال لمن طوف في البلاد، نقب فيها، وقوله تعالى: ﴿هل من محيص﴾ أي هل من مفر لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي لعبرة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي لب يعي به، وقال مجاهد: عقل، ﴿أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ أي استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال الضحّاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذ استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ فيه تقرير للمعاد، لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾ وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾؟

وقوله عزّ وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات. ولكن منهن صلاة (الصبح والعصر) فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وقد روى الإمام أحمد، عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي فصلِّ له كقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾، ﴿وأدبار السجود﴾ قال مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال، فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة.

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1]. والقول الثاني أن المراد بقوله تعالى: ﴿وأدبار السجود﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي. روى الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر، وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة»[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين اللتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: يا ابن عباس: «ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود»[3].

۞ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿واستمع﴾ يا محمد ﴿يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾ قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة. إن الله تعالى يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون، ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي من الأجداث ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾، أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله. إن خيراً فخير. وإن شراً فشر. وقوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾ وذلك أن الله عزّ وجلّ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور. فإذا نفخ فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض. فيقول الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها. فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب، سراعاً مبادرين إلى أمر الله عزّ وجلّ، ﴿مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾. وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض». وقوله عزّ وجلّ: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا. كما قال جلّ جلاله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾، وقوله جل وعلا: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي علمنا محيط بما يقول لك المشركون، فلا يهولنك ذلك، كقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، وقال مجاهد والضحاك: أي لا تتجبر عليهم، والقول الأول أولى. قال الفراء: سمعت

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي.

العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي بلّغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده كقوله تعالى: ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ۞ لست عليهم بمسيطر ﴾ . ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ، ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ كان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .

[آخر تفسير سورة ق ، والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل]

* * *

تفسير سورة ق

وهى مكية.

وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة[١]: إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين[٢] فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود فى سننه، باب «تحزيب القرآن» ثم قال:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ـ وهذا لفظه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد: حدثنيه أوس بن حذيفة ـ ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله [ﷺ][٣] كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء[٤] وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطأ[٥] عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا[٦] الليلة ! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجىء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن[٧] يعلى الطائفى به[٨].

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية،

---

(١) فى م، أ: «العوام». (٢) فى أ: «المفسرين». (٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م، أ: « لا أساء». (٥) فى م: «أبطأ علينا». (٦) فى أ: «علينا».
(٧) فى أ: «أبو».
(٨) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) ، وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٤/٩).

والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضى الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه[(١)]، ولله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا مالك، عن ضَمْرة بن سعيد، عن عُبَيد الله[(٢)] بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت.

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به[(٣)]. وفى رواية لمسلم عن فليح[(٤)] عن ضمرة، عن عبيد الله[(٥)]، عن أبى واقد قال: سألنى عمر، فذكره[(٦)].

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد[(٧)] بن زُرَارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

رواه مسلم [أيضا][(٨)] من حديث ابن إسحاق، به[(٩)].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب[(١٠)]، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت «ق» إلا من فِيِّ رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً.

وكذا رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة، به[(١١)].

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) ﴾.

(١) فى م: «قدمناه». (٢) فى م: «عبد الله».
(٣) المسند (٥/٢١٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٩١)، وسنن أبى داود برقم (١١٥٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٣٤)، وسنن النسائى(٣/١٨٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٢٨٢).
(٤) فى م، أ: «مالك». (٥) فى م: « عبد الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٨٩١).
(٧) فى م، أ: «أسعد». (٨) زيادة من م.
(٩) المسند (٦/ ٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٨٧٣).
(١٠) فى م، أ: «حبيب».
(١١) سنن أبى داود برقم (١١٠٠)، وصحيح مسلم برقم (٨٧٣)، وسنن النسائى (٢/ ١٥٧) لكنه ليس من هذا الطريق.

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة[١] فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما[٢] لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور[٣]، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال:

حدثنا أبى قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى: حدثنا ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[لقمان: ٢٧] .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذى رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله:﴿قٓ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل.

والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن،حم، طس، الم) ونحو ذلك. فهذه تُبْعِد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل:المراد «قضِى الأمر والله»، وأن قوله: ﴿قٓ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم[٤]كقول

---

(١) فى م: «الذى تقدم ذكرها».
(٢) فى م:« مما».
(٣) فى أ: «الخمر».
(٤) فى م، أ:«الكلمة».

الشاعر:

قلت لها: قفى فقالت: قاف

وفى هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

واختلفوا فى جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾؟ أى: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات [والأرض][1] وما جعل [الله][2] فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من بساتين ونحوها ، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أى: منضود . ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى[3] حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث[4]، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً[5] فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) زيادة من أ. (٣) فى م: «من».
(٤) فى م، أ: «البعث». (٥) فى م: «هامدة» وهو خطأ.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام[1] لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان»[2] ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله[3]، ومن كذب رسولا[4] فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا[5] ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] ،وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم فى الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم، يقول: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»[6].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ

---

(١) فى م: «العظيم».
(٢) تقدم ذلك فى سورة الفرقان عند الآية رقم (٣٨).
(٣) فى أ: «رسولهم». (٤) فى م: «برسول». (٥) فى م: «فأعجزنا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله [١] تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٢].

وقوله: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده[٣] إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعنى ملائكته. وكما قال [تعالى][٤]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك[٥] الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار[٦] الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ**﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**﴾ أى: مترصد[٧] ﴿**مَا يَلْفِظُ**﴾ أى: ابن آدم ﴿**مِن قَوْلٍ**﴾ أى: ما يتلكم بكلمة[٨] ﴿**إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معتد[٩] لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شىء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه[١٠]. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها[١١] سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به[١٢]. وقال الترمذى: حسن

(١) فى أ: «إن الله تعالى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩)، وصحيح مسلم برقم (١٢٧).
(٣) فى أ: «الوريد». (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى أ: «ولذلك».
(٦) فى م: «باقتدار». (٧) فى م: «مرصد». (٨) فى م: «بكلام».
(٩) فى م: «معد». (١٠) فى أ: «القيامة». (١١) فى م: «له بها عليه».
(١٢) المسند (٣/٤٦٩) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٩)، والنسائى فى السنن الكبرى، كما فى تحفة الأشراف (٢/١٠٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

صحيح. وله شاهد[١] فى الصحيح[٢].

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل[٣] ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شربت، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله[٤].

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالى: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل :غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عبَّاد بن عبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص[٥] أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: حضرت أبى وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمعه مُقَنَّعا ... فإنه لابد مرة[٦] مدفوق[٧]

---

(١) فى أ: «شواهد».
(٢) شاهده حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٧٨).
(٣) فى أ: « فاملل».
(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد فى سيرة أبيه.
(٥) فى أ: «أبى وقاص» وهو خطأ. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب.
(٦) فى أ: «من دمعه».
(٧) البيت فى النهاية لابن الأثير (٤/ ١١٥) وعنده: لابد يوما أن يهراق.

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ .

وحدثنا[1] خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط][2]، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر[3]، رضى الله عنه ،جاءت عائشة، رضى الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[4]

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ . وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة][5] فى سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضى الله عنه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات». وفى قوله: ﴿**ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا محمد بن على الصائغ المكى، حدثنا حفص بن عمر الحدى، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلى، عن يونس بن عبيد، عن الحسن،عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ:«مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض يَدْين، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، دينى. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات»[6].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ**﴾ . قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفزع والصعق والبعث[7]، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا:يا رسول الله كيف نقول؟ قال:«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) فى أ: «وحديث». (٢)زيادة من م،أ. (٣) فى م:«أبا بكر».
(٤) البيت لحاتم الطائى، وهو فى ديوانه ص (٥٠) أ.هـ مستفادا من طبعة الشعب. (٥) زيادة من م، أ.
(٦) المعجم الكبير (٧/ ٢٢٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣٢٠): «فيه معاذ بن محمد الهذلى، قال العقيلى: لا يتابع على رفع حديثه».
(٧) فى م:«للفزع وللصعق وللبعث».

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن يحيى بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب[١]، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبى جعفر ـ مولى أشجع ـ عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا الشأن[٢] قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

---

(١) فى م: «خطب». (٢) فى أ: « القرآن».

أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل[١]، ويقول: ﴿**هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ أى: معتد[٢] محضر[٣] بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾.

وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿**أَلْقِيَا**﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجرانى ـ يا ابن عفان ـ أنزجر ... وإن تتركانى أحم عرضا ممنعا[٤]

وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿**عَنِيدٍ**﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿**مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ**﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿**مُعْتَدٍ**﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره.

﴿**مُّرِيبٍ**﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿**فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تلوى[٥] عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية[٦]، عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة:

(١) فى أ: «بما عمل». (٢) فى م، أ: «معد». (٣) فى أ: «محصى».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٠٣).
(٥) فى م، أ: «تنطوى».
(٦) فى م: «حدثنا شيبان هو ابن هشام عن فراس عن عطية».

بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس[١]. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم»[٢].

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول[٣] الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن[٤] يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا حَرَمى بن عُمَارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط»[٥].

---

(١) فى م: «حق».
(٢) المسند (٣/ ٤٠).
(٣) فى م: «يقوله».
(٤) فى م: «من».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول[(١)] الجنة»[(٢)].

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه[(٣)]. ورواه أبان العطار وسليمان التيمى، عن قتادة، بنحوه[(٤)].

حديث آخر: قال[(٥)] البخارى: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميرى سعيد ابن يحيى بن مهدى، حدثنا عَوْف، عن محمد، عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها[(٦)]، فتقول: قط قط»[(٧)].

رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به[(٨)].

طريق أخرى: قال[(٩)] البخارى: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام[(١٠)]، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[(١١)] بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر»[(١٢)].

حديث آخر: قال[(١٣)] مسلم فى صحيحه: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من

---

(١) فى أ: «فضل».
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٨).
(٤) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٦).
(٥) فى م: «وقال».
(٦) فى م: «عليها قدمه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٩).
(٨) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥٠٧) من طريق هشام بن حسان به. ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٧) من طريق أيوب وهشام بن حسان به.
(٩) فى م: «وقال».
(١٠) فى م: «همام بن منبه».
(١١) فى أ: «ينزوى».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠).
(١٣) فى م: «وقال».

أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى[١] من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حسن وروح قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها[٢] عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء»[٣].

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا عقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عُدى بن ثابت، عن زرٍّ بن حُبَيْش، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفنى الله، عز وجل، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عنى، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى، ثم يؤذن لى فى الكلام، ثم تمر أمتى على الصراط ـ مضروب بين ظهرانى جهنم ـ فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهى الأعمال. وجهنم تسأل المزيد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك. وآنيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا، ولا يصرف فيروى أبدا»[٤]. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحِمَّانى[٥] عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فى.

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿ **وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾: وهل فى مدخل واحد، قد

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٧).

(٢) فى م: «يأتيها ربها».

(٣) المسند (٣/١٣).

(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٧٩٠) من طريق عقبة بن مكرم به.

وقال الألبانى: «إسناده موضوع، آفته عبد الغفار بن القاسم، وهو أبو مريم الأنصارى، كان يضع الحديث كما قال ابن المدينى وأبو داود».

(٥) فى م: «الحمان».

امتلأت.

[و][١] قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل [فىّ][٢] من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا.

فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فى [من][٣] مزيد؟ يسع شيئاً.

قال العوفى، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع [يسع][٤] إبرة. فالله[٥] أعلم.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ[٦]﴾ أى: رجاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه و[لا][٧] ينكثه.

وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً [فيقوم][٨]حتى يستغفر الله، عز وجل.

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله [عليه السلام][٩]: «ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه.

﴿ادْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة ﴿بِسَلامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقيَّة، عن بَحِير[١٠] بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشىء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدنى الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزينات.

(١ ـ ٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من م، أ.
(٥) فى م: «والله».
(٦) فى أ: ﴿أواب حفيظ﴾.
(٧) زيادة من م.
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) زيادة من م، أ.
(١٠) فى م: «يحيى».

وفى الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن عامر الأحول، عن أبى الصديق[٢]، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسِنّه فى ساعة واحدة».

ورواه الترمذى وابن ماجه عن بُنْدار، عن معاذ بن هشام، به[٣]. وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن عثمان بن عمير أبى اليقظان، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾قال: يظهر لهم الرب، عز وجل، فى كل جمعة[٤].

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال فى مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنى موسى بن عبيدة، حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير[٥] أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبى[٦] ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضّلتَ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن[٧] يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبى ﷺ:«يا جبريل، وما يوم المزيد؟». قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح فيه كثب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء[٨] من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون[٩] فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدى مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

---

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه برقم (٢٢) والبزار فى مسنده برقم (٣٥٣٢) «كشف الأستار» وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨٩) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود مرفوعاً به.
وفيه حميد الأعرج، قال البخارى: منكر الحديث، وقال ابن حبان: أحاديثه شبه الموضوعة.

(٢) فى م: «عن أبى بكر الصديق».

(٣) المسند (٣/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٨).

(٤) فى أ: «جهة».

(٥) فى م: «عن عبيد الله بن عمير»، وفى الأصل:«عبد الله عمير» والتصويب من الأم للشافعى.

(٦) فى م:«رسول الله». (٧) فى أ: «لايوافقها عبد مؤمن» (٨) فى م: «ناساً».

(٩) فى أ: «الصالحون».

[و][١]هكذا أورده الإمام الشافعى فى كتاب «الجمعة» من الأم [٢]،وله طرق على أنس بن مالك، رضى الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا[٣]، وذكر هاهنا أثراً مطولا عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن،حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَراج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل فى الجنة ليتكئ فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه[٥] فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب»[٦].

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به[٧].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين[٨]: ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾: ضربوا فى الأرض .وقال قتادة: فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف فى البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ فى الآفَاق حتّى ... رضيتُ من الغَنِيمة بالإيَابِ[٩]

(١) زيادة من م.
(٢) الأم (١/ ١٨٥).
(٣، ٤) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٠٩).
(٥) فى أ: «منكبيه».
(٦) المسند (٣/ ٧٥) وفيه: دراج عن أبى الهيثم، ضعيف.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٠) والكلام عليه كسابقه.
(٨) فى م، أ: «المكذبين».
(٩) البيت فى تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٠).

وقوله: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيص﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أى: لعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْب﴾ أى: لُبٌّ يَعِى به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيد﴾ وقال: شاهد بالقلب(١).

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوب﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوب﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُون﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن(٢) صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم(٣)، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب﴾.

---

(١) فى م: «القلب». (٢) فى أ: «بينهن». (٣) فى أ: «حاتم».

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به[١].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات[٢] العُلَى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال[٣] بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٤].

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلي، وابنه الحسن وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنَّخَعِي والحسن وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضَمْرَة، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين[٥] إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة.

ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به[٦]. زاد النسائي: ومطرف، عن أبي إسحاق، به[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال: « يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود».

ورواه الترمذي عن أبي هشام الرفاعي، عن محمد بن فضيل، به[٨]. وقال: غريب لا نعرفه إلا

---

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) وصحيح البخاري برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبي داود برقم (٣٧٢٩) وسنن الترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧).

(٢) في أ: «بالأجور».

(٣) في أ: «الإيمان».

(٤) صحيح البخاري برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).

(٥) في م: «ركعتين مكتوبة».

(٦) المسند (١/ ١٢٤) وسنن أبي داود برقم (١٢٧٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(٧) النسائي في السنن الكبرى برقم (٣٤٦).

(٨) سنن الترمذي برقم (٣٢٧٥).

من هذا الوجه .

وحديث ابن عباس، وأنه بات فى بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبى ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت فى الصحيحين[(١)] وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة [و][(٢)] لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشْدِين بن كُرَيْب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه، والله أعلم.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله [تعالى][(٣)] ملكاً[(٤)] أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أى: من الأجداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير[(٥)] الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى[(٦)] ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق[(٧)] الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٥٢]، وفى صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[(٨)].

(١) صحيح البخارى برقم (١١٩٨) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).
(٢، ٣) زيادة من م. (٤) فى م: «ملكان». (٥) فى م: «تصير».
(٦) فى م: «عز وجل». (٧) فى م: «وتتشقق».
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولم أهتد إليه من حديث أنس.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله [تعالى][1]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ـ ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: لا تتجبر عليهم.

والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ.

قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلانا على كذا[2]، بمعنى أجبره[3].

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما[4] يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله [تعالى][5]: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) زيادة من م.
(٢) في م: «جبر فلان على فلان كذا».
(٣) انظر تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٥).
(٤) في م: «فأما».
(٥) زيادة من م.

سورة قٓ

مكّيّة، وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي: ذي المَجد والشرف على سائر الكتب، / أو لأنّه [١١٩ظ] كلام المجيد، أو لأنّ مَن علِم معانيه وعمِل بما فيه مَجُدَ عند الله تعالى وعند الناس. والكلام فيه كالّذي فُصِّل في مطلع سورة ﴿صٓ﴾.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ②﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: لِأن جاءهم منذر مِن جنسهم، لا مِن جنس الملَك، أو مِن جِلدتهم؛ إضراب عمّا يُنبئ عنه جواب القسم المحذوف، كأنّه قيل: والقرآنِ المجيدِ أنزلناه إليك لتنذر به الناس، حسبما ورَد في صدر سورة الأعراف، كأنّه قيل بعد ذلك: لم يؤمنوا به؛ بل جعلوا كلًّا مِن المنذِر والمنذَرِ به عُرضةً للنكير والتعجّبِ مع كونهما أوفقَ شيء لقضيّة العقول، وأقربَه إلى التلقّي بالقَبول.

وقيل:[١] التقدير: والقرآنِ المجيدِ إنّك لمنذِر، ثمّ قيل بعده: إنّهم شكّوا فيه، ثمّ أُضرِب عنه وقيل: بل عَجِبوا، أي:[٢] لم يكتفوا بالشكّ والردّ؛ بل جزموا بالخلاف حتّى جعلوا ذلك مِن الأمور العجيبة. وقيل:[٣] هو إضراب عمّا يُفهَم مِن وصف ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بـ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾،[٤] كأنّه قيل: ليس سبب امتناعهم مِن الإيمان بالقرآن أن لا مَجدَ له، ولكن لجهلهم.

١ وفي هامش م: رازي. | تفسير الرازي، ١٢٧/٢٨.
٢ س: أن.
٣ وفي هامش م: راغب. «منه». | المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٤٢
٤ في الآي السابقة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجّبهم، وبيان لكونه مقارِنًا لغاية الإنكار، مع زيادة تفصيل لمَحلّ التعجّب، و﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى كونه عليه السلام منذِرًا بالقرآن. وإضمارُهم أوّلًا للإشعار بتعيّنهم بما أُسنِد إليهم، وإظهارُهم ثانيًا للتسجيل عليهم بالكفر بموجَبه.

أو عطفٌ لتعجّبهم[1] مِن البعث على تعجّبهم مِن البِعثة، على أنّ ﴿هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مبهَم يفسّره ما بعده مِن الجملة الإنكاريّة.

ووضع المُظهر موضع المُضمَر إمّا لسبق اتّصافهم بما يوجب كفرهم، وإمّا للإيذان بأنّ تعجّبهم مِن البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو أشقّ منه في قياس العقل مِن مصنوعاته البديعة أشنعُ مِن الأوّل، وأعرَقُ في كونه كفرًا.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجّب، وتأكيد للإنكار. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمَر غنيّ عن البيان لغاية شُهرته مع دلالة ما بعده عليه، أي: أحِينَ نموت ونصيرُ ترابًا نُرجَعُ كما ينطق به النذيرُ والمنذَرُ به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ. وقُرئ: "إِذَا مِتْنَا"[2] على لفظ الخبر، أو على حذف أداة الإنكار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محلّ النزاع ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: عن الأوهام، أو العادة، أو
الإمكان. / وقيل: "الرَّجْع" بمعنى المَرجوع الذي هو الجواب، فناصِب الظرف [١٢٠و]
حينئذ ما يُنبئ عنه المنذِر مِن البعث.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له، فإنّ مَن عَمّ عِلمُه ولَطُف حتّى انتهى إلى حيث علِم ما تنقص الأرض مِن أجساد الموتى وتأكل مِن لحومهم وعظامهم؛ كيف يُستبعَد رَجْعُه إيّاهم أحياءً كما كانوا.

---

١ السياق: تفسير لتعجّبهم... أو عطفٌ لتعجّبهم...

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب والأعرج وشيبة وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٥.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ ابن آدم يَبْلَى إلّا عَجْبَ الذَّنَب».[١]
وقيل: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيُدفَن في الأرض منهم.
﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلّها، أو محفوظ مِن التغيّر. والمراد إمّا تمثيل علمِه تعالى بكلّيّات الأشياء وجزئيّاتها بعلمِ مَن عنده كتاب محيط يتلقّى منه كلَّ شيء، أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تأمّل وتفكّر، وقُرئ: "لِمَا جَاءَهُمْ"[٢] بالكسر على أنّ "اللام" للتوقيت، أي: وقتَ مجيئه إيّاهم. وقيل: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ القرآن، أو الإخبار بالبعث. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مضطربٍ لا قرارَ له، مِن "مَرِج الخاتمُ في أصبعه"، حيث يقولون تارةً: إنّه شاعر، وتارةً: ساحر، وأخرى: كاهِن.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ أي: أَغفَلوا، أو أَعمَوا فلم ينظروا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كلّ وقت ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: رفعناها بغير عَمَد، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما فيها مِن الكواكب المرتَّبة على نظام بديع، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ مِن فُتوق لِمَلاستها وسلامتها مِن كلّ عيب وخلل؟ ولعلّ تأخيرَ هذا لمراعاة الفواصل.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابتَ، مِن "رَسَا الشيء"، أي: ثبَتَ. والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ / مِن كلّ صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسنٍ. [١٢٠ظ]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠. وهو بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/١٦٥ (٤٩٣٥)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢٧١ (٢٩٥٥).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ عِلّتان للأفعال المذكورة معنًى، وإن انتصبَتا بالفعل الأخير، أو لِفعلٍ مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: راجعٍ إلى ربّه متفكّرٍ في بدائع صنائعه.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: كثيرَ المنافع؛ شروع في بيان كيفيّة إنبات[١] ما ذُكر مِن كلّ زوج بهيج، وهو عطفٌ على ﴿أَنۢبَتْنَا﴾،[٢] وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرِّر لِما قبله، ومنبِّه على ما بعده، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ كثيرةً، أي: أشجارًا ذواتِ ثمارٍ ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: حبَّ الزرع الذي[٣] شأنه أن يُحصَد مِن البُرّ والشعير وأمثالهما. وتخصيصُ إنبات حَبّه بالذكر لأنّه المقصود بالذات.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾

﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾.[٤] وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في "الجنّات" لبيان فضلها على سائر الأشجار. وتوسيط "الحَبّ" بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقيّة، مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: طوالًا، أو حَوامِلَ، مِن "أبسَقَت الشاة" إذا حمَلَت، فيكون مِن باب "أفْعَلَ" وهو فاعِل. وقُرِئ: "بَاصِقَاتٍ" لأجل "القاف".[٥]

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: مَنضود بعضُه فوق بعض، والمراد تراكُمُ الطَّلع، أو كثرةُ ما فيه مِن الثمر. والجملة حال مِن ﴿ٱلنَّخْلَ﴾ كـ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ بطريق الترادف، أو مِن ضميرها في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ على التداخل، أو الحال هو الجارّ والمجرور، و﴿طَلْعٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة.

---

[١] س ي: إثبات.
[٢] ق، ٥٠/٧.
[٣] س - الذي.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطبة بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣١/٩.

﴿رِزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾

وقوله تعالى: ﴿رِزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: لنرزقَهم؛ علّة لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾.[١] وفي تعليله بذلك بعد تعليل ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾[٢] الأوّلِ بالتبصرة والتذكير تنبيهٌ على أنّ الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك مِن حيث التذكّرُ والاستبصار أهمَّ وأقدمَ مِن تمتّعه به مِن حيث الرزق. وقيل: ﴿رِزۡقٗا﴾ مصدر مِن معنى ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾؛ لأنّ الإنبات رزق.

﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ / أرضًا جَدبةً، لا نماءَ فيها أصلًا، [١٢١و] بأن جعلناها بحيث رَبَتْ وأنْبَتَت أنواع النَبات والأزهار، فصارت تهتزّ بها بعد ما كانت جامدةً هامدةً، وتذكير ﴿مَيۡتٗا﴾ لأنّ البلدة بمعنى البلد والمكان.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ جملة قُدِّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة مِن الأحياء، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتها، أي: مثلُ تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث مِن القبور، لا شيءَ مخالِف لها. وفي التعبير عن إخراج النبات مِن الأرض بـ"الإحياء"، وعن حياة الموتى بـ"الخروج" تفخيم لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾... إلخ استئناف وارد لتقرير حقّيّة البعث ببيان اتّفاق كافّة الرسل عليهم السلام عليها، وتعذيبِ منكِريها، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قيل: هم ممَّن بُعث إليهم شعيب عليه السلام، وقيل وقيل، كما مرّ في سورة الفرقان[٣] على التفصيل.

﴿وَثَمُودُ ۞ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ﴾ أي: هو وقومُه، ليلائم ما قبله وما بعده، ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾ قيل: كانوا مِن أصهاره عليه السلام.

---

[١] ق، ٩/٥٠.
[٢] ق، ٧/٥٠.
[٣] الفرقان، ٣٨/٢٥.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ هم ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام غيرُ أهل مَدين. ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبقَ شرح حالهم في سورة الدخان.[1]

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: فيما أُرسِلوا به مِن الشرائع التي مِن جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبةً، أي: كلّ قوم مِن الأقوام المذكورين كذّبوا رسولَهم، أو كذّب جميعُهم جميعَ الرسل بالمعنى المذكور. وإفراد الضمير باعتبار لفظ "الكلّ"، / أو كلُّ واحدٍ منهم كذّب جميعَ الرسل، لاتّفاقهم على الدعوة إلى التوحيد، والإنذارِ بالبعث والحشر، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكلّ، وهذا على تقدير رسالة تُبّعٍ ظاهر، وأمّا على تقدير عدمها -وهو الأظهر- فمعنى تكذيب قومه الرسلَ تكذيبُهم بمَن قبلهم مِن الرسل المجمِعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تُبّع. [١٢١ظ]

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فوجَب وحَلّ عليهم وعيدي؛ وهي كلمة العذاب، وفيه تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥﴾

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ استئناف مقرِّر لصِحّة البعث الذي حُكيت أحوال المنكرين له مِن الأمم المهلَكة. والعِيّ بالأمر: العجز عنه، يقال: "عَيَّ بالأمر" و"عَيِيَ به" إذا لم يَهْتَدِ لوجه عمله. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينبئ عنه العِيّ مِن القصد والمباشرة، كأنّه قيل: أَقَصَدْنا الخلقَ الأوّل، فعجزنا عنه حتّى يُتوهّم عَجزُنا عن الإعادة.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه ما قبلَه، كأنّه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأوّل؛ بل هم في خَلطٍ وشبهة في خَلق مستأنَف لِما فيه مِن مخالفة العادة. وتنكير ﴿خَلْقٍ﴾ لتفخيم شأنه، والإشعارِ بخروجه عن حدود العادات، والإيذانِ بأنّه حقيق بأن يُبحث عنه ويُهْتَمّ بمعرفته.

---

[1] الدخان، ٣٧/٤٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما تُحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال. والوسوسة: الصوت الخفيّ، ومنه "وَسواس الحُليّ". والضمير لـ﴿مَا﴾ إن جُعلت موصولة، و"الباء" كما في "صَوَّتَ بكذا"، أو لـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إن جُعلت مصدريّةً، و"الباء" للتعدية.

[١٢٢و] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: أعلمُ بحاله / ممّن كان أقربَ إليه مِن حبل الوريد. عُبّر عن قُرب العلم بقُرب الذات تجوّزًا؛ لأنّه موجِب له. و﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مَثَلٌ في فَرْط القرب. و"الحَبل" العِرق. وإضافته بيانيّة. و"الوَريدان" عِرقان مكتنِفان بصفحتَي العنق في مقدَّمها متّصلان بالوَتين، يَرِدان مِن الرأس إليه. وقيل: سمّي "وَرِيدًا" لأنّ الروح تَرِدُه.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ منصوب بما في ﴿أَقْرَبُ﴾[١] مِن معنى الفعل. والمعنى: أنّه لطيف يتوصّل علمه إلى ما لا شيءَ أخفى منه، وهو أقرب مِن الإنسان مِن كلّ قريب حين يتلقّى ويتلقّن الحفيظان ما يتلفّظ به. وفيه إيذان بأنّه تعالى غنيّ عن استحفاظهما، لإحاطة علمه بما يخفى عليهما، وإنّما ذلك لِما في كَتْبتهما وحفظِهما لأعمال العبد وعَرضِ صحائفها يومَ يقوم الأشهاد، وعِلمِ العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خُبرًا؛ مِن زيادة لُطفٍ له في الكفّ عن السيّئات والرغبة في الحسنات.

وعنه عليه السلام: «إنّ مَقعد مَلَكَيكَ على ثَنِيَّتَيكَ، ولسانُك قلمُهما، وريقُك مِدادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، لا تستحيي مِن الله ولا منهما».[٢]

وقد جُوّز[٣] أن يكون تلقّي الملَكين بيانًا للقرب، على معنى: أنّا أقربُ إليه مطّلعون على أعماله؛ لأنّ حفَظتنا وكَتَبَتَنا موَكّلون به.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٤.

[٣] جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٨٤.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: عن اليمين قَعيد، وعن الشمال قَعيد، أي: مقاعد، كـ"الجَليس" بمعنى "المُجالس" لفظًا ومعنًى، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، كما في قول مَن قال:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدي بريئًا ومِن أجل الطَّوِيّ رماني[1]

وقيل: يُطلق الفعيل على الواحد والمتعدّد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم، ٦٦/٤].

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يَرمي به مِن فيه مِن خيرٍ أو شرّ. وقُرئ: "مَا يُلْفَظُ"[2] عَلى البناء للمفعول. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ / مَلَك يَرقُب قولَه ذلك ويكتبه، فإن كان [١٢٢ظ] خيرًا فهو صاحب اليمين بعَينه، وإلّا فهو صاحب الشمال. ووجهُ تغيير العنوان غنيّ عن البيان. والإفرادُ مع وقوفهما معًا على ما صدر عنه لِما أنّ كلًّا منهما رَقيب لِما فُوّض إليه، لا لِما فُوّض إلى صاحبه، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: مُعَدّ مُهَيَّأ لِكتابة ما أُمِر به مِن الخير أو الشرّ. ومَن لم يتَنبّه له توهَّم أنّ معناه: رقيبان عتيدان. وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النصّ.

واختُلف فيما يكتبانه، فقيل: يكتبان كلَّ شيء حتّى أنينَه في مرضه. وقيل: إنّما يكتبان ما فيه أجر أو وِزر. وهو الأظهر كما ينبئ عنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيّئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين[3] على كاتب السيّئات، فإذا عمل حسنةً كتبها مَلَك اليمين عشرًا،

---

[1] ذكره ابن منظور في لسان العرب، «جول»، بلفظ: "ومِن جُول الطَّويّ رَماني"، وقال: «البيت لابن أحمر. وقيل: هو للأزرق بن طَرَفة بن العَمَرّد الفَراصي. أي: رماني بأمرٍ عاد عليه قُبحه، لأنّ الذي يرمي مِن جُول البئر يعود ما رَمى به عليه»، ثمّ قال: «ويُروى: "ومِن أجل الطَّويّ"، قال: وهو الصحيح؛ لأنّ الشاعر كان بينه وبين خَصمه حكومة في بئر، فقال خصمه: "إنّه لِصّ ابن لِصّ"».

[2] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٤. وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦: «عن محمّد بن سعدان: "مَا يَلْفَظُ" بفتح "الفاء"».

[3] م: أمير [صحّح في الهامش]. | وهو في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٩: "أمين". وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٩/٧: "أمير".

وإذا عمل سيّئةً قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: "دَعْهُ سبعَ ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر"».[١]

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ بعد ما ذُكِر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيحَ ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعِلمه، وبُيِّن أنّ جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم؛ أُتبع ذلك بيان ما يُلاقونه لا محالةَ مِن الموت والبعث، وما يتفرّع عليه مِن الأحوال والأهوال، وقد عُبّر عن وقوع كلّ منها بصيغة الماضي إيذانًا بتحقّقها وغايةِ اقترابها.

و﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ شدّته الذاهبة بالعقل. و"الباء" إمّا للتعدية كما في قولك: "جاء الرسول بالخبر"، والمعنى: أُحضِرت سكرةُ الموت حقيقةَ الأمر الذي نطقت به كُتب الله ورسلُه، أو حقيقةَ الأمر وجليّةَ الحال مِن سعادة الميّت وشقاوته. وقيل: الحقّ الذي لا بدَّ أن يكون لا محالةَ مِن الموت أو الجزاء، فإنّ الإنسان خُلق له.

وإمّا للملابسة[٢] كالتي في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٠]، أي: ملتبسةً بالحقّ، أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة والغاية الجميلة.

وقُرئ: "سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ"،[٣] / والمعنى: أنّها السَّكْرة التي كتبت على [١٢٣و]
الإنسان بموجَب الحكمة، وأنّها لشدّتها توجب زُهوق الروح، أو تستعقِبه. وقيل: "الباء" بمعنى "مع". وقيل: "سَكْرةُ الحقّ" سَكرة الله تعالى، على أنّ الإضافة للتهويل. وقُرئ: "سَكَرَاتُ الْمَوْتِ".[٤]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموتُ ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تميل وتنفِر عنه. والخطابُ للإنسان، فإنّ النُّفرة عنه شاملة لكلّ فرد مِن أفراده طبعًا.

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/٩٩؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٧/٣٥٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣٨٥.

٢ السياق: و"الباء" إمّا للتعدية... وإمّا للملابسة...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن جبير وطلحة. **المحتسب** لابن جنّي، ٢/٢٨٣؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝﴾

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: وقتُ ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: يومُ إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا، أو يومُ وقوع الوعيد، على أنّه عبارة عن العذاب الموعود. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان المفهوم مِن ﴿نُفِخَ﴾، فإنّ الفعل كما يدلّ على الحدَث يدلّ على الزمان. وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنّه يوم الوعد أيضًا لتهويله، ولذلك بُدِئ ببيان حال الكفرة.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝﴾

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن النفوس البَرّة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ وإن اختلفت كيفيّة السَّوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملًا، أي: معها ملَكان، أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، أو ملَك جامع بين الوصفين، كأنّه قيل: معها ملَك يسوقها ويشهَد عليها. وقيل: "السائق" كاتب السيّئات، و"الشهيد" كاتب الحسنات. وقيل: "السائق" نفسه أو قرينه، و"الشهيد" جوارحه وأعماله.

ومحلّ ﴿مَّعَهَا﴾ النصب على الحاليّة مِن ﴿كُلُّ﴾، لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، كأنّه قيل: كلّ النفوس، أو الجرُّ على أنّه وصف لـ﴿نَفْسٍ﴾، أو الرفعُ على أنّه وصف لـ﴿كُلُّ﴾.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ محكيّ بإضمار قولٍ هو إمّا صفة أخرى لـ﴿نَفْسٍ﴾،[١] أو حال أخرى منها، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا يُفعَل بها؟ فقيل: يُقال: لقد كنتَ في غفلةٍ. وخطاب الكلّ بذلك لِما أنّه ما مِن أحدٍ إلّا وله غفلة ما مِن / الآخرة. وقيل: الخطاب للكافر. [١٢٣ظ]

---

١ في الآية السابقة.

وقُرئ: "كُنْتِ"[١] بكسر "التاء" على اعتبار تأنيث "النفس". والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص، كما في قول جَبَلة بن حُريث:

يـا نـفـسُ إنّـــكِ بـالـلـذّات مَـســرورٌ[٢]

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغِطاء: الحِجاب المغطّي لأمور المَعاد، وهو الغفلة والانهماك في المَحسوسات، والإلفُ بها، وقَصرُ النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذٌ لزوال المانع للإبصار. وقُرئ بكسر "الكاف" في المواضع الثلاثة.[٣]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطانُ المقيَّض له مشيرًا إليه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي وفي مَلَكتي عتيدٌ لجهنّم، قد هيّأته لها بإغوائي وإضلالي. وقيل: قال الملَك الموكَّل به مشيرًا إلى ما معه مِن كَتاب عملِه: هذا مَكتوب عندي عتيدٌ مهيّأٌ للعَرض. و﴿مَا﴾ إن جُعلت موصوفةً فـ﴿عَتِيدٌ﴾ صِفتها، وإن جُعلت موصولة فهي بدل منها، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

[٢] وفي هامش م: تمامه:

فاذكر فهل ينفعنْك اليومَ تذكيرُ

| لم أجده بهذا اللفظ، ولفظه في المصادر:

يا قلبُ إنّـكَ في أسماءَ مَغرورُ

اذكُر وهل ينفعُكَ اليومَ تذكيرُ

ووقع اختلاف في اسم قائله، ففي **العقد الفريد** لابن عبد ربّه، ٣/١٤١؛ و**شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ١/٢٣٧؛ و**تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٣٨/٢٠٤؛ و**معجم الأدباء** للحموي، ٤/١٥٨٢؛ و**شرح أبيات مغني اللبيب** للبغدادي، ٢/١٦٨، مِن قول حُرَيث بن جَبَلة. وفي **نزهة الألبّاء** للأنباري، ص ٣٥: عثمان بن لبيد العذري. وفي **لباب الآداب** لأسامة بن منقذ، ١/١٢٤: قيل: هذا الشعر لجَبَلة بن الحارث. وقيل: عثمان بن لبيد العذري. وفي **شرح مقامات الحريري** للشريشي، ١/٣١٨: جبلة بن الحويرث. وفي **درّة الغوّاص** للحريري، ص ٦٨: عثير بن لبيد العذري، وقيل: عثمان بن لبيد العذري.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب مِن الله تعالى للسائق والشهيد، أو للمَلَكين مِن خزَنة النار، أو لواحدٍ على تنزيل تثنية الفاعل منزلةَ تثنية الفعل وتكريرِه، كقول مَن قال:

فإن تزجُراني يا ابن عفّانَ أنْزَجِرْ وإن تَدَعاني أحْمِ عِرضًا ممنّعًا[1]

أو على أنّ "الألف" بدل مِن نون التأكيد على إجراء الوَصل مُجرى الوقف، ويؤيّده أنّه قُرئ: "أَلْقِيَنْ" بـ"النون" الخفيفة.[2] ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحقّ.

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثيرِ المَنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل: المراد بالخير الإسلام، فإنّ الآية نزَلت في الوليد بن المغيرة لمّا منع بني أخيه منه.[3] ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالمٍ متخطٍّ للحقّ، ﴿مُرِيبٍ﴾ شاكٍّ في الله وفي دينه.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾، أو بدل مِن ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾،[4] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرير للتوكيد، / أو مفعول لمُضمَر يفسّره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾. [١٢٤و]

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان المقيَّض له. وإنّما استُؤنفت استئنافَ الجمل الواقعة في حكاية المُقاولة لِما أنّه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، فإنّه منبئ عن سابقة كلام اعتذَر به الكافر، كأنّه قال: هو أطغاني، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسنادِ الطغيان إليه، بخِلاف الجملة الأولى[5] فإنّها واجبة العطف على ما قبلها دلالةً على الجمع بين مفهومَيهما في الحصول، أعني: مجيءَ كلّ نفس مع الملَكَين، وقولَ قرينه.

---

[1] لسُوَيد بن كُراع العُكْلي في لسان العرب لابن منظور، «جزز». وفيه: «وكان سُويد هذا هجا بني عبد الله بن دارم فاستعدَوا عليه سعيدَ بن عثمان، فأراد ضربه، فقال سويد قصيدة» فذكر أوّلها، وفيها البيت المذكور. ثمّ قال: «وهذا يدلّ على أنّه خاطب اثنين، سعيدَ بن عثمان ومَن يَنوب عنه أو يحضر معه». قال: «وقوله: "وإن تدعاني أحمِ عِرضًا مُمَنّعًا"، أي: إن تركتماني حَمَيت عِرضي ممّن يؤذيني، وإن زَجرتُماني انزجرتُ وصبرتُ».

[2] أي: بالتنوين في الوصل. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٢/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٧/٤.

[4] ق، ٢٤/٥٠.

[5] يعني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الآية [ق، ٢٣/٥٠].

﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ مِن الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء والدعوةِ إليه مِن غير قَسرٍ وإلجاءٍ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة في ذلك، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في دار الكسب في كُتبي، وعلى ألسِنة رُسلي، فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه مِن التعلّل بالمعاذير الباطلة. والجملة حال فيها تعليلٌ للنهي، على معنى: لا تختصِموا وقد صحّ عندكم أنّي قدّمتُ إليكم بالوعيد حيث قلتُ لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، فاتّبعتموه معرِضين عن الحقّ، فلا وجهَ للاختصام في هذا الوقت.

و"الباء" مَزيدة أو معدِّية على أنّ "قَدَّمَ" بمعنى "تَقَدَّمَ". وقد جُوّز[١] أن يكون ﴿قَدَّمْتُ﴾ واقعًا على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾... إلخ، ويكونَ بالوعيد متعلِّقًا بمحذوف هو حال مِن المفعول أو الفاعل، أي: وقد قدَّمتُ إليكم هذا القولَ ملتبِسًا بالوعيد مقترِنًا به، أو قدّمته إليكم مُوعِدًا لكم به، فلا تطمعوا أن أُبدّلَ وعيدي. والعفوُ عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل، فإنّ دلائل العفو تدلّ على تخصيص الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وارد لتحقيق الحقّ على الوجه الكلّي، وتبيينِ أنّ عدمَ تبديل القول وتحقيقَ موجَب الوعيد ليس مِن جهته تعالى مِن غير استحقاقٍ له منهم؛ بل إنّما ذلك بما صدَر عنهم مِن الجنايات الموجِبة له حسبما أشيرَ إليه آنفًا. / أي: وما أنا بمعذِّب للعبيد بغير ذنب مِن قِبَلهم. [١٢٤ظ]

---

١ جوّزه البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٤٢/٥.

والتعبير عنه بالظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظُلمٍ -على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة- فضلًا عن كونه ظُلمًا مفرِطًا لبيان[١] كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه مِن الظلم. وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغير ذنب في مَعرِض المبالغة في الظلم. وقيل: هي لرعاية جمعيّة العبيد، مِن قولهم: "فلان ظالم لعبده" و"ظلّام لعبيده" على أنّها مبالغة كَمًّا لا كيفًا.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤال وجواب، جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها. والمعنى: أنّها مع اتّساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها مِن الجِنّة والناس فوجًا بعد فوج حتّى تمتلئ، أو أنّها مِن السَّعة بحيث يدخلها مَن يدخلها وفيها بَعدُ محلّ فارغ، أو أنّها لغَيظها على العصاة تطلب زيادتهم. وقُرئ: "يَقُولُ" بـ"الياء".[٢]

و"المَزيد" إمّا مصدر كـ"المَحيد" و"المَميد"، أو مفعول كـ"المَبيع". و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر" أو "أنْذِرْ"، أو ظرف لِـ﴿نُفِخَ﴾،[٣] فيكون ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤] حينئذ إشارةً إليه مِن غير حاجة إلى تقديرِ مضافٍ، أو لِمُقدَّرٍ مؤخَّر، أي: يكون مِن الأحوال والأهوال ما يَقصُر عنه المقال.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد النفخ، ومجيءِ النفوس إلى موقف الحساب، وقد مرّ سِرّ تقديم بيان حال الكفرة عليه. وهو عطفٌ على ﴿نُفِخَ﴾،[٥] أي: قُرِبت للمتّقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها

---

١ وفي هامش م: خبر.
٢ قرأ بها نافع وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.
٣ ق، ٢٠/٥٠.
٤ ق، ٢٠/٥٠.
٥ ق، ٢٠/٥٠.

مِن الموقف، ويقفون على ما فيها مِن فنون المحاسن، فيبتهجون بأنّهم محشورون إليها، فائزون بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد للإزلاف، أي: مكانًا غيرَ بعيد بحيث يشاهدونها، أو حالَ كونها غيرَ بعيد، أي: شيئًا غيرَ بعيد. ويجوز أن يكون / التذكير لكونه على زِنَة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكّر والمؤنّث، [١٢٥و] أو لتأويل ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ بالبستان.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾.[1] والتذكير لِما أنّ المشار إليه هو المسمّى مِن غير أن يخطر بالبال لفظٌ يدلّ عليه فضلًا عن تذكيره وتأنيثه، فإنّهما مِن أحكام اللفظ العربي، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا[2] رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام، ٧٨/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب، ٢٢/٣٣]، ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر. وقيل: هو إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر ﴿أُزْلِفَتِ﴾.[3]

وقُرئ: "يُوعَدُونَ"،[4] والجملة إمّا اعتراض بين البدل والمبدَل منه، وإمّا مقدّر بقولٍ هو حال مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾،[5] أو مِن ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾،[6] والعامل ﴿أُزْلِفَتِ﴾،[7] أي: مَقولًا لهم، أو مَقولًا في حقّها: هذا ما توعَدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجّاعٍ إلى الله تعالى، بدل مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[8] بإعادة الجارّ، ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لتوبته مِن النقض. وقيل: هو الذي يحفظ ذنوبه حتّى يرجعَ عنها، ويستغفرَ منها.[9] وقيل:[10] هو الحافظ لأوامر الله تعالى. وقيل:[11] لِما استودعه الله تعالى مِن حقوقه.

---

١ في الآية السابقة.
٢ م س ي: ولمّا.
٣ في الآية السابقة.
٤ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.
٥ في الآية السابقة.
٦ في الآية السابقة.
٧ في الآية السابقة.
٨ في الآية السابقة.
٩ عن ابن عبّاس رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.
١٠ وفي هامش م س: ابن عبّاس. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٣/٧.
١١ وفي هامش م س: قتادة. «منه». | جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بدل بعدَ بدل، أو بدل مِن موصوف ﴿أَوَّابٍ﴾.[1] ولا يجوز أن يكون في حكمه؛ لأنّ ﴿مَنْ﴾ لا يُوصَف به، ولا يُوصَف إلّا بـ"الذي"، أو مبتدأ خبرُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بتأويل: يقال لهم: ادخُلوها. والجمعُ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿خَشِيَ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمَصدره، أي: خشيةً ملتبِسةً بالغيب حيث خشي عقابَه وهو غائب عنه، أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد.

والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بأنّهم مع خشيتهم عقابَه راجونَ رحمتَه، أو بأنّ عِلمهم بسَعة رحمته تعالى لا يصدّهم عن خشيته تعالى، وأنّهم عاملون بموجَب قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ
[١٢٥ظ] ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر، ١٥/٤٩-٥٠]. / ووصف القلب بالإنابة لِما أنّ العبرة برجوعه إلى الله تعالى.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: ملتبسين بسلامةٍ مِن العذاب وزوالِ النعم، أو بسلام مِن جهة الله تعالى وملائكته. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان الممتدّ الذي وقع في بعضٍ منه ما ذُكر مِن الأمور. ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ إذ لا انتهاءَ له أبدًا.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ مِن فنون المطالب كائنًا ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ﴿يَشَآءُونَ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوف مِن صلته.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم مِن معالي الكرامات التي لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطَرَ على قلب بشر. وقيل:

---
[1] في الآية السابقة.

إنّ السحاب تمرّ بأهل الجَنّة فتُمطرهم الحورَ، فتقول: نحن المَزيد الذي قال تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾.[١]

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ أي: قبلَ قومك ﴿مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ أي: قوّةً كعاد وأضرابِها، ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: خَرَّقوا[٢] فيها، ودَوَّخوا وتصرّفوا في أقطارها، وجالوا في أكناف الأرض كلّ مجال حِذارَ الموت. وأصل "التنقيب" و"النَّقْب" التنقيرُ عن الأمر والبحثُ والطلب. و"الفاء" للدلالة على أنّ شدّة بطشهم أقدرَتْهم على التنقيب. قيل: هي عاطفة في المعنى، كأنّه قيل: اشتدّ بطشهم فنقَّبوا... إلخ. وقُرئ بالتخفيف.[٣]

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل لهم مِن مُخلِّص مِن أمر الله تعالى.[٤] والجملة إمّا على إضمار قولٍ هو حال مِن واوِ ﴿نَقَّبُواْ﴾، أي: فنقَّبوا في البلاد قائلين: هل مِن مَحيص، أو على إجراء التنقيب لِما فيه مِن معنى التتبّع والتفتيش مُجرى القول، أو هو كلام مستأنَف وارد لنفي أن يكون لهم محيص.

وقيل: ضمير ﴿نَقَّبُواْ﴾ لأهل مكّة، أي: ساروا في مسائرهم وأسفارهم في بلاد القرون، فهل رأَوا لهم مَحيصًا حتّى يؤمِّلوا مثله لأنفسهم، ويعضُده القراءة على صيغة الأمر.[٥] وقُرئ: "فَنَقِبُوا"[٦] بكسر "القاف" مِن "النَّقَب"، وهو أن يَنتَقِب خفّ البعير، أي: أكثَروا السير حتّى نَقِبَت أقدامهم، أو أخفافُ إبلِهم.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩٠/٤. وفي **مسند أحمد**، ٢٤٣/١٨ (١١٧١٥)، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الرجل لَيتكئ في الجنّة سبعين سنةً قبل أن يتحوّل، ثمّ تأتيه امرأته، فتضرِب على مَنكبيه، فينظر وجهه في خدِّها أصفى مِن المِرآة، وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب، فتُسلِّم عليه، قال: فيردّ السلام، ويسألها: "مَن أنتِ؟" وتقول: "أنا مِن المزيد"».

٢ س: حرّقوا.

٣ أي: "فَنَقَبُوا" بفتح "القاف". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وأبي عمرو مِن رواية عبيد عنه. انظر: **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ١٦٧/٥؛ و**الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٣٤/١٠.

٤ م - تعالى.

٥ أي "فَنَقِّبُوا" بكسر "القاف" مشدّدة. قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وابن يَعمر وأبي العالية ونَصر بن يسار وأبي حَيوة والأصمعي عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤١/٩.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٣٤/١٠؛ و**اللباب** لابن عادل، ٤٤/١٨.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّتهم. وقيل: فيما ذُكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ / لتذكرةً وعِظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ سليمٌ، يُدرك به كُنهَ ما يشاهده مِن الأمور، ويتفكّر فيها كما ينبغي، فإنّ مَن كان له ذلك يعلم أنّ مَدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرّد مشاهدة الآثار مِن غير تذكير. [١٢٦و]

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: إلى ما يُتلى عليه مِن الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإنّ مَن فعلَه يقِف على جليّة الأمر، فينزجر عمّا يؤدّي إليه مِن الكفر، فكلمة ﴿أَوْ﴾ لِمَنع الخلوّ دون الجمع، فإنّ إلقاء السمع لا يُجدي بدون سلامة القلب، كما يلوّح به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر بفِطنته؛ لأنّ مَن لا يُحضِر ذهنه فكأنّه غائب. وتجريد القلب عمّا ذُكر مِن الصفات للإيذان بأنّ مَن عَرِيَ قلبه عنها كمَن لا قلبَ له أصلًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن أصناف المخلوقات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا﴾ بذلك مع كونه ممّا لا يفي به القُوَى والقُدَر ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ مِن إعياءٍ ما ولا تعبٍ في الجملة. وهذا ردّ على جهلة اليهود في زعمهم أنّه تعالى بدأ خلق العالم يومَ الأحد، وفرَغ منه يومَ الجمعة، واستراح يومَ السبت، واستلقى على العرش. سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ٣٩﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث مِن الأباطيل المَبنيّة على الإنكار والاستبعاد، فإنّ مَن فعلَ هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بَعثهم والانتقامِ منهم، أو ما يقوله اليهود مِن مقالات الكفر والتشبيه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهْهُ تعالى عن العجز عمّا يمكن، وعن وقوع الخُلف في أخباره التي مِن جملتها الإخبار بوقوع البعث، وعن وصفه تعالى بما يوجِب التشبيه حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك مِن إصابة

الحقّ وغيرها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[١] هما وقت الفجر والعصر، وفضيلتهما مشهورة.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ وسبِّحه بعض الليل، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصلوات. جمع "دُبُر". وقُرِئ بالكسر[٢] مِن "أدبَرَت الصلاةُ" إذا انقضَت وتمَّت. ومعناه: وقتَ انقضاء السجود. وقيل: المراد بـ"التسبيح" الصلاة، فالمراد بـ"ما قبل الطلوع" صلاةُ الفجر، وبـ"ما قبل الغروب" الظهرُ والعصرُ، وبـ"ما مِن الليل" العشاءان والتهجّد، / و"ما يصلّى بأدبار السجود" النوافلُ بعد المكتوبات. [١٢٦ظ]

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي: لِما يُوحى إليكَ مِن أحوال القيامة. وفيه تهويل وتفظيع للمخبَر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾[٣] أي: إسرافيل أو جبريل[٤] عليهما السلام، فيقول: "أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرّقة؛ إنّ الله يأمركنّ أن تجتمِعنَ لفصل القضاء". وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل[٥] ينادي بالحشر. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصِل نداؤه إلى الكلّ على سواء. وقيل: مِن صخرة بيت المقدس. وقيل: مِن تحت أقدامهم. وقيل: مِن مَنابت شعورهم يُسمَع مِن كلّ شعرةٍ. ولعلّ ذلك في الإعادة مثلُ "كُنْ" في البَدْء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾...[٦] إلخ، وهي النفخة الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾. والعامل في الظرف ما يدلّ عليه قوله تعالى:

---

[١] م س ي: غروبها.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

[٣] م س ي: ينادي المنادي.

[٤] س: جبرائيل.

[٥] س: وجبرائيل.

[٦] م س ي: ينادي. | في الآية السابقة.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾. أي: يوم يسمعون الصيحة ملتبِسةً بالحقّ الّذي هو البعث يخرجون مِن القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير أن يشاركنا في ذلك أحد. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَشَقَّق". وقُرئ بتشديد "الشين"،[١] و"تُشَقَّقُ"[٢] على البناء للمفعول مِن التفعيل، و"تَنْشَقُّ".[٣] ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين.

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بَعثٌ وجمعٌ وسَوقٌ ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّنٌ. وتقديم الجارّ والمجرور لتخصيص اليُسر به تعالى.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغيرِ ذلك ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمتسلِّط تَقسُرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنّما أنت مذكِّر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وأمّا مَن عداهم فنحن نفعل بهم ما يوجبه أقوالهم، ويستدعيه أعمالهم مِن ألوان العقاب وفنون العذاب.

عن النبيّ صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿قٓ﴾ هوّنَ الله عليه تاراتِ الموت وسكراته».[٥]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

٤ م - تعالى.

٥ س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشف والبيان للثعلبي، ٩٢/٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٦٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٠

سورة ق

مكية، إلاَّ «ولقد خلقنا السماوات» الآيةَ فمدنية، خمسٌ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿ق﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

﴿والقرآنِ المَجِيدِ﴾: الكريمِ، ما آمنَ كُفّار مكّة بمُحمّد ﷺ. ٢ ـ ٣ ـ ﴿بَل عَجِبُوا أن جاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُم﴾: رسول من أنفُسهم، ينذرهم: يخوّفهم بالنار بعد البعث، ﴿فقالَ الكافِرُونَ: هذا﴾ الإنذار......

سورة ق

قولُهُ: (اللهُ أَعلَمُ) قيل: إشارةٌ إلى الصِّفاتِ المصدَّرةِ بالقافِ، كالقديرِ والقاهرِ، وقيل: جبلٌ محيطٌ بالأرضِ[1]، أو معناهُ: قُضيَ الأمر، أو ما هو كائنٌ، أو قسمٌ بقوَّتِهِ وقدرتِهِ، أو قسمٌ بقوَّةِ قلبِ حبيبِهِ.

قولُهُ: (الكَرِيمِ) أي: ذي المجدِ والشَّرفِ على سائرِ الكتبِ، أو لأنَّهُ كلامُ المجيدِ، أو لأنَّ مَن حفظَ مبانيَهُ، وعَلِمَ معانيَهُ، وامتثلَ أوامرَهُ ونواهيَهُ؛ مُجِّدَ وعُظِّمَ غايةَ المجدِ، ونهايةَ العظمةِ.

قولُهُ: (مَا آمَنَ) يعني: جوابُ القسمِ مقدَّرٌ، وسيأتي غيرُه.

قولُهُ: (مِنْ أَنفُسِهِم) مِن جنسِهِم، أو أبناءِ جلدتِهِم، فهو إنكارٌ لتعجُّبِهِم ممَّا ليسَ بعجبٍ.

قولُهُ: (الإِنذَارُ) حكايةٌ لتعجُّبِهِم.

---

(١) استدرك ابن كثير هلى هذا القول بقوله في «تفسيره» (١/ ٣٢): وكأن هذا من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم.

﴿شَيءٌ عَجِيبٌ. أإذا﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين ـ ﴿مُتنا وكُنّا تُرابًا﴾ نرجِعُ؟ ﴿ذلِكَ رَجعٌ بَعِيدٌ﴾: في غاية البُعد.

٤ ـ ﴿قَد عَلِمْنا ما تَنقُصُ الأرضُ﴾: تأكل ﴿مِنهُم، وعِندَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾ هو اللوح المحفوظ، فيه جميع الأشياء المُقدّرة. ٥ ـ ﴿بَل كَذَّبُوا بِالحَقِّ﴾: بالقُرآن ﴿لَمّا جاءَهُم، فهُم﴾ في شأن النبيِّ والقُرآنِ ﴿في أمرٍ مَرِيجٍ﴾: مُضطرب. قالوا مرّةً: ساحرٌ وسِحر، ومرّةً: شاعرٌ وشِعر، ومرّةً: كاهنٌ وكِهانة.

٦ ـ ﴿أفلَم يَنظُرُوا﴾ بعُيونهم مُعتبرين بعُقولهم حينَ أنكروا البعثَ ﴿إلَى السَّماءِ﴾ كائنةً ﴿فَوقَهُم، كَيفَ بَنَيناها﴾ بلا عمدٍ ﴿وزَيَّنّاها﴾ بالكواكب ﴿وما لَها مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق تَعيبها؟ ٧ ـ ﴿والأرضَ﴾: معطوف على موضع «إلى السّماء» كيف ﴿مَدَدْناها﴾: دحَوناها على وجه الماء،..............

قولُهُ: (نَرجِعُ) أي: أنرجعُ إذا مُتْنا وصِرْنا تراباً، ويدلُّ على المحذوفِ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ﴾ وهو لازمٌ أو متعدٍّ.

قولُهُ: (فِي غَايَةِ البُعدِ) عن الوهمِ، أو العادةِ، أو الإمكانِ في زعمِهِم.

قولُهُ: (تَأكُلُ) مِن أجسادِ موتاهُم، وقيل: إنَّه جوابُ القسمِ، واللَّامُ حذفَ لطولِ الكلامِ.

قولُهُ: (المَحفُوظُ فِيهِ) أو محفوظٌ عن التَّغيُّرِ، أو حافظٌ لتفاصيلِ الأشياءِ كلِّها.

قولُهُ: (بالقُرآنِ) أو النَّبيِّ.

قولُهُ: (والقُرآنِ) لعلَّ الواوَ؛ بمعنى: أو.

قولُهُ: (مُضطَرِبٍ) مختلِطٍ.

قولُهُ: (مُعْتَبِرِينَ) هذا جمعٌ بين الحقيقةِ والمجازِ، أو بينَ المعنيَينِ المشتركينِ، وهو لا يجوزُ عندَنا[1]، ويمكنُ أن يكونَ المعنى على الأوَّلِ، والاعتبارُ مفهومٌ مِن الخارجِ، فلا إشكالَ، والأظهرُ أنَّ معنى النَّظرِ: هو التَّفكُّرُ والتَّأمُّلُ.

قولُهُ: (شُقُوقٍ) بأن خَلقَها مَلسَاءَ متلاصقَةَ الأجزاءِ.

قولُهُ: (مَعطُوفٌ) تكلُّفٌ وتعسُّفٌ، بل هو مفعولٌ مقدَّمٌ[2].

قولُهُ: (دَحَوْنَاهَا) أي: بَسَطناها.

---

(١) انظر: «شرح التلويح على التوضيح» (١/ ١٢٦)، و«تخريج الفروع على الأصول» (ص: ٦٨).

(٢) جاء في «إعراب القرآن وبيانه» للدرويش (٩/ ٢٨٢): الواو: حرف عطف، و﴿الأرض﴾: عطف على محل ﴿إلى السماء﴾ وهو النصب على المفعولية، ولك أن تنصب ﴿الأرض﴾ بفعل محذوف تقديره: ومددنا الأرض.

﴿وألقينا فيها رَواسِيَ﴾: جِبالاً تُثبتها، ﴿وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ زَوجٍ﴾: صِنفٍ ﴿بَهِيجٍ﴾ يُبهَج به لحُسنه، ٨ ـ ﴿تَبصِرةً﴾: مفعولٌ له، أي: فعلنا ذلك تبصيرًا منا، ﴿وذِكرَى﴾: تذكيرًا ﴿لِكُلِّ عَبدٍ مُنِيبٍ﴾ رجّاعٍ إلى طاعتنا؟ ٩ ـ ﴿ونَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكًا﴾: كثيرَ البركة، ﴿فأنبَتْنا بِهِ جنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وحَبَّ﴾ الزرع ﴿الحَصِيدِ﴾ المحصود، ١٠ ـ ﴿والنَّخلَ باسِقاتٍ﴾: طِوالاً حالٌ مُقدّرة، ﴿لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾: مُتراكب بعضُه فوق بعض، ١١ ـ ﴿رِزقًا لِلعِبادِ﴾ مفعول له، ﴿وأحيَينا بِهِ بَلدةً مَيْتًا﴾؟ يستوي في المُذكّر والمُؤنّث. ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلُ هذا الإحياءِ ﴿الخُرُوجُ﴾ من القُبور. ....

قولُهُ: (تُثَبِّتُهَا) فيه أنَّ الرَّواسيَ جمعُ: راسيةٍ؛ بمعنى: ثابتةٍ.

قولُهُ: (أي: فَعَلْنَا) ظاهرُه أنّه الفعلُ المعلِّلُ، وليس كذلك، بل إشارةٌ إلى أنّه علّةٌ للأفعالِ المذكورةِ.

قولُهُ: (تَبْصِيراً) أي: استدلالاً على توحِيدِهم لربِّهِم.

قولُهُ: (رَجَّاعٍ) صيغةُ ﴿منيبٍ﴾ ليسَت للمبالغةِ، فمعناهُ: راجعٌ إلى ربِّهِ متفكِّرٌ في بدائعِ صنعِهِ.

قولُهُ: (كَثِيرَ البَرَكَةِ) والمنفعةِ.

قولُهُ: (بَسَاتِينَ) أشجاراً وأثماراً وأزهاراً، بل وأنهاراً لعدمِ خلوِّهَا عنها عادةً.

قولُهُ: (الزَّرعَ) قدَّرَهُ تأويلاً على مذهبِ البصريِّينَ[1]، وأمَّا الكوفيُّونَ فيجوِّزُونَ إضافةَ الموصوفِ إلى الصِّفةِ.

قولُهُ: (المَحصُودِ) أي: الَّذي من شأنِهِ أن يُحصَدَ كالبُرِّ والشَّعيرِ.

قولُهُ: (طِوَالاً) أو حوامِلَ، وإفرادُها بالذِّكرِ لفرطِ ارتفاعِها وكثرةِ منافعِها.

قولُهُ: (مُتَرَاكِبٌ) منضُودٌ، والمرادُ: تراكمُ الطَّلعِ، أو كثرةُ ما فيه مِن التَّمرِ.

قولُهُ: (مَفعُولٌ لَهُ) لـ﴿أَنبَتْنَا﴾ أو مصدرٌ؛ فإنَّ الإنباتَ رزقٌ.

قولُهُ: (يَسْتَوِي) هذا ممَّا لا يستوي[2]، وتذكيرُهُ لأنَّ البلدةَ؛ بمعنى: البلدِ، أو المكانِ الَّذي لا نماءَ فيه.

قولُهُ: (أي: مِثلُ هَذَا) كما حَيِيَتْ هذه البلدةُ.

قولُهُ: (مِنَ القُبُورِ) أي: يكونُ خروجُكُم أحياءً بعدَ موتِكُم.

---

(١) انظر: «شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك» (ص: ٢٧٧).

(٢) في «التفسير الوسيط» للزحيلي (٢/ ١٨٠٤): ووصف البلدة بالميت؛ لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث، أو تكون البلدة بمعنى: البلد.

فكيف يُنكرونه؟ والاستفهام للتقرير، والمعنى أنهم نظروا وعلموا ما ذُكر.

١٢ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ﴾ ـ تأنيثُ الفعل لمعنى «قوم» ـ ﴿وأصحابُ الرَّسِّ﴾، هي بئر كانوا مُقيمين عليها بمواشيهم، يعبدون الأصنام، ونبيّهم قيل: حنظلةُ بن صفوانَ، وقيل: غيره، ﴿وثَمُودُ﴾: قومُ صالحٍ، ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿وعادٌ﴾: قوم هُود، ﴿وفِرعَونُ وإخوانُ لُوطٍ، وأصحابُ الأَيكةِ﴾ أي: الغَيضة قومُ شُعيب، ﴿وقَومُ تُبَّعٍ﴾ هو ملك كان باليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذّبوه. ﴿كُلٌّ﴾ من المذكورين ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ كقُريش، ﴿فحَقَّ وَعِيدِ﴾: وجبَ نُزول العذاب على الجميع. فلا يَضِقْ صدرُك من كُفر قُريش بك. ١٥ ـ ﴿أفعَيِينا بِالخَلقِ الأَوَّلِ﴾؟ أي: لم نَعيَ به فلا نعيا بالإعادة، ﴿بَل هُم في لَبسٍ﴾: شكٍّ ﴿مِن خَلقٍ جَدِيدٍ﴾، وهو البعث.

١٦ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْنا الإنسانَ، ونَعلَمُ﴾: حالٌ بتقدير «نحن» ﴿ما﴾: مصدرية ﴿تُوَسوِسُ﴾: تُحدّث ﴿بِهِ﴾ ـ الباء: زائدة أو للتعدية، والضمير للإنسان ـ ﴿نَفسُهُ، ونَحنُ أقرَبُ إليهِ﴾ بالعِلم ﴿مِن حَبلِ الوَرِيدِ﴾

قولُهُ: (للتَّقرِيرِ) الصَّوابُ أنَّه للإنكارِ.

قولُهُ: (وعَلِمُوا) فيه أنَّه لو علِموا لما أنكَروا ولآمَنوا وصَدَّقوا.

قولُهُ: (بِمَعنَى ﴿قومٍ﴾) وهو القبيلةُ الشَّاملةُ للرِّجالِ والنِّساءِ تغليباً، فإنَّ القومَ مختصٌّ بالرِّجالِ، كما عرفْتَ سابقاً[1].

قولُهُ تعالى: (﴿وَفِرْعَونُ﴾) المرادُ هو وقومُهُ؛ ليلائمَ سابقَهُ ولاحقَهُ من الجمعِ.

قولُهُ: (مِنَ المَذكُورِينَ) أي: كلُّ واحدٍ، أو قومٍ منهم، أو جميعُهُم، وإفرادُ ضميرِ (﴿كَذَّبَ﴾) لإفرادِ لفظِ ﴿كُلٌّ﴾.

قولُهُ: (وَجَبَ) أي: ثبتَ وحلَّ، وفيه تسليةٌ له ﷺ وتهديدٌ لهم.

قولُهُ: (لَمْ نَعْيَ) يعني: الهمزةُ للإنكارِ؛ أي: لم نعجَزْ ولم نتعَبْ.

قولُهُ: (شَكٍّ) أي: هم لا ينكِرونَ قدرَتَنا على الخلقِ الأوَّلِ ويعترفونَ به، بل هُم في خلطٍ وشبهةٍ في خلقٍ مستأنفٍ لما فيه مِن مخالفةِ العادةِ.

قولُهُ: (والضَّمِيرُ للإِنسَانِ) والمعنى: ونعلمُ وسوسَةَ نفسِ الإنسانِ إيَّاهُ.

قولُهُ: (بالعِلمِ) تجوُّزٌ بقربِ الذَّاتِ لقربِ العلمِ؛ لأنَّهُ موجبُه، وحبلُ الوريدِ مَثَلٌ في القربِ، قال[2]:

---

(١) في الآية رقم: (١١) من سورة الحجرات.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٨٣) ونسبه لذي الرمة، ولفظه في «ديوانه» (ص: ٣٥٦):

ـ الإضافةُ للبيان، والوريدانِ: عِرقانِ بصفحتَي العُنق ـ ١٧ ـ ﴿إذ﴾: ناصبُه «اذكرْ» مُقدّرًا ﴿يَتَلَقَّى﴾: يأخذُ ويُثبِتُ ﴿المُتَلَقِّيانِ﴾: المَلَكانِ المُوكلان بالإنسان ما يعمله، ﴿عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ﴾ منه ﴿قَعِيدٌ﴾ أي: قاعدان ـ وهو مُبتدأ خبره ما قبله ـ ١٨ ـ ﴿ما يَلفِظُ مِن قَولٍ إلاّ لَدَيهِ رَقِيبٌ﴾: حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾: حاضر. وكُلّ منهما بمعنى المُثنّى.

١٩ ـ ﴿وجاءَتْ سَكْرةُ المَوتِ﴾: غمرتُه وشِدّته ﴿بِالحَقِّ﴾ من أمر الآخرة ....

والمـوتُ أدنـى لـي مِـنَ الوَريـدِ

قولُهُ: (للبَيَانِ) والحبلُ: العرقُ.

قولُهُ: (بِصَفْحَتَي العُنُقِ) أي: مكتنفانِ محيطانِ بها في مقدَّمِ العنقِ متَّصلانِ بالوتينِ[١]، يرِدَانِ من الرأسِ إليه.

قولُهُ: (يَأْخُذُ) أي: يتلقَّنُ.

قولُهُ: (أي: قَاعِدَانِ) يعني: يُطْلَقُ القعيدُ للواحدِ والمتعدِّدِ، وقيل: التَّقديرُ: عن اليمينِ قعيدٌ، فحُذِفَ لدلالةِ الثَّاني عليه، والقَعيدُ؛ بمعنى: المُقاعِدِ، كالجليسِ؛ بمعنى: المُجالِسِ؛ أي: الملازمِ.

قولُهُ: (حَافِظٌ) مَلَكٌ يرقبُ عملَهُ.

قولُهُ: (حَاضِرٌ) معه، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يكتبُ عليه الخيرَ والشرَّ، رواهُ البخاريُّ[٢]؛ يعني: ما فيه ثوابٌ وعقابٌ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: المُثَنَّى) لا يُحتاجُ إلى هذا التَّأويلِ، فإنَّ الملفوظَ إمَّا خيرٌ فملكُهُ كاتبُ الحسناتِ، أو شرٌّ فملكُهُ كاتبُ السَّيِّئاتِ.

قولُهُ: (شِدَّتُهُ) الذَّاهبةُ بالعقلِ.

قولُهُ: (مِنْ أَمرِ الآخِرَةِ) فالباءُ للتَّعديةِ؛ أي: أحضرَتْ سكرةُ الموتِ حقيقةَ الأمرِ، أو الموعودَ الحقَّ[٣]، ونبَّهَ على اقترابِهِ بتعبيرِهِ بالماضِي.

= موعــود رب صــادق الموعــود والله أدنــى لــي مــن الوريــد

(١) الوَتينُ: عِرقٌ في القلب، إذا انقطع مات صاحبه «الصحاح» (٦/ ٢٢١١).

(٢) ذكره البخاري (٩/ ١٦٠) تعليقاً.

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٤٧٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٣٠). وصححه على شرط البخاري.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤١).

حتّى يراه المُنكِرُ لها عِيانًا ـ وهو نفس الشِّدّة ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: الموت ﴿ما كُنتَ مِنهُ تَحِيدُ﴾: تهرب وتفزع. ٢٠ ـ ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ﴾ للبعث ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: يومُ النفخ ﴿يَومُ الوَعِيدِ﴾ للكُفّار بالعذاب ـ ٢١ ـ ﴿وجاءَتْ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفسٍ﴾ إلى المحشر، ﴿مَعَها سائقٌ﴾: ملَك يسوقها إليه ﴿وشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بعملها ـ وهو الأيدي والأرجُل وغيرها ـ ويقال للكافر: ٢٢ ـ ﴿لَقد كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿في غَفلَةٍ مِن هذا﴾ النازلِ بك اليوم، ﴿فكَشَفْنا عَنكَ غِطاءَكَ﴾: أزلنا غفلتك بما تُشاهده اليوم، ﴿فبَصَرُكَ اليَومَ حَدِيدٌ﴾: حادّ تُدرِك به ما أنكرتَه في الدنيا.

٢٣ ـ ﴿وقالَ قَرِينُهُ﴾ الملَك المُوكل به: ﴿هذا ما﴾ أي: الذي ﴿لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾: حاضر. فيقال لمالِكٍ:

قولُهُ: (يَرَاهَا) أي: الآخرةَ.

قولُهُ: (وهُو نَفسُ الشِّدَّةِ) ما ظهرَ لي معناهُ[١].

قولُهُ: (تَهْرُبُ) وتميلُ، والخطابُ للإنسانِ المتقدِّمِ.

قولُهُ: (للكُفَّارِ) أي: وقتُ ذلك يومَ تحقُّقِ الوعيدِ، ففيه حذفُ مضافينِ.

قولُهُ: (﴿شَهِيدٌ﴾) قيل: هما ملكَانِ أحدُهُما يسوقُهُ إلى المحشرِ، والآخرُ يشهدُ بعملِهِ، أو ملكٌ جامعٌ للوصفَينِ، وقيل: السَّائقُ كاتبُ السَّيِّئاتِ، والشَّهيدُ كاتبُ الحسناتِ، وقيل: السائقُ نفسُه أو قرينُه، والشَّهيدُ جوارحُه أو أعمالُه[٢].

قولُهُ: (فِي الدُّنْيَا) والخطابُ لكلِّ نفسٍ؛ إذ ما من أحدٍ إلَّا ولهُ اشتغالٌ بالدُّنيا عن الآخرةِ، وقُرئَ بكسرِ التَّاءِ والكافاتِ[٣]، أو للكافرِ.

قولُهُ: (غَفْلَتَكَ) والغطاءُ: الحاجبُ لأمورِ المعادِ.

قولُهُ: (حَادٌّ) نافذٌ لزوالِ المانعِ من الإبصارِ.

قولُهُ: (أي: الَّذي) فـ﴿مَا﴾ موصولةٌ مبتدأٌ، و﴿عَتِيدٌ﴾ بدلُهُ، أو خبرٌ بعد خبرٍ.

قولُهُ: (حَاضِرٌ) أي: هذا ما هو مكتوبٌ عندي حاضرٌ لديَّ.

قولُهُ: (لمَالِكٍ) وقيل: للملَكَيْنِ من الخزنةِ، وقيل: للسَّائقِ والشَّهيدِ.

---

(١) جاء في «فتح البيان في مقاصد القرآن» للقنوجي (١٣/ ١٧١) متعقباً عبارة القاري: ممكن أن يقال: الضمير في قوله: (هو) راجع لأمر الآخرة، والمراد: بالشدة؛ الأمر الشديد، وهو أهوال الآخرة، فعلى هذا تكون هذه الجملة تفسيراً لقوله: من أمر الآخرة.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤١).

(٣) أي: (كنتِ) و(عنكِ عطاءكِ فبصركِ) وهي شاذة، ونسبت للجحدري، انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥).

٢٤ ـ ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: ألْقِ ألْقِ، أو «ألقِيَنْ» ـ وبه قرأ الحسن، فأُبدلَتِ النونُ ألفًا ـ ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾: مُعاند للحق ٢٥ ـ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كالزكاة ﴿مُعْتَدٍ﴾: ظالم ﴿مُرِيبٍ﴾: شاكٌّ في دِينه. ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾: مُبتدأ ضُمِّن معنى الشرط، خبرُه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ـ تفسيره مِثل ما تقدّم ـ ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾: أضللته، ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، فدعوته فاستجاب لي. وقال: هو أطغاني بدعائه لي.

٢٨ ـ ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: ما ينفع الخصام هنا، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِالْوَعِيدِ﴾: بالعذاب في الآخرة لو لم تُؤمنوا، ولا بدّ منه. ٢٩ ـ ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾: يُغير ﴿الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في ذلك، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فأُعذّبهم بغير جُرم ـ وظلّام: بمعنى ذِي ظُلم لقوله «لا ظُلمَ اليومَ» ـ ٣٠ ـ ﴿يَوْمَ﴾ ناصبُه «ظلّام» ﴿نَقُولُ﴾ ـ بالنون والياء ـ ﴿لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأْتِ﴾؟.........

قولُهُ: (أي: أَلْقِ أَلْقِ) يعني: تثنيةُ الفاعلِ نُزِّلَتْ منزلةَ تثنية الفعلِ، وتكريرُهُ للتَّأكيدِ، كقولِهِ:

فإنْ تزجُرانِي يا ابنَ عفَّانَ أنزجِرْ[1]

قولُهُ: (النُّونُ) أي: الخفيفةُ، إجراءً للوَصلِ مجرى الوقفِ.

قولُهُ: (كالزَّكَاةِ) أي: كَثيرِ المنعِ للمالِ عن حقُوقِهِ المفرُوضةِ.

قولُهُ: (ظَالِمٍ) متعدٍّ.

قولُهُ: (الشَّيطَانُ) المقيَّضُ له.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) على الطُّغيانِ في كتبي، وعلى ألسنةِ رسلي، فلم يبقَ لكم حجَّةٌ، والباءُ مزيدةٌ.

قولُهُ: (فِي ذَلِكَ) أي: بوقوعِ الخلفِ فيه، فلا تطمَعُوا أنْ أبدِّلَ وعيدِي.

قولُهُ: (بِغَيرِ جُرمٍ) تقدَّمَ الكلامُ فيه، وفي ﴿ظَلَّامٍ﴾[2].

قولُهُ: (والياءِ) نافعٌ وشعبةُ[3].

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٧٨) فقال: وأنشدني أبو ثروان سويد بن كراع العكلي، وعجز البيت:

وإن تدعانـي أحْـمِ عرضـاً ممنَّعاً

(٢) انظر الآيات رقم: (١٨٢) من سورة آل عمران، ورقم: (٥١) من سورة الأنفال، ورقم: (١٠) من سورة الحج، ورقم: (٤٦) من سورة فصلت.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٩).

استفهامُ تحقيقٍ لوعده بمَلئها، ﴿وتَقُولُ﴾ بصورة الاستفهام كالسؤال: ﴿هَل مِن مَزِيدٍ﴾ أي: فيَّ؟ لا أسَعُ غير ما امتلأتُ به، أي: قد امتلأتُ.

٣١ـ ﴿وأُزلِفَتِ الجَنَّةُ﴾: قُرِّبتْ ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ مكانًا ﴿غَيرَ بَعِيدٍ﴾ منهم، فيرونها ويقال لهم: ٣٢ـ ﴿هذا﴾ المرئيُّ ﴿ما تُوعَدُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ في الدنيا، ويُبدَل من «للمتّقين» قولُه: ﴿لِكُلِّ أوّابٍ﴾: رجّاع إلى طاعة الله ﴿حَفِيظٍ﴾: حافظ لحُدوده، ٣٣ـ ﴿مَن خَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيبِ﴾: خافه ولم يره، ﴿وجاءَ بِقَلبٍ مُنِيبٍ﴾: مُقبل على طاعته، ويقال للمتّقين أيضًا: ٣٤ـ ﴿ادخُلُوها بِسَلامٍ﴾ أي: سالمين من كُلّ مخوف، أو مع سلام أي: سَلِّموا وادخلوا. ﴿ذلِكَ﴾ اليوم الذي حصل فيه الدخول ﴿يَومُ الخُلُودِ﴾: ....

قولُهُ: (تحقيقٍ) وتقريرٍ.

قولُهُ: (أي: فيَّ) و(﴿مَزِيدٍ﴾) مصدرٌ أو مفعولٌ.

قولُهُ: (أي: قدِ امْتَلأْتُ) أو أنَّها من شدَّةِ زفيرِها وحدَّتِها وتشبُّثِها بالعصاةِ طالبَةٌ، أو كالطَّالبِ لزيادتِهِم، أو أنَّها من السَّعةِ بحيثُ يدخُلُها وفيها بعدُ فراغ.

قولُهُ: (مَكَاناً) إشارةٌ إلى أنَّ تذكيرَ ﴿بَعِيدٍ﴾ باعتبارِ موصوفٍ محذوفٍ.

قولُهُ: (المَرئِيُّ) أي: الإزلافُ، أو الثَّوابُ.

قولُهُ: (واليَاءِ) للغيبةِ مكِّيٌّ[1]، فلا يحتاجُ إلى تقديرِ القولِ.

قولُهُ: (ويُبْدَلُ) بإعادةِ الجارِّ.

قولُهُ: (إلى طَاعَةِ اللهِ) أو رجَّاعٍ إلى اللهِ.

قولُهُ: (خَافَهُ) بدلٌ بعدَ بدلٍ[2].

قولُهُ: (ولَمْ يَرَهُ) يعني: بالغيبِ حالٌ من الفاعلِ أو المفعولِ، أو حالَ كونِهِ غائباً عن النَّاسِ أو الأعينِ، وتخصيصُ الرَّحمنِ للإشعارِ بأنَّهم رَجَوا رحمتَهُ وخافُوا عقوبتَهُ.

قولُهُ: (مُقبِلٍ) وصفَ القلبَ بالإنابةِ؛ إذ الاعتبارُ برجوعِهِ إلى اللهِ.

قولُهُ: (مُخَوِّفٍ) من العذابِ وزوالِ النِّعمِ.

قولُهُ: (أو مَعَ سَلامٍ) أو مسلَّماً عليكُم من اللهِ وملائكتِهِ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٩).

(٢) أي: قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ﴾ بدل بعد ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وهو بدل من ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الدوامِ في الجنّة. ٣٥ ـ ﴿لَهُم ما يَشاؤُونَ فِيها، ولَدَينا مَزِيدٌ﴾: زيادة على ما عملوا وطلبوا.

٣٦ ـ ﴿وكَم أهلَكْنا قَبلَهُم مِن قَرنٍ﴾ أي: أهلكنا قبل كُفّار قُريش قُرونًا، أي: أممًا كثيرة من الكُفّار، ﴿هُم أشَدُّ مِنهُم بَطشًا﴾: قُوّة، ﴿فنَقَّبُوا﴾: فتّشوا ﴿في البِلادِ! هَل مِن مَحِيصٍ﴾ لهم أو لغيرهم من الموت؟ فلم يجدوا. ٣٧ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَذِكرَى﴾: لعِظَةً ﴿لِمَن كانَ لَهُ قَلبٌ﴾: عقل ﴿أو ألقَى السَّمعَ﴾: استمع الوعظ، ﴿وهُوَ شَهِيدٌ﴾: حاضر القلب.

٣٨ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما في سِتّةِ أيّامٍ﴾، أوّلها الأحدُ وآخرها الجمعة، ﴿وما مَسَّنا مِن لُغُوبٍ﴾: تعب. نزلَ ردًّا على اليهود في قولهم: «إنّ الله استراح يوم السبت». وانتفاءُ التعب عنه لتنزّهه ـ تعالى ـ عن صفات المخلوقين، ولعدم المماسّة بينه وبين غيره: «إنَّما أمرُهُ، إذا أرادَ شَيئًا، أن يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ».

قولُهُ: (الدَّوَامِ) أي: يومُ تقديرِ الخلودِ، كقولِهِ: ادْخُلوها خالِدينَ، مما تقديرُهُ غيرُ ضروريٍّ.

قولُهُ: (زِيَادَةٌ) ممَّا لا عينٌ رأَت، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ[1].

قولُهُ: (قُوَّةً) كعادٍ وفرعونَ.

قولُهُ: (فَتَّشُوا) أي: تصرَّفوا، أو جالوا في الأرضِ كلَّ مجالٍ حذرَ الموتِ.

قولُهُ: (مِنَ المَوْتِ) أو من اللهِ مخلصٌ أو مهربٌ.

قولُهُ: (المَذْكُورِ) في هذهِ السُّورةِ.

قولُهُ: (لَعِظَةً) وتذكرةً.

قولُهُ: (عَقلٌ) أو قلبٌ واعٍ يتفكَّرُ في حقائقِهِ.

قولُهُ: (القَلبِ) الظَّاهرُ: بذهنِهِ ليفهمَ معانيَهُ، وفي تنكيرِ القلبِ وإبهامِهِ تفخيمٌ عظيمٌ، وإشعارٌ بأنَّ كلَّ قلبٍ لا يتفكَّرُ ولا يتدبَّرُ كَلَا قلبٍ.

قولُهُ: (تَعَبٍ) وإعياءٍ.

قولُهُ: (استَرَاحَ) واستَلقى على العرشِ.

---

(١) روى البخاري (٣٢٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

٣٩ ـ ﴿فاصبِرْ﴾، خِطاب للنبيّ ﷺ ﴿علَى ما يَقُولُونَ﴾، أي: اليهودُ وغيرهم من التشبيه والتكذيب، ﴿وسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ﴾: صَلِّ حامدًا ﴿قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ﴾ أي: صلاةَ الصُّبح، ﴿وقَبلَ الغُرُوبِ﴾ أي: صلاتَيِ الظُّهر والعصر، ٤٠ ـ ﴿ومِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: صلِّ العِشاءين، ﴿وأدبارَ السُّجُودِ﴾ ـ بفتح الهمزة: جمع دُبُر، وكسرِها: مصدر أدبَر ـ أي: صلِّ النوافل المسنونة عقب الفرائض. وقيل: المراد حقيقة التسبيح في هذه الأوقات مُلابسًا للحمد.

٤١ ـ ﴿واستَمِعْ﴾ ـ يا مُخاطب بقَولي ـ ﴿يَومَ يُنادِي المُنادِي﴾ هو إسرافيل ﴿مِن مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ من السماء ـ وهو صخرةُ بيت المَقدس، أقرب موضع من الأرض إلى السماء. يقول: أيّتها العِظامُ البالية، والأوصال المُتقطّعة، واللُّحوم المُتمزّقة، والشُّعور المُتفرّقة. إنّ الله يأمركُنّ أن تجتمعْنَ لفصل القضاء ـ ٤٢ ـ ﴿يَومَ﴾: بدلٌ من «يومَ» قبله ﴿يَسمَعُونَ﴾ أي: الخلقُ كُلّهم ﴿الصَّيحةَ بِالحَقِّ﴾: بالبعث. وهي النفخة الثانية من إسرافيل. ويَحتمل أن تكون قبل ندائه وبعده ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: يومُ النداء ويوم السماع ﴿يَومُ الخُرُوجِ﴾ من القُبور. وناصبُ «يومَ: يُنادي» مُقدّرٌ، أي: يعلمون عاقبة تكذيبهم. ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿إنّا نَحنُ نُحيِي ونُمِيتُ، وإلَينا المَصِيرُ ـ يَومَ﴾: بدل من «يومَ» قبله وما بينهما اعتراض ﴿تَشَقَّقُ﴾، بتخفيف الشين،

قولُهُ: (العِشَاءَينِ) يعني: مع الوترِ، وقيل: والتَّهجُّدَ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) الحرميَّانِ وحمزةُ[1].

قولُهُ: (مَصْدَرُ أَدْبَرَ) انقضَى.

قولُهُ: (عَقبَ الفَرَائِضِ) إذا لم يكُنْ وقتَ كراهةٍ، وقيل: الوترُ بعدَ العشاءِ[2].

قولُهُ: (مُلَابِساً لِلحَمدِ) أي: نزِّهْهُ عمَّا لا يليقُ بشأنِهِ مثبتاً له صفاتِ الكمَالِ، أو قلْ: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ.

قولُهُ: (مُخَاطَبُ بقَولِي) مضافٌ منصُوبٌ؛ أي: استمِعْ لما أخبرُكَ به من أحوالِ القيامةِ، وفي حذفِ المفعولِ تهويلٌ وتعظيمٌ للمُخْبَرِ به.

قولُهُ: (هُوَ إِسْرَافِيلُ) أو جبريلُ.

قولُهُ: (مِنَ السَّمَاءِ) أو بحيثُ يصلُ نداؤُهُ إلى الكلِّ على سواءٍ.

قولُهُ: (بالبَعْثِ) يعني: بالحقِّ، متعلِّقٌ بـ﴿الصَّيحة﴾، والمرادُ به: البعثُ للجزاءِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٠٧).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٤).

وتشديدها بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها، ﴿الأرضُ عَنهُم سِراعًا﴾: جمعُ سَريع، حالٌ من مُقدّر، أي: فيَخرجون مُسرعين. ﴿ذلِكَ حَشرٌ علَينا يَسِيرٌ﴾. فيه فصل بين الموصوف والصفة بمُتعلّقها للاختصاص. وذلك: إشارة إلى معنى الحشر المُخبَر به عنه، وهو الإحياءُ بعد الفناء والجمعُ للعرض والحساب.

٤٥ ـ ﴿نَحنُ أعلَمُ بِما يَقُولُونَ﴾ أي: كُفّارُ قُريش، ﴿وما أنتَ علَيهِم بِجَبّارٍ﴾ تَجبرُهم على الإيمان. وهذا قبل الأمر بالجِهاد. ﴿فذَكِّرْ بِالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعِيدِ﴾ وهم المُؤمنون.

قولُهُ: (وتَشدِيدِهَا) حرميٌّ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (أي: كُفَّارُ قُرَيشٍ) تهديدٌ لهم وتسليةٌ له ﷺ.

قولُهُ: (تُجبِرُهُم) أو تفعلُ بهم ما تريدُ، وإنَّما أنتَ داعٍ.

قولُهُ: (بالجِهَادِ) كلٌّ من الخبرينِ لا يصلحُ للنَّسخِ.

قولُهُ: (وهُمُ المُؤمِنُونَ) لأنَّهم المنتفعونَ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٦٧٩).

سُورَةُ قٓ

وتسمى سورة الباسقات

وهي مكية، وأطلق الجمهور ذلك، وفي «التحرير» عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية [٣٨] فهي مدنيَّة نزلت في اليهود[١]، وآيها خمسٌ وأربعون بالإجماع.

ولما أشار سبحانه في آخر السورة السابقة إلى أنَّ إيمانَ أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقّاً، ويتضمَّن ذلك إنكار النبوَّة وإنكار البعث افتتحَ عز وجل هذه السورةَ بما يتعلَّق بذلك.

وكان ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة الفجر كما في حديث مسلم وغيره عن جابر بن سمرة[٢]، وفي رواية ابن ماجه وغيره عن قُطْبَةَ بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في الركعة الأُولى من صلاة الفجر[٣]. وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت[٤]. وأخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أمِّ هشام ابنةِ حارثة قالت: ما أخذتُ «ق والقرآن المجيد» إلا من فِيْ رسولِ الله ﷺ، كان يقرأ بها في كلِّ جمعةٍ على المنبر إذا خطب الناس[٥].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٤٢٤.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٨)، وأخرجه أحمد (٢٠٨٥٤).

(٣) سنن ابن ماجه (٨١٦)، وأخرجه مسلم (٤٥٧).

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠١، ومسند أحمد (٢١٨٩٦)، وصحيح مسلم (٨٩١)، وسنن أبي داود (١١٥٤)، وسنن ابن ماجه (١٢٨٢)، وسنن الترمذي (٥٣٤)، وسنن النسائي ٣/ ١٨٣-١٨٤.

(٥) سنن أبي داود (١١٠٠)، وسنن البيهقي ٣/ ٢١١، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١١٥، ولم نقف عليه عند ابن ماجه، وأخرجه أحمد (٢٧٤٥٦)، ومسلم (٨٧٣).

وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء ﷺ مرفوعاً: «تَعلَّموا: ق والقرآن المجيد».

وكل ذلك يدلُّ على أنها من أعظمِ السور.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ ذي المَجْد والشَّرف من باب النَّسب كـ: لابِن وتامِر، وإلا فالمعروفُ وصف الذات الشريفة به، وصنيعُ بعضهم ظاهرٌ في اختيار هذا الوجه، وأُورد عليه أن ذلك غير معروف في فعيل كما قاله ابنُ هشام في: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف:٥٦][1] وأنت تعلم أنَّ من حَفِظَ حُجَّةٌ على من لم يحفظْ، وشرفُه على هذا بالنسبة لسائر الكتب؛ أما غير الإلهية فظاهر، وأما الإلهية فلإعجازه وكونه غيرَ منسوخ بغيره، واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيقُ عنها كلُّ واحد منها، وقال الراغب: المجدُ: السَّعة في الكرم، وأصله: مَجَدَتِ الإبلُ، إذا وقعت في مرعى كثير واسع، ووصف القرآن به لِكَثْرةِ ما يتضمَّن من المكارم الدنيوية والأُخروية[2]. ويجوز أن يكونَ وصفُه بذلك لأنه كلامُ المجيد، فهو وصفٌ بصفةِ قائله، فالإسناد مجازيٌّ كما في «القرآن الحكيم»، أو لأنَّ مَن عَلِمَ معانيه وعَمِلَ بما فيه مُجِّدَ عند الله تعالى وعند الناس، فالكلام بتقدير مضاف حُذف فارتفع الضميرُ المضافُ إليه، أو فَعيل فيه بمعنى مُفْعِل، كبديع بمعنى مُبْدِع، لكن في مجيء فعيل وصفاً من الإفعال كلامٌ، وأكثرُ أهل اللغة والعربية لم يُثْبته.

وأكثرُ ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١] يجري هاهنا حتى إنه قيل: يجوز أن يكون «ق» أمراً من مُفاعلة قَفا أثره، أي: تَبِعه، والمعنى: اتَّبع القرآنَ واعْمَلْ بما فيه، ولم يُسمع مأثوراً، ومثله ما قيل: إنه أمرٌ بمعنى: قف، أي: قفْ عند ما شرع لك ولا تجاوزه.

---

(١) مغني اللبيب ص٦٦٦.

(٢) المفردات (مجد).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها، ومن وراء ذلك جبلاً يقال له: قاف، السماء الدنيا مُترفرفة عليه، ثم خَلَق من وراءِ ذلك الجبلِ أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له قاف، السماءُ الثانية مُترفرفة عليه، حتى عدَّ سبعَ أَرَضين وسبعةَ أبحر وسَبعة أَجْبُل، ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان:٢٧][(١)].

وأخرج ابن أبي الدنيا في «العقوبات» وأبو الشيخ عنه أيضاً أنه قال: خلق اللهُ تعالى جبلاً يقال له: قاف، محيطاً بالعالم وعروقُه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قريةً أمر ذلك الجبل فحرَّك العِرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحرِّكها، فمن ثم تُحرَّك القرية دون القرية[(٢)].

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» والحاكم وابن مردويه عن عبد الله بن بُريدة أنه قال في الآية: قاف جبلٌ من زُمرد محيطٌ بالدنيا عليه كنفا السماء[(٣)].

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه أيضاً قال: هو جبل محيط بالأرض[(٤)].

وذهب القرافيُّ إلى أنَّ جبلَ قاف لا وجودَ له، وبرهن عليه بما برهن ثم قال: ولا يجوزُ اعتقادُ ما لا دليلَ عليه.

وتعقَّبه ابن حجر الهيتمي فقال: يردُّ ذلك ما جاء عن ابن عباس من طُرق خرَّجها الحُفَّاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريجَ الصحيح، وقولُ الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجالَ للرأي فيه حكمه حُكمُ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ: إنَّ وراءَ أرضنا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠١ ونسبه لابن أبي حاتم، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام، ولم نقف عليه في تفسير الطبري. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: هذا من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٢، والعظمة لأبي الشيخ (٩٩٢).

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠١، والعظمة (٩٩٣)، والمستدرك ٢/ ٤٦٤، ووقع في مطبوع العظمة: كتفا، بدل: كنفا. وإسناده ضعيف كما ذكرنا عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٣٦.

بحراً محيطاً، ثم جبلاً يقال له: قاف، إلى آخر ما تقدَّم، ثم قال: وكما يندفع بذلك قوله: لا وجودَ له، يندفعُ قولُه: ولا يجوزُ اعتقاد.. إلخ؛ لأنه إن أراد بالدليل مطلق الأمارة فهذه عليه أدلة، أو الأمارة القطعية فهذا مما يكفي فيه الظنُّ كما هو جليٌّ(١). انتهى.

والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القَرَافي من أنه لا وجودَ لهذا الجبل بشهادة الحسِّ، فقد قطعوا هذه الأرضَ بَرَّها وبَحْرَها على مدار السرطان مراتٍ فلم يُشاهدوا ذلك، والطعنُ في صحَّةِ هذه الأخبار وإن كان جماعةٌ من رُواتها ممن التزم تخريجَ الصحيح أهونُ من تكذيب الحسِّ، وليس ذلك من باب نفي الوجود لعدمِ الوجدان كما لا يخفى على ذوي العرفان. وأمر الزلزلة لا يتوقَّف على ذلك الجبلِ، بل هي من الأبخرة وطلبِها الخروج مع صلابة الأرض، وإنكارُ ذلك مُكابرةٌ عند من له أدنى عرقٍ من الإنصاف، والله تعالى أعلم.

واختُلف في جواب القَسَم فقيل: محذوفٌ يُشعر به الكلام، كأنه قيل: والقرآنِ المجيد إنَّا أنزلناه لِتُنذِرَ به الناس، وقدَّره أبو حيان: إنك جئتهم منذراً بالبعث(٢). ونحو(٣) ما قيل: هو: إنك لمنذرٌ. وقيل: ما ردُّوا أمرك بحجَّة.

وقال الأخفش والمبرِّد والزجاج: تقديره: لَتبعثنَّ(٤).

وقيل: هو مذكور؛ فعن الأخفش «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم» وحُذفت اللام لطُول الكلام. وعنه أيضاً وعن ابن كيسان: «ما يَلْفِظُ من قول» وقيل: «إنَّ في ذلك لذكرى» وهو اختيارُ محمد بن علي الترمذي(٥). وقيل: «ما يُبدَّل القولُ لدي».

---

(١) سلف كلام ابن حجر عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ونحوه.

(٤) مذهب الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٩٦ أن الجواب: «قد علمنا ما تنقص»، وسيذكره المصنف، ومذهب الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤١ أن تقدير الجواب: إنكم لمبعوثون. وما ذكره المصنف نقله عن البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٥) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٤٢٧-٤٢٨.

وعن نُحاة الكوفة هو قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. وما ذُكر أولاً هو المُعوَّل عليه.

و«بل» للإضراب عمَّا يُنبئ عنه جوابُ القَسَم المحذوف، فكأنه قيل: إنَّا أنزلناه لِتُنذِرَ به الناسَ فلم يؤمنوا به، بل جعلوا كلًّا من المُنذِر والمُنذَر به عُرضةً للتكبُّر والتعجُّب مع كونهما أوفقَ شيء لقضية العقول وأقربَه إلى التلقِّي بالقَبول.

وقيل: التقدير: إنك جئتَهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا، بل عَجِبُوا، أو: فشكُّوا فيه، بل عَجِبوا، على معنى: لم يكتفوا بالشكِّ والردِّ، بل جزموا بالخِلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة.

وقيل: هو إضرابٌ عمَّا يُفهم من وصفِ القرآن بالمجيد،كأنه قيل: ليس سببَ امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا مجدَ له، ولكن لجهلهم، ونبَّه بقوله تعالى: «بل عَجِبوا» عليه؛ لأنَّ التعجُّب من الشيء يقتضي الجهلَ بسببِهِ. قال في «الكشف»: وهو وجهٌ حسن.

و«أنْ جاءهم» بتقدير: لأنْ جاءهم، ومعنى «منهم»: من جِنْسهم، أي: من جنس البشر أو من العرب، وضمير الجمع في الآية عائدٌ على الكُفَّار، وقيل: عائدٌ على الناس، وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ تفسيرٌ لتعجُّبهم، وبيانٌ لكونه مقارناً لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحلِّ التعجُّب، و«هذا» إشارةٌ إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن، وإضمارهم أولاً للإشعار بتعيُّنهم بما أُسند إليهم، وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه. أو عطفٌ لتعجُّبهم من البعث على تعجُّبهم من البعثة، وعطفُه بالفاء لوقوعه بعدَه وتفرُّعِهِ عليه لأنه إذا أنكر المبعوث أنكر ما بُعِثَ به أيضاً، على أن «هذا» إشارةٌ إلى مُبهم ـ وهو البعث ـ يُفسِّره ما بعدَه من الجملة الإنكارية، ودلَّ عليه السِّياق أيضاً لأنه دلَّ على أن ثَمَّ منذَراً به، ومعلومٌ أن إنذارَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول كلِّ شيء بالبعث وما يَتْبعه.

ووُضِعَ المُظهر موضعَ المُضمر إما لِسَبْقِ اتِّصافهم بما يُوجب كُفرَهم؛ وإما للإيذان بأنَّ تعجُّبهم من البعث ـ لدلالته على استقصارهم لِقُدرة الله سبحانه عنه مع مُعاينتهم لقُدرته عز وجل على ما هو أشقُّ منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة ـ أشنع من الأول وأعرق في كونه كفراً.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجُّب وتأكيدٌ للإنكار، أو بيانٌ لموضع تعجُّبهم، والعامل في «إذا» مضمرٌ غنيٌّ عن البيان لغاية شُهرته مع دَلالة ما بعدَه عليه، أي: أحين نموت ونصيرُ تراباً نرجع كما ينطقُ به النذير والمُنذَر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ.

وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى محلِّ النزاع وهو الرجعُ والبعث بعد الموت، أي: ذلك الرجعُ ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ أي: عن الأوهام أو العادة أو الإمكان.

وقيل: الرَّجْعُ بمعنى المرجوع، أي: الجواب، يقال: هذا رَجْعُ رسالتك ومرجوعُها ومرجوعتها، أي: جوابها، والإشارة عليه إلى «أئذا متنا» إلخ، والجملةُ من كلام الله تعالى، والمعنى: ذلك جوابٌ بعيدٌ منهم لمنذرهم، وناصبُ «إذا» حينئذ ما يُنبئ عنه المُنذِرُ من المُنذَر به وهو البعث، أي: أئذا متنا وكُنَّا تراباً بُعثنا. وقد يقال: إنه لمَّا تقرَّر أن ذلك جوابٌ منهم لمنذِرهم فقد عُلم أنه أَنذرهم بالبعث ليصلحَ ذلك جواباً له، فهو دليلٌ أيضاً على المُقدَّر، فالقولُ بأنه إذا كان الرَّجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، لا يكون في الكلام دليلٌ على ناصب «إذا» مندفع. نعم هذا الوجه في نفسِ بعيدٌ، بل قال أبو حيان[1]: إنه مفهومٌ عجيبٌ ينبو عن إدراكه فَهْمُ العرب.

وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثَّاب والأعمش وابن عُتبة عن ابن عامر: «إذا» بهمزة واحدة[2] على صورة الخبر، فجاز أن يكونَ استفهاماً حُذفت منه

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٠، والمحتسب ٢/ ٢٨١ وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر وابن عامر.

الهمزة، وجاز أن يكونَ خبراً، قال في «البحر»[1]: وأضْمِرَ جوابُ «إذا»، أي: إذا متنا وكنَّا تراباً رَجَعنا، وأجاز صاحبُ «اللوامح» أن يكونَ الجوابُ: «ذلك رَجْعٌ بعيدٌ» على تقدير حذف الفاء، وقد أجاز ذلك بعضُهم في جواب الشرط مطلقاً إذا كان جملةً اسمية. وقَصَره أصحابُنا على الشعر في الضرورة.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم، وهو ردٌّ لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه، وهو أن أجزاءهم تفرَّقت فلا تُعلم حتى تُعاد بزعمهم الفاسد.

وقيل: «ما تنقصُ الأرضُ منهم»: مَن يموت فيدفَنُ في الأرض منهم، ووجهُ التعبير بـ «ما» ظاهرٌ. والأولُ أظهرُ، وهو المأثور عن ابن عباس وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ تعميمٌ لعلمه تعالى، أي: وعندنا كتابٌ حافظٌ لتفاصيلِ الأشياء كلِّها، ويدخلُ فيها أعمالُهم، أو محفوظٌ عن التغيُّر، والمرادُ إما تمثيلُ عِلْمه تعالى بكليات الأشياء وجُزئياتها بعِلْمِ مَنْ عنده كتابٌ حفيظ يتلقَّى منه كلَّ شيء، أو تأكيدٌ لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه.

هذا، وفي الآية إشارةٌ إلى ردِّ شُبهةٍ تمسَّكَ بها مَنْ يرى استحالةَ إعادة المعدوم ونفَى البعث لذلك بناءً على أن أجزاءَ الميتِ تُعدم ولا تتفرَّق فقط. وحاصلُها أنَّ الشيءَ إذا عدم ولم يستمرَّ وجودُه في الزمان الثاني ثم أُعيد في الزمان الثالث لزم التحكُّم الباطل في الحكم بأنَّ هذا الموجودَ المتأخِّر هو بعينه الموجود السابق لا موجود آخر مثله مستأنف، إذ لمَّا فقد هوية الموجود الأول لم يبقَ منه شيء من الموضوع والعوارض الشخصية حتى يكون الموجودُ الثاني مشتملاً عليه، ويكون مرجِّحاً للحكم المذكور ويندفع التحكُّم.

وحاصلُ الرَّدِّ على أنَّ الله تعالى عليمٌ بتفاصيل الأشياء كلِّها، يعلم كُلِّيَّاتها وجُزئياتِها على أتمّ وجهٍ وأكمله. فللمعدوم صورةٌ جزئية عنده سبحانه، فهو محفوظٌ بعوارضه الشخصية في علمه تعالى البليغ على وجهٍ يتميَّز به عن المستأنف، فلا يلزم

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

التحكّم، ويكون ذلك نظيرَ انحفاظ وَحْدة الصورة الخيالية فينا بعد غيبة المحسوس عن الحِسّ، كما إذا رأينا شخصاً فغاب عن بصرنا ثم رأيناه ثانياً فإنا نحكم بأنَّ هذا الشخصَ هو مَن رأيناه سابقاً، وهو حكمٌ مطابق للواقع مبنيٌّ على انحفاظ وحدةِ الصورة الخيالية قطعاً، ولا يُنكره إلا مكابرٌ.

وقال بعضُ الأشاعرة: إنَّ للمعدوم صورةً جزئية حاصلةً بتعلُّق صفةِ البصر من المُوجِد وهو الله تعالى، وليست تلك الصورةُ للمستأنَف وجوده، فإن صورتَه وإن كانت جزئيةً حقيقيةً أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلُّق صفة البصر، ولا شكَّ أن المترتِّب على تعلُّق صفة البصر أكملُ من غير المترتّب عليه، فبين الصورتين تمايزٌ واضح، وإذا انحفظ وحدة الموجودِ الخارجي بالصور الجُزئية الخيالية لنا فانحفاظُها بالصورة الجزئية الحاصلةِ له تعالى بواسطة تعلُّق صفة البصر بالطريق الأولى. انتهى، وهو حسنٌ لكن لا تُشير الآية إليه.

وأيضاً لا يتمُّ عند القائلين بعدم رؤية الله سبحانه المعدوماتِ مطلقاً، إلا أن أولئك قائلون بثبوتِ هويّات المعدومات متمايزة تمايزاً ذاتياً حالَ العدمِ، فلا تَرِدُ عليهم الشُّبهة السابقة. وقد يقال: إنَّ صفةَ البصر ترجعُ إلى صفة العلم، وتعلُّقاتُه مختلفة، فيجوز أن يكون لِعلمه تعالى تعلُّقاً خاصّاً[1] بالموجود الذي عدم غيرَ تعلّقه بالمستأنف في حال عدمه، وبذلك يحصلُ الامتياز ويندفعُ التحكُّم، ويقال على مذهب الحكماء: إنَّ صورةَ المعدومِ السابق مُرتسمةٌ في القوى المُنطبعة للأفلاك بناءً على أن صورَ جميع الحوادثِ الجسمانية منطبعةٌ فيها عندهم، فله صورةٌ خياليةٌ جزئية محفوظةُ الوحدة الشخصية بعد فَنائه، بخلافِ المستأنف إذ ليس له تلك الصورة قبل وجوده، وإنما له الصور الكلية في الأذهان العالية والسافلة، فإذا أُوجدت تلك الصورةُ الجزئية كان معاداً، وإذا أُوجدت هذه الصورة الكلية كان مستأنفاً، وربما يدَّعي الإسلامي المتفلسف أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ رمزاً إلى ذلك، وللجلال الدواني كلامٌ في هذا المقام لا يخلو عن نَظَرٍ عند ذوي

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الوجه: تعلُّقٌ خاصٌّ.

الأفهام. ثم إنَّ البعثَ لا يتوقَّف على صحةِ إعادة المعدوم عند الأكثرين لأنهم لا يقولون إلا بتفرُّق أجزاءِ الميت دون انعدامها بالكلية، ولعلَّ في قوله تعالى حكايةً عن مُنكريه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إشارة إلى ذلك، وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيء لا يَبلى إلا عظمٌ واحدٌ، وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه يُركَّب الخَلْق يومَ القيامة»[1]. وليس نصّاً في انعدام ما عدا العَجْبِ بالمرَّة؛ لاحتمال أنْ يُرادَ بِبِلَى غيره من الأجزاء انحلالُها إلى ما تركَّبت منه من العناصر، وأما هو فيبقى على العظمية، وهو جزءٌ صغير في العَظْم الذي في أسفل الصُّلب.

ومن كلام الزمخشري: العَجْب أمره عَجَب هو أولُ ما يُخلَق وآخرُ ما يَخْلُق[2].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضرابٌ أُتْبِعَ الإضرابَ الأول للدلالةِ على أنهم جاؤوا بما هو أفظعُ من تعجُّبهم، وهو التكذيبُ بالحقِّ ـ الذي هو النبوَّة الثابتةُ بالمُعجزات ـ في أول وَهْلة من غير تفكُّر ولا تدبُّر، فكأنه بدلُ بداءٍ[3] من الأول، فلا حاجةَ إلى تقدير: ما أجادوا النظر، بل كذَّبوا، أو: لم يَكذب المنذِرُ بل كذَّبوا. وكون التكذيب المذكور أفظعَ قيل: من حيث إن تكذيبهم بالنبوَّة تكذيبٌ بالمُنبَّأ به أيضاً، وهو البعثُ وغيره. وقيل: لأنَّ إنكارَ النبوَّة في نفسه أفظعُ من إنكار البعث، وربَّما لا يتمُّ عند القائلين بأن العقلَ مستقلٌّ بإثبات أصل الجزاء، على أنَّ من الجائز أن يكونوا قد سمعوا بالبعث من أصحابِ ملل أُخرى، بخلاف نبوَّته عليه الصلاة والسلام خاصَّة.

وقيل: المرادُ بالحقِّ الإخبارُ بالبعث، ولا شكَّ أنَّ التكذيبَ أسوأ من التعجُّب وأفظعُ، فهو إضرابٌ عن تعجُّبهم بالمنذِر والمنذَر به إلى تكذيبهم.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، وسنن أبي داود (٨٢٨٣)، والنسائي ٤/ ١١١-١١٢.

(٢) الفائق ٢/ ٣٩٨ بنحوه.

(٣) وهو ما لا تناسب بينه وبين الأول بموافقة ولا خبرية، بل هما متباينان لفظاً ومعنى، ويسمى أيضاً بدل الإضراب. أوضح المسالك ص ٥١١، وهمع الهوامع ٣/ ١٧٨.

وقيل: المرادُ به القرآن، والمضروبُ عنه عليه ـ على ما قال الطيبي ـ قوله تعالى: «ق والقرآن المجيد»، وجعل كبدل البداء من الإضراب الأول على أنه إضرابٌ عن حديث القرآن ومَجْده إلى التعجُّب من مجيء مَنْ أنذرهم بالبعث الذي تضمَّنه، وأنَّ هذا إضرابٌ إلى التصريح بالتكذيبِ به ويتضمَّن ذلك إنكارَ جميع ما تضمَّنه، كذا قيل، فتأمَّل.

وقرأ الجحدري: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيفِ الميم(١)، فاللام توقيتيَّةٌ بمعنى «عند»، نحوها في قولك: كَتَبه لخمسٍ خَلَوْنَ، مثلاً، و«ما» مصدرية، أي: بل كذَّبوا بالحقِّ عند مَجيئه إيَّاهم.

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ مضطربٍ، من مَرِجَ الخاتمُ في إصبعه: إذا قَلِقَ من الهُزال، والإسناد مجازيٌّ كما في ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] مبالغة بجعل المُضطرِب الأمرَ نَفْسه، وهو في الحقيقةِ صاحبُه، وذلك نَفْيُهم النبوَّة عن البشر بالكلية تارةً، وزعمهم أنَّ اللائقَ بها أهلُ الجاه والمال كما يُنبئ عنه قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] تارة أُخرى، وزَعْمهم أن النبوَّةَ سحرٌ مرَّة، وأنها كهانة أُخرى، حيث قالوا في النبيِّ عليه الصلاة والسلام مرَّة: ساحر، ومرَّة: كاهن، أو هو اختلافُ حالهم ما بين تعجُّب من البعث واستبعادٍ له، وتكذيبٍ وتردُّدٍ فيه، أو قولهم في القرآن: هو شعرٌ، تارة، و: هو سحرٌ، أُخرى، إلى غير ذلك.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ أي: أَغَفلوا ـ أَو: عَموا ـ فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يُشاهدونها كلَّ وقت، قيل: وهذا ظاهرٌ على ما هو المعروفُ بين الناس من أنَّ المُشاهَد هو السماءُ التي هي الجِرْم المخصوصُ الذي يُطوى يومَ القيامة، وقد وُصف في الآيات والأحاديث بما وصف. وأما على ما ذهب إليه الفلاسفةُ من أنَّ المُشاهَد إنما هو كرةُ البخار، أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقةً ودون ذلك الجرم، ففيه خَفاءٌ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

وقال بعضُ الأفاضل في هذا المقام: إن ظواهرَ الآيات والأخبار ناطقةٌ بأنَّ السماءَ مَرْئيَّةٌ، وما ذكره الفلاسفة المتقدِّمون من أنَّ الأفلاكَ أجرام صُلبةٌ شفافةٌ لا تُرى، غيرُ مُسَلَّم أصلاً، وكذا كون السماوات السبع هي الأفلاكَ السبعة، غير مُسَلَّم عند المحقِّقين، وكذا وجود كُرة البخار، وأنَّ ما بين السماء والأرض هواءٌ مختلفُ الأجزاء في اللَّطافة، فكلَّما علا كان ألطفَ حتى إنه ربَّما لا يصلح للتعيُّش، ولا يمنع خروجَ الدم من المسامِّ الدقيقة جدًّا لمن وصل إليه، وإنَّ رؤية الجوِّ بهذا اللون لا يُنافي رؤيةَ السماء حقيقةً وإن لم تكن في نَفْسها ملوَّنة به، ويكون ذلك كرؤية قَعْر البحر أخضرَ من وراء مائه، ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون، وهو في نفسه على غيرِ ذلك اللون. بل قيل: إنَّ رؤية السماء مع وجود كرة البخار على نحو رؤية الأجرام المضيئة كالقمر وغيره.

وأنت تعلم أنَّ الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليلٌ على امتناع ما يدلُّ عليه وحينئذ يُؤَوِّلونها، وأنَّ التزامَ التطبيق بين ما نَطَقتْ به الشريعة وما قاله الفلاسفة مع إكذاب بعضِه بعضاً أصعبُ من المشي على الماء أو العروج إلى السماء.

وأنا أقول: لا بأسَ بتأويل ظاهرٍ تأويلاً قريباً لشيء من الفلسفة إذا تضمَّن مصلحةً شرعية، ولم يستلزم مَفْسدةً دينية، وأرى الإنصاف من الدين، وردُّ القول احتقاراً لقائله غيرُ لائق بالعلماء المُحقِّقين.

هذا، وحَمَلَ بعضٌ «السماء» هاهنا على جنس الأجرام العلوية، وهو كما ترى، والظاهر أنها الجِرْم المخصوص وأنها السماء الدنيا، أي: أفلم ينظروا إلى السماء الدنيا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أحكمناها ورفعناها بغير عَمَد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ للناظرين بالكواكب المُرتَّبة على أبدع نظام ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ أي: من فتوق وشقوق، والمرادُ سلامتها من كلِّ عيب وخَلَل، فلا يُنافي القولَ بأن لها أبواباً، وزعم بعضُهم أن المرادَ: متلاصقةُ الطِّباق، وهو يُنافي ما ورد في الحديث من أنَّ بين كلِّ سماء وسماء مسيرةَ خمس مئة عام[1]، ولعلَّ تأخيرَ هذا لمراعاة الفواصل.

(١) سلف ٢/ ٣١.

وقيل هاهنا: «أفلم ينظروا» بالفاء، وفي موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ [الأعراف: ١٨٥] بالواو؛ لسبق إنكار الرَّجْع فناسَبَ التعقيب بما يُشعر بالاستدلال عليه، وجيء بالنظر دون الرؤية كما في «الأحقاف»[١] استبعاداً لاستبعادهم، فكأنه قيل: النظرُ كافٍ في حصول العلم بإمكان الرَّجع، ولا حاجةَ إلى الرؤية، قاله الإمام[٢]، واحتجَّ بقوله سبحانه: «ما لها من فروج» للفلاسفة على امتناع الخَرْق، وأنت تعلم أنَّ نفي الشيء لا يدلُّ على امتناعه، على أنك قد سمعت المراد بذلك، ولا يضرُّ كونُه ليس معنًى حقيقيّاً؛ لشيوعه.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها، وهو لا يُنافي كرويَّتها التامَّة أو الناقصة من جهة القطبين لمكان العظم ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من المَيْد كما يدلُّ عليه قوله تعالى في آية أُخرى: ﴿رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وهو ظاهرٌ في عدمِ حركة الأرض، وخالف في ذلك بعضُ الفلاسفة المتقدِّمين، وكلُّ الفلاسفة الموجودين اليوم، ووافقهم بعضُ المغاربة من المسلمين، فزعموا أنها تتحرَّك بالحركة اليومية بما فيها من العناصر، وأبطلوا أدلةَ المتقدِّمين العقلية على عدم حركتها، وهل يكفَّر القائل بذلك؟ الذي يغلب على الظَّنِّ: لا.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ حسن يُبهج ويَسرُّ مَن نَظَرَ إليه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ راجعٍ إلى ربِّه، وهو مجازٌ عن التفكُّر في بدائعِ صُنعه سبحانه بتنزيل التفكُّر في المصنوعات منزلةَ الرجوع إلى صانعها، و«تبصرة وذكرى» عِلَّتان للأفعال السابقةِ معنى، وإن انتصبا بالفعلِ الأخير، أو لفعل مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً، وقال أبو حيان[٣]: منصوبان على المصدرية لفعل مقدَّر من لفظهما، أي: بصَّرنا وذكرنا، والأول أولى.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تبصرةٌ وذكرى» بالرفع[٤] على معنى: خَلْقُهما تبصرةٌ وذكرى.

---

(١) الآية (٣٣)، وهي قوله تعالى: «أولم يروا أن الله خلق السموات والأرض..».

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ١٥٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٤) المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: كثير المنافع، شروعٌ في بيان كيفية ما ذكر من إنبات كلِّ زوجٍ بهيج، وهو عطفٌ على «أنبتنا»، وما بينهما على الوجهين الأخيرين اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلَه ومُنَبِّه على ما بعدَه ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ كثيرة كما يقتضيه المقامُ، أي: أشجاراً ذاتَ ثمار ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝﴾ أي: حبّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما، فالإضافة لما بينهما من المُلابسة، و«الحصيد» بمعنى المحصود، صفة لموصوف مُقدَّر كما أَشرنا إليه، فليس من قَبيل مسجد الجامع، ولا من مجاز الأَوْل[1] كما تُوهِّم، وتخصيص إنبات حَبِّه بالذِّكر؛ لأنه المقصودُ بالذات.

﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ عطفٌ على «جنات» وهي اسمُ جنس تُؤَنَّث وتُذَكَّر وتُجمع، وتخصيصها بالذِّكر مع اندراجها في الجنات لبيان فَضْلها على سائر الأشجار، وتوسيطُ الحبِّ بينهما لتأكيدِ استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مُراعاة الفواصل.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: طوالاً أو حوامل، من: أبسقت الشاةُ: إذا حَمَلَتْ، فيكون على هذا من أَفعل فهو فاعل، والقياسُ مُفْعِل، فهو من النوادر كالطوائح واللواقح في أخواتٍ لها شاذَّةٍ، ويافع من أَيْفَعَ، وباقل من أَبْقَلَ، ونصبُه على أنه حالٌ مقدَّرة. وروى قُطبة بن مالك عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ: «باصقات» بالصاد[2]، وهي لغةٌ لبني العنبر، يُبدلون من السين صاداً إذا وَلِيتها، أو فصل بحرف أو حرفين خاء معجمة أو عين مهملة أو طاء كذلك أو قاف.

﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ منضود بعضُه فوقَ بعض، والمرادُ: تراكم الطَّلع أو كَثْرة ما فيه من مادة الثمر، والجملةُ حال من النخل كـ «باسقات» بطريق الترادف، أو من

---

(١) وهو من تسمية الشيء بما يؤول إليه، كتسمية العنب خمراً. الكليات ص٣٠٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٥٦: فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. والخبر أخرجه مسلم (٤٥٧)، والدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ ص ١٥١، عن قطبة أيضاً لكن بالسين كما في قراءة الجمهور.
والقراءة بالصاد ذكرها ابن جنّي في المحتسب ٢/ ٢٨٢، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٥، والقرطبي في التفسير ١٩/ ٤٣٣، وأبو حيان في البحر ٨/ ١٢٢.

ضميرها في «باسقات» على التداخل، وجوِّز أن يكون الحالُ هو الجارَّ والمجرور، و«طلع» مرتفعٌ به على الفاعلية.

وقوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ - أي: ليرزقهم - عِلَّةٌ لقوله تعالى: «فأنبتنا»، وفي تعليله بذلك بعد تعليل «أنبتنا» الأول بالتبصير والتذكير تنبيهٌ على أنَّ اللائقَ بالعبدِ أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكُّرُ والاستبصار أقدمَ وأهمَّ من تمتُّعه به من حيث الرزق. وجُوِّز أن يكون «رزقاً» مصدراً من معنى «أنبتنا» لأن الإنباتَ رزقٌ، فهو من قَبيل: قعدتُ جلوساً، وأن يكون حالاً بمعنى مرزوقاً.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها، بأَنْ جعلناها بحيث رَبَتْ وأنبتت، وتذكير «ميتاً» لأنَّ البلدةَ بمعنى البلد والمكان.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «مَيِّتاً» بالتثقيل[1].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ⑪﴾ جملة قُدِّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، و«ذلك» إشارةٌ إلى الحياة المُستفادة من الإحياء، وما فيه من معنى البُعد إشعارٌ ببعد الرُّتبةِ، أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتُكم بالبعث من القُبور لا كشيء مُخالِف لها.

وفي التعبير عن إخراجِ النبات من الأرض بالإحياء وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس.

وجُوِّز أن يكون الكاف في محلِّ رفع على الابتداء و«الخروج» خبر، ونُقل عن الزمخشري[2] أنه قال: «كذلك» الخبر، وهو الظاهر، ولكونه مبتدأ وجهٌ، وهو أن يقال: «ذلك الخروجُ» مبتدأٌ وخبر على نحو: أبو يوسف أبو حنيفة، والكاف واقعٌ موقعَ مثل في قولك: مثل زيد أخوك. ولا يخفى أنه تكلُّف.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره، استئنافٌ واردٌ لتقرير حقِّيَّة[3]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٢، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٢٤.

(٢) الكشاف ٤/ ٥.

(٣) في الأصل: حقيقة، والمثبت من (م).

البعث ببيان اتِّفاق كافَّة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام عليها وتكذيب مُنكريها، وفي ذلك أيضاً تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتهديدٌ للكفرة ﴿وَأَصْحَبُ ٱلرَّسِّ﴾ هو البئر التي لم تُبْنَ، وقيل: هو وادٍ. وأصحابه قيل: هم ممن بُعث إليهم شعيبٌ عليه السلام، وقيل: قومُ حنظلة بن صفوان. ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أُريد هو وقومه لِيُلائم ما قبلَه وما بعدَه، وهذا كما تُسمَّى القبيلة تميماً مثلاً باسم أبيها ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ قيل: كانوا من أَصهاره عليه السلام، فليس المرادُ الأُخُوَّةَ الحقيقية من النسب. ﴿وَأَصْحَبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ قيل: هم قومٌ بُعِثَ إليهم شُعيب عليه السلام غير أهل مَدْين كانوا يَسكنون أيكةً، وهي الغَيْطة، فَسُمُّوا بها ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحِمْيَري، وكان مؤمناً وقومه كَفَرة، ولذا لم يُذَمَّ هو وذُمَّ قومه، وقد سبق في «الحجْر» و«الدخان» و«الفرقان» تمامُ الكلام فيما يتعلَّق بما في هذه الآية.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: فيما أُرسلوا به من الشرائع التي من جُملتها البعثُ الذي أَجمعوا عليه قاطبةً، أي: كلُّ قوم من الأقوام المذكورين كذَّبوا رسولَهم، أو: كذَّب كلُّ هؤلاء جميعَ رُسُلهم، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الكُلّ، أو: كلُّ واحدٍ منهم كذَّب جميعَ الرُّسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر، فتكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ للكلِّ، والمرادُ بالكلية التكثير كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وإلا فقد آمن مَنْ آمن من قوم نوح، وكذا من غيرهم. ثم ما ذُكر على تقدير رسالة تُبَّع ظاهر، ثم على تقدير عَدَمِها ـ وعليه الأكثر ـ فمعنى تكذيب قومِه الرُّسُلَ عليهم السلام تكذيبُهم بما قبلُ من الرُّسل المجتمعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تُبَّع.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: فوجب وحلَّ عليهم وعيدي، وهي كلمةُ العذاب.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ استئنافٌ مُقرِّر لصحَّةِ البعث الذي حُكيت أحوال المُنكرين له من الأُمم المُهلكة. والعِيُّ بالأمر العَجْز عنه لا التعب، قال الكسائي: تقول: أَعْيَيْتُ من التعب، وعَيِيْتُ من انقطاع الحِيْلة والعجز عن الأمر، وهذا هو المعروفُ والأفصحُ وإن لم يُفرِّق بينهما كثير، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على

مُقدَّر يُنبئ عنه العيُّ من القصد والمباشرة، كأنه قيل: أَقَصَدْنا الخَلْقَ الأوَّل ـ وهو الإبداء ـ فَعَجَزْنا عنه حتى يُتوهَّم عَجْزُنا عن الإعادة.

وجوَّز الإمام(١) أنْ يكون المرادُ بالخَلْق الأول خلقَ السماء والأرض، ويدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣] ويُؤيِّده قوله تعالى بعدُ: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) إلخ، وهو كما ترى.

وعن الحسن: الخَلْقُ الأوَّل آدمُ عليه السلام. وليس بالحسن.

وقرأ ابن أبي عبلةَ والوليدُ بن مسلم والقورصي عن أبي جعفر، والسمسار عن شيبة، وأبو بحر عن نافع: «أفعيّنا» بتشديد الياء(٢)، وخُرِّجَتْ على لغةٍ من أدغم الياء في الياء في الماضي فقال: عيَّ في عَيِيَ، وحيَّ في حَيِيَ، فلما أدغم ألحقه ضميرَ المُتكلِّم المُعظِّم نَفْسَه، ولم يفكَّ الإدغام فقال: عَيَّنا، وهي لغةٌ لبعض بكر بن وائل في رَدَدْتُ ورَدَدْنا: رَدْتُ وردْنا، فلا يَفُكُّون، وعلى هذه اللغة تكونُ الياء المشدَّدة مفتوحةً، ولو كانت «نا» ضميرَ نَصْبٍ فالعربُ جميعُهم على الإدغام، نحو: ردَّنا زيدٌ.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ عطفٌ على مُقدَّر يدلُّ عليه ما قبلَه، كأنه قيل: إنهم معترفون بالأول غير مُنكرين قُدرتنا عليه، فلا وجهَ لإنكارهم الثاني، بل هم في خَلْطٍ وشُبهة في خَلْق مستأنف، وإنما نُكِّر الخَلْق ووُصِفَ بـ «جديد» ولم يقل: من الخَلْق الثاني، تنبيهاً على مكان شُبهتهم واستبعادهم العادي بقوله سبحانه: «جديد»، وأنه خَلْقٌ عظيم يجبُ أن يُهتمَّ بشأنه، فله نبأ أيُّ نبأ، والتعظيم ليس راجعاً إلى الخَلْق من حيث هو هو حتى يقال: إنه أهونُ من الخَلْق الأول بل إلى ما يتعلَّق بشأن المُكلَّف وما يُلاقيه بعدَه وهو هو. وقال بعضُ المحقِّقين: نُكِّر؛ لأنه لاستبعاده عندهم كان أمراً عظيماً. وجُوِّز أنْ يكون التنكيرُ للإبهام إشارةً إلى أنه خلقٌ على وجهٍ لا يعرفه الناس.

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٦٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٣، وقراءة نافع وأبي جعفر غير المشهورة عنهما، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٤ أنَّ ابن أبي عبلة قرأ: «أفعيِّينا» بزيادة ياء بعد التشديد.

وأورد الشيخُ الأكبر قُدِّس سِرُّه هذه الآيةَ في معرض الاستدلال على تجدُّد الجواهر كالتجدُّد الذي يقوله الأشعري في الأعْراض، فكلٌّ منهما عند الشيخ لا يبقى زمانين، ويُفهم من كلامه قُدِّس سرُّه أن ذلك مبنيٌّ على القول بالوَحْدة وأنَّه سبحانه كلَّ يوم هو في شأن، ولعمري إن الآية بمعْزِل عمَّا يقول.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما تُحدِّثه به، وهو ما يخطر بالبال، والوسوسةُ: الصوتُ الخَفِيُّ، ومنه: وسواس الحَلْي. وضمير «به» لـ «ما» وهي موصولة، والباء صِلة «توسوس»، وجُوِّز أن تكونَ للملابسة أو زائدة، وليس بذاك. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية والضمير للإنسان والباء للتعدية على معنى أنَّ النفسَ تجعل الإنسان قائماً به الوسوسة، فالمُحدَّث هو الإنسان لأنَّ الوسوسةَ بمنزلة الحديثِ، فيكون نظيرَ: حدَّث نَفْسَه بكذا، وهم يقولون ذلك كما يقولون: حدَّثَتْه نفسُه بكذا، قال لبيد:

واكْـذِبِ الـنَّـفْـسَ إذا حـدَّثْـتَـهـا ... إنَّ صِـدْقَ الـنـفـس يُـزري بـالأمـل[1]

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ أي: نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خَفِيَّاته، على أنه أُطلق السبب وأُريد المُسبَّب؛ لأن القُرب من الشيء في العادة سببُ العلم به وبأحواله، أو الكلامُ من باب التمثيل؛ ولا مجالَ لحمله على القُرب المكانيِّ لتنزُّهه سبحانه عن ذلك، وكلامُ أهل الوحدة مما يشقُّ فَهْمه على غير ذوي الأحوال. و«حبل الوريد» مَثَلٌ في فَرْطِ القُرب، كقولهم: مقعد القابلة، ومَعْقِدُ الإزار، قال ذو الرُّمَّة على ما في «الكشاف»:

والـمـوت أدنـى لـي مـن حـبـل الـوريـد[2]

والحبل معروفٌ، والمرادُ به هنا العِرْقُ لِشَبَهِهِ به، وإضافتُه إلى الوريد ـ وهو عرقٌ مخصوصٌ كما ستعرفه ـ للبيان، كـ : شجر الأراك، أو لاميَّة كما في غيره من

---

(١) ديوان لبيد ص١٨٠.

(٢) الرجز في الكشاف ٤/٦، والمستقصى ١/١٢١، وخزانة الأدب ١٠/٣٩٦ دون لفظة: حبل. وهو في ديوانه ١/٣٦٨ هكذا:

والله أدنـى لـي مـن الـوريـد ... والـحـتـف يـلـقـى أنـفـس الـشـهـود

إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، فإنْ أُبْقِي الحبل على حقيقته فإضافتُه كما في لُجين الماء.

و«الوريد» عِرْقٌ كبيرٌ في العُنُق، وعن الأثرم: أنه نهرُ الجسد، ويقال له في العُنُق: الوريدُ، وفي القلب: الوَتين، وفي الظهر: الأَبْهر، وفي الذراع والفَخِذ: الأَكْحل والنَّسَا، وفي الخِنْصِر: الأَسْلَم.

والمشهورُ أنَّ في كلِّ صفحة من العُنق عِرْقاً يقال له: وريد؛ ففي «الكشاف»[1]: الوريدان: عِرقان مُكتنفان لِصفحتي العُنق في مقدَّمها مُتَّصلان بالوتين يَرِدَان بحسب المُشاهدَة من الرأس إليه، فالوريد فعيل بمعنى فاعل.

وقيل: هو بمعنى مفعولٌ؛ لأنَّ الروحَ الحيواني يَرده، ويُشير إلى هذا قولُ الراغب[2]: الوريدُ: عِرْقٌ متصلٌ بالكبد والقلب، وفيه مجاري الروح. وقال في الآية: أي: نحن أقربُ إليه من روحه. وحكي ذلك عن بعضهم أيضاً.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما المَلَكان المُوكَّلان بكلِّ إنسانٍ يكتبان أعماله؛ والتلقِّي: التلقُّن بالحِفظ والكتبة. و«إذ» قيل: ظرف لـ «أقرب»، وأَفْعَلُ التفضيل يعمل في الظروف؛ لأنه يكفيها رائحةُ الفعل وإن لم يكن عاملاً في غيرها فاعلاً أو مفعولاً به، أي: هو سبحانه أعلمُ بحال الإنسان من كلِّ قريب حين يتلقَّى المتلقيان الحفيظان ما يتلفَّظ به، وفيه إيذانٌ بأنه عز وجل غنيٌّ عن استحفاظ المَلكين، فإنه تعالى شأنه أعلمُ منهما ومطَّلعٌ على ما يخفى عليهما، لكن الحِكمة اقتضته، وهو ما في كِتْبة المَلَكين وحِفْظهما وعَرْض صحائفهما يومَ يقوم الأشهاد، وعِلْمُ العبد بذلك مع عِلْمه بإحاطة الله تعالى بعمله من زيادة لُطْفٍ في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات.

وجُوِّز أن تكون «إذ» لتعليل القُرب، وفيه أن تعليلَ قُربه عز وجل العِلْميِّ باطِّلاع الحَفَظة الكَتَبة بعيدٌ.

واختار بعضُهم كونها مفعولاً به لـ : اذكر مقدَّراً لبقاء الأقربية على إطلاقها،

---

(١) ٦/٤ .

(٢) المفردات (ورد).

ولأنَّ أفعل التفضيل ضعيفٌ في العمل وإنْ كان لا مانعَ من عَمَله في الظرف؛ والكلام مسوقٌ لتقرير قُدرته عز وجل وإحاطة علمه سبحانه وتعالى، فتأمَّل.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: عن اليمين قَعيدٌ، وعن الشمال قَعيدٌ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ومنه قوله:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي   بريئاً ومن أجل الطَّوِيِّ رماني[١]

وقال المبرِّد: إنَّ التقدير: عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال، فأخَّر «قعيدٌ» عن موضعه. والقعيدُ عليهما فعيلٌ بمعنى مُفَاعِل، كجليس بمعنى مُجَالِس، ونديم بمعنى مُنادم، وذهب الفرَّاء[٢] إلى أنَّ قعيداً يدلُّ على الاثنين والجمع، وقد أُريد منه هنا الاثنان فلا حذفَ ولا تقديم ولا تأخير. واعترضَ بأنَّ فعيلاً يستوي فيه ذلك إذا كان بمعنى مفعول، وهذا بمعنى فاعل، ولا يصحُّ فيه ذلك إلا بطريق الحمل على فَعيل بمعنى مفعول.

واختلف في تعيين محلِّ قعودهما، فقيل: هما على الناجذين، فقد أخرج أبو نُعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً: «إنَّ الله لطفَ بالمَلَكين الحافظين حتى أَجلسهما على الناجذين، وجعل لسانَه قلمَهما، ورِيْقَه مِدادَهما»[٣]. وقيل: على العاتقين. وقيل: على طرفي الحَنَك عند العَنْفَقَةِ. وفي «البحر»[٤]: إنهم اختلفوا في ذلك، ولا يصحُّ فيه شيء.

وأنا أقول أيضاً: لم يصحَّ عندي أكثر مما أخبر الله تعالى به من أنهما عن اليمين وعن الشمال قعيدان، وكذا لم يصحَّ خبرُ قَلَمهما ومِدادهما، وأقول كما قال اللَّقاني بعد أن استظهرَ أن الكَتْب حقيقيٌّ: عِلْمُ ذلك مفوَّضٌ إلى الله عز وجل.

وأقولُ: الظاهر أنهما في سائر أحوال الإنسان عن يمينه وعن شماله. وأخرج

---

(١) أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥، ونسبه لابن أحمر.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٧٧.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، وأخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ١-٢، وفي إسناده: علي بن بشر، قال عنه أبو نعيم: كان يضعَّف حديثه، وفي حديثه نكارة.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.

ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال: إنْ قَعَدَ فأحدُهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإنْ مشى فأحدُهما أمامه والآخرُ خَلْفَه، وإنْ رَقَد فأحدهما عند رأسه والآخرُ عند رجليه(١).

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يَرمي به مِن فيهِ خيراً كان أو شرّاً.

وقرأ محمدُ بن أبي مَعْدان: «ما يَلْفَظُ» بفتح الفاء(٢).

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملكٌ يرقُبُ قولَه ويَكتبه، فإنْ كان خيراً فهو صاحبُ اليمين، وإنْ كان شرّاً فهو صاحبُ الشمال ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ مُعَدٌّ مُهَيّأٌ لكتابة ما أُمر به من الخير أو الشَّرّ.

وتخصيصُ القولِ بالذِّكر لإثبات الحُكم في الفعل بدلالة النصّ.

واختلف فيما يَكتبانه، فقال الإمام مالك وجماعة: يكتبان كلَّ شيء حتى الأنين في المرض. وفي «شرح الجوهرة» للَّقاني(٣): مما يجبُ اعتقاده أن الله تعالى ملائكةً يكتبون أفعالَ العباد من خيرٍ أو شرٍّ أو غيرهما، قولاً كانت أو عملاً أو اعتقاداً، همّاً كانت أو عزماً أو تقريراً، اختارهم سبحانه لذلك، فهم لا يُهملون من شأنهم شيئاً فَعَلُوه قصداً وتعمُّداً أو ذهولاً ونسياناً، صَدَرَ منهم في الصِّحة أو في المرض كما رواه علماءُ النقل والرواية. انتهى.

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ الكلام النفسيَّ لا يُكتب، أخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن حذيفةَ بن اليمان أن للكلام سبعةَ أغلاق إذا خرج منها كُتب، وإن لم يخرجْ لم يُكتب: القلبُ واللَّهاة واللسانُ والحَنكان والشَّفتان(٤).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المباح لا يكتبه أحدٌ منهما؛ لأنه لا ثوابَ فيه ولا عقاب،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٣ لكن عن ابن جريج، وكذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٢١).

(٢) هكذا ذكرها السمين في الدر المصون ١٠/ ٢٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٤ هكذا: «ما نَلْفِظ».

(٣) ص٢٠٨.

(٤) شعب الإيمان (٥٠٠٨).

والكتابةُ للجزاء، فيكون ذلك مستثنى حكماً من عموم الآية، ورُوي ذلك عن عكرمة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه من طريقه عن ابن عباس أنه قال: إنما يكتب الخير والشَّرّ، لا يكتب: يا غلامُ أَسرِج الفرس، ويا غلامُ اسقني الماء[1].

وقال بعضُهم: يكتب كلّ ما صَدَر من العبد حتى المباحات، فإذا عُرضت أعمالُ يومه مُحي منها المباحات وكتب ثانياً ما له ثوابٌ أو عِقاب، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩] وقد أشار السيوطي إلى ذلك في بعض رسائله، وجُعِلَ وجهاً للجمع بين القولين: القولِ بكتابة المُباح والقولِ بعدَمها، وقد رُوي نحوه عن ابن عباس؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: يكتب كلّ ما تكلَّم به من خير أو شرٍّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت، ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يومُ الخميس عُرض قولُه وعملُه، فأقرَّ منه ما كان من خير أو شرٍّ، وأُلقي سائره، فذلك قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)[2].

ثم إنَّ المباح على القول بكتابته يكتبه ملكُ الشِّمال على ما يُشعر به ما أخرجه ابنُ أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية أن رجلاً كان على حمارٍ فعثر به فقال: تَعَستُ، فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فَنُودي صاحبُ الشمال: إن ما تَركَه صاحبُ اليمين فاكتُبه[3].

وجاء في بعض الأخبار أنَّ صاحبَ اليمين أمينٌ على صاحب الشمال[4]. وقد أخرج ذلك الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي أُمامة

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢١٨، والمستدرك ٢/ ٤٦٥.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٠٨، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٦٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٢٠، وشعب الإيمان (٥١٨٢).
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢٤ من قول إبراهيم التيمي.

مرفوعاً، وفيه: «فإذا عَمِلَ العبدُ حسنةً كُتبت له بعشر أمثالها، وإذا عَمِلَ سيئة وأراد صاحبُ الشِّمال أن يكتبها قال صاحب اليمين: أَمْسِكْ، فيمسك ستَّ ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفرَ اللهَ تعالى منها لم يَكتب عليه منها شيئاً، وإن لم يستغفِرِ اللهَ تعالى كُتبت عليه سيئة واحدة»(١).

ومثلُ الاستغفار كما نصَّ عليه فعلُ طاعةٍ مُكفِّرة في حديثٍ آخرَ: أنَّ صاحب اليمين يقول: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعلَّه يُسبِّح أو يستغفر(٢).

وظاهرُ الآية عمومُ الحكم للكافر، فمعه أيضاً مَلَكان يكتبان ما لَه وما عليه من أعماله، وقد صرَّح بذلك غيرُ واحد، وذكروا أنَّ ما له الطاعاتُ التي لا تتوقَّف على نِيَّة كالصدقة وصِلة الرحم، وما عليه كثيرٌ لاسيما على القول بتكليفه بفروع الشريعة.

وفي «شرح الجوهرة»: الصحيحُ كتبُ حسنات الصبيِّ وإن كان المجنون لا حفظةَ عليه؛ لأنَّ حاله ليست متوجهة للتكليفِ بخلاف الصبيِّ، وظاهرُ الآية شمولُ الحُكم له. وتردَّد الجَزولي في الجِنِّ والملائكة أعليهم حَفَظةٌ أَمْ لا، ثم جزم بأنَّ على الجنِّ حفظةً، وأَتبعه القولَ بذلك في الملائكة عليهم السلام، قال اللَّقاني بعد نقله: ولم أَقِفْ عليه في الجِنِّ لغيره، ويُفهم منه أنه وَقَفَ عليه في الملائكة لغيره، ولعلَّه ما حُكي عن بعضهم أنَّ المرادَ بالروح في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤] الحفظةُ على الملائكة، ويحتاج دعوى ذلك فيهم وفي الجِنِّ إلى نَقْل.

وأما اعتراضُ القولِ به في الملائكة بلزوم التسلسل فمدفوعٌ بما لا يخفى على المتأمِّل.

ثم إنَّ بعضهم استظهر في المَلكين اللذين مع الإنسان كونهما مَلَكين بالشخص لا بالنوع لكلِّ إنسانٍ يلزمانه إلى مماته فيقومان عند قبره يُسبِّحان الله تعالى ويَحمدانه

(١) المعجم الكبير (٧٩٧١)، وشعب الإيمان (٧٠٤٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨: فيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. وأخرجه الطبراني (٧٧٦٥) بنحوه، وضعَّفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ١٤٨.

(٢) أخرجه الروياني (١٢١٥)، والبغوي ٣/ ٢٢٣ من حديث أبي أمامة ﷺ، وفي إسناده أيضاً جعفر بن الزبير.

ويُكبِّرانه، ويَكتبان ثوابَ ذلك لصاحبهما إنْ كان مؤمناً، أخرج أبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى وكلَ بعبده المؤمن مَلَكين يكتبان عَمَلَه، فإذا مات قال الملكان اللَّذان وُكِّلا به: قد مات، فَأْذَنْ لنا أن نصعد إلى السماء، فيقول الله تعالى: سمائي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: أنُقِيم في الأرض؟ فيقول اللهُ تعالى: أرضي مملوءةٌ من خَلْقي يسبِّحونني، فيقولان: فأين؟ فيقول: قُومَا على قبر عبدي فسبِّحاني واحمداني وكَبِّراني، واكتُبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[1]. وجاء أنهما يلعنانه إلى يومِ القيامة إنْ كان كافراً.

وقال الحسن: الحفظةُ أربعةٌ: اثنان بالنهار واثنانِ بالليل. وهو يَحتمل التبدُّلَ بأن يكون في كلِّ يومٍ وليلة أربعةٌ غير الأربعة التي في اليومِ والليلة قبلَهما، وعَدَمَه.

وقال بعضهم: إن ملَكَ الحسناتِ يتبدَّل تنويهاً بشأن الطائع، وملك السيئات لا يتبدَّل ستراً على العاصي في الجملة.

والظاهرُ أنهما لا يُفارقان الشخص، وقالوا: يُفارقانه عند الجِماع ودخولِ الخلاء، ولا يمنع ذلك من كَتْبهما ما يصدر عنه في تلك الحال، ولهما علامةٌ للحسنة والسيئة بَدَنيَّتين كانتا أو قَلْبيَّتين.

وبعضُ الأخبار ظاهرةٌ في أنَّ ما في النفس لا يُكتب؛ أخرج ابن المبارك، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص»، وأبو الشيخ في «العظمة»، عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الملائكة يصعدون بعمل العبدِ من عِباد الله تعالى فَيُكَثِّرونه ويُزَكُّونه حتى ينتهوا به حيث شاء اللهُ تعالى من سلطانه، فيوحي اللهُ تعالى إليهم: إنَّكم حَفَظَةٌ على عمل عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا لم يُخلِصْ لي عَمَلَه فاجعلوه في سِجِّين، قال: ويصعدون بعمل العبدِ من عبادِ الله

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، والعظمة (٥٠٥)، والشعب (٩٩٣١)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٦٠). وفي إسناده: عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي: وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

تعالى فيستقلُّونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به حيث شاء اللهُ تعالى من سلطانه فيوحي اللهُ تعالى إليهم: إنَّكم حَفَظةٌ على عمل عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نَفْسه فضاعِفوه له، واجعلوه في عِلِّيين»(١).

وجاء من حديث عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجَوْني أنه يُنادى الملكُ: اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا، أي: من العمل الصالح فيقول: يا ربِّ، إنَّه لم يعمله؟ فيقول سبحانه وتعالى: إنه نواه(٢).

وقد يقال: إنَّهما يكتبان ما في النفس ما عدا الرياء والطاعات المَنْويَّة جمعاً بين الأخبار، وجاء أنه يُكتب للمريض والمسافر مثلُ ما كان يعمل في الصِّحة والإقامة من الحسنات، أخرج ابنُ أبي شيبة، والدارقطني في «الأفراد»، والطبراني، والبيهقي في «الشعب»، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ من المسلمين يُبتلى ببلاءٍ في جسده إلا أمرَ الله تعالى الحَفَظَة، فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيحٌ ما دام مشدوداً في وثاقي»(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من مَرِضَ أو سافر كتب اللهُ تعالى له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»(٤).

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أن بعضَ الطاعات يكتبها غيرُ هذين المَلَكين، ثم إنَّ الملائكةَ الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالمَلَكين الكاتبين، فعن عثمان أنه

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، والزهد لابن المبارك (٤٥٢)، والعظمة (٥٢٢)، وفي إسناده: أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٩٠، ثم إن الحديث مرسل.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٣-١٠٤، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٣ من طريق عبد الله بن أحمد.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٤-١٠٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٠، وشعب الإيمان (٩٩٢٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٤٨٢)، وعزاه للطبراني الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٣ وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٠، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٦٧٩)، والبخاري (٢٩٩٦).

سأل النبيَّ ﷺ: كم [من] ملك على الإنسان؟ فذكر عشرين ملكاً[1]، قاله المهدوي في الفيصل[2].

وذكر بعضهم أن المُعقِّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] غير الكاتبين بلا خلاف، وحكى اللَّقاني عن ابن عطية: أنَّ كلَّ آدميٍّ يوكل به من حين وقوعه نُطفةً في الرحم إلى موته أربع مئة مَلَك، والله تعالى أعلم بصحَّة ذلك.

وروى ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن المبارك أنه قال: وُكِّل بالعبد خمسة أملاك؛ مَلَكان بالليل ومَلَكانِ بالنهار يجيئان ويَذْهبان، وملك خامسٌ لا يُفارقه لا ليلاً ولا نهاراً[3].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ إلى آخره، كلامٌ واردٌ بعد تتميم الغرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين دليلٍ وأوضحهِ، دالٌّ على أنَّ هذا المُنكر أنتم لاقوه فَخُذوا حِذْرَكم، والتعبير بالماضي هنا وفيما بعدُ لتحقُّق الوقوع، و«سكرة الموت»: شدَّته، مستعارةٌ من الحالة التي تعرض بين المرء وعَقْله بجامع أنَّ كلاًّ منهما يُصيب العقل بما يُصيب، وجُوِّز أن يُشبَّه الموت بالشَّراب على طريق الاستعارة المَكْنية، ويُجعل إثبات السَّكرة له تخييلاً، وليس بذاك.

والباء إما للتعدية كما في قولك: جاء الرسولُ بالخبر، والمعنى: أَحضرت سكرةُ الموت حقيقةَ الأمر الذي نَطَقت به كُتب الله تعالى ورُسُلُه عليهم الصلاة والسلام، وقيل: حقيقة الأمر وجليَّة الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: بالحقِّ الذي ينبغي أن يكونَ من الموت والجزاء، فإنَّ الإنسانَ خُلق له.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٦ مطولاً، وأورده ابن كثير في تفسير الآية (١١) من سورة الرعد، وقال: حديث غريب جداً. اهـ. ولفظة: من. لم ترد في الأصل و(م)، واستدركت من المصادر، ومما سيأتي ٣٠/ ٦٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّه: التفصيل، كما ذُكرَ في كشف الظنون ١/ ٤٦٢، وهو: التفصيل الجامع لعلوم التنزيل في التفسير للمهدوي أحمد بن عمار، المتوفى بعد الثلاثين وأربع مئة، وهو تفسير كبير، ثم اختصره وسماه: التحصيل.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، والعظمة (٥٢١).

وإما للملابسة كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي: مُلتبسة بالحقِّ، أي: بحقيقة الأمر، وقيل: بالحِكمة والغاية الجميلة.

وقرئ: «سكرة الحقِّ بالموت»[١]، والمعنى أنها السَّكرة التي كُتبت على الإنسان بموجب الحِكمة، وأنها لِشدَّتها تُوجب زُهوق الروح أو تستعقبه، وقيل: الباء بمعنى «مع»، وقيل: سكرةُ الحقِّ سكرةُ الله تعالى، على أنَّ «الحقَّ» من أسمائه عز وجل، والإضافةُ للتهويل؛ لأنَّ ما يَجيء من العظيم عظيمٌ.

وقرأ ابنُ مسعود: «سكرات الموت» جمعاً[٢]، ويُوافق ذلك ما أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ كانت بين يديه رَكْوةٌ - أو عُلبة - فيها ماءٌ، فجعل يُدخِلُ يديه في الماء فيمسح بهما وَجْهَه ويقول: «لا إلهَ إلا اللهُ، إن للموتِ سكراتٍ»[٣]، وجاء في حديث صحَّحه الحاكم عن القاسم بن محمد عن عائشة أيضاً قالت: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو بالموت، وعنده قَدَحٌ فيه ماء وهو يُدخِل يدَه في القدح ثم يمسحُ وَجْهَه بالماء، ثم يقول: «اللهمَّ أَعني على سَكَرات الموت»[٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحقّ ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ أي: تَميل وتَعدل، فالإشارة إلى الحقِّ، والخطابُ للفاجر لا للإنسان مطلقاً، والإشارة إلى الموتِ، لأنَّ الكلامَ في الكَفَرة، وإنما جيء بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لإثبات العلمِ بجزئيات أحوالِهِ وتَضمينِ شِبْهِ وعيدٍ لهؤلاء إدماجاً، والتخلُّصِ منه إلى بيان أحوالِهِ في الآخرة، ولأنَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ﴾ إلخ، يُناسب خطابَ هؤلاء، وكذلك

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٤، والمحتسب ٢/ ٢٨٣، ونسبت لأبي بكر ﷺ.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.
(٣) صحيح البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له من طريق ذكوان مولى عائشة ﵂، وسنن الترمذي (٩٧٨)، وسنن النسائي الكبرى (٧٠٦٤)، وسنن ابن ماجه (١٦٢٣) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة ﵂، وفيه: اللهم أعني على سكرات الموت، بدل: إن للموت سكرات. وسيذكره المصنِّف بعده.
(٤) المستدرك ٣/ ٥٦-٥٧، وينظر التعليق السابق.

ما يعقبه على ما لا يخفى. وأما حديثُ مُقابليهم فقد أخذ فيه حيث قال عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ الآيات.

وقال بعضُ الأجِلَّة: الإشارةُ إلى الموت، والخطابُ للإنسان الشامل للبَرِّ والفاجر، والنَّفرةُ عن الموت شاملةٌ لكلٍّ من أفرادِه طبعاً.

وقال الطيبي: إنْ كان قولُه تعالى: «وجاءَتْ سكرةُ الموت» متصلاً بقوله سبحانه: «بل هم في لبْس من خَلْقٍ جديد» وقوله تعالى: «كذَّبت قبلَهم قومُ نوح»، فالمناسبُ أن يكونَ المشارُ إليه الحقّ والخطاب للفاجر، وإن كان متصلاً بقوله تعالى: «ولقد خَلَقْنا الإنسان»، فالمناسبُ أن يكونَ المشارُ إليه الموت، والخطاب للجنس، وفيه البَرُّ والفاجر، والالتفاتُ لا يُفارق الوجهين. والثاني هو الوجهُ، لقوله تعالى بعد ذلك: «وجاءت كلُّ نفس» إلخ، وتفصيله بقوله تعالى: «ألقيا في جهنم كلَّ كفَّار عَنيد»، و«أُزلفت الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد» وفيه ما يُعلم مما قدَّمنا.

وحكى في «الكشاف»(١) عن بعضهم أنه سأل زيدَ بن أسلم عن ذلك، فقال: الخطابُ لرسول الله ﷺ، فحكاه لصالح بن كيسان، فقال: واللهِ ما سنٌّ(٢) عالية ولا لسان فَصيح ولا معرفة بكلام العرب، هو للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عباس، فقال: أُخالفهما جميعاً هو للبَرِّ والفاجر. وكأنَّ هذه المخالفة لنحو ما سمعت عن الطيبي. وفي بعض الآثار ما يُؤيِّد القولَ بالعموم؛ أخرج ابن سعد عن عروة قال: لما مات الوليدُ بَكَتْ أمُّ سلمة فقالت:

يا عين فابكي للوليـ ... ـدِ بنِ الوليد بن المغيره
كان الوليدُ بن الوليـ ... ـدِ أبو الوليدِ فتى العشيره

فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تقولي هكذا يا أُمَّ سلمة، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(٣)». وأخرج أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى

---

(١) ٤/ ٧.
(٢) في الأصل و(م): من. والمثبت من الكشاف ٤/ ٧، والخبر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣١-٤٣٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، وطبقات ابن سعد ٤/ ١٣٣، ونقله عنه السيوطي في نظم العقيان ص١٨-١٩.

الزبير بن العوام قال: لما حضر أبو بكر الوفاةَ تمثَّلت عائشة بهذا البيت:

أَعاذِل ما يُغني الحِذار عن الفتى ... إذا حَشْرجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدرُ

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بُنَيَّة، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1]، وفي رواية لابن المنذر وأبي عُبيد أنها قالت:

وأبيضَ يُستسقى الغَمام بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فقال ﷺ: بل جاءت سكرة الموت.. إلخ[2]، إذ التمثُّل بالآية على تقدير العموم أوفقُ بالحال كما لا يخفى.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخةُ البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى النفخ المفهوم من «نُفِخ» والكلام على حذف مضاف، أي: وقتُ ذلك النَّفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يوم إنجاز الوعيدِ الواقع في الدنيا، أو يوم وقوعِ الوعيد، على أنه عبارةٌ عن العذابِ الموعود. وجُوِّز أن تكونَ الإشارةُ إلى الزمان المفهوم من «نُفِخَ»، فإنَّ الفعلَ كما يدلُّ على الحدث يدلُّ على الزمان، وعليه لا حاجةَ إلى تقدير شيء، لكن قيل عليه: إنَّ الإشارةَ إلى زمان الفعل مما لا نظيرَ له.

وتخصيصُ الوعيدِ بالذِّكر على تقدير كون الخطاب للإنسان مطلقاً مع أنه يومُ الوعدِ أيضاً بالنسبة إليه للتهويل.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البَرَّة والفاجرة كما هو الظاهر ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ وإنْ اختلفت كيفية السَّوقِ والشهادة حسبَ اختلاف النفوس عملاً،

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، والزهد لأحمد ص١٣٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢٧-٤٢٨، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٣/ ١٩٦، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦). وقد أثبتت الآية في المصادر كما جاءت في المصحف ما عدا تفسير الطبري، ففيه أن أبا بكر قرأ: «وجاءت سكرة الحق بالموت» والخبر عنده من طريق أبي وائل، لا من طريق عبد الله مولى الزبير.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٤، وفيهما: فقال ﷺ: بل جاءت سكرة الحق بالموت. زاد في الدر: قدم الحق وأخر الموت. قال أبو عبيد في الفضائل: هكذا أحسبه قرأها، قدم الحق وأخر الموت. والخبر أخرجه أحمد (٢٦) دون ذكر الآية، وفيه أن أبا بكر ﷺ قال بعد سماعه البيت: ذاك واللهِ رسول الله ﷺ.

أي: معها ملكان أحدُهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها، ورُوي ذلك عن عثمان رضي الله عنه وغيره، وفي حديث أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» عن جابر مرفوعاً تصريحٌ بأنَّ مَلَكَ الحسناتِ وملكَ السيئات أحدُهما سائقٌ والآخرُ شهيد[١].

وعن أبي هريرة: السائقُ ملكُ الموت، والشهيدُ النبيُّ ﷺ. وفي رواية أُخرى عنه: السائقُ ملكٌ، والشهيدُ العمل. وكلاهما كما ترى.

وقيل: الشهيدُ الكتاب الذي يلقاه منشوراً. وعن ابن عباس والضحاك: السائقُ مَلَكٌ، والشهيدُ جوارح الإنسان. وتَعَقَّبه ابنُ عطية[٢] بقوله: وهذا بعيدٌ عن ابن عباس؛ لأنَّ الجوارحَ إنما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالى: «كلّ نفس» يعمُّ الصالحين.

وقيل: السائقُ والشهيد مَلَكٌ واحد، والعطفُ لمغايرة الوصفين، أي: معها ملكٌ يسوقُها ويشهدُ عليها. وقيل: السائقُ نفسُ الجاني والشهيدُ جوارحُه. وتعقِّب بأن المَعِيَّة تأباه، والتجريدُ بعيدٌ، وفيه أيضاً ما تقدَّم آنفاً عن ابن عطية. وقال أبو مسلم: السائق شيطانٌ كان في الدنيا مع الشخص. وهو قولٌ ضعيف. وقال أبو حيان[٣]: الظاهر أنَّ «سائقٌ وشهيد» اسما جنسٍ، فالسائقُ ملائكة مُوكَّلون بذلك، والشهيدُ الحَفَظةُ وكلُّ مَنْ يشهد، ثم ذكر أنه يشهد بالخير الملائكةُ والبقاع، وفي الحديث: «لا يسمعُ مَدَى صوتِ المؤذِّن إنسٌ ولا جِنٌّ ولا شيء إلا شَهِدَ له يومَ القيامة»[٤].

و«معها» صفةُ «نفس» أو «كلّ» وما بعدَه فاعلٌ به لاعتماده، أو «معها» خبرٌ مقدَّم وما بعدَه مبتدأ، والجملةُ في موضع الصِّفة، واختير كونها مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لأن الأخبار بعد العلم بها أوصاف، ومضمون هذه الجملة غيرُ معلوم، فلا تكون صفةً إلا أن يُدعى العلم به، وأنت تعلم أنَّ ما ذكر غير مُسَلَّم.

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠.

(٢) المحررالوجيز ٥/ ١٦٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩)، وأحمد (١١٣٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال الزمخشري: محلُّ «معها سائق» النصبُ على الحال من «كلّ» لتعرُّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة[١]، فإنَّ أصلَ كلّ أن يُضافَ إلى الجمع كأفعل التفضيل؛ فكأنه قيل: كلُّ النفوس يعني أنَّ هذا أصلُه، وقد عدل عنه في الاستعمال للتفرقة بين «كلّ» الإفرادي والمجموعي. ولا يخفى أنَّ ما ذكره تكلُّفٌ لا تُساعده قواعدُ العربية، وقد قال عليه في «البحر»: إنه كلامٌ ساقطٌ لا يصدر عن مبتدئ في النحو[٢]. ثم إنه لا يحتاج إليه، فإن الإضافة للنكرة تُسوِّغ مجيء الحال منها، وأيضاً «كلّ» تفيدُ العموم، وهو من المسوِّغات كما في «شرح التسهيل».

وقرأ طلحة: «مَحَّا سائق» بالحاء مُثَقَّلة[٣]، أدغم العين في الهاء فانقلبتا حاءً، كما قالوا: ذَهَبَ مَحُّم، يريدون: معهم.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ محكيٌّ بإضمار قول، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قبلَه، كأنه قيل: فماذا يكون بعدَ النفخ ومَجيء كلِّ نفس معها سائقٌ وشهيد؟ فقيل: يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التي لم يُصدِّق بها في الدنيا من البعث وغيره: «لقد كنتَ في غَفْلةٍ من هذا» الذي تُعاينه، فالخطابُ للكافر كما قال ابن عباس وصالح بن كيسان. وتنكيرُ الغَفْلة وجَعْلُه فيها وهي فيه يدلُّ على أنها غَفْلة تامَّة، وهكذا غَفْلة الكَفَرة عن الآخرة وما فيها.

وقيل: الجملة محكيَّةٌ بإضمار قول هو صفة لـ «نفس» أو حال، والخطاب عامٌّ، أي: يقال لكلِّ نفس، أو قد قيل لها: «لقد كنت»، والمراد بالغَفْلة: الذُّهول مطلقاً سواء كان بعدَ العلم أَمْ لا، وما من أحدٍ إلا وله غَفْلةٌ ما من الآخرة وما فيها. وجوِّز الاستئناف على عمومِ الخطاب أيضاً.

وقرأ الجحدري: «لقد كنتِ» بكسر التاء[٤] على مخاطبةِ النفس، وهي مُؤَنَّثة، وتذكيرها في قوله:

---

(١) الكشاف ٤/ ٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القراءات الشاذة ص١٤٤.

يـا نـفـسُ إنـك بـالـلَّـذات مـسـرور[(١)]

على تأويلها بالشخص، ولا يلزم في قراءة الجمهور؛ لأنَّ التعبيرَ بالنفس في الحكاية لا يستدعي اعتبارَه في المحكيِّ كما لا يخفى.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاءُ: الحجابُ المغطِّي لأمور المَعاد، وهو الغَفْلة والانهماكُ في المحسوسات والإلف بها وقَصْر النظر عليها، وجُعِلَ ذلك غطاءً مجازاً، وهو إما غطاءُ الجسد كلِّه أو العينين، وعلى كِليهما يصحُّ قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: نافذٌ لزوال المانع للإبصار، أما على الثاني فظاهرٌ، وأما على الأول فلأن غطاءَ الجسدِ كلِّه غطاءٌ للعينين أيضاً، فكَشْفه عنه يستدعي كَشْفَه عنهما.

وزعم بعضهم أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ، والمعنى: كنتَ في غَفْلةٍ من هذا الذي ذكرناه من أمر النَّفْخ والبعث ومَجيء كلِّ نفس معها سائقٌ وشهيدٌ وغير ذلك، فكشفنا عنك غطاءَ الغَفْلة بالوحي وتعليم القرآن، فبصرك اليومَ حديدٌ ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون. ولَعمري إنَّه زَعْمٌ ساقطٌ لا يُوافق السِّباق ولا السِّياق. وفي «البحر»: وعن زيد بن أسلم قولٌ في هذه الآية يحرمُ نَقْله، وهو في كتاب ابنُ عطية[(٢)]. انتهى. ولعله أراد به هذا[(٣)]، لكن في دعوى حُرمة النقل بحثٌ.

وقرأ الجحدري وطلحة بن مُصَرِّف بكسر الكافات الثلاثة، أعني كاف «عنك» وما بعدَه[(٤)]، على خطاب النَّفس، ولم ينقل صاحبُ «اللوامح» الكسرَ في الكاف إلا عن طلحة، وقال: لم أَجِدْ عنه في «لقد كنت» الكسرَ، فإن كَسر فيه أيضاً فذاك، وإن فَتح يكون قد حَمل ذلك على لفظ «كلّ» وحَمل الكسر فيما بعدَه على معناه لإضافته إلى «نفس»، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ وقوله سبحانه بعدَه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١١٢]. انتهى.

---

(١) ذكره أبو السعود في تفسيره ٨/ ١٣٠، وعزاه لجبلة بن حريث، وعجزه:

فـاذكـر فـهـل يـنـفـعـك الـيـوم تـذكـيـر

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٢.

(٣) وهو كما قال المصنف رحمه الله، فقد ذكره ابن عطية عن زيد بنحو القول المذكور.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٤، والبحر المحيط ٨/ ١٢٥.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانُه المُقيَّض له في الدنيا كما قال مجاهد، وفي الحديث: «ما مِنْ أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجِنِّ» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أنَّ اللهَ تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»(١).

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ إشارةٌ إلى الشخص الكافرِ نَفْسه، أي: هذا ما عندي وفي مَلَكتي عتيدٌ لجهنم قد هيَّأته لها بإغوائي وإضلالي، ولا يُنافي هذا ما حكاه سبحانه عن القَرين في قوله تعالى الآتي: (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) لأنَّ هذا نظيرُ قول الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وقوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وذاك نظيرُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال قتادة وابن زيد: «قرينُه»: المَلَكُ الموكَّل بسوقِهِ، يقول مُشيراً إليه: هذا ما لديَّ حاضرٌ. وقال الحسن: هو كاتبُ سيئاته يقولُ مشيراً إلى ما في صحيفته: أي: هذا مكتوبٌ عندي عتيدٌ مهيَّأٌ للعَرْضِ. وقيل: «قرينُه» هنا عَمَلُه قلباً وجوارحَ، وليس بشيء، و«ما» نكرةٌ موصوفةٌ بالظرف وبـ «عتيد»، أو موصولة والظرف صِلَتُها، و«عتيد» خبر بعدَ خبر لاسم الإشارة، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، وجُوِّز أنْ يكونَ بدلاً من «ما» بناءً على أنه يجوزُ إبدالُ النكرة من المعرفة وإن لم تُوصف إذا حصلت الفائدةُ بإبدالها، وأما تقديرُه بشيء عتيد على أنَّ البدلَ هو الموصوفُ المحذوف الذي قامت صفتُه مقامَه، أو أنَّ «ما» الموصولة لإبهامِها أشبهت النَّكرة فجاز إبدالُها منها، فقيل عليه: إنه ضعيفٌ؛ لِمَا يلزم الأول من حَذْف البدل وقد أباه النُّحاة، والثاني لا يقولُ به من يشترط النعت، فهو صلحٌ من غير تراضي الخَصْمين. وقرأ عبد الله: «عتيداً» بالنصب على الحال(٢).

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ من الله تعالى للسائق والشهيدِ بناءً على أنهما اثنان - لا واحدٌ جامع للوصفين - أو للمَلَكين من خَزَنة النار، أو لواحد على أنَّ الألف بدلٌ من نون التوكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، وأُيِّد بقراءة الحسن: «ألقينْ» بنون التوكيد الخفيفة، وقيل: إنَّ العرب كثيراً ما يرافق الرجلُ منهم اثنين،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

فكَثُر على ألسنتهم أنْ يقولوا: خليليّ، وصاحبيّ، وقِفا، واسعدا، حتى خاطبوا الواحدَ خطابَ الاثنين، وما في الآية محمولٌ على ذلك، كما حُكي عن الفراء[١]، أو على تنزيل تثنيةِ الفاعل منزلةَ تثنية الفعل بأن يكونَ أصلُه: أَلْقِ أَلْقِ، ثم حُذف الفعلُ الثاني وأبقي ضميره مع الفعل الأول، فَثُنِّي الضمير للدلالة على ما ذكر كما في قوله:

فإنْ تَزْجُراني يا ابنَ عفَّان أَنْزجِرْ وإنْ تَدَعاني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعاً[٢]

وحُكي ذلك عن المازني والمبرِّد، ولا يخفى بُعْدُه، وَلْيُنظَرْ هل هو حقيقةٌ أو مجازٌ؟ والأظهرُ أنه خطابٌ لاثنين، وهو المروي عن مجاهد وجماعة. وأيًّاما كان فالكلامُ على تقدير القول كما مرَّ.

والإلقاءُ: طرحُ الشيء حيث تَلْقاه، أي: تراه، ثم صار في التعارف اسماً لكلِّ طرح، أي: اِطْرحا في جهنَّم كلَّ مبالغ في الكُفر للمنعِم والنعمة.

﴿عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ مبالغٍ في العِناد وتركِ الانقيادِ للحقِّ، وقريبٌ منه قول الحسن: جاحد مُتمرِّد، وقال قتادة: أي: مُنحرف عن الطاعة، يقال: عَنَدَ عن الطريق: عَدَلَ عنه، وقال السدي: المُشاقُّ، من العَنَد، وهو عظمٌ يَعرِضُ في الحَلْق. وقال ابن بحر: المُعجَبُ بما عندَه.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ مبالغٍ في المنع للمال عن حُقوقه المفروضة، قال قتادة ومجاهد وعكرمة: يعني الزكاة. وقيل: المرادُ بالخير الإسلام، فإنَّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه: مَنْ دخل منكم في الإسلام لم أنفعه بشيء ما عِشْتُ[٣]. والمبالغة باعتبار كَثْرة بني أخيه، أو باعتبار تكرُّر منعِهِ لهم.

وضُعِّفَ بأنه لو كان المرادُ ذلك كان مقتضى الظاهرِ: مَنَّاعٍ عن الخير. وفي «البحر»[٤]: الأحسنُ عمومُ الخير في المال وغيره.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٧٨.

(٢) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ونسبه لأبي ثروان، وتفسير القرطبي ١٩/ ٤٤٨.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٨.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالمٍ متخطٍّ للحقِّ مُتجاوزٍ له ﴿مُرِيبٍ ۝٢٥﴾ شاكٍّ في الله تعالى ودِينه، وقيل: في البعث.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ بتأويل: فيقال في حَقِّه: ألقياه، أو لكونه في معنى جوابِ الشرط لا يحتاج للتأويل.

أو بدلٌ من «كلّ كَفَّار»، أو من «كفَّار»، وقوله تعالى: «فألقياه» تكرير للتوكيد، فهو نظير: (فَلَا تَحْسَبَنَّهُم) بعدَ قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ [آل عمران:١٨٨]، والفاء هاهنا للإشعار بأنَّ الإلقاءَ للصِّفات المذكورة، أو من باب: وحقِّك ثم حقّك، ينزَّل التغاير بين المُؤكِّد والمُؤكَّد والمُفسِّر والمُفَسَّر منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابيّ، ولا يُدَّعَى التغايرُ الحقيقيّ، لأنَّ التأكيدَ يأباه، وقول أهل المعاني: إنَّ بين المؤكِّد والمؤكَّد شدةَ اتِّصال تمنع من العطف، ليس على إطلاقه بسديد، والنَّحويون على خِلافه، فقد قال ابن مالك في «التسهيل»[(١)]: فصلُ الجملتين في التأكيد بـ «ثمَّ» إنْ أمن اللَّبس أجودُ من وَصْلهما. وذكر بعضُ النُّحاة الفاء، والزمخشري في «الجاثية» الواو أيضاً، وجعلوا ذلك من التأكيد الاصطلاحي ولو جُعل «العذاب الشديد» نوعاً من عذاب جهنم ومن أهوله فكان من باب ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٨] دون تكرير لكان ـ كما قال صاحب «الكشف» ـ حسناً.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً بمضمر يُفسِّره «فألقياه». وقال ابن عطية[(٢)]: أن يكون صفةَ «كفَّار»، وجاز وَصْفُه بالمعرفة لتخصُّصه بالأوصاف المذكورة. وتعقَّبه أبو حيان[(٣)] بأنه لا يجوز وصفُ النكرة بالمعرفة ولو وُصِفَتْ بأوصاف كثيرة.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان المُقيَّض له، وإنَّما استؤنفت هذه الجملةُ استئنافَ الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنها جوابٌ لمحذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

---

(١) ص ١٦٦.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فإنه مبنيٌّ على سابقةِ كلام اعتذرَ به الكافرُ، كأنه قال: هو أطغاني، فأجاب قرينُه بتكذيبه وإسناد الطُّغيان إليه، بخلاف الجملةِ الأولى فإنها واجبةُ العطف على ما قبلَها دلالة على الجمع بين مفهوميها في الحصول، أعني مَجيء كلِّ نفس مع المَلَكين، وقول قرينه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ من الحقِّ فأعنتُه عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قَسْر ولا إلجاء، فهو كما قدَّمنا نظير: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلخ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قَبله، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال عز وجل: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحسابِ والجَزاء، إذْ لا فائدةَ في ذلك ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ على الطُّغيان في دار الكسب في كُتبي وعلى ألسنة رُسلي، فلا تَطْمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلُّل بالمعاذير الباطلة. والجملةُ حالٌ فيها تعليلٌ للنهي، ويلاحظ معنى العلم لتحصل المقارنة التي تقتضيها الحاليَّة، أي: لا تختصموا لديَّ عالمين أنِّي قدَّمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٨٥] فاتبعتموه مُعرضين عن الحقّ. والباء مَزيدةٌ أو معدِّية على أن قدَّم بمعنى تقدَّم، وهو لازمٌ يعدَّى بالباء.

وجوِّز أن يكون «قدَّمت» واقعاً على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ إلخ، ويكون «بالوعيد» متعلِّقاً بمحذوف هو حالٌ من المفعول قدِّم عليه أو الفاعل، أي: وقد قدَّمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد مُقترناً به، أو قدَّمته إليكم موعداً لكم، فلا تطمعوا أن أبدِّل وعيدي، والأظهرُ استئنافُ هذه الجملة.

وفي «لدي» على ما قال الإمام[1] وجهان:

الأول: أن يكونَ متعلِّقاً بالقول، أي: ما يبدَّلُ القولُ الذي عندي.

الثاني: أن يكونَ متعلِّقاً بالفعل قبلُ، أي: لا يقع التبديلُ عندي.

قال: وعلى الأول في القول الذي لديه تعالى وجوه: أحدُها: قولُه تعالى: «ألقيا» أرادوا باعتذارهم أن يبدَّلَ ويقولَ سبحانه: لا تلقيا، فردَّ عليهم. ثانيها: قولُه

(١) تفسير الرازي ٢٨/١٦٩.

سبحانه لإبليس: «لأملأن» إلخ. ثالثها: الإيعادُ مطلقاً. رابعها: القولُ السابق يومَ خلق العباد: هذا سعيدٌ وهذا شقيٌّ.

وعلى الثاني: في معنى الآيةِ وجوهٌ أيضاً: أحدها: لا يُكذَب لديَّ، فإنِّي عالمٌ عَلِمْتُ مَن طَغَى ومن أَطغى، فلا يُفيد قولُكم: أطغاني شيطاني، وقول الشيطان: «ربَّنا ما أطغيته». ثانيها: لو أردتم أن لا أقول: «فألقياه» كنتم أبدلتم الكفر بالإيمان قبلَ أن تقفوا بين يديَّ، وأما الآن فما يبدَّلُ القولُ لديَّ. ثالثها: لا يبدَّل القولُ الكفر بالإيمان لديَّ، فإنَّ الإيمان عند اليأس غيرُ مقبول، فقولُكم: ربَّنا وإلهنا، لا يُفيدكم، فمن تكلَّم بكلمة الكفر لا يُفيده قوله: ربَّنا ما أشركنا، وقوله: ربَّنا آمنا.

والمشهورُ أنَّ «لديَّ» متعلِّقٌ بالفعل على أنَّ المرادَ بالقول ما يشمل الوعدَ والوعيد. واستدلَّ به بعضُ من قال بعدم جواز تخلُّفهما مطلقاً. وأَجاب مَن قال بجوازِ العفو عن بعض المُذنبين بأنَّ ذلك العفو ليس بتبديل، فإنَّ دلائلَ العفو تدلُّ على تخصيص الوعيد.

وقال بعض المحقِّقين: المرادُ نفي أن يُوقِعَ أحد التبديل لديه تعالى، أي: في عِلْمه سبحانه، أو يُبدَّل القولُ الذي عَلِمَه عز وجل، فإنَّ ما عنده تبارك وتعالى هو ما في نفس الأمر، وهو لا يقبل التبديل أصلاً، وأكثرُ الوعيدات معلَّقةٌ بشرط المشيئةِ على ما يقتضيه الكرم وإن لم يُذكر على ما يقتضيه الترهيب، فمتى حصل العفوُ لعدمِ مشيئةِ التعذيب لم يكن هناك تبديلٌ مّا في نفس الأمر، فتدبَّره فإنَّه دقيق.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ واردٌ لتحقيق الحقِّ على أبلغ وجه، وفيه إشارةٌ إلى أن تعذيبَ مَن يعذَّب من العبيد إنما هو عن استحقاق في نفس الأمر، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في هذه الجملة، فتذكَّر.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: اذكر، أو: أَنْذر يومَ.. إلخ، فـ «يوم» مفعول به لمقدَّر، وقيل: هو ظرفٌ لـ «ظلَّام».

وقال الزمخشري[1]: يجوز أن ينتصب بـ «نُفِخَ»، كأنه قيل: ونُفِخَ في الصور يومَ، وعليه يُشار بـ «ذلك» إلى «يوم نقول» لأنَّ الإشارةَ إلى ما بعدُ جائزةٌ لاسيما إذا كانت رُتبته التقديم، فكأنه قيل: ذلك اليوم، أي: يوم القول يوم الوعيد، ولا يحتاج إلى حذف، على ما مرَّ في الوجه الذي أُشير به إلى النفخ.

وهذا الوجه كما قال في «الكشف»: فيه بُعد؛ لِبُعده عن العامل وتخلُّل ما لا يصلح اعتراضاً، على أنَّ زمانَ النفخ ليس يومَ القول إلا على سبيل فَرْضه ممتدّاً واقعاً ذلك في جُزء منه وهذا في جزء، وكلٌّ خلافُ الظاهر، فكيف إذا اجتمعت؟

وقال أبو حيان[2]: هو بعيدٌ جدّاً قد فُصِلَ عليه بين العامل والمعمول بجمل كثيرة، فلا يُناسب فصاحةَ القرآن الكريم وبلاغته.

والظاهرُ إبقاء السؤال والجواب على حقيقتهما، وكذا في نظير ذلك من اشتكاء النار والإذنِ لها بنَفَسين، وتحاجِّ النار والجنة، ونحن متعبَّدون باعتقادِ الظاهر ما لم يمنع مانعٌ، ولا مانعَ هاهنا، فإنَّ القُدرة صالحة والعقل مُجَوِّز، والظواهر قاضيةٌ بوقوع ما جوَّزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تُقاس على أمور الدنيا.

وقال الرُّمَّاني: الكلامُ على حذف مضاف، أي: نقول لخزنة جهنم. وليس بشيء.

وقال غير واحد: هو من باب التمثيل، والمعنى أنها مع اتِّساعها وتَباعد أقطارِها نطرح فيها من الجِنَّة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة، فالاستفهام للإنكار، أي: لا مَزيد على امتلائها. ورُوي هذا عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وجُوِّز في نفي الزيادة أن يكونَ على ظاهرِه، وأن يكونَ كنايةً أو مجازاً عن الاستكثار، وقيل: المعنى: إنها من السَّعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغٌ وخُلُوّ، فالاستفهامُ للتقرير، أي: فيها موضعٌ للمزيد لِسَعتها، وجُوِّز أن يكونَ ذلك كنايةً عن شدَّة غَيْظها على العُصاة كأنها طالبةٌ لزيادتهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.

واستُشكل دعوى أنَّ فيها فراغاً بأنه منافٍ لصريح قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية[1]. وأُجيب بأنه لا مُنافاةَ؛ لأنَّ الامتلاءَ قد يُرادُ به أنه لا يخلو طبقةٌ منها عمَّن يَسكنها وإنْ كان فيها فراغٌ كثيرٌ، كما يقال: إنَّ البلدةَ ممتلئةٌ بأهلها ليس فيها دارٌ خالية مع ما بينها من الأبنية والأفضية، أو أن ذلك باعتبار حالين، فالفراغُ في أول الدخول فيها، ثم يُساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ.

هذا، ويدلُّ غيرُ ما حديث أنها تَطْلبُ الزيادةَ حقيقةً إلا أنه لا يُدرى حقيقةُ ما يوضع فيها حتى تَمتلئ، إذ الأحاديثُ في ذلك من المتشابهات التي لا يراد بها ظواهرُها عند الأكثرين؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مَزيد، حتى يضع ربُّ العِزَّة فيها قَدَمَهُ، فينزوي بعضُها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزَّتِكَ وكَرمِكَ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خَلقاً آخر فيُسكنهم في فضول الجنة»[2].

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنار، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمُتجبِّرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضُعفاءُ الناس وسَقَطهم؟ فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أَرحمُ بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعذِّبُ بك من أشاء من عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلؤُها، فأما النارُ فلا تمتلئ حتى يضعَ رجْلَه فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويُزْوَى بعضُها إلى بعض، ولا يظلم اللهُ من خَلْقه أحداً، وأما الجنَّة، فإنَّ الله تعالى يُنشئ لها خلقاً»[3]. وأوَّلَ أهلُ التأويل ذلك:

فقال النضر بن شُميل: إنَّ القَدَم الكُفَّار الذين سبق في عِلْمه تعالى دخولُهم النار، والقَدَمُ تكون بمعنى المتقدِّم كقوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]. وظاهرُ

(١) الأعراف (١٨)، وهود (١١٩)، والسجدة (١٣)، وص (٨٥).
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومسند أحمد (١٢٣٨٠)، وصحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وسنن النسائي ٢/ ٣٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، وصحيح البخاري (٧٤٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٧١٨).

الحديث عليه يستدعي دخولَ غيرِ الكُفَّار قبلهم، وهو في غايةِ البُعد؛ ولعلَّ في الأخبار ما يُنافيه.

وقال ابن الأثير[1]: قَدَمُه، أي: الذين قَدَّمهم لها من شِرار خَلْقه فهم قَدَمُ الله تعالى للنارِ، كما أنَّ المسلمين قَدَمُه للجنة، والقَدَمُ كلُّ ما قدَّمت من خيرٍ أو شرٍّ. وهو كما ترى، ويُبعده ما في حديث أحمد وعبد بن حُميد وابن مردويه عن أبي سعيد مرفوعاً: «فَيُلقي فيها ـ أي: النار ـ أهلها فتقول: هل من مَزيد، ويُلقي فيها وتقول: هل من مَزيد، حتى يأتيها عز وجل فيضع قَدَمَه عليها فتنزوي وتقول: قَدْني قَدْني»[2].

وأوَّلوا الرِّجل بالجماعة، ومنه ما جاء في أيوب عليه السلام أنه كان يغتسلُ عُرياناً فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد[3]، والإضافة إلى ضميرِه تعالى تُبعد ذلك.

وقيل: وَضْعُ القَدَم أو الرِّجل على الشيء مَثَلٌ للرَّدع والقَمْع، فكأنه قيل: يأتيها أمرُ الله تعالى فيكفُّها من طلب المَزيد.

وقريبٌ منه ما ذهب إليه بعضُ الصوفية: أنَّ القَدَمَ يُكنى بها عن صفة الجلال، كما يُكنى بها عن صفة الجمال.

وقيل: أُريد بذلك تسكين فَوْرتها، كما يقال للأمر تريد إبطاله: وضعتُه تحت قَدَمي، أو: تحت رِجْلي. وهذان القولان أَولى مما تقدَّم، والله تعالى أعلم.

والمزيدُ إما مصدرٌ ميميٌّ كالمَحيد، أو اسمُ مفعول أعلَّ إعلالَ المبيع.

وقرأ الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش: «يوم يقول» بياء الغيبة، وقرأ عبد الله والحسن والأعمش أيضاً: «يقال» مبنيّاً للمفعول[4].

---

(١) النهاية (قدم).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومسند أحمد (١١٧٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٧، وقراءة نافع وأبي بكر في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦، وقراءة أبي جعفر غير المشهورة عنه.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أخذ في بيان حال المؤمنين بعدَ بيان حال الكافرين؛ وهو عطفٌ على «نُفِخَ» أي: قُرِّبَتْ للمتقين عن الكُفر والمعاصي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: في مكانٍ غيرِ بعيد بمرأى منهم بين يديهم، وفيه مبالغةٌ ليست في التخلية عن الظرف، فـ «غير بعيد» صفةٌ لظرف مُتعلِّق بـ «أُزلفت» حذف فقام مقامه وانتصب انتصابه، ولذلك لم يقل: غيرَ بعيدة. وجُوِّز أن يكونَ منصوباً على المصدرية، والأصلُ: وأُزلفت إزلافاً غيرَ بعيد، قال الإمام(١): أي: عن قُدرتنا. وأن يكون حالاً من «الجنة» قُصِدَ به التوكيدُ، كما تقول: عزيزٌ غيرُ ذليل، لأن العِزَّة تُنافي الذُّلّ، ونفيُ مضادِّ الشيء تأكيدُ إثباته، وفيه دَفْعُ توهُّمِ أنَّ ثَمَّ تجوُّزاً أو شوباً من الضدِّ، ولم يقل: غير بعيدة، عليه، قيل: لتأويل الجنة بالبستان. وقيل: لأنَّ البعيدَ على زِنَةِ المصدر الذي من شأنه أن يستوي فيه المؤنَّث والمذكَّر كالزئير والصَّليل، فَعُومِلَ مُعامَلته وأُجري مُجراه، وقيل: لأنَّ فعيلاً بمعنى فاعل قد يجري مجرى فعيل بمعنى مفعول فيستوي فيه الأمران.

وللإمام في تقريبِ الجَنَّة أوجه؛ منها طيُّ المسافةِ التي بينها وبين المُتَّقين مع بقاءِ كلٍّ في مكانهِ وعدمِ انتقاله عنه، ولكرامةِ المُتقين قيل: «أُزلفت الجَنَّةُ للمتقين» دون: وأُزْلِفَ المُتَّقون للجنة. ومنها أنَّ المرادَ تقريبُ حُصولها والدخولُ فيها دون التقريب المكاني، وفيه ما فيه. ومنها أنَّ التقريبَ على ظاهرِه، والله عز وجل قادرٌ على نَقْل الجنة من السماء إلى الأرض، أي: إلى جهة السُّفل، أو الأرض المعروفة بعدَ مَدِّها.

وقولُ بعض: إنَّ المرادَ إظهارُها قريبةً منها على نحو إظهارِها للنبيِّ ﷺ في عرضِ حائطِ مسجدِه الشريف ـ على ما فيه ـ منزعٌ صوفيٌّ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى الجنة، والتذكيرُ لما أنَّ المشارَ إليه هو المُسمَّى من غيرِ قَصْدِ لفظٍ يدلُّ عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ العربي كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٧٦.

ويجوز أن يكونَ ذلك لتذكيرِ الخبر، وقيل: هو إشارةٌ إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر «أُزلفت» والجملةُ بتقدير قولٍ وقع حالاً من المُتَّقين أو من الجَنَّة، والعامل أُزلفَتْ، أي: مقولاً لهم أو مقولاً في حقِّها: «هذا ما تُوعدون»، أو اعتراض بين المُبدل منه أعني «للمتقين» والبدل أعني الجارّ والمجرور، وفيه بُعْدٌ.

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُوعدون» بياء الغيبة(١)، والجملةُ على هذه القراءة قيل: اعتراضٌ أو حال من «الجَنَّة». وقال أبو حيان(٢): هي اعتراضٌ، والمرادُ: هذا القول هو الذي وقع الوعدُ به، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ ـ أي: رجَّاع إلى الله تعالى ـ بدلٌ من «المُتَّقين» بإعادة الجارِّ، أَوْ من «للمتقين» على أن يكونَ الجارُّ والمجرور بدلاً من الجارِّ والمجرور.

﴿حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ حَفِظَ ذنوبه حتى رَجَعَ عنها كما رُوي عن ابن عباس وسعيد بن سنان، وقريبٌ منه ما أخرج سعيدُ بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن يونس بن خبَّاب قال: قال لي مجاهد: ألا أُنبئك بالأوَّاب الحفيظ؟ هو الرجلُ يذكُر ذَنْبه إذا خلا فيستغفر اللهَ تعالى منه(٣).

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: أَي: حفيظ لِمَا استودعه اللهُ تعالى من حَقِّه ونعمته(٤).

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عُبيد بن عُمير: كنَّا نَعُدُّ الأوَّابَ الحفيظَ الذي يكون في المجلس، فإذا أراد أن يقومَ قال: اللهم اغْفِرْ لي ما أصبتُ في مجلسي هذا(٥).

---

(١) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦ عن ابن كثير، وذكرها عن أبي عمرو أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣٢، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ٤٥١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢.
(٥) الدر المنثور ٦/ ١٠٧-١٠٨، ومصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٤٢.

وقيل: هو الحافظُ لتوبته من النقض، ولا يُنافيه صيغةُ «أَوَّاب» كما لا يخفى.

وقوله تعالى شأنه: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ بدلٌ من «كلّ» المُبدل من المتقين، أو بدلٌ ثانٍ من «المُتَّقين» بناءً على جوازِ تعدُّد البدلِ والمُبدَلُ منه واحدٌ، وقول أبي حيان[1]: تكرُّر البدل والمُبدَل منه واحد لا يجوز في غيرِ بدل البَداء، وسرّه أنّه في نية الطَّرح فلا يُبدل منه مرَّةً أُخرى = غيرُ مسلم، وقد جوَّزه ابنُ الحاجب في «أماليه»، ونقله الدَّماميني في أول شرحه للخزرجية وأطال فيه، وكون المُبدل منه في نيَّة الطرح ليس على ظاهره.

أو بدلٌ من موصوف «أوَّاب» أي: لكلِّ شخص أوَّاب، بناءً على جوازِ حَذْفِ المُبدل منه، وقد جوَّزه ابنُ هشام في «المغني»[2]، لاسيَّما وقد قامت صفتُه مقامَه حتى كأنه لم يحذف. ولم يُبدل من «أواب» نَفْسه، لأنَّ أواباً صفةٌ لمحذوف كما سمعتَ، فلو أُبدل منه كان للبدل حُكْمَه، فيكون صفةً مِثْلَه، و«من» اسم موصولٌ، والأسماءُ الموصولةُ لا يقع منها صفة إلا الذي على الأصحّ، وجَوّز بعضٌ الوصفَ بـ «مَن» أيضاً لكنه قولٌ ضعيفٌ.

أو مبتدأ خبره ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بتأويل: يقال لهم: ادخُلوها، لمكان الإنشائية، والجمع باعتبارِ معنى «مَنْ».

وقوله تعالى: «بالغيب» متعلِّق بمحذوف هو حالٌ من فاعل «خَشِيَ» أو من مفعوله، أو صفةٌ لمصدره، أي: خشيةً مُلتبسةً بالغيب حيث خَشِيَ عقابه سبحانه. وهو غائبٌ عنه أو هو غائبٌ عن الأعين لا يراه أحدٌ. وقيل: الباء للآلة، والمرادُ بالغيب القلبُ؛ لأنه مستورٌ، أي: من خَشِيَ الرحمنَ بقلبه دون جوارحه. بأنْ يُظْهِرَ الخشيةَ وليس في قلبه منها شيءٌ. وليس بشيء.

والتعرُّضُ لعنوانِ الرحمانيَّة للإشعار بأنَّهم مع خَشْيتهم عقابَه عز وجل راجون رحمته سبحانه، أو بأنَّ علمهم بِسَعَةِ رحمته تبارك وتعالى لا يَصُدُّهم عن خَشْيته جلَّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.

(٢) مغني اللبيب ص٨٢١.

شأنُه. وقال الإمام[1]: يجوز أن يكون لفظ «الرحمن» إشارةً إلى مقتضى الخَشْية؛ لأنَّ معنى الرحمن واهبُ الوجود بالخَلْق، والرحيم واهبُ البقاء بالرزق، وهو سبحانه في الدنيا رحمان حيث أوجدنا، ورحيم حيث أبقانا بالرزق، فمن يكون منه الوجودُ ينبغي أن يكونَ هو المَخْشيَّ، وما تقدَّم أولى.

والباء في قوله تعالى: «بقلب» للمصاحبة، وجُوِّز أن تكونَ للتعدية، أي: أحضر قلباً مُنيباً. ووصفُ القلب بالإنابة مع أنها يُوصف بها صاحبه لما أن العِبْرَةَ رجوعه إلى الله تعالى.

وأغرب الإمامُ فجوَّز كونَ الباء للسببيَّة، فكأنَّه قيل: ما جاء إلا بسبب آثارِ العلم في قلبه أنْ لا مَرْجِعَ إلا الله تعالى فجاء بسبب قلبه المُنيب، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍۖ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو حالٌ من فاعل «ادخلوها» والباء للمُلابسة، والسلامُ إما من السلامة أو من التسليم، أي: ادخُلوها مُلتبسين بسلامة من العذاب وزوالِ النعم، أو بتسليم وتحيَّةٍ من الله تعالى وملائكته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الزمان المُمْتَدِّ الذي وقع في بعضٍ منه ما ذُكر من الأمور ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ البقاء الذي لا انتهاءَ له أبداً، أو إشارة إلى وقت الدخول بتقدير مضافٍ، أي: ذلك يومُ ابتداء الخُلود وتحقُّقه، أو يوم تقدير الخلود، أو إشارة إلى وقت السلام بتقدير مضاف أيضاً، أي: ذلك يومُ إعلامِ الخُلود، أي: الإعلام به.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من فنون المطالب كائناً ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ «يشاؤون»، وقيل: بمحذوفٍ هو حالٌ من الموصول أو من عائده المحذوف من صِلته.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرجُ تحت مَشيئتهم من مَعالي الكرامات التي لا عينٌ رأَتْ ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بَشَر، ومنه كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن كثير بن مُرَّة: أَنْ تَمُرَّ السحابةُ بهم فتقول: ماذا تُريدون فأُمطرَه عليكم؟ فلا يُريدون شيئاً إلا أَمطرته عليهم[2].

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٧٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٩، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٠.

وأخرج البيهقيُّ في «الرؤية» والديلمي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يتجلّى لهم الربُّ عز وجل»[(١)].

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضاً: يتجلّى لهم الربُّ تبارك وتعالى في كلِّ جمعة[(٢)]. وجاء في حديث أخرجه الشافعي في «الأم» وغيره أنَّ يومَ الجمعة يُدعى يوم المَزيد[(٣)].

وقيل: المَزيدُ: أزواجٌ من الحور العِين عليهن تيجان أدنى لؤلؤة منها تُضيء ما بين المشرقِ والمغرب، وعلى كلِّ سبعون حُلَّة، وإنَّ الناظرَ لينفذ بصره حتى يَرى مُخَّ ساقِها من وراء ذلك.

وقيل: هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: كثيراً أهلكنا قبلَ قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ قوماً مقترنين في زمن واحد ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوَّة كما قيل، أو: أَخْذاً شديداً في كلِّ شيء كعادٍ وقومِ فرعون ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ ساروا في الأرض وطوَّفوا فيها حذار الموت، فالتنقيبُ: السيرُ وقطع المسافةِ، كما ذكره الراغب[(٤)] وغيره، وأنشدوا للحارث بن حِلِّزة:

نـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ت وجالـوا فـي الأرض كـلَّ مـجـالِ[(٥)]

ولامرئ القيس:

---

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٩٥، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٨٥٢). وفي إسناده عمرو بن خالد القرشي، وهو متروك كما في التقريب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٨، وأخرجه أيضاً البزار (٢٢٥٨ - كشف)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٢: فيه عثمان بن عمير وهو ضعيف.

(٣) الأم ١/ ١٨٥، وهو في مسنده ١/ ١٢٦، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٠، والبزار (٣٥١٩ - كشف الأستار)، والطبري ٢١/ ٤٥٧، والطبراني في الأوسط (٢٠٨٤)، والدارقطني في الرؤية ص ١٧٢-١٨٤ بروايات متعددة، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وينظر مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١.

(٤) المفردات (نقب).

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١، والقرطبي في التفسير ١٩/ ٤٥٨.

وقد نَقَّبتُ في الآفاقِ حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ[(١)]

ورُوي: وقد طَوَّفت. وأخرج الطستي[(٢)] عن ابن عباس أن نافعَ بن الأزرق سأله عن ذلك، فقال: هو: هربوا بلغةِ اليمن، وأنشد له بيت الحارث المذكور لكنه نسبه لعدي بن زيد.

وفسِّر التنقيب في البلاد بالتصرُّف فيها بملكها ونحوه، وشاع التنقيب في العُرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] وأما قولهم: كلب نقيبٌ، فهو بمعنى منقوبٌ، أي: نقبت غَلْصَمَته ليضعف صوتُه.

والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه المروي عن ابن عباس لمجرَّد التعقيب، وعلى تفسيره بالتصرُّف للسببية، لأن تصرُّفهم في البلاد مُسبَّب عن اشتدادِ بَطْشهم، وهي على الوجهين عاطفةٌ على معنى ما قبلَها، كأنه قيل: اشتدَّ بطشُهم فنقَّبوا، وقيل: هي على ما تقدَّم أيضاً للسببية والعطف على «أهلكنا» على أنَّ المرادَ: أخذنا في إهلاكهم فنقَّبوا في البلاد.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ على إضمار قولٍ هو حالٌ من واو «نَقَّبوا» أي: قائلين: هل لنا مَخْلَصٌ من الله تعالى، أو من الموت؟ أو على إجراء التنقيب لِمَا فيه من معنى التتبُّع والتفتيش مجرى القولِ على ما قيل، أو هو كلامٌ مستأنف لنفي أن يكونَ لهم محيصٌ، أي: هل لهم مخلصٌ من الله عز وجل أو من الموت؟

وقيل: ضمير «نَقَّبوا» لأهل مكة، أي: ساروا في مَسايرهم وأسفارهم في بلاد القرون المُهلَكة، فهل رَأَوْا لهم محيصاً حتى يؤمِّلوا مثلَه لأنفسهم.

وأُيِّدَ بقراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونَصْر بن سيار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو: «فَنَقِّبوا» على صيغة الأمر[(٣)]؛ لأنَّ الأمر للحاضر وقت

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٩٩.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٩، ومن طريقه أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٤٠٧.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩.

النزول من الكُفَّار وهم أهل مكة لا غير، والأصلُ تَوَافُقُ القراءتين، وفيه على هذه القراءة التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب.

وقرأ ابنُ عباس أيضاً، وعُبيد عن أبي عمرو: «فَنَقَبوا» بفتح القاف مُخَفَّفة(١)، والمعنى كما في المشدَّدة. وقُرئ بكسر القاف خفيفة(٢) من النَّقَب محرَّكاً، وهو أن ينتقب خُفُّ البعير ويرقَّ من كَثْرة السَّير، قال الراجز:

أَقْسَمَ بالله أبو حفصٍ عُمَرْ
ما مسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَرْ(٣)

والكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: نقبت أَقدامهم، ونقبُ الأقدامِ كنايةٌ مشهورةٌ عن كَثْرة السير، فيؤُول المعنى إلى أنهم أكثروا السَّير في البلاد، أو نقبت أخفافُ مراكبهم، والمرادُ كَثْرةُ السير أيضاً، وقد يُستغنى عن التقدير بجعل الإسناد مَجازيّاً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: الإهلاك أو ما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكرةً وعِظَةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب واعٍ يدركُ الحقائقَ، فإنَّ الذي لا يَعي ولا يفهم بمنزلة العدم، وفي «الكشف»: «لمن كان» إلخ تمثيلٌ، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أَصغى إلى ما يُتلى عليه من الوحي.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: حاضر، على أنه من الشهود بمعنى الحضور، والمرادُ به المتفطِّن؛ لأنَّ غيرَ المتفطِّن منزَّلٌ منزلةَ الغائب، فهو إما استعارةٌ أو مجازٌ مُرسَلٌ، والأولُ أَولى. وجُوِّز أن يكون من الشهادة وصفاً للمؤمن لأنه شاهدٌ على صحَّة المُنزَل وكونه وحياً من الله تعالى فيبعثه على حسن الإصغاء، أو وصفاً له من قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] كأنه قيل: وهو من جملة الشهداء، أي: المؤمنين من هذه الأُمَّة، فهو كنايةٌ على الوجهين، وجُوِّز على الأول منهما أن لا يكونَ كنايةً، على أنَّ المرادَ: وهو شاهدٌ شهادةً عن إيقان لا كشهادةِ أهل الكتاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٤.

(٢) البحر ٨/ ١٢٩.

(٣) الرجز لعبد الله بن كَيْسَبَة كما في الخزانة ٥/ ١٥٤.

وعن قتادة: المعنى: لمن سمع القرآن من أهل الكتاب وهو شاهدٌ على صِدقه لما يجدُه في كتابه من نَعْته. والأنسبُ بالمَساق والأملأ بالفائدة الأخذُ من الشهود. والوجهُ جعلُ «وهو شهيد» حالاً من ضمير المُلقي لا عطفاً على «ألقى» كما لا يخفى على من له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد. والمرادُ: إنَّ فيما فعل بسوالف الأُمم أو في المذكور أماماً من الآيات لذكرى لإحدى طائفتين: مَنْ له قلبٌ يفقهُ عن الله عز وجل، ومَنْ له سمعٌ مُصْغٍ مع ذهن حاضر، أي: لمن له استعدادُ القَبول عن الفقيه إن لم يكن فقيهاً في نَفْسه، و«أو» لمنع الخلوِّ من حيث إنه يجوز أن يكون الشخصُ فقيهاً ومستعدّاً للقَبول من الفقيه. وذكر بعضُهم أنها لتقسيم المتذكِّر إلى تالٍ وسامع، أو إلى فقيه ومتعلِّم، أو إلى عالم كاملِ الاستعداد لا يحتاج لغير التأمُّل فيما عنده وقاصرٍ محتاجٍ للتعلُّم، فيتذكَّر إذا أَقبل بكليته وأَزال الموانعَ بأسرها، فتأمَّل.

وقرأ السُّلمي وطلحة والسدي وأبو البرهسم: «أو أُلقِيَ» مَبنيّاً للمفعول «السمعُ» بالرفع[1] على النيابة عن الفاعل؛ والفاعلُ المحذوف إما المُعبَّر عنه بالموصول أوْ لا، وعلى الثاني معناه: لمن أَلقى غيرُه السمعَ وفتح أُذنه ولم يُحضر ذِهْنه، وأما هو فقد ألقى وهو شاهدٌ متفطِّن مُحضِرٌ ذِهْنَه، فالوصفُ ـ أعني الشهود ـ مُعتمَدُ الكلام، وإنما أُخرج في الآية بهذه العبارة للمبالغة في تفطُّنه وحضوره. وعلى الأول معناه: لمن أَلقى سَمْعَه وهو حاضرٌ مُتفطِّن. ثم لو قُدِّر موصولٌ آخر بعد «أو» فذو القلب والمُلقي غيران شخصاً، ولو لم يُقدَّر جاز أَنْ يكونا شخصين، وأَنْ يكونا شخصاً باعتبار حالين: حال تفطُّنه بنفسه، وحال إلقائه السمعَ عن حضور إلى متفطِّن بنفسه؛ لأن «من» عامٌّ يتناول كلَّ واحد واحد.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدَّم الكلامُ فيها[2] ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ وما أصابنا بذلك مع كونه مما لا تفي به القُوى والقُدر ﴿مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ تَعَب مّا، فالتنوين للتحقير، وهذا كما قال قتادة

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩.
(٢) في سورة الأعراف، الآية (٥٤).

وغيره ردٌّ على جَهَلةِ اليهود زَعَموا أنه تعالى شأنه بدأ خَلْق العالم يومَ الأحد، وفرغَ منه يومَ الجمعة، واستراحَ يومَ السبت، واستلقى على العرش، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوّاً كبيراً. وعن الضحاك أنَّ الآية نزلت لما قالوا ذلك، ويُحكى أنهم يزعُمون أنه مذكورٌ في التوراة، وجملة «وما مَسَّنا» إلخ تَحتمل أن تكون حاليةً وأن تكونَ استئنافيةً.

وقرأ السُّلمي وطلحة ويعقوب: «لَغوب» بفتح اللام[1] بزنة القَبول والوَلُوع، وهو مصدرٌ غير مَقيس، بخلاف مضموم اللام.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقول المشركون في شأن البعث من الأباطيل المَبنيَّة على الاستبعاد والإنكار، فإنَّ مَنْ قدرَ على خَلْق العالم في تلك المُدَّة اليسيرة بلا إعياء قادرٌ على بَعْثهم والانتقامِ منهم. أو على ما يقول اليهودُ من مقالةِ الكفر والتشبيه.

والكلام متعلِّق بقوله تعالى: «ولقد خلقنا» إلخ، على الوجهين. وفي «الكشف» أنه على الأول متعلِّق بأول السورة إلى هذا الموضع، وأنه أنسبُ من تعلُّقه بـ «لقد خلقنا» الآية؛ لأن الكلام مرتبطٌ بعضُه ببعض إلى هاهنا على ما لا يخفى على المسترشد.

وأنت تعلم أنَّ الأقربَ تعلُّقه على الوجهين بما ذكرنا.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهه تعالى عن العَجْز عمَّا يمكن، وعن وقوع الخُلف في أخباره التي من جُملتها الإخبارُ بوقوع البعث، وعن وصفِهِ عز وجل بما يُوجب التشبيه، أو نَزِّهه عن كلِّ نقص، ومنه ما ذُكر، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحقِّ وغيرها.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ هما وقتا الفجر والعصر، وفضيلتهما مشهورة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩، وهي غير المشهورة عن يعقوب.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوف يُفسِّره ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ باعتبار الاتحاد النوعي، والعطفُ للتغاير الشخصي، أي: وسَبِّحه بعضَ الليل فسبِّحه، أو مفعولٌ لقوله تعالى: «سَبِّحه» على أنَّ الفاء جزائيةٌ، والتقدير: مهما يكن من شيء فَسبِّحه بعضَ الليل، وقُدِّم المفعول للاهتمام به، وليكون كالعِوض عن المحذوف، ولتتوسَّط الفاء الجزائية كما هو حقُّها. ولعلَّ المرادَ بهذا البعض السَّحر، فإنَّ فَضْلَه مشهور ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ وأعقابَ الصلوات، جمع دُبْر بضم فسكون، أو دُبُر بضمتين.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة وشبل والحِرْميَّان: «إدبار» بكسر الهمزة[1]، وهو مصدر، تقول: أدبرت الصلاة إدباراً: انقضَتْ وتَمَّت، والمعنى: ووقتَ انقضاء السجود كقولهم: آتيكَ خُفوقَ النجم.

وذهبَ غيرُ واحد إلى أنَّ المرادَ بالتسبيح الصلاةُ، على أنَّه من إطلاق الجُزء أو اللازم على الكلّ أو الملزوم، وعليه فالصلاة قبلَ الطلوع الصبحُ، وقبلَ الغروب العصرُ، قاله قتادة وابن زيد والجمهور، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن عساكر عن جرير بن عبد الله مرفوعاً[2]، و«من الليل» صلاةُ العَتَمة، و«أدبار السجود» النوافلُ بعد المكتوبات؛ أخرجه ابن جرير عن ابن زيد[3].

وقال ابن عباس: الصلاةُ قبلَ الطلوع الفجرُ، وقبلَ الغروب الظهرُ والعصرُ، و«من الليل» العشاءان، و«أدبار السجود» النوافلُ بعد الفرائض. وفي رواية أُخرى عنه: الوتر بعد العشاء.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٠، وقراءة أبي جعفر والحرميّين (وهما نافع وابن كثير) في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦، وقرأ بها أيضاً حمزة، وخلف من العشرة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١٠، والأوسط (٨٠٥٧)، وتاريخ مدينة دمشق ٢١/ ٣٢٠ و٤١/ ٢٤٨، وهو عند أحمد (١٩١٩٠)، والبخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣). ولفظه: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾».

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٣.

وفي أخرى عنه أيضاً وعن عمر وعليٍّ وابنه الحسن وأبي هريرة ﷺ والشعبي وإبراهيم ومجاهد والأوزاعي: ركعتان بعد المغرب. وأخرجه مُسدَّد في «مسنده» وابن المنذر وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً[1].

وقال مقاتل: ركعتان بعد العشاء يقرأ في الأولى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) وفي الثانية: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ).

وقيل: «من الليل» صلاةُ العشاءين والتهجد. وعن مجاهد: صلاةُ الليل. وفيه احتمالُ العموم لصلاة العشاءين والخصوص بالتهجُّد، وهو الأظهر.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أمرٌ بالاستماع، والظاهرُ أنه أُريد به حقيقته، والمُستمَعُ له محذوفٌ تقديره: واستمع لما أخبر به من أهوال يوم القيامة، وبيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إلى آخره، وسلك هذا لما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتعظيم لشأنِ المُخبَرِ به، وانتصب «يومَ» بما دلَّ عليه «ذلك يوم الخروج» أي: يوم يُنادي المنادي يخرجون من القبور. وقيل: المفعول محذوفٌ تقديره: نداءَ المنادي، وقيل: تقديرُه: نداءَ الكافرين بالويل والثُّبور، و«يوم» ظرفٌ لذلك المحذوف.

وقيل: لا يحتاج ذلك إلى مفعول، والمعنى: كن مستمعاً ولا تكن غافلاً.

وقيل: معنى «استمع»: انتظر، والخطابُ لكلِّ سامع، وقيل: للرسول عليه الصلاة والسلام، و«يومَ» منتصبٌ على أنه مفعولٌ به لـ «استمع» أي: انتظر يومَ يُنادي المنادي، فإنَّ فيه تبيُّنَ صحَّة ما قلته، كما تقول لمن تَعِدُه بورود فتح: استمع كذا وكذا.

والمنادي على ما في بعض الآثار جبريلُ عليه السلامُ ينفخُ إسرافيل في الصور ويُنادي جبريل: يا أيَّتها العِظامُ النَّخِرة والجلودُ المتمزِّقة والشعور المتقطِّعة، إنَّ الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الحساب. وأخرج ابن عساكر والواسطي في «فضائل بيت

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١١٠.

المقدس» عن يزيد بن جابر أنَّ إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول: يا أيَّتها العِظامُ النَّخِرة.. إلى آخره[1]، فيكون المرادُ بالمنادي هو عليه السلام.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: الأول هو الأصح[2].

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ هو صخرة بيت المقدس، على ما رُوي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة، وهي على ما رُوي عن كعب أقربُ الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

وفي «الكشاف» أنها أقربُ إليها باثني عشر ميلاً، وهي وسط الأرض[3]. وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذا لا يُقبل إلا بوحي، ثم إنَّ كونها وسَطَ الأرض مما تأباه القواعدُ في معرفة العُروض والأطوال، ومن هنا قيل: المرادُ: قريب ممن يُناديهم، فقيل: ينادي من تحت أقدامهم، وقيل: من منابتِ شعورهم، فيسمع من كلِّ شعرة: يا أيَّتها العظام النخرة.. إلخ. ومن الناس من قال: المرادُ بقربه كون النداء منه لا يخفى على أحدٍ، بل يستوي في سماعه كلّ أحد.

والنداء في كلٍّ ذلك على حقيقته. وجوّز أن يكون في الإعادة نظير «كُنْ» في الابتداء على المشهور، فهو تمثيلٌ لإحياء الموتى بمجرَّد الإرادة، ولا نداءَ ولا صوت حقيقةً.

ثم إنَّ ما ذكرناه من أنَّ المنادي مَلَكٌ، وأنه يُنادي بما سمعتَ، هو المأثور. وجوّز أن يكون نداؤه بقوله للنفس: ارجعي إلى ربِّك لتدخِلنَّ مكانك من الجنة أو النار، أو: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار. وأن يكون المنادي هو الله تعالى ينادي: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أو: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] مع قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [الحجر: ٤٦] أو: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] أو: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧] أو غير ذلك. وأن يكون غيره تعالى وغير المَلَك

(١) الدر المنثور ٦/ ١١٠، وتاريخ مدينة دمشق ٦٥/ ١٣٦.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٩٣.
(٣) الكشاف ٤/ ١٢.

من المكلَّفين ينادي: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أو: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] أو غير ذلك، والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخةُ الثانية، و«يوم» بدل من «يوم ينادي» إلخ، والعامل فيهما ما دلَّ عليه (ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ) كما تقدَّم، وجُوِّز أن يكون ظرفاً لما دلَّ عليه «ذلك» و«يوم ينادي» غير معمول له بل لغيره على ما مرَّ، وأن يكون ظرفاً لـ «ينادي» وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في موضع الحال من «الصيحة»، أي: يسمعونها ملتبسة بالحقِّ الذي هو البعث. وجُوِّز أن يكون «الحق» بمعنى اليقين، والكلامُ نظير: صاح بيقين، أي: وُجِد منه الصياح يقيناً لا كالصَّدى وغيره، فكأنه قيل: الصيحة المُحقَّقة. وجُوِّز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بـ «يسمعون» على أنَّ المعنى: يسمعون بيقين، وأن يكون الباء للقَسَم، و«الحق» هو الله تعالى، أي: يسمعون الصيحة أُقسم بالله، وهو كما ترى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اليوم ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور، وهو من أسماء يومِ القيامة. وقيل: الإشارة إلى النداء، واتّسع في الظرف فجعل خبراً عن المصدر، أو الكلام على حذف مضاف، أي: ذلك النداءُ نداءُ يومِ الخروج، أو وقتُ ذلك النداء يومُ الخروج.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا من غير أن يُشاركنا في ذلك أحد ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ الرجوعُ للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بدل بعدَ بدل، ويَحتمل أن يكون ظرفاً للمصير، أي: إلينا مصيرُهم في ذلك اليوم، أو لما دلَّ عليه «ذلك حشر» أي: يُحشرون يومَ تشقَّق.

وقرأ نافع وابن عامر: «تشَّقَّق» بشدِّ الشين[1]، وقُرئ: «تُشْقَق» بضمِّ التاء، مضارع شُققت على البناء للمفعول، و«تنشقّ» مضارع انشقَّت. وقرأ زيد بن عليٍّ: «تتشقَّق» بتاءين[2].

---

(١) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٤، وقرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٠.

وقوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾ مصدر وقع حالاً من الضمير في «عنهم» بتأويل مُسرعين، والعامل «تشقَّق»، وقيل: التقدير: يخرجون سِراعاً، فتكون حالاً من الواو، والعامل يخرج، وحكاه أبو حيان[1] عن الحوفي، ثم قال: ويجوز أن يكون هذا المُقدَّر عاملاً في «يوم تشقَّق».

أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال في الآية: تمطرُ السماءُ عليهم حتى تنشقَّ الأرضُ عنهم[2].

وجاء أنَّ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرضُ رسولُ الله ﷺ؛ أخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ والطبراني والحاكم ـ واللفظ له ـ عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أنا أولُ من تنشقُّ عنه الأرض، ثم أبو بكر وعمر، ثم أهلُ البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهلَ مكة» وتلا ابن عمر: (يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا)[3].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بَعْثٌ وجَمْع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: هيِّن، وتقديم الجارِّ والمجرور لتخصيص اليُسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادرُ لذاته الذي لا يَشْغَله شأنٌ عن شأن.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نَفْي البعث وتكذيبِ الآيات الناطقة وغير ذلك مما لا خيرَ فيه، وهذا تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ما أنت مُسلَّط عليهم تقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تُريد، وإنما أنت منذر، فالباء زائدة في الخبر و«عليهم» متعلِّق به.

ويُفهم من كلام بعضِ الأجِلَّة جوازُ كون «جبار» من جَبَره على الأمر: قَهَرَهُ عليه، بمعنى أجبره، لا من أَجبره إذ لم يَجِئ فَعّال بمعنى مُفْعِل من أَفْعَلَ إلا فيما قلَّ ك: دَرَّاك وسرَّاع، وقال علي بن عيسى: لم يُسمع ذلك إلا في دَرَّاك.

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣١.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١١.

(٣) سنن الترمذي (٣٦٩٢)، والمعجم الكبير (١٣١٩٠)، والمستدرك ٢/ ٤٦٥. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وعاصم بن عمر (أحد الرواة) ليس بالحافظ.

وقيل: جبَّار من جبر بمعنى أجبر لغةُ كنانة، وإن «عليهم» متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، أي: ما أنت جبار تجبرهم على الإيمان والياً عليهم، وهو محتمل للتضمين وعَدَمِه، فلا تغفل.

وقيل: أريد التحلُّم عنهم وترك الغِلْظة عليهم، وعليه قيل: الآية منسوخة، وقيل: هي منسوخةٌ على غيره أيضاً بآية السيف.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ فإنه لا ينتفع به غيره، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، لو خوَّفتنا، فنزلَتْ: (فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)[1].

وما أنسب هذا الاختتام بالافتتاح بقوله سبحانه: «ق والقرآن المجيد».

هذا، وللشيخ الأكبر قُدِّسَ سرُّه في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولغير واحد من الصوفية في قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كلامٌ أَشرنا إليه فيما سبق.

ومنهم من يجعل «ق» إشارةً إلى الوجود الحقِّ المحيط بجميع الموجودات، والله من ورائهم محيط. وقيل: هو إشارةٌ إلى مقامات القرب. وقيل غير ذلك.

وطبَّق بعضُهم سائرَ آيات السورة على ما في الأنفس، وهو مما يُعلم بأدنى التفات ممن له أدنى مُمارسة لكلامهم، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٤٧٨.

(٥١) سُورة الذاريات مكيّة وآياتها ستّون

سورة الذاريات مكية ، وأهدافها نفسُ أهداف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وتهتم ببناء صرح الإيمان على أسسٍ متينة من اليقين والتصديق بوحدانية الله ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والحساب والجزاء . ومحور السورة الكريمة يدور حول الاعتقاد بوحدانية الله ، وأنه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المتصرف في الكون بما يشاء ، وجميعُ الخَلقِ عبيدُه ، خاضعون لجلاله ، محتاجون إليه ، وهو الغني الحميد ، وقد حشدت السورة الكريمة بعض الآيات الكونية الدالة على قدرته تعالى وعظيم سلطانه للإشارة إلى أنه الواحد المعبود ، كما ذكرت قصص الأنبياء « إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، ونوح ، وهود ، وصالح » بشيءٍ من الإيجاز للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، وهي تعريف الخلق بالإله الخالق ، الواحد الأحد ، وتجريدُ القلب لعبادته جل وعلا ، ووصله بالسماء بالإيمان واليقين .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بأنواع من المخلوقات — تَبْدو للعَيان وكأنها خفيفة يسيرة ، وهي عظيمة جليلة لآثارها الكبيرة — بالرياحِ التي تذرو الغبار وهي تحمل معها الحياة وتحمل الدمار ، وبالسحب الموقرة بالأمطار يسوقها الله إلى حيث شاء ، وبالسفن الجاريات في يُسْرٍ على سطح الماء بقدرته جل وعلا الذي سخَّر لها

الأنهار والبحار ، وبالملائكة التي تحمل أوامر الله لتبليغها لرسل الله الأبرار ، أقسم تعالى بهذه الأشياء الأربعة « الرياح ، السحب ، السفن ، الملائكة » على وقوع المعاد والحساب والجزاء ﴿والذاريات ذرواً . فالحاملات وقْراً . فالجاريات يُسْراً . فالمقسِّمات أمراً . إن ما توعدون لصادق . وإنَّ الدين لواقع﴾ وهو قسم يتجلى فيه أهمية الحساب والجزاء ، وعظمة شأن الآخرة .

ثم انتقلت السورة إلى قسم آخر ﴿والسماءِ ذاتِ الحُبُك . إنكم لفي قول مختلف . يؤْفك عنه من أُفِك﴾ أقسم تعالى بالسماء المنسَّقة المحكمةِ التركيب ، كتنسيق الزَرَد المتشابك المتداخل الحلقات ، على أنهم في قول مختلف مضطرب ، لا قَوام له ولا قَرَار ، ولا ثبات ولا استقرار ، فهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون على حق ويقين ، ولذلك يخبطون خبط عشواء ، وهم مغمورون بالأباطيل والأوهام لا يُفيقون ولا يستيقظون كأنهم سُكارى مذهولون ، ولذلك دعا عليهم بالقتل ، ويا لَلْهول ! ﴿قُتل الخراصون . الذين هم في غمرةٍ ساهون . يسألون أيان يومُ الدين ؟ يوم هم على النار يُفتنون . ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ .

وبعد الحديث عن المكذبين الفجار ، تتحدث السورة الكريمة عن المؤمنين الأبرار ، وهم يُكرَّمون في دار النعيم لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ وعيون . آخذينَ ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم﴾ ثم تلتفت السورة إلى آيات الله في الأرض ، وفي الأنفس ، وتوجّه الأنظار إلى مصدر الرزق ، وتختم بقسم عظيم أنَّ الرزق مضمون ، مثل ما أنهم ينطقون ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تُبصرون ؟ وفي

السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحقٌ مثل ما أنكم تنطقون﴾ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن الملائكة الذين بعثهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط ، وقد مرُّوا بطريقهم على إبراهيم الخليل ، ليبشروه بغلامٍ عليم من زوجه العقيم ، ودخلوا عليه وهم في صورة بشر ولذلك لم يعرفهم ، وأسرع إلى تقديم الطعام لهم ظناً منه أنهم ضيوفٌ قدموا عليه ، ومن حق الضيف أن يُكرم ، وبأسلوب مشوِّق يجذب الأسماع إلى الانتباه للحديث ، يأتي التعبير عن قصة الخليل وضيوفه ﴿هل أتاك حديث ضيفِ إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمين . فقرَّبه إليهم قال ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكَّتْ وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلِك قالَ ربُّكِ إنه هو الحكيم العليم﴾ ثم تمضي الآيات تتحدث عن الغاية التي جاءوا من أجلها وهي إهلاك المجرمين من قوم لوط ، بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين ، وإنذاراً وإعذاراً للمشركين أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم من الأمم ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا إنّا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسوَّمة عند ربكَ للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين . وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم﴾ .

وتتعاقب النُّذُر والعظات ، تتحدث عن الأمم الطاغية الذين كذبوا رسلَ الله فأهلكهم الله ، وأخذهم بأنواعٍ من العذاب والدمار ، بالغرق أو بالريح أو بالصيحة أو الصاعقة ، وتذكر منهم فرعون وعاداً وثمود وقوم نوح ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطانٍ مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم

وهو مُليم . وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوْا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين﴾ وبعد أن تذكر السورة آثار قدرة الله الباهرة تعقّب بهذا التعقيب ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتَوَاصَوا بهِ بل هم قوم طاغون﴾ .

وتختم السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وبيان عاقبة المكذبين ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ .

سورة الذاريات

[٨٦٩] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله [ﷺ] بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾(١).

[٨٧٠] واخرج ابن منيع وابن راهوية والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي قال لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤﴾(٢) لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي [ﷺ] أن يتول عنا فنزلت: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾(٣) فطابت أنفسنا.

[٨٧١] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾(٤) الآية اشتد على أصحاب رسول الله [ﷺ] ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٥).

* * *

---

[٨٦٩] (١) سورة الذاريات: الآية (١٩).
[٨٧٠] (٢) سورة الذاريات: الآية (٥٤).
(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٥).
[٨٧١] (٤) سورة الذاريات: الآية (٥٤).
(٥) سورة الذاريات: الآية (٥٥).

سورة الذاريات

ستون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝ ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، وذلك لأنه تعالى لما بيّن الحشر بدلائله وقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم، لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ . . . ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] وقال في آخرها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

وفي تفسير الآيات مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا الحكمة وهي في القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة والصافات، ونعيدها ههنا وفيها وجوه: الأول: أن الكفار كانوا في بعض الأوقات يعترفون بكون النبي ﷺ غالبًا في إقامة الدليل، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله، وإنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال، كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة، يقول: إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل وعجزي عن ذلك، وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي. فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين، فيقول: والله إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل. وذلك لأنه لو سلك طريقًا آخر من ذكر دليل آخر، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول: إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل. فلا يبقى إلا السكوت أو التمسك بالإيمان وترك إقامة البرهان. الثاني: هو أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع، ثم إن النبي ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتًا، وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبًا، وإلا لأصابه شؤم الأيمان ولناله المكروه في بعض الأزمان. الثالث: وهو أن الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، مثاله قول القائل لمنعمه: (وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك) فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة، فإن قيل: فلمَ أخرجها مخرج الأيمـ

نقول: لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم، فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه، فخرج لهم البرهان المبين، والتبيان المتين في صورة اليمين، وقد استوفينا الكلام في سورة والصافات.

المسألة الثانية: في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف، كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوحدانية والرسالة والحشر، وهي التي يتم بها الإيمان، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ حيث قال فيها: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] على سبيل الإنكار، وكانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أقوالهم، وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] فلم يبالغوا في الحقيقة في إنكار المطلوب الأول، فاكتفى بالبرهان، ولم يُكثر من الأيمان، وفي سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد ﷺ، وكونه رسولاً في إحداهما بأمر واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ١، ٢] وفي الثانية بأمرين وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٣] وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١، ٣] وقد ذكرنا الحكم فيه أن معجزات النبي ﷺ القرآن، فأقسم به ليكون في القسم الإشارة واقعة إلى البرهان، وفي باقي السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به؛ لكون إنكارهم في ذلك خارجًا عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في صورة القسم بالحروف.

المسألة الثالثة: أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة في سور خمس، ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة في سورة أصلاً، فلم يقل: والصالحين من عبادي، ولا المقربين. . . إلى غير ذلك، مع أن المذكر أشرف، وذلك لأن جموع السلامة بالواو والنون في الأمر الغالب لمن يعقل، وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا في صورة ظهور الأمر فيه، وحصول الاعتراف منهم به، ولا للرسالة لحصول ذلك في صور القسم بالحروف والقرآن.

بقي أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح، وعذاب الطالح، ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل، فكان الأمر يقتضي أن يكون القسم بغيرهم، والله أعلم.

المسألة الرابعة: في السورة التي أقسم لإثبات الوحدانية، أقسم في أول الأمر بالساكنات حيث قال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١] وفي السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات، فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] ويؤيده قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ . . . ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ [النازعات: ٣، ٤] وقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ [العاديات: ١] وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق، أو أن نقول: في جميع السور الأربع أقسم بالرياح على ما بين وهي التي تجمع وتفرق، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تعالى.

المسألة الخامسة: في الذاريات أقوال. الأول: هي الرياح تذرو التراب وغيره، كما قال تعالى: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. الثاني: هي الكواكب، من ذرا يذرو إذا أسرع. الثالث: هي الملائكة. الرابع: رب الذاريات، والأول أصح.

المسألة السادسة: الأمور الأربعة جاز أن تكون أمورًا متباينة، وجاز أن تكون أمرًا له أربع اعتبارات: الأول: هو ما روي عن علي عليه السلام، أن الذاريات هي الرياح، والحاملات هي السحاب، والجاريات هي السفن، والمقسِّمات هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق[1]. والثاني وهو الأقرب: أن هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات هي الرياح التي تنشئ السحاب أولاً، والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقل من جبال، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار، ويحتمل أن يقال: هذه أمور أربعة مذكورة في مقابلة أمور أربعة بها تتم الإعادة، وذلك لأن الأجزاء التي تفرقت بعضها في تخوم الأرضين، وبعضها في قعور البحور، وبعضها في جو الهواء، وهي الأجزاء اللطيفة البخارية التي تنفصل عن الأبدان، فقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ يعني الجامع للذاريات من الأرض، على أن الذارية هي التي تذرو التراب عن وجه الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ هي التي تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملاً، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملاً، بل تنقله من موضع وترميه في موضع، بخلاف السحاب، فإنه يحمله وينقله في الجو حملاً لا يقع منه شيء، وقوله: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ إشارة إلى الجامع من الماء، فإن من يُجري السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر، فإذا تبين أن الجمع من الأرض، وجو الهواء ووسط البحار ممكن، وإذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأمر الله، وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلاً، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾.

---

(١) لم أجده.

المسألة السابعة: ما هذه المنصوبات من حيث النحو؟ فنقول: أما ﴿ذَرْوًا﴾ فلا شك في كونه منصوبًا على أنه مصدر، وأما ﴿وِقْرًا﴾ فهو مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلاً ثقيلاً، ويحتمل أن يكون اسمًا أقيم مقام المصدر، كما يقال: (ضربه سوطًا) يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو. وأما ﴿يُسْرًا﴾ فهو أيضًا منصوب على أنه صفة مصدر، تقديره جريًا ذا يسر، وأما ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ فهو إما مفعول به، كما يقال: فلان قسَّم الرزق أو المال وإما حال أتى على صورة المصدر، كما يقال: قتلته صبرًا، أي مصبورًا، كذلك هاهنا ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أي مأمورة، فإن قيل: إن كان ﴿وِقْرًا﴾ مفعوله به فلمَ لم يُجمع، وما قيل: والحاملات أوقارًا؟ نقول: لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح، وهي تتوارد على وقر واحد، فإن ريحًا تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب، فتهب أخرى وتسوقها، وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح، وكذلك القول في المقسمات أمرًا، إذا قلنا هو مفعول به؛ لأن جماعة يكونون مأمورين تنقسم أمرًا واحدًا، أو نقول: هو في تقدير التكرير، كأنه قال: فالحاملات وقرًا وقرًا، والمقسمات أمرًا أمرًا.

المسألة الثامنة: ما فائدة الفاء؟ نقول: إن قلنا: إنها صفات الرياح فلبيان ترتيب الأمور في الوجود، فإن الذاريات تنشئ السحاب فتقسم الأمطار على الأقطار، وإن قلنا: إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب في القسم لا للترتيب في المقسم به، كأنه يقول: أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات.

وقوله: ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ وقوله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ إشارة إلى بيان ما في الرياح من الفوائد، أما في البر فإنشاء السحب، وأما في البحر فإجراء السفن، ثم المقسِّمات إشارة إلى ما يترتب على حمل السحب وجري السفن من الأرزاق، والأرياح التي تكون بقسمة الله تعالى فتجري سفن بعض الناس كما يشتهي ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝﴾

(ما) يحتمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق و(أن) تكون موصولة أي الذي توعدون صادق، والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية، ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة، فكما أن من قال (فلان لُطْف محض وحِلْم) يجب أن يكون قد بالغ، كذلك من قال: كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك، يكون قد بالغ، والوجه فيه هو أنه إذا قال: (هو لطف) بدل قوله (لطيف) فكأنه قال اللطيف شيء له لطف ففي اللطيف لطف وشيء آخر، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفًا، وفي الثاني لما كان الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه، فكأنه قال: هذا الكلام لا يحوج إلى شيء آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه، بل هو

كافٍ في إطلاق الصادق لكونه سببًا قويًا، وقوله تعالى: ﴿ تُوعَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون من وعد، ويحتمل أن يكون من أوعد، والثاني هو الحق لأن اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي الجزاء كائن، وعلى هذا فالإيعاد بالحشر في الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب، فكأنه بيّن بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أن الحساب يستوفى والعقاب يوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝﴾

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾. **وفي تفسيره مباحث:**

الأول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قيل: الطرائق، وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها، كما يقال في المحابك، ويحتمل أن يكون المراد ما في السماء من الأشكال بسبب النجوم، فإن في سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذي يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وقيل: حبكها صفاقها، يقال في الثوب الصفيق: حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [الطارق: ١١] لشدتها وقوتها وهذا ما قيل فيه.

البحث الثاني: في المقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ وفي تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة: الأول: إنكم لفي قول مختلف في حق محمد ﷺ، تارة تقولون: إنه أمين وأخرى إنه كاذب، وتارة تنسبونه إلى الجنون، وتارة تقولون: إنه كاهن وشاعر وساحر. وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا؛ لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين. الثاني: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي غير ثابتين على أمر. ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنًا في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى: والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تُظهرون الجزم لشدة عنادكم. وعلى هذا القول فيه فائدة وهي أنهم لما قالوا للنبي ﷺ: إنك تعلم أنك غير صادق في قولك، وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل. قال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ أي إنك صادق ولست معاندًا. ثم قال تعالى: بل أنتم والله جازمون بأني صادق. فعكس الأمر عليهم. الثالث: إنكم لفي قول مختلف، أي متناقض، أما في الحشر فلأنكم تقولون: لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فإذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت، فماذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم؟ وإنما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذابًا فلو علمنا شيئًا يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم إنا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر، وأما في التوحيد فتقولون: خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون: هو إله الآلهة. وترجعون إلى الشرك، وأما

في قول النبي ﷺ فتقولون: إنه مجنون ثم تقولون له: إنك تغلبنا بقوة جدلك، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز؟! إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أنه مدح للمؤمنين، أي يؤفك عن القول المختلف ويُصرف مَن صُرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوي. وثانيها: أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول. ثالثها: يؤفك عن القول بالحشر. رابعها: يؤفك عن القرآن، وقرئ: (يؤفن عنه من أُفن)، أي يُحْرم، وقرئ: (يؤفك عنه من أَفَك)، أي كذب.

ثم قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ وهذا يدل على أن المراد من قوله: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين، بل هم يظنون ويخرصون، ومعناه (لُعن الخراصون) دعاء عليهم بمكروه، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ وفيه مسألتان: إحداهما لفظية والأخرى معنوية:

أما اللفظية: فقوله: ﴿سَاهُونَ﴾ يحتمل أن يكون خبرًا بعد خبر، والمبتدأ هو قوله: ﴿هُمْ﴾ وتقديره: هم كائنون في غمرة ساهون، كما يقال: (زيد جاهل جائر) لا على قصد وصف الجاهل بالجائر، بل الإخبار بالوصفين عن زيد، ويحتمل أن يكون ﴿سَاهُونَ﴾ خبرًا و﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ ظرف له، كما يقال: (زيد في بيته قاعد) يكون الخبر هو القاعد لا غير و(في بيته) لبيان ظرف القعود كذلك ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ لبيان ظرف السهو الذي يصح وصف المعرفة بالجملة، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة.

وأما المعنوية: فهي أن وصف الخراص بالسهو والانهماك في الباطل، يحقق ذلك كون الخراص صفة ذم، وذلك لأن ما لا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص، كما يقال في خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك، وأما الخرص في محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال: قُتل الخراصون الذين هم جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم في التخمين والحزر وقوله تعالى: ﴿سَاهُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ يفيد أنهم وقعوا في جهل وباطل ونُسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فإن قيل: الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفًا لظرف آخر، وهاهنا جعل (أيان) ظرف (اليوم) فقال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ويقال: متى يقدم زيد؟ فيقال: يوم الجمعة. ولا يقال: متى يوم الجمعة؟ فالجواب: التقدير: متى يكون يوم الجمعة؟ وأيان يكون يوم الدين؟ و(أيان) من المركبات ركب من (أي) التي يقع بها الاستفهام و(آن) التي هي الزمان أو من (أي) و(أوان) فكأنه قال: (أي أوان) فلما رُكب بُني. وهذا منهم

جواب لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ فكأنهم قالوا: (أيان يقع؟) استهزاء وترك المسؤول في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ حيث لم يقل يسألون من، يدل على أن غرضهم ليس الجواب وإنما يسألون استهزاء.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يحتمل وجهين. أحدهما: أن يكون جوابًا عن قولهم: (أيان يقع؟) يقع وحينئذٍ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم، كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأول، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى، فإذا قال قائل: متى يقدم زيد؟ فلو قال المجيب: (يوم يقدم رفيقه) ولا يُعلم يوم قدوم الرفيق، لا يصح هذا الجواب إلا إذا كان الكلام في صورة جواب، ولا يكون جوابًا، كما أن القائل إذا قال: كم تعد عداتي تخلفها إلى متى هذا الإخلاف؟ فيغضب ويقول: إلى أشأم يوم عليك. الكلامان في صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال، ولا الثاني يريد به الجواب، فكذلك هاهنا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ مقابلة استهزائهم بالإيعاد لا على وجه الإتيان بالبيان. والثاني: أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ فإن قيل: هذا يفضي إلى الإضمار. نقول: الإضمار لا بد منه لأن قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ غير متصل بما قبله إلا بإضمار (يقال) و(يُفتتنون) قيل معناه: يحرقون، والأَوْلى أن يقال: معناه يُعْرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار. وكلمة (على) تناسب ذلك، ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو في النار أليق لأن الفتنة هي التجربة، وأما ما يقال: من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة. فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن، وههنا يقال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ والفتنة الامتحان، فإن قيل: فإذا جعلت ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ مقولاً لهم ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ فما قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول. كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] إلى غير ذلك يدل عليه هاهنا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢] فإنه نوع استعجال، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل، وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ بعد بيان حال المغترين المجرمين بين حال المحق المتقي. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن المتقي له مقامات، أدناها أن يتقي الشرك، وأعلاها أن يتقي ما سوى الله، وأدنى درجات المتقي الجنة، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها.

المسألة الثانية: الجنة تارة وحّدها كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الرعد: ٣٥] وأخرى جمعها كما في هذا المقام قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ وتارة ثناها فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] فما الحكمة فيه؟ نقول: أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لا يحصرها عدد، وأما التثنية فسنذكرها في سورة الرحمن غير أنا نقول هاهنا: الله تعالى عند الوعد وحّد الجنة، وكذلك عند الشراء حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة، والخلاف ما لو وعد بجنات، ثم كان يقول إنه في جنة لأنه دون الموعود.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعُيُونٍ﴾ يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء أو غير ذلك من المائعات، نقول: معناه في خلال العيون، وذلك بين الأنهار، بدليل أن قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ ليس معناه إلا بين جنات وفي خلالها لأن الجنة هي الأشجار، وإنما يكون بينها، كذلك القول في العيون، والتنكير مع أنها معرفة للتعظيم، يقال: (فلان رجل) أي عظيم في الرجولية.

وقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه مسائل ولطائف:

أما المسائل:

فالأولى منها: ما معنى آخذين؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: قابضين ما آتاهم شيئًا فشيئًا ولا يستوفونه بكماله؛ لامتناع استيفاء ما لا نهاية له. ثانيها: آخذين: قابلين قَبول راضٍ كما قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ١٠٤] أي يقبلها، وهذا ذكره الزمخشري. وفيه وجه ثالث: وهو أن قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ يدل على السكنى فحسب وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ يدل على التملك ولذا يقال: أخذ بلاد كذا وقلعة كذا، إذا دخلها متملكًا لها، وكذلك يقال لمن اشترى دارًا أو بستانًا أخذه بثمن قليل، أي تملكه، وإن لم يكن هناك قبض حسًا ولا قبول برضا، وحينئذٍ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك، بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله: ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحًا، وإنما كان بإعطاء الله تعالى، وعلى هذا الوجه ﴿مَآ﴾ راجعة إلى الجنات والعيون.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى ثمنها، أي أخذوها وملكوها بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[يونس: ٢٦] بلام الملك وهي الجنة.

المسألة الثانية: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حال وهو في معنى قول القائل: (يأخذون) فكيف قال: (ما آتاهم) ولم يقل: (ما يؤتيهم) ليتفق اللفظان ويوافق المعنى لأن قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ ينبئ عن الانقراض وقوله: ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾[النساء: ١٥٢] تنبيه على الدوام، وإيتاء الله في الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول، كيف يصح أن يقال: فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس؟

نقول: أما على ما ذكرنا من التفسير لا يرد لأن معناه يتملكون ما أعطاهم، وقد يوجد الإعطاء أمس ويتملك اليوم، وأما على ما ذكروه فنقول: الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو في الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها، فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيرًا مما آتاه، ولا ينافي ذلك كونه داخلاً على تلك الهيئة، يقول القائل: جئتك خائفًا فإذا أنا آمن. وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصرًا على ما آتاهم من قبل، وليس كذلك وإنما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره، فيؤتيهم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ [يس: ٥٥] هو أخذهم ما آتاهم، وقد ذكرناه في سورة يس.

المسألة الثالثة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: يحتمل وجهين: أحدهما: قبل دخولهم لأن قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ فيه معنى الدخول، يعني قبل دخولهم الجنة أحسنوا. ثانيهما: قبل إيتاء الله ما آتاهم الحسنى وهي الجنة فأخذوها. وفيه وجوه أُخر، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم.

وأما اللطائف فقد سبق بعضها، ومنها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال: (الذين آمنوا) لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين، ولذلك دلالة أتم من قول القائل إنهم أحسنوا. اللطيفة الثانية: أما التقوى فلأنه لما قال: (لا إله) فقد اتقى الشرك، وأما الإحسان فلأنه لما قال: (إلا الله) فقد أتى بالإحسان، ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفي الإحسان قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] وقيل في تفسير: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله، وهما حينئذٍ لا يتفاصلان بل هما متلازمان.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين، تقول: حاتم كان سخيًّا كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده.

وفيه مباحث:

الأول: ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الظرف، تقديره: يهجعون قليلاً، تقول: قام بعض الليل، فتنصب (بعض) على الظرف وخبر (كان) هو قوله: ﴿يَهْجَعُونَ﴾ و(ما) زائدة، هذا هو المشهور، وفيه وجه آخر وهو أن يقال: كانوا قليلاً، معناه نفي النوم عنهم، وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل، وأنكر الزمخشري كون (ما) نافية، وقال: لا يجوز أن تكون نافية لأن بعد (ما) لا يعمل فيما قبلها، لا تقول: زيدًا ما ضربت، ويجوز أن يعمل ما بعد لم فيما بعدها تقول: زيدًا لم أضرب، وسبب ذلك هو أن الفعل المتعدي إنما يفعل في النفي حملاً له على الإثبات لأنك إذا قلت: ضرب زيد عمرًا، ثبت تعلق فعله بعمرو فإذا قلت: ما ضربه، لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه، لكن النفي محمول على الإثبات، فإذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة إلى الإثبات

كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل، فإنه يعمل عمل الفعل، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل، فلا تقول: زيد ضارب عمرًا أمس، وتقول: زيد ضارب عمرًا غدًا واليوم والآن؛ لأن الماضي لم يبق موجودًا ولا متوقع الوجود، فلا يتعلق بالمفعول حقيقة، لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل، إذا عرفت هذا فنقول: (ما ضرب) للنفي في المضي فاجتمع فيه النفي والمضي فضعف، وأما (لم أضرب) وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضي لكن الصيغة صيغة المستقبل، فوجد فيه ما يوجد في قول القائل: (زيد ضارب عمرًا غدًا) فأعمل. هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول: ﴿قَلِيلًا﴾ ليس منصوبًا بقوله: ﴿يَهْجَعُونَ﴾ وإنما ذلك خبر كانوا أي كانوا قليلين. ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي ما يهجعون أصلاً بل يحيون الليل جميعه و(مِن) يكون لبيان الجنس لا للتبعيض، وهذا الوجه حينئذٍ فيه معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وذلك لأنا ذكرنا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الذاريات: ١٥] فيه معنى الذين آمنوا، وقوله: ﴿مُحْسِنِينَ﴾ فيه معنى الذين عملوا الصالحات، وقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

البحث الثاني: على القول المشهور وهو أن (ما) زائدة يحتمل أن يكون قليلاً صفة مصدر تقديره: يهجعون هجوعًا قليلاً.

البحث الثالث: يمكن أن يقال: ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على أنه خبر كان و(ما) مصدرية تقديره: كان هجوعهم من الليل قليلاً، فيكون فاعل ﴿كَانُوا۟﴾ هو الهجوع، ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لأن هجوعهم متصل بهم فكأنه قال: كان هجوعهم قليلاً، كما يقال: كان زيد خلقه حسنًا، فلا يحتاج إلى القول بزيادة، واعلم أن النحاة لا يقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل (زيد حسن وجهه أو الوجه) وبين قوله (زيد وجهه حسن) فيقولون في الأول صفة وفي الثاني بدل. ونحن حيث قلنا: إنه من باب بدل الاشتمال، أردنا به معنى لا اصطلاحًا، وإلا فقليلاً عند التقديم ليس في النحو مثله عند التأخير حتى قولك (فلان قليل هجوعه) ليس ببدل، و(فلان هجوعه قليل) بدل، وعلى هذا يمكن أن تكون (ما) موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلاً من الليل. هذا ما يتعلق باللفظ.

أما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلاً في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في أواخر الآيات، بل فيه فائدتان: الأولى: هي أن الهجوع راحة لهم، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى، فلو قال: (كانوا يهجعون) كان المذكور أولاً راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول: إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون. وإذا قدم قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع، وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل؛ لأن الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة، فإن الهجوع لو لم يكن لكان نفي القلة

أَوْلى ولا كذلك قلة الهجوع لأنها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة في الظاهر .

الفائدة الثانية: في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطاعة إلا متعبد مقبل، فإن قيل: الهجوع لا يكون إلا بالليل، والنوم نهارًا لا يقال له الهجوع. قلنا: ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول: رأيت حيوانًا ناطقًا فصيحًا، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا في بعض المواضع فلا نقول: رأيت فصيحًا ناطقًا حيوانًا، إذا عرفت هذا فنقول: في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ذكر أمرًا هو كالعام يحتمل أن يكون بعده: كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك، فإذا قال: (يهجعون) فكأنه خصص ذلك العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه .

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾

إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون، يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير، وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويَمُن به .

وفيه وجه آخر ألطف منه، وهو أنه تعالى لما بيّن أنهم يهجعون قليلاً، والهجوع مقتضى الطبع، قال: ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي من ذلك القدر من النوم القليل .

وفيه لطيفة أخرى تنبيهًا في جواب سؤال، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال: كانوا كثيرًا من الليل ما يسهرون، فما الحكمة فيه، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع؟ نقول: إشارة إلى أن نومهم عبادة، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلاً، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار في وجوه الأسحار، ومَنَعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

وفيه مباحث:

البحث الأول: في الباء فإنها استعملت للظرف ههنا، وهي ليسَت للظرف، نقول: قال بعض النحاة: إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، يقال في الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان، فيستعمل اللام والباء وفي، وكذلك في المكان، نقول: أقمت بالمدينة كذا وفيها، ورأيته ببلدة كذا وفيها، فإن قيل: ما التحقيق فيه؟ نقول: الحروف لها معانٍ مختلفة، كما أن الأسماء والأفعال كذلك، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى، والاسم والفعل مستقلان، لكن بين بعض الحروف وبعضها تنافٍ وتباعد، كما في الأسماء والأفعال، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان، وكذلك سكن ومكث، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد، إذا عرفت هذا فنقول: بين الباء واللام وفي مشاركة، أما الباء فإنها للإلصاق، والمتمكن في مكان ملتصق به متصل، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان، فإذا قال: سار بالنهار، معناه

ذهب ذهابًا متصلاً بالنهار، وكذا قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي استغفارًا متصلاً بالأسحار مقترنًا بها؛ لأن الكائن فيها مقترنًا بها، فإن قيل: فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت؟ نقول: نعم، وذلك لأن من قال: قمت بالليل واستغفرت بالأسحار، أخبر عن الأمرين، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله: قمت في الليل؛ لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل، وكذلك قول القائل: أقمت ببلد كذا، لا يفيد أنه كان محاطًا بالبلد، وقوله: أقمت فيها، يدل على إحاطتها به، فإذن قول القائل: أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار، أعم من قوله: قمت فيه؛ لأن القائم فيه قائم به، والقائم به ليس قائمًا فيه من كل بد، إذا علمت هذا فقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتًا عن العبادة، فإنهم بالليل لا يهجعون، ومع أول جزء من السحر يستغفرون، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب؛ لأنهم وقت الانتباه في الأسحار لم يخلُ الوقت للذنب، فإن قيل: زدنا بيانًا فإن من الأزمان أزمانًا لا تُجعل ظروفًا بالباء، فلا يقال: خرجت بيوم الجمعة ويقال بفي. نقول: إن كل فعل جارٍ في زمان فهو متصل به، فالخروج يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان، ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة. نقول: الفارق بينهما الإطلاق والتقييد، بدليل أنك إن قلت: خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة، لم يحسن، ولو قلت: خرجت بيوم سعد، وخرج هو بيوم نحس، حَسُن، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء، وحيث زال الخصوص بالتنكير، وقلت خرجت بيوم كذا، عاد الجواز، والسر فيه أن مثل يوم الجمعة، وهذه الساعة، وتلك الليلة، وُجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات، وخصوصية الشيء في الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل، لكنها محصورة على الإجمال، مثاله إذا قلت: هذا الرجل، فالعام فيه هو الرجل، ثم إنك لو قلت: الرجل الطويل، ما كان يصير مخصصًا، لكنه يقرب من الخصوص، ويخرج من القِصار، فإن قلت العالِم، لم يصر مخصصًا لكنه يخرج عن الجهال، فإذا قلت: الزاهد، فكذلك، فإذا قلت: ابن عمرو، خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم، فإذا قلت: هذا يتناول تلك المخصصات التي بأجمعها لا تجتمع إلا في ذلك، فإذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان، والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشئ عن الزمان، وأما (في) فصحيح؛ لأن ما حصل في العام فهو في الخاص؛ لأن العام أمر داخل في الخاص، وأما (في) فيدخل في الذي فيه الشيء، فصح أن يقال: في يوم الجمعة، وفي هذه الساعة، وأما بحث اللام فنؤخره إلى موضعه، وقد تقدم بعضه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨].

وقوله: ﴿هُمۡ﴾ غير خالٍ عن فائدة، قال الزمخشري: فائدته انحصار المستغفرين، أي لكمالهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هو

العالم، لكماله في العلم، كأنه تفرد به. وهو جيد، ولكن فيه فائدة أخرى، وهي أن الله تعالى لما عطف ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة ﴿هُمْ﴾ لصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذي وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذي وهو يحسن، زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان. والاستغفار يحتمل وجوهًا: أحدها: طلب المغفرة بالذكر بقولهم: ربنا اغفر لنا. الثاني: طلب المغفرة بالفعل، أي بالأسحار يأتون بفعل آخر طلبًا للغفران، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات. الثالث وهو أغربها: الاستغفار من باب: استحصد الزرع، إذا جاء أوان حصاده، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة، فإن قيل: فالله لم يؤخر مغفرتهم إلى السحر؟ نقول: وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار، وهو الوقت المشهود، فيقول الله على ملأ منهم: إني غفرت لعبدي. والأول أظهر، والثاني عند المفسرين أشهر.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

وقد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه، ولا شك أن قليل الهجوع المستغفر في وجوه الأسحار وُجد منه التعظيم العظيم، فأشار إلى الشفقة بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أضاف المال إليهم، وقال في مواضع: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [يس: ٤٧] وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] نقول: سببه أن في تلك المواضع كان الذكر للحث، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع، فقال: هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر وأعطوا، وأما هاهنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة.

المسألة الثانية: المشهور في الحق أنه هو القدر الذي عُلم شرعًا وهو الزكاة، وحينئذٍ لا يبقى هذا صفة مدح؛ لأن كون المسلم في ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح؛ لأن كل مسلم كذلك، بل الكافر إذا قلنا: إنه مخاطب بفروع الإسلام في ماله حق معلوم، غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات عوقب على تركه، وإن أدى من غير الإسلام لا يقع الموقع، فكيف يُفهم كونه مدحًا؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أنا نفسر السائل بمن يطلب شرعًا، والمحروم الذي لا مكنة له من الطلب ومنعه الشارع من المطالبة، ثم إن المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق، وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب، فقال تعالى في ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها، فإن ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلبًا على سبيل الجزية والزكاة، بل يسأل سؤالاً اختياريًا فيكون حينئذٍ كأنه قال: في ماله زكاة وصدقة، والصدقة في المال لا تكون إلا بفرضه هو ذلك وتقديره وإفرازه للفقراء والمساكين. الجواب الثاني: هو أن قوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ﴾ أي مالهم ظرف لحقوقهم فإن كلمة (في)

للظرفية لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف، فكأنه تعالى قال: هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفًا للحق، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم، فجعل مالهم ظرفًا للحقوق، ولا يكون فوق هذا مدح. فإن قيل: فلو قيل: مالهم للسائل هل كان أبلغ؟ قلنا: لا وذلك لأن من يكون له أربعون دينارًا فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة، لكن إذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر، وهذا كما في الصلاة والصوم ولو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى»(١). وفي السائل والمحروم وجوه: أحدها: أن السائل هو الناطق وهو الآدمي، والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوانات المحرومة، قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ»(٢) وثانيها: وهو الأظهر والأشهر، أن السائل هو الذي يسأل، والمحروم المتعفف الذي يحسبه بعض الناس غنيًّا فلا يعطيه شيئًا. والأول: كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]. والثاني: كقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] فالقانع كالمحروم. فإن قيل: على الوجه الأول الترتيب في غاية الحسن، فإن دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم، فما وجه الترتيب في الوجه الثاني؟ نقول: فيه وجهان. أحدهما: أن السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم في الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته، والمحروم غير معلوم فلا

(١) **ضعيف**: البيهقي في (سننه الكبرى) (٣/ ١٨)، حديث رقم (٤٥٢٠)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ١٨٤)، حديث رقم (١١٤٧)، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٤١٥)، حديث رقم (١١٧٨)، جميعًا من طريق خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل يحيى بن المتوكل، عن محمد بن سوقة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله... به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢٨٤)، حديث رقم (٢٣٣٩). وقال: رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي وابن طاهر وأبو نعيم والقضاعي والعسكري والخطابي في العزلة عن جابر مرفوعًا بلفظ: «أن هذا الدين متين، فأوغِل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» واختلف في إرساله ووصله، ورجح البخاري في تاريخه الإرسال، وأخرجه البيهقي أيضًا والعسكري عن عمرو بن العاص رفعه لكن بلفظ: «فإن المنبت لا سفرًا قطع، ولا ظهرًا أبقى» وزاد: «فاعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدًا، واحذر حذرًا تخشى أن تموت غدًا» وسنده ضعيف، وله شاهد ثم العسكري عن علي رفعه: «إن دينكم متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع» وفي سنده الفرات بن السائب ضعيف. اهـ بتصرف.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢١٥)، رقم (٣٦٨٦)، وأحمد (٤/ ١٧٥)، رقم (١٧٦٢٣)، قال البوصيري (٤/ ١٠٦): هذا إسناد ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق، والطبراني (٧/ ١٣١)، رقم (٦٥٩٨)، والبيهقي (٤/ ١٨٦)، رقم (٧٥٩٦)، ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٧٦)، رقم (١٠٣٢)، جميعًا من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه كعب بن مالك، عن سراقة بن مالك، وأخرجه ابن حبان (٢/ ٢٩٩)، رقم (٥٤٢)، من طريق ابن شهاب، عن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعشم... به، أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢)، رقم (٧٠٧٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٩)، رقم (١١٤) من طريق أسامة أن عمرو بن شعيب حدثه عن أبيه عن جده... به، وأخرجه الحاكم (٣/ ٧١٨)، رقم (٦٥٩٩)، وأخرجه أيضًا الطبراني (٧/ ١٣٢)، رقم (٦٦٠٠)، قال الهيثمي (٣/ ١٣١): رجاله ثقات. وأورده الألباني في الصحيحة (٢١٥٢) وقال: صحيح.

تندفع حاجته إلا بعد الاطلاع عليه، فكان الذكر على الترتيب الواقع. وثانيهما: هو أن ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطي السائل، فإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً. الثالث: هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، فإن قول القائل: إن رجوعهم إلينا وعلينا حسابهم، ليس كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى، وكما أن الإنسان الذي نَوَّر روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة، كذلك الكلام ورُب كلمة حكمية لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أحسن من حيث اللفظ من قولنا: وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للمحروم والسائل، فإن قيل: قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه، ولمَ قدم المحروم على السائل في قوله: ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] لأن القانع هو الذي لا يسأل ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ السائل؟ نقول: قد قيل: إن القانع هو السائل والمعتر الذي لا يسأل، فلا فرق بين الموضعين، وقيل بأن القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للأخذ بالسلام والتردد ولا يسأل، وقيل بأن القانع لا يسأل والمعتر يسأل، فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية، والزكاة لها طالب وسائل هو الساعي والإمام، فقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ إشارةً إلى الزكاة وقوله: ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي الممنوع، إشارة إلى الصدقة المتطوع بها وإحداهما قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾

وهو يحتمل وجهين. أحدهما: أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]. وثانيهما: أن يكون متعلقًا بأفعال المتقين، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده، وكان لهم آيات في الأرض، وفي أنفسهم على إصابتهم الحق في ذلك، فإن من يكون له في الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى، ومن له من أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل؟ قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]؟ نقول: قد ذكرنا أن اليمين آخر ما يأتي به

المبرهن وذلك لأنه أولاً يأتي بالبرهان، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لا بد له من أن ينسبه الخصم إلى إصرار على الباطل لأنه إذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه إلى المكابرة فيتعين طريقه في اليمين، فإذًا آيات الأرض لم تفدهم لأن اليمين بقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾[الذاريات: ١] دلت على سبق إقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ وإن لم يحصل للمُصر المعاند منها فائدة، وأما في سورة يس وغيرها من المواضع التي جعل فيها آيات الأرض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله، فجاز أن يقال: إن الأرض آيات لمن ينظر فيها. الجواب الثاني وهو الأصح: أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين، أي حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا.

المسألة الثانية: هاهنا قال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ وقال هناك: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾[يس: ٣٣] نقول: لما جعل الآية ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ ذكر بلفظ الجمع لأن الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حال ويرى في كل شيء آيات دالة، وأما الغافل فلا يتنبه إلا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة.

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إشارة إلى دليل الأنفس، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[فصلت: ٥٣] وإنما اختار من دلائل الآفاق ما في الأرض لظهورها لمن على ظهورها، فإن في أطرافها وأكنافها ما لا يمكن عد أصنافها، فدليل الأنفس في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ عام، ويحتمل أن يكون مع المؤمنين، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما في نفسه أتم. وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ يحتمل أن يكون المراد: وفيكم، يقال: الحجارة في نفسها صُلبة ولا يراد بها النفس التي هي منبع الحياة والحس والحركات، ويحتمل أن يكون المراد: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات. وقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ بالاستفهام إشارة إلى ظهورها.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: في السحاب المطر.

ثانيها: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ مكتوب.

ثالثها: تقدير الأرزاق كلها من السماء، ولولاه لما حصل في الأرض حبة قوت. وفي الآيات الثلاث ترتيب حسن، وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لا بد من سبقها حتى يوجد هو في نفسه، وأمور تقارنه في الوجود، وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها، فالأرض هي المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ ثم في نفس الإنسان أمور من الأجسام

والأعراض فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ثم بقاؤه بالرزق فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ولولا السماء لما كان للناس البقاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: الجنة الموعود بها لأنها في السماء. ثانيها: هو من الإيعاد لأن البناء للمفعول من أوعد يُوعَد، أي وما توعدون إما من الجنة والنار في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[الذاريات: ١٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾[الذاريات: ١٥] فيكون إيعادًا عامًّا، وإما من العذاب وحينئذٍ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال: وفي الأرض آيات للموقنين كافية، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات هي أظهر الآيات وتكفرون لها لحطام الدنيا وحب الرياسة، وفي السماء الأرزاق، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل، لما تركتم الحق لأجل الرزق، فإنه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ وفي المقسم عليه وجوه: أحدها: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي ما توعدون لحق، يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾[الذاريات: ٥] وعلى هذا يعود كل ما قلناه من وجوه ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ إن قلنا: إن ذلك هو الجنة، فالمقسم عليه هو هي. ثانيها: الضمير راجع إلى القرآن، أي أن القرآن حق وفيما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾[الذاريات: ٩] دليل هذه، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ معناه تكلم به المَلَك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون. وسنذكره. ثالثها: أنه راجع إلى الدين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾[الذاريات: ٦]. رابعها: أنه راجع إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[الذاريات: ١٢] يدل عليه وصف الله اليوم بالحق في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾[النبأ: ٣٩]. خامسها: أنه راجع إلى القول الذي يقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[الذاريات: ١٤].

وفي التفسير مباحث:

الأول: الفاء تستدعي تعقيب أمر لأمر فما الأمر المتقدم؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: الدليل المتقدم، كأنه تعالى يقول: إن ما توعدون لحق بالبرهان المبين، ثم بالقسم واليمين. ثانيهما: القسم المتقدم، كأنه تعالى يقول: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ثم ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل، إذ يصح أن يقال: ومررت بعمرو، فقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾[الذاريات: ١، ٢] عطف من غير إعادة حرف القسم، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع إعادة حرفه، والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين، ويحتمل أن يقال: الأمر المتقدم هو بيان الثواب في قوله: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[الذاريات: ١٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾[الذاريات: ١٥] وفيه فائدة، وهو أن الفاء تكون تنبيهًا على أن لا حاجة إلى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين، فكأنه يقول ورب السماء والأرض إنه لحق. كما يقول القائل بعدما يُظهر دعواه: هذا والله إن الأمر كما ذكرت. فيؤكد قوله باليمين، ويشير إلى ثبوته من غير يمين.

البحث الثاني: أقسم من قبل بالأمور الأرضية وهي الرياح وبالسماء في قوله: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] ولم يقسم بربها، وهاهنا أقسم بربها. نقول: كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولاً بالأدنى فإن لم يصدق به يرتقي إلى الأعلى، ولهذا قال بعض الناس: إذا قال قائل (وحياتك والله) لا يكفر، وإذا قال: (والله وحياتك) لا شك يكفر وهذا استشهاد، وإن كان الأمر على خلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب، أو باللفظ الظاهر في أمر القلب، أو بالفعل الظاهر، وما ذكره ليس بظاهر في تعظيم جانب غير الله، والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير في الذكر مفيدًا للترتيب في الوضوء وغيره.

البحث الثالث: قرئ (مثلُ) بالرفع، وحينئذٍ يكون وصفًا لقوله (لحقّ) و(مثل) وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به، تقول: رأيت رجلاً مثل عمرو؛ لأنه لا يفيده تعريفًا لأنه في غاية الإبهام. وقرئ: (مثل) بالنصب، ويحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى ما هو ضعيف وإلا جاز أن يقال: زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتمه. ثانيهما: أن يكون منصوبًا على البيان، تقديره: لحقّ حقًّا مثل، ويحتمل أن يقال: إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور، ووجهه أنا دللنا أن المراد من الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ هو القرآن، فكأنه قال: إن القرآن لحق نطق به المَلَك نطقًا ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ و(ما) مجرور لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته في بعض الأشياء، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان المراد ما ذكرت من التسلية والإنذار، فأي فائدة في حكاية الضيافة؟ نقول: ليكون ذلك إشارة إلى الفرج في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة والأغبياء، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب، قال الله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢] فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته.

المسألة الثانية: كيف سماهم ضيفًا ولم يكونوا؟ نقول: لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفًا لم يكذبه الله تعالى في حسابه إكرامًا له، يقال في كلمات المحققين: الصادق يكون ما يقول، والصِّديق يقول ما يكون.

المسألة الثالثة: ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع، فكيف وصف الواحد بالجمع؟ نقول: الضيف يقع على القوم، يقال: قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرًا، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عبادًا مكرمين، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]

وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم، فإن قيل: بماذا أكرمهم؟ قلنا: ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانيًا، وتعجيل القِرى ثالثًا، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس، وكانوا عدة من الملائكة في قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث، وفي قول عشرة، وفي آخر اثنا عشرة.

المسألة الرابعة: هم أُرسلوا للعذاب بدليل قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢] وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة في مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام؟ نقول: فيه حكمة بالغة، وبيانها من وجهين: أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه، ومن إكرام المَلِك للذي في عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسولاً إلى غيره يقول له: اعبر على فلان الملك وأخبِره برسالتك وخذ فيها رأيه. وثانيهما: هو أن الله تعالى لما قدر أن يهلك قومًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم: بشّروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما العامل في إذ؟ فيه وجوه: أحدها: ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا: وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم، فيكون كأنه تعالى يقول: أُكرموا إذ دخلوا، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول. ثانيها: ما في الضيف من الدلالة على الفعل، لأنا قلنا: إن الضيف مصدر، فيكون كأنه يقول: أضافهم إذ دخلوا. وثالثها: يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره: ما أتاك حديثهم وقت دخولهم، فاسمع الآن ذلك؛ لأن (هل) ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للإعلام، وهذا أَوْلى لأنه فعل مصرّح به، ويحتمل أن يقال: اذكر إذ دخلوا.

المسألة الثانية: لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة؟ نقول: نبين أولاً وجوه النصب والرفع، ثم نبيّن وجوه الاختلاف في الإعراب، أما النصب فيحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور، ونصبه حينئذٍ على المصدر تقديره: نسلِّم سلامًا.

ثانيها: هو أن يكون السلام نوعًا من أنواع الكلام وهو كلام سَلِم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنًا سلموا من الإثم، وحينئذٍ يكون مفعولاً للقول لأن مفعول القول هو الكلام، يقال: قال فلان كلامًا، ولا يكون هذا من باب (ضربه سوطًا) لأن المضروب هناك ليس هو السوط، وهاهنا القول هو الكلام فسَّره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢١].

ثالثها: أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره: نبلغك سلامًا، لا يقال على هذا: إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام، فما كان يقول: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولا كان يقرب إليهم الطعام، ولما قال: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ﴾ [هود: ٧٠] لأنا نقول: جاز أن يقال: إنهم قالوا: نبلغك سلامًا ولم يقولوا من الله تعالى، إلى أن سألهم إبراهيم عليه السلام: ممن تبلغون لي السلام؟ وذلك لأن الحكيم لا يأتي بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة، فلو ضموا إليه الأمر العظيم الذي هو السلام من الله تعالى لانزعج إبراهيم عليه السلام، ثم إن إبراهيم عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وأخَّر السؤال إلى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام. هذا وجه النصب. وأما الرفع فنقول: يحتمل أن المراد منه السلام الذي هو التحية وهو المشهور أيضًا، وحينئذٍ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره: سلام عليكم، وكون المبتدأ نكرة يحتمل في قول القائل: سلام عليكم وويل له، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: قال جوابه سلام، ويحتمل أن يكون المراد قولاً يسلم به أو ينبئ عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام، بمعنى مسالمة لا تعلق بيني وبينكم لأني لا أعرفكم، أو يكون المبتدأ قولكم، وتقديره: قولكم سلام ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم فإن الأمر أشكل عليَّ؟ وهذا ما يحتمل أن يقال في النصب والرفع.

وأما الفرق فنقول: أما على التفسير المشهور وهو أن السلام في الموضعين بمعنى التحية فنقول: الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى.

أما من حيث اللفظ: فنقول: (سلام عليك) إنما جُوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة، من حيث إنه كالمتروك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوبًا على تقدير أسلم سلامًا وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام، والكلام التام أسلم سلامًا، كما أنك تقول: ضربت زيدًا على السطح، يكون على السطح خارجًا عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعية كثير الوقوع، قالوا نعدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية ونجعل لعليك حظًا في الكلام، فنقول سلام عليك، فتصير عليك لفائدة لا بد منها، وهي الخبرية، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه، والأصل مقدم على المأخوذ منه، فقال: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ قدم الأصل على المتفرع منه.

وأما من حيث المعنى: فذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن، فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار، فإن قولنا: (جلس زيد) لا ينبئ عنه لأن الفعل لا بد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث ولهذا لو قلت: (الله موجود الآن) لأثبت العقل الدوام إذ لا ينبئ عن التجدد، ولو قال قائل: وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما

قالوا: سلامًا قال: سلام عليكم مستمر دائم، وأما على قولنا: المراد القول ذو السلامة، فظاهر الفرق، فإنهم قالوا قولاً ذا سلام، وقال لهم إبراهيم عليه السلام: (سلام) أي قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الأمر عليّ، وإن قلنا: المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلّموا عليه تسليمًا، فنقول: فيه جمع بين أمرين: تعظيم جانب الله، ورعاية قلب عباد الله، فإنه لو قال: (سلام عليكم) وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك، فيكون الرسول قد أمنهم، فإن السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل، فيكون فاعلاً للأمر من غير إذن الله نيابة عن الله فقال: أنتم سلّمتم عليّ وأنا متوقف أمري متاركة لا تعلق بيننا إلى أن يتبين الحال، ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال في مثل هذا المعنى للنبي ﷺ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] ولم يقل قل سلامًا، وذلك لأن الأخيار المذكورين في القرآن لو سلّموا على الجاهلين لا يكون ذلك سببًا لحرمة التعرض إليهم، وأما النبي ﷺ لو سلّم عليهم لصار ذلك سببًا لحرمة التعرض إليهم، فقال: قل سلام، أي أمري معكم متاركة تركناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر. وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلامًا فنقول: هم لما قالوا: نبلغك سلامًا. ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام، أي إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرفي وإلا فقد بلغني منه سلام وبه شرفي ولا أتشرف بسلام غيره، وهذا ما يمكن أن يقال فيه، والله أعلم بمراده. الأول والثاني عليهما الاعتماد فإنهما أقوى وقد قيل بهما.

المسألة الثالثة: قال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل منهم وقال هاهنا: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم، فما الوجه فيه؟ نقول: جاز أن يحصل أولاً عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم، والذي يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس، وكانوا في أنفسهم عند كل أحد منكرين، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال: أنتم منكرون في أنفسكم عند كل أحد منا. ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة إلى الكل، لكن الحالة في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره هاهنا، فإن هاهنا لم يبين المبشر به، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق، ولم يقل هاهنا إن القوم قوم مَن وهناك قال قوم لوط، وفي الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط، فذكر فيها النكتة الزائدة، ولم يذكر هاهنا. ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة، فالإكرام أولاً ممن جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم

أحدهما على الآخر - أنواع من الإكرام وهي اللقاء الحسن والخروج إليه والتهيؤ له، ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذي دل عليه النصب في قوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ إما لكونه مؤكدًا بالمصدر أو لكونه مبلغًا ممن هو أعظم منه، ثم الرد الحسن الذي دل عليه الرفع، والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء، فإن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم، بل قال أمري مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر. فإن ذلك وإن كان مخلاً بالإكرام، لكن الغدر ليس من شيم الكرام، ومودة أعداء الله لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، ثم تعجيل القِرى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ [هود: ٦٩] وقوله هاهنا: ﴿فَرَاغَ﴾ فإن الروغان يدل على السرعة، والروغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الرواح المخفي أيضًا كذلك، ثم الإخفاء فإن المضيف إذا أحضر شيئًا ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا، وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح ويأتي بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه، ثم اختيار الأجود بقوله: ﴿سَمِينٍ﴾ ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ لأن من قَدَّم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقرًا في مقره لا يختلف عليه المكان، فإنْ نَقَلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى. ثم العرض لا الأمر حيث قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل كلوا. ثم كون المضيف مسرورًا بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين يُحضرون طعامًا كثيرًا ويكون نظره ونظر أهل بيته في الطعام متى يمسك الضيف يده عنه، يدل عليه:

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾

ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المؤاكلة، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك، يدل عليه قوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم تحسين العبارة في العذر وذلك لأن من يكون محتميًا وأُحضر لديه الطعام فهناك أمران. أحدهما: أن الطعام لا يصلح له لكونه مضرًا به. الثاني: كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغي أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لي، بل الحسن أن يأتي بالعبارة الأخرى ويقول: لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل أيضًا شيئًا، يدل عليه قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا: لا يصلح لنا الطعام والشراب، ثم أدب آخر في البشارة أن لا يُخبَر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضًا، يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا: (نبشرك) ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكَر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن

الأوصاف فإن الابن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة، واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت، وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الإخبار عن إهلاكهم قوم لوط؛ ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف، ويأتي ببدلهم خيرًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي أقبلت على أهلها، وذلك لأنها كانت في خدمتهم، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة، وقوله تعالى: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي صيحة، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئًا من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، ويحتمل أن يقال: تلك الصيحة كانت بقولها: (يا ويلتا)، تدل عليه الآية التي في سورة هود، وصك الوجه أيضًا من عادتهن، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما: أحدهما: كبر السن. والثاني: العقم؛ لأنها كانت لا تلد في صغر سنها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاءً قريبًا من الإجابة، ظنًّا منها أن ذلك منهم، كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية كقول الداعي: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولدًا. فقالوا: هذا منا ليس بدعاء. وإنما ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وقد ذكرنا تفسيرهما مرارًا، فإن قيل: لمَ قال هاهنا: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقال في هود: ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] نقول: لما بينا أن الحكاية هناك أبسط، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله، وذكَّروهم بنعمته بقولهم: ﴿حَمِيدٌ﴾ فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة، وقولهم: ﴿مَّجِيدٌ﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه، وههنا لما لم يقولوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين، فالحميد يتعلق بالفعل، والمجيد يتعلق بالقول، وكذلك الحكيم هو الذي فعله، كما ينبغي لعلمه قاصدًا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقًا للمقصود اتفاقًا، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم، فإنه لا يقال له حكيم، وأما إذا فعل فعلاً قاصدًا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها، يقال له حكيم فيه. والعليم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده، وإن لم يفعل فعلاً وهو قاصد لعلمه، وإن لم يفعل على وفق القاصد.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لما علم حالهم بدليل قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] لِم لَم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لا غير؟ نقول: إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب

المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج: ما هذه العجلة، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك؟ ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق، لا سيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم، وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل، وهو أبو الأنبياء إسحاق عليه السلام على الصحيح، فإن قيل: فما الذي اقتضى ذكره بالفاء، ولو كان كما ذكرتم لقال: ما هذا الاستعجال، وما خطبكم المعجل لكم؟ نقول: لو كان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وإيناس ما كان يقول شيئًا، فلما آنسوه قال: ما خطبكم؟ أي بعد هذا الأنس العظيم، ما هذا الإيحاش الأليم؟

المسألة الثانية: هل في الخَطْب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ؟ نقول: نعم، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر، وأما الخطب فهو الأمر العظيم، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي لعظمتكم لا تُرسَلون إلا في عظيم، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول (ما شغلكم الخطير وأمركم العظيم) للزم التطويل، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾

المسألة الثالثة: من أين عرف كونهم مرسلين؟ فنقول: قالوا له، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] وإنما لم يُذكر هاهنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة في سورة هود، أو نقول: لما قالوا لامرأته: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات: ٣٠] علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى، يدل على هذا أن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ كان جواب سؤاله منهم.

المسألة الرابعة: هذه الحكاية بعينها هي المحكية في هود، وهناك قالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ [هود: ٧٠] بعد ما زال عنه الروع وبشروه، وهنا قالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ بعدما سألهم عن الخطب، وأيضًا قالوا هناك: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] وقالوا ههنا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ والحكاية من قولهم، فإن لم يقولوا ذلك. ورد السؤال أيضًا، فنقول: إذا قال قائل حاكيًا عن زيد: قال زيد عمرو خرج، ثم يقول مرة أخرى: قال زيد إن بكرًا خرج، فإما أن يكون صدر من زيد قولان، وإما أن لا يكون حاكيًا ما قاله زيد، والجواب عن الأول: هو أنه لما خاف جاز أنهم ما قالوا له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] فلما قال لهم: ماذا تفعلون بهم؟ كان لهم أن يقولوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ لنهلكهم، كما يقول القائل: خرجت من البيت، فيقال: لماذا خرجت؟ فيقول: خرجت لأتجر. لكن ههنا فائدة معنوية، وهي أنهم إنما قالوا في جواب: ما خطبكم؟ نهلكهم بأمر الله. لتعلم براءتهم عن إيلام البريء، وإهمال الرديء،

فأعادوا لفظ الإرسال، وأما عن الثاني: نقول: الحكاية قد تكون حكاية اللفظ، كما تقول: قال زيد: بعمرو مررت، فيحكي لفظه المحكي، وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول: زيد قال: عمرو خرج، ولك أن تبدل مرة أخرى في غير تلك الحكاية بلفظة أخرى، فتقول: لما قال زيد: بكر خرج، قَلت كيت وكيت، كذلك هاهنا القرآن لفظ معجز، وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم، وسواء كان منزلاً عليهم لم يكن لفظه معجزًا، فيلزم أن لا تكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ، فكأنهم قالوا له: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ وله أن يقول: إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك؛ لأنه لا يحكي لفظهم حتى يكون ذلك واحدًا، بل يحكي كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة، ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم في السلام على أحد الوجوه في التفسير، قال في الموضعين: سلامًا وسلام، ثم بيّن ما لأجله أُرسلوا بقوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ وقد فسرنا ذلك في العنكبوت، وقلنا: إن ذلك دليل على وجوب الرمي بالحجارة على اللائط.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أي حاجة إلى قوم من الملائكة، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه؟ نقول: المَلِك القادر قد يأمر الحقير بإهلاك الرجل الخطير، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير، إظهارًا لنفاذ أمره، فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التي بها الحياة، كان أظهر في القدرة، وحيث أمر الألآف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر في نفاذ الأمر. وفيه فائدة أخرى، وهي أن من يكون تحت طاعة ملك عظيم، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره، يكون ذلك تعظيمًا منه له، وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم، لكن الله تعالى أعان لوطًا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف، وبين العددين من التفاوت ما لا يخفى، وقد ذكرنا نبذًا منه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يس: ٢٨].

المسألة الثانية: ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين؟ نقول: لأن بعض الناس يسمي البَرَد حجارة، فقوله: ﴿مِّن طِينٖ﴾ يدفع ذلك التوهم، واعلم أن بعض من يدعي النظر يقول: لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البَرَد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة. قالوا: وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندي، فيصير طينًا رطبًا، والرطب إذا نزل وتفرق استدار، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلئ الكبار، ثم في النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التي في الجو، جعلته حجارة كالآجُر المطبوخ، فينزل فيصيب مَن قَدَّر الله هلاكه، وقد ينزل كثيرًا في المواضع التي لا عمارة بها فلا يُرى ولا يُدرى به؛ ولهذا قال: ﴿مِّن طِينٖ﴾ لأن ما لا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق

لا يكون كثيرًا بحيث يمطر . وهذا تعسف ، ومن يكون كامل العقل يسند الفكر إلى ما قاله ذلك القائل ، فيقول : ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ، ولا بد من الانتهاء إلى مُحْدِث ليس بحادث ، فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلاً مختارًا ، والمختار له أن يفعل ما ذكر وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه ، وما لا يصل العقل إليه يجب أخذه بالنقل ، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية ، وإنما المعلوم أن الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ؛ لأنها في العادة لا بد لها من مكث في النار .

قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه وجوه: أحدها: مكتوب على كل واحد اسم واحد يُقتل به . ثانيها : أنها خُلقت باسمهم ولتعذيبهم ، بخلاف سائر الأحجار فإنها مخلوقة للانتفاع في الأبنية وغيرها . ثالثها : مرسلة للمجرمين لأن الإرسال يقال في السوائم يقال : أرسلها لترعى ، فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] إشارة إلى الاستغناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى ، كما قال : ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ إشارة إلى خلاف ما يقول الطبيعيون : إن الحجارة إذا أصابت واحدًا من الناس فذلك نوع من الاتفاق ، فإنها تنزل بطبعها يتفق شخص لها فتصيبه . فقوله : ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي في أول ما خلق وأرسل ، إذا عُلم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين ، فإن قيل : إذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا : ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣] مع أن المسرف غير المجرم في اللغة؟ نقول : المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ، ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتي بالكبيرة ، ومن أسرف ولو في الصغائر يصير مجرمًا لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيرًا ، ومن أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم ، لكن فيه لطيفة معنوية ، وهي أن الله تعالى سومها للمسرف المُصر الذي لا يترك الجرم ، والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى ، يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم ، وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا : إنا أُرسلنا إلى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خُلقت لمن لا يؤمن ويُصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا في الإجرام ، فإن قيل : اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد؟ نقول : لتعريف العهد ، أي مسومة لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة .

فإن قيل : ما إسرافهم؟ نقول : ما دل عليه قوله تعالى : ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥﴾ **فيه فائدتان:**

إحداهما: بيان القدرة والاختيار، فإن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر، فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار.

ثانيها: بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء، فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، وقيل في مثاله: إن العالَم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة، والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك، وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما، وإن وُجد فيه كلاهما فالحكم للغالب، فكذلك البلاد والعباد، والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة، والحق أن المسلم أعم من المؤمن، وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلمًا لا يدل على اتحاد مفهوميهما، فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتًا من المسلمين. ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين، وهذا كما لو قال قائل لغيره: من في البيت من الناس؟ فيقول له: ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد. فيكون مخبرًا له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

وفي الآية خلاف: قيل: هو ماء أسود منتن، انشقت أرضهم وخرج منها ذلك. وقيل: حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي المنتفع بها هو الخائف، كما قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] في سورة العنكبوت، وبينهما في اللفظ فرق، قال هاهنا: ﴿ءَايَةً﴾ وقال هناك: ﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ وقال هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال هاهنا: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ فهل في المعنى فرق؟ نقول: هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ حيث وصفها بالظهور، وكذلك منها وفيها فإن (مِن) للتبعيض، فكأنه تعالى قال: من نفسها لكم آية باقية، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن العاقل أعم من الخائف، فكانت الآية هناك أظهر، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم، وهاهنا تسلية القلب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وقال هناك: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] من غير بيان وافٍ بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩﴾

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون معطوفًا على معلوم، ويحتمل أن يكون معطوفًا على مذكور، أما الأول ففيه وجوه: الأول: أن يكون المراد ذلك في إبراهيم وفي موسى؛ لأن مِن ذكر إبراهيم يُعلم ذلك. الثاني: لقومك في لوط وقومه عبرة، وفي موسى وفرعون. الثالث: أن يكون هناك معنى قوله تعالى: تفكروا في إبراهيم ولوط وقومهما، وفي موسى وفرعون، والكل قريب بعضه من بعض، وأما الثاني ففيه أيضًا وجوه: أحدها: أنه عطف على قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وهو بعيد لبُعده في الذكر، ولعدم المناسبة بينهما. ثانيها: أنه عطف على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [الذاريات: ٣٧]، ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أي وجعلنا في موسى، على طريقة قولهم: علفتها تبنًا وماءً باردًا، وتقلدت سيفًا ورمحًا. وهو أقرب، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ عائد إلى القرية. ثالثها: أن نقول (فيها) راجع إلى الحكاية، فيكون التقدير: وتركنا في حكايتهم آية أو في قصتهم. فيكون: وفي قصة موسى آية. وهو قريب من الاحتمال الأول، وهو العطف على المعلوم. رابعها: أن يكون عطفًا على ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وتقديره: وفي موسى حديث إذ أرسلناه، وهو مناسب إذ جمع الله كثيرًا من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧] وقال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

والسلطان: القوة بالحجة والبرهان، والمبين: الفارق، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فيه وجوه: الأول: الباء للمصاحبة، والركن إشارة إلى القوم، كأنه تعالى يقول: أعرض مع قومه، يقال: نزل فلان بعسكره على كذا، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ - ٢٢] قال: ﴿أَدْبَرَ﴾ وهو بمعنى تولى، وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣] وفي معنى قوله تعالى: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾. الثاني: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي اتخذ وليًا، والباء للتعدية حينئذٍ يعني تقوى بجنده. والثالث: تولى أمر موسى بقوته، كأنه قال: أقتل موسى لئلا يبدل دينكم، ولا يظهر في الأرض الفساد. فتولى أمره بنفسه، وحينئذٍ يكون المفعول غير مذكور، وركنه هو نفسه القوية، ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان، فإنه كان وزيره، وعلى هذا الوجه: الثاني أظهر.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي هذا ساحر أو مجنون، وقوله: ﴿سَٰحِرٌ﴾ أي يأتي الجن بسحره أو

يقرب منهم، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن، غير أن الساحر يأتيهم باختياره، والمجنون يأتونه من غير اختياره، فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال: هو يسحر الجن أو يُسحر، فإن كان ليس عنده منه خبر، ولا يقصد ذلك، فالجن يأتونه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾

وهو إشارة إلى بعض ما أتى به، كأنه يقول: واتخذ الأولياء فلم ينفعوه، وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعًا في اليم وهو البحر، والحكاية مشهورة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نقول: فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين، أما شرفه فلأنه قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله: إني أُريد هلاك أعدائك يا إله العالمين، فلم يكن له سبب إلا هذا، أما فرعون فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فكان سببه تلك، وهذا كما قال القائل: فلان عيبه أنه سارق، أو قاتل، أو يعاشر الناس فيؤذيهم، وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر. فتكون نسبة العيبين بعضهما إلى بعض سببًا لمدح أحدهما وذم الآخر. وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه، ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه إيمانه حين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وفيه ما ذكرنا من الوجوه التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكر أن المقصود ههنا تسلية قلب النبي ﷺ وتذكيره بحال الأنبياء، ولم يذكر في عاد وثمود أنبياءهم، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام، نقول: في ذكر الآيات ست حكايات: حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين، وحكاية موسى عليه السلام، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين؛ لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين، أما في حق إبراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر، وأما في قوم لوط فلأن الناجين وإن كانوا أهل بيت واحد، ولكن المهلكين كانوا أيضًا أهل بقعة واحدة.

وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعاف ما كان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام.

فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بالنجاة، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٥]

وفي هود قال بعد الحكايات: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠- ١٠٢] فذكر بعدها ما يؤكد التهديد، وذكر بعد الحكايات ههنا ما يفيد التسلي، وقوله: ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ أي ليست من اللواقح لأنها كانت تكسر وتقلع، فكيف كانت تلقح والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول، وكذلك إذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور؟ وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعًا ولم يتميز المفعول عن الفاعل، فأوْلى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه؛ لأنه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام محتاج إليه، فأول ما يحصل في الفعل الفاعل، ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول، تقول: فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة، ويدل على ذلك أيضًا أن التمييز بين الفاعل والمفعول جُعل بحرف ممازج للكلمة فقيل (فاعل) بألف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة، وقيل (مفعول) بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما بأحدهما، فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل، والميم والواو يختص بالمفعول، والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير، فإذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل، كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ وفيه مباحث:

الأول: في إعرابه، وفيه وجهان: أحدهما: نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم، ذكر الواحدي أنه وصف، فإن قيل: كيف يكون وصفًا والمعرفة لا توصف بالجمل و(ما تذر) جملة ولا يوصف بها إلا النكرات؟ نقول: الجواب فيه من وجهين: أحدهما: أنه يكون بإعادة الريح تقديرًا كأنه يقول: وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحًا ما تذر. ثانيهما: هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة، كأنه يقول: وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة، ولهذا أكثر ما ذكرها في القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] إلى غير ذلك. الوجه الثاني وهو الأصح: أنه نصب على الحال تقول: جاءني ما يفهم شيئًا فعَلَّمته وفَهَّمته، أي حاله كذا، فإن قيل: لم تكن حال الإرسال ما تذر والحال ينبغي أن يكون موجودًا مع ذي الحال وقت الفعل، فلا يجوز أن يقال: جاءني زيد أمس راكبًا غدًا، والريح بعدما أرسلت بزمان صارت ما تذر شيئًا.

نقول: المراد به البيان بالصلاحية، أي أرسلناها وهي على قوة وصلاحية أن لا تذر، نقول لمن جاء وأقام عندك أيامًا ثم سألك شيئًا: جئتني سائلاً، أي قبل السؤال بالصلاحية والإمكان، هذا إن قلنا: إنه نصب وهو المشهور، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي ما تذر.

البحث الثاني: ﴿مَا تَذَرُ﴾ للنفي حال التكلم، يقال: ما يخرج زيد أي الآن، وإذا أردت المستقبل تقول، لا يخرج أو لن يخرج، وأما الماضي تقول: ما خرج ولم يخرج، والريح حالة الكلام مع النبي ﷺ كانت ما تركت شيئًا إلا جعلته كالرميم، فكيف قال بلفظ الحالة ﴿مَا تَذَرُ﴾؟ نقول: الحكاية مقدرة على أنها محكية حال الوقوع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] مع أن اسم الفاعل الماضي لا يعمل وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال.

البحث الثالث: هل في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مبالغة ودخول تخصيص كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؟ نقول: هو كما وقع لأن قوله: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وصف لقوله: ﴿شَيْءٍ﴾ كأنه قال: كل شيء أتت عليه أو كل شيء تأتي عليه جعلته كالرميم، ولا يدخل فيه السموات لأنها ما أتت عليها، وإنما يدخل فيه الأجسام التي تهب عليها الرياح، فإن قيل: فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصدًا وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم، وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله، فكأنها كانت قاصدة إياهم، فما تركت شيئًا من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم، مع أن الصِّر الريحُ الباردة والمكرر لا ينفك عن المعنى الذي في اللفظ من غير تكرير، تقول حث وحثحث، وفيه ما في حث. نقول: فيه قولان:

أحدهما: أنها كانت باردة فكانت في أيام العجوز، وهي ثمانية أيام من آخر شباط وأول آذار، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرهما وتُسودهما.

والثاني: أنها كانت حارة، والصر هو الشديد لا البارد، وبالشدة فسّر قوله تعالى: ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي في شدة من الحر.

البحث الرابع: في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ لأن في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ﴾ نفي الترك مع إثبات الإتيان، فكأنه تعالى قال: تأتي على أشياء وما تتركها غير محرقة. وقول القائل: ما أتى على شيء إلا جعله كذا، يكون نفي الإتيان عما لم يجعله كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ والبحث فيه وفي عاد هو ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ [الذاريات: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال بعض المفسرين: المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة، وكانت في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفرّ وجوههم وتسودّ. وهو ضعيف لأن قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات: ٤٤] بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ فإن الظاهر أن المراد هو ما قدر الله للناس من الآجال، فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل يقول له تمتع إلى آخر أجلك، فإن أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين، وإلا فما لك في الآخرة من نصيب.

قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فيه بحث وهو أن (عتا) يستعمل بعلى قال تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩] وهاهنا استعمل معه كلمة (عن) فنقول: فيه معنى الاستعناء فحيث قال تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ كان كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وحيث قال (على) كان كقول القائل: فلان يتكبر علينا. والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا. أحدها: أنها الواقعة. والثاني: الصوت الشديد. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إشارة إلى أحد معنيين: إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع، كما يقول القائل للمضروب: (يضربك فلان وأنت تنظر؟!) إشارة إلى أنه لا يدفع، وإما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أُنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه، ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أُخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج، كما يقول المبارز الشجاع: أخبرتك بقصدي إياك فانتظرني.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلاً عن أن يهرب؟! وعلى هذا فيه لطائف لفظية: إحداها: قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ فإن الاستطاعة دون القدرة؛ لأن في الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبئ عن عدم القدرة والاستقلال، فمن استطاع شيئًا كان دون من يقدر عليه، ولهذا يقول المتكلمون: (الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل) إشارة إلى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢] على قراءة من قرأ بالتاء وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أبلغ من قول القائل: ما قدروا على قيام. ثانيها: قوله تعالى: ﴿مِن قِيَامٍ﴾ بزيادة (مِن)، وقد عرفت ما فيه من التأكيد. ثالثها: قوله: ﴿قِيَامٍ﴾ بدل قوله (هرب) لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب. الوجه الثاني: هو أن المراد من قيام: القيام بالأمر، أي ما استطاعوا من قيام به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي ما استطاعوا الهزيمة والهرب، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنه يدفع عن الروح، وهم مع ذلك ما كانوا منتصرين، وقد عرفت أن قول القائل: (ما هو بمنتصر) أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر. والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله: (ما انتصر) أي لشيء من شأنه ذلك، كما تقول: فلان لا ينصر أو فلان ليس ينصر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قرئ: (قَوْمَ) بالجر والنصب فما وجههما؟ نقول: أما الجر فظاهر عطفًا على ما تقدم في قوله

تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [الذاريات: ٣٨]، تقول: لك في فلان عبرة وفي فلان وفلان. وأما النصب فعلى تقدير: وأهلكنا قوم نوح من قبل. لأن ما تقدم دلّ على الهلاك فهو عطف على المحل، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ معناه ظاهر، كأنه يقول: (وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ) وأما على الوجه الأول فتقديره: وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بيانًا للحشر.

وأما قوله هاهنا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ وأنتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ما خلقوا منها شيئًا فلا يصح الإشراك، ويمكن أن يقال: هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع، وإذا كان العطف على جملة فعلية فما تلك الجملة؟ نقول في بعض الوجوه التي ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [الذاريات: ٤٣] تقديره: وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود، عطفًا على قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وعلى هذا يكون ما تقدم جملة فعلية لا خفاء فيه، وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفًا على ما بالنصب أَوْلى، ولأن قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ [الذاريات: ٤٠] وقوله: ﴿أُرْسِلْنَا﴾ [الذاريات: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤] و﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [الذاريات: ٤٥] كلها فعليات فصار النصب مختارًا.

المسألة الثانية: كرر ذكر البناء في السموات، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] وقال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤] فما الحكمة فيه؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أن البناء باقٍ إلى قيام القيامة لم يسقط منه شيء ولم يعدم منه جزء، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يُبسط ويُطوى ويُنقل، والسماء كالبناء المبني الثابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وأما الأراضي فكم منها ما صار بحرًا وعاد أرضًا من وقت حدوثها. ثانيها: أن السماء تُرى كالقبة المبنية فوق الرءوس، والأرض مبسوطة مدحوة، والبناء بالمرفوع أليق، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨]. ثالثها: قال بعض الحكماء: السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال، والمسكن أليق بكونه بناء، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل، فقوله: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ عامل في السماء، فما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل؟ ولو قال: وبنينا السماء بأيد، كان أوجز؟ نقول: الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة، فلما كان المقصود إثبات العلم

بالصانع، قدم الدليل فقال: والسماء المزينة التي لا تشكُّون فيها بنيناها، فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا.

المسألة الرابعة: إذا كان المقصود إثبات التوحيد، فكيف قال: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ ولم يقل بنيتها أو بناها الله؟ نقول: قوله: (بنينا) أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد، وقوله (بنيتها) يمكن أن يكون فيه تشريك، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ لا يورث إيهامًا بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها الضمير في ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب جعلوا الأصنام على صورها وطبائعها، فأما الأصنام المنحوتة فلا يشكُّون أنها ما بنت من السماء شيئًا، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها، وإنما يمكن أن يقال: إنما بُنيت لها وجُعلت أماكنها، فلما لم يتوهم ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لأن كل ما هو غير السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها، فإذن عُلم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ أدل على نفي الشريك من بنيتها وبناها الله.

فإن قيل: لمَ قلت: إن الجمع يدل على التعظيم؟ قلنا: الجواب من الوجهين: الأول: أن الكلام على قدر فهم السامع، والسامع هو الإنسان، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه، فيقول الملك: (فَعَلنا) أي فَعَله عبادنا بأمرنا، ويكون في ذلك تعظيم، فكذلك في حق الغائب. الوجه الآخر: هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضيًا يقول القائل فعلنا كلنا كذا، وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال: قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمَر بفعل شيء لا يكون لأحد رده وكان كل واحد منقادًا له، يقول بدل فعلت فعلنا، ولهذا الملك العظيم أجمعنا، بحيث لا ينكره أحد ولا يرده نفس.

وقوله تعالى: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي قوة والأيد: القوة، هذا هو المشهور وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] يحتمل أن يقال: إن المراد جمع اليد، ودليله أنه قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس: ٧١] وهو راجع في الحقيقة إلى المعنى الأول، وعلى هذا فحيث قال: ﴿خَلَقۡتُ﴾ قال: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ وحيث قال: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ لمقابلة الجمع بالجمع، فإن قيل: فلمَ لم يقل بنيناها بأيدينا وقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾؟ نقول: لفائدة جليلة، وهي أن السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله والأنعام ليست كذلك، فقال هناك: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ تصريحًا بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة، وكذلك ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ وفي السماء ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ من غير إضافة للاستغناء عنها. وفيه لطيفة أخرى وهي أن هناك لما أثبت الإضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول، فلم يقل خلقته بيدي ولا قال

عملته أيدينا وقال هاهنا: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول، فلم يقل خلقته ولا عملته، وأما السماء فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة فقال: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ بعود الضمير تصريحًا بأنها مخلوقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه من السعة، أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط به من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها - كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء عجيب فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض. ثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي قدرتها، والمناسبة حينئذٍ ظاهرة، ويحتمل أن يقال بأن ذلك حينئذٍ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر، كأنه يقول: بنينا السماء، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. ثالثها: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الرزق على الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ استدلالاً بالأرض، وقد عُلم ما في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش، وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي نحن. أو فنِعم الماهدون ماهدوها.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ استدلالاً بما بينهما، والزوجان إما الضدان فإن الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما كذلك، وإما المتشاكلان فإن كل شيء له شبيه ونظير وضد وند، قال المنطقيون: المراد بالشيء: الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كل جنس خلق نوعين، من الجوهر مثلاً المادي والمجرد، ومن المادي النامي والجامد، ومن النامي المدرك والنبات ومن المدرك الناطق والصامت، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلّكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج، وإلا لكان ممكنًا فيكون مخلوقًا ولا يكون خالقًا. أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن خالق الأزواج لا يعجز عن حشر الأجسام وجمع الأرواح.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمر بالتوحيد، وفيه لطائف: الأولى: قوله

تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ ينبئ عن سرعة الإهلاك، كأنه يقول: الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعًا وفروا. الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بيان المهروب إليه ولم يذكر الذي منه الهرب لأحد وجهين: إما لكونه معلومًا وهو هول العذاب أو الشيطان الذي قال فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وإما ليكون عامًّا، كأنه يقول: كل ما عدا الله عدوكم ففروا إليه من كل ما عداه، وبيانه هو أن كل ما عداه فإنه يتلف عليك رأس مالك الذي هو العمر، ويُفوت عليك ما هو الحق والخير، ومتلف رأس المال مفوت الكمال عدو، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لا فناء معه. والثالثة: الفاء للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد ففروا إليه واتركوا غيره تركًا مؤبدًا. الرابعة: في تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا﴾ [الذاريات: ٤٩] ثم جعل الكلام للنبي عليه السلام وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يقل: ففروا إلينا. وذلك لأن لاختلاف الكلام تأثيرًا، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيرًا؛ ولهذا يُكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذي حاد عن الجادة، ويجعل الكلام مختلفًا، نوعًا ترغيبًا ونوعًا ترهيبًا، وتنبيهًا بالحكاية، ثم يقول لغيره: تكلَّمْ معه لعلّ كلامك ينفع. لما في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر، والله تعالى ذكر أنواعًا من الكلام وكثيرًا من الاستدلالات والآيات، وذكر طرفًا صالحًا من الحكايات، ثم ذكر كلامًا من متكلم آخر هو النبي ﷺ، ومن المفسرين من يقول: تقديره: فقل لهم ففروا، وقوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ إشارة إلى الرسالة.

وفيه أيضًا لطائف: إحداها: أن الله تعالى بيّن عظمته بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ وهيبته بقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤٨] وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار، فحكايات لوط تدل على أن التراب الذي منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء، والماء كذلك في قوم فرعون، والهواء في عاد، والنار في ثمود، ولعلّ ترتيب الحكايات الأربع للترتيب الذي في العناصر الأربعة وقد ذكرنا في سورة العنكبوت شيئًا منه، ثم إذا أبان عظمته وهيبته قال لرسوله: عَرِّفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلإردافه بذكر الرسول فائدة.

ثانيها: في الرسالة أمور ثلاثة: المرسِل والرسول والمرسل إليه وههنا ذكر الكل، فقوله: ﴿لَكُم﴾ إشارة إلى المرسل إليهم، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ إشارة إلى المرسِل، وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ بيان للرسول، وقَدَّم المرسل إليه في الذكر؛ لأن المرسل إليه أدخل في أمر الرسالة لأن عنده يتم الأمر، والمَلِك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيرًا أو بشيرًا لا يرسل وإن كان

ملكًا عظيمًا، وإذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وإن كان غير عظيم، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث، وأما الرسول فباختياره، ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة، وأما الرسول فلا يتعين؛ لأن للملك اختيار من يشاء من عباده، فقال: ﴿مِّنْهُ﴾ ثم قال: ﴿نَذِيرٌ﴾ تأخيرًا للرسول عن المرسل.

ثالثها: قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى ما به تُعرف الرسالة؛ لأن كل حادث له سبب وعلامة، فالرسول هو الذي به تتم الرسالة، ولا بد له من علامة يُعرف به، فقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إليها وهي إما البرهان والمعجزة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إتمامًا للتوحيد، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك، وطريقة التوحيد هي الطريقة، فالمعطل يقول: لا إله أصلاً، والمشرك يقول: في الوجود آلهة، والموحد يقول: قول الاثنين باطل، ونفي الواحد باطل. فقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] أثبت وجود الله، ولما قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نفى الأكثر من الواحد، فصح التوحيد بالآيتين، ولهذا قال مرتين: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي في المقامين والموضعين، وقد ذكرنا مرارًا أن المعطل إذا قال لا واجب يجعل الكل ممكنًا، فإن كل موجود ممكن، ولكن الله في الحقيقة موجود، فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك، وجعل الله كغيره، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفي كون الإله إلهًا لما ذكرنا في تقرير دلالة التمانع، مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله للزم عجز كل واحد، فلا يكون في الوجود إله أصلاً، فيكون نافيًا للإلهية، فيكون معطلاً، فالمعطل مشرك، والمشرك معطل، وكل واحد من الفريقين معترف بأن اسمه مبطل، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم، والحمد لله الذي هدانا.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوٓا۟﴾ فيه لطيفة، وهي أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة، لا يقال: فالله متخذ لقوله ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]: قلنا: الجواب عنه ظاهر، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١].

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

والتفسير معلوم مما سبق، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية، غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها، وهي أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كُذب، وحينئذٍ يَرد عليه أسئلة: الأول: هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله، وبقي القوم على ما كانوا عليه، كأنبياء بني إسرائيل مدة، وكيف وآدم لما أُرسل لم يُكَذب؟ الثاني: ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل، ولِمَ يرسل رسولاً مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه؟ الثالث: قوله ﴿مَآ أَتَى﴾ . . . ﴿إِلَّا قَالُوا۟﴾ دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر، وليس كذلك

لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم، وهم ما قالوا ذلك. والجواب عن الأول هو أن نقول: أما المقرر فلا نسلِّم أنه رسول، بل هو نبي على دين رسول، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضًا ضرورة. وعن الثاني: هو أن الله لا يرسل إلا عند حاجة الخلق، وذلك عند ظهور الكفار في العلم، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولاً مع كون الإيمان به ضروريًا، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يُقبل، والجاهل إذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول: كل ما هو قضاء الله فهو خير، والشر في القدر، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور، ويجعلونها متاعًا في الأسفار وغيرها كما ذكر الله، والماء فيه مصلحة الشرب، لكن النار إنما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوي، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير، ويغرق شاة المسكين، فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر، وهذا الكلام له غور، والسُّنة أن نقول: (يفعل الله ما يشاء، ويُحكم ما يريد) وعن الثالث: أن ذلك ليس بعام، فإنه لم يقل: (إلا قال كلهم)، وإنما قال: ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ ولما كان كثير منهم، بل أكثرهم قائلين به، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ فإن قيل: فلمَ لم يذكر المصدقين، كما ذكر المكذبين، وقال: إلا قال بعضهم: صدقت، وبعضهم: كذبت؟ نقول: لأن المقصود التسلية وهي على التكذيب، فكأنه تعالى قال: لا تأس على تكذيب قومك؛ فإن أقوامًا قبلك كَذبوا، ورسلًا كُذبوا.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. أي بذلك القول، وهو قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ومعناه التعجيب، أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطئوا عليه، وقال بعضهم لبعض: لا تقولوا إلا هذا. ثم قال: لم يكن ذلك على التواطؤ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أُترفوا فاستغنوا فنسُوا الله وطغوا فكذبوا رسله، كما أن المَلِك إذا أمهل أهل بقعة، ولم يكلفهم بشيء، ثم قعد بعد مدة وطلبهم إلى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان، فيحملهم ذلك على العصيان، والقول بطاعة ملك آخر.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ هذه تسلية أخرى، وذلك لأن النبي ﷺ كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير، ويقول: إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ. فيجتهد في الإنذار والتبليغ، فقال تعالى: قد أتيتَ بما عليك، ولا يضرك التولي عنهم، وكفرهم ليس لتقصير منك، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد.

قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾

يعني ليس التولي مطلقًا، بل تولَّ وأقبِل، وأعرِض وادعُ، فلا التولي يضرك إذا كان عنهم، ولا التذكير ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين، وفيه معنى آخر ألطف منه، وهو أن الهادي إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر، فلما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ﴾ كان يقع لمتوهم أن يقول: فحينئذٍ لا يكون للنبي ﷺ ثواب عظيم، فقال بلى، وذلك لأن في المؤمنين كثرة، فإذا ذكرتهم زاد هداهم، وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم، فإن قومًا كثيرًا إذا صلّى كل واحد ركعة أو ركعتين، وقومًا قليلاً إذا صلّى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد، فالهادي له على عبادة كل مهتدٍ أجر، ولا ينقص أجر المهتدي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ [القلم: ٣]أي وإن توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يراد قوة يقينهم، كما قال تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤]وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]وقال تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]ثانيها: تنفع المؤمنين الذين بعدك، فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير نُقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجيء بعدك من المؤمنين. ثالثها: هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمنًا لأنه صار مؤمنًا، وإن لم يفد يوجد حسنة ويزاد في حسنة المؤمنين فينتفعوا، وهذا هو الذي قيل في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وهذه الآية فيها فوائد كثيرة، ولنذكرها على وجه الاستقصاء، فنقول: أما تعلقها بما قبلها فلوجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذاريات: ٥٥]يعني أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكِّرهم به وأعلِمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان. الثاني: هو أنا ذكرنا مرارًا أن شغل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله وهداية الخلق، فلما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]بيَّن أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي، وأما العبادة فهي لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التي هي أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها. الثالث: هو أنه لما بيّن حال من قبله من التكذيب، ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة.

وأما التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الملائكة أيضًا من أصناف المكلفين، ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[الأعراف: ٢٠٦] فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خُلقوا له، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم. الثاني: هو أن النبي ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن، فلما قال: وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر، أي ذكر الجن والإنس. الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن، خلَق الملائكة وجعلهم مقربين، فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته، ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله. فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلَّمًا بين القوم فذكر المتنازع فيه. الرابع: قيل: الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها. الخامس: قال بعض الناس: كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[الفرقان: ٥٩] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[فصلت: ٩] وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[ص: ٧٥] إلى غير ذلك، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] وقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤] والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان، فقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة. وهو باطل لقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[غافر: ٦٢] فالمَلَك من عالم الخلق.

المسألة الثانية: تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول: فيه وجوه: الأول: بعضها مر في المسألة الأولى. الثاني: هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم، ولا كذلك الجن.

المسألة الثالثة: فِعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملاً وهو في نفسه كامل، فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة؟ نقول: المعتزلة تمسكوا به، وقالوا: أفعال الله تعالى لأغراض. وبالغوا في الإنكار على منكري ذلك، ونحن نقول: فيه وجوه: الأول: أن التعليل لفظي ومعنوي، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة، مثاله: إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير، ففي المعنى المقصود ذلك، وفي اللفظ لا يصح، ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لأستفيد حسنة. يقال: هذا ليس بشيء ولا يصح عليه، ولو قال قائل في مثل هذه الصورة (خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه) لصَدَق، فالتعليل اللفظي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة، يقال اتجر للربح، وإن لم يكن في الحقيقة له، إذا عرفت هذا فنقول: الحقائق غير

معلومة عند الناس، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظًا والنزاع في الحقيقة في اللفظ. الثاني: هو أن ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى، وكأنه يقول: العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] أي بحيث يصير تذكرة عندكم مرجوًا، وقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أي يصير إهلاكه عندكم مرجوًا تقولون إنه قرب. الثالث: هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضًا كما في الوقت، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] والمراد المقارنة، وكذلك في جميع الصور، وحينئذٍ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة، أي بفرض العبادة، أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة.

والذي يدل على عدم جواز التعليل الحقيقي هو أن الله تعالى مستغنٍ عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره؛ لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلاً هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة، وأما النصوص فأكثر من أن تُعد، وهي على أنواع، منها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وأمثاله، ومنها ما يدل على أن الأشياء كلها بخلق الله، كقوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ومنها الصرايح التي تدل على عدم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولي لا إلى المفسر.

المسألة الرابعة: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣] وقال: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ فهل بينها اختلاف؟ نقول: ليس كذلك فإن الله تعالى علّل جعلهم شعوبًا بالتعارف، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك: ﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] دليل على ما ذكره ههنا وموافق له؛ لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملاً، فيكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أكرم وأعز، كالشيء الذي منفعته فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع في تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقًا للتطهير والشرب، فالصافي منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذي وُجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ.

المسألة الخامسة: ما العبادة التي خُلق الجن والإنس لها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخلُ شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يُعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل

عليهم السلام، فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل في نوعي العبادة، وقيل: إن معناه: ليعرفوني. روي عن النبي ﷺ أنه قال عن ربه «كُنتُ كَنزًا مَخفِيًا فَأَرَدتُ أن أعرف»(١).

قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧﴾

فيه جواب سؤال، وهو أن الخلق للغرض ينبئ عن الحاجة، فقال: ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لي. وذلك لأن منفعة العبد في حق السيد أن يكتسب له، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له، فيحتاج إلى إخراج مال، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب، فقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ أي لست كالسادة في طلب العبادة بل هم الرابحون في عبادتهم. وفيه وجه آخر وهو أن يقال: هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة، وذلك لأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة، لكن العبيد على قسمين: قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد، والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه، ووضع اليمين على الشمال لديه، وقسم منهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فقال تعالى: إني خلقتهم فلا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك، فما أُريد منهم من رزق، أو هل هم ممن يُطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون، فإذن هم عبيد من القسم الأول فينبغي أن لا يتركوا التعظيم.

وفيه لطائف نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في تكرار الإرادتين، ومن لا يريد من أحد رزقًا لا يريد أن يطعمه؟ نقول: هو لما ذكرناه من قبل، وهو أن السيد قد يطلب من العبد الكسب له، وهو طلب الرزق منه، وقد يكون للسيد مال وافر يستغني عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله، فالسيد قال: لا أريد ذلك ولا هذا.

المسألة الثانية: لمَ قدم طلب الرزق على طلب الإطعام؟ نقول: ذلك من باب الارتقاء، كقول القائل: لا أطلب منك الإعانة ولا ممن هو أقوى. ولا يعكس، ويقال: فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين. ولا يعكس، فقال هاهنا: لا أطلب منكم رزقًا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد، فإن ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان الكسب لا يُطلب منهم.

---

(١) لا أصل له: أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ١٧٣)، حديث رقم (٢٠١٦)، وقال: قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ ولا يُعرف له سند صحيح.

المسألة الثالثة: لو قال: ما أريد منهم أن يرزقون، وما أريد منهم من الطعام، هل تحصل هذه الفائدة؟ نقول: على ما فُصل لا وذلك لأن بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل، فإن اشتغل بشغل ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى، وإن لم يشتغل، كالعبد المتكسب إذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلبًا يرضى منه السيد إذا كان شغله التكسب، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب، فربما لا يرضى به السيد، فالمقصود من الرزق الغنى، فلم يقل بلفظ الفعل، والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل، ولم يقل: (وما أريد منهم من طعام) هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع.

المسألة الرابعة: إذا كان المعنيّ به ما ذكرت، فما فائدة الإطعام وتخصيصه بالذكر مع أن المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم؟ نقول: لما عمم في المطلب الأول اكتفى بقوله: ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ فإنه يفيد العموم، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن يستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام، ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأَوْلى فصار كأنه تعالى قال: ما أريد منهم من عين ولا عمل.

المسألة الخامسة: على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره؛ لأن السيد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم، بل يشتريه للتجارة والربح فيه، نقول: عموم قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يتناول ذلك فإن من اشترى عبدًا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقًا.

المسألة السادسة: ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال، والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقًا لا في الحال ولا في الاستقبال، فلمَ لم يقل: لا أريد منهم من رزق ولا أريد؟ نقول: (ما) للنفي في الحال، و(لا) للنفي في الاستقبال، فالقائل إذا قال: فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل، ولو قال: (ما يفعل) لما صدق فيما ذكرنا من الصورة، مثاله: إذا كان الإنسان في الصلاة وقال قائل: إنه ما يصلي فانظر إليه. فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول: إنك لا تصلي، ولو قال القائل: (إنه ما يصلي في تلك الحالة) لما صدق، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أَوْلى لأن المراد من الحال الدنيا، والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يُطلب منه رزق أو عمل، فكان قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ مفيدًا للنفي العام، ولو قال: (لا أريد) لما أفاد ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

تعليلاً لما تقدم من الأمرين، فقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ تعليل لعدم طلب الرزق، وقوله تعالى:

﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ تعليل لعدم طلب العمل؛ لأن من يطلب رزقًا يكون فقيرًا محتاجًا، ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزًا لا قوة له، فصار كأنه يقول: ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق، ولا عمل فإني قوي.

وفيه مباحث: الأول: قال: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ ولم يقل: (إني رزاق) بل قال على الحكاية عن الغائب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: قد روي أن النبي ﷺ قرأ: (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ)[1] على ما ذكرت، وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه: الأول: أن يكون المعنى قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الثاني: أن يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب، وفيه هاهنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزاقًا، وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مرارًا وتمسكنا بقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي معبوديك، وإذا كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله من غير الكسب إذ رزقه على السيد، وهاهنا لما قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ فقد بيّن أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ بلفظ (الله) الدال على كونه رزاقًا، ولو قال: (إني أنا الرزاق) لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا. الثالث: أن يكون (قل) مضمرًا عند قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم﴾ تقديره: قل يا محمد: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ فيكون بمعنى قوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] ويكون على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ من قول النبي ﷺ ولم يقل (القوي)، بل قال: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ وذلك لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير، ولكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدًا، فإن كثيرًا من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق، فإذا كثر منه الرزق قلَّ منه الطلب؛ لأن المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلا بالمبالغة في وصف الرزق، فقال: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ وأما ما يغني عن الاستعانة بالغير فدون ذلك: وذلك لأن القوي إذا كان في غاية القوة يعين الغير، فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به، وإذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك، ولما قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ كفاه بيان نفس القوة فقال: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ إفادة معنى القوة دون القوي لأن (ذا) لا يقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمي ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق. . . إلى غير ذلك مما لا يلزمه لزومًا بينًا، ولا يقال في الثلاثة:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف والقراءات) (٤/ ١٧١٥)، حديث رقم (٣٩٩٣)، والترمذي في كتاب (القراءات)، باب: (سورة الذاريات) (٥/ ١٧٦)، حديث رقم (٢٩٤٠)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، كلاهما من طريق أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: أقرأني رسول الله ﷺ: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين).

ذات فردية ولا في الأربعة ذات زوجية، ولهذا لم يَرد في الأوصاف الحقيقية التي ليست مأخوذة من الأفعال ولذا لم يُسمع ذو الوجود وذو الحياة ولا ذو العلم ويقال في الإنسان: ذو علم وذو حياة لأنها عَرَض فيه عارض لا لازم بين، وفي صفات الفعل يقال: الله تعالى ذو الفضل كثيرًا وذو الخلق قليلاً لأن (ذا كذا) بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلاً عن اللزوم البين، والذي يؤيد هذا هو أنه تعالى قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقوي، ويؤيده أيضًا أنه تعالى قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] وقال تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] لأن في هذه الصور كان المراد بيان القيام بالأفعال العظيمة والمراد هاهنا عدم الاحتياج، ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر ما، ومن يقوم مستبدًا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة؛ لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه، ولو بُين هذا البحث في معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ هاهنا وبين قوله: (قوى) في تلك المواضع لكان أحسن، فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله: (قوى) لبيان أنه غير محتاج إلى النصرة، وإنما يريد أن يعلم ليثيب الناصر، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفي فيه قوة ما، فلم لم يقل: إن الله ذو القوة؟ نقول فيه: إنه تعالى قال: من ينصره ورسله، ومعناه أنه يغني رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين، وإلا فالله تعالى وعدهم بالنصر حيث قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] ولما ذكر الرسل قال: (قوي) يكون ذلك تقوية تقارب رسله المؤمنين، وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين.

البحث الثاني: قال: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ وذلك لأن ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما، فزاد في الوصف بيانًا وهو الذي له ثبات لا يتزلزل، وهو مع المتين من باب واحد لفظًا ومعنى، فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته، والمتن هو الظهر الذي عليه أساس البدن، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى في مواضع ذكر القوة والعزة فقال: ﴿قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال: ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث في القوي وذي القوة، وذلك لأن المتين هو الثابت الذي لا يتزلزل والعزيز هو الغالب، ففي المتين أنه لا يُغلب ولا يُقهر ولا يُهزم، وفي العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام، والعزة أكمل من المتانة، كما أن القوي أكمل من ذي القوة، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت في كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾

وهو مناسب لما قبله، وذلك لأنه تعالى بيّن أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالمًا، فقال: إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير - لهم هلاك مثل هلاك من تقدم، وذلك لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه، لا يُحفظ، وإن كان في موضع يخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعًا بها بالموت أو بمرض يخلى عنها الإصطبل، والطعام الذي يتعفن يبدد ويُفرغ منه الإناء، فكذلك الكافر إذا ظلم، ووضع نفسه في غير موضعه، خرج عن الانتفاع فحسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: فيما يتعلق به الفاء، وقد ذكرنا لك في وجه التعلق.

المسألة الثانية: ما مناسبة الذَّنوب؟ نقول: العذاب مصبوب عليهم، كأنه قال تعالى: نَصبُّ من فوق رءوسهم ذَنوبًا كذَنوب صُب فوق رءوس أولئك. ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوبًا فذنوبًا، وذلك وقت عيشهم الطيب، فكأنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من الدنيا وطيباتها ﴿ذَنُوبًا﴾ أي ملاء، ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب، كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذبوبًا وتركوها، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فإن الرزق ما لم يفرغ لا يأتي الأجل.

ثم أعاد ما ذكر في أول السورة فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الذاريات

مكِّيةٌ في قول الجميع[1]، وهي سِتُّون آية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا عبد الله بن ناجية، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا مكِّيّ بن إبراهيم، حدَّثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خُصَيفة، عن السائب بن يزيد: أنَّ رجلاً قال لعمر ﷺ: إني مررت برجل يسأل عن تفسير مُشْكِلِ القرآن، فقال عمر: اللهم أمكِنِّي منه. فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابسٌ ثياباً وعِمامة، وعمرُ يقرأ القرآن، فلما فرغ، قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقام عمر، فحسر عن ذراعيه وجعل يَجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحمِلوه على قَتَب، وابلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً طَلَبَ العلم فأخطأه. فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم[3].

وعن عامر بن واثلة: أنَّ ابن الكوَّاءِ سأل علياً ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقال له: ويلَكَ! سَلْ تَفقُّهاً، ولا تسأل تعنُّتاً؛ «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً»: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً»: السَّحاب، «فَالْجَارِيَات يُسْراً»: السُّفُن، «فَالْمُقَسِّمَاتِ أمراً»: الملائكة[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧١، وزاد المسير ٨/ ٢٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨، والكشاف ٤/ ١٣.

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩. وقد سلف من وجه آخر ٥/ ٢٣ - ٢٤.

(٤) سلف ١/ ٦١ بنحوه.

وروى الحارث عن عليٍّ ﷺ: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» قال: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً» قال: السحاب تَحمِل الماء كما تحمل ذواتُ الأربع الوِقْر، «فَالْجارِيَاتِ يُسْراً» قال: السفن، وقوله[١]: «فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً» قال: الملائكة تأتي بأمرٍ مختلف؛ جبريلُ بالغلظة، وميكائيلُ صاحب الرحمة، ومَلَكُ الموت يأتي بالموت. وقاله[٢] الفراء.

وقيل: تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث.

ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذْرِيه ذَرْياً[٣].

ثم قيل: «وَالذَّارِيَاتِ» وما بعده أقسام، وإذا أقسمَ الربُّ بشيءٍ أثبتَ له شرفاً. وقيل: المعنى: وربِّ الذارياتِ[٤]، والجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشرِّ والثوابِ والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾: لا كَذِبَ فيه؛ ومعنى «لَصَادِقٌ»: لَصِدْق، وقع الاسمُ موقعَ المصدر. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني: الجزاءُ نازلٌ بكم. ثم ابتدأ قَسَماً آخَرَ فقال: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ».

وقيل: إنّ الذارياتِ النساءُ الوَلودات؛ لأن في ترائبهنَّ[٥] ذَرْوَ الخَلْق؛ لأنهنَّ يَذرين الأولاد، فصِرنَ ذاريات، وأَقسمَ بهنَّ لِمَا في ترائبهنَّ مِن خِيرَةِ عبادِه الصالحين. وخصَّ النساءَ بذلك دون الرجال وإنْ كان كلٌّ واحدٍ منهما ذارياً؛ لأمرين: أحدهما: لأنهن أوعيةٌ دون الرجال، فلاجتماع الذَّرْوَيْن فيهنَّ خُصِّصنَ بالذِّكر. الثاني: أنَّ الذَّرْوَ فيهنَّ أطولُ زماناً[٦]، وهنَّ بالمباشرة أقربُ عهداً.

---

(١) في (ز): وقراءة، بدل: وقوله، وفي (م): موقرة. والمثبت من باقي النسخ.

(٢) في (ز) و(م): وقال. وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في (ف) و(ق): وأذرته تذريه ذرياً، وفي (ظ): وأذرته تذريه وذرياً، وفي (ز): وأذرته ذرياً، والمثبت من (م). وقد قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥١ : ذرت الريح وأذرت، بمعنى واحد وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨ ، وزاد المسير ٨/ ٢٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥١ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٥ .

(٥) في (ظ) و(م): ذرايتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠ ، والكلام منه.

(٦) في (ز) و(ف): لطول زمان، وفي (ظ) و(ق): أطول زمان. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾: السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثَقُلْنَ بالحَمل. والوِقْر، بكسر الواو: ثقل الحِمل على ظهر أو في بطن[١]، يقال: جاء يحمل وِقْرَه، وقد أَوْقَرَ بعيرَه. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْل البغلِ والحمار، والوَسْقُ في حِمْل البعير. وهذه امرأةٌ مُوقَرة ـ بفتح القاف ـ إذا حملت حَمْلاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة: كَثُرَ حَمْلُها؛ يقال: نخلةٌ موقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحُكي: مُوقَر، وهو على غير القياس، لأن الفعل [ليس] للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر ـ بكسر القاف ـ على [قياس] قولك: امرأةٌ حامل، لأن حمل الشجر مشَبَّهٌ بحمل النساء؛ فأما مُوقَر ـ بالفتح ـ فشاذٌ، وقد روي في قول لبيدٍ يصف نخيلاً:

عُصَبٌ كَوارِعُ في خليجٍ مُحَلِّمٍ   حَمَلتْ فمنها مُوقَرٌ مَكْمُومُ

والجمع: مَوَاقِر. فأما الوَقْر ـ بالفتح ـ فهو ثقل الأذن، وقد وَقِرَت أُذُنُه تَوْقَر وَقْراً، أي: صَمَّت، وقياسُ مصدرِه التحريك، إلَّا أنه جاء بالتسكين[٢]. وقد تقدَّم في «الأنعام» القولُ فيه[٣].

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: السفن تجري بالرياح يُسراً إلى حيث سُيِّرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يُسْراً على هذا القول وجهان: أحدهما: إلى حيث يسيِّرها اللهُ تعالى من البلاد والبقاع. الثاني: هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروفٌ عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها   مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[٤]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الصحاح (وقر) وما بين حاصرتين منه، والبيت في شرح ديوان لبيد ص١٢٠ ، والرواية فيه: نخل كوارع... قال شارحه: شبه الظعائن بالنخل. كوارع: أراد اللواتي في الماء. محلِّم: نهر بالبحرين، وخليجه ما اختلج منه. مكموم: مغطى بالكمامة من برد أو داء..

(٣) ٨/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦١ . وسلف البيت ١٦/١٦ .

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحب[(١)] التي تُظِلُّ الأرض. وقيل: السماء المرفوعة[(٢)]. ابنُ عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ والماورديُّ وغيرهم[(٣)].

وفي «الْحُبُكِ» أقوالٌ سبعة:

الأول: قال ابن عباس وقتادة ومجاهدٌ والربيع: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوي. وقاله عكرمة[(٤)]؛ قال: ألم ترَ إلى النَّسَّاج إذا نسج الثوب فأجاد نَسْجَه؛ يقال منه: حَبَك الثوبَ يَحبِكُه ـ بالكسر ـ حَبْكاً، أي: أجاد نَسْجَه. قال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمتَه وأحسنتَ عملَه فقد احتبكتَه[(٥)].

الثاني: ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بنُ جبير.

وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم. وهو الثالث.

الرابع: قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لِمَا تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح: حُبُك[(٦)]. ونحوُه قول الفراء[(٧)]؛ قال: الحُبُك: تَكَسُّر كلِّ شيءٍ، كالرمل إذا مرَّت به الريحُ الساكنة، والماءُ القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك،

---

(١) في النسخ الخطية: السحاب، والمثبت من (م)، والقول في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ . والسحاب والسحب والسحائب: جمع سحابة. الصحاح (سحب).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون: وهو المشهور.

(٣) قول ابن عمر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ - ١٩٠ .

(٤) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الربيع ـ الطبري ٢١/ ٤٨٦ - ٤٨٩ .

(٥) الصحاح (حبك).

(٦) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الحسن الأول ـ الطبري ٢١/ ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٢ .

والشعرة الجَعْدة تكسُّرها حُبُك. وفي حديث الدجَّال: «إنَّ شعره حُبُك حُبُك»[(١)]. قال زهير:

مُكـلَّـلٌ بـأصـول الـنَّـجـمِ تَـنـسِـجُـهُ ريحٌ خَريقٌ لضاحي مائه حُبُكُ[(٢)]

ولكنها تَبْعُد من العباد فلا يرونها.

الخامس: ذات الشِّدَّة، قاله ابن زيد، وقرأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢][(٣)]. والمحبوك: الشديد الخَلْق من الفرس وغيره[(٤)]، قال امرؤ القيس:

قـد غـدا يَـحْـمِـلُـنـي فـي أنْـفِـهِ لاحِقُ الإطْلَيْنِ مَحبُوكٌ مُمَرْ[(٥)]

وقال آخَر[(٦)]:

مَـرِجَ الـدِّيـنُ فـأعـددتُ لـهُ مُشْرِفَ الحارِك مَحبُوكَ الكَتَدْ

وفي الحديث: أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي: تَشُدُّ الإزار وتُحْكمه[(٧)].

السادس: ذات الصَّفَاقة؛ قاله خُصَيف[(٨)]، ومنه: ثوبٌ صَفِيق ووجه صَفِيق: بَيِّنُ الصَّفاقة[(٩)].

---

(١) الصحاح (حبك). والخبر قطعة من حديث عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٦٢٦٠) عنه بلفظ: «إن راس الدجال من ورائه حُبُك حُبُك...».

(٢) شرح ديوان زهير ص ١٧٦ . قال شارحه: قال الأصمعي: النجم: النبت الذي يقال له: الثِّيْل. وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم، وهو كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ويقال: نَجَمَ البقل: إذا طلع. ريح خريق، يقال: هبت الشمال خريقاً: إذا هبت هبوباً شديداً. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، ضحي يضحى ضحىً، وضَحَى يضحى: برز للشمس.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ .

(٤) الصحاح (حبك).

(٥) ديوانه ص١٤٦ . وهو في وصف الغيث. قال شارحه: يحملني في أنفه: أي في أول هذه المطرة. لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكشحين. والمحبوك: المدمج الخلق، الشديد. والممر نحوه في المعنى.

(٦) هو أبو دؤاد، وسلف ص٤٣٠ من هذا الجزء.

(٧) الصحاح (حبك). والحديث أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣٥ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ .

(٩) الصحاح (صفق) وقوله: ثوب صَفِيق، أي: كثير الغزل. ووجه صَفيق، أي: وقح. القاموس (صفق).

السابع: أنَّ المراد بالطُّرُق المَجرَّةُ التي في السماء؛ سمِّيت بذلك لأنها كأثر المَجَرّ[١].

و«الْحبُكُ» جمع حِبَاك، قال الراجز:

كأنَّما جَلَّلها الحُوَّاكُ طِنْفِسَةً في وَشْيِها حِبَاكُ[٢]

والحِبَاك والحَبِيكة: الطريقة في الرَّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك: حُبُك، وجمع الحَبِيكة: حَبَائك[٣]، والحَبَكة مثل العَبَكة، وهي الحبَّة من السَّويق، عن الجوهري[٤].

وروي عن الحسن في قوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: «الحُبْك» و«الحِبْك» و«الحِبِك» و«الحِبُك»، و«الحُبُك» كالجماعة[٥]. وروي عن عِكرمة وأبي مِجْلَز: «الحُبَك»[٦].

و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة؛ و«الحُبْك» مخفَّفٌ منه. و«الحَبَك» واحدتها حَبَكة[٧]. ومن قرأ: «الحُبَك» فالواحدة حُبْكَة، كبُرْقة وبُرَق، أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قرأ: «الحِبِك» فهو كإبِل وإطِل. و«الحِبْك» مخفف منه. ومن قرأ: «الحِبُك» فهو شاذّ؛ ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمولٌ على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر

---

(١) ينظر الصحاح واللسان (جرر). والمَجَرّ: هو الخشبة المعترضة بين الحائطين توضع عليه أطراف العوارض.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٤٨٦، والنكت والعيون ٥/٣٦٢، والمحرر الوجيز ٥/١٧٢. والطنفسة: البساط، والنُّمْروقة فوق الرحل. المعجم الوسيط (طنفس).

(٣) وحُبُك أيضاً كما في معاني القرآن للفراء ٣/٨٢، وتفسير الطبري ٢١/٤٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/٥٢. وسيذكره المصنف.

(٤) في الصحاح (حبك).

(٥) ضبطنا بالشكل القراءات الشاذة عن الحسن في هذا الحرف كما ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢، حيث قيَّدها بالحروف، وذكر أن كسر الحاء وضم الباء فيها لغة غير متوجهة، وأنه ليس في كلام العرب هذا البناء.

(٦) المحتسب ٢/٢٨٦ دون ذكر أبي مجلز.

(٧) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢ قراءة «الحَبَك» بفتح الحاء والباء لابن عباس رضي الله عنهما، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٢٨ لابن مسعود وعكرمة.

الباء، ثم تصوَّر «الحُبُك» فضمَّ الباء. قال جميعَه المهدوي[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جوابُ القسم الذي هو «والسَّمَاءِ»، أي: إنكم يا أهل مكة «فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» في محمد والقرآن، فمِن مصدِّق ومكذِّب[٢]. وقيل: نزلت في المقتسِمين[٣]. وقيل: اختلافهم قولُهم: ساحر، بل شاعر، بل افتراه، بل هو مجنون، بل هو كاهن، بل هو أساطير الأوَّلين[٤]. وقيل: اختلافهم أنَّ منهم مَن نَفَى الحشر، ومنهم مَن شكَّ فيه. وقيل: المراد عَبَدة الأوثان والأصنام؛ يُقِرُّون بأن الله خالقُهم ويعبدون غيره[٥].

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرف عن الإيمان بمحمد والقرآنِ مَن صُرِف؛ عن الحسن وغيره[٦]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن الإيمان مَن أراده بقولهم: هو سحر وكهانة وأساطير الأوَّلين[٧]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن ذلك الاختلافِ مَن عصمه الله[٨].

أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكاً، أي: قَلَبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[٩] [الأحقاف: ٢٢].

وقال مجاهد: معنى «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»: يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْن: فساد العقل[١٠].

---

(١) وهو بنحوه في المحتسب ٢/٢٨٦ - ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٥/١٧٢ - ١٧٣.

(٢) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/٤٩٠ عن قتادة.

(٣) سيرد في تفسير الآية بعدها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر ١٢/٢٥٥-٢٥٦.

(٤) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/٤٩٠ عن ابن زيد.

(٥) النكت والعيون ٥/٣٦٣.

(٦) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/٤٩١.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٣٦ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٥/١٧٣ بمعناه، وقال: وهذا وجه حسن لا يُخلُّ به، إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين.

(٩) الصحاح (أفك).

(١٠) النكت والعيون ٥/٣٦٣، وأخرجه الطبري ٢١/٤٩١ بنحوه.

الزمخشري[١]: وقرئ: «يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ» أي: يُحْرَمه من حُرم؛ مِن: أَفَنَ الضَّرْعَ، إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع[٢]. والمعنى واحد، وكلُّه راجعٌ إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ في التفسير: لُعِن الكذَّابون[٣]. وقال ابن عباس: أي: قُتِل المرتابون؛ يعني الكهنة[٤]. وقال الحسن: هم الذين يقولون: لسنا نبعث. ومعنى «قُتِلَ» أي: هؤلاء ممن يجب أن يُدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وقال الفرَّاء: معنى «قُتِلَ»: لُعِن؛ قال: و«الخَرَّاصُوانَ»: الكذابون الذين يتخرَّصون بما لا يعلمون[٥]؛ فيقولون: إنَّ محمداً مجنون كذَّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاءٌ عليهم؛ لأن مَن لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال ابن الأنباري: علَّمَنا الدعاءَ عليهم، أي قولوا: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ». وهو جمع خارص، والخَرْص الكذب، والخَرَّاص الكذَّاب، وقد خَرَص يَخْرُص ـ بالضم ـ خَرْصاً، أي: كَذَب؛ يقال: خَرَص واختَرص، وخَلَقَ واختلَق، وبَشَك وابتَشك، وسَرَج واستَرَج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحَّاس.

والخَرْص ـ أيضاً ـ حَزْر ما على النخل من الرُّطَب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ، والاسم: الخِرْص، بالكسر؛ يقال: كم خِرْصُ نخلك[٦] والخَرَّاص الذي يخرُصها؛ فهو مشترك.

وأصل الخَرص القطع، على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[٧]. ومنه الخَرِيص

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ .

(٣) نسبه في النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ للحسن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٢ بلفظ: لعن المرتابون.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٠ . بنحوه.

(٦) المثبت من (ق) وهو الموافق لما في الصحاح (خرص)، والكلام منه، وفي غيرها: خَرَص.

(٧) ٩/ ٧ .

للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرْصُ: حبَّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخُرصْ: العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخَرِص: الذي به جوع وبَرْد؛ لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو خَرِص أي: جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد: خَرِص، ويقال للبرد بلا جوع: خَصَر[1]. والخُرص ـ بالضمِّ والكسر ـ الحَلْقة من الذهب أو الفضة، والجمع الخُرصان. ويدخل في الخَرْص قولُ المنجِّمين وكلِّ مَن يدَّعي الحَدْس والتخمين.

وقال ابن عباس: هم المقتسمون الذين اقتسموا عِقَابَ[2] مكة، واقتسموا القولَ في نبيِّ اللهِ ﷺ؛ ليصرفوا الناسَ عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما سَتَرَ الشيءَ وغطَّاه. ومنه نهر غَمْر، أي: يَغْمُر مَن دخله، ومنه غَمَرات الموت. «سَاهُونَ» أي: لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يومُ الحساب؛ يقولون ذلك استهزاءً وشَكّاً في القيامة[3]. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ نصب «يَوْمَ» على تقدير الجزاء، أي: هذا الجزاءُ «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أي: يُحرَقون، وهو مِن قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيٌّ؛ بني لإضافته إلى غير متمكِّن، وموضعه نصبٌ على التقدير المتقدِّم، أو رفعٌ على البدل من «يَوْمُ الدِّينِ»[4]. وقال الزجَّاج[5]: تقول: يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت، وهو في موضع رفع، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع.

---

(١) الصحاح (خرص).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): أعقاب، والمثبت من (ف) و(ق)، وهو بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٤) قرأ بالرفع ابن أبي عبلة كما في الكشاف ٤/ ١٥.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٥٢. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.

وقال ابن عباس: «يُفْتَنُونَ»: يُعذَّبون[١]. ومنه قول الشاعر:

كلَّ امرئٍ من عباد اللهِ مُضطَهدٍ ببطن مكةَ مقهورٍ ومفتونِ[٢]

قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقَكم. ابن عباس: أي: تكذيبكم[٣]. يعني جزاءكم. الفرَّاء[٤]: أي: عذابكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: «هَذَا»، ولم يقل: هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لمَّا ذكر مآلَ الكفار؛ ذَكَرَ مآلَ المؤمنين، أي: هم في بساتينَ؛ فيها عيونٌ جارية على نهاية ما يُنتزَّه به. ﴿ءَاخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ما أعطاهم من الثواب وأنواعِ الكرامات؛ قاله الضحَّاك[٥]. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: «آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» أي: عاملين بالفرائض[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولهم الجنةَ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى: كانوا قبل أن تُفْرَضَ[٧] عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم[٨].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤ . وهو في قصيدة لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي يذكر مهاجري الحبشة، كما في السيرة النبوية ١/ ٣٣٠ - ٣٣١ ، وقبله:

يا راكباً بلِّغَنْ عني مغلغَلةً مَن كان يرجو بلاغ الله والدينِ

والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. الصحاح (غلل).

(٣) أخرج هذه الآثار الطبري ٢١/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٨٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٥ بنحوه.

(٦) قول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١ .

(٧) في (م): يفرض.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١ .

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى «يَهْجَعُونَ»: ينامون؛ والهُجُوع: النوم ليلاً، والتَّهْجاع: النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهجاعِ[١]

وقال عمرو بنُ مَعْدي كَرِب يتشوّق أختَه وكان أسرها الصِّمَّةُ أبو دُرَيد بنُ الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيحانةَ الدَّاعي السَّميعُ يؤرِّقني وأصحابي هُجوعُ[٢]

يقال: هَجَعَ يَهْجَع هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغ هُبوغاً، بالغين المعجمة: إذا نام؛ قاله الجوهري[٣].

واختُلف في «ما»، فقيل: صلة زائدة، قاله إبراهيم النَّخَعيُّ، والتقدير: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، أي: ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثرَه. قال عطاء: وهذا لمَّا أُمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرٍّ يَحتجِز، ثم يأخذ العصا فيعتمد عليها، حتى نزلت الرُّخصة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية[٤].

وقيل: ليس «ما» صلة، بل الوقفُ عند قوله: «قَلِيلاً»، ثم تبتدئ «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ». فـ «ما» للنفي، وهو نفيُ النوم عنهم البَتَّة[٥]. قال الحسن: كانوا لا ينامون

---

(١) الصحاح (هجع). وسلف البيت ١١/ ٣٧٤ .

(٢) وهناك رواية ثانية تقول: إن ريحانة امرأته المطلقة، كما في الأغاني ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، والخزانة ٨/ ١٨١ - ١٨٢ . والبيت ـ أيضاً ـ في الأصمعيات ص١٧٢ ، والكامل ١/ ٢٦١ .

(٣) في الصحاح (هبغ).

(٤) أخرج الأثرين ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٨ .

(٥) وضعَّف هذا القول الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٨٤ ، ورده ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٩٠ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦ وقال: لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت.

من الليل إلَّا أقلَّه، وربما نَشِطوا فجدُّوا إلى السَّحَر[١].

روي عن يعقوب الحضرميّ أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: «كَانُوا قَلِيلاً» معناه: كان عددهم يسيراً، ثم ابتدأ فقال: «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ»[٢]. قال ابن الأنباري[٣]: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدلُّ على قلَّة نومهم لا على قلَّة عددهم، وبعدُ فلو ابتدأنا «مِن اللَّيل ما يهجعون» على معنى: من الليل يهجعون، لم يكن في هذا مدحٌ لهم؛ لأن الناس كلَّهم يهجعون من الليل، إلَّا أن تكون «ما» جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوَّله بعضُ الناس ـ وهو قول الضحَّاك[٤] ـ من أنَّ عددهم كان يسيراً، يكون الكلام متصلاً بما قبلُ مِن قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: كان المحسنون قليلاً، ثم استأنف فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[٥]. وعلى التأويل الأوَّلِ والثاني يكون «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ» خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدَّمه، ويكون الوقف على «مَا يَهْجَعُونَ»، وكذلك إن جعلتَ «قَلِيلاً» خبرَ كان، وترفع «ما» بمعنى قليل[٦]؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعُهم. فـ«ما» يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان، التقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل[٧]. وانتصابُ قوله: «قَلِيلاً» ـ إن قدَّرت «ما» زائدةً مؤكِّدة ـ بـ«يَهْجَعُونَ»، على تقدير: كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدِّر «ما» زائدة، كان قولُه: «قَلِيلاً» خبرَ كان، ولم يجز نصبُه بـ«يَهْجَعُونَ»؛ لأنه إذا قدِّر نصبه

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٢) بعدها في(م): على معنى من الليل يهجعون.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٦ ، وما قبله منه.

(٤) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٠٧ .

(٥) بعدها في النسخ الخطية: وهو قول الضحاك.

(٦) في (م): بقليل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الإيضاح لابن الأنباري ٢/ ٩٠٥ .

(٧) وهو بدل اشتمال كما في الدر المصون ١٠/ ٤٥ .

بـ «يَهْجَعُونَ» مع تقدير «ما» مصدراً، قدَّمتَ الصِّلَةَ على الموصول[١].

وقال أنسٌ وقتادة في تأويل الآية: أي: كانوا يصلُّون بين العشاءين: المغرب والعشاء[٢]. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين[٣]. وقاله ابن وَهْب. وقال مجاهد[٤]: نزلت في الأنصار؛ كانوا يصلُّون العشاءين في مسجد النبيِّ ﷺ، ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن عليّ بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلُّوا العَتَمة[٥]. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعَهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومُطرِّف: قَلَّ ليلةٌ لا تأتي عليهم إلَّا يصلُّون لله فيها، إمَّا مِن أوَّلها، وإما من وسطها[٦].

الثانية: رُويَ عن بعض المتهجِّدين أنه أتاه آتٍ في منامه، فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ولم تَدرِ في أيِّ المجالِس تنزِلُ

ورويَ عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل، فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابَّين أحسن ما رأيت، ومعهما حُلَل، فوقفا على كلِّ مصلٍّ، وكسواه حُلَّة، ثم انتهيا إلى النِّيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذه، فقالا لي: إنها ليست حُلَّةَ لباس، إنما هي رضوانُ الله يَحُلُّ على كل مصلٍّ.

ويُروى عن أبي خَلَّادٍ أنه قال: حدَّثني صاحبٌ لي قال: بينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ مُثِّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوهُهم، وأشرقت

(١) الكلام بنحوه في البيان ٢/ ٣٨٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٦ - ٦٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢) من طريق قتادة عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٣.

(٤) كلمة: مجاهد، ليست في النسخ الخطية.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٢.

(٦) ذكر قولهما الواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٠. وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠٢ قول مطرف.

ألوانهم، وعليهم الحُلَلُ من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناسُ عُراة، ووجوههُم مشرِقةٌ ووجوه الناس مغبرَّة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون[١] فهم المصلُّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوهُهم مشرقة فأصحابُ السهر والتهجُّد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب، فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناسُ مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرُّباً إلى الله تعالى، فأعطاهم الله بذلك خيرَ الثواب؛ قال: فصحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرفَ مقامَهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: مدحٌ ثان؛ أي: يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن[٢]. والسَّحَر وقتٌ يُرجى فيه إجابةُ الدعاء. وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[٣].

وقال ابن عمر ومجاهد: أي: يصلُّون وقت السَّحَر؛ فسمَّوا الصلاةَ استغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ مَدُّوا الصلاةَ من أوَّل الليلِ إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السحر[٤].

ابن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء، فيصلُّون في مسجد النبيِّ ﷺ. ابن وَهْب، عن ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: كانوا يَنْضَحون لناسٍ من الأنصار بالدِّلاء على الثمار، ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلُّون آخرَ الليل.

الضحَّاك: صلاة الفجر.

وقال الأحنف بن قيس: عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجنة؛ فإذا قومٌ قد

---

(١) كذا في النسخ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ بنحوه.
(٣) ٥/ ٥٩ .
(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٥٠٥ ، ٥١٠ .

باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم؛ «كانوا قليلاً من اللَّيل ما يهجعون». وعرضتُ عملي على أعمال أهل النار، فإذا قومٌ لا خير فيهم، يكذِّبون بكتاب الله، وبرسوله، وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرَنا منزلةً قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث. قال محمد بن سِيرين وقتادة: الحقُّ هنا الزكاةُ المفروضة. وقيل: إنه حقٌّ سوى الزكاة؛ يَصِل به رَحِماً، أو يَقري به ضيفاً، أو يَحْمل به كَلّاً، أو يُغني به محروماً. وقاله ابن عباس[١]؛ لأن السورة مكِّية، وفُرضت الزكاة بالمدينة[٢].

ابن العربي[٣]: والأقوى في هذه الآيةِ أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة «سأل سائل»: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٥] والحقُّ المعلوم هو الزكاة التي بيَّن الشرعُ قَدْرَها وجنسها ووقتها، فأمَّا غيرُها لمن يقول به، فليس بمعلوم؛ لأنه غيرُ مقدَّرٍ ولا مجنَّس ولا موقَّت.

الخامسة: قوله تعالى: «لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ»؛ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما. والمَحرُومِ الذي حُرم المال. واختُلف في تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسَّر له مكسبُه[٥]؛ يقال: رجل مُحارَف ـ بفتح الراء ـ أي: محدود محروم، وهو خلافُ قولك: مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان: إذا شُدِّد عليه في معاشه؛ كأنه مِيلَ برزقه عنه[٦]. وقال قتادة والزُّهري: المحروم المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئاً،

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٨.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٥١١ - ٥١٤.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦.

(٦) الصحاح (حرف).

ولا يُعلم بحاجته. وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم[(١)].

روي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث سَرِيَّة، فأصابوا وغَنِموا، فجاء قومٌ بعد ما فرغوا، فنزلت هذه الآية: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ»[(٢)].

وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال[(٣)]. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أُصيب ثمرُه أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[(٤)] [الواقعة:٦٧] نظيرُه في قصة أصحاب الجنةِ حيث قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» [القلم:٢٧].

وقال أبو قِلابة: كان رجلٌ من أهل اليمامة له مال، فجاء سيلٌ فذهب بماله، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم، فاقسموا له[(٥)].

وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يُروَى عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حُمَيد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أنَّ عمر بنَ عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب، فانتزع عمر رحمه الله كَتِفَ شاةٍ، فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسبَ نفسه حتى وجبت نفقتُه في مال غيره[(٦)].

وروى ابن وَهْب عن مالك: أنه الذي يُحرَم الرزق[(٧)]، وهذا قولٌ حسن؛ لأنه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ دون ذكر الزهري. وأخرج قوله وقول قتادة الطبريُّ ٢١/ ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٦)، والطبري ٢١/ ٥١٥ - ٥١٦ عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، وهو مرسل.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ بنحوه. وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٣ بنحوه.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٨ .

يَعمُّ جميع الأقوال.

وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنةً منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليومَ بأعلمَ مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي(١).

وأصله في اللغة: الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة(٢):

ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ أَنَّى توجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة؛ يقولون: ربَّنا ظلمونا حقوقَنا التي فرضتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي لأُقرِّبنَّكم ولأُبْعِدنَّهم». ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ذكره الثعلبي(٣).

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ لمَّا ذَكر أمر الفريقين، بيَّن أنَّ في الأرض علاماتٍ تدلُّ على قدرته على البعث والنشور، فمنها: عَوْدُ النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها: أنه قدَّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها: سيرُهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثارَ الهلاك النازلِ بالأمم المكذِّبة. والموقنون: هم العارفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّةِ نبيِّهم؛ خصَّهم بالذِّكْر لأنهم المنتفعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها.

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل: التقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آياتٌ للموقنين. وقال قتادة: المعنى: مَن سار في الأرض رأى آياتٍ وعِبَراً، ومَن

---

(١) بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣٣، وأخرج الطبري ٢١/ ٥١٨ من طريق ابن علية، عن ابن عون، عن الشعبي قال: أعياني أن أعلم ما المحروم.

(٢) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٦٦، وسلف ١٠/ ٥.

(٣) وأخرجه الطبراني في الصغير (٦٩٣)، والأوسط (٤٨١٠). قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٢: فيه الحارث بن النعمان، وهو ضعيف.

تفكَّر في نفسه علم أنه خُلق ليعبُدَ الله. ابنُ الزبير ومجاهد: المراد سبيلُ الخلاء والبول[١]. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً مَحْضاً لخرج منه الماءُ ومنه الغائط؛ فتلك الآيةُ في النفس. وقال ابن زيد: المعنى: أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. السدي: «وفي أَنْفُسِكُم» أي: في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: في الكِبَر بعد الشباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشيبِ بعد السواد[٢]. وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسِكم من نطفة، وعلقة، ومضغة، ولحم، وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة[٣]. وحسبُك بالقلوب وما رُكز[٤] فيها من العقول، وخُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتِّيها لما خُلِقت له، وما سُوِّيَ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنِّي، فإنه إذا جَسَا[٥] شيءٌ منها جاء العَجْز، وإذا استرخى أناخ الذُّلّ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: بصرَ القلب ليَعرفوا كمالَ قدرته.

وقيل: إنه نُجْحُ العاجز، وحرمان الحازم[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧، وقول ابن الزبير أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩.

(٢) ذكر هذه الأقوال ـ عدا قول السائب ـ الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٣) ذكره بنحوه مختصراً البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣١، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٦ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في النسخ الخطية: ذكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦ - ١٧، والكلام منه.

(٥) أي: صَلُبَ. القاموس (جسو).

(٦) هذا أحد الأقوال في تفسير قوله: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧.

قلت: كلُّ ما ذُكر مرادٌ في الاعتبار. وقد قدَّمنا في آية التوحيد من سورة البقرة أنَّ ما في بدن الإنسان ـ الذي هو العالَم الصغير ـ شيءٌ إلَّا وله نظيرٌ في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويُغني لمن تدبَّر[١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحَّاك: الرِّزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج يَنْبت به الزرعُ ويحيا به الخلق[٢]. قال سعيد بن جبير: كلُّ عين قائمةٍ فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللهِ رزقُكم، ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم[٣].

وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ معناه: وفي المطر رزقكم؛ سُمِّي المطرُ سماءً؛ لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر[٤]:

إذا سقطَ السماءُ بأرض قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

وقال ابن كَيْسان: يعني: وعلى ربِّ السماءِ رزقُكم؛ نظيرُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. وقال سفيان الثوريّ: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى: وفي السماء تقديرُ رزقكم، وما فيه لكم مكتوبٌ في أُمِّ الكتاب[٥].

وعن سفيان ـ أيضاً ـ قال: قرأ واصل الأحدب[٦]: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: ألَا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة، فمكث ثلاثاً لا يصيب

---

(١) ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١ مختصراً.

(٣) الكشاف ٤/ ١٧. وأخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١.

(٤) هو معاوية بن مالك (معوِّد الحكماء)، وسلف البيت ١/ ٣٢٧.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.

(٦) هو واصل بن حَيَّان الأحدب الأسدي الكوفي. مات سنة ١٢٠ أو ١٢٩. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٠١.

شيئاً، فإذا هو في الثالثة بدَوْخَلةِ رُطَب[١]، وكان له أخٌ أحسنُ نيَّةً منه، فدخل معه، فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبَهما حتى فرَّق اللهُ بالموت بينهما[٢].

وقرأ ابن محيصن ومجاهد: «وفي السَّماءِ رازِقُكُمْ» بالألف[٣]، وكذلك في آخرها: «إنَّ اللهَ هو الرَّازِقُ».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة[٤]. الضحَّاك: «وَمَا تُوعَدُونَ» من الجنة والنار[٥]. وقال ابن سيرين: «وَمَا تُوعَدُونَ» من أمر الساعة. وقاله الربيع[٦].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أكَّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه: إنَّه لَحقٌّ، ثم أكَّده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. وخصَّ النُّطقَ من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواسِّ يدخله الشبيه[٧]، كالذي يُرى في المرآة، واستحالةِ الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدَّويِّ والطنين في الأذن، والنطقُ سالمٌ من ذلك، ولا يُعترَض بالصَّدَى؛ لأنه لا يكون إلَّا بعد حصول الكلام من الناطق غيرَ مَشُوبٍ بما يشكل به.

وقال بعض الحكماء: كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِق بنفسه ولا يُمْكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كلُّ إنسان يأكل رزقه، ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره[٨].

---

(١) الدَّوْخَلة؛ بتشديد اللام وتخفيفها: ما ينسج من الخُوص ويجعل فيه الرُّطَب، الصحاح (دخل).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ .

(٣) في القراءات الشاذة ص١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ عن ابن محيصن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ عن سفيان الثوري. وأخرج قول مجاهد ٢١/ ٥٢٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٢ .

(٦) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨ ، وقول ابن سيرين ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ .

(٧) في (ز) و(ف) و(م): التشبيه، والمثبت من (ظ).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ .

وقال الحسن: بلغني أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربُّهم بنفسه ثم لم يصدِّقوه»[١] قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

وقال الأصمعي: أقبلتُ ذاتَ مرَّةٍ من مسجد البصرة، إذ طلع أعرابيٌّ جِلْفٌ جافٍ على قَعُود[٢] له، متقلِّداً سيفَه، وبيده قوسُه، فدنا وسلَّم، وقال: ممَّن الرجل؟ قلت: من بني أَصْمَع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن؛ قال: وللرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛ قال: فاتْلُ عليَّ منه شيئاً؛ فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» إلى قوله: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» فقال: يا أصمعيُّ حسبُك!! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنِّي على توزيعها؛ ففرَّقناها على مَن أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرَّحل، وولَّى نحو البادية وهو يقول: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»، فمقتُّ نفسي ولُمتُها. ثم حججتُ مع الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابيِّ ناحلٌ مصفَرّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي، وقال: أتلُ عليَّ كلامَ الرحمن، وأجلسني وراء المقام، فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ»، حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، وقال: هل غيرُ هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فصاح الأعرابيُّ وقال: يا سبحان الله! مَن الذي أغضب الجليلَ حتى حلف! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجتْ بها نَفْسُه[٣].

وقال يزيد بن مَرْثد[٤]: إنَّ رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقَكَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣.

(٢) القَعُود؛ بالفتح: البعير من الإبل، وهو البَكر حين يُركب، أي: يمكّن ظهره من الركوب. وأقلُّه سنتان إلى أن يثني، فإذا أثنى سمّي جملاً. الصحاح (قعد).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٣٣٧).

(٤) أبو عثمان الهمداني، الشامي الصنعاني، من صنعاء دمشق. تابعي، ذكره ابن حبان في الثقات. وكان كثير البكاء. تهذيب الكمال ٣٢/ ٢٣٩.

الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع ورَوِي من غير طعامٍ ولا شراب.

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لو أنَّ أحدكم فرَّ من رزقه، لتَبعه كما يَتْبعه الموت» أسنده الثعلبي رحمه الله[(١)]،

وفي سنن ابنِ ماجه عن حَبَّة وسَوَاء ابنَي خالد قالا: دخلنا على النبيِّ ﷺ وهو يعالج شيئاً، فأعنَّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما؛ فإنَّ الإنسان تلده أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه الله»[(٢)].

وروي أنَّ قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة، فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابيَّةٌ فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسَكم، وضاقت صدورُكم، هو ربُّنا والعالم بنا، رِزْقُنا عليه، يأتينا به من حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ صَمّا مُلَمْلَمةٍ مُلْسٍ[(٣)] نواحيها
رِزقٌ لنفسٍ بَرَاها الله لانفلقتْ حتى تؤدِّي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكُها لَسهَّلَ الله في المرقَى مَراقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها إنْ لم تَنلْه وإلَّا سوف يأتيها[(٤)]

قلت: وفي هذا المعنى قِصَّةُ الأشعريين حين أرسلوا رسولَهم إلى النبيِّ ﷺ،

---

(١) وأسنده ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٤٥ من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد ﷺ. وقال: لفضيل أحاديث حسان، وأرجو أن لا بأس به.

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٨٥٥). قوله: تهززت رؤوسكما، أي: تحركت؛ كناية عن الحياة. قوله: أحمر، أي: كاللحم الذي لا قشر عليه، ويحتمل أن المراد بالقشر الثوب. وفي الزوائد: إسناده صحيح، وسلَّام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر من تكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. شرح سنن ابن ماجه للسندي ٢/ ٥٤١ .

(٣) في (م): ملساً. وقوله: ململمة، أي: مستديرة صلبة. الصحاح (لمم).

(٤) قال ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٤ : أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش، فذكر الأبيات.

وقال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٣٨ : ومما يروى لعلي بن أبي طالب ﷺ، وفيه نظر، فذكر الأبيات.

فسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيَّ ﷺ، وقال: ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدوابّ؛ وقد ذكرناه في سورة هود[١].

وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]. وقد مضى في «لقمان»[٢].

وقد استوفينا هذا الباب في كتاب «قَمْع الحرص بالزهد والقناعة» والحمد لله.

وهذا هو التوكُّل الحقيقيُّ الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا اللهُ إياه، ولا أحالنا على أحد سواه، بمَنِّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قراءة العامة: «مِثْلَ» بالنصب، أي: كمثل ما أنَّكم، فهو منصوبٌ على تقدير حذف الكاف، أي: كمثل نطقكم، و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيِّين[٣]. وقال الزجَّاج والفرَّاء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أي: لَحَقٌّ حقًّا مِثْلَ نطقكم[٤]؛ فكأنه نعتٌ لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني؛ بُني حين أُضيف إلى غير متمكِّن[٥]، و«ما» زائدة للتوكيد. المازني: «مِثْلَ» مع «ما» بمنزلة شيءٍ واحد، فبني على الفتح لذلك[٦]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن مِن العرب مَن يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً؛ فيقول: قال لي رجلٌ مثلَك، ومررت برجل مثلَك، نصب.

وقرأ أبو بكر وحمزة والكِسائيُّ والأعمش: «مِثْلُ» بالرفع على أنه صفةٌ لحقّ[٧]؛

---

(١) ١١/ ٧٣ - ٧٤.

(٢) ١٦/ ٤٧٦ وما بعدها.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٨ بنحوه. قال السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٤٩: وفي هذا نظر، أيُّ حاجة إلى دخول الكاف ومثل تفيد فائدتها؟

(٤) المثبت من (ز)، وفي غيرها: نطقك، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٤، وللفراء ٣/ ٨٥.

(٥) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤١.

(٦) ذكر قوله أبو علي في الحجة ٦/ ٢١٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٧.

(٧) السبعة ص٦٠٩، والتيسير ص٢٠٣. وهي عن الأعمش في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦.

لأنه نكرةٌ وإن أُضيف إلى معرفة، إذ لا يختصُّ بالإضافة؛ لكثرة الأشياءِ التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و«مِثْل» مضافٌ إلى «أَنَّكُمْ»، و«ما» زائدة، ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر؛ إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً(١). ويجوز أن تكون بدلاً من «لَحَقٌّ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ذَكَرَ قصةَ إبراهيم عليه السلام ليبيِّنَ بها أنه أهلك المكذِّبَ بآياته كما فعل بقوم لوط .

«هَلْ أَتَاكَ» أي: ألم يأتك. وقيل: «هَلْ» بمعنى قد(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]. وقد مضى الكلامُ في ضيف إبراهيم في «هود» و«الحجر»(٣).

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: عند الله(٤)؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]. قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل(٥)؛ زاد عثمان بنُ مُحصِن(٦): ورفائيل، عليهم الصلاة والسلام(٧). وقال محمد بن كعب: كان جبريل

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ٢١٦ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٧ عن ابن عباس ومقاتل.

(٣) ١١/ ١٥٧ فما بعد، ١٢/ ٢٢١ فما بعد.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧ .

(٦) في (م): حصين، وهو خطأ. وعثمان بن محصن روى عن ابن عباس، مرسل. روى عنه نوح بن قيس الحداني. الجرح والتعديل ٦/ ١٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٤ (١١٠١٢).

ومعه تسعة[(١)]. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما مَلَكٌ آخر[(٢)]. قال ابن عباس: سمَّاهم مكرَمين لأنهم غيرُ مَدْعُوِّين[(٣)]. وقال مجاهد: سمَّاهم مكرمين لخدمة إبراهيمَ إياهم بنفسه[(٤)].

قال عبد الوهَّاب: قال لي علي بن عياض[(٥)]: عندي هريسة، ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسنَ رأيي فيها! قال: امضِ بنا؛ فدخلت الدار، فنادى الغلام، فإذا هو غائب، فما راعني إلَّا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت، وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أنَّ الأمر هكذا. قال: هَوِّن عليك؛ فإنك عندنا مُكرم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ تقدَّم في «الحجر»[(٦)]. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام. ويجوز بمعنى: أمري سلام، أو: ردِّي لكم سلام[(٧)].

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصماً: «سِلْمٌ» بكسر السين[(٨)].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قومٌ منكرون، أي: غرباء لا نعرفكم[(٩)]. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم، فنكِرَهم،

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٥ .

(٢) ذكره في الكشاف ٤/ ١٧ دون نسبة.

(٣) في (ظ) و(م): مذعورين، وهو خطأ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٥ بنحوه.

(٥) في (ز): قال لي عياض. وعلي بن عياض ذكره ابن عساكر في تاريخه ٥/ ١٦ فيمن روى عن أحمد بن عطاء الروذباري الصوفي، فقال: القاضي أبو الحسن علي بن عياض بن أحمد بن أيوب بن أبي عقيل الصوري.

(٦) ١٢/ ٢٢٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٣ بنحوه.

(٨) السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

فقال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»[1]. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمانِ وفي تلك الأرض[2]. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ ... مِن الحوادث إلّا الشَّيبَ والصَّلَعا[3]

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قال الزجّاج[4]: أي: عَدَلَ إلى أهله. وقد مضى في «والصافّات»[5]. ويقال: أراغ وارتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغ، أي: تريد وتطلب، وراغ[6] إلى كذا، أي: مال إليه سِرًّا وحاد. فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى[7].

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: جاء ضيفَه بعجل قد شواه لهم، كما في «هود»: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [الآية: ٦٩]. ويقال: إنَّ إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه، لئلّا يظهروا على ما يريد أن يتَّخذَ لهم من الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل. ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامَّةُ مالِ إبراهيم البقر. واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم[8]. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة؛ ذكره القشيري. وفي الصحاح: العِجل ولد البقرة، والعِجَّوْل مثلُه، والجمع العَجاجيل، والأنثى عِجْلة، عن أبي الجرَّاح، وبقرة مُعْجِل: ذات عِجْل، وعِجْل قبيلةٌ من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أحسَّ منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥١، وفيه كلام؛ سلف ١١/ ١٦٣.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٥) ١٨/ ٥٣.
(٦) في النسخ: وأراغ، والمثبت من الصحاح وغيره.
(٧) لم نقف عليه في كتب اللغة.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٦.

لمَّا لم يَتحرَّموا بطعامه[١]. ومن أخلاق الناس أنَّ مَن تَحرَّم بطعام إنسانٍ أَمِنَه.

وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة: لا نأكل إلَّا بالثمن. قال: كلوا وأدُّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تسمُّون اللهَ إذا أكلتم، وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلاً. وقد تقدَّم هذا في «هود»[٢].

ولمَّا رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكةُ الله ورسلُه. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بولد يولد له مِن سارة زوجتِه. وقيل: لمَّا أخبروه أنهم ملائكةٌ لم يصدِّقهم، فدَعَوا الله، فأحيا العجلَ الذي قرَّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدَّاد: أنَّ جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لَحِقَ بأمه، وأُمُّ العجل في الدار[٣]. ومعنى «عَلِيمٍ» أي: يكون بعد بلوغه مِن أولي العلم بالله وبدينه.

والجمهور على أنَّ المبشَّر به هو إسحاق. وقال مجاهدٌ وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء؛ فإنَّ الله تعالى: يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢]. وهذا نصٌّ[٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجَّة؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه أُخذ صريرُ الباب، وهو صوته[٥]. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرَّنَّة والتأوُّه[٦]. ولم يكن هذا الإقبالُ من مكان إلى مكان؛ قال الفرَّاء[٧]: وإنما هو

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨، وقوله: يتحرموا بطعامه، أي: يحرم عليهم بسببه ما يريدون به من سوء.

(٢) ١١/ ١٦٦. وينظر النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، والكشاف ٤/ ١٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٨. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٧ ورجح خلافه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ بنحوه، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عنه وعن غيره.

(٦) ذكر قول عكرمة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨، وقول قتادة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عن قتادة.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٧.

كقولك: أقبل يشتِمني، أي: أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة، أي: في جماعة من النساء تسمع كلامَ الملائكة[١].

قال الجوهري: الصَّرَّة: الضَّجَّة والصيحة، والصَّرَّة: الجماعة، والصَّرَّة: الشِّدَّة مِن كرب وغيره، قال امرؤ القيس:

فألحقه بالهاديات ودونَهُ جَوَاحِرُها في صَرَّة لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيتُ الوجوهَ الثلاثة. وصَرَّةُ القيظ: شِدَّة حَرِّه[٢].

فلما سمعت سارة البِشارة، صَكَّت وجهها، أي: ضربت يدها على وجهها على عادة النِّسوان عند التعجُّب؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيره[٣]. وقال ابن عباس: صَكَّت وجهها: لطمته[٤]. وأصل الصَّك: الضرب؛ صكَّه، أي ضربه؛ قال الراجز:

يا كَرَواناً صُكَّ فاكبأَنَّا[٥]

قال الأموي: كَبَن الظَّبي: إذا لطأ بالأرض، واكبَأَنَّ: انقبض[٦].

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتلد عجوزٌ عقيم؟![٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٤ .

(٢) الصحاح (صرر). وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٢٢ ، وروايته: فألحقنا.. قال شارحه: قوله: فألحقنا بالهاديات، أي: ألحقنا الفرس بالمتقدمات من البقر. والجواحر: ما تخلف منها. والصرة: الجماعة. ومعنى: لم تزيل: لم تفرق، أي: جمع الفرس بين أواخرها وأوائلها، فلم يفت منها شيء.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٠ عن الثوري وغيره.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٩ .

(٥) الصحاح (صكك)، وينظر (كبن). والرجز لمدرك بن حصن، وهو في إصلاح المنطق ص٩٦ ، والمعاني الكبير ١/ ٢٩٤ ، واللسان (كبن)، والخزانة ٣/ ١٨٧ (دار صادر). والكَرَوان: طائر، قيل: هو الحُبَارَى: الصحاح (كرى). والمقصود به هنا عامل الزكاة هجي به، كأنه قال: يا رجلاً كرواناً، أي: يا مثل الكروان بضعفه. الخزانة.

(٦) الصحاح (كبن).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ عن مجاهد والسدي.

الزَّجاج[١]: أي: وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟! كما قالت: «يا وَيْلَتا أَأَلد وأنا عجوزٌ» [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي: كما قلنا لكِ وأخبرناك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشُكِّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سَنَة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسعٍ وتسعين سنة، وإبراهيمٌ يومئذ ابن مئةِ سنة، وقد مضى هذا[٢]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله، عليمٌ بمصالح خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لمَّا تيقَّن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة، قال لهم: «فَمَا خَطْبُكُمْ» أي: ما شأنكم وقِصَّتكم «أيُّها المرسَلون» ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يريد قومَ لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: لنرجُمَهم بها.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمة. قيل: كانت مخطَّطةً بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أي: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسمُ من يَهلِك به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيم. وقد مضى هذا كلُّه في «هود»[٣]. فجَعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذهم[٤]، فلم يُفلت منهم مُخْبِر. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الله، وقد أعدَّها لرجم مَن قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخَ الآجُرّ، قاله

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٥٥.

(٢) ١١/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) ١١/ ١٨٧ -١٨٩.

(٤) المثبت من (م)، وفي غيرها: شدادهم. وفي القاموس: الشُّذَّاذ: الذين لم يكونوا في حيِّهم ومنازلهم.

ابن زيد؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:٨٢] على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[١]. وقيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مرِّ الدهور. وإنما قال: «مِنْ طِينٍ» ليعلم أنها ليست حجارةَ الماء التي هي البَرَد؛ حكاه القشيري[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمَّا أردنا إهلاكَ قوم لوط، أخرجنا مَن كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يَهلِكَ المؤمنون، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود:٨١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه، وفيه إضمار؛ أي: فما وجدنا فيها غيرَ أهلِ بيت. وقد يقال: بيت شريف، يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية، ولم يتقدَّم لها ذِكْر؛ لأن المعنى مفهوم[٣]. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يدلُّ على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة[٤]، والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء، فجنَّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليس كلُّ مسلم مؤمناً. فسمَّاهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلَّا وهو مسلم[٥]. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[٦]. وقولُه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات:١٤] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وهو مقتضى حديثِ جبريل عليه السلام في صحيح مسلم[٧] وغيره. وقد بيَّناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً وعلامةً لأهل ذلك الزمانِ ومَن بعدهم؛

---

(١) ١١/١٦٨-١٦٩.

(٢) وحكاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥، والكشاف ٤/ ١٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٣.

(٦) ٢/ ٣٩٦، ٤٠٧ - ٤٠٨ و٥/ ٦٨.

(٧) برقم (٨) و(٩). وسلف ٥/ ٦٨.

نظيرُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخَرِبة[١]. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: «وفي الأَرْض آياتٌ» «وفي مُوسَى»[٢]. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة، وهي العصا. وقيل: أي: بالمعجزات؛ من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فرعون؛ أعرض عن الإيمان «برُكْنِهِ» أي: بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قولِ مجاهد[٣]. ومنه قولُه: «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» [هود: ٨٠] يعني المَنَعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته[٤]. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِرَاسُ الحربِ رُكْني ولكنْ ما تقادَم مِن زماني[٥]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٧ بنحوه.

(٢) لم نقف على كلام الفراء، وذكر الوجهين الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩.

(٣) أخرجه وقولَ ابن زيد الطبري ٢١/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) في (ظ): لقومه (كذا) والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٥٣٤ على الشك فقال: بقوته أو بقومه. أبو جعفر يشك. أي: الطبري. وأما قتادة فقد أخرج عنه ٢١/ ٥٣٥ قوله: بقومه، وكذا أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤٤، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠.

(٥) ونسبه أيضاً لعنترة المبرِّد في الكامل ١/ ٢٨٥، وليس هو في المطبوع من ديوانه. والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢.

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش[١]: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣] وقاله المؤرِّج.

الجوهري[٢]: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد، أي: عِزٍّ ومَنَعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارةٌ عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً[٣]. قاله المؤرِّج والفرَّاء، وأنشد بيت جرير[٤]:

أَثَعْلَبَةَ الفَوارسَ أو رِياحا عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والخِشَابا

وقد توضع «أو» بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤]. والواوُ بمعنى «أو»، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣] وقد تقدَّم جميع هذا[٥].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتولِّيهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً لمن تأمَّل. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمةَ فيها ولا بركة ولا منفعة؛

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في الصحاح (ركن).

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧ . وقد ضعفه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠ .

(٤) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن. وسلف ١٧/ ٣١٣ .

(٥) ١/ ٣٢٥ ، ٦/ ٣٣ - ٣٥ .

ومنه: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجَنُوب؛ روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن، عن النبيِّ ﷺ قال[1]: «الريح العقِيم الجَنُوب». وقال مقاتل: هي الدَّبُور[2]، كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «نُصِرت بالصَّبَا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[3]. وقال ابن عباس: هي النَّكْباء[4]. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة، وما فتح على عاد منها إلا كقَدْر مَنْخِر الثور. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أنها الصَّبا[5]؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتَّت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد[6]. ومنه قول الشاعر[7]:

تركْتَني حين كَفَّ الدَّهرُ مِن بصري وإذ بَقِيتُ كعَظْم الرِّمَّة البالي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسُّدِّيّ: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم: الرَّماد[8]. وقال يمان: ما رَمَته الماشية من الكلأ بمِرَمَّتها. ويقال للشَّفَة: المِرَمَّة والمِقَمَّة، بالكسر، والمَرَمَّة ـ بالفتح ـ لغةٌ فيه. وأصل الكلمة مِن: رَمَّ العظمُ: إذا بَلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ ـ بالكسر ـ رِمَّة، فهو رمِيم،

---

(١) كذا في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٨، وأبو الشيخ في العظمة (٨٥١) بهذا السند عن سعيد بن المسيب من كلامه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣. والدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبا. النهاية (دبر).

(٣) صحيح البخاري (١٠٣٥)، وصحيح مسلم (٩٠٠). وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٤) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩، وابن عطية في المحرر ٥/ ١٨٠ عن علي ﷺ، وكذا أخرجه الفريابي وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ١١٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٤٠. وقول مجاهد في النكت والعيون.

(٧) هو جرير، والبيت في شرح ديوانه ٢/ ٥٨٤ باختلاف يسير، وهو براوية المصنف في النكت والعيون.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ دون ذكر أبي العالية، وقوله في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣.

قال الشاعر:

ورأى عـواقـبَ خُـلْـفِ ذاك مَـذَمَّـةً تَـبـقَـى عـلـيـه والـعِـظـامُ رَمِـيـمُ[١]

والرِّمَّة ـ بالكسر ـ العظام البالية، والجمع: رِمَم ورِمَام[٢]. ونظيرُ هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] حسَب ما تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وفيهم أيضاً عِبْرةٌ وآية حين قيل لهم: عيشوا متمتِّعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٦٥]. وقيل: معنى «تَمَتَّعُوا» أي: أَسلِموا وتمتَّعوا إلى وقت فراغ آجالِكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالَفوا أمر الله، فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. وقيل: هي كلُّ عذاب مُهلِك[٤]. قال الحسين[٥] بن واقد: كلُّ صاعقة في القرآن فهو العذاب.

وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهدٌ والكسائي: «الصَّعْقة»[٦]؛ يقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء: إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب[٧]. وقد مضى في «البقرة»[٨] وغيرها.

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (رمم).

(٣) ص٢١٤-٢١٥ من هذا الجزء.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤، والقول الأول نسباه لابن عباس.

(٥) في النسخ الخطية: الحسن.

(٦) أخرجها عن عمر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨، والطبري في تفسيره ٢١/ ٥٤٢، وهي عن الكسائي في السبعة ص٦٠٩، والتيسير ٢٠٣.

(٧) الصحاح (صعق).

(٨) ١/ ٣٣٠ - ٣٣٢.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً[(١)].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه: من نهوض[(٢)]. وقيل: ما أطاقوا أن يستقِلُّوا بعذاب الله وأن يتحمَّلوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر، أي: لا أطيقه[(٣)]. وقال ابن عباس: أي: ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب حين أُهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «وَقَومِ نُوحٍ» بالخفض، أي: وفي قوم نوحٍ آيةٌ أيضاً. الباقون بالنصب[(٤)] على معنى: وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في «أَخذَتْهُمْ»، أو الهاء في«أَخذناهُ»، أي: فأخذتْهم الصاعقة وأخذتْ قومَ نوح، أو: «نَبَذناهُمْ في اليمِّ» ونبذنا قومَ نوح[(٥)]، أو يكون بمعنى: اذكر[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ لمَّا بيَّن هذه الآيات قال: وفي السماء آياتٌ وعِبَرٌ تدلُّ على أنَّ الصانع قادر على الكمال، فعَطَفَ أمر السماء على قصة قوم نوحٍ

(١) الكشاف ٤/ ١٩ .

(٢) أخرج هذا القول الطبري ٢١/ ٥٤٣ عن قتادة.

(٣) ذكره بمعناه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨ .

(٤) السبعة ص٦٠٩ ، والتيسير ص٢٠٣ .

(٥) وهو الوجه الذي استحسنه الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٧ وقال: لأن المعنى: فأغرقناه وجنودَه وأغرقنا قوم نوح من قبل.

(٦) كره الفراء في معانيه ٣/ ٨٨-٨٩ هذا التقدير، وكره أيضاً النصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، والعطفَ على الهاء والميم في «أخذَتْهم». وذكر هذه الأوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٩ .

لأنهما آيتان. ومعنى «بِأَيْدٍ» أي: بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره[١].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي: وإنَّا لذو سَعة، بخلقها وخلقِ غيرها؛ لا يضيق علينا شيءٌ نريده. وقيل: أي: وإنا لموسِعون الرزقَ على خَلْقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزقَ بالمطر. وقال الضحَّاك: أغنيناكم؛ دليلُه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٢] [البقرة:٢٣٦]. وقال القُتَبي: ذو سَعةٍ على خلقنا[٣]. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة[٤]. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ، أي: صار ذا سَعة وغِنىً، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء قادرون[٥]. فشمل جميع الأقوال.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها كالفِراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: فنعم الماهدون نحن لهم. والمعنى في الجمع التعظيمُ؛ مَهَدْت الفِراشَ مَهْداً: بَسَطْته ووطَّأته، وتمهيد الأمور: تسويتُها وإصلاحها[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى[٧]، وحلواً وحامضاً، ونحو ذلك. مجاهد[٨]: يعني الذَّكَرَ والأنثى، والسماءَ والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجِنَّ والإنس، والخير والشرَّ، والبُكْرة والعَشيَّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطُّعوم والأراييح والأصوات. أي: جعلنا هذا هكذا[٩] دَلالةً

(١) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢١/ ٥٤٥ - ٥٤٦.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ - ٣٧٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٢٢، وفي زاد المسير ٨/ ٤١ نقلاً عنه: أي لقادرون.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٧.

(٥) الصحاح (وسع).

(٦) الصحاح (مهد).

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٤٨، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٩.

(٨) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٤٧ بنحوه.

(٩) في (م): كهذا.

على قدرتنا، ومَن قَدَرَ على هذا فليقدر على الإعادة.

وقيل: «ومِنْ كلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زوجَينِ» لتعلموا أنَّ خالق الأزواج فرد، فلا يقدَّر في صفته حركةٌ ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عزَّ وجلَّ وِتر[1] «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لما تقدَّم ما جرى مِن تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد، أي: قل لقومك: «ففِرُّوا إلى الله إنِّي لكُمْ منه نذيرٌ مُبينٌ﴾ أي: فِرُّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فِرُّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته[2]. وقال محمد بن عبد الله بنِ عمرو بن عثمان بن عفان[3]: «ففِرُّوا إلى الله» اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين[4] بن الفضل: احترزوا من كل شيءٍ دون الله؛ فمَن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورَّاق: فِرُّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرُّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن

(١) قوله: هو عز وجل وتر، قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه عنه أحمد (٧٦٢٣)، (٨١٤٦)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). وفي الباب عن علي ﷺ، أخرجه أحمد (٨٧٧)، وأبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي ٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩، وابن ماجه (١١٦٩).

(٢) ذكر قوله الثاني البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤.

(٣) هو أبو عبد الله العثماني المدني، الملقب بالديباج لحسنه، كان جواداً سخياً، ذا مروءة وسؤدد وحشمة. توفي سنة ١٤٥ هـ. السير ٦/ ٢٢٤.

(٤) في (ز): الحسن.

عثمان: فِرُّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِرُّوا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرُّوا مما سوى الله إلى الله[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أُنذركم عقابَه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أَمَرَ محمداً ﷺ أن يقولَ هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطابٌ من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: أُنذركم بأسَه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما كذَّبك قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذَّب مَن قبلهم وقالوا مِثْلَ قولهم.

والكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون نصباً على تقدير: أُنذركم إنذاراً كإنذار مَن تقدَّمني مِن الرسل الذين أَنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير: الأمرُ كذلك، أي: كالأول. والأوَّل تخويفٌ لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين[٢]. والتمام على قوله: «كَذَٰلِكَ»[٣]، عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: أوصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه! والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضُهم بعضاً، بل جمَعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم واصفح عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله؛ لأنك أدَّيت ما عليك من تبليغ الرسالة. ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوَّل قول الضحَّاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة[٤].

---

(١) ذكر قوله البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٠ .

(٣) المكتفى في الوقف والابتداء ص٥٣٨ .

(٤) الكلام بنحوه في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤١٩ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢ .

وقال مجاهد: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعرض عنهم[١]. «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» أي: ليس يلومك ربُّك على تقصيرٍ كان منك[٢]. «وَذَكِّرْ» أي: بالعِظة؛ فإنَّ العِظة «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن[٣] «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكِّرهم بالعقوبة وأيامِ الله[٤]. وخصَّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إنَّ هذا خاصٌّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقتُ أهل السعادة من الجنِّ والإنس إلَّا ليوحِّدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيصُ على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممَّن خُلق للعبادة، فالآية محمولةٌ على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي[٥].

وفي قراءة عبدِ الله: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥١.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، والأول ذكره عن مجاهد.

(٤) معاني القرآن للزجاج بنحوه ٥/ ٥٨.

(٥) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٨٩، وقول القتبي في تأويل مشكل القرآن له ص١١٧ - ١١٨.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥.

وقال عليٌّ ﷺ: أي: وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا لآمُرَهم بالعبادة. واعتمد الزجَّاج على هذا القول[١]، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: ٣١].

فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيَّته والتذلُّلِ لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلَّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفه[٢] مَن كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلُّلُ لقضائه فإنه غير ممتنع منه.

وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أي: إلَّا ليُقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كَرهاً؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٣]. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة. مجاهد: إلَّا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لَمَا عُرف وجودُه وتوحيده. ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[٤] [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلَّا لآمُرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلوا عليه من الشِّقوة والسعادة[٥]؛ فخَلَقَ السعداءَ من الجنِّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياءَ منهم للمعصية. وعن الكلبيِّ أيضاً: إلَّا ليوحِّدون، فأمَّا المؤمن فيوحِّدُه في الشِّدَّة والرَّخاء، وأما الكافر فيوحِّده في الشدَّة والبلاء دون النعمة والرَّخاء؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٦] [لقمان: ٣٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلَّا ليعبدون ويطيعون، فأُثيبُ العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى: إلَّا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبدٌ بيِّن العُبُودة

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٨، وقول علي ﷺ في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢.

(٢) في (م): خالفهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥ دون نسبة.

والعبوديَّة، وأصل العبودية الخضوعُ والذُّلّ. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبَّد[١]. قال[٢]:

وظِيفاً وَظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والتعبيد الاستعباد، وهو أن يتَّخذَه عبداً، وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك[٣]. فمعنى «لِيَعْبُدُون»: لِيَذِلُّوا ويخضعوا ويعبدوا.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مِنْ» صِلة، أي: رِزقاً، بل أنا الرزَّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها[٤]. وقيل: المعنى: ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيرُه: «الرَّازِقُ»[٦]. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد القويّ.

وقرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والنَّخعي: «المَتِينِ» بالجرِّ على النعت لـ «القوَّةِ»[٧].

الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزَّاق»، أو «ذُو» مِن قوله: «ذُو القُوَّةِ» أو يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف؛ أو نعتاً لاسم «إنّ» على الموضع، أو خبراً بعد خبر[٨]. قال

---

(١) الصحاح (عبد).

(٢) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٢٢، وسلف ١/ ٣٤١.

(٣) الصحاح (عبد).

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٥٥٥ عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ لأبي الجوزاء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥.

(٧) ذكرها عن الأعمش ويحيى بن وثاب ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٥ عن يحيى بن وثاب.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٢.

الفرَّاء[(١)]: كان حقه: المتينة؛ فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكَم الفَتْلِ؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرَّاء:

لِكُلِّ دهرٍ قد لَبِسْتُ أَثْوُبا حتى اكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا

مِن ريطةٍ واليُمْنَةَ المُعَصَّبا[(٢)]

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنفٌ من الثياب؛ ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي: وَعْظٌ، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] أي: الصياحُ والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا من أهل مكة[(٣)] ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثلَ نصيبِ الكفار من الأمم السالفة. وقال ابن الأعرابي: يقال: يومٌ ذَنُوب، أي: طويل الشرِّ لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلوُ العظيمة[(٤)]، وكانوا يستقون الماء، فيقسمون ذلك على الأنصباء؛ فقيل للذَّنُوب نصيبٌ مِن هذا[(٥)]، قال الراجز:

لنا ذَنُوبٌ ولكم ذَنُوبُ فإنْ أَبَيتُمْ فلنا القَلِيبُ[(٦)]

وقال علقمة:

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٩٠ .

(٢) البيت الأول والثالث في معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٦ .

والأبيات ضمن أرجوزة نسبت لمعروف بن عبد الرحمن، كما ذكر محقق ديوان حميد بن ثور ص٦١ . الريطة: المُلاءة من قطعة واحدة. واليُمْنَة، بضم الياء وفتحها: بُرد يمني. والمعصَّب: ضرب من البرود يصبغ غزله ثم ينسج. شرح الديوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦ .

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٤٤٠ ، ٤٣٩ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٤٢٣ ، والكشاف ٤/ ٢١ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧ ، والكشاف ٤/ ٢١ ، واللسان (ذنب) دون نسبة.

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بنعْمةٍ فحُقَّ لِشَأْسٍ مِن نَدَاك ذَنُوبُ[(١)]

وقال آخر[(٢)]:

لَعَمْرُكَ والمنايا طارِقاتٌ لكلِّ بَني أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنُوب: الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب: النصيب، والذَّنُوب: لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب: الدَّلو الملأى ماءً. وقال ابن السِّكِّيت: فيها ماءٌ قريب من المَلء، يؤنَّث ويذكَّر، ولا يقال لها وهي فارغة: ذَنُوب، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة، والكثير ذَنائِب، مثل: قَلُوص وقَلَائص[(٣)].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلوا نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد «فأْتنا بما تَعِدُنا إنْ كُنتَ مِن الصَّادقين» [الأعراف: ٧٠]. فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق الله تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[(٤)]، ثم لهم في الآخرة العذابُ الدائم، والخزيُ القائم الذي لا انقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد.

تم تفسير سورة الذاريات، والحمدُ لله

---

(١) ديوان علقمة الفحل ص٤٨ . وشأس أخوه.

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢ .

(٣) الصحاح (ذنب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ .

سورة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾

مَكِّيَّةٌ، وآيُها سِتُّون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ يعني: الرِّياحَ تَـذرُو التُّرابَ أو غـيـرَه، أو النِّساءَ الوَلُودَ فإنَّهنَّ يُذْرينَ الأولادَ، أو الأسبابَ التي تُذْرِي الخلائقَ من الملائكةِ وغيرِهم.

وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ بإدغامِ التَّاءِ في الذَّالِ[1].

(٢) ـ ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ فالسُّحُبِ الحاملةِ للأمطارِ، أو الرِّياحِ الحاملَةِ للسَّحابِ، أو النِّساءِ الحواملِ، أو أسبابِ ذلك.

وقُرِئَ: (وَقْرًا)[2] على تسميةِ المَحمولِ بالمَصدَرِ.

(٣) ـ ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ فالسُّفُنِ الجاريَةِ في البحرِ سهلًا، أو الرِّياحِ الجارِيَةِ فـي مَهابِّها، أو الكَواكبِ التي تجري في مَنازِلِها، و﴿يُسۡرٗا﴾ صِفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ؛ أي: جَرْيًا ذا يُسْرٍ.

(٤) ـ ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ الملائكـةُ التـي تُقسِّـمُ الأمـورَ مِـن الأمطـارِ والأَرزاقِ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٥)، و«النشر» (١/ ٣٠٠).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٩/ ٣٨٨).

وغيرِها، أو ما يَعمُّهُم وغيرَها مِن أسبابِ القسمَةِ، أو الرِّياحُ يُقسِّمنَ[١] الأمطارَ بتَصريفِ السَّحابِ[٢].

فإن حُمِلَتْ على ذواتٍ مُختلِفَةٍ فالفاءُ لتَرتُّبِ الإقسامِ بها باعتبارِ ما بينَها مِن التَّفاوُتِ في الدلالةِ على كمالِ القُدرَةِ، وإلَّا فالفاءُ لتَرتُّبِ الأفعالِ؛ إذ الرِّيحُ مثلًا تذرو الأبخرةَ إلى الجوِّ حتى تَنعَقِدَ سحابًا فتحملَه فتجريَ به باسطةً له إلى حيثُ أُمِرَتْ به فتقسِّمُ المطرَ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابٌ للقَسَمِ، كأنَّه استدلَّ باقتِدارِه على هذه الأشياءِ العَجيبَةِ المخالِفَةِ لِمُقتَضى الطَّبيعَةِ على اقتدارِه على البعثِ الموعودِ، و(ما) مَوصولةٌ أو مَصدريَّةٌ، و(الدِّينُ): الجزاءُ، و(الواقِعُ): الحاصِلُ.

(٧) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ ذاتِ الطَّرائقِ، والمرادُ إمَّا الطَّرائقُ[٣] المحسوسةُ التي هي مَسيرُ الكواكبِ، أو المَعقولَةُ التي يسلُكُها النُّظَّارُ ويُتوصَّلُ بها إلى المعارفِ، أو النُّجومُ فإنَّ لها طرائقَ، أو أنَّها تُزَيِّنُها كما تُزَيِّنُ الـمَوْشِيَّ طرائقُ الوَشْيِ، جمعُ حَبيكَةٍ؛ كطَرِيقَةٍ وطُرُقٍ، أو حِبَاكٍ؛ كمِثَالٍ ومُثُلٍ.

وقُرِئَ: (الحُبْك) بالسُّكونِ، و(الحِبِكِ) كالإِبِلِ، و(الحِبْكِ) كالسِّلْكِ، و(الحَبَكِ) كالجَبَلِ، و(الحِبَكِ) كالنِّعَمِ، و(الحُبَكِ) كالبُرَقِ[٤].

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «تقسِّم».

(٢) في نسخة الخيالي: «الرياح».

(٣) في نسخة التفتازاني: «الطرق».

(٤) انظر هذه القراءات مع قارئيها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥ ـ ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«الكشاف» (٨/ ٤٣٩)، و«البحر» (١٩/ ٣٩١).

(٨) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الرَّسولِ، وهو قولُهم تارةً: إنه شاعرٌ، وتارة: إنه ساحِرٌ، وتارةً: إنَّه مجنونٌ، أو في القرآنِ، أو القيامةِ، أو أمرِ الدِّيانةِ.

ولعلَّ النُّكتةَ في هذا القسَمِ تَشبيهُ أقوالِهم في اختلافِها وتنافي أغراضِها بالطَّرائقِ للسَّماواتِ في تَباعُدِها واختلافِ غاياتِها.

(٩) ـ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُصرَفُ عنه ـ والضَّمير للرَّسولِ أو القُرآنِ أو الإيمانِ ـ مَن صُرِفَ؛ إذ لا صَرْفَ أشدَّ منه، فكأنَّه لا صَرْفَ بالنِّسبَةِ إليه، أو يُصرَفُ مَنْ صُرِفَ في علمِ اللهِ وقَضائِه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الضَّميرُ للقَوْلِ على معنى: يصدرُ إِفْكُ مَن أُفِكَ عَن القولِ المختلفِ وبسبَبِه كقولِه:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُرْبِ[1]

أي: يَصدرُ تَناهيهِم عنهما وبسبَبِهما.

وقُرِئَ: (أَفَك) بالفتح[2]؛ أي: مَن أَفَكَ النَّاسَ، وهُم قريشٌ، كانوا يَصدُّون النَّاسَ عن الإيمانِ.

(١٠) ـ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكَذَّابونَ مِن أَصحابِ القَولِ المُختَلِفِ، وأصلهُ الدُّعاءُ بالقَتلِ أُجرِيَ مجرى اللَّعنِ.

---

(١) عجز بيت ورد دون نسبة في «المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٣٨٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٧)، وصدره:

يمشون دُسْماً حولَ قُبَّتِهِ

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٤٠٢)، كلاهما عن قتادة، و«الكشاف» (٨/ ٤٤٠) عن سعيد بن جبير، و«البحر» (١٩/ ٣٩٣) عن قتادة وسعيد بن جبير.

(١١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ﴾ في جهلٍ يَغْمُرهُم ﴿سَاهُونَ﴾ غافِلُونَ عمَّا أُمِرُوا به.

(١٢) ـ ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: فيقولونَ متى يومُ الجَزاءِ؟ أي: وقوعُه.

وقُرِئَ: (إِيَّانَ) بالكسرِ[١].

(١٣) ـ ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ يُحرَقُونَ، جوابٌ للسُّؤالِ؛ أي: يقعُ يومَ هُم على النَّارِ يُفتَنُون، أو هو يومٌ هم على النَّارِ يُفتَنُون.

وفُتِحَ ﴿يَوۡمَ﴾ لإضافَتِه إلى غيرِ مُتمَكِّنٍ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ بالرَّفعِ[٢].

(١٤) ـ ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي: مقولًا لهم هذا القولُ.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ هذا العذابُ هو الذي كُنْتُم به تَستعجِلُونَ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿هَٰذَا﴾ بدلًا مِن ﴿فِتۡنَتَكُمۡ﴾، و﴿ٱلَّذِي﴾ صِفَتُه.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ قابلينَ لِمَا أعطاهُم راضينَ به، ومَعناه: أنَّ كُلَّ ما آتاهُم حَسَنٌ مَرضِيٌّ مُتلَقًّى بالقَبولِ.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ قد أَحسَنُوا أَعمالَهُم، وهو تعليلٌ لاستِحقاقِهِم ذلك.

(١٧) ـ ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ تفسيرٌ لإحسانِهم و(ما) مَزيدةٌ؛ أي: يهجَعُونَ في طائفةٍ مِن اللَّيلِ، أو يَهجعونَ هُجوعًا قليلًا، أو مَصدريَّةٌ، أو مَوصولَةٌ؛ أي: في قليلٍ مِن اللَّيلِ هُجوعُهُم أو ما يَهجعونَ فيه، ولا يجوزُ أَنْ تكونَ نافِيةً لأنَّ ما بعدَها لا يعمَلُ فيما قبلَها.

وفيه مُبالغاتٌ لتَقليلِ نَومِهِم واستراحَتِهِم: ذكرُ القَليلِ، واللَّيلِ الذي هو وقتُ السُّباتِ، والهُجوعِ الذي هو الغِرَارُ[٣] مِن النَّومِ، وزيادةُ (ما).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٨)، عن السلمي والأعمش.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦) عن ابن أبي عبلة.

(٣) قوله: «الغِرَارُ»؛ أي: القليلُ، انظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١٨).

(١٨) ـ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: إنَّهُم مع قلَّةِ هُجوعِهِم وكثرةِ تَهجُّدِهم إذا أسحروا أَخذوا في الاستغفارِ كأنَّهُم أسلفُوا في ليلِهِم الجرائمَ، وفي بناءِ الفعلِ على الضَّميرِ إشعارٌ بأنَّهُم أَحِقَّاءُ بذلك لوُفورِ علمِهِم باللهِ وخشيتِهِمْ منه.

(١٩) ـ ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيبٌ يَستَوْجِبُونَه على أَنفُسِهِم تَقرُّبًا إلى اللهِ وإشفاقًا على النَّاسِ.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمُستَجْدِي والمُتعفِّفِ الذي يُظَنُّ غنيًّا فيُحرَمُ الصَّدقَةَ.

(٢٠) ـ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها دلائلُ مِن أنواعِ المعادنِ والحَيوانِ، أو وجوهُ دلالاتٍ مِن الدَّحوِ والسُّكونِ وارتفاعِ بَعضِها عن الماءِ واختِلَافِ أَجزائِها في الكيفيَّاتِ والخَواصِّ والمنافِعِ = تدلُّ على وُجودِ الصَّانعِ وعِلمِهِ وقُدرَتِه وإرادَتِه ووحدَتِه وفَرْطِ رَحمَتِه.

(٢١) ـ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفُسِكُم آياتٌ؛ إذ ما في العالمِ شيءٌ إلَّا وفي الإنسانِ له نظيرٌ يدلُّ دلالتَهُ مع ما انفردَ به مِن الهيئاتِ النَّافعَةِ والمناظرِ البَهِيَّةِ والتَّركيباتِ العَجيبَةِ والتَّمكُّنِ مِن الأفعالِ الغريبَةِ واستنباطِ الصَّنائعِ المُختَلِفَةِ واستجماعِ الكَمالاتِ المُتنوِّعَةِ.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرونَ نظرَ مَن يَعتَبِرُ.

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابُ رِزقِكُم، أو تَقديرُه.

وقيل: المرادُ بالسَّماءِ السَّحابُ، وبالرِّزقِ المطرُ فإنَّه سببُ الأَقواتِ.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثَّوابِ؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ السَّابعَةِ، أو لأنَّ الأعمالَ وثَوابَها مَكتوبةٌ مُقدَّرةٌ في السَّماءِ.

وقيل: إنَّه مُستأنَفٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ﴾ وعلى هذا فالضَّميرُ لـ(ما)، وعلى الأوَّلِ يحتملُ له ولِمَا ذُكِرَ مِن أمرِ الآياتِ والرِّزقِ والوَعيدِ.

﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثلَ نُطقِكُم كمَا أنَّه لا شَكَّ لكم في أنَّكُم تَنطِقُونَ، يَنبَغِي أن لا تَشُكُّوا في تَحقُّقِ ذلك، ونصبُه على الحالِ مِن المُستكنِّ في ﴿لَحَقٞ﴾، أو الوصفِ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ؛ أي: إنَّه لحقٌّ حقًّا مِثلَ نُطقِكُم.

وقيل: إنَّه مَبنيٌّ على الفتحِ لإضافَتِه إلى غيرِ مُتمَكِّنٍ، وهـو (ما) إنْ كانَتْ بمَعنى شيءٍ، و(أنَّ) بما في حيِّزِه إنْ جُعِلَتْ زائدةً، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه صِفَةٌ لـ(حق)، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وأبي بكرٍ بالرَّفعِ[١].

(٢٤) ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأنِ الحديثِ، وتنبيهٌ على أنَّه أوحيَ إليه، والضَّيفُ في الأصلِ مَصدَرٌ، ولذلك يُطلَقُ للواحدِ والمتعدِّدِ.

قيل: كانوا اثنَيْ عشرَ مَلَكًا.

وقيل: ثلاثةٌ: جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، وسمَّاهُم ضيفًا لأنَّهم كانوا في صورةِ الضَّيفِ.

﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: مُكرمينَ عندَ اللهِ، أو عندَ إبراهيمَ إذْ خَدَمهُم بنفسِهِ وزَوجَتِه.

(٢٥) ـ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ ظرفٌ للحديثِ أو الضَّيفِ أو المكرمينَ.

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: نُسَلِّمُ عليكَ[٢] سَلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: عليكُمْ سَلامٌ، عُدِلَ به إلى الرَّفعِ بالابتداءِ لقصدِ الثَّباتِ حتَّى تكونَ تَحِيَّتُه[٣] أحسنَ مِن تَحيَّتِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣)، و«النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «عليكم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «يكون تحية».

وقُرِئَا مَرفوعَيْنِ(١).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾، وقُرِئَ منصوبًا(٢)، والمعنى واحِدٌ.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتُمْ قَومٌ، وإنَّما أنكرَهُم لأنَّه ظنَّ أنَّهُم بنو آدمَ ولم يَعرِفْهُم، أو لأنَّ السَّلامَ لم يَكُن تحيَّتَهُم، فإنَّه عَلَمُ الإسلامِ وهو كالتَّعرُّفِ عنهُم.

(٢٦) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ فذهبَ إليهِمْ في خُفيةٍ مِن ضيفِه، فإنَّ مِن أدبِ المضيفِ أنْ يُبادِرَ(٣) بالقِرَى حذرًا مِن أَنْ يكفَّهُ الضَّيفُ أو يصيرَ منتظرًا.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنَّه كان عامَّةُ مالِه البقرَ.

(٢٧) ـ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأَنْ وضعَهُ بين أيديهِم.

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: منه، وهو مُشعِرٌ بكونِه حَنيذًا.

والهمزةُ فيه للعرضِ والحثِّ على الأكلِ على طريقَةِ الأدَبِ إن قالَهُ أوَّلَ ما وضعَهُ، وللإنكارِ إن قالَهُ حيثُمَا رأَى إعراضَهُم.

(٢٨) ـ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمرَ مِنهم خوفًا لَمَّا رأى إِعراضَهُم عن طعامِه لظَنِّه أنَّهُم جاؤوهُ لشَرٍّ(٤).

وقيل: وقعَ في نَفسِه أنَّهُم مَلائِكَةٌ أُرسِلُوا للعذاب.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنَّا رسلُ اللهِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٤٨)، و«البحر» (١٩/ ٤٠٣) من غير نسبة.

(٢) انظر القراءة الأولى في «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥)، والقراءة الثانية ذكرها في «الكشاف» (٨/ ٤٤٨)، و«البحر» (١٩/ ٤٠٣) من غير نسبة.

(٣) في نسخة الفاروقي والخيالي: «يُبادِه»، وهي نسخة ذكرها الشهاب في «حاشيته»، وفي نسخة الطبلاوي: «يبادره».

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بشر».

قيل: مسحَ جبريلُ العجلَ بجَناحهِ فقامَ يدرُجُ حتَّى لحقَ بأمِّهِ فعرفَهُم[١] وأَمِنَ مِنْهُم[٢].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمُلُ علمُهُ إذا بلغَ.

(٢٩) ـ ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارَةُ إلى بيتِها، وكانَتْ في زاويةٍ تنظرُ إليهم.

﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحةٍ، مِن الصَّريرِ، ومحلُّه النَّصبُ على الحالِ، أو المفعولِ إن أُوِّلَ ﴿فَأَقْبَلَتِ﴾ بـ:أَخذَتْ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلَطَمتْ بأطرافِ الأصابعِ جَبْهتَها فِعلَ المُتعجِّبِ.

وقيل: وجدَتْ حرارةَ دمِ الحيضِ فلطَمَتْ وَجهَها مِن الحياءِ.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عَجوزٌ عاقِرٌ فكيفَ أَلِدُ؟

(٣٠) ـ ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ مثلَ ذلك الذي بشَّرْنا بهِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنَّما نُخبِرُك بـه عنه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيكونُ قولُه حقًّا وفعلُه مُحكمًا.

(٣١) ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لَمَّا عَلِمَ أنَّهم مَلائكةٌ وأنَّهم لا ينزلونَ مُجتمعينَ إلَّا لأمرٍ عظيمٍ سألَ عَنْهُ.

(٣٢) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قومَ لوطٍ.

(٣٣) ـ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريدُ السِّجِّيلَ؛ فإنَّه طينٌ مُتحجِّرٌ.

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «ففرح».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٤٩)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٠) عن عون بن أبي شداد.

(٣٤) ـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُرسلَةً، مِن أَسَمْتُ[١] الماشيةَ، أو مُعلَمةً مِن (السُّومةِ) وهي العَلَامةُ.

﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المُجاوزينَ الحدَّ في الفُجورِ.

(٣٥) ـ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قُرَى قومِ لُوطٍ، وإضمارُها ـ ولم يَجرِ ذِكرُها ـ لكونِها[٢] مَعلومةً ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممَّنْ آمنَ بلوطٍ.

(٣٦) ـ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ غيرَ أهلِ بَيتٍ مِن المُسلمينَ.

واستُدلَّ بهِ على اتِّحادِ الإيمانِ والإسلامِ، وهو ضَعيفٌ لأنَّ ذلك لا يقتَضِي إلَّا صِدقَ المُؤمنِ والمُسلمِ على مَن اتَّبعَه، وذلك لا يَقتَضِي اتِّحادَ مَفْهُومِهما لجَوازِ صدقِ المَفهوماتِ المُختَلِفَةِ على ذاتٍ واحِدَةٍ[٣].

(٣٧) ـ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامةً ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فإنَّهُم المعتبِرونَ بها، وهي تلكَ الأحجَارُ، أو صخرٌ منضودٌ فيها، أو ماءٌ أسوَدُ مُنتِنٌ.

(٣٨) ـ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾، أو ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ على مَعنى: وجَعَلنا في موسَى، كقوله:

عَلَفْتُهَـــا تِبْنًـــا وَمَـــاءً بَـــارِدا[٤]

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أسيمت».

(٢) في نسخة التفتازاني: «لأنها».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «واحد».

(٤) صدر بيت تقدم الاستشهاد به كثيراً، وقد أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّـى شَـتَتْ هَمَّالَـةً عَيْناهَـا

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو مُعجِزاتُه كاليدِ والعَصا.

(٣٩) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرضَ عن الإيمانِ به، كقولِه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١]، أو فتولَّى بما كانَ يَتقوَّى به من جنودِه، وهو اسمٌ لِمَا يُركَنُ إليه الشَّيءُ ويُتقوَّى به.

وقُرِئَ بضمِّ الكافِ(١).

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحرٌ ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنَّه جعلَ ما ظهرَ عليهِ مِن الخَوارقِ مَنسوبًا إلى الجنِّ، وتَرددَ في أنَّه حصَّلَ ذلك باختيارِهِ وسَعيِه أو بغَيْرِهما.

(٤٠) ـ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهُمْ في البحرِ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلَامُ عليه مِن الكُفرِ والعنادِ.

والجملةُ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

(٤١) ـ ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ سمَّاها عَقيمًا لأنَّها أهلَكَتْهُم وقطعَتْ دابِرَهُم، أو لأنَّها لم تَتضمَّنْ مَنفعةً، وهي الدَّبُورُ أو الجَنُوبُ أو النَّكباءُ.

(٤٢) ـ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مرَّتْ عليهِ ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالرَّمادِ، مِن الرَّمِّ، وهو البِلَى والتَّفتُّتُ.

(٤٣) ـ ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيرُه(٢) قولُه: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

(٤٤) ـ ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبَرُوا عن امتِثالِه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: العذابُ بعدَ الثَّلاثِ.

وقرأ الكِسائيُّ ﴿الصَّعْقَةُ﴾(٣)، وهي المرَّةُ مِن الصَّعْقِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٥٣) بدون نسبة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها فإنَّها جاءَتْهُم مُعاينةً بالنَّهارِ.

(٤٥) ـ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ كقولِه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وقيل: هو مِن قولهم: ما يقومُ بهِ: إذا عَجَزَ عَن دفعِه.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين منه.

(٤٦) ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلَكْنا قومَ نُوحٍ لأنَّ ما قبلَهُ يدلُّ عليهِ، أو اذكُرْ، ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على محلِّ ﴿وَفِي عَادٍ﴾، ويؤيِّدُه قراءةُ أبي عمرٍو وحمزةَ والكِسائيِّ بالجرِّ[1].

﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ هَؤلاءِ المَذكورينَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجينَ عن الاستقامَةِ بالكُفرِ والعِصيَانِ.

(٤٧) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ بقوَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرونَ، من الوُسْعِ بمعنى الطَّاقةِ، والمُوسِعُ القادِرُ على الإنفاقِ، أو لَموسعونَ السَّماءَ، أو ما بينَها وبينَ الأرضِ، أو الرِّزقَ.

(٤٨) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ مَهَدْناها ليَستقرُّوا عليها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن.

(٤٩) ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناسِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعَينِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتَعلَمُوا أنَّ التَّعدُّدَ مِن خواصِّ المُمكِنَاتِ، وأنَّ الواجِبَ بالذَّاتِ لا يقبَلُ التَّعدُّدَ والانقسامَ.

(٥٠) ـ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] مِن عقابِهِ بالإيمانِ والتَّوحيدِ ومُلازمَةِ الطَّاعةِ.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: مِن عذابِهِ المعدِّ لِمَن أشركَ أو عَصَى ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ كونُه مُنذِرًا مِن اللهِ بالمُعجِزَاتِ، أو مُبيِّنٌ ما يجِبُ أن يُحذرَ عنه.

---

(١) وقرأ الباقون بالنصب، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «إلى ثوابه».

(٥١) ـ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إفرادٌ لأعظَمِ ما يَجِبُ أن يُفَرَّ منه[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مُرتَّبٌ على تركِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ.

(٥٢) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ مثلُ ذلك، والإشارةُ إلى تكذيبِهِم الرَّسولَ وتسمِيَتِهم إيَّاه ساحرًا ومجنونًا.

وقوله: ﴿مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كالتَّفسيرِ له، ولا يجوزُ نصبُه بـ﴿أَتَى﴾ أو ما يفسِّرُه؛ لأنَّ ما بعدَ (ما) النَّافيَةِ لا يعمَلُ فيما قبلَها.

(٥٣) ـ ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: كأنَّ الأوَّلينَ والآخرينَ منهم أوصى بعضُهم بعضًا بهذا القولِ حتَّى قالوه جميعًا.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أنَّ التَّواصِيَ جامِعُهم لتباعُدِ أيَّامِهم إلى أنَّ الجامِعَ لهم على هذا القولِ مُشارَكَتُهم في الطُّغيانِ الحاملِ عليه.

(٥٤) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن مُجادلَتِهم بعدما كرَّرْتَ عليهم الدَّعوةَ فأَبَوْا إلَّا الإصرارَ والعِنادَ.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراضِ بعدَما بذلتَ جُهدكَ في البَلاغِ.

(٥٥) ـ ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولا تَدعِ التَّذكيرَ والموعِظَةَ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَن قدَّرَ اللهُ إيمانَهُ، أو مَن آمنَ؛ فإنَّه يزدادُ بها[٢] بصيرةً.

(٥٦) ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لَمَّا خَلَقَهُم على صُورةٍ مُتوجِّهَةٍ إلى العبادةِ مُغلِّبةٍ لها جعلَ خلقَهُم مُغيًّا بها مبالغةً في ذلك، ولو حُمِلَ على ظاهرِهِ مع

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «به».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فإنها تزداده» وفي هامش نسخة الفاروقي نسخة: «تزيده».

أنَّ الدَّليلَ يمنعُه= لَنَافى ظاهرَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيل: معناه: إلَّا لِنَأمُرَهُم بالعبادةِ، أو ليَكُونوا عبادًا لي.

(٥٧) ـ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: ما أريدُ أَنْ أصرِفَكُم[1] في تحصيلِ رِزقي فاشتَغِلُوا بما أنتُمْ كالمَخلوقينَ له والمأمورينَ به، والمرادُ أن يبيِّنَ أنَّ شأنَهُ مَع عبادِه ليسَ شأنَ السَّادةِ مع عبيدِهِم، فإنَّهُم إنَّما يَملِكُونَهُم ليَستَعِينُوا بهم في تحصيلِ مَعايِشِهم، ويحتملُ أن يُقَدَّرَ بـ(قل) فيكونَ بمعنى قولِه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

(٥٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ ما يفتقِرُ إلى الرِّزقِ، وفيه إيماءٌ باستغنائِه عنه.

وقُرِئَ: (إنِّي أنا الرَّزَّاقُ)[2].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ شديدُ القُوَّةِ.

وقُرِئَ: (المتينِ)[3] بالجرِّ صِفةً لـ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أصرفهم»، قال الخفاجي في «حاشيته»: كان مقتضى الظاهر: (أن أصرفهم) و(فليشتغلوا بما هم...) فكأنه نظر إلى أنهم وإن ذكروا بطريق الغيبة إعراضاً عنهم وتبعيداً عن ساحة الخطاب إلا أنّ إسماعهم مقصود هنا، فكأنهم مخاطبون، فلذا جوّز تقدير (قل) قبله، فتدبر.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، وكذا رواه أبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وصححه، والإمام أحمد في «المسند» (٣٧٤١)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين»، قلت: فإن صح فهو مما نسخ من القرآن.

(٣) وهي قراءة يحيى بن وثاب والأعمش، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٩).

(٥٩) ـ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ أي: للَّذينَ ظلَمُوا رسولَ اللهِ بالتَّكذيبِ نَصِيبًا مِن العَذابِ.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ مثلَ نَصيبِ نُظَرائِهِم مِن الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وهو مأخوذٌ مِن مُقاسمَةِ السُّقاةِ الماءَ بالدِّلاءِ، فإنَّ الذَّنُوبَ هو الدَّلوُ العظيمُ المملوءُ.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ جوابٌ لقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

(٦٠) ـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مِن يَومِ القيامَةِ أو يومِ بَدرٍ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ﴾ أعطاهُ اللهُ عشرَ حَسَناتٍ بعدَدِ كلِّ ريحٍ هَبَّتْ وجَرَتْ في الدُّنيا»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٧٣)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٠٩).

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿والذاريات ذرواً﴾ قال علي رضي الله عنه: الريح، ﴿فالحاملات وقراً﴾ قال: السحاب ﴿فالجاريات يسراً﴾ قال: السفن ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قال: الملائكة[1].

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذرواً، فقال رضي الله عنه: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً، قال رضي الله عنه: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً، قال رضي الله عنه: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته[2]. وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر وغير واحد، ولم يحك ابن جرير غير ذلك، وقد قيل: إن المراد بالذاريات (الريح) وبالحاملات وقراً (السحاب) كما تقدم لأنها تحمل الماء، فأما ﴿الجاريات يسراً﴾ فالمشهور عن الجمهور أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً، الملائكة فوق ذلك

---

(١) روي من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنّة رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فسأله ابن الكواء عن قوله تعالى ﴿والذاريات﴾ الخ.

(٢) رواه الحافظ البزار.

تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عزّ وجلّ على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صدق، ﴿ وإن الدين﴾ وهو الحساب ﴿ لواقع﴾ أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿ والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء،(١) وقال الضحاك: الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك، وعن أبي صالح ﴿ ذات الحبك﴾ الشدة ، وقال خصيف ﴿ ذات الحبك﴾ ذات الصفاقة، وقال الحسن البصري: ﴿ ذات الحبك﴾ حبكت بالنجوم، وقال عبدالله بن عمرو ﴿ والسماء ذات الحبك﴾ يعني السماء السابعة وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالكواكب الزاهرات. وقوله تعالى: ﴿ إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿ لفي قول مختلف﴾ مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع، وقال قتادة: ﴿ إنكم لفي قول مختلف﴾ ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به ﴿ يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، ينقاد له ويضل بسببه من هو مأفوك ضال. غِمْر لا فهم له. قال ابن عباس ﴿ يؤفك عنه من أفك﴾ يضل عنه من ضل، وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به، وقوله تعالى: ﴿ قتل الخراصون﴾ قال مجاهد: الكذابون، وهي مثل التي في عبس، ﴿ قتل الإنسان ما أكفره﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون، وقال ابن عباس ﴿ قتل الخراصون﴾ أي لعن المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ الذين هم في غمرة ساهون﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يسألون أيان يوم الدين﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً، وشكاً واستبعاداً قال الله تعالى: ﴿ يوم هم على النار يفتنون﴾ قال ابن عباس: يعذبون، قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون: ﴿ يفتنون﴾ يحرقون ﴿ ذوقوا فتنتكم﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

* إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عزّ وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وقوله تعالى: ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم﴾، قال ابن جرير:

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة وغيرهم.

أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿في جنات وعيون﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿محسنين﴾ كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾، ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال جلّ وعلا: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾. اختلف المفسرون في ذلك على قولين: **أحدهما**: أن (ما) نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً؛ وقال قتادة: قلّ ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عزّ وجلّ، إما من أولها أو من وسطها، وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، **والقول الثاني**: أن (ما) مصدرية تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفةٌ لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ». وقال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وروى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام»[1]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾، قال مجاهد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾، وقد ثبت في الصحاح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال ﴿وفي أموالهم حق﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم، أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[2]. وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

رضي الله عنها: هو المحارب الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء: المحروم المحارف، وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[1]. وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بآفة أو نحوها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد، والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم، في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، ثم قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ يعني المطر ﴿وما توعدون﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة: أن ما وعدهم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه إن هذا لحقٌ كما أنك ههنا. وعن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا»[2].

۞ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر، فقوله: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿قوم منكرون﴾

---

(١) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر.

(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.

وذلك أن الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال ﴿ قوم منكرون ﴾. وقوله عزّ وجل: ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿ فجـاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله، وفي الآيـة الأُخْرى: ﴿ فما لبث أن جـاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على الرَّضْف[1] ﴿ فقربه إليهم ﴾ أي أدناه منهم، ﴿ قال ألا تأكلون ﴾؟ تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجلٌ فتيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ ألا تأكلون ﴾؟ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. وقوله تعالى: ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ البشارة له بشارة لها، لأن الولد منهما فكل منهما بشر به، وقوله تعالى: ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة[2]، وهي قولها ﴿ يا ويلتا ﴾ ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها، قال ابن عباس: لطمت أي تعجباً، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾؟ أي ما شأنكم، وفيم جئتم؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة ﴾ أي معلمة، ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾.

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ

---

(١) الحجارة المحماة.

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم.

عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فتولى بركنه﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه بــه موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً، قال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فتولى بركنه﴾ أي بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ والمعنى الأول قوي، ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به، من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم﴾ أي ألقيناهم ﴿في اليم﴾ وهو البحر، ﴿وهو مليم﴾ أي وهو ملوم جاحد، فاجر معاند. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ولهــذا قال تعالى: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾ أي مما تفسده الريح ﴿إلا جعلتــه كالرميم﴾ أي كالشيء الهالك البــالي، وقــد ثبت في الصحيح: «نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور» ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي من هرب ولا نهوض، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العــالم العلوي والسفلي: ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً، ﴿بأيد﴾ أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿وإنا لموسعون﴾ أي قد وسعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فنعم الماهدون﴾ أي وجعلناهــا مهداً لأهلها، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿ففروا إلى الله﴾ أي

الجأوا إليه واعتمدوا عليه في أموركم عليه، ﴿ إني لكم منه نذير مبين ۝ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه ﷺ : وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أتواصوا به ﴾ ؟ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون﴾ ، أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، قال الله تعالى: ﴿ فتول عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد، ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعني لا نلومك على ذلك، ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال جلّ جلاله: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال ابن عباس: ﴿ إلا ليعبدون﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أنس إلا للعبادة . وقوله تعالى: ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ ۝ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ : ﴿ إني أنا الرزاق ذو القوة المتين﴾[1] ، ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي: « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »[2] .

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى: « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء » . وقوله تعالى: ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب، ﴿ مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ ذلك فإنه واقع لا محالة، ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة .

[آخر تفسير سورة الذاريات ، ولله الحمد والمنة]

٭ ٭ ٭

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن غريب .

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾.

قال شعبة(١) بن الحجاج، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع عليا وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبى بزَّة، عن أبى الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الريح [قال](٢): ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب. [قال](٣): ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السفن. [قال](٤): ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة(٥).

وقد روى فى ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبى سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ قال: هى الملائكة، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ قال: هى السفن، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل فى بيت، فلما برأ(٦) [دعا به و](٧)ضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا. فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس.

---

(١) فى أ: «سعيد». (٢-٤) زيادة من م.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٥) عن محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٦) فى م: «برد». (٧) زيادة من م،أ.

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبى سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث(١).

قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر(٢)، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة فى ترجمة صبيغ مطولة(٣). وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسى لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المزْنُ تَحْمِلُ عَذْبا زُلالا(٤)

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور ـ كما تقدم ـ: أنها السفن، تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هى النجوم تجرى يسرا(٥) فى أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك(٦)، وأبو صالح، والسدى، وقتادة، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاك، والمِنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق [طرائق](٧)، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك» يعنى بالحبك: الجعودة(٨).

وعن أبى صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٢): «فيه أبو بكر بن أبى سبرة، وهو متروك».

(٢) فى م: «مع التميمى عمر».

(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٠) «القسم المخطوط».

(٤) البيت فى سيرة ابن هشام (١/ ٢٣١). (٥) فى أ: «سيراً». (٦) فى م: «وابن مالك».

(٧) زيادة من م، أ.

(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٨) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤١٠) من طريق إسماعيل بن علية به.

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبى الجعد، عن معدان بن أبى طلحة، عن عمرو البكالى، عن عبدالله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعنى: السماء السابعة.

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شىء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفى قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفى قول مختلف،[يعنى][٢] ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣].

قال ابن عباس، والسدى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ ـ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون.

وهكذا كان معاذ، رضى الله عنه، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون [قال مجاهد][٣]: كما

---

(١) فى م،أ: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م،أ.

يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعى، وزيد بن أسلم، وسفيان الثورى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ : قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله[(١)] من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أى: قبل أن يفرض[(٢)] عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضا. ثم روى عن ابن حميد، حدثنا مهْرَان، عن سفيان، عن أبى عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ : قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح[(٣)] عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبى شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبى عمر البزار، عن مسلم[(٤)] البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذى فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم[(٥)]، أى: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله[(٦)] : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بيَّن إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن

---

(١) فى م: «ربهم». (٢) فى م: «تفرض». (٣) فى م: «لا يصح».
(٤) فى م: «عن أبى مسلم». (٥) فى م: «الله». (٦) فى م: «وقولهم».

تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى[١] الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون[٢] بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُلٍ كذاب، فكان أول ماسمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام»[٤].

وقال مَعْمَر فى قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان[٥] الزهرى والحسن يقولان:

---

(١) فى م: «إلى». (٢) فى م: «فيكذبون».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٣٣٤).
قال الترمذى: «حسن صحيح».

(٤) المسند (٢/ ١٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ولعل تحسين الحافظ الهيثمى لحديث ابن لهيعة لأنه قد توبع: تابعه عبد الله بن وهب ـ روايته عن ابن لهيعة صحيحة ـ أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (٣/ ١٠٣) «الجزء المفقود».

(٥) فى م: «قال».

كانوا كثيرا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ماينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»[(١)].

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم[(٢)] بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ[(٣)]﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذى يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن على قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثورى، به[(٤)] ثم أسنده من وجه آخر عن على بن أبى طالب[(٥)]. وروى من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعا[(٦)].

وأما ﴿الْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨).

(٢) فى م، أ: «وصفهم». (٣) فى م، أ: ﴿حق للسائل والمحروم﴾.

(٤) المسند (١/ ٢٠١) وسنن أبى داود برقم (١٦٦٥).

(٥) سنن أبى داود برقم (١٦٦٦).

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٣) من طريق سليمان الدمشقى عن عثمان بن فايد عن عكرمة بن عمار عن الهرماس مرفوعاً به وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف.

وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعى، ونافع ـ مولى ابن عمر ـ وعطاء ابن أبى رباح ﴿الْمَحْرُومِ﴾: المحارف.

وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومِ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»[١].

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان فى صحيحيهما من وجه آخر[٢].

وقال سعيد بن جبير: هو الذى يجىء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز فى طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.

وقال الشعبى: أعيانى أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: [هو][٣] الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه[٤] بآفة أو نحوها.

وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٥].

وهذا يقتضى أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هى مكية شاملة لما بعدها.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم[٦] فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾: قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس،

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٥) وسيأتى موصولاً.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩) من طريق شريك بن عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً.

(٣) زيادة من م.

(٤) فى م: «أو ثمرة».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٢٥).

(٦) فى م، أ: «أجسادهم».

ومجاهد، وغير واحد.

وقال سفيان الثورى: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إنى [(١)] أرى رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟ فدخل خربة فمكث [فيها][(٢)] ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بِدَوْخَلَة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما[(٣)].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضى الله عنه، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قال مسدد، عن ابن أبى عَدِىّ، عن عَوْف، عن الحسن البصرى قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلاً[(٤)].

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ .

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر» [(٥)] أيضا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

---

(١) فى م: «لا أرى رزقى». (٢) زيادة من م. (٣) فى م: «بينهما الموت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٢٧).
(٥) تقدم تفسير ذلك فى سورة هود عند الآيات: ٦٩ ـ ٧٣، وكذلك فى سورة الحجر عند الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود:٦٩] أى: مشوى على الرَّضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم، ﴿ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾: تلطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه [١] من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة [٢] وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل ،وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[٣].

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى، وهو[٤] قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى: فى صرخة عظيمة [٥]ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثورى، والسدى، وهى قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾. ﴿ فَصَكَّتْ[٦] وَجْهَهَا﴾ أى: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن [٧] سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أى تعجبا كما تتعجب [٨] النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم][٩]، وقد كنتُ فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[١٠]﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ

(١) فى م: «بطعام». (٢) فى أ: «فى سرعة».
(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «جلاء الأفهام» (ص ١٨١ ـ ١٨٤) فى الكلام على آداب الضيافة فى هذه الآيات.
(٤) فى م: «وهى». (٥) فى م، أ: «وعيطة». (٦) فى م: «وصكت».
(٧) فى م: «وأبو». (٨) فى م: «يتعجب». (٩) زيادة من أ.
(١٠) فى م: «العليم الحكيم» وهو خطأ .

المُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧)﴾.

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه [الآية][1] من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا [2] محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [آية][3] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه [4] به موسى من الحق المبين، استكبارا

---

(١) زيادة من م.
(٢) فى م، أ: «وجعل».
(٣) زيادة من م.
(٤) فى م: «جاء».

وعنادا .

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدُو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].

والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أى: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أى: كالشىء الهالك البالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، حدثنى عبد الله ـ يعنى: ابن عياش[1] ـ القتبانى، حدثنى عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفِى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: أى رَبَ، أرسل عليهم [من][2] الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل [عليهم][3] بقدر خاتم. فهى التى يقول[4] الله فى كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

هذا الحديث رفعه منكر[5]، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين[6] أصابهما يوم اليرموك ، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[7].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم.

---

(١) فى م: «ابن عباس». (٢، ٣)زيادة من م. (٤) فى م، أ: «قال».

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) وابن منده فى كتاب التوحيد (١/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن وهب بأطول منه.

وقال ابن منده: إسناده متصل مشهور ورواته مصريين. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبى بقوله: «بل منكر، فيه عبد الله بن عياش، ضعفه أبو داود، وعند مسلم أنه ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٦) فى م: «اللذين».

(٧) صححه مسلم برقم (٩٠٠).

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾.

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: جعلناها سقفا [محفوظا][(١)] رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثورى، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هى، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى: وجعلناها مهدا لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث][(٢)] والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى: [و][(٣)] لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ

---

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م.

أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾ .

يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾! قال الله تعالى: ﴿**أَتَوَاصَوْا بِهِ**﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿**فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ**﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى: إنما تنتفع [(١)] بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى، لا لاحتياجى إليهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها[(٢)] وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ قال[(٣)] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد[(٤)]، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأنى رسول الله [(٥)] ﷺ: «إنى لأنا الرزاق ذو القوة المتين».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث إسرائيل، وقال الترمذى: حسن صحيح[(٦)].

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران ـ يعنى ابن زائدة بن نَشيط ـ عن أبيه، عن أبى خالد ـ هو الوالبى ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله**: «يا ابن

---

(١) فى م، أ: «فإنما ينتفع». (٢) فى م: «وكرها».
(٣) فى م: «وقال» .
(٤) فى أ: «زيد».
(٥) فى م: «النبى».
(٦) المسند (١/ ٣٩٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٢٧).

آدم، تَفَرّغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب[(١)].

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبى شُرَحْبِيل، سمعت حَبّة وسواء ابنى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ـ وقال أبو معاوية: يصلح شيئا ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»[(٢)]. و[قد ورد][(٣)] فى بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبنى تجدنى؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء».

وقوله: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا**﴾ أى: نصيبا من العذاب، ﴿**مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ**﴾ أى: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع [بهم][(٤)] لا محالة ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ يعنى: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) المسند (٢/٣٥٨) وسنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧).

(٢) المسند (٣/٤٦٩).

(٣) زيادة من م، أ. (٤) زيادة من أ.

سورة الذاريات[1]

مكّيّة، وهي ستّون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ أي: الرياحِ التي تذرو الترابَ وغيرَه، وقُرئ / بإدغام "التاء" في "الذال".[2] [١٢٧و]

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي: السُّحبِ الحاملة للمطر، أو الرياحِ الحاملة للسحاب. وقُرئ: "وَقْرًا"[3] على تسمية المحمول بالمصدر.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي: السُّفنِ الجارية في البحر، أو الرياحِ الجارية في مهابّها، أو السُّحب الجارية في الجوّ بسَوق الرِّياح أو الكواكبِ الجارية في مجاريها ومنازلها، و﴿يُسۡرٗا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: جريًا ذا يُسْر.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي: الملائكةِ التي تقسِّم الأمور مِن الأمطار والأرزاق وغيرِها، أو السُّحب التي يقسِّم الله تعالى بها أرزاق العباد. وقد جُوِّز أن يراد بالكلّ الرياح تنزيلًا لاختلاف العنوان منزلةَ اختلاف الذات، فإنّها كما تذرو ما تذروه تُثير السَّحاب وتحمله، وتجري في الجوّ جريًا سهلًا وتقسِّم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار.[4]

فإن حُملت الأمور المُقسَم بها على ذواتٍ مختلفة فـ"الفاء" لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها مِن التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلّا فهي لترتيب

---

[1] س: والذاريات.

[2] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٠٠/١، ٣٧٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤.

ما صدر عن الريح مِن الأفاعيل، فإنّها تذرو الأبخِرة إلى الجوّ حتّى تنعقد سحابًا فتجري به باسطةً له إلى ما أُمِرت به فتقسِّم المطر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ جواب للقسَم. وفي تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزٌ إلى شهادتها بتحقّق مضمون الجملة المُقسَم عليها مِن حيث إنّها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمَن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود. و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة. ووصفُ الوعد بالصدق كوَصْف العيشة بالرِّضا.[1] والدِّين: الجزاء، ووقوعُه: حصوله.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنه وقتادةُ وعكرمةُ: ذات الخَلْق المستوي، وقال سعيد بن جُبير: ذات الزينة، وقال مجاهد: هي المتقنةُ البنيانِ، وقال مقاتل والكلبي والضحّاك: ذات الطرائق.[2] والمراد إمّا الطرائق المحسوسة التي هي مَسير الكواكب، أو المعقولةُ التي يسلكها النُّظّار، أو النجوم فإنّ لها طرائقَ. وعن الحسن: حُبُكها: نجومها،[3] حيث تُزَيّنها كما تُزيّن المَوشيَّ طرائقُ الوَشْي. وهي إمّا جمع "حِبَاك" أو "حَبيكة" / كـ"مِثال [١٢٧ظ] ومُثُل" و"طَريقة وطُرُق". وقُرئ: "الحُبْك" بوزن "القُفْل"، و"الحِبْك" بوزن "السِّلْك"، و"الحَبَك" كـ"الجَبَل"، و"الحُبَك" كـ"البُرَق"، و"الحِبَك" كـ"النِّعَم"، و"الحِبِك" كـ"الإبِل".

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: متخالِف متناقض، وهو قولهم في حقّه عليه السلام تارةً: شاعر، وأخرى: ساحر، وفي شأن القرآن الكريم تارةً: شِعر، وتارة: سِحر، وأخرى: أساطير. وفي هذا الجواب تأييد لكون ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ عبارةً عن الاستواء كما يلوِّح به ما نُقل عن الضحّاك أنّ قول الكفرة لا يكون مستويًا،

[1] يعني في قوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩]، فهو مِن الإسناد المجازي.

[2] هذه الأقوال الأربعة عنهم في جامع البيان للطبري، ٤٨٦/٢١-٤٨٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧-٣٧٢.

[3] مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٨٧/٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

إنّما هو متناقض مختلِف.[١] وقيل: النكتة في هذا القسَم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف غاياتها.[٢] وليس بذاك.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرَف عن القرآن أو الرسول صلّى الله عليه وسلّم مَن صُرف؛ إذ لا صَرْفَ أفظعُ منه وأشدّ. وقيل: يُصرَف عنه مَن صُرف في عِلم الله تعالى وقضائه. ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلِف، على معنى: يصدر إفكُ مَن أُفِك عن ذلك القول.[٣] وقُرِئ: "مَنْ أَفَكَ"[٤] أي: مَن أَفَك الناس، وهم قريش حيث كانوا يصدُّون الناس عن الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس، ١٧/٨٠]، وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثمّ جرى مَجرى "لُعِن". والخرّاصون: الكذّابون المقدِّرون ما لا صحّةَ له، وهم أصحابُ القول المختلِف، كأنّه قيل: قُتل هؤلاء الخرّاصون. وقُرئ: "قَتَلَ الخَرَّاصِينَ"،[٥] أي: قَتَل الله.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ مِن الجهل والضلال ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عمّا أُمروا به.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى وقوع يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقةً؛ بل بطريق الاستعجال استهزاءً. وقُرئ: "إِيَّانَ"[٦] بكسر "الهمزة".

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جواب للسؤال، أي: يقع يومَ هم على النار يُحرَقون ويعذَّبون. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: هو يومٌ هم... إلخ، والفتحُ لإضافته إلى غير متمكِّن،[٧] / ويؤيّده أنّه قُرئ بالرفع.[٨] [١٢٨و]

[١] مرويّ عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٣] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

[٧] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٢.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: مقولًا لهم هذا القول. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ داخلةٌ تحت القول المضمر، أي: هذا ما كنتُم تستعجلون به بطريق الاستهزاء. ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلًا مِن ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بتأويل العذاب و﴿ٱلَّذِى﴾ صفته.[1]

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لا يبلغ كُنهها ولا يُقادَر قَدْرها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لِما أعطاهم راضين به على معنى أنّ كلّ ما آتاهم حَسَن مَرضيّ يُتلقّى بحُسن القبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ أي: لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي، فلذلك نالوا ما نالوا مِن الفوز العظيم.

ومعنى الإحسان بالإجمال ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»،[2] وقد فُسِّر بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة مِن الليل، على أنّ ﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، أو كانوا يهجعون هجوعًا قليلًا، على أنّه صفة للمصدر، و﴿مَا﴾ مزيدة في الوجهين. ويجوز أن تكون مصدريّة أو موصولة مرتفعة بـ﴿قَلِيلًا﴾ على الفاعليّة، أي: كانوا قليلًا مِن الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه.[3]

وفيه مبالغاتٌ في تقليل نومهم واستراحتهم: ذِكرُ القليل، والليلُ الذي هو وقت الراحة، والهُجوعُ الذي هو الفِرار مِن النوم، وزيادةُ ﴿مَا﴾. ولا مَساغ لجعل ﴿مَا﴾ نافيةً على معنى أنّهم لا يهجعون مِن الليل قليلًا؛ بل يُحيونه كلّه لِما أنّ "ما" النافيةَ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.[4]

---

١ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

٢ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: هم مع قِلّة هُجوعهم وكثرةِ تهجّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنّهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم. وفي بناء الفعل على الضمير إشعارٌ بأنّهم الأحقّاء بأن يُوصَفوا بالاستغفار كأنّهم المختصّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيب وافر يستوجبونه / على أنفسهم تقرّبًا إلى الله تعالى[1] وإشفاقًا على الناس، ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفِّف الذي يحسبه الناس غنيًّا فيُحرَم الصدقةَ. [١٢٨ظ]

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائلُ واضحة على شئونه تعالى على التفصيل مِن حيث إنّها مَدحوّة كالبِساط الممهَّد، وفيها مسالكُ وفِجاجٌ للمتقلِّبين في أقطارها والسالكين في مناكبها، وفيها سهلٌ وجبل، وبَرّ وبحر، وقِطَعٌ متجاورات، وعيونٌ متفجِّرة ومعادنُ مُفْتَنَّةٌ، وأنّها تُلقَح بألوان النبات وأنواعِ الأشجار وأصنافِ الثِّمار المختلفة الألوانِ والطعومِ والروائحِ، وفيها دوابُّ مُنبثَّة قد رُتِّب كلُّها ودُبِّر لمنافعِ ساكنيها ومصالحهم في صحّتهم واعتلالهم.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم آياتٌ؛ إذ ليس في العالم شيء إلّا وفي الأنفس له نظيرٌ يدلّ دلالتَه على ما انفرد به مِن الهيئات النافعة، والمناظرِ البهيّة، والتركيباتِ العجيبة، والتمكّنِ مِن الأفعال البديعة، واستنباطِ الصنائع المختلفة، واستجماعِ الكمالات المتنوِّعة. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا تنظرون فلا تُبصرون بعين البصيرة.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، وبـ"الرِّزق" المطر،[2] فإنّه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثواب؛ لأنّ الجنّة في السماء السابعة، أو لأنّ الأعمال وثوابها مكتوبة

---

[1] م – تعالى.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٣.

مقدَّرة في السماء. وقيل: إنّه مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ على أنّ الضمير لِـ﴿مَا﴾، وأمّا على الأوّل فإمّا له وإمّا لِما ذُكر مِن أمر الآيات والرزق،[١] على أنّه مستعار لاسم الإشارة.

﴿مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: كما أنّه لا شكّ لكم في أنّكم تنطِقون ينبغي ألّا تشكُّوا في حقّيّته. ونصبه على الحاليّة مِن المستكنّ في "الحقّ"، أو على أنّه وصف لمصدر محذوف، أي: إنّه لَحَقٌّ حقًّا مثلَ نطقكم. وقيل: إنّه مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكّن،[٢] وهو ﴿مَا﴾ إن كانت عبارةً عن شيء، و﴿أَنَّ﴾ بما في حيّزها إن جُعلت زائدة. ومحلُّه الرفع على أنّه صفةُ ﴿لَحَقٌّ﴾، ويؤيّده القراءة بالرفع.[٣]

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[١٢٩و] / ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تفخيم لشأن الحديث وتنبيهٌ على أنّه ليس ممّا عَلِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بغير طريق الوحي. و"الضيفُ" في الأصل مصدرُ "ضافَه"، ولذلك يُطلَق على الواحد والجماعة كـ"الزَّوْر" و"الصَّوْم". وكانوا اثني عشرَ مَلَكًا، وقيل: تسعةً عاشرهم جبريلُ. وقيل: ثلاثة جبريلُ وميكائيلُ ومَلَك آخرُ معهما عليهم السلام.[٤] وتسميتُهم ضيفًا لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيمُ عليه السلام، أو لأنّهم كانوا في حُسبانه كذلك.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: المُكرَّمين عند الله تعالى، أو عند إبراهيمَ؛ حيث خَدَمهم بنفسه وبزوجته.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث أو لِما في الضيف مِن معنى الفعل، أو ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إن فُسِّر بإكرام إبراهيمَ. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نُسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، عَدَل به إلى الرفع بالابتداء

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٢٢.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٣.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٧.
٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٤.

للقصد إلى الثبات والدوام حتّى يكون تحيّته عليه السلام أحسَنَ مِن تحيّتهم. وقُرئا مرفوعين،[١] وقُرئ: "سِلْمٌ"،[٢] وقُرئ منصوبًا،[٣] والمعنى واحد.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو عَلَم للإسلام، أو لأنّهم ليسوا ممّن عهدهم مِن الناس، أو لأنّ أوضاعهم وأشكالهم خلافُ ما عليه الناس، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله في نفسه مِن غير أن يُشعرهم بذلك، لا أنّه خاطبهم به جَهْرًا أو سألهم أن يعرّفوه أنفسَهم كما قيل، وإلّا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصدَّ عليه السلام لمقدِّمات الضيافة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم على خُفيةٍ مِن ضيفه، فإنّ مِن أدب المُضيف أن يُبادِرَ بالقِرى ويُبادِر به حِذارًا مِن أن يكفّه ويعذِره، أو يصير منتظِرًا. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فصيحة مُفصِحة عن جُمل قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[٤] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فذَبح عِجلًا فحَنَذه فجاء به. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ/ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وَضَعه لديهم حسبما هو المعتاد ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ إنكارًا لعدم تعرُّضهم للأكل. [١٢٩ظ]

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ لتوهُّم أنّهم جاءوا للشرّ، وقيل: وقع في قلبه أنّهم ملائكة جاءوا للعذاب.[٥] ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ قيل: مَسَح جبريلُ عليه السلام العِجل بجناحه فقام يدرُج حتى لَحِق بأمّه فعرفهم وأَمِن منهم.[٦]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البَرَهسم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

[٤] م س: فقلنا.

[٥] مرويّ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.

[٦] مرويّ عن ابن عون بن شدّاد في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ﴾ [الصافات، ١١٢/٣٧]، أي: بواسطتهم. ﴿بِغُلَـٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ عند بلوغه واستوائه.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم. ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحة مِن "الصرير"، ومحلُّه النصب على الحاليّة أو المفعوليّة، إن جُعل ﴿أَقْبَلَتِ﴾ بمعنى "أخذتْ"، كما يقال: أقبَلَ يشتِمُني. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمَتْه مِن الحياء لِما أنّها وجدتْ حرارةَ دم الطَّمْث. وقيل: ضربَتْ بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجِّب.[١] ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقرٌ فكيف أَلِدُ؟

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنّما نحن معبّرون نخبِرك به عنه تعالى، لا أنّا نقوله مِن تِلقاء أنفسنا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ[٢] ٱلْعَلِيمُ[٣]﴾ فيكون قوله حقًّا وفعلُه متقنًا لا محالةَ. رُوي أنّ جبريلَ عليه السلام قال لها: انظري إلى سقف بيتك فنظرتْ فإذا جذوعه مُورِقة مُثمِرة.[٤] ولم يكن هذه المفاوضة مع سارةَ فقط؛ بل مع إبراهيمَ عليه السلام أيضًا حسبما شُرح في سورة الحجر،[٥] وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما ذُكر هناك، كما أنّه لم يُذكَر هناك سارةُ اكتفاءً بما ذُكر ههنا وفي سورة هود.[٦]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ عليه السلام لمّا عَلِم أنّهم ملائكة أرسِلوا لأمر: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسِلتم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.
٢ م س: العليم.
٣ م س: الحكيم.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.
٥ الحجر، ٥٦/١٥.
٦ هود، ٦٩/١١-٧٣.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها، حسبما فُصِّل في سائر السور الكريمة. ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: طين متحجّر هو السجّيل ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مرسلةً مِن "أسَمْتُ الماشية"، أي: أرسلتُها، أو مُعْلَمةً مِن "السُّومَة" وهي العلامة، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[1] ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المُجاوِزين الحدَّ في الفجور.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾... إلى آخره حكايةٌ مِن جهته تعالى لِما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ عليهم السلام مِن الكلام، و"الفاء" فصيحةٌ مُفصِحة عن جُمَل قد حُذِفت ثقةً بذِكرها في مواضع أخرَ، كأنّه قيل: فباشَروا ما أُمِروا به ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾... إلخ [هود، ٨١/١١] ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قرى قوم لوط، وإضمارُها بغير ذِكر لشُهرتها، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممّن آمن بلوط.

[١٣٠و] ﴿فَمَا وَجَدْنَا / فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غيرَ أهلِ بيت ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجَوا ثلاثةَ عشرَ.[2]

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿آيَةً﴾ علامةً دالّةً على ما أصابهم مِن العذاب. قيل: هي تلك الأحجار، أو صخر منضود فيها، أو ماء مُنتِن.[3] ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم ورقّة قلوبهم دون مَن عداهم مِن ذوي القلوب القاسية، فإنّهم لا يعتدُّون بها ولا يعدُّونها آيةً.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ أو على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ على معنى وجعلنا في موسى آيةً، كقول مِن قال:

---

[1] في تفسير هود، ٨٣/١١.

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

عَــلَــفْــتُــهــا تِــبْــنًــا ومــــاءً بــــاردًا[١]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ قيل: هو منصوب بـ﴿ءَايَةً﴾. وقيل: بمحذوف، أي: كائنةً وقت إرسالنا. وقيل: بـ﴿تَرَكْنَا﴾.[٢] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو ما ظهر على يديه مِن المعجزات الباهرة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان به وازورّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء، ٨٣/١٧]. وقيل: فتولّى بما يتقوّى به مِن مُلكه وعساكره،[٣] فإنّ الرُّكن اسم لِما يركَن إليه الشيءُ. وقُرئ: "بِرُكُنِهِ"[٤] بضمّ "الكاف". ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنّه نسَب ما ظهر على يديه عليه السلام مِن الخوارق العجيبة إلى الجنّ، وتردَّد في أنّه حصَل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وفيه مِن الدلالة على غاية عِظَم شأن القدرة الربّانيّة ونهاية قماءة فرعونَ وقومِه ما لا يخفى. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلام عليه مِن الكفر والطغيان، والجملة حال مِن الضمير في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وُصفت بالعُقم؛ لأنّها أهلكَتْهم وقطعت دابرهم، أو لأنّها لم تتضمّن خيرًا ما مِن إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي النَّكباء[٥] أو الدَّبور[٦] أو الجَنوب.[٧]

---

١ في هامش م: تمامه:

حـتّـى غـــدَتْ هـمّـالـةً عـيـنـاهـا

المصراع الأوّل مخروم، أي: وعلفتَها. «منه». | ولا يُعرف قائله. وقال الفرّاء قبل إنشاده في معاني القرآن، ١٤/١ (البقرة، ٧/٢): «وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه». وليس في ديوان بني أسد؛ وهو في تفسير الطبري، ٢٧١/١ (البقرة، ٧/٢)؛ والصحاح للجوهري، «علف»، «قلد»؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤. وتفصيل الكلام على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ١٣٩/٣-١٤١، وقال في نسبته: «ورأيتُ في حاشية نسخة صحيحة مِن الصحاح أنّه لذي الرُّمّة، ففتشت ديوانه فلم أجده فيه».

٢ هذه الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٩٢/١٨.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

٥ النكباء: كلّ ريح مِن الرِّياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين. لسان العرب لابن منظور، «نكب».

٦ الدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا والقَبول، وهي ريح تهبّ مِن نحو المغرب. لسان العرب لابن منظور، «دبر».

٧ الجنوب: ريح تخالف الشَّمال تأتي عن يمين القِبلة. لسان العرب لابن منظور، «جنب».

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: جرَتْ عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو كلّ ما رمّ وبليَ وتفتّت مِن عَظْم أو نبات أو غيرِ ذلك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

/ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود، ٦٥/١١]. قيل: قال لهم صالحٌ عليه السلام: «تُصبح وجوهكم غدًا مصفرَّةً، وبعد غدٍ محمرَّةً، واليومَ الثالث مسودَّةً، ثمّ يُصبّحكم العذاب».[١] [١٣٠ظ]

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فاستكبروا عن الامتثال به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قيل: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالحٌ عليه السلام مِن اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجّاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولمّا كان ضحوة اليوم الرابع تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا. وقُرئ: "الصَّعْقَةُ"[٢] وهي المرّة مِن الصَّعْق. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها ويُعاينونها.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧] ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، فإنّ ما قبله يدلّ عليه، أو "واذكرْ". ويجوز أن يكون معطوفًا على محلّ ﴿فِي عَادٍ﴾،[٣] ويُؤيّده القراءة بالجرّ.[٤] وقيل: هو معطوف على مفعول ﴿فَأَخَذَتْهُ﴾.[٥] ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هؤلاء المُهلَكين، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه مِن الكفر والمعاصي.

---

١ مرويّ عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم، ١٥١٥/٥ (الأعراف، ٧٧/٧).
٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.
٣ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٥/٣.
٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ٩٩/١٨.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لَقادرون مِن "الوُسع" بمعنى الطاقة، والمُوسِع: القادر على الإنفاق، أو لمُوسعون السماءَ، أو ما بينها وبين الأرض، أو الرزقَ.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقرُّوا عليها ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: مِن الأجناس ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: نوعين ذكرًا وأنثى. وقيل: متقابلَين: السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك.[1] ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه كي تتذكَّروا فتعرِفوا أنّه خالقُ الكلّ ورازقه وأنّه المستحقّ للعبادة وأنّه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

[١٦٨و] وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / مقدَّرٌ بقول خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين. و"الفاء" إمّا لترتيب الأمر على ما حُكي مِن آثار غضبه الموجِبة للفرار منها، ومِن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها، كأنّه قيل: قلْ
[١٣١و] لهم: إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شئونه بالإيمان والطاعة / كي تنجوا مِن عقابه وتفوزوا بثوابه، وإمّا للعطف على جملة مقدَّرة مترتِّبة على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنّه قيل: قلْ لهم فتذكَّروا ففرُّوا إلى الله... إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أو لوجوب الامتثال به، فإنّ كونه عليه السلام منذِرًا منه تعالى موجِب عليه عليه السلام أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به، أي: إنّي لكم مِن جهته تعالى

[1] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٩/٧.

منذرٌ بيّنٌ كونُه منذرًا منه تعالى، أو مظهرٌ لِما يجب إظهاره مِن العذاب المُنذَرِ به. وفي أمره تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى مِن عقابه وتعليلِه بأنّه عليه السلام ينذرهم مِن جهته تعالى لا مِن تلقاء نفسه وعدٌ كريم بنجاتهم مِن المهروب وفوزِهم بالمطلوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ نهيٌ موجِب للفرار مِن سبب العقاب بعد الأمر بالفرار مِن نفسه، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: مِن الجعل المنهيّ عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإنّ تعلّق كلمة ﴿مِنْ﴾ بالإنذار مع كون صلته "الباء" بتضمينه معنى الإفرارِ، يقال: "فرّ منه"، أي: هرَب و"أَفَرَّهُ غيره" كأنّه قيل: وفِرُّوا مِن أن تجعلوا معه تعالى اعتقادًا أو قولًا إلهًا آخرَ، وفيه تأكيدٌ لِما قبله مِن الأمر بالفِرار مِن العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريق التكرير، كما قيل: بل بالنهي عن سببه وإيجابِ الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر مثلُ ما ذُكِر مِن تكذيبهم الرسولَ وتسميتِهم له ساحرًا أو مجنونًا، وقوله تعالى: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾... إلخ، تفسيرٌ له، أي: ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ مِن رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقّه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ولا سبيلَ إلى انتصاب الكاف بـ﴿أَتَى﴾ لامتناع عمل ما بعد ﴿مَا﴾ النافية فيما قبلها.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ إنكار وتعجيب مِن حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد مِن العقلاء فضلًا عن التفوّه بها، أي: أأوصى بهذا القول بعضُهم بعضًا حتّى اتّفقوا عليه؟

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن كون مدار اتّفاقهم على الشرّ تواصيَهم بذلك، وإثباتٌ لكونه أمرًا / أقبحَ مِن التواصي وأشنعَ منه مِن الطغيان الشامل [١٣١ظ] للكلّ الدالّ على أنّ صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كلّ واحد منهم بمقتضى جبلّته الخبيثة لا بموجَب وصيّة مَن قبلهم بذلك مِن غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن جدالهم فقد كرّرتَ عليهم الدعوةَ فأبَوا إلّا الإباءَ

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولّي بعد ما بذلتَ المجهود وجاوزتَ في الإبلاغ كل حدّ معهود.

﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: افعل التذكير والموعظة ولا تَدَعْهُما بالمرّة، أو فذكِّرهم، وقد حُذف الضمير لظهور الأمر. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين قدّر الله تعالى إيمانهم، أو الذين آمنوا بالفعل فإنّها تزيدهم بصيرةً وقوّةً في اليقين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استئناف مؤكِّد للأمر مقرّر لمضمون تعليله، فإنّ كون خَلْقهم مُغَيًّا بعبادته تعالى ممّا يدعوه عليه السلام إلى تذكيرهم، ويُوجِب عليهم التذكّر والاتِّعاظ. ولعلّ تقديمَ خَلْقِ الجنّ في الذِّكر لتقدّمه على خَلْق الإنس في الوجود.

ومعنى خَلْقهم لعبادته تعالى خَلْقُهم مستَعِدِّين لها ومتمكِّنين منها أتمَّ استعداد وأكملَ تمكُّن مع كونها مطلوبةً منهم، بتنزيل ترتُّب الغاية على ما هي ثمرة له منزلةَ ترتُّب الغرض على ما هو غرض له، فإنّ استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة ممّا لا نزاع فيه قطعًا، كيف لا، وهي رحمة منه تعالى وتفضُّل على عباده، وإنّما الذي لا يليق بجنابه عزّ وجلّ تعليلُها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل، بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل مِن كلّ وجه.

وأمّا بمعنى نهاية كماليّة يُفضي إليها فعلُ الفاعلِ الحقّ فغيرُ منفيّ مِن أفعاله تعالى؛ بل كلّها جارية على ذلك المنهاج، وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة. ويكفي في تحقّق معنى التعليل -على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة- هذا المقدار، وبه يتحقّق مدلول / "اللام". [١٣٢و]

وأمّا إرادة الفاعل لها فليست مِن مقتضيات "اللام" حتّى يلزم مِن عدم صدور العبادة عن البعض تخلُّف المراد عن الإرادة، فإنّ تعوّق البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضُد المبادي وتآخُذ المقدِّمات الموصِلة إليها لا يمنع كونها

غايةً، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم، ١/١٤] ونظائره.

وقيل: المعنى إلّا ليؤمَروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة، ٣١/٩]. وقيل: المراد سعداء الجنسين، كما أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧] أشقياؤهما،[١] ويعضده قراءة مَن قرأ: "وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤمِنِينَ".[٢]

وقال مجاهد واختاره البغوي:[٣] معناه: إلّا ليعرفونِ،[٤] ومدارُه قوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يحكيه عن ربّ العزّة: «كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف فخلَقتُ الخلق لأُعرَف».[٥] ولعلّ السرَّ في التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريقة إطلاق اسم السبب على المسبَّب التنبيهُ على أنّ المعتبر هي المعرفة الحاصلةُ بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعاليًا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، أي: ما أريدُ أن أصرّفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم؛ بل أتفضّل عليهم برزقهم وبما يُصلِحهم ويُعيِّشهم مِن عندي فليَشتغلوا بما خُلِقوا له مِن عبادتي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كلّ ما يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويحٌ بأنّه غنيٌّ عنه. وقُرئ: "إِنِّي أَنَا الرَّزَاقُ".[٦] ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ بالرفع على أنّه نعت لـ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

٣ هو الحسين بن مسعود بن محمّد الفرّاء البغوي، أبو محمّد (ت. ٥١٠هـ/١١١٧م). نسبته إلى بَغَا مِن قرى خراسان بين هَراة ومرو. وكان يلقَّب بمحيي السنّة وبركن الدِّين، الفقيه الشافعي المحدِّث المفسِّر. كان سيّدًا إمامًا عالمًا علّامة زاهدًا قانعًا باليسير، وكان أبوه يعمل الفِراء ويبيعها. بُورك له في تصانيفه، ومِن أشهرها: معالم التنزيل، وشرح السنّة، والمصابيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٣٩/١٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٩/٢.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٠/٧؛ والكلام عنه في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

٥ فتوح الغيب للطِّيبي، ٤٤٥/١٠ (الحج، ٦/٢٢)؛ تنزيه الشريعة لابن عرّاق، ١٤٨/١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

أو لـ﴿ذُو﴾، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمضمر. وقُرِئ بالجرّ[١] على أنّه وصف لـ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ على تأويل الاقتدار / أو الأَيْدِ.[٢] [١٣٢ظ]

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو وُضعوا مكانَ التصديق تكذيبًا، وهم أهل مكّة. ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا وافرًا مِن العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ مثل أنصباء نظرائهم مِن الأمم المحكيّة، وهو مأخوذ مِن مُقاسَمة السُّقاة الماءَ بالذَّنوب وهو الدلوُ العظيم المملوء.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: لا يطلبوا منّي أن أعجّل في المجيء به، يقال: "استعجله"، أي: حثّه على العجلة وأمَرَه بها، ويقال: "استعجله"، أي: طلب وقوعه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١/١٦]، وهو جواب لقولهم ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وُضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وإشعارًا بعلّة الحُكم. و"الفاء" لترتيب ثبوت الويلِ لهم على أنّ لهم عذابًا عظيمًا، كما أنّ "الفاء" الأولى لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك، و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ للتعليل، أي: يُوعَدونه مِن يوم بدر. وقيل: يوم القيامة،[٣] وهو الأنسب بما في صدر السورة الكريمة الآتية، والأوّل هو الأوفق لِما قبله مِن حيث إنّهما مِن العذاب الدنيوي.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ "والذاريات" أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كلّ ريح هبّت وجرَت في الدنيا».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والزّعفراني وابن وردة وقتبة طريق المطرّز عن الكسائي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧١٥.

٢ الأَدُ: الصُّلب والقوّة كالأيْد. قاموس. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أود».

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٠٨/٢٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ١٧٣/٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥١

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية، ستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾: الرياحِ تَذرو الترابَ وغيرَه ﴿ذَرْوًا﴾ مصدرٌ ـ ويُقال: تَذرِيه ذَرْيًا: تهُبُّ به ـ ٢ ـ ﴿فَالحامِلاتِ﴾: السُّحبِ تحمل الماء ﴿وِقْرًا﴾: ثِقْلاً مفعولُ الحاملات، ٣ ـ ﴿فَالجارِياتِ﴾: السُّفنِ تجري على وجه الماء ﴿يُسْرًا﴾: بسُهولة، مصدرٌ في موضع الحال، أي: مُيسَّرةً، ٤ ـ ﴿فَالمُقَسِّماتِ أَمْرًا﴾: الملائكةِ تُقسِّم الأرزاق والأمطار وغيرها بين البِلاد والعِباد،........

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

قولُهُ: (ذَرْيًا) لعلَّ فائدةَ ذكرِهِ أنَّ ﴿الذَّارياتِ﴾ تحتملُ الواويَّةَ واليائيَّةَ.

قولُهُ: (ثِقْلاً) كذِبْحٍ؛ بمعنى: مذبوحٍ.

قولُهُ: (بسُهولَةٍ) أو سهلاً، صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: جرياً ذا يسرٍ.

قولُهُ: (المَلائِكَةُ) نقلَ الطِّيبيُّ[1] عن الزَّجَّاجِ: أنَّ المفسِّرينَ جميعاً يقولونَ بقولِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ. لما رُوِيَ أنَّه قالَ وهو على المنبرِ: سلُونِي قبلَ أنْ لا تسألُونِي، ولنْ تسألُوا بعدِي مثلِي، فقال ابنُ الكوَّاء: ما الذَّارياتُ؟ فقال: الرِّياحُ، قال: فالحاملات؟ قال: السَّحابُ، قال: فالجاريات؟ قال: الفُلكُ، قال: فالمقسِّماتُ؟ قالَ: الملائكةُ[2] انتهى، ....

---

(١) انظر: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (١٥/ ٦) وكلام الطيبي مقتصر على العبارة الأولى، وأما من قوله: «لما روي أنه قال وهو على المنبر... إلخ» فهو من كلام الزمخشري في «الكشاف».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٣٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

٥ ـ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ ـ ما: مصدرية ـ أي: إن وعدَهم بالبعث وغيره ﴿لَصَادِقٌ﴾: لَوعدٌ صادق، ٦ ـ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾: الجزاءَ بعد الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لا محالة.

٧ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: جمع حَبِيكة كطريقة وطُرُق، أي: صاحبةِ الطُّرُق في الخِلقة كالطرق في الرمل، ٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ﴾ ـ يا أهل مكّة ـ في شأن النبيِّ والقُرآنِ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قيل: شاعرٌ ساحر كاهن، شِعرٌ سِحر كِهانة، ٩ ـ ﴿يُؤْفَكُ﴾: يُصرَف ﴿عَنْهُ﴾: عن النبيِّ والقرآن، أي: عن الإيمان به، ﴿مَنْ أُفِكَ﴾: صُرف عن الهِداية، في عِلم الله تعالى.

وقد جاءَ هكذا عن عُمَرَ مرفوعاً[1]، كما في «الدُّرِّ»[2]، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (﴿ما﴾ مَصْدَرِيَّةٌ) أو موصولةٌ.

قولُهُ: (لَوَعْدٌ صَادِقٌ) أي: ذو صِدقٍ، والجملةُ جوابٌ للقسمِ، كأنَّه استدلَّ باقتدارِهِ على هذه الأشياءِ العجيبةِ على اقتدارِهِ على البعثِ الموعودِ.

قولُهُ: (لا مَحَالَةَ) حاصِلٌ أو نازِلٌ.

قولُهُ: (في الخِلقَةِ) أخرجَ أبو الشَّيخِ: عن ابنِ عبَّاسٍ قال: ذاتِ البهاءِ والجمالِ؛ لأنَّ بُنيانَها كالبردِ المسلسلِ[3]، وأخرجَ عن الحسنِ قالَ: ذاتِ الخلقِ الحسنِ، مُحَبَّكةٍ بالنُّجومِ[4]، وأخرجَ عن أبي صالحٍ قالَ: ذاتِ الخلقِ الشَّديدِ[5]، كذا ذكرَهُ السُّيوطيُّ في «الهيئةِ السَّنيَّةِ»[6].

قولُهُ: (والقُرآنِ) أو القيامةِ.

قوله: (والقُرآنِ) الواوُ؛ بمعنى: أو.

قولُهُ: (أي: عَنِ الإِيمَانِ) والأظهرُ: أو عن الإيمانِ.

قولُهُ: (فِي عِلمِ اللهِ) وقضائِهِ.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٩٩) وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ من وجه من الوجوه إلا من هذا الوجه، وإنما أتى من أبي بكر بن أبي سبرة فيما أحسب؛ لأن أبا بكر لين الحديث، وسعيد بن سلام لم يكن من أصحاب الحديث، وإنما ذكرت هذا الحديث إذ لم أحفظه عن رسول الله ﷺ إلا من هذا الوجه، فذكرته وبينت العلة فيه.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٦٤).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٥).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٦).

(٥) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٤).

(٦) انظر: «الهيئة السَّنية في الهيئة السُّنِّية» (ص: ٤٧).

١٠ ـ ﴿قُتِلَ الخَرّاصُونَ﴾: لُعِن الكذّابون أصحاب القول المختلف، ١١ ـ ﴿الَّذِينَ هُم في غَمْرةٍ﴾: جهلٍ يغمرهم ﴿ساهُونَ﴾: غافلون عن أمر الآخرة، ١٢ ـ ﴿يَسألُونَ﴾ النبيَّ استهزاءً: ﴿أيانَ يَومُ الدِّينِ﴾ أي: متى مَجيئُه؟ وجوابهم: يجيءُ ١٣ ـ ﴿يَومَ هُم علَى النّارِ يُفتَنُونَ﴾ أي: يُعذّبون فيها، ويقال لهم حين التعذيب: ١٤ ـ ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُم﴾: تعذيبَكم. ﴿هذا﴾ العذابُ ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَستَعجِلُونَ﴾ في الدنيا استهزاءً.

١٥ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وعُيُونٍ﴾ تجري فيها ١٦ ـ ﴿آخِذِينَ﴾: حال من الضمير في خبر «إنّ» ﴿ما آتاهُم﴾: أعطاهم ﴿رَبُّهُم﴾ من الثواب. ﴿إنَّهُم كانُوا قَبلَ ذلِكَ﴾ أي: قبل دُخولهم الجنّةَ ﴿مُحسِنِينَ﴾ في الدنيا، ١٧ ـ ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيلِ ما يَهجَعُونَ﴾: ينامون ـ وما: زائدة. ويهجعون: خبر «كان». وقليلاً: ظرف ـ أي: ينامون في زمن يسير من الليل، ويصلّون أكثره، ١٨ ـ ﴿وبِالأسحارِ هُم يَستَغفِرُونَ﴾ يقولون: «اللّهمّ اغفِرْ لنا»،..........................

قولُهُ: (لُعِنَ) أصلُهُ الدُّعاءُ بالقتلِ، أُجرِيَ مجرى اللَّعنِ.

قولُهُ: (أَمرِ الآخِرَةِ) أو عمَّا أُمِروا به.

قولُهُ: (مَتَى) أصلُهُ: أيَّ آنٍ مجيئُهُ أو وقوعُهُ، على حذفِ مضافٍ، فلا يردُ أنَّ ظرفَ الزَّمانِ لا يقعُ خبراً إلَّا عن حدثٍ.

قولُهُ: (يَجِيءُ) أو يقعُ الجزاءُ.

قولُهُ: (تَعذِيبَكُم) وإحراقَكُم.

قولُهُ: (العَذَابُ) أي: هو.

قوله: (أَعطَاهُم) أي: قابلينَ لما أعطاهُم راضينَ به، ومعناهُ: أنَّ كلَّ ما آتاهُم ربُّهُم حسنٌ مرضيٌّ متلقًّى بالقبولِ.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) استئنافٌ فيه معنى التَّعليلِ.

قولُهُ: (فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ) أو يهجَعونَ هُجوعاً قليلاً، أو ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ أو موصولةٌ؛ أي: في قليلٍ من اللَّيلِ هجوعُهُم، أو ما يهجَعونَ فيه، ولا يجوزُ أن تكونَ نافيةً؛ لأنَّ ما بعدَ «ما» لا يعملُ فيما قبلَها خلافاً للكوفيِّينَ، ويمكنُ أن يتَّسعَ في الظَّرفِ ما لا يتَّسعُ في غيرِهِ.

قولُهُ: (يَقُولُونَ) أي: أنَّهُم مع قلَّةِ هجُوعِهِم وكثرةِ عبادتِهِم إذا أسحروا أخَذوا في الاستغفارِ؛ كأنَّهُم أسلَفوا في ليلِهِم الجرائمَ، وهم إنَّما يستغفرونَ للتَّقصيرِ في العبادةِ الحاليَّةِ، أو للتَّفريطِ في الطَّاعةِ الماضيةِ.

١٩ ـ ﴿وفي أموالِهِم حَقٌّ لِلسّائلِ والمَحرُومِ﴾: الذي لا يسأل لتعفّفه.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿وفي الأرضِ﴾ من الجِبال والبِحار والأشجار والثِّمار والنبات وغيرها ﴿آياتٌ﴾: دلالاتٌ على قُدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته ﴿لِلمُوقِنِينَ، وفي أنفُسِكُم﴾ آياتٌ أيضًا من مبدأ خلقكم إلى مُنتهاه وما في تركيب خلقكم من العجائب. ﴿أفلا تُبصِرُونَ﴾ ذلك، فتستدلّون به على صانعه وقُدرته؟ ٢٢ ـ ﴿وفي السَّماءِ رِزقُكُم﴾ أي: المطرُ المُسبَّب عنه النباتُ الذي هو رِزق ﴿وما تُوعَدُونَ﴾ من المآب والثواب والعِقاب، أي: مكتوب ذلك في السماء. ٢٣ ـ ﴿فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ، إنَّهُ﴾ أي: ما تُوعدون ﴿لَحَقٌّ مِثلُما أنَّكُم تَنطِقُونَ﴾ ـ برفع «مثلُ» صفةً وما: زائدة، وبفتح اللام مُركّبةً مع «ما» ـ المعنى: مِثلُ نُطقكم في حقيقته، أي: معلوميّته عِندكم ضرورةَ صُدوره عنكم.

وقولُهُ: (﴿حَقٌّ﴾) أي: نصيبٌ يستوجِبونَهُ على أنفسِهم تقرُّباً إلى اللهِ، وإشفاقاً على النَّاسِ.

قولُهُ: (لتَعَفُّفِهِ) الَّذي يُظَنُّ غنيًّا فيُحرَمُ الصَّدقةَ.

قولُهُ: (وغَيرِهَا) كالمعادنِ والحيواناتِ.

قولُهُ: (مِنَ العَجَائِبِ) إذ ما في العالَمِ شيءٌ إلَّا وفي الإنسانِ له نظيرٌ يدلُّ دلالتَهُ، مع ما انفَردَ به من الهيئاتِ النَّافعةِ، والمناظرِ البهيَّةِ، والتَّركيباتِ العجيبةِ، والتَّمكُّنِ من الأفعالِ الغريبةِ، واستنباطِ الصَّنائعِ المختلفةِ، واستجماعِ الكمالاتِ المتنوِّعةِ، ولذا قيل للإنسانِ: إنَّه العالمُ الأكبرُ، وفي الحديثِ: «لا يسعُنِي أرضِي ولا سمائِي، ولكن يسعُنِي قلبُ عَبدِي المؤمنِ»(١).

قولُهُ: (ذَلِكَ) أي: تنظرُونَ نَظرَ من يعتبِرُ.

قولُهُ: (أي: المَطَرُ) أو سببُ رزقِكُم، بتقديرِ مضافٍ.

قولُهُ: (مَكتُوبٌ) لأنَّ الأعمالَ وثوابَها مكتوبةٌ مقدَّرةٌ في السَّماءِ؛ يعني: (اللَّوحِ المحفوظِ)، وقيل: ما توعَدونَ مِن الثَّوابِ؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ، فيكونُ المرادُ بالسَّماءِ جهةَ العلوِّ.

قولُهُ: (بِرَفْعِ (مِثْلُ)) كوفيٌّ غيرُ حفصٍ(٢).

قولُهُ: (مُرَكَّبَةٌ مَعَ «ما») يعني: أنَّه مبنيٌّ على الفتحِ لإضافتِهِ إلى غيرِ متمكِّنٍ، وهو «ما» إن كانَت بمعنى: شيءٍ، وليس بشيءٍ، وأنَّ بما في حيزها إن جُعِلَت زائدةً، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه صفةٌ لـ﴿حَقٌّ﴾.

قولُهُ: (ضَرُورَةَ صُدُورِهِ) يعني: كما أنَّه لا شكَّ لكم في أنَّكُم تنطِقونَ يَنبغِي أن لا تشكُّوا في تحقُّقِ ذلك.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٨٩٠): لم أر له أصلًا.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

٢٤ ـ ﴿هَل أتاكَ﴾ ـ خِطابٌ للنبيّ ـ ﴿حَدِيثُ ضَيفِ إبراهِيمَ المُكرَمِينَ﴾ وهم ملائكة، اثنا عشَرَ أو عشرةٌ أو ثلاثةٌ منهم جِبريلُ، ٢٥ ـ ﴿إذ﴾: ظرف لـ «حديثُ ضيف» ﴿دَخَلُوا علَيهِ، فقالُوا: سَلامًا﴾ أي: هذا اللفظُ. ﴿قالَ: سَلامٌ﴾ أي: هذا اللفظُ. ﴿قومٌ مُنكَرُونَ﴾: لا نعرِفهم؟ قال ذلك في نفسه، وهو خبر مُبتدأ مُقدّر، أي: هؤلاء.

٢٦ ـ ﴿فراغَ﴾: مالَ ﴿إلَى أهلِهِ﴾ سِرًّا، ﴿فجاءَ بِعِجلٍ سَمِينٍ﴾ ـ وفي سورة هود: «بِعِجلٍ حَنِيذٍ» أي: مشويّ ـ ٢٧ ـ ﴿فقَرَّبَهُ إلَيهِم، قالَ: ألا تأكُلُونَ﴾. عرضَ عليهم الأكل فلم يُجيبوا، ٢٨ ـ ﴿فأوجَسَ﴾: أضمر في نفسه ﴿مِنهُم خِيفةً. قالُوا: لا تَخَفْ﴾، إنا رُسلُ ربّك. ﴿وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾: ذي علم كثير، هو إسحاق كما ذُكر في «هود»، ....

قولُهُ: (مِنهُم جِبْرِيلُ) وميكائيلُ وإسرافيلُ، أو منهم على جميعِ الأقوالِ جبريلُ، وسمَّاهُم ضيفاً؛ لأنَّهم كانوا في صورةِ أضيافٍ، والضَّيفُ في الأصلِ مصدرٌ، ولذا يُطلَقُ للواحدِ والجمعِ.

قولُهُ: (لِـ﴿حَدِيْثُ ضَيْفِ﴾) أو الضَّيْف، أو ﴿الْمُكْرَمِيْنَ﴾.

قولُهُ: (أي: هَذا اللَّفظُ) أي: مؤدَّاهُ، أو نُسلِّمُ عليكُم سلاماً.

قولُهُ: (أي: هَذا اللَّفظُ) أو عليكم، وقُرئا مرفوعَينَ ومنصوبَينَ، وحمزةُ والكسائيُّ: (قالَ سِلْمٌ)[1] بمعنى: سلامٌ.

قولُه: (أي: هَؤُلاءِ) بل أنتُم.

قولُهُ: (سِرًّا) أي: فذهبَ إليهم للمبادرةِ إلى القِرى في خفيةٍ من ضيفِهِ حذراً من أن يمنعَهُ أو يعتذرَ أو ينتظرَ.

قولُهُ: (أي: مَشوِيٌّ) لأنَّهُ كانَ عامَّةُ مالِهِ البقرَ.

قولُهُ: (عَرَضَ) الهمزةُ فيهِ للعَرْضِ والحثُّ على الأكلِ على طريقةِ الأدبِ إن قالَه أوَّلَ ما وضعَهُ، وللإنكارِ إن قالَهُ حيثُما رأى إعراضَهُم.

قولُهُ: (أَضمَرَ) لمَّا رأى إعراضَهُم عن طعامِهِ ظنًّا أنَّهم جاؤوا بِشرٍّ.

قولُهُ: (ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ) يكملُ علمُهُ إذا بلغَ.

قولُهُ: (كَمَا في «هودٍ») ولما بعدَهُ من قولِهِ: ﴿امْرَأَتُهُ﴾، وقالَ مجاهدٌ: هو إسماعيلُ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ[2]، وقالَ الكرمانيُّ بعدَ حكايتِهِ[3]: أجمعَ المفسِّرونَ على أنَّه إسحاقُ، كذا في «المبهماتِ»[4].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٦٠).

(٣) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٤٣).

(٤) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٣).

٢٩ ـ ﴿فأقبَلَتِ امرأتُهُ﴾ سارةُ ﴿في صَرَّةٍ﴾: صيحةٍ، حالٌ أي: جاءت صائحةً، ﴿فصَكَّتْ وَجهَها﴾: لَطمتْه، ﴿وقالَتْ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: لم تلدْ قطُّ. وعُمرها تسع وتسعون سنةً وعُمر إبراهيم مِائَةُ سنةٍ، أو عُمره مِائَةٌ وعشرون سنةً وعُمرها تِسعون سنةً. ٣٠ ـ ﴿قالُوا: كَذلِكِ﴾: مِثلَ قولنا في البِشارة ﴿قالَ رَبُّكِ. إنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ﴿العَلِيمُ﴾ بخلقه.

٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿قالَ: فما خَطبُكُم﴾ أي: شأنكم، ﴿أيُّها المُرسَلُونَ؟ قالُوا: إنّا أُرسِلْنا إلَى قَومٍ مُجرِمِينَ﴾: كافرين هم قوم لوط، ٣٣ـ ﴿لِنُرسِلَ علَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ﴾ يُطبَخُ بالنار ٣٤ـ ﴿مُسَوَّمَةً﴾: مُعْلَمة عليها اسمُ مَن يُرمى بها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: ظرف لها، ﴿لِلمُسرِفِينَ﴾ بإتيانهم الذُّكورَ مع كُفرهم.

٣٥ـ ﴿فأخرَجْنا مَن كانَ فِيها﴾ أي: قُرى قومِ لُوط ﴿مِنَ المُؤمِنِينَ﴾ لِإهلاك الكافرين، ٣٦ـ ﴿فما وَجَدْنا فِيها غَيرَ بَيتٍ مِنَ المُسلِمِينَ﴾ ـ وهم لُوط وابنتاه ـ وُصِفوا بالإيمان والإسلام،...............

قولُهُ: (سَارَةُ) في بيتِها، وكانَتْ في زاويةٍ تنظُرُ إليهم.

قولُهُ: (صَيحَةٍ) من الصَّريرِ.

قولُهُ: (أي: جَاءَتْ) وقيل: شرعَتْ وأخذَتْ.

قولُهُ: (لَطَمَتْهُ) بأطرافِ الأصابعِ، جبهَتَها؛ فعلَ المُتعجِّبِ.

قولُهُ: (لَمْ تَلِدْ) أي: أنا عجوزٌ عاقِرٌ فكيفَ ألدُ؟!

قولُهُ: (مِثلَ قَولِنَا) الأظهرُ: مثلَ ذلك الَّذي بشَّرْناهُ به (﴿قَالَ ربُّكَ﴾) وإنَّما نخبرُكَ به عنهُ.

قولُهُ: (في صُنعِهِ) فيكونُ قولُه حقًّا وفعلُهُ محكماً.

قولُهُ: (شَأْنُكم) لعلَّ المرادَ بعد هذا[1].

قولُهُ: (يُطبَخُ) يريدُ السِّجِّيلَ؛ فإنَّهُ طينٌ متحجِّرٌ[2].

قولُهُ: (مُعْلَمَةً) من السُّومةِ؛ وهي العلامةُ، أو مُرسلَةً من: أُسيمَتِ الماشيةُ.

قولُهُ: (مَعَ كُفْرِهِم) أي: المجاوزينَ الحدَّ.

قولُهُ: (أي: قُرَى) وإضمارُها وإن لم يجرِ ذكرُها، لكونِها معلومَةً.

قولُهُ: (وهُم) أي: غيرَ أهلِ بيتٍ؛ وهم لوطٌ وابنَتاهُ، قالَهُ مجاهدٌ، وقال قتادةُ: وأهلُ بيتِهِ، وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ:

---

(١) ربما المراد: أنهم مرسلون.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٩).

أي: هم مُصدّقون بقُلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعاتِ، ٣٧ ـ ﴿وتَرَكْنا فِيها﴾ بعد إهلاك الكافرين ﴿آيةً﴾: علامة على إهلاكهم ﴿لِلَّذِينَ يَخافُونَ العَذابَ الأَلِيمَ﴾، فلا يفعلون مِثل فِعلهم.

٣٨ ـ ﴿وفي مُوسَى﴾ ـ معطوفٌ على «فيها» ـ المعنى: وجعلنا في قِصّة مُوسَى آيةً، ﴿إذ أرسَلْناهُ إلَى فِرعَونَ﴾ مُلتبسًا ﴿بِسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: بحُجّة واضحة، ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿فتَوَلَّى﴾: أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكنِهِ﴾: مع جُنوده لأنهم له كالركن، ﴿وقالَ﴾ لمُوسَى: هوَ ﴿ساحِرٌ أو مَجنُونٌ. فأخَذْناهُ وجُنُودَهُ، فنبَذْناهُم﴾: طرحناهم ﴿في اليَمِّ﴾: البحر فغرقوا، ﴿وهُوَ﴾ أي: فِرعَون ﴿مُلِيمٌ﴾: آتٍ بما يُلام عليه من تكذيب الرُّسل ودعوى الرُّبوبيّة.

٤١ ـ ﴿وفي﴾ إهلاك ﴿عادٍ﴾ آيةٌ، ﴿إذ أرسَلْنا علَيهِمِ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾..........

كانوا ثلاثةَ عشرَ، أخرجَها ابنُ أبي حاتمٍ[1]، كذا في «المبهماتِ»[2].

قولُهُ: (بَعدَ إِهلاكِ الكَافِرِينَ) في القُرى، أو في الفِعلةِ.

قولُهُ: (عَلامَةً) وهي تلكَ الأحجارُ، أو صخرٌ منضودٌ فيها، أو ماءٌ أسودُ منتنٌ.

قولُهُ: (فلا يَفعَلُونَ) فإنَّهُم المعتَبِرونَ المُنتَفِعونَ.

قولُهُ: (وَجَعَلْنَا) من بابِ:

عَلفتُها تبناً وماءً بارداً[3]

أو عطفٌ على: ﴿في الأرضِ﴾.

قولُهُ: (بِحُجَّةٍ واضِحَةٍ) هي معجزاتُهُ كاليدِ والعَصا.

قولُهُ: (كَالرُّكْنِ) وهو ما يُتَقَوَّى به ويُركَنُ إليه.

قولُهُ: (لِمُوسَى) أي: لأجلِهِ وفي شأنِهِ (هُو) أو له مشافهةً؛ فيُقدَّرُ: أنت؛ ليكونَ المقولُ جملةً، و(﴿أو﴾) للتَّنويعِ أو للتَّخييرِ، أو مرّةً ومرّةً مثلَ المتحيِّرِ.

قولُهُ: (ودَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ) والجملةُ حالٌ من الضَّميرِ في: ﴿أَخَذْنَاهُ﴾.

قولُهُ: (آيَةً) نصبٌ، ويحتملُ الرَّفعَ.

---

(١) أثر مجاهد رواه في (١٨٦٦٢)، وأثر ابن جبير رواه في (١٨٦٦٣).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٣).

(٣) قال العيني: «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية» (٣/ ١٠٨١): هذا رجز مشهور بين القوم، ولم أر أحدًا عزاه إلى راجزه. وفي «تفسير الثعلبي» (٣/ ٧٠): وأنشد الفرّاء لرجل من عبد القيس.

ـ هي التي لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تُلقح الشجر، وهي الدَّبور ـ ٤٢ ـ ﴿ما تَذَرُ مِن شَيءٍ﴾ نفس أو مال، ﴿أتَتْ عليهِ، إلاّ جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ﴾: كالبالي المُتفتِّت.

٤٣ ـ ﴿وفي﴾ إهلاك ﴿ثَمُودَ﴾ آيةٌ، ﴿إذ قِيلَ لَهُم﴾ بعد عقر الناقة: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾: إلى انقضاء آجالكم كما في آيةِ «تَمَتَّعُوا في دارِكُم ثَلاثةَ أيّامٍ». ٤٤ ـ ﴿فعَتَوا﴾: تكبّروا ﴿عَن أمرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن الله وامتثال أمره، ﴿فأخَذَتهُمُ الصّاعِقةُ﴾ بعد مُضيّ الثلاثة أيامٍ، أي: الصيحةُ المُهلِكة، ﴿وهُم يَنظُرُونَ﴾ أي: بالنهار، ٤٥ ـ ﴿فما استَطاعُوا مِن قِيامٍ﴾: ما قدروا على النهوض حِين نُزول العذاب، ﴿وما كانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ على مَن أهلكهم، ٤٦ ـ ﴿وقَومِ نُوحٍ﴾ ـ بالجرّ عطفٌ على «ثمودَ» أي: وفي إهلاكهم بماء السماء والأرض آيةٌ، وبالنصب أي: وأهلَكْنا قومَ نوح ـ ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ إهلاك هؤلاء المذكورين. ﴿إنَّهُم كانُوا قَومًا فاسِقِينَ﴾.

قولُهُ: (هِيَ الَّتِي) أي: سمَّاها عقيماً؛ لأنَّها لم تتضمَّنْ منفعةً، أو لأنَّها أهلكَتْهُم وقطعَتْ دابرَهُم.

قولُهُ: (الدَّبُورُ) أو الجنوبُ، أو النَّكباءُ[١] وهي بين الرِّيحَينِ.

قولُهُ: (﴿أَتَتْ﴾) أي: مَرَّتْ مما أُمِرَت به.

قولُهُ: (كَالبَالِي) أو كالرَّمادِ.

قولُهُ: (الصَّيحَةُ المُهْلِكَةُ) هذا يلائمُ قراءةَ الكسائيِّ: (الْصَّعْقَةُ)[٢]، إذ هي المرَّةُ من الصَّعقِ، وهي الصَّيحةُ، وأمَّا الصَّاعقةُ: فهي نارٌ نازلةٌ من السَّماءِ على ما في «الكشَّافِ»[٣]، ويؤيِّدُه قولُه: (﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾) إليها، فإنَّها جاءَتْهُم معاينةً بالنَّهارِ.

قولُهُ: (عَلى النُّهُوضِ) كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

قولُهُ: (عَلى مَنْ أَهْلَكَهُم) الظَّاهرُ: ما كانوا ممتنعينَ منه.

قولُهُ: (بالجَرِّ) بصريٌّ وحمزةُ والكسائيُّ[٤].

قولُهُ: (أي: وأَهْلَكْنَا) لأنَّ ما قبلَهُ[٥] يدلُّ عليه، أو اذكُرْ، أو عطفٌ على محلِّ: ﴿فِي عَادٍ﴾ ويؤيِّدُه قراءةُ الجرِّ[٦].

---

(١) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال. «القاموس المحيط» (ص: ١٣٩).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٤).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٥) وهو الهاء والميم في قوله: ﴿فأخذتهم﴾.

(٦) وهي قراءة البصري وحمزة والكسائي، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

٤٧ ـ ﴿والسَّماءَ بَنَيناها بِأيدٍ﴾: بقُوّة، ﴿وإنّا لَمُوسِعُونَ﴾: قادرون ـ يقال: آدَ الرجلُ يَئيدُ: قَوِيَ. وأوسَعَ الرجلُ: صار ذا سَعة وقُوّة ـ ٤٨ ـ ﴿والأرضَ فَرَشْناها﴾: مهّدناها. ﴿فنِعمَ الماهِدُونَ﴾ نحن! ٤٩ ـ ﴿ومِن كُلِّ شَيءٍ﴾: متعلّق بقوله: ﴿خَلَقْنا زَوجَينِ﴾: صِنفينِ كالذّكر والأُنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء، والحلو والحامض، والنور والظلمة، ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ ـ بحذف إحدى التاءين من الأصل ـ فتعلمون أنّ خالق الأزواج فرد فتعبدونه. ٥٠ ـ ﴿ففِرُّوا إلَى اللهِ﴾ أي: إلى ثوابه من عِقابه بأن تُطيعوه ولا تَعصُوه ـ ﴿إنّي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار ـ ٥١ ـ ﴿ولا تَجعَلُوا مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ. إنّي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. يُقدَّر قبلَ «ففرّوا»: قُل لهم.

٥٢ ـ ﴿كَذلِكَ، ما أتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِم مِن رَسُولٍ إلاّ قالُوا﴾: هو ﴿ساحِرٌ أو مَجنُونٌ﴾..........

قولُهُ: (قَادِرُونَ) من الوُسعِ؛ بمعنى: الطَّاقةِ، والموسعُ القادرُ على الإنفاقِ، أو ﴿لموسعُونَ﴾ السَّماءَ، أو ما بينَها وبينَ الأرضِ أو الرِّزقَ.

قولُهُ: (قَوِيَ) ومنه التَّأييدُ، وفي «القاموسِ»(١): آدَ يئيدُ أيداً: اشتدَّ، والآدُ: الصُّلبُ، والقوَّةُ، كالأيدِ.

قولُهُ: (مَهَّدْنَاهَا) لتستقرُّوا عليها.

قولُهُ: (صِنفَيْنِ) أو نوعينِ.

قولُهُ: (مِنَ الأَصلِ) للكوفيِّ غيرَ شعبةَ، والباقونَ بالتَّشديدِ(٢).

قولُهُ: (فَرْدٌ) إذ التَّعدُّدُ مِن خواصِّ الممكناتِ، والواجبُ بالذَّاتِ لا يقبلُ التَّعدُّدَ والانقسامَ.

قولُهُ: (مِنْ عِقَابِهِ) أو ففِرُّوا إلى اللهِ ممَّا سواهُ.

قولُهُ: (بَيِّنُ الإِنذَارِ) من عذابِهِ المُعَدِّ لمن أشرَكَ أو عَصى، أو ﴿مبينٌ﴾ ما يجبُ أن يحذرَ منه، وكرَّرَ قولَه: ﴿إنّي لَكُم نَذِيرٌ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مرتَّبٌ على تركِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ، وأُفرِدَ؛ لأنَّهُ أعظمُ ما يجبُ أن يُفَرَّ بسببِهِ.

قولُهُ: (يُقَدَّرُ) لا حاجةَ إلى التَّقديرِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٦٦).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

أي: مِثلُ تكذيبهم لك بقولهم: «إنك ساحرٌ أو مجنون» تكذيبُ الأُمم قبلهم لرُسلهم بقولهم ذلك. ٥٣ ـ ﴿أتواصَوا﴾ كُلّهم ﴿بِهِ﴾؟ استفهام بمعنى النفي، ﴿بَل هُم قومٌ طاغُونَ﴾، جمَعَهم على هذا القول طغيانُهم. ٥٤ ـ ﴿فتَوَلَّ﴾: أعرِض ﴿عَنهُم ـ فما أنتَ بِمَلُومٍ﴾ لأنك بلّغتَهم الرسالةَ ـ ٥٥ ـ ﴿وذَكِّرْ﴾: عِظْ بالقرآن. ﴿فإنَّ الذِّكرَى تَنفَعُ المُؤمِنِينَ﴾: مَن عَلِمَ اللهُ ـ تعالى ـ أنه يُؤمن.

٥٦ ـ ﴿وما خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعبُدُونِ﴾ ـ ولا يُنافي ذلك عدمَ عِبادة الكافرين لأن الغاية لا يلزم وجودُها كما في قولك: بَريتُ هذا القلمَ لأكتب به. فإنك قد لا تكتب به ـ........

قولُهُ: (مِثْلُ تَكذِيبِهِم) بالرَّفعِ.

قولُهُ: (بِقَولِهِم) أي: تسميتِهم إيَّاكَ ساحراً أو مجنوناً؛ أي: كذلك الأمرُ، وقولُهُ: (﴿مَا أَتَى﴾) كالتَّفسيرِ له، ولا يجوزُ نصبُهُ بـ﴿أَتَى﴾؛ لأنَّ ما بعدَها لا يعملُ في ما قَبلَها.

قولُهُ: (كلُّهُم) كأنَّ الأوَّلينَ والآخرينَ منهم أوصى بعضُهُم بعضاً بهذا القولِ حتَّى قالوهُ جميعاً.

قولُهُ: (بِمَعنَى النَّفيِ) لتباعُدِ أيَّامِهِم.

قولُهُ: (طُغيَانُهُمْ) الحامِلُ عليه.

قولُهُ: (أَعْرِضْ) عن مجادلَتِهم بعدَ ما كرَّرتَ عليهم الدَّعوةَ فأبَوا إلَّا الإصرارَ والعنادَ.

قولُهُ: (بَلَّغْتَهُم) فلا عتبَ عليكَ في الإعراضِ.

قولُهُ: (وَعِظْ) أي: ولا تدعِ التَّذكيرَ والموعظةَ.

قولُهُ: (مَنْ عَلِمَ) أو مَن آمنَ، فإنَّها تزيدُهُ بصيرةً.

قولُهُ: (عِبَادَةِ الكَافِرِينَ) وفيه أنَّهُم يعبدونَهُ لكن بطريقٍ غيرِ مستقيمٍ، أو المرادُ بالعبادةِ: المعرفةُ كما فسَّرَهُ ابنُ عبَّاسٍ[1]، وكلُّهُم يعرفونَ اللهَ في الجملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مع أنَّه لا يلزمُ مِن عدمِ معرفةِ البعضِ خلافُ مرادِهِ تعالى سيَّما إذا أُرِيدَ بِهِما الجنسُ، وقيل: اللَّامُ فيهما للعهدِ فلا ينافي قولَهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقيل: معناهُ لنأمرَهُم بالعبادةِ، أو ليكونوا عباداً لي.

قولُهُ: (فَإِنَّكَ قَد لا تَكْتُبُ) هذا بالنِّسبةِ إلينا مسلَّمٌ، وأمَّا بالنِّسبةِ إليه تعالى فممنُوعٌ.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، وذكره مع نسبته لمجاهد الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٤/ ٥٦٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٨٨).

٥٧ ـ ﴿ما أُرِيدُ مِنهُم مِن رِزقٍ﴾ لي ولأنفسهم وغيرِهم، ﴿وما أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ﴾ ولا أنفُسَهم ولا غيرَهم. ٥٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوّةِ المَتِينُ﴾: الشديدُ.

٥٩ ـ ﴿فإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم بالكُفر من أهل مكّة وغيرهم ﴿ذَنُوبًا﴾: نصيبًا من العذاب ﴿مِثلَ ذَنُوبِ﴾: نصيبِ ﴿أصحابِهِم﴾ الهالكين قبلهم. ﴿فلا يَستَعجِلُونِ﴾ بالعذاب، إن أخّرتُهم إلى يوم القيامة. ٦٠ ـ ﴿فوَيلٌ﴾: شِدّةُ عذابِ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾: في ﴿يَومِهِمِ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: يومِ القيامة.

قولُهُ: (ولا غَيرَهُم) وقيل: يُقَدَّرُ: قل، فيكونُ بمعنى قولِه: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

قولُهُ: (الشَّدِيدُ) القُوَّةِ.

قولُهُ: (أَنفُسَهُم) أو رسولَ اللهِ بالتَّكذيبِ.

قولُهُ: (قَبلَهُم) من الأممِ السَّالفةِ.

قولُهُ: (إنْ أَخَّرْتُهُم) جوابٌ لقولِهِم: متى هذا الوَعدُ؟.

قولُهُ: (يَومِ القِيَامَةِ) أو يومِ بدرٍ، واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، ولم يُحكَ في ذلك خلاف. وهي ستون آيةً بالاتّفاق، كما في كتاب «العدد»[1].

ومناسبتُها لسورة «ق» أنَّها لمَّا خُتِمَت بذكر البعثِ واشتمَلَت على ذكر الجزاء والجنةِ والنارِ وغير ذلك افتُتِحَت هذه بالإقسام على أنَّ ما وُعِدُوا من ذلك لصادق، وأنَّ الجزاءَ لواقعٌ. وأنَّه قد ذُكرَ هناك إهلاكُ كثيرٍ من القرون على وجه الإجمال، وذُكر هنا إهلاكُ بعضهم على سبيل التفصيل، إلى غير ذلك ممَّا يَظهرُ للمتأمل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾ أي: الرياح التي تذرُو الترابَ وغيرَه، من «ذَرا» المعتل، بمعنى فَرَّق وبدَّد ما رَفَعه عن مكانه.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ أي: حِمْلاً، وهي السحُبُ الحاملةُ للمطر.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ أي: جَرْياً سهلاً إلى حيث سُيِّرَت، وهي السفن.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ هي الملائكة الذين يُقسِّمُون الأمورَ بين الخلق على ما أُمرُوا به.

وتفسيرُ كلٍّ بما فُسِّر به قد صحَّ روايتُه من طُرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه،

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن ١/٢٣٢ لأبي عمرو الداني، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٨/٩٤.

وفي بعض الروايات أنَّ ابنَ الكَوَّاء سألَه عن ذلك وهو رضي الله عنه يخطُبُ على المنبر فأجاب بما ذكر(١).

وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّه تفسيرٌ مأثورٌ عن رسول الله ﷺ، أخرج البزار والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه وابنُ عساكر عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغٌ التميميُّ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أخبرني عن «الذارياتِ ذَرواً» قال: هي الرياح، ولولا أنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «الحاملات وِقْراً» قال: هي السحاب، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «الجاريات يُسراً» قال: هي السفنُ، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «المقسِّمات أمراً» قال: هي الملائكة، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. ثم أَمرَ به فضُرِبَ مئةً وجُعِلَ في بيت، فلمَّا بَرأ دعاه فضَربَه مئةً أخرى وحَملَه على قَتَب، وكَتَب إلى أبي موسى الأشعريِّ: امنَع الناسَ من مجالسته، فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلَفَ له بالأيمان المغلَّظة ما يجدُ في نفسه مما كان يجدُ شيئاً، فكتَبَ إلى عمر رضي الله عنه: ما أَخالُه إلا قد صدَقَ، فخلِّي بينه وبين مجالسةِ الناس(٢).

---

(١) أخرجه بتمامه ومختصراً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤١، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨، والطبري ٢١/ ٤٨٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦-٤٦٧، والضياء المقدسي في المختارة ٢/ ١٧٦. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وابن الكوَّاء: هو عبد الله، قال الحافظ في لسان الميزان ٣/ ٣٢٩: له أخبار كثيرة مع علي، وكان يلزمه ويُعْنِيهِ في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج وعاود صحبة علي رضي الله عنه.

(٢) مسند البزار (٢٩٩)، وكشف الأستار (٢٢٥٩)، وتاريخ دمشق ٢٣/ ٤١٠، وعزاه للدارقطني في الأفراد وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١١.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٢: فيه أبو بكر بن أبي سبرة وهو متروك. قال ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩: والراوي عنه أضعف منه.
قلنا: وأصل قصة ضرب عمر للسائل أخرجه ابن الأنباري بسند صحيح كما في الإصابة ٥/ ١٦٩، وأخرجه أيضاً الدارمي (١٤٤) و(١٤٨)، والآجري في الشريعة (١٥٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١١٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ١١. وجاء في إحدى الروايتين عند الدرامي أنه كان يسأل عن متشابه القرآن.

ويدلُّ هذا أنَّ الرجل لم يكن سليم القلب، وأنَّ سؤالَه لم يكن طلباً للعلم وإلا لم يصنع به عمرُ رضي الله عنه ما صنع.

وفي رواية عن ابن عباس: أنَّ «الحاملات» هي السفن المُوْقَرة بالناس وأمتعتهم، وقيل: هي الحوامل من جميعِ الحيوانات.

وقيل: «الجارياتُ» السحبُ تجري وتسيرُ إلى حيث شاء الله عزَّ وجل. وقيل: هي الكواكبُ التي تجري في منازلها، وكلُّها لها حركةٌ وإن اختلَفَت سرعةً وبُطئاً كما بيِّن في موضعه[١]. وقيل: هي الكواكبُ السبعةُ الشهيرةُ وتسمَّى السيَّارة.

وقيل: «الذاريات» النساءُ الولود، فإنَّهنَّ يَذْرِيْنَ الأولادَ، كأنَّه شبَّه تَتَابُعَ الأولادِ بما يتطايرُ من الرياح، وباقي المتعاطفات على ما سمعتَ أولاً.

وقيل: «الذاريات» هي الأسبابُ التي تَذْري الخلائقَ، على تشبيه الأسبابِ المُعدَّة للبروز من العدم بالرياح المفرِّقة للحبوب ونحوها.

وقيل: «الحاملات» الرياحُ الحاملة للسحاب، وقيل: هي الأسبابُ الحاملة لمسبَّباتها مجازاً.

وقبل: «الجاريات» الرياح تجري في مهابِّها.

وقيل: «المقسِّمات» السحبُ يَقسِمُ الله تعالى بها أرزاقَ العباد، وقيل: هي الكواكبُ السبعةُ السيارة، وهو قولٌ باطلٌ، لا يقولُ به إلا مَن زعم أنَّها مدبِّرةٌ لعالم الكون والفساد.

وفي صحيح البخاري عن قتادة: خَلَق الله تعالى هذه النجومَ لثلاثٍ: جَعَلها زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتَدى بها، فمَن تأوَّلَ فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاعَ نصيبَه وتَكلَّف ما لا يعلم[٢]. وزاد رزين: وما لا عِلْمَ له به،

(١) في سورة يس عند الآية (٣٨-٣٩).
(٢) ذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في: باب في النجوم، بعد حديث (٣١٩٨)، ووصله عبد بن حميد في تفسيره كما في تغليق التعليق ٣/ ٤٨٩.

وما عَجَزَ عن عِلْمِهِ الأنبياءُ والملائكةُ[١]. وعن الربيع مثله وزادَ: واللهِ ما جَعَل اللهُ تعالى في نَجْمٍ حياةَ أحدٍ ولا رِزْقَه ولا مَوتَه، وإنما يَفتَرُون على الله تعالى الكذبَ ويتعلَّلون بالنجوم. ذكره صاحبُ «جامع الأصول»[٢]، وقد مرَّ الكلامُ في إبطال ما قاله المنجِّمون مفصَّلاً فتذكر[٣]، ولعلَّه سيأتي إن شاء الله تعالى شيءٌ من ذلك.

وجوّز أنْ يُراد بالجميع الرياحُ، فإنَّها كما تذرو ما تذروه تُثيرُ السحابَ وتحملُه، وتجري في الجوِّ جَرْياً سهلاً، وتَقسِمُ الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار. والمعوَّل عليه ما روي عن عمر ﷺ سامعاً له من رسول الله ﷺ[٤]، وقاله بابُ مدينةِ العلمِ كرم الله تعالى وجهه على المنبر، وإليه ـ كما نُقِل عن الزجَّاج ـ ذهبَ جميعُ المفسرين[٥]، أي: المعتبَرين، وقولُ الإمامِ بعدَ نقلِهِ له عن الأمير: الأقربُ أنْ تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح، جسارةٌ عظيمةٌ على ما لا يُسلَّم له، وجهلٌ منه بما رواه ابنُ المسيّب من الخبر الدالِّ على أنَّ ذلك تفسيرُ النبيِّ ﷺ، فأين منه الإمام عمر بن الخطاب ﷺ.

وقول صاحب «الكشف»: إنَّه شديدُ الطِّباق للمقام، ولذا آثرَه الإمامُ، لا أُسلِّمه له أيضاً إذا صحَّ الحديث.

ثم إذا حملت هذه الصفات على أمورٍ مختلفةٍ متغايرة بالذات كما في المعوَّل عليه، فالفاءُ للترتيب في الأقسام ذكراً ورُتبةً باعتبارِ تفاوتِ مراتبها في الدلالة على كمال قدرتِهِ عزَّ وجل، وهذا التفاوتُ إما على الترقِّي أو التنزل لِمَا في كلٍّ منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وَجْهٍ وأدنى من آخر، إذا نَظَر لها ذو نظرٍ صحيح.

---

(١) جامع الأصول ١١/ ٥٨٠.
(٢) جامع الأصول ١١/ ٥٨٠.
(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٣٨-٣٩) من سورة يس.
(٤) وهو حديث ضعيف جدًّا كما أسلفنا.
(٥) معاني القرآن ٥/ ٥١.

وقيل: الترتيبُ بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منَّا، وإنْ حملت على واحدٍ وهو الرياح فهي لترتيب الأفعال والصفات، إذ الريحُ تذرو الأبخرة إلى الجوِّ أولاً حتى تنعقدَ سحاباً، فتحملُه ثانياً، وتجري به ثالثاً، ناشرةً وسائقةً له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تَقسِمُ أمطاره.

وقيل: إذا حملت «الذاريات» و«الحاملات» على النساء، فالظاهرُ أنَّها للتفاوت في الدلالة على كمال القدرة، فتدبَّر.

ونصب «ذرواً» على أنَّه مفعولٌ مطلَق، و«وِقْراً» على أنه مفعول به، وجوَّز الإمامُ أنْ يكونَ من باب: ضربتُه سوطاً[١]. و«يُسراً» على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ بتقدير مضافٍ، أي: جَرْياً ذا يُسرٍ، أو على أنَّه حال، أي: ميسَّرةً كما نقل عن سيبويه[٢].

و«أمراً» على أنَّه مفعولٌ به، وهو واحدُ الأُمور، وقد أُريدَ به الجمعُ ولم يُعبَّر به؛ لأنَّ الفردَ أَنسبُ برؤوس الآي مع ظهور الأمر، وقيل: على أنَّه حالٌ، أي: مأمورةً، والمفعول به محذوفٌ، أو الوصف مُنزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: تَفْعَلُ التقسيمَ مأمورةً.

وقرأ أبو عمرو وحمزة: «والذاريات ذرواً» بإدغام التاء في الذال[٣]، وقرئ: «وَقراً» بفتح الواو[٤] على أنَّه مصدرُ وَقَرَه إذا حَمَلَه، كما أفاده كلام الزمخشريِّ[٥]، وناهيك به إماماً في اللغة، وعلى هذا هو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به أيضاً على تسمية المحمولِ بالمصدر، أو على أنَّه مفعولٌ مطلق لـ «حاملات» من معناها، كأنَّه قيل: فالحاملاتُ حِمْلاً.

---

(١) أي أنه اسم ناب عن المصدر، والأصل في المثال: ضربتُه ضربَ سوط، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وكلام الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب ٢٨/ ١٩٦.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ١٩٢ وما بعد، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٣٣.

(٣) النشر ١/ ٣٠٠.

(٤) الكشاف ٤/ ١٣، والبحر المحيط ٨/ ١٣٣.

(٥) الكشاف ٤/ ١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٩٤.

وقوله تعالى شأنه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ جوابٌ للقسم، و«ما» موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، أي: إنَّ الذي توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أنْ تكونَ مصدريةً، أي: إنَّ وعدَكم، أو وعيدَكم، إذ «توعدون» يحتمل أنْ يكونَ مضارعَ وَعَدَ، وأنْ يكونَ مضارع أَوْعَدَ، ولعل الثاني أنسبُ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥] ولأنَّ المقصودَ التخويفُ والتهويلُ، وعن مجاهد أنَّ الآية في الكفار، وهو يُؤيِّدُ الوعيدَ، ومعنى صِدْقِهِ: تحقُّق وقوعِهِ.

وفي «الكشاف»: وعدٌ صادق كـ: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، و«الدِّين» الجزاءُ، ووقوعُهُ حصولُه(١).

والأكثرون على أنَّ الموعودَ هو البعثُ، وفي تخصيص المذكوراتِ بالإقسام بها رمزٌ(٢) إلى شهادتها بتحقُّق الجملةِ المقسَم عليها من حيث إنَّها أمورٌ بديعةٌ، فمَن قَدَر عليها فهو قادرٌ على تحقيق البعث الموعود.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ أي: الطُّرُق(٣)، جمعُ حَبِيْكَة كطريقة، أو حِباك كمِثَال ومُثُل، ويقال: حُبُك الماءِ للتكسُّر الجاري فيه إذ مرَّت عليه الريحُ، وعليه قول زهير يَصفُ غديراً:

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْم تَنسجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لضاحي مائِهِ حُبُكُ(٤)

وحُبُكُ الشعر لآثار تَثَنِّيه وتكسُّره، وتفسيرُها بذلك مرويٌّ عن مقاتل والكلبي والضحاك، والمرادُ بها إما الطرقُ المحسوسةُ التي تسيرُ فيها الكواكبُ، أو المعقولةُ التي تُدرَك بالبصيرة، وهي ما تدلُّ على وحدةِ الصانع وقدرتِهِ وعِلْمِهِ وحِكمتِهِ جلَّ شأنه إذا تأمَّلَها الناظرُ.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤.

(٢) قوله: رمز، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٣٦.

(٣) في الأصل: الطريق، والمثبت من (م).

(٤) شرح ديوان زهير ص ١٧٦، والبيت في وصف وادٍ، وجاء في شرحه: النجم: النبت الذي يقال له: الثَّيِّل، وريح خريق: شديدة، وضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، أي: برز.

وقال ابن عباس وقتادة وعكرمة ومجاهد والربيع: ذاتُ الخَلْق المستوي الجيد، وفي روايةٍ أخرى عن مجاهد: المُتقَنَة البُنْيان. وقيل: ذات الصَّفَاقة، وهي أقوالٌ متقاربةٌ، وكأنَّ الحبُك عليها من قولهم: حَبَكت الشيءَ: أَحْكَمته وأَحْسَنت عملَه، وحَبَكت العُقْدَةَ: أَوثقتها، وفرسٌ محبوكُ المعاقِم، وهي المفاصل، أي: مُحكَمُها.

وفي «الكشف»: أصلُ الحباكة الصَّفاقةُ وجودةُ الأثر.

وعن الحسن: حُبُكُها نجومها. والظاهرُ أنَّ إطلاقَ الحُبُك على النجوم مجازٌ؛ لأنَّها تُزيِّنُ السماء كما يُزيِّنُ الثوبَ المُوشَّى حُبُكه وطرائقُ وَشْيه، فكأنَّه قيل: ذات النجوم التي هي كالحُبُك، أي: الطرائق في التزيين.

واستظهرَ في «السماء» أنَّه جنسٌ أُريدَ به جميعُ السماوات، وكونُ كلٍّ واحدةٍ منها ذاتَ حُبُكٍ بمعنى مستوية الخَلْق جيِّدته، أو متقنة البنيان، أو صَفِيْقة، أو ذات طُرُقٍ معقولة = ظاهرٌ.

وأما كونُ كلٍّ منها كذلك بمعنى: ذات طُرُقٍ محسوسةٍ، فباعتبار أنَّ الكواكبَ في أيِّ سماءٍ كانت تَسيرُ مُسامِتَةً لسائر السماوات، فمَمَرَّاتُها باعتبار المسامَتةِ طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أنَّ النجومَ في أيِّ سماءٍ كانت تُشاهَدُ في سائر السماوات بناءً على أنَّ السماوات شفَّافة لا يحجُبُ كلٌّ منها إدراكَ ما وراءه.

وأخرجَ ابن منيع عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه أنَّه قال: هي السماء السابعةُ[1]، وعن عبد الله بن عمرو مثلُه[2]. فتدبَّر ولا تغفل.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلافٍ عنه وأبو مالك الغِفاري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو: «الحُبْك» بإسكان الباء[3] على زنة

---

(١) الذي أخرجه أحمد بن منيع عن علي ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ١١٢ أنه قال: ذات الخلق الحسن.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩-٤٩٠، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ١١٢ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.

القُفْل، وعكرمة بفتحها جمع حُبْكة مثل طُرْفةٍ وطُرَف، وبُرْقَة وبُرَق[1].

وأبو مالك الغفاريُّ والحسنُ بخلافٍ عنه أيضاً بكسر الحاء والباء كالإبِل[2]، وهو على ما ذكر الخفاجي اسمٌ مفردٌ وَرَدَ على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً[3].

وأبو مالك والحسن وأبو حيوة أيضاً بكسر الحاء وإسكان الباء كالسِّلْك[4]، وهو تخفيفُ فِعِلٍ مكسورِ الفاءِ والعين، وهو اسمٌ مفردٌ لا جَمعٌ؛ لأنَّ فِعِلاً ليس مِن أبنية الجموع. قاله في «البحر»[5].

وابن عباسٍ وأبو مالك أيضاً بفتحهما كالجَبَل[6]. قال أبو الفضل الرازي: فهو جَمعُ حَبَكة مثل عَقَبَة وعَقَب.

والحسن أيضاً بكسر الحاء وفَتْح الباء كالنِّعَم[7].

وأبو مالك أيضاً بكسر الحاء وضمِّ الباء[8]، وذكرها ابنُ عطية عن الحسن أيضاً ثم قال: هي قراءةٌ شاذةٌ غيرُ متوجِّهة، وكأنَّه بعد أنْ كَسَر الحاء تَوهَّم قراءةَ الجمهور فضمَّ الباء[9]، وهذا من تداخل اللغاتِ، وليس في كلام العرب هذا البناء[10]، أي: لأنَّ فيه الانتقالُ من خِفَّةٍ إلى ثِقَلٍ على عكس ضُرِبَ مبنيّاً للمفعول، وقال

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤، والبرقة: غِلَظٌ ـ أي: أرض ـ فيه حجارة ورمل وطين مختلطةٌ. ينظر القاموس (برق)، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٩٥.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٦ للحسن.

(٧) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٨) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٩) في الأصل و(م): التاء، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢.

صاحب «اللوامح»: هو عديمُ النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها، ولا أدري ما وراءه[1]. انتهى.

وعلى التداخُل تأوَّلَ النحاةُ هذه القراءةَ، وقال أبو حيان: الأحسنُ عندي أنْ يكونَ ذلك مما أُتبعَ فيه حركةُ الحاء لحركة تاء «ذات» في الكسر، ولم يعتدَّ باللام الساكنة؛ لأنَّ الساكن حاجزٌ غيرُ حصين.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ أي: متخالفٍ متناقضٍ في أمرِ الله عزَّ وجل حيث تقولون: إنَّه جلَّ شأنه خالقُ السماوات والأرض، وتقولون بصِحَّة عبادة الأصنامِ معه سبحانه، وفي أمر الرسول ﷺ فتقولون تارةً: إنَّه مجنون، وأخرى: إنَّه ساحرٌ، ولا يكونُ الساحر إلا عاقلاً، وفي أمر الحشر فتقولون تارةً: لا حشر ولا حياةَ بعد الموت أصلاً، وتزعمون أخرى أنَّ أصنامَكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة. إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كُلِّفوا بالإيمان به.

واقتصر بعضُهم على كون القولِ المختلفِ في أمره ﷺ.

والجملةُ جوابُ القسم ولعل النكتةَ في ذلك القسم تشبيهُ أقوالهم في اختلافها وتنافي أعراضِها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف هيئاتها، أو الإشارةُ إلى أنَّها ليست مستويةً جيدةً، أو ليست قويةً محكمةً، أو ليس فيها ما يزيِّنُها، بل فيها ما يَشينُها من التناقض.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أي: يُصرَف عن الإيمان بما كُلِّفوا الإيمانَ به؛ لدلالة الكلام السابق عليه، وقال الحسن وقتادة: عن الرسول ﷺ. وقال غيرُ واحد: عن القرآن، والكلامُ السابق مُشعرٌ بكلِّ مَن صُرف الصرف الذي لا صرف[2] أشدَّ منه وأعظم؛ ووجْهُ المبالغة من إسناد الفعلِ إلى مَن وُصِفَ به، فلولا غرضُ المبالغة لكان من توضيح الواضح، فكأنَّه أُثبتَ للمصروف صرفٌ آخرُ حيث قيل: يُصرَفُ عنه المصروفُ، فجاءت المبالغةُ من المضاعفة، ثم الإطلاقُ في المقام الخطابي له

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٤

(٢) قوله: صرف، ليس في (م).

مدخلٌ في تقوية أمر المضاعفة، وكذلك الإبهام الذي في الموصول، وهو قريبٌ من قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقيل: المرادُ: يُصرَف عنه في الوجود الخارجيِّ مَن صُرِفَ عنه في عِلْمِ الله تعالى وقضائه سبحانه.

وتُعقِّب بأنَّه ليس فيه كثيرُ فائدةٍ؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائنٌ معلومٌ أنَّه ثابتٌ في سابق علمه تعالى الأزلي، وليس فيه المبالغةُ السابقة.

وأُجيبَ عن الأوَّل بأنَّ فيه الإشارةَ إلى أنَّ الحُجَّةَ البالغةَ لله عزَّ وجل في صَرْفه، وكَفَى بذلك فائدةً، وهو مبنيٌّ على[1] أنَّ العلم تابعٌ للمعلوم، فافهمه.

وحَكَى الزهراوي أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ لـ «ما توعدون» أو لـ «الدين»، أَقسمَ سبحانه بـ «الذاريات» على أنَّ وقوعَ أمر القيامة حقٌّ، ثم أَقسمَ بـ «السماء» على أنَّهم في قول مختلفٍ في وقوعه، فمنهم شاكٌّ ومنهم جاحدٌ، ثم قال جل وعلا: (يُؤْفَكُ) عن الإقرار بأمر القيامة مَن هو المأفوك، وذكر ذلك الزمخشريُّ ولم يَعْزُه[2]، وادَّعى صاحب «الكشف» أنَّه أوجهُ لتلاؤم الكلام.

وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ لـ «قولٍ مختلِف»، و«عن» للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] وقوله:

يَنْهَونَ عن أكلٍ وعن شُرْبٍ … مثلَ المها يَرْتَعْنَ في خصبِ[3]

أي: يُصرَف بسبب ذلك القولِ المختلف مَن أراد الإسلام، وقال الزمخشري:

---

(١) قوله: على، ليس في (م).

(٢) الكشاف ٤/ ١٤.

(٣) المعاني الكبير ١/ ٣٨٢، والكشاف ١/ ٢٧٣ و٤/ ١٤، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٥، واللسان (نيه) و(نهى). ورواية البيت في المعاني والكشاف واللسان:

يمشون دُسْماً حول قُبَّته … يَنْهَون عن أكل وعن شرب

وجاء في حاشية (م): يصف الشاعر مضيافاً يَصْدُر الأضياف عنه شباعاً يتناهون في السِّمَن بسبب الأكل والشرب، وقالوا: جمل ناهٍ، إذا كان عريقاً في السمن. اهـ.

حقيقتُهُ: يصدُرُ إفكُهم عن القول المختلف[١]. وهذا محتملٌ لبقاء «عن» على أصلها من المجاوزة واعتبارِ التضمين، وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر من غير داعٍ مع ذهاب تلك المبالغةِ.

وجوَّز ابنُ عطية رجوعَ الضمير إلى القول إلا أنَّه قال: المعنى: يُصرَف عن ذلك القولِ المختلفِ بتوفيق الله تعالى للإسلام من غَلَبت سعادتُه.

وتعقبه بأنَّ فيه مخالفةً للعرف، فإنَّ عُرْفَ الاستعمال في الإفك الصرفُ من خيرٍ إلى شرٍّ، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين[٢].

ثم إنَّ ذلك على كون الخطاب في «إنَّكم» للكفار وهو الذي ذهب إليه ابن زيد وغيره.

واستظهر أبو حيان كونَه عامّاً للمسلم والكافر، واستظهر العمومَ فيما سبق أيضاً، والقولُ المختلف حينئذٍ قولُ المسلمين بصِدْق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقولُ الكفار بنقيض ذلك[٣].

وقرأ ابن جبير وقتادة: «مَن أَفَكَ» مبنيّاً للفاعل[٤]، أي: من أَفَكَ الناسَ عنه، وهم قريشٌ.

وقرأ زيد بنُ علي: «يَأْفَكُ عنه مَن أفك»[٥] أي: يَصرِفُ الناس عنه مَن هو أفَّاك كذَّاب.

وقرئ: «يُؤْفَنُ عنه مَنْ أُفِن» بالنون فيهما[٦]، أي: يُحرمُه مَن حُرِم، مِن أَفِنَ الضَّرعَ: إذا أنهكه حلباً.

(١) الكشاف ٤/ ١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٣٤ بنحوه.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والكشاف ٤/ ١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٣٥.
(٥) الكشاف ٤/ ١٥، والبحر ٨/ ١٣٥.
(٦) الكشاف ٤/ ١٥، والبحر ٨/ ١٣٥.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: الكذَّابون من أصحاب القول المختلف، وأصلُ الخَرْص الظنُّ والتخمينُ، ثم تُجوِّزَ به عن الكذب؛ لأنَّه في الغالب يكونُ منشأً له، وقال الراغب: حقيقةُ ذلك أنَّ كلَّ قولٍ مَقولٍ عن ظنٍّ وتخمين يُقال له خرصٌ، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إنَّ صاحبَه لم يقله عن علم ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بل اعتمدَ فيه على الظنِّ والتخمين، كفِعْل خارصِ الثمرةِ في خَرْصه، وكلُّ مَن قال قولاً على هذا النحو قد يُسمَّى كاذباً، وإنْ كان قوله مطابقاً للمقول المخبَر به كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية[1] [المنافقون:١]. انتهى، وفيه بحث.

وحقيقةُ القتل معروفةٌ، والمرادُ بـ «قُتِلَ» الدعاءُ عليهم مع قَطْع النظر عن المعنى الحقيقي. وعن ابن عباس تفسيرُه باللعن؛ قال ابن الأنباري: وإنما كان القتلُ بمعنى اللعن هنا لأنَّ مَن لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك[2].

وقرئ: «قَتَل الخرَّاصين» أي: قَتَل اللهُ الخرَّاصين[3].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهلٍ عظيمٍ يغمرُهم ويشملُهم شمولَ الماء الغامر لِمَا فيه ﴿سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ غافلون عما أُمِرُوا به، فالمرادُ بالسَّهو مطلقُ الغفلة.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ أي: بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ معمولٌ لـ «يسألون» على أنَّه جارٍ مجرى يقولون لِمَا فيه من معنى القول، أو لقولٍ مقدَّرٍ، أي: فيقولون متى وقوعُ يوم الجزاء. وقُدِّر الوقوعُ ليكونَ السؤالُ عن الحدث كما هو المعروف في «أيان»، ولا ضيرَ في جعل الزمان زمانياً، فإنَّ اليومَ لمَّا جُعِل موعوداً ومنتظراً في نحو قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ﴾ [الدخان:١٠] صار ملحَقاً بالزمانيات، وكذلك كلُّ يومٍ له شأنٌ مثل يوم العيد والنيروز، وهذا جارٍ في عُرفَي العرب والعجم، على أنَّه يجوزُ عند الأشاعرة أنْ يكونَ للزمان زمانٌ على ما فُصِّل في مكانه.

---

(١) مفردات الراغب (خرص).
(٢) ينظر الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ٢/ ٢٩٣.
(٣) الكشاف ٤/ ١٥.

وقرئ: «إيان» بكسر الهمزة[١]، وهي لغة.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يُحرَقُون، وأصلُ الفَتْن إذابةُ الجوهر ليظهرَ غِشُّهُ، ثم استُعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك. و«يوم» نُصِب على الظرفية لمحذوفٍ دلَّ عليه وقوعُ الكلام جواباً للسؤال مضافٍ للجملة الاسمية بعده، أي: يقعُ يومُ الدين يومَ هم على النار.. إلخ.

وقال الزجَّاج: ظرفٌ لمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ كذلك، أي: هو واقعٌ، أو كائن يوم... إلخ[٢].

وجوِّز أنْ يكونَ هو نفسُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والفتحةُ فتحةُ بناءٍ لإضافته إلى غير [مُتمكِّن][٣]، وهي الجملة الاسمية، فإنَّ الجمل بحَسَب الأصلِ كذلك، على كلامٍ فيه بين البصريين والكوفيين مُفصَّلٍ في «شرح التسهيل»، أي: هو يومَ هم.. إلخ، والضمير قيل: راجعٌ إلى وقت الوقوع، فيكونُ هذا الكلامُ قائماً مقامَ الجواب على نحو ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٧] في جواب ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾[٤] [المؤمنون:٨٦] لأنَّ تقدير السؤال: في أيِّ وَقْت يقع، وجوابُه الأصلي: في يوم كذا، وإذا قلت: وقتُ وقوعه يومَ كذا، كان قائماً مقامه.

ويجوزُ أنْ يكونَ الضمير لليوم، والكلامُ جوابٌ بحَسَب المعنى، فالتقدير: يومُ الجزاء يومَ تعذيبِ الكفار.

ويُؤيد كونَه مرفوعَ المحلِّ خبراً لمبتدأ محذوف قراءةُ ابن أبي عبلة والزعفراني: «يومُ هم» بالرفع[٥].

وزعم بعضُ النحاة أنَّ «يوم» بدلٌ من «يومُ الدين» وفتحتُه على قراءة الجمهور فتحةُ بناءٍ، و«يوم» وما في حيِّزه من جملة كلامِ السائلين، قالوه استهزاءً وحُكِيَ على

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٨.

(٢) معاني القرآن ٥/ ٥٢ بنحوه.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/ ٩٦، والبحر ٨/ ١٣٥، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٦.

(٤) جاء في الأصل و(م): ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمثبت هو الصواب.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والكشاف ٤/ ١٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٥.

المعنى، ولو حُكي على اللفظ لقيل: يوم نحنُ على النار نُفتَنُ. وهو في غاية البعد كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ بتقدير قولٍ وَقَع حالاً من ضمير «يُفتَنون»، أي: مقولاً لهم: «ذوقوا فتنتكم» أي: عذابَكم المعدَّ لكم، وقد يُسمَّى ما يحصل عنه العذاب كالكفر فتنة، وجوَّز أنْ يكونَ منه ما هنا، كأنَّه قيل: ذوقوا كفرَكم، أي: جزاءَ كفركم، أو بجعل الكفر نفسَ العذاب مجازاً، وهو كما ترى.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ جملةٌ مِن مبتدأ وخبرٍ داخلةٌ تحت القول المضمَر، أي: هذا العذابُ الذي كنتُم تستعجلون به بطريق الاستهزاء، وجوَّز أنْ يكونَ «هذا» بدلاً مِن «فتنتكم» بتأويل العذاب، وفيه بُعْدٌ.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ لا يُبلَغُ كُنْهُها ولا يُقادَر قدرُها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لكلِّ ما أعطاهم عزَّ وجل راضين به، على معنى: إنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مَرْضي يُتَلَقَّى بحُسن القبول، والعمومُ مأخوذٌ من شُيوع «ما» وإطلاقِهِ في معرض المدحِ وإظهارِ منِّهِ تعالى عليهم، واعتبارُ الرضا؛ لأنَّ الأخذ قبولٌ عن قصد. ونصب «آخذين» على الحال من الضمير في الظرف.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ أي: لأعمالهم الصالحةِ، آتين بها على ما ينبغي، فلذلك استحقُّوا ما استحقُّوا من الفوز العظيم، وفَسَّر إحسانَهم بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلخ على أنَّ الجملةَ في محلِّ رفع بدلٍ من قوله تعالى: (كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ) حَصَل بها تفسيرُه، أو أنَّها جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب مُفسِّرة كسائر الجمل التفسيرية.

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في الآية: (ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ) مِن الفرائض (إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ) أي: كانوا قبل تَنَزُّل الفرائض يعملون[1]. ولا أظنُّ صحةَ نسبته لذلك الحِبر، ولا يكادُ

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٠١، وعزاه للفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٢.

تجعلُ جملة «كانوا» إلخ عليه تفسيراً إذا صحَّ ما نُقل عنه في تفسيرها، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى.

والهجوع النومُ، وقيده الراغب بقوله: ليلاً[1]. وغيرُه بالقليل.

و«ما» إما مزيدة فـ «قليلاً» معمولُ الفعل صفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: هجوعاً قليلاً، و«مِن الليل» صفة، أو لغوٌ متعلِّقٌ بـ «يهجعون» و«مِن» للابتداء، وجملةُ «يهجعون» خبر «كان».

أو «قليلاً» صفةٌ لظرف محذوفٍ، أي: زماناً قليلاً، و«مِن الليل» صفة على نحو: قليلٌ من المال عندي.

وإما موصولةٌ عائدُها محذوفٌ، فهي فاعلُ «قليلاً» وهو خبرُ «كان»، و«مِن الليل» حالٌ من[2] الموصول مقدَّم، كأنَّه قيل: كانوا قد قلَّ المقدارُ الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار من الليل.

وإما مصدرية، فالمصدرُ فاعلُ «قليلاً» وهو خبرُ «كان» أيضاً، و«مِن الليل» بيان لا متعلِّقٌ بما بعده؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يتقدَّم، أو حال من المصدر، و«مِن» للابتداء، كذا في «الكشف» فَهْماً من «الكشاف»[3].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ «مِن» على زيادة «ما» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

واعترض ابنُ المنيِّر احتمالَ مصدريتها بأنَّه لا يجوزُ في «مِن الليل» كونُه صفةً، أو بياناً للقليل، لأنَّه فيه واقعٌ على الهجوع، ولا صلةَ المصدر لتقدُّمه[4].

وأُجيبَ بأنَّه بيانٌ للزمان المبهم؛ وحكى الطيبي أنَّه إما منصوبٌ على التبيين أو متعلِّقٌ بفعلٍ يُفسِّره «يهجعون»، وجوّز أنْ يكونَ «ما يهجعون» على ذلك الاحتمال

---

(١) مفردات الراغب (هجع).

(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (م).

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٥-١٦.

(٤) الانتصاف ٤/ ١٥.

بدلاً من اسم «كان» فكأنَّه قيل: كان هجوعُهم قليلاً. وهو بعيدٌ.

وجوِّز في «ما» أنْ تكونَ نافيةً، و«قليلاً» منصوبٌ بـ «يهجعون» والمعنى: كانوا لا يهجعون مِن الليل قليلاً ويُحيُونه كلَّه، ورواه ابن أبي شيبة وأبو نصر عن مجاهد[١]، وردَّه الزمخشريُّ[٢] بأن «ما» النافية لا يعملُ ما بعدها فيما قبلها؛ لأنَّ لها صدْرَ الكلام، وليس فيها التصرُّف الذي في أخواتها كـ: «لا»، فإنَّها قد تكون كجزءٍ مما دخَلَت عليه نحو: عُوتب بلا جُرْمٍ، و«لم» و«لن» لاختصاصهما[٣] بالفعل كالجزء منه.

وأنت تعلم أنَّ منْعَ العمل هو مذهبُ البصريين، وفي «شرح الهادي»: أنَّ بعضَ النحاة أجازَه مطلقاً، وبعضُهم أجازه في الظرف خاصَّةً للتوسع فيه، واستدلَّ عليه بقوله:

ونحن عن فَضْلك ما استَغْنَينا[٤]

نعم يَرِدُ على ذلك أنَّ فيه ـ كما في «الانتصاف» ـ خللاً من حيث المعنى، فإنَّ طَلَبَ قيامِ الليل غيرَ مستثنًى منه جزءٌ للهجوع وإنْ قلَّ غيرُ ثابتٍ في الشرع ولا معهود[٥].

اللهم إلا أنْ يُدَّعَى أنَّ مَن ذهب إلى ذلك يقول بأنَّه كان ثابتاً في الشرع؛ فقد أخرج ابن أبي شيبة وابنُ المنذر عن عطاء أنَّه قال في الآية: كان ذلك إذ أُمِرُوا بقيام الليل كلِّه، فكان أبو ذرٍّ يعتمدُ على العصا فمكثوا شهرَين ثم نزلت الرُّخصة ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠][٦].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/٥٦٨، وعزاه لأبي نصر في الصلاة السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣.

(٢) في الكشاف ٤/١٦.

(٣) في الأصل: لاختصاصها، والمثبت من (م).

(٤) قطعة من رجز لعامر بن الأكوع ضمن حديث أخرجه أحمد (١٦٥٣٨)، ومسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع ﷺ.

(٥) الانتصاف ٤/١٥-١٦.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٣٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣.

وقال الضحاك: «كانوا قليلاً» في عددهم، وتمَّ الكلامُ عند «قليلاً» ثم ابتدَأ «من الليل ما يهجعون» على أنَّ «ما» نافية؛ وفيه ما تقدَّم مع زيادة تفكيكٍ للكلام.

ولعلَّ أظهرَ الأوجه زيادةُ «ما» ونصب «قليلاً» على الظرفية، و«مِن الليل» صفة.

قيل: وفي الكلام مبالغاتٌ: لفظ الهجوع بناءً على أنَّه القليل من النوم، وقولُه تعالى: «قليلاً» و«من الليل» لأنَّ الليل وقتُ السُّبات والراحة، وزيادة «ما» لأنَّها تؤكدُ مضمون الجملةِ، فتُؤكِّد القِلَّة وتُحقِّقُها باعتبار كونها قيداً فيها.

والغرضُ من الآية أنَّهم يُكابدون العبادةَ في أوقات الراحة وسكونِ النفس، ولا يستريحون مِن مشاقِّ النهار إلا قليلاً.

قال الحسن: كابدوا قيامَ الليلِ لا ينامون منه إلا قليلاً.

وعن عبد الله بن رواحة: هَجَعُوا قليلاً ثم قاموا.

وفسَّر أنسُ بن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يُصلُّون بين المغرب والعشاء[1]. وهي لا تدلُّ على الاقتصار على ذلك.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ أي: هم مع قِلَّة هجوعهم وكثرة تهجُّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنَّهم أسلفوا في ليلهم الجرائمَ ولم يتفرَّغوا فيه للعبادة، وفي بناء الفعل على الضمير إشعارٌ بأنَّهم الأحقَّاء بأنْ يُوصَفُوا بالاستغفار، كأنَّهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه. وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدمِ اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى.

وحَمْلُ الاستغفارِ على حقيقته المشهورةِ هو الظاهر، وبه قال الحسن، أخرج عنه ابنُ جرير وغيرُه أنَّه قال: صلُّوا فلمَّا كان السحر استغفروا[2].

وقيل: المرادُ طَلَبُهُم المغفرةَ بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٦٧، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٣٢٣)، والطبري ٢١/ ٥٠٢.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٠٥-٥١٠، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد (٢٩٩).

ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّه قال: «يستغفرون»: يصلُّون[١]. وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً[٢]، ولا أراه يصحُّ.

وأخرج أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخرَ الليل في التهجد أحبُّ إليَّ مِن أوَّله؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾»[٣]. وهو محتملٌ لذلك التفسيرِ والظاهر.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيبٌ وافرٌ يستوجبونه على أنفسهم تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل وإشفاقاً على الناس، فهو غيرُ الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الطالبِ منهم ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾ وهو المتعفِّفِ الذي يحسَبُه الجاهلُ غنيّاً، فيُحرَمُ الصدقةَ من أكثر الناس؛ أخرج ابن جرير وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ المسكينُ الذي تَردُّهُ التمرةُ والتمرتان، والأكلةُ والأكلتان» قيل: فمَن المسكينُ؟ قال: «الذي ليس له ما يُغنيهِ ولا يُعلَمُ مكانُه فيُتَصَدَّقَ عليه، فذلك المحروم»[٤].

وفسَّره ابن عباس بالمُحَارَفِ[٥] الذي يطلبُ الدنيا وتُدْبِرُ عنه ولا يسأل الناسَ.

وقيل: هو الذي يَبعُدُ منه ممكناتُ الرزقِ بعد قربها منه، فيناله الحرمانُ.

وقال زيدُ بن أسلم: هو الذي اجتيحَت ثمرته.

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٢٤٥، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٢٧، والطبري ٢١/ ٥١٠.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٥١٥، وصحيح ابن حبان (٣٣٥١)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٤، وهو عند الطبري من طريق الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، والمتصل إسناده صحيح، وأخرج نحوه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) دون قوله: «فذلك المحروم».

(٥) بفتح الراء: وهو المحروم الذي إذا طلب لا يُرزق، وقد حورف كسب فلان: إذا شدِّد عليه في معاشه وضيِّق. النهاية (حرف).

وقيل: مَن ماتَت ماشيتُه. وقيل: مَن ليس له سهمٌ في الإسلام. وقيل: الذي لا يَنمُو له مال. وقيل غير ذلك.

قال في «البحر»: وكلُّ ذلك على سبيل التمثيل، ويجمعُ الأقوالَ أنَّه الذي لا مالَ له لحرمانٍ أصابه[1].

وأنا بقول رسول الله ﷺ أقول.

وقال منذر بنُ سعيد: هذا الحقُّ هو الزكاة المفروضة. وتُعقِّب بأنَّ السورةَ مكية وفرضُ الزكاة بالمدينة. وقيل: أصلُ فريضة الزكاة كان بمكة، والذي كان بالمدينة القدرُ المعروف اليوم.

وعن ابن عمر أنَّ رجلاً سأله عن هذا الحقِّ فقال: الزكاةُ، وسوى ذلك حقوقٌ. فعمَّمَ، والجمهور على الأول.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ دلائلُ من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات، أو وجوهُ دلالاتٍ من الدَّحو وارتفاع بعضها عن الماء، واختلافِ أجزائها في الكيفيَّات والخواصِّ، فالدليل على الأول ما في الأرض من الموجودات، والظرفيةُ حقيقيةٌ والجمعُ على ظاهره، وعلى الثاني الدليلُ نفسُ الأرض، والجمعيةُ باعتبار وجوهِ الدلالة وأحوالها، والظرفيةُ مِن ظرفية الصفةِ في الموصوف، والدلالة على وجود الصانعِ جلَّ شأنه وعلمِهِ وقدرتِهِ وإرادته ووحدته وفرط رحمته عز وجل.

﴿لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ للموحِّدين الذين سلكوا الطريقَ السويَّ البرهاني الموصِل إلى المعرفة، فهم نظَّارُون بعيونٍ باصرةٍ وأفهامٍ نافذةٍ.

وقرأ قتادة: «آية» بالإفراد[2].

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في ذواتكم آياتٌ، إذ ليس في العالم شيءٌ إلا وفي ذات الإنسان له نظيرٌ يدلُّ مثلَ دلالته على ما انفرَدَ به من الهيئات النافعة، والمناظرِ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٦.

البهيَّة، والتركيباتِ العجيبةِ، والتمكُّن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكمالات المتنوعة، وآياتُ الأنفس أكثرُ من أنْ تُحصَى.

وقيل: أُريدَ بذلك اختلافُ الألسنةِ والصُّوَر والألوان والطبائع، ورواه عطاء عن ابن عباس. وقيل: سبيلُ الطعام وسبيلُ الشراب. والحقُّ أنْ لا حَصْرَ.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ألا تنظرون فلا تُبصرون بعين البصيرةِ، وهو تعنيفٌ على ترك النظر في الآيات الأرضيةِ والنفسيةِ، وقيل: في الأخير.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: تقديرُه وتعيينُه، أو أسبابُ رزقكم من النَّيِّرَين والكواكبِ والمطالعِ والمغارب التي تختلفُ بها الفصول التي هي مبادي الرزق إلى غير ذلك، فالكلامُ على تقدير مضافٍ أو التجوُّزِ بجَعْل وجود الأسباب فيها كوجود المسبَّب.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ السماء السحابُ، وهي سماءٌ لغةً؛ والمرادُ بالرزق المطرُ، فإنَّه سببُ الأقوات، ورُوي تفسيرُه بذلك مرفوعاً[(١)].

وقرأ ابنُ محيصن: «أرزاقكم» على الجمع[(٢)].

﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عطف على «رِزْقكم» أي: والذي تُوعدونَه من خيرٍ وشرٍّ كما روي عن مجاهد.

وفي روايةٍ أخرى عنه وعن الضحاك: «ما توعدون» الجنة والنار، وهو ظاهرٌ في أنَّ النار في السماء، وفيه خلاف.

وقال بعضُهم: هو الجنة، وهي على ظَهْر السماءِ السابعة تحت العرش.

وقيل: أمرُ الساعة.

وقيل: الثوابُ والعقابُ، فإنَّهما مقدَّران معيَّنان فيها.

وقيل: إنَّه مستأنَفٌ، خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ على أنَّ ضمير «إنَّه»

---

(١) أخرجه الديلمي من حديث علي رضي الله عنه كما في الدر المنثور ٦/ ١١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٦، وقرأها أيضاً «رازقكم» كما في القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦.

لـ «ما»، وعلى ما تقدَّم، فإمَّا له، أو للرزق، أو لله تعالى، أو للنبيِّ ﷺ، أو للقرآن، أو للدِّين في «إنَّ الدينَ لواقع» أو لليوم المذكور في «أيانَ يومُ الدين» أو لجميع المذكور أماماً، أقوال.

واستظهرَ أبو حيان الأخيرَ منها[١]، وهو مرويٌّ عن ابن جُرَيج، أي: إنَّ جميع ما ذكرناه من أول السورة إلى هنا لحَقٌّ ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثلَ نُطقكم، كما أنَّه لا شكَّ لكم في أنَّكم تنطقون ينبغي أنْ لا تَشُكُّوا في حقِّية ذلك، وهذا كقول الناس: إنَّ هذا لحقٌّ كما أنك تَرَى وتسمع. ونصب «مِثْلَ» على الحالية من المستكنِّ في «لحقٌّ»[٢]، وهو لا يتعرَّف بالإضافة لتوغُّله في التنكير، أو على الوصف لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنَّه حقٌّ حقّاً مثلَ نُطقكم.

وقيل: إنَّه مبنيٌّ على الفتح، فقال المازني: لتركُّبِهِ مع «ما» حتى صارا[٣] شيئاً واحداً، نحو: ويحما، وأنشدُوا لبناء الاسم معها قولَ الشاعر:

أثـورَ مـا أَصِـيـدُكُـم أم ثَـورَيْـن أمْ هـذهِ الـجَـمَّـاءَ ذاتَ الـقـرنَـيْـن[٤]

وقال غيرُه: لإضافتِه إلى غير متمكنٍ، وهو «ما» إنْ كانت نكرةً موصوفةً بمعنى شيء، أو موصولةً بمعنى «الذي»، و«أنَّكم» إلخ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو أنَّكم.. إلخ، والجملةُ صفةٌ، أو صلةٌ. أو هو «أنَّ» بما في حيِّزها إنْ جعلْتَ «ما» زائدة، وهو نصُّ الخليل[٥].

ومحلُّه على البناء الرفعُ على أنَّه صفةٌ لـ «حقّ»، أو خبرٌ ثانٍ، ويُؤيِّده قراءةُ حمزة والكسائي وأبي بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلافٍ عن ثلاثتهم: «مثلُ» بالرفع[٦].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(٢) في الأصل: الحقِّ.

(٣) في الأصل: صار.

(٤) الخصائص ٢/ ١٨٠، واللسان (ثور)، والبحر المحيط ٨/ ١٣٨، والدر المصون ١٠/ ٤٨.

(٥) ينظر الكتاب ٣/ ١٤٠.

(٦) قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وهي قراءة خلف =

وفي «البحر»: أنَّ الكوفيين يجعلون «مثلاً» ظرفاً فينصبونَه على الظرفيةِ ويُجيزون: زيدٌ مثلَك، بالنصب، وعليه يجوزُ أنْ يكونَ في قراءة الجمهور منصوباً على الظرفية، واستدلالُهم والردُّ عليهم مذكورٌ في النحو[١].

وفي الآية من تأكيد حَقيَّة المذكور ما لا يخفى، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه قال فيها: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قاتَلَ الله قوماً أَقسَمَ لهم ربُّهم ثم لم يُصدِّقوا»[٢].

وعن الأصمعي: أَقبلتُ من جامع البصرة، فطَلَع أعرابيٌّ على قَعودٍ فقال: ممن[٣] الرجلُ؟ قلتُ: من بني أَصمَع. قال: مِن أينَ أقبلتَ؟ قلتُ[٤]: من موضعٍ يُتلَى فيه كلامُ الرحمن. قال: اتلُ عليَّ. فتلوتُ «والذاريات» فلمَّا بلغتُ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ قال: حسبُك، فقام إلى ناقتِهِ فنَحَرها ووزَّعها، وعمَدَ إلى سيفه وقوسِهِ فكسَرَهما وولَّى، فلمَّا حججتُ مع الرشيد طَفِقْتُ أطوفُ فإذا أنا بمَن يهتِفُ بي بصوت رقيقٍ، فالتفتُّ فإذا بالأعرابي قد نَحَل واصفرَّ، فسلَّم عليَّ واستقرأ السورةَ، فلما بلغتُ الآيةَ صاح وقال: قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقًّا، ثم قال: وهل غيرُ هذا؟ فقرأتُ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فصاحَ وقال: يا سبحان الله، مَن ذا أغضبَ الجليلَ حتى حلفَ؟ لم يصدِّقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجَت معها نفسُه[٥].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأن الحديث وتنبيهٌ على أنَّه ليس مما عَلِمَه رسولُ الله ﷺ بغير طريقِ الوحي، قاله غيرُ واحد.

= من العشرة، وذكرت عن الحسن وابن أبي إسحاق والأعمش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤١، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٢٣، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٤.

(٣) في الأصل: من.

(٤) قوله: قلت، ساقط من (م).

(٥) الكشاف ٤/ ١٧، وأخرجها البيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٧) مختصرة.

وفي «الكشف»: فيه رمزٌ إلى أنَّه لمَّا فَرَغ من إثبات الجزاء لفظاً بالقَسَم، ومعنًى بما في المُقسَم به من التلويح إلى القدرة البالغةِ مدمجاً فيه صِدْق المُبلِّغ، وقَضَى الوَطَرَ من تفصيله مَهَّد لإثبات النبوة، وأنَّ هذا الآتي الصادقَ حقيقٌ بالاتِّباع لِمَا معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَنكَ﴾ إلخ، وضَمَّن فيه تسليتَه عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومِهِ، فلَهُ بسائر آبائه وإخوانِهِ من الأنبياء عليهم السلام أُسوةٌ حسنةٌ، هذا إذا لم يُجعَل قولُه تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطفاً على قوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ وأما على ذلك التقدير فوجْهُهُ أنْ يكونَ قصةُ الخليل ولوط عليهما السلام معترضةً للتسلِّي بإيعاد[1] مكذِّبيه، وأنَّه مرحومٌ مُنجًّى مُكرَّمٌ بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم، والترجيحُ مع الأول. انتهى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّقُ بقوله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾.

والضيف في الأصل مصدرٌ بمعنى المَيلُ، ولذلك يطلَقُ على الواحد والمتعدِّد، قيل: كانوا اثنَي عشر مَلَكاً، وقيل: ثلاثةٌ: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وسُمُّوا ضيفاً لأنَّهم كانوا في صورة الضيف؛ ولأنَّ إبراهيم عليه السلام حَسِبَهم كذلك، فالتسمية على مقتضَى الظاهر والحسبان، وبدأ بقصة إبراهيمَ وإنْ كانت متأخِّرةً عن قصة عادٍ؛ لأنَّها أقوى في غَرَض التسلية.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عند الله عز وجل كما قال الحسن، فهو كقوله تعالى في الملائكة عليهم السلام: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خَدَمهم بنفسه وزوجتِهِ، وعَجَّل لهم القِرى، ورَفَع مجالسَهم كما في بعض الآثار.

وقرأ عكرمةُ: «المكرَّمين» بالتشديد[2].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديث لأنَّه صفةٌ في الأصل، أو للضيف، أو لمكرَمين إنْ أُريدَ إكرامُ إبراهيمَ؛ لأنَّ إكرامَ الله تعالى إياهم لا يتقيدُ، أو منصوبٌ بإضمار «اذكر».

---

(١) في (م): بإبعاد.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٨.

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ أي: نسلِّم عليك سلاماً، وأَوجَب في «البحر» حذفَ الفعل؛ لأنَّ المصدرَ سادٌّ مسدَّه[١]، فهو من المصادر التي يجبُ حذفُ أفعالها.

وقال ابن عطية: يتَّجهُ أنْ يَعملَ في «سلاماً» «قالوا» على أنْ يُجعَل في معنى «قولاً» ويكونُ المعنى حينئذ: أنَّهم قالوا تحيةً وقولاً معناه سلام[٢]. ونُسِب إلى مجاهد، وليس بذاك.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، عَدَل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثباتِ حتى يكونَ تحيتُه أحسنَ من تحيتهم، أخذاً بمزيد الأدب والإكرام، وقيل: «سلامٌ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: أمري سلام.

وقُرِئا مرفوعَين، وقرئ: «سلاماً قال سِلْماً» بكسر السين وإسكان اللام والنصب[٣]، والسِّلْمُ السلام.

وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة: «سلاماً قال سِلْمٌ» بالكسر والإسكان والرفع[٤]، وجعله في «البحر» على معنى: نحن - أو أنتم - سلم[٥].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو عَلَم الإسلام، أو لأنَّهم عليهم السلام ليسوا ممن عَهِدَهم من الناس، أو لأنَّ أوضاعهم وأشكالهم خلافُ ما عليه الناس.

و«قوم» خبرُ مبتدأ محذوفٍ والأكثر على أنَّ التقدير: أنتم قومٌ منكرون، وأنَّه عليه السلام قاله لهم للتعرُّف، كقولك لمن لقيتَه: أنا لا أعرفُك، تريدُ عرِّف لي نفسَك وصِفْها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٧.
(٣) كلا القراءتين في الكشاف ٤/ ١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٣٩، دون نسبة.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٧، والبحر المحيط ٨/ ١٣٩، وهي قراءة حمزة والكسائي من السبعة كما في التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٣٩.

وذهب بعضُ المحققين إلى أنَّ الذي يظهر أنَّ التقديرَ: هؤلاء قومٌ منكرون، وأنَّه عليه السلام قاله في نفسه، أو لِمَن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أنْ يُشعرَهم بذلك، فإنَّه الأنسبُ بحاله عليه السلام؛ لأنَّ في خطاب الضيفِ بنحو ذلك إيحاشاً ما، وطَلَبُهُ به أنْ يعرِّفوه حالهم لعلَّه لا يزيلُ ذلك. وأيضاً لو كان مرادُه ذلك لكَشَفوا أحوالَهم عند القول المذكور، ولم يتصدَّ عليه السلام لمقدِّمات الضيافة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم على خِفْية من ضيفه، نقل أبو عبيدة[1] أنَّه لا يقال: راغَ إلا إذا ذهب على خفية، وقال: يقال: رَوَّغ اللقمة، إذا غَمَسها في السَّمن حتى تُروَى.

قال ابن المنير: وهو من هذا المعنَى؛ لأنَّها تذهبُ مغموسةً في السَّمن حتى تخفَى، ومن مقلوب الرَّوغِ غَوْرُ الأرض والجرح لخفائِهِ، وسائرُ مقلوباته قريبةٌ من هذا المعنى[2].

وقال الراغب: الرَّوغ الميلُ على سبيل الاحتيال، ومنه رَاغَ الثعلبُ، وراغَ فلانٌ إلى فلانٍ مال نحوَه لأمر يُريده منه بالاحتيال[3]. ويُعلَم منه أنَّ لاعتبار قيدِ الخفية وجهاً، وهو أمرٌ يقتضيه المقامُ أيضاً؛ لأنَّ مَن يذهب إلى أهله لتدارُكِ الطعام يذهبُ كذلك غالباً، وتُشعر الفاء بأنَّه عليه السلام بادَرَ بالذهاب ولم يُمهل، وقد ذكروا أنَّ مِن أدب المُضيفِ أنْ يُبادر بالقِرى مِن غير أنْ يَشعُرَ به الضيفُ حذراً من أنْ يمنعَه الضيفُ، أو يصيرَ منتظِراً.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ﴾ هو وَلَدُ البقرة، كأنَّه سُمِّي بذلك لتصوُّر عَجَلَته التي تَعدمُ[4] منه إذا صار ثوراً ﴿سَمِينٍ﴾ ممتلئ الجسد بالشحم واللحم؛ يقال: سَمِنَ كسَمِعَ، سَمَانةً

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٩٧نقلاً عن الانتصاف، والذي في الانتصاف لابن المنير ٤/ ١٨: أبو عبيد.

(٢) الانتصاف ٤/ ١٨.

(٣) مفردات الراغب (روغ).

(٤) في الأصل: تقدم، والمثبت من (م) ومفردات الراغب (عجل).

بالفتح وسِمَناً كعِنَبٍ فهو سَامِنٌ وسَمِينٌ، وكمُحْسِن[١] السَّمينُ خِلْقَةً. كذا في «القاموس»[٢].

وفي «البحر»[٣]: يقال: سَمِنَ سِمَناً فهو سمين، شَذُّوا[٤] في المصدر واسم الفاعل، والقياس سَمَنٌ وسَمِنٌ، وقالوا: سامنٌ إذا حَدَث له السِّمن. انتهى.

والفاء فصيحةٌ أفصحَت عن جُمَل قد حُذفَت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بكمال سرعةِ المجيء بالطعام، أي: فذبَحَ عجلاً فَحَنَذَهُ فجاء به.

وقال بعضُهم: إنَّه كان مُعدّاً عنده حَنيذاً قبلَ مجيئهم لمن يَرِدُ عليه من الضيوف، فلا حاجةَ إلى تقدير ما ذكر، والمشهور اليوم أنَّ الذبح للضيف إذا ورَدَ أبلغُ في إكرامه من الإتيان بما هُيِّئ من الطعام قبل وروده، وكان كما روي عن قتادة عامةُ ماله عليه السلام البقرُ، ولو كان عنده أطيبُ لحماً منها لأكرمهم به.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ بأنْ وضعَهَ لديهم، وفيه دليلٌ على أنَّ مِن إكرام الضيف أنْ يقدَّم له أكثرُ مما يأكل، وأنْ لا يوضعَ الطعام بموضع ويُدعَى الضيف إليه.

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ قيل: عَرْضٌ للأكل فإنَّ في ذلك تأنيساً للضيف، وقيل: إنكارٌ لعدم تعرُّضهم للأكل، وفي بعض الآثار أنَّهم قالوا: إنَّا لا نأكلُ إلا ما أدَّينا ثمنَه. فقال عليه السلام: إني لا أُبيحُه لكم إلا بثمن. قالوا: وما هو؟ قال: أنْ تُسمُّوا الله تعالى عند الابتداء وتَحمَدُوه عز وجل عند الفراغ. فقال بعضُهم لبعض: بحقٍّ اتَّخذَه الله تعالى خليلاً.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فأضمَرَ في نفسه منهم خوفاً لمَّا رأى عليه الصلاة والسلام إعراضَهم عن طعامه، وظنَّ أنَّ ذلك لشرٍّ يُريدونه، فإنَّ أكل الضيف أَمَنَةٌ ودليلٌ على انبساط نفسه، وللطعام حرمةٌ وذِمامٌ، والامتناعُ منه وحشةٌ موجبةٌ

(١) في الأصل و(م): وكحسن، والمثبت من القاموس.
(٢) مادة (سمن).
(٣) ٨/ ١٣٢.
(٤) في (م): شذوذاً، والمثبت من الأصل والبحر.

لظنِّ الشرِّ. وعن ابن عباس أنَّه عليه السلام وقع في نفسه أنَّهم ملائكةٌ أُرسِلُوا للعذاب فخاف.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنَّا رسل الله تعالى، عن يحيى بن شدَّاد: مَسَح جبريلُ عليه السلام العِجلَ بجناحه فقامَ يَدرُجُ حتى لحِقَ بأمِّه، فعرفهم وأَمِنَ منهم، وعلى ما روي عن الحبر أنَّ هذا لمجرَّد تأمينه عليه السلام، وقيل: مع تحقيق أنَّهم ملائكةٌ وعلمهم بما أضمَرَ في نفسه إما بإطلاع الله تعالى إياهم عليه، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به، أو بظهور أمارته في وجهه الشريف، فاستدلوا بذلك على الباطن.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ [الآية:١١٢] أي: بواسطتهم ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو عند الجمهور إسحاق بنُ سارة، وهو الحقُّ للتنصيص على أنَّه المبشَّر به في سورة هود، والقصةُ واحدة، وقال مجاهد: إسماعيل بن هاجر كما رواه عنه ابنُ جرير وغيرُه[1]. ولا يكاد يصحُّ.

﴿عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ عند بلوغه واستوائه، وفيه تبشيرٌ بحياته، وكانت البشارة بذَكَرٍ؛ لأنَّه أسرُّ للنفس وأبهجُ، ووَصَفَه بالعلم لأنَّها الصفة التي يختصُّ بها الإنسان الكامل لا الصورةُ الجميلة والقوةُ ونحوهما، وهذا عند غير الأكثرين من أهل هذا الزمان، فإنَّ العلم عندهم لاسيما العلم الشرعي رذيلةٌ لا تعادلُها رذيلة، والجهلُ فضيلة لا توازنها فضيلة. وفي صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفَى مما يوجب السرور.

وعن الحسن: «عليم»: نبي.

ووقعَت البشارةُ بعد التأنيس، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ دَرْءَ المفسدة أهمُّ من جَلْب المصلحة.

وذكر بعضُهم أنَّ علمه عليه السلام بأنَّهم ملائكة من حيث بشَّروه بغيب.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٥٢٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٤ إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة لمَّا سمعَت بشارتَهم إلى بيتها، وكانت في زاوية تنظر إليهم، وفي «التفسير الكبير»: أنَّها كانت في خدمتهم، فلمَّا تكلَّموا مع زوجها بولادتها استحْيَتْ وأعرضَت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة[١]. وهو إنْ صحَّ مثلُه عن نَقْل وأَثَر لا يأباه الخطابُ الآتي؛ لأنَّه يقتضي الإقبال دون الإدبار، إذ يكفي لصحته أنْ يكونَ بمسْمَع منها وإنْ كانت مدبرةً، نعم في الكلام عليه استعارةٌ ضِدِّية، ولا قرينةَ هاهنا تُصحِّحُها.

وقيل: «أَقبلَت» بمعنى أخذَت، كما تقول: أَخذَ يشتُمني.

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة من الصَّرير قاله ابن عباس، وقال قتادة وعكرمة: صَرَّتُها رَنَّتها. وقيل: قولها: أَوَّه، وقيل: يا ويلتي.

وقيل: الصَّرَّة الجماعةُ المنضَمُّ بعضُهم إلى بعض كأنَّهم صُرُّوا، أي: جُمعوا في وعاء، وإلى هذا ذهب ابن بحر، قال: أي: أقبلَت في صَرَّة من نسوة تبادَرْن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام.

والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أو المفعول به إنْ فُسِّر «أقبلت» بـ: أَخذَتْ، قيل: إنَّ «في» عليه زائدة كما في قوله:

يجرحْ في عراقيبها نَصْلي[٢]

والتقدير: أخذَت صيحةً. وقيل: بل الجارُّ والمجرور في موضع الخبر؛ لأنَّ الفعل حينئذٍ من أفعال المقاربة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال مجاهد: ضَرَبت بيدها على جَبْهتها وقالت: يا وَيْلتاه.

وقيل: إنَّها وجدَت حرارةَ الدم فلطمَت وجهها من الحياء.

وقيل: إنَّها لطمَتْه تعجُّباً؛ وهو فعل النساء إذا تعجَّبن من شيء.

---

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ٢٨/ ٢١٤.

(٢) جزء من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وتمامه:

وإنْ تَعتَذرْ بالمَحْل من ذي ضُروعها ... على الضيف يَجرَحْ في عراقيبها نصلي

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي: أنا عجوز ﴿عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ عاقرٌ فكيف ألدُ؟! وعَقِيْم فَعِيْل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول، وأصلُ معنى العُقْم اليَبْسُ.

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ﴾ أي: مثلَ ذلك القول الكريم الذي أَخْبَرْنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نحن مُعبِّرون نُخبرك به عنه عز وجل، لا أنَّا نقولُه من تلقاء أنفسنا، ورُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام قال لها: انظري إلى سَقْف بيتك. فنَظَرت، فإذا جُذوعُه مُورِقةٌ مثمرةٌ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيكون قولُه عز وجل حقّاً، وفعلُه سبحانه متقناً لا محالة، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدَّم في سورة الحِجْر[(١)]، وإنما لم يذكر هاهنا اكتفاءً بما ذكر هناك، كما أنَّه لم يذكر هناك سارة اكتفاءً بما ذكر هاهنا وفي سورة هود[(٢)].

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام لـمَّا عَلم أنَّهم ملائكةٌ أُرسلوا لأَمْرٍ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسلتُم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون قومَ لوطٍ عليه السلام ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد قَلْب قراهم عاليها سافلها حسبما فُصِّل في سائر السُّوَر الكريمة[(٣)] ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: طين مُتحجِّر وهو السِّجيلُ؛ وفي تقييد كونها من طين دفعُ[(٤)] توهُّم كونها بَرَداً، فإنَّ بعض الناس يُسمِّي البَرَدَ حجارةً.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعلَّمةً، من السُّومة وهي العَلَامة، على كلٍّ واحدة منها اسمُ مَن يَهلِكُ بها؛ وقيل: أعلمت بأنَّها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامةٍ تدلُّ على أنَّها ليست من حجارة الدنيا.

وقيل: «مسومةً»: مرسلَةً، من أَسَمْتُ الإبلَ في المرعَى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

---

(١) عند الآية (٥٢).

(٢) عند الآية (٦٩).

(٣) كما في سورة هود آية (٦٩)، وسورة الحجر آية (٥٢).

(٤) في (م): رفع.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في محلِّ ظهورِ قدرته سبحانه وعظمته عز وجل، والمرادُ: أنَّها معلَّمةٌ في أول خَلْقها، وقيل: المعنى: إنَّها في علم الله تعالى معدَّةٌ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجور، و«أل» عند الإمام للعهد، أي: لهؤلاء المسرفين[(١)]، ووضع الظاهر موضع الضمير ذمّاً لهم بالإسراف بعد ذمِّهم بالإجرام، وإشارةً إلى علَّة الحكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إلى آخره حكايةٌ من جهته تعالى لِمَا جَرَى على قوم لوطٍ عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جَرَى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام، والفاء فصيحةٌ مُفصِحَةٌ عن جُمَل قد حُذفَت ثقةً بذكرها في موضع آخرَ، كأنَّه قيل: فقاموا منه، وجاؤوا لوطاً، فجرَى بينهم وبينه ما جرى، فباشروا ما أُمِرُوا به، فأخرَجْنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [الحجر:٦٥] إلخ ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قُرَى قوم لوطٍ، وإضمارُها بغير ذكر لشهرتها. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهلِ بيت للبيان بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فالكلامُ بتقدير مضافٍ، وجوِّز أنْ يُراد بالبيت نفسِه الجماعةُ مجازاً، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ـ عن مجاهد: لوطٌ وابنتاه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنَّه قال: كانوا ثلاثةَ عشر[(٢)].

واستُدِلَّ بالآية على اتِّحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي، فإنَّ المعنى: فأخرجنا مَن كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرَجُ إلا أهلَ بيتٍ واحد. وإلا لم يَستقم الكلامُ. وأنت تعلم أنَّ هذا يدلُّ على أنَّهما صادقان على الأمر الواحد، لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر كالناطق والإنسان، أما على الاتِّحاد في المفهوم ـ وهو المختلَفُ فيه عند أهل الأصولِ والحديث ـ فلا، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيفٌ، نعم تدلُّ على أنَّهما صِفَتَا مَدْحٍ من أَوجُهٍ عديدة: استحقاق الإخراج، واختلاف الوصفَين، وجعلُ كلٍّ مستقلًّا بأنْ يجعل سبب النجاة، وما في قوله

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/٢١٨.
(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/١١٥.

تعالى: (مَن كَانَ) أولاً و(غَيْرَ بَيْتٍ) ثانياً من الدلالة على المبالغة، فإنَّ صاحبهما محفوظٌ مَن كان، وأين كان إلى غير ذلك.

ومعنى الوِجْدان منسوباً إليه تعالى: العلمُ على ما قاله الراغب(١)، وذهب بعضُ الأجلَّة إلى أنَّه لا يقال: ما وجدتُ كذا، إلا بعد الفحص والتفتيش، وجُعِلَ عليه معنى الآية: فأخرج ملائكتُنا مَن كان فيها من المؤمنين، فما وجد ملائكتُنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين. أو في الكلام ضربٌ آخرُ من المجاز فلا تغفل.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في القرى ﴿ءَايَةً﴾ علامةً دالَّة على ما أصابهم من العذاب، قال ابن جريج: هي أحجارٌ كثيرةٌ منضودَةٌ.

وقيل: تلك الأحجار التي أُهلِكُوا بها.

وقيل: ماء مُنتنٌ؛ قال الشهاب: فإنَّه بحيرة طَبرية(٢).

وجوَّز أبو حيان كونَ ضمير «فيها» عائداً على الإهلاكة التي أُهلِكُوها، فإنَّها مِن أعاجيب الإهلاك، بجعل أعالي القرية أسافل، وإمطارِ الحجارة(٣). والظاهر هو الأول.

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: مَن شأنُهم أنْ يخافوه لسلامة فِطْرتهم ورِقَّة قلوبهم، دون مَن عداهم من ذوي القلوب القاسية، فإنَّهم لا يعتَدُّون بها ولا يعدُّونها آية.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على «وتَركنا فيها» بتقدير عاملٍ له، أي: وجعلنا في موسى، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة، أو هو عطفٌ على «فيها» بتغليب معنى عاملِ الآية، أو سلوكِ طريقِ المشاكلة في عطفه، على الأوجُهِ التي ذكرها النحاة في نحو:

علفتُها تِبناً وماءً بارداً(٤)

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (وجد).

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٩٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٠.

(٤) سلف ٥/ ٢٩١ و٦/ ٣٢٥، وغيرها.

لأنه[١] لا يصحُّ تسليطُ الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ فقول أبي حيان: لا حاجةَ إلى إضمار «تركنا»[٢] لأنَّه قد أمكنَ [أن يكون] العاملُ في المجرور «تركنا» الأول[٣]، فيه بحثٌ.

وقيل: «في موسى» خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: وفي موسى آيةٌ.

وجوَّز ابنُ عطية وغيرُه أنْ يكونَ معطوفاً على قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾[٤] وما بينهما اعتراضٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام على ما مرَّ.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه بعيدٌ جدّاً، يُنزَّه القرآنُ الكريم عن مثله[٥].

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ قيل: بدلٌ من «موسى». وقيل: هو منصوبٌ بـ «آية». وقيل: بمحذوف، أي: كائنة وقتَ إرسالنا. وقيل: بـ «تركنا».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ هو ما ظهر على يدَيه من المعجزات الباهرةِ، والسلطانُ يُطلَقُ على ذلك مع شموله للواحد والمتعدِّد؛ لأنَّه في الأصل مصدر.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام، على أنَّ رُكنَه جانبُ بَدَنِهِ وعِطْفِهِ، والتولِّي به كنايةٌ عن الإعراض، والباءُ للتعدية؛ لأنَّ معناه ثَنَى عِطْفَه، أو للملابسة.

وقال قتادة: تولَّى بقومه، على أنَّ الركنَ بمعنى القوم؛ لأنَّه يَرْكَنُ إليهم ويَتقوَّى بهم، والباء للمصاحبة أو الملابسة، وكونُها للسببية غيرُ وجيه.

وقيل: تولَّى بقوته وسلطانه، والركن يُستعارُ للقوَّة كما قال الراغب[٦].

---

(١) قوله: لأنه، ليس في (م).
(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، والصواب «جعلنا» كما في الدر المنثور ١٠/ ٥٤ نقلاً عن أبي حيان.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٩.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٠. وقال السمين في الدر ١٠/ ٥٣: ووجْهُ استبعاده له بُعْدُ ما بينهما، وقد فعل أهل العلم هذا في أكثر من ذلك.
(٦) في مفردات ألفاظ القرآن (ركن).

وقرىء: «بِرُكُنِهِ» بضم الكاف[1] إتْباعاً للراء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنَّ اللعينَ جَعَل ما ظهر على يدَيه عليه السلام من الخوارق العجيبةِ منسوبةً إلى الجنِّ، وتردَّد في أنَّه حصل باختياره فيكون سحراً، أو بغير اختياره فيكونُ جنوناً، وهذا مبنيٌّ على زعمه الفاسد، وإلا فالسحرُ ليس من الجنِّ كما بُيِّن في محله[2]، فـ «أو» للشكِّ، وقيل: للإبهام، وقال أبو عبيدة: هي بمعنى الواو[3]؛ لأنَّ اللعينَ قال الأمرَين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وأنت تعلم أنَّ اللعين يتلوَّنُ تلون الحرباء، فلا ضرورةَ تدعو إلى جعلها بمعنى الواو.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرحناهم غيرَ معتدِّين بهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، والمراد: فأغرقناهم فيه، وفي الكلام من الدلالة على غاية عِظَمِ شأنِ القدرة الربانية ونهايةِ قَمْأة فرعون وقومِهِ ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه من الكفر والطغيان، فالإفعال هنا للإتيان بما يقتضي معنى ثلاثيِّه، كأغربَ: إذا أتى أمراً غريباً. وقيل: الصيغةُ للنسب، أو الإسنادُ للسبب، وهو كما ترى.

وكون الملام عليه هنا الكفرَ والطغيان هو الذي يقتضيه حالُ فرعون، وهو مما يختلفُ باعتبار مَن وُصِفَ به، فلا يُتَوَهَّم أنَّه كيف وُصِفَ اللعين بما وُصِفَ به ذو النون عليه السلام؟

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ على طِرْز ما تقدَّم ﴿عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ الشديد التي لا تُلقح شيئاً كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم، وفي لفظ: هي ريحٌ لا بركةَ فيها ولا منفعةَ ولا ينزلُ منها غيثٌ ولا يُلقح بها شجر[4]. كأنَّه شبَّه عدمَ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩.

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧.

(٤) المستدرك ٢/ ٤٦٧، واللفظ لأبي الشيخ في العظمة (٨٥٨)، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٧.

تضمُّن المنفعةِ بعُقْم المرأة، ففعيل بمعنى فاعل من اللازم، وكونُ هذا المعنى لا يصحُّ هنا مكابرةٌ.

وقال بعضُهم وهو حسن: سُمِّيَتْ عَقيماً لأنَّها أهلكتهم وقطعَت دابرَهم، على أنَّ هناك استعارةً تبعيةً، شبَّه إهلاكَهم وقطْعَ دابِرهم بعُقم النساء وعدمِ حَمْلهنَّ لِمَا فيه من إذهاب النسل، ثم أَطلَق المشبَّه به على المشبَّه واشتقَّ منه العَقيمَ، وفَعِيْل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول.

وهذه الريحُ كانت الدَّبورَ؛ لِمَا صحَّ من قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبُور»[1].

وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي كرَّم الله تعالى وجهه: أنَّها النكباء[2]؟

وأخرج ابنُ جرير وجماعة عن ابن المسيب: أنَّها الجنوب[3].

وأخرج ابنُ المنذر عن مجاهد: أنَّها الصَّبا[4].

والمعوَّل عليه ما ذكرنا أولاً، ولعلَّ الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غيرُ صحيح.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ﴾ ما تَدَعُ شيئاً ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ جرَت عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ الشيءِ البالي من عَظْمٍ أو نباتٍ أو غيرِ ذلك، من رَمَّ[5] الشيءُ: بَلِيَ، ويقال للبالي: رُمَام كغراب، وأَرمَّ[6] أيضاً، لكن قال الراغب: يختصُّ الرِّمُّ بالفتات من الخشب والتبن، والرِّمَّة بالكسر تختصُّ بالعظم البالي، والرُّمَّة بالضم بالحبل البالي[7].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) في الدر المنثور ٦/ ١١٥.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٣٨.
(٤) الدر المنثور ٦/ ١١٥.
(٥) في الأصل: أرم.
(٦) في الأصل: رمّ.
(٧) مفردات الراغب (رمّ).

وفسَّره السدي هنا بالتراب، وقتادة بالهشيم، وقُطرب بالرَّماد، وفسره ابن عيسى بالمنسَحق الذي لا يُرَمُّ، أي: لا يُصلَح، كأنَّه جعل الهمزةَ في أَرَمَّ للسلب.

والجملة بعد «إلا» حالية، والشيءُ هنا عامٌّ مخصوصٌ، أي: مِن شيءٍ أراد الله تعالى تدميرَه وإهلاكه، من ناسٍ أو ديارٍ أو شجر أو غير ذلك. روي أنَّ الريح كانت تمرُّ بالناس فيهم الرجل من عادٍ فتنتزعه من بينهم وتُهلِكه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ أخرج البيهقي في «سننه» عن قتادة: أنَّه ثلاثةُ أيام(١). وإليه ذهب الفراء وجماعة(٢)، قال: تفسيره قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

واستُشكل بأنَّ هذا التمتُّع مؤخَّرٌ عن العُتُوِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا﴾ [هود: ٦٥] إلخ، وقولُه تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّ العتوَّ مؤخَّرٌ.

وأُجيبَ بأنَّ هذا مرتَّبٌ على تمام القصة، كأنَّه قيل: وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمودَ آيةً، أو: وفي زمان قولنا ذلك لثمودَ آيةٌ، ثم أَخذَ في بيان كونِه آيةً فقيل: «فعتَوا عن أَمْرِ ربِّهم» أي: فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاء للتفصيل، قال في «الكشف»: وهو الظاهرُ من هذا المساق، وكذلك قوله تعالى: (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ) مرتَّبٌ على القصة زمان إرسالِ موسى عليه السلام بالسلطان، وإنْ كان هناك لا مانعَ من الترتُّب على الإرسال، وذلك لأنَّه جيء بالظرف مجيءَ الفضلة حيث جَعَل فيه الآيةَ، والقصةُ مِن تَولِّيهم إلى هلاكهم. انتهى.

وقال الحسن: هذا ـ أي: القولُ لهم: «تمتَّعوا حتى حين» ـ كان حين بعث إليهم صالح؛ أُمروا بالإيمان بما جاء به، والتمتُّعِ إلى أنْ تأتي آجالهم، ثم عتوا بعد ذلك.

---

(١) السنن الكبرى ١٠/ ٦٢.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، وذهب إليه أيضاً القرطبي في تفسيره ١٩/ ٥٠١.

قال في «البحر»: ولذلك جاء العطفُ بالفاء المقتضية تأخُّرَ العتوِّ عما أُمروا به، فهو مطابقٌ لفظاً ووجوداً[١].

واختاره الإمام فقال: قال بعض المفسرين: المرادُ بالحين الأيامُ الثلاثةُ التي أُمهِلُوها بعد عَقْر الناقةِ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ ترتبَ «فعتوا» بالفاء دليلٌ على أنَّ العتوَّ كان بعد القول المذكور، فالظاهرُ أنَّه ما قدَّرَ الله تعالى من الآجال فما مِن أحدٍ إلا وهو مُمْهَلٌ مدَّةَ الأجل، كأنَّه يقول له: تمتَّع إلى آخر أجلك، فإنْ أحسنتَ فقد حَصَل لك التمتُّع في الدارَين، وإلا فما لك في الآخرة من نصيب[٢]. انتهى، وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ﴾ أي: أهلكتهم، روي أنَّ صالحاً عليه السلام وَعَدهم الهلاكَ بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تُصبحُ وجوهُكم غداً مُصفرَّةً، وبعد غدٍ مُحمرَّةً، واليومَ الثالثَ مُسودَّةً، ثم يُصبِّحكم العذابُ. ولمَّا رأوا الآيات التي بيَّنها عليه السلام عَمَدوا إلى قتله فنجَّاه الله تعالى، فذهب إلى أرض فلسطين، ولمَّا كان ضحوةَ اليوم الرابع تحنَّطوا وتكفَّنوا بالأنطاع، فأتتهم الصاعقةُ وهي نارٌ من السماء ـ وقيل: صيحةٌ منها ـ فهلَكوا.

وقرأ عمر وعثمان رضي الله عنهما والكسائي: «الصعقة»[٣]، وهي المرَّةُ من الصَّعْق بمعنى الصاعقة أيضاً، أو الصيحة.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها ويُعاينونها، ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلةَ المُبصَر على القول بأنَّ الصاعقة الصيحةُ، وأنَّ المراد: ينظرون إليها.

وقال مجاهد: «ينظرون» بمعنى ينتظرون، أي: وهم ينتظرون الأخذَ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأَوا فيها علاماته، وانتظارُ العذاب أشدُّ من العذاب.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤١، وعنه نقل المصنف قول الحسن.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) قراءة الكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وقراءة عمر وعثمان رضي الله عنهما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٤٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ١٤١.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقيل: هو من قولهم: ما يقومُ فلانٌ بكذا، إذا عَجَز عن دَفْعه، وروي ذلك عن قتادة، فهو معنًى مجازيٌّ، أو كنايةٌ شاعت حتى التحقَت بالحقيقة ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يتمنَّعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قومَ، فإنَّ ما قبله يدلُّ عليه، أو: واذكر، وقيل: عطف على الضمير في «فأخذَتْهم»، وقيل: في «فنبذناهم» لأنَّ معنى كلٍّ فأهلكناهم، وهو كما ترى.

وجوِّز أنْ يكونَ عطفاً على محلِّ «وفي عادٍ» أو «وفي ثمود» وأُيِّدَ بقراءة عبد الله وأبي عمرو وحمزة والكسائي: «وقومِ» بالجرِّ[(١)].

وقرأ عبدُ الوارث ومحبوب والأصمعيُّ عن أبي عمرو وأبو السمال وابن مقسم: «وقومُ» بالرفع[(٢)]، والظاهرُ أنَّه على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ، أي: أهلكناهم.

﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المهلَكين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ أي: وبنينا السماء ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوةٍ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومثله الآد[(٣)]، وليس جمع «يد» وجوَّزه الإمام[(٤)]، وإنْ صحَّت التورية به.

---

(١) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وهي قراءة خلف من العشرة، وقراءة عبد الله هي: «وفي قوم» كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، والكشاف ٤/ ١٩، والبحر ٨/ ١٤١، والدر المصون ١٠/ ٥٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤١.

(٣) الآدُ: الصلب والقوة. القاموس (آد).

(٤) في مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٢٦-٢٢٧.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لقادرون، من الوُسْع بمعنى الطاقة، فالجملةُ تذييلٌ إثباتاً لسعَة قُدرته عز وجل كلَّ شيءٍ فضلاً عن السماء، وفيه رمزٌ إلى التعريض الذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وعن الحسن: «لموسعون» الرزق بالمطر. وكأنَّه أَخذَه مِن أنَّ المساقَ مساقُ الامتنان بذلك على العباد لا إظهارُ القدرة، فكأنَّه أُشيرَ في قوله تعالى: (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ) إلى ما تقدَّم من قوله سبحانه: (وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ) على بعض الأقوال، فناسب أنْ يُتمَّمَ بقوله تعالى: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) مبالغةً في المنِّ، ولا يحتاج أنْ يفسر «الأيد» بالإنعام على هذا القول؛ لأنَّه يتمُّ المقصود دونه، واليدُ بمعنى النعمة لا الإنعام.

وقيل: أي: لموسعوها بحيث إنَّ الأرض وما يحيطُ بها من الماء والهواء بالنسبة إليها كحلقة في فلاة.

وقيل: أي: لجاعلون بينها وبين الأرض سِعةً، والمرادُ السعةُ المكانية، وفيه على القولَين تتميمٌ أيضاً.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: وفرشنا الأرض ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: مهدناها وبسطناها لتستقرُّوا عليها، ولا يُنافي ذلك شبهها للكرة على ما يزعمُهُ فلاسفة العصر.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن، وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسم برفع «السماء» ورفع «الأرض»[١] على أنَّهما مبتدآن وما بعدهما خبرٌ لهما.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: من كلِّ جنسٍ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعَين ذكراً وأنثى، قاله ابن زيد وغيره. وقال مجاهد: هذا إشارةٌ إلى المتضادَّات والمتقابلات كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، إلى غير ذلك، ورجَّحه الطبريُّ بأنَّه أدلُّ على القدرة[٢].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٢.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٥٤٨.

وقيل: أُريدَ بالجنس المنطقي، وأقلُّ ما يكون تحتَه نوعان، فخلَقَ سبحانه من الجوهرَ مثلاً الماديَّ والمجرَّد، ومن الماديِّ الناميَ والجامد، ومن النامي المدْرِك والنبات، ومن المدرك الصامت والناطق، وهو كما تَرَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فَعَلْنا ذلك كلَّه كي تتذكَّروا فتعرِفُوا أنَّه عز وجل الربُّ القادرُ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ما سواه.

وقيل: خَلَقْنا ذلك كي تتذكروا فتعلموا أنَّ التعدُّد من خواصِّ الممكِنَات وأنَّ الواجبَ بالذات سبحانه لا يقبلُ التعدُّد والانقسام.

وقيل: المرادُ التذكُّر بجميع ما ذُكِرَ لأمرِ الحشر والنشر؛ لأنَّ مَن قدر على إيجاد ذلك فهو قادرٌ على إعادة الأموات يوم القيامة. وله وجهٌ.

وقرأ أُبيٌّ: «تتذكرون» بتاءين وتخفيف الذال[1].

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تفريعٌ على قوله سبحانه: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وهو تمثيلٌ للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل، والمعنى: قل يا محمد: ففِرُّوا إلى الله لمكانِ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من عقابه تعالى المعدِّ لمن لم يَفِرَّ إليه سبحانه ولم يُوحِّده ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن كونَه مُنذِراً من الله سبحانه بالمعجزات، أو «مبين» ما يجبُ أنْ يُحذر عنه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عطف على الأمر، وهو نهيٌ عن الإشراك صريحاً على نحو: وحِّدُوه ولا تشركوا. ومن الأذكار المأثورة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[2].

وكرَّر قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لاتِّصال الأولِ بالأمر واتصال هذا بالنهي، والغرضُ من كلِّ ذلك الحثُّ على التوحيد والمبالغةُ في النصيحة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨١، والبحر المحيط ٨/ ١٤٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٨١٩٢)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وقيل: إنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الأمرُ بالإيمان وملازمة الطاعة، وذَكَر «ولا تجعلوا» إلخ إفراداً لأعظم ما يجبُ أنْ يفرَّ منه، و«إنِّي لكم» إلخ الأول مرتَّبٌ على ترك الإيمان والطاعة، والثاني على الإشراك، فهما متغايران لتغاير ما ترتَّب كلٌّ منهما عليه ووقع تعليلاً له. ولا يخلو عن كَدَر.

وقال الزمخشري في الآية: فِرُّوا إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه، ووحِّدُوا ولا تشركوا به، وكرّر «إنّي لكم» إلخ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليُعلَمَ أنَّ الإيمان لا ينفعُ إلا مع العمل، كما أنَّ العمل لا ينفعُ إلا مع الإيمان وأنَّه لا يفوزُ عند الله تعالى إلا الجامع بينهما[1]. انتهى.

وفيه أنَّه لا دلالة في الآية على ذلك بوجهٍ، ثم تفسيرُ الفرار إلى الله بما فسَّره أيضاً لينطبقَ على العمل وحده غيرُ مسلَّمٍ، على أنَّه لو سُلِّم الإنذار بترك العملِ فمن أين يلزمُ عدمُ النفع، وأهل السنَّة لا يُنازعون في وقوع الإنذار بارتكاب المعصية، فالمنساقُ إلى الذِّهن على تقدير كونِ المرادِ بالفرار إلى الله تعالى العبادةَ أنَّه تعالى أمَر بها أولاً، وتوعَّد تاركها بالوعيد المعروفِ له في الشرع، وهو العذابُ دون خلود، ونهى جل شأنه ثانياً أنْ يُشرك بعبادته سبحانه غيرُه، وتوعَّد المشركَ بالوعيد المعروف له وهو الخلودُ، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرَين، وتكونُ الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظيرَ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] وأين هذا مما ذكره الزمخشريُّ، عامله الله تعالى بعدله؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ مثلُ ذلك، تقريرٌ وتوكيدٌ على ما مرَّ غير مرَّة، ومِن فصل الخطاب، لأنَّه لمَّا أراد سبحانه أنْ يستأنفَ قصةَ قولهم المختلفِ في الرسول ﷺ بعد أنْ تقدَّمت عموماً أو خصوصاً في قوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ) وكان قد توسَّط ما توسط، قال سبحانه: الأمر كذلك، أي: مثل ما يُذكَر ويأتيك خبرُه،

(١) الكشاف ٤/ ٢٠.

إشارةً إلى الكلام الذي يتلوه، أعني: قوله عز وجل: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ إلى آخره، فهو تفسيرُ ما أجمل، وهو مرادُ مَن قال: الإشارةُ إلى تكذيبهم الرسولَ عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه ـ وحاشاه ـ ساحراً ومجنوناً.

ويُعلَمُ مما ذُكِرَ أنَّ «كذلك» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ولا يجوز نصبُه بـ «أَتَى» على أنَّه صفةٌ لمصدره، والإشارةُ إلى الإتيان، أي: ما أَتَى الذين من قبلهم مِن رسولٍ إتياناً مثل إتيانهم إلا قالوا.. إلخ؛ لأنَّ ما بعد «ما» النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور، ولا بـ «أتى»[1] مقدَّراً على شريطة التفسير؛ لأن ما لا يعمل لا يفسِّر عاملاً في مثل ذلك كما صرَّح به النحاة.

وجَعْلُه معمولاً لـ «قالوا» والإشارةُ للقول، أي: إلا قالوا ساحر أو مجنون قولاً مثل ذلك القول، لا يجوز أيضاً على تعسُّفه؛ لمكان «ما».

وضميرُ «قبلَهم» لقريش، أي: ما أتى الذين من قبل قريش ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: رسول من رُسُل الله تعالى ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقِّه: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ساحر، و«أو» قيل: مِن الحكاية، أي: إلا قالوا: ساحرٌ، أو: قالوا: مجنون، وهي لمنع الخُلوِّ، وليسَت من المحكي ليكونَ مقولَ كلٍّ مجموعُ «ساحر أو مجنون».

وفي «البحر»: هي للتفصيل، أي: قال بعضٌ: ساحر، وقال بعضٌ: مجنون، وقال بعضٌ: ساحرٌ ومجنون، فجمِعَ القائلون في الضمير ودلَّت «أو» على التفصيل[2]. انتهى، فلا تغفل.

واستشكلَت الآية بأنَّها تدلُّ على أنَّه ما من رسول إلا كُذِّب، مع أنَّ الرسل المقرِّرين شريعةَ مَن قبلَهم كـ: يوشع عليه السلام لم يكذَّبوا، وكذا آدم عليه السلام أُرسِل ولم يُكذَّب.

---

(١) في (م): يأتي، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٠٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٢.

وأجاب الإمام بقوله: لا نُسلِّم أنَّ المقرِّر رسولٌ، بل هو نبيٌّ على دين رسولٍ، ومَن كَذَّب رسولَه فهو يُكذِّبُه أيضاً[(١)].

وتُعقِّب بأنَّ الأخبار وكذا الآيات دالةٌ على أنَّ المقرِّرين رُسُلٌ، وأيضاً يبقَى الاستشكال بآدم عليه السلام، وقد اعترف هو بأنَّه أُرسل ولم يكذَّب.

وأجاب بعضٌ عن الاستشكال بالمقرِّرين: بأنَّ الآية إنَّما تدلُّ على أنَّ الرسل الذين أَتَوا مِن قبلهم كلّهم قد قيل في حقِّهم ما قيل، ولا يدخُل في عموم ذلك المقرِّرون؛ لأنَّ المتبادر من إتيان الرسول قوماً مجيئُه إياهم مع عدم تبليغِ غيرِه إياهم ما أَتَى به مَن قبلَه، وذلك لم يحصُل للمقرِّر شرعَ مَن قبلَه كما لا يخفى.

وعن الاستشكال بآدم عليه السلام: بأنَّ المراد: ما أَتَى الذين مِن قبلهم من الأمم الذين كانوا موجودين على نحو وجودِ هؤلاء رسولٌ إلا قالوا.. إلخ، وآدم عليه السلام لم يأتِ أمةً كذلك، إذ لم يكن حين أُرسل إلا زوجتُه حواء. ولعلَّه أولَى مما قيل: إن المراد: مِن رسول من بني آدم، فلا يدخل هو عليه السلام في ذلك.

واستشكلت أيضاً بأنَّ «إلا قالوا» يدلُّ على أنَّهم كلّهم كُذِّبوا مع أنَّه ما مِن رسول إلا آمن به قومٌ.

وأجاب الإمام: بأنَّ إسناد القولِ إلى ضمير الجمع على إرادةِ الكثير بل الأكثر، وذُكر المكذِّب فقط لأنَّه الأوفقُ بغرض التسليةِ[(٢)].

وأَخذَ منه بعضُهم الجوابَ عن الاستشكال السابق فقال: الحكمُ باعتبار الغالب، لا أنَّ كلَّ أمةٍ من الأمم أتاها رسولٌ فكذبته لِيَرِدَ آدمُ والمقرِّرون حيث لم يكذَّبوا. وفيه ما فيه.

وحمل بعضُهم «الذين مِن قبلهم» على الكفار، ودفع به الاستشكالَين. وفيه ما لا يخفى.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٠.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٠.

فتأمل جميع ذلك، ولا تظنَّ انحصارَ الجواب فيما سمعتَ، فأَمْعِنِ النظر والله تعالى الهادي لأحسن المسالك.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ تعجيبٌ من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي: كأنَّ الأوَّلين والآخرين منهم أَوصَى بعضُهم بعضاً بهذا القول، حتى قالوه جميعاً، وقيل: إنكارٌ للتواصي، أي: ما تواصَوا به.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أنَّ التواصي جامعُهم إلى أنَّ الجامعَ لهم على ذلك القولِ مشاركتُهم في الطغيان الحامل عليه.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن جدالهم، فقد كَرَّرْتَ عليهم الدعوة، ولم تألُ جهداً في البيان، فأَبَوا إلا إباءً وعناداً ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولِّي بعد ما بذلْتَ المجهودَ وجاوزْتَ في الإبلاغ كلَّ حدٍّ معهود.

﴿وَذَكِّرْ﴾ دُمْ[1] على فعل التذكير والموعظة ولا تَدَعْ ذلك؛ فالأمرُ بالتذكير للدوام عليه، والفعلُ منزَّلٌ منزلَةَ اللازم. وجوِّز أنْ يكون المفعولُ محذوفاً، أي: فذكِّرهم، وحُذِف لظهور الأمر.

﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين قَدَّر الله تعالى إيمانَهم، أو المؤمنين بالفعل، فإنها تزيدُهم بصيرةً وقوةً في اليقين، وفي «البحر»[2]: يدلُّ ظاهرُ الآية على الموادعة، وهي منسوخةٌ بآية السيف.

وأخرج أبو داود في «ناسخه» وابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) إلخ، قال: أَمَره الله تعالى أنْ يتولَّى عنهم ليعذِّبَهم وعَذَر محمداً ﷺ، ثم قال سبحانه: (وَذَكِّرْ) إلخ فنسخَتها[3].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» والضياء في «المختارة» وجماعة من طريق مجاهد عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: لمَّا نزلت: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

(١) في (م): ادم.
(٢) ٨/ ١٤٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١١٦.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لم يبقَ منَّا أحدٌ إلا أيقنَ بالهلكة، إذ أُمر النبيُّ ﷺ أنْ يتولَّى عنَّا، فنزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسُنا[1].

وعن قتادة: أنَّهم ظنُّوا أنَّ الوحيَ قد انقطع، وأنَّ العذاب قد حضَر فأنزل الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ﴾ إلخ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ استئنافٌ مؤكِّد للأمر، مقرِّرٌ لمضمون تعليله، فإنَّ خَلْقَهم لِمَا ذَكَر سبحانه وتعالى مما يدعوه ﷺ إلى تذكيرهم، ويُوجب عليهم التذكُّر والاتِّعاظَ، ولعل تقديم الجنِّ في الذكر لتقدُّم خَلْقِهم على خَلْق الإنس في الوجود، والظاهرُ أنَّ المراد مَن يُقابَلون بهم وبالملائكة عليهم السلام، ولم يُذكَر هؤلاء قيل: لأنَّ الأمر فيهم مسلَّمٌ، أو لأنَّ الآيةَ سيقَت لبيان صَنيع المكذِّبين، حيث تركوا عبادةَ الله تعالى وقد خُلِقُوا لها؛ وهذا التركُ مما لا يكون فيهم، بل هم عبادٌ مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل.

وقيل: لأنَّه ﷺ ليس مبعوثاً إليهم، فليس ذكرُهم في هذا الحكم مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم. وأنت تعلم أنَّ الأصحَّ عمومُ البعثة، فالأَولى ما قيل بدله، لاستغنائهم عن التذكير والموعظة.

وقيل: المرادُ بـ «الجنِّ» ما يتناولهم؛ لأنَّه من الاستتار، وهم مستترون عن الإنس. وقيل: لا يصحُّ ذكرهم في حيِّز الخلق؛ لأنَّهم كالأرواح من عالم الأمرِ المقابلِ لعالم الخلق، وقد أُشير إليهما بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ورُدَّ بقوله سبحانه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] و«له الخلق والأمر» ليس كما ظنَّ.

والعبادة غايةُ التذلُّل، والظاهرُ أنَّ المراد بها ما كانت بالاختيار دون التي بالتسخير الثابتةِ لجميع المخلوقات، وهي الدلالة المنبِّهة على كونها مخلوقةً، وأنَّها

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥، وشعب الإيمان (١٧٥٠)، والأحاديث المختارة (٧١٤)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٦.

خَلْقُ فاعلٍ حكيم، ويعبَّر عنها بالسجود كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

و«أل» في «الجن» و«الإنس» على المشهور للاستغراق.

واللامُ قيل: للغاية، والعبادة وإنْ لم تكن غايةً مطلوبة من الخلق، لقيام الدليل على أنَّه عز وجل لم يخلق الجنَّ والإنس لأجلها، أي: لإرادتها منهم، إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلَّف ذلك، لاستلزام الإرادةِ الإلهية للمراد، كما بُيِّن في الأصول، مع أنَّ التخلُّفَ محقَّقٌ بالمشاهدة، وأيضاً ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يدلُّ على إرادة المعاصي من الكثير ليستحِقُّوا بها جهنَّم فيُنافي إرادةَ العبادةِ، لكن لمَّا كان خلقُهم على حالةٍ صالحة للعبادة مستعدَّةٍ لها، حيث ركَّب سبحانه فيهم عقولاً وجعل لهم حواسَّ ظاهرةً وباطنةً، إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد، جَعَل خلْقَهم مغيّاً بها، مبالغةً بتشبيه المعدِّ له الشيءُ بالغاية، ومثلُه شائعٌ في العرف، ألا تراهم يقولون للقويِّ جسمُه: هو مخلوقٌ للمصارعة، وللبقر: هي مخلوقةٌ للحرث.

وفي «الكشف»: إنَّ أفعالَه تعالى تَنساقُ إلى الغايات الكمالية، واللامُ فيها موضوعُها ذلك، وأما الإرادة فليسَت من مقتضَى اللام إلا إذا عُلِمَ أنَّ الباعث مطلوبٌ في نفسه، وعلى هذا لا يُحتاجُ إلى تأويلٍ، فإنَّهم خُلِقُوا بحيث يتأتَّى منهم العبادة، وهُدُوا إليها، وجُعِلَت تلك غايةً كماليةً لخلقهم، وتعوُّقُ بعضِهم عن الوصول إليها لا يمنعُ كونَ الغاية غايةً، وهذا معنًى مكشوفٌ. انتهى، فتأمل.

وقيل: المرادُ بالعبادة التذلُّلُ والخضوع بالتسخير، وظاهرٌ أنَّ الكلَّ عابدون إياه تعالى بذلك المعنى، لا فرقَ بين مؤمنٍ وكافر، وبرٍّ وفاجر.

ونحوُه ما قيل: المعنى: ما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَذِلُّوا لقضائي.

وقيل: المعنى: ما خلقتُهم إلا ليكونوا عباداً لي، ويرادُ بالعبد العبدُ بالإيجاد، وعمومُ الوصف عليه ظاهرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣] لكن قيل عليه: إنَّ عَبَدَ بمعنى صار عبداً ليس من اللغة في شيءٍ.

وقيل: العبادةُ بمعنى التوحيد بناءً على ما روي عن ابن عباس أنَّ كلَّ عبادةٍ في القرآن فهو توحيدٌ، فالكلُّ يوحِّدونَه تعالى في الآخرة، أما توحيدُ المؤمنِ في الدنيا هناك فظاهرٌ، وأما توحيدُ المشرك فيدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وعليه قولُ مَن قال: لا يدخلُ النار كافرٌ.

أو المراد كما قال الكلبي: إنَّ المؤمن يُوحِّدُه في الشدَّة والرخاء، والكافر يوحِّدُه سبحانه في الشدَّةِ والبلاء دونَ النعمةِ والرخاءِ، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]. ولا يخفَى بُعْدُ ذلك عن الظاهر والسياق.

ونُقِل عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما: ما خلقتُهم إلا لآمرَهم وأدعوهم للعبادة. فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة:٥] فذكر العبادة المسبَّبَةِ شرعاً عن الأمر أو اللازمة له، وأُريدَ سببها أو ملزومها فهو مجازٌ مرسل، وأنت تعلم أنَّ أمرَ كلٍّ مِن أفراد الجنِّ وكلٍّ مِن أفراد الإنس غيرُ متحقِّق، لاسيَّما إذا كان غيرُ المكلَّفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمانِ التكليف داخلين في العموم.

وقال مجاهد: إنَّ معنى «ليعبدون»: ليعرفون، وهو مجازٌ مرسَل أيضاً من إطلاق اسمِ السبب على المسبَّب على ما في «الإرشاد»، ولعل السرَّ فيه التنبيهُ على أنَّ المعتبَر هي المعرفةُ الحاصلةُ بعبادته تعالى، لا ما يحصُل بغيرها كمعرفةِ الفلاسفة[1].

وقيل وهو حَسَنٌ: لأنَّهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يُعرَف وجودُه وتوحيدُه سبحانه وتعالى، وقد جاء: «كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أنْ أُعرفَ، فخلقْتُ الخلقَ لأُعرفَ»[2].

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٥.
(٢) لا أصل له، وسلف ١/ ١٩٩، ٤/ ١٥٤.

وتُعقب بأنَّ المعرفَة الصحيحةَ لم تتحقَّق في كلٍّ بل بعضٌ قد أنكر وجودَه عز وجل كالطبيعيين اليوم، فلا بدَّ من القول السابق في توجيه التعليل، ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغاني في «منتهى المدارك»[١]، وذكره غيره كالشيخ الأكبر في الباب المئة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر[٢]. وتعقَّبه الحفاظ فقال ابنُ تيمية[٣]: إنَّه ليس من كلام النبيِّ ﷺ، ولا يُعرف له سندٌ صحيحٌ ولا ضعيف. وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر[٤] وغيرهما، ومَن يَرويه من الصوفية معترِفٌ بعدم ثُبوته نقلاً لكنْ يقول: إنَّه ثابتٌ كشفاً، وقد نصَّ على ذلك الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في الباب المذكور، والتصحيحُ الكشفي شنشنةٌ لهم، ومع ذلك فيه إشكالٌ معنًى، إلا أنَّه أُجيبَ عنه ثلاثة أجوبة ستأتي[٥] إن شاء الله تعالى.

وقيل: «أل» في «الجن والإنس» للعهد، والمرادُ بهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الآية [الأعراف:١٧٩] أي: بناء على أنَّ اللام فيها ليست للعاقبة، ونُسِب هذا القولُ لزيد بن أسلم وسفيان، وأُيِّد بقوله تعالى قبل: (فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وأيَّده في «البحر» برواية ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «وما خلقْتُ الجنَّ والإنسَ من المؤمنين»[٦] ورواها بعضُهم قراءةً لابن عباس رضي الله عنهما[٧].

ومن الناس مَن جعلها للجنس، وقال: يكفي في ثبوت الحكمِ له ثبوتُه لبعض أفرادِه، وهو هنا المؤمنون الطائعون، وهو في المآل متَّحدٌ مع سابقه، ولا إشكال على ذلك في جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقةً، وكذا في جعلها للغرض عند مَن

(١) منتهى المدارك ومشتهى لبِّ كلِّ كامل وعارف وسالك، وهو شرح لتائية ابن الفارض في التصوف لمحمد بن أحمد الشهير بسعيد الفرغاني الصوفي، المتوفى سنة (٦٩٩هـ). كشف الظنون ١/ ٢٦٦ وهدية العارفين ٢/ ١٣٩-١٤٠.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٣٩٩، ولفظه فيه: «كنت كنزاً لم أعرف، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني».

(٣) في مجموع الفتاوى ١٨/ ١٢٢، ٣٧٦.

(٤) المقاصد الحسنة ص ٣٢٧.

(٥) ص٥٩-٦٠ من هذا الجزء.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٣، والبحر المحيط ٨/ ١٤٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.

يجوِّزُ تعليلَ أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتي وعدمِ الاستكمالِ بالغير، كما ذهب إليه كثيرٌ من السلف والمحدِّثين، وقد سمعْتُ أنَّ منهم مَن يقسمُ الإرادةَ إلى شرعية تتعلَّق بالطاعات، وتكوينيةٍ تتعلَّق بالمعاصي وغيرها، وعليه يجوز أنْ يبقى «الجن والإنس» على شمولهما للعاصين، ويقال: إنَّ العبادةَ مرادةٌ منهم أيضاً لكن بالإرادة الشرعية إلا أنَّه لا يتمُّ إلا إذا كانت هذه الإرادةُ لا تستلزم وقوعَ المراد، كالإرادة التفويضية القائلِ بها المعتزلة.

هذا، وإذا أحطتَ خُبراً بالأقوال في تفسير هذه الآية، هانَ عليك دفعُ ما يتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩] على تقدير كونِ الإشارةِ إلى الاختلاف بالتزام بعضِ هاتيك الأقوال فيها.

ودَفَعه بعضُهم بكون اللام في تلك الآية للعاقبة، والذي ينساقُ إلى الذهن أنَّ الحصر إضافيٌّ، أي: خلقتُهم للعبادة دون ضدها، أو دون طلب الرزق والإطعام، على ما يُشير إليه كلامُ بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ وهو لبيان أنَّ شأنه ـ تعالى شأنه ـ مع عباده ليس كشأن السادةِ مع عبيدهم؛ لأنَّهم إنما يملكونَهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، ومالكُ مُلَّاكِ العبيد نَفَى ـ عز وجل ـ أنْ يكون ملكُه إياهم لذلك، فكأنَّه قال سبحانه: ما أُريدُ أنْ أستعينَ بهم كما يستعينُ مُلَّاك العبيد بعبيدهم، فليشتغلوا بما خُلِقُوا له من عبادتي.

وذكر الإمام فيه وجهَين: الأول: أنْ يكونَ لدفع توهُّم الحاجة مِن خَلْقهم للعبادة، والثاني: أنْ يكونَ لتقرير كونهم مخلوقينَ لها، وبَيَّن هذا بأنَّ الفعل في العُرف لابدَّ له من منفعة، لكن العبيد على قسمَين: قسمٌ يُتَّخذُون لإظهار العظمةِ بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك، وقسمٌ يُتَّخذُون للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنَّه قال سبحانه: إنِّي خلقتُهم ولابدَّ فيهم من منفعةٍ، فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أنْ يُطلَبَ منهم تحصيلُ رزقٍ؟ وليسوا كذلك، فما أُريدُ منهم من رزق، وهل هم ممن يُطلَب منهم إصلاحُ قوتٍ

كالطبَّاخ ومَن يقرّب الطعام؟ وليسوا كذلك، فما أُريدُ أنْ يُطعمون، فإذاً هم عبيدٌ من القسم الأول، فينبغي أنْ لا يتركوا التعظيمَ.

والظاهرُ أنَّ المعنى: ما أُريدُ منهم مِن رزقٍ لي؛ لمكان قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ وإليه ذهب الإمام.

وذَكَر في الآية لطائفَ:

الأُولى: أنَّه سبحانه كرَّر نَفْي الإرادتين، لأنَّ السيد قد يطلبُ من العبد التكسُّبَ له، وهو طلبُ الرزق، وقد لا يطلبُ حيث كان له مال وافرٌ، لكنَّه يطلبُ قضاءَ حوائجه من حِفْظِ المال وإحضارِ الطعام من ماله بين يديه، فنَفْي الإرادة الأُولَى لا يسلتزمُ نَفْيَ الإرادةِ الثانية، فكرَّر النهيَ على معنى: لا أُريدُ هذا ولا أُريدُ ذلك.

الثانية: أنَّ ترتيبَ النَّفْيَين كما تضمَّنه النظمُ الجليل من باب الترقِّي في بيان غِناهُ عز وجل، كأنَّه قال سبحانه: لا أَطلبُ منهم رزقاً ولا ما هو دونَ ذلك، وهو تقديمُ الطعام بين يدَي السيد، فإنَّ ذلك أمرٌ كثيراً ما يُطلَبُ من العبيد إذا كان التكسُّب لا يطلَبُ منهم.

الثالثة: أنَّه سبحانه قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ دون: ما أُريدُ منهم أنْ يرزقون؛ لأنَّ التكسُّب لطَلَب العين[1] لا الفعل، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ دونَ: ما أُريدُ من طعامٍ؛ لأنَّ ذلك للإشارة إلى الاستغناء عما يفعلُه العبد الغيرُ المأمور بالتكسُّب كعبد وافرِ المال، والحاجة إليه للفعل نفسه.

الرابعة: أنَّه جل وعلا خصَّ الإطعامَ بالذكر؛ لأنَّ أدنَى درجاتِ الاستعانةِ أنْ يستعينَ السيدُ بعبده في تهيئة أمر الطعام، ونَفْيُ الأدنى يَتْبعُه نَفْيُ الأعلى بطريق الأوْلَى، فكأنَّه قيل: ما أُريدُ منهم من عَيْنٍ ولا عمل.

الخامسة: أنَّ «ما» لنَفْي الحال إلا أنَّ المرادَ به الدنيا، وتعرَّضَ له دون نَفْي

(١) في تفسير الرازي: لطلب الغنى.

الاستقبال؛ لأنَّ من المعلوم البيِّن أنَّ العبدَ بعد موتِه لا يصلُح أنْ يُطلَب منه رزقٌ أو إطعامٌ[١]. انتهى، فتأمله.

ويُفهَم من ظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ المعنى: ما أُريدُ منهم من رزقٍ لي ولهم[٢].

وفي «البحر»: «ما أُريدُ منهم من رزق» أي: أنْ يرزقوا أنفسَهم ولا غيرَهم «وما أُريدُ أنْ يطعمون» أي: أن يُطعموا خَلْقي، فهو على حذف مضافٍ، قاله ابن عباس[٣]. انتهى.

ونحوه ما قيل: المعنى: ما أُريدُ أنْ يرزقوا أحداً مِن خَلْقي، ولا أُريدُ أنْ يطعموه.

وأسند الإطعامَ إلى نفسه سبحانه؛ لأنَّ الخلقَ كلَّهم عيالُ الله تعالى، ومن أطعمَ عيالَ أحدٍ فكأنما أطعَمه، وفي الحديث: «يا عبدي مرضْتُ فلم تَعُدْني، وجُعْتُ فلم تُطعِمْني»[٤] فإنَّه ـ كما يدلُّ عليه آخرُه ـ على معنى: مرضَ عبدي فلم تَعُدْهُ، وجاعَ فلم تُطْعِمْهُ.

وقيل: الآيةُ مقدَّرةٌ بـ: قُلْ، فتكون بمعنى قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] والغيبة فيها رعاية للحكاية، إذ في مثل ذلك يجوزُ الأمران الغيبة والخطاب، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢][٥].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٣.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدَمَ مرضْتُ فلم تَعُدْني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم اسْتَطْعَمتُك فلم تُطعِمْني. قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمتَه لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم اسْتَسْقَيتُك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقِهِ. أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

(٥) سلفت ٤/ ٥٢.

وقيل: المرادُ: قل لهم وفي حقِّهم، فتلائمه الغيبة في «منهم» و«يطعمون»، ولا ينافي ذلك قراءة: «إنِّي أنا الرزاق» فيما بعد[(١)]؛ لأنَّه حينئذٍ تعليلٌ للأمر بالقول أو الائتمار لا لعدم الإرادة، نعم لا شكَّ في أنَّه قولٌ بعيدٌ جداً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ مُفتَقرٍ إلى الرزق، لا غيرُه سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً، ويُفهَم من ذلك استغناؤُه عزَّ وجل عن الرزق.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: القدرةِ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ شديد القوة.

والجملةُ تعليلٌ لعدم الإرادة، قال الإمام: كونُه تعالى هو الرزاق ناظرٌ إلى عدم طلبِ الرزق؛ لأنَّ من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً؛ وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظرٌ إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) لأنَّ مَن يطلبه يكونُ عاجزاً لا قوةَ له، فكأنَّه قيل: ما أُريدُ منهم من رزقٍ لأنِّي أنا الرزاق، وما أُريدُ منهم من عملٍ؛ لأنِّي قويٌّ متينٌ. وكان الظاهر: إنِّي أنا الرزاق، كما جاء في قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة[(٢)].

والتعبيرُ بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية، فيكونُ في ذلك إشعارٌ بعلَّة الحكم، ولتخرج الآية مخرجَ المثل كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] والتعبيرُ به على القول بتقدير «قل» فيما تقدَّم هو الظاهر، وتحتاجُ القراءة الأُخرى إلى ما ذكرناه آنفاً.

وآثر سبحانه «ذو القوة» على القوي قيل: لأنَّ في «ذو» ـ كما قال ابن حجر الهيتمي وغيرُه ـ: تعظيمَ ما أُضيفَت إليه، والموصوفُ بها والمقامُ يقتضيه، ولذا جِيْءَ بـ «المتين» بعدُ، ولم يُكتفَ به عن الوصف بـ «القوة».

وقال الإمام: لـمَّا كان المقصودُ تقريرَ ما تقدَّم من عدم إرادةِ الرزق وعدمِ

---

(١) انظر التعليق الآتي.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٥-٢٣٦، والقراءة أخرجها الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٠٨)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وقال: حديث حسن صحيح. اهـ. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٥.

الاستعانة بالغير جيءَ بوصف الرزق على صيغة المبالغة؛ لأنَّه بدونها لا يكفي في تقرير عدمِ إرادة الرزق، وبوصف القوة بما لا مبالغةَ فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة، فإنَّ مَن له قوةٌ دون الغاية لا يستعينُ بغيره، لكنْ لمَّا لم يَدُلَّ «ذو القوة» على أكثر مِن أنَّ له تعالى قوةً ما، زِيدَ الوصفُ بالمتين، وهو الذي له ثباتٌ لا يتزلزل، ثم قال: إنَّ القويَّ أبلغُ من ذي القوة، والعزة أكملُ من المتانة، وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وفي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) إلخ لما اقتضى المقام ذلك[١]. وقد أطال الكلامَ في هذا المقامِ وما أظنُّه يصفُو عن كدر.

وقرأ ابنُ محيصن: «الرازق» بزنة الفاعل[٢].

وقرأ الأعمش وابن وثاب: «المتين» بالجرِّ[٣]، وخرِّج على أنَّه صفة «القوة»، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار، أو لكونه على زِنَة المصادر التي يستوي فيها المذكَّر والمؤنَّث، أو لإجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول، وأجاز أبو الفتح أنْ يكونَ صفةً لـ «ذو» وجُرَّ على الجوار كقولهم: هذا جُحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، وضُعِّف.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إذا ثبتَ أنَّ الله تعالى ما خلق الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوه، وأنَّه سبحانه ما يريد منهم من رزقٍ، إلى آخر ما تقدَّم، فإنَّ للذين ظلموا أنفسَهم باشتغالهم بغير ما خُلِقُوا له من العبادة، وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسولَه عليه الصلاة والسلام، وهم أهلُ مكة وأضرابهم من كفار العرب = ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ﴾ أي: نصيب ﴿أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: نظرائهم من الأمم السالفة.

وأصلُ الذَّنوبُ: الدَّلْوُ العظيمةُ الممتلئة ماءً أو القريبةُ من الامتلاء، قال

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٣، والبحر المحيط ٨/ ١٤٣.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ١٤٣.

الجوهريُّ: ولا يقال لها: ذَنوبٌ، وهي فارغة، وهي تُذكَّرُ وتُؤنَّث، وجمعُها أَذْنِبة وذَنَائب[١]، فاستُعيرَت للنصيب مطلقاً شرًّا كان كالنصيب من العذاب في الآية، أو خيراً كما في العطاء في قول علقمةَ بن عَبَدَةَ التميمي يمدحُ الحارث بنَ أبي شَمِر الغسَّاني وكان أَسرَ أخاه شأساً يوم عين أباغ:

وفي كلِّ حيٍّ قد خَبَطتَ بنعمةٍ ... فحُقَّ لِشَأسٍ من نَدَاك ذَنُوبُ

يُروَى أنَّ الحارثَ لمَّا سمع هذا البيت قال: نَعَم وأَذْنِبَة[٢]. ومن استعمالها في النصيب قول الآخر[٣]:

لعمرُك والمنايا طارقاتٌ ... لكل بَني أَبٍ منها ذَنُوبُ

وهو استعمالٌ شائع. وفي «الكشاف»: هذا تمثيلٌ أصلُه في السُّقاة يقتسمون الماء فيكونُ لهذا ذَنوبٌ ولهذا ذنوب؛ قال الراجز:

إنَّا إذا نازَلَنا غريبٌ

لَهُ ذنوبٌ ولَنَا ذنوبُ

وإنْ أَبيتُم فَلَنَا القليبُ[٤]

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: لا يطلبوا منِّي أنْ أُعجِّلَ في الإتيان به، يقال: استعجَلَه، أي: حثَّه على العجَلَة وطَلَبها منه، ويقال: استعجلتُ كذا، أي[٥]: طلبتُ وقوعَه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وهو على ما في «الإرشاد»: جوابٌ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٧١][٦].

---

(١) الصحاح (ذنب)، في الأصل: ذنابيب.
(٢) الشعر والشعراء ١/ ٢٢١-٢٢٢، والكامل ١/ ٢٥١-٢٥٢، والبيت في ديوان علقمة ص٤٨، والبحر المحيط ٨/ ١٣٢.
(٣) هو أبو ذؤيب الهذلي، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧، والكشاف ٤/ ٢١، واللسان (ذنب)، والبحر المحيط ٨/ ١٣٢ والكلام منه، وفي المصادر عدا البحر: له ذنوب ولكم ذنوب.
(٥) في (م): إن.
(٦) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٥.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فويلٌ لهم، ووضع الموصول موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيِّز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلَّة الحكم، والفاء لترتيب ثبوتِ الويلِ لهم على أنَّ لهم عذاباً عظيماً، كما أنَّ الفاء التي قبلها لترتيب النَّهي عن الاستعجال على ذلك. و«مِنْ» في قوله سبحانه: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ للتعليل؛ والعائدُ على الموصول محذوفٌ، أي: يوعدونه، أو: يوعدون به على قول.

والمرادُ بذلك اليوم قيل: يومُ بدر، ورجح بأنَّه الأَوفقُ لِمَا قبله من حيث إنَّه ذَنوبٌ من العذاب الدنيوي، وقيل: يومُ القيامة، ورجح بأنَّه الأنسبُ لِمَا في صدر السورة الكريمة الآتية، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قاله بعضُ أهل الإشارة في بعض الآيات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ إشارة إلى الرياح التي تحملُ أنينَ المشتاقين، المتعرِّضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزَّة، ثمَّ تأتي بنَسيمِ نَفَحات الحقِّ إلى مشامِّ المحبين، فيجدون راحةً مّا من غلبات اللَّوعة.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ إشارة إلى سحائب ألطافِ الألوهية، تحملُ أمطارَ مراحمِ الربوبية، فتمطر على قلوب الصديقين. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ إشارة إلى سُفُن أفئدةِ المحبين، تجري برياح العناية في بحر التوحيد على أيسر حال. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القُدسِ بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة.

وإنْ شئتَ جعلْتَ الكلَّ إشارةً إلى أنواع رياح العناية، فمنها ما يطيرُ بالقلوب في جوِّ الغيوب، وقد قال العاشق المجازي:

خُذَا من صبا نجدٍ أماناً لقلْبه ... فقد كادَ ريَّاها يطيرُ بلُبِّهْ
إياكما ذاكَ النسيمَ فإنَّه ... متى هبَّ كان الوجدُ أَيسرَ خَطْبِهْ[1]

(١) البيتان لابن الخياط كما في وفيات الأعيان ١/١٤٦، وشذرات الذهب ٦/٨٨.

ومنها الحاملات وِقْرَ[١] دواءِ قلوبِ العاشقين كما قيل:

أيَا جَبَلَيْ نعمانَ باللهِ خلِّيا ... نسيمَ الصبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمها
أَجِدْ بردَها أو تَشْفِ منّي حرارةً ... على كَبِدٍ لم يَبْقَ إلا صَمِيمُها
فإنَّ الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمَت ... على نفس مهمومٍ تَجَلَّتْ همومُها[٢]

ومنها الجاريات من مَهابِّ حضراتِ القُدسِ إلى أفئدة أهلِ الأنس بسهولةٍ لِتُنعشَ قلوبَهم، ومنها المقسمات ما جاءت به مما عَبِقَ بها من آثار الحَضْرةِ الإلهية على نفوس المستعدِّين حسبَ استعداداتهم.

وإن شئت قلتَ غير ذلك فالباب واسعٌ.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ إشارة إلى سماء القلبِ، فإنَّها ذاتُ طرائقَ إلى الله عز وجل. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾ إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة. ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ يطلبون غَفْرَ - أي: سَتْرَ - وجودهم بوجود محبوبهم، أو يطلبون غُفرانَ ذنبِ رؤية عبادتهم من أوَّل الليل إلى السحر.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ إشارة إلى أنَّ جميع ما يُرَى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدةً حقيقيةً، بل هو مركبٌ، ولا أقلّ من كونه مركباً من الإمكان وشيءٍ آخر، فليس الواحدُ الحقيقيُّ إلا الله تعالى الذي حقيقتُه سبحانه إنِّيَّته.

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بترك ما سواه عز وجل.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ أي: ليعرفون، وهو عندهم إشارةٌ إلى ما صحَّحوه كشفاً من روايته ﷺ عن ربه سبحانه أنه قال: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أنْ أُعرَفَ فخلقتُ الخلقَ لأعرفَ»، وفي كتاب «الأنوار السنية»[٣] للسيد

(١) في (م): وقراً.
(٢) الأبيات لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص ٢٥١.
(٣) الأنوار السنية في أجوبة الأسئلة اليمنية، للشيخ نور الدين علي بن محمد السمهودي المتوفى (٩١١هـ)، وهي ثمانية أسئلة وردت من الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مجير اليمني سنة (٩٠٧). كشف الظنون ١/ ١٩٤.

نور الدين السمهودي بلفظ: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أنْ أُعرَفَ فخلقتُ هذا الخلقَ ليعرفوني، فبي عرفوني». وفي «المقاصد الحسنة» للسخاوي بلفظ[١]: «كنتُ كنزاً لا أُعرَفُ فخلقتُ خلقاً فعرَّفْتُهم بي فعرفوني»[٢] إلى غير ذلك، وهو مشكلٌ؛ لأنَّ الخَفاءَ أمرٌ نسبيٌّ فلا بدَّ فيه من مخفي ومُخفى عنه، فحيث لم يكن خلقٌ لم يكن مُخفًى عنه، فلا يتحقَّق الخفاءُ.

وأُجيبَ أولاً: بأنَّ الخفاء عن الأعيان الثابتة؛ لأنَّ الأشياء في ثبوتها لا إدراكَ لها وجوديّاً، فكان الله سبحانه مخفيّاً عنها غيرَ معروفٍ لها معرفةً وجوديةً، فأحبَّ أنْ يُعرَفَ معرفةً حادثةً من موجودٍ حادث، فخلَقَ الخلقَ؛ لأنَّ معرفتَهم الوجودية فرعُ وجودهم، فتعرَّف سبحانه إليهم بأنواع التجلِّيات على حَسَب تفاوتِ الاستعدادات، فعرفُوا أنفسَهم بالتجليات فعرفوا اللهَ تعالى من ذلك، فبه سبحانه عرفوه.

وثانياً: بأنَّ المرادَ بالخفاء لازمُه، وهو عدمُ معرفةِ أحدٍ به جل وعلا، ويؤيِّدُه ما في لفظ السخاوي من قوله: «لا أُعرَفُ» بدل «مخفيّاً».

وثالثاً: بأن «مخفيّاً» بمعنى ظاهراً مِن أخفاه، أي: أظهرَه، على أنَّ الهمزة للإزالة، أي: أزال خَفاءَه، وترتيبُ قوله سبحانه: «فأحببتُ أنْ أُعرَفَ» إلخ عليه باعتبار أنَّ الظهورَ متى كان قويّاً أَوجبَ الجهالةَ بحال الظاهر فخلَقَ سبحانه الخلْقَ ليكونوا كالحجاب، فيتمكَّن معه من المعرفة، ألا يُرى أنَّ الشمس لشدَّة ظهورها لا تستطيعُ أكثرُ الأبصار الوقوفَ على حالها إلا بواسطة وَضْع بعضِ الحجبُ بينها وبينها، وهو كما ترى لا يخلو عن بحث.

وأما إطلاقُ الكنز عليه عز وجل فقد ورَدَ، روى الديلميُّ في مسنده عن أنس مرفوعاً: «كنزُ المؤمن ربه»[٣] أي: فإنَّ منه سبحانه كلَّ ما ينالُه من أمر نفيسٍ في الدارَين.

---

(١) قوله: بلفظ، ليس في الأصل.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٣٢٧.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٢٩٨ (٤٨٩٥)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «كرم كنز المؤمن ربه، وخزانته بطنه، ومشجبه ظهره» ولم أقف عليه عن أنس.

والشيخ محيي الدين قدس سره ذكر في معنى «الكنز» غير ذلك فقال في الباب الثلاثمئة والثمانية والخمسين من «فتوحاته»: لو لم يكن في العالم مَن هو على صورة الحقِّ ما حصَلَ المقصود من العلم بالحقِّ، أعني العلمَ الحادثَ في قوله: «كنتُ كنزاً» إلخ فجعل نفسَه كنزاً، والكنزُ لا يكون إلا مكتنزاً في شيء، فلم يكن كنزُ الحقِّ نفسَه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئية ثبوتِه، هناك كان الحقُّ مكنوزاً، فلمَّا ألبس الحقُّ الإنسانَ ثوبَ شيئيةِ الوجودِ ظهَرَ الكنزُ بظهوره، فعرَفَه الإنسانُ الكامل بوجوده، وعَلِمَ أنَّه سبحانه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته، وهو لا يشعرُ به[١]. انتهى. وهو منطقُ الطير الذي لا نعرفُه، نسألُ الله تعالى التوفيق لما يحبُّ ويرضَى بمنِّه وكرمه.

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٦٧.

(٥٢) سورة الطور مكية
وآياتها تسع وأربعون

سورةُ الطور من السور المكية التي تُعنى بأصول الإيمان « الوحدانية ، الرسالة ، البعث » ومحورُ هذه السورة يدور حول الآخرة وما فيها من نعيم وجحيم ، وعن مآل السعداء والأشقياء ، وعن الحقّ والباطل ، والشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول .

تبتدىء السورة الكريمة بحملةٍ عنيفة على الباطل ، وعلى الشبهات والأباطيل التي تساور نفوس المشركين ، حيث استبعدوا الآخرة وأنكروا البعث والجزاء ، واستهزءوا بالعذاب الذي كان يخوّفهم به الرسول ﷺ فجاءت الآيات تقسم بمقدَّسات في الأرض والسماء ، بعضُها مكشوف معلوم ، وبعضها مغيَّب مجهول بأن الآخرة حقٌّ ، وأن العذاب واقع لا محالة لا يُردُّ عن القوم المجرمين ، وقد بدأ بالقسم بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، وذكر منها خمساً : جبلَ الطور الذي كلم الله عليه موسى ، واللوحَ المحفوظَ الذي سُجّلت فيه الأقدار ، والبيتَ المعمور الذي هو مطاف الملائكة وهو لأهل السماء كالبيت العتيق لأهل الأرض ، وأقسم بالسماء في ارتفاعها ، وبالبحر المملوء في عمقه وسعته ، أقسم على أمرٍ عظيم رهيب ، يرجُّ القلبَ رجّاً ، ويملأ النفس رُعباً ، أن العذاب الذي يسخرون منه نازلٌ لا محالة ، في ذلك اليوم العصيب الذي تنخلع له القلوب ﴿والطورِ . وكتابٍ مسطور . في رَقٍّ منشور . والبيتِ المعمور . والسقفِ المرفوع . والبحرِ المسجور . إنَّ عذابَ ربك لواقع . ماله من دافع . يومَ تَمُور السماء مَوْراً . وتسيرَ الجبال سيراً﴾ ثم يأتي الوعيدُ المفزع المرعب ، في مشهد سوق

المجرمين إلى الجحيم ، ومعه ما يزلزل ويُرعب من ويلٍ وهول ، وتقريعٍ وتفزيعٍ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكذبينَ. الَّذينَ هُمْ في خَوْضٍ يَلْعَبون. يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نار جهنَّم دَعًّا - أي يُدفعون إليها دفعاً بشدة وعنف - هذهِ النارُ التي كنتم بها تكذّبون. أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصرونَ. إصْلَوْهَا فاصْبِرُوا أو لا تصبروا سَوَاءٌ عليكُمْ، إنَّمَا تُجْزَوْن ما كُنْتُم تَعْملون﴾ وفي مقابلة ألوان العذاب التي أعدها الله للمجرمين، يأتي الحديثُ عن ألوان النعيم وصفوفِ التكريم التي أعدها الله للمؤمنين، للمقارنة بين حال السعداء والأشقياء، والأبرار والفجار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة، وزوجناهم بحورٍ عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم - أي أنقصناهم - من عملهم من شيء، كلُّ امرىءٍ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون. يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم .. إلى قوله إنا كنّا من قبلُ ندعوه إنه هو البَرُّ الرحيم﴾.

ثم يأتي الشوط الثالث يلاحق الباطل ويطارده - في الشبهات والأباطيل التي أثارها المشركون حول القرآن والرسول - يأتيهم بأسئلةٍ متلاحقة متتابعة، أشبه ما تكون بالقذائف الصاعقة، التي تنسف الباطل نسفاً، وتخرس كل معاند مكابر، يزيغ عن الحق أو يجادل فيه ﴿فذكّرْ فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون. أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصينَ﴾ وفي أسلوب تهكمي لاذع يتساءل عن موقفهم النابي من القرآن والرسول فقد كان شيوخ قريش يلقَّبون بذوي الاحلام اشارة الى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصريف الامور فهو يتهكم بهم وباحلامهم ويتساءل : هل

كان رأيهم في القرآن والرسول من وحي احلامهم أم هم طغاة ظالمون ﴿ أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ؟ ويتكرر التهكم بعرض أسئلةٍ ثلاث لا تحتاج إلى جدلٍ كثير ، لأنها بمنطق الفطرة واضحة كل الوضوح : هل هم خَلَقوا أنفسهم ؟ أم هم خُلقوا من غير خالق ؟ أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضِ ؟ والجواب عن ذلك كلِهِ واضح لا يحتاج إلى مكابرة أو عناد ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيءٍ ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خَلَقوا السمواتِ والأرض ؟ بل يوقنون ﴾ فإن أحداً منهم لا يستطيع أن يقول إنه خلق نفسه ، ولا إنه مخلوق من غير شيء ، ولا انه خلق السموات والأرض ، فثبت أن الخالق هو الله العلي الكبير رب العالَمين ، وبهذه الحجة الدامغة قصم القرآن ظهر الباطل . وانتقلت السورة - بعد ذكر الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسموات والأرض - لتسألهم مع السخرية والتهكم : هل يملكون خزائن الله ؟ أم هم يستطيعون الاستماع إلى وحي الله . حتى يمنعوا تنزل الرسالة على محمد ﷺ ؟ ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلَّم يستمعون فيه ؟ فليأتِ مستمعُهم بسلطان مبين ﴾ وبعد تلك الأسئلة المتلاحقة تصور السورة تعنتهم وعنادهم صورة الذي يكابر في الأمر المحسوس ، فلو رأوا العذاب نازلاً عليهم كأنه قطعة من جبل لقالوا هذا سحاب وما هو عذاب ﴿ وإن يروا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ وتختم السورة الكريمة بذلك الإنذار الرهيب ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يُصْعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون . وإنّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ۞ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم . ﴾ .

سورة الطور

[٨٧٢] أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي [ﷺ] قال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾(١).

* * *

[٨٧٢] (١) سورة الطور: الآية (٣٠).

سورة الطور

اربعون وتسع آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾

هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما، وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها؛ لأن في آخرها قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الذاريات: ٦٠] وهذه السورة في أولها: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] وفي آخر تلك السورة قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾ [الذاريات: ٥٩] إشارة إلى العذاب وقال هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الطور، وما الكتاب المسطور؟ نقول: فيه وجوه: الأول: الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه. الثاني: هو الجبل الذي قال الله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢] الثالث: هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الطور الجبل العظيم كالطود.

وأما الكتاب ففيه أيضًا وجوه: أحدها: كتاب موسى عليه السلام. ثانيها: الكتاب الذي في السماء. ثالثها: صحائف أعمال الخلق. رابعها: القرآن. وكيفما كان فهي في رقوق، وسنبين فائدة قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾.

وأما البيت المعمور ففيه وجوه: الأول: هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة. الثاني: هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين. الثالث: البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس، كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة، ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السماء، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾، قيل: المُوقَد، يقال: سجرت التنور، وقيل: هو البحر المملوء ماءً المتموج، وقيل: هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان.

المسألة الثانية: ما الحكمة في اختيار هذه الأشياء؟ نقول: هي تحتمل وجوهًا: أحدها: أن الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله، أما الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام، والبيت محمد ﷺ، والبحر المسجور يونس عليه السلام، والكل خاطبوا الله

هناك فقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأما محمد ﷺ فقال: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أنت كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١) وأما يونس فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله تعالى بها، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب، واقترانه بالطور أدل على ذلك؛ لأن موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور، وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد ﷺ ثانيها: وهو أن القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه، ففي بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة، بَيَّن أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] حكاية عن نوح عليه السلام.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء؟ نقول: ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام، فيقال: رأيت الأمير ودخلت على الوزير، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته، ويريد الواصف وصفه بالعظمة، يقول: اليوم رأيت أميرًا ما له نظير جالسًا وعليه سيما الملوك. وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يُعلم ويُعرف بكنه عظمته، فيكون كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣] فاللام وإن كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف، فكذلك ههنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير، وكذلك البيت المعمور، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي ﷺ لفظ الكتاب إلا ذلك، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذُكر باللام أو لم يذكر قصدًا للفائدة الأخرى وهي في الذكر بالتنكير، وفي تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها، وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن، وكذلك اللوح المحفوظ مشهور.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا

---

(١) الشطر الثاني من الحديث في الصحيح وغيره.

صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٣٨٩)، حديث رقم (٨٧٩)، وابن ماجه في كتاب (الدعاء)، باب: (ما تعوذ منه النبي) (٢/ ١٢٦٢/ ١٢٦٣) حديث رقم (٣٨٤١)، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (ترك الوضوء من مس رجل) (١/ ١١١)، حديث رقم (١٦٩)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٠١)، وابن خزيمة باب (نصب القدمين في السجود)، حديث رقم (٦٥٥)، جميعًا من طريق عبد الله بن عمر... به.

بخطه ورقِّه؟ نقول: هو إشارة إلى الوضوح، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يُعلم ما فيه فقال: هو في رق منشور وليس كالكتب المطوية، وعلى هذا: المراد اللوح المحفوظ، فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه. وفي رق منشور لبيان وصفه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وذلك لأن غير المعروف إذا وُصف كان إلى المعرفة أقرب شبهًا.

المسألة الخامسة: في بعض السور أقسم بجموع كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ وقوله ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وفي بعضها بأفراد كما في هذه السورة حيث قال: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ولم يقل والأطوار والبحار، ولا سيما إذا قلنا: المراد من الطور: الجبل العظيم كالطود، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] أي الجبل فما الحكمة فيه؟ نقول: في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانًا ودهرًا، فأقسم في ذلك بالواحد وكذلك قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ والريح ما علم القسم به وفي الطور علم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

إشارة إلى المقسم عليه، وفيه مباحث: الأول: في حرف ﴿إِنَّ﴾ وفيه مقامات:

الأول: هي تنصب الاسم وترفع الخبر، والسبب فيه هو أنها شُبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلكون الفتح لازمًا فيها واختصاصها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنينًا، وأما المعنى، فنقول: اعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الانتفائية، ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الإثبات، فإذا قالوا: زيد منطلق فُهم منه إرادة إثبات الانطلاق لزيد، والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زِيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات فقيل: ليس زيد منطلقًا، فصار ليس زيد منطلقًا بعد قول القائل زيد منطلق، ثم إن قول القائل: (إن زيدًا منطلق) مستنبط من قوله: ليس زيد منطلقًا، كأن الواضع لما وضع أولاً (زيد منطلق) للإثبات وعند النفي يحتاج إلى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبقى مكانه (ما) النافية ولهذا قيل لست وليسوا، فألحق به ضمير الفاعل، ولولا أنه فعل لما جاز ذلك، ثم أراد أن يضع في مقابلة (ليس زيد منطلقًا) جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات، كما أن في النافية لفظ النفي فقال: (إنّ) ولم يقصد أن (إنّ) فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير، فإنها غيرت الجملة من أصلها الذي هو الإثبات وأما (إنّ) فلم تغيره فالجملة على ما كانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس، وهذا ما يقوله النحويون في إن وأن وكأن وليت

ولعلّ: إنها حروف مشبهة بالأفعال.

إذا علمت هذا فنقول: كما أن (ليس) لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول، تقول: ليس زيد لئيمًا، بالرفع والنصب كما تقول: بات زيد كريمًا، فكذلك (إنّ) لها اسم وخبر، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها، فإن اسم (إنّ) منصوب وخبرها مرفوع، لأن (إنّ) لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تفيد إلا الإثبات الذي كان مستفادًا من غير حرف، و(ليس) لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل ولولاها لما حصل المقصود جُعل المرفوع والمنصوب في ليس على الأصل؛ لأن الأصل تقديم الفاعل، وفي إنّ جُعل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديمًا لازمًا، فلا يجوز أن يقال (إن منطلق زيدًا) وهو في (ليس منطلقًا زيد) جائز كما في الفعل لأنها فعل.

المقام الثاني: هي لِمَ تُكسر تارة وتُفتح أخرى؟ نقول: الأصل فيها الكسرة والعارض، وإن كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك.

المقام الثالث: لِمَ تدخل اللام على خبر (إنّ) المكسورة دون المفتوحة؟ قلنا: قد خرج مما سبق أن قول القائل: (زيد منطلق) أصل؛ لأن المثبتات هي المحتاجة إلى الإخبار عنها فإن التغير في ذلك، وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة، ولهذا يقال: الأصل في الأشياء البقاء، ثم إن السامع له قد يحتاج إلى الرد عليه فيقول: (ليس زيد منطلقًا) فيقول هو: (إن زيدًا منطلق) فيقول هو ردًّا عليه: (ليس زيد بمنطلق) فيقول ردًّا عليه: (إن زيدًا لمنطلق) و(أنّ) ليست في مقابلة ليس وإنما هي متفرعة عن المكسورة.

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ فيه لطيفة عزيزة وهي أنه تعالى لو قال: إن عذاب الله لواقع، والله اسم منبئ عن العظمة والهيبة، كان يخاف المؤمن بل النبي ﷺ من أن يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنيًا عن العالم بأسره، فضلاً عن واحد فيه فآمنه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ فإنه حين يسمع لفظ الرب يأمن.

المبحث الثالث: قوله ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارة إلى الشدة، فإن الواقع والوقوع من باب واحد، فالواقع أدل على الشدة من الكائن. ثم قال تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ .. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ .. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ فيه دلالة على عدم الدافع، فإن من يدفع عن نفسه عذابًا قد يدفع بالتحصن بقُلل الجبال ولُجج البحار، ولا ينفع ذلك، بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الناصب ليوم؟ نقول: المشهور أن ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع،

أي يقع العذاب ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ والذي أظنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨] وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم، لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر، ومور السماء قبل الحشر، وأما إذا قلنا: معناه ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢] يوم تمور فيكون في معنى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] كأنه تعالى يقول: ما له من دافع في ذلك اليوم، وهو ما إذا صارت السماء تمور في أعينكم والجبال تسير، وتتحققون أن الأمر لا ينفع شيئًا ولا يدفع.

المسألة الثانية: ما مور السماء؟ نقول: خروجها عن مكانها تتردد وتموج، والذي تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مرارًا، وقوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ يدل على خلاف قولهم، وذلك لأنهم وافقوا على أن خروج الجبل العظيم من مكانه جائز، وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال ببخار يجتمع تحت الأرض فيحركها، وإذا كان كذلك فنقول: السماء قابلة للحركة بإخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضي طبعه السكون، وإذا قبل جسم الحركة مع أنها على خلاف طبعه، فلأن يقبلها جرم آخر مع أنها على موافقته أَوْلى، وقولهم: (القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة) في غاية الضعف، وقوله: ﴿مَوْرًا﴾ يفيد فائدة جليلة وهي أن قوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكيفية مور السماء، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة، كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركًا، فكان لقائل أن يقول: السماء تمور في رأي العين بسبب سير الجبال، كما يرى القمر سائرًا راكب السفينة، والسماء إذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا في السماء ولا في الأرض.

المسألة الثالثة: ما السبب في مورها وسيرها؟ قلنا: قدرة الله تعالى، وأما الحكمة فالإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها، فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى.

المسألة الرابعة: لو قال قائل: كنتَ وعدتَ ببحث في الزمان يستفيد العاقل منه فوائد في اللفظ والمعنى، وهذا موضعه، فإن الفعل لا يضاف إليه شيء غير الزمان فيقال: يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾ وقال: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] وكذلك يضاف إلى الجملة، فما السبب في ذلك؟

فنقول: الزمان ظرف الأفعال، كما أن المكان ظرف الأعيان، وكما أن جوهرًا من الجواهر لا يوجد إلا في مكان، فكذلك عَرَض من الأعراض لا يتجدد إلا في زمان، وفيهما تحير خلق عظيم، فقالوا: إن كان المكان جوهرًا فله مكان آخر ويتسلسل الأمر، وإن كان عَرَضًا فالعَرَض لا بد له من جوهر، والجوهر لا بد له من مكان، فيدور الأمر أو يتسلسل، وإن لم يكن جوهرًا ولا عَرَضًا، فالجوهر يكون حاصلاً فيما لا وجود له أو فيما لا إشارة إليه، وليس كذلك. وقالوا

في الزمان: إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمور المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال، وإن كان متجددًا وكل متجدد فهو في زمان، فللزمان زمان آخر فيتسلسل الأمر. ثم إن الفلاسفة التزموا التسلسل في الأزمنة، ووقعوا بسبب هذا في القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل في الأمكنة وفرَّقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعًا، وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتداد وأبعاد لا نهاية لها، وهم وإن خالفونا في المسألتين جميعًا والفلاسفة وافقونا في إحداهما دون الأخرى، لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الالتزام في الأزمان، فإن قيل: فالمتجدد الأول قبله ماذا؟ نقول: ليس قبله شيء. فإن قيل: فعدمه قبله أو قبله عدمه؟ نقول قولنا ليس قبله شيء أعم من قولك قبله عدمه، لأنا إذا قلنا: ليس قبل آدم حيوان بألف رأس، صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم؛ لانتفاء ذلك الحيوان أولاً وآخرًا وعدم دخوله في الوجود أزلاً وأبدًا، فكذلك ما قلنا، فإن قيل: هذا لا يصح؛ لأن الله تعالى شيء موجود وهو قبل العالم، نقول: قولنا: (ليس قبل المتجدد الأول شيء) معناه ليس قبله شيء بالزمان، وأما الله تعالى فليس قبله بالزمان إذ كان الله ولا زمان، والزمان وُجد مع المتجدد الأول، فإن قيل: فما معنى وجود الله قبل كل شيء غيره؟ نقول: معناه كان الله ولم يكن شيء غيره. لا يقال: ما ذكرتم إثبات شيء بشيء ولا يثبت ذلك الشيء إلا بما ترومون إثباته، فإن بداية الزمان غرضكم وهو مبني على المتجدد الأول، والنزاع في المتجدد، فإن عند الخصم ليس في الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد؛ لأنا نقول: نحن ما ذكرنا ذلك دليلاً، وإنما ذكرناه بيانًا لعدم الإلزام، وأنه لا يرد علينا شيء إذا قلنا بالحدوث ونهاية الأبعاد واللزم والإلزام، فيسلم الكلام الأول، ثم يلزم ويقول: ألست تقول: إن لنا متجددًا أولاً فكذلك قل: له عدم. فنقول: لا، بل ليس قبله أمر بالزمان، فيكون ذلك نفيًا عامًّا، وإنما يكون ذلك لانتفاء الزمان، كما ذكرنا في المثال، إذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجودًا مع عرض وأخرى موجودًا بعد عرض؛ لأن يومنا هذا وغيره من الأيام كلها صارت متميزة بالمتجدد الأول، والمتجدد الأول له زمان هو معه. إذا عرفت أن الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة إلى بعض الأفهام والأمر الخفي يُعرف بالوصف والإضافة، فإنك إذا قلت: (غلام) لم يُعرف، فإذا وصفته أو أضفته وقلت: (غلام صغير أو كبير، وأبيض أو أسود) قرب من الفهم، وكذلك إذا قلت (غلام زيد) قرب، ولم يكن بد من معرفة الزمان، ولا يُعرف الشيء إلا بما يختص به، فإنك إذا قلت في الإنسان (حيوان موجود) بعدته عن الفهم، وإذا قلت (حيوان طويل القامة) قربته منه، ففي الزمان كان يجب أن يُعرف بما يختص به لأن الفعل الماضي والمستقبل والحال يختص بأزمنة، والمصدر له زمان مطلق، فلو قلت: (زمان الخروج) تميز عن زمان الدخول وغيره، فإذا قلت: (يوم خرج) أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج، والإضافة إلى ما هو أشد تمييزًا أَوْلى، كما

أنك إذا قلت (غلام رجل) ميزته عن غلام امرأة، وإذا قلت (غلام زيد) زدت عليه في الإفادة وكان أحسن، كذلك قولنا (يوم خرج) لتعريف ذلك اليوم خير من قولك (يوم الخروج)، فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف إلى الفعل، وغيره لا يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره إلا المكان في قوله: (اجلس حيث يجلس)، فإن (حيث) يضاف إلى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان، وأما الجمل فهي إنما يصح بواسطة تضمنها الفعل، فلا يقال (يوم زيد) أخوك، ويقال: يوم زيد فيه خارج.

ومن جملة الفوائد اللفظية: أن (لات) يختص استعمالها بالزمان، قال الله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] ولا يقال: لات الرجل سوء، وذلك لأن الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة أخرى، وبعد كل حركة حركة أخرى، وبعد كل زمان زمان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي قبل الخلق لم يخلق شيئًا، لكنه يعد ما خلق فهو أبدًا دائمًا يخلق شيئًا بعد شيء، فبعد حياتنا موت، وبعد موتنا حياة، وبعد حياتنا حساب، وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم، ولا يترك الله الفعل، فلما بعُد الزمان عن النفي زِيد في الحروف النافية زيادة، فإن قيل: فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغي أن لا تقرن التاء بكلمة (لا) هناك. نقول: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] تأويل وعليه لا يرد ما ذكرتم وهو أن لا هي المشبهة بليس تقديره: ليس الحين حين مناص. وهو المشهور، ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لأن الحين أدوم من الليل والنهار، فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾

أي إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع، فويل إذًا للمكذبين. فالفاء لاتصال المعنى، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان، وذلك لأنه لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] لم يبين بأن موقعه بمَن، فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عُلم المخصوص به وهو المكذب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا قلت بأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه، فمن لا يكذب لا يعذب، فأهل الكبائر لا يعذبون لأنهم لا يكذبون. نقول: ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨، ٩] فنقول: المؤمن لا يلقى فيها إلقاء بهوان، وإنما يدخل فيها ليظهر إدخال مع نوع إكرام، فكذلك الويل للمكذبين، والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة، منه (لوى) إذا دفع ولوى يلوي إذا كان قويًا والولي فيه القوة على المولى عليه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يُدَعُّونَ﴾ [الطور: ١٣] فإن المكذب يُدَعّ والمصدق لا يُدَعّ، وقد ذكرنا جواز التنكير في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ مع كونه مبتدأ لأنه في تقدير

المنصوب لأنه دعاء، ومضى وجهه في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] وتنكير الخوض يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون للتكثير، أي في خوض كامل عظيم.

ثانيهما: أن يكون التنوين تعويضًا عن المضاف إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِلًّا﴾ [التوبة: ٨] وقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ [هود: ١١١] و﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]. والأصل في خوضهم المعروف منهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ ليس وصفًا للمكذبين بما يميزهم، وإنما هو للذم، كما أنك تقول: (الشيطان الرجيم) ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم، بخلاف قولك: (أكرم الرجل العالم)، فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول في المدح: الله الذي خلق، والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم، فإن الله واحد لا غير.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وفيه مباحث لفظية ومعنوية:

أما اللفظية ففيها مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بماذا؟ نقول: الظاهر أنه منصوب بما بعده، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ تقديره: يوم يُدَعُّون يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون. ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلاً عن يوم في يومئذٍ، تقريره: فويل يومئذٍ للمكذبين ويوم يُدَعُّون أي المكذبون وذلك أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الطور: ١١] معناه يوم يقع العذاب، وذلك اليوم هو يوم يُدَعُّون فيه إلى النار.

المسألة الثانية: قوله: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ﴾ يدل على هول نار جهنم؛ لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من بعيد ويلقونهم فيها، وهم لا يقربونها.

المسألة الثالثة: ﴿دَعًّا﴾ مصدر، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الإيذان بأن الدع دعٌّ معتبر يقال: له: دع ولا يقال فيه: ليس بدعّ، كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقرًا له: هذا ليس بضرب. والعدو المهين: هذا ليس بعدو. في غير المصادر، والرجل الحقير ليس برجل إلا على قراءة من قرأ: (يوم يُدْعَون إلى نار جهنم دعاء) فإن دعاء حينئذٍ يكون منصوبًا على الحال، تقديره: يقال لهم: هلموا إلى النار مدعوين إليها.

أما المعنوية فنقول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يدل على أن خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٨] نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن الملائكة يسحبونهم في النار، ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد، فيكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] أي يكون لهم سَحْب في حموة النار، ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال.

الثاني: جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة، فإلى النار يدفعهم ملك، وفي النار يسحبهم آخر.

الثالث: جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون في النار، والساحب خارج النار.

الرابع: يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافًا بهم، ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ على تقدير: يقال.

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ تحقيقًا للأمر، وذلك لأن من يرى شيئًا ولا يكون الأمر على ما يراه، فذلك الخطأ يكون لأجل أحد أمرين: إما لأمر عائد إلى المرئي وإما لأمر عائد إلى الرائي، فقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي هل في المرئي شك أم هل في بصركم خلل؟ استفهام إنكار، أي لا واحد منها ثابت، فالذي ترونه حق وقد كنتم تقولون: إنه ليس بحق، وإنما قال: ﴿أَفَسِحْرٌ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون المرئيات إلى السحر، فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله: سِحر، وفي ذلك اليوم لما تعلق بهم مع البصر الألم المدرك بحس اللمس وبلغ الإيلام الغاية، لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر، وإلا لما صح منهم طلب الخلاص من النار.

ثم قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إذا لم يمكنكم إنكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل في أبصاركم، فاصلوها.

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ فيه فائدتان: إحداهما: بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص، فإن من لا يصبر يدفع الشيء عن نفسه إما بأن يدفع المعذِّب فيمنعه وإما بأن يغضبه فيقتله ويريحه، ولا شيء من ذلك يفيد في عذاب الآخرة، فإن من لا يغلب المعذِّب فيدفعه ولا يتخلص بالإعدام فإنه لا يقضى عليه فيموت، فإذن الصبر كعدمه؛ لأن من يصبر يدوم فيه، ومن لا يصبر يدوم فيه. الثانية: بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا، فإن المُعذَّب في الدنيا إن صبر ربما انتفع بالصبر إما بالجزاء في الآخرة، وإما بالحمد في الدنيا، فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه!! وإن جزع يُذم، فيقال: يجزع كالصبيان والنسوان، وأما في الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر، ومبتدأه مدلول عليه بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ كأنه يقول: الصبر وعدمه سواء، فإن قيل يلزم الزيادة في التعذيب، ويلزم التعذيب على المنوي الذي لم يفعله. نقول: فيه لطيفة، وهي أن المؤمن بإيمانه استفاد أن الخير الذي ينويه يثاب عليه، والشر الذي ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه، والكافر بكفره صار على الضد، فالخير الذي ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه، والشر الذي يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم، فإن الله

تعالى أخبره به، وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره، كأن الله تعالى قال: فإن من كفر ومات كافرًا أُعذبه أبدًا فاحذروا، ومن آمن أثيبه دائمًا، فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ما سمع ذلك، فإذا عاقبه المعاقب دائمًا تحقيقًا لما أوعده به، لا يكون ظالمًا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر، وذِكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب، وقد ذكرنا تفسير المتقين في مواضع، والجنة وإن كانت موضع السرور، لكن الناطور قد يكون في البستان الذي هو غاية الطيبة وهو غير متنعم، فقوله: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ يفيد أنهم فيها يتنعمون، كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور.

قوله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ يزيد في ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول، فلما قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ يدل على غاية الطيبة، وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يفيد زيادة في ذلك؛ لأن الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شيء ويفرح بأقل سبب، فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لا لدنو هِممهم بل لعلو نِعمهم حيث هي من عند ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد أنهم فاكهون بأمرين: أحدهما: بما آتاهم، والثاني: بأنه وقاهم. وثانيهما: أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الأولى، كأنه بيّن أنه أدخلهم جنّات ونعيمًا ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ فيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن وهو الجنّات، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبُسُط ثم الأزواج، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان، فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لأن مكان التنعيم قد ينتغص بأمور، وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يكون مما آتاهم الله، وقد ذكرنا هذا، وأما في الأكل والشرب والإذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما، وقوله تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ إشارة إلى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل، والكل منتفٍ في الجنة فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه، ولا إثم ولا تعب في تحصيله، فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتفٍ. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يقول أي مع أني ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلي الجنة، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم

ووفقتكم للأعمال الصالحة. كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]. وأما اليوم فلا من عليكم لأن هذا إنجاز الوعد. فإن قيل: قال في حق الكفار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] وقال في حق المؤمنين: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل بينهما فرق؟ قلت: بينهما بون عظيم من وجوه: الأول: كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي لا تُجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله، وحينئذٍ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب. الثاني: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ وقال هناك: ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ [التحريم: ٧] أي تُجزون عين أعمالكم. إشارة إلى المبالغة في المماثلة كما تقول: (هذا عين ما عملت) وقد تقدم بيان هذا وقال في حق المؤمن: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا. الثالث: ذكر الجزاء هناك وقال هاهنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الجزاء ينبئ عن الانقطاع فإن مَن أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئًا آخر. فإن قيل: فالله تعالى قال في مواضع: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] في الثواب. نقول: في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل تجزى وإنما أتى بما يفيد العالم بالدوام وعدم الانقطاع. وأما في السرر، فذكر أمورًا أيضًا: أحدها: الاتكاء فإنه هيئة تختص بالمنعم والفارغ الذي لا كلفة عليه ولا تكلف لديه، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكئ عنده، ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء، فالهيئة دليل خير. ثم الجمع يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون لكل واحد سرر، وهو الظاهر لأن قوله: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون في موضع واحد مصطفة، ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره، وقوله: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ دليل على أنه لمجرد العظم فإنها لو كانت متفرقة لقيل في كل موضع واحد ليتكئ عليه صاحبه إذا حضر في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ إشارة إلى النعمة الرابعة وفيها أيضًا ما يدل على كمال الحال من وجوه:

أحدها: أنه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين، يزوج عباده بإمائه، ومن يكون كذلك لا يفعل إلا ما فيه راحة العباد والإماء. ثانيها: قال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾ ولم يقل (وزوجناهم حورًا) مع أن لفظة التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف يقال (زوجتكها) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك إشارة إلى أن المنفعة في التزويج لهم وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم، وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به، كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور، لأن ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور. ثالثها: عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن، واختار الأحسن من الأحسن، فإن أحسن ما في صورة الآدمي وجهه، وأحسن ما في الوجه العين، ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الأعضاء ووفرة المادة في الأرواح، أما حسن المزاج فعلامته الحور، وأما وفرة الروح فإن سعة العين بسبب كثرة الروح المصوبة إليها، فإن قيل: قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ ذكره بفعل

ماض و ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال ولم يسبق ذكر فعل ماضٍ يعطف عليه ذلك، وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل أحسن، نقول: الجواب من وجوه: اثنان لفظيان ومعنوي: أحدها: أن ذلك حسن في كثير من المواضع، تقول: جاء زيد ويجيء عمرو وخرج زيد. ثانيها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ تقديره: أدخلناهم في جنات، وذلك لأن الكلام على تقدير أن في اليوم الذي يُدَعّ الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد أُدخل مكانه، فكأنه تعالى يقول: في يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم إن المتقين كائنون في جنّات. والثالث: المعنوي، وهو أنه تعالى ذكر مجزاة الحكم، فهو في هذا اليوم زَوَّج عباده حورًا عينًا، وهن منتظرات الزفاف يوم الآزفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ **وفيه لطائف:**

الأولى: أن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة، ولهذا طيَّب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يولههم بأولادهم بل يجمع بينهم، فإن قيل: قد ذكرت في تفسير بعض الآيات أن الله تعالى يسلي الآباء عن الأبناء وبالعكس، ولا يتذكر الأب الذي هو من أهل الجنة الابن الذي هو من أهل النار، نقول: الولد الصغير وُجد في والده الأبوة الحسنة ولم يوجد لها مُعارض ولهذا ألحق الله الولد بالوالد في الإسلام في دار الدنيا عند الصغر، وإذا كبر استقل، فإن كفر ينسب إلى غير أبيه، وذلك لأن الإسلام للمسلمين كالأب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] جمع أخ بمعنى أخوة الولادة، والإخوان جمعه بمعنى أخوة الصداقة والمحبة، فإذن الكفر من حيث الحس والعرف أب، فإن خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر، وفيه إرشاد الآباء إلى أن لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الإنسان بالتفرج في البستان مع الأحبة الإخوان وعن تحصيل قوت الولدان، وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما في الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فأراح الله قلوبهم بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذي يبذر ماله في الحرام ويترك أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام، نعوذ بالله منه، وهذا يدل على أن من يورث أولاده مالاً حلالاً يُكتب له به صدقة، ولهذا لمَ يُجوز للمريض التصرف في أكثر من الثلث.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ (١) فهذا ينبغي أن يكون دليلاً على أنا في الآخرة

(١) في الطبعة الأميرية (وأتبعناهم ذرياتهم) في الموضعين، وهي قراءة، وعليها جرى المفسر في تفسيره، وهي لا تفيد إيمان الذرية، بخلاف قراءة حفص (وابتعتهم ذريتهم) فهي تفيد إيمان الذرية، مع أن الذرية تابعة لأصلها لسقوط التكليف بل إن أولاد غير المؤمنين هم على فطرة الإيمان، بدليل الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (هامش).

نلحق بهم لأن في دار الدنيا مراعاة الأسباب أكثر. ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدي الإنسان طعامًا من السماء، فما يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله، وفي الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعي جزاء له على ما سعى له من قبل، فينبغي أن يجعل ذلك دليلاً ظاهرًا على أن الله تعالى يلحق به ولده وإن لم يعمل عملاً صالحًا كما أتبعه، وإن لم يشهد ولم يعتقد شيئًا.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ فإن الله تعالى أتبع الولد الوالدين في الإيمان ولم يتبعه أباه في الكفر، بدليل أن من أسلم من الكفار حكم بإسلام أولاده، ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يُحكم بكفر ولده.

اللطيفة الرابعة: قال في الدنيا: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ وقال في الآخرة: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ وذلك لأن في الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساواة المتبوع، وإنما يكون هو تبعًا والأب أصلاً لفضل الساعي على غير الساعي، وأما في الآخرة فإذا ألحق الله بفضله ولده به، جعل له من الدرجة مثل ما لأبيه.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ تطييب لقلبهم وإزالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الأب يوزع على الوالد والولد، بل للوالد أجر عمله بفضل السعي، ولأولاده مثل ذلك فضلاً من الله ورحمة.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ ولم يقل من أجرهم، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ دليل على بقاء عملهم كما كان والأجر على العمل مع الزيادة، فيكون فيه الإشارة إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه، ولو قال: ما ألتناهم من أجرهم، لكان ذلك حاصلاً بأدنى شيء لأن كل ما يعطي الله عبده على عمله فهو أجر كامل، ولأنه لو قال تعالى (ما ألتناهم من أجرهم)، كان مع ذلك يحتمل أن يقال: إن الله تعالى تفضَّل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص، وأعطاه الأجر الجزيل، مع أن عمله كان له ولولده جميعًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على ماذا؟ نقول: على قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الطور: ١٧].

المسألة الثانية: إذا كان كذلك فلمَ أعاد لفظ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكان المقصود يحصل بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ [الطور: ٢٠] وكان يصير التقدير: وزوجناهم وألحقنا بهم؟ نقول: فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقال هاهنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بوجود الإيمان يصير ولده من أهل الجنة، ثم إن ارتكب الأب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد، وربما يدخل الجنة الابن قبل الأب، وفيه لطيفة معنوية، وهو أنه ورد في الأخبار أن الولد الصغير يشفع لأبيه وذلك إشارة إلى الجزاء.

المسألة الثالثة: هل يجوز غير ذلك؟ نقول: نعم يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

عطفًا على ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] تقديره: زوجناهم بحور عين، أي قرناهم بهن، وبالذين آمنوا، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] أي جمعنا شملهم بالأزواج والإخوان والأولاد بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ [القصص: ٤٠] وهذا الوجه ذكره الزمخشري والأول أحسن وأصح، فإن قيل: كيف يصح على هذا الوجه الإخبار بلفظ الماضي مع أنه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم؟ قلنا: صح في (وزوجناهم) على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وإن تأخر زمان الاقتران.

المسألة الرابعة: قرئ (ذرياتهم) في الموضعين بالجمع و(ذريتهم) فيهما بالفرد، وقرئ في الأول (ذرياتهم) وفي الثانية ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهل للثالث وجه؟ نقول: نعم معنوي لا لفظي وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه في الإيمان حكمًا، وأما الإلحاق فلا يكون حكمًا إنما هو حقيقة وذلك في الموجود، فالتابع أكثر من الملحوق فجمع في الأول وأفرد الثاني.

المسألة الخامسة: ما الفائدة في تنكير الإيمان في قوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾؟ نقول: هو إما التخصيص أو التنكير، كأنه يقول: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل، أو يقول: أتبعناهم بإيمان ما أي شيء منه، فإن الإيمان كاملاً لا يوجد في الولد بدليل أن من له ولد صغير حُكم بإيمانه فإذا بلغ وصرّح بالكفر وأنكر التبعية قيل بأنه لا يكون مرتدًا وتبين بقول إنه لم يتبع وقيل بأنه يكون مرتدًا لأنه كفر بعد ما حكم بإيمانه كالمسلم الأصلي، فإذن بهذا الخلاف تبين أن إيمانه يقوى، وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري، ويحتمل أن يكون المراد غير هذا، وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] وبيانه هو أن التقدير: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان، أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان، وإنما هو إيمان الآباء لكن الإضافة تنبئ عن تقييد وعدم كون الإيمان إيمانًا على الإطلاق، فإن قول القائل: ماء الشجر وماء الرمان، يصح وإطلاق اسم الماء من غير إضافة لا يصح فقوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ يوهم أنه إيمان مضاف إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] حيث أثبت الإيمان المضاف ولم يكن إيمانًا، فقطع الإضافة مع إرادتها ليعلم أنه إيمان صحيح، وعوض التنوين ليعلم أنه لا يوجب الأمان في الدنيا إلا إيمان الآباء، وهذا وجه حسن.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال الواحدي: هذا عود إلى ذكر أهل النار فإنهم مرتهنون في النار، وأما المؤمن فلا يكون مرتهنًا، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] وهو قول مجاهد، وقال الزمخشري ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب، فإن كسب خيرًا فك رقبته وإلا أربق بالرهن. والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى الفاعل، فيكون

المعنى، والله أعلم: كل امرئ بما كسب راهن أي دائم، إن أحسن ففي الجنة مؤبدًا، وإن أساء ففي النار مخلدًا. وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان، فإن العَرَض لا يبقى إلا في جوهر ولا يوجد إلا فيه، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال، فإن الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات، وما عند الله باقٍ والباقي يبقى مع عامله.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾

أي زدناهم مأكولاً ومشروبًا، أما المأكول فالفاكهة واللحم، وأما المشروب فالكأس الذي يتنازعون فيها. **وفي تفسيرها لطائف:**

اللطيفة الأولى: لما قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] بيّن الزيادة ليكون ذلك جاريًا على عادة الملوك في الدنيا إذا زادوا في حق عبد من عبيدهم يزيدون في أقدار أخبازهم وأقطاعهم، واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين، وجَمَع أوصافًا حسنة في قوله: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لأنه لو ذكر نوعًا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال: كل أحد يعطى ما يشتهي، فإن قيل: الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم. نقول: ليس كذلك، بل الاشتهاء به اللذة، والله تعالى لا يتركه في الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم، بل المشتهى حاصل مع الشهوة والإنسان في الدنيا لا يتألم إلا بأحد أمرين: إما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول إلى المشتهى، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته، وكلاهما منتفٍ في الآخرة.

اللطيفة الثانية: لما قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي، فقال: ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد، فإن قيل: أكثر الله من ذكر الأكل والشرب، وبعض العارفين يقولون لخاصة الله: بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ما سوى الله. نقول: هذا على العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] وقال: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وأما على العلم بذلك فذلك، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨] أي للنفوس ما تتفكه به، وللأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب، يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي يتعاطون. ويحتمل أن يقال: التنازع: التجاذب، وحينئذٍ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل؛ ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبًا أن يشرب مثل ما شربه حريفه، ولا يرى واجبًا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه.

وقوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ وسواء قلنا: (فيها) عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس، فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا، فقال تعالى: ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل، ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم. وفيه وجه ثالث، وهو أن يقال: لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم، أي لا يُنسب إلى إثم. وفيه وجه رابع، وهو أن يكون المراد من التأثيم: السُّكْر، وحينئذٍ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة، فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى، ومنهم من يعربد فقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي بالكؤوس، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿لَّهُمْ﴾ أي ملكهم إعلامًا لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور، ويحتمل وجهًا آخر وهو أنه تعالى لما بيّن امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا، بيَّن امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح، وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم، والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ﴾ أي في الصفاء، و﴿مَّكْنُونٌ﴾ ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم، أو لبيان أنهم كالمُخدَّرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة، ويزداد الكافر ألمًا حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن النعيم إلى الجحيم، ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف، فيقولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون: خشية الله، كنا نخاف الله ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان، ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾

وتعلق الآية بما قبلها ظاهر؛ لأنه تعالى بيّن أن في الوجود قومًا يخافون الله ويشفقون في أهليهم، والنبي ﷺ مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فحقق من يذكره فوجب التذكير، وأما الرسول عليه السلام فليس له إلا الإتيان بما أُمر به.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الفاء في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء.

المسألة الثانية: معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ أيضًا قد علم، أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم، فإن ذلك سيرة المزور فذكر فإنك لست بمزور، وذلك سبب التذكير.

المسألة الثالثة: ما وجه تعلق قوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ بقوله: ﴿شَاعِرٌ﴾؟ نقول: فيه وجهان: الأول: أن العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء وتتقي ألسنتهم، فإن الشعر كان عندهم يُحفظ ويُدون، وقالوا: لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره، وإنما سبيلنا الصبر وتربص موته. الثاني: أنه ﷺ كان يقول: إن الحق دين الله، وإن الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر، وكتابي يتلى إلى قيام الساعة. فقالوا: ليس كذلك إنما هو شاعر، والذي يذكره في حق آلهتنا شعر، ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك.

المسألة الرابعة: ما معنى ريب المنون؟ نقول: قيل: هو اسم للموت فعَول من المن وهو القطع والموت قَطوع، ولهذا سمي بمنون، وقيل: المنون الدهر، وريبه: حوادثه، وعلى هذا قولهم ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ يحتمل وجهًا آخر، وهو أن يكون المراد أنه إذا كان شاعرًا فصروف الزمان ربما تُضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكلٍّ فساد أمره وكساد شعره.

المسألة الخامسة: كيف قال: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾[الطور: ٣١] بلفظ الأمر وأمر النبي ﷺ يوجب المأمور (به) أو يفيد جوازه، وتربصهم ذلك كان حرامًا؟ نقول: ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد، معناه تربصوا ذلك فإنا نتربص الهلاك بكم، على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده: (افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل) وهو أمر لتهوين الأمر على النفس، كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول: أشكوك إلى زيد فيقول: (اشكني) أي لا يهمني ذلك، وفيه زيادة فائدة، وذلك لأنه لو قال: (لا تشكني) لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه، فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى، فإن قيل: لو كان كذلك لقال: (تربصوا أو لا تربصوا) كما قال: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾[الطور: ١٦] نقول: ليس كذلك لأنه إذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال: (اشكني أو لا تشكني) يكون ذلك مفيدًا عدم خوفه منه، فإذا قال: (اشكني) يكون أدل على عدم الخوف، فكأنه يقول أنا فارغ عنه، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك.

المسألة السادسة: في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: إني معكم من المتربصين أتربص هلاككم. وقد أُهلكوا يوم بدر وفي غيره من الأيام، هذا ما عليه الأكثرون. والذي نقوله في هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوهًا، وبيانها هو أن قوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ إن كان المراد من المنون الموت فقوله: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ معناه إني أخاف الموت ولا أتمناه لا لنفسي ولا لأحد؛ لعدم علمي بما قدمت يداه وإنما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربي: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فتربصوا موتي وأنا متربصه، ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدي. ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتي فإني متربص موتكم بالعذاب. وإن قلنا: المراد من ريب المنون صروف الدهر، فمعناه إنكار كون صروف الدهر مؤثرة، فكأنه يقول: أنا من المتربصين حتى أبصر ماذا يأتي به دهركم الذي تجعلونه مهلكًا وماذا يصيبني منه. وعلى التقديرين فنقول: النبي ﷺ يتربص ما يتربصون، غير أن في الأول تربصه مع اعتقاد الوقوع، وفي الثاني تربصه مع اعتقاد عدم التأثير، على طريقة من يقول أنا أيضًا أنتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكرًا عليه وقوع ما يتوقع وقوعه، وإنما هذا لأن ترك المفعول في قوله: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لكونه مذكورًا وهو ريب المنون أَوْلى من تركه وإرادة غير المذكور وهو العذاب. الثاني: أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهو لم يتربص بهم شيئًا على الوجهين، وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته، فلم يتربص بهم شيئًا على الوجوه التي اخترناها فقال: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾

و(أم) هذه أيضًا على ما ذكرنا متصلة، تقديرها: أُنزل عليهم ذكر؟ أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟ وذلك لأن الأشياء إما أن تثبت بسمع وإما أن تثبت بعقل، فقال: هل ورد أمر سمعي؟ أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون؟ أم هم قوم طاغون يغترون، ويقولون ما لا دليل عليه سمعًا ولا مقتضى له عقلاً؟ والطغيان مجاوزة الحد في العصيان، وكذلك كل شيء ظاهره مكروه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقه: ١١].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان المراد ما ذكرت فلمَ أسقط ما يصدر به؟ تقول: لأن كون ما يقولون به مسندًا إلى نقل معلوم عدمه لا ينفى، وأما كونه معقولاً فهم كانوا يدعون أنه معقول، وأما كونهم طاغين فهو حق، فخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به، فهم قالوا نحن نتبع العقل. والله تعالى قال: هم طاغون. فذكر الأمرين اللذين وقع فيهما الخلاف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ إشارة إلى أن كل ما لا يكون على وفق العقل لا ينبغي

أن يقال، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلاً، فهل صار (كل) واجب عقلاً مأمورًا به؟

المسألة الثالثة: ما الأحلام؟ نقول: جمع حلم وهو العقل، وهما من باب واحد من حيث المعنى؛ لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه، والحلم من الحلم وهو أيضًا سبب وقار المرء وثباته، وكذلك يقال للعقول النُّهى من النَّهي وهو المنع، وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فيُنزل ويلزمه الغسل، وهو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفًا، وكأن الله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فأشار إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم؛ ليعلم أنه نذير كمال العقل، لا العقل الذي به يحترز الإنسان الشرك ودخول النار، وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصحح التكليف.

المسألة الرابعة: (هذا) إشارة إلى ماذا؟ نقول: فيه وجوه: الأول: أن يكون هذا إشارة مهمة، أي بهذا الذي يظهر منهم قولاً وفعلاً حيث يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون الهذيان من الكلام. الثاني: هذا إشارة إلى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون. الثالث: هذا إشارة إلى التربص فإنهم لما قالوا: (نتربص) قال الله تعالى: أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم؟! فإن أحدًا لم يتوقع هلاك نبيه إلا وهلك.

المسألة الخامسة: هل يصح أن تكون (أم) في هذا الموضع بمعنى بل؟ نقول: نعم، تقديره يقولون: إنه شاعر قولاً بل يعتقدونه عقلاً ويدخل في عقولهم ذلك، أي ليس ذلك قولاً منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنًا ومجنونًا، ويدل عليه قراءة من قرأ: (بل هم قوم طاغون)، لكن بل هاهنا واضح وفي قوله: (بل تأمرهم أحلامهم) خفي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهو متصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ [الطور: ٣٠] وتقديره على ما ذكرنا: أتقولون كاهن، أم تقولون شاعر، أم تقوَّله.

ثم قال لبطلان جميع الأقسام: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كان هو شاعرًا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الأذكياء ومن يرتجل الخُطب والقصائد، ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد، فليأتوا بمثل ما أتى به، والتقول يراد به الكذب. وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن التفعل للتكلف وإراءة الشيء وهو ليس على ما يرى، يقال تَمَرَّض فلان، أي لم يكون مريضًا وأرى من نفسه المرض، وحينئذٍ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول إنما هو تقول صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بيان هذا أنهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها، وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم، وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضًا، وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الأمور ولم يظهر الأمر عندهم ذلك الظهور.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ الفاء للتعقيب، أي إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصحح كلامهم ويبطل كلامه. **وفيه مباحث:**

الأول: قال بعض العلماء: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أمر تعجيز، بقوله القائل لمن يدعي أمرًا أو فعلاً ويكون غرضه إظهار عجزه، والظاهر أن الأمر ههنا مبقي على حقيقته لأنه لم يقل: ائتوا مطلقًا بل إنما قال: ائتوا إن كنتم صادقين، وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الإتيان به، وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨] وليس هذا بحثًا يورث خللاً في كلامهم.

الثاني: قالت المعتزلة: الحديث محدث والقرآن سماه حديثًا فيكون محدثًا. نقول: الحديث اسم مشترك، يقال للمحدث والقديم، ولهذا يصح أن يقال: هذا حديث قديم، بمعنى متقادم العهد، لا بمعنى سلب الأولية، وذلك لا نزاع فيه.

الثالث: النحاة يقولون: الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير، لكن الموصوف حديث وهو منكر و(مثل) مضاف إلى القرآن والمضاف إلى المعرف معرف، فكيف هذا؟ نقول: مثل وغير لا يتعرفان بالإضافة، وكذلك كل ما هو مثلهما، والسبب أن غيرًا أو مثلاً وأمثالهما في غاية التنكير، فإنك إذا قلت: (ما رأيت شيئًا مثل زيد) يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيد في كونه شيئًا، فالجماد مثله في الجسم والحجم والإمكان، والنبات مثله في النشوء والنماء والذبول والفناء، والحيوان مثله في الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف، وأما (غير) فهو عند الإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنك إذا قلت: (غير زيد) صار في غاية الإيهام فإنه يتناول أمورًا لا حصر لها، وأما إذا قطعته عن الإضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير، فتجعل الغير كأسماء الأجناس، أو تجعله مبتدأ وتريد به معنى معينًا.

الرابع: ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ أي في قولهم: ﴿تَقَوَّلَهُ﴾[الطور: ٣٣] وقد ذكرنا أن ذلك راجع إلى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه متقول، ولو كانوا صادقين في شيء من ذلك لهان عليهم الإتيان بمثل القرآن، ولما امتنع كذبوا في الكل.

البحث الخامس: قد ذكرنا أن القرآن معجز، ولا شك فيه، فإن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثل ما يقرب منه عند التحدي، فإما أن يكون كونه معجزًا لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة، وإما أن يكون معجزًا لصرف الله عقول العقلاء عن الإتيان بمثله، وعَقْله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه، ومَنْع القادر من الإتيان بالمقدور كإتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره، فإن من قال لغيره:

أنا أحرك هذا الجبل. يستبعد منه، وكذا إذا قال إني أفعل فعلاً لا يقدر الخلق (معه) على حمل تفاحة من موضعها. يستبعد منه على أن كل واحد فعل معجز إذا اتصل بالدعوى، وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال: هو معجز بهما جميعًا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾

ومن هنا لا خلاف أن ﴿أَمْ﴾ ليست بمعنى بل، لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام، إما بالهمزة فكأنه يقول: أخُلقوا من غير شيء أو هل، ويحتمل أن يقال: هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره: أما خلقوا، أم خلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون؟

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: لما كذبوا النبي ﷺ ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك، ذكر الدليل على صدقه إبطالاً لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم، كأنه يقول: كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه؟! لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد والحشر والرسالة. ففي أنفسهم ما يُعلم به صدقه، وبيانه هو أنهم خُلقوا وذلك دليل التوحيد لِما بينا أن في كل شيء له آية، تدل على أنه واحد، وقد بينا وجهه مرارًا فلا نعيده.

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه، ويدل على ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

المسألة الثانية: إذا كان الأمر على ما ذكرت فلمَ حذف قوله: أما خلقوا؟ نقول: لظهور انتفاء ذلك ظهورًا لا يبقى معه للخلاف وجه، فإن قيل: فلمَ لم يصدر بقوله: أما خلقوا ويقول: أم خلقوا من غير شيء؟ نقول: ليعلم أن قبل هذا أمرًا منفيًا ظاهرًا، وهذا المذكور قريب منه في ظهور البطلان فإن قيل: قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أيضًا ظاهر البطلان؛ لأنهم علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة، نقول: الأول أظهر في البطلان لأن كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكرًا للضرورة، فمنكره منكر لأمر ضروري.

المسألة الثالثة: ما المراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؟ نقول: فيه وجوه، المنقول منها أنهم خُلقوا من غير خالق. وقيل: إنهم خُلقوا لا لشيء عبثًا. وقيل: إنهم خُلقوا من غير أب وأم، ويحتمل أن يقال: أم خُلقوا من غير شيء، أي ألم يُخلقوا من تراب أو من ماء؟ ودليله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ويحتمل أن يقال: الاستفهام الثاني ليس بمعنى النفي بل هو بمعنى الإثبات، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] و﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت، كذلك هاهنا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي الصادق

هو هذا الثاني حينئذٍ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فإن قيل: كيف يكون ذلك الإثبات والآدمي خُلق من تراب؟ نقول: والتراب خُلق من غير شيء، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقه وأسندت النظر إلى ابتداء أمره، وجدته خُلق من غير شيء، أو نقول: المراد: أم خُلقوا من غير شيء مذكور أو معتبر وهو الماء المهين.

المسألة الرابعة: ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية؟ نقول: هي أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها، وقال أما خلقوا أصلاً، ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد وهو الخلق، وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول. أم خلقوا من غير شيء، أي أم يقولون بأنهم خلقوا لا لشيء فلا إعادة، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المومنون: ١١٥]. وعلى قولنا: (إن المراد خُلقوا لا من تراب ولا من ماء) فله وجه ظاهر، وهو أن الخلق إذا لم يكن من شيء بل يكون إبداعيًّا يخفى كونه مخلوقًا على بعض الأغبياء، ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقًا ووجد من غير خالق، وأما الإنسان الذي يكون أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا وعظمًا لا يتمكن أحد من إنكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خُلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها ترابًا ولا ماء ولا نطفة، ليس كذلك بل هم كانوا شيئًا من تلك الأشياء خُلقوا منه خلقًا، فما خُلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] ولهذا أكثر الله من قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢] وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] يتناول الأمرين المذكورين في هذا الموضع لأن قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] يحتمل أن يكون نفي المجموع بنفي الخلق، فيكون كأنه قال: أخُلقتم لا من ماء، وعلى قول من قال: (المراد منه أم خُلقوا من غير شيء، أي من غير خالق) ففيه ترتيب حسن أيضًا وذلك لأن نفي الصانع إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقًا فلا يكون ممكنًا، وإما أن يكون ممكنًا لكن الممكن لا يكون محتاجًا، فيقع الممكن من غير مؤثر، وكلاهما محال.

وأما قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل، فإن دأب الإنسان أنه يعيا بالخلق، فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم إله ألبتة، أم خلقوا وخفي عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا إليه العجز، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] هذا بالنسبة إلى الحشر. وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فقال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء، وكل واحد يشغله شأن عن شأن.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ **وفيه وجوه:** أحدها: ما اختاره الزمخشري وهو أنهم لا يوقنون بأنهم خُلقوا، وهو حينئذٍ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] أي هم معترفون بأنه خلق الله وليس خلق أنفسهم. وثانيها: المراد بل لا يوقنون بأن الله واحد، وتقديره: ليس الأمر كذلك، أي ما خُلقوا وإنما لا يوقنون بوحدة الله. وثالثها: لا يوقنون أصلاً من غير ذكر مفعول، يقال: فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر، لبيان مذهبه وإن لم ينو مفعولاً، وكذلك قول القائل فلان يؤذي ويؤدي، لبيان ما فيه لا مع القصد إلى ذكر مفعول، وحينئذٍ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوقنون بهذه الدلائل، بل لا يوقنون أصلاً وإن جئتهم بكل آية، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق، وقوله من قبل: ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ [الطور: ٣٥] دليل الأنفس.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾. **وفيه وجوه:** أحدها: المراد من الخزائن خزائن الرحمة. ثانيها: خزائن الغيب. ثالثها: أنه إشارة إلى الأسرار الإلهية المخفية عن الأعيان. رابعها: خزائن المخلوقات التي لم يرها الإنسان ولم يسمع بها. وهذه الوجوه الأول والثاني منقول، والثالث والرابع مستنبط.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ تتمة للرد عليهم، وذلك لأنه لما قال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة (رحمة) الله فيعلموا خزائن الله، وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفًا على الخزانة، فإن العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة، فقال: لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها، ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة؛ لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب، وقيل: المسيطر المسلط، وقُرئ بالصاد، وكذلك في كثير من السينات التي مع الطاء، كما في قوله تعالى: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقد قُرئ: (مُصَيْطِرٌ).

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو أيضًا تتميم للدليل، فإن من لا يكون خازنًا ولا كاتبًا قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب، فقال: أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم؛ لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المقصود نفي الصعود، ولا يلزم من نفي السُّلم لهم نفي الصعود، فما

الجواب عنه؟ نقول: النفي أبلغ من نفي الصعود، وهو نفي الاستماع، وآخر الآية شامل للكل، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

المسألة الثانية: السلم لا يستمع فيه، وإنما يستمع عليه، فما الجواب؟ نقول: من وجهين: أحدهما: ما ذكره الزمخشري أن المراد ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صاعدين فيه. وثانيهما: ما ذكره الواحدي أن (في) بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل، وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير.

المسألة الثالثة: لمَ ترك ذكر مفعول ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ وماذا هو؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: المستمع هو الوحي، أي هل لهم سُلم يستمعون فيه الوحي. ثانيها: يستمعون ما يقولون من أنه شاعر، وأن لله شريكًا، وأن الحشر لا يكون. ثالثها: تركُ المفعول رأسًا، كأنه يقول: هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا أنه ليس برسول، وكلامه ليس بمرسل؟

المسألة الرابعة: قال: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ ولم يقل فليأتوا، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] نقول: طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم؛ ليكون اجتماعهم عليه أدل على بطلان قولهم، فقال هناك: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ أي اجتمعوا عليه وتعاونوا، وأتوا بمثله، فإن ذلك عند الاجتماع أهون، وأما الارتقاء في السلم بالاجتماع (فإنه) متعذر لأنه لا يرتقي إلا واحد بعد واحد، ولا يحصل في الدرجة العليا إلا واحد فقال: ﴿فَلْيَأْتِ﴾ ذلك الواحد الذي كان أشد رقيًّا بما سمعه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ما المراد به؟ نقول: هو إشارة إلى لطيفة، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه، وقيل لهم: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ بما سمع، لكان لواحد أن يقول: أنا سمعت كذا وكذا. فيفتري كذبًا، فقال: لا، بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارة إلى نفي الشريك، وفساد ما يقولون بطريق آخر، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه، والله قادر فلا شريك له، فإنهم قالوا: نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء، وإنما نعظمها لأنها بنات الله، فقال تعالى: كيف تجعلون لله البنات، وخَلْق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل، من غير أن يقوم مقامه الفصل، فقدَّر الله التوالد؛ ولهذا لا يكون في الجنة ولادة؛ لأن الدار دار البقاء، لا موت فيها للآباء، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء.

إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون في صورة إمكان فناء الأب؛ ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] أي حي لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه؛ لأنه ورد في نصارى نجران. ثم إن الله تعالى بيّن هذا

بأبلغ الوجوه، وقال: إنهم يجعلون له بنات، ويجعلون لأنفسهم بنين، مع أن جعل البنات لهم أَوْلى، وذلك لأن كثرة البنات تعين عل كثرة الأولاد؛ لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد. وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادرًا، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظرًا إلى التكثير، فقال تعالى: أنا القيوم الذي لا فناء لي، ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص، وأنتم معرضون للموت العاجل، وبقاء العالم بالإناث أكثر، وتتبرءون منهن والله تعالى مستغنٍ عن ذلك وتجعلون له البنات، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لابتداء لله، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لا فناء له، فإن قيل: كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل، والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف، وذلك القدر كافٍ في العلم بفساد هذا القول؟ نقول: ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل، وعدم اعتبار النقل، ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون: يجب اتباع العقل الصريح. ويقولون: النقل بمعزل لا يُتبع إلا إذا وافق العقل، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل؛ لأن العقل هناك كافٍ. ثم قالوا: الوالد يسمى والدًا؛ لأنه سبب وجود الولد؛ ولهذا يقال إذا ظهر شيء من شيء، هذا تولد من ذلك. فيقولون: الحمى تتولد من عفونة الخلط. فقالوا: الله تعالى سبب وجود الملائكة سببًا واجبًا لا اختيار له فسموه بالوالد. ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص، ووجوب الاقتصار في أسمائه على الأسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل، فقالوا: يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته. فسموه عاشقًا ومعشوقًا، وسموه أبًا ووالدًا، ولم يسموه ابنًا ولا مولودًا باتفاقهم، وذلك ضلالة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾

وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلاً، وسموا الموجود بعد العدم مولودًا ومتولدًا، والموجد والدًا - لزمهم الكفر بسببه والإشراك، فقال لهم: ما الذي يحملكم على اطراح الشرع، وترك اتباع الرسول ﷺ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئًا؟ فما كان يسعهم أن يقولوا: نعم، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا: لا، فنقول لهم: كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظًا إن لم يكن معنى كما تقولون، ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والإحسان في اللفظ، ويقول لكم: اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعمِلوا اللفظ الحسن المؤدب؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في سؤال النبي ﷺ حيث قال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ ولم يقل: أم يُسألون

أجرًا؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٣٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور: ٤٢] إلى غير ذلك؟ نقول: فيه فائدتان:

إحداهما: تسلية قلب النبي ﷺ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع، صَعُب على النبي ﷺ، فقال له ربه: أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا، فأنت غير ملوم، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجرًا فهل طلبت ذلك فأثقلهم؟ لا فلا حرج عليك إذًا.

ثانيهما: أنه لو قال (أم يُسألون) لزم نفي أجر مطلقًا وليس كذلك، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم، وأما النبي ﷺ فقال له: أنت لا تسألهم أجرًا فهم لا يتبعونك، وغيرك يَسألهم وهم يُسألون ويتبعون السائلين، وهذا غاية الضلال.

المسألة الثانية: إن قال قائل: أُلزمت أن تبين أن (أم) لا تقع إلا متوسطة حقيقة أو تقديرًا فكيف ذلك هاهنا؟ نقول: كأنه تعالى يقول: أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرًا، وترك الأول لعدم وقوع الإنكار عليه كما قلنا في قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ [الطور: ٣٩] إن المقدار هو واحد أم له البنات، وترك ذكر الأول لعدم وقوع الإنكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بأنه لا يريد وجه الله تعالى، وإنما يريد الرياسة والأجر في الدنيا.

المسألة الثالثة: هل في خصوص قوله تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ فائدة لا توجد في غيره لو قال: أم تسألهم شيئًا أو مالاً أو غير ذلك؟ نقول: نعم، وقد تقدم القول مني أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها، والذي يظهر ههنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتي به النبي ﷺ فيه مصلحتهم وذلك لأن الأجر لا يُطلب إلا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الأجر، فقال: أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجرًا وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم، لأتوك بجميع أموالهم ولفدوك بأنفسهم، ومع هذا لا تطلب منهم أجرًا، ولو قال (شيئًا أو مالاً) لما حصلت هذه الفائدة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجرًا ما، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] يدل على أنه طلب أجرًا ما فكيف الجمع بينهما؟ نقول: لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد، وبيانه هو أن المراد من قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] هو أني لا أسألكم عليه أجرًا يعود إلى الدنيا، وإنما أجري المحبة في الزلفى إلى الله تعالى، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا - أقرب إلى الله من الذين لم يكلمهم ولم يرسلهم الله ولم يكملوا، وعلى هذا فهو في معنى قوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] وإليه أنتمي وقوله ﷺ: «فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] وقوله: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وبين

---

(١) ضعيف: رواه عبد الرزاق في (مصنفه) (٦/ ١٧٣)، حديث رقم (١٠٣٩١) من طريق هشام بن سعد، عن=

ما ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ المراد أجر الدنيا وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] المراد العموم ثم استثنى، ولا حاجة إلى ما قاله الواحدي إن ذلك منقطع معناه لكن المودة في القربى، وقد ذكرناه هناك فليطلب منه.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ ما طلب منهم شيئًا، ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بأدنى شيء، اللّهم إلا إن أثقلهم التكليف ويأخذ كل مالهم ويمنعهم التخليف، فيثقلهم الدَّين بعد ما لا يبقى لهم العين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾

وهو على الترتيب الذي ذكرناه، كأنه تعالى قال لهم: بِمَ اطرحتم الشرع ومحاسنه، وقلتم ما قلتم بناء على اتباعكم الأوهام الفاسدة التي تسمونها المعقولات، والنبي ﷺ لا يطلب منكم أجرًا وأنتم لا تعلمون فلا عذر لكم؛ لأن العذر إما في الغرامة وإما في عدم الحاجة إلى ما جاء به، ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف التقدير؟ قلنا: لا حاجة إلى التقدير بل هو استفهام متوسط على ما ذكرنا، كأنه قال: أتهديهم لوجه الله تعالى، أم تسألهم أجرًا فيمتنعون، أم لا حاجة لهم إلى ما تقول لكونهم عندهم الغيب فلا يتبعون.

المسألة الثانية: الألف واللام في الغيب لتعريف ماذا ألجنس أو لعهد؟ نقول: الظاهر أن المراد نوع الغيب كما يقول القائل: (اشترى اللحم) يريد بيان الحقيقة لأكل لحم ولا لحمًا معينًا، والمراد في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] الجنس واستغراقه لكل غيب.

المسألة الثالثة: على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لا يكون غيبًا؟ نقول: معناه حضر عندهم ما غاب عن غيرهم، وقيل: هذا متعلق بقوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أي أعندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم. وهو ضعيف؛ لبعد ذلك ذكر، أو لأن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ [الطور: ٣١] متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في قوله: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ نقول: وضوح الأمر، وإشارة إلى أن ما عند النبي ﷺ من علم الغيب علم بالوحي أمورًا وأسرارًا وأحكامًا وأخبارًا كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس: الأمر كذا وكذا، فإن قيل: اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول: أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط. وإن

=سعيد بن أبي هلال أن النبي ﷺ... فذكره، وهذا مرسل، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣١٨)، وقال: رواه البيهقي وعبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً. وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٢٣٣)، وقال: ضعيف.

كان قاطعًا يقول اكتبوا هذا عني، وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا. فقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ يعني هل صاروا في درجة محمد ﷺ حتى استغنوا عنه وأعرضوا، ونُقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم، معناه يحكمون. وتمسَّك بقوله ﷺ: «اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ» [١] أي حكم الله، وليس المراد ذلك، بل هو من باب الإضمار معناه بما في كتاب الله تعالى، يقال: فلان يقضي بمذهب الشافعي، أي بما فيه، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية: اعملوا بكتاب الملك.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين؟ قلنا: يبين ذلك ببيان المراد من قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ فبعض المفسرين قال: أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون، أي لا يقدرون على الكيد فإن الله يصونك بعينه وينصرك بصونه. وعلى هذا إذا قلنا بقول من يقول: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ [الطور: ٤١] متصل بقوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فيه ترتيب في غاية الحسن وهو أنهم لما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] قيل لهم: أتعلمون الغيب فتعلمون أنه يموت قبلكم أم تريدون كيدًا فتقولون نقتله فيموت قبلنا. فإن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون، وإن كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالطون فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم. وأما على ما قلنا إن المراد منه أنه ﷺ لا يسألكم على الهداية مالاً وأنتم لا تعلمون ما جاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب، فنقول: فيه وجوه: الأول: أن المراد من قوله تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ أي من الشيطان وإزاغته فيحصل مرادهم، كأنه تعالى قال: أنت لا تسألهم أجرًا وهم يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا، فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بإزاغته، والإرادة بمعنى الاختيار والمحبة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ [الشورى: ٢٠] وكما قال: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وأظهر من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد والله أعلم: أم يريدون كيدًا لله فهو واصل إليهم وهم عن قريب مكيدون، وترتيب الكلام هو أنهم لما لم يبق حجة في الإعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم، والله أرسل إليهم رسولاً لا يسألهم أجرًا ويهديهم إلى ما لا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون، فهم يريدون إذًا أن يهلكهم ويكيدهم؛ لأن الاستدراج كيد والإملاء لازدياد الإثم، كذلك لا يقال هو فاسد لأن الكيد والإساءة لا يطلق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة، وكذلك المكر فلا يقال: أساء الله إلى الكفار ولا اعتدى الله، إلا إذا ذكر أولاً فيهم شيء من ذلك، ثم قال بعد ذلك بسببه لفظًا في

(١) تقدم تخريجه في حديث العسيف الزاني.

حق الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال: ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] لأنا نقول: الكيد ما يسوء من نزل به وإن حسن ممن وُجد منه، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] من غير مقابلة؟

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون؟ نقول: الفائدة كون الكافر مكيدًا في مقابلة كفره لا في مقابلة إرادته الكيد، ولو قال: (أم يريدون كيدًا فهم المكيدون)، كان يُفهم منه أنهم إن لم يريدوه لا يكونوا مكيدين، وهذا يؤيد ما ذكرناه أن المراد من الكيد كيد الشيطان أو كيد الله، بمعنى عذابه إياهم لأن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ عام في كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله، أي يعذبه، وصار المعنى على ما ذكرناه: أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرًا فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع، أم عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك فيُعرضون عنك، أم ليس شيء من هذين الأمرين الأخيرين فيريدون العذاب، والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون.

المسألة الثالثة: ما الفائدة في تنكير الكيد حيث لم يقل أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام؟ نقول: فيه فائدة، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون، فكأنه قال: يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم أو يكون إيرادًا لعظمته كما ذكرنا مرارًا.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ۝٤٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وفي ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بحث شريف وهو أهل اللغة قالوا: سبحان اسم علم للتسبيح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وأكثرنا من الفوائد، فإن قيل: يجوز أن نقول: (سبحان الله) اسم مصدر، ونقول: (سبحان) على وزن فُعلان فنذكر سبحان من غير مواضع الإيقاع لله كما يقال في التسبيح، نقول ذلك مثل قول القائل: (مِن حرف جار) و(في كلمة ظرف حيث يخبر عنه) مع أن الحرف لا يخبر عنه. فيجاب بأن (مِن وفي) حينئذٍ جُعلا كالاسم ولم يُتركا على أصلهما المستعمل في مثل قولك: أخذت من زيد، والدرهم في الكيس، فكذلك (سبحان) فيما ذُكر من المواضع لم يُترك على مواضع استعماله فإنه حينئذٍ لم يُترك علمًا كما يقال: زيد على وزن فَعْل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا.

المسألة الرابعة: (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون

مصدرية معناه سبحانه عن إشراكهم. ثانيهما: خبرية معناه عن الذين يشركون، وعلى هذا فيحتمل أن يكون عن الولد لأنهم كانوا يقولون: البنات لله. فقال: سبحان الله على البنات والبنين، ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة لأنهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال: سبحان الله عن مثل ما يعبدونه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ وجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بيّن فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار، أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار، فإن الآيات ظهرت والحجج تميزت، ولم يؤمنوا، وبعد ذلك ﴿يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ﴾ أي ينكرون الآية، لكن الآية إذا أظهرت في أظهر الأشياء كانت أظهر، وبيانه هو أن من يأتي بجسم من الأجسام من بيته وادعى فيه أنه فعل به كذا، فربما يخطر ببال السامع أنه في بيته ولما يبدعه، فإذا قال للناس: هاتوا جسمًا تريدون حتى أجعل لكم منه كذا. يزول ذلك الوهم، لكن أظهر الأشياء عند الإنسان الأرض التي هي مهده وفرشه، والسماء التي هي سقفه وعرشه، وكانت العرب على مذهب الفلاسفة في أصل المذهب، ولا يلتفت إلى قول الفلسفي: نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحدًا في الحقيقة، فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنمًا منحوتًا؟ نقول: أنتم لما نسبتم الحوادث إلى الكواكب وشرعتم في دعوة الكواكب، أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهبًا، وإذا ثبت أن العرب في الجاهلية كانت في الأصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون: الأرض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك، فقال الله تعالى ردًا عليهم في مواضع: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩] إبطالاً للطبائع وإيثارًا للاختيار في الوقائع، فقال هاهنا: إن أتينا بشيء غريب في غاية الغرابة في أظهر الأشياء وهو السماء التي يرونها أبدًا، ويعلمون أن أحدًا لا يصل إليها ليعمل بالأدوية وغيرها ما يجب سقوطها لأنكروا ذلك، فكيف فيما دون ذلك من الأمور، والذي يؤيد ما ذكرناه وأنهم كانوا على مذهب الفلاسفة في أمر السماء أنهم قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] أي ذلك في زعمك ممكن، فأما عندنا فلا، والكسفة: القطعة، يقال: كسفة من ثوب، أي قطعة.

وفيه مباحث:

البحث الأول: استعمل في السماء لفظة الكسف، واللغويون ذكروا استعمالها في الثوب لأن الله تعالى شبّه السماء بالثوب المنشور، ولهذا ذكره فيما مضى فقال: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

البحث الثاني: استعمل الكسف في السماء والخسف في الأرض فقال تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [سبا: ٩] وهو يدل على قول من قال: (يقال في القمر خسوف، وفي الشمس كسوف) ووجهه أن مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به، فاستعمل وصف

الأسفل للأسفل والأعلى للأعلى، فقالوا في الشمس والسماء: (الكسوف والكسف)، وفي القمر والأرض: (الخسوف والخسف)، وهذا من قبيل قولهم في الماتح والمايح: إن ما نقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل - عند من يجوز نقطه من أسفل - لمن تحت في أسفل البئر.

البحث الثالث: قال في السحاب: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨] مع أنه تحت القمر، وقال في القمر: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وذلك لأن القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف، والسحاب اعتبر فيه نسبته إلى أهل الأرض حيث ينظرون إليه، فلم يقل في القمر خسف بالنسبة إلى السحاب وإنما قيل ذلك بالنسبة إلى الشمس، وفي السحاب قيل بالنسبة إلى الأرض.

المسألة الثانية: ساقطًا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانيًا، يقال: رأيت زيدًا عالمًا. وثانيهما: أن يكون حالاً كما يقال: ضربته قائمًا. والثاني أولى لأن الرؤية عند التعدي إلى مفعولين في أكثر الأمر تكون بمعنى العلم، تقول: أرى هذا المذهب صحيحًا، وهذا الوجه ظاهرًا. وعند التعدي إلى واحد تكون بمعنى رأي العين في الأكثر، تقول: رأيت زيدًا. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤]، وقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] والمراد في الآية رؤية العين.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿سَاقِطًا﴾ فائدة لا تحصل في غير السقوط، وذلك لأن عندهم لا يجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها، فقال: (ساقطًا) ليكون مخالفًا لما يعتقدونه من وجهين: أحدهما: الانفصال. والآخر: السقوط، ولو قال: (وإن يروا كسفًا منفصلاً أو معلقًا) لما حصلت هذه الفائدة.

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿يَقُولُوا﴾ فائدة أخرى، وذلك لأنه يفيد بيان العناد الذي هو مقصود سرد الآية، وذلك لأنهم في ذلك الوقت يستخرجون وجوهًا حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون: (سحاب) قولاً من غير عقيدة، وعلى هذا يحتمل أن يقال: ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ المراد العلم ليكون أدخل في العناد، أي إذا علموا وتيقنوا أن السماء ساقطة غَيَّروا وعاندوا، وقالوا: هذا سحاب مركوم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شيء على الأرض، يرجعون إلى التأويل والتخييل، وقوله: ﴿مَّرْكُومٌ﴾ أي مركب بعضه على بعض، كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب كالهواء لا يمنع نفوذ الجسم فيه، وهذا أقوى مانع فيقولون: إنه ركام فصار صلبًا قويًّا.

المسألة السادسة: في إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل: (يقولوا هذا)، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد، فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يبقى معه مراء فيقولون: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقول عند تكذيب الخلق إياهم، قلنا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ شبهه ومثله، وأن يتمشى الأمر مع عوامهم استمروا، وهذا مجال من يخاف من كلام ولا يعلم أنه يُقبل منه أو لا يُقبل، فيجعله ذا وجهين، فإن رأى النكر على أحدهما فسّره بالآخر وإن رأى القبول خرج بمراده.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥﴾

أي إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أمر، وكان يجب أن يقال: لم يبق للنبي ﷺ جواز دعائهم إلى الإسلام. وليس كذلك، والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن هذه الآيات مثل قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ [النساء: ٦٣] ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٨] إلى غير ذلك، كلها منسوخة بآية القتال. وهو ضعيف، ثانيها: ليس المراد الأمر وإنما المراد التهديد، كما يقول سيد العبد الجاني لمن ينصحه: (دعه فإنه سينال وبال جنايته) ثالثها: أن المراد من يعاند وهو غير معين والنبي ﷺ كان يدعو الخلق على سبيل العموم، ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لا من ظهر عناده فلم يقل الله في حقه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ويدل على هذا أنه تعالى قال من قبل: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] وقال هاهنا ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فمن يذكرهم هم المشفقون الذين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ومن يذرهم الذين قالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] إلى غير ذلك.

المسألة الثانية: ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية فيكون كأنه تعالى قال: ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم، ثم ذلك اليوم تُجدد الكلام وتقول: ألم أقل لكم إن الساعة آتية وإن الحساب يقوم والعذاب يدوم؟ فلا تكلمهم إلى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم. ثانيها: أن المراد من حتى الغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل: (لا تطعمه حتى يموت) أي ليموت؛ لأن اللام التي للغرض عندها ينتهي الفعل الذي للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيها، ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] هذا، أي إلى أن يأتيك اليقين، فإن قيل: فمن لا يذره أيضًا يلاقي ذلك اليوم. نقول: المراد من قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ يُهلكون، فالمذكّر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] وقد ذكرنا هناك أن من اعترف بالحق، وعلم أن يوم الحساب كائن، فإذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم أن الرعد يرعد ويستعد لسماعه، ومن لا يعلم يكون كالغافل، فإذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم، وحينئذٍ يكون التوعد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقي يومه، وإنما يكون بملاقاة يومهم الذي فيه يُصعقون، أي اليوم الموصوف بهذه الصفة، وهذا كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩] فإن المنفي ليس النبذ بالعراء لأنه تحقق بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] وإنما المنفي النبذ الذي يكون معه مذمومًا، وهذا لم يوجد.

المسألة الثالثة: ﴿حَتَّىٰ﴾ ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى، والفاصل

بينهما أن الفعل إذا كان مستقبلاً منتظرًا لا يقع في الحال ينصب، تقول: (تعلمت الفقه حتى ترتفع درجتي) فإنك تنتظره وإن كان حالاً يرفع تقول (أكرر حتى تسقط قوتي ثم أنام)، والسبب فيه هو أن (حتى) المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل، تقول: لمَ تبني الدار؟ يقول: للسكنى: فصار قوله (حتى ترفع) كقوله (لأرفع) وفيهما إضمار (أن)، فإن قيل: ما قلت شيئًا وما ذكرت السبب في النصب عند إرادة الاستقبال والرفع عند إرادة الحال. نقول: الفعل المستقبل إذا كان منتظرًا وكان نصب العين ومنصوبًا لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان في معناه، ولهذا قالوا في الإضافة: إن المضاف لما جر أمرًا إلى أمر في المعنى جزء في اللفظ، والذي يؤيد ما ذكرنا أن الفعل إنما ينصب بأن ولن وكي وإذن، وخلوص الفعل للاستقبال في هذه المواضع لازم؛ والحرف الذي يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول (إن فلانًا ليضرب) فإن قيل: السين وسوف مع أنهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠] نقول: سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن ولن بمعنى لا يصح إلا في الاستقبال، فلم يثبت بالسين إلا الاستقبال ولم يثبت به معنى في الاستقبال، والمنتظر هو ما في الاستقبال لا نفس الاستقبال، مثاله إذا قلت (أعبد الله كي يغفر لي أو ليغفر لي) أثبتت (كي) غرضًا وهو المغفرة، وهي في المستقبل من الزمان، وإذا قلت: (أستغفرك ربي) أثبتت السين استقبال المغفرة، وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال، لكن الاستقبال لا يوجد إلا في معنى فأتى بالمعنى ليبين به الاستقبال، وبين ما يكون المقصود منه معنى في المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لما قال: ﴿يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ [الطور: ٤٥] وكل بر وفاجر يلاقي يومه، أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ وجهان: الأول: بدل عن قوله: ﴿يَوْمَهُمُ﴾ [الطور: ٤٥] ثانيهما: ظرف ﴿يُلَٰقُوا۟﴾ [الطور: ٤٥] أي يلاقوا يومهم يوم، فإن قيل: هذا يلزم منه أن يكون اليوم في يوم فيكون اليوم ظرف اليوم. نقول: هو على حد قول من يقول (يأتي يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه) ولا مانع منه، وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وجواز إضافة اليوم إلى الزمان مع أنه زمان.

المسألة الثانية: قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ولم يقل: (يوم لا يغنيهم كيدهم) مع

أن الإغناء يتعدى بنفسه؛ لفائدة جليلة وهي أن قول القائل (أغناني كذا) يفهم منه أنه نفعني، وقوله: (أغنى عني) يُفهم منه أنه دفع عني الضرر، وذلك لأن قوله (أغناني) معناه في الحقيقة أفادني غير مستفيد، وقوله: (أغنى عني)، أي لم يحوجني إلى الحضور فأغنى غيري عن حضوري، يقول من يُطلب لأمر: (خذوا عني ولدي، فإنه يغني عني) أي يغنيكم عني فيدفع عني أيضًا مشقة الحضور. فقوله: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ أي لا يدفع عنهم الضرر، ولا شك أن قوله: (لا يدفع عنهم ضررًا) أبلغ من قوله: لا ينفعهم نفعًا، وإنما في المؤمن لو قال (يوم يغني عنهم صدقهم) لما فُهم منه نفعهم فقال: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] كأنه قال: (يوم يغنيهم صدقهم)، فكأنه استعمل في المؤمن (يغنيهم) وفي الكافر (لا يغني عنهم) وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله.

المسألة الثالثة: الأصل تقديم الفاعل على المفعول، والأصل تقديم المضمر على المظهر، أما في الأول فلأن الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا: (فعلت) فأسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات في كلمة واحدة، وقالوا (ضَرَبَك) ولم يسكنوا لأن الكاف ضمير المفعول وهو منفصل، وأما تقديم المضمر فلأنه يكون أشد اختصارًا، فإنك إذا قلت (ضربني زيد) يكون أقرب إلى الاختصار من قولك (ضرب زيد إياي) فإن لم يكن هناك اختصار كقولك (مربي زيد ومربي) فالأَوْلى تقديم الفاعل، وهاهنا لو قال (يوم لا يغنيهم كيدهم) كان الأحسن تقديم المفعول، فإذا قال (يوم لا يغني عنهم) صار كما قلنا فِي (مر زيد بي) فلمَ لم يقدم الفاعل؟ نقول: فيه فائدة مستفادة من علم البيان، وهو أن تقديم الأهم أَوْلى فلو قال (يوم لا يغني كيدهم) كان السامع لهذا الكلام ربما يقول: لا يغني كيدهم غيرهم فيرجو الخير في حقهم، وإذا سمع (لا يغني عنهم) انقطع رجاؤه وانتظر الأمر الذي ليس بمغنٍ.

المسألة الرابعة: قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وإن حسن ممن صدر منه، فما الفائدة في تخصيص العمل الذي يسوء بالذكر ولم يقل (يوم لا يغني عنهم أفعالهم) على الإطلاق؟ نقول: هو قياس بالطريق الأَوْلى لأنهم كانوا يأتون بفعل النبي ﷺ والمؤمنين وكانوا يعتقدون أنه أحسن أعمالهم فقال: (ما أغنى أحسن أعمالهم الذي كانوا يعتقدون فيه) ليقطع رجاءهم عما دونه، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور: ٤٢] وقد قلنا: إن أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم في قتل النبي ﷺ قال: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم في الدنيا فماذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم؟ وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه متمم، بيان وجهه هو أن الداعي أولاً يرتب أمورًا لدفع المكروه بحيث لا يحتاج إلى الانتصار بالغير والمنة، ثم إذا لم ينفعه ذلك ينتصر بالأغيار، فقال: لا ينفعهم أفعال أنفسهم ولا ينصرهم عند اليأس وحصول اليأس عن إقبالهم. ثانيها: أن المراد منه ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فقوله:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي عبادتهم الأصنام، وقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ [الزمر: ٣] وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي لا نصير لهم كما لا شفيع، ودفع العذاب إما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر. ثالثها: أن نقول: الإضافة في (كيدهم) إضافة المصدر إلى المفعول، لا إضافته إلى الفاعل، فكأنه قال: لا يغني عنهم كيد الشيطان إياهم. وبيانه هو أنك تقول: أعجبني ضرب زيدًا عَمْرًا، وأعجبني ضرب عمرو، فإذا اقتصرت على المصدر والمضاف إليه لا يعلم إلا بالقرينة والنية، فإذا سمعت قول القائل: (أعجبني ضرب زيد) يحتمل أن يكون زيد ضاربًا ويحتمل أن يكون مضروبًا، فإذا سمعت قول القائل: (أعجبني قطع اللص على سرقته) دلّت القرينة على أنه مضاف إلى المفعول، فإن قيل: هذا فاسد من حيث إنه إيضاح واضح لأن كيد المكيد لا ينفع قطعًا، ولا يخفى على أحد، فلا يحتاج إلى بيان، لكن كيد الكائد يظن أنه ينفع فقال تعالى: ذلك لا ينفع، نقول: كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظنون أنها تنفع، وأما كيدهم النبي ﷺ كانوا يعلمون أنه لا ينفع في الآخرة، وإنما طلبوا أن ينفعهم في الدنيا لا في الآخرة، فالإشكال ينقلب على صاحب الوجه الأول، ولا إشكال على الوجهين جميعًا إذا تفكرت فيما قلناه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾

في اتصال الكلام وجهان: أحدهما: متصل بقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ [الطور: ٤٥] وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال، وقد قيل: إنه نازل قبل شرع القتال، وحينئذٍ كأنه قال: فذرهم ولا تذرهم مطلقًا من غير قتال، بل لهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم. فيكون بيانًا وعدًا ينسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر. ثانيهما: هو متصل بقوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي﴾ [الطور: ٤٦] وذلك لأنه لما بيّن أن كيدهم لا يغني عنهم قال: ولا يقتصر على عدم الإغناء بل لهم مع أن كيدهم لا يغني ويل آخر وهو العذاب المعد لهم. ولو قال (لا يغني عنهم كيدهم) كان يوهم أنه لا ينفع ولكن لا يضر، ولما قال مع ذلك: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا﴾ زال ذلك. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الذين ظلموا هم أهل مكة، إن قلنا: العذاب هو عذاب يوم بدر، وإن قلنا: العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم.

المسألة الثانية: ما المراد من الظلم هاهنا؟ نقول: فيه وجوه: الأول: هو كيدهم نبيهم. والثاني: عبادتهم الأوثان، والثالث: كفرهم. وهذا مناسب للوجه الثاني.

المسألة الثالثة: (دُونَ ذَٰلِكَ) على قول أكثر المفسرين معناه (قبل) ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] ويحتمل وجهين آخرين: أحدهما: دون ذلك، أي أقل من ذلك في الدوام والشدة، يقال: الضرب دون القتل في الإيلام. ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى، وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم، وذلك لأنه إذا قال عذابًا دون ذلك أي قتلاً وعذابًا في القبر، فيتفكر

المتفكر ويقول: ما يكون القتل دونه لا يكون إلا عظيمًا، فإن قيل: فهذا المعنى لا يمكن أن يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]قلنا: نسلِّم ذلك ولكن لا مانع من أن يكون المراد هاهنا هذا الثاني على طريقة قول القائل: تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب، وبيانه هو أنهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها في غير موضعها الذي خُلقت له، فقيل لهم: إن لكم دون ذلك الظلم عذابًا.

المسألة الرابعة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: الظاهر أنه إشارة إلى اليوم، وفيه وجهان آخران: أحدهما: في قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]وقوله: ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ [الطور: ٤٦]إشارة إلى عذاب واقع فقوله (ذلك) إشارة إليه، ويمكن أن يقال: قد تقدم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧]وقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي دون ذلك العذاب. ثانيهما: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي كيدهم، فذلك إشارة إلى الكيد، وقد بينا وجهه في المثال الذي مثلنا، وهو قول القائل: (تحت لجاجك حرمانك)، والله أعلم.

المسألة الخامسة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذكرنا فيه وجوهًا: أحدها: أنه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالأكثر، كما قال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]ثم إن الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم أن الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيدًا عن الخلف. ثانيها: منهم من آمن فلم يكن ممن لا يعلم. ثالثها: هم في أكثر الأحوال لم يعلموا، وفي بعض الأحوال علموا، وأقله أنهم علموا حال الكشف وإن لم ينفعهم.

المسألة السادسة: مفعول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاز أن يكون هو ما تقدم من الأمر: وهو أن لهم عذابًا دون ذلك، وجاز أن لا يكون له مفعول أصلاً، فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] ونشير إلى بعضه هاهنا فإن طول العهد يُنسي، فنقول: لما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ [الطور: ٤٥] كان فيه الإشارة إلى أنه لم يبق في نصحهم نفع، ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الطور: ٤٤] وكان ذلك مما يحمل النبي ﷺ على الدعاء، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وكما دعا يونس عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ وبدل اللعن بالتسبيح ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بدل قولك: (اللّهم أهلِكهم) ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فيه وجوه: الأول: أنه تعالى لما بيّن أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال: اصبر ولا تخف؛ فإنك محفوظ بأعيننا. ثانيها: أنه تعالى قال: فاصبر ولا تدعُ عليهم فإنك بمرأى منا نراك، وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل ما يكون من الأحوال، لكن كونك مسبحًا لنا أفضل من كونك داعيًا على عباد خلقناهم، فاختر

الأفضل فإنك بمرأى منا. ثالثها: أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكو إليه بحال الشاكي، فقال تعالى: اصبر ولا تشكُ حالك فإنك بأعيننا نراك، فلا فائدة في شكواك.

وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لا توجد في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠].

المسألة الأولى: اللام في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ﴾ تحتمل وجوهًا: الأول: هي بمعنى (إلى) أي اصبر إلى أن يحكم الله. الثاني: الصبر فيه معنى الثبات، فكأنه يقول: فاثبت لحكم ربك، يقال: ثبت فلان لحمل قرنه. الثالث: هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب، يقال: لمَ خرجت؟ فيقال: لحكم فلان عليَّ بالخروج. فقال: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ واجعل سبب الصبر امتثال الأمر حيث قال: واصبر لهذا الحكم عليك لا لشيء آخر.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وقال في مواضع آخر: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] نقول: لما وحَّد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحّد العين، ولما ذكر هاهنا ضمير الجمع في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو النون جَمَع العين، وقال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ هذا من حيث اللفظ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ ههنا أتم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي ﷺ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

المسألة الثالثة: ما وجه تعلق الباء هاهنا قلنا: قد ظهر من جميع الوجوه، أما إن قلنا بأنه للحفظ فتقديره: محفوظ بأعيننا. وإن قلنا: للعلم فمعناه بمرأى منا، أي بمكان نراك، وتقديره: فإنك بأعيننا مرئي. وحينئذٍ هو كقول القائل: (رأيته بعيني) كما يقال: (كتب بالقلم الآلة) وإن كان رؤية الله ليست بآلة، فإن قيل: فما الفرق في الموضعين حيث قال في طه: ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] وقال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وما الفرق بين على وبين الباء؟ نقول: معنى (على) هناك هو أنه يرى على ما يرضاه الله تعالى، كما يقول: (أفعله على عيني) أي على رضاي، تقديره: على وجه يدخل في عيني وألتفت إليه. فإن من يفعل شيئًا لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه إليه. والباء في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد ذكرناها.

وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيه وجوه: الأول: تقوم من موضعك، والمراد: قبل القيام حين ما تعزم على القيام وحين مجيء القيام، وقد ورد في الخبر أن من قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ» من قبل أن يقوم من مجلسه يُكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغو في ذلك المجلس. الثاني: حين تقوم من النوم، وقد ورد أيضًا فيه خبر يدل على أنه ﷺ كان يسبح بعد الانتباه. الثالث: حين تقوم إلى الصلاة، وقد ورد في الخبر أنه ﷺ كان يقول في افتتاح الصلاة: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ»[1]. الرابع: حين تقوم لأمر ما ولا سيما إذا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك) (١/ ٢٠٤)، حديث رقم (٧٧٥)، قال: حدثنا عبد السلام بن مظهر... به، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقول=

قمت منتصبًا لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وبدِّل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه. الخامس: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي بالنهار، فإن الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام أَوْلى، ويكون كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إشارة إلى ما بقي من الزمان، وكذلك ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وهو أول الصبح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

وقد تقدم تفسيره، وهو كقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الأوقات ومعناه.

ونختم هذه السورة بفائدة وهي أنه تعالى قال هاهنا: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقال في ق: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] ويحتمل أن يقال: المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجوم سجود، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] وقيل: المراد من النجم نجوم السماء، وقيل: النجم ما لا ساق له من النبات، قال الله تعالى: ﴿يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ١٨] أو المراد من النجوم الوظائف، وكل وظيفة نجم في اللغة، أي إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله، وقد ورد في الحديث: «مَنْ قَالَ عَقِيبَ الصَّلَاةِ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ» فيكون المعنى في الموضعين واحدًا لأن السجود من الوظائف، والمشهور والظاهر أن المراد من إدبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤه بضوء الشمس، وحينئذٍ تَبَيَّن ما ذكرنا من الوجه الخامس في قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] أن المراد منه النهار لأنه محل القيام ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ القدر الذي يكون الإنسان يقظان فيه ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم.

وهذا آخر تفسير هذه السورة، والله أعلم، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

=عند افتتاح الصلاة) (٢/ ٩)، حديث رقم (٢٤٢)، وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة)، باب: (افتتاح الصلاة) (١/ ٢٦٤)، حديث رقم (٨٠٤)، والنسائي في كتاب (الافتتاح)، باب: (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة) (١/ ٤٦٩)، حديث رقم (٨٩٨) من طريق عبد الرزاق... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٥٠)، قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس... به، وفي (٣/ ٦٩) قال: حدثنا حسن بن الربيع. والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال بعد افتتاح الصلاة) (١/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٢٣٩) من طريق زكريا بن عدي قال: حدثنا جعفر بن سليمان... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٢٣٨)، حديث رقم (٤٦٧)، قال: حدثنا محمد بن موسى الحرشي... به، جميعًا (ابن مطهر، ابن موسى، زيد، عبد الرزاق، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع) عن جعفر بن سليمان... به.

سورة «والطور»

مكية كلُّها في قول الجميع، وهي تسعٌ[1] وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبير بن مُطْعِم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بالطُّور في المغرب. متفق عليه[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ الطُّور اسمُ الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى[3]، أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لِمَا فيه من الآيات، وهو أحدُ جبال الجنة.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدَّثنا كثير بنُ عبد الله بنِ عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدِّه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةُ أجْبُلٍ من جبال الجنة، وأربعةُ أنهار من أنهار الجنة، وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة» قيل: فما الأَجْبُل؟ قال: «جَبَلُ أُحُد يحبُّنا ونحبُّه، والطُّورُ جبلٌ من جبال الجنة، ولُبْنان جبلٌ من جبال الجنة، والجوديّ جبلٌ من جبال الجنة»[4]

---

(١) في النسخ الخطية: ثمان، وذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ بصيغة التضعيف، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في التفاسير.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٥)، وصحيح مسلم (٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٥).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٦، والكشاف ٤/ ٢٢.

(٤) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٠ - ٨١، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨٠، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٨ (١٩) من طريق كثير بن عبد الله، به. ولم يذكر ابن عدي والطبراني جبل الجودي، ووقع بدله عند ابن شبة: وَرْقَان، وإسناده ضعيف جداً. كثير بن عبد الله ضعفه ابن معين وأحمد =

وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

قال مجاهد: الطُّور هو بالسريانية: الجبلُ[(٢)]، والمراد به طور سِيناء. وقاله السُّدِّي[(٣)]. وقال مقاتل بن حيَّان: هما طوران؛ يقال لأحدهما: طُورُ سِيناء، والآخر طورُ زيتا[(٤)]؛ لأنَّهما يُنبِتان التين والزيتون[(٥)]. وقيل: هو جبل بمَدْيَن، واسمه: زَبير.[(٦)] قال الجوهريُّ: والزَّبير: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام[(٧)].

قلت: ومدينُ بالأرض المقدَّسة، وهي قرية شعيبٍ عليه السلام.

وقيل: إن الطُّور كلُّ جبل أنبت، وما لا يُنبِت فليس بطور. قاله ابن عباس[(٨)]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[(٩)].

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ أي: مكتوب، يعني القرآنَ يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللَّوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ .

= وأبو حاتم والنسائي، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. اهـ. وأبوه عبد الله بن عمرو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه كثير. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

(١) ص ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٣ ، وأورده الطبري ٢١/ ٥٦١ ، وحكى ابن عطية عن الطبري إيراده قول مجاهد، ثم تعقبه بقوله: وهذا ضعيف لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى بالطور، وهو طور سيناء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٤) طور زيتا : هو جبل بقرب رأس عين قنطرة الخابور ، على رأسه شجر زيتون ، يسقيه المطر ، ولذلك سمي طور زيتا . معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨ .

(٥) قول مقاتل في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٥ مختصر بلفظ : هما طوران .

(٦) مراح لبيد ٢/ ٣٢٧ ، وفي النكت والعيون عن مقاتل: يسمى هذا الطور زبير.

(٧) لم نقف عليه من كلامه، وذكره ابن الأثير في النهاية (زبر) دون نسبة. وأورده الزَّبيدي أيضاً في تاج العروس دون نسبة وقال: أجمع المفسرون على أن جبل المناجاة هو الطور.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٦ .

(٩) ٢/ ١٦٤ .

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة:٧٨]. وقيل: يعني سائرَ الكتب المنزَّلة على الأنبياء.

وكان كلُّ كتاب في رَقٍّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صَرِيرَ القلم[١]. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال، فمِن آخذٍ كتابَه بيمينه، ومِن آخذٍ كتابَه بشماله[٢]، نظيره: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، وقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [التكوير:١٠]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء، يقرؤون فيه ما كان وما يكون[٣]. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين، بيانُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبَّر بالقلوب عن الرَّق. قال المبرِّد: الرَّقُّ: ما رُقِّق من الجِلد ليُكتب فيه، والمنشور: المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح[٤]، قال: والرَّق ـ بالفتح ـ: ما يُكتب فيه وهو جلدٌ رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾. والرَّق أيضًا: العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيد[٥]: وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله الفراء، والله أعلم. وكلُّ صحيفة فهي رَقٌّ لرِقَّة حواشيها، ومنه قول المتلمّس:

فكأنَّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها رَقٌّ أُتيح كتابُها مَسطورُ[٦]

وأمَّا الرِّق: ـ بالكسر ـ فهو المِلْك[٧]، يقال: عبدٌ مرقوق. وحكى الماورديُّ[٨]

---

(١) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩١ ، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٤) مادة (رقق) .

(٥) في (د) و(م) : أبو عبيدة .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٧) الصحاح (رقق) .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

عن ابن عباس: أن الرَّق ـ بالفتح ـ ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ قال عليٌّ وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملَك، ثم يخرجون منه، فلا يعودون إليه[1]. قال عليٌّ ﷺ: هو بيت في السماء السادسة[2]. وقيل: في السماء الرابعة[3]. روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيَ بي إلى السماء الرابعة، فرُفِع لنا البيتُ المعمور، فإذا هو حِيالُ الكعبة، لو خَرَّ خَرَّ عليها، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديُّ[4].

وحكى القشيريُّ عن ابن عباس: إنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكَوَّاء عليًّا ﷺ قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيتٌ فوق سبع سماوات تحت العرش يقال له: الضُّراح[5]. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح ـ بالضم ـ بيت في السماء، وهو البيت المعمور عن ابن عباس[6]. وعُمْرانه: كثرةُ غاشيته من الملائكة. وقال المهدويُّ عنه: حِذاء العرش.

والذي في صحيح مسلم، عن مالك بن صعصعة عن النبيِّ ﷺ في حديث الإسراء: «ثم رُفع لي[7] البيتُ المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢، والنكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٦٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢ وروى البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أنه في السماء السابعة.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وفيه: السماء السابعة: بدل: السماء الرابعة، وهي رواية عن أنس كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٣٠٩، وقال: أكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف.

(٦) الصحاح (ضرح)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٧) عن ابن عباس بلفظ: إن في السماء بيتاً يقال له: الضراح، وهو فوق البيت العتيق من حياله ...

(٧) في (د) و(م): إليّ.

المعمور، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[١] وذكر الحديث.

وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبُرَاق» الحديث، وفيه: «ثم عُرِج بنا إلى السماء[٢] السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه السلام مسنداً ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك لا يعودون إليه»[٣].

وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السماوات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتاً، سبعةٌ في السماوات، وسبعة في الأرضين، والكعبة، وكلُّها مقابلة للكعبة.

وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة؛ البيت الحرام؛ الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كلَّ سنة بستِّ مئة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمَّه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض[٤].

وقال الربيع بن أنس: إنَّ البيت المعمور كان في الأرض موضعَ الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلمَّا كان زمانُ نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا، فأَبَوا عليه وعصَوه، فلمَّا طغى الماء، رُفِع، فجُعل بحِذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى يُنفخ في الصور، قال: فبوَّأ الله جلَّ وعزَّ لإبراهيمَ مكانَ البيت حيث كان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ

(١) صحيح مسلم (١٦٤) : (٢٦٤) ، وعلقه البخاري (٣٢٠٧) وهو عند أحمد (١٧٨٣٦). وينظر كلام الحافظ ابن حجر ٧/ ٢١٥ على رواية قتادة. وقوله : آخر ما عليهم؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٥ : روي برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف ، والرفع على تقدير : ذلك آخر ما عليهم من دخوله ، والرفع أوجه.

(٢) لفظة : السماء ، ليست في (د) و(م) .

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٠٥) ، ومسلم (١٦٢) : (٢٥٩) واللفظ له .

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٨ عنه بلفظ : البيت المعمور هو البيت الحرام .

أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١] [الحج: ٢٦].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماءَ؛ سمَّاها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت، بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال مجاهد: المُوقَد[٢]. وقد جاء في الخبر: «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً»[٣]. وقال قتادة: المملوء[٤]. وأنشد النَّحْويون للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً ... تَرَى حَولَها النَّبْعَ والسَّاسَما[٥]

يريد وَعْلًا يطالع عيناً مسجورة مملوءة.

فيجوز أن يكون المملوءُ ناراً، فيكون كالقول المتقدِّم. وكذا قال الضحاك وشِمْر ابن عطية ومحمد بن كعب والأخفش[٦]: إنه[٧] المَوْقِد المحميُّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: لِلْمسْعَر: مِسْجَر، ودليل هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُوقِدت، سَجَرتُ التَّنُّور أسجُره سَجْراً، أي: أحميتُه[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأورد الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ - ٢٣ ـ واللفظ له ـ وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨: «إن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً تسجر بها نار جهنم».

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٥) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٥٧٠، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٩٥. قوله: النبع: هو شجر للقِسِيِّ وللسهام. والسَّاسَم: شجر يعمل منه القِسيّ. القاموس (نبع) و(سسم). وسلف عند تفسير الآية (٧٢) من سورة غافر.

(٦) أورد قول الضحاك ومحمد بن كعب البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وقول شمر الطبري ٢١/ ٥٦٨، وقول الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ٢٧.

(٧) في (م): بأنه.

(٨) الصحاح (سجر).

وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليٌّ ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أراكَ إلا صادقاً. وتلا: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ [التكوير:٦] مخفَّفة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم[٢]. وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيُزاد في نار جهنم[٣]. فهذا قول.

وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية[٤]. وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتستقيَ فقالت: إن الحوض مسجورٌ، أي: فارغ[٥]، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمَّة حديثٌ إلا هذا. وقيل: المسجور، أي: المفجور، دليله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]، أي: تَنْشِفُها الأرض فلا يبقى فيها ماء.

وقول ثالث قاله عليٌّ ﷺ وعكرمة، قال أبو مَكين: سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليٌّ: تحت العرش؛ فيه ماء غليظ يقال[٦] له: بحر الحيوان يُمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم[٧]. وقال الربيع بن أنس: المسجور: المختلط العذب بالمِلْح[٨].

قلت: وإليه يرجع معنى «فُجِّرَتْ» في أحد التأويلين، أي: فُجِّرَ عذبُها في

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨ ، وقرأ من السبعة: سُجِرت ، بالتخفيف: ابن كثير وأبو عمرو. ينظر السبعة ص٦٧٣ ، والتيسير ص ٢٢٠ .

(٢) سلف قول ابن عمرو في البحر: هو نار ١٥/ ٤٤٢ وهو عند الترمذي (٦٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣٢) ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٥ بنحوه.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٦٩ . وأورد قول أبي العالية البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨ عن ذي الرمة عن ابن عباس ، وعزاه للشيرازي في الألقاب.

(٦) في (م): ويقال.

(٧) الوسيط ٤/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠ عن علي بلفظ: (والبحر المسجور) قال: بحر في السماء تحت العرش. وأبو مكين: هو نوح بن ربيعة البصري، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٧ ، وزاد المسير ٨/ ٤٨ .

مالحها، والله أعلم. وسيأتي[١]. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس[٢].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أُسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب: «وَالطُّورِ» إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظنُّ أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[٣].

وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالكُ بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ: «وَالطُّورِ» حتى بلغ: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ»، فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه.

ولمَّا وُلِّي بكَّارٌ القضاء، جاء إليه رجلان يختصمان، فتوجهتْ على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصُّلح بينهما، وأنه يُعطي خصمه من عنده عوضاً من يمينه، فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل «وَالطُّورِ» إلى أن قال[٤] له: قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ إن كنتُ كاذباً، فقالها، فخرج، فكُسِر من حينه.[٥]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ العامل في «يوم» قولُه: «وَاقِعٌ»، أي: يقع

---

(١) عند تفسير الآية (٦) من سورة التكوير، والآية (٣) من سورة الانفطار.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/٥٦٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/٢٣٧ والنكت والعيون ٥/٣٧٩، والكشاف ٤/٢٣. وسلف في أول السورة مختصراً.

(٤) في (م): قاله.

(٥) لم نقف على الخبرين، وبكَّار: هو ابن قتيبة، أبو بكرة، قاضي القضاة بمصر. توفي سنة (٢٧٠هـ) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٩.

العذاب بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي تمور فيه السماء[١]. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمورُ مَوْرًا، أي: تحرَّك وجاء وذهب؛ كما تَتَكفَّأُ النخلةُ العَيْدانة، أي: الطويلة، والتموُّر مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً[٢]. أبو عبيدة[٣] والأخفش: تَكَفَّأً، وأنشد للأعشى[٤]:

كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارتها مَوْرُ السَّحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل: تجري جرياً، ومنه قول جرير:

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دماؤها بِدِجلَةَ حتَّى ماءُ دِجلةَ أَشْكَلُ[٥]

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب[٦]. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض.

والمَوْر أيضاً: الطريق. ومنه قول طَرَفة:

... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[٧]

والمَوْرُ: المَوْج. وناقةٌ مَوَّارة اليد، أي: سريعة. والبعير يمور عَضُداه: إذا تردَّدا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠.

(٢) أخرج قول الضحاك ومجاهد الطبري ٢١/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣١.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): الأعشى، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق لما في الصحاح (مور) والكلام منه، والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مرُّ، بدل: مور.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٩، والبيت في ديوان جرير ص ٣٦٧، والأشْكَل: ما فيه حمرة وبياض مختلط. القاموس (شكل).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٢ بلفظ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ قال: يقول: تحريكاً.

(٧) ديوان طرفة ص ٢٢، والبيت بتمامه: تباري عِتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبَّد. وسلف ١/ ٣٤١.

المِلاط: الجَنْب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ[١]، أي: أتى غَوراً، أم دار فرجع إلى نجد. والمُور ـ بالضم ـ الغبار بالريح[٢].

وقيل: إن السماء هاهنا الفَلَك، ومورُه اضطرابُ نُظُمه، واختلافُ سيره. قاله ابن بحر[٣].

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستويَ بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا، بيانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقد مضى هذا المعنى في «الكهف»[٤].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «وَيْلٌ»: كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة[٥]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في تردُّد في الباطل، وهو خوضُهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون، لا يذكرون حساباً ولا جزاءً. وقد مضى في «براءة»[٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ[٧]. و«يُدَعُّونَ»: معناه يُدفعون إلى جهنم بشدَّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدُعُّه دعًّا، أي: دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[٨] [الماعون: ٢]. وفي التفسير: إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعًا

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٩٣.
(٢) الصحاح (مور) و(ملط).
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٠.
(٤) ١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤.
(٦) ١٠/ ٢٩٦.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠.
(٨) الصحاح (دعع).

على وجوههم، وزَخًّا[١] في أعناقهم حتى يرِدوا النار[٢]. وقرأ أبو رجاء العُطاردي وابن السَّمَيْفَع: «يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا» بالتخفيف من الدعاء[٣]، فإذا دنَوْا من النار، قالت لهم الخزنة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع، أي: يقال لهم: أَفَسِحْرٌ هَذَا الذي تَرَونَ الآن بأعينكم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ وقيل: «أَمْ» بمعنى بل، أي: بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ذوقوا حرَّها بالدخول فيها. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواءٌ كان لكم فيها صبرٌ، أو لم يكن. فـ «سواء» [مبتدأ] خبرُه محذوف، أي: سواء عليكم الجزعُ والصبر[٥]، فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لمَّا ذكر حال الكفار؛ ذكر حال المؤمنين أيضًا. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهةٍ كثيرة، يقال: رجلٌ فاكِهٌ، أي: ذو

---

(١) في النسخ الخطية: وزجًّا، والمثبت من (م)، ويقال: زخَّه في قفاه، أي: دفعه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، والكشاف ٤/ ٢٣، ونسب هذا الكلام لمقاتل الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٩.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء العطاردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، وذكرها الزمخشري ٤/ ٢٣ عن زيد بن علي. قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٠: وتكون «دعًّا» حال، أي: ينادون إليها مدعوعين.

(٤) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٨/ ٤٩.

(٥) ما بين حاصرتين للإيضاح، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٥. ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٢.

فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ، أي: ذو لبن وتمر[(١)]، قال:

وغَرَرْتَني وزعمتَ أنـ ـكَ لابِنٌ بالصَّيْفِ تامِرْ[(٢)]

أي: ذو لبن وتمر.

وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهينَ» بغير ألف[(٣)]، ومعناه: معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره، يقال: فَكِه الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مزَّاحًا. والفَكِه أيضًا: الأشِر البطِر[(٤)]. وقد مضى في «الدخان»[(٥)] القولُ في هذا. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نَكَد ولا كَدَر. قال الزجاج[(٦)]: أي: لِيَهْنِكم[(٧)] ما صِرتُم إليه هَنِيئًا. وقيل: أي: مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا. وقيل: أي: كلوا واشربوا هُنِّئتُم هَنِيئاً. فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: هنيئاً، أي: حلالاً. وقيل: لا أذًى فيه ولا غائلة. وقيل: هَنِيئًا، أي: لا تموتون، فإن ما لا يبقى ـ أو لا يبقى الإنسانُ معه ـ منغَّصٌ غيرُ هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متَّكِئين على نمارقَ على[(٨)] سُرُر. ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن بحر[(٩)]: أي: موصولة بعضُها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفُّ في السماء بطول كذا وكذا، فإذا

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٨٠.

(٢) البيت لحطيئة، وهو في ديوانه ص ١٦٨، وفيه: أغررتني، بدل: وغررتني.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤

(٤) الصحاح (فكه).

(٥) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٣.

(٧) في (م): ليهتكم.

(٨) لفظة: على، ليست في (م)، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٨، وزاد المسير ٨/ ٥٠.

(٩) في (د) و(م): ابن الأعرابي، وقول ابن بحر في النكت والعيون ٥/ ٣٨١.

أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها(١). قال ابن عباس: هي سُرُر من ذهب، مكلَّلةٌ بالزَّبَرْجد والدُّر والياقوت(٢)، والسريرُ ما بين مكة وأيْلة(٣).

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة وتزوَّجت امرأةً، وليس من كلام العرب: تزوَّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ(٤)، مِن قول الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوَّجت بامرأة، لغةٌ في أَزْدِ شنوءة(٥). وقد مضى القول في معنى الحور العين(٦).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ العامة: «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون، اعتباراً بقوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ»؛ ليكون الكلام على نسق واحد.

---

(١) سيرد في تفسير سورة الواقعة الآية (١٦) من قول الكلبي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩، وزاد المسير ٩/ ٩٨، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٦.

(٣) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب يَنْبُع. وأيلة أيضاً بلد بين ينبع ومصر. القاموس (أيل).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٥٢، ونسب هذا القول لابن السكيت.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ص١٣٧ من هذا الجزء وما بعدها.

فأمَّا قوله: «ذُرِّيَّتُهُمْ» الأولى، فقرأها بالجمع ابنُ عامر وأبو عمرو ويعقوبُ ورواها عن نافع، إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول، وضمَّ باقيهم. وقرأ الباقون: «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضمِّ التاء، وهو المشهور عن نافع.

فأمَّا الثانية، فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون: «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء[(١)].

واختُلِف في معناه، فقيل عن ابن عباس أربعُ روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرِّيَّة المؤمن معه في درجته في الجنة[(٢)] وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية[(٣)]. ورواه مرفوعًا النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة[(٤)] وإن كان لم يبلغها بعمله؛ لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[(٥)]. قال أبو جعفر[(٦)]: فصار الحديث مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ. وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري[(٧)]: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين،

---

(١) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٢٧٣، ٣٧٧، ولم نقف على رواية الجمع عن نافع في اللفظة الأولى.

(٢) في النسخ الخطية: إن الله ليرفع ذريّة المؤمن إليه، والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر الآتية.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٩، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٥، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٨٤٨).

(٤) قوله: في الجنة، من (ف) و(م).

(٥) الناسخ والمنسوخ (٨٤٩)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٦ (١٠٧٥) كلاهما من طريق سفيان الثوري عن سماعة...، وهو منقطع، كما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٢١٤.

(٦) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٨.

(٧) في الكشاف ٤/ ٢٤.

وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماعِ أولادهم ونسلهم بهم.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: إن الله ليُلحِق بالمؤمن ذريَّته الصَّغار الذين لم يبلغوا الإيمان(١). قاله المهدوي. والذريةُ تقع على الصغار والكبار، فإن جُعِلت الذرية ها هنا للصغار، كان قولُه تعالى: «بِإِيمَانٍ» في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير: بإيمانٍ من الآباء. وإن جُعِلت الذرية للكبار، كان قوله: بإيمانٍ، حالاً من الفاعلين(٢).

القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذريةِ التابعون.

وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذريَّة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وعن ابن عباس أيضًا يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يُدرِكوا ما أدركت، فيقول: يا ربِّ، إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»(٣).

وقالت خديجة رضي الله عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية، فقال لي: «هما في النار»، فلمَّا رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما». قالت: يا رسول الله، فولدِي منك؟ قال: «في الجنة»، ثم قال: «إن المؤمنين وأولادَهم في الجنة، والمشركين وأولادَهم في النار»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٠ - ٥٨١ بنحوه.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٨)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٤: فيه محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان وهو ضعيف.

ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[١].

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لِقصَر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذُّرِّيَّات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا».

وقال ابن زيد: المعنى: واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ألحقنا بالذُّرِّيَّة أبناءَهم الصغارَ الذين لم يبلغوا العمل[٢]، فالهاء والميم على هذا القول للذُّرِّيَّة.

وقرأ ابن كثير: «وَمَا أَلِتْنَاهُمْ» بكسر اللام. وفتح الباقون[٣]. وعن أبي هريرة: «آلَتْنَاهُمْ» بالمدّ[٤]، قال ابن الأعرابي: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلَتَه يُؤْلته إِيلَاتًا، وَلَاتَه يَلِيته لَيْتًا، كلُّها إذا نَقَصه. وفي الصحاح: ولَاتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته، أي: حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَل وأَفْعل بمعنى، ويقال أيضاً: ما أَلَاته من عمله شيئًا، أي: ما نَقَصه، مثل أَلَته[٥]. وقد مضى في «الحجرات»[٦].

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار[٧]. قال ابن عباس: ارتهن

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (١١٣١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) من حديث علي ﷺ، وفيه محمد بن عثمان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٤٢: لا يُدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وله خبر منكر. اهـ. ثم ساق هذا الحديث من طريقه. وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد - كما في كنز العمال ٢/ ٥١٢: في إسناده محمد بن عثمان لا يقبل حديثه، ولا يصح في تعذيب الأطفال حديث.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣.

(٤) في (ظ): ابن هرمز، ولقبه الأعرج، وقراءته في القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠ ولم نقف على من نسبها لأبي هريرة، ولعله محرّف عن ابن هرمز، وقد نسب ابن الجوزي القراءة في زاد المسير ٨/ ٥١ لابن السميفع.

(٥) الصحاح (ليت).

(٦) ص٤٢١ - ٤٢٢ من هذا الجزء.

(٧) ينظر زاد المسير ٨/ ٥١.

أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩]. وقيل: هو عامٌّ لكلِّ إنسان مُرْتَهَن بعمله، فلا يُنقَص أحد من ثواب عمله، فأمَّا الزيادةُ على ثواب العمل فهي تفضُّلٌ من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذُّرِّيَّة الذين لم يؤمنوا، فلا يلحقون آباءهم المؤمنين، بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: أكثرنا لهم من ذلك زيادةً من الله، أمدَّهم بها غيرَ الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاتُه وخدمُه في الجنة. والكأس: إناءُ الخمر، وكلُّ إناء مملوء[1] من شراب وغيره، فإذا فرغ لم يسمَّ كأسًا. وشاهدُ التنازع والكأس في اللغة قولُ الأخطل:

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادَمَني   لا بالحَصُور ولا فيها بسَوَّارِ
نازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقدْ   صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[2]

وقال امرؤ القيس:

فلمَّا تَنَازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ   هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَمَاريخَ مَيَّالِ[3]

وقد مضى هذا في «والصافات»[4].

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في الكأس، أي: لا يجري بينهم لغوٌ ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا ما فيه

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ ـ والكلام منه ـ: والكأس إناء مملوء.

(٢) ديوان الأخطل ص١١٦ ، قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على طبقات فحول الشعراء ٢/ ٥٠١ : مُرْبح: من قولهم: أربحه بمتاعه أو سلعته: أعطاه ربحاً. أراد الأخطل أنه لا يبالي أنه يغالي بثمنها فيصيب الخمار منها ربحاً وافراً، يمدحه بحب اللهو وبالكرم. الحصور: البخيل الممسك المنوع. والسَّوَّار: الذي تَسُور الخمر في رأسه سريعاً.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٢ ، قال شارح الديوان: قوله: فلما تنازعنا الحديث: أي حدثتني وحدثتها. ومعنى أسمحت: انقادت وسهلت. وقوله: هصرت: يعني جذبت ومددت.

(٤) ١٨/ ٣٠ .

إثم. والتأثيم تفعيلٌ من الإثم، أي: تلك الكأس لا تجعلهم آثمين[١] لأنه مباح لهم. وقيل: «لَا لغوٌ فِيهَا» أي: في الجنة[٢]. قال ابن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلُّه جنةُ عدن، وسقاتُهم الملائكة، وشربُهم على ذكر الله، وريحانُهم وتحيتُهم من عند الله، والقومُ أضياف الله[٣]. «وَلَا تَأْثِيمٌ» أي: ولا كذب. قاله ابن عباس[٤]. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضًا[٥].

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: «لَا لَغْوَ فيهَا وَلَا تَأْثِيمَ» بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين[٦]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [الآية: ٢٥٤] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: بالفواكه والتُّحَف والطعام والشراب، ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرَّ الله تعالى بهم أعينَهم.وقيل: إنهم مَن أخدمَهم الله تعالى إيَّاهم من أولاد غيرهم[٨]. وقيل: هم غلمانٌ خُلِقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبدًا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون: المَصُون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] قيل: هم أولاد المشركين وهم خَدَمُ أهل الجنة، وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٨٨، وزاد المسير ٨/ ٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) نسبه الثعالبي في تفسيره ٤/ ٢١٧ للثعلبي.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٨.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٨٢.

(٧) ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٨) نسب الماوردي القولين في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ لابن بحر.

وعن عائشةَ رضي الله عنها: أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلةً مَن ينادي الخادمُ من خدمه، فيجيبه ألفٌ؛ كلُّهم: لبَّيك لبَّيك»[1].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلام، كلُّ غلام على عمل ليس عليه صاحبه»[2].

وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله، إذا كان الخادم كاللؤلؤ، فكيف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلةَ البدر وبين أصغر الكواكب»[3].

قال الكسائي: كننتُ الشيء: سترته وصُنته من الشمس، وأكننته في نفسي: أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الكِنِّ وفي النفس جميعًا، تقول: كننت العلم وأكننته، فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها، فهي مكنونة ومُكَنَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعِثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضًا[5]. وقيل: في الجنة يَتَسَاءَلُونَ، أي: يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة[6]، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف

---

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس ١/ ٢١٧، وأخرجه الثعلبي بنحوه كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٠، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٨٠) كلاهما عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٤) الصحاح (كنن)، وقوله: الكِنّ، أي: السُّترة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٠ بنحوه قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٥: ولا أُراه يصح عنه لبعده جداً.

(٦) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٢ - ٥٣ ونسبوه لابن عباس رضي الله عنهما.

عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بمَ صِرت في هذه المنزلة الرفيعة[١]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قال كلُّ مسؤول منهم لسائله: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ» أي: في الدنيا خائفينَ وَجِلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية[٢]. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الحسن: السَّمُوم: اسم من أسماء النار، وطبقةٌ من طِباق جهنم[٣]. وقيل: هو النار كما تقول: جهنم. وقيل: عذاب نار السَّمُوم[٤]. والسَّموم: الريحُ الحارَّةُ تؤنَّث، يقال منه: سُمَّ يومُنَا فهو مسموم، والجمع سَمَائم. قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار، وقد تكون بالليل، والحَرورُ بالليل، وقد تكون بالنهار[٥]، وقد تستعمل السَّمُوم في لَفْح البرد، وهو في لَفْح الحَرِّ والشمسِ أكثر، قال الراجز:

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُهْ ... مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ[٦]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: في الدنيا بأن يَمُنَّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: «نَدْعُوهُ» أي: نعبده[٧]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرأ نافع والكسائي: «أَنَّه» بفتح الهمزة، أي: لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء[٨]. و«البَرُّ»

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣ عن الحسن بلفظ: السَّموم اسم من أسماء جهنم .

(٤) في (د) و(م): نار عذاب السموم ، وسقط هذا الموضع من (ف) ، والمثبت من (ز) و(ظ) .

(٥) الصحاح (سمم) .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ، وأورد الرجز أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٠ ، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٠٥ .

(٧) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ .

(٨) السبعة ص ٦١٣ ، والتيسير ص ٢٠٣ .

اللَّطيف. قاله ابن عباس[١]. وعنه أيضًا: إنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج[٢].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر يا محمد قومَك بالقرآن. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربِّك[٣] ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غدٍ من غير وَحْيٍ[٤] ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهذا ردٌّ لقولهم في النبيِّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة[٥] قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم اللهُ تعالى وردَّ عليهم. ثم قيل: إنَّ معنى «فما أنت بنعمة ربِّك» القَسَم، أي: وبنعمةِ اللهِ ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قَسَمًا، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله من ذلك[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: بل يقولون: محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العبادُ بما جرى في كلامهم[٧]. قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا كلامٌ حسن، إلَّا أنه غير مبيَّن ولا مشروح؛ ويريد سيبويه أنَّ «أمْ» في كلام العرب لخروج من

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩١.

(٢) أورد قول ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣، وقول ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٤: عتبة بن ربيعة.

(٦) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٢٥.

(٧) ينظر الكتاب ٣/ ١٧٢ - ١٧٣.

حديث إلى حديث؛ كما قال الشاعر:

أَتَــهْــجُــر غــانــيــةً أَمْ تُــلِــمّ

فتمَّ الكلام، ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أَم الــحَــبــلُ واهٍ بــهــا مُــنْــجَــذِمْ[١]

فما جاء في كتاب الله تعالى مِن هذا، فمعناه التقريرُ والتوبيخ، والخروجُ من حديث إلى حديث، والنحويُّون يمثِّلونها بـ: بل.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار: تربَّصوا بمحمد الموتَ يكفيكموه كما كفى[٢] شاعرَ بني فلان. قال الضَّحاك: هؤلاء بنو عبد الدار؛ نسبوه إلى أنه شاعر[٣]؛ أي: يَهلِك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأنَّ أباه مات شابًّا، فربَّما يموت كما مات أبوه[٤]. وقال الأخفش: نتربَّص به إلى رَيْبِ المَنُون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدًا، وقصدت إلى زيد[٥]. والمَنُون: الموت في قول ابن عباس[٦]. قال أبو الغول الطُّهوي:

هــمُ مَــنــعــوا حِــمَــى الــوَقَــبَــى بــضَــربٍ يــؤلِّــف بــيــن أشــتــاتِ الــمَــنُــونِ[٧]

أي: المنايا؛ يقول: إنَّ الضرب يجمع بين قومٍ متفرِّقي الأمكنة؛ لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرِّقة، فاجتمعوا في موضع واحد، فأتتهم المنايا مجتمعة.

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٨٥. قوله: تُلِمّ، يقال: ألمَّ بالقوم: زارهم زيارة قصيرة قاله شارحه.

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٤: كفاكم.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٠.

(٥) معاني القرآن ٢/ ٦٩٧ للأخفش بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ - ٥٩٣.

(٧) كتاب الحيوان ٣/ ١٠٧، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩، والأمالي ١/ ٢٦٠، والخزانة ٦/ ٤٣٤. قال البغدادي: الوقبى، بفتح الواو والقاف: موضع بقرب البصرة.

وقال السُّدِّي: عن أبي مالك، عن ابن عباس[(١)]: «رَيْبَ» في القرآن شكٌّ، إلا مَكانًا واحداً في الطور «رَيْبَ المَنون» يعني: حوادث الأمور؛ وقال الشاعر[(٢)]:

تَـربَّـصْ بـهـا رَيـبَ الـمَـنـون لـعـلـهـا تُـطَـلَّـقُ يـومًـا أو يـمـوتُ حَـلِـيـلُـهـا

وقال مجاهد: «رَيْبَ المَنُونِ»: حوادث الدهر[(٣)]، والمَنُون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب[(٤)]:

أَمِـنَ الـمـنُـونِ وَرَيْـبِـه تـتـوجَّـعُ والـدَّهـرُ لـيس بـمُـعْـتِـبٍ مَـنْ يَـجْـزَعُ

وقال الأعشى[(٥)]:

أَأَنْ رأَتْ رجـلًا أَعـشَـى أَضـرَّ بـه رَيـبُ الـمَـنُـون ودهـرٌ مُـتْـبِـلٌ خَـبِـلُ

قال الأصمعي: المَنُون: الليل والنهار؛ وسمِّيا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه. أنه قيل للدهر: منون؛ لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان، أي: قوَّته، وكذلك المَنِيَّة. أبو عبيدة: قيل للدهر: منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم: حبل مَنِين، أي ضعيف، والمنين: الغبار الضعيف. قال الفرَّاء: والمنون مؤنثة، وتكون واحدًا وجمعًا. الأصمعي: المَنُون واحد لا جماعة له. الأخفش: هو جماعة لا واحد له[(٦)]، والمنون يذكَّر ويؤنَّث؛ فمَن ذكَّره جعله الدهرَ أو الموت، ومَن أنَّثه فعلى الحمل على المعنى، كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: تربَّصوا، أي: انتظروا. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: من المنتظرين بكم العذاب، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسيف[(٧)].

---

(١) أخرجه عنه ابن الأنباري في الوقف والابتداء كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٠ .

(٢) في النسخ: وقال ابن عباس، وهو خطأ، والشاعر هو فرّاص بن عتبة الأزدي، وسلف البيت ٤/ ٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١/ ١ ، وسلف ص١٦٤ من هذا الجزء.

(٥) ديوانه ص ١٠٥ ، وسلف ٥/ ١٧٤ .

(٦) قولا الأصمعي والأخفش في المحرر الوجيز ٥/ ١٩١ ، وقول الفراء في الصحاح (منن) .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤١ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بالكذب عليك .﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أم طَغَوا بغير عقول. وقيل: «أَمْ» بمعنى: بل، أي: بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحقّ.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومِك لم يؤمنوا وقد وصفهم اللهُ بالعقل؟ فقال: تلك عقولٌ كادها الله، أي: لم يصحبها بالتوفيق(١).

وقيل: «أَحلامُهُمْ» أي: أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر، ولو كان له عقلٌ لآمن. وإنما يعطى الكافرُ الذِّهنَ، فصار عليه حُجَّة. والذِّهن يَقْبل العلمَ جملةً، والعقل يميِّز العلم ويقدِّر المقادير لحدود الأمر والنهي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقلَ فلانًا النَّصرانيّ! فقال: «مَهْ إنَّ الكافر لا عقل له، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؟». وفي حديث ابنِ عمر: فزجره النبيُّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإنَّ العاقل مَن يعمل بطاعة الله» ذكره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله بإسناده(٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن. والتقوُّل: تكلُّف القول، وإنما يُستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال: قوَّلتَني ما لم أقل! وأَقْولتني ما لم أقل، أي: ادَّعيتَه عليّ. وتَقَوَّل عليه، أي: كذب عليه. واقتال عليه: تحكَّم، قال:

ومَـنـزِلـةٌ فـي دار صـدقٍ وغِـبْـطـةٍ ... وما اقْتَال مِن حُكمٍ عليَّ طبيبُ(٣)

فـ«أم» الأولى للإنكار، والثانيةُ للإيجاب، أي: ليس كما يقولون .﴿بَل لَّا

(١) زاد المسير ٨/ ٥٤ - ٥٥، وفيه: لم يصحبها التوفيق.

(٢) لم نقف عليه. وأخرجه الحارث في مسنده (٨٣٦ بغية الباحث). قال ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢١٤ - ٢١٥: حديث موضوع.

(٣) الصحاح (قول)، والبيت لكعب بن سعد الغَنَوي، وهو في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٢، والحيوان ٣/ ٥٧.

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ جَحداً واستكبارًا.

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ أي: بقرآن يُشْبهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ محمداً افتراه.

وقرأ الجحدري: «فليأتُوا بحديثِ مثله» بالإضافة. والهاءُ في «مثله» للنبيِّ ﷺ، وأُضيف الحديثُ الذي يراد به القرآنُ إليه؛ لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن[1].

قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ «أَمْ» صلةٌ زائدة، والتقدير: أَخُلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم. وقيل: من غير أمٍّ ولا أب[2]؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لِله عليهم حُجَّة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثًا وتُركوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»[3] أي: لغير شيء، فـ «من» بمعنى اللام[4]. ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أي: أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله، وهم لا يقولون[5] ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالقًا غيرَهم، فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام،

---

(١) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ بنحوه ، وقول ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وينظر الكشاف ٤/ ٢٩ .

(٣) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤١ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٥ .

(٥) في (ظ): يقرون.

ومن الإقرار بأنه قادرٌ على البعث.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالحق.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربِّك: المطر والرزق[١]. وقيل: مفاتيح الرحمة[٢]. وقال عكرمة: النبوَّة. أي: أفبأيديهم مفاتيحُ ربِّك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا. وضَرَبَ المثلَ بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يُهيَّأ لجمع أنواعٍ مختلفةٍ من الذخائر؛ ومقدوراتُ الربِّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ قال ابن عباس[٣]: المسلَّطون الجبَّارون. وعنه أيضًا: المبطلون. وقاله[٤] الضحاك. وعن ابن عباس أيضًا: أم هم المتولُّون. عطاء: أم هم أربابٌ قاهرون[٥]. قال عطاء[٦]: يقال: تسيطرتَ عليّ، أي: اتخذتني خَوَلًا لك. وقاله أبو عبيدة[٧].

وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر: المسلَّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهَّدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسطَّر، والذي يفعله مُسطِّر ومُسَيْطِر. يقال: سيطرتَ علينا[٨].

ابن بحر: «أم هم المسيطِرون» أي: أهم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ . وقول عكرمة الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وزاد المسير ٨/ ٥٦ .

(٣) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٩٧ .

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف) : قاله؛ دون واو .

(٥) قول عطاء في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وقول ابن عباس في النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ .

(٦) كذا في النسخ، ولعل قوله: (قال عطاء) مقحم، فقول عطاء هو السالف، ولم يُذكر الكلام بعده عنه.

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣ . والخَوَل: اسم يقع على العبد والأمة. (مختار الصحاح).

(٨) الصحاح (سطر) .

الذي يَحفظ ما كُتب فيه؛ فصار المسيطر هنا حافظًا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ[١].

وفيه ثلاث لغات: الصاد، وبها قرأت العامة، والسين، وهي قراءة ابن مُحيصِن، وحُميد، ومجاهد، وقُنْبُل، وهشام، وأبي حَيْوة[٢]، وبإشمام الصاد الزاي، وهي قراءة حمزة كما تقدَّم في «الصِّراط»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي: أيدَّعون أنَّ لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمدٌ ﷺ بطريق الوحي. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة أنَّ هذا الذي هم عليه حقّ.

والسُّلَّم واحد السلالم التي يُرتقى عليها. وربما سُمِّي الغَرْزُ بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبيُّ[٤] يصف ناقته:

مُطَارةُ قَلْبٍ إنْ ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها ... بسُلَّمِ غَرْزٍ في مُناخٍ تُعاجِلُهْ[٥]

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٢) وقرأ بالسين ـ أيضاً ـ حفص بخلاف عنه. السبعة ص ٣٦٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٣) ١/ ٢٢٨.

(٤) هو شاعر إسلامي، وقد اضطربت المصادر في اسمه ونسبه، فقيل: عَبّاد بن طهفة، وقيل: عبادة، وقيل: هباد بن عباس، وقيل: عباد بن طَهمة. وقيل في نسبه: الثعلبي، وقيل: التغلبي، قال الزبيدي في التاج (ربس): هو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، هكذا قاله الصاغاني. وفي اللسان: وأبو الربيس التغلبي من شعراء تغلب. وهو تصحيف، والصواب مع الصاغاني. اهـ. وينظر الصحاح (سلم)، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ١٢٣ - ١٢٤، واللسان (ربس) و(سلم) و(لوي)، والقاموس (ربس)، والخزانة ٦/ ٨٩ - ٩٠، والتاج (ربس).

(٥) الصحاح (سلم)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٥٦، واللسان (سلم). قال المرزوقي: والمراد أنها ذكية الفؤاد، شهمة النفس، فكأن بها لنشاطها وذكائها جنوناً أطار قلبها، وأزال مُسكتها. قوله: تعاجِلْهُ، أصله: تعاجلُهُ، اللام ساكنة للجزم، لكنه نقل إليها حركة الهاء، وهو ضمير يرجع إلى: ربُّها. والغرز: الرِّكاب، عاجلته فنهضت به قبل تمكنه من ركوبها، واستقراره على ظهرها.

وقال زهير[١]:

ومَن هابَ أسبابَ المنِيَّة يَلْقَها ... ولو رام أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجنَّيتِ لي ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه ... لِتتَّخذي عذْرًا إلى الهَجر سُلَّما[٢]

وقال ابن مُقبِل في الجمع:

لا تُحرِزُ المرءَ أحْجاءُ البلاد ولا ... تُبْنَى له في السَّماوات السَّلاليمُ[٣]

الأحجاء: النواحي، مثل الأرجاء، واحدها حَجًا ورَجًا، مقصور. ويُروى: أعْناءُ البلاد، والأعْناء ـ أيضاً ـ الجوانب والنواحي، واحدها: عِنْو، بالكسر. وقال ابن الأعرابي: واحدها: عَنًا، مقصور. وجاءنا أعناءٌ من الناس، واحدهم: عِنْو، بالكسر، وهم قومٌ من قبائل شتَّى[٤].

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة[٥]: يستمعون به. وقال الزجَّاج[٦]: أي: ألهم كجبريل الذي يأتي النبيَّ ﷺ بالوحي!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا، أي: أتضيفون إلى الله البناتِ مع أَنَفَتكم منهن، ومَن كان عقلُه هكذا فلا يُستبعد منه إنكارُ البعث.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من

---

(١) ديوانه ص ٣٠، وسلف ١١/ ٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٣) ديوان ابن مقبل ص ٢٧٣ برواية: لا تمنع المرء...، وهو براوية المصنف في الصحاح (حجا).

(٤) الصحاح (حجا)، (عنا).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٧.

المغرم الذي تطلبهم به مُثْقَلون، مُجْهَدون لما كلَّفتهم به.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي: أم عندهم علمُ ما غاب عن الناس حتى علموا أنَّ ما أخبرهم به الرسول ﷺ من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لمَّا قالوا: نتربَّص به رَيْبَ المَنُون، قال الله تعالى: «أَمْ عندهُمُ الغَيْبُ» حتى عَلِموا متى يموت محمد، أو إلى ما يؤول إليه أمرُه. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القُتَبي: يكتبون: يحكمون، والكتاب: الحكم؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: حكم، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لأَحْكُمنَّ بينكم بكتاب الله» أي: بحكم الله(١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا بك في دار النَّدْوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وذلك أنهم قُتلوا ببدر(٢). ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزَّه نفسَه أنْ يكونَ له شريك.

قال الخليل: كلُّ ما في سورة الطور مِن ذِكْر «أمْ» فكلمة استفهام وليس بعطف(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جوابًا لقولهم: «فأَسْقِط

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٢، والحديث أخرجه أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨)، عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما، وهو قطعة منه، وسلف ٦/ ١٤٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٢.

علينا كِسَفًا مِن السَّماء» [الشعراء:١٨٧] وقولِهم: «أَوْ تُسقِطَ السَّماءَ كما زعمْت علينا كِسَفًا» [الإسراء:٩٢] فأَعْلَمَ أنه لو فعل ذلك لقالوا: «سحابٌ مَركوم» أي: بعضه فوق بعض، سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فِعْلُ المعاند أو فعل مَن استولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان[١].

والكِسْف جمع كِسْفة، وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضًا: كِسَف. ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: مَن قرأ: «كِسْفاً» جعله واحدًا، ومَن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً[٢]. وقد تقدَّم القولُ في هذا في «سبحان» وغيرِها، والحمدُ لله[٣].

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بآية السيف[٤]. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ بفتح الياء قراءةُ العامّة، وقرأ ابن عامر وعاصمٌ بضمِّها[٥]. قال الفرَّاء[٦]: هما لغتان: صَعِق وصُعِق، مثل: سَعِد وسُعِد.

قال قتادة: يوم يموتون[٧]. وقيل: هو يومُ بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يُزيل عقولهم. وقيل: «يُصْعَقُون» بضم الياء، مِن: أصعقه الله.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٤٢٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٩.

(٢) الصحاح (كسف). وقد اتفق العشرة في هذا الموضع على إسكان السين.

(٣) ١٣/ ١٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٩: ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الوعيد.

(٥) السبعة ص ٦١٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٦، والأقوال الآتية فيه وفي الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، وزاد المسير ٨/ ٥٩.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: ما كادوا به النبيَّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من الله. و«يَوْمَ» منصوبٌ على البدل مِن «يومَهُم الَّذي فيه يُصْعَقون»[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ابن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا، وذهابِ الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبعَ سنين. ابن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بنُ عازِب وعليٌّ رضي الله عنه. فـ «دُونَ» بمعنى: غير. وقيل: عذابًا أخفَّ من عذاب الآخرة[٢]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ العذاب نازلٌ بهم. وقيل: «ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون» ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربِّك فيما حمَّلك مِن رسالته. وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به مِن قومك[٣]؛ ثم نُسخ بآية السيف[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأًى ومنظرٍ منَّا؛ نرى ونسمع ما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢١/ ٦٠٣ - ٦٠٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٦ ، والوسيط للواحدي ٤/ ١٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ ، والكشاف ٤/ ٢٦ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٧٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ .

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٠ : وذكر المفسرون أن معنى الصبر نسخ بآية السيف ، ولا يصح؛ لأنه لا تضاد .

تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونَحرُسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] أي: بحفظي وحراستي[١]، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختُلف في تأويل قولِه: «حِينَ تَقُومُ»؛ فقال عوف بن مالك[٣] وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري[٤]: يسبِّح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو: سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسنًا، وإن كان غيرَ ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويلِ ما خرَّجه الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس في مجلس فكَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم في مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث حسن غريب صحيح. وفيه[٦] عن ابن عمر قال: كنَّا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئةَ مرَّةٍ من قبل أن يقوم: «ربِّ اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التوَّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣ .

(٢) ١٤/ ٥٨ - ٥٩ .

(٣) في (د) و(م) : عون بن مالك، وهو خطأ، والأثر أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٥ - ٦٠٦ عن عوف بن مالك أبي الأحوص .

(٤) بعدها في النسخ عدا (ف) : وأبو الأحوص ، وهو عوف بن مالك السالف . وقول ابن مسعود في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٩١ ، وقول عطاء وسعيد بن جبير في تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .

(٥) في سننه (٣٤٣٣) ، وهو عند أحمد (١٠٤١٥)، وسلف ص٤٥٤ من هذا الجزء.

(٦) برقم (٣٤٣٤) ، وهو عند أحمد (٤٧٢٦) .

وقال محمد بن كعب والضحَّاك والربيع[١]: المعنى: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحَّاك يقول: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا[٢].

قال الكيا الطبري[٣]: وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ قوله: «حينَ تقوم» لا يدلُّ على التسبيح بعد التكبير، فإنَّ التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراءَ ذلك، فدلَّ أنَّ المراد به: حين تقوم من كل مكان، كما قال ابن مسعود ﷺ.

وقال أبو الجوزاء وحسَّان بن عطية: المعنى: حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله[٤].

وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة[٥]. وهي صلاة الفجر. وفي هذا رواياتٌ مختلفات صِحَاح؛ منها حديث عُبادةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد[٦] لله وسبحان الله [ولا إله إلا الله] والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإنْ توضَّأ وصلَّى، قُبلت صلاته» خرَّجه البخاري[٧]. تعارَّ الرجل من الليل: إذا هبَّ من نومه مع صوت؛ ومنه: عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارًا، وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارًا، كما قالوا: زَمَر النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا[٨].

وعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل:

---

(١) ذكر قول الضحاك والربيع البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٣ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤٩ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ٣٩١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ عن حسان بن عطية.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .

(٦) المثبت من (ز) و(ظ)، وفي غيرهما: والحمد.

(٧) في صحيحه (١١٥٤) وما بين حاصرتين منه. وسلف ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٨) الصحاح (عرر) .

«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد، أنت قَيُّوم السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحقّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، ولقاؤك الحقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمدٌ حقّ. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وأخَّرت، وأسررت وأعلنت، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك». متفق عليه(١).

وعن ابن عباس أيضًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل، مسح النومَ عن وجهه؛ ثم قرأ العشرَ الآياتِ الأواخر من سورة آل عمران(٢).

وقال زيد بن أسلم: المعنى: حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر(٣). قال ابن العربي(٤): أمَّا نوم القائلة فليس فيه أثر، وهو ملحَق بنوم الليل.

وقال الضحَّاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها(٥). الماوردي(٦): وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما: وهو قوله: سبحان ربي العظيم؛ في الركوع، وسبحان ربي الأعلى؛ في السجود. الثاني: أنه التوجُّه في الصلاة، يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

قال ابن العربي(٧): مَن قال: إنه التسبيح للصلاة، فهذا أفضله، والآثار في ذلك

(١) صحيح البخاري (١١٢٠)، وصحيح مسلم (٧٦٩)، وسلف تخريجه ١٠/ ٤٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٧٢)، والبخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣): (١٨٢) بنحوه مطولاً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦ بنحوه.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

كثيرة، أعظمُها ما ثبت عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهيَ» الحديث. وقد ذكرناه وغيرَه في آخر سورة الأنعام[(١)].

وفي البخاريِّ[(٢)] عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً مِن عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ تقدَّم في «ق» مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٤٠][(٣)].

وأما «إِدبارَ النُّجوم» فقال عليٌّ وابن عباس وجابرٌ وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعضُ العلماء الآيةَ على هذا القول على الندب، وجَعَلَها منسوخةً بالصلوات الخمس.

وعن الضحَّاك وابنِ زيد: أنَّ قوله: «وإِدبارَ النُّجوم» يريد به صلاة الصبح، وهو اختيار الطبريّ[(٤)].

وعن ابن عباس: أنه التسبيح في أدبار[(٥)] الصلوات.

وبكسر الهمزة في «إِدبارَ النُّجوم» قرأ السبعةُ، على المصدر حسَب ما بيَّنَّاه في «ق». وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَأدبارَ» بالفتح[(٦)]، ومثلُه روي عن يعقوب[(٧)] وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره: آخره.

---

(١) ٩/ ١٤٠ ، والحديث أخرجه أحمد (٧٢٩) ، ومسلم (٧٧١) .

(٢) برقم (٨٣٤) ، وهو عند أحمد (٨) ، ومسلم (٢٧٠٥) .

(٣) ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ٢١/ ٦٠٩ ، وفيه الآثار السالفة عدا قول جابر وأنس رضي الله عنهما .

(٥) في (م) : آخر ، والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٨ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ عن سالم.

(٧) ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ ، والمشهور عنه كالعامة .

وروى الترمذيُّ[١] من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «إدبارُ النجوم الركعتان قبل الفجر، وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب». قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلَّا من هذا الوجه، من حديث محمد بنِ فُضيل، عن رِشْدِين بن كُريب. وسألت محمد بن إسماعيل، عن محمد بن فُضيل، ورِشْدين بن كُريب: أيُّهما أوثق؟ فقال: ما أقرَبَهما، ومحمدٌ عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بنَ عبد الرحمن[٢] عن هذا، فقال: ما أقربَهما؛ ورِشْدِين بن كُريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول عندي ما قال أبو محمد، ورِشْدين بن كُريب أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشْدِينُ ابنَ عباس ورآه.

وفي صحيح مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على ركعتين قبل الصبح. وعنها[٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

تم تفسير سورة والطور، والحمد لله.

تم الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء العشرون، ويبدأ بتفسير سورة النجم

---

(١) في سننه (٣٢٧٥)، وسلف بنحوه ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٢) هو أبو محمد الدارمي.

(٣) برقم (٧٢٤): (٩٤)، وهو عند أحمد (٢٤١٦٧)، والبخاري (١١٦٩).

(٤) برقم (٧٢٥)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤١) و(٢٦٢٨٦).

سُورَةُ الطُّورِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ أو ثَمانٍ وأربعونَ[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلطُّورِ﴾ يريدُ طورَ سينينَ، وهو جبلٌ بمَدْيَن سَمِعَ فيها مُوسى عليه السَّلامُ كلامَ اللهِ.

والطُّورُ: الجبلُ بالسِّريانيَّةِ، أو ما طارَ مِن أَوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو مِن عالمِ الغيبِ إلى عالمِ الشَّهادةِ.

(٢) ـ ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ مكتوبٍ، والسَّطرُ: ترتيبُ الحروفِ المَكتوبَةِ، والمرادُ به القرآنُ، أو ما كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المَحفوظِ، أو ألواحُ موسى، أو ما[2] في قلوبِ أوليائِه مِن المعارفِ والحِكَمِ، أو ما يكتبُهُ الحفظَةُ.

(٣) ـ ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرَّقُّ: الجلدُ الذي يُكتَبُ فيه، استُعِيرَ لِمَا كُتِبَ فيه الكتابُ.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٣٣) وفيه: وهي أربعون وسبع آيات في المدنيين والمكي، وثمان في البَصْري، وتسع في الكوفي والشامي. اختلافها آيتان: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون.

(٢) «ما» من نسخة الخيالي.

وتَنكيرُهما للتَّعظيمِ والإشعارِ بأَنَّهُما ليسا مِن المُتعارفِ فيما بينَ النَّاسِ.

(٤) - ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ يعني: الكعبةَ وعمارتُها بالحجَّاجِ والمُجاورينَ، أو الضُّراحَ وهو في السَّماءِ الرَّابعةِ، وعمرانُه كثرةُ غاشِيَتِه مِن الملائكةِ، أو قلبَ المؤمنِ وعمارتُه بالمعرفةِ والإخلاصِ.

(٥) - ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السَّماءَ.

(٦) - ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوءِ، وهو المُحيطُ أو الموقَدُ مِن قولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

رُوِيَ أنَّ اللهَ يجعَلُ يومَ القيامةِ البحارَ نارًا يُسجَرُ بها جهنَّمُ، أو المختلطُ مِن السَّجِيرِ، وهو الخَليطُ[1].

(٧ - ٨) - ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ لنازِلٌ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ يدفَعُه.

ووجهُ دلالةِ هذه الأمورِ المُقسَمِ بها على ذلك أنَّها أُمورٌ تدلُّ على كمالِ قُدرَةِ اللهِ وحِكمَتِه وصدقِ أخبارِه وضبطِ أعمالِ العِبَادِ للمُجازاةِ.

(٩) - ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ تَضطَرِبُ اضطرابًا[2]، والمَوْرُ: تَرَدُّدٌ في المجيءِ والذَّهابِ، وقيل: تحرُّكٌ في تَموُّجٍ، و﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ.

(١٠) - ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تسيرُ عن وجهِ الأرضِ فتَصِيرُ هباءً.

(١١) - ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا وقعَ ذلك فويلٌ لهم.

(١٢) - ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في الخوضِ في الباطلِ.

(١٣) - ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يدفعونَ إليها بعُنفٍ، وذلك بأنْ تُغَلَّ أيديهِم إلى أعناقِهم وتُجمعَ نَواصيهِم إلى أقدامِهم فيُدفعونَ إلى النَّارِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٦) دون راوٍ ولا سند.

(٢) «اضطراباً» من نسخة الخيالي.

وقُـرِئَ: (يُدْعَـوْنَ) مـن الدُّعـاءِ[١]، فيكـونُ ﴿دَعًّا﴾ حـالًا بمعنـى مَدْعُوعِينَ، و﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾، أو ظرفٌ لقولٍ مُقدَّرٍ، محكيُّهُ:

(١٤) ـ ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: فيقالُ لهم ذلك.

(١٥) ـ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي: كنتُم تقولونَ للوَحيِ: هذا سِحرٌ، أفهذا المصداقُ[٢] أيضًا سحرٌ؟

وتقديمُ الخبرِ لأنَّه المقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ.

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضًا كما كُنْتُم لا تبصرونَ في الدُّنيا ما يدلُّ عليه، وهو تَقريعٌ وتَهكُّمٌ، أم سُدَّت أبصارُكُم كما سُدَّتْ في الدُّنيا على زَعمِكُم حينَ قُلْتُم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥].

(١٦) ـ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ أي: ادخُلوهَا على أيِّ وَجهٍ شِئتُم مِن الصَّبرِ وعَدمِه فإنَّه لا محيصَ لَكُم عنها.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمرانِ الصَّبرُ وعَدمُه.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليـلٌ للاسـتواءِ، فإنَّـه لَمَّـا كان الجـزاءُ واجِـبَ الوقـوعِ كان الصَّبـرُ وعدمُـه سِـيَّانِ[٣] فـي عـدمِ النَّفعِ.

(١٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي: في أيِّ جنَّاتٍ وأيِّ نعيمٍ، أو في جنَّاتٍ ونَعيمٍ مخصوصةٍ[٤] بهم.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٥/ ٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٧)، و«البحر» (٢٠/ ١٣) ونسبوها لزيد بن علي، وأبي رجاء، وعلي، والسلمي.

(٢) المصداق هو الشيء الذي يعرف به الصدق، والعذاب في الآخرة، وغير ذلك من أحوال القيامة، مما يعد من مصداق قول الأنبياء عليهم السلام. «فتوح الغيب» للطيبي (١٥/ ٤٥).

(٣) في نسخة الفاروقي: «سيين».

(٤) في نسخة الخيالي: «مخصوص».

(١٨) ـ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمينَ مُتلذِّذينَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وقُرِئَ: ﴿فكِهينَ﴾[١] و(فاكِهُونَ)[٢] على أنَّه الخبرُ، والظَّرفُ لغوٌ.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ إن جُعِل (ما) مصدريَّةً، أو ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾، أو حالٌ بإضمارِ (قد) مِن المُستكنِّ في الظَّرفِ أو الحالِ، أو مِن فاعلِ (آتى) أو مَفعولِه أو مِنهما.

(١٩) ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي: أكلًا وشُربًا هنيئًا أو طعامًا وشرابًا هنيئًا، وهو الذي لا تنغيصَ فيه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببِه أو بدلَه.

وقيل: الباءُ زائدةٌ و(ما) فاعلُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، والمعنى: هنَّأكُم ما كُنتُمْ تعمَلُون؛ أي: جزاؤُه.

(٢٠) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مُصطفَّةً[٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباءُ لِمَا فـي التَّزويجِ مِن مَعنى الوَصلِ والإلصاقِ، أو للسَّببيَّةِ إذ المعنى: صيَّرناهُم أزواجًا بسببهنَّ، أو لِمَا في التَّزويجِ مِن مَعنى الإلصاقِ والقرنِ[٤]، ولذلك عطفَ:

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على (حُورٍ)؛ أي: قرنَّاهُم بأزواجٍ حُورٍ ورُفقاء[٥] مُؤمنينَ.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٢) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٨/ ٤٦٨)، وأبو حيان في «البحر» (٢٠/ ١٤) ونسبها لخالد، ولم أعرفه.

(٣) في نسخة الخيالي: «مصففة».

(٤) في نسخة التفتازاني: «والقران».

(٥) في نسخة الطبلاوي: «وقرناء».

وقيل: إنَّه مُبتدأٌ خبرُه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ اعتراضٌ للتَّعليلِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿ذُرِّيَّاتُهم﴾ بالجمعِ وضَمِّ التَّاءِ[1] للمُبالغةِ في كَثرتِهم والتَّصريحِ[2]، فإنَّ الذُّرِّيَّةَ تقع على الواحدِ والكثيرِ.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿وأَتْبَعْنَاهُم ذُرِّيَّاتِهم﴾[3] أي: جَعلنَاهُم تابعينَ لَهُم في الإيمانِ.

وقيل: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ أو الذُّرِّيَّةِ أو منهما، وتنكيرُه للتَّعظيمِ أو الإشعارِ[4] بأنَّه يكفي للإلحاقِ المتابعَةُ في أصلِ الإيمانِ.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في دُخولِ الجنَّةِ أو في الدَّرَجَةِ، لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ قال[5]: «إنَّ اللهَ يرفَعُ ذريَّةَ المُؤمنِ في دَرجتِهِ وإن كانوا دونَهُ لِتقرَّ بهم عَينُه»، ثمَّ تلا هذه الآيَةَ[6].

---

(١) «بالجمع وضم التاء» من نسخة التفتازاني.

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) في نسخة الخيالي: «أو للإشعار».

(٥) في نسخة التفتازاني والخيالي زيادة: «مرفوعًا».

(٦) روي مرفوعاً وموقوفاً، فقد رواه البزار (٢٢٦٠ ـ كشف)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٢) والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٠ ـ ٣١)، من طريق قيس بن الربيع، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً. قال البزار: تفرد قيس برفعه، ورواه الثوري موقوفاً. وقال أبو نعيم: غريب من حديث عمرو وسعيد، تفرد به عنه قيس بن الربيع.
وقيس قال عنه يحيى كما ذكر ابن عدي: ليس بشيء. وقال مَرةً: ضعيف.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٠٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٧٩)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٤٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» =

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ والبَصريَّانِ: ﴿ذُرِّيَّاتِهم﴾[1].

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ وما نَقَصْناهُم ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ بهذا الإلحاقِ؛ فإنَّه كما يحتملُ أن يكونَ بنَقصِ مَرتبةِ الآباءِ بإعطاءِ الأبناءِ بعضَ مَثُوباتِهم، يحتملُ أن يكونَ بالتَّفضُّلِ عليهِمْ، وهو اللَّائقُ بكَمالِ لُطفِه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بكَسرِ اللامِ[2] مِن أَلِتَ يَأْلَتُ، وعنهُ: (لِتْنَاهُم) مِن لاتَ يَلِيتُ، و: (آلَتْنَاهُم) مَن آلَتَ يُؤْلِتُ، و: (وَلَتْنَاهُم) مِن وَلَتَ يَلِتُ[3]، ومَعنى الكُلِّ واحدٌ.

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بعملِه مَرهونٌ عندَ اللهِ، فإنْ عَمِلَ صالحًا فكَّها، وإلَّا أهلكَها.

(٢٢) ـ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وزِدْناهُم وقتًا بعدَ وقتٍ ما يشتهونَ مِن أَنواعِ التَّنعُّمِ[4].

= (ص: ١٦٦)، وفي «السنن» (١٠/ ٢٦٨)، من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

ورواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٧٥)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٩٠)، من طريق محمد بن بِشْرٍ العَبْدِيِّ، عن سفيان الثوري، عن سَمَاعةَ، عن عمرو بن مُرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ.

قال النحاس: فصار الحديثُ مرفوعًا عن رسول الله ﷺ، وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقولُ هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبارٌ عن الله تعالى بما فعله وبمعنى آيةٍ أنزلها تعالى.

وقال الطحاوي: فنحن نحيطُ علمًا ـ لو لم نجد أحدًا من رواته رَفَعه إلى النبي ﷺ ـ أن ابن عباس لم يأخذه إلَّا عن النبي ﷺ إذ كان الذي فيه إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ بمُراده في الآية المذكورة فيه، وذلك مما لا يؤخذ من غير النبي ﷺ.

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٣) انظر هذه القراءات مع من قرأ بها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص:١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٠).

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «النعم».

(٢٣) ـ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطَوْنَ هم وجُلَساؤهُم بتَجاذُبٍ ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا، سمَّاها باسمِ محلِّها، ولذلك أُنِّثَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يتكلمونَ بلَغوِ الحديثِ في أثناءِ شُربِها ولا يفعلونَ ما يُؤثَّمُ به فاعلُه كما هو عادةُ الشَّاربينَ في الدُّنيا، وذلك مثلُ قولِه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧].

وقرأَهُما ابنُ كثيرٍ والبَصريَّانِ بالفَتحِ[١].

(٢٤) ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكأسِ ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مماليكُ مَخصوصونَ بهم. وقيل: هم أولادُهم الذين سَبَقوهُم.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصونٌ في الصَّدفِ مِن بياضِهِم وصَفائِهِم.

وعنه عليه السَّلامُ: «والذي نفسي بيدِه إنَّ فضلَ المَخدومِ على الخادمِ كفَضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ»[٢].

(٢٥) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسألُ بَعضُهُم بَعضًا عَن أحوالِه وأعمالِه.

(٢٦) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ مِن عصيانِ اللهِ مُعتَنينَ بطَاعتِه، أو وجلينَ مِن العاقبَةِ.

(٢٧) ـ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرَّحمةِ أو التَّوفيقِ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذابَ النَّارِ النَّافذَةِ في المسَامِّ نُفوذَ السَّمومِ.

وقُرِئَ: (ووَقَّانا) بالتَّشديدِ[٣].

(٢٨) ـ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك في الدُّنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نَعبدُه، أو نَسألُه الوِقايةَ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المُحسِنُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٢)، و«التيسير» (ص: ٨٢)، و«النشر» (٢/ ٢١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٤٦)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٨٩) من مرسل قتادة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٠)، و«البحر» (٢٠/ ٢٠) عن أبي حيوة.

وقرأ نافعٌ والكِسائيُّ بفَتحِ همزةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾[١].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرَّحمةِ.

(٢٩) ـ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ فاثبُتْ على التَّذكيرِ ولا تَكترِثْ بقَولِهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمدِ اللهِ وإنعامِه ﴿بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ كما يقولونَ.

(٣٠) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ ما يُقلِقُ النُّفوسَ مِن حوادثِ الدَّهرِ.

وقيل: المَنُونُ المَوتُ، فَعُولٌ مِن مَنَّه: إذا قَطعَهُ.

(٣١) ـ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّصُ هَلاكَكُم كما تَتربَّصونَ هلاكي.

(٣٢) ـ ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ عُقولُهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ بهذا التَّناقُضِ في القَوْلِ، فإنَّ الكاهِنَ يكونُ ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مُغَطًّى عقلُه، والشَّاعرُ يكونُ ذا كلامٍ مَوْزُونٍ مُتَّسِقٍ مُخيِّلٍ، ولا يَتأتَّى ذلك من المَجنونِ.

وأمرُ الأحلامِ به مَجازٌ عَن أدائِها إليه.

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ مجاوِزونَ الحدَّ في العنادِ.

وقُرِئَ: (بل هُم)[٢].

(٣٣) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلَقَهُ مِن تلقاءِ نَفسِه.

﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيرمونَ بهذه المطاعنِ لكُفرِهم وعِنادِهم.

(٣٤) ـ ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ مثلِ القرآنِ ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمِهم إذ

---

(١) وقراءة الباقين بالكسر، انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٢)، و«البحر» (٢٠/ ٢٢٣) عن مجاهد.

فيهِم كَثيرٌ ممَّنْ تحدُّوا[١]، فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورةِ بالتَّحدِّي، ويجوزُ أن يكونَ ردًّا للتَّقوُّلِ، فإنَّ سائرَ الأقسامِ ظاهرُ الفَسادِ.

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أم أُحدِثُوا وقُدِّروا مِن غيرِ مُحدِثٍ ومُقَدِّرٍ فلذلك لا يعبدونهَ، أو مِن أجلِ لا شيءَ مِن عبادةٍ ومُجازاةٍ؟!

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ يؤيِّدُ الأوَّلَ، فإنَّ مَعناه: أم خَلَقوا أنفُسَهُم، ولذلك عقَّبَه بقولِه: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

و(أم) في هذه الآياتِ مُنقَطِعَةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ إذا سُئِلُوا: مَن خلقَكُم ومَن خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قالوا: الله؛ إذ لو أيقَنُوا ذلك لَما أعرَضُوا عَن عِبادَتِه.

(٣٧) ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ خزائنُ رزقِه حتى يَرْزُقوا النبوَّةَ مَن شاؤُوا، أو خزائِنُ علمِه حتَّى يختاروا لها مَن اختارَتْه حِكمتُه.

﴿أَمْ هُمُ المسَيطِرون﴾ الغالبونَ على الأشياءِ يُدَبِّرُونَه كيفَ شَاؤوا.

وقرأ قنبلٌ وحفصٌ بخلاف عنه وهشامُ بالسِّين، وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصَّادِ والزَّاي، والباقون بالصَّاد خالصة[٢].

---

(١) المثبت من نسخة الطبلاوي، وفي باقي النسخ: «عَدُّوا»، وذكر الشهاب الخفاجي الخلاف بين النسخ، ورجح ما أثبتناه، ومعنى: «تحدوا»: أي وقع معهم التحدي، والأمر بالمعارضة فلم عجزوا عنها.

ومعنى «عدوا»: فعل معلوم أو مجهول من العدد، والمراد بالمعدودين الشاعر، والكاهن، والمجنون الذين شوهد من حالهم ما يقتضي خلاف مدّعاهم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) «وقرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي والباقون بالصاد خالصة» من نسخة التفتازاني وهامش نسخة الطبلاوي. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٨).

(٣٨) ـ ﴿ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ ﴾ مُرتقًى إلى السَّماءِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدينَ فيه إلى كلامِ الملائكةِ وما يُوحى إليهِمْ مِن علمِ الغَيبِ حتَّى يَعلَمُوا ما هو كائِنٌ.

﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ بحُجَّةٍ واضِحَةٍ تُصدِّقُ استِماعَه.

(٣٩) ـ ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ فيه تَسفيهٌ لهم وإشعارٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يُعَدُّ مِن العُقَلاءِ فضلًا أن يترقَّى برُوحِه إلى عالمِ الملكوتِ فيتطلَّعُ على الغيوبِ.

(٤٠) ـ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ على تبليغِ الرِّسالةِ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ﴾ مِن التزامِ غُرْمٍ ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ محمَّلونَ الثِّقلَ فلذلك زَهِدُوا في اتِّباعِكَ.

(٤١) ـ ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ ﴾ اللَّوحُ المَحفوظُ المُثبَتُ فيه المُغيَّباتُ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ مِنه.

(٤٢) ـ ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ ﴾ وهو كيدُهُم في دارِ النَّدوةِ برَسُولِ الله ﷺ.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتملُ العُمومَ والخُصوصَ، فيكونُ وَضعُه مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّسجيلِ على كُفرِهم والدَّلالةِ على أنَّه الموجِبُ للحُكمِ المَذكورِ.

﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يَحيقُ بهم الكيدُ أو يعودُ عليهم وَبالُ كَيدِهِم، وهو قَتلُهُم يومَ بدرٍ، أو المغلوبونَ في الكيدِ، مِن كايَدْتُه فكِدْتُه.

(٤٣) ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ يُعينُهُم ويَحرُسُهم مِن عَذابِه.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عَن إشراكِهِم أو شِركةِ ما يُشركونه به.

(٤٤) ـ ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا ﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ﴾ مِن فرطِ طُغيانِهم وعِنادِهم: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ هذا سحابٌ تراكَمَ بعضُها على بعضٍ، وهو جوابُ قَولِهم: ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(٤٥) ـ ﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ وهو عندَ النَّفخةِ الأولى.

وقُـرِئَ: ﴿يَلْقَـوْا﴾[١]، وقـرأَ ابـنُ عامـرٍ وعاصِـمٌ: ﴿يُصْعَقُونَ﴾[٢] علـى المبنيِّ للمفعـولِ مِـن صَعَقَـهُ أو أَصْعَقَه.

(٤٦) ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: شيئًا من الإغناءِ في ردِّ العذابِ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعونَ مِن عذابِ اللهِ.

(٤٧) ـ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتَمِلُ العُمومَ والخُصوصَ ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دونَ عَذابِ الآخرةِ، وهو عذابُ القبرِ أو المؤاخذةُ في الدُّنيا، كقتلٍ ببدرٍ والقَحطِ سبعَ سنينَ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بإمْهالِهم وإبقائِكَ في عَنائِهِم.

(٤٨) ـ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظِنا بحيثُ نراكَ ونكلؤُكَ.

وجمعُ العينِ لجَمعِ الضَّميرِ والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مِن أيِّ مكانٍ قمتَ، أو مِن مَنامِكَ، أو إلى الصَّلاةِ.

(٤٩) ـ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإنَّ العبادةَ فيه أشَقُّ على النَّفسِ وأبعَدُ عن الرِّياءِ، ولذلك أفردَهُ بالذِّكرِ وقدَّمَه على الفعلِ.

﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبَرَت النُّجومُ مِن آخرِ الليلِ.

وقُرِئَ بالفتحِ[٣]؛ أي: في أَعقابِها إذا غربَتْ أو خَفِيَتْ.

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ الطُّورِ كانَ حَقًّا على اللهِ أَنْ يؤَمِّنَهُ مِن عذابِه وأن يُنَعِّمَهُ في جنَّتِه»[٤].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٨٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٧) عن الأعمش.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٨)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٨٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠١٢).

(٥٢) سورة الطور مكية وآياتها تسع وأربعون

عن جبير بن مطعم قال: « سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه »[١]. وروى البخاري، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة »، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه وأنه لا دافع له عنهم، والطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له جبل، ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: ﴿ في رق منشور * والبيت المعمور ﴾، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء: « ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[٢] يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، وهو كعبة أهل السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم. وقال ابن عباس: البيت المعمور هو بيت حذاء

---

(١) أخرجه الشيخان من طريق مالك.

(٢) هو جزء من حديث طويل في الإسراء أخرجه الشيخان.

العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف. وقال قتادة والسدي: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها،يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». وقوله تعالى: ﴿والسقف المرفوع﴾ عن علي قال: يعني السماء، ثم تلا: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي واختاره ابن جرير، وقال الربيع بن أنَس: هو العرش يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ قال الربيع بن أنَس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله ﴿المسجور﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله، ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف، وروي عن علي وابن عباس. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: ﴿والبحر المسجور﴾ يعني المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عزّ وجل»[1].

وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هذا هو القسم عليه أي لواقع بالكافرين، ﴿ماله من دافع﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم، إذا أراد الله بهم ذلك، قال الحافظ ابن أبي الدنيا: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿والطور - حتى بلغ - إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه[2]. وقوله تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ قال ابن عباس: تتحرك تحريكاً، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحّاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة، قال وأنشد أبو عبيدة بيت الأعشى فقال:

كأنَّ مِشيَتَها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عجل

﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً وتنسف نسفاً، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله، ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿يوم يُدَعُّون﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿إلى نار جهنم دَعّاً﴾، قال مجاهد والسدي: يدفعون فيها دفعاً ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً، ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته، ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، أي سواء

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا عن جعفر بن زيد العبدي.

صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله .

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً، وقوله تعالى: ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ قال ابن عباس: السرر في الحجال، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»[1]. وعن ثابت قال: «بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة، فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً»[2] ومعنى ﴿مصفوفة﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله: ﴿على سرر متقابلين﴾، ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حساناً من الحور العين، وقال مجاهد ﴿وزوجناهم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً عن ثابت البناني موقوفاً .

الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾، قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان. فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً، وروى الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾ الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[2]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

وقوله تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾، وقوله: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى، وقوله: ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر، قاله الضحاك: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي هذيان، ولا إثم، أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون؛ وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ وقال: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾. وقال ههنا: ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾. وقوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾. وقوله تعالى: ﴿وأقبل

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً ورواه البزار عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال ابن كثير: اسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم، ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ إنه هو البر الرحيم﴾، عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هـذا حتى يحاذي سرير هـذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا »[1]. وعن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية: ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾، فقالت: اللهم منّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم: قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[2].

* فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾، أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿ ولا مجنون﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾؟ أي قوارع الدهر، والمنون الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه. قال الله تعالى: ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا، فإني منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء (زهير) و (النابغة) إنما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أم قوم طاغون﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك، وقوله تعالى: ﴿ أم هم يقولون تقوله﴾ اي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، قال تعالى: ﴿ بل لا يؤمنون﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة: ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم، تقوله وافتراه: فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هـذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض، من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بسورة من مثله.

---

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنَس وقال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ
﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون﴾؟ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، روى البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المصيطرون﴾؟ كاد قلبي أن يطير[1]. ثم قال تعالى: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون﴾؟ أي أهم خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾؟ أي أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أم هم المصيطرون﴾ أي المحاسبون للخلائق، بل الله عزّ وجلّ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله تعالى: ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾؟ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة، على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟! وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أم تسألهم أجراً﴾؟ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أم يريدون كيداً * فالذين كفروا هم المكيدون﴾، يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول، وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون، ويشركون، فقال: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ

(١) الحديث من رواية الشيخين، وجبير بن مطعم قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسرى وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي عليهم يعذبون بـه لـما صدقوا ولـما أيقنوا ، بل يقولون هذا ﴿ سحاب مركوم﴾ أي متراكم، وهذا كقوله: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾، وقال الله تعالى ﴿ فذرهم﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الـذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿ ولا هم ينصرون﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا كقوله تعالى: ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا عليه فيه، عادوا إلى أسوأ مما كانوا كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفي، مثله في ذلك كمثل البعير لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وقوله تعالى: ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من النـاس، وقوله تعالى﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك[1]، وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول: هذا ابتداء الصلاة، وقال أبو الجوزاء: ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - أستجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته»[2] . وقال مجاهد: ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال من كل مجلس، وقال الثوري ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك، وهذا القول كفارة المجالس، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»[3] . وقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فسبحه﴾ أي أذكره وأعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإدبار النجوم﴾ قـد تقدم عن ابن عباس: أنهما الركعتان اللتان

---

(١) قاله الضحّاك وعبد الرحمن بن أسلم .

(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري وأهل السنن .

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة، لحديث : « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل ، يعني ركعتي الفجر »[1] . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، وفي لفظ لمسلم : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

[آخر تفسير سورة الطور ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً .

تفسير سورة الطور

وهى مكية.

قال مالك، عن الزهرى، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه.

أخرجاه من طريق مالك [(١)] وقال البخارى:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَل، عن عُرْوَة، عن زينب بنت أبى سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور [(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة ـ: «ثم رفع بى [(٣)] إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٣) وصحيح مسلم (١٢٧٦).
(٣) فى م: «لى».

يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « فى السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفى السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا [١] فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة».

هذا حديث غريب جدا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشى الأموى مولاهم أبو سعد الدمشقى، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجانى، والعقيلى، والحاكم أبوعبد الله النيسابورى، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبى هريرة، ولا سعيد، ولا الزهرى[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السَّرِىّ، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد ابن [٣] عرعرة؛ أن رجلا قال لعلى: ما البيت المعمور؟ قال: بيت فى السماء يقال له: «الضُّراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا[٤] يعودون فيه أبدا[٥].

وكذا رواه شعبة وسفيان الثورى، عن سِمَاك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن عاصم، عن على بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور، قال: مسجد فى السماء يقال له: «الضُّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدا. ورواه من حديث أبى الطُّفَيْل، عن على بمثله.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون

(١) فى م: «فيصلون».

(٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٤٤) من طريق هشام بن عمار به، وقال: «سمعت ابن حماد يقول: قال السعدى: روح بن جناح ذكر عن الزهرى حديثاً معضلا فى البيت المعمور» ثم ساقه بإسناده وتعقبه بقوله: «ولا يعرف هذا الحديث إلا بروح بن جناح عن الزهرى».

(٣) فى م: «عن».

(٤) فى م: «ثم لا».

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠).

ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد فى السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الحِن[1]، من قبيلة إبليس[2]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل [الله][3] منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير[4] نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد ابن المسيب، عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير[5]، وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبى حاتم.

وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿[وَالْبَحْرِ][6] الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء.

وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعى، عن أبى عمرو بن العلاء، عن ذى الرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. رواه ابن مردويه فى مسانيد الشعراء.

---

(١) فى م، أ: «الجن».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١).
(٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م: «فصيرت».
(٥) فى م: «وعبيد الله بن عمير».
(٦) زيادة من م.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا [١] يغمرها فيغرق أهلها. قاله [٢] على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره، وعليه يدل الحديث الذى رواه الإمام أحمد، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا [٣] العوام، حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ [٤] عليهم، فيكفه الله عز وجل» [٥].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن العوام بن حوشب، حدثنى شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسى [٦] لم يخرج أحد من الحرس غيرى، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيل إلىَّ أن البحر يشرف يحاذى رؤوس الجبال، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». فيه رجل مبهم لم يسم [٧].

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: الواقع [٨] بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المرى، عن جعفر بن [٩] زيد العبدى قال: خرج عمر يَعسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق. فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضى الله عنه [١٠].

وقال الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. [مَا لَهُ مِن دَافِعٍ] [١١]﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما [١٢].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها فى

---

(١) فى م: «لا». (٢) فى م: «وقال». (٣) فى م: «بن». (٤) فى م: «ينفضح».
(٥) المسند (١/ ٤٣) ورواه من طريق ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٥٢) وقال: «العوام ضعيف، والشيخ مجهول».
(٦) فى م: «لمحرثى».
(٧) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٨) من رواية الإسماعيلى، وقال: «فيه رجل مبهم لم يسم، والله أعلم بحاله».
(٨) فى م: «واقع». (٩) فى أ: «عن».
(١٠) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٧) من رواية ابن أبى الدنيا وفى إسناده صالح المرى، ووقع فى مسند عمر «المدنى» فإن كان المرى فهو ضعيف. (١١) زيادة من م.
(١٢) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٦٤).

بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك[1] فى استدارة. قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كأن مشْيَتَها من بيتِ جَارتها مَورُ السحابة، لا رَيْثٌ ولا عجل[2]

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: وقال مجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدى، والثورى: يدفعون فيها دفعا ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها[3]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾.

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال الثورى، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر فى الحجال.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن

---

(١) فى م، أ: «المتحرك».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣).

(٣) فى أ: «فيها».

مالك الطائى يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»(١).

وحدثنا أبى، حدثنا هُدْبَة بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ فى الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا.

ومعنى ﴿ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين.

وقال مجاهد: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوى بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

قال الثورى، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى، به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مُرَّة به(٢). ورواه البزار، عن سهل بن بحر(٣)، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعا، فذكره، ثم قال: وقد رواه

---

(١) وإسناده منقطع .الهيثم بن مالك لم يدرك النبى ﷺ.
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٥).
(٣) فى أ: «يحيى».

الثورى، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفا[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد[(٢)] البيروتى، أخبرنى محمد بن شعيب[(٣)] أخبرنى شيبان، أخبرنى ليث، عن حبيب بن أبى ثابت الأسدى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله، عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوا شيئا.

وقال الحافظ الطبرانى: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ أظنه عن النبى ﷺ ـ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية[(٤)].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتى، أحلقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم.

وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا حمد بن فُضَيْل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن على قال: سألتْ خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾[الآية][(٥)] [(٦)].

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٠) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٤): «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثورى، وفيه ضعف».

(٢) فى م، أ: «يزيد». (٣) فى م: «شعبة».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٠) حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ورواه فى المعجم الصغير برقم (٦٤٠) حدثنا عبد الله بن يزيد الدقيقى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ولم أجد رواية الحسين بن إبراهيم التسترى.

(٥) زيادة من م.

(٦) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٧): «فيه محمد بن عثمان ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح».

قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[(١)].

إسناده[(٢)] صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(٣)].

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤١].

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك.

﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أى: لا يتكلمون عنها[(٤)] بكلام لاغ، أى: هَذَيَان، ولا إثم، أى: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا.

وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب.

وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان.

فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (٢/٥٠٩).

(٢) فى م: «إسناد».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) فى م: «فيها».

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهائهم[1] ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب [الله] [2]لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وقد ورد فى هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان فى الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدرى أى يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا، فدعونا الله ـ عز وجل ـ فغفر لنا».

ثم قال البزار: لا نعرفه يُرْوَى إلا بهذا الإسناد[3].

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقى قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة فى نفسه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدىّ، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن أبى الضحَى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: فى الصلاة؟ قال: نعم[4].

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) فى م: «وبياضهم». (٢) زيادة من أ.

(٣) مسند البزار برقم (٣٥٥٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٢١): «رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا».

(٤) ورواه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى فى شعيب الإيمان كما فى الدر المنثور للسيوطى (٧/ ٦٣٤).

يقول[١] تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله[٢] الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتيه الرَّئِى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿**وَلَا مَجْنُونٍ**﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم فى قولهم فى الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة فى الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشا لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبى ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه[٣] فى وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله فى ذلك من قولهم: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾[٤].

ثم قال تعالى: ﴿ **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا**﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿ **أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ**﴾ أى: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿**بَل لَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ أى: كفرهم هو الذى يحملهم[٥] على هذه المقالة. ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾ أى: إن كانوا صادقين فى قولهم: «تَقَوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد [ﷺ][٦] من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور [من][٧] مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ**

(١) فى م: «قال». (٢) فى م: «يقوله». (٣) فى أ: «احبسوه».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٧/١٩) من طريق ابن إسحاق به.
(٥) فى م: «حملهم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من م.

الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ .

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ أى: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أى: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا.

قال البخارى: حدثنا الحُمَيدىّ، حدثنا سفيان قال: حدثونى عن الزهرى، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ كاد قلبى أن يطير[١].

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به[٢]. وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿**أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ**﴾ أى: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿ **أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ أى: أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن، ﴿**أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ أى: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: ﴿**أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ**﴾ أى: مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿ **فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شىء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا،واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿**أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ**﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا**﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿ **فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ**﴾ أى: فهم[٣] من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿**أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿ **أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ**﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٦٥)، (٤٠٢٣) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٣) فى م، أ: «فإنهم».

هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما [١] أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أى: دعهم ـ يا محمد ـ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون[٢]، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ[٣] ما كانوا عليه، كما جاء فى بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفى مثله فى ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه»[٤]. وفى الأثر الإلهى: كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ قال الله: يا عبدى، كم أعافيك[٥] وأنت لا تدرى؟

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم

---

(١) فى م: «ولا». (٢) فى أ: «ينسون». (٣) فى أ: «أشر».

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٠٨٩) من حديث عامر الرام رضى الله عنه.

(٥) فى م، أ: «أعاقبك».

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة[١]. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك[٢].

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد:

حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى عُمَير[٣] بن هانئ، حدثنى جنادة بن أبى أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته».

وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به[٤].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقى، حدثنا محمد ابن شعيب، أخبرنى طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق فى جامعه: أخبرنا مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَرى، عن أبى عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال مَعْمَر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس[٥].

وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق ـ يقوى بعضها بعضا ـ بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْل بن[٦] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٢) المسند (٣/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢) وسنن النسائى (٢/ ١٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٣) فى أ: «عمر».

(٤) المسند (٥/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (١١٥٤) وسنن أبى داود برقم (٥٠٦٠) وسنن الترمذى برقم (٣٤١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٨).

(٥) المصنف برقم (١٩٧٩٦).

(٦) فى م: «عن».

«من جلس فى مجلس فكثر[١] فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر[٢] له ما كان فى مجلسه ذلك».

رواه الترمذى ـ وهذا لفظه ـ والنسائى فى اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخارى علله[٣].

قلت: علله الإمام أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرْعة، والدارقطنى، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْج. على أن أبا داود قد رواه فى سننه من طريق غير[٤] ابن جريج إلى أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ بنحوه[٥]. ورواه أبو داود ـ واللفظ له ـ والنسائى، والحاكم فى المستدرك، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم[٦]، عن أبى العالية، عن أبى بَرْزَة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»[٧].

وقد روى مرسلا عن أبى العالية، والله[٨] أعلم. وهكذا رواه النسائى والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن رافع بن خَدِيج، عن النبى ﷺ مثله سواء[٩]. وروى مرسلا أيضا، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتلكم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[١٠]، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم[١١]. ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة[١٢].

وقوله: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) فى : «فأكثر». (٢) فى م، أ: «إلا غفر الله له».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٣٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) والمستدرك (١/ ٥٣٦).
(٤) فى أ: «عن».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٨).
(٦) فى أ: «عن أبى هاشم».
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩) والمستدرك (١/ ٥٣٧).
(٨) فى م: «فالله».
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠) والمستدرك (١/ ٥٣٧).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٧).
(١١) المستدرك (١/ ٥٣٧).
(١٢) وقد ذكرت أحاديث كفارة المجلس عند تفسير الصافات فى خاتمتها.

وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر،فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى: عند جنوحها للغيبوبة. وقد روى[١] [فى حديث][٢] ابن سيلان،عن أبى هريرة مرفوعا: «لا تَدَعُوهما، وإن طردتكم الخيل». يعنى: ركعتى الفجر[٣]، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات فى اليوم والليلة». قال: هل على غيرها[٤]؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[٥]. وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر[٦]. وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[٧].

آخر تفسير سورة الطور [والله أعلم][٨]

---

(١) فى م،أ: «ورد». (٢) زيادة من م،أ.

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٢٥٨). (٤) فى أ: «غيرهن».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦) ومسلم فى صحيحه برقم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.

(٦) صحيح البخارى برقم (١١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٢٤).

(٧) صحيح مسلم برقم (٧٢٥).

(٨) زيادة من أ.

سورة الطور

مكّيّة، وهي تسع[1] أو[2] ثمان وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ① وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ② فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ③ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ④ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ⑤ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ⑧ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ⑨ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ⑩﴾

﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطور بالسُّريانيّة: الجبل، والمراد به طور سِينين، وهو جبل بمَدين[3] سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله عزّ وعلا.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإنّ السَّطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن، أو ألواح موسى عليه السلام، وهو الأنسَب بالطور، أو ما يُكتَب في اللوح أو ما يكتبه الحَفَظة.

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرَّقّ: الجِلد الذي يُكتب فيه، استُعير لِما يُكتب فيه الكتاب مِن الصحيفة، وتنكيرُهما للتفخيم، أو للإشعار بأنّهما ليسا ممّا يتعارفه الناس.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ أي: الكعبة وعِمارتها بالحُجّاج والعمّار والمُجاوِرين، أو الضُّراح وهو في السماء الرابعة، وعمرانه كثرةُ غاشيته مِن الملائكة.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي: السماء، ولا يخفى حُسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: المملوء، / وهو البحر المحيط أو المُوقَد، مِن قوله [١٣٣و]
تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير، ٦/٨١]، فالمراد به الجنس. رُوي أنّ الله تعالى

---

[1] س + وأربعون.

[2] س: وقيل.

[3] مَدْيَن: على بحر القلزم [البحر الأحمر] محاذية لتبوك، وهي اسم القبيلة، وهي مدينة قوم شُعيب عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٧٧/٥.

يجعل البحار يوم القيامة نارًا يُسجَر بها نار جهنّم.[١]

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لنازل حتمًا، جواب للقسم.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو صفة ﴿لَوَاقِعٌ﴾، و﴿مِن دَافِعٍ﴾ إمّا مبتدأ للظرف أو مرتفعٌ منه على الفاعليّة، و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لِما أنّها أمور عظام تنبئ عن عِظَم قدرة الله تعالى وكمالِ عِلمه وحكمته الدالّة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها الشاهدةِ بصدق أخباره التي مِن جملتها الجملة المقسَم عليها.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ظرفُ ﴿لَوَاقِعٌ﴾ مبيِّن لكيفيّة الوقوع مُنبئٌ عن كمال هَوله وفظاعته. والمَوْر: الاضطراب والتردّد في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرُّك في تموُّج.[٢] قيل: تدور السماء كما تدور الرَّحى وتتكفّأ بأهلها تَكَفُّؤَ السفينة، وقيل: تختلف أجزاؤها.[٣]

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً، وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: مَوْرًا عجيبًا وسَيرًا بديعًا لا يُدرَك كنههما.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا وقع ذلك، أو إذا كان الأمر كما ذُكر، فويلٌ يومَ إذ يقع ذلك لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ أي: اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهُون.

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٦/٧، والكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٣] القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/١٨.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يُدفعون إليها دفعًا عنيفًا شديدًا بأن يُغلّ أيديهم إلى أعناقهم ويُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم فيُدفَعوا إلى النار. وقُرئ: "يُدْعَوْنَ"[1] من الدُّعاء، فيكون ﴿دَعًّا﴾ حالًا بمعنى مدعوعين. و﴿يَوْمَ﴾ إمّا بدل من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾، أو ظرف لقول مقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، ومعنى التكذيب بها تكذيبُهم بالوحي الناطق بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ توبيخ وتقريع لهم، حيث كانوا يسمُّونه سِحرًا، كأنّه قيل: كنتُم تقولون للقرآن الناطق بهذا: "سِحرٌ"، فهذا أيضًا سِحرٌ. وتقديم الخبر لأنّه محطّ الإنكار ومدارُ التوبيخ. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عُميٌ عن المخبَر عنه / كما كنتم عُميًا عن الخبر، أو أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا على زعمكم، حيث كنتم تقولون ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر، ١٥/١٥]. [١٣٣ظ]

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ أي: ادخلوها وقاسُوا شدائدها فافعلوا ما شئتم مِن الصبر وعدمه. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمران في عدم النفع لا بدَفْع العذاب ولا بتخفيفه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء، فإنّ الجزاء حيث كان واجبَ الوقوع حتمًا كان الصبر وعدمُه سواءً في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي: في أيّة جنّاتٍ وأيّ نعيمٍ، على أنّ التنوين للتفخيم، أو في ﴿جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ مخصوصة بـ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على أنّه للتنويع. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذِّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وقُرئ: "فَكِهِينَ"،[2] و"فَاكِهُونَ"،[3] على أنّه الخبر، والظرف لغوٌ متعلِّق بالخبر أو خبرٌ آخرُ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٩.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو على خبر ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ بإضمار "قد" إمّا مِن المستكنّ في الخبر أو في الحال، وإمّا مِن فاعل ﴿ءَاتَىٰ﴾ أو مِن مفعوله أو منهما، وإظهارُ الربّ في موقع الإضمار مضافًا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم كلوا واشربوا أكلًا وشُربًا ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أو طعامًا وشرابًا هنيئًا وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بمقابلته، وقيل: الباء زائدة،[١] و﴿مَا﴾ فاعل ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾، أي: هَنَأكم ما كنتم تعملون، أي: جزاؤه.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفّة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾. وقُرئ: "بِحُورِ عِينٍ"[٢] على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور. وقُرئ: "بِعِيسٍ عِينٍ"،[٣] و"الباء" مع أنّ التزويج ممّا يتعدّى إلى مفعولين لِما فيه مِن معنى الوصل والإلصاق، أو للسببيّة؛ إذ المعنى صيّرناهم أزواجًا بسببهنّ، فإنّ الزوجيّة لا تتحقّق بدون انضمامهنّ إليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلى آخره، كلامٌ مستأنَف مَسوق لبيان حال طائفة مِن أهل الجنّة إثر بيان حال الكلّ وهم الذين شاركَتْهم ذرّيّتُهم في الإيمان، وهو مبتدأ خبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

[١٣٤و] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ / ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: اعتراض.[٤] وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّق بالاتّباع، أي: اتّبعتهم ذرّيّتُهم بإيمان في الجملة

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الصُّوفي والأديب والعنبري عن أبي بكر وعكرمة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والنخَعي. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٨.

٤ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

قاصرٍ عن رتبة إيمان الآباء. واعتبارُ هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقًا.

وقُرئ: "ذُرِّيَاتُهُمْ"[١] للمبالغة في الكثرة و"ذِرِّيَاتُهُمْ"[٢] بكسر "الذال". وقُرِئ: "وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِيَّاتِهِمْ"،[٣] أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقُرِئ: "أَتْبَعْتُهُمْ".[٤]

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: في الدرجة، كما رُوي أنّه عليه السلام قال: «إنّه تعالى يرفع ذُرِّيّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّ بهم عينه»،[٥] ثمّ تلا هذه الآيةَ.

﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم﴾ وما نقصنا الآباءَ بهذا الإلحاقِ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ مِن ثواب عملهم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بأن أعطينا بعضَ مثوباتهم أبناءهم، فينتقصَ مثوبتُهم وينحطَّ درجتهم، وإنّما رفعناهم إلى منزلتهم بمَحْض التفضّل والإحسان.

وقُرئ: "أَلِتْنَاهُمْ"[٦] بكسر "اللام" مِن "أَلِتَ يألَتُ" كـ"عَلِم يعلَم"، والأوّل كـ"ضَرَب يضرِب"، و"لِتْنَاهُمْ" مِن "لات يليت"، و"آلَتْنَاهُمْ"[٧] مِن "آلتَ يُولِتُ" و"وَلَتْنَاهُمْ"[٨] مِن "وَلَت يَلِت"، والكلُّ بمعنًى واحد.

هذا، وقد قيل: الموصول معطوف على ﴿حُورٍ﴾، والمعنى قرنّاهم بالحُور وبالذين آمنوا، أي: بالرُّفقاء والجُلساء منهم، فيتمتَّعون تارةً بملاعبة الحُور، وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين.[٩]

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿زَوَّجْنَـٰهُم﴾. وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ متعلِّق بما بعده، أي: بسبب إيمان عظيم رفيعِ المحلّ، وهو إيمان الآباء،

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٥ المستدرك للحاكم، ٥٠٩/٢ (٣٧٤٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٦ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤-٣١١.

ألحقنا بدرجاتهم ذرّيّتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلًا عليهم وعلى آبائهم ليتمّ سرورهم ويكمل نعيمهم، أو بسبب إيمانٍ داني المنزلة وهو إيمان الذُّرّية، كأنّه قيل: بشيء مِن الإيمان لا يؤهِّلهم لدرجة الآباء ألحقناهم[١] بهم.

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قيل: هو "فعيل" بمعنى "المفعول"، والمعنى: كلّ امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح،[٢] فإن عَمِله فكّه وإلّا أهلَكه. وقيل: بمعنى "الفاعل"، والمعنى: كلّ امرئ بما كسَب راهن، أي: دائم ثابت. وهذا أنسَب بالمقام، فإنّ الدوام يقتضي / عدم المفارقة بين المرء وعمله ومِن [١٣٤ظ] ضرورته ألّا ينقص مِن ثواب الآباء شيء، فالجملة تعليل لِما قبلها.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ وزدناهم على ما كان لهم مِن مبادي التنعّم وقتًا فوقتًا ما يشتهون مِن فنون النعماء وألوان الآلاء.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتعاطَون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق، كما ينبئ عنه التعبير عن ذلك بالتنازع. ﴿كَأۡسٗا﴾ أي: خمرًا تسميةً لها باسم محلّها ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أي: في شربها، حيث لا يتكلّمون في أثناء الشرب بلَغْو الحديث وسَقَط الكلام. ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ولا يفعلون ما يُؤثِّم به فاعله، أي: يُنسَب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف، كما هو ديدن المنادمين في الدنيا، وإنّما يتكلّمون بالحِكَم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام. وقُرئ: "لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ"[٣] بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: مماليكُ مخصوصون بهم، وقيل: هم أولادهم الذين سبقوهم.[٤] ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مَصون في الصَّدَف مِن بياضهم وصفائهم، أو مخزون؛ لأنّه لا يُخزَن إلّا الثمينُ الغاليْ القِيمةِ.

---

١ س: ألحقنا.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١١/٢.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣١/٣.

قيل: لقتادةَ: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».[١] وعنه عليه السلام: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً مَن يُنادي الخادمَ مِن خُدّامه فيُجيبه ألفٌ ببابه: لبّيكَ لبّيكَ».[٢]

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسأل كلّ بعض منهم بعضًا آخرَ عن أحواله وأعماله فيكون كلّ بعضٍ سائلًا ومسئولًا، لا أنّه يسأل بعض معيَّنٌ منهم بعضًا آخرَ معيَّنًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المسئولون، وهم كلّ واحد منهم في الحقيقة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقّاء القلوب خائفين مِن عصيان الله تعالى معتنين بطاعته أو وَجِلين مِن العاقبة.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحقّ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذاب النار النافذة في المسامّ / نفوذَ السموم. وقُرئ: "وَوَقَّانَا"[٣] بالتشديد. [١٣٥و]

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده، أو نسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسِن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبد أثاب وإذا سُئل أجاب. وقُرئ: "أَنَّهُ"[٤] بالفتح، بمعنى "لأنّه".

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت على ما أنت عليه مِن التذكير لِما أُنزل إليك مِن الآيات والذِّكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ممّا لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٨٩/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.
٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمده وإنعامه بصدق النبوّة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ كما يقولون قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ وهو ما يُقلِق النفوس ويشخص بها مِن حوادث الدهر، وقيل: ﴿ٱلۡمَنُونِ﴾: الموت، وهو في الأصل "فَعُول" مِن "مَنَّه" إذا قطعه؛ لأنّ الموت قَطُوع،[1] أي: بل أيقولون: ننتظر به نوائبَ الدهر؟

﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاككم كما تتربّصون هلاكي، وفيه عِدَة كريمة بإهلاكهم.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بهذا التناقض في المقال، فإنّ الكاهن يكون ذا فِطنة ودِقّة نظر في الأمور، والمجنون مغطّى عقلُه مختلٌّ فِكره، والشاعر ذو كلام موزون متّسقٍ مخيّل، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في واحد؟ وأمرُ الأحلام بذلك مجازٌ مِن أدائها إليه.

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ مُجاوِزون الحدودَ في المكابرة والعِناد، لا يحومون حول الرُّشد والسَّداد، ولذلك يقولون ما يقولون مِن الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون. وقُرِئ: "بَلْ هُمْ".[2]

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلقه مِن تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعِنادهم يرمون بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا، وما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا واحد مِن العرب، فكيف أتى بما عجز عنه كافّة الأمم مِن العرب والعجم؟

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ مِثلِ القرآن في النعوت التي استقلّ بها مِن حيث النظمُ / ومِن حيث المعنى ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإنّ صدقهم في ذلك [١٣٥ظ]

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

يستدعي قدرتَهم على الإتيان بمِثله بقضيّة مشاركتهم له عليه السلام في البشريّة والعربيّة، مع ما بهم مِن طول الممارسة للخُطَب والأشعار وكثرةِ المزاولة لأساليب النظمِ والنثرِ والمبالغة في حفظ الوقائع والأيّام، ولا ريبَ في أنّ القدرة على الشيء مِن موجِبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: أم أُحدِثوا وقُدِّروا هذا التقديرَ البديع مِن غير مُحدِث ومقدِّر؟ وقيل: أم خُلِقوا مِن أجل لا شيءَ مِن عبادة وجزاء. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سُئلوا: مَن خلقكم وخَلَق السماواتِ والأرضَ؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بما قالوا، وإلّا لَما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: خزائن رزقه ورحمته حتّى يرزُقوا النبوّة مَن شاءوا ويُمسِكوها عمّن شاءوا، أو عندهم خزائنُ عِلمه وحكمته حتّى يختاروا لها مَن اقتضت الحكمة اختيارَه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: الغالبون على الأمور يدبّرونها كيفما شاءوا حتّى يدبّروا أمر الربوبيّة ويبنوا الأمورَ على إرادتهم ومشيئتهم. وقُرئ: "المُصَيْطِرُونَ"[1] بـ"الصاد" لمكان "الطاء".

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين إلى كلام الملائكة وما يُوحى إليهم مِن عِلم الغيب حتّى يعلموا ما هو كائن مِن الأمور التي يتقوّلون فيها رَجْمًا بالغيب، ويُعلِّقون بها أطماعهم الفارغة. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تُصدِّق استماعَه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف والبزي وهشام وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٨-٣٧٩.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ / تسفيةٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم وإيذانٌ بأنّ مَن هذا رأيه لا يكاد يُعدّ مِن العقلاء فضلًا عن الترقّي إلى عالم الملكوت والتطلّع على الأسرار الغيبيّة. والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد ما في ﴿أَمْ﴾ المنقطعة مِن الإنكار والتوبيخ. [١٣٦و]

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه عليه السلام وإعراضٌ عنهم، أي: بل أتسألهم أجرًا على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مِن التزام غرامة فادحة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مُحمَّلون الثِّقَل فلذلك لا يتّبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ المُثبَت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يتكلّموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دار الندوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم المذكورون. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وتعليلِ الحُكم به أو جميعِ الكفَرة، وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم الذين يحيق بهم كيدُهم أو يعود عليهم وباله لا مَن أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر، أو هم المغلوبون في الكيد مِن "كايَدتُه فكِدتُه".

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يُعينهم ويحرسهم مِن عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، أو عن شركة ما يُشركونه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ مِن فرط طغيانهم وعِنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: هم في الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم

حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧] لقالوا: "هذا سحابٌ تراكمَ بعضُها على بعض يُمطِرنا"، ولم يصدِّقوا أنّه كِسْف ساقط للعذاب.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ وقُرئ: "حَتّى يَلْقَوا"[1] ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول مِن "صَعَقَتْه الصاعقة" أو مِن "أصعَقَتْه". وقُرئ: "يَصْعَقُونَ"[2] بفتح "الياء" و"العين"، وهو يوم يُصيبهم الصعقةُ / بالقتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل؛[3] إذ لا يُصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا حينئذ. [١٣٦ظ]

ولأنّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء بدل مِن ﴿يَوْمَهُمُ﴾. ولا يخفى أنّ التعرّض لبيان عدم نفعِ كيدهم يستدعي استعمالهم له طمعًا في الانتفاع به، وليس ذلك إلّا ما دبّروه في أمره صلّى الله عليه وسلّم مِن الكيد الذي مِن جملته مُناصبتهم يومَ بدر، وأمّا النفخة الأولى فليست ممّا يجري في مدافعته الكيدُ والحِيَلُ. وقيل: هو يوم موتهم.[4] وفيه ما فيه مع ما يأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الغير في دَفْع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لهم، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير لِما ذُكر مِن قبل، أي: وإنّ لهؤلاء الظلَمة ﴿عَذَابًا﴾ آخرَ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقَوه مِن القتل، أي: قبله، وهو القحط الذي أصابهم سبعَ سنين، أو وراءه كما في قوله:

تُريكَ القَذى مِن دونها وهو دونها[5]

وهو عذاب القبر وما بعده مِن فنون عذاب الآخرة. وقُرئ: "دُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا".[6]

---

[1] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢، ٣٧٩.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة أبو جعفر يعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

[4] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.

[5] وفي هامش م: استشهاد لكلا المعنيين. «منه». | والشعر للأعشى في ديوانه، ص ٢١٩، وتمامه:

إذا ذاقها مَن ذاقها يتمطّقُ

وهو له في معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «مطق»؛ والكشّاف للزمخشري، ٨٢/١ (البقرة، ٢٣/٢)؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «مطق». وفيها جميعًا «وهو دونه» مكان «وهو دونها».

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كما ذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنّ فيهم مَن يعلم ذلك، وإنّما يُصرّ على الكفر عِنادًا، أو لا يعلمون شيئًا أصلًا.

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مُقاساة الأحزان ومُعاناة الهموم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكْلَؤك، وجُمع "العين" لجمع الضمير والإيذانِ بغاية الاعتناء بالحفظ.

﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: نزّهه تعالى عمّا لا يليق به ملتبِسًا ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الفائتة للحصر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِن أيّ مكان قمتَ. قال سعيد بن جُبير وعطاء، أي: قل حين تقوم مِن مجلسك: «سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك»،[1] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معناه صلِّ لله حين تقوم مِن مقامك»،[2] وقال الضحّاك والربيع: «إذا قمتَ إلى الصلاة / فقل: سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدّك ولا إلهَ غيرُك».[3] [١٣٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لِما أنّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرِّياء كما يلوّح به تقديمُه على الفعل. ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وقتَ إدبارها مِن آخر الليل، أي: غيبتها بضوء الصباح. وقيل: التسبيح مِن الليل: صلاةُ العشاءين، وإدبارُ النجوم: صلاةُ الفجر. وقرئ: "أَدْبَارَ النُّجُومِ"[4] بالفتح، أي: في أعقابها إذا غربتْ أو خفيتْ.

عن النبيّ عليه السلام: «مَن قرأ سورة الطور كان حقًّا على الله تعالى أن يؤمِنه مِن عذابه وأن ينعِّمه في جنّته».[5]

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.
٢ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.
٣ جامع البيان للطبري، ٦٠٦/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وزيد عن يعقوب وسالم بن أبي الجعد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٧٢١.
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٥ (الطور، ١/٥٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٨٣/٤ (الطور، ١/٥٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٢

سُورَةُ الطُّورِ

مكية، تسعٌ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والطُّورِ﴾ أي: الجبل الذي كلّم الله عليه مُوسَى، ٢ ـ ٣ ـ ﴿وكِتابٍ مَسطُورٍ في رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ أي: التوراةِ أو القُرآن، ٤ ـ ﴿والبَيتِ المَعمُورِ﴾ ـ هو في السماء الثالثة أو السادسة أو السابعة بحِيال الكعبة، يزوره كُلَّ يوم سبعون ألفَ ملَكٍ بالطواف والصلاة، لا يعودون إليه أبدًا ـ ....

سُورَةُ الطُّورِ

قولُهُ: (الجَبَلِ) أي: طورِ سينينَ، وهو جبلٌ بمدينَ.

قولُهُ: (عَلَيهِ مُوسَى) الأولى: موسى عليهِ السَّلامُ، أو ما طارَ مِنْ أوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو مِن عالمِ الغيبِ إلى عالمِ الشَّهادةِ[١].

قولُهُ: (أوِ القُرآنِ) الأولى: تقديمُ القرآنِ، أو ما كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ، أو ما يكتبُهُ الحفظَةُ، والرَّقُّ: الجلدُ الَّذي يُكتَبُ فيه، استُعيرَ لما كتبَ فيه الكتابُ، وتنكيرُهُما للتَّعظيمِ، والمسطورُ: المكتوبُ، والسَّطرُ: ترتيبُ الحروفِ المكتوبةِ.

قولُهُ: (الثَّالِثَةِ) أو الرَّابعةِ، واقتصرَ عليه البيضاويُّ[٢].

قولُهُ: (أوِ السَّابِعَةِ) اقتصرَ عليهِ البغويُّ[٣]، أو المرادُ به: الكعبةُ وعمارَتُها بالحجَّاجِ والمجاورينَ، أو قلبُ المؤمنِ وعمارتُهُ بالمعرفةِ والإخلاصِ.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٢٨٩).

٥ ـ ﴿والسَّقفِ المَرفُوعِ﴾ أي: السماء، ٦ ـ ﴿والبَحرِ المَسجُورِ﴾ أي: المملوء، ٧ ـ ﴿إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ﴾: لنازلٌ بمستحقّه ٨ ـ ﴿مالَهُ مِن دافِعٍ﴾ عنه ٩ ـ ﴿يَومَ﴾: معمول لـ «واقع» ﴿تَمُورُ السَّماءُ مَورًا﴾ تتحرّك وتدور، ١٠ ـ ﴿وتَسِيرُ الجِبالُ سَيرًا﴾ تصير هباء منثورًا. وذلك في يوم القيامة.

١١ ـ ﴿فوَيلٌ﴾: شِدّةُ عذاب ﴿يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾ الرسلَ، ١٢ ـ ﴿الَّذِينَ هُم في خَوضٍ﴾: باطل ﴿يَلعَبُونَ﴾ أي: يتشاغلون بكفرهم، ١٣ ـ ﴿يَومَ يُدَعُّونَ إلَى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: يُدفعون بعُنف ـ بدلٌ من «تمور» ـ ويقال لهم تبكيتًا: ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ﴿هذِهِ النّارُ الَّتِي كُنتُم بِها تُكَذِّبُونَ. أفَسِحرٌ هذا﴾ العذابُ الذي تَرَون كما كنتم تقولون في الوحي: «هذا سِحرٌ»؟ ﴿أم أنتُم لا تُبصِرُونَ؟ اصلَوها، فاصبِرُوا﴾ عليها ﴿أو لا تَصبِرُوا﴾. صبرُكم وجزَعُكم ﴿سَواءٌ عَلَيكُم﴾ لأنّ صبركم لا ينفعكم. ﴿إنَّما تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه.

١٧ ـ ١٨ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ ونَعِيمٍ، فاكِهِينَ﴾: مُتلذّذِينَ ﴿بِما﴾: مصدريّةٌ ﴿آتاهُم﴾: أعطاهم ﴿رَبُّهُم، ووَقاهُم رَبُّهُم عَذابَ الجَحِيمِ﴾ ـ عطفٌ على «آتاهم» ـ أي: بإيتائهم ووقايتهم، ويقال لهم: ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا﴾: حالٌ أي: مُتهنِّئين ﴿بِما﴾ ـ الباء: سببيّة ـ..........

قولُهُ: (أي: المَملُوءِ) وهو المحيطُ.

قولُهُ: (عَنهُ) أي: يدفعُهُ عنه.

قولُهُ: (تَتَحَرَّكُ) تموَّجُ، وقيل: تضطربُ، والمورُ: تردُّدٌ في المجيءِ والذَّهابِ.

قولُهُ: (تَصِيرُ) أي: تسيرُ عن وجهِ الأرضِ فتصيرُ هباءً.

قولُهُ: (شِدَّةُ عَذابٍ) أي: إذا وقعَ ذلك فوَيلٌ لهم.

قولُهُ: (باطِلٍ) الأظهرُ: في الخوضِ في الباطِلِ.

قولُهُ: (العَذابُ) أي: كنتُم تقولونَ للوحيِ: هذا سحرٌ أفهذا المصداقُ أيضاً سحرٌ؟ وتقديمُ الخبرِ؛ لأنَّهُ المقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ، وقولُهُ تعالى: (﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾) هذا أيضاً كما كنتُم لا تبصِرونَ في الدُّنيا ما يدلُّ عليهِ، وهو تقريعٌ وتهكُّمٌ.

قولُهُ: (صَبرُكُم وجَزَعُكُم) يعني: الأمرانِ الصَّبرُ وعدمُهُ سيَّان.

قولُهُ: (حَالٌ) أي[1]: أكلاً وشرباً هنيئًا، أو طعاماً وشراباً هنيئاً، وهو الَّذي لا تنغيصَ ولا تكديرَ فيه.

قولُهُ: (سببِيَّةٌ) أو بدلُهُ.

---

(١) في (م): «أو».

﴿كُنتُم تَعمَلُونَ، مُتَّكِئِينَ﴾: حالٌ من الضمير المُستكنّ في قوله «في جَنّات»، ﴿عَلَى سُرُرٍ مَصفُوفَةٍ﴾: بعضُها إلى جنب بعض، ﴿وزَوَّجْناهُم﴾: عطفٌ على «في جَنّات» أي: قرنّاهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: عِظامِ الأعيُن حِسانِها.

٢١ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾: مبتدأٌ ﴿وأتبَعْناهُم﴾: معطوف على «آمنوا» ﴿ذُرِّيّاتِهِم﴾ الصغارَ والكبار ﴿بِإيمانٍ﴾ من الكبار ومن الآباء في الصغار، والخبرُ: ﴿ألحَقْنا بِهِم ذُرِّيّاتِهِم﴾ المذكورين في الجنّة، فيكونون في درجتهم، وإن لم يعملوا بعملهم تكرمةً للآباء باجتماع الأولاد إليهم، ﴿وما ألَتْناهُم﴾، بفتح اللام وكسرها: نَقَصناهم ﴿مِن عَمَلِهِم مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ﴾ يُزاد في عمل الأولاد ـ ﴿كُلُّ امرِئٍ بِما كَسَبَ﴾ من عملٍ خير أو شرّ ﴿رَهِينٌ﴾: مرهون، يُؤاخذ بالشرّ ويُجازَى بالخير ـ ٢٢ ـ ﴿وأمدَدْناهُم﴾: زِدناهم في وقت بعد وقت، ﴿بِفاكِهَةٍ ولَحمٍ مِمّا يَشتَهُونَ﴾، وإن لم يُصرّحوا بطلبه، ٢٣ ـ ﴿يَتَنازَعُونَ﴾: يتعاطَون بينهم ﴿فِيها﴾ أي: الجنّةِ ﴿كَأْسًا﴾: خمرًا، ﴿لا لَغْوٌ فِيها﴾ أي: بسبب شربها يقع بينهم ﴿ولا تأثِيمٌ﴾ ....

قولُهُ: (بَعْضُهَا) أي: مصطفّةٌ وموصولةٌ.

قولُهُ: (عَطْفٌ عَلى: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾) الأقربُ أن يكونَ معطوفاً على: ﴿آتاهُم﴾، أو حالٌ بتقديرِ: قد أو بدونِهِ، والأظهرُ أنَّه استئنافٌ.

قولُهُ: (قَرَنَّاهُم) أي: الباءُ؛ لما في التَّزويجِ من معنى الوصلِ والإلصاقِ والقِرَانِ.

قولُهُ: (عِظَامِ الأَعيُنِ) والحورُ: بيضُ الألوانِ.

قولُهُ: (مَعْطُوفٌ) الأظهرُ أنَّه اعتراضٌ؛ لتعليلِ الإلحاقِ.

قولُهُ: (المَذْكُورِينَ) بالتَّثنيةِ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) مكّيٌّ[1].

قولُهُ: (مَرْهُونٌ) عندَ اللهِ، فإن عملَ صالحاً فكَّه، وإلَّا أهلكَهُ.

قولُهُ: (بَينَهُم) ويتناوَلونَ، وقيل: يتجاذَبونَ، وقيل: يتعاطَونَ هم وجلساؤُهُم بتجاذُبٍ[2].

قولُهُ: (خَمْراً) سمَّاها باسمِ محلِّها، ولذلك أنَّثَ ضميرَ: ﴿فِيهَا﴾.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٥٤).

به يلحقهم، بخلاف خمر الدنيا، ٢٤ ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيهِم﴾ للخِدمة ﴿غِلمانٌ﴾: أرقّاءُ ﴿لَهُم، كَأَنَّهُم﴾ حُسنًا ولطافة ﴿لُؤلُؤٌ مَكنُونٌ﴾: مصون في الصدف لأنه فيها أحسن منه في غيرها.

٢٥ ـ ﴿وَأَقبَلَ بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ، يَتَسَاءَلُونَ﴾: يسأل بعضهم بعضًا عمّا كانوا عليه وما وصلوا إليه تلذّذًا واعترافًا بالنعمة. ٢٦ ـ ﴿قَالُوا﴾ إيماءً إلى عِلّة الوصول: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبلُ فِي أَهلِنَا﴾ في الدنيا ﴿مُشفِقِينَ﴾: خائفين من عذاب الله، ٢٧ ـ ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَينَا﴾ بالمغفرة، ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: النارِ لدخولها في المسامّ. وقالوا إيماء أيضًا: ٢٨ ـ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدعُوهُ﴾ أي: نعبده مُوحّدين. ﴿إِنَّهُ﴾ ـ بالكسر استئنافًا وإن كان تعليلاً معنًى، ....

قولُهُ: (يَلحَقُهُم) أي: لا يتكلّمونَ بلغوِ الحديثِ في أثناءِ شُربِها ولا يفعَلونَ ما يُؤثَمُ به فاعلُهُ؛ أي: يُنسَبُ إلى الإثمِ، كما هو عادةُ الشَّاربينَ في الدُّنيا.

قولُهُ: (للخِدمَةِ) أو بالكأسِ.

قولُهُ: (أَرِقَّاءُ) أي: مماليكُ مخصوصونَ بهم، وقيل: هم أولادُهُمُ الَّذين سبَقوهُم، وقيل: هم أولادُ الكفَّارِ خدمُ أهلِ الجنَّةِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ الأوَّلُ، عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو: ما مِن أحدٍ من أهلِ الجنَّةِ إلَّا يسعى عليهِ ألفُ غلامٍ، كلُّ غلامٍ على عملٍ ما عليهِ صاحبُهُ[1].

قولُهُ: (مَصُونٌ في الصَّدفِ) من بياضِهم وصفائِهم، وعنهُ عليه السَّلامُ: «فضلُ المخدومِ على الخادمِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البَدرِ على سائرِ الكواكبِ»[2].

قولُهُ: (لأَنَّهُ فِيهَا) أنّثَ ضميرَ «الصدف»؛ لأنَّه اسمُ جمعٍ لا يَعقِلُ، فيجوزُ تذكيرُهُ وتأنيثُهُ.

قولُهُ: (عمَّا كَانُوا) من الأحوالِ والأعمالِ.

قولُهُ: (مِن عَذَابِ اللهِ) أو من عصيانِهِ.

قولُهُ: (بالمَغفِرَةِ) والرَّحمةِ أو التَّوفيقِ.

قولُهُ: (لدُخُولِهَا) أي: عذابَ النَّارِ، النَّافذةِ في المسامِّ نفوذَ السُّمومِ.

قولُهُ: (أي: فِي الدُّنيَا) أي: من قبلِ ذلكَ.

قولُهُ: (نَعبُدُهُ) أو نسألُهُ الوقايةَ.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (١٥٨٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦٤١)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ١٧٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠١٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧٦) عن قتادة مرسلًا.

وبالفتح تعليلاً لفظًا ـ ﴿هُو البَرُّ﴾: المُحسن الصادق في وعده ﴿الرَّحِيمُ﴾: العظيم الرحمة.

٢٩ ـ ﴿فذَكِّرْ﴾: دُمْ على تذكير المُشركين ولا ترجِع عنه لقولهم لك: كاهنٌ مجنون. ﴿فما أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: بإنعامه عليك ﴿بِكاهِنٍ﴾: خبرُ «ما» ﴿ولا مَجنُونٍ﴾: معطوفٌ عليه. ٣٠ ـ ﴿أم﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾: هو ﴿شاعِرٌ، نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ المَنُونِ﴾: حوادثَ الدهر فيه، فيَهلِكُ كغيره من الشُّعراء؟ ٣١ ـ ﴿قُلْ: تَرَبَّصُوا﴾ هَلاكي. ﴿فإنِّي مَعَكُم مِنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ هَلاكَكم. فعُذِّبوا بالسيف يوم بدر. والتربّص: الانتظار.

٣٢ ـ ﴿أم تأمُرُهُم أحلامُهُم﴾: عُقولهم ﴿بِهذا﴾ أي: قولِهم له: شاعرٌ كاهن مجنون؟ أي: لا تأمرهم بذلك ﴿أم﴾: بل ﴿هُم قَومٌ طاغُونَ﴾ بعِنادهم. ٣٣ ـ ﴿أم يَقُولُونَ: تَقَوَّلَهُ﴾: اختلقَ القرآن؟ لم يَختلقْه، ﴿بَل لا يُؤمِنُونَ﴾ استكبارًا. فإن قالوا: اختلقه ٣٤ ـ ﴿فلْيأتُوا بِحَدِيثٍ﴾ مُختلَق ﴿مِثلِهِ، إن كانُوا صادِقِينَ﴾ في قولهم.

قولُهُ: (وبالفَتحِ) نافعٌ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (العَظِيمُ) أو الكثيرُ.

قولُهُ: (ولا تَرجِعْ عنه) أي: عن تذكيرِهم، ولا تكترِث بقولِهم.

قولُهُ: (حَوَادِثَ الدَّهرِ) ممَّا يُقلِقُ النُّفوسَ، وقيل: الموتَ.

قولُهُ: (بذَلِكَ) بهذا التَّناقضِ في القولِ، فإنَّ الكاهنَ يكونُ ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مغطًّى عقلُهُ، والشَّاعرُ يكون ذا كلامٍ موزونٍ مقفًّى مخيَّلٍ، ولا يتأتَّى ذلك من المجنونِ، وأمرُ الأحلامِ مجازٌ عن تأديتِها إليه.

قولُهُ: (بعِنَادِهِم) أي: مجاوِزونَ الحدَّ في العنادِ، وقُرِئَ: (بَلْ هُمْ)[2].

قولُهُ: (اختَلَقَ) من تلقاءِ نفسِهِ.

قولُهُ: (استِكْبَاراً) فيَرمونَ بهذه المطاعنَ لكفرِهم وعنادِهم واستكبارِهم عن قبولِ الحقِّ.

قولُهُ: (اختَلَقَهُ) وإنَّما خصَّ التَّقوُّلَ؛ لأنَّ سائرَ الأقسامِ ظاهرُ الفسادِ.

قولُهُ: (في قَولِهِم) وزعمِهم؛ إذ فيهم كثيرٌ من الفصحاءِ، أو من الكهَّانِ والشُّعراءِ، فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورةِ بالتَّحدِّي، ولا خلافَ في أنَّ ما دونَ الآيةِ غيرُ معجزٍ، وكذا الآيةُ القصيرةُ، كذا قالَهُ الكمالُ[3]، والمرادُ بالطَّويلةِ: ما كانَ مقدارَ أقصرِ سورةٍ، قالَهُ الكافيجيُّ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

(٢) وهي قراءة شاذة ونسبت لمجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٠).

(٣) لم أتبينه، وانظر: «أصول السرخسي» (١/ ٢٨٠).

٣٥ ـ ﴿أم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ﴾ أي: خالقٍ؟ ﴿أم هُمُ الخالِقُونَ﴾ أنفُسَهم، ولا يُعقل مخلوق بدون خالق، ولا معدومٌ يَخلق؟ فلا بُدّ لهم من خالق، هو الله الواحد. فلِمَ لا يُوحّدونه ويُؤمنون برسوله وكتابه؟ ٣٦ ـ ﴿أم خَلَقُوا السَّماواتِ والأرضَ﴾، ولا يقدر على خلقهما إلاّ الله الخالق؟ فلِمَ لا يعبدونه؟ ﴿بَل لا يُوقِنُونَ﴾ به. وإلاّ لآمنوا بنبيّه. ٣٧ ـ ﴿أم عِندَهُم خَزائنُ رَبِّكَ﴾ من النبوّة والرزق وغيرهما، فيخصّوا من شاؤوا بما شاؤوا؟ ﴿أم هُمُ المُسَيطِرُونَ﴾: المُتسلّطون الجبّارون؟ وفِعله: سَيطَرَ. ومثله: بَيطَرَ وبَيقَرَ.

٣٨ ـ ﴿أم لَهُم سُلَّمٌ﴾: مَرقًى إلى السماء، ﴿يَستَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه كلامَ الملائكة، حتّى يُمكنَهم مُنازعةُ النبيّ بزعمهم؟ إن ادَّعوا ذلك ﴿فلْيأتِ مُستَمِعُهُم﴾: مُدّعي الاستماع عليه ﴿بِسُلطَانٍ مُبِينٍ﴾: بحُجّة بيّنة واضحة. ولشَبَه هذا الزعم بزعمهم أنّ الملائكة بناتُ الله قال تعالى: ٣٩ ـ ﴿أم لَهُ البَناتُ﴾ أي: بزعمكم ﴿ولَكُمُ البَنُونَ﴾؟ تعالى الله عمّا زعموه!

٤٠ ـ ﴿أم تَسألُهُم أجرًا﴾ على ما جِئتَهم به من الدِّين، ﴿فهُم مِن مَغرَمٍ﴾: غُرمِ ذلك ﴿مُثقَلُونَ﴾ فلا يُسلِمُون؟ ٤١ ـ ﴿أم عِندَهُمُ الغَيبُ﴾ أي: عِلمُه، ﴿فهُم يَكتُبُونَ﴾........

قولُهُ: (أي: خَالِقٍ) فلذا لا يعبدونَهُ، أو من أجلِ لا شيءَ من عبادةٍ ومجازاةٍ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ ما بعدَهُ، و(﴿أَم﴾) في هذهِ الآياتِ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ فقط، أو معَ التَّوبيخِ.

قولُهُ: (لآمَنُوا بِنَبِيِّهِ) ولما أعرَضُوا عن عبادتِهِ.

قولُهُ: (مِنَ النُّبوَّةِ) الأظهرُ: خزائنُ رزقِهِ حتَّى يرزُقوا النُّبوَّةَ من شاؤُوا.

قولُهُ: (المُتَسَلِّطُونَ) الغالبونَ على الأشياءِ، يدبِّرونَها كيفَ شاؤوا.

قولُهُ: (مَرْقًى) أي: مُرتقًى.

قولُهُ: (كَلامَ المَلائِكَةِ) وما يوحى إليهم مِن علمِ الغيبِ حتَّى يعلموا ما هو كائنٌ.

قولُهُ: (وَاضِحَةٍ) تُصَدِّقُ استماعَهُ.

قولُهُ: (تَعَالى اللهُ) فيه تسفيهٌ لهم، وإشعارٌ بأنَّ من هذا رأيُهُ لا يُعَدُّ من العُقلاءِ، فضلاً أن يترقَّى بروحِهِ إلى عالمِ الملكوتِ فيتطَّلعَ على الغيوبِ.

قولُهُ: (عَلى مَا جِئتَهُم) أي: تبليغِهِ.

قولُهُ: (غُرمِ) أي: التزامِهِ، وقولُهُ: (﴿مُثقَلُونَ﴾) أي: مُحمَّلونَ الثِّقلَ، فلذلك زهدوا في اتِّباعِكَ.

قولُهُ: (أي: عِلمُهُ) أو اللَّوحُ المحفوظُ المثبتُ فيه المغيَّباتِ.

ذلك حتّى يُمكنَهم مُنازعةُ النبيّ في البعث وأمر الآخرة بزعمهم؟ ٤٢ ـ ﴿أم يُرِيدُونَ كَيدًا﴾ بك ليُهلكوك في دار الندوة. ﴿فالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾: المغلوبون المُهلَكون. فحفظَه الله منهم ثمّ أهلكهم ببدر. ٤٣ ـ ﴿أم لَهُم إلـٰهٌ غَيرُ اللهِ؟ سُبحانَ اللهِ عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به من الآلهة! والاستفهام بـ «أم» في مواضعها للتقبيح والتوبيخ.

٤٤ ـ ﴿وإن يَرَوا كِسْفًا﴾: بعضًا ﴿مِنَ السَّماءِ ساقِطًا﴾ عليهم، كما قالوا: «فأسقِطْ علَينا كِسْفًا مِنَ السَّماءِ» أي: تعذيبًا لهم، ﴿يَقُولُوا﴾: هذا ﴿سَحابٌ مَركُومٌ﴾: مُتراكب نَرتوِي به، ولا يُؤمنوا. ٤٥ ـ ﴿فذَرْهُم حَتَّى يُلاقُوا يومَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصعَقُونَ﴾: يَموتون، ٤٦ ـ ﴿يومَ لا يُغني﴾: بدلٌ من «يومَهم» ﴿عَنهُم كَيدُهُم شَيئًا! ولا هُم يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون من العذاب في الآخرة. ٤٧ ـ ﴿وإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بكُفرهم ﴿عَذابًا دُونَ ذلِكَ﴾ في الدنيا، قبل موتهم ـ فعُذّبوا بالجوع والقحط سبعَ سنين وبالقتل يوم بدر ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ العذاب ينزل بهم.

٤٨ ـ ﴿واصبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم ولا يضِقْ صدرك ـ ﴿فإنَّكَ بِأعيُنِنا﴾: بمرأى منّا نراك ونحفظك ـ ﴿وسَبِّحْ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من منامك أو من مجلسك، ٤٩ ـ ﴿ومِنَ اللَّيلِ فسَبِّحْهُ﴾ حقيقةً أيضًا ﴿وإدبارَ النُّجُومِ﴾: مصدرٌ، أي: عَقِبَ غُروبها سبِّحْه أيضًا، أو صلِّ في الأوّل العِشاءين وفي الثاني الفجرَ، وقيل: الصُّبحَ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) منهُ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: شِرْكةِ ما يُشرِكونَ به، أو عن إشراكِهِمْ.

قولُهُ: (بَعْضاً) أي: قطعةً.

قولُهُ: (مُتَرَاكِبٌ) أي: متراكمٌ بعضها على بعضٍ.

قولُهُ: (يَمُوتُونَ) وقرأها شاميٌّ وعاصمٌ بضمِّ الياءِ[1] من صعقَهُ أو أصعقَهُ.

قولُهُ: (أي: فِي الدُّنيَا) أو في البرزخِ.

قولُهُ: (بِمَرْأَى) أي: في حِفظِنا بحيثُ نراكَ ونكلؤُك، وجمعُ العينِ لجمعِ الضَّميرِ، والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ.

قولُهُ: (مَجلِسِكَ) أي: في أيِّ مكانٍ قمْتَ.

قولُهُ: (حَقِيقَةً) أو مجازاً أُرِيْدَ به الصَّلاةُ، فإنَّ العبادةَ فيه أشقُّ على النَّفسِ، وأبعدُ عن الرِّياءِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

سُورَةُ الطُّورِ

مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، ولم نقف على استثناء شيءٍ منها، وهي تسعٌ وأربعون آيةً في الكوفي والشامي، وثمانٌ وأربعون في البصري، وسبعٌ وأربعون في الحجازي[1].

ومناسبةُ أولها لآخر ما قبلَها اشتمالُ كلٍّ على الوعيد، وقال الجلال السيوطي: وجهُ وَضْعها بعد «الذاريات» تشابُهُهما في المطلع والمقطع، فإنَّ في مطلع كلٍّ منهما صفةَ حالِ المتقين، وفي مقطع كلٍّ منهما صفةَ حال الكفار[2].

ولا يخفَى ما بين السورتَين الكريمَتين من الاشتراك في غير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ①﴾ الطور اسمٌ لكلِّ جبلٍ على ما قيل في اللغة العربية عند الجمهور، وفي اللغة السريانية عند بعضٍ، ورواه ابنُ المنذر وابنُ جرير عن مجاهد[3]. والمراد به هنا طورُ سِيْنِيْنَ الذي كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام عنده، ويقال له: طورُ سيناء أيضاً. والمعروفُ اليومَ بذلك ما هو بقرب التِّيهِ بين مصرَ والعقبة.

وقال أبو حيان في تفسير سورة «والتين»: لم يختلف في طور سيناء أنَّه جبلٌ

---

(١) جاء في هامش الأصل: والاختلاف في «والطور» و«إلى نار جهنم دعًا».

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ص ٧٩.

(٣) الطبري ٢١/ ٥٦٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧.

بالشام، وهو الذي كلَّم اللهُ تعالى عليه موسى عليه السلام[١]، وقال في تفسيره هذه السورة: في الشام جبلٌ يُسمَّى الطور، وهو طورُ سيناء، فقال نوف البكالي: إنَّه الذي أقسَمَ الله سبحانه به لفضله على الجبال، قيل: وهو الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام[٢]. انتهى، فلا تغفل.

وحكى الراغبُ أنَّه جبلٌ محيطٌ بالأرض[٣]! ولا يصحُّ عندي، وقيل: جبلٌ من جبال الجنة، وروى فيه ابنُ مردويه عن أبي هريرة وعن كثير بن عبد الله حديثاً مرفوعاً[٤]، ولا أظنُّ صحتَه، واستظهرَ أبو حيان أنَّ المراد الجنسُ لا جبلٌ معيَّن[٥]. وروي ذلك عن مجاهد والكلبي، والذي أُعوِّل عليه ما قدمته.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾ مكتوبٍ على وجه الانتظام، فإنَّ السطر ترتيبُ الحروف المكتوبة، والمرادُ به على ما قال الفراء: الكتابُ الذي يُكتَب فيه الأعمال، ويُعطاهُ العبدُ يوم القيامة بيمينه أو بشماله[٦]، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

وقال الكلبي: هو التوراة. وقيل: هي والإنجيل والزبور. وقيل: القرآن. وقيل: اللَّوح المحفوظ. وفي «البحر»: لا ينبغي أنْ يحمل شيءٌ مِن هذه الأقوالِ على التعيين، وإنما تُورَدُ على الاحتمال[٧].

والتنكير قيل: للإفراد نوعاً، وذلك على القول بتعدُّده، أو للإفراد شخصاً، وذلك على القول المقابل، وفائدتُه الدلالةُ على اختصاصه من جنس الكتب بأمرٍ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٦.

(٣) مفردات الراغب (طور).

(٤) عزاهما لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧، وكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف قال عنه الدارقطني وغيره: متروك. ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٥) البحر ٨/ ١٤٦.

(٦) معاني القرآن ٣/ ٩١.

(٧) البحر المحيط ٨/ ١٤٦.

يتميَّز به عن سائرها، والأولَى على وجهَي التنكير إذا حُمِلَ على أحد الكتابَين ـ أعني: القرآنَ والتوراة ـ أنْ يكونَ من باب ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ [الجاثية: ١٤]، ففي التنكير كمال التعريف، والتنبيه على أنَّ ذلك الكتاب لا يخفَى نُكِّر أو عُرِّف، ومِن هذا القبيل التنكير في قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ والرَّقُّ بالفتح ويكسر، وبه قرأ أبو السمال[١]: جلدٌ رقيقٌ يُكتَب فيه، وجمعُه رُقُوق، وأصلُه على ما في «مجمع البيان» من اللمعان يقال: تَرَقْرَقَ الشيءُ إذا لَمَعَ[٢]. أو من الرِّقة ضدُّ الصفاقة على ماقيل، وقد تجوِّزُ فيه عما يُكتَب فيه الكتاب من ألواحٍ وغيرها.

و«المنشور»: المبسوطُ، والوصفُ به قيل: للإشارة إلى صحة الكتابِ وسلامته من الخطأ حيث جُعِل معرضاً لنظر كلِّ ناظرٍ آمناً عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه، وقيل: هو لبيان حاله التي تضمَّنتها الآيةُ المذكورة آنفاً بناءً على أنَّ المرادَ به صحائفُ الأعمال، ولبيان أنَّه ظاهرٌ للملائكة عليهم السلام يرجعون إليه بسهولة في أمورهم بناءً على أنَّه اللوح، أو للناس لا يمنعُهم مانعٌ عن مطالعته والاهتداءِ بهديه بناء على الأقوال الأُخَر.

وفي «البحر»: «منشور» منسوخٌ ما بين المشرق والمغرب[٣].

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هو بيتٌ في السماء السابعة يدخلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألف ملَكٍ لا يعودُون إليه حتى تقوم الساعة، كما أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أنس مرفوعاً[٤].

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن أبي الطفيل أنَّ ابنَ الكوَّاء سأل علياً[٥] كرم الله

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٦.
(٢) مجمع البيان ٢٧/ ٢٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٦ دون قوله: منسوخ.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٢-٥٦٣، والمستدرك ٢/ ٤٦٨، وشعب الإيمان (٣٩٩٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧.
وأخرجه أحمد (١٧٨٣٦)، والبخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، ضمن حديث الإسراء.
(٥) في الأصل: سأل عنه علياً.

تعالى وجهه فقال: ذلك الضُّرَاحُ بيتٌ فوقَ سبع سماوات تحت العرش يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ ملك.. إلخ[١].

وجاء في روايةٍ عنه كرم الله تعالى وجهه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّه حيالَ الكعبة بحيث لو سَقَط سَقَط عليها[٢].

وروي عن مجاهد وقتادة وابن زيد أنَّ في كلِّ سماءٍ بحيال الكعبة بيتاً حرمتُه كحرمتها، وعمارتُه بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعتَ.

وقال الحسن: هو الكعبةُ يعمُرُه الله تعالى كلَّ سنةٍ بستِّ مئةِ ألفٍ من الناس، فإنْ نقصوا أتمَّ سبحانه العددَ من الملائكة. وأنت تعلم أنَّ من المجاز المشهور: مكان معمورٌ، بمعنى مأهول مسكون تَحُلُّ الناس في محلٍّ هو فيه، فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحُجَّاجها، صحَّ خبرُ الحسن المذكور أم لا.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ أي: السماء كما رواه جماعة - وصحَّحه الحاكم - عن الأمير كرم الله تعالى وجهه[٣].

وعن ابن عباس: هو العرش، وهو سقفُ الجنة. وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس[٤]. وعليه لابأسَ في تفسير البيت المعمورِ بالسماء كما رُوي عن مجاهد، وعَمارتُها بالملائكة أيضاً، فما فيها موضعُ إهابٍ إلا وعليه ملكٌ ساجدٌ أو قائمٌ.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ أي: الموقد ناراً. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن سعيد بن المسيب قال: قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه لرجلٍ من اليهود: أينَ موضعُ النارِ في كتابكم؟ قال: البحر. فقال كرم الله تعالى وجهه: ما أراه إلا صادقاً، وقرأ: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ

(١) مصنف عبد الرزاق (٨٨٧٥)، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٤، والضياء المقدسي في المختارة (٥٥٧).

(٢) الأثران في تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٣-٥٦٤.

(٣) المستدرك ٢/ ٤٦٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٦.

(٤) العظمة (٢٥٣).

سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦][1]. وبذلك قال مجاهد وشِمْرُ بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش.

وقال قتادة: «المسجور»: المملوء؛ يقال: سَجَرَه، أي: ملأه. والمرادُ به عند جمعٍ البحرُ المحيط.

وقيل: بحرٌ في السماء تحت العرش، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيرُه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[2]، وابن جرير عن ابن عمرو رضي الله عنهما[3]. وفي «البحر» أنَّهما قالا[4]: فيه ماء غليظٌ، ويقال له: بحرُ الحياة يُمطَرُ العبادُ منه بعد النفخةِ الأُولَى أربعينَ صباحاً، فينبتون في قبورهم.

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنَّه الماء الأعلى الذي تحت العرش[5]. وكأنَّه أراد به الفضاءَ الواسعَ المملوء ملائكةً.

وعن ابن عباس: «المسجور»: الذي ذهب ماؤُه، ورَوَى ذو الرُّمَّة الشاعر ـ وليس له كما قيل حديثٌ غيرُ هذا ـ عن الحِبْر قال: خرجَتْ أمةٌ لتستقي فقالت: إنَّ الحوض مسجورٌ، أي: فارغ، فيكونُ من الأضداد[6]. وحُمِل كلامُه رضي الله عنه على إرادة البحرِ المعروف، وأنَّ ذهاب مائه يومَ القيامة.

وفي رواية عنه أنَّه فسَّره بالمحبوس، ومنه: ساجور الكلب، وهي القلادةُ التي

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٦٧-٥٦٨، والعظمة (٩٣١)، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث والنشور (٤٩٥).

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٠، ووقع في الأصل و(م): ابن عمر، والمثبت من تفسير الطبري والدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٤) أي: زيادة على قولهما: بحر في السماء تحت العرش. البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

(٥) العظمة (٢٥٣)، ووقع في الأصل و(م): الملأ، بدل: الماء. والمثبت من العظمة، ومثله في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٤٦، والخبر أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٥، والشيرازي في الألقاب كما في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

تمسكه، وكأنَّه عنى: المحبوس مِن أنْ يَفيضَ فيُغرقَ جميعَ الأرض، أو يَغيضَ فتبقَى الأرضُ خاليةً منه.

وقيل: «المسجور» المختلطُ، وهو نحو قولهم للخليل المخالط: سجيرٌ، وجعَلَه الراغبُ من سجرتُ التنُّورَ؛ لأنَّه سجيرٌ في مودَّة صاحبه[١]. والمرادُ بهذا الاختلاط: تلاقي البحار بمياهها واختلاطُ بعضها ببعضٍ، وعن الربيع: اختلاطُ عَذْبها بملحها. وقيل: اختلاطُها بحيوانات الماء.

وقيل: المفجورُ، أَخْذاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ويحتمله ما أخرجه ابنُ المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل[٢]، وإذا اعتُبر هذا مع ما تقدَّم عنه آنفاً من تفسيره بالمحبوس يكون مِن الأضداد أيضاً.

وقال منبه[٣] بن سعيد: هو جهنم سُمِّيَت بحراً لسعتها وتموُّجها.

والجمهورُ على أنَّ المراد به بحرُ الدنيا، وبه أقول، وبأنَّ المسجور بمعنى المُوقَد.

ووَجْه التناسب بين القرائن بعد تعيُّن ما سيق له الكلام لائحٌ، وهو هاهنا إثباتُ تأكيدِ عذابِ الآخرة وتحقيقُ كينونته ووقوعه، فأَقسَمَ سبحانه له بأمورٍ كلُّها دالةٌ على كمال قدرته عز وجل، مع كونها متعلِّقةً بالمبدأ والمعاد، فالطور لأنَّه محلُّ مكالمة موسى عليه السلام، ومهبطُ آيات المبدأ والمعاد يناسبُ حديثَ إثبات المعاد، وكتاب الأعمال كذلك مع الإيماء إلى أنَّ إيقاعَ العذاب عدلٌ منه تعالى فقد تحقَّق، ودوِّن في «الكتاب» ما يجرُّ إليه قبل.

«والبيت المعمور» لأنَّه مطَافُ الرسل السماوية، ومظهرٌ لعظمته تعالى، ومحلٌّ لتقديسهم وتسبيحهم إياه جلَّ وعلا.

«والسقف المرفوع» لأنَّه مستقرُّهم ومنه تَنزِلُ الآيات، وفيه الجنة.

---

(١) مفردات الراغب (سجر).

(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر ٨/ ١٤٧ (والكلام منه): قتيبة بن سعيد، ولعل الصواب: منذر بن سعيد، كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧.

«والبحر المسجور» لأنَّه محلُّ النار.

وإذا حُمِلَ الكتاب على التوراة كان التناسبُ مع ما قبلَه حسبَ النظر الجليل أظهرَ. ولم يحمله عليها كثيرٌ لزَعْمِ أنَّ «الرق المنشور» لا يناسبُها لأنَّها كانت في الألواح، ولا يخفى عليك أنَّ شيوعَ الرَّق فيما يُكتَب فيه الكتاب مطلقاً يُضعِّف هذا الزعم في الجملة، ثم إنَّ المعروف أنَّ التوراة لا يكتبُها اليهودُ اليوم إلا في رَقٍّ، وكأنَّهم أخذوا ذلك من أسلافهم.

وقال الإمام: يحتملُ أنْ تكونَ الحكمةُ في القَسَم بـ «الطور» و«البيت المعمور» و«البحر المسجور» أنَّها أماكنُ خَلوةٍ لثلاثة أنبياء مع ربِّهم سبحانه، أما الطورُ فلموسى عليه السلام، وقد خاطَبَ عنده ربَّه عز وجل بما خاطب، وأما البيتُ المعمور فلرسول الله ﷺ وقد قال عنده: «سلامٌ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين»[1]، «لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك»[2]؛ وأما البحرُ فليونسَ عليه السلام قال فيه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] فلشرفها بذلك أَقسَم الله تعالى بها، وأما ذِكرُ «الكتاب» فلأنَّ الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن كلامٌ، والكلامُ في الكتاب، وأما ذِكرُ «السقف المرفوع» فلبيان رِفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأنِ النبي ﷺ، ثم ذكر وجهاً آخرَ[3]، ولعمري إنَّه لم يأتِ بشيء فيهما.

والواو الأُولى للقسم وما بعدَها على ما قال أبو حيان للعطف، والجملةُ المقسَمُ عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾[4] أي: لكائنٌ على شدةٍ، كأنَّه مهيَّأٌ في مكان مرتفعٍ فيقَعُ على مَن يحلُّ به من الكفار؛ وفي إضافته إلى الربِّ مع إضافة الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمانٌ له ﷺ، وإشارةٌ إلى أنَّ العذاب واقعٌ بمن كذَّبه.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٦٥)، ومسلم (٤٠٣) عن ابن عباس، وسلف ١٠/ ٤٧٨.
(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٥٥)، ومسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١/ ٢٦٢.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٤٠ بنحوه.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «واقعٌ» بدون لام[١].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» أو صفةٌ لـ «وَاقع» أو هو جملةٌ معترضة، و«مِن دافع» إما مبتدأ للظرف أو مرتفِعٌ به على الفاعلية، و«مِن» مزيدةٌ للتأكيد. ولا يخفى ما في الكلام من تأكيد الحكمِ وتقريره.

وقد رُوي أنَّ عمر رضي الله عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى عِيْدَ من وَجَعِه وكان عشرين يوماً.

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جُبير بن مطعم قال: قدمتُ المدينةَ على رسول الله ﷺ لأكلِّمه في أُسارَى بدرٍ، فدفعتُ إليه وهو يُصلِّي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعتُه يقرأُ: (وَٱلطُّورِ) إلى: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ * مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ) فكأنما صُدِعَ قلبي[٢]. وفي روايةٍ: فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، وما كنتُ أظنُّ أنْ أقومَ مِن مقامي حتى يقعَ بي العذاب. وهو لا يأبى أن يكون المرادُ الوقوعَ يومَ القيامة.

ومن غريب ما يُحكَى أنَّ شخصاً رأى في النوم[٣] مكتوباً في كفِّه خمسَ واواتٍ فعُبِّرَت له بخير، فسألَ ابنَ سيرين فقال: تَهيَّأْ لما لا يَسُرُّ. فقال له: مِن أين أخذتَ هذا؟ فقال: من قوله عز وجل: (وَٱلطُّورِ) إلى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ) فما مضَى يومان أو ثلاثة حتى أُحيطَ بذلك الشخص[٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩﴾ منصوبٌ على الظرفية وناصبُه «واقعٌ» أو «دافعٌ» أو معنى النفي، وإيهامُ أنَّه لا ينتفي دفعُه في غير ذلك اليوم بناءً على اعتبار المفهوم لا ضيرَ فيه لعدم مخالفته للواقع؛ لأنَّه تعالى أمهلَهم في الدنيا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد (١٦٧٦٢)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨. وأخرج نحوه البخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣).

(٣) قوله: في النوم، ليس في (م).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

وما أهملهم، ومنَعَ مكي أنْ يعمل فيه «واقع»[(١)]، ولم يذكر دليلَ المنع[(٢)]؛ ولا دليلَ له فيما يظهرُ.

ومعنى «تمور»: تضطربُ كما قال ابن عباس، أي: ترتجُّ وهي في مكانها، وفي رواية عنه: تشقَّقُ. وقال مجاهد: تدورُ. وأصل المور التردُّد في المجيء والذهاب، وقيل: التحرُّك في تموُّج، وقيل: الجَرَيان السريع، ويقال للجَرْي مطلقاً، وأنشدوا للأعشى:

كأنَّ مشْيَتَها مِن بيتِ جارتها مورُ السحابة لا ريثٌ ولا عَجَلُ[(٣)]

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ عن وجه الأرض، فتكونُ هباءً منبثّاً، والإتيان بالمصدرَين للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يُدرَك كنههما.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا وقع ذلك ـ أو إذا كان الأمر كما ذكر ـ فويلٌ يوم إذ يقع ذلك ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: في اندفاعٍ عجيبٍ في الأباطيل والأكاذيب يلهون، وأصلُ الخوض المشيُ في الماء ثم تُجوِّزَ فيه عن الشروع في كلِّ شيءٍ، وغَلَب في الخوض في الباطل، كالإحضار عامٌّ في كلِّ شيءٍ ثم غَلَب استعمالُه في الإحضار للعذاب.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ أي: يُدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأنْ تُغلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمَعَ نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار ويطرحون

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ومطبوع البحر المحيط ٨/ ١٤٧ والكلام منه، والصواب: «دافع» كما في مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٦٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، والدر المصون ١٠/ ٦٥.

(٢) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر، والصواب أن مكي قد ذكر دليل المنع في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠، ولكن تعقبه السمين بقوله: وهذا كلام صحيح في نفسه إلا أنه ليس في الآية شيء من ذلك.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥، والصحاح (مور)، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، ورواية الديوان: مرُّ، بدل: مور.

فيها. وقرأ زيد بنُ عليٍّ والسلمي وأبو رجاء: «يُدْعَون» بسكون الدال وفتح العين[(١)] من الدعاء، فيكون «دَعًا» حالاً، أي: يُنادَون إليها مَدعُوعِين[(٢)].

و«يوم» إما بدلٌ من «يوم تمور» أو ظرفٌ لقولٍ مقدَّر محكيٌّ به قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ أي: فيقال لهم ذلك يومَ.. إلخ، ومعنى التكذيب بها تكذيبُهم بالوحي الناطق بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم حيث كانوا يسمُّونه سحراً، كأنَّه قيل: كنتُم تقولون للوحي الذي أنذركم بهذا: سحرٌ[(٣)]، أفهذا المصدَّقُ له سحرٌ أيضاً، وتقديمُ الخبر لأنَّه المقصودُ بالإنكار والمدارُ للتوبيخ.

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عُمْيٌ عن المخبَر به كما كنتم في الدنيا عُمياً عن الخبر، والفاء مؤذنةٌ بما ذكر[(٤)]، وذلك لأنَّها لمَّا كانت تقتضي معطوفاً عليه يصحُّ ترتُّبُ الجملة ـ أعني: «سحرٌ هذا» ـ عليه، وكانت هذه جملةً واردةً تقريعاً مثل: «هذه النار» إلخ لم يكن بدٌّ من تقدير ذلك على وجهٍ يصحُّ الترتُّب، ويكون مدلولاً عليه من السياق، فقُدِّر: كنتم تقولون.. إلى آخره، ودلَّ عليه قولُه تعالى: (فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) وقوله سبحانه: (هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ).

وفي «الكشف»: إنَّ هذا نظيرُ ما تستدلُّ بحجَّةٍ فيقول الخصم: هذا باطلٌ. فتأتي بحجَّة أوضحَ من الأول مسكتةٍ وتقول: أفباطل هذا؟! تُعيِّره بالإلزام وبأنَّ[(٥)] مقالته الأُولَى كانت باطلةً، وفي مثله جاز أنْ يقدَّر القول على معنى: أفتقولُ: باطلٌ هذا، وأنْ لا يقدَّر لابتنائه على كلام الخصمِ وهذا أبلغُ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، والبحر المحيط ٨/ ١٤٧.
(٢) في هامش (م): الحال مقدرة لأن الدفع بعد الدعوة، وقيل: إنها مقارنة بإجراء قرب الوقوع مجرى المقارنة، وفيه نظر.
(٣) في (م): سحراً.
(٤) في الأصل: ذكرنا.
(٥) في (م): بأن.

و«أمْ» كما هو الظاهر منقطعةٌ، وفي «البحر»: لمَّا قيل لهم: هذه النار وقفُوا على الجهتَين اللَّتَين يمكن منهما دخولُ الشكِّ في أنَّها النار، وهي إما أنْ يكون ثَمَّ سحرٌ يلبس ذاتَ المرئي، وإما أنْ يكون في ناظر الناظر اختلالٌ[١]. والظاهرُ أنَّه جعل «أم» معادِلةً، والأول أبعدُ مغزًى.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي: ادخلُوها وقاسُوا شدائدَها فافعلُوا ما شئتُم من الصبر وعدمه.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الأمران سواءٌ عليكم في عدم النفع، إذ كلٌّ لا يدفعُ العذاب ولا يخفِّفُه، فـ «سواء» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وصحَّ الإخبار به عن المثنَّى لأنَّه مصدرٌ في الأصل، وجوِّزَ كونُه مبتدأً محذوفَ الخبر وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليلٌ للاستواء؛ فإنَّ الجزاء حيثُ كان متحتِّمَ الوقوع لسَبْق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضَى عدله كان الصبرُ وعدمُه مستويَين في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ شروعٌ في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين، كما هو عادةُ القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوِّز أنْ يكونَ من جملة المقول للكفار، إذ ذاك زيادةٌ في غَمِّهم وتنكيدهم، والأوَّلُ أظهرُ، والتنوين في الموضعَين للتعظيم، أي: في جناتٍ عظيمة ونعيم عظيم، وجوِّز أنْ يكونَ للنوعية، أي: نوعٌ من الجنات ونوعٌ من النعيم مخصوصَين بهم، وكونُه عوضاً عن المضاف إليه، أي: جناتهم ونعيمهم، ليس بالقوي كما لا يخفَى.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ متلذِّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الإحسان، وقرئ: «فَكِهِينَ» بلا ألف[٢]، ونصبه في القراءتَين على الحال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور، أعني «في جنات» الواقع خبراً لـ «إنَّ»، وقرأ خالد: «فاكهون» بالرفع[٣]

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.
(٢) هي قراءة أبي جعفر كما في النشر ٢/ ٣٥٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

على أنَّه الخبر، و«في جنات» متعلِّقٌ به، لكنَّه قُدِّم عليه للاهتمام، ومَن أجاز تعدُّد الخبر أجازَ أنْ يكونَ خبراً بعد خبر.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطف على «في جنات» على تقدير كونه خبراً، كأنَّه قيل: استقروا في جنات وَوَقاهم ربُّهم.. إلخ، أو على «آتاهم» إنْ جعلت «ما» مصدرية، أي: فاكهين بإيتائهم ربُّهم ووقايتهم عذابَ الجحيم، ولم يجوِّز كثيرٌ عطفَهُ عليه إنْ جُعِلَت موصولةً إذ يكون التقدير: فاكهين بالذي وقاهم ربُّهم، فلا يكون راجعٌ إلى الموصول، وجوَّزه بعضٌ بتقدير الراجع، أي: وقاهم به، على أنَّ الباء للملابسة.

وفي «الكشف»: لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذفِ، ولو دَرَج لصار الفعل من المتعدِّي إلى ثلاثة مفاعيل، وهو مسموعٌ عند بعضهم ولا يخفى أنَّه وجهٌ سديدٌ أيضاً، والمعنى عليه أسدُّ؛ لأنَّ الفكاهة تلذُّذٌ يشتغل به صاحبُه، والتلذُّذ بالإيتاء يحتمل التجدُّد باعتبار تعدُّد المؤتَى، أما بالوقاية ـ أي: على تقدير المصدرية ـ فلا، وأقولُ: لعلَّه هو المنساقُ إلى الذهن.

وجوِّز أنْ يكونَ حالاً بتقدير «قد» أو بدونه، إما من المستكنِّ في الخبر، أو في الحال، وإما مِن فاعل «آتى»، أو من مفعوله، أو منهما. وإظهارُ الربِّ في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل.

وقرأ أبو حيوة: «وقَّاهم» بتشديد القاف(١).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشُرباً هنيئاً، أو: طعاماً وشراباً هنيئاً، فالكلام بتقدير القول، و«هنيئاً» نصب على المصدرية، لأنَّه صفة مصدر، أو على أنَّه مفعول به، وأيَّاما كان فقد تنازعَه الفعلان، والهَنِيءُ كلُّ ما لا يلحقُ فيه مشقَّة ولا يُعقِبُ وخامة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسببه أو بمقابلته، والباء عليهما متعلِّقٌ بـ «كلوا

(١) المحرر الوجيز ٥/١٨٨، والبحر المحيط ٨/١٤٨.

واشربوا» على التنازع، وجوَّز الزمخشريُّ كونَها زائدةً، وما بعدها فاعل «هنيئاً»[١] كما في قول كُثيِّر:

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامرٍ لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ[٢]

فإنَّ «ما» فيه فاعل «هنيئاً» على أنَّه صفة في الأصل بمعنى المصدر المحذوف فعلُه وجوباً لكثرة الاستعمال، كأنَّه قيل: هَنُؤَ لعزَّة المستحَلُّ مِن أعراضنا، وحينئذٍ كما يجوزُ أنْ يجعل «ما» هنا فاعلاً على زيادة الباء على معنى: هنأكم ما كنتُم تعملون، يجوز أنْ يجعل الفاعلُ مضمَراً راجعاً إلى الأكل أو الشرب المدلولِ عليه بفعله.

وفيه أنَّ الزيادةَ في الفاعل لم تثبت سماعاً في السعة في غير فاعل كَفَى[٣] على خلافٍ، ولا هي قياسيةٌ في مثل هذا، ومع ذلك يحتاجُ الكلام إلى تقدير مضافٍ، أي: جزاء ما كنتمُ. . إلخ، وفيه نوعُ تكلُّفٍ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء: من الضمير في «كلوا» أو في «وقاهم» أو في «آتاهم» أو في «فاكهين» أو في الظرف يعني «في جنات»[٤]، واستظهرَ أبو حيان الأخيرَ[٥].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، معروف، ويُجمَع على أسرَّة، وهو من السرور إذ كان لأُولي النعمة، وتسميةُ سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذي يلحَقُ الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصِهِ من سجن الدنيا.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤.

(٢) ديوان كثير ص ٧٨، قوله: مخامر، أي: مخالط. اللسان (خمر).

(٣) جاء في هامش الأصل: قيل قد سمعت الزيادة في غير فاعل كفى كما في قوله:

ألم يأتيك والأنباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد

ولا يخفى أنه لا يضر. انتهى.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

وقرأ أبو السمال: «سُرَر» بفتح الراء[1]، وهي لغةٌ لكلبٍ في المضعَّف فراراً من توالي ضمَّتَين مع التضعيف.

﴿مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ مجعولة على صفٍّ وخطٍّ مُستوٍ ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ، قاله الراغب ثم قال: ولم يجىء في القرآن: زوَّجناهم حوراً، كما يقال: زوَّجته امرأةً، تنبيهاً على أنَّ ذلك لا يكونُ على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة[2]، وقال الفراء: تزوجتُ بامرأة، لغةُ أَزْدِ شَنُوءة[3].

والمشهورُ أنَّ التزوُّج متعدٍّ إلى مفعول واحدٍ بنفسه، والتزويجَ متعدٍّ بنفسه إلى مفعولَين، وقيل فيما هنا: إنَّ الباء لتضمين الفعل معنى القِران أو الإلصاق. واعترض بأنَّه يقتضي معنى التزويج بالعقد، وهو لا يُناسبُ المقام، إذ العقدُ لا يكون في الجنة؛ لأنَّها ليست دارَ تكليفٍ، أو أنَّها للسببية والتزويجُ ليس بمعنى الإنكاح، بل بمعنى تصييرهم زوجَين زوجَين، أي: صيَّرناهم كذلك بسبب حورٍ عينٍ.

وقرأ عكرمة: «بحورِ عينٍ»[4] على إضافةِ الموصوف إلى صفتِهِ بالتأويل المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيان حال طائفةٍ من أهل الجنة إثْرَ بيان حال الكلِّ، وهم الذين شاركتهم ذريتُهم في الإيمان، والموصولُ مبتدأٌ خبرُه «ألحقنا بهم»، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطف على «آمنوا»، وقيل اعتراضٌ للتعليل، وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّقٌ بالاتِّباع، أي: اتَّبَعَتهم ذريَّتُهم بإيمان في الجملة، قاصرٍ عن رُتبة إيمانِ الآباء، إما بنفسه بناءً على تفاوت مراتبِ نفس الإيمان، وإما باعتبار عدم انضمامِ أعمالٍ مثلِ أعمال الآباء إليه، واعتبارُ هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٨٨، والبحر المحيط ٨/١٤٨.

(٢) مفردات الراغب (زوج).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري ١١/١٥٢، وحاشية الشهاب ٨/١٠٣.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/١٤٦.

وقيل[١]: هو حالٌ من الذرية، وقيل: من الضمير، وتنوينُه للتعظيم. وقيل: منهما وتنوينُه للتنكير، والمعوَّل عليه ما قدَّمنا.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الدرجة؛ أخرج سعيد بن منصور وهنَّاد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: إنَّ الله تعالى ليرفَعُ ذريَّةَ المؤمن معه في درجته في الجنة، وإنْ كانوا دونَه في العمل، لتقرَّ بهم عينُه، ثم قرأ الآية[٢]. وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ[٣]، وفي رواية ابن مردويه والطبراني عنه أنَّه قال: إنَّ النبي ﷺ قال: «إذا دَخَل الرجلُ الجنةَ سألَ عن أبويه وزوجتِهِ وولده فيقال له: إنَّهم لم يَبلُغُوا درجَتك وعملَك. فيقول: يا ربِّ قد عملتُ لي ولهم، فيؤمَرُ بإلحاقهم به» وقرأ ابن عباس الآية[٤].

وظاهرُ الأخبار أنَّ المراد بإلحاقهم بهم إسكانُهم معهم لا مجرَّدُ رَفْعهم إليهم واتِّصالهم بهم أحياناً ولو للزيارة. وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل، وما قيل: لعلَّه مخصوصٌ ببعضٍ دون بعض، تحجيرٌ لإحسانه الواسع جل شأنه، وقد يُستأنَسُ للتخصيص بما روي عن ابن عباس: أنَّ الذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذرية التابعون. لكنْ لا أظنُّ صحَته.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاقِ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: من ثواب عملهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً بأنْ أعطينا بعضَ مثوباتهم أبناءَهم فتنقصُ مثوباتهم وتنحطُّ درجتُهم، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضُّلِ والإحسان.

---

(١) في (م): قيل.

(٢) الزهد لهناد (١٧٩)، وتفسير الطبري ٢١/٥٧٩، والمستدرك ٢/٤٦٨، وسنن البيهقي ١٠/٢٦٨، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٩.

(٣) مسند البزار(٢٢٦٠ - كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٤: وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف.

(٤) المعجم الكبير (١٢٢٤٨)، والمعجم الصغير (٦٤٠)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٤: وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقال ابن زيد: الضميرُ عائدٌ على الأبناء، أي: وما نقصنا الأبناء الملحَقِين من جزاء عملهم الحسنِ والقبيح شيئاً، بل فعلنا ذلك بهم بعدَ مجازاتهم بأعمالهم كَمَلاً. وليس بشيء وإنْ قال أبو حيان: يُحسِّنُ هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1].

وإلى الأول ذهب ابن عباس وابن جبير والجمهور، والآية على ما ذهب إليه المعظم في الكبار من الذرية، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار.

ورُوي عن الحبر والضحاك أنَّهما قالا: إنَّ الله تعالى يُلحقُ الأبناء الصغار وإنْ لم يبلُغُوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين، وجعل «بإيمانٍ» عليه متعلِّقاً بـ «ألحقنا»، أي: ألحقنا بسبب إيمانِ الآباء بهم ذريَّتَهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلُغُوا التكليفَ، فهم في الجنة مع آبائهم قيل: وكأنَّ مَن يقول بذلك يفسِّر «اتَّبعتهم ذريتُهم» بـ: ماتوا ودَرَجوا على أثرهم قبل أنْ يبلُغُوا الحُلُم.

وجوَّز أنْ يتعلَّق «بإيمان» بـ «اتَّبعتهم» على معنى: اتَّبعوهم بهذا الوصف بأنْ حُكِمَ لهم به تبعاً لآبائهم، فكانوا مؤمنين حُكماً لصغرهم وإيمانِ آبائهم، والصغيرُ يُحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمنِ. والكلُّ كما ترى.

وقيل: الموصولُ معطوفٌ على «حور»، والمعنى: قرنَّاهم بالحور وبالذين آمنوا، أي: بالرُّفقاء والجُلَساء منهم، فيتمتَّعون تارةً بملاعبة الحور، وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾ عطف على «زوَّجناهم»، وقولُه سبحانه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّق بما بعده، أي: بسبب إيمانٍ عظيمٍ رفيعِ المحلِّ، وهو إيمانُ الآباء، ألحقنا بدرجاتهم ذريَّتَهم وإنْ كانوا لا يستأهلُونها، تفضُّلاً عليهم وعلى آبائهم ليتمَّ سرورُهم ويكمُلَ نعيمُهم، أو بسبب إيمانٍ داني المنزلة، وهو إيمانُ الذرية، كأنَّه قيل: بشيءٍ من الإيمان لا يؤهِّلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.

وصنيعُ الزمخشريِّ ظاهرٌ في اختيار العطف على «حور» فقد ذكره وجهاً أول[1].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يَتخيَّلُ ذلك أحدٌ غيرُ هذا الرجل، وهو تخيُّلُ أعجميٍّ مخالفٌ لفَهْم العربي القحِّ كابن عباس وغيره[2]. وقيل عليه: إنَّه تعصُّبٌ منه، والإنصافُ أنَّ المتبادر الاستئنافُ، وأنَّ أحسنَ الأوجه في الآية وأوفقَهُ للمقام ما تقدَّم.

وقرأ أبو عمرو: «وأَتْبعناهم» بقطع الهمزة وفتحها، وإسكان التاء، ونون بعد العين وألف بعدها[3]، أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان، وقرأ أيضاً: «ذرياتهم» جمعاً نصباً[4]. وابن عامر كذلك رفعاً[5]، وقرئ: «ذِرياتهم» بكسر الذال[6]. «وأتبعتُهم ذريتَهم» بتاء الفاعل ونصب «ذريتهم» على المفعولية[7]. وقرأ الحسن وابن كثير: «ألِتناهم» بكسر اللام[8] من أَلِتَ يأْلَتُ كعَلِمَ يعلَم، وعلى قراءة الجمهور من باب ضَرَب يَضْرِب. وابن هرمز: «آلتناهم» بالمدِّ من آلَتَ يُؤْلِتُ[9]، وابن مسعود وأبيّ: «لِتْنَاهم» من لات يليتُ، وهي قراءة طلحة والأعمش، ورُوِيَت عن شبل وابن كثير، وعن طلحة والأعمش أيضاً: «لَتناهم» بفتح اللام[10]، قال سهل: لا يجوزُ فتحُ اللام من غير ألفٍ بحال، وأنكَرَ أيضاً «آلتناهم» بالمدِّ، وقال: لا يُروَى عن أحدٍ ولا يدلُّ عليه تفسيرٌ ولا عربية[11].

(١) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(٣) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٤) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وقرأ بها أيضاً يعقوب.
(٥) التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٦) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٧) الكشاف ٤/ ٢٤.
(٨) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٤٩، وقراءة ابن كثير في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.
(٩) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(١٠) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.
(١١) البحر المحيط ٨/ ١٤٩.

وليس كما قال، بل نَقَل أهلُ اللغة آلت بالمدِّ كما قرأ هرمز. وقرئ: «وما وَلَتْناهم»(١) من وَلَت يَلِتُ، ومعنى الكلِّ واحد، وجاء أَلَتَ بمعنى غلُظ، يُروَى أنَّ رجلاً قام إلى عمر رضي الله عنه فوعَظَه فقال: لا تَأْلِت على أمير المؤمنين، أي: لا تُغلِظ عليه(٢).

﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ﴾ أي: بكسبه وعمله ﴿رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: مرهون عند الله كأنَّ الكسبَ بمنزلة الدَّين، ونفسَ العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفكُّ الرهنُ ما لم يُؤَدَّ الدين، فإنْ كان العمل صالحاً فقد أدَّى؛ لأنَّ العمل الصالح يقبله ربُّه سبحانه ويصعدُ إليه عز وجل، وإنْ كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاصَ، إذ لا يصعدُ إليه سبحانه غيرُ الطَّيِّب، ولذا قال جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨-٣٩]، فإنَّ المرادَ: كلُّ نفسٍ رهنٌ بكسبها عند الله تعالى غير مفكوكٍ إلا أصحاب اليمين، فإنَّهم فكُّوا عنه رقابَهم بما أطابوه من كسبهم.

ووجهُ الاتصال على هذا أنَّه سبحانه لمَّا ذكر حالَ المتقين، وأنَّه عز وجل وَفَّر عليهم ما أعدَّه لهم من الثواب والتفضُّل، عقَّب بذلك الكلامِ ليدلَّ على أنَّهم فكُّوا رقابَهم وخلَّصوها، وغيرُهم بقِي معذَّباً لأنَّه لم يَفُكَّ رقبتَه، وكان موضعُه من حيث الظاهرُ أنْ يكونَ عقيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ليكونَ كلاماً راجعاً إلى حال الفريقَين: المدعُوعِين والمتقين، وإنما جعل متخلِّلاً بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفيرِ ما أعدَّ لهم؛ قال في «الكشف»: ليدلَّ على أنَّ الخلاص من بعضِ أجزيتهم أيضاً، ويلزمُ أنَّ عدمَ الخلاص جزاءُ المقابلين من طريق الإيماء، وموقعه موقع(٣) الاعتراض تحقيقاً لتوفير ما عدَّد؛ لأنَّه إنما يكونُ بعدَ الخلاص، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إلحاقَ الأبناء إنما كان تفضُّلاً على الآباء لا على الأبناء ابتداءً؛ لأنَّ التفضُّل فرعُ الفكِّ، وهؤلاء هم الذين فكُّوا فاستحقُّوا التفضُّل، وجعلُه استئنافاً بيانيّاً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيدٌ.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤، والنشر ٢/ ٣٧٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٤٩.

(٣) في (م): وقع.

وقيل: «رهينٌ» فعيلٌ بمعنى الفاعل، والمعنى: كلُّ امرئ بما كسب راهن، أي: دائمٌ ثابت؛ وفي «الإرشاد»: أنَّه أنسبُ بالمقام، فإنَّ الدوام يقتضي عدمَ المفارقة بين المرء وعملِهِ، ومِن ضرورته أنْ لا ينقُصَ من ثواب الآباء شيءٌ، فالجملةُ تعليلٌ لِمَا قبلها[1]. وأنت تعلم أنَّ فعيلاً بمعنى المفعول أسرعُ تبادراً إلى الذهن، فاعتبارُه أولَى، ووجهُ الاتصال عليه أوفقُ وألطفُ كما لا يخفى.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وزدناهم على ما كان لهم من مبادي التنعُّم وقتاً فوقتاً «مما يشتهون» من فنون النَّعماء وألوان الآلاء، وأصلُ المدِّ الجرُّ، ومنه المدةُ للوقت الممتدِّ، ثم شاعَ في الزيادة، وغلَب الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه، وكونُه وقتاً بعد وقتٍ [من][2] مفهوم المدِّ نفسِه.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذُبَ ملاعبةٍ، كما يفعل ذلك النَّدامَى بينهم في الدنيا لشدَّة سرورهم؛ قال الأخطل[3]:

نازعتُه طيِّبَ الرَّاحِ الشَّمولِ وقد صاحَ الدجاجُ وحانَت وقعةُ الساري

وقيل: التنازعُ مجازٌ عن التعاطي، والكأسُ مؤنَّثٌ سماعيٌّ كالخمر، ولا تسمَّى كأساً على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً، أو كانت قريبةً من الامتلاء، وقد تُطلَقُ على الخمر نفسِها مجازاً لعلاقة المجاورة.

وقال الراغب: الكأسُ: الإناء بما فيه من الشراب، ويسمَّى كلُّ واحدٍ منهما بانفراده كأساً[4].

وفسَّرها بعضُهم هنا بالإناء بما فيه من الخمر، وبعضُهم بالخمر، والأولُ أوفقُ بالتجاذب، والثاني بقوله سبحانه: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في شُرْبها، حيث لا يتكلَّمون في أثناء الشرب بلغو الحديثِ وسقطِ الكلام ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا يفعلون ما يؤثَّم به

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٩.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ١٠٥.
(٣) ديوانه ص ١١٦.
(٤) مفردات الراغب (كأس).

فاعلُه، أي: يُنسَب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف، كما هو ديدَنُ الندامَى في الدنيا، وإنما يتكلَّمون بالحِكَمِ وأحاسنِ الكلام، ويفعلون ما يفعلُه الكرام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا لغوَ» «ولا تأثيمَ» بفتحهما[(١)].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مماليكُ مختصُّون بهم، كما يُؤذِنُ به اللام، ولم يقل: غلمانهم، بالإضافة؛ لئلَّا يتوَّهم أنَّهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيُشفق كلُّ مَن خَدَم أحداً في الدنيا أنْ يكون خادماً له في الجنة، فيحزن بكونِهِ لايزال تابعاً.

وقيل: أولادهم الذين سبقوهم، فالاختصاص بالولادة لا بالملك. وفيه أنَّ التعبير عنهم بالغلمان غيرُ مناسب، وكذا نسبة الخدمة إلى الأولاد لا تُناسِب مقامَ الامتنان.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون في الصدف لم تنلْهُ الأيدي، كما قال ابن جبير. ووجْهُ الشبه البياضُ والصفاء، وجوِّز أنْ يُراد بـ «مكنون»: مخزون؛ لأنَّه لا يُخزنُ إلا الحسنُ الغالي الثمن.

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: بلغني أنَّه قيل: يا رسول الله، هذا الخادمُ مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنَّ فَضْل ما بينهم كفضل القمرِ ليلةَ البدْرِ على سائرِ الكواكب»[(٢)] وروي «أنَّ أدنَى أهلِ الجنةِ منزلةً مَن يُنادي الخادمَ مِن خُدَّامه فيُجيبُ[(٣)] ألفٌ ببابه: لبيك لبيك»[(٤)].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: يسأل كلُّ بعضٍ منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله، فيكون كلُّ بعضٍ سائلاً ومسؤولاً، لا أنَّه يسألُ بعضٌ معيَّنٌ منهم بعضاً آخر معيَّناً.

---

(١) التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٤٨، والطبري ٢١/ ٥٨٩-٥٩٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩.

(٣) في الأصل و(م): فيجيء، والمثبت من مسند الفردوس.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٩ من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم هذا التساؤل في الجنة كما هو الظاهر، وحكى الطبري عن ابن عباس أنَّه إذا بُعثُوا في النفخة الثانية[1]. ولا أراه يصحُّ عنه لبعده جداً.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المسؤولون وهم كلُّ واحدٍ منهم في الحقيقة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي: قبل هذا الحال ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أرقَّاءَ القلوب، خائفين من عصيان الله عز وجل، مُعتَنِين بطاعته سبحانه، أو: وَجِلِين من العاقبة، و«في أهلنا» قيل: يحتملُ أنَّه كنايةٌ عن كون ذلك في الدنيا، ويحتملُ أنْ يكونَ بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفي أهلهم لِتَبَعيَّتهم لهم في العادة ويكون قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذابَ النار النافذةِ في المسامِّ نفوذَ السَّموم، وهو الريحُ الحارَّةُ المعروفة، ووجْهُ الشبه وإنْ كان في النار أقوَى لكنَّه في ريح السَّموم لمشاهدته في الدنيا أعرفُ، فلذا جُعِل مشبَّهاً به.

وقال الحسن: «السَّموم» اسمٌ مِن أسماء جهنَّم عامّاً لهم ولأهلهم، فالمرادُ بيانُ ما مَنَّ الله تعالى به عليهم مِن اتِّباع أهلهم لهم.

وقيل: ذكر «في أهلنا» لإثبات خوفهم في سائر الأوقاتِ والأحوالِ بطريق الأَولَى، فإنَّ كونهم بين أهليهم مظنَّةُ الأمنِ، ولا أرى فيه بأساً، نعم كون ذلك لأنَّ السؤالَ عما اختصُّوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشيءٍ.

وقيل: لعلَّ الأَولَى أنْ يجعل ذلك إشارةً إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أنَّ قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ إلى آخره إشارةٌ إلى التعظيم لأمر الله تعالى، وتَرَكَ العاطفَ بجعل الثاني بياناً للأول ادعاءً للمبالغة في وجوب عدم انفكاكِ كلٍّ منهما للآخر. ولا يخفى ما فيه.

والذي يظهرُ أنَّ هذا إشارةٌ إلى الرجاء، وترك العطف لقصد تعْدَاد ما كانوا عليه، أي: إنَّا كنَّا من قبل ذلك نعبدُه تعالى ونسألُه الوقايَة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي: المحسِنُ، كما يدلُّ عليه اشتقاقُه من البرِّ بسائر موادِّه، لأنَّها ترجعُ إلى الإحسان كـ : بَرَّ في يمينه، أي: صدق؛ لأنَّ الصدقَ إحسانٌ في

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٠.

ذاته ويلزمُه الإحسانُ للغير، وأَبَرَّ الله تعالى حجَّه، أي: قبله؛ لأنَّ القبولَ إحسانٌ وزيادة، وأَبرَّ فلانٌ على أصحابه، أي: علاهم؛ لأنَّه غالباً ينشأُ عن الإحسان لهم، فتفسيرُه باللطيف كما روي عن ابن عباس، أو العالي في صفاته، أو خالق البِرِّ، أو الصادق فيما وَعَد أولياءه كما روي عن ابن جُريج، بعيدٌ، إلا أنْ يُراد بعضُ ماصَدُقَات أو غايات ذلك البِرِّ.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبِدَ أثاب وإذا سُئِلَ أجاب.

وقرأ أبو حيوة: «ووقَّانا» بتشديد القاف[١]. والحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي: «أنه» بفتح الهمزة لتقدير لام الجرِّ التعليلية قبلها، أي: لأنه[٢].

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت على ما أنت عليه من التذكير بما أُنزِلَ عليك من الآيات والذكرِ الحكيم، ولا تكترِث بما يقولون مما لا خيرَ فيه من الأباطيل.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ هو الذي يُخبِرُ بالغيب بضَرْبٍ من الظنِّ، وخصَّ الراغبُ الكاهنَ بمَن يُخبِرُ بالأخبار الماضية الخفيةِ كذلك، والعرَّاف بمَن يُخبِرُ بالأخبار المستقبلةِ كذلك[٣]. والمشهور في الكهانة الاستمداد من الجنِّ في الإخبار عن الغيب.

والباء في «بكاهن» مزيدةٌ للتأكيد، أي: ما أنت كاهنٌ ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ واختُلف في باء «بنعمة» فقال أبو البقاء: للملابسة؛ والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال والعامل فيه «كاهن»، أو «مجنون»، والتقدير: ما أنت كاهنٌ ولا مجنونٌ ملتبساً بنعمة ربك[٤]، وهي حالٌ لازمة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام مازال ملتبساً بنعمة ربِّه عز وجل.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠، والبحر المحيط ٨/ ١٥٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٠، وقراءة أبي جعفر ونافع والكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧.

(٣) مفردات الراغب (كهن).

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٥١.

وقيل: للقسم، فـ «نعمة ربك» مقسَمٌ به، وجوابُ القسم ما عُلم من الكلام، وهو: ما أنت بكاهن ولا مجنون. وهذا كما تقول: ما زيدٌ والله بقائمٍ. وهو بعيدٌ.

والأقربُ عندي أنَّ الباء للسببية، وهو متعلِّقٌ بمضمون الكلام، والمعنى: انتفَى عنك الكهانةُ والجنونُ بسبب نعمةِ الله تعالى عليك، وهذا كما تقول: ما أنا معسِرٌ بحمد الله تعالى وإغنائه، والمرادُ الردُّ على قائلي[1] ذلك، وإبطالُ مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام، وإلا فلا امتنانَ عليه ﷺ بانتفاء ما ذكر مع انتفائِهِ عن أكثر الناس.

وقيل: الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ما أُوتيَهُ ﷺ مِن صدق النبوة ورجاحة العقل التي لم يُؤتَها أحدٌ قبلَه، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتَلَهم الله تعالى أنَّى يؤفكون، وممن قال كاهن: شيبةُ بن ربيعة، وممن قال مجنون: عقبة بن أبي معيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل أيقولون: ﴿شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ أي: ننتظرُ ﴿بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: الدهر، وهو فَعول مِن المنِّ بمعنى القطع؛ لأنَّه يقطعُ الأعمارَ وغيرَها، ومنه: حبلٌ مَنين، أي: مقطوع.

والريب مصدرُ رَابَهُ إذا أقلَقَه، أُريدَ به حوادثُ الدهر وصُروفُه؛ لأنَّها تُقلِقُ النفوسَ، وعبَّر عنها بالمصدر مبالغةً، وجوّز أنْ يكونَ من رَابَ عليه الدهرُ، أي: نزل، والمرادُ بنزوله إهلاكُه.

وتفسيرُ «المنون» بالدهر مرويٌّ عن مجاهد، وعليه قول الشاعر:

تَرَبَّصْ بها ريبَ المَنون لعلَّها ... تُطَلَّقُ يوماً أو يموتُ حليلُها[2]

وبيتُ أبي ذؤيب:

أَمِنَ المنونِ وَرَيبه تتوجَّعُ ... والدهرُ ليس بمُعتِبٍ مَنْ يَجزَعُ[3]

---

(١) في (م): قائل.

(٢) البيت لفراص بن عتبة الأزدي كما في معجم الشعراء ص ١٩٢، ودون نسبة في جمهرة اللغة ١/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥١.

(٣) ديوان الهذليين ١/ ١، وسيرة ابن إسحاق ١/ ٤٨٤.

قيل: ظاهره ذلك، وكذلك قول الأعشى:

أَأَنْ رَأَت رجلاً أعشى أضرَّ به ريبُ المنون ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[(١)]

ولهذا أنشدَه الجوهريُّ شاهداً له[(٢)].

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس تفسيرَه بالموت[(٣)]، وهو مشتَرَك بين المعنَيَين، فقد قال المرزوقي في شرح بيت أبي ذؤيب المارِّ آنفاً[(٤)]: المنون قد يُراد به الدهرُ فيذكَّرُ وتكونُ الرواية: «ريبه»، وقد يُراد به المنية فيؤنَّث، وقد رُوي «ريبها»، وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا، وريبُها نزولها. انتهى. فلا تغفل.

وهو أيضاً من المنِّ بمعنى القطع، فإنَّها قاطعةُ الأماني واللذات، ولذا قيل: المنيةُ تقطعُ الأُمنيةَ، و«ريب المنون» عليه: نزولُ المنية.

وجوِّز أنْ يكونَ بمعنى حادث الموت على أنَّ الإضافة بيانيةٌ، روي أنَّ قريشاً اجتمعَت في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام، حتى قال قائل منهم ـ وهم بنو عبد الدار كما قال الضحاك ـ: تربَّصُوا به ريب المنون، فإنَّه شاعر سيهلِكُ كما هلك زهير والنابغةُ والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت[(٥)].

وقرأ زيد بن علي: «يُتَرَبَّصُ» بالياء مبنيّاً للمفعول، وقرأ: «ريبُ» بالرفع على النيابة[(٦)].

---

(١) ديوان الأعشى ص ١٠٥.

(٢) الصحاح (منن).

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣.

(٤) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٨/ ١٠٦، والذي في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٩٦، أنه قاله عند شرح بيت ليزيد بن الحكم بن أبي العاص يقول فيه:

ما بُخْلُ مَن هو للمَنو ن وريبها غَرَضٌ رجيمُ

(٥) أخرجه ابن إسحاق ١/ ٤٨١، والطبري ٢١/ ٥٩٣، عن ابن عباس رضي الله عنه دون قوله: فافترقوا على هذه المقالة، ونقله المصنف من البحر المحيط ٨/ ١٥١.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥، والبحر ٨/ ١٥١، والدر المصون ١٠/ ٧٦.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ تهكُّم بهم، وتهديدٌ لهم ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاكَكم كما تتربَّصون هلاكي، وفيه عِدَةٌ كريمةٌ بإهلاكهم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولُهم، وكانت قريش يُدْعَون أهلَ الأحلام والنُّهى، وذلك على ما قال الجاحظ(١)؛ لأنَّ جميعَ العالم يأتونَهم ويخالطونهم وبذلك يكمُلُ العقلُ، وهو يكمل بالمسافرة وزيادةِ رؤية البلاد المختلفةِ والأماكن المتباينة ومصاحبةِ ذوي الأخلاق المتفاوتة، وقد حصل لهم الغرض بدون مشقَّة.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومك لم يؤمنوا وقد وَصَفَهم الله تعالى بالعقل؟! فقال: تلك عقولٌ كادها الله عز وجل، أي: لم يَصْحَبْها التوفيقُ، فلذا لم يؤمنوا وكفروا.

وأنا لا أرى(٢) في الآية دلالةً على رجحان عقولهم ولعلَّها تدلُّ على ضدِّ ذلك.

﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في المقال، فإنَّ الكاهن والشاعرَ يكونان ذا عقلٍ تامٍّ وفطنة وقَّادة، والمجنون مغطَّى عقلُه مختلٌّ فكرُه، وهذا يُعربُ عن أنَّ القومَ لتحيُّرهم وعصبيتهم وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، حتى اضطربَت عقولُهم وتناقضَت أقوالُهم وكذَّبوا أنفسَهم من حيث لا يشعرون، وأمرُ الأحلام بذلك مجازٌ عن التأدية إليه بعلاقة السببية كما قيل، وقيل: جعلت الأحلام آمرةً على الاستعارة المكنية فتُشَبَّه الأحلامُ بسلطانٍ مطاعٍ تشبيهاً مضمَراً في النفس، وتثبت له الأمر على طريق التخييل.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدودَ في المكابرة والعناد، لا يحومون حولَ الرُّشد والسَّداد، ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب المحضةِ الخارجة عن دائرة العقول. وقرأ مجاهد: «بل هم»(٣).

---

(١) ينظر البيان والتبيين ١/١١.

(٢) في الأصل: أدري.

(٣) المحتسب ٢/٢٩١، والبحر المحيط ٨/١٥١.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلَقَه من تلقاء نفسه. وقال ابن عطية: معناه: قال عن الغير أنَّه قاله، فهو عبارةٌ عن كذب مخصوص[١]. وضمير المفعول للقرآن.

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادِهم يَرمون بهذه الأباطيل، كيف لا وما رسول الله ﷺ إلا واحدٌ من العرب، فكيف أتى بما عجزَ عنه كافَّةُ الأمم من العرب والعجم؟!

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مماثلٍ القرآن في النعوت التي استقلَّ بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإنَّ صدْقَهم في ذلك يَستدعي قدرتَهم على الإتيان بمثله، بقضيةِ مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخُطَب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النَّظْم والنثر، والمبالغةِ في حِفْظ الوقائع والأيام؛ ولا ريبَ في أنَّ القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك، فالكلام ردٌّ للأقوال المذكورة في حقِّه عليه الصلاة والسلام والقرآنِ بالتحدِّي، فإذا تحدَّوا وعجزُوا عُلم ردُّ ما قالوه وصحة المدعَى.

وجوَّز أنْ يكونَ ردّاً لزعمهم التقوُّلَ خاصةً، فإنَّ غيرَه مما تقدَّم حتى الكهانة كما لا يخفى أظهرُ فساداً منه، ومع ذلك إذا ظهَرَ فسادُ زعمِ التقوُّل ظهرَ فسادُ غيرِه بطريق اللزوم.

وقرأ الجحدري وأبو السمال: «بحديثِ مثلِهِ» على الإضافة[٢]، أي: بحديثِ رجلٍ مثلِ الرسول ﷺ في كونه أمياً لم يصحَب أهلَ العلم ولا رَحلَ عن بلده، أو مثله في كونه واحداً منهم فلا يُعْوِزُ أنْ يكون في العرب مثلُه في الفصاحة فليأتِ بمثل ما أَتَى به، ولن يَقدِرَ على ذلك أبداً.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: أم أُحدِثُوا وقُدِّرُوا هذا التقدير البديع من غير مقدِّرٍ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥٢.

وخالقٍ، وقال الطبري: المرادُ: أم خُلِقُوا من غير شيءٍ حيٍّ، فهم لا يؤمَرُون ولا يُنهَون كالجمادات[١].

وقيل: المعنى: أم خُلِقوا من غير علَّةٍ ولا لغايةِ ثوابٍ وعقابٍ، فهم لذلك لا يسمعون.

و«مِن» عليه للسببية، وعلى ما تقدَّم لابتداء الغاية، والمعوَّل عليه من الأقوال ما قدَّمنا، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: الذين خَلَقُوا أنفسَهم فلذلك لا يعبدون اللهَ عز وجل ولا يَلتفِتُون إلى رسوله ﷺ، إذ على القولَين لا يظهرُ حُسنُ المقابلة.

وإرادةُ خَلَقُوا أنفسَهم يُشعرُ به قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ﴾ إذ لو أُريد العمومُ لعُدِم ذكر المفعول لم يَظهر حُسْنُ المقابلة أيضاً.

وقال ابن عطية: المرادُ: أَهُمُ الذين خَلَقُوا الأشياء فهم لذلك يتكبَّرون، ثم خصَّ مِن تلك الأشياءِ السماوات والأرض لعظمهما وشرفهما في المخلوقات[٢]. وفيه ما سمعتَه.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سُئلوا: مَن خَلَقَكم وخَلَق السماوات والأرضَ؟ قالوا: الله، وهم غيرُ موقنين بما قالوا، إذ لو كانوا موقنين لَمَا أعرضُوا عن عبادته تعالى، فإنَّ مَن عَرَف خالقه وأيقَنَ به امتَثَل أمرَه وانقاد له.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: خزائنُ رزقه تعالى ورحمتِهِ حتى يَرزُقُوا النبوَّة مَن شاؤوا، ويمسكوها عمَّن شاؤوا.

وقال الرُّمَّاني: خزائنُه تعالى مقدوراتُه سبحانه.

وقال ابن عطية: المعنى: أم عندَهم الاستغناءُ عن الله تعالى في جميع الأُمور؛ لأنَّ المال والصحةَ والعزَّة وغيرَ ذلك من الأشياء من خزائن الله تعالى[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٥٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

وقال الزهراوي[١]: يريدُ بالخزائن العلمَ. واستحسنه أبو حيان[٢]، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم حاله منه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأربابُ الغالبون حتى يُدبِّروا أمرَ الربوبية ويَبنُوا الأمورَ على إرادتهم ومشيئتهم، فالمسيطرُ الغالب، وفي معناه قولُ ابن عباس: المسلَّط القاهرُ، وهو مِن سَيطَر على كذا: إذا راقبه وأقامَ عليه، وليس مصغَّراً كما يُتوهَّم، ولم يأتِ على هذه الزِّنَةِ إلا خمسةُ ألفاظٍ: أربعةٌ من الصفات، وهي: مهيمن ومسيطر ومُبيقر ومبيطر، وواحدٌ من الأسماء، وهو: مُجيمِر[٣] اسمُ جبل.

وقرأ الأكثر: «المصيطرون» بالصاد؛ لمكان حَرْف الاستعلاء وهو الطاء، وأشمَّ خلفٌ عن حمزة وخلَّاد عنه بخلافٍ الزايَ[٤].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ هو ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنة العالية فيُرجَى به السلامة، ثم جُعل اسماً لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ رفيع كالسبب، أي: أم لهم سلَّمٌ منصوبٌ إلى السماء.

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: صاعدين فيه، على أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بكونٍ خاصٍّ محذوفٍ وَقَع حالاً، والظرفية على حقيقتها، وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يستمعون» على تضمينه معنى الصمود.

وقال أبو حيان: أي: يستمعون عليه أو منه، إذ حروف الجرِّ قد يَسُدُّ بعضُها

---

(١) في الأصل و(م): الزهري، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢، والبحر ٨/ ١٥٢، وعنه نقل المصنف، والزهراوي: هو محدِّث الأندلس مع ابن عبد البر، أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف القرطبي، المتوفى سنة (٤٥٤هـ). شذرات الذهب ٥/ ٢٣٠.

(٢) في البحر المحيط ٨/ ١٥٢، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

(٣) في الأصل: مجيمن، ومجيمر: على لفظ تصغير «مِجْمَر» أرضٌ لبني فزارة، قال ابن دريد: هو جبل لهم، قال امرؤ القيس:

كأنَّ طُمَيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدوَةً ... من السَّيلِ والأغثاءِ فلْكَةُ مِغْزَلِ

وقال أبو عبيدة في غريب القرآن: مُجَيمِر: ماءٌ دون المدينة، ولم يوجد على بنائه إلا أربعة: مهيمن ومسيطر ومبيقر ومبيطر. ينظر معجم ما استعجم ٤/ ١١٨٨.

(٤) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٨.

مَسَدَّ بعضٍ، ومفعول «يستمعون» محذوفٌ[1]، أي: كلامَ الله تعالى، قيل: ولو نُزِّلَ منزلةَ اللازم جاز.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحُجَّة واضحةٍ تُصدِّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تسفيةٌ لهم وتَرْكِيْكٌ لعقولهم[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يكادُ يُعَدُّ من العقلاء، فضلاً عن الترقِّي إلى عالَم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت، والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة، وهو رجوعٌ إلى خطابه ﷺ وإعراضٌ عنهم ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من الغُرْم والغَرامة وهو ـ كما قال الراغب ـ ما ينوبُ الإنسانَ في ماله من ضررٍ لغير جنايةٍ منه[3]. فالكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: مِن التزام مَغرَمٍ.

وفسَّره الزمخشريُّ بالتزام الإنسان ما ليس عليه[4]، فلا حاجةَ إلى تقدير، لكن الذي تقتضيه اللغة هو الأول.

﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: محمَّلون الثقل، فلذلك لا يتَّبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوحُ المحفوظ المثبَتُ فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ويُخبرون به الناس؛ قاله ابن عباس.

وقال ابن عطية: أم عندهم علمُ الغَيب فهم يُثبِتُون ما يزعمون للناس شرعاً، وذلك عبادةُ الأوثان وتَسْييبُ السوائبِ وغيرُ ذلك من سيرهم[5]. وقال قتادة: «أم عندهم الغيب» فهم يعلمون متى يموتُ محمد ﷺ الذي يتربَّصُون به. وفسَّر بعضُهم «يكتبون» بـ: يحكمون.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٢.

(٢) في الأصل: لقولهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥١.

(٣) مفردات الراغب (غرم).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم في حقِّه ﷺ بدار الندوة مما هو معلومٌ من السِّيَر، وهذا من الإخبار بالغيب، فإن قصةَ دار الندوة وقعت في وقت الهجرة، وكان نزولُ السورة قبلَها كما تدلُّ عليه الآثار.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون المريدون كيدَه عليه الصلاة والسلام، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيِّز الصلة من الكفر وتعليل الحكمِ به، وجوِّز أنْ يُراد جميعُ الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً.

﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: الذين يحيق بهم كيدُهم ويعودُ عليهم وبالُه، لا مَن أرادُوا أنْ يكيدوه، وكان وبالُه في حقِّ أولئك قتلَهم يومَ بدر في السنة الخامسة عشر من النبوة؛ قيل: ولذا وَقَعت كلمةُ «أم» مكررةً هنا خمسَ عشرة مرةً للإشارة لِمَا ذكر، ومثلُه ـ على ما قال الشهاب ـ لا يُستبعَدُ من المعجزات القرآنية، وإنْ كان الانتقالُ لمثله خَفِيًّا[1] ومناسبته أخفى.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: هم المغلوبون في الكيد، مِن كايدتُه فكدْتُه.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يُعينُهم ويحرسُهم من عذابه عز وجل.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، على أنَّ «ما» مصدرية، أو عن شِرْكة الذي يُشركونه، على أنَّها موصولة وقبلها مضافٌ مقدَّر والعائدُ محذوف.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعةً، فهو مفردٌ، وقد قرئ في جميع القرآن «كِسَفاً» و«كِسْفاً» جمعاً وإفراداً إلا هنا فإنَّه على الإفراد وحده[2]، وتنوينُه للتفخيم، أي: وإنْ يَرَوا كسفاً عظيماً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا﴾ مِن فَرْط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ﴾ أي: هو سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متراكمٌ ملقًى بعضُه على بعضٍ، أي: هم في الطغيان بحيث لو أَسقَطْنا عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] لقالوا: هو سحاب متراكم يُمطرُنا، ولم يُصدِّقوا أنَّه كِسْفٌ ساقطٌ لعذابهم.

---

(١) في الأصل و(م): خفيٌّ، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/١٠٨.
(٢) النشر ٢/٣٠٩، وحاشية الشهاب ٨/١٠٨.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غيرَ مكترثٍ بهم، وهو على ما في «البحر» أمرُ موادعةٍ منسوخٌ بآية السيف[(١)].

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ وقرأ أبو حيوة: «يلْقَوا»[(٢)] مضارع لَقِيَ ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول، وهي قراءة عاصم وابن عامر وزيد بنِ علي وأهل مكة في قول شبل بن عباد[(٣)]، من صعَقَتْه الصاعقةُ، أو مِن أَصْعَقته، وقرأ الجمهور وأهل مكة في قول إسماعيل: «يَصعَقون» بفتح الياء والعين[(٤)]، والسُّلَمي بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعيّاً[(٥)].

والمرادُ بذلك اليوم يومُ بدر، وقيل: وقتُ النفخة الأولى، فإنَّه يُصعَقُ فيه مَن في السماوات ومَن في الأرض.

وتعقِّب بأنَّه لا يُصعَقُ فيه إلا مَن كان حيّاً حينئذٍ، وهؤلاء ليسوا كذلك، وبأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ ـ أي: شيئاً من الإغناء ـ بدلٌ من «يومهم»، ولا يخفى أنَّ التعرُّض لبيان عدمِ نفع كيدهم يَستدعي استعمالَهم له طمعاً بالانتفاع به، وليس ذلك إلا ما دبَّروه في أمره ﷺ من الكيد الذي مِن جملته مناصبتُهم يوم بدر، وأما النفخةُ الأُولَى فليسَت مما يجري في مدافعته الكيد والحيل.

وأُجيبَ عن الأول: بمنع اختصاص الصَّعْقِ بالحيِّ فالموتَى أيضاً يصعَقُون، وهم داخلون في عموم «من» وإنْ لم يكن صعقُهم مثلَ صَعْقِ الأحياء مِن كل وَجْهٍ، وهو خلافُ الظاهر فيحتَاجُ إلى نقلٍ صحيح.

وعن الثاني: بأنَّ الكلام على نَهْج قوله:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٣٧٠.

(٣) قراءة عاصم وابن عامر في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، والكلام من البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

(٤) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، والبحر ٨/ ١٥٣، والكلام منه.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٣.

علـى لاحِـبٍ لا يُـهـتـدَى بـمَـنـارِه(١)

فالمعنى: يومَ لا يكونُ لهم كيدٌ ولا إغناءٌ، وهو كثيرٌ في القرآن، وبابٌ من أبواب البلاغة والإحسان.

وقيل: هو يوم القيامة. وعليه الجمهور، وفيه بحثٌ.

وقيل: هو يومُ موتهم. وتُعقِّب بأنَّ فيه ما فيه، مع أنَّه تأباه الإضافة المُنبئةُ عن اختصاصه بهم، فلا تغفل.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دَفْع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لهم، ووضع الموصول موضعَ الضمير لِمَا ذكر قبلُ، وجُوِّز العمومُ وهم داخلون دخولاً أولياً ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ دون ما لاقَوه من القتل، أي: قبله، وهو ـ كما قال مجاهد ـ القَحْطُ الذي أصابهم سبْعَ سنين، وعن ابن عباس: هو ما كان عليهم يومَ بدر والفتح. وفسِّر «دون ذلك» بـ : قَبْل يوم القيامة، بناءً على كون يومهم الذي فيه يُصعَقون ذلك.

وعنه أيضاً وعن البراء بنِ عازب أنَّه عذابُ القبر، وهو مبنيٌّ على نحو ذلك التفسير، وذهب إليه بعضُهم بناءً على أنَّ «دون ذلك» بمعنى: وَرَاء ذلك، كما في قوله:

يُـريـك الـقـذَى مِـن دونـهـا وَهْـوَ دونَـهـا(٢)

وإذا فسِّر اليومُ بيوم القيامة ونحوه، و«دون ذلك» بقبله، وأُريدَ العمومُ من الموصول، فهذا العذابُ عذابُ القبر، أو المصائبُ الدنيوية، وفي مصحف عبد الله: «دون ذلك قريباً»(٣).

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٦٦، وعجزه:

إذا سـافَـهُ الـعَـوْدُ الـنَّـبـاطـيُّ جـرجـرا

وسلف ١/ ٤٥٧.

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٢٦٩، وبدون نسبة في اللسان (دون)، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥٢-١٥٣، ولفظ البيت في الديوان واللسان:

تـريـك الـقَـذَى مِـن دونـهـا وهْـيَ دونَـهُ إذا ذَاقَـهـا مَـن ذاقـهـا يَـتَـمَـطَّـقُ

(٣) الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الأمر كما ذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فيهم مَن يعلم ذلك وإنَّما يُصِرُّ على الكفر عناداً، أو لا يعلمون شيئاً.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعودِ وإبقائك فيما بينَهم، مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحراستنا، فالعينُ مجازٌ عن الحفظ، ويُتجوَّزُ بها أيضاً عن الحافظ، وهو مجازٌ مشهور، وفي «الكشاف»[(١)]: هو مَثَلٌ، أي: بحيث نراك ونَكْلَؤُك، وجَمَع العينَ هنا لإضافته إلى ضمير الجمع، ووحّد في «طه»[(٢)] لإضافته إلى ضمير الواحد. ولوَّح الزمخشريُّ في سورة المؤمنين إلى أنَّ فائدةَ الجمع الدلالة على المبالغة في الحفظ، كأنَّ معه مِن الله تعالى حُفَّاظاً يكلؤونه بأعينهم[(٣)].

وقال العلامة الطيبي: إنه أفردَ هنالك لإفراد الفعل وهو كلاءَةُ موسى عليه السلام، وهاهنا لمَّا كان لتصبير الحبيبِ على المكايد ومَشاقِّ التكاليف والطاعات ناسبَ الجمع؛ لأنَّها أفعالٌ كثيرة كلٌّ منها يحتاج إلى حراسةٍ منه عز وجل. انتهى.

ومَن نظر بعين بصيرته عَلِمَ من الآيتَين الفرقَ بين الحبيب والكليم عليهما أفضلُ الصلاة وأكملُ التسليم، ثم إنَّ الكلامَ في نظير هذا على مذهب السلف مشهورٌ.

وقرأ أبو السمال: «بأعينَّا» بنونٍ مشددة[(٤)].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحان الله، ملتبساً بحمده تعالى على نَعمائه الفائتةِ الحَصْر، والمرادُ: سبِّحْه تعالى واحْمَدْه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من كلِّ مجلسٍ؛ قاله عطاء ومجاهد وابن جبير، وقد صحَّ من رواية أبي داود والنسائي وغيرهما عن أبي برزة الأسلمي أنَّ رسول الله ﷺ كان يقولُ إذا أرادَ أنْ يقومَ من المجلس: «سُبحانَكَ اللهمَّ وبحمْدِكَ، أشهدُ أنْ لا إله إلا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك» فسئل

---

(١) ٤/ ٢٦.

(٢) آية رقم (٣٩).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، والبحر المحيط ٨/ ١٥٣.

عن ذلك فقال: «كفارةٌ لِمَا يكون في المجلس»[١] والآثار في ذلك كثيرة.

وقيل: حين تقومُ إلى الصلاة، أخرج أبو عبيد وابنُ المنذر عن سعيد بن المسيب قال: حقّ على كلِّ مسلم حين يقومُ إلى الصلاة أنْ يقولَ: سبحانَ الله وبحمْدِهِ؛ لأنَّ الله تعالى يقول لنبيِّه ﷺ: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)[٢].

وأخرج سعيدُ بن منصور وغيرُه عن الضحاك أنَّه قال في الآية: حينَ تقومُ إلى صلاةٍ تقولُ هؤلاء الكلمات: سُبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارَك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرُك[٣]. وحكاه في «البحر» عن ابن عباس[٤]. وأخرج عنه ابن مردويه أنَّه قال: سَبِّح بحمد ربِّك حينَ تقومُ من فراشِكَ إلى أنْ تدخُلَ في الصلاة[٥]. وروي نحوه عن ابن السائب.

وقال زيد بن[٦] أسلم: حين تقوم من القائلة، والتسبيحُ إذ ذاك هو صلاة الظهر.

و قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إفرادٌ لبعض الليل بالتسبيح لِمَا أنَّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرياء كما يلوِّح به تقديمه على الفعل.

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وقتَ إدبارها من آخر الليل، أي: غيبتها بضوء الصباح.

وقيل: التسبيحُ من الليل صلاةُ المغرب والعشاء، وإدبار النجوم ركعتا الفجر.

وعن عمر رضي الله عنه وعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبي هريرة والحسن رضي الله عنهم: التسبيحُ من الليل النوافلُ، وإدبار النجوم ركعتَا الفجر.

وقرأ سالم بنُ أبي الجعد والمنهالُ بنُ عمرو ويعقوب: «أدبار» بفتح الهمزة[٧]

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٥٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠١٨٧).
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٢١.
(٣) عزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٠، وأخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦.
(٤) ينظر البحر ٨/ ١٥٣.
(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.
(٦) قوله: بن، ساقط من (م)، والأثر في البحر المحيط ٨/ ١٥٣.
(٧) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، والبحر المحيط ٨/ ١٥٣، وهي خلاف المشهور عن يعقوب.

جمع دبر بمعنى عقب، أي: في أعقابها إذا غَربَت، أو خَفِيَت بشعاع الشمس.

هذا ونظمُ الآيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ إلخ فيه غرابةٌ، ولم أرَ أحداً كشَفَ عن لِثَامه كصاحب «الكشف» جزاه الله تعالى خيراً، ولغاية حُسْنِه وكونِه مما لا مزيدَ عليه أحببتُ نقلَه بحذافيره لكنْ مع اختصارٍ ما، فأقول:

قال: أوْمَأ الزمخشريُّ إلى وجهَين في ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]: أحدهما: أنَّه حكايةُ قولهم المضْطَرب على وجهه، والثاني: أنَّه تدرُّجٌ منه سبحانه في حكاية ما قالوه من المنكر إلى ما هو أدخَلُ فيه، والأولُ ضعيفٌ فيما نحن فيه؛ لأنَّ ما سيق له الكلام ليس اضطرابَ أقوالهم فتُحكَى على ما هي عليه، بل تسليتُهُ عليه الصلاة والسلام، وأنَّه لا محالةَ ينتقمُ له منهم، وأنَّ العذاب المكذَّبَ به واقعٌ بهم جزاءً لتكذيبهم بالمُنبِئ والنَّبأ والمُنبَّأ به، فالمتعيِّنُ هو الثاني، ووجْهُه ـ والله تعالى أعلم ـ أنَّ قوله: «فذكِّر» معناه: إذ ثَبَت كونُ العذاب واقعاً، وكونُ الفريقَين المصدِّقين والمكذِّبين مَجزيِّين بأعمالهم، وأنَّك على الحقِّ المبين الذي مَن كذَّب به استحقَّ الهوان، ومَن صدَّق استحقَّ الرضوان، فدُمْ على التذكير ولا تُبالِ بما تُكايَد، فإنك أنت الغالبُ حُجَّةً وسيفاً في هذه الدار، ومنزلةً ورفعةً في دار القرار.

ومِن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَنتَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ تفصيلُ هذا المجمَل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء، وأنَّهم بمرأًى من الله تعالى ومسمَعٍ، فلا محالةَ ينتقمُ لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم، وفيه أنَّ النبي ﷺ من الله تعالى بمكانٍ لا يُقادَر قدرُه، فهو شدٌّ مِن عَضُد التسلِّي.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ إلخ فيه أنَّ مَن أُنعِمَ عليه بالنبوة يستحيلُ أنْ يكونَ أحدَ هذَين، وبدأ بقولهم المتناقضِ لِيُنَبِّه أولاً على فساد آرائهم ويجعلَه دستوراً في إعراضهم عن الحقِّ وإيثارِ اتِّباع أهوائهم، فما أبعدَ حال مَن كان أتقَنَهم رأياً وأرجحَهم عقلاً وأبينَهم آياً، منذ ترعرَع إلى أنْ بَلَغ الأَشُدَّ عن الجنون والكهانة،

على أنَّهما متناقضان؛ لأنَّ الكهَّان كانوا عندهم من كامليهم، وكان قولهم إماماً متَّبعاً عندهم، فأين الكهانةُ من الجنون؟

ثم تَرقَّى مُضْرِباً إلى قولهم فيه ـ وحاشاه ﷺ ـ أنَّه شاعر؛ لأنَّه أدخلُ في الكذب من الكاهن والمجنون، وقِدماً قيل: أحسنُ الشعر أكذبُه، ليبيِّن حال تَلَجْلُجِهم واضْطِرابهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ من باب المجازاة بمثل صنيعهم، وفيه تَتْميمٌ للوعيد، فهذا بابٌ من إنكارهم هدَمَه سبحانه أولاً تلويحاً بقوله تعالى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ وثانياً تصريحاً بقوله جل وعلا: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ كأنَّه قيل: دَعْهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة، ثم قيل: لا بل ذلك من طُغيانهم؛ لأنَّه أدخلُ في الذمِّ من نقصان العقل وأبلغُ في التسلية؛ لأنَّ مَن طغَى على الله عز وجل فقد باء بغضبه، ثم أخذ في بابٍ أوغل في الإنكار، وهو نسبةُ الافتراء إليه ﷺ، وذلك لأنَّ الافتراء أَبعدُ شيءٍ من حاله لاشتهاره بالصدق، على أنَّ كونه افتراءً وعَجْزَهم عن الإتيان بأقصر سورةٍ مِن هذا المفتَرَى متنافيان، لدلالته على الصدق على ما مرَّ في «الأحقاف»[1]؛ ولأنَّ الشاعر لا يتعمَّد الكذبَ لذاته، ثم قد يكونُ شعرُه حِكَماً ومواعظَ وهو لا يُنسَبُ فيه إلى عارٍ، والتدرُّجُ عن الشعر هاهنا عكس التدرُّج إليه في «الأنبياء»[2]، لأنَّ بناءَ الكلام هاهنا على التدرُّج في المناقضة والتوَغُّلِ في القَدْح فيه عليه الصلاة والسلام ونَفْي رسالته، وهنالك على[3] القدح في بعضٍ من الذكر متجدِّدِ النزول، فقيل: إنَّ افتراءه لا يَبعُدُ ممن هو شاعرٌ ذو افتراءات كثيرة، وأين هذا من ذاك؟

وللتنبيه على التوغُّل جيء بصريح حَرْف الإضراب في الرد فقيل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وعقَّب بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ ثم مَن لا يؤمن أشدُّ إنكاراً له من الطاغي، كما أنَّ المفتري أدخلُ في الكذب من الشاعر.

---

(١) آية رقم (٨).
(٢) آية رقم (٥٠).
(٣) في (م): عن.

ثم أخذ في أسلوبٍ أبلغَ في الردِّ على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما، ثم الشعر، ثم الافتراء، حيث نزَّلَ القائلين منزلةَ مَن يدَّعي أنَّه خُلِق مِن غير شيءٍ، أي: مقدِّرٍ وخالق، وإلا لأهمَّهم البحثُ عن صفاته وأفعاله فلم يُنكروا منك ما أنكروا، ومَن حَسِب أنَّه مستغنٍ عن الموجِد نَسَب رسولَه إلى الجنون والكهانة، لا بل كمن يدَّعي أنَّه خالقُ نفسِهِ فلا خالقَ له ليبحثَ عن صفاته، فهو ينسبُه إلى الشعر إذ لا يرسَلُ إليه البتة، والشعرُ أدخَلُ في الكذب، لا بل كمن يدَّعي أنَّه خَلَقَ السماوات والأرضَ وما بينهما، فهو ينسبُه إلى الافتراء حيث لم يرسله.

ثم أَضربَ صريحاً عنه بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ ومَن لا إيقانَ له بمثل هذا البديهي لا يبعدُ أنْ يَزِنَّكَ بما زَنَّ[1]، فكأنه قيل: مقالتُهم تلك تؤدِّي إلى هذه، لا أنَّهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم في العناد، ثم بُولِغَ فيه فجيء بما يدلُّ على أنَّ الرسول لابدَّ أنْ يكونَ مفترياً غيرَ صالحٍ للنبوة في زعمهم، فالأول: لمَّا لم يمنع تعدُّد الآلهة إنما يدلُّ على افترائه من حيث إنَّ أحدَ الخالقين لا يدعو الآخرَ إلى عبادته، والثاني: يمنعه بالكلِّية لأنَّه إذا كان عندهم جميعُ خزائن ربِّه وهم ما أَرسَلُوه لَزِمَ أنْ يكون مفترياً ألبتة، وأَدْمَجَ فيه إنكارَهم للمعاد، ونسبتَهم إياه ﷺ في ذلك أيضاً خاصةً إلى الافتراء، والحملُ على خزائن القدرة أظهرُ؛ لأنَّ «أم عندهم الغيب» إشارةٌ إلى خزائن العلمِ. ولمَّا كان المقصودُ هنالك أمرَ البعث على ما سيحقَّق إن شاء الله تعالى كان هذا القولُ أيضاً من القبول بمكانٍ، ولا يخفَى ما في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ من الترقِّي.

ثم لمَّا فرغ من ذلك وبيَّن فسادَ ما بنَوا عليه أمرَ الإنكار بدليل العقل قيل: لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى، وهو أظهرُ استحالةً، فتهكَّم بهم وقيل: «أم[2] لهم سلَّمٌ يستمعون».

---

(١) أي: يتَّهمك بما اتُّهم.

(٢) في الأصل و(م): بل، والمثبت موافق لما في الآية.

وذَيَّل بقوله تعالى: (أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ) إشعاراً بأنَّ مَن جعل خالقَه أدونَ حالاً منه لم يُستبعَدُ منه تلك المقالات الخرقاء، كأنَّه سلَّى ﷺ، وقيل: ناهيك بتساوي الطعنَين في البطلان وبما يَلقَون مِن سوء مغبَّتهما.

ثم قيل: «أم تسألهم أجراً» أي: إنَّ القومَ أربابُ ألبابٍ، وليسُوا مِن تلك الأوصاف في شيء، بل الذي زَهَّدَهم فيك أنَّك تسألهم أجراً، مالاً أو جاهاً أو ذكراً، وفيه تهكُّمٌ بهم وذمٌّ لهم بالحسد واللؤم، وأنَّهم مع قصورِ نَظَرهم عن أمر الميعاد لا يبنون الأمرَ على المتعارَف المعتادِ، إذ لا أحدَ مِن أهل الدنيا وذوي الأخطار يَجْبَهُ الناصحَ المبرَّأَ ساحته عن لَوْث الطمعِ بتلك المقالات، على أنَّه حسدٌ لا موقعَ له عند ذويه، فليسوا في أنْ يحصُلَ لهم نعمةُ النبوة، ولا هو ممن يَطمَعُ في نِعَمهم إحدى الثلاث.

ثم قيل: «أم عندهم الغيب» على معنَى: بل أَعندَهم اللوحُ فيعلمون كلَّ ما هو كائن، ويكتبون فيه تلك المعلوماتِ، وقد علموا أنَّ ما تدَّعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب! والمقصودُ من هذا نَفْيُ المُنْبَأ به، أعني: البعثَ على وجهٍ يتضمَّن دفْعَ النبوة أيضاً إدماجاً عكس الأول، ولهذا أَخَّره عن قوله تعالى: (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ) فقد سلفَ أنَّ مصبَّ الغرض حديثُ النبأ والمُنبِئ(١) والمنبأ به، فقضى الوَطَرَ من الأولَين مع الرمز إلى الأخير، ثم أخذَ فيه مع الرمز إليهما قضاءً لحقِّ الإعجاز، ففي الغيب إشارةٌ إلى الغيب أعني الساعةَ أول كلِّ شيءٍ، وفيه تَرَقٍّ في الدفع مِن وَجْهٍ أيضاً؛ لأنَّ العلمَ أشملُ مورداً من القدرة؛ ولأنَّ الأول إنكارٌ من حيث إنَّهم لم يرسلوه، وهذا من تلك الحيثية، ومِن حيث إنَّهم ما علموا بإرسال غيرِه إياه أيضاً مع إحاطة عِلْمهم لكنَّه غيرُ مقصودٍ قصداً أوليًّا.

ثم خَتَم الكلامَ بالإضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم بأنَّهم يريدون بك كيداً، فهم يَنصبون لك الحبائلَ قولاً وفعلاً، لا يقفون على هذه المقالة وحدَها، وهم المكيدون لا أنتَ قولاً وفعلاً وحُجَّةً وسيفاً، وحقَّق ما ضمَّنه من الوعيد بقوله

---

(١) في (م): المنبأ.

سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيُنجيهم من كيده وعذابه، لا والله سبحان الله عن أنْ يكونَ إلهٌ غيرُه، ومنه يظهرُ أنَّ حَمْل الذين كفروا على المريدين به كيداً أظهرُ في هذا المساق. انتهى.

وكأنَّ ما بعد تأكيدٌ[1] لأمر طغيانهم، ومزيدُ تحقيقٍ للوعيد، ومبالغةٌ في التسلية. ويُعلَم مما ذكره ـ لازالت رحمةُ الله تعالى عليه متصلةً ـ أنَّ «أم» في كلٍّ ذلك منقطعةٌ، وهي مقدَّرة بـ «بل» الإضرابية ـ والإضرابُ هاهنا واقعٌ على سبيل الترقي ـ وبالهمزة وهي للإنكار، وهو ما اختاره أبو البقاء[2] وكثير من المفسرين، وحكى الثعلبيُّ عن الخليل أنَّها متَّصلةٌ، والمرادُ بها الاستفهامُ[3]، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما ذكروه من باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إشارةٌ إلى قالب الإنسان ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ إشارةٌ إلى سرِّه ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ إشارةٌ إلى قلبه ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ إشارةٌ إلى روحه، ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ إشارة إلى صفته، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ إشارةٌ إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضبِ والكِبْر.

وقيل: «الطور» إشارة إلى ما طار من الأرواح من عالم القدسِ والملكوت حتى وَقَع في شباك عالم الملك، والكتاب المسطور في الرق المنشور إشارةٌ إلى النقوش الإلهية المدرَكَة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة في صحائف الآفاق، «والبيت المعمور» إشارة إلى قَلْب المؤمن المعمور بالمعرفة والإخلاص «والسقف المرفوع» إشارةٌ إلى العالم العلويِّ المرفوع عن أرض الطبيعة «والبحر المسجور» إشارة إلى بحر القدرة المملوءِ من أنواع المقدورات التي لا تتناهى، وقيل: إشارةٌ إلى الفضاء الذي فيه الملائكةُ المهيمون؛ ووصفه بـ «المسجور» إما لأنَّه مملوءٌ منهم، وإما لأنَّه سُجِرَ بنيران الهيام، ولذا لا يعلم أحدُهم بسوى الله عز وجل، وقيل غير ذلك.

---

(١) في (م): تأكيداً.
(٢) في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٥.
(٣) تفسير الثعلبي ٩/ ١٣٢، والبحر المحيط ٨/ ١٥١-١٥٢، وعنه نقل المصنف.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يخوضون في غمرات البحر اللُّجِّي الدنيوي، ويلعبون فيها بزَبَدِها الباطل ومتاعها القليل، ويكذِّبون المستخلَصين عن الأكدار المتحلِّين بالأنوار إذا[1] أنذروهم أنَّ المتقين هم أضداد أولئك.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعَت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهو عذابُ الحجاب ﴿كُلُواْ﴾ من ثمرات المعارفِ المختصَّة باللطيفة النفسية ﴿وَٱشْرَبُواْ﴾ من مياه العيون المختصَّة باللطيفة القلبية.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: مقام العبودية ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: عند نزول السكينة عليك ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: عند ظهور نورِ شمس الوَجْه، وتسبيحُه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجودٍ غيرِ وجوده تعالى الحقِّ، فإنَّ إثباتَ ذلك شركٌ مطلَقٌ في ذلك المقام، أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في (م): إذ.

(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ

سورة النجم مكية وهي تتناول أهداف السور المكية ، العقيدة بموضوعاتها الرئيسية « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والنشور » وتسير السورة في مقاطع أربعة تعرض فيها ظلالَ السورة الكريمة ، ومقاصدها السامية بأوضح بيان ، وأجلى برهان .

تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن « الوحي » في المقطع الأول ، تستهدف به بيان حقيقة الوحي الذي كذَّب به المشركون ، وأنكروا على الرسول ﷺ أن يكون الله قد أوحى له أو أرسله ، وتصف مشهدين من مشاهد الوحي التقى فيها أمينُ السماء بأمين الأرض ، وأوحى إليه عن ربه ما أوحى ، وتؤكد الآياتُ الكريمة أن الرسول ﷺ تلقَّى عن جبريل ما تلقَّى ، عن رؤيةٍ وتمكنٍ ودقة ، وأنه رآه رأي العين مرتين : مرَّةً في الأرض حيث تطلع الشمس في الأفق الأعلى ، ومرةً أخرى عند سدرة المنتهى ، في السموات العُلَى ، في ليلة الإسراء والمعراج ، وقد رآه في المرتين في صورته الحقيقية كما قال ابن مسعود : إن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما الأولى فإنه سأله أن يراه فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلّى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح سدَّ بها الأفق ، وأما الثانية فحين صعد معه إلى السموات العلى .. وقد ذكرت السورة الكريمة هاتين المرتين ، وبدأ تعالى السورة بالقسم بالنجم الساطع اللامع

على أن محمداً رسوله وأن جبريل قد أوحى إليه بأمره تعالى ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحيٌ يُوحى . علَّمه شديد القُوى . ذو مِرَّة - أي ذو قوة - فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قابَ قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نَزْلَةً أخرى . عند سِدْرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذْ يَغْشى السدرةَ ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ .

وتنتقل السورة لتتحدث في المقطع الثاني عن آلهتهم المزعومة ، وأوهامهم عن الملائكة ، وأساطيرهم في شفاعة الأصنام وشفاعة الملائكة الكرام ، واعتمادهم في هذا كله على الظنِّ الذي لا يغني من الحق شيئاً ، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد عن تثبتٍ وصدقٍ ويقين ﴿ أفرأيتم اللاتَ والعُزّى . ومناةَ الثالثةَ الأخرى . ألكم الذَّكَرُ وله الأنثى ؟ تلكَ إذن قِسْمَةٌ ضِيزَى . إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إنْ يتبعونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهُدى . أم للإنسان ما تمنَّى ؟ فللَّهِ الآخرة والأولى . وكم من مَلَك في السموات ِ لا تُغْني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذنَ اللهُ لمن يشاءُ ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعونَ إلا الظنَّ ، وإن الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً﴾ . وفي المقطع الثالث يلقّنُ الرسول ﷺ الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ، ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحدِّ لا يعلم وراءه شيئاً ، ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء عادل يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ أن كانوا أجنةً في

بطون أمهاتهم ، فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم اليقيني – لا على الظن والوهم – يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم في نهاية المطاف ﴿فأعرِضْ عَمَّنْ تولَّى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مبلغُهم من العلم ، إنَّ ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنةٌ في بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وفي المقطع الأخير تستعرض السورة الكريمة أصول العقيدة – كما هي ثابتة منذ أقدم الرسالات ، من عهد إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى – من فردية التَّبِعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء ، ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرِّفِ في أمرهم كلِّهِ تصرف المشيئة المطلقة ﴿أفرأيت الذي تولَّى . وأعطى قليلاً وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم يُنبَّأ بما في صحف موسى . وإبراهيمَ الذي وفَّى . ألاَّ تزر وازرةٌ وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾ ؟ وبعد أن تذكر السورة آثار قدرة الله ووحدانيته ، ودلائل عظمته وجلاله ، وتلفت أنظار المشركين إلى مصارع الغابرين ، تختم بهذا الإنذار الرهيب ، الذي يتناسق مع جوِّ السورة وموضوعها ﴿هذا نذيرٌ من النُّذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا للهِ واعبدوا﴾ ويا له من إنذار رهيب ، تتقطع له القلوب ، وتنخلع لهوله الأفئدة ! !

سورة النجم

[٨٧٣] أخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم[١] عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير هو صديق فبلغ ذلك النبي [ﷺ] فقال: **«كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد»** فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] الآية.

[٨٧٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن النبي [ﷺ] خرج في مغزاه فجاء رجل يريد أن يحمل فلم يجد ما يخرج عليه فلقي صديقاً له فقال: أعطني شيئاً فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمل ذنوبي فقال له: نعم فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾[٣] الآيات.

[٨٧٥] وأخرج[٤] عن دراج أبي السمح قال: خرجت سرية غازية فسأل رجل رسول الله [ﷺ] أن يحمله فقال: **«لا أجد ما أحملك عليه»** فانصرف حزيناً فمر برجل رحاله منيخة بين يديه فشكا إليه فقال له الرجل: هل لك أن أحملك فتلحق الجيش بحسناتك فقال: نعم فركب فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٥].

[٨٧٦] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: أن رجلاً أسلم فلقيه بعض من يعيره فقال: أتركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار قال: إني خشيت عذاب الله قال: أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك فأعطاه شيئاً فقال:

---

[٨٧٣] (١) الحديث رواه أحمد في مسنده (٣/٥٣) وابن أبي عاصم (١/ ١١٠) والبخاري في تاريخه (٧/ ٢٣) وعبد الرزاق في مصنفه (٤٩٢٤) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٦) وأصل الحديث في سنن الترمذي (١١٣٦) وأبي داود (٢١٧١).

(٢) سورة النجم: الآية (٣٢).

[٨٧٤] (٣) سورة النجم: الآية (٣٣).

[٨٧٥] (٤) راجع فقرة (٥٤٨).

(٥) سورة النجم: الآية (٣٣ و٤١).

زدني فتعاسرا حتى أعطاه شيئاً وكتب كتاباً وأشهد له ففيه نزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤)﴾[1].

[٨٧٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا يمرون على رسول الله [ﷺ] وهو يصلي شامخين فنزلت: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١)﴾[2].

* * *

---

[٨٧٦] (١) سورة النجم: الآية (٣٣).

[٨٧٧] (٢) سورة النجم: الآية (٦١) ـ قلت وروى الواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٧) من طريق الصهباء عن عائشة ـ قالت: مرّ رسول الله [ﷺ] بقوم يضحكون فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾** سورة النجم: الآية (٤٣) ـ فرجع إليهم فقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل عليه السلام فقال: ائت هؤلاء وقل لهم إن الله عزّ وجل يقول **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾**.

سورة النجم

ستون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾

وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وإن لم تكن منه:

المسألة الأولى: أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظًا ومعنى: أما اللفظ فلأن ختم الطور بالنجم، وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم، وأما المعنى فنقول: الله تعالى لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] بيّن له أنه جزاه في أجزاء مكايدة النبي ﷺ، بالنجم وبعده فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

المسألة الثانية: السورة التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهي الصافات والذاريات، والطور، وهذه السورة بعدها بالأولى فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦] وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]. وفي هذه السورة لنبوة النبي ﷺ لتكمل الأصول الثلاثة: الوحدانية، والحشر، والنبوة.

المسألة الثالثة: لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيرًا، أما على الوحدانية فلأنه أقسم بأمر واحد في سورة الصافات، وأما على النبوة فلأنه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة الضحى، وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به، فإن قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] إلى غير ذلك - كلها فيها الحشر أو ما يتعلق به، وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ(١)

ودلائل النبوة أيضًا كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع، فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقادًا جازمًا.

---

(١) هذا البيت لأبي العتاهية، وتقدم ترجمته.

وأما التفسير ففيه مسائل:

الأولى: الواو للقسم بالنجم أو برب النجم، ففيه خلاف قدمناه، والأظهر أنه قسم بالنجم، يقال ليس للقسم في الأصل حرف أصلاً لكن الباء والواو استعملتا فيه لمعنى عارض، وذلك لأن الباء في أصل القسم هي الباء التي للإلصاق والاستعانة، فكما يقول القائل: استعنت بالله، يقول: أقسمت بالله، وكما يقول: أقوم بعون الله على العدو، يقول: أقسم بحق الله، فالباء فيهما بمعنى كما تقول: كتب بالقلم، فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر في الكلام فاستغنى عن ذكره، وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه، فإذا قال القائل: (بحق زيد) فُهم منه القسم لأن المراد لو كان هو مثل قوله: ادخل زيد، أو اذهب بحق زيد، أو لم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر في هذه الأشياء لعدم الاستغناء، فلما لم يذكر شيء علم أن الحذف للشهرة والاستغناء، وذلك ليس في غير القسم فعُلم أن المحذوف فعل القسم، فكأنه قال: أقسم بحق زيد، فالباء في الأصل ليس للقسم لكن لما عرض ما ذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم، ثم إن المتكلم نظر فيه فقال: هذا لا يخلو عن التباس فإني إذا قلت: (بالله) توقف السامع فإن سمع بعده فعلاً غير القسم كقوله: بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت وأخذت، لا يحمله على القسم، وإن لم يسمع حمله على القسم إن لم يتوهم وجود فعل ما ذكرته ولم يسمعه، أما إن توهم أني ذكرت مع قولي بالله شيئًا آخر وما سمعه هو أيضًا يتوقف فيه ففي الفهم توقف، فإذا أراد المتكلم الحكيم إذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه، وهو فعل القسم، أبدل الباء بالتاء، وقال: تالله، فتكلم بها في كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الالتباس، فإن التاء في أوائل الكلمات قد تكون أصلية، وقد تكون للخطاب والتأنيث، فلو أقسم بحرف التاء بمن اسمه داعي أو راعي أو هادي أو عادي يقول (تداعى أو تراعى أو تهادى أو تعادى) فيلتبس، وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران إذا قلت ترومان أو تتوران، على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث في الاستقبال، فأبدلوها واوًا. لا يقال: عليه إشكالان:

الأول: مع الواو لم يؤمن الالتباس، نقول ولى فتلتبس الواو الأصلية بالتي للقسم لأنا نقول: ذلك لم يلزم فيما ذهبنا إليه، وإنما كان ذلك في الواو حيث يدل وينبئ عن العطف وإن لم يستعمل الواو للقسم، كيف وذلك في الباء التي هي كالأصل متحقق، تقول: برام في جمع برمة، وبهام في جمع بهمة، وبغال للبسية الباء الأصلية التي في البغال والبرام بالباء التي تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال، وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفًا من الأدوات كالباء والواو.

الإشكال الثاني: لـمَ تركت مما لا التباس فيه كقولك: تالرحيم وتالعظيم؟ نقول: لما كانت كلمة الله تعالى في غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف الأصل، بمعنى لم يجز أن يقال عليها إلا ما يكون في شهرتها، وأما غيرها فربما يخفى عند البعض، فإن من يسمع

الرحيم وسمع في الندرة تر بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل أو فعل ومفعول، وإن كان ذلك في غاية البعد لكن الاستواء في الشهرة في المنقول منه والمنقول إليه لازم، ولا مشهور مثل كلمة الله، على أنا نقول: لمَ قلت: إن عند الأمن لا تُستعمل، ألا ترى أنه نُقل عن العرب برب الكعبة، والذي يؤيد ما ذكرنا أنك تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله. لأن التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم، وعند الإتيان به لم يخف ذلك فلم يجز.

المسألة الثانية: اللام في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ لتعريف العهد في قول ولتعريف الجنس في قول، والأول قول من قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ المراد منه الثريا، قال قائلهم:

إنْ بَدَا النَّجْمُ عَشِيًّا ابْتَغَى الرَّاعِي كَسِيًّا

والثاني فيه وجوه: أحدها: النجم هو نجم السماء التي هي ثابتة فيها للاهتداء، وقيل: لا بل النجوم المنقضة فيها التي هي رجوم للشياطين. ثانيها: نجوم الأرض وهي من النبات ما لا ساق له. ثالثها: نجوم القرآن.

ولنذكر مناسبة كل وجه ونبيّن فيه المختار منها، أما على قولنا: (المراد الثريا) فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء، ويظهر لكل أحد والنبي ﷺ تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبكر حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف نقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قلَّ الشك والأمراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية، وعلى قولنا (المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء) نقول: النجوم بها الاهتداء في البراري، فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة، وعلى قولنا (المراد الرجوم من النجوم)، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء، والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض، وعلى قولنا (المراد القرآن) فهو استدل بمعجزة النبي ﷺ على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يس: ١ - ٤] ما ضللت ولا غويت، وعلى قولنا (النجم هو النبات)، فنقول: النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوة العقلية أَوْلى بالإصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي هي في السماء لأنها أظهر عند السامع، وقوله ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أدل عليه، ثم بعد ذلك القرآن أيضًا فيه ظهور ثم الثريا.

المسألة الثالثة: القول في ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ كالقول في ﴿وَٱلطُّورِ﴾ حيث لم يقل والنجوم ولا الأطوار، وقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ وقد تقدم ذكره.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في تقييد القسم به بوقت هو به؟ نقول: النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيدًا عن الأرض لا يهتدي به الساري؛ لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال، كذلك النبي ﷺ خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فإن قيل: الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب، فلم يبق ما ذكرت جوابًا عن السؤال. نقول: الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدي في الطريقين الدنيوي والديني، أما الدنيوي فلِما ذكرنا، وأما الديني فكما قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وفيه لطيفة، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرَّفه وعظَّمه، وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفًا يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة، فإنه هاوٍ آفل.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغي، والذي قاله بعضهم عند محاولة الفرق: أن الضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالاً في الوضع، تقول: ضل بعيري ورحلي، ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلاً، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم، يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد، ولا تقول إنه ضال، والضال كالكافر، والغاوي كالفاسق، فكأنه تعالى قال: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما كفر، ولا أقل من ذلك فما فسق، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] أو نقول: الضلال كالعدم، والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة.

وقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: سيدكم. والآخر: مصاحبكم، يقال: صاحب البيت ورب البيت، ويحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما جُن، فإن المجنون ضال، وعلى هذا فهو كقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٣] فيكون إشارة إلى أنه ما غوى، بل هو رشيد مرشد دال على الله بإرشاد آخر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] إشارة إلى قوله هاهنا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فإن هذا خلق عظيم، ولنبين الترتيب فنقول: قال أولاً: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي هو على الطريق ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي طريقه الذي هو عليه مستقيم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي هو راكب متنه آخذ سمت المقصود، وذلك لأن من يسلك طريقًا ليصل إلى مقصده فربما يبقى بلا طريق، وربما يجد إليه طريقًا بعيدًا فيه متاعب ومهالك، وربما يجد طريقًا واسعًا آمنًا، ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصد، ويتأخر عليه الوصول، فإذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولاً، ويمكن أن

يقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى، تقديره: كيف يضل أو يغوى وهو لا ينطق عن الهوى، وإنما يضل من يتبع الهوى. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فإن قيل: ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضي في قوله ﴿مَا ضَلَّ﴾ وصيغة المستقبل في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ في غاية الحسن، أي ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ حين اختلى بنفسه ورأى في منامه ما رأى، وما ينطق عن الهوى الآن حيث أرسل إليكم وجعل رسولاً شاهدًا عليكم، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضلالة ومرشدًا وهاديًا. وأما على ما ذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة؟ نقول: بلى، وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد إرساله في صغره عن الكفر، والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب، فقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ في صغره؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنها المحبة، لكن من النفس يقال: (هويته) بمعنى أحببته، لكن الحروف التي في هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت دنيئة، وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف، فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الأمارة بالسوء، ولو قلت: (أهواه بقلبي) لزال ما فيه من السفالة، لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى إلا في الموضع الذي يخالف المحبة، فإنها مستعملة في موضع المدح، والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨] إلى قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] إشارة إلى علو مرتبة النفس.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

بكلمة البيان، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] كأن قائلاً قال: فبماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد؟ فقال: لا، وإنما ينطق عن الله بالوحي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿إِنْ﴾ استعملت مكان (ما) للنفي، كما استعملت (ما) للشرط مكان (إنْ)، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلأن (إنْ) من الهمزة والنون، وما من الميم والألف، والألف كالهمزة والنون كالميم، أما الأول فبدليل جواز القلب، وأما الثاني فبدليل جواز الإدغام ووجوبه، وأما المعنى فلأن (إنْ) تدل على النفي من وجه، وعلى الإثبات من وجه، ولكن دلالتها على النفي أقوى وأبلغ؛ لأن الشرط والجزاء في صورة استعمال لفظة (إنْ) يجب أن يكون في الحال معدومًا إذا كان المقصود الحث أو المنع، تقول: إن تحسن فلك الثواب، وإن تسئ فلك العذاب، وإن كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك: إن كان هذا الفص زجاجًا فقيمته نصف، وإن كان جوهرًا فقيمته ألف، فهاهنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل، وعدم

العلم ههنا كعدم الحصول في الحث والمنع، فلا بد في صور استعمال إن عدم، إما في الأمر، وإما في العلم، وإما الوجود فذلك عند وجود الشرط في بيان الحال، ولهذا قال النحاة: لا يحسن أن يقال: (إن احمر البسر آتيك)، لأن ذلك أمر سيوجد لا محالة، وجوزوا استعمال (إنْ) فيما لا يوجد أصلاً، يقال في قطع الرجاء (إن ابيضَّ القار تغلبني)، قال الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[الأعراف: ١٤٣] ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية، فعُلم أن دلالته على النفي أتم، فإن مدلوله إلى مدلول (ما) أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر، هذا هو الظاهر، وما يقال: (إن وما)، حرفان نافيان في الأصل، فلا حاجة إلى الترادف.

المسألة الثانية: (هو) ضمير معلوم أو ضمير مذكور؟ نقول: فيه وجهان: أشهرهما: أنه ضمير معلوم وهو القرآن، كأنه يقول: ما القرآن إلا وحي، وهذا على قول من قال: النجم ليس المراد منه القرآن. وأما على قول من يقول: هو القرآن. فهو عائد إلى مذكور. والوجه الثاني: أنه عائد إلى مذكور ضمنًا وهو قول النبي ﷺ وكلامه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] في ضمنه النطق وهو كلام وقول، فكأنه تعالى يقول: وما كلامه وهو نطقه إلا وحي وفيه. وجه آخر أبعد وأدق: وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾[النجم: ٢] قد ذكر أن المراد منه في وجه أنه ما جُن وما مسّه الجن فليس بكاهن، وقوله: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ليس بينه وبين الغواية تعلّق، فليس بشاعر، فإن الشعراء يتبعهم الغاوون، وحينئذٍ يكون قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] ردًّا عليهم حيث قالوا: قوله قول كاهن. وقالوا: قوله قول شاعر. فقال: ما قوله إلا وحي وليس بقول كاهن ولا شاعر. كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة: ٤١، ٤٢].

المسألة الثالثة: الوحي اسم أو مصدر؟ نقول: يحتمل الوجهين، فإن الوحي اسم معناه الكتاب ومصدر وله معانٍ منها الإرسال والإلهام، والكتابة والكلام والإشارة والإفهام. فإن قلنا: هو ضمير القرآن، فالوحي اسم معناه الكتاب، كأنه يقول: ما القرآن إلا كتاب ويوحى بمعنى يرسل، ويحتمل على هذا أيضًا أن يقال: هو مصدر، أي ما القرآن إلا إرسال وإلهام، بمعنى المفعول، أي مرسل، وإن قلنا: المراد من قوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ قوله وكلامه، فالوحي حينئذٍ هو الإلهام ملهم من الله، أو مرسل. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين، وهو أن النبي ﷺ ما كان ينطق إلا عن وحي، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إن كان ضمير القرآن فظاهر وإن كان ضميرًا عائدًا إلى قوله، فالمراد من قوله هو القول الذي كانوا يقولون فيه إنه قول شاعر، وردَّ الله عليهم فقال: ولا بقول شاعر، وذلك القول هو القرآن، وإن قلنا بما قالوا به فينبغي أن يفسر الوحي بالإلهام.

البحث الثاني: هذا يدل على أنه ﷺ لم يجتهد، وهو خلاف الظاهر، فإنه في الحروب اجتهد

وحَرَّم ما قال الله، لم يحرم، وأذن. لمن قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، نقول على ما ثبت لا تدل الآية عليه.

البحث الثالث: (يُوحَى) يحتمل أن يكون من وحي يوحى ويحتمل أن يكون من أوحى يوحي، تقول: عدم يعدم، وأعدم يعدم، وكذلك علم يعلم وأعلم يُعلم، فنقول: يوحى من أوحى لا من وحى، وإن كان وحى وأوحى كلاهما جاء بمعنى، ولكن الله في القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الإيحاء الذي هو مصدر أوحى، وعند ذكر الفعل لم يذكر وحي، الذي مصدره وحى، بل قال عند ذكر المصدر الوحي، وقال عند ذكر الفعل (أوحى) وكذلك القول في أحب وحب فإن حب وأحب بمعنى واحد، والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر في القرآن الإحباب، وذكر الحب قال: ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥] وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] إلى غير ذلك، وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضي الثلاثي فيهما خلاف، قال بعض علماء الصرف، المصدر مشتق من الفعل الماضي، والماضي هو الأصل، والدليل عليه وجهان: لفظي ومعنوي:

أما اللفظي فإنهم يقولون مصدر فعل يفعل إذا كان متعديًا فَعْلاً بسكون العين، وإذا كان لازمًا فُعول في الأكثر، ولا يقولون الفعل الماضي من فعول فعلى، وهذا دليل ما ذكرنا.

وأما المعنوي فلأن ما يوجد من الأمور لا يوجد إلا وهو خاص وفي ضمنه العام، مثاله الإنسان الذي يوجد ويتحقق يكون زيدًا أو عمرًا أو غيرهما، ويكون في ضمنه أنه هندي أو تركي وفي ضمن ذلك أنه حيوان وناطق، ولا يوجد أولاً إنسان ثم يصير تركيًا ثم يصير زيدًا أو عمرًا.

إذا علمت هذا فالفعل الذي يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضيًا أو مستقبلاً، وفي ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله، مثاله الضرب إذا وُجد فإما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض، والأول ماضٍ والثاني حاضر أو مستقبل، ولا يوجد الضرب من حيث إنه ضرب خاليًا عن المضي والحضور والاستقبال، غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غدًا أمرًا مشتركًا فيسميه فعلاً، كذلك يدرك في ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غدًا أمرًا مشتركًا فيسميه ضربًا فضَرَب يوجد أولاً ويستخرج منه الضرب، والألفاظ وُضعت لأمور تتحقق فيها فيعبر بها عنها، والأمور المشتركة لا تتحقق إلا في ضمن أشياء أُخر، فالوضع أولاً لما يوجد منه لا يدرك منه قبل الضرب، وهذا ما يمكن أن يقال لمن يقول الماضي أصل والمصدر مأخوذ منه. وأما الذي يقول (المصدر أصل والماضي مأخوذ منه) فله دلائل، منها أن الاسم أصل، والفعل متفرع، والمصدر اسم، ولأن المصدر معرب والماضي مبني، والإعراب قبل البناء، ولأن قال وقال، وراع وراع، إذا أردنا الفرق بينهما نرد أبنيتهما إلى المصدر فنقول: قال الألف منقلبة من واو بدليل القول، وقال ألف منقلبة من ياء بدليل القيل، وكذلك الروع والريع. وأما المعقول

فلأن الألفاظ وُضعت للأمور التي في الأذهان، والعام قبل الخاص في الذهن، فإن الموجود إذا أدرك يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض، فإذا أدرك أنه جوهر يقول: إنه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرًا وهو الأصح الأظهر، ثم إذا أدرك كونه جسمًا يقول: هو تام. وكذلك الأمر إلى أن ينتهي إلى أخص الأشياء إن أمكن الانتهاء إليه بالتقسيم، فالوضع الأول الفعل وهو المصدر من غير زيادة، ثم إذا انضم إليه زمان تقول: (ضرب أو سيضرب) فالمصدر قبل الماضي، وهذا هو الأصح، إذا علمت هذا فنقول: على مذهب من يقول المصدر في الثلاثي من الماضي فالحب وأحب كلاهما في درجة واحدة لأن كليهما من حب يحب، والمصدر من الثلاثي قبل مصدر المنشعبة بمرتبة، وعلى مذهب من يقول الماضي في الثلاثي مأخوذ من المصدر، فالمصدر الثلاثي قبل المصدر في المنشعبة بمرتبتين، فاستعمل مصدر الثلاثي لأنه قبل مصدر المنشعبة، وأما الفعل في أحب وأوحى فلأن الألف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثي المجرد؛ لأن أحب أدخل في التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله.

المسألة الرابعة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ أبلغ من قول القائل: (هو وحي)، وفيه فائدة غير المبالغة وهي أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن، هو قول شاعر. فأراد نفي قولهم، وذلك يحصل بصيغة النفي فقال: (ما هو كما يقولون) وزاد فقال: (بل هو وحي)، وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وفيه تحقيق الحقيقة، فإن الفرس الشديد العَدْو ربما يقال: هو طائر، فإذا قال يطير بجناحيه، يزيل جواز المجاز، كذلك يقول بعض من لا يحترز في الكلام ويبالغ في المبالغة: (كلام فلان وحي)، كما يقول: شعره سحر، وكما يقول: (قوله معجزة)، فإذا قال: (يوحى) يزول ذلك المجاز أو يبعد.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾

وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين أن الضمير في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا إلى الوحي، أي الوحي علَّمه شديد القوى، والوحي وإن كان هو الكتاب فظاهر، وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] والأَوْلى أن يقال: الضمير عائد إلى محمد ﷺ تقديره: علَّم محمدًا شديد القوى جبريل، وحينئذٍ يكون عائدًا إلى صاحبكم، تقديره: علَّم صاحبكم شديد القوى هو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل.

وقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فيه فوائد: الأولى: أن مدح المعلم مدح المتعلم، فلو قال: (علَّمه جبريل) ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة الثانية: هي أن فيه ردًّا عليهم حيث قالوا: أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام، فقال: لم يعلِّمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى، والإنسان خُلق ضعيفًا وما أوتي من العلم إلا قليلاً. الثالثة: فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل؛ لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة،

لا نثق بقوله ونقول: هو ما فهم ما قال. وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها. وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول: حَرَّفها وغَيَّرها. فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] الرابعة: فيه تسلية النبي ﷺ وهي من حيث إن الله تعالى لم يكن مختصًّا بمكان فنسبته إلى جبريل كنسبته إلى محمد ﷺ فإذا علم بواسطته يكون نقصًا عن درجته فقال: ليس كذلك لأنه شديد القوى يَثبت لمكالمتنا، وأنت بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر، فكأنه تعالى قد علَّمه بواسطة ثم علَّمه من غير واسطة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] وقال ﷺ: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»(١).

قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجوه: أحدها: ذو قوة. ثانيها: ذو كمال في العقل والدين جميعًا. ثالثها: ذو منظر وهيبة عظيمة. رابعها: ذو خلق حسن. فإن قيل: على قولنا (المراد ذو قوة) قد تقدم بيان كونه ذا قوى في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] فكيف نقول: قواه شديدة وله قوة؟ نقول: ذلك لا يحسن إن جاء وصفًا بعد وصف، وأما إن جاء بدلاً لا يجوز، كأنه قال: علَّمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفًا له، وتقديره: ذو قوة عظيمة أو كاملة، وهو حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] فكأنه قال: علَّمه ذو قوة فاستوى. والوجه الآخر في الجواب هو أن إفراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة، وله قوة أخرى خصّه الله بها، يقال: فلان كثير المال، وله مال لا يعرفه أحد، أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن، على أنا نقول: المراد ذو شدة، وتقديره: علَّمه مَن قُواه شديدة وفي ذاته أيضًا شدة، فإن الإنسان ربما تكون قواه شَديدة وفي جسمه صغر وحقارة ورخاوة، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ قوته في العلم.

ثم قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي شدة في جسمه فقدَّم العلمية على الجسمية، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وفي قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ وجهان، المشهور أن المراد جبريل، أي فاستوى جبريل في خلقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والمشهور أن هو ضمير جبريل، وتقديره: استوى كما

(١) ضعيف: أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٨٧)، وقال: سنده ضعيف، ولا يُعرف له إسناد ضعيف ثابت. وأورده السيوطي في (الدرر المنتثرة) (١/ ١). وقال: رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود، والعسكري في الأمثال، وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي، وقال: لا يصح. وصححه أبو الفضل بن ناصر.

قلت: وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن جده: أن أبا بكر قال: يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: «أدبني ربي، ونشأت في بني سعد» انتهى.

خلقه الله تعالى بالأفق الشرقي، فسَدَّ المشرق لعظمته، والظاهر أن المراد محمد ﷺ معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر لا حقيقة في الحصول في المكان، فإن قيل: كيف يجوز هذا والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين؟ نقول: وفي ذلك الموضع أيضًا نقول كما قلنا هاهنا: إنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين، يقول القائل: رأيت الهلال. فيقال له: أين رأيته؟ فيقول: فوق السطح. أي أن الرائي فوق السطح لا المرئي و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هو الفارق من أبان، أي فرق، أي هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ومنزلة الملك فإنه ﷺ انتهى وبلغ الغاية وصار نبيًّا كما صار بعض الأنبياء نبيًّا يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته، وهو واصل إلى الأفق الأعلى، والأفق الفارق بين المنزلتين، فإن قيل: ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه، فإن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] إلى غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته؟ نقول: سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله في مواضعه عند ذكر تفسيره، فإن قيل: الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد في الأخبار أن جبريل ﷺ أرى النبي ﷺ نفسه على صورته فسَدَّ المشرق. فنقول: نحن ما قلنا: إنه لم يكن، وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث، وإنما نقول: إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقي وسده، لكن الآية لم ترد لبيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾. **وفيه وجوه مشهورة:**

أحدها: أن جبريل دنا من النبي ﷺ أي بعد ما مد جناحه وهو بالأفق، عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقَرُب من النبي ﷺ وعلى هذا ففي (تدلى) ثلاثة وجوه: أحدها: فيه تقديم وتأخير تقديره: ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ. الثاني: الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال: دنا فقرب. الثالث: دنا أي قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ.

الثاني: على ما ذكرنا من الوجه الأخير في قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] أن محمدًا ﷺ دنا من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦] وعلى هذا ففي الكلام كمالان، كأنه تعالى قال إلا وحي يوحي جبريل على محمد، فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث وهو ضعيف سخيف: وهو أن المراد منه هو ربه تعالى، وهو مذهب القائلين بالجهة

والمكان، اللّهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة، وعلى هذا يكون فيه ما في قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ مَشَى إِلَيَّ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» إشارة إلى المعنى المجازي، وههنا لما بيّن أن النبي ﷺ استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسي قال: وقرب الله منه تحقيقًا لما في قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا».

ثم قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل، ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم، فإن الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه، ومَن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما، ولذلك تسمى مسايعة، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أن قوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ على جعل كونهما كبيرين، وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ لفضل أحدهما على الآخر، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الأمير، فكأنه تعالى أخبر أنهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين، أو كان جبرائيل عليه السلام سفيرًا بين الله تعالى ومحمد ﷺ فكان كالتبع لمحمد ﷺ فصار كالمبايع الذي يمد الباع لا القوس، هذا على قول من يفضل النبي ﷺ على جبرائيل عليه السلام، وهو مذهب أهل السنة إلا قليلاً منهم إذ كان جبرائيل رسولاً من الله واجب التعظيم والاتباع، فصار النبي ﷺ عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي ﷺ، وفيه وجه آخر على ما ذكرنا، وهو أن يكون القوس عبارة عن بُعد، مِن قاس يقوس، وعلى هذا فنقول: ذلك البعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي ﷺ، فإنه على كل حال كان بشرًا، وجبريل على كل حال كان ملكًا، فالنبي ﷺ وإن زال عن الصفات التي تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى، لكن بشريته كانت باقية، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤية والاحتجاب، لكن لم يخرج عن كونه ملكًا، فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما، فارتفع النبي ﷺ حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية، وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملكية، فتقاربا ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما.

وعلى هذا ففي فاعل (أوحى) الأول وجهان: أحدهما: أن الله تعالى أوحى، وعلى هذا ففي (عبده) وجهان: أحدهما: أنه جبريل عليه السلام، ومعناه أوحى الله إلى جبريل، وعلى هذا ففي فاعل (أوحى) الأخير وجهان: أحدهما الله تعالى أيضًا، والمعنى حينئذٍ أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام الذي أوحاه إليه تفخيمًا وتعظيمًا للموحي. ثانيهما: فاعل أوحى ثانيًا جبريل، والمعنى أوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى كل رسول، وفيه بيان أن جبرائيل أمين لم يخن في شيء مما أوحي إليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] الوجه الثاني: في (عبده) على قولنا (الموحي هو الله) أنه محمد ﷺ معناه أوحى الله إلى محمد ما أوحى إليه للتفخيم والتعظيم، وهذا على ما ذكرنا من

أن التفسير ورد على ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن محمدًا ﷺ في الأول حصل في الأفق الأعلى من مراتب الإنسان وهو النبوة، ثم دنا من جبريل وهو في مرتبة النبوة، فصار رسولاً فاستوى وتكامل، ودنا من الأمة باللطف، وتدلى إليهم بالقول الرفيق، وجعل يتردد مرارًا بين أمته وربه، فأوحى الله إليه من غير واسطة جبريل ما أوحى. والوجه الثاني في فاعل (أوحى) أولاً هو أنه جبريل أوحى أي عبده إلى عبد الله، والله معلوم وإن لم يكن مذكورًا، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبا: ٤٠، ٤١] ما يوجب القطع بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على النبي ﷺ، وعلى هذا ففاعل (أوحى) ثانيًا يحتمل وجهين: أحدهما: أنه جبريل، أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم وثانيهما: أن يكون هو الله تعالى، أي أوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه.

وفي (ما) وجوه: أولها: الذي أوحى الصلاة. **ثانيها:** أن أحدًا من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك، وأمة من الأمم لا تدخل الجنة قبل أمتك. **ثالثها:** أن (ما) للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل.

وهذا على قولنا بأن المراد جبريل صحيح، والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر.

وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الأصوليين، ولنبين ذلك في معرض الجواب عن سؤال، وهو أن يقال: بم عرف محمد ﷺ أن جبريل ملك من عند الله وليس أحدًا من الجن، والذي يقال: (إن خديجة كشفت رأسها) امتحانًا في غاية الضعف إن ادعى ذلك القائل أن المعرفة حصلت بأمثال ذلك، وهذا إن أراد القصة والحكاية، وإن خديجة فعلت هذا لأن فعل خديجة غير منكر وإنما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها، وذلك لأن الشيطان ربما تستر عند كشف رأسها أصلاً فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والإبهام؟ والجواب الصحيح من وجهين: أحدهما: أن الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبي ﷺ بها، كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها. وثانيهما: أن الله تعالى خلق في محمد ﷺ علمًا ضروريًا بأن جبريل من عند الله ملك لا جني ولا شيطان، كما أن الله تعالى خلق في جبريل علمًا ضروريًّا أن المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسِل له ربه لا غيره.

إذا علم الجوابان فنقول قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أوحى إلى محمد ﷺ ما أوحاه إلى جبريل، أي كلمه الله أنه وحي أو خلق فيه علمًا ضروريًّا.

ثانيهما: أوحى إلى جبريل ما أوحى إلى محمد دليله الذي به يعرف أنه وحي، فعلى هذا يمكن أن يقال: (ما) مصدرية، تقديره: فأوحى إلى محمد ﷺ الإيحاء، أي العلم بالإيحاء؛ ليفرق بين الملك والجن.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الفؤاد فؤاد من؟ نقول: المشهور أنه فؤاد محمد ﷺ معناه أنه ما كذب فؤاده، واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢] ويحتمل أن يقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي جنس الفؤاد لأن المكذب هو الوهم والخيال، يقول: كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهواء والهواء لا يرى، وكذلك يقول الوهم والخيال: إن رأى ربه رأى في جهة ومكان وعلى هيئة، والكل ينافي كون المرئي إلهًا، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته، ولو جاز ذلك لارتفع الأمان عن المرئيات. فنقول: رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب، فالفؤاد لا ينكر ذلك، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره.

المسألة الثانية: ما معنى ﴿مَا كَذَبَ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الوجه الأول: ما قاله الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال: إن ما رآه بصرك ليس بصحيح، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبًا فيما قاله. وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال: معناه صدق الفؤاد، فيما رأى، (رأى) شيئًا فصدق فيه. الثاني: قرئ (ما كذَّب الفؤاد) بالتشديد ومعناه ما قال: إن المرئي خيال لا حقيقة له. الثالث: هو أن هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمدًا ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علمًا ضروريًّا علم أنه ليس بخيال، وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق، وتقديره ما جوّز أن يكون كاذبًا وفي الوقوع، وإرادة نفي الجواز كثير، قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ [النمل: ٩٣] والكل لنفي الجواز، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] و﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، و﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فإنه لنفي الوقوع.

المسألة الثالثة: الرائي في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما؟ نقول: فيه وجوه: الأول: الفؤاد، كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد، أي لم يقل: إنه جني أو شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. الثاني: البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، ولم يقل: إن ما رآه البصر خيال. الثالث: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر، أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد ﷺ (من الرؤيا) وإن كانت الأوهام لا تعترف بها.

المسألة الرابعة: ما المرئي في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾؟ نقول: على الاختلاف السابق والذي يحتمل

الكلام وجوه ثلاثة: الأول: الرب تعالى. والثاني: جبريل عليه السلام. والثالث: الآيات العجيبة الإلهية. فإن قيل: كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسمًا في جهة؟ نقول: اعلم أن العاقل إذا تأمل وتفكر في رجل موجود في مكان، وقال: هذا مرئي الله تعالى يراه الله، و(إذا) تفكر في أمر لا يوجد أصلاً وقال: هذا مرئي الله تعالى يراه الله تعالى. يجد بينهما فرقًا وعقله يصحح الكلام الأول ويكذب الكلام الثاني، فذلك ليس بمعنى كونه معلومًا لأنه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد في كلامه خللاً واستبعادًا، فالله راءٍ بمعنى كونه عالمًا، ثم إن الله يكون رائيًا ولا يصير مقابلاً للمرئي، ولا يحصل في جهة ولا يكون مقابلاً له، وإنما يصعب على الوهم ذلك من حيث إنه لم ير شيئًا إلا في جهة فيقول: إن ذلك واجب، ومما يصحح هذا أنك ترى في الماء قمرًا وفي الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك إلى الماء إلا في مكانه فوق السماء، فرأيت القمر في الماء؛ لأن الشعاع الخارج من البصر اتصل به فردّ الماء ذلك الشعاع إلى السماء، لكن وهمك لما رأى أكثر ما رآه في المقابلة لم يعهد رؤية شيء يكون خلفه إلا بالتوجه إليه، قال: إني أرى القمر، ولا رؤية إلا إذا كان المرئي في مقابلة الحدقة ولا مقابل للحدقة إلا الماء، فحكم إذن بناء على هذا أنه يرى القمر في الماء، فالوهم يغلب العقل في العالم لكون الأمور العاجلة أكثرها وهمية حسية، وفي الآخرة تزول الأوهام وتنجلي الأفهام فترى الأشياء لوجودها لا لتحيزها.

واعلم أن من ينكر جواز رؤية الله تعالى يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام، وفيه إنكار الرسالة، وهو كفر، وفيه ما يكاد أن يكون كفرًا، وذلك لأن من شك في رؤية الله تعالى يقول: لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لأن حواسنا سليمة، والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو في غاية البعد عنا لعدم كونه في جهة ولا مكان، فلو جاز أن يرى ولا نراه، للزم القدح في المحسوسات المشاهدات، إذ يجوز حينئذٍ أن يكون عندنا جبل ولا نراه، فيقال لذلك القائل: قد صح أن جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد ﷺ وعنده غيره وهو يراه، ولو وجب ما يجوز لرآه كل أحد، فإن قيل: إن هناك حجابًا. نقول: وجب أن يرى هناك حجابًا فإن الحجاب لا يحجب إذا كان مرئيًا على مذهبهم، ثم إن النصوص وردت أن محمدًا ﷺ رأى ربه بفؤاده [(١)] فجعل بصره في فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده في بصره، وكيف لا، وعلى مذهب أهل السنة الرؤية بالإرادة لا بقدرة العبد، فإذا حصَّل الله تعالى العلم بالشيء من طريق البصر كان رؤية، وإن حصَّله من طريق القلب كان معرفة، والله قادر على أن يحصِّل العلم بخلق مدرك للمعلوم في البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك في القلب، والمسألة مختلف فيها بين الصحابة في الوقوع، واختلاف الوقوع مما ينبئ عن الاتفاق على الجواز، والمسألة مذكورة في الأصول فلا نطولها.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٥٨/ ١٧٦)، من طريق أبي العالية عن ابن عباس. . . به.

قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه، مع أنه رأى ما رأى عين اليقين؟ ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن، وأنتم تقولون أصابه الجن. ويمكن أن يقال: هو مؤكد للمعنى الذي تقدم، وذلك لأن من تيقن شيئًا قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك.

وأكده بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وذلك لأنه ﷺ لما رآه وهو على بسيط الأرض كان يحتمل أن يقال: إنه من الجن احتمالاً في غاية البعد، لما بينا أنه ﷺ حصل له العلم الضروري بأنه ملك مرسل، واحتمال البعيد لا يقدح في الجزم واليقين، ألا ترى أنا إذا نمنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بأن البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت، والجبال ما عدمت ولا سارت، مع احتمال ذلك فإن الله قادر على ذلك وقت نومنا، ويعيدها إلى ما كانت عليه في يومنا، فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة، لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا إنس، فنفى ذلك الاحتمال أيضًا فقال تعالى: أفتمارونه على ما يرى رأي العين، وكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقدرون فيه؟

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال على ما بيناه، أي كيف تجادلونه فيما رآه، على وجه لا يشك فيه؟ ومع ذلك لا يحتمل إيراد الشكوك عليه، فإن كثيرًا ما يشك المعتقد لشيء فيه ولكن تردد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها، ولا تثريب مع ذلك في أن الأمر كما ذكرنا من المثال؛ لأنا لا نشك في أن البحار ما صارت ذهبًا والجبال ما صارت عهنًا، وإذا أورد علينا مُورِد شكًا، وقال: وقت نومك يحتمل أن الله تعالى قلبها ثم أعادها. لا يمكننا الجواب عنه مع أنا لا نشك في استمرارها على ما هي عليه، لا يقال: اللام تنافي كون الواو للحال، فإن المستعمل يقال أفتمارونه، وقد رأى من غير لام، لأنا نقول: الواو التي للحال تدخل على جملة، والجملة تتركب من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل، وكلاهما يجوز فيه اللام.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ نَزْلَةً ﴾ فَعْلة من النزول فهي كجَلْسة من الجلوس، فلا بد من نزول، فذلك النزول لمن كان؟ نقول: فيه وجوه، وهي مرتبة على أن الضمير في رآه عائد إلى من؟ وفيه قولان: الأول: عائد إلى الله تعالى، أي رأى الله نزلة أخرى، وهذا على قول من قال: ﴿ مَا رَأَىٰٓ ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١] هو الله تعالى. وقد قيل بأن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه مرتين [١]، وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين: أحدهما: أنها لله، وعلى هذا فوجهان: أحدهما: قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل. وثانيهما: النزول بالقرب

(١) انظر سابقه.

المعنوي لا الحسي، فإن الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد، ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي أزِل بعض حجب العظمة والجلال، وادن من العبد بالرحمة والإفضال لأراك.

الوجه الثاني: أن محمدًا ﷺ رأى الله نزلة أخرى، وحينئذٍ يحتمل ذلك وجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه: إنه علا في الأرض واستكبر، قال تعالى: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ثانيهما: أن المراد من النزلة ضدها وهي العرجة، كأنه قال: رآه عرجة أخرى، وإنما اختار النزلة لأن العرجة التي في الآخرة لا نزلة لها فقال: (نزلة) ليعلم أنها من الذي كان في الدنيا.

والقول الثاني: أنه عائد إلى جبريل عليه السلام، أي رأى جبريل نزلة أخرى، والنزلة حينئذٍ يحتمل أن تكون لمحمد ﷺ كما ذكرناه؛ لأن النبي ﷺ على ما ورد في بعض أخبار ليلة المعراج جاوز جبريل عليه السلام، وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت[1]، ثم عاد إليه فذلك نزلة. فإن قيل: فكيف قال: ﴿أُخْرَىٰ﴾؟ نقول: لأن النبي ﷺ في أمر الصلاة تردد مرارًا، فربما كان يجاوز كل مرة، وينزل إلى جبريل، ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام، وكلاهما منقول، وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر لأن جبريل كان له نزلات، وكان له نزلتان عليه وهو على صورته.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ المشهور أن السدرة شجرة في السماء السابعة وعليها مثل النبق، وقيل: في السماء السادسة، وورد في الخبر أنه ﷺ قال: «**نَبِقُهَا كَقِلَالِ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ**»[2] وقيل: سدرة المنتهى هي الحيرة القصوى من السدرة، والسدرة كالركبة من الراكب عندما يحار العقل حيرة لا حيرة فوقها، ما حار النبي ﷺ وما غاب ورأى ما رأى.

وقوله: ﴿عِندَ﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان في هذا الموضع؟ نقول: المشهور أنه ظرف مكان، تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب سدرة المنتهى. وقيل: ظرف زمان، كما يقال: صليت عند طلوع الفجر، وتقديره رآه عند الحيرة القصوى، أي في الزمان الذي تحار فيه عقول العقلاء، والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة، فهو عليه الصلاة والسلام ما حار وقتًا من شأنه أن يحار العاقل فيه، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إن قلنا: معناه رأى الله كيف يفهم ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؟ قلنا: فيه أقوال:

الأول: قول من يجعل الله في مكان وهو باطل، وقد بالغنا في بيان بطلانه في سورة السجدة.

الثاني: رآه محمد ﷺ وهو ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لأن الظرف قد يكون ظرفًا للرائي كما ذكرنا من المثال، يقال: رأيت الهلال، فيقال: لقائله أين رأيته؟ فيقول: على السطح. وربما يقول: عند

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب: (ذكر المؤاكلة) (٦/ ٣٤٨)، حديث رقم (٣٢٠٧) من طريق همام... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات) (١/ ٢٦٤/ ١٤٩) من طريق سعيد... به، جميعًا (همام، سعيد، هشام الدستوائي) عن قتادة... به.

الشجرة الفلانية. وأما إن قلنا: إن المراد جبريل عليه السلام. فالوجهان ظاهران، وكون النبي ﷺ مع جبريل عند سدرة المنتهى أظهر.

المسألة الرابعة: إضافة السدرة إلى المنتهى من أي (أنواع) الإضافة؟ نقول: يحتمل وجوهًا: أحدها: إضافة الشيء إلى مكانه، يقال: أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد. ويقال: أشجار الجنة لا تيبس ولا تخلو من الثمار، فالمنتهى حينئذٍ موضع لا يتعداه ملك، وقيل: لا يتعداه روح من الأرواح. وثانيها: إضافة المحل إلى الحالِّ فيه، يقال: كتاب الفقه، ومحل السواد، وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة، تقديره سدرة عند منتهى العلوم. ثالثها: إضافة المِلك إلى مالكه، يقال: دار زيد وأشجار زيد. وحينئذٍ فالمنتهى إليه محذوف، تقديره سدرة المنتهى إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فالمنتهى إليه هو الله، وإضافة السدرة إليه حينئذٍ كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم، ويقال في التسبيح: يا غاية مناه، ويا منتهى أملاه.

قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ ﴾

وفي الجنة خلاف، قال بعضهم: جنة المأوى هي الجنة التي وُعد بها المتقون، وحينئذٍ الإضافة كما في قوله تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] وقيل: هي جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء، وقيل: هي جنة للملائكة وقرئ: (جَنَّهُ) بالهاء من جن بمعنى أجن يقال: جن الليل وأجن، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿ عِندَهَا﴾ عائدًا إلى النزلة، أي عند النزلة جن محمدًا المأوى، والظاهر أنه عائد إلى السدرة، وهي الأصح، وقيل: إن عائشة أنكرت هذه القراءة، وقيل: إنها أجازتها.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: العامل في ﴿ إِذْ﴾ ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان، فإن قلنا: ما قبلها ففيه احتمالان: أظهرهما ﴿رَءَاهُ﴾ [النجم: ١٣] أي رآه وقت ما يغشى السدرة الذي يغشى، والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذي في النزلة، تقديره رآه نزلة أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى، فحينئذٍ نزل محمد نزلة إشارة إلى أنه لم يرجع من غير فائدة، وإن قلنا: ما بعده، فالعامل فيه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧] أي ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها، وسنذكره عند تفسير الآية.

المسألة الثانية: قد ذكرت أن في بعض الوجوه ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤] هي الحيرة القصوى، وقوله: ﴿ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ على ذلك الوجه ينادي بالبطلان، فهل يمكن تصحيحه؟ نقول: يمكن أن يقال: المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة، أي ورد على حالة الحيرة

حالة الرؤية واليقين، ورأى محمد ﷺ عندما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته، والأول هو الصحيح، فإن النقل الذي ذكرنا من أن السدرة نبقها كقلال هجر يدل على أنها شجرة.

المسألة الثالثة: ما الذي غشى السدرة؟ نقول: فيه وجوه: الأول: فَراش أو جراد من ذهب. وهو ضعيف؛ لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي، فإن صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل، وإن لم يصح فلا وجه له. الثاني: الذي يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور، وهو قريب؛ لأن المكان مكان لا يتعداه الملك، فهم يرتقون إليه متشرفين به متبركين زائرين، كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها. الثالث: أنوار الله تعالى، وهو ظاهر؛ لأن النبي ﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها، كما تجلى للجبل، وظهرت الأنوار، لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت، فجعل الجبل دكًا، ولم تتحرك الشجرة، وخر موسى صعقًا، ولم يتزلزل محمد. الرابع: هو مبهم للتعظيم، يقول القائل: (رأيت ما رأيت عند الملك)، يشير إلى الإظهار من وجه، وإلى الإخفاء من وجه.

المسألة الرابعة: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ يستر، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال: فلا يغشاني كل وقت، أي يأتيني. والوجهان محتملان، وعلى قول من يقول: الله يأتي ويذهب، فالإتيان أقرب.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اللام في ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: المعروف وهو بصر محمد ﷺ، أي ما زاغ بصر محمد، وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه، إن قلنا (الغاشي للسدرة هو الجراد والفراش)، فمعناه لم يتلفت إليه ولم يشتغل به، ولم يقطع نظره عن المقصود، وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء وامتحانًا لمحمد ﷺ. وإن قلنا (أنوار الله)، ففيه وجهان: أحدهما: لم يلتفت يمنة ويسرة، واشتغل بمطالعتها. وثانيهما: ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام، فإنه قطع النظر وغشي عليه، وفي الأول بيان أدب محمد ﷺ، وفي الثاني بيان قوته.

الوجه الثاني في اللام: أنه لتعريف الجنس، أي ما زاغ بصر أصلاً في ذلك الموضع لعظمة الهيبة، فإن قيل: لو كان كذلك لقال (ما زاغ بصر)، لأنه أدل على العموم؛ لأن النكرة في معرض النفي تعم، نقول: هو كقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يقل: لا يدركه بصر.

المسألة الثانية: إن كان المراد محمدًا، فلو قال (ما زاغ قلبه) كان يحصل به فائدة قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾؟ نقول: لا، وذلك لأن من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه أنه يهابه ويرتجف

إظهارًا لعظمته مع أن قلبه قوي، فإذا قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يحصل منه فائدة أن الأمر كان عظيمًا، ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر.

المسألة الثالثة: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ عطف جملة مستقلة على جملة أخرى، أو عطف جملة مقدرة على جملة، مثال المستقلة: خرج زيد ودخل عمرو، ومثال المقدرة: خرج زيد ودخل، فنقول: الوجهان جائزان، أما الأول: فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بصر محمد ﷺ، وما طغى محمد بسبب الالتفات، ولو التفت لكان طاغيًا. وأما الثاني: فظاهر على الأوجه، أما على قولنا: غشي السدرة جراد فلم يلتفت إليه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما التفت إلى غير الله، فلم يلتفت إلى الجراد، ولا إلى غير الجراد سوى الله. وأما على قولنا غشيها نور، فقوله: ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مال عن الأنوار ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما طلب شيئًا وراءها. وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ما زاغ وما طغى، ولم يقل: (ما مال وما جاوز)، لأن الميل في ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان، فاستعمل الزيغ والطغيان فيه، وفيه وجه آخر وهو أن يكون ذلك بيانًا لوصول محمد ﷺ إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فوقه، ووجه ذلك أن بصر محمد ﷺ ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مال عن الطريق، فلم ير الشيء على خلاف ما هو عليه، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض، فإنه يراه أصفر أو أخضر يزيغ بصره عن جادة الأبصار ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ما تخيل المعدوم موجودًا، فرأى المعدوم مجاوزًا الحد.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه دليل على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آيات الله، ولم ير الله، وفيه خلاف، ووجهه هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن، فكانت الآية الرؤية، وكان أكبر شيء هو الرؤية، ألا ترى أن من له مال يقال له: سافِر لتربح، ولا يقال: سافِر لتتفرج؛ لما أن الربح أعظم من التفرج.

المسألة الثانية: قال بعض المفسرين: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته. فهل هو على ما قاله؟ نقول: الظاهر أن هذه الآيات غير تلك، وذلك لأن جبريل عليه السلام وإن كان عظيمًا، لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه، والكبرى تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى يقول: رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات، فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] مع أن أكبر من سقر عجائب الله، فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه، وإن كان لله آيات أكبر منه. نقول: سقر إحدى الكُبَر، أي إحدى الدواهي

الكُبَر، ولا شك أن في الدواهي سقر عظيمة كبيرة، وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولأن سقر في نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام، فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى.

المسألة الثالثة: (الكبرى) صفة ماذا؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: صفة محذوف، تقديره: لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى. ثانيهما: صفة آيات ربه، وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفًا تقديره: رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومَنْع الخلق عن الإشراك، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول، كما أن ضعيفًا إذا ادعى المُلك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون: (انظروا إلى هذا الذي يدعي المُلك)، منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره، فلذلك قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ أي كما هما فكيف تشركونهما بالله، والتاء في اللات تاء تأنيث كما في المناة لكنها تُكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى، فإن الهاء في الله أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء، وهي صنم كانت لثقيف بالطائف، قال الزمخشري: هي فَعْلة من لوى يلوي، وذلك لأنهم كانوا يلوون عليها. وعلى ما قال فأصله لوية أُسكنت الياء وحُذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوة قلبت الواو ألفًا لفتح ما قبلها فصارت لات، وقرئ (اللاتّ) بالتشديد من لت، قيل: إنه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعُبد واتخذ على صورته وثن وسموه باللات، وعلى هذا فاللات ذكر.

وأما العزى فتأنيث الأعز وهي شجرة كانت تُعبد، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر، تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور، فقتلها خالد وهو يقول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

ورجع إلى النبي ﷺ وأخبره بما رأى وفعل فقال: «**تلك العزى ولن تُعبد أبدًا**»، وأما مناة فهي فعلة صنم الصفا، وهي صخرة كانت لهذيل وخزاعة. **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: الآخر لا يصح أن يقال إلا إذا كان الأول مشاركًا للثاني، فلا يقال: رأيت امرأة ورجلاً آخر، ويقال: رأيت رجلاً ورجلاً آخر. لاشتراك الأول والثاني في كونهما من الرجال، وهاهنا قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يقتضي على ما ذكرنا أن تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى، وليس كذلك. والجواب عنه من وجوه: الأول: الأخرى كما هي تستعمل للذم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] أي لمتأخرتهم وهم الأتباع، ويقال لهم الأذناب لتأخرهم في المراتب فهي صفة ذم، كأنه تعالى يقول: ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة، ونقول على هذا: للأصنام الثلاثة ترتيب، وذلك لأن الأول كان وثنًا على صورة آدمي، والعزى

صورتها صورة نبات، ومناة صورتها صورة صخرة هي جماد، فالآدمي أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد، فالجماد متأخر، والمناة جماد فهي في الأخريات من المراتب.
الجواب الثاني: فيه محذوف تقديره: أفرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الأخرى. والجواب الثالث: هو أن الأصنام كان فيها كثرة واللاّت والعزى إذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهي ثالثة، فهناك ثوالث، فكأنه يقول: لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى، وهذا كقول القائل يومًا ويومًا. والجواب الرابع: فيه تقديم وتأخير تقديره: ومناة الأخرى الثالثة، ويحتمل أن يقال: الأخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وإن لم يكن مشهورًا ولا مذكورًا يقول من يكثر تأذيه من الناس إذا آذاه إنسان: الآخر جاء يؤذينا. وربما يسكت على قوله (أنت الآخر)، فيفهم غرضه كذلك ههنا.

المسألة الثانية: وهي في الترتيب أولى ما فائدة الفاء في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ وقد استعمل في مواضع بغير الفاء؟ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ [فاطر: ٤٠]، نقول: لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته - لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته، قال: أفرأيتم هذه الأصنام مع زلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم، فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى، فانظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه.

المسألة الثالثة: أين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة ما؟ نقول: قد تقدم بيانه وهو أنه يقول: هل رأيتم هذه حق الرؤية، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء. نظيره ما ذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف يدعي مُلكًا، يقول لصاحبه: (أما تعرف فلانًا) مقتصرًا عليه مشيرًا إلى بطلان ما يذهب إليه.

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ وقد ذكرنا ما يجب ذكره في سورة (والطور) في قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] ونعيد هاهنا بعض ذلك أو ما يقرب منه، فنقول: لما ذكر اللاّت والعزى ومناة ولم يذكر شيئًا آخر قال: إن هذه الأشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء لله، وقد سمعتم جلال الله وعظمته، وإن الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون إلى السدرة ويقفون هناك، لا يبقى شك في كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول، فكأنهم قالوا: نحن لا نشك أن شيئًا منها ليس مثلاً لله تعالى ولا قريبًا من أن يماثله، وإنما صَوَّرنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء، وقالوا: إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الأمر والنهي، وينهون إلى الله ما يصدر من عباده في أرضه وهم بنات الله، فاتخذنا صورًا على صور الإناث وسميناها أسماء الإناث، فاللاّت تأنيث اللوة وكان أصله أن يقال: (اللاهة) لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير

اللاهة فأسقط إحدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث، فجعلناها كالأصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال، والعزى تأنيث الأعز، فقال لهم: كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فالمنسوب إليه كيف جعلتموه ناقصًا وأنتم في غاية الحقارة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من خمار وعبد، ثم صخرة وشجرة، ثم نسبتم إلى أنفسكم الكامل؟! فهذه القسمة جائزة على طريقتكم أيضًا حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأعظم من الثقلين، وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى، وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير، فإذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التي لكم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: (تلك) إشارة إلى ماذا؟ نقول: إلى محذوف، تقديره: تلك القسمة قسمة ضيزى، أي غير عادلة، ويحتمل أن يقال: معناه تلك النسبة قسمة، وذلك لأنهم ما قسموا وما قالوا لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة، وهذا الخلاف لا يرهق.

المسألة الثانية: ﴿إِذًا﴾ جواب ماذا؟ نقول: يحتمل وجوهًا: الأول: نسبتكم البنات إلى الله تعالى إذا كان لكم البنون قسمة ضيزى. الثاني: نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع اعتقادكم أنهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم أنهم كاملون إذا كنتم في غاية الحقارة، والله تعالى في نهاية العظمة قسمة ضيزى، فإن قيل: ما أصل ﴿إِذًا﴾؟ قلنا: هو (إذا) التي للظرف قُطعت الإضافة عنها فحصل فيها تنوين، وبيانه هو أنك تقول (آتيك إذا طلعت الشمس) فكأنك أضفت (إذا) لطلوع الشمس وقلت (آتيك وقت طلوع الشمس)، فإذا قال قائل (آتيك) فتقول له (إذن أكرمك) أي إذا أتيتني أكرمك، فلما حذفت الإتيان لسبق ذكره في قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت (إذن) كما تقول: وكلًّا آتيناه.

المسألة الثالثة: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ قرئ بالهمزة وبغير همزة، وعلى الأولى هي فِعْلى بكسر الفاء كذكرى على أنه مصدر وُصف به كرجل عَدْل، أي قسمة ضائزة. وعلى القراءة الثانية هي فُعْلى وكان أصلها ضِوْزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب، كذلك فُعل بِبِيض فإن جمع أفعل فُعْل تقول أسود وسود وأحمر وحمر، وتقول أبيض وبيض، وكان الوزن بُيض وكان يلزم منه قلب العين فكُسرت الباء وتُركت الباء على حالها، وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة، تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيرى وكبرى، كذلك ضائز وضوز وضائزة وضوزى على هذا نقول أضوز من ضائز وضيزى من ضائزة، فإن قيل: قد قلت من قبل: إن قوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] ليس بمعنى إنكار الأمرين بل بمعنى إنكار الأول وإظهار النكر بالأمر الثاني، كما تقول: أتجعلون لله أندادًا وتعلمون أنه خلق كل ما

سواه؟ فإنه لا ينكر الثاني، وهاهنا قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ دلّ على أنه أنكر الأمرين جميعًا، نقول: قد ذكرنا هناك أن الأمرين محتملان: أما إنكار الأمرين فظاهر في المشهور، أما إنكار الأول فثابت بوجوه، وأما الثاني فلما ذكرنا أنه تعالى قال: كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته؟ كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] خالق البنين لكم لا يكون له بنات، وأما قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ فنقول: قد بينا أن تلك عائدة إلى النسبة، أي نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع أن لكم البنين - قسمة ضائزة، فالمنكر تلك النسبة، وإن كان المنكر القسمة نقول: يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى؟ كما أن واحدًا إذا كان بينه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطي من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه، فقال: هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه، بل لكونه لم يوصل إليه النصف الباقي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وفيه مباحث تدق عن إدراك اللغوي إن يكن عنده من العلوم حظ عظيم، ولنذكر ما قيل فيه أولاً فنقول: قيل معناه: إن هي إلا أسماء، أي كونها إناثًا وكونها معبودات أسماء لا مسمى لها، فإنها ليست بإناث حقيقة ولا معبودات، وقيل أسماء، أي قلتم بعضها عزى ولا عزة لها، وقيل: قلتم إنها آلهة وليست بآلهة، والذي نقوله: هو أن هذا جواب عن كلامهم، وذلك على ما بينا أنهم قالوا: نحن لا نشك في أن الله تعالى لم يلد كما تلد النساء، ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والإحبال، غير أنا رأينا لفظ الولد مستعملاً عند العرب في المسبب تقول: بنت الجبل وبنت الشفة لِما يظهر منهما ويوجد، لكن الملائكة أولاد الله، بمعنى أنهم وُجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا: إنهم أولاده، ثم إن الملائكة فيها تاء التأنيث فقلنا: هم أولاد مؤنثة، والولد المؤنث بنت، فقلنا: لهم بنات الله، أي لا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الإيجاد. كما تقول الفلاسفة، فقال تعالى: هذه الأسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم، وأطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز، وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقوله (بيده الخير) أسماء موهمة غير أنه تعالى أنزلها، وله أن يسمي نفسه بما اختار، وليس لأحد أن يسمي بما يوهم النقص من غير ورود الشرع به.

ولنبين التفسير في مسائل:

المسألة الأولى: ﴿هِىَ﴾ ضمير عائد إلى ماذا؟ نقول: الظاهر أنها عائدة إلى أمر معلوم وهو الأسماء، كأنه قال: ما هذه الأسماء التي وضعتموها أنتم. وهو المشهور، ويحتمل أن يقال:

هي عائدة إلى الأصنام بأنفسها، أي ما هذه الأصنام إلا أسماء. وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز، يقال لتحقير إنسان: ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم، إذا لم يكن مشتملاً على صفة تعتبر في الكلام بين الناس، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: ٤٠] أي ما هذه الأصنام إلا أسماء.

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ مع أن جميع الأسماء وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم؟ نقول: المسألة مختلف فيها ولا يتم الذم إلا بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وبيانه هو أن الأسماء إن أنزلها الله تعالى فلا كلام فيها، وإن وضعها للتفاهم فينبغي أن لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها، لكن إيهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها، فالله تعالى ما جوّز وضع الأسماء للحقائق إلا حيث تسلم عن المحرم، فلم يوجد في هذه الأسماء دليل نقلي ولا وجه عقلي؛ لأن ارتكاب المفسدة العظيمة لأجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل، فإذًا ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ووَضْع الاسم لا يكون إلا بدليل نقلي أو عقلي، وهو أنه يقع خاليًا عن وجوه المضار الراجحة.

المسألة الثالثة: كيف قال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ مع أن هذه الأسامي لأصنامهم كانت قبلهم؟ نقول: فيه لطيفة وهي أنهم لو قالوا: ما سميناها، وإنما هي موضوعة قبلنا. قيل لهم: كل من يطلق هذه الألفاظ فهو كالمبتدئ الواضع، وذلك لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضعًا بدليل عقلي لم يجب اتباعه، فمن يطلق اللفظ لأن فلانًا أطلقه لا يصح منه، كما لا يصح أن يقول: أضلني الأعمى. ولو قاله لقيل له: بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاقتداء به.

المسألة الرابعة: الأسماء لا تسمى، وإنما يسمى بها، فكيف قال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾؟ نقول عنه جوابان: أحدهما لغوي: وهو أن التسمية وضع الاسم، فكأنه قال: أسماء وضعتموها. فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها، ويقال: سميته زيدًا وسميته يزيد، فسميتموها بمعنى سميتم بها. وثانيهما معنوي: وهو أنه لو قال (أسماء سميتم بها) لكان هناك غير الاسم شيء يتعلق به الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ لأن قول القائل: (سميت به) يستدعي مفعولاً آخر، تقول: سميت بزيد ابني أو عبدي أو غير ذلك، فيكون قد جعل للأصنام اعتبارًا وراء أسمائها، وإذا قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي وضعتموها في أنفسها لا مسميات لها، لم يكن ذلك. فإن قيل: هذا باطل بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] حيث لم يقل: (وإني سميتها بمريم) ولم يكن ما ذكرت مقصودًا وإلا لكانت مريم غير ملتفت إليها كما قلت في الأصنام؟ نقول: بينهما بون عظيم وذلك لأن هناك قال: ﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله: ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ واسمها بقوله: ﴿مَرْيَمَ﴾ وأما هاهنا فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي ما هناك إلا أسماء موضوعة، فلم تعتبر الحقيقة هاهنا واعتبرت في مريم.

المسألة الخامسة: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ على أي وجه استعملت الباء في قوله: ﴿بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾؟ نقول: كما يستعمل القائل: (ارتحل فلان بأهله ومتاعه)، أي ارتحل ومعه الأهل والمتاع، كذا هاهنا.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (إن تتبعون) بالتاء على الخطاب، وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ على المغايبة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتًا، كأنه قطع الكلام معهم، وقال لنبيه: إنهم لا يتبعون إلا الظن، فلا تلتفت إلى قولهم. ثانيهما: أن يكون المراد غيرهم، وفيه احتمالان: أحدهما: أن يكون المراد آباؤهم وتقديره هو أنه لما قال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ كأنهم قالوا: هذه ليست أسماء وضعناها نحن، وإنما هي كسائر الأسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا. فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون إلا الظن، فإن قيل: كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي، نقول: وبصيغة المستقبل أيضًا، كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨]. ثانيهما: أن يكون المراد عامة الكفار، كأنه قال: إن يتبع الكافرون إلا الظن.

المسألة الثانية: ما معنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه في الفقه وقال ﷺ عن الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»؟ نقول: أما الظن فهو خلاف العلم، وقد استعمل مجازًا مكان العلم والعلم مكانه، وأصل العلم الظهور ومنه العَلَم والعالم، وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف (ع ل م) في تقاليبها فيها معنى الظهور، ومنها لمع الآل إذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال إذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور، وكذلك علمت، والظن إذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء، ومنه بئر ظنون لا يُدرى أفيها ماء أم لا، ومنه الظنين: المتهم لا يدرى ما يظن، نقول: يجوز بناء الأمر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين، والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعذر علينا وإلى هذا إشارة بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] أي اتبعوا الظن، وقد أمكنهم الأخذ باليقين، وفي العمل يمتنع ذلك أيضًا.

المسألة الثالثة: (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ خبرية أو مصدرية؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: مصدرية، كأنه قال: إن يتبعون إلا الظن وهوى الأنفس، فإن قيل: ما الفائدة في العدول عن صريح المصدر إلى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل؟ نقول: فيه فائدة، وإنها في أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول: إذا قال القائل: (أعجبني صنعك) يعلم من الصيغة أن الإعجاب من مصدر قد تحقق، وكذلك إذا قال (أعجبني ما تصنع) يعلم أن الإعجاب من مصدر هو فيه، فلو قال: (أعجبني صنعك) وله صنع أمس وصنع اليوم لا يُعلم أن المعجب أي صنع هو، إذا علمت هذا فنقول: هاهنا قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ يُعلم منه أن المراد أنهم يتبعون ما

تهوى أنفسهم في الحال والاستقبال، إشارة إلى أنهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم في الماضي شيئًا من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه، بل كل يوم هم يستخرجون عبادة، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غدًا، ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم. ثانيهما: أنها خبرية، تقديره: والذي تشتهيه أنفسهم. والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبع على الأول الهوى، وعلى الثاني مقتضى الهوى، كما إذا قلت: أعجبني مصنوعك.

المسألة الرابعة: كيف قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون ما تهواه كل نفس، فإن من النفوس ما لا تهوى ما تهواه غيرها؟ نقول: هو من باب مقابلة الجمع بالجمع، معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه، يقال: خرج الناس بأهليهم، أي كل واحد بأهله، لا كل واحد بأهل الجمع.

المسألة الخامسة: بيِّن لنا معنى الكلام جملة. نقول: قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أمران مذكوران يحتمل أن يكون ذكرهما لأمرين تقديريين يتبعون الظن في الاعتقاد ويتبعون ما تهوى الأنفس في العمل والعبادة، وكلاهما فاسد؛ لأن الاعتقاد ينبغي أن يكون مبناه على اليقين، وكيف يجوز اتباع الظن في الأمر العظيم، وكلما كان الأمر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر، وأما العمل فالعبادة مخالفة الهوى فكيف تبنى على متابعته، ويحتمل أن يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي وما دون الظن لأن القرونة تهوى ما لا يظن به خير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إشارة إلى أنهم على حال لا يعتد به؛ لأن اليقين مقدور عليه، وتحقق بمجيء الرسل، والهدى فيه وجوه ثلاثة: الأولى: القرآن. الثاني: الرسل. الثالث: المعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ المشهور أن (أم) منقطعة، معناه: ألِلإنسان ما اختاره واشتهاه؟ وفي ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ وجوه: الأول: الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة. الثاني: قولهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] الثالث: قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] الرابع: تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة، فإن قلت: هل يمكن أن تكون (أم) هاهنا متصلة؟ نقول: نعم والجملة الأولى حينئذٍ تحتمل وجهين: أحدهما: أنها مذكورة في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] كأنه قال: ألكم الذكر وله الأنثى على الحقيقة أو تجعلون لأنفسكم ما تشتهون وتتمنون؟ وعلى هذا فقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢] وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين. ثانيهما: أنها محذوفة، وتقرير ذلك هو أنا بينا أن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ [النجم: ١٩] لبيان فساد قولهم، والإشارة إلى

ظهور ذلك من غير دليل، كما إذا قال قائل: (فلان يصلح للمُلك) فيقول آخر لثالث: (أما رأيت هذا الذي يقوله فلان؟) ولا يذكر أنه لا يصلح للمُلك، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبهًا على عدم صلاحه، فهاهنا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] أي يستحقان العبادة أم للإنسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه وإن لم يكن يستحق العبادة، وعلى هذا فقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي هل له أن يعبد بالتمني والاشتهاء؟ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة، فهل لكم ذلك؟

ثم قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق الفاء بالكلام، وفيه وجوه: الأول: أن تقديره الإنسان إذا اختار معبودًا في دنياه على ما تمناه واشتهاه، فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله في الدنيا، وإن لم يعاقبه في الدنيا فيعاقبه في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يكون مؤكدًا لهذا المعنى، أي عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع. الثاني: أنه تعالى لما بيّن أن اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الأنفس كأنه قرره وقال: إن لم تعلموا هذا فلله الآخرة والأولى، وهذه الأصنام ليس لها من الأمر شيء فكيف يجوز الإشراك؟! وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ على هذا الوجه جواب كلام، كأنهم قالوا: لا نشرك بالله شيئًا، وإنما هذه الأصنام شفعاؤنا فإنها صورة ملائكة مقربين. فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ الثالث: هذه تسلية، كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بيّن رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال: لا تأس فللّه الآخرة والأولى، أي لا يعجزون الله. الرابع: هو ترتيب حق عليَّ دليله، بيانه هو أنه تعالى لما بيّن رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إلى آخره وبيّن بعض ما جاء به محمد ﷺ وهو التوحيد، قال: إذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى: فللّه الأخرة والأولى لأنه ﷺ أخبركم عن الحشر فهو صادق. الخامس: هو أن الكفار كانوا يقولون للمؤمنين: أهؤلاء أهدى منا؟ وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] فقال تعالى: إن الله اختار لكم الدنيا وأعطاكم الأموال، ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الأمر بل قلتم: لو شاء الله لأغناهم وتحققتم هذه القضية ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ قولوا في الآخرة ما قلتم في الدنيا: يهدي الله من يشاء كما يغني الله من يشاء.

المسألة الثانية: ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ صفة ماذا؟ نقول: صفة الحياة أو صفة الدار، وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل، تقول: أخرته فتأخر، وكان من حقه أن تقول: فأخَّر، كما تقول: غبَّرته فغبَّر، فمنعت منه سماعًا، ولهذا البحث فائدة ستأتي إن شاء الله.

المسألة الثالثة: ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ فعلى للتأنيث، فالأول إذن أفعل صفة. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: لا بد من فاعل أُخذ منه الأفعل والفُعلى، فإن كل فُعلى وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فليؤخذ منه كالفضلى والأفضل من الفاضلة والفاضل، فما ذلك؟ نقول: هاهنا أُخذ من

أصل غير مستعمل كما قلنا: إن الآخر فاعل من فعل غير مستعمل، وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر، وذلك لأن له ماضيًا فإذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل، وإلا لكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضيًا فإنك لا تقول لمن هو بعد الأكل: (أكَل) إلا متجوزًا عندما يبقى له قليل، فيقول: (أكَل) إشارة إلى أن ما بقي غير معتدٍّ به، وتقول لمن قرب من الفراغ: فرغت؟ فيقول: فرغت بمعنى أن ما بقي قليل لا يُعتد به فكأني فرغت، وأما الماضي في الحقيقة لا يصح إلا عند تمام الشيء والفراغ عنه، فإذًا للفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجلس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال، فكان ينبغي أن القائل إذا قال: (فلان آخر) كان معناه وُجد منه تمام الآخرية وفرغ منها، فلا يكون بعد ما يكون آخر، لكن تقدم أن كل فعل فله آخر بعده، لا يقال: يشكل بقولنا تأخر فإن معناه صار آخرًا لأنا نقول: وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا، فإنه من باب التكلف والتكبر إذا استعمل في غير المتكبر، أي يرى أنه آخر، وليس في الحقيقة كذلك.

إذا علمت هذا فنقول: الآخر فاعل ليس له فعل، ومبالغته بأفعل وهو كقولنا: أأُخر، فنقلت الهمزة إلى مكان الألف، والألف إلى مكان الهمزة، فصارت الألف همزة والهمزة ألفًا، ويدل عليه التأويل في المعنى، فإن آخر الشيء جزء منه متصل به، والآخَر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل، والآخر أشد تأخرًا عن الشيء من آخره، والأول أفعل ليس له فاعل، وليس له فعل، والأول أبعد عن الفعل من الآخر، وذلك لأن الفعل الماضي عُلم له آخر من وصفه بالماضي، ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر، وأما الفعل لتفسير كونه فعلاً علم له أول لأن الفعل لا بد له من فاعل يقوم به، أو يوجد منه، فإذًا الفاعل أولاً ثم الفعل، فإذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الأول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل، فلا يقال: آل الشيء بمعنى سبق، كما يقال: قال من القول، أو نال من النيل، لا يقال: إن قولنا سَبَق أُخذ منه السابق ومن السابق الأسبق، مع أن الفاعل يسبق الفعل، وكذلك يقال: تقدم الشيء مع أن الفاعل متقدم على الفعل إلى غير ذلك، نقول: أما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر، وأما (سبق) يقول القائل: سابقته فسبقته، فتجيب عنه بأن ذلك مفتقر إلى أمر يصدر من فاعل فالسابق إن استعمل في الأول فهو بطريق المشابهة لا بطريق الحقيقة، والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل، وليس سابق الفعل؛ لأن الفاعل والفعل لا يتسابقان، فالفاعل لا يسبقه، والذي يوضح ما ذكرنا أن الآخر أبعد من الأول عن الفعل بخلاف الآخر، وما يقال: إن أول بمعنى جعل الآخر أولاً لاستخراج معنى من الكلام، فبعيد وإلا لم يكن آخر دونه في إفادة ذلك، بل التأويل من آل شيء إذا رجع، أي رجعه إلى المعنى المراد، وأبعد من اللفظين قبل وبعد، فإن الآخر فاعل من غير فعل، والأول أفعل من غير فاعل ولا فعل، وقبل وبعد لا فاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلاً لأن الأول أول لما فيه من معنى قبل، وليس قبل قبلاً لما فيه من معنى الأول، والآخر آخر لما فيه من معنى

بعد، وليس بعد بعدًا لما فيه من معنى الآخر، يدلك عليه أنك تعلل أحدهما بالآخر ولا تعكسه فتقول: هذا آخر من جاء لأنه جاء بعد الكل ولا تقول: هو جاء بعد الكل لأنه آخر من جاء، ويؤيده أن الآخر لا يتحقق إلا ببعدية مخصوصة وهي التي لا بعدية بعدها، وبعد ليس لا يتحقق إلا بالآخر، فإن المتوسط بعد الأول ليس بآخر. وهذا البحث من أبحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ»[1] أي الدهر هو الذي يفهم منه القبلية والبعدية، والله تعالى هو الذي يفهم منه ذلك، والبعدية والقبلية حقيقة لإثبات الله، ولا مفهوم للزمان إلا ما به القبلية والبعدية، فلا تسبوا الدهر فإن ما تفهمونه منه لا يتحقق إلا في الله وبالله، ولولاه لما كان قبل ولا بعد.

البحث الثاني: ورد في كلام العرب الأولة تأنيث الأول، وهو ينافيه صحة استعمال الأُولى لأن الأُولى تدل على أن الأول أفعل للتفضيل، وأفعل للتفضيل لا يلحقه تاء التأنيث فلا يقال زيد أعلم وزينب أعلمة لسبب يطول ذكره، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى، نقول: الجواب عنه هو أن أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الأربع والأرنب، فجاز إلحاق التاء به، ولما كان صفة شابه الأكبر والأصغر فقيل أُولى.

المسألة الرابعة: أُولى تدل على أن أول لا ينصرف فكيف يقال أفعله أولاً ويقال جاء زيدًا أولاً وعمرو ثانيًا، فإن قيل: جاز فيه الأمران بناء على أولة وأولى، فمن قال بأن تأنيث أول أولة فهو كالأربع والأربعة فجاز التنوين، ومن قال: أُولى لا يجوز، نقول: إذا كان كذلك كان الأشهر ترك التنوين لأن الأشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن، فإذن الجواب أن عند التأنيث الأوْلى أن يقال أُولى نظرًا إلى المعنى، وعند العرب أولة لأنه هو الأصل ودل عليه دليل، وإن كان أضعف من الغير، وربما يقال بأن منع الصرف من أفعل لا يكون إلا إذا لم يكن تأنيثه إلا فُعلى، وأما إذا كان تأنيثه بالتاء أو جاز ذلك فيه لا يكون غير منصرف.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [النجم: ٢٥] إن قلنا: إن معناه: إن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] فلا يجوز إشراكهم فيقولون: نحن لا نشرك بالله شيئًا، وإنما نقول: هؤلاء شفعاؤنا. فقال: كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة؟!

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٦) من طريق هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٩٥)، حديث رقم (٩١٢٦) من طريق خلاس ومحمد عن أبي هريرة... به، وأيضًا في (٢/ ٤٩١)، حديث رقم (١٠٣٧٢) من طريق هشام عن محمد عن أبي هريرة... به.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَكَم﴾ كلمة تستعمل في المقادير، إما لاستبانتها فتكون استفهامية، كقولك: كم ذراعًا طوله وكم رجلاً جاءك؟ أي كم عدد الجائين؟ تستبين المقدار وهي مثل (كيف) لاستبانة الأحوال و(أي) الاستبانة الأفراد، و(ما) لاستبانة الحقائق، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك: كم رجل أكرمني، أي كثير منهم أكرموني. غير أن عليه أسئلة: الأول: لمَ لم يجز إدخال (مِن) على الاستفهامية وجاز على الخبرية؟ الثاني: لمَ نصب مميز الاستفهامية وجر الذي للخبرية؟ الثالث: هي تستعمل في الخبرية في مقابلة (رُب) فلمَ جُعل اسمًا مع أن رب حرف.

أما الجواب عن الأول فهو أن (مِن) يستعمل في الموضع المتعين بالإضافة، تقول: خاتم من فضة، كما تقول: خاتم فضة، ولما لم تضف في الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاهيه، وسنبين هذا الجواب. والجواب عن السؤال الثاني هو أن نقول: إن الأصل في المميز الإضافة. وعن الثالث هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول: إلى كم تصبر؟ وفي كم يوم جئت؟ وبكم رجل مررت؟ ومن حيث المعنى إن (كم) إذا قرن بها (مِن) وجُعل مميزه جمعًا كما في قول القائل: كم من رجال خدمتهم. ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم. ورُب وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل، فلا يمكن أن يقال في رُب: إنها عبارة عن قليل كما قلنا في كم إنه عبارة عن كثير.

المسألة الثانية: قال (شفاعتهم) على عود الضمير إلى المعنى، ولو قال (شفاعته) لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته، وكم من رجل رأيتهم، فإن قلت: هل بينهما فرق معنوي؟ قلت: نعم، وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يعني شفاعة الكل، ولو قال: (شفاعته) لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغني شفاعته، فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغني إذا جُمعت، وعلى هذا ففي الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر، أحدها: كم فإنه للتكثير. ثانيها: لفظ المَلَك فإنه أشرف أجناس المخلوقات. ثالثها: في السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة. رابعها: اجتماعهم على الأمر في قوله: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم: إن الأصنام يشفعون، أي كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها؟! فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم في أعلى السموات ولا تُقبل شفاعة الملائكة، فكيف تُقبل شفاعة الجمادات؟!

المسألة الثالثة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة؟ نقول: المقصود الرد عليهم في قولهم: هذه الأصنام تشفع. وذلك لا يحصل ببيان أن ملكًا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثير، ولم يقل: (ما منهم أحد يملك الشفاعة) لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله (كثير) مع أن المقصود

حاصل به، ثم ههنا بحث وهو أن في بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل، وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففي قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٥] كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧٥] وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤١] يجعل المخرج غير ملتفت إليه، فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكورًا لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل، مثاله يقال للمَلِك: كل الناس يدعون لك، إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكورًا لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه؛ لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل، مثاله إذا قال المَلِك لمن قال له اغتنم دعائي، كثير من الناس يدعون لي، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك هاهنا.

المسألة الرابعة: قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل: (لا يشفعون) مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني، وقال تعالى في مواضع أخرى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥] فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[السجدة: ٤] نفى الشفيع، وهاهنا نفى الإغناء؟ نقول: هم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣] ثم نقول: نفي دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفي دعواهم لأنهم قالوا: الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية. فقال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغني، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أي فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تُقبل وتغني أو لا تُقبل، فإذا قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه تغني فيحصل البشارة؛ لأنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: ٧] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى: ٥] والاستغفار شفاعة. وأما قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥] فليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كما في هذه الآية، حيث رد عليهم قولهم، وإنما المراد عظمة الله تعالى، وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾[النبأ: ٣٨].

المسألة الخامسة: اللام في قوله: ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ تحتمل وجهين: أحدهما: أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين: أحدهما: أن يقال: إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى. الثاني: أن يكون الإذن في المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل في الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم، فلا معنى للتخصيص، ويمكن أن ينازع فيه. وثانيهما: أن تتعلق بالإغناء، يعني إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة، فتغني شفاعتهم لمن يشاء. ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد؛ لأن ذلك يقتضي أن تشفع الملائكة،

والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن المَلَك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء.

المسألة السادسة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾؟ نقول: فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ كان المكلف مترددًا لا يعلم مشيئته فقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر، فإنه تعالى قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] فكأنه قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بيانًا لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغني شفاعتهم شيئًا ممن يشاء، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه (لمن يشاء) كأنه قال ويرضى هو، أي تغنيه الشفاعة شيئًا صالحًا فيحصل به رضاه، كما قال: ويرضى هو أي تغنيه الشفاعة، وحينئذٍ يكون (يرضى) للبيان لأنه لما قال: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفي كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغني شيئًا ولو كان قليلاً، ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغني أكثر من اللازم بالاستثناء، ويمكن أن يقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ لتبيين أن قوله: ﴿يَشَآءُ﴾ ليس المراد المشيئة التي هي الرضا، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضي فقال: ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هي المشيئة العامة، إنما هي الخاصة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾

وقد بينا ذلك في سورة الطور واستدللنا بهذه الآية، ونذكر ما يقرب منه هاهنا فنقول: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع، وإنما يتبعون ما يَدّعون أنه عقل فيقولون: أسماء الله تعالى ليست توقيفية، ويقولون: الولد هو الموجود من الغير. ويستدلون عليه بقول أهل اللغة: كذا يتولد منه كذا، يقال: الزجاج يتولد من الآجُر بمعنى يوجد منه، وكذا القول في بنت الكرم وبنت الجبل، ثم قالوا: الملائكة وُجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد، ثم إنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال: سجدت الملائكة فقالوا: بنات الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي كما سمي الإناث بنات. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: كيف يصح أن يقال: إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبًا على قبر من يموت ويعتقدون أنه يُحشر عليه؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أنهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون: لا حشر، فإن كان فلنا شفعاء. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت: ٥٠] ثانيهما: أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه (الحق) وهو ما ورد به الرسل.

المسألة الثانية: قال بعض الناس: أُنثى فُعلى من أفعل، يقال في فعلها: آنث ويقال في فاعلها: أنيث يقال: حديد ذكَر وحديد أنيث، والحق أن الأنثى يستعمل في الأكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على إناث.

المسألة الثالثة: كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث؟ نقول: عنه جوابان: أحدهما: ظاهر والآخر دقيق، أما الظاهر فهو أن المراد بيان الجنس، وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لما جاء على وفقه آخر الآيات. والدقيق هو أنه لو قال: (يسمونهم تسمية الإناث) كان يحتمل وجهين: أحدهما: البنات. وثانيهما: الأعلام المعتادة للإناث كعائشة وحفصة، فإن تسمية الإناث كذلك تكون، فإذا قال (تسمية الأنثى) تعيَّن أن تكون للجنس وهي البنت والبنات، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنهم لما قيل لهم: إن الصنم جماد لا يشفع، وبيّن لهم أن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن، قالوا: نحن لا نعبد الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعبادتها فإنها على صورها وننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد والغائب، فنُعظم المَلَك الذي ثبت أنه مقرب عظيم الشأن رفيع المكان. فقال تعالى ردًّا عليهم: كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الأنثى؟! ثم ذكر فيه مستندهم في ذلك وهو لفظ الملائكة، ولم يقل إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائك تسمية الأنثى بل قال: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فإنهم اغتروا بالتاء، واغترارهم باطل لأن التاء تجيء لمعانٍ غير التأنيث الحقيقي، والبنت لا تطلق إلا على المؤنث الحقيقي بالإطلاق، والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما في صياقلة وهي تشبه تلك التاء، وذلك لأن الملائكة في المشهور جمع ملك، والملك اختصار من الملأك بحذف الهمزة، والملأك قلب المألك من الألوكة وهي الرسالة، فالملائكة على هذا القول مَفاعِلة، والأصل مفاعل ورُد إلى ملائكة في الجمع فهي تشبه فعائل وفعائلة، والظاهر أن الملائكة فعائل جمع مليكي منسوب إلى المليك بدليل قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥] في وعد المؤمن، وقال في وصف الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال أيضًا في الوعد: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٤٠] وقال في وصف الملائكة: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فهم إذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] كأمر الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم، فهم منتسبون إلى المليك المقتدر في الحال فهم مليكيون وملائكة، فالتاء للنسبة في الجمع كما في الصيارفة والبياطرة.

فإن قيل: هذا باطل من وجوه: الأول: أن أحدًا لم يستعمل لواحد منهم مليكي كما استعمل صيرفي. والثاني: أن الإنسان عندما يصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة، وليس كذلك لأن المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمي. الثالث: هو أن فعائلة في جمع فَعِيلي لم يُسمع وإنما يقال: فعيلة كما يقال جاء بالتميمة والحقيبة. الرابع: لو كان كذلك لما جمع ملك؟

نقول الجواب عن الأول: أما عدم استعمال واحده فمسلَّم وهو لسبب، وهو أن الملك كلما كان

أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر، فإذا وُصف بالعظمة وُصف بالجمع فيقال: صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم، وأما ذلك الواحد فإن نسب إلى المليك عين للخبر بأن يقال: هذا مليكي وذلك عندما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكي عنه، والملائكة لم يُعرفوا بأعيانهم إلا قليلاً منهم كجبريل وميكائيل، وحينئذٍ لا فائدة في قولنا جبريل مليكي؛ لأن من عرف الخبر ولا يصاغ الحمل إلا لبيان ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يقال للإنسان حيوان أو جسم لأنه إيضاح واضح، اللّهم إلا أن يستعمل ذلك في ضرب مثال أو في صورة نادرة لغرض، وأما أن ينسب إلى المليك وهو مبتدأ فلا؛ لأن العظمة في أن يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين إليه كما تقول: واحد من أصحاب الملك. ولا تقول: صاحب الملك، فإذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]و﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠]فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] و(م ل ك) تدل على الشدة في تقاليبها على ما عرف، وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

الجواب عن الثاني: نقول: قد يكون الاسم في الأول لوصف يختص ببعض من يتصف به، وغيره لو صار متصفًا بذلك الوصف لا يسمى بذلك الاسم كالدابة فاعلة من دب، ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسمًا وربما يقال لها صفة عند حالة ما تدب بدب مخصوص غير الدب العام الذي في الكل، كما لو دبت بليل لأخذ شيء أو غيره، أو يقال: إنما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمي بسنين لا يعلم عددها إلا الله، فمن لم يصل إلى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الاسم.

الجواب عن الثالث: نقول: الجموع القياسية لا مانع لها كفِعال في جمع فَعَل كجبال وثمار وأفعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها، وأما السماع وإن لم يرد إلا قليلاً فاكتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع إلا باب الله، ويكون من باب المرأة والنساء.

الجواب عن الرابع: فالمنع ولعل هذا منه أو نقول: حمل فَعيلي على فعيل في الجمع كما حمل فيعل في الجمع على فعيل فقيل في جمع جيد جياد ولا يقال في فعيل أفاعل، ويؤيد ما ذكرنا أن إبليس عندما كان واقفًا بالباب كان داخلاً في جملة الملائكة، فنقول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠]عندما صرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن.

وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك، وأصل ملأك مألك من الألوكة وهي الرسالة. ففيه تعسفات أكثر مما ذكرنا بكثير، منها أن الملك لا يكون فَعَل بل هو مَفعَل وهو خلاف الظاهر، ولمَ لم يستعمل مألك على أصله كمآرب ومآثم ومآكل وغيرها مما لا يعد إلا بتعسف؟ ومنها أن ملكًا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك بأخواته التي ذكرناها؟ ومنها أن التاء لم

أُلحقت بجمعه ولم لم يقل ملائك كما في جمع كل مفعل؟ والذي يرد قولهم قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] فهي غير الرسل، فلا يصح أن يقال: جعلت الملائكة رسلاً، كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريبًا؛ لأن الجعل لا بد فيه من تغيير، ومما يدل على خلاف ما ذكروا أن الكل منسوبون إليه موقوفون بين يديه منتظرون أمره لورود الأوامر عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وفيما يعود إليه الضمير في (به) وجوه: أحدها: ما نقله الزمخشري وهو أنه عائد إلى ما كانوا يقولون من غير علم. ثانيها: أنه عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة من علم، أي ما لهم بالله من علم فيشركون، وقرئ: (مَا لَهُمْ بِهَا). وفيه وجوه أيضًا: أحدها: ما لهم بالآخرة. وثانيها: ما لهم بالتسمية. ثالثها: ما لهم بالملائكة، فإن قلنا: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] فهو جواب لما قلنا إنهم وإن كانوا يقولون الأصنام شفعاؤنا عند الله. وكانوا يربطون الإبل على قبور الموتى ليركبوها، لكن ما كانوا يقولون به عن علم، وإن قلنا بالتسمية قد تكون وهو أن العلم بالتسمية حاصل لهم، فإنهم يعلمون أنهم ليسوا في شك، إذ التسمية قد تكون وضعًا أوليًّا وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع، وقد يكون استعمالاً معنويًّا ويتطرق إليه الكذب والصدق والعلم.

مثال الأول: من وضع أولاً اسم السماء لموضوعها وقال: هذا سماء.

مثال الثاني: إذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر: هذا سماء. فإنه كذب، ومن يعتقده فهو جاهل، وكذلك قولهم في الملائكة: (إنها بنات الله)، لم تكن تسمية وضعية، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البنات فيهم، وذلك كذب ومعتقده جاهل، فهذا هو المراد بما ذكرنا أن الظن يتبع في الأمور المصلحية، والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين، وأما في الاعتقادات فلا يغني الظن شيئًا من الحق، فإن قيل: أليس الظن قد يصيب، فكيف يحكم عليه بأنه لا يغني أصلاً؟ نقول: المكلف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل؛ ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير، لكن في الحق ينبغي أن يكون جازمًا لاعتقاد مطابقه، والظان لا يكون جازمًا، وفي الخير ربما يعتبر الظن في مواضع، ويحتمل أن يقال: المراد من الحق هو الله تعالى، ومعناه أن الظن لا يفيد شيئًا من الله تعالى، أي الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى في ثلاثة مواضع منع من الظن، وفي جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية، والدعاء باسم، موضعان منها في هذه السورة أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]. والثاني: قوله تعالى:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، والثالث: في الحجرات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢] عقيب الدعاء بالقلب، وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أَوْلى من حفظ غيره من الأركان، وأن الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الأيدي والأرجل، وهذه المواضع الثلاثة أحدها مدح من لا يستحق المدح كاللات والعزى من العز. وثانيها ذم من لا يستحق الذم، وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الأنثى. وثالثها ذم من لم يعلم حاله، وأما مدح من حاله لا يعلم، فلم يقل فيه: لا يتبعون إلا الظن، بل الظن فيه معتبر، والأخذ بظاهر حال العاقل واجب.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي اترك مجادلتهم فقد بلَّغت وأتيت بما كان عليك، وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ بآية القتل. وهو باطل، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي ﷺ كان مأمورًا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لما لم ينفع، قال له ربه: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان، فإنهم لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابِلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخًا، والإعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب، كأنه قال: أزل العرض، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمرًا.

وقوله تعالى: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ لبيان تقديم فائدة الغرض والمناظرة؛ لأن من لا يصغي إلى القول كيف يفهم معناه؟

وفي ﴿ذِكْرِنَا﴾ وجوه: الأول: القرآن. الثاني: الدليل والبرهان. الثالث: ذكر الله تعالى، فإن من لا ينظر في الشيء كيف يعرف صفاته؟ وهم كانوا يقولون: نحن لا نتفكر في آلاء الله لعدم تعلقنا بالله، وإنما أمرنا مع من خلقنا، وهم الملائكة أو الدهر، على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر، كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٣٨] يعني لم يُثبتوا وراءها شيئًا آخر يعملون له، فقوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر؛ لأنه إذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه، فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه. وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه، فلا يبقى إذن فائدة في الدعاء.

واعلم أن النبي ﷺ كان طبيب القلوب، فأتى على ترتيب الأطباء، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي، وقيل:

آخر الدواء الكي، فالنبي ﷺ أولاً أمر القلوب بذكر الله فحسب، فإن بذكر الله تطمئن القلوب، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس، فالذكر غذاء القلب، ولهذا قال أولاً: (قولوا لا إله إلا الله) أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ [يونس: ١٠١] ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ [الغاشيه: ١٧] إلى غير ذلك، ثم أتى بالوعيد والتهديد، فلما لم ينفعهم قال: أعرِض عن المعالجة، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝٣٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه وجوه الأول: أظهرها أنه عائد إلى الظن، أي غاية ما يبلغون به أنهم يأخذون بالظن وثانيها: إيثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم، أي ذلك الإيثار غاية ما بلغوه من العلم ثالثها: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩] وذلك الإعراض غاية ما بلغوه من العلم، والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم، وتكون الألف واللام للتعريف، والعلم بالمعلوم هو ما في القرآن، وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى، وبعضهم قبله من حيث إنه معجزة، واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى، وبعضهم توقف فيه كأبي طالب، وذلك أدنى المراتب، وبعضهم رده وعابه، فالأولون لم يجز الإعراض عنهم، والآخرون وجب الإعراض عنهم، وكان موضع بلوغه من العلم أنه قطع الكلام معه الإعراض عنه، وعليه سؤال وهو: أن الله تعالى بين أن غايتهم ذلك: ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها والمجنون الذي لا علم له، والصبي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله؟

نقول ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله، فكأن عدم علمهم لعدم قبولهم العلم، وإنما قدر الله توليهم ليضاف الجهل إلى ذلك فيحقق العقاب، قال الزمخشري: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ كلام معترض بين كلامين، والمتصل قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وعلى ما ذكرنا المقصود لا يتم إلا به، يكون كأنه تعالى قال: أعرض عنهم فإن ذلك غايتهم، ولا يوجد وراء ما ظهر منهم شيء، وكأن قوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل، فإن الجهل كان بالتولي وإيثار العاجل.

ثم ابتدأ وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ وفي المناسبة وجوه الأول: أنه تعالى لما قال: للنبي ﷺ، أعرض وكان النبي ﷺ شديد الميل إلى إيمان قومه وكان ربما هجس في خاطره، أن في الذكرى بعد منفعة، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ علم أنه لن يؤمن بمجرد الدعاء كل أحد من المكلفين، وإنما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال، وعلى هذا فقوله: ﴿بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي علم في الأزل، من ضل في تقديره ومن اهتدى، فلا يشتبه عليه الأمران، ولا يأس في الإعراض ويعد في العرف مصلحة ثانيها: هو على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٧] ووجهه أنهم كانوا يقولون: نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبي ﷺ الحجة

عليهم فلم ينفعهم، فقال تعالى: أعرض عنهم وأجرك وقع على الله، فإنه يعلم أنكم مهتدون، ويعلم أنهم ضالون، والمتناظران إذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الأمر عند الملك فإن اعترف الخصم بالحق فذاك، وإلا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى: جادلت وأحسنت، والله أعلم بالمحق من المبطل ثالثها: أنه تعالى لما أمر نبيه بالإعراض وكان قد صدر منهم إيذاء عظيم وكان النبي ﷺ يتحمله رجاء أن يؤمنوا، فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال: سعيي وتحملي لإيذائهم وقع هباء، فقال الله تعالى: إن الله يعلم حال المضلين والمهتدين: لله ما في السموات والأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا من المهتدين، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿هُوَ﴾ يسمى عمادًا وفصلاً، ولو قال: إن ربك أعلم لتمَّ الكلام، غير أن عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع ما بعده، ليعلم أن: ﴿أَعْلَمُ﴾ خبر: ﴿رَبَّكَ﴾ أو هو مع شيء آخر خبر، مثاله لو قال: إن زيدًا أعلم منه عمرو يكون خبر زيد الجملة التي بعده، فإن قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ انتفى ذلك التوهم.

المسألة الثانية: ﴿أَعْلَمُ﴾ يقتضي مفضلاً عليه يقال: زيد أعلم من عمرو، والله أعلم ممن؟ نقول: أفعل يجيء كثيرًا بمعنى عالم لا عالم مثله، وحينئذ إن كان هناك عالم فذلك مفضل عليه وإن لم يكن ففي الحقيقة هو العالم لا غير، وفي كثير من المواضع أفعل في صفات الله بذلك المعنى يقال: الله أكبر وفي الحقيقة لا كبير مثله ولا أكبر إلا هو، والذي يناسب هذا أنه ورد في الدعوات يا أكرم الأكرمين كأنه قال: لا أكرم مثلك، وفي الحقيقة لا أكرم إلا هو وهذا معنى قول من يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم بالمهتدي والضال، ويمكن أن يقال: أعلم منَ كل عالم بفرض عالم غيره.

المسألة الثالثة: علمته وعلمت به مستعملان، قال الله تعالى في الأنعام: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٧] ثم ينبغي أن يكون المراد من المعلوم العلم إذا كان تعلقه بالمعلوم أقوى، إما لقوة العلم وإما لظهور المعلوم وإما لتأكيد وجوب العلم به، وإما لكون الفعل له قوة، أما قوة العلم فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] لما كان علم الله تعالى تامًا شاملاً علقه بالمفعول الذي هو حال من أحوال عبده الذي هو بمرأى منه من غير حرف، ولما كان علم العبد ضعيفًا حادثًا علقه بالمفعول الذي هو صفة من صفات الله تعالى الذي لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائيًا لم يكن محسوسًا به مشاهدًا علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف، وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٥٢] وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما في قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ويمكن أن يقال: هو من قبيل الظاهر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢] وأما قوة الفعل فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ لما كان

المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن﴾ كما كان المستعمل اسمًا دالاً على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول.

المسألة الرابعة: قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الأنعام ومنها في سورة: ﴿نٓ﴾ ومنها في هذه السورة، لأن في المواضع كلها المذكور نبيه ﷺ والمعاندون، فذكرهم أولاً تهديدًا لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام.

المسألة الخامسة: قال في موضع واحد من المواضع: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٧] وفي غيره قال: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ فهل عندك فيه شيء؟ قلت: نعم، ونبين ذلك ببحث عقلي وآخر نقلي: أما العقلي: فهو أن العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه، إن وجد أمس علم أنه وجد أمس في نهار أمس، وليس مثل علمنا حيث يجوز أن يتحقق الشيء أمس، ونحن لا نعلمه إلا في يومنا هذا بل: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين وأما النقلي: فهو أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل إذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله إذا كان ماضيًا فلا تقول: أنا ضارب زيدًا أمس، والواجب إن كنت تنصب أن تقول: ضربت زيدًا وإن كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الإضافة تقول: ضارب زيد أمس أنا ويجوز أن يقال: أنا غدًا ضارب زيدًا والسبب فيه أن الفعل إذا وجد فلا تجدد له في (غَيْرِ) الاستقبال، ولا تحقق له في الحال فهو عدم وضعف عن أن يعمل، وأما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن إعماله. إذا ثبت هذا فنقول: لما قال ﴿ضَلَّ﴾ كان الأمر ماضيًا وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم، وقوله ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم فيصير كأنه قال: عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان إعمالاً للفاعل بمعنى الماضي، ولما قال: ﴿يُضِلُّ﴾ كان يعلم الضلال عند الوقوع وإن كان قد علم في الأزل أنه سيضل لكن للعلم بعدَ ذلك تعلق آخر سيوجد، وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك في الأزل، فإنه لا يقال: إنه تعالى علم أن فلانًا ضل في الأزل، وإنما الصحيح أن يقال: علم في الأزل، فإنه سيضل، فيكون كأنه يعلم أنه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى المستقبل وهو يعمل عمل الفاعل، فلا يقال: زيد أعلم مسألتنا من عمرو، وإنما الواجب أن يقال: زيد أعلم بمسألتنا من عمرو، ولهذا قالت النحاة في سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ [الأنعام: ١١٧] يعلم من يضل وقالوا: ﴿أَعْلَمُ﴾ للتفضيل لا يبنى إلا من فعل لازم غير متعد، فإن كان متعديًا يرد إلى لازم.

وقولنا: علم كأنه من باب عُلم بالضم وكذا في التعجب إذا قلنا: ما أعلمه بكذا كأنه من فعل لازم. وأما أنا فقد أجبت عن هذا بأن قوله: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ معناه عالم، وقد قدمنا ما يجب أن يعتقد في أوصاف الله في أكثر الأمر أن معناه أنه عالم ولا عالم مثله فيكون أعلم على حقيقته وهو أحسن من أن يقال: هو بمعنى عالم لا غير، فإن قيل: فلم قال هاهنا: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وقال هناك: ﴿يَضِلُّ﴾؟ قلنا: لأن هاهنا حصل الضلال في الماضي وتأكد حيث حصل يأس

الرسول ﷺ وأمر بالإعراض، وأما هناك فقال تعالى من قبل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ بمعنى إن ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضي.

المسألة السادسة: قال في الضلال عن سبيله ولم يقل في الاهتداء إلى سبيله لأن الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف في الضلال لأن الضلال لا يكون إلا في السبيل، وأما بعد الوصول فلا ضلال أو لأن من ضل عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلاً أو (لَمْ) يسلك وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول إن لم يسلكه، ويصحح هذا أن من ضل في غير سبيله فهو ضال ومَن اهتدى إليها لا يكون مهتديًا إلا إذا اهتدى إلى كل مسألة يضر الجهل بها بالإيمان فكان الاهتداء اليقيني هو الاهتداء المطلق فقال ﴿بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ وقال ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

إشارة إلى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول: إن ربك هو أعلم من الغني القادر لأن من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الزمخشري: ما يدل على أنه يعتقد أن اللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كاللام في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] وهو جري في ذلك على مذهبه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه خلق ما فيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى مما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال، وقال الواحدي: اللام للعاقبة كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨] أي أخذوه وعاقبته أنه يكون لهم عدوًا، والتحقيق فيه وهو أن حتى ولام الغرض متقاربان في المعنى، لأن الغرض نهاية الفعل، وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر، يقال: سرت حتى أدخلها ولكي أدخلها، فلام العاقبة هي التي تستعمل في موضع حتى للغاية، ويمكن أن يقال: هنا وجه أقرب من الوجهين وإن كان أخفى منهما وهو أن يقال: إن قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بقوله: ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق ما في السموات، تقديره كأنه قال: هو أعلم بمن ضل واهتدى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أن من ضل واهتدى يجزي الجزاء، والله أعلم به، فيصير قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلامًا معترضًا، ويحتمل أن يقال: هو متعلق بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ [النجم: ٢٩] أي أعرض عنهم ليقع الجزاء، كما يقول المريد فعلاً لمن يمنعه منه زرني لأفعله، وذلك لأن ما دام النبي ﷺ لم ييأس ما كان العذاب ينزل والإعراض وقت اليأس، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ حينئذ يكون مذكورًا ليعلم أن العذاب الذي عند إعراضه يتحقق ليس مثل الذي قال تعالى فيه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً

﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى، وقوله تعالى في حق المسيء ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وفي حق المحسن ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ فيه لطيفة لأن جزاء المسيء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال: لا يعذب إلا عن ذنب، وأما في الحسنى فلم يقل: بما عملوا لأن الثواب إن كان لا على حسنة يكون في غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأما إذا قلنا الأعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك، وهي أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوي، وقال في أعمال المحسنين ﴿ٱلْحُسْنَى﴾ إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالأعمال الحسنى كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وحينئذ هو كقوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] أي يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أو هي صفة المثوبة، كأنه قال: ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أي جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (الذين) يحتمل أن يكون بدلاً عن الذين أحسنوا وهو الظاهر، وكأنه تعالى قال ليجزي الذين أساءوا ويجزي الذين أحسنوا، ويتبين به أن المحسن ليس ينفع الله بإحسانه شيئًا وهو الذي لا يسيء ولا يرتكب القبيح الذي هو سيئة في نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى، وبهذا يتبين المسيء والمحسن لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئًا والذي يجتنبها يكون محسنًا، وعلى هذا ففيه لطيفة وهو أن المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذي يأتي بالنوافل يكون فوق المحسن، لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذي فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وإن لم تصدر منهم الحسنات، وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى، ويظهر هذا بقوله تعالى بعده: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي يعلم الحالة التي لا إحسان فيها ولا إساءة، كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إذا كان بدلاً عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال حيث

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ [النجم: ٣١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ ولم يقل اجتنبوا؟ نقول: هو كما يقول القائل الذين سألوني أعطيتهم، الذين يترددون إليَّ سائلين أي الذين عادتهم التردد والسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى، فإن قيل: في كثير من المواضع قال في الكبائر ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] وقال في عباد الطاغوت: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧] فما الفرق؟ نقول: عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد والاعتقاد إذا وجد دام ظاهرًا فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زمانًا ويعود إليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم، فقال في الآثام: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ دائمًا، ويثابرون على الترك أبدًا، وفي عبادة الأصنام: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ بصيغة الماضي ليكون أدل على الحصول، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغي أن يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال، وعبادة الصنم أمر واحد متحد، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة.

المسألة الثانية: الكبائر جمع كبيرة وهي صفة فما الموصوف؟ نقول: هي صفة الفعلة كأنه يقول: الفعلات الكبائر من الإثم، فإن قيل: فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب في الاستعمال، ولو قال قائل: الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع؟ نقول: الحسنة لا تكون كبيرة لأنها إذا قوبلت بما يجب أن يوجد من العبد في مقابلة نعم الله تعالى تكون في غاية الصغر، ولولا أن الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذي أنعم الله عليه بأنواع النعم كبيرة، ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالأكل والشرب والإعراض عن عبادته سيئة، ولكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها.

المسألة الثالثة: إذا ذكر الكبائر فما الفواحش بعدها؟ نقول: الكبائر إشارة إلى ما فيها من مقدار السيئة، والفواحش إشارة إلى ما فيها من وصف القبح كأنه قال: عظيمة المقادير قبيحة الصور، والفاحش في اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف في التقاليب يدل عليه فإنك إذا قلبتها وقلت: حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد، ويقال: فشحت الناقة إذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح، ولهذا لم يقل: الفواحش من الإثم وقال في الكبائر: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ لأن الكبائر إن لم يميزها بالإضافة إلى الإثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش.

المسألة الرابعة: كثرت الأقاويل في الكبائر والفواحش، فقيل: الكبائر ما أوعد الله عليه بالنار صريحًا وظاهرًا، والفواحش ما أوجب عليه حدًا في الدنيا، وقيل: الكبائر ما يكفر مستحله، وقيل: الكبائر مالا يغفر الله لفاعله إلا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة، وكل هذه

التعريفات تعريف الشيء بما هو مثله في الخفاء أو فوقه، وقد ذكرنا أن الكبائر هي التي مقدارها عظيم، والفواحش هي التي قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة إلى المقدار، والفاحشة صفة عائدة إلى الكيفية، كما يقال مثلاً: في الأبرص علته بياض لطخة كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذا فنقول على ما قلنا: إن الأصل في كل معصية أن تكون كبيرة، لأن نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة، غير أن الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لأنهما لا يدلان على ترك التعظيم، إما لعمومه في العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة أو مرتين والنظرة والقبائح التي فيها شبهة، فإن المجتنب عنها قليل في جميع الأعصار، ولهذا قال أصحابنا: إن استماع الغناء الذي مع الأوتار يفسق به، وإن استمعه من أهل بلدة لا يعتقدون أمر ذلك لا يفسق فعادت الصغيرة إلى ما ذكرنا من أن العقلاء إن لم يعدوه تاركًا للتعظيم لا يكون مرتكبًا للكبيرة، وعلى هذا تختلف الأمور باختلاف الأوقات والأشخاص فالعالم المتقي إذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكبًا للكبيرة، والدلال والباعة والمتفرغ الذي لا شغل له لا يكون كذلك، وكذلك اللعب وقت الصلاة، واللعب في غير ذلك الوقت، وعلى هذا كل ذنب كبيرة إلا ما علم المكلف أو ظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر.

المسألة الخامسة: في اللمم وفيه أقوال: أحدها: ما يقصده المؤمن ولا يحققه وهو على هذا القول من لم يَلُمّ إذا جمع فكأنه جمع عزمه وأجمع عليه وثانيها: ما يأتي به المؤمن ويندم في الحال وهو من اللمم الذي هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]ثالثها: اللمم الصغير من الذنب من ألم إذا نزل نزولاً من غير لبث طويل، ويقال: ألم بالطعام إذا قلل من أكله، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان: أحدهما: استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش وثانيهما: غير منقطع لما بينا أن كل معصية إذا نظرت إلى جانب الله تعالى وما يجب أن يكون عليه فهي كبيرة وفاحشة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: ٢٨]غير أن الله تعالى استثنى منها أمورًا يقال: الفواحش كل معصية إلا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه ثانيها: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا للوصف إن كان للتمييز كما يقال: الرجال غير أولي الإربة فاللمم عين الفاحشة، وإن كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤوني لتأكيد وبيان فلا وثالثها: هو استثناء من الفعل الذي يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ لأن ذلك يدل على أنهم لا يقربونه فكأنه قال: لا يقربونه إلا مقاربة من غير مواقعة وهو اللمم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وذلك على قولنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ ابتداء الكلام في غاية الظهور، لأن المحسن مجزي وذنبه مغفور، ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور،

والمقدم على الكبائر إذا تاب مغفور الذنب، فلم يبق ممن لم تصل إليهم مغفرة إلا الذين أساؤا وأصروا عليها، فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف، وهو أنه تعالى لما أخرج المسيء عن المغفرة بين أن ذلك ليس لضيق فيها، بل ذلك بمشيئة الله تعالى، ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل، وما كان يضيق عنهم مغفرته، والمغفرة من الستر، وهو لا يكون إلا على قبيح، وكل من خلقه الله إذا نظرت في فعله، ونسبته إلى نعم الله تجده مقصرًا مسيئًا، فإن من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر، وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج إلى ستر ما فعله.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ وفي المناسبة وجوه أحدها: هو تقرير لما مر من قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النجم: ٣٠] كأن العامل من الكفار يقول: نحن نعمل أمورًا في جوف الليل المظلم، وفي البيت الخالي فكيف يعلمه الله تعالى؟ فقال: ليس عملكم أخفى من أحوالكم وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم، والله عالم بتلك الأحوال ثانيها: هو إشارة إلى أن الضال والمهتدي حصلا على ما هما عليه بتقدير الله، فإن الحق علم أحوالهم وهم في بطون الأمهات، فكتب على البعض أنه ضال، والبعض أنه مهتد ثالثها: تأكيد وبيان للجزاء، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [النجم: ٣١] قال الكافرون: هذا الجزاء لا يتحقق إلا بالحشر، وجمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة ما كان لزيد من الأجزاء في بدنه من غير اختلاط غير ممكن، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ فيجمعها بقدرته على وفق علمه كماأنشأكم **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: العامل في: ﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ما يدل عليه: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي علمكم وقت الإنشاء، ويحتمل أن يكون اذكروا فيكون تقريرًا لكونه عالمًا ويكون تقديره: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وقد تم الكلام، ثم يقول: إن كنتم في شك من علمه بكم فاذكروا حال إنشائكم من التراب.

المسألة الثانية: ذكرنا مرارًا أن قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس من قال آدم فإنه من تراب، وقررنا أن كل أحد أصله من التراب، فإنه يصير غذاء، ثم يصير نطفة.

المسألة الثالثة: لو قال قائل: لا بد من صرف ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آدم، لأن ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ عائد إلى غيره، فإنه لم يكن جنينًا، ولو قلت بأن قوله تعالى ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ عائد إلى جميع الناس، فينبغي أن يكون جميع الناس أجنة في بطون الأمهات، وهو قول الفلاسفة؟ نقول ليس كذلك، لأنا نقول: الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ خطاب مع كل من بعد الإنزال على قول، ومع من حضر وقت الإنزال على قول، ولا شك أن كل هؤلاء من الأرض وهم كانوا أجنة.

المسألة الرابعة: الأجنة هم الذين في بطون الأمهات، وبعد الخروج لا يسمى إلا ولدًا أو سقطًا، فما فائدة قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾؟ نقول: التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن

بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد.

المسألة الخامسة: لقائل أن يقول: إذا قلنا إن قوله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تقرير لكونه عالمًا بمن ضل، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ تعلقه به ظاهر، وأما إن قلنا إنه تأكيد وبيان للجزاء، فإنه يعلم الأجزاء فيعيدها إلى أبدان أشخاصها، فكيف يتعلق به ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؟ نقول: معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب، ولا تقولوا تفرقت الأجزاء فلا يقع العذاب، لأن العالم بكم عند الإنشاء عالم بكم عند الإعادة، وعلى هذا قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي يعلم أجزاءه فيعيدها إليه، ويثيبه بما أقدم عليه.

المسألة السادسة: الخطاب مع من؟ فيه ثلاثة احتمالات الأول: مع الكفار، وهذا على قولنا إنهم قالوا كيف يعلمه الله، فرد عليهم قولهم الثاني كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار الثالث هو مع المؤمنين، وتقريره: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] قال لنبيه ﷺ: قد علم كونك ومن معك على الحق، وكون المشركين على الباطل، فأعرض عنهم ولا تقولوا: نحن على الحق وأنتم على الضلال، لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك، وفوض الأمر إلى الله تعالى، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى، وعلى هذا فقول من قال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ أظهر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] والله أعلم بجملة الأمور، ويحتمل أن يقال: على هذا الوجه الثالث إنه إرشاد للمؤمنين، فخاطبهم الله وقال: هو أعلم بكم أيها المؤمنون، علم ما لكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم، فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء، ولا تقولوا لآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك وأتقى، فإن الأمر عند الله، ووجه آخر وهو إشارة إلى وجوب الخوف من العاقبة، أي لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون، فإن الله يعلم عاقبة من يكون على التقي، وهذا يؤيد قول من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله للصرف إلى العاقبة.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعض المفسرين: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه، وأثرت الحكمة فيه تأثيرًا قويًا، فقال له رجل: لم تترك دين آبائك، ثم قال له: لا تخف وأعطني كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك، فأعطاه بعض ما التزمه، وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبي ﷺ، وقال بعضهم: نزلت في عثمان رضي الله عنه، كان يعطي ماله عطاء كثيرًا، فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح: يوشك أن يفنى مالك فأمسك، فقال له عثمان: إن لي ذنوبًا أرجو أن يغفر الله لي بسبب العطاء، فقال له أخوه: أنا أتحمل عنك

ذنوبك إن تعطي ناقتك مع كذا، فأعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء، فنزلت الآية، وهذا قول باطل لا يجوز ذكره، لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر، وظاهر حال عثمان رضي الله عنه يأبى ذلك، بل الحق أن يقال: إن الله تعالى لما قال لنبيه ﷺ من قبل ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وكان التولي من جملة أنواعه تولي المستغني، فإن العالم بالشيء لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشيء، ويسعى في تحصيل غيره، فقال ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن استغناء، أعلم بالغيب؟.

المسألة الثانية: الفاء تقتضي كلامًا يترتب هذا عليه، فماذا هو؟ نقول: هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء وتقديره هو أن الله تعالى لما بين أن الجزاء لا بد من وقوعه على الإساءة والإحسان، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم، فلم يكن الإنسان مستغنيًا عن سماع كلام النبي ﷺ واتباعه، فبعد هذا من تولى لا يكون توليه إلا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار.

المسألة الثالثة: ﴿ٱلَّذِى﴾ على ما قال بعض المفسرين عائد إلى معلوم، وهو ذلك الرجل وهو الوليد، والظاهر أنه عائد إلى مذكور، فإن الله تعالى قال من قبل ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وهو المعلوم لأن الأمر بالإعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي الذي سبق ذكره، فإن قيل: كان ينبغي أن يقول الذين تولوا، لأن (من) في قوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ للعموم؟ نقول: العود إلى اللفظ كثير شائع قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [القصص: ٨٤] ولم يقل فلهم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ ما المراد منه؟ نقول: على ما تقدم هو المقدار الذي أعطاه الوليد، وقوله: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل، وعلى هذا لو قال قائل إن الإكداء لا يكون مذمومًا لأن الإعطاء كان بغير حق، فالامتناع لا يذم عليه، وأيضًا فلا يبقى لقوله ﴿قَلِيلًا﴾ فائدة، لأن الإعطاء حينئذ نفسه يكون مذمومًا، نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف أما العقل فلأنه منع من الإعطاء لأجل حمل الوزر، فإنه لا يحصل به، وأما العرف فلأن عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد، وهو لم يف به حيث التزم الإعطاء وامتنع، والذي يليق بما ذكرنا هو أن نقول: تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، يعني إعطاء ما وجب إعطاؤه في مقابلة ما يجب لإصلاح أمور الآخرة، ويقع في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] أي لم يعلم الغيب وما في الآخرة وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦- ٣٨] في مقابلة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ [النجم: ٣٠، ٣١] لأن الكلامين جميعًا لبيان الجزاء، ويمكن أن يقال: إن الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بأن الملائكة بنات الله شرع في بيان أهل الكتاب، وقال بعدما رأيت حال

المشرك الذي تولى عن ذكرنا، أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلاً من الزمان حقوق الله تعالى، ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيئًا لم يرد في كتبهم ولم ينزل عليهم في الصحف المتقدمة، ووجد فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ يخبر أن المتولي المذكور من أهل الكتاب.

المسألة الخامسة: ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ قيل هو من بلغ الكدية وهي الأرض الصلبة لا تحفر، وحافر البئر إذا وصل إليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال: أكدى الحافر، والأظهر أنه الرد والمنع يقال: أكديته أي رددته وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ قد علم تفسيره جملة أن المراد جهل المتولي وحاجته وبيان قبح التولي مع الحاجة إلى الإقبال وعلم الغيب، أي العلم بالغيب، أي علم ما هو غائب عن الخلق وقوله: ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ تتمة بيان وقت جواز التولي وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذي لا ينفع الإيمان فيه، وهناك لا يبقى وجوب متابعة أحد فيما رآه، لأن الهادي يهدي إلى الطريق فإذا رأى المهتدي مقصده بعينه لا ينفيه السماع، فقال تعالى: هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علمًا نظريًا بل علمًا بصريًا فعصى فتولى وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ يحتمل أن يكون مفعول ﴿يَرَىٰ﴾ هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى أن وزره محمول ألم يسمع أن وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذورًا، ويحتمل أن لا يكون له مفعول تقديره فهو يرى رأي نظر غير محتاج إلى هاد ونذير.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ حال أخرى مضادة للأولى يعذر فيها المتولي وهو الجهل المطلق فإن من علم الشيء علمًا تامًا لا يؤمر بتعلمه، والذي جهله جهلاً مطلقًا وهو الغافل على الإطلاق كالنائم أيضًا لا يؤمر فقال: هذا المتولي هل علم الكل فجاز له التولي أولم يسمع شيئًا وما بلغه دعوة أصلاً فيعذر، ولا واحد من الأمرين بكائن فهو في التولي غير معذور، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها، فكأنه تعالى يقول: أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك، وهذه أمور مذكورة في صحف موسى، مثاله: يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبي ﷺ وعلى هذا فالكلام مع الكل لأن المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبي ﷺ بما في صحف موسى ثانيهما: أن المراد بما في الصحف مع كونه فيها، كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما في القربة لا بما في الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لأنهم الذين نبئوا به.

المسألة الثانية: صحف موسى وإبراهيم، هل جمعها لكونها صحفًا كثيرة أو لكونها مضافة إلى اثنين كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]؟ الظاهر أنها كثيرة، قال الله تعالى: و﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وكل لوح صحيفة.

المسألة الثالثة: ما المراد بالذي فيها؟ نقول قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] وما بعده من الأمور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ففيه وجوه أحدها: هو ما ذكره بقوله: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] وهو الظاهر، وإنما احتمل غيره، لأن صحف موسى وإبراهيم ليس فيها هذا فقط، وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح، فإن فيها تكون جميع الأصول على ما بيَّنَ ثانيها: هو أن الآخرة خير من الأولى يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩] ثالثها: أصول الدين كلها مذكورة في الكتب بأسرها، ولم يخل الله كتابًا عنها، ولهذا قال لنبيه ﷺ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وليس المراد في الفروع، لأن فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك.

المسألة الرابعة: قدم موسى هاهنا ولم يقل كما قال في ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فهل فيه فائدة؟ نقول: مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة، بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب، ويمكن أن يقال: إن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار، فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال، وأما هاهنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم، وإن قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود، فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلموا أن الرسالة حق، وأرسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها.

المسألة الخامسة: كثيرًا ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام لأنه كان مبتلى في أكثر الأمر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام لكونه أباهم، وأما قوله تعالى: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ففيه وجهان أحدهما: أنه الوفاء الذي يذكر في العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفَّى وَوَفَى كَقَطَّع وقَطَعَ وقَتَّل وقتل، وهو ظاهر لأنه وفى بالنذر وأضجع ابنه للذبح، وورد في حقه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦] وثانيهما: أنه من التوفية التي من الوفاء وهو التمام والتوفية الإتمام يقال وفاه أي أعطاه تامًا، وعلى هذا فهو من قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقيل: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ أي أعطى حقوق الله في بدنه، وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] مدح إبراهيم ولم يصف موسى عليه السلام، نقول: أما بيان

توفيته ففيه لطيفة وهي أنه لم يعهد عهدًا إلا وفى به، وقال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له، فعلم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] وأن وزره لا تزره نفس أخرى، وأما مدح إبراهيم عليه السلام فلأنه كان متفقًا عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفيًا، وموفيًا، وربما كان المشركون يتوقفون في وصف موسى عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] وقد تقدم تفسيره في سورة الملائكة، والذي يحسن بهذا الموضع مسائل:

الأولى: أنا بينا أن الظاهر أن المراد من قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ هو ما بينه بقوله ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ فيكون هذا بدلاً عن ما وتقديره أم لم ينبأ بألا تزر وذكرنا هناك وجهين أحدهما: المراد أن الآخرة خير وأبقى وثانيهما: الأصول.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الثانية: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أن خفيفة من الثقيلة كأنه قال: أنه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز، فاللازم عندما يكون بعدها فعل أو حرف داخل على فعل، ولزم فيها التخفيف، لأنها مشبهة بالفعل في اللفظ والمعنى، والفعل لا يمكن إدخاله على فعل فأخرج عن شبه الفعل إلى صورة تكون حرفًا مختصًا بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه.

المسألة الثالثة: إن قال قائل: الآية مذكورة لبيان أن وزر المسيء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لأن الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد أنها لا تحمل شيئًا ولو قال لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ نقول ليس كما ظننت، وذلك لأن المراد من الوازرة هي التي يتوقع منها الوزر والحمل لا التي وزرت وحملت كما يقال: شقاني الحمل، وإن لم يكن عليه في الحال حمل، وإذا لم تزر تلك النفس التي يتوقع منها ذلك فكيف تتحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ تتمة بيان أحوال المكلف فإنه لما بين له أن سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له أن حسنة الغير لا تجدي نفعًا ومن لم يعمل صالحًا لا ينال خيرًا فيكمل بها ويظهر أن المسيء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابًا ولا يتحمل عنه أحد عقابًا، وفيه أيضًا مسائل:

الأولى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه عام وهو الحق وقيل عليه بأن في الأخبار أن ما يأتي به القريب من الصدقة والصوم يصل إلى الميت والدعاء أيضًا نافع فللإنسان شيء لم يسع فيه، وأيضًا قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهي فوق ما سعى، الجواب عنه أن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته فليس له إلا ما سعى، وأما الزيادة فنقول: الله تعالى لما وعد المحسن بالأمثال والعشرة

وبالأضعاف المضاعفة فإذا أتى بحسنة راجيًا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال، فإن قيل: أنتم إذن حملتم السعي على المبادرة إلى الشيء، يقال: سعى في كذا إذا أسرع إليه، والسعي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ معناه العمل يقال: سعى فلان أي عمل، ولو كان كما ذكرتم لقال: إلا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعًا: لا بد من زيادة فإن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ليس المراد منه أن له عين ما سعى، بل المراد على ما ذكرت ليس له إلا ثواب ما سعى، أو إلا أجر ما سعى، أو يقال: بأن المراد أن ما سعى محفوظ له مصون عن الإحباط فإذن له فعله يوم القيامة الوجه الثاني: أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف، وقيل بأن قوله: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ كان في شرع من تقدم، ثم إن الله تعالى نسخه في شرع محمد ﷺ وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعدما بان الحق، وعلى ما ذكر فقوله: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ مبقي على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

المسألة الثانية: أن ﴿مَا﴾ خبرية أو مصدرية؟ نقول: كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي سوف يرى المسعي، والمصدر للمفعول يجيء كثيرًا يقال: هذا خلق الله أي مخلوقه.

المسألة الثالثة: المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل، نقول: المشهور أنهما لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ فإن اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول: هذا له، وهذا عليه، ويشهد له ويشهد عليه في المنافع والمضار، وللقائل الأول أن يقول: بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور، وأيضًا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة، وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية.

المسألة الرابعة: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بصيغة الماضي دون المستقبل لزياد الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال: ليس للإنسان إلا ما يسعى، تقول النفس إني أصلي غدًا كذا ركعة وأتصدق بكذا درهمًا، ثم يجعل مثبتًا في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه، فقال: ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

أي يعرض عليه ويكشف له من أريته الشيء، وفيه بشارة للمؤمنين على ما ذكرنا، وذلك

أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها، أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ما هو المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر، فإن سعيه يرى للخلق، ويرى لنفسه ويحتمل أن يقال: هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفيها وفي الآية التي بعدها مسائل:

الأولى: العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: يراه على صورة جميلة إن كان العمل صالحًا. ثانيهما: هو على مذهبنا غير بعيد فإن كل موجود يرى، والله قادر على إعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى [1] وفيه وجه ثالث: وهو أن ذلك مجاز عن الثواب يقال: سترى إحسانك عند الملك أي جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

المسألة الثانية: الهاء ضمير السعي أي ثم يجزى الإنسان سعيه بالجزاء، والجزاء يتعدى إلى مفعولين قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] ويقال: جزاك الله خيرًا، ويتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بحرف يقال: جزاه الله على عمله الخير الجنة، ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال: جزاه الله عمله الخير الجنة، هذا وجه، وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء، وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ تفسيرًا أو بدلاً مثل قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣] فإن التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى، الذين ظلموا، والجزاء الأوفى على ما ذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لأنه جزاء الصالح، وإن قال تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] وعلى ما قيل: يجاب أن الأوفى بالنظر إليه فإن جهنم ضررها أكثر بكثير مع نفع الآثام فهي في نفسها أوفى.

المسألة الثالثة: ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الجزاء أو لتراخي الكلام أي ثم نقول يجزاه فإن كان لتراخي الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح، وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح؟ نقول: الوجهان محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالأوفى يدفع ما ذكرت لأن الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الأوفى، وهي الجنة أو نقول الأوفى إشارة إلى الزيادة فصار كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وهي الجنة: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي الرؤية فكأنه تعالى قال وأن سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية، وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فإن الأوفى مطلق غير مبين فلم يقل: أوفى من كذا، فينبغي أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى.

---

(١) ثبت علميًا أن أعمال الإنسان وغيره مثبتة كما هي علي لوحات الأثير كالصورة الفوتوغرافية تماما وكذلك الأصوات فإنها تسجل في الموجات الأثيرية غير أنها تبتعد عنا بتقدم الزمان وقد استطاع العلماء سماع تلك الأصوات بمكبرات صوتية والراديو والتليفزيون أمثلة مصغرة لذلك وهذا من أدلة القدرة الباهرة ومن الأدلة على البعث والحساب فمحال أن يكون حفظها عبثا.

المسألة الرابعة: في بيان لطائف في الآيات. الأولى: قال في حق المسيء: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ، لجواز أن يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال: لا تزر وازرة إلا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء أنها تزر، وقال في حق المحسن: ليس للإنسان إلا ما سعى، ولم يقل: ليس له ما لم يسع لأن العبارة الثانية ليس فيها أن له ما سعى، وفي العبارة الأولى أن له ما سعى، نظرًا إلى الاستثناء، وقال: في حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه، وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه، كل ذلك إشارة إلى سبق الرحمة الغضب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما، يعني أن هذا أيضًا في الصحف وهو الحق، وقرئ بالكسر على الاستئناف.

وفيه مسائل:

الأولى: ما المراد من الآية؟ قلنا فيه وجهان: أحدهما: وهو المشهور بيان المعاد أي للناس بين يدي الله وقوف، وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لأنه تعالى لما قال: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ [النجم: ٤١] كأن قائلاً قال لا ترى الجزاء، ومتى يكون، فقال: إن المرجع إلى الله، وعند ذلك يجازي الشكور ويجزي الكفور. وثانيهما: المراد التوحيد، وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التي فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير أن في بعضها تفسيرهم غير ظاهر، وفي هذا الموضع ظاهر، فنقول: هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته، وذلك لأنك إذا نظرت إلى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدًا من موجد، ثم إن موجدها ربما يظن أنه ممكن آخر كالحرارة التي تكون على وجه يظن أنها من إشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما؟ فإن استندتا إلى ممكن آخر لم يجد العقل بدًا من الانتهاء إلى غير ممكن فهو واجب الوجود فإليه ينتهي الأمر فالرب هو المنتهى، وهذا في هذا الموضع ظاهر معقول موافق للمنقول، فإن المروي عن أبي بن كعب أنه قال عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى، لاَ فِكْرَةَ فِي الرَّبِّ**»[1] أي انتهى الأمر إلى واجب الوجود، وهو الذي لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود، وقال أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا ذُكِرَ الرَّبُّ فَانْتَهُوا**»[2] وهو محتمل لما ذكرنا، وأما بعض الناس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو الشيخ في (العظمة) (١/ ٢١٧/ ٦) من طريق موسى بن حزام عن عبد العزيز بن خالد عن سفيان... فذكره ورواه البغوي في (معالم التنزيل) (٧/ ٤١٧) من طريق أبي جعفر الرازي عن أبي بن كعب... به، وعزاه السيوطي في (الدر المنثور) (٧/ ٦٦٢) والمتقي في (كنز العمال) (٣/ ٣٦٩) الدارقطني في (الإفراد).

(٢) ذكره أهل التفسير بدون إسناد.

[فاطر: ١٠] بهذا المعنى وهذا دليل الوجود، وأما دليل الوحدانية فمن حيث إن العقل انتهى إلى واجب الوجود من حيث إنه واجب الوجود، لأنه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد، فالمنتهى هو الواجب من حيث إنه واجب، وهذا المعنى واحد في الحقيقة والعقل، لأنه لا بد من الانتهاء إلى هذا الواجب أو إلى ذلك الواجب فلا يثبت الواجب معنى غير أنه واجب فيبعد إذًا وجوبه، فلو كان واجبان في الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لأن المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في المخاطب وجهان: أحدهما: أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل ثانيهما: الخطاب مع النبي ﷺ وفيه بيان صحة دينه فإن كل أحد كان يدعى ربًا وإلهًا، لكنه ﷺ لما قال: «رَبِّيَ الَّذِي هُوَ أَحَدٌ وَصَمَدٌ»(١) يحتاج إليه كل ممكن فإذًا ربك هو المنتهى، وهو رب الأرباب ومسبب الأسباب، وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعًا، أما على قولنا: إن الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن، لأن قوله: أيها السامع كائنًا من كان إلى ربك المنتهى يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال، وأما على قولنا: الخطاب مع النبي ﷺ فهو تسلية لقلبه كأنه يقول: لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦] إلى أن قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] وأمثاله كثيرة في القرآن.

المسألة الثالثة: اللام على الوجه الأول للعهد لأن النبي ﷺ كان يقول: أبدًا إن مرجعكم إلى الله فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ الموعود المذكور في القرآن وكلام النبي ﷺ، وعلى الوجه الثاني للعموم أي إلى الرب كل منتهى وهو مبدأ، وعلى هذا الوجه نقول: منتهى الإدراكات المدركات، فإن الإنسان أولاً يدرك الأشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهي إلى الله فيقف عنده.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

وفيه مسائل:

الأولى: على قولنا: إليه المنتهى المراد منه إثبات الوحدانية، هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى، فإن من الفلاسفة من يعترف بأن الله المنتهى وأنه واحد لكن يقول: هو موجب لا قادر، فقال تعالى: هو أوجد ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت والحياة والذكورة والأنوثة في مادة واحدة، وإن ذلك لا يكون إلا من قادر واعترف به كل عاقل، وعلى قولنا: إن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] بيان المعاد

(١) لم أجده.

فهو إشارة إلى بيان أمره فهو كما يكون في بعضها ضاحكًا فرحًا وفي بعضها باكيًا محزونًا كذلك يفعل به في الآخرة.

المسألة الثانية: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ لا مفعول لهما في هذا الموضع لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول. يقول القائل: فلأن بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعًا ومعطى.

المسألة الثالثة: اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى لأنهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهًا وسببًا، وإذا لم يعلل بأمر ولا بد له من موجد فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرًا له الضحك قالوا: قوة التعجب وهو في غاية البطلان لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك لأن الإنسان يفرح كثيرًا ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علمًا بالأمور التي يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا؟ لا يقدر على تعليل صحيح، وعند الخواص كالتي في المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لا يفوض أمره إلى قدرة الله تعالى وإرادته.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

والبحث فيه كما في الضحك والبكاء، غير أن الله تعالى في الأول بين خاصة النوع الذي هو أخص من الجنس، فإنه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو أعم منه ودونه في البعد عن التعليل وهي الإماتة والإحياء وهما صفتان متضادتان أي الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم وإلا لكان الممتنع ميتًا، وكيفما كان فالإماتة والإحياء أمر وجودي وهما من خواص الحيوان، ويقول الطبيعي في الحياة لاعتدال المزاج، والمزاج من أركان متضادة هي النار والهواء والماء والتراب وهي متداعية إلى الانفكاك ومالا تركيب فيه من المتضادات لا موت له، لأن المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره، فقال تعالى: الذي خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فإذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى: فهو الذي أمات وأحيا. فإن قيل: متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الإحياء والإماتة بناء على الحياة والموت؟ نقول: فيه وجوه أحدها: أنه على التقديم والتأخير كأنه قال: أحيا وأمات ثانيها: هو بمعنى المستقبل، فإن الأمر قريب يقال: فلان وصل والليل دخل إذا قرب مكانه وزمانه، فكذلك الإحياء والإماتة ثالثها: أمات أي خلق الموت والجمود في العناصر، ثم ركبها وأحيا أي خلق الحس والحركة فيها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ وهو أيضًا من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرًا، وبعضها أنثى ولا يصل إليه فهم الطبيعي الذي يقول: إنه من البرد والرطوبة في الأنثى، فرب امرأة أيبس مزاجًا من الرجل، وكيف وإذا نظرت في المميزات بين الصغير والكبير تجدها أمورًا عجيبة منها نبات اللحية، وأقوى ما قالوا في نبات اللحية أنهم قالوا: الشعور مكونة من بخار دخاني ينحدر إلى المسام، فإذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما في مزاج الصبي والمرأة، لا ينبت الشعر لخروج تلك الأدخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعرًا، وإذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق، ثم إن تلك المواد تنجذب إلى مواضع مخصوصة فتندفع، إما إلى الرأس فتندفع إليه لأنه مخلوق كقبة فوق الأبخرة والأدخنة فتتصاعد إليه تلك المواد، فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول، ولهذا في الرجل مواضع تنجذب إليها الأبخرة والأدخنة، منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيتِ، ومنها بقرب آلة التناسل لأن حرارة الشهوة تجذب أيضًا، ومنها اللحيان فإنها كثيرة الحركة بسبب الأكل، والكلام والحركة أيضًا جاذبة، فإذا قيل لهم: فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فإنها إذا قطعت لم تنبت اللحية؟ وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل؟ ففي بعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بأمور واهية، ولو فوضها إلى حكمة إلهية لكان أولى **وفيه مسألتان:**

الأولى: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ﴾ ولم يقل: وأنه هو خلق كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان، وفي الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيدًا، لكن ربما يقول به جاهل، كما قال من حاج إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فأكد ذلك بذكر الفصل، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] ولذلك قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى فأكد في مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد ولم يؤكده في غيره.

المسألة الثانية: الذكر والأنثى اسمان هما صفة أو اسمان ليسا بصفة؟ المشهور عند أهل اللغة الثاني والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات، فالذكر كالحسن والعزب والأنثى كالحبلى والكبرى وإنما قلنا: إنها كالحبلى في رأي لأنها حيالها أنثئت لا كالكبرى، وإن قلنا: إنها كالكبرى في رأي، وإنما قلنا: إن الظاهر أنهما صفتان، لأن الصفة ما يطلق على شيء ثبت له أمر كالعالم يطلق على شيء له علم والمتحرك يقال لشيء له حركة بخلاف الشجر والحجر، فإن الشجر لا يقال لشيء بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشيء معين، والذكر اسم

يقال لشيء له أمر، ولهذا يوصف به، ولا يوصف بالشجر، يقال جاءني شخص ذكر، أو إنسان ذكر، ولا يقال جسم شجر، والذي ذهب إلى أنه اسم غير صفة إنما ذهب إليه، لأنه لم يرد له فعل، والصفة في الغالب له فعل كالعالم والجاهل والعزب والكبرى والحبلى، وذلك لا يدل على ما ذهب إليه، لأن الذكورة والأنوثة من الصفات التي لا يتبدل بعضها ببعض، فلا يصاغ لها أفعال لأن الفعل لما يتوقع له تجدد في صورة الغالب، ولهذا لم يوجد للإضافيات أفعال كالأبوة والبنوة والأخوة إذ لم تكن من الذي يتبدل، ووجد للإضافيات المتبدلة أفعال يقال: واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتًا بتكلف فقبل التبدل.

قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي قطعة من الماء.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ من أمنى المني إذا نزل أو منى يمني إذا قدر وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ تنبيه على كمال القدرة لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعًا متباينة وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون على ما بينا، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر، والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه إلى الحق، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمارة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة، وبها كرم الله بني آدم، وإليه الإشارة في قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] غير خلق النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظامًا، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بعد خلق النطفة قال هاهنا: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاء آخر، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] عند الأكثرين لبيان الإعادة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] كذلك فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة، ولأنه تعالى قال بعد هذا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] وهذا من أحوال الدنيا، وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره، فإن قيل: فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] نقول الآخرة من الآخر لا من

الآخر لأن الآخر أفعل، وقد تقدم على أن هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم قال: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿عَلَىٰ﴾ للوجوب، ولا يجب على الله الإعادة، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ قال الزمخشري على ما هو مذهبه عليه عقلاً، فإن من الحكمة الجزاء، وذلك لا يتم إلا بالحشر، فيجب عليه عقلاً الإعادة، ونحن لا نقول بهذا القول، ونقول فيه وجهان الأول: عليه بحكم الوعد فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢] فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع الثاني: عليه للتعيين فإن من حضر بين جمع وحاولوا أمرًا وعجزوا عنه، يقال: وجب عليك إذن أن تفعله أي تعينت له.

المسألة الثانية: قرئ: (النَّشْأَةَ) على أنه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهي للمرة، تقول: ضربته ضربتين، أي مرة بعد مرة، يعني النشأة مرة أخرى عليه، وقرئ (النَّشَاءَةَ) بالمد على أنه مصدر على وزن فعالة كالكفالة، وكيفما قرىء فهي من نشأ، وهو لازم وكان الواجب أن يقال: عليه الإنشاء لا النشأة، نقول فيه فائدة وهي أن الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى، ولو قال: عليه الإنشاء ربما يقول قائل: الإنشاء من باب الإجلاس، حيث يقال في السعة أجلسته فما جلس، وأقمته فما قام فيقال: أَنشَأَ وما نشأ أي قصده لينشأ ولم يوجد، فإذا قال: عليه النشأة أي يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزمًا.

المسألة الثالثة: هل بين قول القائل: عليه النشأة مرة أخرى، وبين قوله: عليه النشأة الأخرى فرق؟ نقول: نعم إذا قال: عليه النشأة مرة أخرى لا يكون النشء قد علم أولاً، وإذا قال: ﴿عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يكون قد علم حقيقة النشأة الأخرى، فنقول ذلك المعلوم عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وقد ذكرنا تفسيره فنقول: ﴿أَغْنَىٰ﴾ يعني دفع حاجته ولم يتركه محتاجًا لأن الفقير في مقابلة الغني، فمن لم يبق فقيرًا بوجه من الوجوه فهو غني مطلقًا، ومن لم يبق فقيرًا من وجه فهو غني من ذلك الوجه، قال ﷺ: «**أَغْنُوهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فِي هَذَا الْيَوْمِ**» (١)

---

(١) **ضعيف**: رواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ١٧٥) حديث رقم (٧٥٢٨) من طريق محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا أبو الربيع حدثنا أبو معشر عن نافع عن ابن عمر... به، وابن زنجويه في (الأموال) (٥/ ١٤٨) حديث رقم (١٩٦١). من طريق أبي نعيم أخبرنا أبو معشر عن نافع عن ابن عمر... به، الدارقطني في (سننه) (٢/ ١٥٢/ ٦٧) من طريق وكيع عن أبي معشر عن نافع عن ابن عمر... به، وأورده الزيلعي في (نصب الراية) (٢/ ٤٣٢) وقال: قلت غريب بهذا اللفظ وأخرجه الدارقطني في سننه عن أبي معشر عن نافع عن بن عمر قال فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال أغنوهم في هذا اليوم انتهى ورواه بن عدي في الكامل وأعله بأبي معشر نجيح ولفظه وقال أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم وأسند تضعيف أبي معشر عن البخاري والنسائي=

وحمل ذلك على زكاة الفطر، ومعناه إذا أتاه ما احتاج إليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء، والذي عندي أن الحروف متناسبة في المعنى، فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان، وهداه إلى الارتضاع في صباه أو هو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما وفي الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء؛ وكل ما زاد عليه فهو إقناء.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ إشارة إلى فساد قول قوم آخرين، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده فمن كسب استغنى، ومن كسل افتقر وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبخت، وذلك بالنجوم، فقال: ﴿هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وإن قائل الغنى بالنجوم غالط، فنقول هو رب النجوم وهو محركها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ لإنكارهم ذلك أكد بالفصل، والشعرى نجم مضيء، وفي النجوم شعريان إحداهما شامية والأخرى يمانية، والظاهر أن المراد اليمانية لأنهم كانوا يعبدونها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ لما ذكر أنه: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] وكان ذلك بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد أهلك وكفى لهم دليلاً حال عاد وثمود وغيرهم: و﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل: بالأولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة، وقيل: الأولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم، تقول: زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه، وفيه قراءات (عَادًا الأُولَى) بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين، و(عاد الأُولَى) بإسقاط نون التنوين أيضًا لالتقاء الساكنين كقراءة (عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ) [التوبة: ٣٠] (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ) [الإخلاص: ١-٢] و(عادًا لولى) بإدغام النون في اللام ونقل ضمة الهمزة إلى اللام و(عادًا لؤلى) بهمزة الواو وقرأ هذا القارئ (على سؤقه) ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا في موضع (المؤقدة)

=وابن معين ومشاه هو وقال مع ضعفه يكتب حديثه انتهى وتقدم هذا الحديث ثم الحاكم في علوم الحديث بزيادة فيه ولم يعله الشيخ في الإمام إلا بأبي معشر قال قال البخاري منكر الحديث انتهى أعني حديث الدارقطني.

حديث آخر رواه بن سعد في الطبقات أخبرنا محمد بن عمر الواقدي ثنا عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال وأخبرنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال وأخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده قالوا فرض صوم رمضان بعد ما حولت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ وأمر عليه السلام في هذه السنة بزكاة الفطر وذلك قبل أن يفرض الزكاة في الأموال وأن يخرج عن الصغير والكبير والذكر والأنثى والحر والعبد صاع من تمر أو صاع من زبيب أو مدان من بر وأمر بإخراجها قبل الغد وإلى الصلاة وقال أغنوهم يعني المساكين عن الطواف هذا اليوم انتهى.

وأورده الألباني في (الارواء) (٣/ ٣٣٢) حديث رقم (٨٤٤) وضعفه.

و(المؤصدة) للضمة والواو فهي في هذا الموضع تجزي على الهمزة، وكذا في سؤقه لوجود الهمزة في الأصل، وفي موسى وقوله لا يحسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ يعني وأهلك ثمود وقوله: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ عائد إلى عاد وثمود أي فما أبقى عليهم، ومن المفسرين من قال: فما أبقاهم أي فما أبقى منهم أحدًا ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] وتمسك الحجاج على من قال: إن ثقيفًا من ثمود بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي أهلكهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ والمسألة مشهورة في قبل وبعد تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة. أما البناء فلتضمنه الإضافة، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث إنها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار فبنى على ما يخالف حالتي إعرابها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» والبادئ أظلم، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم، والظالم واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضدًا، وعليه سؤال وهو أن قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك، فإذا قال: هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم، ونحن ما بالغنا فلا نهلك، وأما لو قال أهلكوا لأنهم ظلمة لخاف كل ظالم فما الفائدة في قوله: ﴿أَظْلَمَ﴾؟ نقول: المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة فهو كقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

المؤتفكة المنقلبة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: (والمؤتفكات) والمشهور فيه أنها قرىء قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهي مؤتفكات، ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول: مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم.

المسألة الثانية: ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي أهواها بمعنى أسقطها، فقيل: أهواها من الهوى إلى الأرض

من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه، ثم قلبها، وقيل: كانت عمارتهم مرتفعة فأهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ على ما قلت: كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل، نقول: ليس معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر، وقال في عاد وثمود، وقوم نوح اسم القوم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ثمود اسم الموضع فذكر عادًا باسم القوم، وثمود باسم الموضع، وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فإن في العادة تارة يقوي الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوي المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين أحدهما قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢] ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن والوجه الثاني: هو أن عادًا وثمود وقوم نوح، كان أمرهم متقدمًا، وأماكنهم كانت قد دثرت، ولكن أمرهم كان مشهورًا متواترًا، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم.

ثم قال تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يحتمل أن يكون ما مفعولاً وهو الظاهر، ويحتمل أن يكون فاعلاً يقال: ضربه من ضربه، وعلى هذا نقول: يحتمل أن يكون الذي غَشَّى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى سبب غضب الله عليهم أي غشاها عليهم السبب، بمعنى أن الله غضب عليهم بسببه، يقال لمن أغضب ملكًا بكلام فضربه الملك كلامك الذي ضربك.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ قيل هذا أيضًا مما في الصحف، وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام، كأنه يقول: بأي النعم أيها السامع تشك أو تجادل، وقيل: هو خطاب مع الكافر، ويحتمل أن يقال مع النبي ﷺ، ولا يقال: كيف يجوز أن يقول للنبي ﷺ: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ لأنا نقول هو من باب: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] يعني لم يبق فيه إمكان الشك، حتى أن فارضًا لو فرض النبي ﷺ ممن يشك أو يجادل في بعض الأمور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كأنه يقول: بأي آلاء ربك تتمارى أيها الإنسان، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] فإن قيل:

المذكور من قبل نعم والآلاء نعم، فكيف آلاء ربك؟ نقول: لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والإغناء والإقناء، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل، أو تقول: لما ذكر الإهلاك، قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ وسنزيده بيانًا في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] في مواضع.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المشار إليه بهذا ماذا؟ نقول فيه وجوه أحدها: محمد ﷺ من جنس النذر الأولى ثانيها: القرآن ثالثها: ما ذكره من أخبار المهلكين، ومعناه حينئذ هذا بعض الأمور التي هي منذرة، وعلى قولنا: المراد محمد ﷺ فالنذير هو المنذر و﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنس، وعلى قولنا: المراد هو القرآن يحتمل أن يكون النذير بمعنى المصدر، ويحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، وكون الإشارة إلى القرآن بعيد لفظًا ومعنى، أما معنى: فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الأولى لأنه معجز وتلك لم تكن معجزة، وذلك لأنه تعالى لما بين الوحدانية وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥] قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ إشارة إلى محمد ﷺ وإثباتًا للرسالة، وقال بعد ذلك: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] إشارة إلى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة إثبات أصول ثلاث مرتبة، فإن الأصل الأول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة، وأما لفظًا فلأن النذير إن كان كاملاً، فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لأنه أقرب ويكون على هذا من بقي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع، أو يكون لابتداء الغاية، بمعنى هذا إنذار من المنذرين المتقدمين، يقال: هذا الكتاب، وهذا الكلام من فلان وعلى الأقوال كلها ليس ذكر الأولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال: الفرقة الأولى احترازًا عن الفرقة الأخيرة، وإنما هو لبيان الوصف للموصوف، كما يقال: زيد العالم جاءني فيذكر العالم، إما لبيان أن زيدًا عالم غير أنك لا تذكره بلفظ الخبر فتأتي به على طريقة الوصف، وإما لمدح زيد به، وإما لأمر آخر، والأولى على العود إلى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال: من النذر الأولين يقال من الأقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] ويقال: كانت الكائنة. وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما إذا كان الفاعل صار فاعلاً لمثل ذلك الفعل من قبل، ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل، فيقال: فعل الفاعل أي الذي كان فاعلاً صار فاعلاً مرة أخرى، يقال: حاكه الحائك أي من شغله ذلك من قبل فعله، ومنها ما يصير الفاعل فاعلاً بذلك الفعل، ومنه يقال: (إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ) وإذا غصب العين غاصب ضمنه، فقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾

يحتمل أن يكون من القبيل الأول أي قربت الساعة التي كل يوم يزداد قربها فهي كائنة قريبة وازدادت في القرب، ويحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي قرب وقوعها وأزفت فاعلها في الحقيقة القيامة أو الساعة، فكأنه قال: أزفت القيامة الآزفة أو الساعة أو مثلها.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: لا مظهر لها إلا الله فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى إياه وإظهاره إياها له، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ثانيها: لا يأتي بها إلا الله، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. **وفيه مسائل:**

الأولى: ﴿مِن﴾ زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه، تقول: ما جاءني أحد وما جاءني من أحد، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير، تقديره ليس لها من كاشفة دون الله، فيكون نفيًا عامًا بالنسبة إلى الكواشف، ويحتمل أن يقال: ليست بزائدة بل معنى الكلام أنه ليس في الوجود نفس تكتشفها أي تخبر عنها كما هي ومتى وقتها من غير الله تعالى يعني من يكشفها فإنما يكشفها من الله لا من غير الله يقال: كشف الأمر من زيد، ودون يكون بمعنى غير كما في قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] أي غير الله.

المسألة الثانية: كاشفة صفة لمؤنث أي نفس كاشفة، وقيل هي للمبالغة كما في العلامة وعلى هذا لا يقال بأنه نفى أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من الكاشف الفائق نفي نفس الكاشف، لأنا نقول: لو كشفها أحد لكان كاشفًا بالوجه الكامل، فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] من حيث نفى كونه ظالمًا مبالغًا، ولا يلزم منه نفي كونه ظالمًا، وقلنا هناك: إنه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان في غاية الظلم وليس في غاية الظلم فلا يظلمهم أصلاً.

المسألة الثالثة: إذا قلت: إن معناه ليس لها نفس كاشفة، فقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استثناء على الأشهر من الأقوال، فيكون الله تعالى نفسًا لها كاشفة؟ نقول: الجواب عنه من وجوه الأول: لا فساد في ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة. الثاني: ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه أن لا يكون نفسًا الثالث: الاستثناء الكاشف المبالغ.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ قيل: من القرآن، ويحتمل أن يقال: هذا إشارة إلى

حديث: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَضْحَكُونَ﴾ يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧] في حق موسى عليه السلام، وكانوا هم أيضًا يضحكون من حديث النبي والقرآن، ويحتمل أن يكون إنكارًا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة، أي أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت، فكان حقًا أن لا تضحكوا حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي كان حقًا لكم أن تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي غافلون، وذكر باسم الفاعل، لأن الغفلة دائمة، وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ يحتمل أن يكون الأمر عامًا، ويحتمل أن يكون التفاتًا، فيكون كأنه قال: أيها المؤمنون اسجدوا شكرًا على الهداية واشتغلوا بالعبادة، ولم يقل: اعبدوا الله إما لكونه معلومًا، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي ائتوا بالمأمور، ولا تعبدوا غير الله، لأنها ليست بعبادة، وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما إذا حملناه على العموم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة «والنَّجْم»

مكِّيّة، وهي إحدى وستون آية

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[1] الآية [٣٢]. وقيل: اثنتان وستون آية[2]. وقيل: إنَّ السورة كلَّها مدنيَّةٌ. والصحيح أنَّها مكيَّة؛ لما روى ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: هي أوَّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكَّة[3]. وفي «البخاري»[4] عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس. وعن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ سورةَ النجم فسجد لها، فما بقي أحدٌ من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بَعْدُ قُتِل كافراً. متفق عليه[5]. الرجل يقال له: أميَّة بن خَلَف[6]. وفي «الصحيحين» عن زيد بن ثابت ﷺ أنَّه قرأ على النبيِّ ﷺ سورةَ «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى» فلم يسجد. وقد مضى في آخر «الأعراف»[7] القول في هذا، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

(٢) الوسيط ٤/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢١ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٢ ، وعزاه لمقاتل.

(٤) في صحيحه (١٠٧١).

(٥) البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

(٦) كذا صرَّح به بعض رواة الحديث كما في البخاري (٤٨٦٣)، وقيل هو: الوليد بن المغيرة. وقيل هو: سعيد بن العاص بن أمية. فتح الباري ٨/ ٦١٥ .

(٧) ٩/ ٤٣٦ ، والحديث عند البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧)، وأحمد (٢١٥٩١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»: والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر[١]. والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجماً[٢] وإن كانت في العدد نجوماً، يقال: إنَّها سبعةُ أنجم، ستَّة منها ظاهرةٌ، وواحدٌ خَفِيٌّ يَمتحِن الناسُ به أبصارَهم[٣].

وفي «الشِّفا»[٤] للقاضي عياض: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أَحَدَ عشَر نجماً. وعن مجاهد أيضاً أنَّ المعنى: والقرآنِ إذا نزل؛ لأنه كان يَنزِل نجوماً. وقاله الفراء[٥].

وعنه أيضاً: يعني نجومَ السماء كلّها حين تَغرُب[٦]. وهو قول الحسن[٧] قال: أَقسم اللهُ بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جَمْع، كقول الراعي:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨ (١٨٦٩٣)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٧.

(٣) زاد المسير ٨/ ٦٢.

(٤) ١/ ١٦٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٤، وأخرجه عن مجاهد الطبريُّ ٢٢/ ٦.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[(١)]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا فِي الأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ[(٢)]

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطَت يومَ القيامة. وقال السُّدِّيُّ: إنَّ النجم ههنا الزُّهرةُ؛ لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها.

وقيل: المراد به النجوم التي تُرجَم بها الشياطين، وسببه أنَّ الله تعالى لما أرَاد بعثة محمَّد ﷺ رسولاً كَثُرَ انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعر أكثرُ العرب منها، وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يُخبِرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشَر، فإن انقضَّ منها شيءٌ فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضَّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِث رسولُ الله ﷺ كان هو الأمرَ العظيمَ الذي استشعروه، فأنزل اللهُ تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى» أي: ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوَّة التي حدثت[(٣)]. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق[(٤)].

و«هَوَى» أي: سقط على الأرض[(٥)]. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ﷺ: «وَالنَّجْمِ» يعني محمَّداً ﷺ، «إِذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلةَ المعراج[(٦)]. وعن عروة

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢. قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرة الدسم، ومعنى: تعدُّ النجم. أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ وعزاه إلى الأخفش.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤-٢٤٥.

ابنِ الزبير رضي الله عنهما أنَّ عُتَيْبَةَ[1] بنَ أبي لهبٍ وكان تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ أراد الخروجَ إلى الشام فقال: لآتينَّ محمَّداً فلأُوذِينَّه، فأتاه فقال: يا محمَّد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى. ثم تَفَلَ في وجه رسول الله ﷺ، وردَّ عليه ابنتَه وطَلَّقها، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجَم لها وقال: ما كان أغناكَ يا بنَ أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتيبةُ إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهبٌ من الدَّيْر فقال لهم: إنَّ هذه أرضٌ مُسْبِعةٌ. فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشرَ قريش هذه الليلة! فإنِّي أخاف على ابني من دعوة محمَّد. فجمعوا جِمالهم وأَناخوها حولهم، وأَحدقوا بعتيبة، فجاء الأَسَدُ يَتَشمَّم وجوهَهم حتى ضرب عُتيبةَ فقتله، وقال حسان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ ... فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ[2]

وأصل النَّجْم: الطلوع، يقال: نَجَم السنُّ، ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا، أي: خرج على السلطان.

والهُوِيُّ: النزول والسقوط، يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً، مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّاً[3]، قال زهير:

---

(١) في النسخ: عتبة. وكذا في المواضع الآتية، والتصويب من تصحيفات المحدثين للعسكري ٢/ ٧٠٨، والروض الأنف للسهيلي ٣/ ٦٨، وبعض مصادر التخريج.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧-٢٨، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨١) عن محمد بن كعب القرظي، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن رجال من أهل بيته، والدولابي في الذرية الطاهرة (٧٤) عن محمد ابن كعب القرظي وعثمان بن عروة بن الزبير بنحوه، مع ذكر قصيدة مطولة لحسان وفيها البيت الآنف الذكر، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسبُّ النبي ﷺ .. فذكره بنحوه مختصراً، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٢٠٧، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨٠)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٣٠٢ من طريق عروة بن الزبير، عن هبار بن أسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة بن أبي لهب تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه... الخبر بنحوه دون ذكر البيت.

(٣) الصحاح (نجم) و (هوي) بنحوه.

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وَهْيَ تَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرِّشَاءُ[١]

وقال آخر:

بَيْنَما نَحْنُ بالبَلاكِثِ فالْقَا عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيَّا

خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ ـرَاكِ وَهْناً فما استطعْتُ مُضيّاً[٢]

الأصمعي: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هَوِيّاً، أي: سقط إلى أسفل. قال: وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وانْهَوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأجرامِهِ مَنْ قُلَّةِ النِّيقِ منْهَوِي[٣]

ويقال في الحُبِّ: هَوِيَ ـ بالكسر ـ يَهْوَى هَوًى، أي: أحبَّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جواب القَسَم، أي: ما ضلَّ محمَّد ﷺ عن الحقِّ وما حادَ عنه[٤]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغَيُّ: ضدُّ الرشد، أي: ما صار غاوياً[٥]. وقيل: أي: ما تكلَّم بالباطل[٦]. وقيل: أي: ما خاب مما طلب، والغَيُّ: الخيبة، قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا[٧]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٦٧ ، وفيه: شجَّ: علا. بها: بالأُتُن، والأماعز: المكان الغليظ الكثير الحصى. فشبَّه هُويَّ الحبل إذا انقطع بهُويِّ الأُتُن.

(٢) القائل مجنون ليلى قيس بن الملوَّح، والبيتان في ديوانه ص٢٩١ ، والبلاكث والقاع: موضعان من المدينة. معجم البلدان ١/ ٤٧٨ و ٤/ ٢٩٨ ونسب البيتين فيه إلى كُثيِّر.

(٣) الصحاح (هوي) وما بعده منه، والبيت ليزيد بن الحكم، وهو في الكامل ٣/ ١٢٧٧ ، وعيون الأخبار ٣/ ٨٣ ، وقُلَّة كل شيء: أعلاه. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل. لسان العرب (قلل) و (نوق).

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٢-١٩٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٠ ،وما بعده منه، والبيت للمرقِّش، وسلف ١٣/ ٤٧٧ .

أي: مَن خاب في طلبه لامه الناس.

ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي: كان أبداً موحِّداً لله. وهو الصحيح على ما بيَّنَّاه في «الشورى»[١] عند قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الآية: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾:

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إليه[٢]. وقيل: «عَنِ الْهَوَى» أي: بالهوى، قاله أبو عبيدة[٣] كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥] أي: فاسأل عنه. النحّاس[٤]: قول قتادة أولى، وتكون «عن» على بابِها، أي: ما يخرج نُطْقه عن رأيه، إنَّما هو بوحْي من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بعده: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى».

الثانية: قد يحتجُّ بهذه الآية من لا يجوِّز لرسول الله ﷺ الاجتهادَ في الحوادث[٥]. وفيها أيضاً دلالة على أنَّ السُّنَّةَ كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدَّم في مقدَّمة الكتاب[٦] حديث المِقدام بن معدي كرب في ذلك، والحمد لله.

قال السجستانيُّ: إن شئتَ أَبدلتَ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» مِن «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ». قال ابن الأنباري[٧]: وهذا غَلَط؛ لأنَّ «إِنْ» الخفيفة لا تكون مبدلة من «ما»، الدليل على هذا أنَّك لا تقول: واللهِ ما قمتُ، إنْ أنا لقاعد.

---

(١) ١٨/٥٠٩ - ٥١٠.

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٢/٨.

(٣) في مجاز القرآن له ٢/٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن له ٤/٢٦٥ بنحوه.

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/٣٩٣.

(٦) ١/٦٥.

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩١٠، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، في قول سائر المفسرين[(١)] سوى الحسن، فإنَّه قال: هو الله عزَّ وجلَّ[(٢)]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه: ذو قوَّة، والقوَّة من صفات الله تعالى، وأصله من شدَّة فَتْل الحبل[(٣)]، كأنَّه استمرَّ به الفَتْل حتى بلغ إلى غاية يَصعُب معها الحَلُّ.

ثم قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش. روي معناه عن الحسن[(٤)]. وقال الربيع بن أنس والفرَّاء: ﴿فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: استوى جبريل ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام[(٥)]. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو ». وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلَّما يقولون: استوى وفلان[(٦)]. وأنشد الفرَّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـنَّـبْـعَ يَـصـلُـبُ عُـودُهُ ... ولا يَسْتوِي والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[(٧)]

أي: لا يستوي هو والخِرْوَع، ونظير هذا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧] والمعنى: أئذا كنَّا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمَّد عليهما السلام ليلةَ الإسراء بالأُفُق الأعلى.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦-١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٥) أخرجه عن الربيع الطبري ٢٢/ ١١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١١-١٢ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥ ، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٣٢ ، والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والخروع: كل نبات قصيف ريان من شجر أو عنب. لسان العرب (نبع) و(خرع). ووقع عند الفراء: يخلق، بدل: يصلب.

وأجاز[١] العطف على الضمير؛ لئلا يتكرَّر. وأنكر ذلك الزَّجَّاج[٢] إلا في ضرورة الشعر، وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وَصْفه: ذو منطق حسَن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حَسن[٣].

وقيل: معناه: ذو صحَّة جسم، وسلامة من الآفات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٤]. وقال امرؤ القيس:

كنتُ فيهم أبداً ذا حيلة مُحْكَمَ المِرَّة مأمُونَ الْعُقَد[٥]

وقد قيل: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة. قال الكلبيُّ: وكان من شدَّة جبريل عليه السلام: أنَّه اقتلعَ مدائنَ قومِ لوطٍ من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعَها إلى السماء، حتى سمع أهلُ السماء نَبْحَ كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قَلَبَها. وكان من شدَّته أيضاً: أنَّه أبصر إبليسَ يكلِّم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدَّسة، فنفحه بجناحه نفحةً ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدَّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرته، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدَّته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعودهُ إليها في أسرع من الطَّرْف[٦].

وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ. قال الشاعر:

---

(١) أي: الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٧٠ وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٠ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ١١ ، والحديث سلف ١٠/ ٢٥٣ .

(٥) كذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢١٩ إلا أن صدره هكذا:

ولبيبٌ أيِّد ذو حيلة

قال شارحه: الأيِّد: الشديد. ومأمون العُقَد: يؤمن انحلالها.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨ دون عزو، وخبر تعذيب قوم لوط في عرائس المجالس ص١٠٧ .

قـد كـنـتُ قـبـلَ لِـقـائِـكُـمْ ذا مِـرَّةٍ عـنـدي لِـكـلِّ مُـخـاصِـمٍ مِـيـزانُـهُ[(١)]

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أنَّ الله ائتمنه على وَحْيه إلى جميع رسله.

قال الجوهريُّ[(٢)]: والمِرَّة: إحدى الطبائع الأربع، والمِرَّة: القوَّة، وشدَّة العقل أيضاً. ورجل مرير: أي: قويٌّ ذو مِرةٍ. قال:

تَـرى الـرَّجُـل الـنَّـحـيـفَ فـتـزدريـه وحَـشْـوُ ثِـيـابِـه أسـدٌ مَـرِيـرُ[(٣)]

وقال لَقِيط:

حـتـى اسـتـمـرَّت عـلـى شَـزْرٍ مَـرِيـرتُـه مُـرُّ الـعـزيـمـةِ لا رَتّـاً ولا ضَـرَعَـا[(٤)]

وقال مجاهد وقتادة: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة، ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنِّـي امـرؤٌ ذو مِـرّةٍ فـاسـتـبـقِـنـي فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ[(٥)]

فالقوَّة تكون من صفة الله عزَّ وجلَّ، ومن صفة المخلوق.

«فاستوى» يعني: جبريل على ما بيَّنَّا، أي: ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمَّداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيِّب وابن جبير[(٦)].

وقيل: «فَاسْتَوَى» أي: قام في صورته التي خَلَقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي

(١) سلف ١٢/ ١٩١ .

(٢) في الصحاح (مرر).

(٣) القائل العباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ٢/ ٧ ، ورواية عجزه هكذا:

وفـــي أثـــوابـــه أســـد مـــزيـــر

والمزير: الشديد القلب القوي. اللسان (مزر).

(٤) الكامل ٢/ ٦٨٢ ، والرتُّ: الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء. والضَّرَع: الصغير السنّ الضعيف. اللسان (رتت) و(ضرع).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٠ . والبيت في الأصمعيات ص٢٧ ، وورد فيه هكذا:

فـتـعـلَّـمـي أنـي امـرؤ ذو مـرَّة فـيـمـا ألـمَّ مـن الـخـطـوب صـلـيـبُ

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ وعزاه إلى ابن جبير.

إلى النبيِّ ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيُّ ﷺ أن يُرِيَه نفسَه التي جَبَله الله عليها، فأراه نفسه مرَّتين، مرَّة في الأرض، ومرَّة في السماء، فأما في الأرض ففي الأُفُق الأعلى، وكان النبيُّ ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأرض إلى المغرب، فخرَّ النبيُّ ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمَّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلما أفاق النبيُّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أنَّ الله خلَق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمَّد إنَّما نَشرتُ جناحَيْن من أَجنحتي، وإنَّ لي ستَّ مئة جناح، سَعة كلِّ جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إنَّ هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جَنْب ما خلقَه الله إلا يسيراً، ولقد خلَق الله إسرافيلَ له ستُّ مئة جناح، كلُّ جناح منها قَدْر جميع أجنحتي، وإنَّه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقَدْر الوصَع. يعني: العصفور الصغير، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يَرَهُ أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمَّداً ﷺ[(١)].

وقول ثالث أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: أي: استوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني: في صدر محمَّد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: فاعتدل، يعني: محمَّداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: فاعتدل في قوَّته. الثاني: في رسالته. ذكرهما الماورديُّ[(٢)].

قلت: وعلى الأوَّل يكون تمام الكلام «ذُو مرَّةٍ»، وعلى الثاني «شَدِيدُ الْقُوَى».

وقول خامس أنَّ معناه: فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: أنَّه جبريل عليه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ دون قوله: فلما أفاق النبي ﷺ... إلى قوله: يعني العصفور الصغير. حيث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً بنحوه.

ورؤية النبي ﷺ جبريلَ مرتين أخرجها البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

وقول جبريل: إن لي ست مئة جناح. أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني: أنَّه النبيُّ ﷺ ارتفع بالمعراج(١). وقول سادس: «فَاسْتَوَى»: يعني الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش، على قول الحسن(٢). وقد مضى القول فيه في «الأعراف»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى: فاستوى عالياً(٤)، أي: استوى جبريل عالياً على صورته، ولم يكن النبيُّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إيَّاها على ما ذكرنا.

والأُفُق: ناحية السماء، وجمعه: آفاق(٥). وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس(٦). وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، ونحوه عن مجاهد. ويقال: أُفْق وأُفُق، مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في «حم السجدة»(٧). وفرس أُفُق ـ بالضمِّ ـ أي: رائع، وكذلك الأنثى، قال الشاعر:

أرجِّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ذَيْلِي وتَحمِلُ شِكَّتي أُفُقٌ كُمَيْتُ(٨)

وقيل: «وَهُوَ» أي: النبيُّ ﷺ «بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» يعني: ليلةَ الإسراء، وهذا ضعيف، لأنَّه يقال: استوى هو وفلان، ولا يقال: استوى وفلان، إلا في ضرورة الشعر.

والصحيح استوى جبريلُ عليه السلام، وجبريلُ بالأُفق الأعلى على صورته الأصليَّة؛ لأنَّه كان يتمثَّل للنبيِّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٣) ٩/ ٢٣٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٦ .

(٥) الصحاح (أفق).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ عن قتادة ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٣ عن قتادة بنحوه.

(٧) عند الآية (٥٣).

(٨) الصحاح (أفق)، والبيت لعمرو بن قعاس بن عبد يغوث المرادي، وهو في منتهى الطلب لابن ميمون ٨/ ٢٤٥ ، وفيه: ذمَّتي، بدل: لمَّتي، واللِّمَّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة. والشِّكَّة: السلاح. لسان العرب (لمم) و (شكك).

أن يراه على صورته الحقيقيَّة، فاستوى في أفق المشرق، فملأ الأُفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأُفق الأعلى من الأرض «فَتَدَلَّى» فنزل على النبيِّ ﷺ بالوحي[١]. المعنى: أنَّه لما رأى النبيُّ ﷺ من عظمته ما رأى، وهالَه ذلك، ردَّه الله إلى صورة آدميٍّ حين قَرُبَ من النبيِّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» يعني أوحى الله إلى جبريلَ، وكان جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم[٢]. وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّ معناه: أنَّ الله تبارك وتعالى «دَنَا» من محمَّد ﷺ «فَتَدَلَّى»[٣]. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ[٤]. والمعنى: دنا منه أَمْرُه وحُكْمه[٥]. وأصل التدلِّي: النزول إلى الشيء حتى يَقرُب منه، فوضِعَ موضعَ القُرب، قال لبيد:

فَتَدَلَّيْتُ عليه قافِلاً وعلى الأرض غيَابَاتُ الطَّفَل[٦]

وذهب الفرَّاء[٧] إلى أنَ الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلَّى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد، قدَّمت أيَّهما شئت، فقلت: فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأنَّ

(١) الوسيط ٤/ ١٩٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ ، ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٩)، والطبري ٢٢/ ١٤ عن الحسن وقتادة، والطبري ٢٢/ ١٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨) عن الربيع.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤ ، والطبراني في الكبير (١١٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، وينظر كلام ابن حجر حول الحديث في فتح الباري ١٣/ ٤٨٣ وما بعدها.

(٥) الشفا ١/ ٣٩٤ .

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٨٩ ، قال شارحه: الغيابة: ظل الشمس، أو كل شيء أظل الإنسان. والطَّفَل: حين تهمُّ الشمس بالوجوب وتدنو للغروب.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥-٩٦ .

الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] المعنى ـ والله أعلم ـ: انشقَّ القمر واقتربت الساعة.

وقال الجرجانيُّ: في الكلام تقديم وتأخير، أي: تدَّلى فدنا؛ لأنَّ التدلِّي سبب الدنوِّ.

وقال ابنُ الأنباري: ثم تدلَّى جبريلُ، أي: نزل من السماء فدنا من محمَّد ﷺ(١).

وقال ابن عباس: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه(٢)، وسيأتي.

ومن قال: المعنى: فاستوى جبريلُ ومحمَّد بالأُفق الأعلى، قد يقول: ثم دنا محمَّد من ربِّه دنوَّ كرامةٍ، فتدلَّى، أي: هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيريُّ: وقيل على هذا تدلَّى، أي: تَدلَّلَ، كقولك: تَظَنَّى، بمعنى تَظَنَّنَ. وهذا بعيد؛ لأنَّ الدَّلال غيرُ مرضيٍّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي: كان محمَّد من ربِّه أو من جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قَدْرَ قوسين عربيَّتين(٣). قاله ابن عباس وعطاء(٤) والفرَّاء(٥). الزمخشريُّ(٦): فإن قلتَ: كيف تقدير قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ»؟ قلت: تقديره:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٢) الشفا ١/ ٣٩٤، والرفرف: البساط. النهاية ٢/ ٢٤٣.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٩، والبيت الآتي نسب للأسود بن يعفر، وهو في شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٣١. وللكلحبة هبيرة بن عبد مناف العُرَني، وهو في المفضليات ص٣٢، ورواية صدره:

فأدرك إبقاءَ العرادة ظَلْعها

قال محققه: المبقية من الخيل: التي تبقي بعض جريها تدخره. الظلع: العرج والغمز في المشي. يقول: إن شرب العرادة أضعف جريها، فغلب ظلعها إبقاءها، ففاتها حزيمة وهو قيد إصبع منها.

فكان مقدارُ مسافة قُربه مثلَ قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات، كما قال أبو عليٍّ في قوله:

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن خَزِيمَةَ إِصْبَعَا

أي: ذا مقدار مسافة إصبع. «أَوْ أَدْنَى» أي: على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]. وفي «الصحاح»[١]: وتقول: بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس، وقادُ قَوْس، وقِيدُ قَوْس، أي: قَدْر قَوْسٍ.

وقرأ زيد بن علي: «قَادَ»، وقرئ: «قِيدَ» و «قَدْرَ». ذكره الزمخشريُّ[٢].

والقابُ: ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكلِّ قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ»: أراد قابي قوس، فقلبه[٣]. وفي الحديث: «ولَقاب قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدُّ: السَّوط[٤]. و في «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «ولَقَابُ قوسِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٥]. وإنَّما ضُرب المثل بالقوس؛ لأنَّها لا تختلف في القاب. والله أعلم.

قال القاضي عِياض[٦]: اعلم أنَّ ما وقعَ من إضافة الدنوِّ والقُرب من الله، أو إلى الله، فليس بدنوِّ مكانٍ، ولا قُرب مَدًى، وإنَّما دنوُّ النبيِّ ﷺ من ربِّه وقُرْبه منه، إبانةُ عظيمِ منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفتهِ، ومشاهدة أسرار غيبه وقُدْرته. ومِنَ الله تعالى له: مبرَّةٌ وتأنيس وبَسْط وإكرام.

---

(١) مادة (قوب).

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٣) الصحاح (قوب)، والسِّيَة: ما عطف من طرفي القوس. الصحاح (سيا).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨ ، والكشاف ٤/ ٢٨ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٠٢٧٠)، وهو عند البخاري (٢٧٩٣) بلفظ: لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب.

(٦) في الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧ ، وفيه: وشريف، بدل: وتشريف.

ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «يَنزِل ربُّنا إلى سماء الدنيا»(١) على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبولُ إحسان.(٢) قال القاضي: وقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فمن جعَل الضميرَ عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل، كان عبارة عن نهاية القُرب، ولطف المحلِّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمَّد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفِّي، وإنافة المنزلة والقُرب من الله، ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «مَن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقَبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول(٣).

وقد قيل: «ثُمَّ دَنَا» جبريل من ربِّه «فَكَان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله مجاهد(٤). ويدلُّ عليه ما رُويَ في الحديث: «إنَّ أقربَ الملائكة من الله جبريلُ عليه السلام»(٥).

وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى «بل»، أي: بل أدنى(٦).

وقال سعيد بن المسيّب: القاب: صدر القوس العربية حيث يشدُّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلِّ قوس قاب واحد. فأخبر أنَّ جبريل قَرُبَ من محمَّد ﷺ كقُرب قاب قوسين.

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يُقاس بها كلُّ شيء(٧)، وهي

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وهو عند أحمد (٧٥٩٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الصواب إثبات صفة الدنو والقرب والنزول لله تعالى بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٣) الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧، والحديث سلف ٧/ ٢٩٠.

(٤) في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩ .

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٧٧)، وفي إسناده الأحوص بن حكيم، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٩٩-١٠٠ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٩ ، وينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤١٤-٤١٥ .

لغةُ بعض الحجازيين[١]. وقيل: هي لغةُ أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائيُّ: قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» أراد: قوساً واحداً، كقول الشاعر:

وَمَـهْـمَـهَـيْـنِ قَـذَفَـيْـن مَـرْتَـيْـن قَـطَـعْـتُـهُ بـالـسَّـمْـتِ لا بـالـسَّـمْـتَـيْـن[٢]

أراد: مَهْمَهاً واحداً.

والقوس تذكَّر وتؤنَّث، فمن أنَّث قال في تصغيرها: قويسة، ومن ذكَّر قال: قُويس، وفي المثل: هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً. والجمع قِسِيٌّ وقُسِيٌّ وأقواس وقِياس، وأنشد أبو عبيدة:

وَوَتَّـرَ الأسـاورَ الـقِـيـاسَـا[٣]

والقَوْس أيضاً: بقية التَّمْر في الجُلَّة، أي: الوعاء. والقَوْس: برج في السماء. فأما القُوسُ بالضمِّ: فصومعة الراهب، قال الشاعر وذكر امرأةً:

لاسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ في القُوسِ[٤]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أُوحيَ إليه[٥]. وتقدَّم

---

(١) المحرر الوجيز ١٩٨/٥ وحكاه عن الثعلبي.

(٢) هكذا ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ٣٠٢ ولم ينسبه، وفيه: بالأمِّ، بدل: بالسمت. وذكره الزجاجي في الجمل ص٣١٣ ، والجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٥٦ ولم ينسباه، ونسبه ابن السِّيْد البطليوسي في الحلل ص٣٦٤ إلى خطام المجاشعي، وجاءت رواية الرجز في البيان والتبيين هكذا:

ومـهـمـهـيـن قـذفـيـن مـرتـيـن جـبـتـهـمـا بـالـنـعـت لا بـالـنـعـتـيـن
ظـهـراهـمـا مـثـل ظـهـور الـتـرسـيـن قـطـعـتـه بـالأمِّ لا بـالـسـمـتـيـن

وقول الراجز:

ظـهـراهـمـا مـثـل ظـهـور الـتـرسـيـن

ذكره سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٨ ونسبه لخطام، و ٣/ ٦٢٢ ونسبه لهميان بن قحافة. والمهمه: القَفْر المخوف. والقَذَف: ما ارتفع من الأرض. والمرت: التي لا ماء بها ولا نبات فيها. والظهر: ما ارتفع من الأرض، يشبهه بظهر الترس في ارتفاعه. الحلل ص٣٦٥ . والسمت: الطريق. لسان العرب (سمت).

(٣) الصحاح (قوس) وما بعده منه، والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٤٢٠ وهو من أرجوزة لخالد ابن معاوية، وقصته ثمة.

(٤) القائل جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٢٥ ، وصدره: لا وصل إذا صرمت هند ولو وقفت.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩ .

معنى الوحي[(١)]، وهو إلقاء الشيء بسرعة، ومنه: «الوحَى الوحَى». والمعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمَّد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» جبريلَ عليه السلام «مَا أَوْحَى». وقيل: المعنى: فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمَّد ﷺ ما أوحى إليه ربُّه[(٢)]. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة[(٣)]. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل، وأوحى جبريل إلى محمَّد[(٤)].

ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم، لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسَّر؟ قولان، وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمَّد: أَلَم أَجِدْك يتيماً فآويتك! أَلَم أجِدْك ضالًّا فهديتك! أَلَم أجِدْك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[(٥)] [الشرح: ١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أنَّ الجنَّة حرام على الأنبياء حتى تدخلَها يا محمَّد، وعلى الأُمم حتى تدخلها أمَّتك[(٦)].

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي: لم يكذب قلبُ محمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، وذلك أنَّ الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربَّه تعالى، وجعل الله

---

(١) ٥/ ١٣١ ، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٧ .

(٣) أخرجه عن الربيع: الطبري ٢٢/ ٢١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وعن ابن زيد وقتادة: الطبري ٢٢/ ٢١ ، وعن الحسن: أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٣)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٣ .

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ بنحوه.

(٦) لطائف الإشارات ٣/ ٤٨٢ .

تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر[١]. والأوَّل مرويٌّ عن ابن عباس[٢]، وفي «صحيح مسلم»[٣] أنَّه رآه بقلبه. وهو قول أبي ذرٍّ وجماعة من الصحابة[٤]. والثاني قول أنس وجماعة[٥]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أتعجبونَ أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمَّد ﷺ[٦]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أمَّا نحن بني هاشم فنقول: إنَّ محمَّداً رأى ربَّه مرَّتين[٧]. وقد مضى القول في هذا في «الأنعام»[٨] عند قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وروى محمَّد بن كعب قال: قلنا: يا رسول الله صلى الله عليك، رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرَّتين» ثم قرأ: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»[٩].

وقول ثالث: أنَّه رأى جلالَه وعظمته، قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سُئلَ رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيتُ نهراً، ورأيتُ وراء النهر حجاباً، ورأيت وراءَ الحجاب نوراً، لم أَرَ غيرَ ذلك»[١٠]. وفي «صحيح مسلم»[١١] عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أَنَّى أراه» المعنى: غلبني من النور

---

(١) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨١)، والطبري ٢٢/ ٢٢ . قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) برقم (١٧٦)، وهو عند أحمد (١٩٥٦).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٨ ، وأخرجه عن أبي ذر: النسائي في الكبرى (١١٤٧٢).

(٥) الوسيط ٤/ ١٩٥ ونسبه إلى أنس وعكرمة والحسن.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص١٩٧ ، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٠٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) بنحوه، وسلف ٨/ ٤٨٤ .

(٨) ٨/ ٤٨٣ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ وما بعده منه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبي ﷺ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ ، وأخرجه عنهما ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨-٣٣١٩ (١٨٦٩٧) و (١٨٦٩٨).

(١١) برقم (١٧٨).

وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلَّ على هذا الرواية الأخرى: «رأيت نوراً»[١]. وقال ابن مسعود: رأى جبريلَ على صورته مرَّتين[٢].

وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام: «مَا كَذَّبَ» بالتشديد[٣]، أي: ما كذَّب قلبُ محمَّد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدَّقه. فـ «ما» مفعوله بغير حرف مقدَّر؛ لأنه يتعدّى مشدَّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي» والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً[٤]. الباقون مخففاً، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد فيما رأى، فأسقط حرف الصفة. قال حسان ﷺ[٥]:

لـو كـنـتِ صـادقـة الـذي حـدَّثـتـنـي لـنـجـوتِ مَـنْـجَـا الـحـارثِ بـنِ هِـشـامِ

أي: في الذي حدَّثتني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى «الذي»، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء من غير ألف[٦] على معنى: أفتجحدونه. واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يُماروه، وإنَّما جحدوه. يقال: مراه حقَّه، أي: جحده[٧]، ومريته أنا، قال الشاعر:

لـئِـن هـجـرتَ أخـا صِـدقٍ ومَـكْـرُمَـةٍ لـقـد مَـرَيْـتَ أخـاً مـا كـان يَـمْـرِيـكَـا[٨]

---

(١) مسلم (١٧٨): (٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠٥٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٦). وفي إسناده: إسحاق بن أبي الكهتلة، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٠٠-٤٠١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٢٣٢ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات ٤/ ٢٥ .

(٣) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٢-٦٩٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٣٩٧ .

(٥) ديوانه ص٤١٩ ، وورد فيه هكذا:

إن كـنـت كـاذبـة الـذي حـدَّثـتـنـي فـنـجـوت ....

(٦) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٧) الصحاح (مرا).

(٨) الكشاف ٤/ ٢٩ ولم ينسبه.

أي: جحدته. وقال المبرِّد: يقال: مراه عن حقِّه، وعلى حقه: إذا منعَه منه ودفعَه عنه. قال: ومثل «على» بمعنى «عن» قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك، أي: رضي عنك[١].

وقرأ الأعرج ومجاهد: «أَفَتَمْرُونَهُ» بضمِّ التاء من غير ألف[٢]، من أمريت، أي: تريبونه وتشكِّكونه. الباقون: «أَفَتُمَارُونَهُ» بألف، أي: أتجادلونه وتدافعونه في أنَّه رأى الله، والمعنيان متداخلان؛ لأنَّ مجادلتهم جحود. وقيل: إنَّ الجحودَ كان دائماً منهم، وهذا جدال جديد، قالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدس وأخبِرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام[٣]. على ما تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ «نَزْلَةً»: مصدر في موضع الحال، كأنَّه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى[٥].

قال ابن عباس: رأى محمَّد ﷺ ربَّه مرَّة أُخرى بقلبه[٦]. روى مسلم[٧] عن أبي العالية عنه قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» قال: رآه بفؤادِه مرَّتين. فقوله: «نَزْلَةً أُخْرَى» يعود إلى محمَّد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسَب أعداد الصلوات المفروضة، فلكلِّ عَرْجة نَزْلة[٨]. وعلى هذا قوله تعالى: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أي: ومحمَّد ﷺ عند سدرة المنتهى، وفي بعض تلك النزلات.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٩، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٦ وعزاها إلى ابن مسعود والشعبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ وعزاها إلى النخعي.

(٣) الوسيط ٤/ ١٩٧.

(٤) في سورة الإسراء، عند الآية الأولى.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣.

(٦) زاد المسير ٨/ ٦٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩١٠).

(٧) في صحيحه برقم (١٧٦): (٢٨٥).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٧.

وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أنَّه جبريل. ثبت هذا أيضاً في «صحيح مسلم»[١]. وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ بالأُفُق الأعلى له ستُّ مئة جناح، يتناثر من ريشه الدُّرُّ والياقوت» ذكره المهدويُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بيَّنَّا[٣]. والسِّدْر: شجر النَّبِق[٤]، وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في «صحيح مسلم»؛ الأوّل: ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أُسرِيَ برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقِها فيُقبَض منها، قال: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: فَرَاش من ذهب، قال: فأُعطيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِر لمن لم يُشرِك بالله من أمَّته شيئاً المقحِمَاتُ[٥].

الحديث الثاني: رواه قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لما رُفِعْتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقها مثلُ قِلال هَجَر، وورقها مثل آذانِ الفِيَلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، قلتُ: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنَّة، وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدارقطني[٦].

والنَّبِق، بكسر الباء: ثمر السِّدْر، الواحد: نَبِقة[٧]. ويقال: نَبْق، بفتح النون

---

(١) أثر ابن مسعود أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٦)، والطبري ٢٢/ ٣٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٥٠)، وأما أثر أبي هريرة فهو عند مسلم (١٧٥).

(٢) وأخرجه أحمد (٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٥) مسلم (١٧٣)، والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار. النهاية ٤/ ١٩ .

(٦) في سننه (٣٣)، وهو عند البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٠٥).

(٧) النهاية ٥/ ١٠ .

وسكون الباء، ذكرهما يعقوب في «الإصلاح»[١]، وهي لغة المصريين، والأُولى أَفصح وهي التي ثبتت عن النبيِّ ﷺ.

وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظلِّ الغصن منها مئةَ سنة، أو يستظلُّ بظلِّها مئةُ راكب ـ شكَّ يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب، كأنَّ ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٢].

قلت: وكذا لفظ مسلم[٣] من حديث ثابت عن أنس: «ثم ذُهِب بي إلى سِدرْة المنتَهى، وإذا ورقها كآذانِ الفيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال، فلما غشيها من أمر الله عزَّ وجلَّ ما غشِي، تغيَّرت، فما أحد من خَلْق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها».

واختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة:

الأوَّل: ما تقدَّم عن ابن مسعود أنَّه ينتهي إليها كلُّ ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها.

الثاني: أنَّه ينتهي عِلْم الأنبياء إليها ويَعزُب عِلْمهم عما وراءها، قاله ابن عباس.

الثالث: أنَّ الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك.

الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب[٤].

الخامس: سمِّيت سِدْرة المنتهَى؛ لأنَّها ينتهي إليها أرواح الشهداء، قاله الربيع ابن أنس[٥].

---

(١) إصلاح المنطق ليعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ص١٩١ .

(٢) الترمذي (٢٥٤١)، وفيه: هذا حديث حسن غريب اهـ. وفيه أيضاً: الفنن، بدل: الغصن.

(٣) برقم (١٦٢).

(٤) الأقوال الأربعة ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأثر ابن مسعود أخرجه مسلم (١٧٣)، وأحمد (٣٦٦٥)، وأثر الضحاك أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٦ ، والطبري ٢٢/ ٣٤ ، وأثر كعب أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠ ، والطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وفيه المؤمنين، بدل: الشهداء.

السادس: لأنَّه تنتهي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة[١].

السابع: لأنه ينتهي إليها كلُّ من كان على سنة محمَّد ﷺ ومنهاجه، قاله عليٌّ ﷺ والربيع بن أنس أيضاً[٢].

الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي عِلْم الخلائق، قاله كعب أيضاً[٣].

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أنَّ ارتفاعَها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوسَ حملة العرش، ودليله ما تقدَّم من أنَّ أصلها في السماء السادسة، وأعلاها في السماء السابعة، ثم عَلَت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم.

التاسع: سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ من رُفعَ إليها فقد انتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سِدرة المنتهى، فقيل له: هذه سِدرة المنتهى ينتهي إليها كلُّ أحد خَلَا من أمَّتك على سنّتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر لذَّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلِّها مئة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمَّة كلَّها، ذكره الثعلبيُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تعريف بموضع جنَّة المأوى، وأنَّها عند سِدرة المنتهى[٥]. وقرأ عليٌّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهنيُّ وعبد الله بن الزبير ومجاهد: «عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى»[٦]. يعني: جَنَّهُ المبيتُ. قال مجاهد: يريد أجنَّه[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٩٥ دون عزوه إلى علي ﷺ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٤) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧-٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٣ ، والقراءات الشاذة ص١٤٦ ، ولم يذكرا أبا سبرة الجهني ومجاهداً، وزادا زرَّ بن حبيش ومحمد بن كعب، وزاد ابنُ جني ـ أيضاً ـ قتادةَ، ووقع في مطبوع القراءات الشاذة: «عنده»، بدل: «عندها».

(٧) في (ظ) و (د): الجنة.

والهاء للنبيِّ ﷺ[١]. وقال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنَّه الليلُ، أي: ستَره وأدركه. وقراءة العامة: «جَنَّةُ الْمَأْوَى»، قال الحسن: هي التي يصير إليها المتَّقون[٢]. وقيل: إنَّها الجنَّة التي تصير إليها أرواح الشهداء، قاله ابن عباس. وهي عن يمين العرش[٣]. وقيل: هي الجنَّة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخرج منها، وهي في السماء السابعة[٤]. وقيل: إنَّ أرواحَ[٥] المؤمنين كلَّهم في جنَّة المأوى. وإنَّما قيل لها: جنة المأوى؛ لأنَّها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش فيتنعَّمون بنعيمها، ويتنسَّمون بطيب رِيْحها. وقيل: لأنَّ جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن عباس والضحَّاك وابن مسعود وأصحابه: فَرَاش من ذهب[٧]. ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابنُ عباس إلى النبيِّ ﷺ[٨]. وقد تقدَّم في «صحيح مسلم»[٩] عن ابن مسعود قوله.

وقال الحسن: غشيها نورُ ربِّ العالمين، فاستنارت[١٠]. قال القشيريُّ: وسُئل رسولُ الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فَرَاش من ذهب»[١١]. وفي خبر آخر: «غشيها نورٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٩ ، وذكره الرازي ٢٨/ ٢٩٢ دون عزو.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأشار محققه إلى أن لفظة: السابعة. جاءت في إحدى النسخ: الرابعة. وكذا وردت في النسخة (ظ) عندنا.

(٥) في (م): أزواح.

(٦) الوسيط ٤/ ١٩٨ بنحوه.

(٧) أثر ابن مسعود ذكره البغوي في التفسير ٤/ ٢٤٨ ، وهو جزء من الحديث المتقدم قريباً، وسلف تخريجه هناك.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه أبو يعلى (٢٦٥٦)، والطبري ٢٢/ ٤١ .

(٩) برقم (١٧٣)، وسلف قريباً.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٨ .

(١١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن يعقوب بن زيد.

من الله حتى ما يستطيع أحدٌ أن ينظر إليها»(١). وقال الربيع بن أنس: غشيها نورُ الربِّ، والملائكة تقع عليها كما يقع الغِربان على الشجرة(٢). وعن النبي ﷺ قال: «رأيت السِّدرةَ يغشاها فَرَاش من ذهب، ورأيت على كلِّ وَرَقةٍ مَلَكاً قائماً يسبِّح الله تعالى» وذلك قوله: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ(٣). وقال أنس ابن مالك: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: جراد من ذهب. وقد رواه مرفوعاً(٤). وقال مجاهد: إنَّه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر»(٥). وعن ابن عباس: يغشاها ربُّ العزة(٦)، أي: أَمْرُه، كما في «صحيح مسلم»(٧) مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي». وقيل: هو تعظيم الأمر، كأنَّه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»، «وَالمؤتفكةَ أهوى . فغشاها ما غشى» [النجم:٥٣] ومثله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ . مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢].

وقال الماورديُّ في «معاني القرآن» له(٨): فإن قيل: لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السِّدْرةَ تختصُّ بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد،

(١) أخرجه مسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣.

(٣) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٠-١٦١: وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩، ولطائف الإشارات ٣/ ٤٨٣، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦١: لم أجده.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢.

(٧) برقم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ، وتقدم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦، والعبارة من قوله: قال الماوردي... إلى قوله: صوب الله رأسه في النار. جاءت في النسخ الخطية قبل تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، والمثبت من (م) وهو الصواب.

وطعم لذيذ، ورائحة ذكيَّة، فشابهت الإيمانَ الذي يَجمع قولاً وعملاً ونيّةً، فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل؛ لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النيَّة؛ لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول؛ لظهوره.

وروى أبو داود في «سننه»[١] قال: حدَّثنا نصر بن علي قال: حدَّثنا أبو أسامة، عن ابن جريج، عن عثمان بنِ أبي سليمان، عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن عبد الله بن حُبْشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَطَعَ سِدْرةً صَوَّب اللهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سِدْرة في فلاة ـ يستظلُّ بها ابنُ السبيل والبهائم ـ عَبَثاً وظلماً بغير حقٍّ يكون له فيها، صَوَّب اللهُ رأسَه فِي النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي: ما عَدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدَّ الذي رأى[٢]. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدَّ بصرَه إلى غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيِّ ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً سدَّ الأفق[٤]. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: «رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»[٥]: رأى رَفْرَفاً

(١) برقم (٥٢٣٩)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧)، من طريق مخلد بن يزيد، عن ابن جريج، به. قال المنذري في مختصر السنن ٨/ ٩٩ : وحبشي: بضم الحاء المهملة، وسكون الباء الموحدة، وكسر الشين المعجمة، وياء النسب. اهـ. وأخرجه أيضاً أبو داود (٥٢٤٠) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤، والحاكم ٢/ ٤٦٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ .

(٥) بعدها في (م) و (د): قال ابن عباس. ولم ترد هذه العبارة في (ظ) وهو الصواب، وهي كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٧٢ والنقل منه، والحديث عند البخاري (٤٨٥٨).

أخضرَ سدَّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقيُّ[١]: قوله في الحديث: «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريلَ عليه السلام في صورته على رفرف. والرفرف: البساط. ويقال: فِراش[٢]. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له، فقد روي أنَّه رآه في حُلَّةِ رفرفٍ.

قلت: خرَّجه الترمذيُّ[٣] عن عبد الله قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة من رفرف، قد مَلأَ ما بين السماء والأرض قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: «دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّه على التقديم والتأخير، أي: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه. قال: «فارقني جبريلُ، وانقطعت عنِّي الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربِّي» فعلى هذا الرَّفْرَفُ: ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأوَّل: جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بنُ حيَّان: رأى جبريلَ عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السماوات[٤]. وكذا في «صحيح مسلم» عن عبد الله قال: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قال: رأى جبريلَ في صورته له ستُّ مئة جناح[٥]. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلَّةِ رفرفٍ، وعلى رفرفٍ، والله أعلم.

وقال الضحَّاك: رأى سِدْرةَ المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشيَ السِّدرة من فَرَاش الذهب، حكاه الماورديُّ[٦]. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك

---

(١) في دلائل النبوة ٢/ ٣٧٢ .

(٢) النهاية ٢/ ٢٤٢-٢٤٣ .

(٣) برقم (٣٢٨٣)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٦٧)، وأحمد (٣٧٤٠).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ونسبه لابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٦ .

(٥) سلف ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٧ ، وسلف تخريجه عنه ١٧/ ٩٦ .

الليلة في مَسْراه في عوده وبدئه[١]. وهو أحسن، دليله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، و«مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون «الْكُبْرَى» مفعولة لـ «رأى» وهي في الأصل صفة الآيات، ووحِّدت لرؤوس الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى[٢]، كقوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وقيل: «الْكُبْرَى» نعت لمحذوف، أي: رأى من آيات ربِّه الكبرى[٣]. ويجوز أن تكون «مِن» زائدة، أي: رأى آيات ربِّه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: رأى الكبرى من آيات ربِّه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيِّ ﷺ، وذكر من آثار قُدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِيَ إلى محمَّد[٤]، وكانت اللَّاتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناةُ لبني هلال. وقال هشام[٥]: فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزاعة، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً ﷺ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللَّاتَ بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة، وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بَنَوْا عليها بناءً، فكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمها. وبها كانت العرب تسمِّي: زيدَ اللَّات، وتيمَ اللَّات. وكانت في موضع منارة[٦] مسجد الطائف

(١) في (د): وتدنيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٥) في النسخ الخطية: ابن هشام. والمثبت من (م) وهو الصواب، وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكلامه في كتابه «الأصنام» ص١٤-١٥ .

(٦) ليست في النسخ الخطية، وهي زيادة من (م) والأصنام ص١٦ .

اليسرى، فلم تَزَلْ كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بنَ شعبة فهدمها، وحرقها بالنار. ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللَّات، اتخذها ظالم بن أسعد[(١)]، وكانت بوادي نَخْلة الشاميَّة فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً[(٢)]، وكانوا يسمعون منها الصوت.

قال هشام[(٣)]: وحدَّثني أبي، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس قال: كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاثَ سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، بعث خالدَ بنَ الوليد ﷺ فقال: «إيتِ بَطْنَ نخلة فإنَّك تجد ثلاثَ سَمُرات، فاعْضِد الأولى» فأتاها فَعضَدها، فلما جاء إليه قال: «هل رأيتَ شيئاً» قال: لا. قال: «فاعضِد الثانية» فأتاها فَعضَدها، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً»؟ قال: لا. قال: «فاعضد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يَدَيْها[(٤)] على عاتقها تصرفُ[(٥)] بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةالسُّلَمِيُّ وكان سادِنَها فقال:

يا عُزُّ كُفْرَانَك لا سُبْحانَك إنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَد أهانَكِ[(٦)]

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة[(٧)]، ثم عَضَد الشجرة، وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى»[(٨)].

---

(١) في النسخ الخطية، سعد، والمثبت من (م) وكتاب الأصنام ص١٨ .

(٢) في الأصنام: بساً.

(٣) في النسخ: ابن هشام. والمثبت من الأصنام ص٢٥-٢٨ ، وهو الصواب، والكلام منه.

(٤) في النسخ الخطية: يدها. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام.

(٥) في النسخ الخطية: تضرب. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام، وصَرَف النابُ: صوَّت، معجم متن اللغة (صرف).

(٦) القائل: خالد بن الوليد كما في الأصنام ص٢٦ ، والكلام منه، والبيت أخرجه عنه الطبراني في الكبير(٣٨١١) عن أبي عبد الرحمن السلمي مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٧٦ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل.

(٧) في النسخ الخطية: جمجمة. والمثبت من (م) والأصنام، والحممة، الفحم البارد. لسان (حمم).

(٨) وأخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/٩٨ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس =

وقال ابن جُبير: العُزَّى: حجر أبيض كانوا يعبدونه[١]. قتادة: بيت[٢] كان ببطن نَخْلة.

ومَنَاة: صنم لخزاعة[٣]. وقيل: إنَّ «اللّات» فيما ذكر بعض المفسرين أخذَه المشركون من لفظ «الله»، و«العُزَّى» من العزيز، و«مَنَاة» مِن مَنَى اللهُ الشيءَ: إذا قدَّره[٤].

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح: «اللّاتَّ» بتشديد التاء[٥]، وقالوا: كان رجلاً يَلُتُّ السَّوِيق للحاجِّ ـ ذكره البخاري[٦] عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل، عَبَدَتْ ثَقِيفُ تلك الصخرة؛ إعظاماً لصاحب السَّوِيق[٧].

أبو صالح: إنَّما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم، ويَلُتُّ لهم السَّوِيق، فلما مات عبدوه[٨].

= مختصراً، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢) عن أبي الطفيل بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن المنذر، وهو ضعيف. اهـ. والواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨ عن سعيد بن عمرو الهذلي بنحوه.

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٩.

(٢) في (م): نبت. وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠، ونسبه للضحاك.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤.

(٦) في صحيحه (٤٨٥٩)، ولتَّ السويقَ، أي: بَلَّه بالماء ونحوه. والسويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. لسان العرب (لتت) و (سوق).

(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨، والطبري ٢٢/ ٤٨ بنحوه، وينظر التعليق السابق.

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨.

مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي منها السَّمْن، ويأخذ منها الأَقِط، ويجمع رِسْلَها، ثم يتَّخذ منها حَيْساً فيطعم الحاجَّ، وكان ببطن نَخْلة، فلما مات عبدوه وهو اللَّات[1]. وقال الكلبيُّ: كان رجلاً من ثَقِيف يقال له: صِرمة بن غنم[2].

وقيل: إنَّه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ. قال الشاعر:

لا تَنْصُروا الّلات إنَّ الله مُهْلِكُهَا وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ[3]

والقراءة الصحيحة «اللَّاتَ» بالتخفيف، اسم صنم، والوقوف عليها بالتاء، وهو اختيار الفرَّاء. قال الفرَّاء[4]: وقد رأيت الكسائيَّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديَّ فقال: ذاه لذات، وقال: «أفَرَأَيْتُمُ الَّلاهَ». وكذا قرأ الدُّورِيُّ عن الكسائيِّ، والبَزِّيُّ عن ابن كثير «الَّلاه» بالهاء في الوقف[5]، ومن قال: إنَّ «اللَّات» من الله، وقَف بالهاء أيضاً. وقيل: أصلها لاه، مثل شاه، وهي من لَاهَت، أي: اختفت، قال الشاعر:

لَاهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ يا ليتها خَرجتْ حتَّى رأيناها

وفي «الصحاح»[6]: اللات: اسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف. وبعض العرب يقف عليه بالتاء، وبعضهم بالهاء، قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول: اللَّات

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩، وذكره الفاكهي في أخبار مكة ٥/ ١٦٤، وسَلَأَ السَّمْنَ: طبخه وعالجه فأذاب زبده. والأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل. والرِّسل: اللبن ما كان. والحَيْس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن. لسان العرب (سلأ) و (أقط) و (رسل) و (حيس).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨، وذكر البيت هشام الكلبي في الأصنام ص١٧، ونسبه لشداد بن عارض الجشمي.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٩٧.

(٥) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٣٣٦، والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٢ عن الكسائي وحده.

(٦) مادة: (ليه).

والعُزَّى، ويقول: هي اللّات، فيجعلها تاء في السّكوت، وهي اللّاتِ فاعلم أنّه جرّ في موضع الرفع، فهذا مثل: أمسِ، مكسورٌ على كلِّ حال، وهو أجودُ منه؛ لأنَّ الألف واللام اللَّتين في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين. وأمَّا ما سمعنا من الأكثر في اللّاتِ والعُزّى في السّكوت عليها فاللّاه؛ لأنَّها هاءٌ فصارت تاءً في الوصل، وهي في تلك اللغة مثل: كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسر[(١)]؛ إلا أنَّه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة، ولا يجوز ذلك في اللّاتِ؛ لأنَّ التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء[(٢)] زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَميُّ والأعشى عن أبي بكر: «وَمَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمز. والباقون: بترك الهمز[(٣)]، لغتان. وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّهم كانوا يريقون عنده الدماء؛ يتقرَّبون بذلك إليه. وبذلك سُمِّيت مِنًى؛ لكثرة ما يُراق فيها من الدماء[(٤)]. وكان الكسائيُّ وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل[(٥)]. الباقون: بالتاء؛ اتِّباعاً لخطِّ المصحف[(٦)].

وفي «الصحاح»[(٧)]: ومناة: اسم صنم كان [لهذيل وخزاعة] بين مكَّة والمدينة، والهاء للتأنيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، والنسبة إليها: مَنَوِيٌّ. وعبدُ مَناةَ بنُ

---

(١) في (م): كسرها.

(٢) في (د) و(ظ): واللام.

(٣) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١ ، والكشاف ٤/ ٣٠ .

(٥) قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٣ : وشذَّ جماعة من العراقيين فرووا عن الكسائي وحده الوقف على مناة بالهاء، وعن الباقين بالتاء، ذكر ذلك ابن سوار وأبو العز وسبط الخياط، وهو غلط... وأكَّد ذلك في ٢/ ٣٧٩ بقوله: وما وقع في كتب بعضهم من أن الكسائي وحده يقف بالهاء والباقون بالتاء، فوهم لعله انقلب عليهم من اللات كما قدمناه في بابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣ .

(٧) مادة: (منا)، وما بين حاصرتين منه.

أُدِّ بن طابِخة، وزيدُ مناةَ بن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويقصر، قال هَوْبَر الحارثيُّ:

أَلَا هَـلْ أَتـى الـتَّـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ   على الشَّنْءِ فيما بيننا ابْنُ تَـمِيـمِ[1]

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ العرب [لا][2] تقول للثالثة: أخرى، وإنَّما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنَّما قال ذلك؛ لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] ولم يقل: أُخَر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللّات والعُزَّى الأخرى ومَنَاة الثالثة[3].

وقيل: إنَّما قال: «ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى» لأنَّها كانت مرتَّبة عند المشركين في التعظيم بعد اللّات والعُزَّى[4]، فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن هشام[5]: أن مَنَاةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدَّمة عندهم في التعظيم، والله أعلم. وفي الآية حذف دلَّ عليه الكلام، أي: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاءَ لله.

ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بناتُ الله، والأصنام بناتُ الله[6].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا﴾ يعني: هذه القسمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحقِّ.

يقال: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ، وضَازَه حقَّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ

---

(١) ذكره أيضاً أبو العلاء المعري في الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ص٦٣، والشَّنْءُ: البغض. لسان العرب (شنأ).

(٢) ليست في النسخ الخطية، والمثبت من (م)، وهو الصواب.

(٣) زاد المسير ٨/ ٧٢ - ٧٣.

(٤) النكت والعيون ٥/٣٩٨.

(٥) في النسخ: ابن هشام، والصواب ما أثبتناه، وكما أسلفنا، وهو هشام بن محمد بن السائب، واشتهر بابن الكلبي، وكلامه في الأصنام ص١٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/٢٠١.

أي: نقصه وبخَسَه. قال: وقد يهمز فيقال: ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزاً وأنشد:

فَإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تُقِمْ ... فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ[(١)]

وقال الكسائيُّ: يقال: ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأز ضأزاً: إذا ظلم وتعدَّى وبخَس وانتقص[(٢)]. قال الشاعر:

ضَازَتْ بنو أسدٍ بِحُكْمِهِمُ ... إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ[(٣)]

قوله تعالى: «قِسْمَةٌ ضِيزَى» أي: جائرة، وهي فُعْلى، مِثل: طُوبَى وحُبْلى، وإنَّما كسروا الضاد؛ لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام «فِعْلى» صفةٌ، وإنَّما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرَّاء: وبعض العرب تقول: ضُؤْزى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنَّه سمع العرب تهمز «ضِيزى»[(٤)].

قال غيره: وبها قرأ ابن كثير، جعله مصدراً، مثل ذِكرى[(٥)]، وليس بصفة، إذ ليس في الصفات «فِعْلى»، ولا يكون أصلها «فُعْلى»، إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم: ضأزته، أي: ظلمته. فالمعنى: قسمة ذات ظلم. وقد قيل: هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما: ضَيْزَى وضَأْزى، وضُوزَى وضُؤْزى[(٦)]. وقال المؤرِّج: كرهوا ضمَّ الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلَّة، كما قالوا في جمع أبيض: بِيضٌ، والأصل بُوضٌ،

(١) الصحاح (ضيز)، وذكر البيت أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٥٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وجاء في الصحاح: فحقك، وفي التهذيب: فحظك، بدل: فقسمك، وفي النسخ الخطية: تغب، بدل: تقم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ .

(٣) القائل امرؤ القيس كما ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٧ وعزاه إلى الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد في الدر: يعدلون، بدل: يجعلون.

(٤) الصحاح (ضيز)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١ ، والقراءة في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣ .

مثل: حُمْر وصُفْر وخُضْر. فأمَّا من قال: ضاز يَضُوز، فالاسم منه: ضُوزَى مثل شُورَى[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: ما هي ـ يعني هذه الأوثان ـ «إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» يعني: نَحتُّموها وسمَّيتموها آلهةً. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: قلَّدتموهم في ذلك. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجَّة ولا برهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر[٢]، أي: ما يتَّبع هؤلاء إلَّا الظَّنَّ. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تميل إليه.

وقراءة العامة: «يَتَّبِعُونَ» بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْفَع «تَتَّبِعُونَ» بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس[٣]. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: البيان من جهة الرسول أنَّها ليست بآلهة[٤]. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له[٥]. وقيل: «لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» [من البنين، أي: يكون له دون البنات[٦]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من النبوّة أن تكون فيه دون غيره[٧]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ ولم ينسبه للمؤرِّج.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٣٠٠ دون عزو، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢-١٦٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين ليست في (د).

تَمَنَّى»] من شفاعة الأصنام(١)، نزلت في النضر بن الحارث. وقيل: في الوليد بن المغيرة(٢). وقيل: في سائر الكفار.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا ما تمنَّى أحد(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عَبَدَ الملائكة والأصنام، وزعم أنَّ ذلك يقرِّبه إلى الله تعالى، فأعلم أنَّ الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذنَ أن يشفع له(٤). قال الأخفش: الملَك واحد، ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧]. وقيل: إنَّما ذكر ملَكاً واحداً؛ لأنَّ «كَمْ» تدلُّ على الجمع(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: كتسمية الأنثى، أي: يعتقدون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بناتُ الله(٦). ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّهم لم يشاهدوا خلقَه الملائكةَ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يَرَوْهُ في كتاب.

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٣١.

(٣) الكشاف ٤/ ٣١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٩.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠٠.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعُونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في أنَّ الملائكةَ إناث. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: القرآن والإيمان[١]، وهذا منسوخ بآية السيف[٢]. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: إنَّما يُبصرون أمر دنياهم، ويَجهلون أمر دينهم. قال الفرَّاء[٣]: صغَّرهم وازدرى بهم، أي: ذلك قَدْر عقولهم ونهاية عِلْمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكةَ والأصنامَ بناتِ الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كُلًّا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ اللام متعلِّقة بالمعنى الذي دلَّ عليه: «وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كأنَّه قال: هو مالك ذلك، يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء؛ ليجزيَ المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته[٤]. وقيل: «لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معترض في الكلام، والمعنى: إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزي[٥]. وقيل: هي لام العاقبة[٦]، أي: ولله ما في السماوات وما في الأرض،

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٠١.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٥.

أي: وعاقبة أَمْرِ الخَلْق أن يكون فيهم مسيْء ومحسن؛ فللمسِيْء السُّوأَى وهي جهنَّم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين[(١)]، أي: هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشِّرك؛ لأنَّه أكبر الآثام، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائيُّ: «كَبيرَ» على التوحيد[(٢)]، وفسَّره ابن عباس بالشِّرك. «وَالْفَوَاحِشَ» الزنى[(٣)]. وقال مقاتل: «كَبَائِرَ الْإِثْمِ»: كلُّ ذنب خُتمَ بالنار. «وَالْفَوَاحِشَ»: كلُّ ذنب فيه الحدُّ[(٤)]. وقد مضى في «النساء»[(٥)] القول في هذا. ثم استثنى استثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية: فقال: «إِلَّا اللَّمَمَ»: وهي الصغائر التي لا يَسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه.

وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبيُّ: «اللَّمَمُ»: كلُّ ما دون الزنى[(٦)]. وذكر مقاتل بن سليمان: أنَّ هذه الآيةَ نزلت في رجل كان يُسمَّى نبهان التمَّار، كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خيرٌ من هذا، فلما دخلت راودها، فأبت وانصرفت، فندم نبهان، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣ .

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص١٩٥ ، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣ .

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠ .

(٤) زاد المسير ٨/ ٧٥ ولم ينسبه.

(٥) ٦/ ٢٦٢ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠١ .

فعلته إلا الجماع. فقال: «لعلَّ زوجَها غازٍ» فنزلت هذه الآية[(١)]، وقد مضى في آخر «هود»[(٢)].

وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدريُّ وحذيفة ومسروق: إنَّ اللمم ما دون الوطء من القُبلة والغَمْزة والنظرة والمضاجعة[(٣)].

وروى مسروق عن عبد الله بنِ مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنَّما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفَرْجُ، فإن تقدَّم كان زنًى، وإن تأخَّر كان لَمَماً[(٤)]. وفي «صحيح البخاري ومسلم»[(٥)] عن ابنِ عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ كتب على ابن آدَم حظَّه من الزنى، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أنَّ الفاحشة العظيمة والزنى التامَّ الموجِب للحدِّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة، هو في الفَرْج، وغيرُه له حظٌّ من الإثم[(٦)]. والله أعلم.

وفي رواية أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «كُتِب على ابن آدَمَ نصيبه من الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَا، والقلب

---

(١) سلف ٥/ ٣٢٢ .

(٢) ١١/ ٢٣٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٥ ، والطبري ٢٢/ ٦٢ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٦٠) من طريق أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود به، ولم يرد: مسروق، في إسناد عبد الرزاق والطبري. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له، وهو عند أحمد (٧٧١٩).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ١٤٥ .

يَهْوَى ويتمنَّى، ويصدِّق ذلك الفَرْجُ ويكذِّبه». خرَّجه مسلم[١]. وقد ذكر الثعلبيُّ حديثَ طاوس عن ابن عباس، فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة»[٢]. فهذا قول.

وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: أَلَم تسمع النبيَّ ﷺ كان يقول:

إن تَـغـفـر الـلَّـهُـمَّ تَـغـفـر جَـمّـا ... وأيُّ عـبـدٍ لـك لا أَلَـمَّـا

رواه عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس[٣]. قال النحَّاس: هذا أصحُّ ما قيل فيه وأجلُّها إسناداً.

وروى شعبة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يُلِمَّ العبدُ بالذنب ثم لا يعاوده، قال الشاعر:

إن تَـغـفـرِ الـلَّـهـمَّ تـغـفـر جَـمَّـا ... وأيُّ عـبـدٍ لـك لا أَلَـمَّـا[٤]

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده[٥]. ونحوه عن

---

(١) في صحيحه (٢٦٥٧): (٢١).

(٢) وقد وردت هذه الزيادة في حديث ابن مسعود السالف الذكر، وثمة تخريجه هناك.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) من طريق زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، به. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. اهـ. والبيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٥٨، ونسبه بعضهم لأبي خِراش الهذلي كما في أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٦، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦ وغيرها من المصادر، لكن قال البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: وزعم العيني أنه لأبي خراش الهذلي، وهذا خطأ، وإنما هو لأمية بن أبي الصلت، قاله عند موته، وقد أخذه أبو خراش منه. وينظر التعليق الآتي.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٨٥، وفي شعب الإيمان (٧٠٥٧) من طريق آدم بن أبي إياس، عن شعبة، به. وقال: هذا هو المحفوظ موقوف. اهـ. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٦٤ من طريق محمد ابن جعفر، عن شعبة، به. إلا أنه لم يذكر ابن عباس في إسناده.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٠، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٤ عن مجاهد بنحو قول ابن عباس الآنف الذكر، وأخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٣١، والطبري ٢٢/ ٦٤ - ٦٥ عن الحسن بنحوه.

الزهري، قال: اللَّمم: أن يزنيَ ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرقَ أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [١٣٥ من آل عمران]. ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦] فضمن لهم المغفرة، كما قال عقيبَ اللَّمم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلَّا اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم: ما دون الشرك[١]. وقيل: اللَّمم: الذنب بين الحدَّين، وهو ما لم يأتِ عليه حدٌّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة، تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة[٢]. ورواه العوفيُّ والحكم بن عتيبة عن ابن عباس[٣].

وقال الكلبيُّ: اللَّمم على وجهين: كلُّ ذنب لم يَذكر اللهُ عليه حدًّا في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفِّره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يُلِمُّ به الإنسان المرَّة بعد المرَّة فيتوب منه[٤].

وعن ابن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أنَّ المشركين قالوا للمسلمين: إنَّما كنتم بالأمسِ تعملون معنا، فنزلت، وقاله زيد بن أسلم وابنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٥] [النساء: ٢٣].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ وعزاه إلى أبي هريرة وابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٠١ وعزاه إلى ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ - ٦٨ عن ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وقتادة والضحاك.

(٣) أورده ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٦٢ عن العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ عن الحكم بن عتيبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ولم ينسبه لأبي هريرة، وذكره عنه أبو الليث السمرقندي في التفسير ٣/ ٢٩٣.

وقيل: اللَّمم: هو أن يأتيَ بذنب لم يكن له بعادة، قاله نفطويه[١]. قال: والعرب تقول: ما يأتينا إلَّا لِمَاماً؛ أي: في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يُلِمَّ ولا يفعل؛ لأنَّ العرب لا تقول: ألمَّ بنا، إلا إذا فعل الإنسان، لا إذا همَّ ولم يفعله. وفي «الصحاح»[٢]: وألمَّ الرجل، من اللَّمم: وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهريِّ:

بِزينَب أَلْمِمْ قبل أن يَرْحَلَ الرَّكبُ وقُلْ إنْ تَمَلِّينَا فما مَلَّكِ الْقَلْبُ[٣]

أي: اقرب.

وقال عطاء بن أبي رباح: اللَّمم: عادة النفس الحين بعد الحين[٤]. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألَمَّ على القلب، أي: خطر[٥]. وقال محمد ابن الحنفيَّة: كلُّ ما هممتَ به من خير أو شرٍّ، فهو لَمَمٌ[٦]. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للشيطان لَمَّة، وللملَك لَمَّة» الحديث. وقد مضى في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [الآية: ٢٣٨].

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: أصل اللَّمم والإلمام: ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرَّة ولا يتعمَّق فيه ولا يقيم عليه[٨]. يقال: ألممت به، إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لَمَماً وإلماماً، أي: الحين بعد الحين. وإنَّما زيارتك إلمام[٩]،

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٢) مادة: (لمم).

(٣) القائل نُصَيْب بن رباح، والبيت في ديوانه ص٦٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٦ .

(٧) ٤/ ٣٥٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٤ ، والوسيط ٤/ ٢٠٢ بنحوه.

(٩) لسان العرب (لمم) بنحوه.

ومنه إلمام الخيال، قال الأعشى[١]:

أَلَـمَّ خَـيَـالٌ مِـن قُـتَـيْـلَـةَ بَـعْـدَ مَـا وَهَـى حَبْـلُـهـا مِـن حَبْـلِـنَـا فَـتَـصَـرَّمَـا

وقيل: «إلا» بمعنى الواو[٢]. وأنكر هذا الفرَّاء[٣] وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللَّمم: النظرة التي تكون فجأة[٤].

قلت: هذا فيه بعدٌ، إذ هو معفوٌّ عنه ابتداءً، غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار، وقد مضى في «النور» بيانه[٥].

واللَّمم أيضاً: طَرَفٌ من الجنون، ورجل ملموم، أي: به لَمَمٌ. ويقال أيضاً: أصابت فلاناً لَمَّةٌ من الجنِّ، وهي المسُّ، والشيء القليل، قال الشاعر:

فـإذا وذَلِـك يـا كُـبَـيْـشَـةُ لَـمْ يَـكُـنْ إِلَّا كَـلَـمَّـةِ حـالِـمٍ بِـخَـيـالِ[٦]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر، قاله ابن عباس[٧]. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ابنِ مسعود: رأيتُ في المنام كأنِّي دخلتُ الجنَّة، فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلَاع وحَوْشَب ـ وكانا ممن قَتل بعضهم بعضاً ـ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنَّهما لقيا اللهَ فوجداه واسعَ المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أنَّ ذا الكَلَاع أعتق اثني عشَر ألف بيت[٨].

---

(١) في ديوانه ص٥٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ونسبه للحسين بن الفضل.

(٥) ١٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٦) الصحاح (لمم) ولم ينسب البيت فيه، ونسب في لسان العرب (لمم) إلى ابن مقبل، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٢ .

(٨) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٣٤٠ ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٢٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية =

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أباكم آدم من الطين[١]، وخرج اللفظ على الجمع.

قال الترمذيُّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنَّا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صُلْبها على اختلاف الهيئات، منهم كالدُّرِّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدُّ سواداً من بعض، فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدَّثنا عيسى بن حماد العسقلانيُّ قال: حدَّثنا بِشر بنُ بَكرٍ، قال: حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض عليَّ الأوَّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسولَ الله! ومَن مضى من الخَلْق؟ قال: «نعم، عُرض عليَّ آدم فمن دونه، فهل كان خُلِقَ أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأُمَّهات؟ قال: «نعم، مثلوا في الطين فعرفتهم، كما علم آدم الأسماء كلَّها»[٢].

قلت: وقد تقدَّم في أوَّل «الأنعام»[٣] أنَّ كلَّ إنسان يُخلَق من طين البقعة التي يدفن فيها.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين: وهو الولد ما دام في البطن، سُمِّيَ جنيناً؛ لاجتنانه واستتاره[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[٥]

= ٤/ ١٤٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٧٤. وقول أبي خالد ـ وهو يزيد بن هارون من رجال الإسناد ـ جاء عقب رواية البيهقي هكذا: ...فإن ذا الكلاع وحوشب أعتقا اثني عشر ألف أهل بيت، وذكر من محاسنهم أشياء. اهـ. وجاء في (م) و(د): بنت، بدل: بيت.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ٨/ ٣١٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٥) سلف ٤/ ٣٨.

وقال مكحول: كنَّا أجنَّة في بطون أمهاتنا، فسقط منَّا من سقط، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا رُضَّعاً، فهلك منَّا من هلك، وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شباباً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبَا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر(١)؟!.

وروى ابنُ لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغير: هو صِدِّيق. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أمِّه إلا أنَّه شقيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها(٢). ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله(٣).

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تثنُوا عليها(٤)، فإنَّه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: أَخْلَصَ العمل، واتَّقى عقوبةَ الله، عن الحسن وغيره(٥). قال الحسن: قد عَلِمَ اللهُ سبحانه كلَّ نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة(٦). وقد مضى في «النساء»(٧) الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [الآية:٤٩] فتأمَّله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمَّة أزكِّيه غير رسول الله ﷺ(٨). والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٢ ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨) من طريق يحيى بن بكير، عن ابن لهيعة، به.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٧) ٦/ ٤٠٧ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٢٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الآيات، لما بيَّن جهل المشركين في عبادة الأصنام، ذكر واحداً منهم معيَّناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسولَ الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دينَ الأشياخ وضَلَّلتهم(١) وزعمت أنَّهم في النار؟! قال: إنِّي خشيتُ عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمَّل عنه عذاب الله(٢)، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له] ثم بَخِلَ ومنعَه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: كان(٣) الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: «وَأَعْطَى قَلِيلاً» أي: من الخير بلسانه «وَأَكْدَى» أي: قطع ذلك وأمسك عنه(٤). وعنه: أنَّه أعطى رسولَ الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولَّى، فنزلت: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» الآية.

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ والكلبيُّ والمسيّب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان ﷺ كان يتصدَّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألَّا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إنَّ لي ذنوباً وخطايا، وإنِّي أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برَحْلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلّها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن

---

(١) في (ظ): وملكهم، وفي (د): وملتهم، وفي (ف): وملّلهم، والمثبت من (م)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٣ ، والكلام منه دون نسبته إلى مقاتل، وما بين حاصرتين منه أيضاً، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٢ عن ابن زيد بتمامه، وعن مجاهد مختصراً، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) و(ف): ففعل. ولم ترد في أسباب النزول.

(٣) في (م): كال. وهو خطأ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

بعض ما كان يصنع [من الصدقة] فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديُّ[(١)] والثعلبيُّ.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنَّه كان ربَّما يوافق النبيَّ ﷺ في بعض الأمور[(٢)]. وقال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت في أبي جهل ابن هشام، قال: واللهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله تعالى: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى»[(٣)]. وقال الضحَّاك: هو النَّضْر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى[(٤)] ارتدَّ عن دينه، وضمن له أن يتحمَّل عنه مأثم رجوعه.

وأصل «أَكْدَى» من الكُدْية، يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حَجَرٍ لا يتهيَّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره[(٥)]. وقال الحُطَيْئة[(٦)]:

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيُّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل: إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً، فلا يمكنه أن يَحفِر. وحفر فأَكْدَى: إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كَدِيت أصابعه: إذا كَلَّتْ من الحفر[(٧)].

---

(١) في أسباب النزول ص٤٢٢-٤٢٣، وما بين حاصرتين منه، وذكر الخبر أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥ ونسبه للثعلبي، ولكنَّ ابن عطية ردَّ الخبرَ بقوله: وذلك كله عندي باطل، وعثمان منزَّه عن مثله.

(٢) قوله: في بعض الأمور. لم يرد في (م).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣، وزاد المسير ٨/ ٧٨.

(٤) في (م): حين. والمثبت من النسخ الخطية وزاد المسير ٨/ ٧٨، والكلام منه.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩.

(٦) لم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الصحاح (كدي).

وكَدِيت يدهُ: إذا كَلَّتْ، فلم تعمل شيئاً. وأكْدَى النَّبتُ: إذا قلَّ رَيْعه. وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً فهي كَادِيَةٌ: إذا أبطأ نباتها، عن أبي زيد[١]. وأكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء: رددتُه عنه. وأكْدَى الرجلُ: إذا قلَّ خيره. وقوله: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي: قطع القليل[٢].

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟! «فَهُوَ يَرَى» أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حَمْلَ العذاب عن غيره[٣]؟! وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدِّية إلى مفعولين، والمفعولان محذوفان، كأنَّه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وصحف إِبْراهيمَ ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كما في سورة «الأعلى»: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية:١٩] أي: لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى، كما قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وخصَّ صحف إبراهيم وموسى بالذِّكْر؛ لأنَّه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وأبيه[٤]، قاله الهذيل بن شرحبيل.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٢٥.

(٢) الصحاح (كدي).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩.

(٤) في (د) و(م): أخيه وابنه وأبيه. والمثبت من (ظ) و (ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٤٠٣ والكلام منه.

و «أنْ» هذه المخفَّفة من الثقيلة، وموضعها جرٌّ بدلاً من «ما»، أو يكون في موضع رفع على إضمار «هو»(١).

وقرأ سعيد بن جبير وقتادة: «وَفَى» خفيفة(٢)، ومعناها: صَدَق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة: «وَفَّى» بالتشديد، أي: قام بجميع ما فُرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً. وقد مضى في «البقرة»(٣) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [الآية: ١٢٤] والتوفية: الإتمام. وقال أبو بكر الورَّاق: قام بشرط ما ادَّعى، وذلك أنَّ الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فطالبه الله بصحَّة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه، فوجده وافياً بذلك، فذلك قوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» أي: ادَّعى الإسلام، ثم صحَّح دعواه.

وقيل: «وفَّى عمله كلَّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار» رواه الهيثم عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ(٤). وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه: «أَلَا أُخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليلَه إبراهيمَ: «الَّذِي وَفَّى»؛ لأنَّه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(٥) الآية [١٧ من سورة الروم]. ورواه سهل بن معاذ بن(٦) أنس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ(٧).

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن جبير واليماني، والمحتسب ٢/ ٢٩٤ ونسبها إلى ما نسبه ابن خالويه في القراءات الشاذة، وزاد: أبا أمامة وأبا مالك. البحر المحيط ٨/ ١٦٧.

(٣) ٢/ ٣٥١.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٣، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٥٤، من طريق القاسم، عن أبي أمامة، به. وفي إسناده: جعفر ابن الزبير، قال عنه ابن حجر في التقريب ١/ ٢١٧: متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه.

(٥) لم نقف عليه، وينظر الحديث الآتي.

(٦) في النسخ عدا (ف): عن: والمثبت من (ف) ومصادر التخريج.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤)، والطبري ٢٢/ ٧٧-٧٨، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٢٧) و (٤٢٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧: رواه الطبراني، وفيه ضعفاء وثقوا.

وقيل: «وفَّى» أي: وَفَّى ما أُرسل به[١]، وهو قوله: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذَنْب غيره، ويأخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل والجراحة، فيُقتَل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلَّغهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»[٢]. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى «وَفَّى»: عمل بما أُمر به، وبلَّغ رسالات ربِّه[٣]. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: «وَفَّى» بما فُرض عليه[٤]. وقال أبو مالك الغفاريُّ: قوله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» إلى قوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى» في صحف إبراهيم وموسى[٥]. وقد مضى في آخر «الأنعام»[٦] القول في: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ روي عن ابن عباس[٧] أنَّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع اللهُ تعالى الآباءَ في الأبناء، والأبناءَ في الآباء، يدلُّ ذلك على قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٩ إلا أن فيه: إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰٓ﴾.

(٦) ٩/ ١٤٥ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٦ ، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ بعد أن أورد الخبر: وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنَّه لا يُصلّي أحد عن أحد. ولم يُجِز مالك الصيام والحجَّ والصدقة عن الميت، إلا أنَّه قال: إن أوصى بالحجِّ ومات، جاز أن يُحجَّ عنه. وأجاز الشافعيُّ وغيره الحجَّ التطوّع عن الميِّت[١]. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه[٢]. وروي أنَّ سعد بنَ عبادة قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ أمِّي توفيت أفأتصدَّقُ عنها؟ قال: «نعم» قال: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[٣]. وقد مضى جميع هذا مستوفًى في «البقرة»[٤] و «آل عمران»[٥] و«الأعراف»[٦].

وقد قيل: إنَّ الله عز وجل إنَّما قال: «وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا ما سعى» ولام الخفض معناها في العربية المِلْكُ والإيجاب، فليس يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدَّق عنه غيرُه، فليس يجب له شيء، إلا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليه بما لا يجب له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل[٧]. وقال الربيع بن أنس: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» يعني: الكافر، وأما المؤمن فله ما سَعَى، وما سعى له غيرُه[٨].

قلت: وكثير من الأحاديث يدلُّ على هذا القول، وأنَّ المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدَّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في صدر «كتاب مسلم»[٩] عن عبد الله بن المبارك. وفي «الصحيح»[١٠]: «إذا

(١) قول مالك في المدونة ٦/ ٥٨ ، وقول الشافعي في الأم ٤/ ٤٦ .
(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ١/ ١٢٥ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٩٤ .
(٣) سلف ٩/ ٢٣٣ .
(٤) ٤/ ٥٠٠ .
(٥) ٥/ ٢٢٧ .
(٦) ٩/ ٢٣٣ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦-٢٠٧ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ .
(٩) في مقدمة كتابه ١/ ١٦ .
(١٠) مسلم (١٦٣١)، وسلف ١/ ٨ .

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه: «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كلُّه تفضُّل من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ زيادة الأضعاف فَضْلٌ منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عَشراً إلى سبع مئة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»[(١)] فهذا تفضُّل. وطريق العدل: «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى».

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» خاصٌّ في السيئة؛ بدليل ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عَشْر حسنات إلى سبع مئة ضِعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها، لم أكتبها عليه، فإن علمها كتبتها سيئةً واحدة»[(٢)].

وقال أبو بكر الورَّاق: «إِلَّا مَا سَعَى» إلا ما نوى[(٣)]. بيانه قوله ﷺ: «يُبعَث الناس يوم القيامة على نيَّاتهم»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة[(٥)] ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى به ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾. قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء، سواء لا فَرْقَ بينهما، قال الشاعر:

إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سعْدٍ سَعْيَه ... لم أَجْزِهِ بِبَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

(١) سلف ٦/ ٣٢٤.

(٢) سلف ١١/ ٣١٥.

(٣) زاد المسير ٨/ ٨١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٩) عن أبي هريرة ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: في إسناده ليث بن سليم، وهو ضعيف، ويشهد له حديث جابر، وقد رواه مسلم [(٢٨٧٨)] .اهـ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٤) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٦.

فجمع بين اللغتين(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المرجع والمردُّ والمصير، فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ابتداء المِنَّة، وإليه انتهاء الأمان. وعن أبيٍّ بن كعب قال: قال النبيُّ ﷺ في قوله: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» قال: «لا فكرة في الربِّ»(٢). وعن أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى فانْتَهِ»(٣).

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَق كذا وكذا، حتى يقول له: مَن خَلَق ربَّك. فإذا بلغ ذلك، فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ» وقد تقدَّم في آخر «الأعراف»(٤). ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلَا عَزَّ وجهُهُ ... فإنَّكَ تردَى إنْ فعلتَ وتُخْذَلُ
ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَبِرْ بِها ... وقُلْ مِثْل ما قال الخلِيلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعلَ إلا هو. وفي «صحيح مسلم»(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤-٢٥٥ بنحوه، والبيت لرجل من بهراء اسمه فدكى كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧٠، وسماه المرزبانيُّ في معجم الشعراء ص٤٤٦ المرفاقَ الطائيَّ وقال: وأحسبه لقباً .اهـ. وجاء فيهما: سيف، بدل: سعد.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٥٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٦) عن سفيان، قوله.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ عن أنس، وفي إسناده: سنان بن سعد، ويقال: سعد بن سنان، وقد اختلف فيه فقال النسائي عنه: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٢ - ٦٩٣. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه في المسند (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده منقطع، لأن عطاء لم يسمع من أبي هريرة.

(٤) ٩/ ٤٢٣.

(٥) برقم (٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٨٨).

لا والله ما قال رسولُ الله قطُّ: إنَّ الميِّتَ يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنَّه قال: «إنَّ الكافرَ يزيدُه اللهُ ببكاء أهله عذاباً، وإنَّ اللهَ لهو أضحك وأبْكَى، وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى».

وعنها قالت: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريلُ فقال: يا محمد! إنَّ الله يقول لك: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾. فرجع إليهم فقال: «ما خطوتُ أربعين خطوةً حتى أتاني جبريلُ فقال: إيتِ هؤلاء فقل لهم: إنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾»[1]. أي: قضى أسبابَ الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني: أفرح وأحزن؛ لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء[2]. وقيل لعمر: هل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان واللهِ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي[3]. وقد تقدّم هذا المعنى في «النمل»[4] و «براءة»[5].

قال الحسن: أضحك اللهُ أهلَ الجنة في الجنة، وأبكى أهلَ النار في النار[6]. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه، وأبكى من شاء بأن غَمَّه[7]. الضحَّاك: أَضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر[8]. وقيل: أَضحك الأشجار بالنُّوَّار، وأبكى السحاب بالأمطار[9]. وقال ذو النون: أَضحك قلوبَ المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوبَ الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٣، وأخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ عن ابن عمر بنحوه.

(٤) عند الآية (١٩).

(٥) ١٠/ ٣١٨.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ لكن عزاه إلى مجاهد والكلبي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٨.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥.

(٩) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ٥٩، والنُّوَّار: الزهر. اللسان (نور).

ابن عبد الله: أضحك اللهُ المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد ابن علي الترمذيُّ: أضحك المؤمنَ في الآخرة، وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله[1]: أضحك اللهُ أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ وإنَّما ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعَيْنٍ لا دموعَ لها ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل: إنَّ الله خصَّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إنَّ القِرْدَ وحده يضحك ولا يبكي، وإنَّ الإبل وحدها تبكي ولا تضحك[2]. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسيُّ: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلُّ مَن دون العرش منذ خُلِقت جهنَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلَق الموت والحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [تبارك: ٢] قاله ابن بحر[3]. وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان[4]، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية [١٢٢ من سورة الأنعام]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] على ما تقدّم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بِعَدْله، وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمَنْع والبخل، وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة، وأحيا النَّسمة. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة: الخصب،

(١) هو: بسام بن عبد الله الأسدي الكوفي الصيرفي، سمع عكرمة وأبا جعفر محمد بن علي، روى عنه أبو أحمد الزبيري وأهل الكوفة، وعنده مراسيل. التاريخ الكبير ٢/ ١٤٤، والثقات لابن حبان ٦/ ١١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧ وعزاه إلى الثعلبي.

وبالموت: الجدب. وقيل: أنام وأيقظ[١]. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: من أولاد آدم، ولم يُرِدْ آدم وحوَّاء بأنَّهما خُلقا من نُطْفة.

والنطفة: الماء القليل، مشتقٌّ من نطفَ الماءُ: إذا قَطَر[٣]. ﴿تُمْنَىٰ﴾ تُصبُّ في الرحم وتُراق، قاله الكلبيُّ والضحَّاك وعطاء بن أبي رباح[٤]، يقال: مَنَى الرجل وأَمْنى من الْمَنِيِّ. وسُمِّيت مِنًى بهذا الاسم؛ لما يُمْنَى فيها من الدماء، أي: يُراق[٥]. وقيل: «تُمْنَى» تُقدَّر، قاله أبو عبيدة[٦]. يقال: مَنَيت الشيء: إذا قَدَّرته، ومُنِي له، أي: قُدِّر له، قال الشاعر:

حَتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي: ما يُقدِّر لك القادر[٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: إعادة الأرواح في الأشباح للبعث

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٤.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥، ولم يعزه للكلبي، وعزاه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٠٥.

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١.

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٣٨.

(٧) الصحاح (مني)، والبيت سلف ٢/ ٢١٩.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمدّ[١]، أي: وعد ذلك، ووَعْده صِدْق. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[٢]، ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقرأ: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] واختاره الطبريُّ[٣].

وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى»: مَوَّلَ، «وأَقْنَى»: أَخْدم[٤].

وقيل: «أَقْنَى» جعل لكم قِنْية تقتنونها[٥]، وهو معنى أخدم أيضاً[٦].

وقيل: معناه: أرضى بما أعطى، أي: أغناه ثم رضَّاه بما أعطاه، قاله ابن عباس[٧].

وقال الجوهريُّ[٨]: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى، مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه اللهُ، أي: أعطاه الله ما يُقتنَى من القُنْية والنَّشَب. وأقناه أيضاً، أي: أرضاه. والقِنَى: الرضا، عن أبي زيد، قال: وتقول العرب: من أُعطِي مئةً من المعز، فقد أُعطِيَ القِنَى، ومن أُعطِي مئةً من الضأن، فقد أُعطِيَ الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل، فقد أُعطِيَ المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه، أي: أعطاه ما يَسكُن إليه.

وقيل: «أغنى وأَقْنَى» أي: أغْنَى نفسه، وأفقر خَلْقه إليه، قاله سليمان التيميُّ[٩].

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٩.

(٣) في التفسير ٢٢/ ٨٥ دون ذكر آية البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٣ عن مجاهد وقتادة والحسن.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ وعزاه إلى قتادة والحسن، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٨) في الصحاح (قني).

(٩) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٤، وأبو الشيخ في العظمة (١٧٦).

وقال سفيان: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضا[١]. وقال الأخفش: أقنى: أفقر. قال ابن كيسان: أولد[٢]. وهذا راجع لما تقدَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ «الشِّعْرَى»: الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء[٣]، وطلوعه في شدَّة الحرِّ، وهما الشِّعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع[٤]، وتزعم العرب أنَّهما أختا سُهَيل.

وإنَّما ذكر أنَّه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأنَّ العرب كانت تعبده، فأعلمهم اللهُ جلَّ وعزَّ أنَّ الشِّعْرى مربوب وليس بربٍّ. واختلف فيمن كان يعبده، فقال السديُّ: كانت تعبده حِمْيَر وخُزَاعة. وقال غيره: أوَّل من عبَده أبو كبشة ـ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ من قِبَلِ أمَّهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمُّون النبيَّ ﷺ: ابنَ أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانَهم، وقالوا: ما لقينا من ابنِ أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكرُ رسول الله ﷺ تمرُّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشة ـ وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظِّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضَى أَيْلُولُ وارتفع الحَرُورُ وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ[٥]

وقيل: إنَّ العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ عدا ما بين معترضتين فمن النهاية (كبش)، وشرح مشكل الآثار ٢/ ١٨٥ بنحوه، وقول أبي سفيان أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، وأحمد (٢٣٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الأثير في النهاية (أمر): ومنه حديث أبي سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة: أي: كثر وارتفع شأنه، يعني النبي ﷺ. اهـ. والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٣٢١ .

سُهَيل فصار يمانيًّا، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرَّة فسمِّيت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه فسمِّيت غميصاء؛ لأنَّها أخفى من الأخرى[١].

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمَّاها الأولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إنَّ ثمود مِن قبل[٢] عاد. وقال ابن زيد: قيل لها: عاد الأولى؛ لأنَّها أوَّل أمَّة أُهلِكت بعد نوح عليه السلام[٣]. وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأُولى أُهلِكت بالريح الصَّرصر، ثم كانت الأُخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو: عاد بن إِرمَ ابنِ عَوْصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وعاد الثانية من ولد عادٍ الأولى[٤]. والمعنى متقارب. وقيل: إنَّ عاداً الآخرة الجبَّارون، وهم قوم هود[٥].

وقراءة العامَّة: «عَاداً الْأُولَى» ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وأبو عمرو: «عَاداً لُّوْلَى»[٦] بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنَّ قالون والسوسيَّ يُظهِران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها، والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُمْ لَانَ عنَّا، وصُمْ لِثْنَين، أي: قُمِ الآنَ، وصُمِ الاثنين[٧].

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ ثمود: هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة[٨]. قُرِئَ: «ثمُوداً» و«ثَمُود» وقد تقدَّم[٩]. وانتصب على العطف على عاد[١٠].

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٥٤ بنحوه.

(٢) في (ظ): نسل.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢٠ ولم يعزه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٠ وعزاه إلى ابن إسحاق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٨ .

(٦) السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ - ٢٠٥ ، والنشر ١/ ٤١٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٢ .

(٨) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٩) ٩/ ٢٦٦ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ وذلك لطول مدَّة نوح فيهم[١]، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإنَّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثلَ ما قلتُ لك[٢]. فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصيَّة أبيه.

وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى كلِّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح، أي: كانوا أكفرَ من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيِّ ﷺ، فكأنَّه يقول له: فاصبر أنت أيضاً، فالعاقبة الحميدة لك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي: انقلبت[٣]، وصار عالِيَها سافلها. يقال: أَفَكْته، أي: قلبته وصرفته[٤]. «أَهْوَى» أي: خسف بهم بعد رَفْعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض[٥]. وقال المبرِّد: جعلها تهوي. ويقال: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هُوِيًّا، أي: سقط[٦]. و«أَهْوَى» أي: أسقط[٧].

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٨] [الحجر: ٧٤]، وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أي: غَشَّاها من العذاب ما غشَّاهم، وأبهم؛ لأنَّ كلًّا منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٨٩ عن قتادة.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠.

(٤) الصحاح (أفك).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥.

(٦) الصحاح (هوي).

(٧) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٩.

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّك تشكُّ، والمخاطبة للإنسان المكذِّب، والآلاء: النِّعَم، واحدها: أَلَى وإِلَى وإِلْيٌ[(١)]. وقرأ يعقوب: «تَمَّارَى» بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد[(٢)].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أنَّ محمداً ﷺ نذيرٌ بالحقِّ الذي أنذر به الأنبياء قبله[(٣)]، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلَّا حلَّ بكم ما حلَّ بمكذِّبي الرسل السالفة.

وقال قتادة: يريد القرآن، وأنَّه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى[(٤)].

وقيل: أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويفٌ لهذه الأمَّة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر، أي: مثل النذر[(٥)]، والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار[(٦)]، كالنُّكُر بمعنى الإنكار، أي: هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى[(٧)]. وقال السديُّ: أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ» إلى قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢ .

(٢) النشر ١/ ٣٠٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن محيصن.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٦) لسان العرب (نذر).

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٤ .

النُّذُرِ الْأُولَى» كل هذه في صحف إبراهيم وموسى[١].

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: قربت الساعة ودَنَت القيامة. وسمَّاها آزفة؛ لقرب قيامها عنده[٢]، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا . وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]. وقيل: سماها آزفة؛ لدنوِّها من الناس وقربها منهم[٣]؛ ليستعدُّوا لها؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب. قال:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنَّ رِكَابَنَا ... لمَّا تَزَلْ بِرِحالِنا وكأنْ قَدِ[٤]

وفي «الصحاح»[٥]: أَزِف الترحُّل يَأْزَف أَزَفاً، أي: دنا وأَفِد، ومنه قوله تعالى: «أَزِفَتِ الآزِفَةُ» يعني القيامة، وأَزِفَ الرجلُ، أي: عَجِل، فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف: القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابيٍّ ما الْمُحْبَنْطِئُ؟ قال: المتَكَأْكِئُ. قلت: ما الْمُتَكَأْكِئُ؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق! وتركني ومَرَّ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله من يؤخِّرها أو يقدِّمها. وقيل: كاشفة، أي: انكشاف، أي: لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله، فالكاشفة اسم بمعنى المصدر، والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية[٦]، كقولهم: ما لفلان من باقية، أي: من بقاء[٧]. وقيل: أي: لا أحد يردُّ ذلك[٨]، أي:

(١) سلف ص٥٤ من هذا الجزء عن أبي مالك الغفاري بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/٧٨ .

(٤) القائل النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٨ ، وفيه: أفد، بدل: أزف، وهما بمعنى. وجاء البيت في البيان والتبيين ٢/ ٢٨٠ كما في الرواية هنا.

(٥) مادة (أزف)، وحكاية أبي زيد الآتية ذكرها أبو طاهر المقرئ في كتابه أخبار النحويين، في ترجمة أبي زيد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

إنَّ القيامة إذا قامت لا يكشفها أحدٌ من آلهتهم، ولا ينجِّيهم غير الله تعالى. وقد سمِّيت القيامةُ غاشيةً، فإذا كانت غاشية، كان ردُّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف، أي: نفس كاشفة، أو: فرقة كاشفة، أو: حال كاشفة. وقيل: إنَّ «كاشِفة» بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، مثل راوية وداهية(١).

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا استفهام توبيخ(٢) ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيباً به ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفاً من الوعيد(٣). وروي أنَّ النبيَّ ﷺ ما رُئيَ بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً(٤).

وقال أبو هريرة: لما نزلت: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ» قال أهل الصُّفَّة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيُّ ﷺ بكاءَهم، بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَن بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تُذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيغفر لهم ويرحمهم، إنَّه هو الغفور الرحيم»(٥).

وقال أبو حازم: نزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: «هذا فلان». فقال جبريل: إنَّا نَزِنُ أعمالَ بني آدم كلَّها إلا البكاء، فإنَّ الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنَّم(٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون معرضون. عن ابن عباس، رواه الوالبيُّ والعوفيُّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر ـ يقال: سمِّد لنا، أي: غنِّ لنا ـ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٨٩ بنحوه.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٥ عن رجل يقال له: خازم.

فكانوا إذا سمعوا القرآنَ يتلى، تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا[١]. وقال الضحَّاك: سامدون: شامخون متكبِّرون[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: سمَدَ سُمُوداً: رفع رأسه تكبُّراً، وكلُّ رافع رأسه، فهو سامد، قال:

سَـوَامِـدَ الـلَّـيْـلِ خِـفَـافَ الْأَزْوَادْ[٤]

يقول: ليس في بطونها عَلَف. وقال ابن الأعرابيِّ: سَمَدْتُ سُمُوداً: علوتُ. وسَمَدتِ الإبلُ في سيرها: جدَّتْ. والسُّمُود: اللَّهو، والسامد: اللَّاهي، يقال للقَيْنة: أسمِدينا، أي: ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض: أن يجعل فيها السماد، وهو سِرْجين ورَمَاد. وتسميد الرأس: استئصال شعره، لغة في التَّسبِيد. واسمأدَّ الرجلُ ـ بالهمز ـ اسْمِئْداداً، أي: وَرِم غضباً.

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ معنى «سَامِدُونَ»: أن يجلسوا غير مصلِّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام، ومنه ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: «ما لي أراكم سامدين» حكاه الماورديُّ[٥]. وذكره المهدويُّ عن عليٍّ، وأنَّه خرج إلى الصلاة فرأى الناسَ قياماً فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدويُّ[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ عدا ما بين معترضتين فمن غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٨١ ، وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٧ عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٨ ، وأبو يعلى (٢٦٨٥) عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) مادة (سمد).

(٤) الراجز رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٩ ، وقبله:

قـلَّـصـن تـقـلـيـص الـنـعـام الـوخَّـاد

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، وفيه قول علي والحسن، والحديث أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٨٠ مرفوعاً، وذكر محققه أن في بعض النسخ الخطية: عن علي رحمة الله عليه. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً، وسيأتي من قول علي في التعليق الآتي.

(٦) وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٥ ، والطبري ٢٢/ ١٠٠ .

والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً: إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرِّد: سامدون خامدون، قال الشاعر:

أَتَى الحدثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ بِمَقْدورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[١]

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيُّ ﷺ: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسِّماً حتى مات ﷺ. ذكره النحَّاس[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قولُ ابن مسعود[٣]. وبه قال أبو حنيفة والشافعيُّ[٤]. وقد تقدَّم أوَّل السورة[٥] من حديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد فيها، وسجد معه المشركون. وقيل: إنَّما سجد معه المشركون؛ لأنَّهم سمعوا أصواتَ الشياطين في أثناء قراءةِ رسول الله ﷺ عند قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» وأنَّه قال: تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَا وشفاعتهنَّ تُرْتَجَى.كذا في رواية سعيد بن جُبير: ترتجى. وفي رواية أبي العالية: وشفاعتهنَّ ترتضى، ومثلهنَّ لا يُنسى. ففرح المشركون وظنُّوا أنَّه من قول محمد ﷺ، على ما تقدَّم بيانه في «الحج»[٦]. فلما بلغ الخبرُ بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيِّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنَّ أهل مكة آمنوا، فكان أهل مكة أشدَّ عليهم، وأخذوا في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، والبيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١٧٧ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي.

(٢) لم نقف عليه عند النحاس، وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٥) ص٥ من هذا الجزء.

(٦) ١٤/ ٤٢٥ .

تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم.

وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة، وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود[١]. وبه قال مالك.

وروى أبيٌّ بن كعب ﷺ: كان آخر فِعْلِ النبيِّ ﷺ ترك السجود في المفصَّل. والأوَّل أصحُّ، وقد مضى القول فيه آخر «الأعراف»[٢] مبيناً، والحمد لله ربِّ العالمين.

تم تفسير سورة «والنجم»

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٢) ٩/ ٤٣٦ .

سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾

مَكيَّةٌ، وآيُها إحدى أو ثِنتانِ وسِتُّون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسَمَ بجنسِ النُّجومِ أو الثُّريَّا فإنَّه غَلَبَ فيه، إذا غرَبَ أو انتثرَ يومَ القيامةِ أو انقضَّ أو طلعَ، فإنَّه يُقالُ: هَوَى هَوِيًّا بالفتحِ: إذا سقطَ وغربَ، وهُوِيًّا بالضمِّ: إذا عَلَا وصَعِدَ، أو بالنَّجمِ[1] مِن نُجومِ القُرآنِ إذا نزلَ، أو النَّباتِ إذا سقَطَ على الأرضِ، أو إذا نَما وارتفَعَ= على قوله:

(٢) ـ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ ما عَدَلَ مُحمَّدٌ عليهِ السَّلامُ عَن الطَّريقِ المُستقيمِ.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ وما اعتقَدَ باطِلًا والخطابُ لقريش، والمرادُ نَفيُ ما ينسبونَ إليه.

(٣) ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ وما يصدرُ نطقُه بالقرآنِ عن الهوى.

(٤) ـ ﴿إِنۡ هُوَ﴾ ما القرآنُ أو الذي يَنطِقُ به ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ أي: إلا وحيٌ يُوحيهِ اللهُ إليه، واحتجَّ بهِ مَن لم يرَ الاجتهادَ له.

وأُجيبَ عنه بأنَّه إذا أُوحِيَ إليهِ بأَنْ يَجتَهِدَ كانَ اجتهادُه وما يَستَنِدُ إليه وَحْيًا، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ ذلك حينئذٍ يكونُ بالوَحيِ لا الوحيَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «هكذا قال ابن عباس رضي الله عنه». قلت: ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي وعطاء.

(٥) ـ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ مَلَكٌ شديدٌ قُوَاه، وهو جبرئيلُ فإنَّه الواسِطَةُ في إبداءِ الخوارقِ. رُوِيَ أنَّه قلعَ قُرَى قومِ لوطٍ ورفعَها إلى السَّماءِ ثمَّ قلبَها، وصاحَ صيحَةً بثمودَ فأصبَحُوا جاثمينَ[١].

(٦) ـ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافةٍ في عَقلِه ورَأيِه.

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستقامَ على صُورَتِه الحقيقيَّةِ التي خلقَهُ اللهُ عليها.

قيل: ما رآهُ أحدٌ مِن الأنبياءِ في صورَتِه غيرُ مُحمَّدٍ عليه السَّلامُ مرَّتينِ، مرَّةً في السَّماءِ ومرَّةً في الأرضِ[٢].

وقيل: استَوْلى بقُوَّتِه على ما جُعِلَ له مِن الأمرِ.

(٧) ـ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أُفقِ السَّماءِ، والضَّميرُ لجبرئيلَ.

(٨) ـ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ مِن النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلَّقَ به، وهو تمثيلٌ لعُروجِهِ بالرَّسُولِ.

وقيل: ثمَّ تَدلَّى مِن الأُفُقِ الأعلى فدَنا مِن الرَّسولِ، فيكونُ إشعارًا بأنه عَرَجَ به غيرَ مُنفَصِلٍ عن محلِّه تقريرًا لشدَّةِ قوَّتِه، فإنَّ التَّدلِّيَ استرسالٌ مَع تعلُّقٍ كتَدلِّي الثَّمرةِ، ويقال: دلَّى رِجلَهُ مِن السَّريرِ، وأَدْلى دلوَهُ، والدَّوالي: الثَّمرُ المعلَّقُ.

(٩) ـ ﴿فَكَانَ﴾ جبرئيلُ، كقولِك: هو مِنِّي مَعقِدَ الإزارِ، أو المسافةُ بينَهُما.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٧٨)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٠).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٦٠): لم أجده هكذا، وفي الصحيحين [البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له] من رواية مسروق عن عائشة: أنا أول من سأل رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء سادًّا عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض». وللترمذي [(٣٢٧٨)]: ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد له ست مئة جناح وقد سد الأفق.

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارَهُما ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقديرِكُم كقولِه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

والمقصودُ تَمثيلُ مَلَكةِ الاتِّصالِ وتحقيقُ استِماعِهِ لِمَا أُوحيَ[١] إليه بنَفْيِ البُعدِ المُلَبِّسِ.

(١٠) ـ ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ جبرئيلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبدِ اللهِ، وإضمارُه قبلَ الذِّكرِ لكَونِه معلومًا كقولِه: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾[٢].

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ جبرئيلُ، وفيه تفخيمٌ للمُوحَى به، أو اللهُ إليه.

وقيل: الضَّمائرُ كلُّها للهِ تعالى، وهو المعنيُّ بـ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ كما في قولِه: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ودنوُّهُ منهُ برفعِ مَكانَتِه، وتدلِّيهِ جذبُه بشراشرِهِ إلى جَنابِ القدسِ.

(١١) ـ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ما رَأى ببَصرِه مِن صُورةِ جبرئيلَ أو اللهِ؛ أي: ما كذبَ بصرُه بما حكاهُ له، فإنَّ الأمورَ القدسيَّةَ تُدرَكُ أوَّلًا بالقلبِ ثمَّ تَنتقِلُ منه إلى البصرِ، أو ما قال فؤادُه لَمَّا رآه: لم أعرفكَ، ولو قالَ ذلك كان كاذبًا لأنَّه عَرَفهُ بقَلبِه كما رآهُ ببَصرِه، أو ما رآه بقلبِهِ، والمعنى: لم يَكُن تَخيُّلًا كاذبًا، ويدلُّ عليه أنَّه عليه السَّلامُ سئل: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «رأيتُه بفُؤادِي»[٣].

وقُرِئَ: ﴿ما كَذَّبَ﴾[٤] أي: صدَّقَه ولم يشكَّ فيه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «يوحى».

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٩) من حديث محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبي ﷺ.

(٤) رواية هشام بن عمار عن ابن عامر، انظر: «السبعة» (ص: ٦١٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(١٢) ـ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي أفتجادلونَه عليه، مِـن المراءِ وهو المجادلَةُ، واشتقاقُه مِن مَرَى النَّاقةَ؛ فإنَّ كُلًّا مِن المُتجادِلَين يَمْرِي ما عندَ صاحبِه.

وقـرأَ حـمزةُ والكِـسائيُّ وخلفٌ ويعقوبُ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾(١)؛ أي: أفتغلبونَه في المراءِ؟ مِن مارَيْتُه فمَرَيْتُه، أو أفتَجْحَدونَه، مِن مَراهُ حقَّهُ: إذا جَحَده، و(على) لتَضمُّنِ الفعلِ مَعنى الغلبَةِ، فإنَّ المُماريَ والجاحِدَ يقصدانِ بفعلِهما غلبةَ الخصمِ.

(١٣) ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرَّةً أُخرى، فَعْلَةٌ مِن النُّزولِ أُقيمَتْ مقامَ المرَّةِ ونُصِبَتْ نصبَها إشعارًا بأنَّ الرُّؤيةَ في هذه المرَّةِ كانَتْ أيضًا بنزولٍ ودُنوٍّ. والكلامُ في المرئيِّ والدُّنوِّ ما سبقَ.

وقيل: تقديرُه: ولقد رآهُ نازلًا نزلةً أخرى، ونصبُها على المصدرِ، والمرادُ به نَفيُ الرِّيبةِ عَن المرَّةِ الأخيرةِ.

(١٤) ـ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ التي يَنتَهِي إليها عِلمُ الخلائقِ وأَعمالُهُم، أو ما ينزلُ مِن فَوقِها ويصعَدُ مِن تَحتِها، ولعلَّها شُبِّهَت بالسِّدرةِ وهي شجرةُ النَّبقِ لأَنَّهُم يجتمعونَ في ظِلِّها، ورُوِيَ مَرفوعًا: «أنَّها في السَّماءِ السَّابعَةِ»(٢).

(١٥) ـ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ الجنَّةُ التي يَأوِي إليها المتَّقونَ، أو أرواحُ الشُّهَداءِ.

(١٦) ـ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ تعظيمٌ وتكثيرٌ لِمَا يَغشاها بحيثُ لا يَكتَنِهُها نعتٌ ولا يُحصِيها عَدٌّ.

وقيل: يَغشاها الجمُّ الغَفيرُ مِن الملائكةِ يعبدونَ اللهَ عندها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤)، و«النشر» (٢/ ٣٧٩).

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٠) عن ابن عباس قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ قال: هي يمين العرش، وهي منزل الشهداء. وإسناده ضعيف جدًّا.

(١٧) ـ ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ ما مالَ بصرُ رسولِ اللهِ ﷺ عمَّا رآهُ.

﴿وَمَا طَغَىٰ ﴾ وما تجاوزَهُ، بل أثبتَهُ إثباتًا صحيحًا مُستيقَنًا، أو ما عدلَ عَن رُؤيةِ العجائبِ التي أُمِرَ برُؤيَتِها وما جاوزَها.

(١٨) ـ ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ أي: واللهِ لقد رأى الكُبرى من آياتِه وعَجائبِه المُلْكِيَّةِ والمَلَكوتيَّةِ ليلةَ المعراجِ، وقد قيل: إنَّها المعنيَّةُ بـ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾.

ويجوزُ أَنْ تكونَ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ صفةً للآياتِ على أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ؛ أي: شيئًا مِن آياتِ رَبِّه، أو (مِن) مزيدةً.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ هي أصنامٌ كانَتْ لَهُم، فالَّلاتُ كانت لثقيفٍ بالطَّائفِ أو لقُريشٍ بِنَخلَةَ، وهي فَعْلة مِن لَوَى؛ لأنَّهُم كانوا يلوونَ عليها؛ أي: يطوفونَ.

وقُرِئَ[١] ﴿الَّلاَّتَ﴾ بالتَّشديدِ[٢] على أنَّه سُمِّيَ به لأنَّه صورةُ رجلٍ كان يَلُتُّ السَّويقَ بالسَّمنِ ويُطعِمُ الحاجَّ.

والعُزَّى سَمُرَةٌ لغَطَفانَ كانوا يَعبُدونَها، فبعثَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ فقطَعَها[٣].

وأصلُها تأنيثُ الأَعَزِّ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وقرأَ هِبةُ اللهِ عن البَزِّيِّ ورُوَيسٌ عن يعقوبَ» بدل: «وقُرِئَ الَّلات».

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٩).

(٣) انظر: «كتاب الأصنام» للكلبي (ص: ٢٥)، و«المغازي» للواقدي (٢/ ٨٧٠)، و«الطبقات الكبرى» (٢/ ١٣٥)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٣) عن قتادة، ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٣) عن أبي الطفيل رضي الله عنه.

ومَناةُ صَخْرَةٌ كانت لهُذَيلٍ وخُزاعَةَ، أو لثقيفٍ، وهي فَعَلَةٌ مِن مَناه: إذا قطعَهُ، فإنَّهم كانوا يذبحونَ عندها القرابينَ، ومنه: مِنَى.

وقُرِئَ: ﴿مَناءَةَ﴾[1]، وهي مَفْعَلَةٌ مِن النَّوْءِ، كأنَّهم يَستمطِرُونَ الأَنواءَ عندَها تبرُّكًا بها، وقولُه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفتَانِ للتَّأكيدِ كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، أو ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ مِن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ.

(٢١) ـ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إنكارٌ لقَولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وهذه الأصنامُ استوطَنَها جِنِّيَّاتٌ هنَّ بَناتُه أو هياكِلُ الملائكةِ، وهو المفعولُ الثَّاني لقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾.

(٢٢) ـ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرةٌ حيثُ جَعَلتُم له ما تَستنكِفُونَ منه، وهي فُعْلَى مِن الضَّيْزِ، وهو الجَورُ، لكنَّه كُسِرَ فاؤُه ليَسلمَ الياءُ كما فعلَ في (بِيض)، فإنَّ (فِعْلَى) بالكسرِ لم يأتِ وصفًا.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بالهمزِ[2] مِن ضَأَزَهُ: إذا ظَلَمَهُ، على أنَّه مَصدرٌ نُعِتَ به.

(٢٣) ـ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ الضَّميرُ للأصنامِ؛ أي: ما هي باعتبارِ الأُلوهيَّةِ إلَّا أَسماءٌ تُطلِقُونَها عليها لأنَّكُم تَقولون: إنَّها آلهةٌ وليسَ فيها شيءٌ مِن معنى الأُلوهيَّةِ، أو للصِّفَةِ التي تَصِفُونَها بها مِن كَونِها آلهةً وبناتًا وشُفعاءَ، أو للأسماءِ المذكورةِ، فإنَّهُم كانوا يُطلِقُونَ الَّلاتَ عليها باعتبارِ استحقاقِها للعُكوفِ على عِبادَتِها، والعُزَّى لعِزَّتِها، ومَناةُ لاعتقادِهِم أنَّها تَستَحِقُّ أن يُتقرَّبَ إليها بالقرابينِ.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سَمَّيْتُم بها ﴿أَنتُمْ﴾ بهواكُم ﴿وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهانٍ تتعلَّقُون به.

---

(١) هي قراءة ابن كثير، انظر: «السبعة» (ص: ٦١٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ وقُرِئَ بالتَّاءِ[١] ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا تَوَهُّمَ أنَّ ما هم عليه حقٌّ تقليدًا وتوهُّمًا باطلًا.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تَشتَهيهِ أنفُسُهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرَّسولُ والكتابُ فتركوهُ.

(٢٤) ـ ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ (أم) مُنقَطِعَةٌ، ومَعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ، والمعنى: ليسَ له كلُّ ما يتمنَّاه، والمرادُ نَفيُ طَمَعِهِم في شفاعةِ الآلهةِ، وقولِهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ونحوِها.

(٢٥) ـ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يُعطي منهما ما يشاءُ لِمَن يريدُ، وليسَ لأَحدٍ أن يَتحكَّمَ عليهِ في شيءٍ مِنهُما.

(٢٦) ـ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وكثيرٌ مِن الملائكةِ لا تُغني شَفاعَتُهُم شَيئًا ولا تنفَعُ.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشَّفاعةِ[٢] ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِن الملائكةِ أن يَشفَعَ، أو مِن النَّاسِ أن يُشفَعَ له.

﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويَراه أهلًا لذلك، فكيفَ تشفَعُ الأصنامُ لعَبَدتِهم؟!

(٢٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: كلَّ واحدٍ مِنْهُم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ بأَنْ سَمَّوْهم[٣] بِنتًا.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٥/ ١٢٨ ـ ١٢٩) عن عيسى بن عمر وأيوب وابن السميفع، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٤١) عن طلحة، وابن صبيح، والزعفراني، والشيزري عن علي.

(٢) في نسخة الخيالي: «في شفاعتهم».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «سَمَّوه»، وفي نسخة الطبلاوي: «يسموها».

(٢٨) ـ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بما يقولونَ.

وقُرِئَ: (بها)[١] أي: بالملائكةِ أو التَّسمِيَةِ.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فإنَّ الحقَّ الذي هو حقيقةُ الشَّيءِ لا يُدرَكُ إلَّا بالعلمِ، والظَّنُّ لا اعتبارَ له في المعارفِ الحقيقيَّةِ، وإنَّما العِبرةُ به في العمليَّاتِ وما يكونُ وُصلةً إليها.

(٢٩) ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعرِضْ عَن دعوَتِه والاهتمامِ بشَأنِه، فإنَّ مَن غَفَل عَن اللهِ وأعرضَ عن ذكرِه وانهمكَ في الدُّنيا بحيثُ كانَتْ مُنتهى هِمَّتِه ومبلغَ عِلمِه لا تزيدُهُ الدَّعوَةُ إلَّا عِنادًا وإصرارًا على الباطلِ.

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: أمرُ الدُّنيا وكونُها[٢] شهيَّةً ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يتجاوَزُه عِلمُهُم، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لقُصورِ هَمِّهم بالدُّنيا.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ؛ أي: إنَّما يعلَمُ اللهُ مَن يُجيبُ ممَّنْ لا يجيبُ فلا تُتْعِبْ نفسكَ في دَعوَتِهم؛ إذ ما عليك إلَّا البلاغُ وقَدْ بلَّغْتَ.

(٣١) ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بعقابِ ما عَمِلُوا مِن السُّوءِ أو بمثلِه، أو بسببِ ما عَمِلُوا مِن السُّوءِ، وهو عِلَّةٌ لما دلَّ عليه ما قبلَه؛ أي: خَلَقَ العالمَ وسوَّاهُ للجَزاءِ، أو مَيَّزَ الضَّالَّ عَن المُهتَدِي وحَفِظَ أحوالَهُم لذلك.

﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمَثوبَةِ الحُسنى وهو الجنَّةُ، أو بأحسنَ مِن أعمالِهم، أو بسببِ الأَعمالِ الحُسْنَى.

---

(١) وهي قراءة أبي، انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٠٠).

(٢) في نسخة الفاروقي: «أو كونها».

(٣٢) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ ما يكبُرُ عِقابُه مِن الذُّنوبِ، وهو ما رُتِّبَ الوعيدُ عليه بخُصوصِه.

وقيل: ما أوجبَ الحَدَّ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿كبيرَ الإثمِ﴾(١) على إرادةِ الجنسِ أو الشِّركِ.

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ وما فحُشَ مِن الكبائرِ خُصوصًا.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ إلَّا ما قلَّ وصَغُرَ فإنَّه مَغفورٌ مِن مُجتنبي الكبائرِ.

والاستثناءُ مُنقَطِعٌ، ومحلُّ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ النَّصبُ على الصِّفةِ أو المدحِ، أو الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مَحذوفٍ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ حيثُ يغفرُ الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائرِ، أو له أن يغفرَ ما يشاءُ مِن الذُّنوبِ صَغيرِها وكَبيرِها.

ولعلَّه عقَّبَ به وعيدَ المُسيئينَ ووَعْدَ المُحسنينَ(٢) لئلَّا ييأسَ صاحبُ الكَبيرةِ مِن رَحمَتِه، ولا يتوهَّمَ وجوبَ العِقابِ علـى اللهِ.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ﴾ أعلَمُ بأَحوالِكُم مِنْكُم.

﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ عَلِمَ أحوالَكُم ومَصارِفَ أُمورِكُم حين ابتدأَ خلقَكُم مِن التُّرابِ بخلقِ آدمَ، وحينما صوَّركُم في الأرحامِ.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فلا تُثْنُوا عليها بزكاءِ العملِ وزِيادةِ الخيرِ، أو بالطَّهارةِ عَن المعاصي والرَّذائلِ.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ فإنَّه يَعلَمُ التَّقِيَّ وغيرَهُ مِنكُم قبلَ أن يُخرِجَكُم مِن صُلبِ آدمَ عليهِ السَّلامُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٦٧).

(٢) في نسخة الفاروقي: «المجتنبين».

(٣٣) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن اتِّباعِ الحَقِّ والثَّباتِ عليه.

(٣٤) ـ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وقطعَ العَطاءَ، من قولهم: أَكْدَى الحافِرُ: إذا بلغَ الكُدْيَةَ، وهي الصَّخرةُ الصُّلبةُ، فتركَ الحفرَ.

والأكثرُ على أنَّها نزلَتْ في الوليدِ بن المغيرةِ كانَ يتبَعُ رسولَ اللهِ ﷺ، فعيَّره بعضُ المشركينَ وقال: تركتَ دينَ الأشياخِ وضَلَّلْتَهُم فقال: أخشى عذابَ اللهِ، فضَمِنَ أن يَتحمَّلَ عنه العذابَ إن أعطاهُ بعضَ مالِه، فارتَدَّ وأعطى بعضَ المشروطِ ثمَّ بَخِلَ بالباقي(١).

(٣٥) ـ ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ يعلَمُ أنَّ صاحِبَه يتحمَّلُ عنه.

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ وَفَّرَ وأتمَّ ما التزمَهُ أو أُمِرَ به أو بالغَ في الوفاءِ بما عاهدَ اللهَ، وتخصيصُه بذلك لاحتمالِه ما لم يحتَمِلْهُ غيرُه، كالصَّبرِ على نارِ نُمروذَ حتَّى أتاهُ جبرئيلُ حينَ يُلقى في النَّارِ فقال: ألكَ حاجةٌ؟ فقال: أمَّا إليكَ فلا، وذبحِ الوَلدِ، وأنَّه كان يمشي كلَّ يومٍ فرسَخًا يرتادُ ضيفًا، فإن وافقَهُ أكرمَهُ وإلَّا نوَى الصَّومَ، وتقديمُ مُوسى لأنَّ صُحُفَهُ وهي التَّوراةُ كانَتْ أشهرَ وأكثرَ عِندَهُم.

(٣٨) ـ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (أَنْ) هي المخفَّفَةُ من الثَّقيلةِ، وهي بما بعدَها في محلِّ الجرِّ بدلًا مِن (ما في صُحُفِ موسى)، أو الرَّفعِ على (هو أن لا تزرَ)، كأنه قيل: ما في صُحُفِهما؟ فأجاب به.

والمعنى أنَّه لا يُؤْخَذُ(٢) أحدٌ بذنبِ غيرِه، ولا يخالِفُ ذلك قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) ذكرها الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٧١)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٧١٦٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «لا يؤاخذ».

كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقولَه عليه السَّلامُ: «مَن سنَّ سنَّةً سَيِّئةً فله وِزرُها ووِزرُ مَن عملَ بها إلى يومِ القيامةِ»[١]، فإنَّ ذلك للدَّلالةِ والتَّسبُّبِ الذي هو وزرُه.

(٣٩) ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلَّا سعيُه؛ أي: كما لا يؤاخَذُ[٢] أحدٌ بذنبِ الغيرِ لا يُثابُ بفعلِه، وما جاءَ في الأخبارِ مِن أنَّ الصَّدقةَ والحجَّ ينفعانِ الميتَ فلكونِ النَّاوي له كالنَّائبِ عنه.

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي: يُجزَى العبدُ سَعْيَه بالجَزاءِ الأوفَرِ، فنُصِبَ بنزعِ الخافضِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَصدَرًا، وأن يكونَ الهاءُ للجزاءِ المدلولِ عليه بـ(يجزى)، والجزاءُ بدلَه.

(٤٢) ـ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ انتهاءُ الخلائقِ ورُجوعُهُم.

وقُرِئَ بالكسرِ[٣] على أنَّه مُنقَطِعٌ عمَّا في الصُّحفِ، وكذلك ما بعدَه.

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدرُ على الإماتةِ والإحياءِ غَيرُه، فإنَّ القاتلَ ينقُضُ البِنيةَ، والموتُ يحصُلُ عندَهُ بفعلِ اللهِ على سبيلِ العادةِ.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ تُدفَقُ في الرَّحمِ، أو تُخلَقُ أو تُقدَّرُ منها الولدُ، مِن مَنَى: إذا قَدَّرَ.

(٤٧) ـ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الإحياءَ بعدَ المَوتِ وفاءً بوَعدِه.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «لا يؤخذ».

(٣) وهي قراءة أبي السمال كما في «البحر» (٢٠/ ٦٧).

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿النَّشاءَةَ﴾[١] بالمدِّ، وهو أيضًا مصدرُ نشأَهُ.

(٤٨) - ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأَعطَى القِنيةَ، وهي ما يُتَأَثَّلُ من الأموالِ، وإفرادُها لأنَّها أَشفُّ الأموالِ أو أَرْضَى، وتحقيقُه جَعَلَ الرِّضا له قِنيةً[٢].

(٤٩) - ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ يعني: العَبُورَ، وهي أشدُّ ضياءً مِن الغُمَيصاءِ، عبدَهَا أبو كَبشةَ أحدُ أَجدادِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ وخالفَ قريشًا في عبادةِ الأوثانِ[٣]، ولذلك كانوا يُسَمُّونَ الرَّسولَ ابنَ أبي كبشةَ، ولعلَّ تخصيصَها للإشعارِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ السَّلامُ وإنْ وافقَ أبا كبشةَ في مُخالفَتِهِم خالفَهُ أيضًا في عبادَتِها.

(٥٠) - ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ القُدماءَ لأنَّهُم أُولى الأُمَم هلاكًا بعد نوحٍ.

وقيل: عادٌ الأُولى قومُ هودٍ، وعادٌ الأخرى إِرَمُ.

وقُرِئَ: (عادًا لُولى) بحذفِ الهمزةِ[٤]، ونقلِ ضمَّتِها إلى لامِ التَّعريفِ[٥]، وقرأ نافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿وعادَ لُّولَى﴾ بإدغامِ التَّنوينِ في اللامِ[٦]، وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو[٧].

(٥١) - ﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ على ﴿عَادًا﴾ لأنَّ ما بعدَهُ لا يعملُ فيه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٢) أي: جعله قنوعًا بما أعطاه راضيًا به.

(٣) انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٢٧٢)، و«شرح مشكل الآثار» (٢/ ١٨٤).

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥١٠)، و«البحر» (٢٠/ ٧١).

(٥) وهي قراءة الحسن كما في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، و«البحر» (٢٠/ ٧٣).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

(٧) قوله: «وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو» من نسخة التفتازاني والخيالي، انظر: «النشر» (١/ ٤١٣).

وقرأ عاصمٌ وحمزَةُ بغيرِ تنوينٍ، ويَقِفَانِ بغيرِ ألفٍ، والباقونَ بالتَّنوينِ ويَقِفُونَ بالألفِ(١).

﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ الفريقَيْنِ.

(٥٢) ـ ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ أيضًا معطوفٌ عليه.

﴿مِّن قَبۡلُ﴾ مِن قبلِ عادٍ وثمودَ.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ مِن الفريقينِ لأَنَّهُم كانوا يؤذونَهُ وينفِّرونَ عنه ويضربونَه حتَّى لا يكونَ به حَراكٌ.

(٥٣) ـ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ والقُرى التي ائتُفِكَت بأهلِها؛ أي: انقلَبَتْ، وهي قُرى قومِ لوطٍ.

﴿أَهۡوَىٰ﴾ بعدَ أَنْ رفعَهَا فقَلَبَهَا.

(٥٤) ـ ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ فيه تهويلٌ وتَعميمٌ لِمَا أصابَهُم.

(٥٥) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَتشكَّكُ.

والخطابُ للرَّسُولِ أو لكلِّ أحدٍ.

والمعدوداتُ وإن كانَتْ نِعَمًا ونقمًا، سمَّاها آلاءً مِن قِبَلِ ما في نِقمِه مِن العِبَرِ والمواعظِ للمُعتبرينَ والانتقامِ للأنبياءِ والمؤمنينَ.

(٥٦) ـ ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي: هذا القرآنُ نذيرٌ(٢) مِن جنسِ الإنذاراتِ المُتقدِّمةِ، أو هذا الرَّسولُ نذيرٌ(٣) مِن جنسِ المنذِرينَ الأوَّلينَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «إنذار».

(٣) في نسخة الخيالي: «منذر».

(٥٧) ـ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ دنَت السَّاعةُ الموصوفةُ بالدُّنوِّ في نحوِ قولِه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١].

(٥٨) ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفسٌ قادرَةٌ على كشفِها إذا وقعَتْ إلَّا اللهُ، لكنَّه لا يكشِفُها، أو الآن بتأخيرِها إلَّا اللهُ، أو ليسَ لها كاشفةٌ لوَقتِها إلَّا اللهُ؛ إذ لا يَطَّلعُ عليه سواهُ، أو ليس لها مِن غيرِ اللهِ كشفٌ على أنَّها مَصدرٌ كالعافيةِ.

(٥٩) ـ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآنَ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا.

(٦٠) ـ ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزنًا على ما فرَّطْتُم.

(٦١) ـ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهونَ أو مستكبرونَ، مِن سَمَدَ البعيرُ في مسيرِه: إذا رفعَ رأسَه، أو مُغَنُّونَ لتشغلُوا النَّاسَ عَن استماعِه، مِن السُّمودِ وهو الغِناءُ.

(٦٢) ـ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي: واعبدوهُ دونَ الآلهةِ.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ أعطاهُ اللهُ عشرَ حَسناتٍ بعددِ مَن صدَّقَ بمُحمَّدٍ وجحدَ به بمكَّةَ»[١].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٦٦)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢٢٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٩٢)، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع المروي في فضائل السور عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وانظر: «الفتح السماوي» (٣/ ١٠١٦).

(٥٣) سورة النجم مكية وآياتها ثنتان وستون

روى البخاري، عن عبد الله بن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿والنجم﴾، قال: فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أُمية بن خلف[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

قال الشعبي: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقال مجاهد: يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر، واختاره ابن جرير، وزعم السدي: أنها الزهرة، وقال الضحاك: ﴿والنجم إذا هوى﴾ إذا رمي به الشياطين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم﴾. وقوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد، تابع للحق ليس بضال، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله عن مشابهة أهل الضلال، كالنصارى وطرائق اليهود، وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو صلاة الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم، في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ أي إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان، كما روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق»[2]

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي، وجاء في بعض الروايات أنه (عتبة بن ربيعة).

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وفي بعض الروايات: بشرٌ يتكلم في الرضى والغضب.

وقال ﷺ: « ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه »[1]. وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: « إني لا أقول إلا حقاً »[2].

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علَّمه ﴿ شديد القوى ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾. وقال هاهنا: ﴿ ذو مرة ﴾ أي ذو قوة، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن، ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة، وقد ورد في الحديث الصحيح: « لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرّة سوي »، وقوله تعالى ﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قال عكرمة ﴿ الأفق الأعلى ﴾ الذي يأتي منه الصبح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، قال ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأُفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾[3]. وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أُخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، روى الإمام أحمد، عن عبد الله أنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأُفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم »[4].

وقوله تعالى: ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ ﴿ قاب قوسين ﴾ أي بقدرهما إذا مدّا، قاله مجاهد وقتادة. وقوله: ﴿ أو أدنى ﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي ما هي بألين من الحجارة بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله:

(١) اخرجه الحافظ البزار.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٤) انفرد بهذه الرواية الإمام أحمد

﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، وقوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ أي ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها، فهذا تحقيق للمخبر به لا شك، وهكذا هذه الآية ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني إنما هو جبريل عليه السلام، هو قول عائشة وابن مسعود وأبي ذر كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى. وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين» فجعل هذه إحداهما، وجاء في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا قد تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أُخْرَى، لا أنها تفسير لهذه الآية، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرَى عند سدرة المنتهى﴾ فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض، وقال ابن جرير، قال عبدالله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[1]. وروى البخاري، عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: حدثنا عبدالله[2] أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ معناه فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل؛ وكلا المعنيين صحيح، وقوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى﴾ قال مسلم، عن أبي العالية، عن ابن عباس ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾، ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر، والله أعلم.

وروى الترمذي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾؟ قال: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين[3]. وقال أيضاً: لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبّر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم، فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء وقف له شعري، فقلت: رويداً، ثم قرأت: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، فقالت: أين يذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه، أو كتم شيئاً مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ فقد أعظم على الله الفرية، ولكنه رأى جبريل؛ لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق»[4]. وروى النسائي، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام؟ وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) أخرجه ابن جرير، ورواه البخاري في صحيحه.
(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه.

وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنّى أراه»؟ وفي رواية: «رأيت نوراً»، وروى ابن أبي حاتم، عن عباد ابن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه، قال: فسألت عنه الحسن، فقال: قد رأى جلاله وعظمته ورداءه»[1]. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عزّ وجلّ»، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام، كما رواه أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال، قلت: لا، فوضع يده بين كتفيَّ حتى وجدت بردها بين ثدييَّ - أو قال نحري - فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال، قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟ قال، قلت: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم اني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك: فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون، وقال: والدرجات، بذل الطعام وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[2].

وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة الإسراء، روى الإمام أحمد، عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أُم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عزّ وجلّ؟ قالت: سبحان الله لقد قفَّ شعري لما قلت! أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد، فقد كذب، ثم قرأت ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ الآية، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين»[3]. وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾، ﴿ولقد رآه نزلة أُخرى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: إنما ذاك جبريل» لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»[4].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وقوله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه أحمد في المسند.
(٤) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي . روى الإمام أحمد ، عن عبدالله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات[1] . وعن مجاهد قال: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً ، فرآها محمد ﷺ ورأى ربه بقلبه ، وقال ابن زيد : قيل يا رسول الله أي شيء رأيت يغشى تلك السدرة ؟ قال: « رأيت يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله عزّ وجلّ » . وقوله تعالى: ﴿ ما زاغ البصر ﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ ما جاوز ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي ، وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها

وقوله تعالى: ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ كقوله : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا .

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن، ﴿ أفرأيتم اللات ﴾ ؟ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا: اللات يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ اللات والعزى ﴾ قال: كان اللات رجلاً يلت السويق سويق الحاج[2] . قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهي بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أُحُد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم »، وروى البخاري ، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ :« من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أُقامرك فليتصدق »[3] ، فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية، كما قال النسائي، وأما مناة فكانت بالمشلل بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه البخاري أيضاً .

يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها ، قال ابن إسحاق: كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها ، كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب تطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها ، فكانت لقريش ولبني كنانة (العزى) بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها (بني شيبان) من سليم حلفاء بني هاشم ، قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ولهذا قال تعالى: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ؟ ثم قال تعالى: ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ؟ أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكر ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جوراً باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة ، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ؟

ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل ، بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم به ولا انقادوا له ، ثم قال تعالى: ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ﴾ ولا كل من ود شيئاً يحصل له ، كما روي : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته »[1] . وقوله: ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي إنما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة والمتصرف فيهما ، وقوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون - أيها الجاهلون - شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ؟ وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين ، في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، كما قال الله تعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور

(١) تفرد به الإمام أحمد .

وافتراء وكفر شنيع ، ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ، وقوله تعالى: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره ، وقوله: ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية ما لا خير فيه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه ، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »(١) ، وفي الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » ، وقوله تعالى: ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ، وأنه الغني عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل ، وخلق الخلق بالحق ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أي يجازي كلاً بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ ، وقال ههنا: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ ، وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنَّفْس تمنّى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »(١) . وقال عبد الرحمن ابن نافع : سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿ إلا اللمم ﴾ ، قال: القُبْلة ، والغمزة ، والنظرة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان ، فقد وجب الغسل وهو الزنا ، وقال ابن عباس: ﴿ إلا اللمم ﴾ إلا ما سلف ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وروى ابن جرير ، عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿ إلا اللمم ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه ، قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك ما ألما ؟

وعن الحسن في قول الله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ قال: اللمم من الزنا ، أو السرقة ، أو شرب الخمر ثم لا يعود ، وروى ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس: ﴿ إلا اللمم ﴾ يلم بها في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الشيخان أيضاً .

الحين. قلت: الزنا ؟ قال: الزنا ثم يتوب . وعنه قال: اللمم الذي يلم المرة، وقال السدي، قال أبو صالح: سئلت عن اللمم، فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ . وقوله تعالى: ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ أي هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير ، وكذا قوله: ﴿ وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد . وقوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿ هو أعلم بمن اتقى﴾، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ الآية . روى مسلم في صحيحه، عن محمد بن عمرو ابن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » ، فقالوا : بم نسميها ؟ قال : « سموها زينب »[1] . وقد ثبت أيضاً، عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعت عنق صاحبك – مراراً – إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك »[2] . وروى الإمام أحمد، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب[3] .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله ﴿ فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى﴾، ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه، قال عكرمة: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا ويتركون العمل، وقوله تعالى: ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ ؟ أي أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً ؟ أي ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والبر والصلة بخلاً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والإمام أحمد .

وشحاً وهلعاً، ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾، وقوله تعالى: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى﴾؟ أي بلّغ جميع ما أمر به، قال ابن عباس: ﴿وفّى﴾ لله بالبلاغ، وقال سعيد بن جبير: ﴿وفّى﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿وفّى﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إمامًا﴾ فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به. قال الله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾. روى ابن حاتم، عن أبي أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ قال: «أتدري ما وفّى؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «وفّى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار». وعن سهل بن معاذ بن أنَس، عن أبيه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفّى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾» حتى ختم الآية[٢].

ثم شرع تعالى يبيّن ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أن لا تزر وازرة وزر أُخْرَى﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد، كما قال: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما، وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به» فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ الآية، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»، وقوله تعالى: ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ أي يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، فيجزيكم عليه أتم الجزاء إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال ههنا ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي الأوفر.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي المعاد يوم القيامة، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار[1]، وذكر البغوي، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ قال: «لا فكرة في الرب»، وفي الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته». وفي الحديث الذي في السنن: «تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله، فإن الله تعالى خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال، وقوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ أي خلق الضحك والبكاء وهما مختلفان ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾، كقوله ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾، ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى﴾، كقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى﴾؟ وقوله تعالى: ﴿وأن عليه النشأة الأُخْرى﴾، أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي ملّك عباده المال وجعله لهم (قنية) مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعن مجاهد ﴿أغنى﴾ موّل ﴿وأقنى﴾ أخدم، وقال ابن عباس ﴿أغنى﴾: أعطى، ﴿وأقنى﴾: رضّى، وقوله: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ قال ابن عباس: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء، كانت طائفة من العرب يعبدونه، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم (هود) ويُقال لهم (عاد بن إرم)، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾؟ فكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقوله تعالى: ﴿وثمود فما أبقى﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً، ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي أشد تمرداً من الذين بعدهم، ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾؟ أي في أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري قاله قتادة، وقال ابن جريج: ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾؟ يا محمد، والأول أولى وهو اختيار ابن جرير.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿ هذا نذير ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾، ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة وهي القيامة، ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، و ﴿ النذير ﴾ الحذر لما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، وفي الحديث: «أنا النذير العريان» أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً وهو مناسب لقوله: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة يعني يوم القيامة، قال ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾؟ من أن يكون صحيحاً، ﴿ وتضحكون ﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم، ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس ﴿ سامدون ﴾ معرضون، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن علي ابن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون، وبه يقول السدي[١]. ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة: ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾، أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحّدوه. روى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[٢].

[آخر تفسير سورة النجم، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) في اللباب: وأخرج ابن أبي حاتم: كانوا يمرون على الرسول وهو يصلي شامخين فنزلت ﴿ وأنتم سامدون ﴾.
(٢) انفرد به البخاري دون مسلم.

تفسير سورة النَّجم

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا نصر بن على، أخبرنى أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة: ﴿ والنَّجم﴾، قال: فسجد رسول اللهَ ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أمية بن خَلَف[(١)].

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن أبى إسحاق، به[(٢)]. وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾.

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبى حاتم.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾** فقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى بالنجم: الثُّريَّا إذا سقطت مع الفجر. وكذا رُوى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة.

وقال الضحاك: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾**: إذا رُمى به الشياطين. وهذا القول له اتجاه.

وروى الأعمش، عن مجاهد فى قوله: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾** يعني: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

وقوله: **﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾**: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢) وصحيح مسلم برقم (٥٧٦) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٦) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).

بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله [سبحانه وتعالى][١] رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل[٢] الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن[٣] علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولا عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد.

حدثنا يزيد، حدثنا حَرِيز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن مَيْسَرَة، عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثلُ الحيين ـ أو: مثل أحد الحيين ـ: رَبيعة ومُضَر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبَيد الله بن الأخنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتنى قريش فقالوا: إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذى نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق».

ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبى بكر بن أبى شيبة، كلاهما عن يحيى بن سعيد القَطَّان، به[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عَجْلان، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذى من عند الله، فهو الذى لا شَكّ فيه». ثم قال: لا نعلمه يُرْوَى إلا بهذا الإسناد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إنى لا أقول إلا حقا»[٧].

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «أصحاب». (٣) فى م: «وهى».
(٤) المسند (٥/ ٢٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨١): «رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة».
(٥) المسند (٢/ ١٦٢) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤٦).
(٦) مسند البزار برقم (٢٠٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٩): «فيه أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح، وعبد الله بن صالح مختلف فيه».
(٧) المسند (٢/ ٣٤٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٠) من طريق المقبرى به وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه عَلَّمه الذى جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمرو[(١)] أن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنىٍّ، ولا لِذِى مِرّة سَوِىّ»[(٢)].

وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقتادة، والربيع بن أنس ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مُصَرِّف بن عمرو اليامى أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثنى أبى، عن الوليد ـ هو ابن قيس ـ عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلَة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك[(٣)] قوله: ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾.

وقد قال ابن جرير هاهنا قولا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أى: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أى: استويا جميعا بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم

(١) فى م: «ابن عمرو وأبى هريرة».

(٢) حديث عبد الله بن عمرو: رواه أبو داود فى السنن برقم (١٦٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٦٥٢) عن ريحان بن يزيد عنه وحديث أبى هريرة: رواه النسائى فى السنن (٥/ ٩٩) وبن ماجه فى السنن برقم (١٨٣٩) عن سالم بن أبى الجعد عنه.

(٣) فى م: «فكذلك».

شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿أئذا كُنَّا تُرابًا وآبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فعطف بالآباء على المكنّى فى ﴿كنا﴾ من غير إظهار «نحن»، فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ﴾ قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

ألم تَرَ أنّ النبعَ يَصْلُبُ عُودُه   ولا يَسْتَوى والخِرْوعُ المُتَقصِّفُ(١)

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسولُ الله ﷺ فى الأرض. فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحى فترة ذهب النبى ﷺ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هَمّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تَبَدّى له جبريل ورسول الله ﷺ فى الأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عُظْم خلقه الأفق، فاقترب منه(٢)، وأوحى إليه عن الله، عز وجل، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذى جاءه بالرسالة، وجلالة قَدْره، وعلوّ مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه. فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حيث قال:

حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكَز بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر. فَسَمَت وارتفعت حتى سَدّت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلْس لاط(٣) فعرفتُ فضل علْمه بالله علىّ. وفُتح لى بابٌ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دونَ الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى».

ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة(٤).

قلت: الحارث بن عُبَيد هذا هو أبو قدامة الإيادى، أخرج له مسلم فى صحيحه إلا أن ابن معين ضعَّفه، وقال: ليس هو بشىء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازى: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كثُر وَهَمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيبا، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله

---

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٥) وهو لجرير بن عطية.

(٢) فى م: «وأقرب منه».

(٣) فى م: «لاطى».

(٤) مسند البزار برقم (٥٨).

قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سَدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم[(١)]. انفرد به أحمد[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن مُنَبِّه، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبى ﷺ صعِق، فأتاه فَنَعَشَه ومسح البزاق عن شِدْقه.

انفرد به أحمد[(٣)]. وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هَبَّار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه فى ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبى ﷺ: «اللهم ابعث إليه كلبا من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بنى، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» قال: يا بنى، والله ما آمنُ عليك دُعاءه فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهى مأْسَدَة، ونزلنا إلى صَوْمَعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأُسْدُ فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى، وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوةً ـ والله ـ ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فَشَمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تَقَبّض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمة فَفَضخ رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد[(٤)].

وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أى: بقدرهما إذا مُدّا. قاله[(٥)] مجاهد، وقتادة.

وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:

(١) فى أ: «أعلم».
(٢) المسند (١/ ٣٩٥).
(٣) المسند (١/ ٣٢٢).
(٤) لم أجد ترجمة عتبة بن أبى لهب فى تاريخ دمشق المخطوط ولا فى مختصره لابن منظور.
وقد روى الأثر أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق به.
(٥) فى م: «قال».

١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد[١]، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ **فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾.

وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله. وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»[٢]. فجعل هذه إحداهما. وجاء فى حديث شريك بن أبى نمر، عن أنس فى حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم[٣] كثير من الناس فى متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ .عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾، فهذه هى ليلة الإسراء، والأولى كانت فى الأرض.

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا زر بن حبيش قال: قال عبد الله بن مسعود فى هذه الآية: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[٤].

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى الأسود، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: كان أولَ شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئاً[٥] ـ ثلاثاً ـ ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجليه مع[٦] الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريلُ ـ يُسكنّه ـ فهرب النبى ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ]**[٧]﴾، إلى قوله: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾، يعنى جبريل إلى محمد، ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث ابن وهب[٨]. وفى حديث الزهرى عن أبى سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخارى عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿ **فَكَانَ**

---

(١) فى م، أ: «ولا ترديد».
(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٣) فى م:«ولهذا قد تكلم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).
(٥) فى م: «أحداً». (٦) فى م، أ: «على». (٧) زيادة من م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن بَزِيع البغدادى، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا[(٢)] رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض[(٣)].

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذُكر عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، قال: أوحى إليه: «ألم أجدك يتيما»، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤].

وقال غيره: أوحى [الله][(٤)] إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾: قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حُصَين، عن أبى العالية، عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين[(٥)].

وكذا رواه سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسّدى وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين [أو مرة][(٦)]، وقد خالفه ابن مسعود وغيره[(٧)]، وفى رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهى محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح فى ذلك شيء عن الصحابة، رضى الله عنهم، وقولُ البغوى فى تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسنُ وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم[(٨)].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن عمرو بن نَبْهان[(٩)] بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العنبرى، عن سَلْم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾؟ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تَجَلى بنوره الذى هو نُورُه، وقد رأى ربه مرتين.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٧).
(٢) فى م، أ: «ليا».
(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٩).
(٤) زيادة من أ.
(٥) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٦) زيادة من م .
(٧) فى م: «ابن عمرو عنه».
(٨) انظر تفسير البغوى (٧/ ٤٠٣).
(٩) فى م: «منهال».

ثم قال: حسن غريب[١].

وقال أيضا: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبى قال: لقى ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شيء فكَبَّر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلتُ على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قَفَّ له شعرى. فقلت: رُوَيداً، ثم قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

فقالت: أين يُذهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدا رأى ربه أو كتم شيئا مما أمرَ به، أو يعلم الخمس التى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية[٢]، ولكنه رأى جبريل، لم يره فى صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة فى جياد[٣]، وله ستمائة جناح قد سد الأفق[٤].

وقال النسائى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟![٥].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفى رواية: «رأيت نورا»[٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عُبيدةَ، عن محمد ابن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت[٧] ربك؟ قال: «رأيته بفؤادى مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهْرَان، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعينى، ورأيته بفؤادى مرتين» ثم تلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٨].

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٩).
(٢) فى م: «أعظم على الله الفرية».
(٣) فى م: «أجنادين».
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٨).
(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٩).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٨).
(٧) فى أ: «هل رأيت».
(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

ثم قال ابن أبى حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، أخبرنى عبّاد بن منصور قال: سألت عكرمة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعَظَمته ورداءَه.

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العَقَدى، أخبرنا أبو خلدة، عن أبى العالية قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهرا، ورأيت وراء النهر حجابا، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير»[(١)].

وذلك غريب جدا، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربى عز وجل»[(٢)].

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضا:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة ـ أحسبه يعنى فى النوم ـ فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بَرْدَها بين ثدييّ ـ أو قال: نَحْرِى ـ فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون فى الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجُمُعات[(٣)]، وإبلاغ الوضوء فى المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إنى أسألك الخيرات[(٤)] وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضنى إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بَذْلُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[(٥)].

وقد تقدم فى آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه[(٦)]. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال:

حدثنى أحمد بن عيسى التميمى، حدثنى سليمان بن عُمَر بن سَيَّار، حدثنى أبى، عن سعيد بن زَرْبِى، عن عمر بن سليمان[(٧)]، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «رأيت ربى فى

---

(١) ورواه ابن المنذر كما فى الدر المنثور (٧/٦٤٨) وهو مرسل.
(٢) المسند (١/ ٢٨٥).
(٣) فى هـ، أ: «الجماعات».
(٤) فى م: «إنى أسألك فعل الخيرات».
(٥) المسند (١/ ٣٦٨).
(٦) انظر تفسير الآية: ٦٩ من سورة «ص» .
(٧) فى أ: «سليم».

أحسن صورة فقال لي: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا يارب. فوضع يده بين كتفي فوجدت بَرْدَها بين ثديىّ، فعلمت ما فى السموات والأرض، فقلت: يارب، فى الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات[1]، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يارب، إنك اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمتَ موسى تكليما، وفعلت وفعلت، فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وِزْرَك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟» قال: «فأفضى إلى بأشياء لم يؤذن لى أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله فى كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، فجعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرت إليه بفؤادى» . إسناده ضعيف[2].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هَبَّار بن الأسود، رضى الله عنه؛ أن عتبة بن أبى لهب لما خرج فى تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أنى كافر بالذى دنا فتدلى. فبلغ قوله رسولَ الله ﷺ، فقال: «سَلَّطَ الله عليه كلبا من كلابه». قال هبار: فكنت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشَمّ رؤوس القوم واحدا واحدا، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم[3].

وذكر ابن إسحاق وغيره فى السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسراة، وأنه خاف ليلتئذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزأر، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾، هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضى الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضى الله عنهم، والتابعين وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زر بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدرّ والياقوت»[4]. وهذا إسناد جيد قوى.

وقال أحمد أيضا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شَرِيك، عن جامع بن أبى راشد، عن أبى وائل،

---

(١) فى أ: «الجماعات».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٨).
(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٦٣) ولم يقع لى فى ترجمته فيما بين يدى من مخطوطات تاريخ دمشق.
(٤) المسند (١/ ٤٦٠).

عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»[١] . إسناده حسن أيضا.

وقال أحمد أيضا: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدَلَة قال: سمعت شَقِيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة[٢] المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصما عن الأجنحة، فأبى أن يخبرنى، قال: فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب[٣] . وهذا أيضا إسناد جيد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدلة[٤]، حدثنى[٥] شقيق[٦] قال[٧]: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل، عليه السلام، فى خُضر معلق به الدر[٨]»[٩] . إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثنى يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروقُ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قَفّ شعرى لما قلت، أين أنت من ثلاث من حَدّثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾الآية [لقمان: ٣٤] ، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم[١٠]، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين[١١] .

وقال أحمد أيضا: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل[١٢] رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض، ساداً عُظْمُ خلقه ما بين السماء والأرض.

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث الشعبى، به[١٣].

رواية أبى ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق

(١) لم أجده فى المسند وذكره الحافظ ابن حجر فى أطرف المسند (٤/ ١٥٨) .
(٢) فى م: «السدرة».
(٣) المسند (١/ ٤٠٧).
(٤) فى أ: «حصين».
(٥) فى م: «قال سمعت». (٦) فى م: «شقيق بن سلمة». (٧) فى م، أ: «يقول».
(٨) فى م: «الدر، به».
(٩) المسند (١/ ٤٠٧).
(١٠) فى أ: «كتم شيئا من الوحى».
(١١) المسند (٦/ ٤٩).
(١٢) فى أ: «سألت».
(١٣) المسند (٦/ ٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٧) بنحوه.

قال: قلت لأبى ذر: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، عز وجل؟ فقال: إنى قد سألته فقال: «قد رأيته، نورا أنى أراه»[١].

هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة، حدثنا وَكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه».

وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا»[٢].

وقد حكى الخلال فى «علله» أن الإمام أحمد سُئل عن هذا الحديث فقال: ما زلتُ منكراً له، وما أدرى ما وجهه[٣].

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عون الواسطى، أخبرنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبى ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه.

وحاول ابن خُزَيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شَقيق وبين أبى ذر، وأما ابن الجوزى فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جدا، فإن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه ـ كابن خُزيمة فى كتاب التوحيد[٤] ـ فإنه هو المخطئ، والله أعلم.

وقال النسائى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام[٥] عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبى ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره[٦].

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن على بن مُسْهِر، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أنه قال فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾، قال: رأى جبريل[٧]، عليه السلام[٨].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾ قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل فى صورته مرتين .وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

---

(١) المسند (٥/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٣) ووجه الإنكار لا محل له فى المتن، فإن له شواهد وهو دليل على نفى الرؤية فى الدنيا.

(٤) التوحيد لابن خزيمة (ص٢٠٥، ٢٠٦)، (ص٢٢٥). (٥) فى م، أ: «هشيم».

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٦).

(٧) فى أ: «رأى رسول الله ﷺ جبريل».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: قد تقدم فى أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدرى ما هى .

وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن مغول، حدثنا الزبير بن عدى، عن[1] طلحة، عن مرة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السابعة[2]، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأُعطى رسول الله ﷺ ثلاثا: أُعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحمات . انفرد به مسلم[3] .

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ قال: لما أسرى برسول الله انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة [قال][4]: فغشيها نور الخلاق، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلمه عند ذلك، فقال له: سل.

وقال[5] ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: كان أغصان السدرة لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا، فرآها محمد، ورأى ربه بقلبه.

وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أىّ شىء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: «رأيتُ يغشاها فَرَاشٌ من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها مَلَكا قائما يسبح الله، عز وجل»[6].

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يمينا ولا شمالا، ﴿وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به.

وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جَنَّةَ المَأوَى وَمَا فَوْقَها، ولَو ... رَأى غَيرُه ما قَد رَآه لتَاهَا

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ[7] مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: ٢٣] أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلة[8]

---

(١) فى أ: «بن». (٢) فى م: «السادسة».
(٣) المسند (١/ ٤٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣).
(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «فقال».
(٦) وهذا من مراسيل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.
(٧) فى م: «لنريه». (٨) فى م، أ: «الكهيلة».

قال محمد: أظنه عن ابن مسعود ـ أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: فلما أحسَّ[1] جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال: خَلْقَ جبريل، عليه السلام.

هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب[2].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مُقَرِّعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن، عليه [الصلاة و][3] السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ﴾؟ وكانت «اللات»[4] صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله [تعالى][5]، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وقال البخارى: حدثنا مسلم ـ هو ابن إبراهيم ـ حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس[6]: ﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق، سويق الحاج[7].

قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز.

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما

(١) فى أ: «أخبر».
(٢) المسند (١/٤٠٧).
(٣) زيادة من م.
(٤) فى م: «العزى».
(٥) زيادة من م.
(٦) فى م: «عن ابن عباس عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٩).

قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزّى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»[١].

وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقَامرْك، فليتصدق»[٢].

وهذا محمول على من سبق لسانه فى[٣] ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته فى زمن الجاهلية، كما قال النسائى: أخبرنا أحمد بن بكّار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثنى مصعب بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لى أصحابى: بئس ما قلت ! قلت هجرا! فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. وانفث عن شمالك ثلاثا، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»[٤].

وأما «مناة» فكانت بالمُشَلَّل[٥] ـ عند قُدَيد، بين مكة والمدينة ـ وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه[٦]. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها[٧] سدنة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى[٨] للكعبة، وتطوف بها كطَوْفَاتها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم،عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبنى كنانة العُزّى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها[٩] بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم[١٠].

قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عُزّ، كُفْرَانَك لا سُبْحَانَك ... إنى رأيت الله قَدْ أهَانَك

وقال النسائى: أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فُضَيل، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، عن أبى الطُّفَيْلِ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة «محمد» الآية: ١١.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠).
(٣) فى م: «إلى».
(٤) سنن النسائى (٧/٨).
(٥) فى أ: «بالمنال».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٦١).
(٧) فى م: «لها».
(٨) فى م: «تهدى».
(٩) فى م: «وحجبتها».
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام (١/٨٣).

فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة ـ وهم حَجَبتها ـ أمعنوا فى الحِيَل وهم يقولون: «يا عزى، يا عزى». فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن(١) التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»(٢).

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سَدَنتها وحجابها بنى مُعَتّب(٣).

قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشلَّل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ [إليها](٤) أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: على بن أبى طالب.

قال: وكانت ذو الخَلَصة(٥) لدَوس وخثعم وبَجِيله، ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة.

قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التى بمكة الكعبة الشامية.

فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى فهدمه.

قال: وكانت فَلْس(٦) لطيئ ولمن يليها بجبلى طيئ من(٧) سَلمى وأجا.

قال ابن هشام: فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه على بن أبى طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرَّسُوب والمخْذَم، فَنفَّله إياهما رسول الله ﷺ، فهما سيفا على(٨).

قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت.

قال ابن إسحاق: وكانت «رُضَاء» بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها فى الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدّةً ... فتركْتُها قَفْراً بِقَاع أسحَمَا

قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين(٩) سنة، وهو القائل:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحيَاة وَطُولِهَا ... وَعُمِّرْتُ مِنْ عَدَد السِّنينَ مِئينَا
مائَةً حَدَتْها بَعْدَهَا مِئتَان لِى ... وازددت(١٠) مِنَ عَدَد الشُّهور سَنينَا
هَلْ مَا بَقِى إلاّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلَةٌ تَحْدُونَا

(١) فى م: «تحثو».
(٢) النسائى فى السنن الكبرى رقم (١١٥٦٧).
(٣) فى م: «مغيث». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «الخليفة». (٦) فى م: «قيس».
(٧) فى م،أ: «بين».
(٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧).
(٩) فى أ: «وستون». (١٠) فى م، أ: «وعمرت».

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل، وإياد بِسَنْداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير وبَارِق والبيت ذى الكَعَبَات من سَنْدَاد[١]

ولهذا قال [تعالى][٢]: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾؟.

ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾؟ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أى: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها.

ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود[٣] شيئا يحصل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر[٤] بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد[٥].

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ،فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧، ٨٨). (٢) زيادة من م.
(٣) فى م: «رد». (٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (١/ ٣٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥١): «رجاله رجال الصحيح».

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[١].

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾أى: وإنما[٢] أكثر[٣] همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك[٤] قال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه.

وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة [رضى الله عنها][٥] قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[٦] وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا، ولا مَبْلَغَ علمنا».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قَدَره.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) فى م: «وإنا». (٣) فى أ: «أكبر». (٤) فى م، أ: «ولهذا».
(٥) زيادة من م.
(٦) المسند (٦/ ٧١).

﴿أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغنى عما سواه، الحاكم فى خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر[١]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمَم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فَزِنَا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهِى، والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكذِّبه».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن[٣] ثور، حدثنا مَعْمَر، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويُصدِّق ذلك الفرج أو يُكذِّبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللَّمَم»[٤]. وكذا قال مسروق، والشعبى.

وقال عبد الرحمن بن نافع ـ الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى ـ قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: فى هذه الآية: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: الذى يلم بالذنب ثم يَدَعه، قال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللهمّ تغفر جَمّا ... وأىّ عَبْد لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

---

(١) فى م: «معمر بن أرطاة» وزيادة «ابن أرطاة» خطأ. انظر: تعليق أحمد شاكر على المسند حديث رقم (٧٧٠٥).
(٢) المسند (٢/٢٧٦) وصحيح البخارى برقم (٦٦١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧).
(٣) فى أ: «أبو».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٣٩).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد فى قول الله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا[(١)].

قال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن عثمان أبى[(٢)] عثمان البصرى، عن أبى عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يُروى متصلا إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبى حاتم والبغوى من حديث أبى عاصم النبيل، وإنما ذكره البغوى فى تفسير سورة «تنزيل»، وفى صحته مرفوعا نظر[(٣)].

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبى هريرة ـ أراه رفعه ـ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك[(٤)] الإلمام»[(٥)].

وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عَدِىّ، عن عوف، عن الحسن، فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود.

وحدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن أبى رَجاء، عن الحسن فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها.

وقال ابن جرير[(٦)]، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾: يلم بها فى الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).
(٢) فى م: «أى».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٨٤) وتفسير البغوى (٧/ ١٢٨).
(٤) فى م: «فتلك» وفى أ: «فعلك».
(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).
(٦) فى أ: «جريج».

عباس قال: ﴿اللَّمَم﴾: الذى يلم المرَّةَ.

وقال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿اللَّمَم﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم. حكاه البغوى.

وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله ابن عمرو قال: ﴿اللَّمَم﴾: ما دون الشرك.

وقال سفيان الثورى، عن جابر الجُعفى، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿إِلاَّ اللَّمَم﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا[(١)] وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء.

وقال العَوْفِىّ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَم﴾: كل شىء بين[(٢)] الحدين: حد الدنيا[(٣)] وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو[(٤)] اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: رحمته وَسعَت كل شىء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر[(٥)] عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير[(٦)]. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذى يُوكَّل به رزقَه وأجلَه وعمله، وشقى أم سعيد.

قال مكحول: كنا أجنة فى بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقى ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا يَفَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شيوخا ـ لا أبا لك ـ فماذا بعد هذا ننتظر؟[(٧)] رواه ابن أبى حاتم عنه.

وقوله: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا عَمْرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد

---

(١) فى م، أ: «الزنا». (٢) فى م: «من». (٣) فى أ: «الزنا».
(٤) فى م: «فهو». (٥) فى م ،أ: «ستصدر». (٦) فى أ: «فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير».
(٧) فى م، أ: «ينتظر».

ابن أبى حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى بَرّة، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»(١).

وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحَذَّاء، عن عبد الرحمن بن أبى بكْرَة، عن أبيه قال: مدح رَجُلٌ رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا ـ والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا ـ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك»(٢).

ثم رواه عن غُنْدَر، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكِيع، وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو فى وجوههم التراب.

ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثورى، عن منصور، به(٤).

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ .

يقول تعالى ذامّا لمن تولى عن طاعة الله : ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ. وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] ، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل.

وقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٤٢).
(٢) المسند (٥/ ٤٥).
(٣) المسند (٥/ ٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٦٦٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٤).
(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٢) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٤).

معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا؛ ولهذا جاء فى الحديث: «أنفق بلالا، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالا»(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَفَّىٰ﴾ ما أُمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهى، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقتَدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى، حدثنا آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾، قال: «أتدرى ما وفى؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار».

ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف(٢).

وقال الترمذى فى جامعه: حدثنا أبو جعفر السِّمْنانى، حدثنا أبو مُسْهِر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد(٣)، عن خالد بن مَعْدان، عن جبير بن نُفَير، عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره»(٤).

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى:

---

(١) جاء من حديث أبى هريرة وبلال وابن مسعود. أما حديث أبى هريرة: فرواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٢٨٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٤١) من طريقين عن محمد بن سيرين عنه به.

وأما حديث بلال: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عنه به.

وأما حديث ابن مسعود: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ١٩١) من طريق يحيى بن وثاب عن مسروق عنه به.

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣).

(٣) فى م، أ: «يحيى بن سعيد».

(٤) سنن الترمذى برقم (٤٧٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]» حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب، عن رِشْدِين بن سعد، عن[١] زَبَّان، به[٢].

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى، رحمه الله، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة،رضى الله عنهم، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»[٣]، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[٤]. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم[٥]﴾ الآية [يس: ١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا».

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ أى: الأوفر.

---

(١) فى م: «بن».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣)ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠/ ١٩٢) من كلا الطريقين. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٧): «فيه ضعفاء وثقوا».

قلت فى الأولى: ابن لهيعة وهو ضعيف.

وفى الثانية: رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وفيهما: زيان بن فائد وهو ضعيف.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٣١) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٢٨) والترمذى فى السنن برقم(١٣٥٨) والنسائى فى السنن (٧/ ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٥) فى م: ﴿وآثارهم وكل شىء أحصيناه﴾.

﴿وأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) من نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ .

يقول تعالى [مخبرا](١): ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المعاد يوم القيامة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأوْديّ قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرةَ في الرب(٢).

قال البغوي: وهذا مثل ما رُوي عن أبي هريرة مرفوعا: «تفكَّروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنه لا تحيط(٣) به الفِكْرة».

كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ(٤)، وإنما الذي في الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولْيَنْتَه»(٥). وفي الحديث الآخر الذي في السنن: «تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا(٦) في ذات الله، فإن الله خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مَسِيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال(٧).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي: خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ

---

(١) زيادة من أ.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٧/٤١٧).

(٣) في م: «يحيط».

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٧/٤١٧) ورواه ابن عساكر في المجلس التاسع والثلاثون ومائة من الأمالي (١/٥٠) كما في السلسلة الصحيحة (٤/٣٩٥) من طريق محمد بن سلمة البلخي عن بشر بن الوليد عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به، وفيه بشر بن الوليد وهو ضعيف.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٢٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٣٤).

(٦) في أ: «ولا تتفكروا».

(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى أبو داود القطعة الثانية في سننه برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه، مرفوعا بلفظ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، وإن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».
والقطعة الأولى: رويت من حديث أبي ذر مرفوعا: «تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله فتهلكوا».
أخرجه أبو الشيخ في العظمة برقم (٤).

الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، كقوله: **﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** (١) **. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ. أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾** [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

وقوله: **﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾** أى: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة. **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾** أى: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: **﴿أَغْنَىٰ﴾**: موَّل، **﴿وَأَقْنَىٰ﴾**: أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس، ومجاهد أيضا: **﴿أَغْنَىٰ﴾**: أعطى، **﴿وَأَقْنَىٰ﴾**: رَضّى.

وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمى بن لاحق.

وقيل: **﴿أَغْنَىٰ﴾** من شاء من خلقه و **﴿أَقْنَىٰ﴾**: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير(٢)، وهما بعيدان من حيث اللفظ.

وقوله: **﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾** قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له: «مرزم الجوزاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾** [الفجر: ٦ـ ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله **﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾** [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: **﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾** أى: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، **﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾** أى: من قبل هؤلاء، **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾** أى: أشد تمردا من الذين من بعدهم، **﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾** يعنى: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: **﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾** يعنى: من الحجارة التى أرسلها عليهم **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾** [الشعراء: ١٧٣].

قال قتادة: كان فى مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادى شيئا من نار ونفط وقَطِران كفم الأتون(٣). رواه(٤) ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد ابن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جدا.

---

(١) فى م: «تمنى».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٤).

(٣) فى أ: «كتم الأنوف». (٤) فى م: «ورواه».

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أى: ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى؟ قاهل قتادة.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، وهى القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعْجَبُونَ(١)﴾ من أن يكون صحيحا، ﴿وَتَضْحَكُونَ(٢)﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هى يمانية، اسمِدْ لنا: غَنِّ(٣) لنا. وكذا قال عكرمة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى.

ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا(٤) لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا.

قال البخارى: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبى ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبى وَدَاعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسَجَد من عنده، فرفعتُ رأسى وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب،

(١) فى م: «يعجبون».
(٢) فى م: «يضحكون».
(٣) فى م، أ: «تغنى».
(٤) فى م: «فليسجدوا» وهو خطأ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٢).

فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرؤها[١] إلا سجد معه.

وقد رواه النسائى فى الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به[٢].

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ. أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾، فإن النذير هو: الحذر لما يعاين من الشر، الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]. وفى الحديث: «أنا النذير العُريان». أى: الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عُريانا مسرعا، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، يعنى: يوم القيامة، كما قال فى أول السورة التى بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، قال الإمام أحمد:

حدثنا أنس بن عياض، حدثنى أبو حازم ـ لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خُبْزَتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ ـ قال أبو ضَمْرَة: لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: «مثلى ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام، ثم قال: «مثلى ومثل الساعة كمثل فَرَسَى رِهَان»، ثم قال: «مثلى مثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشى أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»[٣]. وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان، ولله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر [تفسير][٤] سورة النجم ولله الحمد والمنة

(١) فى م، أ: «يقرأ بها».
(٢) المسند (٦/ ٣٩٩) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).
(٣) المسند (٥/ ٣٣١).
(٤) زيادة من م، أ.

سورة والنجم

مكّيّة، وهي إحدى وستّون أو[1] اثنتان[2] وستّون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد بـ﴿ٱلنَّجۡمِ﴾ إمّا الثريّا فإنّه اسم غالبٌ له، أو جنس النجوم. وبهُويّه غروبُه، وقيل: طلوعه، يقال: "هَوى هَويًّا" بوزن "قَبول" إذا غرَب، و"هُويًّا" بوزن "دُخول" إذا علا وصعِد. وأمّا النجم مِن نجوم القرآن فهُويّه نزوله، والعامل في ﴿إِذَا﴾ فعل القسَم فإنّه بمعنى مطلقِ الوقت منسلِخ مِن معنى الاستقبال، كما في قولك: "آتيك إذا احمرَّ البُسر".[3]

وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه السلام عن شائبة الضلال والغَواية مِن البراعة البديعةِ وحُسنِ الموقع ما لا غايةَ وراءه، أمّا على الأوّلين فلأنّ النجمَ شأنُه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنّه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابلة إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ أي: ما عدل عن طريق الحقّ الذي هو مَسلَك الآخرة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: وما اعتقد باطلًا قطُّ، أي: هو في غاية الهدى والرُّشد، وليس ممّا تتوهّمونه مِن الضلال والغَواية في شيء أصلًا.

وأمّا على الثالث فلأنّه تنويهٌ بشأن القرآن، كما أشيرَ إليه في مطلع سورة يس وسورة الزخرف، وتنبيهٌ / على مناط اهتدائه عليه السلام ومدار رشاده، [١٣٧ظ]

---

[1] س: وقيل.

[2] س: ثنتان.

[3] هذا القول للعرب في كتاب سيبويه، ٦٠/٣.

كأنّه قيل: والقرآنِ الذي هو عَلَم في الهداية إلى مناهج الدِّين ومسالك الحقّ ما ضلّ عنها محمّد عليه السلام وما غوى.

والخطاب لقريش، وإيرادُه عليه السلام بعنوان صاحبيّته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خُبرًا ببراءته عليه السلام ممّا نُفي عنه بالكلّيّة وباتّصافه عليه السلام بغاية الهدى والرَّشاد، فإنّ طُول صحبتهم له عليه السلام ومشاهدتَهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضيةٌ لذلك حتمًا.

وتقييدُ القسم بوقت الهُويّ على الوجه الأخير ظاهر، وأمّا على الأوّلين فلأنّ النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يعلم المشرِق مِن المغرِب ولا الشَّمال مِن الجنوب، وإنّما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه مِن كمال المناسبة؛ لِما سيُحكى مِن تدلّي جبريلَ مِن الأفق الأعلى ودنوِّه منه عليهما السلام، هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل.

وأمّا حَمْل هُويِّه على انتشاره يوم القيامة أو على انقضاض النجم الذي يُرجَم به أو حملُ النجم على النبات وحَمْلُ هُويِّه على سقوطه على الأرض أو ظهوره منها،[١] فممّا لا يناسب المقام.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي: وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلًا، فإنّ المراد استمرار نفي النطق عن الهوى، لا نفيُ استمرار النطق عنه، كما مرّ مرارًا.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطق به مِن القرآن ﴿إِلَّا وَحۡيٞ﴾ مِن الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة لـ﴿وَحۡيٞ﴾ رافعة لاحتمال المجاز مفيدةٌ للاستمرار التجدّدي.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ أي: مَلَك شديدٌ قُواه وهو جبريلُ عليه السلام، فإنّه الواسطة في إبداء الخوارق. وناهيك دليلًا على شدّة قوّته أنّه قلَع قُرى قوم لوط

---

[١] هذه الوجوه في الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٥/٣.

مِن الماء الأسود الذي تحت الثرى وحَمَلها على جناحه ورفعها إلى السماء ثمّ قَلَبها، وصاح بثمودَ[١] صيحةً فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أسرع مِن رجعة الطرف.[٢]

﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: حَصَافةٍ[٣] في عقله ورأيه ومتانةٍ في دينه ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ / عطفٌ على ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ بطريق التفسير، فإنّه إلى قوله تعالى: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ بيان لكيفيّة التعليم، أي: فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحبَّ أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحِراء[٤] فطلع له جبريلُ عليهما السلام مِن المشرق فسدّ الأرض مِن المغرب وملأ الأفق، فخرَّ رسول الله عليه السلام، فنزل جبريلُ في صورة الآدميّين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه.[٥] [١٣٨و]

قيل: ما رآه أحد مِن الأنبياء في صورته غير النبيّ عليهم السلام، فإنّه رآه فيها مرّتين مرّةً في الأرض ومرّةً في السماء.[٦] وقيل: استوى بقوّته على ما جُعل له مِن الأمر.[٧]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: أفقِ الشمس، حالٌ مِن فاعل ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: أراد الدنوَّ مِن النبيّ عليهما السلام ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: استرسل مِن الأفق الأعلى مع تعلُّق به فدنا مِن النبيّ، يقال: "تدلّت الثمرة" و"دلّى رجليه مِن السرير" و"أدلى دَلْوه"، والدوالي: التمر المعلّق.

---

١ س: ثمود.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٦.
٣ وفي هامش م: إحكام. «منه».
٤ حِراء: جبل مِن جبال مكّة على ثلاثة أميال، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل نزول الوحي يتعبّد في غار مِن هذا الجبل، وفيه أتاه جبريل عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/٢٣٣.
٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤٠١؛ واللباب لابن عادل، ١٨/١٦٠.
٦ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤٠١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٦.
٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٣٦.

﴿فَكَانَ﴾ أي: مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدارهما، فإنّ القاب والقِيب والقاد والقِيد والقِيس: المقدار. وقيل: فكان جبريلُ عليه السلام كما في قولك: "هو منّي معقدَ الإزار".[١] ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: على تقديركم، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات، ١٤٧/٣٧]، والمراد تمثيلُ ملكة الاتّصال وتحقيقُ استماعه لِما أوحي إليه بنفي البُعد المُلبِس.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبد الله تعالى، وإضماره قبل الذِّكر لغاية ظهوره كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥]. ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: مِنَ الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريلَ ما أوحى. قيل: أوحى إليه أنّ الجنّةَ محرَّمة على الأنبياء حتّى تدخلها، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك.[٢]

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاد محمّد عليه السلام ﴿مَا رَأَىٰ﴾ أي: ما رآه ببصره مِن صورة جبريلَ عليهما السلام، / أي: ما قال فؤاده لمّا رآه: لم أعرِفك، ولو قال ذلك لَكان كاذبًا؛ لأنّه عرَفه بقلبه كما رآه ببصره. وقُرئ: "مَا كَذَّبَ"،[٣] أي: صدّقه ولم يشكّ أنّه جبريلُ بصورته. [١٣٨ظ]

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي: أتُكذِّبونه فتُجادلونه على ما يراه معاينةً؟ أو أبَعد ما ذُكر مِن أحواله المنافية للمُماراة تُمارونه؟ مِن "المِراء" وهو الملاحاة والمجادلة، واشتقاقه مِن "مَرْي الناقةِ" كأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يمري ما عند صاحبه. وقُرئ: "أَفَتَمْرُونَهُ"،[٤] أي: فتغلبونه في المِراء مِن "مارَيته فمَريته"،

١ كتاب سيبويه، ٤٤١٤/١؛ الصحاح للجوهري، «عقد».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.
٣ قرأ بها أبو جعفر وهشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والشعبي، والهَمْداني عن طلحة، وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢٣.

ولِما فيه مِن معنى الغلَبة عُدّي بـ﴿عَلَىٰ﴾، كما يقال: "غلبتُه على كذا". وقيل: أفتُمرونه: أفتجحدونه، مِن "مراه حقَّه"، أي:[١] جحَده.[٢]

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: وبالله لقد رأى جبريلَ في صورته مرّةً أخرى مِن النزول، نُصبت النَّزْلة نَصْبَ الظرف الذي هو مرّة؛ لأنّ "الفعلة" اسم للمرّة مِن الفعل، فكانت في حكمها. وقيل: تقديره: ولقد رآه نازلًا نزلةً أخرى فنصبُها على المصدر.[٣]

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقِلال هَجَر،[٤] وورقُها كآذان الفُيول تنبع مِن أصلها الأنهار التي ذَكَرها الله تعالى في كتابه، يسير الراكب في ظِلّها سبعين عامًا لا يقطعها. و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ موضع الانتهاء أو الانتهاء، كأنّها في منتهى الجنّة. وقيل: إليها ينتهي عِلم الخلائق وأعمالهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: ينتهي إليها أرواح الشهداء.[٥] وقيل: ينتهي إليها ما يهبط مِن فوقها ويصعد مِن تحتها.[٦]

قيل: إضافة السِّدرة إلى المنتهى إمّا إضافة الشيء إلى مكانه كقولك أشجار البستان، أو إضافة المحلّ إلى الحالّ كقولك: "كتاب الفقه"، والتقدير: سدرةٌ عندها منتهى العلوم، أو إضافة المُلك إلى المالك على حذف الجارّ والمجرور، أي: سدرة المنتهى إليه وهو الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم، ٤٢/٥٣].[٧]

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنّة التي يأوي إليها المتّقون أو أرواح الشهداء، والجملة حاليّة. قيل: الأحسنُ أن يكون الحال هو الظرف و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مرتفعٌ به على الفاعليّة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ظرف زمان لـ﴿رَءَاهُ﴾، لا لِما بعده مِن الجملة المنفيّة كما قيل،[٨] فإنّ "ما" النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

---

[١] س: إذا.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

[٤] هجر: هي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلُّها هجر. معجم البلدان للحموي، ٣٩٣/٥.

[٥] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.

[٦] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

[٧] الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٧٣/١٨.

[٨] وفي هامش م: إمام رازي. «منه». | انظر: تفسير الرازي، ٢٤٥/٢٨؛ ونقله ابن عادل في اللباب، ١٧٣/١٨.

والغِشيان بمعنى التغطية والسَّتر، ومنه "الغواشي"، أو بمعنى الإتيان، يقال: "فلان يغشاني كلَّ حين"، أي: يأتيني، والأوّل هو الأليَق بالمقام.

[١٣٩و] / وفي إبهام ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ مِن التفخيم ما لا يخفى، وتأخيرُه عن المفعول للتشويق إليه، أي: ولقد رآه عند السِّدرة وقتَ ما غشيها ما غشيها ممّا لا يكتنهه الوصفُ ولا يفي به البيانُ كيفًا ولا كمًّا. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها البديعة أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدّد.

قيل: يغشاها الجمّ الغفير مِن الملائكة يعبدون الله تعالى عندها،[١] وقيل: يزورونها متبرّكين بها كما يزور الناسُ الكعبةَ، وقيل: يغشاها سُبُحاتُ أنوار الله عزّ وجلّ[٢] حين يتجلّى لها كما تجلّى للجبل، لكنّها كانت أقوى مِن الجبل وأثبتَ، حيث لم يصبها ما أصابه مِن الدكّ، وقيل: يغشاها فَراش أو جراد مِن ذهب، وهو قول ابن[٣] عبّاس وابن مسعود والضحّاك.[٤]

ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيتُ السِّدرة يغشاها فَراش مِن ذهب، ورأيتُ على كلّ ورقة مَلَكًا قائمًا يسبّح الله تعالى»،[٥] وعنه عليه السلام: «يغشاها رَفرف[٦] مِن طير خُضر».[٧]

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي: ما مال بصرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهَدَ هناك مِن الأمور المذهِلة ما لا يحصى؛ بل أثبتَه إثباتًا صحيحًا متيقَّنًا، أو ما عَدَل عن رؤية العجائب التي أُمِر برؤيتها ومُكِّن منها وما جاوَزها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٢ مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١.

٣ س + ابن قول.

٤ كما في جامع البيان للطبري، ٤١/٢١-٤٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٥ جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٦ وفي هامش م: جماعة. «منه».

٧ لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وفي صحيح البخاري، ١٦١/٦ (٤٨٥٨) في تفسير الآية الثامنة عشرة مِن هذه السورة مِن حديث ابن مسعود رضيَ الله عنه، قال: «رأى رَفرفًا أخضرَ قد سدّ الأفق».

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي: والله لقد رأى الآيات التي هي كُبراها وعُظماها حين عُرج به إلى السماء، فأُري مِن عجائب المُلك والملكوت ما لا يُحيط به نطاق العبارة. ويجوز أن يكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفةً لـ"الآيات" والمفعول محذوف، أي: شيئًا عظيمًا مِن آيات ربّه، وأن يكون ﴿مِن﴾ مزيدةً.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي أصنام كانت لهم، فـ"اللات" كانت لثقيف بالطائف، وقيل: لقريش بنَخْلَة.[1] وهي "فَعْلة" مِن "لوى"؛ لأنّهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقُرئ بتشديد "التاء"[2] على أنّه اسم فاعل اشتُهر به رجل كان يلتّ السمن بالزيت ويُطعِمه الحاجّ، وقيل: كان / يلتّ السَّوِيق[3] بالطائف ويُطعمه الحاجّ، فلمّا مات عكفوا على قبره يعبدونه،[4] وقيل: كان يجلس على حَجَر فلمّا مات سُمّي الحَجَر باسمه، وعُبد مِن دون الله، وقيل: كان الحَجَر على صورته.[5] [١٣٩ظ]

و"العزّى" تأنيث "الأعزّ" كانت لغطفان[6] وهي سمُرةٌ كانوا يعبدونها، فبَعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعةٌ يدها على رأسها وهي تُولوِل فجعل خالدٌ يضربها بالسيف حتّى قتلها، فأخبر رسول الله عليه السلام، فقال: «تلك العُزّى ولن تُعبَد أبدًا».[7]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. | نخلة: موضع بالحجاز قريب مِن مكّة. معجم البلدان للحموي، ٢٧٧/٥.

٢ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٣ السّويق: طعام يتّخذ مِن الحنطة والشعير، ولتُّه: بلُّه بالماء. لسان العرب لابن منظور، «سوق»، «لتت».

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٨/١٨-١٧٩.

٦ غطَفان: وهي قبيلة عظيمة مِن قبائل سعد بن قيس بن عيلان، وهم بطن متّسع كثير البطون والشعوب، منهم بنو عبس وبنو ذُبيان، كانت منازلهم ممّا يلي وادي القرى وجبلي طيئ أجأ وسلمى، ثمّ تفرّقوا في الفتوحات الإسلاميّة، واستولت على مواطنهم قبائل طيئ. انظر: اللباب لابن الأثير، ٣٨٦/٢؛ وقلائد الجمان للقلقشندي، ص ١١٢.

٧ التفسير البسيط للواحدي، ٤٤٢/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٧/٧-٤٠٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

و"مناة" صخرة لهُذيل وخزاعة، وقيل: لثقيف، وكأنّها سُمّيت مناةَ؛ لأنّ دماء النسائك تُمنَى عندها، أي: تُراق. وقُرئ: "وَمَنَاءَةَ"[1] وهي "مَفْعَلة" مِن "النَّوْء"؛ كأنّهم كانوا يستمطِرون عندها الأنواءَ تبرُّكًا بها، و﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ صفة ذمّ لها، وهي المتأخِّرة الوضيعةُ المقدارِ. وقد جُوّز أن تكون الأوّليّة والتقدّم عندهم للات والعُزّى.[2]

ثمّ إنّهم كانوا مع ما ذُكر مِن عبادتهم لها يقولون: إنّ الملائكة وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقيل: لهم توبيخًا وتبكيتًا ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾... إلخ، و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذُكر مِن شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة، وهي قلبيّة، ومفعولها الثاني محذوف لدلالة الحال عليه.

فالمعنى أعَقِيب ما سمعتم مِن آثار كمال عظمة الله عزّ وجلّ في مُلكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكامِ قدرته ونفاذِ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتُم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بناتٍ له تعالى.

وقيل: المعنى أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها وذِلّتها شركاءَ لله تعالى مع ما تقدَّم مِن عظمته. وقيل: أخبروني عن آلهتكم / هل لها شيء مِن القدرة [١٤٠و] والعظمة التي وُصف بها ربّ العزّة في الآي السابقة. وقيل:[3] المعنى أظننتم أنّ هذه الأصنام التي تعبدونها تنفعكم. وقيل: أظننتم أنّها تشفع لكم في الآخرة. وقيل: أفرأيتم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضرُّكم.

والأوّل هو الحقّ، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ شهادة بيّنةً، فإنّه توبيخ مبنيٌّ على التوبيخ الأوّل، وحيث كان مداره تفضيلَ جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناثَ مع اختيارهم لأنفسهم الذكورَ، وجب أن يكون مناطُ الأوّل نفسَ تلك النسبة حتّى يتسنّى بناء التوبيخ الثاني عليه، وظاهرٌ أن ليس في شيء مِن التقديرات المذكورة مِن تلك النسبة عينٌ ولا أثرٌ.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.
٣ وفي هامش م: أبو الليث السمرقندي. «منه». | انظر القول في تفسير السمرقندي، ٢٩١/٣.

وأمّا ما قيل مِن أنّ هذه الجملة مفعول ثانٍ للرؤية وخلوّها عن العائد إلى المفعول الأوّل لِما أنّ الأصل: أخبروني أنّ اللات والعزّى ومَناة، ألكم الذَّكَر وله هُنّ؟ أي: تلك الأصنام، فوُضع موضعَها الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيقِ مناط التوبيخ،[١] فمع ما فيه مِن التمحّلات التي ينبغي تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثالها يقتضي اقتصارَ التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقيرِ على جَناب الله العزيز الجليل مِن غير تعرُّض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القِسمة المنفهِمة مِن الجملة الاستفهاميّة. ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، وهي "فِعْلى" مِن "الضَّيْز" وهو الجَوْر، لكنَّه كُسر فاؤه لتسلم "الياء"، كما فُعل في "بِيض"، فإنّ "فِعلى" بالكسر لم يأتِ في الوصف.

وقُرئ: "ضِئْزَى"[٢] بـ"الهمز" مِن "ضَأَزه" إذا ظلمه، على أنّه مصدر نُعت به. وقُرئ: "ضَيْزَى"[٣] إمّا على أنّه مصدر وُصف به كـ"دَعوى"، أو على أنّه صفة كـ"سَكْرى" و"عَطْشى".

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنْ هِىَ﴾ الضمير للأصنام، أي: ما الأصنام باعتبار الألوهيّة التي يدّعونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ محضة ليس تحتها ممّا تنبئ هي عنه مِن معنى الألوهيّة شيءٌ ما أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ صفة لـ﴿أَسْمَآءٌ﴾ وضميرها لها لا للأصنام، والمعنى جعلتموها أسماءً، لا جعلتم لها أسماءً، فإنّ التسمية نسبة بين الاسم والمسمّى، / فإذا قِيسَت إلى الاسم فمعناها جَعْلُه اسمًا للمسمّى، وإن قِيسَت [١٤٠ظ]
إلى المسمّى فمعناها جَعْلُه مسمّى للاسم، وإنّما اختير ههنا المعنى الأوّل مِن غير تعرُّض للمسمّى لتحقيق أنّ تلك الأصنام التي يسمّونها آلهةً أسماءٌ مجرّدة

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/١٨٢.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

ليس لها مسمّياتٌ قطعًا، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ الآية [يوسف، ٤٠/١٢]، لا أنّ هناك مسمّيات لكنّها لا تستحقّ التسمية.

وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة،[١] حيث كانوا يُطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنّها تستحقّ العكوفَ على عبادتها والإعزازَ والتقرّب إليها بالقرابين. وأنت خبير بأنّه لو سُلِّم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصّة للأصنام فليس في سَلْبها عنها مزيدُ فائدة؛ بل إنّما هي في سَلْب الألوهيّة عنها كما هو زعمُهم المشهور في حقّ جميع الأصنام على وجه برهاني، فإنّ انتفاء الموصوف يقتضي انتفاءَ الوصف بطريق الأولويّة، أي: ما هي إلّا أسماءٌ خالية عن المسمّيات وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهان تتعلّقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ تعداد قبائحهم اقتضى الإعراضَ عنهم وحكايةَ جناياتهم لغيرهم، أي: ما يتّبعون فيما ذُكر مِن التسمية والعمل بموجَبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلّا توهُّم أنّ ما هم عليه حقٌّ توهّمًا باطلًا. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تشتهيه أنفسهم الأمّارة بالسوء.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قيل: هي حال مِن فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾،[٢] أو اعتراضٌ، وأيًّا ما كان ففيه تأكيدٌ لبطلان اتّباع الظنّ وهو النفس، وزيادةُ تقبيح لحالهم، فإنّ اتّباعهما مِن أيّ شخص كان قبيحٌ وممّن هداه الله تعالى بإرسال الرسول عليه السلام وإنزالِ الكتاب أقبحُ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان أنّ ما هُم عليه غيرُ مستند إلّا إلى توهُّمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أنّ ذلك ممّا لا يُجدي نفعًا أصلًا. / و"الهمزة" للإنكار والنفي، أي: ليس للإنسان كلّ ما يتمنّاه [١٤١و]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

٢ وفي هامش م: طيبيّ وابن عادل. | وانظر هذا الوجه في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩٢/١٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/١٨.

وتشتهيه نفسه مِن الأمور التي مِن جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرِها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمّناه حتمًا، فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعًا به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون له أمرٌ مِن الأمور.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ إقناط لهم عمّا علّقوا به أطماعهم مِن شفاعة الملائكة لهم موجِبٌ لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولويّة. و﴿كَم﴾ خبريّة مفيدةٌ للتكثير محلُّها الرفع على الابتداء، والخبرُ هي الجملة المنفيّة، وجَمْعُ الضمير في ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ مع إفراد "المَلَك" باعتبار المعنى، أي: وكثير مِن الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئًا مِن الإغناء في وقت مِن الأوقات.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه أهلًا للشفاعة مِن أهل التوحيد والإيمان، وأمّا مَن عداهم مِن أهل الكفر والطغيان فهم مِن إذن الله تعالى بمَعزِل ومِن الشفاعة بألف مَنزِل، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذُكر فما ظنهم بحال الأصنام؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وبما فيها مِن العقاب على ما يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزَّهين عن سِمات النقصان على الإطلاق، أي: يسمُّون كلَّ واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾، فإنّ قولهم: "الملائكةُ بناتُ الله" قولٌ منهم بأنّ كلًّا منهم بنتُه سبحانه، وهي التسمية بالأنثى،

وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بأنّها في الشناعة والفظاعة[١] واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلّا مَن لا يؤمن بها رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُسَمُّونَ﴾، أي: يسمُّونهم والحال أنّه لا عِلم لهم بما يقولون أصلًا. / وقُرئ: "بِهَا"،[٢] أي: بالملائكة أو [١٤١ظ] بالتسمية. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسدَ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي: جنس الظنّ، كما يلوِّح به الإظهارُ في موقع الإضمار ﴿لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مِن الإغناء، فإنّ الحقّ: الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء، لا يُدرَك إلّا بالعِلم، والظنُّ لا اعتدادَ به في شأن المعارف الحقيقيّة، وإنّما يُعتدّ به في العمليّات وما يؤدّي إليها.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عنهم. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتوسّل به إلى وصفهم بما في حيّز صلته مِن الأوصاف القبيحة وتعليلِ الحكم بها، أي: فأعرِضْ عمّن أعرَض عن ذكرنا المفيدِ للعِلم اليقيني وهو القرآن المنطوي على علوم الأوّلين والآخرين المذكِّر لأمور الآخرة، أو عن ذِكرنا كما ينبغي، فإنّ ذلك مستتبع لذِكر الآخرة وما فيها مِن الأمور المرغوبِ فيها والمهروب عنها.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ راضيًا بها قاصرًا نظرَه عليها، والمرادُ النهي عن دعوته والاعتناءِ بشأنه، فإنّ مَن أعرض عمّا ذُكر وانهمك في الدنيا بحيث كانت هي منتهى همّته وقُصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلّا عِنادًا وإصرارًا على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أدّاهم إلى ما هم فيه مِن التولّي وقَصْرِ الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يكادون يُجاوزونه إلى غيره حتّى تُجديهم الدعوة والإرشاد. وجَمْعُ الضمير في ﴿مَبْلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ إفراده

---

[١] س: الفضاعة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١٧٢٥.

فيما سبق باعتبار لفظها. والمرادُ بـ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ مطلقُ الإدراك المنتظِم للظنّ الفاسد. والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها مِن قَصْر الإرادة على الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليل للأمر بالإعراض، وتكريرُ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباينِ المعلومَين. والمراد ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ مَن أصرّ عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلًا، و﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مَن مِن شأنه الاهتداء في الجملة، أي: هو المبالغ في العِلم بمَن لا يرعوي عن الضلال أبدًا وبمَن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيرَه، فلا تُتعب نفسك في دعوتهم فإنّهم مِن القبيل الأوّل.

وفي تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العِلم بأحوال الفريقين عليه تعالى رمزٌ إلى أنّه تعالى يُعاملهم / بموجَب عِلمه بهم، فيجزي [١٤٢و]
كلًّا منهم بما يليق به مِن الجزاء، ففيه وعيدٌ ووعدٌ ضِمنًا، كما سيأتي صريحًا.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَلْقًا ومُلْكًا لا لغيره أصلًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾... إلخ متعلِّق بما دلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾... إلخ،[١] وما بينهما اعتراضٌ مقرِّر لِما قبله، فإنّ كون الكلّ مخلوقًا له تعالى ممّا يقرِّر عِلمه تعالى بأحوالهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك، ١٤/٦٧]، كأنّه قيل: فيعلم ضلالَ مَن ضلّ واهتداءَ مَن اهتدى ويحفظهما ليجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بعقاب ما عملوا مِن الضلال الذي عُبِّر عنه بالإساءة بيانًا لحاله، أو بسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنّة، أو بسبب أعمالهم الحسنى.

---

[١] في الآية السالفة.

وقيل: متعلِّق بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنّه قيل: خَلَق ما فيهما ليجزي... إلخ.[١] وقيل: متعلِّق بـ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾[٢] على أنّ "اللام" للعاقبة، أي: هو أعلمُ بمَن ضلّ ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه الله تعالى بعمله وبمَن اهتدى ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه بالحسنى.[٣] وفيه مِن البعد ما لا يخفى.

وتكريرُ الفعل لإبراز كمال الاعتناءِ بأمر الجزاء والتنبيهِ على تباين الجزاءين.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بدل مِن الموصول الثاني وصيغةُ الاستقبال في صلته للدلالة على تجدّد الاجتناب واستمراره، أو بيانٌ، أو نعتٌ، أو منصوبٌ على المدح. و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه مِن الذنوب وهو ما رُتِّب عليه الوعيدُ بخصوصه. وقُرِئ: "كَبِيرَ الإثْمِ"[٤] على إرادة الجنس أو الشرك.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وما فحُش مِن الكبائر خصوصًا ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: إلّا ما قلّ وصغُر فإنّه مغفور ممّن يجتنب الكبائر. قيل: هي النظرة والغَمْزة والقُبلة،[٥] وقيل: هي الخَطْرة مِن الذنب، وقيل: كلّ ذَنْب لم يُذكَر الله عليه حدًّا ولا عذابًا، وقيل: عادة النفس الحين بعد الحين.[٦] والاستثناءُ منقطِع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، فالجملة تعليلٌ لاستثناء ﴿ٱللَّمَمَ﴾ وتنبيهٌ على أنّ إخراجه عن حُكم المؤاخذة به ليس لخُلوّه عن الذَّنب في نفسه؛ بل لسَعة المغفرة الربّانيّة. وقيل: المعنى له أن يغفر
[١٤٢ظ] / لمَن يشاء مِن المؤمنين ما يشاء مِن الذنوب صغيرِها وكبيرِها.[٧] ولعلّ تعقيبَ وعيدِ المسيئين ووعدِ المحسنين بذلك حينئذ لئلّا ييأس صاحبُ الكبيرة مِن رحمته تعالى ولا يتوهَّم وجوبَ العقاب عليه تعالى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤.
٢ في الآية السالفة.
٣ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤؛ ووضحه ابن عادل في اللباب، ١٩٤/١٨.
٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.
٥ وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاوس عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٦٣/٢٢-٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤١٢/٧.
٦ القولان في اللباب لابن عادل، ١٩٧/١٨.
٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٠/٣.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: بأحوالكم يعلمها ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدمَ عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجماليًّا حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقتَ كونكم أجِنّةً ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مترتّبة لا يخفى عليه حالٌ مِن أحوالكم وعملٌ مِن أعمالكم التي مِن جملتها اللَّمَم الذي لولا المغفرةُ الواسعة لأصابكم وَبالُه، فالجملةُ استئناف مقرِّر لِما قبلها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبق مِن أنّ عدم المؤاخذة باللَّمَم ليس لعدم كونه مِن قبيل الذنوب؛ بل لمَحْض مغفرته تعالى مع عِلمه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمر كذلك فلا تُثنوا عليها بالطهارة عن المعاصي بالكلّيّة،[١] أو بما يستلزمها مِن زكاء العمل ونماء الخير؛ بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي جميعًا، وهو استئنافٌ مقرّر للنهي ومشعِرٌ بأنّ فيهم مَن يتّقيها بأسرها. وقيل: كان ناس يعملون أعمالًا حسنةً، ثمّ يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجُّنا، فنزلت.[٢] وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرِّياء، فأمّا مَن اعتقد أنّ ما عمله مِن الأعمال الصالحة مِن الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدّح لم يكن مِن المزكِّين أنفسهم، فإنّ المسرَّة بالطاعة طاعة وذِكرُها شكر.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: عن اتّباع الحقّ والثباتِ عليه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: شيئًا قليلًا أو إعطاءً قليلًا ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قَطَع العطاء مِن قولهم: "أكدى الحافرُ" إذا بلغ الكُدية، أي: الصلابة كالصخرة، فلا يمكنه أن يحفر. قالوا: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتّبع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعيّره بعض المشركين، وقال له: «تركتَ دين الأشياخ وضلّلتهم؟»

---

١ وفي هامش م: بأن لا يصدر عنها شيء منها أصلًا. «منه».

٢ مرويّ عن الكلبي ومقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٣/٧؛ واللباب لابن عادل، ١٩٩/١٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.

فقال: «أخشى عذاب الله»، فضمِن أن يتحمّل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله، فارتدّ وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي.[١] وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، لِما أنّه كان يُوافق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور.[٢] وقيل: في أبي جهل كان ربّما يُوافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور، وكان / يقول: «والله ما يأمرنا محمّد إلّا بمكارم الأخلاق»، وذلك قوله تعالى: [١٤٣و] ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾.[٣]

والأوّل هو الأشهر المناسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾... إلى آخره، أي: أعنده عِلم بالأمور الغيبيّة التي مِن جملتها تحمُّل صاحبه عنه يوم القيامة؟

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ أي: وفّر وأتمّ ما ابتُليَ به مِن الكلمات، أو أُمِر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله. وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود، حتّى إنّه أتاه جبريلُ عليهما السلام حين يُلقى في النار فقال: «ألك حاجة؟» فقال: «أمّا إليك فلا»،[٤] وعلى ذبح الولد. ويُروى أنّه كان يمشي كلّ يوم فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمَه وإلّا نوى الصوم. وتقديم موسى لِما أنّ صُحفه التي هي **التوراة** أشهرُ عندهم وأكثرُ.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: أنّه لا تحمِل نفس مِن شأنها الحَملُ حِملَ نفسٍ أخرى، على أنّ ﴿أَنۡ﴾ هي المخفَّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوفٌ، والجملةُ المنفيّة خبرُها، ومحلُّ الجملة الجرُّ على أنّها بدل مِن ﴿مَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو الرفعُ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما في صحفهما؟

---

١ هذا السبب مذكور في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٣/٧-٤١٤.

٢ مرويّ عن السدّي في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٤/٧.

٣ مرويّ عن محمّد بن كعب القُرظي في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٤/٧.

٤ في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٤.

فقيل: هو ألّا تزر... إلخ، والمعنى أنّه لا يؤاخَذ أحدٌ بذَنْب غيره ليتخلّص الثاني عن عقابه، ولا يقدح في ذلك قوله عليه السلام: «مَن سنَّ سنّة سيّئة فله وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة»،[1] فإنّ ذلك وِزر الإضلال الذي هو وِزره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره مِن حيث جلبُ النفع إليه إثرَ بيان عدمِ انتفاعه به مِن حيث دفعُ الضرر عنه. وأمّا شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفارُ الملائكة عليهم السلام ودعاءُ الأحياء للأموات وصدقتُهم عنهم وغيرُ ذلك ممّا لا يكاد يحصى مِن الأمور النافعة للإنسان، مع أنّها ليست مِن عمله قطعًا، فحيث كان مناطُ منفعة كلّ منها عملُه الذي هو الإيمان والصلاح ولم يكن لشيء منها نفعٌ ما بدونه جُعل النافع نفسَ عملِه / وإن كان بانضمام عَمِل غيره إليه. و﴿أَن﴾ مخفّفة كأختها معطوفة عليها، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعرَض عليه ويُكشَف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه مِن "أَرَيتُه الشيءَ". [١٤٣ظ]

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزى الإنسانُ سعيه، يقال: "جزاه الله بعَمَله" و"جزاه على عَمَله" و"جزاه عملَه" بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل، ويجوز أن يُجعَل الضمير للجزاء ثمّ يفسَّر بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو يُبدَل هو عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء، ٢١/٣].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: انتهاءُ الخلقِ ورجوعُهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالًا ولا اشتراكًا. وقُرئ بكسر ﴿أَنَّ﴾[2] على الابتداء.

---

[1] بمعناه في مسند أحمد، ٣٢٦/١٦ (١٠٥٥٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٥٩/٤ (١٠١٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٣/٥ (٢٦٧٥).

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان وأبي السّمّال واليماني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ أي: هو خَلَق قوّتَي الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ لا يقدِر على الإماتة والإحياء غيرُه، فإنّ أثر القاتل نقضُ البنية وتفريقُ الاتّصال، وإنّما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ تُدفَق في الرَّحِم أو تُخلَق أو يُقدَّر منها الولد مِن "مَنَى" بمعنى "قدّر".

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: الإحياءَ بعد الموت وفاءً بوعده. وقُرِئ: "النَّشَاءَةَ"[1] بالمدّ، وهي أيضًا مصدر "نَشَأَ".

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ وأعطى القِنية وهي ما يُتأثَّل مِن الأموال، وأفردها بالذِّكر لأنها أشفّ الأموال، أو أرضى، وتحقيقُه جَعْل الرِّضا له قِنيةً.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أي: ربّ معبودهم، وهي العَبُور وهي أشد ضياءً مِن الغُميصاء، وكانت خُزاعةُ تعبدها، سَنّ لهم ذلك أبو كَبْشة رجلٌ مِن أشرافهم، وكانت قريش تقول لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أبو كبشة تشبيهًا له عليه السلام به لمخالفته إيّاهم في دينهم.[2]

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾

[١٤٤و] ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي قوم هودٍ عليه السلام، / وعادٌ الأخرى إرَمُ، وقيل: الأُولى القدماء؛ لأنهم أُولى الأمَم هلاكًا بعد قوم نوح،[3] وقُرِئ: "عَادَا لُولَى"[4] بحذف "الهمزة" ونقلِ ضمِّها إلى "اللام"، و"عَادَ لُّولَى"[5] بإدغام التنوين في "اللام" وطرحِ همزة "أولى" ونقلِ حركتها إلى لام التعريف.

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤. وقال الزيلعي تعليقًا عليه في تخريج أحاديث الكشّاف، ٣٨٥/٣: «كأنّه وهم، إنّما كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان: لقد أمِر أمرُ ابن أبي كبشة»، وهو جزء مِن حديث طويل في صحيح البخاري، ٨/١ (٧)؛ وصحيح مسلم، ١٣٩٣/٣ (١٧٧٣).

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[4] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[5] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وورش وقالون بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤١٠/١.

﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ على ﴿عَادًا﴾؛ لأنّ ما بعده لا يعمل فيه. وقُرئ: "وَثَمُودًا"[١] بالتنوين ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ أي: أحدًا مِن الفريقين.

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ عطفٌ عليه أيضًا ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ مِن الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفِّرون الناس عنه، وكانوا يُحذِّرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وكانوا يضربونه عليه السلام حتّى لا يكون به حراك، وما أثّر فيهم دعاؤه قريبًا مِن ألف سنة.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوطٍ ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت بهم. ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: أسقَطها إلى الأرض بعد أن رَفَعها على جناح جبريلَ عليه السلام إلى السماء.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ مِن فنون العذاب، وفيه مِن التهويل والتفظيع ما لا غايةَ وراءه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكّك، والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، أو لكلّ أحد.[٢] وصيغة[٣] التفاعل وإن وُضعت[٤] لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يكون كلّ مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّها قد تُجرَّد عن المعنى الثاني فيُراد بها المعنى الأوّل فقط،[٥] وربّما[٦] تجرَّد عنه أيضًا فيراد[٧] مجرّد[٨] تعدُّد[٩] الفعل باعتبار[١٠] تعدُّد[١١] متعلَّقه، كما فيما نحن فيه، فإنّ المِراء متعدِّد بتعدّد الآلاء، فتدبّر. وتسميةُ الأمور المعدودة "آلاءً" مع أنّ بعضها نِقَم لِما أنّها أيضًا نِعَم مِن حيث إنّها نُصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقامٌ لهم، وفيها عِظاتٌ وعِبَر للمعتبِرين.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٢ س ي + وإسنادُ فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدُّده بحسب تعدُّد متعلَّقه، فإنّ.

٣ س ي: صيغة.

٤ س ي: كانت موضوعةً.

٥ س ي + كما في "يتداعونهم"، أي: يدعونهم.

٦ س ي: وقد.

٧ س ي: فيُكتفى.

٨ س ي − مجرّد.

٩ س ي: بتعدُّد.

١٠ س ي − باعتبار.

١١ س ي: بتعدُّد.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ إمّا إشارة إلى القرآن، و"النذير" مصدر، أو إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، و"النذير" بمعنى المُنذِر، وأيًّا ما كان فالتنوين للتفخيم و﴿مِّنَ﴾ متعلّقة بمحذوف هو نعت لـ﴿نَذِيرٌ﴾ مقرِّر له ومتضمِّن للوعيد، أي: هذا القرآن الذي تشاهِدونه نذيرٌ مِن قبيل الإنذارات المتقدِّمة التي سمعتُم عاقبتها، أو هذا الرسول منذِر مِن جنس المنذرِين الأوّلين، والأُولى[1] على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل، وقد علمتُم أحوال قومِهم المنذَرين.

وفي تعقيبه بقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأٓزِفَةُ﴾ إشعارٌ بأنّ تعذيبهم مؤخّر إلى يوم القيامة، أي: دنتِ الساعة الموصوفة بالدنوّ في نحو قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر، ٥٤/١].

[١٤٤ظ] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها نفسٌ قادرة / على كشفها عند وقوعها إلّا الله تعالى لكنّه لا يكشفها، أو ليس لها الآن نفسٌ كاشفة بتأخيرها إلّا الله تعالى، فإنّه المؤخِّر لها، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلّا الله،[2] كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]، أو ليس لها مِن غير الله تعالى كَشْف على أنّ "كاشفة" مصدر كـ"العافية".

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعدَ شيء مِن ذلك ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزنًا على ما فرّطتم في شأنه وخوفًا مِن أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون، أو مستكبِرون مِن "سمَد البعيرُ" إذا رفع رأسه، أو مُغنُّون لتشغلوا الناس عن استماعه مِن "السُّمود" بمعنى الغِناء على لغة حِمْيَر، أو خاشعون جامدون مِن "السُّمود" بمعنى الجُمود والخشوع

---

[1] س: والأدنى.

[2] س + تعالى.

كما في قول مَن قال:

رمـى الـحَـدَثـان نـسـوةَ آل سعـدٍ   بـمِـقـدار سَـمَـدْنَ لـه سُـمـودا
فـرَدَّ شُـعـورَهـنّ الـسُّـودَ بِيضا   ورَدّ وجـوهـهـنّ الـبِـيـضَ سُـودا[1]

والجملة حال مِن فاعل ﴿لَا تَبْكُونَ﴾، خلا أنّ مضمونها على الوجه الأخير قيدٌ للمنفي والإنكارُ واردٌ على نفي البكاءِ والسُّمود معًا، وعلى الوجوه الأُوَل قيدٌ للنفي والإنكارُ متوجِّهٌ إلى نفي البكاءِ ووجودِ السُّمود. والأوّلُ أوفى بحقّ المقام، فتدبّر.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ لترتيب الأمر أو موجَبه على ما تقرَّر مِن بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوبِ تلقّيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع، أي: وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنجم أعطاه الله تعالى عشرَ حسناتٍ بعدد مَن صدّق بمحمّد وجَحَد به بمكّة».[2]

---

[1] هما لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في شرح الحماسة للتبريزي، ١/٣٩٠؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٤. ويُنسبان لآخرين غير عبد الله، وهما في ديوان أيمن بن خُريم الأسدي، ص ٣٠، وتخريجهما وذِكر الاختلاف في نسبتهما ثمّة.

[2] س + والحمد لله ربّ العالمين. | والحديث في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥/٦٦ (النجم، ٥٣/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٩٢ (النجم، ٥٣/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٥٣

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية، ثنتان وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والنَّجمِ﴾: الثُّرَيّا ﴿إذا هَوَى﴾: غابَ، ٢ ـ ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُم﴾ مُحمّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن طريق الهِداية، ﴿وما غَوَى﴾: ما لابس الغَيَّ ـ وهو جهلٌ من اعتقاد فاسد ـ ٣ ـ ﴿وما يَنطِقُ﴾ بما يأتيكم به ﴿عَنِ الهَوَى﴾: هوى نفسِه. ٤ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحَى﴾ إليه، ٥ ـ ٦ ـ ﴿عَلَّمَهُ﴾ إيّاه ملَكٌ ﴿شَدِيدُ القُوَى، ذُو مِرّةٍ﴾: قُوّة وشِدّة أو منظر حسن، أي: جِبريلُ ـ عليه السلام ـ ﴿فاستَوَى﴾: استقرّ، ٧ ـ ﴿وهُوَ بِالأُفُقِ الأعلَى﴾ أُفق الشمس،..........................

سُورَةُ النَّجْمِ

قولُهُ: (الثُّرَيّا) أو جنسِ النُّجومِ، وقيل: الزُّهرةُ.

قولُهُ: (غَابَ) أو طلعَ، أو القرآنُ إذا نُزِّلَ سُمِّيَ به لتفرُّقِهِ في النُّزولِ، أو للاهتداءِ به، أو النَّبيِّ ﷺ إذا ترقَّى أو تدلَّى.

قولُهُ: (مِن اعتِقَادٍ) الأخصرُ الأظهرُ: ما اعتُقِدَ باطلاً.

قولُهُ: (بِمَا يَأتِيكُم بِهِ) أي: ما يصدرُ نطقُهُ بالقرآنِ.

قولُهُ: (مَا ﴿هوَ﴾) أي: القرآنُ، أو الَّذي ينطقُ به.

قولُهُ: (قُوَّةٍ) أي: إحكامٍ في عقلِهِ ورأيِهِ.

قولُهُ: (استَقَرَّ) واستقامَ.

قولُهُ: (أُفقِ الشَّمْسِ) أو أفقِ السَّماءِ.

أي: عِند مطلعها على صُورته التي خُلق عليها، فرآه النبيّ ﷺ وكان بحِراءٍ، قد سدَّ الأُفقَ إلى المغرب، فخرّ مَغشِيًّا عليه. وكان قد سأله أن يُريه نفسه على صُورته التي خُلق عليها، فواعده بحِراء، فنزل جِبريل -عليه السلام- له في صُورة الآدميّين.

٨ - ﴿ثُمَّ دَنَا﴾: قرُبَ منه ﴿فَتَدَلَّى﴾ زاد في القرب، ٩ - ﴿فكانَ﴾ منه ﴿قابَ﴾: قدرَ ﴿قَوسَينِ أو أدنَى﴾ من ذلك، حتّى أفاق وسكن رُوعه، ١٠ - ﴿فأوحَى﴾ تعالى ﴿إلَى عَبدِهِ﴾ جِبريلَ ﴿ما أوحَى﴾ جِبريلُ إلى النبيّ - ولم يُذكر المُوحَى تفخيمًا لشأنه - ١١ - ﴿ما كَذَبَ﴾، بالتخفيف والتشديد: أنكرَ ﴿الفُؤادُ﴾ فُؤادُ النبيّ ﴿ما رَآهُ﴾ ببصره من صُورة جِبريل. ....

قولُهُ: (عَلى صُورَتِهِ) متعلِّقٌ بـ﴿اسْتَوَى﴾.

قولُهُ: (فَرَآهُ النَّبِيُّ) مرَّةً في السَّماءِ ومرَّةً في الأرضِ، وكانَ يحبُّ أن يراهُ، وقيل: ما رآهُ في صورتِهِ غيرُ محمَّدٍ من الأنبياءِ.

قولُهُ: (فَنَزَلَ) أي: بعدَ ما رآهُ.

قولُهُ: (في صُورَةِ الآدَمِيِّينَ) والغالبُ على صُورةِ دحيةَ.

قولُهُ: (قَرُبَ منهُ) أي: من النبيِّ.

قولُهُ: (مِنهُ) أي: مكانِ جبريلَ كقولكَ: هو منِّي معقدَ الإزارِ، أو المسافة بينهُما.

قولُهُ: (مِنْ ذَلِكَ) على تقديرِ «كم» كقولِهِ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] والمقصودُ كمالُ الاتِّصالِ، وتحقيقُ استماعِهِ لما أوحَى إليه جبريلُ، أو أوحى جبريلُ إلى عبدِ اللهِ، والإضمارُ لكونِهِ معلوماً.

قولُهُ: (جِبْرِيلَ) أو اللهِ، وقيل: الضَّمائرُ كلُّها للهِ تعالى، ودنوُّهُ منه برفعِ مكانتِهِ، وتدلِّيهِ: جذبُه بكلِّيَّتِهِ إلى حضرتِهِ، قال الصَّادقُ[1]: انقطعَتِ الكيفيَّةُ عن الدُّنوِّ.

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) هشامٌ[2].

قولُهُ: (مِنْ صُورَةِ جِبرِيلَ) أي: ما قالَ فؤادُه لمَّا رآهُ: لم أعرفْكَ، ولو قالَ ذلك لكانَ كاذباً؛ لأنَّه عرفَهُ؛ يعني: أنَّه رآهُ بعينِهِ وعرفَهُ بقلبِهِ، ولم يشُكَّ في أنَّ ما رآهُ حقٌّ، وقيل: المرئيُّ: هو اللهُ سبحانَهُ رآهُ بعينِ رأسِهِ أو بقلبِهِ[3].

---

(١) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٢٨٤).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٠).

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٤٥١): هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة (سبحان) بما أغنى عن =

١٢ ـ ﴿أفتُمارُونَهُ﴾: أتُجادلونه وتغلِبونه ﴿علَى ما يَرَى﴾؟ خِطاب للمُشركين المُنكرين رُؤية النبيّ لِجبريل. ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿ولَقَد رَآهُ﴾ على صُورته ﴿نَزْلَةً﴾: مرّة ﴿أُخرَى، عِندَ سِدرةِ المُنتَهَى﴾ لمّا أُسريَ به في السماوات، وهي شجرة نَبْقٍ عن يمين العرش، لا يتجاوزها أحد من الملائكة وغيرهم، ١٥ ـ ﴿عِندَها جَنّةُ المأوَى﴾ تأوي إليها الملائكة أو أرواح الشهداء أو المُتقون، ١٦ ـ ﴿إذ﴾ حينَ ﴿يَغشَى السِّدرةَ ما يَغشَى﴾ من طير وغيره، وإذ: معمولة لـ«رآه»، ١٧ ـ ﴿ما زاغَ البَصَرُ﴾ من النبيّ ﴿وما طَغَى﴾ أي: ما مال بصره عن مَرئيّه المقصودِ له ولا جاوزه تلك الليلةَ. ١٨ ـ ﴿لَقَد رأى﴾ فيها ﴿مِن آياتِ رَبِّهِ الكُبرَى﴾ أي: العِظام، أي: بعضَها، فرأى من عجائب الملكوت رَفرفًا أخضرَ سدّ أُفق السماء، وجِبريلَ له ستُّمِائَةِ جناح.

١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿أفرَأَيتُمُ اللاّتَ والعُزَّى، ومَناةَ الثّالِثةَ﴾ للتين قبلها ﴿الأُخرَى﴾: صِفةُ ذمّ للثالثة؟.....

قولُهُ: (تُجَادِلُونَهُ) تفسيرٌ لقراءةِ الجمهورِ[1].

قولُهُ: (وتَغلِبُونَهُ) أي: في الجدالِ، تفسيرُ قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ: (أفتَمْرُونَهُ)[2] من ماريْتُه فمريْتُه.

قولُهُ: (لا يَتَجَاوَزُهَا) وينتهي إليها علمُ الخلائقِ.

قولُهُ: (أوِ المُتَّقُونَ) الظَّاهرُ: المتَّقينَ؛ أي: أرواحُهُم، أو المتَّقونَ في المآلِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من الملائكَةِ والأنوارِ.

قولُهُ: (ولا جَاوَزَهُ) أي: ما تجاوزَهُ، بل أثبتَهُ إثباتاً صحيحاً مستيقناً.

قولُهُ: (فِيهَا) أي: في تلك اللَّيلةِ.

قولُهُ: (أي: العِظَامِ) تفسيرٌ لـ﴿الكُبْرَى﴾.

قولُهُ: (أي: بَعضَهَا) فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ أي: لقد رأى الكُبْرى من آياتِهِ وعجائبِهِ الملكيَّةِ والملكوتيَّةِ.

قولُهُ: (رَفْرَفاً) أي: بُسُطاً أو فُرُشاً.

قولُهُ: (صِفَةُ ذَمٍّ) يعني: (﴿الأخرى﴾) من التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ، أو الصِّفتانِ للتَّأكيدِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

= إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم.

(١) أي: غير حمزة والكسائي من السبعة، انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٠).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٠).

وهي أصنام من حِجارة، كان المُشركون يعبدونها ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله. ومفعول «أرأيت» الأوّلُ: اللاّتَ وما عُطف عليه، والثاني محذوف. والمعنى: أخبِروني ألهذه الأصنام قُدرةٌ على شيء ما، فتعبدونها دون الله القادر على ما تقدم ذكره؟ ولمّا زعموا أيضًا أنّ الملائكة بنات الله مع كراهتهم للبنات نزل: ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنثَى؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾: جائرةٌ من: ضازَه يَضِيزُه، إذا ضامَه وجارَ عليه. ٢٣ ـ ﴿إِن هِيَ﴾ أي: ما المذكورات ﴿إِلاّ أسماءٌ، سَمَّيتُمُوها﴾ أي: سمّيتم بها ﴿أنتُم وآباؤُكُم﴾ أصنامًا تعبدونها، ﴿ما أنزَلَ اللهُ بِها﴾ أي: بعِبادتها ﴿مِن سُلطانٍ﴾: حُجّةٍ وبُرهان. ﴿إنْ﴾: ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ في عِبادتها ﴿إلاّ الظَّنَّ وما تَهوَى الأنفُسُ﴾ ممّا زيّنه لهم الشيطان، من أنها تشفع لهم عند الله تعالى، ﴿ولَقَد جاءَهُم مِن رَبِّهِمِ الهُدَى﴾ على لسان النبيّ ﷺ بالبُرهان القاطع، فلم يرجِعوا عمّا هم عليه.

قولُهُ: (مِنْ حجارةٍ) إلَّا العُزَّى؛ فهي سمرةٌ لغطفانَ كانوا يعبُدونَها، فبعثَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ خالداً فقطَّعَها[1].

قولُهُ: (والثَّانِي مَحذُوْفٌ) أو ﴿ألكُمُ الذَّكرُ ولَهُ الأنثى﴾ إنكاراً لقولِهِم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وهذه الأصنامُ استوطَنَها جِنيَّاتٌ هن بناتُهُ، أو الأصنامُ هياكلُ الملائكةِ[2].

قولُهُ: (ضَازَه[3]) أي: ظلمَهُ.

قولُهُ: (أي: مَا المَذْكُورَاتُ) أو الأصنامُ مطلقاً؛ يعني: ما هي باعتبارِ الألوهيَّةِ إلَّا أسماءٌ تطلِقونَها عليها؛ لأنَّكُم تقولونَ: إنَّها آلهةٌ، وليسَ فيها شيءٌ من معنى الألوهيَّةِ.

قولُهُ: (سَمَّيْتُم) بهواكُم.

قولُهُ: (بُرهَانٍ) تتعلَّقونَ به.

قولُهُ تعالى: (﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾) إلَّا تَوَهُّمَ أنَّ ما هم عليه حقٌّ توهُّماً باطلاً أو تقليداً.

قولُهُ: (مِمَّا زَيَّنَهُ) أي: وما تشتهيهِ أنفسُهُم ممَّا زيَّنَهُ.

قولُهُ: (عَلى لِسَانِ النَّبيِّ) أو الكتابِ، أو الرَّسولِ، فترَكوهُ.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٠٢)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٦٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٧٧) عن أبي الطفيل رضي الله عنه.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٥٩).

(٣) في الأصول: «ضَامَه» ولم أقف عليها في المطبوع، ولعل ما أثبته الصواب.

٢٤ ـ ﴿أم لِلإنسانِ﴾ أي: لكُلّ إنسان منهم ﴿ما تَمَنَّى﴾ من أنّ الأصنام تشفع لهم؟ ليس الأمر كذلك. ٢٥ ـ ﴿فلله الآخِرةُ والأولَى﴾ أي: الدنيا، فلا يقع فيهما إلاّ ما يريده. ٢٦ ـ ﴿وكَم مِن مَلَكٍ﴾ أي: وكثيرٌ من الملائكة ﴿في السَّماواتِ﴾ وما أكرَمَهُم عِند الله! ﴿لا تُغني شَفاعتُهُم شَيئًا، إلاّ مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ﴾ لهم فيها ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ من عباده ﴿ويَرضَى﴾ عنه! كقوله: «ولا يَشفَعُونَ إلاّ لِمَن ارتَضَى». ومعلوم أنها لا تُوجد منهم إلاّ بعد الإذن فيها: «مَن ذا الَّذي يَشفَعُ عِندَهُ إلاّ بِإذنِهِ»؟

٢٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ المَلائكةَ تَسمِيةَ الأُنثَى﴾، حيث قالوا: «هم بناتُ اللهِ»، ٢٨ ـ ﴿وما لَهُم بِهِ﴾: بهذا المقول ﴿مِن عِلمٍ. إنْ﴾: ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فيه ﴿إلاّ الظَّنَّ﴾ الذي تَخيّلوه، ﴿وإنَّ الظَّنَّ لا يُغنِي مِنَ الحَقِّ شَيئًا﴾ أي: عن العِلم فيما المطلوبُ فيه العِلمُ!

٢٩ ـ ﴿فأعرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكرِنا﴾ أي: القرآنِ، ﴿ولَم يُرِدْ إلاّ الحَياةَ الدُّنيا﴾ ـ وهذا قبل الأمر بالجِهاد. ٣٠ ـ ﴿ذلِكَ﴾: طلب الدنيا ﴿مَبلَغُهُم مِنَ العِلمِ﴾ أي: نِهاية عِلمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ـ........

قولُهُ: (لَيسَ الأَمرُ) يعني: (﴿أم﴾) منقطعةٌ، والهمزةُ فيها للإنكارِ.

قولُهُ: (مِنْ عِبَادِهِ) أن يشفعَ له، أو من الملائكةِ أن تشفَعَ.

قولُهُ: (عَنْهُ) أي: يراهُ أهلاً لذلك، فكيفَ تشفَعُ الأصنامُ لعبدَتِهِم.

قولُهُ: (بَنَاتُ اللهِ) أي: ليسمُّونَ كلَّ واحدٍ مِن الملائكةِ ﴿تسميةَ الأنثى﴾ بأن سمَّوهُ بنتاً.

قولُهُ: (عَنِ العِلمِ) فإنَّ الحقَّ الَّذي هو حقيقةُ الشَّيءِ لا يُدركُ إلَّا بالعلمِ.

قولُهُ: (فِيمَا المَطلُوبُ فِيهِ) أي: الظَّنُّ لا اعتبارَ له في المعارفِ الحقيقيَّةِ من الاعتقاديَّاتِ، وإنَّما العبرةُ به في العمليَّاتِ.

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) فإنَّ مَن غفلَ عنِ اللهِ وأعرضَ عن ذكرِهِ وانهمَكَ في الدُّنيا بحيثُ كانَت منتهَى همَّتِهِ، ومبلغَ علمِهِ لا تزيدُهُ الدَّعوةُ إلَّا عناداً.

قولُهُ: (وَهَذا) إذا كانَ المرادُ إعراضَهُ عن القتالِ، وأمَّا إذا كانَ إعراضُهُ عن الدَّعوةِ بعدَ التَّبليغِ مراراً فلا نسخَ.

قولُهُ: (نِهَايَةُ عِلمِهِم) أي: لا يتجاوزُهُ ويقصرُ دونَهُ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ العلمَ لا نهايةَ له، ولذا قالَ تعالى لأعلمِ الخلقِ: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وهُوَ أعلَمُ بِمَنِ اهتَدَى﴾ أي: عالمٌ بهما فيُجازيهما، ٣١ـ ﴿ولله ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: هو مالك لذلك، ومنه الضالّ والمُهتدي، يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿لِيَجزِيَ الَّذِينَ أساؤُوا بما عَمِلُوا﴾ من الشِّرك أو غيره، ﴿ويَجزِيَ الَّذِينَ أحسَنُوا﴾ بالتوحيد وغيره من الطاعات ﴿بِالحُسنَى﴾ أي: الجنّةِ، وبيَّن المُحسنين بقوله: ٣٢ ـ ﴿الَّذِينَ يَجتَنِبُونَ كَبائرَ الإثمِ والفَواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ﴾ هو صغار الذنوب كالنظرة والقُبلة واللمسة. فهو استثناء منقطع. والمعنى: لكنّ اللممَ يُغفر باجتناب الكبائر. ﴿إنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغفِرةِ﴾ بذلك وبقبول التوبة.

قولُهُ: (أي: عَالِمٌ بِهِمَا) بل هو أعلمُ بهما منهُما ومِن غيرِهما، فلا وجهَ للعدولِ، وإن أرادَ الحصرَ فهو غيرُ ظاهرٍ، إلَّا أن يكونَ ادِّعائيًّا، وما الدَّاعي إليه، وتقدَّمَ الباعثُ على تأويلِ (أعلمُ) بعالمٍ في سورةِ الأنعامِ[1].

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) أي: بعقابِ ما عمِلوا، أو بمثلِهِ، أو بسببِهِ، فهو علَّةٌ لما دلَّ عليهِ ما قبلَهُ؛ أي: قبلَ خلقِ العالمِ للجزاءِ.

قولُهُ: (أي: الجَنَّةِ) يعني: بالمثوبةِ الحُسنى، أو بما حسُنَ مِن أعمالِهِم، أو بسببِ الأعمالِ الحُسنى.

قولُهُ تعالى: (﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾) ما يَكبُرُ عقابُهُ من الذُّنوبِ، وهو ما رُتِّبَ عليه الوعيدُ بخصوصِهِ، (﴿والفواحشَ﴾) ما فحُشَ من الكبائرِ خصُوصاً.

قولُهُ: (باجتِنَابِ الكَبَائِرِ) وعبارةُ البيضاويِّ[2]: فإنَّهُ مغفورٌ من مجتنِبي الكبائرِ؛ أحسنُ، وتقدَّمَ تحقيقُ هذا المبحثِ في سورةِ النِّساءِ[3].

قولُهُ: (بذَلِكَ) أي: بغفرانِ الصَّغائرِ، أو المعنى: له أن يغفِرَ ما يشاءُ من الذُّنوبِ صغيرِها وكبيرِها، ولذا قالَ ﷺ: «إنْ تغفرِ اللَّهمَّ فاغفرْ جمًّا، وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألمَّا»[4]، وقالَ لبعضِ أصحابِهِ: «قلِ: اللَّهمَّ مغفرتُكَ أوسعُ مِنْ ذنوبِي، ورحمتُكَ أرجى عندي مِنْ عملِي»[5] ويُنسَبُ إلى عليٍّ أنّه قالَ[6]:

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦٠).

(٣) عند الآية رقم: (٣١).

(٤) رواه الترمذي (٣٢٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٧٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٢٤) من حديث عبيد الله بن محمد بن جابر بن عبد الله، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما، وقال الحاكم: حديث رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح.

(٦) انظر: «ديوانه» (ص: ١٢٧).

ونـزل فيمـن كان يقـول: «صلاتُنـا صيامُنا حجُّنـا»: ﴿هُوَ أعلَـمُ﴾ أي: عالـم ﴿بِكُم، إذ أنشَـأَكُم مِنَ الأرضِ﴾ أي: خلـق أباكـم من التـراب، ﴿وإذ أنتُم أجِنَّةٌ﴾: جمع جَنيـن ﴿في بُطُونِ أُمَّهاتِكُـم. فلا تُزَكُّوا أنفُسَـكُم﴾: لا تمدحوهـا، أي: على سـبيل الإعجـاب. أمّا على سـبيل الاعتراف بالنِّعمة فحسـن. ﴿هُوَ أعلَـمُ﴾ أي: عالم ﴿بِمَـنِ اتَّقَى﴾.

٣٣ ـ ﴿أفرَأَيتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ عن الإيمان، أي: ارتدَّ لمّا عُيِّر به، وقال: إنّي خَشيتُ عِقابَ الله. فضمِنَ له المُعيِّر أن يحمل عنه عذاب اللهِ، إن رجَع إلى شركه، وأعطاه من ماله كذا، فرَجَعَ، ٣٤ ـ ﴿وأعطَى قَلِيلاً﴾ من المال المُسمَّى ﴿وأكدَى﴾: منع الباقيَ؟ مأخوذ من الكُدْية ـ وهي أرض صُلبة كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر ـ ٣٥ ـ ﴿أعِندَهُ عِلمُ الغَيبِ، فهُوَ يَرَى﴾ يعلم من جُملته أنّ غيره يتحمّل عنه عذاب الآخرة؟ لا. وهو الوليد بن المُغيرة أو غيرُه. وجُملة «أعنده»: المفعولُ الثاني لـ «أرأيتَ» بمعنى: أخبِرْني.

إلهـي لئِـنْ جلَّـتْ وجمَّـتْ خَطِيئَتِي　　　فعَفْـوكَ عـن ذَنبِـي أجـلُّ وأوسـعُ

قولُهُ: (أي: عَالِمٌ) قالَ القاضي[1]: أعلمُ بأحوالِكُم منكُم، وفي «المدارِكِ»[2]: فاكتَفوا بعلمِهِ عن علمِ النَّاسِ، وبجزائِهِ عن ثنائِهِم.

قولُهُ: (أي: لا تَمْدَحُوهَا) بزكاءِ العملِ، أو بالطَّهارةِ عن الرَّذائلِ.

قولُهُ: (عَالِمٌ) بل هو أعلمُ، فإنَّه يعلمُ التَّقيَّ وغيرَهُ منكُم قبلَ أن يخرجَكُم من صُلْبِ آدمَ.

قولُهُ: (عَنِ الإيمَانِ) أي: عن الثَّباتِ عليه.

قولُهُ: (وقَالَ: إنِّي) أي: لمَّا عيَّرَهُ بعضُ المشركينَ وقالَ: تركت دِينَ الأشياخِ وضلَّلتَهُم فَقال[3].

قولُهُ: (وأَعطَاهُ) عَطفٌ على: (رجَعَ) داخلٌ تحتَ الشَّرطِ.

قولُهُ: (الكُديَةِ) بالضمِّ.

قولُهُ: (وهُوَ الوَلِيدُ) عندَ الأكثرِ[4].

قولُهُ: (أو غَيرُهُ) وهو العاصي بنُ وائلٍ[5].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦٠).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٩٥).

(٣) في «زاد المسير» (٤/ ١٩١): تركتَ دين الأشياخ وضلّلتَهم؟ قال: إنّي خشيتُ عذابَ الله.

(٤) وانظر: «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٩).

(٥) انظر المصدر السابق.

٣٦ ـ ﴿أم﴾: بل ﴿لَم يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ مُوسَى﴾: أسفارِ التوراة أو صُحفٍ قبلها ٣٧ ـ ﴿و﴾ صُحف ﴿إبراهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾: تمّمَ ما أُمِر به ـ نحو «وإذِ ابتَلَى إبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فأتَمَّهُنَّ» ـ وبيانُ «ما»: ٣٨ ـ ﴿أنْ لا تَزِرُ وازِرةٌ وِزرَ أُخرَى﴾ إلى آخره، وأنْ: مُخفّفة من الثقيلة، أي: أنّه لا تَحملُ نفسٌ ذنبَ غيرها، ٣٩ ـ ﴿وأنْ﴾ أي: أنّه ﴿لَيسَ لِلإنسانِ إلاّ ما سَعَى﴾ من خير، فليس له من سعيِ غيره الخيرِ شيء، ٤٠ ـ ﴿وأنَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَى﴾ أي: يُبصَرُ في الآخرة، ٤١ ـ ﴿ثُمَّ يُجزاهُ الجَزاءَ الأوفَى﴾: الأكملَ؟ يقال: جَزيتُه سعيَه وبسعيه.

٤٢ ـ ﴿وأنَّ﴾ ـ بالفتح عطفًا. وقُرئ بالكسر استئنافًا. وكذا ما بعدها. فلا يكون مضمون الجُمل في الصُّحف على الثاني ـ ﴿إلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ المَرجِعَ والمصير بعد الموت فيجازيهم، ٤٣ ـ ﴿وأنَّهُ هُوَ أضحَكَ﴾: من شاء أفرحه ﴿وأبكَى﴾: من شاء أحزنه، ٤٤ ـ ﴿وأنَّهُ هُوَ أماتَ﴾ في الدنيا ﴿وأحيا﴾ للبعث، ٤٥ ـ ٤٦ ـ ﴿وأنَّهُ خَلَقَ الزَّوجَينِ﴾: الصِّنفين ﴿الذَّكَرَ والأُنثَى مِن نُطْفَةٍ﴾: مَنِيٍّ، ﴿إذا تُمنَى﴾ تُصبُّ في الرحِم،..

قولُهُ: (صُحُفٍ) وتقديمُ موسى؛ لأنَّ صحفَهُ ـ وهي التَّوراةُ ـ كانَت أشهرَ وأكثرَ عندَهُم.

قولُهُ: (تَمَّمَ) أو أتمَّ ما التزمَهُ، أو بالغَ في الوفاءِ بما عهدَ اللهُ، وتخصيصُهُ بذلك لاحتمالِهِ ما لم يحتملْهُ غيرُهُ؛ كالصَّبرِ على نارِ نمروذَ وذبحِ الولدِ.

قولُهُ: (إلَى آخِرِهِ) في محلِّ الجرِّ بدلًا من: ﴿ما﴾، أو الرفعِ على هو.

قولُهُ: (شَيْءٌ) أي: أصالةً فلا ينافي سببيَّةَ الوزرِ والخيرِ، أو الأوَّلُ هو العدلُ والثَّاني هو الفضلُ.

قولُهُ: (سَعيَهُ) هذا غيرُ معروفٍ، ولذا قالَ القاضي[1]: نصبُ الجزاءِ بنزعِ الخافضِ.

قولُهُ: (عَلى الثَّانِي) مستدرَكٌ، ويمكنُ أن يكونَ في الصُّحفِ مع مضمونِ لفظِ ﴿أنَّ﴾، وهو الأحسنُ لتتوافَقَ القراءتانِ معنًى، أو يُقالُ: القراءةُ الشَّاذَّةُ لا تُقاوِمُ المتواترَ فدلالتُها غيرُ معتبَرةٍ.

قولُهُ: (المَرجِعَ) أو انتهاءَ فكرِ الخلائقِ ورجوعَهم.

قولُهُ: (للبَعثِ) أو ﴿وأحيا﴾ ابتداءً، وأُخِّرَ للفاصلةِ مع أنَّ الواوَ لا تقتَضِي التَّرتيبَ، وهذا الَّذي ظهرَ لي أوجَهُ؛ لئلَّا يتكرَّرَ مع قولِهِ: ﴿وأنَّ عَلَيهِ النَّشأَةَ الأُخرَى﴾.

قوله: (تُصَبُّ) أو تخلقُ، أو يقدَّرُ منها الولدُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦١).

٤٧ ـ ﴿وأنَّ علَيهِ النَّشاءةَ﴾ ـ بالمدّ والقصر ـ ﴿الأُخرَى﴾: الخَلقةَ الآخِرة للبعث بعد الخَلقة الأُولى، ٤٨ ـ ﴿وأنَّهُ هُوَ أغنَى﴾ الناسَ بالكفاية بالأموال ﴿وأقنَى﴾: أعطى المالَ المُتَّخذ قُنيةً، ٤٩ ـ ﴿وأنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعرَى﴾. هو كوكب خلفَ الجوزاء، كانت تُعبد في الجاهليّة؟

٥٠ ـ ﴿وأنَّهُ أهلَكَ عادًا الأُولَى﴾ ـ وفي قراءة بإدغامِ التنوين في اللام وضمِّها بلا همز ـ هي قوم هودٍ، والأُخرى قوم صالح ٥١ ـ ﴿وثَمُودًا﴾ ـ بالصرفِ اسمٌ للأب، وبلا صرفٍ اسمٌ للقبيلة. وهو معطوف على «عادًا» ـ..

قولُهُ: (بالمَدِّ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[١].

قولُهُ: (للبَعثِ) وفاءً بوعدِهِ.

قولُهُ: (بالأَموَالِ) أو بالمعارفِ والأحوالِ، أو بغناهُ عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (أَعْطَى المَالَ) أي: أعطى القُنيَةَ، وهي بالكسرِ والضَّمِّ: ما اكتسبَ، فيكونُ إشارةً إلى نوعي المالِ، أو ﴿أقنى﴾ بمعنى: أرضَى، وتحقيقُهُ جعلَ له الرِّضا قنيةً، وهي ما يُتَأَثَّلُ من الأموالِ؛ أي: يُتَّخذُ أصلاً، وقيل: معناهُ: أفقرَ، فالهمزُ للسَّلبِ، قالَ الجُنيدُ[٢]: أغنى قوماً به، وأفقرَ قوماً عنه.

قولُهُ: (تُعْبَدُ) عبدَها أبو كبشةَ، أحدُ أجدادِ الرَّسولِ ﷺ، وخالفَ قريشاً في عبادةِ الأوثانِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وبصريٍّ، لكنَّ قالونَ بقلبِ الواوِ همزاً حالَ النَّقلِ بدءاً وموصِلاً[٣].

قولُهُ: (وضَمِّهَا) بنقلِ حركةِ الهمزةِ إليها.

قولُهُ: (بِلا هَمْزٍ) فإنَّهُ يسقطُ بعدَ نقلِ حركتِهِ لالتقاءِ السَّاكنينَ، وتعبيرُ القاضي[٤]: وقُرئَ بإدغامِ التَّنوينِ؛ ضعيفٌ.

قولُهُ: (هِيَ قَوْمُ هُودٍ) أو ﴿الأُولَى﴾ بمعنى: القدماءِ؛ لأنَّهُم أُولى الأممِ هلاكاً بعدَ قومِ نوحٍ.

قولُهُ: (اسْمٌ للأَبِ) صوابُهُ: للحيِّ.

قولُهُ: (وبِلا صَرفٍ) عاصمٌ وحمزةُ[٥].

قولُهُ: (عَلَى ﴿عادًا﴾) لأنَّ ما بعدَهُ لا يعملُ فيه.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٤٩).

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٢٨٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٤)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٢).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦٢).

(٥) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٢).

﴿فما أبقَى﴾ منهم أحدًا، ٥٢ ـ ﴿وقومَ نُوحٍ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ عادٍ وثمودٍ أهلكناهم ـ ﴿إنَّهم كانُوا هُم أظلَمَ وأطغَى﴾ من عاد وثمود لطولِ لَبثِ نوحٍ فيهم: «فلَبِثَ فِيهِم ألفَ سَنةٍ إلاّ خَمسِينَ عامًا»، وهم مع عدم إيمانهم به يؤذونه ويضربونه ـ ٥٣ ـ ﴿والمُؤتَفِكةَ﴾ وهي قُرى قومِ لُوطٍ ﴿أهوَى﴾: أسقطَها بعد رفعها إلى السماء مقلوبةً إلى الأرض بأمره جِبريلَ بذلك، ٥٤ ـ ﴿فغَشّاها﴾ من الحِجارة بعد ذلك ﴿ما غَشَّى﴾؟ أُبهِمَ تهويلاً. وفي هود: «جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وأمطَرْنا علَيها حِجارةً مِن سِجِّيلٍ».

٥٥ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكَ﴾: أنعُمِه الدالّةِ على وحدانيّته وقُدرته ﴿تَتمارَى﴾: تَتشكَّكُ ـ أيها الإنسان ـ أو تُكذِّبُ؟ ٥٦ ـ ﴿هذا﴾ مُحمّدٌ ﴿نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾: من جِنسهم، أي: رسول كالرسل قبله، أُرسل إليكم كما أُرسلوا إلى أقوامهم.

٥٧ ـ ﴿أزِفَتِ الآزِفةُ﴾: قَرُبَتِ القِيامةُ، ٥٨ ـ ﴿لَيسَ لَها مِن دُونِ اللهِ﴾ نفسٌ ﴿كاشِفةٌ﴾ أي: لا يكشفها ويُظهرها إلاّ هو كقوله تعالى: «لا يُجَلِّيها لِوَقتِها إلاّ هُوَ». ٥٩ ـ ﴿أفمِن هذا الحَدِيثِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿تَعجَبُونَ﴾ تكذيبًا، ....

قولُهُ: (مِنهُم) الأظهرُ: منهُما؛ أي: الفريقينِ.

قولُهُ: (أَهلَكْنَاهُم) الظَّاهرُ: أهلكَهُم؛ لأنَّهُ عطفٌ على: ﴿عَادًا﴾.

قولُهُ: (ويَضرِبُونَهُ) حتَّى لا يكونَ به حركةٌ ويُنَفِّرونَ عنه.

قولُهُ: (قُرَى قَومِ لَوْطٍ) الَّتي ائتفكَت بأهلِها؛ أي: انقلبَت.

قولُهُ: (إلى الأَرضِ) أي: إلى جِهتِها أو منتهيةً بذلك؛ أي: بالإِهواءِ بعد الرَّفعِ والقلبِ.

قولُهُ: (﴿وَأَمطَرْنَا عَلَيهِمْ﴾) في هودٍ: ﴿عَلَيْهَا﴾ [٨٢]، وفي الحجرِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [٧٤].

قولُهُ: (وقُدرَتِهِ) إشارةٌ إلى أنَّ المعدوداتِ وإن كانَتْ نِعماً ونقماً، لكن سمَّاها آلاءً مِن جهةِ ما في نقمهِ مِن العِبَرِ والمواعظِ للمعتبرينَ، والانتقامِ للأنبياءِ والمؤمنينَ.

قولُهُ: (أَيُّها الإِنسَانُ) أو الخطابُ للرَّسولِ، أو لكلِّ أحدٍ.

قولُهُ: (مُحَمَّدٌ) أي: هذا الرَّسولُ، أو هذا القرآنُ إنذارٌ مِن جنسِ الإنذاراتِ.

قولُهُ: (قَرُبَتِ) أي: دنَتِ السَّاعةُ الموصوفةُ بالدُّنوِّ.

قولُهُ: (نَفسٌ) قادرةٌ على كشفِها إذا وقعَت إلَّا الله تعالى، لكنَّهُ لا يكشِفُها، أو ليسَ لها كاشفةٌ لوقتِها إلَّا الله، ولا يطَّلِعَ عليه سواهُ، وهذا مرادُ المصنِّفِ، وهو الأظهرُ.

٦٠ ـ ﴿وتَضحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿ولا تَبكُونَ﴾ لسماع وعده ووعيده، ٦١ ـ ﴿وأنتُم سامِدُونَ﴾: لاهونَ غافلون عما يُطلب منكم؟ ٦٢ ـ ﴿فاسجُدُوا لِلهِ﴾ الذي خلقكم ﴿واعبُدُوا﴾ ولا تسجدوا للأصنام ولا تعبدوها.

قولُهُ: (لِسَمَاعِ وَعْدِهِ) شوقاً، ووعيدِهِ خوفاً.

قولُهُ: (لاهُونَ) أو مستكبرونَ، أو مُغَنُّونَ لتشتَغِلوا عن استماعِهِ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

سورة والنجم

وتُسمَّى أيضاً سورة النجم بدون واو، وهي مكية على الإطلاق، وفي «الإتقان»: استثني منها (ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ) إلى (ٱتَّقَىٰٓ)، وقيل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات التسع[1].

ومن الغريب حكايةُ الطبرسي عن الحسن أنَّها مدنية[2]. ولا أرى صحة ذلك عنه أصلاً.

وآيُها اثنتان وستون آية في الكوفي، وإحدى وستون في غيره[3].

وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أولُ سورةٍ أعلنَ النبيُّ ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون[4].

وأخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائي عنه قال: أولُ سورةٍ أُنزلَت فيها سجدة «والنجم» فسجد رسولُ الله ﷺ وسجَدَ الناس كلُّهم إلا رجلاً رأيتُه أخذَ كفّاً من تراب فسجَدَ عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتِل كافراً[5]. وهو أمية بن خلف.

وفي «البحر» أنَّه عليه الصلاة والسلام سجَدَ وسجَدَ معه المؤمنون والمشركون

---

(١) الإتقان ١/ ٥٠.

(٢) مجمع البيان ٢٧/ ٣٩.

(٣) جاء في هامش الأصل: الاختلاف في قوله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

(٤) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٥) صحيح البخاري (١٠٧٠)، وصحيح مسلم (٥٧٦)، وسنن أبي داود (١٤٠٦)، وسنن النسائي (المجتبى ٢/ ١٦٠)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

والجنُّ والإنسُ غيرَ أبي لهبٍ، فإنَّه رَفَع حفنةً من تراب وقال: يكفي هذا(١). فيحتمل أنه وأمية فَعَلَا كذلك.

وهي شديدةُ المناسبة لِمَا قبلها، فإنَّ «الطورَ» خُتِمَت بقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وافتُتِحَت هذه بقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾. وأيضاً في مفتتحها ما يؤكِّدُ ردَّ الكفرة فيما نسبوه إليه ﷺ من التقوُّل والشعر والكهانة والجنون. وذكر أبو حيان أنَّ سبب نزولها قولُ المشركين: إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام يختلقُ القرآن(٢).

وذكر الجلال السيوطي(٣) في وجه مناسبتها: أنَّ الطور فيها ذكرُ ذريةِ المؤمنين وأنَّهم تَبَعٌ لآبائهم، وهذه فيها ذكرُ ذرية اليهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الآية؛ فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني(٤) وأبو نعيم في «المعرفة» والواحدي عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهودُ إذا هلَكَ لهم صبيٌّ صغيرٌ قالوا هو صدِّيق، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذَبت يهودُ، ما مِن نَسَمةٍ يخلُقُها الله في بَطْن أُمِّها إلا أنَّه شَقِيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية كلَّها(٥)، وأنَّه تعالى لمَّا قال هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] إلخ قال سبحانه هنا في الكفار، أو في الكبار(٦): ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] خلاف ما دخل(٧) في المؤمنين الصغار، ثم قال: وهذا وجهٌ بديعٌ في المناسبة من وادي التضادِّ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في تناسق الدرر ص ٨٠.
(٤) في الأصل و(م): والطبري، والصواب ما أثبتناه، وينظر التعليق الآتي.
(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٣٦٨)، ومعرفة الصحابة (١٣٣٤)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٢، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٢٨، وفي تناسق الدرر ص ٨٠، والكلام منه.
(٦) في مطبوع تناسق الدرر: أو في بني الكفار، بدل: أو في الكبار.
(٧) في مطبوع تناسق الدرر: ذكر، بدل: دخل.

وفي صحة كون قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية نَزَل لِمَا ذُكِر نَظَرٌ عندي، وكون قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الصغار لم يتفق عليه المفسرون كما سمعتَ غير بعيدٍ، نعم مَن تأمَّل ظهر له وجوهٌ من المناسبات غير ما ذكر فتأمَّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ أقسمَ سبحانه بجنسِ النجم المعروف على ما رُوي عن الحسن ومعمَر بن المثنى، ومنه قوله:

فباتَتْ تَعُدُّ النجمَ في مُستَحِيرَةٍ　　سريعٍ بأيدي الآكِلين جُمُودُها[1]

ومعنى «هوى»: غَرب، وقيل: طَلَع؛ يقال: هَوَى يهوي كرمى يَرْمي، هَوِيّاً بالفتح في السقوط والغروب لمشابهتِهِ له؛ وهُوِيّاً بالضمِّ للعلوِّ والطلوع، وقيل: الهَوِيُّ بالفتح للإصعاد، والهُوِيُّ بالضم للانحدار؛ وقيل: الهوِي بالفتح والضم السقوط، ويقال: أَهْوَى بمعنى هَوَى، وفرَّق بعضُ اللغويِّين بينهما بأنَّ هَوَى إذا انقضَّ لغير صيد، وأَهوَى إذا انقضَّ له.

وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت في القيامة.

وعن ابن عباس في روايةٍ: أقسمَ عز وجل بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشياطين.

وقيل: المرادُ بـ «النجم» معيَّنٌ؛ فقال مجاهد وسفيان: هو الثريَّا، فإن النجم صار عَلَماً بالغلبة لها، ومنه قوله ﷺ: «إذا طَلَع النجم صباحاً ارتفعَت العاهةُ»[2].

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢، قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرةَ الدسم، ومعنى تعدُّ النجم، أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو حديث حسن، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

وقولُ العرب: طلَعَ النجمُ عشاءً فابتغَى الراعي كساءً. طلَعَ النجمُ غُديَّه فابتغَى الراعي كسيه[1]. وفسِّر هوِيُّها بسقوطها مع الفجر.

وقيل: هو «الشعرى» المرادةُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]. والكهَّان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها.

وقيل: الزهرة وكانت تُعبد.

وقال ابن عباس ومجاهد والفراء[2] ومنذر بن سعيد: «النجم» المقدارُ النازلُ من القرآن على النبيِّ ﷺ، و«إذا هَوَى» بمعنى: إذا نَزَل عليه مع مَلَك الوحي جبريل عليه السلام.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: هو النبيُّ ﷺ، وهوِيُّه نزوله من السماء ليلة المعراج. وجوِّز على هذا أنْ يُراد بهويِّهِ صعودُه وعروجُه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأَيْن.

وقيل: هو الصحابةُ رضي الله عنهم.

وقيل: العلماءُ على إرادة الجنس، والمراد بهويِّهم قيل: عروجُهم في معارج التوفيق إلى حظائر التحقيق، وقيل: غوصُهم في بحار الأفكارِ لاستخراج دُرَر الأسرار.

وأظهرُ الأقوال القولُ بأنَّ المرادَ بالنجم جنسُ النجم المعروف، فإنَّ أصلَه اسمُ جنسٍ لكلِّ كوكب، وعلى القول بالتعيين فالأظهرُ القول بأنَّه الثريا، ووراء هذَين القولَين القولُ بأنَّ المرادَ به المقدارُ النازل من القرآن، وفي الإقسام بذلك على

(١) أدب الكتاب للصولي ص١٧٨، وتهذيب اللغة ١٠/ ٢٩٩، ومفردات الراغب (نجم)، وتفسير الثعلبي ٩/ ١٣٤، والكشاف ٤/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٦، واللسان (شكا) و(نجم)، والبحر المحيط ٨/ ١٥٧. وجاء في غير البحر وأدب الكتاب: شُكَيَّه، بدل: كُسَيَّه. قال الأزهري: الشكية تصغير الشكوة ـ وهي وعاء من أدم للماء واللبن ـ وذلك أن الثريا إذا طلعت هذا الوقت من الزمان هبت البوارح ورَمِضت الأرض وعطش الرعيان، فاحتاجوا إلى شكاءٍ يستقون فيها لشفاههم، ويحقنون اللبن في بعضها ليشربوه بارداً قارصاً.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلالِ والغواية من البراعة البديعةِ وحُسْن الموقع ما لا غايةَ وراءه.

أما على الأوَّلَين: فلأنَّ النجم شأنُه أنْ يَهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنَّه قيل: والنجم الذي تهتدي به السابلةُ إلى سواء السبيل ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما عدل عن طريق الحقِّ الذي هو مسلكُ الآخرة، فهو استعارةٌ وتمثيلٌ لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب في أقواله وأفعاله ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: وما اعتقَد باطلاً قطُّ؛ لأنَّ الغَيَّ الجهلُ مع اعتقادٍ فاسدٍ، وهو خلافُ الرُّشد، فيكون عطفُ هذا على «ما ضل» مِن عَطْفِ الخاصِّ على العام اعتناءً بالاعتقاد، وإشارةً إلى أنَّه المدارُ.

وأما على الثالث: فلأنَّه تنويهٌ بشأن القرآن، وتنبيهٌ على مناط اهتدائِهِ عليه الصلاة والسلام ومدارِ رَشاده، كأنَّه قيل: وما أُنزِلَ عليك من القرآن الذي هو عَلَمٌ في الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحقِّ واليقين ما ضَلَّ عنها محمدٌ ﷺ وما غَوَى، فهو من باب:

وثـنـايـاكِ إنَّـهـا إغـريـضُ(١)

والخطابُ لقريشٍ، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفةِ، وإحاطتهم خُبْراً ببراءته ﷺ مما نُفِيَ عنه بالكلِّية، وباتِّصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهُدَى والرَّشاد، فإنَّ طولَ صُحْبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شُؤونِهِ العظيمة مقتضيةٌ لذلك حتماً، ففي ذلك تأكيدٌ لإقامة الحُجَّة عليهم.

واختلف في متعلَّق «إذا» قال بعضُهم: فاوضْتُ جارَ الله في قوله تعالى: (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) فقال: العاملُ فيه ما تعلَّق به الواو. فقلتُ: كيف يعملُ فعلُ الحال في المستقبل؟! وهذا لأنَّ معناه: أُقسِمُ الآن، لا: أُقسِمُ بعد هذا. فرجع وقال: العاملُ فيه مصدرٌ محذوفٌ، والتقدير: وهُوِيُّ النجم إذا هَوَى. فعرضْتُه على بعض المشايخ فلم يستحسن قولَه الثاني. والوجهُ تعلُّقه بـ «أُقسمُ» وهو قد انسلَخ عنه معنى

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٢٨٧، وسلف ٢٢/ ١٢.

الاستقبال، وصار للوقت المجرَّد، ونحوُه: آتيكَ إذا احمرَّ البسرُ، أي: وقتَ احمرارِه.

وقال عبد القاهر: إخبارُ الله تعالى بالمتوقَّع يُقامُ مقامَ الإخبار بالواقع إذ[١] لا خُلْفَ فيه، فيجري المستقبل مجرَى المحقَّق الماضي[٢].

وقيل: إنَّه متعلِّق بعامل هو حالٌ من «النجم»، وأُوردَ عليه أنَّ الزمان لا يكونُ خبراً ولا حالاً عن جُثَّة كما هنا، وأنَّ «إذا» للمستقبل فكيف يكونُ حالاً إلا أنْ تكون حالاً مقدَّرة، أو تُجرَّد «إذا» لمطلَقِ الوقت، كما يُقال بصِحَّيَّة الحاليةِ إذا أفادَت معنًى معتدّاً به، فمجيءُ الزمانِ خبراً أو حالاً عن جثة ليس ممنوعاً على الإطلاق كما ذكره النحاة، أو «النجم» لتغيُّره طلوعاً وغروباً أَشبَهَ الحدَثَ.

والإنصافُ أنَّ جعْلَه حالاً كتعلُّقه بمصدر محذوفٍ ليس بالوجْهِ، وإنما الوجه ـ على ما قيل ـ ما سمعتَ مِن تعلُّقه بـ «أُقسمُ» منسلخاً عنه معنى الاستقبال، وهو الذي اختاره في «المغني»[٣].

وتخصيصُ القسم بوقت الهوِيِّ ظاهرٌ على الأخير من الأقوال الثلاثة، وأمَّا على الأوَّلَين فقيل: لأنَّ النجمَ لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يَعلمُ المشرقَ من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطِه أو صعوده، مع ما فيه من كمال المناسبةِ لِمَا سيُحْكَى من التدلِّي والدنوِّ.

وقيل: لدلالته على حدوثه الدالِّ على الصانع وعظيمِ قدرته عز وجل، كما قال الخليل على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وسيأتي إن شاء الله تعالى آخرَ الكتاب تمامُ الكلام في تحقيق إعراب مثل هذا التركيب[٤] فلا تغفل.

---

(١) في (م): إذا.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٣٠-٢٣١.

(٣) مغني اللبيب ص ١٣٠، وحاشية الشهاب ٨/ ١٠٩.

(٤) ينظر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ من سورة الشمس آية رقم (٣-٤).

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ أي: النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذكره في قوله سبحانه: (صَاحِبُكُمْ) والنُّطقُ مضمَّنٌ معنَى الصدور، فلذا عُدِّي بـ «عن» في قوله تعالى: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقيل: هي بمعنى الباء، وليس بذاك. أي: ما يصدرُ نطقُه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن، أو مِن القرآن، عن هَوَى نفسِه ورأيه أصلاً، فإنَّ المرادَ استمرارُ النَّفْي كما مرَّ مراراً في نظائره.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطقُ به من ذلك، أو القرآن، وكلُّ ذلك مفهومٌ من السياق ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله عز وجل ﴿يُوحَىٰ﴾ يوحيه سبحانه إليه، والجملةُ صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ «وَحْيٌ» رافعةٌ لاحتمال المجاز، مفيدةٌ للاستمرار التجدُّدي.

وقيل: ضميرُ «ينطقُ» للقرآن، فالآيةُ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وهو خلافُ الظاهر.

وقيل: المرادُ: ما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوًى، وهو عائدٌ لِمَا ينطقُ به مطلقاً أيضاً.

واحتَجَّ بالآية على هذا التفسير مَن لم يَرَ الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبي عليٍّ الجبائي وابنه أبي هاشم، ووجهُ الاحتجاج أنَّ الله تعالى أَخبرَ بأنَّ جميعَ ما ينطقُ به وَحْيٌ، وما كان عن اجتهادٍ ليس بوَحْيٍ، فليس مما ينطقُ.

وأُجيبَ بأنَّ الله تعالى إذا سوَّغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهادَ، كان الاجتهادُ وما يسند إليه وحياً لا نطقاً عن الهوى، وحاصلُه منع كبرى[1] القياس.

واعترض عليه بأنَّه يلزمُ أنْ تكونَ الأحكامُ التي يستنبطُها المجتهدون بالقياس وحياً. وأُجيبَ بأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أُوحَي إليه أنْ يجتهدَ بخلاف غيره من المجتهدين.

---

(١) في (م): كبر، والمثبت من الأصل. ويقصد به قول المحتج: وما كان عن اجتهاد ليس بوحْيٍ.
وهي المقدمة الكبرى لاحتجاجه، والإجابة التي ذكرها الآلوسي بقوله: وأجيب بأن الله تعالى إذا...، هي منع المقدمة الكبرى.

وقال القاضي البيضاوي: إنَّه حينئذٍ بالوحي لا وحيٌ[١].

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأنَّه غيرُ قادحٍ؛ لأنَّه بمنزلة أنْ يقولَ الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: متى ما ظننْتَ بكذا فهو حكمي، أي: كلُّ ما ألقيتُه في قلبك فهو مرادي، فيكونُ وحياً حقيقةً.

والظاهرُ أنَّ الآيةَ واردةٌ في أمر التنزيل بخصوصه، وإنْ كان مثلُه الأحاديثَ القدسيةَ، والاستدلالُ بها على أنَّه عليه الصلاة والسلام غيرُ متعبدٍ بالوحي محوجٌ لارتكاب خلافِ الظاهر، وتكلُّفٌ في دفع نَظَرِ البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفَى على المنصف.

ولا يبعُدُ عندي أنْ يحملَ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ على العموم، فإنَّ مَن يَرَى الاجتهادَ له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد وأبي يوسف عليهما الرحمة لا يقولُ بأنَّ ما ينطقُ به ﷺ مما أدَّى إليه اجتهادُه صادرٌ عن هوى النفسِ وشهوتها، حاشا حضرة الرسالةِ عن ذلك، وإنما يقولُ هو واسطةٌ بين ذلك وبين الوحي، ويجعلُ الضميرَ في قوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ للقرآن، على أنَّ الكلام جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: إذا كان شأنُه عليه الصلاة والسلام أنَّه ما ينطقُ عن الهوى، فما هذا القرآنُ الذي جاء به وخالفَ فيه ما عليه قومه، واستمالَ به قلوبَ كثيرٍ من الناس، وكثُرَت فيه الأقاويلُ؟ فقيل: ما هو إلا وحيٌ يُوحيه اللهُ عز وجل إليه ﷺ، فتأمل.

وفي «الكشف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ مضارعاً مع قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ﴾ ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما يدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقةُ غوايةٍ وضلالٍ منذ تميَّز وقَبْلَ تحنُّكه واستنبائه لم يكن له نطقٌ عن الهوى، كيف وقد تحنَّكَ ونُبِّئَ؟ وفيه حثٌّ لهم على أنْ يُشاهدوا منطقَه الحكيم.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الضميرُ للرسول ﷺ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، أي: القرآنَ، أو

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١١٠.

الوحيَ. وجوَّز أبو حيان كونَ الضمير للقرآن، وأنَّ المفعول الأول محذوفٌ، أي: علَّمه الرسولَ عليه الصلاة والسلام[١].

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو جبريلُ عليه السلام كما قال ابن عباس وقتادة والربيع، فإنَّه الواسطةُ في إبداء الخوارق، وناهيك دليلاً على شدَّة قوته أنَّه قلَعَ قُرَى قومِ لوطٍ من الماء الأسود الذي تحت الثرى، وحمَلَها على جناحه ورَفَعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح بثمودَ صيحةً فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطُه على الأنبياء عليهم السلام وصعودُه في أسرع من رَجْعة الطرف، فهو لَعَمْرِي أسرعُ من حركة ضياء الشمس على ما قرَّروه في الحكمة الجديدة.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافَةٍ واستحكام في العقل كما قال بعضُهم، فكأنَّ الأوَّلَ وصفٌ بقوة الفعلِ، وهذا وصفٌ بقوة النظر والعقل، لكن قيل: إنَّ ذاك بيانٌ لِمَا وُضِعَ له اللفظ، فإنَّ العرب تقولُ لكلِّ قويِّ العقل والرأي: ذو مرة، مِن أَمررْتُ الحبل: إذا أحكمتَ فتلَه، وإلا فوصْفُ المَلَك بمثله غيرُ ظاهرٍ، فهو كنايةٌ عن ظهور الآثار البديعة.

وعن سعيد بن المسيب: ذو حكمة؛ لأنَّ كلامَ الحكماء متينٌ.

وروى الطَّستي أنَّ نافع بن الأزرق سألَ ابنَ عباس عنه فقال: ذو شدَّةٍ في أمر الله عز وجل. واسْتَشْهَد له[٢].

وحكى الطيبي عنه أنَّه قال: ذو مَنْظرٍ حسنٍ. واستصوبه الطبريُّ[٣]، وفي معناه قول مجاهد: ذو خَلْق حسن.

وهو في قوله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٤] بمعنى: ذي

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.
(٢) ذكره عن الطستي السيوطي في الدر ٦/ ١٢٢، وأخرجه من طريقه في الإتقان ١/ ٣٩٦.
(٣) ينظر تفسيره ٢٢/ ١١.
(٤) أخرجه أحمد (٦٥٣٠)، والترمذي (٦٥٢)، وأبو داود (١٦٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن.

قوةٍ. وفي «الكشف»: إنَّ المِرَّةَ لأنَّها في الأصل تدلُّ على المَرَّة بعد المرة تدلُّ على زيادة القوة، فلا تغفل.

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: فاستقامَ على صورته الحقيقيةِ التي خلَقَه الله تعالى عليها، وذلك عند حِراء في مبادئ النبوة، وكان له عليه الصلاة والسلام كما في حديث أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حُميد وجماعةٌ عن ابن مسعود: «ست مئة جناح، كلُّ جناحٍ منها يسدُّ الأُفُقَ»(١) فالاستواءُ هاهنا بمعنى اعتدال الشيء في ذاته كما قال الراغب(٢)، وهو المرادُ بالاستقامة، لا ضدّ الاعوجاج، ومنه استوى الثمر: إذا نَضِجَ.

وفي الكلام - على ما قال الخفاجي - طيٌّ؛ لأنَّ وصفَه عليه السلام بالقوَّة وبعضِ صفات البشر يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ رآه في غير هيئتِهِ الحقيقيةِ، وهذا تفصيلٌ لجواب سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فهل رآه على صورته الحقيقية؟ فقيل: نعم رآه فاستوى.. إلخ(٣).

وفي «الإرشاد»: أنَّه عطفٌ على «عَلَّمه» بطريق التفسير، فإنَّه إلى قوله تعالى: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفية التعليم(٤).

وتُعقِّبَ بأنَّ الكيفيةَ غيرُ منحصرةٍ فيما ذكر، ومن هنا قيل: إنَّ الفاء للسببية، فإنَّ تشكُّلَه عليه السلام بشكله يتسبَّبُ عن قوته وقدرته على الخوارق، أو عاطفة على «علَّمه» على معنى: علَّمه على غير صورته الأصلية، ثم استوى على صورته الأصلية.

وتُعقِّب بأنَّه لا يتمُّ به التئامُ الكلام ويحسُنُ به النظام.

وقيل: استوى بمعنى ارتَفَع، والعطفُ على علَّم، والمعنى: ارتفَعَ إلى السماء بعد أنْ علَّمه.

وأكثرُ الآثار تقتضي ما تقدَّم.

---

(١) مسند أحمد (٣٧٤٨)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٣. وأخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) دون قوله: «كلُّ جناحٍ منها يسدُّ الأفق».

(٢) في المفردات (سوى).

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١١٠.

(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٥٥.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾ أي: الجهةِ العليا من السماء المقابلة للناظر، وأصلُه الناحيةُ، وما ذكره أهلُ الهيئة معنًى اصطلاحيٌّ، وينقسم عندهم إلى حقيقيٍّ وغيره كما فُصِّل في محلِّه، وأخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّ المرادَ به هنا مطلعُ الشمس[١]. وفي معناه قول الحسن: هو أُفُقُ المشرق.

والجملةُ في موضع الحال من فاعل «استوى»، وقال الفراء والطبري[٢]: إنَّ «هو» عطفٌ على الضمير المستتر في «استَوَى»، وهو عائدٌ إلى النبي ﷺ، كما أنَّ ذلك عائدٌ لجبريل عليه السلام - وجوِّز العكس - والجارُّ متعلِّق بـ «استوى».

وفيه العطفُ على الضمير المرفوع من غير فصل، وهو مذهبُ الكوفيين مع أنَّ المعنى ليس عليه عند الأكثرين.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: ثم قَرُب جبريلُ عليه السلام من النبيِّ ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلَّق جبريلُ عليه - عليه الصلاة والسلام - في الهواء، ومنه: تدلَّت الثَّمرةُ، و: دلَّى رجلَيه من السرير، والدوالي: الثَّمرُ المعلَّقُ كعناقيد العنب، وأنشدوا لأبي ذؤيب يصفُ مشتار عسل:

تـدَلَّـى عـلـيـهـا بـيـن سِـبٍّ وخَـيْـطَـةٍ ... بجَرداءَ مثل الوَكْفِ يكبو غُرابُها[٣]

ومن أسجاع ابنةِ الخُسِّ: كُنْ حَذِراً كالقِرِلَّى: إنْ رأى خيراً تدلَّى، وإنْ رأى شرّاً تولَّى[٤].

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٢.

(٣) ديوان الهذليين ص ٧٩، يصف الشاعر مشتار العسل، أراد: أنه تدلى من رأس جبل على خلية عسلٍ ليشتارها بحبل شده في وسطه، وقد أثبته في رأس جبل، بجرداء: يعني أرضاً ملساء لا تنبت شيئاً يكبو غراب الفاس عنها لصلابتها إذا حفرت، والوكف: النطع. انظر اللسان (سبب) و(وكف).

(٤) المستقصى ١/ ٦٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢٢٨، واللسان (قرل). قال الزمخشري: القِرِلَّى طائر من بنات الماء صغير الجرم سريع الخطف، يرفرف على وجه الماء، ويهوي بإحدى عينيه إلى الماء والأخرى إلى الجو فَرَقاً من جارح، فإذا أبصر في الماء سمكة يستطيع الاستقلال بها انقض كالسهم المرسل فاختطفها من قعر الماء، وإن أبصر جارحاً مرَّ في الأرض. وابنة =

فالمرادُ بالتدلِّي دنوٌّ خاصٌّ، فلا قَلْبَ ولا تأويلَ بإرادة الدنوِّ كما في «الإيضاح»[١]، نعم إنْ جُعِلَ بمعنى التنزُّل من علوٍّ كما يُرشدُ إليه الإشتقاق كان له وجه.

﴿فَكَانَ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام من النبيِّ ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مِن قِسيِّ العرب؛ لأنَّ الإطلاق ينصرفُ إلى مُتعارَفِهم، والقابُ وكذا القِيْبُ، والقادُ والقِيدُ، والقيس: المقدارُ.

وقرأ زيد بن علي: «قادَ»، وقرئ: «قِيْدَ»، و«قَدْرَ»[٢].

وقد جاء التقديرُ بالقوس كالرمح والذراع وغيرهما، ويقال على ما بين مَقْبِض القوسِ وسِيَتها، وهي ما عطف مِن طَرَفَيها، فلكلِّ قوسٍ قابان، وفُسِّر به هنا، قيل: وفي الكلام عليه قلبٌ، أي: فكان قابَي قوسٍ، وفي «الكشف»: لك أنْ تقولَ: قابا قوسٍ وقابَ قوسَين، واحدٌ دون قَلْبٍ.

وعن مجاهد والحسن: أنَّ قاب القوس ما بينَ وَترها ومَقْبضها. ولا حاجةَ إلى القلب عليه أيضاً، فإنَّ هذا على ما قال الخفاجي: إشارةٌ إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعلُه إذا تحالَفُوا، فإنَّهم كانوا يُخرجون قوسَين ويَلصقون إحداهما بالأخرى فيكونُ القابُ ملاصقاً للآخر، حتى كأنَّهما ذا قابٍ واحدٍ، ثم ينزِعونهما معاً ويرمونَ بهما سهماً واحداً، فيكون ذلك إشارةً إلى أنَّ رضا أحدهم رضا الآخر وسَخَطه سخَطُه لا يمكن خلافُه.

وعن ابن عباس: القوسُ هنا ذراعٌ يُقاسُ به الأطوال، وإليه ذهَبَ أبو[٣] رزين، وذكر الثعلبي: أنَّه من لغة الحجاز[٤].

= الخُسّ ـ بضم الخاء المعجمة وتشديد السين المهملة ـ اسمها هند الإيادية، وهي جاهلية قديمة، أدركت القلمَّس أحد حكام العرب في الجاهلية. خزانة الأدب ١٠/ ٢٦٠.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١/ ٧٩.

(٢) ذكر هذه القراءات الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨.

(٣) في الأصل: ابن رزين، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٨/ ١٥٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٩/ ١٣٨.

وأيًّا ما كان فالمعنى على حَذْف مضاف، أي: فكان ذا قابِ قوسَين، ونحوه قوله:

فـأدرَكَ إبـقـاءَ الـعَـرَادَةِ ظَـلـعُـهـا   وقد جَعَلَتْني مِن حَزيمةَ إِصْبَعَا[1]

فإنَّه على معنى: ذا مقدارِ إصبع، وهو القُرْب، فكأنَّه قيل: فكان قريباً منه. وجوَّز أنْ يكونَ ضمير «كان» للمسافة بتأويلها بالبُعد ونحوه، فلا حاجةَ إلى اعتبار الحذْفِ. وليس بذاك.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أو أقربَ من ذلك، و«أو» للشكِّ من جهة العباد على معنى: إذا رآه الرائي يقول: هو قابُ قوسَين أو أدنى، والمرادُ إفادةُ شدَّة القرب.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: عبد الله وهو النبيُّ ﷺ، والإضمارُ ـ ولم يجر له تعالى ذِكرٌ ـ لكونه في غاية الظهور، ومثلُه كثيرٌ في الكلام، ومنه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ أي: الذي أوحاه، والضميرُ المستترُ لجبريل عليه السلام أيضاً، وإبهامُ الموحَى به للتفخيم، فهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقال ابن زيد[2]: الضميرُ المستتر لله عز وجل، أي: أوحَى جبريلُ إلى عبد الله ما أوحاه اللهُ إلى جبريلَ. والأوَّلُ مرويٌّ عن الحسن وهو الأحسنُ.

---

(١) البيت للكَلْحَبة العريني هبيرة بن عبد مناف العريني كما في المفضليات ص ٣٢، واللسان (حرم)، وخزانة الأدب ١/ ٣٨٨، ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل للأسود بن يعفر ٣/ ٣١.

قوله: إبقاء، هو ما تبقيه الفرس من العَدْو، إذ من عتاق الخيل ما لا تعطي ما عندها من العَدْو بل تبقي منه شيئاً إلى وقت الحاجة، يقال: فرس مبقية: إذا كانت تأتي بجريٍ عند انقطاع جريها وقت الحاجة، والعرادة: اسم فرس الكلحبة، وقوله: ظلعها، الظلوع في الإبل بمنزلة الغَمْزِ، أي: العرج اليسير. وحزيمة: هو ابن طارق كان رئيساً لبني تغلب. يقول: فاتني حزيمة وما بيني وبينه إلا قدر إصبع، وينظر خزانة الأدب.

(٢) في (م): أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ١٥٨، والكلام منه، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٢/ ٢١.

وقيل: ضميرا[١] «أوحَى» الأوَّل والثاني لله تعالى، والمرادُ بالعبد جبريلُ عليه السلام. وهو كما ترى.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: فؤادُ محمدٍ ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: ما قال فؤادُه ﷺ لمَّا رآه ببصره: لم أَعرِفْك، ولو قال ذلك لكان كاذباً؛ لأنَّه عَرَفه بقلبه كما رآه ببصره، فهو من قولهم: كَذَب، إذا قال كذباً، فـ «ما كَذَب» بمعنى: ما قال الكذب.

وقيل: أي: ما كذَب الفؤادُ البصَرَ فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام، وما في عالم الملكوت تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر.

قرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقتادة والجحدري وخالد بن إلياس وهشام عن ابن عامر: «ما كذَّب» مشدَّداً[٢]، أي: صدَّقه ولم يشكَّ أنَّه جبريلُ عليه السلام بصورته.

وفي الآيات مِن تحقيق أمرِ الوحي ما فيها.

وفي «الكشف»: أنَّه لمَّا قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ أي: من عند الله تعالى ﴿يُوحَىٰ﴾، ذكر جل وعلا ما يصوِّر هذا المعنى ويُفصِّله ليتأكَّد أنَّه وَحْيٌ، وأنَّه ليس من الشعر وحديث الكهان في شيءٍ، فقال تعالى: علَّم صاحبَكم هذا الوحيَ مَن هو على هذه الصفات.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ وحديثُ قيامِه بصورته الحقيقية ليؤكِّدَ أنَّ ما يأتيه في صورة دِحْيَةَ هو هو، فقد رآه بصورة نفسه، وعرَفه حقَّ معرفته، فلا يشتبهُ عليه بوجهٍ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ تَتْميمٌ لحديث نزوله إليه عليه الصلاة والسلام وإتيانه بالمنزل.

---

(١) في (م): ضمير.

(٢) قراءة أبي جعفر وهشام في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، وقراءة أبي رجاء وقتادة والجحدري وخالد في القراءات الشاذة ص ١٤٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٨، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريل ذلك الوَحْيَ الذي مرَّ أنَّه مِن عند الله تعالى إلى عبد الله، وإنما قال سبحانه: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ ولم يأت بالضمير تفخيماً لشأن المنزَل، وأنَّه شيءٌ يَجِلُّ عن الوصف، فأنَّى يستجيزُ أحدٌ من نفسه أنْ يقولَ: إنَّه شعرٌ أو حديثُ كاهن.

وإيثارُ «عبده» بَدَلَ: إليه ـ أي: إلى صاحبكم ـ لإضافة الاختصاص، وإيثارُ الضمير على الاسم العَلَم في هذا المقامِ لترشيحه، وأنَّه ليس عبداً إلا له عز وجل، فلا لَبْسَ؛ لشهرته بأنَّه عبد الله لا غير. وجاز أنْ يكونَ التقديرُ: فأوحَى الله تعالى بسببه ـ أي: بسبب هذا المُعلِّم ـ إلى عبده، ففي الفاء دلالةٌ على هذا المعنى، وهذا وجهٌ أيضاً سديدٌ.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ على معنى أنَّه لمَّا عرَفَه وحقَّقَه لم يكذبه فؤادُه بعد ذلك ولو تصوَّر بغير تلك الصورة أنَّه جبريل، فهذا نَظْمٌ سريٌّ مرعيٌّ فيه النكتُ حقَّ الرعاية مطابقٌ للوجود، لم يعدل به عن واجب الوفاق بين البداية والنهاية. انتهى.

وهو كلام نفيسٌ يُرجَّح به ما روي عن عائشة رضي الله عنها، وسيأتي ذلك إن شاء الله عز وجل بما له وما عليه[1].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: أتكذِّبونه فتجادلونه على ما يراه معاينةً، فـ «تمارونه» عطف على محذوفٍ على ما ذهب إليه الزمخشري[2]، مِن المراء، وهو المجادلة، واشتقاقُه من مَرَى الناقة: إذا مسحَ ظهرَها وضَرْعها لِيَخْرُجَ لَبَنُها وتدرَّ به، فشبَّه به الجدال لأنَّ كلًّا من المتجادلَين يطلبُ الوقوفَ على ما عند الآخر ليُلزِمَه الحجَّةَ، فكأنه يستخرج درَّه.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب

(١) في (م): بما له وعليه. وسيأتي ص١٢٣ من هذا الجزء.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢٩.

وابن سعدان وحمزة والكسائي وخلف: «أفتَمْرُونه» بفتح التاء وسكون الميم[(١)] مضارع مَريتُ، أي: جحدْتُ، يقال: مريتُه حقَّه: إذا جحدتَه، وأنشدوا لذلك قول الشاعر:

لئن هَجَرْتَ أخا صِدْقٍ ومَكْرُمَةٍ   لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيْكَا[(٢)]

أو مضارع مَرِيتُه: إذا غلبتَه في المِراء على أنَّه من باب المغالبة، ويجوزُ حَمْل ما في البيت عليه، وعدِّي الفعلُ بـ «على» وكان حقُّه أنْ يُعدَّى بـ «في» لتضمينه[(٣)] معنى المغالبة، فإنَّ المجادِلَ والجاحد يقصدان بفعلهما غلبةَ الخَصْم.

وقرأ عبد الله فيما حكى ابنُ خالويه، والشعبيُّ فيما ذكر شعبة: «أفتُمْرُونه» بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريتُ[(٤)]، قال أبو حاتم: وهو غلطٌ.

والمرادُ بـ «ما يَرَى» ما رآه من صورة جبريلَ عليه السلام، وعبَّر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لِمَا فيها من الغَرابة، وفي «البحر»: جيء بصيغة المضارع وإنْ كانت الرؤية قد مضَت إشارةً إلى ما يمكن حدوثُه بعدُ[(٥)].

وقيل: المرادُ: أفتمارُونه على ما يرى مِن الصُّور التي يظهرُ بها جبريلُ عليه السلام بعدَ ما رآه قبلُ وحقَّقه، بحيث لا يشتَبِهُ عليه بأيِّ صورةٍ ظَهَر، فالتعبير بالمضارع على ظاهره.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: رأى النبيُّ جبريلَ ﷺ في صورته التي خلَقَه الله تعالى عليها ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مرَّةً أخرى من النزول، وهي «فَعْلَة» من النزول، أُقيمَت مقام المرة ونُصبَت نَصْبَها على الظرفية؛ لأنَّ أصل المرة مصدر مرَّ يمرُّ، ولشدَّة اتِّصال

---

(١) قراءة يعقوب وحمزة والكسائي وخلف في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، وقراءة علي كرم الله وجهه وعبد الله وابن عباس ﷺ وابن سعدان في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩، والبحر المحيط ٩/ ١٥٩.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.

(٣) في الأصل: لتضمنه.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩ والكلام منه.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٩.

الفعل بالزمان يُعبَّر به عنه، ولم يقل: مرةً، بدَلَها ليُفيدَ أنَّ الرؤيةَ في هذه المرة كانت بنزولٍ ودنوٍّ كالرؤية في المرة الأُولَى الدالِّ عليها ما مرَّ.

وقال الحوفي وابنُ عطية: إنَّ «نزلةً» منصوبٌ على المصدرية للحال المقدَّرة، أي: نازلاً نزلةً[(١)].

وجوَّز أبو البقاء كونَه منصوباً على المصدرية لـ «رأى» من معناه، أي: رؤيةً أُخرَى[(٢)]. وفيه نظر.

والمرادُ من الجملة القَسَمية نَفْيُ الريبة والشكِّ عن المرة الأخيرة، وكانت ليلةَ الإسراء.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ هي شجرةُ نَبِق عن يمين العرشِ في السماء السابعة على المشهور، وفي حديث أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم في السماء السادسة[(٣)]، نَبِقُها كقِلال هَجَر، وأَوراقُها مثلُ آذانِ الفيلة[(٤)]، يسيرُ الراكبُ في ظلِّها سبعينَ عاماً لا يقطعُها[(٥)].

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن أسماء بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما مرفوعاً: «يسيرُ الراكبُ في الفَنَنِ منها مئَةَ سنةٍ»[(٦)].

والأحاديث ظاهرةٌ في أنَّها شجرةُ نَبِقٍ حقيقةً، والنبات في الشاهد يكونُ ترابيّاً ومائيّاً وهوائيّاً؛ ولا يبعدُ من الله تعالى أنْ يخلُقَه في أيِّ مكانٍ شاء، وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنَّها تنبتُ في أصل الجحيم. وقيل: إطلاقُ السِّدرة

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ١٥٩.

(٣) مسند أحمد (٣٦٦٥)، وصحيح مسلم (١٧٣)، وسنن الترمذي (٣٢٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ينظر حديث أنس رضي الله عنه عند أحمد (١٢٥٠٥)، ومسلم (١٦٢)، وفيه: «... ثم ذُهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال...».

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٨.

(٦) المستدرك ٢/ ٤٦٩، وأخرجه الترمذي (٢٥٤١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

عليها مجازٌ لأنَّها تجتمعُ عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمعُ الناس في ظلِّ السِّدرة.

و«المنتهى» اسمُ مكانٍ، وجوِّز كونُه مصدراً ميمياً. وقيل لها «سِدْرَة المنتهى» لأنَّها كما أخرج عبد بنُ حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس: إليها ينتهي علمُ كلِّ عالمٍ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى[1]. أو لأنَّها ينتهي إليها علمُ الأنبياء عليهم السلام ويعزُبُ عِلْمُهم عما وراءها. أو لأنَّها تنتهي إليها أعمالُ الخلائق، بأنْ تُعرَضَ على الله تعالى عندها. أو لأنَّها ينتهي إليها ما ينزِلُ مِن فوقها وما يصعدُ من تحتها. أو لأنَّها تنتهي إليها أرواحُ الشهداء، أو أرواحُ المؤمنين مطلقاً. أو لانتهاء مَن رُفع إليها في الكرامة. وفي «الكشاف»: كأنَّها منتهى الجنة وآخرُها[2].

وإضافة «سِدْرة» إلى «المُنتهَى» من إضافة الشيءِ لمحلِّه، كما في: أشجار البستان، وجوِّز أنْ تكونَ من إضافة المحلِّ إلى الحالِّ كما في قولك: كتاب الفقه.

وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ «المنتهى» اللهَ عز وجل، فالإضافةُ من إضافة المُلْك إلى المالك، أي: سِدْرة الله الذي إليه المنتهى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ وعُدَّ ذلك من باب الحذفِ والإيصال. ولا يخفَى أنَّ هذا القولَ يكادُ يكون المنتهى في البعد.

﴿عِندَهَا﴾ أي: عند السدرة، وجوِّزَ أنْ يكونَ الضميرُ للنزلة، وهو نازلٌ عن رُتبة القَبول.

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسن، واستُدلَّ به على أنَّ الجنةَ في السماء.

وقال ابن عباس بخلافٍ عنه وقتادة: هي جنةٌ تأوي إليها أرواح الشهداء، وليست بالتي وُعِد المتقون.

---

(١) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٥، وأخرج الطبري ٢٢/ ٣٣ عن كعب الأحبار، أنه حدث به ابن عباس لما سأله ابن عباس عن سدرة المنتهى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٩.

وقيل: هي جنةٌ تأوي إليها الملائكةُ عليهم السلام. والأول أظهرُ.

والمأوى على ما نصَّ عليه الجمهور اسمُ مكانٍ، وإضافة الجنة إليه بيانية.

وقيل: من إضافة الموصوفِ إلى الصفة كما في مسجد الجامع. وتعقِّب بأنَّ اسمَ المكان لا يوصَف به.

والجملةُ حاليةٌ، وقيل: الحالُ هو الظرفُ، و«جنةٌ» مرتفعٌ به على الفاعلية.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو الدرداء وأبو هريرةَ وابنُ الزبير وأنسُ وزرٌّ ومحمد بنُ كعب وقتادةُ: «جَنَّهُ» بهاء الضمير[1]، وهو ضميرُ النبيِّ ﷺ، وجَنَّ: فعلٌ ماضٍ، أي: عندها ستَرَه إيواءُ الله تعالى وجميلُ صُنعِهِ به، أو ستَرَه المأوَى بظلاله ودَخَل فيه. على أنَّ «المأوَى» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ. وجنَّه بمعنى ستَرَه، قال أبو البقاء: شاذٌّ، والمستعملُ أَجنَّه[2]. ولهذا قالت عائشة ﵂ وكذا جَمْعٌ من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: مَن قَرأَ به فأَجنَّه الله تعالى، أي: جعَلَه مجنوناً، أو أدخله الجَنَنَ وهو القبرُ. وأنت تعلمُ أنَّه إذا صحَّ أنَّه قرأ به الأمير كرم الله تعالى وجهه ومَن معه من أكابر الصحابة فليس لأحدٍ ردُّه من حيث الشذوذ في الاستعمال، وعائشة قد حُكيَ عنها الإجازة أيضاً[3].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «رآه». وقيل: بما بَعْدُ مِن الجملة المنفية، ولا يضرُّ التقدُّم على «ما» النافية؛ للتوسع في الظرف.

والغَشَيانُ بمعنى التغطية والستر، ومنه الغَواشي، أو بمعنى الإتيان؛ يقال: فلانٌ يغشَى زيداً كلَّ حينٍ، أي: يأتيه. والأولُ هو الأَلْيَقُ بالمقام.

وفي إبهام «ما يغشى» من التفخيم ما لا يخفَى، فكأنَّ الغاشي أمرٌ لا يحيطُ به نطاقُ البيان، ولا تَسَعُه أردانُ الأذهان. وصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضية

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٩، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٧.

(٣) البحر ٨/ ١٦٠.

استحضاراً لصورتها البديعة، وجوِّز أنْ يكونَ للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدُّد.

ووَرَدَ في بعض الأخبار تعيينُ هذا الغاشي، فعن الحسن: غَشِيَها نورُ ربِّ العزة جلَّ شأنُه فاستنارَت. ونحوُه ما روي عن أبي هريرةَ: يَغْشاها نورُ الخلَّاق سبحانه.

وعن ابن عباسٍ: غَشِيَها ربُّ العزة عز وجل، وهو من المتشابه.

وقال ابنُ مسعود ومجاهد وإبراهيم: يغشاها جرادٌ من ذهب.

وروي عن مجاهد: أنَّ ذلك تبدُّل أغصانها لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً.

وأخرج عبدُ بن حميد عن سلمةَ قال: استأذنَت الملائكةُ الربَّ تبارك وتعالى أنْ ينظروا إلى النبيِّ ﷺ، فأذِنَ لهم، فغَشِيَت الملائكةُ السِّدرةَ لينظروا إليه عليه الصلاة والسلام[(١)].

وفي حديث: «رَأَيتُ على كلِّ ورقةٍ مِن وَرَقها ملكاً قائماً يُسبِّحُ الله تعالى»[(٢)].

وقيل: يغشاها رَفْرَفٌ مِن طيرٍ خُضْرٍ، والإبهامُ على هذا كلِّه على نحو ما تقدَّم.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مالَ بصَرُ رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوَزَه، بل أثبتَهُ إثباتاً صحيحاً مستيقناً، وهذا تحقيقٌ للأمر ونَفْي للرَّيب عنه، أو: ما عدَلَ عن رؤية العجائبِ التي أُمِرَ برؤيتها وما جاوَزَها إلى ما لم يُؤمَر برؤيته.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: واللهِ لقد رَأى الآياتِ الكبرى من آياته تعالى، وعجائبِهِ الملكية والملكوتية ليلةَ المعراج، فـ«الكبرى» صفةُ موصوفٍ محذوفٍ مفعول لـ«رأى» أُقيمَت مقامَه بعد حذفه، وقدِّر مجموعاً ليطابِقَ الواقع.

وجوِّز أنْ تكونَ «الكبرى» صفة المذكورِ على معنى: ولقد رَأى بعضاً من الآيات الكبرى، ورجِّح الأولُ بأنَّ المقامَ يقتضي التعظيمَ والمبالغة، فينبغي أنْ

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد يرفعه إلى النبي ﷺ، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠-١٦١: وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

يُصرِّح بأنَّ المَرئيَّ الآياتُ الكبرى، وجوَّزت الوصفيةُ المذكورةُ مع كون «مِن» مزيدةً، وأنت تعلم أنَّ زيادةَ «مِن» في الإثبات ليس مُجمَعاً على جوازه.

وجاء في بعض الأخبار تعيينُ ما رأى عليه الصلاة والسلام، أخرج البخاريُّ وابن جرير وابن المنذر وجماعة عن ابن مسعود أنَّه قال في الآية: رأى رَفْرفاً أخضرَ من الجنة قد سَدَّ الأفق[1].

وعن ابن زيد: رَأى جبريلَ عليه السلام في الصورة التي هو بها.

والذي ينبغي أنْ لا يُحمَلَ ذلك على الحصر كما لا يخفى، فقد رَأى عليه الصلاة والسلام آياتٍ كُبرَى ليلةَ المعراج لا تُحصَى، ولا تكادُ تُستقصَى.

هذا وفي الآيات أقوالٌ غيرُ ما تقدَّم، فعن الحسن: أنَّ «شديد القُوى» هو الله تعالى، وجمع «القُوى» للتعظيم، ويُفسَّر «ذو مِرَّة» عليه بذي حكمةٍ ونحوه مما يليقُ أنْ يكونَ وصفاً له عز وجل. وجعل أبو حيان الضميرَين في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عليه له سبحانه أيضاً، وقال: إنَّ ذلك على معنى العظمةِ والقدرة والسلطان[2].

ولعلَّ الحسنَ يجعلُ الضمائر في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ له عز وجل أيضاً، وكذا الضميرُ المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقد كان عليه الرحمة يحلفُ بالله تعالى، لقد رأى محمدٌ ﷺ ربَّه، وفُسِّر دنوُّه تعالى من النبيِّ ﷺ برَفْع مكانتِهِ ﷺ عنده سبحانه، وتَدلِّيه جل وعلا بجَذْبِهِ بشراشره إلى جناب[3] القدس، ويقال لهذا الجَذْبِ: الفناءُ في الله تعالى، عند المتألِّهين، وأُريدَ بنزوله سبحانه نوعٌ مِن دنوِّه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاعُ عِلْمه إلى الله تعالى بعد نَفْي التشبيه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٣) و(٤٨٥٨)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٤٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.

(٣) في (م): جانب.

وجوّز أنْ تكونَ الضمائرُ في[1] «دنا فتدلَّى فكان قابَ قوسَين أو أدنى» على ما روي عن الحسن للنبيِّ ﷺ، والمرادُ: ثمَّ دنا النبيُّ عليه الصلاة والسلام من ربِّه سبحانه، فكان منه عز وجل قابَ قوسَين أو أدنى، والضمائرُ في «فأوحى» إلخ لله تعالى، وقيل: «إلى عبده» ولم يقل: إليه، للتفخيم، وأمرُ المتشابه قد عُلم.

وذهب غيرُ واحد في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ إلى أنّه في أمر الوحي وتلقّيه من جبريل عليه السلام على ما سمعتَ فيما تقدَّم، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إلخ إلى أنَّه في أَمْر العروجِ إلى الجناب الأقدس، ودنوِّه سبحانه منه ﷺ، ورؤيتِهِ عليه الصلاة والسلام إياه جل وعلا، فالضمائرُ في «دنا» و«تدلَّى» و«كان» و«أوحى» وكذا الضمير المنصوب في «رآه» لله عز وجل. ويشهدُ لهذا ما في حديث أنس عند البخاري من طريق شَرِيك بن عبد الله: «ثمَّ عَلَا به فوقَ ذلك بما لا يعلَمُه إلا الله، حتى جاءَ سدرةَ المنتهى، ودنا الجبَّارُ ربُّ العزة، فتدلَّى حتى كان منه قابَ قوسَين أو أدنى، فأوحَى إليه فيما أوحَى خمسينَ صلاةً» الحديث[2]، فإنَّه ظاهرٌ فيما ذكر.

واستدل بذلك مُثبتُو الرؤيةِ كحبر الأمةِ ابنِ عباس رضي الله عنهما وغيرِه، وادَّعَت عائشةُ رضي الله عنها خلافَ ذلك.

أخرج مسلم عن مسروق قال: كنتُ متَّكئاً عند عائشةَ فقالت: يا أبا عائشةَ، ثلاثٌ مَن تكلَّم بواحدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على الله تعالى الفريةَ. قلت: ما هنَّ؟ قالت: مَن زَعَم أنَّ محمداً رأى ربَّه، فقد أعظمَ على الله الفرية. قال: وكنتُ متَّكئاً فجلستُ فقلت: يا أمَّ المؤمنين أَنظِريني ولا تَعجَليني، ألم يقُل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أولُ هذه الأمةِ سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «لا، إنَّما هو جبريلُ لم أَرَه على صورتِهِ التي خُلِقَ عليها غير هاتَين المرَّتَين، رأيتُه مُنهَبِطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء إلى الأرض» الحديث[3].

---

(١) قوله: في، ليس في الأصل.
(٢) صحيح البخاري (٧٥١٧)، وأخرجه مسلم (١٦٢).
(٣) صحيح مسلم (١٧٧)، وأخرجه البخاري مختصراً (٣٢٣٥).

وفي رواية ابن مردويه من طريقٍ أُخرَى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق: فقالت: أنا أولُ مَن سألَ رسولَ الله ﷺ عن هذا فقلتُ: يا رسولَ الله، هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «إنما رأيتُ جبريلَ مُنْهبِطاً»(١).

ولا يخفى أنَّ جوابَ رسولِ الله ﷺ ظاهرٌ في أنَّ الضمير المنصوبَ في «رآه» ليس راجعاً إليه تعالى، بل إلى جبريلَ عليه السلام، وشاعَ أنَّها تَنْفي أنْ يكونَ ﷺ رأى ربَّه سبحانه مطلقاً، وتستدلُّ لذلك بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١] وهو ظاهرُ ما ذكره البخاريُّ في «صحيحه» في تفسير هذه السورة(٢).

وقال بعضُهم: إنَّها تَنْفي رؤيةً تدل عليها الآية التي نحن فيها، وهي التي احتجَّ بها مسروق.

وحاصل ما روي عنها نَفْيُ صحةِ الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربَّه سبحانه، ببيان أنَّ مَرجِعَ الضمير فيها إنَّما هو جبريلُ عليه السلام، على ما يدلُّ عليه جوابُ رسولِ الله ﷺ إيَّاها، وحَمْلُ قوله ﷺ في جوابها «لا» على أنَّه نَفْيٌ للرؤية المخصوصة، وهي التي يُظَنُّ دلالةُ الآية عليها، ويَرجِعُ إلى نَفْي الدلالة، ولا يلزمُ مِن انتفاءِ الخاصِّ انتفاءُ المطلَق.

والإنصافُ أنَّ الأخبار ظاهرةٌ في أنَّها تنفي الرؤيةَ مطلقاً، وتستدلُّ عليه بالآيتَين السابقتَين.

وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤيةِ بما هو مذكورٌ في محلِّه.

والظاهرُ أنَّ ابن عباس لم يقُل بالرؤية إلا عن سماع، وقد أخرج عنه أحمدُ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ربِّي»(٣) ذكره الشيخُ محمد الصالحي الشامي(٤)

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٤.

(٢) برقم (٤٨٥٥).

(٣) مسند أحمد (٢٥٨٠).

(٤) شمس الدين محمد الشامي، نزيل التربة البرقوقية، ألَّف السيرة النبوية التي جمعها من ألفِ =

تلميذُ الحافظ السيوطيِّ في «الآيات البينات» وصحَّحه.

وجمع بعضُهم بين قولَي ابن عباس وعائشةَ بأنَّ قولَ عائشةَ محمولٌ على نَفْي رؤيته تعالى في نوره الذي هو نورُه المنعوتُ بأنَّه لا يقوم له بصر، وقولَ ابنِ عباسٍ محمولٌ على ثبوت رؤيته تعالى في نوره الذي لا يذهبُ بالأبصار، بقرينة قوله في جواب عكرمة عن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: ويحَكَ ذاك إذا تجلَّى بنورِهِ الذي هو نورُه[(١)].

وبه يظهرُ الجمعُ بين حديثَي أبي ذرٍّ، أخرج مسلم من طريق يزيد بنِ إبراهيم، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقِيق، عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أَرَاه». ومِن طريق هشام وهَمَّام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال: قلتُ لأبي ذرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألتُه. فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه هل رأيتَ ربك؟ فقال أبو ذرٍّ: قد سألتُه فقال: «رأيتُ نوراً»[(٢)].

فيحمل النورُ في الحديث الأول على النور القاهرِ للأبصار، بجَعْل التنوينِ للنوعية أو للتعظيم، والنورُ في الثاني على ما لا يقومُ له البصرُ، والتنوين للنوعية، وإنْ صحَّت روايةُ الأول كما حكاه أبو عبد الله المازري بلفظ: «نُورَانيٌّ» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء[(٣)] لم يكن اختلافٌ بينَ الحديثَين، ويكون «نورانيٌّ» بمعنى المنسوب إلى النور على خلاف القياس؛ ويكونُ المنسوبُ إليه هو نورُه الذي هو نورُه، والمنسوبُ هو النورُ المحمول على الحجاب حَمْلَ مواطأةٍ في حديث السبحات في قوله عليه الصلاة والسلام: «حِجَابُه النُّورُ»[(٤)]، وهو النورُ المانعُ من الإحراق الذي يقومُ له البصر.

= كتاب، وله: مرشد السالك إلى ألفية ابن مالك والنكت عليها، اقتضبه من نكت شيخه السيوطي عليها وعلى الشذور، والآيات البينات في معراج سيد أهل الأرض والسماوات. (ت ٩٤٢هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٣٥٣.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) صحيح مسلم (١٧٨): (٢٩١)، و(١٧٨): (٢٩٢).

(٣) المعلم بفوائد مسلم للمازري ١/ ٢٢٣-٢٢٤. وينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥٣٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٦٣٢)، ومسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

ثم إنَّ القائلين بالرؤية اختلفُوا، فمنهم مَن قال: إنَّه عليه الصلاة والسلام رأى ربَّه سبحانه بعَيْنِهِ، ورَوَى ذلك ابنُ مردويه عن ابن عباس(١)، وهو مرويٌّ أيضاً عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد ابن حنبل(٢).

ومنهم مَن قال: رآه عز وجل بقلبه، ورُوي ذلك عن أبي ذرٍّ، أخرج النسائي عنه أنَّه قال: رأى رسول الله ﷺ ربَّه بقلبه ولم يَرَهُ ببصره(٣). وكذا رُوي عن محمد بن كعب القرظي، بل أخرج عبد بنُ حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه [عن بعض أصحاب النبي ﷺ] أنَّه قال: قالوا: يا رسول الله، رأيتَ ربك؟ قال: «رأيتُه بفؤادي مرَّتين ولم أَرَهُ بعيني» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(٤). وفي حديثٍ عن ابن عباس يرفعُه: «فجَعَلَ نورَ بَصَري في فؤادي فنظرتُ إليه بفؤادي»(٥)

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٤ وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠٩-٥١٠: الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربَّه بفؤاده مرتين... والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد... ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه. وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: رآه بفؤاده، ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول: رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدلُّ، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنَّى أراه»، وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى. وكذلك قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى اللهَ أحدٌ في الدنيا بعينه، إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد ﷺ خاصة، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً كما يرون الشمس والقمر. اهـ.

(٣) السنن الكبرى (١١٤٧٢).

(٤) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٥، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ وما بين حاصرتين منهما.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: إسناده ضعيف.

وكأنَّ التقدير في الآية على هذا: ما كذَبَ الفؤادُ فيما رأى.

ومنهم مَن ذهَبَ إلى أنَّ إحدَى الرؤيَتَين كانت بالعين، والأُخَرى بالفؤاد، وهي روايةٌ عن ابن عباس، أخرج الطبراني وابن مردويه عنه أنَّه قال: إنَّ محمداً ﷺ رَأى ربَّه عز وجل مرَّتين مرَّةً ببصره ومرةً بفؤاده(١).

ونقل القاضي عياض عن بعض مشايخه أنَّه توقَّفَ، أي: في الرؤية بالعين، وقال: إنَّه ليس عليه دليلٌ واضحٌ(٢).

قال في «الكشف»: لأنَّ الروايات مصرِّحةٌ بالرؤية أما أنَّها بالعين فلا، وعن الإمام أحمد أنَّه كان يقول إذا سُئل عن الرؤية: رآه رآه. حتى ينقطعَ نفسُه، ولا يزيدُ على ذلك، وكأنَّه لم يثبُت عنده ما ذكرناه.

واختُلف فيما يقتضيه ظاهرُ النَّظم الجليل، فجَزَم صاحبُ «الكشف» بأنَّه ما عليه الأكثرون مِن أنَّ الدنوَّ والتدلِّي مقسَّم ما بين النبيِّ وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما، أي: وأنَّ المرئيَّ هو جبريلُ عليه السلام، وإذا صحَّ خبرُ جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشةَ ﵂ لم يكن لأحدٍ محيصٌ عن القول به.

وقال العلامةُ الطيبي: الذي يقتضيه النظمُ إجراءُ الكلام إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ على أمر الوحي وتلقِّيه من المَلَك ورفع شُبَه الخصوم، ومن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ على أمر العروجِ إلى الجناب الأقدَسِ، ثم قال: ولا يخفَى على كلِّ ذي لُبٍّ إباءُ مقام «فأوحى» الحملَ على أنَّ جبريلَ أَوحَى إلى عبد الله «ما أوحى»، إذ لا يذوقُ منه أربابُ القلوب إلا معنى المناغاة بين المتَسارَّين، وما يضيقُ عنه بساطُ الوهم ولا يُطيقُه نطاقُ الفهم. وكلمةُ «ثم» على هذا للتراخي الرُّتْبي، والفرقُ بين الوحْيَيْن أنَّ أحدَهما وَحْيٌ بواسطة وتعليم، والآخَرُ بغير واسطةٍ بجهة التكريم،

---

(١) المعجم الكبير (١٢٥٦٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢، وفي إسناده مجالد بن سعيد، قال عنه ابن حجر في التقريب: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره.

(٢) إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥٢٧، وشرح مسلم للنووي ٣/ ٤.

فيحصل عنه[1] عنده الترقِّي من مقام ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] إلى مَخْدَع (قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ).

وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنَّه قال: لمَّا قَرُبَ الحبيبُ غايةَ القرب نالَته غايةُ الهيبة، فلاطفَه الحقُّ سبحانه بغاية اللطف؛ لأنَّه لا تُتحمَّل غايةُ الهيبةِ إلا بغاية اللطف، وذلك قوله تعالى: (فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ) أي: كان ما كان وجَرَى ما جَرَى، قال الحبيبُ للحبيب ما يقول الحبيبُ لحبيبه، وألطفَ به إلطافَ الحبيب بحبيبه، وأسرَّ إليه ما يُسِرُّ الحبيب إلى حبيبه، فأَخْفَيَا ولم يُطْلِعا على سرِّهما أحداً، وإلى نحو هذا يشير ابنُ الفارض بقوله:

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى[2]

ومعظمُ الصوفية على هذا، فيقولون بدنوِّ الله عز وجل من النبيِّ ﷺ، ودنوِّه منه سبحانه على الوجه اللائق، وكذا يقولون بالرؤية كذلك.

وقال بعضُهم في قوله تعالى: (مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ): ما زاغ بصرُ النبيِّ ﷺ، وما التفَتَ إلى الجنة ومُزَخْرفاتها، ولا إلى الجحيم وزَفَراتها، بل كان شاخصاً إلى الحقِّ، وما طغَى عن الصراط المستقيم.

وقال أبو حفص السهروردي: «ما زاغ البصرُ» حيث لم يتخلَّف عن البصيرة ولم يتقاصر، «وما طغَى» لم يسبق البصرُ البصيرةَ[3] ويتعدَّى مقامه.

وقال سهل بنُ عبد الله التستري: لم يرجع رسولُ الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها، وإنَّما كان مشاهداً لربِّه تعالى، يُشاهد ما يظهرُ عليه من الصفات التي أَوجبَت الثبوت في ذلك المحلِّ.

وأرجَعَ بعضُهم الضميرَ في قوله تعالى: (وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ) إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهو مُنتهى وصولِ اللطائف، وفسَّر «سِدرةَ المنتهى» بما يكون منتهى سيرِ

---

(١) قوله: عنه، ليس في الأصل.

(٢) ديوان ابن الفارض ص ١٦٩، وسلف عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٣) في الأصل: تسبق البصيرة البصر، والمثبت من (م).

السالكين إليه، ولا يمكن لهم مجاوزتُه إلا بجذبةٍ من جذبات الحقِّ. وقالوا في «قابَ قوسَين» ما قالوا.

وأنا أقول برؤيته ﷺ ربَّه سبحانه، وبدنوِّه منه سبحانه على الوجه اللائق، ذهبْتَ فيما اقتضاه ظاهرُ النظم الجليلِ إلى ما قاله صاحبُ «الكشف»، أم ذهبتَ فيه إلى ما قاله الطيبي، فتأمَّل والله تعالى الموفق.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هي أصنامٌ كانت لهم، فاللات كما قال قتادة: لثقيف بالطائف، وأنشدوا:

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إلى لاتِها ... بِمُنْقَلَبِ الخائبِ الخاسرِ[١]

وقال أبو عبيدة وغيرُه: كان بالكعبة[٢].

وقال ابنُ زيد: كان بنخلة عند سوقِ عُكاظ يعبدُه قريش.

ورجَّح ابنُ عطية قولَ قتادة[٣]، وقال أبو حيان[٤]: يمكنُ الجمعُ بأنْ يكونَ المسمَّى بذلك أصناماً فأُخبِرَ عن كلِّ صنمٍ بمكانه.

والتاء فيه قيل: أصليةٌ، وهي لام الكلمة كالباء في باب، وألفه مُنقلبةٌ فيما يظهرُ من ياء؛ لأنَّ مادة «ل ي ت» موجودةٌ، فإنْ وُجِدَت مادةُ «ل وت» جازَ أنْ تكونَ مُنقلبةً من واو.

وقيل: تاءُ العِوض، والأصل لَويَة بزِنَةِ فَعلَة من لَوَى؛ لأنَّهم كانوا يَلْوُون عليه ويعتكفُون للعبادة، أو يلتوون عليه، أي: يطوفُون، فخفِّف بحذف الياء وأُبدِلَت واوُهُ ألفاً، وعوِّضَ عن الياء تاءً، فصارَت كتاء أخت وبنت، ولذا وُقِفَ عليها بالتاء.

---

(١) البيت لضرار بن الخطاب الفهري كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٧، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٦٠.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠.

(٤) في البحر المحيط ٨/ ١٦٠.

وقرأ ابن عباس ومجاهد ومنصور بنُ المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بتشديد التاء[١] على أنَّه اسمُ فاعلٍ من لتَّ يلُتُّ إذا عَجَن؛ قيل: كان رجلٌ يلُتُّ السَّويق للحاجِّ على حَجَر، فلمَّا ماتَ عبدوا ذلك الحجَرَ إجلالاً له وسمَّوه بذلك.

وعن مجاهد أنَّه كان على صخرة في الطائف يصنعُ حَيساً، ويُطعم مَن يمرُّ من الناس، فلمَّا مات عبدوه.

وأخرجَ ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: أنَّه كان يلُتُّ السَّويق على الحجر، فلا يشربُ منه أحدٌ إلا سَمِنَ فعبدوه[٢].

وأخرج الفاكهي عنه: أنَّه لمَّا مات قال لهم عمرو بن لحي: إنَّه لم يَمُت ولكنَّه دَخَل الصخرة. فعبدوها وبنَوا عليها بيتاً[٣].

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّه قال: كان رجلٌ من ثقيف يلُتُّ السويق بالزيت، فلمَّا تُوفي جعلوا قبرَه وثناً. وزعم الناس أنَّه عامرُ بن الظَّرِب أحدُ عَدْوان[٤]. وقيل غيرُ ذلك.

«والعزَّى» لغطفان، وهي على المشهور سَمُرَةٌ بنخلةَ كما قال قتادة، وأصلُها تأنيثُ الأعزِّ، وأخرج النسائيُّ وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: لمَّا فتَحَ رسولُ الله ﷺ مكة بعَثَ خالد بنَ الوليد إلى نخلةَ وكانت بها العزَّى، فأتاها خالد، وكانت ثلاثَ سَمُرات، فقطَعَ السَّمُرات وهدَمَ البيت الذي كان عليها، ثم أتَى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً، فرجَعَ خالد فلمَّا أبصَرَته السَّدنة مضَوا وهم يقولون: يا عُزَّى يا عُزَّى، فأتاها فإذا امرأةٌ عُريانةٌ ناشرةٌ شعرها

---

(١) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٩، وهي رواية رويس عنه والكلام من البحر ٨/ ١٦٠، والمشهور عن ابن كثير تخفيف التاء كقراءة الباقين.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦، وأصله عند البخاري (٤٨٥٩) بلفظ: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ رجلاً يلُتُّ سويق الحاج.

(٣) عزاه للفاكهي السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

تحثو الترابَ على رأسها، فجعَلَ يضربها بالسيف حتى قتَلَها، ثم رَجَع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العُزَّى»[١].

وفي روايةٍ أنَّه ﷺ بعَثَ إليها خالداً، فقطعها فخرجَت منها شيطانةٌ ناشرةٌ شعرَها، داعيةٌ ويلَها، واضعةٌ يدَها على رأسها، فضرَبَها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يـا عُـزُّ كُـفْـرَانَـك لا سبـحـانَـك إنِّـي رأيـتُ الله قـد أهـانَـكِ

ورجَعَ فأخبرَ رسولَ الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العزَّى ولن تعبدَ أبداً»[٢].

وقال ابنُ زيد: كانت العزَّى بالطائف. وقال أبو عبيدة: كانت بالكعبة[٣]. وأَيَّده في «البحر» بقول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين: لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم[٤]. وذَكَر فيه أنَّه صنمٌ، وجَمَعَ بمثل ما تقدَّم.

«ومناةَ» قيل: صخرة كانت لهذيل وخزاعة، وعن ابن عباس: لثقيف، وعن قتادة: للأنصار بقديد، وقال أبو عبيدة: كانت بالكعبة أيضاً[٥]. واستظهر أبو حيان أنَّها ثلاثتُها كانت فيها؛ قال: لأنَّ المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ قريشٌ[٦]. وفيه بحث.

و«مناة» مقصورةٌ قيل: وزنُها فَعْلَة، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ دماءَ النَّسائِكِ كانت تُمنَى عندها، أي: تُراقُ.

---

(١) السنن الكبرى (١١٤٨٣)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٩٠٢)، وأبو نعيم في الدلائل (٤٦٣).

(٢) أخرجها الواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٤) البحر ٨/ ١٦١، وقول المصنف الآتي: وجمع بمثل ما تقدم، أي: جمع أبو حيان بين هذه الأقوال بمثل ما جمع بين الأقوال في اللات كما سلف قريباً.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٦١.

وقرأ ابن كثير على ما في «البحر»: «مناءَةَ» بالمدِّ والهمز[١]، كما في قوله:

أَلَا هـل أتـى تَـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ على النأي فيما بيننا ابنُ تَميم[٢]

ووزنُها مَفْعَلَة، فالألف منقلبة عن واو كما في مقالة، والهمزةُ أصلٌ، وهي مشتَّقةٌ من النَّوء، كأنَّهم كانوا يستمطرون عندها الأنواءَ تبرُّكاً بها.

والظاهرُ أنَّ «الثالثةَ الأُخرَى» صفتان لـ «مناة»، وهما على ما قيل: للتأكيد، فإنَّ كونَها ثالثةً وأُخرَى مغايرةً لِمَا تقدَّمها معلومٌ غيرُ محتاجٍ للبيان.

وقال بعضُ الأجلَّة: «الثالثة» للتأكيد، و«الأخرى» للذمِّ بأنَّها متأخِّرة في الرتبة وضيعةُ المقدار.

وتعقبه أبو حيان: بأنَّ «آخر» ومؤنَّثَهُ «أُخرى» لم يُوضعا لذمٍّ ولا لمدحٍ، وإنما يدلَّان على معنَى «غير»[٣]. والحقُّ أنَّ ذلك باعتبار المفهوم الأصلي، وهي تدلُّ على ذمِّ السابقَتين أيضاً؛ قال في «الكشف»: هي اسمُ ذمٍّ يدلُّ على وَضاعة السابقتَين بوجهٍ أيضاً؛ لأنَّ «أُخرَى» تأنيثَ «آخر» تستدعي المشاركةَ مع السابق، فإذا أتَى بها لقصد التأخُّر في الرتبة عملاً بمفهومها الأصلي ـ إذ لا يمكن العملُ بالمفهوم العُرفي؛ لأنَّ السابقتَين ليستَا ثالثة أيضاً ـ استَدْعَت المشاركة قضاءً لحقِّ التفضيل، وكأنَّه قيل: «الأُخرَى» في التأخُّر. انتهى. وهو حَسَنٌ، وذكر في نكتة ذمِّ مناةَ بهذا الذمِّ أنَّ الكفرةَ كانوا يزعُمُون أنَّها أعظمُ الثلاثة، فأَكْذَبهم الله تعالى بذلك.

وقال الإمام: «الأُخرَى» صفةُ ذمٍّ كأنَّه قال سبحانه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ الذليلة، وذلك لأنَّ اللاتَ كان على صورةِ آدميٍّ، والعزَّى صورةُ نباتٍ، ومناة صورةُ صخرة، فالآدميُّ أشرفُ مِن النبات، والنبات أشرفُ من الجماد، فالجماد متأخِّرٌ، ومناة جمادٌ فهي في أُخرَيات المراتب[٤]. وأنت تعلم أنَّه لا يتأتَّى على كلِّ الأقوال.

---

(١) البحر ٨/ ١٦١، وهي في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩.

(٢) البيت لهَوْبَر الحارثي كما في تفسير القرطبي ٢٠/ ٣٧، واللسان (منى).

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٩٦.

وقيل: «الأُخرَى» صفةٌ للعزَّى؛ لأنَّها ثانيةُ اللات، والثانيةُ يقال لها: «الأُخرَى»، وأُخِّرَت لموافقة رؤوس الآي.

وقال الحسين بن الفضل[1]: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقدير: والعزَّى الأُخرى ومناة الثالثة. ولَعَمري إنَّه ليس بشيءٍ.

والكلامُ خطابٌ لعَبَدَةِ هذه المذكورات، وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون: إنَّ الملائكة عليهم السلام وتلك المعبوداتِ الباطلة بناتُ الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: «أَفَرَأَيتُم» إلخ والهمزةُ للإنكار، والفاءُ لتوجيهه إلى ترتيب الرؤيةِ على ما ذكر مِن شؤون الله تعالى المنافيةِ لها غايةَ المنافاة، وهي عِلْميةٌ عند كثير، ومفعولُها الثاني على ما اختاره بعضُهم محذوفٌ لدلالة الحال عليه، فالمعنى: أعقيب ما سمعتُم من آثار كمال عظمةِ الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته، وإحكامِ قدرته ونفاذِ أمره، رأيتُم هذه الأصنامَ ـ مع غاية حقارتها ـ بناتِ الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ توبيخٌ مبنيٌّ على ذلك التوبيخ، ومدارُه تفضيلُ جانب أنفسهم على جنابه عز وجل، حيث جعلوا له تعالى الإناثَ واختاروا لأنفسهم الذكورَ، ومناطُ الأوَّل نفسُ تلك النسبة.

وقيل: المعنى: أرأيتُم هذه الأصنامَ مع حقارتها وذِلَّتها شركاءَ لله سبحانه، مع ما تقدَّم من عظمته؟

وقيل: المعنى: أخبروني عن آلهتكم، هل لها شيءٌ من القدرة والعظمة التي وُصِف بها ربُّ العزَّةِ في الآي السابقة؟

وقيل: المعنى: أظننتُم أنَّ هذه الأصنامَ التي تعبدونها تنفعُكم؟

وقيل: المعنى: أفرأيتُم هذه الأصنامَ إنْ عبدتُموها لا تنفعُكم، وإنْ تركتُموها لا تضرُّكم.

---

(١) في الأصل و(م): الحسن بن المفضل، والمثبت من زاد المسير ٨/ ٧٣، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٣٧، وهو الصواب، ووقع في مطبوع البحر ٨/ ١٦٢ (والكلام منه): الحسن بن الفضل.

ولا يخفَى أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَلَكُمُ﴾ إلخ لا يلتئمُ مع ما قبله على جميع هذه الأقوال التئامَه على القول السابق.

وقيل: إنَّ قوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ﴾ إلخ في موضع المفعول الثاني للرؤية، وخُلوُّها عن العائد إلى المفعول الأول لِمَا أنَّ الأصلَ: أَخبروني أنَّ اللات والعزَّى ومناةَ ألكم الذكر وله هنَّ، أي: تلك الأصنام، فوضعَ موضعَها الأُنثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ. وهو على تكلُّفه يقتضي اقتصارَ التوبيخِ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرُّضٍ للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه.

وفي «الكشف»: وجه النظم الجليل أنَّه بعدما صوَّر أمرَ الوحي تصويراً تامّاً، وحقَّقه بأنَّ ما يستمعُه وحيٌ لا شبهةَ فيه؛ لأنَّه رأى الآتي به وعرَفَه حقَّ المعرفة، قال سبحانه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ على معنى: أتلاحونَه بعد هذه البيانات على ما يَرَى من الآيات المحقَّقة؛ لأنَّه على بيِّنةٍ من ربِّه سبحانه هادياً مهديّاً، وأنَّى يبقَى للمِراء مجال، وقد رآه نزلةً أخرى، وعرَفَه حقَّ المعرفة، ثم قيل: «لقد رأى مِن آيات» إلخ تنبيهاً على أنَّ ما عُدَّ منها فهو أيضاً نَفْيٌ للضلالة والغواية، وتحقيقٌ للدراية والهداية. وقوله تعالى: «أفرأيتُم» عطف على «تمارونه» وإدخالُ الهمزة لزيادة الإنكار، والفاء لأنَّ القول بأمثاله مسبَّبٌ عن الطبع والعناد وعدمِ الإصغاء لداعي الحقِّ، والمعنى: أَبَعْدَ هذا البيان تستمرُّون على ما أنتم عليه من المِرَاء، فتَرَون اللاتَ والعزَّى ومناةَ أولاداً له تعالى ثمَّ أخسَّها، وسدَّ مسدَّ المفعول الثاني قولُه تعالى: ﴿أَلَكُمُ﴾ إلخ زيادةً للإنكار، فعلى هذا ليس «أفرأيتُم» في معنى الاستخبار، وجاز أنْ يكونَ في معناه على معنى: أفتُمارونَه فأخبروني هل لكم الذكرُ وله الأنثى؟ والقولُ مقدَّرٌ، أي: فقل لهم: أخبروني، والمعنى هو كذا تهكُّماً وتنبيهاً على أنَّه نتيجةُ مِرائهم، وأنَّ مَن كان هذا معتقدَه فهو على الضلال الذي لا ضلالَ بعدَه، ولا يبعدُ عن أمثاله نسبةُ الهادين المهديِّين إلى ما هو فيه من النقص. انتهى. وما ذكره أوّلاً أَوْلَى، وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا.

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى القِسْمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾

أي: جائرةٌ حيث جعلتُم له سبحانه ما تستنكِفُون منه، وبذلك فَسَّر «ضيزَى» ابنُ عباس وقتادة، وفي معناه قولُ سفيان: منقوصةٌ، وابن زيد: مخالفةٌ، ومجاهد ومقاتل: عوجاءُ، والحسنُ: غيرُ معتدلة.

والظاهرُ أنَّه صفةٌ، واختُلِفَ في يائه فقيل: منقلبةٌ عن واو، وقيل: أصليةٌ، ووَزنُهُ فُعْلَى بضم الفاء كحُبْلى وأنثى، ثم كُسِرَت لتسلم الياء كما فُعل ذلك في بِيْض جمعِ أَبيض، فإنَّ وزْنَه فُعْل بضم الفاء كحُمْر، ثم كُسِرَت الفاء لِمَا ذكر، ومثلُه شائع، ولم يُجعَل وزنُه فِعْلَى بالكسر ابتداءً لِمَا ذهب إليه سيبويه مِن أنَّ فِعْلَى بالكسر لم يجئ عن العرب في الصفات[١]. وجعلَه بعضُهم كذلك متمسِّكاً بورود ذلك؛ فقد حَكَى ثعلب: مشيةٌ حِيْكَى[٢]، ورجل كِيْصَى[٣]، وغيره: امرأة عِزْهَى[٤] وامرأة سِعْلَى[٥]، ورُدَّ بأنَّه من النوادر، والحملُ على الكثير المطَّرد في بابه أَوْلَى، وأيضاً يمكن أن يقال في حِيْكى وكِيْصَى ما قيل في ضِيْزَى؛ ويمنع ورود عِزْهى وسِعْلى، فإنَّ المعروف عِزْهاةٌ وسِعْلاةٌ.

وجوز أنْ يكونَ «ضيزى» فِعْلَى بالكسر ابتداءً على أنَّه مصدرٌ كذِكْرى، وَوُصِفَ به مبالغةً، ومجيءُ هذا الوصفِ في المصادر كما ذكر، والأسماء الجامدة كدِفْلَى وشِعْرَى[٦]، والجموع كحِجْلَى كثيرٌ.

وقرأ ابنُ كثير: «ضِئزَى» بالهمز[٧] على أنَّه مصدرٌ وُصِفَ به، وجوِّز أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر الكتاب ٤/ ٣٦٤ و٣٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ١١٣.

(٢) مشية حِيْكَى: إذا كان فيها متبختراً. ينظر اللسان (حيك).

(٣) رجل كِيْصَى: يأكل وحده وينزل وحده ولا يهمه غير نفسه. ينظر اللسان والقاموس (كيص).

(٤) امرأة عِزْهى: والعِزْهاة كسِعْلاة: المرأة أسنَّت ونفسُها تُنازعها إلى الصِّبا. القاموس (عزه).

(٥) امرأة سِعْلَى: استسعَلَت المرأة: صارت كالسِّعلاة خبثاً وسلاطةً، يقال ذلك للمرأة الصخابة البذية، السِّعلا يمد ويقصر. اللسان (سعل).

(٦) الدِّفْلَى: نبتٌ مرٌّ، زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرنوب. وشِعْرَى: جبل عند حرة بني سليم. القاموس (دفل) و(شعر).

(٧) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٣٩٥.

وصفاً، وهو مضمومٌ عُومل معاملةَ المعتلِّ؛ لأنَّه يَؤُول إليه.

وقرأ ابنُ زيد: «ضَيْزَى» بفتح الضاد وبالياء(١)، على أنَّه كدَعْوى أو كسَكْرى، ويقال: ضُؤزى بالواو والهمز وضم الفاء، وقد حكى الكِسائي: ضَأَزَ يَضْأَزُ ضأزاً بالهمز، وأنشد الأخفش:

فإنْ تَنْأَ عنها تقتنِصْكَ وإنْ تَغِبْ فسهمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ راغمُ(٢)

والأكثرُ «ضازَ» بلا همزٍ كما في قول امرئ القيس:

ضازَت بنو أسدٍ بحُكمِهمُ إذ يجعلونَ الرأسَ كالذَّنبِ

وأنشده ابنُ عباس على تفسيره السابق(٣).

﴿إِنْ هِيَ﴾ الضميرُ للأصنام، أي: ما الأصنامُ باعتبار الأُلوهية(٤) التي تدَّعونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ محضةٌ ليس فيها شيءٌ ما أصلاً من معنى الأُلوهية.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفةٌ للأسماء، وضميرُها لها لا للأصنام، والمعنى: جعلتموها أسماءً، فإنَّ التسمية نسبةٌ بين الاسم والمسمَّى، فإذا قِيْسَت إلى الاسم فمعناها: جَعله اسماً للمسمَّى، وإنْ قيسَت إلى المسمَّى فمعناها: جعله مسمًّى للاسم، وإنما اختير هاهنا المعنى الأولُ من غير تعرُّضٍ للمسمَّى، لتحقيق أنَّ تلكَ الأصنامَ التي يسمُّونها آلهةً أسماءٌ مجرَّدةٌ ليس لها مسمَّياتٌ قطعاً، كما في قوله سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ الآية [يوسف: ٤٠] لا أنَّ هناك مسمياتٍ لكنَّها لا تستحقُّ التسمية.

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٦٢ لزيد بن علي.

(٢) الصحاح (ضيز)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٥٢، وتفسير الطبري ٢٢/ ٥٢، واللسان (ضيز)، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٣) يعني: جائرة، وخبر ابن عباس أخرجه الطستي في مسائله كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٧، ومن طريقه السيوطي في الإتقان ١/ ٤١٠، وهو من جواب ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق، ولم نقف على البيت في ديوان امرئ القيس، وهو دون نسبة في تفسير القرطبي ٢٠/ ٣٨، والبحر المحيط ٨/ ١٥٤.

(٤) في هامش الأصل: أي: إطلاق اسم الإلهية عليها. اهـ.

وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة، حيث كانوا يُطلقونها على تلك الأصنامِ، لاعتقادهم أنَّها تستحقُّ العكوفَ على عبادتها والإعزازَ والتقرُّبَ إليها بالقرابين، وتُعقِّب بأنَّه لو سلِّم دلالةُ الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصة للأصنام، فليس في سلبها عنها مزيدُ فائدة، بل إنما هي في سَلْب الأُلوهية عنها، كما هو زعمُهم المشهورُ في حقِّ جميع الأصنام على وجهٍ برهانيٍّ، فإنَّ انتفاءَ الوصف بطريق الأولَوية، أي: ما هي شيءٌ من الأشياء إلا أسماءٌ خالية عن المسمَّيات وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى الأهواء الباطلة.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهانٍ يتعلَّقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهُّمَ أنَّ ما هم عليه حقٌّ تَوَهُّماً باطلاً، فالظنُّ هنا مرادٌ به التوهُّمُ وشاع استعمالُه فيه، ويُفهم من كلام الراغب أنَّ التوهُّم من أفراد الظنِّ[1].

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: والذي تشتهيه أنفسُهم الأمَّارةُ بالسوء، على أنَّ «ما» موصولةٌ وعائدُها مقدَّر، و«أل» في «الأنفس» للعهد، أو عِوَضٌ عن المضاف إليه، وجوِّز كونُ «ما» مصدرية، وكذا جوِّز كونُ «أل» للجنس، والنفسُ من حيث هي إنما تهوَى غيرَ الأفضلِ؛ لأنَّها مجبولةٌ على حبِّ الملاذِّ، وإنما يسوقُها إلى حسن العاقبة العقلُ.

والالتفات في «يتبعون» إلى الغيبة للإيذان بأنَّ تعدادَ قبائحهم اقتضَى الإعراضَ عنهم، وحكايةَ جناياتهم لغيرهم.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر: «تتبعون» بتاء الخطاب[2].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ من ضمير «يتَّبعُونَ» مقرِّرةٌ لبطلان ما هم عليه من اتباع الظنِّ والهوى، والمرادُ بـ «الهدى» الرسول ﷺ، أو القرآن العظيم، على

(١) مفردات الراغب (ظن).
(٢) المحرر الوجيز ٥/٢٠١، وتفسير القرطبي ٢٠/٣٩، والبحر المحيط ٨/١٦٢-١٦٣.

أنَّه بمعنى الهادي، أو جعَلَه هدًى مبالغةً، أي: ما يتبعون إلا ذلك والحال لقد جاءهم من ربِّهم جلَّ شأنه ما ينبغي لهم معه تركُه واتِّباعُ سبيل الحقِّ، وحاصله: يتَّبعون ذلك في حال يُنافيه.

وجوِّز أنْ تكونَ الجملة معترضةً، وهي أيضاً مؤكِّدة لبطلان ذلك.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ «أم» منقطعة مقدَّرة بـ «بل» ـ وهي للانتقال من بيان أنَّ ما هم عليه غيرُ مستندٍ إلا إلى توهُّمهم وهوَى أنفسِهم إلى بيان أنَّ ذلك مما لا يُجدي نفعاً أصلاً ـ والهمزةِ وهي للإنكار والنفي، أي: بل ليس للإنسان كلُّ ما يتمناه وتشتهيه نفسُه، ومفادُه قيل: رفعُ الإيجاب الكلِّي، ومرجعُه إلى سالبةٍ جزئية، وإليه يُشير قول بعضهم: المرادُ نَفْي أنْ يكونَ للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظَّفَر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآنِ على رجل من إحدى القريتَين عظيم ونحو ذلك.

ويُفهَم من كلام بعضِ المحققين أنَّ المرادَ السلبُ الكلِّي، والمعنى: لا شيءَ مما يتمناه الإنسانُ مملوكاً له مختصّاً به، يتصرَّف فيه حسب إرادته، ويتضمَّن ذلك نَفْيَ أنْ يكونَ للكفرة ما ذُكِرَ وليس الإنسان خاصّاً بهم كما قيل.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ تعليلٌ لانتفاء ذلك، فإنَّ اختصاصَ مِلْك أمورِ الآخرة والأُوْلَى جميعاً به تعالى مقتضٍ لانتفاء أنْ يكونَ للإنسان أمرٌ من الأمور، بل ما شاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن، وقدِّمَت «الآخرة» اهتماماً بردِّ ما هو أهمُّ أطماعهم عندهم من الفوز فيها.

ولذا أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وإقناطُهم عما طَمِعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجبٌ لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية. و«كم» خبريةٌ مفيدةٌ للتكثير، محلُّها الرفعُ على الابتداء، والخبرُ الجملة المنفية، وجمع الضمير في «شفاعتُهم» مع إفراد «المَلَك» باعتبار المعنى، أي: وكثيرٌ من الملائكة لا تغني شفاعتُهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن

﴿يَشَآءُ﴾ أنْ يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه سبحانه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما مَن عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل. وعنه بألف ألفِ منزل.

وجوِّز أنْ يكون المرادُ: إلا من بعد أنْ يأذنَ الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة، ويراه عز وجل أهلاً لها. وأيَّاما كان فالمعنى على أنَّه إذا كان حالُ الملائكة في باب الشفاعة كما ذُكر، فما ظنُّهم بحال الأصنام؟ والكلامُ قيل: من باب:

على لاحبٍ لا يهتدَى بمنارِهِ[1]

فحاصلُه: لا شفاعةَ لهم ولا غناءَ بدون أنْ يأذنَ الله سبحانه.. إلخ. وقيل: هو واردٌ على سبيل الفرض فلا يخالفُ قولَه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقرأ زيد بن علي: «شفاعته» بإفراد الشفاعة والضمير، وابنُ مقسم: «شفاعاتهم» بجمعهما[2]، وهو اختيار صاحب «الكامل» أبي القاسم الهذلي، وأُفردَت الشفاعة في قراءة الجمهور، قال أبو حيان: لأنَّها مصدرٌ؛ ولأنَّهم لو شفع جميعُهم لواحد لم تغنِ شفاعتهم عنه شيئاً[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزَّهين عن سمات النقصان على الإطلاق ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ فإنَّهم كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون، و«الملائكة» في معنى استغراق المفرد، فيكون التقديرُ: ليسمُّون كلَّ واحدٍ من الملائكة تسمية الأنثى، أي: يسمونه بنتاً؛ لأنَّهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كلَّ واحدٍ منهم بنتاً، فالكلام على وزان: كَسَانا الأميرُ حلةً، أي: كسا كلَّ واحد منَّا حلةً،

(١) سلف ١/ ٤٥٧.
(٢) القراءتان في البحر المحيط ٨/ ١٦٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٣، وعنه نقل المصنف كلام أبي القاسم الهذلي.

والإفرادُ لعدم اللَّبس، ولذا لم يقل: تسميةَ الإناث، فلا حاجةَ إلى تأويل «الأنثى» بالإناث، ولا إلى كون المراد: الطائفة الأنثى، وما ذكر أولاً قيل: مبنيٌّ على أنَّ تسميةَ الأنثى في النظم الجليل ليس نصباً على التشبيه، وإلا فلا حاجةَ إليه أيضاً.

وفي تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بأنَّها في الشناعة والفظاعة واستتباعِ العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا مَن لا يؤمن بها رأساً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ من فاعل «يسمُّون» وضميرُ «به» للمذكور من التسمية، وبهذا الاعتبار ذكِّر، أو باعتبار القول، أي: يسمُّونهم إناثاً، والحالُ أنَّهم لا علمَ لهم بما يقولون أصلاً.

وقرأ أبيٌّ: «بها»(١) أي: بالتسمية، أو بالملائكة.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: التوهُّمَ الباطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي: جنسَ الظنِّ، كما يلوح به الإظهارُ في موقع الإضمار، وقيل: الإظهارُ ليستقلَّ الكلامُ استقلال المثل ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، فإنَّ الحقَّ الذي هو عبارةٌ عن حقيقة الشيء وما هو عليه، إنما يُدرَك إدراكاً معتدّاً به إذا كان عن يقينٍ، لا عن ظنٍّ وتوهُّم، فلا يعتدُّ بالظنِّ في شأن المعارف الحقيقية، أعني المطالبَ الاعتقادية التي يلزم فيها الجزمُ ولو لم يكن عن دليل، وإنما يعتدُّ به في العمليات وما يؤدِّي إليها.

وفسَّر بعضهم «الحق» بالله عز وجل لقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢].

واستَدلَّ بالآية مَن لم يَعتبر التقليدَ في الاعتقاديات، وفيه بحث، والظاهريةُ على إبطاله مطلقاً، وإبطالُ القياس وردُّه على أتمِّ وجه في الأصول.

وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال: قال عمر بنُ الخطاب: احذروا هذا الرأيَ على الدّين، فإنَّما كان الرأيُ من رسول الله ﷺ مصيباً؛ لأنَّ الله تعالى كان

(١) الكشاف ٤/ ٣٢، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٦٠.

يُريه، وإنما هو منَّا تكلفٌ وظنٌّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1] = هو أحدُ أدلتهم على إبطال القياس أيضاً.

وقد حكى الآمدي في «الإحكام» نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: قال ابن عمر: اتَّهِموا الرأيَ على الدِّين، فإنَّ الرأيَ منَّا تكلُّفٌ وظنٌّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. وأجابَ عنه بأنَّ غايتَه الدلالةُ على احتمال الخطأ فيه، وليس فيه ما يدلُّ على إبطاله، وأنَّ المرادَ بقوله: «وإنَّ الظنَّ» إلخ استعمالُ الظنِّ في مواضع اليقين، وليس المرادُ به إبطالَ الظنِّ، بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة. ويقال نحوُ هذا في كلام عمرَ رضي الله عنه، وقد ذكر جملةً من الآثار استَدلَّ بها المبطلُ على ما زعمَه وردَّها كلَّها، فمَن أراد ذلك فليراجعه[2].

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عنهم، ووضع الموصول موضعَ ضميرهم، للتوسُّل به إلى وصفهم بما في حيِّز صلتِهِ من الأوصاف القبيحة، وتعليلِ الحُكْمِ بها، أي: فأعرِضْ عمَّن أعَرضَ عن ذكرنا المفيدِ للعلم الحقِّ، وهو القرآنُ العظيم، المنطوي على بيان الاعتقادات الحقَّة، المشتملُ على علوم الأوَّلين والآخِرين، المذكِّرُ للآخرة وما فيها من الأمور المرغوبِ فيها والمرهوبِ عنها. والمرادُ بالإعراض عنه تركُ الأخذ بما فيه وعدمُ الاعتناء به.

وقيل: المرادُ بالذكر الرسولُ ﷺ وبالإعراض عنه تركُ الأخذ بما جاء به.

وقيل: المراد به الإيمان.

وقيل: هو على ظاهره والإعراضُ عنه كنايةٌ عن الغفلة عنه عز وجل.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ راضياً بها قاصراً نظَرَه عليها، جاهداً فيما يُصلِحُها، كالنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة، والمرادُ من الأمر المذكور النهيُ عن المبالغة في الحرص على هداهم، كأنَّه قيل: لا تبالغ في الحرص على هدى مَن تولَّى عن ذكرنا، وانهمَك في الدنيا بحيث كانت منتَهَى هِمَّتِه وقُصارَى سعيه.

(١) الدر المنثور ٦/ ١٢٧.
(٢) ينظر الإحكام للآمدي ٤/ ٤٨ وما بعد.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: أمرُ الحياة الدنيا المفهومُ من الكلام، ولذا ذكّر اسم الإشارة، وقيل: أي: ما أدّاهم إلى ما هم فيه من التولّي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا.

وقيل: «ذلك» إشارةٌ إلى الظنِّ الذي يتّبعونه. وقيل: إلى جَعْلِهِم الملائكةَ بنات الله سبحانه. وكلا القولَين كما ترى.

﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: منتهَى علمهم لا عِلْمَ لهم فوقَه، اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها مِن قَصْر الإرادة على الحياة الدنيا. والمرادُ بالعلم مطلَقُ الإدراك المنتظِم للظنِّ الفاسد، وضميرُ «مبلغهم» لـ «مَن»، وجُمع باعتبار معناه، كما أنَّ إفرادَه قبلُ باعتبار لفظِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليلٌ للأمر بالإعراض، وتكرير قوله تعالى: «هو أعلم» لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تبايِنِ المعلومَين، والمرادُ بـ «مَن ضل»: مَن أصرَّ على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلاً، و«بمَن اهتدَى»: من شأنه الاهتداءُ في الجملة، أي: هو جل شأنه المبالغُ في العلم بمَن لا يرْعَوي عن الضلال أبداً، وبمن يقبلُ الاهتداء في الجملة، لا غيرُه سبحانه، فلا تُتْعب نفسَك في دعوتهم ولا تبالغ في الحرص عليها، فإنَّهم من القبيل الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له ذلك على الوجه الأتمِّ، أي: خَلْقاً ومُلْكاً، لا لغيره عز وجل أصلاً، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ويُشعر بفعلٍ يتعلَّق به قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: خَلَق ما فيهما ليجزيَ الضالِّين بعقاب ما عملوا من الضلال، الذي عبَّر عنه بالإساءة بياناً لحاله، أو بمثل ما عملوا، أو بسبب ما عملوا، على أنَّ الباء صلةُ الجزاء بتقدير مضافٍ أو للسببية بلا تقدير ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي: اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم، أو بسبب الأعمال الحسنى، تكميلٌ لِمَا قَبْلُ؛ لأنَّه سبحانه لمَّا أمره عليه الصلاة والسلام بالإعراض نَفَى توهُّم أنَّ ذلك لأنَّهم يُترَكون سُدًى.

وفي العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما يُنبئُ عن زيادة القدرة، وأنَّ الكلامَ مسوقٌ لوعيد المعرضين، وأنَّ تسويةَ هذا المُلْك العظيم لهذه الحكمة، فلا بدَّ من ضالٍّ ومهتدٍ، ومن أنْ يلقَى كلٌّ ما يستحقُّه. وفيه أنَّه ﷺ يلقَى الحسنى جزاءً لتبليغه، وهم يلقون السُّوأَى جزاءً لتكذيبهم.

وكرَّر فعلَ الجزاء لإبراز كمالِ الاعتناء به، والتنبيهِ على تبايُن الجزاءَين.

وجوِّز أنْ يكونَ معنى «فأعرِضْ» إلخ: لا تقابِلْهم بصنيعهم وَكِلْهم إلى ربك، إنَّه أعلمُ بك وبهم، فيجزي كلًّا ما يستحقُّه، ولا يخفَى ما في العدول عن الضميرَين في «بمَن ضَلَّ» و«بمَن اهتدَى»، وجُعِلَ قوله تعالى: «ليجزِيَ» على هذا متعلِّقاً بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ إلخ، أي: ميَّز الضالَّ عن المهتدي وحَفِظ أحوالَهم ليجزي.. إلخ، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ معترضةٌ تؤكِّدُ حديثَ أنَّهم يُجزَون البتة ولا يُهمَلُون، كأنَّه قيل: هو سبحانه أعلمُ بهم، وهم تحت مُلْكه وقدرته، وجوِّز على ذلك المعنى أنْ يتعلَّق «ليجزيَ» بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كما تقدَّم على تأكيد أمرِ الوعيد، أي: هو أعلمُ بهم، وإنما سوَّى هذا المُلْكَ للجزاء. ورجح بعضُهم ذلك المعنى بالوجهَين المذكورَين على ما مرَّ.

وجوِّز في جملة «لله ما في السماوات» كونُها حالاً من فاعل «أعلم» سواء كان بمعنى: عالم، أو لا، وفي «ليجزِيَ» تعلُّقُه بـ «ضَلَّ» و«اهتدَى» على أنَّ اللام للعاقبة، أي: هو تعالى أعلمُ بمَن ضَلَّ ليؤول أمرُه إلى أنْ يجزيَه اللهُ تعالى بعمله، وبمَن اهتدَى ليؤول أمرُه إلى أنْ يجزيَه بالحسنى. ولا يخفى بُعْدُه، وأَبعدُ منه بمراحلَ تعلُّقُه بقوله سبحانه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ كما ذكره مكِّي[1].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «لنجزي» «ونجزي» بالنون فيهما[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بدلٌ من الموصول[3] الثاني، وصيغةُ الاستقبال في

---

(١) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٤.

(٣) في الأصل: الموصوف، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٦٢.

صلته للدلالة على تجدُّد الاجتنابِ واستمرارِه، أو بيانٌ، أو نعتٌ، أو منصوبٌ على المدح، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرُ محذوفٍ.

و«الإثم»: الفعل المبطئ عن الثواب وهو الذنبُ. وكبائرُه ما يكبر عقابُه.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «كبيرَ الإثم»[(١)] على إرادة الجنس أو الشرك.

و﴿الفواحش﴾: ما عظُمَ قُبحُه من الكبائر، فعَطْفُه على ما تقدَّم من عطف الخاصِّ على العامِّ. وقيل: الفواحش والكبائر مترادفان.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ ما صَغُرَ من الذنوب، وأصلُه ما قلَّ قَدْرُه، ومنه لِمَّةُ الشَّعر؛ لأنَّها دون الوَفْرَة، وفسَّره أبو سعيد الخدْري بالنظرة والغمزة والقُبلة، وهو من باب التمثيل.

وقيل: معناه: الدنوُّ من الشيء دون ارتكابٍ له، من أَلْمَمْتُ بكذا، أي: نزلتُ به وقاربتُه من غير مواقعةٍ، وعليه قولُ الرمَّاني: هو الهمُّ بالذنب وحديثُ النفس دون أنْ يواقع. وقول ابن المسيب: ما خطَرَ على القلب.

وعن ابن عباس وابن زيد: هو ما أَلَمُّوا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام. والآية نزلَت لقول الكفار للمسلمين: قد كنتُم بالأمس تعملون أعمالَنا، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ [النساء: ٢٣] على ما في «البحر»[(٢)].

وقيل: هو مطلَق الذنب.

وفي روايةٍ عن ابن عباس: أنَّه ما يلمُّ به المرء في الحين من الذنوب ثم يتوبُ. والمعظمُ على تفسيره بالصغائر.

والاستثناء منقطعٌ، وقيل: إنَّه لا استثناء فيه أصلاً، و«إلا» صفةٌ بمعنى: «غير»، إما لجعل المضافِ إلى المعرَّف باللام الجنسية أعني «كبائر الإثم» في حكم النكرة،

---

(١) التيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٢) ٨/ ١٦٤، وذكر سبب النزول أيضاً أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٣/ ٢٩٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤.

أو لأنَّ «غير» و«إلا» التي بمعناها قد يتعرَّفان بالإضافة كما في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ [الفاتحة: ٧].

وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ شرط جوازِ وقوع «إلا» صفةً كونُها تابعةً لجمعٍ منكَّر غيرِ محصورٍ، ولم يوجد هنا.

ورُدَّ بأنَّ هذا ما ذهب إليه ابنُ الحاجب، وسيبويه يَرَى جوازَ وقوعها صفةً مع جواز الاستثناء، فهو لا يشترطُ ذلك، وتَبِعَه أكثرُ المتأخِّرين(١)، نعم كونُها هنا صفةً خلافُ الظاهر، ولا داعي إلى ارتكابه.

والآيةُ عند الأكثرين دليلٌ على أنَّ المعاصي منها كبائرُ ومنها صغائر، وأنكر جماعةٌ من الأئمة هذا الانقسامَ وقالوا: سائرُ المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمَين في «الإرشاد»(٢)، وتقيُّ الدين السُّبكي، وابنُ القشيري في «المرشد»، بل حكاه ابنُ فورَك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله تعالى كلُّها عندنا كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرةٌ وكبيرةٌ بالإضافة، وحَكَى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنَّه ليس بصحيح.

وقال القاضي عبد الوهاب: لا يمكنُ أنْ يقالَ في معصيةٍ إنَّها صغيرةٌ إلا على معنى أنَّها تَصغُرُ باجتناب الكبائر، ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس ـ لكنَّه منقطعٌ ـ أنَّه ذُكِرَ عنده الكبائر فقال: كلُّ ما نَهَى الله تعالى عنه فهو كبيرةٌ(٣). وفي

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١١٥.

(٢) ص ٣٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ص ٤، والكلام منه.

(٣) المعجم الكبير ١٨/ (٢٩٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٣: رجاله ثقات إلا أن الحسن مدلس وعنعنه.
وأخرجه الطبري ٦/ ٦٥٠، والبيهقي في الشعب (٢٩٢) و(٧١٥٠)، من طريق ابن سيرين عن ابن عباس، وإسناده منقطع، فإن محمد بن سيرين لم يسمع من ابن عباس فيما قاله علي بن المديني وأحمد كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٥٠.

رواية: كلُّ شيء عُصِيَ اللهُ تعالى فيه فهو كبيرةٌ(١).

والجمهورُ على الانقسام؛ قيل(٢): ولا خلافَ في المعنى، وإنما الخلافُ في التسمية والإطلاق؛ لإجماع الكلِّ على أنَّ مِن المعاصي ما يقدحُ في العدالة، ومنها ما لا يقدحُ فيها، وإنَّما الأوَّلُون فرُّوا من التسمية، فكرهوا تسميةَ معصيةِ الله تعالى صغيرةً نظراً إلى عظمة الله عز وجل، وشدَّةِ عقابه سبحانه، وإجلالاً له جل شأنُه عن تسمية معصيتهِ صغيرةً؛ لأنَّها بالنظر إلى باهر عظمتِهِ كبيرةٌ أيُّ كبيرةٍ، ولم ينظر الجمهورُ إلى ذلك؛ لأنَّه معلومٌ، وقسَّموها إلى ما ذُكِرَ لظواهر الآيات والأحاديث، ولذلك قال الغزاليُّ: لا يليقُ إنكارُ الفرق بينَ الكبائر والصغائر، وقد عُرِفَتَا من مدارك الشرع(٣).

ثم القائلون بالفَرْق اختلفوا في حدِّ الكبيرة فقيل: هي ما لَحِقَ صاحبَها عليها بخصوصها وعيدٌ شديدٌ بنصِّ كتابٍ أو سنةٍ. وهي عبارةُ كثيرٍ من الفقهاء.

وقيل: كلُّ معصيةٍ أوجبَت الحدَّ. وبه قال البغوي وغيرُه، والأولُ أوفقُ بِمَا(٤) ذكروه في تفصيل الكبائر، إذ عدُّوا الغيبةَ والنميمةَ والعقوقَ وغيرَ ذلك منها، ولا حدَّ فيه، فهو أصحُّ من الثاني وإنْ قال الرافعيُّ: إنَّهم إلى ترجيحه أَمْيَلُ. وقد يقال: يَرِدُ على الأول أيضاً أنَّهم عدُّوا من الكبائر ما لم يَرِد فيه بخصوصه وعيدٌ شديدٌ.

وقيل: هي كلُّ ما نصَّ الكتابُ على تحريمه، أو وَجَب في جنسه حدٌّ، وتركُ فريضةٍ تجبُ فوراً، والكذبُ في الشهادة والروايةِ واليمين، زاد الهروي وشريح: وكلُّ قولٍ خالفَ الإجماع العامَّ.

---

(١) أخرجها الطبري ٦/ ٦٥٢ من طريق عبد الله بن معدان، عن أبي الوليد، عن ابن عباس، وعبد الله بن معدان قال عنه الأزدي كما في اللسان ٣/ ٣٦٥: متروك الحديث، وإسناده ليس بالقائم.

(٢) القائل هو ابن حجر الهيتمي.

(٣) ينظر إحياء علوم الدين ٤/ ١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ص ٤.

(٤) في الأصل و(م): لما، والمثبت من الزواجر.

وقيل: كلُّ جريمةٍ تُؤذن بقلَّة اكتراثِ مرتكبها بالدِّين ورقَّة الديانةِ، وهو المحكيُّ عن إمام الحرمين(١)، ورجَّحه جمعٌ لِمَا فيه من حسنِ الضبط.

وتُعقِّبَ بأنَّه بظاهره يتناول صغيرةَ الخِسَّةِ، والإمامُ - كما قال الأَذْرَعي - إنما ضبَطَ به ما يُبطل العدالةَ من المعاصي الشاملةِ لذلك، لا الكبيرة فقط، نعم هو أشملُ من التعريفَين الأوَّلَين.

وقيل: هي ما أوجَبَ الحدَّ أو توجَّه إليه الوعيدُ، ذكره الماوردي في «حاويه»(٢).

وقيل: كلُّ محرَّمٍ لعينه منهيٌّ عنه لمعنى في نفسه، فإنْ فَعَلَه على وجهٍ يجمع وجهَين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشةً، فالزنى كبيرةٌ، وبحليلة الجارِ فاحشةٌ، والصغيرةُ تَعاطي ما تَنقُصُ رتبتُه عن رتبتِهِ المنصوص عليه، أو تعاطيه على وجهٍ دون المنصوص عليه، فإنْ تعَاطَاه على وجهٍ يجمَعُ وجهَين أو أكثرَ من التحريم كان كبيرةً، فالقُبْلةُ واللَّمسُ والمفاخَذة صغيرةٌ، ومع حليلة الجار كبيرةٌ، كذا نقَلَه ابنُ الرفعة وغيرُه عن القاضي حسين عن الحليمي.

وقيل: هي كلُّ فعلٍ نصَّ الكتابُ على تحريمه، أي: بلفظ التحريم، وهو أربعةُ أشياءَ: أكلُ الميتةِ، ولحمِ الخنزير، ومال اليتيم، والفرارُ من الزَّحف، ورُدَّ بمنع الحصر.

وقيل: إنَّها كلُّ ذنبٍ قُرِنَ به حدٌّ أو وعيدٌ أو لعنٌ بنصِّ كتابٍ أو سنةٍ، أو عُلِمَ أنَّ مفسدتَه كمفسدة ما قُرِنَ به ذلك أو أكثر، أو أَشعرَ بتهاون مرتكبه في دينه إشعاراً صغَّر الكبائرَ المنصوصَ عليها بذلك، كما لو قَتَلَ مَن يعتقدُه معصوماً فظهَرَ أنَّه مستحِقٌّ لدمه، أو وَطِئ امرأةً ظانّاً أنَّه زانٍ بها، فإذا هي زوجتُه أو أمتُه، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال: هو التحقيق.

وقيل غير ذلك.

---

(١) في الإرشاد ص ٣٢٩.

(٢) في الأصل و(م): فتاويه، والمثبت من الزواجر، وهو الصواب، والكلام في الحاوي للماوردي ١٧/ ١٤٩.

واعتمد الواحدي أنَّها لا حدَّ لها يحصُرُها فقال: الصحيحُ أنَّ الكبيرةَ ليس لها حدٌّ يعرِفُها العبادُ به، وإلا لاقْتَحَم الناسُ الصغائرَ واستباحوها، ولكنَّ الله تعالى أخفَى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهيِّ عنه رجاءَ أنْ تُجتَنَبَ الكبائرُ، ونظيرُ ذلك إخفاءُ الاسم الأعْظَمِ، والصلاةِ الوسطى، وليلةِ القدر، وساعةِ الإجابة.

وقال العلامة ابن حجر الهيتَمي[1]: كلُّ ما ذُكِرَ من الحدود إنما قُصِدَ به التقريب فقط، وإلا فهي ليسَت بحدودٍ جامعة، وكيف يمكنُ ضبطُ ما لا مطمَعَ في ضبطه؟

وذهبَ جمعٌ إلى تعريفها بالعدِّ؛ فعن ابن عباس أنَّها ما ذكره الله تعالى في أول سورةِ النساء إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

وقيل: هي سبعٌ، وروي ذلك عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وعطاء وعبيد بن عمير، واستدلَّ له بما في الصحيحين: «اجْتَنبوا السَّبعَ الموبقات: الإشراكَ بالله تعالى، والسِّحرَ، وقَتْلَ النفسِ التي حرَّمَ اللهُ تعالى إلا بالحقِّ، وأكلَ مال اليتيمِ، وأكلَ الرِّبا، والتولِّي يوم الزحفِ، وقَذْفَ المحصَنات الغافلاتِ المؤمناتِ»[2].

وقيل: خمْسَ عشرةَ، وقيل: أربعَ عشرة، وقيل: أربع، وعن ابن مسعود: ثلاث. وفي رواية أخرى: عشرة.

وقال شيخُ الإسلام العلائي: المنصوصُ عليه في الأحاديث أنَّه كبيرةٌ خمسٌ وعشرون، وتعقَّبه ابنُ حجر بزيادةٍ على ذلك[3]، وقال أبو طالب المكي: هي سبعَ عشرةَ؛ أربعٌ في القلب: الشركُ، والإصرار على المعصية، والقنوطُ، والأمنُ من المكر، وأربعٌ في اللسان: القذفُ، وشهادةُ الزور، والسحرُ وهو كلُّ كلام يُغيِّرُ الإنسانَ أو شيئاً من أعضائه، واليمينُ الغموس وهي التي تُبطل بها حقّاً أو تُثبتُ بها باطلاً، وثلاثٌ في البطن: أكلُ مالِ اليتيمِ ظُلماً، وأكلُ الربا، وشُرْب كلِّ

(١) في الزواجر ص ٧.
(٢) صحيح البخاري (٢٧٦٦)، وصحيح مسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) الزواجر ص ٨.

مسكرٍ، واثنان في الفرج: الزنى، واللواط، واثنتان في اليد: القتلةُ والسرقةُ، وواحدةٌ في الرجل: الفرارُ من الزحف، وواحدةٌ في جميع الجسد عقوقُ الوالدَين. وفيه ما فيه.

وروى الطبرانيُّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنَّ رجلاً قال له: كم الكبائر، سبعٌ هي؟ فقال: هي إلى سبع مئة أقربُ منها إلى سبعٍ، غيرَ أنَّه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار(١).

وقد ألَّفَ فيها غيرُ واحدٍ من العلماء، وفي كتاب «الزواجر» تأليف العلامة ابن حجر ما فيه كفايةٌ فليراجَع(٢)، والله تعالى الموفِّقُ، وإنا لنستغفرُه ونتوبُ إليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ حيث يَغفرُ الصغائرَ باجتناب الكبائرِ، فالجملةُ تعليلٌ لاستثناء اللَّمَم، وتنبيهٌ على أنَّ إخراجَه عن حكم المؤاخذةِ ليس لخلوِّه عن الذنب في نفسه، بل لسعةِ المغفرةِ الربانية.

وجوِّزَ أنْ يكونَ المعنى: له سبحانه أنْ يغفرَ لمن يشاء من المؤمنين ما يشاءُ من الذنوب صغيرِها وكبيرِها، ولعلَّ تعقيبَ وعيدِ المسيئين ووَعْد المحسنين بذلك حينئذٍ لئلَّا ييأسَ صاحبُ الكبيرة من رحمته تعالى، ولا يتوهَّمَ وجوبَ العقاب عليه عز وجل.

وزَعْمُ بعضٍ جوازَ كونِ الموصول مبتدأً، وهذه الجملةُ خبره، والرابطُ محذوفٌ، أي: واسعُ المغفرة لهم، ليس بشيء كما لا يخفى.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: بأحوالكم من كلِّ أحدٍ ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاءِ أبيكم آدمَ عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجمالياً حسبما مرَّ تحقيقُه.

وقيل: إنشاؤهم من الأرض باعتبار أنَّ المنيَّ الذي يتكوَّنون منه من الأغذية التي منشؤُها من الأرض.

---

(١) لم نقف عليه عند الطبراني، وأخرجه الطبري ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم ٣/ ٩٣٤.
(٢) ينظر الزواجر ص ٣ وما بعدها، وجميع ما سبق نقله المصنف عنه.

وأيّاً ما كان ف «إذ» ظرفٌ لـ «أعلم» وهو على بابه من التفضيل. وقال مكي: هو بمعنى عالم[١]، إذ تعلُّقُ علمِه تعالى بأحوالهم في ذلك الوقت لا مشاركَ له تعالى فيه. وتُعقِّب بأنَّه قد يتعلَّق علمُ مَن أطلَعَه الله تعالى مِن الملائكة عليه. وقيل: «إذ» منصوبٌ بمحذوفٍ، والتقدير: اذكروا إذ أنشأكم. وهو كما ترى.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقت كونكم أجنَّةً ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على أطوارٍ مختلفةٍ مترتِّبةٍ لا يخفى عليه سبحانه حالٌ من أحوالكم، وعملٌ من أعمالكم التي من جملتها اللَّمَم الذي لولا المغفرةُ الواسعةُ لأصابكم وبالُه، فالجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا قبلَها، وذكر «في بطون أمهاتكم» مع أنَّ الجنينَ ما كان في البطن للإشارة إلى الأطوار كما أشرنا إليه، وقيل: لتأكيد شأنِ العلم؛ لِمَا أنَّ بَطْنَ الأمِّ في غاية الظلمة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبَقَ، من أنَّ عدمَ المؤاخذةِ باللَّمَم ليس لعدم كونِهِ من قبيل الذنوب، بل لمحضِ مغفرتِهِ تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فلا تُثنُوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلِّية، أو بزكاء العمل وزيادةِ الخير، بل اشكرُوا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصيَ جميعاً، وهو استئنافٌ مقرِّرٌ للنهي، ومشعرٌ بأنَّ فيهم مَن يتَّقيها بأسرها كذا في «الإرشاد»[٢]. وقيل: اتَّقى الشركَ. وقيل: اتَّقى شيئاً من المعاصي.

والآية نزلَت على ما قيل: في قومٍ من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنةً ثم يقولون: صلاتُنا وصيامنا وحجُّنا، وهذا مذمومٌ منهيٌّ عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء، أمَّا إذا لم يكن كذلك فلابأسَ به، ولا يُعَدُّ فاعلُه من المزكِّين أنفسَهم، ولذا قيل: المسرَّةُ بالطاعة طاعةٌ، وذِكْرُها شكرٌ.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٦٢.

ولا فرقَ في التزكية بين أنْ تكونَ عبارةً وأنْ تكونَ إشارةً، وعُدَّ منها التسميةُ بنحو برَّة. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينبَ بنتِ أبي سلمة أنَّها سُمِّيَت برَّةَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكُّوا أنفسَكم الله أعلمُ بأهل البرِّ منكم، سَمُّوها زينب»[1]، وكذا غيَّر عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برَّةَ بنتِ جحش[2]، وتغييرُ مثل ذلك مستحَبٌّ، وكذا ما يُوقعُ نَفْيُه بعضَ الناس في شيء من الطِّيَرة كـ : بركة ويَسار، والنهيُ عن التسمية به للتنزيه، وقوله ﷺ كما روى جابر: «إنْ عِشْتُ إنْ شاء الله أنهى أمتي أنْ يُسَمُّوا نافعاً وأفلَحَ وبَرَكة»[3] محمولٌ كما قال النووي على إرادةِ: أنهَى نَهيَ تحريم[4].

والظاهرُ أنَّ كراهةَ ما يُشعرُ بالتزكية مخصوصةٌ بما إذا كان الإشعار قويّاً، كما إذا كان الاسمُ قبل النقل ظاهرَ الدلالة على التزكية مستعمَلاً فيها، فلا كراهةَ في التسمية بما يُشعرُ بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحَسَن، وقد كان لعمرَ ﷺ ابنةٌ يقال لها: عاصية، فسمَّاها رسول الله ﷺ جميلة[5]، كذا قيل.

والمقامُ بعدُ لا يخلو عن بحث فليراجَع.

وقيل: معنى «لا تزكوا أنفسكم»: لا يُزكي بعضُكم بعضاً، والمرادُ النهيُ عن تزكية السمعةِ أو المدح للدنيا، أو تزكيةٍ على سبيل القطع، وأما التزكيةُ لإثبات الحقوق ونحوه فهي جائزةٌ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الآية نزلَت في اليهود، أخرج الواحدي وابن المنذر وغيرُهما عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهودُ إذا هلَكَ لهم صبيٌّ

---

(١) مسند أحمد (٩٥٦٠)، وصحيح مسلم (٢١٤٢)، وسنن أبي داود (٤٩٥٣)، وطبقات ابن سعد ٨/ ٤٦١، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٨. وهو عند أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند الباقين من حديث زينب، وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً البخاري (٦١٩٢).

(٢) قطعة من حديث زينب بنت أبي سلمة عند مسلم (٢١٤٢): (١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٨)، وأبو داود (٤٩٦٠)، واللفظ له.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٤/ ١١٩.

(٥) أخرجه مسلم (٢١٣٩) من حديث ابن عمر ﷺ.

صغيرٌ قالوا: هو صدِّيقٌ. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذَبت يهودُ، ما مِن نسمةٍ يخلُقها الله تعالى في بطن أمِّها إلا يعلمُ سعادتَها أو شقاوتَها» فأنزل الله سبحانه عند ذلك ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية[1].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أي: عن اتِّباع الحقِّ والثبات عليه ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: شيئاً قليلاً، أو إعطاءً قليلاً ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قطَعَ العطاء، من قولهم: حَفَر فأكدَى: إذا بلَغَ إلى كُديةٍ، أي: صلابةٍ في الأرض فلم يُمكنه الحفر.

قال مجاهد وابن زيد: نزلَت في الوليد بن المغيرة، كان قد سمعَ قراءةَ رسول الله ﷺ، وجلَسَ إليه ووَعَظه فقرب من الإسلام، وطمِعَ فيه رسولُ الله ﷺ، ثم إنَّه عاتَبَه رجلٌ من المشركين، وقال له: أتَتْرُك ملَّة آبائك؟! ارجِعْ إلى دينك واثبُتْ عليه، وأنا أتحمَّل عنك كلَّ شيءٍ تخافُه في الآخرة، لكن على أنْ تُعطيَني كذا وكذا من المال، فوافَقَه الوليدُ على ذلك، ورجع عمَّا هَمَّ به من الإسلام وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأعطَى بعضَ المال لذلك الرجل ثمَّ أمسك عنه وشحَّ[2].

وقال الضحاك: هو النضر بن الحارث أعطَى خمسَ قلائصَ لفقيرٍ من المهاجرين حتى ارتَّد عن دينه وضَمِن له أنْ يَحمِل عنه مأثَمَ رجوعِهِ.

وقال السدي: نزلَت في العاص بن وائل السَّهمي، كان يوافقُ النبيَّ ﷺ في بعض الأمور.

وقال محمد بن كعب: في أبي جهل؛ قال: والله ما يأمرُ محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق.

والأوَّلُ هو الأشهرُ الأنسبُ لِمَا بعده من قوله سبحانه: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخره، وأمَّا ما في «الكشاف»: من أنَّها نزلَت في عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يُعطي مالَه في الخير فقال له عبد الله بنُ سعد بن أبي سَرْح: يُوشك أنْ لا يبقَى لك شيءٌ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٢٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٨. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧١-٧٢، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٢٣.

فقال عثمان: إنَّ لي ذُنُوباً وخطايا، وإنِّي أطلبُ بما أصنعُ رضا الله تعالى، وأرجُو عفوَه. فقال عبد الله: أعطني ناقتَكَ برحْلِها وأنا أحملُ عنك ذُنوبَك كلَّها. فأعطاه وأشهَدَ عليه وأمسَكَ عن العطاء(١) = فباطلٌ كما قال ابن عطية، ولا أصل له، وعثمانُ ﷺ منزَّهٌ عن مثل ذلك(٢).

و«أفرأيتَ» هنا على ما في «البحر» بمعنى: أخبرني، ومفعولُها الأولُ الموصول، والثاني الجملةُ الاستفهامية(٣).

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ للتسبُّب عما قبلَه، أي: أعندَه علمٌ بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلمُ أنَّ صاحبَه يتحمَّل عنه يومَ القيامة ما يخافُه، وقيل: يرى أنَّ ما سمعَه من القرآن باطلٌ.

وقال الكلبي: المعنى: أَأُنْزِل عليه قرآنٌ فرأى أنَّ ما صنعَه حقٌّ.

وأيًّا ما كان ف «يرى» من الرؤية القلبية، وجوِّز أنْ تكونَ من الرؤيةِ البصرية، أي: فهو يُبصرُ ما خفي عن غيره مما هو غيبٌ.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي: بل ألم يُخبَّر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ وهي التوراة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وبما في صحف إبراهيم التي نزلَت عليه ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: وَفَّرَ(٤) وأتمَّ ما أُمِرَ به، أو بالغ في الوفاء بما عاهدَ عليه الله تعالى.

وقال ابن عباس: وفَّى بسهام الإسلام كلِّها، ولم يوفِّها أحدٌ غيرُه، وهي ثلاثون سهماً، منها عشرةٌ في «براءة»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيات [التوبة: ١١١-١١٢]، وعشرةٌ في «الأحزاب»: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآيات [الأحزاب: ٣٥]، وستٌّ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الآيات التي في أولها، وأربعٌ في سأل سائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الآيات [٢٦ وما بعدها].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٧.

(٤) من التوفير وهو التكثير، فتكثيره لفِعْلِه وأمرِ الغير به، أو لمبالغته في كيفيته. حاشية الشهاب ٨/ ١١٦.

وفي حديثٍ ضعيف عن أبي أمامة يرفعُه: «وَفَّى بأربعِ ركعاتٍ كان يُصلِّيهنَّ في كلِّ يومٍ»(١) وفي روايةٍ: «يصلِّيهنَّ أوَّلَ النهارَ»(٢).

وأخرج أحمدُ من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً أيضاً: «ألا أخبركم لِمَ سمَّى الله تعالى إبراهيمَ خليلَه الذي وفَّى؟ إنَّه كان يقول كلَّما أصبحَ وأمسَى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية [الروم:١٧]»(٣).

وقال عكرمة: «وفَّى» بتبليغ هذه العشرة (أَلَّا تَزِرُ) إلى آخره. وقيل وقيل.

والأَوْلى العمومُ، وهو مرويٌّ عن الحسن قال: ما أَمَره الله تعالى بشيءٍ إلا وفَّى به. وتخصيصُه عليه السلام بهذا الوصْفِ لاحتماله ما لا يحتملُه غيرُه، وفي قصة الذبح ما فيه كفاية.

وخُصَّ هذان النبيَّان عليهما السلام بالذكر قيل: لأنَّه فيما بين نوحٍ وإبراهيمَ كانوا يأخذون الرجلَ بابنه وبأبيه وعمِّه وخاله، والزوجَ بامرأته، والعبدَ بسيِّده، فأَوَّلُ من خالَفَهم إبراهيمُ، وقرَّر ذلك موسى، ولم يأتِ قبلَه مقرِّرٌ مثله عليه السلام، وتقديمُه لِمَا أنَّ صُحفَه أشهرُ عندهم وأكثر.

وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي: «وَفَى» بتخفيف الفاء(٤).

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أنَّه لا تحملُ نفسٌ مِن شأنها الحملُ حمْلَ نفسٍ أُخرى، على أنَّ «أن» هي المخفَّفة من الثقيلة، وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ، والجملةُ المنفيةُ خبرُها، ومحلُّ الجملة الجرُّ على أنَّها بدلٌ من «ما في

---

(١) أخرجه الدوري في جزء قراءات النبي (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨ من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة به، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: رواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف.

(٢) أخرجها البغوي ٤/ ٢٥٤ بالإسناد المذكور.

(٣) مسند أحمد (١٥٦٢٤).

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٨/ ١٦٧.

صُحف موسى»، أو الرفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما في صحفهما؟ فقيل: هو أن لا تزر.. إلخ، والمعنى أنَّه لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنب غيرِه ليتخلَّصَ الثاني عن عقابه، ولا يقدحُ في ذلك قوله ﷺ: «مَن سَنَّ سنةً سيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[1] فإنَّ ذلك وزْرُ الإضلال الذي هو وِزْرُه لا وزْرُ غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ بيانٌ لعدم إثابة الإنسان بعمل غيرِه إِثْر بيان عدمِ مؤاخذتِه بذنب غيره، و«أنْ» كأختها السابقة، و«ما» مصدرية، وجوِّز كونُها موصولةً، أي: ليس له إلا سعيُه، أو إلا الذي سَعَى به وفَعَلَه.

واستشكل بأنَّه وردَت أخبارٌ صحيحة بنفع الصدقةِ عن الميِّت، منها ما أخرجه مسلم والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إنَّ أُمِّي افتُلِتَت نفسُها، وأظنُّها لو تكلَّمَت تصدَّقَت، فهل لها أجرٌ إنْ تصدَّقْتُ عنها؟ قال: «نعم»[2].

وكذا بنفع الحجِّ، أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال: أتَى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ أُختي نذَرَت لأن تحجَّ، وإنَّها ماتَت؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لو كان عليها دينٌ أكنتَ قاضيَهُ»؟ قال: نعم. قال: «فحقُّ الله أحق بالقضاء»[3].

وأُجيبَ بأنَّ الغير لمَّا نَوَى ذلك الفعلَ له صارَ بمنزلة الوكيل عنه، القائم مقامَه شرعاً، فكأنَّه بسعيه، وهذا لا يتأتَّى إلا بطريق عمومِ المجاز، أو الجمعِ بين الحقيقة والمجاز عند مَن يُجوِّزُه.

وأُجيبَ أيضاً بأنَّ سَعْيَ غيره لمَّا لم ينفعْهُ إلا مبنيّاً على سَعْي نفسِه مِن الإيمان، فكأنَّه سعيُه، ودلَّ على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه

---

(١) سلف ٢٢/ ٢٨٢.

(٢) صحيح البخاري (١٣٨٨)، وصحيح مسلم (١٠٠٤)، وسنن أبي داود (٢٨٨١)، وسنن النسائي ٦/ ٢٥٠.

(٣) الخبر بنحوه في صحيح البخاري (٦٦٩٩)، وسنن النسائي ٥/ ١١٦، ولم نقف عليه عند مسلم.

عن جده أنَّ العاص بنَ وائل نذَرَ في الجاهلية أنْ ينحرَ مئةَ بدنةٍ، وأنَّ هشاماً ابنه نحرَ حصَّتَه خمسين، وأنَّ عمراً سألَ النبيَّ ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو كان أقرَّ بالتوحيد فصُمْتَ وتصدَّقْتَ عنه نفعَه ذلك»(١).

وأُجيبَ بهذا عما قيل: إنَّ تَضْعيفَ الثوابِ الواردِ في الآيات يُنافي أيضاً القصْرَ على سعيه وحده. وأنت تعلمُ ما في الجواب من النظر.

وقال بعضُ أجلَّة المحقِّقين: إنَّه ورد في الكتاب والسنة ما هو قطعيٌّ في حصول الانتفاع بعمل الغير، وهو يُنافي ظاهرَ الآية، فتُقيَّد بما لا يَهبُهُ العامل، وسألَ والي خراسان عبدُ الله بنُ طاهر الحسينَ بنَ الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فقال: ليس له بالعدل إلا ما سعَى، وله بالفضل ما شاء الله تعالى. فقبَّلَ عبدُ الله رأسَ الحسين(٢).

وقال عكرمةُ: كان هذا الحكمُ في قوم إبراهيمَ وموسى عليهما السلام، وأما هذه الأمةُ فللإنسان منها سعيُ غيرِه، يدلُّ عليه حديثُ سعد بن عبادة: هل لأمِّي إذا تطوَّعْتُ عنها؟ قال ﷺ: «نعم»(٣).

وقال الربيعُ: الإنسانُ هنا الكافرُ، وأما المؤمنُ فلَه ما سعَى وما سعَى له غيرُه.

وعن ابن عباس أنَّ الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور:٢١] وقد أَخرج عنه ما يُشعرُ به أبو داود والنحاس كلاهما في «الناسخ»، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه(٤).

---

(١) مسند أحمد (٦٧٠٤)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٣٨٦-٣٨٧، وأبو داود (٢٨٨٣).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٣٥-١٣٦، والبحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها، قال: «نعم»، الحديث، ولفظ المصنف منقول من البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٣٥-٣٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٨٠، وعزاه لأبي داود وابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٠.

وتعقَّبَ أبو حيان روايةَ النسخ بأنَّها لا تصحُّ؛ لأنَّ الآيةَ خبرٌ لم تتضمَّن تكليفاً(١)، ولا نسْخَ في الأخبار. وما يُتوهَّمُ جواباً من أنَّه تعالى أخبرَ في شريعة موسى وإبراهيم عليهما السلام أنْ لا يُجعلَ الثوابُ لغير العامل، ثم جَعَلَه لمن بعدهم من أهل شريعتنا، مرجعُه إلى تقييد الأخبارِ لا إلى النسخ، إذ حقيقتُه أنْ يُراد المعنى، ثم مِن بعد ذلك ترتفعُ إرادتُه، وهذا تخصيصُ الإرادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه.

وقيل: اللام بمعنى «على» أي: ليس على الإنسان غيرُ سعيه. وهو بعيدٌ من ظاهرها ومِن سياق الآية أيضاً، فإنَّها وعظٌ للذي تولَّى وأعطَى قليلاً وأكدَى.

والذي أميلُ إليه كلام الحسين، ونحوه كلامُ ابن عطية قال: والتحريرُ عندي في هذه الآية أنَّ ملاكَ المعنى هو اللام من قوله سبحانه: ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ فإذا حقَّقْت الشيءَ الذي حَقُّ الإنسان أنْ يقولَ فيه: لي كذا، لم تجدْهُ إلا سعيَه، وما يكونُ من رحمةٍ بشفاعة، أو رعايةِ أبٍ صالحٍ، أو ابنٍ صالحٍ، أو تضعيفِ حسناتٍ، أو نحو ذلك، فليس هو للإنسان، ولا يَسَعُه أنْ يقولَ: لي كذا وكذا، إلا على تجوُّز وإلحاق بما هو حقيقةٌ(٢). انتهى.

ويُعلم من مجموع ما تقدَّم أنَّ استدلال المعتزلةِ بالآية على أنَّ العبدَ إذا جعلَ ثوابَ عمله - أيَّ عملٍ كان - لغيره لا يَنْجَعلُ ويلغُو جعلُه = غيرُ تامٍّ؛ وكذا استدلالُ الإمام الشافعيِّ بها على أنَّ ثوابَ القراءة لا تلحقُ الأمواتَ، وهو مذهبُ الإمام مالك، بل قال الإمام ابنُ الهمام: إنَّ مالكاً والشافعيَّ لا يقولان بوصول العباداتِ البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة، بل غيرها كالصدقة والحجِّ(٣).

وفي «الأذكار» للنووي عليه الرحمة المشهورُ من مذهب الشافعي رضي الله عنه وجماعةٍ أنَّها لا تصلُ، وذهب أحمد بنُ حنبل وجماعةٌ من العلماء ومِن أصحاب الشافعيِّ

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٠٨.

إلى أنَّها تصل، فالاختيارُ أنْ يقولَ القارئ بعد فراغه: اللهمَّ أَوْصِلْ ثوابَ ما قرأتُه إلى فلان[١].

والظاهرُ أنَّه إذا قال ذلك ونحوَه، ك: وهبتُ ثوابَ ما قرأتُه لفلان، بقلبه كفَى، وعن بعضهم اشتراطُ نيةِ النيابةِ أوَّل القراءة، وفي القلب منه شيءٌ.

ثم الظاهرُ أنَّ ذلك إذا لم تكن القراءةُ بأجرةٍ، أما إذا كانت بها كما يفعلُه أكثرُ الناس اليومَ، فإنَّهم يُعطُون حَفَظَةَ القرآن أُجرةً ليقرؤوا لموتاهم، فيقرؤون لتلك الأجرة، فلا يصلُ ثوابُها، إذ لا ثوابَ لها ليصلَ، لحرمةِ أخْذِ الأُجرة على قراءة القرآن، وإنْ لم يَحرُم على تعليمه، كما حقَّقه خاتمةُ الفقهاء المحقِّقين الشيخُ محمد الأمين ابن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى[٢].

وفي «الهداية» من كتاب الحج عن الغير إطلاقُ صحةِ جَعْلِ الإنسان عملَه لغيره ـ ولو صلاةً وصوماً ـ عند أهل السنة والجماعة[٣]. وفيه ما علمت مما مرّ[٤] آنفاً.

وقال الخفاجي: هو محتاجٌ إلى التحرير، وتحريُره أنَّ محلَّ الخلاف العبادةُ البدنية، هل تَقبل النيابةَ فتسقُطَ عمَّن لزمتْهُ بفعل غيره، سواء كان بإذنه أم لا، بعدَ حياته أم لا، فهذا وَقَع في الحجِّ كما ورد في الأحاديث الصحيحة، أما الصومُ فلا، وما ورَدَ في حديث: «مَن ماتَ وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّهُ»[٥] وكذا غيرُه من العبادات، فقال الطحاوي: إنَّه كان في صدر الإسلام ثم نُسِخَ، وليس الكلامُ في الفدية وإطعامِ الطعام، فإنَّه بدلٌ، وكذا إهداءُ الثواب سواءٌ كان بعينه أو مثله، فإنَّه دعاءٌ، وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فاعرفه[٦]. انتهى فلا تغفل.

---

(١) الأذكار ص ١٤٠.
(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٥٥.
(٣) الهداية مع فتح القدير ٢/ ٣٠٨.
(٤) في (م): ما مرَّ.
(٥) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٦) حاشية الشهاب ٨/ ١١٧، وينظر شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ١٨٠.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يُعرض عليه ويُكشف له يومَ القيامة في صحيفته وميزانه، مِن أريتُه الشيءَ، وفي «البحر»: يراه حاضِرُو القيامة ويطّلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء[1].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى الإنسانُ سعيَه، يقال: جزاه الله عز وجل بعمله، وجزاهُ على عمله، وجزاهُ عملَه، بحذف الجارِّ وإيصال الفعل؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ مصدرٌ مبيِّنٌ للنوع، وإذا جاز وصفُ المجزيِّ به بـ «الأوْفى» جازَ وصفُ الحدث عن[2] الجزاء لملابسته له، وجوِّز كونُه مفعولاً به بمعنى المجزي به، وحينئذٍ يكونُ الفعلُ في حكم المتعدِّي إلى ثلاثة مفاعيل، ولابأسَ لأنَّ الثاني بالحذف والإيصال لا التوسُّعِ فيجيءَ فيه الخلافُ، وبعضُهم يجعلُ «الجزاءَ» منصوباً بنزع الخافضِ، وجوِّز أنْ يكونَ الضمير المنصوب في «يجزاه» للجزاء لا للسعي، و«الجزاءَ الأوْفَى» عليه عطفُ بيانٍ أو بدلٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣].

وتعقبه أبو حيان بأنَّ فيه إبدالَ الظاهر من الضمير، وهي مسألةٌ خلافيةٌ، والصحيحُ المنعُ[3].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي: إنَّ انتهاءَ الخلقِ ورجوعَهم إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً، والمرادُ بذلك رجوعُهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يُحشَرون، ولهذا[4] قال غيرُ واحدٍ: أي: إلى حساب ربِّك، أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعقابِه من النار الانتهاءُ.

وقيل: المعنى: أنَّه عز وجل مُنتهَى الأفكار، فلا تزالُ الأفكارُ تسيرُ في بيداء حقائقِ الأشياء وماهِياتها والإحاطة بما فيها، حتى إذا وُجِّهَت إلى حَرَم ذات الله عز وجل وحقائقِ صفاته سبحانه وقَفَت وحَرَنَت وانتهى سيرُها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.
(٢) في الأصل: أعني، والمثبت من (م).
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.
(٤) في الأصل: ولذا.

وأُيِّد بما أخرجه البغويُّ عن أُبيٍّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ أنّه قال في الآية: «لا فكرةَ في الربِّ»[١]، وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن سفيان الثوري[٢].

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا ذُكِر الربُّ فانتهوا»[٣].

وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على قومٍ يتفكرون في الله فقال: «تفكَّرُوا في الخلق ولا تفكَّروا في الخالق، فإنَّكم لن تقدروه»[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥. وفي معناه ما أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول: مَن خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتَهِ».

(٢) العظمة (٦).

(٣) أخرجه بنحوه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني عن أبي هريرة مرفوعاً، ورواية عطاء عن أبي هريرة مرسلة كما في تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٨.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده سنان بن سعد، ويقال سعد بن سنان، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال محمد بن سعد والنسائي: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٣.

(٤) لم نقف عليه في سنن ابن ماجه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن رجل حدثه عن ابن عباس مرفوعاً. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس.
وأخرجه موقوفاً على ابن عباس أبو الشيخ في العظمة (٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦١٨)، وسنده جيد كما قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٣٨٣.
وأخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والبيهقي في الشعب (١٢٠) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً، وفي إسناده الوازع بن نافع العقيلي، قال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال أحمد وابن معين: ليس بثقة. الميزان ٤/ ٣٢٧.
وأخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦-٦٧ من حديث عبد الله بن سلام، وفي إسناده عبد الجليل بن عطية، وهو صدوق قال البخاري عنه: ربما يهم. ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٥. وفيه أيضاً شهر بن حوشب قال الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
وقال صاحب كشف الخفاء ١/ ٣٧٢ بعد أن ذكر للحديث طرقاً وروايات كثيرة:
=

وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكَّروا في خَلْق الله ولا تَفَكَّروا في الله فتهلَكُوا»[(١)].

واستَدلَّ بذلك مَن قال باستحالةِ معرفتِهِ عز وجل بالكُنْه، والبحثُ في ذلك طويلٌ، وأكثرُ الأدلة النقلية على عدم الوقوع.

وقرأ أبو السمال: «وإنَّ» بالكسر هنا وفيما بعد، على أنَّ الجملَ منقطعةٌ عما قبلها، فلا تكون مما في الصحف[(٢)].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ خَلَق فِعْلَي الضَّحك والبُكاء، وقال الزمخشريُّ: خَلَق قوَّتَي الضَّحك والبكاء[(٣)]. وفيه دسيسةُ اعتزالٍ.

وقال الطيبي: المرادُ: خَلَق السرورَ والحُزْن، أو ما يَسرُّ ويُحزن من الأعمال الصالحة والطالحة، ولذا قُرِنَ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ وعليه فهو مجازٌ، ولا يخفَى أنَّ الحقيقةَ أيضاً تُناسبُ الإماتَةَ والإحياءَ، لاسيما والموتُ يعقبُهُ البكاءُ غالباً، والإحياء عند الوِلادِ الضحك، وما أحسنَ قوله:

وَلَدتْكَ أمُّك يا ابنَ آدمَ باكياً والناسُ حولَك يضحكون سروراً
فاجْهَدْ لنفسكَ أنْ تكونَ إذا بكَوا في يوم مَوتِكَ ضاحكاً مسروراً[(٤)]

وقال مجاهد والكلبي: أضحَكَ أهلَ الجنة، وأبكَى أهلَ النار.

وقيل: أضحَكَ الأرضَ بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

= وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسبه قوةً ومعناه صحيح، وفي صحيح مسلم [برقم: (١٣٤): (٢١٢)] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لايزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا، خلقَ اللهُ الخلقَ، فمَن خلقَ الله؟ فمن وجد مِن ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله». اهـ.

(١) العظمة (٤)، وفيه سيف بن محمد الكوفي ابن أخت سفيان، قال الحافظ في التقريب: كذبوه.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٤.

(٤) الكشكول للعاملي ٢/ ١٣٢ دون نسبة، وهما في تفسير القرطبي ٢/ ٣١٧ بنحوهما.

وتقديمُ الضمير وتكريرُ الإسناد للحصر، أي: إنَّه تعالى فَعَل ذلك لا غيرُه سبحانه، وكذا في «أنَّه هو أماتَ وأحيا» فلا يقدِرُ على الإماتة والإحياء غيرُه عز وجل، والقاتلُ إنَّما ينقُضُ البنيةَ الإنسانيةَ ويفرِّقُ أجزاءها، والموتُ الحاصلُ بذلك فعلُ الله تعالى على سبيل العادة في مثله، فلا إشكالَ في الحصر.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من نوع الإنسانِ وغيرِه من أنواع الحيوانات، ولم يذكر الضمير على طَرْز ما تقدَّم؛ لأنَّه لا يتوهَّم نسبةُ خَلْق الزوجَين إلى غيره عز وجل.

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي: تُدفَق في الرحم يقال: أَمنَى الرجلُ ومَنَى بمعنًى، وقال الأخفشُ: أي: تُقدَّر، يقال: مَنَى لك الماني، أي: قدَّر لك المقدِّر[1]. ومنه المَنَا الذي يُوزَن به فيما قيل، والمَنِيَّة وهي الأجل المقدَّر للحيوان.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الإحياءَ بعد الإماتةِ وفاءً بوعده جل شأنه، وفي «البحر»: لمَّا كانت هذه النشأةُ يُنكرها الكفَّارُ بُولِغَ بقوله تعالى: (عَلَيْهِ) كأنَّه تعالى أَوجَب ذلك على نفسه[2].

وفي «الكشاف»: قال سبحانه: (عَلَيْهِ) لأنَّها واجبةٌ في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة[3]. وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظرٌ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النشاءة» بالمدِّ[4]، وهي أيضاً مصدر نَشَأَه الثلاثي.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ وأعطَى القِنْيَة، وهو ما يبقَى ويدومُ من الأموال ببقاء نفسِه أو أصله، كالرياض والحيوان والبناء، وإفرادُ ذلك بالذكر مع دخوله في قوله تعالى: (أَغْنَىٰ) لأنَّ القنية أَنْفَسُ الأموال وأشرفُها، وفي «البحر»: يقال: قنيتُ المال، أي: كسبتُه. ويُعدَّى أيضاً بالهمزة والتضعيف فيقال: أَقْنَاهُ الله تعالى مالاً، وقَنَّاه الله تعالى مالاً، وقال الشاعر:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٤.

(٤) التيسير ص ١٧٣، والنشر ١/ ٤٦٠.

كم مِن غنيٍّ أصابَ الدهرُ ثروتَه ... ومِن فقيرٍ يُقَنَّى بعدَ إقلالِ

أي: يُقْنَّى المالَ[1].

وعن ابن عباس: «أغنَى»: مَوَّلَ، و«أَقْنَى»: أَرْضَى. وهو بهذا المعنى مجازٌ من القنية، قال الراغب: وتحقيقُ ذلك أنَّه جَعَل له قِنْيةً مِن الرضا والطاعة، وذلك أعظمُ القنائن[2]. ولله تعالى درُّ مَن قال:

هل هي إلا مدةٌ وتَنْقضي ... ما يغلبُ الأيامَ إلا مَن رَضِي[3]

وعن ابن زيد والأخفش: «أقنى» أفقر. ووُجِّهَ بأنَّهما جَعَلا الهمزةَ فيه للسلب والإزالة، كما في «أشكى». وقيل: إنَّهما جعلا «أَقْنَى» بمعنى: جعل له الرضا والصبرَ قِنْيةً، كنايةً عن ذلك، ليظهرَ فيه الطباقُ كما في «أمات وأحيا» و«أضحك وأبكى».

وفسَّره بـ «أفقر» أيضاً الحضرميُّ، إلا أنَّه ـ كما أخرج عنه ابنُ جرير وأبو الشيخ ـ قال: أغنَى نفسَه سبحانه، وأفقَرَ الخلائقَ إليه عز وجل[4]. والظاهرُ على تقدير اعتبارِ المفعول في جميع الأفعال المتقدِّمةِ أنْ يكونَ من المحدَثات الصالحة لتعلُّقِ الفعل، وعندي أنَّ أغنَى سبحانه نفسَه، كـ: أَوْجَد جل شأنه نفسَه، لا يخلو عن سماجةٍ وإيهامِ محذورٍ، وإنما لم يُذكَرُ مفعولٌ لأنَّ القَصْدَ إلى الفعل نفسِه.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ هي «الشِّعرَى» العَبُور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو، وتقال: «الشِّعرَى» أيضاً على الغُمَيْصاء بغينٍ معجمة مضمومة، وميمٍ مفتوحة، بعدها ياءٌ مثناةٌ تحتية، وصادٌ مهملة ومدٌّ.

والأُولَى في الجوزاء، وإنما قيل لها: العَبُور؛ لأنَّها عَبَرَت المجرَّة فلقِيَتْ

---

(١) البحر ٨/ ١٦٨، والبيت في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧، واللباب ١٨/ ٢١٥.

(٢) مفردات الراغب (قني).

(٣) نفحة الريحانة ١/ ٥٥١.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٤، والعظمة (١٧٦).

سُهيلاً؛ ولأنَّها تراه إذا طَلَع كأنَّها ستعبُرُ، وتُسمَّى أيضاً كَلْب الجبار؛ لأنَّها تَتْبع الجوزاء المسماة بالجبار كما يَتْبعُ الكلبُ الصائدَ أو الصيدَ.

والثانية في ذراع الأسد المبسوطة، وإنَّما قيل لها الغُمَيْصاء؛ لأنَّها بكَتْ مِن فراق سُهيل، فغُمِصَت عينُها، والغَمْصُ ما سال من الرَّمَص، وهو وسخٌ أبيضُ يجتمع في المُوق، وذلك مِن زَعْم العرب أنَّهما أختا سهيل.

وفي «القاموس»: من أحاديثهم: أنَّ الشِّعرَى العَبُور قطَعَت المجرَّة فسُمِّيت عَبُوراً، وبَكَت الأخرى على إثْرها حتى غَمصَت، ويقال لها: الغَمُوصُ أيضاً[1].

وقيل: زعموا أنَّ سهيلاً والشِّعرى كانا زوجَين، فانحدَرَ سهيل وصارَ يمانيّاً، فاتَّبعه الشِّعرَى فعَبَرت المجرةَ، فسمِّيت العَبُور، وأقامَت الغُمَيْصاء وسمِّيت بذلك لأنَّها دون الأولى ضياءً، وكلُّ ذلك من تخيُّلاتهم الكاذبة التي لا حقيقةَ لها.

والمتبادر عند الإطلاق وعدم الوصف العَبُور؛ لأنَّها أكبرُ جرماً وأكثرُ ضياء، وهي التي عُبدَت من دون الله سبحانه في الجاهلية.

قال السدي: عبدتها حِميرُ وخُزاعة. وقال غيره: أوَّلُ مَن عبدَها أبو كبشة رجلٌ من خزاعة، أو هو سيدُهم واسمُه: وَجْزُ[2] بن غالب، وكان المشركون يقولون للنبيِّ ﷺ: ابنُ أبي كبشة، شبَّهوه به لمخالفته قومَه في عبادة الأصنام. وذكر بعضُهم أنَّه أحدُ أجداده عليه الصلاة والسلام مِن قبل أُمِّه، وأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ كلَّ صفةٍ في المرء تسري إليه من أحد أصوله، فيقولون: نزَعَ إليه عرقُ كذا، وعرقُ الخال نزَّاع.

وقيل: هو كنيةُ وَهْب بنِ عبد مناف جدِّه ﷺ مِن قِبَلِ أمِّه، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهرُ «القاموس»[3] لأنَّه ﷺ في الشَّبه الخَلْقي دون المخالفة[4].

---

(١) القاموس المحيط (غمص).

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي المؤتلف والمختلف للدارقطني ٤/ ٢٢٩١: وَجْز.

(٣) مادة (كبش).

وقيل: كنيةُ زوجِ حليمةَ السعدية مرضعتِهِ عليه الصلاة والسلام. وقيل: كنيةُ عمٍّ ولدها[(١)].

ولكونها عُبِدَت من دونه عز وجل خُصَّت بالذكر، ليكون ذلك تجهيلاً لهم بجعل المربوب ربّاً، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على ما نطَقَ به النظمُ الجليل.

ومن العرب مَن كان يُعظِّمها ويعتقدُ تأثيرَها في العالم، ويزعمون أنَّها تقطعُ السماء عرضاً، وسائرُ النجوم تقطعها طولاً، ويتكلَّمون على المغيبات عند طلوعها، ففي قوله تعالى: (وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ) إشارةٌ إلى نَفْي تأثيرها.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ أي: القدماء لأنَّهم أُوْلَى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور.

وقال الطبري: وُصِفَت بالأولى لأنَّ في القبائل عاداً أخرى، وهي قبيلةٌ كانت بمكة مع العماليق، وهم بنو لُقَيْم بن هزَّال[(٢)].

وقال المبرد: عادٌ الأخرى هي ثمود[(٣)].

وقيل: الجبَّارون.

وقيل: عادٌ الأُولَى وَلَدُ عادِ بن إِرَم بنِ عوف بن سام بن نوح، وعادٌ الأخرى من ولد عادٍ الأولى.

وفي «الكشاف»: الأولى قومُ هودٍ، والأخرى إِرَمُ. والله تعالى أعلم، وجوَّز أنْ يُرادَ بالأولى المتقدِّمون الأشراف[(٤)].

وقرأ قومٌ: «عاداً الولى» بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها[(٥)].

---

(١) ينظر الخلاف في ذلك في الروض الأنف ٢/ ٢٢٨، وفتح الباري ١/ ٤٠، والقاموس (كبش).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٧-٨٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «عاداً لُّولَى» بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركةُ الهمزة المحذوفة(١)، وعاب هذه القراءةَ المازنيُّ والمبرد، وقالت العرب في الابتداء بعد النقل: الحَمْرَ، ولَحْمَر، فهذه القراءة جاءت على لَحْمَر، فلا عيبَ فيها(٢).

وأتى قالون بعد ضمَّةِ اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو(٣) كما في قوله:

أَحَبُّ المُؤْقِدِينَ إليَّ مُؤْسَى(٤)

وكما قرأ بعضهم: «على سؤقه»(٥) وفيه شذوذ. وفي حرف أبيٍّ: «عاد» غير مصروف(٦) للعَلَمية والتأنيث، ومَن صَرَفه فباعتبار الحيِّ، أو عامَلَه معاملةَ هند لكونه ثلاثيًا ساكن الوسط.

﴿وَثَمُودَا۟﴾ عطف على «عاداً» ولا يجوز أنْ يكونَ مفعولاً لـ «أبقى» في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ لأنَّ «ما» النافية لها صدرُ الكلام، والفاءُ ـ على ما قيل ـ مانعةٌ أيضاً، فلا يتقدَّمُ معمولُ ما بعدَها. وقيل: هو معمول لـ «أهلك» مقدَّر. ولا حاجةَ إليه.

---

(١) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٤١٠، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب.

(٢) ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ١١٠ في هذه المسألة كلاماً مفيداً، ولا بأس بذكره للتوضيح، قال: وأما قراءة مَن أدغم التنوين في لام التعريف ـ وهما نافع وأبو عمرو ـ فوَجْهُه الاعتدادُ بحركة النقل، وذلك أن من العرب مَن إذا نَقَل حركة الهمزة إلى ساكنٍ قبلها ـ كـ: لام التعريف ـ عامَلَها معاملتَها ساكنةً، ولا يَعْتدُّ بحركة النقل، فيكسِرُ الساكن الواقع قبلها، ولا يُدغم فيها التنوين، ويأتي قبلها بهمزة الوصل، فيقول: لم يذهبِ لَحْمَر، و: رأيت زياداً لَعْجم، من غير إدغام التنوين، والَحْمَر والَعْجَم بهمزة الوصل؛ لأن اللام في حُكْم السكون، وهذه هي اللغة المشهورة. ومنهم مَن يَعتدُّ بها، فلا يكسِرُ الساكن الأول، ولا يأتي بهمزة الوصل، ويدغم التنوين في لام التعريف، فيقول: لم يذهبْ لَحْمر، بسكون الباء، ولَحْمَر ولَعْجَم من غير همز، وزياد لَّعجم بتشديد اللام، وعلى هذه اللغة جاءت هذه القراءة.

(٣) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٤١٠.

(٤) البيت لجرير كما في المحتسب ١/ ٤٧، والخصائص ٢/ ١٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٨، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٨/ ٧٨، ودون نسبة في الحجة للفارسي ١/ ٢٣٩، والبحر ٨/ ١٦٩، وفي المصادر عدا الحجة والبحر: لحب، بدل: أحب.

(٥) وهو قنبل عن ابن كثير كما في التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، وسلفت القراءة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.

وقرأ عاصم وحمزة: «ثمود» بلا تنوين، ويقفان بغير ألف[1]. والباقون بالتنوين ويقفون بالألف.

والظاهر أنَّ متعلق «أبقى» يرجعُ إلى «عاد» و«ثمود» معاً، أي: فما أبقَى عليهم، أي: أخذَهم بذنوبهم، وقيل: أي: ما أبقى منهم أحداً، والمراد: ما أبقى من كفارهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ عطف على «عاداً» أيضاً ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إهلاك عادٍ وثمودَ، وصرَّح بالقَبْلية لأنَّ نوحاً عليه السلام آدمُ الثاني، وقومه أولُ الطاغين والهالكين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: من الفريقَين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك، وكان الرجلُ منهم يأخذُ بيد ابنه يتمشَّى به إليه يُحذِّره منه ويقول: يا بنيَّ إنَّ أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ، فإياك أنْ تُصَدِّقه. فيموت الكبيرُ على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه، ولم يتأثَّروا من دعائه وقد دعاهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً.

وقيل: ضمير «إنهم» يعودُ على جميع مَن تقدَّم: «عاد» و«ثمود» و«قوم نوح» أي: كانوا أظلمَ من قريش وأطغى منهم، وفيه من التسلية للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

و«هم» يجوز أنْ يكونَ تأكيداً للضمير المنصوب، ويجوز أنْ يكونَ فصلاً؛ لأنَّه واقعٌ بين معرفة وأفعَلَ التفضيل، وحذفُ المفضول مع الواقع خبراً لـ «كان» لأنَّه جارٍ مجرى خبرِ المبتدأ، وحذفُه فصيحٌ فيه، فكذلك في خبر «كان».

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي قُرى قومِ لوطٍ، سمِّيت بذلك لأنَّها ائتفكَت بأهلها، أي: انقلَبَت بهم، ومنه الإفكُ لأنَّه قَلْبُ الحقِّ، وجوِّز أنْ يُراد بـ «المؤتفكة» كلُّ ما انقلَبَت مساكنُه ودَثَرَت أماكنُه.

وقرأ الحسن: «والمؤتفكات» جمعاً[2].

---

(١) التيسير ص ٢٠٥، والنشر ٢/ ٢٨٩، وهي قراءة يعقوب.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩، والبحر المحيط ٨/ ١٧٠.

﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقطَها إلى الأرض بعد أنْ رفَعَها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء، وقال المبرِّد: جعلها تهوي[١].

والظاهر أنَّ «أهوى» ناصبٌ للمؤتفكة، وأُخِّر العاملُ لكونه فاصلةً، وجوِّز أنْ يكونَ «المؤتفكة» معطوفاً على ما قبله، و«أهوى» مع فاعله جملةً في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه توضِّح كيفيةَ إهلاكهم.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ فيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لِمَا أصابهم منه؛ لأنَّ الموصولَ من صيغ العموم، والتضعيف في «غشَّاها» يحتملُ أنْ يكونَ للتعدية فيكون «ما» مفعولاً ثانياً، والفاعل ضميرُه تعالى، ويحتملُ أنْ يكون للتكثير والمبالغة فـ «ما» هي الفاعل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ تَتشكَّكُ، والتفاعل هنا مجرَّدٌ عن التعدُّد في الفاعل والمفعول للمبالغة في الفعل، وقيل: إنَّ فعلَ التَّماري للواحد باعتبار تعدُّد متعلَّقه، وهو الآلاء المتمارَى فيها، والخطاب قيل: لرسول الله ﷺ على أنَّه من باب الإلهاب والتعريض بالغير، وقيل: للإنسان على الإطلاق، وهو أظهرُ، والاستفهام للإنكار.

و«الآلاء» جمعُ إِلًى[٢]: النِّعَم، والمرادُ بها ما عُدَّ في الآيات قبلُ، وسمَّى الكلَّ بذلك مع أنَّ منه نِقَماً، لِمَا في النقم من العِبَر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للأنبياء والمؤمنين، فهي نِعَمٌ بذلك الاعتبار أيضاً.

وقيل: التعبير بـ «الآلاء» للتغليب. وتُعقِّب بأنَّ المقامَ غيرُ مناسبٍ له.

وقرأ يعقوب وابن محيصن: «ربك تَّمارى» بتاءٍ مشدَّدة[٣].

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ الإشارةُ إلى القرآن، وقال أبو مالك: إلى الأخبار عن الأمم، أو الإشارةُ إلى الرسول ﷺ. و«النذيرُ» يجيءُ مصدراً ووَصْفاً،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٠.
(٢) وتجمع أيضاً على: أَلْي وإِلْي. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ١/ ٣٠٠، والكلام من البحر ٨/ ١٧٠.

و«النذر» جمعُه مطلقاً، وكلٌّ من الأمرَين محتَملٌ هنا، ووَصْفُ «النذر» جمعاً للوَصْفِ بـ «الأُولى» على تأويل الفرقة أو الجماعة، واختير على غيره رعايةً للفاصلة، وأيّاً ما كان فالمرادُ: هذا نذير من جنس النُّذُر الأُولى.

وفي «الكشف»: أنَّ قولَه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ إلخ فذلكةٌ للكلام إما لِمَا عدَّد من المشتمل عليه الصحف، وإما لجميع الكلام من مفتَتَح السورة. فتدبر ولا تغفل.

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي: قربَت الساعة الموصوفةُ بالقرب في غير آية من القرآن، فـ «أل» في «الآزفة» للعهد[1] لا للجنس. وقيل: «الآزفة» عَلَمٌ بالغلبة للساعة هنا. وقيل: لابأسَ بإرادة الجنس، ووصف القريب بالقرب للمبالغة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله تعالى، أو: إلا الله عز وجل ﴿كَاشِفَةٌ﴾ نفسٌ قادرةٌ على كشفها إذا وقَعَت، لكنَّه سبحانه لا يكشِفُها؛ والمرادُ بالكشف الإزالة، وقريبٌ من هذا ما روي عن قتادة وعطاء والضحاك، أي: إذا غَشِيَت الخلْقَ أهوالُها وشدائدُها لم يكشِفْها ولم يَرُدَّها عنهم أحدٌ.

أو: ليس لها الآن نفسٌ كاشفةٌ، أي: مزيلةٌ للخوف منها، فإنَّه باقٍ إلى أنْ يأتيَ الله سبحانه بها، وهو مرادُ الزمخشري بقوله: أو: ليس لها الآن نفسٌ كاشفةٌ بالتأخير[2]. وقيل: معناه: لو وقَعَت الآن لم يردَّها إلى وقتها أحدٌ إلا الله تعالى. فالكشف بمعنى التأخير، وهو إزالةٌ مخصوصةٌ.

وقال الطبري والزجَّاج: المعنى: ليس لها من دون الله تعالى نفسٌ كاشفةٌ تكشِفُ وقتَ وقوعها وتُبيِّنُه؛ لأنَّها من أخفَى المُغَيَّبات[3]. فالكشفُ بمعنى التبيين، والآيةُ كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) في (م): كاللعهد.

(٢) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٣) بنحوه في تفسير الطبري ٢٢/ ٩٥-٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨، وينظر البحر المحيط ٨/ ١٧٠.

والتاء في «كاشفة» على جميع الأوجه للتأنيث، وهو لتأنيث الموصوفِ المحذوف كما سمعتَ، وبعضُهم يُقدِّر الموصوفَ «حالٌ»[١]، والأول أَوْلَى.

وجوّز أنْ تكونَ للمبالغة مثلها في علَّامة. وتُعقِّب بأنَّ المقام يأباه؛ لإيهامه ثبوتَ أصل الكشف لغيره عز وجل، وفيه نظر.

وقال الرمَّاني وجماعة: يحتملُ أنْ يكون «كاشفة» مصدراً كالعافية، وخائنة الأعين، أي: ليس لها كَشْفٌ من دون الله تعالى.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعدَ شيءٍ من ذلك ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حُزْناً على ما فرَّطتُم في شأنه، وخوفاً من أنْ يحيقَ بكم ما حاقَ بالأمم المذكورة ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لاهون، كما روي عن ابن عباس جواباً لنافع بن الأزرق، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكرٍ وهي تبكي قومَ عاد:

لـيـت عـاداً قـبـلـوا الـحـقَّ ولـم يُـبـدُوا جُـحـودا
قـيـل قُـمْ فـانـظُـرْ إلـيـهـم ثـم دَعْ عـنـك الـسُّـمُـودا[٢]

وفي رواية أنَّه ﷺ سئل عن السُّمود، فقال: البَرْطَمَة. وهي رفعُ الرأس تكبُّراً، أي: وأنتم رافعون رؤوسَكم تكبُّراً، وروي تفسيرُه بالبرطمة عن مجاهد أيضاً.

وقال الراغبُ: السَّامدُ: اللَّاهي الرافعُ رأسَه، مِن سَمَدَ البعيرُ في سيره: إذا رَفَع رأسه[٣].

وقال أبو عبيدة: السُّمود: الغناء بلغة حِمْيَر؛ يقولون: يا جاريةُ اسمُدي لنا، أي: غنِّي لنا[٤]. وروي نحوُه عن عكرمةَ، وأخرج عبد الرزاق والبزار وابن جرير والبيهقي في «سننه» وجماعة عن ابن عباس أنَّه قال: هو الغناء باليمانية، وكانوا إذا

---

(١) في (م): حالاً.
(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٢ للطستي والطبراني، وأخرجه في الإتقان ١/ ٣٨٨.
(٣) مفردات الراغب (سمد).
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٥٥.

سمعوا القرآنَ غنَّوا تشاغُلاً عنه[١]. وقيل: يفعلون ذلك ليشغلوا الناسَ عن استماعه.

والجملةُ الاسمية على جميع ذلك حالٌ من فاعل «لا تبكون»، ومضمونها قيدٌ للنفي، والإنكار متوجِّهٌ إلى نَفْي البكاء ووجودِ السُّمود.

وقال المبرِّد: السُّمود: الجمودُ والخشوع، كما في قوله:

رَمَى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ سَعْدٍ   بِمقدارٍ سَمِدْنَ له سُمودا
فردَّ شعورَهنَّ السُّودَ بيضاً   وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سودا[٢]

والجملةُ عليه حالٌ من فاعل «تبكون» أيضاً إلا أنَّ مضمونَها قيدٌ للمنفي، والإنكار واردٌ على نَفْي البكاء والسُّمود معاً. فلا تغفل.

وفي حرف أبيٍّ وعبد الله: «تضحكون» بغير واو[٣]. وقرأ الحسن: «تُعجِبون تُضحِكون» بغير واو وضمِّ التاءين وكسر الجيم والحاء[٤].

واستُدل بالآية كما في «أحكام القرآن» على استحباب البكاءِ عند سماع القرآن وقراءته، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الآية بكى أصحابُ الصُّفَّة حتى جَرَت دموعُهم على خدودهم، فلمَّا سمع رسول الله ﷺ حنينَهم بكى معهم، فبكينا ببكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلجُ النارَ مَن بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنةَ مصرٌّ على معصيته، ولو لَمْ تُذْنبُوا لجاءَ الله تعالى بقومٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفرُ لهم»[٥].

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٥٥، والبزار (٢٢٦٤ - كشف)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٩٧، والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٢٣.

(٢) البيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص ١٧٧، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي، وسلف ٤/ ٣٥٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٧١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) شعب الإيمان (٧٩٨) وقوله: «ولو لم تذنبوا لجاء...» أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي شيبة وهنَّاد وغيرهم عن صالح أبي الخليل قال: لمَّا نزلت هذه الآية (أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ) ما ضحك النبيُّ ﷺ بعد ذلك إلا أنْ يتبسَّم. ولفظ عبدِ بن حميد: فما رُئيَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام ضاحكاً ولا متبسِّماً حتى ذهب من الدنيا(١). وفيه سدُّ باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاءً، والعياذ بالله عز وجل.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾ الفاء لترتيب الأمر أو موجبه، على ما تقرَّر من بطلان مقابلةِ القرآن بالتعجُّب والضحك، وحَقِّيَّةِ مقابلته بما يليقُ به، ويدلُّ على عظم شأنه، أي: وإذا كان الأمرُ كذلك فاسجدوا لله تعالى الذي أنزله واعبدوه جلَّ جلاله، وهذه آيةُ سجدةٍ عند أكثر أهل العلم، وقد سجَدَ النبيُّ ﷺ عندها.

أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أولُ سورةٍ أنزلَت فيها سجدةٌ «والنجم» فسجَدَ رسول الله ﷺ، وسجَدَ الناسُ كلُّهم إلا رجلاً، الحديث(٢).

وأخرج ابنُ مردويه والبيهقي في «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ فقرأ «النجم» فسجد بنا فأطال السجود(٣).

وكذا عمر رضي الله عنه؛ أخرج سعيد بن منصور عن سبرة قال: صلَّى بنا عمر بنُ الخطاب الفجرَ فقرأ في الركعة الأولى سورةَ يوسف، ثم قرأ في الثانية سورة النجم فسجَدَ، ثم قام فقرأ «إذا زلزلت» ثم ركع(٤).

ولا يرى مالكٌ السجودَ هنا، واستدلَّ له بما أخرجه أحمدُ والشيخان وأبو داود

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٣٤، والزهد لهناد ١/ ٢٧١ (٤٧٣)، وعزاه لأحمد في الزهد وعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣١.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٦٣)، وصحيح مسلم (٥٧٦)، وسنن أبي داود (١٤٠٦)، وسنن النسائي (المجتبى) ٢/ ١٦٠، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١، وسلف في بداية هذه السورة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٨٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٤) عزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٢.

والترمذي والنسائي والطبراني وغيرهم عن زيد بن ثابت قال: قرأتُ النجمَ عند النبي ﷺ فلم يسجُد فيها[(١)].

وأُجيبَ بأنَّ الترك إنَّما يُنافي وجوبَ السجود، وليس بمجمَعٍ عليه، وهو عند القائل به على التراخي في مثل ذلك على المختار، وليس في الحديث ما يدلُّ على نَفْيه بالكلِّية، فيحتمل أنَّه عليه الصلاة والسلام سَجَدَ بَعْدُ، وكذا زيدٌ رضي الله عنه، نعم التأخيرُ مكروه تنزيهاً، ولعله فُعِل لبيان الجواز، أو لعذرٍ لم نطَّلع عليه، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله: إنَّ رسول الله ﷺ لم يسجد في شيءٍ من المفصَّل منذ تحوَّل إلى المدينة. نافٍ وضعيف، وكذا قوله فيما رواه أيضاً عنه: كان رسول الله ﷺ يسجد في «النجم» بمكة، فلمَّا هاجر إلى المدينة تركها[(٢)]. على أنَّ الترك إنما ينافي ـ كما سمعتَ ـ الوجوبَ، والله تعالى أعلم.

---

(١) المسند (٢١٥٩١)، وصحيح البخاري (١٠٧٢) و(١٠٧٣)، وصحيح مسلم (٥٧٧)، وسنن أبي داود (١٤٠٤)، وسنن الترمذي (٥٧٦)، وسنن النسائي (المجتبى) ٢/ ١٦٠، والمعجم الكبير (٤٨٢٩).

(٢) الحديثان عزاهما لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٥٤) سورة القمر مكية وآياتها خمس وخمسون

سورةالقمر إحدى السورة المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي ذات طابع خاص ، فيه التهديد والوعيدُ ، والإعذارُ والإنذار ، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن المبين ، من السابقين واللاحقين ، مع مشاهد العذاب والدمار . سُميت السورة الكريمة « سورة القمر » لأن الله تعالى ذكر فيها تلك المعجزة الكونية الهائلة ، معجزة « انشقاق القمر » بناءً على طلب المشركين أن يريهم رسول الله ﷺ معجزةً تدل على صدقه ، وأعطوه العهود والمواثيق أن يؤمنوا إن أجابهم إلى طلبهم ، وطلبوا منه أن يشق لهم القمر ، فدعا رسول الله ﷺ ربَّه فاستجاب الله دعاءه وشقَّ القمر ، روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حِرَاءَ بينهما » وأخرج الإمام أحمد عن « جُبير بن مطعم » أنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقةً على هذا الجبل ، وفرقةً على هذا الجبل ، فقال المشركون : سحرنا محمد ، ثم قالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .. فانتظروا حتى يأتي السُّفّار - أي المسافرون - فلما حضروا وسألوهم أجابوهم بأنهم رأوا إنشقاق القمر ، فقال المشركون : سحر محمدٌ الناسَ جميعاً فأنزل الله ﴿ اقتربت الساعةُ

وانشقَّ القمرُ . وإنْ يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مستقر﴾ .

وبعد الحديث عن القيامة والقمر ، تأتي النُذُر والعِبَر لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمةٌ بالغة فما تغني النُذُر ؟﴾ ثم تتوالى الآيات وفيها الإنذارات العديدة تهزُ المشاعر هزاً ، وتحرك الضمير الحيَّ تحريكاً عنيفاً وهي تتحدث عن أهوال ذلك اليوم العصيب ، حين يخرج الناس من القبور كأنهم جرادٌ منتشر في الآفاق ، يسرعون الخطى استجابة لنداء الداعي « إسرافيل » عليه السلام ، حين ينادي : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتمزقة ، والأوصال المتفرقة إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن ليوم الفصل والجزاء ، ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيخرج الناسُ من القبور مسرعين نحو صوت المنادي ، خاشعة أبصارهم من الذل والهَوْل ﴿فتولّ عنهم يومَ يدعوا لداعِ إلى شيءٍ نُكُر . خُشَّعاً أبصارُهُم يخرجون من الأحداث كأنهم جرادٌ منتشر . مهطعين إلى الداعِ يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ ومن مشاهد القيامة إلى مصارع المكذبين ، تنتقل الآيات الكريمة لتتحدث عن مشاهد التنكيل والتعذيب التي حلَّت بالطغاة المتجبرين ، الذين تمردوا على الله ورسله ، بدءاً من قوم نوح ﴿كذبت قبلهم قومُ نوحٍ فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنونٌ وازْدُجِر . فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصِرْ. ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قَد قُدر . وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر . تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر . ولقد تركناها آية فهل من مدَّكر ؟ فكيف كان عذابي ونُذُر ؟﴾ . وبعد كل قصةٍ من قصص الأمم الغابرة ، وما نالها من العذاب والدمار ، يتكرر التعقيب بدعوة الإنسان إلى التذكر والإعتبار ، دعوةً هادئةً لطيفة إلى التبصر في هذا القرآن

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدَّكر﴾ ؟ أي هل من متعظٍ ومعتبر ؟ ثم يبدأ المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ، الذي حلَّ بعادٍ قوم هود ، وقد كانوا أقوى الأمم وأعتاها ، ولكنَّ الله أهلكهم بأيسر الأسباب بالريح الصرصر العاتية ، التي لا تدع شيئاً إلا أهلكته ودمرته ﴿كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصراً – أي باردة شديدة الصوت – في يوم نحسٍ مستمر . تنزِع الناسَ كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر . فكيف كان عذابي ونُذُر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ؟ ثم تمضي السورة الكريمة تتحدث عن مصارع الطغاة المكذبين – في المشهد الثالث – وهم قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام ، الذين خلفوا عاداً في القوة والتمكين في جزيرة العرب ، فقد كانت عادٌ في الجنوب ، وكانت ثمود في الشمال ، وكذبت ثمود رسولها كما كذبت عادٌ من قبل ، غير معتبرة بمصرعها ، حتى جاءتها صيحة العذاب المدمّر ، فكانوا كالهشيم المتحطم ، والعشب اليابس الذي تذروه الرياح ﴿كذبت ثمودُ بالنُذُر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفي ضلال وسُعُر . أأُلقي الذِكر عليه من بيننا ، بل هو كذَّابٌ أشر . سيعلمون غداً من الكذابُ الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أنَّ الماء قسمةٌ بينهم كل شِربٍ محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونُذُر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ .

وفي المشهد الرابع تتحدث الآيات عن قوم لوط ﴿كذبت قومٍ لوطٍ بالنُذُر . إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ثم يتلوها الحديث في استعراض سريع عن آل فرعون ﴿ولقد جاءَ آل فرعونَ النُذُر . كذبوا بآياتنا كلّها فأخذناهم أخذ عزيزٍ مُقْتدر﴾ وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة

– مشاهد العذاب والنكال – الذي حلَّ بالمكذبين لرسل الله ، يتوجه القرآن الكريم إلى مخاطبة قريش ، يحذرهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أدهى وأشد ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزُبر ؟ أم يقولون نحن جميعٌ منتصر؟ سيهزم الجميع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر.. إن المجرمين في ضلال وسُعُر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذو قوامسَّ سقر ﴾ وتختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء المتقين ، بعد أن ذكرت مآل الأشقياء المجرمين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب للمقارنة بين الأبرار والفجار ﴿ إن المتقين في جناتٍ ونَهَر . في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ﴾

سورة القمر

[٨٧٨] أخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبي [ﷺ] فقالوا: سحر القمر فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾(١).

[٨٧٩] وأخرج الترمذي عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي [ﷺ] آية فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٢).

[٨٨٠] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قالوا يوم بدر نحن جميع منتصر فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾(٣).

[٨٨١] وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله [ﷺ] في القدر فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾(٤).

* * *

---

[٨٧٨] (١) سورة القمر: الآية (١) ـ والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٧).

[٨٧٩] (٢) سورة القمر: الآية (١و٢).

[٨٨٠] (٣) سورة القمر: الآية (٤٥).

[٨٨١] (٤) سورة القمر: الآية (٤٧ و٤٨ و٤٩).

سورة القمر

خمس وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ ﴾

أول السورة مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ [النجم: ٥٧]فكأنه أعاد ذلك مع الدليل، وقال قلت: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ وهو حق، إذ القمر انشق، والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق، وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة، وقالوا: سئل رسول الله ﷺآية الانشقاق بعينها معجزة، فسأل ربه فشقه ومضى، وقال بعض المفسرين المراد سينشق، وهو بعيد ولا معنى له، لأن من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل، ومن يجوزه لا حاجة إلى التأويل، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب، لأن الانشقاق أمر هائل، فلو وقع لعم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر، نقول: النبي ﷺلما كان يتحدى بالقرآن، وكانوا يقولون: إنا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام، وعجزوا عنه، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر. وأما المؤرخون فتركوه، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم، وهو لما وقع الأمر قالوا: بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات، وذكرناه مرارًا فلا نعيده.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ تقديره: وبعد هذا إن يروا آية يقولوا سحر، فإنهم رأوا آيات أرضية، وآيات سماوية، ولم يؤمنوا، ولم يتركوا عنادهم، فإن يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون، وفيه وجه آخر وهو أن يقال: المعنى أن عادتهم أنهم إن يروا آية يعرضوا، فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة، **وفيه مسائل:**

الأولى: قوله: ﴿ آيَةً ﴾ ماذا؟ نقول آية اقتراب الساعة، فإن انشقاق القمر من آياته، وقد ردوا وكذبوا، فإن يروا غيرها أيضًا يعرضوا، أو آية الانشقاق فإنها معجزة، أما كونها معجزة ففي غاية

الظهور، وأما كونها آية الساعة، فلأن منكر ربِّ العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله: في كل جسم سماوي من الكواكب، فإذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به، وبان جواز خراب العالم، وقال أكثر المفسرين: معناه أن من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب، وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان، وخفاء الأمر على الأذهان، وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر في كتابه أن القمر ينشق، وهو علامة قيام الساعة، لكان ذلك أمرًا لا بد من وقوعه مثل خروج دابة الأرض، وطلوع الشمس من المغرب، فلا يكون معجزة النبي ﷺ، كما أن هذه الأشياء عجائب، وليست بمعجزة للنبي، لا يقال: الإخبار عنها قبل وقوعها معجزة، لأنا نقول: فحينئذ يكون هذا من قبيل الإخبار عن الغيوب، فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد، ولا يقال: بأن ذلك كان معجزة وعلامة، فأخبر الله في الصحف والكتب السالفة أن ذلك يكون معجزة للنبي ﷺ وتكون الساعة قريبة حينئذ، وذلك لأن بعثة النبي ﷺ علامة كائنة حيث قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبي ﷺ قال عن أمور تكون، فكان وجوده دليل أمور، وأيضًا القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي ﷺ على المشركين، وهم كانوا غافلين عما في الكتب، وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا إلى بيان علامة الساعة، لأنهم كانوا يقولون بها وبقربها، فهي إذن آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى، لأن السموات إذا طويت وجوز ذلك، فالأرض ومن عليها لا يستبعد فناؤهما، إذا ثبت هذا فنقول: معنى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أن يكون في العقول والأذهان، يقول: من يسمع أمرًا لا يقع هذا بعيد مستبعد، وهذا وجه حسن، وإن كان بعض ضعفاء الأذهان ينكره، وذلك لأن حمله على قرب الوقوع زمانًا لا إمكانًا يمكن الكافر من مجادلة فاسدة، فيقول: قال الله تعالى في زمان النبي ﷺ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ ويقولون بأن من قبل أيضًا في الكتب (السَّابِقَةِ) كان يقول: (اقترب الوعد) ثم مضى مائة سنة ولم يقع، ولا يبعد أن يمضي ألف آخر ولا يقع، ولو صح إطلاق لفظ القرب زمانًا على مثل هذا لا يبقى وثوق بالإخبارات، وأيضًا قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ لانتهاز الفرصة، والإيمان قبل أن لا يصح الإيمان، فللكافر أن يقول، إذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها، لأنها لا تدركني، ولا تدرك أولادي، ولا أولاد أولادي، وإذا كان إمكانها قريبًا في العقول يكون ذلك ردًا بالغًا على المشركين والفلاسفة، والله سبحانه وتعالى أول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر، وقال: اعلموا أن الحشر كائن فخالف المشرك والفلسفي، ولم يقنع بمجرد إنكار ما ورد الشرع ببيانه، ولم يقل لا يقع أو ليس بكائن، بل قال ذلك بعيد، ولم يقنع بهذا أيضًا، بل قال ذلك غير ممكن، ولم يقنع به أيضًا، بل قال فإن امتناعه ضروري، فإن مذهبهم أن إعادة المعدوم وإحياء الموتى محال بالضرورة، ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ [المؤمنون: ٨٢] ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ [الإسراء: ٤٩] ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] بلفظ الاستفهام بمعنى الإنكار مع ظهور الأمر، فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه، بل

قال: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]ولم يقتصر عليه بل قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]ولم يتركها حتى قال (اقْتَرَبَتِ الساعة، واقترب الوعد الحق، اقترب للناس حسابهم) اقترابًا عقليًا لا يجوز أن ينكر ما يقع في زمان طرفة عين، لأنه على الله يسير، كما أن تقليب الحدقة علينا يسير، بل هو أقرب منه بكثير، والذي يقويه قول العامة: إن زمان وجود العالم زمان مديد، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيء يسير، فلهذا قال: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

وأما قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»[1] فمعناه لا نبي بعدي فإن زماني يمتد إلى قيام الساعة، فزماني والساعة متلاصقان كهاتين، ولا شك أن الزمان زمان النبي ﷺ، وما دامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وإن كان ليس هو فيه، كما أن المكان الذي تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان، فإن قيل: كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع أنه مقطوع به؟ قلت: كما صح قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]فإن لعل للترجي والأمر عند الله معلوم، وفائدته أن قيام الساعة ممكن لا إمكانًا بعيدًا عن العادات كحمل الآدمي في زماننا حملاً في غاية الثقل أو قطعه مسافة بعيدة في زمان يسير، فإن ذلك ممكن إمكانًا بعيدًا، وأما تقليب الحدقة فممكن إمكانًا في غاية القرب.

المسألة الثانية: الجمع الذين تكون الواو ضميرهم في قوله ﴿ يَرَوْا﴾ و﴿ يُعْرِضُوا﴾ غير مذكور فمن هم؟ نقول: هم معلومون وهم الكفار تقديره: وهؤلاء الكفار إن يروا آية يعرضوا.

المسألة الثالثة: التنكير في الآية للتعظيم أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ما الفائدة فيه؟ نقول: فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه، وأن الاعتراف لزمهم لأنهم لم يقدروا أن يقولوا: نحن نأتي بمثلها وبيان كونهم معرضين لا إعراض معذور، فإن من يعرض إعراض مشغول بأمر مهم فلم ينظر في الآية لا يستقبح منه الإعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر إلى آخرها ويعجز عن نسبتها إلى أحد ودعوى الإتيان بمثلها، ثم يقول: هذا ليس بشيء هذا سحر لأن ما من آية إلا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول.

المسألة الخامسة: ما المستمر؟ نقول: فيه وجوه أحدها: دائم فإن محمدًا ﷺكان يأتي كل زمان بمعجزة قولية أو فعلية أرضية أو سماوية، فقالوا: هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة إلى النبي عليه السلام بخلاف سحر السحرة، فإن بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل وثانيها: مستمر أي قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة وثالثها: من المرارة أي سحر مر مستبشع ورابعها: مستمر أي مار ذاهب، فإن السحر لا بقاء له.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (قول النبي ﷺبعثت أنا والساعة كهاتين) (١١/ ٣٥٥) حديث رقم (٦٥٠٤) من طريق وهب بن جرير... به ومسلم في كتاب (الفتن واشرط الساعة) باب (قرب الساعة) (٤/ ٢٢٦٨/١٣٣) من طريق محمد بن جعفر... به كلاهما عن شعبة... به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وهو يحتمل أمرين أحدهما: وكذبوا محمدًا المخبر عن اقتراب الساعة وثانيهما: كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر، فإن قلنا: كذبوا محمدًا ﷺ فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا: هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول: عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال وساحر، فهذه أهواءهم، وإن قلنا: كذبوا بانشقاق القمر، فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في أنه سحر القمر، وأنه خسوف والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواءهم، وكذلك قولهم في كل آية.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فيه وجوه أحدها: كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق، وحينئذ يكون تهديدًا لهم، وتسلية للنبي ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم﴾ [الزمر: ٧] أي بأنها حق ثانيها: وكل أمر مستقر في علم الله تعالى: لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، والأنبياء صدقوا وبلغوا ما جاءهم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، وكما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]، ثالثها: هو جواب قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] أي ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة، وأقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة، وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفًا لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي، ولهذا قال بعد الآيات: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر: ٥] أي هذه حكمة بالغة، والأنباء هي الأخبار العظام، ويدلك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] لأنه كان خبرًا عظيمًا وقال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] أي محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال، وكذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤] فكذلك الأنباء ههنا، وقال تعالى عن موسى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ [القصص: ٢٩] حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له: نبأ ولم يقصده، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم: المراد القرآن، وتقديره جاء فيه الأنباء، وقيل قوله: ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ يتناول جميع ما ورد في القرآن من الزواجر والمواعظ وما ذكرناه أظهر لقوله: ﴿فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وفي: ﴿مَا﴾ وجهان أحدهما: أنها موصولة أي جاءكم

الذي فيه مزدجر ثانيهما: موصوفة تقديره: جاءكم من الأنباء شيء موصوف بأن فيه مزدجر وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان أحدهما ازدجار وثانيهما موضع ازدجار، كالمرتقى، ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير لأن المصدر هو المفعول الحقيقي.

ثم قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾

وفيه وجوه الأول: على قول من قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ [القمر: ٤] المراد منه القرآن، قال: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ بدل كأنه قال: ولقد جاءهم حكمة بالغة ثانيها: أن يكون بدلاً عن ما في قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ الثاني: حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والإشارة حينئذ تحتمل وجوهًا أحدها: هذا الترتيب الذي في إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة ثانيها: إنزال ما فيه الأنباء: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ ثالثها: هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة الثالث: قرىء بالنصب فيكون حالاً وذو الحال ما في قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي جاءكم ذلك حكمة، فإن قيل: إن كان ﴿مَا﴾ موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فأما إن كانت بمعنى جاءهم من الأنباء شيء فيه ازدجار يكون منكرًا وتنكير ذي الحال قبيح نقول: كونه موصوفًا يحسن ذلك.

قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن (ما) نافية، ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الحق، وإنما أرسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨] ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ليس عليك ولا على الأنبياء الإغناء والإلجاء، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التي أمرت بها بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وتول إذا لم تقدر ثانيهما: ﴿مَا﴾ استفهامية، ومعنى الآيات حينئذ أنك أتيت بما عليك من الدعوى وإظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذي تغني النذر غير هذا فلم يبق عليك شيء آخر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ قد ذكرنا أن المفسرين يقولون إن قوله: ﴿تَوَلَّ﴾ منسوخ وليس كذلك، بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ قد ذكرنا أيضًا أن من ينصح شخصًا ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره: ما فيه نصح المعرض عنه، ويكون فيه قصد إرشاده أيضًا فقال بعدما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [المعارج: ٤٣] للتخويف، والعامل في: ﴿يَوْمَ﴾ هو ما بعده، وهو قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ والداعي معرف كالمنادي في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] لأنه معلوم قد أخبر عنه، فقيل: إن مناديًا ينادي وداعيًا يدعو

وفي الداعي وجوه: أحدها أنه إسرافيل. وثانيها: أنه جبريل. وثالثها: أنه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية، وإنما يكون ذلك كقولنا: جاء رجل فقال: الرَجل، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي منكر وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: إلى شيء نكر في يومنا هذا لأنهم أنكروه أي يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذي أنكروه يخرجون. ثانيها: نكر أي منكر يقول: ذلك القائل كان ينبغي أن لا يكون أي من شأنه أن لا يوجد يقال: فلان ينهى عن المنكر، وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغي أن لا يقع لأنه يرديهم في الهاوية، فإن قيل: ما ذلك الشيء النكر؟ نقول: الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع، وهذا أقرب، فإن قيل: النشر لا يكون منكرًا فإنه إحياء ولأن الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجري عليه لينكره؟ نقول: يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾

وفيه قراءات خاشعًا وخاشعة وخُشَّعًا، فمن قرأ خاشعًا على قول القائل: يخشع أبصارهم على ترك التأنيث لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله: خاشعةً أبصارهم ومن قرأ خشعًا فله وجوه أحدها: على قول من يقول: يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول: أكلوني البراغيث ثانيها: في: ﴿خُشَّعًا﴾ ضمير أبصارهم بدل عنه، تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل: أعجبوني حسنهم. ثالثها: فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعًا أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعًا، روي أن مجاهدًا رأى النبي ﷺ في منامه فقال له: يا نبي الله خشعًا أبصارهم أو خاشعًا أبصارهم؟ فقال عليه السلام: خاشعًا، ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعًا منصوبًا على أنه مفعول بقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ خشعًا أي يدعو هؤلاء، فإن قيل: هذا فاسد من وجوه أحدها: أن التخصيص لا فائدة فيه لأن الداعي يدعو كل أحد، ثانيها: قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ بعد الدعاء فيكونون خُشَّعًا قبل الخروج وإنه باطل، ثالثها: قراءة خَاشِعًا تبطل هذا، نقول أما الجواب عن الأول فهو أن يقال قوله: ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ يدفع ذلك لأن كل أحد لا يدعى إلى شيء نكر وعن الثاني المراد: (من شيء نكر) الحساب العسر يعني يوم يدع الداع إلى الحساب العسر خشعًا ولا يكون العامل في: ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ يخرجون بل اذكروا، أو: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ويكون يخرجون ابتداء كلام، وعن الثالث أنه لا منافاة بين القراءتين؛ وخاشعًا نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو كأنه يقول: يدعو الداعي قومًا خاشعًا أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ [طه: ١٠٨] وخشوع الأبصار سكونها على كل حال لا تنفلت يمنة ولا يسرة كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ مثلهم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج،

ويحتمل أن يقال: المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم.

قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي مسرعين إليه إنقيادًا ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] أي يوم يدعو الداعي: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وفيه فائدتان: إحداهما: تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠] يعني له عسر لا يسر معه. ثانيتهما: هي أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر، فإن الخروج من الأجداث كأنهم جراد والانقطاع إلى الداعي يكون للمؤمن فإنه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

ثم إنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ فيها تهوين وتسلية لقلب محمد ﷺ فإن حاله كحال من تقدمه، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إلحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن، وإلحاق ضمير الجمع به قبيح عند الأكثرين، فلا يجوزون كذبوا قوم نوح، ويجوزون كذبت فما الفرق؟ نقول: التأنيث قبل الجمع لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الأنوثة للفاعل بسبب فعلها الذي هو فاعله فليس إذا قلنا: ضربت هذه كانت هذه أنثى لأجل الضرب بخلاف الجمع، لأن الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذي هم فاعلوه، فإنا إذا قلنا: جمع ضربوا وهم ضاربون ليس مجرد اجتماعهم في الوجود يصحح قولنا: ضربوا وهم ضاربون، لأنهم إن اجتمعوا في مكان فهم جمع، ولكن إن لم يضرب الكل لا يصح قولنا: ضربوا، فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع في الفعل والفاعلية، وليس بسبب الفعل، فلم يجز أن يقال: ضربوا جمع، لأن الجمع لم يفهم إلا بسبب أنهم ضربوا جميعهم، فينبغي أن يعلم أولاً اجتماعهم في الفعل، فيقول: الضاربون ضربوا، وأما ضربت هند فصحيح، لأنه لا يصح أن يقال: التأنيث لم يفهم إلا بسبب أنها ضربت، بل هي كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة، وليس الجمع كانوا جمعًا فضربوا فصاروا ضاربين، بل صاروا ضاربين لاجتماعهم في الفعل ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل: ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولاً لأنثى ولا لذكر، ولهذا لم يحسن أن يقال: ضرب هند، وحسن بالإجماع ضرب قوم والمسلمون.

المسألة الثانية: لما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾؟ نقول:

الجواب عنه من وجوه الأول: أن قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا. الثاني كذبت قوم نوح المرسلين وقالوا: لم يبعث الله رسولاً وكذبوهم في التوحيد: فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره وذلك لأن قوم نوح مشركون يعبدون الأصنام ومن يعبد الأصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لأنه يقول: لا تعلق لله بالعالم السفلي وإنما أمره إلى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا. الثالث: قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ للتصديق والرد عليهم تقديره: كذبت قوم نوح وكان تكذيبهم عبدنا أي لم يكن تكذيبًا بحق كما يقول القائل: كذبني فكذب صادقًا.

المسألة الثالثة: كثيرًا ما يخص الله الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ [الحجر: ٤٢] ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص: ١٧] ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [يوسف: ٢٤] وكل واحد عبده فما السر فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: ما قيل: في المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. الثاني: المراد من عبدنا أي الذي عبدنا فالكل عباد لأنهم مخلوقون للعبادة لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾ [آل عمران: ٧٩] أي حققوا المقصود. الثالث: الإضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذي لم يقل: بمعبود سوانا، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهًا فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في اختيار لفظ العبد مع أنه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم؟ نقول: قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لأن العبد أقل تحريفًا لكلام السيد من الرسول، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

المسألة الخامسة: قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا منه، وقالوا: هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم إنه كاذب، بل قالوا مجنون، أي يقول مالا يقبله عاقل، والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا: مجنون أي يقول مالم يقل به عاقل فبين مبالغتهم في التكذيب.

المسألة السادسة: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ إخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم، نقول: فيه خلاف منهم من قال: إخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا، وقالوا: أي هم كذبوا وهو ازدجر أي أوذي وزجر، وهو كقوله تعالى: ﴿كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤] وعلى هذا إن قيل: لو قال كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام أكثر مناسبة، نقول: لا بل هذا أبلغ لأن المقصود تقوية قلب النبي ﷺ بذكر من تقدمه فقال: وازدجر أي فعلوا ما يوجب الإنزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل

عن الدعاء إلى الإيمان إلى الدعاء عليهم، ولو قال: زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لأن في السعة يقال: آذوني ولكن ما تأذيت، وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال إلا عند حصول الفعل لا قبله، ومنهم من قال: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ حكاية قولهم أي هم قالوا ازدجر، تقديره قالوا: مجنون مزدجر، ومعناه: ازدجره الجن أو كأنهم قالوا: جن وازدجر، والأول أصح ويترتب عليه:

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾

ترتيبًا في غاية الحسن لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه أني مغلوب وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (إِنّي) بكسر الهمزة على أنه دعاء، فكأنه قال: إني مغلوب، وبالفتح على معنى بأني.

المسألة الثانية: ما معنى مغلوب؟ نقول فيه وجوه الأول: غلبني الكفار فانتصر لي منهم الثاني: غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم فانتصر لي من نفسي، وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف الثالث: وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال: إن النبي ﷺ لا يدعو على قومه ما دام في نفسه احتمال وحلم، واحتمال نفسه يمتد ما دام الإيمان منهم محتملاً، ثم إن يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة، بدليل قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فقال نوح: يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم، فيكون معناه (إِنّي) مغلوب بحكم البشرية أي غلبت وعيل صبري فانتصر لي منهم لا من نفسي.

المسألة الثالثة: فانتصر معناه انتصر لي أو لنفسك فإنهم كفروا بك وفيه وجوه أحدها: فانتصر لي مناسب لقوله مغلوب ثانيها: فانتصر لك ولدينك فإني غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك ثالثها: فانتصر للحق ولا يكون فيه ذكره ولا ذكر ربه، وهذا يقوله قوي النفس بكون الحق معه، يقول القائل: اللهم أهلك الكاذب منا، وانصر المحق منا.

ثم قال تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ عقيب دعائه، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها أو هو مجاز؟ نقول فيه قولان أحدهما: حقائقها وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه وثانيهما: هو على طريق الاستعارة، فإن الظاهر أن الماء كان من السحاب، وعلى هذا فهو كما يقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنه ذلك، فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل فتحت أبواب السماء، ولا شك أن المطر من فوق كان في غاية الهطلان.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله،

كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٨، ٢٩] بيانًا لكمال القدرة، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم.

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ ما وجهه وكيف موقعه؟ نقول فيه وجهان أحدهما: كما هي في قول القائل فتحت الباب بالمفتاح وتقديره هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب وعلى هذا تفسير قول من يقول: يفتح الله لك بخير أي يقدر خيرًا يأتي ويفتح الباب، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي من بدائع المعاني، وهي أن يجعل المقصود مقدمًا في الوجود، ويقول كأن مقصودك جاء إلى باب مغلق ففتحه وجاءك، وكذلك قول القائل: لعل الله يفتح برزق، أي يقدر رزقًا يأتي إلى الباب الذي كالمغلق فيدفعه ويفتحه، فيكون الله قد فتحه بالرزق ثانيهما: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مقرونة ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ والانهمار الانسكاب والانصباب صبًا شديدًا، والتحقيق فيه أن المطر يخرج من السماء التي هي السحاب خروج مترشح من ظرفه، وفي ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب.

قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾

وفيه من البلاغة ما ليس في قول القائل: وفجرنا عيون الأرض، وهذا بيان التمييز في كثير من المواضع، إذا قلت ضاق زيد ذرعًا، أثبت مالا يثبته قولك ضاق ذرع زيد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ولم يقل ففتحنا السماء أبوابًا، لأن السماء أعظم من الأرض وهي للمبالغة، ولهذا قال: ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١] ولم يقل: أنابيب ولا منافذ ولا مجاري أو غيرها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فهو أبلغ من قوله: وفجرنا عيون الأرض، لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه، ويكفي في صحة ذلك القول أن يجعل في الأرض عيونًا ثلاثة، ولا يصلح مع هذا في السماء إلا في قول القائل: فأنزلنا من السماء ماء أو مياهًا، ومثل هذا الذي ذكرناه في المعنى لا في المعجزة، والحكمة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] حيث لا مبالغة فيه، وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه، غير أني ذكرته مثلاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

المسألة الثانية: العيون في عيون الماء حقيقة أو مجاز؟ نقول: المشهور أن لفظ العين مشترك، والظاهر أنها حقيقة في العين التي هي آلة الأبصار ومجاز في غيرها، أما في عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع، أو لأن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين غير أنها مجاز مشهور صار غالبًا حتى لا يفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين

العينين، فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة، كذلك لا يحمل على الفوارة إلا بقرينة مثل: شربت من العين واغتسلت منها، وغير ذلك من الأمور التي توجد في الينبوع، ويقال: عانه يعينه إذا أصابه بالعين، وعينه تعيينًا، حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين، وعاينه معاينة وعيانًا، وعين أي صار بحيث تقع عليه العين.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ قرىء فالتقى الماءان، أي النوعان، منه ماء السماء وماء الأرض، فتثنى أسماء الأجناس على تأويل صنف، وتجمع أيضًا، يقال: عندي تمران وتمور وأتمار على تأويل نوعين وأنواع منه والصحيح المشهور: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ وله معنى لطيف، وذلك أنه تعالى لما قال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ [القمر: ١١] ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة، فلما قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ كان من الحسن البديع أن يقول: ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة، فقال: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أي فار الماء من العين بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء، ولو جرى جريًا ضعيفًا لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به، ولعل المراد من قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ فيه وجوه: الأول: على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء. الثاني: على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر. الثالث: على سائر المقادير، وذلك لأن الناس اختلفوا، فمنهم من قال: ماء السماء كان أكثر، ومنهم من قال: ماء الأرض، ومنهم من قال: كانا متساويين، فقال: على أي مقدار كان، والأول إشارة إلى عظمة أمر الطوفان، فإن تنكير الأمر يفيد ذلك، يقول القائل: جرى على فلان شيء لا يمكن أن يقال إشارة إلى عظمته، وفيه احتمال آخر، وهو أن يقال: التقى الماء، أي اجتمع على أمر هلاكهم، وهو كان مقدورًا مقدرًا، وفيه رد على المنجمين الذين يقولون إن الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي، والغرق لم يكن مقصودًا بالذات، وإنما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه، فقال: لم يكن ذلك إلا لأمر قد قدر، ويدل عليه أن الله تعالى أوحى إلى نوح بأنهم من المغرقين.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾

أي سفينة، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدثر، وكان انفكاكها في غاية السهولة، ولم يقع فهو بفضل الله، والدسر المسامير.

وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾ أي سفينة ذات ألواح جارية، وقوله تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا أو بحفظنا، لأن العين آلة ذلك فتستعمل فيه.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون نصبه بقوله: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ أي حملناه جزاء، أي ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم. وثانيها: أن يكون بقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ لأن فيه معنى حفظنا، أي ما تركناه عن أعيننا وعوننا جزاء له. ثالثها: أن يكون

بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال: فتحنا أبواب السماء وفجرنا الأرض عيونًا وحملناه، وكل ذلك فعلناه جزاء له، وإنما ذكرنا هذا، لأن الجزاء ما كان يحصل إلا بحفظه وإنجائه لهم، فوجب أن يكون جزاء منصوبًا بكونه مفعولاً له بهذه الأفعال.

ولنذكر ما فيه من اللطائف في مسائل:

المسألة الأولى: قال في السماء: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١]لأن السماء ذات الرجع وما لها فطور، ولم يقل: وشققنا السماء، وقال في الأرض: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [القمر: ١٢]لأنها ذات الصدع.

الثانية: لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة، ولم يقل في الأرض وأجرينا من الأرض بحارًا وأنهارًا، بل قال: ﴿عُيُونًا﴾ والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الأرض أنه تعالى فجرها كلها، فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ لتقابل كثرة عيون الأرض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ما حصل بالسعة هاهنا.

الثالثة: ذكر عند الغضب سبب الإهلاك وهو فتح أبواب السماء وفجر الأرض بالعيون، وأشار إلى الإهلاك بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]أي أمر الإهلاك ولم يصرح وعند الرحمة ذكر الإنجاء صريحًا بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ وأشار إلى طريق النجاة بقوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ وكذلك قال في موضع آخر: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولم يقل فأهلكوا، وقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]فصرح بالإنجاء ولم يصرح بالإهلاك إشارة إلى سعة الرحمة وغاية الكرم أي خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال ﷺ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]وعند الإنجاء أنجاه وجعل للنجاة طريقًا وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الإنجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الإهلاك إظهار البأس فذكر السبب صريحًا.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أبلغ من حفظنا، يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلبًا للمبالغة.

الخامسة: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يحتمل أن يكون المراد بحفظنا، ولهذا يقال: الرؤية لسان العين.

السادسة: قال: كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على إيمانه وشكره فما جوزي به كان جزاء صبره على كفرهم، وأما جزاء شكره لنا فباق، وقرىء: (جِزَاءً) بكسر الجيم أي مجازاة كقتال ومقاتلة وقرىء: (لِمَنْ كَانَ كَفَرَ) بفتح الكاف، وأما: (كُفِرَ) ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون كفر مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ثانيهما: أن يكون من الكفر لا من الكفران أي جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه ويحتمل أن يقال: كفر به وترك الظهور المراد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾

وفي العائد إليه الضمير وجهان أحدهما: عائد إلى مذكور وهو السفينة التي فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان أحدهما: ترك الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودي بالجزيرة وقيل بأرض الهند وثانيهما: ترك مثلها في الناس يذكر وثاني الوجهين الأولين أنه عائد إلى معلوم أي تركنا السفينة آية، والأول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل أن يقال: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي جعلناها آية لأنها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل: تركت فلانًا مثلة أي جعلته، لما بينا أنه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلاً عن الآخر.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قد تم ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مذكر مهتد، وهذا الكلام يصلح حثًا ويصلح تخويفًا وزجرًا **وفيه مسائل:**

الأولى: قال هاهنا ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ وقال في العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ١٥] قلنا هما وإن كانا في المعنى واحدًا على ما تقدم بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالأيام فكأنها هنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الإمطار من السماء وتفجير الأرض وذكر السفينة بقوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] وذكر جريها فقال: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ إشارة إلى تمام الفعل المقدور وقال هناك ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ إشارة إلى بعض ذلك فإن قيل: إن كان الأمر كذلك فكيف قال هنا ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ [القمر: ١٣] ولم يقل: وأصحابه وقال هناك ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]؟ نقول: النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لأنه قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] أي حفظنا وحفظ السفينة حفظ لأصحابه وحفظ لأموالهم ودوابهم والحيوانات التي معهم فقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ لا يلزم منه إنجاء الأموال إلا ببيان آخر والحكاية في سورة هود أشد تفصيلاً وأتم فلهذا قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] يعني المحمول ثم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤] تصريحًا بخلاص السفينة وإشارة إلى خلاص كل من فيها وقوله: ﴿ءَايَةً﴾ منصوبة على أنها مفعول ثان للترك لأنه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر، ويحتمل أن يقال حال فإنك تقول تركتها وهي آية وهي إن لم تكن على وزن الفاعل والمفعول فهي في معناه كأنه قال: تركناها دالة، ويحتمل أن يقال: نصبها على التمييز لأنها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطًا.

المسألة الثانية: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مفتعل من ذكر يذكر وأصله مُذْتَكِرٌ (لَمَّا) كان مخرج الذال قريبًا من مخرج التاء، والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي ولهذا إذا نظرت إلى الذال مع التاء عند النطق تقرب الذال من أن تصير تاء والتاء تقرب من أن تصير دالاً فجعل التاء دالاً ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الأصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالاً وقرأ مذدكر

ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر فيقلب التاء ولا يدغم ولكلٍ وجهة، والمدكر المعتبر المتفكر، وفي قوله: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ إما إشارة إلى ما في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي هل من يتذكر تلك الحالة وإما إلى وضوح الأمر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يتذكر شيئًا منها.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾

وفيه وجهان أحدهما: أن يكون ذلك استفهامًا من النبي ﷺ تنبيهًا له ووعدًا بالعاقبة وثانيهما: أن يكون عامًا تنبيهًا للخلق ونذر أسقط منه ياء الإضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤] وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥١] ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ [يس: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقرئ بإثبات الياء: (عَذَابِي وَنُذُرِي)، **وفيه مسائل:**

الأولى: ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾؟ نقول: أما إن قلنا إن الاستفهام من النبي ﷺ، فكأنه تعالى قال له قد علمت أخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعدما أحاط بهم علمك بنقلها إليك، وأما إن قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥] فرض وجودهم وقال: يا من يتذكر، وعلم الحال بالتذكير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ ويحتمل أن يقال: هو متصل بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقديره كيف كان عذابي.

المسألة الثانية: ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم؟ نقول: أما على قولنا الاستفهام من النبي ﷺ فقد علم لما علم، وأما على قولنا عام فهو على تقدير الإدكار وعلى تقدير الادكار يعلم الحال، ويحتمل أن يقال: إنه ليس باستفهام وإنما هو إخبار عن عظمة الأمر كما في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢] و﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢] وهذا لأن الاستفهام يذكر للإخبار كما أن صيغة هل تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار؟ بمعنى هل زيد في الدار، ويقول المنجز وعده هل صدقت؟ فكأنه تعالى قال: عذابي وقع وكيف كان أي كان عظيمًا وحينئذ لا يحتاج إلى علم من يستفهم منه.

المسألة الثالثة: قال تعالى من قبل: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ [القمر: ١١]، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ [القمر: ١٢]، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين أحدهما: لفظي وهو أن ياء المتكلم يمكن حذفها لأنها في اللفظ تسقط كثيرًا فيما إذا التقى ساكنان، تقول: غلامي الذي، وداري التي، وهنا حذفت لتواخي آخر الآيات، وأما النون والألف في ضمير الجمع فلا تحذف وأما الثاني: وهو المعنوي فنقول: إن كان الاستفهام من النبي ﷺ فتوحيد الضمير للأنباء، وفي فتحنا وفجرنا لترهيب العصاة، ونقول: قد ذكرنا أن قوله: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥] فيه إشارة إلى قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فلما وحد الضمير بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قال فكيف كان.

المسألة الرابعة: النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنسيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير؟ نقول: أكثر المفسرين على أنه مصدر ههنا، أي كيف كان عاقبة عذابي وعاقبة إنذاري والظاهر أن المراد الأنباء، أي كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله؟ هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا؟ فإذا علمت الحال يا محمد فاصبر فإن عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لأنه مصدر ولو جمع لكان في جمعه تقدير وفرض ولا حاجة إليه، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] أي بالإنذارات لأن الإنذارات جاءتهم، وأما الرسل فقد جاءهم واحد، نقول: كل من تقدم من الأمم الذين أشركوا بالله وكذبوا بالرسل وقالوا: ما أنزل الله من شيء وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا إبراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)، أي بالأنبياء بأسرهم، كما أنكم أيها المشركون تكذبون بهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وفيه وجوه الأول: للحفظ فيمكن حفظه ويسهل، ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من يحفظ ويتلوه الثاني: سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة الثالث: جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا أسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلمًا. الرابع: وهو الأظهر أن النبي ﷺ لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له: إن معجزتك القرآن ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ تذكرة لكل أحد وتتحدى به في العالم ويبقى على مرور الدهور، ولا يحتاج كل من يحضرك إلى دعاء ومسألة في إظهار معجزة، وبعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي متذكر لأن الافتعال والتفعل كثيرًا ما يجيء بمعنى، وعلى هذا فلو قال قائل: هذا يقتضي وجود أمر سابق فنسي، نقول: ما في الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسي فهل من مدكر يرجع إلى ما فطر عليه وقيل: فهل من مدكر أي حافظ أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى: ﴿يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وعلى قولنا المراد متذكر إشارة إلى ظهور الأمر فكأنه لا يحتاج إلى نكر، بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج إلى معاودة ما عند غيره.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾

وفيه مسائل:

الأولى: قال في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ولم يقل في عاد كذبت قوم هود وذلك

لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه، فإنك إذا قلت: بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة، فكذلك إذا قلت: رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين أحدهما: أن الله تعالى وصف عادًا بقوم هود حيث قال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ولا يوصف الأظهر بالأخفى والأخص بالأعم ثانيهما: أن قوم هود واحد وعاد، قيل: إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] لأنا نقول: أما قوله تعالى: ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز في البدل أن يكون دون المبدل في المعرفة، ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة، وأما عادًا الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أي عادًا الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبي شفيعي والله الكريم ربي ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول: دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف.

المسألة الثانية: لم يقل كذبوا هودًا كما قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] وذلك لوجهين أحدهما: أن تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريبًا من ألف سنة وأصروا على التكذيب، ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح في مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحًا وإن نبه عليه (في) واحد منها في الأعراف قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال حكاية عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧] وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح: ٢١] وفي هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم إلا قليلاً ولذلك قال تعالى في مواضع ذكر شعيب فكذبوه: وقال ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٩٢] وقال تعالى عن قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] لأنه دعا قومه زمانًا مديدًا وثانيهما: أن حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ولم يذكر دعاءه عليهم وإجابته كما قال في نوح.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قبل أن بين العذاب وفي حكاية نوح بين العذاب، ثم قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: الاستفهام الذي ذكره في حكاية نوح مذكور ههنا، وهو قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ كما قال من قبل ومن بعد في حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى في حكاية عاد ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ مرتين، المرة الأولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسئول سائلاً، فيقول: كيف هي فيقول إنها كذا وكذا فكذلك ههنا قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ فقال السامع: بين أنت فإني لا أعلم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ [القمر: ١٩] وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول: نعم ما فعلت ويقول: أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام، وإنما ذكر ههنا المرة الأولى ولم يذكر في موضع آخر لأن الحكاية ذكرها مختصرة

فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ حثًا على التدبر والتفكر، وأما الاختصار في حكايتهم فلأن أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات إلى قول النبي ﷺ، ويدل على قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وذكر استكبارهم كثيرًا، وما كان قوم محمد ﷺ مبالغين في الاستكبار وإنما كانت مبالغتهم في التكذيب ونسبته إلى الجنون، وذكر حالة نوح على التفصيل فإن قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار، وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ [القمر: ١٨] بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا، وقال: هاهنا ﴿إِنَّآ﴾، ولم يقل إني، والجواب ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١].

المسألة الثانية: الصرصر فيها وجوه: أحدها: الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح. ثانيها: دائمة الهبوب من أصر على الشيء إذا دام وثبت، وفيه بحث وهو أن الأسماء المشتقة هي التي تصلح لأن يوصف بها، وأما أسماء الأجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجرامًا أو معاني، فلا يقال: إنسان رجل جاء ولا يقال: لون أبيض وإنما يقال: إنسان عالم وجسم أبيض. وقولنا: أبيض معناه شيء له بياض، ولا يكون الجسم مأخوذًا فيه، ويظهر ذلك في قولنا رجل عالم فإن العالم شيء له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالمًا ولا يدخل الحي في المعنى من حيث المفهوم فإنا إذا قلنا: عالم يفهم أن ذلك حي لأن اللفظ ما وضع لحي يعلم بل اللفظ وضع لشيء يعلم ويزيده ظهورًا قولنا: معلوم فإنه شيء يعلم أو أمر يعلم وإن لم يكن شيئًا، ولو دخل الجسم في الأبيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة، إذا علمت هذا فمن المستفاد بالجنس شيء دون شيء، فإن قولنا الهندي يقع على كل منسوب إلى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب إلى الهند فيصح أن يقال: عبد هندي وتمر هندي ولا يصح أن يقال: مهند وكذا الأبلق ولون آخر في فرس ولا يقال للثوب أبلق، كذلك الأفطس أنف فيه تقعير إذا قال لقائل: أنف أفطس فيكون كأنه قال أنف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغي أن لا يقال فرس أبلق ولا أنف أفطس ولا سيف مهند وهم يقولون فما الجواب؟ وهذا السؤال يرد على الصرصر لأنها الريح الباردة، فإذا قال: ريح صرصر فليس ذلك كقولنا: ريح باردة فإن الصرصر هي الريح الباردة فحسب، فكأنه قال: ريح باردة فنقول: الألفاظ التي في معانيها أمران فصاعدًا، كقولنا: عالم فإنه يدل على شيء له علم ففيه

شيء وعلم على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما في العالم والضارب والأبيض فإن المقاصد في هذه الألفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها، وأما المحل فمقصود من حيث إنه على عمومه حتى أن البياض لو كان يبدل بلون غيره اختل مقصوده كالأسود. وأما الجسم الذي هو محل البياض إن أمكن أن يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض، ثانيها: أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لأنه اسم لجنس ما له الحياة لا كالحي الذي هو اسم لشيء له الحياة، فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حي ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال: الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحي الذي لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو إنسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فإن القائل إذا قال لإنسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول: ما قلت إنه حي بل قلت إنه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة، ثالثها: ما يكون الأمران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فإن الرجل اسم موضوع لإنسان ذكر والمرأة لإنسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة إن أطلقت على حيوان فظهر فرسًا أو ثور اختل الغرض وإن بان جملاً كذلك، إذا علمت هذا ففي كل صورة كان المحل مقصودًا إما وحده وإما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وإنما يجعل ذلك جملة، فيوصف بالجملة، فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة، ثم إن الأبلق والأفطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر، لأن المهند لا يذكر إلا لمدح السيف، والأفطس لا يقال إلا لوصف الأنف لا لحقيقته، وكذلك الأبلق بخلاف الحيوان فإنه لا يقال لوصفه، وكذلك الناقة، إذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها فوجب أن يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد فجاز الوصف وهذا بحث عزيز.

المسألة الثالثة: قال تعالى هاهنا ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وقال في الطور: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] فعرف الريح هناك ونكرها هنا لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات أو الشدة التي تعصف الأشجار لأن الريح العقيم هي التي لا تنشيء سحابًا ولا تلقح شجرًا وهي كثيرة الوقوع، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد، فقال: الريح العقيم أي هذا الجنس المعروف، ثم زاده بيانًا بقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] فتميزت عن الرياح العقم، وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها.

المسألة الرابعة: قال هنا ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ وقال في السجدة: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] وقال في الحاقة: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وقوله: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يفيد ما يفيده الأيام لأن الاستمرار ينبئ عن إمرار الزمان كما تنبئ عنه الأيام، وإنما

اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى، لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها، ثم إن فيه قراءتين إحداهما: ﴿يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ بإضافة يوم، وتسكين نحس على وزن نفس، وثانيتهما: (يَوْم نَحِسٍ) بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس، كما في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦] فإن قيل أيتهما أقرب؟ قلنا: الإضافة أصح، وذلك لأن من يقرأ: (يَوْم نَحِسٍ مُسْتَمِرٍّ) يجعل المستمر صفة ليوم، ومن يقرأ ﴿يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ يكون المستمر وصفاً لنحس، فيحصل منه استمرار النحوسة فالأول أظهر وأليق، فإن قيل: من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء، فماذا يقول في النَّحْس؟ نقول: يحتمل أن يقول هو تخفيف نَحِس كَفَخْذ وفَخِذ في غير الصفات، ونصر ونصر ورعد ورعد، وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره: يوم كائن نحس، كما تقول في قوله تعالى: ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] ويحتمل أن يقول: نحس ليس بنعت، بل هو اسم معنى أو مصدر، فيكون كقولهم يوم برد وحر، وهو أقرب وأصح.

المسألة الخامسة: ما معنى ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾؟ نقول فيه وجوه: الأول: ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الأمر إذا دام، وهذا كقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦] لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد، وكذلك قوله: ﴿حُسُومٗاۖ﴾ [الحاقة: ٧]، الثاني: شديد من المرة كما قلنا من قبل في قوله: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢] وهذا كقولهم أيام الشدائد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ [فصلت: ١٦] فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وصف أو حال؟ نقول: يحتمل الأمرين جميعًا، إذ يصح أن يقال: أرسل ريحًا صرصرًا نازعة للناس، ويصح أن يقال: أرسل الريح نازعة، فإن قيل: كيف يمكن جعلها حالاً، وذو الحال نكرة؟ نقول: الأمر هنا أهون منه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] فإنه نكرة، وأجابوا عنه بأن ﴿مَا﴾ موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال، فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر، والتنكير فيه للتعظيم، وإلا فهي ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال، وفيه وجه آخر، وهو أنه كلام مستأنف على فعل وفاعل، كما تقول: جاء زيد جذبني، وتقديره جاء فجذبني، كذلك ههنا قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ [القمر: ١٩] فأصبحت ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ [الحاقة: ٧] فالتاء في قوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ إشارة إلى ما أشار إليه بقوله: ﴿صَرۡعَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فيه وجوه: أحدها: نزعتهم فصرعتهم: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ كما قال: ﴿صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾. ثانيها: نزعتهم فهم بعد النزع: كأنهم أعجاز نخل وهذا أقرب، لأن الانقعار قبل الوقوع، فكأن الريح تنزع (الْوَاحِدَ) وتقعره فينقعر فيقع فيكون صريعًا، فيخلو

الموضع عنه فيخوى، وقوله في الحاقة: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذي هو بعد النزع، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع في الخروج والأخذ فيه. ثالثها: تنزعهم نزعًا بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض، وفي المعنى وجوه: أحدها: أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول أقدادهم. ثانيها: ذكره إشارة إلى ثباتهم في الأرض، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم في الأرض ويقصدون المنع به على الريح. وثالثها: ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ فذكر النخل، وقال في الحاقة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فأنثها، قال المفسرون: في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]. ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] وهو جواب حسن، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ، ويمكن أن يقال: النخل لفظه لفظ الواحد، كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع، فيجوز أن يقال فيه: نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات، ونخل خاوٍ وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات، فإذا قال قائل: منقعر أو خاوٍ أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى، وإذا قال: منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ، وإذا قال: منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وربما قال: منقعرة على الإفراد من حيث اللفظ، وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة إذا عرفت هذا فنقول: ذكر الله تعالى لفظ النخل في مواضع ثلاثة، ووصفها على الوجوه الثلاثة، فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠] فإنها حال منها وهي كالوصف، وقال: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ فحيث قال: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ كان المختار ذلك لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول، لأنه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور، والخاو والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولاً، كما تقول: امرأة كفيل، وامرأة كفيلة، وامرأة كبير، وامرأة كبيرة. وأما الباسقات، فهي فاعلات حقيقة، لأن البسوق أمر قام بها، وأما الخاوية، فهي من باب حسن الوجه، لأن الخاوي موضعها، فكأنه قال: نخل خاوية المواضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ، فكان الدليل يقتضي ذلك، بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾

وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير، وفي قوله: ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ لطيفة ما ذكرناها، وهي تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل: أكثر المفسرين على أن النذر في هذا الموضع جمع نذير الذي هو مصدر معناه إنذار، فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقل: فكيف كان أنواع عذابي ووبال

إنذاري؟ نقول: فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة، فقال: الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة، فكانت النعم كثيرة، والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة، ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾

وقد تقدم تفسيره غير أنه في قصة عاد قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ [القمر: ١٨] ولم يقل: بالنذر، وفي قصة نوح قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فنقول: هذا يؤيد ما ذكرنا من أن المراد بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩] أن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحًا بناء على مذهبهم وإنما صرح ههنا لأن كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعًا حقيقة والأولون يكذبون رسولاً واحدًا حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لأنهم لما كذبوا من تقدم في قوله: الله تعالى واحد، والحشر كائن، ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا أن الله تعالى قال في قوم نوح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال في عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا﴾ [هود: ٥٩] وأما قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فإشارة إلى أنهم كذبوا وقالوا ما يفضي إلى تكذيب جميع المرسلين، ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق، ثم إنه تعالى قال هناك عن نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧] ولم يقل: كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا أن ما ألزمهم لزمه. إذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هذا كله إذا قلنا إن النذر جمع نذير بمعنى منذر، أما إذا قلنا إنها الإنذارات فنقول: قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التي ظهرت في زمانهم، وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة فصرح بها، وقوله: ﴿فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] يؤيد الوجه الأول، لأن من يقول لا أتبع بشرًا مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذبًا للرسل والباء في قوله ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ يؤيد الوجه الثاني لأنا بينا أن الله تعالى في تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال: ﴿كَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] ﴿وَكَذَّبُوا﴾ . . . ﴿رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٧٠] ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] ﴿كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] وقال: ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٤] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩] فعدى بحرف لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب والقائل هو الذي يكون كاذبًا حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازًا وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغني عن الحرف بخلاف القول، وقد ذكرنا ذلك وبيناه بيانًا شافيًا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: زيدًا ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام، والسبب في اختيار النصب أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه، فإذا قال: أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله، فإذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال: أزيدًا ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فإن قيل: من قرأ ﴿أَبَشَرٌ مِّنَّا وَٰحِدٌ نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ كيف ترك الأجود؟ نقول: نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ إذ ما بعد القول لا يكون إلا جملة اسمية والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر.

المسألة الثانية: إذا كان بشرًا منصوبًا بفعل، فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر؟ نقول: قد تقدم مرارًا أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا: أنتبع بشرًا يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه، فإذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبًا نعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم أو يقدر مالا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع، واعلم أن في هذه الآية إشارات إلى ذلك أحدها: نكَّروه حيث قالوا ﴿أَبَشَرًا﴾ ولم يقولوا: أنتبع صالحًا أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير ثانيها: قالوا أبشرًا ولم يقولوا أرجلاً ثالثها: قالوا ﴿مِّنَّا﴾ وهو يحمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريبًا، وثانيهما ﴿مِّنَّا﴾ أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول: لا بل أنت منا ولست أنا منكم، وتحقيقه أن من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض رابعها: ﴿وَٰحِدًا﴾ يحتمل أمرين أيضًا أحدهما: وحيدًا إلى ضعفه وثانيهما: واحدًا أي هو من الآحاد لا من الأكابر المشهورين، وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الأصاغر حيث يقال: هو من آحاد الناس هو أن من لا يكون مشهورًا بحسب ولا نسب إذا حدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول، لأن الأرذل لا ينضم إليه أحد فيبقى في أكثر أوقاته واحدًا فيقال: للأرذال آحاد.

وقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكونوا قد قالوا في جواب من يقول لهم إن لم تتبعوه تكونوا في ضلال، فيقولون له: لا بل إن تبعناه نكون في ضلال. ثانيهما: أن يكون ذلك ترتيبًا على ما مضى أي حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فإن اتبعناه نكون في ضلال وسعر أي جنون على هذا الوجه، فإن قلنا: إن ذلك قالوه على سبيل

الجواب فيكون القائل قال لهم: إن لم تتبعوه فإنا إذًا في الحال في ضلال وفي سعر في العقبى فقالوا: لا بل لو اتبعناه فإنا إذًا في الحال في ضلال وفي سعر من الذل والعبودية مجازًا فإنهم ما كانوا يعترفون بالسعير.

المسألة الثالثة: السعير في الآخرة واحد فكيف جمع؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: في جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرًا أو فيها سعير. ثانيها: لدوام العذاب عليهم فإنه كلما نضجت جلودهم يبدلهم جلودًا كأنهم في كل زمان في سعير آخر وعذاب آخر. ثالثها: لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد: فلان ليس برجل واحد بل هو رجال.

قوله تعالى: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقد تقدم أن النفي بطريق الاستفهام أبلغ لأن من قال: ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله: ما أنزل فيجعل الأمر حينئذ منفيًا ظاهرًا لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول: ما أنزل، والذكر الرسالة أو الكتاب إن كان ويحتمل أن يراد به ما يذكره من الله تعالى كما يقال الحق ويراد به ما يحل من الله، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قولهم أألقي بدل أأنزل وفيه إشارة إلى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة والنبي كان يقول: «جَاءَنِي الْوَحْيُ مَعَ الْمَلَكِ فِي لَحْظَةٍ يَسِيرَةٍ» فكأنهم قالوا: الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل في لحظة فقالوا: أألقي وما قالوا: أأنزل، وقولهم عليه إنكار آخر كأنهم قالوا: ما ألقى ذكر أصلاً، قالوا: إن ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء، وقولهم أألقى بدل عن قولهم أألقى الله للإشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى.

المسألة الثانية: عرَّفوا الذكر ولم يقولوا: أألقى عليه ذكر، وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم لما لا ينبغي أن ينكر فقال: أنكروا الذكر الظاهر المبين الذي لا ينبغي أن ينكر فهو كقول القائل: أنكروا المعلوم.

المسألة الثالثة: ﴿ بَلْ ﴾ يستدعي أمرًا مضروبًا عنه سابقًا فما ذاك؟ نقول قولهم: أألقي للإنكار فهم قالوا: ما ألقي، ثم إن قولهم: أألقي عليه الذكر لا يقتضي إلا أنه ليس بنبي، ثم قالوا: بل هو ليس بصادق.

المسألة الرابعة: ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فعال من فاعل للمبالغة أو يقال: بل من فاعل كخياط وتمار؟ نقول: الأول هو الصحيح الأظهر على أن الثاني من باب الأولى لأن المنسوب إلى الشيء لا بد له من أن يكثر من مزاولة الشيء فإن من خاط يومًا ثوبه مرة لا يقال له خياط، إذا عرفت هذا فنقول المبالغة إما في الكثرة، وإما في الشدة فالكذاب، إما شديد الكذب يقول مالا يقبله العقل أو كثير الكذب، ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الأمرين فيه وقولهم: ﴿ أَشِرٌ ﴾ إشارة

إلى أنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف، وإنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعًا من الاتباع لأن الكاذب لا يلتفت إليه، ولا سيما إذا كان كذبه لا لضرورة، وقرئ: (أَشَرٌّ) فقال المفسرون: هذا على الأصل المرفوض في الأشر والأخير على وزن أفعل التفضيل، وإنما رفض الأصل فيه لأن أفعل إذا فسر قد يفسر بأفعل أيضًا والثاني بأفعل ثالث، مثاله إذا قال: ما معنى الأعلم؟ يقال: هو الأكثر علمًا فإذا قيل: الأكثر ماذا؟ فيقال: الأزيد عددًا أو شيء مثله فلا بد من أمر يفسر به الأفعل لا من بابه فقالوا: أفعل التفضيل والفضيلة أصلها الخير والخير أصل في باب أفعل فلا يقال: فيه أخير، ثم إن الشر في مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والأشر في مقابلة الأخير، ثم إن خيرًا يستعمل في موضعين: أحدهما: مبالغة الخير بفَعْل أو أَفْعل على اختلاف يقال: هذا خَيرٌ وهذا أَخْيرُ ويستعمل في مبالغة خير على المشابهة لا على الأصل فمن يقول: أشر يكون قد ترك الأصل المستعمل لأنه أخذ في الأصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الأعلم أن علمه خير من علم غيره، أو هو خير من غرة الجهل كذلك القول في الأضعف وغيره.

قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦﴾

فإن قال قائل: سيعلم للاستقبال ووقت أنزال القرآن على محمد ﷺ كانوا قد علموا، لأن بعد الموت تتبين الأمور وقد عاينوا ما عاينوا فكيف القول فيه؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: أن يكون هذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم: بل هو كذاب أشر، فكأنه تعالى قال يوم قالوا: بل هو كذاب أشر سيعلمون غدًا وثانيهما: أن هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الأليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى: ﴿غَدٗا﴾ لقرب الزمان في الإمكان والأذهان ثم إن قلنا: إن ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة إلى تفسيره بل يكون ذلك إعادة لقولهم من غير قصد إلى معناه، وإن قلنا: هو للرد والوعد ببيان انكشاف الأمر فقوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ معناه سيعلمون غدًا أنهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة، بل بطروا وأشروا لما استغنوا، وقوله تعالى: ﴿غَدٗا﴾ يحتمل أن يكون المراد يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ بمعنى الماضي أو بمعنى المستقبل، إن كان بمعنى الماضي فكيف يقول: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ وإن كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ [القمر: ١٩] وقال هاهنا: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ بمعنى إنا

نرسل؟ نقول: هو بمعنى المستقبل، وما قبله وهو قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يدل عليه، فإن قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ كالبيان له، كأنه قال سيعلمون حيث: نرسل الناقة وما بعده من قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ [القمر: ٢٨] أيضًا يقتضي ذلك، فإن قيل قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟﴾ [القمر: ٢٩] دليل على أن المراد الماضي قلنا سنجيب عنه في موضعه، وأما الفارق فنقول: حكاية ثمود مستقصاة في هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وذكر المعجزة وهي الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك يذكر حكاية على وجه الماضي والمستقبل ليكون وصفه للنبي ﷺ كأنه حاضرها فيقتدي بصالح في الصبر والدعاء إلى الحق ويثق بربه في النصر على الأعداء بالحق فقال: إني مؤيدك بالمعجزة القاطعة، واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد ﷺ، لأنه أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب مما جاء به الأنبياء، لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلاً للحياة فأثبت بإذن الله الحياة في محل كان قابلاً لها، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانًا فأثبت الله له في الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب، وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو (فِيهِ) والنبي ﷺ أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ولا إمكان لشقه وخرقه، وأما الأرضيات فقالوا: إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الأخرى، والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد ﷺ وفيه لطيفة وهو أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي وذكر معه مفعوله فالواجب الإضافة تقول: وحشي قاتل عم النبي ﷺ. فإن قلنا: قاتل عم النبي بالإعمال فلا بد من تقدير الحكاية في الحال كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨] على أنه يحكي القصة في حال وقوعها تقول: خرجت أمس فإذا زيد ضارب عمرًا كما تقول: يضرب عمرًا، وإن كان الضرب قد مضى، وإذا كان بمعنى المستقبل فالأحسن الإعمال تقول: إني ضارب عمرًا غدًا، فإن قلت إني ضارب عمرو غدًا حيث كان الأمر وقع وكان جاز لكنه غير الأحسن، والتحقيق فيه أن قولنا: ضارب وسارق وقاتل أسماء في الحقيقة غير أن لها دلالة على الفعل فإذا كان الفعل تحقق في الماضي فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل في الحقيقة ولا في التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الإضافة وترك ما للفعل من الإعمال لغلبة الإسمية وفقدان الفعل بالماضي، وإذا كان الفعل حاضرًا أو متوقعًا في الاستقبال فله وجود حقيقة أو في التوقع فتجوز الإضافة لصورة الاسم، والإعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الإعمال أولى لأن في الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضاربًا فلا ينبغي أن يضاف، أما

الإعمال فهو ينبئ عن توقع الفعل أو وجوده، لأنه إذا قال: زيد ضارب عمرًا فالسامع إذا سمع بضرب عمرو علم أنه يفعل فإذا لم يره في الحال يتوقعه في الاستقبال غير أن الإضافة تفيد تخفيفًا سقط بها التنوين والنون فتختار لفظًا لا معنى، إذا عرفت هذا فنقول: ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الأمر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف ما لو قيل: إنا نرسل الناقة.

المسألة الثانية: ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول له فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال لكن المقصود منه تصديق النبي ﷺ، وهو صالح عليه السلام لأنه معجزة فما التحقيق في تفسيره؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: أن المعجزة فتنة لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب، لأن الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار إلا إذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لأنها تصديق وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب. وثانيهما: وهو أدق أن إخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وإرسالها إليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً﴾ ولم يقل: إنا مخرجوا الناقة فتنة، والتحقيق في الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مرارًا وإليه إشارة خفية وهي أن الله تعالى يهدي من يشاء وللهداية طرق، منها ما يكون على وجه يكون للإنسان مدخل فيه بالكسب، مثاله يخلق شيئًا دالاً ويقع تفكر الإنسان فيه ونظره إليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه إليه ابتداء ويصونه عن الخطأ من صغره فإظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدي به من يشاء اهتداء مع الكسب وهداية الأنبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علومًا غير كسبية فقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً﴾ إشارة إليهم، ولهذا قال لهم: ومعناه على وجه يصلح لأن يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل، وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي فارتقبهم بالعذاب، ولم يقل: فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ يؤيد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى قرب الوقت إلى أمرهما والأمر بحيث يعجز عن الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾

أي مقسوم وصف بالمصدر مرادًا به المشتق منه كقوله ماء ملح وقوله زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم: كرم كأنه هو عين الكرم ويقال: فلان لطف محض، ويحتمل أن تكون القسمة وقعت بينهما لأن الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهي على الماء، فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يومًا للناقة ويومًا للقوم، ويحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يومًا للناقة ويومًا للحيوانات، ويحتمل أن يكون الماء كان بينهم قسمة يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يومًا يومًا فكان الذين لهم الماء في غير يوم

ورودها يقولون: الماء كله لنا في هذا اليوم ويومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيئًا فلا نمكنكم من الورود أيضًا في هذا اليوم فيكون النقصان واردًا على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا أيضًا ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الأوسط، ونقول: إن قومًا كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد في شيء خبر متواتر والثالث: قطع وهو من القسمة لأنها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ مما يؤيد الوجه الثالث أي كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لأنه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضرًا للقوم أو الناقة فهو معلوم لأن الماء ما كان يترك من غير حضور وإن كان لبيان أنه تحضره الناقة يومًا والقوم يومًا فلا دلالة في اللفظ عليه، وأما إذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم في يوم وآخرون في يوم آخر، ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان، فقال: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ كم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ نداء المستغيث كأنهم قالوا: يالقدار للقوم، كما يقول القائل: بالله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الأمور ويحتمل أن يكون رئيسهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ يحتمل وجوهًا الأول: تعاطى آلة العقر فعقر الثاني: تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف الثالث: التعاطي يطلق ويراد به الإقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو أن الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه ويبرئ نفسه، فمن يقبله ويقدم عليه يقال: تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع الرابع: أن القوم جعلوا له على عمله جعلاً فتعاطاه وعقر الناقة.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾

وقد تقدم بيانه وتفسيره غير أن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب، وذكرها هاهنا قبل بيان العذاب، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه، فحيث ذكر قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول: ضربت فلانًا أي ضرب وأيما ضرب، وتقول: ضربته وكيف ضربته أي قويًا، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فإنه كان مختصًا بهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ سمعوا صيحة فماتوا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كان في قوله: ﴿فَكَانُوا۟﴾ من أي الأقسام؟ نقول: قال النحاة تجيء تارة

بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل:

بِتَيْمَاءَ قَفْرٍ وَالْمَطِيُّ كَأَنَّهَا قَطَا الْحَزْنِ قَدْ كَانَتْ فِرَاخًا بُيُوضُهَا(١)

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين: في هذا موضع إنها بمعنى صار، والتحقيق أن كان لا تخالف غيرها من الأفعال الماضية اللازمة التي لا تتعدى والذي يقال إن كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافًا يفارق غيرها من الأفعال وذلك لأن كان بمعنى وجد أو حصل أو تحقق غير أن الذي وجد تارة يكون حقيقة الشيء وأخرى صفة من صفاته فإذا قلت: كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشيء في نفسه فكأنك قلت: وجدت الحقيقة الكائنة وكن أي احصل فيوجد في نفسه وإذا قلت: كان زيد عالمًا أي وجد علم زيد، غير أنا نقول في وجد زيد عالمًا إن عالمًا حال، وفي كان زيد عالمًا نقول: إنه خبر كقولنا حصل زيد عالمًا غير أن قولنا وجد زيد عالمًا ربما يفهم منه أن الوجود والحصول لزيد في تلك الحال كما تقول قام زيد منتحيًا حيث يكون القيامة لزيد في تلك الحال، وقولنا: كان زيد عالمًا ليس معناه كان زيد وفي تلك الحال هُو عالم لكن هذا لا يوجب أن كان على خلاف غيره من الأفعال اللازمة التي لها بالحال تعلق شديد، لأن من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على أحسن حال ما نفهمه من قولنا خرج زيد اليوم في أحسن زي لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا: كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هناك، إذا عرفت هذا فنقول: الفعل الماضي يطلق تارة على ما يوجد في الزمان المتصل بالحاضر، كقولنا: قام زيد في صباه، ويطلق تارة على ما يوجد في الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فإن زيدًا قام، وكذلك القول في كان ربما يقال كان زيد قائمًا عام كذا وربما يقال كان زيد قائمًا الآن كما في قام زيد فقوله تعالى: ﴿فَكَانُوا﴾ فيه استعمال الماضي فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أي متصلاً بتلك الحال، نعم لو استعمل في هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى في نفسه وليس وإنما يلزم حمل كان على صار إذا لم يمكن أن يقال هو كذا كما في البيت حيث لا يمكن أن يقال: البيوض فراخ، وأما هنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لأمكن أن يقال: يجب حمل كان على صار إذا كان المراد أنهم انقلبوا هشيمًا كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك.

المسألة الثانية: ما الهشيم؟ نقول هو المهشوم أي المكسور وسمي هاشم هاشمًا لهشمه الثريد في الجفان غير أن الهشيم استعمل كثيرًا في الحطب المتكسر اليابس، فقال المفسرون: كانوا كالحشيش الذي يخرج من الحظائر بعد البلا بتفتت، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[الكهف: ٥٤] وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال: رأيت جريحًا ومثله السعير.

---

(١) البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر عمرو بن أحمر الباهلي وقد تقدمت ترجمته.

المسألة الثالثة: لماذا شبههم به؟ قلنا: يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكأنه يقول: سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من أيام، ويحتمل أن يكون لأنهم انضموا بعضهم إلى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم في بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذي يصفه شيئًا فوق شيء منتظرًا حضور من يشتري منه شيئًا فإن الحطاب الذي عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة، ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد فهو محقق لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذي لا يكون إلا للإحراق لأن الهشيم لا يصلح للبناء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والتكرار للتذكار.

ثم بين حال قوم آخرين وهم قوم لوط فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم بين عذابهم وإهلاكهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

وفيه مسائل:

الأولى: الحاصب فاعل من حصب إذا رمى الحصباء وهي اسم الحجارة والمرسل عليهم هو نفس الحجارة قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وقال تعالى عن الملائكة: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه؟ نقول: الجواب من وجوه الأول: أرسلنا عليهم ريحًا حاصبًا بالحجارة التي هي الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فأقام الصفة مقام الموصوف، فإن قيل: هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦] وقال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢] وقال تعالى في: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وما قال لقاحًا ولا لقحة، وأما المعنى فلأن الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهي لا تسمى حصباء، وكان ذلك بأيدي الملائكة لا بالريح، نقول: تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالإعصار، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] فلما كان حاصب حجارة كان كالذي فيه نار، وأما قوله: كان الرمي بالسجيل لا بالحصباء، وبأيدي الملائكة لا بالريح، فنقول: كل ريح يرمي بحجارة يسمى حاصبًا، وكيف لا والسحاب الذي يأتي بالبرد يسمى حاصبًا تشبيهًا للبرد بالحصباء، فكيف لا يقال في السجيل.

وأما الملائكة فإنهم حركوا الريح وهي حصبت الحجارة عليهم الجواب الثاني: المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والحساب والريح وكل ما يفرض الجواب الثالث: قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ هو أقرب من الكل لأن قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها، فإن قيل: كان ينبغي أن يقول حاصبين، نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئًا حاصبًا إذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب، وهذا وارد على من قال: الريح مؤنث لأن ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا.

المسألة الثانية: ما رتب الإرسال على التكذيب بالفاء فلم يقل: كذبت قوم لوط بالنذر فأرسلنا كما قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١] لأن الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات، فكأنه قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠] كما قال من قبل ثم قيل: لا علم لنا به وإنماأنت العليم فأخبرنا، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ كما قال في الحكايات الثلاث، نقول: لأن التكرار ثلاث مرات بالغ، ولهذا قال ﷺ: «**أَلاَ هَلْ بلغت ثلاثا**»(١) وقال ﷺ: «**فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ بَاطِلٌ بَاطِلٌ**»(٢) والإذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ في حكاية نوح للتعظيم وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعًا واعلم أنه تعالى ذكر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للإنذار، والمرات الثلاث للإذكار، لأن المقصود حصل بالمرة الواحدة، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الأولى كما أعاد: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ثلاث مرات غير المرة الأولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب إشارة إلى الرحمة التي قال في بيانها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وسنبين ذلك في سورة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في وضع الربا) (٣/ ١٤٤٨/ ١٤٤٩) حديث رقم (٣٣٣٤) والترمذي في كتاب (الرضاع) باب (في حق المرأة على زوجها) (٣/ ٤٦٧) حديث رقم (١١٦٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (النكاح) باب (حق المرأة على الزوج) (١/ ٥٩٤) حديث رقم (١٨٥١)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٩٨/ ٤٢٦) جميعا من طريق أبي الأحوص. . . به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (النكاح) باب في الولي) (٢/ ٢٣٥) حديث رقم (٢٠٨٣) والترمذي في كتاب (النكاح) باب (لا نكاح إلا بولي) (٣/ ٣٩٨) حديث رقم (١١٠٢) من طريق سفيان بن عيينة. . . به وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وابن ماجه في كتاب (النكاح) باب (لا نكاح إلا بولي) (١/ ٦٠٥) حديث رقم (١٨٧٩) من طريق معاذ. . . به وأحمد في (مسنده) (٦/ ٤٧) من طريق إسماعيل. . . به وكذلك في (٦/ ١٦٥) من طريق عبد الرزاق. . . به والدارمي في كتاب (النكاح) باب (في اليتيمة تزوج) (١/ ٦٢٠) حديث رقم (٢١٨٤) والحميدي في (مسنده) (١) حديث رقم (٢٢٧) من طريق سفيان وعبد الله بن رجاء. . . به والحاكم في (المستدرك) (٢/ ١٦٨).

المسألة الرابعة: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء مماذا؟ إن كان من الذين قال فيهم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ فالضمير في عليهم عائد إلى قوم لوط وهم الذين قال فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لكن لم يستثن عند قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك؟ الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء ممن عاد إليهم الضمير في عليهم وهم القوم بأسرهم غير أن قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ لا يوجب كون آله مكذبين، لأن قول القائل: عصى أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف إذا كان فيهم واحد أو اثنان من المطيعين لا غير، فإن قيل: ماله حاجة إلى الاستثناء لأن قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يصح وإن نجا منهم طائفة يسيرة نقول: الفائدة لما كانت لا تحصل إلا ببيان إهلاك من كذب وإنجاء من آمن فكان ذكر الإنجاء مقصودًا، وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصودًا لا يجوز التعميم والإطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] استثنى الواحد لأنه كان مقصودًا، وقال تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ولم يستثن إذ المقصود بيان أنها أوتيت، لا بيان أنها ما أوتيت، وفي حكاية إبليس كلاهما مراد ليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول هاهنا، وأما عند التكذيب فكأن المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن الجواب الثاني: أن الاستثناء من كلام مدلول عليه، كأنه قال: إنا أرسلنا عليهم حاصبًا فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط، وجاز أن يكون الإرسال عليهم والإهلاك يكون عامًا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فكان الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصودًا ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم فما نجا منهم أحد إلا آل لوط.

فإن قيل إذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من أمر عام فيجب أن يكون لوط أيضًا مستثنى؟ نقول: هو مستثنى عقلاً لأن من المعلوم أنه لا يجوز تركه وإنجاء أتباعه والذي يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] في جوابهم لإبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢] فإن قيل قوله في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ [الحجر: ٥٩] استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم؟ والجواب مثل ما ذكرنا فأحد الجوابين إنا أرسلنا إلى قوم يصدق عليهم إنهم مجرمون وإن كان فيهم من لم يجرم ثانيهما: إلى قوم مجرمين بإهلاك يعم الكل إلا آل لوط، وقوله تعالى: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ كلام مستأنف لبيان وقت الإنجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لأن آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مدفعًا كما في قوم نوح، فقال: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل والسحر قبيل الصبح وقيل هو السدس الأخير من الليل.

قوله تعالى: ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝ ﴾

أي ذلك الإنجاء كان فضلاً منا كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً ولو أهلكوا لكان ذلك عدلاً، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد، غير أن الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار إن شاء أهلك من آمن وكذب، ثم يثبت الذين أهلكهم من المصدقين في دار الجزاء وإن شاء أهلك من كذب، فقال: نعمة من عندنا إشارة إلى ذلك وفي نصبها وجهان: أحدهما: أنه مفعول له كأنه قال: نجيناهم نعمة منا. ثانيهما: على أنه مصدر، لأن الإنجاء منه إنعام فكأنه تعالى قال: أنعمنا عليهم بالإنجاء إنعامًا وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو أنه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعدًا لأمة محمد ﷺ المؤمنين بأنه يصونهم عن الإهلاكات العامة والسيئات المطبقة الشاملة. وثانيهما: وهو الأصح أن ذلك وعد لهم وجزاؤهم بالثواب في دار الآخرة كأنه قال: كما نجيناهم في الدنيا، أي كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذي يؤيد هذا أن النجاة من الإهلاكات في الدنيا ليس بلازم، ومن عذاب الله في الآخرة لازم بحكم الوعيد، وكذلك ينجي الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقوله تعالى: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥] والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك فقال: أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل، وفي قوله: ﴿ بَطْشَتَنَا﴾ وجهان: أحدهما: المراد البطشة التي وقعت وكان يخوفهم بها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤] فكأنه قال: إنا أرسلنا عليهم ما سبق، ذكرها للإنذار بها والتخويف. وثانيهما: المراد بها ما في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٦] وذلك لأن الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] وقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] إلى غير ذلك، وعلى ذلك ففيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] وقال هاهنا: ﴿بَطْشَتَنَا﴾ ولم يقل: بطشنا وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ بيان لجنس بطشه، فإذا كان جنسه شديدًا فكيف الكبرى منه، وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة

الكبرى لئلا يكون مقصرًا في التبليغ، وقوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ يدل على أن النذر هي الإنذارات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾

والمراودة من الرود، ومنه الإرادة وهي قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل في العين يقال: طالب زيد عمرًا بالدراهم، والمراودة لا تستعمل إلا في العمل يقال: راوده عن المساعدة، ولهذا تعدى المراودة إلى مفعول ثان بعن، والمطالبة بالباء، وذلك لأن الشغل منوط باختيار الفاعل، والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال، فإذا قلت: أخبرني بأمره تعين عليه الخبر العين بخلاف ما إذا قيل عن كذا، ويزيد هذا ظهورًا قول القائل: أخبرني زيد عن مجيء فلان، وقوله: أخبرني بمجيئه فإن من قال عن مجيئه ربما يكون الإخبار عن كيفية المجيء لا عن نفسه وأخبرني بمجيئه لا يكون إلا عن نفس المجيء والضيف يقع على الواحد والجماعة، وقد ذكرناه في سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم، وهي أنهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم. وقوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ نقول: إن جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم. **وفي الآية مسائل:**

الأولى: الضمير في راودوه إن كان عائدًا إلى قوم لوط فما في قوله: ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ أيضًا عائدًا إليهم فيكون قد طمس أعين قوم ولم يطمس إلا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط، وإن كان عائدًا إلى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه؟ نقول: المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الأمر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها إلى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير في أعينهم إليهم مثاله قول القائل: الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم في صلاتهم عائدًا إلى الذين صلوا بعدما آمنوا ولا يعود إلى مجرد الذين آمنوا لأنك لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلامًا منظومًا ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام، فعلم أن الضمير عائد إلى ما حصل بعد قوله: ﴿رَاوَدُوهُ﴾ والضمير في راودوه عائد إلى المنذرين المتمارين بالنذر.

المسألة الثانية: قال ههنا: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ وقال في يس: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] فما الفرق؟ نقول: هذا مما يؤيد قول ابن عباس فإنه نقل عنه أنه قال: المراد من الطمس الحجب عن الإدراك فما جعل على بصرهم شيء غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئًا فكانوا كالمطموسين، وفي يس أراد أنه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة، أي ألزق أحد الجفنين بالآخر فيكون على العين جلدة فيكون قد طمس عليها، وقال غيره: إنهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى﴾ لأنهم إن بقوا مصرين ولم يروا شيئًا هناك لا يكون ذلك عذابًا والطمس بالمعنى الذي قاله غير ابن عباس عذاب، فنقول:

الأولى أن يقال: إنه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين وإذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الإنكار لأنه أمر وقع، وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين، لأن إطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وإرادته فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[يس: ٦٦] وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الإمكان كثير الوقوع والطمس على ما وقع لقوم لوط نادر، فقال: هناك على أعينهم ليكون أقرب إلى القبول.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ خطاب ممن وقع ومع من وقع؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها: فيه إضمار تقديره فقلت: على لسان الملائكة ذوقوا عذابي. ثانيها: هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابي فإنهم لما كذبوا ذاقوه. ثالثها: أن هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فإذا ضرب ضربًا مبرحًا وهو يصرح والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق إنك مجرم مستأهل ويعلم الملك أن المعذب لا يسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد بمرأى من الله تعالى يسمع إذا عذب معاندًا كان قد سخط الله عليه يقول: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾[السجدة: ١٤] ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾ ولا يكون به مخاطبًا لمن يسمع ويجيب، وذلك إظهار العدل أي لست بغافل عن تعذيبك فتتخلص بالصراخ والضراعة، وإنما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك، فإن قيل: هذا وقع بغير الفاء، وأما بالفاء فلا تقول: وبالفاء فإنه ربما يقول: كنتم تكذبون فذوقوا.

المسألة الرابعة: النذر كيف يذاق؟ نقول: معناه ذق فعلك أي مجازاة فعلك وموجبه ويقال: ذق الألم على فعلك وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾ كقولهم: ذق الألم، وقوله: ﴿وَنُذُرِ﴾ كقولهم ذق فعلك أي ذق ما لزم من إنذاري، فإن قيل: فعلى هذا لا يصح العطف لأن قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾ وما لزم من إنذاري وهو العذاب يكون كقول القائل: ذوقوا عذابي وعذابي؟ نقول: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾ أي العاجل منه، وما لزم من إنذاري وهو العذاب الآجل، لأن الإنذار كان به على ما تقدم بيانه، فكأنه قال: ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل، فإن قيل: هما لم يكونا في زمان واحد، فكيف يقال: ذوقوا، نقول: العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل، فهما كالواقع في زمان واحد وهو كقوله تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[نوح: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾

أي العذاب الذي عم القوم بعد الخاص الذي طمس أعين البعض، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿صَبَّحَهُم﴾ فيه دلالة على الصبح، فما معنى: ﴿بُكْرَةً﴾؟ نقول: فائدته تبيين انطراقه فيه، فقوله: ﴿بُكْرَةً﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أنها منصوبة على أنها ظرف، ومثله نقوله في قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء: ١] وفيه بحث، وهو أن الزمخشري قال: ما الفائدة

في قوله: ﴿لَيۡلًا﴾ وقال: جوابًا في التنكير دلالة على أنه كان في بعض الليل، وتمسك بقراءة من قرأ: ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وهو غير ظاهر، والأظهر فيه أن يقال: بأن الوقت المبهم يذكر لبيان أن تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وأنه لا يريد بيانه، كما يقول: خرجنا في بعض الأوقات، مع أن الخروج لا بد من أن يكون في بعض الأوقات، فإنه لا يريد بيان الوقت المعين، ولو قال: خرجنا، فربما يقول السامع: متى خرجتم، فإذا قال: في بعض الأوقات أشار إلى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته، فكذلك قوله تعالى: ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ أي بكرة من البكر و﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ أي ليلاً من الليالي فلا أبينه، فإن المقصود نفس الإسراء، ولو قال: أسرى بعبده من المسجد الحرام، لكان للسامع أن يقول: أيما ليلة؟ فإذا قال: ليلة من الليالي قطع سؤاله وصار كأنه قال: لا أبينه، وإن كان القائل ممن يجوز عليه الجهل، فإنه يقول: لا أعلم الوقت، فهذا أقرب فإذا علمت هذا في أسرى ليلاً، فاعلم مثله في: ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ ويحتمل أن يقال: على هذا الوجه: ﴿صَبَّحَهُم﴾ بمعنى قال لهم: عموا صباحًا استهزاء بهم، كما قال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فكأنه قال: جاءهم العذاب بكرة كالمصبح، والأول أصح، ويحتمل في قوله تعالى: ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ على قولنا: إنها منصوبة على الظرف مالا يحتمله قوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ وهو أن: ﴿صَبَّحَهُم﴾ معناه أتاهم وقت الصبح، لكن التصبيح يطلق على الإتيان في أزمنة كثيرة من أول الصبح إلى ما بعد الإسفار، فإذا قال: ﴿بُكۡرَةً﴾ أفاد أنه كان أول جزء منه، وما أخر إلى الإسفار، وهذا أوجه وأليق، لأن الله تعالى أوعدهم به وقت الصبح، بقوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ [هود: ٨١] وكان من الواجب بحكم الإخبار تحققه بمجيء العذاب في أول الصبح، ومجرد قوله: ﴿صَبَّحَهُم﴾ ما كان يفيد ذلك، وهذا أقوى لأنك تقول: صبيحة أمس بكرة واليوم بكرة، فيأتي فيه ما ذكرنا من أن المراد بكرة من البكر الوجه الثاني: أنها منصوبة على المصدر من باب ضربه سوطًا ضربًا فإن المنصوب في ضربته ضربًا على المصدر، وقد يكون غير المصدر كما في ضربته سوطًا ضربًا، لا يقال: ضربًا سوطًا بين أحد أنواع الضرب، لأن الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره، وأما: ﴿بُكۡرَةً﴾ فلا يبين ذلك، لأنا نقول: قد بينا أن بكرة بين ذلك، لأن الصبح قد يكون بالإتيان وقت الإسفار، وقد يكون بالإتيان بالأبكار، فإن قيل: مثله يمكن أن يقال: في ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ قلنا: نعم، فإن قيل: ليس هناك بيان نوع من أنواع الإسراء، نقول: هو كقول القائل: ضربته شيئًا، فإن شيئًا لا بد منه في كل ضرب، ويصح ذلك على أنه نصب على المصدر، وفائدته ما ذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بأنواعه، وكأن القائل يقول: إني لا أبين ما ضربته به، ولا أحتاج إلى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل: بماذا ضربه بسوط أو بعصا، فكذلك القول في: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ يقطع سؤال السائل عن الإسراء، لأن الإسراء هو السير أول الليل، والسرى هو السير آخر الليل أو غير ذلك.

المسألة الثانية: ﴿مُّسۡتَقِرٌّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: عذاب لا مدفع له، أي يستقر عليهم

ويثبت، ولا يقدر أحد على إزالته ورفعه أو إحالته ودفعه. ثانيها: دائم، فإنهم لما أهلكوا نقلوا إلى الجحيم، فكأن ما أتاهم عذاب لا يندفع بموتهم، فإن الموت يخلص من الألم الذي يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس، وموتهم ما خلصهم. ثالثها: عذاب مستقر عليهم لا يتعدى غيرهم، أي هو أمر قدره الله عليهم وقرره فاستقر، وليس كما يقال: إنه أمر أصابهم اتفاقًا كالبرد الذي يضر زرع قوم دون قوم، ويظن به أنه أمر اتفاقي، وليس لو خرجوا من أماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط، بل كان ذلك يتبعهم، لأنه كان أمرًا قد استقر.

المسألة الثالثة: الضمير في ﴿صَبَّحَهُم﴾ عائد إلى الذين عاد إليهم الضمير في أعينهم فيعود لفظًا إليهم للقرب، ومعنى إلى الذين تماروا بالنذر، أو الذين عاد إليهم الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ [القمر: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرة أخرى، لأن العذاب كان مرتين أحدهما: خاص بالمراودين، والآخر عام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قد فسرناه مرارًا وبينا ما لأجله تكرارًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: ما الفائدة في لفظ: ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل قوم فرعون؟ نقول: القوم أعم من الآل، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره، والآل كل من يؤول إلى الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤول إليهم خيره وشره، فالبعيد الذي لا يعرفه الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس وإنما يسمع اسمه، فليس هو بآله، إذا عرفت الفرق، نقول: قوم الأنبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام، لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة، وإنما كانوا هم رؤساء وأتباعًا، والرؤساء إذا كثروا لا يبقى لأحد منهم حكم نافذ على أحد، أما على من هو مثله فظاهر، وأما على الأراذل فلأنهم يلجئون إلى واحد منهم ويدفعون به الآخر، فيصير كل واحد برأسه، فكأن الإرسال إليهم جميعًا، وأما فرعون فكان قاهرًا يقهر الكل، وجعلهم بحيث لا يخالفونه في قليل ولا كثير، فأرسل الله إليه الرسول وحده، غير أنه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم، وهامان لدهائه، فاعتبرهم الله في الإرسال، حيث قال: في مواضع: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [الزخرف: ٤٦] وقال تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ . . . ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤] وقال في العنكبوت: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣٩] لأنهم إن آمنوا آمن الكل بخلاف الأقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ وقال كثيرًا مثل هذا كما في

قولـه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨]وقال: بلفظ الملأ أيضًا كثيرًا.

المسألة الثانية: قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ﴾ ولم يقل في غيرهم جاء لأن موسى عليه السلام ما جاءهم، كما جاء المرسلون أقوامهم، بل جاءهم حقيقة حيث كان غائبًا عن القوم فقدم عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٦١]وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]حقيقة أيضًا لأنه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج، كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة.

المسألة الثالثة: النذر إن كان المراد منها الإنذارات وهو الظاهر، فالكلام الذي جاءهم على لسان موسى ويده تلك، وإن كان المراد الرسل فهو لأن موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاء لأنهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من غير فاء تقتضي ترتب التكذيب على المجيء فيه وجهان: أحدهما: أن الكلام تم عند قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ وقوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ كلام مستأنف والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون. ثانيهما: أن الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم، فكأنه قال: (فَكَيْفَ كان عذابي ونذر وَقَدْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ)، وعلى الوجه الأول آياتنا كلها ظاهرة، وعلى الوجه الثاني المراد آياته التي كانت مع موسى عليه السلام وهي التسع في قول أكثر المفسرين، ويحتمل أن يقال: المراد أنهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فإن في كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا كالآبقين أو إلى أنهم عاصون يقال: أخذ الأمير فلانًا إذا حبسه، وفي قوله: ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لطيفة وهي أن العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون (الَّذِي) يغلب على العدو ويظفر به وفي الأول يكون غير متمكن من أخذه لبعده إن كان هاربًا ولمنعته إن كان محاربًا، فقال أحد غالب لم يكن عاجزًا وإنما كان ممهلاً.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾

تنبيهًا لهم لئلا يأمنوا العذاب فإنهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الخطاب مع أهل مكة فينبغي أن يكون كفارهم بعضهم وإلا لقال: أنتم خير من أولئكم، وإذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ ولم يقل: أم لهم كما يقول القائل: جاءنا الكرماء فأكرمناهم، ولا يقول: فأكرمناكم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لأن جمعًا عظيمًا ممن كان كافرًا من أهل مكة يوم الخطاب أيقنوا بوقوع ذلك، والعذاب لا يقع إلا بعد العلم بأنه لم يبق من القوم من يؤمن فقال: الذين يصرون منكم على الكفر يا أهل مكة خير، أم الذين

أصروا من قبل؟ فيصح كون التهديد مع بعضهم، وأما قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ﴾ ففيه وجهان. أحدهما: أم لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم لكونه في قوم لهم براءة. وثانيهما: أم لكم براءة إن أصررتم فيكون الخطاب عامًا والتهديد كذلك، فالشرط غير مذكور وهو الإصرار.

المسألة الثانية: ما المراد بقوله: ﴿خَيْرٌ﴾، وقول القائل: خير يقتضي اشتراك أمرين في صفة محمودة مع رجحان أحدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة؟ نقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[(١)]

مع اختصاص الخير بالنبي عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما في شيء منهما ثانيها: أن ذلك عائد إلى ما في زعمهم أي: أيزعم كفاركم أنهم خير من الكفار المتقدمين الذين أهلكوا وهم كانوا يزعمون في أنفسهم الخير، وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الأوثان ومكذبي الرسل وكانوا يقولون: إن الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة ثالثها: المراد: أكفاركم أشد قوة، فكأنه قال: أكفاركم خير في القوة؟ والقوة محمودة في العرف رابعها: أن كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة وأخرى غير محمودة فإذا نظرت إلى المحمودة في الموضعين وقابلت إحداهما بالأخرى، تستعمل فيها لفظ الخير، وكذلك في الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر؟ فإذا نظرت إلى كافرين وقلت: أحدهما خير من الآخر فلك حينئذ أن تريد أحدهما خير من الآخر في الحسن والجمال، وإذا نظرت إلى مؤمنين يؤذيانك قلت: أحدهما شر من الآخر، أي في الأذية لا الإيمان فكذلك هاهنا أكفاركم خير لأن النظر وقع على ما يصلح مخلصًا لهم من العذاب، فهو كما يقال أكفاركم فيهم شيء مما يخلصهم لم يكن في غيرهم فهم خير أم لا شيء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا بخصال فيهم.

المسألة الثالثة: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ﴾ إشارة إلى سبب آخر من أسباب الخلاص، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك، فإن كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن في غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيرًا منهم وإن كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته إياهم وإيمانه إياهم من العذاب فقال لهم: أنتم خير منهم فلا تهلكون أم لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ إشارة إلى لطيفة وهي أن العاقل لا يأمن إلا إذا حصل له الجزم بالأمن أو صار له آيات تقرب الأمر من القطع، فقال: لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة في الكتب، فإن الحاصل في بعض الكتب ربما يحتمل التأويل أو يكون قد تطرق إليه التحريف والتبديل كما في

---

(١) حسان بن ثابت هو الصحابي المعروف بشاعر الرسول وتقدمت ترجمته.

التوراة والإنجيل، فقال: هل حصل لكم براءة متكررة في كتب تأمنون بسببها العذاب فإن لم يكن كذلك لا يجوز الأمن لكن البراءة لم تحصل في كتب ولا كتاب واحد ولا شبه كتاب، فيكون أمنهم من غاية الغفلة وعند هذا تبين فضل المؤمن، فإنه مع ما في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من الوعد لا يأمن وإن بلغ درجة الأولياء والأنبياء، لما في آيات الوعيد من احتمال التخصيص، وكون كل واحد ممن يستثنى من الأمة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر آمن في الدنيا، وفي الآخرة الأمر على العكس.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝﴾

تتميمًا لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما أن الملك إذا عذب جماعة ورأى فيهم من أحسن إليه فلا يعذبه، وإما أن يكون لأمر في المخلص كما إذا رأى فيهم من له ولد صغير أو أم ضعيفة فيرحمه وإن لم يستحق ويكتب له الخلاص، وإما أن لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا في نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة أعوانه وتعصب إخوانه، كما إذا هرب واحد من الملك والتجأ إلى عسكر يمنعون الملك عنه، فكما نفى القسمين الأولين كذلك نفى القسم الثالث وهو التمنع بالأعوان وتحزب الإخوان **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في حسن الترتيب وذلك لأن المستحق لذاته أقرب إلى الخلاص من المرحوم، فإن المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك، ووجد المانع من العذاب، وما لا سبب له لا يتحقق أصلاً، وماله مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب، وما في نفس المعذب من المانع أقوى من الذي بسبب الغير، لأن الذي من عنده يمنع الداعية ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعية، والذي من الغير بسبب التمنع لا يقطع قصده بل يجتهد وربما يغلب فيكون تعذيبه أضعاف ما كان من قبل، بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فإنها وإن لم تمنعه لكن لا يزيد في حمله وحبسه وزيادته في التعذيب عند القدرة، فهذا ترتيب في غاية الحسن.

المسألة الثانية: ﴿جَمِيعٌ﴾ فيه فائدتان إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق، كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة، إنما قلنا: إن فيه فائدتين لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية، ويحتمل أن يقال: معناه نحن الكل لا خارج عنا إشارة إلى أن من اتبع النبي ﷺ لا اعتداد به قال تعالى في نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١] ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[هود: ٢٧] وعلى هذا ﴿جَمِيعٌ﴾ يكون التنوين فيه لقطع الإضافة كأنهم قالوا: نحن جمع الناس.

المسألة الثالثة: ما وجه إفراد المنتصر مع أن نحن ضمير الجمع؟ نقول: على الوجه الأول ظاهر لأنه وصف الجزء الآخر الواقع خبرًا فهو كقول القائل: أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد، ومعناه جمع فيه الكثرة، وأما على الوجه الثاني فالجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المعنى وإن كان جميع الناس لا خارج عنهم إلا من لا يعتد به، لكن لما قطع ونون صار كالمنكر في الأصل فجاز وصفه بالمنكر نظرًا إلى اللفظ فعاد إلى الوجه الأول. وثانيهما: أنه خبر بعد خبر، ويجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخرين نكرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦] وعلى هذا فقوله: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أفرده لمجاورته ﴿جَمِيعٌ﴾، ويحتمل أن يقال معنى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أن جميعًا بمعنى كل واحد كأنه قال: نحن كل واحد منا منتصر، كما تقول: هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوي، وهم كلهم علماء أي كل واحد عالم فترك الجمع واختار الإفراد لعود الخبر إلى كل واحد فإنهم كانوا يقولون: كل واحد منا يغلب محمدًا ﷺ كما قال أبي بن خلف الجمحي وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب، والله رد عليهم بأجمعهم بقوله:

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾

وهو أنهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدًا ﷺ والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذي يعمهم جميعهم بقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وحينئذ يظهر سؤال وهو أنه قال: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ ولم يقل: يولون الأدبار. وقال في موضع آخر: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] وقال في موضع آخر: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فكيف تصحيح الإفراد وما الفرق بين المواضع؟ نقول: أما التصحيح فظاهر لأن قول القائل: فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر. قالوا: وفي الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف، وقوله: ﴿يُوَلُّونَ﴾ بمثابة يول هذا الدبر، ويول ذاك ويول الآخر أي كل واحد يولي دبره، وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد، فقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ إفراده إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد، وأما في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره، فليس المنهي هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره، فكل أحد منهي عن تولية دبره، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾ ولا يتم إلا بقوله: ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١٥] أي كل واحد قال: أنا أثبت ولا أولي دبري، وأما في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ [الحشر: ١٢] فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود

وهم متفرقون بدليل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤]، وأما في هذا الموضع فهم كانوا يدًا واحدة على من سواهم.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾

إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم بل الأمر أعظم منه فإن الساعة موعدهم فإنه ذكر ما يصيبهم في الدنيا من الدبر، ثم بين ما هو منه على طريقة الإصرار، هذا قول أكثر المفسرين، والظاهر أن الإنذار بالساعة عام لكل من تقدم، كأنه قال: أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة فإتمام المجازاة بالأليم الدائم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في كون اختصاص الساعة موعدهم مع أنها موعد كل أحد؟ نقول: الموعد الزمان الذي فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو: متى يكون، بل يفوض الأمر إلى الله، وأما الكافر فغير مصدق فيقول: متى يكون العذاب؟ فيقال له: اصبر فإنه آت يوم القيامة، ولهذا كانوا يقولون: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[ص: ١٦] وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾[الحج: ٤٧].

المسألة الثانية: أدهى من أي شيء؟ نقول: يحتمل وجهين: أحدهما: ما مضى من أنواع عذاب الدنيا. ثانيهما: أدهى الدواهي فلا داهية مثلها.

المسألة الثالثة: ما المراد من قوله: ﴿أَمَرُّ﴾؟ قلنا: فيه وجهان أحدهما: هو مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى﴾[القمر: ٣٧] وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[القمر: ٤٨] وعلى هذا فأدهى أي أشد وأمر أي آلم، والفرق بين الشديد والأليم أن الشديد يكون إشارة إلى أنه لا يطيقه أحد لقوته ولا يدفعه أحد بقوته، مثاله ضعيف ألقى في ماء يغلبه أو نار لا يقدر على الخلاص منها، وقوي ألقي في بحر أو نار عظيمة يستويان في الألم والعذاب ويتساويان في الإيلام لكن يفترقان في الشدة فإن نجاة الضعيف من الماء الضعيف بإعانة معين ممكن، ونجاة القوي من البحر العظيم غير ممكن. ثانيهما: أمر مبالغة في المار إذ هي أكثر مرورًا بهم إشارة إلى الدوام، فكأنه يقول: أشد وأدوم، وهذا مختص بعذاب الآخرة، فإن عذاب الدنيا إن اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وإن دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديدًا. ثالثها: أنه المرير وهو من المرة التي هي الشدة، وعلى هذا فإما أن يكون الكلام كما يقول القائل: فلان نحيف نحيل وقوي شديد، فيأتي بلفظين مترادفين إشارة إلى التأكيد وهو ضعيف، وإما أن يكون أدهى مبالغة من الداهية التي هي اسم الفاعل من دهاه أمر كذا إذا أصابه، وهو أمر صعب لأن الداهية صارت كالاسم الموضوع للشديد على وزن الباطية والسائبة التي لا تكون من أسماء الفاعلين، وإن كانت الداهية أصلها

ذلك، غير أنها استعملت استعمال الأسماء وكتبت في أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم وأضيق، أي هي بحيث لا تدفع.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ **وفي الآية مسائل:**

الأولى: فيمن نزلت الآية في حقهم؟ أكثر المفسرين اتفقوا على أنها نازلة في القدرية روى الواحدي في تفسيره قال: سمعت الشيخ رضي الدين المؤيد الطوسي بنيسابور، قال: سمعت عبد الجبار قال: أخبرنا الواحدي قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله الكعبي، قال: حدثنا حمدان بن صالح الأشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبي داود، حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل المخزومي عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (١) وكذلك نقل عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في القدرية. وروي عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الْقَدَرِيَّةُ**» (٢) وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ وكثرت الأحاديث في القدرية وفيها مباحث الأول: في معنى القدرية الذين قال النبي ﷺ: نزلت الآية فيهم، فنقول: كل فريق في خلق الأعمال يذهب إلى أن القدري خصمه، فالجبري يقول القدري من يقول: الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره، فهم قدرية لأنهم ينكرون القدر والمعتزلي يقول: القدري هو الجبري الذي يقول حين يزني ويسرق الله قدرني فهو قدري لإثباته القدر، وهما جميعًا يقولان لأهل السنة الذي يعترف بخلق الله وليس من العبد إنه قدري، والحق أن القدري الذي نزلت فيه الآية هو الذي ينكر القدر ويقول بأن الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله ﷺ في القدر فإن مذهبهم ذلك، وما كانوا يقولون مثل ما يقول المعتزلة إن الله خلق لي سلامة الأعضاء وقوة الإدراك ومكنني من الطاعة والمعصية، والله قادر على أن

---

(١) أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٦) من طريق سفيان عن زياد بن إسماعيل عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي عن أبي هريرة. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في القدر) (٤/ ٢٠٠٣) حديث رقم (٤٦٩١) وأورده الهيثمي في (مجمعه) (٧/ ٢٠٥) ورواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله رجال الصحيح وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح وغيره وضعفه جماعة، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٨٥) قال الذهبي: علي شرطهما إن صح لأبي حازم سماع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يخلق في الطاعة إلجاء والمعصية إلجاء، وقادر على أن يطعم الفقير الذي أطعمه أنا بفضل الله، والمشركون كانوا يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[يس: ٤٧] منكرين لقدرة الله تعالى على الإطعام، وأما قوله ﷺ: «مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ هُمُ الْقَدَرِيَّةُ» فنقول: المراد من هذه الأمة، إما الأمة التي كان محمد ﷺ مرسلاً إليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم، وإما أمته الذين آمنوا به فإن كان المراد الأول فالقدرية في زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة، وإن كان المراد هو الثاني فقوله: «مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» يكون معناه الذين نسبتهم إلى هذه الأمة كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة، لكن الأمة المتقدمة أكثرهم كفرة، والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية في هذه الأمة تكون نوعًا منهم أضعف دليلاً ولا يقتضي ذلك الجزم بكونهم في النار فالحق أن القدري هو الذي ينكر قدرة الله تعالى، إن قلنا: إن النسبة للنفي أو الذي يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث إن قلنا: إن النسبة للإثبات وحينئذ يقطع بكونه: ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ وإنه ذائق مس سقر.

البحث الثاني: في بيان من يدخل في القدرية التي في النص ممن هو منتسب إلى أنه من أمة محمد ﷺ، إن قلنا: القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذي يقول لا قدرة لله على تحريك العبد بحركة هي الصلاة وحركة هي الزنا مع أن ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم، وأما الذي يقول: بأن الله قادر غير أنه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذي يجرب الصبي في حمل شيء تركه معه لا لعجز الوالد بل للابتلاء والامتحان، لا كالمفلوج الذي لا قوة له إذا قال لغيره: احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهرًا وإن كان مخطئًا، وإن قلنا إن القدرية سموا بهذا الاسم لإثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب، والجبري الذي قال: هو الحائط الساقط الذي لا يجوز تكليفه بشيء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الإباحة، فلا شك في دخوله في القدرية فإنه يكفر بنفيه التكليف وأما الذي يقول: خلق الله تعالى فينا الأفعال وقدرها وكلفنا، ولا نسئل عما يفعل فما هو منهم.

البحث الثالث: اختلف القائلون في التعصب أن الاسم بالمعتزلة أحق أم بالأشاعرة؟ فقالت: المعتزلة الاسم بكم أحق لأن النسبة تكون للإثبات لا للنفي، يقال للدهري: دهري لقوله بالدهر، وإثباته، وللمباحي إباحي لإثباته الإباحة وللثنوية ثنوية لإثباتهم الاثنين وهما النور والظلمة، وكذلك أمثله وأنتم تثبتون القدر، وقالت الأشاعرة: النصوص تدل على أن القدري من ينفي قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية إلا لإثباتهم قدرة لغير الله، قالت: المعتزلة إنما سمي المشركون قدرية لأنهم قالوا: إن كان قادرًا على الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لأطعم الفقير، فاعتقدوا أن من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم إن شاء، وهذا مذهبكم أيها الأشاعرة، والحق الصراح أن كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا إلى المذهبين خارج عن القدرية، ولا يصير واحد منهم قدريًا إلا إذا صار

النافي نافيًا للقدرة والمثبت منكرًا للتكليف.

المسألة الثانية: المجرمون هم المشركون ههنا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]وقوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾ [المعارج: ١١]وفي قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]فالآية عامة، وإن نزلت في قوم خاص. وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالإشراك وإنكار الحشر وإنكار قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، وعلى غيره من الحوادث.

المسألة الثالثة: ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يحتمل وجوهًا ثلاثة أحدها: الجمع بين الأمرين في الدنيا أي هم في الدنيا في ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون، وعلى هذا فقوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بيان حالهم في تلك الصورة وهو أقرب ثانيها: الجمع في الآخرة أي هم في ضلال الآخرة وسعر أيضًا. أما السعر فكونهم فيها ظاهر، وأما الضلال فلا يجدون إلى مقصدهم أو إلى ما يصلح مقصدًا وهم متحيرون سبيلاً، فإن قيل: الصحيح هو الوجه الأخير لا غير لأن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ظرف القول أي يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا، وسنبين ذلك فنقول: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ يحتمل أن يكون منصوبًا بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور، والاحتمال الأول له وجهان أحدهما: العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير أن ذلك صار نسيًا منسيًا ثانيهما: العامل متأخر وهو قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ تقديره: ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون، والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ [القمر: ٤٣]والاحتمال الثالث: أن المفهوم هو أن يقال لهم: يوم يسحبون ذوقوا، وهذا هو المشهور، وقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ﴾ استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الإدراكات فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضًا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضًا طعمه ولا يدركه غير اللسان، فإدراك اللسان أتم، فإذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته إن كان الحار أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته فإذن الذوق إدراك لمسي أتم من غيره في الملموسات فقال: ﴿ذُوقُواْ﴾ إشارة إلى أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات فيجتمع في العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم. وقد ذكرنا أن على قول الأكثرين يقال لهم أو نقول مضمر. وقد ذكرنا أنه لا حاجة إلى الإضمار إذا كان الخطاب مع غير من قيل في حقهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ فإنه يصير كأنه قال: ذوقوا أيها المكذبون بمحمد ﷺ مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون في النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾

وفيه مسائل:

الأولى: المشهور أن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ﴾ متعلق بما قبله كأنه قال: ذوقوا فإنا كل شيء خلقناه

بقدر، أي هو جزاء لمن أنكر ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] يدل على أن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ليس آخر الكلام. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد ذكر في الآية الأولى الخلق بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ﴾ فيكون من اللائق أن يذكر الأمر فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] وأما ما ذكر من الجدل فنقول النبي ﷺ تمسك عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [القمر: ٤٧] إلى قوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] وتلا آية أخرى على قصد التلاوة، ولم يقرأ الآية الأخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول في الاستدلالات: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ [النساء: ٢٩] الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] الآية: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية إلى غير ذلك.

المسألة الثانية: (كُلَّ) قرئ بالنصب وهو الأصح المشهور، وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩] وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾ [الإنسان: ٣١] وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ كأنه قال: إنا خلقنا كل شيء بقدر، وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشيء كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] غير أن هناك يمنع من أن يكون صفة كونه خاليًا عن ضمير عائد إلى الموصوف، وههنا لم يوجد ذلك المانع، وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لأن أفعالنا شيء فتكون داخلة في كل شيء فتكون مخلوقة لله تعالى، ومن قرأ بالرفع لم يمكنه أن يقول كما يقول في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] حيث قرئ بالرفع لأن كل شيء نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول: كل شيء خلقناه فهو بقدر، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] في المعنى، وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية في تفسيره وذكر أن المعتزلي يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال: القراءة الأولى وهو النصب له وجه آخر، وهو أن يقال: نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا، كأنه قال: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، أو قدرنا كل شيء خلقناه بقدر، وإنما قلنا: إنه معلوم لأن قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [غافر: ٦٢] دل عليه، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] دل على أنه قدر وحينئذ لا يكون في الآية دلالة على بطلان قول المعتزلي وإنما يدل على بطلان قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وأما على القراءة الثانية وهي الرفع، فنقول: جاز أن يكون كل شيء مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بأبلغ وجه، وقوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لأن قوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ عم الأشياء كلها بأسرها، فليس فيه المحذور الذي في قولنا: رجل قائم، لأنه لا يفيد فائدة ظاهرة، وقوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة، ولهذا جوزوا ما أحد خير منك لأنه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم.

المسألة الثالثة: ما معنى القدر؟ قلنا: فيه وجوه أحدها: المقدار كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وعلى هذا فكل شيء مقدر في ذاته وفي صفاته، أما المقدر في الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد، وأما الجوهر الفرد مالا مقدار له والقائم بالجوهر مالا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما، فنقول: ههنا مقادير لا بمعنى الامتداد، أما الجوهر الفرد فإن الاثنين منه أصغر من الثلاثة، ولولا أن حجمًا يزداد به الامتداد، وإلا لما حصل دون الامتداد فيه، وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية، فمقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية، وأما الصفة فلأن لكل شيء ابتدىء زمانًا فله مقدار في البقاء لكون كل شيء حادثًا، فإن قيل: الله تعالى وصف به، ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده، نقول: المتكلم إذا كان موصوفًا بصفة أو مسمى باسم، ثم ذكر الأشياء المسماة بذلك الاسم أو الأشياء الموصوفة بتلك الصفة، وأسند فعلاً من أفعاله إليه يخرج هو عنه، كما يقول القائل: رأيت جميع من في هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمني، ويقول ما في البيت أحد إلا وضربني أو ضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم، بل بما في التركيب من الدليل على خروجه عن الإرادة، فكذلك قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] يخرج عنه لا بطريق التخصيص، بل بطريق الحقيقة إذا قلنا: إن التركيب وضعي، فإن هذا التركيب لم يوضع حينئذ إلا لغير المتكلم ثانيها: القدر التقدير، قال الله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] وقال الشاعر:

وَقَدْ قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَا هُوَ قَادِرُ

أي قدر ما هو مقدر، وعلى هذا فالمعنى أن الله تعالى لم يخلق شيئًا من غير تقدير، كما يرمي الرامي السهم فيقع في موضع لم يكن قد قدره، بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة إنه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل، فالذي جاء قصيرًا أو صغيرًا فلاستعداد مادته، والذي جاء طويلاً أو كبيرًا فلاستعداد آخر، فقال تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ منا فالصغير جاز أن يكون كبيرًا، والكبير جاز خلقه صغيرًا ثالثها: ﴿بِقَدَرٍ﴾ هو ما يقال مع القضاء، يقال بقضاء الله وقدره، وقالت الفلاسفة في القدر الذي مع القضاء: إن ما يقصد إليه فقضاء وما يلزمه فقدر، فيقولون: خلق النار حارة بقضاء وهو مقضي به لأنها ينبغي أن تكون كذلك، لكن من لوازمها أنها إذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت في قصب صعلوك تخرقه، فهو بقدر لا بقضاء، وهو كلام فاسد، بل القضاء ما في العلم والقدر ما في الإرادة فقوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي بقدره مع إرادته، لا على ما يقولون إنه موجب ردًا على المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾

أي إلا كلمة واحدة، وهو قوله له: ﴿كُن﴾ [يس: ٨٢] هذا هو المشهور الظاهر، وعلى هذا فالله

إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن﴾ فهناك شيئان: الإرادة والقول، فالإرادة والقول، فالإرادة قدر، والقول قضاء، وقوله: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ يحتمل أمرين أحدهما: بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ الأمر ثانيهما: بيان عدم اختلاف الحال، فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النمل الصغير، فأمره عند الكل واحد وقوله: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ تشبيه الكون لا تشبيه الأمر، فكأنه قال: أمرنا واحدة، فإذن المأمور كائن كلمح بالبصر، لأنه لو كان راجعًا إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به، فإن كلمة ﴿كُن﴾ شيء أيضًا يوجد كلمح بالبصر هذا هو التفسير الظاهر المشهور، وفيه وجه ظاهر ذهب إليه الحكماء، وهي أن مقدورات الله تعالى هي الممكنات يوجدها بقدرته، وفي عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره، ثم إن الممكنات التي يوجدها الله تعالى قسمان أحدهما: أمور لها أجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها، كالإنسان والحيوان والأجسام النباتية والمعدنية وكذلك الأركان الأربعة، والسموات، وسائر الأجسام وسائر ما يقوم بالأجسام من الأعراض، فهي كلها مقدرة له وحوادث، فإن أجزاءها توجد أولاً، ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها، ففيها تقديرات نظرًا إلى الأجزاء والتركيب والأعراض وثانيهما: أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية، وهي الأرواح الشريفة المنورة للأجسام، وقد أثبتها جميع الفلاسفة إلا قليلاً منهم، ووافقهم جمع من المتكلمين، وقطع بها كثير ممن له قلب من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات، فتلك الأمور وجودها واحد ليس يوجد أولاً أجزاء، وثانيًا تتحقق تلك الأجزاء بخلاف الأجسام والأعراض القائمة بها، إذا عرفت هذا قالوا: الأجسام خلقية قدرية، والأرواح إبداعية أمرية، وقالوا إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالخلق في الأجسام والأمر في الأرواح ثم قالوا: لا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أنه على خلاف الأخبار فإنه ﷺ قال: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّه الْعَقْلُ**»[(١)]، وروى عنه عليه السلام أنه قال: «**خَلَقَ اللَّه الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَامِ بِأَلْفَيْ عَامٍ**»[(٢)] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فالخلق أطلق على إيجاد الأرواح والعقل لأن إطلاق الخلق على ما يطلق عليه الأمر جائز، وإن العالم بالكلية حادث وإطلاق الخلق بمعنى الإحداث جائز، وإن كان في حقيقة الخلق تقدير في أصل اللغة ولا كذلك في الإحداث، ولو لا الفرق بين العبارتين وإلا لاستقبح الفلسفي من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن المحدث قديم، فإذن قوله ﷺ خلق الله الأرواح بمعنى أحدثها بأمره، وفي هذا الإطلاق فائدة عظيمة وهي أنه ﷺ لو غير العبارة وقال في الأرواح أنها موجودة بالأمر والأجسام بالخلق لظن الذي لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بمحدثة فكان يضل

---

(١) موضوع: أورده الصاغاني في (الموضوعات) (١/ ٢) وقال: موضوع وأورده الحافظ في (الفتح) (٦/ ٢٨٩) وقال: ليس له طريق ثبت، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٦٣) وقال: قال الصاغاني: موضوع باتفاق.
(٢) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٢٨) وقال: ضعيف.

والنبي ﷺ بعث رحمة، وقالوا: إذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وإلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤] وإلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] تجد التفاوت بين الأمر والخلق والأرواح والأشباح حيث جعل لخلق بعض الأجسام زمانًا ممتدًا هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخيًا وترتيبًا بقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾ وبقوله: ﴿فَخَلَقْنَا﴾ ولم يجعل للروح ذلك، ثم قالوا: ينبغي أن لا يظن بقولنا هذا إن الأجسام لا بد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه، بل الله مختار إن أراد خلق السموات والأرض والإنسان والدواب والشجر والنبات في أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك، ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الأجزاء والتركيب فيها فهي ستة ثلاثة في ثلاثة كما يخلق الله الكسر والإنكسار في زمان واحد ولهما ترتيب عقلي. فالجسم إذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير وجودات كلها بإيجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بإيجاد الله تعالى هذا قولهم. ولنذكر ما في الخلق والأمر من الوجود المنقولة والمعقولة أحدها: ما ذكرنا أن الأمر هو كلمة: ﴿كُن﴾ والخلق هو ما بالقدرة والإرادة ثانيها: ما ذكروا في الأجسام أن منها الأرواح ثالثها: هو أن الله له قدرة بها الإيجاد وإرادة بها التخصيص، وذلك لأن المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالإرادة فالذي بقدرته خلق والذي بالإرادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول، أما المنقول فقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] جعل ﴿كُن﴾ لتعلق الإرادة، واعلم أن المراد من: ﴿كُن﴾ ليس هو الحرف والكلمة التي من الكاف والنون، لأن الحصول أسرع من كلمة كن إذا حملتها على حقيقة اللفظ فإن الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد إلا الترتيب ففي كن لفظ زمان والكون بعد بدليل قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالفاء فإذن لو كان المراد يكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك، فإن قال قائل: يمكن أن يوجد الحرفان معًا وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج إلى الزمان قلنا: قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ. وأما المعقول فلأن الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وإن كان بعض الناس ذهب إلى أن الخلق والإيجاد لحكمة وقال: بأن الله خلق الأرض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول: خلق الأرض في الزمان المخصوص لتكون مقرًا لهم لأنه لو خلقها في غير ذلك لكانت أيضًا مقرًا لهم فإذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذي يأمر ولا يقال له: لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر إلا منه رابعها: هو أن الأشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين، مثاله الجسم لا بد له بعد خلقه أن يكون متحيزًا ولا بد له من أن يكون ساكنًا أو متحركًا فإيجاده أولاً بخلقه وما هو عليه بأمره يدل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]إلى أن قال: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]فجعل مالها بعد خلقها من الحركة والسكون وغيرهما بأمره ويدل عليه قوله ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَقْلُ فَقَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ» (١) جعل الخلق في الحقيقة والأمر في الوصف، وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤]ثم قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ [السجدة: ٥] وقد ذكرنا تفسيره. خامسها: مخلوقات الله تعالى على قسمين أحدهما: خلقه الله تعالى في أسرع ما يكون كالعقل وغيره وثانيهما: خلقه بمهلة كالسموات والإنسان والحيوان والنبات، فالمخلوق سريعًا أطلق عليه الأمر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق، وهذا مثل الوجه الثاني سادسها: ما قاله فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]وهو أن الخلق هو التقدير والإيجاد بعده بعدية ترتيبية لا زمانية ففي علم الله تعالى أن السموات تكون سبع سموات في يومين تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو إيجاد فالأول خلق والثاني وهو الإيجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوي قال الشاعر:

وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاَ يَفْرِي (٢)

أي يقدر ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذي يقدر أولاً ويقطع ثانيًا وهو قريب إلى اللغة لكنه بعيد الاستعمال في القرآن، لأن الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الإيجاد منه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾ [العنكبوت: ٦١]ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] وليس المراد أنا قدرنا أنه سيوجد منها إلى غير ذلك سابعها: الخلق هو الإيجاد ابتداء والأمر هو ما به الإعادة فإن الله خلق الخلق أولاً بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم في أسرع من لحظة، فيكون قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩]وقوله: ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩]﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] إشارة إلى الوحدانية. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلى الحشر فكأنه بين الأصل الأول والأصل الآخر بالآيات ثامنها: الإيجاد خلق والإعدام أمر، يعني يقول للملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يقفون الامتثال على إعادة الأمر مرة أخرى فأمره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك.

وفيه لطيفة: وهي أن الله تعالى جعل الإيجاد الذي هو من الرحمة بيده، والإهلاك يسلط عليه رسله وملائكته، وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك، وهذا مناسب لهذا الموضع لأنه بين النعمة بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]وبيّن قدرته على النقمة فقال:

(١)تقدم.

(٢)هذا هو الشطر الثاني من البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل وهو هكذا:

فَلَأَنتَ تَفري ما خَلَقتَ وَبَعضُ القَومِ يَخلُقُ ثُمَّ لا يَفري

وهو للشاعر زهير بن أبي سلمى وقد تقدمت ترجمته.

﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ ﴾ . ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]وهو كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]عند العذاب، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا﴾ [هود: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]وكما ذكر في هذه الحكايات العذاب بلفظ الأمر وبيَّن الإهلاك به، كذلك هاهنا ولا سيما إذا نظرت إلى ما تقدم من الحكايات ووجدتها عين تلك الحكايات يقوي هذا القول، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٥١]يدل على صحة هذا القول. تاسعها: في معنى اللمح بالبصر وجهان: أحدهما: النظر بالعين، يقال: لمحته ببصري، كما يقال: نظرت إليه بعيني والباء حينئذٍ كما يذكر في الآيات، فيقال: كتبت بالقلم، واختار هذا المثال لأن النظر بالعين أسرع حركة توجد في الإنسان؛ لأن العين وُجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة: أحدها: قرب المحرك منها، فإن المحرك العصبية ومنبتها الدماغ، والعين في غاية القرب منه. ثانيها: صغر حجمها، فإنها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام. ثالثها: استدارة شكلها فإن دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث. رابعها: كونها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها، وهذه الحكمة في أن المرئيات في غاية الكثرة، بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التي تقصد بالأرجل والمذوقات، فلولا سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول زمان.

وثانيهما:اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعًا، والباء حينئذٍ للإلصاق لا للاستعانة، كقوله: مررت به، وذلك في غاية السرعة. وقوله: ﴿ بِٱلۡبَصَرِ﴾ فيه فائدة وهي غاية السرعة فإنه لو قال: كلمح البرق حين برق ويبتدئ حركته من مكان وينتهي إلى مكان آخر في أقل زمان يفرض، لصح، لكن مع هذا فالقدر الذي مروره يكون بالبصر أقل من الذي يكون من مبتداه إلى منتهاه، فقال: ﴿ كَلَمۡحِۭ﴾ لا كما قيل: من المبدأ إلى المنتهى، بل القدر الذي يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣﴾

ثم قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ والأشياع: الأشكال، وقد ذكرنا أن هذا يدل على أن قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [القمر: ٥٠]تهديد بالإهلاك، والثاني ظاهر.

وقوله تعالى:﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم، بل الإهلاك هو العاجل، والعذاب الآجل الذي هو معد لهم على ما فعلوه مكتوب عليهم، والزبر هي كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم: ﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩- ١١]و﴿ فَعَلُوهُ﴾ صفة شيء، والنكرة توصف بالجمل.

وقوله تعالى:﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ تعميم للحكم، أي ليست الكتابة مقتصرة على ما

فعلوه، بل ما فعله غيرهم أيضًا مسطور، فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة، وقد ذكرنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [سبأ: ٣] أن في قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ فائدة عظيمة وهي أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه في غالب الأمر لئلا ينسى، فإذا جاء بالجملة العظيمة التي يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتابة ما يخاف نسيانه، فلما قال: ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أشار إلى الأمور العظام التي يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة، أي ليست كتابتنا مثل كتابتكم التي يكون المقصود منها الأمن من النسيان، فكذلك نقول هاهنا وفي قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وفي جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة، فيبتدئ بها حفظًا عن النسيان في عادة الخلق فأجرى الله الذكر على عادتهم، وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل أن كلًّا وإن كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الإبهام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات في سور منها (والطور) وأما النهر ففيه قراءات: فتح النون والهاء كحَجَر وهو اسم جنس، ويقوم مقام الأنهار، وهذا هو الظاهر الأصح. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لا شك أن كمال اللذة بالبستان أن يكون الإنسان فيه، وليس من اللذة بالنهر أن يكون الإنسان فيه، بل لذته أن يكون في الجنة عند النهر، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَنَهَرٍ﴾؟ نقول: قد أجبنا عن هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥] في سورة الذاريات، وقلنا: المراد في خلال العيون، وفيما بينها من المكان، وكذلك في جنات لأن الجنة هي الأشجار التي تستر شعاع الشمس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]. وإذا كانت الجنة هي الأشجار الساترة، فالإنسان لا يكون في الأشجار وإنما يكون بينها أو خلالها، فكذلك النهر، ونزيد هاهنا وجهًا آخر: وهو أن المراد (في جنات وعند نهر) لكون المجاورة تحسن إطلاق اللفظ الذي لا يحسن إطلاقه عند عدم المجاورة، كما قال:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا(١)

وقالوا: تقلدت سيفًا ورمحًا. والماء لا يُعلف والرمح لا يُتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الإطلاق، فكذلك هنا لم يأت في الثاني بما أتى به في الأول من كلمة (في).

المسألة الثانية: وحَّد النهر مع جمع الجنات وجَمَع الأنهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] إلى غيره من المواضع، فما الحكمة فيه؟ نقول: أما

---

(١) هذا شطر الثاني من البيت للشاعر ذو الرمة والبيت هكذا:

لَمّا حَطَطتُ الرِحلَ عَنها وارِدا عَلَفتُها تِبنًا وَماءً بارِدا

وذو الرمة تقدمت ترجمته.

على الجواب الأول فنقول: لما بَيَّن أن معنى في نهر: في خلال. فلم يكن للسامع حاجة إلى سماع الأنهار؛ لعلمه بأن النهر الواحد لا يكون له خلال. وأما في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] فلو لم يجمع الأنهار لجاز أن يفهم أن في الجنات كلها نهرًا واحدًا، كما في الدنيا، فقد يكون نهر واحد ممتد جارٍ في جنات كثيرة. وأما على الثاني فنقول: الإنسان يكون في جنات لأنا بينا أن الجمع في (جنات) إشارة إلى سعتها وكثرة أشجارها وتنوعها، والتوحيد عندما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [محمد: ١٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها، وإذا علمت هذا فالإنسان في الدنيا إذا كان في بيت في دار، وتلك الدار في محلة، وتلك المحلة في مدينة، يقال: إنه في بلدة كذا، وأما القرب فإذا كان الإنسان في الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال: إنه جالس عند نهرين، فإذا قرب من أحدهما يقال: من عند أحد نهرين دون الآخر، لكن في دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار، وإنما يمكن أن يكون عند نهرين والثالث منه أبعد من النهرين، فهو في الحقيقة ليس يكون في زمان واحد عند أنهار، والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه في الدنيا، فقال: (عند نهر) لما بينا أن قوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ وإن كان يقتضي (في نهر) لكن ذلك للمجاورة كما في (تقلدت سيفًا ورمحًا)، وأما قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فحقيقته مفهومة عندنا لأن الجنة الواحدة قد يجري فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة، فهذا ما فيه مع أن أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ويحتمل أن يقال ﴿وَنَهَرٍ﴾ التنكير للتعظيم. وفي الجنة نهر وهو أعظم الأنهر وأحسنها، وهو الذي من الكوثر، ومن عين الرضوان، وكان الحصول عنده شرفًا وغبطة وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الأنهار تجري في الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها، فقال: ﴿فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي ذلك النهر الذي عنده مقاعد المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لكونه غير معلوم لهم، وفي هذا وجه حسن أيضًا، ولا يحتاج على الوجهين أن نقول: نهر في معنى الجمع لكونه اسم جنس.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿فِي﴾ وقال في الذاريات: ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥] فما الفرق بينهما؟ نقول: إنا إن قلنا: في (نهر) معناه (في خلال) فالإنسان يمكن أن يكون في الدنيا في خلال عيون كثيرة تحيط به إذا كان على موضع مرتفع من الأرض، والعيون تنفجر منه وتجري، فتصير أنهارًا عند الامتداد، ولا يمكن أن يكون وفي خلال أنهار وإنما هي نهران فحسب، وأما إن قلنا: إن المراد: (عند نهر) فكذلك وإن قلنا: مرأى عظيم عليه مقاعد، فنقول: يكون ذلك النهر ممتدًّا واصلًا إلى كل واحد، وله عنده مقاعد عيون كثيرة تابعة، فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه مع أن النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة، فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها، وهذا كله مع النظر إلى أواخر الآيات هاهنا وهناك، يحسن ذكر لفظ الواحد هاهنا والجمع هناك.

المسألة الرابعة: قرئ: (فِي جَنَّاتٍ وَنُهُرٍ) على أنها جمع نهار إذ لا ليل هناك، وعلى هذا

فكلمة (في) حقيقة فيه فقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ ظرف مكان، وقوله: (ونُهُر) أي: وفي نُهُر، إشارة إلى ظرف زمان، وقرئ (ونُهْر) بسكون الهاء وضم النون على أنه جمع نهر كأسْد في جمع أسد، نقله الزمخشري، ويحتمل أن يقال: نُهُر بضم الهاء جمع نَهَر كثُمُر في جمع ثَمَر.

قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، كيف مخرجه؟ نقول: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون على صورة بدل، كما يقول القائل: فلان في بلدة كذا، في دار كذا. وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعًا مختارًا له مزية على ما في الجنات من المواضع، وعلى هذا قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ لأنا بينا في أحد الوجوه أن المراد من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[القمر: ٥٤] في جنات عند نهر، فقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ ويحتمل أن يقال: ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ صفة مقعد صدق، تقول: درهم في ذمة مليء خير من دينار في ذمة معسر. وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن. فيكون صفة وإلا لما حسن جعله مبتدأ. ثانيهما: أن يكون: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ كالصفة لجنات ونهر، أي في جنات ونهر موصوفين بأنهما في مقعد صدق، تقول: وقفة في سبيل الله أفضل من كذا و﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ صفة بعد صفة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يدل على لبث لا يدل عليه المجلس، وذلك لأن قعد وجلس ليسا على ما يُظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما، بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع، والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء، ويدل عليه وجوه: **الأول:** هو أن الزمِن يسمى مُقعدًا ولا يسمى مجلسًا لطول المكث حقيقة، ومنه سمي قواعد البيت والقواعد من النساء: قواعد ولا يقال لهن: جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل، فذِكر القواعد في الموضعين لكونه مستقرًّا بيِّن الدوام والثبات على حالة واحدة، ويقال للمركوب من الإبل: (قعود) لدوام اقتعاده اقتضاء، وإن لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للإجلاس. **الثاني:** النظر إلى تقاليب الحروف، فإنك إذا نظرت إلى (ق ع د) وقلبتها تجد معنى المكث في الكل فإذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى، ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت، وإذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث في غاية الظهور وفي عدق لخفاء، يقال: أعدِق بيدك الدلو في البئر، إذا أمَره بطلبه بعد وقوعه فيها. والعودقة خشبة عليها كُلاب يخرج معه الدلو الواقع في البئر، وإذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق، والمكث في الدقع ظاهر والدقعاء هي التراب الملتصق بالأرض، والفقر المدقع هو الذي يلصق صاحبه بالتراب. وفي دعق أيضًا إذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صُلبًا أجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شيء منها عن موضعه. الوجه الثالث: الاستعمالات في القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[النساء: ٩٥] والمراد الذي لا

يكون بعده اتباع وقال تعالى: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران: ١٢١] مع أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤] فأشار إلى الثبات العظيم. وقال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾[الأنفال: ٤٥] فالمقاعد إذن هي المواضع التي يكون فيها المقاتل بثبات ومكث، وإطلاق مقعدة على العضو الذي عليه القعود أيضًا يدل عليه. إذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس والقعود حصل لك فوائد، منها هاهنا فإنه يدل على دوام المكث وطول اللبث، ومنها في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[ق: ١٧] فإن القعيد بمعنى الجليس والنديم. ثم إذا عرف هذا وقيل للمفسرين الظاهرين: فما الفائدة في اختيار لفظ القعيد يدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله: ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦] ﴿مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾[ق: ٢٣] وقوله: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود: ٥٩] يناسب القعيد لا الجليس وإعجاز القرآن ليس في السجع، وإذا نظرت إلى ما ذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية في وضع اللفظ المناسب؛ لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه، وهذا هو المعجز؛ وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعًا للفظ، والله تعالى بَيَّن الحكمة على ما ينبغي، وجاء باللفظ على أحسن ما ينبغي، وفائدة أخرى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾[المجادلة: ١١] فإن قوله: ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾ إشارة إلى الحركة، وقوله: ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ إشارة إلى ترك الجلوس، فذكر المجلس إشارة إلى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته، وليس بمقعد حتى لا يفارقونه.

المسألة الثالثة: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ وجهان: أحدهما: مقعد صدق، أي صالح، يقال: (رجل صدق) للصالح و(رجل سوء) للفاسد، وقد ذكرناه في سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[الفتح: ١٢]، وثانيهما: الصدق المراد منه ضد الكذب، وعلى هذا ففيه وجهان: الأول: مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله. الثاني: مقعد ناله مَن صَدَّق فقال بأن الله واحد وأن محمدًا رسوله، ويحتمل أن يقال: المراد أنه مقعد لا يوجد فيه كذب؛ لأن الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب، ومن وصل إليه امتنع عليه الكذب؛ لأن مظنة الكذب الجهل والواصل إليه يعلم الأشياء كما هي، ويستغني بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيئًا فهو مقعد صدق، وكلمة ﴿عِندَ﴾ قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان.

وقوله تعالى: ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارًا كان المتقرب منه أشد التذاذًا، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يقرب أحدًا إلا بفضله.

والحمد لله، وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه.

سورة القمر

مكيَّة كلُّها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاثَ آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [الآية: ٤٤] إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[١] [الآية: ٤٦] ولا يصحُّ على ما يأتي[٢]. وهي خمس وخمسون آيةً[٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ «اقْتَرَبَت»: أي: قربت، مثل ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] على ما بيَّنَّاه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنَّه قد مضى أكثرُ الدنيا، كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسولُ الله ﷺ وقد كادتِ الشمسُ تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلّا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً[٤]. وقال كعب ووهب: الدنيا ستَّة آلاف سنة. قال وهب: قد

---

(١) النكت والعيون ٥/٤٠٨ .

(٢) عند الآية (٤٥) من هذه السورة.

(٣) الوسيط ٤/٢٠٦ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٧/١٢١ ، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٤٤ بنحوه، قال ابن عدي: ولموسى بن خلف عن قتادة، عن أنس غير هذا يرويه عن موسى ابنه خلف وغير ابنه، ولا أرى بروايته بأساً.

وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٤ عن ابن عمر ﷺ بنحوه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: كُثَيِّر [من رجال الإسناد] ضعَّفه النسائي، ومشَّاه غيره.

مضى منها خمسة آلاف سنة، وستُّ مئة سنة. ذكره النحّاس.

ثم قال تعالى: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وقد انشقَّ القمر. وكذا قرأ حُذيفة: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ»[١] بزيادة «قد»، وعلى هذا الجمهور من العلماء، ثبت ذلك في «صحيح البخاري» وغيره من حديث ابن مسعود[٢] وابن عمر[٣] وأنس[٤] وجبير ابن مُطْعِم[٥] وابن عباس[٦] ﵁. وعن أنس قال: سأل أهلُ مكّة النبيَّ ﷺ آيةً، فانشقَّ القمر بمكّة مرّتين فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ» إلى قوله: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» يقول: ذاهب. قال أبو عيسى الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[٧].

ولفظ البخاريِّ[٨] عن أنس قال: انشقَّ القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر، أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأنَّ الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره[٩]. وكذا قال القشيريُّ. وذكر الماورديُّ[١٠]: أنَّ هذا قول الجمهور، وقال: لأنَّه إذا انشقَّ ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية، والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشقَّ القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وَضَح، قال:

أقيمُوا بَنِي أمّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فإنِّي إلى حَيٍّ سواكم لَأَمْيَلُ

(١) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٧ .

(٢) البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، وأحمد (٣٥٨٣).

(٣) مسلم (٢٨٠١).

(٤) البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢)، وأحمد (١٢٦٨٨).

(٥) الترمذي (٣٢٨٩)، وأحمد (١٦٧٥٠).

(٦) البخاري (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٣).

(٧) الترمذي (٣٢٨٦)، وهو عند أحمد (١٢٦٨٨)، ومسلم (٢٨٠٢)، ولم يرد ذكر الآيتين عند مسلم.

(٨) برقم (٤٨٦٨)، وهو عند مسلم (٢٨٠٢): (٤٧)، وأحمد (١٣٩١٨).

(٩) المفهم ٧/ ٤٠٥ وعزاه للحسن البصري.

(١٠) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٩ .

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ وشُدَّت لِطيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ[(١)]

وقيل: انشقاق القمر: هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يُسمَّى الصبح فَلَقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبَّر عن انفلاقه بانشقاقه، كما قال النابغة:

فلمَّا أدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ[(٢)]

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أنَّ القمر انشقَّ بمكَّة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنَّها كانت آيةً ليليَّة، وأنَّها كانت باستدعاء النبيِّ ﷺ من الله تعالى عند التحدِّي[(٣)]. فروي أنَّ حمزة بن عبد المطلب ـ حين أسلم غضباً من سبِّ أبي جهلٍ الرسولَ ﷺ ـ طلب أن يُريَه آيةً يزداد بها يقيناً في إيمانه[(٤)]. وقد تقدَّم في «الصحيح» أنَّ أهل مكَّة هم الذين سألوا وطلبوا أن يُريَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره.

وعن حذيفة أنَّه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إنَّ الساعة قد اقتربت، وإنَّ القمر قد انشقَّ على عهد نبيِّكم ﷺ[(٥)].

وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره: انشقَّ القمر واقتربت الساعة، قاله ابن كيسان. وقد مرَّ عن الفرَّاء أنَّ الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى، فلك أن تقدِّم وتؤخِّر، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ هذا يدلُّ على أنَّهم رأوا انشقاق القمر[(٧)].

---

(١) القائل الشنفرى الأزدي، وهو في ذيل أمالي القالي ص٢٠٣، وخزانة الأدب ٣/ ٤٣٠، وقوله: أقيموا بني أمِّي... إلخ، يقال: أقام صدر مطيَّته: إذا جدَّ في السير، يؤذن قومه بالرحيل. وقوله: حمَّت الحاجات... إلخ، يريد: تنبَّهوا من رقدتكم فهذا وقت الحاجة. والطِّيَّة: النيَّة. الخزانة ٣/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩، ونسبه للنابغة الجعدي، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٤.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٥٢٨٥)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٥، و١٣/ ٣٧٨، والطبري ٢٢/ ١٠٧ - ١٠٨، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧٠٦) و(٧٠٧) عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٦) الآية (٨) من سورة النجم، وسلفت ص١٦ من هذا الجزء.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٧.

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنتَ صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنون»؟ قالوا: نعم؟ وكانت ليلةَ بدر، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يعطيَه ما قالوا، فانشقَّ القمر فرقتين، ورسولُ الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان اشهدوا»[(١)].

وفي حديث ابن مسعود: انشقَّ القمر على عهد رسولِ الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبي كبشة، سَحَرَكم فاسألوا السُّفَّار. فسَألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشقَّ، فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا»[(٢)]. أي: إن يروا آيةً على صِدْقِ محمَّد ﷺ أعرضوا عن الإيمان[(٣)].

﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، من قولهم: مَرَّ الشيءُ واستمرَّ: إذا ذهب[(٤)]، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة[(٥)]، واختاره النحَّاس. وقال أبو العالية والضحَّاك: محكَم قويٌّ شديد[(٦)]. وهو من المِرَّة: وهي القوَّة[(٧)]، كما قال لقيط:

حتى استمرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ ... مُرُّ العَزِيمَةِ لَا رتّاً[(٨)] ولا ضَرَعا

(١) زاد المسير ٨/ ٢٨٧ ، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠٩) بتمامه، وضعَّفه ابن حجر في فتح الباري ٧/ ١٨٣ . وأخرجه أيضاً الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤-٨٥ عن ابن زيد مختصراً. وأبو قبيس وقعيقعان: جبلان بمكة. معجم البلدان ١/ ٨٠ و ٤/ ٣٧٩ .

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٩٥)، والطبري ٢٢/ ١٠٦ - ١٠٧ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢١١).

(٣) الوسيط ٤/ ٢٠٧ .

(٤) الصحاح (مرر).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ عن أنس وأبي عبيدة، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ عن قتادة ومجاهد والكسائي، وأما قول الفراء فهو في معاني القرآن له ٣/ ١٠٤ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٥ ، وأخرجه عنه ـ وعن قتادة أيضاً ـ الطبري ٢٢/ ١١٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٨ ، وزاد المسير ٨/ ٨٩ .

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) في (م): لا قحماً. وكذا جاءت الرواية في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٥٠ ، والقحم: الكبير المسنّ. اللسان (قحم)، والبيت سلف ص١٣ من هذا الجزء.

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدَّة فَتْله[١].

وقيل: معناه: مُرٌّ من المرَارة. يقال: أَمَرَّ الشيءُ: صار مُرّاً، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارةً، فهو مُرٌّ، وأَمَرَّه غيرُه ومرَّرَه[٢]. وقال الربيع: مستمرٌّ: نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل.

وقيل: دائم. قال:

وليس على شيء قويم بمُسْتمِرّ[٣]

أي: بدائم. وقيل: يُشبِه بعضه بعضاً[٤]، أي: قد استمرَّت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة، بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه: قد مرَّ من الأرض إلى السماء[٥].

﴿وَكَذَّبُوا﴾ نبيَّنا ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ضلالاتهم واختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي: يستقرُّ بكلِّ عامل عمله، فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنة، والشَّرُّ مستقرٌّ بأهله في النار[٦].

وقرأ شيبة: «مُسْتَقَر» بفتح القاف[٧]، أي: لكلِّ شيء وقت يقع فيه من غير تقدُّم وتأُخُّر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقاع: «وَكُلُّ أَمْرٍ مسْتَقِرٍّ» بكسر القاف والراء[٨]، جعله نعتاً لـ «أمرٍ»، و «كُلُّ» على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء، والخبر

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٢) الصحاح (مرر)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٠٩، وصدره:

ألا إنَّما الدنيا ليالٍ وأَعْصُرٌ

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى مجاهد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١١٤- ١١٥ .

(٧) الكشاف ٤/ ٣٦ ولم يعزها، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ إلى نافع وابن نصاح.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٨٠ .

محذوف، كأنَّه قال: وكلُّ أمر مستقر في أمِّ الكتاب كائن[(١)]. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة، المعنى: اقتربت الساعة وكلُّ أمرٍ مستقر[(٢)]، أي: اقترب استقرار الأمور يوم القيامة[(٣)]. ومن رفعَه جعله خبراً عن «كلّ».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من بعض الأنباء، فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنَّهم يحتاجون إليه، وأنَّ لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنَّما اقتصَّ علينا ما عَلِمَ أنَّ بنا إليه حاجة، وسكت عمَّا سوى ذلك، وذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ» أي: جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية[(٤)] ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه[(٥)]. وأصله: مُزْتَجَر، فقلبت التاء دالاً؛ لأنَّ التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج، وتوافق الزاي في الجهر[(٦)]. و «مُزْدجَر» من الزجر: وهو الانتهاء[(٧)]، يقال: زَجَره وازدَجَره، فانزجَر وازدَجَر[(٨)]، وزجرته أنا فانزجر، أي: كففته فكفَّ، كما قال:

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا ... تُ مُزْدَجَراً عن هواه ازدجارا[(٩)]

وقرئ: «مُزَّجَرٌ» بقلب تاء الافتعال زاياً، وإدغام الزايِّ فيها، حكاه الزمخشريُّ[(١٠)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٦ .
(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٣) المحتسب ٢/ ٢٩٧ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٣ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ .
(٨) الصحاح (زجر).
(٩) القائل الأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص٩٥ بنحوه.
(١٠) في الكشاف ٤/ ٣٦ .

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ يعني: القرآن[١]، وهو بدل من «ما» من قوله: «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ». ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، أي: هو حكمة[٢].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إذا كذَّبوا وخالفوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] [يونس: ١٠١] ف «مَا» نفي، أي: ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، أي: فأيُّ شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها[٤]. و«النُّذُرُ» يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير[٥].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم[٦]. قيل: هذا منسوخ بآية السيف[٧]. وقيل: هو تمام الكلام.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ»، أو «خُشَّعاً»[٨]، أو فعل مضمر تقديره: واذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولَّ عنهم فإنَّ لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمَّد، فقد أقمت الحجَّة، وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنَّهم يدعون ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان: إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي: وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي.

وقرأ ابن كثير: «نُكْرٍ» بإسكان الكاف[٩]، وضمَّها الباقون، وهما لغتان، كعُسْر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٧) زاد المسير ٨/ ٩٠ .

(٨) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٨ .

(٩) السبعة ص٦١٧ ، والتيسير ص٢٠٥ .

وعُسُر، وشُغْل وشُغُل[(١)]، ومعناه: الأمر الفظيع العظيم، وهو يوم القيامة[(٢)]. والداعي هو: إسرافيل عليه السلام[(٣)]. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنَّهما قرأا: «إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول[(٤)].

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ الخشوع في البصر: الخضوع والذِّلَّة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأنَّ أثر العزِّ والذُّل يتبيَّن في ناظر الإنسان[(٥)]، قال الله تعالى: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٩] وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. ويقال: خَشَع واختَشَع: إذا ذلَّ. وخَشَع ببصره، أي: غضَّه[(٦)].

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «خَاشِعاً» بالألف[(٧)]، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدَّمت على الجماعة التوحيدُ، نحو: «خَاشِعاً أَبْصَارُهُم» والتأنيث نحو: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ»[(٨)] ويجوز الجمع نحو: «خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ» قال:

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ   مِنْ إِيادِ بنِ نِزارِ بنِ مَعَد[(٩)]

و «خُشَّعاً» جمع خاشع، والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في «عَنْهُمْ» فيقبح الوقف على هذا التقدير على «عَنْهُمْ». ويجوز أن يكون حالاً من المضمر في

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٨ ، ونسباه إلى مجاهد والجحدري وأبي قلابة. وينظر البحر المحيط ٨/ ١٧٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٦) الصحاح (خشي).

(٧) السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص٢٠٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٦ ، وما بعده منه، و«خاشعة» قراءة أُبيٍّ وابن مسعود. القراءات الشاذة ص١٤٧ .

(٩) القائل: أبو دؤاد الإيادي، وهو في ديوانه ص٣٠٥ .

«يَخْرُجُونَ» فيوقف على «عَنْهُمْ»[١]. وقُرِئَ: «خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ» على الابتداء والخبر، ومحلُّ الجملة النصب على الحال، كقوله:

حَاضِرَاه الجُودُ والْكَرَمُ[٢]

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، واحدها: جَدَث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] صفتان في وقتين مختلفين، أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجَّهون، فيدخل بعضُهم في بعض، فهم حينئذٍ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها. فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأنَّ الجراد له وجه يقصدها[٣].

و«مُهْطِعِينَ» معناه: مسرعين، قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ ولقد أراهم بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ[٤]

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت[٥]. والمعنى متقارب.

يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً: إذا أَقبل على الشيء ببصره لا يُقلِع عنه، وأهطع: إذا مدَّ عنقه وصوَّب رأسه. قال الشاعر:

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/٦٩٨، وذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩١٣ أن الوقف على «فتولَّى عنهم»: وقف غير تامٍّ.

(٢) الكشاف ٤/٣٦، والقراءة في البحر المحيط ٨/١٧٦، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٣٩، وروايته هكذا:

إذا أتيتَ أبا مروان تسأله وجدتَه حاضراه الجود والحَسَبُ

(٣) المحرر الوجيز ٥/٢١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/٤١١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/٢٤٠، والبيت ليزيد بن مفرِّغ. وسلف ١٢/١٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/٤١١.

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أرَى وَنِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبُ خِلْقَةً. وأهطع في عَدْوه، أي: أسرَع[١].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني: يوم القيامة؛ لما ينالهم فيه من الشِّدَّة[٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية؛ تأنيساً للنبيِّ ﷺ، وتعزيةً له. «قَبْلَهُمْ» أي: قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ يعني: نوحاً[٣].

الزَّمخشَري[٤]: فإن قلتَ: ما معنى قوله: «فَكَذَّبُوا» بعد قوله: «كَذَّبَتْ»؟ قلت: معناه: كَذَّبوا فكَذَّبوا عبدنا، أي: كذَّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذِّب، أو كذَّبت قومُ نوح الرسلَ فكذَّبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً، كذَّبوا نوحاً؛ لأنَّه من جملة الرسل.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجر عن دعوى النبوَّة بالسبِّ والوعيد بالقتل[٥]. وقيل: إنَّما قال: «وَازْدُجِرَ» بلفظ ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنَّه رأس آية.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعا عليهم حينئذٍ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي: غلبوني

---

(١) الصحاح (هطع)، والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٧، ولم ينسبه، ولم نقف على قائله.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١١.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

بتمرُّدهم ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ أي: فانتصر لي[١]. وقيل: إنَّ الأنبياء كانوا لا يَدْعُون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ لهم فيه.

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فأجبنا دعاءَه، وأمرناه باتخاذ السفينة، وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: كثير، قاله السُّدِّيُّ. قال الشاعر:

أعينيَّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوَامرِ ... على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ[٢]

وقيل: إنَّه المنصبُّ المتدفِّق. ومنه قول امرئ القيس يصف غَيثاً:

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم انْتَحَى ... فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ[٣]

الهَمْر: الصَّبُّ. وقد هَمَر الماءُ والدَّمْعُ يَهْمِرُ هَمْراً. وهَمَر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله، أي: أعطاه[٤]. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً[٥].

وقرأ ابن عامر ويعقوب: «فَفَتَّحْنَا» مشدَّدة على التكثير. الباقون: «فَفَتَحْنَا» مخفَّفاً[٦]. ثم قيل: إنَّه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنَّه المجرة، وهي شَرَج السماء، ومنها فتحت بماء منهمر، قاله عليٌّ ﷺ[٧].

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تُخرِج

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٢ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٥ ، قال شارحه: راح: يعني السحاب. وتمريه: تحركه وتديره. والصبا: أحمد الرياح عند العرب وأجلبها للخير. والشؤبوب: دفعة المطر وشدته.

(٤) الصحاح (همر) دون قوله: وهمر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. فهو من تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩ .

(٥) عرائس المجالس ص٥٨ بنحوه، وما بين حاصرتين لم يرد في النسخ الخطية.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩ ، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص١٠٢ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤١٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٠ (١٨٧٠٤) والشَّرَج: العُروة. الصحاح (شرج).

ماءَها، فتفجَّرت بالعيون، وإنَّ عيناً تأخَّرت، فغضب عليها فجعل ماءها مُرّاً أُجاجاً إلى يوم القيامة.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، حكاه ابن قتيبة[١]. أي: كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: «قُدِرَ» بمعنى: قُضي عليهم. قال قتادة: قدّر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا.

وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القَدَر قبل البلاء، وتلا هذه الآية[٢]. وقال: «الْتَقَى الْمَاءُ» والالتقاء إنَّما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأنَّ الماء يكون جمعاً وواحداً[٣]. وقيل: لأنَّهما لما اجتمعا صارا ماء واحداً[٤].

وقرأ الجَحْدريُّ: «فَالْتَقَى الْمَاءَانِ». وقرأ الحسن: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ»[٥]. وهما خلاف المرسوم. القُشيريُّ: وفي بعض المصاحف: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهي لغة طيِّء. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج، وماء الأرض حارّاً مثل الحميم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي: على سفينة ذات ألواحٍ[٦]. ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني: المسامير التي دُسِرت بها السفينة، أي: شُدَّت، وقاله القُرَظِيُّ وابن زيد وابن جبير[٧]، ورواه الوالبيُّ عن ابن عباس[٨]. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وما بعده منه، وكلام ابن قتيبة في غريب القرآن له ص٤٣٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٢٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٨.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ عدا قول ابن جبير فنسبه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٨) زاد المسير ٨/ ٩٣.

هي صدر السفينة التي يضرب بها المَوْج، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تَدْسُر الماء، أي: تدفعه[(١)]. والدَّسْرُ: الدَّفع[(٢)] والمَخْر. ورواه العَوْفيُّ عن ابن عباس قال: الدَّسْر: كَلْكَل السفينة[(٣)].

وقال الليث: الدِّسار: خيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة. وفي «الصحاح»[(٤)]: الدِّسار واحد الدُّسُر: وهي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة. يقال: هي المسامير، وقال تعالى: «عَلَى ذَاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ». ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر: الدفع، قال ابن عباس في العنبر: إنَّما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً، أي: يدفعه. ودَسَر بالرمح، ورجل مِدْسَر.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منَّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منَّا وكِلَاءة، وقد مضى في «هود»[(٥)]. ومنه قول الناس للمودَّع: عينُ اللهِ عليك، أي: حفظه وكِلاءته.[(٦)] وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي: بالأعين النابعة من الأرض[(٧)]. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكَّلين بحفظها[(٨)]، وكلُّ ما خلَق اللهُ تعالى يمكن أن يُضاف إليه. وقيل: أي: تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تَعُدْه[(٩)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ وعزاه للحسن، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٤١٢ وعزاه لعكرمة.

(٢) الصحاح (دسر).

(٣) زاد المسير ٨/ ٩٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٥ .

(٤) (دسر)، وقول ابن عباس علَّقه البخاري قبل حديث (١٤٩٨)، ووصله البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٤٦ .

(٥) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠ . ومذهب السلف إثبات العين لله تعالى بلا تشبه ولا تأويل ولا تمثيل على ما يليق به سبحانه وتعالى.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٣ على أن الصواب إثبات العين لله عز وجل على ما يليق بجلاله .

(٩) لم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد قوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة: «مرضتُ فلم تَعُدْني..» وسلف ٢/ ٤٣٨ .

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جعلنا ذلك ثواباً وجزاءً لنوح على صبره على أذى قومه، وهو المكفور به، فاللام في «لِمَنْ» لام المفعول له[١]. وقيل: «كُفِرَ» أي: جحد، فـ«من» كناية عن نوح[٢]. وقيل: كناية عن الله، والجزاء بمعنى العقاب، أي: عقاباً لكفرهم بالله تعالى[٣].

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد: «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ» بفتح الكاف والفاء[٤]، بمعنى: كان الغَرَق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله[٥].

وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق، كان الماء إلى حُجْزته، وسبب نجاته أنَّ نوحاً احتاج إلى خشبة السَّاج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجُ تلك الخشبة إليه من الشام، فشكر الله له ذلك، ونَجَّاه من الغرق[٦].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾ يريد هذه الفعلة عِبْرة[٧]. وقيل: أراد السفينة[٨]، تركها آيةً لمن بعد قوم نوح، يعتبرون بها فلا يكذِّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بَباقِرْدَى من أرض الجزية عبرةً وآيةً، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمَّة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً[٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٨.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٧.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥ دون ذكر مجاهد وحميد، والقراءة عن يزيد وقتادة في القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٨.
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٦، والسَّاجُ: خشب يجلب من الهند، واحدته: ساجة. اللسان (سوج). والخبر من الإسرائيليات التالفة كما أشرنا إليه ٧/ ٣٩٦ - ٣٩٨.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨.
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١.
(٩) النكت والعيون ٥/ ٤١٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٨، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٠ (١٨٧٠٩)، وباقِرْدَى: موضع بالجزيرة يقع شرقي دجلة، بالقرب من جبل الجودي. معجم ما استعجم ١/ ٢٢٢، ومعجم البلدان ١/ ٤٦٦، ٤٧٦.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظ خائف[١]، وأصله مُذْتَكِر ـ مُفْتَعِل ـ من الذِّكْر، فثقلت على الألسنة، فقلبت التاء دالاً؛ لتوافق الذال في الجهر، وأدغمت الدال فيها[٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: إنذاري، قال الفرَّاء: الإنذار والنذر مصدران[٣]. وقيل: «نُذُر» جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار[٤].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للحفظ، وأعنَّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه، فيُعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيَّأناه للذِّكْر، مِن يَسَّر ناقته للسَّفَر: إذا رَحَلها، ويَسَّر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه، قال:

وقُـمْـتُ إلـيـهِ بـالـلِّـجـامِ مُـيَـسِّـراً هُنَالكَ يَجْزِيني الذي كنتُ أَصْنَعُ[٥]

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتابٌ يقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن[٦]. وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعُزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتُتنوا بعُزير لما كَتب لهم التوراة عن ظهر قلب حين أُحرقت، على ما تقدَّم بيانه في سورة «براءة»[٧] فيسَّر الله تعالى على هذه الأمَّة حِفْظَ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي: يفتعلوا الذِّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قارئ يقرؤه. وقال أبو بكر الورَّاق وابن شَوْذب: فهل من طالب

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٢) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .

(٣) ونقله عنه البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٣٨ ، والبيت للأعرج عدي بن عمرو الطائي المعنى، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٥١ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ ، والوسيط ٤/ ٢٠٩ .

(٧) ١٠/ ١٧٣ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨ .

خير وعِلْم فيُعانَ عليه(١)، وكرِّر في هذه السورة؛ للتنبيه والإفهام. وقيل: إنَّ الله تعالى اقتصَّ في هذه السورة على هذه الأمَّة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأُمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كلِّ قصة ونبأ ذِكْرٌ للمستمع أن لو ادَّكر، وإنَّما كرَّر هذه الآية عند ذِكْر كلِّ قصة بقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» لأنَّ «هَلْ» كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم، وجعلها حجَّة عليهم، فاللام من «هَلْ» للاستعراض، والهاء للاستخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود .﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقعت «نُذُر» في هذه السورة في ستَّة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: «فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ» [الآية: ٥] والواو من قوله: «يَدْعُ». فأمَّا الياء من «الدَّاعِ» الأول فأثبتها في الحالين ابنُ مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزِّيُّ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأما «الدَّاعِ» الثانية فأثبتها يعقوب وابنُ مُحَيْصن وابنُ كثير في الحالين، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون(٢).

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة البرد، قاله قتادة والضحَّاك(٣). وقيل: شديدة الصوت(٤). وقد مضى في «حم» السجدة(٥).

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٧)، والطبري ٢٢/ ١٣٢ ، و وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٦ من طريق ابن شوذب، عن مطر الوراق، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ونسبه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٣١ .

(٢) السبعة ص٦١٧ - ٦١٨ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والنشر ٢/ ١٣٨ ، ١٤١ ، ٣٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٤ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٣٣ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢ .

(٥) عند الآية (١٦).

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: في يوم كان مشؤماً عليهم. وقال ابن عباس: أي: في يوم كانوا يتشاءمون به[١]. الزجّاج[٢]: قيل: في يوم أربعاء. ابن عباس: كان آخِرَ أربعاء في الشهر، أفنى صغيرهم وكبيرهم.

وقرأ هارون الأعور: «نَحِس» بكسر الحاء[٣]، وقد مضى القول فيه في «حم» السجدة: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [الآية:١٦].

و«فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ» أي: دائم الشؤم، استمرَّ عليهم بنحوسه[٤]، واستمرَّ فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: استمرَّ بهم إلى نار جهنَّم[٥]. وقال الضحَّاك: كان مُرًّا عليهم[٦]. وكذا حكى الكسائي أنَّ قوماً قالوا: هو من المرَارة، يقال: مُرَّ الشيء وأمرَّ[٧]، أي: كان كالشيء المرِّ تكرهه النفوس. وقد قال: «فَذُوقُوا» والذي يُذاق قد يكون مُرّاً. وقد قيل: هو من المِرَّة، بمعنى القوَّة[٨]. أي: في يوم نحس مستمرٍّ مستحكم الشؤم، كالشيء المحكم الفتل الذي لا يُطاق نقضه.

فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يومَ نحس مستمرٍّ، فكيف يُستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أنَّ النبيَّ ﷺ استجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصرِ. وقد مضى في «البقرة»[٩] حديث جابر بذلك؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أتاني جبريل فقال: إنَّ الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد،

---

(١) الوسيط ٤/ ٢١٠ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩ .

(٣) لم نقف عليها.

(٤) زاد المسير ٨/ ٩٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٣٥ عن قتادة.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦ .

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) تهذيب اللغة ١٥/ ١٩٦ .

(٩) ٣/ ١٨٤ .

وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»[١]. ومعلوم أنَّه لم يرد بذلك أنَّه نحس على الصالحين[٢]، بل أراد أنَّه نحس على الفجَّار والمفسدين، كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن، نحسات على الكفار من قوم عادٍ لا على نبيِّهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوَّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أَدبر النهار ولم يحدث رجعة[٣]، استُجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم، ودعاء النبيِّ ﷺ إنَّما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه[٤]: لم ينزل بي أمر غليظ؛ إشارة إلى هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح، أي: تَقْلَعهم من مواضعهم[٥].

قيل: قلعتهم من تحت أَقدامهم اقتلاعَ النخلة من أصلها[٦]. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقُّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن

(١) لم نقف عليه من رواية مسروق، وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٢٣٨ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسلاً، وابن حبان في المجروحين ١/ ١٠٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٧٠ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. قال ابن حبان: إبراهيم بن أبي حية يروي عن جعفر وهشام مناكير.

وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٨٣ من طريق عيسى بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي موقوفاً. وعيسى بن عبد الله هو: عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، الكوفي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٢١ : يروي عن أبيه، عن آبائه أشياء موضوعة.

(٢) في (د) و(ف) و(م): المصلحين، والمثبت من (ظ) و(ك)، والمنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٥٣٦ والكلام منه.

(٣) في المنهاج: ولم تحدث رجفة.

(٤) السالف ٣/ ١٨٤ ، والذي أشار إليه القرطبي آنفاً.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠ .

أجسادهم[١]. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه: قال النبيُّ ﷺ: «انتزعت الريحُ الناسَ من قبورهم»[٢]. وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها، فكانت الريح تَنزعُهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنَّها أصول نخل قد هلك ما كان فيها، فتبقى مواضعها منقعرة[٣].

ويروى أنَّ سبعةً منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال ابن إسحاق: لما هاجت الريح قام نفرٌ سبعة من عادٍ سُمِّي لنا منهم ستَّةٌ من أَيِّد[٤] عادٍ وأجسمِها، منهم عمرو بن الحليِّ، والحارث بن شداد، والهِلْقام، وابنا تِقْن[٥]، وخَلجَان بن سعد، فأَوْلجوا العيالَ في شِعْب بين جبلين، ثم اصطفُّوا على باب الشِّعب ليردُّوا الريح عمَّن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[٦] رجلاً رجلاً، فقالت امرأة من عادٍ:

ذهـبَ الـدهـرُ بـعـمـرِو بـــ نِ حـلـيٍّ والـهـنِـيَّـاتِ
ثــم بـالـحـارث والـهِـلْــ قـامِ طَـلَّاعِ الـثـنِـيَّـاتِ
والـــذي ســدَّ مـهـبَّ الـر يـح أيَّـامَ الـبـلِـيَّـاتِ

الطبريُّ[٧]: في الكلام حذف، والمعنى: تنزع الناس فتتركهم كأنَّهم أعجاز نخل منقعِر، فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزَّجاج[٨]: الكاف في موضع نصب

(١) المحرر الوجيز ٥/٢١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ دون عزوٍ، ولم نقف عليه عند غيره.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٢١٦ .

(٤) في (م): أشد. والمثبت من النسخ والطبري ٢٢/ ١٣٥ ، والكلام منه، والأبيات الآتية منه أيضاً، والأيِّد: القوي. التاج (أيد).

(٥) في الطبري: تيقن.

(٦) جعفه: صَرَعه، وضرب به الأرض. اللسان (جعف).

(٧) في التفسير ٢٢/١٣٨ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٩ .

(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩ .

على الحال، والمعنى: تنزع الناس مشبَّهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل: إنَّه للحُفَر التي كانوا فيها[١].

والأعجاز جمع عَجُز: وهو مؤخَّر الشيء[٢]. وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل انكبَّت لوجوهها. وقال: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» للفظ النخل، وهو من الجمع الذي يذكَّر ويؤنَّث[٣]. والمنقعر: المنقلع من أصله، قعرتُ الشجرةَ قعراً: قلعتُها من أصلها فانقعرت. الكسائي: قعرتُ البئرَ، أي: نزلتُ حتى انتهيتُ إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره. وأقعرتُ البئرَ: جعلتُ لها قعراً[٤].

وقال أبو بكر بنُ الأنباري: سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] فقال: كلُّ ما وَرَدَ عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إنَّ النخل والنخيل بمعنًى يذكَّر ويؤنَّث كما ذكرنا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هم قوم صالح كذَّبوا الرسل ونبيَّهم، أو كذَّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ ونَدَعُ جماعةً[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٢ .
(٢) الصحاح (عجز).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩١ .
(٤) الصحاح (قعر).
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٣٩ .

وقرأ أبو الأشهب وابن السَّمَيْفَع وأبو السَّمَّال العدويُّ: «أَبَشَرٌ» بالرفع «وَاحِدٌ» كذلك رفع بالابتداء، والخبر: «نَتَّبِعُهُ». الباقون بالنصب على معنى: أنتَّبع بشراً منَّا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَبَشَرٌ» بالرفع «مِنَّا واحِداً» بالنصب، رفع «أَبَشَرٌ» بإضمار فعل يدلُّ عليه «أَؤُلْقِيَ» كأنَّه قال: أينبَّأ بشرٌ منَّا، وقوله: «وَاحِداً» يجوز أن يكون حالاً من المضمر في «مِنَّا» والناصب له الظرف، والتقدير: أينبَّأ بشرٌ كائن منَّا منفرداً، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «نَتَّبِعُهُ» منفرداً لا ناصر له[(١)].

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب عن الصواب[(٢)] ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، من قولهم: ناقة مسعورة[(٣)]، أي: كأنَّها من شدَّة نشاطها مجنونة[(٤)]، ذكره ابن عباس[(٥)]. قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ[(٦)] هَزَّهَا ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ[(٧)]

وقال ابن عباس أيضاً: السُّعر: العذاب[(٨)]، وقاله الفراء[(٩)]. مجاهد: بعد من

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣، والكشاف ٤/ ٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ١٣٩.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٩.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.

(٥) الوسيط ٤/ ٢١١، وزاد المسير ٨/ ٩٦.

(٦) في (د)، و(ظ): العيس، وفي (ف): الشعر، والمثبت من (ك) و (م).

(٧) أورده الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٩ وروايته:

كأن بها سعراً إذا العيس هزَّها ذميل وإرخاء من السير متعب

وجاء بهامش (ك) وبعد البيت في (م): «الذميل: ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التزيُّد، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرسيمُ، يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذَمِيلاً. قال الأصمعي: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْريٌّ. قاله الجوهري». اهـ. الصحاح (ذمل).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١.

(٩) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٨.

الحقِّ[١]. السديُّ: في احتراق[٢]. قال:

أصحوتَ اليومَ أمْ شاقَتْكَ هِرّ ومِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ[٣]

أي: متَّقد ومحترق. أبو عبيدة[٤]: هو جمع سعير، وهو لهيب النار. والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهَّب به من الحدَّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: خُصِّصَ بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار[٥]. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: ليس كما يدَّعيه، وإنَّما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبُّر علينا من غير استحقاق. والأَشَر: المَرَح والتَجبُّر[٦] والنَّشاط[٧]. يقال: فرس أَشِر، إذا كان مرحاً نشيطاً، قال امرؤ القيس يصف كلباً:

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ سمِيعٌ بصِيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ

أَلَصُّ الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ[٨]

وقيل: «أَشِرٌ» بَطِر. والأَشَر: البَطَر، قال الشاعر:

---

(١) في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٧: السعر: الضلال أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، وفيه: الافتراق، بدل: الاحتراق.

(٣) القائل طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٥٠.

(٤) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٠ بنحوه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١.

(٨) ديوان امرئ القيس ص١٦٠ - ١٦١، وفيه: أريب، بدل: طلوب، قال شارحه: الفَغِم: المولع بالشيء الحريص عليه. وداجن: آلف، قد عاود الصيد غير مرَّة. وألصُّ الضروس: ملتصقة بعضها إلى بعض. وحنيُّ الضلوع: ضلوعه منحنية معطوفة.

أَشِـرْتُـمْ بِـلُـبْس الـخَـزِّ لـمّـا لَـبِـسْـتُـمُ ومِن قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ الْقُرَى[١]

وقد أَشِرَ بالكسر يأشَر أَشَراً، فهو أَشِر وأَشْرانُ، وقوم أُشَارى مثل سَكْران وسُكَارى، قال الشاعر:

وخَـلَّـت وُعُـولاً أُشَـارَى بـهـا وقـد أَزْهَـفَ الـطَّـعْـنُ أبـطـالَـهَـا[٢]

وقيل: إنَّه المتعدِّي إلى منزلة لا يستحقُّها[٣]، والمعنى واحد. وقال ابن زيد وعبدالرحمن بن حمَّاد: الأَشِر: الذي لا يبالي ما قال[٤].

وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة: «أَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[٥]، يعني به: أشرّنا وأخبثنا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا[٦].

وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء، على أنَّه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء؛ إخبار من الله تعالى لصالح عنهم[٧].

وقوله: «غَداً» على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إنَّ مع اليوم غداً[٨]، قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، ولم ينسبه.

(٢) الصحاح (أشر)، قال ابن برِّي في التنبيه والإيضاح ٢/ ٧٨: البيت لميَّة بنت ضرار الضبيَّة ترثي أخاها، وأزهف الطعنُ أبطالها: أي: صَرَعها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٠ عن عبد الرحمن بن أبي حماد.

(٥) ذكرها العكبري في إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧، والفخر الرازي ٢٩/ ٥١ ولم ينسباها.

(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠، والقراءة في السبعة ص٦١٨، والتيسير ص٢٠٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لِلموتِ فيها سِهامٌ غير مُخْطِئَةٍ مَنْ لم يكن مَيتاً في اليومِ ماتَ غَدَا[١]

وقال أبو الطَّمَحان[٢]:

أَلَا عَلِّلَاني قبل نَوْحِ النَّوائِح وقَبْلَ اضْطرَابِ النَّفْسِ بينَ الْجَوَانِح

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نفسِي على غَدٍ إذا رَاح أصحابي ولستُ برائِح

إنَّما أرادَ وقتَ الموت، ولم يُرِدْ غداً بعينه.

﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قلابة: «الْأَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[٣]، جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا في ضرورة الشعر، كقول رؤبة:

بِلَالُ خَيْرُ النَّاسِ وابنُ الْأَخْيَرِ[٤]

وإنَّما يقولون: هو خير قومه، وهو شرُّ الناس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [مريم: ٧٥]. وعن أبي حيوة: بفتح الشين وتخفيف الراء[٥]. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير: ضمُّ الشين والراء والتخفيف[٦]، قال النحَّاس: وهو معنى «الأشِر» ومثله: رجل حَذِر وحَذُر.

---

(١) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص١١١، وجاءت رواية عجزه هكذا:

من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

(٢) في النسخ الخطية: أبو الطماح، وفي (م): الطرِمَّاح. والمثبت من مصادر التخريج، فالبيتان ذكرهما المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٢٦٦، والبصري في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢، ونسباهما إلى أبي الطَّمَحان القيني، وجاء فيه: صدح، بدل: نوح. وارتقاء، بدل: اضطراب. وذكرهما ابن عبد ربِّه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٨ ونسبهما إلى هدبة العذري، وفيه: اطلاع، بدل: اضطراب. ولم نقف على البيتين في ديوان الطرماح.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٩.

(٤) ذكره ابن جنيٍّ في المحتسب ٢/ ٢٩٩، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة ولا العجاج.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٨، والمحتسب ٢/ ٢٩٩، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أنَّ صالحاً صلَّى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرةُ التي عيَّنوها عن سنامها، فخرجت ناقةٌ عُشَراء جرداء[١]. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً، وهو مفعول له[٢]. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر على أذاهم[٣]، وأصل الطاء في اصطبر تاء، فتحوَّلت طاء؛ لتكون موافقة للصاد في الإطباق[٤].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: أخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين آلِ ثمودَ وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم[٥]، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقةُ شيئاً من الماء، وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماءَ كلَّه، فلم تُبْقِ لهم شيئاً[٦]. وإنَّما قال: «بَيْنَهُمْ» لأنَّ العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم، غلَّبوا بني آدم[٧].

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجْرَ في مغزى رسول الله ﷺ تَبُوك، قال: «أيُّها الناس لا تسألوا في هذه الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيَّهم أن يبعثَ الله

(١) عرائس المجالس ص٦٨، وفيه: وبراء، بدل: جرداء، وكذا جاءت في (م).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٩.

(٣) الوسيط ٤/ ٢١١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٤.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.

(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لهم ناقةً، فبعث اللهُ عزَّ وجلَّ إليهم الناقة، فكانت تَرِدُ من ذلك الفجِّ فتشرب ماءَهم يوم وِردها، ويحلبون منها مثلَ الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: «وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ»[(١)].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظُّ من الماء، وفي المثل: آخرها أقلُّها شِرْباً. وأصله في سقي الإبل؛ لأنَّ آخرَها يَرِدُ وقد نُزِفَ الحوضُ[(٢)].

ومعنى «مُحْتَضَرٌ» أي: يحضُره مَن هو له، فالناقة تَحضر الماءَ يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم، قاله مقاتل. وقال مجاهد: إنَّ ثمود يحضرون الماءَ يوم غبِّها فيشربون، ويحضرون اللبنَ يوم وِردها فيحتلبون[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضِّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾ هَا، ومعنى تعاطى: تناول الفعل، من قولهم: عَطَوتُ، أي: تناولتُ[(٤)]، ومنه قول حسان:

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي بـزجـاجـةٍ أرخـاهـمـا لـلـمِـفْـصَـلِ[(٥)]

قال محمد بن إسحاق: فَكَمِنَ لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرَّت ورَغت رُغاةً

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥ ، وعرائس المجالس ص٧٣ ، والحديث أخرجه أحمد (١٤١٦٠)، والبزار (١٨٤٤ كشف الأستار)، والطبري ١٠/ ٢٩٦ ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٥٥) من طريق ابن خُثَيْم، والطبراني في الأوسط (٩٠٦٥) من طريق ابن لهيعة، كلاهما عن أبي الزبير، عن جابر بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ و٧/ ٣٨ : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الصحاح (شرب)، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١- ٤٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ ، وخبر مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٥ .

(٥) ديوان حسان ص١٨١ ، قال البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٣٨٩ : كلتاهما... إلخ. أراد كلتا الممزوجة والصرف، حلبُ العنب، فناوِلْني أشدَّهما إرخاء وهي الصرف. والحلب: بمعنى المحلوب. والمفصل: روي بكسر الميم وفتح الصاد، وهو اللسان، لأنه آلة يُفصَل به، ويروى بفتح الميم وكسر الصاد، وهو موضع انفصال العضو.

واحدة تحَذّر سَقْبها من بطنها، ثم نَحرها وانطلق سَقْبها، حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لَاذَ بها، فأتاهم صالح عليه السلام، فلما رأى الناقة قد عُقِرت، بكى وقال: قد انتهكتم حرمةَ الله فأبشروا بعذاب الله(١). وقد مضى في «الأعراف»(٢) بيان هذا المعنى. قال ابن عباس: وكان الذي عقرها: أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى(٣). ويقال في اسمه: قُدَار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْديُّ:

أو قَبْلَه كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ ... على الغَوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزَّار قُدَاراً؛ تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤم آلِ ثمودَ، قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رؤُوسَهمْ ... ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعةَ القُدَّامِ(٤)

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لكمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ(٥)

يريد: الحرب، فكنَّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد صيحة جبريلَ عليه السلام، وقد مضى في «هود»(٦). ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية: «المحْتَظَر» بفتح الظاء(٧)، أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر، أرادوا صاحبَ الحظيرةِ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ .

(٢) ٩/ ٢٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ ، وما بعده منه، والبيت في زهر الأكم لليوسي ٢/ ٢٧٥ ، وفيه: أو بعده، بدل: أو قبله.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ ، والبيت في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٣/ ٧١ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٢٥ . قال أبو حيان: والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد: قادم. وقال المرزوقي: والنقيعة: بعير ينحره رئيس القوم قبل القسمة فيطعمه الناس كذلك.

(٥) شرح ديوان زهير ص٢٠ ، قال شارحه: تُنْتج: يعني الحرب. غلمان أشأم: غلمان شؤم. أي: كلهم في الشؤم كأحمر عاد، وإنما أراد أحمر ثمود. ثم ترضع فتفطم: يريد أنه يَتِمُّ أمر الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمَّت.

(٦) ١١/ ١٥٦ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ .

وفي «الصحاح»[(١)] والمحتظِر: الذي يعمل الحظيرة. وقرئ: «كَهَشِيمِ المحتظَر» فمن كسره جعله الفاعلَ، ومن فتحه جعله المفعولَ به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لنَكِدُ الحظِيرةِ. قال أبو عبيد: أراه سمَّى أمواله حظيرة؛ لأنَّه حظرها عنده ومنَعَها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة[(٢)].

المهدويُّ: من فتح الظاء من «المحتظر» فهو مصدر، والمعنى: كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون «المحتظَر» هو الشجر المتَّخذ منه الحظيرة. قال ابن عباس: «المحتظِر»: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم[(٣)]. قال:

أَثَـرْنَ عَـجـاجَـةً كـدخـانِ نـارٍ   تـشـبُّ بـغَـرْقَـدٍ بـالٍ هَـشِـيـمِ[(٤)]

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة[(٥)]. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح[(٦)]. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول[(٧)]. وقال ابن زيد: العرب تسمِّي كلَّ شيء كان رطباً فيبس هشيماً[(٨)]. والحظْر: المنع، والمحتظر المفتعل، ويقال منه: احتظر على إبله وحظر، أي: جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض؛ ليمنع بَرْدَ الريح والسباع عن إبله[(٩)]، قال الشاعر:

---

(١) مادة: «حظر».

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٧ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .

(٩) الوسيط ٤/ ٢١١ .

تَرَى جِيَفَ المَطِيِّ بِجانِبيهِ كأنَّ عِظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ[(١)]

وعن ابن عباس: أنَّهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم. فالمحتظر على هذا: الذي يتَّخذ حظيرة على زرعه، والهشيم: فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذَّبوا لوطاً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى[(٢)]. قال النّضر: الحاصب: الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب: الحجارة[(٣)]. وفي «الصحاح»[(٤)]: والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء، وكذلك الحَصِبة، قال لَبيد:

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلِها أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح، أي: اشتدَّت، فهي ريح عاصفٌ وعَصوف[(٥)]. وقال الفَرَزْدق[(٦)]:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبُنا بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

(١) القائل عمرو بن معدي كرب، وهو في الأصمعيات ص١٧٦، إلا أنه ورد فيه البيت هكذا:

ترى جيف المطيِّ بحافتيه كأنَّ عظامها الرَّخَم الوقوع

(٢) الكشاف ٤/ ٤٠.

(٣) الوسيط ٤/ ٢١١، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١.

(٤) مادة (حصب)، والبيت الآتي للبيد وهو في شرح ديوانه ص٣٥٥، وسلف ١٣/ ١٢٤.

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في ديوانه ١/ ٢١٣، وسلف ١٣/ ١٢٤.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: من تبعه على دينه، ولم يكن إلا بنتاه[١] ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ قال الأخفش: إنَّما أجراه؛ لأنَّه نكرة، ولو أراد سَحَرَ يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] لما نكَّره، فلما عرَّفه في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٩] لم يُجْرِ، وكذا قال الزجَّاج[٢]: «سحر» إذا كان نكرةً يُراد به سحَراً من الأسحار يصرف، تقول: أتيته سحراً، فإذا أردتَ سَحَرَ يومكَ، لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَر يا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخرِ الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاطُ سواد الليل ببياض أوَّل النهار؛ لأنَّ في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار[٣].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعاماً منَّا على لوط وابنتَيْه، فهو نَصْب؛ لأنَّه مفعول له[٤].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي: من آمنَ بالله وأطاعه[٥].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ يعني: لوطاً، خوَّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا، وأَخْذنا إيَّاهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: شكُّوا فيما أنذرهم به الرسولُ ولم يصدِّقوه[٦]، وهو تفاعل من المِرْية[٧].

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: أرادوا منه تمكينَهم ممَّن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف؛ طلباً للفاحشة على ما تقدَّم[٨]. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً، أي: أَردتُه. ورَادَ الكلأَ يَرُودُه رَوْداً ورِياداً، وارْتادَه ارتياداً بمعنًى، أي: طلبه، وفي الحديث: «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي: يطلب مكاناً ليِّناً أو منحدراً[٩].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٩٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨ .
(٤) في النسخ: (به)، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٠ ، والكلام منه.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٠ .
(٦) الوسيط ٤/ ٢١٢ .
(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ .
(٨) ١١/ ١٧٦ .
(٩) الصحاح (رود)، والحديث أخرجه أحمد (١٩٥٣٧)، وأبو داود (٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ. قال المنذري في مختصر السنن ١/ ١٥ : فيه مجهول.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ يُروى أنَّ جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فَعموا[١]. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها شقٌّ، كما تطمس الريحُ الأعلامَ بما تسفي عليها من التراب[٢]. وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صحَّة أبصارهم، فلم يروهم[٣]. قال الضحَّاك: طمس اللهُ على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيتَ، فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم[٤]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لهم: ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر، أي: فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط[٥].

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: دائم عامٌّ استقرَّ فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة[٦]. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسفلها. و«بُكْرَةً» هنا نكرة، فلذلك صرفت[٧]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أُهلكوا[٨] به، فلذلك حسُن التكرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني: القبط[٩]، و«النُّذُرُ» موسى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩١، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٠ عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٢ بنحوه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٨.

(٨) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٣.

(٩) الوسيط ٤/ ٢١٢.

وهارون[١] وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معجزاتنا الدَّالَّة على توحدينا ونبوَّة أنبيائنا[٢]، وهي العصا، واليد، والسِّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم. وقيل: «النُّذُرُ»: الرسل، فقد جاءهم يوسف وبَنُوهُ إلى أن جاءهم موسى، وقيل: «النذر» الإنذار[٣]. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب في انتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ أي: قادر على ما أراد.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)﴾

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفَّار أمَّة محمَّد ﷺ[٤]. وقيل: استفهام، وهو استفهام إنكار[٥]، ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيراً من كفَّار مَن تقدَّم من الأُمم الذين أهلكوا بكفرهم[٦]. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة[٧]. وقال ابن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءةٌ من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أي: جماعة لا تطاق؛ لكثرة عددهم وقوَّتهم[٨]، ولم يقل: منتصرين؛ اتباعاً لرؤوس الآي[٩]، فردَّ اللهُ عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: جَمْعُ كفَّار مكَّة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره[١٠].

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٣.
(٢) الوسيط ٤/ ٢١٢.
(٣) زاد المسير ٨/ ١٠٠.
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٦ عن الربيع بن أنس.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.
(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٤.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.
(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣، والنكت والعيون ٥/ ٤١٩.

وقراءة العامة: «سَيُهْزَمُ» بالياء، على ما لم يُسَمَّ فاعله، «الْجَمْعُ» بالرفع. وقرأ رُوَيس عن يعقوب: «سَنَهْزِم» بالنون وكسر الزاي «الْجَمْعَ» نصباً(١).

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء؛ على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وابن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب: «وَتُوَلُّونَ» بالتاء؛ على الخطاب(٢).

و«الدُّبُرَ» اسم جنس، كالدرهم والدينار، فوحّد، والمراد الجمع(٣)؛ لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسَه يوم بدر فتقدَّم من الصَّفِّ وقال: نحن ننتصر اليوم من محمَّد وأصحابه؛ فأنزل اللهُ تعالى: «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِر. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»(٤).

وقال سعيد بن جبير: قال سعد بن أبي وقَّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أيَّ الجَمْع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيتُ النبيَّ ﷺ يَثِب في الدرع ويقول: «اللَّهمَّ إنَّ قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها وخيلها(٥) فَأَحِنْهُم(٦) الغداةَ». ثم قال: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفتُ تأويلها(٧). وهذا من معجزات النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبر عن غيب، فكان كما أخبر(٨).

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، وزاد المسير ٨/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ ولم ينسبه.

(٥) في (م): وخيلائها.

(٦) في (م): فأخنهم. ولم تنقط في النسخ الخطية، والمثبت من مصادر التخريج، والحَيْنُ: الهلاك، وقد حان، وأحانه الله. القاموس (حين)، وأخنى عليهم بمعناه. القاموس (خني)، وسيذكره المصنف قريباً.
ودعاؤه ﷺ على قريش ورد في خبر آخر عند ابن هشام في السيرة ١/ ٦٢، والواقدي في المغازي ١/ ٥٩ عن سعد بن معاذ.

(٧) لم نقف عليه من رواية سعد بن أبي وقاص، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٩، والطبري ٢٢/ ١٥٧، من طريق عكرمة، أن عمر قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾.. بنحوه.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٤١) من طريق معمر، عن قتادة، عن أنس: أن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.. بنحوه. وبرقم (٩١١٧) عن أبي هريرة مطولاً، وذكرهما الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٧٨، وقال عن الأول: وفيه محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، ولم أعرفه. وقال عن الثاني: وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٢.

أخنى عليه الدهر. أي: أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَى عليه الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وأخنيت عليه: أفسدت[١]. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فالآية على هذا مكِّيَّة. وفي «البخاري»[٢] عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أُنزِل على محمَّد ﷺ بمكَّة وإنِّي لجارية ألعب: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ». وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال ـ وهو في قبَّة له يوم بدر ـ: «أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك، اللَّهمَّ إن شئتَ لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حَسْبُك يا رسولَ الله، فقد ألححتَ على ربِّك؛ وهو في الدِّرْع، فخرج وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ»[٣] يريد القيامة.

«وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أي: أدهى وأمرُّ مما لحقهم يوم بدر[٤]. و«أَدْهَى» من الداهية، وهي الأمر العظيم، يقال: دهاه أمْرُ كذا، أي: أصابه دهواً ودهياً. وقال ابن السِّكِّيت: دَهَتْه داهيةٌ دَهْواء ودَهْياء، وهي توكيدٌ لها[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أي: في حَيْدةٍ عن الحقِّ و«سُعُرٍ» أي: احتراق[٦]. وقيل: جنون[٧]، على ما تقدَّم في هذه السورة.

---

(١) الصحاح (خني)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣١ ، وروايته هكذا:

أمست خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

(٢) برقم (٤٨٧٦).

(٣) البخاري (٤٨٧٧)، وهو عند أحمد (٣٠٤٢).

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ .

(٥) الصحاح (دهي)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٧ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢١ .

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر، فنزلت: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[١].

وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسولِ الله ﷺ يقولون: كلُّ شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بنَ عمر يقول: قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس، أو: الكَيْس والعَجْز»[٢]. وهذا إبطال لمذهب القدَريَّة.

«ذُوقُوا» أي: يقال لهم: ذوقوا[٣]. ومسُّها: ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها[٤]. و«سَقَر» اسم من أسماء جهنَّم لا ينصرف؛ لأنَّه اسم مؤنَّث معرفة[٥]، وكذا: لَظَى، وجهنَّم. وقال عطاء: «سَقَر»: الطبق السادس من جهنَّم. وقال قُطْرب: «سَقَر» من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته: لَوَّحَتْه. ويوم مُسْمَقِرٌ ومُصْمَقِرٌ: شديدُ الحرِّ[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامَّة: «كُلَّ» بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال: «كُلُّ» بالرفع على الابتداء[٧]. ومن نصب؛ فبإضمار فعل، وهو اختيار الكوفيين؛ لأنَّ «إنَّ» تطلب الفعل، فهي به أولى[٨]، والنصب أدلُّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنَّك لو حذفت «خَلَقْنَاهُ» المفسِّر، وأظهرتَ الأوَّل، لصار إنَّا

(١) مسلم (٢٦٥٦)، والترمذي (٢١٥٧)، وهو عند أحمد (٩٧٣٦)، وابن ماجه (٨٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٢٥ .

(٢) مسلم (٢٦٥٥)، وهو عند أحمد (٥٨٩٣).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٧ .

(٦) الصحاح (سقر) و(صقر).

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٠ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٠ .

خلقنا كلَّ شيء بقَدَر. ولا يصحُّ كون خلقناه صفة لشيء؛ لأنَّ الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله[١].

الثالثة: الذي عليه أهل السنة أنَّ الله سبحانه قدَّر الأشياء، أي: عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أَوجد منها ما سبق في عِلْمه أنَّه يوجده على نحو ما سبق في عِلْمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويِّ والسفليِّ إلا وهو صادر عن عِلْمه تعالى وقدرته وإرادته دون خَلْقه، وأنَّ الخَلْق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأنَّ ذلك كلَّه إنَّما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقُدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالقَ غيرُه، كما نصَّ عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدَريَّة وغيرهم من أنَّ الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرنا.

قال أبو ذَرٍّ ﷺ: قدم وفد نجران على رسولِ الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا، والآجالُ بيد غيرنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» فقالوا: يا محمَّد يَكتُب علينا الذنبَ ويُعذِّبنا؟! فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة»[٢].

الرابعة: روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مجوسَ هذه الأمَّة المكذِّبون بأقدار الله، إن مرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلِّموا عليهم». خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[٣]. وخرَّج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب: أهلُ الإرجاء والقَدَر»[٤].

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٢.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٦ عن عطاء مرسلاً بنحوه.

(٣) برقم (٩٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، والطبراني في الأوسط (٤٤٥٢) من طريق ابن جريج، عن أبي الزبير، به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٥٥ : هذا إسناد ضعيف، فيه بقية ابن الوليد، وهو مدلِّس، وقد عنعنه. اهـ. وفي الباب عن ابن عمر وعن حذيفة، وهما عند أبي داود (٤٦٩١) و(٤٦٩٢)، وينظر كلام المنذري في مختصر السنن ٧/ ٥٨ - ٦١ حول الحديثين.

(٤) سنن ابن ماجه (٧٣)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٩٤٨). قال البوصيري في مصباح =

وأسند النحَّاس: وحدَّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال: حدَّثنا عقبةُ بنُ مكرم الضَّبيُّ قال: حدَّثنا يونس بنُ بكير، عن سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدَريَّة الذين يقولون: الخير والشرُّ بأيدينا. ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منِّي»(١).

وفي «صحيح مسلم»(٢) أنَّ ابن عمر تبرَّأ منهم، ولا يتبرَّأ إلا من كافر، ثم أكَّد هذا بقوله: والذي يَحلِفُ به عبدُ الله بنُ عمر لو أنَّ لأحدهم مثلَ أُحُد ذهباً فأنفقه، ما قِبَلَ اللهُ منه حتى يؤمن بالقَدَر. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «الإيمان بالقَدَر يُذهِب الهمَّ والحزن»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرَّةً واحدة(٤). ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: قضائي في خلْقي أسرعُ من لَمْح البصر(٥). واللَّمْحُ: النظر بالعَجَلة، يقال: لَمَح

= الزجاجة ١/ ٥٢ : هذا إسناد ضعيف، نزار بن حيان الأسدي قال ابن حبان في الضعفاء: يأتي عن عكرمة بما ليس من حديثه حتى يسبق القلب أنه المتعمِّد، لذلك لا يجوز الاحتجاج به بحال، وعبد الله ابن محمد الليثي مجهول. قاله الذهبي. اهـ

وأخرجه أيضاً الترمذي (٢١٤٩) عن ابن عباس وحده. قال الترمذي عقبه: وهذا حديث غريب حسن صحيح.

(١) وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٢٤ بإسناده ومتنه، وورد في مطبوعه: عتبة، بدل: عقبة. وهو خطأ. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١٦١ - ١٦٢: هذا حديث لا يصح، وقال ابن حبان: سعيد بن ميسرة [من رجال السند] يروي الموضوعات. اهـ

(٢) برقم (٨).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٧٧)، وفيه مجاهيل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٦ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

البرقَ ببصره[١]. وفي «الصحاح»[٢]: لمَحَه وألمحه: إذا أبصره بنَظَر خفيف، والاسم: اللَّمْحة، ولمَحَ البَرقُ والنجمُ لَمْحاً، أي: لمَع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم في الكفر من الأُمم الخالية[٣]. وقيل: أتباعكم وأعوانكم[٤]. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: مَن يتذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: جميع ما فعلته الأُمم قبلهم مِن خير أو شرٍّ كان مكتوباً عليهم، وهذا بيان قوله: «إِنَّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ».

«في الزُّبُرِ» أي: في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة[٥]. وقيل: في أُمِّ الكتاب[٦]. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: كلُّ ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قَبْلَ أن يفعله؛ ليجازى به، ومكتوب إذا فعله[٧]. سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً: كَتَب، واستطَرَ مثله[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ لما وصَف الكفَّار وصَف المؤمنين أيضاً. «وَنَهَرٍ» يعني: أنهار الماء والخمر والعسل واللَّبن، قاله ابن جريج[٩]. ووحَّد؛ لأنَّه رأس الآية[١٠]، ثم الواحد قد يُنبِئُ عن الجميع[١١]. وقيل: في «نَهَرٍ»: في ضياء وسَعة، ومنه النهار؛ لضيائه، ومنه: أنهرتُ الجُرْحَ، قال الشاعر:

---

(١) تهذيب اللغة ٥/ ٩٨.

(٢) مادة (لمح).

(٣) الوسيط ٤/ ٢١٦.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦.

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٤ - ١٦٥ وأخرجه عن ابن زيد.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢.

(٨) الصحاح (سطر).

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠.

(١٠) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ - ١١١.

(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٣.

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنهرتُ فَتقَها يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها[(١)]

وقرأ أبو مِجْلز وأبو نَهيك والأعرج وطلحة بنُ مصرِّف وقتادة: «وَنُهُرٍ» بضمَّتين[(٢)]، كأنَّه جمع نهار، لا ليلَ لهم، كسحاب وسُحُب. قال الفراء[(٣)]: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَكُ لَيْلِيًّا فإنِّي نَهِرُ مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أي: صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ[(٤)]

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: مجلس حقٍّ لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنَّة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: يقدر على ما يشاء. و«عِنْدَ» هاهنا عنديَّة القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة[(٥)]. قال الصادق: مدح اللهُ المكانَ الصدقَ فلا يَقعُد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتِّي: «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع[(٦)]، والمقاعد: مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها.

قال عبد الله بن بريدة: إنَّ أهل الجنَّة يدخلون كلَّ يوم على الجبَّار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآنَ على ربِّهم تبارك وتعالى، وقد جلس كلُّ إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد والذَّهب والفضَّة بقَدْر أعمالهم، فلا

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٥، والقائل: قيس بن الخطيم، وسلف ١/ ٣٦٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٨، والمحتسب ٢/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١١١، وينظر تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠، والبيت سلف ٢/ ٤٩٢.

(٥) لفظ العِنْد فيما يضاف إلى الله تعالى يختلف حاله ومعناه حسب وروده في الكلام وما يحفّ به من قرائن، فما كان ظاهره إرادة المكان ولم يرد ما يحمله على معنى آخر فينبغي أن يحمل على ظاهره وهو العلوّ والقرب من الله عز وجل، وينظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ٢٢٦.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢.

تَقَرّ أعينهم بشيء قطُّ كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرةً أعينُهم إلى مثلها من الغد[١].

وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أنَّ الملائكة يأتون المؤمنين يومَ القيامة فيقولون: يا أولياءَ الله انطلِقوا. فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صِدْق عند مليك مقتدر[٢]. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أنَّ طائفةً من العقلاء بالله عزَّ وجلَّ تزفُّها الملائكة إلى الجنَّة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنَّة. فيقولون: إنَّكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا. فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصِّدْق مع الحبيب كما أخبر: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ»، والله أعلم.

تم تفسير سورة «القمر» والحمد لله.

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ عن النبي ﷺ، من غير إسناد، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩ وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن بريدة مرفوعاً.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ دون عزوٍ، والسيوطي في الدر المنثور وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن ثور بن يزيد.

سُورَةُ القَمَرِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها خمسٌ وخمسونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ رُوِيَ أنَّ الكُفَّارَ سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ آيةً فانشقَّ القمرُ[1].

وقيل: معناهُ سينشقُّ يومَ القيامةِ.

ويؤيِّدُ الأوَّلَ أنَّه قُرِئَ: (وقد انشقَّ القمرُ)[2] أي: اقتربَت السَّاعةُ، وقد حصلَ مِن آياتِ اقترابِها انشقاقُ القمرِ.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ عن تأمُّلِها والإيمانِ بها.

﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ مُطَّرِدٌ. وهو يدلُّ على أنَّهم رَأَوْا قبلَهُ آياتٍ أُخرى مُترادفةً ومُعجزاتٍ مُتتابعةً حتَّى قالوا ذلك.

أو محكمٌ، مِن المرَّةِ[3]، يقال: أَمْرَرْتُه فاستمرّ: إذا أحكَمْتَه فاستحكمَ.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) وهي قراءة حذيفة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٧).

(٣) (المرة) بالفتح والكسر؛ بمعنى القوة.

أو مُستبشعٌ، مِن استمرَّ الشَّيءُ: إذا اشتَدَّتْ مَرارتُه.

أو مارٌّ ذاهبٌ لا يبقى.

(٣) ـ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وهو ما زيَّنَ لهم الشَّيطانُ مِنْ ردِّ الحقِّ بعدَ ظُهورِه.

وذكرَهُما بلفظِ المُضِي للإشعارِ بأنَّهُما مِن عادَتِهم القَديمَةِ.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ مُنتهٍ إلى غايةٍ مِن خذلانٍ أو نَصرٍ في الدُّنيا وشقاوةٍ أو سَعادةٍ في الآخرةِ، فإنَّ الشَّيءَ إذا انتهى إلى غايتِه ثبتَ واستقرَّ.

وقُرِئَ بالفتحِ[١]؛ أي: ذو مُستقَرٍّ بمعنى استقرارٍ[٢]، وبالكسرِ والجرِّ[٣] على أنَّه صفةُ ﴿أَمْرٍ﴾، ﴿وَكُلُّ﴾ معطوفٌ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾.

(٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ في القرآنِ ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أنباءِ القرونِ الخاليةِ، أو أنباءِ الآخرةِ.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجارٌ مِن تعذيبٍ أو وعيدٍ.

وتاءُ الافتعالِ تُقلَبُ دالًا مع الدَّالِ والذَّالِ والزَّايِ للتَّناسُبِ.

وقُرِئَ: (مُزَّجَر) بقلبِها زاءً وإدغامِها[٤].

(٥) ـ ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ غايتَها لا خَلَلَ فيها، وهي بدلٌ مِن (ما)، أو خبرٌ لِمَحذوفٍ.

---

(١) حكاها أبو حاتم عن شيبة، ورويت عن نافع، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٥/ ٢٠٦)، و«الكشاف» (٨/ ٥١٩)، و«البحر» (٢٠/ ٨٣).

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «الاستقرار».

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٠).

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٢٠)، و«البحر» (٢٠/ ٨١).

وقُرِئَ بالنَّصبِ حالًا مِن (ما)[١] فإنَّها مَوصولةٌ أو مخصوصةٌ بالصِّفةِ، فيجوزُ نَصبُ الحالِ عنها.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفيٌ، أو استفهامُ إنكارٍ؛ أي: فأيَّ غَناءٍ تُغني النُّذُرُ، وهو جمعُ نَذيرٍ بمعنى المنذِرِ أو المُنذَرِ منه، أو مصدرٌ بمعنى الإنذارِ.

(٦) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمِكَ أنَّ الإنذارَ لا يُغني فيهِم.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ إسرافيلُ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الدُّعاءُ فيه كالأمرِ في قولِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وإسقاطُ الياءِ اكتفاءً بالكسرةِ للتَّخفيفِ، وانتصابُ ﴿يَوْمَ﴾ بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾، أو بإضمارِ (اذكر).

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ فظيعٍ تُنكرُهُ النُّفوسُ؛ لأنَّها لم تَعهَدْ مِثلَه، وهو هولُ القيامةِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿نُكْرٍ﴾ بالتَّخفيفِ[٢]، وقُرِئَ: (نُكِرَ)[٣] بمعنى أُنكِرَ.

(٧) ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: يخرجونَ مِن قُبورِهِم خاشعًا ذليلًا أبصارُهم مِن الهولِ، وإفرادُه وتذكيرُه لأنَّ فاعِلَه ظاهرٌ غيرُ حقيقيِّ التَّأنيثِ.

وقُرِئَ: (خاشعةً)[٤] على الأصلِ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ: ﴿خُشَّعًا﴾[٥]، وإنَّما حَسُنَ ذلك ولم يحسنْ: مررتُ برجالٍ قائمينَ غِلمانُهم؛ لأنَّه ليسَ على صيغةٍ تشبهُ الفعلَ.

---

(١) انظر: «البحر» (٢٠/ ٨١) عن اليماني، وهو محمد بن السميفع، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ١٠٤) لكن لم يصرح بكونها قراءة، وعبارته: ولو نصب على القطع لأنه نكرة و﴿مَا﴾ معرفة كان صواباً.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٨)، عن مجاهد والجحدري وأبي قلابة.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨) عن أبي وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

وقُرِئَ: (خُشَّعٌ أَبصارُهُم)[1] على الابتداءِ والخبرِ، فتكونُ الجملةُ حالًا.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرةِ والتَّموُّجِ والانتشارِ في الأمكِنَةِ.

(٨) ـ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مُسرعينَ مادِّي أعناقِهم إليه أو ناظرينَ إليه.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعبٌ.

(٩) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبلَ قومِك ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحًا، وهو تفصيلٌ بعدَ إجمالٍ.

وقيل: معناهُ كذَّبُوه تكذيبًا على عقبِ تكذيبٍ، كلَّما خَلا مِنهم قرنٌ مُكَذِّبٌ تَبِعَه قرنٌ مُكذِّبٌ، أو كذَّبوهُ بعدما كذَّبوا الرُّسُلَ.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ هو مجنونٌ.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ وزُجرَ عن التَّبليغِ بأنواعِ الأذيَّةِ.

وقيل: إنَّه مِن جملةِ قيلِهم؛ أي: هو مجنونٌ وقد ازدجَرَتْه الجِنُّ وتَخبَّطَتْهُ.

(١٠) ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أي: بأنِّي. وقُرِئَ بالكسرِ على إرادةِ القولِ[2].

﴿مَغْلُوبٌ﴾ غَلَبني قَومِي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتَقِمْ لي مِنهم، وذلك بعدَ يأسِه مِنْهُم، فقَدْ رُوِيَ أنَّ الواحدَ مِنْهُم كان يلقاهُ فيخنُقُهُ حتى يَخرَّ مغشيًّا عليه فيفيقُ ويقول: «اللهمَّ اغفِرْ لقَوْمِي فإنَّهُم لا يعلمونَ»[3].

(١١) ـ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ مُنْصَبٍّ، وهو مبالغةٌ وتمثيلٌ لكثرةِ الأمطارِ وشدَّةِ انصبابِها.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٢١)، و«البحر» (٢٠/ ٨٩) دون نسبة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨) عن عيسى وابن أبي إسحاق.

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٨٠). وكذا الثعلبي في «تفسير» (٢٥/ ٢١٤) عن عبيد بن عمير، وعزاه السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (١١/ ٤٠١) إلى عبد بن حميد عن مجاهد.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ بالتَّشديدِ[١]؛ لكثرةِ الأبوابِ.

(١٢) ـ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجَعَلْنا الأرضَ كُلَّها كأنَّها عيونٌ مُنفجِرَةٌ، وأصلُه: وفجَّرْنا عيونَ الأرضِ، فغُيِّرَ للمُبالغةِ.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ.

وقُرِئَ: (الماءانِ)[٢] لاختلافِ النَّوعينِ، (والماوانِ) بقلبِ الهمزةِ واوًا[٣].

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حالٍ قَدَّرها اللهُ في الأزلِ مِن غيرِ تَفاوُتٍ.

أو على حالٍ قُدِّرَتْ وسُوِّيَت، وهو أنَّ قدْرَ ما أُنزِلَ[٤] على قدْرِ ما أُخرِجَ[٥].

أو على أمرٍ قدَّرهُ اللهُ وهو هلاكُ قومِ نوحٍ بالطُّوفانِ.

(١٣) ـ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ ذاتِ أَخشابٍ عَريضَةٍ.

﴿وَدُسُرٍ﴾ ومساميرَ، جمع دِسَارٍ مِن الدَّسْرُ وهو: الدَّفعُ الشَّديدُ، وهي صفةٌ للسَّفينةِ أقيمَتْ مقامَها مِن حيثُ إنَّها شرحٌ لها تؤدِّي مُؤدَّاها[٦].

(١٤) ـ ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ بمَرأى منَّا؛ أي: محفوظةً بحفظِنا.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فَعَلنا ذلك جزاءً لنوحٍ لأنَّه نعمةٌ كَفَروها، فإنَّ كلَّ نبيٍّ نعمةٌ مِن اللهِ ورحمةٌ على أمَّتِه، ويجوزُ أن يكونَ على حذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ إلى الضَّميرِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨) عن الجحدري ومحمد بن كعب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨).

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي زيادة: «من السماء».

(٥) في نسخة الخيالي زيادة: «من الأرض».

(٦) في نسخة الخيالي: «مرادها».

وقُرِئَ (لمن كان كَفَرَ)[1] أي: للكافرينَ.

(١٥) ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: السَّفينةَ، أو الفَعلةَ ﴿ءَايَةً﴾ يُعتبرُ بها إذ شاعَ خبرُها واشتَهَرَ[2].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُعتبرٍ.

وقُرِئَ: (مُذْتَكِر) على الأصلِ[3]، و: (مُذَّكِر) بقلبِ التَّاءِ ذالًا والإدغامِ فيها[4].

(١٦) ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهامُ تعظيمٍ ووعيدٍ، والنُّذُرُ يحتملُ المصدرَ والجمعَ.

(١٧) ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ سهَّلناهُ أو هيَّأناهُ، مِن يسَّرَ ناقتَهُ للسَّفرِ: إذا رَحَلَها.

﴿لِلذِّكْرِ﴾ للادِّكارِ والاتِّعاظِ بأَنْ صرَّفنا فيهِ أنواعَ المواعظِ والعِبَرِ.

أو: للحفظِ بالاختصارِ وعذوبةِ اللَّفظِ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظٍ.

(١٨) ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وإنذاراتي لهم بالعذابِ قبلَ نُزولِه، أو لِمَن بعدَهُم في تَعذيبِهم.

(١٩) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردًا، أو شديدَ[5] الصَّوتِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨) عن يزيد بن رومان وعيسى، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٨) عن يزيد بن رومان وقتادة.

(٢) في نسخة الفاروقي: «واستمر».

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٢٧)، و«البحر» (٢٠/ ٩٧).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٩) عن ابن مسعود رفعها للنبي ﷺ، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٦٩٧) عن قتادة، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨ ـ ١٤٩) عن ابن مسعود وعيسى وقتادة.

(٥) في نسخة الفاروقي: «باردة أو شديدة».

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شـؤمٍ ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ اسـتمرَّ شؤمُه، أو اسـتمرَّ عليهم حتى أهلَكَهُم، أو علـى جميعِهِـم كبيرِهـم وصَغيرِهم فلـم يُبْقِ مِنهم أحـدًا، أو اشـتدَّ مرارَتُه، وكانَ يـومَ الأربعاءِ آخرَ الشَّـهرِ.

(٢٠) ـ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تَقلَعُهُم، رُوِيَ أنَّهُم دخَلُوا في الشِّعابِ والحُفَرِ، وتمسَّكَ بَعضُهم ببعضٍ فنزعَتْهُم الرِّيحُ منها وصرَعَتْهُم مَوْتى.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصولُ نخلٍ مُنقَلعٍ عَن مَغارِسِه ساقطٍ على الأرضِ.

وقيـل: شُـبِّهُوا بالأعجـازِ لأنَّ الرِّيـحَ طيَّـرَتْ رُؤوسَـهُم وطَرَحتْ أَجسـادَهُم، وتذكيـرُ ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ للحمـلِ علـى اللَّفـظِ، والتَّأنيـثُ في قولـه: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقـة: ٧] للمَعنى.

(٢١) ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كرَّرَهُ للتَّهويلِ.

وقيـل: الأوَّلُ لِمَـا حـاقَ بهـم في الدُّنيـا، والثَّانـي لِمَا يحيـقُ بهم فـي الآخرةِ، كمـا قـالَ أيضًـا فـي قِصَّتِهـم: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلـت: ١٦].

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بالإنذاراتِ(١) أو المواعظِ أو الرُّسُلِ.

(٢٤) ـ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ مِن جنسِنا أو مِن جُملَتِنا لا فضلَ له علينا، وانتصابُه بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَه.

وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ(٢)، والأوَّلُ أوجَهُ للاستفهامِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بالإنذار».

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٤٢) عن أبي السمال، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٩٨) =

﴿وَٰحِدًا﴾ مُنفردًا لا تَبعَ له أو مِن آحادِهم دونَ أشرافِهِم.

﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ جمعُ سعيرٍ، كأنَّهم عكسُوا عليه فرتَّبُوا على اتِّباعِهم إيَّاه ما رتَّبَه على تركِ اتِّباعِهم له.

وقيل: السُّعُرُ: الجنونُ، ومنه: ناقةٌ مَسعورةٌ.

(٢٥) ـ ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الكتابُ والوحيُ ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا مَن هو أحقُّ منه بذلك.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ حمَلَهُ بطَرُه على التَّرفُّعِ علينا بادِّعائِه.

(٢٦) ـ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عندَ نزولِ العَذابِ بهم، أو يومَ القيامةِ.

﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ الذي حملَهُ أَشَرُهُ على الاستكبارِ عن الحقِّ وطلبِ الباطلِ، أصالحٌ أم مَن كذَّبَه.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ ورُوَيسٌ ﴿ستَعْلَمُونَ﴾[١] على الالتفاتِ، أو حكايةِ ما أجابَهُم به صالحٌ.

وقُرِئَ: (الأَشُر) كقولِهم: حَذُر في حَذِرٍ[٢]، و: (الأَشَرُّ)[٣] أي: الأبلغُ في الشَّرارةِ، وهو أصلٌ مرفوضٌ كالأَخْيَرِ.

= عن أبي السمال لكن بلفظ: (أبشر منا واحداً) برفع (بشر) ونصب (واحداً)، وقال في توجيهها: فأما انتصاب (واحداً) فإن شئت جعلته حالاً من الضمير في (منا)؛ أي: أينبأ بشرٌ كائن منا؟ والناصب لهذه الحال الظرف، كقولك: زيد في الدار جالساً. وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في قوله: (نتبعه)؛ أي: نتبعه واحداً منفرداً ولا ناصر له.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٩) عن مجاهد والأزدي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٣٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٩) عن أبي قلابة.

(٢٧) ـ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مُخرِجُوهـا وباعِثُوهـا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحانًـا لهـم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتَظِرهُم وتبَصَّرْ ما يصنعونَ ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهُم.

(٢٨) ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ لها يومٌ ولهم يومٌ، و﴿بَيْنَهُمْ﴾ لتغليبِ العقلاءِ.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضُرهُ صاحبُه في نَوبَتِه، أو يحضرُ عنه غيرُه.

(٢٩) ـ ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قُدارَ بنَ سالفٍ أُحَيْمِرَ ثمودَ.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأَ على تعاطي قَتلِها فقتلَها، أو فتَعاطى السَّيفَ فقتَلَها.

والتَّعاطي: تناوُلُ الشَّيءِ بتكلُّفٍ.

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صيحةَ جبرئيلَ ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كالشَّجرِ اليابسِ المنكسرِ[1] الذي يتَّخِذُه من يعملُ الحظيرةَ لأجلِها، أو كالحشيشِ اليابسِ الذي يجمَعُه صاحبُ الحظيرةِ لماشِيَتِه في الشِّتاءِ.

وقُرِئَ بفتحِ الظَّاءِ[2]؛ أي: كهَشيمِ الحَظيرةِ أو الشَّجرِ المتَّخذِ لها.

(٣٢ ـ ٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحًا تحصبُهُم بالحجارةِ؛ أي: تَرميهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ في سحرٍ، وهو آخرُ الليلِ، أو مُسْحِرِينَ.

(٣٥) ـ ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعامًا منا، وهو عِلَّةٌ لـ﴿نجينا﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتَنا بالإيمانِ والطَّاعةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «المتكسر».

(٢) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٩).

(٣٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أَخذَتَنا بالعذابِ ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكذَّبُوا[١] بالنُّذرِ مُتشاكِّين.

(٣٧) ـ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ قَصدُوا الفجورَ بهم ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فمَسحناها وسَوَّيناهَا بسائرِ الوجهِ.

رُوِيَ أنَّهُم لَمَّا دخَلُوا داره عَنْوةً صَفَقهم جبرئيلُ صفقةً فأَعْماهُم[٢].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فقلنا لهم: ذوقوا، على أَلسِنةِ الملائكةِ، أو ظاهرِ الحالِ.

(٣٨) ـ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وقُرِئَ: (بُكْرَةَ) غيرَ مَصروفةٍ[٣]، على أنَّ المرادَ بها أَوَّلُ نهارٍ معيَّنٍ.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ يستقرُّ بهم حتى[٤] يُسلِّمهُم إلى النَّارِ.

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرَّر ذلك في كلِّ قصَّةٍ إشعارًا بأن تكذيبَ كُلِّ رسولٍ مقتضٍ لنُزولِ العذابِ، واستماعَ كلِّ قصةٍ مُستدعٍ للادِّكارِ والاتِّعاظِ، واستئنافًا للتَّنبيهِ والإيقاظِ لئلَّا يَغلِبَهُم السَّهوُ والغفلةُ، وهكذا تكريرُ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ونحوِهما.

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ اكتفَى بذكرِهم عن ذكرِه للعلمِ بأنَّه أَولى بذلك.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فكذبوه».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٩) عن حجاج عن ابن جريج، وعن أبي بكر بن عبد الله، وعن قتادة عن حذيفة، دخل حديث بعضهم في بعض، وبنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٨) عن ابن عباس، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٩) عن السدي.

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٣٤)، و«البحر» (٢٠/ ١٠٨).

(٤) في نسخة الفاروقي: «إلى أن».

(٤٢) ـ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني: الآياتِ التِّسعَ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ﴾ لا يُغالَبُ.

﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ لا يعجزُه شيءٌ.

(٤٣) ـ ﴿أَكُفَّارُكُمۡ﴾ يا معشرَ العربِ ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ الكفَّارِ المَعدُودينَ قوَّةً وعُدَّةً أو مكانةً ودينًا عندَ اللهِ.

﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أم نُزِّلَ لَكُم في الكتبِ السَّماويَّةِ أنَّ مَن كفرَ مِنْكُم فهو في أمانٍ مِن العذابِ.

(٤٤) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾ جماعةٌ أمرُنا مُجتمِعٌ.

﴿مُّنتَصِرٞ﴾ ممتنعٌ لا نُرامُ، أو ﴿مُّنتَصِرٞ﴾ مِن الأعداءِ لا نُغلبُ، أو مُتناصرٌ ينصرُ بعضُنا بعضًا، والتَّوحيدُ على لفظِ الجَميعِ.

(٤٥) ـ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبارَ، وإفرادُه لإرادةِ الجنسِ، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ يُولي دبرَهُ، وقد وقعَ ذلك يومَ بدرٍ، وهو مِن دلائلِ النبوَّةِ.

وعن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه لَمَّا نَزلَتْ قال: لم أعلَمْ ما هيَ، فلمَّا كانَ يومُ بدرٍ رأيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يلبسُ الدِّرعَ ويقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ فعلِمتُه(١).

(٤٦) ـ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ مَوعدُ عذابِهم الأصليُّ، وما يحيقُ بهم في الدُّنيا فمن طلائعِه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه: أن عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت... فذكره، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٨): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، ولم أعرفه.

رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦١)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٥٧)، من حديث عكرمة عن عمر رضي الله عنه، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٨١).

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشَدُّ، والدَّاهيَةُ: أمرٌ فظيعٌ لا يهتدى لدَوائِه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مَذاقًا من عذابِ الدُّنيا.

(٤٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقِّ في الدُّنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيرانٍ في الآخرةِ.

(٤٨) ـ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُجَرُّونَ عليها.

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: يقالُ لهم: ذوقوا حرَّ النَّارِ وألَمَها، فإنَّ مَسَّها سببٌ للتَّألُّم بها. وسَقَر علَمٌ لجهنَّم، ولذلك لم تُصرَف، مِن سَقَرَتْه النَّارُ وصَقَرَتْه: إذا لَوَّحَتْه.

(٤٩) ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ مُقدَّرًا مُرتَّبًا على مُقتضى الحكمةِ، أو مُقدَّرًا مَكتوبًا في اللوحِ قبل وُقوعِه.

و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوبٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَه، وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ[1]، وعلى هذا فالأولى أن يجعلَ ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ خبرًا لا نعتًا ليُطابِقَ المشهورةَ في الدَّلالةِ، على أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ بقدرٍ، ولعلَّ اختيارَ النَّصبِ هاهنا مع الإضمارِ لِمَا فيه مِن النُّصوصيَّةِ على المقصودِ.

(٥٠) ـ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلَّا فِعْلةً واحدةً، وهو الإيجادُ بلا معالجةٍ ومُعاناةٍ، أو إلَّا كلمةً واحدةً، وهو قوله: كُن.

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليُسْرِ والسُّرعةِ.

وقيل: معناهُ مَعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهَكُم في الكفرِ ممَّنْ قبلَكُم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظٍ.

(٥٢) ـ ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مكتوبٌ في كتبِ الحفظةِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٠٠)، عن أبي السمال.

(٥٣) ـ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمالِ ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطورٌ في اللَّوحِ.

(٥٤) ـ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهارٍ، واكتُفِيَ باسمِ الجنسِ، أو سَعَةٍ، أو ضياءٍ من النَّهارِ، وقُرِئَ بسكونِ الهاء[1]، (ونُهُر) جمع نَهَر[2]، كأَسَدٍ وأُسُدٍ.

(٥٥) ـ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكانٍ مَرضِيٍّ. وقُرِئَ: (مَقاعدِ صدقٍ)[3].

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مُقربينَ عندَ مَن تعالى أمـرُه فـي الملكِ والاقتدارِ بحيثُ أبهمَهُ ذَوُو الأفهامِ.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ القمرِ في كلِّ غِبٍّ بعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ووجههُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ»[4].

* * *

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩) عن أبي نهيك واليماني وأبي مجلز.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٠٠) عن زهير الفرقبي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩) عن عثمان التيمي.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٩٢)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢٢١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٠٦)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠١٩).

(٥٤) سورة القمر مكية
وآياتها خمس وخمسون

قد تقدم في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد، وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، وقال: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الحافظ أبو بكر البزار، عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا سف يسير فقال: « والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيراً » ، وقال الإمام أحمد، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1] ، وفي لفظ : « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني » وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى، وقال الإمام أحمد، عن خالد بن عمير قال: خطبنا رسول الله ﷺ : فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: « أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصُرْم وولت حَذَّاءَ، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه أفعجبتم؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام »[2] . وذكر

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه ابن جرير . معنى (صُرْم) : قطيعة . و (حذاء) مدبرة لم يتعلق أهلها منها بشيء ، و (صُبابة) : بقية .

تمام الحديث. وعن عبدالرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق. فقلت لأبي أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال، وقوله تعالى: ﴿ وانشق القمر ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر»، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(رواية أنس بن مالك): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[١]. وعن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حِراء بينهما[٢]. وروى الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل. فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم[٣]. وروى البخاري، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ، وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ۝ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه. وقال الحافظ البيهقي، عن عبدالله بن عمر في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد»[٤]. وقال الإمام أحمد، عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[٥]. وعن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال، فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفَّار، فقالوا ذلك[٦]. وفي لفظ: انظروا السفَّار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق. وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأينا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[٧]. وروى الإمام أحمد، عن عبدالله قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر»[٨]. وقال ليث عن مجاهد: انشق القمر على

(١) أخرجه مسلم وأحمد.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) تفرد به أحمد.
(٤) رواه البيهقي وأخرجه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.
(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي.
(٧) أخرجه البيهقي وابن جرير.
(٨) أخرجه الإمام أحمد.

عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر»، فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا آية﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يعرضوا﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضوا عنه، ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ سحرنا به، ومعنى ﴿مستمر﴾ أي ذاهب باطل مضمحل لا دوام له، ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم، من جهلهم وسخافة عقلهم، وقوله ﴿وكل أمر مستقر﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد: ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي يوم القيامة، وقال السدي: مستقر أي واقع. وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ما فيه مزدجر﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿حكمة بالغة﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فما تغني النذر﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والأهوال، ﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين ﴿إلى الداعي﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطرير، كقوله تعالى ﴿فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾.

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿كذبت﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قال مجاهد: أي استطير جنوناً، وقيل ﴿وازدجر﴾ أي انتهروه وزجروه

وتواعدوه، ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ قـاله ابن زيد وهذا متوجه حسن، ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك، قال الله تعالى: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ وهو الكثير، ﴿ وفجّرنا الأرض عيوناً﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿ فالتقى الماء﴾ أي من السماء والأرض ﴿ على أمر قد قدر﴾ أي أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر، ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ قال ابن عباس: هي المسامير، وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة، وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحّاك: الدسر طرفاها وأصلها، وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كلكلها أي صدرها، وقوله: ﴿ تجري بأعيننا﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جزاء لمن كان كفر﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ ولقد تركناها آية﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى: ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلـك المشحون﴾، وقال تعالى: ﴿ إنا لمـا طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ فهل من مدكر﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ وقوله تعالى: ﴿ فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بمـا جاءت بـه نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر النـاس، كما قال: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾، وقال تعالى: ﴿ فإنمـا يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾، قال مجاهد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ يعني هونّا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحـد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزّ وجلّ، وقوله: ﴿ فهل من مدكر﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قـد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وروى ابن أبي حاتم، عن مطر الوراق في قوله تعالى: ﴿ فهل من مدكر﴾ هل من طالب علم فيعان عليه[1].

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم (هود) أنهم كذبوا رسولهم، كما صنع قوم (نوح) وأنه تعالى أرسل ﴿ عليهم ريحاً صرصراً﴾ وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿ في يوم نحس مستمر﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيـه عذابهم الدنيوي بالأخروي، وقوله تعالى: ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثةً بلا رأس،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وعلّقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق.

ولهذا قال: ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب، فقالوا ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، ثم قال تعالى: ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ أي اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق (صالح) عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾، أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿ قال هذه ناقة لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة واسمه (قدار بن سالف) وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾، ﴿ فتعاطى ﴾ أي حسر ﴿ فعقر * فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي، ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين ﴿ والمحتظر ﴾ قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿ كهشيم المحتظر ﴾.

* كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم ﴿ لوط ﴾ كيف كذبوا رسولهم وخالفوه وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي ﴿ الفاحشة ﴾ التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهي الحجارة ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم ، قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول خرج عليهم (جبريل) عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه ، فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم يبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه ، إنهم جاءهم رسول (موسى) وأخوه (هارون) وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم عين ولا أثر ، ثم قال تعالى : ﴿ أكفاركم ﴾ أيها المشركون ﴿ خير من أولئكم ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، أأنتم خير من أولئكم ؟ ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أي أم معكم من الله براءة ، أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أي يعتقدون أن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء ، قال الله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون ، روى البخاري ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع ، وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[1] ، وروى

(١) أخرجه البخاري والنسائي .

ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ[١].

* إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ﴿ وسُعُر ﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال تعالى: ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾، وقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾، كقوله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾، وكقوله تعالى ﴿ والذي قدّر فهدى ﴾ أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة، على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، روى أحمد، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[٢]. وعن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له: قد تُكلِّمَ في القدر، فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين[٣]. وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[٤]. وقال رسول الله ﷺ: « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »[٥].

وفي الحديث الصحيح: « استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان ». وروى الإمام أحمد، عن الوليد بن عبادة قال: دخلت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) رواه مسلم وأحمد عن ابن عمر مرفوعاً.

على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لن تطعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» ، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار[1] . وقد ثبت في صحيح مسلم، عن عبدالله ابن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»، زاد ابن وهب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له : كن - قولة - فيكون

وقوله تعالى : ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ، ﴿فهل من مدّكر﴾ ؟ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك ، وقدَّر لهم من العذاب ، كما قال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾، وقوله تعالى ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، ﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من أعمالهم ﴿مستطر﴾ أي مجموع عليهم ومسطَّر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً»[3] ، وقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر ، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد، وقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه ، وفضله وامتنانه، ، وجوده وإحسانه ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون، وقد روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[4] .

[آخر تفسير سورة اقتربت ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي .

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة .

(٤) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي .

تفسير سورة القمر[١]

وهى مكية.

قد تقدم فى حديث أبى واقد[٢]: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، فى الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [سُبْحَانَهُ][٣] ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن على قالا: حدثنا خلف بن موسى، حدثنى أبى، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خطَب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شفٌّ[٤] يسير، فقال: «والذى نفسى بيده، ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرا»[٥].

قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العَمِّىّ، عن أبيه. وقد ذكره ابن حِبَّان فى الثقات، وقال: ربما أخطأ.

حديث آخر يعضد الذى قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كُهَيْل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قُعَيْقِعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى»[٦].

---

(١) فى أ: «اقتربت».

(٢) انظر أول تفسير سورة: «ق».

(٣) زيادة من أ

(٤) فى أ: «شىء».

(٥) رواه الطبرى فى تاريخه (١/ ١١) حدثنا ابن بشار ومحمد بن المثنى عن خلف بن موسى به.

قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣١١): «رواه البزار من طريق خلف بن موسى عن أبيه وقد وثقا».

(٦) المسند (٢/ ١١٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطَرِّف، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثتُ والساعة[١] هكذا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى.

أخرجاه من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن أبى خالد، عن وهب السَّوَائى قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها[٣]» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعى، حدثنا إسماعيل بن عبيد[٥] الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين».

تفرد به أحمد، رحمه الله[٦]. وشاهد ذلك أيضا فى الصحيح فى أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذى يُحْشَرُ الناس على قدميه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غَزْوَان ـ قال بهز: وقال قبل هذه المرة ـ خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بَصرمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما[٧] ما يدرك لها قعرًا، والله لتملؤنه، أفعجبتم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِصْرَاعَى الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم[٨].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنى ابن عُلَيَّةَ، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمى قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فَرْسَخ، فجاءت[٩] الجمعة، فحضر أبى وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، فقلت لأبى: أيستبق الناس غدا؟ فقال: يا بنى، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال.

---

(١) فى م: «بعثت أنا والساعة».
(٢) المسند (٥/ ٣٨٨) وصحيح البخارى برقم (٦٥٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٠).
(٣) فى م، أ: «لتسبقنى».
(٤) المسند (٤/ ٣٠٩).
(٥) فى أ: «عبد».
(٦) المسند (٣/ ٢٢٣).
(٧) فى م: «خريفا».
(٨) المسند (٤/ ١٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).
(٩) فى أ: «حانت».

ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله، عز وجل، يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة(١).

وقوله: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾: قد كان هذا فى زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر»(٢) . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق(٣).

وقال البخارى: حدثنى عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة، عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما(٤).

وأخرجاه أيضا من حديث يونس بن محمد المؤدّب، عن شيبان، عن قتادة(٥). ورواه مسلم أيضا من حديث أبى داود الطيالسى، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به(٦).

رواية جبير بن مطعم، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقى فى «الدلائل» من طريق محمد بن كثير،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٧).

(٣) المسند (٣/ ١٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٠٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨٦٨) من طريق يحيى عن شعبة به.

عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، [به][(١)] [(٢)]. وهكذا رواه ابن جرير[(٣)] من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به[(٤)]. ورواه البيهقي أيضا من طريق إبراهيم بن طَهْمَان وَهُشَيْم، كلاهما عن حُصَين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره[(٥)].

رواية عبد الله بن عباس [رضى الله عنهما][(٦)]:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عراَك بن مالك، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر فى زمان رسول [(٧)] الله ﷺ[(٨)].

ورواه البخارى أيضا ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عِراَك [بن مالك][(٩)]، به مثله[(١٠)].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبى هند، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ .وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾** قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس نحو هذا.

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القُطَعِى، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُسِفَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سُحِر القمر. فنزلت: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾** إلى قوله: **﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾** [(١١)].

رواية عبد الله بن عمر:

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضى قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدّورى، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾** قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد».

---

(١) زيادة من م.
(٢) المسند (٤/ ٨١) ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٦٨).
(٣) فى أ: «جبير».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).
(٥) دلائل النبوة (٢/ ٢٦٨).
(٦) زيادة من م.
(٧) فى م، أ: «النبى».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٦).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٦٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٣).
(١١) المعجم الكبير (١١/ ٢٥٠).

وهكذا رواه مسلم والترمذى، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به[(١)]. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذى: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وهكذا رواه البخارى ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به[(٢)]. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر عبد الله بن سَخْبَرَة، عن ابن مسعود، به[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرملى، حدثنا عمى يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عِبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا»[(٤)].

قال البخارى: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة[(٥)].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبى كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السّفَّار فقالوا: ذلك[(٦)].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدَّوْرِى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبى كَبْشَة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأيناه.

رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به[(٧)]، وزاد: فأنزل الله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ثم قال ابن جرير:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٨٨).
(٢) المسند (١/ ٣٧٧) وصحيح البخارى برقم (٤٨٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٩).
(٦) مسند الطيالسى برقم (٢٩٥).
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٦٦) وتفسير الطبرى (٢٧/ ٥٠).

حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا أيوب، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: نبئت أن ابن مسعود، رضى الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر(١).

وقال ابن جرير أيضا: حدثنى محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سِمَاك، عن إبراهيم ،عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق.

ورواه الإمام أحمد عن مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتى القمر(٢).

وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سُحِر القمر حتى انشق(٣).

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به.

ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى:ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال(٤) قتادة :معناه: أن الخير واقع بأهل الخير،والشر واقع بأهل الشر.

وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: يوم القيامة.

وقال السدى: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى(٥): أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي(٦) الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).
(٢) المسند (١/ ٤١٣).
(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).
(٤) فى م: «قاله».
(٥) فى م، أ: «بمعنى».
(٦) فى م، أ: «فما تغنى».

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أى: إلى شىء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، «خاشعاً أبصارُهُم» أى: ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ ، لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرِير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهروه وزجروه وأوعدوه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أى: إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾. قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى: نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التى هى محال النيران نبعت عيونا، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء ومن الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر.

وروى ابن أبى حاتم أن ابن الكَوَّاء سأل عليا عن المجرة فقال: هى شرج السماء، ومنها فتحت

السماء بماء منهمر.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظى، وقتادة، وابن زيد: هى المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبُك.

وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذى يضرب به الموج.

وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾(١).

وهكذا رواه البخارى: حدثنا يحيى، حدثنا وَكيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود(٢) بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِرٍ﴾. فقال النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٣).

وروى البخارى أيضا من حديث شعبة، عن أبى إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٤).

وقال: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا زُهَيْر، عن أبى إسحاق؛ أنه سمع رجلا يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو: ﴿مُّذكِرٍ﴾ ؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً.

---

(١) المسند (١/ ٣٩٥).

(٢) فى م: «عن أبى الأسود».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٩)

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبى إسحاق[١].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: كيف كان عذابى لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرى، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ[٢] أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هَوَّنّا قراءته.

وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل.

قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تَقدّم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرظى: فهل من منزجر عن المعاصى؟

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضَمْرَة[٣]، عن ابن شَوْذَب، عن مَطَر ـ هو الوراق ـ فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيُعَان عليه؟

وكذا علقه البخارى بصيغة الجزم، عن[٤] مطر الوراق و[كذا][٥] رواه ابن جرير[٦]، وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧١) وصحيح مسلم برقم (٨٢٣) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٧) وسنن النسائى (٢/ ١٥٠).

(٢) فى م: «ليذكر».

(٣) فى أ: «حمزة». (٤) فى أ: «على». (٥) زيادة من م.

(٦) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥٧).

أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسّدّى. ﴿مُسْتَمِرٍ﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى.

وقوله: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) ﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال آمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾: قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

ثم قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾: قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدّار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَى﴾أى: فَجَسر[١] ﴿فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابى[٢] [لهم][٣] على كفرهم بى

(١) فى م: «حسر». (٢) فى م: «عذابى». (٣) زيادة من م، أ.

وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق [(١)] منهم باقية، وخمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يبَيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر ـ قال السدى ـ: هو المرعى بالصحراء حين ييبس وتحرق ونسفته الريح.

وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشى من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى، والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهى: الحجارة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ. وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾، وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط [عليه السلام] [(٢)] وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى: نساءهم، ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: ليس لنا فيهن أرَبٌ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم.

(١) فى م، أ: «يبق».
(٢) زيادة من أ.

وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ .وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخْذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم [(١)] يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً.

ثم قال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم [(٢)] من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال مخبرا عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أى: يعتقدون أنهم مناصرون [(٣)] بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون.

قال البخارى: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد ـ وقال أيضا: حدثنا محمد، حدثنا [(٤)] عفان بن مسلم، عن وُهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال ـ وهو فى قبة له يوم بدر ـ: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم [(٥)] أبدا». فأخذ أبو بكر، رضى الله عنه، بيده وقال: حسبك يارسول الله! ألحت على ربك. فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وكذا رواه البخارى والنسائى فى غير موضع، من حديث خالد ـ وهو مِهْران [(٦)] الحذاء ـ به[(٧)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزّهرَانى، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [قال][(٨)]: قال عمر: أىّ جمَع يهزم؟ أىّ جَمْع

---

(١) فى م: «فلم». (٢) فى م: «معهم». (٣) فى م، أ: «يتناصرون».
(٤) فى م: «ابن». (٥) فى م: «بعد اليوم فى الأرض». (٦) فى م، أ: «وهو ابن مهران».
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٥٧).
(٨) زيادة من أ.

يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[(١)].

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: أخبرنى يوسف بن ماهَكَ قال: إنى عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة - وإنى لجارية ألعب - ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصرا[(٢)]. ورواه فى فضائل القرآن مطولا[(٣)]، ولم يخرجه مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾.

يخبرنا [(٤)] تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أى: كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣]، أى: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما [(٥)] شاكلها من الآيات، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا [(٦)] فى أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلا، وما ورد فيه من الأحاديث فى شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخارى»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة:

قال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثورى، عن زياد بن إسماعيل السهمى، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبى هُرَيرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب به.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٦).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٣).
(٤) فى م: «يخبر». (٥) فى م: «وما». (٦) فى أ: «سعوا».

وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثورى، به[١].

وقال البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا يونس بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، إلا فى أهل القدر[٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سهل[٣] بن صالح الأنطاكى، حدثنى قُرَّةُ بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جَعْدَةَ، عن ابن زُرَارة، عن أبيه، عن النبى ﷺ؛ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، قال: «نزلت فى أناس من أمتى يكونون فى آخر الزمان يكذبون بقدر الله»[٤].

وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزَرَى، عن عبد الملك بن جُرَيْج، عن عطاء ابن أبى رَبَاح، قال: أتيت ابن عباس وهو يَنْزِع من زمزم، وقد ابتلّت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّم فى القدر. فقال: أو [قد][٥] فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تُصَلّوا على موتاهم، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعى، عن بعض إخوته، عن محمد بن عبَيْد المكى، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلا قدم علينا يُكَذّب بالقدر فقال: دلونى عليه ـ وهو أعمى ـ قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضَّنّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدقنها؛ فإنى[٦] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأنى بنساء بنى فِهرْ يَطُفْنَ بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك هذه الأمة، والذى نفسى بيده، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدّر خيرا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا»[٧].

ثم رواه أحمد عن أبى المغيرة، عن الأوزاعى، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله[٨]. لم يخرجوه.

---

(١) المسند (٢/ ٤٤٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٣).

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٦٥) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧): «فيه يونس بن الحارث، وثقه ابن معين وابن حبان وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٣) فى أ: «سهيل».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٧٦) من طريق قرة بن حبيب عن جرير بن حازم ـ وأظن أن كنانة ساقط منه ـ عن سعيد بن عمرو به.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧): «فيه من لم أعرفه».

(٥) زيادة من م.

(٦) فى أ: «قال».

(٧، ٨) المسند (١/ ٣٣٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنى أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه[١]، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر، فإياك أن تكتب إلىّ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر».

رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به[٢].

وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة، عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ. قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتى الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٣].

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رِشْدِين، عن أبى صخر حُمَيد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى هذه الأمة مسخ، ألا وذاك فى المكذبين بالقدر والزنديقية».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث أبى صخر حميد بن زياد، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرنى مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليمانى قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شىء بقدر، حتى العجز والكيس».

ورواه مسلم منفردا به، من حديث مالك[٥][٦].

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٧].

وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف»[٨].

---

(١) فى م: «فكاتبه».
(٢) المسند (٢/ ٩٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦١٣).
(٣) المسند (٢/ ٨٦).
(٤) المسند (٢/ ١٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٦١).
(٥) فى م: «ورواه مسلم من حديث مالك منفردًا به».
(٦) المسند (٢/ ١١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٥).
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٨) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوَّار، حدثنا الليث[١]، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثنى أبى قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»يابنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار[٢].

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى البَلْخِى، عن أبى داود الطيالسى، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبى رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب[٣].

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن رِبْعِى بن خِرَاش، عن رجل، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره».

وكذا رواه الترمذى من حديث النضر بن شُمَيْل، عن شعبة عن منصور، به[٤]. ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن[٥] منصور عن ربعى، عن على فذكره وقال: «هذا عندى أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربعى، عن على، به[٦].

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبى[٧] هانئ الخولانى، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب[٨].

وقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر

---

(١) فى م: «ليث».

(٢) المسند (٥/ ٣١٧).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩).

(٤) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ١٣٣) عن وكيع، والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) عن أبى حذيفة، كلاهما عن سفيان الثورى به.

وقد رجح هذه الرواية الدارقطنى فى العلل (٣/ ١٩٦) فقال: «حديث شريك وورقاء وجرير وعمرو بن أبى قيس عن منصور عن ربعى عن على. وخالفهم سفيان الثورى وزائدة أبو الأحوص وسليمان التيمى فرووه: عن منصور عن ربعى عن رجل من بنى راشد عن على وهو الصواب».

(٥) فى م: «بن».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) وسنن ابن ماجه برقم (٨١).

(٧) فى أ: «أم».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦).

بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر[١]، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا ما أَرَادَ الله أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لهُ: كُنْ، قَوْلَةً[٢] فَيَكُونُ

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُم﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثنى عوف بن الحارث ـ وهو ابن أخى عائشة لأمها ـ عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا».

ورواه النسائى وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدنى[٣]. وثقه[٤] أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر[٥]، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره، فأتاه آت فى منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحْقِرنَّ من الذنوبِ صَغِيـــرا إن الصَّغير غداً يعـــود[٦] كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهـــده عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيــــــرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن صعب القياد وشمرن[٧] تشميرا
إن المحُبَّ إذا أحب إلههُ طار الفؤاد وأُلْهِم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بِنِيَّة فكَفَى بِرِبّكَ هاديا ونصيرا[٨]

---

(١) فى م: «كلمح بالبصر». (٢) فى أ: «فى الوجود».
(٣) المسند (٦/ ١٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٤٣).
(٤) فى أ: «الذى وثقه».
(٥) تاريخ دمشق (٧/ ٣٥٣ «المخطوط») من طريق أبى عامر العقدى والقعنبى، كلاهما عن سعيد بن مسلم به.
(٦) فى أ: «يكون». (٧) فى م: «وشمر».
(٨) تاريخ دمشق (٧/ ٣٥٣ «القسم المخطوط»).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو[1] ـ يَبلُغُ به النبى ﷺ ـ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

انفرد بإخراجه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله[2].

آخر تفسير سورة «اقتربت»، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

---

(١) فى م: «عبد الله بن أبى عمرو» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧)، وسنن النسائى (٨/ ٢٢١).

سورة القمر

مكّيّة، وهي خمس وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ رُوي أنّ الكفّار سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آيةً، / فانشقّ القمر.[1] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «انفلق فلقتين: فلقةٌ ذهبتْ وفلقةٌ بقيَتْ».[2] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «رأيتُ حِراءَ بين فلقتَي القمر».[3] [١٤٥و]

وعن عثمانَ بن عطاء عن أبيه أنّ معناه سينشقّ يومَ القيامة،[4] ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ فإنّه ناطق بأنّه قد وقَع، وأنّهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره. وقد قُرئ: "وَقَد انْشَقَّ القَمَرُ"،[5] أي: اقتربت الساعة وقد حصل مِن آيات اقترابها أنّ القمر قد انشقّ.

ومعنى الاستمرار الاطِّراد أو الاستحكام، أي: وإن يرَوا آيةً مِن آيات الله تعالى يُعرِضوا عن التأمّل فيها ليقفوا على حقّيّتها وعُلوّ طبقتها ويقولوا: سِحْر مُطّرد دائم يأتي به محمّد عليه السلام على مرّ الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السِّحر، أو قويّ مُستحكِم لا يمكن إزالته. وقيل: مستمرّ ذاهبٌ يزول ولا يبقى تمنيةً لأنفسهم وتعليلًا.[6] وهو الأنسبُ بغُلوّهم في العناد والمكابرة، ويؤيّده ما سيأتي لردّه. وقُرئ: "وَإِن يُرَوا"[7] على البناء للمفعول مِن "الإراءة".

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٢٠٦/٤ (٣٦٣٧)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٩/٤ (٢٨٠٢).

٢ بمعناه في صحيح البخاري، ١٤٢/٦ (٤٨٦٤)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٨/٤ (٢٨٠٠)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٢٥/٧؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن حذيفة بن اليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما عاينوه ممّا أظهره الله تعالى على يده مِن المعجزات ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ التي زيّنها الشيطان لهم أو كذّبوا الآية التي هي انشقاق القمر واتّبعوا أهواءهم وقالوا: «سَحَر القمرَ، أو سَحَر أعينَنا والقمرُ بحاله». وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ استئناف مَسوق لإقناطهم عمّا علّقوا به أمانيّهم الفارغة مِن عدم استقرار أمره عليه السلام حسبما قالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ ببيان ثباته ورسوخِه، أي: وكلّ أمر مِن الأمور مستقرّ، أي: مُنتَهٍ إلى غاية يستقرّ عليها لا محالةَ، ومِن جملتها أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فسيصير إلى غاية يتبيّن عندها حقّيّته وعُلوّ شأنه.

وإبهام المستقرّ عليه للتنبيه على كمال ظهور الحالِ وعدم الحاجةِ إلى التصريح به. وقيل: المعنى كلّ أمر مِن أمرهم وأمره عليه السلام مستقرٌّ، أي: سيثبت ويستقرّ على حالةِ خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوةِ أو سعادة في الآخرة. وقُرئ بالفتح[1] على أنّه مصدر، أو اسم مكان، أو اسم زمان، أي: ذو استقرار، / أو ذو موضع استقرار، أو ذو زمان استقرار، وبالكسر والجرّ[2] على أنّه [١٤٥ظ]
صفة ﴿أَمۡرٖ﴾. و﴿كُلُّ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: اقتربت الساعةُ وكلُّ أمر مستقرّ.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ أي: في القرآن. وقوله تعالى:[3] ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أي: أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة، متعلّق بمحذوف هو حال ممّا بعده، أي: وبالله لقد جاءهم كائنًا مِن الأنباء ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: ازدجارٌ مِن تعذيب أو وعيد، أو موضعُ ازدجار، على أنّ "في" تجريديّة، والمعنى أنّه في نفسه موضعُ ازدجار، وتاء الافتعال تُقلَب دالًا مع "الدال" و"الذال" و"الزاء" للتناسب. وقُرئ: "مُزَّجَرٌ"[4] بقلبها زاء وإدغامها.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.
[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠.
[3] م - تعالى.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٤.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ غايتها لا خَلَل فيها، وهي بدل مِن ﴿مَا﴾،[١] أو خبر لمحذوف. وقُرئ بالنصب[٢] حالًا منها، فإنّها موصولة أو موصوفة تخصّصت بصفتها فساغ نصبُ الحال عنها.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي للإغناء، أو إنكار له. و"الفاء" لترتيب عدمِ الإغناء على مجيء الحكمة البالغة مع كونه مَظِنّة للإغناء. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد عدم الإغناء واستمراره، حسب تجدّد مجيء الزواجر واستمراره،[٣] و﴿مَا﴾ على الوجه الثاني[٤] منصوبةٌ، أي: فأيّ إغناء تغني النُّذر، وهو جمع نذير بمعنى المُنذِر، أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأنّ الإنذار لا يؤثّر فيهم البتّة ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ منصوب بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أو بـ"اذكُر". والداعي إسرافيلُ عليه السلام، ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة، ١١٧/٢]، وإسقاطُ "الياء" للاكتفاء بالكسر تخفيفًا. ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: منكَر فظيع تُنكِره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هَول القيامة. وقُرئ: "نُكْرٍ"[٥] بالتخفيف و"نُكِرَ"[٦] بمعنى أنكِر.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ والتقديمُ لأنّ العامل متصرِّف، أي: يخرجون ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أذلّةً أبصارهم مِن شِدّة الهول. وقُرئ: "خَاشِعًا"،[٧] والإفرادُ والتذكيرُ لأنّ فاعله ظاهر غيرُ حقيقيّ التأنيث. وقُرئ: "خَاشِعَةً"[٨]

---

١ في الآية السالفة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٣ س ي - حسب تجدُّد مجيء الزواجر واستمراره.

٤ س - على الوجه الثاني.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢، ٣٨٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٧ قرأ بها أبو عمرو حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٠/٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

على الأصل، وقُرئ: "خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ"[١] على الابتداء والخبر على أنّ الجملة
حالٌ. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموّج / والتفرّق في الأقطار. [١٤٦و]

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ مِن وصف اليوم بالأهوال وأهلِه بسوء الحال، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: صَعْب شديد. وفي إسناد القولِ المذكور إلى الكفّار تلويحٌ بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة مِن الشِّدّة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ شروع في تعداد بعض ما ذُكر مِن الأنباء الموجِبة للازدجار، ونوعُ تفصيل لها، وبيانٌ لعدم تأثُّرهم بها تقريرًا لفحوى قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾،[٢] أي: فعَل التكذيبَ قبل تكذيب قومِك قومُ نوح. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهَم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾... إلخ [هود، ١١/٤٥]، وفيه مزيدُ تقرير وتحقيقٍ للتكذيب. وقيل: معناه كذّبوه تكذيبًا إثرَ تكذيب كلّما خلا منهم قَرْن مكذِّب جاء عَقيبه قَرْن آخرُ مكذِّب مِثلُه. وقيل: كذّبت قوم نوح الرسلَ فكذّبوا عبدنا لأنّه مِن جملتهم.[٣] وفي ذِكره عليه السلام بعنوان العبوديّة مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيمٌ له عليه السلام ورفعٌ لمحلّه وزيادةُ تشنيع لمكذِّبيه.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: لم يقتصروا على مجرّد التكذيب؛ بل نسبوه إلى الجنون. ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ عطفٌ على ﴿قَالُوا۟﴾ أي: وزُجِر عن التبليغ بأنواع الأذيّة. وقيل: هو مِن جملة ما قالوه، أي: هو مجنون، وقد ازدجرَته الجِنّ وتخبّطَته.[٤]

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٦.
[٢] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
[٣] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٧.
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٧.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: بأنّي. وقُرِئ بالكسر[١] على إرادة القول. ﴿مَغْلُوبٌ﴾ أي: مِن جهة قومي، ما لي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فانتقِم لي منهم، وذلك بعد تقرُّر يأسه منهم بعد اللَّتيّا والتي،[٢] فقد رُوي أنّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتّى يخرّ مغشيًّا عليه، ويقول: اللّٰهمّ اغفِر لقومي فإنّهم لا يعلمون.[٣]

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ مُنصبّ، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدّة انصبابها. وقُرِئ: "فَفَتَّحْنا"[٤] بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: جعلنا الأرضَ كلَّها كأنّها عُيون متفجِّرة، وأصله "وفجَّرنا عيونَ الأرضِ"، فغُيِّر قضاءً لحَقّ المقام. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض، والإفرادُ لتحقيق أنّ التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب؛ بل بطريق الاختلاط والاتّحاد. وقُرِئ: "المَاءَانِ"[٥] لاختلاف النوعين، و"المَاوَانِ"[٦] بقلب "الهمزة" واوًا.

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: كائنًا على حال قد قدّرها الله تعالى مِن غير تفاوت، / أو على حال قُدِّرت وسُوِّيت، وهو أنّ قَدْر ما أُنزِل على قَدْر ما أُخرِج، أو على أمر قدَّره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. [١٤٦ظ]

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٍ﴾ ومساميرَ، جمع "دِسار" مِن "الدَّسْر" وهو الدفع، وهي صفة للسفينة أُقيمت مُقامها مِن حيث إنّها كالشرح لها تؤدّي مؤدّاها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمَرأى منا، أي: محفوظةً بحفظنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعَلْنا ذلك جزاءً لنوح عليه السلام؛ لأنّه كان نعمةً كفروها، فإنّ كلّ نبيّ نعمةٌ

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق وابن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٤.

[٢] اللُّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٧.

[٤] قرأ بها ابن عامر وابن وردان وابن جمّاز ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري ومحمّد بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨.

مِن الله تعالى على أمّته ورحمةٌ، وأيُّ نعمة وأيُّ رحمة؟ وقد جُوِّز أن يكون على حذف الجارّ وإيصالِ الفعل إلى الضمير واستتارِه في الفعل بعد انقلابه مرفوعًا. وقُرئ: "لِمَنْ كَفَرَ"،[1] أي: للكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أي: السفينة أو الفعلة ﴿ءَايَةً﴾ يعتبر بها مَن يقف على خبرها. وقال قتادة: أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة.[2] وقيل: على الجُوديّ دهرًا طويلًا حتّى نظر إليها أوائل هذه الأمّة.[3]

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: معتبِر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار. وقُرئ: "مُذْتَكِرٍ"[4] على الأصل، و"مُذَّكِرٍ"[5] بقلب "التاء" ذالًا والإدغام فيها.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهامُ تعظيم وتعجيب، أي: كانا على كيفيّة هائلة لا يُحيط بها الوصف، والنُّذر جمع "نذير" بمعنى الإنذار.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾... إلى آخره جملة قسميّة وردت في أواخر القصص الأربع تقريرًا لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾،[6] وتنبيهًا على أنّ كلّ قصّة منها مستقلّة بإيجاب الادّكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيّز الاعتبار، أي: وبالله لقد سهّلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحنّاه بأنواع المواعظ والعِبَر وصرّفنا فيه مِن الوعيد والوعد.

﴿لِلذِّكۡرِ﴾ أي: للتذكّر والاتّعاظ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ إنكار ونفي للمتّعظ على أبلغ وجه وآكَدِه، حيث يدلّ على أنّه لا يقدر أحد أن يُجيب المستفهم بـ"نَعم".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن رُومان وقتادة وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣١.

[2] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٢٥/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وقتادة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣٢.

[6] في الآيتين الرابعة والخامسة مِن هذه السورة.

وحملُ تيسيره على تسهيل حفظِه بجزالة نظمِه وعذوبةِ ألفاظه وعباراته[١] / ممّا [١٤٧و]
لا يُساعده المقام.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ أي: هودًا عليه السلام ولم يتعرّض لكيفيّة تكذيبهم له عليه السلام رَومًا للاختصار ومسارعةً إلى بيان ما فيه الازدجارُ مِن العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحوَ الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذِكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم مِن حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده، كأنّه قيل: كذَّبت عاد فهل سمعتُم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ استئناف ببيان ما أُجمِل أوّلًا، أي: أرسلنا عليهم ريحًا باردةً أو شديدةَ الصوت ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ شؤم ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ أي: شؤمه أو مستمرّ عليهم إلى أن أهلكهم أو شاملٌ لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتدّ مراراته، وكان يوم الأربعاء آخرَ الشهر.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم، رُوي أنّهم دخلوا الشِّعاب والحُفَر وتمسَّك بعضهم ببعض فنزعتهم الرِّيح وصرعتهم موتى.[٢] ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي: منقلِع عن مغارسه. قيل: شُبّهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع؛ لأنّ الريح كانت تقلع رءوسهم فتُبقي أجسادًا وجُثثًا بلا رءوس. وتذكيرُ صفة ﴿نَخۡلٖ﴾ للنظر إلى اللفظ، كما أنّ تأنيثها في قوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة، ٦٩/٧] للنظر إلى المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تهويل لهما وتعجيبٌ مِن أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبةُ تكرار. وما قيل: مِن أنّ الأوّل لِما حاق بهم في الدنيا والثاني لِما يحيق بهم في الآخرة،[٣] يردُّه ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.

---

١ م + ألفاظه. | القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٧/٣.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الكلامُ فيه كالذي مرّ فيما سبق.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: الإنذارات والمواعظ التي سمعوها مِن صالح، أو بالرسل عليهم السلام، فإنّ تكذيبَ أحدهم تكذيبٌ للكلّ لاتّفاقهم على أصول الشرائع.

[١٤٧ظ] / ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ أي: كائنًا مِن جنسنا، وانتصابُه بفعل يفسّره ما بعده. ﴿وَٰحِدًا﴾ أي: منفردًا لا تَبَع له، أو واحدًا مِن آحادهم لا مِن أشرافهم، وهو صفة أخرى لـ﴿بَشَرًا﴾، وتأخيرُه عن الصفة المئوّلة للتنبيه على أنّ كلًّا مِن الجنسيّة والوحدة ممّا يمنع الاتّباع، ولو قُدِّم عليها لفاتت هذه النكتة. وقُرِئ: "أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ"[١] على الابتداء. وقوله تعالى: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ خبرُه والأوّل أوجَهُ للاستفهام.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: على تقدير اتّباعنا له وهو منفرِد ونحن أمّة جمّة ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، فإنّ ذلك بمَعزِل مِن مقتضى العقل. وقيل: كان يقول لهم: إن لم تتّبعوني كنتم في ضلال عن الحقّ.[٢] و﴿سُعُرٍ﴾ أي: نيران جمع "سَعير"، فعكسوا عليه لغاية عتوّهم فقالوا: إن اتّبعناك كنّا إذن كما تقول.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: الكتاب والوحي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا مَن هو أحقّ منه بذلك ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك؛ بل هو كذا وكذا حَمَله بَطَره على الترفّع علينا بما ادّعاه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٥.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٩.

وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ حكاية لِما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدًا له ووعيدًا لقومه، و"السين" لتقريب مضمون الجملة وتأكيدِه، والمراد بـ"الغد" وقتُ نزول العذاب، أي: سيعلمون البتّةَ عن قريب مَن الكذّاب الأشِر الذي حَمَله أشَره وبَطَره على الترفّع، أصالح هو أم مَن كذّبه.

وقُرئ: "سَتَعْلَمُونَ"،[١] على الالتفات لتشديد التوبيخ، أو على حكاية ما أجابهم به صالح. وقُرئ: "الأَشُرُ"[٢] كقولهم: "حَذُر" في "حَذِر". وقُرئ: "الأَشَرُّ"،[٣] أي: الأبلَغ في الشرارة، وهو أصل مرفوض كـ"الأَخْيَرُ".

وقيل: المراد بـ"الغد" يوم القيامة،[٤] ويأباه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾... إلخ، فإنّه استئناف مسوقٌ لبيان مبادي الموعود حتمًا، أي: مخرجوها مِن الهضبة حسبما سألوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: امتحانًا ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: فانتظرهم وتبصَّر ما يصنعون / ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذيّتهم. [١٤٨و]

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم، لها يوم ولهم يوم. و﴿بَيْنَهُمْ﴾ لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ هو قُدار بن سالف،[٥] أُحيمِر ثمودَ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غيرَ مكترِث له فأحدث العَقْر بالناقة. وقيل: فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف فقتلها،[٦] والتعاطي تناول الشيء بتكلّف.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في صدر قصّة عادٍ.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي قلابة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٣٣.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٢٩/٤.

٤ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٤٧/٣.

٥ هو قُدار بن سالف بن جُنْدَع، كان أحمر أزرق قصيرًا، وهو الذي تولّى قتل ناقة ثمود، وهو واحد مِن التسعة رهط المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل، ٤٨/٢٧]. انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٣١٣/١.

٦ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٢٩/٤.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي صيحة جبزيلَ عليه السلام ﴿فَكَانُواْ﴾ أي: فصاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالشجر اليابس الذي يتّخذه مَن يعمل الحظيرة لأجلها، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء. وقُرئ بفتح "الظاء"،[١] أي: كهشيم الحظيرة، أو الشجر المتّخَذ لها.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۞ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا تحصبهم، أي: ترميهم بالحصباء ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ في سَحَر وهي[٢] آخرُ الليل. وقيل: هو السُدُس الأخير منه،[٣] أو:[٤] ملتبِسين بسَحَر.

﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي: إنعامًا منّا، وهو علّة لـ"نجّينا". ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ لوط عليه السلام[٥] ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ أي: أخذَتنا الشديدة بالعذاب ﴿فَتَمَارَوۡاْ﴾ فكذّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متشاكّين.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ قصدوا الفجور بهم ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فمسحناها وسوّيناها كسائر الوجه. رُوي أنّهم لمّا دخلوا داره عُنوةً صَفقهم جبريلُ عليه السلام صفقةً فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لوط عليه السلام.[٦]

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لهم "ذُوقوا" / على ألسِنة الملائكة، أو ظاهر الحال، والمراد به الطمس، فإنّه مِن جملة ما أُنذروه مِن العذاب. [١٤٨ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.
٢ س: وهو.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٠/٤.
٤ س: أي.
٥ س + عليه السلام.
٦ م – عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وقُرِئ: "بُكْرَةَ"[١] غيرَ مصروفة على أنّ المراد بها أوّلُ نهار مخصوص. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يُفارِقهم حتّى يسلِمهم إلى النار. وفي وصفه بالاستقرار إيماءٌ إلى أنّ ما قبله مِن عذاب الطمس ينتهي به.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ حكاية لِما قيل لهم حينئذ مِن جهته تعالى تشديدًا للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ صُدِّرت قصّتهم بالتوكيد القسَمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عِظَم ما فيها مِن الآيات وكثرتها وهَول ما لاقوه مِن العذاب وقوّة إيجابها للاتّعاظ. والاكتفاءُ بذِكر آل فرعونَ للعِلم بأنّ نفسه أَولى بذلك، أي: وبالله لقد جاءهم الإنذارات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيء النُّذُر، كأنّه قيل: فماذا فعلوا حينئذ؟ فقيل: كذّبوا بجميع آياتنا، وهي الآيات التسع. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغالَب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يُعجِزه شيء.

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشرَ العرب ﴿خَيْرٌ﴾ قوّةً وشدّةً وعِدّةً وعُدّةً أو مكانةً ﴿مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الكفّار المعدودين. والمعنى أنّه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريّتهم منكم فيما ذُكر مِن الأمور، فهل تطمعون ألّا يُصيبكم مثلُ ذلك، وأنتم شرٌّ منهم مكانًا وأسوأ حالًا.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ إضراب وانتقال مِن التبكيت بما ذُكر إلى التبكيت بوجه آخرَ، أي: بل ألكم براءة وأمنٌ مِن تبِعات ما تعملون مِن الكفر والمعاصي وغوائلهما في الكتب السماويّة فلذلك، تصرُّون على ما أنتم عليه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ إضراب مِن التبكيت المذكور إلى وجه آخرَ مِن التبكيت. والالتفاتُ للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطِهم عن رُتبة الخطاب وحكايةِ قبائحهم لغيرهم، أي: بل أيقولون واثقين بشوكتهم: نحن أولو حَزْم ورأي أمرنا مجتمع لا نُرام ولا نُضام أو مُنتصِر مِن الأعداء لا نُغلب أو متناصِر ينصر / بعضُنا بعضًا. والإفرادُ باعتبار لفظ الجميع. [١٤٩و]

وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ ردّ وإبطال لذلك، و"السين" للتأكيد، أي: يُهزَم جمعهم البتّةَ ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، وقد قُرئ كذلك.[١] والتوحيد لإرادة الجنس، أو إرادة أنّ كلّ واحد منهم يولّي دُبُره، وقد كان كذلك يوم بدر، قال سعيد بن المسيّب: سمعتُ عمرَ بن الخطّاب رضيَ الله تعالى عنه يقول: «لمّا نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنتُ لا أدري أيّ جمع يُهزَم، فلمّا كان يومُ بدر رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلبس الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فعرفتُ تأويلها».[٢] وقُرئ: "سَيَهْزِمَ الجَمْعَ"[٣] أي: الله عزّ وعلا.

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس هذا تمامَ عقوبتهم؛ بل الساعة موعِد أصل عذابهم، وهذا مِن طلائعه. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: في أقصى غاية مِن الفظاعة والمرارة. والداهيةُ: الأمر الفظيع الذي لا يُهتدى إلى الخلاص عنه. وإظهار الساعة في موقع إضمارها لتربية تهويلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مِن الأوّلين والآخرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: في هلاك ونيران مسعَّرة. وقيل: في ضلال عن الحقّ في الدنيا ونيرانٍ في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾... إلخ منصوب إمّا بما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: كائنون في ضلال وسُعُر يوم يجرُّون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١١٥٧/٢٢، ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٣٤/٧، والكشّاف للزمخشري، ٣٣١/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

وإمّا بقول مقدَّر بعده، أي: يوم يُسحَبون، يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: قاسُوا حرّها وألمها. و﴿سَقَرَ﴾ عَلَم جهنّم، ولذلك لم يُصرَف مِن "سَقَرته النارُ وصَقَرته" إذا لوَّحته. والقولُ المقدَّر على الوجه الأوّل حال مِن ضمير ﴿يُسۡحَبُونَ﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ أي: ملتبِسًا بقَدْر معيَّن اقتضَته الحكمة التي عليها يدور أمرُ التكوين، أو مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح قبل وقوعه. و﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ منصوب بفعل يفسِّره ما بعده. وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ و﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ خبرُه.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ إلّا كلمةٌ واحدة سريعةُ التكوينِ، وهو قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة، ١١٧/٢]، أو إلّا فَعْلةٌ واحدةٌ هو الإيجاد بلا معالجة / ﴿كَلَمۡحِۭ [١٤٩ظ]
بِٱلۡبَصَرِ﴾ في اليُسر والسُّرعة. وقيل: معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل، ٧٧/١٦].

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أي: أشباهكم في الكفر مِن الأمَم. وقيل: أتباعكم.[1] ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ يتّعظ بذلك.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ مِن الكفر والمعاصي مكتوب على التفصيل ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في ديوان الحَفَظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ مِن الأعمال ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله، ولمّا كان بيان سوء حال الكفَرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾... إلخ[2] ممّا يستدعي بيانَ حُسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب، بيَّن مآلهم مِن حُسن الحال بطريق الإجمال، فقيل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالإيمان، أي:

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٥/١٨.
٢ القمر، ٤٧/٥٤.

مِن الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار كذلك. والإفرادُ للاكتفاء باسم الجنس مراعاةً للفواصل، وقُرئ: "نُهُرٍ"[١] جمع "نَهْر" كـ"أُسُد" و"أَسَد".

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضيّ. وقُرئ: "فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ".[٢] ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: مقرَّبين عند مليك لا يُقادَر قَدْر مُلكه وسلطانِه، فلا شيءَ إلّا وهو تحت ملكوته، سبحانه سبحانه ما أعظمَ شأنه.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القمر في كلّ غِبٍّ بعثه الله تعالى يوم القيامة، ووجهُه مِثلُ القمر ليلةَ البدر».[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زهير القرقبي والزعفراني وأبي السّمّال، وزائدة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٧٣٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان التيمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٢/٢٥ (القمر، ١/٥٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٠٦/٤ (القمر، ١/٥٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٤

سُورَةُ القَمَرِ

مكية إلاّ «سيُهزم الجمع» الآيَة، وهي خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿اقتَرَبَتِ السّاعةُ﴾: قرُبتِ القِيامةُ، ﴿وانشَقَّ القَمَرُ﴾: انفلق فِلْقتَينِ على أبي قُبيسٍ وقُعَيقِعانَ آيةً له ﷺ، وقد سُئلها فقال: «اشهَدُوا» ـ رواه الشيخان ـ ٢ ـ ﴿وإن يَرَوا﴾ كُفّارُ قُريشٍ ﴿آيةً﴾: مُعجزة له ﷺ كانشقاق القمر ﴿يُعرِضُوا ويَقولُوا﴾: هذا ﴿سِحرٌ مُستَمِرٌّ﴾: قويّ من المِرّةِ: القُوّةِ، أو دائمٌ. ٣ ـ ﴿وكَذَّبُوا﴾ النبيّ ﴿واتَّبَعُوا أهْواءَهُم﴾ في الباطل. ﴿وكُلُّ أمرٍ﴾ من الخير والشرّ ﴿مُستَقِرٌّ﴾ بأهله في الجنّة أو النار.

٤ ـ ﴿ولَقَد جاءَهُم مِنَ الأنباءِ﴾: أخبارِ هلاكِ الأُممِ المُكذّبةِ رسلَهم ﴿ما فِيهِ مُزدَجَرٌ﴾ لهم،.......

سُورَةُ القَمَرِ

قولُهُ: (قَرُبَتِ القِيَامَةُ) وقُرِئَ: (وَقَدِ انْشَقَّ)[1]؛ أي: حصلَ مِن آياتِ اقترابِها انشقاقُ القمرِ.

قولُهُ: (قُعَيقِعَانَ) على وزنِ زُعَيفِرَانٍ جبلٌ بمكّةَ، وجهُهُ إلى أبي قُبَيسٍ.

قولُهُ: (دَائِمٌ) مطّرِدٌ، أو مارٌّ ذاهِبٌ لا يبقى.

قولُهُ: (بأَهلِهِ) أو مُنتَهٍ إلى غايةٍ مِن خِذلانٍ، أو نصرٍ في الدُّنيا وشقاوةٍ، أو سعادةٍ في الأخرى، فإنَّ الشَّيءَ إذا انتهى إلى غايتِهِ ثبتَ واستقرَّ.

قولُهُ: (هلاكِ الأُمَمِ) أو أخبارِ الآخرةِ.

قولُهُ: (لَهُم) مِن تعذيبٍ أو وعيدٍ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لحذيفة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٣).

اسمُ مصدر أو اسمُ مكان، والدالُ بدل من تاء الافتعال ـ وازدجرتُه وزجرتُه: نَهيتُه بغِلظة. وما: موصولة أو موصوفة ـ ٥ ـ ﴿حِكْمَةٌ﴾: خبرُ مُبتدأ محذوفٍ، أو بدلٌ من «ما» أو من «مُزدجر»، ﴿بالِغَةٌ﴾: تامّة، ﴿فما تُغْنِي﴾: تنفعُ فيهم ﴿النُّذُرُ﴾: جمع نَذير بمعنى: مُنذِر، أي: الأُمورُ المُنذِرة لهم. وما: للنفي أو للاستفهام الإنكاري، وهي على الثاني مفعول مُقدّم.

٦ ـ ﴿فتَوَلَّ عَنهُم﴾ هو فائدة ما قبله وبه تمّ الكلام. ﴿يَومَ يَدعُ الدّاعِ﴾ هو إسرافيل، وناصبُ «يومَ»: «يَخرجون» بعدُ، ﴿إِلَى شَيءٍ نُكُرٍ﴾ ـ بضمّ الكاف وسكونها ـ أي: مُنكَرٍ تُنكره النفوس لشدته وهو الحساب، ٧ ـ ﴿خاشِعًا﴾: ذليلاً، وفي قراءة: «خُشَّعًا» بضمّ الخاء وفتح الشين مُشدّدةً، ﴿أبصارُهُم﴾: حال من فاعل ﴿يَخرُجُونَ﴾ أيِ: الناسُ ﴿مِنَ الأجداثِ﴾: القُبور ﴿كَأَنَّهُم جَرادٌ مُنتَشِرٌ﴾ لا يدرون: أين يذهبون من الخوف والحَيرة؟ والجملة: حال من فاعل «يخرجون»، وكذا قوله: ٨ ـ ﴿مُهطِعِينَ﴾ أي: مُسرعين مادّي أعناقِهم ﴿إِلَى الدّاعِ، يَقُولُ الكافِرُونَ﴾ منهم:..........

قولُهُ: (تَامَّةٌ) أي: بالغةٌ غايَتَها لا خللَ فيهَا فهي بدلٌ من: ﴿ما﴾، أو خبرٌ لمحذوفٍ.

قولُهُ: (مُنذِرٍ) أو المنذَرِ منه، أو مصدرٌ؛ بمعنى: الإنذارِ.

قولُهُ: (أو للاستِفهَامِ) أي: فأيُّ غنًى يُغني النُّذرُ؟

قولُهُ: (هُو فَائِدَةُ) أي: لعلمِكَ أنَّ الإنذارَ لا يُغني فيهم.

قولُهُ: (﴿يخرجُونَ﴾) أو اذكُرْ مقدَّراً، وإسقاطُ الياءِ اكتفاءً بالكسرِ للتَّخفيفِ.

قولُهُ: (بِضَمِّ الكَافِ) والمكِّيُّ بالسُّكونِ[1].

قولُهُ: (لِشِدَّتِهِ) ممَّا لم تعهَدْ مثلَهُ.

قولُهُ: (وهو الحِسَابِ) أو هو هَولُ القيامَةِ.

قولُهُ: (ذَلِيلاً) وإفرادُهُ وتذكيرُهُ؛ لأنَّ فاعلَهُ ظاهرٌ غيرُ حقيقيِّ التَّأنيثِ، وقُرِئَ: (خاشعةً)[2] على الأصلِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للحرميَّينِ وشاميٌّ وعاصمٍ[3].

قولُهُ: (أي: النَّاسُ) يعني: يخرُجونَ مِن قبورِهِم ذليلاً أبصارُهُم مِن الهولِ.

قولُهُ: (مُسرِعِينَ) أو ناظِرِينَ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٣).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لليماني وابن مسعود، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٣).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٣).

﴿هذا يومٌ عَسِرٌ﴾ أي: صعب على الكافرين كما في المُدّثّر: «يَومٌ عَسِيرٌ علَى الكافِرِينَ».

٩ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبلَهُم﴾ أي: قبل قُريشٍ ﴿قَومُ نُوحٍ﴾ ـ تأنيث الفعل لمعنى «قوم» ـ ﴿فكَذَّبُوا عَبدَنا﴾ نُوحًا، ﴿وقالُوا: مَجنُونٌ. وازدُجِرَ﴾ أي: انتَهروه بالسبّ وغيره، ١٠ ـ ١١ ـ ﴿فدَعا رَبَّهُ أنّي﴾ أي: بأنّي ﴿مَغلُوبٌ فانتَصِرْ، ففَتَحْنا﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿أبوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنهَمِرٍ﴾: منصبّ انصبابًا شديدًا، ١٢ ـ ﴿وفَجَّرْنا الأرضَ عُيُونًا﴾ تَنبُعُ ﴿فالتَقَى الماءُ﴾ ماء السماء والأرض ﴿علَى أمرٍ﴾: حالٍ ﴿قَد قُدِرَ﴾: قُضِي به في الأزل ـ وهو هلاكُهم غرَقًا ـ ١٣ ـ ﴿وحَمَلْناهُ﴾ أي: نوحًا ﴿علَى﴾ سفينةٍ ﴿ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ﴾، وهي ما تُشدّ به الألواح من المسامير وغيرها، واحدها دِسار ككِتاب، ١٤ ـ ﴿تَجرِي بِأعيُنِنا﴾: بمرأى منّا أي: محفوظةً ﴿جَزاءً﴾: ....

قولُهُ: (عَلى الكَافِرِينَ) أو على الكلِّ في الجُملةِ.

قولُهُ: (نُوحاً) وهو تفسيرٌ بعد إبهامٍ، أو كذَّبوهُ بعد ما كذَّبوا الرُّسلَ.

قولُهُ: (أي: انتَهَرُوهُ) أي: زجر على التَّبليغِ بأنواعِ الأذيَّةِ.

قولُهُ: (بالفَتحِ) وقُرئَ بالكسرِ[1] على إرادَةِ القولِ.

وقولُهُ: (﴿فَانتَصِرْ﴾) أي: فانتقِمْ لي منهُم، وذلك بعدَ يأسِهِ منهُم، فقد رويَ أنَّ الواحدَ منهُم كانَ يلقاهُ فيخنقُهُ حتَّى يخرَّ مغشيًّا عليه، فيفيقَ ويقولَ: «اللَّهمَّ اغفِرْ لقَومي فإنَّهُم لا يعلمُونَ»[2].

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ[3].

قولُهُ: (تَنبُعُ) أي: جعلنا الأرضَ كلَّها كأنَّها عيونٌ متفجِّرةٌ، وأصلُه: وفجَّرْنا عيونَ الأرضِ فغُيِّرَ للمبالغَةِ.

قولُهُ: (مَاءُ السَّمَاءِ) والمرادُ بالماءِ: الجنسُ، وهو لا يُثنَّى.

قولُهُ: (حَالٍ) أي: على حالٍ قدَّرَها اللهُ مِن غيرِ تفاوُتٍ، أو على أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ، وهو هلاكُ قومِ نوحٍ بالطُّوفانِ.

قولُهُ: (الأَلوَاحُ) وهي الأخشابُ العريضَةُ المنبسطَةُ.

قولُهُ: (أي: مَحفُوظَةً) بحفظِنا.

---

(١) أي: (إني مغلوب) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عمير وأبي إسحاق وزيد بن علي، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٠٠٨)، وأحمد في «الزهد» (٢٨٠) عن عبيد الله بن عمير أنه بلغه....

وروى البخاري (٣٤٧٧) عن عبد الله: كأني أنظر إلى النبي ﷺ، يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٣).

منصوب بفعل مُقدّر، أي: أُغرِقوا انتصارًا ﴿لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾. وهو نوح عليه السلام. وقُرئ: «كَفَرَ» بناءً للفاعل، أي: أُغرِقوا عقابًا لهم.

١٥ ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾: أبقينا هذه الفَعلةَ ﴿آيَةً﴾ لمن يَعتبر بها إذ شاع خبرها واستمرّ. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: مُعتبرٍ ومُتّعظ بها؟ وأصله «مُذْتَكِر» أُبدلت التاء دالاً مُهملة، وكذا المُعجمة وأُدغمت فيها.
١٦ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: إنذاري؟ استفهام تقرير. وكيف: خبر «كان»، وهي للسؤال عن الحال. والمعنى حملُ المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه ـ تعالى ـ بالمُكذّبين لنُوح موقعَه.
١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾: سهّلناه للحِفظ أو هيّأناه للتذكّر. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتّعظٍ به وحافظٍ له؟ والاستفهام بمعنى الأمر، أي: احفظوه واتّعظوا به. وليس يُحفظ من كُتب الله عن ظهر القلب غيرُه.

١٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ نبيَّهم هُودًا فعُذّبوا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: إنذاري لهم بالعذاب قبلَ نزوله؟ أي: وقعَ موقعَه. وبيّنه بقوله: ١٩ ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾: شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: دائمِ الشؤم أو قويِّه، وكان يومَ الأربعاء آخرَ الشهر، ....

قولُهُ: (أي: أُغرِقُوا) أو فَعَلنا ذلك.

قولُهُ: (وهُو نُوحٌ) لأنّهُ نعمةٌ كفروها، فإنَّ كلَّ نبيٍّ نعمةٌ مِن اللهِ، ورحمةٌ على أمّتِهِ.

قولُهُ: (هَذهِ الفِعلَةَ) أو السَّفينةَ.

قولُهُ: (إِذْ شَاعَ) الظَّاهرُ: إذا.

قولُهُ: (مُذتَكِرٍ) وقُرئَ به[1].

قولُهُ: (تَقْرِيرٍ) أو تعظيمٍ ووعيدٍ.

قولُهُ: (للحِفْظِ) بالاختصارِ وعذوبَةِ اللَّفظِ.

قولُهُ: (للتَّذَكُّرِ) والاتِّعاظِ بأن صَرَّفنا فيه أنواعَ المواعِظِ والعبرِ.

قولُهُ: (لَهُم) أو لمن بعدَهُم في تعذيبِهِم.

قولُهُ: (وبَيَّنَهُ) أي: العذابَ.

قولُهُ: (شَدِيدَةَ الصَّوتِ) أو باردةً.

قولُهُ: (دَائِمِ الشُّؤمِ) استمرَّ شؤمُهُ على الكفرةِ، أو استمرَّ عليهم حتَّى أهلكَهُم، أو اشتدَّ حرارتُهُ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«الدر المصون» (١٠/ ١٣٦).

٢٠ ـ ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾: تقلعُهم من حُفَر الأرض المندسّين فيها، وتصرعهم على رؤوسهم فتدقّ رِقابهم، فتُبينُ الرأسَ عن الجسد، ﴿كأنّهم﴾ وحالُهم ما ذُكر ﴿أعجازُ﴾: أصولُ ﴿نَخلٍ مُنقعِرٍ﴾: مُنقلع ساقط على الأرض. وشُبّهوا بالنخل لطولهم، وذُكّرَ هنا وأُنّثَ في الحاقّة: «نَخلٍ خاوِيةٍ» مُراعاةً للفواصل في الموضعين. ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿فكيفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ؟ ولَقَد يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكرِ. فهَل مِن مُدَّكِرٍ﴾؟

٢٣ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾: جمع نَذير بمعنى مُنذِر، أي: بالأُمور التي أنذرهم بها نبيّهم صالحٌ، إن لم يُؤمنوا به ويتّبعوه، ٢٤ ـ ﴿فقالُوا: أَبَشَرًا﴾: منصوبٌ على الاِشتغال ﴿مِنّا واحِدًا﴾: صِفتان لـ «بشرًا» ﴿نَتَّبِعُهُ﴾؟ مُفسِّرٌ للفعل الناصب له، والاستفهام بمعنى النفي. المعنى: كيف نتّبعه، ونحن جماعة كثيرة، وهو واحد منّا وليس بمَلَكٍ؟ أي: لا نتّبعه. ﴿إنّا إذًا﴾ أي: إنِ اتبعناه ﴿لَفِي ضَلالٍ﴾: ذَهاب عن الصواب ﴿وسُعُرٍ﴾: جُنون. ٢٥ ـ ﴿أَأُلقِيَ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين، ....

قولُهُ: (مُنْقَلِعٍ) عن مغارِسِهِ.

قولُهُ: (بالنَّخلِ) وقيل: شُبِّهوا بالأعجازِ؛ لأنَّ الرِّيحَ طيَّرت رؤوسَهُم وطرحَتْ أجسادَهُم.

قولُهُ: (في المَوضِعَينِ) يعني: بعد ما يستَوي التَّذكيرُ والتَّأنيثُ في النَّخلِ، اختيرَ كلٌّ في كلٍّ للفاصلةِ، وفي «القاموسِ»[1]: النَّخلُ معروفٌ ويذكَّرُ، فأشارَ إلى أنَّ الأصلَ فيه التَّأنيثُ، ولذا قالَ القاضي[2]: وتذكيرُ ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ للحملِ على اللَّفظِ، والتَّأنيثُ في قولِهِ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خاويةٍ﴾ للمعنى، وهو ما يُنافي رعايَةَ الفواصلِ.

قولُـهُ تعالـى: (﴿فَكَيْـفَ﴾) كـرَّرَهُ للتَّهويـلِ، أو الأوَّلُ لمـا حـاقَ بهم فـي الدُّنيـا، والثَّاني لمـا يحيقُ بهم فـي العُقْبى.

قولُهُ: (بِمَعنَى: مُنْذِرٍ) أو إنذارٍ.

قولُهُ: (أي: بالأُمُورِ) أي: بالإنذاراتِ، أو المواعظِ، أو الرُّسلِ.

قولُهُ: (صِفَتَانِ لـ«بَشَراً») أي: مِن جِنسِنا، أو مِن جُملتِنا، لا فضلَ له علينا، مُنفرداً لا تَبَعَ له، أو مِن آحادِهِم دونَ أشرافِهِم.

قولُهُ: (بِتَحقِيقِ الهَمْزَتَينِ) مرَّ في «صاد»[3].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٦١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦٦).

(٣) في الآية رقم: (٨).

وتركِه ـ ﴿الذِّكرُ﴾: الوحيُ ﴿عليهِ مِن بَينِنا﴾؟ أي: لم يُوحَ إليه، ﴿بَل هُوَ كَذّابٌ﴾ في قوله: «إنه أُوحي إليه ما ذُكر» ﴿أشِرٌ﴾: مُتكبّر بَطِر.

٢٦ ـ قال تعالى: ﴿سَيَعلَمُونَ غَدًا﴾ أي: في الآخرة: ﴿مَنِ الكَذّابُ الأشِرُ﴾؟ وهو هم، بأن يُعذَّبوا على تكذيبهم لنبيِّهم صالح. ٢٧ ـ ﴿إنّا مُرسِلُو النّاقةِ﴾: مُخرجوها من الهضبةِ الصَّخرةِ كما سألوا ﴿فِتنةً﴾: مِحنة ﴿لَهم﴾ لِنختبرهم. ﴿فارتَقِبْهُم﴾ ـ يا صالحُ ـ أي: انتظرْ ما هم صانعون وما يُصنع بهم، ﴿واصطَبِرْ﴾ ـ الطاء بدل من تاء الافتعال ـ أي: اصبرْ على أذاهم، ٢٨ ـ ﴿ونَبِّئْهُم أنَّ الماءَ قِسْمةٌ﴾: مقسوم ﴿بَينَهُم﴾ وبين الناقة، فيوم لهم ويوم لها، ﴿كُلُّ شِربٍ﴾: نصيبٍ من الماء ﴿مُحتَضَرٌ﴾: يحضُر القومُ يومَهم والناقةُ يومَها.

فتمادَوا على ذلك، ثمّ ملّوه فهمُّوا بقتل الناقة، ٢٩ ـ ﴿فنادَوا صاحِبَهُم﴾ قُدارًا ليقتلها، ﴿فتَعاطَى﴾: تناول السيف، ﴿فعَقَرَ﴾ به الناقة، أي: قتلها مُوافقةً لهم. ٣٠ ـ ﴿فكَيفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ﴾ أي: إنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله؟ أي: وقع موقعَه. وبيَّنه بقوله: ٣١ ـ ﴿إنّا أرسَلْنا علَيهِم صَيحةً واحِدةً، فكانُوا كَهَشِيمِ المُحتَظِرِ﴾..

قولُهُ: (الوَحْيُ) أو الكِتابُ.

قولُهُ: (أي: لَمْ يُوحَ إِلَيهِ) إذ فينا مَن هو أحقُّ منهُ بذلكَ.

قولُهُ: (بَطِرٌ) حملَهُ بطرُهُ على التَّرفُّعِ علينا بادِّعائِهِ.

قولُهُ: (فِي الآخِرَةِ) أو عندَ نزولِ العذابِ.

قولُهُ: (وهُو هُمْ) أي: الَّذي حملَهُ أشرُهُ على الاستكبارِ عن الحقِّ وطلبِ الباطلِ أصالحٌ أم مَن كذَّبه.

قولُهُ: (الهَضَبَةِ) هي الجبلُ المنبسطُ على الأرضِ، أو جبلٌ خُلِقَ مِن صَخرةٍ واحدةٍ، أو الجبلُ الطَّويلُ.

قولُهُ: (مِحنَةً) أو امتحاناً.

قولُهُ: (أي: انتَظِرْ) وتبصَّرْ.

قولُهُ: (أي: اصْبِرْ) أي: بالِغْ في الصَّبرِ، أو دُمْ عليه.

قولُهُ: (وبَينَ النَّاقَةِ) ففيهِ تغليبُ العقلاءِ.

قولُهُ: (قُدَارًا) بضمِّ القافِ، ابن سالفٍ، ويُلقَّبُ بأُحَيْمِرِ ثمودَ، وهو أشقى الأوَّلينَ.

قولُهُ: (أي: إِنْذَارِي) تفسيرٌ مكرَّرٌ محضٌ.

هو الذي يَجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك، يحفظهنّ فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته هو الهشيم. ٣٢ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟

٣٣ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي: بالأمور المُنذِرة لهم على لسانه. ٣٤ ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾: ريحًا ترميهم بالحَصباء ـ وهي صِغار الحِجارة الواحدُ دُونَ مَلءِ الكفّ ـ فهلَكوا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وهم ابنتاه معه ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار، أي: وقتِ الصبح من يوم غير مُعيّن ـ ولو أُريد من يوم مُعيّن لمُنع الصرفَ لأنه معرفة معدول عن «السَّحر»، لأنّ حقّه أن يُستعمل في المعرفة بـ«أل». وهل أُرسل الحاصبُ على آل لوط أوْ لا؟ قولانِ. وعُبِّر عن الاستثناء على الأوّل بأنه مُتّصل، وعلى الثاني بأنه مُنقطع وإن كان من الجِنس،..

قولُهُ: (مِنْ يَابِسِ الشَّجَرِ والشَّوكِ) تلفيقٌ؛ إذِ المعنى: كالشَّجرِ اليابسِ المتكسِّرِ الَّذي يتَّخذُهُ مَن يعملُ الحظيرةَ لأجلِها، أو كالحشيشِ الَّذي يجمعُهُ صاحبُ الحظيرةِ لماشيتِهِ في الشِّتاءِ.

قولُهُ: (مِنَ الذِّئابِ) أي: مِن دخولِهنَّ عليها، أو مِن خروجِها إليهنَّ، أو إلى غيرِهِنَّ.

قولُهُ: (أي: وَقتِ الصُّبحِ) قالَ القاضي[1]: وهو آخرُ اللَّيلِ، وفي «الكشَّافِ»[2]: وهو السُّدسُ الأخيرُ مِن اللَّيلِ، وفي «القاموسِ»[3]: قُبيلَ الصُّبحِ، ولا دلالةَ للمصنِّفِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]؛ لأنَّ معناهُ: موعدُ هلاكِهِم مبتدأً مِن السَّحرِ منتهياً إلى الصُّبحِ، أو ما قاربَ الشَّيءَ يُعْطى حكمَهُ، وهذانِ ممَّا خطرَ بالبالِ، واللهُ أعلمُ بالحالِ.

قولُهُ: (مِنْ يَومٍ) صوابُهُ: مِن ليلٍ.

قولُهُ: (قَولانِ) تَبعَ فيه أبا البقاءِ حيثُ قالَ في «إعرابِهِ»[4]: استثناءٌ منقطِعٌ، وقيل: متَّصلٌ؛ لأنَّ الجميعَ أُرسِلَ عليهِم الحاصبُ، فهلكوا إلَّا آلَ لوطٍ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ الحاصبُ لم يُرسَلْ على آلِ لوطٍ، انتهى، والصَّوابُ أنَّه استثناءٌ منقطعٌ مِن ضميرِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الرَّاجعِ إلى المكذِّبينَ مِن قومِ لوطٍ، ويُستَبعَدُ إرسالُ الحاصبِ على آلِ لوطٍ وإن لم يتفرَّعْ عليه الهلاكُ، وأيضاً فأيُّ فائدةٍ تبقى حينئذٍ بأمرِ لوطٍ بسيرِ أهلِهِ مِن بينِ الكفَّارِ.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٦٧).

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣٨).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٤٠٥).

(٤) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١١٩٥).

تسمّحًا ـ ٣٥ ـ ﴿نِعْمَةً﴾ مصدرٌ أي: إنعامًا ﴿مِن عِندِنا. كَذلِكَ﴾ مِثلَ ذلك الجزاء ﴿نجزِي مَن شَكَرَ﴾ أنعُمَنا وهو مؤمن، أو مَن آمن بالله ورسله وأطاعهم.

٣٦ ـ ﴿ولَقَد أنذَرَهُم﴾: خوّفهم لُوطٌ ﴿بَطْشَتَنا﴾: أخْذَتَنا إياهم بالعذاب، ﴿فتَمارَوا﴾: تجادلوا وكذّبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾: بإنذاره، ٣٧ ـ ﴿ولَقَد راوَدُوهُ عَن ضَيفِهِ﴾ أي: أن يُخلّيَ بينهم وبين القوم الذين أتَوه في صُورة الأضياف ليَخبُثوا بهم، وكانوا ملائكة، ﴿فطَمَسْنا أعيُنَهُم﴾: أعمَيناها وجعلناها بلا شَقّ كباقي الوجه بأن صفقها جِبريل بجناحه. ﴿فذُوقُوا﴾ فقلنا لهم: ذوقوا ﴿عَذابِي ونُذُرِ﴾ أي: إنذاري وتخويفي، أي: ثمرتَه وفائدته. ٣٨ ـ ﴿ولَقَد صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾: وقتَ الصبح من يوم غير مُعيّن، ﴿عَذابٌ مُستَقِرٌّ﴾: دائم مُتّصل بعذاب الآخرة. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿فذُوقُوا عَذابِي ونُذُرِ. ولَقَد يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكرِ. فهَل مِن مُدَّكِرٍ﴾؟

قولُهُ: (تَسَمُّحاً) يحتملُ تعلُّقُه بـ«عُبِّر» فيكونُ شاملاً للقسمينِ؛ لأنَّهُ نظرَ فيه إلى العاملِ بما تعلَّقَ به وهو: ﴿حَاصِبًا﴾ لقولِه: «وهل أُرْسِلَ الحاصبُ... » إلخ، مع أنَّ الاتِّصالَ والانفصالَ إنَّما هو باعتبارِ المستثنى منه لا عامِله، ويجوزُ تعلُّقُه بالقسمِ الأخيرِ؛ لأنَّ الانقطاعَ إنَّما يكونُ مِن غيرِ جنسِهِ حقيقةً، وإنَّما جُعِلَ هنا كأنَّه مِن غيرِ جنسِهِ، فيكونُ تسامحاً.

قولُهُ: (أي: إنْعَاماً) وهو علَّةٌ لـ﴿نجَّيْنَا﴾.

قولُهُ: (وهُو مُؤمِنٌ) أي: متَّقٍ عن الشِّركِ فقط.

قولُهُ: (تَجَادَلُوا) وتَشاكوا.

قولُهُ: (لِيَخْبُثُوا) أي: قصَدوا الفُجورَ بهِم.

قولُهُ: (وجَعَلْنَاهَا) هذا قولٌ آخرُ؛ أي: مسَخْناها وسوَّيْناها بسائرِ الوجهِ.

قولُهُ: (بأَنْ صَفَقَهَا) كذا رُويَ[1].

قولُهُ: (فَقُلْنَا) على ألسنةِ الملائكةِ، أو ظاهرُ الحالِ.

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾) كرَّرَ ذلكَ في كلِّ قصَّةٍ؛ إشعاراً بأنَّ تكذيبَ كلِّ رسولٍ مقتضٍ لنزولِ البوارِ، واستماعَ كلِّ حكايةٍ مستدعٍ للادِّكارِ، وهكذا تكريرُ قولِهِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥٩٧) عن قتادة.

٤١ ـ ﴿ولَقَد جاءَ آلَ فِرعَونَ﴾ قومَه معه ﴿النُّذُرُ﴾: الإنذار، على لسان موسى وهارونَ فلم يُؤمنوا، بل ٤٢ ـ ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها﴾ التسع التي أُوتِيَها مُوسَى، ﴿فأخَذْناهُم﴾ بالعذاب ﴿أخْذَ عَزِيزٍ﴾: قويّ ﴿مُقتَدِرٍ﴾: قادر لا يُعجزه شيء.

٤٣ ـ ﴿أكُفّارُكُم﴾ ـ يا قُريش ـ ﴿خَيرٌ مِن أُولئِكُم﴾ المذكورين من قوم نُوح إلى فِرعَون، فلم يُعذَّبوا؟ ﴿أم لكُم﴾ ـ يا كُفّارَ قُريش ـ ﴿بَراءةٌ﴾ من العذاب ﴿في الزُّبُرِ﴾: الكُتب؟ والاستفهام في الموضعين بمعنى النفي، أي: ليس الأمر كذلك. ٤٤ ـ ﴿أم يَقُولُونَ﴾ أي: كُفّارُ قُريش: ﴿نَحنُ جَمِيعٌ﴾ أي: جمعٌ ﴿مُنتَصِرٌ﴾ على مُحمّد. ولمّا قال أبو جهل يوم بدر: «إنّا جميعٌ مُنتصرٌ» نزل: ٤٥ ـ ﴿سَيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فهُزموا ببدر، ونُصر رسول الله ﷺ عليهم. ٤٦ ـ ﴿بَلِ السّاعةُ مَوعِدُهُم﴾ بالعذاب، ﴿والسّاعةُ﴾ أي: عذابُها ﴿أدهَى﴾: أعظمُ بليّةً ﴿وأمَرُّ﴾: أشدّ مرارة من عذاب الدنيا. ٤٧ ـ ﴿إنَّ المُجرِمِينَ في ضَلالٍ﴾:..............................

قولُهُ: (قَومَهُ مَعَهُ) اكتفى بذكرِهم عن ذكرِهِ؛ للعلمِ بأنَّه أولى بذلكَ.

قولُهُ: (قَوِيٍّ) لا يغالبُ.

قولُهُ: (يَا قُرَيشُ) أو معشرَ العربِ.

قولُهُ: (المَذكُورِينَ) أي: الكفَّارِ المعدودينَ قوَّةً وعدَّةً، أو مكانةً وديناً عندَ اللهِ.

قولُهُ: (الكُتُبِ) يعني: أم نزَلَ لكُم في الكتبِ السَّماويةِ أنَّ مَن كفرَ منكُم فهو في أمانٍ مِن العذابِ.

قولُهُ: (أي: جَمعٌ) يعني: (جماعةٌ)، والتَّوحيدُ على لفظِ الجمعِ، أو أمرُنا مُجتَمِعٌ.

قولُهُ: (جَمْعٌ ﴿منتصرٌ﴾) أي: ممتنعٌ لا يُرامُ، أو منتصرٌ مِن الأعداءِ لا يغلبُ.

قولُهُ: (يَومَ بَدرٍ) الظَّاهرُ أنَّه غيرُ صحيحٍ؛ إذ وردَ عن عُمرَ أنَّه لمَّا نزلَتْ قالَ: لم أعلَمْ ما هيَ، فلمَّا كانَ يومُ بدرٍ رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يلبسُ الدِّرعَ ويقولُ: «﴿سيُهْزَمُ الجمعُ﴾»، فعلمْتُه[1].

قولُهُ تعالى: (﴿الدُّبُرَ﴾) أي: الأدبارَ، وإفرادُهُ لإرادةِ الجنسِ مع مراعاةِ الفاصلةِ، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ يولِّي دبُرَه.

قولُهُ: (فهُزِمُوا) وهو مِن دلائلِ النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أي: موعِدُ عذابِهِم الأصليِّ: وأمَّا ما يحيقُ بهِم في الدُّنيا فمِن طلائعِهِ.

قولُهُ: (أَعظَمُ بَلِيَّةٍ) الدَّاهيةُ: أمرٌ فظيعٌ لا يُهْتَدى لدوائِهِ.

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣٠٦٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٠٢) عن عكرمة مرسلًا.

هلاك بالقتل في الدنيا ﴿وسُعُرٍ﴾: نار مُسعَّرة ـ بالتشديد ـ أي: مُهيَّجة في الآخرة، ٤٨ ـ ﴿يَومَ يُسحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم﴾ أي: في الآخرة، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾: إصابةَ جهنّمَ لكم.

٤٩ ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيءٍ﴾: منصوبٌ بفعل يُفسِّره ﴿خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾: بتقديرٍ، حالٌ من «كُلّ» أي: مُقدَّرًا ـ وقُرِئ: «كُلُّ» بالرفع، مبتدأٌ خبره: خلقناه ـ ٥٠ ـ ﴿وما أمرُنا﴾ لشيءٍ نُريد وجودَه ﴿إلاّ﴾ أمرةٌ ﴿واحِدةٌ كَلَمحٍ بِالبَصَرِ﴾ في السرعة، وهي «كُنْ» فيُوجد: «إنَّما أمرُهُ، إذا أرادَ شَيئًا، أن يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ». ٥١ ـ ﴿ولَقَد أهلَكْنا أشياعَكُم﴾: أشباهَكم في الكُفر من الأُمم الماضية ـ ﴿فَهَل مِن مُدَّكِرٍ﴾؟ استفهام بمعنى الأمر، أي: اذكروا واتّعظوا ـ ٥٢ ـ ﴿وكُلُّ شَيءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: العِبادُ مكتوبٌ ﴿في الزُّبُرِ﴾: كُتُبِ الحَفَظة، ٥٣ ـ ﴿وكُلُّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ﴾ من الذنب أو العمل ﴿مُستَطَرٌ﴾: مكتَتَبٌ في اللوح المحفوظ.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿ونَهَرٍ﴾ ـ أُريد به الجِنسُ. وقُرِئ «نُهُرٍ» بضم النون والهاء جمعًا كأَسَدٍ وأُسُدٍ ـ والمعنى أنهم يشربون من أنهارها الماءَ واللبن والعسل والخمر، ٥٥ ـ ﴿في مَقعَدِ صِدقٍ﴾:

قولُهُ: (هَلاكٍ) أو عن الحقِّ.

قولُهُ: (نَارٍ) أو نيرانٍ.

قولُهُ: (أي: فِي الآخِرَةِ) والسَّحبُ: الجرُّ على وجهِ الأرضِ.

قولُهُ: (إِصَابَةَ جَهَنَّمَ) أي: حرَّها وألَمَها، فإنَّ مسَّها سببٌ للتَّألُّمِ بها، و﴿سقر﴾ علمٌ لجهنَّمَ، ولذا لم يُصرَفْ.

قولُهُ: (أي: مُقَدَّراً) أي: خَلقْنا كلَّ شيءٍ مقدَّراً مرتَّباً على مقتَضى الحكمةِ، أو مقدَّراً مكتوباً في اللَّوحِ قبلَ وقوعِهِ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾) يعني: الأولى أن يُجعَلَ خبراً لا نعتاً لـ﴿شَيْءٍ﴾؛ ليُطابِقَ المشهورةَ في الدَّلالةِ على أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ بقدرٍ، قيل: ولعلَّ اختيارَ النَّصبِ هنا معَ احتياجِ إضمارِ العاملِ لما فيه مِن النُّصوصيَّةِ على المقصودِ.

قولُهُ: (مرَّةٌ) أو كلمةٌ.

قولُهُ: (فِي السُّرعَةِ) والسُّهولةِ.

قولُهُ: (وهُو قَولُ: كُنْ) وقيل: إلَّا فعلةٌ واحدةٌ، وهو الإيجادُ بلا معالجةٍ.

قولُهُ: (جَمِيعاً[1]) وبضمِّ النُّونِ وسكونِ الهاءِ أيضاً.

---

(١) كذا في الأصول، وفي المطبوع من «الجلالين»: جمعاً.

مجلسِ حقّ لا لغوَ فيه ولا تأثيم ـ أُريد به الجِنسُ. وقُرئ: «مَقاعِدِ»، المعنى أنهم في مجالسَ من الجنّات سالمةٍ من اللغو والتأثيم بخِلاف مجالس الدنيا، فقلَّ أن تسلم من ذلك. وأُعرِب هذا خبرًا ثانيًا وبدلاً. وهو صادق ببدل البعض وغيره ـ ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾: مِثالُ مُبالغةٍ، أي: عزيزِ المُلك واسعِه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾: قادر لا يُعجزه شيء. وهو الله تعالى. وعِند: إشارة إلى الرُّتبة من فضله تعالى.

قولُهُ: (مَجلِسِ حَقٍّ) أو مكانٍ مرضيٍّ.

قولُهُ: (وقُرِئَ: (مقاعِدِ)[1]) أي: معَ صدقٍ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) أي: اشتِمالٍ.

قولُهُ: (مِثَالُ) أي: صيغةُ.

قولُهُ: (و﴿عِنْدَ﴾ إشَارَةٌ) أي: مقرَّبينَ عندَ من تعالى أمرُهُ في الملكِ والملكوتِ والاقتدارِ، بحيثُ أبهمَهُ ذوو الاعتبارِ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعثمان التيمي، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٥٧).

سورة القمر

وتسمَّى أيضاً «اقترَبت»، وعن ابن عباس أنَّها تُدْعَى في التوراة «المبيِّضة» تبيِّضُ وجْهَ صاحبها يوم تسْوَدُّ الوجوه، أخرجه عنه البيهقي في «شعب الإيمان» لكن قال: إنَّه منكر(١).

وهي مكيةٌ في قول الجمهور، وقيل: مما نزلَ يومَ بدر، وقال مقاتل: مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ (أَمْ يَقُولُونَ) إلى (وَأَمَرُّ).

واقتصَرَ بعضُهم على استثناء (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ) إلخ.

ورُدَّ بما أخرجه ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ في «الأوسط» وابن مردويه عن أبي هريرة قال: أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ بمكة قبل يوم بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، وقال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله، أيُّ جمعٍ يُهزَم؟ فلمَّا كان يوم بدرٍ وانهزَمَت قريش نظرتُ إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مُصلتاً بالسيف وهو يقول: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فكانت ليوم بدر(٢).

وفي «الدر المنثور»: أخرج البخاري عن عائشة قالت: نزَلَ على محمد ﷺ بمكة وإني لجاريةٌ ألعبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾(٣)، ويُرَدُّ به وبما قبلَه ما حُكي عن مقاتل أيضاً، وقيل: إلا (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) الآيتين [٥٤، ٥٥].

---

(١) شعب الإيمان (٢٤٩٥) والحديث فيه مرفوع إلى النبي ﷺ.

(٢) المعجم الأوسط (٩١٢١)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٦-١٣٧، وقصة قراءة النبي ﷺ لها يوم بدر أخرجها البخاري (٤٨٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري (٤٨٧٦)، والدر المنثور ٦/ ١٣٦.

وآيُها خمسٌ وخمسون بالإجماع، ومناسبةُ أولها لآخِرِ السورةِ التي قبلَها ظاهرةٌ، فقد قال سبحانه ثَمَّ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] وهنا: (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ) وقال الجلالُ السيوطي: لا يخفَى ما في توالي هاتَين السورتَين من حُسن التناسق؛ للتناسب في التسمية لِمَا بين «النجم» و«القمر» من الملابسة، وأيضاً إنَّ هذه بعد تلك، كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، وكالصافات بعد يس، في أنَّها تفصيلٌ لأحوالِ الأُمَم المشارِ إلى إهلاكهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ [النجم:٥٠] إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[1] [النجم:٥٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قَرُبَت جداً ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ انفصل بعضُه عن بعض وصار فرقَتَين[2]، وذلك على عهد رسولِ الله ﷺ قبلَ الهجرةِ بنحو خمسِ سنين، فقد صحَّ من رواية الشيخَين وابن جرير عن أنس: أنَّ أهلَ مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أنْ يُريَهم آيةً، فأراهم القمرَ شقَّتَين حتى رأوا حراءَ بينهما[3].

وخبرُ أبي نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس: أنَّ أحبارَ اليهودِ سألوا آيةً فأراهم اللهُ تعالى القمرَ قد انشقَّ[4] = لا يُعوَّل عليه.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود: انشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقَتَين، فرقةً على الجبل، وفرقةً دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشْهَدُوا»[5].

---

(١) تناسق الدرر ص ٨٠-٨١.

(٢) جاء في هامش الأصل: فلقتين. نسخة.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٦٨)، وصحيح مسلم (٢٨٠٢)، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٠٥.

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم (٢١٠)، وفيه بشر بن الحسين، قال الدارقطني: متروك. وقال أبو حاتم: يكذب على الزبير بن عدي. الميزان ١/ ٣١٥.

(٥) صحيح البخاري (٣٦٣٦) و(٤٨٦٤)، وصحيح مسلم (٢٨٠٠).

ومن حديثه أيضاً: انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحرُ ابنِ أبي كبشة. فقال رجلٌ: انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإنَّ محمداً لا يستطيعُ أنْ يسحَرَ الناسَ كلَّهم، فجاء السُّفَّار فأخبروهم بذلك. رواه أبو داود الطيالسي[1]، وفي رواية البيهقي: فسألوا السفَّار وقد قَدِموا من كلِّ وجهٍ فقالوا: رأيناه. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[2].

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس من وَجْهٍ ضعيف قال: اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ، منهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وربيعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، فقالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كنتَ صادقاً فشُقَّ لنا القمرَ فرقَتَين، نصفاً على أبي قُبَيس ونصفاً على قُعَيْقِعان. فقال لهم النبيُّ ﷺ: «إنْ فعلْتُ تُؤمنوا؟» قالوا: نعم. وكانت ليلةَ بدرٍ، فسألَ رسولُ الله ﷺ ربَّه عز وجل أنْ يُعطيَه ما سألوا، فأمسَى القمرُ قد مَثُلَ نصفاً على أبي قُبيس ونصفاً على قُعَيْقعان، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن [أبي] الأرقم اشهدوا»[3].

والأحاديثُ الصحيحةُ في الانشقاق كثيرة، واختلف في تواتره فقيل: هو غيرُ متواتر، وفي «شرح المواقف» الشريفي أنَّه متواتر[4]، وهو الذي اختاره العلامةُ ابنُ السبكي[5]، قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أنَّ انشقاقَ القمر

---

(١) في الأصل و(م): أبو داود والطيالسي، وهو تصحيف.

(٢) مسند الطيالسي ١/ ٣٨ (٢٩٥)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٦-٢٦٧، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٠٦-١٠٧، وأبو نعيم في الدلائل (٢١١) و(٢١٢).

(٣) دلائل النبوة (٢٠٩)، وما بين حاصرتين منه، وضعفه ابن حجر في الفتح ٧/ ١٨٢. ووقع في الأصل و(م) بدل قعيقعان: قينقاع، وهو تصحيف.

(٤) شرح المواقف للشريف علي بن محمد الجرجاني ٨/ ٢٥٩.

(٥) قاضي القضاة، أبو النصر، عبد الوهاب بن الإمام علي بن عبد الكافي الأنصاري، أخذ عن أبيه وغيره، وصنف كتباً نفيسة اشتهرت في حياته، توفي سنة (٧٧١هـ). شرح المواهب للزرقاني ٥/ ١٨٠، ونقل المصنف كلامه عن المواهب اللدنية للقسطلاني.

متواترٌ منصوصٌ عليه في القرآن، مرويٌّ في الصحيحين وغيرهما من طُرق شتى، بحيث لا يُمترَى في تواتره. انتهى باختصار.

وقد جاءت أحاديثُه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم علي كرم الله تعالى وجهه وأنس وابن مسعود وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم[(١)]، نعم إنَّ منهم من لم يحضُر ذلك كابن عباس فإنَّه لم يكن مولوداً إذ ذاك، وكأنس فإنَّه كان ابنَ أربعٍ أو خمسٍ بالمدينة، وهذا لا يطعنُ في صحة الخبر كما لا يخفَى، ووقع في رواية البخاري وغيره عن ابن مسعود: كنَّا مع رسول الله ﷺ بمنًى فانشقَّ القمر[(٢)]. ولا يعارض ما صحَّ عن أنس أنَّ ذلك كان بمكةَ[(٣)]؛ لأنَّه لم يُصرِّح بأنَّه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذٍ بمكة، فالمراد أنَّ الانشقاق كان والنبيُّ ﷺ إذ ذاك مقيمٌ بمكة قبل أنْ يهاجرَ إلى المدينة.

ووقع في «نظم السيرة»[(٤)] للحافظ أبي الفضل العراقي ما هو نصٌّ في وقوع الانشقاق مرَّتَين، وظاهرٌ في أنَّه مجمَعٌ على وقوعه كذلك حيث قال:

وانشقَّ مرَّتَين بالإجماع

وكأنَّ مستندَ الأول ما أخرجَه عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: رأيتُ القمرَ منشقّاً شِقَّتَين مرَّتَين بمكة قبل مخرج النبيِّ ﷺ، الحديث[(٥)].

---

(١) المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني٥/ ١٠٨.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٩)، وأخرجه مسلم (٢٨٠٠) (٤٤).

(٣) سلف قريباً.

(٤) الدرر السنية في نظم السيرة النبوية لزين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن حسين العراقي، المتوفى سنة (٨٠٥هـ)، وهو ألفية في الرجز. وشرحها المناوي شرحاً مبسوطاً ثم لخصه وسماه الفتوحات السبحانية. كشف الظنون ١/ ٧٤٧. والكلام من المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني ٥/ ١١٠، وما سيرد من الرجز في الدرر السنية ص٥٩، وفيه: وذاك، بدل: وانشقَّ.

(٥) المستدرك ٢/ ٤٧١، والدلائل للبيهقي ٢/ ٢٦٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٣، والعلامة الزرقاني في شرح المواهب اللدنية ٥/ ١٠٧، ولفظة «مرتين» ليست في الدر المنثور.
وكون الرؤية مرتين ذكر في حديث أنس رضي الله عنه أخرجه مسلم (٢٨٠٢) (٤٦)، والترمذي (٣٢٨٦).

وأما الإجماعُ فغيرُ مسلَّم، وفي «المواهب»: قال الحافظ ابن حجر: أظنُّ أنَّ قولَه: بالإجماع يتعلَّق بـ «انشقَّ» لا بـ «مرَّتَين» فإنِّي لا أعلمُ مَن جزَمَ من علماء الحديث بتعدُّد الانشقاق في زمنه ﷺ. ولعلَّ قائل «مرتين» أراد: فرقَتَين، وهذا الذي لا يتَّجهُ غيرُه جمعاً بين الروايات(١). انتهى.

ولا يخفَى أنَّ هذا التأويل مع بُعده لا يتسنَّى في خبر ابن مسعود المذكور آنفاً لمكان «شِقَّتَين» وهي بمعنى: «فرقتين» و«مرتين» معاً، والذي عندي في تأويل ذلك أنَّ «مرَّتَين» في كلام ابن مسعود قيدٌ للرؤية، وتعدُّدُها لا يقتضي تعدُّد الانشقاق، بأنْ يكونَ رآه منشقّاً فصَرَف نظره عنه ثم أعادَه، فرآه كذلك لم يتغيَّر، ففيه إشارةٌ إلى أنَّها رؤيةٌ لا شبهةَ فيها، وقد فَعَل نحو ذلك الكفرةُ، أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال: انتهى أهلُ مكةَ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: هل من آيةٍ نعرفُ بها أنَّك رسول الله؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل لأهل مكةَ أنْ يجتمعوُا هذه الليلةَ يروا آيةً. فأخبرَهم رسول الله ﷺ بمقالة جبريل عليه السلام، فخرجُوا ليلةَ أربعَ عشرةَ، فانشقَّ القمر نصفَين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة، فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها، ثم أعادوا النظر فنظروا، ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا، فقالوا: ما هذا إلا سحرٌ. فأنزل الله تعالى: (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ)(٢) فلو قال أحد هؤلاء: رأيتُ القمرَ منشقّاً ثلاثَ مراتٍ على معنى تعدُّد الرؤية صحَّ بلا غبار، ولم يقتضِ تعدُّد الانشقاق، فلْيُخَرَّجْ كلامُ ابن مسعود على هذا الطَّرْز ليُجْمَعَ بين الروايات.

ثم هذا الحديث إنْ صحَّ كان دليلاً لما أشار إليه البوصيري في قوله:

شُقَّ عن صَدْره وشُقَّ له البد ... رُ ومن شَرْط كلِّ شرط جزاءُ

مِن أنَّ الشقَّ كان ليلةَ أربعَة عشرةَ؛ لأنَّ البدر هو القمرُ ليلةَ أربعَة عشرةَ، ويعلم من ذلك ما في قول العلامة ابن حجر الهيتمي في شرحه: ظاهرُ التعبير بالبدر دون

(١) المواهب اللدنية ٥/ ١١٠-١١١، وقول ابن حجر في الفتح ٧/ ١٨٣.
(٢) عزاه لأبي نعيم ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ٢٩٧، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٣.

القمر أنَّ الشق كان ليلةَ أربعة عشرة. ولم أرَ له في ذلك سلفاً، ولعلَّه أراد بالبدر مطلقَ القمر، ويؤيِّد كونَه ليلة البدر ما أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كَسَفَ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر. فنزلت (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ) إلى (مُّسْتَمِرٌّ)(١)، فإنَّ الكسوفَ وإنْ جازَ عادةً أنْ يكونَ ليلةَ الثالثة عشرة وليلة الخامسة عشرة إلا أنَّ الأغلبَ كونُه ليلةَ الرابعة عشرة، ولا ضرورةَ إلى حمل الكسوف في هذا الخبرِ على الانشقاق، إذ لا مانعَ ـ كما في «البداية والنهاية»(٢) ـ أنْ يكونَ قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوفٌ، نعم ذكر فيها أنَّ سياق الخبر غريب.

ثم إنَّ القمر بعد انشقاقه لم تُفارق قطعتاه السماءَ، بل بقيَتَا فيها متباعدتَين تباعداً مّا لحظةً ثم اتَّصلَتَا، وما يذكره بعضُ القصَّاص من أنَّه دخل في جَيْب النبيِّ ﷺ وخرج من كُمِّه فباطلٌ لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير(٣)، ولعنةُ الله تعالى على مَن وضَعَه.

وما في خبر أبي نعيم الذي أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنَّه انشقَّ فصارَ قمرَين أحدهما على الصفا، والآخرُ على المروة، قَدْرَ ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب(٤) = لا يعوَّل عليه، كيف وقد تضمَّن ذلك الخبر أنَّ الانشقاق وقع لطلبِ أحبار اليهود، وأنَّ القائل «هذا سحرٌ مستمر» هم، وهو مخالفٌ لِمَا نطقَت به الأخبارُ الصحيحة الكثيرةُ كما لا يخفى على المتتبع.

وقد شاع أنَّ النبيَّ ﷺ أشارَ إلى القمر بسبابته الشريفة فانشقَّ(٥). ولم أرَه في خبرٍ صحيح، والله تعالى أعلم.

---

(١) المعجم الكبير (١١٦٤٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٣، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ٢٩٩ عن إسناد الطبراني: هذا إسناد جيد.

(٢) ينظر البداية والنهاية ٤/ ٢٩٩.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٣٠٣، والمواهب اللدنية ٥/ ١١٣.

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم (٢١٠)، وسلف قريباً.

(٥) ينظر البداية والنهاية ٤/ ٣٠٣.

وأنكر الفلاسفةُ أصلَ الانشقاق بناءً على زعمهم استحالةَ الخرق والالتئامِ على الأجرامِ العلوية، ودليلُهم على ذلك أوهنُ من بيت العنكبوت، وقد خُرِقَ بأدنى نسمةٍ من نسمات أفكار أهل الحقِّ العلويِّين خَرْقاً لا يقبلُ الالتئامَ كما بُيِّن في موضعه.

وقال بعضُ الملاحدة: لو وَقَع لنُقِلَ متواتراً، واشترك أهلُ الأرض كلُّهم في معرفته، ولم يختصَّ بها أهلُ مكة؛ لأنَّه أمرٌ محسوسٌ مشاهَدٌ، والناسُ فيه شركاء، والطباعُ حريصةٌ على رواية الغريب ونقل ما لم يُعهَد، ولا أغربَ من انشقاقِ هذا الجِرْم العظيمِ، ولم يُعهَد أصلاً في الزمن القديم، ولو كان له أصلٌ لخلِّد أيضاً في كتب التسيير والتنجيم، ولذكره أهلُ الأرصاد، فقد كانت موجودةً قبل البعثة بكثير، وإطباقُهم على تركه وإغفالِهِ مع جلالة شأنه ووضوحِ أمره مما لا تجوِّزُه العادةُ، وأيضاً لا يُعقَلُ سببٌ لخَرْق هذا الجِرْم العظيم، وأيضاً خرقُه يوجبُ صوتاً هائلاً أشدُّ من أصوات الصواعقِ المُهلِكةِ بأضعافٍ مضاعفةٍ، لا يَبعدُ هلاكُ أكثرِ أهل الأرض منه، وأيضاً متى خُرِقَ وصار قطعتَين ذهبَت منه قوةُ التجاذب، كالجبل إذا انشقَّ فيلزمُ بقاؤه منشقّاً، ولا أقلَّ من أنْ يبقَى كذلك سنينَ كثيرةً[(١)].

والجوابُ عن ذلك أنَّه وَقَع في الليل وزمان الغفلة، وكان في زمانٍ قليلٍ، ورؤيةُ القمر في بلد لا تستلزمُ رؤيتَه في جميع البلاد ضرورةَ اختلافِ المطالع، فقد يكونُ القمرُ طالعاً على قوم غائباً عن آخرين، ومكسوفاً عند قوم غيرَ مكسوفٍ عند آخرين، والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم، وغفلةُ أهلها لحظةً غيرُ مستبعَدٍ، والانشقاقُ لا تختلف به منازلُه ولا يتغيرُ به سيره، غايةُ ما في الباب أنْ يحدثَ في القطعة الشرقية قوةُ سيرٍ لتلحقَ أختَها الغربيةَ، وأيُّ مانعٍ من أنْ يخلُقَ الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه في ضوء الشمس، فقد قال أهلُ الحكمة الجديدة: إنَّ بين الأرض والشمس ثلاثَ مئة ألفِ فرسخٍ وأربعين ألفَ

---

(١) في هامش الأصل: وفي كتاب «البداية والنهاية» ذَكَر غيرُ واحدٍ من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلاً بالهند مكتوباً عليه: أنه بني في هذه الليلة التي انشق القمر فيها. انتهى منه. وهو بنحوه في البداية والنهاية ٤/ ٢٩٩.

فرسخٍ، وإنَّ ضوءَها ليصلُ إلى الأرض في مدة ثمان دقائقَ وثلاثَ عشرةَ ثانية، فيقطعُ الضوءُ في كلِّ ثانيةٍ سبعينَ ألفَ فرسخ، ولا يلزمُ أنْ يُعلَمَ سببُ كلِّ حادثٍ، بل كثيرٌ من الحوادث المتكررةِ المشاهدة لم يُوقَف على أسبابها، كرؤية الكواكبِ قريبةً مع بعدها المفرط، فقد ذكروا أنَّهم لم يقفوا على سببه، ويكفي في ذلك عدمُ وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة، ولو أخبرهم مخبرٌ بفرض أنْ لم يكن لهم إبصارٌ بخواصِّ البصر، مع كونه قطعةَ شحمٍ صغيرة معروفة أحوالُها عند أهل التشريح، لأنكروا عليه غايةَ الإنكار، وكذَّبوه غايةَ التكذيب، ونسبوه إلى الجنون.

ومَن سلَّم تأثير النفوسِ على حدٍّ أنْ يَصرَع الشخصُ آخَرَ بمجرَّد النظر إليه وتوجيه نفسِه نحوه، لم يَستبعِد أنْ يكونَ هناك سببٌ نحو ذلك، وقد صحَّ في إصابة العين أنَّ بعضَ الأعراب ممن له عينٌ صائبةٌ يفلقُ سنامَ الناقة فلقتَين، وربما تُصوِّرُ له من رَمْلٍ فينظر إليه ويفلقُه، فينفلقُ سنامُها مع عدم رؤيته لها نفسِها، وهذا كلُّه من باب المماشاة، وإلا فإرادةُ الله تعالى كافيةٌ في الانشقاق، وكذا في كلِّ المعجزات وخوارق العادات، ولو كان لكلِّ حادث سببٌ لزم التسلسلُ، وقد قامت الأدلةُ على بطلانه.

وكونُ الخرق يوجبُ صوتاً هائلاً ممنوعٌ فيما نحن فيه، ومثلُه ذهابُ التجاذب، والأجسامُ مختلفةٌ من حيث الخواصُّ، فلا يلزمُ اتِّحاد جِرْم القمر والأرضِ فيها، ويمكنُ أنْ يكونَ إحدَى القطعتَين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض، إذا ارتَفَع عنها بقاسرٍ مثلاً جذبته إليها[1] إذا لم يخرج عن حدِّ جَذْبها على ما زعموه، ويلتزم في تلك القطعة عدمُ الخروج عن حدِّ الجذب، على أنَّا في غنًى عن كلِّ ذلك أيضاً بعد إثبات الإمكان وشمول قدرته عزَّ وجل، وأنَّه سبحانه فعالٌ لِمَا يريد.

والحاصلُ أنَّه ليس عند المنكر سوى الاستبعادِ، ولا يستطيعُ أنْ يأتيَ بدليلٍ على الاستحالة الذاتية ولو انشقَّ، والاستبعادُ في مثل هذه المقاماتِ قريبٌ من الجنون عند من له عقلٌ سليم.

---

(١) في الأصل و(م): إليه.

وروي عن الحسن أنَّه قال: هذا الانشقاقُ بعد النفخة الثانية، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، وروي ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيِّد ما تقدَّم الذي عليه الأكثرون قراءةُ حذيفةَ: «وقد انشقَّ القمرُ»(١) فإنَّ الجملة عليها حاليةٌ، فتقتضي المقارنةَ لاقتراب الساعةِ ووقوعِ الانشقاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ فإنَّه يقتضي أنَّ الانشقاقَ آيةٌ رأَوْها وأعرضوا عنها.

وزعم بعضُهم أنَّ انشقاقَ القمر عبارةٌ عن انشقاق الظلمة عند طلوعه، وهذا كما يُسمَّى الصبحُ فلقاً عند انفلاقِ الظلمة عنه، وقد يعبَّر عن الانفلاق بالانشقاق كما في قوله النابغة:

فلمَّا أَدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ ... دعانا عند شقِّ الصبْحِ داعي(٢)

وزعم آخر أنَّ معنى «انشقَّ القمر»: وَضَح الأمر وظهر.

وكِلَا الزعمَين مما لا يُعوَّل عليه ولا يُلتفَتُ إليه، ولا أظنُّ الداعي إليهما عند مَن يُقرُّ بالساعة التي هي أعظمُ من الانشقاق، ويعترفُ بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاقُ سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده، ومنشأ ذلك القصورُ التامُّ والتمسك بشبَهٍ هي على طَرَف الثُّمام، ومع هذا لا يكفَّر المنكر بناءً على عدم الاتفاقِ على تواتر ذلك، وعدمِ كونِ الآية نصًّا فيه، والإخراجُ من الدين أمرٌ عظيم فيُحتاط فيه ما لا يحتَاطُ في غيره، والله تعالى الموفق.

والظاهرُ أنَّ المرادَ باقتراب الساعة القربُ الشديدُ الزمانيُّ، وكلُّ آتٍ قريب، وزمانُ العالَم مديد، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيءٌ يسير.

ومال الإمام إلى أنَّ المراد به قربُها في العقول والأذهان(٣). وحاصلُه أنَّها

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٣.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٥/ ٤٠٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٧٣، والبحر المحيط ٨/ ١٧٣، والنابغة هو الجعدي كما ذكر الماوردي، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٩.

ممكنةٌ إمكاناً قريباً لا ينبغي لأحدٍ إنكارها، واستعمالُ الاقتراب مع أنَّها[1] أمرٌ مقطوعٌ به كاستعمال «لعل» في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] مع أنَّ الأمرَ معلومٌ عند الله تعالى، وانشقاقُ القمر آيةٌ ظاهرةٌ على هذا القرب، وعلى الأول قيل: هو آيةٌ لأصل الإمكان الذي يقتضيه قربُ الوقوع، وقيل: هو آيةٌ لقُرب الوقوعِ ومعجزةٌ للنبي ﷺ باعتبار أنَّ الله تعالى مُخبِرٌ في كُتُبه السالفة بأنَّه إذا قرُبَت الساعةُ انشقَّ القمر معجزةً، وكلاهما كما ترى. واختار بعضُهم أنَّه آيةٌ لصِدْق النبيِّ عليه الصلاة والسلام في جميع ما يقول ويبلِّغ عن[2] ربه سبحانه لأنه معجزة له ﷺ، ومنه دعوى الرسالةِ والإخبارُ باقتراب الساعة وغير ذلك.

و«آية» نكرةٌ في سياق الشرط فتعمّ، فالمعنى: وإنْ يَرَوا كلَّ آيةٍ يُعرضوا عن التأمُّل فيها، ليقِفُوا على وَجْه دلالتها وعلوِّ طبقتها ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ﴾ أي: هذا، أو هو ـ أي: ما نراه ـ سحرٌ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: مطَّرد دائم يأتي به محمد ﷺ على مرِّ الزمان، وهو ظاهرٌ في ترادُف الآيات وتتابع المعجزات.

وقال أبو العالية والضحاك: «مستمرٌّ»: محكم مُوثق، من المرَّة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة، وهو في الأصل مصدرُ: مررْتُ الحبلَ مرةً: إذا فتلتَه فتلاً محكماً، فأُريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلاً.

وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفرَّاء واختاره النحَّاس: مستمر، أي: مارٌّ ذاهبٌ زائلٌ عن قريب[3]، علَّلوا بذلك أنفسَهم، ومنَّوها بالأماني الفارغة، كأنَّهم قالوا: إنَّ حالَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما ظهر من معجزاته:

سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ[4]

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

---

(١) في (م): أنه.

(٢) قوله: عن، ساقط من (م).

(٣) في الأصل: قرب، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٨/ ١٧٤ والكلام منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٠٤، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٥ وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١١٣.

(٤) عجز بيت لعمران بن حطان كما في خزانة الأدب ٥/ ٣٦١، وصدره:

أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها

وقيل: «مستمر» مشتدُّ المرارة، أي: مُستبشَع عندنا منفورٌ عنه لشدَّة مرارته يقال: مرَّ الشيءُ وأمرَّ: إذا صار مرّاً، وأمرَّ غيرَه ومرَّه يكون لازماً ومتعدياً.

وقيل: «مستمرّ» يُشبه بعضُه بعضاً، أي: استمرَّت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات.

وقيل: «مستمر» مارٌّ من الأرض إلى السماء، أي: بلغ من سحره أنَّه سحَرَ القمرَ. وهذا ليس بشيءٍ.

ولعل الأنسبَ بغلوِّهم في العناد والمكابرة ما روي عن أنس ومَن معه.

وقرئ: «وإنْ يُرَوا» بالبناء للمفعول(١) من الإراءة.

﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبيَّ ﷺ وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زيَّنها الشيطانُ لهم، وقيل: «كذبوا» الآيةَ التي هي انشقاقُ القمر «واتَّبعوا أهواءهم» وقالوا: سُحِرَ القمرُ، وسُحِرَت أعينُنا والقمر بحاله. والعطفُ على الجزاء السابق، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق، وقيل: العطفُ على «اقتربَت» والجملةُ الشرطية اعتراضٌ لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للردِّ على الكفار في تكذيبهم ببيان أنَّه لا فائدةَ لهم فيه، ولا يمنع علوَّ شأنه ﷺ، أو لإقناطهم عما علَّقوا به أمانيَّهم الفارغةَ من عدم استقرارِ أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: «سحر مستمر» ببيان ثُبوتِهِ ورُسوخه، أي: وكلُّ أمرٍ من الأمور مُنتَهٍ إلى غايةٍ يستقرُّ عليها لا محالةَ، ومن جملتها أمرُ النبيِّ ﷺ، فسيصيرُ إلى غايةٍ يتبيَّن عندها حقِّيَّتُه وعلوُّ شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرِّح بالمستقر عليه.

وفي «الكشاف» أي: كلُّ أمرٍ لا بدَّ أنْ يصيرَ إلى غاية يستقرُّ عليها، وأنَّ أمرَه ﷺ سيصيرُ إلى غاية يتبيَّن عندها أنَّه حقٌّ أو باطل، وسيظهرُ لهم عاقبتُه(٢)،

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٣.

(٢) في الأصل و(م): وسيظهر له عاقبتهم، وهو خطأ، والمثبت من الكشاف.

أو: وكلُّ أمرٍ من أمره عليه الصلاة والسلام وأمرهم مستقرٌّ، أي: سيثبتُ ويستقرُّ على حالة نُصرةٍ أو خِذلان في الدنيا، أو سعادةٍ وشقاوة في الآخرة[1].

قال في «الكشف»: والكلامُ على الأول تذييلٌ جارٍ مجرى المثل، وعلى الثاني تذييلٌ غير مستقلٍّ.

وقرأ شيبة: «مستقَر» بفتح القاف[2] ورُويَت عن نافع، وزعم أبو حاتم أنَّها لا وجْهَ لها، وخرِّجت على أنَّ مستقَرًّا مصدرٌ بمعنى استقرار، وحملُه على «كلِّ أمرٍ» بتقدير مضاف، أي: ذو مستقَرٍّ، ولو لم يقدَّر وقُصِد المبالغة صحَّ.

وجوِّز كونُه اسمَ زمانٍ أو مكان بتقدير مضاف أيضاً، أي: ذو زمان استقرارٍ، أو ذو موضع استقرارٍ.

وتُعقِّب بأنَّ كونَ كلِّ أمرٍ لا بدَّ له من زمانٍ أو مكانٍ أمرٌ معلوم لا فائدةَ في الإخبار به.

وأُجيبَ بأنَّ فيه إثباتَ الاستقرار له بطريق الكناية، وهي أبلغُ من التصريح[3].

وقرأ زيد بن علي: «مستقِرٍّ» بكسر القاف والجرِّ[4]، وخُرِّج على أنَّه صفةُ «أَمْرٍ» وأنَّ «كل» معطوفٌ على «الساعة»، أي: اقتربَ كلُّ أمرٍ يستقِرُّ ويتبيَّن حالُه، أي: بقربها، قال في «الكشف»: وفيه شَمَّةٌ من التجريد وتهويلٌ عظيم، حيث جعل في اقترابها اقترابَ كلِّ أمرٍ يكونُ له قرارٌ وتَبيُّنُ حالٍ مما له وَقْعٌ، وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ على هذا إمَّا على تقدير «قد» وينصرُه القراءةُ بها، وإما منزل منزلةَ الاعتراض[5] لكونه مؤكِّداً لقرب الساعة، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ إلخ مستطردٌ عند ذكر انشقاق القمر.

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٦.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠/ ٧٥، والبحر المحيط ٨/ ١٧٤ والكلام منه.

(٣) في الأصل: الصريح.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٧٤، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٣٨٠.

(٥) في (م): الإعراض.

واعترض ذلك أبو حيان بأنَّه بعيدٌ لكثرة الفواصل بين المعطوفِ والمعطوف عليه، وجعل الكلامَ عليه نظيرَ: أكلتُ خبزاً، وضربتُ خالداً، وإنْ يجئ زيدٌ أكرمه، ورَحَل إلى بني فلان، ولحماً. بعطف «لحماً» على «خبزاً» ثم قال: بل لا يوجدُ مثلُه في كلام العرب[١].

وتُعقِّب بأنَّه ليس بشيء؛ لأنَّه إذا دلَّ على العطف الدليلُ لا يعدُّ ذلك مانعاً منه، على أنَّ بين الآية والمثال فرقاً لا يخفَى.

وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ «مستقر» خبرُ «كلّ»، والجرُّ للجوار. واعترضه أبو حيان أيضاً بأنَّه ليس بجيدٍ؛ لأنَّ الجرَّ على الجوار في غاية الشذوذ في مثله، إذ لم يُعهَد في خبرِ المبتدأ، وإنما عُهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده، واستَظْهَرَ كونَ «كلُّ» مبتدأ وخبرُه مقدَّر ك: آت، أو: معمولٌ به، ونحوه مما يُشعرُ به الكلام، أو مذكورٌ بعدُ وهو قولُه تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ وقد اعتُرض بينهما بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾[٢] في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: أخبار القرون الخالية، أو أخبار الآخرة.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من «ما» في قوله عز وجل: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ قدِّم عليه رعايةً للفاصلة وتشويقاً[٣] إليه، و«مِن» للتبعيض، أو للتبيين بناءً على المختار من جواز تقديمه على المُبيَّن، قال الرضي: إنما جاز تقديمُ «من» المبيِّنة على المبهم في نحو: عندي من المال ما يكفي، لأنَّه في الأصل صفةٌ لمقدَّر، أي: شيءٌ من المال، والمذكورُ عطفُ بيانٍ للمبيَّن المقدَّر قبلها ليحصل البيانُ بعد الإبهام، أي: بالله لقد جاءهم كائناً من الأنباء ما فيه ازدجارٌ لهم ومنعٌ عما هم فيه من القبائح، أو موضعُ ازدجار ومنع، وهي أنباءُ التعذيب، أو أنباءُ الوعيد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧٤.
(٣) في (م): تتويقاً.

وأصلُ «مزدجَر»: مُزْتَجَر، بالتاء موضع الدال، وتاءُ الافتعال تُقلَب دالاً مع الدال والذال والزاي للتناسب. وقرئ: «مزَّجَر» بقلبها زاياً وإدغام الزاي فيها[١]، وقرأ زيد بن علي: «مُزْجِر»[٢] اسم فاعل من أَزْجَرَ، أي: صار ذا زَجْرٍ، كأَعْشَبَ: صار ذا عُشْبٍ.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾ أي: واصلة غايةَ الإحكام لا خلَلَ فيها، ورفع «حكمة» على أنَّها بدلُ كلٍّ أو اشتمال من «ما»، وقيل: من «مزدجر»، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي أو هذه، على أنَّ الإشارة لِمَا يشعر به الكلامُ من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والإنذار لمن مضَى، أو إلى ما في الأنباء، أو إلى الساعة المقتربة والآيةِ الدالة عليها كما قاله الإمام[٣]. وتقدَّم آنفاً احتمالُ كونها خبراً عن «كل» في قراءة زيد. وقرأ اليماني: «حكمةً بالغةً» بالنصب[٤] حالاً من «ما» فإنَّها موصولةٌ أو نكرةٌ موصوفة، ويجوز مجيء الحال منها مع تأخُّرها، أو هو بتقدير: أعني.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي للإغناء أو استفهامٌ إنكاريٌّ، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة، مع كونه مظنةً للإغناء، وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد والاستمرار، و«ما» على الوجه الثاني في محلِّ نصبٍ على أنَّها مفعولٌ مطلق، أي: فأيَّ إغناءٍ تُغني النذر، وجوِّز أنْ تكونَ في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والجملةُ بعدها خبرٌ، والعائد مقدَّر، أي: فما تُغنيه النذرُ، وهو جمع نذير بمعنى المُنذِر. وجوز أنْ يكون جمعَ نذير بمعنى الإنذار. وتعقِّب بأنَّ حقَّ المصدر أنْ لا يُثنَّى ولا يُجمَع، وأن يكون مصدراً كالإنذار. وتعقِّب بأنَّه يأباه تأنيثُ الفعل المسند إليه، وكونُه باعتبار أنَّه بمعنى النَّذارة لا يخفَى حاله.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ﴾ الفاء للسببية والمسبَّب التولِّي أو الأمرُ به، والسبب عدمُ الإغناء أو العلمُ به، والمرادُ بالتولِّي إما عدمُ القتال، فالآية منسوخة، وإما تركُ الجدال للجِلَاد، فهي محكمة، والظاهر الأول.

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٦، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧٤.
(٣) هو الرازي في تفسيره ٢٩/ ٣٢.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٧٤.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ظرفٌ لـ «يخرجون» أو مفعول به لـ «اذكر» مقدراً، وقيل: لـ «انتظر»، وجوِّز أن يكون ظرفاً لـ «تُغني»، أو لـ «مستقر» وما بينهما اعتراض، أو ظرفاً لـ «يقول الكافر»، أو لـ «تولَّ» أي: تولَّ عن الشفاعة لهم يوم القيامة، أو هو معمولٌ له بتقدير «إلى» وعليه قول الحسن: فتولَّ عنهم إلى يوم. والمرادُ استمرارُ التولِّي. والكلُّ كما ترى.

والداعي إسرافيلُ عليه السلام، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: مَلَكٌ غيرُهما موكَّلٌ بذلك، وجوز أنْ يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في «كن فيكون» على القول بأنَّه تمثيلٌ، فالداعي حينئذ هو الله عز وجل.

وحُذفَت الواو من «يَدْعُ» لفظاً لالتقاء الساكنَين ورسماً اتباعاً للفظ، والياءُ من «الداعِ» تخفيفاً وإجراءً لـ «أل» مجرى التنوين؛ لأنَّها تعاقبه، والشيءُ يُحمَل على ضدِّه كما يحمل على نظيره.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: فظيع تنكره النفوسُ لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة، ويُكنى بالنُّكُر عن الفظيع لأنَّه في الغالب مُنْكَرٌ غيرُ معهود، وجوِّز أنْ يكون من الإنكار ضد الإقرار، وأيُّما كان فهو وصفٌ على «فُعُل» بضمَّتَين، وهو قليلٌ في الصفات، ومنه: روضةٌ أُنُف: لم تُرْعَ، ورجل شُلُل: خفيفٌ في الحاجة سريعٌ حَسَنُ الصحبة طيبُ النفس، وسُجُح: ليِّنٌ سهلٌ.

وقرأ الحسن وابن كثير وشبل: «نُكْر» بإسكان الكاف[1]، كما قالوا: شُغُل وشُغْل، وعُسُر وعُسْر، وهو إسكان تخفيفٍ، أو السكون هو الأصل والضم للإتباع.

وقرأ مجاهد وأبو قلابة والجحدري وزيد بن علي: «نُكِرَ»[2] فعلاً ماضياً مبنيّاً للمفعول بمعنى: أُنكِرَ.

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص ٢٠٥، والنشر ٢/ ٢١٦، وقراءة الحسن وشبل في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٢، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: يخرجون ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور أذلةً أبصارُهم من شدَّة الهولِ، أي: أذلّاء من ذلك، وقدِّم الحال لتصرُّف العامل والاهتمام، وفيه دليلٌ على بطلان مذهب الجرمي من عدم تجويز تقدُّم الحال على الفعل وإنْ كان متصرِّفاً، ويردُّه أيضاً قولُهم: شَتَّى تؤوب الحلبةُ[1]، وقولُه:

سريعاً يهونُ الصعبُ عند أُولي النُّهَى إذا برَجاءٍ صادقٍ قابلوا البأسا[2]

وجعل حالاً من ذلك لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] إلى قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤].

وقيل: هو حالٌ من الضمير المفعول المحذوف في «يَدْعُ الداعِ» أي: يدعوهم الداع. وتعقِّب بأنَّه لا يطابق المنزل، وأيضاً يصيرُ حالاً مقدَّرةً؛ لأنَّ الدعاء ليس حالَ خشوعِ البصر، وليست في الكثرة كغيرها، وكذلك جعلُه مفعول «يدعو» على معنى: يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم، أي: سيخشع، وإن كان هذا أقربَ مما قبلُ.

وقيل: هو حال من الضمير المجرور في قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ). وفيه ما لا يخفى.

و«أبصارُهم» فاعل «خُشَّعاً» وطابقَهُ الوصف في الجمع؛ لأنَّه إذا كُسِّر لم يُشْبِهِ الفعلَ لفظاً، فتحسُنُ فيه المطابقةُ، وهذا بخلاف ما إذا جُمع جمعَ مذكر سالم، فإنَّه لم يتغيَّر زنتُه وشَبَهُهُ للفعل، فينبغي أنْ لا يُجمَع إذا رَفَع الظاهرَ المجموعَ على اللغة الفصيحة دون لغة: أكلوني البراغيثُ، لكن الجمع حينئذٍ في الاسم أخفُّ منه في الفعل كما قال الرضي، ووَجْهُه ظاهرٌ، وفي «التسهيل»: إذا رَفعَت الصفةُ اسماً ظاهراً مجموعاً فإنْ أمكنَ تكسيرها كـ: مررْتُ برجلٍ قيامٍ غلمانُه. فهو أولَى من

---

(١) مثل يضرب في اختلاف الناس وتفرقهم في الأخلاق، وذلك أنهم يوردون إبلهم وهم مجتمعون، فإذا صدروا تفرَّقوا واشتغل كلٌّ واحدٍ منهم بحلب ناقته، ثم يؤوب الأول فالأول. مجمع الأمثال ١/ ٣٥٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧٥، واللباب ١٨/ ٢٣٩.

إفرادها كـ : مررْتُ برجلٍ قائمٍ غلمانُه[١]. وهذا قولُ المبرد[٢] ومَن تبعه، والسماعُ شاهدٌ له كقوله:

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطيَّهم يقولون لا تَهلِكْ أسًى وتجمَّلِ[٣]

وقوله:

بمطَّرِدٍ لَدْنٍ صحاحٍ كعوبُه وذي رَوْنقٍ عَضْبٍ يقُدُّ القوانسا[٤]

وقال الجمهور: الإفرادُ أولَى، والقياسُ معهم، وعليه قولُه:

ورجالٍ حَسَنٍ أوجهُهُم من إيادِ بنِ نِزارِ بن مَعَد[٥]

وقيل: إنْ تَبِعَ مفرداً فالإفرادُ أولَى كـ : رجلٍ قائمٍ غلمانُه، وإنْ تَبِعَ جمعاً فالجمع أولَى كـ : رجالٍ قيامٍ غلمانُهم، وأما التثنيةُ والجمعُ السالم فعلى لغة: أكلوني البراغيثُ.

وجوِّز أن يكون في «خُشَّعاً» ضميرٌ مستتر، و«أبصارهم» بدلاً منه.

وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «خاشعاً» بالإفراد[٦].

وقرأ أبيّ وابن مسعود: «خاشعةً»[٧].

---

(١) ينظر التسهيل ص ١٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٨/ ١٣٢.

(٢) ينظر المقتضب ٤/ ١٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٨/ ١٣٢.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٩.

(٤) البيت لحسيل بن سُجَيح، كما في اللسان وتاج العروس (قنس)، وهو دون نسبة في البحر ٨/ ١٧٥.

(٥) البيت لأبي دؤاد الإيادي، وهو في ديوانه ص ٣٠٥، وسيرة ابن هشام ١/ ٧٤، ورسالة الملائكة ص ١٥٣، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٧٨، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في التيسير ص ٢٠٥، والنشر ٢/ ٣٨٠ وهي قراءة يعقوب وخلف من العشرة، وقراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٣، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والبحر ٨/ ١٧٥.

وقرئ: «خُشَّعٌ»[1] على أنَّه خبرٌ مقدَّم، و«أبصارُهم» مبتدأٌ، والجملةُ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ حالٌ أيضاً، وتشبيهُهُم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموُّج والانتشار في الأقطار، وجاء تشبيهُهُم بالفراش المبثوث، ولهم يومَ الخروج سهمٌ من الشَّبَه لكلٍّ، وقيل: يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجَّهون؛ لأنَّ الفراش لا جهةَ لها تقصدها، ثم كالجراد المنتشر[2] إذا توجَّهوا إلى المحشر، فهما تشبيهان باعتبار وقتَين، وحُكي ذلك عن مكي بن أبي طالب[3].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مُسرعين إليه؛ قاله أبو عبيدة[4]. وزاد بعضُهم: مادِّي أعناقهم، وآخر: مع هزٍّ ورَهَقٍ ومدِّ بصر.

وقال عكرمة: فاتحين آذانَهم إلى الصوت.

وعن ابن عباس: ناظرين إليه لا تُقلِع أبصارُهم عنه، وأَنْشَدَ قولَ تبع:

تَعبَّدَني نِمْرُ بنُ سعدٍ وقد أرَى ... ونمرُ بنُ سَعْدٍ لي مُطيعٌ ومُهْطِعُ[5]

وفي روايةٍ أنَّه فسَّره بخاضعين وأنشد البيت.

وقيل: خافضين ما بين أعينهم.

وقال سفيان: شاخصةً أبصارهم إلى السماء.

وقيل: أصل الهَطْع مدُّ العنق، أو مدُّ البصر، ثم يُكنَى به عن الإسراع، أو عن النظر والتأمل، فلا تغفل.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٣، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.
(٢) في (م): كالجواد المحتسر.
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٨، وقوله: حكي، يعني به إعراب الجملة حالاً.
(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٢٤٠.
(٥) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٦/ ١٤٣، والبيت دون نسبة في الكشاف ٤/ ٣٧، واللسان (هطع)، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٨٠، والبحر المحيط ٨/ ١٧٦.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعبٌ شديدٌ؛ لِمَا يشاهدون من مخايل هوله، وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه، وفي إسناد القولِ المذكور إلى الكفار تلويحٌ بأنَّه على المؤمنين ليس كذلك.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ شروعٌ في تعداد بعضِ ما ذُكِرَ من الأنباء الموجبةِ للازدجار، ونوعُ تفصيلٍ لها وبيانٍ لعدمِ تأثُّرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى: (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) والفعلُ منزلٌ منزلةَ اللازم، أي: فعلَت التكذيبَ قبلَ تكذيبِ قومِك قومُ نوح. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ تفسيرٌ لذلك التكذيب المبهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾ [هود: ٤٥] إلخ، وفيه مزيدُ تحقيقٍ وتقريرٍ للتكذيب.

وجوِّز أن يكون المعنى: كذَّبوا تكذيباً إثْرَ تكذيبٍ، كلَّما خلا منهم قرنٌ مكذِّبٌ جاءَ عَقيبَه قرنٌ آخرُ مكذِّبٌ مثله، أو: كذبت قومُ نوحٍ الرسلَ فكذَّبوا عبدنا، أي: لمَّا كانوا مكذِّبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً، كذَّبوا نوحاً لأنَّه من جملة الرسل، والفاء عليه سببية.

وقيل: معنى «كذَّبت»: قصَدَت التكذيبَ وابتَدَأَتْه، ومعنى «فكذبوا»: أتمُّوه وبلغُوا نهايتَه، كما قيل في قوله:

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فَجَبَرْ[1]

وفي ذِكْره عليه السلام بعنوان العبوديةِ مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيمٌ له عليه السلام ورفعٌ لمحله وتشنيعٌ لمكذِّبيه.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: لم يقتصروا على مجرَّد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون، فقالوا: هو مجنون.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ عطف على «قالوا»، وهو إخبارٌ منه عز وجل، أي: وزُجِرَ عن

---

(١) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٦٣، وأدب الكاتب ص ٤٥٤، وطبقات فحول الشعراء ٢/ ٧٥٤، والشعر والشعراء ٢/ ٦٠٣، وخزانة الأدب ٤/ ٥٤. وبعده:

وعوَّر الرحمنُ مَن وَلَّى العَوَرْ

التبليغ بأنواع الأذيَّةِ والتخويف، قاله ابن زيد وقرأ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وقال مجاهد: هو مِن تمام قولهم، أي: هو مجنون، وقد ازدجَرَتهُ الجنُّ وذهبَت بلُبِّه وتخبَّطَتْهُ. والأول أظهرُ وأبلغُ.

وجُعل مبنيّاً للمفعول لغرض الفاصلة، وطهَّر الألسنةَ عن ذكرهم دلالةً على أنَّ فعلَهم أسوأُ من قولهم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أي: بأنّي. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعمش وزيد بن علي ورُويت عن عاصم: «إني» بكسر الهمزة[1] على إضمارِ القولِ عند البصريين، وعلى إجراء الدعاءِ مجرى القولِ عند الكوفيين.

﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي، ما لي قدرةٌ على الانتقام منهم.

﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتقِمْ لي منهم، وقيل: فانتصر لنفسك إذ كذَّبوا رسولَك. وقيل: المرادُ بـ «مغلوبٌ»: غلبتني نفسي حتى دعوتُ عليهم بالهلاك. وهو خلافُ الظاهر، وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم. والتأكيدُ لمزيد الاعتناءِ بأمر الترحُّم المقصودِ من الإخبار.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أي: منصبٌ. وقيل: كثير؛ قال الشاعر:

أعينايَ جُودا بالدموعِ الهَوَامرِ ... على خيرِ بادٍ مِن مَعَدٍّ وحاضرِ[2]

والباء للآلة، مثلُها في: فتحتُ البابَ بالمفتاح، وجوِّز أن تكون للملابسة، والأول أبلغُ، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ بتشبيه تدفُّق المطر من السحاب بانصباب أنهارٍ انفتَحَت بها أبوابُ السماء وانشقَّ أديمُ الخضراء، وهو الذي ذهب إليه الجمهور.

وذهب قومٌ إلى أنَّه على حقيقته، وهو ظاهرُ كلامِ ابنِ عباس، أخرج ابن المنذر

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٧٦، وهي خلاف المشهور عن عاصم.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٨١، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

وابن أبي حاتم عنه أنَّه قال: لم تمطر السماءُ قبل ذلك اليوم ولا بعدَه إلا من السحاب، وفتِّحَت أبوابُ السماء بالماء من غير سحابٍ ذلك اليوم، فالتقى الماءان[1]. وفي رواية: لم تُقلِع أربعينَ يوماً[2].

وعن النقاش: أنَّه أُريدَ بالأبواب المَجَرَّة، وهي شَرَج السماء كشَرَج العَيْبَة[3]، والمعروفُ من الأرصاد أنَّ المَجَرَّةَ كواكبُ صغارٌ متقاربةٌ جدّاً، والله تعالى أعلم.

ومن العجيب أنَّهم كانوا يطلبون المطرَ سنينَ فأهلكَهم الله تعالى بمطلوبهم.

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب: «ففتَّحنا» بالتشديد[4] لكثرة الأبواب، والظاهر أنَّ جمع القِلَّة هنا للكثرة.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلَّها كأنَّها عيونٌ متفجِّرةٌ، وأصلُه: فجَّرنا عيونَ الأرض، فغيِّر إلى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلِّها متفجِّرةً مع الإبهام والتفسير، فالتمييزُ محوَّلٌ عن المفعول.

وجعَلَه بعضُهم محوَّلاً عن الفاعل بناءً على أنَّه الأكثرُ، والأصل: انفجَرَت عيونُ الأرض، وتحويلُه كما يكون عن فاعلِ الفعلِ المذكور يكونُ عن فاعل فعلٍ آخرَ يلاقيه في الاشتقاق، وهذا منه. وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

ومنع بعضُهم مجيءَ التمييز من المفعول، فأعرب «عيوناً» حالاً مقدَّرة، وجوّز عليه أن يكون مفعولاً ثانياً لـ «فجَّرْنا» على تضمينه ما يتعدَّى إليه، أي: صيَّرنا بالتفجير الأرض عيوناً. وكان ذلك على ما في بعض الروايات أربعينَ يوماً.

وقرأ عبد الله وأصحابه وأبو حيوة والمفضل عن عاصم: «فَجَرْنا» بالتخفيف[5].

---

(١) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧٧.

(٣) الشَّرَج: عُرى العَيْبة والخِباء ونحو ذلك. والعَيْبَة: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع. المعجم الوسيط (شرج) و(عيب).

(٤) قراءة ابن عامر وأبي جعفر ويعقوب في التيسير ص ١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٨، وقراءة الأعرج في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أي: ماءُ السماء وماءُ الأرض، والإفراد لتحقيق أنَّ التقاءَ الماءَين لم يكن بطريق المجاورة، بل بطريق الاختلاطِ والاتحاد.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والحسن ومحمد بن كعب والجحدري: «الماءان»[(١)] والتثنية لقصد بيان اختلافِ النوعَين، وإلا فالماء شاملٌ لماء السماء وماء الأرض، ونحوُه قولُه:

لنا إبلان فيهما ما علمتمُ فعن أيِّها ما شئتمُ فتنكَّبوا[(٢)]

وقيل: فيها إشارةٌ إلى أنَّ ماء الأرض فارَ بقوةٍ وارتفَعَ حتى لاقَى ماء السماء، وفي ذلك مبالغةٌ لا تُفهَم من الإفراد.

وقرأ الحسن أيضاً: «الماوان» بقلب الهمزة واواً[(٣)]، كقولهم: علباوان، كما قال الزمخشري[(٤)]، ولم يُرِدْ أنَّه نظيرُه، بل أراد: كما أنَّ هنالك إبدالاً بعلَّةِ أنَّها غيرُ أصلية لأنَّها زائدةٌ للإلحاق كذلك هاهنا لأنَّها مبدَلةٌ، والبدلُ وإن كان من الهاء لكنَّها أُجريَت مجرى البدلِ عن الواو فقيل في النسبة فيه: ماوي، وجاء في جمعه أمواء، كما جاء: أمواه، ولا يبعدُ أنْ يكونَ مَن ثنَّاه بالواو قاسَه على النسبة، كذا في «الكشف».

وعنه أيضاً: «المايان» بقلب الهمزة ياءً[(٥)].

﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: كائناً على حالٍ قد قدَّرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت. أو على حال قُدِّرَت وسوِّيَت، وهي أنَّ ما نزل على قَدْرِ ما خرج. وقيل:

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٣٧، واللسان (نكب)، وخزانة الأدب الشاهد السادس والسبعون بعد الخمس مئة. ولم يذكر الزمخشري عجزه، وأما صدره فقد وقع في شعرين، الأول هو هذا، والثاني مطلع قصيدة لعوف بن عطية بن الخَرِع التيمي كما في الأصمعيات ص ١٦٧، ورواية العجز فيه: فأدُّوهما إن شئتم أن نُسالما. وينظر تفصيل الكلام عليه في الخزانة.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والكشاف ٤/ ٣٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٧.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧.

إنَّ ماء الأرض علا سبعةَ عشر ذراعاً ونزل ماء السماء مُكَمِّلاً أربعين. وقيل: ماءُ الأرض كان أكثرَ وله مقدارٌ معيَّنٌ عند الله عز وجل.

أو على أمر قدَّره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ، وهو هلاكُ قومِ نوحٍ بالطوفان، ورجَّحه أبو حيان بأنَّ كلَّ قصة ذُكرَت بعدُ ذَكرَ الله تعالى فيها هلاكَ المكذِّبين، فيكون هذا كنايةً عن هلاك هؤلاء[١]، و«على» عليه للتعليل، ويحتمل تعلُّقها بـ «التقى»، وفيه ردٌّ على أهل الأحكام النجومية، حيث زعموا أنَّ الطوفانَ لاجتماع الكواكبِ السبعة ـ ما عدا الزهرة ـ في برجٍ مائي.

وقرأ أبو حيوة وابن مقسم: «قدِّر» بتشديد الدال[٢].

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً عليه السلام ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير كما قاله الجمهور وابن عباس في رواية ابن جرير وابن المنذر[٣]، جمع دِسَار ككِتَاب وكُتُب، وقيل: «دَسْر» كسَقْف وسُقُف، وأصل الدَّسْر الدفعُ الشديد بقَهْرٍ، فسُمِّي به المسمار لأنَّه يُدَقُّ فيُدفَع بشدة.

وقيل: حبالٌ من ليفٍ تُشدُّ بها السُّفنُ.

وقال الليث: خيوطٌ تُشدُّ بها ألواحها.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والحسن أنَّها مقاديمُ السفينة وصدرُها الذي تضربُ به الموجَ وتدفعه[٤]. وروي عن ابن عباس نحوُه.

وأَخْرَجَ عن مجاهد أنَّها عوارضُ السفينة[٥]، أي: الخشبات التي تعرض في وسطها. وفي رواية عنه: هي أضلاعُ السفينة.

وأيًّا ما كان، فقوله تعالى: (ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ) من الصفات التي تقومُ مقامَ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٧٧، والدر المصون ١٠/ ١٣٣.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ١٢٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥.
(٤) عزاهما لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥.
(٥) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥.

الموصوفات على سبيل الكناية، كقولهم: حيٌّ مستوي القامة عريضُ الأظفار، في الكناية عن الإنسان، وهو من فصيح الكلام وبديعه. ونظيرُ الآية قول الشاعر:

مفرشي صهوةُ الحصانِ ولكن   قميصي مسرودةٌ من حديدِ(١)

فإنَّه أراد: قميصي درعٌ. وقوله يصف هزال الإبل:

ترى آلَها في عينِ كلِّ مقابلٍ   ولو في عيونِ النازياتِ بأكرُعِ(٢)

فإنَّه أراد: في عيون الجراد، لأنَّ النزْوَ بالأكرع يختصُّ بها، وأما كونُه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه ـ على ما في «المفصل» وغيرِه ـ فكلامُ نحويٌّ.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منَّا، وكنَى به عن الحفظ، أي: تجري في ذلك الماء بحفظنا وكِلاءتنا.

وقيل: بأوليائنا، يعني نوحاً عليه السلام ومَن آمن معه؛ يقال: مات عينٌ من عيون الله تعالى، أي: وليٌّ مِن أوليائه سبحانه.

وقيل: بأعين الماء التي فجَّرناها.

وقيل: بالحَفَظَة من الملائكة عليهم السلام، سمَّاهم أَعْيُناً وأضافهم إليه جل شأنه. والأول أظهرُ.

وقرأ زيد بن علي وأبو السمال: «بأعينَّا» بالإدغام(٣).

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا ذلك جزاءً لنوح عليه السلام، فإنَّه كان نعمةً أنعمَها الله تعالى على قومه فكفروها، وكذا كلُّ نبيٍّ نعمةٌ من الله تعالى على أُمَّته،

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٤٤.

(٢) البيت لأبي العلاء كما في شروح سقط الزند ٤/ ١٥٣٤، وعجزه في الكشاف ٤/ ٣٨، والدر المصون ١٠/ ١٣٤. ووقع في الأصل و(م): في كل عين مقابل، والمثبت من شروح سقط الزند، وجاء في شروحه: الآل: الشخص. والنازيات: الجراد؛ لأنها تنزو، أي: تثب، بأكرع: بسوقٍ دقيقةٍ. وهذا في صفة الناقة بحدَّة البصر، يقول: لحدَّة أبصارها ترى أشخاصها في عين كل حيوان يقابلها، حتى في عيون الجراد.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٥، والبحر المحيط ٨/ ١٧٨.

وجوَّز أنْ يكونَ على حذف الجارِّ وإيصالِ الفعلِ إلى الضمير، واستتارِه في الفعل بعد انقلابه مرفوعاً، أي: لمن كُفِرَ به، وهو نوحٌ عليه السلام أيضاً، أي: جُحِدَت نبوته، فالكفر عليه ضدُّ الإيمان، وعلى الأول كفرانُ النعمة.

وعن ابن عباس ومجاهد: «مَن» يُراد به الله تعالى، كأنَّه قيل: غضباً وانتصاراً لله عز وجل. وهو كما ترى.

وقرأ مسلمة بن محارب: «كُفْر» بإسكان الفاء[1] خفّف فُعِلَ كما في قوله:

لـو عُـصْـرَ مـنـه الـبـانُ والـمـسـكُ انـعـصَـرْ[2]

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة وعيسى: «كَفَرَ» مبنيّاً للفاعل[3]، فـ «مَن» يُراد بها قومُ نوح عليه السلام لا غير، وفي هذه القراءة دليلٌ على وقوع الماضي بغير «قد» خبراً لـ «كان» وهو مذهب البصريين، وغيرهم يقول: لا بدَّ مِن وقوع «قد» ظاهرةً أو مقدَّرةً. وجوّز أنْ تكونَ «كان» زائدةً كأنَّه قيل: جزاءً لمن كَفَرَ ولم يُؤمن.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أي: أبقينا السفينةَ ﴿ءَايَةٗ﴾ بناءً على ما روي عن قتادة والنقاش أنَّه بقي خشبُها على الجوديِّ حتى رآه بعضُ أوائلِ هذه الأمة، أو أبقينا خبرَها، أو أبقينا جنسَها وذلك بإبقاء السفن، أو «تَركنا» بمعنى جعلنا. وجوَّز كون الضمير للفعلة، وهي إنجاءُ نوح عليه السلام ومَن معه وإغراق الكافرين.

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: مُعتَبر بتلك الآية الحرِيَّة بالاعتبار. وقرأ قتادة على ما نقل ابنُ عطية: «مُذَّكر» بالذال المعجمة[4] على قلب تاء الافتعال ذالاً وإدغامِ الذال في الذال، وقال صاحب «اللوامح»: قرأ قتادة: «فهل من مُذَكِّر» بتشديد الكاف[5] من التذكير، أي: مَن يُذكِّر نفسَه أو غيرَه بها؟

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٨.
(٢) الرجز لأبي النجم وهو في ديوانه ص ١٠٣، والكتاب ٤/ ١١٤، وأدب الكاتب ص ٥٣٨، وإصلاح المنطق ص ٤٢.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٨/ ١٧٨.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥، وهي في القراءات الشاذة ص ١٤٨، والبحر المحيط ٨/ ١٧٨.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٧٨.

وقرئ: «مُذْتكر» بذال معجمة بعدها تاء الافتعال[١] كما هو الأصل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ استفهامُ تعظيمٍ وتعجيب، أي: كانا على كيفيةٍ هائلةٍ لا يحيط بها الوصفُ، و«النُّذُر» مصدرٌ كالإنذار، وقيل: جمع نذيرٍ بمعنى الإنذار، وجعَلَه بعضُهم بمعنى المنذَر منه، وليس بشيء، وكذا جَعْلُه بمعنى المنذر. و«كان» يحتملُ أن تكونَ ناقصةً ف «كيف» في موضع الخبر، وتامةً ف «كيف» في موضع الحال.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ﴾ إلخ جملة قَسَمِية ورَدَت في آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَآءَهُم) إلخ، وتنبيهاً على أنَّ كلَّ قصةٍ منها مستقلةٌ بإيجاب الادِّكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أي: وبالله لقد سهَّلنا القرآنَ لقومك بأنْ أنزلناه على لغتهم، وشحنَّاه بأنواع المواعظ والعبر، وصرَّفنا فيه من الوعيد والوعد. ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتذكُّر والاتِّعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكارٌ ونَفْيٌ للمتَّعظ على أبلغ وجهٍ وآكده، يدلُّ على أنَّه لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يُجيبَ المستفهمَ بـ: نَعَم.

وقيل: المعنى: سهَّلنا القرآن للحفظ لِمَا اشتمل عليه من حُسنِ النظمِ، وسلاسَةِ اللفظ، وشَرَف المعاني وصحتها، وعروِّه عن الوحشي ونحوه، فله تعلُّقٌ بالقلوب وحلاوةٌ في السمع، فهل مِن طالبٍ لحفظه لِيُعَان عليه؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يُستَظهرَ شيءٌ من الكتب الإلهية غير القرآن.

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن مجاهد أنَّه قال: «يسرنا القرآن» هوَّنَّا قراءته[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: لولا أنَّ الله تعالى يسَّره على لسانِ الآدميين ما استطاعَ أحدٌ من الخلق أنْ يتكلَّم بكلام الله تعالى[٣]. وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥. وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٣٠-١٣١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٧٣).

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٥٧٢).

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب (٨١٢٢).

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنَّه مرَّ برجلٍ يقول: سورةٌ خفيفة، فقال: لا تقل ذلك، ولكن قل: سورةٌ يسيرةٌ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾(١).

والمعنى الذي ذُكرَ أولاً أنسب بالمقام، ولعل خبرَ أنس إنْ صحَّ ليس تفسيراً للآية.

وجوِّز تفسيرُ «يسَّرنا» بـ: هيَّأنا، من قولهم: يسَّر ناقتَه للسفر: إذا رحَلَها(٢)، ويسَّر فرسَه للغزو: إذا أسرَجَه وألجمه؛ قال الشاعر:

وقُمتُ إليه باللِّجام مُيَسِّراً ... هنالك يَجزيني الذي كنتُ أَصنَعُ(٣)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ شروعٌ في قصة أخرى، ولم تُعطَف وكذا ما بعدَها من القصص إشارةً إلى أنَّ كلَّ قصةٍ مستقلَّةٌ في القَصْدِ والاتِّعاظ، ولمَّا لم يكن لقوم نوح اسمُ عَلَم ذُكِروا بعنوان الإضافة، ولمَّا كان لقوم هود عَلَمٌ وهو «عاد» ذكروا به؛ لأنَّه أبلغُ في التعريف، والمرادُ: كذبت عادٌ هوداً عليه السلام، ولم يتعرَّض لكيفية تكذيبهم له عليه السلام رَوْماً للاختصار، ومسارعةً إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ لتوجيه قلوبِ السامعين نحو الإصغاء إلى ما يُلقَى إليهم قبل ذكره، لا لتهويله وتعظيمه وتَعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبلَه وما بعدَه، كأنَّه قيل: كذَّبت عادٌ فهل سمعتم، أو: فاسمعوا كيف عذابي وإنذاري لهم.

وقيل: هو للتهويل أيضاً؛ لغرابة ما عُذِّبوا به من الريح، وانفرادهم(٤) بهذا النوعِ من العذاب. وفيه بحث.

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥.
(٢) أي: حطَّ عليها الرَّحْلَ. القاموس (رحل).
(٣) البيت للأعرج عدي بن عمرو الطائي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٥١، وهو دون نسبة في الكشاف ٤/ ٣٨، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٧٨.
(٤) في (م): وانفراده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ استئنافٌ لبيان ما أُجمل أولاً، والصَّرْصَرُ: الباردةُ على ما روي عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: شديدةُ الصوت. وتمامُ الكلام قد مرَّ في «فصلت»(١).

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤمٍ عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ ذلك الشؤم؛ لأنَّهم بعد أنْ أُهلِكوا لم يزالوا معذَّبين في البرزخ حتى يدخلوا جهنَّم يوم القيامة، والمرادُ باليوم مطلقُ الزمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]. والمشهورُ أنَّه يوم الأربعاء وكان آخرَ شوال، على معنى أنَّ ابتداءَ إرسال الريح كان فيه، فلا يُنافي آيتَي «فصلت» و«الحاقة».

وجوِّز كونُ «مستمر» صفةَ «يوم»، أي: في يوم استمرَّ عليهم حتى أهلكهم، أو شمل كبيرَهم وصغيرَهم حتى لم يُبقِ(٢) منهم نسمةً، على أنَّ الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب الأشخاص والأفراد، لكن على الأولِ لا بدَّ من تجوُّزٍ بإرادة استمرارِ نَحْسِه، أو بجعل اليوم بمعنى مطلقِ الزمان، لأنَّ اليوم الواحد لم يستمرَّ، فتدبر.

وجوِّز كون «مستمر» بمعنى محكم، وكونُه بمعنى شديد المرارة، وهو مجازٌ عن بشاعته وشدَّةِ هوله، إذ لا طعمَ له. وجوِّز كونه بدلاً، أو عطف بيان، وهو كما ترى.

وقرأ الحسن: «يومٍ نَحِسٍ» بتنوين «يوم» وكسر حاء «نحس»(٣)، وجعله صفةً لـ «يوم»، فيتعيَّن كون «مستمر» صفةً ثانيةً له.

وأيَّد بعضُهم بالآية ما أخرجه وكيع في «الغرر» وابن مردويه والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعاً: «آخرُ أربعاء في الشهر يومُ نحسٍ مستمرٍّ»(٤) وأخذ بذلك

---

(١) آية (١٦) منها.

(٢) في (م): تبق.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦، والبحر المحيط ٨/ ١٧٩.

(٤) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٠٥، وعزاه لوكيع وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٥، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٤٦ (٧١٧).

كثيرٌ من الناس فتَطَيَّروا منه وتركوا السَّعْيَ لمصالحهم فيه، ويقولون له: أربعاءُ لا تدور، وعليه قوله:

لقاؤك للمبكِّر فألُ سوءٍ ووجهُك أربعاءُ لا تدورُ[1]

وذلك مما لا ينبغي، والحديثُ المذكور في سنده: مَسْلَمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك[2]. وجزم ابن الجوزي بوضعه[3]. وقال ابنُ رجب: حديثٌ لا يصحُّ ورفعُه غير متفق عليه، فقد رواه الطُّيُوري من طريق آخر موقوفاً على ابن عباس. وقال السخاوي: طرقُه كلُّها واهيةٌ[4].

وضعَّفوا أيضاً خبر الطبراني: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»[5]. والآية قد علمتَ معناها.

وجاء في الأخبار والآثار ما يُشعرُ بمدحه، ففي «منهاج» الحليمي، و«شعب» البيهقي: أنَّ الدعاء يُستجابُ يوم الأربعاء بُعيدَ الزوال[6].

وذكر برهان الإسلام في «تعليم المتعلم» عن صاحب «الهداية»: أنَّه ما بُدِئ شيءٌ يومَ الأربعاء إلا وتمَّ، وهو يوم خلقَ الله تعالى فيه النورَ، فلذلك كان جمعٌ من

(١) البيت لمحمد بن حازم الباهلي كما في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٦٦٣، وهو دون نسبة في ثمار القلوب ١/ ٦٥٠، وحاشية الشهاب ٨/ ١٢٤، وجاء في ثمار القلوب: يوم، بدل: فأل.

(٢) الجرح والتعديل ٨/ ٢٦٩، والموضوعات ٣/ ٤٨.

(٣) الموضوعات ٣/ ٤٦-٤٨.

(٤) المقاصد الحسنة ص ٤٨٠.

(٥) المعجم الأوسط (٧٩٧) عن جابر ﷺ، وضعفه المناوي في فيض القدير ١/ ٤٧ وما سينقله المصنف من أقوال منه.

(٦) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٥٣٦، وشعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٤٦، والكلام من فيض القدير ١/ ٤٦، وأخرج أحمد (١٤٥٦٣) من حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ دعا في مسجد الفتح ثلاثاً يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعُرِفَ البشرُ في وجهه. قال جابر: فلم ينزل بي أمرٌ مهمٌ غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعوا بها فأعرف الإجابة. وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

المشايخ يتحرَّون ابتداءَ الجلوس للتدريس فيه(١).

واستحبَّ بعضُهم غرسَ الأشجار فيه لخبر ابن حبان والديلمي عن جابر مرفوعاً: «مَن غرسَ الأشجار يومَ الأربعاء وقال: سبحانَ الباعثِ الوارثِ آتته أُكُلَها»(٢).

نعم جاءت أخبارٌ وآثار تُشعر بخلاف ذلك، ففي «الفردوس» عن عائشة مرفوعاً: «لولا أنْ تكره أمتي لأمرتُها أنْ لا يسافروا يومَ الأربعاء، وأَحبُّ الأيامِ إليَّ الشخوص فيها يوم الخميس»(٣) وهو غيرُ معلوم الصحة عندي.

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس، وابنُ عدي وتمامٌ في «فوائده» عن أبي سعيد مرفوعاً: «يومُ السبتِ يومُ مكرٍ وخديعة، ويوم الأحد يومُ غَرْسٍ وبناء، ويومُ الاثنين يومُ سَفَر وطلب رزق، ويومُ الثلاثاء يومُ حديدٍ وبأس، ويومُ الأربعاء لا أخذٌ ولا عطاء، ويوم الخميس يومُ طلب الحوائج والدخول على السلطان، والجمعةُ يومُ خطبة ونكاح»(٤)، وتعقَّبه السخاويُّ بأنَّ سنده ضعيف(٥).

وروى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً، وخرَّجه الحاكم من طريقَين آخرَين: «لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء»(٦).

---

(١) فيض القدير ١/ ٤٦، وحديث خَلْقِ الله النورَ يوم الأربعاء أخرجه مسلم (٢٧٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المجروحين لابن حبان ٢/ ١٩٠، والفردوس ٣/ ٤٧٨، وفي إسناده العباس بن الوليد بن بكار الضبي؛ قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. وقال الدارقطني: كذاب. المجروحين ٢/ ١٩٠، والميزان ٢/ ٣٨٢.

(٣) لم نقف عليه في الفردوس، ونقله المصنف من فيض القدير ١/ ٤٦.

(٤) مسند أبي يعلى (٢٦١٢) موقوفاً، وفوائد تمام (٧٨١ - الروض البسام)، وعزاه لابن عدي المناوي في فيض القدير ١/ ٤٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٨٥ عن حديث ابن عباس: فيه يحيى بن العلاء وهو متروك. وحديث أبي سعيد فيه سلام بن سليمان، قال عنه أبو حاتم كما في الميزان ٢/ ١٧٨: ليس بالقوي. وقال ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٥٦: وهو عندي منكر الحديث. وضعفه ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٥٤.

(٥) المقاصد الحسنة ص ٤٨٠، والكلام من فيض القدير ١/ ٤٦.

(٦) سنن ابن ماجه (٣٤٨٧) و(٣٤٨٨)، والمستدرك ٤/ ٢١١. وذكره ابن الجوزي في

وفي بعض الآثار النهيُ عن قصِّ الأظفار يومَ الأربعاء، وأنَّه يورث البرصَ. وكرِه بعضُهم عيادةَ المرضَى فيه، وعليه قيل:

لـم يُـؤتَ فـي الأربـعـا مـريـضٌ إلا دفـنَّـاه فـي الـخـمـيـسِ[1]

وحُكي عن بعضِهم أنَّه قال لأخيه: اخْرُجْ معي في حاجة. فقال: هو الأربعاء. قال: فيه وُلِدَ يُونس. قال: لا جَرَم قد بانَت له بركتُه في اتِّساع موضعِه وحُسن كسوته حتى خلَّصَه الله تعالى. قال: وفيه وُلد يوسف عليه السلام. قال: فما أحسن ما فعل إخوتُه حتى طالَ حبسُه وغربته. قال: وفيه نُصر المصطفى ﷺ يومَ الأحزاب. قال: أجل لكنْ بعد أنْ زاغَت الأبصارُ، وبلغت القلوبُ الحناجر.

ونقل المناوي[2] عن «البحر» أنَّ إخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسة آخر أربعاء في الشهر [ليس] من باب التطيُّرِ ضرورةَ أنَّه[3] ليس من الدِّين، بل فعل الجاهلية، ولا مبنيٌّ على قول المنجِّمين أنَّه يوم عطارد، وهو نحسٌ مع النحوس، سعدٌ مع السعود، فإنَّه قولٌ باطل.

ويجوزُ أنْ يكونَ من باب التخويف والتحذير، أي: احذرُوا ذلك اليومَ لِمَا نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك، وجدِّدوا فيه لله تعالى توبةً خوفاً أنْ يلحقَكم فيه بؤسٌ كما وقع لمن قبلكم[4]، وهذا كما قال حين أتى الحِجْر: «لا تدخُلُوا على هؤلاء المعذَّبينَ إلا أنْ تكونوا باكين»[5]، إلى غير ذلك.

وحكي أيضاً عن بعضهم أنَّه قال: التطيُّر مكروه كراهةً شرعيةً، إلا أنْ الشرع أباحَ لمن أصابَه في آخِرِ أربعاءَ شيءٌ في مصالحه أنْ يَدَعَ التصرف فيه، لا على جهة

= الموضوعات ٣/ ٤٦ مع غيره من أحاديث ذمِّ الأربعاء، وقال: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ.

(١) فيض القدير ١/ ٤٦، وكشف الخفاء ١/ ١٣.

(٢) في فيض القدير ١/ ٤٥ بنحوه، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) أي: التطيُّر.

(٤) في (م): قبلهم.

(٥) أخرجه أحمد (٥٢٢٥)، والبخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

التطيُّر واعتقادِ أنَّه يضرُّ أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقادِ إباحة الإمساك فيه لِمَا كرهَته النفس لا اقتفاءً للتطير ولكن إثباتاً للرخصة في التوقِّي فيه لمن يشاء، مع وجوب اعتقادِ أنَّ شيئاً لا يضرُّ شيئاً.

ونَقَل عن الحليمي أنَّه قال: عَلِمنا ببيان الشريعةِ أنَّ مِن الأيام نحساً، ويقابلُ النحسَ السعدُ، وإذا ثبتَ الأولُ ثبتَ الثاني أيضاً، فالأيامُ منها نحسٌ ومنها سعدٌ، كالأشخاص منهم شقيٌّ ومنهم سعيد، لكنَّ زَعْمَ أنَّ الأيامَ والكواكبَ تَنحسُ أو تُسعِدُ باختيارها أوقاتاً وأشخاصاً باطلٌ، والقولُ إنَّ الكواكب قد تكون أسباباً للحَسَن والقبيح والخير والشر، والكلُّ فعلُ الله تعالى وحدَه، مما لا بأسَ به.

ثم قال المناوي: والحاصل أنَّ توقِّي الأربعاء على جهة الطِّيَرَة وظنِّ اعتقادِ المنجِّمين حرامٌ شديدُ التحريم، إذ الأيامُ كلُّها لله تعالى، لا تنفعُ ولا تضرُّ بذاتها، وبدون ذلك لا ضيرَ ولا محذورَ فيه؛ ومَن تطيَّر حاقَت به نحوستُه، ومَن أيقنَ بأنه لا يضرُّ ولا ينفعُ إلا الله عز وجل لم يؤثِّر فيه شيءٌ من ذلك كما قيل:

تَعَلَّم أنَّه لا طيرَ إلا عَلى مُتطيِّرٍ وهو الثُّبُور[(١)]

انتهى.

وأقولُ: كلُّ الأيام سواءٌ ولا اختصاصَ لذلك بيوم الأربعاء، وما مِن ساعةٍ من الساعات إلا وهي سعدٌ على شخص نحسٌ على آخر باعتبار ما يُحدِثُ الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر، فكلُّ يوم من الأيام يتَّصفُ بالأمرَين لاختلاف الاعتبار، وإن استُنحِسَ يومُ الأربعاء لوقوع حادثٍ فيه فليُسْتَنْحَس كلُّ يومٍ فما أُولِجَ الليلُ في النهار والنهارُ في الليل إلا لإيلادِ الحوادثِ، وقد قيل:

ألا إنَّما الأيامُ أبناءُ واحدٍ وهذي الليالي كلُّها أخواتُ[(٢)]

---

(١) البيت لزَبَّان بن سيار كما في البيان والتبيين ٣/ ٣٠٤-٣٠٥، والحيوان ٣/ ٤٤٧ و٥/ ٥٥٥، وشرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٧٨.

(٢) البيت لأبي العلاء المعري، وسلف ١/ ١٠٠.

وقد حُكي أنَّه صبَّح ثمودَ العذابُ يومَ الأحد، وورد في الأثر - ولا أظنُّه يصحُّ -: «نعوذُ بالله تعالى مِن يوم الأحد، فإنَّ له حدًّا أحدّ من السيف»[(١)] ولو صحَّ فلعله في أَحَدٍ مخصوصٍ عُلم بالوحي ما يحدُث فيه. وزَعْمُ بعضِهم أنَّ من المجرَّب الذي لم يُخطِئ[(٢)] قطُّ أنَّه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري الأحد وفُعِل فيه شيءٌ لم يتمَّ = غيرُ مسلَّم.

وورد في «الفردوس» من حديث ابن مسعود: «خَلَق الله تعالى الأمراضَ يوم الثلاثاء، وفيه أنزَلَ إبليس إلى الأرض، وفيه خلَقَ جهنَّم، وفيه سلط الله تعالى ملَكَ الموت على أرواح بني آدم، وفيه قتل قابيلُ هابيلَ، وفيه توفي موسى وهارون عليهما السلام، وفيه ابتلي أيوب» الحديث[(٣)]، وهو إنْ صحَّ لا يدلُّ على نُحُوسَتِه، غايتُه أنَّه وقع فيه ما وقَعَ، وقد وقع فيه غيرُ ذلك مما هو خير، ففي رواية مسلم: «خلَقَ التِّقْن - أي: ما يقومُ به المعاش - يوم الثلاثاء»[(٤)]، وإذا تتبَّعتَ التورايخَ وقفتَ على حوادثَ عظيمةٍ في سائر الأيام، ويكفي في هذا الباب أنَّ حادثةَ عادٍ استوعَبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فإنْ كانت النحوسةُ لذلك فقل لي أيّ يومٍ من الأسبوع خلا منها؟!

---

(١) فيض القدير ١/ ٤٦.

(٢) في الأصل و(م): لم يخط.

(٣) لم نقف عليه في الفردوس، وعزاه له ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٦٥ وقال: فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، وعنه عبد الرحيم بن حبيب. اهـ. قلنا: وإسماعيل بن يحيى قال عنه الأزدي: ركن من أركان الكذب، لا تحل الرواية عنه. وقال أبو علي النيسابوري الحافظ والدارقطني والحاكم: كذاب. وعبد الرحيم بن حبيب قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال ابن حبان: لعله وضع أكثر من خمس مئة حديث على رسول الله ﷺ. الميزان ١/ ٢٥٣، و٢/ ٦٠٣.

(٤) لم نقف عليه في صحيح مسلم، وهو عند النسائي في الكبرى (١١٣٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
والذي في صحيح مسلم (٢٧٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ: «وخلق المكروه يوم الثلاثاء». قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٤٢: وقد ذكر هذا الحديث ثابت [بن قاسم] في كتابه، وقال فيه: «وخلق التقن يوم الثلاثاء» بدل: «المكروه». اهـ. قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٣٣: ولا خلاف بين الروايتين فكلاهما خلق يوم الثلاثاء.

ومثلُ أمرِ النحوسةِ فيما أرَى أمرُ تخصيصِ كلِّ يومٍ بعمل، كما يزعمُه كثيرٌ من الناس، ويذكرون في ذلك أبياتاً نسبها الحافظ الدمياطي لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وهي:

فنعمَ اليومُ يومُ السبت حقّاً ... لصيدٍ إنْ أردتَ بلا امتراء
وفي الأحد البناء لأنَّ فيه ... تبدَّى الله في خلق السماء
وفي الاثنين إنْ سافرتَ فيه ... سترجعُ بالنجاح وبالثراء
ومَن يُرد الحجامةَ فالثلاثا ... ففي ساعاته هرقُ الدماء
وإنْ شرب امرؤٌ يوماً دواءً ... فنعمَ اليومُ يومُ الأربعاء
وفي يوم الخميس قضاءُ حاجٍ ... فإنَّ الله يأذنُ بالقضاء
وفي الجُمُعَات تزويجٌ وعرسٌ ... ولَذَّاتُ الرجال مع النساء
وهذا العلمُ لا يدريه إلا ... نبيٌّ أو وصيُّ الأنبياء(١)

ولا أظنُّها تصحُّ.

وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما لم يَشأ لم يكن، لا دخل في ذلك لوقتٍ ولا لغيره، نعم لبعض الأوقات شرفٌ لا يُنكرُ، كيوم الجمعة، وشهر رمضانَ، وغير ذلك، ولبعضها عكسُ ذلك كالأوقات التي تكره فيها الصلاة، لكن هذا أمرٌ ومحلُّ النزاع أمرٌ، فاحفظ ذاك والله تعالى يتولَّى هُداك.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ صفةً للريح وأن يكونَ حالاً منها؛ لأنَّها وُصِفَت فقَرُبَت من المعرفة، وجوِّز أن يكونَ مستأنفاً، وجيء بـ «الناس» دون ضمير «عاد» قيل: ليشمل ذكورَهم وإناثهم.

---

(١) فيض القدير ١/ ٤٧، وتنزيه الشريعة ٢/ ٥٤، والدمياطي هو عبد المؤمن بن خلف، شرف الدين، ولد في دمياط وتفقه فيها، وقرأ السبع على الكمال الضرير، ولازم الحافظ المنذري سنين، روى عنه من تلاميذه المِزِّي والسبكي، له مصنفات نفيسة منها السيرة النبوية. شذرات الذهب ٨/ ٢٣.
والأبيات في ديوان ابن الرومي ١/ ١٣٦ دون الأخير، والبيت الذي قبل الأخير بلفظ:
ويوم الجمعة التنعيمُ فيه ... وتزويج الرجال مع النساء

والنَّزْع: القلعُ، روي أنَّهم دخلوا الشعابَ والحُفَر وتمسَّك بعضُهم ببعضٍ فقلعَتهم الريحُ وصرعتهم موتَى.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي: منقلعٍ عن مغارسه، ساقطٍ على الأرض، وقيل: شُبِّهوا بأعجاز النخل وهي أصولُها بلا فروع؛ لأنَّ الريح كانت تقلَعُ رؤوسَهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس، ويزيد هذا التشبيه حُسناً أنَّهم كانوا ذوي جُثَثٍ عظام طوالٍ، و«النخل» اسمُ جنسٍ يذكَّر نظراً للَّفظ كما هنا، ويؤنَّث نظراً للمعنى كما في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] واعتبار كلٌّ في كلٍّ من الموضعَين للفاصلة، والجملةُ التشبيهية حالٌ من «الناس» وهي حال مقدَّرة.

وقال الطبري: في الكلام حذفٌ، والتقديرُ: فتركَتهم كأنَّهم.. إلخ[١]، فالكاف على ما في «البحر» في موضع نصبٍ بالمحذوف[٢]. وليس بذاك.

وقرأ أبو نهيك: «أعجُزُ»[٣] على وزن «أفعل» نحو: ضَبُع وأَضبُع.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ تهويلٌ لهما وتعجيبٌ من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرارٍ مع ما تقدَّم.

وقيل: إنَّ الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحيق بهم في الآخرة، و«كان» للمشاكلة، أو للدلالة على تحقُّقه، على عادته سبحانه في إخباره. وتُعقِّبَ بأنَّه يأباه ترتيبُ الثاني على العذاب الدنيوي.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ بالرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنَّ تكذيبَ أحدِهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيبٌ للكلِّ؛ لاتِّفاقهم على أصول الشرائع، وجوِّز أن يكون مصدراً أو جمعاً له، وأن يكون جمع «نذر» بمعنى المنذَر منه، فلا تغفل.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٣٨.

(٢) البحر المحيط ٨/١٧٩.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والبحر المحيط ٨/١٧٩.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ أي: كائناً من جنسنا، على أنَّ الجارَّ والمجرور في موضع الصفة لـ «بشراً»، وانتصابه بفعل يفسره «نتَّبع» بعدُ، أي: أنتَّبع بشراً ﴿وَٰحِدًا﴾ أي: منفرداً لا تَبَعَ له، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم، كما يُفهَم من التنكير الدالِّ على عدم التعيين، وهو صفةٌ أخرى لـ «بشر»، وتأخيرُه مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبهَ الجملةِ للتنبيه على أنَّ كلًّا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتِّباع، ولو قُدِّم عليها لفاتَ هذا التنبيهُ.

وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلي في كتابه «الكامل» وأبو عمرو الداني: «أبشرٌ منَّا واحدٌ» برفعهما[١] على أنَّ: «بشرٌ» مبتدأ، وما بعدُ صفته، وقوله تعالى: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ خبرُه.

ونقل ابن خالويه وصاحب «اللوامح» وابن عطية عن أبي السمال رَفْعَ «بشر» ونَصْبَ «واحداً» وخرَّج ذلك ابنُ عطية على أنَّ رفْعَ «بَشَرٌ» إما على إضمار فعلٍ مبنيٍّ للمفعول، والتقدير: أيُنبَّأُ بشرٌ، وإما على الابتداء، والخبر جملةُ «نتَّبعه»، ونَصْبَ «واحداً» على الحال إما من ضمير النصب في «نتَّبعه» وإما من الضمير المستقر في «منا». وخرّج صاحبُ «اللوامح» نَصْبَ «واحداً» على هذا أيضاً، وأما رفعُ «بشر» فخرَّجه على الابتداء وإضمار الخبر، أي: أبشرٌ منَّا يُبعَثُ إلينا أو يُرسَل، أو نحوهما[٢]، وتقدُّم الاستفهام يُرجِّح تقديرَ فعلٍ يرفع به.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا اتَّبعنا بشراً منَّا واحداً ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ عظيمٍ عن الحقِّ ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: نيران، جمع سعير.

وروي أنَّ صالحاً عليه السلام كان يقول لهم: إنْ لم تتَّبعوني كنتُم في ضلال عن الحقِّ وسُعُر، فعكَسُوا عليه لغايةِ عتوِّهم فقالوا: إن اتَّبعناك كنَّا إذاً كما تقول. فالكلامُ من باب التعكيس والقولِ بالموجب، وجمعُ السعير باعتبار الدَّرَكات، أو للمبالغة، وروي عن ابن عباس ما يحتملُ ما قلنا، فإنَّه قال: أي: لفي بُعدٍ عن الحقِّ وعذابٍ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٩.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٩-١٨٠.

وفي رواية أخرى عنه تفسيرُ السُّعُر بالجنون على أنَّه اسمٌ مفرَدٌ بمعنى ذلك، يقال: ناقةٌ مسعورة: إذا كانت تفرطُ في سيرها كأنَّها مجنونة؛ قال الشاعر:

كأنَّ بها سُعراً إذا العيسُ هزَّها ... ذَمِيلٌ وإرخاءٌ من السَّيرِ مُتْعبُ[١]

والأولُ أوجه وأفصحُ.

﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أأُنزلَ عليه الوحيُ من بيننا وفينا مَن هو أحقُّ منه بذلك، والتعبيرُ بـ «أُلقي» دون «أنزل» قيل: لأنَّه يتضمَّن العجلة في الفعل.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: شديدُ البَطر، وهو على ما قاله الراغب: دَهَشٌ يعتري مِن سوء احتمالِ النعمة وقِلَّةِ القيام بحقِّها ووضعِها إلى غير وجهها، ويقاربُه الطَّرَبُ وهو خِفَّةٌ أكثر ما تعتري من الفرح[٢]. ومرادُهم: ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا، حملَه شدَّةُ بَطَره وطلبُه التعظيم علينا على ادِّعاء ذلك.

وقرأ قتادة وأبو قلابة: «بل هو الكذَّاب الأشَرُّ» بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشدّ الراء[٣]، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ حكايةٌ لِمَا قاله سبحانه وتعالى لصالح عليه السلام وعداً[٤] له ووعيداً لقومه، والسين لتقريب مضمونِ الجملة وتأكيده، والمرادُ بالغَدِ وقتُ نزولِ العذاب الدنيوي بهم، وقيل: يومُ القيامة، فهو لمطلق الزمان المستقبل، وعبَّر به لتقريبه، وعليه قول الطرماح:

ألَا عَلِّلاني قبل نَوح النَّوائح ... وقبل اضطرابِ النفس بينَ الجوانحِ

وقبل غَدٍ يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ ... إذا راحَ أصحابي ولستُ برائحِ[٥]

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٩١، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠ دون نسبة، والذَّميل: ضرب من سير الإبل، قال أبو عبيد: فإذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التزيد، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل ثم الرسيم. اللسان (ذمل).

(٢) مفردات الراغب (أشر) و(بطر).

(٣) البحر ٨/ ١٨٠، والدر المصون ١٠/ ١٤٠.

(٤) في الأصل: ووعداً.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٨٠، ولم نقف عليهما في ديوانه، وعزاهما المرزوقيُّ في شرح الحماسة =

أي: سيعلمون ألبتَّة عن قريبٍ من الكذابُ الأشر، الذي حَمَله أشَرُه وبَطَرُه على ما حمله، أصالحٌ أم مَن كذَّبه، والمراد: سيعلمون أنَّهم هم الكذَّابون الأَشِرُون، لكن أُوردَ ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنَّه مما لا يكاد يخفَى، ونحوه قول الشاعر:

فَلَئِن لقيتُكَ خالِيَيْن لتعلَمَنَّ أيِّـي وأيُّـكَ فـارسُ الأحـزابِ[1]

وقرأ ابن عامر وحمزة وطلحة وابن وثاب والأعمش: «ستعلمون» بتاء الخطاب[2] على حكايةِ ما قال لهم صالحٌ مجيباً لهم، وفي «الكشاف»: أو هو كلامٌ على سبيل الالتفات[3]. قال صاحب «الكشف»: أي: هو كلام الله تعالى لقوم ثمودَ على سبيل الالتفاتِ إليهم، إما في خطابه تعالى لرسولنا ﷺ، وهو نظيرُ ما حكاه سبحانه عن شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ [الأعراف: ٩٣] بعد ما استُؤصِلُوا هلاكاً، وهو من بليغ الكلام، فيه دلالةٌ على أنَّهم أحقَّاء بهذا الوعيد وكأنَّهم حضورٌ في المجلس حَوَّل إليهم الوجْهَ لينعي عليهم جناياتهم، وإما في خطابه عز وجل لصالح عليه السلام، والمنزَّلُ حكايةُ ذلك الكلام المشتمل على الالتفات. وعلى التقديرَين لا إشكالَ فيه كما تُوُهِّم، ولفظُ الزمخشريِّ على الأول أدلُّ وهو أبلغ. انتهى.

ومَن التفت إلى ما قاله الجمهور في الالتفات لا أظنُّه تسكنُ نفسُه بما ذكر فتأمل.

وقرأ مجاهد فيما ذكره صاحب «اللوامح» وأبو قيس الأودي: «الأُشُرُ» بثلاث ضمات وتخفيف الراء[4]، ويقال: أَشِرٌ وأُشُرٌ كحذِر وحُذُر، فضمة الشين لغةٌ، وضمُّ الهمزة تَبَعٌ لها.

= ٣/ ١٢٦٦، والبصري في الحماسة البصرية ١/ ٢٨١ والقرطبي ٢٠/ ٩٤ لأبي الطَّمَحان القينيّ، ونسبهما ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٨ إلى هدبة العذري.

(١) المحتسب ١/ ٢٥٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٨٤، والبحر المحيط ٨/ ١٨١.

(٢) قراءة ابن عامر وحمزة في التيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٠، وقراءة طلحة وابن وثاب والأعمش في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٨٠، وحاشية الشهاب ٨/ ١٢٥.

وحكى الكسائي عن مجاهد ضمَّ الشين دون الهمزة فهو كنُدُس[١].

وقرأ أبو حيوة: «الأَشَرُّ» أفعل تفضيل، أي: الأبلغُ في الشرارةِ، وكذا قرأ قتادة وأبو قلابة أيضاً[٢]، وهو قليلُ الاستعمال وإنْ كان على الأصل كالأَخْيَرِ في قول رؤبة:

بـلالُ خَـيـرُ الـنـاسِ وابـن الأَخْـيَـرِ[٣]

وقال أبو حاتم: لا تكادُ العرب تتكلَّمُ بالأَخْيَر والأَشَرِّ إلا في ضرورة الشعر. وأنشد البيت.

وقال الجوهري: لا يقال «الأَشَرُّ» إلا في لغة رديئة[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ لبيان مبادي الموعود على ما هو الظاهر، وبه يتعيَّن كونُ المرادِ بالغد وقتَ نزول العذاب الدنيويِّ بهم دون يوم القيامة، والإرسالُ حقيقةٌ في البعث، وقد جُعِلَ هنا كنايةً عن الإخراج، وأُريدَ المعنى الحقيقيُّ معه كما أومأ إليه بعضُ الأجلَّة، أي: إنَّا مخرجُو الناقةِ التي سألوها من الهَضْبة وباعثوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً. وجوِّز إبقاؤها على معناها المعروف.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصَّر ما هم فاعلون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تَعجَل حتى يأتيَ أمرُ الله تعالى.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ﴾ وأخبرهم بأنَّ ماء البئر التي لهم ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ، لها يومٌ ولهم يوم، و«بينهم» لتغليب العقلاء، وقرأ معاذ عن أبي عمرو: «قَسْمةٌ» بفتح القاف[٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ نصيبٍ وحصَّة منه ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضُره صاحبُه في نوبته، فتحضُر الناقةُ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٩٩، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٩، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٩٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٩٤، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠، وليس في ديوانه.

(٤) الصحاح (شرر).

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٨١، وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

تارةً ويحضرونه أخرى، وقيل: يتحوَّل عنه غيرُ صاحبه، مِن حَضَر عن كذا: تحوَّل عنه.

وقيل: يُمنع عنه غيرُ صاحبه، مجازٌ عن الحَظْر ـ بالظاء ـ بمعنى المنع بعلاقة السببية، فإنَّه مسبَّبٌ عن حضور صاحبه في نوبته. وهو كما ترى.

وقيل: يحضرون الماءَ في نوبتهم واللبنَ في نوبتها، والمعنى: كلُّ شِرْبٍ من الماء واللبن تحضرونه أنتم.

﴿فَنَادَوْا﴾ أي: فأرسلنا الناقةَ وكانوا على هذه الوتيرةِ من القسمة، فملُّوا ذلك وعزموا على عَقْر الناقة «فنادَوا» لعقْرها ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ وهو قُدار[1] بن سالف أُحْيمِرُ ثمودَ وكان أجرأهم ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ العقر، أي: فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غيرَ مُكترثٍ به ﴿فَعَقَرَ﴾ فأحدَثَ العقر بالناقة، وجوِّزَ أنْ يكونَ المرادُ: فتعاطى الناقةَ فعقرها، أو فتعاطى السيفَ فقتلَها، وعلى كلٍّ فمفعولُ «تعاطى» محذوفٌ والتفريع لا غبارَ عليه.

وقيل: «تعاطى» منزَّلٌ منزلةَ اللازم على أنَّ معناه: أَحدَث ماهية التعاطي، وقوله تعالى: (فَعَقَرَ) تفسيرٌ له لا متفرِّع عليه. ولا يَخْفَى ركاكتُه.

والتعاطي: التناولُ مطلقاً على ما يُفهَم من كلام غيرِ واحدٍ، وزاد بعضُهم قيدَ: بتكلُّفٍ، ونسبةُ العقر إليهم في قوله تعالى: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) لأنَّهم كانوا راضين به.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ الكلامُ فيه كالذي تقدَّم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي صيحةُ جبريلَ عليه السلام، صاحَ صباحَ يوم الأحد ـ كما حكى المناوي عن الزمخشريِّ[2] ـ في طرف منازلهم ﴿فَكَانُوا﴾ أي: فصاروا ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: كالشجر اليابس الذي يجمعُه صاحبُ الحظيرة لماشيته في الشتاء.

---

(١) في هامش الأصل: بوزن «فُعال» بالضم. اهـ.

(٢) فيض القدير ١/ ٤٦.

وفي «البحر»: الهشيمُ ما تفتَّت وتهشَّم من الشجر، و«المحتظِر» الذي يَعْمَلُ الحظيرةَ، فإنَّه يتفتَّت منه حالةَ العمل ويتساقط أجزاءٌ مما يَعمَل به، أو يكون الهشيمُ ما يبِسَ من الحظيرة بطول الزمانِ تطؤه البهائمُ فيتهشَّم[1]. وتُعقِّب هذا بأنَّ الأظهرَ عليه: كهشيم الحظيرة. والحظيرةُ الزريبة التي تصنعُها العربُ وأهل البوادي للمواشي والسُّكنَى من الأغصان والشجر المورق والقصب، من الحَظْر وهو المنع.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو السمال وأبو رجاء وعمرو بن عبيد: «المحتَظَر» بفتح الظاء[2]، على أنَّه اسمُ مكان، والمراد به الحظيرةُ نفسُها، أو هو اسمُ مفعول قيل: ويقدَّر له موصوفٌ، أي: كهشيم الحائط المحتَظَر، أو لا يقدَّر على أنَّ «المحتظَر» الزريبة نفسُها كما سمعت. وجوِّز أنْ يكونَ مصدراً، أي: كهشيم الاحتظارِ، أي: ما تفتَّتَ حالةَ الاحتظار.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ كما مرَّ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ على قياس النظير السابق ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ مَلَكاً ـ على ما قيل ـ يحصبُهم، أي: يرميهم بالحَصْباء والحجارة، أو هو اسمٌ للريح التي تحصب، ولم يُرَدْ بها الحدوث كما في: ناقةٌ ضامرٌ، وهو وَجْهُ التذكير.

وقال ابن عباس: هو ما حُصِبُوا به من السماء من الحجارة في الريح، وعليه قول الفرزدق:

مُستقبلينَ شمالَ الشامِ تضربُنا   بحاصِبٍ كنَديفِ القُطنِ منثُور[3]

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ﴾ خاصَّتَه المؤمنين به، وقيل: آلُه: ابنتاه ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: في «سحر»، وهو آخِرُ الليل، وقيل: السُّدس الأخيرُ منه، وقال الراغب: السَّحَرُ والسَّحَرَةُ اختلاطُ ظلامِ آخِرِ الليل بصفاء النهارِ، وجُعِل اسماً لذلك الوقت[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٨١.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحتسب ٢/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٨، والبحر المحيط ٨/ ١٨١.

(٣) ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣.

(٤) مفردات الراغب (سحر).

ويجوزُ كونُ الباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: ملتبسين «بسَحَر» داخلين فيه.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ﴾ أي: إنعاماً منَّا، وهو علةٌ لـ «نجينا»، ويجوز نصبُه بفعلٍ مقدَّرٍ من لفظه، أو بـ «نجَّينا» لأنَّ النتيجةَ إنعامٌ، فهو كـ: قعدتُ جلوساً.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاءِ العجيب ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ عليه السلام ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أَخْذَتَنا الشديدةَ بالعذاب، وجوَّز أنْ يُرادَ بها نفسُ العذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ فكذَّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متشاكين، فالفعل مضمَّنٌ معنى التكذيب، ولولاه تعدَّى بـ «في».

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ صرفُوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجورَ بهم، وهذا من إسناد ما للبعض للجميع لرضاهم به.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: أزَلْنا أثرها، وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه، وهو كما قال أبو عبيدة[1]؛ وروي أنَّ جبريلَ عليه السلام استأذنَ ربَّه سبحانه في عقوبتهم ليلةَ جاؤوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم، فصفَقَهم بجناحه فتركهم عمياناً يتردَّدون لا يهتدون إلى طريق خروجِهم حتى أخرجَهم لوطٌ عليه السلام.

وقال ابن عباس والضحاك: إنما حَجَب إدراكهم فدخلوا المنزلَ ولم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطَّمس فعبَّر به عنه.

وقرأ ابن مقسم: «فطمَّسنا» بتشديد الميم[2] للتكثير في المفعول.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكةِ عليهم السلام، فالقولُ في الحقيقة لهم وأُسنِدَ إليه تعالى مجازاً لأنَّه سبحانه الآمرُ، أو القائل ظاهرُ الحال فلا قولَ وإنما هو تمثيل، والمرادُ بالعذاب الطمسُ وهو من جملة ما أُنذروه.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٤١، والبحر المحيط ٨/ ١٨٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٨٢.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أول النهار وهي أخصُّ من الصباح، فليس في ذكرها بعدَه زيادةٌ، وكان ذلك أولَ شروق الشمس.

وقرأ زيد بن علي: «بكرةَ» غير مصروفةٍ[1] للعلمية والتأنيث، على أنَّ المرادَ بها أولُ نهارٍ مخصوص.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ يستقرُّ بهم ويدومُ حتى يُسْلِمهم إلى النار، أو لا يُدفَع عنهم، أو يبلغُ غايتَه.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ حكاية لِمَا قيل لهم بعد التصبيح[2] من جهته تعالى تشديداً للعذاب، أو هو تمثيلٌ.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ تقدَّم ما فيه من الكلام.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ صُدِّرت قصتُهم بالتوكيد القَسَمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عِظَم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهولِ ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتِّعاظ، والاكتفاءُ بذكر «آل فرعون» للعلم بأنَّ نفسَه أولى بذلك فإنَّه رأسُ الطغيان ومُدَّعي الألوهية، والقول بأنَّه إشارةٌ إلى إسلامه مما لا يلتفتُ إليه.

و«النُّذُر» إنْ كان جمعَ نذير بمعنى الإنذار فالأمر ظاهر، وكذا إنْ كان مصدراً، وأما إنْ كان جمعَ نذير بمعنى المنذِر فالمرادُ به موسى وهارونُ وغيرُهما، لأنَّهما عرَضَا عليهم ما أُنذر به المرسلون، أي: وبالله تعالى لقد جاءهم المنذِرُون، أو الإنذاراتُ، أو الإنذارُ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر، كأنَّه قيل: فماذا فعل آلُ فرعونَ حينئذ؟ فقيل: كذَّبوا بجميع آياتنا وهي آياتُ الأنبياء كلِّهم عليهم السلام، فإنَّ تكذيبَ البعضِ تكذيبٌ للكلِّ، أو هي الآياتُ التسعُ.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) في (م): التصحيح.

وجوَّز الواحدي أنْ يُراد بـ «النذر» نفسُ الآيات فقوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من إقامة الظاهر مقامَ الضمير والأصلُ: كذَّبوا بها.

وزعمَ بعضُ غلاةِ الشيعة وهم المسمَّون بالكشفية في زماننا أنَّ المراد بالآيات كلِّها عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، فإنَّه الإمامُ المبينُ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢] وأنَّه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعونَ وقومه فلم يؤمنوا. وهذا من الهَذَيان بمكان، نسأل الله تعالى العفوَ والعافية.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي: آلَ فرعون. وزعم بعضٌ أنَّ ضمير «كذَّبوا» وضمير «أخذناهم» عائدان على جميع مَن تقدَّم ذكره من الأمم وتمَّ الكلامُ عند قوله تعالى: ﴿ٱلنُّذُرُ﴾، وليس بشيء.

والفاء للتفريع، أي: فأخذناهم وقَهَرناهم لأجل تكذيبهم ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ﴾ لا يغالب ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء، ونصب «أَخْذَ» على المصدرية لا على قَصْدِ التشبيه.

﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ أي: الكفارِ المعدودين، قومِ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآلِ فرعون، والمرادُ الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوةِ والشدة ووفورِ العدد والعُدَّة، أو باعتبارِ لينِ الشَّكيمةِ في الكفر بأنْ يكونَ الكفار المحدَّث عنهم بالخيرية أقلَّ عناداً وأقربَ طاعةً وانقياداً، وظاهرُ كلام كثيرٍ: أنَّ الخطابَ هنا عامٌّ للمسلمين وغيرهم، حيث قالوا[1]: «أكفَّارُكم» يا معشرَ العرب «خيرٌ» إلخ. والاستفهامُ إنكاريٌّ في معنى النفي، فكأنَّه قيل: ما كفَّاركم خيرٌ من أولئكم الكفار المعدودين، بأنْ يكونوا أكثرَ منهم قوةً وشدَّةً وأوفرَ عدداً وعُدَّةً، أو بأنْ يكونوا ألينَ شكيمةً في الكفر والعصيان والضلال والطغيان، بل هم دونَهم في القوة وما أشبهها من زينة الدنيا، أو أسوأ حالاً منهم في الكفر، وقد أصابَ مَن هو خيرٌ ما أصاب، فكيف يطمعون هم في أنْ لا يصيبَهم نحو ذلك، وكذا قيل في الخطاب في قوله

---

(١) يعني به الكثير الوارد في قوله: وظاهر كلام كثير أن الخطاب...، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١٢٧، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٧٣.

تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ وجُعل بتقدير: أم لكفاركم، وهو إضرابٌ وانتقالٌ إلى تبكيت[1] آخرَ، فكأنَّه قيل: بل ألكفاركم براءةٌ وأمنٌ من تَبعات ما يعملون من الكفر والمعاصي وغوائلها في الكتب السماوية، فلذلك يُصرُّون على ما هم عليه ولا يخافون.

واختار بعضُهم في هذا أنَّه خاصٌّ بالكفار، وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ إنَّه إضرابٌ من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخرَ بطريقِ الالتفات، للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكايةِ قبائحهم لغيرهم، أي: بل أيقولون واثقينَ بشَوْكتهم نحن جماعةٌ أمرُنا مجتمِعٌ لا يُرام ولا يُضام، أو منتصرٌ من الأعداء لا يغلب، أو متناصرٌ ينصرُ بعضُنا بعضاً.

والذي يترجَّح في نظر الفقير أنَّ الخطابَ في الموضعَين خاصٌّ على ما يقتضيه السياقُ بكفار أهل مكة أو العرب، وهو ظاهرٌ في الموضع الثاني لا يحتاجُ إلى شيء، وأما في الموضع الأول فوجهُهُ أنْ تكون الإضافة مثلَها في: الدراهم كلّها كذا، وطور سيناء، ويوم الأحد، ولم يقل: أأنتم؛ للتنصيص على كفرهم المقتضي لهلاكهم.

ويجوزُ أنْ يعتبر في «أكفَّاركم» ضربٌ من التجريد الذي ذكروه في نحو ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] فكأنَّه جُرِّد منهم كفارٌ وأُضيفُوا إليهم، وفي ذلك من المبالغة ما فيه. ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن «أأنتم»، وربما يترجَّح به كونُ الخيريةِ المنفية باعتبار لينِ الشكيمة في الكفر، وكأنَّه لمَّا خوَّف سبحانه الكفارَ الذين كذَّبوا الآيات وأَعرضُوا عنها، وقالوا: هي سحرٌ مستمرّ، بذكر ما حلَّ بالأمم السالفة مما تبرُقُ وترعُدُ منه أساريرُ الوعيد = قال عز وجل لهم: لِمَ لا تخافون أنْ يحلَّ بكم مثلُ ما حلَّ بهم، أأنتم أقلُّ كفراً وعناداً منهم، ليكون ذلك سبباً للأمن من حلول نحو عذابهم بكم، أم أعطاكم الله عز وجل براءةً من عذابه، أم أنتم أعزُّ منهم

---

(١) في (م): تنكيب.

منتصرون على جنود الله تعالى، وعَدَل سبحانه عن: أم أنتم جميع منتصر، إلى ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنَّ ذلك مما لا تحقُّقَ له أصلاً إلا باللفظ ومَحْضِ الدعوى التي لا يوافَق عليها. فتأمل فأسرارُ كلام الله تعالى لا تتناهَى، ثم لا تعجل بالاعتراض على ما قلناه، وإنْ لم يكن لنا سلفٌ فيه حَسْبَما تتبعناه.

ثمَّ إنَّ «جميع» على ما أُشيرَ إليه بمعنى الجماعة التي أمرُها مجتمعٌ، وليس من التأكيد في شيء بل هو خبرُ «نحن»، وجوِّز أن يكون بمعنى مجتمع خبرَ مبتدأ محذوفٍ وهو: أمرُنا، والجملةُ خبرُ «نحن»، وأن يكون هو الخبرَ والإسنادُ مجازيٌّ.

و«منتصر» على ما سمعتَ إما بمعنى ممتنع؛ يقال: نصَرَه فانتصر، إذا منَعَه فامتنع، والمرادُ بالامتناع عدمُ المغلوبية، أو هو بمعنى منتقم من الأعداء، أو هو من النصر بمعنى العَوْن؛ والافتعالُ بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصُم، وكان الظاهر: منتصرون، إلا أنَّه أُفرِدَ باعتبار لفظِ الجميع، فإنَّه مفردٌ لفظاً جَمْعٌ معنًى، ورُجِّح هنا جانبُ اللفظ عكس ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] لخفَّة الإفراد مع رعاية الفاصلة، وليس في الآية رعايةُ جانبِ المعنَى أولاً، ثم رعايةُ جانب اللفظ ثانياً على عكس المشهور، وإنْ كان ذلك جائزاً على الصحيح كما لا يخفَى على الخبير.

وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهسم: «أم تقولون» بتاء الخطاب[(١)].

وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ ردٌّ لقولهم ذلك، والسين للتأكيد، أي: يُهزَمُ جمعُهم ألبتّة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، وقد قرئ كذلك[(٢)]، والإفرادُ لإرادة الجنسِ الصادق على الكثير مع رعاية الفواصلِ ومشاكلةِ القرائن، أو لأنَّه في تأويل: يولِّي كلُّ واحدٍ منهم دُبُرَه، على حدِّ: كسانا الأميرُ حلةً، مع الرعاية المذكورة أيضاً، وقد كان هذا يومَ بدر، وهو من دلائل النبوة لأنَّ الآية مكيةٌ، وقد

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٢-١٨٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٨٣.

نزلَت حيث لم يُفرَض جهادٌ ولا كان قتال، ولذا قال عمر ﵁ يوم نزلَت: أيُّ جمع يُهزَم؟ أي: من جموع الكفار، ولم يتعرَّض لقتال أحدٍ منهم، وقد تقدَّم الخبر(١).

ومما أشرنا إليه يعلم أنَّ قولَ الطيبي: في هذه الرواية نظر؛ لأنَّ همزةَ الإنكار في «أم يقولون» إلخ دلَّت على أنَّ المنهزمين مَن هم، ناشئ عن الغفلة عن مراد عمر ﵁.

وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهسم: «سَتَهزِمُ الجمعَ» بفتح التاء وكسر الزاي(٢) خطاباً لرسول الله ﷺ، ونصب «الجمعَ» على المفعولية.

وقرأ أبو حيوة أيضاً ويعقوب: «سنَهزِم» بالنون مفتوحة وكسر الزاي(٣) على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة.

وعن أبي حيوة وابن أبي عبلة: «سيَهزِمُ الجمعَ» بفتح الياء مبنيّاً للفاعل ونصب «الجمعَ»(٤)، أي: سيَهزمُ الله تعالى الجمعَ.

وقرأ أبو حيوة وداود بن أبي سالم عن أبي عمرو: «وتولُّون» بتاء الخطاب(٥).

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ أي: ليس هذا تمامَ عقوبتهم بل الساعة موعدُ عذابهم وهذا من طلائعه ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ﴾ أي: أعظم داهيةً، وهي الأمرُ المنكر الفظيع الذي لا يُهتدَى إلى الخلاص عنه ﴿وَأَمَرُّ﴾ وأشدُّ مرارةً في الذوق، وهو استعارةٌ لصعوبتها على النفس، وقيل: أقوى. وليس بذاك. وإظهار«الساعة» في موضع إضمارها لتربية تهويلها.

---

(١) تقدم ص١٧٤ من هذا الجزء.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٨٣.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٨.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، وزاد المسير ٨/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من الأولين والآخِرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في هلاك ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران مسعَّرةٍ، أو: في ضلال عن الحقِّ ونيرانٍ في الآخرة، وقال ابن عباس ﷺ: في خسران وجنون.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي: يجرُّون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بقول مقدَّرٍ بعده، أي: يومَ يسحبون يقالُ لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ وجوِّز أن يكونَ متعلِّقاً بمقدَّر يُفهَم مما قبل، أي: يعذَّبون، أو: يُهانون، أو نحوه، وجملةُ القول عليه حالٌ من ضمير «يسحبون».

وجوِّز كونه متعلِّقاً بـ «ذوقوا» على أنَّ الخطاب للمكذِّبين المخاطبين في قوله تعالى: (أَكُفَّارُكُمْ) إلخ، أي: ذوقوا أيها المكذِّبون محمداً ﷺ يومَ يُسحَب المجرمون المتقدِّمون، والمرادُ حشرُهم معهم والتسويةُ بينهم في الآخرة كما ساوَوْهم في الدنيا. وهو كما ترى.

والمرادُ بـ «مسَّ سقر»: أَلَمُها، على أنَّه مجازٌ مرسلٌ عنه بعلاقة السببية، فإنَّ مسَّها سببٌ للتألم بها، وتعلُّقُ الذوقِ بمثل ذلك شائعٌ في الاستعمال، وفي «الكشاف»: «مسَّ سقر» كقولك: وجَدَ مسَّ الحمَّى، وذاق طعْمَ الضرب؛ لأنَّ النار إذا أصابتهم بحرِّها ولحقتهم بإيلامها فكأنَّها تمسُّهم مسّاً بذلك، كما يمسُّ الحيوان ويُباشرُ بما يؤذي ويؤلم[1]. وهو مشعرٌ بأنَّ في الكلام استعارةً مكنيةً نحو: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٥] ويحتمل غير ذلك.

و«سقر» عَلَمٌ لجهنَّم ـ أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمةِ حبيبه عليه أفضلُ الصلاة وأكمل التسليم ـ من سَقَرتْه النارُ وصَقَرته بإبدال السين صاداً لأجل القاف: إذا لوَّحَته وغيَّرت لونَه، قال ذو الرمة يصفُ ثورَ الوحش:

إذا ذابَت الشمسُ اتَّقَى صَقَراتِها ... بأفنانِ مَربوعِ الصَّريمةِ مُعْبِلِ[2]

(١) الكشاف ٤/ ٤١.

(٢) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤٥٨. وقوله: إذا ذابت الشمس، أي: كأنها سيلٌ من شدة الحر. والصقرة: شدة وقع الشمس. مربوع: أصابها الربيع فاخضرَّت. والصريمة: قطعة من الرمل تنقطع فتنفرد. وأعبَلَت الشجرة: إذا خرج ورقها. قاله شارح الديوان.

وعدمُ الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ عبد الله: «إلى النار»[١]، وقرأ محبوب عن أبي عمرو: «مس سّقر» بإدغام السين في السين[٢]، وتعقَّب ذلك ابنُ مجاهد بأنَّ إدغامه خطأ؛ لأنَّه مشدَّدٌ، والظنُّ بأبي عمرو أنَّه لم يُدغم حتى حذفَ إحدَى السينَين لاجتماع الأمثال ثم أدغم.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: مقدَّراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه، فالقَدَر بالمعنى المشهور الذي يقابل القضاء، وحَمْلُ الآية على ذلك هو المأثورُ عن كثير من السلف، وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٣].

وأخرج البخاري في «تاريخه» والترمذيُّ وحسنه وابنُ ماجه وابن عدي وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفانِ من أُمتي ليس لهما في الإسلام نصيبٌ: المرجئةُ والقَدَرية» أُنزلَت فيهم آيةٌ في كتاب الله: (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ) إلى آخر الآيات[٤].

وكان ابن عباس يكره القَدَرية جدّاً، أخرج عبد بن حميد عن أبي يحيى الأعرج قال سمعتُ ابن عباس ـ وقد ذكر القَدَرية ـ يقول: لو أدركتُ بعضَهم لفعلتُ به كذا وكذا. ثم قال: الزنى بقَدَر، والسرقة بقَدَر، وشرب الخمر بقَدَر.

وأخرجَ عن مجاهد أنَّه قال: قلتُ لابن عباس: ما تقول فيمَن يكذِّب بالقدر؟ قال: اجمَعْ بيني وبينه. قلتُ: ما تصنع به؟ قال: أخنقُهُ حتى أقتله[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢١، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٨٣.

(٣) مسند أحمد (٩٧٣٦)، وصحيح مسلم (٢٦٥٦)، وسنن الترمذي (٢١٥٧)، وسنن ابن ماجه (٨٣).

(٤) التاريخ الكبير ٤/ ١٣٣، وسنن الترمذي (٢١٤٩) وقال: حسن غريب، وسنن ابن ماجه (٧٣)، والكامل ٥/ ١٨٣٨، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٣٨.

(٥) عزا الأثرَين لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٣٨-١٣٩.

وقد جاء ذمُّهم في أحاديثَ كثيرة، منها ما أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني عن ابن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ أمةٍ مجوسٌ، ومجوسُ أُمَّتي الذين يقولون: لا قَدَرَ، إنْ مرضُوا فلا تَعودُوهم، وإنْ ماتوا فلا تَشهدُوهم»(١).

وجوّز كونُ المعنى: إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه مقدَّراً مُحْكَماً مستوفًى فيه مقتضى الحكمةِ التي يدورُ عليها أمرُ التكوين، فالآية من باب: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ونصب «كلَّ» بفعلٍ يُفسِّره ما بعدَه، أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ خلقناه، وقرأ أبو السمال ـ قال ابن عطية: وقومٌ من أهل السنة ـ برفع «كل»(٢) وهو على الابتداء، وجملةُ «خلقناه» هو الخبر، و«بقَدَر» متعلِّقٌ به كما في القراءة المتواترة، فتدل الآية أيضاً على أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ بقدرٍ، ولا ينبغي أنْ تجعل جملة «خلقناه» صفةً ويُجعلَ الخبر «بقدر»؛ لاختلاف القراءَتين معنًى حينئذ، والأصلُ توافقُ القراءات.

وقال الرضي: لا يتفاوتُ المعنى؛ لأنَّ مرادَه تعالى بـ «كل شيءٍ»: كلُّ مخلوقٍ، سواء نصبتَ «كل» أو رفعتَه، وسواء جعلت «خلقناه» صفة مع الرفع، أو خبراً عنه، وذلك أنَّ «خلقنا كل شيء بقدر» لا يريدُ سبحانه به: خلقنا كلَّ ما يقعُ عليه اسمُ شيء؛ لأنَّه تعالى لم يخلق جميعَ الممكنات غيرِ المتناهيةِ، واسم الشيء يقعُ على كلٍّ منها، وحينئذ نقول: إنَّ معنى «كل شيء خلقناه بقدر» على أنَّ «خلقناه» هو الخبر: كلُّ مخلوقٍ مخلوقٌ بقَدَر. وعلى أنَّ «خلقناه» صفةٌ: كلُّ شيءٍ مخلوقٍ كائنٌ بقدر. والمعنيان واحد، إذ لفظُ «كل» في الآية مختصٌّ بالمخلوقات سواء كان «خلقناه» صفةً له أو خبراً.

وتعقَّبه السيد السند قدس سره بأنَّه لقائل أنْ يقول: إذا جعلنا «خلقناه» صفةً كان المعنى: كلُّ مخلوقٍ متَّصفٍ بأنَّه مخلوقُنا كائنٌ بقَدَر، وعلى هذا لا يمتنع ـ نظراً

---

(١) مسند أحمد (٥٥٨٤)، وسنن أبي داود (٤٦٩١)، والمعجم الأوسط (٢٤٩٤)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل (٢٢٧) وقال: لا يصح. وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحتسب ٢/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢١، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

إلى هذا المعنى - أنْ يكونَ هناك مخلوقاتٌ غير متَّصفةٍ بتلك الصفة، فلا تندرجُ تحت الحكم، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا «كلَّ شيء» فلا مجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام، فقد اختلف المعنيان قطعاً، ولا يُجديه نفعاً أنَّ كل مخلوقٍ متَّصفٌ بتلك الصفة في الواقع؛ لأنَّه إنما يفهم من خارج الكلام، ولا شكَّ أنَّ المقصودَ ذلك المعنى الذي لا احتمالَ فيه. وذكر نحوه الشهاب الخفاجي(١)، ولكون النصب نصّاً في المقصود اتَّفقَت القراءات المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير، وبذلك يترجَّح على الرفع الموهم لخلافه وإنْ لم يحتَج إليه.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: ما شأننا إلا فعلةٌ واحدةٌ على نهجٍ لا يختلفُ ووتيرةٍ لا تتعدَّد، وهي الإيجادُ بلا معالجة ومشقة. أو: ما أمرنا إلا كلمةٌ واحدةٌ، وهي قوله تعالى: (كُن)، فالأمر مقابل النهي وواحد الأوامر(٢)، فإذا أراد عز وجل شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: في السير والسرعة، وقيل: هذا في قيام الساعة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم في الكفر من الأمم السالفة، وأصلُه جمع شيعة، وهم مَن يَتقوَّى بهم المرءُ من الأتباع، ولمَّا كانوا في الغالب من جنسٍ واحدٍ أُريدَ به ما ذكر: إما باستعماله في لازمه، أو بطريق الاستعارة، والحالُ قرينةٌ على ذلك. وقيل: هو باقٍ على حقيقته، أي: أتباعكم.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متَّعظٍ بذلك.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي، والضميرُ المرفوع للأشياع كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد، وجملةُ «فعلوه» صفةُ «شيء»، والرابط

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٢٨.

(٢) في الأصل و(م): الأمور، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ١٢٩، وهو واحد الأمور على الوجه الأول الذي ذكره المصنف، وهو: أي: ما شأننا إلا فعلة واحدة. . .، كما ذكر الشهاب.

ضميرُ النصب، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ متعلِّقٌ بكونٍ خاصٍّ خبر المبتدأ، أي: كلُّ شيءٍ فعلوه في الدنيا مكتوبٌ في كتب الحفظة غير مغفولٍ عنه، وتفسير «الزبر» باللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسي[1] ليس بشيء.

ولم يختلف القرَّاء في رفع «كلٌّ»، وليست الآيةُ من باب الاشتغال، فلا يجوزُ النصبُ لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل المشتغل بالضمير في الاسم السابقِ كما هو اللازمُ في ذلك الباب، إذ يصيرُ هاهنا حينئذٍ: فعلوا في الزبر كلَّ شيءٍ. إنْ علَّقنا الجارَّ بـ «فعلوا»، وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم في الكتب، بل فعلوها في أماكنهم، والملائكةُ عليهم السلام كتبوها عليهم في الكتب، أو: فعلوا كلَّ شيءٍ مكتوبٍ في الزبر، إنْ جعلنا الجارَّ نعتاً لـ «كلُّ شيء»، وهذا وإن كان معنًى مستقيماً إلا أنَّه خلافُ المعنى المقصود حالة الرفع، وهو ما تقدَّم آنفاً.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وقيل: منها ومن كلِّ ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ مسطورٌ مكتَتَبٌ في اللوح بتفاصيله، وهو من السَّطر بمعنى الكتب، ويقال: سطرتُ واستطرتُ بمعنًى.

وقرأ الأعمش وعمران وعصمة عن أبي بكر عن عاصم: «مستطرٌّ» بتشديد الراء[2]، قال صاحب «اللوامح»: يجوزُ أن يكون من طرَّ النباتُ والشاربُ إذا ظهر، والمعنى: كلُّ صغيرٍ وكبير ظاهرٌ في اللوح مثبتٌ فيه، ويجوزُ أن يكون من الاستطار لكن شُدِّد الراء للوقف على لغة مَن يقول: جعفرّ ويفعلّ، بالتشديد وقفاً، أي: ثم أجري الوصل مجرى الوقف، ووزنه على التوجيه الأول مستفعل، وعلى الثاني مفتعل.

ولمَّا كان بيان سوء حال[3] الكفرة بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ) إلخ مما يستدعي بيانَ حُسنِ حالِ المؤمنين ليتكافأ الترهيبُ والترغيبُ، بيَّن سبحانه ما لهم من حُسْن

---

(١) في مجمع البيان ٢٧/ ٨٠.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤، وهو خلاف المشهور عن عاصم.
(٣) في الأصل و(م): بيان حال سوء، والمثبت من تفسير أبي السعود ٨/ ١٧٥، والكلام منه.

الحال بطريق الإجمال، فقال عزَّ قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: من الكفر والمعاصي، وقيل: من الكفر ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار كذلك، والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاةً للفواصل، وعن ابن عباس تفسيره بالسَّعة، وأنشد عليه قولَ لبيد بن ربيعة كما في «الدر المنثور» أو قيس بن الخطيم كما في «البحر» يصف طعنة:

مَلَكْتُ بها كفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءها[1]

أي: أوسعتُ فَتْقَهَا، والمرادُ بالسَّعة سعةُ المنازل على ما هو الظاهر، وقيل: سعة الرزق والمعيشة، وقيل: ما يعمُّهما.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن محمد بن كعب قال: «ونهر» أي: في نور وضياء[2]. وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفِّق من منبعه، وجوِّز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة، والمرادُ أنَّهم لا ظُلْمةَ ولا ليلَ عندهم في الجنات.

وقرأ الأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان: «ونهْر» بسكون الهاء، وهو بمعنى «نَهَر» مفتوحها. وقرأ الأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني: «ونُهُر» بضم النون والهاء[3]، وهو جمع «نهر» المفتوح أو الساكن، كأَسد وأُسُد، ورهن ورُهُن وقيل: جمع نهار، والمراد أنَّهم لا ظلمةَ ولا ليلَ عندهم كما حُكي فيما مرَّ، وقيل: قرئ بضم النون وسكون الهاء[4].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مَرْضيٍّ، على أنَّ الصدق مجازٌ مرسل في لازمه أو

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٣٩، وعزاه للطستي، والبحر ٨/ ١٨٤، والبيت في ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٦، وشرح الحماسة ١/ ١٨٤، وتفسير القرطبي ١/ ٣٦٠، ولم نقف عليه في ديوان لبيد، وسلف ١/ ٢٨٠.

(٢) عزاه للحكيم الترمذي السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٣٩.

(٣) القراءاتان في القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤، وذكر الثانية ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٠٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٢، ومفاتيح الغيب ٢٩/ ٧٩.

استعارة، وقيل: المراد صدقُ المبشِّر به وهو الله تعالى ورسوله ﷺ، أو المراد أنَّه ناله مَن ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام، فالإضافةُ لأدنى ملابسة. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: مَدَح المكان بالصدق فلا يقعُدُ فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله تعالى فيه مواعيدَ أوليائه بأنه يبيحُ عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم. وإفراد المقعد على إرادة الجنس.

وقرأ عثمان البَتِّي: «في مقاعد» على الجمع[1]، وهي توضِّح أنَّ المراد بالمقعد المقاعد.

﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ أي: ملك عظيم الملك، وهو صيغةُ مبالغةٍ، وليست الياء من الإشباع (مُّقْتَدِرٍ) قادرٍ عظيم القدرة. والظرفُ في موضع الحال من الضمير المستقر في الجارِّ والمجرور، أو خبرٌ بعد خبر، أو صفةٌ لـ «مقعد صدق»، أو بدلٌ منه، والعندية للقرب الرُّتْبي.

وذكر بعضُهم أنَّه سبحانه أبهم العنديةَ والقرب ونكر «مليكاً» و«مقتدراً» للإشارة إلى أنَّ ملكه تعالى وقدرته عز وجل لا تدري الأفهامُ كُنهَهُما، وأنَّ قربهم منه سبحانه بمنزلةٍ من السعادة والكرامةِ بحيث لا عينٌ رأَت ولا أُذنٌ سمعَت، مما يَجِلُّ عن البيان وتَكِلُّ دونه الأذهان.

وأخرج الحكيم الترمذي عن بريدة عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلخ قال: «إنَّ أهلَ الجنةِ يدخلون على الجبار كلَّ يوم مرَّتين، فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كلُّ امرئ منهم مجلسَه الذي هو مجلسُه على منابر الدرِّ والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال، فلا تقرُّ أعينُهم قطُّ كما تقرُّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظمَ منه ولا أحسنَ منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرةً أعينُهم ناعمين إلى مثلها من الغد»[2]. وإذا صحَّ هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤.

(٢) نوادر الأصول ص ١٥٦، دون ذكر بريدة، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩، وأخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٧٤ عن عبد الله بن بريدة قوله، وكذا أخرجه أبو الشيخ كما ذكر ابن القيم في حادي الأرواح ص١٧٧.

ولهذَين الاسمَين الجليلين شأنٌ في استجابة الدعاء على ما في بعض الآثار؛ أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بنِ المسيب قال: دخلتُ المسجدَ وأنا أرى أنِّي أصبحتُ، فإذا عليَّ ليلٌ طويل، وليس فيه أحدٌ غيري، فنمتُ فسمعتُ حركةً خلفي ففزعتُ فقال: أيُّها الممتلئُ قلبُه فَرَقاً، لا تفرق ـ أو لا تفزع ـ وقل: اللهم إنَّك مليكٌ مقتدِرٌ ما تشاء من أمرٍ يكون، ثم سل ما بدا لك. قال: فما سألتُ الله تعالى شيئاً إلا استجابَ لي(١).

وأنا أقول: اللهم إنَّك مليكٌ مقتدر ما تشاء من أمرٍ يكون، فأَسْعدني في الدارَين، وكن لي ولا تكن عليَّ، وانصرني على مَن بغَى عليَّ، وأعذني من همِّ الدَّين وقهر الرجال وشماتة الأعداء، وصلِّ اللهمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٥٤.

(٥٥) سورة الرحمن مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة ، ولهذا ورد في الحديث الشريف « لكل شيءٍ عروسٌ ، وعروسُ القرآن سورةُ الرحمن » وذلك لأن لها طابعاً خاصاً يميزها عن سائر السور ، في أدائها ، وتعبيرها ، وأسلوبها ، وطريقة عرضها للمواضيع المتنوعة التي تربط بين مظاهر الكونِ وبين الإنسان ، والتي تعرض الوجود كلَّه وما فيه من دقائقَ وأسرار ، على الثقلين – الإنسِ والجان – في ساحة الوجود ، على مشهدٍ من كل موجود ، مع التحدي السافر للمخاطبين بهذه السورة وهم « الإنسُ والجنُ » تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمةٍ من نعم الله ، التي عدَّدها وفصَّلها في هذه السورة بأوضح بيان وأظهر برهان .

تبتدىء السورة الكريمة بتعديد آلاء الله الباهرة الظاهرة ، في جميل صنعه ، وإبداعِ خلقه ، وفيضِ نَعْمائه ، وفي تدبيره للوجود وما فيه ، وتوجه الخلائقَ كلّها إلى وجهه الكريم ، وكلُّ هذه النعم أثر من آثار رحمةِ الله التي أفاض بها على عباده ، تذكيراً لهم بواجب الشكر والامتنان ، وتبتدىء – في مطلعها – بتعليم القرآن بوصفهِ المِنَّة الكبرى على الإنسان ، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاتِه وتعليمَه البيان ﴿ الرحمنُ . علَّم القرآنَ . خلَقَ الإنسانَ . علَّمه البيان﴾ .

ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله ، الشمسُ والقمر ، والنجم والشجر ، والسماءُ المرفوعة بقدرة الله وما فيها من عجائبَ وغرائب ، والأرض الموضوعة للأنام وما فيها من فاكهةٍ ونخيلٍ وحبٍّ وريحان ﴿ الشمسُ والقمرُ بحُسبان – أي بحسابٍ دقيقٍ منتظم في غاية الدقة – والنجمُ والشجرُ يسجدان . والسَّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ . ألاَّ تَطْغَوْا في الميزان . وأقيموا الوزنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسروا الميزانَ . والأرضَ وضعها للأنام . فيها فاكهةٌ والنخلُ ذاتُ الأكمام . والحبُّ ذو العصفِ والريحانُ﴾ ثم يأتي التعقيب المباشر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟ ومن خلق الإنسان تنتقل السورة الكريمة إلى خلق الأكوان ، لتشير إلى دلائل القدرة الباهرة ، في تَسْيير الأفلاك الدائرة ، في الشروق والغروب ، فللشمس مشرق في الصيف ، ومشرقٌ في الشتاء ومغرب في الصيف ومغربٌ في الشتاء ، وهكذا القمر وسائر الكواكب ، وكما تسير الكواكب في أفلاكها كذلك تسير أفلاك الأرض – وهي السفن – في بحارها ، فوق سطح الماء وكأنها الجبال الشاهقة ، تحمل الأرزاق والأقوات والأثقال والأنام ، لا يحفظها في خِضَمّ البحر وبين أمواجه العاتية إلا الله الرحمنُ ، ولهذا يذكّرهم تعالى بين الآية والآية بهذه النعم الجليلة في هذه الفاصلة الجميلة « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أي فبأي نعم الله التي لا تُعد ولا تُحصى تكذبان يا معشر الإنس والجان ؟ ﴿ ربُّ المشرقينِ وربُ المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ مَرَج البحرين يلتقيان . بينهما برزخٌ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجواري المنشآتُ في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟﴾ ومعنى الآية الكريمة أنه تعالى جعل في الأرض البحار والأنهار ، وجعلهما يختلطان ويلتقيان ، فالأنهار تصبُّ في البحار ، ويختلط ماؤها بمائه ، ولكنهما

لا يبغيان ولا يتجاوز كل منهما حدَّه المقدَّر ، ولو طغت البحار على الأنهار لأفسدتها ، ولكنَّ الله بقدرته جعل بينهما حاجزاً ، إذ مستوى سطح الأنهار أعلى من مستوى سطح البحار ، ولذلك يَصب النهر بالبحر ولا يغمر مجاريه بمائه المالح ، وكل ذلك بصنع الله الواحد كما أنه تعالى سخَّر السفن الكبيرة تمخر عُباب البحر ، وكأنها الجبال عظمةً وضخامة وهي تسير فوق سطح الماء وهو جسم شفاف خفيف لطيف ، فسبحان اللطيف القدير ! ! وبعد أن ينتهي الاستعراضُ السريع في صفحة هذا الكون المنظور ، تُطوى صفحاتُ الوجود ، وتتلاشى الخلائق بأسرها ، فيطويها الفناء ويلفُّها شبح الموت الرهيب ، ولا يبقى إلا الحيُّ القيوم ، متفرداً بالبقاء ، متفرداً بالجلال ، والكل بعد إلى الزوال ﴿كلُّ مَنْ عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ .

وفي ظل الفناء المطلق ، والبقاء المطلق ، يجيء الوعيد والتهديد للجن والإنس تمهيداً لهول يوم القيامة الذي لا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم ولا الأفلاك ، لأنه يوم عصيبٌ رهيب ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذُوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يُرسل عليكما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران﴾ ومن ثَمَّ يعرض لمشهد النهاية – مشهد القيامة – يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة كالدهان ، ومشهد العذاب للمجرمين ، ومشهد النعيم للمتقين ، في شيء من الإسهاب والتفصيل ﴿فإذا انشقت السماءُ فكانت وردةً كالدهان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ هذه جهنم التي يكذب بها

المجرمون يطوفون بينها وبين حميمٍ آن﴾ ومن حال الأشقياء إلى حال السعداء تتحدث بعد ذلك الآيات الكريمة عن مآل المتقين وهم في الجنان مع الحور والولدان ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ فيهما عينان تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟﴾ وتختم السورة الكريمة بتعظيم الله وتمجيده – بعد ذكر الإنعام والإحسان – وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿متكئين على رفرفٍ خُضْرٍ وعبقري حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام .

سورة الرحمٰن

[٨٨٢] أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار فقال: وددت أني كنت خضراء من هذه الخضر تأتي عليَّ بهيمة تأكلني وإني لم أخلق فنزلت ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾(١).

[٨٨٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق.

* * *

[٨٨٢] (١) سورة الرحمن: الآية (٤٦).

سورة الرحمن

سبعون وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾

اعلم أولاً أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين: أحدهما: أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهي انشقاق القمر، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقدِّ الرجال، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهي القرآن الكريم، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب. ثانيهما: أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ غير مرة، وذكر في السورة: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة، ثم إن أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال هاهنا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمن منعم غافر للأبرار.

ثم في التفسير مسائل:

المسألة الأولى: في لفظ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أبحاث، ولا يتبين بعضها إلا بعد البحث في كلمة الله فنقول:

المبحث الأول: من الناس من يقول: إن الله مع الألف واللام اسم علم لموجد الممكنات. وعلى هذا فمنهم من قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أيضًا اسم علم له. وتمسَّك بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي أيًا ما منهما، وجَوَّز بعضهم قول القائل: يا الرحمن، كما يجوز يا الله. وتمسك بالآية. وكل هذا ضعيف وبعضها أضعف من بعض، أما قوله: (الله مع الألف واللام اسم عَلَم) ففيه بعض الضعف؛ وذلك لأنه لو كان كذلك لكانت الهمزة فيه أصلية، فلا يجوز أن تُجعل وصلية، وكان يجب أن يقال: خلق الله، كما يقال: علم أحمد وفهم إسماعيل. بل الحق فيه أحد القولين: إما أن نقول: إله أو لاه اسم لموجد الممكنات اسم علم، ثم استعمل مع الألف واللام، كما في الفضل والعباس والحسن، والخليل، وعلى هذا فمن سمى غيره إلهًا، فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كانا علمين لغيره قبله في أنه جائز؛ لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر

المطاع ما يمنع الغير عن التسمية به، ولم يكن له الاحتجار وأَخْذ الاسم لنفسه أو لولده، بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسمًا لا يستجرئ أحد ممن تحت ولايته ما دام له المُلك أن يسمي ولده أو نفسه بذلك الاسم، خصوصًا من يكون مملوكًا لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره، فإذا استأثر لنفسه اسمًا لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم، فمن يسمي فقد تعدى، فالمشركون في التسمية متعدون، وفي المعنى ضالون. وإما أن نقول: إله أو لاه اسم لمن يُعبد، والألف واللام للتعريف، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم. فإن قيل: فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز؟ قلنا: لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علمًا. فإن قيل: تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة. قلنا: كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكري لا يفضي إلى خلل - يجوز ذلك فيه، فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود، ولا يجوز تسميته بالخالق والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم، فلا يجوز، لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به، فأحد هذين القولين حق. وقولهم (مع الألف واللام علم) ليس بحق، إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه، وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل.

البحث الثاني: الله والرحمن في حق الله تعالى كالاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول، كما في قولنا: عمر الفاروق وعلي المرتضى وموسى الرضا، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المُعَرِّفة لهم التي كانت لهم وصفًا وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعَلَم، فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصًا بأولئك، غير أن في تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس في الاقتدار والعظمة، ولا يجوز في حق الله تعالى، فإن قيل: إن من الناس من أطلق لفظ الرحمن على اليمامي. نقول: هو كما أن من الناس من أطلق لفظ الإله على غير الله تعديًا وكفرًا، نظرًا إلى جوازه لغة، وهو اعتقاد باطل.

البحث الثالث: لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة: فالسابقة هي التي بها خَلَق الخلق، واللاحقة هي التي أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك، فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن، وبالنظر إلى اللاحقة رحيم، ولهذا يقال: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، فهو رحمن لأنه خلق الخلق أولاً برحمته، فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحد أحدًا لم يجز أن يقال لغيره: رحمن، ولما تَخَلَّق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية وأطعم الجائع وكسا العاري، وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها

الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم، وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة، غير أنا أردنا أن يصير ما ذكرنا (هنا) مضمومًا إلى ما ذكرناه هناك، فأعدناه ههنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه في الفاتحة.

المسألة الثانية: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ، خبره الجملة الفعلية التي هي قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ (خبر) مبتدأ تقديره هو الرحمن، ثم أتى بجملة بعد جملة فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ والأول أصح، وعلى القول الضعيف الرحمن آية.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لا بد له من مفعول ثانٍ، فما ذلك؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: قيل: (علَّم) بمعنى جعله علامة، أي هو علامة النبوة ومعجزة، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] على ما بينا أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيبة وهو أنه شق ما لا يشقه أحد غيره، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة، وهو أنه نشر من العلوم مالا ينشره غيره، وهو ما في القرآن، وعلى هذا الوجه من الجواب ففيه احتمال آخر، وهو أنه جعله بحيث يُعلم فهو كقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: ١٧] والتعليم على هذا الوجه مجاز، يقال: إن أنفق على متعلم وأعطى أجرة على تعليمه علمه. وثانيهما: أن المفعول الثاني لا بد منه وهو جبريل وغيره من الملائكة، علَّمهم القرآن ثم أنزله على عبده، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] ويحتمل أن يقال: المفعول الثاني هو محمد ﷺ، وفيه إشارة إلى أن القرآن كلام الله تعالى لا كلام محمد، وفيه وجه ثالث: وهو أنه تعالى علَّم القرآن الإنسان، وهذا أقرب ليكون الإنعام أتم، والسورة مفتتحة لبيان الأعم من النعم الشاملة.

المسألة الرابعة: لمَ ترك المفعول الثاني؟ نقول: إشارة إلى أن النعمة في تعميم التعليم لا في تعليم شخص دون شخص، يقال: (فلان يطعم الطعام) إشارة إلى كرمه، ولا يبين من يطعمه.

المسألة الخامسة: ما معنى التعليم؟ نقوله على قولنا له مفعول ثان: إفادة العلم به، فإن قيل: كيف يُفهم قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مع قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؟ نقول: مَن لا يقف عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويعطف: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على الله عطف المفرد على المفرد - لا يَرِد عليه هذا، ومن يقف ويعطف قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ على قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ عطف جملة على جملة - يقول: إنه تعالى عَلَّم القرآن؛ لأن مَن عَلم كتابًا عظيمًا ووقع على ما فيه، وفيه مواضع مشكلة فعلم ما في تلك المواضع بقدر الإمكان، يقال: فلان يعلم الكتاب الفلاني ويتقنه بقدر وسعه، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين، وكذلك القول في تعليم القرآن، أو تقول: لا يعلم تأويله إلا الله، وأما غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه ما لم يعلم، فيكون إشارة إلى أن كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب التي يستخرج ما فيها بقوة الذكاء والعلوم.

ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في وجه الترتيب وهو على وجهين: أحدهما: ما ذكرنا أن المراد من علم علم الملائكة، وتعليمه الملائكة قبل خلق الإنسان، فعلَّم تعالى ملائكته المقربين القرآن حقيقة يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٧ - ٧٩] ثم قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الواقعة: ٨٠] إشارة إلى تنزيله بعد تعليمه، وعلى هذا ففي النظم حسن زائد وذلك من حيث إنه تعالى ذكر أمورًا علوية وأمورًا سفلية، وكل علوي قابله بسفلي، وقدم العلويات على السفليات إلى آخر الآيات، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إشارة إلى تعليم العلويين، وقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إشارة إلى تعليم السفليين، وقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[الرحمن: ٥] في العلويات، وقال في مقابلتهما من السفليات: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الرحمن: ٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾[الرحمن: ٧] وفي مقابلتها: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾[الرحمن: ١٠]. وثانيهما: أن تقديم تعليم القرآن إشارة إلى كونه أتم نعمة وأعظم إنعامًا، ثم بَيَّن كيفية تعليم القرآن، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وهو كقول القائل: علمت فلانًا الأدب، حملته عليه، وأنفقت عليه مالي، فقوله: (حملته وأنفقت) بيان لما تقدم، وإنما قدم ذلك لأنه الإنعام العظيم.

المسألة الثانية: ما الفرق بين هذه السورة وسورة العلق، حيث قال هناك: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق: ١] ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[العلق: ٣، ٤] فقدم الخلق على التعليم؟ نقول: في تلك السورة لم يصرح بتعليم القرآن فهو كالتعليم الذي ذكره في هذه السورة بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ بعد قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

المسألة الثالثة: ما المراد من الإنسان؟ نقول: هو الجنس، وقيل: المراد محمد ﷺ، وقيل: المراد آدم. والأول أصح نظرًا إلى اللفظ في ﴿خَلَقَ﴾ ويدخل فيه محمد وآدم وغيرهما من الأنبياء.

المسألة الرابعة: ما البيان وكيف تعليمه؟ نقول: من المفسرين من قال: البيان: المنطق، فعلَّمه ما ينطق به ويُفهم غيره ما عنده، فإن به يمتاز الإنسان عن غيره عن الحيوانات، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إشارة إلى تقدير خلق جسمه الخاص، و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إشارة إلى تميزه بالعلم عن غيره. وقد خرج ما ذكرنا أولاً أن البيان هو القرآن، وأعاده ليفصل ما ذكره إجمالاً بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ كما قلنا في المثال حيث يقول القائل: علمت فلانًا الأدب، حملته عليه. وعلى هذا فالبيان مصدر أريد به ما فيه المصدر، وإطلاق البيان بمعنى القرآن على القرآن في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٣٨] وقد سمى الله تعالى القرآن فرقانًا وبيانًا والبيان فرقان بين الحق والباطل، فصَحَّ إطلاق البيان، وإرادة القرآن.

المسألة الخامسة: كيف صرح بذكر المفعولين في ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ ولم يصرح بهما في ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ نقول: أما إن قلنا: إن المراد من قوله: (علم القرآن) هو أنه علم الإنسان القرآن،

فنقول: حذفه لعظم نعمة التعليم وقدم ذكره على من علمه وعلى بيان خلقه، ثم فصَّل بيان كيفية تعليم القرآن، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ﴾ وقد بيَّن ذلك، وأما إن قلنا: المراد ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الملائكة فلأن المقصود تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه من التكذيب به، وتعليمه للملائكة لا يظهر للإنسان أنه فائدة راجعة إلى الإنسان [١] وأما تعليم الإنسان فهي نعمة ظاهرة، فقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي علم الإنسان تعديدًا للنعم عليه ومثل هذا قال في ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال مرة: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ من غير بيان المعلم، ثم قال مرة أخرى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهو البيان، ويحتمل أن يتمسك بهذه الآية على أن اللغات توقيفية حصل العلم بها بتعليم الله.

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾

وفي الترتيب وجوه: أحدها: هو أن الله تعالى لما ثبت كونه رحمن وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن، ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان، فإنه نعمة جميع النعم به تتم، ولولا وجوده لما انتفع بشيء، ثم بيَّن نعمة الإدراك بقوله: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية، وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة، بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما، ثم بيَّن كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير، ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول، ثم بيَّن في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض، وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق، فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، وأصل النعم على الرزق الدارُّ، وإنما قلنا: النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان، ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات وهو الأصل، وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار، وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان. **ثانيها:** هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافيًا لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ وغيرها من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن تكن له النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن، فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر. وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص، ولو اجتمع مَن في

---

(١) قول إن كان اطراد علم الملائكة فيه نعمة أعظم علي الإنسان وإشارة إلى نوع المنة التي أنعم بها عليها بالقرآن وإلى شرف القرآن بأنه مما تعلمه الملائكة ولا ريب أن الملائكة وقد نزلوا بالقرآن على محمد ﷺ وحملوه إليه فإن علمهم به ولا شك ألزم وإنزال ملائكة موصوفين بالعلم على الرسول فيه تبجيل للرسول ولأمته وللقرآن نفسه وبهذا تظهر الفائدة في إرادة هذا المعني وربما تعين هذا المراد مراعاة للترتيب الذي في الآية ووقوع خلق الإنسان بعد خلقه الملائكة.

العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم، وتواطئوا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة، لمَا بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحق ويقول: حركهما الله تعالى كما أراد، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية. **ثالثها:** هو أنا ذكرنا أن هذه السورة مفتتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة، فذكر معجزة القرآن بما يكون جوابًا لمنكري النبوة على الوجه الذي نبهنا عليه، وذلك هو أنه تعالى أنزل على نبيه الكتاب وأرسله إلى الناس بأشرف خطاب، فقال بعض المنكرين: كيف يمكن نزول الجرم من السماء إلى الأرض وكيف يصعد ما حصل في الأرض إلى السماء؟ فقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ إشارة إلى (أن) حركتهما بمحرك مختار ليس بطبيعي، وهم وافقونا فيه وقالوا: إن الحركة الدورية لا يمكن أن تكون طبيعية اختيارية، فنقول: مَن حرك الشمس والقمر على الاستدارة، أنزل الملائكة على الاستقامة، ثم النجم والشجر يتحركان إلى فوق على الاستقامة مع أن الثقيل على مذهبكم لا يصعد إلى جهة فوق فذلك بقدرة الله تعالى وإرادته، فكذلك حركة الملك جائزة مثل الفلك، وأما قوله: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ففيه إشارة إلى الجواب عن قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾[ص: ٨] وذلك لأنه تعالى كما اختار لحركتهما ممرًّا معينًا وصوبًا معلومًا ومقدارًا مخصوصًا، كذلك اختار للملك وقتًا معلومًا وممرًّا معينًا بفضله. **وفي التفسير مباحث:**

الأول: ما الحكمة في تعريفه عما يرجع إلى الله تعالى حيث قال: هما ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ولم يقل: حركهما الله بحسبان أو سخرهما أو أجراهما، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾[الرحمن: ٣] وقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن: ٤]؟ نقول: فيه حِكم، منها أن يكون إشارة إلى أن خلق الإنسان وتعليمه البيان - أتم وأعظم من خلق المنافع له من الرزق وغيره، حيث صرح هناك بأنه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا، ومنها أن قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ هاهنا بمثل هذا في العظم يقول القائل: إني أعطيتك الألوف والمئات مرارًا، وحصل لك الآحاد والعشرات كثيرًا، وما شكرت، ويكون معناه حصل لك مني ومن عطائي لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير، ومنها أنه لما بينا أن قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ إشارة إلى دليل عقلي مؤكد السمعي ولم يقل: فعلت صريحًا إشارة إلى أنه معقول إذا نظرت إليه عرفت أنه مني واعترفت به، وأما السمعي فصرح بما يرجع إليه من الفعل.

الثاني: على أي وجه تعلق الباء من ﴿بِحُسْبَانٍ﴾؟ نقول: هو بَيِّن من تفسيره والتفسير أيضًا مر بيانه، وخرج من وجه آخر، فنقول: في الحسبان وجهان: الأول: المشهور أن المراد الحساب، يقال: حسب حسابًا وحسبانًا، وعلى هذا فالباء للمصاحبة تقول: قدمت بخير، أي مع خير ومقرونًا بخير، فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما، ومثله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨] ويحتمل أن تكون للاستعانة كما في قولك: بعون الله غلبت، وبتوفيق الله حججت، فكذلك يجريان بحسبان من الله. والوجه الثاني: أن الحسبان هو الفلك

تشبيهًا له بحسبان الرحا، وهو ما يدور فيدير الحجر، وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال في الآلات: كتبت بالقلم، فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

الثالث: على الوجه المشهور هل كل واحد يجري بحسبان أو كلاهما بحسبان واحد ما المراد؟ نقول: كلاهما محتمل، فإن نظرنا إليهما فلكل واحد منهما حساب على حدة، فهو كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣] لا بمعنى أن الكل مجموع في فلك واحد وكقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وإن نظرنا إلى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب، مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيبًا معلومًا بحساب واحد، ثم يختلف الأمر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا، فكذلك الحساب الواحد.

وأما قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ففيه أيضا مباحث:

الأول: ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة؟ نقول: ليتنوع الكلام نوعين، وذلك لأن من يعد النعم على غيره تارة يذكر نسقًا من غير حرف، فيقول: فلان أنعم عليك كثيرًا، أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، قوَّاك بعد ضعف، وأخرى يذكرها بحرف عاطف، وذلك العاطف قد يكون واوًا وقد يكون فاء وقد يكون ثم، فيقول: فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن إليك، ويقول: رباك فعلَّمك فأغناك، ويقول: أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك. فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعًا، فإن قيل: زده بيانًا وبيِّن الفرق بين النوعين في المعنى. قلنا: الذي يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة، فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثًا أو عندما تكون أكثر من نعمتين، فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول: فلان أعطاك المال وزوجك البنت، فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة، وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج، والذي يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها، وإذهاب توهم البدل والتفسير، فإن قول القائل: أنعم عليك، أعطاك المال، هو تفسير للأول فليس في كلامه ذكر نعمتين معًا، بخلاف ما إذا ذكر بحرف، فإن قيل: إن كان الأمر على ما ذكرت فلو ذكر النعم الأول بالواو ثم عند تطويل الكلام في الآخر سردها سردًا، هل كان أقرب إلى البلاغة؟ وورود كلامه تعالى عليه كفاه دليلاً على أن ما ذكره الله تعالى أبلغ، وله دليل تفصيلي ظاهر يبين ببحث وهو أن الكلام قد يشرع فيه المتكلم أولاً على قصد الاختصار فيقتضي الحال التطويل، إما لسائل يكثر السؤال، وإما لطالب يطلب الزيادة للطف كلام المتكلم، وإما لغيرهما من الأسباب، وقد يشرع على قصد الإطناب والتفصيل، فيعرض ما يقتضي الاقتصار على المقصود من شغل السامع أو المتكلم وغير ذلك مما جاء في كلام الآدميين، نقول: كلام الله تعالى فوائده لعباده لا له ففي هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود، فأتى بما

يختص بالكثرة، ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى؟ فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير والنعي على أن كل واحد منها نعمة كاملة، فإن قيل: إذا كان كذلك فما الحكمة في تخصيص العطف بهذا الكلام والابتداء به لا بما قبله ولا بما بعده؟ قلنا: ليكون النوعان على السواء، فذكر الثمانية من النعم كتعليم القرآن وخلق الإنسان وغير ذلك أربعًا منها بغير واو وأربعًا بواو، وأما قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾ [الرحمن: ١١] وقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] فلبيان نعمة الأرض على التفصيل، ثم في اختيار الثمانية لطيفة، وهي أن السبعة عدد كامل والثمانية هي السبعة مع الزيادة، فيكون فيه إشارة إلى أن نعم الله خارجة عن حد التعديد لما أن الزائد على الكمال لا يكون معينًا مبينًا، فذكر الثمانية منها إشارة إلى بيان الزيادة على حد العدد لا لبيان الانحصار فيه.

المسألة الثانية: النجم ماذا؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: النبات الذي لا ساق له. والثاني: نجم السماء، والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ذكر أرضين في مقابلة سماوين، ولأن قوله: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال: يسجد بالغروب، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضًا كذلك يغربان، فلا يبقى للاختصاص فائدة، وأما إذا قلنا: هما أرضان فنقول: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر، وفي سجودهما وجوه: أحدها: ما ذكرنا من سجود الظلال. ثانيها: خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى، فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق، فشبه النبات في مكانها بالسجود لأن الساجد يثبت. ثالثها: حقيقة السجود توجد منهما وإن لم تكن مرئية كما يسبح كل منهما وإن لم يُفقه كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، رابعها: السجود وضع الجبهة أو مقاديم الرأس على الأرض، والنجم والشجر في الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما في الهواء، لأن الرأس من الحيوان ما به شربه واغتذاؤه، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما بأجذالهما ولأن الرأس لا تبقى بدونه الحياة، والشجر والنجم لا يبقى شيء منهما ثابتًا غضًّا عند وقوع الخلل في أصولهما، ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما، وإنما يقال: للفروع رؤوس الأشجار؛ لأن الرأس في الإنسان هو ما يلي جهة فوق فقيل لأعالي الشجر رؤوس، إذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائمًا، فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة.

المسألة الثالثة: في تقديم النجم على الشجر موازنة لفظية للشمس والقمر، وأمر معنوي، وهو أن النجم في معنى السجود أدخل لما أنه ينبسط على الأرض كالساجد حقيقة، كما أن الشمس في الحسبان أدخل؛ لأن حساب سيرها أيسر عند المقومين من حساب سير القمر، إذ ليس عند المقومين أصعب من تقويم القمر في حساب الزيج.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۞﴾

ورفع السماء معلوم معنى، ونصبها معلوم لفظًا، فإنها منصوبة بفعل يفسره قوله: ﴿رَفَعَهَا﴾ كأنه تعالى قال: رفع السماء، وقرئ (وَالسَّماءُ) بالرفع على الابتداء، والعطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [الرحمن: ٥] وأما وضع الميزان فإشارة إلى العدل، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب، فقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ٢] ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ مثل: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فإن قيل: العلم لا شك في كونه نعمة عظيمة، وأما الميزان فما الذي فيه من النعم العظيمة التي بسببها يُعد في الآلاء؟ نقول: النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه، فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر، فكما أن العقل والعلم صارا سببًا لبقاء عمارة العالم، فكذلك العدل في الحكمة سبب، وأخص الأسباب الميزان فهو نعمة كاملة، ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۞﴾

وعلى هذا قيل: المراد من الميزان الأول: العدل، ووضعه شرعه، كأنه قال: شرع الله العدل لئلا تطغوا في الميزان الذي هو آلة العدل، هذا هو المنقول، والأَوْلى أن يُعكس الأمر، ويقال: الميزان الأول هو الآلة، والثاني هو بمعنى المصدر، ومعناه وضع الميزان لئلا تطغوا في الوزن أو بمعنى العدل وهو إعطاء كل مستحق حقه، فكأنه قال: وضع الآلة لئلا تطغوا في إعطاء المستحقين حقوقهم. ويجوز إرادة المصدر من الميزان كإرادة الوثوق من الميثاق والوعد من الميعاد، فإذن المراد من الميزان آلة الوزن. والوجه الثاني: (أَنَّ) (أَنْ) مفسرة والتقدير شرع العدل، أي لا تطغوا، فيكون وضع الميزان بمعنى شرع العدل، وإطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز، ويحتمل أن يقال: وضع الميزان أي الوزن.

وقوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ على هذا الوجه، المراد منه الوزن، فكأنه نهى عن الطغيان في الوزن، والاتزان، وإعادة الميزان بلفظه يدل على أن المراد منهما واحد، فكأنه قال: ألا تطغوا فيه، فإن قيل: لو كان المراد الوزن، لقال: ألا تطغوا في الوزن. نقول: لو قال في الوزن لظن

أن النهي مختص بالوزن للغير لا بالاتزان للنفس، فذكر بلفظ الآلة التي تشتمل على الأخذ والإعطاء، وذلك لأن المعطي لو وزن ورجح رجحانًا ظاهرًا يكون قد أربى، ولا سيما في الصرف وبيع المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يدل على أن المراد من قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ هو بمعنى لا تطغوا في الوزن؛ لأن قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ كالبيان لقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ وهو الخروج عن إقامته بالعدل، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أقيموا بمعنى قوموا به، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] أي قوموا بها دوامًا؛ لأن الفعل تارة يُعَدى بحرف الجر، وتارة بزيادة الهمزة، تقول: أذهبه وذهب به. ثانيها: أن يكون أقيموا بمعنى قوموا، يقال في العُود: أقمته وقوَّمته، والقسط: العدل. فإن قيل: كيف جاء قسط بمعنى جار لا بمعنى عدل؟ نقول: القسط اسم ليس بمصدر، والأسماء التي لا تكون مصادر إذا أتى بها آتٍ أو وجدها موجد، يقال فيها: أفعل بمعنى أثبت، كما قال: فلان أطرف وأتحف وأعرف، بمعنى جاء بطرفة وتحفة وعَرْف، وتقول: أقبض السيف، بمعنى أثبت له قبضة، وأعلم الثوب بمعنى جعل له علمًا، وأعلم بمعنى أثبت العلامة، وكذا ألجم الفرس وأسرج، فإذا أمر بالقسط أو أثبته فقد أقسط، وهو بمعنى عدل، وأما قَسَط فهو فعل من اسم ليس بمصدر، والاسم إذا لم يكن مصدرًا في الأصل، ويورد عليه فعل، فربما يغيره عما هو عليه في أصله، مثاله الكتف إذا قلت: كتفته كتافًا، فكأنك قلت: أخرجته عما كان عليه من الانتفاع وغيرته، فإن معنى كتفته شددت كتفيه بعضهما إلى بعض فهو مكتوف، فالكتف كالقسط صارا مصدرين عن اسم وصار الفعل معناه تغير عن الوجه الذي ينبغي أن يكون، وعلى هذا لا يحتاج إلى أن يقال: القاسط والمقسط ليس أصلهما واحدًا، وكيف كان يمكن أن يقال: أقسط بمعنى أزال القسط، كما يقال: أشكى بمعنى أزال الشكوى أو أعجم بمعنى أزال العجمة، وهذا البحث فيه فائدة فإن قول القائل: فلان أقسط من فلان، وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والأصل في أفعل التفضيل أن يكون من الثلاثي المجرد تقول: أظلم وأعدل، من ظالم وعادل، فكذلك أقسط كان ينبغي أن يكون من قاسط، ولم يكن كذلك؛ لأنه على ما بينا الأصل القسط، وقسط فعل فيه لا على الوجه، والإقساط إزالة ذلك، ورد القسط إلى أصله، فصار أقسط موافقًا للأصل، وأفعل التفضيل يؤخذ مما هو أصل لا من الذي فُرع عليه، فيقال: أظلم من ظالم لا من متظلم وأعلم من عالم لا من معلم، والحاصل أن الأقسط وإن كان نظرًا إلى اللفظ، كان ينبغي أن يكون من القاسط، لكنه نظرًا إلى المعنى، يجب أن يكون من المقسط؛ لأن المقسط أقرب من الأصل المشتق وهو القسط، ولا كذلك الظالم والمظلم، فإن الأظلم صار مشتقًّا من الظالم؛ لأنه أقرب إلى الأصل لفظًا ومعنى، وكذلك العالم والمعلم والخبر والمخبر.

ثم قال: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا الموزون. والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات

كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٧]، والثاني بمعنى المصدر ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾[الرحمن: ٨] أي الوزن، والثالث للمفعول: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي الموزون، وذكر الكل بلفظ الميزان لما بينا أن الميزان أشمل للفائدة، وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٨] وبمعنى المقروء في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٧] وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾[الرعد: ٣١] فكأنه آلة ومحل له، وفي قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧] وفي كثير من المواضع ذِكْرُ القرآن لهذا الكتاب الكريم، وبين القرآن والميزان مناسبة، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب، والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات، فإن قيل: ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وتقديم الفعل على الميزان حيث قال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٧]؟ نقول: قد ذكرنا مرارًا أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر، والظاهر ههنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصًا بالإنسان من بعض، فما كان شديد الاختصاص بالإنسان قَدَّم فيه الفعل، كما بينا أن الإنسان يقول: أعطيتك الألوف وحصلت لك العشرات، فلا يصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه، وكذلك يقول في النعم المختصة: أعطيتك كذا، وفي التشريك: وصل إليك مما اقتسمتم بينكم كذا. فيصرح بالإعطاء عند الاختصاص، ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك، فكذلك ههنا ذكر أمورًا أربعة بتقديم الفعل، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[الرحمن: ٢-٤] ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٧] وأمورًا أربعة بتقديم الاسم، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ . . . ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ . . . ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ . . . ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾[الرحمن: ٥-١٠] لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنسان أعود، وخلق الإنسان مختص به، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان، كذلك لأنهم هم المنتفعون به لا الملائكة، ولا غير الإنسان من الحيوانات، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كل حيوان على وجه الأرض وتحت السماء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝﴾ فيه مباحث:

الأول: هو أنه قد مر أن تقديم الاسم على الفعل كان في مواضع عدم الاختصاص، وقوله تعالى: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ يدل على الاختصاص، فإن اللام لعود النفع. نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: ما قيل: إن الأنام يجمع الإنسان وغيره من الحيوان، فقوله: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ لا يوجب الاختصاص بالإنسان. ثانيهما: أن الأرض موضوعة لكل ما عليها، وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر فإنه ينتفع بها وبما فيها وبما عليها، فقال ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ لكثرة انتفاع

الأنام بها، إذا قلنا: إن الأنام هو الإنسان، وإن قلنا: إنه الخلق فالخلق يُذكر ويراد به الإنسان في كثير من المواضع.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ إشارة إلى الأشجار، وقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] إشارة إلى النبات الذي ليس بشجر، والفاكهة ما تطيب به النفس، وهي فاعلة إما على طريقة: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات رضى يرضى بها كل أحد، وإما على تسمية الآلة بالفاعل، يقال: راوية للقربة، التي يروى بها العطشان، وفيه معنى المبالغة كالراحلة لما يُرحل عليه، ثم صار اسمًا لبعض الثمار وضعت أولاً من غير اشتقاق، والتنكير للتكثير، أي كثيرة، كما يقال: لفلان مال، أي عظيم، وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم، وهو أن القائل كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل أحد، فتنكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يُعرف كنهه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ إشارة إلى النوع الآخر من الأشجار؛ لأن الأشجار المثمرة أفضل الأشجار، وهي منقسمة إلى أشجار ثمار هي فواكه لا يقتات بها وإلى أشجار ثمار هي قوت وقد يتفكه بها، كما أن الفاكهة قد يقتات بها، فإن الجائع إذا لم يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكل غير متفكه بها، **وفيه مباحث:**

الأول: ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت؟ نقول: هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى، والفاكهة في النفع دون النخل الذي منه القوت، والتفكه وهو دون الحَب الذي عليه المدار في سائر المواضع، وبه يتغذى الأنام في جميع البلاد، فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذي هو أتم نعمة لموافقته مزاج الإنسان، ولهذا خلقه الله في سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة.

البحث الثاني: ما الحكمة في تنكير الفاكهة وتعريف النخل؟ وجوابه من وجوه: أحدها: أن القوت محتاج إليه في كل زمان، متداول في كل حين وأوان فهو أعرف، والفاكهة تكون في بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص. وثانيها: هو أن الفاكهة على ما بينا ما يتفكه به وتطيب به النفس، وذلك عند كل أحد بحسب كل وقت شيء، فمن غلب عليه حرارة وعطش، يريد التفكه بالحامض وأمثاله، ومن الناس من يريد التفكه بالحلو وأمثاله، فالفاكهة غير متعينة فنكَّرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما. وثالثها: النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بها منافع كثيرة، وأما الفاكهة فنوع منها كالخوخ والإجاص مثلاً ليس فيه عظيم النعمة كما في النخل، فقال: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ بالتنكير ليدل على الكثرة وقد صرح بالكثرة في مواضع أخر فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [ص: ٥١] وقال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، فالفاكهة ذكرها الله تعالى ووصفها بالكثرة صريحًا وذكرها منكرة؛ لتُحمل على أنها موصوفة بالكثرة اللائقة بالنعمة في النوع الواحد منها، بخلاف النخل.

البحث الثالث: ما الحكمة في ذكر الفاكهة باسمها لا باسم أشجارها، وذكر النخل باسمها لا

باسم ثمرها؟ نقول: قد تقدم بيانه في سورة (يس) حيث قال تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤] وهو أن شجرة العنب وهي الكرم بالنسبة إلى ثمرتها وهي العنب حقيرة، وشجرة النخل بالنسبة إلى ثمرتها عظيمة، وفيها من الفوائد الكثيرة على ما عُرف من اتخاذ الظروف منها والانتفاع بجُمَّارها وبالطلع والبُسْر والرطب وغير ذلك، فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى الغير من الأشجار، فذكر النخل باسمه وذكر الفاكهة دون أشجارها، فإن فوائد أشجارها في عين ثمارها.

البحث الرابع: ما معنى: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: الأكمام: كل ما يغطي جمع كُمٍّ بضم الكاف، ويدخل فيه لحاؤها وليفها ونواها والكل منتفع به، كما أن النخل منتفع بها وأغصانها وقلبها الذي هو الجمار، ثانيهما: الأكمام جمع كِمٍّ بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فإنه يكون أولاً في وعاء فينشق ويخرج منه الطلع، فإن قيل على الوجه الأول: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ في ذكرها فائدة لأنها إشارة إلى أنواع النعم، وأما على الوجه الثاني فما فائدة ذكرها؟ نقول: الإشارة إلى سهولة جمعها والانتفاع بها، فإن النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلا بد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذي يقال: إنه يخرج من الشجرة متفرقًا واحدة واحدة لصعب قطافها فقال: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي يكون في كُمٍّ شيء كثير إذا أخذ عنقود واحد منه كفى رجلاً واثنين كعناقيد العنب، فانظر إليها فلو كان العنب حباتها في الأشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهز متى أريد جمعه، فخلقه الله تعالى عناقيد مجتمعة، كذلك الرطب فكونها ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ من جملة إتمام الإنعام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ اقتصر من الأشجار على النخل لأنها أعظمها ودخل في الحب القمح والشعير وكل حب يقتات به خبزًا أو يؤدم به بينا أنه أَخَّرَه في الذكر على سبيل الارتقاء درجة فدرجة فالحبوب أنفع من النخل وأعم وجودًا في الأماكن. وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ فيه وجوه أحدها: التبن الذي تنتفع به دوابنا التي خلقت لنا، ثانيها: أوراق النبات الذي له ساقٌ الخارجةُ من جوانب الساق كأوراق السنبلة من أعلاها إلى أسفلها، ثالثها: العصف هو ورق ما يؤكل فحسب والريحان فيه وجوه: قيل: ما يشم، وقيل: الورق، وقيل: هو الريحان المعروف عندنا وبزره ينفع في الأدوية، والأظهر أن رأسها كالزهر وهو أصل وجود المقصود، فإن ذلك الزهر يتكون بذلك الحب وينعقد إلى أن يدرك، فالعصف إشارة إلى ذلك الورق والريحان إلى ذلك الزهر، وإنما ذكرهما لأنهما يؤولان إلى المقصود من أحدهما علف الدواب، ومن الآخر دواء الإنسان، وقرئ (والرَّيْحَانِ) بالجر معطوفًا على العصف، وبالرفع عطفًا على الحب وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد من الريحان المشموم فيكون

أمرًا مغايرًا للحب فيعطف عليه، والثاني: أن يكون التقدير: ذو الريحان بحذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه كما في: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وهذا مناسب للمعنى الذي ذكرنا، ليكون الريحان الذي ختم به أنواع النعم الأرضية أعز وأشرف، ولو كان المراد من الريحان هو المعروف أو المشمومات لما حصل ذلك الترتيب، وقرئ: (وَالرَّيْحَانَ) ولا يقرأ هذا إلا من يقرأ: (والحَبَّ ذَا العَصْفِ) ويعود الوجهان فيه.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ **وفيه مباحث:**

الأول: الخطاب مع من؟ نقول: فيه وجوه: الأول: الإنس والجن، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: يقال: الأنام اسم للجن والإنس وقد سبق ذكره، فعاد الضمير إلى ما في الأنام من الجنس، ثانيها: الأنام: اسم الإنسان والجان لما كان منويًّا وظهر من بعد بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ [الرحمن: ١٥] جاز عود الضمير إليه، وكيف لا وقد جاز عود الضمير إلى المنوي، وإن لم يذكر منه شيء، تقول: لا أدري أيهما خير من زيد وعمرو، ثالثها: أن يكون المخاطب في النية لا في اللفظ كأنه قال فبأي آلاء ربكما تكذبان أيها الثقلان الثاني: الذكر والأنثى. فعاد الضمير إليهما والخطاب معهما الثالث: فبأي آلاء ربك تكذب، فبأي آلاء ربك تكذب، بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد الرابع: المراد العموم، لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل ولا يبقى شيء من العام خارجًا عنه، فإنك إذا قلت: إنه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل، أو قلت: الله يعلم ما ظهر وما لم يظهر إلى غير ذلك من التقاسيم الحاصرة يلزم التعميم، فكأنه قال: يا أيها القسمان: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ واعلم أن التقسيم الحاصر لا يخرج عن أمرين أصلاً ولا يحصل الحصر إلا بهما، فإن زاد فهناك قسمان قد طوى أحدهما في الآخر، مثاله إذا قلت: اللون إما سواد وإما بياض، وإما حمرة وإما صفرة وإما غيرها فكأنك قلت: اللون إما أسود وإما ليس بسواد أو إما بياض وإما ليس ببياض، ثم الذي ليس ببياض إما حمرة وإما ليس بحمرة وكذلك إلى جملة التقسيمات، فأشار إلى القسمين الحاصرين على أن ليس لأحد ولا لشيء أن ينكر نعم الله، الخامس: التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعًا، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان فإن النعم بلغت حدًّا لا يمكن للمعاند أن يستمر على تكذيبها، السادس: المكذب مكذب بالرسول والدلائل السمعية التي بالقرآن ومكذب بالعقل والبراهين والتي في الآفاق والأنفس فكأنه تعالى قال: يا أيها المكذبان بأي آلاء ربكما تكذبان، وقد ظهرت آيات الرسالة فإن الرحمن علم القرآن، وآيات الوحدانية فإنه تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان، ورفع السماء ووضع الأرض السابع: المكذب قد يكون مكذبًا بالفعل وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع فالله تعالى قال: يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب، ويختلج في صدرك أنك تكذب، ﴿فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض والظاهر منها الثقلان، لذكرهما في الآيات من هذه السورة بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وبقوله: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمن: ٣٣] وبقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥] إلى غير ذلك، (والزوجان) لوروده في القرآن كثير والتعميم بإرادة نوعين حاصرين للجميع، ويمكن أن يقال: التعميم أولى لأن المراد لو كان الإنس والجن اللذان خاطبهما بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ما كان يقول بعد خلق الإنسان، بل كان يخاطب ويقول: خلقناك يا أيها الإنسان من صلصال وخلقناك يا أيها الجان أو يقول: خلقك يا أيها الإنسان لأن الكلام صار خطابًا معهما، ولما قال الإنسان، دل على أن المخاطب غيره وهو العموم فيصير كأنه قال: يا أيها الخلق والسامعون إنا خلقنا الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقنا الجان من مارج من نار. وسيأتي باقي البيان في مواضع من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، الثاني: ما الحكمة في الخطاب ولم يسبق ذكر مخاطب، نقول: هو من باب الالتفات إذ مبنى افتتاح السورة على الخطاب مع كل من يسمع، فكأنه لما قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] قال: اسمعوا أيها السامعون، والخطاب للتقريع والزجر كأنه تعالى نبه الغافل المكذب على أنه يفرض نفسه كالواقف بين يدي ربه يقول له ربه: أنعمت عليك بكذا وكذا، ثم يقول: فبأي آلائي تكذب ولا شك أنه عند هذا يستحي استحياء لا يكون عنده فرض الغيبة، الثالث: ما الفائدة في اختيار لفظة الرب وإذا خاطب أراد خطاب الواحد فلم قال: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهو الحاضر المتكلم فكيف يجعل التكذيب المسند إلى المخاطب واردًا على الغائب ولو قال: بأي آلائي تكذبان كان أليق في الخطاب؟ نقول: في السورة المتقدمة قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣] وقال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢١] كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال: أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله أنا المعذب فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملاً في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند بيان الرحمة لفظ يزيل الهيبة وهو لفظ الرب فكأنه تعالى قال فبأي آلاء ربكما تكذبان وهو رباكما، الرابع: ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه إحدى وثلاثين مرة؟ نقول: الجواب عنه من وجوه:

الأول: إن فائدة التكرير التقرير، وأما هذا العدد الخاص فالأعداد توقيفية لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس والأولى أن لا يبالغ الإنسان في استخراج الأمور البعيدة في كلام الله تعالى تمسكًا بقول عمر رضي الله تعالى عنه حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعَمْرُ الله التكلُّف وما عليك يا عمر أن

لا تدري ما الأب ثم قال: اتبعوا ما بُيِّنَ لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه، وسيأتي فائدة كلامه تعالى في تفسير السورة إن شاء الله تعالى.

الجواب الثاني: ما قلناه: إنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أربع مرات لبيان ما في ذلك من المعنى وثلاث مرات للتقرير والتكرير وللثلاث والسبع من بين الأعداد فوائد ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] فلما ذكر العذاب ثلاث مرات ذكر الآلاء إحدى وثلاثين، مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير، فالآلاء مذكورة عشر مرات أضعاف مرات ذكر العذاب إشارة إلى معنى قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الثالث: إن الثلاثين مرة تكرير بعد البيان في المرة الأولى لأن الخطاب مع الجن والإنس، والنعم منحصرة في دفع المكروه وتحصيل المقصود، لكن أعظم المكروهات عذاب جهنم ولها سبعة أبواب، وأتم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فإغلاق الأبواب السبعة وفتح الأبواب الثمانية جميعه نعمة وإكرام، فإذا اعتبرت تلك النعم بالنسبة إلى جنسي الجن والإنس تبلغ ثلاثين مرة وهي مرات التكرير للتقرير، والمرة الأولى لبيان فائدة الكلام، وهذا منقول وهو ضعيف، لأن الله تعالى ذكر نعم الدنيا والآخرة، وما ذكره اقتصار على بيان نعم الآخرة.

الرابع: هو أن أبواب النار سبعة والله تعالى ذكر سبع آيات تتعلق بالتخويف من النار، من قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٣١-٤٤] ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك جنتين حيث قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ولكل جنة ثمانية أبواب تفتح كلها للمتقين، وذكر من أول السورة إلى ما ذكرنا من آيات التخويف ثماني مرات: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، سبع مرات للتقرير بالتكرير استيفاء للعدد الكثير الذي هو سبعة، وقد بينا سبب اختصاصه في قوله تعالى: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] وسنعيد منه طرفًا إن شاء الله تعالى، فصار المجموع ثلاثين مرة المرة الواحدة التي هي عقيب النعم الكثيرة لبيان المعنى وهو الأصل والتكثير تكرار فصار إحدى وثلاثين مرة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾

وفي الصلصال وجهان أحدهما: هو بمعنى المسنون من صَلَّ اللحم إذا أنتن، ويكون الصلصال حينئذ من الصلول، وثانيهما: من الصليل يقال: صل الحديد صليلاً إذا حدث منه صوت، وعلى هذا فهو الطين اليابس الذي يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت، إذ هو الطين اللازب الحر الذي إذا التزق بالشيء ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند الانفصال صوت، فإن قيل: الإنسان إذا خلق من صلصال كيف ورد في القرآن أنه خلق من التراب وورد أنه خلق من الطين ومن حمأ ومن ماء مهين إلى غير ذلك نقول: أما قوله ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] تارة، و﴿مِن مَاءٍ

مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أخرى، فذلك باعتبار شخصين آدم خلق من الصلصال ومن حمأ وأولاده خلقوا من ماء مهين، ولولا خلق آدم لما خلق أولاده، ويجوز أن يقال: زيد خلق من حمأ بمعنى أن أصله الذي هو جده خلق منه، وأما قوله: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، و﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وغير ذلك فهو إشارة إلى أن آدم عليه السلام خلق أولاً من التراب، ثم صار طينًا ثم حمأ مسنونًا ثم لازبًا، فكأنه خلق من هذا ومن ذاك، ومن ذلك، والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف مستعمل على أصل الاشتقاق، وهو مبالغة الفاخر كالعلام في العالم، وذلك أن التراب الذي من شأنه التفتت إذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات ولا يتفتت ولا ينقع فكأنه يفخر على أفراد جنسه.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

وفي الجان وجهان أحدهما: هو أبو الجن كما أن الإنسان المذكور هنا هو أبو الإنس وهو آدم، ثانيهما: هو الجن بنفسه فالجان والجن وصفان من باب واحد، كما يقال: مِلْحٌ ومَالِحٌ، أو نقول الجن اسم الجنس كالملح والجان مثل الصفة كالمالح.

وفيه بحث: وهو أن العرب تقول: جن الرجل ولا يعلم له فاعل يبني الفعل معه على المذكور، وأصل ذلك جنه الجان فهو مجنون، فلا يذكر الفاعل لعدم العلم به، ويقتصر على قولهم: جن فهو مجنون، وينبغي أن يعلم أن القائل الأول لا يقول: الجان اسم علم؛ لأن الجان للجن كآدم لنا، وإنما يقول بأن المراد من الجان أبوهم، كما أن المراد من الإنسان أبونا آدم، فالأول منا خلق من صلصال، ومن بعده خلق من صلبه، كذلك الجن الأول خلق من نار، ومن بعده من ذريته خلق من مارج، والمارج: المختلط، ثم فيه وجهان أحدهما: أن المارج هو النار المشوبة بدخان، والثاني: النار الصافية والثاني أصح من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ: فلأنه تعالى قال: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي نار مارجة، وهذا كقول القائل: هو مصوغ من ذهب فإن قوله من ذهب فيه بيان تناسب الأخلاط فيكون المعنى الكل من ذهب غير أنه يكون أنواعًا مختلفة مختلطة بخلاف ما إذا قلت: هذا قمح مختلط فلك أن تقول: مختلط بماذا فيقول: من كذا وكذا فلو اقتصر على قوله: من قمح وكان منه ومن وغيره أيضًا لكان اقتصاره عليه مختلط بما طلب من البيان، وأما المعنى: فلأنه تعالى كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ [الرحمن: ١٤] أي من طين حر كذلك بيَّن أن خلق الجان من نار خالصة فإن قيل: فكيف يصح قوله: ﴿مَّارِجٍ﴾ بمعنى مختلط مع أنه خالص؟ نقول: النار إذا قويت التهبت، ودخل بعضها في بعض كالشيء الممتزج امتزاجًا جيدًا لا تميز فيه بين الأجزاء المختلطة وكأنه من حقيقة واحدة كما في الطين المختمر، وذلك يظهر في التنور المسجور، إن قرب منه الحطب تحرقه فكذلك مارج بعضها ببعض لا يعقل بين أجزائها دخان وأجزاء أرضية، وسنبين هذا في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]

فإن قيل: المقصود تعديد النعم على الإنسان، فما وجه بيان خلق الجان؟ نقول: الجواب عندي من وجوه أحدها: ما بينا أن قوله: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خطاب مع الإنس والجن يعدد عليهما النعم بل على الإنسان وحده، ثانيها: أنه بيان فضل الله تعالى على الإنسان، حيث بيَّن أنه خلق من أصل كثيف كدر، وخلق الجان من أصل لطيف، وجعل الإنسان أفضل من الجان فإنه إذا نظر إلى أصله، علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى فكيف يكذب بآلاء الله، ثالثها: أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة، وكأنه تعالى لما بيَّن النعم الثمانية التي ذكرها في أول السورة، فكأنه ذكر الثمانية لبيان خروجها عن العدد الكثير الذي هو سبعة ودخولها في الزيادة التي يدل عليها الثمانية كما بينا، وقلنا إن العرب عند الثامن تذكر الواو إشارة إلى أن الثامن من جنس آخر، فبعد تمام السبعة الأول شرع في بيان قدرته الكاملة، وقال: هو الذي خلق الإنسان من تراب والجان من نار: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ الكثيرة المذكورة التي سبقت من السبعة، والتي دلت عليها الثامنة: (تُكَذِّبَانِ) وإذا نظرت إلى ما دلت عليه الثمانية وإلى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩، ٣٠]، يظهر لك صحة ما ذكر أنه بين قدرته وعظمته ثم يقول: فبأي تلك الآلاء التي عددتها أولاً تكذبان، وسنذكر تمامه عند تلك الآيات.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ **وفيه وجوه:**

أولها: مشرق الشمس والقمر ومغربهما، والبيان حينئذ في حكم إعادة ما سبق مع زيادة، لأنه تعالى لما قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]دل على أن لهما مشرقين ومغربين، ولما ذكر: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]دل على أنه مخلوق من شيء فبين أنه الصلصال، الثاني: مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإن قيل: ما الحكمة في اختصاصهما مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب يخالف بعضها البعض؟ نقول: غاية انحطاط الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم أن له ما بينهما أيضًا، الثالث: التثنية إشارة إلى النوعين الحاصرين كما بينا أن كل شيء فإنه ينحصر في قسمين فكأنه قال: رب مشرق الشمس ومشرق غيرها فهما مشرقان فتناول الكل، أو يقال: مشرق الشمس والقمر وما يفرض إليهما العاقل من مشرق غيرهما فهو تثنية في معنى الجمع.

ثم قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تعلق الآية بما قبلها فنقول: لما ذكر تعالى المشرق والمغرب وهما حركتان في الفلك ناسب ذلك ذكر البحرين؛ لأن الشمس والقمر يجريان في الفلك كما يجري

الإنسان في البحر قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين ولأن المشرقين والمغربين فيهما إشارة إلى البحر لانحصار البر والبحر بين المشرق والمغرب، لكن البر كان مذكورًا بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠] فذكر هاهنا مالم يكن مذكورًا.

المسألة الثانية: ﴿مَرَجَ﴾، إذا كان متعديًا كان بمعنى خلط أو ما يقرب منه فكيف قال تعالى: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] ولم يقل: من ممروج؟ نقول: مَرَج متعد ومَرِج بكسر الراء لازم فالمارج والمريج من مَرِجَ يَمرَجُ كفَرِحَ يَفرَحُ، والأصل في فَعِل أن يكون غريزيًا والأصل في الغريزي أن يكون لازمًا، ويثبت له حكم الغريزي، وكذلك فعل في كثير من المواضع.

المسألة الثالثة: في البحرين وجوه أحدها: بحر السماء وبحر الأرض، ثانيها: البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وهو أصح وأظهر من الأول، ثالثها: ما ذكر في المشرقين وفي قوله: ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ إنه إشارة إلى النوعين الحاصرين فدخل فيه بحر السماء وبحر الأرض والبحر العذب والبحر المالح، رابعها: أنه تعالى خلق في الأرض بحارًا تحيط بها الأرض وببعض جزائرها يحيط الماء وخلق بحرًا محيطًا بالأرض وعليه الأرض وأحاط به الهواء كما قال به أصحاب علم الهيئة وورد به أخبار مشهورة، وهذه البحار التي في الأرض لها اتصال بالبحر المحيط، ثم إنهما لا يبغيان على الأرض ولا يغطيانها بفضل الله تعالى لتكون الأرض بارزة يتخذها الإنسان مكانًا وعند النظر إلى أمر الأرض يحار الطبيعي ويتلجلج في الكلام، فإن عندهم موضع الأرض بطبعه أن يكون في المركز ويكون الماء محيطًا بجميع جوانبه، فإذا قيل لهم: فكيف ظهرت الأرض من الماء ولم ترسب يقولون لانجذاب البحار إلى بعض جوانبها، فإن قيل: لماذا انجذب؟ فالذي يكون عنده قليل من العقل يرجع إلى الحق ويجعله بإرادة الله تعالى ومشيئته، والذي يكون عديم العقل يجعل سببه من الكواكب وأوضاعها واختلاف مقابلاتها، وينقطع في كل مقام مرة بعد أخرى، وفي آخر الأمر إذا قيل له: أوضاع الكواكب لم اختلفت على الوجه الذي أوجب البرد في بعض الأرض دون بعض آخر صار كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويرجع إلى الحق إن هداه الله تعالى.

المسألة الرابعة: إذا كان المرج بمعنى الخلط فما الفائدة في قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾؟ نقول قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسل بعضهما في بعض وهما عند الإرسال بحيث يلتقيان أو من شأنهما الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما، وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين، ويحتمل أن يقال: من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان إلى الآن ولا يمتزجان وعلى الأول: فالفائدة إظهار القدرة في النفع فإنه إذا أرسل الماءين بعضهما على بعض وفي طبعهما بخلق الله وعادته السيلان والالتقاء ويمنعهما البرزخ الذي هو قدرة الله أو بقدرة الله،

يكون أدل على القدرة مما إذا لم يكونا على حال يلتقيان، وفيه إشارة إلى مسألة حكمية وهي: أن الحكماء اتفقوا على أن الماء له حيز واحد بعضه ينجذب إلى بعض كأجزاء الزئبق غير أن عند الحكماء المحققين ذلك بإجراء الله تعالى ذلك عليه وعند من يدعي الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول: ذلك له بطبعه، فقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي من شأنهما أن يكون مكانهما واحدًا، ثم إنهما بقيا في مكان متميزين فذلك برهان القدرة والاختيار، وعلى الوجه الثاني: الفائدة في بيان القدرة أيضًا على المنع من الاختلاط، فإن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال بل يبقيان زمانًا يسيرًا كالماء المسخن إذا غمس إناء مملوء منه في ماء بارد إن لم يمكث فيه زمانًا لا يمتزج بالبارد، لكن إذا دام مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما ذهابًا إلى أن يلتقيان ولا يمتزجان فذلك بقدرة الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من منعه إياهما من الجريان على عادتهما، والبرزخ: الحاجز وهو قدرة الله تعالى في البعض وبقدرة الله في الباقي، فإن البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضي محسوس وقد لا يكون، وقوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: من البغي أي لا يظلم أحدهما على الآخر بخلاف قول الطبيعي حيث يقول: الماءان كلاهما جزء واحد، فقال: هما لا يَبْغِيَان ذلك، وثانيهما: أن يقال: لا يبغيان من البغي بمعنى الطلب أي لا يطلبان شيئًا، وعلى هذا ففيه وجه آخر، وهو أن يقال: إن يبغيان لا مفعول له معين، بل هو بيان أنهما لا يبغيان في ذاتهما ولا يطلبان شيئًا أصلاً، بخلاف ما يقول الطبيعي: أنه يطلب الحركة والسكون في موضع عن موضع.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في القراءات التي فيها: قرئ: يَخْرُج من خَرَجَ ويُخْرَجُ بفتح الراء من أَخْرَجَ وعلى الوجهين فاللؤلؤ والمرجان مرفوعان، ويُخْرِج بكسر الراء بمعنى يُخْرِج الله، ونُخْرِج بالنون المضمومة والراء المكسورة، وعلى القراءتين ينصب اللؤلؤ والمرجان، اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره وقيل: المرجان هو الحجر الأحمر.

المسألة الثانية: اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح فكيف قال: ﴿مِنْهُمَا﴾؟ نقول الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذي لا يوثق بقوله، ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهَبْ أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه، لكن لا يلزم من هذا أن لا يوجد في الغير سلمنا لم قلتم: أن الصدف يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء المالح وكيف يمكن الجزم والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ثانيهما:

أن نقول: إن صح قولهم في اللؤلؤ: إنه لا يخرج إلا من البحر المالح فنقول: فيه وجوه أحدها: أن الصدف لا يتولد فيه اللؤلؤ إلا من المطر وهو بحر السماء، ثانيها: أنه يتولد في ملتقاهما ثم يدخل الصدف في المالح عند انعقاد الدر فيه طالبًا للملوحة كالمتوحمة التي تشتهي الملوحة أوائل الحمل فيثقل هناك فلا يمكنه الدخول في العذب، ثالثها: أن ما ذكرتم إنما كان يَرِدُ أن لو قال: يخرج من كل واحد منهما، فأما على قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ لا يرد إذ الخارج من أحدهما مع أن أحدهما مبهم خارج منهما كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[نوح: ١٦] يقال: فلان خرج من بلاد كذا ودخل في بلاد كذا ولم يخرج إلا من موضع من بيت من محلة في بلدة رابعها: أن (مِنْ) ليست لابتداء شيء كما يقال: خرجت مِنَ الكوفة بل لابتداء عقلي كما يقال: خلق آدم من تراب ووجدت الروح من أمر الله فكذلك اللؤلؤ يخرج من الماء أي منه يتولد.

المسألة الثالثة: أي نعمة عظيمة في اللؤلؤ والمرجان حتى يذكرهما الله مع نعمة تعلم القرآن وخلق الإنسان؟ وفي الجواب قولان: الأول: أن نقول: النعم منها خلق الضروريات كالأرض التي هي مكاننا ولولا الأرض لما أمكن وجود التمكين وكذلك الرزق الذي به البقاء ومنها خلق المحتاج إليه وإن لم يكن ضروريًا كأنواع الحبوب وإجراء الشمس والقمر، ومنها النافع وإن لم يكن محتاجًا إليه كأنواع الفواكه وخلق البحار من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[البقرة: ١٦٤] ومنها الزينة وإن لم يكن نافعًا كاللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[فاطر: ١٢] فالله تعالى ذكر أنواع النعم الأربعة التي تتعلق بالقوى الجسمانية وصدَّرها بالقوة العظيمة التي هي الروح وهي العلم بقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الرحمن: ٢] والثاني: أن نقول: هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم، والنعم قد تقدم ذكرها هنا، وذلك لأن خلق الإنسان من صلصال، وخلق الجان من نار، من باب العجائب لا من باب النعم، ولو خلق الله الإنسان من أي شيء خلقه لكان إنعامًا، إذا عرفت هذا فنقول: الأركان أربعة، التراب والماء والهواء والنار فالله تعالى بيَّن بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾[الرحمن: ١٤] أن الإنسان خلقه من تراب وطين وبيَّن بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن: ١٥] أن النار أيضًا أصل لمخلوق عجيب، وبيَّن بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر، كالحيوان عجيب، بقي الهواء لكنه غير محسوس، فلم يذكر أنه أصل مخلوق بل بين كونه منشأ للجواري في البحر كالأعلام. فقال:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في جعل الجواري خاصة له وله السموات وما فيها والأرض وما عليها؟ نقول: هذا الكلام مع العوام، فذكر مالا يغفل عنه من له أدنى عقل فضلاً عن الفاضل

الذكي، فقال: لا شك أن الفلك في البحر لا يملكه في الحقيقة أحد إذ لا تصرف لأحد في هذا الفلك وإنما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن أموالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى وهم في ذلك يقولون: لك الفلك ولك الملك وينسبون البحر والفلك إليه، ثم إذا خرجوا ونظروا إلى بيوتهم المبنية بالحجارة والكلس وخفي عليهم وجوه الهلاك، يَدَعُون مالكَ الفلك، ويَنْسَوْن ما كانوا ينسبون البحر والفلك إليه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

المسألة الثانية: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي اسم للسفينة أو صفة، فإن كانت اسمًا لزم الاشتراك والأصل عدمه، وإن كانت صفة فالأصل أن تكون الصفة جارية على الموصوف، ولم يذكر الموصوف هنا، فنقول: الظاهر أن تكون صفة للتي تجري، ونقل عن الميداني أن الجارية السفينة التي تجري لما أنها موضوعة للجري، وسميت المملوكة جارية لأن الحرة تراد للسكن والازدواج، والمملوكة لِتَجْرِي في الحوائج، لكنها غَلَبَتْ على السفينة، لأنها في أكثر أحوالها تجري، ودل العقل على ما ذكرنا من أن السفينة هي التي تجري غير أنها غلبت بسبب الاشتقاق على السفينة الجارية، ثم صار يطلق عليها ذلك وإن لم تجر، حتى يقال: للسفينة الساكنة أو المشدودة على ساحل البحر جارية، لما أنها تجري، وللمملوكة الجالسة جارية للغلبة، ترك الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه فقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي السفن الجاريات، على أن السفينة أيضًا فعيلة من السفن وهو النحت، وهي فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد أي تسفن الماء، أو فعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى منحوتة فالجارية والسفينة جاريتان على الفلك وفيه لطيفة لفظية: وهي أن الله تعالى لما أمر نوحًا عليه السلام باتخاذ السفينة، قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ففي أول الأمر قال لها: الفلك لأنها بعد لم تكن جرت، ثم سماها بعدما عملها سفينة كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] وسماها جارية كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] وقد عرفنا أمر الفلك وجريها وصارت كالمسماة بها، فالفلك قبل الكل، ثم السفينة ثم الجارية.

ما معنى المنشآت؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: المرفوعات من نشأت السحابة إذا ارتفعت، وأنشأه الله إذا رفعه وحينئذ إما هي بأنفسها مرتفعة في البحر، وإما مرفوعات الشراع، وثانيهما: المحدثات الموجودات من أنشأ الله المخلوق أي خلقه، فإن قيل: الوجه الثاني بعيد لأن قوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ متعلق بالمنشآت فكأنه قال: وله الجواري التي خلقت في البحر كالأعلام، وهذا غير مناسب، وأما على الأول فيكون كأنه قال: الجواري التي رفعت في البحر كالأعلام، وذلك جيد، والدليل على صحة ما ذكرنا أنك تقول: الرجل الجريء في الحرب كالأسد فيكون حسنًا، ولو قلت: الرجل العالم بدل الجريء في الحرب كالأسد لا يكون كذلك، نقول: إذا تأملت فيما ذكرنا من كون الجارية صفة أقيمت مقام الموصوف، كان الإنشاء بمعنى الخلق لا ينافي قوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ لأن التقدير حينئذ له

السفن الجارية في البحر كالأعلام، فيكون أكثر بيانًا للقدرة كأنه قال: له السفن التي تجري في البحر كالأعلام، أي كأنها الجبال والجبال لا تجري إلا بقدرة الله تعالى، فالأعلام جمع العَلَم الذي هو الجبل وأما الشراع المرفوع كالعَلَم الذي هو معروف، فلا عجب فيه، وليس العجب فيه كالعجب في جري الجبل في الماء وتكون المنشآت معروفة، كما أنك تقول: الرجل الحسن الجالس كالقمر فيكون متعلق قولك كالقمر الحسن لا الجالس فيكون منشأ للقدرة، إذ السفن كالجبال والجبال لا تجري إلا بقدرة الله تعالى.

المسألة الرابعة: قرئ (المُنْشِآتُ) بكسر الشين، ويحتمل حينئذ أن يكون قوله: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، يقوم مقام الجملة، والجواري معرفة ولا توصف المعارف بالجمل، فلا نقول: الرجل كالأسد جاءني ولا الرجل هو أسد جاءني، وتقول: رجل كالأسد جاءني، ورجل هو أسد جاءني، فلا تحمل قراءة الفتح إلا على أن يكون حالاً وهو على وجهين أحدهما: أن تجعل الكاف اسمًا فيكون كأنه قال: الجواري المنشآت شبه الأعلام، ثانيهما: يقدر حالاً هذا شبهه كأنه يقول: كالأعلام ويدل عليه قوله: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

المسألة الخامسة: في جمع الجواري وتوحيد البحر وجمع الأعلام فائدة عظيمة، وهي أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر، ولو قال: في البحار لكانت كل جارية في بحر، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال، وأما إذا كان البحر واحدًا وفيه الجواري التي هي كالجبال يكون ذلك بحرًا عظيمًا وساحله بعيدًا فيكون الإنجاء بقدرة كاملة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾

وفيه وجهان أحدهما: وهو الصحيح أن الضمير عائد إلى الأرض، وهي معلومة وإن لم تكن مذكورة قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [فاطر: ٤٥] الآية وعلى هذا فله ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ [الرحمن: ٢٤] إشارة إلى أن كل أحد يعرف ويجزم بأنه إذا كان في البحر فروحه وجسمه وماله في قبضة الله تعالى فإذا خرج إلى البر ونظر إلى الثبات الذي للأرض والتمكن الذي له فيها ينسى أمره فذكره وقال: لا فرق بين الحالتين بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وكل من على وجه الأرض فإنه كمن على وجه الماء، ولو أمعن العاقل النظر لكان رسوب الأرض الثقيلة في الماء الذي هي عليه أقرب إلى العقل من رسوب الفلك الخفيفة فيه، الثاني: أن الضمير عائد إلى الجارية إلا أنه بضرورة ما قبلها كأنه تعالى قال: الجواري ولا شك في أن كل من فيها إلى الفناء أقرب، فكيف يمكنه إنكار كونه في ملك الله تعالى وهو لا يملك لنفسه في تلك الحالة نفعًا ولا ضرًا، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] يدل على أن الصحيح الأول **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: (مَنْ) للعقلاء وكل ما على وجه الأرض مع الأرض فان، فما فائدة الاختصاص بالعقلاء؟ نقول: المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر.

المسألة الثانية: الفاني هو الذي فنى وكل من عليها سيفنى فهو باق بعد ليس بفان، نقول كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] وكما يقال للقريب إنه واصل، وجواب آخر: وهو أن وجود الإنسان عَرَضٌ وهو غير باق وما ليس بباق فهو فان، فأمر الدنيا بين شيئين حدوث وعدم، أما البقاء فلا بقاء له لأن البقاء استمرار، ولا يقال: هذا تثبيت بالمذهب الباطل الذي هو القول بأن الجسم لا يبقى زمانين كما قيل في العرض، لأنا نقول قوله ﴿مَنْ﴾ بدل قوله (مَا) ينفي ذلك التوهم لأني قلت: من عليها فان لا بقاء له، وما قلت: ما عليها فان، و(من) مع كونه على الأرض يتناول جسمًا قام به أعراض بعضها الحياة والأعراض غير باقية، فالمجموع لم يبق كما كان وإنما الباقي أحد جزأيه وهو الجسم وليس يطلق عليه بطريق الحقيقة لفظة (مَنْ)، فالفاني ليس ما عليها وما عليها ليس بباق.

المسألة الثالثة: ما الفائدة في بيان أنه تعالى قال: ﴿فَانٍ﴾؟ نقول: فيه فوائد منها: الحث على العبادة وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة، ومنها: المنع من الوثوق بما يكون للمرء فلا يقول إذا كان في نعمة: إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله معتمدًا على ماله وملكه، ومنها: الأمر بالصبر إن كان في ضر فلا يكفر بالله معتمدًا على أن الأمر ذاهب والضر زائل، ومنها: ترك اتخاذ الغير معبودًا والزجر على الاغترار بالقرب من الملوك وترك التقرب إلى الله تعالى فإن أمرهم إلى الزوال قريب فيبقى القريب منهم عَنْ قَرِيب في ندم عظيم لأنه إن مات قبلهم يلقى الله كالعبد الآبق، وإن مات الملك قبله فيبقى بين الخلق وكل أحد ينتقم منه ويتشفى فيه، ويستحي ممن كان يتكبر عليه وإن ماتا جميعًا فلقاء الله عليه بعد التوفي في غاية الصعوبة، ومنها: حسن التوحيد وترك الشرك الظاهر والخفي جميعًا لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] يدل على أن لا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتها ورجله التي قال بها، لا يقال: فعلى قولكم أيضًا يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله، لأن الوجه جعلتموه ذاتًا، والذات غير الصفات فإذا قلت: كل شيء هالك إلا حقيقة الله خرجت الصفات عنها فيكون قولكم نفيًا للصفات، نقول: الجواب عنه بالعقل والنقل، أما النقل فذلك أمر يذكر في غير هذا الموضع، وأما العقل فهو أن قول القائل: لم يبق لفلان إلا ثوب يتناول الثوب وما قام به من اللون والطول والعرض، وإذا قال: لم يبق إلا كمه لا يدل على بقاء جيبه وذيله،

فكذلك قولنا: يبقى ذات الله تعالى يتناول صفاته وإذا قلتم: لا يبقى غير وجهه بمعنى العضو يلزمه أن لا تبقى يده.

المسألة الثانية: فما السبب في حسن إطلاق لفظ الوجه على الذات؟ نقول: إنه مأخوذ من عرف الناس، فإن الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الإنسان، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول: رأيته، وإذا رأى غير الوجه من اليد والرجل مثلاً لا يقول: رأيته، وذلك لأن اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء في أكثر الأمر يحصل بالحس، فإن الإنسان إذا رأى شيئًا علم منه مالم يكن يعلم حال غيبته، لأن الحس لا يتعلق بجميع المرئي وإنما يتعلق ببعضه، ثم إن الحس يدرك والحدس يحكم فإذا رأى شيئًا بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه، لكن الإنسان اجتمع في وجهه أعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤيته وجهه، فكان أدل على حقيقة الإنسان وأحكامه من غيره، فاستعمل الوجه في الحقيقة في الإنسان ثم نقل إلى غيره من الأجسام، ثم نقل إلى ما ليس بجسم، يقال في الكلام هذا وجه حسن وهذا وجه ضعيف، وقول من قال: إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية فليس بشيء إذ الأمر على العكس، لأن الفعل من المصدر والمصدر من الاسم الأصلي وإن كان بالنقل، فالوجه أول ما وضع للعضو ثم استعمل واشتق منه غيره، ويعرف ذلك العارف بالتصريف البارع في الأدب.

المسألة الثالثة: لو قال: ويبقى ربك أو الله أو غيره فحصلت الفائدة من غير وقوع في توهم ما هو ابتداع، نقول: ما كان يقوم مقام الوجه لفظ آخر ولا وجه فيه إلا ما قاله الله تعالى، وذلك لأن سائر الأسماء المعروفة لله تعالى أسماء الفاعل كالرب والخالق والله عند البعض بمعنى المعبود، فلو قال: ويبقى ربك ربك، وقولنا: ربك معنيان عند الاستعمال أحدهما أن يقال: شيء من كل ربك، ثانيهما أن يقال: يبقى ربك مع أنه حالة البقاء ربك فيكون المربوب في ذلك الوقت، وكذلك لو قال: يبقى الخالق والرازق وغيرهما.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في لفظ الرب وإضافة الوجه إليه، وقال في موضع آخر: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: ٣٨] نقول: المراد في الموضعين المذكورين هو العبادة. أما قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ فظاهر لأن المذكور هناك الصلاة، وأما قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ﴾ فالمذكور هو الزكاة قال تعالى من قبل: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [الروم: ٣٨] ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: ٣٨] ولفظ الله يدل على العبادة، لأن الله هو المعبود، والمذكور في هذا الموضع النعم التي بها تربية الإنسان فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

المسألة الخامسة: الخطاب بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع من؟ نقول: الظاهر أنه مع كل أحد كأنه يقول: ويبقى وجه ربك أيها السامع، ويحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ، فإن قيل: فكيف قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطابًا مع الاثنين، وقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خطابًا مع الواحد؟ نقول: عند

قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقعت الإشارة إلى فناء كل أحد، وبقاء الله فقال: وجه ربك أي يا أيها السامع فلا تلتفت إلى أحد غير الله تعالى، فإن كل من عداه فان، والمخاطب كثيرًا ما يخرج عن الإرادة في الكلام، فإنك إذا قلت: لمن يشكو إليك من أهل موضع سأعاقب لأجلك كل من في ذلك الموضع يخرج المخاطب عن الوعيد، وإن كان من أهل الموضع فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ليعلم كل أحد أن غيره فان، ولو قال: وجه ربكما لكان كل واحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب من الفناء، فإن قلت: لو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل؟ نقول: كأن الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف والإبقاء إشارة إلى القهر، والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم، فلو قال: بلفظ الرب لم يدل عليه الخطاب، وفي لفظ الرب عادة جارية وهي أنه لا يترك استعماله مع الإضافة. فالعبد يقول: ربنا اغفر لنا، ورب اغفر لي، والله تعالى يقول: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾[الدخان: ٨] و﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] وحيث ترك الإضافة ذكره مع صفة أخرى من أوصاف اللفظ، حيث قال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبا: ١٥] وقال تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨] ولفظ الرب يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى التربية، يقال: رَبَّه يَربُّه ربًّا مثل رباه يربيه، ويحتمل أن يكون وصفًا من الرب الذي هو مصدر بمعنى الراب كالطب للطبيب، والسمع للحاسة، والبخل للبخيل، وأمثال ذلك لكن من باب فَعَل، وعلى هذا فيكون كأنه فعل من باب فعل يفعل أي فعل الذي للغريزي كما يقال فيما إذا قلنا: فلان أعلم وأحكم، فكان وصفًا له من باب فعل اللازم ليخرج عن التعدي.

المسألة السادسة: ﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾ إشارة إلى كل صفة من باب النفي، كقولنا: الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولهذا يقال: جَلَّ أن يكون محتاجًا، وجَلَّ أن يكون عاجزًا، والتحقيق فيه أن الجلال هو بمعنى العظمة غير أن العظمة أصلها في القوة، والجلال في الفعل، فهو عظيم لا يسعه عقل ضعيف فجل أن يسعه كل فرض معقول: ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إشارة إلى كل صفة هي من باب الإثبات، كقولنا: حي قادر عالم، وأما السميع والبصير فإنهما من باب الإثبات كذلك عند أهل السنة، وعند المعتزلة من باب النفي، وصفات باب النفي قبل صفات باب الإثبات عندنا، لأنا أولاً نجد الدليل وهو العالم فنقول: العالم محتاج إلى شيء وذلك الشيء ليس مثل العالم فليس بمحدث ولا محتاج، ولا ممكن، ثم نثبت له القدرة والعلم وغيرهما، ومن هنا قال تعالى لعباده: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الصافات: ٣٥] وقال ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»**[(١)] ونفي الإلهية عن غير الله، نفي صفات غير الله عن الله، فإنك إذا قلت: الجسم ليس بإله لزم منه قولك: الله ليس بجسم و(الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وصفان مرتبان على أمرين

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام) باب (قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم) (١٣/ ٢٦٤) حديث رقم (٧٢٨٤) ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) (١/ ٣٢/ ٥١/ ٥٢) جميعًا من طريق الليث . . . به.

سابقين، فالجلال مرتب على فناء الغير والإكرام على بقائه تعالى، فيبقى الفرد وقد عز أن يحد أمره بفناء من عداه وما عداه، ويبقى وهو مكرم قادر عالم فيوجد بعد فنائهم من يريد، وقرئ: (ذُو الْجَلالِ)، و(ذِي الْجَلالِ). وسنذكر ما يتعلق به في تفسير آخر السورة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

وفيه وجهان أحدهما: أنه حال تقديره: يبقى وجه ربك مسئولاً وهذا منقول معقول، وفيه إشكال وهو أنه يفضي إلى التناقض؛ لأنه لما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] كان إشارة إلى بقائه بعد فناء من على الأرض، فكيف يكون في ذلك الوقت مسئولاً لمن في الأرض؟ فأما إذا قلنا: الضمير عائد إلى الأمورِ الجارية في يَوْمِنَا فلا إشكال في هذا الوجه، وأما على الصحيح فنقول عنه أجوبة أحدها: لما بينا أنه فان نظرًا إليه ولا يبقى إلا بإبقاء الله، فيصح أن يكون الله مسئولاً، ثانيها: أن يكون مسئولاً معنى لا حقيقة، لأن الكل إذا فنوا ولم يكن وجود إلا بالله، فكأن القوم فرضوا سائلين بلسان الحال، ثالثها: أن قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ للاستمرار فيبقى ويعيد من كان في الأرض ويكون مسئولاً، والثاني: أنه ابتداء كلام وهو أظهر **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ماذا يسأله السائلون؟ فنقول: يحتمل وجوهًا أحدها: أنه سؤال استعطاء فيسأله كل أحد الرحمة وما يحتاج إليه في دينه ودنياه، ثانيها: أنه سؤال استعلام أي عنده علم الغيب لا يعلمه إلا هو، فكل أحد يسأله عن عاقبة أمره وعما فيه صلاحه وفساده. فإن قيل: ليس كل أحد يعترف بجهله وعلم الله نقول: هذا كلام في حقيقة الأمر من جاهل، فإن كان من جاهل معاند فهو في الوجه الأول أيضًا وارد، فإن من المعاندين من لا يعترف بقدرة الله فلا يسأله شيئًا بلسانه وإن كان يسأله بلسان حاله لإمكانه، والوجه الأول إشارة إلى كمال القدرة أي كل أحد عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه. والوجه الثاني إشارة إلى كمال العلم أي كل أحد جاهل بما عند الله من المعلومات، ثالثها: أن ذلك سؤال استخراج أمر. وقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي من الملائكة يسألونه كل يوم ويقولون: إلهنا ماذا نفعل وبماذا تأمرنا، وهذا يصلح جوابًا آخر عن الإشكال على قول من قال: ﴿يَسْئَلُهُۥ﴾ حال لأنه يقول: قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ومن عليها تكون الأرض مكانه ومعتمده ولولاها لا يعيش وأما من فيها من الملائكة الأرضية فهم فيها وليسوا عليها ولا تضرهم زلزلتها، فعندما يفنى من عليها ويبقى الله تعالى لا يفنى هؤلاء في تلك الحال فيسألونه ويقولون: ماذا نفعل فيأمرهم بما يأمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم يقول لهم: عندما يشاء موتوا فيموتوا هذا على قول من قال: ﴿يَسْئَلُهُۥ﴾ حال وعلى الوجه الآخر لا إشكال.

المسألة الثانية: هو عائد إلى من؟ نقول: الظاهر المشهور أنه عائد إلى الله تعالى وعليه

اتفاق المفسرين، ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن ذلك الشأن فقال: «يَغْفِرُ ذَنْبًا وَيُفَرِّجُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ وَيَضَعُ مَنْ يَشَاءُ» (١) ويحتمل أن يقال: هو عائد إلى يوم و﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرف سؤالهم أي يقع سؤالهم في كل يوم و﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يكون جملة وصف بها ﴿يَوْمٍ﴾ وهو نكرة كما يقال: يسألني فلان كل يوم هو يوم راحتي أي يسألني أيام الراحة، وقوله: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يكون صفة مميزة للأيام التي فيها شأن عن اليوم الذي قال تعالى فيه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فإنه تعالى في ذلك اليوم يكون هو السائل وهو المجيب، ولا يسأل في ذلك اليوم لأنه ليس يومًا هو في شأن يتعلق بالسائلين من الناس والملائكة وغيرهم، وإنما يسألونه في يوم هو في شأن يتعلق بهم فيطلبون ما يحتاجون إليه أو يستخرجون أمره بما يفعلون فيه، فإن قيل: فهذا ينافي ما ورد في الخبر، نقول: لا منافاة لقوله عليه السلام في جواب من قال: ما هذا الشأن؟ فقال: «يَغْفِرُ ذَنْبًا وَيُفَرِّجُ كَرْبًا» أي فالله تعالى جعل بعض الأيام موسومة بوسم يتعلق بالخلق من مغفرة الذنوب والتفريج عن المكروب فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في تلك الأيام التي في ذلك الشأن وجعل بعضها موسومة بأن لا داعي فيها ولا سائل، وكيف لا نقول بهذا، ولو تركنا كل يوم على عمومه لكان كل يوم فيه فعل وأمر وشأن فيفضي ذلك إلى القول بالقدم والدوام، اللهم إلا أن يقال: عام دخله التخصيص كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] و﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

المسألة الثالثة: فعلى المشهور يكون الله تعالى في كل يوم ووقت في شأن، وقد جف القلم بما هو كائن، نقول: فيه أجوبة منقولة في غاية الحسن فلا نبخل بها وأجوبة معقولة نذكرها بعدها: أما المنقولة فقال بعضهم: المراد سوق المقادير إلى المواقيت، ومعناه أن القلم جف بما يكون في كل يَوْمٍ وَوقت، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيه فيوجد، وهذا وجه حسن لفظًا ومعنى، وقال بعضهم: شؤون يبديها لا شؤون يبتديها، وهو مثل الأول معنى، أي لا يتغير حكمه بأنه سيكون ولكن يأتي وقت قَدَّر الله فيه فعله فيبدو فيه ما قدره الله، وهذان القولان ينسبان إلى الحسن بن الفضل أجاب بهما عبد الله بن طاهر وقال بعضهم: يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويشفي سقيمًا ويمرض سليمًا، ويعز ذليلاً ويذل عزيزًا، إلى غير ذلك وهو مأخوذ من قوله عليه السلام: «يَغْفِرُ ذَنْبًا وَيُفَرِّجُ كَرْبًا» وهو أحسن وأبلغ حيث بيَّن أمرين أحدهما يتعلق بالآخرة والآخر بالدنيا، وقدم الأخروي على الدنيوي وأما المعقولة: فهي أن نقول هذا بالنسبة إلى الخلق، ومن يسأله من

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٧٣) حديث رقم (٢٠٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٥) حديث رقم (١١٠١)، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٦٤) حديث رقم (٦٨٩). والطبراني في (الشاميين) (٢/ ٢٥٥) حديث رقم (٢٢٠٢)، والبزار في (مسنده) (١٠/ ٩) حديث رقم (٤١٠٠) وابن أبي عاصم في (السنة) (١/ ٢٩٢) حديث رقم (٢٣٥) جميعًا من طريق يونس بن حليس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء . . . به.

أهل السموات والأرض لأنه تعالى حكم بما أراد وقضى وأبرم فيه حكمه وأمضى، غير أن ما حكمه يظهر كل يوم، فنقول: أبرم الله اليوم رزق فلان ولم يرزقه أمس، ولا يمكن أن يحيط علم خلقه بما أحاط به علمه، فتسأله الملائكة كل يوم إنك يا إلهنا في هذا اليوم في أي شأن في نظرنا وعلمنا، الثاني: هو أن الفعل يتحقق بأمرين من جانب الفاعل بأمر خاص، ومن جانب المفعول في بعض الأمور، ولا يمكن غيره وعلى وجه يختاره الفاعل من وجوه متعددة (مثال الأول): تحريك الساكن لا يمكن إلا بإزالة السكون عنه والإتيان بالحركة عقيبه من غير فصل و(مثال الثاني): تسكين الساكن فإنه يمكن مع إبقاء السكون فيه ومع إزالته عقيبه من غير فصل أو مع فصل، إذ يمكن أن يزيل عنه السكون ولا يحركه مع بقاء الجسم، إذا عرفت هذا فالله تعالى خلق الأجسام الكثيرة في زمان واحد وخلق فيها صفات مختلفة في غير ذلك الزمان، فإيجادها فيه لا في زمان آخر بعد ذلك الزمان فمن خلقه فقيرًا في زمان لم يمكن خلقه غنيًّا في عين ذلك الزمان مع خلقه فقيرًا فيه وهذا ظاهر، والذي يظن أن ذلك يلزم منه العجز أو يتوهم فليس كذلك بل العجز في خلاف ذلك لأنه لو خلقه فقيرًا في زمان يريد كونه غنيًّا لما وقع الغنى فيه مع أنه أراده، فيلزم العجز من خلاف ما قلنا: لا فيما قلنا، فإذن كل زمان هو غير الزمان الآخر فهو معنى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهو المراد من قول المفسرين: أغنى فقيرًا وأفقر غنيًّا، وأعز ذليلاً وأذل عزيزًا، إلى غير ذلك من الأضداد. ثم اعلم أن الضدين ليسا منحصرين في مختلفين بل المثلان في حكمهما فإنهما لا يجتمعان، فمن وجد فيه حركة إلى مكان في زمان لا يمكن أن توجد فيه في ذلك الزمان حركة أخرى أيضًا إلى ذلك المكان، وليس شأن الله مقتصرًا على إفقار غني أو إغناء فقير في يومنا دون إفقاره أو إغنائه أمس، ولا يمكن أن يجمع في زيد إغناء هو أمسي مع إغناء هو يومي، فالغنى المستمر للغني في نظرنا في الأمر متبدل الحال، فهو أيضًا من شأن الله تعالى، واعلم أن الله تعالى يوصف بكونه: لا يشغله شأن عن شأن، ومعناه أن الشأن الواحد لا يصير مانعًا له تعالى عن شأن آخر كما أنه يكون مانعًا لنا، (مثاله): واحد منا إذا أراد تسويد جسم بصبغة يسخنه بالنار أو تبييض جسم يبرده بالماء والماء والنار متضادان إذا طلب منه أحدهما وشرع فيه يصير ذلك مانعًا له من فعل الآخر، وليس ذلك الفعل مانعًا من الفعل لأن تسويد جسم وتبييض آخر لا تنافي بينهما، وكذلك تسخينه وتسويده بصبغة لا تنافي فيه، فالفعل صار مانعًا للفاعل من فعله ولم يصر مانعًا من الفعل، وفي حق الله مالا يمنع الفعل لا يمنع الفاعل، فيوجد تعالى من الأفعال المختلفة مالا يحصر ولا يحصى في آن واحد، أما ما يمنع من الفعل كالذي يسود جسمًا في آن لم يمكنه أن يبيضه في ذلك الآن، فهو قد يمنع الفاعل أيضًا وقد لا يمنع ولكن لا بد من منعه للفاعل، فالتسويد لا يمكن معه التبييض، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن أصلاً لكن أسبابه تمنع أسبابًا آخر لا تمنع الفاعل. إذا علمت هذا البحث فقد أفادك.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾

ولنذكر أولاً ما قيل فيه تبركًا بأقوال المشايخ ثم نحققه بالبيان الشافي فنقول: اختلف المفسرون فيه وأكثرهم على أن المراد سنقصدكم بالفعل، وقال بعضهم: خرج ذلك مخرج التهديد على ما هي عادة استعمال الناس فإن السيد يقول لعبده عند الغضب: سأفرغ لك، وقد يكون السيد فارغًا جالسًا لا يمنعه شغل، وأما التحقيق فيه، فنقول: عدم الفراغ عبارة عن أن يكون الفاعل في فعل لا يمكنه معه إيجاد فعل آخر فإن من يخيط يقول: ما أنا بفارغ للكتابة، لكن عدم الفراغ قد يكون لكون أحد الفعلين مانعًا للفاعل من الفعل الآخر، يقال: هو مشغول بكذا عن كذا كما في قول القائل: أنا مشغول بالخياطة عن الكتابة، وقد يكون عدم الفراغ لكون الفعل مانعًا من الفعل لا لكونه مانعًا من الفاعل كالذي يحرك جسمًا في زمان لا يمكن تسكينه في ذلك الزمان فهو ليس بفارغ للتسكين، ولكن لا يقال في مثل هذا الوقت أنا مشغول بالتحريك عن التسكين، فإن في مثل هذا الموضع لو كان غير مشغول به بل كان في نفس المحل حركة لا بفعل ذلك الفاعل لا يمكنه التسكين فليس امتناعه منه إلا لاستحالته بالتحريك، وفي الصورة الأولى لولا اشتغاله بالخياطة لتمكن من الكتابة، إذا عرفت هذا صار عدم الفراغ قسمين أحدهما: بشغل والآخر ليس بشغل، فنقول: إذا كان الله تعالى باختياره أوجد الإنسان وأبقاه مدة أرادها بمحض القدرة والإرادة لا يمكن مع هذا إعدامه، فهو في فعل لا يمنع الفاعل لكن يمنع الفعل ومثل هذا بينا أنه ليس بفراغ، وإن كان له شغل، فإذا أوجد ما أراد أولاً ثم بعد ذلك أمكن الإعدام والزيادة في آنه فيتحقق الفراغ لكن لما كان للإنسان مشاهدة مقتصرة على أفعال نفسه وأفعال أبناء جنسه وعدم الفراغ منهم بسبب الشغل يظن أن الله تعالى فارغ فحمل الخلق عليه أنه ليس بفارغ، فيلزم منه الفعل وهو لا يشغله شأن عن شأن يلزمه حمل اللفظ على غير معناه، واعلم أن هذا ليس قولاً آخر غير قول المشايخ، بل هو بيان لقولهم: سنقصدكم، غير أن هذا مبين، والحمد لله على أن هدانا للبيان من غير خروج عن قول أرباب اللسان. واعلم أن أصل الفراغ بمعنى الخلو، لكن ذلك إن كان في المكان فيتسع ليتمكن آخر، وإن كان في الزمان فيتسع للفعل، فالأصل أن زمان الفاعل فارغ عن فعله وغير فارغ لكن المكان مرئي بالخلو فيه، فيطلق الفراغ على خلو المكان في الظرف الفلاني والزمان غير مرئي، فلا يرى خلوه. ويقال: فلان في زمان كذا فارغ لأن فلانًا هو المرئي لا الزمان والأصل أن هذا الزمان من أزمنة فلان فيمكنه وصفه للفعل فيه، وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ استعمال على ملاحظة الأصل، لأن المكان إذا خلا يقال: لكذا، ولا يقال: إلى كذا فكذلك الزمان لكن لما نقل إلى الفاعل، وقيل: الفاعل على فراغ وهو عند الفراغ يقصد إلى شيء آخر قيل في الفاعل: فرغ من كذا إلى كذا،

وفي الظرف يقال: فرغ من كذا لكذا فقال لكم على ملاحظة الأصل، وهو يقوي ما ذكرنا أن المانع ليس بالنسبة إلى الفاعل بل بالنسبة إلى الفعل. وأما أيها فنقول: الحكمة في نداء المبهم والإتيان بالوصف بعده هي أن المنادي يريد صون كلامه عن الضياع، فيقول أولاً: يا أي نداء لمبهم ليقبل عليه كل من يسمع ويتنبه لكلامه من يقصده، ثم عند إقبال السامعين يخصص المقصود فيقول: الرجل والتزم فيه أمران أحدهما: الوصف بالمعرف باللام أو باسم الإشارة، فتقول: يا أيها الرجل أو يا أيهذا لا الأعرف منه وهو العلم، لأن بين المبهم الواقع على كل جنس والعلم المميز عن كل شخص تباعدًا، وثانيهما: توسط (ها) التنبيه بينه وبين الوصف لأن الأصل في (أي) الإضافة لما أنه في غاية الإبهام فيحتاج إلى التمييز، وأصل التمييز على ما بينا الإضافة، فوسط بينهما لتعويضه عن الإضافة، والتزم أيضًا حذف لام التعريف عند زوال أي فلا تقول: يا الرجل لأن في ذلك تطويلاً من غير فائدة، فإنك لا تفيد باللام التنبيه الذي ذكرنا، فقولك: يا رجل مفيد فلا حاجة إلى اللام فهو يوجب إسقاط اللام عند الإضافة المعنوية، فإنها لما أفادت التعريف كان إثبات اللام تطويلاً من غير فائدة لكونه جمعًا بين المعرفين، وقوله تعالى: ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ المشهور أن المراد الجن والإنس، وفيه وجوه أحدها: أنهما سميا بذلك لكونهما مثقلين بالذنوب، ثانيهما: سميا بذلك لكونهما ثقيلين على وجه الأرض فإن التراب وإن لطف في الخلق ليتم خلق آدم لكنه لم يخرج عن كونه ثقيلاً، وأما النار فلما وُلِدَ فيها خَلْقُ الجن كثفت يسيرًا، فكما أن التراب لطف يسيرًا فكذلك النار صارت ثقيلة، فهما ثقلان فسميا بذلك ثالثها: الثقيل أحدهما لا غير وسمي الآخر به للمجاورة والاصطحاب كما يقال: العمران والقمران وأحدهما عمر وقمر، أو يحتمل أن يكون المراد العموم بالنوعين الحاصرين، تقول: يا أيها الثقل الذي هو كذا، والثقل الذي ليس كذا، والثقل: الأمر العظيم. قال عليه السلام: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٦٦٣) حديث رقم (٣٧٨٨) من طريق محمد بن فضيل قال حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ... الحديث قال هذا حديث حسن غريب وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٤) حديث رقم (١١١١٩) من طريق أبي إسحاق الملائي عن عطية... به وأيضًا في (٣/ ١٧) حديث رقم (١١١٤٧) من طريق الأعمش عن عطية... به وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٣٧٦) حديث رقم (١١٤٠) من طريق عبد الملك بن سليمان عن عطية العوفي... به وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٦٤٣) حديث رقم (١٥٥٣) من طريق عبد الملك عن عطية... به والحديث في إسناده عطية العوفي ضعيف ولكن له شاهد صحيح كما مر عند الترمذي من طريق حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم... به. والآجري في (الشريعة) (٣٨٩) حديث رقم (١٦٥٥) من طريق الأعمش عن عطية بن سعد عن أبي سعيد الخدري... به ورواه الطحاوي في (مشكل الآثار) (٨/ ٢) حديث رقم (٢٩٤٧) وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٧١) حديث رقم (١٩٥٢٨) كلاهما من طريق عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة الأسدي قال لقيت زيد بن الأرقم... فذكره. والألباني في (الصحيحة) (١٧٥٠) وقال: صحيح.

قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في وجه الترتيب وحسنه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وبينا أنه لم يكن له شغل فكأن قائلاً قال: فلم كان التأخير إذا لم يكن شغل هناك مانع؟ فقال: المستعجل يستعجل. إما لخوف فوات الأمر بالتأخير وإما لحاجة في الحال، وإما لمجرد الاختيار والإرادة على وجه التأخير، وبيَّن عدم الحاجة من قبل بقوله: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] لأن ما يبقى بعد فناء الكل لا يحتاج إلى شيء، فبيَّن عدم الخوف من الفوات، وقال: لا يفوتون ولا يقدرون على الخروج من السموات والأرض، ولو أمكن خروجهم عنهما لما خرجوا عن ملك الله تعالى فهو آخذهم أين كانوا وكيف كانوا.

المسألة الثانية: المعشر: الجماعة العظيمة، وتحقيقه هو أن المعشر العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد ويقول: أحد عشر واثنا عشر وعشرون وثلاثون، أي ثلاث عشرات فالمعشر كأنه محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

المسألة الثالثة: هذا الخطاب في الدنيا أو في الآخرة؟ نقول: الظاهر فيه أنه في الآخرة، فإن الجن والإنس يريدون الفرار من العذاب فيجدون سبعة صفوف من الملائكة محيطين بأقطار السموات والأرض، والأولى ما ذكرنا أنه عام بمعنى لا مهرب ولا مخرج لكم عن ملك الله تعالى، وأينما توليتم فثم ملك الله، وأينما تكونوا أتاكم حكم الله.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس هاهنا وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] نقول: النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن، فقدم في كل موضع من يظن به القدرة على ذلك.

المسألة الخامسة: ما معنى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؟ نقول: ذلك يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون بيانًا بخلاف ما تقدم أي ما تنفذون ولا تنفذون إلا بقوة وليس لكم قوة على ذلك. ثانيها: أن يكون على تقدير وقوع الأمر الأول، وبيان أن ذلك لا ينفعكم، وتقديره ما تنفذون وإن نفذتم ما تنفذون إلا ومعكم سلطان الله، كما يقول: خرج القوم بأهلهم أي معهم، ثالثها: أن المراد من النفوذ ما هو المقصود منه؟ وذلك لأن نفوذهم إشارة إلى طلب خلاصهم فقال: لا تنفذون من أقطار السموات ولا تتخلصون من العذاب ولا تجدون ما تطلبون من النفوذ وهو الخلاص من العذاب إلا بسلطان من الله يجيركم وإلا فلا مجير لكم، كما تقول: لا ينفعك البكاء إلا إذا صدقت وتريد به أن الصدق وحده ينفعك، لا أنك إن صدقت فينفعك البكاء

رابعها: أن هذا إشارة إلى تقرير التوحيد، ووجهه هو كأنه تعالى قال: يا أيها الغافل لا يمكنك أن تخرج بذهنك عن أقطار السموات والأرض فإذًا أنت أبدًا تشاهد دليلاً من دلائل الوحدانية، ثم هب أنك تنفذ من أقطار السموات والأرض، فاعلم أنك لا تنفذ إلا بسلطان تجده خارج السموات والأرض قاطع دال على وحدانيته تعالى والسلطان: هو القوة الكاملة.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: إن قلنا: يا معشر الجن والإنس نداء ينادى به يوم القيامة، فكأنه تعالى قال: يوم يرسل عليكما شواظ من نار فلا يبقى لكما انتصار إن استطعتما النفوذ فانفذا، وإن قلنا: إن النداء في الدنيا، فنقول قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إشارة إلى أنه لا مهرب لكم من الله فيمكنكم الفرار قبل الوقوع في العذاب ولا ناصر لكم فيخلصكم من النار بعد وقوعكم فيها وإرسالها عليكم، فكأنه قال: إن استطعتم الفرار لئلا تقعوا في العذاب ففروا ثم إذا تبين لكم أن لا فرار لكم ولا بد من الوقوع فيه فإذا وقعتم فيه وأرسل عليكم فاعلموا أنكم لا تنصرون فلا خلاص لكم إذن، لأن الخلاص إما بالدفع قبل الوقوع وإما بالرفع بعده، ولا سبيل إليهما.

المسألة الثانية: كيف ثنى الضمير في قوله: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ مع أنه جمع قبله بقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن: ٣٣] والخطاب مع الطائفتين وقال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ وقال من قبل: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] نقول: فيه لطيفة، وهي أن قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى، فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا، ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان، وأما قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار، فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد من الأقطار أصلاً، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال: لا فرار لكم قبل الوقوع، ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار عام وعدم الخلاص ليس بعام، والجواب الثاني: من حيث اللفظ، هو أن الخطاب مع المعشر فقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أيها المعشر وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ ليس خطابًا مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكورًا بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول وعند عدم التصريح بالنداء فالتثنية أولى كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ وهذا يتأيد بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وحيث صرح بالنداء

جمع الضمير، وقال بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ حيث لم يصرح بالنداء.

المسألة الثالثة: ما الشواظ وما النحاس؟ نقول: الشواظ: لهب النار وهو لسانه، وقيل ذلك لا يقال إلا للمختلط بالدخان الذي من الحطب، والظاهر أن هذا مأخوذ من قول الحكماء إن النار إذا صارت خالصة لا ترى كالتي تكون في الكير الذي يكون في غاية الاتقاد، وكما في التنور المسجور فإنه يرى فيه نور وهو نار، وأما النحاس ففيه وجهان، أحدهما الدخان، والثاني القطر وهو النحاس المشهور عندنا، ثم إن ذكر الأمرين بعد خطاب النوعين يحتمل أن يكون لاختصاص كل واحد بواحد.

وحينئذ فالنار الخفيف للإنس لأنه يخالف جوهره، والنحاس الثقيل للجن لأنه يخالف جوهره أيضًا. فإن الإنس ثقيل والنار خفيفة، والجن خفاف والنحاس ثقيل، وكذلك إن قلنا: المراد من النحاس الدخان، ويحتمل أن يكون ورودهما على حد واحد منهما وهو الظاهر الأصح.

المسألة الرابعة: من قرأ (ونُحاسٍ) بالجر كيف يعربه ولو زعم أنه عطف على النار يكون شواظ من نحاس والشواظ لا يكون من نحاس؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: تقديره شيء من نحاس كقولهم: تقلدت سيفًا ورمحًا، وثانيهما: وهو الأظهر أن يقول: الشواظ لم يكن إلا عندما يكون في النار أجزاء هوائية وأرضية، وهو الدخان، فالشواظ مركب من نار ومن نحاس وهو الدخان، وعلى هذا فالمرسل شيء واحد لا شيئان غير أنه مركب، فإن قيل: على هذا لا فائدة لتخصيص الشواظ بالإرسال إلا بيان كون تلك النار بعد غير قوية قوة تذهب عنه الدخان، نقول: العذاب بالنار التي لا ترى دون العذاب بالنار التي ترى، لتقدم الخوف على الوقوع فيه وامتداد العذاب والنار الصرفة لا ترى أو ترى كالنور، فلا يكون لها لهيب وهيبة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ نفي لجميع أنواع الانتصار، فلا ينتصر أحدهما بالآخر، ولا هما بغيرهما، وإن كان الكفار يقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] والانتصار التلبس بالنصرة، يقال لمن أخذ الثأر انتصر منه كأنه انتزع النصرة منه لنفسه وتلبس بها، ومن هذا الباب الانتقام والادخار والادهان، والذي يقال فيه: إن الانتصار بمعنى الامتناع: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ بمعنى لا تمتنعان، وهو في الحقيقة راجع إلى ما ذكرنا لأنه يكون متلبسًا بالنصرة فهو ممتنع لذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

إشارة إلى ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن، فكأنه تعالى ذكر أولاً ما يخاف منه الإنسان، ثم ذكر ما يخاف منه كل واحد ممن له إدراك من الجن والإنس والملك حيث تخلوا أماكنهم بالشق ومساكن الجن والإنس بالخراب، ويحتمل أن يقال: إنه تعالى لما قال: ﴿كُلُّ مَنْ

عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] إشارة إلى سكان الأرض، قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ بيانًا لحال سكان السماء، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الفاء في الأصل للتعقيب على وجوه ثلاثة منها: التعقيب الزماني للشيئين اللذين لا يتعلق أحدهما بالآخر عقلاً كقوله قعد زيد: فقام عمرو، لمن سألك عن قعود زيد وقيام عمرو، وإنهما كانا معًا أو متعاقبين، ومنها: التعقيب الذهني للذين يتعلق أحدهما بالآخر كقولك: جاء زيد فقام عمرو إكرامًا له إذ يكون في مثل هذا قيام عمرو مع مجيء زيد زمانًا، ومنها: التعقيب في القول كقولك: لا أخاف الأمير فالملك فالسلطان، كأنك تقول: أقول لا أخاف الأمير، وأقول لا أخاف الملك، وأقول لا أخاف السلطان، إذا عرفت هذا فالفاء هنا تحتمل الأوجه جميعًا، أما الأول: فلأن إرسال الشواظ عليهم يكون قبل انشقاق السموات، ويكون ذلك الإرسال إشارة إلى عذاب القبر، وإلى ما يكون عند سوق المجرمين إلى المحشر، إذ ورد في التفسير أن الشواظ يسوقهم إلى المحشر، فيهربون منها إلى أن يجتمعوا في موضع واحد، وعلى هذا معناه يرسل عليكما شواظ، فإذا انشقت السماء يكون العذاب الأليم، والحساب الشديد على ما سنبين إن شاء الله، وأما الثاني: فوجهه أن يقال: يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فيكون ذلك سببًا لكون السماء تكون حمراء، إشارة إلى أن لهيبها يصل إلى السماء ويجعلها كالحديد المذاب الأحمر، وأما الثالث: فوجهه أن يقال: لما قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] أي في وقت إرسال الشواظ عليكما قال: فإذا انشقت السماء وصارت كالمهل، وهو كالطين الذائب، كيف تنتصران؟ إشارة إلى أن الشواظ المرسل لهب واحد، أو فإذا انشقت السماء وذابت، وصارت الأرض والجو والسماء كلها نارًا فكيف تنتصران؟.

المسألة الثانية: كلمة (إذا) قد تستعمل لمجرد الظرف وقد تستعمل للشرط وقد تستعمل للمفاجأة وإن كانت في أوجهها ظرفًا لكن بينها فرق فالأول: مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢] والثاني: مثل قوله: إذا أكرمتني أكرمك ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وفي الأول لا بد وأن يكون الفعل في الوقت المذكور متصلاً به، وفي الثاني لا يلزم ذلك، فإنك إذا قلت: إذا علمتني تثاب يكون الثواب بعده زمانًا لكن استحقاقه يثبت في ذلك الوقت متصلاً به، والثالث: مثل ما يقول: خرجت فإذا قد أقبل الركب أما لو قال: خرجت إذا أقبل الركب فهو في جواب من يقول متى خرجت إذا عرفت هذا فنقول: على أي وجه استعمل (إذا) هاهنا؟ نقول: يحتمل وجهين أحدهما: الظرفية المجردة على أن الفاء للتعقيب الزماني، فإن قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ بيان لوقت العذاب، كأنه قال: إذا انشقت السماء يكون العذاب أي بعد إرسال الشواظ، وعند انشقاق السماء يكون، وثانيهما: الشرطية وذلك على الوجه الثالث وهو قولنا: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ عند إرسال الشواظ فكيف تنتصران إذا انشقت السماء، كأنه قال: إذا انشقت السماء فلا تتوقعوا الانتصار أصلاً، وأما الحمل على

المفاجأة على أن يقال: يرسل عليكما شواظ فإذا السماء قد انشقت، فبعيد ولا يحمل ذلك إلا على الوجه الثاني من أن الفاء للتعقيب الذهني.

المسألة الثالثة: ما المختار من الأوجه؟ نقول: الشرطية وحينئذ له وجهان: أحدهما: أن يكون الجزاء محذوفًا رأسًا ليفرضَ السامع بعده كل هائل، كما يقول القائل: إذا غضب السلطان على فلان لا يدري أحد ماذا يفعله، ثم ربما يسكت عند قوله: إذا غضب السلطان متعجبًا آتيًا بقرينة دالة على تهويل الأمر، ليذهب السامع مع كل مذهب، ويقول: كأنه إذا غضب السلطان يقتل ويقول الآخر: إذا غضب السلطان ينهب ويقول الآخر غير ذلك، وثانيهما: ما بينا من بيان عدم الانتصار ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦] فكأنه تعالى قال: إذا أرسل عليهم شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران، فإذا انشقت السماء كيف ينتصران؟ فيكون الأمر عسيرًا، فيكون كأنه قال: فإذا انشقت السماء يكون الأمر عسيرًا في غاية العسر، ويحتمل أن يقال: فإذا انشقت السماء يلقى المرء فعله ويحاسب حسابه كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] إلى أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] الآية.

المسألة الرابعة: ما المعنى من الانشقاق؟ نقول: حقيقته ذوبانها وخرابها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الانبياء: ١٠٤] إشارة إلى خرابها ويحتمل أن يقال: انشقت بالغمام كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وفيه وجوه منها أن قوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي مع الغمام فيكون مثل ما ذكرنا هاهنا من الانفطار والخراب.

المسألة الخامسة: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾؟ نقول: المشهور أنها في الحال تكون حمراء يقال: فرس ورد إذا أثبت للفرس الحمرة، وحجرة وردة أي حمراء اللون. وقد ذكرنا أن لهيب النار يرتفع في السماء فتذوب فتكون كالصفر الذائب حمراء، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يقال: وردة للمرة من الورود كالركعة والسجدة والجلسة والقعدة من الركوع والسجود والجلوس والقعود، وحينئذ الضمير في كانت كما في قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٥٣] أي الكائنة أو الداهية وأنث الضمير لتأنيث الظاهر وإن كان شيئًا مذكرًا، فكذا هاهنا قال: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ واحدة أي الحركة التي بها الانشقاق كانت وردة واحدة، وتزلزل الكل وخرب دفعة، والحركة معلومة بالانشقاق لأن المنشق يتحرك، ويتزلزل، وقوله تعالى: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ فيه وجهان أحدهما: جمع دهن، وثانيهما: أن الدهان هو الأديم الأحمر، فإن قيل: الأديم الأحمر مناسب للوردة فيكون معناه كانت السماء كالأديم الأحمر، ولكن ما المناسبة بين الوردة وبين الدهان؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: المراد من الدهان ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] وهو عكر الزيت وبينهما مناسبة، فإن الورد يطلق على الأسد فيقال: أسد ورد، فليس الورد هو الأحمر القاني، والثاني: أن التشبيه بالدهن ليس في اللون بل

في الذوبان، والثالث: هو أن الدهن المذاب ينصب انصبابة واحدة ويذوب دفعة والحديد والرصاص لا يذوب غاية الذوبان، فتكون حركة الدهن بعد الذوبان أسرع من حركة غيره فكأنه قال: حركتها تكون وردة واحدة كالدهان المصبوبة صبًّا لا كالرصاص الذي يذوب منه ألطفه وينتفع به ويبقى الباقي، وكذلك الحديد والنحاس، وجمع الدهان لعظمة السماء وكثرة ما يحصل من ذوبانها لاختلاف أجزائها، فإن الكواكب تخالف غيرها.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

وفيه وجهان أحدهما: لا يسأله أحد عن ذنبه، فلا يقال: له أنت المذنب أو غيرك، ولا يقال: من المذنب منكم بل يعرفونه بسواد وجوههم وغيره، وعلى هذا فالضمير في ذنبه عائد إلى مضمر مفسر بما بعده، وتقديره: لا يسأل إنس عن ذنبه ولا جان يسأل، أي عن ذنبه، وثانيهما: معناه قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] كأنه يقول: لا يسأل عن ذنبه مذنب إنس ولا جان وفيه إشكال لفظي، لأن الضمير في ذنبه إن عاد إلى أمر قبله يلزم استحالة ما ذكرت من المعنى بل يلزم فساد المعنى رأسًا لأنك إذا قلت: لا يسأل مسؤول واحد أو إنسي مثلاً عن ذنبه فقولك بعد إنس ولا جان، يقتضي تعلق فعل بفاعلين وأنه محال، والجواب عنه من وجهين أحدهما: أن لا يفرض عائدًا وإنما يجعل بمعنى المظهر لا غير ويجعل عن ذنبه كأنه قال: عن ذنب مذنب، ثانيهما: وهو أدق وبالقبول أحق أن يجعل ما يعود إليه الضمير قبل الفعل فيقال: تقديره فالمذنب يومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، وفيه مسائل لفظية ومعنوية:

المسألة الأولى: اللفظية: الفاء للتعقيب وأنه يحتمل أن يكون زمانيًّا كأنه يقول: فإذا انشقت السماء يقع العذاب، فيوم وقوعه لا يسأل، وبين الأحوال فاصل زماني غير متراخ، ويحتمل أن يكون عقليًّا كأنه يقول: يقع العذاب فلا يتأخر تعلقه بهم مقدار ما يسألون عن ذنبهم، ويحتمل أن يكون أراد الترتيب الكلامي كأنه يقول: تهربون بالخروج من أقطار السموات، وأقول لا تمتنعون عند انشقاق السماء، فأقول: لا تمهلون مقدار ما تسألون.

المسألة الثانية: ما المراد من السؤال؟ نقول: المشهور ما ذكرنا أنهم لا يقال لهم: من المذنب منكم، وهو على هذا سؤال استعلام، وعلى الوجه الثاني سؤال توبيخ أي لا يقال لهم: لم أذنب المذنب، ويحتمل أن يكون سؤال موهبة وشفاعة كما يقول القائل: أسألك ذنب فلان، أي أطلب منك عفوه، فإن قيل: هذا فاسد من وجوه أحدها: أن السؤال إذا عدى بعن لا يكون إلا بمعنى الاستعلام أو التوبيخ وإذا كان بمعنى الاستعطاء يعدى بنفسه إلى مفعولين فيقال: نسألك العفو والعافية، ثانيها: الكلام لا يحتمل تقديرًا ولا يمكن تقديره بحيث يطابق الكلام، لأن المعنى يصير كأنه يقول: لا يسأل واحد ذنب أحد بل أحد لا يسأل ذنب نفسه، ثالثها: قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] لا يناسب ذلك. نقول: أما الجواب عن الأول فهو أن السؤال ربما يتعدى إلى مفعولين غير أنه عند الاستعلام يحذف الثاني ويؤتى بما يتعلق به يقال: سألته عن كذا أي سألته الإخبار عن كذا فيحذف الإخبار ويكتفى بما يدل عليه، وهو الجار والمجرور فيكون المعنى طلبت منه أن يخبرني عن كذا، وعن الثاني: أن التقدير: لا يسأل إنس ذنبه ولا جان، والضمير يكون عائدًا إلى المضمر لفظًا لا معنى، كما نقول: قتلوا أنفسهم، فالضمير في أنفسهم عائد إلى ما في قولك: قتلوا لفظًا لا معنى لأن ما في قتلوا ضمير الفاعل، وفي أنفسهم ضمير المفعول، إذ الواحد لا يقتل نفسه وإنما المراد كل واحد قتل واحدًا غيره، فكذلك (كُلٌّ) إنس لا يسأل (عَنْ) ذنبه أي ذنب إنس غيره، ومعنى الكلام لا يقال، لأحد: اعف عن فلان، لبيان أن لا مسئول في ذلك الوقت من الإنس والجن، وإنما كلهم سائلون الله والله تعالى حينئذ هو المسئول.

وأما المعنوية فالأولى: كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وبينه وبين قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] نقول: على الوجه المشهور جوابان: أحدهما: أن للآخرة مواطن. فلا يسأل في موطن، ويسأل في موطن، وثانيهما: وهو أحسن لا يسأل عن فعله أحد منكم، ولكن يسأل بقوله: لم فعل الفاعل فلا يسأل سؤال استعلام، بل يسأل سؤال توبيخ، وأما على الوجه الثاني فلا يرد السؤال، فلا حاجة إلى بيان الجمع.

والثانية: ما الفائدة في بيان عدم السؤال؟ نقول على الوجه المشهور: فائدته التوبيخ لهم كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وعلى الثاني بيان أن لا يؤخذ منهم فدية، فيكون ترتيب الآيات أحسن، لأن فيها حينئذ بيان أن لا مفر لهم بقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] ثم بيان أن لا مانع عنهم بقوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] ثم بيان أن لا فداء لهم عنهم بقوله: لا يسأل، وعلى الوجه الأخير، بيان أن لا شفيع لهم ولا راحم، وفائدة أخرى: وهو أنه تعالى لما بين أن العذاب في الدنيا مؤخر بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمن: ٣١] بيَّن أنه في الآخرة لا يؤخر بقدر ما يسأل وفائدة أخرى: وهو أنه تعالى لما بيَّن أن لا مفر لهم بقوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ [الرحمن: ٣٣] ولا ناصر لهم يخلصهم بقوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ بين أمرًا آخر، وهو أن يقول المذنب: ربما أنجو في ظل خمول واشتباه حال، فقال: ولا يخفى أحد من المذنبين بخلاف أمر الدنيا، فإن الشرذمة القليلة ربما تنجو من العذاب العام بسبب خمولهم.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾

اتصال الآيات بما قبلها على الوجه المشهور، ظاهر لا خفاء فيه، إذ قوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ﴾

كالتفسير، وعلى الوجه الثاني من أن المعنى لا يسأل عن ذنبه غيره كيف قال: يعرف ويؤخذ وعلى قولنا: لا يسأل سؤال حط وعفو أيضًا كذلك، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السِّيما كالضيزى وأصله سومى من السومة وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: كي على جباههم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] ثانيها: سواد كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] ثالثها: غبرة وقترة.

المسألة الثانية: ما وجه إفراد (يُؤْخَذُ) مع أن (الْمُجْرِمِينَ) جمع، وهم المأخوذون؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: أن يؤخذ متعلق بقوله تعالى: ﴿بِالنَّوَاصِي﴾ كما يقول القائل: ذهب بزيد، وثانيهما: أن يتعلق بما يدل عليه يؤخذ، فكأنه تعالى قال: فيؤخذون بالنواصي، فإن قيل كيف عدى الأخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه قال تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] وقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] نقول: الأخذ يتعدى بنفسه كما بينت، وبالباء أيضًا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] لكن في الاستعمال تدقيق، وهو أن المأخوذ إن كان مقصودًا بالأخذ توجه الفعل نحوه فيتعدى إليه من غير حرف، وإن كان المقصود بالأخذ غير الشيء المأخوذ حسًّا تعدى إليه بحرف، لأنه لما لم يكن مقصودًا فكأنه ليس هو المأخوذ، وكأن الفعل لم يتعد إليه بنفسه، فذكر الحرف، ويدل على ما ذكرنا استعمال القرآن، فإن الله تعالى قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ في العصا وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] إلى غير ذلك، فلما كان ما ذكر هو المقصود بالأخذ عدى الفعل إليه من غير حرف، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ وقال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ويقال: خذ بيدي وأخذ الله بيدك إلى غير ذلك مما يكون المقصود بالأخذ غير ما ذكرنا، فإن قيل: ما الفائدة في توجيه الفعل إلى غير ما توجه إليه الفعل الأول، ولم قال: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي﴾؟ نقول: فيه بيان نكالهم وسوء حالهم ونبين هذا بتقديم مثال وهو أن القائل إذا قال: ضرب زيد فقتل عمرو فإن المفعول في باب ما لم يسم فاعله قائم مقام الفاعل ومشبه به ولهذا أعرب إعرابه فلو لم يوجه يؤخذ إلى غير ما وجه إليه يعرف لكان الأخذ فعل من عرف فيكون كأنه قال: يعرف المجرمين عارف فيأخذهم ذلك العارف، لكن المجرم يعرفه بسيماه كل أحد، ولا يأخذه كل من عرفه بسيماه، بل يمكن أن يقال قوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ المراد يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون في معرفتهم إلى علامة، أما كتبة الأعمال والملائكة الغلاظ الشداد فيعرفونهم كما يعرفون أنفسهم من غير احتياج إلى علامة، وبالجملة فقوله: يعرف معناه يكونون معروفين عند كل أحد فلو قال: يؤخذون يكون كأنه قال: فيكونون مأخوذين لكل أحد، كذلك إذا تأملت في قول القائل: شغلت فضرب زيد علمت عند توجه التعليق إلى مفعولين دليل تغاير الشاغل والضارب لأنه يفهم منه أني شغلني شاغل فضرب زيدًا ضارب، فالضارب غير ذلك الشاغل،

وإذا قلت: شُغِلَ زيد فضرب لا يدل على ذلك حيث توجه إلى مفعول واحد، وإن كان يدل فلا يظهر مثل ما يظهر عند توجهه إلى مفعولين، أما بيان النكال فلأنه لما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾ بيَّن كيفية الأخذ وجعلها مقصود الكلام، ولو قال: فيؤخذون لكان الكلام يتم عنده ويكون قوله: ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ فائدة جاءت بعد تمام الكلام فلا يكون هو المقصود، وأما إذا قال: فيؤخذ، فلا بد له من أمر يتعلق به فينتظر السامع وجود ذلك، فإذا قال: ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ يكون هذا هو المقصود، وفي كيفية الأخذ ظهور نكالهم لأن في نفس الأخذ بالناصية إذلالاً وإهانة، وكذلك الأخذ بالقدم، لا يقال قد ذكرت أن التعدية بالباء إنما تكون حيث لا يكون المأخوذ مقصودًا والآن ذكرت أن الأخذ بالنواصي هو المقصود لأنا نقول: لا تنافي بينهما فإن الأخذ بالنواصي مقصود الكلام والناصية ما أخذت لنفس كونها ناصية وإنما أخذت ليصير صاحبها مأخوذًا، وفرق بين مقصود الكلام وبين الأخذ، وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يجمع بين ناصيتهم وقدمهم، وعلى هذا ففيه قولان: أحدهما: أن ذلك قد يكون من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم أقدامهم من جانب الظهر فتخرج صدورهم نتأ، والثاني: أن ذلك من جانب وجوههم فتكون رءوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة، الوجه الثاني: أنهم يسحبون سحبًا فبعضهم يؤخذ بناصيته وبعضهم يجر برجله، والأول أصح وأوضح.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

والمشهور أن هاهنا إضمارًا تقديره يقال لهم: هذه جهنم، وقد تقدم مثله في مواضع. ويحتمل أن يقال: معناه هذه صفة جهنم فأقيم المضاف إليه مقام المضاف ويكون ما تقدم هو المشار إليه، والأقوى أن يقال: الكلام عند النواصي والأقدام قد تم، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ لقربها كما يقال: هذا زيد قد وصل إذا قرب مكانه، فكأنه قال: جهنم التي يكذب بها المجرمون هذه قريبة غير بعيدة عنهم، ويلائمه قوله: ﴿يُكَذِّبُ﴾ لأن الكلام لو كان بإضمار يقال، لقال تعالى لهم: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون لأن في هذا الوقت لا يبقى مكذب، وعلى هذا التقدير يضمر فيه: كان يكذب.

وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] وكقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] لأنهم يخرجون فيستغيثون فيظهر لهم من بعد شيء مائع هو صديدهم المغلي فيظنونه ماء، فيردون عليه كما يرد العطشان فيقعون ويشربون منه شرب الهيم، فيجدونه أشد حرًّا فيقطع أمعاءهم، كما أن العطشان إذا وصل إلى ماء مالح لا يبحث عنه ولا يذوقه، وإنما يشربه عبًّا فيحرق فؤاده ولا يسكن عطشه. وقوله: ﴿حَمِيمٍ﴾ إشارة إلى ما فعل فيه من الإغلاء، وقوله تعالى: ﴿ءَانٍ﴾ إشارة إلى ما قبله،

وهو كما يقال: قطعته فانقطع فكأنه حمَّته النار فصار في غاية السخونة وآن الماء إذا انتهى في الحر نهاية.

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وفيه بحث: وهو أن هذه الأمور ليست من الآلاء فكيف قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾؟ نقول: الجواب من وجهين: أحدهما: ما ذكرناه، وثانيهما: أن المراد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ مما أشرنا إليه في أول السورة. ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ فتستحقان هذه الأشياء المذكورة من العذاب، وكذلك نقول: في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] هي الجنان ثم إن تلك الآلاء لا ترى، وهذا ظاهر لأن الجنان غير مرئية، وإنما حصل الإيمان بها بالغيب، فلا يحسن الاستفهام بمعنى الإنكار مثل ما يحسن الاستفهام عن هيئة السماء والأرض والنجم والشجر والشمس والقمر وغيرها مما يدرك ويشاهد، لكن النار والجنة ذكرتا للترهيب والترغيب كما بينا أن المراد فبأيهما تكذبان فتستحقان العذاب وتحرمان الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

وفيه لطائف: الأولى: التعريف في عذاب جهنم قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [الرحمن: ٤٣] والتنكير في الثواب بالجنة إشارة إلى أن كثرة المراتب التي لا تحد ونعمه التي لا تعد، وليعلم أن آخر العذاب جهنم وأول مراتب الثواب الجنة ثم بعدها مراتب وزيادات، الثانية: قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] أن الخوف خشية سببها ذل الخاشي، والخشية خوف سببه عظمة المخشى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه لا لذل منهم، بل لعظمة جانب الله، وكذلك قوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] أي لو كان المنزل عليه العالم بالمنزل كالجبل العظيم في القوة والارتفاع لتصدع من خشية الله لعظمته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وإنما قلنا: إن الخشية تدل على ما ذكرنا لأن الشيخ للسيد والرجل الكبير يدل على حصول معنى العظمة فِي خ ش ي، وقال تعالى في الخوف: ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا﴾ [طه: ٢١] لما كان الخوف يضعف في موسى، وقال: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤] وقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥] ويدل عليه تقاليب (خ و ف) فإن قولك: خفي قريب منه، والخافي فيه ضعف والأخيف يدل عليه أيضًا، وإذا علم هذا فالله تعالى مخوف ومخشي، والعبد من الله خائف وخاش، لأنه إذا نظر إلى نفسه رآها في غاية الضعف فهو خائف، وإذا نظر إلى حضرة الله رآها في غاية العظمة فهو خاش، لكن درجة الخاشي فوق درجة الخائف، فلهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ جعله منحصرًا فيهم لأنهم وإن فرضوا أنفسهم على غير ما هم عليه، وقدروا أن الله رفع عنهم جميع ما هم فيه من الحوائج لا

يتركون خشيته، بل تزداد خشيتهم، وأما الذي يخافه من حيث إنه يفقره أو يسلب جاهه، فربما يقل خوفه إذا أمن ذلك، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وإذا كان هذا للخائف فما ظنك بالخاشي؟ الثالثة: لما ذكر الخوف ذكر المقام، وعند الخشية ذكر اسمه الكريم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ وقال: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وقال عليه السلام: «خَشْيَةُ اللَّهِ رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ» لأنه يعرف ربه بالعظمة فيخشاه. وفي مقام ربه قولان: أحدهما: مقام ربه أي المقام الذي يقوم هو فيه بين يدي ربه، وهو مقام عبادته كما يقال: هذا معبد الله وهذا معبد الباري أي المقام الذي يعبد الله العبد فيه، والثاني: مقام ربه الموضع الذي فيه الله قائم على عباده من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي حافظ ومطلع أخذًا من القائم على الشيء حقيقة الحافظ له فلا يغيب عنه، وقيل: مقام مقحم يقال: فلان يخاف جانب فلان أي يخاف فلانًا، وعلى هذا الوجه يظهر الفرق غاية الظهور بين الخائف والخاشي، لأن الخائف خاف مقام ربه بين يدي الله فالخاشي لو قيل له: افعل ما تريد فإنك لا تحاسب ولا تسأل عما تفعل لما كان يمكنه أن يأتي بغير التعظيم، والخائف ربما كان يقدم على ملاذ نفسه لو رفع عنه القلم وكيف لا، ويقال: خاصة الله من خشية الله في شغل شاغل عن الأكل والشرب واقفون بين يدي الله سابحون في مطالعة جماله غائصون في بحار جلاله، وعلى الوجه الثاني قَرُبَ الخائف من الخاشي وبينهما فرق. الرابعة: في قوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ وهذه اللطيفة نبينها بعدما نذكر ما قيل في التثنية، قال بعضهم: المراد: جنة واحدة كما قيل في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤] وتمسك بقول القائل:

وَمَهْمَهَيْنِ سَرَتْ مَرَّتَيْنِ ... قَطَعْتُهُ بِالسَّهْمِ لاَ السَّهْمَيْنِ

فقال: أراد مهمهًا واحدًا بدليل توحيد الضمير في قطعته وهو باطل، لأن قوله بالسهم يدل على أن المراد مهمهان، وذلك لأنه لو كان مهمهًا واحدًا لما كانوا في قطعه يقصدون جدلاً، بل يقصدون التعجب وهو إرادته قطع مهمهين بأهبة واحدة وسهم واحد وهو من العزم القوي، وأما الضمير فهو عائد إلى مفهوم تقديره قطعت كليهما وهو لفظ مقصور معناه التثنية ولفظه للواحد، يقال: كلاهما معلوم ومجهول، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] فوحد اللفظ ولا حاجة هاهنا إلى التعسف، ولا مانع من أن يعطي الله جنتين وجنانًا عديدة، وكيف وقد قال بعد: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] وقال: فيهما. والثاني وهو الصحيح أنهما جنتان، وفيه وجوه أحدها: أنهما جنة للجن وجنة للإنس لأن المراد هذان النوعان، وثانيهما: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي لأن التكليف بهذين النوعين، وثالثها: جنة هي جزاء وجنة أخرى زيادة على الجزاء، ويحتمل أن يقال: جنتان جنة جسمية والأخرى روحية فالجسمية في نعيم والروحية في روح فكان كما قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] وذلك لأن الخائف من المقربين والمقرب في روح وريحان وجنة نعيم، وأما اللطيفة: فنقول: لما قال

تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن، وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين في مقابلة ما ذكر في حق المجرم، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذابًا ويقعون في الآخر، ولم يقل: هاهنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكًا وهم فيها يطاف عليهم ولا يطاف بهم احترامًا لهم وإكرامًا في حقهم، وقد ذكرنا في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ [الذاريات: ١٥] أنه تعالى ذكر الجنة والجنات، فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينهما كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان، فالكل عائد إلى صفة مدح.

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

هي جمع فنن أي ذواتا أغصان أو جمع فن أي فيهما فنون من الأشجار وأنواع من الثمار. فإن قيل: أي الوجهين أقوى؟ نقول: الأول: لوجهين أحدهما: أن الأفنان في جمع فنن هو المشهور والفنون في جمع الفن كذلك، ولا يظن أن الأفنان والفنون جمع فن بل كل واحد منهما جمع معرف بحرف التعريف والأفعال في فعل كثير والفعول في فَعَل أكثر، ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] مستقل بما ذكر من الفائدة، ولأن ذلك فيما يكون ثابتًا لا تفاوت فيه ذهنًا ووجودًا أكثر، فإن قيل: كيف تمدح بالأفنان والجنات في الدنيا ذوات أفنان كذلك؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: أن الجنات في الأصل ذوات أشجار، والأشجار ذوات أغصان، والأغصان ذوات أزهار وأثمار، وهي لتنزه الناظر إلا أن جنة الدنيا لضرورة الحاجة وجنة الآخرة ليست كالدنيا فلا يكون فيها إلا ما فيه اللذة وأما الحاجة فلا، وأصول الأشجار وسوقها أمور محتاج إليها مانعة للإنسان عن التردد في البستان كيفما شاء، فالجنة فيها أفنان عليها أوراق عجيبة، وثمار طيبة من غير سوق غلاظ، ويدل عليه أنه تعالى لم يصف الجنة إلا بما فيه اللذة بقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي الجنة هي ذات فنن غير كائن على أصل وعرق بل هي واقفة في الجو وأهلها من تحتها، والثاني: من الوجهين هو أن التنكير للأفنان للتكثير أو للتعجب.

ثم قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في كل واحدة منهما عين جارية، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وفي كل واحدة منهما من الفواكه نوعان، وفيها مسائل بعضها يذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٦-٦٨] وبعضها يذكر هاهنا.

المسألة الأولى: هي أن قوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ كلها أوصاف للجنتين المذكورتين فهو كالكلام الواحد تقديره: جنتان ذواتا أفنان، ثابت فيهما

عينان، كائن فيهما من كل فاكهة زوجان، فإن قيل: ما الفائدة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثلاث مرات مع أنه في ذكر العذاب ما فصل بين كلامين بها حيث قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] مع أن إرسال نحاس غير إرسال شواظ، وقال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] مع أن الحميم غير الجحيم، وكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣] وهو كلام تام، ووقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] كلام آخر ولم يفصل بينهما بالآية المذكورة؟ نقول: فيه تغليب جانب الرحمة، فإن آيات العذاب سردها سردًا وذكرها جملة ليقصر ذكرها، والثواب ذكره شيئًا فشيئًا، لأن ذكره يطيب للسامع فقال بالفصل وتكرار عود الضمير إلى الجنس بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ لأن إعادة ذكر المحبوب محبوب، والتطويل بذكر اللذات مستحسن.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي في كل واحدة عين واحدة كما مر، وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ معناه كل واحدة منهما زوج، أو معناه في كل واحدة منهما من الفواكه زوجان، ويحتمل أن يكون المراد مثل ذلك أي في كل واحدة من الجنتين زوج من كل فاكهة ففيهما جميعًا زوجان من كل فاكهة، وهذا إذا جعلنا الكنايتين فيهما للزوجين، أو نقول: من كل فاكهة لبيان حال الزوجين، ومثاله إذا دَخَلَتْ (من) على ما لا يمكن أن يكون كائنًا في شيء كقولك: في الدار من الشرق رجل، أي فيها رجل من الشرق، ويحتمل أن يكون المراد في كل واحدة منها زوجان، وعلى هذا يكون كالصفة بما يدل عليه من كل فاكهة كأنه قال: فيهما من كل فاكهة، أي كائن فيهما شيء من كل فاكهة، وذلك الكائن زوجان، وهذا بيِّن فيما تكون (مِنْ) داخلة على ما لا يمكن أن يكون هناك كائن في الشيء غيره، كقولك: في الدار من كل ساكن، فإذا قلنا: فيهما من كل فاكهة زوجان، الثالث: عند ذكر الأفنان لو قال: فيهما من كل فاكهة زوجان كان متناسبًا لأن الأغصان عليها الفواكه، فما الفائدة في ذكر العينين بين الأمرين المتصل أحدهما بالآخر؟ نقول: جرى ذكر الجنة على عادة المتنعمين، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار بل يقدمون التفرج على الأكل، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة مؤلمة فكيف في الجنة فذكر ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار، فسبحان من يأتي بالآي بأحسن المعاني في أبين المباني.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

وفيه مسائل نحوية ولغوية ومعنوية.

المسألة الأولى من النحوية: هو أن المشهور أن (مُتَّكِئِينَ) حال وذو الحال (مَنْ) في قوله:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦]والعامل ما يدل عليه اللام الجارة تقديره: لهم في حال الاتكاء جنتان وقال صاحب (الكشاف): يحتمل أن يكون نصبًا على المدح، وإنما حمله على هذا إشكال في قول من قال: إنه حال، وذلك لأن الجنة ليست لهم حال الاتكاء بل هي لهم في كل حال فهي قبل الدخول لهم، ويحتمل أن يقال: هو حال وذو الحال ما تدل عليه الفاكهة. لأن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]يدل على متفكهين بها كأنه قال: يتفكه المتفكهون بها، متكئين، وهذا فيه معنى لطيف، وذلك لأن الآكل إن كان ذليلاً كالخول والخدم والعبيد والغلمان، فإنه يأكل قائمًا، وإن كان عزيزًا فإن كان يأكل لدفع الجوع يأكل قاعدًا، ولا يأكل متكئًا إلا عزيز متفكه ليس عنده جوع يقعده للأكل، ولا هنالك من يحسمه، فالتفكه مناسب للاتكاء.

المسألة الثانية: من المسائل النحوية: ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ متعلق بأي فعل هو؟ إن كان متعلقًا بما في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، حتى يكون كأنه يقول: يتكئون على فرش كما كان يقال: فلان اتكأ على عصاه أو على فخذيه فهو بعيد لأن الفراش لا يتكأ عليه، وإن كان متعلقًا بغيره فماذا هو؟ نقول: متعلق بغيره تقديره يتفكه الكائنون على فرش متكئين من غير بيان ما يتكئون عليه، ويحتمل أن يكون اتكاؤهم على الفرش غير أن الأظهر ما ذكرنا ليكون ذلك بيانًا لما تحتهم وهم بجميع بدنهم عليه وهو أنعم وأكرم لهم.

المسألة الثالثة: الظاهر أن لكل واحد فرشًا كثيرة لا أن لكل واحد فراشًا فلكلهم فرش عليها كائنون.

المسألة الرابعة لغوية: الاستبرق: هو الديباج الثخين، وكما أن الديباج مُعرَّب بسبب أن العرب لم يكن عندهم ذلك إلا من العجم، استعمل الاسم المعجم فيه غير أنهم تصرفوا فيه تصرفًا وهو أن اسمه بالفارسية ستبرك بمعنى ثخين تصغير (ستبر) فزادوا فيه همزة متقدمة عليه، وبدلوا الكاف بالقاف، أما الهمزة، فلأن حركات أوائل الكلمة في لسان العجم غير مبنية في كثير من المواضع فصارت كالسكون، فأثبتوا فيه همزة كما أثبتوا همزة الوصل عند سكون أول الكلمة، ثم إن البعض جعلوها همزة وصل وقالوا: (مِن اسْتَبْرَقٍ) والأكثرون جعلوها همزة قطع لأن أول الكلمة في الأصل متحرك لكن بحركة فاسدة فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة وتمكنهم من تسكين الأول وعند تساوي الحركة، فالعود إلى السكون أقرب، وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن ولا تبدل حركة بحركة، وأما القاف فلأنهم لو تركوا الكاف لاشتبه ستبرك بمسجدك ودارك، فأسقطوا منه الكاف التي هي على لسان العرب في آخر الكلم للخطاب وأبدلوها قافًا ثم عليه سؤال مشهور، وهو أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، وهذا ليس بعربي، والجواب الحق أن اللفظة في أصلها لم تكن بين العرب بلغة، وليس المراد أنه أنزل بلغة هي في أصل وضعها على لسان العرب، بل المراد أنه منزل بلسان لا يخفى معناه على أحد من العرب ولم يستعمل فيه لغة لم تتكلم العرب بها، فيصعب عليهم مثله لعدم مطاوعة لسانهم التكلم بها فعجزهم عن مثله ليس إلا لمعجز.

المسألة الخامسة معنوية: الاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب، فالمتكئ تكون أمور جسمه على ما ينبغي وأحوال قلبه على ما ينبغي، لأن العليل يضطجع ولا يستلقي أو يستند إلى شيء على حسب ما يقدر عليه للاستراحة، وأما الاتكاء بحيث يضع كفه تحت رأسه ومرفقه على الأرض ويجافي جنبيه عن الأرض فذاك أمر لا يقدر عليه، وأما مشغول القلب في طلب شيء فتحركه تحرك مستوفز.

المسألة السادسة: قال أهل التفسير قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يدل على نهاية شرفها، فإن ما تكون بطائنها من الإستبرق تكون ظهائرها خيرًا منها، وكأنه شيء لا يدركه البصر من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم، وفيه وجه آخر معنوي وهو أن أهل الدنيا يظهرون الزينة ولا يتمكنون من أن يجعلوا البطائن كالظهائر، لأن غرضهم إظهار الزينة والبطائن لا تظهر، وإذا انتفى السبب انتفى المسبب، فلما لم يحصل في جعل البطائن من الديباج مقصودهم وهو الإظهار تركوه، وفي الآخرة الأمر مبني على الإكرام والتنعيم فتكون البطائن كالظهائر فذكر البطائن.

المسألة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ فيه إشارة إلى مخالفتها لجنة دار الدنيا من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الثمرة في الدنيا على رءوس الشجرة والإنسان عند الاتكاء يبعد عن رءوسها وفي الآخرة هو متكئ والثمرة تنزل إليه، ثانيها: في الدنيا من قرب من ثمرة شجرة بعد عن الأخرى وفي الآخرة كلها دان في وقت واحد ومكان واحد، وفي الآخرة المستقِر في جنة عنده جنة أخرى، ثالثها: أن العجائب كلها من خواص الجنة فكأن أشجارها دائرة عليهم ساترة إليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في الدنيا وجناتها وفي الدنيا الإنسان متحرك ومطلوبه ساكن، وفيه الحقيقة وهي أن من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى، وسعى في الدنيا في الخيرات انتهى أمره إلى سكون لا يحوجه شيء إلى حركة، فأهل الجنة إن تحركوا تحركوا لا لحاجة وطلب، وإن سكنوا سكنوا لا لاستراحة بعد التعب، ثم إن الولي قد تصير له الدنيا أنموذجًا من الجنة، فإنه يكون ساكنًا في بيته ويأتيه الرزق متحركًا إليه دائرًا حواليه، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

المسألة الثامنة: الجنتان إن كانتا جسميتين فهو أبدًا يكون بينهما وهما عن يمينه وشماله هو يتناول ثمارهما وإن كانت إحداهما روحية والأخرى جسمية فلكل واحد منهما فواكه وفرش تليق بهما.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾

وفيه مباحث:

الأول في الترتيب وأنه في غاية الحسن لأنه في أول الأمر بين المسكن وهو الجنة، ثم بيَّن ما

يتنزه به فإن من يدخل بستانًا يتفرج أولاً فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٤٨-٥٠] ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ﴾ [الرحمن: ٥٢] ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه.

الثاني: ﴿فِيهِنَّ﴾ الضمير عائد إلى ماذا؟ نقول: فيه ثلاثة أوجه: أحدها: إلى الآلاء والنعم أي قاصرات الطرف، ثانيها: إلى الفراش أي في الفرش قاصرات وهما ضعيفان، أما الأول فلأن اختصاص القاصرات بكونهن في الآلاء مع أن الجنتين في الآلاء والعينين فيهما والفواكه كذلك لا يبقى له فائدة، وأما الثاني فلأن الفرش جعلها ظرفهم حيث قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ﴾ [الرحمن: ٥٤] وأعاد الضمير إليها بقوله: ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ [الرحمن: ٥٤] ولم يقل: بطائنهن، فقوله ﴿فِيهِنَّ﴾ يكون تفسيرًا للضمير فيحتاج إلى بيان فائدة لأنه تعالى قال بعد هذا مرة أخرى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] ولم يكن هناك ذكر الفرش فالأصح إذن هو الوجه الثالث: وهو أن الضمير عائد إلى الجنتين، وجمع الضمير هاهنا وثنى في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] و: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ﴾ [الرحمن: ٥٢] وذلك لأنا بينا أن الجنة لها اعتبارات ثلاثة أحدها: اتصال أشجارها وعدم وقوع الفيافي والمهامه فيها والأراضي الغامرة، ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل وثانيها: اشتمالها على النوعين الحاصرين للخيرات، فإن فيها ما في الدنيا، وما ليس في الدنيا وفيها ما يعرف، ومالا يعرف، وفيها ما يقدر على وصفه، وفيها مالا يقدر، وفيها لذات جسمانية ولذات غير جسمانية فلاشتمالها على النوعين كأنها جنتان، وثالثها: لسعتها وكثرة أشجارها وأماكنها وأنهارها ومساكنها كأنها جنات، فهي من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات. إذا ثبت هذا فنقول: اجتماع النسوان للمعاشرة مع الأزواج والمباشرة في الفراش في موضع واحد في الدنيا لا يمكن، وذلك لضيق المكان، أو عدم الإمكان أو دليل ذلة النسوان، فإن الرجل الواحد لا يجمع بين النساء في بيت إلا إذا كن جواري غير ملتفت إليهن، فأما إذا كانت كل واحدة كبيرة النفس كثيرة المال فلا يجمع بينهن، واعلم أن الشهوة في الدنيا كما تزداد بالحسن الذي في الأزواج تزداد بسبب العظمة، وأحوال الناس في أكثر الأمر تدل عليه، إذا ثبت هذا فنقول: الحظايا في الجنة يجتمع فيهن حسن الصورة والجمال والعز والشرف والكمال، فتكون الواحدة لها كذا وكذا من الجواري والغلمان فتزداد اللذة بسبب كمالها، فإذن ينبغي أن يكون لكل واحدة ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التي هي واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرق المساكن فيها فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ وأما الدنيا فليس فيها تفرق المساكن دليلاً للعظمة واللذة فقال ﴿فِيهِمَا﴾ [الرحمن: ٥٠] وهذا من اللطائف، الثالث: قاصرات الطرف صفة لموصوف حذف، وأقيمت الصفة مكانه، والموصوف النساء أو الأزواج كأنه قال فيهن نساء قاصرات الطرف، وفيه لطيفة: فإنه تعالى لم يذكر النساء إلا بأوصافهن ولم يذكر اسم الجنس فيهن، فقال تارة: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ [الواقعة: ٢٢] وتارة: ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٧] وتارة: ﴿قَٰصِرَٰتُ

﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] ولم يذكر نساء كذا وكذا لوجهين: أحدهما: الإشارة إلى تخدرهن وتسترهن، فلم يذكرهن باسم الجنس لأن اسم الجنس يكشف من الحقيقة مالا يكشفه الوصف فإنك إذا قلت المتحرك المريد الآكل الشارب لا تكون بينته بالأوصاف الكثيرة أكثر مما بينته بقولك: حيوان وإنسان وثانيهما: إعظامًا لهن ليزداد حسنهن في أعين الموعودين بالجنة فإن بنات الملوك لا يذكرن إلا بالأوصاف.

المسألة الرابعة: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ من القصر وهو المنع أي المانعات أعينهن من النظر إلى الغير، أو من القصور، وهو كون أعينهن قاصرة لا طماح فيها للغير، أقول: والظاهر أنه من القصر إذ القصر مدح والقصور ليس كذلك، ويحتمل أن يقال: هو من القصر بمعنى أنهن قصرن أبصارهن، فأبصارهن مقصورة وهن قاصرات فيكون من إضافة الفاعل إلى المفعول والدليل عليه هو أن القصر مدح والقصور ليس كذلك، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أنه تعالى قال من بعد هذه: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ [الرحمن: ٧٢] فهن مقصورات وهن قاصرات، وفيه وجهان أحدهما: أن يقال: هن قاصرات أبصارهن كما يكون شغل العفائف، وهن قاصرات أنفسهن في الخيام كما هو عادة المخدرات لأنفسهن في الخيام ولأبصارهن عن الطماح، وثانيهما: أن يكون ذلك بيانًا لعظمتهن وعفافهن وذلك لأن المرأة التي لا يكون لها رادع من نفسها ولا يكون لها أولياء يكون فيها نوع هوان، وإذا كان لها أولياء أعزة امتنعت عن الخروج والبروز، وذلك يدل على عظمتهن، وإذا كن في أنفسهن عند الخروج لا ينظرن يمنة ويسرة فهن في أنفسهن عفائف، فجمع بين الإشارة إلى عظمتهن بقوله تعالى: ﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ منعهن أولياؤهن وهاهنا وليهن الله تعالى، وبين الإشارة إلى عفتهن بقوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ ثم تمام اللطف أنه تعالى قدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة وذكر في أعلى الجنتين قاصرات وفي أدناهما مقصورات، والذي يدل على أن المقصورات يدل على العظمة أنهن يوصفن بالمخدرات لا بالمتخدرات، إشارة إلى أنهن خدرهن خادر لهن غيرهن كالذي يضرب الخيام ويدلي الستر، بخلاف من تتخذه لنفسها وتغلق بابها بيدها، وسنذكر بيانه في تفسير الآية بعد.

المسألة الخامسة: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ فيها دلالة عفتهن، وعلى حسن المؤمنين في أعينهن، فيحببن أزواجهن حبًّا يشغلهن عن النظر إلى غيرهم، ويدل أيضًا على الحياء لأن الطرف حركة الجفن، والحورية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها.

المسألة السادسة: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ فيه وجوه أحدها: لم يفرعهن. ثانيها: لم يجامعهن. ثالثها: لم يمسسهن، وهو أقرب إلى حالهن وأليق بوصف كمالهن، لكن لفظ الطمث غير ظاهر فيه ولو كان المراد منه المس لذكر اللفظ الذي يستحسن، وكيف وقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ولم يصرح بلفظ موضوع للوطء، فإن قيل: فما ذكرتم من الإشكال باق وهو أنه تعالى كنى عن الوطء في الدنيا باللمس كما في

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] على الصحيح في تفسير الآية وسنذكره، وإن كان على خلاف قول إمامنا الشافعي رضي الله عنه وبالمس في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ولم يذكر المس في الآخرة بطريق الكناية، نقول: إنما ذكر الجماع في الدنيا بالكناية لما أنه في الدنيا قضاء للشهوة وأنه يضعف البدن ويمنع من العبادة، وهو في بعض الأوقات قبحه كقبح شرب الخمر، وفي بعض الأوقات هو كالأكل الكثير، وفي الآخرة مجرد عن وجوه القبح، وكيف لا والخمر في الجنة معدودة من اللذات وأكلها وشربها دائم إلى غير ذلك، فالله تعالى ذكره في الدنيا بلفظ مجازي مستور في غاية الخفاء بالكناية إشارة إلى قبحه وفي الآخرة ذكره بأقرب الألفاظ إلى التصريح أو بلفظ صريح، لأن الطمث أدل من الجماع والوقاع لأنهما من الجمع والوُقُوع إشارة إلى خلوه عن وجوه القبح.

المسألة السابعة: ما الفائدة في كلمة ﴿قَبْلَهُمْ﴾؟ قلنا لو قال: لم يطمثهن إنس ولا جان يكون نفيًا لطمث المؤمن إياهن وليس كذلك.

المسألة الثامنة: ما الفائدة في ذكر الجان مع أن الجان لا يجامع؟ نقول: ليس كذلك بل الجن لهم أولاد وذريات وإنما الخلاف في أنهم هل يواقعون الإنس أم لا؟ والمشهور أنهم يواقعون وإلا لما كان في الجنة أحساب ولا أنساب، فكأن مواقعة الإنس إياهن كمواقعة الجن من حيث الإشارة إلى نفيها.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾

وهذا التشبيه فيه وجهان أحدهما: تشبيه بصفائهما، وثانيهما: بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت، والمرجان: صغار اللؤلؤ وهي أشد بياضًا وضياء من الكبار بكثير، فإن قلنا: إن التشبيه لبيان صفائهن، فنقول: فيه لطيفة هي أن قوله تعالى: ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ إشارة إلى خلوصهن عن القبائح، وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ إشارة إلى صفائهن في الجنة، فأول ما بدأ بالعقليات وختم بالحسيات، كما قلنا: إن التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوت والمرجان في الحمرة والبياض، فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ولا يبعد أن يقال: هو مؤكد لما مضى لأنهن لما كن قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن لم يُطْمَثن فهن كالياقوت الذي يكون في معدنه والمرجان المصون في صدفه لا يكون قد مسه يد لامس، وقد بينا مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] أن (كَأَنَّ) الداخلة على المشبه به لا تفيد من التأكيد ما تفيده الداخلة على المشبه، فإذا قلت: زيد كالأسد، كان معناه زيد يشبه الأسد، وإذا قلت كأن زيدًا الأسد فمعناه يشبه أن زيدًا هو الأسد حقيقة، لكن قولنا: زيد يشبه الأسد ليس فيه مبالغة عظيمة، فإنه يشبهه في أنهما حيوانان وجسمان وغير ذلك، وقولنا: زيد يشبه لا يمكن حمله على الحقيقة، أما من حيث اللفظ فنقول: إذا دخلت الكاف على المشبه به،

وقيل: إن زيدًا كالأسد عملت الكاف في الأسد عملاً لفظيًا والعمل اللفظي مع العمل المعنوي، فكأن الأسد عمل به عمل حتى صار زيدًا، وإذا قلت: كأن زيدًا الأسد تركت الأسد على إعرابه فإذن هو متروك على حاله وحقيقته وزيد يشبه به في تلك الحال ولا شك في أن زيدًا إذا شبه بأسد هو على حاله باق يكون أقوى مما إذا شبه بأسد لم يبق على حاله، وكأن من قال: زيد كالأسد نزل الأسد عن درجته فساواه زيد، ومن قال: كأن زيدًا الأسد رفع زيدًا عن درجته حتى ساوى الأسد، وهذا تدقيق لطيف.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

وفيه وجوه كثيرة حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات في كل آية منها مائة قول. الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، الثالثة: قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ولنذكر الأشهر منها والأقرب. أما الأشهر فوجوه أحدها: هل جزاء التوحيد غير الجنة، أي جزاء من قال: لا إله إلا الله إدخال الجنة، ثانيها: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة، ثالثها: هل جزاء من أحسن إليكم في الدنيا بالنعم وفي العقبى بالنعيم إلا أن تحسنوا إليه بالعبادة والتقوى، وأما الأقرب فإنه عام فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضًا، ولنذكر تحقيق القول فيه وترجع الوجوه كلها إلى ذلك، فنقول: الإحسان يستعمل في ثلاث معان: أحدها: إثبات الحسن وإيجاده قال تعالى: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] ثانيها: الإتيان بالحسن كالإظراف والإغراب للإتيان بالظريف والغريب قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ثالثها: يقال: فلان لا يحسن الكتابة ولا يحسن الفاتحة أي لا يعلمهما، والظاهر أن الأصل في الإحسان الوجهان الأولان والثالث مأخوذ منهما، وهذا لا يفهم إلا بقرينة الاستعمال مما يغلب على الظن إرادة العلم، إذا علمت هذا فنقول: يمكن حمل الإحسان في الموضعين على معنى متحد من المعنيين ويمكن حمله فيهما على معنيين مختلفين أما الأول: فنقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن، لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو، بل الحسن هو ما استحسنه الله منه، فإن الفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسنًا وليس بحسن بل الحسن ما طلبه الله منه، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] أي ما هو حسن عندهم، وأما الثاني فنقول: هل جزاء من أثبت

الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفي أحواله في الدارين وبالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفي صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضًا، لكن إثبات الحسن في الله تعالى محال، فإثبات الحسن أيضًا في أنفسنا وأفعالنا فنحسن أنفسنا بعبادة حضرة الله تعالى، وأفعالنا بالتوجه إليه وأحوال باطننا بمعرفته تعالى، وإلى هذا رجعت الإشارة، وورد في الأخبار من حسن وجوه المؤمنين وقبح وجوه الكافرين، وأما الوجه الثالث: وهو الحمل على المعنيين فهو أن تقول: على جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يثبت الله فيه الحسن، وفي جميع أحواله فيجعل وجهه حسنًا وحاله حسنًا، ثم فيه لطائف:

اللطيفة الأولى: هذه إشارة إلى رفع التكليف عن العوام في الآخرة، وتوجيه التكليف على الخواص فيها، أما الأول: فلأنه تعالى لما قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ والمؤمن لا شك في أنه يثاب بالجنة فيكون له من الله الإحسان جزاء له ومن جازى عبدًا على عمله لا يأمره بشكره، ولأن التكليف لو بقي في الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب، والعقاب ترك الإحسان لأن العبد لما عبد الله في الدنيا ما دام وبقي يليق بكرمه تعالى أن يحسن إليه في الآخرة ما دام وبقي، فلا عقاب على تركه بلا تكليف، وأما الثاني فنقول: خاصة الله تعالى عبدنا الله تعالى في الدنيا لنعم قد سبقت له علينا، فهذا الذي أعطانا الله تعالى ابتداء نعمة وإحسان جديد فله علينا شكره، فيقولون: الحمد لله، ويذكرون الله ويثنون عليه فيكون نفس الإحسان من الله تعالى في حقهم سببًا لقيامهم بشكره، فيعرضون هم على أنفسهم عبادته تعالى فيكون لهم بأدنى عبادة شغل شاغل عن الحور والقصور والأكل والشرب، فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتنابذون ولا يلعبون فيكون حالهم كحال الملائكة في يومنا هذا لا يتناكحون ولا يلعبون، فلا يكون ذلك تكليفًا مثل هذه التكاليف الشاقة، وإنما يكون ذلك لذة زائدة على كل لذة في غيرها.

اللطيفة الثانية: هذه الآية تدل على أن العبد محكم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] وذلك لأنا بينا أن الإحسان هو الإتيان بما هو حسن عند من أتى بالإحسان، لكن الله لما طلب منا العبادة طلب كما أراد، فأتى به المؤمن كما طلب منه، فصار محسنًا فهذا يقتضي أن يحسن الله إلى عبده ويأتي بما هو حسن عنده، وهو ما يطلبه كما يريد فكأنه قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي هل جزاء من أتى بما طلبته منه على حسب إرادتي إلا أن يؤتى بما طلبه مني على حسب إرادته، لكن الإرادة متعلقة بالرؤية، فيجب بحكم الوعد أن تكون هذه آية دالة على الرؤية البلكفية.

اللطيفة الثالثة: هذه الآية تدل على أن كل ما يفرضه الإنسان من أنواع الإحسان من الله تعالى فهو دون الإحسان الذي وعد الله تعالى به لأن الكريم إذا قال للفقير: افعل كذا ولك كذا دينارًا، وقال لغيره افعل كذا على أن أحسن إليك يكون رجاء من لم يعين له أجرًا أكثر من رجاء من عين

له، هذا إذا كان الكريم في غاية الكرم ونهاية الغنى، إذا ثبت هذا فالله تعالى قال: جزاء من أحسَنَ إليَّ أن أُحسِن إليه بما يغبط به، وأوصل إليه فوق ما يشتهيه فالذي يعطي الله فوق ما يرجوه وذلك على وفق كرمه وإفضاله.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

لما ذكر الجزاء ذكر بعده مثله وهو جنتان أخريان، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وفي قوله تعالى: ﴿دُونِهِمَا﴾ وجهان: أحدهما: دونهما في الشرف، وهو ما اختاره صاحب (الكشاف) وقال قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ مع قوله في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] وقوله في هذه: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ مع قوله في الأوليين: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] لأن النضخ دون الجري، وقوله في الأوليين: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] مع قوله في هاتين: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] وقوله في الأوليين: ﴿فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] حيث ترك ذكر الظهائر لعلوها ورفعتها وعدم إدراك العقول إياها مع قوله في هاتين: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] دليل عليه، ولقائل أن يقول: هذا ضعيف؛ لأن عطايا الله في الآخرة متتابعة لا يعطي شيئًا بعد شيء إلا ويظن الظان أنه ذلك أو خير منه. ويمكن أن يجاب عنه تقريرًا لما اختاره الزمخشري أن الجنتين اللتين دون الأوليين لذريتهم الذين ألحقهم الله بهم ولأتباعهم، ولكنه إنما جعلهما لهم إنعامًا عليهم، أي هاتان الأخريان لكم أسكنوا فيهما من تريدون. الثاني: أن المراد دونهما في المكان كأنهم في جنتين ويطلعوا من فوق على جنتين أخريين دونهما، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠] الآية. والغرف العالية عندها أفنان، والغرف التي دونها أرضها مخضرة، وعلى هذا ففي الآيات لطائف:

الأولى: قال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] وقال في هاتين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي مخضرتان في غاية الخضرة، وإدْهَامَّ الشيء أي اسوادَّ لكن لا يستعمل في بعض الأشياء والأرض إذا اخضرت غاية الخضرة تضرب إلى أسود، ويحتمل أن يقال: الأرض الخالية عن الزرع يقال لها: بياض أرض وإذا كانت معمورة يقال لها: سواد أرض كما يقال: سواد البلد، وقال النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ وَمَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١) والتحقيق فيه أن ابتداء الألوان

---

(١) إسناده ضعيف: رواه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٧/ ١٩٦) من طريق ابن السمار أخبرنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي أخبرنا سعيد بن عبد الجبار أخبرنا وقاع بن دغفل السدوسي حدثني عبد الحميد بن صيفي بن صهيب الخير عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال... فذكره ثم قال كذا حدثنا به وقد أسقط منه رجلًا بين ابن السمار وأبي عبد الملك وصحف اسم جد ابن السمار فإنه الحسين بزيادة ياء وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢٧٤) وقال: رواه أبو يعلى وعلي بن معبد في كتاب الطاعة أن رجلًا دعا ابن مسعود إلى وليمة فلما جاء ليدخل=

هو البياض وانتهاءها هو السواد، فإن الأبيض يقبل كل لون والأسود لا يقبل شيئًا من الألوان، ولهذا يطلق الكافر على الأسود ولا يطلق على لون آخر، ولما كانت الخالية عن الزرع متصفة بالبياض واللاخالية بالسواد فهذا يدل على أنهما تحت الأوليين مكانًا، فهم إذا نظروا إلى ما فوقهم، يرون الأفنان تظلهم، وإذا نظروا إلى ما تحتهم يرون الأرض مخضرة، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فائرتان ماؤهما متحرك إلى جهة فوق، وأما العينان المتقدمتان فتجريان إلى صوب المؤمنين فكلاهما حركتهما إلى جهة مكان أهل الإيمان، وأما قول صاحب (الكشاف): النضخ دون الجري فغير لازم لجواز أن يكون الجري يسيرًا والنضخ قويًّا كثيرًا، بل المراد أن النضخ فيه الحركة إلى جهة العلو، والعينان في مكان المؤمنين، فحركة الماء تكون إلى جهتهم، فالعينان الأوليان في مكانهم فتكون حركة مائهما إلى صوب المؤمنين جريًا.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

فهو كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾[الرحمن: ٥٢] وذلك لأن الفاكهة أرضية نحوه البطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات وشجرية نحو النخل وغيره من الشجريات فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] بأنواع الخضر التي منها الفواكه الأرضية وفيهما أيضًا الفواكه الشجرية وذكر منها نوعين وهما الرمان والرطب لأنهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد وأحدهما فاكهة وغذاء، والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز ومالا يؤكل كامن، والآخر بالعكس فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما، كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[الرحمن: ١٧] وقدمنا ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في باطنهن الخير وفي ظاهرهن الحسن والخيرات: جمع خيرة وقد بينا أن في قوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾[الرحمن: ٥٦] إلى أن قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾[الرحمن: ٥٨] إشارة إلى كونهن حسانًا.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إشارة إلى عظمتهن فإنهن ما قُصِرْنَ حجرًا عليهن، وإنما ذلك إشارة إلى

=سمع لهوًا افلم يدخل فقيل له فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وذكره، وزاد ومن رضي عمل قوم كان شريك من عمل به، وهكذا عند الديلمي بهذه الزيادة، ولابن المبارك في الزهد عن أبي ذر نحوه موقوفًا.

ضرب الخيام لهن وإدلاء الستر عليهن، والخيمة: مبيت الرجل كالبيت من الخشب، حتى إن العرب تسمي البيت من الشعر خيمة لأنه معد للإقامة، إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ إشارة إلى معنى في غاية اللطف، وهو أن المؤمن في الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء وإنما الأشياء تتحرك إليه فالمأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه، ويطاف عليهم بما يشتهونه فالحور يكن في بيوت، وعند الانتقال إلى المؤمنين في وقت إرادتهم تسير بهن للارتحال إلى المؤمنين خيام وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور، وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾قد سبق تفسيره.

ثم قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الحكمة في تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم في هذا الموضع مع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر نسائهم في الجنتين المتقدمتين حيث قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ [الرحمن: ٥٤]ثم قال: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]وقال هاهنا: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ ثم قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ﴾؟ والجواب عنه من وجهين أحدهما: أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائمًا لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستفيض وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار في الأرض للكسب، ومنهم من يكون مترددًا في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازمًا قبل قضاء الوطر أو بعده فالله تعالى قال في بيان أهل الجنة: متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع كذلك، ليعلم أنهم دائمًا على السكون فلا تعب لهم لا قبل الاجتماع، ولا بعد الاجتماع وثانيهما: هو أنا بينا في الوجهين المتقدمين أن الجنتين المتقدمتين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم، فهم فيهما وأهلهم في الخيام منتظرات قدوم أزواجهن، فإذا دخل المؤمن جنته التي هي سكناه يتكئ على الفرش وتنتقل إليه أزواجه الحسان، فكونهن في الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش، وأما كونهم في الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل في يومنا، واتكاء المؤمن غير حاصل في يومنا، فقدم ذكر كونهن فيهن هنا وأخره هناك. و﴿ مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال والعامل فيه ما دل عليه قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ وذلك في قوة الاستثناء كأنه قال: لم يطمثهن إلا المؤمنون فإنهم يطمثوهن متكئين وما ذكرنا من قبل في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ [الرحمن: ٥٤]يقال هنا.

المسألة الثانية: الرفرف إما أن يكون أصله من رف الزرع: إذا بلغ من نضارته فيكون مناسبًا لقوله تعالى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]ويكون التقدير أنهم متكئون على الرياض والثياب العبقرية، وإما أن يكون من رفرفة الطائر، وهي حومة في الهواء حول ما يريد النزول عليه فيكون المعنى أنهم على بسط مرفوعة كما قال تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]وهذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]أنهما دونهما في المكان حيث رفعت فرشهم، وقوله تعالى: ﴿ خُضْرٍ﴾

صيغة جمع فالرفرف يكون جمعًا لكونه اسم جنس ويكون واحده رفرفة كحَنْظَلة وحَنْظَل، والجمع في متكئين يدل عليه فإنه لما قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ دل على أنهم على رفارف.

المسألة الثالثة: ما الفرق بين الفرش والرفرف حيث لم يقل: رفارف اكتفاء بما يدل عليه قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ وقال: ﴿فُرُشٍ﴾ ولم يكتف بما يدل عليه ذلك؟ نقول: جمع الرباعي أثقل من جمع الثلاثي، ولهذا لم يجئ للجمع في الرباعي إلا مثال واحد وأمثلة الجمع في الثلاثي كثيرة وقد قرئ: (عَلَى رفارف خضر)، و(رفارف خضار وعباقر).

المسألة الرابعة: إذا قلنا: إن الرفرف هي البسط فما الفائدة في الخضر حيث وصف تعالى ثياب الجنة بكونها خضرًا قال تعالى: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ [الإنسان: ٢١] نقول: ميل الناس إلى اللون الأخضر في الدنيا أكثر، وسبب الميل إليه هو أن الألوان التي يظن أنها أصول الألوان سبعة وهي الشفاف وهو الذي لا يمنع نفوذ البصر فيه ولا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء الصافي وغيرهما ثم الأبيض بعده ثم الأصفر ثم الأحمر ثم الأخضر ثم الأزرق ثم الأسود، والأظهر أن الألوان الأصلية ثلاثة الأبيض والأسود وبينهما غاية الخلاف والأحمر متوسط بين الأبيض والأسود فإن الدم خلق على اللون المتوسط، فإن لم تكن الصحة على ما ينبغي فإن كان لفرط البرودة فيه كان أبيض وإن كان لفرط الحرارة فيه كان أسود لكن هذه الثلاثة يحصل منها الألوان الأخر فالأبيض إذا امتزج بالأحمر حصل الأصفر يدل عليه مزج اللبن الأبيض بالدم وغيره من الأشياء الحمر وإذا امتزج الأبيض بالأسود حصل اللون الأزرق يدل عليه خلط الجص المدقوق بالفحم وإذا امتزج الأحمر بالأسود حصل الأزرق أيضًا لكنه إلى السواد أميل، وإذا امتزج الأصفر بالأزرق حصل الأخضر من الأصفر والأزرق وقد علم أن الأصفر من الأبيض والأحمر والأزرق من الأبيض والأسود والأحمر والأسود فالأخضر حصل فيه الألوان الثلاثة الأصلية فيكون ميل الإنسان إليه لكونه مشتملًا على الألوان الأصلية وهذا بعيد جدًّا والأقرب أن الأبيض يفرق البصر ولهذا لا يقدر الإنسان على إدامة النظر في الأرض عند كونها مستورة بالثلج وإنه يورث الجهر، والنظر إلى الأشياء السود يجمع البصر ولهذا كره الإنسان النظر إليه وإلى الأشياء الحمر كالدم والأخضر لما اجتمع فيه الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض وحصل اللون الممتزج من الأشياء التي في بدن الإنسان وهي الأحمر والأبيض والأصفر والأسود ولما كان ميل النفس في الدنيا إلى الأخضر ذكر الله تعالى في الآخرة ما هو على مقتضى طبعه في الدنيا.

المسألة الخامسة: العبقري منسوب إلى عبقر وهو عند العرب موضع من مواضع الجن فالثياب المعمولة عملًا جيدًا يسمونها عبقريات مبالغة في حسنها كأنها ليست من عمل الإنس، ويستعمل في غير الثياب أيضًا حتى يقال للرجل الذي يعمل عملًا عجيبًا: هو عبقري أي من ذلك البلد قال ﷺ في المنام الذي رآه: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ»[1] واكتفى بذكر اسم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة) باب (مناقب عمر بن الخطاب. . .) (٣/ ١٣٤٧) حديث رقم (٣٤٧٩) من طريق محمد بن بشر. . . به ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٢/ ٢٣٩٣) قال حدثنا=

الجنس عن الجمع ووصفه بما توصف به الجموع فقال ﴿حِسَانٍ﴾: وذلك لما بينا أن جمع الرباعي يستثقل بعض الاستثقال، وأما من قرأ: (عَبَاقِرِيٍّ) فقد جعل اسم ذلك الموضع عباقر فإن زعم أنه جمعه فقد وهم، وإن جمع العبقري ثم نسب فقد التزم تكلفًا خلاف ما كلف الأدباء التزامه فإنهم في الجمع إذا نسبوا ردوه إلى الواحد وهذا القارئ تكلف في الواحد ورده إلى الجمع ثم نسبه لأن عند العرب ليس في الوجود بلاد كلها عبقر حتى تجمع ويقال: عباقر، فهذا تكلف الجمع فيما لا جمع له ثم نسب إلى ذلك الجمع والأدباء تكره الجمع فيما ينسب لئلا يجمعوا بين الجمع والنسبة.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب، وفيه وجوه أحدها: أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إشارة إلى أن الباقي والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية، والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى، ثانيها: هو أنه تعالى في أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥] وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك هاهنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى، وقال في السورة التي بعد هذه: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] ثالثها: أنه تعالى ذكر جميع اللذات في الجنات، ولم يذكر لذة السماع وهي من أتم أنواعها، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يسمعون ذكر الله تعالى.

المسألة الثانية: أصل التبارك من البركة وهي الدوام والثبات، ومنها بروك البعير وبركة الماء، فإن الماء يكون فيها دائمًا، وفيه وجوه أحدها: دام اسمه وثبت، وثانيها: دام الخير عنده لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير، وثالثها: تبارك بمعنى علا وارتفع شأنًا لا مكانًا.

المسألة الثالثة: قال بعد ذكر نعم الدنيا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال بعد ذكر نعم الآخرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ لأن الإشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت إلى عدم كل شيء من الممكنات وفنائها في ذواتها، واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هناك يوحد الله غاية التوحيد فقال: ويبقى وجه الله تعالى والإشارة هنا، وقعت إلى أن بقاء أهل الجنة بإبقاء الله ذاكرين اسم الله

=أبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير واللفظ لأبي بكر قالا حدثنا محمد بن بشر حدثنا عبيد الله بن عمر حدثني أبو بكر بن سالم عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال. . . فذكره.

متلذذين به فقال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي في ذلك اليوم لا يبقى اسم أحد إلا اسم الله تعالى به تدور الألسن ولا يكون لأحد عند أحد حاجة بذكره ولا من أحد خوف، فإن تذاكروا تذاكروا باسم الله.

المسألة الرابعة: الاسم مقحم أو هو أصل مذكور له التبارك، نقول: فيه وجهان: أحدهما: وهو المشهور أنه مقحم كالوجه في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يدل عليه قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤] و: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وغيره من صور استعمال لفظ تبارك، وثانيهما: هو أن الاسم تبارك، وفيه إشارة إلى معنى بليغ، أما إذا قلنا: تبارك بمعنى علا فمن علا اسمه كيف يكون مسماه وذلك لأن الملك إذا عظم شأنه لا يذكر اسمه إلا بنوع تعظيم ثم إذا انتهى الذاكر إليه يكون تعظيمه له أكثر، فإن غاية التعظيم للاسم أن السامع إذا سمعه قام كما جرت عادة الملوك أنهم إذا سمعوا في الرسائل اسم سلطان عظيم يقومون عند سماع اسمه، ثم إن أتاهم السلطان بنفسه بدلاً عن كتابه الذي فيه اسمه يستقبلونه ويضعون الجباه على الأرض بين يديه، وهذا من الدلائل الظاهرة على أن علو الاسم يدل على علو زائد في المسمى، أما إن قلنا: بمعنى دام الخير عنده فهو إشارة إلى أن ذكر اسم الله تعالى يزيل الشر ويهرب الشيطان ويزيد الخير ويقرب السعادات، وأما إن قلنا: بمعنى دام اسم الله، فهو إشارة إلى دوام الذاكرين في الجنة على ما قلنا من قبل.

المسألة الخامسة: القراءة المشهورة هاهنا: (ذِي الْجَلالِ) وفي قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ﴾ لأن الجلال للرب، والاسم غير المسمى، وأما وجه الرب فهو الرب فوصف هناك الوجه ووصف هاهنا الرب دون الاسم، ولو قال: ويبقى الرب لتوهم أن الرب إذا بقي ربًّا فله في ذلك الزمان مربوب، فإذا قال وجه أُنسي المربوب فحصل القطع بالبقاء للحق فوصف الوجه يفيد هذه الفائدة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

سورة الرحمن عزَّ وجلَّ

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آيةً منها، هي قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [٢٩]، وهي ستٌّ وسبعون آيةً. وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنيَّة كلُّها(١).

والقول الأوَّل أصحُّ(٢)؛ لما روى عُرْوة بن الزبير قال: أوَّل من جهر بالقرآن بمكَّة بعد النبيِّ ﷺ ابنُ مسعود، وذلك أنَّ الصحابة قالوا: ما سمعت قريشٌ هذا القرآنَ يُجهَر به قطُّ، فمَن رجلٌ يُسْمِعْهُمُوه؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: إنَّا نخشى عليك، وإنَّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام فقال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ» ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأمَّلوا وقالوا: ما يقول ابنُ أُمِّ عَبْد؟ قالوا: هو يقول: الذي يزعم محمَّد أنَّه أُنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثَّروا في وجهه(٣).

وصحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ قام يُصلِّي الصبح بنخلةَ، فقرأ سورة «الرَّحْمَن» ومرَّ النفر من الجنِّ فآمنوا به(٤). وفي «الترمذي» عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورةَ «الرَّحْمَن» من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّب، فلكَ الحمدُ» قال: هذا حديث غريب(٥). وفي هذا دليل على أنَّها مكيَّة، والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣ .

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٣٥) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، وأحمد (٢٢٧١) عن ابن عباس دون ذكر سورة الرحمن، وذُكرت في الخبر الآتي.

(٥) الترمذي (٣٢٩١).

وروي أنَّ قيس بنَ عاصم المِنْقري قال للنبيِّ ﷺ: اتْلُ عليَّ ممَّا أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة «الرَّحْمن» فقال: أَعِدْها. فأعادها ثلاثاً، فقال: واللهِ إنَّ له لطلاوةً، وإنَّ عليه لحلاوةً، وأَسفلَه لَمُغْدِقٌ، وأَعلاه مثمرٌ، وما يقول هذا بشرٌ، وأنا أَشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّكَ رسولُ الله[1]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شيء عَروس، وعَروس القرآن سورة الرحمن»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ② خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ④ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⑨ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ⑪ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ⑫ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبيُّ: «الرَّحْمَنُ» فاتحةُ ثلاث سور إذا جُمِعْنَ كنَّ اسماً من أسماء الله تعالى: «الّر» و«حمّ» و«نّ» فيكون مجموع هذه «الرَّحْمَنُ»[3]. «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علَّمه نبيَّه ﷺ حتى أدَّاه إلى جميع الناس[4].

ونزلت حين قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ وقيل: نزلت جواباً لأهل مكَّة حين قالوا: إنَّما

---

(١) لم نقف عليه هكذا، بل جاء وصف القرآن هكذا في خبر الوليد بن المغيرة، وسلف ١٢/ ٤١١ ، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٧٣ بهامش الإصابة) خبراً عن خالد بن عقبة بنحوه، إلا أن فيه أن النبي ﷺ قرأ عليه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..﴾ الآية، بدل سورة الرحمن.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٤). قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٢٨٦ : فيه علي بن الحسن دبيس، عدَّه الذهبي في الضعفاء والمتروكين. وقال الدارقطني: ليس بثقة. اهـ

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ونسبه لابن جبير وابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

يعلِّمه بشر[١]، وهو رحمان اليمامة، يعنون مسيلِمَة الكذَّاب، فأنزل الله تعالى: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ»[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: سهَّله لأنْ يُذكَر ويُقرأ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]. وقيل: جعله علامةً لما تعبّد الناس به.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن: يعني آدمَ عليه السلام[٤]. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أسماءَ كلِّ شيء. وقيل: علَّمه اللغاتِ كلَّها[٥]. وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان: الإنسان هاهنا يُراد به محمَّد ﷺ[٦]، والبيان: بيانُ الحلال من الحرام[٧]، والهدى من الضلال[٨]. وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنَّه بَيّن عن الأوَّلين والآخِرين ويوم الدِّين[٩]. وقال الضحَّاك: «البيان»: الخير والشرُّ[١٠]. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضرُّه، وقاله قتادة.

وقيل: «الْإِنْسَان» يُراد به جميع الناس، فهو اسمٌ للجنس، و«الْبَيَان» على هذا: الكلامُ والفهم، وهو مما فُضِّل به الإنسان على سائر الحيوان[١١]. وقال السُّدِّيُّ: علَّم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ٩٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ عن الحسن وقتادة، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٦٨ - ١٦٩ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣ عن ابن كيسان.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٦٩ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لابن جريج.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وقوله: البيان: الكلام والفهم. أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٠ عن ابن زيد.

كلَّ قوم لسانهم الذي يتكلَّمون به[١]. وقال يمان: الكتابة والخطُّ بالقلم[٢]. نظيره: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحساب معلوم، فأضمر الخبر[٣]. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي: يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يَحيدان عنها[٤]. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني أنَّ بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يَدْرِ أحدٌ كيف يَحسُب شيئاً لو كان الدهر كلُّه ليلاً أو نهاراً[٥]. وقال السُّدِّيُّ: «بِحُسْبَانٍ» تقدير آجالهما، أي: تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما أهلكا[٦]، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. وقال الضحَّاك: بقَدَر[٧]. مجاهد: «بِحُسْبَانٍ» كحسبان الرَّحَى[٨]. يعني قطبها يدوران في مثل القطب.

والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه ـ بالضَّمِّ ـ حَسْباً وحُسْباناً، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابة أيضاً، أي: عَدَدْته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحِسَاب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان، أيضاً بالضمِّ: العذابُ، والسهامُ القصار، وقد مضى في «الكهف»[٩] الواحدة حُسْبانة، والحُسْبانة أيضاً: الوسادة الصغيرة، تقول منه: حَسَّبتُه، إذا وسَّدْته، قال:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .
(٢) زاد المسير ٨/ ١٠٦ .
(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠١ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٧٠ - ١٧١ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧١ عن ابن زيد.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ولم يعزه.
(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٧٢ ، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، قال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٩٨ عن قول مجاهد: ومراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرحوية الدورية، وعلى وضعها.
(٩) عند الآية (٤١).

... لَـشُـوِيْـتَ غَـيْـرَ مُـحَـسَّـب

أي: غير موسَّد، يعني: غيرَ مكرَّم ولا مكَفَّن(١).

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ قال ابن عباس وغيره: النجم: ما لا ساقَ له، والشجر: ما له ساق(٢)، وأنشد ابنُ عباس قولَ صفوان بن أسد التميمي:

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبيرُ عِضَاهه وتَمَّ بـه حَيّا تَمِيم ووَائِلِ(٣)

وقال زهير بن أبي سُلْمى:

مُكَلَّلٌ بأُصولِ النَّجْم تَنْسِجُه ريحُ الجَنوب لِضاحِي مائه حُبُكُ(٤)

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضَّمّ نجوماً: ظهر وطلَع(٥).

وسجودهما بسجود ظلالهما، قاله الضحَّاك(٦). وقال الفرَّاء(٧): سجودهما أنَّهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفَيْء. وقال الزجَّاج(٨): سجودهما: دوران الظِّلّ معهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ [النحل:٤٨]. وقال الحسن ومجاهد: النجم: نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظلِّه، وهو

---

(١) الصحاح (حسب)، والبيت لنهيكة الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل، وتمامه:

للمست بالرصعاء طعنة فاتك حرَّان أو لثويت غير محسب

وأورده ابن منظور في لسان العرب (حسب) وجاءت روايته هكذا:

لَتَقيتَ بالوَجعاء طعنة مرهف مُرَّان أو لثويتَ غيرَ محسَّب

والوجعاء: الاست، أي: لو طَعَنتُك لوليتني دبرك.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٩٦، وما بعده منه أيضاً، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ونسبه لابن عباس والسدي وسفيان، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٦ عن ابن عباس وسفيان وسعيد، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٢ (١٨٧١٧) عن ابن عباس.

(٣) أورده الشوكاني في فتح القدير ٥/ ١٣١ ولم ينسبه.

(٤) سلف ١٩/ ٤٧٢.

(٥) الصحاح (نجم).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٢.

(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٩٦.

اختيار الطبريّ[١]، حكاه المهدويُّ. وقيل: سجود النجم: أُفوله، وسجود الشجر: إمكان الاجتناء لثمرها، حكاه الماورديُّ[٢]. وقيل: إنَّ جميع ذلك مسخَّر لله[٣]، فلا تعبدوا النجم كما عَبَدَ قوم من الصابئين النجومَ، وعَبَدَ كثير من العجم الشجرَ.

والسجود: الخضوع، والمعنيُّ به آثار الحدوث، حكاه القشيريُّ. النحَّاس: أصل السجود في اللغة: الاستسلام والانقياد لله عزَّ وجلَّ، فهو من الموات كلِّها: استسلامها لأمر الله عزَّ وجلَّ وانقيادها له، ومن الحيوان كذلك، ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحيرة سَرِيعٍ بأَيْدي الآكِلينَ جُمُودُهَا[٤]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وقرأ أبو السَّمَّال: «والسَّمَاءُ» بالرفع على الابتداء[٥]، واختار ذلك؛ لما عطف على الجملة التي هي: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» فجعل المعطوف مركباً من ابتداء وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب؛ على إضمار فعل يدلُّ عليه ما بعده.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل، عن مجاهد وقتادة والسديّ[٦]. أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع اللهُ الشريعةَ، ووضع فلانٌ كذا، أي: ألقاه. وقيل على هذا: الميزان: القرآن؛ لأنَّ فيه بيان ما يحتاج إليه، وهو قول الحسين بن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضاً ـ والضحَّاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به؛ لينتصف به الناس بعضهم من بعض[٧].

---

(١) في التفسير ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٧ وأخرجه عنهما، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٩ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأَفَل: غاب. اللسان (أفل).

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٢٣ .

(٤) القائل الراعي النميري، وسلف ص٧ من هذا الجزء.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ .

(٧) زاد المسير ٨/ ١٠٧ .

وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» والقسط: العدل[١].

وقيل: هو الحكم[٢]. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل ميزان مِوْزان، وقد مضى في «الأعراف»[٣] القول فيه.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ موضع «أنْ» يجوز أن يكون نصباً على تقدير حذف حرف الجرِّ، كأنَّه قال: لئلا تطغوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦]. ويجوز ألا يكون لـ «أن» موضع من الإعراب، فتكون بمعنى «أي» و«تَطْغَوْا» على هذا التقدير مجزوماً[٤]، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦] أي: امشوا.

والطغيان: مجاوزة الحدِّ. فمن قال: الميزان: العدل، قال: طغيانه: الجَوْر. ومن قال: إنَّه الميزان الذي يُوزَن به، قال: طغيانه: البَخْس. قال ابن عباس: أي: لا تخونوا من وزنتم له. وعنه أنَّه قال: يا معشرَ الموالي! وُلِّيتم أمرَيْن بهما هلك الناسُ: المكيال والميزان. ومن قال: إنَّه الحُكْم قال: طغيانه: التحريف[٥]. وقيل: فيه إضمار، أي: وضَع الميزانَ وأمرَكم ألا تَطْغَوْا فيه.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: افعلوه مستقيماً بالعدل. وقال أبو الدرداء ﷺ: أقيموا لسانَ الميزان بالقسط والعدل. وقال ابن عيينة: الإقامة باليد، والقِسْط بالقلب[٦]. وقال مجاهد: القسط: العدل[٧]، بالروميَّة. وقيل: هو كقولك: أقام

---

(١) الوسيط ٤/ ٢١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ .

(٣) ٩/ ١٥٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وعزا القول الأول لمجاهد، والثاني لمقاتل، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ .

الصلاة، أي: أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم، أي: أَتَوْها لوقتها. أي: لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الميزان[١]، ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]. وقال قتادة في هذه الآية: اعْدِل يا ابنَ آدمَ كما تحبُّ أن يُعدَل عليك، وأَوْفِ كما تحبُّ أن يُوفى لك؛ فإنَّ بالعدل صلاحَ الناس[٢]. وقيل: المعنى: ولا تخسروا ميزانَ حسناتكم يوم القيامة[٣]، فيكون ذلك حسرة عليكم. وكرّر الميزان؛ لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير؛ للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه[٤].

وقراءة العامة: «تُخْسِرُوا» بضمِّ التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين[٥]، وهما لغتان، يقال: أَخْسَرت الميزان وخَسَرْته، كأَجْبَرته وجَبَرْته. وقيل: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين؛ محمول على تقدير حذف حرف الجرِّ، والمعنى: ولا تخسروا في الميزان.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الأنام: الناس، عن ابن عباس. الحسن: الجنُّ والإنس[٦]. الضحَّاك: كلُّ ما دبَّ على وجه الأرض. وهذا عامٌّ.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: كلُّ ما يتفكَّه به الإنسان من ألوان الثمار[٧]. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الأكمام: جمع كِمٍّ، بالكسر[٨]. قال الجوهريُّ[٩]: والكِمَّة ـ بالكسر ـ

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٠٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ .

(٤) الكشاف ٤/ ٤٤ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٠٣ ، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة عن بلال أنه قرأ: ولا تَخْسِر الميزان. بالمفرد، وعنه أيضاً: تَخْسِيروا.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨٠ .

(٧) الوسيط ٤/ ٢١٨ .

(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥٦ .

(٩) في الصحاح (كمم).

والكِمَامة: وعاء الطَّلْع وغِطاء النَّوْر، والجمع: كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً. وكُمَّ الفصيلُ: إذا أُشفق عليه فَسُتِر حتى يَقْوَى، قال العجَّاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَاسَ إذْ تُكُمُّوا بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا[١]

وتُكُمُّوا، أي: أُغمي عليهم وغُطُّوا.

وأَكَمَّت [النَّخلةُ] وكَمَّمَتْ، أي: أخرجت أكمامها. والكِمَام ـ بالكسر ـ والكِمَامة أيضاً: ما يُكَمُّ به فمُ البعير؛ لئلا يعضَّ، تقول منه: بعير مكموم، أي: مَحْجوم. وكَمَمْتُ الشيءَ: غطَّيته. والكَمُّ: ما ستر شيئاً وغطَّاه، ومنه كُمُّ القميص بالضمِّ، والجمع: أكْمَام وكِمَمَة، مثل حُبٍّ وحِبَبَة. والكُمَّة: القَلَنْسوة المدوَّرة؛ لأنَّها تُغطِّي الرأس[٢]. قال:

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّةِ بعضِكُمْ دَرَاهِمَكُمْ إنِّي كذلك أَكْيَلُ[٣]

قال الحسن: «ذَاتُ الْأَكْمَامِ» أي: ذات الليف، فإنَّ النخلة قد تُكَمَّم بالليف، وكِمَامها: ليفها الذي في أعناقها. ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتَّق[٤]. وقال عكرمة: ذات الأحمال.

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ الحبُّ: الحِنطة والشعير ونحوهما[٥]. والعصف: التِّبْن، عن الحسن وغيره[٦]. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ابن عباس: تِبْنُ الزرعِ

---

(١) ديوان العجاج ص٣٧٤ ، والرجز يذكر فيه مقتل مسعود بن عمرو العتكي من الأزد، وروايته هكذا:

بل لو شَهِدْتَ الناس إذ تكمُّوا بقَدَر حمَّ لهم وحمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تفرَّج غمُّوا إذ زعمت ربيعةُ القِشْعَمُ

قال شارحه: قوله: تكمُّوا: أي: اعتُمِدوا وستروا بهذا القَدَر وغمُّوا به. أي: قُدِّر القَدَر لهم، وقُدِّروا له. والغمَّة: ما غطَّاك من شيء وغمَّك. والقِشْعَمُ: المُسِنُّ.

(٢) الصحاح (كمم)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٣ - ١٨٥ .

وورقُه الذي تَعصِفه الرياح[١]. سعيد بن جبير: بَقْل الزرع، أي: أوَّل ما ينبت منه، وقاله الفرَّاء[٢]. والعرب تقول: خرجنا نَعصِف الزرع: إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك. وكذا في «الصحاح»[٣]: وعَصَفتُ الزَّرعَ، أي: جززته قبل أن يُدرِك. وعن ابن عباس أيضاً: العصف: ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٤] [الفيل: ٥]. الجوهريُّ: وقد أعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف، أي: كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأسْلت الأنصاريُّ:

إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ[٥]

والعَصْف أيضاً: الكَسْب، ومنه قول الراجز:

بغيرِ ما عَصْفٍ ولا اصْطِرَافِ[٦]

وكذلك: الاعتصاف. والعَصِيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنبل. وقال الهرويُّ: والعصف والعَصِيفة: ورق السُّنْبل[٧]. وحكى الثعلبيُّ: وقال ابن السِّكِّيت: تقول العرب لورق الزرع: العصف، والعَصِيفة، والجِلُّ، بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا حَدُورُهَا من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦، وزاد المسير ٨/ ١٠٨.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٣، وما بعده منه.

(٣) مادة: (عصف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٣.

(٥) الصحاح (عصف) وما بعده منه أيضاً، والبيت ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ٢٧٥ دون نسبة، وقال ابن بري: هو لأحيحة بن الجلاح لا لأبي قيس. لسان العرب (عصف).

(٦) الصحاح (عصف)، والرجز في ديوان العجاج ص١٤٧، قال شارحه: والاصطراف: التقلُّب في الأمور، والتصرُّف في المعيشة.

(٧) تهذيب اللغة ٢/ ٤٢ دون عزو إلى الهروي.

(٨) ديوان علقمة بن عبدة ص٥٥.

وفي «الصحاح»(١): والجِلُّ، بالكسر: قصب الزرع إذا حُصِد.

والريحان: الرزق، عن ابن عباس ومجاهد(٢). الضحَّاك: هي لغة حِمْير(٣). وعن ابن عباس أيضاً والضحَّاك وقتادة: أنَّه الريحان الذي يشمُّ، وقاله ابن زيد(٤). وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه خضرة الزرع(٥)، وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق(٦). وقال الفرَّاء(٧): العصف: المأكول من الزرع، والريحان: ما لا يؤكل. وقال الكلبيُّ: إنَّ العصف: الورق الذي لا يؤكل. والريحان: هو الحبُّ المأكول(٨). وقيل: الريحان: كلُّ بقلة طيِّبة الريح، سميت رَيْحاناً؛ لأنَّ الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة. أي: يشمُّ، فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة، وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء؛ للفرق بينه وبين الرُّوحانيِّ: وهو كلُّ شيء له رُوح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء رُوحاني وريحاني، أي: له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان، فأصله رَيْوَحان، فأبدل من الواو ياء، وأدغم، كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف؛ لطوله، ولحاق الزائدتين الألفِ والنونِ، والأصل فيما يتركَّب من الراء والواو والحاء: الاهتزاز والحركة(٩). وفي «الصحاح»: والرَّيْحان: نبت معروف، والريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغي رَيْحَانَ اللهِ، قال النَّمِرُ بن تَوْلَب(١٠):

---

(١) مادة: (جلل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/١٨٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٠ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٥ وفيه: الورق بلسان حمير.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ عن الحسن والضحاك وابن زيد، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٨/١٠٩ ابن عباس، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٤ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ .

(٩) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٨ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥ .

(١٠) الصحاح (روح)، والبيت في ديوان النمر ص٥٥ .

سلامُ الإلهِ وريحانُهُ ورحمتُهُ وسماءٌ دِرَرْ

وفي الحديث: «الولد من ريحانِ الله»[١]. وقولهم: سبحانَ اللهِ وريحانَه، نصبوهما على المصدر، يريدون تنزيهاً له واسترزاقاً. وأما قوله: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» فالعصف: ساق الزرع، والريحان: ورقه، عن الفرَّاء[٢].

وقراءة العامة: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيحَانُ» بالرفع فيها كلِّها؛ على العطف على الفاكهة. ونصبها كلَّها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة[٣]؛ عطفاً على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي: وخلق الحبَّ ذا العصف والريحان، فمن هذا الوجه يحسن الوقف على «ذَاتُ الْأَكْمَامِ»[٤]. وجرَّ حمزة والكسائي: «الريحان»[٥]؛ عطفاً على العصف، أي: فيها الحبُّ ذو العصفِ والريحانِ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحانَ الرزقَ، فيكون كأنَّه قال: والحبُّ ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقاً؛ لأنَّ العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهةَ فيه في قول من قال: إنَّه الريحان المشموم.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب للإنس والجنِّ؛ لأنَّ الأنام واقع عليهما[٦]. وهذا قول الجمهور، يدلُّ عليه حديث جابر المذكور أوَّل السورة، وخرَّجه

---

(١) أخرج أحمد (٢٧٣١٤)، والترمذي (١٩١٠) عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابْنَي ابنته وهو يقول: إنكم لتبخِّلون وتُجَبِّنون وتجهِّلون، وإنكم لمن ريحان الله. قال الترمذي: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً من خولة.

(٢) الصحاح (روح)، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٣ : العصف: بقل الزرع، والريحان: رزقه.

(٣) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠-٦٩١ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٥ - ٩١٦ .

(٥) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠ - ٦٩١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ .

الترمذيُّ وفيه: «لَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا»[١]. وقيل: لما قال: «خَلَقَ الإِنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» دلَّ ذلك على أنَّ ما تقدَّم وما تأخَّر لهما[٢]. وأيضاً قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ» وهو خطاب للإنس والجنِّ، وقد قال في هذه السورة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ». وقال الجرجانيُّ: خاطب الجنَّ مع الإنس وإن لم يتقدَّم للجنِّ ذِكْر، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقد سبق ذكر الجنِّ فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة، فإذا ثبت أنَّهم مكلَّفون كالإنس خُوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية[٣]، حسب ما تقدَّم من القول في ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[٤] [ق: ٢٤]. وكذلك قوله:

قِفَا نَبْكِ[٥]...

و: خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي[٦]...

فأما ما بَعْدَ «خَلَقَ الإِنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» فإنَّه خطاب للإنس والجنِّ، والصحيح قول الجمهور؛ لقوله تعالى: «وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ» والآلاء: النِّعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إِلًى وَأَلًى مثل مِعًى وعصاً، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحَّاس[٧] قال: وفي واحد «آنَاءَ اللَّيْلِ» ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف، المسكنة

(١) هذا لفظ الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٧٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ، وسلف ص١١١ من هذا الجزء عن الترمذي بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٥ .

(٤) ١٩/ ٤٤٧ .

(٥) البيت مطلع معلقة امرئ القيس، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٦) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وتمامه:

خليليَّ مُرَّا بي على أمِّ جندب نُقضِّ لبانات الفؤاد المعذَّب

قال شارحه: اللُّبانات: جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٧) في إعراب القرآن له ٤/ ٢٨٢ .

اللام، وقد مضى في «الأعراف» و«النجم»[١]. وقال ابن زيد: إنَّها القدرة، وتقدير الكلام: فبأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، وقاله الكلبيُّ[٢]، واختاره الترمذيُّ محمد بن عليٍّ، وقال: هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن، والعَلَم إمام الجند، والجند تتبعه، وإنَّما صارت عَلَماً؛ لأنَّها سورة صفة الملك والقدرة، فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» فافتتح السورةَ باسم الرحمن من بين الأسماء؛ ليعلم العباد أنَّ جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» ثم ذكر الإنسانَ فقال: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» ثم ذكر ما صنع به وما منَّ عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر، وذكر رَفْع السماء ووَضْع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين الجنَّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثانَ وكلَّ معبود اتَّخذوه من دونه، وجحدوا الرحمةَ التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلاً لهم: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّما كان تكذيبهم أنَّهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يَملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبُهم. ثم ذكر خَلْق الإنسان من صلصال، وذكر خَلْق الجانِّ من مارج من نار، ثم سألهم فقال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّ له في كلِّ خَلْق بعد خَلْق قدرة بعد قدرة، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، واتِّخاذ الحجَّة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلق.

وقال القُتَبيُّ: إنَّ الله تعالى عدَّد في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خَلْقه آلاءه، ثم أَتبع كلَّ خَلَّة وصَفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمتين لينبِّههم على النِّعم ويقرِّرهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: أَلَم تكن

---

(١) ٩/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، و ص٦٥ من هذا الجزء.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ .

فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟! أَلَم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟! أَلَم تكن صَرُورة فحججتُ بك، أفتنكر هذا!؟ أَلَم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟! والتكرير حَسن في مثل هذا[١]. قال:

كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ[٢]

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً إيَّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ[٣]

وقال آخر:

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ عيناكَ من قول كاشح أشِرِ
ولا تَملَّنَّ من زيارته زُرْهُ وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير؛ طرداً للغفلة، وتأكيداً للحجَّة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لما ذكر سبحانه خَلْق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته، ذَكَر خَلْق العالم الصغير فقال: «خَلَقَ الإنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعني: آدم[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/٢٦٨، وزاد المسير ٨/١١١ - ١١٢، والصرورة: الرجل الذي لم يحجَّ قط. اللسان (صرر).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٨٣، وزاد المسير ٨/١١١، وأمالي المرتضى ١/١٢١ ولم ينسبوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٢٢٦.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الذي يُسمَع له صلصة، شبَّهه بالفَخَّار الذي طُبِخَ[١]. وقيل: هو طين خُلطَ برمل[٢]. وقيل: هو الطين المنتن، من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ: إذا أنتنَ[٣]، وقد مضى في «الحجر»[٤]. وقال هنا: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»، وقال هناك: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١]. وقال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩] وذلك متَّفق المعنى، وذلك أنَّه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم انتقل فصار كالحمإِ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخَّار[٥].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قال الحسن: الجانُّ: إبليس وهو أبو الجنِّ[٦]. وقيل: الجانُّ: واحد الجنِّ. والمارج: اللهب، عن ابن عباس[٧]، وقال: خلق الله الجانَّ من خالص النار. وعنه أيضاً: من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت[٨]. وقال الليث: المارج: الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد[٩]. وعن ابن عباس أنَّه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر، ونحوه عن مجاهد[١٠]، وكلُّه متقارب المعنى. وقيل: المارج: كلُّ أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرِّد، قال المبرِّد: المارج: النار المرسلة التي لا تمنع[١١]. وقال أبو عبيدة

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٧ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه لابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه للضحاك.

(٤) ١٠/ ٢١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٨ .

(٦) زاد المسير ٤/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢ .

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ عن ابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٦ .

(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ .

والحسن: المارج: خلط النار. وأصله من مرج: إذا اضطرب واختلط[١]. ويروى أنَّ الله تعالى خلَق نارَيْن فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم، فخلق منها إبليس. قال القُشَيريُّ: والمارج في اللغة: المرسل أو المختلط، وهو فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والمعنى: ذو مرج، قال الجوهريُّ في «الصحاح»[٢]: و«مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»: نار لا دخانَ لها، خُلقَ منها الجانُّ .﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: هو ربُّ المشرقين. وفي «الصافات»: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ [الآية:٥] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك[٣].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ «مَرَجَ» أي: خَلَّى وأرسل وأهمل، يقال: مرج السلطانُ الناسَ: إذا أهملهم. وأصل المَرْج: الإهمال، كما تُمْرَج الدابّةُ في المرعى[٤]. ويقال: مَرَجَ: خَلَطَ. وقال الأخفش: ويقول قوم: أَمْرَج البحرين، مثل مَرَج، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى[٥].

«الْبَحْرَيْنِ» قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض، وقاله مجاهد وسعيد بن جبير[٦]. «يَلْتَقِيَانِ» في كلِّ عام[٧]. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣ .

(٢) مادة: (مرج).

(٣) ٨/١٨ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨ .

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس وابن جبير، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فارس والروم[١]. وقال ابن جريج: إنَّه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان[٢].

«بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أي: حاجز، فعلى القول الأوَّل ما بين السماء والأرض، قاله الضحَّاك. وعلى القول الثاني: الأرض التي بينهما وهي الحجاز، قاله الحسن وقتادة[٣]. وعلى غيرهما من الأقوال: القدرة الإلهية، على ما تقدَّم في «الفرقان»[٤].

وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ الله تعالى كلَّم الناحية الغربيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويُكَبِّروني ويهلِّلُوني ويُمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ فقالت: أُغرقُهم يا ربّ. قال: إنِّي أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كَلَّم الناحية الشرقيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويكَبِّروني ويهلِّلُوني ويمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ قالت: أسبِّحكَ معهم إذا سَبَّحوكَ، وأكبِّرك معهم إذا كبَّروك، وأُهلِّلك معهم إذا هلَّلُوكَ، وأُمَجِّدُك معهم إذا مجَّدوك، فأثابها الله الْحِلية، وجعل بينهما برزخاً، وتحوَّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً» ذكر هذا الخبر الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله قال: حدَّثنا صالح بن محمد، حدَّثنا القاسم العمريُّ، عن سهل، عن أبيه، عن أبي هريرة.

«لَا يَبْغِيَانِ» قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم، جعل بينهما وبين الناس يَبَساً[٥]. وعنه أيضاً ومجاهد: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ابن زيد: المعنى «لَا يَبْغِيَانِ» أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا[٦]. وقيل: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة[٧]، أي: بينهما مدَّة

(١) تفسير البغوي ٤/٢٦٩، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ .
(٤) ١٥/ ٤٥١ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٠٣ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٤ عن ابن زيد.
(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣ .

قدَّرها الله وهي مدَّة الدنيا، فهما لا يبغيان، فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]. وقال سهل ابن عبد الله: البحران: طريق الخير والشرِّ، والبرزخ الذي بينهما: التوفيق والعصمة[١].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحَبّ والعصف والريحان.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «يُخْرَجُ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على الفعل المجهول. الباقون: «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضمِّ الراء على أنَّ اللؤلؤ هو الفاعل[٢].

وقال: «مِنْهُمَا» وإنَّما يخرج من الملح لا العذب؛ لأنَّ العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسل من الإنس دون الجنِّ، قاله الكلبيُّ وغيره[٣]. قال الزجَّاج[٤]: قد ذكرهما الله، فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥] والقمر في سماء الدنيا ولكن أَجْمَلَ ذِكْر السبع، فكأنَّ ما في إحداهنَّ فيهنَّ. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: هذا من باب حذف المضاف[٥]. أي: من أحدهما، كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: من إحدى القريتين[٦]. وقال الأخفش سعيد[٧]:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ ، والقراءة في السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والنشر ٢/ ٣٨٠ ، إلا أنه جاء في السبعة برفع الياء وكسر الراء. وقد أشار إلى هذه القراءة أبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠٧ ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ إلى أبي عمرو في رواية حسين الجعفي عنه.

(٣) منهم البغوي ٤/ ٢٦٩ .

(٤) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١١٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ١١٣ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥ .

(٧) في كتابه «الحجة» كما ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ .

زعم قوم أنَّه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض[١]. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما، وقاله الطبريُّ[٢].

قال الثعلبيُّ: ولقد ذُكر لي أنَّ نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ، فكانت حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة، وسائرها نواة.

وقيل: إنَّ العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى، ولذلك قيل: إنَّه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح. وقيل: المرجان: عظام اللؤلؤ وكباره، قاله عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما[٣]. واللؤلؤ: صغاره. وعنهما أيضاً بالعكس: إنَّ اللؤلؤ: كبار اللؤلؤ، والمرجان: صغاره، وقاله الضحَّاك وقتادة[٤]. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان: الخرز الأحمر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ يعني: السفن[٦]. ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قراءة العامة: «الْمُنْشَآتُ» بفتح الشين، قال قتادة: أي: المخلوقات للجَري، مأخوذ من الإنشاء[٧]. وقال مجاهد: هي السفن التي رُفع قِلْعها، قال: وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَآت[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٧، والنكت والعيون ٥/ ٤٣١.

(٢) في التفسير ٢٢/ ٢٠٩ - ٢١٠، وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣١، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٦ - ٢٠٧ عن ابن عباس، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٤١ عن علي ﷺ.

(٤) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ عن ابن مسعود، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٣.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣١.

(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٠ - ٢١١، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، والقِلْع: شراع السفينة. لسان العرب (قلع).

وقال الأخفش: إنَّها المَجريات[١]. وفي الحديث: أنَّ عليًّا ﷺ رأى سفناً مُقْلَعة، فقال: وربِّ هذه الجوارِي المنشآتِ ما قَتلتُ عثمان ولا مالَأْتُ في قتله[٢]. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه: «الْمُنْشِآتُ» بكسر الشين[٣]، أي: المنشِآت السير[٤]، أضيف الفعل إليها؛ على التجوُّز والاتساع. وقيل: الرافعات الشُّرُع، أي: القُلُع. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشُّرع[٥].

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال، والعَلَم: الجبل الطويل[٦]، قال:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَم[٧]

فالسفن في البحر كالجبال في البرِّ، وقد مضى في «الشورى»[٨] بيانه، وقرأ يعقوب: «الْجَوَارِي» بياء في الوقف، وحذف الباقون[٩].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضمير في «عَلَيْهَا» للأرض[١٠]، وقد جرى ذكرها في أوَّل السورة في قوله تعالى: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ» وقد يقال: هو أكرم مَنْ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ .

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٧٣٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٦٨ عن عميرة بن سعد.

(٣) السبعة ص٦٢٠ ، والتيسير ص٢٠٦ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٥ .

(٧) القائل جرير يصف الإبل، والرجز في ديوانه ١/ ٥١٢ ، وبعده:

فهنَّ بحثاً كمضلَّات الخدم

قال شارحه: يريد أنهنَّ يبحثن بمناسمهن الأرض كما تبحث النساء المضلَّات خلاخيلهن في التراب.

(٨) ١٨/ ٤٨١ .

(٩) النشر ٢/ ١٣٨ .

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

عليها، يعنون الأرض وإن لم يَجْرِ لها ذِكْر. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآيةُ قالت الملائكة: هَلَكَ أهل الأرض فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك[١]، وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخَلْق التسويةُ بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أنَّ الموت سببُ النقل إلى دار الجزاء والثواب.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى الله، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه، قال الشاعر:

قَضَى على خَلْقه المنايا فكلُّ شيء سواه فانِ[٢]

وهذا الذي ارتضاه المحقِّقون من علمائنا: ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». وقال أبو المعالي: وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجودُ الباري تعالى، وهو الذي ارتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» والموصف بالبقاء عند تعرُّض الخَلْق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في «البقرة»[٣] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١١٥] وقد ذكرناه في الكتاب «الأسنى»[٤] مستوفًى.

قال القشيريُّ: قال قوم: هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الربُّ تخصيصَه بالإكرام.

والصحيح أن يقال: وجهه: وجوده وذاته، يقال: هذا وجه الأمر، ووجه الصواب، وعين الصواب[٥]. وقيل: أي: يبقى الظاهر بأدلَّته كظهور الإنسان

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٧ دون عزو.

(٢) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٨٥ .

(٣) ٢/ ٣٣٠ - ٣٣٢ وتقدم هناك قول ابن عباس وابن فورك وأبي المعالي. والصحيح: أن صفة الوجه من الصفات الذاتية لله سبحانه فيجب إثباتها له على وجه يليق به.

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩ .

بوجهه[١]. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرَّب بها إلى الله.

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ الجلال: عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح[٢]، يقال: جَلَّ الشيءُ، أي: عَظُم، وأجللته، أي: عظَّمته، والجلال: اسم من جلَّ[٣]. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل لأنْ يُكرَم عمَّا لا يليقُ به من الشرك، كما تقول: أنا أُكرِمك عن هذا، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء[٤]. وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب «الأسنى»[٥] مستوفًى. وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام»[٦]. وروي أنَّه من قول ابن مسعود، ومعناه: الزموا ذلك في الدعاء[٧]. قال أبو عبيد: الإلظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ: الإلحاح.

وعن سعيد المقبريِّ: أنَّ رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول: اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إنِّي قد سمعتُ، فما حاجتك[٨]؟.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السماوات

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

(٣) تهذيب اللغة ١٠/ ٤٨٦ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

(٥) ص٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) و(٣٥٢٥)، وقال: هذا حديث غريب. وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٥٩٦)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢٨٠ عن ربيعة بن عامر ﵁، والحاكم ١/ ٤٩٩ عن أبي هريرة ﵁، وينظر الكافي الشاف ص١٦٢ .

(٧) الصحاح (لظظ)، وما بعده منه أيضاً.

(٨) الأسنى ص٣٢٥ .

الرحمةَ، ومن في الأرض الرزقَ[١]. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً[٢]. وقال ابن جريج: وتسأل الملائكةُ الرزقَ لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض[٣].

وفي الحديث: «إنَّ من الملائكة مَلكاً له أربعة أوجه، وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزقَ لبني آدم، ووجه كوجه الأسد وهو يسأل اللهَ الرزقَ للسباع، ووجه كوجه الثور وهو يسأل اللهَ الرزقَ للبهائم، ووجه كوجه النَّسر وهو يسأل الله الرزقَ للطير»[٤]. وقال ابن عطاء: إنَّهم سألوه القوَّة على العبادة[٥].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا كلام مبتدأ. وانتصب: «كُلَّ يَوْمٍ» ظرفاً، لقوله: «فِي شَأْنٍ» أو ظرفاً للسؤال، ثم يبتدئ: «هُوَ فِي شَأْنٍ».

وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن» قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[٦]. وعن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ في قول الله عزَّ وجلَّ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قال: «يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويجيب داعياً»[٧]. وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويُعزّ ويذلّ، ويرزق ويمنع[٨].

وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ابن بحر: الدهر كلُّه يومان،

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١ عن أبي صالح، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٠ عن ابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢ .

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن. اهـ وعلَّقه البخاري في صحيحه، في التفسير، قبل حديث (٤٨٧٨) عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٧) أخرجه البزار (٢٢٦٨ كشف الأستار)، وفي إسناده عبد الرحمن بن البيلماني، وهو ضعيف.

(٨) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

أحدهما: مدة أيام الدنيا، والآخر: يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كلِّ يوم من أيام الدنيا[١]. وهو الظاهر. والشأن في اللغة: الخطب العظيم، والجمع الشؤون[٢]، والمراد بالشأن هاهنا الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. وقال الكلبيُّ: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت[٣]. وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»: من شأنه أن يميت حيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء، ويُعزَّ ذليلاً، ويُذلَّ عزيزاً.

وسأل بعض الأمراء وزيرَه عن قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فلم يَعرِفْ معناها، واستمهله إلى الغد، فانصرف كئيباً إلى منزله، فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأخبره. فقال له: عُدْ إلى الأمير فإنِّي أُفسِّرها له، فدعاه فقال: أيُّها الأمير! شأنه أن يُولجَ الليل في النهار، ويولجَ النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميِّت، ويخرج الميِّت من الحيِّ، ويَشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، ويَبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويُعزَّ ذليلاً، ويذلَّ عزيزاً، ويُفقر غنيًّا، ويغني فقيراً. فقال له: فَرَّجت عني، فَرَّج اللهُ عنك، ثم أَمَرَ بخَلْع ثياب الوزير، وكساها الغلام، فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى[٤]. وعن عبد الله بن طاهر: أنَّه دعا الحسين بنَ الفضل وقال له: أشكلت عليَّ ثلاث آيات دَعوتُكَ لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحَّ أنَّ الندم توبة، وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صحَّ أنَّ القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤١٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩، ونسباه إلى الحسين بن الفضل.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٦، وما بعده منه أيضاً.

فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندمُ توبةً في تلك الأمَّة، ويكون توبةً في هذه الأمَّة؛ لأنَّ الله تعالى خصَّ هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إنَّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وأما قوله: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فإنَّها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيَه بواحدة ألفاً فضلاً. فقام عبد الله وقبَّل رأسَه وسوَّغ خراجه.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يقال: فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَرَاغاً، وتفرَّغت لكذا، واستفرغت مجهودي في كذا، أي: بذلتُه[(١)]. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنَّما المعنى: سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم[(٢)]، كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرَّغ لك، أي: أَقْصِدُكَ. وفرغ بمعنى قصد[(٣)]، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

أَلَانَ وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فهذا حين كُنْتُ لها عَذابَا[(٤)]

يريد: وقد قصدت. وقال أيضاً، وأنشده النحَّاس:

فَرغْتُ إلى العَبْدِ المقيَّدِ في الحِجْلِ[(٥)]

---

(١) الصحاح (فرغ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٥٦ و ٦/ ٢٤٩ ، ولم نقف على البيت في ديوان جرير.

(٥) شرح ديوان جرير ٢/ ٩٥٢ ، إلا أن فيه: القين، بدل: العبد.

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ لما بايع الأنصار ليلةَ العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجَبَاجِب! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم. فقال النبيُّ ﷺ: «هذا أَزَبُّ العَقَبة، أَمَا والله يا عدوَّ الله لأتفرغنَّ لك»[١] أي: أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا اختيار القتبيِّ[٢] والكسائيِّ وغيرهما[٣].

وقيل: إنَّ الله تعالى وعَد على التقوى، وأَوعد على الفجور، ثم قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» مما وعدناكم، ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه، أي: أَقْسِمُ ذلك وأتفرَّغ منه. قاله الحسن ومقاتل وابن زيد[٤]. وقرأ عبد الله وأُبَيٌّ: «سَنفرُغُ إِلَيْكُمْ»[٥]، وقرأ الأعمش وإبراهيم: «سَيُفْرَغُ لَكُمْ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على ما لم يسمَّ فاعله. وقرأ ابن شهاب والأعرج: «سَنَفْرَغُ لَكُمْ» بفتح النون والراء[٦]، قال الكسائيُّ: هي لغةُ تميم، يقولون: فَرِغ يَفرَغ، وحكى أيضاً: فَرَغ يَفرُغ[٧]، ورواهما هُبيرة، عن حفص، عن عاصم[٨]. وروى الجُعْفيُّ عن أبي عمرو: «سَيَفْرُغُ» بفتح الياء والراء[٩]، ورويت عن

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٥٤٢)، والطبراني في الكبير ١٩/ (١٧٥) عن كعب بن مالك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٥ : رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسماع. اهـ. ومعنى: هذا مذمَّم: أنَّ عدوَّ الله صرخ بما يضادُّ اسم محمد وزناً ومعنًى. والجباجب: جمع جُبْجُب ـ بالضمِّ ـ وهو المستوي من الأرض ليس بحَزْن، وهي أسماء منازل منى. وأَزَبُّ العقبة: اسم شيطان كان بالعقبة. النهاية (جبجب) و(أزب).

(٢) في تأويل مشكل القرآن له ص٧٧ .

(٣) منهم الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٩٩ ، وابن الأعرابي كما في تهذيب اللغة ٨/ ١١١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ عن الحسن ومقاتل.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ ، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٢ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٤٧ عن أُبَيٍّ، وذكر محقق الكشف أنَّ في إحدى النسخ الخطية: ابن مسعود، بدل: أُبيٍّ.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٤ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤ .

(٧) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠ .

(٩) المحتسب ٢/ ٣٠٤ ، وذكرها مجاهد في السبعة ص٦٢٠ .

ابن هُرْمز. وروي عن عيسى الثَّقفيِّ: «سَنِفْرَغُ لَكُمْ» بكسر النون وفتح الراء[١]، وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَيَفْرُغُ لَكُمْ» بالياء، الباقون بالنون[٢]، وهي لغة تهامة.

والثَّقلان: الجِنُّ والإنس، سُمِّيا بذلك؛ لعِظَمِ شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف[٣]. وقيل: سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم ثِقَلٌ على الأرض أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] ومنه قولهم: أَعطِه ثِقَلَه، أي: وزنَه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه، فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام: ثقل؛ لأنَّ واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سُمِّيا ثقلين؛ لأنَّهما مثقلان بالذنوب[٤].

وقال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» فجمع، ثم قال: «أَيُّه الثَّقَلَانِ» لأنَّهما فريقان، وكلُّ فريق جمع، وكذا قوله تعالى: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ إِنِ استَطَعْتُمْ» ولم يقل: إن استطعتما[٥]؛ لأنَّهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] و﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] ولو قال: سنفرغ لكما، وقال: إن استطعتما، لجاز.

وقرأ أهل الشام: «أَيُّهُ الثَّقَلَانِ» بضمِّ الهاء. الباقون بفتحها، وقد تقدَّم[٦].

مسألة: هذه السورة و«الأَحْقَاف» و﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١] دليلٌ على أنَّ الجِنَّ مخاطبون مكلَّفون[٧]، مأمورون منهيون، مثابون معاقبون، كالإنس سواء، مؤمنُهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٤ .

(٢) السبعة ص٦٠٢ ، والتيسير ص٢٠٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٦ .

(٦) ١٥/ ٢٢٨ .

(٧) التمهيد ١١/ ١١٧ .

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ الآية، ذكر ابن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أَمَرَ الله السماء الدنيا فتشقَّقت بأهلها، فتكون الملائكة على حافَّاتها حتى يَأْمرهم الربُّ، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك، فينزلون فيكونون صفًّا في جوف[1] ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة، فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنَّبته اليسرى جهنَّم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فذلك قوله تعالى: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» والسلطان: العذر.

وقال الضحَّاك أيضاً: بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنُّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» ذكره النحَّاس. قلت: فعلى هذا، يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر ابنُ المبارك، يكون في الآخرة. وعن الضحَّاك أيضاً: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا[2]. وقال ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: ببيِّنة من الله تعالى[3]. وعنه أيضاً أنَّ معنى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم[4]. قتادة: لا تنفذون إلا بمِلْك، وليس لكم مِلْك[5]. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان، الباء بمعنى «إلى»، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: إليَّ[6]. قال الشاعر:

---

(١) في (م): من خلف. والمثبت من (د) و(ظ)، والزهد لابن المبارك (٣٥٤ زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٢١٧ - ٢١٨ من طريق الأجلح، عن الضحاك، به.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٠، وما بعده منه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢١٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١.

أَسِيئي بِنا أو أحسِنِي لا مَلُولَةٌ لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ[١]

وقوله: «فَانْفُذُوا» أمر تعجيز.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلّقاً بالنفوذ، بل أخبر أنَّه يعاقب العصاة عذاباً بالنار. وقيل: أي: بآلاءِ ربِّكما تكذبان، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس؛ عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار، ثم ينادون: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»، فتلك النار قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ» والشواظ في قول ابن عباس وغيره: اللهب الذي لا دخان له. والنُّحَاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه[٢]. ومنه قول أميَّة بن أبي الصَّلْت يهجو حسانَ بنَ ثابت ﷺ، كذا وقع في تفسير الثعلبيِّ والماورديِّ[٣]: ابن أبي الصَّلْت، وفي «الصحاح»[٤] و«الوقف والابتداء»[٥] لابن الأنباري: أميَّة بن خَلَف قال:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عنِّي مُغَلْغَلَةً تَدُبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْناً لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً ويَنْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّوَاظِ[٦]

فأجابه حسان ﷺ فقال:

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص٨٠ . وقَلَته قِلًى وقلاء ومَقْلية: أبغضته وكرهته غاية الكراهة. اللسان (قلا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ - ٤٣٥ ومقتصراً على البيت الثالث.

(٤) مادة (شوظ) ومقتصراً على البيتين الثاني والثالث.

(٥) ١/ ٩٥ .

(٦) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١٦٨ ، والمغلغلة: الرسالة. والقين: العبد. والفسل: النذل. والكير: منفخ الحداد. اللسان (غلل) و(قين) و(فسل) و(كير).

هَجَوْتكَ فَاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ   بِقافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّواظِ[١]

وقال رُؤبة:

إنَّ لهم من وقْعِنَا أَقْيَاظَا   ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا[٢]

وقال مجاهد: الشّواظ: اللهب الأخضر المنقطع من النار[٣]. الضحَّاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب[٤]. وقاله سعيد بن جبير[٥]. وقدقيل: إنَّ الشواظَ النارُ والدخانُ جميعاً، قاله أبو عمرو، وحكاه الأخفش عن بعض العرب[٦].

وقرأ ابن كَثير: «شِواظ» بكسر الشين. الباقون بالضمِّ[٧]، وهما لغتان، مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر[٨].

﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءة العامَّة: «ونُحَاسٌ» بالرفع عطف على «شُوَاظ». وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو: «ونُحَاسٍ» بالخفض[٩] عطفاً على النار. قال المهدويُّ:

---

(١) ديوان حسان ص١٤٢ ، وروايته فيه هكذا:

مُجَلَّلةً تُعَمِّمه شناراً   مضرَّمة تأجَّج كالشواظ

وجاءت روايته في النكت والعيون ٥/ ٤٣٥ هكذا:

همزتك فاختضعت بذل نفس   بقافية تأجج كالشواظ

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٤ ، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٢١ - ٢٢٢ ، والصحاح (شوظ)، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة، وذكره ابن دريد في جمهرة اللغة ٣/ ١٢٣ ونسبه للعجاج، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٦٤٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٥ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٢٣ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦ .

(٧) السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٦ .

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٧ .

(٩) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٦ ، وقراءة مجاهد في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ .

من قال: إنَّ الشّواظ النارُ والدخانُ جميعاً، فالجرُّ في «نُحَاس» على هذا بيِّن. فأمَّا الجرُّ على قول من جعل الشواظ اللهبَ الذي لا دخان فيه، فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنَّه قال: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وشيءٌ من نحاس، فشيء معطوف على شواظ، و«من نحاس» جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت «مِن»؛ لتقدُّم ذكرها في «مِنْ نَارٍ»[١] كما حذفت «على» من قولهم: على من تنزل، أنزل عليه. فيكون «نُحَاس» على هذا مجروراً بـ «من» المحذوفة.

وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية: «ونِحاسٍ» بكسر النون[٢]، لغتان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس ـ بالكسر أيضاً ـ: الطبيعةُ والأصلُ، يقال: فلان كريم النِّحاس. والنُّحاس ـ أيضاً بالضمِّ ـ أي: كريم النُّجار[٣]. وعن مسلم بن جُنْدَب: «ونَحْسٌ» بالرفع[٤]. وعن حنظلة بن مرَّة بن النعمان الأنصاري: «ونَحْسٍ» بالجرِّ[٥] عطف على نار. ويجوز أن يكون «ونِحاسٍ» بالكسر، جمع نَحْسٍ، كصَعْب وصِعاب، «ونَحْسٌ» بالرفع عطف على «شواظ»، وعن الحسن: «ونُحُسٍ» بالضمِّ فيهنَّ[٦] جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله: ونُحُوس، فقصر بحذف واوه؛ حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة: «وَنَحُسُّ» بفتح النون وضمِّ الحاء وتشديد السين[٧]، من حَسَّ يَحُسُّ حَسًّا: إذا استأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] والمعنى: ونقتل بالعذاب.

---

(١) حجة القراءات للفارسي ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٩ عن مجاهد والكلبي مع إمالة الحاء، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ عن مجاهد، وينظر البحر المحيط ٨/ ١٩٥ .

(٣) الصحاح (نحس).

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٩ وسمَّاه حنظلة بن يعمر، ولم نعرفه.

(٦) في (م): فيهما، والمثبت من النسخ الخطية، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ١٩٥ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٤ ، وما بعده منه.

وعلى القراءة الأولى: «ونُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم، قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس(١). وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أنَّ النحاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه(٢)، وهو معنى قول الخليل(٣)، وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى، قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِيءُ كضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاسَا(٤)

قال الأصمعيُّ: سمعتُ أعرابياً يقول: السَّليط: دهن السّمسم بالشام ولا دخانَ فيه.

وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار.

وقال ابن مسعود: النُّحَاس: المُهْل(٥). وقال الضحَّاك: هو دُرْديُّ الزّيت المغليّ. وقال الكسائيُّ: هو النار التي لها ريح شديدة. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، يعني الجنّ والإنس(٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٢٥.

(٢) زاد المسير ٨/ ١١٦، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٢٤.

(٣) في العين ٦/ ٢٧٨.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص٨١، والسليط: الزيت، عند عامة العرب، وهو دهن السمسم عند أهل اليمن. اللسان (سلط).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٤ عن قتادة.

﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ الدِّهَانُ: الدُّهْن، عن مجاهد والضحَّاك وغيرهما[1]. والمعنى أنَّها صارت في صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن[2].

وقال سعيد بن جُبير وقتادة: المعنى: فكانت حمراء[3]. وقيل: المعنى: تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنَّم، وتصير مثل الدُّهن؛ لرقَّتها وذوبانها. وقيل: الدّهان: الجلد الأحمر الصِّرف، ذكره أبو عبيد والفرَّاء[4]. أي: تصير السماء حمراء كالأديم؛ لشدة حَرِّ النار.

ابن عباس: المعنى: فكانت كالفرس الوَرْد[5]. يقال للكُمَيت: وَرْدٌ؛ إذا كان يتلوَّن بألوان مختلفة[6]. قال ابن عباس: الفرس الوَرْد؛ في الربيع كميت أصفر، وفي أوَّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا اشتدَّ الشتاء كان كُمَيتاً أغبر. وقال الفرَّاء[7]: أراد الفرس الوَرْديَّة، تكون في الربيع وَرْدةً إلى الصفرة، فإذا اشتدَّ البرد كانت وَرْدةً حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة، فشبَّه تلوُّن السماء بتلوُّن الْوَرْد من الخيل. وقال الحسن: «كَالدِّهَانِ» أي: كصبِّ الدُّهْن، فإنَّك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنَّها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتجيء. قال الزجَّاج: أصل الواو والراء والدال [للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدَّمناه من أنَّ الفرس الوَرْدة تتغيَّر ألوانها. وقال قتادة]: إنَّها اليوم خضراء، وسيكون لها لون

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/٢٢٨ - ٢٢٩ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠١ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

أحمر، حكاه الثعلبيُّ[(١)]. وقال الماورديُّ[(٢)]: وزعم المتقدمون أنَّ أصل لون السماء الحمرة، وأنَّها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق، وشبَّهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم، وتُرى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحاً فإنَّ السماء لقُربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز تُرى حمراء؛ لأنَّه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وأنَّ القيامة مواطن؛ لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض، ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة[(٣)].

وقيل: المعنى: لا يسألون إذا استقرُّوا في النار.

وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأنَّ الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفيُّ عن ابن عباس[(٤)].

وعن الحسن ومجاهد أيضاً: المعنى: لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنَّهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن ابن عباس[(٥)]. وعنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢] وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ» [الرحمن:٣٩] وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكنَّه يسألهم لم عملتموها، سؤالَ توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن

---

(١) والواحدي في الوسيط ٤/ ٢٢٣، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ عن قتادة، وما بين حاصرتين ليست في (د).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ عن الحسن، والطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣ بنحوه.

ذنب المجرم[(١)].

وقال قتادة: كانت المسألة قَبْلُ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلَّمت الجوارح شاهدة عليهم[(٢)].

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ وفيه قال: «فَيلْقَى العبدَ فيقول: أي فُلْ، ألم أُكْرِمْك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وَأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ، وأَذرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى. فيقول: أفظننتَ أنَّك مُلَاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: إنِّي أنساكَ كما نسيتني. ثم يَلقى الثانيَ فيقول له مثلَ ذلك بعينه، ثم يلقى الثالث فيقول له مثلَ ذلك، فيقول: يا ربِّ آمنتُ بكَ وبكتابِكَ وبرسولِكَ، وصلَّيتُ وصمتُ وتصدَّقت، ويُثْني بخيرٍ ما استطاع، فيقول: هاهنا إذاً. ثُمَّ يقال له: الآن نبعثُ شاهدَنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليَّ، فيُختَم على فِيْهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انْطِقي، فتنطقُ فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يَسخطُ اللهُ عليه» وقد مضى هذا الحديث في «حم السجدة» وغيرها[(٣)].

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين[(٤)]، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٠.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٨)، وسلف ١٧/ ٤٧٥ و ١٨/ ٤٠٦، ومعنى: فُلْ: يا فلان، وليس ترخيماً له... وقال قوم: إنه ترخيم فلان. وترأس: أي صرتَ رئيس القوم ومقدَّمهم. وتربع: تأخذ ربع الغنيمة. النهاية (فلل) و(رأس) و(ربع).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥، والطبري ٢٢/ ٢٣١.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدَّم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار[١]. والنواصي جمع ناصية. وقال الضحَّاك: يجمع بين ناصيته وقدمَيْه في سلسلة من وراء ظهره[٢]. وعنه: يؤخذ برِجْلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندقَّ ظهره، ثم يُلقى في النار[٣]. وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشدَّ لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارةً تأخذ بناصيته وتجرُّه على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه[٤].

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم: هذه النار التي أُخبِرتُم بها فكذبتم[٥]. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ قال قتادة: يطوفون مرَّةً بين الحميم، ومرَّةً بين الجحيم، والجحيم: النار. والحميم: الشراب[٦].

وفي قوله تعالى: «آنٍ»: ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الذي انتهى حَرُّه وحميمه. قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسُّدِّيُّ[٧]، ومنه قول النابغة الذُّبْياني:

وتُخْضَب لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانتْ بأحمرَ من نجيعِ الجوفِ آنِ[٨]

قال قتادة: «آنٍ»: طبخ منذ خلقَ الله السماوات والأرض[٩]. يقول: إذا استغاثوا

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٣١ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٤٨ ، وأخرجه عنه هناد في الزهد (٢٦٨).

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٥ وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن ابن عباس وسعيد ابن جبير.

(٨) ديوان النابغة ص١٢٠ ، ونجيع الجوف: الدم. اللسان (نجع).

(٩) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٤ .

من النار، جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: «آن»: وادٍ من أودية جهنَّم يجتمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلعَ أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خَلْقاً جديداً فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»[١]. وعن كعب أيضاً: أنَّه الحاضر. وقال مجاهد: إنَّه الذي قد آنَ شربه وبلغ غايته[٢].

والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّه أتى على شاب في الليل يقرأ: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»، فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول: وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي! فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْحَك يا فتى مثلها، فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدَّ للأبرار. والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، فترَكَ المعصية. فـ«مَقَامَ» مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربِّه عليه، أي: إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] وقال مجاهد وإبراهيم النخعيُّ: هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكر اللهَ، فيدعها من خوفه[٤].

الثانية: هذه الآية دليل على أنَّ من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنَّة، فأنتِ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٣ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، وقول مجاهد أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠ ، وهناد في الزهد (٨٩٩).

طالق. أنَّه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه. وقاله سفيان الثوريُّ وأفتى به[١].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جنةٌ لخوفه من ربِّه، وجنةٌ لتركه شهوته[٢]. وقال ابن عباس: من خاف مقام ربِّه بعد أداء الفرائض[٣]. وقيل: المقام: الموضع، أي: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، كما تقدَّم[٤]. ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله[٥]، وهو كالأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: لمن خاف جنَّتان على حِدَة، فلكلِّ خائف جنَّتان. وقيل: جنَّتان لجميع الخائفين[٦]. والأوَّل أظهر. وروي عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الجنَّتان بستانان في عرض الجنَّة، كلُّ بستان مسيرة مئة عام، في وسط كلِّ بستان دار من نور، وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ أيضاً من حديث أبي هريرة[٧].

وقيل: إنَّ الجنَّتين جنَّته التي خلقت له وجنَّة ورثها. وقيل: إحدى الجنَّتين منزله، والأُخرى منزل أزواجه، كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين مسكنه، والأُخرى بستانه. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين أسافل القصور، والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنَّة عدن، وجنَّة النعيم[٨].

---

(١) هذه اليمين ذُكرت عن هارون الرشيد، وأنَّ الليث بن سعد هو الذي أفتاه فيها كذلك، وقد أخرج القصة أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ولم نقف على فتيا سفيان الثوري في المسألة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٥ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٥ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ .

(٧) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٧ وعزاه لابن مردويه عن عياض بن تميم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨ ، والوسيط ٤/ ٢٢٥ .

وقال الفرَّاء: إنَّما هي جنَّة واحدة، فثنى؛ لرؤوس الآي. وأنكر القتبيُّ هذا وقال: لا يجوز أن يقال: خزنة النار عشرون، وإنَّما قال: تسعة عشر؛ لمراعاة رؤوس الآي. وأيضاً قال: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ»[١]. وقال أبو جعفر النحَّاس: قال الفرَّاء[٢]: وقد تكون جنَّة فتُثنَّى في الشعر. وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عزَّ وجلَّ، يقول الله عزَّ وجلَّ: «جَنَّتَانِ» ويصفهما بقوله: «فِيهِمَا» فيَدَعُ الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنَّة ويحتجُّ بالشعر! وقيل: إنَّما كانتا اثنتين؛ ليضاعف له السرور بالتنقُّل من جهة إلى جهة.

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ خاصَّةً حين ذكر ذاتَ يومٍ الجنَّة حين أُزْلِفَت، والنار حين بُرِّزَت، قاله عطاء وابن شَوْذَب. وقال الضحَّاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه، فسأل عنه، فأُخبِرَ أنَّه من غير حِلٍّ، فاستقاءه ورسولُ الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «رحمك الله لقد أنزلت فيك آية» وتلا عليه هذه الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: ذواتا ألوان من الفاكهة، الواحد: فَنٌّ[٤]. وقال مجاهد: الأفنان: الأغصان، واحدها فَنَنٌ[٥]. قال النابغة[٦]:

بكاءَ حمامةٍ تدعو هَديلاً ... مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغنِّي

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٤٤٠ - ٤٤١.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨ عن ابن عباس والضحاك، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الضحاك وسعيد بن جبير، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤١.

(٦) في ديوانه ص١٢٢.

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ أَلْوَانِ[١]

أراد باللحون: اللغات. وقال آخر:

ما هاجَ شَوْقَك مِن هَدِيلِ حمامةٍ ... تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَماماً

تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارِياً ... ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا[٢]

والفنن جمعه: أفنان، ثم الأفانين، وقال يصف رَحًى:

لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ

وشجرة فَنَّاء، أي: ذات أفنان، وفنواء أيضاً على غير قياس[٣].

وفي الحديث: «إنَّ أهل الجنَّة مُرْدٌ مكحَّلون أولو أفانين» يريد: أولو فَنَن، وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ [وهو الخُصْلة] من الشعر شُبِّه بالغصن[٤]. ذكره الهرويُّ.

وقيل: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» أي: ذواتا سعة وفَضْل على ما سواهما، قاله قتادة[٥]. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إنَّ الأفنان: ظلُّ الأغصان على الحيطان[٦].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كلٍّ واحدة منهما عين جارية[٧]. قال ابن عباس: تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنَّة[٨]. وعن

(١) أمالي القالي ١/ ٦، ولم ينسبه.

(٢) سلف ١/ ٤٥.

(٣) الصحاح (فنن)، والبيت ذكره أيضاً ابن منظور في اللسان، ولم ينسبه.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٦٦، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه الترمذي (٢٥٣٩) عن أبي هريرة و(٢٥٤٥) عن معاذ بن جبل بنحوه، وقال بعدهما: هذا حديث حسن غريب.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥، والطبري ٢٢/ ٢٤١.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٢٤.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤.

ابن عباس أيضاً والحسن: تجريان بالماء الزّلال، إحدى العينين التسنيم، والأخرى السلسبيل[١]. وعنه أيضاً: عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وترابهما الكافور، وحَمْأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطيَّة: إحداهما من ماء غيرِ آسنٍ، والأُخرى من خمر لذَّة للشاربين[٢]. وقيل: تجريان من جبل مِسْكٍ[٣]. وقال أبو بكر الورَّاق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عزَّ وجلَّ[٤].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: صنفان، وكلاهما حلوٌ يستلذُّ به. قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مُرَّة إلا وهي في الجنَّة حتى الحنظل إلا أنَّه حُلْوٌ[٥]. وقيل: ضربان رطب ويابس، لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب[٦]. وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنَّتين على الجنَّتين اللتَيْن دونهما، فإنَّه ذكر هاهنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء، والنَّضخ دون الجري، فكأنَّه قال: في تَيْنك الجنَّتين من كلِّ فاكهة نوع، وفي هذه الجنَّة من كلِّ فاكهة نوعان[٧].

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ هو نصب على الحال[٨]. والفُرُش: جمع

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٢٠ عن ابن عباس، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الحسن.

(٢) زاد المسير ٨/ ١٢٠ ، والأذفر: الطَّيِّب الريح. اللسان (ذفر).

(٣) الكشاف ٤/ ٤٩ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٥ ، ١٣٣ بنحوه.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٤ .

فراش[١]. وقرأ أبو حَيْوة: «فُرْشٍ» بإسكان الراء[٢]. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة، وهي التي تحت الظِّهارة[٣]. والإستبرق: ما غلظ من الديباج وخشن[٤]، أي: إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا، فما ظنُّك بالظهارة، قاله ابن مسعود وأبو هريرة[٥]. وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٦] [السجدة:١٧]. وقال ابن عباس: إنَّما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأمَّا الظواهر فلا يعلمها إلا الله[٧]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ظواهرها نور يتلألأ»[٨]. وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد[٩]. وعن الحسن أيضاً: البطائن هي الظواهر[١٠]، وهو قول الفرَّاء، وروي عن قتادة[١١]. والعرب تقول للظهر بطناً فيقولون: هذا بطن السماء وظهر الأرض، وقال الفراء: قد تكون البطانة الظهارة، والظهارة البطانة؛ لأنَّ كل واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول[١٢]: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة[١٣] وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ ، والوسيط ٤/ ٢٢٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، ولم نقف عليه مسنداً.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ عن سعيد بن جبير.

(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ عن مقاتل، وزاد المسير ٨/ ١٢١ عن قتادة.

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٨ ، وقول قتادة في زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٢) ليست في (م)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ ، وينظر زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٣) في غريب القرآن له ص٤٤٢ .

في الوجهين المتساويين إذا وَلِيَ كلٌّ واحدٍ منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجَنَى: ما يُجتنَى من الشجر، يقال: أتانا بجَنَاةٍ طيِّبة لكلِّ ما يجتنى. وثمر جَنِيٌّ ـ على فَعِيل ـ حين جُنِي[1]، وقال الشاعر:

هــذا جَـنَــايَ وخِـيَــاره فِـيــهْ   إذْ كــلُّ جــانٍ يَــدُهُ إلــى فِـيــهْ[2]

وقرئ: «جِنَى» بكسر الجيم[3]. «دانٍ»: قريب. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللهِ، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً[4]، وإن شاء مضطجعاً، لا يَرُدُّ يده بُعْدٌ ولا شوك[5].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قيل: في الجنَّتين المذكورتَيْن. قال الزجَّاج[6]: وإنَّما قال: «فيهِنَّ» ولم يقل: فيهما؛ لأنَّه عنى الجنَّتين وما أعدَّ لصاحبهما من النعيم. وقيل: «فِيهِنَّ» يعود على الفُرُش[7] التي بطائنها من إستبرق، أي: في هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أي: نساء قاصرات الطَّرْف، قَصَرْنَ أعينهنَّ

---

(١) الصحاح (جني).

(٢) هذا مثل يضرب في إيثار الرجل على نفسه، والقائل عمرو بن عدي اللخمي، وقصة المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٣٨ ، ٣٩٧ ، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٣٨٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن محبوب.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ ، والطبري ٢٢/ ٢٤٤ .

(٦) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٣ .

(٧) زاد المسير ٨/ ١٢٢ .

على أزواجهنَّ فلا يَرَيْنَ غيرهم[١]. وقد مضى في ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾[٢] ووحّد الطَّرْف مع الإضافة إلى الجمع؛ لأنَّه في معنى المصدر، من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً[٣]، ثم سمِّيت العين بذلك، فأدَّى عن الواحد والجمع، كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يُصِبْهنَّ بالجماع قبل أزواجهنَّ هؤلاء أحدٌ. الفرَّاء: والطمث: الافتضاض، وهو النكاح بالتَّدْمِية[٤]، طَمَثَها يَطمِثُها ويَطمثُها طَمْثاً: إذا افتضَّها. ومنه قيل: امرأة طامِث، أي: حائض[٥]. وغير الفرَّاء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وَطِئَها على أيِّ الوجوه كان. إلا أنَّ قول الفرَّاء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائيُّ: «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ» بضمِّ الميم[٦]، يقال: طَمَثت المرأة تطمُث ـ بالضم ـ حاضت. وطَمِثت بالكسر لغة، فهي طامث[٧]، وقال الفرزدق:

وقَعْنَ إليَّ لم يُطْمَثْنَ قَبْلي وهنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعامِ[٨]

وقيل: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» لم يَمْسسهنَّ[٩]، قال أبو عمرو: والطمث: المَسُّ، وذلك في كل شيء يُمَسُّ. ويقال للمَرْتع: ما طَمث ذلك المرتعَ قبلَنا أحدٌ، وما طَمَثَ هذه الناقةَ حَبْل، أي: ما مسَّها عِقال[١٠]. وقال المبرِّد: أي: لم يذلِّلهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، والطمث: التذليل[١١]. وقرأ الحسن: «جَأن» بالهمز[١٢].

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٩.

(٢) ١٨/ ٣٣.

(٣) الصحاح (طرف).

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٧.

(٥) الصحاح (طمث).

(٦) السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٧.

(٧) الصحاح (طمث).

(٨) ثمار القلوب ص٤٤٢، وفيه: خرجن، بدل: وقعن. وأغضُّ، بدل: أصحُّ. ومنتهى الطلب ٥/ ٤٠٨، وفيه: مَشَيْنَ، بدل: وقعن.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٣.

(١٠) الصحاح (طمث).

(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩.

(١٢) القراءات الشاذة ص١٤٩-١٥٠ عن عمرو بن عبيد، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ عن الحسن وعمرو بن عبيد.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أنَّ الجِنَّ تغشى كالإنس[١]، وتدخل الجنَّة، ويكون لهم فيها جنِّيات[٢]. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين، فالإنسيات للإنس، والجِنِّيات للجنِّ[٣]. وقيل: أي: لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجنِّ في الجنَّة من الحور العين من الجنِّيات جِنٌّ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنَّة من الحور العين من الإنسيات إنس، وذلك لأنَّ الجِنَّ لا تَطَأُ بناتِ آدم في الدنيا. ذكره القشيريُّ.

قلت: قد مضى في «النمل» القول في هذا، وفي «سبحان» أيضاً[٤]، وأنَّه جائز أن تَطَأَ بناتِ[٥] آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ، انطوى الجانُّ على إحليله فجامع معه. فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٦] وذلك بأنَّ الله تبارك وتعالى وصف الحورَ العين بأنَّه لم يطمثهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، يعلمك أن نساءَ الآدمياتِ قد يطمثهنَّ الجانُّ، وأنَّ الحور العين قد بَرِئْنَ من هذا العيب ونُزِّهْنَ، والطمث: الجماع. ذكره بكماله الترمذيُّ الحكيم، وذكره المهدويُّ أيضاً والثعلبيُّ وغيرهما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة من نساء أهل الجنَّة ليُرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلَّة

(١) معاني القرآن للزجَّاج ٥/ ١٠٣ .

(٢) في (د) و(ظ): جنتان.

(٣) نوادر الأصول ص١١٦ ، ٢٤٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (١١٦٨).

(٤) ١٦/ ١٧٧ و ١٣/ ١٢٠ .

(٥) في (د) و(ظ): بني.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٨ .

حتى يرى مخُّها» وذلك بأنَّ الله تعالى يقول: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فأما الياقوت فإنَّه حجر لو أدخلتَ فيه سِلكاً ثم استصفيته لأرِيتَه [من ورائه] ويُروى موقوفاً[(١)]. وقال عمرو بن ميمون: إنَّ المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلَّة فيرى مخُّ ساقها من وراء ذلك، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[(٢)]. وقال الحسن: هنَّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان[(٣)].

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هَلْ» في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى «قد» كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، وبمعنى «ما» في الجحد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النحل:٣٥] و«هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»[(٤)].

قال عكرمة: أي: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، إلا الجنَّة[(٥)]. ابن عباس: ما جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعَمِلَ بما جاء به محمَّد ﷺ إلا الجنَّة[(٦)]. وقيل: هل جزاء من أَحسن في الدنيا إلا أن يُحسَن إليه في الآخرة، قاله ابن زيد[(٧)].

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» ثم قال: «هل

---

(١) الترمذي (٢٥٣٣) مرفوعاً، و(٢٥٣٤) موقوفاً، وقال عنه: وهذا أصحُّ. اهـ وما بين حاصرتين منه، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ في صفة الحور العين عند البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤) بلفظ: «ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن...» الحديث.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وأخرجه عنه هناد في الزهد (١٢)، والطبري ٢٢/ ٢٥٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٠ .

(٤) الأزهية للهروي ص٢٠٨-٢٠٩ ، وحروف المعاني للزجاجي ص٢ ، ومغني اللبيب ص٤٥٦-٤٦٠ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٩ وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وزاد المسير ٨/ ١٢٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ .

تدرونَ ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنَّة»[١].

وروى ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية فقال: «يقول الله: هل جزاء من أنعمتُ عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أُسكِنه جنَّتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي»[٢]. وقال الصادق: هل جزاء من أحسنتُ عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد[٣]. وقال محمَّد بن الحنفيَّة والحسن: هي مُسْجَلة للبَرِّ والفاجر[٤]، أي: مرسلة عليه، الفاجر في الدنيا، والبَرِّ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: وله من دون الجنَّتين الأُوليين جنَّتان أُخريان. قال ابن عباس: ومن دونهما في الدَّرَج. ابن زيد: ومن دونهما في الفَضْل[٥]. ابن عباس: والجنَّات لمن خاف مقام ربِّه، فيكون في الأُوليين النخل والشجر، وفي الأُخريين الزرع والنبات وما انبسط. الماورديُّ[٦]: ويحتمل أن يكون «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» لأَتباعه؛ لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأُخرى

---

(١) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٧٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ بنحوه.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٩ عن محمد بن الحنفية، وأخرجه عنه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٤٩ ، والبخاري في الأدب المفرد (١٣٠)، والطبري ٢٢/ ٢٥٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٢)، وأورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٠٣ عن علي رضي الله عنه، وعزاه إلى العياشي.
وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وفي إسناده الهيثم بن عدي، متروك الحديث.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٣ و ٢٢/ ٢٥٣ ، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٨)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٢٥٤ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ - ٤٤١ ، وما قبله منه أيضاً.

للولدان المخلَّدين؛ ليتميَّز بهما الذكور عن الإناث. وقال ابن جريج: هي أربع: جنَّتان منها للسابقين المقرَّبين «فيهما من كلِّ فاكهة زوجان» و«عينان تجريان»، وجنَّتان لأصحاب اليمين «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» و«فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ»[١]. وقال ابن زيد: إنَّ الأُولَيين من ذهب للمقرَّبين، والأُخريين من وَرِقٍ لأصحاب اليمين[٢].

قلت: إلى هذا ذهب الحَلِيميُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن[٣] في كتاب «منهاج الدين»[٤] له، واحتجَّ بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» إلى قوله: «مُدْهَامَّتَانِ» قال: تانك للمقرَّبين، وهاتانِ لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنَّتين أشار إلى الفَرْق بينهما فقال في الأولتين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ»، وفي الأُخريين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ» أي: فوَّارتان، ولكنَّهما ليستا كالجاريتين؛ لأنَّ النضخ دون الجري. وقال في الأولتين: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ» فعمَّ ولم يخصَّ. وفي الأُخريين: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» ولم يقل: من كلِّ فاكهة، وقال في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وهو الديباج، وفي الأُخريين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ» والعبقرِيُّ: الوَشْي[٥]، ولاشكَّ أنَّ الديباج أعلى[٦] من الوشي، والرفرف: كِسَر الخِباء، ولاشكَّ أنَّ الفرش المعدَّة للاتكاء عليها أفضل من فَضْل الخِباء.

وقال في الأولتين في صفة الحور: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»، وفي الأخرتين: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» وليس كلُّ حسنٍ كحُسن الياقوت والمرجان.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٣) في النسخ: الحسن بن الحسين. وكذا وقع في التذكرة ص٤٤٠-٤٤١ والكلام منه، وما أثبتناه هو الصواب، وتنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣١ .

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٤ - ٤٧٦ .

(٥) سيأتي التعريف بها قريباً.

(٦) في المنهاج: أغلى.

وقال في الأولتين: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» وفي الأُخرتين: «مُدْهَامَّتَانِ» أي: خضروان، كأنَّهما من شدَّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأولتين بكثرة الأغصان، والآخرتين بالخضرة وحدها، وفي هذا كلِّه تحقيق للمعنى الذي قصدناه بقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» ولعلَّ ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر.

فإن قيل: كيف لم يَذكُر أهل هاتين الجنَّتين كما ذَكَر أهل الجنَّتين الأولتين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربِّه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنَّتان الأُوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنَّتان الأُخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى[(١)]. ومذهب الضحَّاك أنَّ الجنَّتين الأُولتين من ذهب وفضَّة، والأُخرتين من ياقوت وزمرد، وهما أفضل من الأولتين، وقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: ومن أمامهما ومن قِبلهما[(٢)]. وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[(٣)] فقال: ومعنى «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: دون هذا إلى العرش، أي: أقرب وأدنى إلى العرش. وأخذ يفضِّلهما على الأولتين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنَّتان الأولتان جنَّة عدن وجنَّة النعيم، والآخرتان جنَّة الفردوس وجنَّة المأوى[(٤)].

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: خضراوان من الرِّيِّ، قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: مُسْودَّتان. والدُّهْمة في اللغة: السواد[(٥)]، يقال: فرس أَدهَم، وبعير أَدهَم، وناقة دَهْماء، أي: اشتدَّت ورقته[(٦)] حتى ذهب البياض الذي فيه، فإن زاد على ذلك

---

(١) إلى هنا نهاية النقل من المنهاج في شعب الإيمان، وما بعده من التذكرة ص٤٤١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ .

(٣) ص١٢٩ .

(٤) التذكرة ص٤٤١ ، وذكر الماوردي قول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٥ ، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٧ .

(٦) في (م): زرقته، والتصويب من النسخ والصحاح (دهم)، والكلام منه.

حتى اشتدَّ السواد فهو جَوْن. وادْهَمَّ الفرسُ ادهِمَاماً، أي: صار أدهم. وادهامَّ الشيءُ ادهِماماً[١]، أي: اسوادَّ، قال الله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدَّة الخضرة من الرِّيِّ، والعرب تقول لكلِّ أخضر: أسودُ. وقال لَبيد يرثي قتلى هَوازِن:

وجاؤوا به في هَوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ كَتَائِبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ[٢]

السَّنَوَّر: لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع. وسمِّيت قُرَى العراق سواداً؛ لكثرة خضرتها[٣]. ويقال للَّيل المظلم: أخضر[٤]. ويقال: أبادَ الله خضراءَهم، أي: سوادهم[٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوَّارتان بالماء، عن ابن عباس[٦]. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء[٧]. وعنه أنَّ المعنى نضَّاختان بالخير والبركة، وقاله الحسن ومجاهد[٨]. ابن مسعود وابن عباس أيضاً وأنس: تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنَّة، كما يَنضَخ رشُّ المطر[٩]. وقال سعيد

(١) في (م): ادهيماماً.

(٢) الصحاح (سنر) وما بعده منه. ولم نقف على البيت في ديوان لبيد.

(٣) الصحاح (دهم).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٠٥ .

(٥) الصحاح (خضر).

(٦) التذكرة ص٤٤٢ ، وما بعده منه أيضاً حتى قوله: بأنواع الفواكه والماء. وذكر قول ابن عباس الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٩ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٥)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨).

(٧) الكشاف ٤/ ٥٠ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١١ عن مجاهد، والنكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن الحسن والكلبي، وزاد المسير ٨/ ١٢٤ عن الحسن.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن أنس، والوسيط ٤/ ٢٢٨ عن ابن عباس، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ عن ابن مسعود وأنس، وأخرجه ـ عن الأخير ـ ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٧).

ابن جُبير: بأنواع الفواكه والماء[١]. الترمذيُّ: قالوا: بأنواع الفواكه والنعيم والجَوارِي المزيَّنات والدوابِّ المسرَجات والثياب الملوَّنات. قال الترمذيُّ: وهذا يدلُّ على أنَّ النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان[٢].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأنَّ الشيء لا يُعطَف على نفسه، إنَّما يُعطَف على غيره. وهذا ظاهر الكلام[٣]. وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنَّما أعاد ذكر النخل والرمان؛ لفَضْلهما وحُسْن موقعهما على الفاكهة؛ كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] وقد تقدَّم[٤].

وقيل: إنَّما كرَّرهما؛ لأنَّ النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرِّ عندنا؛ لأنَّ النخل عامَّة قُوْتهم، والرمان كالثمرات[٥]، فكان يكثر غرسهما عندهم؛ لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، وإنَّما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان؛ لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه، وأَفرد الفواكه على حِدَتها.

وقيل: أُفرِدا بالذكر؛ لأنَّ النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكُّه[٦]؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهي المسألة:

الثانية: إذا حلف أن لا يأكلَ فاكهةً، فأكل رمَّاناً أو رُطَباً، لم يحنث. وخالفه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤١، وأخرجه عنه ابن ابن شيبة ١٣/ ١٣٣، والطبري ٢٢/ ٢٥٩.

(٢) التذكرة ص٤٤١.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٥، وللهراسي ٤/ ٣٩٧، والكلام في التذكرة ص٤٤٢، وما بعده منه أيضاً.

(٤) ٤/ ١٧٤ و ٢/ ٢٦٢.

(٥) في النسخ الخطية: كالتمرات، والمثبت من (م) والتذكرة ص٤٤٢ والكلام منه.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٠، وما بعده منه أيضاً.

صاحباه والناس. قال ابن عباس: الرمَّانة في الجنَّة مثل البعير المُقتب[(١)].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسَعَفها كسوة لأهل الجنَّة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم[(٢)].

قال: وحدَّثنا المسعوديُّ، عن عمرو بن مرَّة، عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنَّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلَّما نزعت ثمرة، عادت مكانها أخرى، وإنَّ ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعاً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» يعني النساء، والواحدة: خَيْرة، على معنى: ذوات خير[(٤)]. وقيل: خَيِّرات، بمعنى خيرات، فخفِّف، كهين ولين[(٥)].

---

(١) أورد ابن كثير في التفسير ٧/ ٥٠٨ عن ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٤٨٨)، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٨)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ من طريق سفيان، به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ. وجاء عند ابن المبارك وابن أبي حاتم: وكربها، بدل: وكرانيفها. والكَرَب والكَرانيف: أصول سَعَف النخل. النهاية (كرب) و(كرنف). والعَجَم: النوى. اللسان (عجم)، والمقطَّعات: شبه الجِباب ونحوها من الخَزِّ وغيره. اللسان (قطع).

(٣) التذكرة ص٤٥٢ عن ابن المبارك بهذا الإسناد، ولكن هو في كتابه الزهد (١٤٩٠) ـ وزهد هنَّاد أيضاً (١٠٤) ـ من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، به، وأخرجه ابن المبارك في الزهد أيضاً برقم (١٤٨٩) من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، والتذكرة ص٤٤٢ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٣ .

ابن المبارك: حدثنا الأوزاعيُّ، عن حسان بن عطيَّة، عن سعيد بن عامر قال: لو أنَّ خَيْرة من «خَيْرَات حِسَان» اطَّلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوءُ وجهها الشمسَ والقمرَ، ولَنصِيفٌ تُكساه خيرة خيرٌ من الدنيا وما فيها[١].

«حِسان» أي: حسَان الخَلْق[٢]، وإذا قال الله تعالى: «حِسَانٌ» فمن ذا الذي يقدر أن يصف حُسْنهنَّ[٣]! وقال الزهريُّ وقتادة: «خَيْرَاتٌ» الأخلاق «حِسان» الوجوه[٤]. وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ من حديث أمِّ سلمة[٥]. وقال أبو صالح: لأنهنَّ عَذَارى أبكار[٦].

وقرأ قتادة وابن السَّمَيْفَع وأبو رجاء العُطارديُّ وبكر بن حبيب السهميُّ: «خَيِّرَاتٌ» بالتشديد على الأصل[٧]. وقد قيل: إنَّ خَيْرات جمع خَيْر، والمعنى: ذوات خَير. وقيل: مختارات[٨].

قال الترمذيُّ: فالخيرات: ما اختارهنَّ الله فأبدع خَلْقهن باختياره، فاختيار الله

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦١ زوائد نعيم) موقوفاً، ورفعه البزار (٣٥٢٨ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٥٥١٢) من طريق مالك بن دينار، عن شهر بن حوشب، عن سعيد بن عامر مرفوعاً.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٧ : رواه الطبراني مطولاً... ورواه البزار باختصار كثير، وفيهما: الحسن عن عنبسة الوراق، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف. اهـ قلنا: ليس في إسناد الطبراني: الحسن بن عنبسة، بل فيه حماد بن الحسن بن عنبسة، وهو ثقة، وفيه الحارث بن نبهان، وهو متروك، ولكن تابعه جعفر بن سليمان. اهـ. والنصيف: الخمار. اللسان (نصف).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٤ .

(٣) التذكرة ص٤٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ عن قتادة، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٦ ، والطبري ٢٢/ ٢٦٢ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٣ ، والطبراني في الكبير ٢٣/ ٣٦٧ (٨٧٠) مطولاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩ : رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن أبي عثمان النهدي، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٨/ ١٢٥ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

لا يُشبِه اختيار الآدميين. ثم قال: «حِسَانٌ» فوصفهنَّ بالحُسن، فإذا وصف خالق الحُسْنِ شيئاً بالحُسْنِ، فانظر ما هناك؟! وفي الأولتين ذكر بأنهنَّ «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» و«كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ والْمَرْجَانُ» فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف[1]؟!

وفي الحديث: «إنَّ الحور العين يأخذ بعضهنَّ بأيدي بعض، ويتغنَّين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها: نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً، ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن خَيْرَات حسان، حبيبات لأزواج كرام». خرَّجه الترمذيُّ بمعناه من حديث عليٍّ ﷺ[2]. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ الحور العين إذا قُلْنَ هذه المقالة أجابهنَّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنَّ، ونحن الصائمات وما صُمتنَّ، ونحن المتوضِّآت وما توضأتنَّ، ونحن المتصدِّقات وما تصدَّقتنَّ. فقالت عائشة رضي الله عنها: فَغَلَبْنَهُنَّ واللهِ[3].

الثانية: واختلف أيُّهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً، الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور؛ لما ذكر من وصفهنَّ في القرآن والسنَّة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: «وأَبْدِلْه زوجاً خيراً من زوجه». وقيل: الآدميَّات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، ورويَ مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رشْدين، عن ابن أنْعُم، عن حبان بن أبي جبلة، قال: إنَّ نساء الدنيا من دخل منهنَّ الجنَّة فُضِّلنَ على الحور العين بما عَمِلنَ في الدنيا[4].

---

(١) التذكرة ص٤٤٢ .

(٢) الترمذي (٢٥٦٤)، وهو عند أحمد (١٣٤٣)، وهناد في الزهد (٩). قال الترمذي: حديث علي حديث غريب.

(٣) لطائف الإشارات ٣/ ٥١٥ ، والتذكرة ص٤٧٦ ، ومجمع البيان ٢٧/ ١٠٧ .

(٤) التذكرة ص٤٧٦ - ٤٧٧ ، والحديث المرفوع سلف ١٩/ ١٣٩ ، وقول ابن أبي جبلة في الزهد لابن المبارك (٢٥٥ زوائد نعيم).

وقد قيل: إنَّ الحور العين المذكورات في القرآن هنَّ المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصريُّ. والمشهور أنَّ الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا، وإنَّما هنَّ مخلوقات في الجنة؛ لأنَّ الله تعالى قال: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أقلَّ ساكِني الجنَّةِ النِّساء»[١] فلا يصيب كلُّ واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنَّهنَّ من غير نساء الدنيا.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ «حُورٌ» جمع حوراء، وهي: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها، وقد تقدَّم[٢]. «مَقْصُورَاتٌ»: محبوسات مستورات «فِي الْخِيَامِ» في الحجال، لَسْنَ بالطوَّافات في الطرق، قاله ابن عباس[٣]. وقال عمر ﷺ: الخيمة: دُرَّة مجوَّفة[٤]. وقاله ابن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٥].

وقال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى: «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ»: بلغنا في الرواية أنَّ سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كلِّ واحدة منهنَّ خيمة على شاطئ الأنهار، سعتها أربعون ميلاً، وليس لها باب، حتى إذا دخل وليُّ الله بالخيمة[٦]، انصدعت الخيمة عن باب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٨)، وأحمد (١٩٨٣٧) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) ١٩/ ١٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٦٦ ، وسيأتي معنى: الحجال، قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٢ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٧ ، والطبري ٢٢/ ٢٧١ .

(٦) في (م): بالجنة. وكذا هي في التذكرة ص٥٠٩ ، والمثبت من النسخ الخطية، والتذكرة ص٤٤٢-٤٤٣ .

لِيَعلَم وليُّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قُصِرَ بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأُولتين: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» قصرنَ طَرْفهنَّ على الأزواج، ولم يذكر أنهنَّ مقصورات، فدلَّ على أنَّ المقصورات أعلى وأفضل[١]. وقال مجاهد: «مَقْصُورَاتٌ» قد قُصِرن على أزواجهنَّ، فلا يُرِدن بدلاً منهم[٢].

وفي «الصحاح»[٣]: وقَصَرْتُ الشيء أَقْصِرُه قَصْراً: حبسته، ومنه: مَقْصورة الجامع، وقَصَرْتُ الشيءَ على كذا، إذا لم تجاوز به إلى غيره، وامرأة قَصِيرة وقَصُورة، أي: مقصورة في البيت لا تُتْرَك أن تخرج، قال كُثَيِّر:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ   إليَّ وما تَدْرِي بذاكَ الْقَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجالِ ولم أُرِدْ   قِصارَ الخُطَا شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ[٤]

وأنشده الفرَّاء[٥]: قَصُورة، ذكره ابن السِّكِّيت[٦].

وروى أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي في الجنة بنهر حافَّتاه قِبَاب المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله. فقلتُ: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوارٍ من الحور العِين استأذنَّ ربَّهنَّ في أن يُسلِّمنَ عليكَ، فأذن لهنَّ، فقلنَ: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً، أزواج رجال كرام» ثم قرأ النبيُّ ﷺ: «حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي

---

(١) التذكرة ص٤٤٢ .

(٢) سلف ١٨/ ٣٣ .

(٣) مادة: (قصر).

(٤) ديوان كُثيِّر ص١٤٩ ، والحِجال: جمع حَجَلة، وهي ستر يُضرب للعروس في جوف البيت. والبحاتر: القصيرات المجتمعات الخَلْق. الوسيط (حجل) و(بحتر).

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠ .

(٦) في إصلاح المنطق ص٣٠٥ .

الْخيَامِ»[١]. أي: محبوسات حبسَ صيانةٍ وتكرمة.

وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنَّها أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! إنَّا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، إذا أحسنتنَّ تَبعُّلَ أزواجكنَّ، وطلبتنَّ مرضاتهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يمسسهنَّ، على ما تقدَّم قبل.

وقراءة العامة: «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازيُّ عن الكسائيِّ بضمِّ الميم في الحرفين. وكان الكسائيُّ يكسر إحداهما ويضمُّ الأخرى، ويُخيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية، وإذا كسر الأولى رفع الثانية[٣]. وهي قراءة أبي إسحاق السَّبيعي. قال أبو إسحاق: كنت أصلِّي خَلْفَ أصحاب عليٍّ فيرفعون الميم، وكنت أصَلِّي خَلْف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فاستعمل الكسائيُّ الأثرين[٤].

وهما لغتان طَمُث وطَمِث[٥]، مثل يَعرُشُون ويَعْكِفُون، فمن ضمَّ؛ فللجمع بين اللغتين، ومن كسر؛ فلأنَّها اللغة السائرة. وإنَّما أعاد قوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» ليبيِّن أنَّ صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف[٦]. يقول: إذا

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣٧٦)، وفي إسناده: الكديمي، وهو محمد بن يونس، ضعيف وكان يهتم بالوضع. تهذيب التهذيب ٣/ ٧٤١ ، والمجروحين ٢/ ٣١٢-٣١٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٧٤٣) مطولاً، والقواعد: جمع قاعد، وهي المرأة الكبيرة المُسِنَّة. النهاية (قعد). وتبعُّل أزواجكنَّ: أي: مصاحبتهم في الزوجية والعِشرة. والبعل: الزوج، ويجمع على بُعولة. النهاية (بعل).

(٣) السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٧ ، والنشر ٢/ ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥ ، وأخرجه عن أبي إسحاق الفرَّاءُ في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ - ١١٩ بنحوه مختصراً.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣ ، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٣ .

(٦) مجمع البيان ٢٧/ ١٠٨ .

ضجرن[1] كانت لهنَّ الخيام في تلك الحال.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ الرفرف: المحابس[2]. وقال ابن عباس: الرفرف: فضول الفَرْش والبسط[3]. وعنه أيضاً الرفرف: المحابس، يتَّكئون على فضولها، وقاله قتادة[4]. وقال الحسن والقُرظيُّ: هي البُسُط[5]. وقال ابن عيينة: هي الزرابيُّ. وقال ابن كيسان: هي المرافق[6]، وقاله الحسن أيضاً[7]. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضَرْب من الثياب الخضر تُبسَط. وقيل: الفُرُش المرتفعة. وقيل: كلُّ ثوب عريض عند العرب فهو رفرف[8]. قال ابن مقبل:

وإنَّا لنَزَّالونَ تَغْشَى نِعَالَنَا سَوَاقِطُ من أصناف رَيْطٍ ورفرفُ[9]

وهذه أقوال متقاربة. وفي «الصحاح»[10]: والرفرف: ثياب خُضَر تتَّخذ منها المحابس، الواحدة: رَفْرَفة. وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضاً: الرفرف: رياض الجنة[11].

---

(١) في (ف): ضجرت، وفي (م): قصرن.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٤، والوسيط ٤/ ٢٣٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٤، والبيهقي في البعث والنشور (٣٣٨).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن الحسن.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، ومجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٠٥ وما بعده منه أيضاً.

(٩) ديوان تميم بن أبي مقبل ص١٩٨، وفيه: سوابغ، بدل: سواقط. وسبغ الشيء: طال إلى الأرض واتَّسع. والريط: جمع ريطة، وهي كل ثوب ليِّن رقيق.

(١٠) مادة: (رفف).

(١١) زاد المسير ٨/ ١٢٧، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٧٠ زوائد نعيم)، والطبري ٢٢/ ٢٧٣ عن سعيد بن جبير.

واشتقاق الرفرف من رَفَّ يَرفُّ: إذا ارتفع، ومنه: رَفْرَفة الطائر؛ لتحريكه جناحَيْه في الهواء. وربما سمّوا الظَّلِيم رَفْرافاً بذلك؛ لأنَّه يرفرف بجناحيه ثم يَعْدُو. ورَفْرَف الطائر أيضاً إذا حرَّك جناحَيْه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً: كِسَر الخباء، وجوانب الدِّرْع وما تدلَّى منها، الواحدة: رَفْرَفة. وفي الخبر في وفاة النبيِّ ﷺ: فرفع الرفرف فرأينا وجهَه كأنَّه وَرَقة [تُخَشْخِش] أي: رفع طرف الفسطاط[1].

وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفُّ: إذا صار غضًّا نضيراً، حكاه الثعلبيُّ. وقاله القتبيُّ. يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز: رَفَّ يرِفُّ رفيفاً، حكاه الهرويُّ.

وقد قيل: إنَّ الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً، ورَفْعاً وخفضاً، يتلذَّذ به مع أنيسته، قاله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» وقد ذكرناه في «التذكرة»[2]. قال الترمذيُّ[3]: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش، فذكره في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وقال هنا: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ» فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الوليُّ رفرف به، أي: طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح، وأصله من رفرف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، روي لنا في حديث المعراج أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغ سِدْرَةَ المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش، فذكر أنَّه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربِّي»[4] ثم لمَّا حان الانصراف، تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أدلَّه إلى جبريلَ صلوات الله وسلامه عليه،

---

(١) الصحاح (رفف)، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٧٠ ، وما بين حاصرتين منه. وخبر وفاته ﷺ أورده ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٤٠٧ ، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٤٢ ، والخشخشة: صوت السلاح ونحوه. الصحاح (خشش).

(٢) ص٥٠٩ .

(٣) التذكرة ص٤٤٣ ، وكلام الترمذي في نوادر الأصول ص٣٦ - ٣٧ بنحوه.

(٤) لم نقف عليه إلا في نوادر الأصول ص٣٦ ، ونقله عنه القرطبي في التذكرة ص٤٤٣ ، والكلام منه.

وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد، فالرفرف: خادم من الخدم بين يدي الله تعالى، له خواصُّ الأمور في محلِّ الدنو والقرب، كما أنَّ البُرَاق دابَّة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخَّره الله لأهل الجنَّتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما، يرفرف بالوليِّ على حافَّات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقريُّ: ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش: إنَّها حسان، فما ظنُّك بتلك العباقر!.

وقرأ عثمان ﷺ والجحدريُّ والحسن وغيرهم: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ» بالجمع، غيرَ مصروف، كذلك: «وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ»[1] جمع رَفْرَف وعَبْقريٍّ. و«رَفْرَف» اسم للجمع، و«عَبْقَرِيّ» واحد يدلُّ على الجمع، المنسوب إلى عَبْقَر. وقد قيل: إنَّ واحد رَفْرف وعَبْقريٍّ: رَفْرَفة وعَبْقريَّة[2]، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع. والعبقريُّ: الطَّنَافس الثخان منها، قاله الفرَّاء[3]. وقيل: الزَّرَابي، عن ابن عباس وغيره[4]. الحسن: هي البُسُط. مجاهد: الدِّيباج[5]. القتبيُّ: كلُّ ثوب وشِّي عند العرب عبقريٌّ[6]. قال أبو عبيد[7]: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي، فينسب إليها كلُّ وَشْي حُبِك. قال ذو الرُّمَّة:

حتى كأنَّ رِياضَ القُفِّ أَلْبسَها ... مِن وَشْيِ عَبْقَر تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ[8]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٨.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠، وقاله ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٤٤.

(٤) زاد المسير ٨/ ١٩٢ عن ابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٦ عن ابن عباس وابن جبير وقتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٧ عن مجاهد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، وفيه: موشًّى، بدل: وشِّي.

(٧) في غريب الحديث ١/ ٨٨ - ٨٩ و ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١.

(٨) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٣٦٦، قال شارحه: والقُفُّ: ما غلظ من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً في ارتفاعه. والتنجيد: التزيين. فشبَّه الزهر بوشي عبقر.

ويقال: عَبْقر: قرية بناحية اليمن تُنسَج فيها بُسُط منقوشة[١]. وقال ابن الأنباري: إنَّ الأصل فيه أنَّ عَبْقر قرية يسكنها الجِنُّ، يُنسَب إليها كلُّ فائق جليل. وقال الخليل: كلُّ جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريٌّ[٢]. ومنه قول النبيِّ ﷺ في عمر ﷺ: «فلم أرَ عبقريًّا من الناس يَفْرِي فَرِيَّه»[٣]. وقال أبو عمرو ابن العلاء وقد سئل عن قوله ﷺ: «فلم أرَ عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» فقال: رئيس قوم وجليلهم[٤]. وقال زُهَير:

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَديرون يوماً أنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا[٥]

وقال الجوهريُّ[٦]: العبقريُّ: موضع تزعم العرب أنَّه من أرض الجِنِّ.

قال لبِيد:

كُهُولٌ وشُبَّان كجِنَّةِ عَبْقَرِ[٧]

ثم نسبوا إليه كلَّ شيء يعجبون من حِذْقه وجودة صنعته وقوَّته فقالوا: عَبْقريٌّ. وهو واحد وجمع. وفي الحديث: «إنَّه كان يسجد على عبقريٍّ»[٨] وهو هذه البسط

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣)، وأحمد (٤٨١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً البخاري (٣٦٣٤)، وأحمد (٨٢٣٩) عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند مسلم (٢٣٩٢) بنحوه.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٢٩٣، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٧.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٣، قال شارحه: الجِنَّة: جمع جِنٍّ. وجديرون: خليقون. ويستعلوا: يظفروا ويَعْلُوا.

(٦) في الصحاح (عبقر).

(٧) شرح ديوان لبيد ص٥٤، وهذا عجز البيت، وصدره:

ومَن فَادَ من إخوانهم وبنيهم

قال شارحه: فاد: مات.

(٨) الصحاح (عبقر)، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٩ و ٣/ ٤٠٠، والحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٣٦ عن عمر ﷺ أنه كان يسجد على عبقري. وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٠ عن أنس أن النبي ﷺ نضح بساطاً لهم فصلى عليه، وعن ابن عباس بنحوه.

التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظُلْم عبقريّ، وهذا عبقريُّ قومٍ، للرجل القويِّ. وفي الحديث: «فلم أرَ عبقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه»[١].

ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: «وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ»، وقرأ بعضهم: «عَبَاقِرِيٍّ» وهو خطأ؛ لأنَّ المنسوب لا يُجمَع على نسبته[٢]. وقال قُطْرُب: ليس بمنسوب وهو مثل: كُرْسيّ وكَراسِيّ، وبُخْتيّ وبَخَاتيّ. وروى أبو بكرة[٣] أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ»[٤] ذكره الثعلبيُّ. وضمّ الضادَ من «خضر» قليلٌ.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ «تَبَارَكَ» تفاعل من البركة، وقد تقدّم[٥]. «ذِي الْجَلَالِ» أي: العظمة. وقد تقدَّم «وَالْإِكْرَامِ»[٦]. وقرأ ابن[٧] عامر: «ذُو الْجَلَالِ» بالواو؛ جعله وصفاً للاسم، وذلك تقويةً لكون الاسم هو المسمَّى. الباقون «ذِي الْجَلَالِ»؛ جعلوا «ذِي» صفة لـ «رَبِّكَ». وكأنَّه يريد به الاسم الذي افتتح به

---

(١) سلف قريباً.

(٢) الصحاح (عبقر)، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٠ .

(٣) في (د) و(م): أبو بكر، والمثبت من (ق) و(ظ) و(خ)، والقراءة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٨ ، والقراءات الشاذة ص١٥٠ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ ، وأخرجها أبو حفص الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١١٤)، والبزار (٣٦٧٣)، والحاكم ٢/ ٢٥٠ من طريق عبد الله بن حفص، عن عاصم الجحدري، عن أبي بكرة، به.

قال النحاس: وإسنادها ليس بالصحيح. وقال الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٧٧ : وذكر عن النبي ﷺ خبر غير محفوظ، ولا صحيح السند. وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: منقطع، وعاصم لم يدرك أبا بكرة.. اهـ. ووردت القراءة في مصادر التخريج: وعباقري، بالياء، بدل: وعباقر.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٠٦ .

(٥) ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) ص١٣٣ من هذا الجزء.

(٧) قوله: ابن. ليست في (م) و(خ) و(د). والمثبت من (ق) و(ظ)، والقراءة في السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣ .

السورة، فقال: «الرَّحْمَنُ» فافتتح بهذا الاسم، فوصف خَلْق الإنسان والجنّ[(١)]، وخَلْق السماوات والأرض وصنعه، وأنَّه «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجِنان. ثم قال في آخر السورة: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أي: هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنَّه يُعلِمهم أنَّ هذا كلَّه خرج لكم من رحمتي، فمِن رحمتي خلقتكم، وخلقتُ لكم السماء والأرض والخَلْق والخليقة والجنَّة والنار، فهذا كلُّه لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال: «ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» جليل في ذاته، كريم في أفعاله.

ولم يختلف القرَّاء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوَّل السورة، وهو يدلُّ على أنَّ المراد به وجهُ الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحُسْن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء، والله أعلم.

---

(١) بعدها في (د) و(خ): والشياطين.

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

مَكِّيَّةٌ، أو مَدنيَّةٌ، أو متبعِّضَةٌ[1]، وآيها ستٌّ وسبعونَ[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لَمَّا كانت السُّورةُ مقصورةً على تَعدادِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ صدَّرَها بالرَّحمنِ، وقَدَّم[3] ما هو أصلُ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ وأجلُّها، وهو إنعامُه بالقرآنِ وتنزيلُه وتعليمُه فإنَّه أساسُ الدِّينِ ومَنشأُ الشَّرعِ وأعظَمُ الوحيِ وأعزُّ الكتبِ؛ إذ هو بإعجازِهِ واشتمالِه على خُلاصَتِها مُصدِّقٌ لنفسِه ومِصداقٌ لها، ثم أتبعَه قولَه:

---

(١) ذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٢٢) عن ابن عباس والحسن وعكرمة وجابر أنها مكية كلها، إلا أن ابن عباس استثنى قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وأن ابن مسعود ومقاتل قالا: هي مدنية كلها.

وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣) أنها مكية في قول الجمهور من الصحابة والتابعين، سوى نافع بن أبي نعيم، وعطاء، وقتادة، وكريب، وعطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٣٧) وفيه: وهي سبعون وستٌّ بَصْري، وسبعٌ مدنيان ومكي، وثمانٍ كُوفي وشامي.

(٣) في نسخة الخيالي: «فقدم».

(٣ـ٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إيماءً بأنَّ خلقَ البشرِ وما تميَّزَ بهِ عن سائرِ الحيوانِ مِن البيانِ.

وهو التَّعبيرُ عمَّا في الضَّميرِ وإفهامُ الغيرِ لِمَا أدركَهُ لتلقِّي الوحيِ وتعرُّفِ الحقِّ وتَعلُّمِ الشَّرعِ.

وإخلاءُ الجملِ الثَّلاثِ التي هي أخبارٌ مُترادِفَةٌ للرَّحمنِ عَن العاطفِ لِمَجيئِها على نهجِ التَّعديدِ.

(٥) ـ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريانِ بحسابٍ مَعلومٍ مُقدَّرٍ في بروجِهِما ومَنازِلهما، وتتَّسقُ بذلك أمورُ الكائناتِ السُّفليَّةِ، وتختلفُ الفصولُ والأوقاتُ، ويُعلَمُ السُّنونُ والحسابُ.

(٦) ـ ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ والنَّباتُ الذي يَنجُمُ ـ أي: يطلعُ ـ مِن الأرضِ ولا ساقَ له.

﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ والذي له ساقٌ.

﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادانِ للهِ فيما يريدُ بهما طبعًا انقيادَ السَّاجدِ مِن المكلَّفينَ طوعًا.

وكان حقُّ النَّظمِ في الجُملَتينِ أن يقال: وأجرى الشَّمسَ والقمرَ وأسجَدَ النَّجمَ والشَّجرَ، أو الشَّمسَ والقمرَ بحسبانِه، والنَّجمُ والشَّجرُ يسجدانِ له؛ ليطابِقَا ما قبلَهُما وما بعدَهُما في اتِّصالِهما بالرَّحمنِ، لكنَّهُما جُرِّدَتا عمَّا يدلُّ على الاتِّصالِ إشعارًا بأنَّ وُضوحَهُ يُغنيهِ عَن البيانِ، وإدخالُ العاطفِ بينَهُما لاشتراكِهِما في الدَّلالةِ على أنَّ ما يحسُّ به مِن تغيُّراتِ أحوالِ الأجرامِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ بتَقديرِه وتَدبيرِه.

(٧) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقَها مَرفوعةً محلًّا ومرتبةً، فإنَّها مَنشأُ أقضِيَتِه، ومُتنزَّلُ أحكامِه ومحلّ مَلائكَتِه.

وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ[١].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٠٢)، عن أبي السمال.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ العَـدلَ بأَنْ وفَّرَ على كلِّ مُسـتعدٍّ مُسْـتَحَقَّهُ، ووفَّى كلَّ ذي حـقٍّ حقَّـهُ حتـى انتظمَ أمـرُ العالـمِ واسـتقامَ، كما قالَ عليه السَّـلامُ: «بالعـدلِ قامَت السَّماواتُ والأرضُ»[1].

أو: ما تُعرَفُ به مقاديرُ الأشياءِ مِن ميزانٍ ومِكيالٍ ونحوهما، كأنَّه لما وصفَ السَّماءَ بالرِّفعةِ التي هي مِن حيثُ إنَّها مَصدرُ القَضايا والأقدارِ، أرادَ وصفَ الأرضِ بما فيها ممَّا يظهرُ به التَّفاوتُ ويُعرَفُ المقدارُ ويُسوَّى به الحقوقُ والمواجبُ.

(٨) ـ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ لأنْ لا تَطْغَـوا فيـه؛ أي: لا تعتَـدُوا ولا تُجـاوِزُوا الإنصافَ.

وقُرِئَ: (لا تَطْغَوا)[2] على إرادةِ القولِ.

(٩) ـ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تَنقُصُوهُ، فإنَّ مِـن حقِّه أن يُسوَّى؛ لأنَّه المقصودُ مِن وَضعِه.

وتكريرُه مبالغةٌ في التَّوصيَةِ به، وزيادةُ حثٍّ على استعمالِه.

وقُرِئَ: (ولا تَخْسروا) بفتحِ التَّاءِ وضمِّ السِّينِ وكسرِها وفَتحِها[3]، عـلـى أنَّ الأصلَ: ولا تخسروا في الميزانِ، فحُذِفَ الجارُّ وأُوصِلَ الفعلُ.

---

(١) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ١٠٢٠): لم أقف عليه، اهـ وذكره الراغب الأصفهاني بدون إسناد في «تفسيره» (١/ ١٣٧) بلفظ: «بالعدل قامت السماوات».
وأصله ما رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٧٠٣) رقم (٢) عن سليمان بن يسار، وأحمد في «مسنده» (٤٧٦٨) واللفظ له عن ابن عمر: أن النبي ﷺ بعث ابن رواحة إلى خيبر يخرص عليهم ثم خيرهم أن يأخذوا أو يردوا، فقالوا: هذا الحق، بهذا قامت السموات والأرض، اهـ.

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٣)، و«الكشاف» (٨/ ٥٤٦).

(٣) بضم السين ذكرها أبو حيان في «البحر» (٢٠/ ١٢٦) دون نسبة، وبكسر السين وبفتحها قرأ بلال بن أبي بردة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٠٣).

(١٠) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضَها مَدحوَّةً ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلقِ، وقيل: الأنامُ كلُّ ذي روحٍ.

(١١) ـ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ضروبٌ ممَّا يتفكَّه به ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أوعيةِ التَّمرِ، جمعُ كِمٍّ، أو كلُّ ما يَكُمُّ؛ أي: يُغَطِّي مِن ليفٍ وسَعْفٍ وكُفَرَّى فإنَّه يُنتفعُ به كالمكمومِ؛ كالجذعِ والجُمَّارِ والثَّمرِ.

(١٢) ـ ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ كالحنطةِ والشَّعيرِ وسائرِ ما يُتغذَّى به، والعَصفُ: ورقُ النَّباتِ اليابسِ كالتِّبنِ.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يعني: المشمومَ، أو الرِّزقَ مِن قَولهم: خَرَجْتُ أطلبُ ريحانَ اللهِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿والحبَّ ذا العَصفِ والرَّيحانَ﴾ أي: وخلقَ الحبَّ والرَّيحانَ، أو أَخُصُّ.

ويجوزُ أن يرادَ: وذا الرَّيحانِ فحُذِفَ المضافُ.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿والرَّيحانِ﴾ بالخفضِ، وما عدا ذلك بالرَّفعِ[1]، وهو فَيْعَلان مِن الرَّوحِ، فقُلِبَ الواوُ وأُدغِمَ ثمَّ خُفِّفَ، وقيل: (رَوْحان) قلبَ واوُه ياءً للتَّخفيفِ.

(١٣) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطابُ للثَّقلينِ المَدلولِ عليهما بقولِه: ﴿لِلْأَنَامِ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾.

(١٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصالُ: الطِّينُ اليابسُ الذي له صلصلَةٌ، والفخَّارُ: الخزفُ، وقد خلقَ اللهُ آدمَ مِن ترابٍ، جعلَهُ طينًا ثم حمأً مَسنونًا ثمَّ صَلصالًا، فلا يخالِفُ ذلك قولَه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ونحوَه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(١٥) ـ ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ الجنَّ أو أبا الجنِّ ﴿مِن مَّارِجٍ ﴾ من صافٍ مِن الدُّخانِ ﴿مِّن نَّارٍ ﴾ بيانٌ لـ﴿مَّارِجٍ ﴾ فإنَّه في الأصلِ للمضطربِ، مِن مَرِجَ: إذا اضطربَ.

(١٦) ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ممَّا أفاضَ عليكما في أطوارِ خلقتِكُما حتى صيَّرَكُما أفضلَ المركَّباتِ وخلاصةَ الكائناتِ.

(١٧) ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ مَشرِقَي الشِّتاءِ والصَّيفِ ومَغرِبَيْهِما.

(١٨) ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ممَّا في ذلك مِن الفَوائدِ التي لا تُحصى كاعتدالِ الهواءِ واختلافِ الفُصولِ وحُدوثِ ما يُناسِبُ كلَّ فَصلٍ فيه إلى غيرِ ذلك.

(١٩) ـ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أرسلَهُما، مِن مَرَجْتُ الدَّابَّةَ: إذا أَرْسَلْتَها، والمعنى: أرسلَ البحرَ الملحَ والبحرَ العذبَ.

﴿يَلْتَقِيَانِ ﴾ يتجاوَرانِ ويتماسُّ سُطوحُهُما، أو بحرَيْ فارسَ والرُّومِ يَلتقيانِ في المُحيطِ لأنَّهما خَليجانِ يَنشَعِبانِ منه.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجزٌ مِن قُدرةِ اللهِ أو من الأرضِ.

﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ لا يَبغي أَحدُهُما على الآخرِ بالمُمازجَةِ وإبطالِ الخاصيَّةِ، أو لا يَتجاوزانِ حدَّيْهِما، أو بإغراقِ ما بينَهُما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

(٢٢) ـ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ كبارُ الدُّرِّ وصِغارُه، وقيل: المرجانُ: الخَرزُ الأَحمرُ، وإن صحَّ أنَّ الدُّرَّ يخرجُ مِن الملحِ فعلى الأوَّلِ إنَّما قال: ﴿مِنْهُمَا ﴾ لأنَّه يخرجُ مِن مُجتمَعِ الملحِ والعذبِ، أو لأنَّهما لَمَّا اجتمعَا صارا كالشَّيءِ الواحِدِ، وكأنَّ المُخرجَ مِن أَحدِهِما كالمُخرجِ مِنْهُما.

وقـرأ نافِـعٌ وأبو عَمـرٍو ويعقوبُ: ﴿يُخـرَجُ﴾[1]، وقُـرِئَ: (نخـرِجُ) و: (يُخرِجُ) بنصبِ (اللؤلؤَ والمرجـانَ)[2].

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ السُّـفنُ، جمـعُ جاريَـةٍ، وقُـرِئَ بحذفِ اليـاءِ ورفـعِ الـرَّاءِ[3] كقولِه:

لَهَـا ثَنَايَـا أَرْبَـعٌ حِسَانُ وَأَرْبَــعٌ فَـكُــلُّهَا ثَمَـانُ[4]

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعاتُ الشُّرُعِ، أو المَصنوعاتُ.

وقرأ حمزةُ وأبو بكرٍ بكسرِ الشِّينِ[5]؛ أي: الرَّافعاتُ الشُّرُعِ، أو اللاتي يُنشِئْنَ الأمواجَ أو السَّير.

﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبالِ، جمعُ عَلَمٍ، وهو الجبلُ الطَّويلُ.

(٢٥) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن خلقِ موادِّ السُّفنِ والإرشادِ إلى أَخذِها وكيفيَّةِ تَركيبِها وإجرائِها في البَحرِ بأَسبابٍ لا يقدرُ على خلقِها وجمعِها غيرُه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦)، و«النشر» (٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).

(٢) القراءتان في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٤٣)، الأولى عن قتادة، والثانية رواية عن أبي عمرو.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) الرجز في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٧٨)، و«المحكم» (٥/ ٤٨٣)، و«شرح الفصيح» لابن هشام اللخمي (ص: ١٨٩)، و«الخزانة» للبغدادي (٧/ ٣٦٥)، والرواية في هذه المصادر:

وأربــعٌ فثغرُهــا ثَمَــانُ

قال البغدادي: ولا أعرف صاحب هذا الرجز. وقال: «ثنايا»: جمع ثنية، وهي أربعٌ من مقدم الأسنان: ثِنْتانِ من فوق وثنتان من تحت. وحذف التاء من «أربع» لأن المعدود وهي الثَّنية مؤنث. وأراد بالأربع الثاني الرَّبَاعِيَات بفتح الراء وتخفيف الياء جمع ربَاعِية على وزن ثَمَانِيَة. والرباعيات: أربع أسنان: ثِنْتانِ من يمين الثَّنية واحدة من فوق وواحدة من تحت، وثنتان من شمالها كذلك.

(٥) وقراءة الباقين بفتح الشين، انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ مَن على الأَرضِ مِن الحَيواناتِ أو المُركَّباتِ، و(مَن) للتَّغليبِ، أو مِن الثَّقلينِ.

﴿فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاتُه، ولو استَقْرَيتَ جهات الموجوداتِ وتَفحَّصْتَ وُجوهَها وَجَدْتَها بأسرِها فانيَةً في حدِّ ذاتِها إلا وجهَ اللهِ؛ أي: الوجهَ الذي يَلِي جِهَته.

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناءِ المُطلَقِ والفضلِ العامِ.

(٢٨) ـ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: ممَّا ذكَرْنا قبلُ مِن بقاءِ الرَّبِّ وإبقاءِ ما لا يُحصَى ممَّا هو على صددِ الفناءِ رحمةً وفضلًا، أو ممَّا ترتَّبَ على إفناءِ الكُلِّ مِن الإعادةِ والحياةِ الدَّائمةِ والنَّعيمِ المُقيمِ.

(٢٩) ـ ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنَّهُم مُفتَقِرُونَ إليه في ذَواتِهم وصِفَاتِهم وسائرِ ما يُهِمُّهُم ويَعُنُّ لهم، والمرادُ بالسُّؤالِ ما يدلُّ على الحاجةِ إلى تحصيلِ الشَّيءِ نطقًا كانَ أو غيرَه.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كلَّ وقتٍ يُحدِثُ أشخاصًا ويُجدِّدُ أحوالًا على ما سبَقَ بـه قَضاؤُه.

وفي الحديث: «مِن شأنِه أن يغفرَ ذنبًا ويُفرِّجَ كربًا ويرفعَ قومًا ويضعَ آخرينَ»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)، والبزار في «مسنده» (٤١٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٢١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٩)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً.

وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٨٧٨) بصيغة الجزم موقوفاً عليه. وقال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٢٩): والموقوف هو الصواب.

وللمرفوع شاهد آخر، رواه البزار (٢٢٦٨ ـ كشف) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ: =

وهو ردٌّ لقولِ اليَهودِ: إنَّ اللهَ لا يَقضي يومَ السَّبتِ شيئًا(١).

(٣٠) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: ممَّا يُسعِفُ بـه سُؤالَكُما وما يُخرج لَكُما مِن مَكمنِ العدمِ حينًا فحينًا.

(٣١) ـ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سَنتجرَّدُ لحسابِكُم وجَزائِكُم، وذلك يومَ القيامةِ، فإنَّه تعالى لا يفعَلُ فيه غيرَه.

وفيه تهديدٌ، مستعارٌ مِن قولِكَ لِمَن تُهدِّدُه: سأفرغُ لك، فإنَّ المُتجرِّدَ للشَّيءِ كانَ أقوى عليهِ وأجَدَّ فيه.

وقرأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ باليَاءِ(٢).

وقُرِئَ: (سَنَفْرُغُ إليكُم)(٣)؛ أي: سنقصدُ إليكم.

والثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ، سُمِّيَا بذلك لثقلِهما على الأرضِ أو لرزانةِ رَأيِهم وقَدرِهِم، أو لأنَّهما مُثقلانِ بالتَّكليفِ.

= ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «يغفرُ ذنبًا ويكشف كربًا»، وفي سنده محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، قال في «التقريب»: ضعيف، وقد اتهمه ابن عدي وابن حبان.

وله شاهد رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١٦)، والبزار (٢٢٦٦ ـ كشف)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦١٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٨١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٢٧)، من حديث عبد الله الأزدي رضي الله عنه. وفي سنده عمرو بن بكر السكسكي وهو متروك كما في «التقريب».

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٩٨)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٤٧٣)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٨٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) وقراءة الباقين بالنون، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٣) ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة» (٦/ ٢٤٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٣١).

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن قدرتُم أن تخرُجوا مِن جوانبِ السَّماواتِ والأرضِ هاربينَ مِن اللهِ فارِّينَ مِن قضائِه ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فاخرُجوا.

﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرونَ على النُّفوذِ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بقوَّةٍ وقَهرٍ، وأنَّى لَكُم ذلك، أو إنْ قدرْتُم أنْ تنفُذُوا لتَعلَمُوا ما في السَّماواتِ والأَرضِ فانفُذُوا لتَعلَمُوا، لكِنْ لا تَنفُذونَ ولا تَعلَمُونَ إلا ببيِّنَةٍ نَصبَها اللهُ فتَعرُجونَ عليها بأفكارِكُم.

(٣٤) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: مِن التَّنبيهِ والتَّحذيرِ والمساهلةِ والعَفوِ مع كمالِ القدرةِ، أو مما نُصِبَ مِن المصاعدِ العقليَّةِ والمعارجِ النَّقليَّةِ فتنفذونَ بها إلى ما فوقَ السَّماواتِ العلى.

(٣٥) ـ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ لهبٌ ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ودخانٌ، قال:

يضيءُ كضوءِ سراجِ السَّليـ ـطِ لم يجعَلِ اللهُ فيه نُحاسَا[1]

أو صُفْرٌ مُذابٌ يُصَبُّ على رُؤوسِهِم.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿شِواظٌ﴾ بالكسرِ[2]، وهو لغةٌ ﴿ونُحاسٍ﴾ بالجرِّ عطفًا على ﴿نَّارٍ﴾، ووافقَهُ فيه أبو عَمرٍو ويعقوبُ في روايةٍ[3]. وقُرِئَ (ونُحُسٍ) وهو جمعٌ كَلُحُفٍ[4].

---

(١) البيت للنابغة الجعدي في «ديوانه» (ص: ٨١)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٨)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٤٥)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٢٨٦)، و«غريب القرآن» له (ص: ٤٣٨)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٩١)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٥٣٦)، و«الصحاح» (مادة: نحس). ونسب للأعشى في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣١) وليس في ديوانه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨١).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٠)، و«البحر» (٢٠/ ١٤٣)، عن الحسن وإسماعيل.

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنِعانِ.

(٣٦) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنَّ التَّهديدَ لطفٌ، والتَّمييزَ بين المطيعِ والعاصي بالجَزاءِ والانتقامِ مِن الكُفَّارِ[1] مِن عِدادِ الآلاءِ.

(٣٧) ـ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: حمراءَ كوردةٍ، وقُرِئَت بالرَّفعِ[2] على (كان) التَّامَّةِ، فيكونُ مِن بابِ التَّجريدِ، كقوله:

فَلَئِنْ بَقِيتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ ... نَحْوَ الغَنَائِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ[3]

﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ مذابةً كالدُّهنِ، وهو اسمٌ لِمَا يُدْهَنُ به، كالخزامِ، أو جمعُ دُهنٍ، وقيل: هو الأديمُ الأحمرُ.

(٣٨) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: ممَّا يكونَ بعدَ ذلك.

(٣٩) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيومَ تنشقُّ السَّماءُ ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنَّهُم يُعرَفُونَ بسِيماهُم، وذلك حينَما يخرجونَ مِن قُبورِهم ويُحشَرُونَ إلى الموقفِ ذَوْدًا ذَوْدًا على اختلافِ مَراتِبِهم.

---

(١) في نسخة الفاروقي زيادة: «فيكون».

(٢) وهي قراءة عبيد بن عمير، انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٥٦)، و«البحر» (٢٠/ ١٤٥).

(٣) البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي كما في «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ٥٤٣)، و«الفائق» (٢/ ٤١).
قال المرزوقي: اللام من «لئن» موطئةٌ للقسم، و«لأرحلن» جوابه، وقوله: «نحو الغنائم» ظرفٌ لـ «أرحلن»، ورواه بعضهم: «تحوي الغنائم»، ويكون صفةً لـ «غزوةٍ»؛ أي: حاويةٍ للغنائم، وقوله: «أو يموت كريم»، «أو» بدلٌ من «إلا»، و«يموت» ينتصب بـ «أنْ» مضمرة، كأنه قال: إلا أن يموت كريم، ويعني بالكريم نفسَه.
وقال الطيبي: جرَّد هاهنا من السماء شيئًا يسمَّى وردة، وهي هي، كما جرد الشاعر من نفسه صفة الكرم وجعلها بمنزلة شخص لكمالها فيه، وعلى المشهور تشبيه محض، أي: كانت السماء كالوردة.

وأمَّا قولُه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾ [الحجر: ٩٢] ونحوُه فحينَ يُحاسَبونَ في المَجمعِ، والهاءُ للإنسِ باعتبارِ اللَّفظِ، فإنَّه وإنْ تأخَّرَ لَفْظًا تقدَّمَ رُتبَةً.

(٤٠) ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: ممَّا أنعمَ اللهُ على عِبادِه المؤمنينَ في هذا اليومِ.

(٤١) ـ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وهو ما يَعلوهُم مِن الكآبةِ والحُزنِ.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ مَجمُوعًا بينهما، وقيل: يؤخذونَ بالنَّواصي تارةً وبالأقدامِ أخرى.

(٤٢ ـ ٤٤) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بينَ النَّارِ يُحرقونَ بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماءٍ حارٍّ ﴿ءَانٍ﴾ بلغَ النِّهايةَ في الحرارةِ يُصَبُّ عليهم أو يُسقَونَ منه.

وقيل: إذا استغاثُوا مِن النَّارِ أُغيثُوا بالحَميمِ.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ موقفَه الذي يقفُ فيه العبادُ للحِسابِ، أو قيامَه على أحوالِه، مِن قامَ عليه: إذا راقبَهُ، أو مقامَ الخائفِ عندَ ربِّه للحسابِ بأحدِ المَعنيينِ، فأضافَ إلى الربِّ تفخيمًا وتهويلًا، أو ربَّه، و﴿مَقَامَ﴾ مُقحَمٌ للمبالغةِ كقولِه:

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ ... مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ[1]

---

(١) البيت للشماخ بن ضرار يذكر ماء ورده، انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢٠ ـ ٣٢١)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٨)، و«مجاز القرآن» (١/ ٤٦)، و«المعاني الكبير» (١/ ١٩٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٧)، و«الفاخر» للمفضل (ص: ٨)، و«معاني القرآن للزجاج» (١/ ١٧٠). وقبله:

وماءٍ قد وردتُ لوَصْلِ أَرْوى ... عليه الطيرُ كالورقِ اللَّجينِ =

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنَّةٌ للخائفِ الإنسيِّ، والأخرى للخائفِ الجنيِّ، فإنَّ الخطابَ للفَريقينِ، والمعنى: لكلِّ خائِفَينِ مِنْكُما، أو لكلِّ واحدٍ جَنَّةٌ لعقيدَتِه وأخرى لعَمَلِه، أو جنةٌ لفعلِ الطَّاعاتِ وأخرى لتركِ المعاصي، أو جنَّةٌ يثابُ بها وأخرى يتفضَّلُ بها عليه، أو روحانيَّةٌ وجسمانيَّةٌ، وكذا ما جاءَ مُثنًّى بعدُ.

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أنواعٍ مِن الأشجارِ والثِّمارِ، جمعُ فَنٍّ، أو أغصانٍ جمعُ فَنَنٍ، وهي الغِصَنَةُ التي تَتشعَّبُ مِن فرعِ الشَّجرةِ، وتخصيصُها بالذِّكرِ لأنَّها التي تُورِقُ وتُثمِرُ وتمدُّ الظِّلَّ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيثُ شاؤوا في الأعالي والأسافلِ، قيل: إحداهُما التَّسنيمُ والأخرى السَّلسبيلُ.

(٥١ ـ ٥٢) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفانِ غريبٌ ومَعروفٌ، أو رطبٌ ويابسٌ.

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباجٍ ثخينٍ، وإذا كانت البطائنُ كذلك فما ظنُّكَ بالظَّهائرِ، و﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ مدحٌ للخَائفينَ، أو حالٌ مِنْهُم؛ لأنَّ مَن خافَ في معنى الجمعِ.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريبٌ يَنالُه القاعدُ والمضطجعُ، و﴿جنى﴾ اسمٌ بمعنى مَجْنِيٍّ. وقُرِئَ بكسر الجيمِ[1].

= وقال الشهاب في «الحاشية على البيضاوي»: يعني به أنه ورده وهو خال من الناس قبل كل أحد، واللجين بفتح اللام الذي خبط حتى تَلَجَّنَ؛ أي: تلزح، وقوله: «ذعرت به القطا...». خصهما لأن القطا أنكى الطيور، والذئب أنكى السباع، وقوله: كالرجل اللعين؛ أي: المطرود الذي خَلْفَه مَن يطلبُه فإنه لا ينام ويَرِدُ المياه قليلاً، وتفسيره بما يُتخذ في المزارع على هيئة رجل لتخويف الوحوش والطيور وطردها وإن ذهب إليه كثير ممن شرحه لكن الأوّل أظهر وأبلغ.

(١) حكاه محبوب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٠).

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ﴾ في الجنانِ، فإن ﴿جَنَّتَانِ﴾ تدلُّ على جنانٍ هي للخائفينَ، أو فيما فيهِما من الأماكنِ والقُصورِ، أو في هذه الآلاءِ المعدودةِ مِن الجنَّتينِ والعينينِ والفاكهةِ والفُرشِ.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساءٌ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لـم[(١)] يَمسَّ الإنسيَّاتِ إنسٌ والجنيَّاتِ جنٌّ، وفيه دليلٌ على أن الجنَّ يَطمَثونَ.

وقرأ الكِسائيُّ بضمِّ الميمِ[(٢)].

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: في حُمرةِ الوجنةِ وبياضِ البشرةِ وصَفائِهما.

(٥٩ ـ ٦١) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العملِ ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب وهو الجنَّة[(٣)] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٢) ـ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دونِ تَينِكَ الجنَّتينِ المَوعودتينِ للخائفينَ المقرَّبينَ جنتانِ لِمَن دونَهُم مِن أصحابِ اليمينِ.

(٦٣ ـ ٦٥) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ خضراوانِ تَضرِبانِ إلى السَّوادِ مِن شدَّةِ الخُضرَةِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الغالبَ على هاتينِ الجنَّتينِ النَّباتُ والرَّياحينُ المنبسطَةُ على وجهِ الأَرضِ، وعلى الأُولَيَينِ الأَشجارُ والفواكِهُ دلالةً على ما بينَهُما مِن التَّفاوُتِ، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «لن».

(٢) وهي بخلف عنه، والباقون بكسر الميم، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٣) «وهو الجنة» من نسخة الفاروقي.

(٦٦) ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارتان بالماءِ، وهو أيضًا أقلُّ مما وصفَ به الأُوليَيْنِ، وكذا ما بعدَه.

(٦٧ ـ ٦٩) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطفَهما علـى الفاكِهـةِ بيانًا لفَضلِهِما، فإنَّ ثمرةَ النَّخلِ فاكهةٌ وغِذاءٌ، وثمرةَ الرُّمانِ فاكهةٌ ودواءٌ.

واحتجَّ به أبو حنيفةَ على أنَّ مَن حلفَ لا يأكُلُ فاكهةً فأكلَ رُطبًا أو رُمَّانًا؛ لم يحنَثْ[١]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٠) ـ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ أي: خَيِّراتٌ، فخُفِّفَت لأنَّ (خَيْراً) الذي بمعنى (أَخْيَر) لا يُجمَعُ، وقد قُرِئَ على الأصلِ[٢].

﴿حِسَانٌ﴾ حِسانُ الخُلُقِ والخَلْقِ.

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قُصِرْن في خُدورهنَّ، يقال: امرأةٌ قصيرةٌ وقَصُورةٌ ومَقصورةٌ؛ أي: مُخدَّرةٌ، أو مقصوراتُ الطَّرفِ على أزواجهنَّ.

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كحورِ الأُولَيَيْنِ، وهم لأصحابِ الجنَّتينِ، فإنَّهما يَدُلَّانِ عليهِم.

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ وَسائدُ أو نَمارِقُ، جمعُ رَفْرفةٍ.

وقيل: الرَّفْرَفُ ضربٌ مِن البُسُطِ، أو ذيلُ الخيمةِ، وقد يقالُ لكلِّ ثوبٍ عَريضٍ.

---

(١) انظر: «الأصل» للشيباني (٢/ ٣١٧).

(٢) وهي قراءة أبي عثمان النهدي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥١).

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقريُّ: مَنْسُوبٌ إلى عَبْقَرَ، تزعمُ العربُ أنَّه اسمُ بلدِ الجنِّ، فينسبونَ إليهِ كلَّ شيءٍ عَجيبٍ، والمرادُ به الجنسُ، ولذلك جُمِعَ ﴿حِسَانٍ﴾ حملًا على المعنى.

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه مِن حيثُ إنَّه مطلقٌ على ذاتِه، فما ظنُّك بذاتِه؟!

وقيل: الاسمُ بمعنى الصِّفةِ، أو مقحمٌ كما في قولِه:

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا[1]

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقرأ ابنُ عامرٍ بالرَّفعِ صفةً للاسمِ[2].

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ الرَّحمنِ أدَّى شُكرَ ما أنعمَ اللهُ عليه»[3].

***

---

(١) صدر بيت للبيد بن ربيعة العامري وهو في «ديوانه» (ص: ٥١)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١٦)، و«الوحشيات» لأبي تمام (ص: ١٥٤)، وعجزه:

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٢٨٦)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢٢٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢١٧)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه بلفظ: «مَن قرأ سورة الرَّحْمَن رحم الله ضعفه، وأدى شكر...»، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٢١).

(٥٥) سورة الرحمن مدنية وآياتها ثمان وسبعون

روى الترمذي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه، أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن ٭ خلق الإنسان علمه البيان﴾ قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحّاك: يعني الخير والشر، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، على اختلاف مخارجها وأنواعها، وقوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنّن، لا يختلف ولا يضطرب. ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾. وقوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ اختلف المفسرون

(١) أخرجه الترمذي ورواه الحافظ البزار وابن جرير بنحوه.

في معنى قوله ﴿ والنجم ﴾ ؛ فروي عن ابن عباس ﴿ النجم ﴾ ما انبسط على وجه الأرض، يعني من النبات(1)، وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم، لقوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ يعني العدل، كما قال تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي السماء أرساها بالجبال الشامخات، لتستقر بما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أقطارها وأرجائها، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: الأنام: الخلق، ﴿ فيها فاكهة ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام: قال ابن عباس: هي أوعية الطلع، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عن العنقود فيكون بسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه، وقيل الأكمام رفاتها، وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقتادة، ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ قال ابن عباس: ﴿ ذو العصف ﴾ يعني التبن، وعنه: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قتادة والضحاك: عصفه: تبنه، وقال ابن عباس ومجاهد: والريحان يعني الورق، وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما، له في حال نباته عصف وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها، وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً، والريحان الورق يعني إذا أدجن وانعقد فيه الحب، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة:

وقولا له: من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن: «اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد» وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب، أي لا نكذب بشيء منها.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

(١) وهو قول سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري واختاره ابن جرير.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله ابن عباس(١)، وعنه: ﴿ من مارج من نار ﴾ من لهب النار من أحسنها، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ من مارج من نار ﴾ من خالص النار، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحّاك وغيرهم، وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(٢). وقوله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾؟ تقدم تفسيره، ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء، وقال: ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس، وقال: ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾، والمراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ مرج البحرين ﴾ قال ابن عباس: أي أرسلهما، وقوله ﴿ يلتقيان ﴾ قال ابن زيد: أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله ﴿ البحرين ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس(٣)؛ وقد اختار ابن جرير: أن المراد بالبحرين بحر السماء، وبحر الأرض، لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصداف بحر الأرض، وهذا لا يساعده اللفظ، فإنه تعالى قد قال ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أي وجعل بينهما برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً.

وقوله تعالى: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾؟ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الاطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ(٤)، وقيل: كباره وجيده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف(٥)، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، قال ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر. وأما قوله: ﴿ ومن كلٍ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من المالح دون العذب، قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن بها عليهم فقال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ في البحر ﴾ قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت. وقال قتادة: المنشآت يعني المخلوقات، وقال غيره: المنشِئات بكسر الشين

---

(١) وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد.

(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٣) تقدم الكلام على هذا في سورة الفرقان.

(٤) قاله مجاهد وقتادة والضحّاك.

(٥) منهم الربيع بن أنس وابن عباس ومرة الهمداني.

يعني البادئات، ﴿ كالأعلام﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟ عن عمرة بن سويد قال: « كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط عليٌّ يديه، ثم قال: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله »[١] .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ، وفي الدعاء المأثور: يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك. وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿ كل من عليها فان﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهل أن يُجل فلا يُعصى، وأن يُطاع فلا يُخالف، كقوله تعالى: ﴿ يريدون وجهه﴾ ، وكقوله: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله﴾. قال ابن عباس: ﴿ ذو الجلال والإكرام﴾ ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ . وقوله تعالى: ﴿ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، قال الأعمش: من شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً، وقال مجاهد: كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً، وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماوات والأرض يحيي حياً ويميت ميتاً، ويربي صغيراً ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم، وروى ابن جرير عن منيب الأزدي قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ كل يوم هو في شأن﴾ فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال: « أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين »[٢] . وقال ابن عباس: إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه يا قوتة حمراء قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء[٣] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير مرفوعاً ورواه البخاري موقوفاً من كلام أبي الدرداء . (٣) أخرجه ابن جرير .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ قال: وعيد من الله تعالى للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن جريج: ﴿سنفرغ لكم﴾ أي سنقضي لكم، وقال البخاري: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأفرغنّ لك، وما به شغل يقول: لآخذنك على غرتك، وقوله تعالى: ﴿أيها الثقلان﴾ الثقلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: «يسمعه كل شيء إلا الثقلين»، وفي رواية: «إلا الإنس والجن»، وفي حديث الصور: «الثقلان الإنس والجن» ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إلا بسلطان﴾ أي إلا بأمر الله، ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرسلُ عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ قال ابن عباس: الشواظ هو لهب النار، وعنه: الشواظ الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: ﴿شواظ من نار﴾ سيل من نار، وقوله تعالى: ﴿ونحاس﴾ قال ابن عباس: دخان النار، وقال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاساً. روى الطبراني عن الضحّاك أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهب الذي لا دخان معه، فسأله شاهداً على ذلك من اللغة، فأنشده بيت أمية بن أبي الصلت في حسان:

ألا من مبلغ حسانَ عني … مُغَلْغلة تدب إلى عكاظ[1]
أليس أبوك فينا كان قيناً … لدى القينات فَسْلاً في الحِفاظ
يمانيـاً يظل يشد كيراً … وينفخ دائباً لهب الشواظ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له، قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان يقول:

يضيء كضوء سراج السليـ … ـط لم يجعل الله فيه نحاساً[2]

وقال مجاهد: النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم، والمعنى: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بارسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟

(١) معنى مغلغلة: أي رسالة؛ قين: أي عبد، فَسْل: أي ضعيف عابر.
(٢) رواه الطبراني عن الضحّاك عن نافع بن الأزرق.

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء﴾ يوم القيامة كما دلت عليه الآيات الواردة في معناها، كقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾، وقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾، وقوله : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت﴾، وقوله تعالى: ﴿ فكانت وردة كالدهان﴾ أي تذوب كما يذوب الدُّرْدِي[١] والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . عن أَنَس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم »[٢] قال الجوهري: الطش المطر الضعيف، وقال ابن عباس: ﴿ وردة كالدهان﴾ كالأديم الأحمر . وعنه كالفرس الورد. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد ، ثم كانت بعد كالدهان، وقال الحسن البصري : تكون ألواناً ، وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردي الزيت، وقال مجاهد: ﴿ كالدهان﴾ كألوان الدهان، وقال عطاء الخُراساني : كلون دهن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان، وقال أبو الجوزاء ، في صفاء الدهن، وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهان الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم، وقوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ، وهذه كقوله تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ فهذا في حال ، و « ثَمَّ » في حال، يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، ولهذا قال قتادة ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾، قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا، فهذا قول ثان، وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى: ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم﴾ أي بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة: يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون، (**قلت**) : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور، وقال الضحّاك: يجمع بين ناصيته وقدميه

---

(١) الدردي : ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والأدهان .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أَنَس بن مالك .

في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره، وقوله تعالى: ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً، وقوله تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ . وقوله تعالى ﴿ آن﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة قال ابن عباس: قد انتهى غليه واشتد حرّه، وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس، وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ فقوله ﴿ حميم آن﴾ أي حميم حار جداً، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته، وكان إنذره لهم عن عذابه وبأسه، مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي، قال ممتناً بذلك على بريته: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾

قال عطاء الخُراساني: نزلت هذه الآية ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ في أبي بكر الصديق، وقال عطية ابن قيس: نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار لعلي أضل الله، قال تاب يوماً وليلة، بعد أن تكلم بهذا فقبل الله منه وأدخله الجنة[1]، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه﴾ بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة ﴿ ونهى النفس عن الهوى﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله: عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عزّ وجلّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2]، وقال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه في قوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وفي قوله: ﴿ ومن دونهما جنتان﴾، جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين. وقال عطاء بن يسار، أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال: «وإن ... رغم أنف أبي الدرداء»[3]. وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٣) رواه النسائي مرفوعاً وموقوفاً.

دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذواتا أفنان﴾ أي أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ هكذا قال عطاء وجماعة: أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً، وقال عكرمة ﴿ذواتا أفنان﴾ يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر:

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعَو على فنن الغصون حماما

وعن ابن عباس ﴿ذواتا أفنان﴾: ذواتا ألوان، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ واختاره ابن جرير، وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: ﴿ذواتا أفنان﴾ واسعتا الفناء، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها والله أعلم، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة - أو قال يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب - فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال»[1] ﴿فيهما عينان تجريان﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان. قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسبيل، وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ أي من جميع أنواع الثمار، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل.

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿متكئين﴾، يعني أهل الجنة، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع، ويقال: الجلوس على صفة التربيع ﴿على فرش بطائنها من استبرق﴾ وهو ما غلظ من الديباج، وقيل: هو الديباج المزيّن بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى، قال ابن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ قال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور، وقال الثوري: بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد، وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾، وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ أي لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿فيهن﴾ أي في الفرش ﴿قاصرات الطرف﴾ أي غضيضات عن غير

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات، وذلك قوله: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، ثم قال ينعتهن للخطاب ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال مجاهد والحسن: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها» وذلك قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[1]. وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقهامن وراء الثياب»[2] وعن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء، فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل إمرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب؟»[3]. وروى الإمام أحمد، عن أنَس أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[4].

وقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة كما قال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. روى البغوي، عن أنَس بن مالك قال، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[5]؟ ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ

(١) رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح.
(٢) تفرد به الإمام أحمد.
(٣) الحديث مخرج في الصحيحين.
(٤) أخرجه أحمد ورواه البخاري بنحوه.
(٥) ذكره البغوي من حديث أنَس بن مالك.

﴿٧٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما، في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن قال الله تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما». فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين،

وقال ابن عباس: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من دونهما في الدرجة. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل؛ ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من شدة الري من الماء، قال ابن عباس ﴿مدهامتان﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء، وعنه ﴿مدهامتان﴾ قال: خضروان. وقال محمد بن كعب: ممتلئتان من الخضرة، وقال قتادة: خضروان من الري ناعمتان، ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض، وقال هناك: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وقال ههنا: ﴿نضاختان﴾ قال ابن عباس: أي فياضتان والجري أقوى من النضخ، وقال الضحّاك ﴿نضاختان﴾ أي ممتلئتان ولا تنقطعان، وقال هناك: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وقال ههنا ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على ﴿فاكهة﴾ وهي نكرة في سياق الاثبات لا تعم، ولهذا ليس قوله: ﴿ونخل ورمان﴾، من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان»، قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم، وأضعاف»، قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب ما في بطونهم من أذى»[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم ومنها حللهم، وورقها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وتمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم». وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب»[2]، ثم قال: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة قاله قتادة، وقيل: ﴿خيرات﴾ جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه قاله الجمهور، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله أن الحور العين يغنين: «نحن الخيِّرات الحسان. خلقنا لأزواج كرام» ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فيهن خيّرات﴾ بالتشديد ﴿حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، ثم قال: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، وهناك قال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت وإن كان الجميع مخدرات، قال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: إن لكل مسلم خيرة ولكل

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده.

(٢) أخرجهما ابن أبي حاتم.

خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، تدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية، لم تكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات، ولا بخرات، ولا زفرات، حور عين كأنها بيض مكنون.

وقوله تعالى: ﴿في الخيام﴾ قال البخاري، عن عبدالله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»، ورواه مسلم بلفظ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً». وقال ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در[1]. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربع فراسخ في أربع فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب[2]. وقال عبدالله بن وهب، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء»[3]. وقوله تعالى: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان ۝ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، وقوله تعالى: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس: الرفرف المحابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة هي المحابس، وقال عاصم الجحدري: ﴿متكئين على رفرف خضر﴾ يعني الوسائد وهو قول الحسن البصري، وقال سعيد بن جبير: الرفرف رياض الجنة، وقوله تعالى: ﴿وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس والسدي: العبقري الزرابي، وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العبقري الديباج.

وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى ﴿وعبقري حسان﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة لا أباً لكم فاطلبوها، وقال أبو العالية: العبقري الطنافس المحملة إلى الرقة ما هي، وقال القيسي: كل ثوب موشّى عند العرب عبقري، وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾؟ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخيرتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين. ثم قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس ﴿ذي الجلال والإكرام﴾: ذي العظمة والكبرياء. «أجلّوا الله يغفر لكم»[4]. وفي الحديث الآخر: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»[5]. وفي رواية: «أَلِظُّوا بذي الجلال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) رواه الترمذي.

والإكرام »[1]. وقال الجوهري: ألظ فلان بفلان إذا لزمه، وقول ابن مسعود: ألظوا بياذا الجلال والإكرام: أي الزموا، يقال: الإلظاظ هو الإلحاح، وفي صحيح مسلم، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[2].

[آخر تفسير سورة الرحمن ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه النسائي وأحمد .

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

تفسير سورة الرحمن

وهى مكية.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زرٍّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إنى لأقرأ المفصل؛ أجمع فى ركعة واحدة. فقال: أهذًا كهذِّ الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن النبى ﷺ التى كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾(١).

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشىء من نعمك ـ ربنا ـ نكذب، فلك الحمد»(٢).

ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر(٣) رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد ابن شبويه، عن هشام بن عمار، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه(٤).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصرى، قالا: حدثنا يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» ـ أو: قُرِئَت عنده ـ فقال: «ما لى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالت الجن: لا بشىء من نعمة(٥) ربنا نكذب».

ورواه الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك، به(٦). ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد.

---

(١) المسند (١/ ٤١٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٩١).

(٣) فى م، أ: «يستنكر».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٧٣) من طريق هشام بن عمار وعبد الرحمن بن واقد، كلاهما عن الوليد بن مسلم به.

(٥) فى م، أ: «نعم».

(٦) مسند البزار (٢٢٦٩) «كشف الأستار» وشيخه عمرو بن مالك الراسبى ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾.

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: **﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾** قال الحسن: يعنى: النطق[(١)]. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعنى: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾** أى: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب، **﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [يس: ٤٠]، وقال تعالى: **﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** [الأنعام: ٩٦].

وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير فى عينى عبد، ثم كشف حجابا واحدا من سبعين حجابا دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسى، ونور الكرسى جزء من سبعين جزءا من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءا من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور فى عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانا. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: **﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾**: قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله: **﴿وَالنَّجْمُ﴾** بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض ـ يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ**

(١) فى أ: «المنطق».

وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: **﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾** يعنى: العدل، كما قال: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾** [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: **﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾** أى: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون[1] الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: **﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾** أى: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال [تعالى][2]: **﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾** [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: **﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾** أى: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، فى سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق. **﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾** أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، **﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾** : أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطبا ويابسا. والأكمام ـ قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا، ثم رطبا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه.

قال ابن أبى حاتم[3]: ذُكِرَ عن عمرو بن على الصيرفى: حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائفى، عن الشعبى قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلى أتتنى من قبلك، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشىء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير، ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد[4] الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تَيْنَع وتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلى صدقتنى فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب[5]: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك[6]، هذه الشجرة عندنا، وهى الشجرة التى أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله، فإن **﴿ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن [7]مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾**[8] [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾: قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: **﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾** يعنى: التبن.

---

(١) فى م: «ليكون».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى أ: «ابن جرير».
(٤) فى م: «كالرمد».
(٥) فى م: «عمر بن عبد الله».
(٦) فى م، أ: «صدقتك».
(٧) فى م: «تكونن».
(٨) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٩/١٤ «القسم المخطوط») من طريق محمد بن منصور بن أبى الجهم عن عمرو بن على الصيرفى به.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿الْعَصْفِ﴾: ورق الزرع الأخضر الذى قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعنى: الورق.

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضر[1] الزرع.

ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلا. والريحان: الورق، يعنى: إذا أدجن وانعقد فيه الحب. كما قال زيد بن عمرو بن نفيل فى قصيدته المشهورة.

وَقُولاَ له: من يُنْبِتُ الحَبّ فى الثَّرى فَيُصْبِحَ منه البقـــلُ يَهْتَزّ رابيا؟

وَيُخْــــرِجَ منْه حَبَّه فى رُؤُوسه؟ فَفى ذاك آياتٌ لِمَنْ كَانَ واعيا[2]

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى الآلاء[3] ـ يا معشر الثقلين، من الإنس والجن ـ تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أى: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها[4]، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد». وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيها يا رب». أى: لا نكذب بشىء منها.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عُرْوَة، عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون[5] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6].

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾.

---

(١) فى أ: «خضرة».
(٢) انظر الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٣) فى م: «آلاء». (٤) فى م: «جحدها». (٥) فى م: «يسمعون».
(٦) المسند (٦/ ٣٤٩).

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه[١] الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ :من لهب النار، من أحسنها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ : من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر،عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به[٢].

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ : تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعنى: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟

وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ : قال ابن عباس: أى أرسلهما.

وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أى: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.

والمراد بقوله: ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ : الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض،وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبْزَى.

قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف[٣] بحر الأرض[٤].وهذا وإن كان هكذا ليس المراد [بذلك][٥] ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغى هذا على هذا، وهذا على

(١) فى أ: «خلق».
(٢) المسند (٦/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).
(٣) فى م: «واختلاف».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٥).
(٥) زيادة من م، أ.

هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما[١] كفى، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل إنما كانوا فى الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك. وروى عن على.

وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن[٢] أنس، وحكاه عن السدى عمن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا، ومرة الهمدانى.

وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. قال السدى، عن أبى مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدى وهو البُسَّذ[٣] بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هى من الملح دون العذب.

قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها ـ يعنى: من قطر ـ فهو اللؤلؤ.

إسناده[٤] صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال[٥]: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشآت ـ بكسر الشين ـ يعنى: البادئات.

﴿كَالأَعْلامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى[٦] جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال [تعالى][٧]: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) فى أ: «أحدهما». (٢) فى أ: «عن». (٣) فى م، أ: «الكسد».
(٤) فى م: «إسناد». (٥) فى م: «وقال». (٦) فى م: «من».
(٧) زيادة من: أ.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العرار بن سويد، عن عميرة بن سعد، قال: كنت مع على بن أبى طالب، رضى الله عنه، على شاطئ الفرات، إذا أقبلت سفينة مرفوع شراعها، فبسط على يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ . والذى أنشأها تجرى فى [بحر من][1] بحوره ما قتلت عثمان، ولا مالأت على قتله.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب ـ تعالى وتقدس ـ لا يموت، بل هو الحى الذى لا يموت أبدا.

قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله كان[2].

وفى الدعاء المأثور: يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث[3]، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

وقال الشعبى: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم فى هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ : ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو فى شأن.

---

(١) زيادة من م.
(٢) فى م: «فان».
(٣) فى م: «أستغيث».

قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، قال: من شأنه أن يجيب داعيا، أو يعطى سائلا، أو يفك عانيا، أو يشفى سقيما.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا.

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحِمْصىّ، حدثنا حريز بن عثمان، عن سُوَيْد ابن جبلة ـ هو الفزارى ـ قال: إن ربكم كل يوم هو فى شأن، فيعتق رقابا، ويعطى رغابا، ويقحم عقابا.

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الله بن محمد بن عمرو الغُزِّى، حدثنى إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنى عمرو بن بكر السَّكْسكى[١]، حدثنا الحارث بن عبدة بن رباح الغسانى، عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن، قال: «أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين[٢]»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، وسليمان بن أحمد الواسطى، قالا: حدثنا الوزير[٤] بن صَبِيح الثقفى أبو روح الدمشقى ـ والسياق لهشام ـ قال: سمعت يونس بن ميسرة ابن حَلْبَس، يحدث عن أم الدرداء عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ » قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين[٥]»[٦].

وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة، عن هشام بن عمار، به. ثم ساقه من حديث أبى همام الوليد بن شجاع، عن الوزير بن صَبِيح قال: ودلنا عليه الوليد بن مسلم، عن مُطَرِّف، عن الشعبى، عن أم الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ، فذكره. قال: والصحيح الأول. يعنى إسناده الأول[٧].

قلت: وقد روى موقوفا، كما[٨] علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبى الدرداء[٩]، فالله أعلم.

---

(١) فى م: «الشكسى». (٢) فى أ: «قومًا».

(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠١) «مجمع البحرين» والبزار فى مسنده برقم (٢٢٦٦) «كشف الأستار»، من طريق عمرو بن بكر السكسكى ـ وهو متروك ـ عن الحارث بن عبدة به.

(٤) فى م: «أبو رزين». (٥) فى أ: «قومًا».

(٦) رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢) من طريق هشام بن عمار به.

قال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٨٨): «هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/ ٧٧١ « القسم المخطوط»). (٨) فى م، أ: «وقد».

(٩) صحيح البخارى (٨/ ٦٢٠) «فتح»، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان موصولاً برقم (١١٠٢) من طريق إسماعيل بن عبد الله عن أم الدرداء عن أبى الدرداء موقوفًا.

وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، قال: «يغفر ذنبا، ويكشف كربا»(١).

ثم قال ابن جرير: وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبى حمزة الثُّمَالى، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، أن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق فى كل نظرة، ويحيى ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء(٢).

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ ، قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جريج: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أى: سنقضى لكم.

وقال البخارى: سنحاسبكم(٣)، لا يشغله شىء عن شىء، وهو معروف فى كلام العرب، يقال(٤): «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غِرَّتك(٥)».

وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾: الثقلان: الإنس والجن، كما جاء فى الصحيح: «يسمعها كل شىء إلا الثقلين» وفى رواية: «إلا الجن والإنس». وفى حديث الصور: «الثقلان الإنس والجن» ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾. أى: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا فى مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أى: إلا بأمر الله، ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ـ ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٨) «كشف الأستار». قال ابن حجر: «البيلمانى ضعيف».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٩).
(٣) فى م: «سيحاسبكم». (٤) فى أ: «يقول». (٥) فى م: «غرة».

أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]؛ ولهذا قال: **﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾**.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: الشواظ: الدخان.

وقال مجاهد: هو: اللهيب[١] الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهيب[٢] الذى فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: **﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾**: سيل من نار.

وقوله: **﴿وَنُحَاسٌ﴾**: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: **﴿وَنُحَاسٌ﴾**: دخان النار. وروى مثله عن أبى صالح، وسعيد بن جبير، وأبى سنان.

قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا ـ بضم النون وكسرها ـ والقراء[٣] مجمعة على الضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة[٤]:

يُضِيءُ كَضَوءِ سراجِ السَّلِيـ ـطِ، لَم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاسا

يعنى: دخانا، هكذا قال[٥].

وقد روى الطبرانى من طريق جُوَيْبِر، عن الضحاك؛ أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهب الذى لا دخان معه. فسأله شاهدا على ذلك من اللغة، فأنشده قول أمية بن أبى الصلت فى حسان:

ألا مـن مُبلـــــغٌ حَسَّان عَنِّى مُـغَـلغَـلـةً تدبّ[٦] إلى عُـكَـاظِ

ألَيس أبُـــــوكَ فِينَا كان قَيناً لَـدَى[٧] القينَات فَسْلاً فِى الحَفَـاظ

يَـمَانِياً يظل يَشُدُ[٨] كِيـــــرًا ويـنـفـخ دائبـــاً لَـهَـبَ الـشُّواظ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذى لا لهب له. قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بنى ذبيان يقول[٩]:

يُضِيءُ كَضَوءِ سَرَاجِ السَّلِيـ ـطِ، لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاسا[١٠]

وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْر، يذاب[١١] فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال

(١، ٢) فى م، أ: «اللهب». (٣) فى م: «القراءة».

(٤) فى م، أ: «نابغة بنى جعدة»، وفى تفسير الطبرى: «نابغة بنى ذبيان» ولم أجده فى ديوانه، والبيت فى مجاز القرآن لأبى عبيدة منسوبا للنابغة الجعدى ٢/ ٢٤٤، ٢٤٥. والبيت أيضا فى ديوان الجعدى واللسان، مادة «نحس» مستفادا من هامش ط. الشعب.

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٨١).

(٦) فى م: «يدب». (٧) فى م: «إلى». (٨) فى م: «يشب».

(٩) كذا، وقد سبق تخريج البيت ونسبته إلى الجعدى.

(١٠) المعجم الكبير (١٠/ ٣٠٥) وفيه جويبر وهو متروك لم يلق ابن عباس.

(١١) فى م: «المذاب».

الضحاك: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ : سيل من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا[١]؛ ولهذا قال: ﴿فلا تنتصران. فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبان﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

يقول [تعالى][٢]: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كما يذوب الدُّرْدى والفضة فى السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الصهباء، حدثنا نافع أبو غالب الباهلى، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطِش عليهم»[٣].

قال الجوهرى: الطش: المطر الضعيف.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبوكُدَيْنة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفى، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الورد، ثم كانت بعد كالدهان.

وحكى البَغَوى وغيره: أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء، وفى الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد اغْبَرَّ لونها.

وقال الحسن البصرى: تكون ألوانا. وقال السدى: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ : كألوان الدهان. وقال عطاء الخراسانى: كلون دُهْن الوَرْد فى الصفرة. وقال قتادة: هى اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان. وقال أبو الجوزاء:

(١) فى م: «لرجعوا». (٢) زيادة من م.
(٣) المسند (٣/ ٢٢٦).

فى صفاء الدهن. وقال [أبو صالح][(١)] بن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يُصيبها حر جهنم.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا فى حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان.

وقال مجاهد فى هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُون بسيماهم.

وهذا قول[(٢)] ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها[(٣)] ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم.

وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون.

قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه فى النار كذلك.

وقال الأعمش، عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدمه[(٤)]، فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور.

وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه[(٥)] فى سلسلة من وراء ظهره.

وقال السدى: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، أنه سمع أبا سلام ـ يعنى جده ـ أخبرنى عبد الرحمن، حدثنى رجل من كندة قال: أتيت عائشة فدخلت عليها، وبينى وبينها حجاب، فقلت: حدثك رسول الله ﷺ أنه يأتى عليه ساعة لا يملك لأحد فيها شفاعة؟ قالت: نعم، لقد سألته عن هذا وأنا وهو فى شِعَار واحد، قال: «نعم، حين يوضع الصراط، ولا أملك لأحد فيها شفاعة، حتى أعلم أين يسلك بى؟ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه، حتى أنظر ماذا يفعل بى ـ أو قال: يوحى ـ وعند الجسر حين يستحد ويستحر» فقالت: وما يستحد وما يستحر؟ قال: «يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويستحر حتى يكون

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى م: «جواب». (٣) فى م: «إلى النار».
(٤) فى أ: «قدميه». (٥) فى أ: «قدمه».

مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه لا يضره، وأما المنافق فيتعلق حتى إذا بلغ أوسطه خر من قدمه فيهوى بيده إلى قدميه، فتضربه الزبانية بخطاف فى ناصيته وقدمه، فتقذفه فى جهنم، فيهوى[١] فيها مقدار خمسين عاما». قلت: ما ثقل الرجل؟ قالت: ثقل عشر خلفات سمان، فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام.

هذا حديث غريب [جدا][٢]، وفيه ألفاظ منكر رفعها، وفى الإسناد من لم يُسَمّ، ومثله لا يحتج به[٣]، والله أعلم.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا.

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: تارة يعذبون فى الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آنٍ﴾ أى: حار، وقد بلغ الغاية فى الحرارة، لايستطاع من شدة ذلك.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثورى، والسدى.

وقال قتادة: قد أَنَى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظى: يؤخذ العبد فيحرّكُ بناصيته فى ذلك الحميم، حتى يذوب[٤] اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظى رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر، لا ينافى ما روى عن القرظى أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة[٥] المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)﴾.

---

(١) فى م: «فهوى». (٢) زيادة من م.
(٣) رواه عبد الرزاق فى المصنف كما فى الدر المنثور (٧/ ٧٠٤) عن رجل من كنده بنحوه.
(٤) فى م: «حتى تذوب». (٥) فى أ: «العاصين».

قال ابن شَوْذب، وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فى أبى بكر الصديق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا بَقِيَّة، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن عطية بن قيس فى قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ : نزلت فى الذى قال: أحرقونى بالنار، لعلى أضل الله، قال: تاب يوما وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة.

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال البخارى، رحمه الله.

حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العَمّى، حدثنا أبو عِمْران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن».

وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به[(١)].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبى بكر بن أبى موسى، عن أبيه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ، وفى قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [قال][(٢)]: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصرى[(٣)]، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا محمد ابن جعفر، عن محمد بن أبى حَرْمَلَة، عن عطاء بن يَسَار، أخبرنى أبو الدرداء؛ أن رسول الله ﷺ قرأ يوما هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، فقلت: وإن زنى أو سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبى الدرداء».

ورواه النسائى من حديث محمد بن أبى حَرْمَلَة، به[(٤)]. ورواه النسائى أيضا عن مؤمَّل[(٥)] بن هشام، عن إسماعيل، عن الجُرَيرى، عن موسى، عن محمد بن سعد بن أبى وقاص، عن أبى الدرداء، به[(٦)]. وقد روى موقوفا على أبى الدرداء. وروى عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٧٦٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٦).

(٢) زيادة من أ. (٣) فى م: «المقرى».

(٤) تفسير الطبرى (٥/ ٤٩٠) «ط. المعارف»، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦٠).

(٥) فى أ: «موسى».

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦١).

ولم يسرق.

وهذه الآية عامة فى الإنس والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نَضِرَة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا[١] قال عطاء الخراسانى وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجَر، يمس بعضُها بعضا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله ابن النعمان، سمعت عكرمة يقول: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾، يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

ما هاجَ شَوقَكَ من هَديل حَمَامَةٍ ... تَدْعُو على فَنَن الغُصُون حَمَامـا

تَدْعُو أبا فَرْخَين صـادف طاويـا ... ذا مخلبين من الصقـور قَطاما[٢]

وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبى: أنه الغصن المستقيم[٣] [طوالا][٤].

قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: ذواتا ألوان.

قال: و[قد][٥] روى عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدى، وخُصَيف، والنضر بن عربى[٦]، وأبى سِنَان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير.

وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبئ بسعتها وفضلها[٧] ومزيتها على ما سواها.

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء[٨] قالت: سمعت رسول الله ﷺ ـ وذكر سدرة المنتهى ـ فقال: «يسير فى ظل الفَنَن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال: يستظل فى ظل الفَنَن منها مائة راكب ـ فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القِلال».

---

(١) فى أ: «وكذا».

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر بن حيان فى الفنون وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء كما فى الدر المنثور (٧/ ٧٠٩).

(٣) فى م: «الغصن المنيف طولا». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من م.

(٦) فى أ: «عدى». (٧) فى م: «بفضلها وسعتها».

(٨) فى م: «أسماء بنت يزيد»، وفى أ: «أسماء بنت أبى بكر».

رواه الترمذى من حديث يونس بن[1] بكير، به[2].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى: تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: قال الحسن البصرى: إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسبيل».

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة[3].

وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، يعنى: أن بين ذلك بَونًا عظيما، وفرقًا بينا فى التفاضل.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربّع. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة.

وقال أبو عِمْران الجَوْنى: هو الديباج المغرّى[4] بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قال أبو إسحاق، عن هُبَيْرة بن يَرِيم[5]، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟

وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور.

---

(١) فى: م، أ: «عن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٥٤١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) فى م: «الحنظل». (٤) فى م، أ: «المعمول». (٥) فى أ: «سرية».

وقال سفيان الثورى ـ أو شريك ـ: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد.

وقال القاسم بن محمد[١]: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة.

وقال ابن شَوْذَب، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر ذلك كله الإمام ابن أبى حاتم.

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى: ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد.

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة.

قال أرطاة بن المنذر: سئل ضَمْرَةَ بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، قال مجاهد، والحسن، [والسدى][٢]، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عَبيدة بن حُمَيْد، عن عطاء بن السائب، عن عمرو بن ميمون الأودى[٣]، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير[٤]، حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حَجَرٌ لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه».

وهكذا رواه الترمذى من حديث عَبِيْدَة بن حميد وأبى الأحوص، عن عطاء بن السائب، به[٥]. ورواه موقوفا، ثم قال: وهو أصح[٦].

---

(١) فى م: «مخيمر».
(٢) زيادة من: م.
(٣) فى أ: «الأزدى».
(٤) فى م: «حرير».
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٣).
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب».

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه(١). وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أَضْوَء كوكب دُرّى فى السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب»(٢).

وهذا الحديث مُخَرّجُ فى الصحيحين، من حديث هَمّام بن مُنَبّه وأبى زُرْعَة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَابُ قوس أحدكم ـ أو موضع قيده (٤)ـ يعنى: سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، ولنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

ورواه البخارى من حديث أبى إسحاق، عن حميد، عن أنس بنحوه(٥).

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ أى: ما لمن أحسن فى الدنيا العمل(٦) إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال البغوى: أخبرنا أبو سعيد الشَّرِيحى، حدثنا أبو إسحاق الثعلبى، أخبرنى ابن فَنجُوَيَة، حدثنا ابن شيبة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بَهْرَام، حدثنا الحجاج بن يوسف المُكْتِب، حدثنا بِشْر ابن الحسين، عن الزبير بن عَدِىّ، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله، ﷺ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾، قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»(٧).

ولما كان فى الذى ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك

(١) المسند (٢/ ٣٤٥).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٤) فى م: «قده»، وفى أ: «قدمه».
(٥) المسند (٣/ ١٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٧٩٦).
(٦) فى م: «العمل فى الدنيا».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٥٦) وفيه بشر الأصبهانى يروى عن الزبير بن عدى عن أنس بنسخة موضوعة.

كله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، ما رواه الترمذى والبغوى، من حديث أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى عقيل الثقفى، عن أبى فروة يزيد بن سنان الرّهاوى، عن بُكَيْر ابن فيروز[(١)] ، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

ثم قال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر[(٢)].

وروى البغوى من حديث على بن حُجْر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبى حَرْمَلَة ـ مولى حويطب بن عبد العزى ـ عن عطاء بن يَسَار، عن أبى الدرداء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال [رسول الله ﷺ][(٣)]: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبى الدرداء»[(٤)].

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، فالأوليان[(٥)] للمقربين، والأخريان[(٦)] لأصحاب اليمين».

---

(١) فى أ: «فيروز الديلمى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٠) وتفسير البغوى (٧/ ٤٥١).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٥٢).

(٥) فى م: «فالأولتان».

(٦) فى م: «والأخيرتان».

وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين.

وقال ابن عباس: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل.

والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم[1] وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قال: خضراوان. ورُوى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أَوْفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد ـ فى إحدى الروايات ـ وعطاء، وعطية العَوْفى، والحسن البصرى، ويحيى بن رافع، وسفيان الثورى، نحو ذلك.

وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ : ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض. وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ.

وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفى[2] الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان». قالوا: أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ قال: «نعم وأضعاف». قالوا: فيقضون الحوائج ؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما فى بطونهم من أذى»[3].

---

(١) فى أ: «التقديم». (٢) فى م: «فى».
(٣) المنتخب برقم (٣٥) وفيه حصين بن عمر وهو متروك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الفَضْل بن دُكَيْن، حدثنا سفيان، عن حماد، عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقَطَّعَاتهم، ومنها حُلَلهم وكَرَبُها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم.

وحدثنا أبى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن أبى هارون، عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرّمانة من رمانها كمثل البعير المُقْتَب»[(١)].

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وروى مرفوعا عن أم سلمة[(٢)]. وفى الحديث الآخر الذى سنورده فى سورة «الواقعة»[(٣)]: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خيّرات»، بالتشديد ﴿حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبى بزّة، عن أبى عبيدة، عن مسروق، عن عبد الله قال: إن لكل مسلم خيَرة، ولكل خَيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها[(٤)] كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مَرّاحات ولا طَمّاحات، ولا بخرات ولا ذفرات، حور عين، كأنهن بيض مكنون.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾، قال البخارى:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجونى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون[(٥)] ميلا، فى كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون».

ورواه أيضا من حديث أبى عمران، به[(٦)]. وقال: «ثلاثون ميلا». وأخرجه مسلم من حديث أبى عمران، به، ولفظه: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا،

---

(١) رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الإحياء (٦/ ٢٧٨٧) وابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى تهذيبه (٥/ ٤٦٢) من طريق أبى هارون العبدى به.

وأبو هارون العبدى اسمه عمارة بن جوين كذبه بعض الأئمة.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) مطولا وفيه سليمان بن أبى كريمة، وهو ضعيف.

(٣) عند تفسير الآيات: ٣٥ ـ ٣٨ من نفس السورة

(٤) فى م: «عليهم».

(٥) فى أ: «سبعون».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٩)، (٣٢٤٣).

للمؤمن فيها أهل[(١)] يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا»[(٢)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن أبى الربيع، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، أخبرنى خُلَيْد العَصَرى، عن أبى الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون بابا من در.

وحدثنا أبى، حدثنا عيسى بن أبى فاطمة، حدثنا جرير، عن هشام، عن محمد بن المثنى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، قال: [فى][(٣)] خيام اللؤلؤ، وفى الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ فى أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن دَرَّاجا أبا السَّمح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ، قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء».

ورواه الترمذى من حديث عمرو بن الحارث، به[(٤)].

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ﴾: [قد][(٥)] تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هى المحابس. وقال العلاء بن بدر[(٦)]: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى.

وقال عاصم الجحدرى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه.

وقال أبو داود الطيالسى، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، قال: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هى عتاق الزرابى، يعنى: جيادها.

وقال مجاهد: العبقرى: الديباج.

وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هى بسط أهل الجنة ـ لا أبالكم ـ

---

(١) فى م: «أهلون».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٨).

(٣) زيادة من م.

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٢) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين». ولم يتفرد به رشدين بل تابعه ابن وهب كما هنا، وفى إسناده دراج يروى عن أبى الهيثم مناكير.

(٥) زيادة من: م، أ.

(٦) فى م: «زيد».

فاطلبوها. وعن الحسن [البصري][(١)] رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقري: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقري، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْرَة[(٢)] يعقوب ابن مجاهد: العبقري: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقري: الطنافس المخْمَلة، إلى الرقة ما هي. وقال القتيبي: كل ثوب مُوَشى عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء يسر[(٣)] من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريا. ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقريا يفري فريه»[(٤)].

وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها[(٥)]، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين[(٦)]، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصي، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذي العظمة والكبرياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عمير[(٧)] ابن هانئ، عن أبي العذراء، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أجِدّوا الله يغفر لكم»[(٨)].

وفي الحديث الآخر: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن[(٩)] غير الغالي فيه ولا الجافي عنه»[(١٠)].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الجيزي[(١١)]، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام».

وكذا رواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به[(١٢)]،

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) في أ: «حزيرة». (٣) في م، أ: «نفيس».
(٤) صحيح البخاري برقم (٣٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٥) في م: «ظهارتها». (٦) في م: «الأخيرتين». (٧) في أ: «عمر».

(٨) المسند (٥/ ١٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣١): «وفي إسناده أبو العذراء وهو مجهول».
(٩) في م: «الذكر».
(١٠) رواه أبو داود في السنن برقم (٤٨٤٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(١١) في الأصل وبقية النسخ: «الحربي» والتصويب من أبي يعلى.
(١٢) مسند أبي يعلى (٦/ ٤٤٥) وسنن الترمذي برقم (٣٥٢٢).
وقال ابن طاهر: «وقد تابع المؤمل فيه روح بن عبادة وروح حافظ ثقة».
أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٣٩٦) من طريق روح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن

ثم قال: غلط المؤمل فيه، وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبى ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حسان المقدسى، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذى الجلال والإكرام».

ورواه النسائى من حديث عبد الله بن المبارك، به(١).

قال الجوهرى: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه(٢).

وقال ابن مسعود: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أى: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح.

قلت: وكلاهما قريب من الآخر ـ والله أعلم ـ وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ـ يعنى: بعد الصلاة ـ إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»(٣).

آخر تفسير سورة الرحمن، ولله الحمد [والمنة](٤)

---

(١) المسند (٤/١٧٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦٣).

(٢) لسان العرب (٧/٤٥٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٥٩٢) وسنن أبى داود برقم (١٥١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨) وسنن النسائى (٣/٦٩) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٤) زيادة من م، أ

سورة الرحمن

مكّيّة، وقيل: مدنيّة، وقيل:[١] مكّيّة[٢] ومدنيّة،[٣] وهي ستّ وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لمّا عُدِّد في السورة السابقة ما نزَل بالأمَم السالفة مِن ضروب نِقَم الله عزّ وجلّ، وبُيِّن عقيبَ كلّ ضَرْب منها أنّ **القرآن** قد يُسِّر لحَمْل الناس على التذكُّر والاتّعاظ، ونُعيَ عليهم إعراضُهم عن ذلك، عُدِّد[٤] في هذه السورة الكريمة ما فاض على كافّة الأنام مِن فنون نِعَمه الدينيّة والدنيويّة الأنفُسيّة والآفاقيّة، وأُنكِر عليهم إثرَ كلّ فنّ منها إخلالهم بمواجب شكرِها، وبُدئ بتعليم **القرآن** فقيل:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

/ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لأنّه أعظمُ النِّعم شأنًا وأرفعُها مكانًا، كيف لا، [١٥٠و] وهو مدار للسعادة الدينيّة والدنيويّة عِيارٌ على سائر الكتب السماويّة، ما مِن مرصدٍ يَرْنو إليه أحداقُ الأمم إلّا وهو منشؤه ومناطه، ولا مَقصِد يمتدّ إليه أعناق الهمم إلّا وهو مَنْهَجه وصراطه. وإسنادُ تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنّه مِن آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتُصر على ذِكره تنبيهًا على أصالته وجلالةِ قَدْره.

ثمّ قيل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تعيينًا للمعلَّم وتبيينًا لكيفيّة التعليم، والمراد بخَلْق الإنسان إنشاؤه على ما هو عليه مِن القوى الظاهرة والباطِنة، والبيانُ: هو التعبير عمّا في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرّدَ تمكين الإنسان مِن بيان نفسه؛ بل منه ومِن فَهْم بيانِ غيره أيضًا؛ إذ هو الذي يدور عليه تعليم **القرآن**.

---

[١] س + فيها.
[٢] س: مكّي.
[٣] س: مدني.
[٤] السياق: لمّا عُدِّد... عُدِّد...

والجملُ الثلاث أخبارٌ مترادفة لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وإخلاءُ الأخيرتين عن العاطف لورودها على منهاج التعديد.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ أي: يجريان بحساب مقدَّر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفليّة وتختلف الفصول والأوقات ويُعلَم السِّنون والحساب.

﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ أي: النبات الذي ينجم، أي: يطلع مِن الأرض ولا ساقَ له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾[١] الذي له ساق ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ أي: ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعًا انقيادَ الساجدين مِن المكلَّفين طوعًا. والجملتان خبران آخران لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جُرِّدا عن الرابط اللفظي تعويلًا على كمال قوّة الارتباط المعنوي؛[٢] إذ لا يُتوهَّم ذهاب الوهم إلى كون حالِ الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى، ولا إلى كون سجودِ النجم والشجر لِما سواه تعالى، كأنّه قيل: الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له، وإخلاءُ الجملة الأولى عن العاطف لِما ذُكر مِن قبل، وتوسيطُ العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما مِن حيث التقابل / لِما أنّ [١٥٠ظ]
الشمس والقمر عُلويّان والنجم والشجر سُفليّان، ومِن حيث إنّ كلًّا مِن حال العُلويّين وحالِ السفليّين مِن باب الانقياد لأمر الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خَلَقها مرفوعةً محلًّا ورتبةً حيث جَعَلها منشأ أحكامه وقضاياه ومتنزّل أوامره ومحلَّ ملائكته، وفيه مِن التنبيه على كبرياء شأنه وعِظَم مُلْكه وسلطانه ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[٣] على الابتداء. ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي:

---

[١] س + أي.

[٢] وفي هامش م: أي: بأن يقال: أجرى الشمس والقمر. «منه».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٩.

شَرَع العدل وأمر به بأن وفّر كلّ مستحقّ ما استحقه ووفّى كلّ ذي حقّ حقّه حتّى انتظم به أمر العالم واستقام، كما قال عليه السلام: «بالعدل قامتِ السماوات والأرض».[١] قيل: فعلى هذا الميزان: **القرآن**، وهو قول الحسين بن الفضل،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد، ٢٥/٥٧]. وقيل: هو ما يُعرَف به مقاديرُ الأشياء مِنْ مِيزان ومِكيال ونحوهما، وهو قول الحسن وقتادةَ والضحّاكِ،[٣] فالمعنى خَلَقه موضوعًا مخفوضًا على الأرض حيث علّق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبّدهم به مِن التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: لئلّا تطغوا فيه على أنّ ﴿أَن﴾ ناصبة و﴿لَا﴾ نافية ولام العلّة مقدّرة متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، أو أي: لا تطغوا على أنّها مفسِّرة لِما في الشرع مِن معنى القول و﴿لَا﴾ ناهية، أي: لا تعتدوا أو لا تُجاوزوا الإنصافَ. وقُرئ: "لَا تَطْغَوا"[٤] على إرادة القول.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ قوِّموا وزنكم بالعدل، وقيل: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل،[٥] وقيل: الإقامة باليد والقسط بالقلب.[٦] ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تُنقصوه، أُمِر أوّلًا بالتسوية، ثمّ نُهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، ثمّ عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان، وكُرِّر لفظ ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ تشديدًا للتوصية به وتأكيدًا للأمر باستعماله والحثّ عليه.

---

١ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٣٥٢/٣.

٢ **القول في اللباب لابن عادل**، ٣٠٠/١٨. | هو الحُسين بن الفضل بن عُمير البجلي، أبو عليّ. (ت. ٢٨٢هـ/٨٩٥م). العلّامة المفسّر الإمام اللغوي المحدِّث، عالم عصره، كان رأسًا في معاني القرآن، أصله مِن الكوفة، انتقل إلى نيسابور وأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له فأقام يعلِّم الناس خمسًا وستّين سنةً. وكان قبره بها معروفًا. انظر: **سير أعلام النبلاء للذهبي**، ٤١٤/١٣-٤١٥؛ **والأعلام للزركلي**، ٢٥١/٢.

٣ مَرويّ عنهم في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات للنّوزاوازي**، ص ١٧٣٩.

٥ مرويّ عن أبي الدرداء وعطاء في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧؛ **واللباب لابن عادل**، ٣٠٢/١٨.

٦ مرويّ عن ابن عُيينة في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧؛ **واللباب لابن عادل**، ٣٠٢/١٨.

[١٥١و] وقُرِئ: "وَلَا تَخْسُرُوا" بفتح "التاء" وضمّ "السين" وكسرها،[١] / يقال: "خسَر الميزانَ يخسُره ويخسِره"، وبفتح "السين"[٢] أيضًا على أنّ الأصل "ولا تَخسَروا في الميزان" فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ أي: خفَضها مدحوّةً على الماء ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي: الخلق. قيل: المراد به كلّ ذي روح.[٣] وقيل: كلّ ما على ظهَر الأرض مِن دابّة. وقيل: الثقلان.[٤]

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾... إلخ استئناف مسوق لتقرير ما أفاده الجملة السابقة مِن كون الأرض موضوعةً لمنافع الأنام وتفصيلِ المنافع العائدة إلى البشر، وقيل: حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾،[٥] فالأحسنُ حينئذ أن يكون الحال هو الجارّ والمجرور، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾ رفع على الفاعليّة، أي: فيها ضروب كثيرة ممّا يُتفكّه به. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية الثمر، جمع "كِمّ"، أو كلّ ما يُكمّ، أي: يغطّى مِن ليف وسَعَف وكَفَرّى، فإنّه ممّا ينتفع به كالمكموم مِن تمره وجمّازه وجذوعه.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾ هو ما يُتغذّى به كالحِنطة والشعير ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع. وقيل: التِبن.[٦] ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قيل: هو الرزق، أريدَ به اللبّ،[٧] أي: فيها ما يُتلذّذ به مِن الفواكه، والجامع بين التلذّذ والتغذّي وهو ثمر النخل وما يُتغذّى به وهو الحبّ الذي له عصفٌ هو علف الأنعام وريحانٌ هو مطعم الناس. وقُرِئ: "وَالحَبَّ ذَا العَصْفِ وَالرَّيْحَانَ"،[٨] أي: خلَق الحبّ والرَّيحان، أو "أخُصُّ"، ويجوز أن يراد "وذا الرَّيحان" فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامه.

---

١ قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن بلال بن أبي بُردة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٥٢.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣٠٤.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.

٨ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠.

و﴿ٱلرَّيۡحَانُ﴾ إمّا "فَيعَلان" مِن "روح" فقُلِبت الواو ياءً وأُدغِم ثم خُفِّف، أو "فَعْلان" قُلِبت واوه ياءً للتخفيف، أو للفرق بينه وبين الرَّوْحان وهو ما له رُوحٌ، قاله القرطبي.[١]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخِطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾، وسينطق به قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾،[٢] و"الفاء" / لترتيب [١٥١ظ]
الإنكار والتوبيخ على ما فُصِل مِن فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجِبة للإيمان والشكر حتمًا.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة الكلّيّة والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرُهم بها: إمّا بإنكار كونه نعمةً في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه مِن النِّعم الدينيّة، وإمّا بإنكار كونه مِن الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمةً في نفسه كالنِّعم الدنيويّة الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالًا أو اشتراكًا صريحًا أو دلالةً، فإنّ إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة مِن دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يُوجبها.

والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لِما أنّ دلالة "الآلاء" المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالةَ، أي: فإذا كان الأمر كما فُصِل فبأيّ فرد مِن أفراد آلاء مالككما ومربّيكما بتلك الآلاء تكذِّبان، مع أنّ كلًّا منها ناطق بالحقّ شاهدٌ بالصدق.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلِّقة بذاتي كلّ واحد مِن الثقلين. والصلصال: الطين اليابس

---

١ انظر: تفسير القرطبي، ١٧/١٥٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٨/٣٠٩.

٢ في الآية الحادية والثلاثين مِن هذه السورة.

الذي له صلصلة، والفخّار: الخزف. وقد خَلَق الله تعالى آدمَ عليه السلام مِن تراب جعله طينًا، ثمّ حَمَأً مسنونًا، ثمّ صلصالًا، فلا تنافي بين الآيةِ الناطقة بأحدها وبين ما نُطق بأحد الآخرَين.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: الجنّ أو أبا الجنّ ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ مِن لهَب صافٍ[1] ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيانٌ لـ﴿مَارِجٍ﴾ فإنّه في الأصل للمضطرب، مِن "مَرِج" إذا اضطرب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما مِن سوابغ النِّعم.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ بالرفع على خبريّةِ مبتدأ محذوف، أي: الذي فعَل ما ذُكر مِن الأفاعيل البديعة / ربّ مشرقَي الصيف والشتاء [١٥٢و]
ومغربَيهما، ومِن قضيّته أن يكون ربّ ما بينهما مِن الموجودات قاطبةً. وقيل: على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ﴾... إلخ.[2] وقُرئ بالجرّ[3] على أنّه بدل مِن ﴿رَبِّكُمَا﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا في ذلك مِن فوائدَ لا تحصى مِن اعتدال الهواء واختلافِ الفصول وحدوثِ ما يناسب كلّ فصل في وقته إلى غير ذلك.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١﴾

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما مِن "مرجتُ الدابّة" إذا أرسلتَها، والمعنى أرسل البحر المِلْحَ والبحر العذبَ ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوران ويتماسّ سطوحهما لا فصلَ بينهما في مَرأى العين، وقيل: أرسَل بحرَي فارس والروم يلتقيان في المحيط؛ لأنّهما خليجان يتشعّبان منه.[4]

---

١ وفي هامش م: وقيل: مختلط بسواد النار. «منه».
| القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٥.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣١٥.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وشريح بن عبيد وأبي البَرَهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٥٤.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي: حاجز مِن قدرة الله عزّ وجلّ، أو مِن الأرض ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطالِ الخاصيّة، أو لا يتجاوزان حدَّيهما بإغراق ما بينهما.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس منها شيء يقبل التكذيب.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾: الدُّرّ، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾: الخَرَز الأحمر المشهور، وقيل: ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ كبار الدرّ، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾ صغارُه،[1] فنسبةُ خروجهما حينئذ إلى البحرين مع أنّهما إنّما يخرجان مِن المِلْح على ما قالوا، لِما قيل: إنّهما لا يخرجان إلّا مِن ملتقى المِلْح والعَذْب، أو لأنّهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغ أن يقال: يخرجان منهما كما يقال: يخرجان مِن البحر مع أنّهما لا يخرجان مِن جميع البحر، ولكن مِن بعضه، وهو الأظهر.

وقُرئ: "يُخْرَجُ"[2] مبنيًّا للمفعول مِن "الإخراج"، ومبنيًّا للفاعل بنصب ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وبنون العظمة.[3]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السُّفن / جمع "جارية". [١٥٢ظ]
وقُرئ برفع "الراء" بحذف "الياء"،[4] كقول مَن قال:

لـهـا ثـنـايـا أربـعٌ حِـسَـانُ ... وأربـعٌ فـكـلُّـهـا ثـمـانُ[5]

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٥/٤.
٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٠/٢-٣٨١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة، والمَلطي والعنبري والبصري كلّهم عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث وعديّ كلاهما عن أبي عمرو وابن أبي عبلة والحسن وابن يعمر وخالد والقصبيُّ عن عبد الوارث. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٢.
٥ ما عرفت قائله. وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٥/٤؛ وشرح الرضيّ على الكافية، ٢٩٩/٣. وانظر تفصيل كلام النحاة عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ٣٦٥/٧-٣٦٧.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعات الشُّرُع،[١] أو المصنوعات. وقُرِئ بكسر "الشين"،[٢] أي: الرافعات الشُّرُع، أو اللاتي يُنشِئن الأمواج بجريهنّ. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال الشاهقة جمع "عَلَم"، وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن خَلْق موادّ السُّفن والإرشاد إلى أخذها وكيفيّة تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدِر على خلقها وجمعِها وترتيبِها غيرُه سبحانه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض مِن الحيوانات أو المَركبات، و﴿مَن﴾ للتغليب، أو مِن الثقلين ﴿فَانٍ﴾ هالك لا محالةَ.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ذاته عزّ وجلّ ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو الاستغناء المطلق والفضلِ التامّ. وقيل: الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين مِن عباده،[٣] وهذه مِن عظائم صفاته تعالى، ولقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»،[٤] وعنه عليه السلام: «أنّه مرّ برجل وهو يصلّي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: قد استجيب لك».[٥] وقُرِئ: "ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ"[٦] على أنّه صفة ﴿رَبِّكَ﴾، وأيًا ما كان ففي وصفه تعالى بذلك بعد ذِكر فناء الخلق وبقائه تعالى إيذان بأنّه تعالى[٧] يفيض عليهم بعد فنائهم أيضًا آثارَ لطفه وكرمه

---

[١] وفي هامش م: جمع شِراع. بادبان. | وفي المُغرِب للمُطرِّزي، «شرع»: «وشِراع السَّفينة بالفارسيّة: بادبان».

[٢] قرأ بها حمزة وأبو بكر بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٤] مسند أحمد، ١٣٨/٢٩ (١٧٥٩٦)؛ سنن الترمذي، ٥٣٩/٥ (٣٥٢٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٥] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٤٧/٣٦ (٢٢٠١٧)؛ وسنن الترمذي، ٥٤١/٥ (٣٥٢٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وكِرداب وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٢.

[٧] س – إيذان بأنّه تعالى.

حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإنّ إحياءهم بالحياة الأبديّة وإثابتهم بالنعيم المقيم أجلّ النعماء وأعظمُ الآلاء.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاطبةً ما يحتاجون إليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوثًا وبقاءً وسائر أحوالهم سؤالًا مستمرًّا بلسان المقال أو بلسان الحال، فإنّهم كافّةً مِن حيث حقائقهم الممكنة بمَعزِل مِن استحقاق الوجود وما يتفرَّع عليه مِن الكمالات بالمرّة، بحيث / لو انقطع ما بينهم وبين العناية [١٥٣و] الإلهيّة مِن العلاقة لم يشَمّوا رائحة الوجود أصلًا، فهم في كلّ آنٍ مستمرُّون على الاستدعاء والسؤال، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم، ٣٤/١٤] مِن سورة إبراهيمَ عليه السلام.[١]

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي: كلَّ وقت مِن الأوقات. ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ مِن الشئون التي مِن جملتها إعطاءُ ما سألوا، فإنّه تعالى لا يزال ينشئ أشخاصًا ويفني آخرين ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة،[٢]

---

١ م - عليه السلام.

٢ في هامش م: هذا بحسب جليل النظر الظاهرِ للأفهام، وأمّا بحسب دقيقه اللائح لأولي البصائر النافذة في مضائق المُلك والملكوت فهو سبحانه وتعالى في كلّ آنٍ مِن آنات الزمان في شئون غير متناهية، فإنّ جميع الموجودات الممكنة مِن المجرّدات والمادّيّات محتاجةٌ في كلّ آنٍ مِن آنات وجودها إليه تعالى، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الموجودات كما لا يستحقّ الوجود ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جناب المبدئ الأوّل عزّ وعلا، فكما لا يتصوَّر وجوده ابتداءً ما لم يسُدّ عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي لا يتصوَّر بقاؤه على الوجود بعد تحقُّقه بعلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الدوام والاستمرار مِن خواصّ الوجود الواجبي، ولا ريبَ في أنّ ما يتوقّف عليه وجوده مسبَّب ابتداءً وبقاءً مِن الأمور الوجوديّة التي هي عِلَله وشرائطه، وإن وجب تناهيها لقيام البرهان على تناهي ما يجب في الوجود الخارجي، لكنّ الأمور العدميّة التي لها مدخل في وجوده ليست كذلك؛ إذ لا استحالةَ في أن يكون لوجود شيءٍ موانعُ غيرُ متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود، فارتفاعُ تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده، شئونٌ غير متناهية مستندةٌ إليه تعالى، وكذا الحال في وجودات عِلَله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده ابتداءً وبقاءً وحصولًا وانتفاءً، فاتّضح أنّه تعالى في شئون غيرِ متناهية في شأن موجود مِن الموجودات، فما ظنُّك بجميع الموجودات الممكنة مِن المجرّدات والمادّيّات؟

وفي الحديث: «مِن شأنه أن يغفر ذنبًا، ويُفرِّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضعَ آخرين».[١] قيل: وفيه ردّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئًا.[٢]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع مشاهدتكم لِما ذُكر مِن إحسانه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنتجرّد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة عند انتهاء شئون الخلق المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، فلا يبقى حينئذ إلّا شأن واحد هو الجزاء، فعُبّر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل. وقيل: هو مستعار مِن قول المتهدِّد لصاحبه: "سأفرُغ لك"، أي: سأتجرّد للإيقاع بك مِن كلّ ما يشغلني عنه، والمراد التوفّر على النكاية فيه والانتقام منه.[٣]

وقُرئ: "سيفرغ" مبنيًّا للفاعل[٤] وللمفعول.[٥] وقُرئ: "سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ"[٦] أي: سنقصد إليكم. ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجنّ سُمّيا بذلك لثِقلهما على الأرض، أو لرزانة آرائهما، أو لأنّهما مثقلان بالتكليف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي مِن جملتها التنبيهُ على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عمّا يؤدّي إلى سوء الحساب. ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بأقوالكما أو أعمالكما.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثقلان خُوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأنّ الجنّ مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقّة فخوطبوا بما ينبئ عن ذلك لبيان أنّ قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه.

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٤/٦ (٤٨٧٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٦١/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٧/٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٧/٤.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجُعفي عن أبي عمرو، ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٣.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إن قدرتم على ﴿أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن تهربوا / مِن قضائي وتخرجوا مِن ملكوتي ومِن أقطار سماواتي وأرضي [١٥٣ظ] ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ منها وخلِّصوا أنفسكم مِن عقابي. ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقوّة وقهر، وأنتم مِن ذلك بمَعزِل بعيد. روي أنّ الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجنّ والإنس هربوا، فلا يأتون وجهًا إلّا وجدوا الملائكة أحاطت به.[١]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: مِن التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ قيل: هو اللهب الخالص، وقيل: المختلط بالدخان، وقيل: اللهب الأحمر. وقيل: اللهب الأخضر المنقطع مِن النار، وقيل: هو الدخان الخارج مِن اللهب، وقيل: هو النار والدخان جميعًا.[٢] وقُرئ: "شِوَاظٌ"[٣] بكسر "الشين".

﴿مِن نَّارٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يُرْسَلُ﴾ أو بمضمر هو صفة لـ﴿شُوَاظٌ﴾، أي: كائن مِن نار، والتنوين للتفخيم. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان، وقيل: صفر مذاب يصبّ على رءوسهم.

وقُرئ بكسر "النون"،[٤] وقُرئ بالجرّ[٥] عطفًا على ﴿نَارٍ﴾، وقُرئ: "نُرْسِلُ" بنون العظمة، ونصب "شواظًا" و"نحاسًا"،[٦] وقُرئ: "نُحُسٌ" جمع "نِحَاس" مثل "لِحَاف" و"لُحُف"، وقُرئ: "وَنَحُسُّ"،[٧] أي: نقتل بالعذاب. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا تمتنعان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنّ بيان عاقبة ما هم عليه مِن الكفر والمعاصي لطفٌ وأيُّ لطفٍ ونعمة وأيُّ نعمةٍ.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.

٢ هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٣٣٢/١٨.

٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وطلحة والكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩. | وفي هامش م: يقال: حَسّه، أي: أزال حِسّه. «منه».

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ كوردة حمراء. وقُرئ: "وَرْدَةٌ"[1] بالرفع على أنّ "كان" تامّة، أي: حَصَلت سماءُ وردة، فيكون مِن باب التجريد، كقول مَن قال:

ولئن بقيتُ لأرحلنّ بغزوةٍ   تحوي الغنائمَ أو يموت كريمُ[2]

[١٥٤و] / ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ خبر ثانٍ لـ﴿كَانَتْ﴾، أو نعت لـ﴿وَرْدَةً﴾، أو حال مِن اسم ﴿كَانَتْ﴾، أي: كدهن الزيت، وهو إمّا جمع "دهن"، أو اسم لِما يدهن به كـ"الحِزام" و"الإدام"، وقيل: هو الأديم الأحمر.[3] وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، أي: يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا تحيط به دائرة المقال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع عِظَم شأنها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تنشقّ السماء حسبما ذُكر ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يُعرَفون بسيماهم، وذلك أوّلَ ما يخرجون مِن القبور ويُحشَرون إلى الموقف ذَودًا ذَودًا على اختلاف مراتبهم، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر، ٩٢/١٥] ونحوه ففي موقف المناقشة والحساب. وضميرُ ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ لـ"الإنس" لتقدّمه رتبةً، وإفرادُه لِما أنّ المراد فردٌ مِن الإنس، كأنّه قيل: لا يُسأل عن ذنبه إنسيٌّ ولا جنّي.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع كثرة منافعها، فإنّ الإخبار بما ذُكر ممّا يزجركم عن الشرّ المؤدّي إليه، وأمّا ما قيل: ممّا أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم فلا تعلُّق له بالمقام.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٥.

[2] البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي في شرح الحماسة للمرزوقي، ص ٧٧٠؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٣٦٩/٨؛ وهو بلا عزو في الإيضاح للقزويني، ص ٥١٣.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ استئناف يجري مجرى التعليل لعدم السؤال، قيل: يُعرَفون بسواد الوجوه وزُرقة العيون،[١] وقيل: بما يعلوهم مِن الكآبة والحزن.[٢] ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ الجارّ والمجرور هو القائم مقام الفاعل، يقال: "أخذه" إذا كان المأخوذ مقصودًا بالأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء، ٤/٧١] ونحوه. و"أَخَذَ به" إذا كان المأخوذ شيئًا مِن ملابسات المقصود بالأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى﴾ [طه، ٢٠/٩٤]، وقولُ المستغيث: "خُذْ بيدي أَخَذ الله بيدك"، أي: يُجمَع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة مِن وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة، تارةً تأخذ بالنواصي وتارةً بالأقدام.[٣] ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا/ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ على إرادة القول، [١٥٤ظ] أي: يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على أنّ الجملة إمّا استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ناشئ مِن حكاية الأخذ بالنواصي والأقدام، كأنّه قيل: فماذا يُفعَل بهم عند ذلك؟ فقيل: يقال... إلخ. أو حالٌ مِن أصحاب النواصي والأقدام، لأنّ "الألف" و"اللام" عِوَض مِن المضاف إليه وما بينهما اعتراضٌ.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: بين النار يُحرقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماء بالغ مِن الحرارة أقصاها يُصبّ عليهم أو يُسقَون منه. وقيل: إذا استغاثوا مِن النار أغيثوا بالحميم.[٤]

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشيرَ إلى سرّ كون بيانِ أمثال هذه الأمور مِن قبيل الآلاء مرارًا.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٣.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤-٣٣٩.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩﴾

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة بعد تعداد ما وصل إليهم في الدنيا مِن الآلاء الدينيّة والدنيويّة.

واعلم أنّ ما عُدِّد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة مِن فنون الكرامات، كما أنّ أنفسَها آلاء جليلة واصلة إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعيةً لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدّي إلى نيلها مِن الإيمان والطاعة، وأنّ ما فُصِّل مِن فاتحة السورة الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِن النِّعَم الدينيّة والدنيويّة الأنفُسيّة والآفاقيّة آلاءٌ جليلة واصلة إليهم في الدنيا، وكذلك حكاياتها مِن حيث إيجابُها للشكر والمثابرةِ على ما يؤدّي إلى استدامتها، وأمّا ما عُدِّد فيما بين قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾[١] وبين هذه الآية مِن الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة، فليست هي مِن قبيل الآلاء، وإنّما الآلاء حكاياتُها الموجِبة للانزجار عمّا يؤدّي إلى الابتلاء بها مِن الكفر والمعاصي، كما أشيرَ إليه في تضاعيف تعدادها.

ومقامه تعالى: موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامُه تعالى على أحواله مِن "قام عليه" إذا راقبه، أو مقام الخائف
[١٥٥و] عند ربّه للحساب / بأحد المعنيين. وإضافته إلى الربّ للتفخيم والتهويل، أو هو مقحَم للتعظيم.

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنّة للخائف الإنسي وجنّة للخائف الجنّي، فإنّ الخطاب للفريقين، والمعنى لكلّ خائفَين منكما، أو لكلّ واحد جنّة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنّة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي، أو جنّة يثاب بها وأخرى يتفضّل بها عليه، أو روحانيّة وجسمانيّة، وكذا ما جاء مثنّى بعدُ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

---
[١] الرحمن، ٣١/٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وُسِّط بينهما تنبيهًا على أنّ تكذيب كلّ مِن الموصوف والصفة موجِب للإنكار والتوبيخ. و"الأفنان" إمّا جمع "فنّ"، أي: ذواتا أنواع مِن الأشجار والثمار، أو جمع "فَنَن"، أي: ذواتا أغصان متشعِّبة مِن فروع الشجر. وتخصيصُها بالذِّكر لأنّها التي تُورِق وتُثمِر وتمدّ الظلّ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس فيها شيء يقبَل التكذيب.

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾، أي: في كلّ واحدة منهما عين تجري كيف يشاء صاحبها في الأعالي والأسافل. وقيل: تجريان مِن جبل مِن مِسك،[1] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما[2] والحسن: تجريان بالماء الزُّلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل.[3] وقيل: إحداهما مِن ماء غير آسِن والأخرى مِن خمر لذّة للشاربين.[4] قال أبو بكر الورّاق: فيهما عينان تجريان لمَن كانت عيناه في الدنيا تجريان مِن مخافة الله عزّ وجلّ.[5] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ أي: صنفان معروف وغريب، أو رَطْب ويابس، صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾. وتوسيطُ الاعتراضِ بين الصفات لِما مرّ آنفًا. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال مِن الخائفين؛ لأنّ مَن خاف / في معنى الجمع، أو نصبٌ على المدح. ﴿عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ مِن ديباج ثخين، [١٥٥ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.
٢ م - رضي الله عنهما.
٣ معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٢/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.
٤ معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٢/٧.
٥ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣٤٤/١٨.

وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنّك بظهائرها؟ وقيل: ظهائرها مِن سُندس. وقيل: مِن نور.[١]

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ما يُجتنى مِن أشجارها مِن الثِّمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: تدنو الشجرة حتّى يجتنيها وليُّ الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا. وقُرئ: "جِنَى"[٢] بكسر "الجيم". ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجِنان المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ لِما عرفت أنّهما لكلّ خائفين مِن الثقلين أو لكلّ خائف حسب تعدُّد عمله، وقد اعتُبر الجمعيّة في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. وقيل: فيما فيهما مِن الأماكن والقصور، وقيل: في الآلاء المعدودة مِن الجنّتين والعينين والفاكهة والفرش.[٣] ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساء يقصُرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: لم يَمسّ الإنسيّات أحد مِن الإنس ولا الجنّيّات أحد مِن الجنّ قبل أزواجهنّ المدلول عليهم بـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وقيل: بقوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وفيه دليل على أنّ الجنّ يطمثون. وقُرئ: "يَطْمُثْهُنَّ"[٤] بضمّ "الميم". والجملة صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، لأنّ إضافتها لفظيّة، أو حال منها لتخصُّصها بالإضافة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ إمّا صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أو حال منها كالتي قبلها، أي: مشبَّهات بالياقوت في حُمرة الوجه، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.

أي: صغار الدُّرّ في بياض البشرة وصفائها، فإنّ صغار الدُّرّ أنصع بياضًا مِن كباره. قيل: إنّ الحوراء تلبَس سبعين حلّة فيُرى مُخّ ساقها مِن ورائها كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ/ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما [١٥٦و] فُصِّل قبله، أي: ما جزاء الإحسان في العمل إلّا الإحسان في الثواب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ومِن دون تَينك الجنّتين الموعودتين للخائفين المقرَّبين جنّتان أخريان لمَن دونهم مِن أصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ وُسِّط بينهما الاعتراضُ لِما ذُكر مِن التنبيه على أنّ تكذيب كلّ مِن الموصوف والصفة حقيقٌ بالإنكار والتوبيخ، أي: خضراوان تضربان إلى السواد مِن شدّة الخُضرة، وفيه إشعارٌ بأنّ الغالب على هاتين الجنّتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأُولَيين الأشجار والفواكه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوّارتان بالماء، و"النَّضْخ" أكثر مِن "النَّضْح" بـ"الحاء" المهملة، وهو الرشّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عُطف الأخيران على "الفاكهة" عطفَ ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢] على "الملائكة" بيانًا لفضلهما، فإنّ ثمرة النخل فاكهةٌ وغذاء والرمّانَ فاكهةٌ ودواء، وعن هذا قال أبو حنيفةَ رحمه الله: «مَن حلف لا يأكل فاكهةً فأكل رمّانًا أو رُطَبًا لم يحنث».[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٠/٤.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣٤٠/٤.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾

وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ كالجملة التي قبلها. والكلامُ في جميع الضمير كالذي مرّ فيما مرّ. و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مخفَّفة مِن "خيّرات"؛ لأنّ خيرًا الذي بمعنى أخيَر لا يُجمَع. وقد قُرئ على الأصل.[١] ﴿حِسَانٌ﴾ أي: حِسَان الخُلق والخَلق. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ﴾ بدل مِن ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قُصِرن في خدورهنّ، يقال: "امرأة قصيرة وقصورة"، أي: مُخدَّرة، أو مقصورات الطرف على أزواجهنّ، وقيل: إنّ الخيمة مِن خيامهنّ درّة مجوَّفة.[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[١٥٦ظ] وقوله تعالى: / ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كالذي مرّ مِن نظيره في جميع الوجوه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ "الرفرف" إمّا اسم جنس أو اسمُ جمع واحده "رَفرَفة". قيل: هو ما تدلّى مِن الأسرّة مِن عالي الثياب. وقيل: هو ضرب مِن البُسط، أو البُسط. وقيل: الوسائد. وقيل: النمارق. وقيل: كلّ ثوب عريض رَفرَف،[٣] ويقال: لأطراف البُسط وفضول الفسطاط رفارف. ورَفرَفُ السحاب: هَيْدَبُه.[٤]

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عَبْقَر، تزعم العرب أنّه اسم بلد الجنّ، فينسبون إليه كلّ شيء عجيب، والمراد الجنس، ولذلك وُصِف بالجمع

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن بكر بن حبيب السهمي عن أبيه والزُّهري عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤١/٤.

[٣] هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٣٤١/٤.

[٤] وفي هامش م: الهَيْدب: المتدلّي أو ذيله. «منه».

حملًا على المعنى، كما في ﴿رَفْرَفٍ﴾ على أحد الوجهين. وقُرئ: "عَلَى رَفَارِفَ خُضُرٍ" بضمّتين، و"عَبَاقِرِيّ"[١] كـ"مدائنيّ" نسبة إلى "عَباقِر" في اسم البلد. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لِما ذُكر في السورة الكريمة مِن آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي مِن جملته ما صُدِّرت به السورة مِن اسم الرحمن المنبئ عن إفاضته الآلاءَ المفصّلة، وارتفع ممّا لا يليق بشأنه مِن الأمور التي مِن جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنُّك بذاته الأقدس الأعلى؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: مُقحَم،[٢] كما في قول مَن قال:

إلى الحَوْل ثمّ اسمُ السلام عليكما[٣]

﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وُصف به الربّ تكميلًا لِما ذُكر مِن التنزيه والتقرير. وقُرئ: "ذُو الجَلَالِ"[٤] على أنّه نعت للاسم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الرحمن أدّى شُكر ما أنعم الله عليه».[٥]

---

[١] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعثمان بن عفّان ونصر بن عاصم والجَحدري ومالك بن دينار وابن محيصن وزهير القرقبي والحسن وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٤٩.

[٢] القولان في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/٣٥٩.

[٣] صدر بيت للبيد بن ربيعة في **ديوانه**، ص ٢١٤، وتمامه:

ومَن يبكِ حَولًا كاملًا فقد اعتذر

[٤] قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٨٢.

[٥] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٥/٢٨٦ (الرحمن، ٥٥/١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٢١٧ (الرحمن، ٥٥/١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣٤١. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٥٥

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

مكية، أو إلاّ «يسأله من في السماوات والأرض» الآيةَ فمدنية، وهي ست أو ثمانٍ وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ﴿الرَّحمنُ عَلَّمَ﴾ مَن شاء ﴿القُرآنَ، خَلَقَ الإنسانَ﴾ أي: الجِنسَ، ٤ ـ ﴿عَلَّمَهُ البَيانَ﴾ النُّطق، ٥ ـ ﴿الشَّمسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾: بحِساب يجريانِ، ٦ ـ ﴿والنَّجمُ﴾: ما لا ساق له من النبات ﴿والشَّجَرُ﴾: ما له ساق ﴿يَسجُدانِ﴾: يخضعان لما يُراد منهما، ٧ ـ ﴿والسَّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ المِيزانَ﴾:

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

جلَّ جلالُهُ

قولُهُ: (مَنْ شَاءَ) لمَّا كانت السُّورةُ مقصورةً على تعدادِ النِّعمِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، صدَّرَهَا بـ﴿الرَّحمنِ﴾، وقدَّمَ ما هو أعظمُ النِّعمِ الدِّينيَّةِ، وهو إنعامُه بالقرآنِ وإنزالِهِ وتعليمِهِ.

قولُهُ: (النُّطقَ) أي: التَّعبيرَ عمَّا في الضَّميرِ، وإفهامَ الغيرِ لما أدركَهُ مِن تعلُّمِ الشَّرعِ، وإخلاءُ الجملِ الثَّلاثِ الَّتي هي أخبارٌ مترادفةٌ للرَّحمنِ عن العاطفِ لمجيئِها على نهجِ التَّعديدِ.

قولُهُ: (يَجرِيَانِ) بحسابٍ[1] معلومٍ مقدَّرٍ.

قولُهُ: (يَخضَعَانِ) وينقادانِ طبعاً انقيادَ السَّاجدِ مِن المكلَّفينَ طَوعاً.

قولُهُ تعالى: (﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾) أي: خلقَها مرفوعَةً مكاناً ومكانةً؛ فإنَّها منشأُ أقضيتِهِ، ومنزلُ أحكامِهِ، ومحلُّ ملائكتِهِ.

---

(١) في (ص): «بحسان».

أثبتَ العدل، ٨ ـ ﴿ألاّ تطغوا﴾ أي: لِأجل ألاّ تجوروا ﴿في المِيزانِ﴾: ما يُوزن به، ٩ ـ ﴿وأقِيمُوا الوَزنَ بِالقِسطِ﴾: بالعدل، ﴿ولا تُخسِرُوا المِيزانَ﴾: تَنقُصوا المَوزونَ، ١٠ ـ ﴿والأرضَ وَضَعَها﴾: أثبتَها ﴿لِلأنامِ﴾: للخلق الإنس والجنّ وغيرهم، ١١ ـ ﴿فِيها فاكِهةٌ والنَّخلُ﴾ المعهود ﴿ذاتُ الأكمامِ﴾: أوعيةِ طَلْعِها، ١٢ ـ ﴿والحَبُّ﴾ كالحِنطة والشعير ﴿ذُو العَصفِ﴾: التِّبنِ ﴿والرَّيحانُ﴾: الرزق أو المشموم.

١٣ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ﴾: نِعَمِ ﴿رَبِّكُما﴾ ـ أيّها الإنسُ والجِنُّ ـ ﴿تُكَذِّبانِ﴾؟ ذُكِرتْ إحدى وثلاثين مرّة، والاستفهام فيها للتقرير، لِما روى الحاكم عن جابر قال: «قرأَ علَينا رسُولُ اللهِ ﷺ سُورةَ الرَّحمنِ حَتّى خَتَمَها، ثُمّ قالَ: مالِي أراكُم سُكُوتًا؟ لَلجِنُّ كانُوا أحسَنَ مِنكُم رَدًّا. ما قَرأتُ علَيهِم هذهِ الآيَةَ مِن مَرّةٍ: «فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟ إلاّ قالوا: ولا بِشَيءٍ مِن نِعَمِكَ ـ رَبَّنا ـ نُكَذِّبُ. فلكَ الحَمدُ».

١٤ ـ ﴿خَلَقَ الإنسانَ﴾ آدمَ ﴿مِن صَلصالٍ﴾: من طين يابس يُسمع له صلصلةٌ،..........

قولُهُ: (العَدلَ) بأن وفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتّى انتظمَ أمرُ العالمِ، كما قالَ عليهِ السَّلامُ: «بالعدْلِ قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ»[1]، أو المرادُ بـ﴿الميزان﴾: ما يُعرَفُ به مقاديرُ الأشياءِ مِن ميزانٍ ومكيالٍ ونحوِها.

قولُهُ: (أَثبَتَهَا) الظَّاهرُ: خفَضَها لمقابلةِ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾.

قولُهُ: (وغَيرِهِم) في «القاموسِ»[2]: الأنامُ الخلقُ أو الجنُّ والإنسُ، أو جميعُ ما على وجهِ الأرضِ، وقيل: الأنامُ كلُّ ذي روحٍ.

قولُهُ تعالى: (﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾) أي: ضروبٌ ممَّا يُتفكَّهُ به.

قولُهُ: (كَالحِنْطَةِ) وسائرِ ما يُتَغذَّى به.

قولُهُ: (الوَرَقُ) كذا في نسخةٍ، وهو تصحيفٌ، والصَّوابُ: «الرِّزقُ» كما في نسخةٍ، مِن قولِهِم: خرجْتُ أطلبُ ريحانَ اللهِ[3].

قولُهُ: (أَيُّهَا الإِنسُ) يعني: الخطابُ للثَّقلينِ المدلولِ عليه بقولِه: ﴿لِلْأَنَامِ﴾، وقولِه: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

قولُهُ: (لَلْجِنُّ) بفتحِ اللَّامِ للابتداءِ.

قولُهُ: (رَدًّا) أي: جواباً.

قولُهُ: (ولا بِشَيءٍ) المحفوظُ عندي: لا بشيءٍ.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) انظر: «القاموس» (ص: ١٠٧٧).

(٣) أي: رزق الله.

أي: صوت إذا نُقر، ﴿كالفَخّارِ﴾ ـ وهو ما طُبخ من الطين ـ ١٥ ـ ﴿وخَلَقَ الجانَّ﴾ أبا الجنّ وهو إبليس ﴿مِن مارِجٍ مِن نارٍ﴾ هو لهبها الخالص من الدُّخان. ١٦ ـ ١٧ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ رَبُّ المَشرِقَينِ﴾: مشرق الشتاء ومشرق الصيف ﴿ورَبُّ المَغرِبَينِ﴾ كذلك. ١٨ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

١٩ ـ ﴿مَرَجَ﴾ أرسلَ ﴿البَحرَينِ﴾: العذبَ والمِلحَ ﴿يَلتَقِيانِ﴾ في رأيِ العين، ٢٠ ـ ﴿بَينَهُما بَرزَخٌ﴾: حاجز من قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لا يَبغِيانِ﴾: لا يبغي واحد منهما على الآخَر فيختلط به. ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ يُخرَجُ﴾ ـ بالبناء للمفعول والفاعل ـ ﴿مِنهُما﴾: من مجموعهما الصادقِ بأحدهما وهو المِلح ﴿اللُّؤلُؤُ والمَرجانُ﴾: خرَز أحمر أو صِغار اللؤلؤ. ٢٣ ـ ٢٤ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ ولَهُ الجَوارِي﴾: السُّفنُ ﴿المُنشَآتُ﴾: المُحدَثات ﴿في البَحرِ كالأعلامِ﴾: كالجبال عِظَمًا وارتفاعًا. ٢٥ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٢٦ ـ ﴿كُلُّ مَن علَيها﴾ أي: الأرضِ من الحيوان ﴿فانٍ﴾: هالكٌ ـ وعُبِّر بـ «مَن» تغليبًا للعُقلاء ـ ٢٧ ـ ﴿ويَبقَى وَجهُ رَبِّكَ﴾: ذاتُه ﴿ذُو الجَلالِ﴾: العَظَمة........................

قولُهُ: (وهُو مَا طُبِخَ) يعني: الخزفَ، وقد خلقَ اللهُ آدمَ مِن ترابٍ جعلَهُ طيناً، ثمَّ حمأً مسنوناً، ثمَّ صلصالاً، فلا يخالفُ ذلكَ قولَهُ: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قولُهُ: (أَبَا الجِنِّ) أو الجنَّ.

قولُهُ: (هُو لَهَبُهَا) و﴿مِنْ نَارٍ﴾ بيانٌ له.

قولُهُ: (فِي رَأْيِ العِينِ) أي: يتجاورانِ.

قولُهُ: (للمَفعُولِ) نافعٌ وبصريٌّ[1].

قولُهُ: (وهُو المِلْحُ) إن صحَّ أنَّ الدُّرَّ لا يخرجُ إلَّا منهُ.

قولُهُ: (أَو صِغَارُ اللُّؤلُؤِ) والمرادُ باللُّؤلؤِ: كبارُهُ.

قولُهُ: (السُّفنُ) الجاريةُ.

قولُهُ: (المُحدَثَاتُ) أي: المصنوعاتُ، أو المرفوعاتُ الشُّرُعِ، ككتبٍ جمعُ: شِراعٍ، بالفارسيِّ: باديان.

قولُهُ: (ذُو العَظَمَةِ) والاستغناءِ المطلقِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٦).

﴿والإكرامِ﴾ للمؤمنين بأنعمه عليهم. ٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذِّبانِ؟ يَسألُهُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾: بنُطقٍ أو حالٍ ما يحتاجون إليه من القُوّةِ على العِبادة والرزقِ والمغفرةِ وغير ذلك، ﴿كُلَّ يَومٍ﴾: وقت ﴿هُوَ في شأنٍ﴾: أمر، يُظهره على وَفق ما قدّره في الأزل من إحياء وإماتة وإعزاز وإذلال وإغناء وإعدام وإجابة داع وإعطاء سائل وغير ذلك. ٣٠ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٣١ ـ ﴿سَنَفرُغُ لَكُم﴾: سنقصِد لحِسابكم ـ ﴿أيُّها الثَّقَلانِ﴾: الإنسُ والجِنُّ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ، إنِ استَطَعتُم أن تَنفُذُوا﴾: تخرجوا ﴿مِن أقطارِ﴾: نواحي ﴿السَّماواتِ والأرضِ، فانفُذُوا﴾. أمرُ تعجيز. ﴿لا تَنفُذُونَ إلاّ بِسُلطانٍ﴾: بقُوّة، ولا قُوّة لكم على ذلك. ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ يُرسَلُ عليكُما شُواظٌ مِن نارٍ﴾ هو لهبها الخالص من الدُّخان أو معه ﴿ونُحاسٌ﴾: أو دخانٌ لا لهب فيه، ﴿فلا تَنتَصِرانِ﴾: تمتنعان من ذلك، بل يسوقكم إلى المحشر. ٣٦ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٣٧ ـ ﴿فإذا انشَقَّتِ السَّماءُ﴾: انفرجت أبوابًا لنُزول الملائكة، ﴿فكانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: مِثلَها مُحمرّة ﴿كالدِّهانِ﴾: كالأديم الأحمر، على خِلاف العهد بها. وجواب إذا: فما أعظمَ الهولَ!..............

قولُهُ: (للمُؤمِنِينَ) أو الفضلِ العامِّ.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) في الحديثِ: «مِنْ شأنِهِ أنْ يغفرَ ذنباً، ويفرِّجَ كرباً، ويرفعَ قوماً، ويضعَ آخرينَ»[1] قيل: معنى الآيةِ: سوقُ المقاديرِ إلى أوقاتِها، وفي «الكشّافِ»[2]: شؤونٌ يُبدِيها لا يبتَدِيها.

قولُهُ: (سَنَقصِدُ) في «التَّذكرةِ»[3]: فرغَ؛ بمعنى: قصدَ، وقالَ القاضي[4]: أي: ستتجرَّدُ لحسابِكُم وجزائِكُم، وذلكَ يومَ القيامةِ، فإنَّهُ تعالى لا يفعلُ فيه غيرَهُ، وفيهِ تهديدٌ.

قولُهُ: (تَخرُجُوا) هاربينَ مِن اللهِ، فارِّينَ مِن قضائِهِ وقدَرِهِ.

قولُهُ: (كَالأَدِيمِ) أو مذابةً كالدُّهنِ، وهو اسمٌ لما يُدهَنُ به كالحزامِ، أو جمعُ: دهنٍ.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٤٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٦). قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٨): إسناده حسن.

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٤٨).

(٣) انظر: «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ٧٩٤).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٧٢).

٣٨ ـ ٣٩ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ فيَومَئِذٍ لا يُسألُ عَن ذَنبِهِ إنسٌ ولا جانٌّ﴾ عن ذنبه. ويُسألون في وقت آخر: «فوَرَبِّكَ لَنسألَنَّهُم أجمَعِينَ». والجانّ هنا وفيما سيأتي بمعنى الجِنِّيّ، والإنس فيهما بمعنى الإنسيّ. ٤٠ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿يُعرَفُ المُجرِمُونَ بِسِيماهُم﴾ أي: سوادِ الوُجوه وزُرقة العُيون، ﴿فيُؤخَذُ بِالنَّواصِي والأقدامِ. فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟ أي: تُضمّ ناصية كُلّ منهم إلى قدميه من خلفُ أو قُدّامُ، ويُلقى في النار، ويقال لهم: ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِها المُجرِمُونَ. يَطُوفُونَ﴾: يسعَون ﴿بَينَها وبَينَ حَمِيمٍ﴾: ماءٍ حارّ ﴿آنٍ﴾: شديد الحرارة. يُسقَونه إذا استغاثوا من حرّ النار. وهو منقوصٌ كقاضٍ. ٤٥ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿ولِمَن خافَ﴾ أي: لكُلٍّ منهم أو لمجموعهم ﴿مَقامَ رَبِّهِ﴾: قيامَه بين يديه للحِساب فتركَ معصيته ﴿جَنّتانِ، فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ ذَواتا﴾:..........

قولُهُ: (عَن ذَنْبِهِ) لأنَّهُم يُعرَفونَ بسيماهُم، وذلك حينَ ما يخرُجونَ مِن قبورِهِم ويُحشَرونَ إلى الموقفِ جمعاً جمعاً على اختلافِ مراتِبِهِم.

قولُهُ: (فِي وَقْتٍ آخَرَ) حين يُحبَسونَ ويُحاسَبونَ في المَجمَعِ، والهاءُ للإنس باعتبارِ اللَّفظِ، فإنَّهُ وإن تأخَّرَ لفظاً تقدَّمَ رتبةً.

قولُهُ: (بِمَعنَى: الإِنسِيِّ) والظَّاهرُ أنَّهما للجنسِ.

قولُهُ: (أي: سَوَادِ الوُجُوهِ) أو ما يعلوهُم مِن الكآبَةِ والحزنِ.

قولُهُ: (أي: تُضَمُّ) حقُّهُ الاتِّصالُ بالمفسَّرِ، وقيل: يؤخذونَ بالنَّواصِي تارةً، وبالأقدامِ أخرى.

قولُهُ: (يُسْقَوْنَهُ) أو يُصَبُّ عليهم، وقيل: إذا استَغاثوا من النَّارِ أُغِيْثوا بالحميمِ.

قولُهُ: (مَنْقُوصٌ) مِن أنى الحميم: انتهى حرُّهُ فهو آنٍ، كذا في «القاموسِ»[1] يعني: بلغَ النِّهايَةَ في الحرارةِ.

قولُهُ: (قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيهِ) أي: مقامَ الخائفِ عندَ ربِّهِ، فأضيفَ إلى الرَّبِّ تفخيماً وتهويلاً، أو قيامَ الرَّبِّ على أحوالِهِ، أو موقفَهُ الَّذي يقفُ فيه العبادُ للحسابِ، وقيل: ﴿مَقَامَ﴾ مقحمٌ للمبالغةِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿جَنَّتَانِ﴾) أي: جنَّةٌ للخائفِ الإنسيِّ، والأخرى للخائفِ الجنِّيِّ، فإنَّ الخطابَ للفريقينِ، والمعنى: لكلِّ خائفينِ منكُما، أو لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ لعقيدتِهِ وأخرى لعملِهِ، أو جنَّةٌ لفعلِ الطَّاعاتِ، وأخرى لتركِ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٦٠).

تثنية «ذوات» على الأصل، ولامها ياء، ﴿أفنانٍ﴾: أغصانٍ جمع فَنَن كطَلَل. ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ فِيهِما عَينانِ تَجرِيانِ. فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ فِيهِما مِن كُلِّ فاكِهةٍ﴾ في الدنيا أو كُلِّ ما يُتفكّه به ﴿زَوجانِ﴾: نوعانِ رطبٌ ويابس، والمرُّ منهما في الدنيا كالحنظل حلوٌ. ٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ مُتَّكِئِينَ﴾: حالٌ عامله محذوف، أي: يتنعّمون ﴿علَى فُرُشٍ بَطائنُها مِن إستَبرَقٍ﴾: ما غلُظ من الديباج وخشُن، والظهائرُ من السُّندس، ﴿وجَنَى الجَنّتَينِ﴾: ثمرُهما ﴿دانٍ﴾: قريبٌ، يناله القائم والقاعد والمضطجع. ٥٥ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿فِيهِنَّ﴾: في الجنّتين وما اشتملتا عليه من العلالي والقصور ﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾: العَين على أزواجهنّ المتّكئين من الإنس والجنّ،..........................

السَّيِّئاتِ، أو عن يمينٍ وشمالٍ، أو مِن ذهبٍ وفضَّةٍ، أو روحانيَّةٌ وجسمانيَّةٌ، أو معجَّلةٌ في الدُّنيا ومؤجَّلةٌ في العقبى، أو المرادُ: الكثرةُ، وكذا كلُّ ما جاءَ مثنًى بعدُ[١].

قوله: (ولامُهَا) أي: الألفُ الَّتي قبلَ التَّاءِ.

قولُهُ: (يَاءٌ) وقيلَ: واو.

قولُهُ: (أَغصَانٍ) وتخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّها الَّتي تورِقُ وتُثمِرُ وتمدُّ الظِّلَّ، أو أنواعٌ مِن الأشجارِ والثِّمارِ، جمعٌ: فنن.

قولُهُ تعالى: (﴿تَجْرِيَانِ﴾) أي: حيثُ شاؤوا في الأعَالي والأسافلِ، قيل: إحداهُما التَّسنيمُ والأخرى السَّلسبيلُ.

قولُهُ: (رَطْبٌ ويَابِسٌ) أو غريبٌ ومعروفٌ.

قولُهُ: (حَالٌ) مِن الخائفينَ، أو مدحٌ لهم؛ لأنَّ مَن خافَ في معنى الجمعِ.

قولُهُ: (عَامِلُهُ مَحذُوفٌ) الظَّاهرُ كما قالَ أبو البقاءِ[٢]: أنَّ عاملَهُ الظَّرفُ.

قولُهُ: (ثَمَرُهَا) ﴿وجنَى﴾ اسمٌ بمعنى: المجنيِّ.

قولُهُ: (فِي الجَنَّتَينِ) أو في الجنانِ، فإنَّ (جنَّتَانِ) يدلُّ على جنانٍ هي للخائفينَ.

قولُهُ: (مِنَ الإِنسِ والجِنِّ) يحتملُ بيانَ الأزواجِ والزَّوجاتِ.

---

(١) أي: من لفظ الجنة.

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٠٠).

﴿لَم يَطمِثْهُنَّ﴾: يَفتَضَّهنّ ـ وهنّ من الحُور، أو من نِساء الدنيا المُنشآت ـ ﴿إنسٌ قَبلَهُم ولا جانٌّ، فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ كأنَّهُنَّ الياقُوتُ﴾ صفاءً ﴿والمَرجانُ﴾ أي: اللؤلؤ بياضًا. ٥٩ ـ ٦٠ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ هَل﴾: ما ﴿جَزاءُ الإحسانِ﴾ بالطاعة ﴿إلاّ الإحسانُ﴾ بالنعيم؟ ٦١ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٦٢ ـ ﴿ومِن دُونِهِما﴾ أي: الجنّتين المذكورتين ﴿جَنّتانِ﴾ أيضًا لمن خاف مَقام ربّه، ٦٣ ـ ٦٤ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ مُدْهامَّتانِ﴾: سَوداوانِ من شِدّة خُضرتهما، ٦٥ ـ ٦٦ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ فِيهِما عَينانِ نَضّاخَتانِ﴾: فوّارتانِ بالماء لا تنقطعان، ٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ فِيهِما فاكِهةٌ ونَخلٌ ورُمّانٌ﴾، هما منها، وقيل: من غيرها، ٦٩ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

٧٠ ـ ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: الجنّتين وقصورِهما ﴿خَيْراتٌ﴾ أخلاقًا ﴿حِسانٌ﴾ وُجوهًا، ٧١ ـ ٧٢ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ حُورٌ﴾: شديداتُ سوادِ العُيون وبياضِها ﴿مَقصُوراتٌ﴾: مستورات ﴿في الخِيامِ﴾ من دُرٍّ مجوَّفٍ، مُضافةً إلى القُصور شبيهةً بالخُدور،.........

قوله: (يَفتَضَّهُنَّ) أي: لم يمسَّ الإنسيَّاتِ والجنيَّاتِ.

قولُهُ: (بيَاضاً) أو في حمرةِ الوجنةِ وبياضِ البشرةِ وصفائِهما.

قولُهُ: (لِمَنْ خَافَ) الصَّحيحُ أنَّهما لمن دونَهُم مِن أصحابِ اليَمينِ.

قولُهُ: (مِنهَا) أي: مِن الفاكهَةِ، وعطفُهما عليها عطفُ تخصيصٍ بعدَ تعميمٍ بياناً لفضلِهما؛ فإنَّ ثمرةَ النَّخلِ فاكهةٌ وغذاءٌ، وثمرةَ الرُّمَّانِ فاكهةٌ ودواءٌ.

قولُهُ: (وقِيلَ: من غَيرِهَا) إذِ الأصلُ في العطفِ المغايرةُ، واحتجَّ به أبو حنيفةَ[1] على أنَّ مَن حلفَ لا يأكلُ فاكهةً فأكلَ رطباً أو رمَّاناً لم يحنَثْ، ولعلَّهُ اختارَ القولَ الأخيرَ، أو حكمَ بعدمِ الحنثِ للشَّكِّ النَّاشئِ عنِ الاحتمالينِ.

قولُهُ: (وقُصُورِهِمَا) أو الجنَّتينِ الأولَيَيْنِ والأخرَيَيْنِ.

قولُهُ: (أَخلاقاً) أي: خيِّراتٌ، فخُفِّفَت؛ لأنَّ خيراً الَّذي بمعنى: أخيرَ، لا يُجمَعُ جمعَ السَّلامةِ، وقُرِئَ على الأصلِ[2].

قولُهُ: (وُجُوهاً) أو حسانُ الخَلقِ والخُلُقِ.

قولُهُ: (سَوَادِ العَينِ) من الحَوَرِ محرَّكةً.

قولُهُ: (مَسْتُورَاتٌ) أي: مخدَّراتٌ، أو مقصوراتُ الطَّرفِ على أزواجِهنَّ.

---

(١) انظر: «الهداية» (٢/ ٣٢٦).

(٢) أي: (فيهن خيِّرات حسان) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي عثمان النهدي، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٥١).

٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ لَم يَطمِثْهُنَّ إنسٌ قَبلَهُم﴾: قبل أزواجهنّ ﴿ولا جانٌّ، فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ مُتَّكِئِينَ﴾ أي: أزواجُهنّ ـ وإعرابه كما تقدّم ـ ﴿علَى رَفرَفٍ خُضرٍ﴾: جمع رَفرفة، أي: بُسُطٍ أو وسائدَ، ﴿وعَبقَرِيٍّ حِسانٍ﴾: جمع عبقريّة، أي: طنافس. ٧٧ ـ ٧٨ ـ ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟ تَبارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ والإكرامِ﴾! تقدّم، ولفظ «اسم» زائدٌ.

قولُهُ: (عَبْقَرِيَّةٍ) منسوبٌ إلى: عبقرَ، تزعُمُ العربُ أنّه اسمُ بلدِ الجنِّ، فينسبونَ إليه كلَّ شيءٍ عجيبٍ، والمرادُ به: الجنسُ، ولذلكَ جمعَ ﴿حِسَانٍ﴾ حملاً على المعنى، فقولُ الشَّيخِ: «جمعُ عبقريَّةٍ»[١] فيه مسامحةٌ.

قولُهُ: (أي: طَنَافِسَ) جمعُ: الطِّنفسةِ ـ مثلَّثةُ الطَّاءِ والفاءِ ـ: الثِّيابُ[٢].

قولُهُ: (ولَفظُ ﴿اسْمُ﴾ زَائِدٌ) كذا قيل، وقيل: الاسمُ بمعنى: الصِّفةِ، والتَّحقيقُ: أنَّهُ تعالى اسمُهُ من حيثُ إنَّه يُطلَقُ على ذاتِهِ، فما ظنُّكَ بذاتِهِ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) جاء في «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ١٨٨): عبقريّ جمع: عَبْقَرِيَّة؛ يعني: فيكونُ اسمَ جنسٍ، وقيل: هو واحدٌ دالٌّ على الجمع، ولذلك وُصِف بـ﴿حسان﴾.

(٢) انظر: «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (١/ ٣٢٠).

سورة الرحمن

وسمِّيت في حديث أخرجه البيهقيُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً «عروس القرآن»[(١)]، ورواه موسى بن جعفر رضي الله عنهما عن آبائه الأطهار كذلك[(٢)].

وهي مكية في قول الجمهور، وأخرج ذلك ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وعائشة رضي الله عنهم[(٣)]، وابن النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٤)]. وأخرج ابن الضُّرَيس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عنه أنَّها نزلت بالمدينة[(٥)]، وحكي ذلك عن مقاتل، وحكاه في «البحر» عن ابن مسعود أيضاً، وحَكَى أيضاً قولاً آخر عن ابن عباس، وهو أنَّها مدنية سوى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الرحمن: ٢٩][(٦)]، وحكى الاستثناء المذكور في «جمال القراء» عن بعضهم ولم يُعيِّنه[(٧)].

---

(١) شعب الإيمان (٢٤٩٤) وينظر التعليق الآتي.

(٢) وهذا هو إسناده عند البيهقي في الشعب، فقد أخرجه من طريق موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر، عن أبيه، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي، عن النبي ﷺ. وفيه أحمد بن الحسن دبيس، قال الخطيب: كان منكر الحديث، ونقل عن الدارقطني أنه قال: ليس بثقة. تاريخ بغداد ٤/ ٨٨.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩.

(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٠.

(٥) فضائل القرآن ص ٣٣-٣٤، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩.

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٨٧.

(٧) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٨/ ١٣٠، وهو مذكور في جمال القراء ١/ ١٤٢ عن ابن عباس وقتادة.

وعددُ آيِها[١] ثمان وسبعون آيةً في الكوفي والشامي، وسبعٌ وسبعون في الحجازي، وستٌّ وسبعون في البصري[٢].

ووجه مناسبتها لمَا قبلها على ما قال الجلال السيوطي: أنَّه لمَّا قال سبحانه في آخر ما قبلُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦] ثم وصف عز وجل حال المجرمين في سقر، وحال المتقين في جنات ونهر، فصَّل هذا الإجمالَ في هذه السورة أتمَّ تفصيل على الترتيب الوارد في الإجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة والإشارة إلى شدتها، ثم وصف النار وأهلها، ولذا قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] ولم يقل: الكافرون، أو نحوه، لاتصاله معنًى بقوله تعالى هناك: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القمر: ٤٧]، ثم وصف الجنةَ وأهلها، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] وذلك هو عين التقوى، ولم يقل: ولمن آمن أو أطاع أو نحوه، لتَتَوافق الألفاظ في التفصيل والمفصَّل، ويعرف بما ذكر أنَّ هذه السورةَ كالشرح لآخِر السورة قبلَها[٣].

وقال أبو حيان في ذلك: إنَّه تعالى لمَّا ذكر هناك مقرَّ المجرمين في سُعُر، ومقرَّ المتقين (فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ) ذكر سبحانه هنا شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة، ثم ذكر جل وعلا مقرَّ الفريقَين على جهة الإسهاب، إذ كان ذِكرُه هناك على جهة الاختصار، ولما أبرز قوله سبحانه: (عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ) بصورة التنكير فكأنَّ سائلاً يسألُ ويقول: من المتَّصفُ بهاتَين الصفتَين الجليلتَين؟ فقيل: (ٱلرَّحْمَٰنُ)[٤] إلخ.

والأَوْلَى عندي أنْ يعتبر في وجه المناسبة أيضاً ما في «الإرشاد»: وهو أنَّه تعالى لمَّا عدَّد في السورة السابقة ما نزل بالأُمم السالفة من ضُروب نِقَم الله عز

---

(١) في (م): آياتها.

(٢) في هامش الأصل: اختلافها خمس آيات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ كوفي شامي، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ الأول غير المدني، ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ غير المكي، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ غير البصري، ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ... ﴿٣٥﴾﴾ حجازي. اهـ منه.

(٣) تناسق الدرر في تناسب السور ص ٨١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٨٨.

وجل، وبيَّن عقيبَ كلِّ ضربٍ منها أنَّ القرآن قد يُسِّر لتذكُّر الناس واتِّعاظهم، ونَعَى عليهم إعراضَهم عن ذلك، عدَّد في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافَّة الأنام من فنون نِعَمِه الدينية والأنفُسيَّة والآفاقية، وأنكر عليهم إثرَ كلِّ فنٍّ منها إخلالَهم بمواجب شكرها(١).

وهذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر، وفي «الدرر والغرر» لعلم الهدى السيد المرتضَى: التكرارُ في سورة «الرحمن» إنما حَسُن للتقرير بالنِّعم المختلفة المعدَّدة، فكلَّما ذكر سبحانه نعمةً أنعم بها وبَّخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أُحسن إليك بأنْ خوَّلتُك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأنْ فعلتُ بك كذا وكذا؟ فيحسُنُ فيه التكريرُ لاختلاف ما يقرر به، وهو كثيرٌ في كلام العرب وأشعارهم، كقول مهلهل يرثي كليباً:

علـى أنْ لـيس عِـدْلاً مِـن كـلـيـبٍ ... إذا مـا ضِـيْـمَ جـيـرانُ الـمُـجـيـرِ
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... إذا رَجَـف الـعِـضـاهُ مـن الـدَّبـورِ
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... إذا خَـرَجَـت مُـخَـبَّـأةُ الـخُـدُور
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... إذا مـا أُعـلِـنَـت نـجـوَى الأمـور
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... إذا خِـيـفَ الـمـخـوفُ مـن الـثـغـور
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... غـداة تـأثـل الأمـرِ الـكـبـيـر
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب ... إذا مـا خـار جـاش الـمـسـتـجـيـرِ

ثم أنشدَ قصائدَ أخرى على هذا النمطِ، ولولا خوفُ الملل لأوردتُها(٢)، ولا يردُ على ما ذكره أنَّ هذه الآيةَ قد ذُكرَت بعدَ ما ليس نعمةً؛ لِمَا ستعلمُه إن شاء الله تعالى في محلِّه.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٧٦.

(٢) أمالي المرتضى «الدرر والغرر» ١/ ١٢٣-١٢٤، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٨/ ١٢٧، وورد الشعر أيضاً في أمالي اليزيدي ص١٢٠، وأمالي القالي ٢/ ١٣٢. وجاء في أمالي اليزيدي والمرتضى وحاشية الشهاب: تلاتل، بدل: تأثل، وفي أمالي القالي: بلابل.

وقسَّم في «الإتقان» التكرارَ إلى أقسام، وذكر أنَّ منه ما هو لتعدُّد المتعلَّق، بأنْ يكون المكرَّر ثانياً متعلِّقاً بغير ما تعلق به الأول؛ ثم قال: وهذا القسم يُسمَّى بالترديد، وجُعل منه قولُه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ فإنَّها وإنْ تكرَّرت إحدى وثلاثين مرة فكلُّ واحدة تتعلَّقُ بما قبلها، ولذلك زادت على ثلاثة، ولو كان الجميعُ عائداً على شيءٍ واحد لَمَا زاد على ثلاثة؛ لأنَّ التأكيدَ لا يزيدُ عليها كما قال ابن عبد السلام وغيره. وهو حَسَنٌ، إلا إنَّه نظر في إطلاق قوله: إنَّ التأكيد.. إلخ بأنَّ ذلك في التأكيد الذي [هو] تَابع، أما ذِكْرُ الشيء في مقامات متعدِّدة أكثرَ من ثلاثة فلا يمتنعُ وإنْ لزم منه التأكيدُ[1]. فافهم.

وبدأ سبحانه من النعم بتعليم القرآن فقال عز قائلاً:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ لأنَّه أعظمُ النعم شأناً وأرفعها مكاناً، كيف لا وهو مدارٌ للسعادة الدينية والدنيوية، وعيار[2] على الكتب السماوية، ما مِن مَرْصد ترنو إليه أحداقُ الأمم إلا وهو منشؤه ومناطُه، ولا مقصدٍ تمتدُّ نحوه أعناقُ الهمم إلا وهو منهجُه وصراطُه، ونصبُه على أنَّه مفعول ثان لـ «علَّم»، ومفعولُه الأول محذوفٌ لدلالة المعنى عليه، أي: علم الإنسانَ القرآنَ، وهذا المفعول هو الذي كان فاعلاً قبل نَقْل فعل الثلاثي إلى فعل المضعَّف.

وسها الإمامُ فحسِبَ أنَّ المحذوف المفعولُ الثاني حيث قال: «علَّم» لا بدَّ له من مفعولٍ ثانٍ، وتُرك للإشارة إلى أنَّ النعمة في التعليم لا في تعليم شخصٍ دون شخصٍ[3]. ويمكنُ أن يقال: أرادَ أنَّه لا بدَّ له من مفعول آخرَ مع هذا المفعول، فلا جَزْم بسهوه.

---

(١) الإتقان ٢/ ٨٥٠-٨٥١ وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) في الأصل: عياد.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٨٤.

وقيل: المقدَّر: جبريلَ عليه السلام، أو: الملائكةَ المقرَّبين عليهم السلام، وقيل: محمد ﷺ، وعلى القولَين يتضمَّن ذلك الإشارةَ إلى أنَّ القرآن كلامُ الله عز وجل، والقولُ الأول أظهرُ وأنسبُ بالمقام.

ولي في تعليم غير جبريل عليه السلام من الملائكةِ الكرام تردُّدٌ مّا بناءً على ما في «الإتقان» نقلاً عن ابن الصلاح من أنَّ قراءةَ القرآن كرامةٌ أكرم الله تعالى بها البشرَ، فقد وردَ أنَّ الملائكةَ لم يُعطَوا ذلك، وأنَّهم حريصون لذلك على استماعه من الإنس[(١)]. وإنما لم أعتبر عمومَه للنصوص الدالَّةِ على أنَّ جبريل عليه السلام كان يقرأُ القرآن، وكأنّي بك لا تُسلِّم صحة ما ذُكِر وإن استثني منه جبريلُ عليه السلام.

وقيل: «علَّم» من العلامة ولا تقدير، أي: جعل القرآن علامةً وآيةً لمن اعتبر، أو علامةً للنبوة ومعجزةً، وهذا على ما قيل: يناسبُ ما ذكر في مفتَتَح السورة السابقة من قوله تعالى: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وتتناسب السورتان في المفتَتَح، حيث افتُتِحت الأُولَى بمعجزةٍ من باب الهيبة، وهذه بمعجزةٍ من باب الرحمة.

وقد أبعدَ القائلُ ولو أبدَى ألف مناسبة، فالذي ينبغي أنْ يُعلَم أنَّه من التعليم، والمرادُ بتعليم القرآن قيل: إفادةُ العلم به، لا بمعنى إفادةِ العلم بألفاظه فقط، بل بمعنى إفادة ذلك والعلم بمعانيه على وَجْهٍ يُعتدُّ به، وهو متفاوتٌ وقد يصل إلى العلم بالحوادث الكونيةِ من إشاراته ورموزِه إلى غير ذلك، فإنَّ الله تعالى لم يُغفل شيئاً فيه.

أخرج أبو الشيخ في كتاب «العظمة» عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنَّ الله لو أغفل شيئاً لأغْفَلَ الذَّرَّة والخردلة والبعوضةَ»[(٢)].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: أُنزلَ في هذا القرآن عِلْمُ كلِّ شيءٍ، وبُيِّن لنا فيه كلُّ شيءٍ، ولكنَّ عِلْمَنا يَقصُرُ عمَّا بُيِّن لنا في القرآن[(٣)].

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٨٧، والإتقان ١/ ٣٢٣.

(٢) العظمة (١٨٩)، وسلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٤، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٢٧.

وقال ابن عباس: لو ضاعَ لي عقالُ بعيرٍ لوجدتُه في كتاب الله تعالى. وقال المرسي: جمع القرآنُ علومَ الأوَّلين والآخرين، بحيث لم يُحِط بها علماً حقيقةً إلا المتكلِّمُ به، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثَرَ به سبحانه، ثم وَرِثَ عنه معظمَ ذلك ساداتُ الصحابة وأعلامُهم كالخلفاء الأربعة، ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصَرَت الهممُ وفتَرَت العزائمُ، وتضاءل أهل العلم وضعُفوا عن حَمْل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه.

وفسر بعضُهم التعليمَ بتنبيه النفس لتصوُّر المعاني. وجوَّز الإمام أن يُراد به هنا جَعْلَ الشخص بحيث يعلم القرآن، فالآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وهو بهذا المعنى مجازٌ كما لا يخفى(١).

و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ والجملةُ بعده خبرُه كما هو الظاهر، وإسناد تعليمه إلى اسم «الرحمن» للإيذان بأنَّه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وتقديمُ المسند إليه إما للتأكيد أو للحصر، وفيه من تعظيم شأن القرآن ما فيه.

وقيل: «الرحمن» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، أي: الله الرحمن، أو الرحمن ربُّنا، وما بعدُ مستأنفٌ لتعديد نِعَمه عز وجل. وهو خلاف الظاهر.

ثم أَتْبَع سبحانه نعمةَ تعليم القرآن بخلق الإنسان فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ لأنَّ أصل النِّعم عليه، وإنما قدم ما قدم منها لأنَّه أعظمُها، وقيل: لأنَّه مشيرٌ إلى الغاية من خَلْق الإنسان، وهو كمالُه في قوة العلم، والغايةُ متقدِّمةٌ على ذي الغاية ذهناً وإن كان الأمرُ بالعكس خارجاً، والمرادُ بـ «الإنسان» الجنس، وبخلقه إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة.

ثم أَتْبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم البيان فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ لأنَّ البيانَ هو الذي به يتمكَّنُ عادةً من تعلُّم القرآن وتعليمه، والمرادُ به المنطقُ الفصيح المُعرِب عما في الضمير. والمراد بتعليمه نحوُ ما مر.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٨٤.

وفي «الإرشاد» أنَّ قوله تعالى: (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ) تعيين للمتعلِّم، وقوله سبحانه: (عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ) تبيينٌ لكيفية التعليم، والمرادُ بتعليم البيان تمكينُ الإنسان من بيان نفسه، ومِن فهم بيانِ غيره، إذ هو الذي يدورُ عليه تعليم القرآن[1].

وقيل بناءً على تقدير المفعول المحذوف الملائكة المقربين: إنَّ تقديمَ تعليم القرآن لتقدُّمه وقوعاً، فهم قد عَلِموه قبل خَلْق الإنسان، وربما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩] وفي النظم الجليل عليه حسنٌ زائدٌ، حيث إنَّه تعالى ذكر أموراً علويةً وأموراً سفلية، وكلُّ علويٍّ قابلَه بسفليٍّ، ويأتي هذا على تقدير المفعول جبريلَ عليه السلام أيضاً.

وقال الضحاك: «البيان»: الخيرُ والشرُّ. وقال ابن جريج: سبيلُ الهدى وسبيلُ الضلالة. وقال يمان: الكتابةُ. والكلُّ كما ترى.

وجوِّز أن يراد به القرآنُ وقد سمَّاه الله تعالى بياناً في قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وأُعيدَ ليكون الكلامُ تفصيلاً لإجمالِ «علَّم القرآن». وهذا في غاية البعد.

وقال قتادة: «الإنسان» آدم، و«البيان» عِلْمُ الدنيا والآخرة، وقيل: «البيان» أسماء الأشياء كلِّها. وقيل: التكلُّم بلغات كثيرة، وقيل: الاسمُ الأعظم الذي علم به كلّ شيء، ونسب هذا إلى جعفر الصادق رضي الله عنه.

وقال ابن كيسان: «الإنسان» محمد ﷺ. وعليه قيل: المرادُ بـ «البيان» بيانُ المنزل، والكشفُ عن المراد به، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] أو الكلامُ الذي يُشرح به المجملُ والمبهم في القرآن، أو القرآنُ نفسُه على ما سمعت آنفاً، أو نحو ذلك مما يناسبه عليه الصلاة والسلام ويليقُ به من المعاني السابقة، ولعلَّ ابن كيسان يقدِّرُ مفعول «علَّم» الإنسان مراداً به النبيُّ ﷺ أيضاً.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٧٦.

وهذه أقوالٌ بين يديك، والمتبادر من الآيات الكريمة لا يخفَى عليك، ولا أظنُّك في مريةٍ من تبادر ما ذكرناه فيها أولاً.

ثم إنَّ كلّاً من الجملتَين الأخيرتَين خبرٌ عن المبتدأ كجملة «علم القرآن»، وكذا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ والجارُّ والمجرور فيه خبرٌ بتقدير مضاف، أي: جريُ الشمس والقمر كائنٌ أو مستقرٌّ بحسبان، أو الخبرُ محذوف والجارُّ متعلِّق به، أي: يجريان بحسبان، وهو مصدرٌ كالغفران بمعنى الحساب كما قال قتادة وغيره، أي: هما يجريان بحساب[1] مقدَّرٍ في بروجهما ومنازلهما، بحيث ينتظمُ بذلك أمورُ الكائنات السفلية، وتختلفُ الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب.

وقال الضحاك وأبو عبيدة: هو جمع حساب كشهاب وشُهبان[2]، أي: هما يجريان بحسابات شتَّى في بروجهما ومنازلهما.

وقال مجاهد: الحسبان: الفلكُ المستديرُ، من حسبان الرَّحا، وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة، وعليه فالباء للظرفية، والجارُّ والمجرور في موضع الخبر من غير احتياج إلى ما تقدَّم، والمرادُ: كلٌّ من الشمس والقمر في فلك. والجمهور على الأول.

وجريان الشمس والقمر مما لا ينبغي أن يُشكَّ فيه، وفلاسفةُ العصر كانوا يزعمون أنَّ الشمس لا تجري أصلاً، وأنَّ القمر يجري على الأرض، والأرض تجري على الشمس، وقد سمعنا أنَّهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك، فزعموا أنَّ للشمس حركةً على كوكب آخر، وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكن عندهم برهانٌ على دعواهم الأُولَى كما كان يقوله مَن كان ينتصر لهم. والظاهرُ أنَّ حالَهم اليوم بل وغداً مثلُ حالهم بالأمس، ونحن مع الظواهر حتى يقومَ الدليل القطعيُّ على خلافها، وحينئذٍ نميل إلى التأويل وبابه واسعٌ.

---

(١) في (م): بحسبان.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٤٢.

ومثلُ هذه الجملة قولُه تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾ فإنَّ المعطوفَ على الخبر خبرٌ، والمراد بـ «النجم» النباتُ الذي ينجُم، أي: يظهرُ ويطلُعُ من الأرض ولا ساقَ له، وبالشجر النبات الذي له ساق، وهو المرويُّ عن ابن عباس وابن جبير وأبي رزين، والمرادُ بسجودهما انقيادُهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً، شبَّه جريَهما على مقتضَى طبيعتهما بانقياد الساجدِ لخالقهِ وتعظيمه له، ثم استعمل اسمَ المشبَّه به في المشبَّه، فهناك استعارةٌ مصرِّحة تبعيةٌ.

وقال مجاهد وقتادة والحسن: «النجم» نجمُ السماء، وسجودُه بالغروب ونحوِه، وسجودُ الشجر بالظلِّ واستدارته عند مجاهد والحسن، وفي رواية أخرى عن مجاهد أنَّ سجودَهما عبارةٌ عن انقيادهما لِمَا يريد سبحانه بهما طبعاً.

والجمهور على تفسير «النجم» بما سمعتَ أولاً؛ قيل[1]: لأنَّ اقترانَه بالشجر يدلُّ عليه، وإن كان تقدُّم «الشمس والقمر» يُتوهَّم منه أنَّه بمعناه المعروف، ففيه توريةٌ ظاهرة.

وإخلاء الجمل الثانية والثالثة والرابعة عن العاطف لورودها على نَهْج التعديد، مع الإشارة إلى أنَّ كلّاً مما تضمَّنته نعمةٌ مستقلة تقتضي الشكر، وقد قصَّروا في أدائه، ولو عُطِفت مع شدَّة اتِّصالها وتناسبها ربما تُوهِّم أنَّ الكل نعمةٌ واحدة.

وتوسيط العاطف بين الرابعة والخامسة رعايةً لتناسبهما من حيث التقابُلُ؛ لِمَا أنَّ الشمس والقمر علويَّان، والنجم والشجر سفليَّان، ومن حيث إنَّ كلًّا من حال العلويَّين وحال السفليَّين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل، وخلوُّهما عن الرابط اللفظي مع كونهما خبرَين للتعويل على كمال قوةِ الارتباطِ المعنويِّ، إذ لا يُتوهَّم ذهابُ الوهم إلى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى، ولا إلى كون سجود النجم والشجر لسواه سبحانه، فكأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له. كذا قالوه.

وفي «الكشف» تبييناً لِمَا ذكره صاحب «الكشاف» في هذا المقام: أَخلَى

---

(١) في (م): قبل.

الجملَ ـ أي: التي قبل «الشمس والقمر بحسبان» ـ عن العاطف؛ لأنَّ الغرض تعديدُ النعم وتبكيتُ المنكِرِ، كما يقال: زيدٌ أغناك بعد فقرٍ، أعزَّك بعد ذُلٍّ، كثَّرك بعد قلَّة، فَعَلَ بك ما لم يَفعل أحدٌ بأحد، فما تُنكر من إحسانه[1]؟ كأنه لمَّا عدَّ نعمةً حرك منه حتى يتأمل هل شكرها حقَّ شكرها أم لا، ثم يأخذ في أخرى، ولو جيء بالعاطف صارت كواحدة ولم يكن من التحريك في شيء.

ولَمَا قضَى الوطَر من التعديد المحرِّك والتبكيت بذكر ما هو أصل النعم على نَمَط ردَّ الكلام على منهاجه الأصلي من تعداد النعم واحدةً بعد أخرى على التناسب والتقارب بحرف النسق، وفيه تنبيهٌ على أنَّ النعم لا تُحصَى فليُكْتَفَ بتعديد أجلِّها رتبةً للغرض المذكور.

وجملة «الشمس والقمر بحسبان» ليست من أخبار المبتدأ، والزمخشريُّ إنَّما سأل عن وجه الربط، وأجاب بأنَّ الربط حاصلٌ بالوصل المعنوي[2]، كأنَّه بعدَما بكَّت ونبَّه أخذَ يعدُّ عليه أصولَ النعم ليثبُتَ على ما طُلب منه من الشكر، وهذا كما تقولُ في المثال السابق بعد قولك: فَعَلَ بك ما لم يَفْعَلْ أحدٌ بأحد: دانَت له أقرانُك، وأطاعَته إخوانُك، وبَسَط نواله فيمَن تحت ملكته، ولم يخرج أحدٌ من حياطة عدله ونصَفَته. فلا يَشكُّ ذو أَرَبٍ أنَّها جُمَلٌ منقطعةٌ عن الأولى إعراباً، متصلةٌ بها اتِّصالاً معنوياً أَوْرثَها قَطْعَها؛ لأنَّها سيقت لغرضٍ وهذه لآخر، وقريبٌ من هذا الاتصالِ اتِّصالُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية [البقرة: ٦] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية [البقرة: ٣]. انتهى.

وقد أبعد المغزى فيما أرى، إلا أنَّ ظاهرَ كلام «الكشاف» يقتضي كون قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ من الأخبار فتأمل.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلَقَها مرفوعةً ابتداءً لا أنَّها كانت مخفوضةً ورفعها،

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٣-٤٤.

(٢) الكشاف ٤/ ٤٤، وفيه: استغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي، لِمَا عُلِمَ أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره، كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له. اهـ. وقد سلف نحو هذا الكلام قريباً.

والظاهرُ أنَّ المراد برفعها الرفعُ الصوريُّ الحسيُّ، ويجوز أن يكون المرادُ به ما يشتملُ الصوريَّ والمعنويَّ بطريق عموم المجاز، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند مَن يرَى جوازَه. ورفعها المعنوي الرُّتْبي، لأنَّها منشأ أحكامه تعالى وقضاياه، ومنزلُ أوامره سبحانه ومحلُّ ملائكته عز وجل.

وقرأ أبو السمال: «والسماءُ» بالرفع على الابتداء[1]، ولا إشكالَ فيه؛ لأنَّ الجملةَ عليه اسميةٌ معطوفة على مثلها، وإنما الإشكال في النصب؛ لأنَّه بفعل مضمَر على شريطة التفسير، أي: ورفع السماءَ، فتكون الجملة فعليةً، فإنْ عطفَت على جملة «النجم والشجر يسجدان» الكبرى لزم تخالفُ الجملتَين المعطوفة والمعطوف عليها بالاسمية والفعلية، وهو خلاف الأَوْلَى، وإن عطفت على جملة «يسجدان» الصغرى لزم أنْ تكون خبراً للنجم والشجر مثلها، وذلك لا يصحُّ إذ لا عائد فيها إليهما، وكذا يقال في العطف على كبرى وصغرى «الشمس والقمر بحسبان» وأجاب أبو علي باختيار الثاني، وقال: لا يلزمُ في المعطوف على الشيء أن يُعتبَر فيه حالُ ذلك الشيء، وتلا باب قولهم:

مُتقلِّداً سيفاً ورُمحاً[2]

وبعضهم باختيار الأول، ويحسُنُ التخالفُ إذا تضمَّن نكتةً، قال الطيبي: الظاهرُ أنْ يعطف على جملة «الشمس والقمر بحسبان» ليؤذنَ بأنَّ الأصلَ: أجرَى الشمس والقمر، وأسجَدَ النجم والشجر، فعدَلَ إلى معنى دوام التسخيرِ والانقياد في الجملتَين الأوليين، ومعنى التوكيد في الأخيرة.

والكلام فيما يتعلَّق بالرفع والنصب فيما إذا وَليَ العاطفُ جملةً ذات وجهَين مفصَّلٌ في كتب النحو.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: شَرَع العدل وأمر به بأنْ وفَّر على كلِّ مستعدٍّ مستحقه، ووفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، حتى انتظم أمرُ العالم واستقامَ، كما قال عليه الصلاة

---

(١) القراءات الشاذة ص ١١٦، والمحتسب ٢/ ٣٠٢، والبحر ٨/ ١٨٩.

(٢) تقدم ٧/ ٧١.

والسلام: «بالعدل قامَت السماواتُ والأرضُ»[١]، أي: بَقِيتا على أبلغ نظامٍ وأتْقنِ إحكام.

وقال بعضهم: المراد بقاءُ مَن فيهما من الثقلَين، إذ لولا العدلُ أَهْلَكَ أهلُ الأرض بعضَهم بعضاً، وأما الملأُ الأعلى فلا يقعُ بينهم ما يحتاج للحكم والعدل، فذكرهم للمبالغة.

والذي أختاره أنَّ المراد بـ «السماوات والأرض» العالَمُ جميعُه، ولا شكَّ أنَّه لولا العدلُ لم يكن العالمُ منتظماً. ومنشأُ ما ذكره القائلُ ظنُّ أنَّ المرادَ بـ «العدل» في الحديث العدلُ في الحكم لفَصْل الخصومات ونحوه، وليس كما ظنَّ بل المرادُ به عدلُ الله عز وجل وإعطاؤه سبحانه كلَّ شيءٍ خَلْقه.

وتفسير «الميزان» بما ذكر هو المرويُّ عن مجاهد والطبري[٢] والأكثرين، وهو مستعارٌ للعدل استعارةً تصريحيةً؛ وعن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أنَّ المراد به ما يُعرَف به مقاديرُ الأشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما، فالمعنى: خَلقَه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علَّق به أحكامَ عباده وقضاياهم المنزلة من السماء، وما تعبَّدَهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم، والمشهورُ أنَّه بهذا المعنى مجازٌ أيضاً من استعمال المقيَّد في المطلَق. وقيل: هو حقيقةٌ، فالواضعُ لم يضعه إلا لِمَا يُعرَف به المقادير على أيِّ هيئة ومِن أيِّ جنسٍ كان، والناسُ لما ألفوا المعروف لا يكادُ يتبادَرُ إلى أذهانهم مِن لفظ «الميزان» سواه. وقيل: المراد به المعروفُ، واللفظُ فيه حقيقة، ولا يسلم الوضع للعام.

ورُجِّح القولان الأخيران بأنَّ ما بعدُ أشدُّ ملاءمةً لهما، وبين الوضع والرفع عليهما تقابل، وقد قرأ عبد الله: «وخَفَض الميزان»[٣]، والأولُ بأنَّه أتمُّ فائدةً، فَزِنْ ذلك بميزان ذهنك.

---

(١) تقدم ٧/ ٤١٧.

(٢) في تفسيره ٢٢/ ١٧٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ١٧٧، والكشاف ٤/ ٤٤.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ أي: لئلَّا تَطْغَوا فيه، أي: حقّه وشأنه بأنْ تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغي فيه، على أنَّ «أنْ» ناصبةٌ، و«لا» نافية ولام العلة مقدَّرة متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ وجوَّز ابنُ عطية والزمخشريُّ كونَ «أنْ» تفسيرية، و«لا» ناهية[1].

واعترضه أبو حيان بأنَّه لم يتقدَّم جملة فيها معنى القول، وهو شرطٌ في صحة جعل «أن» مفسِّرة[2]، وأُجيبَ بأنَّ «وضع الميزان» فيه ذلك؛ لأنَّه بالوحي وإعلام الرسل عليهم السلام.

وزعم بعضُهم أنَّ التفسيرَ متعينٌ لأنَّه لا معنى لـ: وَضَع الميزانَ لئلَّا تطغوا في الميزان، إذ المناسب الموزون ونحوه، وفيه ما لا يخفى.

وفي «البحر»: قرأ إبراهيم: «ووَضْع الميزانِ» بإسكان الضاد وخَفْض «الميزان»[3]، على أنَّ «وَضْع» مصدر مضاف إلى ما بعده، ولم يُبيِّن هل «وضع» مرفوع أو منصوب، فإنْ كان مرفوعاً فالظاهرُ أنَّه مبتدأ و«ألا تطغوا» بتقدير الجارِّ في موضع الخبر، وإنْ كان منصوباً فالظاهرُ أنَّ عاملَه مقدَّرٌ، أي: وفَعَل وَضْعَ الميزان، أو ووَضَع وضْعَ الميزان ألا تطغوا.. إلخ.

وقرأ عبد الله: «لا تطغوا» بغير «أن»[4] على إرادة القول، أي: قائلاً، أو نحوه، لا «قل» كما قيل، و«لا» ناهية بدليل الجزم.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ قوِّموا وَزْنكم بالعدل، وقال الراغب: هذا إشارةٌ إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحرَّاه الإنسانُ من الأفعال والأقوال[5]. وعن مجاهد أنَّ المعنى: أقيموا لسانَ الميزان بالعدل إذا أردتُم الأخذ والإعطاء. وقال سفيان بن عيينة: الإقامةُ باليد، والقِسطُ بالقلب.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥، والكشاف ٤/ ٤٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٨٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٨٩، والقراءات الشاذة ص ١٤٨.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٢، والكشاف ٤/ ٤٤.
(٥) مفردات الراغب (وزن).

والظاهرُ أنَّ الجملة عطفٌ على الجملة المنفية قبلها، ولا يضرُّ في ذلك كونُها إنشائيةً وتلك خبرية؛ لأنَّها لتأويلها بالمفرد تجرَّدت عن معنى الطلب، وجعل بعضهم «لا» في الأولى مطلقاً ناهية حرصاً على التوافق.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه فإنَّ من حقِّه أنْ يُسوَّى؛ لأنَّه المقصودُ من وضعه. وكرر لفظ «الميزان» بدون إضماره كما هو مقتضَى الظاهر تشديداً للتوصية، وتأكيداً للأمر باستعماله والحثِّ عليه، بل في الجمل الثلاث تكرارٌ مّا معنًى لذلك.

وقرئ: «ولا تَخسُروا» بفتح التاء وضمِّ السين[1]، وقرأ زيد بن علي وبلال بن أبي بردة بفتح التاء وكسر السين[2]، وحكى ابنُ جنِّي وصاحبُ «اللوامح» عن بلال أنَّه قرأ بفتحهما[3]، وخرّج ذلك الزمخشريُّ على أنَّ الأصلَ: ولا تَخسَروا في الميزان، فحذف الجار وأوصل الفعل[4]، بناءً على أنَّه لم يَجِئ إلا لازماً.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «خَسِر» قد جاء متعدِّياً كقوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢] و﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] فلا حاجةَ إلى دعوى الحذفِ والإيصال[5].

وأجيب بأنَّه على تقدير أن يكونَ متعدِّياً هنا لا بدَّ من القول بالحذف والإيصال؛ لأنَّ المعنَى على حذف المفعول به، أي: لا تَخسَروا أنفسَكم في الميزان، أي: لا تكونوا خاسريها يوم القيامة، بسبب الميزان بأنْ لا تُراعُوا ما ينبغي فيه.

والراغبُ جوَّز حمل الآية على القراءة المشهورة على نحو هذا فقال: إنَّ قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ) يجوز أنْ يكونَ إشارةً إلى تحرِّي العدالة في الوزن، وتركِ الحيفِ فيما يُعاطاه فيه، ويجوزُ أنْ يكونَ إشارةً إلى تعاطي

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٨٩.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٩، والمحتسب ٢/ ٣٠٣، والبحر المحيط ٨/ ١٨٩.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٠٣، والبحر المحيط ٨/ ١٨٩.
(٤) الكشاف ٤/ ٤٤.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٨٩.

ما لا يكونُ به في القيامة خاسراً، فيكون ممن قال سبحانه فيه: ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٨] وكلا المعنَيين متلازمان(١).

وقيل: المعنى على التعدِّي بتقدير مضافٍ، أي: موزونَ الميزان، أو جعل «الميزان» مجازاً عن الموزون فيه، فتأمل ولا تغفل.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خَلَقها موضوعةً مخفوضةً عن السماء حسبما يُشاهد، وقال الراغب: الوضعُ هنا الإيجادُ والخلقُ(٢). وكأنَّ مرادَه ما ذكر، وقيل: أي: خَفَضها مدحوَّة على الماء، والظاهرُ على تقدير اعتبار الدَّحو أنَّه لا حاجةَ إلى اعتبار أنَّه سبحانه خَلَقها كذلك، بل لا يصحُّ؛ لأنَّها لم تُخلَق مدحوَّة وإنما دُحيَت بعدُ، على ما رُوي عن ابن عباس، ثم إنَّ كونَها على الماء مبنيٌّ على ما اشتهر أنَّه عز وجل خَلَق الماء قبلها وخَلَقها سبحانه من زَبَدِه.

﴿لِلْأَنَامِ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد والشعبي ومجاهد على ما في «مجمع البحرين»: الحيوان كله، وقال الحسن: الإنس والجن.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: هم بنو آدم فقط. ولم أرَ هذا التخصيصَ لغيره ﵁؛ ففي «القاموس»: الأنام الخلقُ، أو الجنُّ والإنس، أو جميعُ ما على وجه الأرض(٣). ويحتمل أنَّه أراد أنَّ المراد به هنا ذلك، بناء على أنَّ اللام للانتفاع، وأنَّه محمولٌ على الانتفاع التامِّ، وهو للإنس أتمُّ منه لغيرهم، والأولَى عندي ما حكي عنه أولاً.

وقرأ أبو السمال «والأرضُ» بالرفع(٤).

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما أفادته الجملةُ السابقة من كون الأرض موضوعةً لنفع الأنام، وقيل: حالٌ مقدَّرة من «الأرض»، أو من

---

(١) مفردات الراغب (خسر).

(٢) مفردات الراغب (وضع).

(٣) القاموس المحيط (أنم).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٩٠.

ضميرها، فالأحسنُ حينئذٍ أن يكونَ الحال هو الجارَّ والمجرور، و«فاكهةٌ» رفع على الفاعلية، والتنوين بمعونة المقام للتكثير، أي: فيها ضروبٌ كثيرةٌ مما يُتفكَّه به.

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ هي أوعيةُ التمر، أعني الطلع على ما روي عن ابن عباس، جمع «كِمّ» بكسر الكاف وقد تُضَم، وهذا في كمِّ الثمر، وأما كُمُّ القميص فهو بالضم لا غير. أو كلُّ ما يُكمُّ ويُغطَّى من ليف وسَعَف وطَلْع، فإنَّه مما ينتفع به كالمكموم من الثمر والجُمَّار مثلاً، واختاره مَن اختاره، ومما ذكر يُعلَم فائدة التوصيف.

﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ هو ما يُتغذَّى به كالحنطة والشعير ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ قيل: هو ورق الزرع، وقيَّده بعضُهم باليابس، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه التِّبْن[(١)]، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك أنَّه القشر الذي يكون على الحبِّ[(٢)]؛ وعن السدي والفراء أنَّه بَقْلُ الزرع[(٣)]، وهو أولُ ما ينبتُ، وأخرجه غير واحد عن الحبر أيضاً[(٤)]، واختار جمعٌ ما روي عنه أولاً.

وفي توصيف «الحبِّ» بما ذكر تنبيهٌ على أنَّه سبحانه كما أنعم عليهم بما يَقُوتهم من الحبِّ أنعمَ عليهم بما يَقُوتُ بهائمهم من العصف.

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ هو كلُّ مشمومٍ طيب الريح من النبات على ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد، وأخرج عن الحسن أنَّه قال: هو ريحانكم هذا، أي: الريحان المعروف، وأخرج عن مجاهد: أنَّه الرزق، بل قال ابن عباس كما أخرج هو أيضاً عنه: كلُّ ريحان في القرآن فهو رزق[(٥)]. وزعم الطبرسيُّ أنَّه قولُ الأكثر[(٦)]. وعليه

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ١٨٣، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤١.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٤١، والذي في تفسير الطبري ٢٢/ ١٨٤ عن الضحاك: الحَبُّ: البُرُّ والشعير، والعصف: التبن. وفي رواية أخرى عنه: أما العصف: فهو البر والشعير.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في فتح الباري ٨/ ٦٢١، ولفظه: «العصف»: أول ما يخرج الزرع بقلاً.

(٥) ينظر الآثار السابقة في الطبري ٢٢/ ١٨٦-١٨٧.

(٦) مجمع البيان ٢٧/ ٨٧.

قولُ بعض الأعراب ـ وقد قيل له: إلى أين؟ ـ: أطلبُ من ريحان الله. فإنَّه أراد: مِن رزقه عز وجل.

ووجْه إطلاقه عليه أنَّه يرتاح له، وظاهرُ كلام «الكشاف»(١) أنَّه أطلق وأُريدَ منه اللبُّ؛ ليطابقَ العصفَ، ويوافقَ المراد منه في قراءة حمزة والكسائي والأصمعي عن أبي عمرو: «والريحان» بالجرِّ(٢) عطفاً على «العصف»؛ إذ يبعدُ عليها حمله على المشموم، والقريبُ حمله على اللبِّ، فكأنَّه قيل: والحبُّ ذو العصف الذي هو رزق دوابِّكم، وذو اللبِّ الذي هو رزق لكم. وجوز أنْ يكونَ «الريحان» في هذه القراءة عطفاً على «فاكهة» كما في قراءة الرفع، والجرُّ للمجاورة، وهو كما ترى.

والزمخشريُّ بعد أنَّ فسر «الأكمام» بما ذكرناه ثانياً فيها، و«الريحان» باللبِّ قال: أرادَ سبحانه فيها ما يتلذَّذ به من الفواكه، والجامع بين التغذِّي والتلذُّذ وهو ثمر النخل، وما يُتغذَّى به وهو «الحبُّ»(٣).

وهو على ما في «الكشف»: بيانٌ لإظهار وجه الامتنان، وأنَّه مستوعِبٌ لأقسام ما يتناول في حال الرفاهية؛ لأنَّه إما للتلذُّذ الخالص وهو الفاكهةُ، أو له وللتغذِّي أيضاً وهو ثمرُ النخل، أو للتغذِّي وحده وهو الحبُّ، ولمَّا كان الأخيران أدخلَ في الامتنان شَفَع كلّاً بعلاوة فيها منَّةٌ أيضاً.

وأنت تعلم أنَّه إذا كان المقصودُ من «النخل» ثمرَه المعروفَ فالعطفُ على أسلوب: ملائكته وجبريل، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] وإذا كان ما يعمُّه وسائرَ ما يُنتفع به منه كالجُمَّار والكُفَرَّى(٤)، فالعطف ليس على ذلك، وجعل صاحبُ «الكشف» قولَ الزمخشري بعد تفسير

---

(١) ٤/ ٤٥.

(٢) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٠، وهي قراءة خلف من العشرة، ورواية الأصمعي عن أبي عمرو في البحر المحيط ٨/ ١٩٠ وهي خلاف المشهور عنه.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٥.

(٤) وعاء طلع النخل، من الكفر وهو الستر، حاشية الشهاب ٨/ ١٣٢.

«الأكمام» بالمعنى الأعمّ: وكلُّه منتفَعٌ به كالمكموم[١] = إشارةً إلى هذا، ثم قال: ولا ينافي جَعْلَه منه في قوله تعالى: (فِيهَا فَٰكِهَةٌ) إلخ نظراً إلى أنَّ الجنة دارٌ تَخلُصُ للتلذُّذ، فالنظر هنالك إلى المقصود وهو الثمر فقط، فتأمل.

وقرأ ابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبلة: «والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ» بنصب الجميع[٢]، وخرِّج على أنَّه بتقدير: وخلق الحبَّ.. إلخ، وقيل: يجوز تقدير: أَخُصُّ، وفيه دغدغةٌ، وجوَّزوا أنْ يكون «الريحان» بمعنى اللبِّ حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف[٣]، والأصل: وذو ـ أو: وذا ـ الريحان، فحذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مقامَه.

و«الريحان» فَيْعَلان من الروح. فأصله رَيْوَحان قُلبَت الواو ياءً لاجتماعها مع ياء ساكنة قبلها، وأدغمت في الياء فصار ريّحان بالتشديد، ثم حذفت الياء الثانية التي هي عينُ الكلمة فقيل: ريحان، كما قيل: ميْت وهيْن بسكون الياء.

وعن أبي علي الفارسي أنَّه فعلان، وأصلُه رَوْحان بفتح الراء وسكون الواو قلبَت واوُه ياءً للتخفيف[٤]، وللفرق بينه وبين الروحان بمعنى ما له روح.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ الخطاب للثقَلين؛ لأنَّهما داخلان في «الأنام» على ما اخترناه؛ أو لأنَّ «الأنام» عبارة عنهما على ما روي عن الحسن، وسينطق بهما في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١] وفي الأخبار ـ كما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً ـ ما يؤيده.

وقد أبعد مَن ذهب على أنَّه خطابٌ للذكر والأنثى من بني آدم، وأبعد أكثر منه من قال: إنَّه خطابٌ على حدِّ ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤] و: يا شُرطيُّ اضربا عنقَه،

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٥.

(٢) قراءة ابن عامر في التيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٠، وقراءة أبي حيوة وابن أبي عبلة في البحر ٨/ ١٩٠.

(٣) في هامش الأصل: ذكر صاحب الكشف كلاماً دقيقاً في بيان الأرجح من التقدير وعدمه فليراجع. اهـ منه.

(٤) الحجة ٦/ ٢٤٦.

يعني أنَّه خطابٌ للواحد بصورة الاثنين، والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصِّل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً.

والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم، لتأكيد النكير وتشديدِ التوبيخ.

ومعنَى تكذيبهم بشيءٍ من آلائه تعالى: كفرُهم به؛ إما بإنكار كونِهِ منه عز وجل مع عدم الاعترافِ بكونه نعمةً في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النِّعم الدينية، وإما بإنكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمةً في نفسه، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً، صريحاً أو دلالة، فإنَّ إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها. والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لِمَا أنَّ دلالةَ الآلاء المذكورةِ على وجوب الإيمان والشكر شهادةٌ منها بذلك، فكفرُهم بها تكذيبٌ لا محالة، أي: فإذا كان الأمر كما فصّل، فبأيِّ فردٍ من أفراد نِعَم مالكِكما ومربِّيكما بتلك النعم تكذِّبان، مع أنَّ كلّاً منها ناطقٌ بالحقِّ شاهدٌ بالصدق.

ويُندَب أنْ يقول سامعُ هذه الآية: لا بشيءٍ من نعمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد، فقد أخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه والخطيب في «تاريخه» بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» على أصحابه فسكتُوا فقال: «ما لي أسمعُ الجنَّ أحسنَ جواباً لربِّها منكم، ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيءٍ من نعَمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد»[1]، وأخرج الترمذي وجماعةٌ وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله[2] نحوه.

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٩)، والطبري ٢٢/ ١٩٠، وتاريخ بغداد ٤/ ٣٠١، وعزاه لابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٠.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٩١)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٧٤.

وقرئ: «فبأيٍّ» بالتنوين[١] في جميع السورة، كأنَّه حذف منه المضافَ إليه وأبدل منه «آلاء ربكما» بدل معرفة من نكرة.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ تمهيدٌ للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلِّقة بذاتي كلٍّ واحدٍ من الثقلَين، والمراد بـ «الإنسان» آدم عند الجمهور.

وقيل: الجنس، وساغ ذلك لأنَّ أباهم مخلوقٌ مما ذكر.

والصلصال: الطينُ اليابس الذي له صلصلة، وأصلُه ـ كما قال الراغب ـ تردُّد الصوت من الشيء اليابس. ومنه قيل: صَلَّ المسمار. وقيل: هو المنتنُ من الطين، من قولهم: صلَّ اللحم، وكأنَّ أصله صَلَّالٌ، فقُلبَت إحدى اللَّامين صاداً[٢]. ويُبعدُ ذلك قوله سبحانه: (كَٱلْفَخَّارِ) وهو الخزف[٣]، أعني ما أُحرِقَ من الطين حتى تحجَّر، وسُمِّي بذلك لصوته إذا نُقِر، كأنَّه تصوَّر بصورةِ مَن يُكْثِرُ التفاخر.

وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأً مسنوناً ثم صلصالاً، فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطَقَ بأحد الآخَرَين.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ هو أبو الجنّ وهو إبليس؛ قاله الحسن. وقال مجاهد: هو أبو الجن وليس بإبليس. وقيل: هو اسم جنس شاملٌ للجنِّ كلِّهم.

﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من لهب خالصٍ لا دخانَ فيه كما هو رواية عن ابن عباس. وقيل: هو اللهبُ المختلِطُ بسواد النار، أو بخضرة وصفرة وحمرة، كما روي عن مجاهد، من مَرَج الشيءُ: إذا اضطربَ واختلطَ، و«مِن» لابتداء الغاية، وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيانٌ لـ «مارج» والتنكير للمطابقة، ولأنَّ التعريف لُكْنةٍ عليه[٤]، فكأنَّه قيل: خلق من نار خالصةٍ أو مختلطةٍ، على التفسيرَين. وجوَّز جعل «مِن»

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٩ إلى أبي الدينار الأعرابي، ودون نسبة في البحر المحيط ٨/ ١٩٠.
(٢) مفردات الراغب (صلصل).
(٣) في (م): الخذف.
(٤) في حاشية الشهاب ٨/ ١٣٣: لكُنْهِ حقيقته، بدل: لكنه عليه.

فيه ابتدائية، فالتنكيرُ لأنَّه أُريدَ نارٌ مخصوصةٌ متميزة من بين النيران لا هذه المعروفة.

وأيَّاما كان فالمارجُ بالنسبة إلى الجانِّ كالتراب بالنسبة إلى الإنسان، وفي الآية ردٌّ على مَن يزعم أنَّ الجنَّ نفوسٌ مجرَّدة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ مما أفاضَ عليكما في تضاعيف خَلْقِكما من سوابغ النعم.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ربُّ.. إلخ، أو الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة ربُّ مشرقَي الشمس صيفاً وشتاءً ومغربَيها كذلك، على ما أَخرجه جماعة عن ابن عباس.

وروي عن مجاهد وقتادة وعكرمة: أنَّ «المشرقين» مشرقُ[(١)] الشتاء ومشرقُ الصيف، و«المغربين» مغربُ الشتاء ومغربُ الصيف بدون ذكر الشمس.

وقيل: المشرقان مشرقا الشمس والقمر، والمغربان مغرباهما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن «المشرقَين» مشرقُ الفجر ومشرقُ الشفق، و«المغربَين» مغربُ الشمس ومغرب الشفق[(٢)]. وحكى أبو حيان في «المغربَين» نحو هذا، وفي «المشرقَين» أنَّهما مطلعُ الفجر ومطلع الشمس[(٣)].

والمعوَّل ما عليه الأكثرون مِن مشرقَي الصيف والشتاء ومغربَيهما، ومن قضية ذلك أنْ يكون سبحانه ربَّ ما بينهما من الموجودات.

وقيل: «ربُّ» مبتدأ، والخبر قوله تعالى: (مَرَجَ) إلخ، وليس بذاك.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: «ربِّ» بالجرِّ[(٤)] على أنَّه بدل مِن «ربكما» ﴿فَبِأَيِّ

---

(١) في (م): مشرقا.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٢ وفيه: النجم، بدل: الفجر.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩١.
(٤) المصدر السابق.

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ مما في ذلك من فوائدَ لا تُحصَى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يُناسب كلَّ فصل في وقته.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلَهما وأجراهما، من مَرَجْتُ الدابة في المرعَى: أرسلتها فيه، والمعنى: أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوران وتتماسُّ سطوحهما لا فصْلَ بينهما في مرأى العين.

وقيل: أرسل بحرَي فارس والروم يلتقيان في المحيط؛ لأنَّهما خليجان يتشعَّبان منه. وروي هذا عن قتادة، لكنه أُورد عليه أنَّه لا يوافقُ قولَه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضًا، وعليه قيل: جملة «يلتقيان» حالٌ مقدَّرة إن كان المراد إرسالَهما إلى المحيط، أو المعنى اتحادُ أصلَيهما إن كان المراد إرسالَهما منه(١).

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي: حاجزٌ من قدرة الله تعالى، أو مِن أجرام الأرض كما قال قتادة ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدُهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصِّية بالكلية بناءً على الوجه الأول فيما سبق، أو لا يتجاوزان حدَّيهما بإغراق ما بينهما بناءً على الوجه الثاني، وروي هذا عن قتادة أيضًا، وفي معناه ما أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن: لا يبغيان عليكم فيغرقانكم(٢).

وقيل: المعنى: لا يطلبان حالًا غيرَ الحال التي خُلِقَا عليها وسُخِّرا لها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ مما لكما في ذلك من المنافع.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ صغارُ الدرِّ ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كبارُه كما أخرج ذلك عبد بن حميد وابن جرير عن عليّ كرم الله تعالى وجهه ومجاهد(٣)، وأخرجه عبد عن الربيع(٤)،

---

(١) في الأصل و(م): إليه، وهو خطأ، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ١٣٣، والكلام منه.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٦٣، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٦/ ١٤٢.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٠٦-٢٠٧، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٢.
(٤) كذا وقعت هذه العبارة في الأصل و(م)، وقد أخرجه عن الربيع ابن أبي حاتم - واسمه عبد الرحمن بن سهل - كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وجماعةٌ منهم المذكوران وابنُ المنذر وابن أبي حاتم من طُرقٍ عن ابن عباس[(١)].

وأخرج ابن جرير عنه أنَّه قال: «اللؤلؤ» ما عظم منه، «والمرجان» اللؤلؤ الصغار، وأخرج هو وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه، وكذا أخرج ابن الأنباري في «الوقف والابتداء» عن مجاهد[(٢)]، وأظنُّ أنَّه إن اعتُبرَ في «اللؤلؤ» معنى التلألؤ واللمَعَان، وفي «المرجان» معنى المَرَجِ والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل ثانيًا فيهما.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود أنَّه قال: «المرجان» الخرز الأحمر[(٣)]. أعني البُسَّذ[(٤)]، وهو المشهور المتعارف، و«اللؤلؤ» عليه شامل للكبار والصغار.

ثم إنَّ «اللؤلؤ» بناءٌ غريب قيل: لا يُحفَظ منه في كلام العرب أكثرُ من خمسة: هو، والجُؤْجُؤ: الصدر وقرية بالبحرين. والدُّؤْدُؤ: آخر الشهر أو ليلة خمسٍ وستٍّ وسبعٍ وعشرين، أو ثمان وتسع وعشرين، أو ثلاثُ ليالٍ من آخره، والبُؤْبُؤ بالباء الموحدة: الأصل، والسيد الظريف، ورأس المكحلة، وإنسان العين، ووسط الشيء. واليُؤْيُؤ بالياء آخر الحروف: طائرٌ كالباشق.

ورأيت في كُتُب اللغة على هذا البناء غيرَها، وهو الضؤضؤ: الأَخْيَل للطائر[(٥)]، والنُّؤْنُؤ بالنون: المكثرُ تقليبَ الحدقة، والعاجزُ الجبان. ومن ذلك شُؤْشُؤ: دعاءُ الحمار إلى الماء، وزَجْرُ الغنم والحمار للمضي، أو هو دعاء للغنم لتأكل أو تشرب.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٤٢، وهو في الزهد لهناد (١٩)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٠٥-٢٠٦، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٦٣، والوقف والابتداء ١/ ٧٤، وأثر قتادة عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٢.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٦٣، والطبري ٦/ ٢٠٧، والمعجم الكبير (٩٠٥٨)، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٢.

(٤) في هامش الأصل: كسُكَّر. اهـ منه. وفي القاموس: البسَّذ كسكَّر: المرجان معرَّب.

(٥) ويسمى الشِّقِرَّاق، وتقول العرب: أشأم من أخيل. المعجم الوسيط (خيل). ووقع في (م): الأصل، بدل: الأخيل.

وأما المرجان فقد ذكره صاحب «القاموس» في مادة «مرج» ولم يذكر ما يُفهَم منه أنَّه معرَّب، وقال أبو حيان في «البحر»: هو اسمٌ أعجميٌّ معرَّب، وقال ابن دريد: لم أسمع فيه بفعل متصرف(١).

وقرأ طلحة: «اللؤلِئ» بكسر اللام الأخيرة، وقرئ: «اللؤلي» بقلب الهمزة المتطرفة ياءً ساكنة بعد كسر ما قبلها(٢)، وكلٌّ من ذلك لغة.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «يُخرَج» مبنيًّا للمفعول من الإخراج(٣). وقرئ: «يُخرِجُ» مبنيًّا للفاعل منه ونصب «اللؤلؤَ والمرجان»(٤)، أي: يُخرِج الله تعالى.

واستشكلت الآية على تفسير «البحرَين» بالعذب والملح دون بحرَي فارس والروم، بأنَّ المشاهَد خروجُ اللؤلؤ والمرجان مِن أحدهما وهو الملح، فكيف قال سبحانه: ﴿مِنْهُمَا﴾؟

وأُجيبَ بأنَّهما لمَّا التقيا وصارا كالشيءِ الواحدِ جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميعه ولكنْ من بعضه، وكما تقول: خرجتُ من البلد، وإنما خرجتَ من محلَّة من محالِّه، بل من دار واحدةٍ من دوره، وقد يُنسَب إلى الاثنين ما هو لأحدهما، كما يُسنَد إلى الجماعة ما صَدَر من واحدٍ منهم. ومثله على ما في الانتصاف ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٥) [الزخرف: ٣١] وعلى ما نقل عن الزجَّاج ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥-١٦](٦).

وقيل: إنَّهما لا يخرجان إلا من ملتقى العذب والملح. ويردُّه المشاهَدةُ، وكأنَّ مَن ذَكَره مع ما تقدَّم لم يذكره لكونه قولًا آخر بل ذكره لتقوية الاتِّحاد، فحينئذٍ تكون علاقةُ التجوز أقوى.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٢، وقول ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٣٢٤.
(٢) القراءتان في البحر المحيط ٨/ ١٩٢، والدر المصون ١٠/ ١٦٦.
(٣) التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٠-٣٨١، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.
(٤) نسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٩١ للجعفي عن أبي عمرو.
(٥) الانتصاف ٤/ ٤٥-٤٦.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٠.

وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذفِ المضافِ، والتقدير: يخرج من أحدهما، وجعل ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] من ذلك[١]. وهو عندي تقدير معنًى لا تقديرُ إعراب.

وقال الرمَّاني: العذبُ منهما كاللقاح للملح، فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى، أي: بواسطتهما.

وقال ابن عباس وعكرمة: تكوَّنُ هذه الأشياء في البحر بنزول المطر؛ لأنَّ الأصداف في شهر نيسان تتلقَّى ماءَ المطر بأفواهها، فتتكون منه، ولذا تقلُّ في الجدب، وجُعِلَ عليه ضمير «منهما» للبحرَين باعتبار الجنس، ولا يُحتاجُ إليه بناءً على ما أخرجه ابن جرير عنه أنَّ المراد بـ «البحرَين» بحرُ السماء وبحرُ الأرض. وأخرج هو وابن المنذر عن ابن جبير نحوه[٢]، إلا أنَّ في تكوُّن المرجان بناءً على تفسيره بالبسَّذ من ماء المطر كاللؤلؤ تردُّدًا، وإنْ قالوا: إنَّه يتكون في نيسان.

وقال بعضُ الأئمة: ظاهرُ كلام الله تعالى أَولَى بالاعتبار من كلام الناس، ومَن عَلِمَ أنَّ اللؤلؤ لا يخرُج من الماء العذب؟ وهَبْ أنَّ الغوَّاصين ما أخرجوه إلا مِن الملح، ولكن لِمَ قلتُم أنَّ الصدَف لا يخرج بأمر الله تعالى من الماء العذب إلى الماء الملح؟ فإنَّ خروجه محتمل تلذُّذًا بالملوحة كما تلتذُّ المتوحِّمةُ بها في أوائل حملها، حتى إذا خرج لم يمكنه العود. وكيف يمكن الجزم بما قلتُم وكثيرٌ من الأمور الأرضية الظاهرة خَفِيَت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد، فكيف لا يخفَى أمرٌ مّا في قعر البحر عليهم؟ والله تعالى أعلم.

ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: «مرج البحرين يلتقيان» عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما «بينهما برزخٌ لا يبغيان» النبيُّ ﷺ «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» الحسنُ والحسين رضي الله عنهما. وأخرج عن أنس[٣] بن مالك نحوه[٤]. لكن لم

---

(١) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٤٧.
(٢) الأثران في الطبري ٢٢/ ٢٠٠، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٢.
(٣) في الأصل و(م): إياس، وهو تصحيف.
(٤) الأثران في الدر المنثور ٦/ ١٤٢-١٤٣.

يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسيُّ من الإمامية في تفسيره «مجمع البيان» الأول بعينه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري(١).

والذي أراه أنَّ هذا ـ إنْ صحَّ ـ ليس من التفسير في شيء، بل هو تأويلٌ كتأويل المتصوِّفة لكثيرٍ من الآيات، وكلٌّ من عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما عندي أعظمُ من البحر المحيط علمًا وفضلًا، وكذا كلٌّ من الحسنَين رضي الله عنهما أبهى وأبهجُ من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حدَّ الحسبان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾﴾ مما في ذلك من الزينة والمنافع الجليلة، فقد ذكر الأطباء أن اللؤلؤ يمنع الخَفَقان، والبخرَ، وضعفَ الكبد والكلَى، والحصَى، وحرقةَ البول، والسدد، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم والوَسوَاس والجنون والتوحُّش والربو، شربًا، والجذام والبرص والبهق والآثار مطلقًا بالطلي، إلى غير ذلك.

وأنَّ المرجان أعني البسَّذ يُفرح ويزيلُ فساد الشهوة ولو تعليقًا، ونفثَ الدم والطحال شُربًا، والدمعةَ والبياض والسلاق والجرب كحلًا، إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن، جمع جارية وخصَّها سبحانه بأنَّها له وهو تعالى له ملك السماوات والأرض وما فيهنَّ، للإشارة إلى أنَّ كونَهم هم مُنشئيها لا يُخرِجها من ملكه عز وجل، حيث كان تمامُ منفعتها إنَّما هو منه عز وجل، وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو: «الجوارُ» بإظهار الرفع على الراء(٢)؛ لأنَّ المحذوف لمَّا تناسَوه أعطوا ما قبلَ الآخِرِ حُكمَه، كما في قوله:

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ٩١، وما قبله من الدر المنثور ٦/ ١٤٢-١٤٣، والوضع على هذه الأخبار ظاهر، وقد جعل الزركشي في البرهان ٢/ ١٥٢ هذا من تأويل الروافض المخالف للآية والشرع، وذكر عبد الرحمن بن محمد الثعالبي في تفسيره ٤/ ٢٤٣ أن أمثال هذه التأويلات هي ألغاز وأقوال باطنة يجب أن لا يلتفت إلى شيء منها.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٩، والبحر المحيط ٨/ ١٩٢، وهو خلاف المشهور عن أبي عمرو.

لـهـا ثـنـايـا أربـعٌ حِـسـانٌ وأربـعٌ فـكـلُّـهـا ثـمـانٌ[١]

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: المرفوعاتُ الشُّرُعِ كما قال مجاهد، مِن أنشَأه بمعنى رَفَعه. وقيل: المرفوعات على الماء. وليس بذاك، وكذا ما قيل: المصنوعات.

وقرأ الأعمش وحمزة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر بخلاف عنه: «المنشِآت» بكسر الشين[٢]، أي: الرافعات الشرع، أو اللاتي يُنشئنَ الأمواجَ بجَرْيهنَّ، أو اللاتي يُنشئنَ السير إقبالًا وإدبارًا، وفي الكل مجازٌ، وشدَّد الشينَ ابنُ أبي عبلة، وقرأ الحسن «المنشأةُ»[٣] وحَّد الصفة ودلَّ على الجمع الموصوف كقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] وقلب الهمزة ألفًا على حدِّ قوله:

إنَّ الـسـبـاع لـتـهـدا فـي مـرابـضـهـا[٤]

يريدُ: لتهدأ، والتاء لتأنيث الصفة، كتبت تاء على لفظها في الأصل.

﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال الشاهقة جمع عَلَم وهو الجبل الطويل ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ من خلق موادِّ السُّفن والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر بأسبابٍ لا يقدرُ على خَلْقها وجمعها وترتيبها غيرُه سبحانه وتعالى.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض التي وُضِعَت للأنام من الحيوانات والمركبات و«مَن» للتغليب، أو من الثقلَين[٥] ﴿فَانٍ﴾ هالك.

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٦، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١٣٣، واللسان (ثغر)، والدر المصون ١٠/ ١٦٦، وخزانة الأدب شاهد (٥٤١). قال الشهاب: أظهر الرفع على نون «ثمان» وهو منقوصٌ أيضاً.

(٢) قراءة حمزة وأبي بكر في التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨١، وقراءة الأعمش وزيد بن علي وطلحة في البحر ٨/ ١٩٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٢.

(٤) وعجزه: والناسُ ليس بهادٍ شرُّهم أبدا، والبيت لإبراهيم بن هَرْمة، وهو في ديوانه ص٩٧، والخصائص ٣/ ١٥٢، وضرائر الشعر ص٢٢٩، واللسان (هدأ)، ودون نسبة في البحر المحيط ٨/ ١٩٢ وعنه نقل المصنف، وجاء في المصادر عدا البحر: عن فرائسها، بدل: في مرابضها.

(٥) في (م): للثقلين.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ذاته عز وجل، والمرادُ هو سبحانه وتعالى، فالإضافة بيانية، وحقيقةُ الوجه في الشاهد الجارحة، واستعمالُه في الذات مجازٌ مرسلٌ كاستعمال الأيدي في الأنفس، وهو مجازٌ شائع. وقيل: أصلُه الجهة، واستعمالُه في الذات من باب الكنايةِ. وتفسيره بالذات هنا مبنيٌّ على مذهب الخلف القائلين بالتأويل وتعيينِ المراد في مثل ذلك، دون مذهبِ السلف، وقد قرَّرناه لك غيرَ مرةٍ فتذكره وعضَّ عليه بالنواجذ.

والظاهر أنَّ الخطاب في «ربِّك» للرسول ﷺ، وفيه تشريفٌ عظيمٌ له عليه الصلاة والسلام، وقيل: هو للصالح له لعظم الأمرِ وفخامته.

وفي الآية عند المؤوِّلين كلامٌ كثيرٌ منه ما سمعتَ، ومنه ما قيل: الوجهُ بمعنى القصدِ ويُراد به المقصود، أي: ويبقَى ما يُقصَدُ به ربُّك عز وجل من الأعمال، وحُمِل كلامُ مَن فسَّره بالعمل الصالح على ذلك، وفيه ما فيه.

وأقرب منه ما قيل: وجهه تعالى الجهةُ التي أمَرَنا عز وجل بالتوجُّه إليها والتقرب بها إليه سبحانه، ومرجعُ ذلك العملُ الصالح أيضًا، والله جل شأنه يُبقيه للعبد إلى أنْ يجازيَهُ عليه، ولذا وُصِف بالبقاء، أو لأنَّه بالقبول صار غيرَ قابلٍ للفناء؛ لِمَا أنَّ الجزاء عليه قام مقامه وهو باقٍ. ولا يخفى أنَّ كلا القولَين غيرُ مناسبٍ للتعليم في «كلٌّ من عليها».

وقيل: وجهه سبحانه الجهةُ التي يليها الحقُّ، أي: يتولَّاها بفضله ويُفيضُها على الشيء من عنده، أي: إنَّ ذلك باقٍ دون الشيء في حدِّ ذاته، فإنَّه فانٍ في كلِّ وقتٍ.

وقيل: المراد بوجهه سبحانه وجهُهُ الممكن، وهي جهةُ حيثيةِ ارتباطِه وانتسابه إليه تعالى، والإضافة لأدنَى ملابسة، فالممكن في حدِّ ذاته، أي: إذا اعتُبرَ مستقلًّا غير مرتبطٍ بعلَّته ـ أعني الوجودَ الحقَّ ـ كان معدومًا؛ لأنَّ ظهورَه إنما نشأ من العلة ولولاها لم يكُ شيئًا مذكورًا. وقول العلامة البيضاوي: لو استقرَيتَ جهاتِ الموجودات وتفحَّصتَ وجوهها وجدتَها بأسرها فانيةً في حدِّ ذاتها إلا وجهَ الله

تعالى، أي: الوجه الذي يلي جهتَه سبحانه[١]. محمولٌ على ذلك عند بعض المحقِّقين، وإنْ كان قد فَسَّر الوجهَ قبلُ بالذات.

وللعلماء في تقرير كلامه اختلاف، فمنهم مَن يجعلُ قوله: لو استقريت.. إلخ تتمةً لتفسيره الأول، ومنهم مَن يجعلُه وجهًا آخر، وهو على الأول أخذٌ بالحاصل، وعلى الثاني قيل: يحتملُ التطبيق على كل من مذاهب في الممكنات الموجودة، وذلك أنَّها إما موجودةٌ حقيقةً، بمعنى أنَّها متَّصفة بالوجود اتِّصافًا حقيقيًّا، بأنْ يكونَ الوجودُ زائدًا عليها قائمًا بها، وهو مذهبُ جمهور الحكماء والمتكلِّمين، وإما موجودةٌ مجازًا وليس لها اتِّصافٌ حقيقيٌّ بالوجود، بأنْ يكونَ الوجودُ قائمًا بها، بل إطلاقُ الموجود عليها كإطلاق الشمس[٢] على الماء، وإليه ذهب المتألِّهون من الحكماء والمحقِّقون من الصوفية، إلا أنَّ ذوق المتألِّهين أنَّ علاقة المجاز أنَّ لها نسبةً مخصوصة إلى حضرة الوجود الواجبي على وجوه مختلفةٍ وأنحاء شتَّى، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاسِ الخلائق، فالوجودُ عندهم جزئيٌّ حقيقيٌّ قائم بذاته، لا يتصوَّرُ عروضُه لشيءٍ ولا قيامُه به، ومعنى كونِ الممكن موجودًا أنَّه مظهرٌ له ومجلى ينجلي فيه نوره، فالله نور السماوات والأرض، والممكنات بمنزلة المرايا المختلفة التي تنعكس إليها أشعةُ الشمس، وينصبغُ كلٌّ منها بصبغ يُناسبه.

ومذاقُ المحقِّقين من الصوفية أنَّ علاقة المجاز أنَّها بمنزلة صفاتٍ قائمةٍ بذات الواجب سبحانه، إذ ليس في الوجود على مذاقهم ذواتٌ متعدِّدة بعضُها واجبٌ وبعضُها ممكن، بل ذاتٌ واحدةٌ لها صفاتٌ متكثِّرة وشؤونات متعددةٌ وتجلِّياتٌ متجدِّدة ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١] والمشهور أنَّه لا فرقَ بين المذاقَين.

ووجهُ التطبيق على الأول: أنْ يقال: المرادُ من الوجه الذي يلي جهتَه تعالى هو الوجوبُ بالغير، إذ الممكنُ وإنْ كان موجودًا حقيقةً عند الجمهور، لكنْ وجودُه مستفادٌ من الواجب بالذات، وجهة الاستفادة ليسَت هي الذات ولا شيئًا آخر من

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١٣٤.
(٢) في الأصل: المشمس.

الجهات والوجوه كالإمكان والمعلوليَّة، والجوهرية والعَرَضية، والبساطة والتركيب، وسائرِ الأمور العامة؛ لأنَّ كلًّا منها جهة[1] الخِسَّة، ومقتضى الفطرة الإمكانية البعيدة بمراحل عن الوجوب الذاتي المنافية له، وإنما جهة الشرف القريبة المناسبة للوجوب الذاتي جهةُ الوجوب بالغير، فهو وجهٌ يلي جهة الواجب ويناسبه في كونه وجوبًا وإن كان بالغير، ولذا يَعقبُه فيضانُ الوجود، ولذا تسمعهم يقولون: الممكن ما لم يجب لم يوجد.

ووجهُ التطبيق على الثاني أنْ يقال: الوجهُ الذي يلي جهتَه تعالى هو تلك النسبةُ المخصوصة المصحِّحة لإطلاق لفظِ الموجود عليها ولو مجازًا، فالمعنى: كلُّ مَن عليها فانٍ معدومٌ لا يصحُّ أنْ يطلَق لفظُ الموجود عليه ولو مجازًا، إلا باعتبار الوجه الذي يلي جهتَه تعالى، أي: بالنسبة المخصوصة إلى حضرته تعالى، وهي كونه مظهرًا له سبحانه.

ووجه التطبيق على الثالث أن يقال: المرادُ بالوجه الذي يلي جهتَه تعالى كونُها شؤوناتٍ واعتباراتٍ له تعالى، فالمعنى: كلُّ مَن عليها معدومٌ من جميع الوجوه والاعتبارات إلا مِن الوجه الذي يلي جهتَه سبحانه والاعتبارِ الذي يحصل مقيسًا إليه عز وجل، وهو كونُه شأنًا من شؤونه واعتبارًا من اعتباراته جل شأنه. فتأمَّل مستعينًا بالله عز وجل.

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: يُجلُّه الموحِّدون عن التشبيه بخلقه، ويُثبتون له ما يليقُ بشأنه تعالى شأنُه، فهذا راجعٌ إلى ما له سبحانه من التعظيم في قلوب مَن عرفَه عز وجل، أو الذي يقال في شأنه: ما أجلَّك وما أكرمك! أي: هو سبحانه مَن يستحقُّ أنْ يقال في شأنه ذلك قيل أو لم يُقَل، فهو راجعٌ إلى ما له تعالى من الكمال في نفسه باعتبار قصورِ الإدراك عن شأوه، أو مَن عنده الجلالُ والإكرام للموحِّدين، فهو راجعٌ إلى الفعل، أي: يُجلُّ الموحِّدين ويُكرمُهم.

وفسَّر بعضُ المحقِّقين «الجلال» بالاستغناء المطلَق، «والإكرام» بالفضل التامِّ،

---

(١) في (م): جهته.

وهذا ظاهرٌ، ووجهُ الأول بأنَّ «الجلال» العظمةُ، وهي تقتضي ترفُّعَه تعالى عن الموجودات، ويستلزمُ أنَّه سبحانه غنيٌّ عنها، ثم أُلحِقَ بالحقيقة، ولذا قال الجوهري: عَظَمةُ الشيء الاستغناءُ عن غيره، وكلُّ محتاجٍ حقيرٌ[(١)].

وقال الكرماني: إنَّه تعالى له صفاتٌ عدمية مثل ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٣] وتسمَّى صفات الجلال؛ لِمَا أنَّها تؤدَّى بـ: جَلَّ عن كذا، جلَّ عن كذا، وصفاتٌ وجوديَّةٌ كالحياة والعلم، وتسمَّى صفات الإكرام[(٢)]. وفيه تأمُّل.

والظاهرُ أنَّ «ذو» صفةٌ للوجه، ويتضمَّن الوصفُ بما ذكر ـ على ما ذكره البعضُ ـ الإشارةَ إلى أنَّ فناءَ مَن عليها لا يُخِلُّ بشأنه عز وجل؛ لأنَّه الغنيُّ المطلَق، والإشارةَ إلى أنَّه تعالى بعد فنائهم يُفيضُ على الثقلَين من آثار كرمه ما يفيضُ وذلك يوم القيامة، ووَصْفُ الوجه بما وُصِف يُبعِدُ كونَه عبارةً عن العمل الصالح أو الجهة على ما سمعتَ آنفًا، وكأنَّ مَن يقول بذلك يقول: «ذو» خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو ضميرٌ راجعٌ إلى الربِّ، وهو في الأصل صفةٌ له، ثم قُطعَت عن التبعية، ويؤيِّدُه قراءةُ أبيّ وعبد الله: «ذي الجلال»[(٣)] بالياء على أنَّه صفةٌ تابعةٌ للربِّ.

وذكر الراغبُ أنَّ هذا الوصفَ قد خُصَّ به عزَّ وجل ولم يُستعمل في غيره[(٤)]، فهو من أجلِّ أوصافه سبحانه، ويشهدُ له ما رواه الترمذيُّ عن أنس، والإمام أحمد عن ربيعة بن عامر مرفوعًا: «أَلِظُّوا بـ: ياذا الجلالِ والإكرام»[(٥)] أي: الْزَموه واثْبُتُوا عليه، وأَكْثِرُوا من قوله والتلفُّظ به في دعائكم.

وروى الترمذيُّ وأبو داود والنسائي عن أنس أنَّه كان مع رسول الله ﷺ ورجل يُصلِّي ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأنَّ لك الحمدَ لا إله إلا أنت، المنَّانُ بديعُ

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٣٤.

(٢) ينظر شرح الكرماني لصحيح البخاري ٢٥/ ٩٥-٩٦، وحاشية الشهاب ٨/ ١٣٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢١٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩، والبحر المحيط ٨/ ١٩٢.

(٤) مفردات الراغب (جلّ).

(٥) سنن الترمذي (٣٥٢٤) و(٣٥٢٥)، ومسند أحمد (١٧٥٩٦).

السماواتِ والأرضِ، ذو الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم، فقال ﷺ لأصحابه: «أتَدْرُونَ بما دعا؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ مما يتضمَّنه ما ذكر، فإنَّ الفناء بابٌ للبقاء والحياةِ الأبدية والإثابةِ بالنعمة السرمدية، وقال الطيبي: المرادُ من الآية السابقة ملزومُ معناها؛ لأنَّها كنايةٌ عن مجيء وقتِ الجزاء، وهو من أجلِّ النِّعم، ولذلك خصَّ «الجلال والإكرام» بالذكر؛ لأنَّهما يدلَّان على الإثابة والعقاب المراد منها تخويفُ العباد وتحذيرُهم من ارتكاب ما يترتَّبُ عليه العقابُ، والتحذيرُ من مثل ذلك نعمةٌ، فلذا رتَّب عليها بالفاء قوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ) إلخ. وليس بذاك.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاطبةً ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثًا وبقاءً، وفي سائر أحوالهم سؤالًا مستمرًّا بلسان المقال أو بلسان الحال، فإنَّهم كافةً من حيث حقائقهم الممكنةُ بمعزلٍ من استحقاق الوجود وما يتفرَّعُ عليه من الكمالات بالمرَّة، بحيث لو انقطعَ ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشمُّوا رائحةَ الوجود أصلًا، فهم في كل آنٍ سائلون.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح: يسأله مَن في السماوات الرحمةَ، ومَن في الأرضِ المغفرةَ والرزقَ. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج: يسأله الملائكةُ عليهم السلام الرزقَ لأهل الأرضِ والمغفرةَ، وأهلُ الأرض يسألونهما جميعًا[2]. وما تقدَّم أولَى ولا دليلَ على التخصيص.

والظاهرُ أنَّ الجملةَ استئنافٌ. وقيل: هي حالٌ من الوجه، والعاملُ فيها «يبقَى» أي: هو سبحانه دائمٌ في هذه الحال، ولا يخفَى حاله على ذي تمييز.

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ كلَّ وقتٍ من الأوقات ولحظةٍ من اللحظات ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ من الشؤونات التي من جملتها إعطاءُ ما سألوا، فإنَّه تعالى لا يزالُ ينشئ أشخاصًا

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٤٤)، وسنن أبي داود (١٤٩٥)، وسنن النسائي ٣/ ٥٢، وأخرجه أحمد (١٢٢٠٥) و(١٢٦١١).

(٢) الأثران في الدر المنثور ٦/ ١٤٣، ولفظ الثاني نقله المصنف من البحر ٨/ ١٩٣.

ويُفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهبُ بأحوال حسبما تقتضيه مشيئتُه عز وجل المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة، وأخرج البخاري في «تاريخه» وابن ماجه وابن حبان وجماعة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: «من شأنه أنْ يَغفرَ ذنبًا ويُفرِّجَ كربًا، ويرفعَ قومًا ويضعَ آخرين» زاد البزار: «ويُجيب داعيًا»[(١)].

وقيل: إنَّ لله تعالى في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساكر، عسكرٌ مِن الأصلاب إلى الأرحام، وعسكرٌ من الأرحام إلى الدنيا، وعسكرٌ من الدنيا إلى القبور، والظاهر أنَّ المراد بيانُ كثرةِ شؤونه تعالى في الدنيا، فـ «كلَّ يوم» على معنى: كل وقتٍ من أوقات الدنيا.

وقال ابن عيينة: الدهرُ عند الله تعالى يومان: أحدُهما اليوم الذي هو مدةُ الدنيا، فشأنُه فيه الأمرُ والنهيُ والإماتة والإحياء، وثانيهما اليومُ الذي هو يوم القيامة، فشأنُه سبحانه فيه الجزاءُ والحسابُ.

وعن مقاتل: إنَّ الآية نزلَت في اليهود قالوا: إنَّ الله تعالى لا يقضي يومَ السبتِ شيئًا. فرَدَّ عز وجل عليهم بذلك.

وسألَ عبد الله بنُ طاهر الحسينَ بنَ الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صحَّ من أنَّ القلم جفَّ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة فقال: شؤونٌ يُبديها لا شؤونٌ يَبْتَدِيها.

وانتصَب «كلَّ يوم» على الظرف، والعاملُ فيه هو العاملُ في قوله تعالى: ﴿فِي شَأْنٍ﴾، وهو «ثابت» المحذوف، فكأنَّه قيل: هو ثابتٌ في شأن كل يومٍ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ مما يُسْعِفُ به سؤالُكما وما يُخرج لكما ويُبديه[(٢)] من مكمن العدم حينًا فحينًا.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٠٢)، وصحيح ابن حبان (٦٨٩)، ولم أقف عليه في تاريخ البخاري، وعزاه له ابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ٣٣٢، والفتح ٨/ ٦٢٣، وذكره البخاري في صحيحه موقوفًا على أبي الدرداء بصيغة الجزم قبل الحديث (٤٨٧٨). ورواية البزار في كشف الأستار (٢٢٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في (م): بيديه.

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ الفراغُ في اللغة يقتضي سابقَة شغلٍ، والفراغُ للشيء يقتضي لاحقيَّته أيضًا، والله سبحانه لا يشغلُه شأنٌ، فجعل انتهاءَ الشؤون المشارِ إليها بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ يومَ القيامة إلى واحدٍ هو جزاء المكلَّفين فراغًا لهم على سبيل التمثيل؛ لأنَّ مَن ترك أشغاله إلى شغل واحدٍ يقال: فرغ له وإليه، فشُبِّه حالُ هؤلاء وأخذُه تعالى في جزائهم فحسب بحال مَن فرغ له، وجازَت الاستعارة التصريحيةُ التبعية في «سنفرغ» ـ بأنْ يكون المرادُ: سنأخذُ في جزائكم فقط ـ لاشتراك[1] الأخذ في الجزاء فقط، والفراغ عن جميع المهامِّ إلى واحد في أنَّ المعنيَّ به ذلك الواحد.

وقيل: المراد التوفُّر في الانتقام والنكاية، وذلك أنَّ الفراغ للشيء يُستعملُ في التهديد كثيرًا، كأنَّه فرغ عن كل شيءٍ لأجله، فلم يبقَ له شُغلٌ غيره، فيدلُّ على التوفُّر المذكور، وهو كنايةٌ فيمَن يصحُّ عليه، ومجازٌ في غيره كالذي نحن فيه، ولعل مرادَ ابن عباس والضحاك بقولهما كما أخرج ابن جرير عنهما: هذا وعيدٌ من الله تعالى لعباده[2]. ما ذكر، والخطابُ عليه قيل: للمجرمين، وتُعقِّب بأنَّ النداء الآتي يأباه، نعم المقصودُ بالتهديد هم، وقيل: لا مانعَ من تهديد الجميع.

ثم إنَّ هذا التهديد إنَّما هو بما يكون يوم القيامة، وقولُ ابن عطية: يحتمل أنْ يكون ذلك توعدًا بعذاب الدنيا[3]. مما لا يكاد يُلتفَت إليه.

وقيل: إنَّ فَرَغ يكونُ بمعنى قصَدَ، واستدلَّ عليه بما أنشده ابن الأنباري لجرير:

أَلْآنَ وقَد فرغتُ إلى نُميرٍ فهذا حين كنتُ لهمْ عذابًا[4]

---

(١) في(م): الاشتراك، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٣٥، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٢١٦-٢١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠.

(٤) لم نقف عليه في ديوان جرير، ونُسبَ إلى جرير كما في الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٣٦، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤، والكلام منه.

أي: قصدتُ، وأنشد النحاس:

فَرُغتُ إلى العبد المقيَّد في الحِجْلِ[(١)]

وفي الحديث: «لأتفرَّغَنَّ لك يا خبيثُ»[(٢)] قاله ﷺ مخاطبًا به أَزَبَّ العَقَبةِ يوم بيعتها، أي: لأقصدنَّ إبطالَ أمرِكَ، ونُقل هذا عن الخليل والكسائي والفراء[(٣)]، والظاهرُ أنَّهم حملوا ما في الآية على ذلك، فالمرادُ حينئذٍ تعلُّق الإرادة تعلُّقًا تنجيزيًّا بجزائهم.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو حيوة وزيد بن علي: «سيَفْرُغ» بياء الغيبة[(٤)].

وقرأ قتادة والأعرج: «سنَفرَغُ» بنون العظمة وفتح الراء[(٥)] مضارع فَرِغَ بكسرها وهو لغة تميم، كما أنَّ «سنَفْرُغُ» في قراءة الجمهور مضارع فَرَغَ بفتحها لغة الحجاز.

وقرأ أبو السمال وعيسى: «سَنِفْرَغُ» بكسر النون وفتح الراء[(٦)]، وهي ـ على ما قال أبو حاتم ـ لغةُ سُفلَى مضر.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة بخلاف عنهما وابن أبي عبلة والزعفراني: «سيُفْرَغُ» بضم الياء وفتح الراء[(٧)] مبنيًّا للمفعول.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٤، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٥٢، وصدره: ولمَّا اتقى القين العراقي باسْتِهِ، والقين العراقي هو البعيث، كما ذكر شارح الديوان.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٥٤٢)، والطبراني في الكبير ١٩/(١٧٥) عن كعب بن مالك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٥: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. اهـ. وأزبُّ العقبة: اسم شيطان كان بالعقبة.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١١٦، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤، والكلام منه.

(٤) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨١، وهي قراءة خلف، وقراءة أبي حيوة وزيد بن علي في البحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٩، والمحتسب ٢/ ٣٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٩، والمحتسب ٢/ ٣٠٤، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٧) المحتسب ٢/ ٣٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤.

وقرأ عيسى أيضًا: «سنَفْرِغُ» بفتح النون وكسر الراء[(١)]، والأعرج أيضًا: «سيَفْرَغ» بفتح الياء والراء[(٢)] وهي لغة.

وقرئ: «سأفرغ» بهمزة المتكلِّم وحدَه، وقرأ أبيّ: «سَنَفْرُغُ إليكم» عدَّاه بـ «إلى»[(٣)]؛ فقيل: للحَمْل على القصد، أو لتضمينه معناه، أي: سنفرُغ قاصدين إليكم.

﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجنُّ، من ثِقَل الدابَّة، وهو ما يُحمَل عليها، جُعلَت الأرض كالحمولة والإنس والجنُّ ثقلاها، وما سواهما على هذا كالعلاوة، وقال غيرُ واحد: سُمِّيا بذلك لثِقَلهما على الأرض، أو لرزانة رأيهما وقَدْرِهما وعِظَم شأنهما. ويقال لكل عظيمِ القَدْرِ مما يُتنافسُ فيه: ثقل، ومنه قوله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم الثقلَين كتابَ الله وعترتي»[(٤)].

وقيل: سُمِّيا بذلك لأنَّهما مُثقَلان بالتكليف. وعن الحسن: لثِقَلهما بالذنوب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ التي من جملتها التنبيهُ على ما ستلقَونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثقلان خُوطبا باسم جنسِهما لزيادة التقرير؛ ولأنَّ الجنَّ مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقَّة فخوطِبوا بما يُنبئُ عن ذلك، لبيان أنَّ قدرتَهم لا تفي بما كُلِّفوه، وكأنَّه لمَّا ذكر سبحانه أنَّه مُجازٍ للعباد لا محالةَ عقَّب عز وجل ذلك ببيان أنَّهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده، فقال سبحانه: (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ) ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إنْ قدرتُم، وأصلُ الاستطاعة طلبُ طواعية الفعل وتَأَتِّيه ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنْ تخرجُوا من جوانب السماوات والأرضِ هاربين من الله تعالى فارِّين من قضائه سبحانه ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠، والبحر ٨/ ١٩٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٠٤، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٣٧-١٣٨، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٣) القراءتان في الكشاف ٤/ ٤٧.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٢٨٥)، ومسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم، وأحمد (١١١٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري، وتقدم ٧/ ٣٢١، و٢٢/ ٢٢٧.

فاخرجوا منها وخلِّصوا أنفسَكم من عقابه عز وجل، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل وألفِ ألفِ منزل.

روي أنَّ الملائكة عليهم السلام ينزلون يومَ القيامة فيُحيطون بجميع الخلائق، فإذا رآهم الجنُّ والإنسُ هربوا، فلا يأتون وجهًا إلا وجدوا الملائكةَ أحاطَت به(١).

وقيل: هذا أمرٌ يكون في الدنيا، قال الضحاك: بينما الناس في أسواقهم انفتَحت السماء ونزلَت الملائكةُ فتهرُب الجنُّ والإنسُ فتحدق بهم الملائكة، وذلك قبيل قيام الساعة(٢).

وقيل: المرادُ إن استطعتُم الفرارَ من الموت ففرُّوا.

وقيل: المعنى: إنْ قدرتُم أنْ تنفذُوا لتعلموا ما(٣) في السماوات والأرض فانفذُوا لتعلموا، لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا ببيِّنةٍ وحُجَّةٍ نَصَبها الله تعالى، فتعرجون عليها بأفكاركم. وروي ما يقاربُه عن ابن عباس، والأنسبُ بالمقام لا يخفَى.

وقرأ زيد بن علي: «إن استطعتُما»(٤) رعايةً للنَّوعَين، وإنْ كان تحت كلٍّ أفرادٌ كثيرةٌ، والجمع لرعاية تلك الكثرة، وقد جاء كلٌّ في الفصيح نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: من التنبيه والتحذير والمساهلةِ والعفوِ مع كمال القدرة على العقوبة، وقيل: على الوجه الأخيرِ فيما تقدَّم، أي: مما نصب سبحانه من المصاعد العقليةِ والمعارجِ النقلية، فتنفذون بها إلى ما فوق السماوات العُلَا.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢١٧-٢١٨ مطولاً عن الضحاك.
(٢) ذكره القرطبي ٢٠/ ١٣٩ نقلاً عن النحاس.
(٣) في (م): بما.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٩٤.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ استئنافٌ في جواب سؤالٍ مقدَّر عن الداعي للفرار أو عما يُصيبُهم، أي: يُصَبُّ عليكما ﴿شُوَاظٌ﴾ هو اللهبُ الخالصُ كما رُوي عن ابن عباس، وأنشد عليه أبو حيان قولَ حسان:

هجوتُكَ فاختَضَعْتَ لنا بِذُلٍّ ... بقافيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّواظِ[1]

وقيل: اللهبُ المختلط بالدُّخان، وقال مجاهد: اللهب الأحمرُ المنقطع، وقيل: اللهب الأخضرُ، وقال الضحاك: الدخان الذي يخرجُ من اللهب، وقيل: هو النارُ والدخانُ جميعًا.

وقرأ عيسى وابن كثير وشبل: «شِوَاظ» بكسر الشين[2].

﴿مِّن نَّارٍ﴾ متعلِّقٌ بـ «يُرسَل» أو بمضمَر هو صفة لـ «شُواظ»، و«مِن» ابتدائية، أي: كائن من نار، والتنوين للتفخيم.

﴿وَنُحَاسٌ﴾ هو الدخانُ الذي لا لهبَ فيه كما قال ابن عباس لنافع بن الأزرق، وأنشدَ له قولَ الأعشى، أو النابغة الجعدي:

تُضيء كضوءِ السراج السَّليـ ... ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحاسًا[3]

وروي عنه أيضًا وعن مجاهد أنَّه الصُّفر المعروف، أي: يُصَبُّ على رؤوسكما

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٨٥، والبيت في ديوان حسان بلفظ:

مُجَلَّلَةً تُعَمِّمه شنارًا ... مضرَّمة تأجَّج كالشُّواظ

(٢) قراءة ابن كثير في التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨١، وقراءة عيسى وشبل في البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٣) نُسب للأعشى في المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، والدر المصون ١٠/ ١٧٢، واللباب ٨/ ١٨٥، وحاشية الشهاب ٨/ ١٣٥، ولم نقف عليه في ديوانه.

ونسب للنابغة الجعدي في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وغريب القرآن ص٤٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٢٩٦، والقرطبي ٢٠/ ١٤٣، والبحر المحيط ٨/ ١٨٥، وخزانة الأدب ٥/ ٢٣٧، وهو في ديوانه ص ٨١. والخبر أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٩٧)، والسيوطي في الإتقان ١/ ٣٨٨، وجاء في بعض المصادر: سراج، بدل: السراج.

والسليط: الزيت عند عامة العرب، وهو دهن السمسم عند أهل اليمن. اللسان (سلط).

صُفرٌ مذابٌ، والراغبُ فسَّره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشَبَهِهِ في اللون بالنحاس[١].

وقرأ ابن أبي إسحاق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو: «ونحاسٍ» بالجرِّ[٢] على أنَّه عطفٌ على «نار»، وقيل: على «شُواظٍ» وجُرَّ للجوار فلا تغفل.

وقرأ الكلبي وطلحة ومجاهد بالجرِّ أيضًا لكنَّهم كسروا النون[٣] وهو لغة فيه.

وقرأ ابن جندب[٤]: «ونَحْسٌ»[٥] كما تقول: يوم نحس.

وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق أيضًا: «ونَحُسُّ» مضارعًا[٦]، وماضيه حَسَّه، أي: قتله، أي: ونقتل بالعذاب. وعن ابن أبي إسحاق أيضًا: «ونحس»[٧] بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير. وحنظلة بن عثمان: «ونَحسٍ» بفتح النون وكسر السين[٨]، والحسن وإسماعيل: «ونُحُسٍ» بضمتين والكسر[٩]، وهو جمع نحاس كلحاف ولُحُف.

---

(١) مفردات الراغب (نحس).

(٢) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨١، وهي رواية رويس عن يعقوب، وقراءة ابن أبي إسحاق والنخعي في المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٤) هو مسلم بن جندب، وقراءته في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٤٢، والدر المصون ١٠/ ١٧٢، وتصحف اسمه في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ١٩٥ إلى: ابن جبير.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٩، والمحتسب ٢/ ٣٠٤، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٧) البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٩ وسماه: حنظلة بن يعمر، والقرطبي ٢٠/ ١٤٢ وسماه حنظلة بن مرة بن النعمان الأنصاري، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥ وسماه حنظلة بن النعمان.

(٩) القرطبي ٢/ ١٤٢، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥.

وقرأ زيد بن علي: «نرسل» بالنون «شواظًا» بالنصب «ونحاسًا» كذلك عطفًا على «شواظًا»(١).

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنعان وهذا عند الضحاك في الدنيا أيضًا، أخرج ابن أبي شيبة عنه أنَّه قال في الآية: تخرجُ نارٌ من قِبَلِ المغرب تحشُرُ الناسَ، حتى إنَّها لتحشر القردَةَ والخنازيرَ، تبيتُ معهم حيث باتوا وتقيلُ حيث قالوا(٢).

وقال في «البحر»: المرادُ تعجيز الجنِّ والإنس، أي: أنتما بحالِ مَن يُرسَل عليه هذا، فلا يقدرُ على الامتناع مما يُرسَل عليه(٣).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ فإنَّ التهديدَ لطفٌ(٤)، والتمييزُ بين المطيعِ والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدَعَت يوم القيامة، وحديثُ امتناع الخرق حديثُ خرافة، ومثلُه ما يقوله أهل الهيئة اليوم في السماء، على أنَّ الانشقاق فيها على زعمهم أيضًا متصوَّر.

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: كالوردة في الحُمرَة، والمراد بها النَّور المعروف؛ قاله الزجاج(٥) وقتادة.

وقال ابن عباس وأبو صالح: كانت مثلَ لونِ الفرس الوَرْدِ. والظاهرُ أنَّ مرادهما: كانت حمراء.

وقال الفراء: أُريدَ لونُ الفرس الورد، يكونُ في الربيع إلى الصُّفرة، وفي الشتاء إلى الحُمرَة، وفي اشتداد البرد إلى الغُبْرة، فشُبِّه تلوُّن السماء بتلوُّن الورد من الخيل(٦). وروي هذا عن الكلبي أيضًا.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٥.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٧٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٥.
(٤) إذ به ينزجر الشخص عن المعاصي فيفوز بالنعيم المقيم. حاشية الشهاب ٨/ ١٣٦.
(٥) ينظر معاني القرآن ٥/ ١٠١، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٨/ ١٩٥.
(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

وقال أبو الجوزاء: وردة صفراء. والمعوَّل عليه إرادةُ الحُمرَة.

ونصب «وردةً» على أنَّه خبر «كان»، وفي الكلام تشبيهٌ بليغٌ، وقرأ عبيد بن عمير: «وردةٌ» بالرفع(١) على أنَّ «كان» تامَّة، أي: فحصلت سماءٌ وردةٌ، فيكون من باب التجريد؛ لأنَّه بمعنى: كانت منها ـ أو فيها ـ سماء وردةٌ، مع أنَّ المقصودَ أنَّها نفسها كذلك، فهو كقول قتادة بن مسلمة:

فَلَئِنْ بَقيتُ لأَرْحلَنَّ بغزوةٍ نحوَ المغانمِ أو يموتَ كريمُ(٢)

حيث عنى بالكريم نفسه.

وقوله تعالى: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «كانت»، أو نعت لـ «وردة»، أو حال من اسم «كانت» على رأي مَن أجازه، أي: كدهن الزيت، كما قال تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨] وهو دَرْديُّ الزيت، وهو إما جمع دُهْن كقُرْط وقِراط، أو اسمٌ لِمَا يُدهَنُ به كالحزام والإدام، وعليه قوله في وَصْف عينَين كثيرتي التذارف:

كأنَّهما مزادَتا متعجِّلٍ فريَّان لمَّا تُدهَنا بدِهَان(٣)

وهو الدهن أيضًا إلا أنَّه أخصُّ؛ لأنَّه الدهن باعتبار إشرابه الشيءَ، ووجهُ الشبه الذوبان، وهو في السماء على ما قيل من حرارة جهنَّم، وكذا الحُمرة، وقيل: اللَّمَعَان.

وقال الحسن: أي: كالدهان المختلفةِ؛ لأنَّها تتلوَّن ألوانًا.

وقال ابن عباس: «الدهان»: الأديمُ الأحمرُ؛ ومنه قولُ الأعشى:

وأَجْرَدَ من كِرام الخيلِ طِرْفٍ كأنَّ على شواكله دِهَانا(٤)

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٩٥.

(٢) معاهد التنصيص ٣/ ١٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧٧٠، وهو دون نسبة في البحر المحيط ٨/ ١٩٥.
وفي هامش الأصل: تحوي الغنائم في رواية، أي: تحوز. اهـ.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٨، وفيه: تسلقا، بدل: تدهنا.

(٤) ديوان الأعشى ٢٣٧، واللسان (دهن)، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥.

وهو مفردٌ أو جمع، واستُدلَّ للثاني بقوله:

تبعنَ الدهانَ الحُمرَ كلَّ عشيَّةٍ بموسم بَدْرٍ أو بسوقِ عُكاظِ[١]

و«إذا» شرطيةٌ جوابُها مقدَّر، أي: كان ما كان مما لا تُطيقه قوةُ البيان، أو: وجدتَ أمرًا هائلًا، أو: رأيتَ ما يُذهل الناظرين، وهو الناصب لـ «إذا» ولهذا كان مفرَّعًا ومسبَّبًا عما قبله؛ لأنَّ في إرسال الشُّوَاظ ما هو سببٌ لحدوث أمرٍ هائلٍ، أو رؤيته في ذلك الوقت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾ فإنَّ الإخبار بنحو ما ذكر مما يزجُرُ عن الشرِّ، فهو لطفٌ أيُّ لطفٍ، ونعمةٌ أيُّ نعمة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تنشقُّ السماء حسبما ذكر ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنَّهم يُعرفون بسيماهم وهذا في موقف، وما دلَّ على السؤال من نحو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] في موقف آخر قاله عكرمة وقتادة. وموقفُ السؤال على ما قيل عند الحساب، وتركُ السؤال عند الخروج من القبور، وقال ابن عباس: حيث ذكر السؤال فهو سؤالُ توبيخٍ وتقرير، وحيث نفي فهو استخبارٌ محضٌ عن الذنب، وقيل: المنفيُّ هو السؤالُ عن الذنب نفسِه، والمثبتُ هو السؤال عن الباعث عليه، وأنت تعلم أنَّ في الآيات ما يدلُّ على السؤال عن نفس الذنب.

وحكى الطبرسي عن الرضا ﷺ: أنَّ مَن اعتقدَ الحقَّ ثم أذنبَ ولم يتب عُذِّب في البرزخ، ويخرجُ يوم القيامة وليس له ذنبٌ يُسألُ عنه[٢]. ولعمري إنَّ الرضا لم يقل ذلك، وحملُ الآية عليه مما لا يلتفَتُ إليه بعين الرضا كما لا يخفَى.

وضمير «ذنبه» للإنس وهو متقدِّمٌ رتبةً؛ لأنَّه نائبٌ عن الفاعل، وإفرادُه باعتبار اللفظ، وقيل: لِمَا أنَّ المراد فردٌ من الإنس، كأنَّه قيل: لا يسأل عن ذنبه إنسيٌّ ولا جنِّيٌّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١-٢٣٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٥، واللباب ١٨/ ٣٣٥.

(٢) مجمع البيان ٢٧/ ٩٨.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «ولا جأن» بالهمز(١) فرارًا من التقاء الساكنَين، وإنْ كان على حدِّه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ يقال فيه نحو ما سمعتَ في سابقه.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ استئنافٌ يجري مجرَى التعليل لانتفاء السؤال، و«المجرمون» قيل: مِن وَضْعِ الظاهر موضعَ الضميرِ للإشارة إلى أنَّ المراد بعضٌ مِن الإنس وبعضٌ من الجنِّ، وهم المجرمون، فيكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

و«سيماهم» على ما روي عن الحسن: سوادُ الوجوه وزرقةُ العيون. وقيل: ما يعلوهم من الكآبة والحزن. وجوِّز أنْ تكونَ أمورًا أُخرَ كالعمى والبكم والصمم. وقرأ حماد بن [أبي] سليمان: «بسيمائهم»(٢).

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية وهي مقدَّم الرأس ﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ جمع قَدَم وهي قَدَمُ الرجل المعروفة، والباء للآلة مثلها في: أخذتُ بخطام الدابة، والجارُّ والمجرور نائبُ الفاعل، وقال أبو حيان: إنَّ الباء للتعدية والفعل مضمَّنٌ ما يُعدَّى بها، أي: فيُسْحَبُ بالنواصي.. إلخ(٣). وفيه بحثٌ.

وظاهرُ كلام غير واحد أنَّ «أل» عوضٌ عن المضاف إليه الضمير، أي: بنواصيهم وأقدامهم، ونصَّ عليه أبو حيان فقال: «أل» فيهما عوضٌ عن الضمير على مذهب الكوفيين، والضميرُ محذوفٌ على مذهب البصريين، أي: بالنواصي والأقدام منهم(٤). وأنت تعلم أنَّ الخلافَ بين أهل البلدَين فيما إذا احتيجَ إلى الضمير للربط، ولا احتياجَ إليه هنا، نعم المعنى على الضمير.

وكيفيةُ هذا الأخذ على ما روي عن الضحاك أنْ يَجمَع المَلَكُ بين ناصيةِ أحدِهم وقدمَيه في سلسلة من وراء ظهره، ثم يكسرُ ظهرَه ويلقيه في النار.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٩-١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥-١٩٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٩٦، والدر المصون ١٠/ ١٧٥، وما بين حاصرتين منهما.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٦.
(٤) المصدر السابق.

وقيل: تأخذُ الملائكة عليهم السلام بعضَهم سحبًا بالناصية، وبعضًا[1] سحبًا بالقَدَم.

وقيل: تسحبهم الملائكةُ عليهم السلام تارةً بأخذ النواصي وتارةً بأخذ الأقدام، فالواو بمعنى «أو» التي للتقسيم. وهو خلاف الظاهر.

وإبهامُ الفاعل لأنَّه كالمتعيِّن، وقيل: للرمز إلى عظمته فقد أخرج ابن مردويه والضياء المقدسي في «صفة النار» عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «والذي نَفْسي بيده لقد خُلِقَت ملائكةُ جهنَّم قبل أنْ تُخلَق جهنَّمُ بألف عام، فهم كلَّ يومٍ يزدادون قوةً إلى قوتهم حتى يقبضوا على مَن قبضُوا بالنواصي والأقدام»[2].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ يقال فيه نحو ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ مقولُ قول مقدَّرٍ معطوف على قوله تعالى: (فَيُؤْخَذُ) إلخ، أي: ويقال هذه.. إلخ، أو مستأنف في جواب: ماذا يقال لهم؟ لأنَّه مظنةٌ للتوبيخ والتقريع، أو حال من أصحاب النواصي بناءً على أنَّ التقدير[3]: نواصيهم أو النواصي منهم، وما في البين اعتراضٌ على الأول والأخير، وكأنَّ أصل «التي يكذب بها المجرمون»: التي كذَّبتم بها، فعدل عنه لِمَا ذكر للدلالة على استمرار ذلك، وبيانٌ لوجه توبيخهم وعلَّته.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: يتردَّدون بين نارها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حارٌّ ﴿ءَانٍ﴾ متناهٍ إناهُ وطبخُه، بالغٍ في الحرارة أقصاها، قال قتادة: الحميمُ يغلي منذ خلق الله تعالى جهنَّم، والمجرم يعاقب[4] بين تَصليةِ النار وشُربِ الحميم.

وقيل: يحرقون في النار ويُصبُّ على رؤوسهم الحميمُ.

وقيل: إذا استغاثوا من النار جُعلَ غياثُهم الحميمَ.

---

(١) في (م): وبعضهم.
(٢) عزاه لابن مردويه والضياء المقدسي في صفة النار السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٥.
(٣) في الأصل: التقرير.
(٤) في (م): ويعاقب.

وقيل: يُغمَسون في وادٍ في جهنَّم يجتمع فيه صديدُ أهل النار فتنخلعُ أوصالُهم، ثم يخرجون منه وقد أحدثَ الله تعالى لهم خلقًا جديدًا.

وعن الحسن أنَّه قال: «حميم آن»: النحاس انتهى حرُّه.

وقيل: «آن» حاضر.

وقرأ السلمي: «يُطَافُون»، والأعمش وطلحة وابن مقسم: «يُطَوِّفون» بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة، وقرئ: «يطَّوَّفون» أي: يتطوفون[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ هو أيضًا كما تقدَّم.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ إلخ شروعٌ في تعديد الآلاء التي تُفاض في الآخرة، و«مقام» مصدرٌ ميميٌّ بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل، أي: ولمن خاف قيامَ ربِّه وكونَه مهيمنًا عليه مراقبًا له حافظًا لأحواله، فالقيام هنا مثله في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وهذا مرويٌّ عن مجاهد وقتادة، أو هو اسم مكان، والمرادُ به مكانُ وقوف الخلق في يوم القيامة للحساب.

والإضافةُ إليه تعالى لاميَّةٌ اختصاصية، لأنَّ المُلْكَ له عز وجل وحده فيه بحسب نفس الأمر، والظاهرُ والخلق قائمون له كما قال سبحانه: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] منتظرون ما يحُلُّ عليهم من قِبَله جل شأنه.

وزعم بعضُهم أنَّ الإضافةَ على هذا الوجه لأدنى ملابسةٍ، وليس بشيءٍ.

وقيل: المعنى: ولمن خافَ مقامه عند ربه، على أنَّ المقامَ مصدرٌ أو اسم مكان، وهو للخائف نفسِه، وإضافته للرب لأنَّه عنده تعالى، فهي مثلها في قولهم: شاةٌ رقودُ الحَلْبِ، وهي بمعنى «عند» عند الكوفيين، أي: رقودٌ عند الحلب، وبمعنى اللام عند الجمهور كما صرح به شرَّاح «التسهيل»، وليست لأدنى ملابسةٍ كما زُعم أيضًا، ثم إن المراد بالعندية هنا مما لا يخفى.

---

(١) القراءات في المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، والبحر المحيط ٨/ ١٩٦.

وجوّز أن يكون مقحمًا على سبيل الكناية، فالمراد: ولمن خاف ربَّه، لكن بطريقٍ برهانيٍّ بليغ، ومثلُه قولُ الشمَّاخ:

ذعرتُ به القَطا ونَفيتُ عنه   مقامَ الذئب كالرجل اللَّعينِ(١)

وهو الأظهرُ على ما ذكره صاحب «الكشف».

والظاهرُ أنَّ المراد: ولكلِّ فردٍ فردٍ من الخائفين ﴿جَنَّتَانِ﴾ فقيل: إحداهما منزلُه ومحلُّ زيارةِ أحبابه له، والأخرى منزلُ أزواجه وخَدَمِه؛ وإليه ذهب الجبائي.

وقيل: بستانان بستانٌ داخل قصره وبستانٌ خارجه.

وقيل: منزلان ينتقلُ من أحدهما إلى الآخر لتتوفَّر دواعي لَذَّته وتظهرَ ثمارُ كرامته، وأين هذا ممن يطوف بين النار وبين حميمٍ آن؟

وجوز أن يقال: جنةٌ لعقيدته وجنةٌ لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي، أو جنةٌ يثابُ بها وأخرى يُتَفضَّل بها عليه، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية، ولا يخفى أنَّ الصفات الآتية ظاهرةٌ في الجسمانية.

وقال مقاتل: جنةُ عدنٍ وجنةُ نعيم.

وقيل: المراد: لكلِّ خائفَين منكما جنتان؛ جنةٌ للخائف الإنسيِّ وجنة للخائف الجنِّي، فإنَّ الخطاب للفريقَين. وهذا عندي خلاف الظاهر، وفي الآثار ما يُبعدُه، فقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن أنَّه كان شابٌّ على عهد [عمر بن الخطاب] رضي الله عنه ملازمٌ للمسجد والعبادة، فعشقَتْه جاريةٌ، فأتته في خلوة فكلَّمته، فحدَّثته نفسُه بذلك فشَهِقَ شهقةً فغشي عليه، فجاء عمٌّ له فحمله إلى بيته، فلمَّا أفاق قال: يا عمّ انطلق إلى عمر فأقرئه منِّي السلام وقل له: ما جزاء مَن خاف مقام ربه؟

---

(١) ديوان الشماخ ص٣٢١، والأغاني ٩/ ١٦٠، والكشاف ٤/ ٤٩، وفيه: يريد: ونفيت عنه الذئب.

جاء في هامش (م): ضمير (به) و(عنه) راجع إلى الماء في البيت قبله:

وماء قد وردت لوصل أروى   عليه الطير كالورق اللجين

وهو من قصيدةٍ للشماخ مدح بها عرابة بن أوس الخزرجي، والشاهد قوله: مقام الذئب.

فانطلق فأخبر عمر، وقد شهق الفتَى شهقةً أخرى فمات، فوقف عليه عمر رضي الله عنه فقال: لك جنتان، لك جنتان[١].

والخوفُ في الأصل توقُّع مكروهٍ عند أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة، ويُضادُّه الأمنُ؛ قال الراغب: والخوف من الله تعالى لا يراد به ما يخطرُ بالبال من الرُّعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يُرادُ به الكفُّ عن المعاصي وتحرِّي الطاعات، ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفًا مَن لم يكن للذنوب تاركًا[٢]. ويؤيد هذا تفسيرُ ابن عباس رضي الله عنهما الخائفَ هنا ـ كما أخرج ابن جرير عنه ـ بمَن ركب طاعةَ الله تعالى وترك معصيته[٣]. وقولُ مجاهد: هو الرجلُ يريد الذنبَ فيذكر الله تعالى فيدعُ الذنب، والذي يظهرُ أنَّ ذلك تفسيرٌ باللازم.

وقد يقال: إنَّ ارتكابَ الذنبِ قد يجامع الخوفَ من الله تعالى، وذلك كما إذا غلبته نفسُه ففعله خائفًا من عقابه تعالى عليه، وأُيِّد ذلك بما أخرجَه أحمد والنسائي والطبراني والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن أبي شيبة وجماعة عن أبي الدرداء: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلتُ: وإنْ زنَى وإنْ سرَقَ يا رسول الله؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام الثانية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإنْ زنَى وإن سرق؟ فقال الثالثة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنَى وإن سرق؟ قال: «نعم وإنْ رَغِم أنفُ أبي الدرداء»[٤].

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق الجريري عن أخيه قال: سمعتُ محمد بن سعد يقرأ: «ولمن خافَ مقامَ ربِّه جنتان وإنْ زنَى وإنْ سَرَق» فقلتُ: ليس

---

(١) شعب الإيمان ١/٤٦٨، وما بين حاصرتين منه، وينظر ذم الهوى لابن الجوزي ص ٢٥٢-٢٥٤.

(٢) مفردات الراغب (خوف).

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٣٥.

(٤) مسند أحمد (٨٦٨٣)، والنسائي في الكبرى (١١٤٩٦)، ونوادر الأصول ص٧٥-٧٦، والذي في المعجم الأوسط للطبراني (٢٩٣٢): قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» فقال أبو الدرداء: وإن زنى وإن سرق...، ونسبه إلى ابن أبي شيبة السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٦.

فيه: «وإنْ زنَى وإنْ سرق» فقال: سمعتُ أبا الدرداء ﷺ يقرؤُها كذلك، فأنا أقرؤُها كذلك حتى أموت(١).

وصرَّح بعضُهم أنَّ المراد بالخوف في الآية أشدُّه، فتأمل.

وجاء في شأن هاتَين الجنَّتَين من حديث عياض بن غَنْم مرفوعًا: «إنَّ عرضَ كلِّ واحدةٍ منهما مسيرة مئة عام»(٢).

والآية على ما روي عن ابن الزبير وابن شوذب نزلت في أبي بكر(٣). وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن عطاء أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ ذَكَر ذات يومٍ وفكَّر في القيامة والموازين والجنةِ والنار وصفوفِ الملائكة وطيِّ السماوات ونَسْف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال: وددتُ أنِّي كنتُ خَضِرًا من هذه الخَضِر تأتي عليَّ بهيمةٌ فتأكلني، وأني لم أخلق، فنزلَت: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٤).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ صفة لـ «جنتان» وما بينهما اعتراضٌ وُسِّط بينهما تنبيهًا على أنَّ تكذيبَ كلٍّ من الموصوف والصفة موجبٌ للإنكار والتوبيخ، وجوز أنْ يكون خبرَ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هما ذواتا، وأيًّا ما كان فهو تثنيةُ «ذات» بمعنى صاحبة، فإنَّه إذا ثُنِّي فيه لغتان: «ذاتا» على لفظه وهو الأقيس، كما يُثنَّى مذكَّره «ذَوَا»، والأُخرَى «ذواتا» بردِّه إلى أصله، فإنَّ التثنيةَ تَرُدُّ الأشياءَ إلى أصولها، وقد قالوا: أصلُ «ذات»: «ذوات» لكن حُذفَت الواو تخفيفًا وفَرقًا بين الواحد والجمع، ودلَّت التثنيةُ ورجوعُ الواو فيها على أصل الواحد، وليس هو تثنيةَ الجمع كما يتوهَّم، وتفصيله في باب التثنية من «شرح التسهيل».

---

(١) عزاه للطبراني وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٦، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٩٧) من طريق الجريري (وهو سعيد بن إياس) عن موسى، عن محمد بن سعد. وموسى مجهول كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) عزاه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٧ لابن مردويه، ووقع فيه: عياض بن تميم، وهو تصحيف.

(٣) القرطبي ٢٠/ ١٥٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٦.

(٤) العظمة (٥٢)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٥-١٤٦.

والأفنان إما جمعُ «فنٍّ» بمعنى النوع، ولذا استُعمل في العرف بمعنى العلم، أي: ذواتا أنواعٍ من الأشجار والثمار، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير والضحاك، وعليه قول الشاعر:

ومِن كلِّ أفنانِ اللذاذةِ والصِّبا ... لهوتُ به والعيشُ أخضرُ ناضرُ[1]

وإما جمع «فَنَن» وهو ما دقَّ[2] ولانَ من الأغصان، كما قال ابن الجوزي[3]، وقد يُفسَّر بالغصن، وحمل على التسامح. وتخصيصُها بالذكر مع أنَّها ذواتا قصب وأوراق وثمارٍ أيضًا؛ لأنَّها هي التي تُورقُ وتُثمرُ، فمنها تمتدُّ الظلالُ، ومنها تُجنَى الثمارُ، ففي الوصف تذكيرٌ لهما، فكأنَّه قيل: ذواتا ثمارٍ وظلالٍ، لكن على سبيل الكنايةِ، وهي أَخْصَرُ وأبلغُ.

وتفسيره بالأغصان على أنَّه جمع «فَنَن» مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد[4]. قال أبو حيان: وهو أولَى لأنَّ «أفعالًا» في «فَعَل» أكثرُ منه في «فَعْل» بسكون العين كفنٍّ، ويُجمَع هو على فنون[5].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ صفةٌ أخرى لـ «جنتان» أو خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدَّر، أي: في كلٍّ منهما عينٌ تجري بالماء الزلال تسمَّى إحدى العينَين بالتسنيم، والأُخرى بالسلسبيل، وروي هذا عن الحسن.

وقال عطية العوفي: «عينان» إحداهما من ماء غيرِ آسِن، والأخرى من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين.

وقيل: «عينان» من الماء «تجريان» حيث شاء صاحبُهما من الأعالي والأسافل من جبلٍ من مسْكٍ.

---

(١) الكشاف ٤/٤٩، وتفسير النسفي ٥/١٣٢، والبحر المحيط ٨/١٨٥، واللباب ١٨/٣٤٤.
(٢) في الأصل: رق.
(٣) ينظر زاد المسير ٧/١٢٠، ونقله عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/١٣٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/٢٤١.
(٥) البحر المحيط ٨/١٩٦.

وعن ابن عباس: «عينان» مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً «تجريان» بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ صنفان معروفٌ وغريبٌ لم يعرفوه في الدنيا، أو رطبٌ ويابسٌ، ولا يقصُرُ يابسُه عن رطبه في الفضل والطيب، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قال ابن عباس في هذه الآية: ما في الدنيا ثمرة حلوةٌ ولا مُرَّةٌ إلا وهي في الجنة، حتى الحنظل. ونقل هذا في «البحر» عن ابن عباس أيضًا بزيادة: إلا أنَّه حلو[1]، والجملة كالجملة التي قبلها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من قوله تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ) وجُمع رعايةً للمعنى بعد الإفراد رعايةً للفظ، وقيل: العاملُ محذوفٍ، أي: يتنعَّمون متكئين.

وقيل: مفعول به بتقدير: أعني.

والاتكاء من صفات المتنعِّم الدالَّة على صحة الجسمِ وفراغِ القلب، والمعنى: متكئين في منازلهم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباجٍ ثخينٍ. قال ابن مسعود ـ كما رواه عنه جمع وصحَّحه الحاكم ـ: أُخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر[2].

وقيل: ظهائرها من سُندسٍ. وعن ابن جبير: من نورٍ جامد، وفي حديث: «من نور يتلألأ»[3] وهو إنْ صحَّ وقف عنده.

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس أنَّه قيل له: «بطائنها من إستبرق» فماذا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٦، وما قبله من الدر المنثور ٦/ ١٤٧.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٧٥، وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٤٣.

(٣) قطعة من حديث طويل جدًا ذكره السيوطي بتمامه في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٦٢-٧٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث موضوع كما قال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٣٧٧، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة ١/ ٧٤.

الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][١].

وقال الحسن: البطائنُ هي الظهائرُ. وروي عن قتادة. وقال الفراء: قد تكونُ البِطانةُ الظِّهارة والظِّهارة البِطانة؛ لأنَّ كلًّا منهما يكونُ وجهًا. والعرب تقول: هذا ظهرُ السماء وهذا بطنُ السماء[٢].

والحقُّ أنَّ البطائن هنا مقابل الظهائر على الوجه المعروف.

وقرأ أبو حيوة: «فرْش» بسكون الراء[٣]، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: قرأ عبد الله: «على سُررٍ وفُرُشٍ بطائنها من إستبرق»[٤].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: ما يُجنَى ويُؤخَذ من أشجارهما من الثمار، فـ«جنى» اسمٌ أو صفة مشبَّهةٌ بمعنى المجنيِّ.

﴿دَانٍ﴾ قريبٌ ينالُه القائم والقاعد والمضطجع، قال ابن عباس ﵄: تدنو الشجرةُ حتى يجتَنِيَها وليُّ الله تعالى قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا.

وعن مجاهد ثمارُ الجنَّتين دانيةٌ إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين، فإذا اضطجعوا نزلَت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، لا يرُدُّ أيديَهم عنها بُعدٌ ولا شوك.

وقرأ عيسى: «وجَنِى» بفتح الجيم وكسر النون كأنَّه أمال النون وإن كانت الألفُ قد حُذفَت في اللفظ، كما أمال أبو عمرو ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وقرئ: «وجِنى» بكسر الجيم[٥]، وهو لغة فيه.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٤.
(٢) معاني القرآن ٣/ ١١٨.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣، والقرطبي ٢٠/ ١٥٣، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧.
(٤) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٧، ولفظه: «متكئين على سُرر وفرش بطائنها من رفرف من إستبرق».
(٥) القراءات في البحر المحيط ٨/ ١٩٧، والكلام منه وقراءة أبي عمرو سلفت في موضعها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ﴾ أي: الجنان المدلول عليها بقوله تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ) فإنه يلزمُ من أنَّه لكلِّ خائفٍ جنتان تعدُّد الجنان، وكذا على تقدير أنْ يكونَ المراد لكلِّ خائفَين من الثقلَين جنتان، لاسيَّما وقد تقدَّم اعتبار الجمعية في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾.

وقال الفراء: الضمير لـ «جنتان»، والعرب تُوقعُ ضميرَ الجمع على المثنَّى[(١)]. ولا حاجةَ إليه بعدما سمعتَ.

وقيل: الضميرُ للبيوت والقصور المفهومة من الجنَّتين، أو للجنتين باعتبار ما فيهما مما ذُكِر.

وقيل: يعودُ على الفرش، قال أبو حيان: وهذا قولٌ حسنٌ قريبُ المأخذ[(٢)]. وتُعقِّب بأنَّ المناسب للفرش «على». وأُجيبَ بأنَّه شبَّه تمكُّنهنَّ على الفرش بتمكُّن المظروفِ في الظرف، وإيثارُه للإشعار بأنَّ أكثرَ حالهنَّ الاستقرارُ عليها.

ويجوزُ أن يقال: الظرفيةُ للإشارة إلى أنَّ الفرش إذا جُلِس عليها يَنزلُ مكانُ الجالس منها ويرتفعُ ما أحاط به، حتى يكاد يغيبُ فيها، كما يشاهدُ في فرش الملوك المترفِّهين[(٣)] التي حشوها ريشُ النعام ونحوه.

وقيل: الضميرُ للآلاء المعدودة من الجنَّتَين والعينَين والفاكهة والفرش والجنَى، والمراد: معهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساءٌ يقصُرْنَ أبصارَهن على أزواجهنَّ لا ينظرْنَ إلى غيرهم، أو يقصُرْنَ طرفَ الناظر إليهنَّ عن التجاوز إلى غيرهن، قال ابنُ رشيق في قول امرئ القيس[(٤)]:

مِن القاصرات الطَّرفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... من الذرِّ فوقَ الأنفِ منها لأثَّرا

أراد بالقاصرات الطرف أنَّها منكسرةُ الجفنِ، خافضةُ النظرِ، غيرُ متطلِّعةٍ لِمَا

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٣٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٩٧-١٩٨.

(٣) في الأصل: المترفين.

(٤) في ديوانه ص٦٨، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ١٣٨.

بعد ولا ناظرةٍ لغير زوجها، ويجوز أنْ يكونَ معناه أنَّ طرف الناظر لا يتجاوزها كقول المتنبي:

وَخَصْرٌ تشبُثُ[١] الأبصارُ فيه كأنَّ عليه مِن حَدَقٍ نِطاقا[٢]

انتهى، فلا تغفل.

والأكثرون على أول المعنَيين اللذَين ذكرناهما، بل في بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّه تفسير نبويٌّ؛ أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في ذلك: «لا ينظرن إلا إلى أزواجهنَّ»[٣]، ومتى صحَّ هذا ينبغي قصرُ الطرْفِ عليه.

وفي بعضِ الآثار: تقولُ الواحدةُ منهنَّ لزوجها: وعزَّة ربِّي ما أرى في الجنة أحسنَ منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجَك وجعلَك زوجي[٤].

و«الطرف» في الأصل مصدر فلذلك وُحِّد.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قال ابن عباس: لم يفتَضَّهُنَّ قبل أزواجهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ، وفيه إشارة إلى أنَّ ضمير «قبلهم»[٥] للأزواج، ويدلُّ عليه[٦] «قاصرات الطرف»، وفي «البحر»: هو عائدٌ على مَن عادَ عليه الضميرُ في «متكئين»[٧].

وأصل الطمث خروجُ الدَّم، ولذلك يقال للحيض: طمثٌ، ثم أطلق على جماع الأبكار لِمَا فيه من خروج الدم، وقيل: ثم عُمِّم لكلِّ جماعٍ، وهو المرويُّ هنا عن عكرمة، وإلى الأول ذهب الكثير.

---

(١) في الأصل: تنبت.
(٢) ديوان المتنبي ٣/ ٤١.
(٣) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٧.
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٦ عن ابن زيد.
(٥) في الأصل و(م): قبلهن.
(٦) في الأصل: عليهم.
(٧) البحر ٨/ ١٩٨.

وقيل: إنَّ التعبيرَ به للإشارة إلى أنهنَّ يُوجَدْن أبكارًا كلَّما جُومِعْنَ.

ونفيُ طمثهنَّ عن الإنس ظاهرٌ، وأما عن الجنِّ فقال مجاهد والحسن: قد تجامعُ الجنُّ نساءَ البشر مع أزواجهنَّ إذا لم يذكر الزوجُ اسمَ الله تعالى، فنَفَى هنا جميعَ المجامعين.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، إذ يكفي في نَفْي الطمثِ عن الجنِّ إمكانُه منهم.

ولا شكَّ في إمكان جماع الجنِّيِّ إنسيةً بدون أنْ يكون مع زوجها الغير الذاكرِ اسمَ الله تعالى، ويدلُّ على ذلك ما رواه أبو عثمان سعيد بنُ داود الزبيدي قال: كتبَ قومٌ من أهلِ اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجنِّ وقالوا: إنَّ هاهنا رجلًا من الجنِّ يزعمُ أنَّه يريدُ الحلال، فقال: ما أرى بذلك بأسًا في الدين، ولكنْ أكرَهُ إذا وُجدَت امرأةٌ حامل قيل: مَن زوجك؟ قالت: من الجنِّ، فيكثر الفسادُ في الإسلام(١).

ثم إنَّ دعوى أنَّ الجنَّ تجامعُ نساءَ البشر جماعًا حقيقيًّا مع أزواجهنَّ إذا لم يذكروا اسمَ الله تعالى غيرُ مسلَّمةٍ عند جميع العلماء، وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] غير نصٍّ في المراد كما لا يخفَى.

وقال ضمرةُ بن حبيب: الجنُّ في الجنة لهم قاصراتُ الطرف من الجنِّ نوعهم، فالمعنَى: لم يطمث الإنسياتِ أحدٌ من الإنس ولا الجنياتِ أحدٌ من الجنِّ قبل أزواجهنَّ. وقد أخرج نحو هذا عنه ابنُ أبي حاتم(٢)، وظاهرُه أنَّ ما للجِنِّ لَسْنَ من الحور، ونقل الطبرسي عنه: أنَّهنَّ من الحور وكذا الإنسيات(٣). ولا مانعَ من أنْ يخلقَ الله تعالى في الجنة حورًا للإنس يُشاكلْنَهم، يقال لهنَّ لذلك إنسيَّات، وحورًا للجنِّ يُشاكلْنَهم، يقال لهنَّ لذلك جنِّيات، ويجوز أنْ تكونَ الحورُ كلُّهنَّ نوعًا واحدًا ويعطَى الجنِّيُّ منهنَّ، لكنَّه في تلك النشأة غيرُه في هذه النشأة، ويقال: ما يعطاه

(١) سلف ١٩/٤١٦، وينظر كلام المصنف عليه ثمة.

(٢) لم نقف عليه عند ابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ٢٢/٢٤٨.

(٣) مجمع البيان ٢٧/١٠٢.

الإنسي منهنَّ لم يطمثها إنسي قبله، وما يعطاه الجنِّيُّ لم يطمثها جنِّيٌّ قبله، وبهذا فسَّر البلخيُّ الآية.

وقال الشعبي والكلبي: تلك القاصراتُ الطرف من نساء الدنيا لم يمَسَسْهنَّ منذ أُنشئنَ النشأةَ الآخرة خلقٌ قبل[1]، والذي يعطاه الإنسيُّ زوجتُه المؤمنة التي كانت له في الدنيا ويُعطَى غيرها من نسائها المؤمنات أيضًا. وكذا الجني يُعطى زوجتَه المؤمنة التي كانت له في الدنيا من الجنِّ، ويُعطى غيرَها من نساء الجنِّ المؤمنات أيضًا، ويَبعدُ أنْ يُعطى الجنيُّ من نساء الدنيا الإنسانيات في الآخرة.

والذي يغلبُ على الظنِّ أنَّ الإنسيَّ يعطَى من الإنسيات والحور، والجنيُّ يُعطى من الجنيات والحور، ولا يُعطى إنسيٌّ جنيةً، ولا جنِّيٌّ إنسيةً، وما يُعطاه المؤمنُ إنسيًّا كان أو جنيًّا من الحور شيءٌ يليقُ به وتشتهيه نفسُه، وحقيقةُ تلك النشأة وراءَ ما يخطُرُ بالبال.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الجنَّ يدخلونَ الجنة ويجامعون فيها كالإنس، فهم باقون فيها منعَّمين كبقاء المعذَّبين منهم في النار، وهو مقتضَى ظاهر ما ذهب إليه أبو يوسف ومحمد وابن أبي ليلى والأوزاعي وعليه الأكثر، كما ذكره العينيُّ في «شرح البخاري»: من أنَّهم يثابُون على الطاعة ويُعاقبون على المعصية ويدخلون الجنة[2]. فإنَّ ظاهرَه أنَّهم كالإنس يوم القيامة.

وعن الإمام أبي حنيفة ثلاثُ روايات:

الأولَى: أنَّهم لا ثوابَ لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابًا كسائر الحيوانات.

الثانية: أنَّهم من أهل الجنَّةِ ولا ثوابَ لهم، أي: زائدًا على دخولها.

الثالثة: التوقُّف؛ قال الكَرْدَري[3]: وهو في أكثر الروايات.

(١) في الأصل: قيل.

(٢) عمدة القاري ١٥/ ١٨٤.

(٣) هو محمد بن عبد الستار بن محمد، العمادي، الكَرْدَري، تفقه على عمر بن عبد الكريم الوَرْسَكي، والمرغيناني. توفي (٦٤٢هـ). الجواهر المضية ٣/ ٢٣٠.

وفي «فتاوى» أبي إسحاق بن الصفار أنَّ الإمام يقول: لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكنْ في معلوم الله تعالى.

ونُقل عن مالك وطائفةٍ: أنَّهم يكونون في رَبَضِ الجنة.

وقيل: هم أصحاب الأعراف.

وعن الضحاك: أنَّهم يُلهَمُون التسبيحَ والذكر، فيصيبون من لذَّته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة.

وعلى القول بدخولهم الجنة قيل: نراهم ولا يرونا، عكس ما كانوا عليه في الدنيا، وإليه ذهب الحارث المحاسبي، وفي «اليواقيت»: الخواصُّ منهم يرونا كما أنَّ الخواصَّ منَّا يرونَهم في الدنيا.

وعلى القول بأنَّهم يتنعَّمون في الجنة قيل: إنَّ تنعُّمَهم بغير رؤيته عز وجل فإنَّهم لا يرونه، وكذا الملائكة عليهم السلام ما عدا جبريل عليه السلام، فإنَّه يراه سبحانه مرةً ولا يرى بعدها، على ما حكاه أبو إسحاق إبراهيم بن الصفار في «فتاويه» عن أبيه، والأصحُّ ما عليه الأكثر مما قدمناه، وأنَّهم لا فرقَ بينهم وبين البشر في الرؤية، وتمامُه في محلِّه.

وقرأ طلحة وعيسى وأصحاب عبد الله: «يطمُثهن» بضم الميم هنا وفيما بعد، وقرأ أناس بضمه في الأول وكسره في الثاني، وناسٌ بالعكس، وناسٌ بالتخيير، والجحدري بفتح الميم فيهما(١).

والجملة صفة لـ «قاصرات الطرف» لأنَّ إضافتَها لفظيةٌ، أو حال منها لتخصيصها بالإضافة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ إما صفةٌ لـ «قاصرات الطرف»، أو

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٨، وقراءة ضمه في الأول وكسره في الثاني وعكسه والتخيير هي قراءة الكسائي كما في التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨١، والبدور الزاهرة ص٣١٠.

حال منها كالتي قبل، أي: مشبَّهات بالياقوت والمرجان، وقولُ النحاس: إنَّ الكاف في موضع رَفْع على الابتداء(١). ليس بشيء كما لا يخفى.

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه قال في الآية: في صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ(٢). وعن الحسن نحوه.

وفي «البحر» عن قتادة: في صفاء الياقوت وحُمرة المرجان(٣). فحمل «المرجان» على ما هو المعروف.

وقيل: مشبَّهات بالياقوت في حمرة الوجه، وبالمرجان ـ أي: صغار الدُّرِّ ـ في بياض البشرة وصفائها، وتخصيصُ الصغار على ما في «الكشاف» لأنَّه أنصعُ بياضًا من الكبار(٤). وقيل: يحسُنُ هنا إرادةُ الكبار كما قيل في معناه؛ لأنَّه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] فلا تغفل.

وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في «البعث والنشور» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: (كَأَنَّهُنَّ) إلخ قال: «ينظرُ إلى وَجْهها في خدرها أصفَى من المرآة، وإنَّ أدنَى لؤلؤة عليها تُضيءُ ما بين المشرقِ والمغربِ، وإنَّه يكونُ عليها سبعونَ ثوبًا ينفذُها بصرُه حتى يوضح سوقها من وراء ذلك»(٥).

وأخرج عبد بن حميد والطبراني والبيهقي في «البعث» عن ابن مسعود قال: إنَّ المرأةَ من الحور العين يُرَى مخُّ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعينَ حلةً، كما يُرى الشرابُ الأحمرُ في الزجاجة البيضاء(٦).

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٣١٥.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٦٥، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٥١، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٩.

(٥) المسند (١١٧١٥)، وصحيح ابن حبان (٧٣٩٧)، والمستدرك ٢/ ٤٧٥، والبعث والنشور (٣٧٥).

(٦) المعجم الكبير (٨٨٦٤)، والبعث والنشور (٣٢٩)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٨-١٤٩، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ١٠٧، والترمذي =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي: ما جزاءُ الإحسان في العمل إلا الإحسانُ في الثواب.

وقيل: المرادُ: ما جزاء التوحيد إلا الجنةُ، وأُيِّدَ بظواهر كثيرٍ من الآثار، أخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» والبغوي في «تفسيره» والديلمي في «مسند الفروس» وابن النجار في «تاريخه» عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: (هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ) فقال: «وهل تدرونَ ما قال ربُّكم؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «يقولُ: هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة»[1].

وأخرج ابن النجار في «تاريخه» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعًا بلفظ: «قال الله عز وجل: هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه»[2] إلخ.

ووراء ذلك أقوالٌ تقرُبُ من مئة قول، واختير العمومُ ويدخلُ التوحيدُ دخولًا أوَّليًّا.

والصوفية أوردُوا الآية في باب الإحسان وفسَّروه بما في الحديث «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك»[3] قالوا: اسمٌ يجمعُ أبواب الحقائق.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «إلا الحسان»[4] يعني بالحسان قاصرات الطرف اللاتي تقدَّم ذكرهن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

= (٢٥٣٣)، والطبري ٢٢/ ٢٤٩-٢٥٠.
وأخرجه مرفوعًا الترمذي (٢٥٣٢) و(٢٥٣٣) وصحح وقفه، والطبري ٢٢/ ٢٤٩، وابن حبان (٧٣٩٦).

(١) نوادر الأصول ص٢١٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٦، ومسند الفردوس ٤/ ٣٣٧ (٦٩٧٥)، وعزاه لابن النجار في تاريخه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٤٩.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ مبتدأ وخبرٌ، أي: ومن دون تَيْنِك الجَنَّتين في المنزلة والقدر جنَّتان أُخرَيان، قال ابن زيد والأكثرون: الأوليان للسابقين وهاتان لأصحاب اليمين، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وقوله سبحانه: (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) قال: «جنتان من ذهبٍ للمقرَّبين، وجنتان من وَرِقٍ لأصحاب اليمين»[١].

وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأُخريان للتابعين، وروي موقوفًا وصحَّحه الحاكم عن أبي موسى[٢].

وزعم بعضهم أنَّ الأُوْلَيَيْن للخائفين والأُخرَيَيْن لذُرِّياتهم الذين أُلحقوا بهم، ولم أجد له مستندًا من الآثار.

وحكى في «البحر» عن ابن عباس أنَّه قال: «ومن دونهما» في القربِ للمنعَّمين، والمؤخَّرتا الذكرِ أفضلُ من الأولَيين، وادَّعى أنَّ الصفات الآتية أمدحُ من الصفات السابقة[٣]، ووافقَه مَن وافقه، وسيأتي تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ صفةٌ لـ «جنتان» وُسِّط بينها الاعتراض لِمَا تقدَّم من التنبيه على أنَّ تكذيبَ كلٍّ من الموصوف والصفةِ حقيقٌ بالإنكار والتوبيخ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هما مدهامَّتان، من الدُّهمة، وهي في الأصل ـ على ما قال الراغب ـ سوادُ الليل، ويُعبَّر بها عن سواد الفرس، وقد يعبَّر بها عن الخضرة الكاملةِ اللونِ، كما يعبَّر عنها بالخضرة إذا لم تكن كاملةً، وذلك لتقاربهما

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٣٨، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/١٤٦.

(٢) المستدرك ١/٨٤.

(٣) البحر المحيط ٨/١٩٨.

في اللون، ويقال: ادهامَّ ادْهِيمامًا، فهو مُدهامٌّ على وزن مُفعالٍّ[1]: إذا اسودَّ أو اشتدَّت خضرتُه.

وفسَّرها هنا ابنُ عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء بن أبي رباح وجماعة بـ: خضراوان، بل أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب ﵁ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «خضراوان»[2]، والمراد أنَّهما شديدتا الخضرة، والخضرة إذا اشتدَّت ضربَت إلى السواد، وذلك من الريِّ من الماء كما روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي صالح.

قيل: إنَّ في وصف هاتَين الجنَّتَين بما ذكر إشعارًا بأنَّ الغالبَ عليهما النباتُ والرَّياحين المنبسطةُ على وجه الأرض، كما أنَّ في وصف السابقَتَين بـ «ذواتا أفنان» إشعارًا بأنَّ الغالب عليهما الأشجارُ، فإنَّ الأشجارَ تُوصَفُ بأنَّها ذواتُ أفنان، والنبات يُوصَف بالخضرة الشديدةِ، فالاقتصارُ في كلٍّ منهما على أحدِ الأمرَين مُشعرٌ بما ذكر، وبُنِيَ على هذا كونُ هاتَين الجنَّتين دونَ الأُوليين في المنزلة والقَدْرِ، كيف لا والجنةُ الكثيرةُ الظلال والثمار أعلى وأغلَى من الجنة القليلةِ الظلال والثمار، ومَن ذهب إلى تفضيل هاتَين الجنَّتَين منع[3] اختصاص الوصف بالخضرة بالنبات، وكذا كونه أغلبَ مِن وَصْف الأشجار به، فكثيرًا ما تسمعُ الناسَ يقولون إذا مدحوا بستانًا: أشجارُه خُضْرٌ يانعة، وهو أظهرُ في مدحه بأنَّه ذو ثمارٍ من ذي أفنان، وهو يُشعرُ أيضًا بكثرة مائه والاعتناء بشأنه وبعدِه عن التصوُّح والهلاك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ فوَّارتان بالماء على ما هو الظاهر، وفي «البحر»: النضخُ فورانُ الماء[4]، وفي «الكشاف» وغيره: النضخُ أكثرُ

---

(١) مفردات الراغب (دهم).

(٢) المعجم الكبير (٤٠٧٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٨: فيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٣) في (م): مع، وهو تصحيف.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٨٦.

من النضح بالحاء المهملة؛ لأنَّه مثلُ الرشِّ[(١)]، وهو عند مَن فضَّل الجنتَين الأُوليين دون الجري، فالمدح به دون المدح به، وعليه قول البراء بن عازب فيما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم: العينانِ اللَّتان تجريان خيرٌ من النضَّاختَين[(٢)].

ومَن ذهب إلى تفضيل هاتَين يقولُ: في الفوران جَرْيٌ مع زيادة حسن، فإنَّ الماء إذا فارَ وارتفَع وقع متناثرَ القطراتِ، كحبات اللؤلؤ المتناثرة، كما يُشاهَد في الفوَّارات المعروفة، أو يقول بما أخرجه ابنُ أبي شيبة وابنُ أبي حاتم عن أنس: «نضَّاختان» بالمسك والعنبرِ تنضخان على دُور الجنة، كما ينضَخُ المطرُ على دور أهل الدنيا[(٣)]. أو بما أخرجه ابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد: «نضاختان» بالخير، ولفظ ابنُ أبي شيبة: بكلِّ خير[(٤)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ عطَفَ الأخيرَين على «الفاكهة» عطفَ جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة بيانًا لفضلهما.

وقيل: إنَّهما في الدنيا لمَّا لم يخلُصا للتفكُّه ـ فإنَّ النخل ثمرُه فاكهةٌ وطعام، والرمَّانُ فاكهةٌ ودواء ـ عُدَّا جنسًا آخر، فعُطفَا على الفاكهة وإنْ كان كلُّ ما في الجنة للتفكُّه لأنَّه تلذُّذ خالصٌ، ومنه قال الإمام أبو حنيفة ﷺ: إذا حلفَ لا يأكلُ فاكهةً، فأكل رمانًا أو رطبًا لم يحنث، وخالفَه صاحباه.

ثم إنَّ نخلَ الجنةِ ورُمَّانها وراء ما نعرفُه، أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والحاكم وصححه وآخرون عن ابن عباس: نخلُ الجنة جذوعُها زُمرُّد أخضر، وكرانيفها ذهبٌ أحمر، وسَعَفُها كسوةُ أهل الجنة، منها مقطَّعاتهم وحلَلهم، وثمرُها أمثالُ القلال أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلَى من العسل وألينُ من الزُّبد، وليس له عَجَم[(٥)]. وحُكْمُه حُكْمُ المرفوع.

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٠.

(٢) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٤٩-١٥٠.

(٣) عزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٢، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠.

(٥) الزهد لابن المبارك (١٤٨٨)، والزهد لهناد (٩٩)، والمستدرك ٢/ ٤٧٥، وعزاه لابن =

وفي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «أصولُه فضة، وجُذوعُه فضة، وسَعَفُه حُلَلٌ، وحملُه الرطب» إلخ(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعًا قال عليه الصلاة والسلام: «نظَرتُ إلى الجنةِ فإذا الرُّمَّانةُ من رمَّانها كمثل البعيرِ المُقْتَب»(٢).

وهذا المدحُ بحسب الظاهرِ دون المدحِ في قوله تعالى في الجنتَين السابقتَين: (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ) ومَن ذهب إلى تفضيلهما يقول: إنَّ التنوينَ في «فاكهةٌ» للتعميم بقرينة المقام نظيرَ ما قيل في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] فيكونُ في قوة: فيها كلُّ فاكهة، ويزيدُ ما في النظم الجليل على ما ذكر بتضمُّنه الإشارة إلى مَدْحِ بعضِ أنواعها.

وقال الإمام الرازي: إنَّ ما هنا كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ وذلك لأنَّ الفاكهةَ أنواعٌ أرضيةٌ وشجريةٌ، كالبِطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات، والنخل وغيرها من الشجريات، فقال تعالى: (مُدْهَآمَّتَانِ) لأنواع الخضر التي فيها الفواكه الأرضية، وفيها أيضًا الفواكه الشجرية، وذكر سبحانه منها نوعَين الرطب والرمان؛ لأنَّهما متقابلان أحدُهما حلوٌ والآخَرُ فيه حامضٌ، وأحدهما حارٌّ والآخرُ باردٌ، وأحدهما فاكهةٌ وغذاء والآخرُ فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارَّة والآخر من فواكه البلاد الباردةِ، وأحدُهما أشجارُه تكونُ في غاية الطول، والآخرُ ليس كذلك، وأحدُهما ما يُؤكَلُ منه بارزٌ وما لا يؤكَلُ كامنٌ، والآخرُ بالعكس، فهما كالضِّدَّين، والإشارةُ إلى الطَّرفَين تتناول الإشارةَ إلى ما بينهما،

= أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠.
وجاء في الزهد لابن المبارك والزهد لهناد: كَرَبها، بدل: كَرَانيفها. والكَرَبُ والكرانيف: أصول سَعَفِ النخل. النهاية (كرب) و(كرنف). والعَجَم: النوى. والمقطَّعات: شبه الجباب ونحوها من الخزِّ وغيره. اللسان (عجم) و(قطع).

(١) عزاه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠ لابن مردويه. وفيه: وجذوعها ذهب، بدل: وجذوعه فضة.

(٢) تاريخ دمشق ١٩/ ٣٧٢، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠، والحديث في إسناده أبو هارون العبدي، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[١] انتهى، ولعلَّ الأول أولَى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ صفةٌ أُخرى لـ «جنتان»، أو خبرٌ بعد خبر للمبتدأ المحذوفِ كالجملة التي قبلها، ويجوز أنْ تكونَ مستأنفةً، والكلامُ في ضمير الجمع كالكلام فيه في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾.

و«خيرات» قال أبو حيان: جمع خَيْرة، وصفٌ بُني على فَعْلة من الخير، كما بنَوا من الشَّر فقالوا: شَرَّة[٢]، وقال الزمخشري: أصلُه «خيِّرات» بالتشديد فخفِّفَ كقوله عليه الصلاة والسلام: «هينون لينون»[٣] وليس جمع خَيْر بمعنى أَخْيرَ، فإنَّه لا يقال فيه: خيرون ولا خيرات[٤]. ولعله لأنَّ أصلَ اسم التفضيل أنْ لا يجمَع خصوصًا إذا نُكِّر.

وقرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم: «خيِّرات» بتشديد الياء[٥]، وهو يؤيد أنَّ أصله كذلك، وروي عن أبي عمرو: «خَيَرات» بفتح الياء[٦] كأنَّه جمع خائرة جمع على فعلة.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٣٤.
(٢) البحر ٨/ ١٩٨.
(٣) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (١٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا. وفيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي روَّاد عن أبيه عبد العزيز، قال أبو حاتم وغيره: أحاديثه منكرة، وقال ابن الجنيد: لا يساوي فلسًا، وقال ابن عدي: روى أحاديث عن أبيه لا يتابع عليها. الميزان ٢/ ٤٥٥.
وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧)، والشهاب القضاعي في مسنده (١٤٠)، والبيهقي في الشعب (٨١٢٨) من طريق مكحول عن النبي ﷺ مرسلًا، قال البيهقي: هو مع إرساله أصح.
وأخرجه أحمد ابن حنبل في الزهد ص٤٦٣، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٨٠ عن مكحول من قوله.
(٤) الكشاف ٤/ ٥٠.
(٥) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨.

﴿حِسَانٌ﴾ قيل: أي: حسان الخُلُق والخَلْق، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه قال في الآية: خيرات الأخلاقِ حسان الوجوه[١]. وأخرج ذلك ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أمِّ سلمة مرفوعًا[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ﴾ بدلٌ من «خيرات» وهو جمع حوراء، وكذا جمع أحور، والمرادُ بيضٌ كما أخرجه ابن المنذر وغيرُه عن ابن عباس[٣]، وروته أمُّ سلمة أيضًا عن رسول الله ﷺ[٤]. وقال ابن الأثير: الحوراء هي الشديدةُ بياض العين الشديدة سوادها[٥].

وفي «القاموس»: الحَوَر بالتحريك: أنْ يشتدَّ بياضُ بياضِ العين وسوادُ سوادِها، وتستديرَ حدقتُها، وترقَّ جفونُها، ويبيَضَّ ما حواليها، أو شدَّةُ بياضها وسوادِها في بياض الجسد، أو اسودادُ العين كلِّها مثل الظباء، ولا يكون في بني آدمَ بل يُستعارُ لها[٦].

وإذا صحَّ حديثُ أمِّ سلمة لم يُعدَل في القرآن عن تفسير رسولِ الله ﷺ.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: مخدَّرات، يقال: امرأة قصيرةٌ ومقصورةٌ، أي: مخدَّرة ملازمة لبيتها لا تطوفُ في الطرق، قال كُثيِّر عزَّة:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ ... إليَّ ولم تشعر بذاكَ القصائرُ
عَنَيتُ قصيراتِ الحجالِ ولم أُرِد ... قِصارَ الخُطَا شرُّ النساءِ البحاتِرُ[٧]

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٦٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٦٢، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٦٣، والمعجم الكبير ٢٣/ ٣٦٧ (٨٧٠) مطولًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩: فيه سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي.
(٣) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥١، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٤.
(٤) قطعة من حديث أم سلمة الذي سلف تخريجه قريبًا.
(٥) النهاية في غريب الحديث (حور).
(٦) القاموس المحيط (حور).
(٧) ديوان كثير ص١٤٩، والبحاتر: القصيرات المجتمعات الخَلْق. المعجم الوسيط (بحتر).

والنساءُ يُمدَحْنَ بملازَمَتِهنَّ البيوتَ لدلالتها على صيانتهنَّ كما قال قيسُ بن الأسلت:

وتكسَلُ عن جاراتها فيزرْنَها ... وتغفَلُ عن أبياتهنَّ فتعذرُ[1]

وهذا التفسيرُ مأثورٌ عن ابن عباس والحسن والضحاك، وهو روايةٌ عن مجاهد، وأخرج ابن أبي شيبة وهنَّاد بن السري وابن جرير عنه أنَّه قال: مقصورات قلوبُهنَّ وأبصارُهنَّ ونفوسُهنَّ على أزواجِهنَّ[2]. والأولُ أظهرُ، و«في الخيام» عليه متعلِّقٌ بـ «مقصورات»، وعلى الثاني يحتملُ ذلك، ويحتمل كونه صفةً ثانيةً لـ «حور» فلا تغفل.

و«الخيام» جمع خيمة، وهي على ما في «البحر» بيتٌ من خَشَب وثُمامٍ وسائر الحشيش، وإذا كان من شعر فهو بيتٌ ولا يقال له خيمة[3].

وقال غير واحد: هي كلُّ بيت مستديرٍ، أو ثلاثةُ أعوادٍ أو أربعة يُلقَى عليها الثُّمام ويستظلُّ بها في الحرِّ، أو كلُّ بيتٍ يُبنَى من عيدان الشجر. وتجمع أيضًا على خيمات، وخَيْمٍ بفتح فسكون، وخَيَم بالفتح، وكعِنَب.

والخيام هنا بيوتٌ من لؤلؤ، أخرج ابن أبي شيبة وجماعة عن ابن عباس أنَّه قال: الخيمةُ من لؤلؤة واحدة مجوَّفة أربعة فراسخ، لها أربعةُ آلافِ مصراعٍ من ذهب[4].

وأخرج جماعة عن أبي الدرداء أنَّه قال: الخيمة لؤلؤةٌ واحدةٌ لها سبعون بابًا من درٍّ[5].

---

(١) البيت في العقد الفريد ٤/ ٢٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٧، وخزانة الأدب ٣/ ٤١٢.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٠، والزهد لهناد (١٧)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٦٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٨٦.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٤-١٣٥، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٨.

(٥) عزاه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥١ لعبد الرزاق وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنَّه قال: «الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفة طولُها في السماء ستونَ ميلًا، في كلِّ زاويةٍ منها للمؤمن أهلٌ لا يراهُم الآخرونَ يطوفُ عليهم المؤمن»[(١)]، إلى غير[(٢)] ذلك من الأخبار.

وقوله سبحانه: «فيهنَّ» إلخ دون ما تقدَّم في الجنَّتَين السابقتَين - أعني: قوله عز وجل: (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ) إلى قوله تعالى: (كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ) - في المدح عند مَن فضَّلهما على الأخيرتَين، قيل: لِمَا في «مقصورات» على التفسير الثاني من الإشعار بالقسر في القصر، وأمَّا على تفسيره الأول فكونه دونه ظاهرٌ وإنْ لم يلاحظ كونها مخدَّرةً فيما تقدم، أو يجعل قوله تعالى: (كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ) كنايةً عنه لأنَّهما مما يُصَان، كما قيل:

جوهرةٌ أحقاقُها الخدور[(٣)]

ومَن ذهب إلى تفضيل الأخيرتَين يقول: هذا أمدحُ، لعموم «خيرات حسان» الصفاتِ الحسنةَ خَلْقًا وخُلُقًا، ويدخُل في ذلك قَصْر الطَّرْف وغيرُه مما يدلُّ عليه التشبيه بالياقوت والمرجان، والمراد بالقاصر على التفسير الثاني لـ «مقصورات» القاصر الطبيعي بقرينة المقام، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى تعذُّر تَرْك القصر منهنَّ، و«قاصرات الطرف» ربما يُوهم أنَّ القصر باختيارهنَّ فمتى شِئْنَ قَصَرْنَ، ومتى لم يشأْنَ لم يقصِرْنَ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾ الكلامُ فيه كالكلام في نظيره.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٤٣) و(٤٨٧٩)، وصحيح مسلم (٢٨٣٨)، وسنن الترمذي (٢٥٢٨).

(٢) قوله: غير، ليس في (م).

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٣٩.

وقوله سبحانه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ قيل: بتقدير: يتنعَّمون متكئين، أو: أعني متكئين، والضميرُ لأهل الجنتَين المدلولِ عليهم بذكرهما.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ اسمُ جنسٍ، أو اسمُ جمعٍ واحده رَفْرَفة، وعلى الوجهَين يصحُّ وصفُه بقوله تعالى: ﴿خُضْرٍ﴾ وجعَلَه بعضُهم جمعًا لهذا الوصف، ولا يخفَى أنَّ أمرَ الوصفيَّةِ لا يتوقَّفُ على ذلك الجَعْل. وفسَّره في الآية عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس والضحاك بفضول المحابس، وهي ما يُطرَح على ظهر الفراشِ للنَّوم عليه، وقال الجوهري: الرَّفرف ثيابٌ خضرٌ تُتَّخذُ منها المحابس، واشتقاقُه مِن رَفَّ إذا ارتفَعَ[١].

وقال الحسن فيما أخرجه ابن المنذر وغيرُه عنه: هي البُسطُ[٢].

وأخرج عن عاصم الجحدري أنَّها الوسائد[٣]. ورُوي ذلك عن الحسن أيضاً وابن كيسان.

وقال الجبائي: الفُرُش المرتفعة.

وقيل: ما تدلَّى من الأسرَّةِ من غالي الثياب.

وقال الراغب: ضربٌ من الثياب مُشبَّهة بالرِّياض[٤].

وأخرج ابن جرير وجماعة عن سعيد بن جبير أنَّه قال: الرَّفرفُ رياضُ الجنة[٥]. وأخرج عبد بنُ حميد نحوه عن ابن عباس[٦]، وهو عليه - كما في «البحر» - من رفَّ النبتُ: نَعُم وحَسُن[٧].

---

(١) الصحاح (رفّ) ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٨/ ١٨٦.
(٢) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٢، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٤.
(٣) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٢.
(٤) مفردات الراغب (رفّ).
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٧٣، وأخرجه نعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك (٢٧٠)، وابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ١٣٦.
(٦) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٢.
(٧) البحر المحيط ٨/ ١٩٩.

ويقال الرفرفُ لكلِّ ثوبٍ عريض، وللرقيق من ثياب الديباج، ولأطراف الفُسطاط والخباء الواقعة على الأرض دون الأطناب والأوتاد، وظاهرُ كلامِ بعضهم أنَّه قيل بهذا المعنى هنا، وفيه شيءٌ.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ هو منسوب إلى عَبْقَر، تزعمُ العرب أنَّه اسمُ بلدِ الجنِّ، فينسُبُون إليه كلَّ عجيبٍ غريب من الفرش وغيرها، فمعناه: الشيء العجيبُ النادر، ومنه ما جاء في عمر الفاروق ﷺ: «فلم أرَ عبقريًّا يَفْري فَرِيَّه»(١)، ولتناسي تلك النسبة قيل: إنَّه ليس بمنسوب بل هو مثل كرسيّ وبُخْتيّ، كما نقل عن قطرب.

والمرادُ الجنس، ولذلك وُصِفَ بالجمع وهو قوله تعالى: ﴿حِسَانٍ﴾ حملًا على المعنَى. وقيل: هو اسمُ جمع، أو جمعٌ واحدُه عَبْقريَّة، وفسَّره الأكثرون بعتاق الزَّرَابي(٢)، وعن أبي عبيدة: هو ما كلُّه وَشْيٌ من البسط(٣).

وروى غيرُ واحد عن مجاهد أنَّه الديباج الغليظ، وعن الحسن أنَّها بُسط فيها صُوَرٌ، وقد سمعت ما نُقِلَ عنه في الرفرف فلا تغفل عمَّا يقتضيه العطفُ.

وقرأ عثمان بن عفان ﷺ ونصر بن عاصم والجحدري(٤) ومالك بن دينار وابن محيصن وزهير الفُرْقُبي وغيرهم: «رَفَارِفَ» جمع لا ينصرف «خُضْرٍ» بسكون الضاد، و«عَبَاقِرِيَّ» بكسر القاف وفتح الياء مشددة، وعنهم أيضًا ضمُّ الضاد، وعنهم أيضًا فتحُ القاف(٥). قاله صاحب «اللوامح»، ثم قال: أمَّا منْعُ الصرفِ من «عباقريَّ»

---

(١) أخرجه أحمد (٤٨١٤)، والبخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٢٣٩)، والبخاري (٣٦٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الزرابي: النمارق، والبُسُط، أو كل ما بُسِطَ واتُّكئ عليه، الواحد: زربي بالكسر، ويضم. القاموس (زرب).

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٤٦، وفيه: تقول العرب لكل شيء من البسط: عبقري، ويرون أنها أرض يوشَّى فيها، وينظر: الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣٩٥.

(٤) في الأصل و(م): الجحدري، بدون واو، والمثبت من البحر ٨/ ١٩٩، وعنه نقل المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩، والكلام منه، وجاء في هامش الأصل: زهير بن ميمون الفُرْقُبي بالفاء المضمومة بعدها راء ساكنة وقاف مضمومة بعدها باء موحدة، الهمداني القارئ النحوي، أو هو بقافين، كذا في القاموس. اهـ منه، وينظر القاموس (فُرْقُب).

فلمجاورته لـ «رفارفَ» يعني للمشاكلة، وإلا فلا وجْهَ لمنع الصرف مع ياءَي النسب إلا في ضرورة الشعر. انتهى.

وقال ابن خالويه: قرأ: «على رفارفَ خضر وعباقريَّ» النبيُّ ﷺ والجحدريُّ وابن محيصن، وقد روي عمن ذكرنا: «على رفارفٍ خُضر وعباقريٍّ» بالصرف، وكذلك روي عن مالك بن دينار، وقرأ أبو محمد المروزي وكان نحويًّا: «على رفارف خُضَّار» بوزن فُعَّال[1].

وقال صاحب «الكامل»: قرأ «رفارف» بالجمع ابنُ مصرف وابن مقسم وابن محيصن، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني، وهو الاختيار؛ لقوله تعالى: (خُضْرٍ)، و«عباقِري» بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابنُ مقسم وابن محيصن، وروي عنهما التنوين[2].

وقال ابن عطية: قرأ زهير الفرقبي: «رفارفَ» بالجمع وترك الصرف، وأبو طعمة المدني وعاصم فيما روي عنه: «رفارفٍ» بالصرف، وعثمان رضي الله عنه كذلك، و«عباقريٍّ» بالجمع والصرف، وعنه: «وعباقَرِيَّ» بفتح القاف والياء على أنَّ اسم الموضع عباقَر بفتح القاف، والصحيح فيه عَبْقَر[3].

وقال الزمخشري: قرئ: «عباقري» كمدائني، وروى أبو حاتم: «عباقَريَّ» بفتح القاف ومنع الصرف، وهذا لا وجه لصحته[4].

وقال الزجاج: هذه القراءة لا مخرجَ لها؛ لأنَّ ما جاوز الثلاثة لا يُجمَعُ بياء النسب، فلو جمعتَ «عبقري» قلت: عباقرة، نحو: مُهَلَّبي ومَهَالبة، ولا تقول: مَهَالِبي[5].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٩٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٩٩.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦.
(٤) الكشاف ٤/ ٥٠.
(٥) معاني القرآن ٥/ ١٠٥.

وقال ابن جني: أما تركُ صرفِ «عباقري» فشاذٌّ في القياس، ولا يُستنكَرُ شذوذُه مع استعماله(١).

وقال ابن هشام: كونُه من النسبة إلى الجمع كمدائني باطلٌ، فإنَّ مَن قرأ بذلك قرأ: «رفارف خضر» بقصد المجانسة، ولو كان كما ذكر كان مفردًا، ولا يصحُّ منْعُ صَرْفه كمدائني، وقد صحَّت الروايةُ بمنعه الصرفَ عن النبيِّ ﷺ(٢)، فهو من باب كرسي وكراسي، وهو مِن صيغة منتهَى الجموع، لكنَّها خالفَت القياس في زيادة ما بعدَ الألفِ على المعروف، كما ذكره السهيلي(٣).

وقال صاحب «الكشف»: فتحُ القاف لا وجْهَ له بوجه، والمذكور في «المنتقى» عن النبي ﷺ الكسر، وأما منعُ الصرف فليس بمتعيِّن ليُرَد، بل وجهُهُ أنَّه نصب على محلِّ «رفرف» على حدِّ:

يـذهـبـن فـي نَـجْـدٍ وغَـورًا(٤)......

وإضافته إلى «حسان» مثل إضافة «حور» إلى «عين» في قراءة عكرمة(٥)، كأنَّه قيل: عباقري مفارش، أو نمارق حسان، فهو من باب: أخلاقُ ثياب؛ لأنَّ أحدَ الوصفَين قائم مقام الموصوف، ولعلَّ عبقر وعباقر مثل عرفة وعرفات. انتهى، فأحط بجوانب الكلام ولا تغفل.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٠٦.

(٢) أخرج أبو عمر الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١١٤)، والحاكم ٢/ ٢٥٠ من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ: «متكئين على رفاف خضر وعباقري حسان» وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: منقطع، وعاصم لم يدرك أبا بكرة. اهـ. وينظر تفسير الطبري ٢٢/ ٢٧٧.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٤٠.

(٤) جزء من بيتٍ، وتمامه:

يـذهـبـن فـي نـجـدٍ وغـورًا غـائـرًا فَـواسِـقًـا عـن قـصـدهـم جـوائـرا

ونسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٩٤ للعجاج، وابن الأنباري في الزاهر ١/ ١٢٠ لرؤبة بن العجاج، وتقدم عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف.

(٥) ستأتي عند تفسير الآية (٢٢) من سورة الواقعة.

وقرأ ابن هرمز: «خضُر» بضم الضاد[١]، وهي لغةٌ قليلةٌ، ومن ذلك قولُ طَرَفة:

أيُّها القَينات في مجلسنا جرِّدوا منها ورادًا وشُقُر[٢]

وقول الآخر:

وما انتميتُ إلى خُورٍ ولا كُشُفٍ ولا لئامٍ غداة الرَّوعِ أوزاعِ[٣]

فـ «شُقُر» جمع أشقر، و«كُشُف» جمع أكشف، وهو مَن ينهزمُ في الحرب.

هذا والوصفُ بقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ إلخ دون الوصف بقوله سبحانه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ عند القائل بتفضيل الجنتَين السابقتَين، لِمَا في هذا الوصف من الإشارة إلى أنَّ الظهائر مما يعجزُ عنها الوصفُ. ومَن ذهب إلى تفضيل الأخيرتَين يقولُ: الرفرف ما يُطرَح على ظهر الفراشِ وليست الفُرُش التي يُطرَح عليها الرفرف مذكورة، فيجوز أنْ يكونَ تركُ ذكرها للإشارة إلى عدم إحاطةِ الوصفِ بها ظهارةً وبطانةً، وهو أبلغُ من الأول، ولا يسلِّم أن تلك الفرش هي العبقري، أو يقول: الرفرف الفُرُش المرتفعة، وتركُ التعرُّض لِسِوى لونها، وهو الخضرة التي ميل الطباع إليها أشدُّ، وهي جامعةٌ لأصول الألوان الثلاثة على ما بيَّنه الإمام[٤]، يُشيرُ إلى أنَّها مما لا تكادُ تُحيط بحقيقتها العباراتُ، وقد يقال غير ذلك فتأمل.

وينبغي على القول بتفضيل الأخيرَتَين وكونهما لطائفةٍ غيرِ الطائفة المشارِ إليهم بـ «من خاف» أنْ لا يفسّر «مَن خاف» بمن له شدةُ الخوف، بحيث يختصُّ بأفضل

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩.

(٢) ديوان طرفة ص٥٧، والمحتسب ١/ ١٦٢، والخصائص ٢/ ٣٣٥، وضرائر الشعر ص١٩، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩، وفي المصادر: الفتيان، بدل: القينات.

(٣) البيت لضرار بن الخطاب كما في الدرر اللوامع ٦/ ١٣٤، ودون نسبة في البحر المحيط ٨/ ١٩٩.

وجاء في هامش الأصل: الأوزاع الجماعات. اهـ، وخور جمع خوَّار وهو الضعف. ينظر الدرر اللوامع.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٣٦.

المؤمنين وأجلِّهم؛ أو يقال: إنَّهما مع الأولَيين لمن خافَ مقام ربِّه، ويكون المعنى: ولمن خافَ مقام ربِّه أيضًا جنتان صفتُهما كيت كيت من دون تَينك الجنتَين، وعليه قيل: «جنتان» عطفٌ على «جنتان» قبله، و«من دونهما» في موضع الحال.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ هاتَين الجنتين ـ سواءٌ كانتا أفضلَ من الأولَيين أم لا ـ لمن خاف مقام ربِّه عز وجل، فله يوم القيامة أربعُ جنان.

قال الطبرسي: والأخيرتان دون الأُولَيين، أي: أقربُ إلى قصره ومجالسه ليتضاعفَ له السرورُ بالتنقل من جنَّة إلى جنة، على ما هو معروفٌ من طبع البشر من شهوة مثل ذلك، وهو أبعدُ عن الملل الذي طبع عليه البشرُ[1].

وأنت تعلم أنَّ الآية تحتملُ ذلك احتمالًا ظاهرًا، لكن ما تقدَّم[2] من حديث أبي موسى رضي الله عنه يأباه، فإذا صحَّ ولو موقوفًا ـ إذ حكمُ مثله حكمُ المرفوع ـ لم يكن لنا العدولُ عما يقتضيه، وقد روي عنه أيضًا حديثٌ مرفوع ذكره الجلال السيوطي في «الدر المنثور» يشعرُ بأنَّ الجنان الأربعَ هي جنان الفردوس[3]، وأخرج عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم أنَّه قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «جنانُ الفِردَوسِ أربعٌ، جنتان مِن ذَهبٍ حليتُهما وآنيتُهما وما فيهما، وجنتان من فضَّة حليتُهما وآنيتُهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبين أنْ ينظرُوا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهِهِ في جنة عدن»[4].

والظاهرُ على هذا أنَّه يشترك الألوف في الجنة الواحدة من هذه الجنان، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ إلخ عليه مما لا يخفَى، ثم إنَّ قاصرات الطرف إنْ كنَّ من

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٠٥.

(٢) ص٢٨٧ من هذا الجزء.

(٣) ينظر الدر المنثور ٦/ ١٤٦، وانظر التعليق الآتي.

(٤) مسند أحمد (١٩٦٨٢)، وصحيح البخاري (٤٨٧٨) و(٤٨٨٠) و(٧٤٤٤)، وصحيح مسلم (١٨٠)، وسنن الترمذي (٢٥٢٨)، وسنن النسائي الكبرى (٧٧١٧)، وسنن ابن ماجه (١٨٦).

الإنس فهنَّ أجلُّ قدرًا وأحسنُ منظرًا من الحور المقصورات في الخيام، بناءً على أنَّهنَّ المخلوقات في الجنة، فقد جاء من حديث أمِّ سلمة: قلتُ يا رسول الله: أنساءُ الدنيا أفضلُ أم الحورُ العينُ؟ قال: «نساءُ الدنيا أفضلُ من الحورِ العين كفَضْل الظهارة على البطانة»، قلتُ: يا رسولَ الله، وبمَ ذاك؟ قال: «بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ ألبسَ اللهُ وجوهَهنَّ النورَ، وأجسادَهنَّ الحريرَ، بيضُ الوجوه خُضر الثياب صُفر الحلي، مجامرهنَّ الدرُّ وأمشاطهنَّ الذهبُ، يَقُلْنَ: ألا نحنُ الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، ألا ونحنُ الناعماتُ فلا نبأسُ أبدًا، طوبَى لمن كنَّا له وكان لنا»[1]، إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيِّدًا للقول بتفضيل الجنتَين الأُولَيين على الأخيرَتين، ولعله إنَّما قدَّم سبحانه ذكرَ الاتِّكاء أولًا على ذكر النساء؛ لأنَّه عز وجل ذكر في صدر الآية الخوفَ حيث قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فناسب التعجيلَ بذكر ما يُشعر بزواله إشعارًا ظاهرًا، وهو الاتكاء، فإنَّه من شأن الآمنين، وأخَّر سبحانه ذكرَه ثانيًا عن ذكرهنَّ لعدم ما يستدعي التقديمَ، وكونه مما يكون للرجل عادة بعد فراغِ ذِهنه عمَّا يحتاجُه المنزلُ من طعامٍ وشرابٍ وقَينة تكونُ فيه، وإذا قلنا: إنَّ الحورَ كالجواري في المنزل كان أمرُ التقديم والتأخير أوقع.

وقال الإمامُ في ذلك: إنَّ أهل الجنةِ ليس عليهم تَعَبٌ وحركة، فهم متنعِّمون دائمًا، لكنَّ الناسَ في الدنيا على أقسام: منهم مَن يجتمعُ مع أهله اجتماعَ مستوفزٍ، وعند قضاء وَطَره يغتسلُ وينتشر في الأرض للكَسْب، ومنهم مَن يكون متردِّدًا في طلب الكسب، وعند تحصيله يرجعُ إلى أهله ويستريحُ عما لحقَه من تَعَب قبل قضاء الوَطَر أو بعده، فالله عز وجل قال في أهل الجنة: متكئون قبل اجتماعهم بأهاليهم، متكئون بعد الاجتماعِ، ليعلم أنَّهم دائمون على السكون[2].

ولا يخفَى أنَّ هذا على ما فيه لا يحسمُ السؤالَ، إذ لقائلٍ أنْ يقولَ: لِمَ لَمْ يعكس أمرَ التقديم والتأخير في الموضعَين، مع أنَّه يتضمَّنُ الإشارة إلى ذلك أيضًا،

---

(١) قطعة من حديث أم سلمة عند الطبراني ٢٣/ ٣٦٧، وقد سلف ص٢٩٢ من هذا الجزء.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٣٥.

ثم ذكر في ذلك وجهًا ثانيًا، وهو على ما فيه مبنيٌّ على ما لا مستندَ له فيه من الآثار، فتدبَّر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾.

وقوله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى، فيه تقريرٌ لِمَا ذكر في هذه السورة الكريمةِ من آلائه جلَّ شأنه الفائضةِ على الأنام، فـ «تبارك» بمعنى: تعالى؛ لأنَّه يكونُ بمعناه وهو أنسبُ بالوصف الآتي، وقد وردَ في الأحاديث: «تعالى اسمه»[1]، أي: تعالى اسمُه الجليل الذي من جملته ما صُدِّرت به السورة من اسم «الرحمن» المنبئ عن إفاضةِ الآلاء المفصَّلة، وارتفَعَ مما لا يليقُ بشأنه من الأمور التي من جملتها جحودُ نعمائه وتكذيبُها، وإذا كان حالُ اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنُّك بذاته الأقدس الأعلى؟!

وقيل: الاسمُ بمعنى الصفة؛ لأنَّها علامة على موصوفها.

وقيل: هو مُقحَمٌ كما في قول من قال:

ثـم اسـمُ الـسـلام عـلـيـكـمـا[2]

وقيل: هو بمعنى المسمَّى.

وزعم بعضُهم أنَّ الأنسبَ بما قُصِدَ من هذه السورة الكريمة ـ وهو تعدُّد الآلاء والنعم ـ تفسير «تبارك» بـ : كَثُرت خيراته، ثم إنَّه لا بُعْدَ في إسناده بهذا المعنى لاسمه تعالى، إذ به يُستمطَر فيغاث ويستنصر فيعان.

وقوله سبحانه: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صفةٌ للرب، ووُصِفَ جل وعلا بذلك

(١) جزء من حديث أخرجه الحارث في مسنده (١٠٢٤ - زوائد) عن أنس ﷺ أن أبا طلحة قرأ هذه الآية ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: ما أرى ربنا تعالى اسمه إلا يستنفرنا شبابًا وشيوخًا جهزوني. . .

(٢) قطعة من بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢١٤، وسلف ١١/ ٤٥٦، وتمامه:

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما   ومَن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

تكميلًا لما ذكر من التنزيه والتقرير، وقرأ ابن عامر وأهل الشام: «ذو» بالرفع[1] على أنَّه وصفٌ للاسم، ووصفُه بـ «الجلال والإكرام» بمعنى التكريم واضحٌ.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إشارةٌ إلى ما أودعَهَ سبحانه في الأرواح الطيبة القدسيةِ من العلوم الحقَّانية والإجمالية[2] عند استوائه عز وجل على عرش الرحمانية.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الكاملَ الجامعَ ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ وهو تفصيلُ تلك العلومِ الإجمالية ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾ يشيرُ إلى شمس النبوة وقمرِ الولايةِ الدائرتَين في فلك وجود الإنسان بحساب التجلِّيات ومراتبِ الاستعدادات، ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ القوى السُّفلية ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الاستعداداتُ العلويةُ ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ يتذلَّلان بين يديه تعالى عند الرجوع إليه سبحانه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ سماء القوى الإلهية القدسية ﴿رَفَعَهَا﴾ فوقَ أرض البشرية ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ القوة المميزة ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ لا تَتجاوزُوا عند أَخْذ الحظوظِ السفلية وإعطاءِ الحقوقِ العلوية.

وجوِّز أنْ يكونَ «الميزان» الشريعةَ المطهرة، فإنَّها ميزانٌ يُعرَف به الكاملُ من الناقص.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض البشرية ﴿وَضَعَهَا﴾ بسطها وفَرَشها ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ للقوى الإنسانية ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ من فواكه معرفةِ الصفات الفعلية ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ وهي الشجرة الإنسانية التي هي المظهرُ الأعظمُ وذات أطوار، كلُّ طَوْرٍ مستورٌ بطورٍ آخرَ.

﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ هو حَبُّ الحبِّ المبذور في مزارع القلوب السليمة من الدَّغل ﴿ذُو

---

(١) التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٧.
(٢) في (م): الحقانية الإجمالية.

﴿ٱلْعَصْفِ﴾ أوراق المكاشفات ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ ريحان المشاهدة.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ربُّ مشرق شمسِ النبوة ومَشرقِ قمرِ الولاية في العالم الجسماني، وربُّ مغربهما في العالم الروحاني.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحرَ سماء القوى العلويةِ، وبحر أرضِ القوى السفلية ﴿يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجزُ القلب ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أنواعُ أنوارِ الأسرار ونيران الأشواق.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ﴾ سُفُن الخواطر المسخَّرة في بحر الإنسان.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ما شمَّ رائحة الوجود ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ الجهة التي تليه سبحانه، وهي شؤوناتُه عز وجل ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي: الاستغناء التامِّ عن جميع المظاهر ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الفيض العام، يفيضُ على القوابل حسبما استعدَّت له وسألته بلسان حالها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلخ.

واستَدَلَّ الشيخُ الأكبر محيي الدين(١) قُدِّس سرُّه بقوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ على شرف التلوُّن، وكذا استدلَّ به على عدم بقاءِ الجوهر آنَين، وعلى هذا الطَّرْز ما قيل في الآيات بعد.

وذكر بعضُ أهل العلم أنَّ قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قد ذكر إحدَى وثلاثينَ مرةً، ثمانيةً منها عقيبَ تعدادِ عجائبِ خلقه تعالى، وذِكْرِ المبدأ والمعاد؛ وسبعةً عقيب ذكر ما يُشعرُ بالنار وأهوالها على عدد أبواب جهنم؛ وثمانية في وصف الجنَّتَين الأولَيين، ومثلُها في وصف الجنتَين اللَّتَين دونهما، على عدد أبواب الجنة، فكأنَّه أشير بذلك إلى أنَّ مَن اعتقَدَ الثمانية الأُولى وعمل بموجبها استحقَّ كلتا الجنتَين من الله تعالى، ووقاه جهنَّم ذات الأبواب السبعة.

والله تعالى أعلم بإشارات كتابه، وحقائقِ خطابه، ودقائق كلامه، التي لا تُحيطُ بها الأفهام، وتبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام.

---

(١) ينظر تفسيره ٢/ ٢٨٧.

(٥٦) سورة الواقعة مكية وآياتها ست وتسعون

سورة الواقعة من السور المكية ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على تفصيل أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال وشدائد ، وما يلقاه المؤمنون والمجرمون من نعيم أو شقاء يوم ينقسم الناس إلى ثلاث طوائف « أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وأهل الدرجات العالية وهم المقربون » وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق ، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين .

سميت السورة الكريمة « سورة الواقعة » لأن الله تعالى فصَّل فيها أمور القيامة وأحوالها وما يكون بين يدي الساعة من شدائد وأهوال ، وانقسامَ الناس في الآخرة إلى طوائف ، وذكر فيها الأدلة والبراهين على الحشر والنشر والحساب والجزاء ، والواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والطامة والحاقة ، سميت بالواقعة لأنه واقعة لا محالة وقد ذكرت السورة الدلائل على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته في بديع صنعه ، في خلق الإنسان ، وإخراج النبات ، وإنزال المطر ، وما أودعه الباري جل وعلا في الشجر من النار الموقدة ، وغير ذلك من دلائل القدرة الباهرة ، ثم نوهت بذكر القرآن العظيم وأنه تنزيل الحكيم العليم ، ثم ذكرت ما يلقاه المرء عند الاحتضار من الأهوال ، ثم ختمت السورة الكريمة بذكر الطوائف الثلاثة « أهل

السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقين إلى الخيرات » فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في بداية السورة من الإجمال ، والإشادة بذكر مآثر المتقين والمقربين في البدء والختام .

وقد ورد في فضائل هذه السورة أحاديث عديدة تدل على فضل تلاوتها فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » أخرجه الحافظ أبو يعلى ، ويعني بالفاقة الحاجة والفقر وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة « عبد الله بن مسعود » بسنده عن أبي ظبية قال : « مرض عبد الله بن مسعود مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمةَ ربي ، قال : ألا آمرُ لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : الا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ ! إنَّ عندي خمس بنات ، وقد أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كلَّ ليلة لم تصبه فاقةٌ أبداً » .

تبتدىء السورة الكريمة بوصف القيامة ، وما يجري فيها من أحداثٍ وأهوال ، حيث تتطاير الجبال ، وتهتز الأرض اهتزازاً عنيفاً ، يندك كل ما فوق سطحها من بيوت وقصور ، وحصون رفيعة وسدود منيعة ، وتتبدل أوضاع الأرض كما تتبدل أقدار الناس ، فترفع أولياء الله وتخفض أعداء الله ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضةٌ رافعة . إذا رُجَّت الأرضَ رجاً . وبُسَّت الجبال بَسّاً . فكانت هباءً منبثاً . وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ ثم تفصِّل السورة مصائر هذه الفرق الثلاثة أو فى تفصيل ، وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب في ذلك اليوم الرهيب ، مبتدئة بذكر السابقين وهم الذين سبقوا بالإيمان والعمل

الصالح فنالوا أعلى الدرجات وأرفع المنازل ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثُلةٌ من الأولين . وقليلٌ من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين﴾ .

ثم تُثَنّي بذكر السعداء « أصحاب اليمين » وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، وهم عامة أهل الجنة ولكنهم دون مرتبة السابقين في الأجر والفضل ﴿وأصحاب اليمين ما أصحابُ اليمين . في سدر مخضود . وطلحٍ منضود . وظلٍ ممدود . وماءٍ مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة﴾ ثم تذكر السورة الكريمة الأشقياء المجرمين ، وهم أهل المشئمة الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم ، وتتحدث عما أعدَّ الله لهم من العذاب المقيم في دركات الجحيم ﴿وأصحابُ الشمال ما أصحابُ الشمال ؟ في سَمومٍ وحميم . وظلٍ من يحموم . لا باردٍ ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحِنث العظيم . وكانوا يقولون : إئذا امتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا المبعوثون . أَوَ آباؤنا الأولون ؟﴾ ثم يأتي الجواب مؤكداً بأنهم لا بدَّ أن يجمعوا هم وآباؤهم في الآخرة للحساب والجزاء ، وأنهم بسبب كفرهم سيأكلون من الزقوم ، ويشربون من الماء الحار الذي تناهى حره وهو الحميم ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجرٍ من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين﴾ .

ثم تتحدث الآيات عن دلائل القدرة والوحدانية ، فيما خلق الله تعالى وبثَّ في هذا الكون ، من آثار القدرة الفائقة ، والصَنْعَةِ الباهرة ، في الإنسان ، والنبات ، والماء ، والنار ، وتذكر هذه الأمور الأربعة كبرهانٍ على قدرة الله ، وإمكانِ البعث والنشور ﴿أفرأيتم

ما تمنون؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدِّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون؟﴾ وتأتي الإشارة إلى آثار القدرة الإلهية بصيغة الاستفهام الذي يخاطبهم مباشرة بلا وساطة، تعجيزاً لهم ليعترفوا بقدرة الله ووجوده ﴿أفرأيتم ما تحرثون؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾؟ ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المنزلون﴾؟ ﴿أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾؟ وفي كل هذه الاسئلة تعجيز للبشر عن مضاهاة خلق الله. وبعد هذا البيان الواضح تتحدث السورة عن القرآن الكريم معجزة محمد الخالدة، الباقية أبد الدهر، ثم تختم السورة بذكر الطوائف الثلاث مع بيان مآل كل فريق منهم في الجنة أو في السعير ﴿فأما إن كان من المقربين. فَرَوْح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم. إن هذا لهو حق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم﴾.

سورة الواقعة

[٨٨٤] ك.. أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾(١) شق ذلك على المسلمين فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾(٢).

[٨٨٥] ك.. وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق بسند فيه نظر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبدالله قال: لما نزلت ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾(٣) وذكر فيها: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾(٤) قال عمر: يا رسول الله ثلة من الأولين وقليل منا فامسك آخر السورة سنة ثم نزل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾(٥) فقال رسول الله [ﷺ]: «**يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله**: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾»(٦).

[٨٨٦] وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلاً وأخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في البعث عن عطاء ومجاهد قالا: لما سأل أهل الطائف الوادي يحمي لهم وفيه عسل ففعل وهو وادٍ معجب فسمعوا الناس يقولون أن في الجنة كذا وكذا قالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾(٧) الآيات.

[٨٨٧] وأخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوَجٍّ وظلاله وطلحه وسدره فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾(٨).

---

[٨٨٤] (١) سورة الواقعة: الآية (١٣و١٤).
(٢) سورة الواقعة: الآية (٣٩و٤٠).
[٨٨٥] (٣) سورة الواقعة: الآية (١).
(٤) سورة الواقعة: الآية (١٣و١٤).
(٥) سورة الواقعة: الآية (٣٩و٤٠).
(٦) سورة الواقعة: الآية (٣٩و٤٠).
[٨٨٦] (٧) سورة الواقعة: الآية (٢٧و٢٨).
[٨٨٧] (٨) سورة الواقعة: الآية (٢٧و٣٠).

[٨٨٨] وأخرج مسلم(١) عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد رسول الله [ﷺ] فقال رسول الله [ﷺ]: **«أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم لقد صدق نوه كذا»** فنزلت هذه الآيات: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾(٢) حتى بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾(٣).

[٨٨٩] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حزرة قال: نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار في غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم رسول الله [ﷺ] أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى النبي [ﷺ] فقام فصلى ركعتين ثم دعا فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق: ويحك متى ترى ما دعا النبي [ﷺ] فأمطر الله علينا السماء فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا.

* * *

---

[٨٨٨] (١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١٢٧) والطبراني في الكبير ١٢/١٩٨ والواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٩).

(٢) سورة الواقعة: الآية (٧٥).

(٣) سورة الواقعة: الآية (٨٢).

سورة الواقعة

وهي ست وتسعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

أما تعلق هذه السورة بما قبلها، فذلك من وجوه: أحدها: أن تلك السورة مشتملة على تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه عن التكذيب كما مر، وهذه السورة مشتملة على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر وبالشر لمن كذب وكفر، ثانيها: أن تلك السورة متضمنة للتنبيهات بذكر الآلاء في حق العباد، وهذه السورة كذلك لذكر الجزاء في حقهم يوم التناد، ثالثها: أن تلك السورة سورة إظهار الرحمة، وهذه السورة سورة إظهار الهيبة على عكس تلك السورة مع ما قبلها، وأما تعلق الأول بالآخر ففي آخر تلك السورة إشارة إلى الصفات من باب النفي والإثبات، وفي أول هذه السورة إلى القيامة وإلى ما فيها من المثوبات والعقوبات، وكل واحد منهما يدل على علو اسمه وعظمة شأنه، وكمال قدرته وعز سلطانه، **ثم في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: ففي تفسيرها جملة وجوه: أحدها: المراد إذا وقعت القيامة الواقعة أو الزلزلة الواقعة يعترف بها كل أحد، ولا يتمكن أحد من إنكارها، ويبطل عناد المعاندين فتخفض الكافرين في دركات النار، وترفع المؤمنين في درجات الجنة، هؤلاء في الجحيم وهؤلاء في النعيم، الثاني: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ تزلزل الناس، فتخفض المرتفع، وترفع المنخفض، وعلى هذا فهي كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[الحجر: ٧٤] في الإشارة إلى شدة الواقعة، لأن العذاب الذي جعل العالي سافلاً بالهدم، والسافل عاليًا حتى صارت الأرض المنخفضة كالجبال الراسية، والجبال الراسية كالأرض المنخفضة أشد وأبلغ، فصارت البروج العالية مع الأرض متساوية، والواقعة التي تقع ترفع المنخفضة فتجعل من الأرض أجزاء عالية ومن السماء أجزاء سافلة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[الواقعة: ٤، ٥] فإنه إشارة إلى أن الأرض تتحرك بحركة مزعجة، والجبال تتفتت، فتصير الأرض المنخفضة كالجبال الراسية، والجبال الشامخة كالأرض السافلة، كما يفعل هبوب الريح في الأرض المرملة، الثالث: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يظهر وقوعها لكل أحد، وكيفية وقوعها، فلا يوجد لها كاذبة ولا متأول يظهر فقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ معطوف على ﴿كَاذِبَةٌ﴾ نسقًا، فيكون كما يقول القائل: ليس لي في الأمر شك ولا خطأ، أي لا قدرة لأحد على رفع المنخفض ولا خفض المرتفع.

المسألة الثانية: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يحتمل أن تكون الواقعة صفة لمحذوف وهي القيامة أو

الزلزلة على ما بينا، ويحتمل أن يكون المحذوف شيئًا غير معين، وتكون تاء التأنيث مشيرة إلى شدة الأمر الواقع وهوله، كما يقال: كانت الكائنة والمراد كان الأمر كائنًا ما كان، وقولنا: الأمر كائن لا يفيد إلا حدوث أمر ولو كان يسيرًا بالنسبة إلى قوله: كانت الكائنة، إذ في الكائنة وصف زائد على نفس كونه شيئًا، ولنبين هذا ببيان كون الهاء للمبالغة في قولهم: فلان راوية ونسابة، وهو أنهم إذا أرادوا أن يأتوا بالمبالغة في كونه راويًا كان لهم أن يأتوا بوصف بعد الخبر ويقولون: فلان راوٍ جيد أو حسن أو فاضل، فعدلوا عن التطويل إلى الإيجاز مع زيادة فائدة، فقالوا: نأتي بحرف نيابة عن كلمة كما أتينا بهاء التأنيث حيث قلنا: ظالمة بدل قول القائل: ظالم أنثى، ولهذا لزمهم بيان الأنثى عند مالا يمكن بيانها بالهاء في قولهم شاة أنثى وكالكتابة في الجمع حيث قلنا: قالوا بدلاً عن قول القائل: قال وقال وقال، وقالا بدلاً عن قوله: قال وقال فكذلك في المبالغة أرادوا أن يأتوا بحرف يغني عن كلمة والحرف الدال على الزيادة ينبغي أن يكون في الآخر، لأن الزيادة بعد أصل الشيء، فوضعوا الهاء عند عدم كونها للتأنيث والتوحيد في اللفظ المفرد لا في الجمع للمبالغة إذا ثبت هذا فنقول: في كانت الكائنة ووقعت الواقعة حصل هذا معنى لا لفظًا، أما معنى فلأنهم قصدوا بقولهم: كانت الكائنة أن الكائن زائد على أصل ما يكون، وأما لفظًا فلأن الهاء لو كانت للمبالغة لما جاز إثبات ضمير المؤنث في الفعل، بل كان ينبغي أن يقولوا: كان الكائنة ووقع الواقعة، ولا يمكن ذلك لأنا نقول: المراد به المبالغة.

المسألة الثالثة: العامل في (إذا) ماذا؟ نقول: فيه ثلاثة أوجه: أحدها: فعل متقدم يجعل إذا مفعولاً به لا ظرفًا وهو اذكر، كأنه قال: اذكر القيامة، ثانيها: العامل فيها ليس لوقعتها كاذبة كما تقول: يوم الجمعة ليس لي شغل، ثالثها: يخفض قوم ويرفع قوم، وقد دل عليه ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، وقيل: العامل فيها قوله: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] أي في يوم وقوع الواقعة.

المسألة الرابعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ إشارة إلى أنها تقع دفعة واحدة فالوقعة للمرة الواحدة، وقوله: ﴿ كَاذِبَةٌ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: كاذبة صفة لمحذوف أقيمت مقامه تقديره: ليس لها نفس تكذب، ثانيها: الهاء للمبالغة كما تقول في الواقعة وقد تقدم بيانه، ثالثها: هي مصدر كالعاقبة فإن قلنا بالوجه الأول فاللام تحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون للتعليل أي لا تكذب نفس في ذلك اليوم لشدة وقعتها كما يقال: لا كاذب عند الملك لضبطه الأمور فيكون نفيًا عامًّا بمعنى أن كل أحد يصدقه فيما يقول وقال: وقبله نفوس كواذب في أمور كثيرة ولا كاذب فيقول: لا قيامة لشدة وقعتها وظهور الأمر وكما يقال: لا يحتمل الأمر الإنكار لظهوره لكل أحد فيكون نفيًا خاصًّا بمعنى لا يكذب أحد فيقول: لا قيامة وقبله نفوس قائلة به كاذبة فيه. ثانيهما: أن تكون للتعدية وذلك كما يقال: ليس لزيد ضارب، وحينئذ تقديره إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها

امرؤ يوجد لها كاذب إن أخبر عنها فهي خافضة رافعة تخفض قومًا وترفع قومًا، وعلى هذا لا تكون عاملاً في ﴿إِذَا﴾ وهو بمعنى ليس لها كاذب يقول: هي أمر سهل يطاق يقال لمن يقدم على أمر عظيم ظانًا أنه يطيقه: سل نفسك أي سهلت الأمر عليك وليس بسهل، وإن قلنا بالوجه الثاني وهو المبالغة ففيه وجهان: أحدهما: ليس لها كاذب عظيم بمعنى أن من يكذب ويقدم على الكذب العظيم لا يمكنه أن يكذب لهول ذلك اليوم، وثانيهما: أن أحدًا لو كذب وقال في ذلك اليوم لا قيامة ولا واقعة لكان كاذبًا عظيمًا ولا كاذب لهذه العظمة في ذلك اليوم والأول أدل على هول اليوم، وعلى الوجه الثالث يعود ما ذكرنا إلى أنه لا كاذب في ذلك اليوم بل كل أحد يصدقه.

المسألة الخامسة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ تقديره: هي خافضة رافعة وقد سبق ذكره في التفسير الجملي وفيه وجوه أخرى: أحدها: خافضة رافعة صفتان للنفس الكاذبة أي ليس لوقعتها من يكذب ولا من يغير الكلام فتخفض امْرَأً وترفع آخر فهي خافضة أو يكون هو زيادة لبيان صدق الخلق في ذلك اليوم وعدم إمكان كذبهم والكاذب يغير الكلام، ثم إذا أراد نفي الكذب عن نفسه يقول ما عرفت مما كان كلمة واحدة وربما يقول ما عرفت حرفًا واحدًا، وهذا لأن الكاذب قد يكذب في حقيقة الأمر وربما يكذب في صفة من صفاته والصفة قد يكون ملتفتًا إليها وقد لا يكون ملتفتًا إليها التفاتًا معتبرًا وقد لا يكون ملتفتًا إليها أصلاً مثال الأول قول القائل: ما جاء زيد ويكون قد جاء، ومثال الثاني: ما جاء يوم الجمعة، ومثال الثالث: ما جاء بكرة يوم الجمعة ويكون قد جاء بكرة يوم الجمعة وما جاء أول بكرة يوم الجمعة، والثاني دون الأول والرابع دون الكل، فإذا قال القائل: ما أعرف كلمة كاذبة نفى عنه الكذب في الإخبار وفي صفته والذي يقول: ما عرفت حرفًا واحدًا نفى أمرًا وراءه، والذي يقول: ما عرفت أعرافة واحدة يكون فوق ذلك فقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي من يغير تغييرًا ولو كان يسيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۞﴾

أي كانت الأرض كثيبًا مرتفعًا والجبال مهيلاً منبسطًا، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ كقوله تعالى في وصف الجبال: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقد تقدم بيان فائدة ذكر المصدر وهي أنه يفيد أن الفعل كان قولاً معتبرًا ولم يكن شيئًا لا يلتفت إليه، ويقال فيه: إنه ليس بشيء فإذا قال القائل: ضربته ضربًا معتبرًا لا يقول القائل فيه: ليس بضرب محتقرًا له كما يقال: هذا ليس بشيء، والعامل في: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون إذا رجت بدلاً عن إذا وقعت فيكون العامل فيها ما ذكرنا من قبل، ثانيها: أن يكون العامل في: ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ [الواقعة: ١] هو قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ [الواقعة: ٢] والعامل في: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ هو قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]

تقديره: تخفض الواقعة وترفع وقت رجِّ الأرض وبس الجبال والفاء للترتيب الزماني لأن الأرض ما لم تتحرك والجبال مالم تَنْبَسَّ لا تكون هباء منبثًا، والبس: التقليب، والهباء هو الهواء المختلط بأجزاء أرضية تظهر في خيال الشمس إذا وقع شعاعها في كوة، وقال: الذين يقولون: إن بين الحروف والمعاني مناسبة إن الهواء إذا خالطه أجزاء ثقيلة أرضية ثقل من لفظه حرف فأبدلت الواو الخفيفة بالباء التي لا ينطق بها إلا بإطباق الشفتين بقوة ما أو في الباءِ ثقل ما.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩﴾

أي في ذلك اليوم أنتم أزواج ثلاثة أصناف وفسرها بعدها بقوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الفاء تدل على التفسير، وبيان ما ورد على التقسيم كأنه قال: (أزواجًا ثلاثة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة) إلخ، ثم بيَّن حال كل قوم، فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ فترك التقسيم أولاً واكتفى بما يدل عليه، فإنه ذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها، وسبق قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يغني عن تعديد الأقسام، ثم أعاد كل واحدة لبيان حالها.

المسألة الثانية: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هم أصحاب الجنة، وتسميتهم بأصحاب الميمنة إما لكونهم من جملة من كتبهم بأيمانهم، وإما لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢] وإما لكون اليمين يراد به الدليل على الخير، والعرب تتفاءل بالسانح، وهو الذي يقصد جانب اليمين من الطيور والوحوش عند الزجر والأصل فيه أمر حكمي، وهو أنه تعالى لما خلق الخلق كان له في كل شيء دليل على قدرته واختياره، حتى إن في نفس الإنسان له دلائل لا تعد ولا تحصى، ودلائل الاختيار إثبات مختلفين في محلين متشابهين، أو إثبات متشابهين في محلين مختلفين، إذ حال الإنسان من أشد الأشياء مشابهة فإنه مخلوق من متشابه، ثم إنه تعالى أودع في الجانب الأيمن من الإنسان قوة ليست في الجانب الأيسر لو اجتمع أهل العلم على أن يذكروا له مرجحًا غير قدرة الله وإرادته لا يقدرون عليه، فإن كان بعضهم يدعي كياسة وذكاء يقول: إن الكبد في الجانب الأيمن، وبها قوة التغذية، والطحال في الجانب الأيسر، وليس فيه قوة ظاهرة النفع فصار الجانب الأيمن قويًّا لمكان الكبد على اليمين؟ فنقول: هذا دليل الاختيار لأن اليمين كالشمال، وتخصيص الله اليمين بجعله مكان الكبد دليل الاختيار إذا ثبت أن الإنسان يمينه أقوى من شماله، فضلوا اليمين على الشمال، وجعلوا الجانب الأيمن للأكابر، وقيل لمن له مكانة هو من أصحاب اليمين، ووضعوا له لفظًا على وزن العزيز، فينبغي أن يكون الأمر على ذلك الوجه كالسميع والبصير، ومالا يتغير كالطويل والقصير، وقيل له: اليمين، وهو يدل على القوة، ووضعوا مقابلته اليسار

على الوزن الذي اختص به الاسم المذموم عند النداء بذلك الوزن، وهو الفعال، فإن عند الشتم والنداء بالاسم المذموم يؤتى بهذا الوزن مع البناء على الكسر، فيقال: يا فجار يا فساق يا خباث، وقيل: اليمين اليسار، ثم بعد ذلك استعمل في اليمين، وأما الميمنة فهي مفعلة كأنه الموضع الذي فيه اليمين وكل ما وقع بيمين الإنسان في جانب من المكان، فذلك موضع اليمين فهو ميمنة كقولنا: ملعبة.

المسألة الثالثة: جعل الله تعالى الخلق على ثلاثة أقسام دليل غلبة الرحمة، وذلك لأن جوانب الإنسان أربعة، يمينه وشماله، وخلفه وقدامه، واليمين في مقابلة الشمال والخلف في مقابلة القدام ثم إنه تعالى أشار بأصحاب اليمين إلى الناجين الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم وهم من أصحاب الجانب الأشرف المكرمون، وبأصحاب الشمال إلى الذين حالهم على خلاف أصحاب اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم مهانون وذكر السابقين الذين لا حساب عليهم ويسبقون الخلق من غير حساب بيمين أو شمال، أن الذين يكونون في المنزلة العليا من الجانب الأيمن، وهم المقربون بين يدي الله يتكلمون في حق الغير ويشفعون للغير ويقضون أشغال الناس وهؤلاء أعلى منزلة من أصحاب اليمين، ثم إنه تعالى لم يقل: في مقابلتهم قومًا يكونون متخلفين مؤخرين عن أصحاب الشمال لا يلتفت إليهم لشدة الغضب عليهم وكانت القسمة في العادة رباعية فصارت بسبب الفضل ثلاثية وهو كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]لم يقل: منهم متخلف عن الكل.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال ثم إلى السابقين مع أنه في البيان بيَّن حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب، والجواب: أن نقول: ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلة إنما يكون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يَكُفُّه مانعًا عن المعصية، وأما الذين سرهم مشغول بربهم فلا يحزنون بالعذاب، فلما ذكر تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]وكان فيه من التخويف مالا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى ذكر ما ذكره لقطع العذر لا نفع الخبر، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب فقدم سبحانه أصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجتهم وإن كان لا ينالها أحد إلا بجذب من الله فإن السابق يناله ما يناله بجذب، وإليه الإشارة بقوله: جذبة من جذبات الرحمن خير من عبادة سبعين سنة.

المسألة الخامسة: ما معنى قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؟ نقول: هو ضرب من البلاغة وتقريره هو أن يشرع المتكلم في بيان أمر ثم يسكت عن الكلام ويشير إلى أن السامع لا يقدر على سماعه كما يقول القائل لغيره: أخبرك بما جرى عليَّ ثم يقول هناك هو مجيبًا لنفسه لا أخاف أن يحزنك وكما يقول القائل: من يعرف فلانًا فيكون أبلغ من أن يصفه، لأن السامع إذا سمع وصفه يقول:

هذا نهاية ما هو عليه، فإذا قال: من يعرف فلانًا يفرض السامع من نفسه شيئًا، ثم يقول: فلان عند هذا المخبر أعظم مما فرضته وأنبه مما علمت منه.

المسألة السادسة: ما إعرابه ومنه يعرف معناه؟ نقول: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ جملة استفهامية على معنى التعجب كما تقول: لمدعي العلم ما معنى كذا مستفهمًا ممتحنًا زاعمًا أنه لا يعرف الجواب حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته لأن كلامك مفهوم كأنك تقول: إنك لا تعرف الجواب، إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبرًا ثم لم يخبر بشيء لأن في الإخبار تطويلاً ثم لم يسكت وقال ذلك ممتحنًا زاعمًا أنك لا تعرف كنهه، وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر، كما أن قائلاً إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيدًا وصل، وقال: إن زيدًا ثم قبل قوله: جاء وقع بصره على زيد ورآه جالسًا عنده يسكت ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة وقد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال: من جاء فإنه إن قال: زيد يكون جوابًا وكثيرًا ما نقول: زيد ولا نقول: جاء، وقد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة كقول القائل الغضبان: من زيد؟ ويسكت ثم يقول: ماذا أقول عنه. إذا علم هذا فنقول لما قال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه: إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء؟ فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ممتحنًا زاعمًا أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته، وهذا وجه بليغ، وفيه وجه ظاهر وهو أن يقال: معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال: وأصحاب الميمنة ما هم؟ على سبيل الاستفهام غير أنه أقام المظهر مقام المضمر وقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ والإتيان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرهم حيث ذكرهم ظاهرًا مرتين وكذلك القول في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وكذلك في قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢]وفي قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢].

المسألة السابعة: ما الحكمة في اختيار لفظ ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ في مقابلة ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، مع أنه قال في بيان أحوالهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]؟ نقول: اليمين وضع للجانب المعروف أولاً ثم تفاءلوا به واستعملوا منه ألفاظًا في مواضع وقالوا: هذا ميمون وقالوا: أيمن به ووضعوا للجانب المقابل له اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه، فصار في مقابلة اليمين كيفما يدور فيقال: في مقابلة اليمنى اليسرى، وفي مقابلة الأيمن الأيسر، وفي مقابلة الميمنة الميسرة، ولا تستعمل الشمال كما تستعمل اليمين، فلا يقال: الأشمل ولا المشملة، وتستعمل المشأمة كما تستعمل الميمنة، فلا يقال: في مقابلة اليمين لفظ من باب الشؤم، وأما الشآم فليس

في مقابلة اليمين بل في مقابلة يمان، إذا علم هذا فنقول: بعد ما قالوا باليمين لم يتركوه واقتصروا على استعمال لفظ اليمين في الجانب المعروف من الآدمي، ولفظ الشمال في مقابلته وحدث لهم لفظان آخران فيه: أحدهما: الشمال وذلك لأنهم نظروا إلى الكواكب من السماء وجعلوا ممرها وجه الإنسان وجعلوا السماء جانبين وجعلوا أحدهما أقوى كما رأوا في الإنسان، فسموا الأقوى بالجنوب لقوة الجانب كما يقال: غضوب ورءوف، ثم رأوا في مقابلة الجنوب جانبًا آخر شمل ذلك الجانب عمارة العالم فسموه شمالاً واللفظ الآخر: المشأمة والأشأم في مقابلة الميمنة والأيمن، وذلك لأنهم لما أخذوا من اليمين اليمن وغيره للتفاؤل وضعوا الشؤم في مقابلته لا في أعضائهم وجوانبهم تكرهًا لجعل جانب من جوانب نفسه شؤمًا، ولما وضعوا ذلك واستمر الأمر عليه نقلوا اليمين من الجانب إلى غيره، فالله تعالى ذكر الكفار بلفظين مختلفين فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] وترك لفظ الميسرة واليسار الدال على هون الأمر، فقال هاهنا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ بأفظع الاسمين، ولهذا قالوا في العساكر: الميمنة والميسرة اجتنابًا من لفظ الشؤم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه أحدها: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ عطف على ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] وعنده تم الكلام، وقوله: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ جملة واحدة، والثاني: أن قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ جملة واحدة، كما يقول القائل: أنت أنت، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي[1]

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون لشهرة أمر المبتدأ بما هو عليه فلا حاجة إلى الخبر عنه وهو مراد الشاعر وهو المشهور عند النحاة، والثاني: للإشارة إلى أن في المبتدأ مالا يحيط العلم به ولا يخبر عنه ولا يعرف منه إلا نفس المبتدأ، وهو كمايقول القائل لغيره أخبرني عن حال الملك فيقول: لا أعرف من الملك إلا أنه ملك فقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي لا يمكن الإخبار عنهم إلا بنفسهم فإن حالهم وما هم عليه فوق أن يحيط به علم البشر وهاهنا لطيفة: وهي أنه في أصحاب الميمنة قال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] بالاستفهام وإن كان للإعجاز لكن جعلهم مورد الاستفهام وهاهنا لم يقل: والسابقون ما السابقون، لأن الاستفهام الذي للإعجاز يورد على مدعي العلم فيقال له: إن كنت تعلم فبين الكلام وأما إذا كان يعترف بالجهل فلا يقال له: كذبت، ولا يقال: كيف كذا، وما الجواب عن ذلك، فكذلك في: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ما جعلهم بحيث يدعون، فيورد

(١) تقدم.

عليهم الاستفهام فيبين عجزهم بل بنى الأمر على أنهم معترفون في الابتداء بالعجز، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ كقول العالم: لمن سأل عن مسألة معضلة وهو يعلم أنه لا يفهمها وإن كان أبانها غاية الإبانة أن الأمر فيها على ما هو عليه ولا يشتغل بالبيان، وثالثها: هو أن السابقون ثانيًا تأكيد لقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ والوجه الأوسط هو الأعدل الأصح، وعلى الوجه الأوسط قول آخر: وهو أن المراد منه أن السابقين إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى.

المسألة الثانية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يقتضي الحصر فينبغي أن لا يكون غيرهم مقربًا، وقد قال في حق الملائكة إنهم مقربون، نقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من الأزواج الثلاثة، فإن قيل: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ليسوا من المقربين، نقول: للتقريب درجات (والسابقون) في غاية القرب، ولا حد هناك، ويحتمل وجهًا آخر، وهو أن يقال: المراد السابقون مقربون من الجنات حال كون أصحاب اليمين متوجهين إلى طريق الجنة لأنه بمقدار ما يحاسب المؤمن حسابًا يسيرًا ويؤتى كتابه بيمينه يكون السابقون قد قربوا من المنزل أو قربهم إلى الله في الجنة وأصحاب اليمين بعد متوجهون إلى ما وصل إليه المقربون، ثم إن السير والارتفاع لا ينقطع فإن السير في الله لا انقطاع له، والارتفاع لا نهاية له، فكلما تقرب أصحاب اليمين من درجة السابق، يكون قد انتقل هو إلى موضع أعلى منه، فأولئك هم المقربون في جنات النعيم، في أعلى عليين حال وصول أصحاب اليمين إلى الحور العين.

المسألة الثالثة: بعد بيان أقسام الأزواج لم يعد إلى بيان حالهم على ترتيب ذكرهم، بل بيّن حال السابقين مع أنه أخرهم، وأخر ذكر أصحاب الشمال مع أنه قدمهم أولاً في الذكر على السابقين، نقول: قد بينا أن عند ذكر الواقعة قدم من ينفعه ذكر الأهوال، وأخر من لا يختلف حاله بالخوف والرجاء، وأما عند البيان فذكر السابق لفضيلته وفضيلة حاله.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عرف النعيم باللام هاهنا وقال في آخر السورة: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] بدون اللام، والمذكور في آخر السورة هو واحد من السابقين فله جنة من هذه الجنات وهذه معرفة بالإضافة إلى المعرفة، وتلك غير معرفة فما الفرق بينهما؟ فنقول: الفرق لفظي ومعنوي: فاللفظي هو أن السابقين معرفون باللام المستغرقة لجنسهم، فجعل موضع المعرفين معرفًا، وأما هناك فهو غير معرف، لأن قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨] أي إن كان فردًا منهم فجعل موضعه غير معرف مع جواز أن يكون الشخص معرفًا وموضعه غير معرف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥] و﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]

وبالعكس أيضًا، وأما المعنوي: فنقول: عند ذكر الجمع جمع الجنات في سائر المواضع فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ﴾[الواقعة: ١١، ١٢] لكن السابقون نوع من المتقين، وفي المتقين غير السابقين أيضًا، ثم إن السابقين لهم منازل ليس فوقها منازل، فهي صارت معروفة لكونها في غاية العلو أو لأنها لا أحد فوقها، وأما باقي المتقين فلكل واحد مرتبة وفوقها مرتبة فهم في جنات متناسبة في المنزلة لا يجمعها صقع واحد لاختلاف منازلهم، وجنات السابقين على حد واحد في أعلى عليين يعرفها كل أحد، وأما الواحد منهم فإن منزلته بين المنازل، ولا يعرف كل أحد أنه لفلان السابق فلم يعرفها، وأما منازلهم فيعرفها كل أحد، ويعلم أنها للسابقين، ولم يعرف الذي للمتقين على وجه كهذا.

المسألة الثانية: إضافة الجنة إلى النعيم من أي الأنواع؟ نقول: إضافة المكان إلى ما يقع في المكان يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل، فكذلك جنة النعيم، وفائدتها أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعيم، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير.

المسألة الثالثة: في ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، يحتمل أن يكون خبرًا بعد خبر، ويحتمل أن يكون خبرًا واحدًا، أما الأول فتقديره: أولئك المقربون كائنون في جنات، كقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٦]، وأما الثاني فتقديرهم: المقربون في الجنات من الله كما يقال: هو المختار عند الملك في هذه البلدة، وعلى الوجه الأول فائدته بيان تنعيم جسمهم، وكرامة نفسهم فهم مقربون عند الله فهم في غاية اللذة وفي جنات، فجسمهم في غاية النعيم، بخلاف المقربين عند الملوك، فإنهم يلتذون بالقرب لكن لا يكون لجسمهم راحة، بل يكونون في تعب من الوقوف وقضاء الأشغال، ولهذا قال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ولم يقتصر على جنات، وعلى الوجه الثاني فائدته التمييز عن الملائكة، فإن المقربين في يومنا هذا في السموات هم الملائكة والسابقون: المقربون في الجنة فيكون المقربون في غيرها هم الملائكة، وفيه لطيفة: وهي أن قرب الملائكة قرب الخواص عند الملك الذين هم للأشغال، فهم ليسوا في نعيم، وإن كانوا في لذة عظيمة ولا يزالون مشفقين قائمين بباب الله يرد عليهم الأمر ولا يرتفع عنهم التكليف، والسابقون لهم قرب عند الله، كما يكون لجلساء الملوك، فهم لا يكون بيدهم شغل ولا يرد عليهم أمر، فيلتذون بالقرب، ويتنعمون بالراحة.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝﴾

وهذا خبر بعد خبر، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: قد ذكرت أن قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾[الواقعة: ١٠] جملة، وإنما كان الخبر عين المبتدأ لظهور حالهم أو لخفاء أمرهم على غيرهم، فكيف جاء خبر بعده؟ نقول: ذلك المقصود قد

أفاد ذكر خبر آخر لمقصود آخر، كما أن واحدًا يقول: زيد لا يخفى عليك حاله إشارة إلى كونه من المشهورين ثم يشرع في حال يخفى على السامع مع أنه قال: لا يخفى، لأن ذلك كان لبيان كونه ليس من الغرباء كذلك هاهنا قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ لبيان عظمتهم ثم ذكر حال عددهم.

المسألة الثانية: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من هم؟ نقول: المشهور أنهم من كان قبل نبينا ﷺ وإنما قال: ﴿ثُلَّةٌ﴾ والثلة: الجماعة العظيمة، لأن من قبل نبينا من الرسل والأنبياء من كان من كبار أصحابهم إذا جمعوا يكونون أكثر بكثير من السابقين من أمة محمد ﷺ، وعلى هذا قيل: إن الصحابة لما نزلت هذه الآية صعب عليهم قلتهم، فنزل بعده: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٠] هذا في غاية الضعف من وجوه: أحدها: أن عدد أمة محمد ﷺ إذا كان في ذلك الزمان بل إلى آخر الزمان، بالنسبة إلى من مضى في غاية القلة فماذا كان عليهم من إنعام الله على خلق كثير من الأولين وما هذا إلا خُلْف غير جائز، وثانيها: أن هذا كالنسخ في الأخبار وأنه في غاية البعد، ثالثها: ما ورد بعدها لا يرفع هذا لأن الثلة من الأولين هنا في السابقين من الأولين وهذا ظاهر لأن أمة محمد ﷺ كثروا ورحمهم الله تعالى فعفا عنهم أمورًا لم تعف عن غيرهم، وجعل للنبي ﷺ الشفاعة فكثر عدد الناجين وهم أصحاب اليمين، وأما من لم يأثم ولم يرتكب الكبيرة من أمة محمد ﷺ فهم في غاية القلة وهم السابقون، ورابعها: هذا توهم وكان ينبغي أن يفرحوا بهذه الآية لأنه تعالى لما قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دخل فيهم الأول من الرسل والأنبياء، ولا نبي بعد محمد ﷺ، فإذا جعل قليلاً من أمته مع الرسل والأنبياء والأولياء الذين كانوا في درجة واحدة، يكون ذلك إنعامًا في حقهم ولعله إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، الوجه الثاني: المراد منه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] فإن أكثرهم لهم الدرجة العليا، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ [الحديد: ١٠] الآية. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] يكون خطابًا مع الموجودين وقت التنزيل، ولا يكون فيه بيان الأولين الذين كانوا قبل نبينا عليه السلام، وهذا ظاهر فإن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين من حيث اللفظ، ويدخل فيه غيرهم بالدليل، الوجه الثالث: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنفسهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطور: ٢١] فالمؤمنون وذرياتهم إن كانوا من أصحاب اليمين فهم في الكثرة سواء، لأن كل صبي مات وأحد أبويه مؤمن فهو من أصحاب اليمين، وأما إن كانوا من المؤمنين السابقين، فقلما يدرك ولدهم درجة السابقين وكثيرًا ما يكون ولد المؤمن أحسن حالاً من الأب لتقصير في أبيه ومعصية لم توجد في الابن الصغير وعلى هذا فقوله: ﴿ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ المراد منه الآخرون التابعون من الصغار.

قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ ﴾

والموضونة: هي المنسوجة القوية اللحمة والسدى، ومنه يقال للدرع المنسوجة: موضونة والوضين هو الحبل العريض الذي يكون منه الحزم لقوة سداه ولحمته، والسرر التي تكون للملوك يكون لها قوائم من شيء صلب ويكون مجلسهم عليها معمولاً بحرير وغير ذلك لأنه أنعم من الخشب وما يشبهه في الصلابة وهذه السرر قوائمها من الجواهر النفيسة، وأرضها من الذهب الممدود، وقوله تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ للتأكيد، والمعنى أنهم كائنون على سرر متكئين عليها متقابلين، ففائدة التأكيد هو أن لا يظن أنهم كائنون على سرر متكئين على غيرها كما يكون حال من يكون على كرسي صغير لا يسعه للاتكاء فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه، فلما قال: على سرر متكئين عليها دل هذا على أن استقرارهم واتكاءهم جميعًا على سرر، وقوله تعالى: ﴿ مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن أحدًا لا يستدبر أحدًا، وثانيهما: أن أحدًا من السابقين لا يرى غيره فوقه، وهذا أقرب لأن قوله: ﴿ مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ على الوجه الأول يحتاج إلى أن يقال: متقابلين معناه أن كل أحد يقابل أحدًا في زمان واحد، ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات، وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور، فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية جميع جهاتهم وجه كالنور الذي يقابل كل شيء ولا يستدبر أحدًا، والوجه الأول أقرب إلى أوصاف المكانيات.

ثم قال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ والولدان: جمع الوليد، وهو في الأصل فعيل بمعنى مفعول وهو المولود لكن غلب على الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين، والدليل أنهم قالوا للجارية الصغيرة وليدة، ولو نظروا إلى الأصل لجردوها عن الهاء كالقتيل، إذا ثبت هذا فنقول: في الولدان وجهان: أحدهما: أنه على الأصل وهم صغار المؤمنين وهو ضعيف، لأن صغار المؤمنين أخبر الله تعالى عنهم أنه يلحقهم بآبائهم، ومن الناس المؤمنين الصالحين من لا ولد له فلا يجوز أن يخدم ولد المؤمن مؤمنًا غيره، فيلزم إما أن يكون لهم اختصاص ببعض الصالحين وأن لا يكون لمن لا يكون له ولد من يطوف عليه من الولدان، وإما أن يكون ولد الآخر يخدم غير أبيه وفيه منقصة بالأب، وعلى هذا الوجه قيل: هم صغار الكفار وهو أقرب من الأول إذ ليس فيه ما ذكرنا من المفسدة، والثاني: أنه على الاستعمال الذي لم يلحظ فيه الأصل وهو إرادة الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين وهو حينئذ كقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤] وفي قوله تعالى: ﴿ مُّخَلَّدُونَ﴾ وجهان أحدهما: أنه من الخلود والدوام، وعلى هذا الوجه يظهر وجهان آخران: أحدهما: أنهم مخلدون ولا موت لهم ولا فناء،

وثانيهما: لا يتغيرون عن حالهم ويبقون صغارًا دائمًا لا يكبرون ولا يلتحون، والوجه الثاني: أنه من الخلدة وهو القرط بمعنى في آذانهم حلق، والأول أظهر وأليق.

قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾

أواني الخمر تكون في المجالس، وفي الكوب وجهان: أحدهما: أنه من جنس الأقداح وهو قدح كبير، وثانيهما: من جنس الكيزان ولا عروة له ولا خرطوم والإبريق له عروة وخرطوم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفرق بين الأكواب والأباريق والكأس حيث ذكر الأكواب والأباريق بلفظ الجمع والكأس بلفظ الواحد ولم يقل: وكئوس؟ نقول: هو على عادة العرب في الشرب يكون عندهم أوان كثيرة فيها الخمر معدة موضوعة عندهم، وأما الكأس فهو القدح الذي يشرب به الخمر إذا كان فيه الخمر ولا يشرب واحد في زمان واحد إلا من كأس واحد، وأما أواني الخمر المملوءة منها في زمان واحد فتوجد كثيرًا، فإن قيل: الطواف بالكأس على عادة أهل الدنيا وأما الطواف بالأكواب والأباريق فغير معتاد فما الفائدة فيه؟ نقول: عدم الطواف بها في الدنيا لدفع المشقة عن الطائف لثقلها وإلا فهي محتاج إليها بدليل أنه عند الفراغ يرجع إلى الموضع الذي هي فيه، وأما في الآخرة فالآنية تدور بنفسها والوليد معها إكرامًا لا للحمل، وفيه وجه آخر من حيث اللغة وهو أن الكأس إناء فيه شراب فيدخل في مفهومه المشروب، والإبريق آنية لا يشترط في إطلاق اسم الإبريق عليها أن يكون فيها شراب، وإذا ثبت هذا فنقول الإناء المملوء الاعتبار لما فيه لا للإناء، وإذا كان كذلك فاعتبار الكأس بما فيه لكن فيه مشروب من جنس واحد وهو المعتبر، والجنس لا يجمع إلا عند تنوعه فلا يقال للأرغفة من جنس واحد: أخباز، وإنما يقال: أخباز عندما يكون بعضها أسود وبعضها أبيض وكذلك اللحوم يقال عند تنوع الحيوانات التي منها اللحوم ولا يقال للقطعتين من اللحم لحمان، وأما الأشياء المصنفة فتجمع، فالأقداح وإن كانت كبيرة لكنها لما ملئت خمرًا من جنس واحد لم يجز أن يقال لها: خمور فلم يقل: كئوس وإلا لكان ذلك ترجيحًا للظروف، لأن الكأس من حيث إنها شراب من جنس واحد لا بجمع واحد فيترك الجمع ترجيحًا لجانب المظروف بخلاف الإبريق فإن المعتبر فيه الإناء فحسب، وعلى هذا يتبين بلاغة القرآن حيث لم يرد فيه لفظ الكئوس إذ كان ما فيها نوع واحد من الخمر، وهذا بحث عزيز في اللغة.

المسألة الثانية: في تأخير الكأس ترتيب حسن، فكذلك في تقديم الأكواب إذ كان الكوب منه يصب الشراب في الإبريق ومن الإبريق في الكأس.

المسألة الثالثة: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ بيان ما في الكأس أو بيان ما في الأكواب والأباريق، نقول: يحتمل أن يكون الكل من معين والأول أظهر بالوضع، والثاني ليس كذلك، فلما قال: ﴿وَكَأْسٍ﴾

فكأنه قال: ومشروب، وكأن السامع محتاجًا إلى معرفة المشروب، وأما الإبريق فدلالته على المشروب ليس بالوضع، وأما المعنى فلأن كون الكل ملآنًا هو الحق، ولأن الطواف بالفارغ لا يليق فكان الظاهر بيان ما في الكل، ومما يؤيد الأول هو أنه تعالى عند ذكر الأواني ذكر جنسها لا نوع ما فيها فقال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الإنسان: ١٥] الآية، وعند ذكر الكأس بين ما فيها فقال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ فيحتمل أن الطواف بالأباريق، وإن كانت فارغة للزينة والتجمل وفي الآخرة تكون للإكرام والتنعم لا غير.

المسألة الرابعة: ما معنى المعين؟ قلنا: ذكرنا في سورة الصافات أنه فعيل أو مفعول ومضى فيه خلاف، فإن قلنا: فعيل فهو من مَعِن الماء إذا جرى، وإن قلنا: مفعول فهو من عانه إذا شخصه بعينه وميزه، والأول أصح وأظهر لأن المعيون يوهم بأنه معيوب لأن قول القائل: عانني فلان معناه ضرني إذا أصابتني عينه، ولأن الوصف بالمفعول لا فائدة فيه، وأما الجريان في المشروب فهو إن كان في الماء فهو صفة مدح وإن كان في غيره فهو أمر عجيب لا يوجد في الدنيا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: لا يصيبهم منها صداع يقال: صدعني فلان أي أورثني الصداع، والثاني: لا ينزفون عنها ولا ينفدونها من الصدع، والظاهر أن أصل الصداع منه، وذلك لأن الألم الذي في الرأس يكون في أكثر الأمر بخلط وريح في أغشية الدماغ فيؤلمه فيكون الذي به صداع كأنه يتطرق في غشاء دماغه.

المسألة الثانية: إن كان المراد نفي الصداع فكيف يحسن عنها مع أن المستعمل في السبب كلمة (من)، فيقال: مرض من كذا وفي المفارقة يقال: عن، فيقال: برىء عن المرض؟ نقول: الجواب هو أن السبب الذي يثبت أمرًا في شيء كأنه ينفصل عنه شيء ويثبت في مكانه فعله، فهناك أمران ونظران إذا نظرت إلى المحل ورأيت فيه شيئًا تقول: هذا من ماذا، أي ابتداء وجوده من أي شيء فيقع نظرك على السبب فتقول: هذا من هذا أي ابتداء وجوده منه، وإذا نظرت إلى جانب المسبب ترى الأمر الذي صدر عنه كأنه فارقه والتصق بالمحل، ولهذا لا يمكن أن يوجد ذلك مرة أخرى، والسبب كأنه كان فيه وانتقل عنه في أكثر الأمر فهاهنا يكون الأمران من الأجسام والأمور التي لها قرب وبعد، إذا علم هذا فنقول: المراد هاهنا بيان خمر الآخرة في نفسها وبيان ما عليها، فالنظر وقع عليها لا على الشاربين ولو كان المقصود أنهم لا يصدعون عنها لوصف منهم لما كان مدحًا لها، وأما إذا قال: هي لا تصدع لأمر فيها يكون مدحًا لها فلما وقع النظر عليها قال: عنها، وأما إذا كنت تصف رجلًا بكثرة الشرب وقوته عليه، فإنك تقول في

حقه: هو لا يصدع من كذا من الخمر، فإذا وصفت الخمر تقول هذه لا يصدع عنها أحد.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ تقدم تفسيره في الصافات، والذي يحسن ذكره هنا أن نقول: إن كان معنى ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا يسكرون، فنقول: إما أن نقول معنى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ أنهم لا يصيبهم الصداع، وإما أنهم لا يفقدون، فإن قلنا بالقول الأول فالترتيب في غاية الحسن لأنه على طريقة الارتقاء، فإن قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ معناه لا يصيبهم الصداع لكن هذا لا ينفي السكر فقال بعده: ولا يورث السكر، كقول القائل: ليس فيه مفسدة كثيرة، ثم يقول: ولا قليلة، تتميمًا للبيان، ولو عكست الترتيب لا يكون حسنًا، وإن قلنا: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا يفقدون فالترتيب أيضًا كذلك لأن قولنا: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ أي لا يفقدونه ومع كثرته ودوام شربه لا يسكرون فإن عدم السكر لنفاد الشراب ليس بعجب، لكن عدم سكرهم مع أنهم مستديمون للشراب عجيب وإن قلنا: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بمعنى لا ينفد شرابهم كما بينا هناك. فنقول أيضًا: إن كان لا يصدعون بمعنى لا يصيبهم صداع فالترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ لا يكون بيان أمر عجيب إن كان شرابهم قليلاً فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ مع أنهم لا يفقدون الشراب ولا ينزفون الشراب، وإن كان بمعنى لا ينزفون عنها فالترتيب حسن لأن معناه لا ينزفون عنها بمعنى لا يخرجون عما هم فيه ولا يؤخذ منهم ما أعطوا من الشراب، ثم إذا أفنوها بالشراب يعطون.

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه الجر، والفاكهة لا يطوف بها الولدان والعطف يقتضي ذلك؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الفاكهة واللحم في الدنيا يطلبان في حالتين: أحدهما: حالة الشرب والأخرى حال عدمه، فالفاكهة من رءوس الأشجار تؤخذ، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وقال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] إلى غير ذلك، وأما حالة الشراب فجاز أن يطوف بها الولدان، فيناولوهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للأكل بل للإكرام، كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده عنده وإن كان كل واحد منهما مشاركًا للآخر في القرب منها، والوجه الثاني: أن يكون عطفًا في المعنى على ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي هم المقربون في جنات وفاكهة، ولحم وحور، أي في هذه النعم يتقلبون، والمشهور أنه عطف في اللفظ للمجاورة لا في المعنى، وكيف لا يجوز هذا، وقد جاز تقلد سيفًا ورمحًا.

المسألة الثانية: هل في تخصيص التخيير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة؟ قلت: وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة، وإن كان لا يحيط بها ذهني الكليل، ولا يصل إليها علمي القليل، والذي يظهر لي فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم، وإذا حضرا عند الشبعان تميل إلى الفاكهة، والجائع مشته والشبعان غير مشته، وإنما هو

مختار إن أراد أكل، وإن لم يرد لا يأكل، ولا يقال في الجائع: إن أراد أكل لأن (إن) لا تدخل إلا على المشكوك، إذا علم هذا ثبت أن في الدنيا اللحم عند المشتهي مختار والفاكهة عند غير المشتهى مختارة وحكاية الجنة على ما يفهم في الدنيا فخص اللحم بالاشتهاء والفاكهة بالاختيار، والتحقيق فيه من حيث اللفظ أن الاختيار هو أخذ الخير من أمرين والأمران اللذان يقع فيهما الاختيار في الظاهر لا يكون للمختار أولاً ميل إلى أحدهما، ثم يتفكر ويتروى، ويأخذ ما يغلبه نظره على الآخر فالتفكه هو ما يكون عند عدم الحاجة، وأما إن اشتهى واحد فاكهة بعينها فاستحضرها وأكلها فهو ليس بمتفكه وإنما هو دافع حاجة، وأما فواكه الجنة تكون أولاً عند أصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم إليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم، وأما اللحم فتميل أنفسهم إليه أدنى ميل فيحضر عندهم، وميل النفس إلى المأكول شهوة، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] فهو دليل على أنها دائمة الحضور، وأما اللحم فالمروي أن الطائر يطير فتميل نفس المؤمن إلى لحمه فينزل مشويًا ومقليًا على حسب ما يشتهيه، فالحاصل أن الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه إليه أدنى ميل، وذلك لأن الفاكهة تلذ الأعين بحضورها، واللحم لا تلذ الأعين بحضوره، ثم إن في اللفظ لطيفة، وهي أنه تعالى قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ولم يقل: مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم؟ نقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: العادة في الدنيا التقديم للفواكه في الأكل والجنة وضعت بما علم في الدنيا من الأوصاف وعلى ما علم فيها، ولا سيما عادة أهل الشرب وكأن المقصود بيان حال شرب أهل الجنة، وثانيها: الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولاً لأنها ألطف وأسرع انحدارًا وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها، وثالثها: يخرج مما ذكرنا جوابًا خلا عن لفظ التخيير والاشتهاء هو أنه تعالى لما بيّن أن الفاكهة دائمة الحضور والوجود، واللحم يشتهى ويحضر عند الاشتهاء دل هذا على عدم الجوع لأن الجائع حاجته إلى اللحم أكثر من اختياره اللحم فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ لأن الحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها، وهذا الوجه أصح لأن من الفواكه مالا يؤكل إلا بعد الطعام، فلا يصح الأول جوابًا في الكل.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾

وفيها قراءات الأولى: الرفع وهو المشهور، ويكون عطفًا على ولدان، فإن قيل قال قبله: ﴿وَحُورٌ

﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[الرحمن: ٧٢] إشارة إلى كونها مخدرة ومستورة، فكيف يصح قولك: إنه عطف على ولدان؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: وهو المشهور أن نقول: هو عطف عليهم في اللفظ لا في المعنى، أو في المعنى على التقدير والمفهوم لأن قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾[الواقعة: ١٧] معناه لهم ولدان كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾[الطور: ٢٤] فيكون: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بمعنى ولهم حور عين، وثانيهما: وهو أن يقال: ليست الحور منحصرات في جنس، بل لأهل الجنة: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾ في حظائر مُعظَّمات ولهن جواري وخوادم، وحور تطوف مع الولدان السقاة فيكون كأنه قال: يطوف عليهم ولدان ونساء، الثانية: الجر عطفًا على أكواب وأباريق، فإن قيل: كيف يطاف بهن عليهم؟ نقول: الجواب سبق عند قوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾[الواقعة: ٢١] أو عطفًا على: ﴿جَنَّٰتِ﴾[الواقعة: ١٢] أي: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وحور وقرئ (وحورًا عينًا) بالنصب، ولعل الحاصل على هذه القراءة على غير العطف بمعنى العطف لكن هذا القارئ لا بد له من تقدير ناصب فيقول: يؤتون حورًا فيقال: قد رافعًا فقال: ولهم حور عين فلا يلزم الخروج عن موافقة العاطف وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ **فيه مباحث:**

الأول: الكاف للتشبيه، والمثل حقيقة فيه، فلو قال: أمثال اللؤلؤ المكنون لم يكن إلى الكاف حاجة، فما وجه الجمع بين كلمتي التشبيه؟ نقول: الجواب المشهور أن كلمتي التشبيه يفيدان التأكيد والزيادة في التشبيه، فإن قيل: ليس كذلك بل لا يفيدان ما يفيد أحدهما لأنك إن قلت مثلاً: هو كاللؤلؤة للمشبه، دون المشبه به في الأمر الذي لأجله التشبيه؟ نقول: التحقيق فيه، هو أن الشيء إذا كان له مثل فهو مثله، فإذا قلت: هو مثل القمر لا يكون في المبالغة مثل قولك هو قمر وكذلك قولنا: هو كالأسد، وهو أسد، فإذا قلت: كمثل اللؤلؤ كأنك قلت: مثل اللؤلؤ وقولك: هو اللؤلؤ أبلغ من قولك: هو كاللؤلؤ، وهذا البحث يفيدنا هاهنا، ولا يفيدنا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١] لأن النفي في مقابلة الإثبات، ولا يفهم معنى النفي من الكلام مالم يفهم معنى الإثبات الذي يقابله، فنقول قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في مقابلة قول من يقول: كمثله شيء، فنفى ما أثبته لكن معنى قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إذا لم نقل بزيادة الكاف هو أن مثل مثله شيء، وهذا كلام يدل على أن له مثلاً، ثم إن لمثله مثلاً، فإذا قلنا: ليس كذلك كان ردًا عليه، والرد عليه صحيح بقي أن يقال: إن الراد على من يثبت أمورًا لا يكون نافيًا لكل ما أثبته، فإذا قال قائل: زيد عالم جيد، ثم قيل ردًا عليه: ليس زيد عالمًا جيدًا لا يلزم من هذا أن يكون نافيًا لكونه عالمًا، فمن يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ بمعنى ليس مثل مثله شيء لا يلزم أن يكون نافيًا لمثله، بل يحتمل أن يكون نافيًا لمثل المثل، فلا يكون الراد أيضًا موحدًا فيخرج الكلام عن إفادة التوحيد، فنقول: يكون مفيدًا للتوحيد لأنا إذا قلنا: ليس مثل مثله شيء لزم أن لا يكون له مثل لأنه لو كان له مثل لكان هو مثل مثله، وهو شيء بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١٩] فإن حقيقة الشيء هو الموجود فيكون مثل مثله شيء وهو

منفي بقولنا: ليس مثل مثله شيء، فعلم أن الكلام لا يخرج عن إفادة التوحيد، فعلم أن الحمل على الحقيقة يفيد في الكلام مبالغة في قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ وأما عدم الحمل عليها في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فهو أوجز فتجعل الكاف زائدة لئلا يلزم التعطيل، وهو نفي الإله، نقول: فيه فائدة، وهو أن يكون ذلك نفيًا مع الإشارة إلى وجه الدليل على النفي، وذلك لأنه تعالى واجب الوجود، وقد وافقنا من قال بالشريك، ولا يخالفنا إلا المعطل، وذلك إثباته ظاهر، وإذا كان هو واجب الوجود فلو كان له مثل لخرج عن كونه واجب الوجود، لأنه مع مثله تعادلاً في الحقيقة، وإلا لما كان ذلك مثله وقد تعدد فلا بد من انضمام مميز إليه به يتميز عن مثله، فلو كان مركبًا فلا يكون واجبًا لأن كل مركب ممكن، فلو كان له مثل لما كان هو هو فيلزم من إثبات المثل له نفيه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ إذا حملناه أنه ليس مثل مثله شيء، ويكون في مقابلته قول الكافر: مثل مثله شيء فيكون مثبتًا لكونه مثل مثله ويكون مثله يخرج عن حقيقة نفسه ومنه لا يبقى واجب الوجود فذكر المثلين لفظًا يفيد التوحيد مع الإشارة إلى وجه الدليل على بطلان قول المشرك ولو قلنا: ليس مثله شيء يكون نفيًا من غير إشارة إلى دليل، والتحقيق فيه أنا نقول: في نفي المثل ردًّا على المشرك لا مثل لله، ثم نستدل عليه ونقول: لو كان له مثل لكان هو مثلاً لذلك المثل فيكون ممكنًا محتاجًا فلا يكون إلهًا ولو كان له مثل لما كان الله إلهًا واجب الوجود، لأن عند فرض مثل له يشاركه بشيء وينافيه بشيء، فيلزم تركه فلو كان له مثل لخرج عن حقيقة كونه إلهًا فإثبات الشريك يفضي إلى نفي الإله فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ توحيد بالدليل وليس مثله شيء توحيد من غير دليل وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله [1] بعدما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها، وأما قوله تعالى: ﴿ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ إشارة إلى غاية صفائهن أي اللؤلؤ الذي لم يغير لونه الشمس والهواء.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وفي نصبه وجهان أحدهما: أنه مفعول له وهو ظاهر تقديره فعل بهم هذا ليقع جزاء وليجزون بأعمالهم، وعلى هذا فيه لطيفة: وهي أن نقول: المعنى أن هذا كله جزاء عملكم، وأما الزيادة فلا يدركها أحد منكم، وثانيهما: أنه مصدر لأن الدليل على أن كل ما يفعله الله فهو جزاء فكأنه قال: تجزون جزاء، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ قد ذكرنا فائدته في سورة الطور وهي أنه تعالى قال في حق المؤمنين: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفي حق الكافرين: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] إشارة إلى أن العذاب عين جزاء ما فعلوا فلا زيادة عليهم، والثواب: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

---

(١) هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب أو هذه السورة لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازي وإنما هذا لأحد تلاميذه أكملها بعد وفاته أو نقص بالأصل وكمله أحد العلماء المتأخرين والله أعلم (هامش).

[السجدة: ١٧] فلا يعطيهم الله عين عملهم، بل يعطيهم بسبب عملهم ما يعطيهم، والكافر يعطيه عين ما فعل، فيكون فيه معنى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها فالأولى: قالت المعتزلة: هذا يدل على أن يقال: الثواب على الله واجب، لأن الجزاء لا يجوز المطالبة به، وقد أجاب عنه الإمام فخر الدين رحمه الله بأجوبة كثيرة، وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه وهو ما ذكروه. ولو صح لما كان في الوعد بهذه الأشياء فائدة، وذلك لأن العقل إذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل أن القبيح من الله لا يوجد علم أن الله يعطي هذه الأشياء لأنها أجزية، وإيصال الجزاء واجب، وأما إذا قلنا: بمذهبنا تكون الآيات مفيدة مبشرة، لأن البشارة لا تكون إلا بالخير عن أمر غير معلوم، لا يقال: الجزاء كان واجبًا على الله وأما الخبر بهذه الأشياء فلا يذكرها مبشرًا، لأنا نقول: إذا وجب نفس الجزاء فما أعطانا الله تعالى من النعم في الدنيا جزاء فثواب الآخرة لا يكون إلا تفضلاً منه، غاية ما في الباب أنه تعالى كمل النعمة بقوله: هذا جزاؤكم، أي جعلته لكم جزاء، ولم يكن متعينًا ولا واجبًا، كما أن الكريم إذا أعطى من جاء بشيء يسير شيئًا كثيرًا، فيظن أنه يودعه إيداعًا أو يأمره بحمله إلى موضع، فيقول له: هذا لك فيفرح، ثم إنه يقول: هذا إنعام عظيم يوجب على خدمة كثيرة، فيقول له هذا جزاء ما أتيت به، ولا أطلب منك على هذا خدمة، فإن أتيت بخدمة فلها ثواب جديد، فيكون هذا غاية الفضل، وعند هذا نقول: هذا كله إذا كان الآتي غير العبد، وأما إذا فعل العبد ما أوجب عليه سيده لا يستحق عليه أجرًا، ولا سيما إذا أتى بما أمر به على نوع اختلال، فما ظنك بحالنا مع الله عز وجل، مع أن السيد لا يملك من عبده إلا البنية، والله تعالى يملك منا أنفسنا وأجسامنا، ثم إنك إذا تفكرت في مذهب أهل السنة تجدهم قد حققوا معنى العبودية غاية التحقيق، واعترفوا أنهم عبيد لا يملكون شيئًا ولا يجب للعبد على السيد دين، والمعتزلة لم يحققوا العبودية، وجعلوا بينهم وبين الله معاملة توجب مطالبة، ونرجو أن يحقق الله تعالى معنا المالكية غاية التحقيق، ويدفع حاجاتنا الأصلية ويطهر أعمالنا، كما أن السيد يدفع حاجة عبده بإطعامه وكسوته، ويطهر صومه بزكاة فطره، وإذا جنى جناية لم يمكن المجنى عليه منه، بل يختار فداءه ويخلص رقبته من الجناية، كذلك يدفع الله حاجاتنا في الآخرة، وأهم الحاجات أن يرحمنا ويعفو عنا، ويتغمدنا بالمغفرة والرضوان، حيث منع غيره عن تملك رقابنا باختيار الفداء عنا، وأرجو أن لا يفعل مع إخواننا المعتزلة ما يفعله المتعاملان في المحاسبة بالنقير والقطمير، والمطالبة بما يفضل لأحدهما من القليل والكثير.

المسألة الثانية: قالوا: لو كان في الآخرة رؤية لكانت جزاء، وقد حصر الله الجزاء فيما ذكر، والجواب عنه: أن نقول: لم قلتم: إنها لو كانت تكون جزاء، بل تكون فضلاً منه فوق

الجزاء، وهب أنها تكون جزاء، ولكن لم قلتم: إن ذكر الجزاء حصر وإنه ليس كذلك، لأن من قال لغيره: أعطيتك كذا جزاء على عمل لا ينافي قوله: وأعطيتك شيئًا آخر فوقه أيضًا جزاء عليه، وهب أنه حصر، لكن لم قلتم: إن القربة لا تدل على الرؤية، فإن قيل: قال في حق الملائكة: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، ولم يلزم من قربهم الرؤية، نقول: أجبنا أن قربهم مثل قرب من يكون عند الملك لقضاء الأشغال، فيكون عليه التكليف والوقوف بين يديه بالباب تخرج أوامره عليه، كما قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقرب المؤمن قرب المنعم من الملك، وهو الذي لا يكون إلا للمكالمة والمجالسة في الدنيا، لكن المقرب المكلف ليس كلما يروح إلى باب الملك يدخل عليه، وأما المنعم لا يذهب إليه إلا ويدخل عليه فظهر الفرق.

والذي يدل على أن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١] فيه إشارة إلى الرؤية هو أن الله تعالى في سورة المطففين ذكر الأبرار والفجار، ثم إنه تعالى قال في حق الفجار: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقال في الأبرار: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨] ولم يذكر في مقابلة (المحجوبون) ما يدل على مخالفة حال الأبرار حال الفجار في الحجاب والقرب، لأن قوله: ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] وإن كان دليلاً على القرب وعلو المنزلة لكنه في مقابلة قوله: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] فقوله تعالى في حقهم: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون لجلساء الملك عند الملك، وقوله في حق الملائكة في تلك السورة: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون للكتاب والحساب عند الملك لما أنه في الدنيا يحسد أحدهما الآخر، فإن الكاتب إن كان قربه من الملك بسبب الخدمة لا يختار قرب الكتاب والحساب، بل قرب النديم، ثم إنه بيَّن ذلك النوع من القرب وبيَّن القرب الذي بسبب الكتابة ما يحمله على أن يختار غيره، وفي سورة المطففين قوله: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يدل على أن المقربين غير محجوبين عن النظر إلى الله تعالى، وينبغي أن لا ينظر إلى الله قولنا: جلساء الملك في ظاهر النظر الذي يقتضي في نظر القوم الجهة وإلى القرب الذي يفهم العامي منه المكان إلا بنظر العلماء الأحبار الحكماء الأخيار.

المسألة الثالثة: قالوا قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن العمل عملهم وحاصل بفعلهم، نقول: لا نزاع في أن العمل في الحقيقة اللغوية وضع للفعل والمجنون للذي لا عقل له والعاقل للذي بلغ الكمال فيه، وذلك ليس إلا بوضع اللغة لما يدرك بالحس، وكل أحد يرى الحركة من الجسمين فيقول: تحرك وسكن على سبيل الحقيقة، كما يقول: تدور الرحا ويصعد الحجر، وإنما الكلام في القدرة التي بها الفعل في المحل المرئي، وذلك خارج عن وضع اللغة.

قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في تأخير ذكره عن الجزاء مع أنه من النعم العظيمة؟ نقول فيه لطائف الأولى: أن هذا من أتم النعم، فجعلها من باب الزيادة التي منها الرؤية عند البعض ولا مقابل لها من الأعمال، وإنما قلنا: إنها من أتم النعم، لأنها نعمة سماع كلام الله تعالى على ما سنبين أن المراد من قوله: ﴿سَلَامًا﴾ هو ما قال في سورة يس: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فلم يذكرها فيما جعله جزاء، وهذا على قولنا: ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]ليس فيه دلالة على الرؤية. الثانية: أنه تعالى بدأ بأتم النعم وهي نعمة الرؤيا، وهي الرؤية بالنظر كما مر وختم بمثلها، وهي نعمة المخاطبة. الثالثة: هي أنه تعالى لما ذكر النعم الفعلية وقابلها بأعمالهم حيث قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]ذكر النعم القولية في مقابلة أذكارهم الحسنة ولم يذكروا اللذات العقلية التي في مقابلة أعمال قلوبهم من إخلاصهم واعتقادهم، لأن العمل القلبي لم ير ولم يسمع، فما يعطيهم الله تعالى من النعمة تكون نعمة لم ترها عين ولا سمعتها أذن، وإليه الإشارة بقوله ﷺ فيها: «**مالا عَينٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» وقوله عليه السلام: «**وَلاَ خَطَرَ**» إشارة إلى الزيادة، والذي يدل على النعمة القولية في مقابلة قولهم الطيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا﴾ إلى قوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ نفي للمكروه لما أن اللغو كلام غير معتبر، لأنه عند المعتبرين من الرجال مكروه، ونفي المكروه لا يعد من النعم العظيمة التي مر ذكرها، كيف وقد ذكرت أن تأخير هذه النعمة لكونها أتم، ولو قال: إن فلانًا في بلدة كذا محترم مكرم لا يضرب ولا يشتم فهو غير مكرم وهو مذموم، والواغل مذموم وهو الذي يدخل على قوم يشربون ويأكلون فيأكل ويشرب معهم من غير دعاء ولا إذن فكأنه بالنسبة إليهم في عدم الاعتبار كلام غير معتبر وهو اللغو، وكذلك ما يتصرف منه مثل الولوغ لا يقال إلا إذا كان الوالغ كلبًا أو ما يشبهه من السباع، وأما التأثيم فهو النسبة إلى الإثم ومعناه لا يذكر إلا باطلاً ولا ينسبه أحد إلا إلى الباطل، وأما التقديم فلأن اللغو أعم من التأثيم أي يجعله آثمًا كما تقول: إنه فاسق أو سارق ونحو ذلك وبالجملة فالمتكلم ينقسم إلى أن يلغو وإلى أن لا يلغو والذي لا يلغو يقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيأخذ الناس بأقوالهم وهو لا يؤخذ عليه شيء، فقال تعالى: لا يلغو أحد ولا يصدر منه لغو ولا ما يشبه اللغو فيقول له: الصادق لا يلغو ولا يأثم ولا شك في أن الباطل أقبح ما يشبهه فقال: لا يأثم أحد.

المسألة الثالثة: قال تعالى في سورة النبأ: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبا: ٣٥] فهل بينهما

فرق؟ قلنا: نعم الكذاب كثير التكذيب، ومعناه هناك أنهم لا يسمعون كذبًا ولا أحدًا يقول لآخر: كذبت، وفائدته أنهم لا يعرفون كذبًا من معين من الناس ولا من واحد منهم غير معين لتفاوت حالهم وحال الدنيا فإنا نعلم أن بعض الناس بأعيانهم كذابون فإن لم نعرف ذلك نقطع بأن في الناس كذابًا لأن أحدهم يقول لصاحبه: كذبت فإن صدق فصاحبه كذاب، وإن لم يصدق فهو كاذب فيعلم أن في الدنيا كذابًا بعينه أو بغير عينه ولا كذلك في الآخرة فلا كذب فيها، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ وهو أبلغ من التكذيب فإن من يقول في حق من لا يعرفه: إنه زان أو شارب خمر مثلاً فإنه يأثم وقد يكون صادقًا، فالذي ليس عن علم إثم فلا يقول أحد لأحد: قلت مالا علم لك به فالكلام هاهنا أبلغ لأنه قصر السورة على بيان أحوال الأقسام لأن المذكورين هنا هم السابقون وفي سورة النبأ هم المتقون، وقد بينا أن السابق فوق المتقي.

المسألة الرابعة: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ استثناء متصل منقطع، فنقول: فيه وجهان: أحدهما: وهو الأظهر أنه منقطع لأن السلام ليس من جنس اللغو تقديره لكن يسمعون: قيلاً سلامًا سلامًا، ثانيهما: أنه متصل ووجهه أن نقول: المجاز قد يكون في المعنى، ومن جملته أنك تقول: مالي ذنب إلا أني أحبك، فلهذا تؤذيني فتستثني محبته من الذنب ولا تريد المنقطع لأنك لا تريد بهذا القول بيان أنك تحبه إنما تريد في ذلك تبرئتك عن الذنوب ووجهه هو أن بينهما غاية الخلاف وبينهما أمور متوسطة، مثاله: الحار والبارد وبينهما الفاتر الذي هو أقرب إلى الحار من البارد وأقرب إلى البارد من الحار، والمتوسط يطلق عليه اسم البارد عند النسبة إلى الحار فيقال: هذا بارد ويخبر عنه بالنسبة إلى البارد فيقال: إنه حار، إذا ثبت هذا فنقول قول القائل: مالي ذنب إلا أني أحبك، معناه لا تجد ما يقرب من الذنب إلا المحبة فإن عندي أمورًا فوقها إذا نسبتها إلى الذنب تجد بينها غاية الخلاف فيكون ذلك كقوله: درجات الحب عندي طاعتك وفوقها إن أفضل جانب أقل أمر من أمورك على جانب الحفظ لروحي، إشارة إلى المبالغة كما يقول القائل: ليس هذا بشيء مستحقرًا بالنسبة إلى ما فوقه فقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي يسمعون فيها كلامًا فائقًا عظيم الفائدة كامل اللذة أدناها وأقربها إلى اللغو قول بعضهم لبعض: سلام عليك فلا يسمعون ما يقرب من اللغو إلا سلامًا، فما ظنك بالذي يبعد منه كما يبعد الماء البارد الصادق والماء الذي كسرت الشمس برودته وطلب منه ماء حار ليس عندي ماء حار إلا هذا أي ليس عندي ما يبعد من البارد الصادق البرودة ويقرب من الحار إلا هذا وفيه المبالغة الفائقة والبلاغة الرائقة وحينئذ يكون اللغو مجازًا، والاستثناء متصلاً فإن قيل: إذا لم يكن بد من مجاز وحمل اللغو على ما يقرب منه بالنسبة إليه فليحمل إلا على لكن لأنهما مشتركان في إثبات خلاف ما تقدم، نقول: المجاز في الأسماء أولى من المجاز في الحروف لأنها تقبل التغير في الدلالة وتتغير في الأحوال، ولا كذلك الحروف لأن الحروف لا تصير مجازًا إلا بالاقتران باسم والاسم يصير مجازًا من غير الاقتران بحرف فإنك تقول: رأيت أسدًا يرمي ويكون مجازًا ولا

اقتران له بحرف، وكذلك إذا قلت لرجل: هذا أسد وتريد بأسد كامل الشجاعة، ولأن عرض المتكلم في قوله مالي ذنب إلا أني أحبك، لا يحصل بما ذكرت من المجاز، ولأن العدول عن الأصل لا يكون له فائدة من المبالغة والبلاغة.

المسألة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿قِيلًا﴾ قولان: أحدهما: أنه مصدر كالقول فيكون قيلًا مصدرًا، كما أن القول مصدر لكن لا يظهر له في باب فَعَل يَفْعُل إلا حرف، ثانيهما: أنه اسم والقول مصدر فهو كالسِّدْل والسِّتْر بكسر السين اسم وبفتحها مصدر وهو الأظهر، وعلى هذا نقول: الظاهر أنه اسم مأخوذ من فعل هو: قال وقيل، لما لم يذكر فاعله، وما قيل: إن النبي ﷺ نهى عن القيل والقال[(١)]، يكون معناه نهى عن المشاجرة، وحكاية أمور جرت بين أقوام لا فائدة في ذكرها، وليس فيها إلا مجرد الحكاية من غير وعظ ولا حكمة لقوله ﷺ: «رَحِمَ اللَّه عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ» وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله، والقال اسم للقول مأخوذ من قِيلَ لما لم يذكر فاعله، تقول: قال فلان كذا، ثم قيل له: كذا، فقال: كذا، فيكون حاصل كلامه قيل وقال، وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله، والقال مأخوذ من قيل هو قال، ولقائل أن يقول: هذا باطل لقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] فإن الضمير للرسول ﷺ أي يعلم الله قيل محمد: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٧]، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] إرشاد له لئلا يدعو على قومه عند يأسه منهم كما دعا عليهم نوح عنده، وإذا كان القول مضافًا إلى محمد ﷺ فلا يكون القيل اسمًا لقول لم يعلم قائله؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن قولنا: إنه اسم مأخوذ من قيل الموضوع لقول لم يعلم قائله في الأصل لا ينافي جواز استعماله في قول من علم بغير الموضوع. وثانيهما: وهو الجواب الدقيق أن نقول: الهاء في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ ضمير كما في ربه وكالضمير المجهول عند الكوفيين وهو ضمير الشأن، وعند البصريين قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] والهاء غير عائد إلى مذكور، غير أن الكوفيين جعلوه لغير معلوم والبصريين جعلوه ضمير القصة، والظاهر في هذه المسألة قول الكوفيين، وعلى هذا معنى عبارتهم بلغ غاية علم الله تعالى قيل القائل منهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الزخرف: ٨٨]، إشارة إلى أن الاختصاص بذلك القول في كل أحد أنهم لا يؤمنون لعلمه أنهم قائلون بهذا وأنهم عالمون، وأهل السماء علموا بأن عند الله علم الساعة يعلمها فيعلم قول من يقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] من

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) باب (عقوق الوالدين من الكبائر) (١٠/ ٤١٩) حديث رقم (٥٩٧٥) من طريق المسيب... به ومسلم في كتاب (الأقضية) باب (النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة) (٣/ ١٢/ ١٣٤١) من طريق الشعبي... به جميعًا عن وراد.. به.

غير تعيين قول لاشتراك الكل فيه، ويؤيد هذا أن الضمير لو كان عائدًا إلى معلوم فإما أن يكون إلى مذكور قبله، ولا شيء فيما قبله يصح عود الضمير إليه، وإما إلى معلوم غير مذكور وهو محمد ﷺ لكن الخطاب بقوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ [الحجر: ٨٥] كان يقتضي أن يقول: وقيلك يا رب لأن محمدًا ﷺ هو المخاطب أولاً بكلام الله، وقد قال قبله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال من قبل: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وكان هو المخاطب أولاً، إذا تحقق هذا؟ نقول: إذا تفكرت في استعمال لفظ القيل في القرآن ترى ما ذكرنا ملحوظًا مراعى، فقال هاهنا: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ لعدم اختصاص هذا القول بقائل دون قائل فيسمع هذا القول دائمًا من الملائكة والناس كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] حيث كان المسلم منفردًا، وهو الله كأنه قال: سلام قولاً منا، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [فصلت: ٣٣] وقال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] لأن الداعي معين وهم الرسل ومن اتبعهم من الأمة، وكل من قام ليلاً فإن قوله: قويم، ونهجه مستقيم، وقال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ [الزخرف: ٨٨] لأن كل أحد يقول: إنهم لا يؤمنون. أما هم فلاعترافهم ولإقرارهم، وأما غيرهم فلكفرانهم بإسرافهم وإصرارهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه تعالى قال: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ والاستثناء المتصل يقرب إلى المعنى بالنسبة إلى غيره وهو قول لا يعرف قائله، فقال: ﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ وهو سلام عليك، وأما قول من يعرف وهو الله فهو الأبعد عن اللغو غاية البعد وبينهما نهاية الخلاف فقال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا﴾ [يس: ٥٨].

المسألة السادسة: ﴿سَلَٰمٗا﴾، فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه صفة وصف الله تعالى بها ﴿قِيلٗا﴾ كما يوصف الشيء بالمصدر حيث يقال: رجل عدل، وقوم صوم، ومعناه إلا قيلاً سالمًا عن العيوب، وثانيها: هو مصدر تقديره: إلا أن يقولوا سلامًا، وثالثها: هو بدل من ﴿قِيلٗا﴾، تقديره: إلا سلامًا.

المسألة السابعة: تكرير السلام هل فيه فائدة؟ نقول: فيه إشارة إلى تمام النعمة، وذلك لأن أثر السلام في الدنيا لا يتم إلا بالتسليم ورد السلام، فكما أن أحد المتلاقيين في الدنيا يقول للآخر: السلام عليك، فيقول الآخر: وعليك السلام، فكذلك في الآخرة يقولون: ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ ثم إنه تعالى لما قال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] لم يكن له رد، لأن تسليم الله على عبده مؤمن له، فأما الله تعالى فهو منزه عن أن يؤمنه أحد، بل الرد إن كان فهو قول المؤمن: سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

المسألة الثامنة: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ بنصبهما، وبين قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: ٦٩] قلنا: قد ذكرنا هناك أن قوله: (سلام عليك) أتم وأبلغ من قولهم سلامًا عليك فإبراهيم عليه السلام أراد أن يتفضل عليهم بالذكر ويجيبهم بأحسن ما حيوا، وأما هنا فلا

يتفضل أحد من أهل الجنة على الآخر مثل التفضل في تلك الصورة إذ هم من جنس واحد، وهم المؤمنون ولا ينسب أحد إلى أحد تقصيرًا.

المسألة التاسعة: إذا كان قول القائل: (سَلامٌ عَلَيْكَ) أتم وأبلغ فما بال القراءة المشهورة صارت بالنصب، ومن قرأ (سَلاَمٌ) ليس مثل الذي قرأ بالنصب، نقول ذلك من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلأنه يستثنى من المسموع وهو مفعول منصوب، فالنصب بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ وأما المعنى فلأنا بينا أن الاستثناء متصل، وقولهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أبعد من اللغو من قولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ فقال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا﴾ ليكون أقرب إلى اللغو من غيره، وإن كان في نفسه بعيدًا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾

لما بيّن حال السابقين شرع في شأن أصحاب الميمنة من الأزواج الثلاثة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في ذكرهم بلفظ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] عند ذكر الأقسام، وبلفظ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عند ذكر الإنعام؟ نقول: الميمنة مفعلة إما بمعنى موضع اليمين كالمحكمة لموضع الحكم، أي الأرض التي فيها اليمين، وإما بمعنى موضع اليمن كالمنارة موضع النار، والمجمرة موضع الجمر، فكيفما كان الميمنة فيها دلالة على الموضع، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميز بعضهم عن بعض، ويتفرقون لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] وقال: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] فيتفرقون بالمكان فأشار في الأول إليهم بلفظ يدل على المكان، ثم عند الثواب وقع تفرقهم بأمر مبهم لا يتشاركون فيه كالمكان، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أصحاب اليمين الذين يأخذون بأيمانهم كتبهم، ثانيها: أصحاب القوة، ثالثها: أصحاب النور، وقد تقدم بيانه.

المسألة الثانية: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ﴾ وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، والسدر من أشجار البوادي، لا بمر ولا بحلو ولا بطيب؟ نقول: فيه حكمة بالغة غفلت عنها الأوائل والأواخر، واقتصروا في الجواب والتقريب أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزًا محمودًا، وهو صواب ولكنه غير فائق، والفائق الرائق الذي هو بتفسير كلام الله لائق، هو أن نقول: إنا قد بينا مرارًا أن البليغ يذكر طرفي أمرين، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما، كما يقال: فلان ملك الشرق والغرب، ويفهم منه أنه ملكهما وملك ما بينهما، ويقال: فلان أرضى الصغير والكبير، ويفهم منه أنه أرضى كل أحد إلى غير ذلك، فنقول: لا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر

إليه والاستظلال به، وتارة يقصد إلى ثمارها، وتارة يجمع بينهما، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، ويجمعها نوعان: أوراق صغار، وأوراق كبار، والسدر في غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر، فقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرًا إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار، لأن بينهما غاية الخلاف كما بيناه في موضعه، فوقعت الإشارة إليهما جامعة لجميع الأشجار نظرًا إلى ثمارها، وكذلك قلنا في النخيل والأعناب، فإن النخل من أعظم الأشجار المثمرة، والكرم من أصغر الأشجار المثمرة، وبينهما أشجار فوقعت الإشارة إليهما جامعة لسائر الأشجار، وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له.

المسألة الثالثة: ما معنى المخضود؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: مأخوذ الشوك، فإن شوك السدر يستقصف ورقها، ولولاه لكان منتزه العرب، ذلك لأنها تظل لكثرة أوراقها ودخول بعضها في بعض، وثانيهما: مخضود أي متعطف إلى أسفل، فإن رؤوس أغصان السدر في الدنيا تميل إلى فوق بخلاف أشجار الثمار، فإن رؤوسها تتدلى، وحينئذ معناه أنه يخالف سدر الدنيا، فإن لها ثمرًا كثيرًا.

المسألة الرابعة: ما الطلح؟ نقول: الظاهر أنه شجر الموز، وبه يتم ما ذكرنا من الفائدة، روي أن عليًّا عليه السلام سمع من يقرأ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو (وطلع)، واستدل بقوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]فقالوا: في المصاحف كذلك، فقال: لا تحول المصاحف، فنقول: هذا دليل معجزة القرآن، وغزارة علم علي رضي الله عنه. أما المعجزة فلأن عليًّا كان من فصحاء العرب ولما سمع هذا حمله على الطلع واستمر عليه، وما كان قد اتفق حرفه لمبادرة ذهنه إلى معنى، ثم قال في نفسه: إن هذا الكلام في غاية الحسن، لأنه تعالى ذكر الشجر المقصود منه الورق للاستظلال به، والشجر المقصود منه الثمر للاستغلال به، فذكر النوعين، ثم إنه لما اطلع على حقيقة اللفظ علم أن الطلح في هذا الموضع أولى، وهو أفصح من الكلام الذي ظنه في غاية الفصاحة فقال: المصحف بيَّن لي أنه خير مما كان في ظني فالمصحف لا يحول. والذي يؤيد هذا أنه لو كان طلع لكان قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢] تكرار أحرف من غير فائدة، وأما على الطلح فتظهر فائدة قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ وسنبينها إن شاء الله تعالى.

المسألة الخامسة: ما المنضود؟ فنقول: إما الورق وإما الثمر، والظاهر أن المراد الورق، لأن شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقًا بعد ورق، وهو ينبت كشجر الحنطة ورقًا بعد ورق وساقه يغلظ وترتفع أوراقه، ويبقى بعضها دون بعض، كما في القصب، فموز الدنيا إذا ثبت كان

بين القصب وبين بعضها فرجة، وليس عليها ورق، وموز الآخرة يكون ورقه متصلاً بعضه ببعض فهو أكثر أوراقًا، وقيل: المنضود المثمر، فإن قيل: إذا كان الطلح شجرًا فهو لا يكون منضودًا وإنما يكون له ثمر منضود، فكيف وصف به الطلح؟ نقول: هو من باب (حسن الوجه) وصف بسبب اتصاف ما يتصل به، يقال: زيد حسن الوجه، وقد يترك الوجه ويقال: زيد حسن والمراد حسن الوجه ولا يترك إن أوهم فيصح أن يقال: زيد مضروب الغلام، ولا يجوز ترك الغلام لأنه يوهم الخطأ، وأما حسن الوجه فيجوز ترك الوجه.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾

وفيه وجوه الأول: ممدود زمانًا، أي لا زوال له فهو دائم، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي كذلك، الثاني: ممدود مكانًا، أي يقع على شيء كبير ويستره من بقعة الجنة، الثالث: المراد ممدود أي منبسط، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩] فإن قيل: كيف يكون الوجه الثاني؟ نقول: الظل قد يكون مرتفعًا، فإن الشمس إذا كانت تحت الأرض يقع ظلها في الجو فيتراكم الظل فيسود وجه الأرض وإذا كانت على أحد جانبيها قريبة من الأفق ينبسط على وجه الأرض فيضيء الجو ولا يسخن وجه الأرض، فيكون في غاية الطيبة، فقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي عند قيامه عمودًا على الأرض كالظل بالليل، وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار بل ظل يخلقه الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ **فيه أيضًا وجوه:**

الأول: مسكوب من فوق، وذلك لأن العرب أكثر ما يكون عندهم الآبار والبرك فلا سكب للماء عندهم بخلاف المواضع التي فيها العيون النابعة من الجبال الحاكمة على الأرض تسكب عليها. **الثاني:** جار في غير أخدود، لأن الماء المسكوب يكون جاريًا في الهواء ولا نهر هناك، كذلك الماء في الجنة. **الثالث:** كثير وذلك الماء عند العرب عزيز لا يسكب، بل يحفظ ويشرب، فإذا ذكروا النعم يعدون كثرة الماء ويعبرون عن كثرتها بإراقتها وسكبها، والأول أصح.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لما ذكر الأشجار التي يطلب منها ورقها ذكر بعدها الأشجار التي يقصد ثمرها، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الحكمة في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة؟ نقول: هي ظاهرة، وهو أنه قدم الورق على الشجر على طريقة الارتقاء من نعمة إلى ذكر نعمة فوقها، والفواكه أتم نعمة.

المسألة الثانية: ما الحكمة في ذكر الأشجار المورقة بأنفسها، وذكر أشجار الفواكه بثمارها؟ نقول: هي أيضًا ظاهرة، فإن الأوراق حسنها عند كونها على الشجر، وأما الثمار فهي في أنفسها

مطلوبة سواء كانت عليها أو مقطوعة، ولهذا صارت الفواكه لها أسماء بها تعرف أشجارها، فيقال: شجر التين وورقه.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في وصف الفاكهة بالكثرة، لا بالطيب واللذة؟ نقول: قد بينا في سورة الرحمن أن الفاكهة فاعلة كالراضية في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات فكهة، وهي لا تكون بالطبيعة إلا بالطيب واللذة، وأما الكثرة، فبينا أن الله تعالى حيث ذكر الفاكهة ذكر ما يدل على الكثرة، لأنها ليست لدفع الحاجة حتى تكون بقدر الحاجة، بل هي للتنعم، فوصفها بالكثرة والتنوع.

المسألة الرابعة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي ليست كفواكه الدنيا، فإنها تنقطع في أكثر الأوقات والأزمان، وفي كثير من المواضع والأماكن ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا تمنع من الناس لطلب الأعواض والأثمان، والممنوع من الناس لطلب الأعواض والأثمان ظاهر في الحس، لأن الفاكهة في الدنيا تمنع عن البعض فهي ممنوعة، وفي الآخرة ليست ممنوعة. وأما القطع فيقال في الدنيا: إنها انقطعت فهي منقطعة لا مقطوعة، فقوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في غاية الحسن، لأن فيه إشارة إلى دليل عدم القطع، كما أن في: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ دليلاً على عدم المنع، وبيانه هو أن الفاكهة في الدنيا لا تمنع إلا لطلب العوض، وحاجة صاحبها إلى ثمنها لدفع حاجة به، وفي الآخرة مالكها الله تعالى ولا حاجة له، فلزم أن لا تمنع الفاكهة من أحد كالذي له فاكهة كثيرة، ولا يأكل ولا يبيع، ولا يحتاج إليها بوجه من الوجوه لا شك في أنه يفرقها ولا يمنعها من أحد. وأما الانقطاع فنقول الذي يقال في الدنيا: الفاكهة انقطعت، ولا يقال عند وجودها: امتنعت، بل يقال: منعت، وذلك لأن الإنسان لا يتكلم إلا بما يفهمه الصغير والكبير، ولكن كل أحد إذا نظر إلى الفاكهة زمان وجودها يرى أحدًا يحوزها ويحفظها ولا يراها بنفسها تمتنع فيقول: إنها ممنوعة، وأما عند انقطاعها وفقدها لا يرى أحدًا قطعها حسًّا وأعدمها فيظنها منقطعة بنفسها لعدم إحساسه بالقاطع ووجود إحساسه بالمانع، فقال تعالى: لو نظرتم في الدنيا حق النظر علمتم أن كل زمان نظرًا إلى كونه ليلاً ونهارًا ممكن فيه الفاكهة فهي بنفسها لا تنقطع، وإنما لا توجد عند المحقق لقطع الله إياها وتخصيصها بزمان دون زمان، وعند غير المحقق لبرد الزمان وحره، وكونه محتاجًا إلى الظهور والنمو والزهر ولذلك تجري العادة بأزمنة فهي يقطعها الزمان في نظر غير المحقق فإذا كانت الجنة ظلها ممدودًا لا شمس هناك ولا زمهرير استوت الأزمنة والله تعالى يقطعها فلا تكون مقطوعة بسبب حقيقي ولا ظاهر، فالمقطوع يتفكر الإنسان فيه ويعلم أنه مقطوع لا منقطع من غير قاطع، وفي الجنة لا قاطع فلا تصير مقطوعة.

المسألة الخامسة: قدم نفي كونها مقطوعة لما أن القطع للموجود والمنع بعد الوجود لأنها توجد أولاً ثم تمنع فإن لم تكن موجودة لا تكون ممنوعة محفوظة فقال: لا تقطع فتوجد أبدًا ثم إن ذلك الموجود لا يمنع من أحد وهو ظاهر غير أنا نحب أن لا نترك شيئًا مما يخطر بالبال ويكون صحيحًا.

قوله تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد ذكرنا معنى الفرش ونذكر وجهًا آخر فيها إن شاء الله تعالى، وأما المرفوعة ففيها ثلاثة أوجه أحدها: مرفوعة القدر يقال: ثوب رفيع أي عزيز مرتفع القدر والثمن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا﴾ [الرحمن: ٥٤]، وثانيها: مرفوعة بعضها فوق بعض، ثالثها: مرفوعة فوق السرير. **وفي الإنشاء مسائل:**

المسألة الأولى: الضمير في: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائد إلى من؟ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: إلى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] وهو بعيد لبعدهن ووقوعهن في قصة أخرى، ثانيها: أن المراد من الفرش النساء والضمير عائد إليهن لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويقال للجارية صارت فراشًا وإذا صارت فراشًا رفع قدرها بالنسبة إلى جارية لم تصر فراشًا، وهو أقرب من الأول لكن يبعد ظاهرًا لأن وصفها بالمرفوعة ينبئ عن خلاف ذلك، وثالثها: أنه عائد إلى معلوم دل عليه فرش لأنه قد علم في الدنيا وفي مواضع من ذكر الآخرة، أن في الفرش حظايا تقديره: وفي فرش مرفوعة حظايا منشآت، وهو مثل ما ذكر في قوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] و﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢] فهو تعالى أقام الصفة مقام الموصوف ولم يذكر نساء الآخرة بلفظ حقيقي أصلاً وإنما عرفهن بأوصافهن ولباسهن إشارة إلى صونهن وتخدرهن، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ يحتمل أن يكون المراد الحور فيكون المراد الإنشاء الذي هو الابتداء، ويحتمل أن يكون المراد بنات آدم فيكون الإنشاء بمعنى إحياء الإعادة، وقوله تعالى: ﴿أَبْكَارًا﴾ يدل على الثاني لأن الإنشاء لو كان بمعنى الابتداء لعلم من كونهن أبكارًا من غير حاجة إلى بيان ولما كان المراد إحياء بنات آدم قال: ﴿أَبْكَارًا﴾ أي نجعلهن أبكارًا وإن متن ثيبات، فإن قيل: فما الفائدة على الوجه الأول؟ نقول: الجواب من وجهين: الأول: أن الوصف بعدها لا يكون من غيرها إذا كن أزواجهم بين الفائدة لأن البكر في الدنيا لا تكون عارفة بلذة الزوج فلا ترضى بأن تتزوج من رجل لا تعرفه وتختار التزويج بأقرانها ومعارفها لكن أهل الجنة إذا لم يكن من جنس أبناء آدم وتكون الواحدة منهن بكرًا لم تر زوجًا ثم تزوجت بغير جنسها فربما يتوهم منها سوء عشرة فقال: ﴿أَبْكَارًا﴾ فلا يوجد فيهن ما يوجد في أبكار الدنيا، الثاني: المراد أبكارًا بكارة تخالف بكارة الدنيا، فإن البكارة لا تعود إلا على بعد. وقوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: مستويات في السن فلا تفضل إحداهن على الأخرى بصغر ولا كبر كلهن خلقن في زمان واحد، ولا يلحقهن عجز ولا زمانة ولا تغير لون، وعلى هذا إن كن من بنات آدم فاللفظ فيهن حقيقة، وإن كن من غيرهن فمعناه ما كبرن سمين به لأن كلاً منهن تمس وقت مس الأخرى لكن نسي الأصل، وجعل عبارة عن ذلك كاللذة للمتساويين من العقلاء، فأطلق على حور الجنة أترابًا، ثانيها: أترابًا متماثلات في النظر إليهن

كالأتراب سواء وجدن في زمان أو في أزمنة، والظاهر أنه في أزمنة لأن المؤمن إذا عمل عملاً صالحًا خلق له منهن ما شاء الله، ثالثها: أترابًا لأصحاب اليمين، أي على سنهم، وفيه إشارة إلى الاتفاق، لأن أحد الزوجين إذا كان أكبر من الآخر فالشاب يعيره.

المسألة الثانية: إن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾؟ نقول: فائدته ظاهرة تتبين بالنظر إلى اللام في: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ فنقول: إن كانت اللام متعلقة بأترابًا يكون معناه: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ وهذا لا يجوز، وإن كانت متعلقة بأنشأناهن يكون معناه أنشأناهن لأصحاب اليمين والإنشاء حال كونهن أبكارًا وأترابًا فلا يتعلق الإنشاء بالأبكار بحيث يكون كونهن أبكارًا بالإنشاء لأن الفعل لا يؤثر في الحال تأثيرًا واجبًا فنقول: صرفه للإنشاء لا يدل على أن الإنشاء كان بفعل فيكون الإنعام عليهم بمجرد إنشائهن لأصحاب اليمين: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ليكون ترتيب المسبب على السبب فاقتضى ذلك كونهن أبكارًا، وأما إن كان الإنشاء أولاً من غير مباشرة للأزواج ما كان يقتضي جعلهن أبكارًا فالفاء لترتيب المقتضى على المقتضي.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقد ذكرنا ما فيه لكن هنا لطيفة: وهي أنه تعالى قال في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣] قبل ذكر السرر والفاكهة والحور وذكر في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بعد ذكر هذه النعم، نقول: السابقون لا يلتفتون إلى الحور العين والمأكول والمشروب ونعم الجنة تتشرف بهم، وأصحاب اليمين يلتفتون إليها فقدم ذكرها عليهم ثم قال: هذا لكم وأما السابقون فذكرهم أولاً ثم ذكر مكانهم، فكأنه قال لأهل الجنة هؤلاء واردون عليكم. والذي يتمم هذه اللطيفة أنه تعالى لم يقدم ثلة السابقين إلا لكونهم مقربين حسًا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ﴾ [الواقعة: ١١-١٢] ثم قال: ﴿ثُلَّةٌ﴾ ثم ذكر النعم لكونها فوق الدنيا إلا المودة في القربى من الله فإنها فوق كل شيء، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي في المؤمنين ووعد المرسلين بالزلفى في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٢٥] وأما قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢] فقد ذكرنا أنه لتمييز مقربي المؤمنين من مقربي الملائكة، فإنهم مقربون في الجنة وهم مقربون في أماكنهم لقضاء الأشغال التي للناس وغيرهم بقدرة الله وقد بان من هذا أن المراد من أصحاب اليمين هم الناجون الذين أذنبوا وأسرفوا وعفا الله عنهم بسبب أدنى حسنة لا الذين غلبت حسناتهم وكثرت، وسنذكر الدليل عليه في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في ذكر السموم والحميم وترك ذكر النار وأهوالها؟ نقول: فيه

إشارة بالأدنى إلى الأعلى فقال: هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يستغيثون به حميم، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء، وهما أي السموم والحميم من أضر الأشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فإنهما من أنفع الأشياء فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضًا أحر، ولو قال: هم في نار، كنا نظن أن نارهم كنارنا لأنا ما رأينا شيئًا أحر من التي رأيناها، ولا أحر من السموم، ولا أبرد من الزلال، فقال: أبرد الأشياء لهم أحرها فكيف حالهم مع أحرها، فإن قيل: ما السموم؟ نقول: المشهور هي ريح حارة تهب فتمرض أو تقتل غالبًا، والأولى أن يقال: هي هواء متعفن، يتحرك من جانب إلى جانب فإذا استنشق الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتل الإنسان، وأصله من السم كسم الحية والعقرب وغيرهما، ويحتمل أن يكون هذا السم من السَّم، وهو خرم الإبرة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] لأن سم الأفعى ينفذ في المسام فيفسدها، وقيل: إن السموم مختصة بما يهب ليلًا، وعلى هذا فقوله: ﴿سَمُومٍ﴾ إشارة إلى ظلمة ما هم فيه غير أنه بعيد جدًا، لأن السموم قد ترى بالنهار بسبب كثافتها.

المسألة الثانية: الحميم: هو الماء الحار وهو فعيل بمعنى فاعل من حمم الماء بكسر الميم، أو بمعنى مفعول من حمم الماء إذا سخنه، وقد ذكرناه مرارًا غير أن هاهنا لطيفة لغوية: وهي أن فَعُولاً لما تكرر منه الشيء والريح لما كانت كثيرة الهبوب تهب شيئًا بعد شيء خص السموم بالفَعُول، والماء الحار لما كان لا يفهم منه الورود شيئًا بعد شيء لم يقل: فيه حموم، فإن قيل: ما اليحموم؟ نقول: فيه وجوه: أولها: أنه اسم من أسماء جهنم، ثانيها: أنه الدخان، ثالثها: أنه الظلمة، وأصله من الحمم وهو الفحم فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه، وزيادة الحرف فيه لزيادة ذلك المعنى فيه، وربما تكون الزيادة فيه جاءت لمعنيين: الزيادة في سواده والزيادة في حرارته، وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائمًا لأنهم إن تعرضوا لمهب الهواء أصابهم الهواء الذي هو السموم، وإن استكنوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم، وإن أرادوا الرد عن أنفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم، ويحتمل أن يقال فيه ترتيب وهو أن السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في أحشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم، فإن قيل: كيف وجه استعمال (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾؟ فنقول: إن قلنا إنه اسم جهنم فهو لابتداء الغاية كما تقول: جاءني نسيم من الجنة، وإن قلنا: إنه دخان فهو كما في قولنا: خاتم من فضة، وإن قلنا: إنه الظلمة فكذلك، فإن قيل: كيف يصح تفسيره بجهنم مع أنه اسم منصرف منكر فكيف وضع لمكان معرف، ولو كان اسمًا لها، قلنا: استعماله بالألف واللام كالجحيم، أو كان غير منصرف كأسماء جهنم يكون مثله على ثلاثة مواضع كلها يحموم.

قوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قال الزمخشري: كرم الظل: نفعه الملهوف، ودفعه أذى الحر عنه، ولو كان كذلك لكان البارد والكريم بمعنى واحد، والأقرب أن يقال: فائدة الظل أمران: أحدهما دفع الحر، والآخر كون الإنسان فيه مكرمًا، وذلك لأن الإنسان في البرد يقصد عين الشمس ليتدفأ بحرها إذا كان قليل الثياب، فإذا كان من المكرمين يكون أبدًا في مكان يدفع الحر والبرد عن نفسه في الظل، أما الحر فظاهر، وأما البرد فيدفعه بإدفاء الموضع بإيقاد ما يدفئه، فيكون الظل في الحر مطلوبًا للبرد فيطلب كونه باردًا، وفي البرد يطلب لكونه ذا كرامة لا لبرد يكون في الظل فقال: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ يطلب لبرده، ولا ذي كرامة قد أعد للجلوس فيه، وذلك لأن المواضع التي يقع عليها ظل كالمواضع التي تحت أشجار وأمام الجدار يتخذ منها مقاعد فتصير تلك المقاعد محفوظة عن القاذورات، وباقي المواضع تصير مزابل، ثم إذا وقعت الشمس في بعض الأوقات عليها تطلب لنظافتها، وكونها معدة للجلوس، فتكون مطلوبة في مثل هذا الوقت لأجل كرامتها لا لبردها، فقوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ يحتمل هذا، ويحتمل أن يقال: إن الظل يطلب لأمر يرجع إلى الحس، أو لأمر يرجع إلى العقل، فالذي يرجع إلى الحس هو برده، والذي يرجع إلى العقل أن يكون الرجوع إليه كرامة، وهذا لا برد له ولا كرامة فيه، وهذا هو المراد بما نقله الواحدي عن الفراء أن العرب تتبع كل منفي بكريم إذا كان المنفي أكرم فيقال: هذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة، والتحقيق فيه ما ذكرنا أن وصف الكمال، إما حسي، وإما عقلي، والحسي يصرح بلفظه، وأما العقلي فلخفائه عن الحس يشار إليه بلفظ جامع، والكرامة عند العرب من أشهر أوصاف المدح ونفيها نفي وصف الكمال العقلي، فيصير قوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ معناه لا مدح فيه أصلاً لا حسًّا ولا عقلاً.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وفي الآيات لطائف، **نذكرها في مسائل:**

المسألة الأولى: ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟ فنقول: قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين لأن الثواب فضل والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلمًا فقال: هم فيها بسبب ترفهم، والذي يؤيد هذه اللطيفة أن الله تعالى قال في حق السابقين: ﴿جَزَاءً بِمَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]ولم يقل: في حق أصحاب اليمين، ذلك لأنا أشرنا أن أصحاب اليمين هم الناجون بالفضل العظيم، وسنبين ذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ [الواقعة: ٩١]وإذا كان كذلك فالفضل في حقهم متمحض فقال: هذه النعم لكم، ولم يقل جزاء لأن قوله: ﴿جَزَآءً﴾ في مثل هذا الموضع، وهو موضع العفو عنهم لا يثبت لهم سرورًا بخلاف من كثرت حسناته، فيقال له: نعم ما فعلت خذ هذا لك جزاء.

المسألة الثانية: جعل السبب كونهم مترفين وليس كل من هو من أصحاب الشمال يكون مترفًا فإن فيهم من يكون فقيرًا؟ نقول قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ليس بذم، فإن المترف هو الذي جعل ذا ترف أي نعمة، فظاهر ذلك لا يوجب ذمًا، لكن ذلك يبين قبح ما ذكر عنهم بعده وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ لأن صدور الكفران ممن عليه غاية الإنعام أقبح القبائح فقال: إنهم كانوا مترفين، ولم يشكروا نعم الله بل أصروا على الذنب وعلى هذا فنقول: النعم التي تقتضي شكر الله وعبادته في كل أحد كثيرة فإن الخلق والرزق وما يحتاج إليه وتتوقف مصالحه عليه حاصل للكل، غاية ما في الباب أن حال الناس في الإتراف متقارب، فيقال في حق البعض بالنسبة إلى بعض: إنه في ضر، ولو حمل نفسه على القناعة لكان أغنى الأغنياء وكيف لا والإنسان إذا نظر إلى حاله يجدها مفتقرة إلى مسكن يأوي إليه ولباس الحر والبرد وما يسد جوعه من المأكول والمشروب، وغير هذا من الفضلات التي يحمل عليها شح النفس، ثم إن أحدًا لا يغلب عن تحصيل مسكن باشتراء أو اكتراء، فإن لم يكن فليس هو أعجز من الحشرات، لا تفقد مدخلاً أو مغارة، وأما اللباس فلو اقتنع بما يدفع الضرورة كان يكفيه في عمره لباس واحد، كلما تمزق منه موضع يرقعه من أي شيء كان، بقي أمر المأكول والمشروب، فإذا نظر الناظر يجد كل أحد في جميع الأحوال غير مغلوب عن كسرة خبز وشربة ماء، غير أن طلب الغنى يورث الفقر فيريد الإنسان بيتًا مزخرفًا ولباسًا فاخرًا ومأكولاً طيبًا، وغير ذلك من أنواع الدواب والثياب، فيفتقر إلى أن يحمل المشاق، وطلب الغنى يورث فقره، وارتياد الارتفاع يحط قدره، وبالجملة شهوة بطنه وفرجه تكسر ظهره على أننا نقول في قوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ لا شك أن أهل القبور لما فقدوا الأيدي الباطشة، والأعين الباصرة، وبان لهم الحقائق، علموا أنهم كانوا قبل ذلك مترفين بالنسبة إلى تلك الحالة.

المسألة الثالثة: ما الإصرار على الحنث العظيم؟ نقول: الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]وفيها لطيفة وهي أنه أشار في الآيات الثلاث إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بإنكار الرسل، إذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة، والمترفون كانوا يقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٣٤]وقوله: ﴿يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا

يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه مبالغات من وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ﴾ وهو آكد من قول القائل: إنهم قبل ذلك أصروا لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار، لأن قولنا: فلان كان يحسن إلى الناس، يفيد كون ذلك عادة له، ثانيها: لفظ الإصرار فإن الإصرار مداومة المعصية والغلول، ولا يقال: في الخير أصر، ثالثها: الحنث فإنه فوق الذنب فإن الحنث لا يكاد في اللغة يقع على الصغيرة والذنب يقع عليها، وأما الحنث في اليمين فاستعملوه لأن نفس الكذب عند العقلاء قبيح، فإن مصلحة العالم منوطة بالصدق وإلا لم يحصل لأحد بقول أحد ثقة فلا يبنى على كلامه مصالح، ولا يجتنب عن مفاسد، ثم إن الكذب لما وجد في كثير من الناس لأغراض فاسدة أرادوا توكيد الأمر بضم شيء إليه يدفع توهمه فضموا إليه الأيمان ولا شيء فوقها، فإذا حنث لم يبق أمر يفيد الثقة فيلزم منه فساد فوق فساد الزنا والشرب، غير أن اليمين إذا كانت على أمر مستقبل ورأى الحالف غيره جوز الشرع الحنث ولم يجوزه في الكبيرة كالزنا والقتل لكثرة وقوع الأيمان وقلة وقوع القتل والذي يدل على أن الحنث هو الكبيرة قولهم للبالغ: بلغ الحنث، أي بلغ مبلغًا بحيث يرتكب الكبيرة وقبله ما كان ينفى عنه الصغيرة، لأن الولي مأمور بالمعاقبة على إساءة الأدب وترك الصلاة.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ هذا يفيد أن المراد الشرك، فإن هذه الأمور لا تجتمع في غيره.

المسألة الخامسة: كيف اشتهر (مِتْنا) بكسر الميم مع أن استعمال القرآن في المستقبل يموت قال تعالى عن يحيى وعيسى عليهما السلام: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾[مريم: ٣٣] ولم يقرأ أمات على وزن أخاف، وقال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ﴾[آل عمران: ١١٩] ولم يقل: قل ماتوا، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾[آل عمران: ١٠٢] ولم يقل: ولا تماتوا كما قال: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾[فصلت: ٣٠] قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أن هذه الكلمة خالفت غيرها، فقيل فيها: ﴿أَمُوتُ﴾ والسماع مقدم على القياس، والثاني: مات يَمَاتُ لغة في مَاتَ يَموتُ، فاستعمل ما فيها الكسر لأن الكسر في الماضي يوجد أكثر الأمرين أحدهما: كثرة يفعَل على يفعُل، وثانيهما: كونه على فَعِل يَفْعَل، مثل خَافَ يَخَافُ، وفي مستقبلها الضم لأنه يوجد لسببين أحدهما: كون الفعل على فَعُل يَفْعُل، مثل طَال يَطول، فإن وصفه بالتطويل دون الطائل يدل على أنه من باب قَصُر يَقْصُر، وثانيهما: كونه على فَعِل يَفْعُل، تقول: فَعِلت في الماضي بالكسر وفي المستقبل بالضم.

المسألة السادسة: كيف أتى باللام المؤكدة في قوله: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ مع أن المراد هو النفي وفي النفي لا يذكر في خبر إن اللام يقال: إن زيدًا ليجيء وإن زيدًا لا يجيء، فلا تذكر اللام، وما مرادهم بالاستفهام إلا الإنكار بمعنى إنا لا نبعث؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: عند إرادة التصريح بالنفي يوجد التصريح بالنفي وصيغته، ثانيهما: أنهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث فذكروا أن المخبر عنه يبالغ في الإخبار ونحن نستكثر مبالغته وتأكيده فحكوا كلامهم

على طريقة الاستفهام بمعنى الإنكار، ثم إنهم أشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها مقررة لصحة إنكارهم فقالوا أولاً: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ ولم يقتصروا عليه بل قالوا بعده: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي فطال عهدنا بعد كوننا أمواتًا حتى صارت اللحوم ترابًا والعظام رفاتًا، ثم زادوا وقالوا: مع هذا يقال لنا: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بطريق التأكيد من ثلاثة أوجه: أحدها: استعمال كلمة إن، ثانيها: إثبات اللام في خبرها، ثالثها: ترك صيغة الاستقبال، والإتيان بالمفعول كأنه كائن، فقالوا لنا: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ثم زادوا وقالوا: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يعني هذا أبعد فإنا إذا كنا ترابًا بعد موتنا والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات فكيف يمكن البعث؟ وقد بينا في سورة والصافات هذا كله وقلنا: إن قوله: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٧] معناه: أو يقولوا: آباؤنا الأولون، إشارة إلى أنهم في الإشكال أعظم، ثم إن الله تعالى أجابهم ورد عليهم في الجواب في كل مبالغة بمبالغة أخرى فقال:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

فقوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور، وذلك أن في الرسالة أسرارًا لا تقال إلا للأبرار، ومن جملتها تعيين وقت القيامة لأن العوام لو علموا لاتّكلوا والأنبياء ربما اطلعوا على علاماتها أكثر مما بينوا وربما بينوا للأكابر من الصحابة علامات على ما نبين ففيه وجوه: أولها: قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني أن هذا من جملة الأمور التي بلغت في الظهور إلى حد يشترك فيه العوام والخواص، فقال: قل قولاً عامًّا وهكذا في كل موضع، قال: قل كان الأمر ظاهرًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي هذا هو الظاهر من أمر الروح وغيره خفي، ثانيها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ بتقديم الأولين على الآخرين في جواب قولهم: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٨] فإنهم أخروا ذكر الآباء لكون الاستبعاد فيهم أكثر، فقال: إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم وتؤخرونهم يبعثهم الله في أمر مقدم على الآخرين، يتبين منه إثبات حال من أخرتموه مستبعدين، إشارة إلى كون الأمر هينًا، ثالثها: قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ فإنهم أنكروا قوله: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] فقال: هو واقع مع أمر زائد، وهو أنهم يحشرون ويجمعون في عرصة الحساب، وهذا فوق البعث، فإن من بقي تحت التراب مدة طويلة ثم حشر ربما لا يكون له قدرة على الحركة، وكيف لو كان حيًّا محبوسًا في قبره مدة لتعذرت عليه الحركة، ثم إنه تعالى بقدرته يحركه بأسرع حركة ويجمعه بأقوى سير، وقوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ فوق قول القائل: مجموعون، كما قلنا: إن قول القائل: إنه يموت في إفادة التوكيد دون قوله: إنه ميت، رابعها: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فإنه يدل على أن الله تعالى يجمعهم في يوم واحد معلوم، واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا الله تعالى في وقت واحد أعجب من نفس

البعث وهذا كقوله تعالى في سورة والصافات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] أي أنتم تستبعدون نفس البعث، والأعجب من هذا أنه يبعثهم بزجرة واحدة أي صيحة واحدة: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] أي يبعثون مع زيادة أمر، وهو فتح أعينهم ونظرهم، بخلاف من نعس فإنه إذا انتبه يبقى ساعة ثم ينظر في الأشياء، فأمر الإحياء عند الله تعالى أهون من تنبيه نائم، خامسها: حرف ﴿إِلَىٰ﴾ أدل على البعث من اللام، ولنذكر هذا في جواب سؤال هو أن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقال هنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ولم يقل: لميقاتنا وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [التغابن: ١٤٣] نقول: لما كان ذكر الجمع جوابًا للمنكرين المستبعدين ذكر كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ الدالة على التحرك والانتقال لتكون أدل على فعل غير البعث ولا يجمع هناك قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ﴾ ولا يفهم النشور من نفس الحرف وإن كان يفهم من الكلام، ولهذا قال هاهنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بلفظ التأكيد، وقال هناك: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ وقال هاهنا: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾ وهو مصير الوقت إليه، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فنقول: الموضع هناك لم يكن مطلوب موسى عليه السلام، وإنما كان مطلوبه الحضور، لأن من وقت له وقت وعين له موضع كانت حركته في الحقيقة لأمر بالتبع إلى أمر، وأما هناك فالأمر الأعظم الوقوف في موضعه لا زمانه فقال بكلمة دلالتها على الموضع والمكان أظهر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾

في تفسير الآيات مسائل:

المسألة الأولى: الخطاب مع من؟ نقول: قال بعض المفسرين: مع أهل مكة، والظاهر أنه عام مع كل ضال مكذب وقد تقدم مثل هذا في مواضع، وهو تمام كلام النبي ﷺ كأنه تعالى قال لنبيه: قل إن الأولين والآخرين لمجموعون ثم إنكم تعذبون بهذه الأنواع من العذاب.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بتقديم الضال وقال في آخر السورة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] بتقديم المكذبين، فهل بينهما فرق؟ قلت: نعم، وذلك أن المراد من الضالين هاهنا هم الذين صدر منهم الإصرار على الحنث العظيم، فضلوا في سبيل الله ولم يصلوا إليه ولم يوحدوه، وذلك ضلال عظيم، ثم كذبوا رسله وقالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ [الواقعة: ٤٧] فكذبوا بالحشر، فقال: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الذين أشركتم: ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ الذين أنكرتم الحشر لتأكلون ما تكرهون، وأما هناك فقال لهم: ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبتم بالحشر: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في طريق الخلاص الذين لا يهتدون إلى النعيم، وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب هنا مع الكفار فقال: يا أيها الذين ضللتم أولاً وكذبتم ثانيًا، والخطاب في آخر السورة مع محمد ﷺ يبين له حال الأزواج الثلاثة فقال: المقربون في روح وريحان وجنة ونعيم، وأصحاب اليمين في

سلام، وأما المكذبون الذين كذبوا فقد ضلوا فقدم تكذيبهم إشارة إلى كرامة محمد ﷺ حيث بيَّن أن أقوى سبب في عقابهم تكذيبهم، والذي يدل على أن الكلام هناك مع محمد ﷺ قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٩١].

المسألة الثالثة: ما الزقوم؟ نقول: قد بيناه في موضع آخر، واختلف فيه أقوال الناس ومآل الأقوال إلى كون ذلك في الطعم مرًّا وفي اللمس حارًّا، وفي الرائحة منتنًا، وفي المنظر أسود لا يكاد آكله يسيغه فيكره على ابتلاعه، والتحقيق اللغوي فيه أن الزقوم لغية عربية دلنا تركيبه على قبحه، وذلك لأن زق لم يجتمع إلا في مهمل أو في مكروه، منه مزق، ومنه زمق شعره إذا نتفه، ومنه القزم للدناءة، وأقوى من هذا أن القاف مع كل حرف من الحرفين الباقيين يدل على المكروه في أكثر الأمر، فالقاف مع الميم قمامة وقمقمة، وبالعكس مقامق: الغليظ الصوت والقمقمة هو السور، وأما القاف مع الزاي فالزق رمي الطائر بذرقه، والزقزقة الخفة، وبالعكس القزنوب فينفر الطبع من تركيب الكلمة من حروف اجتماعها دليل الكراهة والقبح، ثم قرن بالأكل فدل على أنه طعام ذو غصة، وأما ما يقال بأن العرب تقول: زقمتني بمعنى أطعمتني الزبد والعسل واللبن، فذلك للمجانة كقولهم: ارشقني بثوب حسن، وارجمني بكيس من ذهب، وقوله: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ لابتداء الغاية أي تناولكم منه، وقوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ زيادة في بيان العذاب أي لا يكتفى منكم بنفس كما الأكل يكتفى من يأكل الشيء لتحلة القسم، بل يلزمون بأن تملأوا منها البطون والهاء عائدة إلى الشجرة، والبطون يحتمل أن يكون المراد منه مقابلة الجمع بالجمع أي يملأ كل واحد منكم بطنه ويحتمل أن يكون المراد أن كل واحد منكم يملأ البطون، والبطون حينئذ تكون بطون الأمعاء، لتخيل وصف المعى في باطن الإنسان له، كيأكل في سبعة أمعاء، فيملأون بطون الأمعاء وغيرها، والأول أظهر، والثاني أدخل في التعذيب والوعيد، قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي عقيب الأكل تجر مرارته وحرارته إلى شرب الماء فيشربون على ذلك المأكول وعلى ذلك الزقوم من الماء الحار، وقد تقدم بيان الحميم، وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بيان أيضًا لزيادة العذاب أي لا يكون أمركم أمر من شرب ماءً حارًّا منتنًا فيمسك عنه بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم وهي الجمال التي أصابها العطش فتشرب ولا تروى، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب، وقوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ في الأكل، فإن قيل: الأهيم إذا شرب الماء الكثير يضره ولكن في الحال يلتذ به، فهل لأهل الجحيم من شرب الحميم الحار في النار لذة؟ قلنا: لا، وإنما ذلك لبيان زيادة العذاب، ووجهه أن يقال: يلزمون بشرب الحميم ولا يكتفى منهم بذلك الشرب بل يلزمون أن يشربوا كما يشرب الجمل الأهيم الذي به الهيام، أو هم إذا شربوا تزداد حرارة الزقوم في جوفهم فيظنون أنه من الزقوم لا من الحميم فيشربون منه شيئًا كثيرًا بناء على وِهم الري، والقول في الهِيم كالقول في البِيض، أصله هُيم، وهذا من هام يهيم كأنه من العطش يهيم، والهيام ذلك الداء الذي يجعله كالهائم من العطش.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يعني ليس هذا كل العذاب بل هذا أول ما يلقونه وهو بعض منه وأقطع لأمعائهم.

ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ دليلاً على كذبهم وصدق الرسل في الحشر، لأن قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ إلزام على الإقرار بأن الخالق في الابتداء هو الله تعالى، ولما كان قادرًا على الخلق أولاً كان قادرًا على الخلق ثانيًا، ولا مجال للنظر في ذاته وصفاته تعالى وتقدس، وإن لم يعترفوا به، بل يشكون ويقولون: الخلق الأول من مني بحسب الطبيعة، فنقول: المنى من الأمور الممكنة ولا وجود للممكن بذاته بل بالغير على ما عرف، فيكون المنى من القادر القاهر، وكذلك خلق الطبيعة وغيرها من الحادثات أيضًا، فقال لهم: هل تشكون في أن الله خلقكم أولاً أم لا؟ فإن قالوا: لا نشك في أنه خالقًا، فيقال: فهل تصدقون أيضًا بخلقكم ثانيًا؟ فإن من خلقكم أولاً من لا شيء لا يعجز أن يخلقكم ثانيًا من أجزاء هي عنده معلومة، وإن كنتم تشكون وتقولون: الخلق لا يكون إلا من مني وبعد الموت لا والدة ولا مني، فيقال لهم: هذا المني أنتم تخلقونه أم الله، فإن كنتم تعترفون بالله وبقدرته وإرادته وعمله، فذلك يلزمكم القول بجواز الحشر وصحته، و(لولا) كلمة مركبة من كلمتين معناها التحضيض والحث والأصل فيه: لم لا، فإذا قلت: لم لا أكلت ولم ما أكلت، جاز الاستفهامان، فإن معناه لا علة لعدم الأكل ولا يمكنك أن تذكر علة له، كما تقول: لم فعلت؟ موبخًا، يكون معناه فعلت أمرًا لا سبب له ولا يمكنك ذكر سبب له ثم إنهم تركوا حرف الاستفهام عن العلة وأتوا بحرف الاستفهام عن الحكم، فقالوا: هلا فعلت؟ كما يقولون في موضع: لم فعلت هذا وأنت تعلم فساده، أتفعل هذا وأنت عاقل؟ وفيه زيادة حث؛ لأن قول القائل: لم فعلت حقيقته سؤال عن العلة، ومعناه أن علته غير معلومة وغير ظاهرة، فلا يجوز ظهور وجوده، وقوله: أفعلت، سؤال عن حقيقته، ومعناه أنه في جنسه غير ممكن، والسائل عن العلة كأنه سلم الوجود وجعله معلومًا وسأل عن العلة كما يقول القائل: زيد جاء فلم جاء، والسائل عن الوجود لم يسلمه، وقول القائل: لم فعلت وأنت تعلم ما فيه دون قوله: أفعلت وأنت تعلم ما فيه، لأن في الأول جعله كالمصيب في فعله لعلة خفية تطلب منه، وفي الثاني جعله مخطئًا في أول الأمر، وإذا علم ما بين لم فعلت، وأفعلت، علم ما بين لم تفعل وهلا تفعل، وأما (لولا) فنقول: هي كلمة شرط في الأصل والجملة الشرطية غير مجزومة بها كما أن جملة الاستفهام غير مجزوم به لكن لولا تدل على الاعتساف وتزيد نفي النظر والتواني، فيقول: لولا تصدقون، بدل قوله: لم لا، وهلا، لأنه أدل على نفي ما دخلت عليه وهو عدم التصديق

وفيه لطيفة: وهي أن لولا تدخل على فعل ماض على مستقبل قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] فما وجه اختصاص المستقبل هاهنا بالذكر وهلا قال: فلولا صدقتم؟ نقول: هذا كلام معهم في الدنيا والإسلام فيها مقبول ويجب ما قبله فقال: لم لا تصدقون في ساعتكم، والدلائل واضحة مستمرة والفائدة حاصلة، فأما في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ لم تكن الفائدة تحصل إلا بعد مدة فقال: لو سافرتم لحصل لكم الفائدة في الحال وقد فات ذلك، فإن كنتم لا تسافرون في الحال تفوتكم الفائدة أيضًا في الاستقبال، ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ من تقرير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ قال الطبيعيون: نحن موجودون من نطف الخلق بجواهر كامنة وقبل كل واحد نطفة واحد فقال تعالى ردًّا عليهم: هل رأيتم هذا المني وأنه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد له من مكون، فأنتم خلقتم النطفة أم غيركم خلقها، ولا بد من الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعًا للتسلسل الباطل وإلى ربنا المنتهى، ولا يرتاب فيه أحد من أول ما خلق الله النطفة وصورها وأحياها ونورها فلم لا تصدقون أنه واحد أحد صمد قادر على الأشياء، فإنه يعيدكم كما أنشأكم في الابتداء، والاستفهام يفيد زيادة تقرير وقد علمت ذلك مرارًا.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فيه وجهان: أحدهما: أنه تقرير لما سبق وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] ثم قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فمن قدر على الإحياء والإماتة وهما ضدان ثبت كونه مختارًا فيمكن الإحياء ثانيًا منه بعد الإماتة بخلاف ما لو كان الإحياء منه ولم يكن له قدرة على الإماتة فيظن به أنه موجب لا مختار، والموجب لا يقدر على كل شيء ممكن فقال: نحن خلقناكم وقدرنا الموت بينكم فانظروا فيه واعلموا أنا قادرون أن ننشئكم، ثانيهما: أنه جواب عن قول مبطل يقول: إن لم تكن الحياة والموت بأمور طبيعية في الأجسام من حرارات ورطوبات إذا توفرت بقيت حية، وإذا نقصت وفنيت ماتت لم يقع الموت وكيف يليق بالحكيم أن يخلق شيئًا يتقن خلقه ويحسن صورته ثم يفسده ويعدمه ثم يعيده وينشئه، فقال تعالى: نحن قدرنا الموت، ولا يرد قولكم: لماذا أعدم ولماذا أنشأ، ولماذا هدم، لأن كمال القدرة يقتضي ذلك وإنما يقبح من الصائغ والباني صياغة شيء وبناؤه وكسره وإفناؤه لأنه يحتاج إلى صرف زمان إليه وتحمل مشقة وما مَثَلُه إلا مثل إنسان ينظر إلى شيء فيقطع نظره عنه طرفة عين، ثم يعاوده ولا يقال له: لم قطعت النظر ولم نظرت إليه، ولله المثل الأعلى من هذا، لأن هنا لا بد من حركة وزمان ولو توارد على الإنسان أمثاله

لتعب لكن في المرة الواحدة لا يثبت التعب، والله تعالى منزه عن التعب ولا افتقار لفعله إلى زمان ولا زمان لفعله ولا إلى حركة بجرم، وفيه وجه آخر ألطف منها وهو أن قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] معناه أفرأيتم ذلك ميتًا لا حياة فيه وهو مني، ولو تفكرتم فيه لعلمتم أنه كان قبل ذلك حيًّا متصلاً بحي وكان أجزاء مدركة متألمة متلذذة ثم إذا أمنيتموه لا تستريبون في كونه ميتًا كالجمادات، ثم إن الله تعالى يخلقه آدميًّا ويجعله بشرًا سويًّا فالنطفة كانت قبل الانفصال حية، ثم صارت ميتة ثم أحياها الله تعالى مرة أخرى فاعلموا أنما إذا خلقناكم أولاً ثم قدرنا بينكم الموت ثانيًا ثم ننشئكم مرة أخرى فلا تستبعدوا ذلك كما في النطف.

المسألة الثانية: ما الفرق بين هذا الموضع وبين أول سورة تبارك حيث قال هناك: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] بتقديم ذكر الموت؟ نقول: الكلام هنا على الترتيب الأصلي كما قال تعالى في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] وأما في سورة الملك فنذكر إن شاء الله تعالى فائدتها ومرجعها إلى ما ذكرنا أنه قال: خلق الموت في النطف بعد كونها حية عند الاتصال ثم خلق الحياة فيها بعد الموت وهو دليل الحشر، وقيل: المراد من الموت هنا الموت الذي بعد الحياة، والمراد هناك الذي قبل الحياة.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ وقال في سورة الملك: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] فذكر الموت والحياة بلفظ الخلق، وهاهنا قال: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وقال: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فنقول: كان المراد هناك بيان كون الموت والحياة مخلوقين مطلقًا لا في الناس على الخصوص، وهنا لما قال: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] خصصهم بالذكر فصار كأنه قال: خلقنا حياتكم، فلو قال: نحن قدرنا موتكم، كان ينبغي أنه يوجد موتهم في الحال ولم يكن كذلك، ولهذا قال: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ﴾ وأما هناك فالموت والحياة كانا مخلوقين في محلين ولم يكن ذلك بالنسبة إلى بعض مخصوص.

المسألة الرابعة: هل في قوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمُ﴾ بدلاً عن غيره من الألفاظ فائدة؟ نقول: نعم فائدة جليلة، وهي تبين بالنظر إلى الألفاظ التي تقوم مقامها فنقول: قدرنا لكم الموت، وقدرنا فيكم الموت، فقوله: قدرنا فيكم يفيد معنى الخلق لأن تقدير الشيء في الشيء يستدعي كونه ظرفًا له إما ظرف حصول فيه أو ظرف حلول فيه كما يقال: البياض في الجسم والكحل في العين، فلو قال: قدرنا فيكم الموت لكان مخلوقًا فينا وليس كذلك، وإن قلنا: قدرنا لكم الموت كان ذلك ينبئ عن تأخره عن الناس، فإن القائل إذا قال: هذا معد لك كان معناه أنه اليوم لغيرك وغدًا لك، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ المشهور أن المراد منه: وما نحن بمغلوبين عاجزين عن خلق أمثالكم وإعادتكم بعد تفرق أوصالكم، يقال: فاته الشيء إذا غلبه ولم يقدر عليه ومثله سبقه وعلى هذا نعيد ما ذكرناه من الترتيب، ونقول: إذا كان قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ﴾

لبيان أنه خلق الحياة وقدر الموت، وهما ضدان وخالق الضدين يكون قادرًا مختارًا فقال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ عاجزين عن الشيء بخلاف الموجب الذي لا يمكنه من إيقاع كل واحد من الضدين فيسبقه ويفوته، فإن النار لا يمكنها التبريد لأن طبيعتها موجبة للتسخين، وأما إن قلنا بأنه ذكره ردًا عليهم حيث قالوا: لو لم يكن الموت من فناء الرطوبات الأصلية وانطفاء الحرارة الغريزية وكان بخلق حكيم مختار ما كان يجوز وقوعه لأن الحكيم كيف يبني ويهدم ويوجد ويعدم فقال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي عاجزين بوجه من الوجوه التي يستبعدونها من البناء والصائغ فإنه يفتقر في الإيجاد إلى زمان ومكان وتمكين من المفعول وإمكان ويلحقه تعب من تحريك وإسكان والله تعالى يخلق بكن فيكون، فهو فوق ما ذكرنا من المثل من قطع النظر وإعادته في أسرع حين حيث لا يصح من القائل أن يقول: لم قطعت النظر في ذلك الزمان اللطيف الذي لا يدرك ولا يحس بل ربما يكون مدعى القدرة التامة على الشيء في الزمان اليسير بالحركة السريعة يأتي بشيء ثم يبطله ثم يأتي بمثله ثم يبطله يدلك عليه فعل أصحاب خفة اليد، حيث يوهم أنه يفعل شيئًا ثم يبطله، ثم يأتي بمثله إراءة من نفسه القدرة، وعلى هذا فنقول قوله في سورة تبارك: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢] معناه أمات وأحيا لتعلموا أنه فاعل مختار، فتعبدونه وتعتقدون الثواب والعقاب فيحسن عملكم ولو اعتقدتموه موجبًا لما عملتم شيئًا على هذا التفسير المشهور، والظاهر أن المراد من قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حقيقته وهي أنا ما سبقنا وهو يحتمل شيئين: أحدهما: أن يكون معناه أنه هو الأول لم يكن قبله شيء، وثانيهما: في خلق الناس وتقدير الموت فيهم ما سبق وهو على طريقة منع آخر، وفيه فائدتان أما إذا قلنا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ معناه ما سبقنا شيء فهو إشارة إلى أنكم من أي وجه تسلكون طريق النظر تنتهون إلى الله وتقفون عنده ولا تجاوزونه، فإنكم إن كنتم تقولون: قبل النطفة أب وقبل الأب نطفة فالعقل يحكم بانتهاء النطف والآباء إلى خالق غير مخلوق، وأنا ذلك فإني لست بمسبوق وليس هناك خالق ولا سابق غيري، وهذا يكون على طريقة التدرج والنزول من مقام إلى مقام، والعاقل الذي هداه الله تعالى الهداية القوية يعرف أولاً والذي دونه يعرف بعد ذلك برتبة، والمعاند لا بد من أن يعرف إن عاد إلى عقله بعد المراتب، ويقول: لا بد للكل من إله، وهو ليس بمسبوق فيما فعله، فمعناه أنه فعل ما فعل، ولم يكن لمفعوله مثال، وأما إن قلنا: إنه ليس بمسبوق، وأي حاجة في إعادته له بمثال هو أهون فيكون كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ويؤيده قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن قيل: هذا لا يصح، لأن مثل هذا ورد في سؤال سائل، والمراد ما ذكرنا كأنه قال: وإنا لقادرون على أن نبدل أمثالكم وما نحن بمسبوقين، أي لسنا بعاجزين مغلوبين فهذا دليلنا، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] أفاد فائدة انتفاء العجز عنه، فلا بد من أن يكون لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ فائدة ظاهرة، ثم قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ في الوجه المشهور، قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ يتعلق بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ

بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي على التبديل، ومعناه وما نحن عاجزين عن التبديل.

والتحقيق في هذا الوجه أن من سبقه الشيء كأنه غلبه فعجز عنه، وكلمة (على) في هذا الوجه مأخوذة من استعمال لفظ المسابقة فإنه يكون على شيء، فإن من سبق غيره على أمر فهو الغالب، وعلى الوجه الآخر يتعلق بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ وتقديره: نحن قدرنا بينكم على وجه التبديل لا على وجه قطع النسل من أول الأمر، كما يقول القائل: خرج فلان على أن يرجع عاجلاً، أي على هذا الوجه خرج، وتعلق كلمة (على) هذا الوجه أظهر، فإن قيل: على ما ذهب إليه المفسرون لا إشكال في تبديل أمثالكم، أي أشكالكم وأوصافكم، ويكون الأمثال جمع مثل، ويكون معناه: وما نحن بعاجزين على أن نمسخكم، ونجعلكم في صورة قردة وخنازير، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس: ٦٧] وعلى ما قلت في تفسير المسبوقين، وجعلت المتعلق لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ هو قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ فيكون قوله: ﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ معناه: على أن نبدل أمثالهم لا على عملهم، نقول: هذا إيراد وارد على المفسرين بأسرهم إذا فسروا الأمثال بجمع المثل، وهو الظاهر كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨] فإن قوله: ﴿وَإِذَا﴾ دليل الوقوع، وتغير أوصافهم بالمسخ ليس أمرًا يقع، والجواب: أن يقال: الأمثال إما أن يكون جمع مِثْل، وإما جمع مَثَل، فإن كان جمع مَثَل فنقول معناه قدرنا بينكم الموت على هذا الوجه، وهو أن نغير أوصافكم فتكونوا أطفالاً، ثم شبانًا، ثم كهولاً، ثم شيوخًا، ثم يدرككم الأجل، وما قدرنا بينكم الموت على أن نهلككم دفعة واحدة إلا إذا جاء وقت ذلك فتهلكون بنفخة واحدة. وإن قلنا: هو جمع مِثْل فنقول معنى: ﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ نجعل أمثالكم بدلاً وبَدَّله بمعنى جعله بدلاً، ولم يحسن أن يقال: بدلناكم على هذا الوجه، لأنه يفيد أنا جعلنا بدلاً فلا يدل على وقوع الفناء عليهم، غاية ما في الباب أن قول القائل: جعلت كذا بدلاً لا تتم فائدته إلا إذا قال: جعلته بدلاً عن كذا لكنه تعالى لما قال: ﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ فالمثل يدل على المثل، فكأنه قال: جعلنا أمثالكم بدلاً لكم، ومعناه على ما ذكرنا أنه لم نقدر الموت على أن نفني الخلق دفعة بل قدرناه على أن نجعل مثلهم بدلهم مدة طويلة ثم نهلكهم جميعًا ثم ننشئهم، وقوله تعالى: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ على الوجه المشهور في التفسير أنه فيما لا تعلمون من الأوصاف والأخلاق، والظاهر أن المراد: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأوصاف والزمان، فإن أحدًا لا يدري أنه متى يموت ومتى ينشأ أو كأنهم قالوا: ومتى الساعة والإنشاء؟ فقال: لا علم لكم بهما، هذا إذا قلنا: إن المراد ما ذكر فيه على الوجه المشهور، وفيه لطيفة: وهي أن قوله: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تقرير لقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] وكأنه قال: كيف يمكن أن تقولوا هذا وأنتم تنشأون في بطون أمهاتكم على أوصاف لا تعلمون وكيف يكون خالق الشيء غير عالم به؟ وهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وعلى

ما ذكرنا فيه فائدة وهي التحريض على العمل الصالح، لأن التبديل والإنشاء وهو الموت والحشر إذا كان واقعًا في زمان لا يعلمه أحد فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة ولا يغفل عن إعداد العدة، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تقريرًا لإمكان النشأة الثانية.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] إشارة إلى دليل الخلق وبه الابتداء، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إشارة إلى دليل الرزق وبه البقاء، وذكر أمورًا ثلاثة المأكول، والمشروب، وما به إصلاح المأكول، ورتبه ترتيبًا فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء، ثم المشروب لأن به الاستمراء، ثم النار للتي بها الإصلاح وذكر من كل نوع ما هو الأصل، فذكر من المأكول الحب فإنه هو الأصل، ومن المشروب الماء لأنه هو الأصل، وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها، ودخل في كل واحد منها ما هو دونه، هذا هو الترتيب، وأما التفسير فنقول: الفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أوائل الزرع ومقدماته من كراب الأرض، وإلقاء البذر، وسقي المبذور، والزرع هو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق، فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي ما تبتدئون منه من الأعمال أأنتم تبلغونها المقصود أم الله؟ ولا يشك أحد في أن إيجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس، وليس بفعلهم إن كان سوى إلقاء البذر والسقي، فإن قيل: هذا يدل على أن الله هو الزارع، فكيف قال تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال النبي ﷺ: «الزَّرْعُ لِلزَّارِعِ»[(١)] قلنا: قد ثبت من التفسير أن الحرث متصل بالزرع، فالحرث أوائل الزرع، والزرع أواخر الحرث، فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر، لكن قوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بدلاً عن قوله: يعجب الحراث، يدل على أن الحارث إذا كان هو المبتدئ، فربما يتعجب بما يترتب على فعله من خروج النبات والزارع لما كان هو المنتهي، ولا يعجبه إلا شيء عظيم، فقال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الذين تعودوا أخذ الحراث، فما ظنك بإعجابه الحراث، وقوله ﷺ: «الزَّرْعُ لِلزَّارِعِ» فيه فائدة، لأنه لو قال: للحارث فمن ابتدأ بعمل الزرع وأتى بكراب الأرض وتسويتها يصير حارثًا، وذلك قبل إلقاء البذرة لزرع لمن أتى بالأمر المتأخر وهو إلقاء البذر، أي من له البذر على مذهب أبي حنيفة رحمة الله تعالى عليه وهذا أظهر، لأنه بمجرد الإلقاء في الأرض يجعل الزرع للملقى سواء كان مالكًا أو غاصبًا.

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وهو تدريج في الإثبات، وبيانه هو أنه لما قال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] لم

---

(١) ذكره الصنعاني في (سبل السلام) (٣/ ٧٢) وقال: لم يخرجه أحد قال في المغار: وقد بحثت عنه فلم أجده وأورده الألباني في (الضعيفة) (٨٨) وقال: باطل لا أصل له.

يبعد من معاند أن يقول: نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعًا، لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا، فقال تعالى: ولو سلم لكم هذا الباطل، فما تقولون في سلامته عن الآفات التي تصيبه، فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده، أو قبل اشتداد الحب وقبل ظهور الحب فيه، فهل تحفظونه منها أو تدفعونها عنه، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات، كما تقولون: إنه بنفسه ينبت، ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى، وحفظه عنها بفضل الله، وعلى هذا أعاده ليذكر أمورًا مرتبة بعضها على بعض فيكون الأمر الأول: للمهتدين، والثاني: للظالمين والثالث: للمعاندين الضالين فيذكر الأمر الذي لا شك فيه في آخر الأمر إقامة للحجة على الضال المعاند، وفيه سؤال وهو أنه تعالى هاهنا قال: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ بلام الجواب، وقال في الماء: ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] من غير لام فما الفرق بينهما؟ نقول: ذكر الزمخشري عنه جوابين: أحدهما قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ كان قريب الذكر فاستغنى بذكر اللام فيه عن ذكرها ثانيًا، وهذا ضعيف لأن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] مع قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧] أقرب من قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ و﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] اللهم إلا أن نقول هناك: أحدهما قريب من الآخر ذكرًا لا معنى لأن الطمس لا يلزمه المسخ ولا بالعكس والمأكول معه المشروب في الدهر، فالأمران تقاربا لفظًا ومعنى، والجواب الثاني: أن اللام يفيد نوع تأكيد فذكر اللام في المأكول ليعلم أن أمر المأكول أهم من أمر المشروب وأن نعمته أعظم وما ذكرنا أيضًا وارد عليه لأن أمر الطمس أهون من أمر المسخ وأدخل فيهما اللام، وهاهنا جواب آخر يبين بتقديم بحث عن فائدة اللام في جواب لو، فنقول: حرف الشرط إذا دخل على الجملة يخرجها عن كونها جملة في المعنى فاحتاجوا إلى علامة تدل على المعنى، فأتوا بالجزم في المستقبل لأن الشرط يقتضي جزاء، وفيه تطويل فالجزم الذي هو سكون أليق بالموضع وبينه وبين المعنى أيضًا مناسبة لكن كلمة لو مختصة بالدخول على الماضي معنى فإنها إذا دخلت على المستقبل جعلته ماضيًا، والتحقيق فيه أن الجملة الشرطية لا تخرج عن أقسام فإنها إذا ذكرت لا بد من أن يكون الشرط معلوم الوقوع لأن الشرط إن كان معلوم الوقوع فالجزاء لازم الوقوع فجعل الكلام جملة شرطية عدول عن جملة إسنادية إلى جملة تعليقية وهو تطويل من غير فائدة فقول القائل: آتيك إن طلعت الشمس تطويل والأولى أن يقول: آتيك جزمًا من غير شرط فإذا علم هذا فحال الشرط لا يخلو من أن يكون معلوم العدم أو مشكوكًا فيه فالشرط إذا وقع على قسمين فلا بد لهما من لفظين وهما (إن) و(لو)، واختصت (إن) بالشكوك، و(لو) بمعلوم لأمر بيناه في موضع آخر لكن ما علم عدم يكون الآخر فقد أثبت منه فهو ماض أو في حكمه لأن العلم بالأمور يكون بعد وقوعها وما يشك فيه فهو مستقبل أو في معناه لأننا نشك في الأمور المستقبلة أنها تكون أولا تكون والماضي خرج عن التردد، وإذا ثبت هذا، فنقول: لما دخل لو على الماضي وما اختلف آخر بالعامل لم يتبين فيه إعراب، وإن لما دخل على المستقبل بان فيه

الإعراب، ثم إن الجزاء على حسب الشرط وكان الجزاء في باب (لو) ماضيًا فلم يتبين فيه الحال بحركة ولا سكون، فيضاف له حرف يدل على خروجه عن كونه جملة ودخوله في كونه جزء جملة، إذا ثبت هذا فنقول: عندما يكون الجزاء ظاهرًا يستغنى عن الحرف الصارف، لكن كون الماء المذكور في الآية، وهو الماء المشروب المنزل من المزن أجاجًا ليس أمرًا واقعًا يظن أنه خبر مستقل، ويقويه أنه تعالى يقول: ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ على طريقة الإخبار والحرث والزرع كثيرًا ما وقع كونه حطامًا فلو قال: جعلناه حطامًا، كان يتوهم منه الإخبار فقال هناك: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ ليخرجه عما هو صالح له في الواقع، وهو الحطامية وقال في الماء المنزل المشروب من المزن ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ لأنه لا يتوهم ذلك فاستغنى عن اللام، وفيه لطيفة: أخرى نحوية، وهي أن في القرآن إسقاط اللام عن جزاء لو حيث كانت لو داخلة على مستقبل لفظًا، وأما إذا كان ما دخل عليه لو ماضيًا، وكان الجزاء موجبًا فلا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا﴾ [السجدة: ١٣] و﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وذلك لأن لو إذا دخلت على فعل مستقبل كما في قوله: ﴿لَّوْ نَشَآءُ﴾ فقد أخرجت عن حيزها لفظًا، لأن لو للماضي فإذا خرج الشرط عن حيزه جاز في الجزاء الإخراج عن حيزه لفظًا وإسقاط اللام عنه، لأن إن كان حيزها المستقبل وتدخل على المستقبل، فإذا جعل ما دخل إن عليه ماضيًا كقولك: إن جئتني، جاز في الخبر الإخراج عن حيزه وترك الجزم فنقول: أكرمك بالرفع، وأكرمك بالجزم، كما تقول في: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ وفي: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ﴾ [الواقعة: ٧٠] وما ذكرناه من الجواب في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] إذا نظرت إليه تجده مستقيمًا، وحيث لم يقل: لو شاء الله أطعمه، علم أن الآخر جزاء ولم يبق فيه توهم، لأنه إما أن يكون عند المتكلم، وذلك غير جائز لأن المتكلم عالم بحقيقة كلامه، وإما أن يكون عندهم وذلك غير جائز هاهنا، لأن قولهم: لو شاء الله أطعمه رد على المؤمنين في زعمهم يعني أنتم تقولون: إن الله لو شاء فعل فلا نطعم من لو شاء الله أطعمه على زعمكم، فلما كان أطعمه جزاءً معلومًا عند السامع والمتكلم استغنى عن اللام، والحطام كالفتات والجذاذ وهو من الحطم كما أن الفتات والجذاذ من الفت والجذ والفعال في أكثر الأمر يدل على مكروه أو منكر، أما في المعاني: فكالسبات والفواق والزكام والدوار والصداع لأمراض وآفات في الناس والنبات.

وأما في الأعيان: فكالجذاذ والحطام والفتات، وكذا إذا لحقته الهاء كالبرادة والسحالة، وفيه زيادة بيان وهو أن ضم الفاء من الكلمة يدل على ما ذكرنا في الأفعال فإنا نقول: فعل لما لم يسم فاعله وكان السبب أن أوائل الكلم لما لم يكن فيه التخفيف المطلق وهو السكون لم يثبت التثقيل المطلق وهو الضم، فإذا ثبت فهو لعارض، فإن علم كما ذكرنا فلا كلام وإن لم يعلم كما في بُرْد وقُفْل فالأمر خفي يطول ذكره والوضع يدل عليه في الثلاثي. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وفيه وجهان: أما على الوجه الأول: كأنما هو كلام مقدر عنهم كأنه يقول: وحينئذ

يحق أن تقولوا: إنا لمعذبون دائمون في العذاب. وأما على الوجه الثاني: فيقولون: إنا لمعذبون ومحرومون عن إعادة الزرع مرة أخرى، يقولون: إنا لمعذبون بالجوع بهلاك الزرع ومحرومون عن دفعه بغير الزرع لفوات الماء، والوجه الثالث: في الغرم إنا لمكرهون بالغرامة من غَرِم الرجل وأصل الغُرْم والغَرَام لزوم المكروه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾

خصه بالذكر لأنه ألطف وأنظف أو تذكيرًا لهم بالإنعام عليهم، والمزن: السحاب الثقيل بالماء لا بغيره من أنواع العذاب يدل على ثقله قلب اللفظ وعلى مدافعة الأمر وهو التزم في بعض اللغات السحاب الذي مس الأرض وقد تقدم تفسير الأجاج أنه الماء المر من شدة الملوحة، والظاهر أنه هو الحار من أجيج النار كالحطام من الحطيم، وقد ذكرناه في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] ذكر في الماء الطيب صفتين إحداهما عائدة إلى طعمه والأخرى عائدة إلى كيفية ملمسه وهي البرودة واللطافة، وفي الماء الآخر أيضًا صفتين إحداهما عائدة إلى طعمه والأخرى عائدة إلى كيفية لمسه وهي الحرارة، ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ لم يقل عند ذكر الطعام الشكر، وذلك لوجهين أحدهما: أنه لم يذكر في المأكول أكلهم، فلما لم يقل: تأكلون لم يقل: تشكرون، وقال في الماء: ﴿تَشْرَبُونَ﴾ فقال: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ والثاني: أن في المأكول قال: ﴿تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣] فأثبت لهم سعيًا فلم يقل: تشكرون، وقال في الماء: ﴿أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ لا عمل لكم فيه أصلاً فهو محض النعمة فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ وفيه وجه ثالث: وهو الأحسن أن يقال: النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب ألا ترى أن في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئًا مخافة العطش، فلما ذكر المأكول أولاً وأتمه بذكر المشروب ثانيًا قال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ على هذه النعمة التامة.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي تقدحون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾.

وفي شجرة النار وجوه:

أحدها: أنها الشجرة التي تورى النار منها بالزند والزندة كالمرخ، وثانيها: الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار، لأن النار لا تتعلق بكل شيء كما تتعلق بالحطب، وثالثها: أصول شعلها ووقود شجرتها ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لإنضاج الأشياء، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ في قوله: ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ وجهان: أحدهما: تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة، وثانيهما: تذكرة بصحة البعث، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ [يس: ٨٠] والمقوى: هو الذي أوقده فقواه وزاده، وفيه لطيفة: وهو أنه تعالى قدم كونها تذكرة على كونها متاعًا ليعلم أن الفائدة الأخروية أتم وبالذكر أهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في وجه تعلقه بما قبله؟ نقول: لما ذكر الله تعالى حال المكذبين بالحشر والوحدانية ذكر الدليل عليهما بالخلق والرزق ولمَّا لم يفدهم الإيمان قال لنبيه ﷺ: أن وظيفتك أن تكمل في نفسك وهو علمك بربك وعملك لربك: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [طه: ١٣٠] وفي موضع آخر.

المسألة الثانية: التسبيح: التنزيه عما لا يليق به فما فائدة ذكر الاسم ولم يقل: فسبح بربك العظيم؟ فنقول الجواب عنه من وجهين: أحدهما: هو المشهور وهو أن الاسم مقحم، وعلى هذا الجواب فنقول: فيه فائدة زيادة التعظيم، لأن من عظم عظيمًا وبالغ في تعظيمه لم يذكر اسمه إلا وعظمه، فلا يذكر اسمه في موضع وضيع ولا على وجه الاتفاق كيفما اتفق، وذلك لأن من يعظم شخصًا عند حضوره ربما لا يعظمه عند غيبته فيذكره باسم عَلَمه، فإن كان بمحضر منه لا يقول ذلك، فإذا عظم عنده لا يذكره في حضوره وغيبته إلا بأوصاف العظمة، فإن قيل: فعلى هذا فما فائدة الباء وكيف صار ذلك، ولم يقل: فسبح اسم ربك العظيم، أو الرب العظيم، نقول: قد تقدم مرارًا أن الفعل إذا كان تعلقه بالمفعول ظاهرًا غاية الظهور لا يتعدى إليه بحرف فلا يقال: ضربت بزيد بمعنى ضربت زيدًا، وإذا كان في غاية الخفاء لا يتعدى إليه إلا بحرف فلا يقال: ذهبت زيدًا بمعنى ذهبت بزيد، وإذا كان بينهما جاز الوجهان فنقول: سبحته وسبحت به وشكرته وشكرت له، إذا ثبت هذا فنقول: لما علق التسبيح بالاسم وكان الاسم مقحمًا كان التسبيح في الحقيقة متعلقًا بغيره وهو الرب وكان التعلق خفيًّا من وجه فجاز ادخال الباء، فإن قيل: إذا جاز الإسقاط والإثبات فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] فنقول: هاهنا تقديم الدليل على العظمة أن يقال: الباء في قوله: ﴿بِٱسۡمِ﴾ غير زائدة، وتقريره من وجهين: أحدهما: أنه لما ذكر الأمور وقال: نحن أم أنتم، فاعترف الكل بأن الأمور من الله، وإذا طولبوا بالوحدانية قالوا: نحن لا نشرك في المعنى وإنما نتخذ أصنامًا آلهة في الاسم ونسميها آلهة والذي خلقها وخلق السموات هو الله فنحن ننزهه في الحقيقة فقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وكما أنك أيها العاقل اعترفت بعدم اشتراكهما في الحقيقة اعترف بعدم اشتراكهما في الاسم، ولا تقل لغيره إله، فإن الاسم يتبع المعنى والحقيقة، وعلى هذا فالخطاب

لا يكون مع النبي ﷺ بل يكون كما يقول الواعظ: يا مسكين أفنيت عمرك وما أصلحت عملك، ولا يريد أحدًا بعينه، وتقديره: يا أيها المسكين السامع، وثانيهما: أن يكون المراد بذكر ربك، أي إذا قلت: وتولوا، فسبح ربك بذكر اسمه بين قومك واشتغل بالتبليغ، والمعنى اذكره باللسان والقلب وبيِّن وصفه لهم وإن لم يقبلوا فإنك مقبل على شغلك الذي هو التبليغ، ولو قال: فسبح ربك، ما أفاد الذكر لهم، وكان ينبئ عن التسبيح بالقلب، ولما قال: فسبح باسم ربك، والاسم هو الذي يذكر لفظًا دل على أنه مأمور بالذكر اللساني وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي، ويحتمل أن يقال: فسبح مبتدئًا باسم ربك العظيم فلا تكون الباء زائدة.

المسألة الثالثة: كيف يسبح ربنا؟ نقول: إما معنى، فبأن يعتقد فيه أنه واحد منزه عن الشريك وقادر بريء عن العجز فلا يعجز عن الحشر، وإما لفظًا فبأن يقال: سبحان الله وسبحان الله العظيم، وسبحانه عما يشركون، أو ما يقوم مقامه من الكلام الدال على تنزيهه عن الشريك والعجز فإنك إذا سبحته واعتقدت أنه واحد منزه عن كل مالا يجوز في حقيقته، لزم أن لا يكون جسمًا لأن الجسم فيه أشياء كثيرة وهو واحد حقيقي لا كثرة لذاته، ولا يكون عرضًا ولا في مكان، وكل مالا يجوز له ينتفي عنه بالتوحيد ولا يكون على شيء، ولا في شيء، ولا عن شيء، وإذا قلت: هو قادر ثبت له العلم والإرادة والحياة وغيرها من الصفات، وسنذكر ذلك في تفسير سورة الإخلاص إن شاء الله تعالى.

المسألة الرابعة: ما الفرق بين ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ وبين ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، وهل في ذكر ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ هنا بدل ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ وذكر ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] بدل ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ فائدة؟ نقول: أما الفرق بين العظيم والأعلى فهو أن العظيم يدل على القرب، والأعلى يدل على البعد، بيانه هو أن ما عظم من الأشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن، لأنه لو بعد عنه لخلا عنه موضعه، فلو كان فيه أجزاء أخر لكان أعظم مما هو عليه فالعظيم بالنسبة إلى الكل هو الذي يقرب من الكل، وأما الصغير إذا قرب من جهة فقد بعد عن أخرى، وأما العلي فهو البعيد عن كل شيء لأن ما قرب من شيء من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلى فالعلي المطلق بالنسبة إلى كل شيء هو الذي في غاية البعد عن كل شيء، إذا عرفت هذا فالأشياء المدركة تسبح الله، وإذا علمنا من الله معنى سلبيًا فصح أن نقول: هو أعلى من أن يحيط به إدراكنا وإذا علمنا منه وصفًا ثبوتيًا من علم وقدرة يزيد تعظيمه أكثر مما وصل إليه علمنا، فنقول: هو أعظم وأعلى من أن يحيط به علمنا، وقولنا: أعظم معناه عظيم لا عظيم مثله، ففيه مفهوم سلبي ومفهوم ثبوتي وقوله: أعلى، معناه هو علي ولا علي مثله، والعلي إشارة إلى مفهوم سلبي والأعلى مثله بسبب آخر، فالأعلى مستعمل على حقيقته لفظًا ومعنى، والأعظم مستعمل على حقيقته لفظًا، وفيه معنى سلبي، وكأن الأصل في العظيم مفهوم ثبوتي لا سلب فيه فالأعلى أحسن استعمالاً من الأعظم هذا هو الفرق.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب ووجهه هو أن الله تعالى لما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق آتاه كل ما ينبغي له وطهره عن كل مالا ينبغي له فآتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها، والموعظة الحسنة وهي الأمور المفيدة المرقِّقة للقلوب المنورة للصدور، والمجادلة التي هي على أحسن الطرق فأتى بها وعجز الكل عن معارضته بشيء ولم يؤمنوا والذي يتلى عليه كل ذلك ولا يؤمن لا يبقى له غير أنه يقول: هذا البيان ليس لظهور المدعى بل لقوة ذهن المدعي وقوته على تركيب الأدلة وهو يعلم أنه يغلب بقوة جداله لا بظهور مقاله وربما يقول أحد المناظرين للآخر عند انقطاعه: أنت تعلم أن الحق بيدي لكن تستضعفني ولا تنصفني وحينئذ لا يبقى للخصم جواب غير القسم بالأيمان التي لا مخارج عنها أنه غير مكابر وأنه منصف، وذلك لأنه لو أتى بدليل آخر لكان له أن يقول: وهذا الدليل أيضًا غلبتني فيه بقوتك وقدرتك، فكذلك النبي ﷺ لما آتاه الله جل وعز ما ينبغي قالوا: إنه يريد التفضل علينا وهو يجادلنا فيما يعلم خلافه، فلم يبق له إلا أن يقسم فأنزل الله تعالى عليه أنواعًا من القسم بعد الدلائل، ولهذا كثرت الأيمان في أوائل التنزيل وفي السبع الأخير خاصة.

المسألة الثانية: في تعلق الباء، نقول: إنه لما بيَّن أنه خالق الخلق والرزق وله العظمة بالدليل القاطع ولم يؤمنوا قال: لم يبق إلا القسم فأقسم بالله إني لصادق.

المسألة الثالثة: ما المعنى من قوله. ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مع أنك تقول: إنه قسم؟ نقول: فيه وجوه منقولة ومعقولة غير مخالفة للنقل، أما المنقول فأحدها: أن (لا) زائدة مثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] معناه ليعلم، ثانيها: أصلها لأقسم بلام التأكيد أشبعت فتحتها فصارت لا كما في الوقف، ثالثها: لا نافية وأصله على مقالتهم والقسم بعدها كأنه قال: لا، والله لا صحة لقول الكفار أقسم عليه، أما المعقول فهو أن كلمة لا هي نافية على معناها غير أن في الكلام مجازًا تركيبيًا، وتقديره أن نقول: لا في النفي هنا كهي في قول القائل لا تسألني عما جرى علي، يشير إلى أن ما جرى عليه أعظم من أن يشرح فلا ينبغي أن يسأله فإن غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهي إلا بيان عظمة الواقعة ويصير كأنه قال: جرى عليَّ أمر عظيم. ويدل عليه أن السامع يقول له ماذا جرى عليك ولو فهم من حقيقة كلامه النهي عن السؤال لما قال: ماذا جرى عليك، فيصح منه أن يقول: أخطأت حيث منعتك عن السؤال، ثم سألتني وكيف لا، وكثيرًا ما يقول ذلك القائل الذي قال: لا تسألني عند سكون صاحبه عن السؤال، أو لا تسألني، ولا تقول: ماذا جرى عليك ولا يكون للسامع أن يقول: إنك منعتني عن

السؤال كل ذلك تقرر في أفهامهم أن المراد تعظيم الواقعة لا النهي، إذا علم هذا فنقول في القسم: مثل هذا موجود من أحد وجهين إما لكون الواقعة في غاية الظهور فيقول: لا أقسم بأنه على هذا الأمر لأنه أظهر من أن يشهر، وأكثر من أن ينكر، فيقول: لا أقسم ولا يريد به القسم ونفيه، وإنما يريد الإعلام بأن الواقعة ظاهرة، وإما لكون المقسم به فوق ما يقسم به، والمقسم صار يصدق نفسه فيقول لا أقسم يمينًا بل ألف يمين، ولا أقسم برأس الأمير بل برأس السلطان ويقول: لا أقسم بكذا مريدًا لكونه في غاية الجزم، والثاني: يدل عليه أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن والمقسم به هو الله تعالى أو صفة من صفاته، وإنما جاءت أمور مخلوقة، والأول لا يرد عليه إشكال إن قلنا: إن المقسم به في جميع المواضع رب الأشياء كما في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١] المراد منه رب الصافات ورب القيامة ورب الشمس إلى غير ذلك فإذًا قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي الأمر أظهر من أن يقسم عليه، وأن يتطرق الشك إليه.

المسألة الرابعة: مواقع النجوم ما هي؟ فنقول: فيه وجوه: الأول: المشارق والمغارب أو المغارب وحدها، فإن عندها سقوط النجوم، الثاني: هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها، الثالث: مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة، الرابع: مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم، وأما مواقع نجوم القرآن، فهي قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحي المؤمنين، أو معانيها وأحكامها التي وردت فيها.

المسألة الخامسة: هل في اختصاص مواقع النجوم للقسم بها فائدة؟ قلنا: نعم فائدة جليلة، وبيانها أنا قد ذكرنا أن القسم بمواقعها كما هي قَسَمٌ كذلك هي من الدلائل، وقد بيناه في الذاريات، وفي الطور، وفي النجم، وغيرها، فنقول: هي هنا أيضًا كذلك، وذلك من حيث إن الله تعالى لما ذكر خلق الآدمي من المني وموته، بيَّن بإشارته إلى إيجاد الضدين في الأنفس قدرته واختياره، ثم لما ذكر دليلاً من دلائل الأنفس ذكر من دلائل الآفاق أيضًا قدرته واختياره، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ﴾ [الواقعة: ٦٨] إلى غير ذلك، وذكر قدرته على زرعه وجعله حطامًا، وخلقه الماء فراتًا عذبًا، وجعله أجاجًا، إشارة إلى أن القادر على الضدين مختار، ولم يكن ذكر من الدلائل السماوية شيئًا، فذكر الدليل السماوي في معرض القسم، وقال: مواقع النجوم، فإنها أيضًا دليل الاختيار، لأن كون كل واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل فاعل مختار، فقال: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ليس إلى البراهين النفسية والآفاقية بالذكر كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] حيث ذكر الأنواع الثلاثة كذلك هنا، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ والضمير عائد إلى القسم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فإنه يتضمن ذكر المصدر، ولهذا توصف المصادر التي لم تظهر بعد

الفعل، فيقال: ضربته قويًّا، **وفيه مسائل نحوية ومعنوية، أما النحوية:**

فالمسألة الأولى: هو أن يقال: جواب ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ماذا، وربما يقول بعض من لا يعلم: إن جوابه ما تقدم وهو فاسد في جميع المواضع، لأن جواب الشرط لا يتقدم، وذلك لأن عمل الحروف في معمولاتها لا يكون قبل وجودها، فلا يقال: زيدًا إن قام ولا غيره من الحروف والسر فيه أن عمل الحروف مشبه بعمل المعاني، ويميز بين الفاعل والمفعول وغيرهما، فإذا كان العامل معنى لا موضع له في الحس فيعلم تقدمه وتأخر مدرك بالحس، جاز أن يقال: قائمًا ضربت زيد، أو ضربًا شديدًا ضربته، وأما الحروف فلها تقدم وتأخر مدرك بالحس فلم يمكن بعد علمنا بتأخرها فرض وجودها متقدمة بخلاف المعاني، إذا ثبت هذا فنقول: عمل حرف الشرط في المعنى إخراج كل واحدة من الجملتين عن كونها جملة مستقلة، فإذا قلت: من، وأن، لا يمكن إخراج الجملة الأولى عن كونها جملة بعد وقوعها جمل، ليعلم أن حرفها أضعف من عمل المعنى لتوقفه على عمله مع أن المعنى أمكن فرضه متقدمًا ومتأخرًا، وعمل الأفعال عمل معنوي، وعمل الحروف عمل مشبه بالمعنى، إذا ثبت هذا فنقول في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا﴾ [يوسف: ٢٤] قال بعض الوعاظ متعلق بلولا: فلا يكون الهم وقع منه، وهو باطل لما ذكرنا، وهنا أدخل في البطلان، لأن المتقدم لا يصلح جزاء للمتأخر، فإن من قال: لو تعلمون إن زيدًا لقائم، لم يأت بالعربية، إذا تبين هذا فالقول يحتمل وجهين أحدهما: أن يقال: الجواب محذوف بالكلية لم يقصد بذلك جواب، وإنما يراد نفي ما دخلت عليه لو، وكأنه قال: وإنه لقسم لا تعلمون، وتحقيقه أن لو تذكر لامتناع الشيء لامتناع غيره، فلا بد من انتفاء الأول، فإدخال لو على تعلمون أفادنا أن علمهم منتف، سواء علمنا الجواب أو لم نعلم، وهو كقولهم في الفعل المتعدي فلان يعطى ويمنع، حيث لا يقصد به مفعول، وإنما يراد إثبات القدرة، وعلى هذا إن قيل: فما فائدة العدول إلى غير الحقيقة، وترك قوله: إنه لقسم ولا تعلمون؟ فنقول: فائدته تأكيد النفي، لأن من قال: لو تعلمون كان ذلك دعوى منه، فإذا طولب وقيل: لم قلت: إنا لا نعلم يقول: لو تعلمون لفعلتم كذا، فإذا قال في ابتداء الأمر: لا تعلمون كان مريدًا للنفي، فكأنه قال: أقول: إنكم لا تعلمون قولاً من غير تعلق بدليل وسبب، وثانيهما: أن يكون له جواب تقديره: لو تعلمون لعظمتموه لكنكم ما عظمتموه، فعلم أنكم لا تعلمون، إذ لو تعلمون لعظم في أعينكم، ولا تعظيم فلا تعلمون.

المسألة الثانية: إن قيل قوله: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هل له مفعول أم لا؟ قلنا: على الوجه الأول لا مفعول له، كما في قولهم: فلان يعطي ويمنع، وكأنه قال: لا علم لكم، ويحتمل أن يقال: لا علم لكم بعظم القسم، فيكون له مفعول، والأول أبلغ وأدخل في الحسن، لأنهم لا يعلمون شيئًا أصلاً لأنهم لو علموا لكان أولى الأشياء بالعلم هذه الأمور الظاهرة بالبراهين القاطعة، فهو كقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ﴾ [البقرة: ١٨] وقوله: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وعلى الثاني أيضًا

يحتمل وجهين أحدهما: لو كان لكم علم بالقسم لعظمتموه، وثانيهما: لو كان لكم علم بعظمته لعظمتموه.

المسألة الثالثة: كيف تعلق قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ بما قبله وما بعده؟ فنقول: هو كلام اعتراض في أثناء الكلام تقديره: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون لصدقتم، فإن قيل: فما فائدة الاعتراض؟ نقول: الاهتمام بقطع اعتراض المعترض، لأنه لما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ أراد أن يصفه بالعظمة بقوله: عظيم والكفار كانوا يجهلون ذلك ويدعون العلم بأمور النجم، وكانوا يقولون: لو كان كذلك فما باله لا يحصل لنا علم وظن، فقال: لو تعلمون لحصل لكم القطع، وعلى ما ذكرنا الأمر أظهر من هذا، وذلك لأنا قلنا: إن قوله: (لَآ أُقْسِمُ) معناه الأمر أوضح من أن يصدق بيمين، والكفار كانوا يقولون: أين الظهور ونحن نقطع بعدمه، فقال: لو تعلمون شيئًا لما كان كذلك، والأظهر منه أنا بينا أن كل ما جعله الله قسمًا فهو في نفسه دليل على المطلوب وأخرجه مخرج القسم، فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ معناه عند التحقيق، وإنه دليل وبرهان قوي لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله، وهو التوحيد والقدرة على الحشر، وذلك لأن دلالة اختصاص الكواكب بمواضعها في غاية الظهور ولا يلزم الفلاسفة دليل أظهر منه **وأما المعنوية:**

فالمسألة الأولى: ما المقسم عليه؟ نقول: فيه وجهان: الأول: القرآن كانوا يجعلونه تارة شعرًا وأخرى سحرًا وغير ذلك، وثانيهما: هو التوحيد والحشر وهو أظهر، وقوله: ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ابتداء كلام وسنبين ذلك.

المسألة الثانية: ما الفائدة في وصفه بالعظيم في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ فنقول: لما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ وكان معناه: لا أقسم بهذا لوضوح المقسم به عليه. قال: لست تاركًا للقسم بهذا، لأنه ليس بقسم أو ليس بقسم عظيم، بل هو قسم عظيم ولا أقسم به، بل بأعظم منه أقسم لجزمي بالأمر وعلمي بحقيقته.

المسألة الثالثة: اليمين في أكثر الأمر توصف بالمغلظة والعظم، يقال: في المقسم حلف فلان بالأيمان العظام، ثم تقول في حقه يمين مغلظة لأن آثامها كبيرة. وأما في حق الله عز وجل فبالعظيم وذلك هو المناسب، لأن معناه هو الذي قرب قوله من كل قلب وملأ الصدر بالرعب لما بينا أن معنى العظيم فيه ذلك، كما أن الجسم العظيم هو الذي قرب من أشياء عظيمة وملأ أماكن كثيرة من العظم، كذلك العظيم الذي ليس بجسم قرب من أمور كثيرة، وملأ صدورًا كثيرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد إلى ماذا؟ فنقول: فيه وجهان

أحدهما: إلى معلوم وهو الكلام الذي أنزل على محمد ﷺ وكان معروفًا عند الكل، وكان الكفار يقولون: إنه شعر وإنه سحر، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ﴾ عائد إلى مذكور وهو جميع ما سبق في سورة الواقعة من التوحيد، والحشر، والدلائل المذكورة عليهما، والقسم الذي قال فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]وذلك لأنهم قالوا: هذا كله كلام محمد ومخترع من عنده، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾.

المسألة الثانية: القرآن مصدر أو اسم غير مصدر؟ فنقول: فيه وجهان: أحدهما: مصدر أريد به المفعول وهو المقروء، ومثله في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] وهذا كما يقال في الجسم العظيم: انظر إلى قدرة الله تعالى أي مقدوره وهو كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي﴾ [لقمان: ١١] ثانيهما: اسم لما يقرأ كالقربان لما يتقرب به، والحلوان لما يحلى به فم المكاري أو الكاهن، وعلى هذا سنبين فساد قول من رد على الفقهاء قولهم في باب الزكاة: يعطى شيئًا أعلى مما وجب ويأخذ الجبران أو يعطى شيئًا دونه، ويعطى الجبران أيضًا، حيث قال: الجبران مصدر لا يؤخذ ولا يعطى، فيقال له هو كالقرآن بمعنى المقروء، ويجوز أن يقال لما أُخِذَ: جابر أو مجبور أو يقال: هو اسم لما يجبر به كالقربان.

المسألة الثالثة: إذا كان هذا الكلام للرد على المشركين فهم ما كانوا ينكرون كونه مقروءًا فما الفائدة في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ﴾؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار عن الكل وهو قوله: قرآن كريم فهم كانوا ينكرون كونه قرآنًا كريمًا وهم ما كانوا يقرون به، وثانيهما: وهو أحسن من الأول، أنهم قالوا: هو مخترع من عنده وكان النبي ﷺيقول: إنه مسموع سمعته وتلوته عليكم فما كان القرآن عندهم مقروءًا، وما كانوا يقولون: إن النبي ﷺيقرأ القرآن وفرق بين القراءة والإنشاء، فلما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ﴾ أثبت كونه مقروءًا على النبي ﷺليقرأ ويتلى فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ﴾ سماه قرآنًا لكثرة ما قرئ، ويقرأ إلى الأبد بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ كَرِيمٌ﴾ فيه لطيفة؟ وهي أن الكلام إذا قرئ كثيرًا يهون في الأعين والآذان، ولهذا ترى من قال شيئًا في مجلس الملوك لا يذكره ثانيًا، ولو قيل فيه: يقال لقائله لم تكرر هذا، ثم إنه تعالى لما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ﴾ أي مقروء قرئ ويقرأ، قال: ﴿ كَرِيمٌ﴾ أي لا يهون بكثرة التلاوة ويبقى أبد الدهر كالكلام الغض والحديث الطري، ومن هنا يقع أن وصف القرآن بالحديث مع أنه قديم يستمد من هذا مددًا فهو قديم يسمعه السامعون كأنه كلام الساعة، وما قرع سمع الجماعة لأن الملائكة الذين علموه قبل النبي بألوف من السنين إذا سمعوه من أحدنا يتلذذون به التذاذ السامع بكلام جديد لم يذكر له من قبل، والكريم اسم جامع لصفات المدح، قيل: الكريم هو الذي كان طاهر الأصل ظاهر الفضل، حتى إن من أصله غير زكي لا يقال له: كريم مطلقًا، بل يقال له: كريم في نفسه، ومن يكون زكي الأصل غير زكي النفس لا يقال له: كريم إلا مع تقييد، فيقال: هو كريم الأصل لكنه خسيس في نفسه، ثم إن السخي المجرد هو

الذي يكثر عطاؤه للناس، أو يسهل عطاؤه ويسمى كريمًا، وإن لم يكن له فضل آخر لا على الحقيقة ولكن ذلك لسبب، وهو أن الناس يحبون من يعطيهم، ويفرحون بمن يعطى أكثر مما يفرحون بغيره، فإذا رأوا زاهدًا أو عالمًا لا يسمونه كريمًا، ويؤيد هذا أنهم إذا رأوا واحدًا لا يطلب منهم شيئًا يسمونه كريم النفس لمجرد تركه الاستعطاء لما أن الأخذ منهم صعب عليهم وهذا كله في العادة الرديئة، وأما في الأصل فيقال: الكريم هو الذي استجمع فيه ما ينبغي من طهارة الأصل وظهور الفضل، ويدل على هذا أن السخي في معاملته ينبغي أن لا يوجد منه ما يقال بسببه إنه لئيم، فالقرآن أيضًا كريم بمعنى طاهر الأصل ظاهر الفضل لفظه فصيح، ومعناه صحيح لكن القرآن أيضًا كريم على مفهوم العوام فإن كل من طلب منه شيئًا أعطاه، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه، والحكيم يستمد به ويحتج به، والأديب يستفيد منه ويتقوى به، والله تعالى وصف القرآن بكونه كريمًا، وبكونه عزيزًا، وبكونه حكيمًا، فلكونه كريمًا كل من أقبل عليه نال منه ما يريده فإن كثيرًا من الناس لا يفهم من العلوم شيئًا وإذا اشتغل بالقرآن سهل عليه حفظه، وقلما يرى شخص يحفظ كتابًا يقرؤه بحيث لا يغير منه كلمة بكلمة، ولا يبدل حرفًا بحرف وجميع القراء يقرأون القرآن من غير توقف ولا تبديل، ولكونه عزيزًا أن كل من يعرض عنه لا يبقى معه منه شيء، بخلاف سائر الكتب، فإن من قرأ كتابًا وحفظه ثم تركه يتعلق بقلبه معناه حتى ينقله صحيحًا، والقرآن من تركه لا يبقى معه منه شيء لعزته ولا يثبت عند من لا يلزمه بالحفظ، ولكونه حكيمًا من اشتغل به وأقبل عليه بالقلب أغناه عن سائر العلوم. وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ جعله شيئًا مظروفًا بكتاب فما ذلك؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: المظروف: القرآن، أي هو قرآن في كتاب، كما يقال: فلان رجل كريم في بيته، لا يشك السامع أن مراد القائل: أنه في الدار قاعد ولا يريد به أنه كريم إذا كان في الدار، وغير كريم إذا كان خارجًا ولا يشك أيضًا أنه لا يريد به أنه كريم في بيته، بل المراد أنه رجل كريم وهو في البيت، فكذلك هاهنا أن القرآن كريم وهو في كتاب، أو المظروف كريم على معنى أنه كريم في كتاب، كما يقال: فلان رجل كريم في نفسه، فيفهم كل أحد أن القائل لم يجعله رجلاً مظروفًا، فإن القائل: لم يرد أنه رجل في نفسه قاعد أو نائم، وإنما أراد به أنه كريم كرمه في نفسه، فكذلك قرآن كريم فالقرآن كريم في اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريمًا عند الكفار، ثانيهما: المظروف هو مجموع قوله تعالى: (لقرآن كريم) أي هو كذا في كتاب كما يقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩] في كتاب الله تعالى، والمراد حينئذ أنه في اللوح المحفوظ نعته مكتوب: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ والكل صحيح، والأول أبلغ في التعظيم بالمقروء السماوي.

المسألة الخامسة: ما المراد من الكتاب؟ نقول فيه وجوه: الأول: وهو الأصح أنه اللوح المحفوظ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢٠، ٢١]، الثاني: الكتاب هو المصحف، الثالث: كتاب من الكتب المنزلة فهو قرآن في التوراة والإنجيل وغيرهما

فإن قيل: كيف سمي الكتاب كتابًا والكتاب فعال، وهو إذا كان للواحد فهو إما مصدر كالحساب والقيام وغيرهما، أو اسم لما يكتب كاللباس واللثام وغيرهما، فكيفما كان فالقرآن لا يكون في كتاب بمعنى المصدر، ولا يكون في مكتوب، وإنما يكون مكتوبًا في لوح أو ورق، فالمكتوب لا يكون في الكتاب، إنما يكون في القرطاس، نقول: ما ذكرت من الموازين يدل على أن الكتاب ليس المكتوب ولا هو المكتوب فيه أو المكتوب عليه، فإن اللثام ما يلثم به، والصوان ما يصان فيه الثوب، لكن اللوح لما لم يكن إلا الذي يكتب فيه صح تسميته كتابًا.

المسألة السادسة: المكنون: هو المستور، قال الله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، قال: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] فإن كان المراد من الكتاب اللوح فهو ليس بمستور وإنما الشيء فيه منشور، وإن كان المراد هو المصحف فعدم كونه مكتوبًا مستورًا، فكيف الجواب عنه؟ فنقول: المكنون المحفوظ إذا كان غير عزيز يحفظ بالعين، وهو ظاهر للناس فإذا كان شريفًا عزيزًا لا يكتفي بالصون والحفظ بالعين بل يستر عن العيون، ثم كلما تزداد عزته يزداد ستره فتارة يكون مخزونًا ثم يجعل مدفونًا، فالستر صار كاللازم للصون البالغ فقال: ﴿مَّكْنُونٍ﴾ أي محفوظ غاية الحفظ، فذكر اللازم وأراد الملزوم وهو باب من الكلام الفصيح تقول مثلاً: فلان كبريت أحمر، أي قليل الوجود، والجواب الثاني: إن اللوح المحفوظ مستور عن العين لا يطلع عليه إلا ملائكة مخصوصون، ولا ينظر إليه إلا قوم مطهرون، وأما القرآن فهو مكتوب مستور أبد الدهر عن أعين المبدلين، مصون عن أيدي المحرفين، فإن قيل: فما فائدة كونه ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ وكل مقروء في كتاب؟ نقول: هو لتأكيد الرد على الكفار لأنهم كانوا يقولون: إنه مخترع من عنده مفترى، فلما قال: مقروء عليه اندفع كلامهم، ثم إنهم قالوا: إن كان مقروءًا عليه فهو كلام الجن فقال: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ أي لم ينزل به عليه الملك إلا بعدما أخذه من كتاب فهو ليس بكلام الملائكة فضلاً أن يكون كلام الجن، وأما إذا قلنا: إذا كان كريمًا فهو في كتاب، ففائدته ظاهرة، وأما فائدة كونه في كتاب مكنون فيكون ردًّا على من قال: إنه أساطير الأولين في كتب ظاهرة، أي فلم لا يطالعها الكفار، ولم لا يطلعون عليه لا بل هو ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، فإذا بين فيما ذكرنا أن وصفه بكونه قرآنًا صار ردًّا على من قال: يذكره من عنده، وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ رد على من قال: يتلوه عليه الجن حيث اعترف بكونه مقروءًا ونازع في شيء آخر، وقوله: ﴿مَّكْنُونٍ﴾ رد على من قال: إنه مقروء في كتاب لكنه من أساطير الأولين.

المسألة السابعة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ الضمير عائد إلى الكتاب على الصحيح، ويحتمل أن يقال: هو عائد إلى ما عاد إليه المضمر من قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ومعناه: لا يمس القرآن إلا المطهرون، والصيغة إخبار، لكن الخلاف في أنه هل هو بمعنى النهي، كما أن قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إخبار بمعنى الأمر، فمن قال: المراد من الكتاب اللوح المحفوظ، وهو الأصح على ما بينا، قال: هو إخبار معنى كما هو إخبار لفظًا، إذا قلنا: إن المضمر في

﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ للكتاب، ومن قال: المراد المصحف اختلف في قوله، وفيه وجه ضعيف نقله ابن عطية أنه نهي لفظًا ومعنى وجلبت إليه ضمة الهاء لا للإعراب ولا وجه له.

المسألة الثامنة: إذا كان الأصح أن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ، فالصحيح أن الضمير في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ للكتاب، فكيف يصح قول الشافعي رحمة الله تعالى عليه: لا يجوز مس المصحف للمحدث، نقول: الظاهر أنه ما أخذه من صريح الآية ولعله أخذه من السنة فإن النبي ﷺ كتب إلى عمرو بن حزم: «**لاَ يَمَسُّ الْقُرْآنَ مَنْ هُوَ عَلَى غَيْرِ طُهْرٍ**»(١) أو أخذه من الآية على طريق الاستنباط، وقال: إن المس بطهر صفة من الصفات الدالة على التعظيم والمس بغير طهور نوع إهانة في المعنى، وذلك لأن الأضداد ينبغي أن تقابل بالأضداد، فالمس بطهر في مقابلة المس على غير طهر، وترك المس خروج عن كل واحدة منهما فكذلك الإكرام في مقابلة الإهانة وهناك شيء لا إكرام ولا إهانة فنقول: إن من لا يمس المصحف لا يكون مكرمًا ولا مهينًا وبترك المس خرج عن الضدين ففي المس على الطهر التعظيم، وفي المس على الحدث الإهانة فلا تجوز وهو معنى دقيق يليق بالشافعي رحمه الله ومن يقرب منه في الدرجة.

ثم إن هاهنا لطيفة فقهية لاحت لهذا الضعيف في حال تفكره في تفسير هذه الآية فأراد تقييدها هنا فإنها من فضل الله فيجب علي إكرامها بالتقييد بالكتاب، وهي أن الشافعي رحمه الله منع المحدث والجنب من مس المصحف وجعلهما غير مطهرين ثم منع الجنب عن قراءة القرآن ولم يمنع المحدث وهو استنباط منه من كلام الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى منعه عن المسجد بصريح قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ [النساء: ٤٣] فدل ذلك على أنه ليس أهلاً للذكر لأنه لو كان أهلاً للذكر لما منعه من دخول المسجد لأنه تعالى أذن لأهل الذكر في الدخول بقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] الآية، والمأذون في الذكر في المسجد مأذون في دخول المسجد ضرورة فلو كان الجنب أهلاً للذكر لما كان ممنوعًا عن دخول المسجد والمكث فيه وأنه ممنوع عنهما وعن أحدهما، وأما المحدث فعلم أنه غير ممنوع عن دخول المسجد فإن من الصحابة من كان يدخل المسجد وجوز النبي ﷺ نوم القوم في المسجد وليس النوم حدثًا إذ النوم الخاص يلزمه الحكم بالحدث على اختلاف بين الأئمة وما لم يكن ممنوعًا من دخول

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه مالك في (الموطأ) (١/ ١٩٩/ ٤٦٩) من طريق عبد الله بن أبي بكر بن حزم... به وعبد الرزاق في (مصنفه) (١/ ٣٤١) حديث رقم (١٣٢٨) وقال: رواه الطبراني في (الكبير والأوسط) وفيه سويد أبو حاتم ضعفه النسائي وابن معين في رواية ووثقه في رواية وقال أبو زرعة: ليس بالقوي حديثه حديث أهل الصدق، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٢٢٢) حديث رقم (٥٧٢) وأورده شيخنا الألباني رحمه الله تعالى في كتاب (الإرواء) (١/ ١٥٨/ ١٢٢) وقال: رواه الأثرم والدارقطني متصلاً واحتج به أحمد وهو لمالك في (الموطأ) مرسلاً، أما حديث عمرو بن حزم فهو ضعيف فيه سليمان بن أرقم وهو ضعيف جدًا وقد أخطأ بعض الرواة فسماه سليمان بن داود وهو الخولاني وهو ثقة وبناء عليه توهم العلماء صحته وإنما هو ضعيف من أجل ابن أرقم هذا. اهـ وصحح الشيخ الحديث وقال في (الإرواء) (صحيح) ولعله لكثرة شواهده وطرقه فقد جاء من حديث عمرو بن حزم وحكيم بن حزام وابن عمر وعثمان بن أبي العاص.

المسجد لم يثبت كونه غير أهل للذكر فجاز له القراءة، فإن قيل: وكان ينبغي أن لا يجوز للجنب أن يسبح ويستغفر لأنه ذكر، نقول: القرآن هو الذكر المطلق قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وقوله: ﴿يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مع أنا نعلم أن المسجد يسمى مسجدًا، ومسجد القوم محل السجود والمراد منه الصلاة، والذكر الواجب في الصلاة هو القرآن، فالقرآن مفهوم من قوله: ﴿يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، ومن حيث المعقول هو أن غير القرآن ربما يذكر مريدًا به معناه فيكون كلامًا غير ذكرًا، فإن من قال: أستغفر الله أخبر عن نفسه بأمر، ومن قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كذلك أخبر عن أمر كائن بخلاف من قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فإنه ليس بمتكلم به بل هو قائل له غير آمر لغيره بالقول، فالقرآن هو الذكر الذي لا يكون إلا على قصد الذكر لا على قصد الكلام فهو المطلق وغيره قد يكون ذكرًا، وقد لا يكون، فإن قيل: فإذا قال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦] وأراد الإخبار ينبغي أن لا يكون قرآنًا وذكرًا، نقول: هو في نفسه قرآن، ومن ذكره على قصد الإخبار، وأراد الأمر والإذن في الدخول يخرج عن كونه قارئًا للقرآن، وإن كان لا يخرج عن كونه قرآنًا، ولهذا نقول نحن ببطلان صلاته ولو كان قارئًا لما بطلت، وهذا جواب فيه لطف ينبغي أن يتنبه له المطالع لهذا الكتاب، وذلك من حيث إني فرقت بين أن يقال ليس قول القائل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ على قصد الإذن قرآنًا، وبين قوله: ليس القائل ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ على غير قصد بقارئ للقرآن، وأما الجواب من حيث المعقول فهو أن العبادة على منافاة الشهوة، والشهوة إما شهوة البطن، وإما شهوة الفرج في أكثر الأمر، فإن أحدًا لا يخلو عنهما، وإن لم يشته شيئًا آخر من المأكول والمشروب والمنكوح، لكن شهوة البطن قد لا تبقى شهوة بل تصير حاجة عند الجوع وضرورة عند الخوف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] أي لا يكون لحاجة ولا ضرورة بل لمجرد الشهوة وقد بيناه في هذه السورة، وأما شهوة الفرج فلا تخرج عن كونها شهوة وإن خرجت تكون في محل الحاجة لا الضرورة، فلا يعلم أن شهوة الفرج ليست شهوة محضة، والعبادة فيها منضمة للشهوة، فلم تخرج شهوة الفرج عن كونها عبادة بدنية قط بل حكم الشارع ببطلان الحج به، وبطلان الصوم والصلاة، وأما قضاء شهوة البطن فلما لم يكن شهوة مجردة بطل به الصلاة والصوم دون الحج، وربما لم تبطل به الصلاة أيضًا، إذا ثبت هذا فنقول: خروج الخارج دليل قضاء الشهوة البطنية، وخروج المني دليل قضاء الشهوة الفرجية، فواجب بهما تطهير النفس، لكن الظاهر والباطن متحاذيان، فأمر الله تعالى بتطهير الظاهر عند الحدث والإنزال لموافقه الباطن، والإنسان إذا كان له بصيرة وينظر في تطهير باطنه عند الاغتسال للجنابة، فإنه يجد خفة ورغبة في الصلاة والذكر وهنا تتمة لهذه اللطيفة وهي أن قائلًا لو قال: لو صح قولك للزم أن يجب الوضوء بالأكل كما يجب بالحدث لأن الأكل قضاء الشهوة، وهذا كما أن الاغتسال لما وجب بالإنزال، لكونه دليل قضاء الشهوة، وكذا بالإيلاج لكونه قضاء بالإيلاج، فكذلك الإحداث والأكل فنقول: هاهنا سر مكنون وهو ما بيناه أن الأكل

قد يكون لحاجة وضرورة فنقول: الأكل لا يعلم كونه للشهوة إلا بعلامة، فإذا أحدث علم أنه أكل ولا يعلم كونه للشهوة وأما الإيلاج فلا يكون للحاجة ولا يكون للضرورة فهو شهوة كيفما كان، فناط الشارع إيجاب التطهير بدليلين: أحدهما: قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ»(١) فإن الإنزال كالإحداث، وكما أن الحدث هو الخارج وهو أصل في إيجاب الوضوء، كذلك ينبغي أن يكون الإنزال الذي هو الخروج هو الأصل في إيجاب الغسل فإن عنده يتبين قضاء الحاجة والشهوة فإن الإنسان بعد الإنزال لا يشتهي الجماع في الظاهر، وثانيهما: ما روي عنه ﷺ: «الْوُضُوءُ مِنْ أَكْلِ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ»(٢) فإن ذلك دليل قضاء الشهوة كما أن خروج الحدث دليله، وذلك لأن المضطر لا يصبر إلى أن يستوي الطعام بالنار بل يأكل كيفما كان، فأكل الشيء بعد الطبخ دليل على أنه قاض به الشهوة لا دافع به الضرورة، ونعود إلى الجواب عن السؤال ونقول: إذا تبين هذا فالشافعي رضي الله عنه قضى بأن شهوة الفرج شهوة محضة، فلا تجامع العبادة الجنابة، فلا ينبغي أن يقرأ الجنب القرآن، والمحدث يجوز له أن يقرأ لأن الحدث ليس يكون عن شهوة محضة.

المسألة التاسعة: قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ هم الملائكة طهرهم الله في أول أمرهم وأبقاهم كذلك طول عمرهم ولو كان المراد نفي الحدث لقال: لا يمسه إلا المتطهرون أو المطَّهِّرون، بتشديد الطاء والهاء، والقراءة المشهورة الصحيحة ﴿ ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من التطهير لا من الاطهار، وعلى هذا يتأيد ما ذكرنا من وجه آخر، وذلك من حيث إن بعضهم كان يقول: هو من السماء ينزل به الجن ويلقيه عليه كما كانوا يقولون في حق الكهنة فإنهم كانوا يقولون: النبي ﷺ كاهن، فقال: لا يمسه الجن وإنما يمسه المطهرون الذين طهروا عن الخبث، ولا يكونون محلاً للإفساد والسفك، فلا يفسدون ولا يسفكون، وغيرهم ليس بمطهر على هذا الوجه، فيكون هذا ردًّا على القائلين: بكونه مفتريًا، وبكونه شاعرًا، وبكونه مجنونًا بمس الجن، وبكونه كاهنًا، وكل ذلك قولهم والكل رد عليهم بما ذكر الله تعالى هاهنا من أوصاف كتاب الله العزيز.

المسألة العاشرة: قوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مصدر، والقرآن الذي في كتاب ليس تنزيلاً إنما هو منزل كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] نقول: ذكر المصدر وإرادة

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي في كتاب (الطهارة) باب (الذي يحتلم ولا يرى الماء) (١/ ١٢٤) حديث رقم (١٩٩) من طريق سفيان به، وابن ماجه في كتاب (الطهارة) باب: (الماء من الماء) (١/ ١٩٩) حديث رقم (٦٠٧) من طريق سفيان... به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤١٦) والدارمي في كتاب (الطهارة) باب (الماء من الماء) (١/ ١٩٣) حديث رقم (٧٥٨) كلاهما (سفيان، ابن جريج) عن عمرو بن دينار... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الحيض) باب (الوضوء مما مست النار) (١/ ٢٧٢) حديث رقم (٩٠) من طريق عبد الملك بن شعيب بن الليث عن أمية عن جده عن عقيل بن خالد... به والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (الوضوء مما غيرت النار) (١/ ١٨٥) حديث رقم (١٧١) من طريق معمر عن الزهري... به وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر... به كلاهما (عقيل بن خالد، ومعمر) عن ابن شهاب... به جميعًا من طريق ابن شهاب عن عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن قارظ عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ (توضئوا مما مست النار).

المفعول كثير كما قلنا في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] فإن قيل: ما فائدة العدول عن الحقيقة إلى المجاز في هذا الموضع؟ فنقول: التنزيل والمنزل كلاهما مفعولان ولهما تعلق بالفاعل، لكن تعلق الفاعل بالمصدر أكثر، وتعلق المفعول عبارة عن الوصف القائم به، فنقول: هذا في الكلام، فإن كلام الله أيضًا وصف قائم بالله عندنا، وإنما نقول: من حيث الصيغة واللفظ، ولك أن تنظر في مثال آخر ليتيسر لك الأمر من غير غلط وخطأ في الاعتقاد، فنقول: في القدرة والمقدور تعلق القدرة بالفاعل أبلغ من تعلق المقدور، فإن القدرة في القادر والمقدور ليس فيه، فإذا قال: هذا قدرة الله تعالى كان له من العظمة مالا يكون في قوله: هذا مقدور الله، لأن عظمة الشيء بعظمة الله، فإذا جعلت الشيء قائمًا بالتعظيم غير مباين عنه كان أعظم، وإذا ذكرته بلفظ يقال مثله فيما لا يقوم بالله وهو المفعول به كان دونه، فقال: ﴿تَنزِيلٌ﴾ ولم يقل: منزل، ثم إن هاهنا: بلاغة أخرى وهي أن المفعول قد يذكر ويراد به المصدر على ضد ما ذكرنا، كما في قوله: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] أي دخول صدق أو إدخال صدق، وقال تعالى: ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٧] أي تمزيق، فالممزق بمعنى التمزيق، كالمنزل بمعنى التنزيل، وعلى العكس سواء، وهذه البلاغة هي أن الفعل لا يرى، والمفعول به يصير مرئيًا، والمرئي أقوى في العلم، فيقال: مزقهم تمزيقًا وهو فعل معلوم لكل أحد علمًا بينًا يبلغ درجة الرؤية ويصير التمزق هنا كما صار الممزق ثابتًا مرئيًا، والكلام يختلف بمواضع الكلام، ويستخرج الموفق بتوفيق الله، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيضًا لتعظيم القرآن، لأن الكلام يعظم بعظمة المتكلم، ولهذا يقال لرسول الملك هذا كلام الملك أو كلامك، وهذا كلام الملك الأعظم أو كلام الملك الذي دونه، إذا كان الرسول رسول ملوك، فيعظم الكلام بقدر عظمة المتكلم، فإذا قال: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبين منه عظمة لا عظمة مثلها وقد بينا تفسير العالم وما فيه من اللطائف، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ رد على طائفة أخرى، وهم الذين يقولون: إنه في كتاب ولا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة، لكن المَلَك يأخذ ويعلم الناس من عنده ولا يكون من الله تعالى، وذلك أن طائفة من الروافض يقولون: إن جبرائيل أنزل على علي، فنزل على محمد، فقال تعالى: هو من الله ليس باختيار الملك أيضًا، وعند هذا تبين الحق فعاد إلى توبيخ الكفار.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (هَٰذَا) إشارة إلى ماذا؟ فنقول: المشهور أنه إشارة إلى القرآن وإطلاق الحديث في القرآن على الكلام القديم كثير بمعنى كونه اسمًا لا وصفًا فإن الحديث اسم لما يتحدث به، ووصف يوصف به ما يتجدد، فيقال: أمر حادث ورسم حديث أي جديد، ويقال: أعجبني حديث فلان وكلامه وقد بينا أن القرآن قديم له لذة الكلام الجديد، والحديث الذي لم

يسمع، الوجه الثاني: أنه إشارة إلى ما تحدثوا به من قبل في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨] وذلك لأن الكلام مستقل منتظم فإنه تعالى رد عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩] وذكر الدليل عليهم بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] وبقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣] وأقسم بعد إقامة الدلائل بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ [الواقعة: ٧٥] وبين أن ذلك كله إخبار من الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ثم عاد إلى كلامهم، وقال: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي تتحدثون به ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ لأصحابكم تعلمون خلافه وتقولونه، أم أنتم به جازمون، وعلى الإصرار عازمون، وسنبين وجهه بتفسير المدهن، وفيه وجهان: أحدهما: أن المدهن المراد به المكذب، قال الزجاج: معناه أفبالقرآن أنتم تكذبون، والتحقيق فيه أن الإدهان: تليين الكلام لاستمالة السامع من غير اعتقاد صحة الكلام من المتكلم كما أن العدو إذا عجز عن عدوه يقول له أنا داع لك ومثن عليك مداهنة وهو كاذب، فصار استعمال المدهن في المكذب استعمالاً ثانيًا وهذا إذا قلنا: إن الحديث هو القرآن، والوجه الثاني: المدهن هو الذي يلين في الكلام ويوافق باللسان وهو مصر على الخلاف فقال: ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ فمنهم من يقول: إن النبي كاذب، وإن الحشر محال وذلك لما هم عليه من حب الرياسة، وتخافون أنكم إن صدقتم ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما تربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذبون الرسل، والأول عليه أكثر المفسرين، لكن الثاني مطابق لصريح اللفظ فإن الحديث بكلامهم أولى وهو عبارة عن قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] والمدهن يبقى على حقيقته فإنهم ما كانوا مدهنين بالقرآن، وقول الزجاج: مكذبون جاء بعده صريحًا. وأما قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ففيه وجوه: الأول: تجعلون شكر النعم أنكم تقولون: مطرنا بنوء كذا، وهذا عليه أكثر المفسرين، الثاني: تجعلون معاشكم وكسبكم تكذيب محمد، يقال: فلان قطع الطريق معاشه، والرزق في الأصل مصدر سمي به ما يرزق، يقال للمأكول رزق، كما يقال للمقدور قدرة، والمخلوق خلق، وعلى هذا فالتكذيب مصدر قصد به ما كانوا يحصلون به مقاصدهم، وأما قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فعلى الأول المراد تكذيبهم بما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وغير ذلك، وعلى الثاني المراد جميع ما صدر منهم من التكذيب، وهو أقرب إلى اللفظ.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من كلمة: (لولا) معنى هلا من كلمات التحضيض وهي أربع

كلمات: لولا، ولوما، وهلا، وألا، ويمكن أن يقال: أصل الكلمات لم لا، على السؤال كما يقول القائل: إن كنت صادقًا فلم لا يظهر صدقك، ثم إنما قلنا: الأصل لم لا لكونه استفهامًا أشبه قولنا: هلا، ثم إن الاستفهام تارة يكون عن وجود شيء وأخرى عن سبب وجوده، فيقال: هل جاء زيد ولم جاء، والاستفهام بهل قبل الاستفهام بلم، ثم إن الاستفهام قد يستعمل للإنكار وهو كثير، ومنه قوله تعالى هاهنا: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾[الواقعة: ٨١] وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ﴾[الصافات: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[الصافات: ٨٦] ونظائرها كثيرة، وقد ذكرنا لك الحكمة فيه، وهي أن النافي والناهي لا يأمر أن يكذب المخاطب فعرض بالنفي لئلا يحتاج إلى بيان النفي، إذا ثبت هذا فالاستفهام (بِهَلْ) لإنكار الفعل، والاستفهام (بِلمَ) لإنكار سببه، وبيان ذلك أن من قال: لم فعلت كذا، يشير إلى أنه لا سبب للفعل، ويقول: كان الفعل وقع من غير سبب الوقوع، وهو غير جائز، وإذا قال: هل فعلت، ينكر نفس الفعل لا الفعل من غير سبب، وكأنه في الأول يقول: لو وجد للفعل سبب لكان فعله أليق، وفي الثاني يقول: الفعل غير لائق ولو وجد له سبب.

المسألة الثانية: إن كل واحد منهما يقع في صدر الكلام، ويستدعي كلامًا مركبًا من كلامين في الأصل، أما في (هَلْ) فلأن أصلها أنك تستعملها في جملتين، فتقول: هل جاء زيد أو ما جاء، لكنك ربما تحذف أحديهما، وأما في (لَوْ) فإنك تقول: لو كان كذا لكان كذا، وربما تحذف الجزاء كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾[الواقعة: ٧٦] لأنه يشير بلو إلى أن المنفي له دليل، فإذا قال القائل: لو كنتم تعلمون، وقيل له: لم لا يعلمون، قال: إنهم لو يعلمون لفعلوا كذا، فدليله مستحضر إن طولب به بيّنه وإذا ثبت أن النفي بلو، والنفي بهل، أبلغ من النفي بلا، والنفي بقوله: لم، وإن كان بينهما اشتراك معنى ولفظًا وحكمًا وصارت كلمات التحضيض وهي: لو ما، ولولا، وهلا وألا، كما تقول: لم لا، فإذن قول القائل: هل تفعل وأنت عنه مستغن، كقوله: لم تفعل وهو قبيح، وقوله: وهلا تفعل وأنت إليه محتاج، وألا تفعل وأنت إليه محتاج، وقوله: لولا، ولوما، كقوله: لم لا تفعل، ولم لا فعلت، فقد وجد في (ألا) زيادة نص، لأن نقل اللفظ لا يخلو من نص، كما أن المعنى صار فيه زيادة ما، على ما في الأصل كما بيناه، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي لم لا يقولون عند الموت وهو وقت ظهور الأمور وزمان اتفاق الكلمات، ولو كان ما يقولونه حقًا ظاهرًا كما يزعمون لكان الواجب أن يشركوا عند النزع، وهذا إشارة إلى أن كل أحد يؤمن عند الموت لكن لم يقبل إيمان من لم يؤمن قبله، فإن قيل: ما سمع منهم الاعتراف وقت النزع بل يقولون: نحن نكذب الرسل أيضًا وقت بلوغ النفس إلى الحلقوم ونموت عليه؟ فنقول: هذه الآية بعينها إشارة وبشارة، أما الإشارة فإلى الكفار، وأما البشارة فللرسل، أما الإشارة وهي أن الله تعالى ذكر للكفار حالة لا يمكنهم إنكارها وهي حالة الموت فإنهم وإن كفروا بالحشر وهو الحياة بعد الموت لكنهم لم ينكروا

الموت، وهو أظهر من كل ما هو من مثله فلا يشكُّون في حالة النزع، ولا يشكُّون في أن في ذلك الوقت لا يبقى لهم لسان ينطق، ولا إنكار بعمل فتفوتهم قوة الاكتساب لإيمانهم ولا يمكنهم الإتيان بما يجب فيكون ذلك حثًّا لهم على تجديد النظر في طلب الحق قبل تلك الحالة، وأما البشارة فلأن الرسل لما كذبوا وكذب مرسلهم صعب عليهم، فبشروا بأن المكذبين سيرجعون عما يقولون، ثم هو إن كان قبل النزع فذلك مقبول وإلا فعند الموت وهو غير نافع، والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس أو الحياة أو الروح، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ تأكيد لبيان الحق أي في ذلك الوقت تصير الأمور مرئية مشاهدة ينظر إليها كل من بلغ إلى تلك الحالة، فإن كان ما ذكرتم حقًّا كان ينبغي أن يكون في ذلك الوقت، وقد ذكرنا التحقيق في ﴿حِينَئِذٍ﴾ في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الطور: ١١]في سورة والطور واللفظ والمعنى متطابقان على ما ذكرنا لأنهم كانوا يكذبون بالرسل والحشر، وصرح به الله في هذه السورة عنهم حيث قال: إنهم (كانوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا) [الواقعة: ٤٦-٤٧]وهذا كالتصريح بالتكذيب لأنهم ما كانوا ينكرون أن الله تعالى منزل لكنهم كانوا يجعلون أيضًا الكواكب من المنزلين، وأما المضمر فذكره الله تعالى عند قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨]ثم قال: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]بالواسطة وبالتفويض على ما هو مذهب المشركين أو مذهب الفلاسفة. وأيضًا التفسير المشهور محتاج إلى إضمار تقديره: أتجعلون شكر رزقكم، وأما جعل الرزق بمعنى المعاش فأقرب، يقال: فلان رزقه في لسانه، ورزق فلان في رجله ويده، وأيضًا فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ متصل بما قبله لما بينا أن المراد أنكم تكذبون الرسل فلم لا تكذبونهم وقت النزع لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]فعلم أنهم كذبوا كما قال النبي ﷺ: «كَذَبَ الْمُنَجِّمُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»(١) ولم يكذبوا وهذا على قراءة من يقرأ (تَكْذِبُون) بالتخفيف، وأما المدهن فعلى ما ذكرنا يبقى على الأصل ويوافقه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]فإن المراد هناك ليس تكذب فيكذبون، لأنهم أرادوا النفاق لا التكذيب الظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أكثر المفسرين على أن ﴿لَوْلَا﴾ في المرة الثانية مكررة وهي بعينها هي التي قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]ولها جواب واحد، وتقديره على ما قاله الزمخشري: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم، أي إن كنتم غير مدينين، وقال بعضهم: هو كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨]حيث جعل ﴿فَلَا

(١)ليس بحديث ولم أجده.

خَوْفٌ﴾ جزاء شرطين، والظاهر خلاف ما قالوا، وهو أن يقال: جواب لولا في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ هو ما يدل عليه ما سبق يعني تكذبون مدة حياتكم جاعلين التكذيب رزقكم ومعاشكم فلولا تكذبون وقت النزع وأنتم في ذلك الوقت تعلمون الأمور وتشاهدونها، وأما لولا في المرة الثانية فجوابها: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾.

المسألة الثانية: في ﴿مَدِينِينَ﴾ أقوال منهم من قال: المراد مملوكين، ومنهم من قال: مجزيين، وقال الزمخشري: من دانه السلطان: إذا ساسه، ويحتمل أن يقال: المراد غير مقيمين من مَدَن إذا أقام، هو حينئذ فعيل، ومنه المدينة، وجمعها مدائن، من غير إظهار الياء، ولو كانت مفعلة لكان جمعها مداين كمعايش بإثبات الياء، ووجهه أن يقال: كان قوم ينكرون العذاب الدائم، وقوم ينكرون العذاب ومن اعترف به كان ينكر دوامه، ومثله قوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْـدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] قيل: إن كنتم على ما تقولون لا تبقون في العذاب الدائم فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا إن لم تكن الآخرة دار الإقامة، وأما على قوله: (مَجْزِيِّينَ) فالتفسير مثل هذا كأنه قال: ستصدقون وقت النزع رسل الله في الحشر، فإن كنتم بعد ذلك غير مجزيين فلم لا ترجعون أنفسكم إلى دنياكم، فإن التعويق للجزاء لا غير، ولولا الجزاء لكنتم مختارين كما كنتم في دنياكم التي ليست دار الجزاء مختارين تكونون حيث تريدون من الأماكن، وأما على قولنا: مملوكين من الملك، ومنه المدينة للمملوكة، فالأمر أظهر بمعنى أنكم إذا كنتم لستم تحت قدرة أحد، فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا كما كنتم في دنياكم التي ليست دار جزاء مع أن ذلك مشتهى أنفسكم ومنى قلوبكم، وكل ذلك عند التحقيق راجع إلى كلام واحد، وأنهم كانوا يأخذون بقول الفلاسفة في بعض الأشياء دون بعض، وكانوا يقولون بالطبائع، وأن الأمطار من السحب، وهي متولدة بأسباب فلكية، والنبات كذلك، والحيوان كذلك، ولا اختيار لله في شيء وسواء عليه إنكار الرسل والحشر، فقال تعالى: إن كان الأمر كما يقولون فما بال الطبيعي الذي يدعى العلم لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم، مع أن في الطبع عنده إمكانًا لذلك، فإن عندهم البقاء بالغذاء وزوال الأمراض بالدواء، وإذا علم هذا فإن قلنا: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ معناه غير مملوكين رجع إلى قولهم من إنكار الاختيار وقلب الأمور كما يشاء الله، وإن قلنا: غير مقيمين فكذلك، لأن إنكار الحشر بناء على القول بالطبع، وإن قلنا: غير محاسبين ومجزيين فكذلك، ثم لما بيَّن أن الموت كائن والحشر بعده لازم، بيَّن ما يكون بعد الحشر ليكون ذلك باعثًا للمكلف على العمل الصالح، وزاجرًا للمتمرد عن العصيان والكذب فقال:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

هذا وجه تعلقه معنى، وأما تعلقه لفظًا فنقول: لما قال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾

تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] وكان فيها أن رجوع الحياة والنفس إلى البدن ليس تحت قدرتهم ولا رجوع لهم بعد الموت إلى الدنيا صار كأنه قال: أنتم بعد الموت دائمون في دار الإقامة ومجزيون، فالمجزى إن كان من المقربين فله الروح والريحان، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في معنى الروح وفيه وجوه: الأول: هو الرحمة قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي من رحمة الله، الثاني: الراحة، الثالث: الفرح، وأصل الروح: السعة، ومنه الروح لسعة ما بين الرجلين دون الفحج، وقرئ، (فَرُوْحٌ) بضم الراء بمعنى الرحمة.

المسألة الثانية: في الكلام إضمار تقديره: فله روح أفصحت الفاء عنه لكون فاء الجزاء لربط الجملة بالشرط فعلم كونها جزاء، وكذلك إذا كان أمرًا أو نهيًا أو ماضيًا، لأن الجزاء إذا كان مستقبلاً يعلم كونه جزاء بالجزم الظاهر في السمع والخط، وهذه الأشياء التي ذكرت لا تحتمل الجزم، أما غير الأمر والنهي فظاهر، وأما الأمر والنهي فلأن الجزم فيهما ليس لكونهما جزاءين فلا علامة للجزاء فيه، فاختاروا الفاء فإنها لترتيب أمر على أمر، والجزاء مرتب على الشرط.

المسألة الثالثة: في الريحان، وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] ولكن هاهنا فيه كلام، فمنهم من قال: المراد هاهنا ما هو المراد ثمة، إما الورق وإما الزهر وإما النبات المعروف، وعلى هذا فقد قيل: إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه، وقيل: إن المراد هاهنا غير ذلك وهو الخلود، وقيل: هو رضاء الله تعالى عنهم فإذا قلنا: الروح هو الرحمة فالآية كقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] وأما: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١١، ١٢] وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير هاهنا.

المسألة الرابعة: ذكر في حق المقربين أمورًا ثلاثة هاهنا وفي قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ [التوبة: ٢١] وذلك لأنهم أتوا بأمور ثلاثة وهي: عقيدة حقة وكلمة طيبة وأعمال حسنة، فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته، وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائمًا وعلى الكلمة الطيبة وهي كلمة الشهادة، وكل من قال: لا إله إلا الله فله رزق كريم والجنة له على أعماله الصالحة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] وقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فإن قيل: فعلى هذا من أتى بالعقيدة الحقة، ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغي أن يكون من أهل الرحمة ولا يرحم الله إلا من قال: لا إله إلا الله، نقول: من كانت عقيدته حقة، لا بد وأن يأتي بالقول الطيب فإن لم يُسْمَع لا يحكم به، لأن العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا، وأما الله تعالى فهو عالم الأسرار، ولهذا ورد في الأخبار أن من الناس من يدفن في مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين، ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال: إن من لا

يعمل الأعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت، لأنا نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لا يتركانه بلا عمل، فهذا أمر غير واقع وفرض غير جائز، وثانيهما: أنا نقول من حيث الجزاء، وأما من قال: لا إله إلا الله فيدخل الجنة، وإن لم يعمل عملاً لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء، وإن كان الجزاء أيضًا من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة، ومن الفضل مالا كما يعطي الملك الكريم آخر والمهدي إليه غيرملك لا يستحق هديته ولا رزقه.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في السلام وفيه وجوه: أولها: يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين، كما قال تعالى من قبل: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ثانيها: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي سلامة لك من أمر خاف قلبك منه فإنه في أعلى المراتب، وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه، إذا كان يخدم عند كريم، يقول له: كن فارغًا من جانب ولدك فإنه في راحة. ثالثها: أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال: فلان ناهيك به، وحسبك أنه فلان، إشارة إلى أنه ممدوح فوق الفضل.

المسألة الثانية: الخطاب بقوله: ﴿لَّكَ﴾ مع من؟ نقول: قد ظهر بعض ذلك فنقول: يحتمل أن يكون المراد من الكلام النبي ﷺ، وحينئذ فيه وجه وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها، فسلام لك يا محمد منهم فإنهم في سلامة وعافية لا يهمك أمرهم، أو فسلام لك يا محمد منهم، وكونهم ممن يسلم على محمد ﷺ دليل العظمة، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم، وعلى هذا ففيه لطيفة: وهي أن النبي ﷺ مكانته فوق مكانة أصحاب اليمين بالنسبة إلى المقربين الذين هم في عليين، كأصحاب الجنة بالنسبة إلى أهل عليين، فلما قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ كان فيه إشارة إلى أن مكانهم غير مكان الأولين المقربين، فقال تعالى: هؤلاء وإن كانوا دون الأولين لكن لا تنفع بينهم المكانة والتسليم، بل هم يرونك ويصلون إليك وصول جليس الملك إلى الملك والغائب إلى أهله وولده، وأما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك وإن كنت أعلى مرتبة منهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال هاهنا: ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقال من قبل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١] وقد بينا فائدة التقديم والتأخير هناك.

المسألة الثانية: ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[الواقعة: ٨] ثم قال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[الواقعة: ٢٧] وقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾[الواقعة: ٩] ثم قال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾[الواقعة: ٤١] وأعادهم هاهنا، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد أو بلفظين مرتين، أحدهما غير الآخر، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين، وفي آخر السورة بلفظ المقربين، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾[الواقعة: ٩] ثم بلفظ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ ثم بلفظ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: أما السابق فله حالتان إحداهما في الأولى، والأخرى في الآخرة، فذكره في المرة الأولى بماله في الحالة الأولى، وفي الثانية بماله في الحالة الآخرة، وليس له حالة هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين، ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين، لأن حالهم قريبة من حال السابقين، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم بأنهم أصحاب موضع شؤم، فوصفوهم بموضع الشؤم، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع، ثم قال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم، ويقفون في موضع هو شمال، لأجل كونهم من أهل النار، ثم إنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم، ثم لم يقتصر عليه، ثم ذكر السبب فيه، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ﴾[الواقعة: ٤٥، ٤٦] فذكر سبب العقاب لما بينا مرارًا أن العادل يذكر للعقاب سببًا، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سببًا، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل، وغير ذلك ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: القرآن، ثانيها: ما ذكره في السورة، ثالثها: جزاء الأزواج الثلاثة.

المسألة الثانية: كيف أضاف الحق إلى اليقين مع أنهما بمعنى واحد؟ نقول: فيه وجوه أحدها: هذه الإضافة، كما أضاف الجانب إلى الغربي في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾[القصص: ٤٤] وأضاف الدار إلى الآخرة في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾[الأنعام: ٣٢] غير أن المقدر هنا غير ظاهر، فإن شرط ذلك أن يكون بحيث يوصف باليقين، ويضاف إليه الحق، وما يوصف باليقين بعد إضافة الحق إليه، وثانيها: أنه من الإضافة التي بمعنى (من)، كما يقال: باب من ساج، وباب ساج، وخاتم من فضة، وخاتم فضة، فكأنه قال: لهو الحق من اليقين، ثالثها: وهو أقرب منها ما ذكره ابن عطية أن ذلك نوع تأكيد يقال: هذا من حق الحق، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته التي لا وصول فوقه، والذي وقع في تقرير هذا أن الإنسان أظهر ما عنده الأنوار المدركة بالحس، وتلك الأنوار أكثرها مشوبة بغيرها، فإذا وصل الطالب إلى أوله

يقول: وجدت أمر كذا، ثم إنه مع صحة إطلاق اللفظ عليه لا يتميز عن غيره، فيتوسط الطالب ويأخذ مطلوبه من وسطه، مثاله من يطلب الماء، ثم يصل إلى بركة عظيمة، فإذا أخذ من طرفه شيئًا يقول: هو ماء، وربما يقول قائل آخر: هذا ليس بماء، وإنما هو طين، وأما الماء ما أخذته من وسط البركة، فالذي في طرف البركة ماء بالنسبة إلى أجسام أخرى، ثم إذا نسب إلى الماء الصافي ربما يقال له شيء آخر، فإذا قال: هذا هو الماء حقًّا يكون قد أكد، وله أن يقول: حق الماء، أي الماء حقًّا هذا بحيث لا يقول أحد فيه شيء، فكذلك هاهنا كأنه قال: هذا هو اليقين حقًّا لا اليقين الذي يقول بعض إنه ليس بيقين، ويحتمل وجهًا آخر، وهو أن يقال: الإضافة على حقيقتها، ومعناه أن هذا القول لك يا محمد وللمؤمنين، وحق اليقين أن تقول كذا، ويقرب من هذا ما يقال: حق الكمال أن يصلي المؤمن، وهذا كما قيل في قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا**»(١) أن الضمير راجع إلى الكلمة أي إلا بحق الكلمة، ومن حق الكلمة أداء الزكاة والصلاة، فكذلك حق اليقين أن يعرف ما قاله الله تعالى في الواقعة في حق الأزواج الثلاثة، وعلى هذا معناه: أن اليقين لا يحق ولا يكون إلا إذا صدق فيما قاله بحق، فالتصديق حق اليقين الذي يستحقه، وأما قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فقد تقدم تفسيره، وقلنا إنه تعالى لما بيَّن الحق وامتنع الكفار، قال لنبيه ﷺ هذا هو حق، فإن امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبح ربك في نفسك، وما عليك من قومك سواء صدقوك أو كذبوك، ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم، وهذا متصل بما بعده لأنه قال في السورة التي تلي هذه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: ١] فكأنه قال: سبح الله ما في السموات، فعليك أن توافقهم ولا تلتفت إلى الشرذمة القليلة الضالة، فإن كل شيء معك يسبح الله عز وجل.

تم تفسير السورة، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تقدم.

سورة الواقعة

مكِّيَّة، وهي سبع وتسعون آية

مكيَّة في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيةً منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الآية: ٨٢]. وقال الكلبيُّ: مكيَّة إلا أربع آيات منها، آيتان: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [٨١-٨٢] نزلتا في سفره إلى مكَّة، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [٣٩-٤٠] نزلتا في سفره إلى المدينة.

وقال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأوَّلين والآخرين، ونبأ أهل الجنَّة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة[2].

وذكر أبو عمر ابن عبد البر في «التمهيد»[3] و«التعليق»، والثعلبيُّ أيضاً: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبستَه عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أَتخشى على بناتي الفاقةَ من بعدي؟ إنِّي أمرتهنَّ أن يقرأنَ سورةَ «الواقعة» كلَّ ليلة، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلَّ ليلة لم تُصِبْه فاقة أبداً»[4].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤٥ .

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٣١ .

(٣) ٥/ ٢٦٩ .

(٤) وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٧) بتمامه، و(٢٤٩٨) و(٢٤٩٩) و(٢٥٠٠) مقتصرين على الحديث المرفوع، وأخرجه أيضاً ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٢٦)، وابن السني في عمل =

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة(١). وسمِّيت واقعة؛ لأنَّها تقع عن قُرب. وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد(٢). وفيه إضمار، أي: اذكروا إذا وقعت الواقعة(٣). وقال الجرجانيُّ: «إذا» صلة، أي: وقعت الواقعة، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، و﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وهو كما يقال: قد جاء الصوم، أي: دنا واقترب. وعلى الأوَّل «إِذَا» للوقت، والجواب قوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب(٤)، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضعَ المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] أي: لغو، والمعنى: لا يسمع لها كذب، قاله الكسائيُّ. ومنه قول العامَّة: عائذاً بالله، أي: معاذ الله، وقم قائماً: أي: قم قياماً. ولبعض نساء العرب ترقِّصُ ابنها:

قُمْ قائماً قُمْ قائما   أصبت عبداً نائما

= اليوم والليلة (٦٨٠) بنحوه مختصراً. وفي إسناده: السري بن يحيى، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٣: وقد اختلف في شيخه، هل هو شجاع، أو: أبو شجاع، واختلفوا أيضاً في شيخ شجاع، هل هو أبو فاطمة، أو: أبو ظبية، ثم اختلفوا في ضبط أبي ظبية، فعند الدارقطني بالطاء المهملة، بعدها تحتانية، ثم موحدة، وإنه عيسى بن سليمان الجرجاني، وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة... وعند البيهقي أنه بالمعجمة، بعدها موحدة، ثم تحتانية، وأنه مجهول. وقال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وشجاع لا أعرفه. اهـ.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٥١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢١.

وقيل: الكاذبة صفة، والموصوف محذوف، أي: ليس لوقعتها حال كاذبة، أو نفس كاذبة، أي: كلُّ من يخبر عن وقعتها صادق[١]. وقال الزجَّاج[٢]: «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» أي: لا يَردُّها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة[٣]. وقال الثوريُّ: ليس لوقعتها أحد يكذِّب بها. وقال الكسائيُّ أيضاً: ليس لها تكذيب، أي: ينبغي ألا يكذِّب بها أحد. وقيل: إنَّ قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدِّيُّ: خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا، ورفعتْ فأسمعت من نأى[٤]. يعني: أسمعت القريب والبعيد. وقال السُّدِّيُّ: خفضت المتكبِّرين، ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله[٥]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: خفضت أعداءَ الله في النار، ورفعت أولياءَ الله في الجنَّة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين[٦]. وقال ابن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت آخرين بالفَضْل. والخَفْض والرَّفْع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعزِّ والإهانة. ونسب سبحانه الخفضَ والرفْع للقيامة؛ توسُّعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحلِّ والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل، يقولون: ليلٌ نائمٌ، ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] والخافض والرافع على الحقيقة إنَّما هو الله وحده، فرفَع أولياءَه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءَه في أسفل الدَّرَكات.

وقرأ الحسن وعيس الثقفيُّ: «خَافِضَةً رَّافِعَةً» بالنصب[٧]. الباقون بالرفع؛ على

---

(١) الكشاف ٤/ ٥١.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٧.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٨، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٠ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٦ عن عكرمة، وأخرجه عنه الطبري ٢/ ٢٨١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٩، والطبري ٢٢/ ٢٨١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤٦، وقول عمر أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٩ (١٧٨٦٦).

(٧) المحتسب ٢/ ٣٠٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٠ وعزاها إلى اليزيدي.

إضمار مبتدأ، ومن نصب، فعلى الحال. وهو عند الفرَّاء[١] على إضمار فعل، والمعنى: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» وقعت خَافِضَةً رَّافِعَةً. والقيامة لا شكَّ في وقوعها، وأنَّها ترفع أقواماً وتضع آخرين، على ما بيَّنَّاه.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: زُلزلت وحُركت، عن مجاهد وغيره[٢]. يقال: رَجَّه يَرُجُّه رجًا، أي: حرَّكه وزلزله. وناقة رجَّاء، أي: عظيمة السَّنَام. وفي الحديث: «مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمَّةَ له» يعني: إذا اضطربت أمواجه[٣]. قال الكلبيُّ: وذلك أنَّ الله تعالى إذا أَوحى إليها اضطربت فَرَقًا من الله تعالى. قال المفسرون: تَرْتجُّ كما يرتجُّ الصبيُّ في المهد حتى ينهدم كلُّ ما عليها، وينكسر كلُّ شيء عليها من الجبال وغيرها[٤]. وعن ابن عباس: الرَّجَّة: الحركة الشديدة يسمع لها صوت[٥].

وموضع «إِذَا» نصب على البدل من «إذا وَقَعَتِ»، ويجوز أن ينتصب بـ«خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ» أي: تخفض وترفَع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال؛ لأنَّ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض[٦]. وقيل: أي: وقعت الواقعة إذا رجَّت الأرض، قاله الزجَّاج[٧] والجرجانيُّ. وقيل: أي: اذكر «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا» مصدر؛ وهو دليل على تكرير الزلزلة.

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتت، عن ابن عباس[٨]. مجاهد: كما

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٢١ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥ ، وأخرجه عنه ـ وعن ابن عباس ـ الطبري ٢٢/ ٢٨٢ .

(٣) الصحاح (رجج)، والحديث أخرجه أحمد (٢٠٧٤٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٢٥)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مطولاً، وأورده أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٢٧٥ وقال: وأكثر ظني أنه التجَّ ـ باللام. ا هـ وهما بمعنًى.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩ .

(٥) زاد المسير ٨/ ١٣١ .

(٦) الكشاف ٤/ ٥٢ .

(٧) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٨ .

(٨) زاد المسير ٨/ ١٣٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٨٣ .

يُبَسُّ الدقيق، أي: يُلَتُّ[١].

والبَسِيْسَة: السّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت، ثم يؤكل ولا يطبخ، وقد يُتَّخذ زاداً. قال الراجز:

لا تَـخْـبِـزَا خُـبْـزاً وبُـسَّـا بَـسَّـا ولا تُـطِـيـلاَ بِـمُـنَـاخٍ حَـبْـسَـا[٢]

وذكر أبو عبيدة[٣]: أنَّه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبِز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً. والمعنى أنَّها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء. أي: تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض. وقال الحسن: وبُسَّت: قُلعت من أصلها فذهبت، نظيره: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾[٤] [طه: ١٠٥]. وقال عطيَّة: بُسطت كالرمل والتراب. وقيل: البسُّ: السَّوق[٥]، أي: سيقت الجبال. قال أبو زيد: البسُّ: السَّوق، وقد بسستُ الإبل أبُسُّها ـ بالضمّ ـ بسًّا. وقال أبو عبيد[٦]: بَسَسْتُ الإبلَ وأبسست لغتان: إذا زجرتها، وقلتُ لها: بِسْ بِسْ. وفي الحديث: «يخرج قوم من المدينة إلى اليمن أو الشام أو العراق يَبُسُّون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[٧] ومنه الحديث الآخر: «جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم»[٨] والعرب تقول: جِيْء به من حَسِّك وبَسِّك[٩]. ورواهما أبو زيد بالكسر، فمعنى من حَسِّك، من حيث أحسسته، وبَسِّك، من حيث بلغه مسيرك، وقال مجاهد: سالت سيلاً. عكرمة: هُدَّت

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٧، والصحاح (بسس)، وما بعده منه أيضاً، والرجز لبعض لصوص العرب، كما ذكر ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان ٤/ ٤٩٠-٤٩١، وذكرها المرزباني في معجم الشعراء ص٤٧٥ بنحوه ونسبها إلى الهفوان العقيلي أحد بني المنتفق وأحد اللصوص.

(٣) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٨.

(٦) في غريب الحديث ٣/ ٨٩-٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (بسس).

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨)، وأحمد (٢١٩١٦) عن سفيان بن أبي زهير البهزي ﷺ.

(٨) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٩) الصحاح (بسس)، والمثل في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٣٦.

هدًّا. محمد بن كعب: سُيِّرت سيراً، ومنه قول الأغلب العجليِّ[١]:

[نحن بسسنا بأثر أطاراً أضاء خمساً ثمَّت سارا]

وقال الحسن: قُطعت قطعاً. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا﴾ قال عليٌّ ﷺ: الهباء المنبث: الرَّهَج الذي يسطع من حوافر الدوابِّ ثم يذهب، فجعل الله أعمالهم كذلك، وقال مجاهد: الهباء: هو الشعاع الذي يكون في الكوَّة كهيئة الغبار[٢]. وروي نحوه عن ابن عباس[٣]. وعنه أيضاً: هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً[٤]. وقاله عطيَّة. وقد مضى في «الفرقان»[٥] عند قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الآية: ٢٣].

وقراءة العامَّة: «مُنْبَثًّا» بالثاء المثلثة، أي: متفرِّقاً من قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠] أي: فرَّق ونشر. وقرأ مسروق والنخَعيُّ وأبو حَيْوة: «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة[٦]، أي: منقطعاً من قولهم: بتَّه الله، أي: قطعه، ومنه البتات.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ أي: أصنافاً ثلاثة[٧]، كلُّ صنف يُشاكِل ما هو

(١) النكت والعيون ٥/٤٤٦ وما بعده منه أيضاً، ولم يرد في النسخ قول الأغلب العجلي، واستدركناه منه.

(٢) النكت والعيون ٥/٤٤٧ ، وقول علي أخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٤٥ ، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٩ ، والطبري ٢٢/ ٢٨٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٧ .

(٥) ١٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩ عن النخعي، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤ .

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٦ .

منه، كما يُشاكِل الزوج الزوجة. ثم بيَّن من هم فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فأصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنَّة. وأصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النَّار. قاله السُّدِّيُّ[١].

والمَشْأَمة: الميسرة، وكذلك الشأمة. يقال: قعد فلانٌ شأمةً. ويقال: يا فلان شائِمْ بأصحابك، أي: خُذْ بهم شَأمةً، أي: ذات الشمال[٢]. والعرب تقول لليد الشمال: الشؤمى، وللجانب الشمال: الأشأم[٣]. وكذلك يقال لما جاء عن اليمين: اليُمْن، ولما جاء عن الشّمال: الشؤم[٤].

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ: أصحاب الميمنة: هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذُّرِّيَّة من صُلْبه فقال الله لهم: هؤلاء في الجنَّة ولا أبالي[٥]. وقال زيد بن أسلم[٦]: هم الذين أُخِذوا من شقِّ آدم الأيمن يومئذ. وأصحاب المشأمة: الذين أُخِذوا من شقِّ آدم الأيسر. وقال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة: من أُوتيَ كتابه بيمينه. وأصحاب المشأمة: من أُوتيَ كتابه بشماله. وقال ابن جريح: أصحاب الميمنة: هم أهل الحسنات. وأصحاب المشأمة: هم أهل السيئات. وقال الحسن والربيع: أصحاب الميمنة: الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة. وأصحاب المشأمة: المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة[٧].

وفي «صحيح مسلم»[٨] من حديث الإسراء عن أبي ذرٍّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «فلما

---

(١) النكت والعيون ٥/٤٤٨ .

(٢) الصحاح (شأم).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٤٨ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٣٢ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) بعدها في (م): أصحاب الميمنة. ولم ترد في النسخ الخطية.

(٧) النكت والعيون ٥/٤٤٨ دون ذكر عطاء والربيع، وذكره عن الربيع ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٤٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣٢ مقتصرين على الشّق الأول من قوله.

(٨) برقم (١٦٣)، هو عند البخاري أيضاً (٣٤٩).

عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسْوِدة، وعن يساره أسْوِدة ـ قال: ـ فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى ـ قال: ـ فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح ـ قال: ـ قلت: يا جبريل مَن هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسودِة التي عن يمينه وعن شماله نَسَم بَنِيْه، فأهل اليمين أهل الجنَّة، والأسوِدة التي عن شماله أهل النار» وذكر الحديث.

وقال المبرِّد: وأصحاب الميمنة: أصحاب التقدُّم. وأصحاب المشأمة: أصحاب التأخُّر. والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي: اجعلني من المتقدِّمين ولا تجعلنا من المتأخِّرين. والتكرير في «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجُّب، كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ . مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢] و﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[1] [القارعة: ١-٢] كما يقال: زيد ما زيد[2]! وفي حديث أمِّ زَرْع رضي الله عنها: مالِكٌ ومَا مَالِكٌ[3]! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب، ولأصحاب المشأمة من العقاب.

وقيل: «أَصْحَابُ» رفع بالابتداء، والخبر: «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» كأنَّه قال: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» ما هم؟ المعنى: أيُّ شيء هم[4]. وقيل: يجوز أن تكون «ما» تأكيداً، والمعنى: فالذين يعطون[5] كتابَهم بأيمانهم هم أصحاب التقدُّم وعلوِّ المنزلة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «السابقون الذين إذا أُعطوا الحقَّ قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ذكره المهدويُّ[6]. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: إنَّهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/١٠٨-١٠٩ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠١ .

(٣) سلف ١/ ٢٩٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢٤ .

(٥) في (ظ): يؤتون.

(٦) وأخرجه أحمد (٢٤٣٧٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦ و٢/ ١٨٦-١٨٧ عن عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف.

إلى الإيمان من كلِّ أمَّة[١]. ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين: هم الذين صَلُّوا إلى القِبْلَتَيْن؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾[٢] [التوبة: ١٠٠]. وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد، وأوَّل الناس رواحاً إلى الصلاة. وقال عليٌّ ﷺ: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحَّاك: إلى الجهاد. سعيد بن جُبير: إلى التوبة وأعمال البِرِّ، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٣] [المؤمنون: ٦١].

وقيل: إنَّهم أربعة، منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمَّة عيسى وهو حبيب النجَّار صاحب أنطاكيَّة، وسابقان في أمَّة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قاله ابن عباس، حكاه الماورديُّ[٤].

وقال شُمَيْط بن العجلان: الناس ثلاثة، فرجل ابتكر للخير في حداثة سِنِّه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا هو السابق المقرَّب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طوَّل الغفلة، ثم رجع بتوبته حتى خُتم له بها، فهذا من أصحاب اليمين، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها، فهذا من أصحاب الشمال[٥]. وقيل: هم كلُّ من سَبق إلى شيء من أشياء الصلاح.

ثم قيل: «السَّابِقُونَ» رفع بالابتداء، والثاني توكيد له، والخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وقال الزجَّاج[٦]: «السَّابِقُونَ» رفع بالابتداء، والثاني خبره، والمعنى: السابقون إلى

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤٨ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٩٠ عن ابن سيرين.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٩ (١٨٧٧٣) عن ابن عباس بنحوه.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٢ دون عزو.

(٦) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٩ وما قبله منه أيضاً.

طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، «أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقرَّبين من منزله في الجنَّة كان له ضوء يعرفه به مَن دونه.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ممَّن آمن بمحمَّد ﷺ(١). قال الحسن: ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمَّة، وقليل من أصحاب محمَّد ﷺ(٢). اللهم اجعلنا منهم بكرمك. وسُمُّوا قليلاً، بالإضافة إلى مَن كان قبلهم؛ لأنَّ الأنبياء المتقدِّمين كثروا، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سَبق إلى التصديق من أمَّتنا(٣). وقيل: لما نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسولِ الله ﷺ فنزلت: «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرينَ» فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنَّة، بل ثلثَ أهل الجنَّة، بل نصفَ أهل الجنَّة، وتقاسمونهم في النصف الثاني» رواه أبو هريرة، ذكره الماورديُّ(٤) وغيره. ومعناه ثابت في «صحيح مسلم»(٥) من حديث عبد الله بن مسعود. وكأنَّه أراد أنَّها منسوخة، والأشبه أنَّها محكمة؛ لأنها خبر(٦)؛ ولأنَّ ذلك في جماعتين مختلفتين. قال الحسن: سابِقُو مَن مضى أكثرُ مِن سابقينا، فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرينَ» ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأرجو أن تكون أمَّتي شطر أهل الجنَّة، ثم تلا قوله تعالى: «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٩١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤١ بنحوه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٩ بنحوه.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٩-٤٥٠، والحديث سلف ١٢/ ٢.

(٥) برقم (٢٢١)، وهو عند البخاري أيضاً (٦٥٢٨)، وأحمد (٣٦٦١).

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٤٨ بنحوه.

مِّنَ الْآخِرِينَ» قال مجاهد: كلٌّ من هذه الأمَّة. وروى سفيان: عن أبان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ: «الثُّلّتان جميعاً من أمتي»[١] يعني: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ». وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق ﷺ. قال أبو بكر ﷺ: كِلَا الثُّلتين من أمَّة محمَّد ﷺ، فمنهم من هو في أوَّل أمَّته، ومنهم من هو في آخرها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. وقيل: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ» أي: من أوَّل هذه الأمَّة. «وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» يسارع في الطاعات حتى يلحقَ درجة الأوَّلين. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم قرْني»[٢] ثم سَوَّى في أصحاب اليمين بين الأوَّلين والآخرين. والثُّلَّة: من ثَلَلْت الشيء، أي: قطعته، فمعنى ثُلَّة كمعنى فرقة، قاله الزجَّاج.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: السابقون في الجنَّة «عَلَى سُرُرٍ»، أي: مجالسهم على سرر، جمع سرير[٣]. «مَوْضُونَةٍ» قال ابن عباس: منسوجة بالذهب.

وقال عكرمة: مشبكة بالدُّرِّ والياقوت. وعن ابن عباس أيضاً: «مَوْضُونَةٍ» مصفوفة[٤]، كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]. وعنه أيضاً وعن مجاهد: مَرْمولة بالذهب[٥]. وفي التفاسير: «مَوْضُونَةٍ» أي: منسوجة بقضبان الذَّهب[٦]، مشبكة بالدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد.

والوضْن: النسج المضاعف والنَّضد، يقال: وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض، فهو موضون، ودرع موضونة، أي: مُحكَمة النَّسْج، مثل مصفوفة[٧]، قال الأعشى:

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٣ بدون إسناد.
(٢) سلف ٤/ ٤٥٥ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٠ .
(٤) زاد المسير ٨/ ١٣٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٩٢ ، ٢٩٤ .
(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٩٢ ، وهناد في الزهد (٧٧) و(٧٦). وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٦ .
(٦) الوسيط ٤/ ٢٣٣ .
(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٦٨-٦٩ .

وَمِـن نَسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـةً تُسَـاقُ مع الحيِّ عِيراً فَعِيرَا[١]

وقال أيضاً[٢]:

وبَيْضَاء كالنَّهْي مَوْضُونَةً لـها قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَدَنْ

والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج، ومنه الوَضِين: بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه في بعض؛ ومنه قوله:

إليك تَعْدُوا قَلِقًا وَضِينُها[٣]

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي: على السرر. ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرَّة، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله، أي: يتَّكئون متقابلين. قاله مجاهد وغيره[٤]. وقال الكلبيُّ: طول كلِّ سرير ثلاث مئة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت، فإذا جلس عليها ارتفعت.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان لا يموتون، قاله مجاهد[٥]. الحسن والكلبيُّ: لا يَهْرَمون ولا يتغيرون، ومنه قول امرئ القيس:

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ص١٤٩، قال شارحه: والدروع الكثيفة قد نسجت نسجاً مضاعفاً، تُحمل فوق الجمال عِيراً من ورائها عير.

(٢) أي: الأعشى الكبير، والبيت سلف ١١/ ٤٩.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٨، والرجز ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٥٧٤ ونسبه لرجل من نجران، وقال: الوضين: الحزام، وذكره أيضاً ابن عبد ربّه في العقد الفريد ٥/ ٣٣٣، عن عمر بن الخطاب فيما يرتجز به من شعر.

(٤) سلف ١٢/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٩٥.

وهَـل يَـنْـعَـمْـن إلّا سَـعِـيـدٌ مُـخَـلَّـدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ ما يَبِيتُ بِأوجَالِ[(١)]

وقال سعيد بن جبير: مُخلَّدون: مُقرَّطون[(٢)]، يقال للقُرْط: الخَلَدة، ولجماعة الحُليّ: الخِلدة[(٣)]. وقيل: مسوَّرون ونحوه، عن الفراء[(٤)]، قال الشاعر:

ومـخـلَّـداتٌ بِـالـلُّـجـيـنِ كَـأنَّـمَـا أعْـجَـازُهُـنَّ أقـاوِزُ الـكُـثْـبَـانِ[(٥)]

وقيل: مقرَّطون، يعني: مُمَنْطَقون من المناطق. وقال عكرمة: «مُخَلَّدُونَ»: منعَّمون. وقيل: على سنٍّ واحدة[(٦)]، أنشأهم الله لأهل الجنَّة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة. وقال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ والحسن البصريُّ: الولدان هاهنا: ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة[(٧)]. وقال سلمان الفارسيُّ: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنَّة[(٨)]. قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يُجزَون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا في هذا الموضع[(٩)]. والمقصود: أنَّ أهل الجنَّة على أتمِّ السرور والنعمة، والنعمة إنَّما تتمُّ باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ أكواب: جمع كوب، وقد مضى في «الزخرف»[(١٠)]. وهي الآنية

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٥٠ دون ذكر الكلبي، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: يَعِمَنْ، بدل: ينعمن. ومعناه: يقيم. وقال شارح الديوان: الأوجال: جمع وَجَل، وهو الفزع.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١ .

(٣) تهذيب اللغة ٧/ ٢٧٩ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٣ ، والمصنف نقله عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٥٠ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٤٧ ولم ينسبه، وابن دريد في الاشتقاق ص١٦٣ وعزاه إلى أبي عبيدة، والأقاوز: جمع قوز، والقوز من الرمل: صغير مستدير، تشبَّه به أرداف النساء. اللسان (قوز).

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٢ .

(٧) الكشاف ٤/ ٥٣ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٧٩).

(٩) زاد المسير ٨/ ١٣٥ .

(١٠) ١٩/ ٧٩ .

التي لا عُرى لها ولا خراطيم. والأباريق: التي لها عُرى وخراطيم، واحدها: إبريق، سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يبرق لونه من صفائه[١]. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مضى في «والصافات»[٢] القول فيه. والمعين: الجاري من ماء أو خمر، غير أنَّ المراد في هذا الموضع الخمرُ الجاريةُ من العيون[٣]. وقيل: الظاهرة للعيون، فيكون «معين» مفعولاً من المعاينة. وقيل: هو فعيل من المَعْن، وهو الكثرة[٤]. وبيَّن أنَّها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلُّف ومعالجة.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تنصدع رؤوسهم من شربها[٥]، أي: إنَّها لذَّة بلا أذًى، بخلاف شراب الدنيا. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ تقدَّم في «والصافات»[٦] أي: لا يسكرون فتذهب عقولهم.

وقرأ مجاهد: «لَا يُصَدِّعُونَ» بمعنى: لا يتصدَّعون: أي: لا يتفرَّقون، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[٧] [الروم: ٤٣]. وقرأ أهل الكوفة: «يُنزِفُونَ» بكسر الزاي، أي: لا ينفد شرابهم[٨]، ولا تفنى خمرهم، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أنْزَفْتُم أو صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتمُ آلَ أَبْجَرَا[٩]

وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السُّكْر والصُّداع

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٣٣.

(٢) ١٨/ ٢٩ - ٣٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١.

(٦) عند الآية (٤٧).

(٧) الكشاف ٤/ ٥٤، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٢٠٥.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١، والقراءة في السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٣ عن ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٥١، وما بعده منه أيضاً، والبيت للحطيئة وسلف ١٨/ ٣٢.

والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمرَ الجنَّة فنزَّهها عن هذه الخصال(١).

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يتخيَّرون ما شاؤوا؛ لكثرتها. وقيل: وفاكهة متخيرة مرضيَّة، والتخير: الاختيار. ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ روى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانِيْه الله تعالى ـ يعني في الجنَّة ـ أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر» قال عمر: إنَّ هذه لناعِمةٌ. قال رسول الله ﷺ: «أكَلَتُها أنعم منها» قال: هذا حديث حسن(٢).

وخرَّجه الثعلبيُّ من حديث أبي الدرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة طيراً مثل أعناق البُخْت تصطفُّ على يدي وليِّ الله، فيقول أحدها: يا وليَّ الله رَعيتُ في مُرُوج تحت العرش، وشربت من عيون التَّسنيم، فكُلْ منِّي، فلا يزلن يفتخرنَ بين يديه حتى يخطر على قلبه أكْلُ أحدها، فتخرُّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد، فإذا شبع تُجمع عظام الطائر، فطار يرعى في الجنَّة حيث شاء». فقال عمر: يا نبيَّ الله إنَّها لناعِمة. فقال: «آكلُها أنْعمُ منها»(٣).

وروي عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنة لطيراً، في الطائر منها سبعون ألف ريشة، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنَّة، ثم ينتفض فيخرج من كلِّ ريشة لون، طعام أبيض من الثلج، وأبرد وألين من الزبد، وأعذب من الشَّهد، ليس فيه لون يشبه صاحبه، فيأكل منه ما أراد، ثم يذهب فيطير»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٢١١ (١٨١٧٧).

(٢) الترمذي (٢٥٤٢) وفيه: حديث حسن غريب. وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٦٣٩)، وأحمد (١٣٣٠٦)، ووقع عند الترمذي: أحسن، بدل: أنعم. وهذه وردت هكذا في التذكرة ص٤٨٥ ، والنقل منه. والجُزُر: جمع جزور، وهي الإبل. وقوله: لناعمة: أي: سِمان مترفَة. النهاية (نعم).

(٣) التذكرة ص٤٨٥ .

(٤) أخرجه هناد في الزهد (١١٩)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٠)، وفي إسناده: عبيد الله بن الوليد الوصّافي وعطية بن سعد العوفي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجرِّ؛ فمن جرَّ ـ وهو حمزة والكسائي وغيرهما[١] ـ جاز أن يكون معطوفاً على «بِأَكْوَابٍ» وهو محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: يتنعَّمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور، قاله الزجَّاج[٢]. وجاز أن يكون معطوفاً على «جَنَّات» أي: هم في «جَنَّاتِ النَّعِيم» وفي حور، على تقدير حذف المضاف، كأنَّه قال: وفي معاشرة حور[٣]. الفرَّاء[٤]: الجرُّ على الإتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأنَّ الحور لا يطاف بهنَّ، قال الشاعر:

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونا[٥]

والعين لا تُزجَّج وإنَّما تكحل. وقال آخر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[٦]

وقال قُطْرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذَّة[٧].

ومن نصب ـ وهو الأشهب العقيلي والنّخعي وعيسى بن عمر الثّقفي، وكذلك هو في مصحف أُبَيٍّ[٨] ـ فهو على تقدير إضمار فعل؛ كأنَّه قال: ويزوَّجون حُوراً عِيناً[٩]. والحمل في النصب على المعنى أيضاً حسن؛ لأنَّ معنى يطاف عليهم به: يُعطَونه[١٠].

---

(١) السبعة ص٦٢٢، والتيسير ص٢٠٧ عن حمزة والكسائي، وزاد ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٨٣ أبا جعفر.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١١١.

(٣) الحجة للفارسي ٦/ ٢٥٧، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٤.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٣.

(٥) البيت للراعي النميري، وهو في شعره ص١٥٦.

(٦) البيت لعبد الله بن الزبعرى، وسلف ١/ ٢٩١.

(٧) الكشف لمكي ٢/ ٣٠٤.

(٨) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/ ٣٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦.

(٩) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٤.

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١١.

ومن رفع ـ وهم الجمهور، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ـ فعلى معنى: وعندهم حور عين؛ لأنَّه لا يُطاف عليهم بالحور. وقال الكسائيُّ: ومن قال: «وَحُورٌ عِينٌ» بالرفع، وعلَّل بأنَّه لا يطاف بهنَّ، يلزمه ذلك في فاكهة ولحم؛ لأنَّ ذلك لا يطاف به، وليس يطاف إلا بالخمر وحدها[١]. وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ لأنَّ المعنى: لهم أكواب، ولهم حور عين[٢]. وجاز أن يكون معطوفاً على «ثُلَّة»، و«ثُلَّةٌ» ابتداء، وخبره: «عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» وكذلك «وَحُورٌ عِينٌ» وابتدأ بالنكرة؛ لتخصيصها بالصفة.

﴿كَأَمْثَـٰلِ﴾ أي: مثل أمثال ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: الذي لم تمسّه الأيدي، ولم يقع عليه الغبار، فهو أشدُّ ما يكون صفاءً وتلألؤاً، أي: هنَّ في تشاكل أجسادهنَّ في الحسن من جميع جوانبهنَّ، كما قال الشاعر:

كأنَّما خُلِقَتْ في قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ فَكُلُّ أكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ[٣]

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ثواباً، ونصْبهُ على المفعول له. ويجوز أن يكون على المصدر[٤]؛ لأنَّ معنى «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»: يجازون. وقد مضى الكلام في الحور العين في «والطُّور» وغيرها[٥].

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «خلَق الله الحورَ العين من الزعفران»[٦]. وقال خالد

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٤ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ ، والبيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٣ ، والكتَف: الجانب والناحية: اللسان (كنف).

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٢ .

(٥) ١٩/ ٥٢٣ و١٩/ ١٣٧ .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨١٢)، وفي الأوسط (٢٩٠)، ومن طريقه أبو نعيم في صفة الجنة (٣٨٣) و(٣٨٥) عن أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩ : رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفي إسنادهما ضعفاء. اهـ. ولم نقف عليه من حديث أنس ﷺ.

ابن الوليد: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليمسك التفَّاحة من تفاح الجنَّة، فتنفلق في يده، فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمسَ من حُسْنها، من غير أن ينقص من التفاحة» فقال له رجل: يا أبا سليمان إنَّ هذا لعجبٌ ولا يُنقَص من التفَّاحة؟ قال: نعم، كالسِّراج الذي يوقد منه سِراج آخر وسُرُجٌ ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: خلَق اللهُ الحورَ العينَ من أصابع رجليها إلى ركبتَيْها من الزعفران، ومن ركبتَيْها إلى ثديَيْها من المسك الأذفر، ومن ثدييْها إلى عنقها من العَنْبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان، إذا أَقبلَتْ يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقَّة ثيابها وجِلْدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكلِّ ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي: هذا ثواب الأولياء «جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ قال ابن عباس: باطلاً ولا كذباً[٢]. واللغو: ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثَّمته، أي: قلت له: أثمت[٣]. محمد ابن كعب: «وَلا تَأثِيماً» أي: لا يؤثِّم بعضُهم بعضاً. مجاهد: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا»: شتماً ولا مأثماً[٤].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ «قِيلاً» منصوب بـ«يَسْمَعُونَ»، أو استثناء منقطع، أي: لكن يقولون قِيلاً أو يسمعون. و«سَلَاماً سلاماً» منصوبان بالقول، أي: إلا أنَّهم يقولون الخير. أو على المصدر، أي: إلا أن يقول بعضهم لبعض: سلاماً. أو يكون وصفاً

(١) التذكرة ص٤٨١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ .

لـ«قيلاً»، والسلام الثاني بدل من الأوَّل، والمعنى: إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير: سلام عليكم[١]. قال ابن عباس: أي: يُحيِّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحيِّيهم الملائكة، أو يُحيِّيهم ربُّهم عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدَّم، والتكرير؛ لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه. ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: في نَبْق قد خُضِدَ شوكه، أي: قطع، قاله ابن عباس وغيره[٢].

وذكر ابن المبارك: حدثنا صفوان، عن سليم بن عامر، قال: كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يقولون: إنَّه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابيٌّ يوماً، فقال: يا رسول الله! لقد ذكَر الله في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنت أرى في الجنَّة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السِّدر؛ فإنَّ له شوكاً مؤذياً. فقال ﷺ: «أوَليس يقول: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» خَضد اللهُ شوكَه، فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرةً، فإنَّها تنبت ثمراً تَفتَّق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر»[٣].

وقال أبو العالية والضحَّاك: نظر المسلمون إلى وَجٍّ ـ وهو وادٍ بالطائف مُخْصِب ـ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٠ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢ عن ابن عباس وعكرمة، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٠٧ .

(٣) الزهد لابن المبارك (٢٦٣ زوائد نعيم). قال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٣٤ : رواه ابن أبي الدنيا بسند حسن.

فأعجبهم سِدْره، فقالوا: يا ليتَ لنا مثلَ هذا، فنزلت[(١)]. قال أميَّة بن أبي الصَّلْت[(٢)] يصف الجنَّة:

إن الحدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ فيها الكَوَاعِبُ سِدرُها مَخْضودُ

وقال الضحَّاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ»: وهو الموقَر حَمْلاً[(٣)]. وهو قريب مما ذكرنا في الخبر. سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القِلال[(٤)]. وقد مضى هذا في سورة «النجم»[(٥)] عند قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآية: ١٤] وأنَّ ثمرها مثل قلال هَجَر، من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطَّلْح: شجر الموز، واحده: طلحة. قاله أكثر المفسرين[(٦)] عليٌّ[(٧)] وابن عباس[(٨)] وغيرهم[(٩)]. وقال الحسن: ليس هو موز، ولكنَّه شجر له ظِلٌّ بارد رطب[(١٠)]. وقال الفرَّاء وأبو عبيدة: شجر عظام له شوك[(١١)]. قال بعض الحداة وهو الجعديُّ:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٢) ديوانه ص٥٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٢ عن مجاهد والضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٠٩.

(٥) ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٠، وهناد في الزهد (١١٢)، والطبري ٢٢/ ٣١١.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٠، وهناد في الزهد (١١١)، والطبري ٢٢/ ٣١١.

(٩) منهم أبو سعيد الخدري وأبو هريرة والحسن وعكرمة. النكت والعيون ٥/ ٤٥٤، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣١١ - ٣١٢ عن مجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٧.

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٤.

(١١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٠، وما بعده منه، والبيت ذكره أيضاً الطبري ٢٢/ ٣١٠، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٥٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٤٠ ولم ينسبوه، ولم نقف عليه عند النابغة الجعدي.

بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وقَالَا غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالَا

فالطَّلْح: كلُّ شجر عظيم كثير الشوك[١]. الزجَّاج[٢]: يجوز أن يكون في الجنَّة وقد أُزيل شوكه. وقال الزجَّاج أيضاً: كشجر أمِّ غيلان [له] نَوْر طيّب جدًّا، فخوطبوا ووعدوا بما يُحبُّون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنَّة على ما في الدنيا. وقال السُّدِّيُّ: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل[٣].

وقرأ عليُّ بن أبي طالب ﷺ: «وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ» بالعين[٤]، وتلا هذه الآية: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء:١٤٨] وهو خلاف المصحف. وفي رواية أنه قُرئ بين يديه: «وطلح منضود» فقال: ما شأن الطلح؟ إنَّما هو «وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:١٠] فقيل له: أفلا نحوِّلها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحوَّل[٥]. فقد اختار هذه القراءةَ ولم يَرَ إثباتها في المصحف؛ لمخالفة ما رَسْمُه مجمَع عليه. قاله القشيريُّ. وأسنده أبو بكر الأنباريُّ قال: حدثني أبي، قال: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الحسن بن سعد، عن قيس بن عُبَاد، قال: قرأتُ عند عليٍّ، أو قُرِئت عند عليٍّ ـ شَكَّ مجالد ـ : «وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ»، فقال عليٌّ ﷺ: ما بال الطلح؟ أما تقرأ: «وَطَلْع» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:١٠] فقال له: يا أمير المؤمنين أنحكُّها من المصحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم[٦]. قال أبو بكر: ومعنى هذا أنَّه رجع إلى ما في المصحف، وعَلِمَ أنَّه هو الصواب، وأبطل الذي كان فَرَطَ من قوله.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣١.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١١٢، وما بعده منه أيضاً، وما بين حاصرتين منه ومن (م).

(٣) الكشاف ٤/ ٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٠.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٤، وهاج الشيء: ثار لمشقَّة أو ضرر. اللسان (هيج).

(٦) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٠٩-٣١٠ من طريق مجالد، به، وبنحوه، وأورده البغوي في التفسير ٤/ ٢٨٢ عن مجاهد، عن الحسن بن سعيد، عن علي ﷺ.

والمنضود: المتراكب الذي قد نُضدَ أوَّله وآخره بالحمل، ليست له سُوقٌ بارزة[(١)]، بل هو مرصوص، والنَّضْد: هو الرصُّ، والمنضَّد: المرصوص، قال النابغة:

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ ... ورَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ[(٢)]

وقال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة، ثمر كلُّه[(٣)]. كلَّما أكل ثمرة، عاد مكانها أحسن منها.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس[(٤)]، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥] وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس، حسب ما تقدَّم بيانه هناك[(٥)]. والجنَّة كلُّها ظِلٌّ لا شمسَ معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظلَّ العرش. وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة. وقال أبو عبيدة[(٦)]: تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع: ممدود، وقال لبيد[(٧)]:

غلبَ العَزَاءُ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ ... دَهرٌ طويلٌ دائمٌ مَمْدودُ

وفي «صحيح الترمذيِّ» وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «وفي الجنَّة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[(٨)].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: جارٍ لا ينقطع[(٩)]، وأصل السّكب: الصبُّ، يقال: سكبه

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٨، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣١، والأتيُّ: سَيْلٌ لا يدرى من أين أتى. والسجفان: الستران المقرونان بينهما فرجة. اللسان (أتي) و(سجف).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٣٤.

(٥) ١٥/ ٤١٩.

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٠.

(٧) شرح ديوان لبيد ص٣٦.

(٨) الترمذي (٣٢٩٢) مطولاً، وقال: هذا حديث حسن صحيح. اهـ. وهو عند البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦)، وأحمد (١٠٢٥٩).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٨.

سَكْباً، والسُّكُوب: انصبابه؛ يقال: سَكَب سُكُوباً، وانْسكَب انسكاباً[١]. أي: وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم[٢]. وكانت العرب أصحابَ بادية وبلادٍ حارَّة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزةً لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلو والرِّشاء، فوعدوا في الجنَّة خلافَ ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطِّرادها.

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: ليست بالقليلة العزيزة، كما كانت في بلادهم ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي: في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا[٣].

وقيل: «وَلَا مَمْنُوعَةٍ» أي: لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعْدٍ ولا حائط[٤]، بل إذا اشتهاها العبد دَنَتْ منه حتى يأخذَها، قال الله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[٥] [الإنسان: ١٤].

وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ روى الترمذيُّ عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ» قال: «ارتفاعها لَكَمَا بين السماء والأرض مسيرةَ خمسِ مئةِ سنةٍ» قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشدِين بن سعد. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: الفُرُش في الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض[٧].

وقيل: إنَّ الفُرُش هنا كناية عن النِّساء اللواتي في الجنَّة، ولم يتقدَّم لهنَّ ذِكْر،

---

(١) الصحاح (سكب).

(٢) الوسيط ٤/ ٢٣٤ .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٩ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣١٨ .

(٥) سيأتي ٢١/ ٤٧٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٣ .

(٧) الترمذي (٢٥٤٠) و(٣٢٩٤)، وهو عند أحمد (١١٧١٩).

ولكن قوله عزَّ وجلَّ: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ» دالٌّ؛ لأنَّها محلُّ النِّساء، فالمعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنَّ وكمالهنَّ، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: خلقناهنَّ خَلْقاً وأبدعناهنَّ إبداعاً. والعرب تُسمِّي المرأة فِراشاً ولِباساً وإزاراً، وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾[1] [البقرة:١٨٧] ثم قيل على هذا: هنَّ الحور العين، أي: خلقناهنَّ من غير ولادة[2]. وقيل: المراد نساء بني آدم، أي: خلقناهنَّ خَلْقاً جديداً[3]، وهو الإعادة، أي: أعدناهنَّ إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى: أنشأنا العجوز والصَّبية إنشاءً واحداً. وأُضمرن ولم يتقدَّم ذكرهنَّ؛ لأنهنَّ قد دخلن في أصحاب اليمين؛ ولأنَّ الفُرُش كناية عن النساء كما تقدَّم.

وروي عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال: «منهنَّ البِكْر والثَّيِّب»[4]. وقالت أمُّ سلمة رضي الله تعالى عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا» فقال: «يا أمَّ سلمة هنَّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائزَ شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً، جعلهنَّ اللهُ بعد الكِبَر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء»[5]. أسنده النحَّاس عن أنس قال: حدَّثنا أحمد بن عمرو، قال: حدَّثنا عمرو بن عليٍّ، قال: حدَّثنا أبو عاصم، عن موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس بن مالك رفَعه: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء» قال: «هنَّ العجائز العُمْش الرُّمْص، كُنَّ في الدنيا عُمْشًا رُمْصاً»[6]. وقال المسيِّب بن شريك: قال النبيُّ ﷺ في

---

(١) التذكرة ص٤٦٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٣ .

(٤) أخرجه الطيالسي (١٣٠٧)، والطبراني ٢٢/ ٣٢٠ والطبراني في الكبير (٦٣٢٢)، عن سلمة بن يزيد مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩ : رواه الطبراني، وفيه: جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٢ ، والطبراني في الكبير ٢٣/ (٨٧٠)، وفي الأوسط (٣١٦٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩ : رواه الطبراني، وفيه: سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٩٦)، والطبري ٢٢/ ٣٢٠ من طريق موسى بن عبيدة، به. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعَّفان في الحديث.

قوله: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء» الآية، قال: «هنَّ عجائز الدنيا أنشأهنَّ الله خَلْقاً جديداً، كلَّما أتاهنَّ أزواجهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً» فلما سمعت عائشة ذلك قال: واوجعاه! فقال لها النبيُّ ﷺ: «ليس هناك وجع»[(١)].

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب[(٢)]. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: العُرُب: العواشق لأزواجهنَّ[(٣)]. وعن ابن عباس أيضاً: إنَّها العَرُوب المَلِقة. عكرمة: الغَنِجة[(٤)]. ابن زيد: بلغة أهل المدينة[(٥)]. ومنه قول لبيد:

وفي الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ ... رَيَّا الروادِفِ يَغْشَى دُونَها البصرُ[(٦)]

وهي الشَّكِلة، بلغة أهل مكَّة[(٧)]. وعن زيد بن أسلم أيضاً: الحسنة الكلام[(٨)]. وعن عكرمة أيضاً وقتادة: العُرُب: المتحبِّبات إلى أزواجهنَّ[(٩)]. واشتقاقه من أعرب إذا بيَّن، فالعروب تُبيِّن محبتها لزوجها بشَكَل وغُنْج وحُسن كلام. وقيل: إنَّها الحسنة التَّبَعُّل؛ لتكون ألذَّ استمتاعاً[(١٠)]. وروى جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدِّه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عُرُباً» قال: «كلامهنَّ عربيٌّ»[(١١)].

---

(١) التذكرة ص٥٠٤-٥٠٥ ، وأخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٣ ، وأورده البغوي في التفسير ٤/ ٢٨٣ عن المسيب بن شريك موقوفاً.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥١ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٤٢ عن ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والمبرد ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٣-٣٢٥ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٤ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٢٣-٣٢٤ ، والمَلَق: الوُدُّ واللطف الشديد. اللسان (ملق).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٥ وما بعده منه أيضاً.

(٦) شرح ديوان لبيد ص٦١ ، وفيه: الحُدُوج، بدل: الخباء. وهما بمعنى.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٥ عن ابن بريدة، والشكلة: ذات الدَّلِّ والحُسن والتغنُّج. اللسان (شكل).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٤ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٥٥ عن عكرمة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٧ عن قتادة.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ .

(١١) أورده ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٢ (١٨٧٩٣) بلفظ: وذكر عن سهل بن عثمان العسكري، =

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «عُرْباً»، بإسكان الراء[١]. وضمَّ الباقون، وهما جائزان في جمع فَعُول.

«أَتْراباً» على ميلاد واحد في الاستواء وسنٍّ واحدة، ثلاثٍ وثلاثين سنة. يقال في النساء: أتراب، وفي الرجال: أقران[٢]. وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حدَّ الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر. وقيل: «أتْراباً» أمثالاً وأشكالاً، قاله مجاهد[٣]. السُّدِّيُّ: أتراب في الأخلاق لا تباغضَ بينهنَّ ولا تحاسد.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العُرُب لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى: «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أي: هم «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ» وقد مضى الكلام في معناه.

وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحَّاك: «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ» يعني من سابقي هذه الأمَّة، و«ثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ» من هذه الأمَّة من آخرها؛ يدلُّ عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية «ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ» فقال النبيُّ ﷺ: «هم جميعاً من أمَّتي»[٤].

= عن أبي علي، عن جعفر بن محمد، به. وبرقم (١٨٧٩٣) عن جعفر بن محمد، عن أبيه، ... الخبر، ولم يذكر فيه: عن جدِّه.

(١) السبعة ص٦٢٢، والتيسير ص٢٠٧، والحجة للفارسي ٦/ ٢٥٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ وما بعده منه أيضاً، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٥، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٧٨، والواحدي في الوسيط ٤/ ٢٣٥، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٨٥، وفي إسناده: إسماعيل بن أبي عياش قال عنه ابن عدي: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو بيِّن الأمر في الضعف. اهـ. وأورده الطبري في التفسير ٢٢/ ٣٣٣ وضعَّفه. =

وقال الواحديُّ[(١)]: أصحاب الجنَّة نصفان، نصف من الأمم الماضية، ونصف من هذه الأمَّة. وهذا يردُّه ما رواه ابن ماجه في «سننه» والترمذيُّ في «جامعه» عن بُريدة ابن حصيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنَّة عشرون ومئة صفٍّ، ثمانون منها من هذه الأمَّة، وأربعون من سائر الأمم». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[(٢)].

و«ثُلَّةٌ» رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثلتان: ثلَّة من هؤلاء، وثلَّة من هؤلاء[(٣)]. والأوَّلون: الأمم الماضية، والآخرون: هذه الأمَّة، على القول الثاني[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ذكَر منازل أهل النار وسمَّاهم أصحاب الشمال؛ لأنَّهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظَّم ذِكْرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ . فِى سَمُومٍ﴾ والسموم: الريح الحارَّة التي تدخل في

= وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٨-١١٩ عن أبي بكرة مرفوعاً، وقال: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ. اهـ. ولم نقف عليه في معاجم الطبراني الثلاثة.

(١) في الوسيط ٤/ ٢٣٥ بنحوه.

(٢) ابن ماجه (٤٢٨٩)، والترمذي (٢٥٤٦).

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٥ .

مسامِّ البدن[١]. والمراد هنا حرُّ النار ولفحها[٢]. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارٌّ قد انتهى حرُّه[٣]، إذا أحرقت النارُ أكبادَهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحرَّ، فيجده حميماً حاراً في نهاية الحرارة والغليان. وقد مضى في «القتال»[٤]: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [الآية: ١٥].

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: يفزعون من السَّموم إلى الظِّلِّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يَحْموم، أي: من دخان جهنَّم أسود شديد السواد. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٥]. وكذلك اليَحْموم في اللغة: الشديد السواد، وهو يَفْعول من الحَمِّ، وهو الشحم المسودُّ باحتراق النار. وقيل: هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم[٦]. وقال الضحَّاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكلُّ شيء فيها أسود[٧]. وعن ابن عباس أيضاً: النار سوداء[٨]. وقال ابن زيد: اليَحْموم: جبل في جهنَّم يستغيث إلى ظلِّه أهل النار[٩].

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ بل حارٌّ؛ لأنَّه من دخان شفير جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذب، عن الضحَّاك[١٠]، وقال سعيد بن المسيِّب: ولا حسن منظره[١١]. وكلُّ ما لا خير فيه فليس بكريم. وقيل: «وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ» أي: من النار يُعذَّبون بها، كقوله: ﴿لَهُم مِّن

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٥ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٩ .

(٣) الكشاف ٤/ ٥٥ .

(٤) ١٩/ ٢٦١ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٣٥ .

(٦) الصحاح (حمم)، وتهذيب اللغة ٤/ ١٨-١٩ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٦ .

(١٠) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣٧ .

(١١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ .

﴿فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾(١) [الزمر: ١٦].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: إنَّما استحقُّوا هذه العقوبة؛ لأنَّهم كانوا في الدنيا متنعِّمين بالحرام. والمترَف: المنعَّم، عن ابن عباس وغيره. وقال السديُّ: «مُتْرَفِينَ» أي: مشركين(٢).

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يقيمون على الشِّرك، عن الحسن والضحَّاك وابن زيد(٣). وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه(٤). الشعبيُّ: هو اليمين الغَمُوس(٥). وهي من الكبائر. يقال: حَنِث في يمينه، أي: لم يَبرَّها ورجع فيها(٦). وكانوا يقسمون أنْ لا بعثَ، وأنَّ الأصنام أنداد الله، فذلك حنثهم، قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾(٧) [النحل: ٣٨]. وفي الخبر: كان يَتحنَّث في حِرَاء، أي: يفعل ما يُسقِط عن نفسه الحِنث، وهو الذَّنب(٨).

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القَسَم، ودخول اللام في قوله تعالى: «لَمَجْمُوعُونَ» هو دليل القَسَم في المعنى، أي: إنَّكم لمجموعون قسَماً حقّاً،

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣٩ عن الضحاك وابن زيد، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٣ (١٨٧٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٣٩-٣٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ .

(٦) الصحاح (حنث).

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٣ .

(٨) الصحاح (حنث)، وتهذيب اللغة ٤/ ٤٨٠ .

خلاف قَسَمكم الباطل.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث[١]. ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو شجر كَريه المنظر، كريه الطَّعم، وهي التي ذكرت في سورة «والصافات»[٢]. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: من الشجرة[٣]؛ لأنَّ المقصود من الشجرة شجرة. ويجوز أن تكون «من» الأولى زائدة، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً كأنَّه قال: «لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ» طعاماً. وقوله «مِنْ زَقُّومٍ» صفة لشجر، والصفة إذا قدَّرت الجارَّ زائداً، نصبت على المعنى، أو جررتَ على اللفظ، فإن قدَّرت المفعول محذوفاً، لم تكن الصفة إلا في موضع جرٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزقوم، أو على الأكل، أو على الشجر[٤]؛ لأنَّه يذكَّر ويؤنَّث. ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المغليُّ الذي قد اشتدَّ غليانه، وهو صديد أهل النار[٥]. أي: يورثهم حَرّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً، فيشربون ماء يظنُّون أنَّه يزيل العطش، فيجدونه حميماً مُغْلًى.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة: «شُرْبَ» بضمِّ الشين، الباقون بفتحها[٦]، لغتان جيِّدتان، تقول العرب: شَرِبت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمَّتين[٧]. قال أبو زيد: سمعت العربَ تقول بضمِّ الشين وفتحها وكسرها، والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأنَّ كلَّ مصدر من ذوات الثلاث فأصله فَعْل، ألا ترى أنَّك تردّه إلى المرَّة الواحدة، فتقول: فَعْلة، نحو شَرْبة، وبالضمِّ الاسم. وقيل: إنَّ

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٥.

(٢) بقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وسلف ١٨/ ٤١.

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٤٢.

(٦) السبعة ص٦٢٣، والتيسير ص٢٠٧.

(٧) الصحاح (شرب) دون ذكر: وشُرُباً بضمتين.

الفتح والاسم مصدران، فالشَّرْب كالأكل، والشُّرب كالذُّكْر، والشِّرب ـ بالكسر ـ المشروب، كالطِّحن المطحون[١].

والهِيم: الإبل العِطاش التي لا تَرْوى لدَاءٍ يصيبها، عن ابن عباس وعِكرمة وقتَادة والسُّديِّ وغيرهم[٢]، وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المِراض[٣]. الضحَّاك: الهيم: الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً، واحدها: أهْيَم، والأنثى: هَيْماء[٤]. ويقال لذلك: الداء الهُيَام، قال قيس بن الملوّح:

يـقـال بِـه داء الـهُـيَـامِ أصـابـه ... وقد علِمت نفسي مكانَ شِفائِها[٥]

وقوم هِيم أيضاً، أي: عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهائمة، والجمع هيم[٦]، قال لَبِيد:

أَجَـزْتُ إلـى مـعـارِفِـهـا بِـشُـعْـثٍ ... وأطـلَاحٍ مِـن الـعِـيـدِيِّ هِـيـم[٧]

وقال الضحَّاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل[٨]. وروي أيضاً عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تَرْوى بالماء[٩]. المهدويُّ: ويقال لكلٍّ ما لا يروى من الإبل والرمل: أهيم وهيماء.

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٠ ، والبيان ٢/ ٤١٧-٤١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٤٣ عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٤٣ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٤٥ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، ولم نقف عليه في ديوان قيس.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٤٦٨ .

(٧) شرح ديوان لبيد ص١٠٣ ، قال شارحه: شعث: رجال سيئة حالهم من الجهد والسفر. وأطلاح: إبل رزايا مهازيل. والعيدي: إبل منسوبة إلى فحل أو إلى قوم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ عن الضحاك وابن عيينة، والصحاح (هيم) عن الأخفش.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧ .

وفي «الصحاح»[١]: والهُيَام بالضمّ: أشدُّ العطش. والهُيَام كالجنون من العشق. والهُيَام: داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هَيْماء. والهيماء أيضاً: المفازة لا ماءَ بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد للينِهِ، والجمع هُيُم مثل قَذَال وقُذُلٍ. والهِيَام بالكسر: الإبل العطاش، الواحد هَيْمان، وناقة هَيْمَى مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: رزقهم الذي يُعَدُّ لهم، كالنُّزُل الذي يعدُّ للأضياف؛ تكرمةً لهم، وفيه تهكُّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكقول أبي الشعر[٢] الضَّبيِّ:

وكنَّا إذا الجَبَّارُ بالجيشِ ضَافَنَا جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزْلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو: «هَذَا نُزْلُهُمْ» بإسكان الزاي[٣]، وقد مضى في آخر «آل عمران»[٤] القول فيه. «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء، يعني في جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلّا تصدِّقون بالبعث[٥]؟ لأنَّ

---

(١) مادة: (هيم).

(٢) في (م) و(د): السعد، والمثبت من (ظ) والكشاف ٤/ ٥٦، وأورده أيضاً الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٩١ وسمَّاه: أبو الشعراء الضبي.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٢٣، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥١ وقال: هذا نزلهم، بالإسكان، هارون عن أبي عمرو وعياش.

(٤) ٥/ ٤٨٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى: نحن خلقنا رزقكم، فهلَّا تصدِّقون أنَّ هذا طعامكم[(١)] إن لم تؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: ما تصبُّونه من المَنِيِّ في أرحام النساء[(٢)]. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: ما تصوِّرون منه الإنسان ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ المقدِّرون المصوِّرون[(٣)]. وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى، أي: إذا أقررتم بأنَّا خالقوه لا غيرنا، فاعترفوا بالبعث. وقرأ أبو السَّمَّال ومحمد بن السميفع وأشهب العقيليُّ: «تَمْنُونَ» بفتح التاء[(٤)]، وهما لغتان أمْنى ومَنى، وأمذَى ومَذَى، يُمني ويَمنِي، يُمذِي ويَمذِي[(٥)].

الماورديُّ[(٦)]: ويحتمل أن يختلف معناهما عندي، فيكون أمنى: إذا أنزل عن جماع. ومَنَى: إذا أنزل عن الاحتلام. وفي تسمية المنيِّ مَنِيًّا وجهان: أحدهما: لإمنائه وهو إراقته. الثاني: لتقديره، ومنه المَنَا الذي يُوزَن به[(٧)]؛ لأنَّه مقدار لذلك، كذلك المنيُّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ احتجاج أيضاً، أي: الذي يَقدِر على الإماتة يَقدِر على الخَلْق، وإذا قدر على الخَلْق قدر على البعث.

---

(١) النكت والعيون ٥/٤٥٨ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٠ .

(٣) الكشاف ٤/٥٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥١ ، والكشاف ٤/٥٦ عن أبي السمَّال، والمحرر الوجيز ٥/٢٤٨ عن ابن عباس وأبي السمَّال.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/١٢٨ .

(٦) في النكت والعيون ٥/٤٥٨ .

(٧) المَنَا، والمنُّ بلغة تميم، والمنا أفصح: كيل يكال به السمن، أو ميزان يوزن به، ويقدَّر بنصف كيلو غرام تقريباً في زماننا، أو يزيد أو ينقص قليلاً حسب نوعه، فمنه المنا المصري وهو ٣٤٧/ ٤١٢ غرام، والرومي وهو ٦٤٣/ ٥٤١ غرام، والطبي وهو ٥٦٣/٦١٨ غرام. معجم متن اللغة ١/ ٨٦ ، ومادة (منن) و(مني).

وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كَثير: «قَدَرْنا» بتخفيف الدال، الباقون بالتشديد[١].

قال الضحَّاك: أي: سوَّينا بين أهل السماء وأهل الأرض[٢]. وقيل: قضينا. وقيل: كتبنا[٣]. والمعنى متقارب، فلا أحد يبقى غيره عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: إن أردنا أن نبدِّل أمثالكم لم يسبقنا أحد[٤]، أي: لم يغلبنا. «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» معناه: بمغلوبين[٥]. وقال الطبريُّ[٦]: المعنى: نحن قدَّرنا بينكم الموت على أن نبدِّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم، أي: لا يتقدَّم متأخِّر، ولا يتأخَّر متقدِّم.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والهيئات[٧]. قال الحسن: أي: نجعلكم قردةً وخنازيرَ كما فعلنا بأقوام قبلكم[٨]. وقيل: المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمَّل المؤمنُ ببياض وجهه، ويُقبَّح الكافرُ بسواد وجهه[٩]. سعيد ابن المسيب[١٠]: قوله تعالى: «فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ» يعني في حواصل طير سود تكون ببَرهُوت، كأنَّها الخطاطيف، وبَرَهُوت: وادٍ في اليمن. وقال مجاهد: «فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ»

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦٢٣، والتيسير ص٢٠٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٤.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٠.

(٦) في التفسير ٢٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٨.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٩ بنحوه.

(١٠) في النسخ عدا (ظ): جبير، والمثبت (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٧ والكلام منه.

في أيِّ خَلْق شئنا[١]. وقيل: المعنى: ننشئكم في عالم لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: إذ خُلِقتم من نُطفة، ثم من عَلَقة، ثم من مُضْغة[٢]، ولم تكونوا شيئاً، عن مجاهد[٣] وغيره. قتادة والضحَّاك: يعني خَلْق آدم عليه السلام[٤]. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلَّا تذكَّرون. وفي الخبر: عجباً كلُّ العجب للمكذِّب بالنشأة الأُخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدِّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار[٥].

وقراءة العامة: «النَّشْأَةَ» بالقَصْر. وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَة» بالمدِّ، وقد مضى في «العنكبوت»[٦] بيانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجَّة أُخرى، أي: أخبروني عمَّا تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر، أنتم تنبتونه وتحصِّلونه زرعاً فيكون فيه السُّنبل والحَبُّ، أم نحن نفعل ذلك[٧]؟ وإنَّما منكم البَذْر وشَقُّ الأرض، فإذا أقررتم بأنَّ إخراج السُّنبل من الحبِّ ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم، والزرع إليه تعالى؛ لأنَّ الحرث فِعْلهم ويجري

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٤٦.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٣٧.

(٣) في تفسيره ٢/ ٦٥٠.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٢، والطبري ٢٢/ ٣٤٧ عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم ٦/ ٣٢٨ عن علي بن الحسين بنحوه.

(٦) ١٦/ ٣٥٢.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٤٨.

على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم[١].
وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يقولنَّ أحدكم: زرعتُ، وليقلْ: حرثتُ، فإنَّ الزارع هو الله» قال أبو هريرة: ألَم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[٢].

والمستحبُّ لكلِّ من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ» الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبِت والمبلغ، اللهمَّ صلِّ على محمد، وارزقنا ثمره، وجنِّبنا ضرره، واجعلنا لأنْعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا ربَّ العالمين. ويقال: إنَّ هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات؛ الدود والجراد وغير ذلك، سمعناه من ثقة، وجُرِّب فوُجِد كذلك.

ومعنى «أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أي: تجعلونه[٣]. وقد يقال: فلان زرَّاع كما يقال: حرَّاث، أي: يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرَّاع. وقد يطلق لفظ الزرع على بَذر الأرض وتكريبها[٤] تجوُّزاً.

قلت: فهو نهي إرشاد وأدب، لا نهي حظر وإيجاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي، وفَتاي وفَتاتي»[٥] وقد مضى في «يوسف»[٦] القول فيه. وقد بالغ بعض العلماء فقال:

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠، وما بعده منه أيضاً.

(٢) أخرجه البزار (١٢٨٩ كشف الأستار)، والطبري ٢٢/ ٣٤٨، وابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣)، والطبراني في الأوسط (٨٠٢٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٢٠: رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. قلنا: مسلم ابن أبي مسلم الجرمي ذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٥٨، ووثقه الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠.

(٣) بعدها في (م): زرعاً.

(٤) كَرَب الأرضَ يكربها كَرْباً وكِراباً: قَلَبها للحرث، وأثارها للزرع. اللسان (كرب).

(٥) سلف ٦/ ٢١٣.

(٦) ١١/ ٣٥٤.

لا يقل: حرثت فأصبت، بل يقل: أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفَضْله ما أصبت. قال الماورديّ[١]: وتتضمَّن هذه الآية أمرين: أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. الثاني: البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قوياً مشتداً أضعافَ ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخفُّ عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطَر السليمة.

ثم قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ أي: متكسِّراً: يعني الزرع. والحُطام: الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبَّه بذلك أيضاً على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكره. الثاني: ليعتبروا بذلك في أنفسهم، كما أنَّه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك يُهلِكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[٢].

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تعجَّبون بذهابها، وتندَّمون مما حلَّ بكم، قاله الحسن وقتادة وغيرهما[٣]. وفي «الصحاح»[٤]: وتفكَّه، أي: تعجَّب، ويقال: تندَّم، قال الله تعالى: «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» أي: تندَّمون. وتفكَّهت بالشيء: تمتَّعت به.

وقال يمان: تندمون على نفقاتكم، دليله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال عكرمة: تلاومون[٥] وتندَّمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم. ابن كَيْسان: تحزنون[٦]. والمعنى متقارب.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٠، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٥٠.

(٤) مادة: (فكه).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧، وتتمة قول عكرمة ذكره عن الحسن لا عن عكرمة، وكذلك ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٥٧ عن الحسن.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠.

وفيه لغتان: تفَكَّهون وتَفَكَّنُون[١]، قال الفرَّاء: والنون لغة عُكْل[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: التفكُّن: التندُّم على ما فات. وقيل: التفكُّه: التكلُّم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فُكاهة، بالضمِّ، فأما الفَكاهة ـ بالفتح ـ فمصدر فَكِهَ الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً[٤].

وقراءة العامة: «فَظَلْتُمْ» بفتح الظاء. وقرأ عبد الله: «فَظِلْتُمْ» بكسر الظاء[٥]، ورواها هارون عن حسين عن أبي بكر. فمن فتح فعلى الأصل، والأصل: ظَلَلتُمْ، فحذف اللام الأولى تخفيفاً، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل: «أئِنَّا» بهمزتين على الاستفهام[٦]، ورواه عاصم عن زِرِّ بن حُبَيش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر، أي: يقولون: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» أي: معذَّبون، عن ابن عباس وقَتَادة قالا: والغرام: العذاب[٧]، ومنه قول ابن المحلِّم:

وثقت بأنَّ الحفظ منِّي سجيَّةٌ ... وأنَّ فؤادي مُتْبَلٌ بك مغرم[٨]

وقال مجاهد وعِكرمة: لمولع بنا[٩]، ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلاَ عن تَذكُّره تُكْتَما ... وكان رَهيناً بها مُغرَمَا[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٨٠ ونسبها إلى تميم.

(٢) الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٦٥ دون عزوه للفرَّاء.

(٣) مادة: (فكن).

(٤) الصحاح (فكه).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٠-٣٤١.

(٦) السبعة ص٦٢٣، والتيسير ص٢٠٧.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٢ عن قتادة.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٦١.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨.

(١٠) مختارات ابن الشجري ص١٦، ومنتهى الطلب لابن ميمون ١/ ٢٨٦.

يقال: أُغرم فلانٌ بفلانة، أي: أُولع بها، ومنه الغرام، وهو الشَّرُّ اللازم[١]. وقال مجاهد أيضاً: لملقون شرًّا[٢]. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحَّاس[٣]: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» مأخوذ من الغَرام وهو الهلاك، كما قال:

يــومُ الــنِّــسَــارِ ويــومُ الــجِــفَــا رِ كَــانَــا عَــذَابــاً وكــانَــا غَــرَامَــا[٤]

الضحَّاك وابن كيسان: هو من الغُرْم، والمُغْرَم: الذي ذهب ماله بغير عوض[٥]، أي: غرِمنا الحَبَّ الذي بذرناه. وقال مُرَّة الهَمداني: محاسبون.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حرمنا ما طلبنا من الريع[٦]. والمحروم: الممنوع من الرزق. والمحروم ضدُّ المرزوق، وهو المحارِف في قول قتادة[٧]. وعن أنس: أنَّ النبيِّ ﷺ مرَّ بأرض الأنصار فقال: «ما يمنعكم من الحرث»؟ قالوا: الجدوبة. فقال: «لا تفعلوا، فإنَّ الله تعالى يقول: أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء، وإن شئت زرعت بالريح، وإن شئت زرعت بالبَذْر» ثم تلا: «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»[٨].

قلت: وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحِّح قولَ من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه، وأباه الجمهور من العلماء، وقد ذكرنا ذلك في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٩].

(١) تهذيب اللغة ٨/ ١٣١ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٢ .

(٣) في إعراب القرآن له ٤/ ٣٤١ .

(٤) القائل بشر بن أبي خازم الأسدي، وهو في ديوانه ص١٩٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٣٨ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٢ ، والطبري ٢٢/ ٣٥٣ .

(٨) لم نقف عليه.

(٩) ص٩٤ و١٠٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم؛ لأنَّ الشراب إنَّما يكون تبعاً للمطعوم، ولهذا جاء الطعام مقدَّماً في الآية قبلُ، ألا ترى أنَّك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. الزمخشريُّ: ولو عكستَ قعدتَ تحت قول أبي العلاء:

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً سَقَوا أضيافَهم شَبِماً زُلالا[(١)]

وسُقي بعضُ العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة[(٢)].

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: السَّحاب، الواحدة: مُزْنة[(٣)]، فقال الشاعر:

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصَابِنَا كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ[(٤)]

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنَّ المُزْن السَّحاب[(٥)]. وعن ابن عباس أيضاً والثوري: المُزْن: السَّماء والسَّحاب[(٦)]. وفي «الصِّحاح»[(٧)]: أبو زيد: المُزْنة: السَّحابة البيضاء، والجمع: مُزْن، والمُزنة: المَطْرَة، قال:

(١) الكشاف ٤/ ٥٧، وما بعده منه أيضاً، والمحض: اللبن الخالص الذي لم يخالطه ماء. والشَّبِم: الماء البارد. اللسان (محض) و(شبم).

(٢) الاشتقاق لابن دريد ٢/ ٣٦٥ وقال: أي: على شيء في بطنه. ويقال: ثمل الرجل: إذا سَكِرَ.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢.

(٤) القائل: السموأل بن عاديا اليهودي، والبيت في ديوانه ص٦٩، والنصاب: الأصل. ورجل كَهام وكهيم: ثقيل مسنٌّ دثور لا غناء عنده. اللسان (نصب) و(كهم).

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٤ عن مجاهد وقتادة وابن زيد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥١.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) مادة: (مزن).

ألَـم تَـرَ أنَّ الـلّـه أنْـزَل مُـزْنَـةً وعُـفْـرُ الظِّبَـاءِ في الكِنَاسِ تقمَّعُ[١]

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أي: فإذا عرفتم بأنِّي أنزلته، فَلِمَ لا تشكروني بإخلاص العبادة لي؟ ولِمَ تنكرون قدرتي على الإعادة؟ .﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: ملحاً شديد الملوحة، قاله ابن عباس. الحسن: مرًّا[٢] قُعَاعاً لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما[٣] .﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا تشكرون الذي صنع ذلك بكم[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يعني التي تكون منها الزناد، وهي المرخُ والعَفَار[٥]، ومنه قولهم: في كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجدَ المَرخ والعَفَارُ، أي: استكثر منها[٦]، كأنَّهما أخذا من النار ما هو حسبهما، ويقال: لأنَّهما يسرعان الوَرْيَ، يقال: أوريتُ النار: إذا قدحتها، ووَرَى الزَّنْدُ يَرِي: إذا انقدح منه النار. وفيه لغة أخرى: ووَرِيَ الزَّنْدُ يَرِي بالكسر فيهما[٧]. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي: المخترعون الخالقون، أي: فإذا عرفتم قدرتي فاشكروني، ولا تنكروا قدرتي على البعث.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى، قاله قتادة. ومجاهد: تبصرة للناس من الظلام[٨]. وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ ناركم هذه التي يُوقِدُ بنو آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنَّم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت

---

(١) القائل: أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٥٧، والكناس: مَوْلج الوحش من الظباء والبقر تستكنُّ فيه من الحَرِّ. اللسان (كنس)، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٦٠٦: تقمَّع: تطرد عنها القمعة، وهو ذباب أزرق، يقول: خصَّه الله بهذه المزنة في غير وقت مطر في الحر، والذباب لم يخفّ ولم يذهب.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٢ والقُعَاع: الماء المُرُّ الغليظ. اللسان (قعع).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٦) الكامل للمبرد ١/ ٢٧٥-٢٧٦ ، والمثل في المستقصى للزمخشري ٢/ ١٨٣ .

(٧) الصحاح (وري).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ .

لكافيةً. قال: «فإنَّها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جُزءاً، كلُّهنَّ مثلُ حَرِّها»[١].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: منفعة للمسافرين، سمُّوا بذلك؛ لنزولهم القَوَى، وهو القَفْر[٢]. الفرَّاء[٣]: إنَّما يقال للمسافرين: مُقْوين إذا نزلوا القيَّ، وهي الأرض القَفْر التي لا شيء فيها. وكذلك القَوى والقَوَاء بالمدِّ والقصر، ومنزلٌ قَواء: لا أنيسَ به، يقال: أقْوَتِ الدار وقَوِيَت أيضاً، أي: خَلَتْ من سكَّانها[٤]، قال النابغة:

يـا دارَ مَـيَّـةَ بـالـعَـلْـيَـاءِ فَـالـسَّـنَـدِ أقْـوَتْ وطال عَـلـيها سَـالـفُ الأمَـدِ[٥]

وقال عنترة:

حُـيِّـيـتَ مِـنْ طَـلَـلٍ تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ أقْـوى وأقْـفَـر بَـعْـد أُمِّ الـهَـيْـثَـمِ[٦]

ويقال: أقْوَى، أي: قَوِيَ وقَوِي أصحابه[٧]، وأقوى: إذا سافر، أي: نزل القَوَاء والقِيَّ. وقال مجاهد: «لِلمُقْوِينَ» المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخَبْز والاصطلاء والاستضاءة[٨]، ويتذكَّر بها نار جهنَّم فيستجار بالله منها. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم[٩]. يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي: ما أكلت شيئاً[١٠]، وبات فلان القَواء، وبات القفرَ: إذا بات جائعاً على غير طُعْم[١١]، قال

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وأحمد (٨١٢٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٧ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٩ .

(٤) الصحاح (قوا).

(٥) سلف ١٠/ ٤٧٤ .

(٦) سلف ٢/ ١٠٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ ، والصحاح (قوا).

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٨ .

(١٠) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٨ .

(١١) الصحاح (قوا)، وما بعده منه أيضاً.

الشاعر:

وإنِّي لأختارُ القَوَى طَاوِي الحَشَى   محَافَظَةً من أنْ يقالَ لَئِيم[١]

وقال الربيع والسديُّ: «الْمُقْوِينَ» المنزلين الذين لا زناد معهم؛ يعني ناراً يوقدون فيختبزون بها؟ ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال قُطْرب: المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير، ويكون بمعنى الغني، يقال: أقوى الرجل: إذا لم يكن معه زاد. وأقوى: إذا قويت دوابه وكثر ماله[٢]. المهدويُّ: والآية تصلح للجميع؛ لأنَّ النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير. وحكى الثعلبيُّ أنَّ أكثر المفسرين على القول الأوَّل. القشيريُّ: وخصَّ المسافر بالانتفاع بها؛ لأنَّ انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم؛ لأنَّ أهل البادية لابدَّ لهم من النار يوقدونها ليلاً؛ لتهرب منهم السِّباع، وفي كثير من حوائجهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فنزِّه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعَجْز عن البعث.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ «لا» صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى: فأقسم[٣]؛ بدليل قوله: «وإنَّهُ لَقَسَمٌ». وقال الفرَّاء: هي نَفْي، والمعنى:

---

(١) أورده المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٧١٥ ولم ينسبه، وجاءت رواية صدره عنده:

لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا

ثم قال: وبعضهم رواه: «لقد كنت أختار القَوَى»، وزعم أنه مقصور من القَوَاء، وليس بشيء. ا هـ.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩.

ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف «أُقْسِمُ»[(١)]. وقد يقول الرجل: لا واللهِ ما كان كذا. فلا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدَّم. أي: ليس الأمر كما ذكرت، بل هو كذا. وقيل: «لا» بمعنى «ألَّا» للتنبيه كما قال:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّللُ البَالي[(٢)]

ونبَّه بهذا على فضيلة القرآن؛ ليتدبَّروه، وأنَّه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا[(٣)].

وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر: «فَلَا أُقْسِمُ»[(٤)] بغير ألف بعد اللام على التحقيق: وهو فعل حال، ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلأنا أُقسم بذلك. ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال، وهو شاذٌّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ مواقع النجوم: مساقطها ومغاربها، في قول قتادة وغيره[(٥)]. عطاء بن أبي رَبَاح: منازلها. الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة[(٦)]. الضحَّاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا: مُطِرنا بنَوْء كذا. الماورديُّ[(٧)]: ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ مستعملاً على حقيقته من نفي القسم. القشيريُّ: هو قَسَم، ولله تعالى أن يُقسِم بما يريد، وليس لنا أن نُقسِم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٩ ولم ينسبه.

(٢) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٢٧، وتمامه:

وهل يَعِمَنْ من كان في العُصر خاليا

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٩ ، وما بعده منه، ومن الكشاف ٤/ ٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٦٠-٣٦١ عن قتادة ومجاهد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٢ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ ، وأخرجه الطبريُّ ٢٢/ ٣٦١ عن الحسن.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وما قبله منه أيضاً.

قلت: يدلُّ على هذا قراءة الحسن: «فَلأُقْسِمُ» وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه. وقال ابن عباس: المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن نجوماً، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين، فنجَّمه السفرةُ على جبريل عشرين ليلة، ونجمَّه جبريل على محمَّد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنةً، فهو ينزله على الأحداث من أمَّته، حكاه الماورديُّ[(١)] عن ابن عباس والسُّدِّيِّ.

وقال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا حجَّاج بن المنهال، حدَّثنا همَّام، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملةً واحدةً، ثم نزل إلى الأرض نجوماً، وفُرِّقَ بعد ذلك خمسَ آيات خمسَ آيات، وأقلَّ وأكثر، فذلك قول الله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»[(٢)].

وحكى الفرَّاء[(٣)] عن ابنِ مسعود أنَّ مواقع النجوم هو مُحكَم القرآن.

وقرأ حمزة والكسائي: «بِمَوْقِعِ»[(٤)] على التوحيد، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنَّخَعيِّ والأعمش وابنِ مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب. الباقون على الجمع؛ فمن أفرد؛ فلأنَّه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع؛ فلاختلاف أنواعه[(٥)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ قيل: إنَّ الهاء تعود على القرآن، أي: إنَّ القرآن لقَسَم عظيم، قاله ابن عباس وغيره[(٦)]. وقيل: ما أَقسم الله به عظيم «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ .

(٢) وأخرجه مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥١ ، والطبري ٢٢/ ٣٥٩ من طريق حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٩ بإسناده إلى ابن مسعود.

(٤) السبعة ص٦٢٤ ، والتيسير ص٢٠٧ ، والنشر ٢/ ٣٨٣ .

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ .

كَرِيمٌ» ذكر المقسم عليه، أي: أُقسم بمواقع النجوم إنَّ هذا القرآن قرآن كريم[١]، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزةً لنبيِّه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنَّه كلام ربِّهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء؛ لأنَّه تنزيل ربِّهم ووَحْيه.

وقيل: «كَرِيمٌ» أي: غير مخلوق. وقيل: «كرِيمٌ» لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور[٢]. وقيل: لأنَّه يُكرِّم حافظه، ويُعظِّم قارئه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ مصون عند الله تعالى[٣]. وقيل: مكنون: محفوظ عن الباطل[٤]. والكتاب هنا كتاب في السماء، قاله ابن عباس[٥]. وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ[٦]. عِكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذِكْر القرآن ومن ينزل عليه. السُّدِّيُّ: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا[٧].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ اختلف في معنى «لا يَمَسُّهُ» هل هو حقيقة في المسِّ بالجارحة أو معنًى؟ وكذلك اختلف في «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير: لا يمسُّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب، وهم الملائكة[٨]. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنَّهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرُّسل

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) أخرجه عنه مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٢ ، والطبري ٢٢/ ٣٦٢ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٦٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وأخرج قول عكرمة الطبري ٢٢/ ٣٦٥ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ ، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٦٤-٣٦٦ عن سعيد بن جبير وأبي العالية وابن زيد، وذكره ابن المنذر في الأوسط ٢/ ١٠٣ عن أنس.

من الملائكة والرُّسل من بني آدم، فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون. الكلبيُّ: هم السَّفَرة الكرام البرَرَة[١]. وهذا كلُّه قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال: أَحسنُ ما سمعتُ في قوله: «لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ»: أنَّها بمنزلة الآية التي في «عَبَسَ وتَوَلَّى»: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ . فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٢-١٦] ويريد أنَّ المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة «عبس»[٢].

وقيل: معنى «لا يَمَسُّهُ» لا ينزل به «إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء[٣]. وقيل: لا يمسُّ اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهَّرون[٤]. وقيل: إنَّ إسرافيل هو الموكَّل بذلك، حكاه القشيريُّ. ابن العربي[٥]: وهذا باطل؛ لأنَّ الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال. وأما من قال: إنَّه الذي بأيدي الملائكة من الصحف، فهو قول محتمل، وهو اختيار مالك.

وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا[٦]، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أنَّ في كتاب عمرو بنِ حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ ونسخته: «من محمَّد النبيِّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحارث بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال قَيْل ذي رُعَين ومَعَافر وهَمْدان: أما بعد، وكان في كتابه: ألا يمسَّ القرآن إلا طاهر[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦ ، وقول مالك في الموطأ ١/ ١٩٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ وعزاه إلى ابن زيد.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٦ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٥-١٧٢٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦ ، والحديث عند مالك في الموطأ ١/ ١٩٩ ـ ومن طريقه أبو داود في المراسيل (٩٣) ـ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلاً. وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل =

وقال ابن عمر: قال النبيُّ ﷺ: «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر»[١]. وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: «لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» فقام واغتسل وأسلم[٢]. وقد مضى في أوَّل سورة «طه»[٣]. وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» من الأحداث والأنجاس. الكلبي: من الشِّرْك. الربيع ابن أنس: من الذنوب والخطايا[٤].

وقيل: «لا يَمَسُّه»: لا يقرؤه «إلا المطهَّرون» إلا الموحِّدون، قاله محمد بن فضيل وعَبْدة. قال عكرمة: كان ابن عباس ينهى أن يُمكَّن أحدٌ من اليهود والنصارى من قراءة القرآن[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهَّرون، أي: المؤمنون بالقرآن. ابن العربي[٧]: وهو اختيار البخاريِّ، قال النبيُّ ﷺ: «ذاق طَعْم الإيمان من رضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد ﷺ نبياً». وقال الحسين بن الفضل:

= (٩٢) و(٩٤)، والدارقطني ١/ ١٢١ من طرق أخرى مرسلاً، قال أبو داود: روي هذا الحديث مسنداً، ولا يصحُّ. ا هـ. وقال الدارقطني عن إحدى طرقه: مرسل، ورواته ثقات. ا هـ

وأخرجه موصولاً ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩)، والدارقطني ١/ ١٢٢ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٩٧ ، والبيهقي ٤/ ٨٩ مطولاً، وفي إسناده: سليمان بن أرقم، وهو متروك الحديث، وقد أخطأ بعض الرواة فسمَّاه سليمان بن داود، ينظر التفصيل في ذلك في الجوهر النقي ٤/ ٨٩ .

قال ابن عبد البر في الاستذكار ٨/ ١٠ ، وفي التمهيد ١٧/ ٣٩٧ : وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقَّاه العلماء بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهر من الإسناد الواحد المتصل.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢١٧)، وفي الصغير (١١٦٢)، والدارقطني ١/ ١٢١ ، والبيهقي ١/ ٨٨ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والصغير، ورجاله موثقون.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦ .

(٣) ١٤/ ٥-٦ ، وسلف تخريج الخبر هناك.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠ ، والمصنف نقله عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٦ ، والحديث الآتي سلف ٨/ ٢٠٧ .

لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره اللهُ من الشِّرْك والنفاق. وقال أبو بكر الورَّاق: لا يُوفَّق للعمل به إلا السُّعداء. وقيل: المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون. ورواه معاذ عن النبيِّ ﷺ[(١)]. ثم قيل: ظاهر الآية خبر عن الشرع، أي: لا يمسُّه إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ شرعاً، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع، وهذا اختيار القاضي أبي بكر بن العربي[(٢)]. وأَبطل أن يكون لفظُه لفظَ الخبر، ومعناه الأمر. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[(٣)]. المهدويُّ: يجوز أن يكون أمراً، وتكون ضمَّة السين ضمَّة إعراب. ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمَّة السين ضمَّة بناء، والفعل مجزوم.

السادسة: واختلف العلماء في مسِّ المصحف على غير وضوء، فالجمهور على المنع من مسِّه؛ لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب عليٍّ وابنِ مسعود وسعد بنِ أبي وقاص وسعيد بنِ زيد وعطاء والزُّهريِّ والنَّخعيِّ والحكم وحمَّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي[(٤)]. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنَّه يمسُّه المحدِث[(٥)]، وقد روي هذا عن جماعة من السَّلف منهم ابن عباس والشعبيُّ وغيرهما[(٦)]. وروي عنه أنَّه يمسُّ ظاهرَه وحواشيَه وما لا مكتوبَ فيه، وأما الكتاب فلا يمسُّه إلا طاهر. ابن العربيِّ[(٧)]: وهذا إن سُلِّمه مما يُقوِّي الحجَّة عليه؛ لأنَّ حريم

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ ، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٠٩ ، وفي إسناده: إسماعيل بن أبي زياد، وهو منكر الحديث.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٦ .

(٣) ٣/ ٤٩٠ .

(٤) التمهيد ١٧/ ٣٩٧-٣٩٩ ، والاستذكار ٨/ ١٠ ، وكلام الشافعي في الأم ١/ ٢٢١ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٧ ، ولم نقف على هذه الرواية فيما بين أيدينا من مصادر، بل الذي ورد أنه يحرم مسُّ المصحف للمحدِث ـ كما ذهب إليه الجمهور ـ ورواية أخرى عن بعض مشايخ الحنفية أنه يكره له مسُّ الموضع المكتوب دون الحواشي؛ لأنه لم يمسَّ القرآن حقيقة، والصحيح أنه إنَّما يكره مسُّ كلِّه، لأن الحواشي تابعة للمكتوب، فكان مسُّها مسًّا للمكتوب. بدائع الصنائع ١/ ٢٦٤-٢٦٦ ، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢ .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٧ ، وما قبله منه أيضاً.

الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبيُّ ﷺ لعمرو بن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غيرُ طاهر بعِلاَقة ولا على وِسادة[١]. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حَمْله بعِلاَقة أو مسِّه بحائل[٢]. وقد روي عن الحكم وحمَّاد وداود بن عليٍّ أنَّه لا بأس بحمله ومسِّه للمسلم والكافر، طاهراً أو محدِثاً[٣]، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حَمْله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيِّ ﷺ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة، فلا حجَّةَ فيه. وفي مسِّ الصبيان إيَّاه على وجهين: أحدهما: المنع؛ اعتباراً، بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنَّه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأنَّ تعلُّمه حال الصغر؛ ولأنَّ الصبيَّ وإن كانت له طهارة إلَّا أنَّها ليست بكاملة؛ لأنَّ النِّيَّة لا تصحُّ منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة، جاز أن يَحْمله محدِثاً.

السابعة: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: منزل[٤]، كقولهم: ضَرْبُ الأميرِ ونَسْجُ اليَمَنِ[٥]. وقيل: «تَنْزِيلٌ» صفة لقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»[٦]. وقيل: أي: هو تنزيل.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: مكذِّبون، قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما[٧]. والمُدْهِن: الذي ظاهره خلاف باطنه[٨]، كأنَّه شبَّه

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢ ، وما بعده منه أيضاً، ومن تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ ، وقول مالك في الموطأ ١/ ١٩٩ ، وفي المدونة ١/ ١١٢ .

(٢) مختصر اختلاف العلماء للطحاوي ١/ ١٥٦ .

(٣) التمهيد ١٧/ ٣٩٨-٣٩٨ ، والاستذكار ٨/ ١٢ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٠ .

(٥) الحلل للبطليوسي ص١٥٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ عن ابن عباس، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٦٨ .

(٨) الوسيط ٤/ ٢٤٠ .

بالدُّهن في سهولة ظاهره. وقال مقاتل بن سليمان وقتادة: مُدْهِنون: كافرون[١]، نظيره: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]. وقال المؤرِّج: المدهِن: المنافق أو الكافر الذي يُلين جانبه ليُخْفِي كفره، والإدهان والمداهنة: التكذيب والكفر والنفاق، وأصله اللِّين، وأن يُسِرَّ خلافَ ما يظهر[٢]، وقال أبو قيس بنُ الأسْلَت:

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ ... إدهان والفَهَّةِ والهَاعِ[٣]

وأدهن وداهن واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنتُ بمعنى غَشَشْت[٤]. وقال الضحَّاك: «مُدْهِنُونَ»: معرضون. مجاهد: ممالئون الكفار على الكفر به[٥]. ابن كيسان: المدهن: الذي لا يَعقِلُ ما حقُّ الله عليه، ويدفعه بالعلل. وقال بعض اللغويين: مدهنون: تاركون للجَزْم في قَبول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ابن عباس: تجعلون شكركم التكذيب[٦]. وذكر الهيثم بنُ عديٍّ: أنَّ من لغة أزد شنوءة: ما رزقَ فلانٌ؟ أي: ما شكَره[٧]. وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره؛ لأنَّ شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه، فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى. فقيل: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» أي: شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالرزق، أي: تضعون الكذب مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي: لم يكونوا يُصلُّون، ولكنَّهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٠ عن قتادة.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٤٠.

(٣) أمالي القالي ص٢١٥، والمفضليات ص٢٨٥، وورد عندهما: والفكَّة، بدل: والفهَّة. اهـ. يقال: في فلان فكَّة: أي استرخاء في رأيه. والفهَّة: مثل السَّقْطة والجهلة ونحوها. ورجل هاعٌ لاعٌ: جبان ضعيف جزوع. اللسان (فكك) و(فهه) و(هوع).

(٤) الصحاح (دهن).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٦٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٤.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٨.

مكان الصلاة. ففيه بيان أنَّ ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يَرَوْه من قِبَلِ الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسباباً، بل ينبغي أن يَرَوْه من قِبَلِ الله تعالى، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمةً، أو صبرٍ إن كان مكروهاً؛ تعبُّداً له وتذلُّلاً.

وروي عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» حقيقة[١]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مُطِرنا بنَوء كذا، رواه عليُّ بنُ أبي طالب عن النبيِّ ﷺ[٢]. وفي «صحيح مسلم»[٣] عن ابن عباس قال: مُطِر الناسُ على عهد النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافرٌ، قالوا: هذه رحمةُ الله. وقال بعضهم: لقد صَدَقَ نَوْءُ كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» حتى بلغ: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»».

وعنه أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ خرج في سفر فعطشوا، فقال النبيُّ ﷺ: «أرأيتم إن دعوتُ اللهَ لكم، فسُقِيتم، لعلكم تقولون: هذا المطر بِنَوء كذا». فقالوا: يا رسول الله، ما هذا بحين الأنواء. قال: فصلَّى ركعتين ودعا ربَّه، فهاجت ريح، ثم هاجت سحابة، فمُطِروا؛ فمرَّ النبيُّ ﷺ ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له، وهو يقول: سُقينا بِنَوء كذا، ولم يقل: هذا من رزق الله، فنزلت: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» أي: شكركم لله على رزقه إيّاكم «أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» بالنعمة وتقولون: سُقِينا بنوء كذا، كقولك: جعلتَ إحساني إليك إساءةً منكَ إليَّ، وجعلتَ إنعامي لديكَ أن اتَّخذتني عدوًّا[٤]. وفي «الموطأ»[٥] عن زيد بن خالد الجُهنيِّ أنَّه قال: صلَّى بنا

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٩ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣١٠ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٥ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧٠ ، وأما خبر علي المرفوع فأخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند ٢/ ٩٧ (٦٧٧)، والطبري ٢٢/ ٣٦٩ .

(٣) برقم (٧٣)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٩ ، والكلام ـ وما بعده ـ منه أيضاً.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢ .

(٥) ١/ ١٩٢ ، والحديث سلف ٨/ ٤٠٣ ، وقوله: على إثر سماء كانت من الليل. فإنه أراد سحاباً حيث نزل من الليل، والعرب تسمي السحاب والماء النازل منه سماء. التمهيد ١٦/ ٢٨٥ .

رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُديبِية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقْبَلَ على الناس وقال: «أتدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بالكوكب، فأما من قال: مُطِرنا بفَضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بنَوء كذا وكذا، فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي».

قال الشافعيُّ[1] رحمه الله: لا أحبُّ أحداً أن يقول: مُطِرنا بنَوء كذا وكذا، وإن كان النَّوء عندنا الوقت المخلوق لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحبُّ أن يقول: مُطِرنا وقت كذا، كما تقول: مُطِرنا شهر كذا، ومن قال: مُطِرنا بنَوء كذا، وهو يريد أنَّ النَّوء أنزل الماء، كما عنى بعضُ أهل الشرك من الجاهلية بقوله، فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب.

وقال أبو عمر بنُ عبد البر[2]: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين: أمَّا أحدهما: فإنَّ المعتقِد بأنَّ النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله عزَّ وجلَّ، فذلك كافر كفراً صريحاً يجب استتابته عليه وقَتْله؛ لنَبذِه الإسلام، وردِّه القرآن. والوجه الآخر: أن يعتقد أنَّ النَّوء يُنزِل اللهُ به الماءَ، وأنَّه سببُ الماء على ما قدَّره الله وسَبَق في علمه، وهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عزَّ وجلَّ، وجهلاً بلطيف حكمته في أنَّه يُنزِل الماء متى شاء، مرَّة بنَوء كذا، ومرَّة دون النوء[3]، وكثيراً ما يخوي[4] النَّوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله تعالى لا من النَّوء. وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر: مطِرنا بنَوء

---

(١) في الأم ١/ ٢٢٣، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٨٥.

(٢) في التمهيد ١٦/ ٢٨٦.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بنوء كذا، والمثبت من (ظ) والتمهيد ١٦/ ٢٨٦.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ينوء. والمثبت من (ظ) والتمهيد ١٦/ ٢٨٦، وخَوَت النجوم تخوي خيًّا: أمْحَلَتْ، وقيل: خَوَت وأخوَت: إذا سقطت ولم تمطر في نوئها. اللسان (خوا).

الفتح، ثم يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] قال أبو عمر[١]: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مُطِرنا بفَضْل الله ورحمته»[٢]. ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: يا عمَّ رسولِ الله، كم بقيَ من نَوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنَّها تعترض في الأُفُق سبعاً بعد سقوطها. فما مضت سابعة حتى مطروا، فقال عمر: الحمد لله، هذا بفَضل الله ورحمته. وكأنَّ عمر ﷺ قد عَلِمَ أنَّ نَوء الثُّريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمَّل، فسأله عنه: أخَرج، أم بقيت منه بقيَّة[٣]؟.

وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أميَّة أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول: مُطرنا ببعض عثَانين الأسد. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتَ، بل هو سُقْيا الله عزَّ وجلَّ» قال سفيان: عَثَانين الأسد: الذراع والجبهة[٤].

وقراءة العامة: «تُكَذِّبون» من التكذيب. وقرأ المفضَّل عن عاصم ويحيى بن وَثَّاب: «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء مخفَّفاً[٥]. ومعناه ما قدَّمناه من قول من قال: مِطرنا بنَوْء كذا.

وثبت من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لن يزلن في أمَّتي: التفاخر في الأحساب، والنِّياحة، والأنْواء»[٦] ولفظ مسلم[٧] في هذا: «أربع في أمَّتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفَخر في الأحساب، والطَّعن في الأنساب،

---

(١) في التمهيد ١٦/ ٢٨٦.

(٢) سلف قريباً.

(٣) التمهيد ١٦/ ٢٨٦، وخبر عمر أخرجه الحميدي في مسنده (١٠٠٩)، والطبري ٢٢/ ٣٧٠-٣٧١، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٥٩ مطوَّلاً.

(٤) التمهيد ١٦/ ٢٨٤، والحديث أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ و٢٢/ ٣٧٠ عن يونس، عن سفيان، به.

(٥) قراءة عاصم في السبعة ص٦٢٤.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٣٩١١)، وابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ٢٤٢ و١٦/ ٢٩٢. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات.

(٧) في صحيحه (٩٣٤)، وهو عند أحمد (٢٢٩١٢).

والاستسقاء بالنجوم، والنِّياحة».

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: فهلَّا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلْقوم(١). ولم يتقدَّم لها ذِكْر؛ لأنَّ المعنى معروف، قال حاتم:

أَمَاوِيُّ ما يُغْني الثَّرَاءُ عنِ الفتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بِها الصَّدرُ(٢)

وفي حديث: «إنَّ مَلَك الموتِ له أعوان يقطعون العروق، ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً، حتى ينتهي بها إلى الحُلْقوم، فيتوفاها مَلَك الموت»(٣).

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أَمْري وسلطاني(٤). وقيل: تنظرون إلى الميِّت لا تقدرون له على شيء. وقال ابن عباس: يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تَخرُج نفسه. ثم قيل: هو ردٌّ عليهم في قولهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي: فهلَّا ردُّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم. وقيل: المعنى: فهلَّا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقومَ عند النزع وأنتم حضور، أمسكتم روحه في جسده، مع حرصكم على امتداد عُمُره، وحبِّكم لبقائه. وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع، أي: إن لم يَكُ ما بِكَ من الله، فهلَّا حفظت على نفسك الروح.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بالقدرة والعِلم والرؤية(٥). قال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقربَ إليَّ منه. وقيل: أراد: ورسلنا الذين يتولُّون قَبْضه «أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ» ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا تَرَوْنَهم(٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: فهلَّا إن كنتم غيرَ محاسبين ولا

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٢ .

(٢) ديوانه ص٣٩ ، والحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردُّد النَّفَس. الصحاح (حشرج).

(٣) لم نقف عليه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١ . والصحيح إثبات صفة القرب لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٧٣ .

مجزيين بأعمالكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزيُّون محاسبون. وقد تقدم(١). وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين. قال الفرَّاء وغيره: دَيَّنْتُه: ملَّكته، وأنشد للحطيئة:

لـقـد دُيِّـنـتِ أمْـرَ بَـنِـيـكِ حَـتَّـى ... تَـرَكـتِـهـمُ أدَقَّ مِـن الـطَّـحِـيـنِ(٢)

يعني: مُلِّكْتِ. ودانه، أي: أذلَّه واستعبده، يقال: دِنْته فَدَان. وقد مضى في «الفاتحة»(٣) القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ٤].

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ولن تُرجعوها، فبطل زعمكم أنَّكم غير مملوكين ولا محاسبين. و«ترجعونها» جواب لقوله تعالى: «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، ولقوله: «فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ» أجيبا بجواب واحد، قاله الفرَّاء(٤). وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد؛ وهما شرطان. وقيل: حذف أحدهما؛ لدلالة الآخر عليه. وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلّا إن كنتم غير مَدِينين تَرجِعونها، تردُّون نَفْس هذا الميِّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ذكر طبقات الخَلْق عند الموت، وعند

---

(١) ١٩/ ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) الصحاح (دين) وما بعده منه أيضاً، والبيت في ديوان الحطيئة ص٦٥، إلا أنه ورد فيه: فقد سوِّست، بدل: لقد دُيِّنت.

(٣) ١/ ٢٢١.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠، وما بعده منه أيضاً.

البعث، وبيَّن درجاتهم فقال: «فَأَمَّا إِن كَانَ» هذا المتوفَّى «مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» وهم السَابقون[١]. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وقراءة العامة: «فَرْوْحٌ» بفتح الراء[٢]، ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا[٣]. وقال الحسن: الرَّوح: الرحمة[٤]. الضحَّاك: الرَّوح: الاستراحة. القُتَبيُّ[٥]: المعنى: له في القبر طيب نسيم. وقال أبو العباس بن عطاء: الرَّوح بالنظر إلى وَجْهِ الله، والريحان: الاستماع لكلامه ووحيه. «وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» هو ألا يُحجَب فيها عن الله عزَّ وجلَّ. وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدريُّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب: «فَرُوحٌ» بضمِّ الراء، ورويت عن ابن عباس[٦]. قال الحسن: الرَّوح: الرحمة؛ لأنَّها كالحياة للمرحوم. وقالت عائشة رضي الله عنها: قرأ النبيُّ ﷺ: «فَرُوحٌ» بضمِّ الراء[٧] ومعناه: فبقاء له وحياة في الجنَّة، وهذا هو الرحمة.

«وَرَيْحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: رزق[٨]. قال مقاتل: هو الرزق، بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحانَ الله، أي: رزقه؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب:

سَـلَامُ الإلـهِ ورَيْـحَـانُـه ورحـمـتُـه وسَـمَـاءٌ دِرَرْ[٩]

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١.

(٢) النشر ٢/ ٣٨٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٦٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٧٦-٣٧٧، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٥ (١٨٨٠٩).

(٤) الكشاف ٤/ ٦٠.

(٥) في غريب القرآن له ص٤٥٢.

(٦) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٠، والنشر ٢/ ٣٨٣.

(٧) الكشاف ٤/ ٦٠، وأخرجه أحمد (٢٤٣٥٢)، وأبو داود (٣٩٩١)، والترمذي (٢٩٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١٥٠٢).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٧٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٣.

(٩) سلف ص١٢٢ من هذا الجزء.

وقال قتادة: إنَّه الجنَّة. الضحَّاك: الرحمة. وقيل: هو الريحان المعروف الذي يُشَمُّ. قاله الحسن وقتادة أيضاً[١]. الربيع بن خَيْثم: هذا عند الموت، والجنَّة مخبوءة له إلى أن يُبعَث. أبو الجوزاء: هذا عند قَبْضِ روحه يتلقَّى بضَبَائر الرَّيحان[٢]. أبو العالية: لا يُفارِق أحد رُوحه من المقرَّبين في الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان، فيشمها ثم يقبض روحه فيها[٣]، وأصل ريحان واشتقاقه تقدَّم في أوَّل سورة «الرحمن» فتأمَّله. وقد سرد الثعلبيُّ في الرَّوْحِ والرَّيحان أقوالاً كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: «إنْ كَانَ» هذا المتوفَّى «مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: لست ترى منهم إلا ما تحبُّ من السلامة فلا تهتمّ لهم، فإنَّهم يَسْلَمون من عذاب الله. وقيل: المعنى: سلام لك منهم، أي: أنت سالم من الاغتمام لهم. والمعنى واحد. وقيل: أي: إنَّ أصحابَ اليمين يَدْعُون لك يا محمَّد بأن يصلِّي اللهُ عليك ويُسلِّم. وقيل: المعنى إنَّهم يُسلِّمون عليك يا محمَّد[٤]. وقيل: معناه: سَلِمتَ أيُّها العبد مما تكره، فإنَّك من أصحاب اليمين، فحذف: إنَّكَ[٥]. وقيل: إنه يُحيَّا بالسلام؛ إكراماً.

فعلى هذا في محلِّ السلام ثلاثة أقاويل: أحدها: عند قَبْضِ روحه في الدنيا يُسلِّم عليه مَلَك الموت، قاله الضحَّاك. وقال ابن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٦، والنكت والعيون ٥/ ٤٦٧، وزاد المسير ٨/ ١٥٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٤، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧٨.

(٢) تفسير السمعاني ٥/ ٣٦٢، والضبائر: الجماعات. اللسان (ضبر).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٧٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩١، وزاد المسير ٨/ ١٥٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٣١.

المؤمن قال: ربُّك يقرئك السلام. وقد مضى هذا في سورة «النحل»[١] عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [الآية: ٣٢].

الثاني: عند مساءلته في القبر يُسلِّم عليه منكر ونكير.

الثالث: عند بعثه في القيامة تُسلِّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها[٢].

قلت: وقد يحتمل أن تُسلِّم عليه في المواطن الثلاثة، ويكون ذلك؛ إكراماً بعد إكرام. والله أعلم. وجواب «إنْ» عند المبرِّد محذوف، التقدير: مهما يكن من شيء «فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» إن كان من أصحاب اليمين «فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» فحذف جواب الشرط؛ لدلالة ما تقدَّم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك: أنت ظالم إن فعلتَ؛ لدلالة ما تقدَّم عليه. ومذهب الأخفش أنَّ الفاء جواب «أمَّا» و «إنْ»، ومعنى ذلك أنَّ الفاء جواب «أمَّا» وقد سدَّت مسدَّ جواب «إنْ» على التقدير المتقدِّم، والفاء جواب لهما على هذا الحدِّ. ومعنى «أمَّا» عند الزجَّاج: الخروج من شيء إلى شيء، أي: دَعْ ما كنَّا فيه، وخذ في غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى وطريق الحقِّ[٤] ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: فلهم رزق من حميم، كما قال: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ» وكما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧]. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إدخال في النار. وقيل: إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها، يقال: أصلاه النارَ وصَلَّاه، أي: جعله يَصْلَاها، والمصدر ههنا أُضيف إلى المفعول، كما يقال: لفلان إعطاء مالٍ، أي: يُعطَى المال. وقرئ: «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء، أي: ونزلٌ من تصلية جحيم. ثم أدغم أبو عمرو التاء في

---

(١) ١٢/ ٣٢٠.

(٢) الأقوال الثلاثة في النكت والعيون ٥/ ٤٦٧.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٤-٧١٥، وقول المبرِّد في المقتضب ٢/ ٢٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١.

الجيم، وهو بعيد[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: هذا الذي قصصناه مَحْضُ اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحقِّ إلى اليقين، وهما واحد؛ لاختلاف لفظهما. قال المبرِّد: هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين، فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين: حقُّ الأمر اليقين، أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد. وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتاً للحقِّ، فأُضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز، كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾[(٢)] [يوسف: ١٠٩].

وقال قتادة في هذه الآية: إنَّ الله ليس بتارِك أحداً من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمَّا المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: نَزِّه الله تعالى عن السُّوء. والباء زائدة، أي: سبِّح اسم ربِّك، والاسمُ المسمَّى[(٣)]. وقيل: «فَسَبِّحْ» أي: فَصَلِّ بذِكر ربِّك وأَمْره[(٤)]. وقيل: فاذكر اسمَ ربِّك العظيم وسبِّحه. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبيُّ ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال النبيُّ ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» خرَّجه أبو داود[(٥)]، والله أعلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٢ ، والكشاف ٤/ ٦٠ ، والبحر المحيط ٨/ ٢١٦ .

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ٢/ ٤٣٦-٤٣٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٨ .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٢ .

(٥) برقم (٨٦٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤)، والحاكم ٢/ ٤٧٧ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مَكيَّةٌ، وآيُها سبعٌ وتسعونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ إذا حَدثت القِيامةُ، سمَّاها واقعةً لتَحقُّقِ وُقوعِها[١]، وانتصابُ (إذا) بمحذوفٍ مثل: اذكُرْ، أو كانَ كيتَ وكيتَ.

(٢) ـ ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يكونُ حين تقَعُ نفسٌ تكذبُ على اللهِ أو تكذبُ في نفيِها كما تكذبُ الآن، واللَّامُ مثلُها في قوله: ﴿قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

أو: ليس لأجلِ وقعَتِها كاذبةٌ، فإنَّ مَن أخبرَ عنها صدقَ.

أو: ليس لها حينئذٍ نفسٌ تحدِّثُ صاحبَها بإطاقةِ شِدَّتِها واحتمالِها وتُغريه[٢] عليها، من قولهم: كَذبَتْ فلانًا نفسُه في الخطْبِ العظيمِ: إذا شجَّعَتْه عليه وسوَّلَت له أنَّه يُطيقُه.

(٣) ـ ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ تخفِضُ قومًا وترفعُ آخرينَ، وهو تقريرٌ لعظمَتِها، فإنَّ

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «كأنه قيل إذا وقعت التي لا من وقوعها».

(٢) في نسخة الفاروقي: «وتعزيه»، قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «وتغريه» بالغين المعجمة والراء المهملة؛ أي تحثه عليها، وقيل إنه بالعين المهملة والزاي المعجمة أي تصبِّره، وليس ببعيد أيضًا.

الوقائعَ العظامَ كذلك، أو بيانٌ لما يكونُ حينئذٍ مِن خفضِ أعداءِ الله ورفعِ أَوليائِه، أو إزالةِ الأجرامِ عن محازِّها بنثرِ الكواكبِ وتَسييرِ الجبالِ في الجوِّ.

وقُرِئَتا بالنَّصبِ على الحالِ[١].

(٤) ـ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ حُرِّكَت تحريكًا شديدًا بحيثُ ينهدِمُ ما فوقَها مِن بناءٍ وجبلٍ.

والظَّرفُ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَافِضَةٞ﴾ أو بدلٌ مِن ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾.

(٥) ـ ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي: فُتَّت حتَّى صارت كالسَّويقِ المَلْتوتِ، مِن بَسَّ السَّويقَ: إذا لَتَّه، أو سِيقَتْ وسُيِّرَت، مِن بَسَّ الغنمَ: إذا ساقَها.

(٦) ـ ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ﴾ غبارًا ﴿مُّنۢبَثّٗا﴾ منتشرًا.

(٧) ـ ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةٗ﴾ وكلُّ صنفٍ يكونُ أو يُذكَرُ مع صنفٍ آخرَ فهو زوجٌ.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ فأصحابُ المنزلةِ السَّنِيَّةِ وأصحابُ المنزلةِ الدَّنِيَّةِ، مِنْ تيمُّنِهم بالمَيامنِ وتَشاؤُمِهم بالشَّمائلِ.

أو: أصحابُ الميمنةِ وأصحابُ المشأَمَةِ الذين يُؤتَونَ صحائِفَهُم بأيمانِهم والذين يُؤتَوْنَها بشَمائِلِهم[٢].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥١)، و«المحتسب» (٢/ ٣٠٥)، عن اليزيدي والحسن والثقفي وأبي حيوة.

(٢) جاء الكلام في نسخة الفاروقي: «أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، والذين يؤتونها بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية من تيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل».

أو: أصحابُ اليُمنِ والشُّؤمِ؛ فإنَّ السُّعداءَ مَيامينُ على أنفُسِهم بطاعَتِهم، والأشقياءُ مَشائيمُ عليها بمَعصِيَتِهم.

والجُملتانِ الاستفهاميَّتانِ خبرانِ لِمَا قبلَهما بإقامةِ الظَّاهرِ مقامَ الضَّميرِ، ومعناهُما التَّعجيبُ مِن حالِ الفَريقينِ.

(١٠) ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ والذينَ سَبقوا إلى الإيمانِ والطَّاعةِ بعد ظهورِ الحقِّ مِن غيرِ تَلعثُمٍ وتوانٍ[١].

أو: سَبقوا في حيازةِ الفَضائلِ والكمالاتِ، أو الأنبياءُ فإنَّهُم مُقَدَّمو أهلِ الأديانِ هم الَّذين عرفْتَ حالَهم وعرفْتَ مآلَهُم، كقولِ أبي النَّجمِ:

وَشِعْرِي شِعْرِي[٢]

أو الذينَ سبقُوا إلى الجنَّةِ.

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذيـن قُرِّبَـت درجاتُهُـم في الجنَّةِ وأُعْلِيَـت مراتِبُهم.

(١٣) ـ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هم كثيرٌ مـن الأوَّلين؛ يعني: الأممَ السَّالفةَ مِن لَدُن آدمَ عليه السَّلامُ إلى محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

(١٤) ـ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني: أمَّةَ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، ولا يخالِفُ ذلك

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «وشرود قلب».

(٢) تمامه:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي ... للهِ دَرِّي مَا أَحْسَنَ صَدْرِي

تَنَامُ عَيْنِي وَفُؤَادِي يَسْرِي ... مَعَ العَفَارِيتِ بِأَرْضٍ قَفْرِ

انظر: «ديوان أبي النجم» (ص: ١٩٨ ـ ١٩٩).

قولَه عليه السَّلامُ: «إنَّ أمَّتي يَكثُرونَ سائرَ الأُمَمِ»(١)؛ لجوازِ أن يكونَ سابقو سائرِ الأمـمِ أكثرَ مِن سابقي هذه الأمَّةِ، وتابعو هذه أكثرَ مِن تابعيهِم، ولا يردُّه قولُه في أصحابِ اليمينِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ لأنَّ كثرةَ الفريقينِ لا تُنافي أكثريَّةَ أحدِهما، ورُوِيَ مرفوعًا أنَّهما مِن هذه الأمَّةِ(٢).

---

(١) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ١٠٢٢): «لم أقف عليه».

قلت: قد ورد في كثرة المسلمين بين الأمم أحاديث، منها ما رواه مسلم (١٩٦) من حديث أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً».

وما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٥٥) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وفيه: «فتقول الملائكة: لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأنبياء». وحسن إسناده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٨٧).

وما رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «كنا مع النبي ﷺ في قبة، فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

(٢) روي عن النبي ـ ﷺ ـ بلفظ: «الثلتان جميعاً من أمتي»، من حديث أبي بكرة ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهم:

أما حَدِيث أبي بكرة فروي مرفوعاً وموقوفاً:

أما المرفوع فرواه مُسَدَّد في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٣٧٤٥) عن خاقان بن عبد الله بن الأهتم، عن علي بن زيد، عن عقبة بن صَهْبان، عن أبي بكرة عن النَّبي ـ ﷺ ـ.

ورواه الطبراني كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٤٠٣) من طريق حجاج بن المنهال عن حَمَّاد بن سَلمَة عن علي بن زيد به.

قال الدارقطني في «العلل» (٧/ ١٦٤): وخاقانُ ليس بالقوي، وكان يحيى القَطَّانُ حَدَّث به عن =

واشتقاقُها مِن الثَّلِّ، وهو القَطْعُ.

(١٥) ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ خبرٌ آخرُ للضَّميرِ المحذوفِ، والمَوْضُونةُ: المنسوجةُ بالذَّهبِ مشبَّكةً بالدُّرِّ والياقوتِ، أو المتواصلةُ، مِن الوَضْنِ؛ وهو نسجُ الدِّرعِ.

(١٦) ـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالانِ مِن الضَّميرِ في (على).

(١٧) ـ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمةِ ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبقَونَ أبدًا على هيئةِ الوِلدانِ وطَراوتِهم.

(١٨) ـ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حالَ الشُّربِ وغَيرِه.

والكوبُ: إناءٌ لا عُروةَ له ولا خُرطومَ، والإبريقُ: إناءٌ له ذلكَ.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مِن خمرٍ.

(١٩) ـ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لخُمـارٍ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا تَنـزفُ عقولهُم، أو لا يَنفدُ شرابُهم.

وقُرِئَ: (لا يَصَّدَّعونَ)[1] بمعنى: لا يتصدَّعونَ؛ أي: لا يتفرَّقونَ.

= حَمَّادِ بن سلمةَ عن عليِّ بن زيد عن عقبةَ بن صهبانَ عن أبي بكرةَ عن النبي ـ ﷺ ـ ثم تركه.

وأما الموقوف فرواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٩٢٧): ثنا حَمَّاد بن زيد عن علي بن زيد عن عقبة بن صهْبَان عن أبي بكرة في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ قال: كلتاهما جميعًا من هذه الأمة. قال الطَّيالسي: وقد رواه الحجَّاج عن حمَّاد بن سلمة فرفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ. قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٦٢): والموقوف أولى بالصواب، وعلي ضعيف. أما حديث ابن عباس فرواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٣٤)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٨٦)، من طريق أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «هما جميعاً من أمتي»، وأبان متروك.

(١) وهي قراءة مجاهد، انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٨٠)، و«البحر»: (٢٠/ ١٧٢).

(٢٠) ـ ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يختارونَ.

(٢١) ـ ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ يتمنَّوْنَ.

(٢٢) ـ ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ عطفٌ على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ؛ أي: وفيها، أو ولهم حورٌ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بالجرِّ عطفًا على ﴿جَنَّٰتِ﴾[1] بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: هم في جنَّاتٍ ومُصاحبةِ حورٍ، أو على ﴿أكواب﴾ لأنَّ معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ﴾ يُنعَّمونَ بأكوابٍ.

وقُرِئَتا بالنَّصبِ[2] على: ويُؤتَوْنَ حورًا.

(٢٣) ـ ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المَصونِ عمَّا يُضِرُّ به في الصَّفاءِ والنَّقاءِ[3].

(٢٤) ـ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: يفعلُ ذلك كلَّه بهم جزاءً لأعمالِهم.

(٢٥) ـ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ باطلًا ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ ولا نسبةً إلى الإثمِ؛ أي: لا يقالُ لهم: أَثِمْتم.

(٢٦) ـ ﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ إلا قولًا ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ بدلٌ مِن ﴿قِيلٗا﴾ كقوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾، أو صفتُه، أو مفعولُه بمعنى: إلَّا أن يقولوا: سلامًا، أو مصدرٌ، والتَّكريرُ للدَّلالةِ على فشوِّ السَّلامِ بينهم.

وقُرِئَ: (سلامٌ سلامٌ) على الحكايةِ[4].

---

(١) وقراءة الباقين بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥١)، و«المحتسب» (٢: ٣٠٩)، عن أبي وابن مسعود.

(٣) في نسخة التفتازاني نسخة: «والبقاء».

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٨٢)، وأجازها الفراء ولم يصرح بكونها قراءة، انظر: «معاني القرآن» (٣/ ١٢٤).

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ لا شوكَ له، مِن خَضَدَ الشَّوكَ: إذا قطعَه، أو مَثنيٍّ أغصانُه مِن كثرةِ حَمْلِه، مِن خَضَد الغُصنَ: إذا ثناهُ وهو رطبٌ.

(٢٩) ـ ﴿وَطَلْحٍ﴾ وشجرِ موزٍ، أو أمِّ غَيلانَ[1]، وله أنوارٌ كثيرةٌ طيِّبةُ الرَّائحةِ. وقُرِئَ بالعينِ[2].

﴿مَّنضُودٍ﴾ نُضِد حِملُه مِن أسفلِه إلى أعلاه.

(٣٠) ـ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ مُنبسطٍ لا يتقلَّصُ ولا يتفاوتُ.

(٣١) ـ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يُسكَبُ لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب، أو مَصبوبٍ سائلٍ.

كأنَّه لما شبَّه حالَ السَّابقين في التنعُّم بأعلى[3] ما يُتصوَّر لأهلِ المدنِ شبَّه حالَ أصحابِ اليمينِ بأكملِ ما يتمنَّاه أهلُ البوادي إشعارًا بالتَّفاوتِ بينَ الحالَين.

(٣٢) ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ كثيرةِ الأجناسِ.

(٣٣) ـ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطعُ في وقتٍ ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تُمنَعُ عَن مُتناوِلِها بوجهٍ.

(٣٤) ـ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعةِ القَدرِ، أو مُنضدةٍ مُرتفعةٍ، وقيل: الفُرُشُ النِّساءُ، وارتفاعُها أنَّها على الأرائكِ، ويدلُّ عليه قولُه:

(٣٥) ـ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: ابتدأناهُنَّ ابتداءً جديدًا مِن غيرِ ولادةٍ، ابتداءً أو إعادةً، وفي الحديثِ: «هنَّ اللواتي قُبِضنَ في دارِ الدُّنيا عجائزَ شُمْطًا رُمْصًا،

---

(١) أم غيلان: شجر السَّمُر.

(٢) ذكره الزمخشري عن علي بن أبي طالب، انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٨٣).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «بأكمل».

جعلهـنَّ اللهُ بعـدَ الكِبَـرِ أترابًا علـى ميلادٍ واحـدٍ، كلَّمَا أتاهـنَّ أزواجُهُـنَّ وَجدوهُنَّ أبكارًا»(١).

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا﴾ مُتحبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ، جمعُ عَروبٍ.

وسكَّنَ راءَهُ حمزةُ، ورُوِيَ عن نافعٍ وعاصمٍ مثلُه(٢).

﴿أَتْرَابًا﴾ فإنَّ كُلَّهُنَّ بناتُ ثلاثٍ وثلاثينَ، وكذا أزواجهنَّ.

(٣٨ ـ ٤٠) ـ ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ مُتعلِّـقٌ بـ(أنشـأنا) أو (جعلنـا)، أو صِفـةٌ لـ﴿أَبْكَارًا﴾ أو خبـرٌ لِمَحـذوفٍ مثلُ: هـنَّ، أو لقولِـه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وهـي علـى الوُجـوهِ الأُوَلِ خبـرُ مَحـذوفٍ.

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ﴾ فـي حـرِّ نـارٍ يَنفُـذُ في المسامِّ.

﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماءٍ مُتناهٍ في الحَرارةِ.

(٤٣) ـ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ مِن دُخانٍ أسودَ، يَفْعُول مِن الحُمَمَةِ.

---

(١) هذا مجموع من خبرين رواهما الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥)، الأول من طريق إسماعيل بن أبي زياد، عن الحسن، عن أم سلمة به إلى قوله: «على مِيلادٍ واحد في الاستواء». وإسماعيل بن أبي زياد قال في «التقريب»: متروك كذبوه. لكن رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٢٢)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٦٥) من طريق سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أمّ سلمة، بنحوه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٩): فيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي.

وباقي الحديث رواه الثعلبي عن المسيب بن شريك مرسلاً، والمسيب قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال أحمد: ترك الناس حديثه. وقال مسلم وجماعة: متروك.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧)، و«النشر» (٢/ ٢١٦).

(٤٤) ـ ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائـرِ الظـلِّ ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافـعٍ، نفـى بذلك مـا أوهمَهُ الظِّـلُّ من الاسـترواحِ.

(٤٥) ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ مُنهمكينَ في الشَّهواتِ.

(٤٦) ـ ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذَّنبِ العظيمِ؛ يعني: الشِّركَ، ومنه: بلغَ الغُلامُ الحنثَ؛ أي: الحُلمَ ووقتَ المؤاخذةِ بالذَّنبِ، وحَنِثَ في يمينِه: خلافُ بَرَّ فيها، وتحنَّثَ: إذا تأثَّم.

(٤٧) ـ ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كُـرِّرَت الهمزةُ للدَّلالـةِ علـى إنـكارِ البعثِ مُطلقًـا وخصوصًا في هـذا الوقتِ كما دخلَـتِ العاطفةُ فـي قولِه:

(٤٨) ـ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك أشدُّ إنكارًا في حقِّهِم لتَقادُمِ زمانِهم، وللفصلِ بها حَسُنَ العطفُ على المستكنِّ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿أو﴾ بالسُّكونِ[(١)]، وقد سبقَ مِثلُه.

والعامِلُ في الظَّرفِ ما دلَّ عليه (مبعوثونَ) لا هو؛ للفَصلِ بـ(أن) والهمزةِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾ وقُرِئَ: (لَمُجَمَّعُونَ)[(٢)].

﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وقِّتَ به الدُّنيا وحُدَّ مِن يومٍ مُعيَّنٍ عندَ اللهِ مَعلومٍ له.

(٥١) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ أي: بالبعـثِ، والخِطـابُ لأهـلِ مكَّـةَ وأضرابِهـم.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

(٢) حكاها أبو معاذ عن بعض المصاحف، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢) وضبطت: (لمُجْمَعون)، والمثبت موافق لما ضبط في «الكشاف» (٥/ ٥٨٨).

(٥٢) ـ ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ (مِن) الأُولى للابتداءِ، والثَّانيةُ للبَيانِ.

(٥٣) ـ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ مِن شدَّةِ الجوعِ.

(٥٤) ـ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ لغلبةِ العَطشِ.

وتأنيثُ الضَّميرِ في (منها) وتذكيرُه في (عليه) حملًا على معنى الشَّجرِ ولَفظِه.

وقُرِئَ: (مِن شجرةٍ)[1] فيكونُ التَّذكيرُ للزَّقُّومِ؛ فإنَّه تَفسيرُها.

(٥٥) ـ ﴿فشاربونَ شَرْبَ الهيمِ﴾ الإبلِ التي بها الهُيامُ، وهو داءٌ يُشبهُ الاستسقاءَ، جمعُ أَهْيَمَ وهَيْمَاءَ، قال ذو الرُّمة:

فَأَصْبَحْتُ كَالهَيْمَاءِ لَا المَاءُ مُبْرِدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا[2]

وقيل: الرِّمالُ على أنه جمعُ هَيَامٍ بالفتحِ، وهو الرَّملُ الذي لا يتماسَكُ، جُمِعَ على هُيُمٍ كسُحُبٍ، ثم خُفِّفَ وفُعِلَ به ما فُعِلَ بجمعِ أَبيَض، وكلٌّ مِن المعطوفِ والمَعطوفِ عليه أخصُّ مِن الآخرِ مِن وَجهٍ فلا اتِّحادَ.

وقرأَ نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ ﴿شُرْبَ﴾ بضمِّ الشِّينِ[3].

(٥٦) ـ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يومَ الجزاءِ، فما ظَنُّكَ بما يكونُ لهم بعدَما استقرُّوا في الجَحيمِ؟! وفيه تهكُّمٌ كمَا في قولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] لأنَّ النُّزُلَ ما يُعَدُّ للنَّازلِ تَكرِمَةً له.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢/ ١٠٠٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٥٥٩)، يعني الإبل، والهيماء: التي بها داء الهيام، فهي تشرب فلا تروى، وقوله: «لا يقضي عليها هيامها»؛ أي: ولا تموت. قاله شارح الديوان.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

وقُرِئَ (نُزْلُهُم) بالتَّخفيفِ(١).

(٥٧) ـ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلقِ مُتيقِّنينَ مُحققينَ للتَّصديقِ بالأعمالِ الدَّالَّةِ عليه، أو بالبعثِ، فإنَّ مَن قدَرَ على الإبداءِ قَدَرَ على الإعادةِ.

(٥٨) ـ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ أي: ما تقذفونَه في الأرحامِ مِن النُّطفِ.

وقُرِئَ بفتحِ التَّاءِ(٢) مِن مَنَى النُّطفةَ بمَعنى أمناهَا.

(٥٩) ـ ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلونَه بشرًا سويًّا ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾.

(٦٠) ـ ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ قسمناهُ عليكُم وأَقَّتْنا موتَ كُلٍّ بوقتٍ مُعيَّنٍ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بتَخفيفِ الدَّالِ(٣).

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ لا يسبِقُنا أحدٌ فيهربَ من الموتِ أو يُغيرَ وقتَه، أو لا يَغلِبُنا أحدٌ، مِن سَبَقْتُه على كذا: إذا غَلَبْتَه عليه.

(٦١) ـ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ على الأوَّلِ حالٌ، أو عِلَّةٌ لـ﴿قَدَّرۡنَا﴾، و(على) بمعنى اللامِ، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ اعتراضٌ، وعلى الثَّاني صِلَةٌ، والمعنى: على أَنْ نُبدِّلَ منكم أشباهَكُم فنخلقَ بدلَكُم، أو نبدلَ صِفاتِكُم على أنَّ ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ جمعُ مِثْلٍ.

﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ في خلقٍ أو صفاتٍ لا تعلمونَها.

(٦٢) ـ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مَن قدرَ عليها قدرَ على النَّشأةِ الأخرى فإنَّها أقلُّ صنعًا لحصولِ الموادِّ وتخصيصِ الأَجزاءِ وسبقِ المثالِ، وفيه دليلٌ على صِحَّةِ القياسِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢) من رواية هارون عن أبي عمرو.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥).

(٣) وقراءة الباقين بالتشديد، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٦٣ ـ ٦٤) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ تبذُرونَ حَبَّه ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنبتونَه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبِتونَ.

(٦٥) ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبونَ أو تندمونَ على اجتهادِكُم فيه، أو على ما أُصِبْتُم لأجلِه مِن المعاصي فتتحدثونَ فيه، والتَّفكُّهُ التَّنقُّلُ بصنوفِ الفاكهةِ، وقد استُعيرَ للتَّنقُّلِ بالحديثِ.

وقُرِئَ (فَظِلْتُم) بالكسرِ[1]، و(ظَلِلْتُم) على الأصلِ[2].

(٦٦) ـ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ لَمُلزَمُونَ غرامةَ ما أَنفقْنا، أو مُهلَكونَ لهلاكِ رزقِنا، من الغَرامِ؛ وهو الهلاكُ.

وقرأ أبو بكر: ﴿أإنا﴾ على الاستفهامِ[3].

(٦٧) ـ ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمنا رِزقَنا، أو محدودونَ لا مَجدودونَ.

(٦٨) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي: العذبَ الصَّالحَ للشُّربِ.

(٦٩) ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السَّحابِ، واحدُه مُزْنَةٌ.

وقيل: المزنُ: السَّحابُ الأبيضُ وماؤُه أعذَبُ.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقُدرَتِنا، والرُّؤيةُ إن كانت بمَعنى العلمِ فمعلَّقةٌ بالاستفهامِ.

(٧٠) ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ مِلحًا، أو مِن الأَجِيجِ فإنَّه يحرقُ الفمَ، وحُذِفَت اللامُ الفاصلةُ بين جوابِ ما يتمحَّضُ[4] للشَّرطِ وما يتضمَّنُ معناه لعلمِ السَّامعِ بمَكانِه،

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٢٧) عن ابن مسعود، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥٩٩) عن ابن أبي عبلة وأبي حيوة وقتادة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢) عن الجحدري.

(٣) والباقون بهمزة واحدة، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «يتحقق».

أو الاكتفاءِ بسبقِ ذكرِها، أو يختصُّ ما يُقصدُ لذاتِه ويكونُ أهمَّ وفقدُه أصعبَ بمزيدِ[1] التَّأكيدِ.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثالَ هذه النِّعَمِ الضَّروريَّةِ.

(٧١) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تقدحونَ.

(٧٢) ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ يعني: الشَّجرةَ التي منها الزِّنادُ.

(٧٣) ـ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ جعلنا نارَ الزِّنادِ ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصِرةً في أمرِ البَعثِ كما مرَّ فـي سورةِ (يس)، أو في الظَّلامِ، أو تذكيرًا وأُنموذجًا لنارِ جهنَّم.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للذين يَنزِلونَ القَوَاء، وهي القَفْرُ، أو للذين خلَتْ بُطونُهم أو مَزاودُهم مِن الطَّعامِ، مِن أَقْوَتِ الدَّارُ: إذا خلَتْ مِن سَاكنيهَا.

(٧٤) ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فأَحْدِث التَّسبيحَ بذكرِ اسمِه أو بذكرِه، فإنَّ إطلاقَ اسمِ الشَّيء ذكرُه.

و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفةٌ للاسمِ أو الرَّبِّ، وتعقيبُ الأمرِ بالتَّسبيحِ لما عدَّدَ مِن بدائعِ صُنعِه وإنعامِه إمَّا لتَنزيهِه تعالى عمَّا يقولُ الجاحدونَ لوحدانيَّتِه الكافرونَ لِنعمَتِه، أو للتَّعجُّبِ مِن أَمرِهِم في غَمْطِ نعمِه، أو للشُّكرِ على ما عدَّها مِن النِّعَمِ.

(٧٥) ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ إذ الأمرُ أوضحُ مِن أن يحتاجَ إلى قَسَمٍ، أو فأُقْسِمُ، و(لا) مزيدةٌ للتَّأكيدِ كما في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩]، أو فلأَنا أقسمُ، فحذفَ المبتدأَ، وأَشبعَ فتحةَ لامِ الابتداءِ، ويدلُّ عليه أنَّه قرئ: (فَلَأُقْسِمُ)[2]، أو فلا ردٌّ لكلامٍ يُخالِفُ المُقسَمَ عليه.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «لمزيد».

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٠٩).

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمَساقطِها، وتخصيصُ المغاربِ لِمَا في غُروبِها مِن زوالِ أَثرِها والدَّلالةِ على وجودِ مُؤثِّرٍ لا يزولُ تَأثيرُه، أو بمَنازِلِها ومَجاريها، وقيل: النُّجومُ نُجومُ القُرآنِ، ومَواقِعُها: أوقاتُ نُزولِها.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿بمَوقِعِ﴾[1].

(٧٦) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لِمَا في المُقسَمِ به مِن الدَّلالةِ على عظيمِ القُدرةِ وكمالِ الحكمةِ وفرطِ الرَّحمةِ، ومِن مُقتضياتِ رَحمَتِه أن لا يتركَ عبادَهُ سُدى، وهو اعتراضٌ في اعتراضٍ، فإنَّه اعتراضٌ بينَ القَسَمِ[2] والمُقسَمِ عليه.

و﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اعتراضٌ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ.

(٧٧) ـ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ كثيرُ النَّفعِ لاشتمالِه على أُصولِ العُلومِ المُهمَّةِ في إصلاحِ المعاشِ والمعادِ، أو حسنٌ مَرضيٌّ في جنسِه.

(٧٨) ـ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ مَصونٍ، وهو اللَّوحُ.

(٧٩) ـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ لا يطَّلعُ على اللَّوحِ إلَّا المطهَّرونَ مِن الكُدوراتِ الجِسمانيَّةِ، وهم الملائكةُ، أو لا يمسُّ القرآنَ إلَّا المُطهَّرُونَ مِن الأحداثِ، فيكونُ نَفيًا بمعنى نَهيٍ، أو لا يطلبُه إلَّا المطهَّرُونَ مِن الكُفرِ.

وقُـرِئَ: (المُتَطَهِّرُونَ)[3]، و: (المُطَّهِـرُونَ)[4]، و: (المُطْهَـرُونَ)[5]، مِن أطهَره

---

(١) «وقرأ حمزة والكسائي: بموقع» من نسخة التفتازاني والطبلاوي. انظر: «التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «المقسم».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٦).

(٤) نسبت لسلمان الفارسي رضي الله عنه وعبد الله بن عون والحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٥).

(٥) بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، نسبت لنافع وأبي عمرو بخلاف عنهما، وهي قراءة عيسى الثقفي، =

بمَعنـى طهَّره، و: (المطهِّرُونَ)[١] أي: أنفسَـهُم أو غيرَهُم بالاسـتغفارِ لهم والإلهامِ.

(٨٠) ـ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ أو رابعةٌ للقرآنِ، وهو مَصدَرٌ نُعِتَ به.

وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢]؛ أي: نُزِّلَ تنزيلًا.

(٨١) ـ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآنَ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ مُتهاوِنونَ به، كمَنْ يُدهِنُ في الأمرِ أي: يَلينُ جانبُه ولا يتصلَّبُ فيه تهاونًا به.

(٨٢) ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شُكرَ رزقِكُم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: بمانِحِه حيثُ تَنسُبونَه إلى الأَنْواءِ.

وقُرِئَ (شُكرَكُم)[٣] أي: وتجعلونَ شُكرَكُم لنعمةِ القرآنِ أنَّكُم تُكذِّبونَ بِهِ.

و﴿تُكَذِّبُونَ﴾ أي: بقولِكُم في القرآنِ: إنَّه سحرٌ وشعرٌ، أو في المطرِ: إنَّه من الأنواءِ.

(٨٣) ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: النَّفسُ.

(٨٤) ـ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حالَكُم، والخطابُ لِمَن حولَ المُحتضَرِ، والواوُ للحالِ.

(٨٥) ـ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ ونحن أعلَمُ ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضَرِ ﴿مِنكُمْ﴾ عبَّرَ عن العلمِ بالقربِ الذي هو أقوى سببِ الاطلاعِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركونَ كُنْهَ ما يجري عليه.

= انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٥).

(١) بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وتشديدها، ونسبت لسلمان الفارسي رضي الله عنه أيضاً، انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٥).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٩٩)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٦).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٠).

(٨٦) ـ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: مَجْزِيِّيـنَ يـومَ القيامـةِ، أو مملوكيـنَ مَقهوريـنَ، مِـن دانَـهُ: إذا أذلَّـهُ واسـتعبدَهُ، وأصـلُ التَّركيـبِ للـذُّلِّ والانقيـادِ.

(٨٧) ـ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ ترجعونَ النَّفسَ إلى مقرِّها، وهو عاملُ الظَّرفِ والمُحضَّضُ عليـه بـ(لـولا) الأولـى، والثَّانيـةُ تكريـرٌ للتَّوكيدِ، وهـي بما فـي حَيِّزِها دليـلُ جوابِ الشَّـرطِ، والمعنـى: إن كُنتُـمْ غيرَ مملوكينَ مَجزيِّيـنَ كما دلَّ عليه جَحْدُكُـم أفعالَ اللهِ وتَكذيبُكُم بآياتِه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في تعطيلِكُم، فلولا ترجعونَ الأرواحَ إلى الأبدانِ بعدَ بُلوغِها الحلقومَ.

(٨٨) ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كانَ المُتوفَّى مِن السَّابقينَ.

(٨٩) ـ ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحةٌ.

وقُرِئَ: ﴿فرُوحٌ﴾ بالضم[1]، وفُسِّرَ بالرَّحمةِ؛ لأنَّها كالسَّببِ لحياةِ المرحومِ وبالحياةِ الدَّائمَةِ.

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزقٌ طيبٌ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ذاتُ تَنعُّمٍ.

(٩٠ ـ ٩١) ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ يا صاحبَ اليَمينِ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: مِن إخوانِكَ يُسلِّمُونَ عليك.

---

(١) وهي قراءة رويس عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٣)، وقرأ بها ابن عباس، والحسن وقتادة والضحاك والأشهب ونوح القارئ وبديل وشعيب بن الحارث وسليمان التيمي والربيع بن خثيم، وأبي عمران الجوني، وأبي جعفر محمد بن علي والضحاك وفياض.
ورويت عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ، كما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٣٥٢)، والطيالسي في «مسنده» (١٥٥٧) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٣) ـ وأبو داود (٣٩٩١)، والترمذي (٢٩٣٨) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٠٢).

(٩٢) ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: أصحابَ الشمالِ، وإنَّما وصفَهُم بأفعالِهم زَجْرًا عنها وإشعارًا بما أوجبَ لهم ما أوعدَهُم به.

(٩٣ ـ ٩٤) ـ ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وذلك ما يَجِدُ في القبرِ مِن سَمُومِ النَّارِ ودُخانها.

(٩٥) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذُكرَ في السُّورةِ، أو في شأنِ الفِرَقِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: حقُّ الخبرِ اليَقينِ.

(٩٦) ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فنَزِّهْهُ بذكرِ اسمِه عمَّا لا يليقُ بعظمةِ شأنِه.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ الواقعةِ في كلِّ ليلَةٍ لم تُصِبْهُ فاقةٌ أبدًا»(١).

* * *

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٥٧)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤): قد تبين ضعف هذا الحديث من وجوه:
أحدها: الانقطاع، كما ذكره الدارقطني وابن أبي حاتم في «علله» نقلًا عن أبيه.
والثاني: نكارة متنه، كما قال أحمد.
والثالث: ضعف رواته، كما ذكره ابن الجوزي.
والرابع: الاضطراب، فذكر الاضطراب في اسم بعض رواته ثم قال: وقد اجتمع على ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطني والبيهقي وابن الجوزي تلويحًا وتصريحًا.

(٥٦) سورة الواقعة مكية وآياتها ست وتسعون

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن مسعود بسنده عن أبي ظبية قال: مرض عبدالله مرضه الذي توفي فيه، فعاده (عثمان بن عفّان) فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»(١). وروى أحمد عن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم، التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى: ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ وقوله تعالى ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾، وقال: ﴿سأل سائل بعذاب واقع ۞ للكافرين ليس له دافع﴾، ومعنى ﴿كاذبة﴾ أي لا بد أن تكون، قال قتادة: ليس فيها ارتداد ولا رجعة، قال ابن جرير:

---

(١) رواه ابن عساكر وأبو يعلى، وقال بعده: فكان أبو ظبية لا يدعها.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية، وقوله تعالى: ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء، وعن ابن عباس: ﴿ خافضة رافعة ﴾ تخفض أقواماً وترفع آخرين، وقال عثمان بن سراقة: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة، وقال محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين، وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المتواضعين، وقوله تعالى: ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ أي حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ أي زلزلت زلزالاً، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه، كقوله تعالى: ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي فتتت فتاً، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ عن علي رضي الله عنه: هباء منبثاً كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، وقال ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته، وقال قتادة: ﴿ هباء منبثاً ﴾ كيابس الشجر الذي تذروه الرياح، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله تعالى: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار، وطائفة سابقون بين يديه عزّ وجلّ وهم أحظى وأقرب من أصحاب اليمين، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين، لهذا قال تعالى: ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ۝ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ۝ والسابقون السابقون ﴾. وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ الآية وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه، قال ابن عباس ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية. وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال: أصنافاً ثلاثة، وقال مجاهد: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ يعني فرقاً ثلاثة، وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة، اثنان في الجنة وواحد في النار، قال مجاهد: ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام، وقال السدي: هم أهل عليين، وقال ابن سيرين ﴿ والسابقون السابقون ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين، وقال الحسن وقتادة: ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أي من كل أمة، وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة، أنه قرأ هذه الآية ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله، وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات، كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾، وقال تعالى: ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء

والأرض﴾، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تُدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك المقربون في جنات النعيم﴾، وقال ابن أبي حاتم، قالت الملائكة: يا رب جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة، فقال: لا أفعل، فراجعوا ثلاثاً، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فكان، ثم قرأ عبد الله: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم﴾[1].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثلة﴾ أي جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين: وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، ولم يحك غيره، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني»[2].

وهذا الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو قول ضعيف، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثلة من الأولين﴾ أي من صدر هذه الأمة، ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي من هذه الأمة، قال ابن أبي حاتم، عن عبدالله ابن بكر المزني: سمعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿والسابقون السابقون، أولئك المقربون﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. ثم قرأ الحسن: ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون في جنات النعيم * ثلة من الأولين﴾ قال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة. وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ قال: كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد.

قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[١] الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره »[٢] فهذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج ألى أول الأمة في إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال عليه السلام: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة »[٣] .

وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك » ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: « مع كل ألف سبعون ألفاً – وفي آخر – مع كل واحد سبعون ألفاً » ؛ وقد روى الحافظ الطبراني، عن أبي مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة لمّا جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام »[٤] . وقوله تعالى: ﴿ على سرر موضونة ﴾ قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به[٥] . وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ ، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مضفور وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ .

وقوله تعالى : ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ، ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يشيبون ولا يتغيرون ، ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة، وقوله تعالى: ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: « السكْر ، والصداع ، والقيء ، والبول » فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال ، وقال مجاهد وعكرمة ﴿ لا يصدّعون عنها ﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس، وقالوا في قوله ﴿ ولا ينزفون ﴾ أي لا تذهب بعقولهم، وقوله تعالى: ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ۝ ولحم طير مما يشتهون ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، روى الطبراني عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها

(١) أخرجه الشيخان .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجاه في الصحيحين .
(٤) أخرجه الحافظ الطبراني .
(٥) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحّاك .

أُخرى »[1] ، وقوله تعالى: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ عن أَنس قال، قال رسول الله ﷺ: « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن هذه لطير ناعمة، فقال: « آكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »[2] . وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ وذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله ! إني لأرى طيرها ناعماً كأهلها ناعمون، قال: « ومن يأكلها والله يا أبا بكر أنعم منها وإنها لأمثال البخت وإني لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر » . وروى أبو بكر بن أبي الدنيا، عن أَنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: « نهر أعطانيه ربي عزَّ وجلَّ في الجنة أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ؟ قال رسول الله ﷺ: « آكلها أنعم منها »[3] . وعن عبدالله بن مسعود قال، قال لي رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً »[4] . وقوله تعالى: ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ بالرفع وتقديره : ولهم فيها حور عين ، وقوله تعالى : ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم، ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ ، ولهذا قال : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل .

وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون ابن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين ، فقال ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي ما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ قال ابن عباس وعكرمة : هو الذي لا شوك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، وقال قتادة : كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه، والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر النجار، عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ: « وما هي ؟ » قال: السدر ، فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ: « أليس الله تعالى يقول : ﴿في سدر مخضود﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً

---

(١) أخرجه الحافظ الطبراني .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا ، ورواه الترمذي .

(٤) رواه ابن أبي حاتم .

تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر »، وقوله: ﴿ وطلح منضود ﴾ الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاه واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة:

بشَّرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا

قال مجاهد ﴿ منضود ﴾: أي متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشاً لأنهم كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلح وسدر، قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، قال الجوهري: والطلح لغة في الطلع، (قلت) وقد روي أن علياً يقول هذا الحرف في ﴿ طلح منضود ﴾ قال: طلع منضود، فعلى هذا يكون من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره والله أعلم. وعن أبي سعيد ﴿ وطلح منضود ﴾ قال: الموز[1]، وأهل اليمن يسمون الموز: الطلح، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول، وقوله تعالى: ﴿ وظل ممدود ﴾ روى البخاري، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[2]. وقال الإمام أحمد، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، إقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[3]. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها »[4]، فهذا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله. وقال الترمذي، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب »[5]. وقال الضحّاك والسدي في قوله تعالى: ﴿ وظل ممدود ﴾ لا ينقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجْسَج[6] كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقد تقدمت الآيات كقوله تعالى: : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ وقوله: ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾، وقوله ﴿ في ظلال وعيون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿ وماء مسكوب ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية، بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله تعالى: ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ﴾ أي يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين

---

(١) وهو قول ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقتادة وغيرهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد ورواه الشيخان.

(٤) أخرجه الشيخان.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٦) سَجْسَج: أي لا حر ولا برد.

في ذكر سدرة المنتهى : فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر ؛ وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة، قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ، قال: « إنه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم بـه فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم بـه لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقص منه »[١] . وقوله تعالى: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفاً، بل أكلها دائم مستمر أبـداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ، وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد، وقد تقدم في الحديث « إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى » .

وقوله تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة﴾ أي عالية وطيئة ناعمة ، روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام »[٢] . وعن الحسن: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة[٣]، وقوله تعالى: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ۞ فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً ۞ لأصحاب اليمين﴾ جرى الضمير على غير مذكور ، لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهنّ وعـاد الضمير عليهن، قال الأخفش في قوله تعالى ﴿ أنا أنشأهن﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبـل ذلك . وقال أبو عبيدة ذكرن في قوله تعالى : ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾، فقوله تعالى: ﴿ إنا أنشأناهن﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصاً، صرن ﴿ أبكاراً عرباً﴾ أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً عرباً، متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة، وقال بعضهم ﴿ عرباً﴾ أي غنجات، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء قال: نساء عجائز كنّ في الدنيا عمشاً رمصاً »[٤] . وعن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء﴾ يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا، وقال عبد بن حميد قال: أتت عجوز . فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال: « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال: فولت تبكي ، قال: أخبروها إنها لا تدخلها، وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول: ﴿ إنا أنشأهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾[٥] .

وعن أم سلمة قالت، قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿ حور عين﴾ قال: « حور » بيض « عين » ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قلت: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ قال: « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت: أخبرني عن قوله: ﴿ فيهن خيرات حسان﴾ قال: « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » ، قلت: أخبرني عن قوله: ﴿ كأنهن بيض مكنون﴾ قال :

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وأخرجه مسلم بنحوه .

(٢) أخرجه النسائي والترمذي وقال : حسن غريب .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري موقوفاً .

(٤) أخرجه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي : غريب .

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حميد .

« رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقيء » قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قال: « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محببات أتراباً على ميلاد واحد » ، قلت: يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال: « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » ، قلت: يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال: « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عزّ وجلّ ، ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب ، صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » ، قلت: يا رسول الله ! المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال: « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول: يا رب إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »(١) . وفي الحديث: « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »(٢) . وعن أبي هريرة قال ، قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة ؟ قال: « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء »(٣) .

وقوله تعالى: ﴿ عرباً ﴾ ، قال ابن عباس: يعني متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك ، وقال الضحّاك عنه: العرب العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون ، وقال عكرمة: سئل ابن عباس عن قوله ﴿ عرباً ﴾ قال: هي المَلِقة لزوجها ، وقال عكرمة: هي الغنجة ، وعنه: هي الشكلة ، وقال عبد الله بن بريدة في قوله ﴿ عرباً ﴾ قال: الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة بلغة أهل المدينة ، وقال تميم بن حذلم: هي حسن التبعل ، وقوله ﴿ أتراباً ﴾ قال ابن عباس: يعني في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد: الأتراب: المستويات ، وفي رواية عنه: الأمثال ، وقال عطية: الأقران ، وقال السدي ﴿ أتراباً ﴾ أي في الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات ، وقال ابن أبي حاتم ، عن الحسن ومحمد ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قالا: المستويات الأسنان يأتلفن جميعاً ويلعبن جميعاً ، وقد روى الترمذي ، عن علي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها – قال – يقلن: « نحن الخالدات فلا نبيد . ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له »(٤) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن: نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام »(٥) . وقوله تعالى: ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أي خلقنا لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ فتقديره أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير ، قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله: ﴿ أتراباً

---

(١) رواه أبو القاسم الطبراني . (٢) أخرجه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني وقال الحافظ المقدسي : هو على شرط الصحيح .

(٤) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

(٥) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

لأصحاب اليمين﴾ أي في أسنانهم، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب وريحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»[١]. وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع»[٢]. وروى ابن وهب، عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاث وثلاثين في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار». وروى ابن أبي الدنيا، عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعاً بذراع الملك! على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرد مرد مكحلون»، وقال أبو بكر ابن أبي داود، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين جرداً مرداً مكحلين. ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم»، وقوله تعالى ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال، قال رسول الله ﷺ: «هما جميعاً من أمتي»[٣].

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿في سموم﴾ وهو الهواء الحار، ﴿وحميم﴾ وهو الماء الحار، ﴿وظل من يحموم﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان[٤]. وهذه كقوله تعالى: ﴿انطلقوا

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه الطبراني ورواه الترمذي بنحوه.

(٣) أخرجه ابن جرير.

(٤) وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم.

إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وظل من يحموم﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لا بارد ولا كريم﴾ أي ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿ولا كريم﴾ أي ولا كريم المنظر، وقال الضحّاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم، قال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين، مقبلين على لذات أنفسهم، ﴿وكانوا يصرون﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿على الحنث العظيم﴾، وهو الكفر بالله، قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك[1]، وقال الشعبي: هو اليمين الغموس ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أي هو موقت بوقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ۝ لآكلون من شجر من زقوم ۝ فمالئون منها البطون﴾، وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم، ﴿فشاربون عليه من الحميم ۝ فشاربون شرب الهيم﴾ وهي الإبل العطاش واحدها أهيم والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة، قال ابن عباس ومجاهد: الهيم الإبل العطاش الظماء، وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً، ثم قال تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ أي ضيافة وكرامة.

۞ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مقرراً للمعاد، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، ﴿نحن خلقناكم﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فلولا تصدقون﴾؟ أي فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أفرأيتم ما تمنون ۝ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾؟ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال تعالى ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت﴾ أي صرفناه بينكم، وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض، ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿على أن نبدّل أمثالكم﴾ أي نغيّر خلقكم يوم القيامة، ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ أي من الصفات والأحوال، ثم قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي قد علمتم

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة.

أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، وقال تعالى: ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ ؟ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ ؟ أي بل نحن الذي نقره قراره وننبته في الأرض، روي عن حجر المدري أنه كان إذا قرأ ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ وأمثالها، يقول: بل أنت يا رب، وقوله تعالى: ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاماً، أي لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده، ﴿ فظلتم تفكهون ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ إنا لمغرمون * بل نحن محرومون ﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظلتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم، فتقولون تارة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ أي لملقون، وقال مجاهد وعكرمة: إنا لمولع بنا، وقال قتادة: معذبون، وتارة تقولون: ﴿ بل نحن محرمون ﴾ أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي مجدودون يعني لا حظ لنا، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تعجبون، وقال مجاهد أيضاً ﴿ فظلتم تفكّهون ﴾ تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم، وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تلاومون، وقال الحسن وقتادة ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تندمون، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب، قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

ثم قال تعالى: ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾، يعني السحاب، ﴿ أم نحن المنزلون ﴾، يقول بل نحن المنزلون، ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ أي زعافاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع، ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً، ﴿ لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ روى ابن أبي حاتم، عن جابر، عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[2] ثم قال: ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان: إحداهما (المرخ) والأخرى (العفار) إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار، وقوله تعالى: ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ قال مجاهد وقتادة: أي تذكر النار الكبرى، وعن النبي ﷺ قال: « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »[١]، وقال الإمام مالك، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم »، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: « إنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً »، وفي لفظ: « والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها »[٢].

وقوله تعالى: ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني بالمقوين المسافرين، واختاره ابن جرير، وقال ابن أسلم: المقوي ههنا الجائع، وقال ليث، عن مجاهد ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار، وعنه ﴿ للمقوين ﴾ يعني المستمتعين من الناس أجمعين، وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم، وفي الحديث: « المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء »[٣]. وفي رواية: « ثلاثة لا يمنعن: الماء والكلأ والنار »[٤]. وقوله تعالى: ﴿ فسبّح بسم ربك العظيم ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد.

* فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

قال الضحاك: إن الله تعالى لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه، وهذا القول ضعيف، والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وهو دليل على عظمته، ثم قال بعض المفسرين:

---

(١) أخرجه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود. (٤) أخرجه ابن ماجة بإسناد حسن.

(لا) ههنا زائدة، وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾، وقال آخرون: ليست (لا) زائدة بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي، تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم، وقال بعضهم: معنى قوله ﴿ فلا أقسم ﴾: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل اقسم[1]، واختلفوا في معنى قوله: ﴿ بمواقع النجوم ﴾ فقال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، وقال مجاهد: ﴿ مواقع النجوم ﴾ في السماء ويقال مطالعها ومشارقها، وهو اختيار ابن جرير، وعن قتادة: مواقعها: منازلها، وعن الحسن: أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة، وقوله ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت بـه لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به، ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي معظم في كتاب معظم محفوظ موقر، عن ابن عباس قال: الكتاب الذي في السماء، ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ يعني الملائكة، وقال ابن جرير، عن قتادة ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، وقال أبو العالية: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ليس أنتم أصحاب الذنوب، وقال ابن زيد: زعمت كفّار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾، وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله، وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، وقال آخرون: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ أي من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: « أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو »[2]، واحتجوا بمـا رواه الإمام مالك أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن « لا يمس القرآن إلا طاهر » وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبدالله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: « ولا يمس القرآن إلا طاهر »، وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به.

وقوله تعالى: ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع، وقوله تعالى: ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ قال ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين، وقال مجاهد: ﴿ مدهنون ﴾ أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال بعضهم: معنى ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ بمعنى شكركم أنكم تكذبون بدل الشكر، عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « وتجعلون » رزقكم يقول: شكركم أنكم تكذبون، تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا »[3]. وقال مجاهد: ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾

---

(١) ذكره ابن جرير عن بعض أهل العربية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب.

قال: قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا وبنوء كذا يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه[١]، وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، فعنى قول الحسن هذا وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، ولهذا قال قبله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ .

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت﴾ أي الروح ﴿الحلقوم﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق﴾، ولهذا قال ههنا ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت، ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي بملائكتنا ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أي ولكن لا ترونهم كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾. وقوله تعالى: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين، قال ابن عباس: يعني محاسبين[٢]، وقال سعيد بن جبير ﴿غير مدينين﴾ غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس، وعن مجاهد ﴿غير مدينين﴾ غير موقنين، وقال ميمون ابن مهران: غير معذبين مقهورين.

* فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فأما إن كان﴾ أي المحتضر ﴿من المقربين﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء إن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان، قال ابن عباس ﴿فروح﴾ يقول: راحة ﴿وريحان﴾ يقول: مستراحة، وكذا قال مجاهد: إن الروح الاستراحة، وقال أبو حرزة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير: الروح الفرح، وعن

---

(١) وهكذا قال الضحّاك وغير واحد.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحّاك وقتادة.

مجاهد: ﴿ فروح وريحان﴾ جنة ورخاء، وقال قتادة: فروح فرحمة. وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ وريحان﴾: ورزق؛ وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿ وجنة نعيم﴾، وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه، وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار، وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سوره إبراهيم ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾. وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية. روى الإمام أحمد، عن أم هانئ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «يكون النسم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها»، هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن، ومعنى «يَعْلَق» يأكل. ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن كعب بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»، وهذا إسناد عظيم ومتن قويم، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»[1] الحديث. وروى الإمام أحمد. عن عبدالرحمن ابن أبي ليلى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذاك، ولكنه إذا احتضر ﴿ فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عزّ وجلّ، والله عزّ وجلّ للقائه أحب ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله تعالى للقائه أكره»[2].

وقوله تعالى: ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ أي وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وقال قتادة: سَلِمَ من عذاب الله وسلّمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقوله تعالى: ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزلٌ من حميم وتصلية جحيم﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿ فنزل﴾ أي فضيافة، ﴿ من حميم﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، ﴿ وتصلية جحيم﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿ إن هذا لهو حق اليقين﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين، الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه، ﴿ فسبح باسم ربك العظيم﴾. قال الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[3].

---

(١) الحديث مخرج في الصحيحين. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة.

وفي الحديث: من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة »[1] . وروى البخاري في آخر صحيحه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله: « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

[آخر تفسير سورة الواقعة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن غريب .

تفسير سورة الواقعة

وهى مكية.

قال أبو إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتنى هود، والواقعة، والمرسلات، وعَمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

رواه الترمذى وقال: حسن غريب(١).

وقال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصرى: حدثنا السُّرِّى بن يحيى الشيبانى، عن أبى شجاع، عن أبى ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذى توفى فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى. قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربى. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضنى. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتى الفقر؟ إنى أمرت بناتى يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبدا»(٢).

ثم قال ابن عساكر: كذا قال، والصواب: عن «شجاع»، كما رواه عبد الله بن وهب، عن السرى. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى السّرىّ بن يحيى أن شجاعا حَدّثه، عن أبى ظَبْيَةَ، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا». فكان أبوظبية لا يدعها(٣).

وكذا رواه أبو يعلى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن مُنِيب، عن السرى بن يحيى، عن شجاع، عن أبي ظَبْيَة، عن ابن مسعود، به. ثم رواه عن إسحاق بن أبى إسرائيل، عن محمد بن منيب العدنى، عن السرى بن يحيى، عن أبى ظبية، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة، لم تصبه فاقة أبدا». لم يذكر فى سنده «شجاعا»(٤). قال: وقد أمرت بناتى أن يقرأنها كل ليلة.

وقد رواه ابن عساكر أيضا من حديث حجاج بن نصير وعثمان بن اليمان، عن السرى بن يحيى، عن شجاع، عن أبى فاطمة، قال: مرض عبد الله، فأتاه عثمان بن عفان يعوده، فذكر الحديث

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٧).

(٢) تاريخ دمشق (ق ٢٩٤) « مصورة معهد المخطوطات» ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٥/ ٢٦٩) من طريق حبشى بن عمرو بن الربيع، عن أبيه عمرو بن الربيع المصرى، به.

(٣) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ١١٢) من طريق خالد بن خداش، عن عبد الله بن وهب، به.

(٤) ورواه عن أبى يعلى أبو بكر بن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٦٧٤).

بطوله. قال عثمان بن اليمان: كان أبو فاطمة هذا مولى لعلى بن أبى طالب[(١)].

وقال [الإمام][(٢)] أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن سِماك بن حرب؛ أنه سمع جابر بن سَمُرَة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنحو من صلاتكم التى تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف. كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ فى الفجر «الواقعة» ونحوها من السور[(٣)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)﴾.

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]

وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ .لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ ـ كما قال محمد بن كعب ـ: لابد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا

---

(١) تاريخ دمشق (ق ٢٩٤) «مصورة معهد المخطوطات».

وكذا رواه حجاج بن المنهال عن السرى بن يحيى فقال:

عن أبى فاطمة: أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٩٨) وقد أعمل الزيلعى، رحمه الله، هذا الحديث بأربع علل ترجح بعدها ضعفه:

الأولى: الانقطاع كما ذكره الدارقطنى وابن أبى حاتم فى علله نقلا عن أبيه.

الثانية: نكارة متنه. قاله الإمام أحمد.

الثالثة: ضعف رواته: السرى بن يحيى، وشجاع، كما ذكره ابن الجوزى.

الرابعة: الاضطراب، فمنهم من يقول: أبو طيبة بالطاء المهملة ومنهم من يقول: أبو ظبية بالظاء المعجمة.

ومنهم من يقول: أبو فاطمة، ومنهم من يقول: شجاع، ومنهم من يقول: أبو شجاع، وقد اجتمع على ضعفه: الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطنى والبيهقى وابن الجوزى تلويحا وتصريحا، والله أعلم.

(٢) زيادة من م.

(٣) المسند (٥/ ١٠٤).

ارتداد ولا رجعة.

قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أى: تخفض[١] أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا فى الدنيا أعزّاء. وترفع آخرين إلى أعلى علّيّين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا فى الدنيا وضعاء. وهكذا قال الحسن، وقتادة وغيرهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى، عن أبيه، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: تخفض أناسًا وترفع آخرين.

وقال عبيد الله[٢] العتكى، عن عثمان بن سراقة، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [قال[٣]]: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة.

وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا فى الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين.

وقال السُّدِّى: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين.

وقال العَوْفىّ، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أى: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أى: زلزلت زلزالا [شديدا][٤].

وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى: فُتِّتت فَتًّا[٥]. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم.

وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال [الله][٦] تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾: قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه: ﴿هَبَاءً

(١) فى م: «تخفض».
(٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من: م.
(٥) فى م: «تفتيتا».
(٦) زيادة من أ.

مُنْبَثًّا﴾ كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾: الهباء الذى يطير من النار، إذا اضطرمت[١] يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا.

وقال عكرمة: المنبث: الذى ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾: كيبيس الشجر الذى تذروه[٢] الرياح.

وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها ـ أى قلعها ـ وصيرورتها كالهعن المنفوش.

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ أى: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السُّدِّى: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار ـ عياذاً بالله من صنيعهم ـ وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ قال: هى التى فى سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون فى آخر السورة وفى سورة الملائكة.

وقال يزيد الرقاشى: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ قال: أصنافا ثلاثة.

وقال[٣] مجاهد: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ [قال][٤]: يعنى: فرقا ثلاثة. وقال ميمون بن مهْرَان: أفواجا ثلاثة. وقال عُبَيد الله[٥] العتكى، عن عثمان بن سراقة، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾: اثنان فى الجنة، وواحد فى النار.

---

(١) فى م: «اضطربت». (٢) فى م: «تذرا».
(٣) فى أ: «عن». (٤) زيادة من م. (٥) فى أ: «عبد الله».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد بن أبى ثور، عن سماك، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] قال: الضرباء، كل رجل من قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله يقول: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً. فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: هم الضرباء(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله المثنى، حدثنا البراء الغنوى، حدثنا الحسن، عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ تلا(٢) هذه الآية: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾(٣)، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾(٤) فقبض بيده قبضتين فقال: «هذه للجنة(٥) ولا أبالى، وهذه للنار(٦) ولا أبالى»(٧).

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا خالد بن أبى عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»(٨).

وقال محمد بن كعب وأبو حَزْرَة يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السُّدِّى: هم أهل عليين. وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلى بن أبى طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبى حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيل المدائنى البزاز، عن شُعَيب بن الضحاك المدائنى، عن سفيان ابن عُيينة، عن ابن أبى نَجيح، به.

وقال ابن أبى حاتم: وذكر محمد(٩) بن أبى حماد، حدثنا مِهْران، عن خارجة، عن قُرَّة، عن ابن سِيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: الذين صلوا للقبلتين.

ورواه ابن جرير(١٠) من حديث خارجة، به.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أى: من كل أمة.

وقال الأوزاعى، عن عثمان بن أبى سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم قال: أولهم رواحا إلى المسجد، وأولهم خروجا فى سبيل الله.

---

(١) سيأتى تخريج الحديث عند الآية: ٧ من سورة التكوير.
(٢) فى أ: «قرأ».
(٢) فى م، أ: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين».
(٤) فى م، أ: «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال».
(٥) فى م، أ: «هذه فى الجنة».
(٦) فى م، أ: «وهذه فى النار».
(٧) المسند (٥/٢٣٩) والحسن لم يسمع من معاذ.
(٨) المسند (٦/٦٧).
(٩) فى أ: «وذكر عن محمد».
(١٠) فى أ: «ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير».

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن زكريا القزاز[١] الرازى، حدثنا خارجة بن مُصعَب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، قال: قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبنى آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثا، فقال: لا أجعل من خلقت بيدى كمن قلت له: كن، فكان. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان[٢] بن سعيد الدارمى فى كتابه: «الرد على الجهمية»، ولفظه: فقال الله عز وجل: «لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن، فكان»[٣].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثُلَّةٌ﴾ أى: جماعة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا فى المراد بقوله: ﴿الأَوَّلِينَ﴾، و﴿الآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصرى، رواها عنهما ابن أبى حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»[٤]. ولم يحك غيره، ولا عزاه إلى أحد.

---

(١) فى أ: «الفزارى». (٢) فى أ: «عمر».

(٣) وقد رواه عثمان بن سعيد الدارمى فرفعه كما فى البداية والنهاية (١/ ٥٥) للمؤلف وقال: «وهو أصح» وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٤٨) وقال: «هذا حديث لا يصح».

(٤) لم أجد الحديث فى تفسير الطبرى، والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٨٩٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٨٨٥) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

ومما يستأنس به لهذا القول، ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا شريك، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: لما نزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾، شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ، فنزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ فقال النبى ﷺ: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة ـ أو: شطر أهل الجنة ـ وتقاسمونهم النصف الثانى».

ورواه الإمام أحمد، عن أسود بن عامر، عن شريك، عن محمد، بياع الملاء، عن أبيه، عن أبى هريرة فذكره[١]. وقد روى من حديث جابر نحو هذا، ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار: حدثنا عبد ربه بن صالح، عن عروة بن رويم، عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ: لما نزلت: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾، ذكر فيها ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، قال عمر: يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا؟ قال: فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزل: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، تعال فاسمع ما قد أنزل الله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾، ألا وإن من آدم إلىَّ ثلة، وأمتى ثلة، ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل، ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

هكذا أورده فى ترجمة «عروة بن رويم»[٢]، إسنادا ومتنا، ولكن فى إسناده نظر. وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله ﷺ: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» الحديث بتمامه[٣]، وهو مفرد فى «صفة الجنة» ولله الحمد والمنة. وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثانى فى هذا المقام ،هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أى: من هذه الأمة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا عبد الله بن بكر[٤] المزنى، سمعت الحسن: أتى على هذه الآية: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾، فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين.

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا السَّرِّى بن يحيى قال: قرأ الحسن: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ثلة ممن مضى من هذه الأمة.

---

(١) المسند (٢/ ٣٩١).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١/ ق ٢٧٩) «مصورة معهد المخطوطات».

(٣) منها حديث عمران بن حصين، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٨) وحديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٤٢٠).

(٤) فى أ: «بكير»، وفى م: «أبى بكر».

وحدثنا أبى، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المِنْقَرى، حدثنا أبو هلال، عن محمد بن سيرين، أنه قال فى هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر[١] جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢] الحديث بتمامه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره»[٣]، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذى يحتاج[٤] إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال، عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة». وفى لفظ: «حتى يأتى أمر الله وهم كذلك». والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وفى لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفا». وفى آخر[٥]: «مع كل واحد سبعون ألفا».

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا هشام[٦] بن مرثد[٧] الطبرانى، حدثنا محمد ـ هو ابن إسماعيل بن عياش ـ حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم ـ يعنى ابن زُرْعَة ـ عن شريح ـ هو ابن عبيد ـ عن أبى مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذى نفسى بيده، ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء، عليهم السلام»[٨].

وحسن أن يذكر هاهنا [عند قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾][٩] الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى «دلائل النبوة» حيث قال: أخبرنا أبو نصر ابن قتادة، أخبرنا أبو عمرو ابن مطر، حدثنا جعفر ـ [هو][١٠] ابن محمد بن المستفاض الفريابى ـ حدثنى أبو وهب الوليد بن عبد

---

(١) فى م: «الأمة».
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٦٥١) من حديث عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه.
(٣) المسند (٤/٣١٩).
(٤) فى م: «هو محتاج». (٥) فى أ: «آخره». (٦) فى أ: «هاشم».
(٧) فى هـ وبقية النسخ: «يزيد» والتصويب من المعجم الكبير.
(٨) المعجم الكبير (٣/٢٩٧) وفى إسناده محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف لم يسمع من أبيه.
(٩) زيادة من أ. (١٠) زيادة من م.

الملك بن عبيد الله[١] بن مُسَرِّح الحرَّانى، حدثنا سليمان بن عطاء القرشى الحرانى، عن مسلمة[٢] ابن عبد الله الجهنى، عن عمه أبى مَشْجعة بن رِبْعِى، عن ابن زَمْل الجهنى، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال، وهو ثان رجله: «سبحان الله وبحمده. أستغفر الله، إن الله كان توابا» سبعين مرة، ثم يقول: «سبعين بسبعمائة، لا خير لمن كانت ذنوبه فى يوم واحد أكثر من سبعمائة». ثم يقول ذلك مرتين، ثم يستقبل الناس بوجهه، وكان يعجبه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحد منكم شيئا؟» قال ابن زمل: فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: «خير تلقاه، وشر توقاه، وخير لنا، وشر على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين. اقصص رؤياك». فقلت: رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لا حب، والناس على الجادة منطلقين، فبينما هم كذلك، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عينى مثله، يرف رفيفا، يقطر ماؤه، فيه من أنواع الكلأ، قال: وكأنى بالرعلة[٣] الأولى حين أشفوا على المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم فى الطريق، فلم يظلموه يمينا ولا شمالا. قال: فكأنى أنظر إليهم منطلقين. ثم جاءت الرعلة الثانية وهم أكثر منهم أضعافا، فلما أشفوا على المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم فى الطريق، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث. ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا: (هذا خير المنزل). كأنى أنظر إليهم يميلون يمينا وشمالا، فلما رأيت ذلك، لزمت الطريق حتى آتى أقصى المرج، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت فى أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل آدم شثل أقنى، إذا هو تكلم يسمو فيفرع الرجال طولا، وإذا عن يسارك رجل ربعة باذ[٤] كثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعره بالماء، إذا هو تكلم، أصغيتم إكراما له. وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقا ووجها، كلكم تؤمونه تريدونه، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها. قال: فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سرى عنه، وقال رسول الله ﷺ: «أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللا حب، فذاك ما حملتم[٥] عليه من الهدى وأنتم عليه. وأما المرج الذى رأيت، فالدنيا[٦] مضيت أنا وأصحابى لم نتعلق منها بشيء، ولم تتعلق منا، ولم نردها ولم تردنا. ثم جاءت[٧] الرعلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافا، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث، ونجوا[٨] على ذلك. ثم جاء عظم الناس، فمالوا فى المرج يمينا وشمالا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأما أنت، فمضيت على طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقانى. وأما المنبر الذى رأيت فيه سبع درجات وأنا فى أعلاها درجة، فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا فى آخرها ألفا. وأما الرجل الذى رأيت على يمينى الآدم الشثل، فذاك موسى، عليه السلام، إذا تكلم، يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه. والذى رأيت عن يسارى الباز الربعة الكثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعرة بالماء، فذاك عيسى ابن مريم، نكرمه لإكرام الله إياه. وأما الشيخ الذى رأيت أشبه الناس بى خلقا ووجها فذاك أبونا إبراهيم، كلنا نؤمه

---

(١) فى م، أ: «عبد الله». (٢) فى م، أ: «مسلم». (٣) فى أ: «وكانوا بالرعلة».
(٤) فى م: «بار». (٥) فى أ: «حملتكم». (٦) فى م، أ: «فالدنيا ونضارة عيشها».
(٧) فى م: «ثم كانت». (٨) فى م: «ثم نجوا».

ونقتدى به. وأما الناقة التى رأيت ورأيتنى أبعثها، فهى الساعة، علينا تقوم، لا نبى بعدى، ولا أمة بعد أمتى». قال: فما سأل رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجىء الرجل، فيحدثه بها متبرعا[(١)].

وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾: قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب، يعنى: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، وغيره.

وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمى وضين الناقة الذى تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ.

وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، أما الأكواب، فهى: الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التى جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أى: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة.

وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال.

وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطية، وقتادة، والسدى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس.

وقالوا فى قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أى: لا تذهب بعقولهم.

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار.

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، ويدل على ذلك حديث «عِكْراش ابن ذؤيب» الذى رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا العباس بن الوليد النَرْسِى، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبى سوية، حدثنا عبيد الله بن عِكْراش، عن أبيه عِكْراش بن ذؤيب، قال: بعثنى بنو مرة فى صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى، قال: «من الرجل؟»

---

(١) دلائل النبوة (٣٦/٧) وفى إسناده سليمان بن عطاء بن قيس. قال ابن حبان فى المجروحين (٣٢٩/١): «شيخ يروى عن مسلمة ابن عبد الله الجهنى، عن عمه أبى مشجعة بن ربعى بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدرى التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله».

قلت: عِكْراش بن ذؤيب. قال: «ارفع فى النسب»، فانتسبت له إلى «مرة بن عبيد»، وهذه صدقة «مرة بن عبيد». فتبسم رسول الله ﷺ. قال: هذه إبل قومى، هذه صدقات قومى. ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها. ثم أخذ بيدى فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: «هل من طعام؟» فأتينا بجفنة كثيرة الثريد والوذر، فجعل يأكل منها، فأقبلت أخبط بيدى فى جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدى اليمنى، فقال: «يا عِكْراش، كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد». ثم أتينا بطبق فيه تمر، أو رطب ـ شك عبيد الله رطبا كان أو تمرا ـ فجعلت آكل من بين يدى، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق، وقال: «يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد». ثم أتينا بماء، فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح بِبَلَلِ كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثا، ثم قال: «يا عِكْراش، هذا الوضوء مما غيرت النار».

وهكذا رواه الترمذى مطولا وابن ماجه جميعا، عن محمد بن بشار، عن أبى الهذيل العلاء بن الفضل، به(١). وقال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز بن أسد وعفان ـ وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان ـ قالوا: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا ثابت، قال: قال أنس: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثنى عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وَجبَة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسَمَّتْ اثنى عشر رجلا، كان النبى ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ ـ أو: البيذخ ـ قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسره ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان(٢) من أمرنا(٣) كذا وكذا، وأصيب(٤) فلان وفلان. حتى عد اثنى عشر رجلا، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصى رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال.

هذا لفظ أبى يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم(٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا ريحان ابن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قِلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان، قال: قال

---

(١) سنن الترمذى برقم (١٨٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٧٤) وعبيد الله بن عكراش تكلم فيه، وتكلم فى حديثه هذا. قال البخارى: «لا يثبت حديثه» ونقل العقيلى عنه أنه قال: «فى إسناده نظر».

(٢) فى م، أ: «فقال: ما كان». (٣) فى م، أ: «رؤيا».

(٤) فى م، أ: «فأصيب».

(٥) المسند للإمام أحمد (٣/ ١٣٥) ومسند أبى يعلى برقم (٣٢٨٩) (٦/ ٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧٥): «رجاله رجال الصحيح».

رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة فى الجنة، عادت مكانها أخرى»[١].

وقوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعى، حدثنا ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، يرعى[٢] فى شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكلتها[٣] أنعم منها ـ قالها ثلاثا ـ وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه[٤].

وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه «صفة الجنة» من حديث إسماعيل بن على الخُطَبىّ، عن أحمد بن على الخُيُوطى، عن عبد الجبار بن عاصم، عن عبد الله بن زياد، عن زُرْعَة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ذكرت عند النبى ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، هل بلغك ما طوبى؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «طوبى شجرة فى الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفا، ورقها الحلل، يقع عليها الطير كأمثال البخت». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيرا ناعما؟ قال: «أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله»[٥].

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾: ذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إنى أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون. قال: «من يأكلها ـ والله يا أبا بكر[٦]ـ أنعم منها، وإنها لأمثال البخت، وإنى لأحتسب على الله أن تأكل منها[٧] يا أبا بكر»[٨].

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنى مجاهد بن موسى، حدثنا مَعْنُ بن عيسى، حدثنى ابن أخى ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربى، عز وجل، فى الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها».

وكذا رواه الترمذى عن عبد[٩] بن حميد، عن القَعْنَبِى، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أبيه، عن أنس وقال: حسن[١٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسى، حدثنا أبو معاوية عن عبيد الله[١١] بن الوليد الوَصَّافى، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) المعجم الكبير (٢/١٠٢) وفى إسناده عباد متكلم فيه.
(٢) فى م: «ترعى». (٣) فى م، أ: «أكلها».
(٤) المسند (٣/٢٢١).
(٥) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٤/٦٤٩).
(٦) فى م: «يا أبا بكر والله». (٧) فى م: «أن آكل منها».
(٨) وهذا مرسل، وقد روى من طريق الحسن مرسلا أيضا، أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٢/١٣).
(٩) فى م: «عبيد» وهو خطأ.
(١٠) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٢) وقال فيه: «حسن غريب».
(١١) فى أ: «عبد الله».

«إن فى الجنة لطيرا فيه سبعون ألف ريشة، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة فينتفض، فيخرج من كل ريشة ـ يعنى: لونا ـ أبيض من اللبن، وألين من الزبد، وأعذب من الشهد، ليس منها لون يشبه صاحبه(١) ثم يطير»(٢).

هذا حديث غريب جدا، والوَصَّافى وشيخه ضعيفان. ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى الليث، حدثنا خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن أبى حازم، عن عطاء، عن كعب، قال: إن طائر الجنة أمثال البخت، يأكل(٣) مما خلق من ثمرات الجنة، ويشرب(٤) من أنهار الجنة، فيصطففن له، فإذا اشتهى منها شيئا أتاه حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شىء. صحيح إلى كعب.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا»(٥).

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾: قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثانى: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك فى القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل فى الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه، كما تقدم فى «سورة الصافات» ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] وقد تقدم فى سورة «الرحمن» وصفهن أيضا؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

ثم قال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ أى: لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا، أى: غثا(٦) خاليا عن المعنى، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لا تَسْمَعُ

---

(١) فى أ: «الآخر».
(٢) ورواه هناد فى الزهد برقم (١١٩) حدثنا أبو معاوية به.
(٣) فى م: «يأكلن».
(٤) فى م: «يشربن».
(٥) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج منكر الحديث.
(٦) فى م: «عبثا».

فيها لاغية ﴾ [الغاشية:١١] أى : كلمة لاغية ﴿ **ولا تأثيما** ﴾ أى : ولا كلاماً فيه قبح [(١)] ، ﴿ **إلا قيلاً سلاماً سلاماً** ﴾ أى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : ﴿ **تحيتهم فيها سلام**﴾ [إبراهيم:٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم .

﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)** ﴾ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين ـ وهم المقربون ـ عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين ـ وهم الأبرار ـ كما قال ميمون بن مِهْرَان : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين ، فقال : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين**﴾ أى : أى شىء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم[(٢)] ؟ ثم فسر ذلك فقال : ﴿ **في سدر مخضود** ﴾ . قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الأحوص ، وقسامة بن زُهَير ، والسفر بن نُسَير ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن كثير ، والسُّدِّى ، وأبو حَرْزَة ، وغيرهم: هو الذى لا شوك فيه . وعن ابن عباس : هو الموقَر بالثمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضا : كنا نُحدَّث أنه المُوقَر الذى لا شوك فيه .

والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله ، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجّاد .

حدثنا محمد [(٣)] بن محمد هو البغوى ، حدثنى حمزة بن عباس [(٤)] ، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يا رسول الله، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ:« وما هى ؟ » . قال :السِّدر ، فإن له شوكاً موذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ **فى سدر مخضود** ﴾ ، خَضَد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تَفَتَّق الثمرةُ منها عن اثنين [(٥)] وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر » [(٦)] .

طريق أخرى : قال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنى ثور بن يزيد ، حدثنى حبيب بن عبيد ، عن عُتْبة بن عبد السلمى

(١) فى م : « قبيحاً » . (٢) فى أ : « وكيف حالهم » . (٣) فى أ : « وحدثنا عبد الله » .
(٤) فى م ، أ : « بن العباس » . (٥) فى أ : « عن مائتى » .
(٦) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٧٦) من طريق الربيع ، عن بشر بن بكر ، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر ، عن أبى أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ، فذكر مثله ،وقال الحاكم: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا رسول الله ، أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ؟ يعنى : الطلح ، فقال رسول الله ﷺ: « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَة التيس الملبود ، فيها سبعون لوناً من الطعام ،لا يشبه لون آخر» [(١)] .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ : الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضَاه ، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة [(٢)] :

بَشَّرَها دَلِيلها وقالا : غَداً تَرينَ الطَّلحَ والجبَالا

قال مجاهد : ﴿ مَنضُودٍ ﴾ أى : متراكم الثمر ، يذكر بذلك قريشاً ؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجّ، وظلاله من طلح وسدر .

وقال السدى: ﴿مَنضُودٍ﴾ : مصفوف . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال الجوهرى : والطلح لغة فى الطلع .

قلت : وقد روى ابن أبى حاتم من حديث الحسن بن سعد ، عن شيخ من همدان قال : سمعت علياً يقول : هذا الحرف فى ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية ، عن إدريس ، عن جعفر بن إياس،عن أبى نضرة ،عن أبى سعيد :﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال :الموز .قال:وروى عن ابن عباس،وأبى هريرة،والحسن ، وعكرمة ، وقسامة بن زهير ،وقتادة ، وأبى حَزْرَة ، مثل ذلك ، وبه قال مجاهد، وابن زيد ـ وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح .ولم يحك ابن جرير غير هذا القول [(٣)] .

وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ : قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ـ يبلُغُ به النبى ﷺ ـ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث الأعرج ، به [(٤)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا فُلَيح ، عن هلال بن على ، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » .

---

(١) البعث لابن أبى داود برقم (٦٩) ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين برقم (٤٩٢) وعنه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠٣) عن أبى زرعة ، عن أبى مسهر ، عن يحيى بن حمزة به ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٤١٤) : « رجاله رجال الصحيح ».

(٢ ، ٣) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٠٤) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٦) .

وكذا رواه البخارى ، عن محمد بن سنَان [١] ، عن فليح ، به [٢] ، وكذا رواه عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن هَمَّام ، عن أبى هريرة [٣] . وكذا رواه حماد بن سلمة ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة [٤] ، والليث بن سعد ، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبيه ، عن أبى هريرة [٥] ، وعوف ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة [به] [٦] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هُرَيرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ، أو مائة سنة ، هى شجرة الخلد » [٧] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » .

إسناد جيد، ولم يخرجوه [٨] . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن عبدة وعبد الرحيم، عن محمد بن عمرو ، به . وقد رواه الترمذى، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، به [٩] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْرَان ، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن زياد ـ مولى بنى مخزوم ـ عن أبى هريرة قال : إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ . فبلغ ذلك كعباً فقال : صدق ، والذى أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد ، لو أن رجلا ركب حِقَّة أو جَذَعة ، ثم دار حول [١٠] تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرَماً ، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه ، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما فى الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة [١١] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن مِنْهَال الضرير ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أنس، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾، قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .

وكذا رواه البخارى ، عن روح بن عبد المؤمن ، عن يزيد بن زُرَيع [١٢] ، وهكذا رواه أبو داود

(١) فى هـ : « محمد بن شيبان » والمثبت من م ، أ ، وصحيح البخارى .
(٢) المسند (٢/ ٤٨٢) وصحيح البخارى برقم (٣٢٥٢) .
(٣) المصنف لعبد الرزاق برقم (٢٠٨٧٧) .
(٤) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٤٦٩) .
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٢٦) .
(٦) زيادة من م .
(٧) المسند (٢/ ٤٤٥) .
(٨) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤٣٣٥) من طريق عبد الرحمن بن عثمان ، عن محمد بن عمرو ، به مثله .
(٩) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) .
(١٠) فى م : « بأعلى » ، وفى أ : « بأصل » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠٥) .
(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٥١) .

الطيالسى ، عن عمران بن دَاوَر القطان ، عن قتادة ، به . وكذا رواه مَعْمَر ، وأبو هلال ، عن قتادة، به . وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع مائة عام ما يقطعها » [(١)] .

فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيده ، وثقة رجاله .

وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا أبو حُصَين قال : كنا على باب فى موضع ، ومعنا أبو صالح وشقيق ـ يعنى: الضبى ـ فحدث أبو صالح قال : حدثنى أبو هُرَيرة قال : إن فى الجنة شجرةً يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما . قال أبو صالح : أتكَذّب أبا هريرة ؟ قال : ما أكذّب أبا هريرة ، ولكنى أكذِّبك أنت . فشق ذلك على القراء يومئذ [(٢)] .

قلت : فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعه إلى رسول الله ﷺ .

وقال الترمذى : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا زياد بن الحسن بن الفُرَات القَزَّاز ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : حسن غريب[(٣)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن أبى الربيع ، حدثنا أبو عامر العَقَدى ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وَهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق ظلها ، قدر ما يسير الراكب فى نواحيها مائة عام . قال : فيخرج إليها أهل الجنة ؛ أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون فى ظلها . قال : فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا .

هذا أثر غريب ، وإسناده جيد قَوىّ حسن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن[(٤)] يمان ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ قال : سبعون ألف سنة . وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار ، عن ابن مهدى ، عن سفيان ، مثله . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ قال : خمسمائة ألف سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ،حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا حُصَيْن بن نافع ، عن الحسن فى قول الله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ قال : فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة لا يقطعها .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧ ، ٢٨٢٨).
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/١٠٦) .
(٣) سنن الترمذى برقم (٢٥٢٥) .
(٤) فى أ : « حدثنا أبو » .

وقال عوف ، عن الحسن : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » . رواه ابن جرير [١] .

وقال شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : في الجنة شَجَر لا يحمل ، يُستظَلُّ به . رواه ابن أبي حاتم .

وقال الضحاك ، والسدي ، وأبو حَزْرَةَ في قوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر .

وقال ابن مسعود : الجنة سَجْسَج ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقد تقدمت الآيات كقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء:٥٧] ، وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد:٣٥] ، وقوله : ﴿ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات:٤١] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال الثوري : [يعني] [٢] يجري في غير أخدود .

وقد تقدم الكلام عند [٣] تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ الآية [محمد:١٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة:٢٥] أي : يشبه الشكلُ الشكلَ ، ولكن الطعم غيرُ الطعم . وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلالَ هجر » [٤] .

وفيهما أيضاً ،من حديث مالك ، عن زيد ، عن عطاء بن يَسَار ، عن ابن عباس قال : خُسِفَت الشمس ،فصلى رسولُ الله ﷺ والناس معه ، فذكر الصلاة . وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت [٥] . قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » [٦] .

وقال الحافظ أبو يعلى :حدثنا أبو خَيْثَمة ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا ابن [٧] عقيل ، عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبيّ بن كعب : يا رسول الله ، صنعتَ اليومَ

(١) تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٥) .
(٢) زيادة من م،أ . (٣) في م ،أ : « على » .
(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٢) من حديث أنس ، رضي الله عنه .
(٥) في أ :« تكفكفت » .
(٦) صحيح البخاري برقم (١٠٥٢) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧) .
(٧) في م ، أ : «حدثنا أبو » .

فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ؟ قال : « إنه عُرِضَتْ علَىَّ الجنة ، وما فيها من الزَّهْرَة والنُّضْرَة ، فتناولت منها قِطْفاً من عنب لآتيكم به ، فحِيلَ بينى وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه »[(١)] .

وروى مسلم ، من حديث أبى الزبير ، عن جابر ، نحوه[(٢)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن بحر ، حدثنا هشام بن يوسف ، أخبرنا مَعْمَر ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن عامر بن زيد البكَالى : أنه سمع عُتبةَ بن عَبْد السلمى يقول : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال[(٣)] الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى » ، فذكر شيئاً لا أدرى ما هو ، قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : « ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك » . فقال النبى ﷺ : « أتيتَ الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجَوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : «لو ارتحلت جَذَعَة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » . قال : فيها عنب ؟ قال: « نعم » . قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر » . قال : فما عظَم الحَبَّة ؟ قال : « هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم . قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذى لنا منه دلواً ؟ » . قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : « نعم وعامَّة عشيرتك »[(٤)] .

وقوله : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبدا ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء .

قال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ . وقد تقدم فى الحديث : « إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى » .

وقوله : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أى: عالية وطيئة ناعمة .

قال النسائى وأبو عيسى الترمذى : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا رِشْدِين بن سعد ، عن عَمرو بن الحارث ، عن درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام »[(٥)] .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه ، إلا من حديث رشدين بن سعد . قال : وقال بعض أهل العلم : معنى هذا الحديث : ارتفاع الفرش فى الدرجات ، وبعد ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض .

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية :٣٥ من سورة الرعد.

(٢) تقدم الحديث فى الموضع السابق .

(٣) فى م : « فقال » .

(٤) المسند (٤/ ١٨٤) .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٠) ووقع فيه :« هذا حديث غريب لا نعرفه »ليس فيه : « حسن » وكذا وقع فى تحفة الأشراف .

هكذا قال : إنه لا يعرف هذا إلا من رواية رشدين بن سعد ، وهو المصرى ، وهو ضعيف . وهكذا رواه أبو جعفر بن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن رشدين [١] . ثم رواه هو وابن أبى حاتم ، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، فذكره . وكذا رواه ابن أبى حاتم أيضاً عن نُعَيم بن حماد ، عن ابن وهب . وأخرجه الضياء فى صفة الجنة من حديث حرملة، عن ابن وهب ، به مثله . ورواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى ، عن ابن لَهِيعة ، حدثنا دراج ، فذكره [٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية، عن جُوَيبر ، عن أبى سهل ـ يعنى : كثير بن زياد ـ عن الحسن : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ : جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش ، على النساء اللاتى يضاجعن فيها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، كما فى قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص:٣١ ، ٣٢] يعنى : الشمس ، على المشهور من قول المفسرين .

قال الأخفش فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك . وقال أبو عبيدة : ذكرن فى قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ ، ٢٣] .

فقوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أى : أعدناهن فى النشأة الآخرة بعدما كُنّ عجائز[٣] رُمْصاً ، صرن أبكاراً عرباً ، أى : بعد الثّيوبة عدن أبكاراً عُرُباً ، أى : متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة .

وقال بعضهم : ﴿ عُرُبًا﴾ أى : غَنِجات .

قال موسى بن عُبَيدة الرَّبَذىّ ، عن يزيد الرّقاشى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ، قال : « نساء عجائز كُنّ فى الدنيا عُمْشاً رُمْصاً » . رواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم . ثم قال الترمذى : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفا [٤] [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا آدم ـ يعنى : ابن أبى إياس ـ حدثنا شيبان ، عن جابر ، عن يزيد بن مُرّة ، عن سلمة بن يزيد قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ يعنى : « الثيب والأبكار اللاتى كُنّ فى الدنيا » [٦] .

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠٦) .
(٢) المسند (٣/ ٧٥) .
(٣) فى أ : « ماكن عجاف » .
(٤) فى أ : « ضعيفان » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٦) وتفسير الطبرى (٢٧/ ١٠٧) .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٤٠) وأبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٩) من طريق شيبان به ، وجابر بن يزيد ضعيف .

وقال عبد بن حُمَيد : حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة . فقال : « يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز » . قال : فَوَلَّتْ تبكى ، قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذى فى الشمائل ، عن عبد بن حميد (١) .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا بكر بن سهل الدمياطى ، حدثنا عمرو بن هاشم البيروتى ، حدثنا سليمان بن أبى كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن قول الله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة:٢٢]، قال : «حور :بيض، عين : ضخام العيون ، شُفْر الحوراء بمنزلة جناح النسر » . قلت : أخبرنى عن قوله ﴿ كَأَمْثَالِ (٢) اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٣] ،قال:« صفاؤهن صفاءُ الدر الذى فى الأصداف ، الذى لم تَمَسّه الأيدى ». قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠] . قال : « خَيّراتُ الأخلاق ، حسان الوجوه » . قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٩] ، قال : «رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر ، وهو : الغِرْقِىءُ » . قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن قوله :﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾. قال:«هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رُمْصاً شُمطاً ، خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عُرُباً متعشقات متحببات ، أترابا على ميلاد واحد». قلت : يا رسول الله ، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظّهارة على البطانة » . قلت : يا رسول الله ، وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ، عز وجل ، ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان، خضر الثياب ، صفر الحلى ، مَجَامِرُهن الدُّرّ ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا » . قلت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة ، إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يا رب ، إن هذا كان أحسن خلقاً معى فزوجنيه، يا أم سلمة(٣) ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » (٤) .

وفى حديث الصور الطويل المشهور (٥) : أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله : قد شفعتك وأذنت لهم فى دخولها . فكان رسول الله ﷺ يقول : « والذى بعثنى بالحق ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ،

(١) الشمائل المحمدية للترمذى برقم (٢٣٠) .

(٢) فى أ : « كأنهن» وهو خطأ .

(٣) فى أ :« يا أم سليم» .

(٤) المعجم الكبير (٢٣/٣٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١١٩) : « فيه إسماعيل بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى » .

(٥) حديث الصور مضى عند تفسير الآية :٧٣ من سورة الأنعام .

فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، وثنتين من ولد [(١)] آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مُكَلَّل باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سُنْدُس وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة ــ يعنى : وكبدها له مرآة ــ فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذَكَره ولا تشتكى قُبُلها إلا أنه لا منى ولا مَنيَّة ، فبينما هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة [(٢)] ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما فى الجنة شىء أحسن منك ، وما فى الجنة شىء أحب إلىّ منك » .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن دَرّاج ، عن ابن حُجَيرة [(٣)] ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال له : أنَطأ فى الجنة ؟ قال : « نعم والذى نفسى بيده ، دَحْماً، دحماً ، فإذا قام عنها رَجَعت مُطهَّرة بكراً » [(٤)] .

وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادى ، حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيق الواسطى ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن الواسطى ، حدثنا شريك ، عن عاصم الأحول ، عن أبى المتوكل،عن أبى سعيد قال:قال رسول الله ﷺ:« إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» [(٥)] .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء » . قلت : يا رسول الله ، ويُطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود وقال : صحيح غريب [(٦)] .

وروى أبو القاسم الطبرانى من حديث حُسين بن على الجعفى ، عن زائدة ، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نسائنا فى الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء » [(٧)] .

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى : هذا الحديث عندى على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عُرُبًا﴾ : قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعنى متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة ، هى كذلك .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال عبد الله بن سَرْجس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية ، ويحيى بن أبى كثير ، وعطية ،

---

(١) فى م : «من ابن» . (٢) فى م : « واحدة بعد واحدة » . (٣) فى أ : « عن ابن حجرة » .

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٣٣) « موارد » وأبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٩٣) من طريق ابن وهب به ، ودراج متكلم فيه.

(٥) المعجم الصغير (١/ ٩١) وفيه معلى بن عبد الرحمن وهو كذاب .

(٦) مسند الطيالسى برقم (٢٠١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٣٦) .

(٧) المعجم الصغير (٢/ ١٢، ١٣) .

والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

وقال ثور بن زيد ، عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : هى المِلقَةُ لزوجها .

وقال شعبة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة : هى الغَنِجة .

وقال الأجلح بن عبد الله ، عن عكرمة : هى الشَّكِلة .

وقال صالح [١] بن حيَّان ، عن عبد الله بن بريدة فى قوله : ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة [٢] بلغة أهل المدينة .

وقال تميم بن حذلم : هى حسن التَّبَعل .

وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : العُرُب : حسنات الكلام .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن سهل بن عثمان العسكرى : حدثنا أبو على ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عُرُبًا﴾ قال : « كلامهن عربى » .

وقوله : ﴿ أَتْرَابًا﴾ : قال الضحاك ، عن ابن عباس يعنى: فى سن واحدة ،ثلاث وثلاثين سنة .

وقال مجاهد : الأتراب : المستويات . وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : ﴿أَتْرَابًا﴾ أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعنى : لا كما كن ضرائر [فى الدنيا] [٣] ضرائر متعاديات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عبد الله بن الكهف ، عن الحسن ومحمد : ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ قالا : المستويات الأسنان ، يأتلفن جميعاً ، ويلعبن جميعاً .

وقد روى أبو عيسى الترمذى ، عن أحمد بن منيع ، عن أبى معاوية ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لمجتمعاً للحور العين ، يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق بمثلها ، يقلن [٤] : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنّا له » . ثم قال : هذا حديث غريب [٥] .

وقال الحافظ أبو[٦] يعلى : حدثنا أبو خَيْثَمة ، حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن فلان بن عبد الله بن رافع ، عن بعض ولد أنس بن مالك ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليغنين [٧] فى الجنة ، يقلن : نحن خَيِّرات حسان ، خبئنا لأزواج كرام » [٨] .

---

(١) فى أ : « أبو صالح » . (٢) فى م : « والمفتوحة » . (٣) زيادة من م . (٤) فى م ، أ : « قال : قلن » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٤) .
(٦) فى هـ : « ابن » ، والصواب ما أثبتناه من م، أ . (٧) فى م : « ليتغنين » .
(٨) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (٤٠٢/٤) وعزاه لأبى يعلى ، ونقل المحقق قول البصيرى : « رواره أبو يعلى وفيه راوٍ لم يسم » . ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٢٥٤): حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن ابن عبد الله بن رافع ، عن بعض ولد أنس بن مالك ، عن أنس بن مالك به .

قلت : إسماعيل بن عُمَر هذا هو أبو المنذر الواسطى أحد الثقات الأثبات . وقد روى هذا الحديث الإمام عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدُحَيْم ، عن ابن أبى فُدَيْك ، عن ابن أبى ذئب ، عن عون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع ، عن ابن لأنس ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحور العين يغنين فى الجنة : نحن الجوار الحسان ، خلقنا لأزواج كرام »(١) .

وقوله : ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى: خلقنا لأصحاب اليمين ، أو : ادخرن لأصحاب اليمين ، أو: زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير(٢) .

رُوى عن سليمان الدّارانى ـ رحمه الله ـ قال : صليتُ ليلة ، ثم جلست أدعو ، وكان البردُ شديداً ، فجعلت أدعو بيد واحدة ، فأخذتنى عينى فنمت ، فرأيت حوراء لم ير مثلها وهى تقول : يا أبا سليمان ، أتدعو بيد واحدة وأنا أغذّى لك فى النعيم من خمسمائة سنة !

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم ، من حديث جرير ، عن عُمَارة بن القعقاع ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرّىّ فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألُوّة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خَلْقِ رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء »(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ـ وروى الطبرانى، واللفظ له ، من حديث حماد بن سلمة ـ عن على بن زيد بن جُدْعَان ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهلُ الجنة الجنةَ جُرداً مُرداً بيضاً جِعَاداً مُكَحّلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع »(٤) .

وروى الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن عمران القطان ، عن قتادة ، عن شَهْر بن حَوْشب ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن مُعَاذ بن جَبَل ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة » . ثم قال : حسن غريب(٥) .

---

(١) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٤٣٢) من طريق دحيم به ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٤٢٠) من طريق ابن عبد الحكم ، وابن أبى داود فى البعث برقم (٧٥) عن كثير بن عبيد كلاهما عن ابن أبى فديك به نحوه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٨٧) « مجمع البحرين» من طريق الحسن بن داود عن ابن أبى فديك ، عن ابن أبى ذئب ، عن عون بن الخطاب ، عن أنس به نحوه. قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/٢٢٦) : « رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى وإسناده مقارب ، ورواه البيهقى عن ابن لأنس لم يسمه عن أنس » وأشار البخارى إلى اختلاف فيه فى التاريخ الكبير (٧/١٦) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/١٠٩) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .

(٤) المسند (٢/٢٩٥) والمعجم الأوسط برقم (٤٨٩٤) « مجمع البحرين » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٥) .

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو بن الحارث أنّ درّاجاً أبا السمح حدّثه عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير ، يُردون بنى ثلاث وثلاثين فى الجنة ، لا يزيدون عليها أبداً ، وكذلك أهل النار » .

ورواه الترمذى عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، به (١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا القاسم بن هاشم ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنى روّاد ابن الجراح العسقلانى ، حدثنا الأوزاعى ، عن هارون بن رئاب ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: « يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ على طول آدم ، ستين ذراعاً بذراع الملك ! على حُسْن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَلون » (٢) .

وقال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا محمود بن خالد وعباس بن الوليد قالا : حدثنا عمر ، عن الأوزاعى ، عن هارون بن رئاب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث (٣) أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد ثَلاثٍ وثَلاثينَ ، جُرداً مرداً مكحلين ، ثم يذهب بهم إلى شجرة فى الجنة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم » (٤) .

وقوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ أى: جماعة من الأولين،وجماعة من الآخرين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بَشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حُصَين ، عن عبد الله بن مسعود ـ قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض ـ قال : أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه ، فقال : « عُرضت علىّ الأنبياء وأتباعها بأممها ، فيمر علىّ النبى ، والنبى فى العصابة ، والنبى فى الثلاثة ، والنبى ليس معه أحد ـ وتلا قتادة هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود:٧٨] ـ قال : حتى مَرّ علىَّ موسى ابن عمران فى كَبْكَبَة من بنى إسرائيل ، قال : « قلتُ : ربى ، من هذا ؟ . قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه (٥) من بنى إسرائيل » . قال : « قلت : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الظراب(٦) » . قال : « فإذا وجوه الرجال » . قال : « قال : أرضيت ؟ » . قال : قلت :« قد رضيت ، رب » . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك . فإذا وجوه الرجال . قال : أرضيت؟ قلت : « رضيت ، رب ». قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفا ،يدخلون الجنة بغير حساب ». قال : وأنشأ عُكَّاشة بن محْصَن من بنى أسد ـ قال سعيد : وكان بَدْرياً ـ قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : فقال : « اللهم اجعله منهم ».قال : أنشأ (٧) رجل آخر، قال : يا نبى الله، ادع الله

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٢) ورواه من طريق ابن وهب، وأبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٥٩) .
(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢١٥) .
(٣) فى أ : « يدخل » .
(٤) البعث لابن أبى داود برقم (٦٤) وانظر كلام المحقق الفاضل فى سماع هارون بن رئاب عن أنس .
(٥) فى م : « ومن تبعه » . (٦) فى م ،أ : « الضراب» . (٧) فى م : « ثم أنشأ » .

أن يجعلنى منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم ـ فداكم أبى وأمى ـ أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا [١] من أصحاب الظراب[٢]، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإنى قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشّبوا حوله » [٣] . ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » . قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾. قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفاً ؟ فقلنا :هم الذين ولدوا فى الإسلام ، ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك ، فقال: « بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين ، عن قتادة ، به نحوه [٤] . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهْرَان ، حدثنا سفيان ، عن أبان بن أبى عياش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ « هُمَا جميعاً من أمتى » [٥] .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾ .

لما [٦] ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال،فقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أى : أى شىء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فَسَّر ذلك فقال : ﴿فِى سَمُومٍ﴾ وهو : الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو : الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ : قال ابن عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسُّدِّى ، وغيرهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ . لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ .

(١) فى م :« ولا تكونوا ». (٢) فى أ : « الضراب » . (٣) فى م : « حوالهم » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/١٠٩) .
(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١٠) ورواه ابن عدى فى الكامل (١/ ٣٨٧) من طريق محمد بن كثير ، عن سفيان الثورى ، عن أبان بن أبى عياش به ،وقال ابن عدى :« أبان بن أبى عياش له روايات غير ما ذكرت ، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه » .
(٦) فى م : « ولما » .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات:٢٩ـ٣٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ أى : ليس طيب الهبوب ولا حَسَن المنظر ، كما قال الحسن وقتادة : ﴿وَلا كَرِيمٍ ﴾ أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى ، فيقولون : « هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة » .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ أى : يُصَمّمون ولا ينوون توبة ﴿ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله .

قال ابن عباس : ﴿ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الشعبى : هو اليمين الغموس .

وكانوا يقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ ؟ يعنى : أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة ، لا نغادر منهم أحداً ، كما قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٣ـ ١٠٥] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : هو موقت بوقت مُحَدد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ : وذلك أنهم يقبضون ويُسجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملؤوا منها بطونهم ، ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ وهى الإبل العطاش ، واحدها أهيم ، والأنثى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء .

وعن عكرمة أنه قال : الهيم : الإبل المراض ، تمص الماء مصاً ولا تَرْوَى .

وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تَرْوى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً .

وعن خالد بن معدان : أنه كان يكره أن يشرب شُرْبَ الهيم عَبَّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال فى حق المؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧] أى : ضيافة وكرامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى مُقرراً للمعاد [١] ، ورداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات:١٦] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ؛ فلهذا قال : ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ أى : صرفناه بينكم .

وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى : نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من الصفات والأحوال .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ـ وهى البَداءة ـ قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، وكما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] ،وقال: ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم:٦٧] ، وقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٧ـ ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ [القيامة:٣٦ـ ٤٠] .

---

(١) فى أ : « للعباد » .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

يقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ، ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ ؟ أى : تنبتونه فى الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين نقره قراره وننبته فى الأرض .

قال ابن جرير : وقد حدثنى أحمد بن الوليد القرشى ، حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجَرْمى ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولن : زرعتُ ، ولكن قل : حرثتُ » ، قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ .

ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم ، عن مسلم الجميع ، به (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن : لا تقولوا : زرعنا ، ولكن قولوا : حرثنا .

وروى عن حُجْر المدَرِىّ أنه كان إذا قرأ : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ وأمثالها ، يقول : بل أنت يا رب .

وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أى : لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾. ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لو جعلناه حطاماً لظَلْتم تفكهون فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أى : لَمُلْقَون .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمولع بنا . وقال قتادة : معذبون . وتارة تقولون : بل نحن محرومون .

وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ ملقون للشر ، أى : بل نحن مُحَارَفون ، قاله قتادة ، أى: لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح .

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١١٣٥) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ١٣٨) من طريق مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، عن مخلد بن الحسين به نحوه ، وضعفه السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٢٣) وأشار البيهقى إلى ضعفه فقال بعد أن ذكره من قول مجاهد : « وقد روى فيه حديث مرفوع غير قوى » .

وقال مجاهد : ﴿ بَلْ نحنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : محدودون ، يعنى : لا حظ لنا .

قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ فَظَلْتُمْ تفكَّهُونَ ﴾ : تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : ﴿ فَظَلْتُم تفكَّهُونَ ﴾ : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم .

وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير [(١)] .

وقال عكرمة : ﴿ فَظَلْتُمْ تفكَّهُونَ ﴾ : تلاومون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَظَلْتُمْ تفكَّهُونَ ﴾ : تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم ، أو على ما أسلفتم من الذنوب .

قال الكسائى [(٢)] : تفكه من الأضداد ، تقول العرب : تفكهت بمعنى تنعمت ، وتفكهت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعنى: السحاب . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد. ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُون ﴾ يقول : بل نحن المنزلون. ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى : زُعاقاً مُرّاً لا يصلح لشرب ولا زرع ، ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ! ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن مرة ، حدثنا فُضَيل بن مرزوق ، عن جابر ، عن أبى جعفر ، عن النبى ﷺ : أنه إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقاناه عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا » [(٣)] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴾ أى : تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها [(٤)] من أصلها ، ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفَار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحُك أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار .

وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : أى تُذَكّر النارَ الكبرى .

قال قتادة : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : « يا قوم ، ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ! قال : « قد ضُربت بالماء ضربتين ـ أو : مرتين ـ حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها » [(٥)] .

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١٥) .

(٢) فى أ : « قال السدى » .

(٣) وهذا مرسل ، وعزاه الهندى فى كنز العمال (٧/ ١١١) إلى أبى نعيم فى الحلية .

(٤) فى م: « وتستخرجون » .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٧/ ١١٧) .

وهذا الذى أرسله قتادة رواه الإمام أحمد فى مسنده ، فقال :

حدثنا سفيان ، عن أبى الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) .

وقال الإمام مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ». فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية. فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » .

رواه البخارى من حديث مالك ، ومسلم من حديث أبى الزناد (٢) ، ورواه مسلم ، من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر عن همام ، عن أبى هريرة ، به (٣) . وفى لفظ : « والذى نفسى بيده ، لقد فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها » .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنا مَعْن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عمه أبى السهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من [دخان] (٤) ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٥) .

قال الضياء المقدسى : وقد رواه ابن (٦) مصعب ، عن مالك ولم يرفعه ، وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن عربى : معنى ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : « أقوت الدار إذا رحل أهلها » .

وقال غيره : القىّ والقَوَاء : القفر الخالى البعيد من العمران .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار . وكذا روى سفيان ، عن جابر الجعفى ، عن مجاهد .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : المستمتعين ، الناس أجمعين . وكذا ذكر عن عكرمة .

---

(١) المسند (٢/ ٢٤٤) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٤) زيادة من المعجم الأوسط للطبرانى .

(٥) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٣) «مجمع البحرين » .

(٦) فى م ، أ : « وقد رواه أبو » .

وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير الكل[١] محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى خِدَاش حَبَّان بن زَيد الشَّرعَبى الشَّامى ، عن رجل من المهاجرين من قَرَن ، أن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلأ والماء » [٢] .

وروى ابن ماجة بإسناد جيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يُمنعن : الماء والكلأ والنار » [٣] .

وله من حديث ابن عباس مرفوعاً مثل هذا وزيادة: «وثمنه حرام» [٤]، ولكن فى إسناده «عبد الله ابن خِراشَ بن حَوْشب » وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجراً لهم فى المعاد .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ .

قال جُوَيبر ، عن الضحاك: إن الله لا يقسم بشىء من خلقه ،ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه .

وهذا القول ضعيف . والذى عليه الجمهور أنه قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبير . ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى ، كقول عائشة ، رضى الله عنها : « لا ، والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» وهكذا هاهنا تقدير الكلام : « لا ، أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم » .

---

(١) فى م ،أ :« الجميع » .
(٢) المسند (٥/ ٣٦٤) وسنن أبى داود برقم (٣٤٧٧) .
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٧٣) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٧٢) .

وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد فقيل : أقسم .

واختلفوا في معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال حكيم بن جُبَير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، يعني : نجوم القرآن ؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مُفَرَقا [١] في السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : نزل القرآنُ جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجَّمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة ، فهو قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : نجوم القرآن .

وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسدي ، وأبو حَزْرَة .

وقال مجاهد أيضا : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ في السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضاً : أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ يعني بذلك : الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مُطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي : وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون[٢] عظمته لعظمتم المقسم به عليه ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : إن هذا القرآن الذي نَزَل على محمد لكتاب عظيم . ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي : معظم في كتاب معظم محفوظ موقر .

قال ابن جرير : حدثني إسماعيل بن موسى [٣] ، أخبرنا شريك ، عن حكيم ـ هو ابن جبير ـ عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذي في السماء .

وقال العَوفي ، عن ابن عباس : ﴿ [لا يَمَسُّهُ] [٤] إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يعني : الملائكة . وكذا قال أنس، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، والضحاك ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وأبو نَهِيك، والسدي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس . وقال : وهي في قراءة ابن مسعود : ﴿ ما يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ .

وقال أبو العالية : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ : ليس أنتم أصحاب الذنوب .

وقال ابن زيد: زَعَمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ

---

(١) في أ : « متفرقاً » .
(٢) في أ : « لو علمتم » .
(٣) في م ، أ : « موسى بن إسماعيل » .
(٤) زيادة من م .

لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] .

وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التى قبله .

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به .

وقال آخرون : ﴿ **لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ أى : من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو[١] . واحتجوا فى ذلك بما رواه الإمام مالك فى موطئه ، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم : أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : ألا يمس القرآن إلا طاهر[٢] . وروى أبو داود فى المراسيل ، من حديث الزهرى قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمس القرآن إلا طاهر »[٣] .

وهذه وِجَادةٌ جيدة . قد قرأها الزهرى وغيره ، ومثل هذا ينبغى[٤] الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبى العاصى ، وفى إسناد كل منها نظر[٥] ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى : هذا القرآن منزل من [الله] [٦] رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مِرْية فيه ، وليس وراءه حق نافع .

وقوله : ﴿ **أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ** ﴾ : قال العَوفى ، عن ابن عباس : أى مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك ، وأبو حَزْرة ، والسُّدِّى .

وقال مجاهد : ﴿ **مُّدْهِنُونَ** ﴾ أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم .

﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** ﴾ : قال بعضهم : يعنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أى : تكذبون بدل الشكر .

وقد روى عن على وابن عباس أنهما قرآها : «وتجعلون شكركم [٧] أنكم تكذبون» كما سيأتى .

وقال ابن جرير : وقد ذكر عن الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شَنوءةَ : ما رزق فلان بمعنى : ما شكر فلان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن عبد الأعلى ، عن أبى

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩) وهو أيضاً فى صحيح البخارى برقم (٢٩٩٠) .

(٢) الموطأ (١/ ١٩٩) .

(٣) المراسيل برقم (٢٥٧) .

(٤) فى أ : « لا ينبغى » .

(٥) سنن الدارقطنى (١/ ١٢، ١٢٢) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) فى أ : « بشكركم » .

عبد الرحمن، عن علي ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ، يقول: « شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون: مطرنا بِنَوء كذا وكذا ،بنجم كذا وكذا» (١) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن مُخَوَّل (٢) بن إبراهيم النهدى ـ وابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن عبيد الله بن موسى ، وعن يعقوب بن إبراهيم ، عن يحيى بن أبى بُكَيْر ، ثلاثتهم عن إسرائيل ، به مرفوعاً (٣). وكذا رواه الترمذى عن أحمد بن مَنِيع، عن حسين بن محمد ـ وهو المروزى ـ به ، وقال:« حسن غريب ». وقد رواه سفيان عن عبد الأعلى ، ولم يرفعه (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : ما مُطِر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مُطِرْنا بنوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس : « وتجعلون شكركم أنكم تكذبون » .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وقال مالك فى الموطأ ، عن صالح بن كَيْسان ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن زيد بن خالد الجُهَنّى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » .

أخرجاه فى الصحيحين ، وأبو داود ، والنسائى ، كلهم من حديث مالك ، به (٥) .

وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادى وعَمْرو بن سَوّاد ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، أن أبا يونس حَدّثه عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزلُ الغيث ، فيقولون : بكوكب كذا وكذا » .

تَفرّدَ به مسلم من هذا الوجه (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا سفيان ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لَيُصْبحُ القومَ بالنعمة أو يُمسيهم بها ، فيصبح بها قوم كافرين ، يقولون : مُطِرنا بنوء كذا وكذا » .

---

(١) المسند (١/١٠٨) .

(٢) فى أ : « عن محمد ».

(٣) تفسير الطبرى (٢٧/١١٩) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٥) .

(٥) الموطأ (١/ ١٩٢) وصحيح البخارى برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١) وسنن أبى داود برقم (٣٩٠٦) وسنن النسائى (٣/ ١٦٤).

(٦) صحيح مسلم برقم (٧٢) .

قال محمد ـ هو ابن إبراهيم ـ : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب ، فقال : ونحن قد سمعنا من أبى هُرَيرة ، وقد أخبرنى من شهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهو يستسقى ، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال : يا عباس ، يا عم رسول الله ، كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق بعد سقوطها سبعاً . قال : فما مضت سابعة حتى مُطِروا (١) .

وهذا مَحمول على السؤال عن الوقت الذى أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر ، لا أن ذلك النوء يؤثر بنفسه فى نزول المطر ؛ فإن هذا هو المنهى عن اعتقاده . وقد تقدم شىء من هذه الأحاديث عند قوله : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢] .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية ـ أحسبه أو غيره ـ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا ـ ومطروا ـ يقول : مطرنا ببعض عَشَانين الأسد . فقال : « كذبت ! بل هو رزق الله » (٢) .

ثم قال ابن جرير: حدثنى أبو صالح الصرارى ،حدثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك الأزدى (٣)، حدثنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ قال : « ما مُطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين » (٤) . ثم قال :« ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، يقول قائل : مطرنا بنجم كذا وكذا » (٥) .

وفى حديث عن أبى سعيد مرفوعاً : « لو قُحِط الناس سبع سنين ثم مطروا لقالوا : مطرنا بنوء المِجْدَح » (٦) .

وقال مجاهد : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ : قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاك وغير واحد .

وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بئس ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب . فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ؛ ولهذا قال قبله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى : الروح ﴿ الْحُلْقُومَ ﴾ أى:الحلق ، وذلك حين الاحتضار،

(١، ٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٠) .
(٣) فى أ : « الأودى » .
(٤) فى أ : « كافرون » وهو خطأ .
(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٠) .
(٦) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧) وابن حبان فى صحيحه برقم (٦٠٦) « موارد » من طريق عمرو بن دينار ، عن عتاب بن حنين، عن أبى سعيد بلفظ :« لو أمسك الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء المِجْدح».

كما قال : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة:٢٦ ـ ٣٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى المحتضر وما يُكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أى : بملائكتنا ﴿ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ أى : ولكن لا ترونهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا ﴾ : معناه : فهلا تَرجعُون هذه النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول [١] ، ومقرها فى الجسد إن كنتم غير مدينين .

قال ابن عباس : يعنى محاسبين . ورُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وأبى حَزْرَة ، مثله .

وقال سعيد بن جُبَير ، والحسن البَصْرِىّ : ﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون ، فردوا هذه النفس .

وعن مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غيرموقنين .

وقال ميمون بن مِهْرَان : غير معذبين مقهورين .

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ .

هذه الأحوال الثلاثة هى أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين [٢] ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما يكون من المكذبين الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ أى : المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات و المكروهات وبعض المباحات ، ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء : أن ملائكة الرحمة تقول : « أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » .

قال على بن طلحة [٣] ، عن ابن عباس : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة .

---

(١) فى م : «الأولى» .   (٢) فى أ : « المقربين العلية » .   (٣) فى م ، أ : « على بن أبى طلحة » .

وكذا قال مجاهد : إن الروح : الاستراحة .

وقال أبو حَزْرَة : الراحة من الدنيا . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : الروح : الفرح . وعن مجاهد : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ : جنة ورخاء . وقال قتادة : فروح ورحمة(١). وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ : ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرباً حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ .

وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يُؤتَى بغصن من ريحان الجنة ، فيقبض روحه فيه .

وقال محمد بن كعب : لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم : أمن أهل الجنة هو أم [من] (٢) أهل النار ؟

وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ] (٣) ﴾ [إبراهيم :٢٧] ،ولو كتبت هاهنا لكان حسناً ! ومن جملتها حديث تميم الدارى ، عن النبى ﷺ ، يقول : « يقول الله لملك الموت : انطلق إلى فلان (٤) فائتنى به ، فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب، ائتنى به فلأريحنه . قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة ، ومعهم ضَبَائر الريحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » .

وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم (٥) ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية : قال (٦) الإمام أحمد :

حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا هارون ، عن بُدَيل بن ميسرة (٧) ، عن عبد الله بن شَقِيق ، عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ برفع الراء .

وكـذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حـديث هـارون ـ وهو ابن موسى الأعور ـ به (٨) ، وقال الترمذى : لا نعرفه إلا من حديثه .

وهذه القراءة هى قراءة يعقوب وحده ، وخالفه الباقون فقرؤوا (٩) : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ بفتح الراء .

---

(١) فى أ : « فروح وريحان ». (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من م .

(٤) فى م، أ : « إلى ولىى » .

(٥) انظر: تفسير سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(٦) فى م : « فقال » . (٧) فى أ : « بن قيس » .

(٨) المسند (٦/ ٦٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٦٦) .

(٩) فى م : « فقرأ » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن ابن نوفل : أنه سمع درّة بنت معاذ تحدث ، عن أم هانئ : أنها سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تكون النَسمُ (١) طيراً يعلق بالشجر ، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها » (٢) .

هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى « يعلق » : يأكل ، ويشهد له بالصحة أيضا ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، عن الإمام مالك بن أنس ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما نَسَمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » (٣) . وهذا إسناد عظيم ، ومتن قويم .

وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، تسرح فى الجنة (٤) حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش » (٥) الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبى ليلى : رأيت شيخاً (٦) أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة ، فسمعته يقول : حدثنى فلان بن فلان ، سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » . قال : فأكب القوم يبكون ، فقال : « ما يُبكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت . قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا حُضِر ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ** ﴾ ، فإذا بُشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله ، عز وجل، للقائه أحب ﴿ **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ [وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ]** (٧) ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله للقائه أكره .

هكذا رواه الإمام أحمد (٨) ، وفى الصحيح عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ شاهد لمعناه (٩) .

وقوله : ﴿ **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، ﴿ **فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** ﴾ أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى : لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة ، وابن زيد : سَلِم من عذاب الله ، وسَلَّمت عليه ملائكة الله . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين .

---

(١) فى م ، أ : « النسمة » .
(٢) المسند (٦/٤٢٤) .
(٣) المسند (٣/٤٥٥) .
(٤) فى م : « فى رياض الجنة » .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ١٦٩من سورة آل عمران ، وانظر تخريجه هناك .
(٦) فى أ : « شخصاً » .
(٧) زيادة من م .
(٨) المسند (٤/٢٥٩) .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٦٨٤) .

وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٢] .

وقال البخارى : ﴿ فَسَلامٌ لَّكَ ﴾ أى : مُسلم لك ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إن»[(١)] وهو : معناها ، كما تقول : أنت مُصَدق مسافر عن قليل . إذا كان قد قال : إنى مسافر عن قليل . وقد يكون كالدعاء له ، كقولك : سقياً لك من الرجال ، إن رفعت « السلام » فهو من الدعاء [(٢)] .

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ، ومال إليه ، والله أعلم [(٣)] .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أى : فضيافة ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذى لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ : قال أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن أيوب الغافقى ، حدثنى عَمّى إياس بن عامر ، عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال : «اجعلوها فى ركوعكم » ، ولما نزلت : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١] ، قال رسول الله ﷺ: « اجعلوها فى سجودكم » .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجة ،من حديث عبد الله بن المبارك ، عن موسى بن أيوب،به [(٤)] .

وقال روح بن عبادة : حدثنا حَجّاجُ الصَّوافُ ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِسَت له نخلة فى الجنة » .

هكذا رواه الترمذى من حديث روح [(٥)] ، ورواه هو والنسائى أيضاً من حديث حماد بن سلمة ، من حديث أبى الزبير عن جابر ، عن النبى ﷺ [(٦)] ، وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير .

---

(١) فى م : « من » .
(٢) صحيح البخارى (٨/ ٦٢٥) « فتح » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٣) .
(٤) المسند (٤/ ١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٨٦٩) وسنن ابن ماجه برقم (٨٨٧) .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٤٦٤) .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٤٦٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٣) لكن النسائى رواه من طريق حماد بن سلمة ، عن حجاج الصواف ، عن أبى الزبير خلافاً للترمذى ، فإنه لم يذكر فى هذه الرواية حجاج الصواف فليتنبه .

وقال البخارى فى آخر كتابه : حدثنا أحمد بن إشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عُمارة ابن القعقاع ، عن أبى زُرْعة ، عن أبى هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث محمد بن فضيل ، بإسناده ، مثله (١) .

(١) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤) وسنن الترمذى برقم (٣٤٦٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٦) .

سورة الواقعة

مكيّة، وهي سبع وتسعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة، وذلك عند النفخة الثانية. والتعبير عنها بـ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ / للإيذان بتحقّق وقوعها لا محالةَ، كأنّها واقعة في نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع في حيّز الشرط، كأنّه قيل: كانت الكائنة وحدثت الحادثة. وانتصابُ ﴿إِذَا﴾ بمضمر ينبئ عن الهَول والفظاعة، كأنّه قيل: إذا وقعت الواقعة يكون مِن الأهوال ما لا يفي به المقال. [١٥٧و]

وقيل: بالنفي المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله تعالى، أو تكذب في نفيها، كما تكذب اليوم.[١] و"اللام" كهي في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر، ٢٤/٨٩]. وهذه الجملة على الوجه الأوّل اعتراض مقرّر لمضمون الشرط على أنّ "الكاذبة" مصدر كـ"العافية"، أي: ليس لأجل وقعتها وفي حقّها كَذِب أصلًا؛ بل كلّ ما ورد في شأنها مِن الأخبار حقّ صادق لا ريبَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين، وهو تقريرٌ لعظمتها وتهويلٌ لأمرها، فإنّ الوقائع العِظام شأنُها كذلك، أو بيانٌ لِما يكون يومئذ مِن حطّ الأشقياء إلى الدرَكات ورفعِ السُّعداء إلى الدرَجات، ومِن زلزلة الأشياء وإزالةِ الأجرام عن مقارّها بنَثْر الكواكبِ وإسقاطِ السماء كِسَفًا وتسييرِ الجبال في الجوّ كالسحاب. وتقديم الخَفْض على الرفع للتشديد في التهويل.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤.

وقُرئ: "خَافِضَةً رَافِعَةً"[١] بالنصب على الحال مِن الواقعة.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: زُلزِلت زلزالًا شديدًا بحيث ينهدِم ما فوقها مِن بناء وجبل، متعلِّق بـ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[٢] أي: تخفِض وترفَع وقتَ رجِّ الأرض؛ إذ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض، أو بدل مِن ﴿إِذَا وَقَعَتْ﴾.[٣]

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتَتْ حتى صارت مثل السَّويق المَلتوت مِن "بسّ السَّويقَ" إذا لتّه،[٤] أو سِيقت وسُيِّرت مِن أماكنها مِن "بسّ الغنمَ" إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ، ٢٠/٧٨]. وقُرئ: "رَجُتِ" و"بَسُتِ"[٥] أي: ارتجَّت وذهبت.

﴿فَكَانَتْ﴾ أي: فصارت بسبب ذلك ﴿هَبَآءً﴾ غبارًا ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ منتشرًا.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾

﴿وَكُنتُمْ﴾ إمّا خطاب للأمّة الحاضرة والأمم السالفة تغليبًا، أو للحاضرة فقط

[١٥٧ظ] ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾ فكلّ صنف يكون مع صنف آخرَ في الوجود / أو في الذِّكر فهو زوج.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تقسيم وتنويعٌ للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجماليّة إلى أحوالهم

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن واليزيدي وعيسى بن عمر وابن مِقسَم وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥١.

[٢] في الآية السالفة.

[٣] الواقعة، ١/٥٦.

[٤] السَّويق: طعام يتّخذ مِن الحنطة والشعير، ولتُّه: بلُّه بالماء. لسان العرب لابن منظور، «سوق»، «لتت».

[٥] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن عُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

قبل تفصيلها. فقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبره، على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة مبتدأ ثانٍ ما بعده خبرُه والجملةُ خبرٌ للأوّل، والأصل "ما هم"، أي: أيّ شيء هم في حالهم وصِفتهم، فإنّ "ما" و"إن" شاعت في طلب مفهوم الاسمِ والحقيقة لكنّها قد يُطلَب بها الصفة والحال، تقول: "ما زيد؟" فيقال: "عالمٌ" أو "طبيبٌ". فوُضع الظاهر موضعَ الضمير لكونه أدخَلَ في التفخيم، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

والمراد تعجيب السامع مِن شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة، كأنّه قيل: فأصحابُ الميمنة في غاية حُسن الحال، وأصحابُ المشأمة في نهاية سوءِ الحال. وتكلّموا في الفريقين، فقيل: أصحابُ الميمنة أصحابُ المنزلة السنيّة وأصحابُ المشأمة أصحابُ المنزلة الدنيّة أخذًا مِن تيمُّنهم بالميامن وتشاؤمِهم بالشمائل.

وقيل: الذين يُؤتَون صحائفهم بأيمانهم والذين يُؤتَونها بشمائلهم. وقيل: الذين يُؤخَذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة والذين يُؤخَذ بهم ذات الشِّمال إلى النار. وقيل: أصحابُ اليُمن وأصحابُ الشؤم، فإنّ السعداء ميامينُ على أنفسهم بطاعاتهم والأشقياءُ مشائيمُ عليها بمعاصيهم.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو القسم الثالث مِن الأزواج الثلاثة، ولعلّ تأخيرَ ذِكرهم مع كونهم أسبقَ الأقسام وأقدمَهم في الفضل ليقترن ذِكرهم ببيان محاسن أحوالهم، على أنّ إيرادهم بعنوان السَّبْق مطلقًا مُعرِب عن إحرازهم لقَصَب السَّبْق مِن جميع الوجوه.

وتكلّموا فيهم أيضًا، فقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحقّ مِن غير تلعثُم وتوانٍ. وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.[٢] وقيل: هم الذين صلّوا إلى القبلتين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٣/٤. ٢ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/٣.

[١٥٨و] مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة، ١٠٠/٩].[١] / وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس.[٢] وقيل: المسارِعون في الخيرات.[٣]

وأيًا ما كان فالجملةُ مبتدأ وخبر. والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم وعُرِفت محاسنهم، كقول أبي النجم:

وشِـــعـــري شِـــعـــري[٤]

وفيه مِن تفخيم شأنهم والإيذانِ بشيوع فضلهم واستغنائهم عن الوصف بالجميل ما لا يخفى. وقيل: والسابقون إلى طاعة الله تعالى السابقون إلى رحمته، أو السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنّة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى السابقين، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه ما بعده، أي: أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: الذين قُرِّبت إلى العرش العظيم درجاتهم، وأُعلِيت مراتبُهم ورُقِّيت إلى حظائر القدس نفوسُهم الزكيّة. هذا أظهَرُ ما ذُكر في إعراب هذه الجمل وأشهرُه.

والذي يقتضيه جزالةُ التنزيل أنّ قوله تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[٦] خبرُ مبتدأ محذوف، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾،[٧] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فإنّ المترقَّب عند بيان انقسامِ الناس إلى الأقسام الثلاثةِ بيانُ أنفُس الأقسامِ، وأمّا أوصافُها وأحوالها فحقُّها أن تُبيَّن بعد ذلك بإسنادها إليها. والتقدير فأحدُها أصحاب الميمنة والآخرُ أصحاب المشأمة والثالثُ السابقون،

---

١ مرويّ عن محمّد بن سيرين في جامع البيان للطبري، ٢٩٠/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٨-٩؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

٢ مرويّ عن عليّ رضي الله عنه في معالم التنزيل للبغوي، ٩/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

٣ مرويّ عن سعيد بن جُبير رضي الله عنه في معالم التنزيل للبغوي، ٩/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

٤ الرجز بتمامه:

أنـا أبـو النـجم وشِـعـري شِـعري

وهو في ديوان أبي النجم العِجلي، ص ١٩٨؛ وهو له في الخصائص لابن جنّي، ٣٣٧/٣، والكشّاف للزمخشري، ٣٤٤/٤؛ وشرح التسهيل لابن مالك ٣٠٤/١؛ وبلا نسبة في شرح الرضيّ على الكافية ٢٥٥/١، ٣٢٥.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/٣.

٦ في الآية الثامنة مِن هذه السورة.

٧ في الآية التاسعة مِن هذه السورة.

خلا أنّه لمّا أُخِّر بيان أحوال القسمين الأوّلين عُقِّب كلٌّ منهما بجملة معترِضة بين القسمين منبئة عن ترامي أحوالهما في الخير والشرّ إنباءً إجماليًا مشعِرًا بأنّ لأحوال كلٍّ منهما تفصيلًا مترقَّبًا، لكن لا على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة مبتدأ وما بعدها خبرٌ على ما رآه سيبويهِ في أمثاله؛[١] بل على أنّها خبرٌ لِما بعدها، فإنّ مناط الإفادة بيانُ أنّ أصحاب الميمنة أمرٌ بديع، كما يفيده كون ﴿مَا﴾ خبرًا، لا بيانُ أنّ أمرًا بديعًا أصحابُ الميمنة، كما يفيده كونها مبتدأ، وكذا الحالُ في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.[٢] وأمّا القسمُ الأخير فحيث قُرِن بيان محاسن أحواله بذِكره لم يُحتَج فيه إلى تقديم الأنموذج، فقوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ.

والإظهارُ في مقام الإضمار للتفخيم، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ أو بدلٌ مِن الأوّل، وما بعده خبرٌ له أو للثاني، والجملةُ خبر للأوّل.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أو بمضمر هو حال مِن ضميره، أي: كائنين في جنّات النعيم. وقيل: خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة.[٣] وفيه أنّ الإخبار بكونهم فيها بعد الإخبار بكونهم مقرَّبين ليس فيه مزيد مزيّة. وقُرِئ: "فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ".[٤]

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم أمّة جمّة مِن الأوّلين، وهم الأمَم السالفة مِن لدن آدمَ إلى نبيّنا عليهما السلام وعلى مَن بينهما مِن الأنبياء العِظام.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: مِن هذه الأمّة ولا يخالفه قوله عليه السلام: «إنّ أمّتي يكثرون سائرَ الأمم»،[٥] فإنّ أكثريّة سابقي الأمم السالفة مِن سابقي هذه الأمّة، لا تمنع أكثريّة تابعي هؤلاء مِن تابعي أولئك، ولا يردُّه قوله تعالى: في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ لأنّ كثرة كلٍّ مِن الفريقين

---

١ انظر: كتاب سيبويه، ١/١٣٤.

٢ في الآية التاسعة مِن هذه السورة.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣٨٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

٥ ما وقفتُ عليه بهذا اللفظ في مظانّه. وهو بلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٦٢؛ وفي مسند أحمد، ١٥/٣٨ (٩٠٨٠): «أنتم ثلث أهل الجنّة، بل أنتم نصف أهل الجنّة، وتُقاسمونني النصفَ الثاني».

[١٥٨ظ] في أنفسهما لا تُنافي أكثريّة أحدهما مِن الآخر / وسيأتي أنّ الثلّتين مِن هذه الأمّة، وقد روي مرفوعًا أنّ الأوّلين والآخِرين ههنا أيضًا متقدِّمو هذه الأمّة ومتأخِّروهم،[١] واشتقاقُ الثلّة مِن "الثَّلّ" وهو الكسر.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ۝٢٦﴾

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ حال أخرى مِن "المقرَّبين" أو مِن ضميرهم في الحال الأولى. وقيل: خبر آخرُ للضمير. والموضونة: المنسوجة بالذهب مشبَّكةً بالدُّرّ والياقوت، أو المتواصلة مِن "الوَضْن" وهو النسج.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالان مِن الضمير المستكنّ فيما تعلَّق به ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، أي: مستقرّين على سُرَر متّكئين عليها متقابلين، لا ينظر بعضهم مِن أقفاء بعض، وهو وصف لهم بحُسن العشرة وتهذيبِ الأخلاق والآداب.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ حال أخرى أو استئنافٌ، أي: يدور حولهم للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبْقَون أبدًا على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحوّلون عنها. وقيل: مقرّطون، والخلد: القُرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيُثابوا عليها ولا سيّئات فيُعاقبوا عليها، رُوي ذلك عن عليّ رضي الله تعالى عنه وعن الحسن رحمه الله،[٢] وفي الحديث: «أولادُ الكفّار خدّام أهل الجنّة».[٣]

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ بآنية لا عُرى لها ولا خراطيمَ ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ أي: آنية ذات عُرى وخراطيمَ ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: خمر جارية مِن العيون. قيل: إنّما أُفرِد الكأس؛ لأنّها لا تُسمّى كأسًا إلّا إذا كانت مملوءةً.

---

١ الحديث في مسند الطيالسي، ٢/٢٠٩ (٩٢٧)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٦٢.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٥.

٣ ما وقفتُ عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٥.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، وحقيقتُه: لا يصدر صداعُهم عنها. وقُرئ: "لَا يَصَدّعُونَ"،[١] أي: لا يتصدّعون ولا يتفرّقون، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم، ٤٣/٣٠]. وقُرئ: "لا يَصْدَعُونَ"،[٢] أي: لا يفرّق بعضُهم بعضًا. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يَسْكَرون مِن "أنزَف الشاربُ" إذا نَفِد عقله أو شرابه.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يختارونه ويأخذون خيرَه وأفضلَه.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يتمنّون. وقُرئ: "وَلُحُومِ طَيْرٍ".[٣]

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع عطفٌ على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾[٤] أو مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: وفيها أو لهم حُورٌ. وقُرئ بالجرّ[٥] عطفًا على ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾،[٦] كأنّه قيل: هم في جنّات وفاكهة ولحم ومصاحبة حُور، أو على أكواب؛ لأنّ معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ﴾:[٧] يُنعَّمون بأكواب، وبالنصب،[٨] أي: ويؤتَون حُورًا.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ / صفة لـ﴿حُورٌ﴾ أو حال. [١٥٩و]

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مفعول له، أي: يُفعَل بهم ذلك كلّه جزاءً بأعمالهم، أو مصدرٌ مؤكِّد، أي: يُجزون جزاءً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: باطلًا ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا نسبةً إلى الإثم، أي: لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ ولا سماعَ، كقوله:

ولا تـرى الـضـبَّ بـهـا يـنـجـحـر[٩]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

[٤] في الآية السابعة عشرة مِن هذه السورة.

[٥] قرأ بها حمزة والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/٢.

[٦] في الآية الثانية عشرة مِن هذه السورة.

[٧] في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة مِن هذه السورة.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١.

[٩] وفي هامش م: وصدره:

لا يـفـزع الأرنـبَ أهـوالُـهـا

والبيت لابن أحمر في ديوانه، ص ٦٧؛ وهو له في شرح المفضّليّات للأنباري، ص ٥٩، ٨٧٩؛ والتكملة والذيل والصلة للصغاني، «فلت»؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠؛ وهو بلا عزو في شرح الرضيّ على الكافية، ٣٢٦/٤.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولًا ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ بدل مِن ﴿قِيلًا﴾، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم، ٦٢/١٩]، أو صفته، أو مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها إلّا أن يقولوا: سلامًا سلامًا، والمعنى أنّهم يُفشون السلام فيُسلِّمون سلامًا بعد سلام، أو لا يسمع كلٌّ مِن المسلِّم والمسلَّم عليه إلّا سلامَ الآخر بدءًا أو ردًّا. وقُرئ: "سَلَامٌ سَلَامٌ"[١] على الحكاية.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمل عند التقسيم مِن شئونهم الفاضلة إثرَ تفصيل شئون السابقين، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ جملة استفهاميّة مسوقة لتفخيمهم والتعجيبِ مِن حالهم، وقد عرفتَ كيفيّة سبكها، محلُّها إمّا الرفع على أنّها خبر للمبتدأ أو معترضةٌ لا محلَّ لها.

والخبر قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ وهو على الأوّل خبرٌ ثانٍ للمبتدأ أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، والجملةُ استئناف لبيان ما أُبهم في قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ مِن عُلوّ الشأن، أي: هم في سِدر غير ذي شوك لا كسِدر الدنيا، وهو شجر النبق كأنّه خُضِد شوكه، أي: قُطِع. وقيل: مخضود، أي: مثنيٌّ أغصانه لكثرة حَمْله مِن "خَضَد الغصنَ" إذا ثناه وهو رَطْب.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قد نُضِد حملُه مِن أسفله إلى أعلاه، ليست له ساق بارزة، وهو شجر الموز أو أمّ غَيلان، وله أنوارٌ كثيرة منتظِمة طيّبةُ الرائحة، وعن السدّي: شجر يشبه طلحَ الدنيا، ولكنّ له ثمرًا أحلى مِن العسل.[٢] وعن عليّ رضي الله عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٧/١٨.

أنه قرأ: "وَطَلْعٍ"،[١] وما شأن الطلح،[٢] وقرأ قوله تعالى: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق، ١٠/٥٠]، فقيل: أَوَنُحَوِّلُها؟ قال: آيُ القرآن لا تُهاج ولا تُحوَّل،[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنه نحوه.[٤]

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتدّ منبسط لا يتقلّص / ولا يتفاوت كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. [١٥٩ظ]

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يُسكَب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوبٌ سائل يجري على الأرض في غير أخدود، كأنّه مُثِّل حال السابقين بأقصى ما يُتصوَّر لأهل المدن، وحالُ أصحاب اليمين بأكملِ ما يُتصوَّر لأهل البوادي إيذانًا بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت مِن الأوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن متناوليها بوجه مِن الوجوه، لا يُحظَر عليها كما يُحظَر على بساتين الدنيا. وقُرئ: "فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ"[٥] بالرفع على "وهناك فاكهةٌ"... إلخ، كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾.[٦]

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: رفيعة القدر، أو منضّدة مرتفعة، أو مرفوعة على الأسرّة. وقيل: الفرُش النساء، حيث يُكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعُها كونهنّ على الأرائك. قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس، ٥٦/٣٦].[٧] ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. وعلى التفسير الأوّل أُضمِر "لهنّ" لدلالة ذِكر "الفرُش" التي هي المضاجع عليهنّ دلالةً بيّنة، والمعنى ابتدأنا خلقهنّ ابتداءً جديدًا، أو أبدعناهنّ مِن غير وِلاد إبداءً أو إعادةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١.

٢ أي: أنّه قال له: وما شأن الطلح.

٣ بلفظ قريب في شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١؛ وجامع البيان للطبري، ٣٠٩/٢٢-٣١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢/٨.

٤ اللباب لابن عادل، ٣٩٧/١٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

٦ في الآية الثانية والعشرين مِن هذه السورة.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٦/٤.

وفي الحديث: هنّ اللواتي قُبضنَ في دار الدنيا عجائزَ شُمطًا رُمصًا جعلهنّ الله تعالى بعد الكِبَر أترابًا على ميلاد واحد في الاستواء، كلّما أتاهنّ أزواجهن وجدوهنّ أبكارًا،[1] وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾. وقوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾ جمع "عَروب" وهي المتحبّبة إلى زوجها الحسنةُ التبعّل. وقُرئ: "عُرْبًا"[2] بسكون "الراء" ﴿أَتۡرَابًا﴾ مستويات في السنّ بنات ثلاث وثلاثين سنةً، وكذا أزواجهنّ.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ متعلّقة بـ﴿أَنشَأۡنَا﴾ أو ﴿جَعَلۡنَا﴾ أو بـ﴿أَتۡرَابًا﴾، كقولك: "هذا تِرْب لهذا"، أي: مساوٍ له في السنّ. وقيل: بمحذوف هو صفة لـ﴿أَبۡكَارًا﴾، أي: كائنات لأصحاب اليمين أو خبرُ مبتدأ محذوف، [١٦٠و] / أي: هنَّ لأصحاب اليمين. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.[3] وهو بعيد؛ بل هو خبر مبتدأ محذوف خُتِمت به قصّة أصحاب اليمين، أي: هم أمّة مِن الأوّلين وأمّة مِن الآخرين، وقد مرّ الكلام فيهما. وعن أبي العالية ومجاهد وعطاء والضحّاك: ثلّة مِن الأوّلين، أي: مِن سابقي هذه الأمّة، وثلّة مِن الآخرين مِن هذه الأمّة في آخر الزمان.[4] وعن سعيد بن جُبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هم جميعًا مِن أمّتي».[5]

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٥٠﴾

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ شروع في تفصيل أحوالهم التي أشيرَ عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حُسن حال أصحاب اليمين. والكلام في قوله تعالى:

---

[1] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٣٢٠/٢٢-٣٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤/٨.

[2] قرأ بها حمزة وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢، ٣٨٣.

[3] القولان في اللباب لابن عادل، ٤٠٤/١٨.

[4] وفي هامش م: ثعلبي. | وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٤/٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨/٨.

[5] الحديث في مسند الطيالسي، ٢٠٩/٢ (٩٢٧).

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ عينُ ما فُصِل في نظيره. وكذا في قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ والسَّموم: حرُّ نار ينفذ في المسامّ، والحميم: الماء المتناهي في الحرارة.

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ مِن دخان أسودَ بهيم.

﴿لَّا بَارِدٖ﴾ كسائر الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ فيه خيرٌ ما في الجملة سُمّي ذلك ظلًّا، ثمّ نُفي عنه وَصْفاه البَرْد والكرَم الذي عُبِّر به عن دفع أذى الحرّ لتحقيق أنّه ليس بظلّ. وقُرئ: "لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ"[1] بالرفع، أي: لا هو بارد ولا كريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذُكر مِن العذاب، أي:إنّهم كانوا قبل ما ذُكر مِن سوء العذاب في الدنيا منعَّمين بأنواع النِّعَم مِن المآكل والمشارب والمساكن الطيّبة والمقامات الكريمة منهمِكين في الشهوات، فلا جرمَ عُذِّبوا بنقائضها.

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم الذي هو الشِّرك، ومنه قولهم: "بلغ الغلامُ الحنثَ"، أي: الحُلم ووقتَ المؤاخذة بالذنب.

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ لغاية عُتوّهم وعِنادهم ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعض أجزائنا مِن اللحم والجلد ترابًا وبعضُها عظامًا نخرةً. وتقديم "التراب" لعراقته في الاستبعاد / وانقلابِه مِن الأجزاء البادية. و"إذا" متمحِّضة للظرفيّة، [١٦٠ظ]
والعامل فيها ما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، لا نفسُه؛ لأنّ ما بعد "أنّ" و"اللام" و"الهمزة" لا يعمل فيما قبلها، وهو "نُبعَثُ"، وهو المرجع للإنكار.

وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به، فإنّهم منكِرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالكلّيّة. وتكرير "الهمزة" لتأكيد النكير.

وتحلية الجملة بـ"أنّ" لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما عسى يُتوهَم مِن ظاهر النظم، فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/٤٤] على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

لا إنكار التعقيب كما هو المشهور، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في المبعوثيّة بالفعل في حال كونهم ترابًا وعظامًا؛ بل كونُهم بعرضيّة ذلك واستعدادُهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة، وفيه مِن الدلالة على غُلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه.

وتكرير الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ لتأكيد النكير، و"الواو" للعطف على المستكنّ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحَسُن ذلك للفصل بـ"الهمزة"، يعنُون أنّ بَعْث آبائهم الأوّلين أبعدُ مِن الوقوع. وقُرئ: "أَوْ آبَاؤُنَا".[1]

﴿قُلْ﴾ ردًّا لإنكارهم وتحقيقًا للحقّ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ مِن الأمم الذين مِن جملتهم أنتم وآباؤكم، وفي تقديم الأوّلين مبالغة في الردّ حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشدَّ مِن إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي. ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث. وقُرئ: "لَمُجَمَّعُونَ"[2] ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وُقّتت به الدنيا مِن يوم معلوم، والإضافة بمعنى "مِن" كـ"خاتمُ فضّةٍ".

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] داخل تحت القول، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي زمانًا أو رتبةً. ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ أي: بالبعث، والخطاب لأهل مكّة وأضرابهم.

[١٦١و] ﴿لَـَٔاكِلُونَ﴾ بعد البعث / والجمعِ ودخولِ جهنّم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر، وتفسيره، أي: مبتدئون الأكل مِن شجر هو زقّوم. وقيل: ﴿مِن﴾ الثانية متعلِّقة بمضمَر هو وصف لشجر، أي: كائن مِن زقّوم.[4]

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: بطونكم مِن شدّة الجوع.

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر وقالون. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٤٧/٤.

٣ في الآية التاسعة والأربعين مِن هذه السورة.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٤١٠/١٨.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ عَقيبَ ذلك بلا ريث ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحارّ في الغاية. وتأنيثُ ضمير "الشجر" أوّلًا وتذكيرُه ثانيًا باعتبار المعنى واللفظ. وقُرئ: "مِنْ شَجَرَةٍ"،[١] فضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾ حينئذ للزقّوم، وقيل: للأكل.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ كالتفسير لِما قبله على طريقة قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر، ٩/٥٤] أي: لا يكون شُربكم شُربًا معتادًا؛ بل يكون مثلَ شُرب الهِيم وهي الإبل التي بها الهُيام، وهو داء يُصيبها فتشرب ولا تروى، جمع "أهيَم وهَيْمَاء"، وقيل: الهِيَم: الرمال، على أنّه جمع الهَيام بفتح الهاء، وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على "فُعُل" كـ"سَحَاب" و"سُحُب"، ثمّ خُفِّف وفُعِل به ما فُعِل بجمع "أبيَض"،[٣] والمعنى أنّه يُسلَّط عليهم مِن الجوع والتهاب النار في أحشائهم ما يضطرّهم إلى أَكْل الزقّوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملأوا منه بطونهم وهو في غاية المرارة والحرارة سُلِّط عليهم مِن العطش ما يضطرّهم إلى شُرب الحميم الذي يقطِّع أمعاءهم فيشربونه شُرب الهِيم.

وقُرئ: "شَرْبَ الهِيمِ"[٤] بالفتح وهو أيضًا مصدر، وقُرئ بالكسر[٥] على أنّه اسم المشروب.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكر مِن ألوانِ العذاب ﴿نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاء فإذا كان ذلك نُزُلهم، وهو ما يُعدّ للنازل ممّا حَضَر، فما ظنُّك بما لهم بعد ما استقرّ لهم القرار واطمأنّت بهم الدار في النار؟ وفيه مِن التهكّم بهم ما لا يخفى. وقُرئ: "نُزْلُهُمْ"[٦] بسكون "الزاء" تخفيفًا. والجملةُ مسوقة مِن جهته تعالى بطريق الفذلكة مقرِّرة لمضمون الكلام الملقَّن غيرُ داخلة تحت القول.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٥٧.

٢ القول في **اللباب** لابن عادل، ٤١٠/١٨.

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٨/٤.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٣/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة ومجاهد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو، والأعمش، وابن مُحيصن، وخارجة عن نافع. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٥٧.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت. و"الفاء" لترتيب التحضيض على ما قبلها، أي: فهلّا تصدّقون بالخَلْق، فإنّ ما لا يحقِّقه العمل ولا يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس مِن التصديق في شيء. وقيل: بالبعث / استدلالا عليه بالإنشاء، فإنّ مَن قَدَر [١٦١ظ] عليه قَدَر على الإعادة حتمًا.[١] والأوّل هو الوجه كما ستُحيط به خُبرًا.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: تقذِفون في الأرحام مِن النُّطف. وقُرئ بفتح "التاء"[٢] مِن "مَنَى النطفةَ" بمعنى أمناها.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: تُقدِّرونه وتُصوِّرونه بشرًا سويًّا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له مِن غير دَخْل شيء فيه. و﴿أَمْ﴾ قيل: منقطعة لأنّ ما بعدها جملة، فالمعنى: بل أنحن الخالقون؟ على أنّ الاستفهام للتقرير، وقيل: متّصلة،[٣] ومجيء ﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ بعد ﴿نَحْنُ﴾ بطريق التأكيد لا بطريق الخبريّة أصالةً.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قسمناه عليكم ووقّتنا موتَ كلّ أحد بوقت معيّن حسبما يقتضيه مشيئتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة. وقُرئ: "قَدَرْنَا"[٤] مخفَّفًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: إنّا قادرون ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ لا يغلبنا أحدٌ على أن نُذهِبكم ونأتيَ مكانكم أشباهَكم مِن الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن الخَلْق والأطوار ولا تعهدون بمثلها، قال الحسن رحمه الله: أي: نجعلكم قردةً وخنازيرَ.[٥] وقيل: المعنى: ونُنشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فمَن هذا شأنه كيف يعجز عن إعادتكم.[٦] وقيل: المعنى: وما يسبقنا أحد فيهرُبَ مِن الموت أو يغيّر وقته.[٧] و﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾... إلخ، إمّا حال مِن فاعل ﴿قَدَّرْنَا﴾،

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٨/٤.
[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.
[٣] الوجهان في اللباب لابن عادل، ٤١٦/١٨.
[٤] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/٢.
[٥] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٨.
[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٨/٤.
[٧] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٣.

أو علّة التقدير، و﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "اللام" وما بينهما اعتراض.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خَلْقهم مِن نطفة ثمّ مِن علقة ثمّ مِن مُضغة. وقيل: هي فطرة آدمَ عليه السلام مِن التراب.[١] ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلّا تتذكّرون أنّ مَن قدَر عليها قدَر على النشأة الأخرى حتمًا، فإنّه أقلّ صنعًا لحصول الموادّ وتخصُّص الأجزاء وسبقِ المثال، وفيه دليلٌ على صحّة القياس. وقُرئ: "فَلَوْلَا تَذْكُرُونَ"[٢] مِن الثلاثي.

وفي الخبر: «عجبًا كلَّ العجب للمكذِّب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبًا للمصدِّق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور».[٣]

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي: تبذرون حَبّه وتعملون في أرضه ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنبتونه وتردُّونه نباتًا / يرِفّ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي: المنبِتون لا أنتم، والكلام في ﴿أَمْ﴾ كما مرّ آنفًا. [١٦٢و]

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا متكسِّرًا متفتِّتًا بعد ما أنبتناه وصار بحيث طمعتم في حيازة غِلاله ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجّبون مِن سوء حاله إثرَ ما شاهدتموه على أحسن ما يكون مِن الحال، أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه، أو على ما اقترفتم لأجله مِن المعاصي فتتحدَّثون فيه. والتفكّه: التنقّل بصنوف الفاكهة، وقد استُعير للتنقّل بالحديث.

وقُرئ: "تَفَكَّنُونَ"،[٤] أي: تتندّمون، وقُرئ: "فَظِلْتُمْ"[٥] بالكسر و"فَظَلِلْتُمْ"[٦] على الأصل.

---

[١] مرويّ عن قتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢/٣٤٧-٣٤٨؛ واللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. اللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٣] اللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن حزام العُكلي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة، والحسن عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لمُلزَمون غرامةَ ما أنفقنا أو مُهلَكون بهلاك رزقنا مِن "الغَرام" وهو الهلاك. وقُرئ: "أَئِنَّا"[١] على الاستفهام، والجملةُ على القراءتين مقدّرة بقول هو في حيّز النصب على الحاليّة مِن فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، أي: قائلين أو تقولون: إنّا لمغرمون.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمنا رزقَنا أو محارَفون محدودون لا حظَّ لنا ولا بَخْتَ لا مجدودون.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ عذبًا فراتًا، وتخصيصُ هذا الوصف بالذِّكر مع كثرة منافعه لأنّ الشُّرب أهمُّ المقاصد المَنوطة به.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: مِن السَّحاب، واحده "مُزْنة"، وقيل: هو السحاب الأبيض، وماؤه أعذبُ.[٢] ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ مِلحًا زُعاقًا لا يمكن شُربه. وحذفُ "اللام" ههنا مع إثباتها في الشرطيّة الأولى للتعويل على عِلم السامع أو الفرقِ بين المطعوم والمشروب في الأهميّة وصعوبةِ الفقد، والشرطيّتان مستأنَفتان مسوقتان لبيان أنّ عصمته تعالى للزرع والماء عمّا يُخلّ بالتمتّع بهما نعمةٌ أخرى بعد نعمة الإنبات والإنزالِ مستوجبةٌ للشكر، فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ تحضيض على شكر الكلّ.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: تقدحونها وتستخرجونها مِن الزِّناد.

[١٦٢ظ] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ / التي منها الزِّناد وهي المَرْخ والعَفار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا. والتعبير عن خَلْقها بالإنشاء المنبئ عن بديع الصُّنع

---

[١] قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٩.

المُعربِ عن كمال القدرة والحكمة لِما فيه مِن الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التي لا تخلو عن النار، حتّى قيل: «في كلّ شجر نار، واستمجد المَرْخ والعَفار»،[١] كما أنّ التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣] لذلك.

وقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةً﴾ استئناف مبيّن لمنافعها، أي: جعلناها تذكيرًا لنار جهنّم حيث علّقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكّروا ما أُوعِدوا به مِن نار جهنّم أو تذكرةً وأُنمُوذجًا مِن نار[٢] جهنّم، لِما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «نارُكم هذه التي يُوقدها بنو آدم جزء مِن سبعين جزءًا مِن حرّ جهنّم».[٣] وقيل: تبصرةً في أمر البعث،[٤] فإنّه ليس بأبدعَ مِن إخراج النار مِن الشيء الرَّطْب.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ للذين ينزلون القَواء وهي القَفْر، وتخصيصُهم بذلك لأنّهم أحوجُ إليها، فإنّ المقيمين أو النازلين بقُرب منهم ليسوا بمضطّرين إلى الاقتداح بالزِّناد. وقد جُوّز أن يراد بالمُقوين الذين خَلَت بطونهم ومزاودهم مِن الطعام.[٥] وهو بعيد لعدم انحصار ما يُهمهم ويسدّ خَلَلهم فيما لا يؤكل إلّا بالطبخ. وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أنّ الأهم هو النفع الأخروي.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لترتيب ما بعدها على عددٍ مِن بدائع صُنعه تعالى وروائع نِعَمه الموجِبة لتسبيحه تعالى، إمّا تنزيهًا له تعالى عمّا يقوله الجاحدون بوحدانيّته تعالى الكافرون بنعمته مع عِظَمها وكثرتها، أو تعجُّبًا مِن أمرهم في غَمْط تلك النِّعَم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرِها، / أو شكرًا على تلك النِّعَم السابغة، أي: فأحدِث التسبيحَ بذِكر اسمه تعالى أو بذِكره، فإنّ إطلاق الاسم للشيء ذِكرٌ له. و﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفة لـ"الاسم" أو "الربّ". [١٦٣و]

---

١ انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٧٤/٢؛ وأورده في هذا الموضع ابن عادل في اللباب، ٤٢٥/١٨.

٢ س ي – نار.

٣ صحيح البخاري، ١٢١/٤ (٣٢٦٥)؛ صحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٠/٤.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٣.

٥ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٠/٤.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: فأقسِمُ، و﴿لَآ﴾ مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، أو "فلَأَنَا أقسِمُ"، فحُذف المبتدأ وأُشبعَ فتحةُ لام الابتداء، ويعضده قراءة مَن قرأ: "فَلَأُقْسِمُ"،[١] أو ﴿فَلَا﴾ ردٌّ لكلام يخالف المقسَم عليه. وأمّا ما قيل: مِن أنّ المعنى: فلا أُقسِم؛ إذِ الأمرُ أوضحُ مِن أن يحتاج إلى قسَم،[٢] فيأباه تعيينُ المقسَم به وتفخيمُ شأن القسم به.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصُها بالقَسم لِما في غروبها مِن زوال أثرها والدلالةِ على وجود مؤثِّر دائم لا يتغيَّر، أو لأنّ ذلك وقتُ قيام المتهجّدين والمبتهلين إليه تعالى وأَوَانُ نزول الرحمة والرضوان عليهم، أو بمنازلها ومجاريها، فإنّ له تعالى في ذلك مِن الدليل على عِظَم قدرته وكمالِ حكمته ما لا يحيط به البيان. وقيل: النجومُ نجوم القرآن ومواقُعها أوقاتُ نزولها.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراض في اعتراض قُصِد به المبالغة في تحقيق مضمون الجملة القسميّة وتأكيدُه، حيث اعتُرض بقوله تعالى:[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بين القسم وجوابه الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كثيرُ النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمّة في صلاح المعاش والمعادِ، أو حسنٌ مرضيٌّ، أو كريمٌ عند الله تعالى؛ وبقوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الموصوف وصفته، وجواب ﴿لَوْ﴾ إمّا متروك أريدَ به نفيُ عِلمهم، أو محذوفٌ ثقةً بظهوره، أي: لَعظّمتموه أو لَعملتم بموجَبه.

﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: مَصون مِن غير المقرَّبين مِن الملائكة لا يطّلع عليه مَن سواهم وهو اللوح.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.
[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٣.
[٣] هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.
[٤] م - تعالى.

﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إمّا صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٍ﴾، فالمراد بالمُطهَّرين الملائكة المنزَّهون عن الكدورات الجسمانيّة وأوضارِ الأوزار، أو للقرآن، فالمرادُ هم المطهَّرون مِن الأحداث، فيكون نفيًا بمعنى النهي، أي: لا ينبغي أن يمسَّه إلّا مَن كان على طهارة مِن الناس، على طريقة قوله صلّى الله عليه وسلّم: «المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمه ولا يُسلِمه»،[١] أي: لا ينبغي / له أن يظلِمه أو يسلِمَه إلى مَن يظلِمُه. وقيل: لا يطلبه إلّا المطهَّرون مِن الكفر.[٢] [١٦٣ظ]

وقُرئ: "المُتَطَهِّرُونَ"،[٣] و"المُطَّهِّرُونَ"[٤] بالإدغام، و"المُطْهَرُونَ"[٥] مِن "أطهَره" بمعنى "طهَّره"، و"المُطَهِّرُونَ"،[٦] أي: أنفسَهم أو غيرَهم بالاستغفار أو غيرِه.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة أخرى لـ﴿قُرْءَانٌ﴾، وهو مصدر نُعت به حتّى جرى مَجرى اسمه. وقُرئ: "تَنْزِيلًا".[٧]

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي ذُكرت نعوته الجليلة الموجِبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: متهاوِنون به كمَن يُدهِن في الأمر، أي: يلين جانبه ولا يتصلَّب فيه تهاونًا به.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شُكرَ رزقكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تضعون التكذيب موضعَ الشكر. وقُرئ: "وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ"،[٨] أي: تجعلون شُكركم لنعمة القرآن أنكم تكذِّبون به. وقيل: الرزق المطر،[٩] والمعنى:

---

١ صحيح البخاري، ١٢٨/٣ (٢٤٤٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٩٦/٤ (٢٥٨٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٨/٣.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سلمان الفارسي وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن ابن مسعود وزرّ بن حُبيش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥٩.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.
٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.

وتجعلون شُكر ما يرزقكم الله تعالى مِن الغيث أنّكم تكذِّبون بكونه مِن الله، حيث تنسبونه إلى الأنواء.

والأوّل هو الأوفَقُ لسِباق النظم الكريم وسياقِه، فإنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾... إلى آخره، تبكيتٌ مبنيٌّ على تكذيبهم بالقرآن فيما نطَق به قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ إلى هنا مِن القوارع الدالّة على كونهم تحت ملكوته تعالى مِن حيث ذواتُهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم، كما ستقف عليه. و﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض لإظهار عجزِهم، و﴿إِذَا﴾ ظرفيّة، أي: فهلّا إذا بلغت النفس، أي: الروح. وقيل: نفسُ أحدكم الحلقوم وتداعَت إلى الخروج.

[١٦٤و] ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ﴾ أيّها الحاضرون حولَ صاحبها / ﴿تَنظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه مِن الغمرات.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ عِلمًا وقدرةً وتصرُّفًا ﴿مِنكُمْ﴾، حيث لا تعرفون مِن حاله إلّا ما تُشاهدونه مِن آثار الشدّة مِن غير أن تقِفوا على كُنهها وكيفيّتها وأسبابها، ولا أن تقدروا على دَفْع أدنى شيء منها، ونحن المتولُّون لتفاصيل أحواله بعِلمنا وقدرتنا، أو بملائكة الموت. ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تُدرِكون ذلك لجهلكم بشئوننا.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مربوبين مِن "دان السلطانُ رعيّتَه" إذا ساسهم واستعبدهم ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾،[١] فإنّ التحضيض يستدعي عدم المحضَّض عليه حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: النفسَ إلى مقرّها، هو العامل في ﴿إِذَا﴾ والمحضِّض عليه بـ﴿لَوْلَا﴾ الأولى، والثانية مكرَّرة للتأكيد، وهي مع ما في حيّزها دليل جواب الشرط، والمعنى إن كنتم غير مربوبين كما ينبئ عنه عدمُ تصديقكم بخلقنا إيّاكم فهلّا ترجعون النفسَ إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم

---

[١] في الآية السابعة والخمسين مِن هذه السورة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم، فإنّ عدم تصديقهم بخالقيّته تعالى لهم عبارةٌ عن تصديقهم بعدم خالقيّته تعالى بموجَب مذهبهم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾... إلخ شروع في بيان حال المتوفّى بعد الممات إثرَ بيان حاله عند الوفاة، أي: فأمّا إن كان الذي بُيِّن حاله مِن السابقين مِن الأزواج الثلاثة عُبّر عنهم بأجلّ أوصافهم.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله استراحةٌ. وقُرئ: "فَرُوحٌ"[١] بضمّ "الراء"، وفُسِّر بالرحمة؛ لأنّها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: ذات تنعُّم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ / عُبّر عنهم بالعنوان السابق؛ إذ لم يُذكَر [١٦٤ظ]
لهم فيما سبق وصف واحد ينبئ عن شأنهم سواه، كما ذُكر للفريقين الآخرين.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ إخبار مِن جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يُفصِح عنه "اللام"، لا حكايةُ إنشاء سلامٍ بعضهم على بعض، وإلّا لَقيل: "عليك". والالتفاتُ إلى خطاب كلّ واحد منهم للتشريف.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أصحاب الشِّمال عُبّر عنهم بذلك حسبما وُصِفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾[٢] ذمًّا لهم بذلك وإشعارًا بسبب ما ابتُلوا به مِن العذاب.

﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فله نزُلٌ كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يُشرَب بعد أكل الزقّوم، كما فُصِّل فيما قبل.

---

١ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ١/٣٨٣.

٢ في الآية الحادية والخمسين مِن هذه السورة.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال في النار. وقيل: إقامةٌ فيها ومُقاساة لألوان عذابها.[١] وقيل: ذلك ما يجده في القبر مِن سموم النار ودخانها.[٢]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذُكر في السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: حقّ الخبر اليقين. وقيل: الحقّ الثابت مِن اليقين.[٣]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على ما قبلها، فإنّ حقّيّة ما فُصِّل في تضاعيف السورة الكريمة ممّا يوجب تنزيهه تعالى عمّا لا يليق بشأنه الجليل مِن الأمور التي مِن جملتها الإشراكُ به والتكذيبُ بآياته الناطقة بالحقّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تُصبه فاقة أبدًا».[٤]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٤٤٨/١٨.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٣.
٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٢/٤.
٤ بلفظ قريب في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٧٢٦/٢ (١٢٤٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١١٩/٤ (٢٢٦٨)؛ وبلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠١/٢٥ (الواقعة، ١/٥٦)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤.

٥٦

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية إلاّ «أفبهذا الحديث» الآيَة، و«ثُلّة من الأولين» الآيَة، وهي ستٌّ أو سبع أو تسع وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا وَقَعَتِ الواقِعةُ﴾ قامتِ القِيامة، ٢ ـ ﴿لَيسَ لِوَقْعتِها كاذِبةٌ﴾: نفسٌ تكذّب بأن تنفيها كما نفتها في الدنيا، ٣ ـ ﴿خافِضةٌ رافِعةٌ﴾ أي: هي مُظهِرة لخفض أقوام بدُخولهم النارَ ولرفع آخرين بدُخولهم الجنّةَ، ٤ ـ ﴿إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا﴾: حُرّكتْ حركة شديدة، ٥ ـ ﴿وبُسَّتِ الجِبالُ بَسًّا﴾: فُتِّتَتْ، ٦ ـ ﴿فكانَت هَباءً﴾: غُبارًا ﴿مُنبَثًّا﴾: منتشرًا ـ وإذا الثانية: بدل من الأُولى ـ ٧ ـ ٨ ـ ﴿وكُنتُم﴾ في القِيامة ﴿أزواجًا﴾: أصنافًا ﴿ثَلاثةً، فأصحابُ المَيمَنةِ﴾..........

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

قولُهُ: (قَامَتِ) أو حدثَتْ، سمَّاها واقعةً لتحقُّقِ وقوعِها، وانتصابُ ﴿إذا﴾ بمحذوفٍ مثلُ: اذكُرْ، وقيل: بـ﴿لَيْسَ﴾، وقيل: بقولِهِ: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

قولُهُ: (بِأَنْ تَنفِيَهَا) أي: تكذِبُ في نَفيها، واللّامُ للتَّأقيتِ؛ أي: حينَ تقعُ.

قولُهُ: (مُظهِرَةٌ) إشارةٌ إلى أنَّ الخافضَ والرَّافعَ هو اللهُ، لكنَّ ظهورَها في ذلكَ الوقتِ، قيل: يخفضُ أقواماً بالعدلِ، ويرفعُ أقواماً بالفضلِ.

قولُهُ: (حَرَكَةً شَدِيدَةً) بحيثُ ينهدمُ ما فوقَها مِن بناءٍ وجَبلٍ.

قولُهُ: (أي: فُتِّتَتْ) أو سُيِّرَت.

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو ظَرفٌ لـ﴿خافِضةٌ﴾.

قولُهُ: (أَصنَافاً) وكلُّ صنفٍ يكونُ أو يُذكَرُ معَ صنفٍ آخرَ زوجٌ؛ أي: ينقسمُ النَّاسُ يومئذٍ إلى ثلاثةِ أصنافٍ.

وهم الذين يُؤتَون كُتبَهم بأيمانهم، مبتدأٌ خبرُه: ﴿ما أصحابُ المَيمَنةِ﴾! تعظيمٌ لشأنهم بدخولهم الجنّةَ، ٩ ـ ﴿وأصحابُ المَشْأمةِ﴾ أي: الشِّمالِ بأن يُؤتَى كُلّ منهم كِتابَه بشِماله ﴿ما أصحابُ المَشْأمةِ﴾! تحقيرٌ لشأنهم بدخولهم النارَ، ١٠ ـ ﴿والسّابِقُونَ﴾ إلى الخير، وهم الأنبياء: مبتدأٌ ﴿السّابِقُونَ﴾: تأكيد لتعظيم شأنهم، والخبرُ: ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ، في جَنّاتِ النَّعِيمِ، ثُلّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ مبتدأٌ، أي: جماعة من الأمم الماضية، ١٤ ـ ﴿وقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾: من أمة محمد ﷺ وهم السابقون من الأمم الماضية وهذه الأمة، والخبرُ: ١٥ ـ ﴿علَى سُرُرٍ مَوضُونةٍ﴾: منسوجة بقُضبان الذهب والجواهر، ١٦ ـ ﴿مُتَّكِئِينَ علَيها مُتَقابِلِينَ﴾: حالان من الضمير في الخبر.

١٧ ـ ﴿يَطُوفُ علَيهِم﴾ للخِدمة ﴿وِلدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾: على شكل الأولاد لا يَهرمون، ١٨ ـ ﴿بِأَكْوابٍ﴾:

قولُهُ: (تَحقِيرٌ) إشارةٌ إلى أنَّ معنى الاستفهاميَّتينِ التَّعجُّبُ مِن حالِ الفريقينِ.

قولُهُ: (وهُمُ الأَنبِيَاءُ) لأنَّهم مقدَّموا أهلِ الأديانِ، وفيه أنَّه لا يلائمُ قولَهُ: ﴿وَقَلِيْلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾، أوِ السَّابقونَ إلى إجابةِ الرَّسولِ، أو إلى الخيراتِ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أو خبرٌ؛ أي: الَّذين سبقوا إلى الجنَّةِ.

قولُهُ: (مُبْتَدَأٌ) أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو خبرٌ آخرُ.

قولُهُ: (أي: جَمَاعَةٌ) كثيرةٌ.

قولُهُ: (مِنَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ) وهذهِ الأمَّةِ، وقالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: الفِرقَتانِ في أمَّةِ كلِّ نبيٍّ: في صدرِها ثلَّةٌ، وفي آخرِها ثلَّةٌ[1]، وكثيرٌ مِن السَّلفِ ومنهُم الحسنُ على أنَّ معناهُ: هم كثيرٌ مِن متقدِّمِي هذهِ الأمَّةِ وقليلٌ من متأخِّريها، وروى الطَّبرانيُّ وغيرُه مرفوعاً: «أنَّهما من هذهِ الأمَّةِ»[2].

قولُهُ: (في الخَبَرِ) أو خبرٌ آخرُ.

قولُهُ: (للخِدْمَةِ) في «النِّهايةِ»[3]: الطَّائفُ الخادمُ الَّذي يخدمُكَ برفقٍ وعنايةٍ، وفي الحديثِ: «أولادُ الكفَّارِ خُدَّامُ أهلِ الجنَّةِ»[4].

---

(١) لم أقف عليه مسنداً، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤١) بهذا السياق: روي عن عائشة أنها تأولت أن الفرقتين في أمة كل نبي وهي في الصدر ثلة وفي آخر الأمة قليل.

(٢) وكذا ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ١٩) وحسن إسناده، إلا أني لم أجده عند الطبراني. ورواه مسدد كما في «المطالب العالية» لابن حجر (٣٧٤٥)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٩٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٤٢).

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٤٥١٦)، والروياني في «مسنده» (٨٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٤٤) (٦٩٩٣)، وفي =

أقداح لا عُرَى لها ﴿وأباريقَ﴾ لها عُرًى وخراطيمُ ﴿وكأسٍ﴾: إناءِ شُربِ الخمر ﴿مِن مَعِينٍ﴾، أي: خمرٍ جارية من مَنبع لا ينقطع أبدًا، ١٩ ـ ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنها ولا يُنزَفُونَ﴾ ـ بفتح الزاي وكسرها، من: نُزِفَ الشاربُ وأنزَفَ ـ أي: لا يَحصُل لهم منها صُداع ولا ذَهاب عقل بخِلاف خمر الدنيا، ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿وفاكِهةٍ مِمّا يَتَخَيَّرُونَ، ولَحمِ طَيرٍ مِمّا يَشتَهُونَ، و﴾ لهم للاستمتاع ﴿حُورٌ﴾: نساء شديداتُ سوادِ العُيون وبياضِها ﴿عِينٌ﴾: ضِخامُ العُيون ـ كُسرت عينه بدل ضمّها لمجانسة الياء، ومفرده عَيناء كحَمراء. وفي قراءة بجرِّ «حورٍ عينٍ» ـ ٢٣ ـ ﴿كأمثالِ اللُّؤلُؤِ المَكنُونِ﴾: المصون، ٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿جَزاءً﴾: مفعول له أو مصدر، والعامل مُقدّر، أي: جعلنا لهم ما ذُكر للجزاء أو جزَيناهم ...

قولُهُ: (لا عُرَى لَهَا) ولا خرطومَ، والباءُ للتَّعديةِ.

قولُهُ: (إِنَاءِ شُرْبِ الخَمرِ) أي: إناءٍ يُشرَبُ فيه الخمرُ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) كوفيٌّ[1].

قولُهُ: (نُزِفَ الشَّارِبُ) بالضمِّ، ذهبَ عقلُهُ بالسكرِ.

قولُهُ: (وأَنزَفَ) بالبناءِ للفاعلِ، إذا نفدَ وفنيَ شرابُهُ.

قولُهُ: (ولا ذَهَابُ عَقلٍ) ولا نفادُ خمرٍ.

قولُهُ: (﴿و﴾ لَهُم) أو فيها، وقيل: عطفٌ على: ﴿وِلْدَانٌ﴾.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ بـ«حُورٍ عِينٍ») يعني: قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ[2] بالجرِّ عطفاً على: ﴿جَنَّات﴾؛ أي: هم في جنَّاتٍ، وفي صُحبةِ حورٍ، أو على: ﴿أكوابٍ﴾ بحسبِ المعنى، فإنَّ معناه: ينعمونَ بأكوابٍ، وإن أرادَ أنَّ القراءةَ بالباءِ الجارَّةِ؛ فهي شاذَّةٌ[3].

قولُهُ: (المَصُونِ) عمَّا يضرُّ به في الصَّفاءِ والنَّقاءِ.

قولُه: (أو جَزَيْنَاهُمْ) رويَ: أنَّ المنازلَ في الجنَّةِ على قدرِ الأعمالِ، وأمَّا نفسُ الدُّخولِ فبرحمةِ اللهِ وفضلِهِ،

= «المعجم الأوسط» (٢٠٤٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٩): فيه عباد بن منصور، وثقه يحيى القطان وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

ورواه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٢٥)، والبزار في «مسنده» (٧٤٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٣٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٠٨)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٦٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٧).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) لم أقف عليها في كتب الشواذ.

﴿بما كانوا يَعمَلُونَ، لا يَسمَعُونَ فِيها﴾: في الجنّة ﴿لَغوًا﴾: فاحشًا من الكلام ﴿ولا تأثِيمًا﴾: ما يُؤثِم. ٢٦ ـ ﴿إلاّ﴾: لكنْ ﴿قِيلاً﴾: قولاً ﴿سَلامًا سَلامًا﴾: بدلٌ من «قِيلاً». فإنهم يسمعونه.

٢٧ ـ ٢٨ ـ ﴿وأصحابُ اليَمِينِ ما أصحابُ اليَمِينِ! في سِدرٍ﴾: شجرِ النَّبق ﴿مَخضُودٍ﴾: لا شوك فيه، ٢٩ ـ ﴿وطَلحٍ﴾: شجرِ الموز ﴿مَنضُودٍ﴾ بالحمل، من أسفله إلى أعلاه، ٣٠ ـ ﴿وظِلٍّ مَمدُودٍ﴾: دائم، ٣١ ـ ﴿وماءٍ مَسكُوبٍ﴾: جارٍ دائمًا، ٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿وفاكِهةٍ كَثِيرةٍ، لا مَقطُوعةٍ﴾ في زمن،.........

والخلودُ بالنِّيَّةِ، وكذلك الدَّركاتُ في النَّارِ على مراتبِ المعاصي، وأمَّا نفسُ الدُّخولِ فبالعدلِ، والخلودُ بالنِّيَّةِ.

قولُهُ: (فَاحِشاً) الظاهرُ: عبثاً.

قولُهُ: (مَا يُؤْثِمُ) أي: ولا ما يُوقِعُ في الإثمِ، أو ولا نسبةَ إلى الإثمِ؛ أي: لا يقالُ لهم: أثمتُمْ.

قولُهُ: (لَكِن) يعني: الاستثناءُ منقطعٌ، وهو ظاهرٌ أو متَّصلٌ، والمعنى: لا لغوَ إلَّا السَّلامُ، ومعلومٌ أنَّ السَّلامَ ليسَ بلغوٍ فلا لغوَ، فيكونُ من بابِ تأكيدِ المدحِ بما يشبهُ الذَّمَّ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو صفةٌ؛ بمعنى: سالماً.

قولُهُ: (فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ) لقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، والتَّكريرُ للدَّلالةِ على فشوِّ السَّلامِ بينَهُم، ويمكنُ أن يكونَ التَّقديرُ: سلاماً مِن اللهِ وسلاماً مِن الملائكةِ.

قولُهُ: (لا شَوكَ) أو مثنيٌّ أغصانُهُ.

قولُهُ: (شَجَرِ المَوزِ) وأكثرُ السَّلفِ على أنَّه أمُّ غيلانَ له أنوارٌ كثيرةٌ ورائحةٌ طيِّبةٌ وظلٌّ باردٌ، وعن ابنِ عبَّاسٍ(١): يشبهُ طلحَ الدُّنيا، لكنَّ ثمرَهُ أحلى مِن العسلِ، وعنهُ(٢): أنَّ بينَ نعيمِ الدُّنيا ونعيمِ العقبى مشاركةً اسميَّةً.

قولُهُ: (بالحَمْلِ) أي: متراكِمٌ.

قولُهُ: (دَائِمٍ) أو منبَسطٍ، وفي «الصَّحيحينِ»(٣): «إنَّ في الجنَّةِ شجرةً لو يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّهَا مائةَ عامٍ ما قطعَهَا».

قولُهُ: (جَارٍ) أينَ شاؤوا، وكيفَ شاؤوا، أو مصبوبٍ سائلٍ يجري على الأرضِ من غيرِ أخدودٍ.

قولُهُ تعالى: (﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾) أي: كثيرةِ الأجناسِ.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٥٢٦). وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٦١) ونسبه للسدي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٠).

(٣) رواه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

﴿وَلا مَمنُوعَةٍ﴾ بثمن، ٣٤ ـ ﴿وَفُرُشٍ مَرفُوعَةٍ﴾ على السُّرُر.

٣٥ ـ ﴿إِنَّا أَنشأناهُنَّ إنشاءً﴾ أي: الحُورَ العِين من غير وِلادة، ٣٦ ـ ﴿فجَعَلْناهُنَّ أبكارًا﴾: عذارَى، كُلّما أتاهنّ أزواجُهنّ وجدوهنّ عذارى ولا وجعَ، ٣٧ ـ ﴿عُرُبًا﴾، بضم الراء وسكونها: جمع عَرُوب ـ وهي المُتحبِّبة إلى زوجها عِشقًا له ـ ﴿أترابًا﴾: جمع تِرب، أي: مُستوياتٍ في السنّ، ٣٨ ـ ﴿لِأَصحابِ اليَمِينِ﴾: صلةُ «أنشأناهنّ» أو «جعلناهنّ»، ٣٩ ـ ٤٠ ـ وهم ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ، وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾.

قولُهُ: (بِثَمَنٍ) بل ولا تمتنعُ عن متناولِها بوَجهٍ.

قولُهُ: (على السُّرُرِ) أو رفيعةِ القدرِ، أو مرفوعةٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، وفي الحديثِ: «ارتفاعُهَا ما بينَ السَّماءِ والأرضِ» رواهُ التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ[١]، وقيل: الفرشُ: النِّساءُ، وارتفاعُها أنَّها على الأرائِكِ، ويدلُّ عليهِ ما بعدَهُ.

قولُهُ: (أي: الحُورَ العِينَ) أي: ابتَدأناهُنَّ ابتداءً جديداً.

قولُهُ: (مِن غَيرِ وِلادَةٍ) إبداءً أو إعادةً، أو الضَّميرُ لما دلَّ عليهِ السِّياقُ وهو ذكرُ الفرشِ؛ أي: النِّساءِ؛ أي: أعَدْنا إنشاءَهُنَّ، ففي الحديثِ: «هنَّ اللَّواتي قُبِضْنَ عجائزَ خلقهنَّ اللهُ بعدَ الكبرِ فجعلهنَّ عذارى متعشِّقاتٍ على ميلادٍ واحدٍ أفضلُ مِنَ الحورِ العينِ، كفضلِ الظِّهارَةِ على البِطَانةِ، ومَن يكنْ لها أزواجٌ في الدُّنيا تُخيَّرُ فتختارُ أحسنَهُمْ خلقاً»، الحديثُ في الطَّبرانيِّ والتِّرمذيِّ[٢] مطوَّلٌ دالٌّ على معانٍ كثيرةٍ جليلةِ القدرِ. وفي حديثٍ: «هنَّ أفضلُ مِنَ الحورِ لصلاتهنَّ وصيامهنَّ»[٣].

قولُهُ: (وسُكُونِهَا) حمزةُ وشعبةُ[٤].

قولُهُ: (فِي السِّنِّ) كلُّهنَّ بناتُ ثلاثٍ وثلاثينَ، وكذا أزواجُهنَّ.

قولُهُ: (أو جَعَلْنَاهُنَّ) أو صلةٌ لـ﴿أَبْكَارًا﴾، أو خبرٌ لمحذوفٍ مثلُ: هنَّ.

قولُهُ: (وهُم) مبتدأٌ مقدَّرٌ، ولا معنى للواوِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٤)، وأحمد في «مسنده» (١١٧١٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٠٥) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.
ولم أجده عند النسائي، والله أعلم.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٦٧) (٨٧٠) مطولًا من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٩): فيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي.
وأما الترمذي فروى قطعة منه (٣٢٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٣) هذا طرف من حديث أم سلمة رضي الله عنها المتقدم عند الطبراني.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٧).

٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿وأصحابُ الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ! في سَمُومٍ﴾: ريحٍ حارّة من النار تنفذ في المسامّ، ﴿وحَمِيمٍ﴾: ماء شديد الحرارة ٤٣ ـ ﴿وظِلٍّ مِن يَحمُومٍ﴾: دُخان شديد السواد، ٤٤ ـ ﴿لا بارِدٍ﴾ كغيره من الظِّلال ﴿ولا كَرِيمٍ﴾: حسن المنظر. ٤٥ ـ ﴿إنَّهُم كانُوا قَبلَ ذلِكَ﴾: في الدنيا ﴿مُترَفِينَ﴾: مُنعّمين، لا يتعبون في الطاعة، ٤٦ ـ ﴿وكانُوا يُصِرُّونَ علَى الحِنثِ﴾: الذنب ﴿العَظِيمِ﴾ أي: الشرك، ٤٧ ـ ﴿وكانُوا يَقُولُونَ: أإذا مُتْنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا لَمَبعُوثُونَ﴾ ـ في الهمزتين في الموضعين التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين ـ ٤٨ ـ ﴿أوَآباؤُنا الأوَّلُونَ﴾؟ بفتح الواو للعطف. والهمزة: للاستفهام. وهو في ذلك وفيما قبله للاستبعاد. وفي قراءة بسكون الواو عطفًا بـ «أوْ» والمعطوف عليه محلّ «إن» واسمِها.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿قُلْ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ لَمَجمُوعُونَ إلَى مِيقاتِ﴾: وقتِ ﴿يَومٍ مَعلُومٍ﴾ أي: يوم القيامة، ٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿ثُمَّ إنَّكُم ـ أيُّها الضّالُّونَ المُكَذِّبُونَ ـ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ﴾: بيانٌ للشجر،

قولُهُ: (رِيحٍ) أو حرِّ نارٍ.

قولُهُ: (المَسَامِّ) خروقِ الجسدِ.

قولُهُ: (دُخَانٍ) يفعولُ مِن الحُمَمَةِ؛ أي: الفحمِ.

قولُهُ: (حَسَنِ المَنْظَرِ) أو يانعٍ[1]، نفى بذلك ما أوهمَ الظِّلُّ من الاسترواحِ.

قولُهُ: (مُنعَّمِينَ) منهمِكينَ في الشَّهَواتِ.

قولُهُ: (لا يَتْعَبُونَ فِي الطَّاعَةِ) ولا يصبرونَ عن السَّيِّئةِ.

قولُهُ: (بالهَمْزَتَينِ) كُرِّرَتِ الهمزةُ للدَّلالةِ على إنكارِ البعثِ مطلقاً، وخُصوصاً في هذا الوقتِ.

قولُهُ: (التَّحقِيقُ) تقدَّمَ[2].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لقالونَ وشاميٍّ[3].

قولُهُ: (لِوَقتِ) الإضافةُ بمعنى: مِن، كخاتمِ حديدٍ؛ أي: إلى ما وُقِّت به الدُّنيا وحُدِّثْ من يومٍ معيَّنٍ عندَ اللهِ معلومٍ.

قولُهُ: (بَيَانٌ) والأولى للابتداءِ، أو التَّبعيضِ.

---

(١) في (م): «نافع».

(٢) انظر الآية رقم: (٥) من سورة الرعد.

(٣) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٧١).

٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿فمالِئُونَ مِنها﴾: من الشجر ﴿البُطُونَ، فشارِبُونَ علَيهِ﴾ أي: الزقّومِ المأكولِ ﴿مِنَ الحَمِيمِ، فشارِبُونَ شَربَ﴾ ـ بفتح الشين وضمّها مصدرٌ ـ ﴿الهِيمِ﴾: الإبل العِطاش، جمع هَيمانَ للذكر وهَيمَى للأنثى كعَطشانَ وعَطشَى. ٥٦ ـ ﴿هذا نُزُلُهُم﴾: ما أُعِدّ لهم ﴿يَومَ الدِّينِ﴾: يوم القيامة.

٥٧ ـ ﴿نَحنُ خَلَقْناكُم﴾: أوجدناكم من عدم. ﴿فلَولا﴾: فهلاّ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث، إذِ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة. ٥٨ ـ ﴿أفرَأَيتُم ما تُمنُونَ﴾: تُرِيقون من المنيِّ في أرحام النساء؟ ٥٩ ـ ﴿أأنتُم﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا وتسهيلها، وإدخال ألف بين المُسهّلة والأُخرى وتركه، في المواضع الأربعة ـ ﴿تَخلُقُونَهُ﴾ أي: المنيَّ بشرًا ﴿أم نَحنُ الخالِقُونَ﴾؟

٦٠ ـ ﴿نَحنُ قَدَّرْنا﴾، بالتشديد والتخفيف، ﴿بَينَكُمُ المَوتَ، وما نَحنُ بِمَسبُوقِينَ﴾: بعاجزين

قولُهُ: (مِنَ الشَّجَرِ) لغَلبةِ الجوعِ.

قولُهُ: (أي: الزَّقُّومِ) لشدَّةِ العطشِ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ[1].

قولُهُ: (العِطَاشِ) الَّتي بها الهُيامُ، وهو داءٌ يشبهُ الاستسقاءَ[2]، وقيل: المرادُ الرِّمالُ الَّتي لا يرويها الماءُ.

قولُهُ: (هَيْمَانَ) أو أهيَمُ، في «البحرِ»[3]: الفاءُ تقتضِي التَّعقِيبَ في الشُّربِ، وأنَّهم لمَّا عطِشُوا شرِبوا مِن الحميمِ فازدادوا عطشاً، فشَربوا بعدَهُ شُرباً لا يقعُ به رِيٌّ أبداً، فهما شربانِ من الحميمِ لا شربٌ واحدٌ، واختلفَت صفتاهُ فعُطِفَ.

قولُهُ: (مَا أُعِدَّ لَهُم) تكرِمةً لهم؛ فما ظنُّكَ بما يُعدُّ لهم بعدُ.

قولُهُ: (تُرِيقُونَ من المِنيِّ) أي: ما تقذفونَهُ من النُّطفِ.

قولُهُ: (بِتَحْقِيقِ) تقدَّم تحقيقُهُ في البقرةِ[4].

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ) مكِّيٌّ[5]؛ أي: قَسَمناهُ عليكُمْ، وأقَّتْنا موتَ كلِّ بوقتٍ معيَّنٍ.

قولُهُ: (بِعَاجِزِينَ) أي: مغلوبينَ، أو لا يسبِقُنا أحدٌ فيَهربَ من الموتِ، أو يُغيِّرَ وقتَهُ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) في «روح البيان» (٩/ ٣٣٠): الهُيام: هو داء يصيبها يشبه الاستسقاء، فتشرب ولا تروى، إلى أن تموت أو تسقم سقماً شديداً.

(٣) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٧).

(٤) في الآية رقم: (٦).

(٥) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٥).

٦١ ـ ﴿عَلَى﴾: عن ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾: نجعل ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ مكانكم، ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾: نَخلقكم ﴿فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصُّور كالقِردة والخنازير. ٦٢ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾. وفي قراءة بسُكون الشين. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إدغام التاء الثانية في الأصل في الذال.

٦٣ ـ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾: تُثيرون الأرضَ وتُلقون البِذر فيها؟ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾: تُنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾: نباتًا يابسًا لا حبّ فيه، ﴿فَظَلْتُمْ﴾ ـ أصله «ظَلِلتُم» بكسر اللام حُذفت تخفيفًا ـ أي: أقمتم نهارًا ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، حُذفتْ منه إحدى التاءين في الأصل: تَعجَبون من ذلك، وتقولون: ٦٦ ـ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ نَفقةَ زرعِنا، ٦٧ ـ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: ممنوعون رزقَنا.

٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ؟ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾: السحابِ، جمعُ مُزنة، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾: مِلحًا لا يُمكن شُربه. ﴿فَلَوْلَا﴾: فهلاّ ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

قولُهُ: (مَكَانَكُمْ) أي: نبدِّلَ منكُم أشباهَكُم فنخلقَ بدلَكُم، أو نغيِّرَ صفاتِكُم، على أنَّ أمثالَ جمعُ: مَثَلٍ، بفتحتَينِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ مكِّيٍّ وبصريٍّ[١].

قولُهُ: (فِيهِ إِدْغَامُ) لغيرِ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[٢].

قولُهُ: (تُنبِتونَهُ) الزَّرعُ: طرحُ البذرِ والإنباتُ، قالَهُ الجوهريُّ[٣]، وفي الحديثِ: «لا يقولنَّ أحدُكُم: زرعْتُ، وليقلْ: حرثْتُ» رواهُ ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ[٤].

قولُهُ: (بِكَسرِ اللَّامِ) وقُرِئَ به[٥].

قولُهُ: (أَقَمْتُمْ نَهَاراً) أو صِرتُم.

قولُهُ: (نَفَقَةَ زَرعِنَا) أي: لملزمونَ غرامةَ ما أنفقْنا.

قولُهُ: (جَمْعُ: مُزْنَةٍ) وقيل: المُزنُ السَّحابُ الأبيضُ، وماؤُهُ أعذبُ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٤٩).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٩٣).

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٢٢٤).

(٤) رواه البزار في «مسنده» (١٠٠٦٤)، وأبو يعلى في «معجمه» (٢٩٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٠٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٢٠): فيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

(٥) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه والأعمش، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٦٣).

٧١ ـ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾: تُخرِجون من الشجر الأخضر؟ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿أَأَنتُم أَنشَأْتُم شَجَرَتَهَا﴾ كالمَرْخ والعَفار والكَلِخ، ﴿أَم نَحنُ المُنشِئُونَ؟ نَحنُ جَعَلْناها تَذكِرَةً﴾ لنار جهنّم ﴿وَمَتَاعًا﴾: بُلغةً ﴿لِلمُقوِينَ﴾: للمسافرين. مِن: أقوَى القومُ، أي: صاروا بالقِواءِ، بالمدّ والقصر، أي: القَفرِ. وهو مفازةٌ لا نبات فيها ولا ماء. ٧٤ ـ ﴿فَسَبِّحْ﴾: نزِّهْ ﴿بِاسمِ﴾ ـ زائدٌ ـ ﴿رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ أي: اللهِ.

٧٥ ـ ﴿فَلا أُقسِمُ﴾، لا: زائدةٌ، ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: بمَساقطها لغروبها ـ ٧٦ ـ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القَسَمَ بها ﴿لَقَسَمٌ، لَو تَعلَمُونَ، عَظِيمٌ﴾ أي: لو كنتم من ذوي العِلم لعلمتم عِظَمَ هذا القسم ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: المَتلوَّ عليكم ﴿لَقُرآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكنُونٍ﴾: ....

قولُهُ: (تُخرِجُونَ) أي: تقدحونَ وتوقِدونَ.

قولُهُ: (كالمَرخِ والعفارِ) يحكُّ أحدَ غُصنَيها بالآخرِ فيتناثرُ منهما شررُ النَّارِ، وقيل: كلُّ شجرٍ إلَّا العنَّابَ؛ يعني: الشَّجرةَ الَّتي منها الزِّنادُ.

قولُهُ: (لِنَارِ جَهَنَّمَ) أي: جَعلنا نارَ الزِّنادِ تذكيراً، أو أنموذَجاً لنارِ جهنَّمَ.

قولُهُ: (بُلْغَةً) ومنفعةً.

قولـه: (صَارُوا) أي: نزَلـوا ودخَلـوا، فـإنَّ انتفاعَهُـم بالزندِ أكثـرُ مِنِ انتفـاعِ الحضريِيـنَ، أو الَّذيـنَ خلَتْ بطونُهُـم، أو مزاوِدُهـم مِـن الطَّعـامِ، فإنَّ أصلَ القَـوَاءِ: الخـلاءُ، وإنَّما خُصَّ الجائعـونَ؛ لأنَّ غيرَهُـم المنعَّمَ بها لا يجعلُهـا متاعاً.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) في «البحرِ»[1]: ظهرَ أنَّ ﴿سَبِّحَ﴾ يتعدَّى بنفسِهِ وبحرفِ الجرِّ؛ أي: جدِّدَ التَّسبيحَ ونزِّهْهُ عن النَّقائصِ باستعانةِ ذكرِ اسمِهِ العظيمِ، أو اسمِ ذاتِهِ العظيمِ تنزيهاً عمَّا يقولونَ، أو تعجُّباً وشكراً.

قولُهُ: (بِمَسَاقِطِهَا) وهو قولُ الحسنِ ومجاهدٍ وقتادةَ[2]، وتخصيصُ المغاربِ لما في غروبِها مِن زوالِ أثرِها، وللدَّلالةِ على وجودِ مؤثِّرٍ لا يزولُ تأثيرُه، وقيل: النُّجومُ: القرآنُ، ومواقعُها: أوقاتُ نزولِها، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وعكرمةَ والسُّدِّيِّ[3].

والمعنى: لا أقسِمُ بها؛ إذ الأمرُ أوضحُ من أن يحتاجَ إلى قسَمٍ، أو ﴿لا﴾ زائدةٌ.

قولُهُ: (أي: المَتلُوَّ) جوابُ القسمِ.

(١) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٩٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٤٨) عن مجاهد وقتادة.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١٠/ ٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٤).

مصون وهو المُصحَف، ٧٩ ـ ﴿لا يَمَسُّهُ﴾: خبرٌ بمعنى النهي ﴿إلاّ المُطَهَّرُونَ﴾: الذين طهّروا أنفُسهم من الأحداث، ٨٠ ـ ﴿تنزيلٌ﴾: مُنزّل ﴿مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾.

٨١ ـ ﴿أفبِهذا الحَدِيثِ﴾: القُرآن ﴿أنتُم مُدهِنُونَ﴾: مُتهاونون مُكذّبون، ٨٢ ـ ﴿وتَجعَلُونَ رِزقَكُم﴾ من المطرِ أي: شُكرَه ﴿أنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ بسُقيا الله حيثُ قلتم: مُطرنا بنَوء كذا؟

قولُهُ: (مَصُونٍ) من الشَّياطينِ.

قولُهُ: (وهُو المُصْحَفُ) أو اللَّوحُ، أي: لا يطَّلعُ عليه إلَّا المطهَّرونَ من الكُدوراتِ الجسمانيَّةِ وهم الملائكةُ.

قولُهُ: (مِنَ الأَحدَاثِ) وفي البخاريِّ[1]: لا يجدُ طعمَهُ ونفعَهُ إلَّا مَن آمَنَ بالقرآنِ. وقالَ بعضُ العارفينَ: لا ينالُ بركتَهُ إلَّا من طهَّرَهُ يومَ قسمتِهِ عن الشَّقاوةِ، وخلقَهُ يومَ خلَقَه مطهَّراً من المخالفَةِ.

قولُهُ: (مُنَزَّلٌ) صفةٌ للقرآنِ، وهو مصدرٌ نُعِتَ به للمبالغَةِ.

قولُهُ: (مِنَ المَطَرِ) بهذا فسَّرَهُ ﷺ كما نقلَهُ الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ[2]، وقد صحَّ عن حبرِ الأُمَّةِ أيضاً[3].

قولُهُ: (شُكرَهُ) ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (شُكْرَكُمْ)[4]، والرِّزقُ؛ بمعنى: الشُّكرِ في لغةٍ، أو تجعلونَ حظَّكُم ونصيبَكُم من الآنِ تكذيبَكُم به، وهو قولُ الحسَنِ ومجاهدٍ[5].

قولُهُ: (بِسُقيَا اللهِ) أي: بمانحِهِ حيثُ تنسبونَهُ إلى الأنواءِ.

---

(١) ذكره البخاري (٩/ ١٥٥) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ [آل عمران: ٩٣].

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٥)، وأحمد في «مسنده» (٦٧٧) من حديث علي قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وتجعلون رزقكم﴾ شكركم ﴿أنكم تكذبون﴾ تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث إسرائيل.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٤) عن ابن عباس، قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ ابن عباس: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

وروى مسلم (٧٣) عن ابن عباس، قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال: النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: ٧٥]، حتى بلغ: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: ٨٢].

(٤) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعلي وابن عباس رضي الله عنهم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٦٤).

(٥) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣١٥١)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٦) عن الحسن.

وروى الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٦) عن مجاهد: قولهم في الأنواء: مُطرنا بنوء كذا ونوء كذا، يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه.

٨٣ ـ ﴿فَلَوۡلَآ﴾: فهلاّ، ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروحُ وقتَ النزع ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ هو مجرى الطعام، ٨٤ ـ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ ـ يا حاضري الميّت ـ ﴿حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ إليه، ٨٥ ـ ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ بالعِلم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾: من البَصيرة، أي: لا تعلمون ذلك، ٨٦ ـ ﴿فَلَوۡلَآ﴾: فهلاّ ـ ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾: مَجزيِّين بأن تُبعثوا، أي: غيرَ مبعوثين بزعمكم ـ ٨٧ ـ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾: تردّون الروح إلى الجسد بعد بُلوغ الحُلقوم، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعمتم. «فلولا» الثانية: تأكيد للأُولى. وإذا: ظرف لـ «ترجعون» المُتعلّقِ به الشرطان. والمعنى: هلاّ تَرجعونها، إن نفَيتم البعث صادقين في نفيه، أي: لِينتفيَ عن محلّها الموتُ فالبعثُ.

٨٨ ـ ٨٩ ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ الميّت ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ فَرَوۡحٞ﴾ أي: فله استراحةٌ ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾: رزق حسن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ ـ وهل الجواب لِـ «أمّا» أو لِـ «إن» أو لهما؟........................

قولُهُ: (إليهِ) وما يُقاسيهِ من شدَّةِ النَّزعِ، أو حالِهِ، أو حالِكُم، أو أمري وسُلطاني ولا تقدِرونَ على دفعِهِ، والواوُ للحالِ.

قولُهُ: (بالعِلمِ) أي: نحنُ أعلمُ به، وعبَّرَ عن العلمِ بالقربِ الَّذي هو أقوى سببِ الاطِّلاعِ.

قولُهُ: (ذَٰلِكَ) أي: لا تدركونَ كنهَ ما يجري عليه، أو لا تبصرونَ قُربَنا، ولا تعرفونَ قَدرَنا.

قولُهُ: (الشَّرطَانِ) وجوابُ الشَّرطِ يدلُّ عليه السِّياقُ، وحاصلُهُ أنَّكُم تزعمونَ أن لا بعثَ ولا حسابَ، ولا إلهَ يُجازي فنفيتُمْ قُدرَتي واختيارِي، فما لكم لا تردُّونَ روحَ من يعزُّ عليكُمْ، فإذا لم يمكنكُمْ ذلك فاعلَموا أنَّ فوقَكُم قادراً مختاراً بيدِهِ الأمرُ، لا عجزَ ولا تعطيلَ.

وقالَ الإمامُ الطِّيبيُّ[1]: يزعمُ أنَّه قادرٌ على تغييرِ الطَّبيعةِ بالمعَالجةِ، والكفَّارُ أكثرُهُم طبيعيُّونَ، فقيل لهم: هلَّا تَرجِعونَ الرُّوحَ من الحلقومِ إن كنتُم صادِقينَ في أنَّ لكم قدرةً.

قولُهُ: (المَيِّتُ) والمحتضِرُ.

قولُهُ: (استِرَاحَةٌ) أو راحةٌ، وفي الحديثِ: «الموتُ تحفَةُ المؤمنِ»[2].

قولُهُ: (رِزقٌ حَسَنٌ) طيِّبٌ، وقيل: مشمومٌ، وجنَّةٌ ذاتُ تنعُّمٍ؛ أي: يبشَّرُ بهذه الثَّلاثةِ.

---

(١) انظر: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (١٥/ ٢٢٤).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٩٩)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٣٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. وخالفه الذهبي فقال: فيه ابن زياد وهو الأفريقي ضعيف.

أقوالٌ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ﴿وأمّا إن كانَ مِن أصحابِ اليَمِينِ فسَلامٌ لَكَ﴾، أي: له سلامةٌ من العذاب، ﴿مِن أصحابِ اليَمِينِ﴾: من جِهة أنه منهم، ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ﴿وأمّا إن كانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فنُزُلٌ مِن حَمِيمٍ، وتَصلِيةُ جَحِيمٍ. إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾، من إضافة الموصوف إلى صِفته. ٩٦ ـ ﴿فسَبِّحْ بِاسمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾: تقدّمَ.

قولُهُ: (أَقوَالٌ) والأَوَّلُ أقواها، واستَغنى بجوابِ ﴿أَمَّا﴾ عن جوابِ ﴿إِنْ﴾؛ لأنَّ ﴿إِنْ﴾ قد حُذِفَ جوابُها في مواضِعَ.

قولُهُ: (أي: لَهُ) هذا تفسيرٌ غَريبٌ، والصَّحيحُ أنَّ المعنى: فسلامٌ، أو فيُقالُ له: سلامٌ لكَ يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِكَ أصحابِ اليمينِ يُسلِّمونَ عليكَ، ولذا قيلَ: المعنى: فسلامٌ عليكَ من أصحابِ اليمينِ، أو حصلَ لك سلامةٌ من العذابِ حالَ كونِكَ من أهلِ اليمينِ يُبشَّرُ بالبشارتَينِ.

وعن بعضِ المفسِّرينَ: فسلامَةٌ لك يا محمَّدُ لا تهتمَّ لهم، فإنَّهُم في سِدرٍ مخضُودٍ(١).

قولُهُ تعالى: (﴿الضَّالِّينَ﴾) يعني: أصحابَ الشِّمالِ، وإنَّما وصفَهُم بأفعالِهِم زجراً عنها، وإشعاراً بما أوجبَ لهم ما أوعدَهُم به، ولعلَّ فيه إشارةً لطيفَةً إلى لطفِهِ بعبادِهِ المؤمنينَ.

وقولُهُ: (﴿فَنُزُلٌ﴾) أي: فلَهُ ذلك.

قولُهُ تعالى: (﴿إِنَّ هَذَا﴾) أي: الَّذي ذكرَ في السُّورةِ، أو في شأنِ الفرقِ الثَّلاثةِ.

قولُهُ: (مِن إِضَافَةِ المَوصُوفِ(٢)) هذا مذهبٌ كوفيٌّ، وأمَّا على المختارِ فتقديرُهُ: حقُّ الخبرِ اليقينِ، أو الإضافةُ بيانيَّةٌ؛ أي: حقٌّ هو اليقينُ لا مريةَ فيه، أو ﴿اليقينُ﴾ اسمٌ للعلمِ الَّذي لا لبسَ فيه، والإضافةُ؛ بمعنى: اللَّامِ.

قولُهُ: (تَقَدَّمَ) أي: نَزِّهْهُ بذكرِ اسمِهِ عمَّا لا يليقُ بعظمةِ شأنِهِ، وقد وردَ لمَّا نزلَتْ قالَ ﷺ: «اجعلُوهَا في ركوعِكُم»، ولمَّا نزلَتْ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قالَ: «اجعلُوهَا في سجودِكُم»(٣)، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «جامع البيان» للإيجي (٤/ ٢٥٦).

(٢) في الأصول: «الصفة» وما أثبته من «الجلالين».

(٣) رواه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١٧٤١٤)، والدارمي في «السنن» (١٣٤٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٧٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٨٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية كما أخرجَه البيهقيُّ في «الدلائل» وغيرُه عن ابن عباس[1]، وابن مردويه عن ابن الزبير[2].

واستثنَى بعضُهم قولَه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾ كما حكاه في «الإتقان» وكذا استثنى قوله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ إلى ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ لِمَا أخرجَه مسلم في سبب نزوله[3]، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي «مجمع البيان» حكايةُ استثناءِ قولِه تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ عن ابن عباس وقتادة[4].

وعددُ آيِها تسعٌ وتسعون في الحجازي والشامي، وسبعٌ وتسعون في البصري، وستٌّ وتسعون في الكوفي، وتفصيلُ ذلك فيما أُعدَّ لِمثله.

وهي وسورةُ الرحمن متواخيةٌ في أنَّ في كلٍّ منهما وصفُ القيامة والجنة والنار، وقال في «البحر»: مناسبتُها لِمَا قبلها أنَّه تضمَّن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين، وفاضَلَ سبحانه بين جنَّتَي بعضِ المؤمنين وجنَّتَي بعضٍ آخَرَ منهم، فانقسَم المكلَّفون بذلك إلى كافرٍ، ومؤمنٍ فاضلٍ، ومؤمنٍ مفضول؛ وعلى هذا جاء ابتداءُ هذه السورة من كونهم أصحابَ ميمنةٍ، وأصحابَ مشأمة، وسابقين[5].

---

(١) دلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وأخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (١٧).

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٣.

(٣) الإتقان ١/ ٥١، وسيأتي عند تفسير الآية.

(٤) مجمع البيان ٢٥/ ١٠٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٠٢.

وقال بعضُ الأجلة: انظر إلى اتِّصال قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ بقوله سبحانه: (فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ) وأنَّه اقتصر في «الرحمن» على ذكر انشقاقِ السماء، وفي «الواقعة» على ذكر رجِّ الأرض، فكأنَّ السورتَين لتلازُمِهما واتِّحادهما سورةٌ واحدة، فذُكِرَ في كلٍّ شيءٌ، وقد عكس الترتيبَ فذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، فافتَتَح في سورة الرحمن بذكر القرآن، ثم ذِكْر الشمسِ والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خَلْقِ الإنسان والجانِّ، ثم صفةِ يوم القيامة، ثم صفةِ النار، ثم صفةِ الجنة؛ وهذه ابتداؤُها بذكر القيامة، ثم صفةِ الجنة، ثم صفةِ النار؛ ثم خَلْقِ الإنسان، ثم النباتِ، ثم الماءِ، ثم النارِ، ثم ذُكِرَت النجومُ ولم تذكر في «الرحمن»، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر، ثم ذكر الميزان، فكانت هذه كالمقابِلة لتلك، وكالمتضمنة لردِّ العجز على الصدر.

وجاء في فضلها آثار، أخرج أبو عبيد في «فضائله» وابن الضريس والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن قرأ سورةَ الواقعةِ كلَّ ليلةٍ لم تُصبه فاقةٌ أبدًا»[(١)].

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس نحوه مرفوعًا[(٢)].

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «سورةُ الواقعة سورةُ الغِنَى فاقرؤوها وعلموها أولادكم»[(٣)].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٣٨، وفضائل القرآن لابن الضريس (٢٢٦)، ومسند الحارث ٢/ ٧٢٩ (٧٢١)، وشعب الإيمان (٢٤٩٩) و(٢٥٠٠)، وعزاه لابن مردويه وأبي يعلى السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٣، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل ١/ ١١٢. وفي إسناده السري بن يحيى، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٦٣: اختلف أصحاب السري، هل شيخه شجاع أو أبو شجاع، واختلفوا في شيخ شجاع، هل هو أبو فاطمة أو أبو ظبية، ثم اختلفوا في ضبط أبي ظبية، فعند الدارقطني بالطاء المهملة بعدها تحتانية ثم موحدة، وأنه عيسى بن سليمان الجرجاني، وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة... وعند البيهقي أنه بالمعجمة بعدها موحدة ثم تحتانية، وأنه مجهول، وقال أحمد ابن حنبل: هذا حديث منكر وشجاع لا أعرفه. اهـ.

(٢) تاريخ دمشق ٣٦/ ٤٤٤.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ١٥٣.

وأخرج الديلمي عنه مرفوعًا: «عَلِّموا نساءكم سورةَ الواقعة، فإنَّها سورةُ الغِنَى»[١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي: إذا حدثَت القيامةُ، على أنَّ «وقعت» بمعنى حدثَت، و«الواقعة» علمٌ بالغلبة أو منقول للقيامة، وصرَّح ابن عباس بأنَّها من أسمائها، وسمِّيَت بذلك للإيذان بتحقُّق وقوعها لا محالةَ، كأنَّها واقعةٌ في نفسها[٢] مع قَطْع النظر عن الوقوع الواقعِ في حيز الشَّرط، فليس الإسناد كما في: جاءني جاءٍ، فإنَّه لغوٌ لدلالة كلِّ فعلٍ على فاعل له غير معيّن.

وقال الضحاك: «الواقعة» الصيحةُ، وهي النفخةُ في الصُّوْر.

وقيل: «الواقعة» صخرةُ بيتِ المقدس تقعُ يوم القيامة. وليس بشيءٍ.

و«إذا» ظرفٌ متضمِّنٌ معنى الشرط على ما هو الظاهر، والعاملُ فيها عند أبي حيان الفعلُ بعدها[٣]، فهي عنده في موضع نصب بـ «وَقَعت» كسائر أسماء الشرط، وليست مضافةً إلى الجملة.

والجمهورُ على إضافتها؛ فقيل: هي هنا قد سُلبَت الظرفية ووقعت مفعولًا به لـ: اذكُر، محذوفًا.

وقيل: لم تُسلَب ذلك وهي منصوبةٌ بـ «ليس»، وصنيع الزمخشريِّ يُشعرُ باختياره[٤].

وقيل: بمحذوف، وهو الجوابُ، أي: إذا وَقَعت الواقعةُ كان كيتَ وكيت.

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٠ (٤٠٠٥).

(٢) في الأصل: بنفسها.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٢.

(٤) الكشاف ٤/ ٥١.

قال في «الكشف»: هذا الوجه العربي الجزل، فالنصبُ بإضمار «اذكر» إنما كثُر في «إذ»، وبـ «ليس» إنَّما يصحُّ إذا جعلت لمجرَّد الظرفية، وإلا لوجَبَ الفاءُ في «ليس».

وأبو حيان تعقَّب النصبَ بـ «ليس» بأنَّه لا يذهب إليه نحويٌّ؛ لأنَّ «ليس» في النفي كـ «ما» وهي لا تعمل، فكذا «ليس» فإنَّها مسلوبةُ الدلالة على الحدث والزمان، والقولُ بأنَّها فعلٌ [هو] على سبيل المجاز، والعاملُ في الظرف إنَّما هو ما يقعُ فيه من الحدث، فحيث لا حدَثَ فيها لا عمَلَ لها فيه. ثم ذَكَر نحوَ ما ذَكَرَ صاحبُ «الكشف» من وجوب الفاء في «ليس» إذا لم تجرَّد عن الشرطية(١).

واعتُرِضَ دعواه أنَّ «ما» لا تعمل، بأنَّهم صرَّحوا بجواز تعلُّق الظرف بها لتأويلها بـ «انتفى»، وأنَّه يكفي له رائحةُ الفعل، ويقاسُ عليها في ذلك «ليس»، وكذا دعوى وجوبِ الفاء في «ليس» إذا لم تُجرَّد «إذا» عن الشرطية بأنَّ لزومَ الفاء مع الأفعال الجامدةِ إنما هو في جواب «إنْ» الشرطية لعملها كما صرَّحوا به. وأما «إذا» فدخول الفاء في جوابها على خلاف الأصل. وسيأتي إن شاء الله تعالى فيها قولان آخران.

وبعد القيل والقال الأولَى كونُ العامل محذوفًا، وهو الجوابُ كما سمعتَ، وفي إبهامه تهويلٌ وتفخيم لأمر الواقعة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ إما اعتراضٌ يؤكد تحقُّق(٢) الوقوع، أو حالٌ من «الواقعة» كما قال ابنُ عطية(٣). و«كاذبة» اسمُ فاعل وَقَع صفةً لموصوف محذوفٍ، أي: نفس، وقيل: مقالة. والأولُ أولَى؛ لأنَّ وَصْف الشخص بالكذب أكثرُ من وصف الخبر به.

والوقعة(٤): السقطةُ القوية، وشاعَت في وقوع الأمر العظيم، وقد تُخَصُّ بالحرب ولذا عبَّر بها هنا، واللام للتَّوقيت مثلُها في قولك: كتبتُه لخمسٍ خَلَون،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في (م): تحقيق.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٨.

(٤) في (م): الواقعة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٤٠، والكلام منه.

أي: لا يكون حين وقوعِها نفسٌ كاذبةٌ، على معنى: تَكْذِبُ على الله تعالى وتَكْذِبُ في تكذيبه سبحانه وتعالى في خبره بها، وإيضاحُه: أنَّ منكرَ الساعة الآن مكذِّبٌ له تعالى في أنَّها تقعُ، وهو كاذبٌ في تكذيبه سبحانه؛ لأنَّه خبرٌ على خلاف الواقع، وحين تقعُ لا يبقَى كاذبًا مكذِّبًا، بل صادقًا مصدِّقًا.

وقيل: على معنى: ليس في وقت وقوعها نفسٌ كاذبةٌ في شيءٍ من الأشياء، ولا يخفَى أنَّ صحته مبنيةٌ على القول بأنَّه لا يصدر من أحد كذِبٌ يوم القيامة؛ وأنَّ قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] مجابٌ عنه بما هو مذكورٌ في محلِّهِ.

أو اللام على حقيقتها، و«كاذبة» صفة لذلك المحذوف أيضًا، أي: ليس لوقعتها نفسٌ كاذبةٌ، بمعنى: لا يُنكرُ وقوعَها أحدٌ ولا يقولُ للساعة: لم تكوني؛ لأنَّ الكونَ قد تحقَّق، كما يقولُ لها في الدنيا بلسان القول أو الفعل؛ لأنَّ مَن اغترَّ بزخارفِ الدنيا فقد كذَّب الساعة في وَقْعتها بلسان الحال: لن تكوني، وهذا كما تقول لمخاطبك: ليس لنا ملك، ولمعروفك كاذب، أي: لا يكذبك أحدٌ، فيقول: إنَّه غيرُ واقع، وفيه استعارةٌ تمثيليةٌ؛ لأنَّ الساعةَ لا تصلُح مخاطبًا إلا على ذلك، إما على سبيل التخييل من باب: لو قيل للشحم أين تذهب؟ وهو الأظهرُ، وإما على التحقيق.

وجُوِّز كونُ «كاذبة» من قولهم: كذبَت نفسُه وكذبته: إذا منَّته الأمانيَّ، وقرَّبت له الأُمورَ البعيدة، وشجَّعَته على مباشرة الخَطْبِ العظيم، واللام قيل: على حقيقتها أيضًا، أي: ليس لها إذا وقعَت نفسٌ تحدِّثُ صاحبَها بإطاقة شدَّتها واحتمالها وتُغريه عليها. وفي «الكشف»: إنَّ اللام على هذا الوجه للتوقيت كما على الوجه الأول.

وجوِّز أيضًا كون «كاذبة» مصدرًا بمعنى التكذيب، وهو التثبيط، وأمرُ اللام ظاهرٌ، أي: ليس لوقعتها ارتدادٌ ورجعةٌ، كالحملة الصادقة من ذي سطوةٍ قاهرة؛ وروي نحوه عن الحسن وقتادة، وذكر أنَّ حقيقةَ التكذيب بهذا المعنى راجعةٌ إلى تكذيب النفس في كذبها وإغرائها وتشجيعها، وأنشد على ذلك لزهير:

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ... ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِهِ صَدَقا[1]

ويجوزُ جعلُ الكاذبة بمعنى الكذب على معنى: ليس للوقعة كذب، بل هي وقعةٌ صادقةٌ لا تطاق، على نحو: حملة صادقة، وحملة لها صادق[2]، أو على معنى: ليس هي في وقت وقوعها كذب؛ لأنَّه حقٌّ لا شبهةَ فيه.

ولعلَّ ما ذكر أظهرُ مما تقدَّم، وإنْ رُوي نحوه عمَّن سمعتَ. نعم قيل عليهما: إنَّ مجيء المصدر على زِنَةِ الفاعل نادرٌ.

وقولُه عز وجل: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي خافضةٌ لأقوامٍ رافعةٌ لآخرين كما قال ابن عباس، وأخرجَه عنه جماعةٌ[3]، والجملة تقريرٌ لعظمتها وتهويلٌ لأمرها، فإنَّ الوقائع العظام شأنُها الخفضُ والرفعُ كما يُشاهَد في تبدُّل الدول وظهور الفتن من ذُلِّ الأعزةِ وعزِّ الأذلةِ.

وتقديمُ الخفض على الرفع لتشديد التهويل، أو بيانٌ لِمَا يكون يومئذ من حطِّ الأشقياء إلى الدركات ورفعِ السعداء إلى درجات الجنات، وعلى هذا قولُ عمرَ رضي الله عنه: خفَضَت أعداءَ الله تعالى إلى النار ورفعَت أولياءَه إلى الجنة. أو بيانٌ لِمَا يكونُ من ذلك ومن إزالة الأجرامِ عن مقارِّها، ونَثْرِ الكواكبِ، وتسييرِ الجبال في الجوِّ كالسحاب.

والضحاك بعد أنْ فسَّر «الواقعةَ» بالصيحةِ قال: «خافضةٌ» تخفِضُ قوَّتها لتُسمِعَ الأدنَى، «رافعة» ترفعها لتسمِعَ الأقصَى، وروي ذلك أيضًا عن ابن عباس وعكرمة.

وقدَّر أبو علي المبتدأ مقرونًا بالفاء، أي: فهي خافضةٌ، وجعلَ الجملةَ جوابَ «إذا» فكأنَّه قيل: إذا وقَعَت الواقعةُ خفَضَت قومًا ورفَعَت آخرين.

وقرأ زيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم

---

(١) ديوان زهير ص٤٥، والكشاف ٤/ ٥١، و(عَثَّر) بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤.

(٢) في هامش الأصل: أي: صدق. اهـ.

(٣) أخرجه ابنُ أبي شيبة ١٣/ ٣٧٢، وعزاه في الدر المنثور ٣/ ١٥٣ أيضاً لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه..

والزعفراني واليزيدي في اختياره: «خافضةً رافعةً» بنصبهما[1]، ووجهُهُ أنْ يُجعَلا حالَين عن «الواقعة» على أنَّ «ليس لوقعتها كاذبة» اعتراضٌ، أو حالَين عن «وقعتها».

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ أي: زلزلَت وحرِّكَت تحريكًا شديدًا بحيث ينهدِمُ ما فوقَها من بناء وجبلٍ، متعلِّقٌ بـ «خافضة» أو بـ «رافعة» على أنَّه من باب الإعمال، أو بدلٌ من «إذا وقَعَت» كما قال به غيرُ واحدٍ، وقال ابن جنِّي[2] وأبو الفضل الرازي[3]: «إذا رُجَّت» في موضع رفعٍ على أنَّه خبرٌ للمبتدأ الذي هو «إذا وقعت» وليست واحدةٌ منهما شرطيةً، بل هي بمعنى: وَقْت، أي: وَقْتُ وقوعها وَقتُ رجِّ الأرض. وادَّعى ابن مالك أنَّ «إذا» تكون مبتدأ، واستدلَّ بهذه الآية[4].

وقال أبو حيان: هو بدل من «إذا وقَعَت»، وجواب الشرط عندي ملفوظٌ به، وهو قولُه تعالى: (فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ) والمعنى: إذا كان كذا وكذا، فأصحابُ الميمنة ما أسعدَهم وما أعظمَ ما يجازون به، أي: إنَّ سعادتَهم وعظمَ رتبتهم[5] عند الله عز وجلَّ تظهرُ في ذلك الوقت الشديدِ الصَّعب على العالم[6]. وفيه بعدٌ.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ أي: فُتَّتْ - كما قال ابن عباس ومجاهد - حتى صارَت كالسَّويق الملْتُوت، من بَسَّ السويق: إذا لتَّه.

وقيل: سيقَت وسُيِّرَت من أماكنها، من بسَّ الغَنَم: إذا ساقَها، فهو كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٣-٢٠٤، وجاء في هامش الأصل: قال ابن خالويه: قال الكسائي: لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأته. اهـ.

(٢) في المحتسب ٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) كما في البحر ٨/ ٢٠٤، وعنه نقل المصنف.

(٤) تسهيل الفوائد ص٩٤، والبحر ٨/ ٢٠٤.

(٥) في (م): رتبهم.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٠٤.

وقرأ زيد بن علي: «رَجَّت» و«بَسَّت» بالبناء للفاعل[١]، أي: ارتجَّت وتفتَّتت، وفي كلام هند بنت الخُسِّ تصف ناقةً بما يُستدَلُّ به على حَمْلها: عينُها هاجّ، وصَلَاها راجّ، وهي تمشي وتَفَاجُّ[٢].

﴿فَكَانَتْ﴾ فصارت بسبب ذلك ﴿هَبَآءً﴾ غبارًا ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرِّقًا، والمرادُ مطلَق الغبار عند الأكثرين، وقال ابن عباس: هو ما يثورُ مع شعاع الشمس إذا دخلَت من كوَّةٍ، وفي رواية أخرى عنه أنَّه الذي يطيرُ من النار إذا اضطرمَت.

وقرأ النخعي: «مُنْبَتًّا» بالتاء المنطوقة بنقطتين من فوق[٣]، من البَتِّ بمعنى القطع، والمرادُ به ما ذكر من البثِّ بالمثلثة.

﴿وَكُنتُمْ﴾ خطابٌ للأمة الحاضرة والأُمم السالفةِ تغليبًا كما ذهب إليه الكثير، وقال بعضُهم: خطابٌ للأمة الحاضرة فقط، والظاهرُ أنَّ «كان» أيضًا بمعنى «صار» أي: وصرتم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾ وكلُّ صنفٍ يكون مع صنفٍ آخرَ في الوجود أو في الذكر فهو زوجٌ، قال الراغبُ: الزوجُ يكون لكلِّ واحدٍ من القرينَين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، ولكلِّ قرينَين فيها وفي غيرها كالخفِّ والنعلِ، ولكل ما يقترنُ بآخرَ مماثلًا له أو مضادًّا[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ تفصيلٌ للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبلَ تفصيلها، والدائرُ على ألسنتهم أنَّ «أصحاب الميمنة» مبتدأ، وقوله تعالى: «ما أصحاب الميمنة» «ما» فيه استفهاميةٌ مبتدأ ثانٍ. و«أصحابُ» خبرُه، والجملةُ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٤.

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ١٩٢، والكشاف ٤/ ٥٢، وجاء في هامش الأصل في شرح معنى تفاجّ: مِن فجَّ ما بين رجليه: فتحه. اهـ. وقولها: عينها هاج: أي: غائرة، كما في غريب الحديث، وصلاها: الصَّلَا: وَسَطُ الظَّهر منَّا ومن كلِ ذي أربع، أو ما انحدَرَ من الوَرِكَين، أو الفُرْجة بين الجاعرة والذَّنَب، أو ما عن يمين الذَّنب وشماله، وهما صَلَوان. القاموس المحيط (صلا).

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩، والقرطبي ٢٠/ ١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤.

(٤) مفردات الراغب (زوج).

خبر المبتدأ الأول، والرابط: الظاهرُ القائمُ مقامَ الضمير، وكذا يقالُ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَبُ الْمَشْئَمَةِ﴾ إلخ؛ والأصلُ في الموضعَين: ما هم؟ أي: أيُّ شيءٍ هم في حالهم وصِفَتِهم، فإنَّ «ما» وإنْ شاعَت في طلب مفهومِ الاسمِ والحقيقة، لكنَّها قد تُطلَب بها الصفةُ والحال، كما تقول: ما زيدٌ؟ فيقال: عالِمٌ أو طبيبٌ، فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخلَ في المقصود، وهو التفخيمُ في الأول والتفظيعُ في الثاني.

والمرادُ تعجيبُ السامع من شأن الفريقَين في الفخامة والفظاعة، كأنَّه قيل: فأصحابُ الميمنة في غاية حُسْن الحال، وأصحابُ المشأمة في نهاية سوءِ الحال.

وقيل: جملة «ما أصحاب» خبرٌ بتقدير القول على ما عُرِف في الجملة الإنشائية إذا وقَعَت خبرًا، أي: مقولٌ في حقِّهم ما أصحاب.. إلخ؟ فلا حاجةَ إلى جَعْلِه من إقامة الظاهر مقامَ الضمير. وفيه نظر.

و«الميمنة» ناحيةُ اليمين، أو اليُمن والبركة، و«المشأمة» ناحيةُ الشمال من اليد الشؤمَى وهي الشمال، أو هي من الشُّؤم مقابل اليُمنِ، ورُجِّح إرادة الناحية فيهما بأنَّها أوفقُ بما يأتي في التفصيل.

واختلفوا في الفريقَين فقيل: أصحابُ الميمنة أصحابُ المنزلة السَّنيَّة، وأصحابُ المشأمة أصحاب المنزلةِ الدَّنيَّة، أخذًا من تيمُّنهم بالميامِن وتَشؤُّمهم بالشمائل، كما تسمع في السانح والبارح، وهو مجازٌ شائع، وجوز أنْ يكون كنايةً.

وقيل: الذين يُؤتَون صحائِفَهم بأيمانهم والذين يؤتَونها بشمائلهم.

وقيل: الذين يُؤخَذ بهم ذاتَ اليمين إلى الجنة، والذين يُؤخَذ بهم ذاتَ الشمال إلى النار.

وقيل: أصحابُ اليُمن وأصحاب الشُّؤم، فإنَّ السعداءَ ميامِين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائِيم على أنفسهم بمعاصيهم، وروي هذا عن الحسن والربيع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ هو الصنفُ الثالث من الأزواج الثلاثةِ، ولعلَّ تأخيرَ ذِكْرهم مع كونهم أسبقَ الأصنافِ وأقدمهم في الفضل، ليردفَ ذكرَهم ببيان محاسِنِ أحوالهم، على أنَّ إيرادهم بعنوان السَّبق مطلقًا معرِبٌ[1] عن إحرازهم قَصَب السَّبق من جميع الوجوه.

واختُلف في تعيينهم؛ فقيل: هم الذين سَبَقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحقِّ من غير تَلَعثُمٍ وتوانٍ، وروي هذا عن عكرمةَ ومقاتل، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلَت في حزقيلَ مؤمن آل فرعون، وحبيب النجَّار الذي ذكر في «يسٓ»، وعليِّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه. وكلُّ رجلٍ منهم سابق أمَّته، وعليٌّ أفضلُهم[2].

وقيل: هم الذين سبقُوا في حيازةِ الكمالات من العلوم اليقينية ومراتبِ التقوى الواقعةِ بعد الإيمان. وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّهم مُقدَّمو أهلِ الأديان.

وقال ابن سيرين: هم الذين صلَّوا إلى القبلتَين كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن ابن عباس: هم السابقون إلى الهجرة.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس.

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن ابن عباس مرفوعًا: «أولُ مَن يَهجُرُ إلى المسجد وآخِرُ من يخرُجُ منه»[3].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبادة بن أبي سودة مولَى عبادةَ بنِ الصامت قال: بلغَنَا أنَّهم السابقُون إلى المساجد والخروجِ في سبيل الله عز وجل[4].

---

(١) في (م): معرض.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٤.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٤٨ (٣٥٧٤)، وعزاه لأبي نعيم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٤.

(٤) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٤.

وعن الضحاك: هم السابقون إلى الجهاد.

وعن ابن جبير: هم السابقون إلى التوبة وأعمالِ البرِّ.

وقال كعب: هم أهلُ القرآن.

وفي «البحر»: في الحديث: سئل عن السابقين فقال: «هم الذين إذا أُعطُوا الحقَّ قَبِلُوه، وإذا سُئِلُوه بَذلُوه، وحَكَموا للناس كحُكْمهم لأنفسِهم»(١).

وقيل: الناسُ ثلاثة: فرجلٌ ابتكَر الخيرَ في حداثة سنِّه ثم دامَ عليه حتى خرجَ من الدنيا، فهذا هو السابق. ورجلٌ ابتكر عمرَه بالذَّنب وطوَّل الغفلةَ، ثم تراجعَ بتوبتِهِ، فهذا صاحبُ اليمين. ورجلٌ ابتكر الشرَّ في حداثة سنِّه، ثم لم يزل عليه حتى خرجَ من الدنيا، فهذا صاحب الشمال.

وعن ابن كيسان: أنَّهم المسارعون إلى كل ما دعا الله تعالى إليه. ورجَّحه بعضُهم بالعموم، وجعل ما ذُكر في أكثر الأقوال من باب التمثيل.

وأيًّاما كان فالشائعُ أنَّ الجملةَ مبتدأ وخبرٌ، والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرَت أحوالُهم وعُرفَت فخامتُهم، كقوله:

أنـا أبـو الـنـجـم وشِـعـري شِـعـري(٢)

وفيه من تفخيم شأنهم والإيذانِ بشيوع فَضْلهم ما لا يخفَى.

وقيل: متعلّقُ السبق [الأول](٣) مخالفٌ لمتعلّق السَّبق الثاني، أي: السابقون إلى طاعة الله تعالى، السابقون إلى رحمته سبحانه، أو: السابقون إلى الخير، السابقون إلى الجنة، والتقديرُ الأولُ محكيٌّ عن صاحب «المرشد». وأنت تعلم أنَّ الحمل مفيدٌ بدون ذلك كما سمعتَ، بل هو أبلغُ وأنسبُ بالمقام.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٣٧٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦ و٢/ ١٨٦-١٨٧ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سلف ٢/ ٤١٧.

(٣) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٢٠٥، والكلام فيه بنحوه.

وأيًّاما كان فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١﴾ مبتدأٌ وخبر، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، وقيل: «السابقون» السابقُ مبتدأ، و«السابقون» اللاحقُ تأكيدٌ له، وما بعدُ خبر، وليس بذاك أيضًا، لفوات مقابلة ما ذُكر لقوله تعالى: (فَأَصْحَٰبُ) إلخ، ولأنَّ القسمةَ لا تكونُ مستوفاةً حينئذٍ، ولفوات المبالغةِ المفهومةِ من نحو هذا التركيبِ على ما سمعتَ، مع أنَّهم أعني «السابقِين» أحقُّ بالمدح والتعجيب من حالهم من السابقَين، ولفوات ما في الاستئناف بـ «أولئك المقربون» من الفخامة، وإنما لم يقل: والسابقون ما السابقون، على منوال الأوَّلَين؛ لأنَّه جعل أمرًا مفروغًا مسلَّمًا مستقلًّا في المدح والتعجيب.

والإشارة بـ «أولئك» إلى السابقِين وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل، و«المقربون» من القُرْبة بمعنى الحظوة، أي: أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل الذين أُنِيلُوا حظوةً ومكانةً عند الله تعالى. وقال غيرُ واحدٍ: المرادُ: الذين قربَت إلى العرش العظيم درجاتُهم.

هذا وفي «الإرشاد»: الذي تقتضيه جزالةُ التنزيل أنَّ قوله تعالى: (فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وكذا قولُه سبحانه: (وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ) وقولُه جل شأنه: (وَٱلسَّٰبِقُونَ)؛ فإنَّ المترقَّب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيانُ أَنْفسِ الأقسام، وأما أوصافُها وأحوالها فحقُّها أنْ تبيَّنَ بعد ذلك بإسنادها إليها، والتقدير: أحدُها أصحابُ الميمنة، والآخرُ أصحابُ المشأمة، والثالثُ السابقون، خلا أنَّه لمَّا أُخِّرَ بيانُ أحوال القسمَين الأوَّلَين عُقِّب كلٌّ منهما بجملة معترضةٍ بين القسمَين، منبئةٍ عن ترامي أحوالهما في الخير والشرِّ إنباءً إجماليًّا مشعرًا بأنَّ لأحوال كلٍّ منهما تفصيلًا مترقَّباً، لكنْ لا على أنَّ «ما» الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر، على ما رآه سيبويه[1] في أمثاله، بل على أنَّها خبرٌ لِمَا بعدها، فإنَّ مناط الإفادة بيانُ أنَّ أصحابَ الميمنة أمرٌ بديع ـ كما يفيدُه كونُ «ما» خبرًا ـ لا بيانُ أنَّ أمرًا بديعًا

(١) ينظر الكتاب ٢/ ١٥٧-١٥٨، والدر المصون ١٠/ ١٩٤.

أصحاب الميمنة، كما يُفيدُه كونها مبتدأً، وكذا الحالُ في «ما أصحاب المشأمة»، وأما القسمُ الأخير فحيث قرن به بيان محاسنِ أحواله لم يحتَجْ فيه إلى تقديم الأنموذَج، فقوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، والإظهارُ في مقامِ الإضمار للتفخيم، و«أولئك» مبتدأ ثانٍ، أو بدل من الأول، وما بعدَه خبر له، أو للثاني، والجملةُ خبرٌ للأول(١). انتهى.

وقيل عليه: إنَّه ليس في جعل جملتَي الاستفهام وقوله سبحانه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أخبارًا لِمَا قبلها بيانٌ لأوصاف الأقسامِ وأحوالها تفصيلًا حتى يقال: حقُّها أنْ تبيَّنَ بعدَ أنفسِ الأقسام، بل فيه بيانُ الأقسام مع إشارةٍ إلى تَرامي أحوالها في الخير والشرِّ والتعجيب من ذلك. وأيضًا مقتضَى ما ذكره أنْ لا يذكر «ما أصحاب اليمين» و«ما أصحاب الشمال» في التفصيل.

وتُعقِّب هذا بأنَّ الذكر محتاجٌ إلى بيان نكتةٍ على الوجه الدائر على ألسنتهم، كاحتياجه إليه على هذا الوجه، ولعلَّها عليه أنَّه لمَّا عقَّب الأولَين بما يُشعرُ بأنَّ لأحوال كلٍّ تفاصيلَ مترقَّبةً أُعيدَ ذلك للإعلام بأنَّ الأحوال العجيبةَ هي هذه فلتُسمع، والذي يتبادرُ للنظر الجليل ما في «الإرشاد» من كون «أصحاب الميمنة» وكذا كلٌّ من الأخيرَين خبرَ مبتدأ محذوفٍ كما سمعتَ؛ لأنَّ المتبادر بعد بيان الانقسام ذكرُ نَفْس الأقسام على أنْ تكون هي المقصودة أولًا وبالذات دون الحكم عليها وبيانِ أحوالها مطلقًا وإنْ تضمَّن ذلك ذكرَها، لكن ما ذكروه أبعدُ مغزًى، ومع هذا لا يتعيَّن على ما ذكر كونُ تَينك الجملتَين الاستفهاميتَين معترضتَين، بل يجوز أنْ يكون كلٌّ منهما صفةً لِمَا قبلها بتقدير القول، كأنَّه قيل: فأحدُها أصحابُ الميمنة المقولُ فيهم: ما أصحاب الميمنة، وكذا يقال في «وأصحاب المشأمة» إلخ، ويجعل أيضًا «السابقون» صفة لـ «السابقون» قبله، والتأويلُ في الوصفية كالتأويل في الخبرية، ويكون الوصفُ بذلك قائمًا مقامَ تَينك الجملتَين في المدح، والجملةُ بعدُ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا كما في الوجه الشائع.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٠.

وما يقال: إنَّ في هذا الوجه حذفَ الموصول مع بعض أجزاءِ الصلة، يجابُ عنه بمنع كون «أل» في الوصف حيث لم يُرَد منه الحدوث موصولةً. فتأمل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «المقربون»، أو بمضمَر هو حال من ضميره، أي: كائنين في جنات النعيم، وعلى الوجهَين فيه إشارةٌ إلى أنَّ قُربَهم محضُ لذَّةٍ وراحة، لا كقُرب خواصِّ الملِك القائمين بأشغاله عنده، بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شُغلَ لهم ولا يَرِدُ عليهم أمرٌ أو نهيٌ، ولذا قيل: «في جنات النعيم» دون: جنات الخلود، ونحوه.

وقيل: خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة. وتُعقِّب بأنَّ الإخبار بكونهم فيها بعدَ الإخبار بكونهم مقرَّبين ليس فيه مزيدُ مزية. وأُجيبَ بأنَّ الإخبارَ الأولَ للإشارة إلى اللذَّة الروحانيةِ، والإخبار الثاني للإشارة إلى اللذة الجسمانية.

وقرأ طلحة في: «جنة النعيم» بالإفراد(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ خبرُ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هم ثُلَّةٌ.. إلخ، وجوَّز كونُه مبتدأً خبرُه محذوفٌ، أي: منهم، أو خبرًا أولًا أو ثانيًا لـ «أولئك». وجوَّز أبو البقاء كونَه مبتدأ والخبرُ «على سرر»(٢).

والثُّلَّة في المشهور الجماعةُ كثُرَت أو قلَّت، وقال الزمخشري: الأمةُ من الناس الكثيرة، وأنشد قوله:

وجاءَتْ إليهمْ ثُلَّةٌ خِنْدَفيةٌ ... بجيشٍ كتيَّارٍ من السَّيل مُزبِد

وقوله تعالى بعد: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ إلخ كفى به دليلًا على الكثرة(٣). انتهى، والظاهرُ أنَّه أنشد البيت شاهدًا لمعنى الكثرة في الثُّلَّة، فإن كانت الباء تجريدية ـ وهو الظاهر ـ فنصٌّ، وإلا فالاستدلال عليها من أنَّ المقام مقامُ مبالغةٍ ومَدْح، وأما استدلالُه

(١) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥.
(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٧٥.
(٣) الكشاف ٤/ ٥٢-٥٣.

بما بعدُ فذلك لأنَّ التقابل مطلوبٌ؛ لأنَّ الثلَّة لم تُوضَع للقليل بالإجماع حتى يحمل ما بعدُ على التفنُّن، بل هي إما للكثرة والاشتقاقُ عليها أدلُّ، لأنَّ الثلَّ بمعنى الصبِّ وبمعنى الهَدْم بالكُلِّية، والثِّلَّة بالكسر الضأنُ الكثيرة؛ وإما لمطلَقِ الجماعة كالفرقة والقطعةِ من الثل بمعنى الكسر، كأنَّها جماعة كُسِرَت من الناس وقُطِعَت منهم، إلا أنَّ الاستعمالَ غَلَب على الكثير فيها، فالمعنى: جماعة كثيرةٌ من الأوَّلين، وهم الناسُ المتقدِّمون من لَدُن آدمَ إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى مَن بينهما من الأنبياء العظام.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهم الناسُ من لَدُن نبينا ﷺ إلى قيام الساعة، ولا يخالفُه قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أمتي يَكْثُرون سائرَ الأمم»[1] أي: يغلبونهم في الكثرة؛ لأنَّ أكثرية سابقي المتقدِّمين من سابقي هذه الأمة لا تمنعُ أكثريةَ تابعي هؤلاء من تابعي أولئك.

وحاصلُ ذلك غلبةُ مجموعِ هذه الأمةِ كثرةً على مَن سواها، كقريةٍ فيها عشرةٌ من العلماء ومئةٌ من العوامِّ، وأُخرى فيها خمسةٌ من العلماء وألفٌ من العوام، فخواصُّ الأُولَى أكثرُ من خواصِّ الثانية، وعوامُّ الثانية ومجموعُ أهلها أضعافُ أولئك.

لا يقال: يأبَى أكثرية تابعي هؤلاء قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فإنَّه في حقِّ أصحاب اليمين، وهم التابعون، وقد عبَّر في كلٍّ بالثلَّة، أي: الجماعة الكثيرة = لأنَّا نقول: لا دلالةَ في الآية على أكثر مِن وَصْف كلٍّ مِن الفريقَين بالكثرة، وذلك لا يُنافي أكثريةَ أحدهما، فتحصَّل أنَّ سابقي الأمم السوالف أكثرُ من سابقي أمتنا، وتابعي أمتنا أكثرُ من تابعي الأمم، والمرادُ بالأمم ما يدخلُ فيه الأنبياء، وحينئذٍ لا يبعدُ أنْ يقال: إنَّ كثرةَ سابقي الأولين ليس إلا بأنبيائهم، فما على سابقي هذه الأمة بأس إذ أكثرُهم سابقو الأمم بضم الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ١٤٢، وقال المناوي في الفتح السماوي ٣/ ١٠٢٢: لم أقف عليه.

وأخرج الإمام أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلَت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلَت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنة، بل أنتم نصفُ أهل الجنة ـ أو شطر أهل الجنة ـ وتقاسِمُونَهم النصفَ الثاني»(١)، وظاهرُه أنَّه شقَّ عليهم قلَّة مَن وُصف بها، وأنَّ الآية الثانية أزالَت ذلك ورفعَته وأبدلته بالكثرة، ويدلُّ على ذلك ما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلَت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ حَزِنَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: إذًا لا يكونُ من أمة محمدٍ ﷺ إلا قليلٌ. فنزلَت نصف النهار: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فنسَخَت: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾(٢).

وأَبَى ذلك الزمخشريُّ فقال: إنَّ الرواية غيرُ صحيحةٍ لأمرَين: أحدُهما: أنَّ الآية الأولَى واردةٌ في السابقين، والثانية في أصحاب اليمين. والثاني: أنَّ النسخ في الأخبار غيرُ جائز(٣)، فإذا أخبَرَ تعالى عنهم بالقلَّة لم يجز أن يخبرَ عنهم بالكثرة من ذلك الوجه.

وما ذكر من عدم جواز النسخ في الأخبار، أي: في مدلولها مطلقًا هو المختار. وقيل: يجوزُ النسخُ في المتغيّر إنْ كان عن مستقبل؛ لجواز المحو لله تعالى فيما يقدِّره، والإخبار يتبعه(٤)، وعلى هذا البيضاوي(٥). وقيل: يجوز في الماضي أيضًا وعليه الإمام الرازي(٦) والآمدي.

---

(١) مسند أحمد (٩٠٨٠)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٤.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٣.

(٤) قوله: يتبعه، أي: المحو، أي: إذا محى الله شيئاً يلزم من ذلك أن يخبر بمحوه. حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ٢/ ١٢٠.

(٥) منهاج الأصول ٢/ ٥٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة المحلي في شرحه على جمع الجوامع ٢/ ١٢٠.

(٦) المحصول ٣/ ٣٢٦، والكلام من شرح المحلي على جمع الجوامع.

وأما نسخُ مدلول الخبر إذا كان مما لا يتغيَّر كوجود الصانع وحدوث العالم فلا يجوزُ اتِّفاقًا.

فإنْ كان ما نحن فيه مما يتغيَّرُ فنسخُه جائزٌ عند البيضاوي، ويوافقُه ظاهرُ خبر أبي هريرة الثاني، ولا يجوزُ على المختار الذي عليه الشافعي وغيرُه، فقول صاحب «الكشف»: لا خلافَ في عدم جواز النسخ في مثل ما ذكر من الخبر إذ لا يتضمَّن حكمًا شرعيًّا، لا يخلو عن شيء.

وأقول: قد يُتَعَقَّب ما ذكره الزمخشري بأنَّ الحديث قد صحَّ، وورود الآية الأولَى في السابقين والثانية في أصحاب اليمين لا يردُّ مقتضاه، فإنَّه يجوز أنْ يقال: إنَّ الصحابة ﷺ لمَّا سمعوا الآيةَ الأُولى حسبوا أنَّ الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج، فيكون أصحابُ اليمين ثلةً من الأولين وقليلًا منهم، فيَكْثُرهم الفائزون بالجنة من الأُمم السوالف، فحزنُوا لذلك، فنزل قوله تعالى في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ وقال لهم النبيُّ ﷺ ما قال مما أذهَبَ به حُزنَهم، وليس في هذا نسخٌ للخبر كما لا يخفى.

وقول أبي هريرة: فنسَخَت «وقليل من الآخرين» إنْ صحَّ عنه ينبغي تأويلُه بأنْ يقال: أراد به: فأزالَت حسبانَ أنْ يُذكرَ نحوه في الفائزين بالجنة من هذه الأمة غير السابقين فتدبر.

وعن عائشة ﵄: الفرقتان ـ أي: في قوله تعالى: (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ) ـ في أمة كلِّ نبيٍّ؛ في صدرها ثلةٌ وفي آخرها قليل.

وقيل: هما من الأنبياء عليهم السلام؛ كانوا في صدر الدنيا كثيرين وفي آخرها قليلين.

وقال أبو حيان: جاء في الحديث: «الفرقتان في أُمَّتي فسابق أول الأمة ثلةٌ، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل»[1]. انتهى.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥، وذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤١، ولم نقف عليه مسنداً.

وجاء في فرقتَي أصحاب اليمين نحو ذلك، أخرج مسدَّد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرةَ ﷺ عن النبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ قال: «هما جميعًا من هذه الأمة»[1]، وأخرج جماعة بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعًا ما لفظه: «هما جميعًا من أمتي»[2]، وعلى هذا يكون الخطابُ في قوله عز وجل: (وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً) لهذه الأمة فقط.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ حالٌ من «المقربين»، أو من ضميرهم في قوله تعالى: (فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ) بناءً على أنَّه في موضع الحال كما تقدَّم، وقيل: هو خبرٌ آخر للضمير المحذوف المخبر عنه أولاً بـ «ثلَّة»، وفيه وجهٌ آخَر أشرنا إليه فيما مرَّ.

و«موضونة» من الوَضْن، وهو نَسْج الدِّرع؛ قال الأعشى:

ومِــن نَــسْــج داودَ مــوضــونــةً   تــسيــر مع الـحيِّ عِيـرًا فـعـيـرا[3]

واستُعير لمطلق النسج، أو لنسجٍ محكم مخصوص، ومن ذلك وَضِينُ الناقة: وهو حزامُها؛ لأنَّه موضون، أي: مفتول، والمرادُ هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس: مَرْمُولة ـ أي: منسوجةٍ ـ بالذهب[4]، وفي رواية عنه: بقضبان الفضة[5].

وقال عكرمة: مُشَبَّكة بالدرِّ والياقوت.

وقيل: «موضونة» متَّصلٌ بعضُها ببعض كحلق الدرع، والمرادُ متقاربة.

وقرأ زيد بن علي وأبو السمال: «سُرَرٍ» بفتح الراء[6]، وهي لغةٌ لبعض تميم

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٥٩، وأخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده (٨٨٦)، وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣٤، وفيه أبان ابن أبي عياش قال الحافظ في التقريب: متروك.

(٣) ديوان الأعشى ص١٤٩، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٩١.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٩٢.

(٥) عزاه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٥ للطستي.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥.

وكلب يفتحون عين فُعُل جمع فَعيل المضعَّف[(١)] نحو سرير.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ حالٌ من الضمير المستقرِّ في الجارِّ والمجرور، أعني: «على سرر»، وقوله تعالى: ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ حالٌ منه أيضًا ولك أنْ تعتبرَ الحالَين متداخلَين. والمرادُ كما قال مجاهد: لا ينظرُ أحدُهم في قَفَا صاحبه، وهو وَصْفٌ لهم بحُسْن العشرة، وتهذيب الأخلاقِ، ورعايةِ الآداب، وصفاء البواطن.

وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حالٌ أخرى أو استئنافٌ، أي: يدور حولَهم للخدمة ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبْقَون أبدًا على شكل الولدان وحدِّ الوصافة لا يتحوَّلون عن ذلك، وإلا فكلُّ أهل الجنة مخلَّدٌ لا يموت، وقال الفراء وابن جبير: مقرَّطون بخَلَدة[(٢)]، وهي ضربٌ من الأقراط.

قيل: هم أولادُ أهل الدنيا، لم يكن لهم حسناتٌ فيثابوا عليها، ولا سيئاتٌ فيعاقَبوا عليها، وروي هذا عن[(٣)] أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه، وعن الحسن البصري، واشتُهر أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «أولادُ الكفار خَدَمُ أهل الجنة»[(٤)] وذكر الطيبي أنَّه لم يصحَّ بل صحَّ ما يدفعُه، أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت: تُوفِّي صبيٌّ فقلت: طوبَى له عصفورٌ من عصافير الجنة. فقال ﷺ: «أَوَلا تَدْرِيْنَ أنَّ الله تعالى خَلَق الجنة وخَلَق النار، فخَلَقَ لهذه أهلًا ولهذه أهلًا» وفي رواية: «خلقهم لهما وهم في أصلاب آبائهم»[(٥)].

وأخرج أبو داود عنها أنَّها قالت: قلتُ: يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: «مِن آبائهم» فقلت: يا رسول الله بلا عمل؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»

---

(١) في الأصل: للضعف، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨١.

(٣) قوله: عن، ليس في (م).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٠٩٠)، والبزار (٢١٧٠ - كشف) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٩٩٣)، والبزار (٢١٧٢ - كشف) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(٥) سنن أبي داود (٤٧١٣)، والنسائي ٤/ ٥٧، ولم نقف عليه عند البخاري، وأخرجه مسلم (٢٦٦٢): (٣٠)، وسلف ٩/ ١١٨ و١٥/ ٣٦.

قلتُ: يا رسول الله فذراري المشركين؟ قال: «مِن آبائهم» فقلتُ: بلا عمل؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»(١).

وقيل: إنَّهم يُمتَحنون يوم القيامة فتخرجُ لهم نارٌ ويؤمرون بالدخول فيها، فمن دخلَها وجدَها بردًا وسلامًا وأُدخِلَ الجنة، ومَن أبَى أُدخِلَ النارَ مع سائر الكفار، ويَروُون في ذلك أثرًا.

ومن الغريب ما قيل: إنَّهم بعد الإعادة يكونون ترابًا كالبهائم.

وفي «الكشف»: الأحاديثُ متعارضةٌ في المسألة وكذلك المذاهب، والمسألةُ ظنيةٌ، والعلمُ عند الله تعالى وهو عز وجل أعلم. انتهى.

والأكثرُ على دخولهم الجنةَ بفضل الله تعالى ومزيدِ رحمته تبارك وتعالى، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في ذلك(٢).

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ بآنية لا عُرى لها ولا خراطيم(٣)، والظاهرُ أنَّها الأقداح، وبذلك فسَّرها عكرمة، وهي جمع كوب.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمعُ إبريق، وهو إناءٌ له خرطوم، قيل: وعروة، وفي «البحر»: أنَّه من أواني الخمر، وأنشد قول عدي بن زيد:

وَدَعوا بالصَّبوح يومًا فجاءت قَينةٌ في(٤) يمينها إبريقُ

وفيه أيضًا أنَّه إفْعيل من البَريق(٥).

وذكر غيرُ واحد أنَّه معرَّب «آب ريزاي»: صابّ الماء، وهو أنسبُ مما في

---

(١) سنن أبي داود (٤٧١٢).

(٢) عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النبأ.

(٣) جمع خرطوم، وهو ما يُصب منه، والعرى جمع العروة، وهي ما يمسك منه. حاشية الشهاب ٨/ ١٤٣.

(٤) في (م): في قينة.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٠٠-٢٠١، والبيت في تاريخ دمشق ١٥/ ١٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢، واللباب ١٨/ ٣٨٦، وخزانة الأدب ٩/ ٤٤٨.

بعض نسخ «القاموس» أنَّه معرَّب «آب ري» بلا زاي[١]، وأيًّاما كان فهو ليس مأخوذًا من البريق، نعم الإبريقُ بمعنى المرأة الحسنة البرَّاقة، والسيفِ البرَّاق، والقوس فيها تلاميع، مأخوذٌ من ذلك، ولعلَّه يقول بأنَّه عربي لا معرَّب، وأنَّ البريق مما فيه من الخمر، والشعراءُ يصفونها بذلك كقوله:

مُشَعشَعةً كأنَّ الحُصَّ فيها ... إذا ما الماءُ خالَطَها سَخِيْنَا[٢]

أو لأنَّه غالباً يُتَّخذ مما له نوعُ بَرْق كالبلور والفضة.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة، أي: لم يُعصَر كخمر الدنيا. وقيل: خمر ظاهرة للعيون مرئية بها؛ لأنَّها كذلك أهنأ.

وأُفرِد الكأس على ما قيل؛ لأنَّها لا تُسمَّى كأسًا إلا إذا كانت مملوءةً.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، وحقيقتُه: لا يصدرُ صداعُهم عنها، والمراد: أنَّهم لا يلحقُ رؤوسَهم صداعٌ لأجل خُمار يحصل منها كما في خمور الدنيا، وقيل: لا يفرَّقون عنها، بمعنى لا تقطع عنهم لذَّتَهم بسببٍ من الأسباب كما تُفرِّقُ أهلَ خمرِ الدنيا بأنواع من التَّفْريق.

وقرأ مجاهد: «لا يَصَّدَّعون» بفتح الياء وشدِّ الصاد[٣] على أنَّ أصله يَتَصَدَّعون، فأدْغَم التاء في الصاد، أي: لا يتفرَّقون كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وقرئ: «لا يَصدعون» بفتح الياء والتخفيف[٤]، أي: لا يصدعُ بعضُهم بعضًا

---

(١) القاموس المحيط (برق)، وفي المعجم الذهبي ص ٢٤ أن الإبريق بالفارسية هو آب ريز.
(٢) البيت لعمرو بن كلثوم وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٩٠، وللتبريزي ص ٢٥٥. المشعشعة: الرقيقة من العصر أو من المزج. والحص: الورس، ويقال: الزعفران شبه صفرتها بصفرته، وسخيناً يحتمل وجهين: إما يريد به الماء السُّخن. أو من قولك: سَخِي الرجلُ ويَسْخَى.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥-٢٠٦.
(٤) لم نقف عليها بفتح الياء، وذكرها السمين في الدر المصون ١٠/ ٢٠١ بضم الياء وتخفيف الصاد وكسر الدال مشددة، وينظر الكشاف ٤/ ٥٤.

ولا يفرقونهم، أي: لا يَجلسُ داخل منهم بين اثنين فيفرق بين المتقاربين، فإنَّه سوء الأدب وليس من حُسْن العشرة.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك: لا تذهب عقولُهم بسكرها، مِن نُزِفَ الشاربُ كعُنِيَ: إذا ذهَبَ عقلُه، ويقال للسكران: نَزِيفٌ ومَنزوفٌ، قيل: وهو من نَزَف الماءَ: نَزَحَه من البئر شيئًا فشيئًا، فكأنَّ الكلامَ على تقدير مضاف.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الله والسلمي والجحدري والأعمش وطلحة وعيسى وعاصم كما أخرج عنه عبد بن حميد: «ولا يُنزِفُون» بضم الياء وكسر الزاي[(١)]، من أنزَف الشاربُ: إذا ذهَبَ عقلُه أو شرابه، ومعناه: صار ذا نزف، ونظيرُه: أقشَعَ السرابُ وقشعَته الريحُ، وحقيقتُه: دخل في القَشْع.

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضًا: «ولا يَنزِفون» بفتح الياء وكسر الزاي[(٢)]، قال في «المجمع»: وهو محمولٌ على أنَّه لا يفنَى خمرُهم[(٣)].

والتناسب بين الجملتَين على ما سمعتَ فيهما أولًا على قراءة الجمهور أنَّ الأولى لبيان نَفْي الضرر عن الأجسام، والثانية لبيان نَفْي الضرر عن العقول، وتأمَّل لتعرفه إن شاء الله تعالى على ما عدا ذلك.

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ أي: يأخذون خيرَه وأفضلَه، والمرادُ: مما يرضونه.

﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾ مما تميلُ نفوسُهم إليه وترغب فيه.

والظاهرُ أنَّ «فاكهة» و«لحم» معطوفان على «أكواب»، فتُفيد الآيةُ أنَّ الولدان يطوفون بهما عليهم، واستُشكل بأنَّه قد جاء في الآثار أنَّ فاكهةَ الجنة وثِمارَها ينالُها القائم والقاعد والنائم، وعن مجاهد: أنَّها دانيةٌ من أربابها فيتناولونها

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦، وقراءة عاصم عزاها لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٥، وهي في التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٥٧ عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦.

(٣) مجمع البيان ٢٧/ ١١٦.

متَّكئين، فإذا اضطجعوا نزلَت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضْطَجعين، وأنَّ الرجل مِن أهل الجنةِ يشتهي الطيرَ من طيور الجنةِ فيقعُ في يده مَقْليًّا نَضجًا، وقد أخرج هذا ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة[1]، وأخرج عن ميمونة مرفوعًا: «إنَّ الرجلَ لَيشتهي الطيرَ في الجنة، فيجيء مثل البُخْتي، حتى يقَعَ على خِوَانه لم يُصبْه دخان ولم تمسَّه نارٌ، فيأكل منه حتى يشبَعَ ثم يطيرُ»[2] إلى غير ذلك، وإذا كان الأمرُ كما ذكر استُغني عن طوافهم بالفاكهة واللحم.

وأُجيبَ بأنَّ ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ حالة الاجتماع والشرب، ويفعلون ذلك للإكرام ومزيدِ المحبة والتعظيم والاحترامِ، وهذا كما يناول أحدُ الجلساء على خِوَان الآخر بعضَ ما عليه من الفواكه ونحوها وإنْ كان ذلك قريبًا منه اعتناءً بشأنه وإظهارًا لمحبته والاحتفال به.

وجوِّز أن يكونَ العطفُ على «جنات النعيم»، وهو من باب:

متقلدًا سيفًا ورمحًا[3]

أو من بابه المعروف.

وتقديمُ الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنَّهم ليسوا بحالة تقتضي تقديمَ اللحم كما في الجائع، فإنَّ حاجته إلى اللحم أشدُّ من حاجته إلى الفاكهة، بل هم بحالة تقتضي تقديمَ الفاكهة واختيارها كما في الشبعان، فإنَّه إلى الفاكهة أميلُ منه إلى اللحم، وجوز أنْ يكونَ ذلك لأنَّ عادةَ أهل الدنيا لا سيما أهلِ الشرب منهم تقديمُ الفاكهة في الأكل.

وهو طِبًّا مستحسَنٌ لأنَّها ألطفُ وأسرعُ انحدارًا، وأقلُّ احتياجًا إلى المكث في المعدة للهضم، وقد ذكروا أنَّ أحدَ أسباب الهيضة إدخالُ اللطيف من الطعام على الكثيف منه، ولأنَّ الفاكهةَ تحرِّك الشهوةَ للأكل، واللحم يدفعُها غالبًا.

---

(١) وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٦.
(٢) عزاه لابن أبي الدنيا في صفة الجنة السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٢٢.
(٣) سلف ٦/ ٧٧.

ويعلم من الوجه الأول وَجْهُ تخصيص التخيرِ بالفاكهة والاشتهاء باللحم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الفاكهةَ لم تَزَل حاضرةً عندهم وبمرأًى منهم دون اللحم، ووجهُ ذلك أنَّها مما تلذُّه الأعين دونه.

وقيل: وجْهُ التخصيص كثرةُ أنواعِ الفاكهة واختلافُ طعومها وألوانها وأشكالها، وعدم كون اللحم كذلك.

وفي التعبير بـ «يتخيَّرون» دون «يختارون» وإن تقاربا معنًى إشارةٌ ـ لمكان صيغةِ التفعُّل ـ إلى أنَّهم يأخذون ما يكون منها في نهاية الكمال، وأنَّهم في غاية الغِنَى عنها، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ عطفٌ على «ولدانٌ»، أو على الضمير المستكنِّ في «متكئين»، أو على مبتدأ حُذِفَ هو وخبرُه، أي: لهم هذا كلُّه[1] وحورٌ، أو مبتدأ حُذِفَ خبرُه، أي: لهم ـ أو: فيها ـ حورٌ.

وتُعقِّب الوجهُ الأولُ بأنَّ الطواف لا يناسبُ حالهنَّ.

وأُجيبَ بأنَّه[2] لا يبعدُ أن يكونَ من الحور ما ليس بمقصورات في الخيام ولا مخدَّراتٍ، هنَّ كالخدم لهنَّ لا يُبالَى بطوافهنَّ ولا يُنكرُ ذلك عليهنَّ، أو أنَّ[3] الطواف في الخيام أنفسِها، وهو لا ينافي كونَهنَّ مقصوراتٍ فيها، أو أنَّ العطفَ على معنى: لهم ولدان وحور.

والثاني بأنَّه خلافُ الظاهر جدًّا. والثالثُ بكثرة الحذف.

و«عِين» جمع عيناء، وأصلُه عُيْنٌ على فُعْل، كما تقول حمراء وحُمر، فكُسِرَت العينُ لئلَّا تنقلبَ الياءُ واوًا، وليس في كلام العرب ياءٌ ساكنةٌ قبلها ضمة، كما أنَّه ليس فيه واوٌ ساكنةٌ قبلها كسرة.

---

(١) في (م): كل، والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ٢٠٦.
(٢) في الأصل: بأن.
(٣) في (م): وأن.

وقرأ السلمي والحسن وعمرو بن عبيد وأبو جعفر وشيبة والأعمش وطلحة والمفضل وأبان وعصمة عن عاصم وحمزة والكسائي: «وحورٍ عينٍ» بالجرِّ[١]، وقرأ النخعي كذلك إلا أنَّه قَلَبَ الواوَ ياءً والضمةَ قبلها كسرةً في «حور» فقال: «وحِيرٍ»[٢] على الإتباع لـ «عين». وخرِّج على العطف على «جنات النعيم» وفيه مضاف محذوف، كأنَّه قيل: هم في جنات وفاكهةٍ ولحمٍ ومصاحبةِ حورٍ، على تشبيه مصاحبةِ الحور بالظرف على نَهْج الاستعارةِ المكنية، وقرينتُها التخييلية إثباتُ معنى الظرفيةِ بكلمة «في»، فهي باقيةٌ على معناها الحقيقي، ولا جمع بين الحقيقة والمجاز، وذهب إلى العطف المذكور الزمخشريُّ[٣].

وتعقَّبه أبو حيان فقال: فيه بُعْدٌ وتفكيكُ كلامٍ مرتبطٍ بعضُه ببعضٍ، وهو فهم أعجمي[٤]. وليس كما قال كما لا يخفى.

أو على «أكواب» ويجعل من باب:

متقلدًا سيفًا ورُمحًا

كما سمعتَ آنفًا، فكأنَّه قيل: يُنعَّمون بأكواب وبِحُور.

وجوِّز أن يبقَى على ظاهره المعروف، وأنَّ الوِلْدان يطوفون عليهم بالحور أيضًا، لعَرضِ أنواعِ اللذات عليهم من المأكول والمشروبِ والمنكوح، كما تأتي الخُدَّام بالسراري للملوك ويعرضوهنَّ[٥] عليهم، وإلى هذا ذهب أبو عمرو[٦] وقطرب، وأبَى ذلك صاحب «الكشف» فقال: أما العطفُ على الولدان على الظاهر فلا؛ لأنَّ الولدان لا يطوفون بهنَّ طوافَهم بالأكواب. والقلب إلى هذا

---

(١) قراءة أبي جعفر وحمزة والكسائي في التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٣، والكلام من البحر ٨/ ٢٠٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٤.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦.

(٥) كذا في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٨/ ١٤٣ والكلام منه، والجادة: ويعرضونهن.

(٦) في (م): عمر.

أَميلُ إلا أنْ يكون هناك أثرٌ يدلُّ على خلافه. وكون الجرِّ للجوار يأباه الفصل أو يُضعِّفُه.

وقرأ أبيّ وعبد الله: «وحورًا عينًا» بالنصب[(١)]، وخرج على العطف على محلِّ «بأكواب» لأنَّ المعنى: يُعطَون أكوابًا وحورًا، أو[(٢)] على أنه مفعول به لمحذوف، أي: ويُعطَون حورًا، أو على العطف على محذوف وقَعَ مفعولًا به لمحذوف أيضًا، أي: يُعطَون هذا كلَّه وحورًا.

وقرأ قتادة: «وحورُ» بالرفع مضافًا إلى «عينٍ»، وابن مقسم: «وحورَ» بالنصب مضافًا، وعكرمة: «وحوراءَ عيناءَ» على التوحيد اسم جنس وبفتح الهمزة فيهما[(٣)]، فاحتمل الجرَّ والنصب.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: في الصفاء، وقيد بـ «المكنون» - أي: المستور بما يحفظه - لأنَّه أصفَى وأبعدُ من التغير، وفي الحديث: «صفاؤُهنَّ كصفاء الدرِّ الذي لا تمسُّه الأيدي»[(٤)]، ووَصفُ الحسنات بذلك شائعٌ في العرب، ومنه قوله:

قامَت تراءَى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ ... كالشمس يومَ طُلُوعها بالأسعُدِ
أو دُرَّةٍ صدفيةٍ غوَّاصُها ... بَهِجٌ متى يَرَهَا يُهِلَّ ويَسجدِ[(٥)]

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة لـ «حور»، أو الحال، والإتيان بالكاف للمبالغة في التشبيه، ولعل الأمر عليه نحو: زيدٌ قمر.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مفعول له لفعل محذوفٍ، أي: يفعل بهم ذلك كلَّه جزاءً بأعمالهم، أو بالذي استمرُّوا على عمله، أو مصدرٌ مؤكِّد، أي: يُجزَون جزاءً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/٣٠٩، والبحر المحيط ٨/٢٠٦.
(٢) قوله: أو، ليس في (م).
(٣) القراءات الثلاث في البحر المحيط ٨/٢٠٦.
(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٢٢/٣٠٤، والطبراني في الأوسط (٣١٤١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وفي سنده سليمان بن أبي كريمة، قال الهيثمي ١٠/٤١٧: وهو ضعيف.
(٥) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٤٠.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ما لا يعتدُّ به من الكلام، وهو الذي يُورَد لا عن رَويَّة وفكر فيجري مجرى اللَّغَا، وهو صوتُ العصافير ونحوها من الطير، وقد يسمَّى كلُّ كلامٍ قبيحٍ لغوًا.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا نسبةً إلى الإثم، أي: لا يقال لهم: أثمتُم، وعن ابن عباس ـ كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ـ تفسيرُه بالكذب[١]، وأخرجه هناد عن الضحاك[٢]، وهو من المجاز كما لا يخفى، والكلام من باب:

ولا تَـرَى الـضـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـرْ[٣]

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولًا، فهو مصدر مثله ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدلٌ من «قيلًا» كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]. وقال الزجَّاج[٤]: هو صفةٌ له بتأويله بالمشتق، أي: سالمًا من هذه العيوب، أو مفعوله والمراد لفظُه فلذا جاز وقوعُه مفعولًا للقول مع إفراده، والمعنى: إلا أنْ يقول بعضُهم لبعض سلامًا.

وقيل: هو مصدرٌ لفعل مقدَّرٍ من لفظه، وهو مقولُ القول ومفعولُه حينئذٍ، أي: نسلِّم سلامًا، والتكريرُ للدلالة على فُشوِّ السلام وكثرته فيما بينهم؛ لأنَّ المراد: سلامًا بعد سلام.

والاستثناءُ منقطعٌ، وهو من تأكيد المدح بما يُشبه الذمَّ محتمل لأنْ يكونَ من الضرب الأول منه، وهو أنْ يُستثنَى من صفة ذمٍّ منفيةٍ عن الشيء صفةُ مدحٍ له بتقدير دخولها فيها[٥]، بأنْ يقدَّر السلام هنا داخلًا فيما قبل فيفيدُ التأكيد من وجهَين[٦].

---

(١) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٦.

(٢) الزهد لهناد ١/ ٥١ (٦).

(٣) البيت لعمرو بن الأحمر الباهلي كما في خزانة الأدب ١٠/ ١٩٢، وسلف ٤/ ٨٨.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١١٢.

(٥) كقوله النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلولٌ من قراع الكتائب

(٦) جاء في هامش الأصل: من جهة أنه كدعوى الشيء بنسبة، ومن جهة أن الأصل في الاستثناء الاتصال، فذِكرُ أداته قبل ذِكرِ ما بعدها يوهم إخراجَ شيءٍ مما قبلها، فإذا وليها =

وأنْ يكون من الضرب الثاني منه، وهو أنْ يثبتَ لشيء صفة مدحٍ ويُعقب بأداة استثناء يليها صفةُ مدحٍ أُخرَى[1]، بأنْ لا يقدَّر ذلك، ويجعل الاستثناء من أصله منقطعًا فيفيدُ التأكيدَ مِن وَجْه، ولولا ذكرُ التأثيم ـ على ما قاله السعد ـ جاز جعلُ الاستثناء متَّصلًا حقيقةً؛ لأنَّ معنى السلام الدعاءُ بالسلامة، وأهلُ الجنة أغنياءُ عن ذلك، فكان ظاهرُه من قبيل اللَّغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام، وإنَّما منع التأثيم الذي هو النسبةُ إلى الإثم؛ لأنَّه لا يمكنُ جعلُ السلام من قبيله، وليس لك في الكلام أنْ تذكرَ متعدِّدَين ثم تأتي بالاستثناء المتصل من الأول مثل أنْ تقول: ما جاء من رجلٍ ولا امرأةٍ إلا زيدًا، ولو قصدتَ ذلك كان الواجبُ أن تؤخِّرَ ذِكرَ الرجل.

وقرئ: «سلامٌ سلامٌ» بالرفع[2] على الحكاية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ إلخ شروعٌ في بيان تفاصيل شؤونهم بعدَ بيان تفاصيلِ شؤون السابقين، «وأصحاب» مبتدأ وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ جملةٌ استفهاميةٌ مشعرةٌ بتفخيمهم والتعجيب من حالهم، وهي على ما قالوا: إما خبرٌ للمبتدأ، وقوله سبحانه: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خبرٌ ثانٍ له، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هم في سِدْر، والجملةُ استئنافٌ لبيان ما أُبهِمَ في قوله عز وجل: (مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ) من علوِّ الشأن، وإما معترضةٌ والخبرُ هو قوله تعالى شأنه: (فِى سِدْرٍ).

وجوِّز أن تكونَ تلك الجملةُ في موضع الصفة والخبرُ هو هذا الجارّ والمجرور، والجملةُ عطفٌ على قوله تبارك وتعالى في شرح أحوال السابقين: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ) أي: وأصحابُ اليمين المقولُ فيهم ما أصحابُ اليمين كائنونَ في سِدر. . إلخ.

= صفة مدح وتحول الاستثناء إلى الانقطاع جاء التأكيد لما فيه من المدح والإشعار بأنَّه لم يجد فيها صفة ذمٍّ حتى يثبتها، فاضطر إلى استثناء صفةِ مدح، مع ما فيه من نوع خلابةٍ وتأخيذٍ للقلوب. اهـ منه.

(١) كقول النبي ﷺ: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش». قال في اللآلئ: معناه صحيح، ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ. . كشف الخفاء ١/ ٢٣٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٤، وتفسير البيضاوي ٨/ ١٤٣.

والظاهرُ أنَّ التعبيرَ بـ «الميمنة» فيما مرَّ، وبـ «اليمين» هنا للتفنُّن، وكذا يقال في «المشأمة» و«الشمال» فيما بعد.

وقال الإمام: الحكمةُ في ذلك أنَّ في «الميمنة» وكذا «المشأمة» دلالةً على الموضع والمكان، والأزواجُ الثلاثة في أول الأمر يتميَّزُ بعضُهم عن بعض ويتفرَّقون بالمكان، فلذا جيء أولًا بلفظ يدلُّ على المكان، وفيما بعد يكون التميُّزُ والتفرُّق بأمرٍ فيهم، فلذا لم يُؤْتَ بذلك اللفظ ثانيًا[1].

والسِّدرُ شجرُ النَّبق، والمخضودُ الذي خُضِدَ، أي: قُطِعَ شوكُه، أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: إنَّ الله تعالى ينفعُنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبلَ أعرابيٌّ يومًا فقال: يا رسولَ الله، لقد ذَكَر الله تعالى في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنتُ أَرَى أنَّ في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها؟ قال: «وما هي؟» قال: السِّدْر، فإنَّ له شوكًا، فقال رسول الله ﷺ: «أليسَ اللهُ يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خَضَد الله شوكَه فجعل مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرةً، وإنَّ الثمرةَ من ثَمَره تفتق عن اثنين وسبعينَ لونًا من الطعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخرَ»[2].

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وقتادة وعكرمة والضحاك: أنَّه المُوْقَر حَمْلًا[3]. على أنَّه من خَضَد الغصنَ: إذا ثَنَاه وهو رطب، فمخضود: مثنيُّ الأغصان، كنى به عن كثير الحمل.

وقد أخرج ابن المنذر عن يزيد الرقاشي: أنَّ النَّبقَةَ أعظمُ من القِلال[4].

والظرفية مجازيةٌ للمبالغة في تمكُّنهم من التنعُّم والانتفاع بما ذكر.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٦٢ بنحوه.
(٢) المستدرك ٢/ ٤٧٦، والبعث والنشور (٣٠٢). وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٦٣ - زوائد نعيم).
(٣) عزا أثر ابن عباس لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٦-١٥٧.
(٤) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ قد نَضَد حملُه من أسفله إلى أعلاه ليسَت له ساقٌ بارزة، وهو شجرُ الموز كما أخرج ذلك عبد الرزاق وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[١]، وأخرجَه جماعة من طُرق عن ابن عباس[٢]، ورواه ابن المنذر عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري[٣]، وعبد بن حميد عن الحسن ومجاهد وقتادة[٤].

وعن الحسن أنَّه قال: ليس بالموز، ولكنَّه شجرٌ ظلُّه باردٌ رَطبٌ.

وقال السدي: شجرٌ يُشبه طلحَ الدنيا، ولكن له ثمرٌ أحلَى من العسل.

وقيل: هو شجر من عظام العضاه[٥].

وقيل: شجر أمِّ غيلان، وله نُوَّارٌ كثير طيِّب الرائحة.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ ممتدٌّ منبسطٍ لا يتقلَّص ولا يتفاوت، كظلِّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وظاهرُ الآثار يقتضي أنَّه ظلُّ الأشجار؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)»[٦].

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٧٠، والزهد لهناد (١١٢)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣١١، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٠، وهناد في الزهد (١١١)، والطبري ٢٢/ ٣١١.

(٣) عزا أثر أبي سعيد الخدري لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧. والأثران في تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٥٧، وأخرجه عن مجاهد وقتادة الطبري ٢٢/ ٣١١ و٣١٢.

(٥) جمع العضاهة، وهي أعظم الشجر، أو كلُّ ذات شوك. القاموس (عضه).

(٦) المسند (٧٤٩٨)، وصحيح البخاري (٣٢٥٢)، وصحيح مسلم (٢٨٢٦)، وسنن الترمذي (٢٥٢٢)، وسنن ابن ماجه (٤٣٣٥).

رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرةٌ يسيرُ الراكب في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعها، وذلك الظلُّ الممدود»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الظلُّ الممدود شجرةٌ في الجنة على ساق، ظلُّها قدرُ ما يسيرُ الراكبُ في كلِّ نواحيها مئةَ عام، يخرجُ إليها أهلُ الجنة أهل الغرف وغيرُهم، فيتحدَّثون في ظلِّها، فيشتهي بعضُهم ويذكر لَهْوَ الدنيا، فيرسلُ الله تعالى ريحًا من الجنة فتحرِّكُ تلك الشجرة بكلِّ لَهْوٍ في الدنيا(٢). وعن مجاهد أنَّه قال: هذا الظلُّ من سدرها وطلحها.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمرو بن ميمون أنَّه قال: الظلُّ الممدودُ مسيرةُ سبعينَ ألف سنة(٣).

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾ قال سفيان وغيره: جارٍ من غير أخاديد. وقيل: منسابٌ حيث شاؤوا لا يحتاجون فيه إلى سانية ولا رشاء.

وذكر هذه الأشياء لِمَا أنَّ كثيرًا من المؤمنين لبداوتهم تمنَّوها، أخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوَجّ وظِلالِه من طَلْحِهِ وسِدْرِه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ إلخ(٤).

وفي رواية عن الضحاك: نظر المسلمون إلى وَجٍّ فأعجَبَهم سِدْرُه وقالوا: يا ليتَ لنا مثل هذا، فنزلَت هذه الآية(٥).

---

(١) المسند (١١٦٧٣)، وصحيح البخاري (٦٥٥٣)، وصحيح مسلم (٢٨٢٨)، وسنن الترمذي (٢٥٢٣)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٥٧، قال ابن كثير: هذا أثر غريب وإسناده قويٌّ جيد حسن.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣١٣، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣١١، والبعث والنشور (٣٠٤)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٧. وجاء في هامش الأصل: وهو واد مخصب بالطائف. اهـ منه.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٨.

وقيل: كأنَّه لما شبَّه حالَ السابقين بأقصى ما يتصوَّر لأهل المدن من كونهم على سُرُر، تطوفُ عليهم خُدَّامهم بأنواع الملاذِّ، شبَّه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصوَّر لأهل البوادي من نزولهم في أماكن مخصبةٍ فيها مياهٌ وأشجارٌ وظلالٌ؛ إيذانًا بأنَّ التفاوت بين الفريقَين كالتفاوت بين أهل المدن والبوادي.

وذكر الإمام مدَّعيًا أنَّه مما وفِّق له أنَّ قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ من باب قوله سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] لأنَّ السدر أوراقه في غاية الصِّغَر، والطلح - يعني الموز - أوراقُه في غاية الكِبَر، فوقَعت الإشارةُ إلى الطرفَين، فيراد جميع الأشجار؛ لأنَّها نظرًا إلى أوراقها محصورةٌ بينهما[1]. وهو مما لا بأس به.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وجعفر بن محمد وعبد الله ﷺ: «وطَلْعٍ» بالعين بدل: «وطلح» بالحاء[2]، وأخرج ابن الأنباري في المصاحف وابن جرير عن قيس بن عباد قال: قرأتُ على عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «وطلح منضود» فقال: ما بالُ الطلح؟ أما تقرأ: «وطلع». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ فقيل له: يا أمير المؤمنين، أنحُكُّها من المصحف؟ فقال: لا يُهاجُ القرآنُ اليومَ[3].

وهي روايةٌ غير صحيحة كما نبَّه على ذلك الطيبي، وكيف يقرأ أميرُ المؤمنين كرم الله تعالى وجهه تحريفاً في كتاب الله تعالى المتداول بين الناس؟ أو كيفَ يُظَنُّ بأنَّ نقلةَ القرآن ورواتَه وكتَّابَه من قَبْلُ تعمَّدوا ذلك أو غفِلوا عنه؟ هذا واللهُ تعالى قد تكفَّل بحفظه، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ثم إنَّ الذي يقتضيه النظمُ الجليلُ - كما قال الطيبي - حَمْلُ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ إلخ على معنى التظليل وتكاثف الأشجار على سبيل الترقِّي؛ لأنَّ الفواكه مستغنًى عنها بما بعدُ، وليقابل قولُه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٦٢ بنحوه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٠٩-٣١٠، وعزاه لأبي بكر الأنباري القرطبي في تفسيره ٢٠/ ١٩٥.

وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ قوله سبحانه: (وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ) إلخ، فإذن لا مدخلَ لحديث الطلع في معنى الظلِّ وما يتصل به، لكن قال صاحب «الكشف»: إنَّ وصْفَ الطلح بكونه منضودًا لا يظهرُ له كثيرُ ملاءمة[1]، لكون المقصود منفعةَ التظليل، وينبغي أنْ يحمل الطلح على أنَّه من عظام العضاه على ما ذكره في «الصحاح»[2]، فشجر أمِّ غيلان والموز لا ظلَّ لهما يعتدُّ به، ثم قال: ولو حمل الطلح على المشموم لكان وجهًا. انتهى. وقد قدَّمنا لك خبر سبب النزول فلا تَغفُل.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: بحسب الأنواع والأجناس على ما يقتضيه المقام.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عمَّن يُريد تناولها بوجهٍ من الوجوه، ولا يُحظَر عليها كما يُحظَر على بساتين الدنيا.

وقرئ: «وفاكهةٌ كثيرةٌ لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ» بالرفع في الجميع[3]، على تقدير: وهناك فاكهة.. إلخ.

﴿وَفُرُشٍ﴾ جمع فراش كسراج وسُرُج، وقرأ أبو حيوة بسكون الراء[4].

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ منضدةٍ مرتفعة، أو مرفوعة على الأسرَّة، فالرفع حسِّيٌّ كما هو الظاهر، وقد أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وجماعة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ارتفاعُها كما بينَ السماءِ والأرضِ، ومسيرةُ ما بينهما خمسُ مئة عام»[5]، ولا تستبعد ذلك من حيث العروجُ والنزولُ ونحوهما، فالعالَمُ عالم آخرُ وراءَ طَور عقلك.

وأخرج هناد عن الحسن: أنَّ ارتفاعها مسيرةُ ثمانين سنة[6]. وليس بمثابة الخبر السابق.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قيل المراد: نضد الورق لما هو المشهور في الموز. اهـ منه.
(٢) مادة: (عضه).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٧.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٧.
(٥) المسند (١١٧١٩)، وسنن الترمذي (٢٥٤٠) و(٣٢٩٤)، وعزاه للنسائي ابنُ كثير في تفسيره.
(٦) الزهد (٧٨)، وفيه جويبر، قال الحافظ في التقريب: ضعيف جدًّا.

وقال بعضُهم: أي: رفيعة القدر على أنَّ رفْعَها معنويٌّ بمعنى شرفها.

وأيًّاما كان فالمراد بالفُرُش للجلوس عليه. وقال أبو عبيدة: المرادُ بها النساء، لأنَّ المرأةَ يكنَى عنها بالفراش كما يكنَى عنها باللباس، ورفْعُهن في الأقدار والمنازل[١]، وقيل: على الأرائك، وأيد إرادة النساء بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾﴾ لأنَّ الضمير في الأغلب يعودُ على مذكور متقدِّم، وليس إلا الفرش، ولا يناسبُ العود إليه إلا بهذا المعنى، والاستخدامُ بعيدٌ هنا[٢]، وعلى القول في الفرش الضميرُ للنساء وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ، لتقدُّم ما يدلُّ عليها، فهو تَتْميمٌ بيانًا لمقدَّر يدلُّ عليه السياق، كأنه قيل: وفُرُش مرفوعة ونساء أو وحور عين، ثم استُؤنِفَ وصفُهن بقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ تتميمًا للبيان زيادةً للترغيب، لا لتعليل الرفع.

وقيل: إنَّ المرجع مضمَرٌ، وتقديرُ المنزل: وفرش مرفوعة لأزواجهم أو لنسائهم، فـ «إنا» إلخ استئناف علَّة للرفع، أي: وفرش مرفوعة لأزواجهم لأنَّا أنشأناهنَّ. والأولُ أوفقُ لبلاغة القرآن العظيم.

والمرادُ بـ «أنشأناهنَّ»: أعَدْنا إنشاءهنَّ من غير ولادةٍ؛ لأنَّ المخبَر عنهنَّ بذلك نساؤكنَّ في الدنيا، فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حميد والترمذي وآخرون عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «إنَّ المنشآت اللَّاتي كنَّ في الدنيا عجائزَ عمشًا رُمصًا»[٣].

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم وجماعة عن سلمة بن يزيد[٤] الجعفي قال:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٧.

(٢) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحد معانيه ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. وأراد به المصنف هنا: إرجاعَ الضمير إلى الفرش بمعنى النساء بعد إرادة معناها المعروف. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٤٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٢٠-٣٢١، وسنن الترمذي (٣٢٩٦)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٨، وهو من طريق موسى بن عُبيدة عن يزيد الرَّقَاشي عن أنس، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٤) في الأصل و(م): مرثد، والمثبت من مصادر التخريج.

سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾: «الثيبُ والأبكارُ اللاتي كنَّ في الدنيا»[١].

وأخرج الترمذي في «الشمائل» وابن المنذر وغيرُهما عن الحسن قال: أَتَتْ عجوزٌ فقالت: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ أنْ يُدخلَني الجنة. فقال: «يا أم فلان إنَّ الجنة لا تدخلُها عجوزٌ» فولَّت تبكي قال: «أخبِرُوها أنَّها لا تدخلُها وهي عجوزٌ، إنَّ الله تعالى يقول: (إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَآءً) إلخ»[٢].

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ الإنشاء هو الاختراعُ الذي لم يُسبَق بخَلْق، ويكون ذلك مخصوصًا بالحور العين[٣]، فالمعنى: إنَّا ابتدأناهنَّ ابتداءً جديدًا من غير ولادةٍ ولا خَلْق أول.

﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾ تفسيرٌ لِمَا تقدَّم، والجعلُ إما بمعنى التصيير، و«أبكاراً» مفعولٌ ثان، أو بمعنى الخلق، و«أبكارًا» حالٌ أو مفعولٌ ثانٍ، والكلامُ من قبيل: ضيِّق فم الرَّكِيَّة[٤]، وفي الحديث: «إنَّ أهلَ الجنة إذا جامعُوا نساءَهم عُدْنَ أبكارًا» أخرجه الطبراني في «الصغير» والبزار عن أبي سعيد مرفوعًا[٥].

﴿عُرُبًا﴾ متحبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ، جمع عَرُوب كصَبُور وصُبُر، وروي هذا عن جماعة من السلف، وفسَّرها جماعةٌ أخرى بغَنِجَات، ولا يخفَى أن الغَنْج ألطفُ أسباب التحبُّب، وعن زيد بن أسلم: العَرُوب الحسنةُ الكلام.

---

(١) المعجم الكبير (٦٣٢١)، وعزاه لابن أبي حاتم ابنُ كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية، وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١٣٠٧)، والطبري ٢٢/ ٣٢٠، والبيهقي في البعث والنشور (٣٨١).
وفيه جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف.

(٢) الشمائل (٢٣٠)، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٥٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٧.

(٤) الرَّكِيَّة: البئر، وقولك للحفَّار: ضيِّق فم الركية ووسِّع أسفلها، إنما تريد به الإنشاء على تلك الصفة، لا أن هناك نقل من سعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سعة. البحر ٧/ ٤٥٣.

(٥) المعجم الصغير (٢٤٩)، وكشف الأستار (٣٥٣٧)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه معلَّى بن عبد الرحمن الواسطي، وهو كذاب.

وفي رواية عن ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد: هنَّ العواشقُ لأزواجهنَّ. ومنه على ما قيل قول لبيد:

وفي الخدور عَرُوب غيرُ فاحشةٍ ريَّا الروادفِ يَغْشَى دونَها البصرُ[١]

وفي رواية أخرى عن مجاهد: أنَّهنَّ الغَلِمات اللاتي يشتهينَ أزواجَهن. وأخرج ابن عدي بسند ضعيفٍ عن أنس مرفوعًا: «خيرُ نسائكم العفيفةُ الغلمة»[٢].

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث النوفلي: العَرُوب: الخفرة المتبذِّلة لزوجها، وأنشد:

يعربنَ عند بعولهنَّ إذا خَلَوا وإذا هم خَرجُوا فهنَّ خفار[٣]

ويرجع هذا إلى التحبُّب، وأخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: (عُرُبًا): «كلامُهنَّ عربيٌّ»[٤]، ولا أظنُّ لهذا صحة؛ والتفسيرُ بالمتحبِّبات هو الذي عليه الأكثر.

وقرأ حمزة وجماعة منها عباس والأصمعيُّ عن أبي عمرو، وأخرى منها خارجة وكردم عن نافع، وأخرى منها حماد وأبو بكر وأبان عن عاصم: «عُرْبًا» بسكون الراء وهي لغة تميم[٥]، وقال غيرُ واحد: هي للتخفيف كما في عُنُق وعُنْق.

---

(١) شرح ديوان لبيد ص٦١، وفيه: الحُدُوج، بدل: الخدور.

(٢) الكامل ٣/ ١٠٦٠ في ترجمة زيد بن جبيرة الأنصاري، وقال ابن عدي: وعامة ما يرويه عمّن روى عنهم لا يتابعه عليه أحد. وفي الميزان ٢/ ٩٩: قال البخاري وغيره: متروك، وقال أبو حاتم: لا يكتب حديثه.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٨/ ٢٤٣، وذكره المزي في تهذيب الكمال ٢/ ٤٤٣، وفي (م): يعرين، بدل: يعربن.
والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٣٧١، بلفظ: يأنسْنَ عند بعولهن إذا التقوا...

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٥٩، وعزاه لابن أبي حاتم أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وابن حجر في الفتح ٦/ ٣٢٢، وفيهما: ... عن أبيه عن جده. وقال الحافظ ابن حجر: وهو ضعيف منقطع.

(٥) قراءة حمزة وأبي بكر عن عاصم في التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٢١٦، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٠٧.

﴿أَتْرَابًا﴾ مستوياتٍ في سنٍّ واحد كما قال أنس وابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة وقتادة وغيرهم، كأنَّهنَّ شُبِّهنَ في التساوي بالترائب التي هي ضلوعُ الصدر، أو كأنَّهنَّ وقَعْنَ معاً في التراب، أي: الأرض. وهنَّ بناتُ ثلاثٍ وثلاثين سنة وكذا أزواجهنَّ.

وأخرج الترمذي عن معاذ مرفوعًا: «يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ جردًا مردًا مكحَّلين أبناءَ ثلاثين، أو ثلاثٍ وثلاثين»[1]. والمراد بذلك كمالُ الشباب.

وقوله تعالى: ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ متعلِّق بـ «أنشأنا» أو بـ «جعلنا». وقيل: متعلِّق بـ «أترابًا» كقولك: فلانٌ تِربٌ لفلان، أي: مساوٍ له، فهو محتاجٌ إلى التأويل. وتُعقِّب بأنَّه مع هذا ليس فيه كثيرُ فائدةٍ، وفيه نظر.

وقيل: بمحذوف هو صفة لـ «أبكارًا»، أي: كائنات لأصحاب اليمين، وفيه إقامةُ الظاهر مقامَ الضمير لطول العهد، أو للتأكيد والتحقيق.

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم ثلَّةٌ، أو خبرٌ ثانٍ لـ «هم» المقدَّر مبتدأ مع «في سدر»، أو لـ «أصحاب اليمين» في قوله تعالى: (وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ) أو مبتدأ خبرُه محذوف، أي: منهم، أو مبتدأ خبرُه الجارُّ والمجرور قبله، احتمالاتٌ اعتُرض الأخير منها بأنَّ المعنى عليه غيرُ ظاهرٍ ولا طلاوةَ فيه، وجَعْلُ اللام بمعنى «مِن» كما في قوله:

ونحنُ لكم يومَ القيامة أفضلُ[2]

لا يخفى حاله.

والأولون والآخرون: المتقدِّمون والمتأخِّرون؛ إما من الأمم وهذه الأمة، أو من هذه الأمة فقط على ما سمعتَ فيما تقدَّم.

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٥)، وأخرجه أحمد (٢٢١٠٦).

(٢) عجز بيت لجرير وصدره: لنا الفضل في الدنيا وأنفك راغم، وهو في ديوانه ١/ ١٤٣.

هذا ولم يقل سبحانه في حقِّ أصحاب اليمين: «جزاء بما كانوا يعملون» كما قاله عز وجل في حقِّ السابقين رمزًا إلى أنَّ الفضل في حقِّهم متمحِّضٌ، كأنَّ عملَهم لقصوره عن عمل السابقين لم يُعتَبر اعتبارَه.

ثم الظاهرُ أنَّ ما ذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه، فلا ينافي أنْ يكونَ منهم مَن يُعذَّب لمعاصٍ فعلَها ومات غيرَ تائبٍ عنها ثم يدخلُ الجنة، ولا يمكنُ أنْ يقال: إنَّ المؤمنَ العاصي من أصحاب الشمال؛ لأنَّ صريحَ أوصافهم الآتية يقتضي أنَّهم كانوا كافرين، ويلزم من جَعْل هذا قسمًا على حِدَةٍ كونُ القسمة غيرَ مستوفاةٍ فليتأمل، والله تعالى أعلم.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ﴾ على نمط ما سلف في نظيره، والسَّمُوم قال الراغب: الريح الحارَّة التي تؤثِّر تأثيرَ السُّمِّ[1]. وفي «الكشاف»: حرُّ نارٍ ينفذُ في المسامِّ[2]. والتنوين للتعظيم وكذا في قوله تعالى: ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ وهو الماءُ الشديدُ الحرارة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: دخان أسود كما قال ابن عباس وأبو مالك وابن زيد والجمهور، وهي على وزن يَفْعُول، وله نظائر قليلة، من الحُمَمَة[3]: القطعةُ من الفحم، وتسميتُه ظلًّا على التشبيه التهكُّمي.

وعن ابن عباس أيضًا أنَّه سُرادقُ النار المحيطُ بأهلها يرتفعُ من كلِّ ناحيةٍ حتى يُظلَّهم.

وقال ابن كيسان: هو من أسماء جهنَّم؛ فإنَّها سوداء، وكذا كلُّ ما فيها أسودُ بهيمٌ، نعوذ بالله تعالى منها.

وقال ابن بريدة وابن زيد أيضًا: هو جبلٌ في النار أسودُ يفزع أهلُ النار إلى ذُرَاه فيجدونه أشدَّ شيء.

---

(١) مفردات الراغب (سم).
(٢) الكشاف ٤/ ٥٥.
(٣) في هامش الأصل: بضم الحاء المهملة وبميمَين مفتوحتين تليها تاء التأنيث. اهـ منه.

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة لـ «ظل»، وكذا قوله سبحانه: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ صفتان له، وتقديمُ الصفةِ الجارِّ والمجرور على الصفة المفردة جائزٌ كما صرَّح به الرضي وغيرُه، أي: لا باردٍ كسائر الظلال، ولا نافع لمن يأوي إليه من أَذَى الحرِّ، وذلك كرمه، فهناك استعارةٌ. ونَفَى ذلك ليمحَقَ توهُّم ما في الظل من الاسْتِرْواح إليه وإنْ وُصِف أولًا بقوله تعالى: ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾ والمعنى: أنَّه ظلٌّ حارٌّ ضارٌّ، إلا أنَّ للنفي شأنًا ليس للإثبات، ومن ذلك جاء التهكُّم والتعريض بأنَّ الذي يستأهل الظلَّ الذي فيه بردٌ وإكرام غيرُ هؤلاء، فيكون أشجَى لحلوقهم وأشدَّ لتحسُّرهم.

وقيل: الكرمُ باعتبار أنَّه مرضيٌّ في بابه، فالظلُّ الكريم هو المرضي في بَرْده ورَوْحه. وفيه أنَّه لا يلائم ما هنا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾.

وجوز أنْ يكونَ ذلك نفيًا لكرامة مَن يسْتَروِحُ إليه، ونُسِب إلى الظلِّ مجازًا، والمراد: أنَّهم يستظلُّون به وهم مهانُون، وقد يُحتَملُ المجلسُ الرديء لِنيل الكرامة.

وفي «البحر»: يجوز أنْ يكونا صفتَين لـ «يَحْموم»، ويلزمُ منه وصفُ الظلِّ بهما[(١)].

وتُعقِّبَ بأنَّ وصْفَ اليحموم ـ وهو الدخان ـ بذلك ليس فيه كبيرُ فائدةٍ.

وقرأ ابن أبي عبلة: «لا باردٌ ولا كريمٌ» برفعهما[(٢)]، أي: لا هو باردٌ ولا كريمٌ، على حدِّ قوله:

فأبِيتُ لا حَرِجٌ ولا محرُومُ[(٣)]

أي: لا أنا حرِجٌ ولا محرومٌ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٠٩.

(٣) وصدره: ولقد أكون من الفتاة بمنزل، والبيت للأخطل وهو في ديوانه ص٨٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ تعليلٌ لابتلائهم بِما ذُكر من العذاب، وسلك هذا المسلكَ في تعليل الابتداء بالعذاب اهتمامًا بدفع توهُّم الظلم في التعذيب، ولمَّا كان إيصالُ الثواب مما ليس فيه توهُّمُ نقصٍ أصلًا لم يسلك فيه نحو هذا.

والمترفُ هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنعُ ما يشاء لا يُمنَع، والمعنى: إنَّهم عُذِّبوا لأنَّهم كانوا قبلَ ما ذكرَ من العذاب في الدنيا متَّبعين هوَى أنفسِهم، وليس لهم رادعٌ منها يردعُهم عن مخالفة أوامره عز وجل، وارتكابِ نواهيه سبحانه. وكذا قيل.

وقيل: هو العاتي المستكبرُ عن قبول الحقِّ والإذعان له، والمعنى: إنَّهم عُذِّبوا لأنَّهم كانوا في الدنيا مستكبرين عن قبول ما جاءتهم به رسُلُهم من الإيمان بالله عز وجل، وما جاء منه سبحانه.

وقيل: هو الذي أترفَتْه النعمةُ، أي: أبطَرَتْه وأطغَتْه. وقريبٌ منه ما قيل: هو المنعَّم المنهمِكُ في الشهوات، وعليه قول أبي السعود: أي: إنَّهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب في الدنيا منعَّمين بأنواع النعم من المآكل والمشاربِ والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فلا جَرَم عُذِّبوا بنقائضها[1].

وتُعقِّبَ بأنَّ كثيرًا من أهل الشمال ليسوا مترَفين بالمعنى الذي اعتبره، فكيف يصحُّ تعليلُ عذابِ الكلِّ بذلك؟ ولا يَرِدُ هذا على ما قدَّمناه من القولَين كما لا يخفى.

ومن الناس مَن فسَّر المترف بما ذكر وتَفَصَّى عن الاعتراض بأنَّ تعليلَ عذاب الكلِّ بما ذكر في حيِّز العلة لا يستدعي أنْ يكونَ كلٌّ من المذكورات موجودًا في كلٍّ من أصحاب الشمال، بل وجودُ المجموعِ في المجموع، وهذا لا يضرُّ فيه اختصاصُ البعضِ بالبعض، فتأمَّله.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٤-١٩٥.

وقيل: المترفُ المجعول ذا تُرْفَة، أي: نعمةٍ واسعةٍ، والكلُّ مترفون بالنسبة إلى الحالة التي يكونون عليها يوم القيامة. وهو ـ على ما فيه ـ لا يظهرُ أمرُ التعليل عليه.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ يتشدَّدون ويمتنعون من الإقلاع ويُداومون ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ﴾ أي: الذنب ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ وفسَّر بعضُهم «الحنث» بالذنب العظيم لا بمطلَق الذنب، وأيد بأنّه في الأصل العدل العظيم، فوصفه بـ «العظيم» للمبالغة في وَصْفه بالعِظَم، كما وُصِف الطَّوْدُ[1] ـ وهو الجبل العظيم ـ به أيضًا.

والمرادُ به كما روي عن قتادة والضحاك وابن زيد: الشركُ، وهو الظاهر، وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي: أنَّ المرادَ به الكبائر[2]. وكأنَّه جعَل المعنى: وكانوا يُصرُّون على كل حنثٍ عظيم. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنَّه اليمينُ الغموسُ[3]. وظاهرُه الإطلاق.

وقال التاج السبكي في «طبقاته»: سألتُ الشيخَ ـ يعني والدَه تقي الدين ـ: ما الحنثُ العظيم؟ فقال: القَسَمُ على إنكار البعثِ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وهو تفسيرٌ حسنٌ لأنَّ الحنثَ وإنْ فُسِّر بالذنب مطلقًا أو العظيم، فالمشهورُ استعمالُه في عدم البِرِّ في القَسَم[4].

وتعقِّبَ بأنّه يأباه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا﴾ إلى آخره؛ للزوم التكرار.

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ بالأول وصفُهم بالثبات على القَسَم الكاذب، وبالثاني وصفُهم بالاستمرار على الإنكار، والرمزُ إلى استدلالٍ ظاهرِ الفسادِ، مع أنَّه لا محذورَ في تكرار ما يدلُّ على الإنكار، وهو توطئةٌ وتمهيدٌ لبيان فساده.

---

(١) في الأصل: الطور، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٨/ ١٤٤.
(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٠.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧.
(٤) الطبقات الكبرى ١٠/ ٢٨٢.

والمرادُ بقولهم: «كنا ترابًا وعظامًا»: كان بعضُ أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما ترابًا وبعضُها عظامًا نخرة. وتقديمُ التراب لأنَّه أبعدُ عن الحياة التي يقتضيها ما هم بصَدَد إنكارِه من البعث.

و«إذا» متمحِّضة للظرفية، والعاملُ فيها ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ - لا «مبعوثون» نفسه، لتعدُّد ما يمنعُ من عمل ما بعده فيما قبله[1] - وهو: نُبْعَث، وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به، فإنَّهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدنُ على حاله، [بل][2] لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافيةٍ له بالكلية، وهذا كالاستدلال على ما يزعمونَه.

وتكريرُ الهمزة لتأكيد النكير، وتحليةُ الجملة بـ «إنَّ» لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عطفٌ على محل «إنَّ» واسمها، أو على الضمير المستتر في «مبعوثون» وحَسُنَ للفصل بالهمزة وإن كانت حرفًا واحدًا كما قال الزمخشري[3]، ولا يضرُّ عملُ ما قبل هذه الهمزة في المعطوف بعدها؛ لأنَّها مكررةٌ للتأكيد، وقد زُحلقَت عن مكانها، وقولهم: الحرفُ إذا كرِّر للتأكيد فلا بدَّ أنْ يُعاد معه ما اتَّصل به أولًا أو ضميره[4] لا يُسلَّم اطِّرادُه؛ لورود:

ولا لِـلِـمَـا بـهـم أبـدًا دواءُ[5]

وأمثالِه. وجوز أن يكون «آباؤنا» مبتدأ وخبرُه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبل، أي: مبعوثون، والجملةُ عطفٌ على الجملة السابقة، وهو تكلُّف يُغني عنه العطفُ

(١) وهو الفصل بـ «إنَّ» وبالهمزة، وكلٌّ منهما يستحق الصدارة المانعة عن عمل ما بعده فيما قبله. حاشية الشهاب ٨/ ١٤٥.

(٢) مابين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٥، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٥.

(٤) في الأصل و(م): ضمير، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ١٤٥.

(٥) عجز بيت، وصدره: فلا والله لا يُلْفَى لما بي، وهو لمسلم بن معبد الوالبي كما في خزانة الأدب ٢/ ٣٠٨، وسلف ١/ ١٨١.

المذكور، والمعنى: أَيُبعَثُ أيضًا آباؤنا، على زيادة الاستبعاد، يعنونَ أنَّهم أقدمُ فبعثُهم أبعدُ وأبطلُ.

وقرأ قالون وابن عامر: «أَوْ آباؤنا» بإسكان الواو[1]، وعلى هذه القراءة لا يُعطَفُ على الضمير إذ لا فاصلَ.

﴿قُلْ﴾ ردًّا لإنكارهم وتحقيقًا للحقِّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم، وتقديمُ «الأولين» للمبالغة في الردِّ حيث كان إنكارُهم لبعث آبائهم أشدَّ من إنكارهم لبعثهم، مع مراعاة الترتيب الوجودي ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث، وقرئ: «لَمُجْمَعُون»[2].

﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم القيامة، ومعنى كونِهِ معلومًا كونُه معيَّنًا عند الله عز وجل، والميقاتُ ما وقِّت به الشيء، أي: حُدَّ، ومنه مواقيت الإحرام، وهي الحدود التي لا يتجاوزُها مَن يريد دخولَ مكة إلا مُحرِمًا، وإضافته إلى «يوم» بيانية كما في: خاتم فضة، وكون يوم القيامة ميقاتًا؛ لأنَّه وُقِّتَت به الدنيا، و«إلى» للغاية والانتهاء، قيل[3]: والمعنى: لمجموعون منتهين إلى ذلك اليوم، وقيل: ضُمِّن معنى السَّوق فلذا تعدَّى بها.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عطف على «إنَّ الأولين» داخلٌ في حيِّز القول، و«ثم» للتراخي الزماني أو الرُّتْبي ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، أو بما يعمُّه وغيرَه، ويدخل هو دخولًا أوليًّا للسياق على ما قيل، والخطابُ لأهل مكة وأضرابهم.

﴿لَآكِلُونَ﴾ بعد البعث والجَمْعِ ودخولِ جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ «مِن» الأُولَى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر، وتفسيرُه، أي: مبتدؤون للأكل من شجر هو زقُّوم، وجوَّز كونُ الأولى تبعيضية و«مِن» الثانية على حالها، وجوِّز كونُ «مِن زقوم» بدلًا من قوله تعالى: «مِن شجر» فـ «مِن» تحتمل الوجهَين، وقيل: الأُولى زائدة.

---

(١) التيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧، وقرأ بها أبو جعفر.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٢.

(٣) في (م): وقيل.

وقرأ عبد الله: «مِن شجرة»(١) فوجه التأنيث ظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٥٣﴾ أي: بطونكم من شدَّة الجوع، فإنَّه الذي اضطرهم وقَسَرهم على أكل مثلها مما لا يُؤكَل، وأما على قراءة الجمهور فوجهُه الحملُ على المعنى؛ لأنَّه بمعنى الشجرة، أو الأشجار إذا نُظِرَ لصدقه(٢) على المتعدِّد. وأما التذكير على هذه القراءة في قوله سبحانه: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي: عقيب ذلك بلا ريث ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحارِّ في الغاية لغلبة العطش = فظاهرٌ لا يحتاج إلى تأويل.

وقال بعضهم: التأنيث أولًا باعتبار المعنى، والتذكيرُ ثانيًا باعتبار اللفظ. فقيل عليه: إنَّ فيه اعتبارَ اللفظ بعد اعتبار المعنى على خلاف المتعارفِ، فلو أُعيدَ الضميرُ المذكَّر على الشجر باعتبار كونه مأكولًا ليكونَ التذكيرُ والتأنيثُ باعتبار المعنى كان أولَى. وفيه بحثٌ.

ووجهُهُ على القراءة الثانية أنَّ الضميرَ عائدٌ على الزقوم، أو على الشجر(٣) باعتبار أنَّها زقومٌ أو باعتبار أنَّها مأكول.

وقيل: هو مطلقًا عائدٌ على الأكل، وتعقِّب بأنَّه بعيدٌ لأنَّ الشربَ عليه لا على تناوله، مع ما فيه من تفكيك الضمائر، وكونُه مجازًا شائعًا وغيرَ مُلْبِسٍ لا يدفعُ البعد، فتأمل.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك جمع أَهْيَم، وهو الجملُ الذي أصابه الهُيام بضم الهاء، وهو داءٌ يشبه الاستسقاء يُصيبُ الإبل فتشرب حتى تموتَ، أو تسقم سُقْمًا شديدًا، ويقال: إبلٌ هَيْماء وناقةٌ هيماء، كما يقال: جملٌ أهْيَم؛ قال الشاعر:

فأصبحتُ كالهيماءِ لا الماءُ مُبرِدٌ   صداها، ولا يَقْضي عليها هُيامُها(٤)

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٧، والبحر المحيط ٨/ ٢١٠.

(٢) في حاشية الشهاب ٨/ ١٤٥(والكلام منه): لصدقها.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: الشجرة. ينظر الكشاف ٤/ ٥٥-٥٦.

(٤) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٠٠، وتفسير البيضاوي ٨/ ١٤٦، وفي الديوان: مبرئ، بدل: مبرد.

وجَعَل بعضُهم «الهيم» هنا جمع الهيماء، وقيل: هو جمع هائم أو هائمة، وجمع فاعل على فعل كبازل وبزل شاذٌّ. وعن ابن عباس أيضًا وسفيان: «الهيم» الرِّمال التي لا تَرْوَى من الماء لتَخَلْخُلها، ومفردُه هَيَام بفتح الهاء على المشهور كسَحَاب وسُحُب، ثم خُفِّف وفُعِلَ به ما فُعِلَ بجَمْع «أبيض» من قلب الضمة كسرةً لتسلَمَ الياءُ ويخفَّ اللفظ، فكُسِرت الهاء لأجل الياء، وهو قياسٌ مطَّردٌ في بابه.

وقال ثعلب: هو بالضمِّ كقُراد وقُرُد، ثم خُفِّف وفُعِل به ما فُعل مما سمعتَ.

والعطف بالفاء قيل: لأنَّ الإفراط بعد الأصلي، وقيل: لأنَّ كلًّا من المتعاطفَين أخصُّ من الآخر، فإنَّ شارب الحميم قد لا يكونُ به داء الهُيام، ومَن به داء الهُيام قد يشربُ غيرَ الحميم، والشربُ الذي لا يُحصِّلُ الريَّ ناشئٌ عن شرب الحميم؛ لأنَّه لا يبلُّ الغليل.

والذي أختاره ما قالَه مفتي الديار الرومية: إنَّ ذلك كالتفسير لِمَا قبلَه، أي: لا يكونُ شربُكم شربًا معتادًا بل يكونُ مثلَ شُربِ الهيم(١).

والشُّرب بالضم مصدر، وقيل: اسمٌ لِمَا يُشرَب، وقرأ رسول الله ﷺ، كما روى جماعة منهم الحاكم وصححه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «شَرْبَ» بفتح الشين(٢)، وهو مصدر شَرِب المقيس، وبذلك قرأ جمعٌ من السبعة والأعرج وابن المسيب وشعيب ومالك بن دينار وابن جريج(٣).

وقرأ مجاهد وأبو عثمان النهدي بكسر الشين(٤)، وهو اسمٌ بمعنى المشروب، لا مصدر كالطِّحْن والرِّعي.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ من ألوان العذاب ﴿نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، فإذا كان ذلك

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٦.

(٢) المستدرك ٢/ ٢٥٠، وفيه سلام بن سليمان المدايني، قال الذهبي في التلخيص: سلام ضعيف.

(٣) التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٢٨٣، عن ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو والكسائي من السبعة، وهي قراءة يعقوب وخلف من العشرة، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢١٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٢١٠.

نُزُلهم ـ وهو ما يُقدَّم للنازل مما حضر ـ فما ظنُّك بما لهم بعد ما استقرَّ لهم القرار، واطمأنت لهم الدار في النار؟

وفي جعله نُزُلًا ـ مع أنَّه مما يُكرَم به النازل ـ من التهكُّم ما لا يخفَى، ونظير ذلك قوله:

وكنَّا إذا الجبَّارُ بالجيش ضافَنَا جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزْلا[1]

وقرأ ابن محيصن وخارجة عن نافع ونعيم ومحبوب وأبو زيد وهارون وعصمة وعباس كلهم عن أبي عمرو: «نُزْلهم» بتسكين الزاء المضمومة[2] للتخفيف كما في البيت.

والجملةُ مسوقة من جهته سبحانه وتعالى بطريق الفَذْلكةِ مقرِّرة لمضمون الكلام الملقن، غير داخلةٍ تحت القول.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت، والفاءُ لترتيب التحضيض على ما قبلها، أي: فهلَّا تصدِّقون بالخلق، بقرينة «نحن خلقْناكم» ولمَّا لم يُحقِّق تصديقَهم المشعِرَ به قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] عَمَلُهم، حيث لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة، بل اقترنَ بما يُنبئُ عن خلافه من الشرك والعصيان، نُزِّلَ منزلَة العدم والإنكار، فحُضُّوا على التصديق بذلك.

وقيل: المرادُ: فهلا تصدِّقون بالبعث، لتقدُّمه، وتقدَّم إنكارُه في قولهم: «أئنا لمبعوثون» فيكون الكلامُ إشارةً إلى الاستدلال بالإبداء على الإعادة، فإنَّ مَن قَدَرَ عليه قَدَرَ عليها حتمًا.

والأوَّل هو الوجهُ، كما يظهرُ مما بعد إن شاء الله تعالى.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ما تقذِفونه في الأرحام من النُّطف، وقرأ ابن عباس

---

(١) البيت لأبي الشعر الضبي كما في الكشاف ٤/٥٦، وسلف ٥/ ٢٣٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥١، والقرطبي ٢٠/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٨/ ٢١٠.

وأبو السَّمَّال: «تَمنون» بفتح التاء[1]، من مَنَى النطفةَ بمعنى أمناها، أي: أزالها بدفع الطبيعة.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: تقدِّرونه وتصوِّرونه بشرًا سويًّا تامَّ الخِلْقة، فالمرادُ خَلْق ما يحصل منه، على أنَّ في الكلام تقديرًا أو تجوُّزًا، وجوِّز إبقاء ذلك على ظاهره، أي: أأنتم تخلقونَه وتُنشئون نفسَ ذات ما تُمنونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له من غير دَخْل شيء فيه.

و«أرأيتم» قد مرَّ الكلامُ غير مرَّةٍ فيه، ويقال هنا: إنَّ اسم الموصولِ مفعولُه الأولُ، والجملة الاستفهامية مفعوله الثاني، وكذا يقال فيما بعدُ مِن نظائره، وما يُعتَبر فيه الرؤيةُ بصريةً تكونُ الجملة الاستفهامية فيه مستأنفةً لا محلَّ لها من الإعراب.

وجوز في «أنتم» أن يكون مبتدأ، والجملةُ بعده خبرُه، وأنْ يكون فاعلًا لفعل محذوف، والأصل: أتخلقونه[2]، فلمَّا حذف الفعل انفصَل الضميرُ، واختاره أبو حيان[3].

و«أم» قيل: منقطعة لأنَّ ما بعدَها جملةٌ، فالمعنى: بل أنحنُ الخالقون، على أنَّ الاستفهامَ للتقرير، وقال قوم من النحاة: متَّصلةٌ معادلة للهمزة، كأنَّه قيل: أأنتم تخلقُونه أم نحنُ، ثم جيء بـ «الخالقون» بعدُ بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالةً.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قسَمناه عليكم ووقَّتنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقت معيَّن حسبما تقتضيه مشيئتُنا المبنية على الحكم البالغة.

وقرأ ابن كثير: «قَدَرْنا» بالتخفيف[4].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥١، والكشاف ٤/ ٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٢١١.

(٢) في الأصل و(م): أتخلقون، والمثبت من البحر ٨/ ٢١١، والدر المصون ١٠/ ٢١٤.

(٣) في البحر المحيط ٨/ ٢١١.

(٤) التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٢٨٣.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا يغلبنا أحدٌ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: على أنْ نُذهِبَكم ونأتيَ مكانَكم أشباهَكم من الخلق، فالسبقُ مجازٌ عن الغلبة، استعارةٌ تصريحية أو مجاز مرسَل عن لازمه، وظاهرُ كلام بعض الأجلة: أنَّه حقيقةٌ في ذلك إذا تعدَّى بـ «على». والجملةُ في موضع الحال من ضمير «قَدَّرنا»، وكأنَّ المراد: قدَّرنا ذلك ونحن قادرون على أنْ نُميتكم دفعةً واحدةً ونخلُقَ أشباهَكم.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها، وقال الحسنُ: من كونكم قردةً وخنازيرَ، ولعل اختيارَ ذلك لأنَّ الآيةَ تنحو إلى الوعيد، والمرادُ: ونحن قادرون على هذا أيضًا.

وجوِّز أن يكون «أمثالكم» جمعَ مَثَل بفتحتين بمعنى الصفة، لا جمع مِثْل بالسكون بمعنى الشبه كما في الوجه الأول، أي: ونحن نقدرُ على أن نغيِّر صفاتكم التي أنتم عليها خَلْقًا وخُلُقًا، ونُنشئَكم في صفات لا تعلمونَها.

وقيل: المعنى: ونُنشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا.

وقيل: المعنى: وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت أو يغيِّر وقتَه الذي وقَّتناه، على أنَّ المراد تمثيلُ حال مَن سَلِمَ من الموت أو تأخَّر أجلُه عن الوقت المعيَّن له بحالِ مَن طلبه طالبٌ فلم يلحقه وسبَقَه، وقوله تعالى: (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ) إلخ في موضع الحال من الضمير المستتر في «مسبوقين» أي: حال كوننا قادرين أو عازمين على تبديل أمثالكم، والجملةُ السابقةُ على حالها.

وقال الطبري: «على أن نبدِّل» متعلِّقٌ بـ «قدَّرنا» وعلة له، وجملة «وما نحن بمسبوقين» اعتراضٌ، والمعنى: نحن قدَّرنا بينكم الموتَ لأنْ نبدِّل أمثالَكم، أي: نميتُ طائفة ونبدِّلها بطائفة، هكذا قَرْنًا بعد قَرْن[1].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ مِن خَلْقكم من نُطفة، ثم مِن علقَة، ثم من مضغة.

وقال قتادة: هي فطرةُ آدمَ عليه السلام من التراب، ولا ينكرها أحدٌ من ولده.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٢/٢٤٦، والبحر المحيط ٨/٢١١.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلَّا تتذكرون أنَّ مَن قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقدَرُ وأقدَرُ، فإنَّها أقلُّ صنعًا لحصول الموادِّ[١] وتخصيصِ الأجزاء وسبقِ المثال، وهذا ـ على ما قالوا ـ دليلٌ على صحة القياس، لكن قيل[٢]: لا يدلُّ إلا على قياس الأَوْلَى، لأنَّه الذي في الآية، وفي الخبر: عَجَبًا كلَّ العجب للمكذِّب بالنشأة الآخرة وهو يَرَى النشأةَ الأُولَى، وعَجَبًا للمصدِّق بالنشأة الآخرة وهو يسعَى لدار الغرور[٣].

وقرأ طلحة: «تَذْكُرون» بالتخفيف وضم الكاف[٤].

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ما تبذُرُون حَبَّه وتعملون في أرضه ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنبتُونه وتردُّونه نباتًا يَرفُّ وينمي إلى أنْ يبلغَ الغاية ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي: المنبتون لا أنتم، والكلامُ في «أنتم» و«أم» كما مرَّ آنفًا.

وأخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعَّفه، وابن حبان كما قال الخفاجي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدُكم: زَرَعْتُ، ولكن ليقل: حَرَثْتُ» ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: ألم تسمَعُوا الله تعالى يقول: (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ)»[٥]، يشيرُ رضي الله عنه إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام أخذَ النهيَ من هذه الآية، فإنَّه أسند الحرثَ إلى المخاطبين دون الزرع.

وقال القرطبيُّ: إنَّه يستحبُّ للزارع أن يقولَ بعد الاستعاذة وتلاوة هذه الآية: اللهُ تعالى الزارعُ والمنبِتُ والمبلغُ، اللهم صلِّ على محمد، وارزقنا ثمرَه وجنِّبنا ضررَه،

---

(١) في الأصل: المراد، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٩٧، والكلام منه.

(٢) قوله: قيل، ليس في الأصل.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم ٦/ ٣٢٨ عن علي بن الحسين بنحوه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٢١١.

(٥) كشف الأستار (١٢٨٩)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٤٨، وحلية الأولياء ٨/ ٢٦٧، وشعب الإيمان (٥٢١٧-٥٢١٨)، وصحيح ابن حبان (٥٧٢٣)، وحاشية الشهاب ٨/ ١٤٧، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٠-١٦١.

واجعلنا لأَنْعُمِكَ من الشاكرين. قيل: وقد جرِّب هذا الدعاءُ لدفع آفاتِ الزرع كلِّها وإنتاجه[١].

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا متكسِّرًا متفتِّتًا لشدَّة يَبْسه بعدما أنبتناه، وصار بحيث طمعتُم في حيازة غِلاله. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثرَ ما شاهدتُموه على أحْسَن ما يكونُ من الحال، على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقال الحسن: تندَمُون، أي: على ما تعبتُم فيه وأنفقتُم عليه من غير حصول نَفْع، أو على ما اقترفتُم لأجله من المعاصي.

وقال عكرمة: تلاوَمُون على ما فعلتُم.

وأصل التفكُّه التنقُّل بصنوف الفاكهة، واستُعير للتنقل بالحديث، وهو هنا ما يكونُ بعد هلاكِ الزرع، وقد كنى به في الآية عن التعجُّب أو الندم أو التلاوم على اختلاف التفاسير.

وفي «البحر»: كلُّ ذلك تفسيرٌ باللازم، ومعنى «تفكهون» تطرحون الفُكاهةَ عن أنفسكم، وهي المسرَّة، ورجلٌ فَكِهٌ: منبَسِطُ النفس غيرُ مكترثٍ بشيء، وتفكَّه من أخوات تحرَّج وتحوَّب[٢]، أي أنَّ التفعُّل فيه للسلب.

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية العتكي عنه: «فظِلْتُم» بكسر الظاء كما قالوا: مِسْتُ بالكسر ومَسْتُ بالفتح، وحكاها الثوري عن ابن مسعود، وجاءت عن الأعمش، وقرأ عبد الله والجحدري: «فظَلِلتم» بلامَين أولاهما مكسورة، وقرأ الجحدري أيضًا كذلك مع فتح اللام، والمشهور ظَلِلْتُ بالكسر[٣].

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٨/ ١٤٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١١.
(٣) تنظر هذه القراءات في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١١-٢١٢.

وقرأ أبو حزام: «تفكَّنُون» بالنون بدل الهاء، قال ابن خالويه: تفكَّه بالهاء تعجَّب، وتفكَّن بالنون تندَّم[١].

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ أي: معذَّبون مهلكون، من الغرام وهو الهلاك، قال الشاعر:

إنْ يُعذِّب يكن غرامًا وإن يُعـ ... ـطِ جزيلًا فإنَّه لا يُبالي[٢]

والمرادُ: مهلكون بهلاك رزقنا، وقيل: بالمعاصي، أو ملزمون غرامةً بنقص رزقنا، وقرأ الأعمش والجحدري وأبو بكر: «أئنا» بالاستفهام والتحقيق[٣]، والجملةُ على القراءتَين بتقدير قول، هو في حيِّز النصب على الحاليةِ من فاعل «تفكَّهون»، أي: قائلين ـ أو تقولون ـ ذلك.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ محدودون لا مجدودون[٤]، أو محرومون الرزقَ، كأنَّهم لمَّا قالوا: إنَّا مُهلَكون لهلاك رزقنا، أَضربُوا عنه وقالوا: بل هذا أمرٌ قُدِّر علينا لنحوسة طالعنا وعدم بَخْتِنا، أو لمَّا قالوا: إنَّا ملزمون غرامةً بنقص أرزاقنا، أضربوا فقالوا: بل نحن محرمون الرزقَ بالكلية.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨﴾ عذبًا فراتًا، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعِهِ؛ لأنَّ الشربَ أهمُّ المقاصد المنوطة به.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: السحاب، واحدتُه مُزْنة، قال الشاعر:

فلا مُزْنة ودَقَت وَدْقَها ... ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[٥]

وقيل: هو السحابُ الأبيضُ وماؤه أعذبُ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥١، والبحر المحيط ٨/ ٢١٢.

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٥٩، وسلف ١٩/ ١٠٣.

(٣) قراءة أبي بكر في التيسير ص٢٠٧، والنشر ١/ ٣٧٢، وقراءة الأعمش والجحدري في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٢.

(٤) الأولى بالمهملة من الحد بمعنى المنع، والثانية بالجيم من الجدّ، وهو البخت. حاشية الشهاب ٨/ ١٤٧.

(٥) البيت لعامر بن جوين الطائي كما في الكتاب ٢/ ٤٦، ومجاز القرآن ٢/ ٦٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٥، الودق: المطر، وأبقل: أي: نبت بقله.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقُدْرَتنا.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحًا ذُعاقًا لا يمكن شُربه، من الأجيج: وهو تلهُّبُ النار، وقيل: الأُجاج كلُّ ما يلذعُ الفم ولا يمكن شُربُه، فيشملُ الملح والمرَّ والحارَّ، فإما أنْ يُرادَ ذلك، أو الملحُ بقرينة المقام. وحُذفَت اللام من جواب «لو» هاهنا للقرينة اللفظية والحالية، ومتى جازَ حذفُ «لَمْ أرَ» في قول أوس:

حتـى إذا الكـلَّابُ قـال لـهـا كـاليـومِ مَـطْـلـوبًـا ولا طَـلَـبـا[(١)]

والقرينةُ حالية، فأَوْلَى أنْ يجوزَ حذفُها وحدها لذلك على ما قرَّره الزمخشري، وقرَّر وجهًا آخر حاصلُه: أنَّ اللام لمجرَّد التأكيد فتناسبُ مقامَ التأكيد، فأُدخِلَت في آية المطعوم دونَ المشروب للدلالة على أنَّ أمرَه مقدَّم على أمره، وأنَّ الوعيد بفَقْده أشدُّ وأصعبُ من قِبَل أنَّ المشروب تَبَعٌ له، ألا يُرى أنَّ الضيفَ يُسقَى بعد أن يُطعم[(٢)]. وقد ذكر الأطباء أنَّ الماء مُبذْرِق، ويُؤيِّد ذلك تقديمُه على المشروب في النظم الجليل.

وللإمام في هذا المقام كلامٌ طويلٌ اعتَرَض به على الزمخشري وبيَّن فيه وجْهَ الذكر أولًا والحذف ثانيًا[(٣)]، ولم أَرَه أتَى بما يشرحُ الصدر.

وخيرٌ منه عندي قولُ ابن الأثير في «المثل السائر»: إنَّ اللام أُدخِلَت في المطعوم دون المشروب؛ لأنَّ جَعْل الماء العذبِ ملحًا أسهلُ إمكانًا في العرف والعادة، والموجودُ من الماء الملح أكثرُ من الماء العذب، وكثيرًا ما إذا جَرَت المياهُ العذبةُ على الأراضي المتغيرةِ التربةِ أحالَتْها إلى الملوحة، فلم يُحْتَجْ في جعل الماء العذبِ ملحًا إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخُل لامُ التأكيد المفيدةُ لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإنَّ جعله حطامًا من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقَعَ يكون عن سَخَط شديدٍ، فلذا قُرِن باللام لتقرير إيجادِه وتحقيقِ أمره[(٤)]. انتهى.

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص٣، وسلف ١٠/ ٤١٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٧ بنحوه.

(٣) ينظر مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٨١-١٨٢.

(٤) المثل السائر ٢/ ٥٦.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ تحضيضٌ على شكر الكلِّ؛ لأنَّه أفيدُ، دون عذوبة الماء فقط كما ذهب إليه البعض.

نعم أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان إذا شَرِبَ الماء قال: «الحمدُ لله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أُجاجًا بذنوبنا»[1].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: تقدَحُونها وتستخرجونها من الزِّناد[2] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد، وهي المَرْخُ والعَفَار.

وقيل: المرادُ بالشجرة نفسُ النار، كأنَّه قيل: نوعها أو جنسها، فاستُعير الشجرةُ لذلك، وهو قولٌ متكلَّف بلا حاجة.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا. والتعبير عن خَلْقها بالإنشاء المنبئ عن بديع الصنع، المعربِ عن كمال القدرة والحكمة، لِمَا فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التي لا تخلو عن النار، حتى قيل: في كلِّ شجرٍ نارٌ واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[3]. كما أنَّ التعبيرَ عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لذلك.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ استئنافٌ معيِّن[4] لمنافعها، أي: جعلناها تذكيرًا لنار جهنم، حيث علَّقنا بها أسبابَ المعاش، لينظروا إليها ويذكروا بها ما أُوعِدُوا به. أو جعلناها تذكرةً وأُنموذجًا من جهنَّم؛ لما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عنه ﷺ: «نارُكم هذه التي تُوقدون جزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنَّم»[5]. وعلى الوجهَين التذكرةُ من الذِّكر المقابلِ للنسيان، ولم ينظر في الأول إلى أنَّها من جنس نار جهنم أو لا، وفي الثاني نظر إلى ذلك.

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦١، وأخرجه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٣٧، وهو مرسل.

(٢) في هامش الأصل: جمع (زند) و(زندة)، لا مفرد كما يتوهم. اهـ منه.

(٣) المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٣، وسلف ١٢/ ٢٨.

(٤) في تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٩: مبين، والكلام منه.

(٥) صحيح البخاري (٣٢٦٥)، وصحيح مسلم (٢٨٤٣)، وهو عند أحمد (٨١٢٦).

وقيل: تبصرةً في أمر البعث لأنَّ مَن أخرجَ النار من الشجر الأخضر المضادِّ لها قادرٌ على إعادة ما تفرَّقَت موادُّه.

وقيل: تبصرةً في الظلام يُبصَرُ بضوئها. وفيه أنَّ التذكرةَ لا تكونُ بمعنى التبصرة المأخوذةِ من البصر.

وكون المراد تذكرةً لنار جهنَّم هو المأثور عن الكثيرين، ومنهم ابن عباس ومجاهد وقتادة.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للذين ينزلون القَواء وهي القَفْر، من أَقْوَى دَخَل القَواء، كأَصْحَر دَخَل الصحراء، وتخصيص «المقوين» بذلك لأنَّهم أحوجُ إليها، فإنَّ المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد.

وقيل: «للمقوين» أي: المسافرين، ورواه جمعٌ عن ابن عباس[(١)]، وعبدُ بن حميد عن الحسن[(٢)]، وهو وابن جرير وعبد الرزاق عن قتادة[(٣)] بزيادة: كم مِن قومٍ قد سافَرُوا ثم أرملوا، فأَجَّجُوا نارًا فاستَدْفَؤُوا وانتفعوا بها. وكأنَّ إطلاقَ المُقوين على المسافرين؛ لأنَّهم كثيرًا ما يسلكون القَفْراء والمفاوِزَ.

وقيل: «للمقوين» للفقراء يَستضيئُون بها في الظلمة، ويَصْطَلون من البرد، كأنَّه تصوَّر من حال الحاصل في القَفْر الفقر، فقيل: أَقْوى فلانٌ، أي: افتَقَر، كقولهم: أَتْرَب وأَرْمَل.

وقال ابن زيد: للجائعين لأنَّهم أَقْوتُ، أي: خَلَت بطونُهم ومزاوِدُهم من الطعام، فهم يحتاجون إليها لطبخ ما يأكلون، وخُصُّوا ـ على ما قيل ـ لأنَّ غيرَهم يتنعَّم بها لا يجعلها متاعًا. وتُعقِّب بأنَّه بعيدٌ لعدم انحصار ما يهمُّهم ويسدُّ خَلَّتَهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/٣٥٦.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦١.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٣٥٧، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٧٣، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦١.

وقال عكرمة ومجاهد: المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين، يستضيئُون بها، ويَصْطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخَبْز.
قال العلامة الطيبي والطبرسي: وعلى هذا القول المقوي من الأضداد، يقال للفقير: مُقوٍ لخلوِّه من المال، وللغني مُقوٍ لقوَّته على ما يريد، يقال: أقوَى الرجلُ إذا صار إلى حال القوة، والمعنى: متاعًا للأغنياء والفقراء؛ لأنَّه لا غِنَى لأحدٍ عنها[1]. انتهى. وفيه بحثٌ لا يخفى، ولعلَّ الأقرب عليه أنَّه أُريدَ بالإقواء الاحتياجُ، والمستمتع بها محتاجٌ إليها فتدبر.

وتأخيرُ هذه المنفعة للتنبيه على أنَّ الأهمَّ هو النفعُ الأُخروي، وتقديمُ أمرِ الماء على أمر النار؛ لأنَّ الاحتياجَ إليه أشدُّ وأكثرُ، والانتفاع به أعمُّ وأوفرُ.

وقال بعضُهم: قدَّم أمرَ خَلْق الإنسان من نطفة؛ لأنَّ النعمة في ذلك قبل النعمة في الثلاثة بعدُ، ثم ذكر بعدَه ما به قِوام الإنسان من فائدة الحرث، وهو الطعام الذي لا يستغني عنه[2] الجسدُ الحيُّ، وذلك الحَبُّ الذي يُختبزُ، فيُحتَاجُ بعد حصوله إلى حصول الماء ليُعْجَن به، فلذا ذُكِرَ بعده، ثم إلى النار لتصيِّرَه خبزًا، فلذا ذُكِرت بعدَ الماء. وهو كما ترى.

واستحسن بعضُهم من القارئ أنْ يقولَ بعد كلِّ جملة استفهامية من الجمل السابقة: بل أنت يا رب. فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن حُجر المَدَرِيّ[3] قال: بتُّ عند عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فسمعتُه وهو يصلِّي بالليل يقرأُ، فمرَّ بهذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فقال: بل أنتَ يا ربّ، ثلاثًا، ثم قرأ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ فقال: بل أنت يا ربّ، ثلاثًا، ثم قرأ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٢٨.
(٢) في (م): عند.
(٣) في الأصل و(م): المروي، وهو حُجر بن قيس المدري الحَجُوري، يروي عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ﷺ، وعنه طاوس بن كيسان وشداد بن جابان. تهذيب الكمال ٥/ ٤٧٥.

فقال: بل أنت يا ربّ، ثلاثًا، ثم قرأ: (ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ) فقال: بل أنت يا ربّ، ثلاثًا[1]. وأنت تعلم أنَّ في استحسان قول مثل ذلك في الصلاة اختلافًا بين العلماء.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ مرتَّب على ما عُدِّد من بدائع صُنعه عز وجل وودائع نِعَمه سبحانه وتعالى، والمرادُ على ما قيل: أَحدِث التسبيح، تنزيلًا للفعل المتعدِّي منزلَة اللازم، وأُريد من إحداثه استمرارُه لا إيجاده؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام غيرُ معرضٍ عنه، وتعقَّبه الطيبي بأنَّ هذا عكس ما يقتضيه لفظُ الإحداث، فالمرادُ تجديد التسبيح، وفي الكلام إضمارٌ، أي: سبِّح بذكر اسم ربك، أو الاسم مجازٌ عن الذكر، فإنَّ إطلاقَ الاسم للشيء ذكره. والباء للاستعانة أو الملابسة، وكونُها للتعدية ـ كما هو ظاهرُ كلام أبي حيان[2] ـ ليس بشيءٍ، و«العظيم» صفةٌ للاسم، أو للربِّ.

وتعقيبُ الأمر بالتسبيح لِمَا عُدِّد إما لتنزيههِ تعالى عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عز وجل، الكافرون بنعَمه سبحانه مع عِظَمها وكثرتها؛ أو للشكر على تلك النِّعم السابقة؛ لأنَّ تنزيهَهُ تعالى وتعظيمَه جل وعلا بعد ذكر نِعَمه سبحانه مدحٌ عليها، فهو شكرٌ للمنعم في الحقيقة؛ أو للتعجب من أمر الكفرة في غَمْط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرِها وظهورِ أمرها، و«سبحان» تَرِدُ للتعجُّب مجازًا مشهورًا، «فسبِّحْ» بمعنى «تَعَجَّبْ»، وأصله فقل: سبحان الله، للتعجُّب، وفيه بُعدٌ[3]، وما تقدَّم أظهر.

هذا وجوز أنْ لا يكون في «باسم ربك» إضمارٌ ولا مجازٌ، بل يبقَى على

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١١ من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن شداد بن جابان، عن حجر المدري قال: بتُّ عند علي... إلخ، وهو في مصنف عبد الرزاق (٤٠٥٣) عن معمر عن شداد بن جابان قال: بتُّ عند حجر المدري فسمعته... إلخ، ولم يذكر عليًّا، ومثله في فضائل القرآن لأبي عبيد ص٧٢، حيث قال: ويروى عن معمر بن راشد أن حجراً المدري قام ليلة يصلي...، فذكره.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٦.

(٣) قوله: وفيه بعد، ليس في الأصل.

ظاهره، فقد قالوا في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]: كما يجب تنزيهُ ذاته تعالى وصفاته سبحانه عن النقائص يجبُ تنزيهُ الألفاظِ الموضوعة لها عن سوء الأدب، وهو أبلغُ لأنَّه لا يلزمُه تقديسُ ذاته عز وجل بالطريق الأَوْلَى على طريق الكناية الرمزية. وفيه أنَّه إنَّما يتأتَّى لو لم تذكر الباء، وجعلُها زائدةً خلافُ الظاهر، وحالُ كونها للتعدية قد سمعتَه، وجعَلَ بعضُهم على هذا الخطابَ لغير معيَّن فقال: إنَّه تعالى لمَّا ذَكر ما ذكر من الأمور وكان الكلُّ معترفين بأنَّها من الله تعالى، وكان الكفارُ إذا طُولبوا بالوحدانية قالوا: نحن لا نشركُ في المعنى، وإنما نتَّخذُ أصنامًا آلهةً، وذلك إشراكٌ في الاسم، والذي خَلَقنا وخلق السماوات والأرض هو الله تعالى، فنحن نُنزِّهُه في الحقيقة = قال سبحانه: (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ) على معنى: كما أنَّك أيُّها الغافلُ اعترفتَ بعدم اشتراكها في الحقيقة اعترِفْ بعدم اشتراكها في الاسم، ولا تقل لغيره تعالى إلهًا، فإنَّ الاسم يَتْبع المعنى والحقيقة، فالخطابُ كالخطاب في قول الواعظ: يا مسكين أفنيتَ عمرَك وما أصلحتَ أمرَك، لا[1] يريدُ به أحدًا بعينه، وإنما يُريد: أيُّها المسكين السامع، وهو كما ترى.

نعم احتمالُ عموم الخطاب مما لا يُنكَر، لكن لا يتعيَّن عليه هذا التقرير.

ثم الظاهرُ أنَّ المراد بذكر الربِّ أو ذكرِ اسمه سبحانه ـ على ما تقرَّر سابقًا ـ ما هو المتبادر المعروف.

وفي «الكشف»: إنَّ المراد بذلك تلاوتُه ﷺ للقرآن أو لهذه السورة الكريمة المتضمِّنة لإثبات البعثِ والجزاء ومراتب أهله، لينطبق عليه قولُه تعالى بعد: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ وعلى الأول لابدَّ من إضمارٍ، أي: فسبِّح باسم ربِّك وامتثل ما أُمرت به، فأُقسِم إنَّه لقرآن، والغرضُ تأكيدُ الأمر بالتسبيح.

وأنا أقول: يتأتَّى الانطباقُ على الظاهر أيضًا، سوى أنَّه يُعتَبر في الكلام إضمارٌ، ولا بأس بأنْ يقال: إنَّه تعالى لمَّا ذَكر ما ذكر من النعم الجليلةِ الداعيةِ لتوحيده سبحانه ووَصْفه بما يليقُ به عز وجل قال سبحانه: (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ) أي:

(١) في الأصل: فلا.

فنزِّههُ تعالى عما يقولون في وصفه سبحانه، وأَقبِلْ على إنذارهم بالقرآن والاحتجاجِ عليهم به بعد الاحتجاجِ بما ذكرنا، فأُقسِم إنَّه لقرآن كيت وكيت؛ فـ «لا» في قوله عز وجل: (فَلَآ أُقۡسِمُ) مزيدةٌ للتأكيد مثلُها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] أو هي لام القسم أُشبعَت فتحتُها فتولَّدَت منها ألفٌ نظير ما في قوله:

أعــوذُ بــالله مــن الــعَــقْــراب[1]

واختاره أبو حيان ثم قال: وهو وإنْ كان قليلًا فقد جاء نظيرُه في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] بياء بعد الهمزة وذلك في قراءة هشام، ويؤيده قراءة الحسن وعيسى: «فلأُقسِمُ»[2]، وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه تبعًا لبعض النحويِّين من أنَّ فِعْل الحال يجوزُ القَسَمُ عليه؛ فيقال: والله تعالى لَيخرج زيدٌ، وعليه قولُ الشاعر:

لَــيَــعْــلَــمُ ربــي أنَّ بــيــتــي واســعُ[3]

وحينئذٍ لا يصحُّ أنْ يُقرَن الفعلُ بالنون المؤكِّدةِ؛ لأنَّها تخلِّصُه للاستقبال وهو خلافُ المراد، والذي اختارَه ابن عصفور والبصريون أنَّ فعل الحال ـ كما هنا ـ لا يجوزُ أنْ يُقسَم عليه، ومتى أُريدَ من الفعل الاستقبال لَزِمَت فيه النون المؤكدة فقيل: لأُقسمَنَّ، وحذفها ضعيفٌ جدًّا، ومِن هنا خرَّجوا قراءة الحسن وعيسى على أنَّ اللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوفٌ؛ لأنَّها لا تدخُل على الفعل، والتقدير: فلَأَنا أُقسمُ، وقيل نحوه في قراءة الجمهور على أنَّ الألف قد تولَّدَت من الإشباع.

وتُعقِّب بأنَّ المبتدأ إذا دَخَل عليه لامُ الابتداء يمتنعُ أو يقبُحُ حذفُه؛ لأنَّ دخولَها لتأكيده، وهو يقتضي الاعتناء به، وحذفُه يدلُّ على خلافه.

---

(١) سلف ١٣/ ٣٢٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٣، وقراءة هشام بخلف عنه: «أفئيدة»، وقد سلفت في محلِّها، وقراءة الحسن وعيسى في القراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/ ٣٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٠.

(٣) وصدره: لئن تك قد ضاقت عليكم بيوتكم، وهو للكميت بن معروف الأسدي كما في خزانة الأدب ١٠/ ٦٨، وهو غير الكميت بن زيد الأسدي صاحب الهاشميات، وسلف عند تفسير الآية (١١٣) من سورة الأنعام.

وقال سعيد بن جبير وبعض النحاة: «لا» نَفْيٌ ورَدٌّ لِمَا يقوله الكفار في القرآن من أنَّه سحرٌ وشعرٌ وكهانة، كأنَّه قيل: فلا صحةَ لِمَا يقولون فيه، ثم استُؤنف فقيل: أُقسم.. إلخ.

وتَعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يجوز؛ لِمَا فيه من حذف اسم «لا» وخبرِها في غير جواب سؤالٍ، نحو: لا، في جواب: هل مِن رجلٍ في الدار[1]؟

وقيل: الأَولَى فيما إذا قُصِدَ بـ «لا» نفيٌ لمحذوف، واستئنافٌ لِمَا بعدها في اللفظ الإتيان بالواو، نحو: لا وأطال الله تعالى بقاءك.

وقال بعضُهم: إنَّ «لا» كثيرًا ما يُؤتَى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح كما في قوله:

لا وَأَبِيكِ ابنةَ العامري لا يدَّعي القومُ أنِّي أفِرّ[2]

وقال أبو مسلم وجمع: إنَّ الكلام على ظاهره المتبادر منه، والمعنى: لا أُقسم، إذ الأمرُ أوضحُ مِن أنْ يحتاجَ إلى قَسَم[3]، أي: لا يحتاجُ إلى قَسَمٍ ما فضلًا عن هذا[4] القسم العظيم، فقولُ مفتي الديار الرومية أنَّه يأباه تعيينُ المقسم به وتفخيمه[5]، ناشئٌ عن الغفلة على ما لا يخفَى على فَطِن.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: بمساقط كواكبِ السماء ومغاربِها كما جاء في رواية عن قتادة والحسن، على أنَّ الوقوع بمعنى السقوط والغروب، وتخصيصُها بالقسم لِمَا في غروبها من زوال أثرها، والدلالةِ على وجود مؤثِّرٍ دائمٍ لا يتغيَّر، ولذا استدلَّ الخليلُ عليه السلام بالأُفول على وجود الصانع جل وعلا، أو لأنَّ ذلك وقتُ قيام المتهجِّدين والمبتهلين إليه تعالى، وأوانُ نزول الرحمة والرضوان عليهم؛ وقد

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٣.
(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٤، وسلف ٦/ ١١٧.
(٣) مجمع البيان ٢٧/ ١٣١.
(٤) في (م): عن أن هذا.
(٥) تفسير أبي السعود ٨/ ١٩٩، وفيه: يأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به.

أخرج البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «يَنزِلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حينَ يَبقَى ثلثُ الليل الآخِرِ، فيقولُ: مَن يَدْعُوني فأستجيب له، مَن يسألُني فأعطيه، مَن يَستغفرُني فأغفر له»[١].

وعن الحسن أيضًا: المرادُ مواقعُها عند الانكدارِ يوم القيامة. قيل: و«موقع» عليه مصدرٌ ميميٌّ، أو اسم زمان، ولعلَّ وقوعَها ذلك اليوم ليس دفعةً واحدةً، والتخصيصُ لِمَا في ذلك من ظهور عظمته عز وجل، وتحقُّقِ ما يُنكرُه الكفار من البعث.

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله على آبائهما وعليهما السلام: المرادُ مواقعُها عند الانقضاض إِثْر المستَرِقِين السمعَ من الشياطين. وقد مرَّ لك تحقيقُ أمر هذا الانقضاض[٢] فلا تغفل.

وقيل: مواقعُ النجوم هي الأنواء التي يزعُم الجاهلية أنَّهم يُمطَرون بها، ولعلَّه مأخوذٌ من بعض الآثار الواردة في سبب النزول، وسنذكره إن شاء الله تعالى، وليس نصًّا في إرادة الأنواء بل يجوز عليه أن يراد المغارب مطلقًا.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة: أنَّها منازلُها ومجاريها[٣]، على أنَّ الوقوعَ النزول، كما يقال: على الخبير سقطْتَ، وهو شائعٌ، والتخصيص لأنَّ له تعالى في ذلك من الدليل على عظيم قدرتِهِ وكمالِ حكمتِهِ ما لا يحيطُ به نِطاقُ البيان.

وقال جماعة منهم ابن عباس: النجومُ نجومُ القرآن، ومواقعُها أوقاتُ نزولها. وأخرج النسائي وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في «الشعب»: عنه أنَّه قال: أُنزِلَ القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً، ثم فُرِّقَ في السنين. وفي لفظ: ثم نَزَل من السماء الدنيا إلى الأرض

---

(١) صحيح البخاري (١١٤٥)، وصحيح مسلم (٧٥٨).

(٢) تقدم ص١٠٤-١٠٥ من هذا الجزء.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٧٣، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٦١.

نجومًا، ثم قرأ: (فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ)(١). وأُيِّد هذا القول بأنَّ الضميرَ في قوله تعالى بعد: (إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ) يعودُ حينئذٍ على ما يُفهَم من مواقع النجوم حتى يكاد يعدُّ كالمذكور صريحًا، ولا يحتاج إلى أنْ يقال: يفسِّرُه السياق، كما في سائر الأقوال، ووجْهُ التخصيص أظهرُ من أن يخفَى، ولعل الكلام عليه من باب:

وثـنـايـاكِ إنَّـهـا إغـريـضُ(٢)

وقرأ ابن عباس وأهل المدينة وحمزة والكسائي: «بموقع» مفردًا مرادًا به الجمع(٣).

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ مشتملٌ على اعتراض في ضِمْنِ آخَرَ، فقوله تعالى: (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ) (عَظِيمٌ) معترضٌ بين القسم والمقسم عليه وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧﴾ وهو تعظيمٌ للقَسَم مقرِّرٌ مؤكِّدٌ له، وقولُه عز وجل: (لَّوۡ تَعۡلَمُونَ) معترضٌ بين الصفة والموصوف، وهو تأكيدٌ لذلك التعظيم. وجوابُ «لو» إما متروكٌ أُريدَ به نَفْيُ علمهم، أو محذوفٌ ثقةً بظهوره، أي: لعظَّمتُموه، أو: لعملتُم بموجبه.

ووجهُ كون ذلك القسمِ عظيمًا قد أُشيرَ إليه فيما مرَّ، أو ظاهرٌ بناءً على أنَّ المراد بمواقع النجوم ما روي عن ابن عباس والجماعة.

ومعنى كون القرآن كريمًا أنَّه حَسَنٌ مرضيٌّ في جنسه من الكتب، أو نَفَّاعٌ جمُّ المنافع، وكيف لا وقد اشتمل على أصول العلوم المهمةِ في إصلاح المعاش والمعاد، والكَرَمُ على هذا مستعارٌ ـ كما قال الطيبي ـ من الكرم المعروف.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٢٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٩، والمستدرك ٢/ ٥٣٠، وشعب الإيمان (٢٢٥٠).

(٢) سلف ٢٢/ ١٢.

(٣) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٣، وقرأ بها خلف من العشرة، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢١٣-٢١٤.

وقيل: الكرم أعمُّ من كثرة البذل والإحسان والاتِّصاف بما يُحمَد من الأوصاف ككثرة النَّفْع، فإنَّه وصفٌ محمودٌ، فكونه كرمًا حقيقةٌ.

وجوز أنْ يُراد: كريمٌ على الله تعالى، قيل: وهو يرجعُ لِمَا تقدَّم، وفيه تقديرٌ من غير حاجة.

وأيًّا ما كان فمحطُّ الفائدة الوصفُ المذكور، وقيل[1]: إنَّ مرجعَ الضمير هو القرآن لا مِن حيث عنوانُ كونه قرآناً، فبمجرد الإخبار عنه بأنَّه قرآنٌ تحصل الفائدة، أي: إنَّه لمقروءٌ على النبيِّ ﷺ لا أنَّه أنشأه كما زعمه الكفار.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ وصفٌ آخرُ للقرآن، أي: كائن في كتاب مصونٍ عن غير المقرَّبين من الملائكة عليهم السلام لا يطَّلع عليه مَن سواهم، فالمرادُ به اللوح المحفوظ كما روي عن الربيع بن أنس وغيره.

وقيل: أي: في كتاب مصون عن التبديل[2] والتغيير، وهو المصحف الذي بأيدي المسلمين، ويتضمَّن ذلك الإخبارَ بالغيب لأنَّه لم يكن إذ ذاك مصاحف.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنَّه قال: «في كتاب» أي: التوراة والإنجيل[3]، وحكى ذلك في «البحر» ثم قال: كأنَّه قال: ذُكِرَ في كتاب مكنون كرمُه وشرفُه، فالمعنى على هذا الاستشهادُ بالكُتُب المنزلة[4]. انتهى. والظاهرُ أنَّه أُريدَ على هذا بالكتاب الجنس لتصحَّ إرادةُ التوراة والإنجيل، وفي وَصْف ذلك بالمكنون خفاءٌ، ولعلَّه أُريدَ به جليلُ الشأن عظيمُ القدر، فإنَّ الستر كاللازم للشيء الجليل، وجوِّز إرادةُ هذا المعنى المجازي على غير هذا القول من الأقوال.

وقيل: الكتابُ المكنون قلبُ المؤمن. وهو كما ترى.

وقيل: المرادُ من كونه في «كتاب مكنون» كونُه محفوظًا من التغيير والتبديل

---

(١) في(م): قيل.
(٢) في الأصل: من التبديل.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٥، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٢١٤، والكلام السالف منه.

ليس إلا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

وجوِّز تعلُّق الجار بـ «كريم» كما يقال: زيدٌ كريم في نفسه، والمعنى: إنَّه كريمٌ في اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريمًا عند الكفار، والوصفيةُ أبلغُ كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ إما صفة بعد صفة للكتاب مرادًا به اللوح[(١)]، فالمرادُ بـ «المطهَّرون» الملائكة عليهم السلام، أي: المطهَّرون المنزَّهون عن كَدَرِ الطبيعةِ ودَنَس الحظوظِ النفسية، وقيل: عن كدر الأجسام ودَنَس الهيولى. والطهارةُ عليهما طهارةٌ معنوية، ونَفْي مسِّه كنايةٌ عن لازمه، وهو نَفْي الاطلاع عليه وعلى ما فيه.

وإما صفةٌ أخرى لـ «قرآن»، والمراد بـ «المطهَّرون»: المطهَّرون عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر، بحمل الطهارة على الشرعية، والمعنى: لا ينبغي أنْ يمسَّ القرآنَ إلا مَن هو على طهارةٍ من الناس، فالنفيُ هنا نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه»[(٢)] الحديث، وهو بمعنى النهي بل أبلغُ من النهي الصريح، وهذا أحدُ أوجهٍ ذكروها للعدول عن جَعْل «لا» ناهية.

وثانيها: أنَّ المتبادِر كونُ الجملة صفةً، والأصلُ فيها أنْ تكونَ خبريةً، ولا داعي لاعتبار الإنشائية وارتكابِ التأويل.

وثالثها: أنَّ المتبادر من الضمة أنَّها إعرابٌ، فالحمل على غيره فيه إلباسٌ.

ورابعها: أنَّ عبد الله قرأ: «ما يمسه»[(٣)] وهي تُؤيِّد أنَّ «لا» نافية.

وكون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام مرويٌّ من عدَّة طرقٍ عن ابن عباس، وكذا أخرجه جماعة عن أنس وقتادة وابن جبير ومجاهد وأبي العالية

---

(١) جاء في هامش الأصل: وجوز في جملة «لا يمسه» كونها مستأنفة. اهـ. منه.

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٤٦)، والبخاري (٢٤٤٢) و(٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٦-٣٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤.

وغيرهم، إلا أنَّ في بعض الآثار عن بعض هؤلاء ما هو ظاهرٌ في أنَّ الضمير في «لا يمسه» مع كون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام راجعٌ إلى القرآن.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه قال في الآية: ذاك عند ربِّ العالمين، لا يمسُّه إلا المطهرون من الملائكة، فأمَّا عندكم فيمسُّه المشركُ والنجس والمنافق الرَّجِسُ[(١)].

وأخرجا هما وابن المنذر والبيهقي في «المعرفة» عن الحبر قال في الآية: الكتاب المنزل في السماء لا يمسُّه إلا الملائكة[(٢)].

ويشير إليه ما أخرج ابن المنذر عن النعيمي قال: قال مالك: أحسنُ ما سمعتُ في هذه الآية (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) أنَّها بمنزلة الآية التي في «عبس»: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾[(٣)].

وكون المراد بهم المطهَّرين من الأحداث مرويٌّ عن محمد الباقر ـ على آبائه وعليه السلام ـ وعطاء وطاوس وسالم.

وأخرج سعيد بنُ منصور وابن أبي شيبة في «المصنف» وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان ـ يعني الفارسي رضي الله عنه ـ فانطلَقَ إلى حاجة فتوارَى عنَّا، فخرَج إلينا فقلنا: لو توضأتَ فسألناك عن أشياءَ من القرآن؟ فقال: سلوني فإني لستُ أَمسُّه، إنما يمسُّه المطهرون. ثم تلا: (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ)[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٢-٣٦٣، ومعرفة السنن والآثار ١/ ٣٢٠ (٧٧٠)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢.

(٣) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢، وقول مالك في الموطأ ١/ ١٩٩.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ١٠٣، والمستدرك ٢/ ٤٧٧، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقيل: الجملة صفة لـ «قرآن»، والمراد بـ «المطهَّرون»: المطهرون من الكفر، والمسُّ مجازٌ عن الطلب كاللمس في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن: ٨] أي: لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر. ولم أرَ هذا مرويًّا عن أحد من السلف، والنفيُ عليه على ظاهره.

ورجَّح جمعٌ جعلَ الجملة وصفًا للقرآن؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ لحرمته وتعظيمه لا لشأن الكتاب المكنون، وإن كان في تعظيمه تعظيمُه. وصحَّح الإمامُ جعلها وصفًا للكتاب(١)، وفيه نظر، وعلى الوصفية للقرآن ذهب مَن ذَهَب إلى اختيار تفسيرِ المطهرين بالمطهرين عن الحدث الأكبر والأصغر.

وفي «الأحكام» للجلال السيوطي: استدلَّ الشافعيُّ بالآية على مَنْع المحدث من مسِّ المصحَفِ(٢). وهو ظاهرٌ في اختيار ذلك.

ولاحتمالِ جَعْلِ الجملة صفةً للكتاب المكنون أو للقرآن، وكونِ المراد بالمطهرين: الملائكةَ المقربين عليهم السلام على ما سمعتَ عن ابن عباس وقتادة = عَدَل الأكثرون عن الاستدلال بها على ذلك إلى الاستدلال بالأخبار، فقد أخرج الإمام مالك وعبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: في كتاب النبيِّ ﷺ لعمرو بنِ حزم: «ولا تمسَّ القرآنَ إلا على طهور»(٣).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمسّ القرآنَ إلا طاهرٌ»(٤). إلى غير ذلك.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٩٣.
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص ٢٥٤.
(٣) الموطأ ١/ ١٩٩، ومصنف عبد الرزاق ١/ ٣٤١-٣٤٢، والمصاحف لابن أبي داود ٢/ ٦٣٧-٦٣٨ (٧٣٩)، والأوسط لابن المنذر ٢/ ١٠٣، واللفظ له. وليس فيه عند مالك: عن أبيه، وكذا أخرجه أبو داود في المراسيل (٩٣) من طريق مالك. قال ابن عبد البر في الاستذكار ٨/ ١٠، وفي التمهيد ١٧/ ٣٩٧: وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقَّاه العلماء بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهرُ من الإسناد الواحد المتصل.
(٤) المعجم الكبير (١٣٢١٧)، والصغير (١١٦٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور

وقال بعضهم: يجوزُ أنْ يُؤخَذ منعُ مسِّ غيرِ الطاهر القرآنَ من الآية على الاحتمالَين الآخرَين أيضًا، وذلك لأنَّها أفادت تعظيم شأن القرآن وكونِهِ كريمًا، والمسُّ بغير طهرٍ مخلٌّ بتعظيمه فتأباه الآية. وهو كما ترى.

وأطال الإمام الكلامَ في هذا المقام بما لا يخفَى حاله على من راجعه[1].

نعم لا شكَّ في دلالة الآية على عِظَم شأن القرآن، ومقتَضَى ذلك الاعتناء بشأنه، ولا ينحصر الاعتناءُ بمنع غيرِ الطاهرِ عن مسِّه بل يكون بأشياءَ كثيرةٍ كالإكثار من تلاوته، والوضوءِ لها، وأنْ لا يقرأَه الشخصُ وهو متنجِّسُ الفم فإنَّه مكروه، وقيل: حرام كالمسِّ باليد المتنجسة، وكونِ القراءة في مكان نظيفٍ، والقارئ مستقبل القبلةِ متخشِّعًا بسكينة ووَقَارٍ مُطرِقًا رأسه، والاستياكِ لقراءته، والترتيلِ، والتدبُّرِ، والبكاء، أو التباكي، وتحسينِ الصوت بالقراءة، وأن لا يتَّخذَه معِيشةً، وأنْ يحافظَ على أن لا ينسَى آيةً أُوتِيَها منه، فقد أخرج أبو داود وغيرُه: «عُرِضَتْ عليَّ ذنوبُ أمتي فلم أَرَ أعظمَ من سورة من القرآن أو آية أُوتِيَها رجلٌ ثم نَسِيَها»[2]، وأنْ لا يجامعَ بحضرته، فإنْ أراد سَتَره، وأنْ لا يضعَ غيرَه من الكتب السماوية وغيرِها فوقَه، وأنْ لا يقلبَ أوراقه بأصبع عليها بزاقٌ ينفصلُ منه شيءٌ؛ فقد قيل بكفر من يفعل ذلك، إلى أمورٍ أُخَر مذكورة في محالِّها.

وفي وجوب كون القارئ طاهرًا من الأحداث خلافٌ، فعن ابن عباس في رواية أنَّه يجوزُ للجنب قراءةُ القرآن، وروي ذلك أيضًا عن الإمام أبي حنيفة، وعن ابن

= ٦/ ١٦٢، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٧٦: ورجاله موثقون. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ١/ ١٣١: وإسناده لا بأس به، ذكر الأثرم أن أحمد احتج به.

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٩٤.

(٢) سنن أبي داود (٤٦١)، وأخرجه الترمذي (٢٩١٦)، وهو من طريق المطَّلب عن أنس عن النبي ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه واستغربه، قال محمد: ولا أعرف للمطلب بن عبد الله بن حنطب سماعًا من أحدٍ من أصحاب النبي ﷺ إلا قولَه: حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ،... وأنكر علي بن المديني أن يكون المطلب سمع من أنس. اهـ، وقال الحافظ عنه في التقريب: صدوق كثير التدليس والإرسال.

عمر: أحبُّ إليَّ أنْ لا يقرأَ إلا طاهرٌ. وكأنَّهم اعتبروه كسائر الأذكار، والفرقُ مثلُ الشمس ظاهر.

وقرأ عيسى: «المُطْهَرُوْنَ» اسم مفعول مخفَّفًا من أطهَر، ورُوِيَت عن نافع وأبي عمرو[1]، وقرأ سلمان الفارسي ﷺ: «المطَهِّرون» بتخفيف الطاء وتشديد الهاء وكسرها اسم فاعل من طَهَّر[2]، أي: المطهِّرون أنفسَهم أو غيرَهم بالاستغفار لهم والإلهام[3]، وعنه أيضًا: «المطَّهِّرون» بتشديدهما، وأصله: المتطهِّرون فأدغم التاء بعد إبدالها في الطاء؛ ورويت عن الحسن وعبد الله بن عون[4]، وقرئ: «المتطهِّرون»[5] على الأصل.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ صفةٌ أخرى للقرآن، أي: مُنزلٌ، أو وصف بالمصدر لأنَّه يُنزلُ نجومًا من بين سائر كُتُب الله تعالى، فكأنَّه في نفسه تنزيل، ولذلك أُجري مجرى بعضِ أسمائه فقيل: جاء في التنزيل كذا، و:نطق به التنزيل.

وجوِّز كونُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو تنزيلٌ، على الاستئناف.

وقرئ: «تنزيلًا» بالنصب[6] على: نُزِّلَ تنزيلًا.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: أتعرِضُون، فبهذا الحديث الذي ذكرت نعوتُه الجليلة الموجبةُ لإعظامه وإجلاله والإيمانِ بما تضمَّنه وأَرْشَدَ إليه، وهو القرآن الكريم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون به كمن يُدهن في الأمر، أي: يلين جانبُه ولا يتصلَّب فيه تهاونًا به، وأصلُ الإدْهان كما قيل: جعلُ الأديم ونحوه مدهونًا بشيءٍ من الدُّهن، ولمَّا

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، وهو خلاف المشهور عن نافع وأبي عمرو.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر ٨/ ٢١٤.

(٣) قوله: الإلهام، ناظرٌ إلى تفسيرهم بالملائكة، حاشية الشهاب ٨/ ١٥٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥.

كان ذلك مُلَيِّنًا لِيْنًا محسوسًا يُراد به اللين المعنوي[١]، على أنَّه تُجوِّز به عن مطلق اللين أو استعير له، ولذا سمِّيت المداراةُ مداهنةً، وهذا مجازٌ معروفٌ، ولشهرته صار حقيقةً عرفيةً، ولذا تُجوِّز به هنا عن التهاوُن أيضًا؛ لأنَّ المتهاون بالأمر لا يتصلَّب فيه.

وعن ابن عباس والزجَّاج: «مُدهنون» أي: مكذِّبون[٢]، وتفسيرُه بذلك لأنَّ التكذيبَ من فروع التهاون.

وعن مجاهد، أي: منافقون في التصديق به، تقولون للمؤمنين: آمنَّا به، وإذا خلَوتُم إلى إخوانكم قلتُم: إنا معكم. والخطابُ عليه للمنافقين، وما قدَّمناه أولَى، والخطابُ عليه للكفار كما يقتضيه السياق.

وجوِّز أن يراد بـ «هذا الحديث» ما تحدَّثوا به من قبل في قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فالكلامُ عودٌ إلى ذلك بعد ردِّه، كأنه قيل: أفبهذا الحديث الذي تتحدَّثون به في إنكار البعثِ أنتم مُدهنون أصحابَكم، أي: تعلمون خلافَه وتقولونه مداهنةً، أم أنتم به جازمون، وعلى الإصرار عليه عازمون. ولا يخفى بُعدُه، وفيه مخالفةٌ لسبب النزول، وستعلمه قريبًا إن شاء الله تعالى.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقولون: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا، وبنَجْم كذا وكذا، أخرج ذلك الإمام أحمد والترمذي وحسَّنه والضياء في «المختارة» وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن النبي ﷺ[٣]، وهو إما إشارةٌ منه عليه الصلاة والسلام إلى أنَّ في الكلام مضافًا مقدَّرًا، أي: شكر رزقكم، أو إشارةٌ إلى أنَّ الرزقَ مجازٌ عن لازمه وهو الشكر، وحكى الهيثم بن عدي أنَّ من لغة أَزْدِ شَنُوءة: ما رزَقَ فلانٌ فلانًا، بمعنى: شكره.

(١) العبارة في حاشية الشهاب ٨/ ١٥٠ (والكلام منه): ولما كان ذلك مليِّناً له ليناً محسوساً أُريدَ به اللين المعنوي.
(٢) معاني القرآن للزجَّاج ٥/ ١١٦.
(٣) المسند (٨٤٩)، وسنن الترمذي (٣٢٩٥)، والأحاديث المختارة (٥٧١).

ونقل عن الكِرماني أنَّه نقل في «شرح البخاري» أنَّ الرزق من أسماء الشكر[١]، واستبعَدَ ذلك، ولعله هو ما حكاه الهيثم.

وفي «البحر» وغيره: أنَّ عليًا كرم الله تعالى وجهه وابن عباس قرأا: «شكركم» بدل: «رِزْقَكم»[٢]، وحمله بعضُ شراح البخاري على التفسير من غير قصدٍ للتلاوة[٣]، وهو خلاف الظاهر، وقد أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه «الواقعة» في الفجر فقال: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» فلمَّا انصرفَ قال: إني قد عرفتُ أنَّه سيقول قائلٌ: لِم قرأها هكذا، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأُ كذلك، كانوا إذا أُمطِروا قالوا: أُمطرنا بنَوءِ كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: «وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون»[٤].

ومعنى جَعْلِ شكرهم التكذيبَ: جعلُ التكذيب مكانَ الشكر، فكأنَّه عينُه عندهم، فهو من باب:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع[٥]

ومنه قول الراجز:

وكان شكرُ القومِ عند المِنَن
كيَّ الصحيحات وفَقْءَ الأعيُن[٦]

وأكثرُ الروايات أنَّ قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ إلخ نزل في القائلين: مُطِرنا بنوء كذا، من غير تعرُّض لِمَا قبلُ.

---

(١) شرح الكرماني ٦/ ١٢٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٥، والقراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/ ٣١٠.
(٣) ينظر فتح الباري ٢/ ٥٢٣.
(٤) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٣، وأخرج نحوه الطبري ٢٢/ ٣٦٩.
(٥) وصدره: وخيل قد دلَفْتُ لها بخيل، نسبه الشنتمري في شرح شواهد الكتاب ص٣٦٠ لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٤/ ٩٢.
(٦) البيان والتبيين ٣/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥، وخزانة الأدب ٢/ ٤٦٢.

وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: مُطِر الناسُ على عهد رسول الله ﷺ فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «أصبَحَ مِن الناس شاكرٌ ومنهم كافرٌ، قالوا: هذه رحمةٌ وضَعَها الله، وقال بعضُهم: لقد صَدَق نَوءُ كذا» فنزلَت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

وأخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخه» عن عائشة رضي الله عنها. وكان ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عروة رضي الله عنه في غزوة تبوك، نزلوا الحِجْر فأمرهم ﷺ أنْ لا يحملوا من مائه شيئًا، ثم ارتَحلُوا ونزلوا منزلًا آخرَ وليس معهم ماءٌ، فشَكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام فصلَّى ركعتَين ثم دعا، فأُمطِرُوا وسُقُوا، فقال رجلٌ من الأنصار يُتَّهمُ بالنفاق: إنَّما مُطِرنا بنَوْء كذا، فنَزَل ما نزل[2].

ولعلَّ جمعًا من الكفار قالوا نحوَ ذلك أيضًا، بل هم لم يزالوا يقولون ذلك، والأخبار متضافرة على أنَّ الآية في القائلين بالأنواء، بل قال ابن عطية: أجمع المفسِّرون على أنَّها توبيخٌ لأولئك[3].

وظاهرُ مقابلة الشكرِ بالكفر في الحديث السابق أنَّ المراد بالكفر كفرانُ النعمة إذا أضيفَت لغير مُوْجِدِها جل جلاله، وقد صحَّ ذكره مع الإيمان، أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم عن زيد بن خالد الجهني قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبحَ بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلمَّا سلَّم أقبلَ علينا فقال: «هل تدرون ما قال ربُّكم في هذه الليلة؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. فقال: «قال: ما أنعمْتُ على عبادي نعمةً إلا أصبحَ فريقٌ منهم بها كافرين، فأما مَن آمن بي وحَمَدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكوكب، وأما مَن قال: مُطِرنا

---

(١) صحيح مسلم (٧٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٢.
(٢) تاريخ دمشق ٤٣/ ٢٤٧، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٣.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢.

بنوء كذا وكذا، فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي»(١).

والآية على القول بنزولها في قائلي ذلك ظاهرةٌ في كفرهم المقابلِ للإيمان، فكأنَّهم كانوا يقولونه عن اعتقادِ أنَّ الكواكبَ مؤثِّرةٌ حقيقةً، مُوْجِدةٌ للمطر، وهو كفرٌ بلا ريب، بخلاف قوله مع اعتقادِ أنَّه مِن فضل الله تعالى، والنوءُ ميقاتٌ وعلامة له، فإنَّه ليس بكفر.

وقيل: تسميتُه كفرًا لأنَّه يُفضي إليه إذا اعتقَدَ أنَّه مؤثِّرٌ حقيقةً.

هذا، وقيل: معنى الآية: وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به، ويُشيرُ إلى ذلك ما رواه قتادة عن الحسن: بئس ما أَخذَ القومُ لأنفسهم، لم يُرزَقُوا من كتاب الله تعالى إلا التكذيبَ. وفي «الإرشاد»: أنَّه الأوفقُ لسياق النظم الكريم وسباقه(٢).

وأقول: ما قدَّمناه تفسيرٌ مأثورٌ نَطقَت به السنة المقبولة، وذهب إليه الجمهورُ، وليس فيه ما يأبَى إرادةَ معنًى مطابقٍ لسبب النزول، وموافقٍ لسياق النظم الكريم وسباقه، وذلك بأنْ يقال: إنَّه عز وجل بعد أنْ وَصَفَ القرآنَ بما دلَّ على جلالة شأنه وعزَّةِ مكانه، وأشعَرَ باشتماله على ما فيه تزكيةُ النفوسِ وتحليتُها بما يوجب كمالها من العقائد الحقَّة ونحوها، حيث قال سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعبَّر جل وعلا عن ذاته سبحانه بلفظ الربِّ الدالِّ على التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا. وقد يُستفادُ ذلك من وَصْفه بـ «كريم» بناءً على أنَّ المراد به: نفَّاعٌ جمُّ المنافع، فإنَّه لا منفعةَ أجلُّ مما ذكر، وكان قد ذَكرَ عز وجل غيرَ بعيدٍ ما يدلُّ على أنَّه تعالى هو المُنزلُ لماء المطرِ لا غيرُه سبحانه استقلالًا ولا اشتراكًا = قال عز قائلًا: أفبهذا القرآنِ الجليلِ الشأن، المشتمِلِ على العقائد الحقَّة، المرشدِ إلى ما فيه نفعُكم، أنتم متهاونون فلا تشكرون الله تعالى عليه، وتجعلون بدل شكرِكم

---

(١) صحيح البخاري (٨٤٦)، وصحيح مسلم (٧١)، وسنن أبي داود (٣٩٠٦)، والسنن الكبرى للنسائي (١٨٤٦)، وسلف هذا الحديث مع الكلام عن هذه المسألة ٥/ ٢١٤ و١١/ ٨٢ و٢٢/ ٣٤٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٠٠.

أنَّكم تكذِّبون به، ومن ذلك أنَّكم تقولون إذا مطرتُم: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فتُسنِدُون إنزالَ المطرِ إلى الكواكب، وقد أرشَدَكم غيرَ مرةٍ إلى ما يأبى ذلك من العقائد، وهداكم إلى أنَّه تعالى هو المنزل للمطر لا الكواكبُ ولا غيرُها أصلًا.
فما جاء من تفسير «تكذبون» بـ: تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، ليس المرادُ منه إلا بيانَ نوعٍ اقتضاهُ الحالُ من التكذيب بالقرآن المنعوتِ بتلك النعوت الجليلة، وكونُ ذلك على الوجه الذي يزعمُه الكفار تكذيبًا به مما لا ينتطحُ فيه كبشان، وهذا لا تمحُّل فيه.

وقد يقال على تقدير أنْ يُراد بالرزق المطرُ، وكونِ «تكذِّبون» على معنى: تكذبون بكونه ـ أي: المطر ـ من الله تعالى، حيث تنسبونه إلى الأنواء، وإن لم أقف على التصريح به في أثَرٍ يعوَّل عليه: المعنى: أفبهذا القرآنِ الجليلِ المرشدِ إلى أنَّ كلَّ نعمةٍ منه تعالى لا غير، المصرِّحِ عن قريبٍ بأنَّه المنزلُ للمطر وحدَه «أنتم مدهنون» أي: مكذبون[1]، على ما سمعتَ عن ابن عباس والزجَّاج، ومن ذلك أنَّكم تجعلون موضعَ شُكرِ ما يرزقُكم من المطر وينزله لكم أنَّكم تكذِّبون بكونه من الله تعالى وتنسبونَه إلى الأنواء، والتبكيتُ الآتي مبنيٌّ على تكذيبهم بالقرآن المفهومِ من «تكذِّبون»، أو من قوله سبحانه: ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ لكن التكذيب به باعتبار التكذيب ببعض ما نَطَقَ به مما[2] سبق.

وتوقفُ المراد بالآية على الخبر غيرُ بِدْعٍ في القرآن الكريم، وحالُ عطف «تجعلونَ رزقكم أنَّكم تُكذِّبون» على ما قبله لا يخفَى على نبيِّه، فتأمل والله تعالى الموفق لفهم كتابه الكريم.

وقرأ المفضل عن عاصم: «تَكْذِبون» بالتخفيف[3] من الكذب، وهو قولهم في القرآن: إنَّه ـ وحاشاه ـ افتراءٌ، ويرجعُ إلى هذا قولُهم في المطر: إنَّه من الأنواء؛ لأنَّ القرآن ناطقٌ بخلافه.

(١) في (م): يكذبون.
(٢) في (م): بما.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ إلخ تبكيتٌ كما سمعتَ وذلك باعتبار تكذيبهم بما نطَقَ به قوله تعالى: (نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ) إلخ أعني الآياتِ الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى، من حيث ذواتُهم ومن حيث طعامُهم وشرابُهم وسائرُ أسباب معايشهم.

و«لولا» للتحضيض لإظهار[(١)] عجزهم، و«إذا» ظرفية، و«الحلقوم» مجرى الطعام، وضمير «بلغت» للنفس لانفهامها من الكلام، وإنْ لم يجرِ لها ذكرٌ قبلُ[(٢)].

والمرادُ بها الروح بمعنى البخارِ المنبعثِ عن القلب دون النفس الناطقةِ، فإنَّها لا تُوصَف بما ذكر، وكأنَّه مبنيٌّ على القول بتجرُّد النفس الناطقةِ، وهي المسماة بالروح الأمرية، وأنَّها لا داخل البدن ولا خارجه، ولا تتَّصفُ بصفات الأجسام كالصعودِ والنزول وغيرهما، على ما اختاره حجَّة الإسلام الغزالي[(٣)] وجماعة من المحقِّقين.

ومذهبُ السلف أنَّ النفس الناطقةَ - وهي الروحُ المشار إليها بقوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) - جسمٌ لطيفٌ جدًّا سارٍ في البدنِ سريانَ ماء الورد في الورد، وهو حيٌّ بنفسه يتَّصف بالخروجِ والدخول وغيرهما من صفات الأجسام.

وقد ردَّ العلامة ابنُ القيم قولَ الغزالي ومَن وافقَه بأدلة كثيرةٍ ذكرها في كتابه «الروح»[(٤)]، ووَصْفُها ببلوغ الحلقوم عليه ظاهر.

وأما على القول بالتجرُّد وعدم التحيُّز فقيل: المرادُ به ضعفُ التعلُّق بالبدن وقربُ انقطاعه عنه، فكأنَّه قيل: فلولا إذا حان انقطاعُ تعلُّق الروح بالبدن ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيُّها الحاضرون حول صاحبها ﴿حِينَئِذٍ﴾ أي: حين إذ بلغَت الحلقومَ ووصلَت إليه، أو حان انقطاعُ تعلُّقها ﴿تَنظُرُونَ﴾ إلى ما يُقاسيه من الغمرات.

---

(١) في (م): بإظهار.
(٢) في الأصل: قيل.
(٣) ينظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣.
(٤) ينظر الروح ص٤٩ المسألة الخامسة.

وقيل: تنظرون حالَكم، ووجههُ أنَّهم يعلمون أنَّ ما جرَى عليه يجري عليهم، فكأنَّهم شاهدوا حالَ أنفسهم. وليس بذاك.

وقرأ عيسى: «حينَئذٍ» بكسر النون[1] إتباعاً لحركة الهمزة في «إذ».

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: المحتضَر المفهوم من الكلام ﴿مِنكُمْ﴾ والمرادُ بالقرب العلم، وهو من إطلاق السببِ وإرادة المسبَّب، فإنَّ القرب أقوى سببٍ للاطلاع والعلم.

وقال غيرُ واحد: المرادُ القربُ علمًا وقدرةً، أي: نحن أقربُ إليه في كل ذلك منكم، حيث لا تعرفون مِن حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدَّة من غير أنْ تَقِفُوا على كُنْهِها وأسبابها الحقيقية، ولا أنْ تَقْدِروا على مباشرة دَفْعها إلا بما لا ينجع شيئًا، ونحن المُتَوَلُّون[2] لتفاصيل أحواله بعلمنا وقُدرتنا، أو بملائكة الموت.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركون كونَنا أقربَ إليه منكم، لجهلكم بشؤوننا، وقد علمتَ أنَّ الخطاب للكفار. وقيل: لا تدركون كُنْهَ ما يجري عليه، على أنَّ الاستدراكَ من «تنظرون». والإبصار من البصر بالعين تُجوِّز به عن الإدراك، أو هو من البصيرة بالقلب.

وقيل: أُريدَ بأقربيته تعالى إليه منهم رسُلُه عز وجل، أي: ورسلُنا الذين يقبضون روحَه ويعالجون إخراجَها أقربُ إليه منكم ولكن لا تبصرونهم.

﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: غير مربوبين، من دَانَ السلطانُ الرعيةَ: إذا ساسَهم وتعبَّدَهم، ومنه قيل للعبد: مَدِين، وللأَمَة: مدينة، قال الأخطل:

رَبَتْ وَرَبَا في حجْرِها ابنُ مدينةٍ ... تراه على مِسحاتِهِ يَتَركَّلُ[3]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥.

(٢) في (م): المستولون.

(٣) ديوان الأخطل ص٥، وجاء في هامش الأصل: تَرَكَّل بمسحاته: إذا ضربها برجله لتدخل في الأرض، كما في القاموس. اهـ منه، وهو في القاموس (ركل)، والمسحاة: ما يُسْحَى به الطين، أي: يُقشر ويُجرف. ينظر القاموس (سحي). وجاء في الديوان: تظل، بدل: تراه.

والكلامُ ناظرٌ إلى قوله تعالى: (نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ).

وقيل: هو من دَانَ بمعنى انقاد وخَضَع، وتُجوِّز به عن الجزاء كما في قولهم: كما تدينُ تُدان، أي: فلولا إن كنتم غيرَ مَجْزِيِّين، وجُعِل ناظرًا لإنكارهم البعثَ. وليس بشيء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: الروح إلى مقرِّها، والقائلون بالتجرُّد يقولون: أي: ترجعون تعلُّقها كما كان أولًا.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم عدم خَالِقِيَّتِه تعالى، فإنَّ عدم تصديقهم بخالقِيَّته سبحانه لهم عبارةٌ عن تصديقهم بعدمها على مذهبهم.

وفي «البحر» وغيره: إن كنتم صادقين في تَعطيلكم وكفرِكم بالمُحيي المُميت المبدئ المعيد، ونسبتكم إنزالَ المطرِ إلى الأنواء دونَه عز وجل[1].

و«ترجعون» المذكور هو العامل بـ «إذا» الظرفية في «إذا بلغت الحلقوم» وهو المحضَّض عليه بـ «لولا» الأولى، و«لولا» الثانية تكريرٌ للتأكيد، و«لولا» الأولَى مع ما في حيِّزها دليلُ جوابِ الشرطِ الأول، أعني: «إن كنتم غير مدينين»، والشرطُ الثاني مؤكِّدٌ للأول مبيِّنٌ له، وقُدِّم أحدُ الشرطَين على «ترجعونها» للاهتمام، والتقدير: فلولا تَرجعونها إذا بلغَت الحلقوم إن كنتم غيرَ مربوبين صادقين فيما تزعمونه من الاعتقاد الباطلِ فلولا ترجعونها إذا بلغَت الحلقوم. وحاصلُ المعنى: أنَّكم إن كنتم غيرَ مربوبين، كما تقتضيه أقوالُكم وأفعالكم، فما لكم لا ترجعون الروحَ إلى البدن إذا بلغَت الحلقوم، وتردُّونها كما كانت بقدرتكم، أو بواسطة علاج للطبيعة.

وقوله تعالى: «وأنتم حينئذ تنظرون» جملة حاليةٌ من فاعل «بلغت» والاسميةُ المقترنةُ بالواو لا تحتاجُ في الربط للضمير؛ لكفاية الواو، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ العائدَ ما تضمَّنه «حينئذ»؛ لأنَّ التنوين عِوَضٌ عن جملة، أي: فلولا ترجعونها زمانَ

---

(١) البحر ٨/ ٢١٥.

بلوغها الحلقومَ حالَ نَظَركم إليه وما يُقاسيه من هَوْل النَّزْع مع تعطُّفِكم عليه وتوفُّركم على إنجائه من المهالك.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ إلخ اعتراضٌ يؤكد ما سيقَ له الكلام من توبيخهم على صدور ما يدُلُّ على سوء اعتقادِهم بربِّهم سبحانه منهم، وفي جواز جَعْله حالًا مقالٌ.

وقال أبو البقاء: «ترجعونها» جوابُ «لولا» الأولى، وأغنَى ذلك عن جواب الثانية، وقيل عكسُ ذلك[١].

وقيل: «إن كنتم» شرطٌ دخل على شرط، فيكونُ الثاني مقدَّمًا في التقدير، أي: إن كنتم صادقين إن كنتم غيرَ مربوبين فأرجعوا الأرواحَ إلى الأبدان، وما ذكرناه سابقًا اختيارُ جارِ الله[٢].

وأيًّاما كان فقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إلى آخره شروعٌ في بيان حال المتوفَّى بعد الممات إِثْرَ بيانِ حاله عند الوفاة، وضميرُ «كان» للمتوفَّى المفهوم مما مرَّ، أي: فأما إنْ كان المتوفَّى الذي بُيِّن حالُه من السابقين من الأزواج الثلاثة، عبَّر عنهم بأَجَلِّ أوصافهم ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله رَوحٌ، على أنَّه مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ مقدَّمٌ عليه؛ لأنَّه نكرةٌ، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: فجزاؤه رَوح، أي: استراحة، والفاءُ واقعةٌ في جواب «أما».

قال بعضُ الأجلة: تقديرُ هذا الكلام: مهما يكن من شيءٍ فَرَوحٌ.. إلخ إن كان من المقرَّبين، فحُذِفَ «مهما يكن من شيءٍ» وأُقيمَ «أما» مقامَه، ولم يَحْسُن أن يليَ الفاءُ «أما»، فأوقع الفصل بين «أما» والفاء بقوله سبحانه: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ لتحسين اللفظِ، كما يقع الفصل بينهما بالظرف والمفعول.

والفاء في «فروح» وأخوَيه جوابُ «أما» دون «إن»، وقال أبو البقاء: جواب «أما» «فروح»، وأما «إن» فاستُغني بجواب «أما» عن جوابها؛ لأنَّه يُحذَف كثيرًا[٣].

---

(١) إملاء مامنَّ به الرحمن ٤/ ٣٨٠.
(٢) في الكشاف ٤/ ٥٩.
(٣) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٨١.

وفي «البحر»: أنَّه إذا اجتَمع شرطان فالجوابُ للسابق منهما، وجوابُ الثاني محذوفٌ، فالجواب هاهنا لـ «أما»، وهذا مذهب سيبويه. وذهب الفارسي إلى أنَّ المذكورَ جوابُ «إن»، وجوابُ «أما» محذوف، وله قولٌ آخر موافق لمذهب سيبويه. وذهب الأخفش إلى أنَّ المذكورَ جوابٌ لهما معًا، وقد أبطلنا المذهبين في «شرح التسهيل»[(١)]. انتهى.

والمشهور أنَّه لا بدَّ من لُصوق الاسم لـ «أما»، وهو عند الرضي وجماعة أكثري؛ لهذه الآية، والذاهبون إلى الأول قالوا: هي بتقدير: فأما المتوفَّى إن كان...

وتُعقِّب بأنَّه لا يخفَى أنَّ التقدير مستغنًى عنه، ولا دليلَ عليه إلا اطِّرادُ الحكم، ثم إنَّ كون «أما» قائمةً مقام «مهما يكن» أغلبيٌّ إذ لا يطَّرد في نحو: أما قريشًا فإنَّا أفضلُها، إذ التقدير: مهما ذكرتَ قريشًا فإنَّا أفضلها، وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلَب من كتب العربية.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو داود والنسائي والترمذي وحسَّنه والحاكم وصحَّحه وآخرون عن عائشة رضي الله عنها أنَّها سمعَت رسولَ الله ﷺ يقرأ: «فرُوحٌ» بضمِّ الراء[(٢)]، وبه قرأ ابن عباس وقتادة ونوح القارئ والضحاك والأشهب وشعيب وسليمان التيمي والربيع بن خُثَيم ومحمد بن علي وأبو عمران الجوني والكلبي وفياض وعبيد، وعبد الوارث عن أبي عمرو، ويعقوب بن حسان[(٣)]، وزيد ورويس عنه، والحسن[(٤)]؛ وقال: الرُّوح الرحمةُ لأنَّها كالحياة للمرحوم، أو سببٌ لحياته الدائمة، فإطلاقُه عليها من باب الاستعارة أو المجاز المرسَل، ورُوي هذا عن قتادة أيضًا.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٦.

(٢) المسند (٢٤٣٥٢)، والتاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٢٢٣، وسنن أبي داود (٣٩٩١)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٥٠٢)، وسنن الترمذي (٢٩٣٨)، والمستدرك ٢/ ٢٣٦.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ووقع في مطبوع البحر ٨/ ٢١٥ (والكلام منه): يعقوب بن صيان، ولعل الصواب: يعقوب بن إسحاق أحد القراء العشرة المشهورين، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) قراءة رويس عن يعقوب في النشر ٢/ ٣٨٣، وتنظر القراءة في المحتسب ٢/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥ والكلام منه.

وقال ابن جنِّي: معنى هذه القراءةِ يرجعُ إلى معنى الرَّوح، فكأنَّه قيل: فله مُمسكُ رُوحٍ، ومُمسكها هو الرُّوح. كما تقول: الهواءُ هو الحياة، وهذا السماعُ هو العيش(١).

وفسَّر بعضُهم الرَّوح بالفتح بالرحمة أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقيل: هو بالضم البقاء.

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: ورزق كما روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، وفي رواية أخرى عن الضحاك أنَّه الاستراحة.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنَّه قال: هو هذا الريحان، أي: المعروف(٢). وأخرج ابن جرير عنه أنَّه قال: تخرجُ رُوح المؤمن من جسده في رَيحانة؛ ثم قرأ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ إلخ(٣).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: لم يكن أحدٌ من المقرَّبين يُفارق الدنيا حتى يُؤتَى بغُصنَين من رَيحان الجنة فيشمّهما ثم يُقبَض(٤).

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: ذات تنعُّم، فالإضافة لاميَّة أو لأدنى ملابسة، وهذا إشارةٌ إلى مكان المقرَّبين بحيث يلزمُ منه أن يكونوا أصحابَ نعيم.

وأخرج الإمام أحمد في «الزهد» وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خُثَيْم قال في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: هذا له عند الموت، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ تُخبَّأ له الجنة إلى يوم يُبعث(٥). وليُنظَر ما المرادُ بالريحان على هذا، وعن بعض السلف ما يقتضي أنْ يكون الكلُّ في الآخرة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١٠.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٧٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٧٨، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٧.

(٥) المصنف لابن أبي شيبة ١٣/ ٤٠١، وعزاه لأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧٩.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠﴾ عبَّر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يُذكَر لهم فيما سبَق وصفٌ ينبئُ عن شأنهم سواه، كما ذكر للفريقَين الآخَرَيْن[1]، وقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾ قيل: هو على تقدير القول، أي: فيقال لذلك المتوفَّى منهم: سلامٌ لك يا صاحبَ اليمين من إخوانك أصحابِ اليمين، أي: يُسلِّمون عليك، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦] فالخطاب لصاحب اليمين، ولا التفات فيه مع تقدير القول. و«مِن» للابتداء كما تقول: سلامٌ من فلان على فلان وسلامٌ لفلان منه.

وقال الطبري: معناه: فسلامٌ لك أنت من أصحاب اليمين[2]. فـ «مِن أصحاب اليمين» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والكلام بتقدير القول أيضًا، وكأنَّ هذا التفسيرَ مأخوذٌ من كلام ابن عباس ﵄، أخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أنَّه قال في ذلك: تأتيه الملائكةُ من قِبَلِ الله تعالى تُسلِّم عليه وتخبِرُه أنَّه من أصحاب اليمين[3]. والظاهر أنَّ هذا على هذا المعنى عند الموت، وأنَّه على المعنى السابق في الجنة.

وجوِّز أنْ يكون المعنى: فسلامةٌ لك عما يشغَلُ القلبَ من جهتهم، فإنَّهم في خير، أي: كن فارغَ البال عنهم لا يهمُّك أمرُهم، وهذا كما تقول لمَن علَّق قلبَه بولده الغائب وتشوَّشَ فكرُه لا يدري ما حالُه: كن فارغَ البال من ولدك، فإنَّه في راحةٍ ودَعَةٍ. والخطابُ لِمَن يصلُحُ له، أو لسيِّد المخاطبين ﷺ، وعليه قيل: يجوزُ أن يكونَ ذلك تسليةً له عليه الصلاة والسلام على معنى أنَّهم غيرُ محتاجين إلى شفاعة وغيرها.

ولا يخفَى أنَّ كونَ جميعِ أصحابِ اليمين غيرَ محتاجين إلى ما ذكر غيرُ مسلَّم، فالشفاعةُ لأهل الكبائر أمرٌ ثابتٌ عند أهل السنة، ولا جائز أن يكونوا من أصحاب الشمال، فصرائحُ الآيات أنَّهم كفَّار، وما لهم من وليٍّ ولا شفيعٍ يُطاع، وكونُهم من

---

(١) في (م): الأخيرين.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨١، والبحر ٨/ ٢١٦.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢١٣-٢١٤، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٧.

أصحاب اليمين أقربُ من كونهم من السابقين، وجعلُهم قسمًا على حِدَة قد علمتَ حالَه، فتذكر فما في العهد من قدم.

وذكر بعضُ الأجلة أنَّ هذه الجملةَ كلامٌ يفيد عظمةَ حالهم كما يقال: فلانٌ ناهيك به، وحسبُك أنَّه فلان، إشارةً إلى أنَّه ممدوحٌ فوق حدِّ التفصيل، وكأنِّي بك تختارُ ذلك، فإنَّه حسنٌ لطيف.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ وهم أصحابُ الشمال، عبَّر عنهم بذلك حسبما وُصِفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ) ذمًّا لهم بذلك، وإشعارًا بسبب ما ابتُلُوا به من العذاب، ولمَّا وقع هذا الكلامُ بعد تحقُّق تكذيبهم وردِّه على أتمِّ وجهٍ، ولم يقع الكلامُ السابق كذلك، قدَّم وصْفَ التكذيب هنا على عكس ما تقدَّم.

ويجوزُ أن يقال في ذلك على تقدير عمومِ متعلَّق التكذيب بحيث يشملُ تكذيبَه ﷺ في دعوى الرسالة: إنَّ هذا الكلامَ إخبارٌ من جهته سبحانه بأحوال الأزواجِ الثلاثة، لم يؤمَر عليه الصلاة والسلام بأنْ يُشافِهَ بكلِّ جملةٍ منه مَن هي فيه، فقدَّم فيه وصْفَ التكذيب الشامل لتكذيبه عليه الصلاة والسلام المشعرِ بسبب الابتلاء بالعذاب كرامةً له ﷺ وتنويهًا بعلوِّ شأنه، ولمَّا كان الكلامُ السابق داخلًا في حيِّز القول المأمور عليه الصلاة والسلام بأنْ يُشافِهَ به أولئك الكفرةَ لم يَحسُن التقديم للكرامة، إذ يكون حينئذٍ من باب: مادحُ نفسه يُقرئُك السلام.

ويجوز أنْ يقال أيضًا: إنَّ الكلام في حال الكافر المحتَضَر، والتكذيبُ لكونه مقابلَ التصديق لا يكونُ إلا بالقلب، وهو لم يَتَعطَّل منه تعطُّلَ سائرِ أعضائه فلذا قُدِّم هنا، ويرشد إلى هذا ما قالوه في دعاء صلاة الجنازة: «اللهم مَن أَحيَيْتَه منَّا فأحيه على الإسلام، ومَن توفَّيتَه منَّا فتوفَّه على الإيمان»[1]، من وَجْه تخصيص الإسلام بالإحياء والإيمان بالإماتة.

(١) أخرجه أحمد (٨٨٠٩)، والترمذي (١٠٢٤)، وأبو داود (٣٢٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الإمام في ذلك: إنَّ المراد من الضلال هناك ما صدرَ عنهم من الإصرار على الحنث العظيم، فضَلُّوا عن سبيل الله تعالى ولم يَصِلوا إليه، ثم كذَّبوا رسلَه وقالوا: (أَئِذَا مِتْنَا) إلخ فكذَّبوا بالحشر، فقال تعالى: (أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ) الذين أشركتُم (ٱلْمُكَذِّبُونَ) الذين أنكرتُم الحشرَ (لَآكِلُونَ) ما تكرهون، وأما هنا فقال سبحانه لهم: أيها المكذبون الذين كذبتُم بالحشر، الضالُّون من طريق الخلاص، الذين لا يهتدون إلى النعيم.

وفيه وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ الخطابَ هناك مع الكفار فقال سبحانه: أيها الذين أشركتم أولًا، وكذبتم ثانيًا، والخطابُ هنا مع النبيِّ ﷺ يُبيِّن له عليه الصلاة والسلام حالَ الأزواج الثلاثة كما يدل عليه «فسلام لك» فقال سبحانه: المقربون في رَوح وريحان وجنة ونعيم[(١)]، وأصحاب اليمين في سلامة، وأما المكذبون الذي كذَّبوك وضلُّوا، فقدَّم تكذيبهم إشارةً إلى كرامته ﷺ، حيث بيَّن أنَّ أقوى سببٍ في عقابهم تكذيبُهم[(٢)]. انتهى، وعليك بالتأمل والإنصاف والنظر لِمَا قال دون النظر لِمَن قال.

وقوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ﴾ بتقدير: فله نُزلٌ، أو: فجزاؤه نُزلٌ كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قيل: يشربُ بعد أكلِ الزقوم كما فُصِّل فيما قبل.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي: إدخالٌ في النار، وقيل: إقامةٌ فيها مقاساةٌ لألوان عذابها، وكلٌّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ المراد بيانُ ما لهم يوم القيامة.

وقيل: هذا محمولٌ على ما يجده في القبر من حرارة النار ودخانها؛ لأنَّ الكلام في حال التوفِّي وعقب قبضِ الأرواحِ، والأنسبُ بذلك كونُ ما ذكر في البرزخ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: لا يخرجُ الكافر حتى يشربَ كأسًا من حميم[(٣)].

وقرأ أحمد بن موسى والمنقري واللؤلؤي عن أبي عمرو: «وتصليةِ» بالجرِّ[(٤)] عطفًا على «حميم».

---

(١) في الأصل: وجنة نعيم، والمثبت من (م) والمصدر.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٧٤.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٧.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٦.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكر في السورة الكريمة كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ اليقين على ما يُفهَم من كلام الزمخشري في «الجاثية» اسمٌ للعِلْم الذي زال عنه اللَّبسُ[٢]، وبذلك صرَّح صاحب «المطلع»، وذكر أنَّه تفسيرٌ بحسب المعنى، وهو مأخوذٌ من المقام، وإلا فهو العلم المتيقَّن مطلقًا، والإضافةُ بمعنى اللام، والمعنى: لهو عينُ اليقين، فهو على نحو: عينُ الشيء ونفسُه، ولا يخفى أنَّ الإضافةَ من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، وكونُها بمعنى اللام قولٌ لبعضهم.

وقال بعضٌ آخر: إنَّها بيانيةٌ على معنى «مِن»، وقدَّر بعضُهم هنا موصوفًا، أي: لهو حقُّ الخبرِ اليقينِ، وكونه لا يناسبُ المقامَ غيرُ متوجِّهٍ.

وفي «البحر» قيل: إنَّ الإضافةَ من إضافة المترادفَين على سبيل المبالغةِ كما تقول: هذا يقينُ اليقين وصوابُ الصواب، بمعنى أنَّه نهايةٌ في ذلك، فهما بمعنًى، أُضيفَ أحدُهما إلى الآخر للمبالغة[٣]. وفيه نظر.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ لترتيب التسبيح، أو الأمر به، فإنَّ حَقيةَ ما فُصِّل في تضاعيف السورة الكريمة مما يُوجبُ التسبيحَ عما لا يليقُ مما ينسبه الكفرة إليه سبحانه قالًا أو حالًا، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وأخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني قال: لـمَّا نزلَت على رسول الله ﷺ: (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) قال: «اجْعلُوها في ركوعِكم» ولـمَّا نزلَت: (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) قال: «اجعلوها في سجودكم»[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٦٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٦.
(٤) المسند (١٧٤١٤)، وسنن أبي داود (٨٦٩)، وسنن ابن ماجه (٨٨٧)، وصحيح ابن حبان (١٨٩٨)، والمستدرك ١/ ٢٢٥.

ومما قاله السادةُ أربابُ الإشارة متعلِّقًا ببعض هذه السورة الكريمة: أنَّ «الواقعة» اسمٌ لقيامة الروحِ، كما أنَّ «الآزفة» اسمٌ لقيامة الخفي، و«الحاقة» اسمٌ لقيامة السرِّ، و«الساعة» اسمٌ لقيامة القلب.

وقالوا: إنَّ الواقعة إذا وقَعَت ترفَعُ صاحبها طورًا وتخفِضُه طورًا، وتُشعلُ نيرانَ الغيرةِ، وتفجِّرُ أنهارَ المعرفة، وتُحصِّلُ للسالك إذا اشتغَلَ بالسلوك والتصفية ووَصل ذِكْره إلى الروح، وهي في البداية مثلُ سِتْرٍ أسود يجيء من فوق الرأس عند غلبة الذِّكرِ، وكلما زاد في النزول يقعُ على الذاكر هيبةٌ وسكينةٌ، وربما يُغمَى عليه في البداية، ويُشاهِد ـ إذا وقع على عينَيه ـ عوالمَ الغيب، فيرَى ما شاء الله تعالى أن يرى، وتُكشَف له العلومُ الروحانية، ويرَى عجائبَ وغرائبَ لا تحصَى، وإذا أفاق فلْيَعرِض ما حَصَل له لمسلِّكه ليُرشِدَه إلى ما فيه مصلحةُ وقتِه، ويُعبِّرَ له ما هو مناسبٌ لحَوْصَلَتِهِ ويقوِّي قلبَه، ويأمره بالذِّكر والتوجُّه الكلِّي حتى يَصْفوَ[1] سرُّ الواقعة فيكون سرًّا منوَّرًا، فربما يصيرُ السالكُ بحيث إذا فتَح عينَيه بعد نزولها في عالم الشهادة يشاهدُ ما كان مشاهدًا له فيها، وهي حالةٌ سنيَّةٌ معتبرةٌ عند أرباب السلوك.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ بل هي صادقةٌ؛ لأنَّ الشيطان يفِرُّ عندها، والنفس لا تقدر أنْ تلبِّس على صاحبها، وهي اليقظة الحقيقية، وما يعدُّه الناسُ يقظةً هو النومُ كما يشيرُ إليه قولُ أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه: الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا.

ثم إنَّهم تكلَّموا على أكثر ما في السورة الجليلة بما يتعلَّق بالأنفس، وقالوا في «مواقع النجوم»: إنَّها إشارةٌ إلى اللطائف المطهَّرة لأنَّها مواقعُ نجومِ الواردات القدسيَّة الخفيَّة من السماء الجبروتيةِ اللاهوتية.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾: إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّه لا ينبغي لِمَن لم يكن طاهرَ النفس من حَدَث الميلِ إلى صغائر الشهوات، وهو الحدثُ الأصغر، ومن حَدَث الميل إلى كبائر الشهوات، وهو الحدث الأكبر، أنْ

---

(١) في (م): حتى يكمل بِصَفْوِ.

يمسَّ بيد نفسِهِ وفكره معاني القرآن الكريم، كما لا ينبغي لِمَن لم يكن طاهرَ البدنِ من الحدَثَين المعروفَين في البدن أنْ يمسَّ بيد بدَنِه وجسده ألفاظَه المكتوبة.

وقيل أيضًا: يجوزُ أنْ يقال: المعنى: لا يصلُ إلى أدنى حقائقِ أسرار القرآن الكريم إلا المطهَّرون من أرجاس الشهوات وأنجاسِ المخالفات.

وإذا كانت هذه الجملةُ صفةً للكتاب المكنون المرادِ منه اللوحُ المحفوظ، وأُريدَ بالمطهرين الملائكةُ عليهم السلام، وكان المعنى: لا يطَّلعُ عليه إلا الملائكةُ عليهم السلام، كان في ذلك ردٌّ على مَن يزعمُ أنَّ الأولياء يرونَ اللوحَ المحفوظ ويطَّلعون على ما فيه.

وحَمْلُ المطهرين على ما يعمُّ الملائكةَ والأولياءَ الذين طُهِّرت نفوسُهم وقدِّسَت ذواتُهم حتى التحَقُوا بالملائكة عليهم السلام لا ينفعُ في البحث مع أهل الشرع، فإنَّ مدارَ استدلالاتهم على الأحكام الشرعية الظواهرُ، على أنَّه لم يُسمَع عن النبيِّ ﷺ ـ وهو هو ـ أنَّه نظَرَ يومًا وهو بين أصحابه إلى اللوح المحفوظ واطَّلع على شيءٍ مما فيه. وقال لهم: إني رأيتُ اللوحَ المحفوظ واطَّلعت على كذا وكذا فيه، وكذلك لم يُسمَع عن أجلَّة أصحابه الخلفاء الراشدين أنَّه وقع لهم ذلك، وقد وقعَت بينهم مسائل اختلفُوا فيها وطال نزاعُهم في تحقيقها إلى أنْ كاد يغُمُّ هلالُ الحقِّ فيها، ولم يُراجع أحدٌ منهم لكشفها اللوحَ المحفوظ.

وذكر بعضُ العلماء أنَّ سدرة المنتهى ينتهي علمُ مَن تحتَها إليها وأنَّ اللوح فوقَها بكثير، وبكلٍّ من ذلك نطقَت الآثار، وهو يُشعرُ بعدم اطِّلاع الأولياء على اللوح، ومع هذا كلِّه مَن ادَّعى وقوعَ الاطِّلاع فعليه البيان وأنَّى به.

وهذا الذي سمعتَ مبنيٌّ على ما نطَقَت به الأخبارُ في صفة اللوح المحفوظ، وأنَّه جسمٌ كُتِبَ فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، وأما إذا قيل فيه غيرُ ذلك انجرَّ البحثُ إلى وراء ما سمعْتَ، واتسعَت الدائرة.

ومن ذلك قولهم: إنَّ الألواح أربعةٌ، لوحُ القضاء السابق على المحو والإثبات، وهو لوحُ العقل الأول، ولوحُ القَدَر، أي: لوحُ النفس الناطقةِ الكلية

التي يُفصَّل فيها كلياتُ اللوح الأول، وهو المسمَّى باللوح المحفوظ، ولوحُ النفس الجزئية السماوية التي يَنتقشُ فيها كلُّ ما في هذا العالم، شكلُه وهيئتُه ومقدارُه، وهو المسمى بالسماء الدنيا، وهو بمثابة خيالِ العالم، كما أنَّ الأولَ بمثابة روحِه، والثاني بمثابة قلبه، ولوحُ الهيولَى القابل للصورة[١] في عالم الشهادة. ويقولون أيضًا ما يقولون وينشدُ المنتصر له قوله:

وإذا لـم تَـرَ الـهـلالَ فـسـلِّـم لأنـاسٍ رأوه بـالأبـصـار[٢]

هذا ولا تظننَّ أنَّ نَفْيَ رؤيتهم للَّوح المحفوظ نَفْيٌ لكراماتهم الكشفيةِ وإلهاماتهم الغيبيةِ، معاذ الله تعالى من ذلك، وطُرُقُ إطلاعِ الله تعالى مَن شاء مِن أوليائه على ما شاء[٣] مِن علمه غيرُ منحصرٍ بإراءته اللوحَ المحفوظَ، ثم إنَّ الإمكانَ مما لا نزاع فيه، وليس الكلام إلا في الوقوع، ووروِدِ ذلك عن النبي ﷺ وأجلَّة أصحابه كالصديق والفاروق وذي النورَين وباب مدينة العلم والنقطة التي تحت الباء رضي الله عنهم أجمعين، والله تعالى أعلم.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ما بنَوه على القول بوحدةِ الوجود، والكلامُ فيها شائعٌ، وقد أشرنا إليه في هذا الكتاب غيرَ مرة[٤].

ولهم في اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين عباراتٌ شتَّى، منها:

اليقينُ رؤيةُ العيان بقوة الإيمان لا بالحجَّة والبرهان.

وقيل: مشاهدةُ الغيوب بصفاءِ القلوب، وملاحظة الأسرارِ بمحافظة الأفكار.

وقيل: طُمأنينةُ القلبِ على حقيقة الشيء، من يَقِنَ الماءُ في الحوض: إذا استقرَّ.

---

(١) في الأصل: للتصور.
(٢) سلف ١/ ١١١.
(٣) في (م): من شاء.
(٤) تقدم ٧/ ٣١٣.

وحقُّ اليقين: فناءُ العبد في الحقِّ والبقاءُ به علمًا وشهودًا وحالًا لا علمًا فقط، فعِلْمُ كلِّ عاقلٍ الموتَ عِلْمُ اليقين، فإذا عايَنَ الملائكةَ فهو عينُ اليقين، وإذا ذاقَ الموتَ فهو حقُّ اليقين.

وقيل: عِلمُ اليقين ظاهرُ الشريعة، وعينُ اليقين الإخلاص فيها، وحقُّ اليقين المشاهدةُ فيها. وقيل وقيل.

ونحن نسألُ الله تعالى الهدايةَ إلى أقوم سبيل، وأنْ يشرح صدورَنا بأنوار علوم كتابه الكريمِ الجليل، وهو سبحانه حسبُنا في الدارَين ونعم الوكيل.

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

سورة الحديد من السور المدنية ، التي تُعنى بجانب التشريع ، والتربية ، والتوجيه للجماعة الإسلامية ، وتهتم ببناء الشخصية المسلمة بناءً قائماً على أساس العقيدة الصافية ، والخُلُق الكريم ، والتشريع الحكيم ، بما يحقق الأهداف المنشودة لتعاليم الإسلام ، ونظمه الحكيمة .

سميت السورة الكريمة « سورة الحديد » لأن الله تعالى ذكر فيها الحديد وهو قوة الإنسان في الحرب والسلم ، وهو عدته في البناء والتعمير ، وتكاد حضارة البشر اليوم تقوم على الحديد « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديدٌ ، ومنافعُ للناس » فمن الحديدتُصنع الدروع والرماح والسيوف ، والدبابات ، والغواصات ، والمدافع الثقيلة ، وبالحديد تشاد العمائر الضخمة ، وتبني الجسور الكبيرة ، وهو فوق ذلك عدة المحارب والمجاهد في سبيل الله ، فلا عجب أن تسمى السورة الكريمة باسم « سورة الحديد » ! .

وقد تناولت السورة الكريمة ثلاثة مواضيع رئيسية :

الأول : أن الكون كلّه لله جل وعلا ، هو خالقه وهو مبدعه ، وهو المتصرف بالأكوان كما يشاء .

الثاني : ضرورة التضحية بالمال والنفس لإعزاز دين الله ، والتفريق بين المؤمن الصادق والمنافق .

الثالث : تصوير حقيقة الدنيا وما فيها من بهرج خادع ، ونعيم

زائل حتى لا يغتر بها الإنسان ، ودعوة المؤمنين إلى التنافس والتسابق نحو الدار الآخرة ، ونيلِ رضوان الله .

تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الله ، الذي سبَّح له كل ما في الكون من إنسانٍ وجماد ، وشجرٍ ومَدَر ، ثم تذكر صفاتِ اللهِ الحسنى وأسماءه القدسية التي اختص بها جلَّ وعلا دون أحدٍ من مخلوقاته ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهرُ بآثار قدرته ، والباطنُ عن الإحاطة بكنه حقيقته ، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان ﴿سبَّح لله ما في السموات والأرضِ وهو العزيز الحكيم . له ملك السمواتِ والأرض يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيءٍ عليم . هو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم واللهُ بما تعملون بصير﴾ .

ثم تتلوها الآيات وهي تدعو المؤمنين إلى البذل والسخاء ، والتضحية بالنفس والمال ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، وهذا هو واجب المؤمن الذي يعتقد بأن المال مالُ الله ، وأنه وديعة في يد الإنسان استخلفه عليه ليؤدي ما عليه من حقوق وواجبات ﴿آمنوا باللهِ ورسوله وأنفقوا ممَّا جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وبأسلوب التعجيب يُسائل المؤمنين عن السبب الذي يعوقهم عن تحقيق الإيمان الكامل ، والإنفاق التام الذي يزيد في درجات المؤمن عند الله ، ويحقق له الأمل المنشود في نيل رضوان الله ﴿وما لكم ألاَّ تُنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراثُ السمواتِ والأرض ؟ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ، وكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنى ،

والله بما تعملون خبير﴾ وتصوِّر الآيات الإنفاق في سبيل الله قرضاً لله ، يستحق عليه الوفاء مع الجزاء في دار النعيم ﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فيضاعِفَه له ؟ ولهُ أجرٌ كريمٌ﴾ .

ثم تقارن السورة الكريمة بين أهل الإيمان ، وأهل النفاق ، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقون يتخبطون في الظلمات كما كانوا في الدنيا يعيشون في ظلمات الشك والضلال ، وقد ضرب بين الفريقين بحاجز حال بين أهل الإيمان وأهل النفاق ﴿يوم تَرَى المؤمنينَ والمُؤمناتِ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبسْ من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسورٍ له بابٌ ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب ، ينادونهم ألم نكُن معكم ؟ قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانيُّ حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور﴾ وتنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك لتتحدث عن الغرض الثالث ، فتصور حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة أدقَّ تصوير ، فالدنيا زائلة فانية كمثلِ الزرعِ الخصيب الذي ينبت بنزول الغيث المدرار. عليه ، ثم يَصْفَرّ ويَذْبُل فيصير هشيماً وحُطاماً تذروه الرياح ، كذلك الدنيا ، والآخرة هي دار الخلود والبقاء ، فعلى الإنسان أن يسارع إلى نيل مرضاة الله ، وأن يجعل الآخرةَ همَّه وغايتَه وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولادِ ، كمثلِ غيثٍ أعجَب الكفار نباتُه ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حُطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديدٌ ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ

عرضُها كعرض السماء والأرضِ أعدتْ للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واللهُ ذو الفضلَ العظيم﴾ وتتناول السورة الكريمة الغاية من بعثة الرسل الكرام ، وهي إحقاقُ الحقِ ، وإقامةُ العدل بين الناس ، بعد الدعوة إلى الإيمان بالله ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزانَ ليقوم الناسُ بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافعُ للناس ، وليعلم الله من ينصرُه ورسلَه بالغيب إن الله قويٌ عزيز﴾ وتختم السورة الكريمة بالدعوة إلى تقوى الله والإيمان برسوله ، حتى يزداد المؤمن قرباً من الله ، ويرزقه الله ذلك النور الوضاء الذي يفرق فيه بين الحق والباطل ، ويميز به بين الهدى والضلال ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم﴾ صدق الله العظيم .

سورة الحديد

[٨٩٠] أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي [ﷺ] ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾(١) الآية.

[٨٩١] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان أصحاب النبي [ﷺ] قد أخذوا في شيء من المزاح فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

[٨٩٢] وأخرج عن السدي عن القاسم قال: مل أصحاب رسول الله [ﷺ] ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾(٣) ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٤) الآية.

[٨٩٣] وأخرج ابن المبارك في الزهد أنبأنا سفيان عن الأعمش قال: لما قدم أصحاب رسول الله [ﷺ] المدينة فأصابوا من العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾(٥) الآية.

[٨٩٤] وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه من لا يعرف عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي [ﷺ] فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله: إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله

---

[٨٩٠] (١) سورة الحديد: الآية (١٦).
[٨٩١] (٢) سورة الحديد: الآية (١٦).
[٨٩٢] (٣) سورة يوسف عليه السلام: الآية (٣).
(٤) سورة الحديد: الآية (١٦).
[٨٩٣] (٥) سورة الحديد: الآية (١٦).

فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1] الآيات فلما نزلت قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم له أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[2] الآية.

[٨٩٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[3] الآية فمر مؤمنوا أهل الكتاب على أصحاب النبي [ﷺ] فقالوا لنا أجران ولكم أجر فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[4] الآية فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب.

[٨٩٦] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[5] حسد أهل الكتاب المسلمين عليها فأنزل الله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[6] الآية.

[٨٩٧] ك.. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا فأنزل الله ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[7] الآية يعني بالفضل والنبوة.

* * *

---

[٨٩٤] (١) سورة القصص: الآية (٥٢).
(٢) سورة الحديد: الآية (٢٨).
[٨٩٥] (٣) سورة القصص: الآية (٥٤).
(٤) سورة الحديد: الآية (٢٨).
[٨٩٦] (٥) سورة الحديد: الآية (٢٨).
(٦) سورة الحديد: الآية (٢٩).
[٨٩٧] (٧) سورة الحديد: الآية (٢٩).

سورة الحديد

وهي تسع وعشرون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التسبيح: تبعيد الله تعالى من السوء، وكذا التقديس من سبح في الماء وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد.

واعلم أن التسبيح عن السوء يدخل فيه تبعيد الذات عن السوء، وتبعيد الصفات وتبعيد الأفعال، وتبعيد الأسماء وتبعيد الأحكام، أما في الذات: فأن لا تكون محلاً للإمكان، فإن السوء هو العدم وإمكانه، ثم نفي الإمكان يستلزم نفي الكثرة، ونفيها يستلزم نفي الجسمية والعرضية، ونفي الضد والند وحصول الوحدة المطلقة. وأما في الصفات: فأن يكون منزهًا عن الجهل بأن يكون محيطًا بكل المعلومات، ويكون قادرًا على كل المقدورات، وتكون صفاته منزهة عن التغيرات. وأما في الأفعال: فأن تكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال، لأن كل مادة ومثال فهو فعله، لما بينا أن كل ما عداه فهو ممكن، وكل ممكن فهو فعله، فلو افتقرت فاعليته إلى مادة ومثال، لزم التسلسل، وغير موقوفة على زمان ومكان، لأن كل زمان فهو مركب من أجزاء منقضية، فيكون ممكنًا، كل مكان فهو يعد ممكنًا مركبًا من أفراد الأحياز، فيكون كل واحد منهما ممكنًا ومحدثًا، فلو افتقرت فاعليته إلى زمان وإلى مكان، لافتقرت فاعلية الزمان والمكان إلى زمان ومكان، فيلزم التسلسل، وغير موقوفة على جلب منفعة، ولا دفع مضرة، وإلا لكان مستكملاً بغيره ناقصًا في ذاته، وذلك محال. وأما في الأسماء: فكما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأما في الأحكام: فهو أن كل ما شرعه فهو مصلحة وإحسان وخير، وأن كونه فضلاً وخيرًا ليس على سبيل الوجوب عليه، بل على سبيل الإحسان، وبالجملة يجب أن يعلم من هذا الباب أن حكمه وتكليفه لازم لكل أحد، وأنه ليس لأحد عليه حكم ولا تكليف ولا يجب لأحد عليه شيء أصلاً، فهذا هو ضبط معاقد التسبيح.

المسألة الثانية: جاء في بعض الفواتح ﴿سَبَّحَ﴾ على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع، وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وتكون مسبحة أبدًا في المستقبل، وذلك لأن كونها مسبحة صفة

لازمة لماهياتها، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح، وإنما قلنا: إن هذه المسبحية صفة لازمة لماهياتها، لأن كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن فهو مفتقر إلى الواجب، وكون الواجب واجبًا يقتضي تنزيهه عن كل سوء في الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء على ما بيناه، فظهر أن هذه المسبحية كانت حاصلة في الماضي، وتكون حاصلة في المستقبل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: هذا الفعل تارة عدي باللام كما في هذه السورة، وأخرى بنفسه كما في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح: ٩] وأصله التعدي بنفسه، لأن معنى سبحته أي بعدته عن السوء، فاللام إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أحدث التسبيح لأجل الله وخالصًا لوجهه.

المسألة الرابعة: زعم الزجاج أن المراد بهذا التسبيح، التسبيح الذي هو القول، واحتج عليه بوجهين: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤] فلو كان المراد من التسبيح، هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه، الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[الأنبياء: ٧٩] فلو كان تسبيحًا عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه السلام. واعلم أن هذا الكلام ضعيف (لحجتين):

أما الأولى: فلأن دلالة هذه الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها، فقوله: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ لعله إشارة إلى أقوام جهلوا بهذه الدلالة، وأيضًا فقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ إشارة إن لم يكن إشارة إلى جمع معين، فهو خطاب مع الكل فكأنه قال: كل هؤلاء ما فقهوا ذلك، وذلك لا ينافي أن يفقهه بعضهم.

وأما الحجة الثانية: فضعيفة، لأن هناك من المحتمل أن الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح. أما هذه الجمادات التي تعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال: إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح، إذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم عن الجمادات لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله تعالى على كونه عالمًا حيًّا، وذلك كفر، بل الحق أن التسبيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات، فإذًا التسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد لا بد وأن يكون مفسرًا بأحد وجهين: الأول: أنها تسبح بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه، والثاني: أن الممكنات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع، إذا عرفت هذه المقدمة، فنقول: إن حملنا التسبيح المذكور في الآية على التسبيح بالقول، كان المراد بقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من في السموات ومنهم حملة العرش: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ﴾[فصلت: ٣٨] ومنهم المقربون: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[سبأ: ٤١] ومن سائر الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾[الفرقان: ١٨] وأما المسبحون الذين هم في الأرض فمنهم

الأنبياء كما قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقال موسى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] والصحابة يسبحون كما قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وأما إن حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوي فأجزاء السموات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والنور والظلمة والذوات والصفات والأجسام والأعراض كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النحل: ٤٩] أما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فالمعنى أنه القادر الذي لا ينازعه شيء، فهو إشارة إلى كمال القدرة، والحكيم إشارة إلى أنه العالم الذي لا يحتجب عن علمه شيء من الجزئيات والكليات أو أنه الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب، ولما كان العلم بكونه قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا لا جرم قدم العزيز على الحكيم في الذكر.

واعلم أن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يدل على أن العزيز ليس إلا هو؛ لأن هذه الصيغة تفيد الحصر، يقال: زيد هو العالم لا غيره، فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد، لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم ومالا يكون كذلك لا يكون إلهًا.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢﴾

واعلم أن الملك الحق هو الذي يستغني في ذاته، وفي جميع صفاته عن كل ما عداه، ويحتاج كل ما عداه إليه في ذواتهم وفي صفاتهم، والموصوف بهذين الأمرين ليس إلا هو سبحانه. أما أنه مستغن في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه فلأنه لو افتقر في ذاته إلى الغير لكان ممكنًا لذاته فكان محدثًا، فلم يكن واجب الوجود، وأما أنه مستغن في جميع صفاته السلبية والإضافية عن كل ما عداه، فلأن كل ما يفرض صفة له، فإما أن تكون هويته سبحانه كافية في تحقق تلك الصفة سواء كانت الصفة سلبًا أو إيجابًا أو لا تكون كافية في ذلك، فإن كانت هويته كافية في ذلك لزم من دوام تلك الهوية دوام تلك الصفة سلبًا كانت الصفة أو إيجابًا، وإن لم تكن تلك الهوية كافية، فحينئذ تكون تلك الهوية ممتنعة الانفكاك عن ثبوت تلك الصفة وعن سلبها، ثم ثبوت تلك الصفة وسلبها، يكون متوقفًا على ثبوت أمر آخر وسلبه، والموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فهويته سبحانه تكون موقوفة التحقق على تحقق علة ثبوت تلك الصفة أو علة سلبها، والموقوف على الغير ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته، وهذا خلف، فثبت أنه سبحانه غير مفتقر لا في ذاته، ولا في شيء من صفاته السلبية ولا الثبوتية إلى غيره، وأما أن كل ما عداه مفتقر إليه فلأن كل ما عداه ممكن، لأن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد والممكن لا بد له من مؤثر، ولا واجب إلا هذا الواحد فإذن كل ما عداه فهو مفتقر

إليه سواء كان جوهرًا أو عرضًا، وسواء كان الجوهر روحانيًا أو جسمانيًا، وذهب جمع من العقلاء إلى أن تأثير واجب الوجود في إعطاء الوجود لا في الماهيات فواجب الوجود يجعل السواد موجودًا، أما أنه يستحيل أن يجعل السواد سوادًا، قالوا: لأنه لو كان كون السواد سوادًا بالفاعل، لكان يلزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يبقى السواد سوادًا وهذا محال، فيقال لهم: يلزمكم على هذا التقدير أن لا يكون الوجود أيضًا بالفاعل، وإلا لزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يكون الوجود وجودًا، فإن قالوا: تأثير الفاعل ليس في الوجود بل في جعل الماهية موصوفة بالوجود، قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن موصوفية الماهية بالوجود ليس أمرًا ثبوتيًا، إذ لو كان أمرًا ثبوتيًا لكانت له ماهية ووجود، فحينئذ تكون موصوفية تلك الماهية بالوجود زائدة عليه ولزم التسلسل وهو محال، وإذا كان موصوفية الماهية بالوجوه ليس أمرًا ثبوتيًا، استحال أن يقال: لا تأثير للفاعل في الماهية ولا في الوجود بل تأثيره في موصوفية الماهية بالوجود، الثاني: أن بتقدير أن تكون تلك الموصوفية أمرًا ثبوتيًا، استحال أيضًا جعلها أثرًا للفاعل، وإلا لزم عند فرض عدم ذلك الفاعل أن تبقى الموصوفية موصوفية، فظهر أن الشبهة التي ذكروها لو تمت واستقرت يلزم نفي التأثير والمؤثر أصلاً، بل كما أن الماهيات إنما صارت موجودة بتأثير واجب الوجود، فكذا أيضًا الماهيات إنما صارت ماهيات بتأثير واجب الوجود، وإذا لاحت هذه الحقائق ظهر بالبرهان العقلي صدق قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بل ملك السموات والأرض بالنسبة إلى كمال ملكه أقل من الذرة، بل لا نسبة له إلى كمال ملكه أصلاً، لأن ملك السموات والأرض ملك متناه، وكمال ملكه غير متناه، والمتناهي لا نسبة له ألبتة إلى غير المتناهي، لكنه سبحانه وتعالى ذكر ملك السموات والأرض لأنه شيء مشاهد محسوس، وأكثر الخلق عقولهم ضعيفة قلما يمكنهم الترقي من المحسوس إلى المعقول.

ثم إنه سبحانه لما ذكر من دلائل الآفاق ملك السموات والأرض ذكر بعده دلائل الأنفس فقال: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما: يحيي الأموات للبعث، ويميت الأحياء في الدنيا، والثاني: قال الزجاج: يحيي النطف فيجعلها أشخاصًا عقلاء فاهمين ناطقين، ويميت، وعندي فيه وجه ثالث وهو أنه ليس المراد من تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين وبأشخاص معينين، بل معناه أنه هو القادر على خلق الحياة والموت، كما قال في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] والمقصود منه كونه سبحانه هو المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق، لا يمنعه عنهما مانع ولا يرده عنهما راد، وحينئذ يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون.

المسألة الثانية: موضع ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ رفع على معنى هو يحيي ويميت، ويجوز أن يكون

نصبًا على معنى: له ملك السموات والأرض حال كونه محييًا ومميتًا. واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق أولاً: ودلائل الأنفس ثانيًا: ذكر لفظًا يتناول الكل فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفوائد هذه الآية مذكورة في أول سورة الملك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في تفسير هذه الآية: «**إِنَّهُ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَالْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ**»(١) واعلم أن هذا المقام مقام مهيب غامض عميق والبحث فيه من وجوه: الأول: أن تقدم الشيء على الشيء يعقل على وجوه: أحدها: التقدم بالتأثير فإنا نعقل أن لحركة الأصبع تقدمًا على حركة الخاتم، والمراد من هذا التقدم كون المتقدم مؤثرًا في المتأخر، وثانيها: التقدم بالحاجة لا بالتأثير، لأنا نعقل احتياج الاثنين إلى الواحد وإن كنا نعلم أن الواحد ليس علة للاثنين، وثالثها: التقدم بالشرف كتقدم أبي بكر على عمر، ورابعها: التقدم بالرتبة، وهو إما من مبدأ محسوس كتقدم الإمام على المأموم، أو من مبدأ معقول، وذلك كما إذا جعلنا المبدأ هو الجنس العالي، فإنه كلما كان النوع أشد تسفلاً كان أشد تأخرًا، ولو قلبناه انقلب الأمر، وخامسها: التقدم بالزمان، وهو أن الموجود في الزمان المتقدم، متقدم على الموجود في الزمان المتأخر، فهذا ما حصله أرباب العقول من أقسام القبلية والتقدم وعندي أن هاهنا قسمًا سادسًا، وهو مثل تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض، فإن ذلك التقدم ليس تقدمًا بالزمان، وإلا وجب أن يكون الزمان محيطًا بزمان آخر، ثم الكلام في ذلك المحيط كالكلام في المحاط به، فيلزم أن يحيط بكل زمان زمان آخر لا إلى نهاية بحيث تكون كلها حاضرة في هذا الآن، فلا يكون هذا الآن الحاضر واحدًا، بل يكون كل حاضر في حاضر آخر لا إلى نهاية وذلك غير معقول، وأيضًا فلأن مجموع تلك الآنات الحاضرة متأخر عن مجموع الآنات الماضية، فلمجموع الأزمنة زمان آخر محيط بها لكن ذلك محال، لأنه لما كان زمانًا كان داخلاً في مجموع الأزمنة، فإذًا ذلك الزمان داخل في ذلك المجموع وخارج عنه وهو محال، فظهر بهذا البرهان الظاهر أن تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض ليس بالزمان، وظاهر أنه ليس بالعلة ولا بالحاجة، وإلا لوجدا معًا، كما أن العلة والمعلول يوجدان معًا، والواحد والاثنين يوجدان معًا، وليس أيضًا بالشرف ولا بالمكان، فثبت أن تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض قسم سادس غير الأقسام الخمسة المذكورة، وإذا عرفت هذا فنقول: إن القرآن دل على أنه تعالى أول لكل ما عداه، والبرهان دل أيضًا على هذا المعنى، لأنا نقول: كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن محدث، فكل ما عدا الواجب فهو محدث، وذلك الواجب أول لكل ما عداه، إنما قلنا: أن ما عدا الواجب ممكن، لأنه لو وجد

---

(١) لم أجده.

شيئان واجبان لذاتهما لاشتركا في الواجب الذاتي، ولتباينا بالتعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيكون كل واحد منهما مركبًا، ثم كل واحد من جزأيه إن كان واجبًا فقد اشترك الجزآن في الوجوب وتباينا بالخصوصية، فيكون كل واحد من ذينك الجزأين أيضًا مركبًا ولزم التسلسل، وإن لم يكونا واجبين أو لم يكن أحدهما واجبًا، كان الكل المتقوم به أولى بأن لا يكون واجبًا، فثبت أن كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن محدث، لأن كل ممكن مفتقر إلى المؤثر، وذلك الافتقار إما حال الوجود أو حال العدم، فإذًا كان حال الوجود، فإما حال البقاء وهو محال لأنه يقتضي إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال، فإن تلك الحاجة إما حال الحدوث أو حال العدم، وعلى التقديرين فيلزم أن يكون كل ممكن محدثًا، فثبت أن كل ما عدا ذلك الواجب فهو محدث محتاج إلى ذلك الواجب، فإذًا ذلك الواجب يكون قبل كل ما عداه، ثم طلب العقل كيفية تلك القبلية فقلنا: لا يجوز أن تكون تلك القبلية بالتأثير، لأن المؤثر من حيث هو مؤثر مضاف إلى الأثر من حيث هو أثر والمضافان معًا، والمع لا يكون قبل، ولا يجوز أن تكون لمجرد الحاجة لأن المحتاج والمحتاج إليه لا يمتنع أن يوجدا معًا، وقد بينا أن تلك المعية هاهنا ممتنعة، ولا يجوز أن تكون لمحض الشرف فإنه ليس المطلوب من هذه القبلية هاهنا مجرد أنه تعالى أشرف من الممكنات، وأما القبلية المكانية فباطلة، وبتقدير ثبوتها فتقدم المحدث على المحدث أمر زائد آخر وراء كون أحدهما فوق الآخر بالجهة، وأما التقدم الزماني فباطل، لأن الزمان أيضًا ممكن ومحدث، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد، وأما ثانيًا فلأن أمارة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة، وكل ما وجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكنًا ومحدثًا والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث، فإذن الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث، فتقدم موجده عليه لا يكون بالزمان، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلاً في مجموع الأزمنة لأنه زمان، وأن يكون خارجًا عنها لأنه ظرفها، والظرف مغاير للمظروف لا محال، لكن كون الشيء الواحد داخلاً في شيء وخارجًا عنه محال، وأما ثالثًا فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير، فالجمع بينهما محال، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة، فإذن الذي عند العقل أنه متقدم على كل ما عداه، أنه ليس ذلك التقدم على أحد هذه الوجوه الخمسة، فبقي أنه نوع آخر من التقدم يغاير هذه الأقسام الخمسة، فأما كيفية ذلك التقدم فليس عند العقل منها خبر، لأن كل ما يخطر ببال العقل فإنه لا بد وأن يقترن به حال من الزمان، وقد دل الدليل على أن كل ذلك محال، فإذن كونه تعالى أولاً معلوم على سبيل الإجمال، فأما على سبيل التفصيل والإحاطة بحقيقة تلك الأولية، فليس عند عقول الخلق منه أثر.

النوع الثاني: من غوامض هذا الموضع، وهو أن الأزل متقدم على اللا يزال، وليس الأزل شيئًا سوى الحق، فتقدم الأزل على اللا يزال، يستدعي الامتياز بين الأزل وبين اللا يزال، فهذا يقتضي أن يكون اللا يزال له مبدأ وطرف، حتى يحصل هذا الامتياز، لكن فرض هذا الطرف محال، لأن كل مبدأ فرضته، فإن اللايزال كان حاصلاً قبله، لأن المبدأ الذي يفرض قبل ذلك الطرف المفروض بزيادة مائة سنة، يكون من جملة اللايزال، لا من جملة الأزل، فقد كان معنى اللايزال موجودًا قبل أن كان موجودًا وذلك محال.

النوع الثالث: من غوامض هذا الموضع، أن امتياز الأزل عن اللا يزال، يستدعي انقضاء حقيقة الأزل، وانقضاء حقيقة الأزل محال، لأن مالا أول له يمتنع انقضاؤه، وإذا امتنع انقضاؤه امتنع أن يحصل عقيبه ماهية اللا يزال، فإذن يمتنع امتياز الأزل عن اللا يزال، وامتياز اللا يزال عن الأزل، وإذا امتنع حصول هذا الامتياز امتنع حصول التقدم والتأخر، فهذه أبحاث غامضة في حقيقة التقدم والأولية والأزلية، وما هي إلا بسبب حيرة العقول البشرية في نور جلال ماهية الأزلية والأولية، فإن العقل إنما يعرف الشيء إذا أحاط به، وكل ما استحضره العقل، ووقف عليه فذاك يصير محاطًا به، والمحاط يكون متناهيًا، والأزلية تكون خارجة عنه، فهو سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً، لأن العقول شاهدة بإسناد المحدثات إلى موجد متقدم عليها فكونه تعالى أولاً أظهر من كل ظاهر من هذه الجهة، ثم إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود عقلك ومحاط علمك فيكون متناهيًا، فتكون الأولية خارجة عنا، فكونه تعالى أولاً إذا اعتبرته من هذه الجهة كان أبطن من كل باطن، فهذا هو البحث عن كونه تعالى أولاً.

أما البحث عن كونه آخرًا، فمن الناس من قال: هذا محال، لأنه تعالى إنما يكون آخر الكل ما عداه، لو بقي هو مع عدم كل ما عداه لكن عدم ما عداه إنما يكون بعد وجوده، وتلك البعدية، زمانية، فإذن لا يمكن فرض عدم كل عداه إلا مع وجود الزمان الذي به تتحقق تلك البعدية، فإذن حال ما فرض عدم كل ما عداه، أن لا يعدم كل ما عداه، فهذا خلف، فإذن فرض بقائه مع عدم كل ما عداه محال، وهذه الشبهة مبنية أيضًا على أن التقدم والتأخر لا يتقرران إلا بالزمان، وقد دللنا على فساد هذه المقدمة فبطلت هذه الشبهة، وأما الذين سلموا إمكان عدم كل ما عداه مع بقائه، فمنهم من أوجب ذلك حتى يتقرر كونه تعالى آخرًا للكل، وهذا مذهب جهم، فإنه زعم أنه سبحانه يوصل الثواب إلى أهل الثواب، ويوصل العقاب إلى أهل العقاب، ثم يفني الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسي والملك والفلك، ولا يبقى مع الله شيء أصلاً، فكما أنه كان موجودًا في الأزل ولا شيء يبقى موجودًا في اللا يزال أبد الآباد ولا شيء، واحتج عليه بوجوه أولها: قوله هو الآخر، يكون آخرًا إلا عند فناء الكل، وثانيها: أنه تعالى إما أن يكون عالـمًا بعدد حركات أهل الجنة والنار، أو لا يكون عالـمًا بها، فإن كان عالـمًا بها كان

عالمًا بكميتها، وكل ماله عدد معين فهو متناهٍ، فإذن حركات أهل الجنة متناهية، فإذن لا بد وأن يحصل بعدها عدم أبدي غير منقض وإذا لم يكن عالمًا بها كان جاهلاً بها والجهل على الله محال، وثالثها: أن الحوادث المستقبلة قابلة للزيادة والنقصان، وكل ما كان كذلك فهو مُتناهٍ والجواب: أن إمكان استمرار هذه الأشياء حاصل إلى الأبد، والدليل عليه هو أن هذه الماهيات لو زالت إمكاناتها، لزم أن ينقلب الممكن لذاته ممتنعًا لذاته، ولو انقلبت قدرة الله من صلاحية التأثير إلى امتناع التأثير، لانقلبت الماهيات وذلك محال، فوجب أن يبقى هذا الإمكان أبدًا، فإذن ثبت أنه يجب انتهاء هذه المحدثات إلى العدم الصرف، أما التمسك بالآية فسنذكر الجواب عنه بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وأما الشبهة الثانية: فجوابها أنه يعلم أنه ليس لها عدد معين، وهذا لا يكون جهلاً، إنما الجهل أن يكون له عدد معين ولا يعلمه، أما إذا لم يكن له عدد معين وأنت تعلمه على الوجه فهذا لا يكون جهلاً بل علمًا، وأما الشبهة الثالثة: فجوابها أن الخارج منه إلى الوجود أبدًا لا يكون متناهيًا، ثم إن المتكلمين لما أثبتوا إمكان بقاء العالم أبدًا عولوا في بقاء الجنة والنار أبدًا على إجماع المسلمين وظواهر الآيات، ولا يخفى تقريرها، وأما جمهور المسلمين الذين سلموا بقاء الجنة والنار أبدًا، فقد اختلفوا في معنى كونه تعالى آخرًا على وجوه أحدها: أنه تعالى يفني جميع العالم والممكنات فيتحقق كونه آخرًا، ثم إنه يوجدها ويبقيها أبدًا، وثانيها: أن الموجود الذي يصح في العقل أن يكون آخرًا لكل الأشياء ليس إلا هو، فلما كانت صحة آخرية كل الأشياء مختصة به سبحانه، لا جرم وُصِف بكونه آخرًا، وثالثها: أن الوجود منه تعالى يبتدئ، ولا يزال ينزل وينزل حتى ينتهي إلى الموجود الأخير، الذي يكون هو مسببًا لكل ما عداه، ولا يكون سببًا لشيء آخر، فبهذا الاعتبار يكون الحق سبحانه أولاً، ثم إذا انتهى أخذ يترقى من هذا الموجود الأخير درجة فدرجة حتى ينتهي إلى آخر الترقي، فهناك وجود الحق سبحانه، فهو سبحانه أول في نزول الوجود منه إلى الممكنات، آخر عند الصعود من الممكنات إليه، ورابعها: أنه يميت الخلق ويبقى بعدهم، فهو سبحانه آخر بهذا الاعتبار، وخامسها: أنه أول في الوجود وآخر في الاستدلال، لأن المقصود من جميع الاستدلالات معرفة الصانع، وأما سائر الاستدلالات التي لا يراد منها معرفة الصانع فهي حقيرة خسيسة، أما كونه تعالى ظاهرًا وباطنًا، فاعلم أنه ظاهر بحسب الوجود، فإنك لا ترى شيئًا من الكائنات والممكنات إلا ويكون دليلاً على وجوده وثبوته وحقيقته وبراءته عن جهات التغير على ما قررناه، وأما كونه تعالى باطنًا فمن وجوه، الأول: أن كمال كونه ظاهرًا سبب لكونه باطنًا، فإن هذه الشمس لو دامت على الفلك لما كنا نعرف أن هذا الضوء إنما حصل بسببها، بل ربما كنا نظن أن الأشياء مضيئة لذواتها إلا أنها لما كانت بحيث تغرب ثم ترى أنها متى غربت أبطلت الأنوار وزالت الأضواء عن هذا العالم، علمنا حينئذ أن هذه الأضواء من الشمس، فهاهنا لو أمكن انقطاع جود الله عن هذه الممكنات لظهر حينئذ أن وجود هذه الممكنات من وجود الله تعالى، لكنه لما دام ذلك الجود

ولم ينقطع صار دوامه وكماله سببًا لوقوع الشبهة، حتى إنه ربما يظن أن نور الوجود ليس منه بل وجود كل شيء له من ذاته، فظهر أن هذا الاستتار إنما وقع من كمال وجوده، ومن دوام جوده، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره، واحتجب عنها بكمال نوره.

الوجه الثاني: أن ماهيته غير معقولة للبشر ألبتة، ويدل عليه أن الإنسان لا يتصور ماهية الشيء إلا إذا أدركه من نفسه على سبيل الوجدان كالألم واللذة وغيرهما أو أدركه بحسه كالألوان والطعوم وسائر المحسوسات، فأما مالا يكون كذلك فيتعذر على الإنسان أن يتصور ماهيته ألبتة، وهويته المخصوصة جل جلاله ليست كذلك فلا تكون معقولة للبشر، ويدل عليه أيضًا أن المعلوم منه عند الخلق، إما الوجود وإما السلوب، وهو أنه ليس بجسم ولا جوهر، وإما الإضافة، وهو أنه الأمر الذي من شأنه كذا وكذا، والحقيقة المخصوصة مغايرة لهذه الأمور فهي غير معقولة ويدل عليه أن أظهر الأشياء منه عند العقل كونه خالقًا لهذه المخلوقات، ومتقدمًا عليها، وقد عرفت حيرة العقل ودهشته في معرفة هذه الأولية، فقد ظهر بما قدمناه أنه سبحانه هو الأول وهو الآخر، وهو الظاهر وهو الباطن، وسمعت والدي رحمه الله يقول: إنه كان يروى أنه لما نزلت هذه الآية أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا.

المسألة الثانية: احتج كثير من العلماء في إثبات أن الإله واحد بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قالوا الأول هو الفرد السابق، ولهذا المعنى لو قال: أول مملوك اشتريته فهو حر، ثم اشترى عبدين لم يعتقا، لأن شرط كونه أولاً حصول الفردية، وهاهنا لم تحصل، فلو اشترى بعد ذلك عبدًا واحدًا لم يعتق، لأن شرط الأولية كونه سابقًا وهاهنا لم يحصل، فثبت أن الشرط في كونه أولاً أن يكون فردًا، فكانت الآية دالة على أن صانع العالم فرد.

المسألة الثالثة: أكثر المفسرين قالوا: إنه أول لأنه قبل كل شيء، وإنه آخر لأنه بعد كل شيء، وإنه ظاهر بحسب الدلائل، وإنه باطن عن الحواس محتجب عن الأبصار، وأن جماعة لما عجزوا عن جواب جهم قالوا: معنى هذه الألفاظ مثل قول القائل: فلان هو أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي عليه يدور، وبه يتم.

واعلم أنه لما أمكن حمل الآية على الوجوه التي ذكرناها مع أنه يسقط بها استدلال جهم لم يكن بنا إلى حمل الآية على هذا المجاز حاجة، وذكروا في الظاهر والباطن أن الظاهر هو الغالب العالي على كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أي غالبين عالين، من قولك: ظهرت على فلان أي علوته، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] وهذا معنى ما روى في الحديث: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» وأما الباطن فقال الزجاج: إنه العالم بما بطن، كما يقول القائل: فلان يبطن أمر فلان، أي يعلم أحواله الباطنة قال الليث: يقال: أنت أبطن بهذا الأمر من فلان، أي أخبر بباطنه، فمعنى كونه باطنًا، كونه عالمًا ببواطن الأمور، وهذا التفسير عندي فيه نظر، لأن قوله بعد ذلك: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يكون تكرارًا. أما على التفسير

الأول فإنه يحسن موقعه لأنه يصير التقدير كأنه قيل: إن أحدًا لا يحيط به ولا يصل إلى أسراره، وإنه لا يخفى عليه شيء من أحوال غيره، ونظيره ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو مفسر في الأعراف والمقصود منه دلائل القدرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وهو مفسر في سبأ، والمقصود منه كمال العلم، وإنما قدم وصف القدرة على وصف العلم، لأن العلم بكونه تعالى قادرًا قبل العلم بكونه تعالى عالمًا، ولذلك ذهب جمع من المحققين إلى أن أول العلم بالله، هو العلم بكونه قادرًا، وذهب آخرون إلى أن أول العلم بالله هو العلم بكونه مؤثرًا، وعلى التقديرين فالعلم بكونه قادرًا متقدم على العلم بكونه عالمًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أنه قد ثبت أن كل ما عدا الواجب الحق فهو ممكن، وكل ممكن فوجوده من الواجب، فإذن وصول الماهية الممكنة إلى وجودها بواسطة إفادة الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية وبين وجودها، فهو إلى كل ماهية أقرب من وجود تلك الماهية، ومن هذا السر قال المحققون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله، وقال المتوسطون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه، وقال الظاهريون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

واعلم أن هذه الدقائق التي أظهرناها في هذه المواضع لها درجتان: إحداهما: أن يصل الإنسان إليها بمقتضى الفكرة والروية والتأمل والتدبر، والدرجة الثانية: أن تتفق لنفس الإنسان قوة ذوقية وحالة وجدانية لا يمكن التعبير عنها، وتكون نسبة الإدراك مع الذوق إلى الإدراك لا مع الذوق، كنسبة من يأكل السكر إلى من يصف حلاوته بلسانه.

المسألة الثانية: قال المتكلمون: هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ والحراسة، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز، فإذن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا بد فيه من التأويل وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع.

المسألة الثالثة: اعلم أن في هذه الآيات ترتيبًا عجيبًا، وذلك لأنه بيّن قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: ٣] كونه إلهًا لجميع الممكنات والكائنات، ثم بيَّن كونه إلهًا للعرش والسموات والأرضين. ثم بيَّن بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ معيته لنا بسبب القدرة والإيجاد والتكوين وبسبب العلم وهو كونه عالمًا بظواهرنا وبواطننا، فتأمل في كيفية هذا الترتيب، ثم تأمل في ألفاظ هذه الآيات فإن فيها أسرارًا عجيبة وتنبيهات على أمور عالية.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي إلى حيث لا مالك سواه، ودل بهذا القول على إثبات المعاد.

ثم قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهذه الآيات قد تقدم تفسيرها في سائر السور، وهي جامعة بين الدلالة على قدرته، وبين إظهار نعمه، والمقصود من إعادتها البعث على النظر والتأمل، ثم الاشتغال بالشكر.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواعًا من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة، أتبعها بالتكاليف، وبدأ بالأمر بالإيمان بالله ورسوله، فإن قيل قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ خطاب مع من عرف الله، أو مع من لم يعرف الله؟ فإن كان الأول كان ذلك أمرًا بأن يعرفه من عرف، فيكون ذلك أمرًا بتحصيل الحاصل وهو محال، وإن كان الثاني كان الخطاب متوجهًا على من لم يكن عارفًا به، ومن لم يكن عارفًا به استحال أن يكون عارفًا بأمره، فيكون الأمر متوجهًا على من يستحيل أن يعرف كونه مأمورًا بذلك الأمر، وهذا تكليف ما لا يطاق، والجواب: من الناس من قال: معرفة وجود الصانع حاصلة للكل، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه أمر الناس أولاً بأن يشتغلوا بطاعة الله، ثم أمرهم ثانيًا بترك الدنيا والإعراض عنها وإنفاقها في سبيل الله، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١]، فقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو المراد هاهنا من قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ هو المراد هاهنا من قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾.

المسألة الثانية: في الآية وجهان: الأول: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، ثم إنه تعالى جعلها تحت يد المكلف، وتحت تصرفه لينتفع بها على وفق إذن الشرع، فالمكلف في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة، فوجب أن

يسهل عليكم الإنفاق من تلك الأموال، كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه الثاني: أنه جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم، لأجل أنه نقل أموالهم إليكم على سبيل الإرث، فاعتبروا بحالهم، فإنها كما انتقلت منهم إليكم فستنقل منكم إلى غيركم فلا تبخلوا بها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في هذا الإنفاق، فقال بعضهم: هو الزكاة الواجبة، وقال آخرون: بل يدخل فيه التطوع، ولا يمتنع أن يكون عامًّا في جميع وجوه البر، ثم إنه تعالى ضمن لمن فعل ذلك أجرًا كبيرًا فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قال القاضي: هذه الآية تدل على أن هذا الأجر لا يحصل بالإيمان المنفرد حتى ينضاف هذا الإنفاق إليه، فمن هذا الوجه يدل على أن من أخل بالواجب من زكاة وغيرها فلا أجر له.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف، وذلك لأن الآية تدل على أن من أخل بالزكاة الواجبة لم يحصل له ذلك الأجر الكبير، فلم قلتم: إنها تدل على أنه لا أجر له أصلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى وبَّخ على ترك الإيمان بشرطين: أحدهما: أن يدعو الرسول، والمراد أنه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة، الثاني: أنه أخذ الميثاق عليهم، وذكروا في أخذ الميثاق وجهين: الأول: ما نصب في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل، واعلم أن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين، فلذلك سماه ميثاقًا، وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل، أما النقل فبقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾، وأما العقل فبقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان، فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة عليه، واحتج بهذه الآية من زعم أن معرفة الله تعالى لا تجب إلا بالسمع، قال: لأنه تعالى إنما ذمهم بناء على أن الرسول يدعوهم، فعلمنا أن استحقاق الذم لا يحصل إلا عند دعوة الرسول، الوجه الثاني في تفسير أخذ الميثاق: قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببًا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببًا في وجوب تصديق الرسول، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد، فذلك يكون سببًا لوجوب الإيمان بالرسول، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز.

المسألة الثانية: قال القاضي قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان إذ لا يجوز أن يقال ذلك

إلا لمن لا يتمكن من الفعل، كما لا يقال: مالك لا تطول ولا تبيض، فيدل هذا على أن الاستطاعة قبل الفعل، وعلى أن القدرة صالحة للضدين، وعلى أن الإيمان حصل بالعبد لا بخلق الله.

المسألة الثالثة: قرئ: (وقد أُخِذَ ميثاقكم) على البناء للفاعل، أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالمعنى إن كنتم تؤمنون بشيء لأجل دليل، فما لكم لا تؤمنون الآن، فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية، وبلغت مبلغًا لا يمكن الزيادة عليها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

قال القاضي: بيَّن بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التي هي القرآن، وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولو كان تعالى يريد من بعضهم الثبات على ظلمات الكفر، ويخلق ذلك فيهم، ويقدره لهم تقديرًا لا يقبل الزوال لم يصح هذا القول، فإن قيل: أليس أن ظاهره يدل على أنه تعالى يخرج من الظلمات إلى النور، فيجب أن يكون الإيمان من فعله؟ قلنا: لو أراد بهذا الإخراج خلق الإيمان فيه لم يكن لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ معنى، لأنه سواء تقدم ذلك أو لم يتقدم، فخلقه لما خلقه لا يتغير، فالمراد إذن بذلك أنه يلطف بهم في إخراجهم من الظلمات إلى النور ولولا ذلك لم يكن بأن يصف نفسه بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور أولى من أن يصف نفسه بأنه يخرجهم من النور إلى الظلمات.

واعلم أن هذا الكلام على خسته وروغته معارض بالعلم، وذلك لأنه تعالى كان عالمًا بأن علمه سبحانه بعدم إيمانهم قائم، وعالمًا بأن هذا العلم ينافي وجود الإيمان، فإذا كلفهم بتكوين أحد الضدين مع علمه بقيام الضد الآخر في الوجود بحيث لا يمكن إزالته وإبطاله، فهل يعقل مع ذلك أن يريد بهم ذلك الخير والإحسان، لا شك أن هذا مما لا يقوله عاقل، وإذا توجهت المعارضة زالت تلك القوة، أما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد حمله بعضهم على بعثة محمد ﷺ فقط، وهذا التخصيص لا وجه له، بل يدخل فيه ذلك مع سائر ما يتمكن به المرء من أداء التكاليف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

لما أمر أولاً بالإيمان وبالإنفاق، ثم أكد في الآية المتقدمة إيجاب الإيمان أتبعه في هذه الآية

بتأكيد إيجاب الإنفاق، والمعنى أنكم ستموتون فتورثون، فهلا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله، وتحقيقه أن المال لا بد وأن يخرج عن اليد، إما بالموت وإما بالإنفاق في سبيل الله، فإن وقع على الوجه الأول، كان أثره اللعن والمقت والعقاب، وإن وقع على الوجه الثاني، كان أثره المدح والثواب، وإذا كان لا بد من خروجه عن اليد، فكل عاقل يعلم أن خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب أولى منه بحيث يستعقب اللعن والعقاب.

ثم لما بيَّن تعالى أن الإنفاق فضيلة بيَّن أن المسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: تقدير الآية: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح، ومن أنفق من بعد الفتح، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ [الحشر: ٢٠] إلا أنه حذف لوضوح الحال.

المسألة الثانية: المراد بهذا الفتح فتح مكة، لأن إطلاق لفظ الفتح في المتعارف ينصرف إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ**» وقال أبو مسلم: ويدل القرآن على فتح آخر بقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] وأيهما كان، فقد بيَّن الله عظم موقع الإنفاق قبل الفتح.

المسألة الثالثة: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في فضل أبي بكر الصديق، لأنه كان أول من أنفق المال على رسول الله ﷺ في سبيل الله، قال عمر: كنت قاعدًا عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة خللها في صدره؟ فقال: «**أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ الْفَتْحِ**»(١).

واعلم أن الآية دلت على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله، والقتال مع أعداء الله قبل الفتح يكون أعظم حالاً ممن صدر عنه هذان الأمران بعد الفتح، ومعلوم أن صاحب الإنفاق هو أبو بكر، وصاحب القتال هو علي، ثم إنه تعالى قدم صاحب الإنفاق في الذكر على صاحب القتال، وفيه إيماء إلى تقديم أبي بكر، ولأن الإنفاق من باب الرحمة، والقتال من باب الغضب، وقال تعالى: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**»(٢) فكان السبق لصاحب الإنفاق، فإن قيل: بل صاحب الإنفاق هو علي، لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨] قلنا: إطلاق القول بأنه أنفق لا يتحقق إلا إذا أنفق في الوقائع العظيمة أموالاً عظيمة، وذكر الواحدي في البسيط أن أبا بكر كان

---

(١) إسناده ضعيف: رواه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ١٠٥) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٧١) والبغوي في (التفسير) (٨/ ٣٤) والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ١٣٣) وأبو نعيم في (فضائل الخلفاء) (١/ ١١٣) حديث رقم (٦٣) جميعًا من طريق أبي إسحاق الفزاري حدثنا سفيان بن سعيد عن آدم... به وفي إسناده العلاء بن عمرو قال ابن حبان: يروي عن أبي إسحاق الفزاري العجائب لا يجوز الاحتجاج به بحال.

(٢) تقدم.

أول من قاتل على الإسلام، ولأن عليًا في أول ظهور الإسلام كان صبيًا صغيرًا، ولم يكن صاحب القتال وأما أبا بكر فإنه كان شيخًا مقدمًا، وكان يذب عن الإسلام حتى ضرب بسببه ضربًا أشرف به على الموت.

المسألة الرابعة: جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام، وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ قبل الفتح، وبينوا الوجه في ذلك وهو عظم موقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال، وفي عدد المسلمين قلة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد، فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويًا، والكفر ضعيفًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: أي وكل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت الدرجات.

المسألة الثانية: القراءة المشهورة (وكُلًّا) بالنصب، لأنه بمنزلة: زيدًا وعدت خيرًا، فهو مفعول وعد، وقرأ ابن عامر: (وَكُلٌّ) بالرفع، وحجته أن الفعل إذا تأخر عن مفعوله لم يقع عمله فيه، والدليل عليه أنهم قالوا: زيد ضربت، وكقوله في الشعر:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي ... عَلَيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ (١)

روي (كُلُّهُ) بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر، واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلامًا حسنًا، قال: إن المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب، فإنه إذا قال: ما فعلت كل الذنوب، أفاد أنه ما فعل الكل، ويبقى احتمال أنه فعل البعض، بل عند من يقول: بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافًا بأنه فعل بعض الذنوب. أما رواية الرفع، وهي قوله: كله لم أصنع، فمعناه أن كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع، فيكون معناه أنه ماأتى بشيء من الذنوب ألبتة، وغرض الشاعر أن يدعي البراءة عن جميع الذنوب، فعلمنا أن المعنى يتفاوت بالرفع والنصب، ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الإعراب في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فمن قرأ (كُلَّ شيء) بالنصب، أفاد أنه تعالى خلق الكل بقدر، ومن قرأ (كَلُّ) بالرفع لم يفد أنه تعالى خلق الكل، بل يفيد أن كل ما كان مخلوقًا له فهو إنما خلقه بقدر، وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب

(١) هذا البيت لأبي النجم العجلي وقد تقدمت ترجمته.

تفاوت المعنى كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩] فإنك سواء قرأت (وَالْقَمَرَ) بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد فكذا في هذه الآية سواء قرأت ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أو قرأت (وكلٌّ وعد الله الحسنى) فإن المعنى واحد غير متفاوت.

المسألة الثالثة: تقدير الآية: وكلا وعده الله الحسنى إلا أنه حذف الضمير لظهوره كما في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وكذا قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والمعنى أنه تعالى لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلا بد وأن يكون عالمًا بالجزئيات، وبجميع المعلومات، حتى يمكنه إيصال الثواب إلى المستحقين، إذ لو لم يكن عالمًا بهم وبأفعالهم على سبيل التفصيل، لما أمكن الخروج عن عهدة الوعد بالتمام، فلهذا السبب أتبع ذلك الوعد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا أن رجلاً من اليهود قال عند نزول هذه الآية: ما استقرض إله محمد حتى افتقر، فلطمه أبو بكر، فشكا اليهودي ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما أردت بذلك؟ فقال: ما ملكت نفسي أن لطمته فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] قال المحققون: اليهودي إنما قال ذلك على سبيل الاستهزاء، لا لأن العاقل يعتقد أن الإله يفتقر، وكذا القول في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

المسألة الثانية: أنه تعالى أكد بهذه الآية ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في نصرة المسلمين وقتال الكافرين ومواساة فقراء المسلمين، وسمي ذلك الإنفاق قرضًا من حيث وعد به الجنة تشبيهًا بالقرض.

المسألة الثالثة: اختلفوا في المراد من هذا الإنفاق، فمنهم من قال: المراد الإنفاقات الواجبة، ومنهم من قال: بل هو في التطوعات، والأقرب دخول الكل فيه.

المسألة الرابعة: ذكروا في كون القرض حسنًا وجوهًا: أحدها: قال مقاتل: يعني طيبة بها نفسه، وثانيها: قال الكلبي: يعني يتصدق بها لوجه الله، وثالثها: قال بعض العلماء: القرض لا يكون حسنًا حتى يجمع أوصافًا عشرة: الأول: أن يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّه طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ الطَّيِّبَ»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَقْبَلُ اللَّه صَلاَةً

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (قبول الصدقة من الكسب الطيب) (٢/ ٦٥/ ٧٠٣) والترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة البقرة) (٥/ ٢٠٥) حديث رقم (٢٩٨٩)، من طريق أبي نعيم... به وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في أكل الطيب) (٢/ ١٨٣) حديث رقم (٢٧١٧) جميعًا عن الفضيل بن مرزوق... به.

بغَيْرِ طُهُورٍ، وَلاَ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»[١]، والثاني: أن يكون من أكرم ما يملكه دون أن ينفق الرديء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، الثالث: أن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه بأن ترجو الحياة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] وبقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] على أحد التأويلات وقال عليه الصلاة والسلام: «الصَّدَقَةُ أَنْ تُعْطِيَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الْعَيْشَ، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا»، والرابع: أن تصرف صدقتك إلى الأحوج الأولى بأخذها، ولذلك خص الله تعالى أقوامًا بأخذها وهم أهل السهمان، الخامس: أن تكتم الصدقة ما أمكنك؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، السادس: أن لا تتبعها منًّا ولا أذى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، السابع: أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي، كما قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢٠، ٢١] ولأن المرائي مذموم بالاتفاق، الثامن: أن تستحقر ما تعطي وإن كثر، لأن ذلك قليل من الدنيا، والدنيا كلها قليلة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] في أحد التأويلات، التاسع: أن يكون من أحب أموالك إليك، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، العاشر: أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير، بل يكون الأمر بالعكس في نظرك، فترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قَبِله بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وترى نفسك تحت دين الفقير، فهذه أوصاف عشرة إذا اجتمعت كانت الصدقة قرضًا حسنًا، وهذه الآية مفسرة في سورة البقرة.

ثم إنه تعالى قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أنه تعالى ضمن على هذا القرض الحسن أمرين: أحدهما: المضاعفة على ما ذكر في سورة البقرة، وبيَّن أن مع المضاعفة له أجر كريم، وفيه قولان: الأول: وهو قول أصحابنا أن المضاعفة إشارة إلى أنه تعالى يضم إلى قدر الثواب مثله من التفضل والأجر الكريم عبارة عن الثواب، فإن قيل: مذهبكم أن الثواب أيضًا تفضل فإذا لم يحصل الامتياز لم يتم هذا التفسير، الجواب: أنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ، أن كل من صدر منه الفعل الفلاني، فله قدر كذا من الثواب، فذاك القدر هو الثواب، فإذا ضم إليه مثله فذلك المثل هو الضعف.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة) باب (فرض الوضوء) (١/ ١٦) حديث رقم (٥٩) من طريق شعبة... به والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (فرض الوضوء) (١/ ٩٥) حديث رقم (١٣٩) من طريق أبي عوانة... به وابن ماجه في كتاب (الطهارة) باب (لا تقبل الصلاة بغير طهور) (١/ ١٠٠) حديث رقم (٢٧١). من طريق شعبة... به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٧٤) من طريق شعبة... به والدارمي في كتاب (الطهارة) باب (لا تقبل الصلاة بغير طهور) (١/ ١٦٦) حديث رقم (٦٨٦) وأورده ابن حجر في (فتح الباري) (٣/ ٣٢٦) وقال: إسناده صحيح كلاهما من طريق قتادة... به. والحديث رواه مسلم في (صحيحه) (١/ ٢٠٤/ ٢٢٤) من طريق سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن ابن عمر... به.

والقول الثاني: هو قول الجبائي من المعتزلة أن الأعواض تضم إلى الثواب فذلك هو المضاعفة، وإنما وصف الأجر بكونه كريمًا لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف، وبسببه حصلت تلك الزيادة، فكان كريمًا من هذا الوجه.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر: (فَيُضَعِّفَهُ) مشددة بغير ألف، ثم إن ابن كثير قرأ بضم الفاء وابن عامر بفتح الفاء، وقرأ عاصم (فَيُضَاعِفَهُ) بالألف وفتح الفاء، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: (فَيُضَاعِفُه) بالألف وضم الفاء، قال أبو علي الفارسي: يضاعف ويُضعِّف بمعنى إنما الشأن في تعليل قراءة الرفع والنصب، أما الرفع فوجهه ظاهر لأنه معطوف على ﴿يُقْرِضُ﴾، أو على الانقطاع من الأول، كأنه قيل: فهو يضاعف، وأما قراءة النصب فوجهها أنه لما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ فكأنه قال: أيقرض الله أحدًا قرضًا حسنًا، ويكون قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ جوابًا عن الاستفهام فحينئذ ينصب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] أو منصوب باذكر تعظيمًا لذلك اليوم.

المسألة الثانية: المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة، واختلفوا في هذا النور على وجوه: أحدها: قال قوم: المراد نفس النور على ما روي عن رسول الله ﷺ: «**أن كُلَّ مُثَابٍ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ النُّورُ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَثَوَابِهِ فِي الْعِظَمِ وَالصِّغَرِ**» فعلى هذا مراتب الأنوار مختلفة فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نور إلا موضع قدميه، وأدناهم نورًا من يكون نوره على إبهامه ينطفئ مرة ويتقد أخرى، وهذا القول منقول عن ابن مسعود، وقتادة وغيرهما، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وينادى يوم القيامة يا فلان ها نورك، ويا فلان لا نور لك، نعوذ بالله منه، واعلم أنا بينا في سورة النور، أن النور الحقيقي هو الله تعالى، وأن نور العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نورًا من نور البصر، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله هي النور في القيامة فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا، القول الثاني: أن المراد من النور ما يكون سببًا للنجاة، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كماأن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم، القول الثالث: المراد بهذا النور الهداية إلى الجنة، كما يقال: ليس لهذا الأمر نور، إذا لم يكن المقصود حاصلاً، ويقال: هذا الأمر له نور ورونق، إذا كان المقصود حاصلاً.

المسألة الثالثة: قرأ سهل بن شعيب (وبإيمانهم) بكسر الهمزة، والمعنى: يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم حصل ذلك السعي، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]أي ذلك كائن بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: حقيقة البشارة ذكرناها في تفسير قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [البقرة: ٢٥]ثم قالوا: تقدير الآية وتقول لهم الملائكة: بشراكم اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أن المؤمنين لا ينالهم أهوال يوم القيامة لأنه تعالى بيَّن أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص.

المسألة الثالثة: احتج الكعبي على أن الفاسق ليس بمؤمن فقال: لو كان مؤمنًا لدخل تحت هذه البشارة، ولو كان كذلك لقطع بأنه من أهل الجنة، ولما لم يكن كذلك ثبت أنه ليس بمؤمن، والجواب: أن الفاسق قاطع بأنه من أهل الجنة لأنه إما أن لا يدخل النار أو إن دخلها لكنه سيخرج منها وسيدخل الجنة ويبقى فيها أبد الآباد، فهو إذن قاطع بأنه من أهل الجنة، فسقط هذا الاستدلال.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد إلى جميع ما تقدم وهو النور والبشرى بالجنات المخلدة.

المسألة الخامسة: قرئ: (ذَلِكَ الْفَوْزُ)، بإسقاط كلمة: هو.

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين. فقال:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾، بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ [الحديد: ١٢] أو هو أيضًا منصوب باذكر تقديرًا.

المسألة الثانية: قرأ حمزة وحده (أَنْظِرُونَا) مكسورة الظاء، والباقون (انْظُرُونا)، قال أبو علي الفارسي لفظ النظر يستعمل على ضروب أحدها: أن تريد به نظرت إلى الشيء، فيحذف الجار ويوصل الفعل، كما أنشد أبو الحسن:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرْنَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكَ الظِّبَاءُ(١)

والمعنى ينظرن إلى الأراك، وثانيها: أن تريد به تأملت وتدبرت، ومنه قولك: اذهب فانظر زيدًا أيؤمن، فهذا يراد به التأمل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الأسراء: ٤٨]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النساء: ٥٠]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١] قال: وقد يتعدى هذا بإلى كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] وهذا نص على التأمل، وبيان وجه الحكمة فيه، وقد يتعدى بفي، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]، وثالثها: أن يراد بالنظر الرؤية كما في قوله:

وَلَمَّا بَدَا حَوْرَانُ وَالْآلُ دُونَهُ نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنِكَ مَنْظَرَا(٢)

والمعنى نظرت، فلم تر بعينك منظرًا تعرفه في الآل قال: إلا أن هذا على سبيل المجاز، لأنه دلت الدلائل على أن النظر عبارة عن تقلب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، فلما كانت الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبًا أجرى على الرؤية لفظ النظر على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب قال: ويجوز أن يكون قوله: (نَظَرْتَ فلم تَنظُر)، كما يقال: تكلَّمْتَ وما تكلمت، أي ما تكلمت بكلام مفيد، فكذا هنا نظرت وما نظرت نظرًا مفيدًا، ورابعها: أن يكون النظر بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وعلى هذا الوجه يكون نظرت معناه انتظرت، ومجيء فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير، كقولهم: شَوَيتُ واشْتَويتُ، وحَقَرْتُ واحتقرتُ، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يحتمل وجهين الأول: انظرونا، أي انتظرونا، لأنه يسرع بالمؤمنين إلى الجنة كالبروق الخاطفة، والمنافقون مشاة، والثاني: انظرونا أي انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، والنور بين أيديهم فيستضيئون به، وأما قراءة (أنظِرونا) مكسورة الظاء فهي من النظرة والإمهال، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] وأمر رسول الله ﷺ بإنظار المعسر، والمعنى أنه جعل اتئادهم في المشي إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم.

واعلم أن أبا عبيدة والأخفش كانا يطعنان في صحة هذه القراءة، وقد ظهر الآن وجه صحتها.

المسألة الثالثة: اعلم أن الاحتمالات في هذا الباب ثلاثة: أحدها: أن يكون الناس كلهم في الظلمات، ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار، والمنافقون يطلبونها منهم، وثانيها: أن تكون الناس كلهم في الأنوار، ثم إن المؤمنين يكونون في الجنات فيمرون سريعًا، والمنافقون

---

(١) هذا البيت وجدته للشاعر عبيد الله بن الرقيات وهو هكذا:

ظاهِراتُ الجَمالِ وَالسَرو يَنظُر نَ كَما يَنظُرُ الأَراكَ الظِباءُ

وأما عبيد الله بن الرقيات فقد ترجم له من قبل.

(٢) هذا البيت لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

يبقون وراءهم فيطلبون منهم الانتظار، وثالثها: أن يكون المؤمنون في النور والمنافقون في الظلمات، ثم المنافقون يطلبون النور مع المؤمنين، وقد ذهب إلى كل واحد من هذه الاحتمالات قوم، فإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند الموقف، فالمراد من قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم، فقد أقبلوا عليهم، ومتى أقبلوا عليهم وكانت أنوارهم من قدامهم استضاءوا بتلك الأنوار، وإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند مسير المؤمنين إلى الجنة، كان المراد من قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يحتمل أن يكون هو الانتظار وأن يكون النظر إليهم.

المسألة الرابعة: القبس: الشعلة من النار أو السراج، والمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا وهو منهم جهل، لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا، فلما لم توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة، قال الحسن: يعطى يوم القيامة كل أحد نورًا على قدر عمله، ثم إنه يؤخذ من حر جهنم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق، فتمضي زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء الكواكب في السماء، ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفئ نور المنافقين، فهنالك يقول المنافقون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ كقبس النار.

المسألة الخامسة: ذكروا في المراد من قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وجوهًا أحدها: أن المراد منه: ارجعوا إلى دار الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هنالك، فإن هذه الأنوار إنما تتولد من اكتساب المعارف الإلهية، والأخلاق الفاضلة والتنزه عن الجهل والأخلاق الذميمة، والمراد من ضرب السور، هو امتناع العود إلى الدنيا، وثانيها: قال أبو أمامة: الناس يكونون في ظلمة شديدة، ثم المؤمنون يعطون الأنوار، فإذا أسرع المؤمن في الذهاب قال المنافق: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ قال: وهي خدعة خدع بها المنافقون، كما قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا، فينصرفون إليهم فيجدون السور مضروبًا بينهم وبين المؤمنين، وثالثها: قال أبو مسلم: المراد من قول المؤمنين: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ منع المنافقين عن الاستضاءة، كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك، فعلى هذا القول المقصود من قوله: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ألبتة، لا أنه أمرٌ لهم بالرجوع.

قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اختلفوا في السور، فمنهم من قال: المراد منه الحجاب والحيلولة أي المنافقون منعوا عن طلب المؤمنين، وقال آخرون: بل المراد حائط بين الجنة والنار، وهو قول قتادة، وقال مجاهد: هو حجاب الأعراف.

المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِسُورٍ﴾ صلة وهي للتأكيد والتقدير: ضرب بينهم سور كذا، قاله الأخفش، ثم قال: ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي لذلك السور باب ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي في باطن ذلك

السور الرحمة، والمراد من الرحمة الجنة التي فيها المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ يعني وخارج السور ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي من قبله يأتيهم العذاب، والمعنى أن ما يلي المؤمنين ففيه الرحمة، وما يلي الكافرين يأتيهم من قبله العذاب، والحاصل أن بين الجنة والنار حائط وهو السور، ولذلك السور باب، فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور، والكافرون يبقون في العذاب والنار.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، والثاني: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات، وهذا القول هو المتعين.

المسألة الثانية: البعد بين الجنة والنار كثير، لأن الجنة في أعلى السموات، والنار في الدرك الأسفل، فهذا يدل على أن البعد الشديد لا يمنع من الإدراك، ولا يمكن أن يقال: إن الله عظم صوت الكفار بحيث يبلغ من أسفل السافلين إلى أعلى عليين، لأن مثل هذا الصوت إنما يليق بالأشداء الأقوياء جدًّا، والكفار موصوفون بالضعف وخفاء الصوت، فعلمنا أن البعد لا يمنع من الإدراك على ما هو مذهبنا، ثم حكى تعالى: أن المؤمنين قالوا: بلى كنتم معنا إلا أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في هذا العذاب أولها: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي بالكفر والمعاصي وكلها فتنة، وثانيها: قوله: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ وفيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: تربصتم بالتوبة، وثانيها: قال مقاتل: وتربصتم بمحمد الموت، قلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، وثالثها: كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار، وتتخلصوا من النفاق، وثالثها: قوله: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وفيه وجوه الأول: شككتم في وعيد الله، وثانيها: شككتم في نبوة محمد، وثالثها: شككتم في البعث والقيامة، ورابعها: قوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ قال ابن عباس: يريد الباطل وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموت، والمعنى ما زالوا في خدع الشيطان وغروره حتى أماتهم الله وألقاهم في النار.

قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ سماك بن حرب: (الغُرور) بضم الغين، والمعنى: وغركم بالله الاغترار وتقديره على حذف المضاف أي غركم بالله سلامتكم منه مع الاغترار.

المسألة الثانية: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين هو الشيطان لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. الفدية: ما يفتدى به وهو قولان:

الأول: لا يؤخذ منكم إيمان ولا توبة، فقد زال التكليف وحصل الإلجاء.

الثاني: بل المراد لا يقبل منكم فدية تدفعون بها العذاب عن أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، واعلم أن الفدية: ما يفتدى به فهو يتناول الإيمان والتوبة والمال، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً على ما تقوله المعتزلة لأنه تعالى بيَّن أنه لا يقبل الفدية أصلاً والتوبة فدية، فتكون الآية دالة على أن التوبة غير مقبولة أصلاً، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلاً، أما قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ففيه بحث: وهو عطف الكافر على المنافق يقتضي أن لا يكون المنافق كافرًا لوجوب حصول المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، والجواب: المراد الذين أظهروا الكفر وإلا فالمنافق كافر.

ثم قال تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي لفظ المولى هاهنا أقوال: أحدها قال ابن عباس: ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي مصيركم، وتحقيقه أن المولى موضع الولي، وهو القرب، فالمعنى أن النار هي موضعكم الذي تقربون منه وتصلون إليه، والثاني: قال الكلبي: يعني أولى بكم، وهو قول الزجاج والفراء وأبي عبيدة، واعلم أن هذا الذي قالوه معنى وليس بتفسير للفظ، لأن لو كان مولى وأولى بمعنى واحد في اللغة، لصح استعمال كل واحد منهما في مكان الآخر، فكان يجب أن يصح أن يقال: هذا مولى من فلان كما يقال: هذا أولى من فلان، ويصح أن يقال: هذا أولى فلان كما يقال: هذا مولى فلان، ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنى وليس بتفسير، وإنما نبهنا على هذه الدقيقة لأن الشريف المرتضى لما تمسك بإمامة علي بقوله عليه السلام: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ» قال: أحد معاني مولى أنه أولى، واحتج في ذلك بأقوال أئمة اللغة في تفسير هذه الآية، بأن مولى معناه أولى، وإذا ثبت أن اللفظ محتمل له وجب حمله عليه، لأن ما عداه إما بين الثبوت، ككونه ابن العم والناصر، أو بين الانتفاء، كالمُعتِق والمُعتَق، فيكون على التقدير الأول عبثًا، وعلى التقدير الثاني كذبًا، وأما نحن فقد بينا بالدليل أن قول هؤلاء في هذا الموضع معنى لا تفسير، وحينئذ يسقط الاستدلال به، وفي الآية وجه آخر: وهو أن معنى قوله: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي لا مولى لكم، وذلك لأن من كانت النار مولاه فلا مولى له، كما يقال: ناصره الخذلان ومعينه البكاء، أي لا ناصر له ولا معين، وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ الحسن: (أَلَمَّا يَأْنِ)، قال ابن جني: أصل لما لم، ثم زيد عليها (ما) فلم نفي لقوله أفعل، ولما نفي لقوله قد يفعل، وذلك لأنه لما زيد في الإثبات (قد) لا جرم زيد في نفيه (ما)، إلا أنهم لما ركبوا (لم) مع (ما) حدث لها معنى ولفظ، أما المعنى فإنها صارت في بعض المواضع ظرفًا، فقالوا: لما قمت قام زيد، أي وقت قيامك قام زيد، وأما اللفظ فإنه يجوز أن تقف عليها دون مجزومها، فيجوز أن تقول: جئت ولما، أي ولما يجيء، ولا يجوز أن يقول: جئت ولم.

وأما الذين قرأوا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ فالمشهور: ألم يأن من أَنى الأمرُ يأني إذا جاء إِنَاه أي وقته. وقرئ: (ألم يئن)، من أَنَّ يَئِينُ بمعنى أنى يأني.

المسألة الثانية: اختلفوا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال بعضهم: نزل في المنافقين الذين أظهروا الإيمان وفي قلوبهم النفاق المباين للخشوع، والقائلون بهذا القول لعلهم ذهبوا إلى أن المؤمن لا يكون مؤمنًا في الحقيقة إلا مع خشوع القلب، فلا يجوز أن يقول تعالى ذلك إلا لمن ليس بمؤمن، وقال آخرون: بل المراد من هو مؤمن على الحقيقة، لكن المؤمن قد يكون له خشوع وخشية، وقد لا يكون كذلك، ثم على هذا القول تحتمل الآية وجوهًا: أحدها: لعل طائفة من المؤمنين ما كان فيهم مزيد خشوع ولا رقة، فحُثُّوا عليه بهذه الآية، وثانيها: لعل قومًا كان فيهم خشوع كثير، ثم زال منهم شدة ذلك الخشوع فحثوا على المعاودة إليها، عن الأعمش قال: إن الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا لينًا في العيش ورفاهية، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية، وعن أبي بكر: أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدًا، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب، وأما قوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان: الأول: أن تقدير الآية، أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله، أي مواعظ الله التي ذكرها في القرآن، وعلى هذا الذكر مصدر أضيف إلى الفاعِل، والقول الثاني: أن الذكر مضاف إلى المفعول، والمعنى لذكرهم الله، أي يجب أن يورثهم الذكر خشوعًا، ولا يكونوا كمن ذكره بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: (مَا) في موضع جر بالعطف على الذكر وهو موصول، والعائد إليه محذوف على تقدير: وما نزل من الحق، ثم قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن.

المسألة الثانية: قال أبو علي: قرأ نافع وحفص والمفضل عن عاصم: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ خفيفة، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: (وَمَا نَزَّلَ)، مشددة، وعن أبي عمرو: (وَمَا نُزِّلَ مِنَ الحَق) مرتفعة النون مكسورة الزاي، والتقدير في القراءة الأولى: أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولما نزل من الحق، وفي القراءة الثانية: ولما نزله الله من الحق، وفي القراءة الثالثة: ولما نُزِّل من الحق.

المسألة الثالثة: يحتمل أن يكون المراد من الحق هو القرآن لأنه جامع للوصفين الذكر والموعظة وإنه حق نازل من السماء، ويحتمل أن يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقًا، والمراد بما نزل من الحق هو القرآن، وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن، لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله، فأما حصولها عند سماع القرآن فذاك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ قال الفراء: هو في موضع نصب معناه: ألم يأن أن تخشع قلوبهم، وأن لا يكونوا، قال: ولو كان جزمًا على النهي كان صوابًا، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات، ثم قال: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ يريد اليهود والنصارى، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير طول الأمد وجوهًا: أحدها: طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم، وثانيها: قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، وثالثها: طالت أعمارهم في الغفلة فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السبب، ورابعها: قال: ابن حبان: الأمد هاهنا الأمل البعيد، والمعنى على هذا طال عليهم الأمد بطول الأمل، أي لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم، وخامسها: قال مقاتل بن سليمان: طال عليهم أمد خروج النبي عليه السلام، وسادسها: طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعهما عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك، قاله القرظي.

المسألة الثانية: قرئ (الأَمَدُّ) بالتشديد، أي الوقت الأطول، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين، وكأنه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وفيه وجهان:

الأول: أنه تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة، فالمواظبة على الذكر سبب

لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث.

والثاني: أن المراد من قوله: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعث الأموات فذكر ذلك ترغيبًا في الخشوع والخضوع وزجرًا عن القساوة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو علي الفارسي: قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر: (إنَّ المُصَدِّقِينَ والمُصَدِّقَاتِ) بالتخفيف، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتشديد الصاد فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون معنى المصدق المؤمن، فيكون المعنى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة، ثم قالوا: وهذه القراءة أولى لوجهين: الأول: أن من تصدق لله وأقرض إذا لم يكن مؤمنًا لم يدخل تحت الوعد، فيصير ظاهر الآية متروكًا على قراءة التشديد، ولا يصير متروكًا على قراءة التخفيف، والثاني: أن المتصدق هو الذي يقرض الله، فيصير قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ شيئًا واحدًا وهو تكرار، أما على قراءة التخفيف فإنه لا يلزم التكرار، وحجة من ثقل وجهان أحدهما: أن في قراءة أبي: (إن المُتَصدِّقين والمُتَصدِّقات) بالتاء، والثاني: أن قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ اعتراض بين الخبر والمخبر عنه، والاعتراض بمنزلة الصفة، فهو للصدقة أشد ملازمة منه للتصديق، وأجاب الأولون: بأنا لا نحمل قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ على الاعتراض، ولكنا نعطفه على المعنى، ألا ترى أن المصدقين والمصَدقات معناه: إن الذين صدقوا، فصار تقدير الآية: إن الذين صدقوا وأقرضوا الله.

المسألة الثانية: في الآية إشكال وهو أن عطف الفعل على الاسم قبيح فما الفائدة في التزامه هاهنا؟ قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ معطوف على معنى الفعل في المصدقين، لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى صدقوا، كأنه قيل: إن الذين صدقوا وأقرضوا، واعلم أن هذا لا يزيل الإشكال فإنه ليس فيه بيان أنه لم عدل عن ذلك اللفظ إلى هذا اللفظ، والذي عندي فيه أن الألف واللام في المصدقين والمصدقات للمعهود، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ثم قبل ذكر الخبر أخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة وهو الإتيان بالقرض الحسن، ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ فقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو المسمى بحشو اللوزنج كما في قوله:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ(١)

---

(١) هذا البيت للشاعر ابن الوردي وهو: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوراس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي ٦٩١- ٧٤٩هـ/ ١٢٩٢- ١٣٤٩م شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب، وتنسب إليه اللامية التي أولها (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) ولم تكن في ديوانه، =

المسألة الثالثة: من قرأ: (الْمُصَّدِّقِينَ) بالتشديد اختلفوا في أن المراد هو الواجب أو التطوع أو هما جميعًا، أو المراد بالتصدق الواجب وبالإقراض التطوع؛ لأن تسميته بالقرض كالدلالة على ذلك فكل هذه الاحتمالات مذكورة، أما قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فقد تقدم القول فيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر قبل هذه الآية حال المؤمنين والمنافقين، وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين، **ثم في الآية مسألتان**:

المسألة الأولى: الصِّدِّيق: نعت لمن كثر منه الصدق، وجَمَع صدقًا إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله، وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أن الآية عامة في كل من آمن بالله ورسله وهو مذهب مجاهد قال: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ثم قرأ هذه الآية، ويدل على هذا ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي الموحدون، الثاني: أن الآية خاصة، وهو قول المقاتلين: أن الصديقين هم الذين آمنوا بالرسل حين أتوهم ولم يكذبوا ساعة قط مثل آل ياسين، ومثل مؤمن آل فرعون، وأما في ديننا فهم ثمانية سبقوا أهل الأرض إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ فيه قولان: الأول: أنه عطف على الآية الأولى، والتقدير: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء، قال مجاهد: كل مؤمن فهو صديق وشهيد وتلا هذه الآية، وعلى هذا القول اختلفوا في أنه لم سمي كل مؤمن شهيد؟ فقال بعضهم لأن المؤمنين هم الشهداء عند ربهم على العباد في أعمالهم، والمراد أنهم عدول الآخرة الذين تقبل شهادتهم، وقال الحسن: السبب في هذا الاسم أن كل مؤمن فإنه يشهد كرامة ربه، وقال الأصم: كل مؤمن شهيد لأنه قائم لله تعالى بالشهادة فيما تعبدهم به من وجوب الإيمان ووجوب الطاعات وحرمة الكفر والمعاصي، وقال أبو مسلم: قد ذكرنا أن الصديق نعت لمن كثر منه الصدق وجَمَع صدقًا إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله فصاروا بذلك شهداء على غيرهم، القول الثاني: أن قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ ليس عطفًا على ما تقدم بل هو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أو يكون ذلك صفة وخبره هو قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وعلى هذا القول اختلفوا في

=فأضيفت إلى المطبوع منه، وكانت بينه وبين صلاح الدين الصفدي مناقضات شعرية لطيفة وردت في مخطوطة ألحان السواجع.

المراد من الشهداء، فقال الفراء والزجاج: هم الأنبياء لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال مقاتل ومحمد بن جرير: الشهداء هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟**» قالوا: المقتول، فقال: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمَقْتُولَ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونَ شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونَ شَهِيدٌ**»(١) الحديث.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين، أتبعه بذكر حال الكافرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٢٠﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة فقال: الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم أو رضوان الله على سبيل الدوام، ولا شك أن ذلك عظيم.

المسألة الثانية: اعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب، ولذلك لما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولولا أنها حكمة وصواب لما قال ذلك، ولأن الحياة خلقه، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وأنه لا يفعل العبث على ما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولأن الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وحقائق الأشياء لا تختلف بأن كانت في الدنيا أو في الآخرة، ولأنه تعالى عظم المنة بخلق الحياة فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فأول ما ذكر من أصناف نعمه هو الحياة، فدل مجموع ما ذكرنا على أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجنائز) باب (فضل من مات في الطاعون) (٣/ ١٨٥) حديث رقم (٣١١١) من طريق القعنبي... به ومالك في (الموطأ) كتاب (الجنائز) باب (النهي عن البكاء على الميت) (١/ ٢٣٣) حديث رقم (٣٦) وأحمد في (المسند) (٤٤٦) قال: حدثنا روح، جميعًا (القعنبي، روح، عتبة بن عبد الله بن عتبة) عن مالك... به.

الشيطان ومتابعة الهوى، فذاك هو المذموم، ثم إنه تعالى وصفها بأمور: أولها: أنها ﴿لَعِبٌ﴾ وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جدًّا، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة وثانيها: أنها (لَهْوٌ) وهو فعل الشبان، والغالب أن بعد انقضائه لا يبقى إلا الحسرة، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهبًا والعمر ذاهبًا، واللذة منقضية، والنفس ازدادت شوقًا وتعطشًا إليه مع فقدانها، فتكون المضار مجتمعة متوالية، وثالثها: أنها (زِينَةٌ) وهذا دأب النساء لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح، وعمارة البناء المشرف على أن يصير خرابًا، والاجتهاد في تكميل الناقص، ومن المعلوم أن العرضي لا يقاوم الذاتي، فإذا كانت الدنيا منقضية لذاتها، فاسدة لذاتها، فكيف يتمكن العاقل من إزالة هذه المفاسد عنها، قال ابن عباس: المعنى أن الكافر يشتغل طول حياته بطلب زينة الدنيا دون العمل للآخرة، وهذا كما قيل:

حَيَاتُكَ يَا مَغْرُورُ سهو وغفلة

ورابعها: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالصفات الفانية الزائلة، وهو إما التفاخر بالنسب، أو التفاخر بالقدرة والقوة والعساكر وكلها ذاهبة، وخامسها: قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال ابن عباس: يجمع المال في سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لا وجه بتبعية أصحاب الدنيا يخرج عن هذه الأقسام، وبين أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة، ثم ذكر تعالى لهذه الحياة مثلاً، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ يعني المطر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [الكهف: ٤٥] والكاف في قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ موضعة رفع من وجهين أحدهما: أن يكون صفة لقوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾، والآخر: أن يكون خبرًا بعد خبر قاله الزجاج، وقوله: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ فيه قولان: الأول: قال ابن مسعود: المراد من الكفار: الزراع قال الأزهري: والعرب تقول للزارع: كافر، لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن، الثاني: أن المراد بالكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا، وقوله: ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي ما نبت من ذلك الغيث، وباقي الآية مفسر في سورة الزمر.

ثم إنه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، وذلك لأنه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء، بيّن أن الآخرة إما عذاب شديد دائم، وإما رضوان، وهو أعظم درجات الثواب، ثم قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يعني لمن أقبل عليها، وأعرض بها عن طلب الآخرة، قال سعيد بن جبير: الدنيا: متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والمراد كأنه تعالى قال: لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه، بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة.

واعلم أنه تعالى أمر بالمسارعة في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[آل عمران: ١٣٣] ثم شرح هاهنا كيفية تلك المسارعة، فقال: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار، وقوله: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: لا شك أن المراد منه المسارعة إلى ما يوجب المغفرة، فقال قوم: المراد سابقوا إلى التوبة، وقال آخرون: المراد سابقوا إلى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة، وهذا أصح لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي والاشتغال بكل الطاعات.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن الأمر يفيد الفور بهذه الآية، فقالوا: هذه الآية دلت على وجوب المسارعة، فوجب أن يكون التراخي محظورًا، أما قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقال في آل عمران ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[آل عمران: ١٣٣]، فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكانت الجنة في عرضها، هذا قول مقاتل، وثانيها: قال: عطاء عن ابن عباس يريد أن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه الصفة، وثالثها: قال السدي: إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها، فذكر العرض تنبيهًا على أن طولها أضعاف ذلك، ورابعها: أن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض وهذا قول الزجاج، وخامسها: وهو اختيار ابن عباس أن الجنان أربعة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] وقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٢] فالمراد هاهنا تشبيه واحدة من تلك الجنان في العرض بالسموات السبع والأرضين السبع.

ثم قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج جمهور الأصحاب بهذا على أن الجنة مخلوقة، وقالت المعتزلة: هذه الآية: لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجهين: **الأول:** أن قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾[الرعد: ٣٥] يدل على أن من صفتها بعد وجودها أن لا تفنى، لكنها لو كانت الآن موجودة لفنيت بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[القصص: ٨٨]. **الثاني:** أن الجنة مخلوقة وهي الآن في

السماء السابعة، ولا يجوز مع أنها في واحدة منها أن يكون عرضها كعرض كل السموات، قالوا: فثبت بهذين الوجهين أنه لا بد من التأويل، وذلك من وجهين: الأول: أنه تعالى لما كان قادرًا لا يصح المنع عليه، وكان حكيمًا لا يصح الخلف في وعده، ثم إنه تعالى وعد على الطاعة بالجنة، فكانت الجنة كالمعدة المهيأة لهم تشبيهًا لما سيقع قطعًا بالواقع، وقد يقول المرء لصاحبه: (أعددت لَكَ الْمُكَافَأَة) إذا عزم عليها، وإن لم يوجدها، والثاني: أن المراد إذا كانت الآخرة أعدها الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أي إذا كان يوم القيامة نادى، الجواب: أن قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ عام، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] مع قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] خاص، والخاص مقدم على العام، وأما قوله ثانيًا: الجنة مخلوقة في السماء السابعة قلنا: إنها مخلوقة فوق السماء السابعة على ما قال عليه السلام في صفة الجنة: «سَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (١) وأي استبعاد في أن يكون المخلوق فوق الشيء أعظم منه، أليس أن العرش أعظم المخلوقات، مع أنه مخلوق فوق السماء السابعة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل، إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله؛ ولم يذكر مع الإيمان شيئًا آخر، والمعتزلة وإن زعموا أن لفظ الإيمان يفيد جملة الطاعات بحكم تصرف الشرع، لكنهم اعترفوا بأن لفظ الإيمان إذا عدي بحرف الباء، فإنه باق على مفهومه الأصلي وهو التصديق، فالآية حجة عليهم، ومما يتأكد به ما ذكرناه قوله بعد هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن الجنة فضل لا معاملة، فهو يؤتيها من يشاء من عباده سواء أطاع أو عصى، فإن قيل: فيلزمكم أن تقطعوا بحصول الجنة لجميع العصاة، وأن تقطعوا بأنه لا عقاب لهم؟ قلنا: نقطع بحصول الجنة لهم، ولا نقطع بنفي العقاب عنهم، لأنهم إذا عذبوا مدة ثم نقلوا إلى الجنة وبقوا فيها أبد الآباد، فقد كانت الجنة معدة لهم، فإن قيل: فالمرتد قد آمن بالله، فوجب أن يدخل تحت الآية قلت: خص من العموم، فيبقى العموم حجة فيما عداه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ زعم جمهور أصحابنا أن نعيم الجنة تفضل محض لا أنه مستحق بالعمل، وهذا أيضًا قول الكعبي من المعتزلة، واحتجوا على صحة هذا المذهب بهذه الآية، أجاب القاضي عنه فقال: هذا إنما يلزم لو امتنع بين كون الجنة مستحقة وبين كونها فضلاً من الله تعالى، فأما إذا صح اجتماع الصفتين فلا يصح هذا الاستدلال، وإنما قلنا: إنه لا منافاة بين هذين الوصفين، لأنه تعالى هو المتفضل بالأمور التي يتمكن المكلف معها من كسب هذا الاستحقاق، فلما كان تعالى متفضلاً بما يكسب أسباب هذا الاستحقاق كان متفضلاً بها، قال: ولما ثبت أن قوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لا بد وأن يكون مشروطًا بما يستحقه، ولولا ذلك لم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (درجات المجاهدين في سبيل الله) (٣/ ١٠٢٨) حديث رقم (٢٦٣٧) من طريق عطاء بن يسار عن أبي هريرة... بنحوه.

يكن لقوله من قبل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ معنى.

واعلم أن هذا ضعيف لأن كونه تعالى متفضلاً بأسباب ذلك الكسب لا يوجب كونه تعالى متفضلاً بنفس الجنة، فإن من وهب من إنسان كاغدًا ودواة وقلمًا، ثم إن ذلك الإنسان كتب بذلك المداد على ذلك الكاغد مصحفًا وباعه من الواهب، لا يقال: إن أداء ذلك الثمن تفضُّل، بل يقال: إنه مستحق، فكذا هاهنا، وأما قوله أولاً إنه لا بد من الاستحقاق، وإلا لم يكن لقوله من قبل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ معنى، فجوابه أن هذا الاستدلال عجيب، لأن للمتفضل أن يشرط في تفضله أي شرط شاء، ويقول: لا أتفضل إلا مع هذا الشرط.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والمراد منه التنبيه على عظم حال الجنة، وذلك لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه وأثنى بسببه على نفسه، فإنه لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيمًا.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾

قال الزجاج: إنه تعالى لما قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [الحديد: ٢١] بيَّن أن المؤدي إلى الجنة والنار لا يكون إلا بقضاء وقدر، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ والمعنى لا توجد مصيبة من هذه المصائب إلا وهي مكتوبة عند الله، والمصيبة في الأرض هي قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار، وغلاء الأسعار، وتتابع الجوع، والمصيبة في الأنفس فيها قولان: الأول: أنها هي: الأمراض، والفقر، وذهاب الأولاد، وإقامة الحدود عليها، والثاني: أنها تتناول الخير والشر أجمع لقوله بعد ذلك: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣] ثم قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ يعني مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه الآية دالة على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود مكتوبة في اللوح المحفوظ. قال المتكلمون: وإنما كتب كل ذلك لوجوه: أحدها: تستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه سبحانه وتعالى عالمًا بجميع الأشياء قبل وقوعها، وثانيها: ليعرفوا حكمة الله فإنه تعالى مع علمه بأنهم يقدمون على تلك المعاصي خلقهم ورزقهم، وثالثها: ليحذروا من أمثال تلك المعاصي، ورابعها: ليشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم على الطاعات وعصمته إياهم من المعاصي. وقالت الحكماء: إن الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم هم المدبرات أمرًا، وهم المقسمات أمرًا، إنما هي المبادئ لحدوث الحوادث في هذا العالم السفلي بواسطة الحركات الفلكية والاتصالات الكوكبية، فتصوراتها لانسياق تلك الأسباب إلى المسببات هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾.

المسألة الثانية: استدل جمهور أهل التوحيد بهذه الآية على أنه تعالى عالم بالأشياء قبل

وقوعها خلافًا لهشام بن الحكم، ووجه الاستدلال أنه تعالى لما كتبها في الكتاب قبل وقوعها وجاءت مطابقة لذلك الكتاب علمنا أنه تعالى عالمًا بها بأسرها.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يتناول جميع مصائب الأنفس فيدخل فيها كفرهم ومعاصيهم، فالآية دالة على أن جميع أعمالهم بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ومثبتة في علم الله تعالى، فكان الامتناع من تلك الأعمال محالاً، لأن علم الله بوجودها مناف لعدمها، والجمع بين المتنافيين محال، فلما حصل العلم بوجودها، وهذا العلم ممتنع الزوال كان الجمع بين عدمها وبين علم الله بوجودها محالاً.

المسألة الرابعة: أنه تعالى لم يقل: إن جميع الحوادث مكتوبة في الكتاب، لأن حركات أهل الجنة والنار غير متناهية، فإثباتها في الكتاب محال، وأيضًا خصص ذلك بالأرض والأنفس وما أدخل فيها أحوال السموات، وأيضًا خصص ذلك بمصائب الأرض والأنفس لا بسعادات الأرض والأنفس، وفي كل هذه الرموز إشارات وأسرار، أما قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ فقد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: من قبل أن نخلق هذه المصائب، وقال بعضهم: بل المراد الأنفس، وقال آخرون: بل المراد نفس الأرض، والكل محتمل لأن ذكر الكل قد تقدم، وإن كان الأقرب نفس المصيبة لأنها هي المقصود، وقال آخرون: المراد من قبل أن نبرأ المخلوقات، والمخلوقات وإن لم يتقدم ذكرها إلا أنها لظهورها يجوز عود الضمير إليها كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٢].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: إن حفظ ذلك على الله هين، والثاني: إن إثبات ذلك على كثرته في الكتاب يسير على الله وإن كان عسيرًا على العباد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه اللام تفيد جعل أول الكلام سببًا لآخره، كما تقول: قمت لأضربك فإنه يفيد أن القيام سبب للضرب، وهاهنا كذلك لأنه تعالى بيّن أن إخبار الله عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير يوجب أن لا يشتد فرح الإنسان بما وقع، وأن لا يشتد حزنه بما لم يقع، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدَرِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ**» وتحقيق الكلام فيه أن على مذهب أهل السنة أن وقوع كل ما وقع واجب، وعدم كل ما لم يقع واجب أيضًا لأسباب أربعة، أحدها: أن الله تعالى علم وقوعه، فلو لم يقع انقلب العلم جهلاً، ثانيها: أن الله أراد وقوعه، فلو لم يقع انقلبت الإرادة تمنيًا،

ثالثها: أنه تعلقت قدرة الله تعالى بإيقاعه، فلو لم يقع لانقلبت تلك القدرة عجزًا، رابعها: أن الله تعالى حكم بوقوعه بكلامه الذي هو صدق فلو لم يقع لانقلب ذلك الخبر الصدق كذبًا، فإذن هذا الذي وقع لو لم يقع لتغيرت هذه الصفات الأربعة من كمالها إلى النقص، ومن قدمها إلى الحدوث، ولما كان ذلك ممتنعًا علمنا أنه لا دافع لذلك الوقوع، وحينئذ يزول الغم والحزن، عند ظهور هذه الخواطر وهانت عليه المحن والمصائب، وأما المعتزلة فهب أنهم ينازعون في القدرة والإرادة، ولكنهم يوافقون في العلم والجبر، وإذا كان الجبر لازمًا في هاتين الصفتين، فأي فرق بين أن يلزم الجبر بسبب هاتين الصفتين وبين أن يلزم بسبب الصفات الأربع، وأما الفلاسفة فالجبر مذهبهم، وذلك لأنهم ربطوا حدوث الأفعال الإنسانية بالتصورات الذهنية والتخيلات الحيوانية، ثم ربطوا تلك التصورات والتخيلات بالأدوار الفلكية التي لها مناهج مقدرة، ويمتنع وقوع ما يخالفها، وأما الدهرية الذين لا يثبتون شيئًا من المؤثرات فهم لا بد وأن يقولوا بأن حدوث الحوادث اتفاقي، وإذا كان اتفاقيًّا لم يكن اختياريًّا، فيكون الجبر لازمًا، فظهر أنه لا مندوحة عن هذا لأحد من فِرَق العقلاء، سواء أقروا به أو أنكروه، فهذا بيان وجه استدلال أهل السنة بهذه الآية، قالت المعتزلة: الآية دالة على صحة مذهبنا في كون العبد متمكنًا مختارًا، وذلك من وجوه: الأول: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أخبرهم بكون تلك المصائب مثبتة في الكتاب لأجل أن يحترزوا عن الحزن والفرح، ولولا أنهم قادرون على تلك الأفعال لما بقي لهذه اللام فائدة، والثاني: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يريد أن يقع منهم الحزن والفرح وذلك خلاف قول المجبرة: إن الله تعالى أراد كل ذلك منهم، والثالث: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى لا يريد ذلك لأن المحبة والإرادة سواء، فهو خلاف قول المجبرة: إن كل واقع فهو مراد الله تعالى، الرابع: أنه تعالى أدخل لام التعليل على فعله بقوله: ﴿لِّكَيْلَا﴾ وهذا يدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالغرض، وأقول: العاقل يتعجب جدًّا من كيفية تعلق هذه الآيات بالجبر والقدر وتعلق كلتا الطائفتين بأكثرها.

المسألة الثانية: قال أبو علي الفارسي: قرأ أبو عمرو وحده: (بِمَا أَتَاكُم) قصرًا، وقرأ الباقون: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ ممدودًا، حجة أبي عمرو أن: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ معادل لقوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ فكما أن الفعل للغائب في قوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ كذلك يكون الفعل للآتي في قوله: (بِمَا أَتَاكُم) والعائد إلى الموصول في الكلمتين في الذكر المرفوع بأنه فاعل، وحجة الباقين أنه إذا مد كان ذلك منسوبًا إلى الله تعالى وهو المعطي لذلك، ويكون فاعل الفعل في: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ ضميرًا عائدًا إلى اسم الله سبحانه وتعالى والهاء محذوفة من الصلة تقديره: بما آتاكموه.

المسألة الثالثة: قال المبرد: ليس المراد من قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾ نفي الأسى والفرح على الإطلاق بل معناه: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تهلكوا

أنفسكم ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ فدل بهذا على أنه ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم، وهذا كله معنى ما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرًا وللخير شكرًا. واحتج القاضي بهذه الآية على أنه تعالى لا يريد أفعال العباد والجواب عنه أن كثيرًا من أصحابنا من فرق بين المحبة والإرادة فقال: المحبة إرادة مخصوصة، وهي إرادة الثواب فلا يلزم من نفي هذه الإرادة نفي مطلق الإرادة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: أن هذا بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] كأنه قال: لا يحب المختال ولا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغى فإذا رزقوا مالاً وحظًا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا به بل يأمرون الناس بالبخل به، وكل ذلك نتيجة فرحهم عند إصابته، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه، القول الثاني: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، وهو في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ويخلوا ببيان نعته، وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وحذف الخبر كثير في القرآن كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١].

المسألة الثانية: قال أبو علي الفارسي: قرأ نافع وابن عامر (فإن الله الغني الحميد)، وحذفوا لفظ (هُوَ) وكذلك (هُوَ) في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون (هو الغني الحميد) قال أبو علي: ينبغي أن هو في هذه الآية فصلاً لا مبتدأ، لأن الفصل حذفه أسهل، ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب، وقد يحذف فلا يخل بالمعنى كقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ معناه أن الله غني فلا يعود ضرر عليه ببخل ذلك البخيل، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ كأنه جواب عن السؤال يذكر هاهنا، فإنه يقال: لما كان تعالى عالمًا بأنه يبخل بذلك المال ولا يصرفه إلى وجوه الطاعات، فلم أعطاه ذلك المال؟ فأجاب بأنه تعالى حميد في ذلك الإعطاء، ومستحق للحمد حيث فتح عليه أبواب رحمته ونعمته، فإن قصر العبد في الطاعة فإن وباله عائد إليه.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وفي تفسير البينات قولان: الأول: وهو قول مقاتل بن سليمان: إنها هي المعجزة الظاهرة والدلائل القاهرة، والثاني: وهو قول مقاتل بن حيان: أي أرسلناهم بالأعمال التي تدعوهم إلى طاعة الله وإلى الإعراض عن غير الله، والأول هو الوجه الصحيح لأن نبوتهم إنما ثبتت بتلك المعجزات.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

واعلم أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: في وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه: أحدها: وهو الذي أقوله أن مدار التكليف على أمرين: أحدهما: فعل ما ينبغي فعله، والثاني: ترك ما ينبغي تركه، والأول هو المقصود بالذات، لأن المقصود بالذات لو كان هو الترك لوجب أن لا يخلق أحد، لأن الترك كان حاصلاً في الأزل، وأما فعل ما ينبغي فعله، فإما أن يكون متعلقًا بالنفس، وهو المعارف، أو بالبدن وهو أعمال الجوارح، فالكتاب هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية، لأن يتميز الحق من الباطل، والحجة من الشبهة، والميزان هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق، والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص، وأما الحديد ففيه بأس شديد، وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي، والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية، والميزان إلى القوة العملية، والحديد إلى دفع مالا ينبغي، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية، ثم رعاية المصالح الجسمانية، ثم الزجر عما لا ينبغي، روعي هذا الترتيب في هذه الآية، وثانيها: المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب أو مع الخلق وهم: إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد، وثالثها: الأقوام ثلاثة: إما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب، فينصفون ولا ينتصفون، ويحترزون عن مواقع الشبهات، وإما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون، فلا بد لهم من الميزان، وإما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولا بد لهم من الحديد والزجر، ورابعها: الإنسان، إما أن يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين، فهاهنا لا يسكن إلا إلى الله، ولا يعمل إلا بكتاب الله، كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ

﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وإما أن يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة، ومقام أصحاب اليمين، فلا بد له من الميزان في معرفة الأخلاق حتى يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، ويبقى على الصراط المستقيم وإما أن يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الأمارة، وهاهنا لا بد له من حديد المجاهدة والرياضات الشاقة، وخامسها: الإنسان إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا أنس له إلا بالكتاب، أو صاحب الطلب والاستدلال فلا بد له من ميزان الدليل والحجة أو صاحب العناد واللجاج، فلا بد وأن ينفى من الأرض بالحديد وسادسها: أن الدين هو إما الأصول وإما الفروع، وبعبارة أخرى: إما المعارف وإما الأعمال، فالأصول من الكتاب، وأما الفروع: فالمقصود الأفعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فإنه إشارة إلى رعاية العدل، والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين، وسابعها: الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهو شأن الملوك، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف، وهذا يدل على أن مرتبة العلماء وهم أرباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم أرباب السيف، ووجوه المناسبات كثيرة، وفيما ذكرناه تنبيه على الباقي.

المسألة الثانية: ذكروا في: إنزال الميزان وإنزال الحديد قولين: الأول: أن الله تعالى أنزلهما من السماء، روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مر قومك يزنوا به، وعن ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والمقمعة والمطرقة والإبرة، والمقمعة ما يحدد به، ويدل على صحة هذا ما روى ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ أَرْبَعَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ: أَنْزَلَ الْحَدِيدَ وَالنَّارَ وَالْمَاءَ وَالْمِلْحَ**»(١) والقول الثاني: أن معنى هذا الإنزال الإنشاء والتهيئة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] قال قطرب: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] أي هيأناها من

(١) موضوع: الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ١٥٠) وقال ابن تيمية القتادي الحسن بن إسماعيل بن خلف الخيّاط قال: حدثنا أبو بكر محمد بن الفرج المعدّل قال: حدّثنا محمّد بن عبيد بن عبد الملك قال: حدثنا سيف بن محمد أبو محمد (ابن أخت سفيان الثوري) عن عبد الملك بن مالك التميمي عن عبد الله بن خليفة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره حديث موضوع مكذوب، في إسناده سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري- رحمه الله- وهو من الكذابين المعروفين بالكذب. قال ابن الجوزي: هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، يروي عن الثوري وعاصم الأحول والأعمش، قال أحمد رحمه الله: هو كذاب يضع الحديث، وقال مرّة: ليس بشيء. وقال يحيى: كان كذابًا خبيثًا، وقال مرة: ليس بثقة. وقال أبو داود: كذاب. وقال زكريا الساجي: يضع الحديث. وقال النسائي: ليس بثقة ولا مأمون. وقال الدارقطني: ضعيف متروك. ضعيف أخرجه الديلمي في الفردوس. انظر: كنز العمال (١٥/ ٤١٨) وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف صفحة (١٦٤) للثعلبي وقال: (وفي إسناده من لا أعرفه) وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٠٥٣) وقال: موضوع.

النزل، يقال: أنزل الأمير على فلان نزلاً حسنًا، ومنهم من قال هذا من جنس قوله: علفتها تبنًا وماء باردًا، وأكلت خبزًا ولبنًا.

المسألة الثالثة: ذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف وهو أن تعطى قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك، والعادل مقسط قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة: ٤٢] وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضًا منافع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠] ومنها أن مصالح العالم، إما أصول، وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكوُّن هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم الحبوب لا بد من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم لا بد من خبزها ولا يتم إلا بالنار، ولا بد فيها من المقدحة الحديدية، وأما الفواكه فلا بد من تنظيفها عن قشورها، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل ولا يتم ذلك إلا بالحديد، وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد، ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده، فإن كل ما كانت حاجتهم إليه أكثر، جعل وجدانه أسهل، ولهذا قال بعض الحكماء إن أعظم الأمور حاجة إليه هو الهواء، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظة لمات الإنسان في الحال، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجدانًا، وهيأ أسباب التنفس وآلاته، حتى إن الإنسان يتنفس دائمًا بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل، وبعد الهواء الماء، إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل تحصيل الماء أشق قليلاً من تحصيل الهواء، وبعد الماء الطعام، ولما كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء، جعل تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء، ثم تتفاوت الأطعمة في درجات الحاجة والعزة فكل ما كانت الحاجة إليه أشد، كان

وجدانه أسهل، وكل ما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل، والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جدًّا، لا جرم كانت عزيزة جدًّا، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل، ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء فنرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانًا، قال الشاعر:

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّ الْعَزِيزَ بِعِزِّهِ ... وَالنَّاسُ مُسْتَغْنُونَ عَنْ أَجْنَاسِهِ[1]
وَأَذَلَّ أَنْفَاسَ الْهَوَاءِ وَكُلُّ ذِي ... نَفَسٍ فَمُحْتَاجٌ إِلَى أَنْفَاسِهِ

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المعنى وليعلم الله من ينصره، أي ينصر دينه، وينصر رسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بالغيب أي غائبًا عنهم. قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

المسألة الثانية: احتج من قال بحدوث علم الله بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ والجواب عنه أنه تعالى أراد بالعلم المعلوم، فكأنه تعالى قال: ولتقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ممن ينصره.

المسألة الثالثة: قال الجبائي: قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أنزل الميزان والحديد، ومراده من العباد أن يقوموا بالقسط وأن ينصروا الرسول، وإذا كان هذا مراده من الكل فقد بطل قول المجبرة أنه أراد من بعضهم خلاف ذلك جوابه: أنه كيف يمكن أن يريد من الكل ذلك مع علمه بأن ضده موجود، وأن الجمع بين الضدين محال، وأن المحال غير مراد.

المسألة الرابعة: لما كانت النصرة قد تكون ظاهرة، كما يقع من منافق أو ممن مراده المنافع في الدنيا، بين تعالى أن الذي أراده النصرة بالغيب، ومعناه أن تقع عن إخلاص بالقلب، ثم بيَّن تعالى أنه قوي على الأمور عزيز لا يمانع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم، فبين أنه تعالى شرف نوحًا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا

---

(١) هذا البيت للشاعر أبو الفتح البشي وتقدمت ترجمته.

وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتاب، لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع.

ثم قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ﴾ أي فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين، والمعنى أن منهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق، وفي الفاسق هاهنا قولان: الأول: أنه الذي ارتكب الكبيرة سواء كان كافرًا أو لم يكن، لأن هذا الاسم يطلق على الكافر وعلى من لا يكون كذلك إذا كان مرتكبًا للكبيرة، والثاني: أن المراد بالفاسق هاهنا الكافر، لأن الآية دلت على أنه تعالى جعل الفساق بالضد من المهتدين، فكأن المراد أن فيهم من قبل الدين واهتدى، ومنهم من لم يقبل ولم يهتد، ومعلوم أن من كان كذلك كان كافرًا، وهذا ضعيف، لأن المسلم الذي عصى قد يقال فيه: إنه لم يهتد إلى وجه رشده ودينه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله الله تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل.

المسألة الثانية: قال ابن جني: قرأ الحسن: (وآتيناه الأنجيل) بفتح الهمزة، ثم قال: هذا مثال لا نظير له، لأنه أَفْعِيل وهو عندهم من نَجلْتُ الشيء إذا استخرجته، لأنه يستخرج به الأحكام، والتوراة فوعلة من ورى الزند يرى إذا أخرج النار، ومثله الفرقان وهو فعلان من فرقت بين الشيئين، فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة لأنه لا نظير له، وغالب الظن أنه ما قرأه إلا من سماع وله وجهان: أحدهما: أنه شاذ كما حكى بعضهم في البَرْطيل، وثانيهما: أنه ظن الإنجيل أعجميًا فحرف مثاله تنبيهًا على كونه أعجميًا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق لله تعالى وكسب للعبد، قالوا: لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية، قال القاضي: المراد بذلك أنه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم إلى الرهبانية، التي هي

تحمل الكلفة الزائدة على ما يجب من الخلوة واللباس الخشن والجواب: أن هذا ترك للظاهر من غير دليل، على أنا وإن سلمنا ذلك فهو يُحَصِّل مقصودنا أيضًا، وذلك لأن حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان وإلا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض، وإذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعًا، كان عند المرجوحية أولى أن يصير ممتنعًا، وإذا امتنع المرجوح وجب الراجح ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

المسألة الثانية: قال مقاتل: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض، كما وصف الله أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرئ (رَآفَةً) على فعالة.

المسألة الرابعة: الرَّهْبَانية معناها الفَعْلة المنسوبة إلى الرَّهْبَان وهو الخائف فَعْلان من رَهَب، كخَشْيان من خشي، وقرئ: (وَرُهْبَانِيَّةً) بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان، وهو جمع راهب كراكب وركبان، والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحملين كُلَفًا زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن، والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف، عن ابن عباس أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والإنجيل، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصوف، وروى ابن مسعود أنه عليه السلام، قال: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا سَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ ثَلاَثَ فِرَقٍ، فِرْقَةٌ آمَنَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَقَاتَلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي نُصْرَتِهِ حَتَّى قُتِلُوا، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا طَاقَةٌ بِالْقِتَالِ، فَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا طَاقَةٌ بِالأَمْرَيْنِ، فلبس الْعَبَاءَ، وَخَرَجُوا إِلَى الْقِفَارِ وَالْفَيَافِي وَهُوَ قَوْلُهُ**: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ **إِلَى آخِرِ الآيَةِ**»[(١)].

المسألة الخامسة: لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

المسألة السادسة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبة بفعل مضمر، يفسره الظاهر، تقديره: ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وقال أبو علي الفارسي: الرهبانية لا يستقيم حملها على ﴿جَعَلْنَا﴾، لأن ما يبتدعونه هم لا يجوز أن يكون مجعولاً لله تعالى، وأقول: هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين، ومن أين يليق بأبي على أن يخوض في أمثال هذه الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها نحن عليهم.

أما قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه استثناء منقطع. أي ولكنهم

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، الثاني: أنه استثناء متصل، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى، والمراد أنها ليست واجبة، فإن المقصود من فعل الواجب، دفع العقاب وتحصيل رضا الله، أما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلا تحصيل مرضاة الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ففيه أقوال: أحدها: أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمدًا عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، وثانيها: أنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال، لكن لا لهذا الوجه، بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة، وثالثها: أنا لما كتبناها عليهم تركوها، فيكون ذلك ذمًّا لهم من حيث إنهم تركوا الواجب، ورابعها: أن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمدًا عليه الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا به، وقوله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي الذين آمنوا بمحمد ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الذين لم يؤمنوا به، ويدل على هذا ما روي أنه عليه السلام قال: «**مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَاتَّبَعَنِي فَقَدْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَالِكُونَ**»[(١)] وخامسها: أن الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها، ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم في اللسان، وما كانوا مقتدين بهم في العمل، فهم الذين ما رعوها حق رعايتها، قال عطاء: لم يرعوها كما رعاها الحواريون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ والمعنى أن بعضهم قام برعايتها وكثير منهم أظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أنه لما قال في الآية الأولى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي من قوم عيسى: ﴿أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] قال في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمراد به أولئك فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ثم قال: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصيبين من رحمته لإيمانكم

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٠/ ٢٢٠) حديث رقم (١٠٥٣١) وفي (الأوسط) (٤/ ٣٧٦) حديث رقم (٤٤٧٩)، وفي (الصغير) (١/ ٣٧٢) حديث رقم (٦٢٤)، والمروزي في (السنة) (١/ ٢١) حديث رقم (٥٤) وأبو نعيم في (الحلية) (٤/ ١٧٧) جميعًا من طريق الصعق بن حزن أخبرني عقيل الجعدي عن أبي إسحاق السبيعي عن سويد ابن غفلة عن ابن مسعود... به وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٦٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه عقيل بن الجعد قال البخاري منكر الحديث.

أولاً بعيسى، وثانيًا بمحمد عليه الصلاة والسلام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]عن ابن عباس أنه نزل في قوم جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول وأسلموا فجعل الله لهم أجرين وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الكفل في اللغة؟ الجواب: قال المؤرج: الكفل: النصيب بلغة هذيل، وقال غيره بل هذه لغة الحبشة، وقال المفضل ابن مسلمة: الكفل: كساء يديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير.

السؤال الثاني: أنه تعالى لما آتاهم كفلين وأعطى المؤمنين كفلاً واحدًا كان حالهم أعظم والجواب: روي أن أهل الكتاب افتخروا بهذا السبب على المسلمين، وهو ضعيف لأنه لا يبعد أن يكون النصيب الواحد أزيد قدرًا من النصيبين، فإن المال إذا قسم بنصفين كان الكفل الواحد نصفًا، وإذا قسم بمائة قسم كان الكفل الواحد جزءًا من مائة جزء، فالنصيب الواحد من القسمة الأولى أزيد من عشرين نصيبًا من القسمة الثانية، فكذا هاهنا، ثم قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النور المذكور في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من المعاصي ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: هذه آية مشكلة وليس للمفسرين فيها كلام واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها.

واعلم أن أكثر المفسرين على أن (لا) هاهنا صلة زائدة، والتقدير: ليعلم أهل الكتاب، وقال أبو مسلم الأصفهاني وجمع آخرون: هذه الكلمة ليست بزائدة، ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله تعالى وتوفيقه. أما القول المشهور: وهو أن هذه اللفظة زائدة، فاعلم أنه لا بد هاهنا من تقديم مقدمة وهي: أن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان أتبعه بهذه الآية، والغرض منها أن يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم، فقال: إنما بالغنا في هذا البيان، وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً، أما القول الثاني: وهو أن لفظة (لا) غير زائدة، فاعلم أن

الضمير في قوله: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائد إلى الرسول وأصحابه، والتقدير: لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه فقد علموا أنهم يقدرون عليه، ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي وليعلموا أن الفضل بيد الله، فيصير التقدير: إنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله، واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة، فقلنا في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ تقدير وليعتقدوا أن الفضل بيد الله وأما القول الأول: فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء موجد، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف، لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلاً أصلاً، أما إذا افتقر إلى الحذف كان ظاهره موهمًا للباطل، فعلمنا أن هذا القول أولى، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: قرئ: (لِكَيْ يَعْلَمَ)، و(لِكَيْلاَ يَعْلَمَ)، و(لِيَعْلَمَ)، و(لِأَنْ يَعْلَمَ)، بإدغام النون في الياء، وحكى ابن جني في (المحتسب) عن قطرب: أنه روي عن الحسن: (لِيلاَ)، بكسر اللام وسكون الياء، وحكى ابن مجاهد عنه: (لَيْلا) بفتح اللام وجزم الياء من غير همز، قال ابن جني: وما ذكر قطرب أقرب، وذلك لأن الهمزة إذا حذفت بقي لِنَلاَّ فيجب إدغام النون في اللام فيصير (للا) فتجتمع اللامات فتجعل الوسطى لسكونها وانكسار ما قبلها ياء فيصير (لِيلا)، وأما رواية ابن مجاهد عنه، فالوجه فيه أن لام الجر إذا أضفته إلى المضمر فتحته تقول: فمنهم من قاس المظهر عليه، حكى أبو عبيدة أن بعضهم قرأ: (وَإِن كَانَ مَكْرُهُم لَتَزولُ مِنهُ الجِبَالُ) [إبراهيم: ٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه قادر مختار يفعل بحسب الاختيار ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والعظيم لا بد وأن يكون إحسانه عظيمًا، والمراد تعظيم حال محمد ﷺ في نبوته وشرعه وكتابه، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الحديد

مدنيَّةٌ في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية[1].

عن العِرباض بن سارية أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألفِ آيةٍ»[2] يعني بالمسبِّحات: «الحديد» و«الحشر» و«الصف» و«الجمعة» و«التغابن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مجَّد الله، ونزَّهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلَّى لِله «مَا فِي السَّمواتِ» ممن خَلَق من الملائكة «وَالْأَرْض» من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجَّاج[3] هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومةً؛ فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنَّما هو تسبيح مقال. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا تسبيح دلالة، فأيُّ تخصيص لداود؟! قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان»[4] عند قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الآية: ٤٤]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٢)، وأحمد (١٧١٦٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٢١.

(٤) ١٣/ ٨٩.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: انفرد بذلك. والْمُلك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر، فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النُّطَف وهي موات، ويُميت الأحياء. وموضع «يُحْيِي وَيُمِيتُ» رفع على معنى: وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالْأَرْضِ» محيياً ومميتاً على الحال من المجرور في «لَهُ» والجار عاملاً فيها[1]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: الله لا يُعجِزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيَّنَّاها في الكتاب «الأسنى»[2]. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كلِّ قائل، فقال في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «اللهمَّ أنت الأوَّل فليس قبْلك شيء، وأنت الآخِر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، واغننا من الفقر»[3] عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما كان أو يكون، فلا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢١.

(٢) ص ١٣٣، ١٥١، ٢٠٩.

(٣) مسلم (٢٧١٣): (٦١)، وهو عند أحمد (٨٩٦٠).

تقدّم في «الأعراف»[(١)] مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَدخُل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رِزْق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد[(٢)] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بقدرته وسلطانه وعِلْمه[(٣)] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر أعمالكم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» وبين «وَهُوَ مَعَكُمْ» والأخذ بالظاهرين تناقض، فدلَّ على أنَّه لا بُدَّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إنَّ محمَّداً ﷺ ليلةَ الإسراء لم يكن بأقربَ إلى الله عزَّ وجلَّ من يونس بنِ متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدَّم[(٤)].

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ هذا التكرير؛ للتأكيد، أي: هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلائق في الآخرة.

وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف: «تَرْجِع»[(٥)] بفتح التاء وكسر الجيم، الباقون: «تُرْجَعُ».

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[(٦)]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: لا تخفى عليه الضمائر[(٧)]، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يُعبَد من سواه.

---

(١) ٩/ ٢٣٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٠ .

(٤) ١٨/ ٩٦ .

(٥) النشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٦) ٥/ ٨٥ - ٨٦ .

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨٨ .

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: صدِّقوا أنَّ الله واحد، وأنَّ محمداً رسوله[١] ﴿وَأَنفِقُوا﴾ تصدَّقوا. وقيل: أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه[٢] ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أنَّ أصل الملك لله سبحانه، وأنَّ العبد ليس له فيه إلا التصرُّف الذي يُرضِي الله، فيثيبه على ذلك بالجنَّة، فمن أنفق منها في حقوق الله وهانَ عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم[٣]. وقال الحسن: «مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» بوراثتكم إيَّاه عمَّن كان قبلكم[٤]. وهذا يدلُّ على أنَّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النُّوَّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقِّ قبل أن تُزال عنكم إلى من بعدكم[٥]. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام يُراد به التوبيخ. أي: أيُّ عُذْرٍ لكم في ألَّا تؤمنوا وقد أُزيحت العلل؟! ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيَّن بهذا أنَّه لا حكم قبل ورود الشرائع.

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكم» على غير مسمَّى الفاعل[٦]. والباقون على

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٣) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٥) الكشاف ٤/ ٦١ .
(٦) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨ .

مسمَّى الفاعل؛ أي: أخذ الله ميثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأوَّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأنَّ الله ربَّكم لا إله لكم سواه[١]. وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركَّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذ كنتم. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بالحُجَج والدلائل[٣]. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بحقٍّ يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا؛ لقيام الحُجَج والأعلام ببعثة محمَّد ﷺ، فقد صحَّت براهينه[٤]. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا، وأخذ النبيُّ ﷺ ميثاقَهم، فارتدُّوا. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أي: إن كنتم تقرُّون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ يريد القرآن[٥]. وقيل: المعجزات؛ أي: لزمكم الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان[٦]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعكم من

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٣) زاد المسير ٨/ ١٦٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٥) الوسيط ٤/ ٢٤٥.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربِّكم، وأنتم تموتون وتخلِّفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله تعالى[(١)]. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنَّهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحقِّ له[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أكثر المفسِّرين على أنَّ المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيُّ والزهريُّ: فتح الحُدَيْبية[(٣)]. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضلُ من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضلُ من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكَّة أفضلَ من القتال والنفقة بعد ذلك[(٤)]. وفي الكلام حذف، أي: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه[(٥)]. وإنَّما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأنَّ حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفِعْلُ ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشقّ، والأَجْر على قدر النَّصَب[(٦)]، والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفَضْل والعزم، وقد قال الله تعالى: «لا يَسْتَوي مِنْكُم من أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ». وقال الكلبيُّ: نزلت في أبي بكر ﷺ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر ﷺ وتقديمه؛ لأنَّه أوَّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوَّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنَّه أوَّل من أنفق على نبيِّ الله ﷺ. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبيِّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلَها في صدره بِخِلال، فنزل جبريل فقال: يا نبيَّ الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٦٢ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩ ، وما بعده منه أيضاً .

قد خلَّلَها في صدره بِخِلال؟ فقال: «قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح» قال: فإنَّ الله يقول لك: اقرأ على أبي بكر السلام وقل له: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام، ويقول: أراضٍ أنتَ في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربِّي؟ إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! قال: «فإنَّ الله يقول لك: قد رضيتُ عنك كما أنتَ عنِّي راضٍ» فبكى أبو بكر، فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثكَ يا محمد بالحقِّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلَّل صاحبك هذا بالعباءة[1]. ولهذا قدَّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدُّم والسَّبق.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: سبق النبيُّ ﷺ وصلَّى أبو بكر وَثَلَّثَ عمر؛ فلا أوتى برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدَّ المفتري ثمانين جلدةً وطرح الشهادة[2]. فنال المتقدِّمون من المشقَّة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضًا أنفذ.

الرابعة: التقدُّم والتأخُّر قد يكون في أحكام الدنيا، فأمَّا في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِل الناسَ منازلهم. وأعظم المنازل مرتبةً الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٣١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ - ٢٩٥، والحديث أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٥، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٥ - ١٠٦، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٢/ ١٠٥ من طرق ودون الزيادة الأخيرة، وهي من قوله ﷺ: فإن الله يقول لك: «قد رضيت عنك...» إلى آخر الحديث، ولم نقف عليها. وفي إسناد بعض طرقه: العلاء بن عمرو، قال عنه ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. اهـ. وفي بعضها الآخر: محمد بن بابشاذ، قال عنه البغدادي: في حديثه غرائب ومناكير.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٠)، وابن سعد في الطبقات ٦/ ١٣٠، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٥٨، والطبراني في الأوسط (١٦٦١) من طرق ومقتصرين على شطره الأول مع زيادة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٤: رواه أحمد، وقال: ثم خبطتنا فتنة، يريد أن يتواضع بذلك. رواه الطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات. اهـ. ومعنى قوله ﷺ: وصلَّى أبو بكر. أي: أتى ثانياً، والمصلِّي في خيل الحلبة هو الثاني، سُمِّي به؛ لأن رأسه يكون عند صَلَا الأول، وهو ما عن يمين الذَّنَب وشماله. النهاية (صلا).

الحديث(١). وقال: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدَّم(٢). وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ: «الولاء لِلكبر»(٣) ولم يَعْنِ كِبَرَ السِّنِّ. وقد قال مالك وغيره: إنَّ للسنِّ حقاً. وراعاه الشافعيُّ وأبو حنيفة، وهو أحقُّ بالمراعاة؛ لأنَّه إذا اجتمع العِلْم والسِّنُّ في خيِّرين، قُدِّم العِلْم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتَّبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار: «ليس مِنَّا من لم يُوقِّر كبيرَنَا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه»(٤). ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شابٌّ شيخاً لسِنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يُكرِمه»(٥). وأنشدوا:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩ ، وما بعده منه أيضاً ، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) وقال: ميمون لم يدرك عائشة. اهـ. وأورده مسلم في مقدمة صحيحه ٦/١ . والحديث الآخر سلف ٣٧/٢ .

(٢) الحديث الأول سلف ٢/ ٣٦ ، والثاني سلف ٨/ ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وما بعده منه أيضاً ، والحديث لم نقف عليه مرفوعاً ، وإنما أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٦٢٣٨) ، والدارمي (٣٠٢٢) عن علي وعمر وزيد بن ثابت أنهم كانوا يجعلون الولاء للكبر . وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٤٠٤ عن عمر وعبد الله وزيد ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٠٦ عن علي وعبد الله وزيد بن ثابت من قولهم . وورد عند بعضهم : الولاء للكبير . وذكره الزيلعي في نصب الراية ٤/ ١٥٥ وعزاه للقاسم بن حزم السرقسطي في كتابه «غريب الحديث» وقال : وقال في موضع آخر : قال يعقوب : الولاء للكُبْر - بضمِّ الكاف - وهو أكبر ولد الرجل المعتق . انتهى .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وقول مالك في المدونة ١/ ٨٣ ، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٣٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨) ، والترمذي (١٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو ، ودون قوله ﷺ : «ويعرف لعالمنا حقَّه» وأخرجها أحمد (٢٢٧٥٥) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٧ : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وإسناده حسن . اهـ. وقال الترمذي عن حديث عبد الله بن عمرو : حديث حسن صحيح .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٠٢٢) ، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٤/ ٣٧٥ عن أنس ﷺ . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ يزيد ابن بيان. اهـ . وقال العقيلي : لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به .

يا عائبًا لِلشيوخ مِن أشَر ... دَاخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّبهُمْ ... جَدَّكَ واذكر أباك يابن أخِ
واعلم بأن الشباب منسلِخٌ ... عنك وما وِزْرُه بمنسلِخ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ ... يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ(١)

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المتقدِّمون المتناهون السابقون، والمتأخِّرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنَّة مع تفاوت الدرجات(٢).

وقرأ ابن عامر: «وَكُلٌّ» بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام(٣). الباقون: «وَكُلًّا» بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب؛ فعلى إيقاع الفعل عليه، أي: وَعد الله كلًّا الحسنى. ومن رفع؛ فلأنَّ المفعول إذا تقدَّم ضَعُفَ عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه(٤).

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في «البقرة»(٥) القول فيه. والعرب تقول لكلِّ من فَعَلَ فِعْلًا حسنًا: قد أقرض. كما قال:

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فَاجْزِهِ ... إنَّما يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ(٦)

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، ونسبه لابن عبد الصمد السرقسطي، وورد فيه وفي (م): تُعيِّرهم، بدل: تُعيِّبهم.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٣.
(٣) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨.
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) ٤/ ٢١٩.
(٦) القائل لبيد، وسلف ٤/ ٢٢٢.

وَسُمِّيَ قرضاً؛ لأنَّ القرض أُخرِج لاسترداد البدل. أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة. قال الكلبي: «قرضاً» أي: صدقة «حَسَناً» أي: محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ما بين السبع إلى سبع مئة، إلى ما شاء الله من الأضعاف[١]. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه سفيان عن أبي حيان. وقال زيد ابن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوُّع بالعبادات. وقيل: إنَّه عمل الخير، والعرب تقول: لي عند فلان قرضُ صِدْقٍ، وقرضُ سُوء[٢]. القشيريُّ: والقرض الحسن أن يكون المتصدِّق صادقَ النِّيَّة، طيِّب النفس، يبتغي به وجه الله، دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال.

ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وأن يتصدَّق في حال يأمل الحياة؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن أفضلِ الصدقة فقال: «أن تُعطِيَه وأنت صحيح شحيح تأمل العيشَ، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا»[٣]. وأن يُخفيَ صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وألَّا يَمُنَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وأن يستحقرَ كثيرَ ما يُعطي؛ لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة، وأن يكون من أحبِّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ: «أفضل الرِّقاب أغلاها ثمنًا، وأَنْفَسُها عند أهلها»[٤].

«فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» وقرأ ابن كثير وابن عامر: «فَيُضَعِّفُه» بإسقاط الألف إلا ابنَ عامر

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢١ و٣٠/ ٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٢ ، وقول أبي حيان أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥١٠ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦١ (٢٤٣٣) ، وقول زيد بن أسلم أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦٠ (٢٤٣٢) .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٧ ، وما بعده منه أيضاً ، والحديث سلف تخريجه ٣/ ٦٢ بالهامش .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٧ ، والحديث سلف تخريجه ١٠/ ٥٨ .

ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة: «فَيُضَاعِفُهُ» بالألف وتخفيف العين إلا أنَّ عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون[١] عطفاً على «يُقْرِضُ». وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في «البقرة»[٢] القول في هذا مستوفى. ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يعني الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»[٣]، وفي الكلام حذف، أي: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» في «يَوْم تَرَى» فيه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي: يمضي على الصراط، في قول الحسن[٤]، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قدَّامهم. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ قال الفرَّاء[٥]: الباء بمعنى «في» أي: في إيمانهم. أو بمعنى «عن» أي: عن أيمانهم. وقال الضحَّاك[٦]: «نُورُهُم» هُدَاهُم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم، واختاره الطبريُّ[٧]. أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى «في». ويجوز على هذا أن يوقف على «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» ولا يوقف إذا كانت بمعنى «عن».

وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة: «وبِإِيمانِهِم» بكسر الألف[٨]، أراد الإيمان الذي هو ضدُّ الكفر. وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأنَّ معنى الظرف الحال، وهو متعلِّق بمحذوف. والمعنى: يسعى كائنًا «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» وكائنًا «بِإِيْمَانِهِمْ»، وليس قوله: «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» متعلِّقًا بنفس «يَسْعَى».

---

(١) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) ٤/ ٢٢٧.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٥.

(٧) في تفسيره ٢٢/ ٣٩٨ بإسناده عنه.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١، وما بعده منه.

وقيل: أراد بالنور: القرآن. وعن ابن مسعود: يُؤْتَوْنَ نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم من يُؤتَى نوره كالنخلة، ومنهم من يُؤتَى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره على إبهام رِجْله، فيُطفأ مرَّةً ويُوقَد أخرى(١). وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ مِن المؤمنين من يُضِيءُ نُوره كما بين المدينة وعدنٍ [أَبْيَنَ من اليَمَن أو صنعاء(٢)]، ودون ذلك، حتى يكون منهم من لا يُضِيءُ نوره إلا موضع قدميه». قال الحسن: ليستضيؤوا به على الصراط، كما تقدَّم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنَّة(٣). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التقدير: يقال لهم: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ. ولا بُدَّ من تقدير حذف المضاف؛ لأنَّ البشرى حدث، والجنَّة عين، فلا تكون هي هي(٤). «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» أي: من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال من الدخول المحذوف، التقدير: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» مقدرين الخلود فيها، ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأنَّ فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دلَّ عليه البشرى، كأنَّه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمْ»، و«جَنَّاتٌ» بدلاً من البشرى، على تقدير حذف المضاف، كما تقدَّم. و«خَالِدِينَ» حال حسب ما تقدَّم. وأجاز الفرَّاء(٥) نصب «جَنَّات» على الحال، على أن يكون «الْيَوْمَ»

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٩، والطبري ٢٢/ ٣٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين في (د) هكذا: أو ما بين اليمن وصنعاء. وفي (م): أو ما بين المدينة وصنعاء. والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨ بإسناده عنه، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥. قال الحَمَوي في معجم البلدان ٤/ ٨٩: عَدَن، بالتحريك، وآخره نون: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ... وتضاف إلى أبين، وهو مخلاف عدن من جملته.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٢١، والمشكل لمكي ٢/ ٧١٧.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٢، ونقله عنه المصنف بواسطة مكي بن أبي طالب في المشكل ٢/ ٧١٧.

خبراً عن «بُشْرَاكُمْ» وهو بعيد، إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل. وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمْ» نصبًا على معنى: يبشرونهم بشرى، وينصب «جنَّات» بالبشرى، وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ». وقيل: هو بدل من اليوم الأول[١]. ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامَّة: بوصل الألف مضمومة الظاء، من نظر، والنظر: الانتظار، أي: انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثَّاب: «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء[٢]، من الإنظار. أي: أمهلونا وأخِّرونا، أنظرته: أخَّرته. واستنظرته أي: استمهلته[٣]. وقال الفرَّاء[٤]: تقول العرب: أنظِرني: انتظرني، وأنشد لعمرو بنِ كُلْثوم:

أبا هِندٍ فلا تَعْجلْ عَلَيْنَا ... وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

أي: انتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم[٥]. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناسَ يوم القيامة ظلمةٌ ـ قال الماورديُّ[٦]: أظنُّها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه. قال المفسِّرون: يُعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على

(١) المشكل لمكي ٢/٧١٨.

(٢) السبعة ص ٦٢٥ - ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والنشر ٢/٣٨٤، وتفسير الطبري ٢٢/٤٠٠.

(٣) الصحاح (نظر).

(٤) في معاني القرآن له ٣/١٣٣، والبيت الآتي سلف ٢/٢٩٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/٢٩٦.

(٦) في النكت والعيون ٥/٤٧٤ وما قبله منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/٤٠١ عن ابن عباس.

قَدْر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويُعطي المنافقين أيضًا نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[1] [النساء: ١٤٢] وقيل: إنَّما يُعطَون النور؛ لأنَّ جميعَهم أهلُ دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره؛ لنفاقه، قاله ابن عباس[2]. وقال أبو أمامة: يُعطى المؤمن النور، ويُترَك الكافر والمنافق بلا نور[3]. وقال الكلبيُّ: بل يَستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يُعطَون النور، فبينما هم يمشون، إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون؛ خشيةَ أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضعَ أقدامهم قالوا للمؤمنين: «انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: «ارْجِعُوا». وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم[4]: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنَّكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور، ضرب بينهم بسور. وقيل: أي: هلَّا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. «بِسُورٍ» أي: سُورٌ؛ والباء صلة[5]. قاله الكسائيُّ. والسُّور: حاجز بين الجنَّة والنار. وروي أنَّ ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنَّم[6]. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ يعني: ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ يعني: ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله ابن عمرو: إنَّه سُور بيت المقدس الشرقيُّ، باطنه فيه المسجد «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٧ (١٨٨٢٢) و(١٨٨٢٣) بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١ - ٤٠٢، وأخرج القول الأخير عن ابن عباس وكعب وعبد الله بن عمرو، وسيوردهم المصنف قريباً.

﴿الْعَذَابُ﴾ يعني: جهنَّم. ونحوه عن ابن عباس[١]. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقيِّ فبكى، وقال: من هَاهُنَا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنَّم[٢]. وقال قتادة: هو حائط بين الجنَّة والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني: الجنَّة ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ يعني: جهنَّم[٣]. وقال مجاهد: إنَّه حجاب كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه[٤]. وقد قيل: إنَّ الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين[٥].

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، يعني: نصلِّي مثل ما تصلُّون [ونغزوا مثل ما تغزون[٦]] ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: يقول المؤمنون: «بَلَى» قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنِّفاق. وقيل: بالمعاصي، قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات، رواه أبو نمير الهمْدانيُّ[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ عن كعب وابن عمرو، وسلف تخريجه عنهما - وعن ابن عباس - في التعليق السابق.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٢، والحديث أخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سوادة، به. وسعيد بن عبد العزيز قد اختلط قبل موته، وزياد بن أبي سوادة قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٤: لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩، عن محمد بن ميمون، عن بلال بن عبد الله، عن عبادة، به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: بل منكر، وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سوادة قال: رئي عبادة... فهذا المرسَل أجود. اهـ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ مختصراً.

(٤) ١١/ ٢٢٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥.

(٦) ما بين حاصرتين جاءت في (ظ) و(د) هكذا: ونقرأ مثل ما تقرؤون. والمثبت من (م)، والنكت والعيون ٥/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبيِّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: «تَرَبَّصْتُمْ» بالتوبة «وارْتَبْتُمْ» أي: شككتم في التوحيد والنبوَّة. ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل[١]. وقيل: طول الأمل[٢]، وقيل: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضَعْفِ المؤمنين ونزول الدوائر بهم[٣]. وقال قتادة: الأماني هنا: خِدَع الشيطان. وقيل: الدنيا، قاله عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم: سَيُغْفَر لنا[٤]. وقال بلال بن سعد: ذِكْرك حسناتِك، ونسيانك سيئاتِك غِرَّة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموت. وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار[٥].

﴿وَغَرَّكُم﴾ أي: خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا، قاله الضحاك[٦]. وقال بعض العلماء: إنَّ للباقي بالماضي معتَبَرًا، وللآخِر بالأوَّل مزدجَرًا، والسعيد من لا يغترُّ بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء «الْغَرُورُ» على لفظ المبالغة للكثرة[٧].

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْفَع وسِمَاك بن حرب: «الغُرُورُ» بضمِّ الغين[٨]، يعني: الأباطيل، وهو مصدر.

وعن ابن عباس: أنَّ نبيَّ الله ﷺ خطَّ لنا خطوطًا، وخطَّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هذا؟ هذا مَثَلُ ابنِ آدم ومثل التمنِّي، وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت»[٩]. وعن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعًا،

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٣.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٩.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٦ عن قتادة.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، دون قوله: وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. فمن معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥٩.
(٨) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١.
(٩) لم نقف عليه.

وخطَّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه، وخطَّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال: «هذا ابن آدم، وهذا أَجَلُه محيط به، وهذا أَمَلُه قد جاوز أجلَه، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا، وإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا»(١).

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيُّها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْأَسَهم من النجاة. وقراءة العامة: «يُؤْخَذُ» بالياء؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ؛ ولأنَّه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: «تُؤْخَذُ» بالتاء(٢)، واختاره أبو حاتم؛ لتأنيث الفدية. والأوَّل اختيار أبي عبيد، أي: لا يقبل منكم بَدَل ولا عِوَض ولا نَفْس أخرى. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مقامكم ومنزلكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: أَوْلَى بكم(٣)، والمولى: من يتولَّى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء. وقيل: أي: النار تملك أمرهم(٤)، بمعنى أنَّ الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميَّز غيظًا على الكفَّار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ساءت مرجعًا ومصيرًا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقرب ويحين(٥)، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، قال ابن حجر في فتح الباري ١١/٢٣٨: الأعراض، جمع عَرَض - بفتحتين -: وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير والشر. ونَهَشَه: أصابه.

(٢) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكشف لمكي ٢/ ٣١٠ - ٣١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢، وغريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٣.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨، وما بعده منه.

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرِكَ الجهلا ... وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلَا[١]

وماضيه: أَنَى ـ بالقصر ـ يَأْنِي[٢]. ويقال: آنَ لكَ ـ بالمد ـ أن تفعل كذا، يَئِينُ أَيْناً، أي: حَانَ، مثل أَنَى لك، وهو مقلوب منه[٣]. وأنشد ابن السِّكِّيت:

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي ... وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين.

وقرأ الحسن: «أَلَمَّا يَأْنِ»[٤]، وأصلها «أَلَمْ» زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و«لم» نفي لقوله: كان كذا.

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ» إلا أربعُ سنين.

قال الخليل: العتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة[٦]. تقول: عاتبته معاتبة ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي: تذلَّ وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ روي أنَّ المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيِّ ﷺ لما ترفَّهوا بالمدينة، فنزلت الآية[٧]؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إنَّ الله يستبطئكم بالخشوع»[٨] فقالوا عند ذلك: خَشَعنا. وقال ابن عباس: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن[٩].

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص ٢١٥، ورواية عجزه هكذا:

وأن يُحدِث الشيب الملمُّ ليَ العقلا

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٣.

(٣) الصحاح (أين)، وما بعده منه أيضاً.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، وما بعده منه.

(٥) برقم (٣٠٢٧).

(٦) الصحاح (عتب)، وما بعده منه أيضًا، والمصنف نقله عنه بواسطة المفهم ٧/ ٤٠٦، وما بعده منه أيضاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٣) عن مقاتل بن حيان.

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٥).

وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنَّهم سألوا سلمانَ أن يُحدِّثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية [يوسف: ١-٣]؛ فأخبرهم أنَّ هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفُّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأوَّل فنزلت: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان[1].

قال السديُّ وغيره: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر، وأسرُّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ». وقيل: نزلت في المؤمنين[2].

قال سعد: قيل: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا، فنزل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان: لو حدَّثْتَنَا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا بعد مدَّة: لو ذكَّرتنا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ للَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ»[3]. ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحبُّ خَلْقه إليه[4].

وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام؛ لأنَّه قال عقيب هذا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» أي: ألم يَأْنِ للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلينَ قلوبهم للقرآن، وألَّا يكونوا كمتقدِّمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأمَد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ أي: وألَّا يكونوا، فهو منصوب عطفاً على «أَنْ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧ وعزاه لابن عباس وابن مسعود والقاسم بن محمد.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٢ بإسناده عنه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وسلف تخريجه قريباً عن ابن مسعود.

تَخْشَعَ». وقيل: مجزوم على النهي[١]، مجازه: ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب: «لَا تَكُونوا» بالتاء[٢]، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيلَ اليهود والنصارى، أُعطوا التوراةَ والإنجيلَ فطالت الأزمان بهم.

قال ابن مسعود: إنَّ بني إسرائيل لما طال عليهم الأَمَد قست قلوبُهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحقُّ يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، ثم قالوا: اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم، وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أَبَى قتلناه، فلا يختلف علينا بعده أحد، فأَرسلوا إليه، فكتب كتابَ الله في ورقة وجعلها في [قَرنٍ] وعَلَّقها فِي عنقه، ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم، فعرضوا عليه كتابَهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنتُ بهذا. يعني: المعلَّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بِضْع وسبعين مِلَّة، وخير مللهم أصحاب ذِي القَرْن. قال عبد الله: ومن يَعِشْ منكم فسيرى منكَراً، وبحَسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيِّره أن يُعلِم اللهَ من قلبه أنَّه له كاره[٣].

وقال مقاتل بن حيان: يعني: مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بَعْثَ النبيِّ ﷺ[٤].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يعني: الذين ابتدعوا الرهبانيَّة أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتديَّن به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيُّ ﷺ فآمنوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٠.

(٢) النشر ٢/ ٣٨٤.

(٣) أخرجه بتمامه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٩ (١٨٨٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٩)، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٢/ ٤١٠، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج، والقَرَن: الجعبة. اللسان (قرن).

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٠ عن مقاتل بن سليمان.

به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكَّة مجدِبِين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

وذكر ابن المبارك[1]: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أنَّ عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا فيها ـ أو قال: في ذنوبكم ـ كأنَّكم عبيد، فإنَّما الناس رجلان، معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ» كانت سببَ توبة الفُضيل بن عياض وابنِ المبارك ـ رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن ابن مروان القَلَانسيُّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال: حدَّثنا علي بن يعقوب الزيَّات، قال: حدَّثنا إبراهيم بن هشام، قال: حدَّثنا زكريا بن أبي أبان، قال: حدَّثنا الليث بن الحارث، قال: حدَّثنا الحسن بن داهر، قال: سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعًا بضَرْب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له: راشين السَّحَر، وأراد سنان يغنِّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» قلت: بلى واللهِ!وكسرتُ العودَ، وصَرَفتُ مَن كان عندي، فكان هذا أوَّل زهدي وتشميري[2]. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَمْ يَأْنِ لي منك أن تَرْحَمَا ... وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّما

(١) في كتابه الزهد (١٣٥)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٦/٣٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٧) - ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/٤٠٧ بإسناد آخر عن ابن المبارك، ودون ذكر قوله: فضربت بصوت يقال له ... إلى قوله: يغني.

وتَـرْثِـي لِـصَـبٍّ بِـكُـم مُـغْـرَم أقـام عـلـى هـجـرِكـم مَـأْتَـمَـا
يَـبِـيـتُ إذَا جَـنَّـهُ لَـيْـلُـهُ يُـراعِـي الـكَـواكِـبَ والأَنْـجُـمَـا
ومـاذا عـلـى الـظَّـبـيِ لَـوْ أَنَّـهُ أَحَـلَّ مِـن الـوَصْـلِ مـا حَـرَّمَـا

وأما الفُضيل بن عياض فكان سبب توبته أنَّه عشق جاريةً، فواعدته ليلًا، فبينما هو يرتقِي الجدران إليها إذ سمع قارئًا يقرأ: «أَلَمْ يَأْنِ للَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ» فرجع القهقرى وهو يقول: بلى واللهِ قد آن! فآواه الليل إلى خَربَة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إنَّ فضيلًا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أوَّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهمَّ إنِّي قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتِي إليك جوار بيتك الحرام(١).

قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي: «يُحْيِي الأَرْضَ» الجَدْبة «بَعْدَ مَوْتِهَا» بالمطر. وقال صالح المُرِّيُّ: المعنى: يُلَيِّن القلوب بعد قساوتها(٢). وقال جعفر بن محمد: يُحييها بالعدل بعد الجَوْر. وقيل: المعنى: فكذلك يُحيي الكافرَ بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يُحيِي الله الموتى من الأمم، ويميِّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه(٣). ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنَّه لمحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٦)، والخَرِبة: موضع الخراب. والسابلة: المارُّون على الطرقات المتردِّدون في حوائجهم. المعجم الوسيط (خرب) و(سبل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤ بنحوه.

الصاد فيهما[١]، من التصديق، أي: المصدِّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد، أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، فأدغِمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيٍّ[٢]. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كلُّ ما في القرآن من القَرْض الحسن فهو التطوُّع[٣]. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا. وإنَّما عطف بالفعل على الاسم؛ لأنَّ ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرضوا ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الأعمش: «يُضَاعِفُه» بكسر العين وزيادة هاء[٤]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضَعَّفُ» بفتح العين وتشديدها[٥]. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ اختلف في «الشُّهَدَاء» هل هو مقطوع مما قبل، أو متَّصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إنَّ الشهداء والصدِّيقين هم المؤمنون، وأنَّه متصل، وروى معناه عن النبيِّ ﷺ، فلا يُوقَف على هذا على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية[٦]. قال القشيريُّ: قال الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾ [النساء: ٦٩] فالصدِّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدِّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون

---

(١) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٢.

(٣) سلف تخريجه عند الآية (١١) من هذه السورة.

(٤) لم نقف عليها.

(٥) السبعة ص ١٨٤ - ١٨٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤١٤ - ٤١٥، إلا أن خبر زيد بن أسلم أخرجه عنه، عن البراء بن عازب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مؤمنو أمتي شهداءُ. قال: ثم تلا النبيُّ ﷺ: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله فأولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾. وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨، وينظر المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

هذه الآية في جملة من صدَّق بالرسل، أعني: «والَّذين آمَنُوا باللهِ ورسلِهِ أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ». ويكون المعنى بالشهداء، مَن شهِدَ لله بالوحدانية، فيكون صدِّيق فوق صدِّيق في الدرجات، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّات العلا ليراهم مَن دونهم، كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»(١).

وروي عن ابن عباس ومسروق أنَّ الشهداءَ غيرُ الصدِّيقين(٢). فالشهداء على هذا منفصل مما قبله، والوقف على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» حسن(٣). والمعنى: «والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم» أي: لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان:

أحدهما: أنَّهم الرسل يَشهدون على أُممهم بالتصديق والتكذيب، قاله الكلبيُّ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

الثاني: أنَّهم أُمم الرسل يَشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما: أنَّهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد(٤). الثاني: يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أُممهم، قاله الكلبيُّ. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنَّهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدِّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء(٥).

وقد اختلف في تعيينهم، فقال الضحَّاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليٌّ وزيد

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٦، والحديث لم نقف عليه مسنداً.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤١٣، وعن مسروق - وحده - أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦.

(٣) ذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٢٥، والداني في المكتفى في الوقف والابتداء ص ٥٥٥ أن الوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ تامٌّ.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٩، وما بعده منه أيضاً.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦١.

وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب ﷺ، ألحقه اللهُ بهم لما صدَّق نبيَّه ﷺ[١]. وقال مقاتل بن حبان: الصدِّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفةَ عين[٢]، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وصاحب أصحاب الأخدود[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالرسل والمعجزات ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجه الاتصال أنَّ الإنسان قد يَترُك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفًا من لزوم الموت، فبيَّن أنَّ الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أَمْرَ الله محافظةً على ما لا يبقى.

و«ما» صلة، تقديره: اعلموا أنَّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرح ثم ينقضي[٤]. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنَّه على المعهود من اسمه. قال مجاهد:

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وجاءت تتمة العبارة فيهما هكذا: وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم؛ لما عرف من صدق نيته.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٥١، ونسبه إلى المقاتِلَيْن ابن حبان، وابن حيان.

(٣) في (م): وأصحاب الأخدود.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨.

كلُّ لعب لهو[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[٢]، وقيل: اللَّعب: ما رَغَّب في الدنيا. واللَّهو: ما ألهى عن الآخرة، أي: شَغل عنها. وقيل: اللعب: الاقتناء. واللهو: النساء[٣]. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: ما يتزيَّن به، فالكافر يتزيَّن بالدنيا ولا يعمل للآخرة[٤]، وكذلك من تزيَّن في غير طاعة الله.

﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخِلْقة والقوَّة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء[٥]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[٦]. وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «أربع في أمتي من أَمْرِ الجاهلية: الفخر في الأحساب»[٧] الحديث. وقد تقدَّم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ لأنَّ عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة[٨]. قال بعض المتأخِّرين: «لَعِبٌ» كلعب الصبيان «وَلَهْوٌ» كلهو الفتيان «وَزِينَةٌ» كزينة النسوان «وَتَفَاخُرٌ» كتفاخر الأَقْران «وَتَكَاثُرٌ» كتكاثر الدُّهقان[٩]. وقيل: المعنى أنَّ الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء[١٠].

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه قال لعمَّار: لا تحزن على الدنيا؛ فإنَّ الدنيا ستَّة أشياء: مأكول

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٢) ٨/ ٣٦١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٧١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٦) مسلم (٢٨٦٥) : (٦٤) ، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٧) سلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٩) الدهقان ، بكسر الدال وضمها : التاجر ، فارسي معرَّب . اللسان (دهق) .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٢ .

ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الدِّيباج وهو نَسْجُ دودة، وأفضل المشموم المِسْك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال، واللَّهِ، إنَّ المرأة لتزيّن أحسنها يراد به أقبحها.

ثم ضرب الله تعالى لها مثًلا بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفَّار هنا: الزرَّاع؛ لأنَّهم يغطُّون البَذْر. والمعنى أنَّ الحياة الدنيا كالزرع يُعجِب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيمًا كأنْ لم يكن، وإذا أعجب الزرَّاع فهو غاية ما يستحسن(١). وقد مضى هذا المثل في «يونس» و«الكهف»(٢) وقيل: الكفَّار هنا الكافرون بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين(٣). وهذا قول حسن؛ فإنَّ أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحِّدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلَّل عندهم وتدِقُّ إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة(٤).

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: متغيِّرًا عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حُسْنه، كذلك دنيا الكافر(٥). ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: للكافرين. والوقف عليه حسن(٦)، ويبتدئ:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ .

(٢) ١٠/ ٤٧٧ ، وعند الآية (٤٥) من سورة الكهف .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٦) لم نقف عليه .

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: للمؤمنين. وقال الفرَّاء[1]: «وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ» تقديره: إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يُوقَف على «شَدِيدٌ». ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا تأكيد ما سبق، أي: تغرُّ الكفَّار، فأما المؤمن فالدنيا له متاعُ بلاغٍ إلى الجنَّة[2]. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرورِ، تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِب المغفرة لكم من ربِّكم[3]. وقيل: سارعوا بالتوبة[4]؛ لأنَّها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبيُّ. وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: الصف الأول[5]. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض[6]. قال الحسن: يعني جميع السماوات والأرضين مبسوطتان، كلٌّ واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد، أي: لكلِّ واحد جنَّة بهذه السَّعَة. وقال ابن كيسان: عنى به جنَّة واحدة من الجنَّات. والعَرْض أقلُّ من الطول، ومن عادة العرب أنَّها تعبِّر عن سَعِة الشيء بعَرْضه دون طوله. قال:

كَأن بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... على الْخَائِفِ المطْلوبِ كفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كلُّه في «آلِ عمران»[7]. وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحِيْرَة لعمر ﷺ: أرأيتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْض» فأين النارُ؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله[8].

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٥.
(٢) الوسيط ٤/ ٢٥٢.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٣.
(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٥.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨١.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.
(٧) ٥/ ٣١٣ - ٣١٧، والبيت سلف تخريجه هناك ٥/ ٣١٥.
(٨) سلف تخريجه ٥/ ٣١٥.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شَرَط الإيمانَ لا غير، وفيه تقويةُ الرجاء[(١)]. وقد قيل: شَرَط الإيمانَ هنا، وزاد عليه في «آل عمران» فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الآيـة: ١٣٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: إنَّ الجنَّة لا تُنال ولا تُدخَل إلا برحمة الله تعالى وفَضْله[(٢)]. وقد مضى هذا في «الأعراف»[(٣)] وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القَحْط وقلَّة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع[(٤)]. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام، قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود، قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواية ابن جريج[(٥)]. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يَخْلق المصيبة[(٦)]. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس[(٧)]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه «عَلَى الله يَسِيرٌ»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٣) ٩/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ دون عزوه لمقاتل، والجوائح: جمع جائحة، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المالَ من سَنَة أو فتنة. اللسان (جوح).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥، والطبري ٢٢/ ٤١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٠.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ دون عزو، وما بعده منه أيضاً.

هيِّن. قال الربيع بن صالح: لما أُخِذَ سعيد بن جبير ﷺ بَكَيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بكَ، ولما تذهب إليه. قال: فلا تَبْكِ؛ فإنَّه كان في عِلْم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية[١]. وقال ابن عباس: لما خَلَق الله القَلَم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٢]. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواءَ في أمراضهم فلم يستعملوه؛ ثقةً بربِّهم، وتوكُّلًا عليه، وقالوا: قد علم الله أيَّام المرض وأيَّام الصحة، فلو حرص الخَلْق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: «مَا أَصَابَ من مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلَّا في كتابٍ من قَبْلِ أن نَبْرَأَها».

وقد قيل: إنَّ هذه الآية تتَّصل بما قبل، وهو أنَّ الله سبحانه هوَّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قَتْلٍ وجَرْح، وبيَّن أنَّ ما يخلِّفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكلُّ مكتوب مقدَّر لا مدفع له، وإنَّما على المرء امتثال الأمر.

ثم أدَّبهم فقال هذا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق. وذلك أنَّهم إذا علموا أنَّ الرزق قد فُرِغ منه لم يَأْسَوْا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طَعْمَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ»[٣]. أي: كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنَّه لم يُقدَّر لكم، ولو قُدِّر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٢٨.

(٢) سلف ١/٣٥٨.

(٣) لم نقف عليه هكذا مرفوعاً، بل أخرج عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢) - ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٧٩٠) - عن معمر، عن قتادة أن ابن مسعود قال: ثلاث من كنَّ فيه يجد حلاوة الإيمان: ترك المراء في الحق، والكذب في المزاحة، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٥: رواه الطبراني، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود. اهـ.
وفي الباب عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث.

لكم لم يفتْكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: من الدنيا، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخِصْب[١]. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكراً[٢]. والحزن والفرح المنهيُّ عنهما هم اللّذان يتعدَّى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبِّر بما أُوتِيَ من الدنيا، فخور به على الناس.

وقراءة العامة: «آتَاكُمْ» بمدِّ الألف، أي: أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو: «أَتَاكُمْ» بقَصْر الألف، واختاره أبو عبيد[٣]. أي: جاءكم، وهو معادل لـ«فَاتَكُمْ» ولهذا لم يقل: أفاتكم.

قال جعفر بن محمد الصادق: يا بنَ آدمَ مالَكَ تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفَوْت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]. وقيل لِبُزُرْجُمِهْر: أيُّها الحكيم! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟ قال: لأنَّ الفائت لا يتلافى بالْعَبْرةِ، والآتي لا يُستدام بالحَبْرةِ[٥]. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى: الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعةَ له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار. والفخور: الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار. وكلاهما شِرْكٌ خفيٌّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدُّ أخلافها ليجتمع فيها

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٢/ ٤٢١، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٠ (١٨٨٣٢).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤، والطبري ٢٢/ ٤٢١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٥، والقراءة في السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والحجة للفارسي ٦/ ٢٧٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٦، والحَبْرة: السرور. القاموس (حبر). وبُزُرْجُمِهْر: وزير أنوشروان، واسمه مركَّب من جزأين: بُزُرْج، وهو معرَّب بزرك، أي: عظيم. ومهر بمعنى: شمس. تاج العروس (بزرج)، وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ٧٣ - ٧٤.

اللبن، فيتوهَّم المشتري أنَّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدَّعٍ فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ أي: لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ«الَّذِينَ» في موضع خفض، نعتًا للمختال[1]. وقيل: رفع بابتداء[2]، أي: الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمَّد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمنَ به الناس، فتذهب مأكلتهم، قاله السديُّ والكلبيُّ. وقال سعيد بن جبير: «الَّذِينَ يَبْخَلُون» يعني: بالعلم[3] ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي: بألَّا يعلِّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنَّه البخل بأداء حقِّ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: إنَّه البخل بالصدقة والحقوق، قاله عامر بن عبد الله الأشعريُّ. وقال طاوس: إنَّه البخل بما في يديه[4]. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرَّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما: أنَّ البخيل الذي يلتذُّ بالإمساك. والسخيَّ الذي يلتذُّ بالإعطاء. الثاني: أنَّ البخيل الذي يُعطي عند السؤال، والسخيَّ الذي يعطي بغير سؤال.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ غنيٌّ عنه[5]. ويجوز أن يكون لما حثَّ على الصدقة أعلمهم أنَّ الذين يبخلون بها، ويأمرون الناس بالبخل بها، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم.

وقراءة العامة: «بِالْبُخْلِ» بضمِّ الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائيُّ: «بِالْبَخَلِ»

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

بفتحتين[١]، وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفع «بِالْبَخْلِ» بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم: «الْبُخُلِ» بضمَّتين، وكلُّها لغات مشهورة. وقد تقدَّم الفرق بين البخل والشحِّ في آخر «آل عمران»[٢].

وقرأ نافع وابن عامر: «فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير «هُوَ»[٣]. والباقون: «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلًا. ويجوز أن يكون مبتدأ، و«الْغَنِيُّ» خبره، والجملة خبر «إنَّ». ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلًا؛ لأنَّ حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ[٤].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات البيِّنة والشرائع الظاهرة[٥]. وقيل: الإخلاص للَّه تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل، نوح فمَن دونه إلى محمَّد ﷺ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتب، أي: أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يُوزَن به ويتعامل[٦] ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في معاملاتهم[٧]. وقوله: «بِالْقِسْطِ»

(١) السبعة ص ٢٣٣، والتيسير ص ٩٦.

(٢) ٥/ ٤٤١.

(٣) السبعة ص ٦٢٧، والتيسير ص ٢٠٨.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٧٦.

(٥) الكشاف ٤/ ٦٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

يدلُّ على أنَّه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل[١]. قال القشيريُّ: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى: أنزلنا الكتابَ ووضعنا الميزان، فهو من باب:

عَلَفْتُهَا تِبناً وماءً بارِدًا[٢]

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن:٧-٩] وقد مضى القول فيه. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أنزل أربع بركاتٍ من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»[٣]. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدمَ عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنَّة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتان والمِيقَعة، وهي المِطرقة، ذكره الماورديُّ[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: نزل آدم من الجنَّة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدَّادين: السَّنْدان، والْكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريُّ قال: والمِيقَعة: ما يحدَّد به؛ يقال: وَقَعْتُ الحديدَةُ أَقَعُها، أي: حَدَدتها[٥]. وفي «الصحاح»[٦]: والمِيقَعة: الموضع الذي يألفه البازِيُّ[٧] فيقع عليه، وخشبة القَصَّار التي يَدقُّ عليها، والمِطْرقة والمِسنُّ الطويل.

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٢) سلف ١/ ٢٩١ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/٢٥٣ ، والديلمي في الفردوس ١/ ١٧٥ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٩٩ ، والطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٥٧ ، وابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٤ ولكن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وعزاه - أي ابن حجر - للثعلبي ، وقال : وفي إسناده من لا أعرفه .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ ، وفيه : مثل طول موسى ، بدل : مع طول موسى .

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧ .

(٦) مادة : (وقع) .

(٧) البازيُّ: واحد البُزاة التي تَصِيدُ، ضَرْبٌ من الصقور. اللسان (بزا).

وروي أنَّ الحديد أُنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي: لإهراق الدماء. ولذلك نُهيَ عن الفَصْد والحِجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنَّه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم»[١]. وقيل: «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي: أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[٢] [الزمر:٦] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء[٣]. وقال أهل المعاني: أي: أخرج الحديد من المعادن وعلَّمهم صنعته بوحيه[٤]. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني: السلاح والكُرَاع والجُنَّة[٥]. وقيل: أي: فيه من خشية القتل خوف شديد[٦]. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني: جُنَّة[٧]. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه[٨].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: أنزل الحديد؛ ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسطِ» أي: أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحقِّ، «وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرَهُ» وليرى الله من ينصر دينه[٩] ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم: لا يكذِّبونهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٢) عن أبي بكرة نفيع الحارث الثقفي ﷺ، والراوية عنه ابنتُه كَيِّسة، ولا يُعرف حالها. كذا قال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ٥٢٩ . وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/ ٣٤٩: في إسناده: أبو بكرة بكَّار بن عبد العزيز بن أبي بكرة. قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. اهـ. وعدَّه ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٤). ومعنى يرقأ: ينقطع. اللسان (رقأ).

(٢) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

(٥) الكراع: السلاح، وقيل: اسم يجمع الخيل والسلاح. والجُنَّة: ما واراك من السلاح واستترت به منه. اللسان (كرع) و(جنن).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٦ .

(٨) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٤ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي: وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي: منيع غالب. وقد تقدَّم[1]. وقيل: «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصَّل ما أجمل من إرسال الرُّسل بالكتب، وأخبر أنَّه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوَّة في نسلهما[2] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا بعض ذرِّيَّتهما الأنبياء، وبعضهم أُمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[3]. وقال ابن عباس: الكتاب: الخطُّ بالقلم[4] ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: منِ ائتمَّ بإبراهيم ونوح ﴿مُّهْتَدٍ﴾. وقيل: «فَمِنْهُمْ مُهتَدٍ» أي: من ذرِّيَّتهما مهتدون. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الذرِّيَّة. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم[5] ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرِّيَّة إبراهيم من جهة أمِّه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وقد تقدَّم اشتقاقه في أوَّل سورة «آل عمران»[6].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، يعني الحواريين

---

(١) ١٤/ ٤١٢ - ٤١٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩.

(٤) الكشاف ٤/ ٦٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.

(٦) ٥/ ١١.

وأتباعهم[١] ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: مَودَّةً، فكان يوادُّ بَعضهم بعضًا[٢]. وقيل: هذا إشارة إلى أنَّهم أُمروا في الإنجيل بالصلح وتَرْكِ إيذاء الناس، وألانَ الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه. والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة. وقيل: الرأفة: تخفيف الْكَلِّ. والرحمة: تحمُّل الثقل[٣]. وقيل: الرأفة: أشدُّ الرحمة. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: من قِبَلِ أنفسِهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبةً بإضمار فعل[٤]، قال أبو عليٍّ: وابتدعوها رهبانيةً ابتدعوها. وقال الزجَّاج[٥]: أي: ابتدعوها رهبانيةً، كما تقول: رأيت زيداً وعَمْراً كلَّمتُ. وقيل: إنَّه معطوف على الرأفة والرحمة[٦]، والمعنى على هذا أنَّ الله تعالى أعطاهم إياها فغيَّروا وابتدعوا فيها.

قال الماورديُّ[٧]: وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفتح الراء، وهي الخوف من الرَّهب. الثانية: بضمِّ الراء[٨]، وهي منسوبة إلى الرُّهبان، كالرُّضْوانيَّة من الرُّضْوان؛ وذلك لأنَّهم حَمَلوا أنفسهم على المشقَّات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلُّق بالكهوف والصوامع[٩]، وذلك أنَّ ملوكهم غيَّروا وبَدَّلوا، وبقي نفر قليل فترهَّبوا وتبتَّلوا. قال الضحَّاك: إنَّ ملوكًا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاث مئة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا، فليس يَسَعُنا المقام بينهم، فاعتزَلوا الناس واتَّخذوا

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤، والكَلُّ: المصيبة تحدث. اللسان (كلل).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٤.

(٨) الكشاف ٤/ ٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠.

الصوامع[١]. وقال قتادة: الرهبانيَّة التي ابتدعوها رَفْضُ النساء واتِّخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: هي لحوقهم بالبراري والجبال[٢].

﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قاله ابن زيد[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمرناهم إلا بما يُرضِي الله، قاله ابن مسلم. وقال الزجَّاج[٤]: «مَا كَتَبنَاهَا عَلَيْهِم» معناه: لم نكتب عليهم شيئًا ألبَتَّة. ويكون «ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ» بدلًا من الهاء والألف في «كَتَبْنَاهَا»، والمعنى: ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاءَ رضوان الله. وقيل: «إِلَّا ابْتِغَاءَ» الاستثناء منقطع[٥]، والتقدير: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعوها؛ ابتغاءَ رضوان الله.

﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ أي: فما قاموا بها حقَّ القيام. وهذا خصوص؛ لأنَّ الذين لم يَرْعوها بعض القوم، وإنَّما تسبَّبوا بالترهُّب إلى طلب الرياسة على الناس وأكْلِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤] وهذا في قوم أدَّاهم الترهُّب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر.

وروى سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى بدَّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، ويَدْعُون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلتَ هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا اسطوانةً ارفعونا فيها، وأعطونا شيئًا نَرفعُ به طعامنا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤، وفيه: فاعتزلوا النساء، بدل: فاعتزلوا الناس.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ والقول الثاني فيه هكذا: أنها لحوقهم بالجبال، ولزومهم البراري، وروي فيه خبر مرفوع. اهـ. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢٨، والحديث المرفوع سيأتي ص٢٧٤-٢٧٥ من هذا الجزء عن ابن مسعود ﷺ، وثمة تخريجه هناك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨، وما بعده منه أيضاً.

وشرابنا ولا نَرِدُ عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرِّيَّة، فإذا قَدَرْتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دُوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونَحترِث البقول، فلا تروننا ـ وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ـ ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخَلَف قوم من بعدهم ممن قد غيَّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبَّد كما تعبَّد أولئك، وهم على شِرْكهم لا عِلْم لهم بإيمانِ مَن تقدَّم من الذين اقْتَدَوْا بهم، فذلك قوله تعالى: «ورهبانيَّةً ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيْهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ» الآية[١]. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون «فَمَا رَعَوْهَا» المتأخِّرون «حَقَّ رِعَايَتِهَا» ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوَّلًا ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يعني المتأخِّرين، فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ ولم يَبْقَ منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمَّد ﷺ[٢].

الثالثة: وهذه الآية دالَّة على أنَّ كلَّ مُحدَثة بدعةٌ، فينبغي لمن ابتدعَ خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضدِّه؛ فيدخل في الآية[٣]. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه: صُدَيُّ بن عَجْلان ـ قال: أَحدثتم قيامَ رمضان ولم يُكتَب عليكم، إنَّما كُتبَ عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإنَّ ناسًا من بني إسرائيل ابتدعوا بِدَعًا لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حقَّ رعايتها، فعاتَبهم الله بتَرْكها فقال: «ورهبانيَّة ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْها حقَّ رعايَتِها»[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ ، والأثر أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٢٣١-٢٣٣ ، وفي الكبرى (٥٩٠٨) و(١١٥٠٣) من طريق الفضل بن موسى ، عن سفيان ، به . والأسطوانة: السارية. المعجم الوسيط (أسطوانة).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٣٣ ، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٣٣ عن أبي أمامة موقوفاً. وأخرجه عنه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٧٤٤٦) ، وقال : لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهذا الإسناد ، تفرَّد به إسماعيل بن عمرو . اهـ . وهو إسماعيل بن عمرو بن نجيح البَجَلي الكوفي ثم =

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيُّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف»(١) مستوفًى، والحمد لله.

وفي «مسند أحمد بن حنبل» من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه قال: فمَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماء، فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغارِ، فَيَقُوته ما كان فيه من ماء، ويُصِيب ما حوله من البَقْل، ويتخلَّى عن الدنيا. قال: لو أنِّي أتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فإن أَذِنَ لي، فَعَلْتُ، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيَّ الله! إنِّي مررتُ بغارٍ فيه ما يَقُوتني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أُقيم فيه وأتخلَّى من الدنيا. قال: فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لم أُبعَث باليهوديَّة ولا بالنصرانيَّة، ولكنِّي بُعِثتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة، والذي نفسُ محمَّد بيده لغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولَمَقام أحدِكم في الصفِّ الأوَّل خيرٌ من صلاته ستِّين سنةً»(٢).

وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدرِي أيُّ الناس أَعلم»؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحقِّ إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصِّرًا في العمل، وإن كان يزحف على اسْتِهِ، هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانيَّة؟ ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاثَ مرَّات، فلم يَبْقَ منهم إلا القليل فقالوا: إن أَفنونا فلم يَبْقَ للدِّين أَحَدٌ يدعوا إليه، فتعالوا نفترق في

= الأصبهاني، قال ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها. وقال أبو حاتم والدارقطني: ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩.

(١) ١٣/ ٢١٧.

(٢) أحمد (٢٢٢٩١)، وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٧٨٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٩: رواه أحمد والطبراني، وفيه: علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف. اهـ. وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ بنحو هذه القصة أخرجه عنه الترمذي (١٦٥٠)، وأحمد (٩٧٦٢). قال الترمذي: حديث حسن.

الأرض إلى أن يبعث الله النبيَّ الأُمِّيَّ الذي وعدنا عيسى - يعنون محمَّداً ﷺ - فتفرَّقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانيةً، فمنهم من تمسَّك بدينه، ومنهم من كفر - وتلا: «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية - أتدري ما رهبانيَّة أُمَّتي: الهجرة: والجهاد، والصوم، والصلاة، والحجُّ، والعمرة، والتكبير على التلاع، يا ابن مسعود اختلف مَن كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة، وهلك سائرها[1]، فرقة أزَّت[2] الملوكَ وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى - عليه السلام - حتى قُتِلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة[3] الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة الملوك، ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهي التي قال الله تعالى فيهم: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» - الآية - فمَن آمن بي واتَّبعني وصدَّقني، فقد رعاها حقَّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون»[4]. يعني الذين تهوَّدوا وتنصَّروا. وقيل:

---

(١) في (ظ): سائرهم. وكذا في الموضع الآتي.

(٢) في (ظ) و(ق): وارت. وفي (م): وازت. والمثبت من مصادر التخريج، ومن النهاية (أزي) حيث قال: وفي الحديث: «وفرقة آزت الملوك» أي: قاومتهم. يقال: فلانٌ إزاءٌ لفلانٍ: إذا كان مقاوماً له.

(٣) في (ظ): بمواراة. وفي (م): بموازاة. وكذا في الموضع الآتي.

(٤) من قوله: وروى الكوفيون ... إلى قوله: وإن كان يزحف على استه. فمن أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٢. ومن قوله: هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ... إلى نهاية الحديث، فمن تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ - ٣٠١، والحديث أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧) من طريق بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه مقطَّعًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠ - ٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف، وثّقه أحمد وغيره، وفيه ضعف.

وأخرجه أيضاً المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠ - ٤٣١، والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠ من طريق الصَّعِق بن حَزْن، عن عقيل، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مقطَّعًا. قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: ليس بصحيح، فإن الصعق بن حزن، وإن كان موثقاً، فإن شيخه منكر الحديث، قاله البخاري. اهـ.

هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به، فأولئك هم الفاسقون(١). وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ؛ أي: إنَّ الأوَّلين أصرُّوا على الكفر أيضًا، فلا تَعْجَبْ من أهل عصرك إن أصرُّوا على الكفر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمَّد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: مِثْلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله(٢) عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] وقد تقدَّم القول فيه(٣). والكِفْل: الحظُّ والنصيب، وقد مضى في «النساء»(٤)، وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب، فيحفظه من السقوط، قاله ابن جريج(٥). ونحوه قال الأزهريُّ(٦)، قال(٧): اشتقاقه من الكِساء الذي يُحوِّيه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه، لئلا يسقط. فتأويله: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي، كما يحفظ الكِفْلُ الراكبَ(٨). وقال أبو موسى الأشعريُّ: «كِفْلَينِ»: ضعفين، بلسان الحبشة(٩). وعن ابن زيد: «كِفْلَيْن» أجر الدنيا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨.
(٢) تكررت هذه العبارة في (ظ) مرَّة ثانية، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٤٨٥.
(٣) ١٦/ ٢٩٥.
(٤) ٦/ ٤٨٥.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٧ دون نسبة.
(٦) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٠.
(٧) ليست في (ظ).
(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣١.
(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤١٧، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٥٨، والطبري ٢٢/ ٤٣٨.

والآخرة[١]. وقيل: لمَّا نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية[٢].

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ الحسنة إنَّما لها من الأجر مِثْل واحد، فقال: الحسنة اسم عامٌّ ينطلق على كلِّ نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مِثْلين؛ بدليل هذه الآية فإنَّه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكِفْل: النصيب، كالمِثْل، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله، فدلَّ على أنَّ الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها، فيكون لكلِّ نوع منها مِثْل، وهذا تأويل فاسد؛ لخروجه عن عموم الظاهر في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] بما لا يحتمله تخصيص العموم؛ لأنَّ ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كلِّ حسنة إلا بِمِثْلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها، والأخبار دالَّة عليه. وقد تقدَّم ذكرها[٣]. ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرقان.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: بيانًا وهدًى، عن مجاهد. وقال ابن عباس: هو القرآن[٤]. وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنَّة. وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤساء في دين

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣٨.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٧.
(٣) ٩/ ١٣٦، ١٦/ ٢٢٣.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٢، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٤٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨.

الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها، وذلك أنَّهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمَّد عليه السلام. وإنَّما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضَّعَفَة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقيَّة في الدين. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليعلم، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفرَّاء: معناه: لأن يعلم، و«لا» صلة زائدة في كلِّ كلام دخل عليه جَحْد[١]. قال قتادة: حسَد أهلُ الكتاب المسلمين فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ»[٢]. أي: لأن يعلم أهل الكتاب أنَّهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود: يُوشِك أن يخرج منا نبيٌّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أي: ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أي: أنَّهم لا يقدرون[٣]، كقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩].

وعن الحسن: «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب: بكسر اللام وإسكان الياء[٤]. وفتح لام الجرِّ لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنَّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام، فصار «لَلَّا» فلما اجتمعت اللَّامات أُبدلت الوسطى منها ياء، كما قالوا في أمَّا: أَيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ: «لِيْلَا» بكسر اللام، إلا أنَّه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها، فهو أقوى من هذه الجهة.

وعن ابن مسعود: «لِكَيْلَا يَعْلَمَ»[٥]، وعن حِطَّان بنِ عبد الله: «لأَنْ يَعْلَمَ»[٦]،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٠٥، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٣٧.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٤، وما بعده منه أيضًا.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله بن أبي سلمة، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ»[١]، وهو خلاف المرسوم.

﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبيُّ: من رزق الله. وقيل: نِعَمُ الله التي لا تُحصى[٢]. «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوَّة عن محمَّد ﷺ إلى من يحبُّون. وقيل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي «البخاري»: حدَّثنا الحكم بن نافع، قال: حدَّثنا شعيب، عن الزهريِّ، قال: أخبرني سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنَّما بقاؤكم فيما سلف قَبْلَكم من الأُمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهلُ التوراةِ التوراةَ، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطيتم القرآنَ، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأُعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربَّنا هؤلاءِ أقلُّ عملًا وأكثرُ أجراً؟ قال: هل ظلمتكم من أجْرِكم من شيء؟ قالوا: لا. فقال: فَضْلي أُوتيه من أشاء». وفي رواية: «فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ربنا» الحديث[٣].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تم تفسير سورة الحديد، والحمد لله

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦ دون ذكر قوله: وقيل: الثواب.

(٣) البخاري (٧٤٦٧)، وهو عند أحمد (٦٠٢٩)، والرواية الأخرى برقم (٢٢٦٨) و(٢٢٦٩)، وهي عند أحمد (٤٥٠٨).

سُورَةُ الحَدِيدِ

مدنيَّةٌ، وقيلَ: مَكِّيَّةٌ، وآيُها تسعٌ وعشرونَ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذُكِرَ هاهُنا وفي الحشرِ والصَّفِّ بلفظِ الماضِي، وفي الجُمعةِ والتغابُنِ بلفظِ المُضارعِ إشعارًا بأنَّ من شأنِ ما أُسندَ إليهِ أنْ يسبحَهُ في جميعِ أوقاتِهِ؛ لأنَّهُ دلالةٌ جِبلِّيَّةٌ[2] لا تختلفُ باختلافِ الحالاتِ، ومجيءُ

---

(١) الذي في «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٤١)، و«تفسير الثعلبي» (٢٦/ ٧): عشرون وتسع آيات في الكوفي والبصري، وثمان في عدد الباقين. واتفقا على أنها مدنية، لكن ذكر غيرهما خلافاً في ذلك، فقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٢٣٢): فيها قولان:

أحدهما: أنها مدنيّة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة ومقاتل.

والثاني: أنها مكّيّة، قاله ابن السّائب.

واختصر الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٦٨) فقال: مدنية في قول الجمهور، قال الكلبي: هي مكية. وفي «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٦): وهي مدنية فيما قال النقاش وغيره بإجماع من المفسرين، وقال غيره: مكية.

قال ابن عطية: ولا خلاف أن فيها قرآنا مدنيًّا، لكن يشبه صدرها أن يكون مكيًّا، والله أعلم.

(٢) في نسخة الخيالي: «جليّة».

المصدرِ مطلقًا في بني إسرائيلَ أبلغُ من حيثُ إنَّهُ يشعرُ بإطلاقِهِ على استحقاقِ التَّسبيحِ من كلِّ شيءٍ وفي كلِّ حالٍ، وإنَّما عديَ باللَّامِ وهو معدًّى بنفسِهِ مثل: نصحتُ لهُ ونصَحْتُهُ إشعارًا بأن إيقاعَ الفعلِ لأجلِ اللهِ وخالصًا لوجهِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حالٌ تُشعرُ بما هو المبدأُ للتَّسبيحِ.

(٢) ـ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّهُ الموجدُ لها والمتصرِّفُ فيها.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئنافٌ أو خبرٌ لمحذوفٍ، أو حالٌ من المجرورِ في ﴿لَهُۥ﴾.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإحياءِ والإماتةِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ﴾ تامُّ القدرةِ.

(٣) ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السَّابقُ على سائرِ الموجوداتِ من حيثُ إنَّهُ مُوجِدُها ومُحدِثُها.

﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعدَ فَنائِها ولو بالنَّظرِ إلى ذاتها مع قطعِ النَّظرِ عن غيرِها، أو هوَ الأوَّلُ الذي تبتدئُ منهُ الأسبابُ وتنتهي إليهِ المسبَّباتُ، أو الأوَّلُ خارجًا والآخرُ ذهنًا.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظَّاهرُ وجودهُ لكثرةِ دلائلهِ، والباطنُ حقيقةُ ذاتِهِ فلا يكتَنِهُها العقولُ، أو الغالبُ على كلِّ شيءٍ، والعالِمُ بباطنهِ.

والواوُ الأولى والأخيرةُ للجمعِ بينَ الوصفَينِ، والمتوسِّطةُ للجمعِ بينَ المجموعَينِ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عندَهُ الظَّاهرُ والخفيُّ.

(٤) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالبذورِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزُّروعِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالأمطارِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرةِ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لا ينفكُّ علمُهُ وقدرتهُ عنكم بحالٍ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكُم عليهِ.

ولعلَّ تقديمَ الخلقِ على العلمِ لأنَّهُ دليلٌ عليهِ.

(٥) ـ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكَرهُ معَ الإعادةِ كما ذكَره معَ الإبداءِ لأنَّهُ كالمقدِّمةِ لهُما، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(٦) ـ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمكنوناتِها.

(٧) ـ ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ منَ الأموالِ التي جعلَكُم اللهُ خلفاءَ في التصرُّفِ فيها، فهيَ في الحقيقةِ لهُ لا لكم، أو التي استخلَفَكُم عمَّن قبلَكُم في تملُّكها والتصرُّفِ فيها، وفيهِ حثٌّ على الإنفاقِ وتهوينٌ[1] لهُ على النَّفسِ.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعدٌ فيهِ مبالغاتٌ: جعلُ الجملةِ اسميَّةً، وإعادةُ ذكرِ الإيمانِ والإنفاقِ، وبناءُ الحكمِ على الضَّميرِ، وتنكيرُ الأجرِ ووصفُهُ بالكِبَرِ[2].

(٨) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: وما تصنعونَ غيرَ مؤمنينَ بهِ، كقولك: ما لكَ قائمًا.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حالٌ مِن ضميرِ ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: أيُّ عذرٍ لكم في تركِ الإيمانِ والرَّسولُ يدعوكم إليهِ بالحُجَجِ والآياتِ.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: وقَدْ أخذَ اللهُ ميثاقَكم بالإيمانِ قبلُ، وذلكَ بنصبِ الأدلَّةِ والتَّمكينِ من النَّظرِ، والواوُ للحالِ مِن مفعولِ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «وتوهين».

(٢) في نسخة الخيالي: «بالكبير».

وقرأ أبو عَمرٍو على البناءِ للمفعولِ[١].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجِبٍ ما، فإنَّ هذا مُوجِبٌ لا مزيدَ عليهِ.

(٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: اللهُ، أو العبدُ.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ نبَّهكُم بالرُّسلِ والآياتِ ولم يقتَصِر على ما نصبَ لكُم من الحُجَجِ العقليَّةِ.

(١٠) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ وأيُّ شيءٍ لَكُم في ألَّا تُنفِقوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيما يكونُ قربةً إليهِ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَرِثُ كلَّ شيءٍ فيهما ولا يبقى لأحدٍ مالٌ، وإذا كانَ كذلكَ فإنفاقُهُ بحيثُ يَستخلفُ عوضًا يبقى وهوَ الثَّوابُ كانَ أولى.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ بيانٌ لتفاوتِ المنفقينَ باختلافِ أحوالِهم من السَّبقِ وقوَّةِ اليقينِ وتحرِّي الحاجاتِ، حثًّا على تحرِّي الأفضلِ منها بعدَ الحثِّ على الإنفاقِ.

وذِكرُ القتالِ للاستطرادِ.

وقسيمُ ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ محذوفٌ لوضوحِهِ ودلالةِ ما بعدَهُ عليهِ.

والفتحُ فتحُ مكَّةَ إذ عزَّ الإسلامُ بهِ وكثُرَ أهلُهُ وقلَّتِ الحاجةُ إلى المقاتلةِ والإنفاقِ.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ﴾ أي: مِن بعدِ الفتحِ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعدَ اللهُ كلًّا من المنفقينَ المثوبةَ الحُسنَى وهيَ الجنَّةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

وقـرأَ ابـنُ عامـرٍ ﴿وَكُلٌّ﴾ بالرَّفعِ[١] علـى الابتـداءِ؛ أي: وكلٌّ وعـدَهُ ليطابقَ ما عطـفَ عليهِ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عالمٌ بظاهرِهِ وباطنِهِ فمجازيكُم على حسبِهِ.

والآيةُ نزلَتْ في أبي بكرٍ رضيَ الله عنهُ فإنَّهُ أوَّلُ مَن آمنَ وأنفقَ فـي سبيلِ اللهِ وخاصمَ الكفَّارَ حتى ضُرِبَ ضربًا أَشرَفَ بهِ على الهلاكِ[٢].

(١١) ـ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مَن ذا الذي يُنفِقُ مالَهُ في سبيلِهِ رجاءَ أن يعوِّضهُ فإنَّهُ كمَن يقرضُهُ، وحسنُ الإنفاقِ بالإخلاصِ فيهِ وتحرِّي أكرمِ المالِ وأفضلِ الجهاتِ لهُ.

﴿فيضاعِفُه له﴾ أي: يُعطي أجرَهُ أضعافًا.

﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: وذلكَ الأجرُ المضمومُ إليهِ الأضعافُ كريمٌ في نفسِهِ ينبغي أن يُتوخَّى وإن لم يضاعَف، فكيفَ وقد يضاعَفُ أضعافًا؟!

وقرأَ عاصمٌ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالنَّصبِ على جوابِ الاستفهامِ باعتبارِ المعنى، فكأنَّه قال: أيقرِضُ اللهَ أحدٌ فيضاعفَهُ لهُ.

وقـرأَ ابـنُ كثيـرٍ: ﴿فيُضَعِّفُـه﴾ مرفوعًـا، وابـنُ عامـرٍ ويعقـوبُ: ﴿فيُضَعِّفَـه﴾ منصوبًـا[٣].

(١٢) ـ ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ظرفٌ لقولِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ﴾، أو فيضاعفَ، أو مقدَّرٌ بـ(اذكر).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠٦)، عن الكلبي.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٨١).

﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ ما يوجبُ نجاتَهُم وهدايتَهُم إلى الجنَّةِ ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ لأنَّ السُّعداءَ يُؤتَوْنَ صحائفَ أعمالِهم من هاتينِ الجهتينِ.

﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ﴾ أي: يقولُ لهم مَن يتلقَّاهُم من الملائكةِ: بشراكُم؛ أي: المبشَّرُ بهِ جنَّاتٌ، أو بشراكمُ دخولُ جناتٍ.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما تقدَّمَ من النُّورِ والبُشرى بالجنَّاتِ المخلَّدةِ.

(١٣) - ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا﴾ انتظِرونا فإنَّهُم يُسرَعُ بهم إلى الجنَّةِ كالبرقِ الخَاطفِ، أو انظروا إلينا فإنَّهم إذا نظَرُوا إليهِم استقبلُوهم بوُجوهِهِم فيستضيئونَ بنورٍ بينَ أيديهم.

وقرأَ حمزةُ: ﴿أَنظِرونا﴾[1] على أنَّ اتِّئادَهُم ليلحقُوا بهم إمهالٌ لهم.

﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ نُصِبْ منهُ.

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ إلى الدُّنيا ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ بتحصيلِ المعارفِ الإلهيَّةِ والأخلاقِ الفاضلةِ، فإنَّهُ يتولَّدُ منها، أو إلى الموقفِ فإنَّهُ مِن ثَمَّ يُقتبَسُ، أو إلى حيثُ شئتم فاطلُبوا نورًا آخرَ فإنَّهُ لا سبيلَ لكم إلى هذا، وهو تهكُّمٌ بهم وتخييبٌ من المؤمنينَ أو الملائكةِ.

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم﴾ بينَ المؤمنينَ والمنافقينَ ﴿بِسُورٖ﴾ بحائطٍ ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ يدخلُ منهُ المؤمنونَ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطنُ السُّورِ أو البابِ ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ لأنَّهُ يلي الجنَّةَ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ من جهتِهِ لأنَّهُ يلي النَّارَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

(١٤) ـ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدونَ موافقتَهُم في الظَّاهِرِ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنِّفاقِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنينَ الدوائرَ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشكَّكتُم في الدِّينِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ كامتدادِ العُمرِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهوَ الموتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيطانُ أو الدُّنيا.

(١٥) ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فِداءٌ. وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالتَّاءِ[(١)].

﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظاهرًا وباطنًا.

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ هيَ أَوْلى بكُم، كقولِ لَبيدٍ:

فَغَـدَتْ كِلَا الفَرْجَيْـنِ تَحْسِـبُ أَنَّهُ ... مَوْلَـى المَخَافَـةِ خَلْفُهـا وَأَمَامُهَـا[(٢)]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

(٢) انظر: «ديـوان لبيد» (ص: ١١٢)، و«الجـمل» للخليل (ص: ٢٥٧)، و«العين» له (٨/ ٤٢٩)، و«الكتاب» (١/ ٤٠٧)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٦٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، و«المقتضب» (٣/ ١٠٢) و(٤/ ٣٤١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٥)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٤٦٣)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٤٦)، و«شرح القصائد السبع الطوال» له (ص: ٥٦٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٤٦٩)، و«الصحاح» (مادة: ولى)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص: ١٨٩)، و«شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص: ١٥٥).
يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد ولم تقف لتنظر أن قاصدها خلفها أم أمامها، فغدت فزعة مذعورة لا تعرف منجاها من مهلكها، ويروى: «فعدت» بالعين المهملة من عدا يعدو: إذا أسرع في السير، والذي في شروح الكشاف بالمعجمة، وهما متقاربان معنى؛ أي: عدت البقرة الوحشية لما نفرت لفزعها من الصياد لا تدري أذلك الصائد خلفها أم قدامها، فتحسب كلا جانبيها ـ من الخلف والإمام ـ أحرى وأولى بأن يكون فيه الخوف، والفرج: موضع المخافة؛ أي: كلا الموضعين الذي يخاف منه في الجملة، أو: ما بين القوائم فما بين اليدين فرج وما بين الرجلين فرج، وهو بمعنى السعة والانفراج، وفسره بالقدام والخلف توسعاً، أو بمعنى الجانب والطريق فَعْلٌ =

وحقيقتُهُ مَحرَاكُم[1]؛ أي: مكانكُم الذي يقالُ فيهِ: هوَ أولى بكُم، كقولكَ: هو مَئِنَّةُ الكرمِ؛ أي: مكانَ قولِ القائلِ: إنَّهُ لكريمٌ، أو مكانكُم عمَّا قريبٍ، من الوليِّ وهو القربُ، أو ناصرُكُم على طريقةِ قولهِ:

تَحِيَّــةُ بَيْنِهِــمْ ضَــرْبٌ وَجِيــعُ[2]

أو متولِّيكُم يَتولَّاكُم كما تولَّيتُم مُوجباتِها في الدُّنيا.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النَّارُ.

(١٦) ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ألم يأتِ وقتُهُ، يقالُ: أَنَى الأَمْرُ يَأْنِي أَنْيًا وأَنَاءً، وإِنًى: إذا جاءَ إِناهُ.

وقُرِئَ: (أَلَمْ يَئِنْ) بكسرِ الهمزةِ وسكونِ النُّونِ[3]، من آنَ يئينُ بالهمزةِ بمَعنى أَنى، و: (أَلَمَّا يَأْنِ)[4].

= بمعنى مفعول لأنه مفروج مكشوف، وضمير «أنه» راجع لـ«كلا» باعتبار لفظه، و«خلفُها وأمامُها» إمَّا بدل من «كلا» وتقديره: فغدت كلا الفرجين خلفُها وأمامُها تحسب أنها مولى المخافة، وإمَّا خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هما خلفها وأمامها، وفيه وجوهٌ أُخَرُ لا تخلو من ضعف، والشاهد في قوله: «مولى المخافة» فإنه بمعنى: مكانٌ أولى وأحرى بالخوف. انظر: «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي»، ونقلنا بعضه عن الزوزني والطيبي.

(١) محراكم: بالحاء والراء المهملتين؛ أي المحل الذي يقال فيه: إنه أحرى وأحق بكم، من قولهم: هو حريّ بكذا أي: خليق وحقيق وجدير به كلها بمعنى، وليس المراد أنه اسم مكان من الأولى على حذف الزوائد كما توهم. «حاشية الخفاجي».

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. وتقدم غير مرَّة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣)، و«البحر» (٢٠/ ٢١٧)، عن الحسن، وهذه القراءة وقراءة الجمهور: ﴿يَأْنِ﴾ كلاهما بمعنى: حان، كما قال أبو حيان.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٢)، عن الحسن.

رُوِيَ أنَّ المؤمنينَ كانُوا مُجْدِبينَ بمكةَ، فلما هاجرُوا أصابُوا الرِّزقَ والنِّعمةَ ففترُوا عمَّا كانوا عليهِ، فنزلَتْ[١].

﴿وما نَزَّلَ مِن الحقِّ﴾ أي: القُرْآنِ، وهو عطفٌ على الذِّكرِ عطفَ أحدِ الوَصْفَيْنِ على الآخرِ، ويجوزُ أن يُرَادَ بالذِّكرِ أن يُذكرَ اللهُ.

وقرأَ نافعٌ وحَفْصٌ ويعقوبُ: ﴿نَزَلَ﴾ بالتخفيفِ[٢]، وقُرِئَ: (أنزل)[٣].

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على ﴿تَخْشَعَ﴾.

وقرأَ رُوَيسٌ بالتَّاءِ[٤]، والمرادُ النَّهيُ عن مماثلةِ أهلِ الكتابِ فيما حُكِيَ عنهم بقولهِ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فطالَ عليهمُ الزَّمانُ بطولِ أعمارِهم أو آمالِهم، أو ما بينَهُم وبينَ أنبيائِهم فقسَتْ قلوبُهم.

وقُرِئَ: (الأَمَدُّ)[٥] وهوَ الوقتُ الأطولُ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ خارجونَ عن دينِهم رافضونَ لِمَا في كتابِهم من فرطِ القسوَةِ.

(١٧) ـ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ، أو لإحياءِ الأمواتِ ترغيبًا في الخشوعِ وزجرًا عن القساوةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٦٤)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٩٢)، عن محمد بن كعب، ورواه باختلاف يسير عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٦٢) عن الشعبي.

(٢) وقراءة الباقين بالتشديد ﴿نزّل﴾ انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (٢٠٨)، و«النشر» (٢/ ٣٨٤).

(٣) قراءة ابن مسعود، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٤).

(٥) انظر: «البحر» (٢٠/ ٢١٨) عن ابن كثير في رواية، والمشهور عنه كالجمهور.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي يكملَ عقلُكم.

(١٨) ـ ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ إنَّ المتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ، وقد قُرِئَ بها[١].

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بتخفيفِ الصَّادِ[٢]؛ أي: الذينَ صدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ.

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطفٌ على معنى الفعلِ في المحلَّى باللَّامِ؛ لأنَّ معناهُ: الذينَ اصَّدَّقُوا أو صدَّقُوا، وهو على الأوَّلِ للدَّلالةِ على أنَّ المعتبرَ هوَ التصدُّقُ المقرونُ بالإخلاصِ.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ معناهُ والقراءةُ في ﴿يُضَاعَفُ﴾ ما مرَّ[٣]، غيرَ أنَّهُ لم يُجزَم لأنَّهُ خبرُ (إن)، وهو مُسندٌ إلى ﴿لَهُمْ﴾ أو إلى ضميرِ المَصدَرِ.

(١٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئكَ عندَ اللهِ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، أو هم المبالغونَ في الصِّدقِ؛ فإنَّهُم آمنوا وصدَّقُوا جميعَ أخبارِ اللهِ ورسلهِ، والقائمونَ بالشَّهادةِ للهِ ولهم، أو على الأمَمِ يومَ القيامةِ.

وقيل: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والمرادُ بهِ الأنبياءُ مِن قولهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]، أو الذينَ استُشهِدوا في سبيلِ اللهِ.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ ومثلُ نورِهم، ولكن مِن غيرِ تضعيفٍ ليحصلَ التفاوُتُ، أو الأجرُ والنُّورُ الموعودانِ لهُم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فيهِ دليلٌ على أنَّ الخلودَ

---

(١) وهي قراءة أبي رضي الله عنه كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

(٣) في الآية رقم (١١) من هذه السورة.

في النَّارِ مخصوصٌ بالكفَّارِ من حيثُ إنَّ التركيبَ يُشعِرُ بالاختصاصِ، والصُّحبةُ تدلُّ على الملازمةِ عُرفًا.

(٢٠) ـ ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ لَمَّا ذكرَ حالَ الفريقينِ في الآخرةِ حقَّرَ أمورَ الدُّنيا ـ أعني[1]: ما لا يتوصَّلُ بهِ إلى الفوزِ الآجلِ ـ بأنْ بيَّنَ أنَّها أمورٌ خياليَّةٌ قليلةُ النَّفعِ سريعةُ الزَّوالِ؛ لأنَّها:

﴿لَعِبٌ﴾ يُتعِبُ النَّاسُ فيهِ أنفسَهم حدَّ إتعابِ الصِّبيانِ في الملاعِبِ من غيرِ فائدةٍ.

﴿وَلَهْوٌ﴾ يُلْهونَ بهِ أنفسَهم عما يُهِمُّهم.

﴿وَزِينَةٌ﴾ كالملابسِ الحسنةِ والمراكبِ البهيَّةِ والمنازلِ الرَّفيعةِ.

﴿وَتَفَاخُرٌ﴾ بالأنسابِ ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ بالعُددِ والعَددِ.

ثمَّ قرَّرَ ذلكَ بقولهِ:

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ وهو تمثيلٌ لها في سرعةِ تقضِّيها وقلَّةِ جدواها بحالِ نباتٍ ـ أنبتَهُ الغيثُ فاستوى ـ أُعجِبَ بهِ الحُرَّاثُ، أو الكافرونَ باللهِ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينةِ الدُّنيا، ولأنَّ المؤمنَ إذا رأى معجِبًا انتقلَ فكرهُ إلى قدرةِ صانعِهِ فأُعجبَ بها، والكافرُ لا يتخطَّى فكرُهُ عمَّا أحسَّ بهِ فيستغرقُ فيهِ إعجابًا.

ثمَّ هاجَ؛ أي: يَبِسَ بعاهةٍ فاصفرَّ ثمَّ صارَ حُطامًا.

ثمَّ عظَّمَ أمورَ الآخرةِ بقوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تنفيرًا عن الانهماكِ في الدُّنيا وحثًّا على ما يوجبُ كرامةَ العُقبى.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وهي».

ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: لِمَن أقبلَ عليها ولم يطلبِ الآخرةَ بها.

(٢١) ـ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ سارِعُوا مُسارعةَ السَّابقينَ في المضمارِ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى مُوجِباتِها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: عرضُها كعرضِهما، وإذا كانَ العرضُ كذلكَ فما ظنُّكَ بالطُّولِ؟! وقيلَ: المرادُ بِهِ البَسطةُ[1] كقولِهِ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيهِ دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ، وأنَّ الإيمانَ وحدهُ كافٍ في استحقاقِهِ.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ذلكَ الموعودُ يتفضَّلُ بهِ على مَن يشاءُ مِن غيرِ إيجابٍ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا يَبْعُدُ منهُ التفضُّلُ بذلكَ وإن عظُمَ قدرُهُ.

(٢٢) ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجَدبٍ وعاهةٍ ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمَرَضٍ وآفةٍ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبةٌ في اللَّوحِ مثبتةٌ في علمِ اللهِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ نخلقَها، والضَّميرُ للمصيبةِ أو للأرضِ أو للأنفسِ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إنَّ ثبتَهُ في كتابٍ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائِهِ فيهِ عن العُدَّةِ والمُدَّةِ.

(٢٣) ـ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ أي: أُثبتَ وكُتبَ لئلَّا تحزَنُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مِنْ نِعَمِ الدُّنيا.

﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بما أعطاكُم اللهُ منها، فإنَّ مَن عَلِمَ أنَّ الكلَّ مقدَّرٌ هانَ عليهِ الأمرُ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «البسط».

وقرأَ أبو عمرٍو ﴿بما أتاكُم﴾(١) مِن الإتيانِ ليعادلَ ﴿مَافَاتَكُمْ﴾، وعلى الأوَّلِ فيهِ إشعارٌ بأنَّ فواتَها يلحقُها إذا خُلِّيَتْ وطباعَها، وأمَّا حُصولُها وبقاؤُها فلا بدَّ لهُما مِن سَبَبٍ يُوجدُها ويُبقِيها، والمرادُ بهِ نفيُ الأسى المانعِ عن التَّسليمِ لأمرِ اللهِ، والفرحِ الموجبِ للبَطَرِ والاختيالِ، ولذلكَ عقَّبهُ بقولهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قلَّ مَن يثَبِّتُ نفسَهُ حالي الضَّراءِ والسَّراءِ.

(٢٤) ـ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدلٌ مِن ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾، فإنَّ المختالَ بالمالِ يَضِنُّ بهِ غالبًا.

أو مبتدأٌ خبرهُ محذوفٌ مدلولٌ عليهِ بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لأنَّ معناهُ: ومَن يُعرِضْ عن الإنفاقِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنهُ وعن إنفاقهِ، محمودٌ في ذاتِهِ، لا يضرُّهُ الإعراضُ عن شُكرهِ بالتقرُّبِ إليهِ بشيءٍ من نعمهِ.

وفيهِ تهديدٌ، وإشعارٌ بأنَّ الأمرَ بالإنفاقِ لمصلحةِ المنفِقِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿فإنَّ اللهَ الغَنِيُّ﴾(٢).

(٢٥) ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكةَ إلى الأنبياءِ، أو الأنبياءَ إلى الأممِ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحُجَجِ والمُعجزاتِ.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ليبيِّنَ الحقَّ ويميِّزَ صوابَ العملِ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لتُسوَّى بهِ الحقوقُ ويقامَ به العدلُ كما قال: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وإنزالُهُ إنزالُ أسبابهِ والأمرُ بإعدادِهِ.

وقيل: أنزلَ الميزانَ إلى نوحٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

ويجوزُ أَنْ يرادَ بهِ العدلُ لتقامَ بهِ السِّياسةُ ويُدفعَ بهِ الأعداءُ، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آلاتِ الحروبِ مُتَّخذةٌ منهُ.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما مِن صنعةٍ إلا والحديدُ آلتُها.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستعمالِ الأسلحةِ في مجاهدةِ الكفَّارِ.

والعطفُ على محذوفٍ دلَّ عليهِ ما قبلهُ فإنَّهُ حالٌ يتضمَّنُ تعليلًا، أو اللامُ صلةٌ لمحذوفٍ؛ أي: أنزلَهُ ليعلمَ اللهُ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ مِن المستكنِّ في ﴿يَنصُرُهُۥ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاكِ من أرادَ إهلاكَهُ ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقرُ إلى نُصرةٍ، وإنَّما أمرَهم بالجهادِ لينتفعوا بهِ ويستوجبوا ثوابَ الامتثالِ فيهِ.

(٢٦) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن استَنْبأناهُم وأوحينا إلَيهِم الكتبَ، وقيل: المرادُ بالكتابِ الخطُّ.

﴿فَمِنْهُم﴾ فمنَ الذُّريَّةِ أو من المُرسَلِ إليهم، وقد دلَّ عليهم ﴿أَرْسَلْنَا﴾.

﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجونَ عن الطَّريقِ المستقيمِ، والعدولُ عن سَننِ المقابلةِ للمبالغةِ في الذَّمِّ والدلالةِ على أنَّ الغلبةَ للضُّلَّالِ.

(٢٧) - ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسَلْنا رسولًا بعدَ رسولٍ حتَّى انتهى إلى عيسى، والضَّميرُ لنوحٍ وإبراهيمَ ومَن أُرسِلا إليهم أو مَن عاصرَهُما مِن الرُّسلِ لا للذُّريَّةِ، فإنَّ الرُّسُلَ المقفَّى بهم من الذُّريَّةِ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقُرِئَ بفتحِ الهمزةِ[1]، وأمرهُ أهونُ مِن أمرِ البَرْطِيلِ لأنَّهُ أعجميٌّ.

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣١٣).

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وقُرِئَ: (رآفةً) على فَعالةٍ[1].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أي: وابتدَعُوا رَهبانيةً.

﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أو رهبانيةً مُبتدَعةً على أنَّها مِن المَجعولاتِ، وهي المبالغةُ في العِبادةِ والرِّياضةِ والانقطاعِ عن النَّاسِ، منسوبةٌ إلى الرَّهْبانِ، وهو المبالِغُ في الخوفِ، مِن رَهِبَ، كالخَشْيانِ من خَشِيَ.

وقُرِئَت بالضَّمِّ[2] كأنَّها منسوبةٌ إلى الرُّهبانِ، وهو جمعُ راهِبٍ، كراكِبٍ ورُكبانٍ.

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فَرَضناها علَيهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكنَّهم ابتدَعُوها ابتغاءَ رضوانِ اللهِ، وقيلَ: متَّصلٌ فإنَّ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى ما تعبَّدْناهُم بها، وهوَ كما يَنفي الإيجابَ المقصودَ منهُ دفعُ العقابِ[3] يَنفي النَّدبَ المقصودَ منهُ مجرَّدُ حصولِ[4] مرضاةِ اللهِ، وهو يخالفُ قولَهُ: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ إلَّا أن يقالَ: ابتَدعُوها ثمَّ نُدِبوا إليها، أو ابتدعُوها بمعنى استحدثُوها وأتَوا بها أوَّلًا، لا أنَّهم اخترعُوها من تلقاءِ أنفسِهم.

﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي: فما رعَوا جميعًا ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بضمِّ التَّثليثِ والقولِ بالاتِّحادِ وقصدِ السُّمعةِ والكُفرِ بمحمَّدٍ ﷺ ونحوِها إليهِ.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أتوا بالإيمانِ الصَّحيحِ وحافظُوا حقوقَها، ومن ذلكَ الإيمانُ بمحمَّدٍ ﷺ.

﴿مِنْهُمْ﴾ مِن المتسمِّينَ باتباعهِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٩) دون نسبة.

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٦٢٧)، و«البحر» (٢٠/ ٢٣١).

(٣) في نسخة الفاروقي: «العذاب».

(٤) في نسخة الفاروقي: «تحصيل».

﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجونَ عن حالِ[1] الاتِّباعِ.

(٢٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالرُّسُلِ المتقدِّمةِ ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكُم عنهُ ﴿وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾ محمَّدٍ ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبَيْنِ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانِكُم بمحمَّدٍ ﷺ وإيمانِكُم بمَنْ قبلَهُ، ولا يبعُدُ أن يُثابوا على دينهم السَّابقِ وإن كانَ منسوخًا ببركةِ الإسلامِ.

وقيل: الخطابُ للنَّصارى الذين كانُوا في عصرِهِ.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يريدُ المذكورَ في قولِهِ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، أو الهدى الذي يُسلَكُ بهِ إلى جَنابِ القدُسِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢٩) ـ ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلمُوا، و(لا) مزيدةٌ، ويؤيِّدُهُ أنَّهُ قُرِئَ: (لِيَعْلَمَ)[2]، و(لِكَيْ يَعْلَمَ)[3]، و(لأَن يَّعْلَمَ) بإدغامِ النُّونِ في الياءِ[4].

﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (أن) هيَ المخفَّفةُ، والمعنى: أنَّهُ لا ينالونَ شيئًا ممَّا ذكرَ مِن فضلِهِ ولا يتمكَّنُونَ مِن نيلِهِ لأنَّهم لم يُؤمِنُوا برسولِهِ، وهو مَشروطٌ بالإيمانِ بهِ، أو لا يقدرونَ على شَيْءٍ مِن فضلِهِ فضلًا أن يتصرَّفُوا في أعظمِهِ وهو النُّبوةُ فيخصُّونَها بمَنْ أرادوا.

ويؤيِّدُهُ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقيل: (لا) غيرُ مَزيدَةٍ، والمعنى: لئلَّا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّهُ لا يقدرُ النَّبيُّ ﷺ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «حاق».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣) عن عبد الله بن مسعود.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣) عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣) عن حطان بن عبد الله.

والمؤمنونَ بهِ على شيءٍ من فضلِ اللهِ ولا ينالونَهُ، فيكونُ ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ عطفًا على (ألَّا يعلمَ).

وقُرِئَ ﴿لِيَلَّا﴾[1]، ووجههُ أنَّ الهمزةَ حُذِفت وأُدغمَ النُّونُ في اللَّام ثمَّ أُبدلت ياءً.

وقُرِئَ: (لَيْلا) على أنَّ الأصلَ في الحروفِ المفردةِ الفتحُ[2].

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الحديدِ كُتبَ مِن الذينَ آمَنُوا باللهِ ورسُلِهِ»[3].

* * *

(١) وهي قراءة ورش عن نافع وأحد وجهي حمزة في الوقف.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٣).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم التعليق عليه مراراً.

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»[1]؛ والآية المشار إليها في الحديث هي والله أعلم قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه يسبّح له ما في السماوات والأرض، أي من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأُخرَى: ﴿تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ وقوله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره وشرعه، ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية، روى أبو داود، عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال، فقال لي: أشيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ الآية، قال، وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[2]. وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية،

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسب غريب.

(٢) أخرجه أبو داود.

وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً، وقال البخاري، قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً، روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[١].
وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه، فيفرش له مستقبل القبلة، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ثم همس، ما يدرى ما يقول، فإذا كان في آخر الليل رفع صوته فقال: «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، إله كل شيء ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر»[٢].

وروى الترمذي، عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا العنان، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه»، ثم قال: «هل تدرون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف»، ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة»، ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن فوق ذلك سماء بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع سماوات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض»، ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل ما بين السماءين»، ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الأرض»، ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة»، ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلاً إلى الأرض السفلى لهبط على الله»، ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[٣]. وفسّر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقالوا: إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف في كتابه، انتهى كلامه. وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بسنده، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره، وعنده: «وبعد ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام»، وقال: «لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله»،

---

(١) وأخرجه مسلم بلفظ: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: اللهم رب السماوات ... الخ.
(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي.
(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾، وقال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ عن قتادة قال: التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض، فقال بعضهم لبعض: من أين جئت؟ قال أحدهم: أرسلني ربي عزّ وجلّ من السماء السابعة وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي عزّ وجلّ من الأرض السابعة وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي من المشرق وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي من المغرب وتركته ثم"[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر، ﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وزرع وثمار، كما قال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقوله تعالى: ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من الأمطار، والثلوج والبرد والأقدار، والأحكام مع الملائكة الكرام، وقوله تعالى: ﴿وما يعرج فيها﴾ أي من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»، وقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾، وقال تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، فلا إِلَه غيره ولا رب سواه، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وفي الحديث، قال رجل: يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان»[2]. وقال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الإيمان أن تعلم ان الله معك حيثما كنت»[3]. وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

(١) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما هنا.
(٢) أخرجه أبو نعيم من حديث عبد الله العامري مرفوعاً. (٣) أخرجه أبو نعيم عن عبادة بن الصامت.

وقوله تعالى: ﴿له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾، أي هو المالك للدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة﴾، وقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾، فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه، كما قال تعالى: ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً﴾، ولهذا قال: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، وقوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت.

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، وحث على الإنفاق ﴿مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، وقوله تعالى: ﴿مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان. روى مسلم، عن عبدالله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟ أو لبست فأبليت؟ أو تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»(١). وقوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال تعالى: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم﴾ ؟ أي : وأيّ شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد روينا في الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا: الملائكة، قال: « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا: فالأنبياء، قال: « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا: فنحن، قال: « ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها »[١]. وقوله تعالى: ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ، وقوله تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات، ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور الهدى والإيمان، ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، حثهم أيضاً على الإنفاق، فقال: ﴿ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض﴾ ؟ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض، وهو القائل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾، ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾، فمن توكل على الله أنفق وعلم أن الله سيخلفه عليه، وقوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾، والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا (فتح مكة)، وعن الشعبي: أن المراد (صلح الحديبية) .

وقد يستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد، عن أَنَس قال: كان بين (خالد بن الوليد) وبين (عبد الرحمن ابن عوف) كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ، فقال: « دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين صلح الحُدَيبية وفتح مكّة . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم »، قلنا: من هم يا رسول الله، قريش ؟ قال: « لا، ولكن أهل اليمن لأنهم أرق أفئدة وألين قلوباً »، وأشار بيده إلى اليمن فقال: « هم أهل اليمن، ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية » ، فقلنا: يا رسول الله هم خير منا ؟ قال: « والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مد أحدكم ولا نصيفه » ، ثم جمع أصابعه ومد خنصره وقال: « ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾ »[٢] . وقوله تعالى: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده كلهم لهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه ابن جرير .

ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ الآية، وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير». فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف». ولا شك أن الصدّيق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال عمر بن الخطّاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾، كما قال في الآية الأخرى ﴿أضعافاً كثيرة وله أجر كريم﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة يوم القيامة. عن عبد الله ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال، فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزّ وجلّ. وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال: «كم من عِذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح»[1].

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم. معنى (العذق): القنو من النخل، والعنقود من العنب، و (رداح): ضخم، مخصب.

منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة[١]، وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾: يعني على الصراط. وقد روى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم»، فقال له رجل: يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ فقال: «أعرفهم، محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[٢]. وقوله: ﴿ وبأيمانهم ﴾، قال الضحاك: أي وبأيمانهم كتبهم كما قال تعالى: ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾، وقوله: ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾. وقوله: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر.

روى ابن أبي حاتم، عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا (أبو أمامة الباهلي) فلما صلي على الجنازة، وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيَضّ وجوه، وتسودّ وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر، فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور، فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق، فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم، وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب ﴾ الآية، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن[٣]، وقال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور، وروى الطبراني عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط، فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً».

وقوله تعالى: ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو الذي قال الله تعالى: ﴿ وبينهما حجاب﴾، وهكذا روي عن مجاهد وهو الصحيح ﴿ باطنه فيه الرحمة﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قبله العذاب﴾ أي النار، والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وشك وحيرة، ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات؟ ونصلي معكم الجماعات؟ ونقف معكم بعرفات؟ ونحضر معكم الغزوات؟ ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ قالوا: بلى، أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني﴾، قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ وتربصتم﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت، وقال قتادة: ﴿ تربصتم﴾ بالحق وأهله، ﴿ وارتبتم﴾ أي بالبعث بعد الموت، ﴿ وغرتكم الأماني﴾ أي قلتم: سيغفر لنا، وقيل غرتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت، ﴿ وغركم بالله الغرور﴾ أي الشيطان، وقال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار، ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً، وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر﴾؟ فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ، ثم قال تعالى: ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه، وقوله تعالى: ﴿ مأواكم النار﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم، وقوله تعالى: ﴿ هي مولاكم﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل، على كفركم وارتيابكم وبئس المصير.

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه، قال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ الآية[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ الآية إلا أربع سنين[2]، وقوله تعالى: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ نهى الله تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم، من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا بـه ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد، ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة، كما قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي فسدت قلوبهم فقست، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

روى أبو جعفر الطبري، عن ابن مسعود قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب. فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه، ومالي لا اؤمن بهذا الكتاب؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن»[3]. وقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فيه إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه مسلم والنسائي.

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً.

يخبر تعالى عما يثيب به ﴿ الْمُصَّدِقِينَ والْمُصَّدِقَاتِ ﴾ بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً، ولهذا قال: ﴿ يضاعف لهم﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي ثواب جزيل ومآب كريم ، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾ هذا تمام الجملة، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، قال ابن عباس: ﴿ أولئك هم الصديقون﴾ هذه مفصولة، ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ ، وقال أبو الضحى ﴿ أولئك هم الصديقون﴾ . ثم استأنف الكلام، فقال : ﴿ والشهداء عند ربهم﴾ ، عن ابن مسعود قال: هم ثلاثة أصناف يعني : (الْمُصَّدقين. والصديقين. والشهداء) كما قال تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ، ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما روى الإمام مالك، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[1]. وقال آخرون : بل المراد من قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسوله بأنهم صديقون وشهداء ، وقوله تعالى: ﴿ والشهداء عند ربهم﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الصحيحين: « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت » الحديث . وقوله تعالى: ﴿ لهم أجرهم ونورهم﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، كما قال رسول الله ﷺ : « الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدوّ فصدق الله فقتل، فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا » ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدوّ فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة »[2] . وقوله تعالى: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام مالك .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي ، وقال : حسن غريب .

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كمثل غيث﴾وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا﴾، وقوله تعالى: ﴿أعجب الكفار نباته﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، أي يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي هي متاع فانٍ، يغتر بها من يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرأوا: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1]».

وروى الإمام أحمد، عن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: «لَلْجنَّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[2] في هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات فقال الله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾، وقال ههنا: ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، قال، فرجعوا فقالوا: سمع اخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

---

(١) أخرجه ابن جرير، وهو في الصحيح ثابت بدون الزيادة.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والإمام أحمد.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم، ﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة، وقال بعضهم: الضمير عائد على النفوس، وقيل عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها، كما روي عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، فسألته عنها، فقال: سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة، وقال قتادة ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ قال: هي السنون يعني الجدب ﴿ولا في أنفسكم﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق – قبحهم الله –. روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1]، وزاد ابن وهب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، وقوله تعالى: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها سهل عليه عزّ وجلّ، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وقوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تيأسوا على ما فاتكم ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور، أي على غيره، وقال عكرمة: «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن. ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً»، ثم قال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، ﴿ومن يتول﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾، كما قال: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد﴾.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

(١) أخرجه مسلم وأحمد ورواه الترمذي بالزيادة، وقال: حسن صحيح.

يقول تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل الذي تشهد بـه العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾، وقال تعالى: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾، وقال تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ ليقوم النـاس بالقسـط ﴾ أي بالحق والعدل، وهو اتبـاع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيـام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، وقـد روى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم »(1) ولهذا قال تعالى: ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان ونحوها ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والمنشار والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ وغير ذلك، قال ابن عباس: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان، والكلبتان، والميقعة يعني المطرقة، وقوله تعالى: ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم يرسل رسولاً إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿ عيسى بن مريم ﴾ الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رأفة ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ ورحمة ﴾

(1) أخرجه أحمد وأبو داود.

بالخلق، وقوله: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ أي ابتدعها أمّة النصارى، ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ فيه قولان (**أحدهما**) : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة، (**والآخر**) : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، وقوله تعالى: ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: (**أحدهما**) : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، (**والثاني**) : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عزّ وجلّ. وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «يا ابن مسعود» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى بن مريم عليه السلام، فدعت إلى دين الله ودين عيسى بن مريم، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أُخرَى لم تكن لها قوة بالقتال فقامت بين الملوك والجبابرة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أُخْرَى لم يكن لها قوة ولم تطق القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبّدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾»[1]. وروى الإمام أحمد، عن إياس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمّة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ». وفي رواية: «لكل أمّة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»[2]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض»[3].

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدّب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[4]. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين﴾ أي ضعفين ﴿من رحمته﴾، وزادهم ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ﴿ويغفر لكم﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير بطريق أُخْرَى ولفظ آخر.
(٢) أخرجه أحمد والحافظ أبو يعلى.
(٣) أخرجه الإمام أحمد. (٤) أخرجه البخاري ومسلم.

سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾، ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «مَثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»[1]. وروى البخاري، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً، يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر، قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»[2]. ولهذا قال تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله. ﴿وأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. قال ابن جرير: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ أي ليعلم، وعن ابن مسعود أنه قرأها: لكي يعلم لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾، ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

[آخر تفسير سورة الحديد . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

تفسير سورة الحديد

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، حدثنى بحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن ابن أبى بلال ، عن عِرْباض بن سارية ، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من طرق عن بقية ، به[١] . وقال الترمذى : حسن غريب .

ورواه النسائى عن ابن أبى السرح ، عن ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ . . . فذكره مُرْسَلا ، لم يذكر عبد الله بن أبى بلال ، ولا العرباض بن سارية [٢] .

والآية المشار إليها فى الحديث هى ـ والله أعلم ـ قوله : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله وبه الثقة [٣] .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما فى السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرباض ابن سارية : أنها أفضل من ألف آية .

(١) المسند (٤/١٢٨) وسنن أبى داود برقم (٥٠٥٧) وسنن الترمذى برقم (٣٤٠٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٦) .
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٥١) .
(٣) فى م ، أ : « سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وقال أبو داود : حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمد ، حدثنا عكرمة ــ يعنى ابن عمار ــ حدثنا أبو زُمَيل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشيء من شك ؟ قال ــ وضحك ــ قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل الله : ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ** [**لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**] (١) ﴾الآية [يونس: ٩٤] قال: وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (٢) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا .

وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً (٣) .

قال شيخنا الحافظ المزّى : يحيى هذا هو ابن زياد الفراء ، له كتاب سماه : « معانى القرآن » .

وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن سُهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو(٤) عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ليس (٥) قبلك شيء ، وأنت الآخر ليس (٦) بعدك شيء ، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ليس دونك شيء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » (٧) .

ورواه مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سُهَيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر .

وكان يَروى ذلك ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ (٨) .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا ، فقال : حدثنا عقبة ، حدثنا يونس ، حدثنا السرى بن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة ، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ، ثم همس ــ ما يُدرى ما يقول ــ فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال :« اللهم ، رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، إله كل شيء ، ورب كل شيء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ،

(١) زيادة من م .
(٢) سنن أبى داود برقم (٥١١٠) .
(٣) صحيح البخارى (١٣/ ٣٦١) « فتح ».
(٤) فى م : « يقول».
(٥ ، ٦) فى م : « فليس » .
(٧) المسند (٢ / ٤٠٤) .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) .

فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم، أنت الأول الذى ليس[١] قبلك شيء ، وأنت الآخر الذى ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر »[٢].

السرى بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبى ، وهو ضعيف جداً ، والله أعلم .

وقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية :حدثنا عبدُ بن حميد وغير واحد ــ المعنى واحد ــ قالوا : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة قال : حدث الحسن ، عن أبى هريرة قال : بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سَحَاب ، فقال نبى الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العَنَان ، هذه رَوَايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يَدْعُونه » . ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » . ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » . ثم قال : «هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم.قال : « فإن فوق ذلك سماء[٣] بُعدُ ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عَدّ سبع سموات ــ ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض». ثم قال: « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعدُ[٤] ما بين السماءين » . ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » . ثم قال: « هل تدون ما الذى تحت ذلك ؟ » . قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : «فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عدّ[٥] سبع أرضين ــ بين كل أرْضَين مسيرة خمسمائة سنة » . ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أنكم دَليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويُروى عن أيوب ويونس ــ يعنى ابن عبيد ــ وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبى هريرة . وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هَبَط على علْم الله وقدرته وسلطانه ، وعلم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف فى كتابه. انتهى كلامه[٦] .

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سُريج ، عن الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، فذكره ، وعنده بُعدُ ما بين الأرْضين مسيرة سبعمائة عام ، وقال : « لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[٧] .

---

(١) فى م : « فليس » .
(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢١٠) .
(٣) فى م :« سماء بعد سماء » . (٤) فى م ، أ : « مثل بعد » . (٥) فى م : « عدد » .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) .
(٧) المسند (٢/ ٣٧٠) .

ورواه ابن أبي حاتم والبزار من حديث أبي جعفر الرازى ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى هريرة . . . فذكر الحديث ، ولم يذكر ابن أبى حاتم آخره وهو قوله : « لو دليتم بحبل » ، وإنما قال: « حتى عدّ سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام » ، ثم تلا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال البزار : لم يروه عن النبى ﷺ إلا أبو هريرة .

ورواه ابن جرير ، عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ، ذكر لنا أن نبى الله ﷺ بينما هو جالس فى أصحابه إذ ثار عليهم سحاب ، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ »(١) ، وذكر الحديث مثل سياق الترمذى سواء ، إلا أنه مرسل من هذا الوجه ، ولعل هذا هو المحفوظ ، والله أعلم . وقد روى من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه وأرضاه ، رواه البزار فى مسنده ، والبيهقى فى كتاب الأسماء والصفات (٢) ، ولكن فى إسناده نظر ، وفى متنه غرابة ونكارة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢] : حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن قتادة قال : التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض ، فقال بعضهم لبعض : من أين جئت ؟ قال أحدهم : أرسلنى ربى ، عز وجل ، من السماء السابعة وتركته ثَمَّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى ، عز وجل ، من الأرض السابعة وتركته ثَمّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى من المشرق وتركته ثَمّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى من المغرب وتركته ثَمّ (٣) .

وهذا [حديث] (٤) غريب جداً ، وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما روى هاهنا من قوله ، والله أعلم .

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها فى سورة « الأعراف (٥) » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٤) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى (ص ٥٠٦) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش، عن أبى نصر ، عن أبى ذر ، ومن طريق البيهقى رواه الجوزقانى فى الأباطيل (١/ ٦٨) وقال : « هذا حديث منكر » .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٩) .

(٤) زيادة من م .

(٥) عند تفسير الآية : ٥٤.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونَبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرَد ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم فى سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرِّرها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح : « يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » [(١)] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] . وقال : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلى من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة ، حدثنى أبى ، عن نصر بن علقمة ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن عائذ قال : قال عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : زودنى كلمة أعيش بها . فقال : « استَحِ الله كما تستحى رجلا من صَالِح عشيرتك لا يفارقك » [(٢)] .

هذا حديث غريب ، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضرى مرفوعاً : « ثلاث من فَعَلَهُنّ فقد طَعَم الإيمان : من عبد اللّه وحده ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه فى كل عام ، ولم يعط الهَرِمة ولا الدَرِنة ، ولا الشَّرط اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم . وزكى نَفْسَه » . وقال رجل : يا رسول الله ، ما تزكية المرء نفسه ؟ فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » [(٣)] .

وقال نُعيم بن حَمّاد ، رحمه الله : حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصى ، عن محمد بن مهاجر ، عن عُروةَ بن رُوَيم ، عن عبد الرحمن بن غَنم ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . غريب [(٤)] .

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٩) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .

(٢) وذكره المؤلف فى مسند عمر بن الخطاب (٢/٦٠٩) من طريق الإسماعيلى وقال : « إسناده غريب ، وفى حديث القدر : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وله شاهد من حديث سعيد بن يزيد عن ابن عم له قال : قلت: يارسول الله أوصنى ، قال : « استح من الله كما تستحى من الرجل الصالح من قومك» » . أخرجه مجشل فى تاريخ واسط (ص٢٠٩) .

(٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٤/٩٦) من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ، أن عبد الرحمن بن جبير حدثه أن أباه حدثه أن عبد الله بن معاوية الغاضرى به ، ورواه أبو داود من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ، عن جبير بن نفير به نحوه ، والأول أصح .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧) «مجمع البحرين » عن مطلب ، عن نعيم بن حماد به وقال : « تفرد به عثمان ».=

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إذَا ما خَلوتَ الدهرَ يوماً فَلا تَقُلْ   خَلَوتُ ولكن قُــل : عَلَيّ رَقيبُ
وَلاَ تَحْسبَنّ اللهَ يَغفَــلُ سَاعَـةً   وَلا أنّ ما يخْفـى عَليـه يَغيـبُ

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل:١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ﴾ [القصص:٧٠] ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ:١] . فجميع ما فى السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣ـ٩٥] . ولهذا قال : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ، ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠] . وكما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقوله : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ .

= ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤) عن الطبرانى ، عن يحيى بن عثمان ، عن نعيم بن حماد به ، وقال : « غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر » . وعثمان بن سعيد لم يعرفه الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٠) ، وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٦/ ١٥٢) ونقل عن يحيى بن معين أنه ثقة .

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن [١] يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعيت فى معاونته على الإثم والعدوان .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدّث ، عن مُطَرِّف ــ يعنى ابن عبد الله بن الشِّخِّير ــ عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر:١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به [٢]، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى : أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا : فالأنبياء. قال:« وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟». قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيؤون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها » [٣] .

وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة:٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى :حججاً واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء

(١) فى م: « وإن لم » .

(٢) المسند (٤/٢٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) .

(٣) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية :٣ من سورة البقرة .

المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشُبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم[1] أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: أنفقوا ولا تخشَوا فقراً[2] وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] ،وقال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه :

وقوله : ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ .

والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زُهَير ، حدثنا حُمَيد الطويل ، عن أنس قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبى ﷺ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفقتم مثل أحد ــ أو : مثل الجبال ــ ذهباً ، ما بلغتم أعمالهم »[3] .

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون : « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا : « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك[4] .

والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه »[5] .

وروى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث ابن وهب : أخبرنا هشام بن سعد ، عن زيد بن

---

(١) فى م : « ثم حثهم » . (٢) فى أ : « قتراً » .

(٣) المسند (٣/٢٦٦).

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٨٩) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنه .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » .فقلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، هم أرق أفئدةً وألين قلوباً » . فقلنا : هم خير منا يا رسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ، ما أدرك مُدّ أحدكم ولا نَصيفه ، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ **لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ »(١) .

[وهذا الحديث غريب بهذا السياق ، والذى فى الصحيحين من رواية جماعة ، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد ــ ذكَرَ الخوارج ــ : « تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »(٢). الحديث . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، فقال :

حدثنى ابن البرقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرنى زيد بن أسلم ، عن أبى سعيد التمار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . قلنا : من هم يا رسول الله ؟ قريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، لأنهم أرق أفئدة ، وألين قلوباً » . وأشار بيده إلى اليمن ، فقال : « هم أهل اليمن ، ألا إن الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » . فقلنا : يا رسول الله ، هم خير منا ؟ قال : « والذى نفسى بيده ، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مُدّ أحدكم ولا نصيفه » . ثم جمع أصابعه ومد خنْصره ، وقال: « ألا ،إن هذا فضلُ ما بيننا وبين الناس، ﴿ **لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾]»(٣) (٤) .

فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية ، فإن كان ذاك محفوظاً كما تقدم ، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده ، كما فى قوله تعالى فى سورة «المزمل » ــ وهى مكية ، من أوائل ما نزل ــ: ﴿ **وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾الآية [المزمل: ٢٠] فهى بشارة بما يستقبل ،وهكذا هذه.والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ يعنى :المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال : ﴿ **لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٥] . وهكذا(٥) الحديث الذى فى الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ،

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٧) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٩٣١) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٧) .

(٥) فى م ، أ : « وهذا » .

وفي كل خير»[١]، وإنما نَبّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ أي : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق . وفي الحديث: « سبق درهم مائة ألف »[٢]. ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضي الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي عند تفسير هذه الآية : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي[٣] ، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب ، أخبرنا محمد بن يونس ، حدثنا العلاء بن عمرو الشيباني ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، حدثنا سفيان بن سعيد ، عن آدم بن علي ، عن ابن عمر قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خَلَّها في صدره بخلال ، فنزل جبريل فقال : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها في صدره بخلال ؟ فقال : « أنفقَ ماله عليّ قبل الفتح » . قال : فإن الله يقول : اقرأ عليه السلام ، وقل له : أراض أنتَ عَني في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله : « يا أبا بكر ، إن الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟ » فقال : أبو بكر ، رضي الله عنه : أسخط على ربي عز وجل ؟ ! إني عن ربي راض[٤] .

هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق في سبيل الله، قيل : هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٥] ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أي : جزاء جميل ، ورزق باهر ــ وهو الجنة ــ يوم القيامة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » . قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ــ وله حائط[٦] فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ــ قال : فجاء

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه النسائي في السنن (٥/٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في أ : « الشرعي » .

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٨/٣٤) وفيه :« إني عن ربي راض» مرتين ،ووجه ضعفه أنه فيه العلاء بن عمرو . قال ابن حبان :« يروى عن أبي إسحاق الفزاري العجائب ، لا يجوز الاحتجاج به بحالّ » وساق الحديث .

(٥) في أ ، م ، هـ : « أضعافاً كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) في أ :« وحائط له » .

أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح. قالت : لبيك. فقال: اخرجى ،فقد أقرضته ربى ،عز وجل ـ وفى رواية : أنها قالت له : رَبِح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : « كم من عَذْق رَدَاح فى الجنة لأبى الدحداح » . وفى لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها درّ وياقوت ، لأبى الدحداح فى الجنة »[(١)] .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين : أنهم[(٢)] يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم فى عَرصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَن نوره مثل النخلة ، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره فى إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة[(٣)] . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نُوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه »[(٤)] .

وقال سفيان الثورى ، عن حُصَين ، عن مجاهد عن جُنَادة بن أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحُلاكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وقال الضحاك : ليس لأحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أتمم لنا نورنا .

وقال الحسن [فى قوله][(٥)] : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يعنى : على الصراط .

---

(١) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٨/ ٤٠٤) عن محرز بن عون ، عن خلف بن خليفة به ، وضعفه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية برقم (٤٠٨٠) كما ذكره المحقق الفاضل حسين أسد .

(٢) فى م : « أنه » . (٣) فى م : « ويطفأ أخرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٨) .

(٥) زيادة من أ .

وقد قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، أخبرنا عمى [(١)]، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سعد [(٢)] بن مسعود : أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَير يحدث : أنه سَمِعَ أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبى ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال له رجل : يا نبى الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: « أعرفهم ، مُحَجَّلون من أثر الوضوء ،ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ،وأعرفهم يُؤتَون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم[(٣)] » [(٤)] .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ : قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء: ٧١].

وقوله : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله :﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة،والزلازل العظيمة،والأمور الفظيعة [(٥)] ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنى سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن [حتى] [(٦)] يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور [(٧)] البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع

---

(١) فى أ : « أخى » . (٢) فى م : «سعيد» . (٣) فى م : « وبأيمانهم » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٧٨) من طريق عبد الله بن صالح ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب به نحوه ، وله طريق آخر سيأتى عند تفسير سورة التحريم .

(٥) فى أ : « العظيمة » . (٦) فى هـ : « يوم » ، والمثبت من م ، أ . (٧) فى م : « ببصر » .

بها المنافقين [(١)] حيث قال : ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ [النساء:١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ **بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا ابن حيوة ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا يوسف بن الحجاج ، عن أبى أمامة قال : تُبعَثُ ظلمة يوم القيامة ، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه ، حتى يبعثَ الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم ، فيتبعهم المنافقون فيقولون : ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ .

وقال العوفى ، والضحاك ، وغيرهما ، عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور [(٢)] دليلا من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ ، فإنا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ **ارْجِعُوا** ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسن بن علوية القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو [(٣)] حذيفة ، حدثنا ابن جريج ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نورا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ . وقال المؤمنون : ﴿ **رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** ﴾ [التحريم:٨] . فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » [(٤)] .

وقوله : ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :هو الذى قال الله تعالى : ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا رُوى عن مجاهد ، رحمه الله ، وغير واحد ، وهو الصحيح .

﴿ **بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ** ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ **وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما .

قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سورُ بيت المقدس عند وادى جهنم . ثم قال :

حدثنا ابن البرقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن سعيد بن عطية بن قيس ، عن أبى العوام ــ

(١) فى م : « المنافقون » وهو خطأ . (٢) فى م ، أ : « النور لهم » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « ابن » ، والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير .

(٤) المعجم الكبير (١١ / ١٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٩٥) : « فيه إسحاق بن بشر وهو متروك » .

مؤذن بيت المقدس ــ قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذى ذكر [١] الله فى القرآن : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ هو السور الشرقى باطنه المسجد وما يليه ، وظاهره وادى جهنم .

ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور فى القرآن هو باب الرحمة الذى هو أحد أبواب المسجد ، فهذا من إسرائيلياته وتُرّهاته . وإنما المراد بذلك :سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما [٢] كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ ، قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى : الشيطان .

قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا [أى] [٣] : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول ــ وهو أصدق القائلين ــ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا

(١) فى م : « ذكره » . (٢) فى م : « إنا » . (٣) زيادة من م .

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى :﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ [المدثر:٤٨] ،كما قال تعالى هاهنا: ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ **مَأْوَاكُمُ النَّارُ** ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم .

وقوله : ﴿ **هِيَ مَوْلاكُمْ** ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾ .

يقول الله تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه .

قال عبد الله بن المبارك : حدثنا صالح المُرّى ، عن قتادة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ الآية ، رواه ابن أبى حاتم ، عن الحسن بن محمد بن الصباح ، عن حسين المروزى ، عن ابن المبارك ، به .

ثم قال هو ومسلم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال ـ يعنى الليث ـ عن عون بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابن مسعود، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الآية] (١) إلا أربع سنين (٢) .

كذا رواه مسلم فى آخر الكتاب . وأخرجه النسائى عند تفسير هذه الآية ، عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن ابن وهب ، به (٣) . وقد رواه ابن ماجة من حديث موسى بن يعقوب الزمعى (٤) ، عن أبى حزم ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، مثله (٥) . فجعله من مسند ابن الزبير . لكن رواه البزار فى مسنده من طريق موسى بن يعقوب ، عن أبى حازم ، عن عامر ، عن ابن الزبير،

---

(١) زيادة من م .
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧) .
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٦٨) .
(٤) فى أ : « الربعى » .
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٤١٩٢) .

عن ابن مسعود ، فذكره [١] .

وقال سفيان الثورى ، عن المسعودى ، عن القاسم قال : مَلّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة ، فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] قال : ثم مَلّوا ملة فقالوا : حَدِّثنا يا رسول الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣] . ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٢] .

وقال قتادة : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : ذُكِرَ لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يرفع [٣] من الناس الخشوع » [٤] .

وقوله : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة :١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهو عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا شهاب بن خِراش ، حدثنا حجاج بن دينار ، عن منصور بن المعتمر ، عن الربيع بن عَمِيلة الفزارى قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إلىّ منه ، إلا شيئاً من كتاب الله ــ أو : شيئاً قاله النبى ﷺ ــ قال : « إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم [٥] واستلذته ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا : تعالوا ندع

---

(١) مسند البزار برقم (١٤٤٣) وقال : « لا نعلم روى ابن الزبير عن ابن مسعود إلا هذا الحديث » .

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره (١٥/٥٥٢) ط ــ المعارف ، من طريق المسعودى عن عون بن عبد الله نحوه مرسلاً دون ذكر الشاهد هنا .

(٣) فى أ : « يرفع الله » .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٧/ ١٣١) ووصله الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٢٩٥) فرواه من طريق عمران القطان ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن شداد بن أوس مرفوعاً به ، وعمران القطان متكلم فيه .

(٥) فى أ : « أنفسهم » .

بنى إسرائيل إلى كتابنا هذا ، فمن تابعنا عليه تركناه ، ومن كره أن يتابعنا [١] قتلناه . ففعلوا ذلك ، وكان فيهم رجل فقيه ، فلما رأى ما يصنعون عَمَدَ إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه فى شىء لطيف، ثم أدرجه ، فجعله فى قرن ثم علق ذلك القرن فى عنقه ، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: ياهؤلاء ، إنكم قد أفشيتم القتل فى بنى إسرائيل ، فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم ، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس ، وإن أبى فاقتلوه . فدعوا فلاناً ذلك الفقيه فقالوا: تؤمن بما فى كتابنا ؟ قال: وما فيه ؟ اعرضوه علىّ . فعرضوه عليه إلى آخره ، ثم قالوا : أتؤمن بهذا ؟ قال : نعم ، آمنت بما فى هذا وأشار بيده إلى القرن ــ فتركوه ، فلما مات نبشوه فوجدوه مُتَعلّقا [٢] ذلك القرن ، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله ، فقال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة . فافترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، وخير مِلَلهم ملة أصحاب ذى القرن » .

قال ابن مسعود : [وإنكم] [٣] أوشك بكم إن بقيتم ــ أو : بقى من بقى منكم [٤] ــ أن تروا أموراً تنكرونها ، لا تستطيعون لها غيَراً ، فبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره .

وقال أبو جعفر الطبرى : حدثنا ابن[٥] حُميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن أبى معشر ، عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عُرقوب [٦] إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله [٧]، هلك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبُه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً ؛ إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا : نعرض بنى إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه . قال : فجعل رجل منهم كتاب الله فى قَرْن ، ثم جعل القرن بين ثَنْدُوتيه فلما قيل له : أتؤمن بهذا ؟ قال : آمنت به ــ ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه ــ ومالى لا أومن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مِلَلِهم اليوم ملّةَ صاحب القَرن [٨].

وقوله : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ : فيه إشارة إلى أنه ، تعالى ، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويَهدى الحَيَارى بعد ضَلَتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان [الوابل] [٩]، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

---

(١) فى أ : « يتابعنا عليه » . (٢) فى أ : « معلقاً » . (٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « معكم » . (٥) فى أ : « أبو » . (٦) فى أ : « جابر بن سويد عن قرب » .
(٧) فى أ : « يا أبا عبد الله » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٢) .
(٩) زيادة من أ .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمُصَّدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك،﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب ﴿كَرِيمٌ﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون .

قال العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ : هذه مفصولة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وقال أبو الضحى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال:﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

وقال الأعمش عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله فى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس ، رحمه الله ، فى كتابه الموطأ ، عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » .

اتفق البخارى ومسلم على إخراجه من حديث مالك ، به (٢) .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد ، ثم قال ابن جرير :

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) .

حدثنى صالح بن حرب أو مَعْمَر ، حدثنا إسماعيل بن يحيى ، حدثنا ابن عَجْلان ، عن زيد بن أسلم ، عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتى شهداء » . قال : ثم تلا ﷺ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ [لَهُمْ أَجْرُهُمْ] (١) ﴾ . هذا حديث غريب (٢) .

وقال أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيؤون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خُضْر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتِلنا أول مرة . فقال: إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٣) .

وقوله : ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة بن عُبَيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك (٤) الذى ينظر الناس إليه هكذا ــ ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنسُوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر ــ والثانى مؤمن (٥) لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غَرْب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة » (٦) .

وهكذا رواه على بن المدينى ، عن أبى داود الطيالسى ، عن ابن المبارك ، عن ابن لَهِيعة ، وقال: هذا إسناد مصرى صالح . ورواه الترمذى من حديث ابن لهيعة وقال : حسن غريب (٧) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

---

(١) زيادة من م .
(٢) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٣) .
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه ، ولم أقع عليه عند البخارى .
(٤) فى م : « فذاك » . (٥) فى أ : « رجل » .
(٦) المسند (١/ ٢٣) .
(٧) سنن الترمذى برقم (١٦٤٤) .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى مُوهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا [وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ] (١)﴾ [الشورى : ٢٨] .

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً (٢) نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يَبَساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويَنْفَد (٣) بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حَذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فانٍ غارٌّ (٤) لمن ركن إليه ، فإنه يغتر

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « ما أخضر » . (٣) فى أ : « ويفقد » .
(٤) فى أ : « عارٍ » .

بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها،وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

قال ابن جرير : حدثنا على بن حرب الموصلى ، حدثنا المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها . اقرؤوا : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ » (١) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (٢) ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ووكيع ، كلاهما عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » .

انفرد بإخراجه البخارى فى « الرقاق » ، من حديث الثورى ، عن الأعمش ، به (٣) .

ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله (٤) على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ : والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ،كما قدَّمنا فى الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعتقون ولا نُعْتِق . قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فَعَلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣٤) وليس فى المطبوع هذه الزيادة ، فلعل الحافظ رآها فى نسخة أخرى .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤١٥) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٣) المسند (١/ ٣٨٧) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٨) .

(٤) فى م : « فلهذا حث تعالى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٨٤٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥) .

مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ ، أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة .

وقال بعضهم : ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ : عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها ، كما قال ابن جرير :

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالساً مع الحسن ، فقال رجل : سله عن قوله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ فسألته عنها ، فقال : سبحان الله ! ومن يشك فى هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ، ففى كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة [١] .

وقال قتادة : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ** ﴾ قال : هى السنون . يعنى : الجَدْب ، ﴿ **وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قَدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق ــ قبحهم الله ــ وقال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة وابن لَهيعة قالا : حدثنا أبو هانئ الخولانى : أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلى يقول : سمعت عبد الله بن عَمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

ورواه مسلم فى صحيحه ، من حديث عبد الله بن وَهب وحيوة بن شُرَيح ونافع بن يزيد ، ثلاثتهم عن أبى هانئ ، به . وزاد ابن وهب : « وكان عرشه على الماء » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح [٢] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل [٣] ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣٥) .

(٢) المسند (٢/ ١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦) .

(٣) فى أ : « تعالى » .

وقوله : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا (١) للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، فإنه (٢) لو قدر شيء لكان ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى :جاءكم ، ويقرأ : « أتاكُم » أى :أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم (٣) الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ، أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره .

وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفَرَح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو : النقل المصدق ﴿وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد، وقتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧] ، وقال : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام:١١٥] أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهى . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من

---

(١) فى أ : « كتابنا » . (٢) فى م : « لأنه » . (٣) فى أ : « نعمة » .

خالف [١] ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن حسان بن عطية ، عن أبي المنيب [٢] الجرشي الشامي ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعثتُ بالسيف بين يدَى الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له ، وجُعل رزقي تحت ظِلّ رُمْحى ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى ، ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم » [٣] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعنى : السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال، والدروع ، ونحوها . ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

قال عِلْباء[٤] بن أحمد ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان[٥] والكلْبَتان والميقعَة [٦] ـ يعنى المطرقة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسله، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ،كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [يعنى] [٧] :حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

(١) فى م : « على من تخلف منهم » .
(٢) فى أ : « المسيب » .
(٣) المسند (٢/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣١) .
(٤) فى أ : « قال علياء » .
(٥) فى أ : « السنداب » .
(٦) فى م : « المدقة » ، وفى أ : « والمنفعة » .
(٧) زيادة من أ .

﴿وآتَيْنَاهُ الإنجيلَ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوه﴾ وهم الحواريون ﴿رأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أى : رأفة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق .

وقوله : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ، عز وجل .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا إسحاق بن أبى حمزة أبو يعقوب الرازى ، حدثنا السندى بن عبدويه [(١)] ، حدثنا بُكَيْر بن معروف ، عن مُقَاتِل بن حَيَّان ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود ، عن أبيه ، عن جده ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بنى إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقُتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران ، فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكرهم الله ، عز وجل: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ » [(٢)] .

وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا داود ابن المحبر ، حدثنا الصَّعق بن حَزْن ، حدثنا عقيل الجعدى ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن سُوَيْد ابن غفلة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم . . . » وذكر نحو ما تقدم ، وفيه : « ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذى كذبونى وخالفونى » [(٣)] .

ولا يقدح فى هذه المتابعة لحال داود بن المحبر ، فإنه أحد الوضاعين للحديث ، لكن[(٤)] قد أسنده

(١) فى م : « السندى بن عبد ربه » ، وفى أ : « السرى بن عبد ربه » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١١/١٠) من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن بكير بن معروف به نحوه ، وبكير بن معروف متكلم فيه .

(٣) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٨) .

(٤) فى م : « ولكن » .

أبو يعلى ، وسنده [١] عن شيبان بن فَرُّوخ ، عن الصَّعق بن حَزْن ، به مثل ذلك [٢]. فقوى الحديث من هذا الوجه .

وقال ابن جرير ، وأبو عبد الرحمن النسائي ــ واللفظ له ــ : أخبرنا الحسين بن حُرَيث ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن سفيان بن سعيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس، رضى الله عنهما [٣] ، قال : كان ملوك بعد عيسى ، عليه السلام ، بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ، هذه [٤] الآيات ، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمنا . فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل ، إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا : فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ، ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا . وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً فى الفيافى، ونحتفر الآبار ونحترث [٥] البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم . وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك فأنزل الله ، عز وجل : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ والآخرون قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم [٦] ، فلما بُعث النبى ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل ، انحط منهم رجل من صومعته ، وجاء سائح من سياحته ، وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وبالتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم قال[٧] : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد:٢٨] : القرآن ، واتباعهم النبى ﷺ، قال : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [٨] .

هذا السياق فيه غرابة ، وسيأتى تفسير هاتين الآيتين الأُخريين على غير هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن عيسى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنى سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء : أن سهل بن أبى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن

---

(١) فى أ : « فى مسنده » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠ / ٢٧٢) من طريق محمد الحضرمى ، عن شيبان به ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٨٠) من طريق عبد الرحمن بن المبارك ، عن الصعق بن حزن به . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى . قلت : « ليس بصحيح ، فإن فيه الصعق بن حزن ، عن عقيل بن يحيى ، والصعق وإن كان موثقاً ، فإن شيخه قال فيه البخارى : منكر الحديث » .

(٣) فى م ، أ : « عنه » . (٤) فى م ، أ : « هؤلاء » . (٥) فى م : « ونحرث » .

(٦) فى م : « به » . (٧) فى م : « كما قال » .

(٨) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٨) وسنن النسائى (٨ / ٢٣١) .

مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلى صلاة خفيفة [١] ، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة ، أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة ، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول: « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » . ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر . قال : نعم ، فركبوا جميعاً ، فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا ، خاوية على عروشها فقالوا: تعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفنى بها وبأهلها . هؤلاء أهل الديار ، أهلكهم البغى والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، والبغى يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزنى والكف والقدم والجسد واللسان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمُر ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا سفيان ، عن زيد العَمِّى ، عن أبى إياس ، عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله ، عز وجل » [٣] .

ورواه الحافظ أبو يعلى ، عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، عن عبد الله بن المبارك به ولفظه : «لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين ــ هو ابن محمد ــ حدثنا ابن عياش ــ يعنى إسماعيل ــ عن الحجاج بن مروان [٥] الكلاعى ،وعقيل بن مدرك السلمى ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى الله عنه ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد [٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ .

قد تقدم فى رواية النسائى عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص [٧] ، وكما فى حديث الشعبى عن أبى بُرْدَة ، عن

---

(١) فى أ ، م « خفيفة وقعة » .
(٢) مسند أبى يعلى (٦ / ٣٦٥) .
(٣) المسند (٣ / ٢٦٦) وفيه زيد العمى ضعيف .
(٤) مسند أبى يعلى (٧ / ٢١٠) .
(٥) فى م : « هارون » .
(٦) المسند (٣ / ٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٢١٥) : « رجال أحمد ثقات » .
(٧) عند تفسير الآية : ٥٤ .

أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَوَاليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه فى الصحيحين [(١)] .

ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى : ضعفين ، وزادهم : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى : هدى يُتَبصَّر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . فضلهم بالنور والمغفرة . ورواه ابن جرير عنه .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩] .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حَبراً من أحبار يهود : كم أفضل ما ضعفت[(٢)] لكم حسنة ؟ قال : كفل ثلاثمائة وخمسون [(٣)] حسنة . قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين . [ثم] [(٤)] ذكر سعيد قول الله ، عز وجل : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان فى الجمعة مثل ذلك . رواه ابن جرير [(٥)] .

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذى عملتم. فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء » [(٦)] .

قال أحمد : وحدثناه مُؤَمَّل ، عن سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، نحو حديث نافع ، عنه [(٧)] .

انفرد بإخراجه البخارى ، فرواه عن سليمان [(٨)] بن حرب ، عن حماد ، [عن أيوب] [(٩)] ، عن

---

(١) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .

(٢) فى م : « ضعف » . (٣) فى م : « وخمسين » . (٤) زيادة من أ .

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٤١) .

(٦) المسند (٢/ ٦) .

(٧) المسند (٢/ ١١١) .

(٨) فى أ : « سليم » .

(٩) زيادة من صحيح البخارى .

نافع، به [١]. وعن قتيبة ، عن الليث ، عن نافع ، بمثله [٢] .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بَريد [٣] ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبو وتَرَكُوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فإن ما بقى من النهار شىء يسير . فأبوا ، فأستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قَبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى [٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله ، ولا [على] [٥] إعطاء ما منع الله ، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ أى : ليعلم . وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها : « لكى يعلم». وكذا حطَّان [٦] بن عبد الله ، وسعيد بن جبير ، قال ابن جرير : لأن العرب تجعل « لا » صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] ، ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ، ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٨) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٤٥٩) .
(٣) فى أ : « يزيد » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٢٧١) .
(٥) زيادة من أ .
(٦) فى م : « حطاب » .

تفسير سورة المجادلة

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وَسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية [(١)] .

وهكذا رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقاً فقال : وقال الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، فذكره [(٢)] . وأخرجه النسائى ، وابن ماجة ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من غير وجه ، عن الأعمش ، به [(٣)] .

وفى رواية لابن أبى حاتم عن الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكَلَ شبابى ، ونَثَرتْ [(٤)] له بطنى ، حتى إذا كَبُرَت سِنِّى ، وانقطع ولدى ، ظَاهَر منِّى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ . وقال [(٥)] : وزوجها أوس بن الصامت .

وقال ابن لَهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة : هو أوس بن الصامت ــ وكان أوس امرأ به لمم، فكان إذا أخذه لممه [(٦)] واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

وهكذا روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن رجلاً كان به لممٌ ، فذكر مثله .

---

(١) المسند (٦/٤٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٨٥) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٨) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٥) .

(٤) فى أ : « وبرت » .

(٥) فى م : « وقالت » .

(٦) فى م : « أخذه لمم » .

سورة الحديد

مكّيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقادًا / وقولًا وعملًا عمّا لا يليق بجَنابه سبحانه مِن "سبَّح في الأرض والماء" إذا ذهب وأبعد فيهما، وحيث أُسنِد ههنا إلى غير العقلاء أيضًا فإنّ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعمّ جميع ما فيهما سواءٌ كان مستقرًّا فيهما أو جزءًا منهما، كما مرّ في آية الكرسي. أُريدَ به معنى عامّ مجازيٌّ شامل لِما نطق به لسانُ المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين مِن الثقلين ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الموجودات يدلّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجبِ الوجودِ المتّصف بالكمال المنزَّه عن النقصان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء، ١٧/٤٤]، وهو متعدّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح، ٤٨/٩]. [١٦٥و]

و"اللام" إمّا مزيدة للتأكيد، كما في "نصحتُ له وشكرتُ له" أو للتعليل، أي: فَعَلَ التسبيح لأجل الله تعالى وخالصًا لوجهه. ومجيئُه في بعض الفواتح ماضيًا وفي البعض مضارعًا للإيذان بتحقّقه في جميع الأوقات. وفيه تنبيهٌ على أنّ حقّ مَن مِن شأنه التسبيح الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع أوقاته، كما عليه الملأُ الأعلى، حيث يسبِّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذي لا يُمانعه ولا ينازِعه شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله مشعِر بعلّة الحُكم، وكذا[١] قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: التصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما مِن الموجودات، مِن حيث الإيجادُ والإعدام وسائر التصرّفات ممّا نعلمه وما لا نعلمه.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئناف مبيّن لبعض أحكام المُلك. وجعلُه حالًا مِن ضمير ﴿لَهُۥ﴾[٢] ليس كما ينبغي. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جُملتها ما ذُكر مِن الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالِغ في القدرة.

[١٦٥ظ] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات / لِما أنّه مُبدئها ومُبدعها ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقةً أو نظرًا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مُبقِيها، فإنّ جميع الموجودات الممكنة إذا قُطع النظر عن علّتها فهي فانية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجودًا لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقةً فلا تحوم حولها العقول. و"الواو" الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهما، والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متّصف باستمرار الوجود في جميع الأوقات والظهور والخفاء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن عِلمه شيء مِن الظاهر والخفيّ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ[٣] ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بيان لبعض أحكام مُلكهما، وقد مرّ تفسيره مرارًا. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ مرّ بيانه في سورة سبأ.[٤]

---

[١] وفي هامش م: أي: في الإشعار بها. «منه».

[٢] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٤.

[٣] م س - في ستّة أيّام.

[٤] في الآية الثانية منها.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تمثيل لإحاطة عِلمه تعالى بهم وتصويرٌ لعدم خروجهم عنه أينما داروا. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم، فتأخيرُه عن الخلق لِما أنّ المراد به ما يدور عليه الجزاء مِن العِلم التابع للمعلوم، لا لِما قيل: مِن أنّه دليل عليه.[1]

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه وحدَه لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجع جميع الأمور، على البناء للمفعول مِن "رَجَع رَجْعًا". وقُرئ على البناء للفاعل[2] مِن "رَجَع رُجوعًا".

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ مرّ تفسيره مرارًا. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في العِلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمكنوناتها اللازمة لها، بيانٌ لإحاطة عِلمه تعالى بما يُضمِرونه مِن نيّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يُظهرونها.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلكم خلفاء في التصرّف فيه مِن غير أن تملكوه حقيقةً، عُبّر عمّا بأيديهم مِن الأموال والأرزاق بذلك تحقيقًا للحقّ وترغيبًا لهم في الإنفاق، / فإنّ مَن عَلِم أنّها لله عزّ وجلّ وإنّما [١٦٦و]
هو بمنزلة الوكيل يصرِّفها إلى ما عيَّنه الله تعالى مِن المصارف هان عليه الإنفاقُ؛ أو جَعَلكم خلفاءَ ممّن قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إيّاكم، فاعتبِروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى مَن بعدكم، فلا تبخلوا به.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٧١.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ حسبما أُمِروا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وفيه مِن المبالغات ما لا يخفى، حيث جُعِل الجملة اسميّة، وأعيدَ ذِكرُ الإيمان والإنفاقِ وكُرِّر الإسنادُ وفخِّم الأجرُ بالتنكير ووُصِف بالكبير.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئناف مسوق لتوبيخهم على تَرْك الإيمان حسبما أُمِروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذرٌ ما في الجملة، على أنّ ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل ما فيه مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ سببٍ[1] حصل لكم غيرَ مؤمنين، على توجيه الإنكارِ والنفي إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب لا إلى السبب والمسبَّب جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس، ٢٢/٣٦].

فإنّ همزة الاستفهام كما تكون تارةً لإنكار الواقع كما في "أتضربُ أباك؟" وأخرى لإنكار الوقوع كما في "أأضرِب أبي؟"، كذلك "ما" الاستفهاميّة قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط، كما فيما نحن فيه، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح، ١٣/٧١]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة محقّقًا، فإنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِر ونُفيَ سببُه، وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان إلى المسبَّب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾... إلخ [يس، ٢٢/٣٦]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة مفروضًا قطعًا، فإنّ عدم العبادة أمرٌ مفروضٌ حتمًا قد أُنكِر ونُفيَ سببُه فانتفى نفسه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ مفيدةٌ لتوبيخهم على الكفر مع تحقّق ما يُوجِب عدمَه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يُوجِبه، أي: وأيُّ / عُذر في تَرْك الإيمان، والرسولُ يدعوكم [١٦٦ظ]
إليه وينبّهكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حال مِن مفعول ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، أي: وقد أخَذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان مِن قبلُ، وذلك بنَصْب الأدلّة والتمكينِ مِن النظر.

---

[1] م س: شيء [صُحِح في هامش م].

وقُرئ: "وَقَدْ أُخِذَ"[١] مبنيًا للمفعول برفع "مِيثَاقُكُمْ". ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجِبٍ ما، فإنّ هذا مُوجِب لا مُوجِبَ وراءه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يعِنّ لكم مِن المصالح ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: الله تعالى أو العبدُ بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيلِ الآيات بعد نَصْب الحُجج العقليّة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضًا عُذرٌ مِن الأعذار. وحَذفُ المفعول لظهور أنّه الذي بُيّن حاله فيما سبق وتعيينُ المُنفَقِ فيه لتشديد التوبيخ، أي: وأيُّ شيء لكم في ألّا تنفقوا فيما هو قُربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، وإنّما أنتم خلفاؤه في صَرْفه إلى ما عيَّنه مِن المصارف.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ ومفعولِه مؤكِّدةٌ للتوبيخ، فإنّ ترك الإنفاق بغير سبب قبيحٌ منكَرٌ، ومع تحقّق ما يُوجِب الإنفاقَ أشدُّ في القبح وأدخَلُ في الإنكار، فإنّ بيان بقاءِ جميع ما في السماوات والأرض مِن الأموال بالآخرة لله عزّ وجلّ مِن غير أن يبقى مِن أصحابها أحدٌ أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم مِن بيان أنّها لله تعالى في الحقيقة، وهم خلفاؤه في التصرّف فيها، كأنّه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله / والحالُ أنّه لا يبقى لكم منها شيء؛ بل تبقى كلّها لله تعالى. وإظهارُ [١٦٧و]
الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربيةِ المهابة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ بيان لتفاوت درجاتِ المنفِقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أنّ لهم أجرًا كبيرًا على الإطلاق حثًّا لهم على تحرّي الأفضل. وعطفُ القتال على الإنفاق للإيذان بأنّه مِن أهمّ موادّ الإنفاق مع كونه في نفسه مِن أفضل العبادات، وأنّه لا يخلو مِن الإنفاق أصلًا. وقسيمُ ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾ محذوفٌ لظهوره ودلالةِ ما بعده عليه. وقُرئ: "قَبلَ الفَتْحِ"[١] بغير ﴿مِن﴾، والفتحُ فتح مكّة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد منزلتهم وعُلوّ طبقاتهم في الفضل، ومحلُّه الرفع على الابتداء، أي: أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجميلين ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفعُ منزلةً ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾؛ لأنّهم إنّما فعلوا ما فعلوا مِن الإنفاق والقتالِ قبل عزّة الإسلام وقوّة أهله عند كمال الحاجة إلى النُّصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصارِ الذين قال فيهم النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصيفه»،[٢] وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدِّين ودخولِ الناس فيه أفواجًا وقلّةِ الحاجة إلى الإنفاق والقتال.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنّة لا الأوّلين فقط. وقُرئ: "وَكُلٌّ"[٣] بالرفع على الابتداء، أي: وكلٌّ وَعَده الله تعالى... إلخ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه. وقيل: نزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه، فإنّه أوّل مَن آمن، وأوّل مَن أنفق في سبيل الله، وخاصم الكفّار حتّى ضُرب ضربًا أشرفَ به على الهلاك.[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنُّوزاواري، ص ١٧٦٢.

٢ صحيح البخاري، ٨/٥ (٣٦٧٣)؛ صحيح مسلم، ١٩٦٧/٤ (٢٥٤٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑪﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ / ندبٌ بليغ مِن الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيانِ درجات المنفِقين، أي: مَن ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاءَ أن يُعوّضه، فإنّه كمَن يُقرِضه. وحُسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه وتحرّي أكرمِ المال وأفضلِ الجهات. [١٦٧ظ]

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى، كأنّه قيل: أيُقرِض اللهَ أحدٌ فيضاعفَه له؟ أي: فيُعطيه أجرَه أضعافًا. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضمومُ إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يُضاعَف، فكيف وقد ضُوعِف أضعافًا كثيرة. وقُرئ بالرفع[١] عطفًا على ﴿يُقْرِضُ﴾، أو حملًا على تقدير مبتدأ، أي: فهو يُضاعفه. وقُرئ: "يُضعِّفه" بالرفع[٢] وبالنصب.[٣]

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ⑫﴾

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾،[٤] أو لقوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، أو منصوب بإضمار "اذكر" تفخيمًا لذلك اليوم، وقولُه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال مِن مفعول ﴿تَرَى﴾. قيل: نورهم الضياء الذي يُرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.[٥] وقيل: هو هداهم و﴿بِأَيْمَٰنِهِم﴾ كُتبهم، أي: يسعى إيمانهم وعملُهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كُتب أعمالهم.[٦] وقيل: هو القرآن.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٨.

٦ مرويّ عن الضحّاك في جامع البيان للطبري، ٣٩٨/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٨.

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٩/١٨.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يؤتَون نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم مَن يُؤتى نورَه كالنخلة، ومنهم مَن يُؤتى كالرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره على إبهام رجله ينطفئ تارةً ويلمع أخرى».[١] قال الحسن: يستضيئون به على الصراط. وقال مقاتل: يكون لهم دليلًا إلى الجنّة.[٢]

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ مقدَّر بقول هو حال أو استئناف، أي: يقال لهم: بشراكم، أي: ما تبشَّرون به جنّاتٌ، أو بشراكم دخولُ جنّات. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن النور والبشرى بالجنان المخلَّدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا غايةَ وراءه. وقُرئ: "ذَٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ".[٣]

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا، يقولون ذلك لِما أنّ المؤمنين يُسرَع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة على ركاب تزفّ بهم وهؤلاء مُشاة، أو انظروا إلينا فإنّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم. وقُرئ: "أَنْظِرُونَا"[٤] مِن "النَّظِرَة" وهي الإمهال، جُعل اتّئادهم في المُضيّ إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضئ منه، وأصله اتّخاذ القَبَس.

﴿قِيلَ﴾ طردًا لهم وتهكّمًا بهم مِن جهة المؤمنين أو جهة الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنّه مِن ثمّة يُقتبَس، أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه مِن الإيمان والأعمال الصالحة، أو ارجعوا خائبين خاسئين فالتمسوا نورًا آخرَ، وقد علموا ألّا نورَ وراءهم وإنّما قالوه تخييبًا لهم، أو أرادوا بالنور ما وراءهم مِن الظلمة الكثيفة تهكّمًا بهم.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٥.
٢ القولان في اللباب لابن عادل، ١٨/٤٦٩.
٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٦.
٤ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط، و"الباء" زائدة ﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي: باطن السور أو الباب: وهو الجانب الذي يلي الجنّةَ. ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وهو الطرف الذي يلي النارَ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ مِن جهته ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾. / وقُرئ: "فَضَرَبَ"[1] على البناء للفاعل. [١٦٨ظ]

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾

﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يفعلون بعد ضَرْب السُّور ومشاهدةِ العذاب فقيل: يُنادونهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمۡ﴾ يريدون به موافقتَهم لهم في الظاهر. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ الفارغةُ التي مِن جملتها الطمعُ في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: غرّكم الشيطان بأنّ الله عفوٌّ كريم لا يعذِّبكم. وقُرئ: "الغُرُورُ"[2] بالضمّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ فِداء، وقُرئ: "تُؤخَذُ"[3] بـ"التاء"، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا تبرحونها أبدًا ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي: أولى بكم، وحقيقتُه مكانُكم الذي يقال فيه: "هو أولى بكم"، كما يقال: "هو مَئِنّة الكرم"، أي: مكان لقول القائل: "إنّه لكريمٌ"، أو مكانُكم عن قريب مِن "الوَلْي" وهو القُرب، أو ناصركم على طريقة قوله:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن سِماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

[3] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

تحيّةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[١]

أو متولِّيكم، تتولّاكم كما توليتُم موجِباتِها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في أمور الدِّين ورخاوةَ عقدهم فيها واستبطاءٌ لانتدابهم لِما نُدبوا إليه بالترغيب والترهيب. ورُوي أنّ المؤمنين كانوا مُجدِبين بمكّة، فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عمّا كانوا عليه، فنزلت.[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عُوتبنا بهذه الآية إلّا أربعُ سنين.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ الله تعالى استبطأ / قلوبَ المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثَ [١٦٩و]
عشرةَ سنةً مِن نزول القرآن،[٤] أي: ألم يجئ وقتُ أن تخشع قلوبهم لذِكره تعالى وتطمئنّ به ويُسارعوا إلى طاعته بالامتثال بأوامره والانتهاء عمّا نُهوا عنه مِن غير توانٍ ولا فتور، مِن "أنى الأمرُ" إذا جاء إناهُ، أي: وقته.

وقُرئ: "أَلَمْ يَئِنْ"[٥] مِن "آنَ يئينُ" بمعنى "أنى"، وقُرئ: "أَلَمَّا يَأْنِ"،[٦] وفيه دلالةٌ على أنّ المنفيّ مُتوقَّع.

---

[١] عجُز بيت أوّله:
وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ
والبيت لعمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبيدي في ديوانه، ص ١٤٩، ولمُحقِّقه تفصيل في تخريجه ونسبته. وقال البغدادي فيه: «وهذا البيت نَسَبه شُرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعْديكَرِب الصحابي، ولم أرَه في شعره. والعجبُ مِن شيخنا الشهاب الخَفاجي أنّه نسبه إليه في حاشية البيضاوي. وقال: "هو مِن قصيدة مسطورة له في المُفضَّليّات"، مع أنّه غير موجود شعره في المُفضَّليّات لا مِن كثيره ولا مِن قليله». خزانة الأدب، ٢٦٥/٩. والبيت معزوّ لعمرو في كتاب سيبويه، ٥٠/١؛ والنوادر لأبي زيد، ص ٤٢٨.

[٢] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٣] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٢٣١٩/٤ (٣٠٢٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٤] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن إسماعيل بن الحسن. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن، وهو عطف على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن كان هو المراد به أيضًا فالعطف لتغاير العنوانين، فإنّه ذِكر وموعظة كما أنّه حقّ نازل مِن السماء، وإلّا فالعطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٨/٢]، ومعنى الخشوع له الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه والعكوفُ على العمل بما فيه مِن الأحكام التي مِن جملتها ما سبَق وما لحِق مِن الإنفاق في سبيل الله تعالى. وقُرئ: "نُزِّل" مِن "التنزيل" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًا للفاعل،[٢] و"أَنْزَلَ".[٣]

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على ﴿تَخْشَعَ﴾. وقُرئ بـ"التاء"[٤] على الالتفات؛ للاعتناء بالتحذير. وقيل: هو نهيٌ عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وُبِّخوا، وذلك أنّ بني إسرائيلَ كان الحقّ يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا **التوراة والإنجيل** خشعوا لله تعالى ورقَّت قلوبهم،[٥] ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الأجل -وقُرئ: "الأَمَدّ"[٦] بتشديد "الدال"، أي: الوقت الأطوَل- وغلَبهم الجفاء وزالت عنهم الرَّوعة التي كانت تأتيهم[٧] مِن الكتابَين، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود دينهم رافضون لِما في كتابهم بالكلّيّة.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذِّكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقِلوا ما فيها وتعملوا / بموجَبها فتفوزوا بسعادة الدارين. [١٦٩ظ]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس ويونس عن أبي عمرو. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٥.

[٢] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف ورَوح، ورُويس بخلاف عنه. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٥.

[٤] قرأ بها رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

[٥] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٨/٤.

[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٨/٤.

[٧] س: تعتريهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ بتخفيف "الصاد"[٢] مِن التصديق، أي: الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قيل: هو عطفٌ على ما في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ مِن معنى الفعل، فإنّه في حُكم الذين اصّدّقوا أو صَدَّقوا على القراءتين.[٣] وعُقِب بأنّ فيه فصلًا بين أجزاء الصلة بأجنبيّ وهو ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾. وأجيبَ بأنّ المعنى: إنّ الناس الذين تصدّقوا وتصدّقنَ وأقرضوا، فهو عطفٌ على الصلة مِن حيث المعنى مِن غير فصل.[٤]

وقيل: إن ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ ليس بعطف على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بل هو منصوب على الاختصاص،[٥] كأنّه قيل: إنّ المصّدّقين على العموم تغليبًا وأخصُّ المصّدِّقات مِن بينهم، كما تقول: إنّ الذين آمنوا ولا سيّما العلماءُ منهم وعملوا الصالحات لهم كذا، لكن لا على أنّ مدار التخصيص مزيدُ استحقاقهنّ لمضاعفة الأجر كما في المثال المذكور؛ بل زيادةُ احتياجهنّ إلى التصدّق الداعيةُ إلى الاعتناء بحثهنّ على التصدّق، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «يا معشرَ النساء تصدَّقنَ، فإنّي أُريتُكنّ أكثرَ أهل النار».[٦]

وقيل: هو صلة لموصول محذوف معطوفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، كأنّه قيل: والذين أقرضوا.[٧]

والقرضُ الحسَن عبارة عن التصدّق مِن الطيّب عن طِيبة النفس وخلوصِ النيّة على المستحِقّ للصدقة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٤ التعقيب والجواب للفالي في التقريب في التفسير ١٨٨ظ، ونقلهما عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٢٤٧/١٥.

٥ ما وقفتُ على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٦ صحيح البخاري، ٦٨/١ (٣٠٤)؛ صحيح مسلم، ٨٦/١ (٧٩).

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ على البناء للمفعول مسندًا إلى ما بعده مِن الجارّ والمجرور. وقيل: إلى مصدر ما في حيّز الصلة على حذف مضاف، أي: ثوابُ التصدّق.[١] وقُرئ على البناء للفاعل،[٢] أي: يُضاعِف الله تعالى. وقُرئ: "يُضَعَّفُ"[٣] بتشديد العين وفتحها.[٤] ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافّةً، وقد مرّ بيانُ كيفيّة الإيمان بهم في خاتمة سورة البقرة.[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ / إشارة إلى الموصول الذي هو مبتدأ، وما [١٧٠و] فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه قد مرّ سرّه مرارًا، وهو مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث خبرُه ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، وهو مع خبره خبرٌ للثاني، وهو مع خبره خبرٌ للأول، أو ﴿هُمُ﴾ ضمير الفصل، وما بعده خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملةُ خبرٌ للموصول، أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بمنزلة الصدِّيقين والشهداء المشهورين بعُلوّ الرُّتبة ورِفعة المحلّ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستُشهدوا في سبيل الله تعالى، أو هم المبالغون في الصِّدق حيث آمنوا وصدَّقوا جميعَ أخباره تعالى ورسلَه، والقائمون بالشهادة لله تعالى بالوحدانيّة، ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ بيان لثمرات ما وُصفوا به مِن نُعوت الكمال، على أنّه جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها الرفع على أنّه خبر ثانٍ للموصول، أو الخبرُ هو الجارّ وما بعده مرتفعٌ به على الفاعليّة، والضميرُ الأوّل على الوجه الأوّل للموصول والأخيران للصدِّيقين والشهداء، أي: لهم مِثلُ أجرهم ونورهم المعروفَين بغاية الكمال وعزّة المنال.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٤ وفي هامش م: لباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.

٥ في تفسير البقرة، ٢٨٥/٢.

وقد حُذف أداة التشبيه تنبيهًا على قوّة المماثلة وبلوغها حدَّ الاتّحاد، كما فُعل ذلك حيث قيل: هم الصدِّيقون والشهداء، وليست المماثلة بين ما للفريق الأوّلِ مِن الأجر والنور وبين تمامِ ما للفريقين الأخيرين؛ بل بين تمام ما للأوّل مِن الأصل والأضعاف وبين ما للأخيرين مِن الأصل بدون الأضعاف، وأمّا على الوجه الثاني فمرجع الكلّ واحد، والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم. وقد قيل: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبره، وقيل: الخبر ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾... إلخ.[1]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها / أبدًا. [١٧٠ظ]

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بعد ما بيِّن حال الفريقين في الآخرة، شُرح حال الحياة الدنيا[2] التي اطمأنّ بها الفريق الثاني، وأشيرَ إلى أنّها مِن محقَّرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها، وأنّها مع ذلك سريعة الزوال وشيكةُ الاضمحلال حيث قيل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: الحُرّاث ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: النبات الحاصل به.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجف بعد خُضرته ونضارته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضرًا مونقًا. وقُرئ: "مُصْفَارًّا"،[3] وإنّما لم يُقل: "فيصفرّ" إيذانًا بأنّ اصفراره مقارِن لجفافه، وإنّما المترتّب عليه رؤيته كذلك. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا متكسّرًا. ومحلّ "الكاف" قيل: النصب على الحاليّة مِن الضمير في ﴿لَعِبٌ﴾؛

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٨.

[2] س - الدنيا.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٦.

لأنّه في معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنّه خبر بعد خبر لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بتقدير المضاف، أي: مَثَل الحياة الدنيا كمَثَل... إلخ.[١]

وبعد ما بيّن حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها وتنفيرًا عن العكوف عليها أشيرَ إلى فخامة شأنِ الآخرة وعِظَم ما فيها مِن اللذّات والآلام ترغيبًا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرًا مِن عذابها الأليم، وقُدِّم ذِكر العذاب فقيل: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّه مِن نتائج الانهماك فيما فُصِّل مِن أحوال الحياة الدنيا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عظيم لا يُقادَر قَدْره.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: لمَن اطمأنّ بها ولم يجعلها ذريعةً إلى الآخرة. عن سعيد بن جبير: متاعُ الغرور إن ألهَتك عن طلب الآخرة، فأمّا إذا دعَتك إلى طلب رضوان الله تعالى[٢] فنِعَم المتاع ونِعَم الوسيلة.[٣]

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

﴿سَابِقُوٓا۟﴾ أي: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى موجِباتها مِن الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرضهما جميعًا، وإذا كان عرضها / كذلك فما ظنُّك [١٧١و] بطولها؟ وقيل: المراد بالعرض البسطَة. وتقديمُ المغفرة على الجنّة لتقدُّم التخلية على التحلية. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة بالفعل وأنّ الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاقها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد مِن المغفرة والجنّة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ تفضّلًا وإحسانًا ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءه إيّاه مِن غير إيجاب. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ولذلك يُؤتي مَن يشاء مِثل ذلك الفضل الذي لا غايةَ وراءه.

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ٤٨٨/١٨.
٢ م – تعالى.
٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩/٨.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كجَدْب وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ كمرض وآفة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ أي: إلّا مكتوبةً مثبتةً في عِلم الله تعالى، أو في اللوح ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أي: نخلق الأنفس، أو المصائب، أو الأرض. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لاستغنائه فيه عن العُدّة والمُدّة.

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾ أي: أخبرناكم بذلك لئلّا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ مِن نِعَم الدنيا ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أي: أعطاكم الله تعالى منها، فإنّ مَن عَلِم أنّ الكلّ مقدَّر يفوت ما قُدِّر فواته ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالةَ، لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آتٍ.

وقُرئ: "بِمَا أَتَاكُمْ"[١] مِن الإتيان. وفي القراءة الأولى إشعار بأنّ فوات النِّعَم يلحقها إذا خُلّيت وطباعَها، وأمّا حصولها وبقاؤها فلا بدّ لهما مِن سبب يُوجِدها ويُبقيها. وقُرئ: "بِمَا أُوتِيتُمْ"،[٢] والمرادُ به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرحِ الموجِب للبطر والاختيال، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ فإنّ مَن فرح بالحظوظ الدنيويّة وعظُمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالةَ. وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذانٌ بأنّه أقبح مِن الأسى.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بدل مِن ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾، فإنّ المختال بالمال يضنّ به غالبًا ويأمر غيرَه به. أو مبتدأ خبرُه محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: / ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، فإنّ معناه ومَن يُعرِض عن الإنفاق فإنّ الله غنيّ عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضرّه الإعراض عن شكره [١٧١ظ]

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٣.

بالتقرّب إليه بشيء مِن نعمه، وفيه تهديدٌ وإشعارٌ بأنّ الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفِق. وقُرئ: "فَإِنَّ اللهَ الغَنِيُّ".[١]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكةَ إلى الأنبياء، أو الأنبياءَ إلى الأمم، وهو الأظهرُ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحُجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب الشامل للكلّ، ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. رُوي أن جبريلَ عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مُرْ قومك يزِنوا به.[٢] وقيل: أُريدَ به العدل ليُقام به السياسة ويُدفع به العدوان.[٣]

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدمُ عليه السلام مِن الجنّة ومعه خمسة أشياءَ مِن حديد: السَّنْدان والكلبتان والمِيقَعة والمِطرَقة والإبرة. ورُوي ومعه المَرّ والمِسحاة. وعن الحسن: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]،[٤] وذلك أنّ أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل مِن السماء.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّ آلات الحروب إنّما تُتّخذ منه، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما مِن صنعة إلّا والحديد أو ما يُعمَل بالحديد آلتها. والجملةُ حال مِن ﴿الْحَدِيدَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ عطفٌ على محذوف يدلّ عليه ما قبله، فإنّه حال متضمِّنة للتعليل، كأنّه قيل: ليستعملوه، وليعلمَ الله عِلمًا يتعلّق به الجزاء مَن ينصره ورسلَه باستعمال السيوف والرماح وسائرِ الأسلحة في مجاهدة أعدائه، أو متعلِّق بمحذوف مؤخَّر، و"الواو" اعتراضيّة، أي: وليعلم الله مَن ينصره

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٣.

٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

ورسلَه أنزله. وقيل: عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.[١] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُ﴾، أو مفعوله، أي: غائبًا منهم، أو غائبين منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراض تذييلي جيء به تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنّ تكليفهم الجهادَ وتعريضَهم للقتال ليس لحاجته في إعلاء كلمته وإظهارِ دينه إلى نصرتهم؛ بل إنّما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلّا فهو غنيّ بقدرته وعزّته عنهم في كلّ ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نوعُ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾... إلخ،[٢] وتكريرُ القسم لإظهار مزيدِ الاعتناء بالأمر، أي: وبالله لقد / أرسلناهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب. وقيل: المراد بالكتاب الخطّ بالقلم.[٣] [١٧٢و]

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن الذرّيّة أو مِن المُرسَل إليهم المدلول عليهم بذِكر الإرسال والمرسَلين ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحقّ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم. والعدول عن سَنن المقابلة للمبالغة في الذمّ والإيذانِ بغلَبة الضُّلّال وكثرتهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: ثمّ أرسلنا بعدهم رسلَنا ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولًا بعد رسول حتّى انتهى إلى عيسى عليه السلام. والضمير لنوح وإبراهيمَ ومَن أُرسِلا إليهم، أو مَن عاصراهم مِن الرسل لا للذرّيّة، فإنّ الرسل المقفّى بهم مِن الذرّيّة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقُرئ بفتح "الهمزة"،[٤] فإنّه أعجمي لا يلزم فيه مراعاة أبنية العرب.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٠٠.

٢ في الآية السابقة.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٦٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٧.

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقُرئ: "رَآفَةً"[١] على "فَعَالة" ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وفّقناهم للتراحم والتعاطف بينهم، ونحوُه في شأن أصحاب النبيّ عليه السلام ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨]. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب إمّا بفعل مضمر يفسّره الظاهر، أي: وابتدعوا رهبانيّةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وإمّا بالعطف على ما قبلها و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صفة لها، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً ورهبانيّةً مبتدَعة مِن عندهم، أي: وفّقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانيّة واستحداثها، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، ومعناها الفِعْلة المنسوبة إلى "الرَّهبان" وهو الخائف "فَعْلان" مِن رَهِب كـ"خشيان" مِن "خشي". وقُرئ بضمّ "الراء"،[٢] كأنّها نسبة إلى "الرُّهبان" وهو جمع "راهب" كـ"رَاكب" و"رُكْبان".

وسببُ ابتداعهم إيّاها أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرّات، فقُتلوا حتّى لم يبقَ منهم إلّا قليل، فخافوا أن يُفتَتَنوا / في دينهم فاختاروا الرهبانيّة في قُلَل الجبال فارّين بدينهم مخلِصين أنفسَهم للعبادة. [١٧٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنَفة. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾.[٣] والنفيُ على الوجه الأوّل[٤] متوجِّه إلى أصل الفعل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطِع، أي: ما فرضناها نحن عليهم رأسًا، ولكنّهم ابتدعوها ابتغاءَ رضوان الله، فذمُّهم حينئذ بقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ مِن حيث أنّ النذر عهدٌ مع الله تعالى[٥] لا يحِلّ نكثه، لا سيّما إذا قُصِد به رضاه تعالى، وعلى الوجه الثاني[٦] متوجِّه إلى قَيده لا إلى نفسه، والاستثناء متّصل مِن أعمّ العِلَل، أي: ما كتبناها عليهم بأن وفّقناهم لابتداعها لشيء مِن الأشياء إلّا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقّوا بها الثواب، ومِن ضرورة ذلك أن يُحافظوا عليها ويُراعوها[٧] حقّ رعايتها، فما رعاها كلّهم؛ بل بعضهم.

---

١ قرأ بها قنبل بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مبشر بن عُبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٥٠٤/١٨.

٤ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بمضمَر يفسّره الظاهر. «منه».

٥ م - تعالى.

٦ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بالعطف على ﴿رَأْفَةً﴾. «منه».

٧ س: ويراعوا.

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ إيمانًا صحيحًا، وهو الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد رعاية رهبانيّتهم لا مجرّد رعايتها، فإنّها بعد البعثة لغوٌ محضٌ وكُفر بحتٌ، وأنّى لها استتباع الأجر. ﴿أَجۡرَهُمۡ﴾ أي: ما يُخصّ بهم مِن الأجر. ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدّ الاتّباع. وحملُ الفريقين على مَن مضى مِن المراعين لحقوق الرهبانيّة قبل النسخ والمخلِّين بها إذ ذاك بالتثليث، والقولُ بالاتّحاد وقصدِ السُّمعة مِن غير تعرّض لإيمانهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكفرهم به، ممّا لا يُساعده المقام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالرسل المتقدِّمة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وفي إطلاقه إيذانٌ بأنّه عَلَم فرد في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره.

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بالرسول وبمَن قبله مِن الرسل عليهم السلام، لكن لا على معنى أنّ شريعتهم باقية بعد البعثة؛ بل على أنّها كانت حقّةً قبل النسخ. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد، ١٢/٥٧]. ﴿وَيَغۡفِرۡ
[١٧٣و] لَكُمۡ﴾ ما أسلفتم مِن الكفر والمعاصي، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ / أي: مبالغ في المغفرة والرحمة.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ متعلِّق بمضمون الجملة الطلبيّة المتضمِّنة لمعنى الشرط؛ إذ التقدير إن تتّقوا الله وتؤمِنوا برسوله يؤتِكم كذا وكذا لئلّا يعلم الذين لم يُسلِموا مِن أهل الكتاب، أي: ليعلموا، و﴿لَا﴾ مزيدة

كما ينبئ عنه قراءة: "لِيَعْلَمَ"،[١] و"لِكَي يَعْلَمَ"،[٢] و"لِأَنْ يَعْلَمَ"[٣] بإدغام "النون" في "الياء".

و"أن" في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوفٌ، والجملةُ في حيّز النصب على أنّها مفعول ﴿يَعْلَمَ﴾، أي: ليعلموا أنّه لا ينالون شيئًا ممّا ذُكر مِن فضله مِن الكِفلين والنور والمغفرة، ولا يتمكّنون مِن نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾. وقوله تعالى:[٤] ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، وقيل: هو الخبر والجارّ حالٌ لازمة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله، وقد جُوِّز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى اتّقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤتِكم ما وعد مَن آمن مِن أهل الكتاب مِن الكفلين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص، ٥٤/٢٨]، ولا ينقصكم مِن مِثل أجرهم لأنكم مِثلهم في الإيمانين لا تفرِّقون بين أحد مِن رسله.

ورُوي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنّهم يؤتَون أجرهم مرّتين وادّعَوا الفضلَ عليهم، فنزلت.[٦] وقُرئ: "لِيَلَّا"[٧] بقلب الهمزة ياءً لانفتاحها بعد كسرة، وقُرئ بسكون "الياء" وفتح "اللام"[٨] كاسم المرأة، وبكسر "اللام" مع سكون "الياء".[٩] وقُرئ: "أَلَّا يَقْدِرُوا".[١٠]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس وسعيد بن جُبير وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٧٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٤ س - تعالى.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٥١١/١٨.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

٧ قرأ بها ورش عن نافع. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن قطرب. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

هذا، وقد قيل: ﴿لَا﴾ غيرُ مزيدة، وضمير ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ للنبيّ عليه السلام وأصحابه، والمعنى لئلّا يعتقد أهل الكتاب أنّه لا يقدِر النبيّ عليه السلام والمؤمنون به على شيء مِن فضل الله الذي هو عبارة عمّا أوتوه مِن سعادة الدارين، على أنّ عدم عِلمهم بعدم قدرتهم على ذلك كنايةٌ عن عِلمهم بقدرتهم عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾... إلخ، / عطفًا على ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾. [١٧٣ظ]

عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحديد كُتب مِن الذين آمنوا بالله ورسله».[١]

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠/٢٦ (الحديد، ١/٥٧)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٤٤/٤ (الحديد، ١/٥٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٧

سُورَةُ الحَدِيدِ

مكية أو مدنية، وهي تسع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلهِ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: نزَّهه كُلُّ شيء ـ فاللام: مزيدة. وجيء بـ «ما» دون «مَن» تغليبًا للأكثر ـ ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه، ٢ ـ ٣ ـ ﴿لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، يُحيِي﴾ بالإنشاء ﴿ويُمِيتُ﴾ بعده، ﴿وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأوَّلُ﴾ قبل كُلّ شيء بلا بِداية ﴿والآخِرُ﴾ بعد كُلّ شيء بلا نِهاية ﴿والظّاهِرُ﴾ بالأدلّة عليه ﴿والباطِنُ﴾ عن إدراك الحواس، ﴿وهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾.

سُورَةُ الحَدِيدِ

قولُهُ: (فاللّامُ: زَائِدَةٌ) أو إشعاراً بأنَّ إيقاعَ الفعلِ لأجلِ اللهِ وخالصاً لوجهِهِ.

قولُهُ: (بالإِنشَاءِ) أي: الإيجادِ، أو بالإيمانِ والعلمِ والمعرفةِ، قالَ ابنُ عطاءٍ[١]: يُحيي مَن يشاءُ بالإقبالِ على الملكِ، ويُميتُ مَن يشاءُ بالاشتغالِ بالملكِ.

قولُهُ: (بَعدَ كُلِّ شَيءٍ) ولو بالنَّظرِ إلى ذاتِ الأشياءِ مع قطعِ النَّظرِ عن غيرِها.

قولُهُ: (بالأَدِلَّةِ) أي: الظَّاهرُ وجودُهُ لكثرةِ دلائلِهِ.

قولُهُ: (عَن إِدْرَاكِ) أي: الباطنُ حقيقةُ ذاتِهِ فلا تكتَنهُها العقولُ، والواو الأولى والأخيرةُ للجمعِ بينَ الوصفينِ، والمتوسِّطةُ للجمعِ بينَ المجموعينِ، وقالَ بعضُ العارفينَ: أوَّلٌ ببرِّهِ، وآخرٌ بعفوِهِ، وظاهرٌ بإحسانِهِ، وباطنٌ بسترِهِ، وقالَ الصَّادقُ[٢]:.................................

---

(١) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٠٥).

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٠٦).

٤ ـ ٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيّامٍ﴾ من أيّام الدنيا، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة، ﴿ثُمَّ استوَى علَى العَرشِ﴾: الكرسيّ استواءً يليق به، ﴿يَعلَمُ ما يَلِجُ﴾: يدخل ﴿في الأرضِ﴾ كالمطر والأموات، ﴿وما يَخرُجُ مِنها﴾ كالنبات والمعادن، ﴿وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ كالرحمة والعذاب، ﴿وما يَعرُجُ﴾: يصعد ﴿فِيها﴾ كالأعمال الصالحة والسيّئة، ﴿وهُوَ مَعَكُم﴾ بعِلمه ﴿أينَما كُنتُم، واللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ، لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ﴾ الموجودات جميعها، ٦ ـ ﴿يُولِجُ اللَّيلَ﴾: يُدخله ﴿في النَّهارِ﴾ فيزيد وينقص الليلُ، ﴿ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ﴾ فيزيد وينقص النهارُ، ﴿وهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما فيها من الأسرار والمُعتقدات.

٧ ـ ٨ ـ ﴿آمِنُوا﴾: داوِموا على الإيمان ﴿بِاللهِ ورَسُولِهِ، وأنفِقُوا﴾ في سبيل الله ﴿مِمّا جَعَلَكُم مُستَخلَفِينَ فِيهِ﴾ من مالِ مَن تقدّمكم...

هو أوّلُ الأوّلِ، وآخرُ الآخرِ، وأظهرُ الظّاهرِ، وأبطنُ الباطنِ، فسقطَ هذهِ المعاني وبقيَ هو، وقالَ الواسطيُّ[1]: مَن كانَ حظُّهُ مِن اسمِهِ الأوّلِ كانَ شغلُهُ لما سبقَ، ومَن كانَ حظُّهُ مِن اسمِهِ الآخرِ كانَ مرتبطاً بما يستقبلُهُ، ومَن كانَ حظُّهُ مِن اسمِهِ الظّاهرِ لاحظَ عجائبَ قدرتِهِ، ومَن كانَ حظُّهُ مِن اسمِهِ الباطنِ لاحظَ ما جرى في السّرائرِ مِن المواردِ، وإنّما مزَجْنا بعضَ المعارفِ اللّدنِّيَّةِ الوهبيَّةِ إلى العلومِ الكسبيَّةِ النَّقليَّةِ ليذوقَها بعضُ أهلِ الذّوقِ، ويميلَ إليها بسيرِ الشّوقِ، قالَ تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

قولُهُ: (الكُرسِيِّ) الصَّحيحُ: أنّه غيرُ العرشِ، وقد تقدَّمَ[2].

قولُهُ: (والأَموَاتِ) والبذورِ.

قولُهُ: (والمَعَادِنِ) والعيونِ.

قولُهُ: (والعَذَابِ) والأمطارِ.

قولُهُ: (كالأَعمَالِ) والأبخرةِ والأرواحِ الطَّيِّبةِ.

قولُهُ: (والسَّيِّئةِ) والسيئة قلم؛ لأنّه تعالى قالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

قولُهُ: (بِعلمِهِ) وقدرتِهِ لا ينفكُّ عنكُم بحالٍ.

قولُهُ: (المَوجُودَاتُ) أي: أمورُها، ولا تكرارَ؛ لأنَّهُ ذكرَهُ مع الإعادةِ، كما ذكرَهُ معَ الإبداءِ؛ لأنّهُ كالمقدِّمةِ.

قولُهُ: (مِنْ مَالِ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ) أي: مِن الأموالِ الّتي استخلفَكُم عمَّنْ قبلَكُم في تملُّكِها والتَّصرُّفِ فيها،

---

(١) وانظر المصدر السابق.

(٢) في الآية رقم: (٨٦) من سورة المؤمنون.

وسيَخلُفكم فيه مَن بعدَكم. نزلَ في غزوة العُسرة، وهي غزوة تَبوكَ. ﴿فالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وأنفَقُوا﴾ ـ إشارةٌ إلى عُثمان رضي الله عنه ـ ﴿لَهُم أجرٌ كَبِيرٌ. وما لَكُم لا تُؤمِنُونَ باللهِ﴾ ـ خِطابٌ للكُفّار ـ أي: لا مانع لكم من الإيمان بالله، ﴿والرَّسُولُ يَدعُوكُم لِتُؤمِنُوا بِرَبِّكُم، وقَد أُخِذَ﴾ ـ بضمّ الهمزة وكسر الخاء، وبفتحهما ونصب ما بعده ـ ﴿مِيثاقُكُم﴾ عليه؟ أي: أخذَه اللهُ في عالم الذرّ حِين أشهدهم على أنفُسهم: «أَلَستُ بِرَبِّكُم؟ قالُوا: بلَى»، ﴿إن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ أي: مُريدين الإيمانَ به فبادروا إليه. ٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِلُ عَلَى عَبدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾: القُرآنَ ﴿لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾: الإيمان، ﴿وإنَّ اللهَ بِكُم﴾ في إخراجكم من الكُفر إلى الإيمان ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

١٠ ـ ﴿ومالكُم﴾ بعد إيمانكم ﴿ألاّ﴾ ـ بإدغام نون «أنْ» في لام «لا» ـ ﴿تُنفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ، ولِلهِ مِيراثُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ بما فيهما، فتصل إليه أموالكم من غير أجر الإنفاق بخلاف ما لو أنفقتم فتُؤجرون؟ ﴿لا يَستَوِي مِنكُم مَن أنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ﴾ لمكّةَ.........

أو مِن الأموالِ الَّتي جعلَكُمُ اللهُ خلفاء في التَّصرُّفِ فيها، فهي في الحقيقةِ له لا لكُم.

قولُهُ: (وَسَيَخْلُفُكُم فِيهِ) حثٌّ على الإنفاقِ، وتهوينٌ على النَّفسِ.

قولُهُ: (إِلَى عُثمَانَ) أي: ونحوهُ.

قولُهُ: (أي: لا مَانِعَ) أي: ما تصنَعونَ غير مؤمنينَ به، كقولك: ما لكَ قائماً؟ وقولُهُ تعالى: (﴿وَالرَّسُولُ...﴾) إلخ، حالٌ من ضميرِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أيُّ عذرٍ لكُم في تركِ الإيمانِ والرَّسولُ... إلخ.

قولُهُ: (بِضَمِّ الهَمزَةِ) بصريٌّ، و(مِيثَاقُكُم) بالرَّفعِ[1].

قولُهُ: (عَليهِ) أي: على الإيمانِ قبلَ ذلك، والواوُ للحالِ من مفعولِ: ﴿يَدْعُوكُم﴾.

قولُهُ: (مُرِيدِي الإِيمَانِ) أو ﴿إنْ كنتُم مؤمنينَ﴾ بموجبٍ ما، فإنَّ هذا الميثاقَ سببٌ لا مزيدَ عليهِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لِيُخْرِجَكُم﴾) أي: اللهُ، أو العبدُ، أو الآياتُ، المرادُ بها: الكتابُ.

قولُهُ: (الكُفرِ) أو مِن ظلماتِ الكفرِ، وجُمِعَ لكثرتِهِ من الأوهامِ والشُّكوكِ والظُّنونِ وأنواعِهِ، إلى نورِ الإيمانِ والتَّوحيدِ.

قولُهُ: (بَعدَ إِيمَانِكُم) أي: أيُّ شيءٍ يمنعُكُم من أن لا تنفِقُوا.

قولُهُ: (لِمَكَّةَ) إذ عزَّ الإسلامِ بفتحِ مكَّةَ وكثرة أهلِهِ، وقلَّةِ الحاجةِ إلى المقاتَلةِ والإنفاقِ، وقسيمُ

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

﴿وقاتَلَ. أُولئِكَ أعظَمُ دَرجةً مِنَ الَّذِينَ أنفَقُوا مِن بَعدُ وقاتَلُوا، وكُلًّا﴾ مِن الفريقين ـ وفي قراءة بالرفع مبتدأً ـ ﴿وَعَدَ اللهُ الحُسنَى﴾: الجنّة، ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فيُجازيكم به.

١١ ـ ﴿مَن ذا الَّذِي يُقرِضُ اللهَ﴾ بإنفاق ماله في سبيل الله ﴿قَرضًا حَسَنًا﴾ بأن يُنفقه لله، ﴿فيُضاعِفَهُ﴾ ـ وفي قراءة: «فيُضَعِّفُهُ» بالتشديد ـ ﴿لَهُ﴾ من عشرٍ إلى أكثرَ من سبعِمِائَةٍ كما ذُكِر في «البقرة»، ﴿ولَهُ﴾ مع المُضاعفة ﴿أجرٌ كَرِيمٌ﴾ مُقترنٌ به رضًا وإقبال؟

١٢ ـ ١٣ ـ اذكرْ ﴿يَومَ تَرَى المُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ، يَسعَى نُورُهُم بَينَ أيدِيهِم﴾: أمامَهم ﴿و﴾ يكون ﴿بِأَيمانِهِم﴾، ويقال لهم:..

﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ محذوفٌ لوضوحِهِ ودلالةِ ما بعدَهُ عليه، نزلَتِ الآيةُ في أبي بكرٍ[١]؛ فإنَّهُ أوَّلُ مَن أنفقَ في سبيلِ اللهِ، وخاصمَ الكفَّارَ حتَّى ضُرِبَ ضرباً أشرفَ على الهلاكِ، قالَ جعفرُ الصَّادقُ[٢]: الإراداتُ القويَّةُ الخالصةُ الصَّفيَّةُ للمهاجرينَ وأهلِ الصُّفَّةِ وإمامُهُم وسيِّدُهم أبو بكرٍ الصِّديقُ الأكبرُ، وهمُ الَّذينَ لم يؤثِروا الدُّنيا على الآخرةِ، بل بذلُوهَا ولم يعرِّجوا عليها، واعتمَدوا في ذلك على اللهِ وطَلبوا رضاهُ وانقطَعوا عمَّا سواهُ، واتَّبعوا موافقةَ رسولِهِ وحبيبِهِ في أمرِهِ ونهيِهِ، فخصَّهُمُ اللهُ مِن بينِ الأمَّةِ بقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ[٣].

قولُهُ: (الجَنَّةَ) أي: المثوبةَ الحسنى، منصوبٌ على قراءةِ الجمهورِ، ومرفوعٌ على قراءةِ الشَّاميِّ.

قولُهُ: (بأَنْ يُنفِقَهُ للهِ) رجاءَ أن يعوِّضَهُ، كمن يقرضُهُ، وحسنُ الإنفاقِ بالإخلاصِ فيه وتحرِّي أكرمِ الأموالِ وأفضلِ الجهاتِ له، قالَ سهلٌ[٤]: أعطاهُمُ اللهُ فضلاً، ثمَّ سألَهُم قرضاً، قلتُ: فإن أنفقوا زادَ لهُم فضلاً، وإن أمسَكوا عملَ بهم عدلاً.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وشاميٍّ، ونصبَهُ شاميٌّ وعاصمٌ[٥].

قولُهُ: (رِضاً) تفسيرٌ لـ﴿أَجْرٌ﴾.

قولُهُ: (ويُقَالُ) أي: يقولُ من يتلقَّاهُم من الملائكةِ: بُشراكُم دخول جنَّاتٍ، أو المبشَّرُ به جنَّاتٌ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٦/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠٦) من رواية محمد بن فضيل عن الكلبي.

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٠٧).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٤) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٦١).

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٠٥).

﴿بُشْراكُمُ اليَومَ جَنّاتٌ﴾ أي: دخولُها، ﴿تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها. ذلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ. يَومَ يَقُولُ المُنافِقُونَ والمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: انظُرُونا﴾: أبصِرونا ـ وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الظاء: أمهِلونا ـ ﴿نَقتَبِسْ﴾: نأخذِ القبسَ والإضاءة ﴿مِن نُورِكُم. قِيلَ﴾ لهم استهزاءً بهم: ﴿ارجِعُوا وَراءَكُم، فالتَمِسُوا نُورًا﴾. فرَجَعوا، ﴿فضُرِبَ بَينَهُم﴾ وبين المُؤمنين ﴿بِسُورٍ﴾ ـ قيل: هو سور الأعراف ـ ﴿لَهُ بابٌ، باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمةُ﴾ من جِهة المُؤمنين، ﴿وظاهِرُهُ﴾ من جِهة المُنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ العَذابُ﴾.

١٤ ـ ﴿يُنادُونَهُم: أَلَم نَكُنْ مَعَكُم﴾ على الطاعة؟ ﴿قالُوا: بَلَى، ولكِنَّكُم فَتَنتُم أنفُسَكُم﴾ بالنِّفاق، ﴿وتَرَبَّصتُم﴾ بالمُؤمنين الدوائر، ﴿وارتَبتُم﴾: شككتم في دِين الإسلام، ﴿وغَرَّتْكُمُ الأمانِيُّ﴾: الأطماع ﴿حَتَّى جاءَ أمرُ اللهِ﴾: الموتُ، ﴿وغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾: الشيطان......................

قولُهُ: (أَبصِرُونَا) أي: انظُروا إلينا؛ فإنَّهُم إذا نظَرُوا إليهم استقبَلوهُم بوجوهِهِم، فيستضيئونَ بنورٍ بينَ أيديهِم، أو انتظِرونا، فإنَّهُ يُسْرَعُ بهم إلى الجنَّةِ كالبرقِ الخاطفِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ[1] على أنَّ انتظارَهُم ليلحَقوا بهم إمهالٌ لهم.

قولُهُ: (نَأخُذِ) أي: نُصِب.

قولُهُ: (فَرَجِعُوا) إلى الموقفِ.

قولُهُ: (وبَينَ المُؤمِنِينَ) أو بينَ المؤمنينَ والمنافقينَ، فالضَّميرُ للفريقينِ، وهو الظَّاهرُ.

قولُهُ: (قِيلَ) قائلُهُ مجاهدٌ، وقالَ قتادةُ[2]: حائطٌ بين الجنَّةِ والنَّارِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لَهُ بَابٌ﴾) يدخلُ فيه المؤمنونَ، وقولُهُ: (﴿بَاطِنُهُ﴾) باطنُ السُّورِ أو البابِ.

قولُهُ: (مِنْ جِهَةِ المُؤمِنِينَ) أو لأنَّهُ يلي الجنَّةَ.

قولُهُ: (مِنْ جِهَةِ المُنَافِقِينَ) والكافرينَ، أو لأنَّهُ يلي النَّارَ.

قولُهُ: (عَلى الطَّاعَةِ) يريدونَ موافقتَهُم في الظَّاهرِ.

قولُهُ: (الأَطمَاعُ) بطولِ الأملِ وامتدادِ العمرِ، وأن لا بَعثَ ولا عذابَ ولا حسابَ، أو أنَّ اللهَ كريمٌ؛ كما أعطانا في الدُّنيا يُعطينا في العُقبى.

قولُهُ: (الشَّيطَانُ) أو الدُّنيا.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٨)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٢).

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٨٢).

١٥ ـ ﴿فاليَومَ لا يُؤخَذُ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِنكُم فِديَةٌ ولا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. مأواكُمُ النّارُ، هِيَ مَولاكُم﴾: أَولَى بكم، ﴿وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي!

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿ألَم يأنِ﴾: يَحِنْ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ـ نزلتْ في شأن الصحابة لمّا أكثروا المُزاحَ ـ ﴿أن تَخشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكرِ اللهِ وما نَزَّلَ﴾، بالتشديد والتخفيف، ﴿مِنَ الحَقِّ﴾: القُرآنِ، ﴿ولا يَكُونُوا﴾: معطوف على «تخشعَ» ﴿كالَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبلُ﴾ ـ هم اليهود والنصارى ـ ﴿فطالَ علَيهِم الأمَدُ﴾: الزمن بينهم وبين أنبيائهم، ﴿فقَسَتْ قُلُوبُهُم﴾: لم تَلِن لذكر الله، ﴿وكَثِيرٌ مِنهُم فاسِقُونَ؟ اعلَمُوا﴾ ـ خِطابٌ للمُؤمنين المذكورين ـ ﴿أنَّ اللهَ يُحيِي الأرضَ بَعدَ مَوتِها﴾ بالنبات. فكذلك يفعل بقُلوبكم يردّها إلى الخُشوع. ﴿قَد بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ﴾ الدالّةَ على قُدرتنا بهذا وغيره، ﴿لَعَلَّكُم تعقِلُونَ﴾.

١٨ ـ ١٩ ـ ﴿إنَّ المُصَّدِّقِينَ﴾ ـ من التصدّقِ أُدغمَتِ التاءُ في الصاد ـ..................

قولُهُ: (والتَّاءِ) للتَّأنيثِ، شاميٌّ[١].

قولُهُ: (أَولَى بِكُم) أي: أولى الأشياءِ بكم وأقرَبُها إليكم، أو مكانُكُمُ الَّذي يُقالُ فيه هو أولى بكُم.

قولُهُ: (يَحِنْ) مِن حانَ يحينُ؛ أي: ألم يأتِ وقتُهُ، مِن آنَى: إذا جاءَ أناهُ؛ أي: وقتُهُ.

قولُهُ: (لَمَّا أَكثَرُوا المَزْحَ) رويَ: أنَّ المؤمنين كانوا مجدِبينَ بمكَّةَ، فلمَّا هاجَروا أصابوا الرِّزقَ والنِّعمةَ ففتروا عمَّا كانوا عليه فنزلَتْ[٢].

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ) نافعٌ وحفصٌ[٣]، عطفٌ على الذِّكرِ، عطفُ أحدِ الوصفَيْنِ على الآخرِ، أو عطفُ الخاصِّ على العامِّ.

قولُهُ: (بينَهُم) أو بطولِ أعمارِهِم، أو آمالِهِم.

قولُهُ: (إلى الخُشُوعِ) أو تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ، أو لإحياءِ الأمواتِ ترغيباً في الخشوعِ وزجراً عن القَساوةِ.

قولُهُ: (مِنَ التَّصَدُّقِ) أي: (المتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ)، وقُرِئَ في الشَّواذِّ[٤].

قولُهُ: (أُدغِمَتِ) وقرَأَ المكِّيُّ وشعبةُ بالتَّخفيفِ[٥]؛ أي: الَّذين صدَقوا اللهَ ورسولَهُ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٦٢) عن الأعمش.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٤) ونسبت لأبي رضي الله عنه، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٦٥).

(٥) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

أي: الذين تَصدّقوا ﴿والمُصَّدِّقاتِ﴾: اللاتي تَصدّقنَ، وفي قراءة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق: الإيمان، ﴿وأقرَضُوا اللهَ﴾ ـ راجعٌ إلى الذكور والإناث بالتغليب، وعُطفَ الفِعل على الاسم في صِلة «أل» لأنه فيها حلّ محلّ الفِعل، وذِكرُ القرض بوصفه بعد التصدّق تقييد له ـ ﴿قَرضًا حَسَنًا يُضاعَفُ﴾، وفي قراءة: «يُضعَّفُ» بالتشديد، أي: قَرضُهم ﴿لَهم، ولَهُم أجرٌ كَرِيمٌ، والَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾: المُبالغون في التصديق، ﴿والشُّهَداءُ عِندَ رَبِّهِم﴾ على المُكذّبين من الأُمم، ﴿لَهُم أجرُهُم ونُورُهُم، والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الدالّةِ على وحدانيّتنا ﴿أُولئِكَ أصحابُ الجَحِيمِ﴾: النار.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿اعلَمُوا أنَّما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهوٌ وزِينةٌ﴾: تزيينٌ، ﴿وتَفاخُرٌ بَينَكُم، وتَكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ﴾ أي: الاشتغالُ فيها ـ وأمّا الطاعات وما يُعين عليها فمن أُمور الآخرة ـ ﴿كَمَثَلِ﴾

قولُهُ: (حَلَّ مَحَلَّ الفِعلِ) لأنَّ معناهُ: الَّذين اصَّدَّقوا أو صَدَّقوا.

قولُهُ: (بَعدَ التَّصَدُّقِ) أي: على القراءَةِ الأولى.

قولُهُ: (تَقييدٌ لَهُ) بالإخلاصِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ وشاميٍّ[١]، إلَّا أنَّه لم ينصب هنا؛ لأنَّهُ خبرُ ﴿إنَّ﴾، وقولُ البيضاويِّ[٢]: غيرَ أنَّه لم يُجزَمْ، سهوُ قلمٍ.

قولُهُ: (أي: قَرضُهُمْ) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿يُضَاعَفُ﴾ مسندٌ إلى ضميرِ المصدرِ، وقيل: مسندٌ إلى: ﴿لهم﴾.

قولُهُ: (في التَّصدِيقِ) أو الصِّدقِ؛ فإنَّهُم آمَنوا وصدَّقوا جميعَ أخبارِ اللهِ ورسلِهِ، أو أولئكَ بمنزلةِ الصِّديقينِ والشُّهداءِ من غيرِ هذهِ الأمَّةِ.

قولُهُ: (أي: الاشتِغَالُ فِيهَا) الأظهرُ: بها، قالَ القاضي[٣]: لمَّا ذكرَ حالَ الفريقينِ في الآخرةِ حقَّرَ أمورَ الدُّنيا؛ أعني: ما لا يُتَوصَّلُ به إلى الفوزِ الآجلِ بأن بيَّنَ أنَّها أمورٌ خاليةٌ قليلةُ النَّفعِ سريعةُ الزَّوالِ؛ لأنَّها لعِبٌ يُتعِبُ النَّاسُ فيه أنفسَهُم جدًّا إتعابَ الصِّبيانِ في الملاعبِ من غيرِ فائدةٍ، ولهوٌ يلهونَ به أنفسَهُم عمَّا يهمُّهُم، وزينةٌ كالملابسِ الحسنةِ، والمراكبِ البهيَّةِ، والمنازلِ الرَّفيعةِ، وتفاخُرٌ بالأنسابِ، وتكاثرٌ بالعددِ والعُدَدِ، ثمَّ قرَّرَ ذلكَ بما بعدَهُ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٨٨).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٨٩).

أي: هي في إعجابها لكم واضمحلالها كمَثَلِ ﴿غَيثٍ﴾: مطرٍ، ﴿أعجَبَ الكُفّارَ﴾: الزُّرّاعَ ﴿نباتُهُ﴾ الناشئُ عنه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يَيبَسُ، ﴿فتراهُ مُصفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطامًا﴾: فُتاتًا يَضمحِلّ بالرياح، ﴿وفي الآخِرةِ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن آثر عليها الدنيا، ﴿ومَغفِرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ﴾ لِمن لم يُؤثر عليها الدنيا، ﴿وما الحَياةُ الدُّنيا﴾: ما التمتّع فيها ﴿إلاّ مَتاعُ الغُرُورِ. سابِقُوا إلَى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُم وجَنّةٍ، عَرضُها كَعَرضِ السَّماءِ والأرضِ﴾، لو وُصلت إحداهما بالأُخرى ـ والعرض: السَّعة ـ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورُسُلِهِ. ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

٢٢ ـ ٢٣ ـ ﴿ما أصابَ مِن مُصِيبةٍ في الأرضِ﴾ بالجدب، ﴿ولا في أنفُسِكُم﴾ كالمرض وفقد الولد، ﴿إلاّ في كِتابٍ﴾ يعني اللوحَ المحفوظ، ﴿مِن قَبلِ أن نَبرَأَها﴾: نخلقها ـ ويقال في النِّعمة كذلك. ﴿إنَّ ذلِكَ علَى اللهِ يَسِيرٌ ـ لِكَيلا﴾، كي: ناصبة للفعل بمعنى «أن»، أي: أخبرَ تعالى بذلك لئلاّ ﴿تأسَوا﴾: تحزنوا ﴿علَى ما فاتَكُم، ولا تفرَحُوا﴾........

قولُهُ: (فِي إِعجَابِهَا) وقلَّةِ جَدواها.

قولُهُ: (واضْمِحْلالِهَا) أي: سُرعةِ انقضائِها.

قولُهُ: (مَطَرٍ) أي: نباتٍ أنبتَهُ الغَيثُ فاستَوى.

قولُهُ: (الزُّرَّاعَ) أو الكافرينَ باللهِ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجاباً، ولأنَّ المؤمنَ إذا رأى مُعجِباً انتقلَ فِكرُهُ إلى قدرةِ صانعِهِ فأُعجِبَ بها، والكافرُ لا يتخطَّى فِكرُهُ عمَّا أحسَّ به، فيستغرِقُ فيه إعجاباً.

قولُهُ: (السَّعَةُ) كقولِهِ: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، أو[1] إذا كانَ العرضُ كذلك فما ظنُّكَ بالطُّولِ.

قولُهُ: (بالجَدْبِ) والعاهةِ.

قولُهُ: (كالمَرَضِ) والآفةِ.

قولُهُ: (يَعنِي اللَّوحَ) أي: إلَّا مكتوبةً في اللَّوحِ مثبتةً في علمِ اللهِ.

قولُهُ: (نَخلُقَهَا) والضَّميرُ للمُصيبةِ، أو للأرضِ، أو للأنفُسِ.

قولُهُ: (أي: أَخبرَ) أو أثبتَ وكتبَ، معلَّلٌ مقدَّرٌ.

قولُهُ تعالى: (﴿عَلَى مَا فَاتَكُم﴾) من نعمِ الدُّنيا، أو مطلقاً، فإنَّ من علمَ أنَّ الكلَّ مقدَّرٌ هانَ عليهِ الأمرُ، وفي الحديثِ: «مَا أصابَكَ لمْ يكنْ ليخطِئَكَ، وما أخطأَكَ لمْ يكنْ ليصيبَكَ»[2]،........

---

(١) في (م): «و».

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢٧) من حديث =

فرحَ بطرٍ بل فرحَ شُكر على النِّعمة ﴿بِما آتاكُم﴾، بالمدّ: أعطاكم، وبالقصر: جاءكم منه. ﴿واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ﴾: متكبّر بما أُوتي ﴿فَخُورٍ﴾ به على الناس، ٢٤ ـ ﴿الَّذِينَ يَبخَلُونَ﴾ بما يجب عليهم ﴿ويأمُرُونَ النّاسَ بِالبُخلِ﴾ به لهم وعيد شديد، ﴿ومَن يَتَوَلَّ﴾ عمّا يجب عليه ﴿فإنَّ اللهَ هُوَ﴾ ـ ضمير فصل، وفي قراءة بسقوطه ـ ﴿الغَنِيُّ﴾ عن غيره ﴿الحَمِيدُ﴾ لِأوليائه.

٢٥ ـ ﴿لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا﴾: الملائكةَ إلى الأنبياء ﴿بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج القواطع، ﴿وأنزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ﴾ بمعنى الكُتب ﴿والمِيزانَ﴾: العدل، ﴿لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسطِ، وأنزَلْنا الحَدِيدَ﴾: أخرجْناه من المعادن، ﴿فِيهِ بأسٌ شَدِيدٌ﴾ يُقاتَل به ﴿ومَنافِعُ لِلناسِ، ولِيَعلَمَ اللهُ﴾......................

وورد: «مَا شاءَ اللهُ كانَ، ومَا لمْ يشَأْ لمْ يكُنْ»(١).

قولُهُ: (وبالقَصرِ) بصريٌّ(٢) مِن الإتيان ليعادِلَ ما فاتَكُم، والمرادُ به: نفيُ الأسى المانعِ عن التَّسليمِ لأمرِ اللهِ، والفرحِ الموجبِ للبَطرِ والاختيالِ، وإلَّا فهُما مطبُوعانِ في جبلَّةِ الإنسانِ، وقلَّ من يُثبِّتُ نفسَهُ حالَي الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ.

قولُهُ: (بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم) قيل: البخيلُ مَن يرى لنفسِهِ ملكاً.

قولُهُ: (لَهُم وَعِيدٌ) أشارَ إلى أنَّ الموصولَ مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، والأظهرُ: أنَّه بدلُ بعضٍ مِن كلٍّ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ(٣).

قولُهُ: (إِلَى الأَنبِيَاءِ) أو الأنبياءَ إلى الأممِ.

قولُهُ: (بالحُجَجِ) والمعجزاتِ.

قولُهُ: (الكُتُبِ) يعني: المرادُ به الجنسُ، أو معَ كلِّ واحدٍ منهم؛ ليبيِّنَ الحقَّ ويميِّزَ صوابَ العملِ.

قولُهُ: (العَدْلَ) يُقامُ به السِّياسةُ، ويُدفَعُ به الأعداءُ، أو المرادُ: الميزانُ المعروفُ؛ ليسوِّي به الحقوقَ، ويُقامَ به العدلُ، وإنزالُهُ إنزالُ أسبابِهِ، أو الأمرُ، أو الإلهامُ بإعدادِهِ، وقيل: أنزلَ الميزانَ إلى نوحٍ.

قولُهُ: (يُقَاتَلُ بِهِ) فإنَّ آلاتِ الحروبِ متَّخذةٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾) إذ ما مِن صنعةٍ إلَّا والحديدُ آلتُها.

= زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(١) هو طرف من حديث رواه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٧٥٦) عن إحدى بنات النبي ﷺ مرفوعاً.

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر المصدر السابق.

عِلمَ مُشاهدة ـ معطوفٌ على «ليقوم الناس» ـ ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ بأن ينصر دِينَه بآلات الحرب من الحديد وغيره، ﴿ورُسُلَهُ بِالغَيبِ﴾: حال من هاء «ينصره»، أي: غائبًا عنهم في الدنيا. قال ابن عبّاس: ينصرونه ولا يُبصرونه. ﴿إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: لا حاجة به إلى النُّصرة، لكنها تنفع مَن يأتي بها.

٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهِيمَ، وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكِتابَ﴾ يعني الكُتبَ الأربعة: التوراةَ والإنجيل والزبور والفُرقان، فإنها في ذُرّيّة إبراهيم ـ ﴿فمِنهُم مُهتَدٍ، وكَثِيرٌ مِنهُم فاسِقُونَ ـ ثُمَّ قَفَّينا علَى آثارِهِم بِرُسُلِنا، وقَفَّينا بِعِيسَى بنِ مَريَمَ وآتيناهُ الإنجِيلَ، وجَعَلْنا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رأفَةً ورَحْمةً ورَهبانِيَّةً﴾ هي رفضُ النساء واتّخاذُ الصوامع،..........

قولُهُ: (عَلَى: ﴿لِيَقُومَ﴾) فيه أنَّه يصيرُ التَّقديرُ: أنزَلنا ليعلمَ اللهُ، وقد سبقَهُ البغويُّ[١] في ذلك، ولعلَّهُ من بابِ الالتفاتِ، وقالَ القاضي[٢]: اللَّامُ صلةٌ لمحذوفٍ؛ أي: أنزلَهُ ليعلمَ اللهُ.

قولُهُ: (بآلاتِ الحَربِ) أي: باستِعمَالِها في مجاهَدةِ الكفَّارِ.

قولُهُ: (مِنْ هَاءِ: ﴿يَنْصُرُهُ﴾) أو مِن مُستكنِّهِ.

قولُهُ: (لا حَاجَةَ بِهِ) الصَّوابُ: له.

قولُهُ: (تَنفَعُ) دُنيا وأخرى.

قولُهُ: (فَإنَّهَا) أي: الأربعةَ.

قولُهُ: (في ذُرِّيَّةِ إبرَاهِيمَ) وهو من ذرِّيَّةِ نوحٍ.

قولُهُ تعالى: (﴿فَمِنْهُم﴾) أي: من الذُّرِّيَّةِ، وقولُهُ: (﴿عَلَى آثَارِهِم﴾) الضَّميرُ لنوحٍ وإبراهيمَ ومَن أُرسِلا إليهم، أو مَن عاصرَهُما من الرُّسُلِ، لا للذُّرِّيَّةِ، فإنَّ الرُّسُلَ المقفَّى بهم من الذُّرِّيَّةِ، والمعنى: أرسَلنا رسولًا بعدَ رسولٍ حتَّى انتهى إلى عيسى.

قولُهُ: (واتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ) أي: رهبانيَّةً مبتدَعةً على أنَّها من المجعُولاتِ، أو ابتدَعوا رهبانيَّةً مبتدعةً ابتدعُوها، وهي المبالغةُ في العبادةِ والرِّياضةِ والانقطاعِ عن النَّاسِ، منسوبةٌ إلى: الرَّهبانِ[٣]، وهو المبالغُ في الخوفِ مِن: رَهِبَ، وقُرِئَت بالضَّمِّ[٤]، كأنَّها[٥] منسوبةٌ إلى: الرُّهبانِ، جمعُ راهبٍ.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٣٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩٠).

(٣) في (م): «الترهب».

(٤) أي: (ورُهبانية) وهي قراءة شاذة، ونسبت لمبشر بن عبيد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٦٥).

(٥) في (م): «لأنها».

﴿ابتَدَعُوها﴾ مِن قِبَلِ أنفُسهم، ﴿ما كَتَبْناها علَيهِم﴾: ما أمرناهم بها، ﴿إلاّ﴾: لكن فعلوها ﴿ابتِغاءَ رِضْوانِ﴾: مرضاةِ ﴿اللهِ، فما رَعَوها حَقَّ رِعايتِها﴾ إذ تركها كثير منهم، وكفروا بدِين عيسى ودخلوا في دِين مَلِكهم، وبقي على دِين عِيسَى كثير منهم فآمنوا بنبيّنا، ﴿فآتَينا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به ﴿مِنهُم أجرَهُم. وكَثِيرٌ مِنهُم فاسِقُونَ﴾.

٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعِيسَى، ﴿اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا برَسُولِهِ﴾ مُحمّد ـ صلّى الله عليه وعلى عيسى وسلّم ـ ﴿يُؤتِكُم كِفلَينِ﴾: نصيبَينِ ﴿مِن رَحْمتِهِ﴾ لإيمانكم بالنبيَّين، ﴿ويَجعَلْ لَكُم نُورًا تَمشُونَ بِهِ﴾ على الصراط، ﴿ويَغفِرْ لَكُم ـ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ لِئَلاَّ يَعلَمَ﴾، أي: أعلَمَكم بذلك ليعلمَ ﴿أهلُ الكِتابِ﴾: ....

قولُهُ: (مَا أَمَرْنَاهُم بهَا) أو: ما فرَضْناها عليهِم.

قولُهُ: (لَكِنْ) يعني: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكنَّهُم ابتدَعوها.

قولُهُ: (إذ تَرَكَهَا كَثِيرٌ) أي: ما رَعَوها جميعاً، بضمِّ التَّثليثِ، والقولِ بالاتِّحادِ، وقصدِ السُّمعةِ والكفرِ بمحمَّدٍ ﷺ ونحوِها إلى ما ذُكِرَ من الرَّهبانيَّةِ.

قولُهُ: (بِعِيسَى) أو بالرُّسلِ المتقدِّمةِ.

قولُهُ: (بالنَّبِيِّينَ) أو بمحمَّدٍ ومن قبلَهُ، ولا يبعدُ أن يُثابوا على دينِهِمُ السَّابقِ، وإن كانَ منسُوخاً ببركةِ الإسلامِ، وقيل: الخطابُ للنَّصارى الَّذين كانوا في عصرِهِ ﷺ الثَّابتينَ على دينِ عيسى عليهِ السَّلامُ.

قولُهُ: (عَلى الصِّرَاطِ) يريدُ المذكورَ في قولِهِ: ﴿يَسْعَى نُورُهُم﴾، أو الهدى الَّذي يُسلَكُ به إلى جَنابِ القدسِ.

قولُهُ: (لِيَعْلَمَ) وقُرِئَ به[1]، ولكي يَعلمَ، ولأنْ يعلمَ، فـ«لا» مزيدةٌ، والمعنى: ليعلمَ أهلُ الكتابِ عجزَهُم، وأمَّا قولُ البيضاويِّ[2] في قولِهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ أي: أن تسجُدَ[3]، و(لا) صلةٌ مثلُهَا في قولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] مؤكِّدةٌ معنى الفعلِ الَّذي دخلَتْ عليهِ، ففيهِ أنَّ (لا) هي النَّافيةُ، فإذا كانَتْ زائدةً لا يوجدُ نفيٌ حتَّى تؤكِّدَهُ مع أنَّه لا معنى لقولِهِ: (لا) يؤكِّدُ معنى الفعلِ الَّذي

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت للحسن، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٦٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٧).

(٣) في الأصول زيادة: «كما في ص» وهي خطأ فآية ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] وليس فيها (لا).

التوراةِ الذين لم يُؤمنوا بمُحمّد ﷺ ﴿أنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، والمعنى: أنّهم ﴿لا يَقدِرُونَ علَى شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ﴾، خِلافُ ما في زعمهم أنهم أحبّاءُ الله وأهل رِضوانه، ﴿وأنَّ الفَضلَ بِيَدِ اللهِ، يُؤتِيهِ﴾: يُعطيه ﴿مَن يَشاءُ﴾. فآتى المُؤمنين منهم أجرهم مرّتين، كما تقدّم. ﴿واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

دخلَتْ، عليه نعم، قيل هذا في لَن لا في: (لا)، وقيل: ليست زائدةً، والمعنى: لئلَّا يعلَمَ أهلُ الكتابِ عجزَ المؤمنينَ، والأظهرُ أن يُقالَ: لئلَّا يعلمَ أهلُ الكتابِ عدمَ قدرتِهم فيكونَ تسجيلاً عليهِم بالجهلِ، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (التَّورَاةِ) أو مطلقاً، واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ الحَدِيدِ

أخرج جماعةٌ عن ابن عباس أنَّها نزلَت بالمدينة[1]، وقال النقاشُ وغيرُه: هي مدنية بإجماع المفسِّرين[2]. ولم يُسلَّم له، فقد قال قومٌ: إنَّها مكية، نعم الجمهورُ ـ كما قال ابن الفرس ـ على ذلك.

وقال ابن عطية: لا خلافَ أنَّ فيها قرآناً مدنيًّا، لكن يُشبه أنْ يكونَ صدرُها مكيًّا[3]. ويشهدُ لهذا ما أخرجه البزار في «مسنده» والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي وابن عساكر عن عمر رضي الله عنه أنَّه دخل على أخته قبل أنْ يُسلم فإذا صحيفةٌ فيها أولُ سورة الحديد فقرأه حتى بلغ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فأسلم[4].

ويشهد لمكية آيات أُخَرَ ما أخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرُهم عن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أنْ عاتبنا الله تعالى بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربعُ سنين[5].

---

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٣-٣٤، والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٢١٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٦.

(٤) كشف الأستار (٢٤٩٣)، والدلائل للبيهقي ٧/ ٢١٧، وتاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢، وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/ ٢٨٦، وعزاه للطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٦٤: وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

(٥) صحيح مسلم (٣٠٢٧)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٥٠٤)، وهو عند ابن ماجه من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وينظر التعليق الذي بعده.

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وغيرُهما عن عبد الله بن الزبير أنَّ ابن مسعود أخبره أنَّه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يُعاتبهم الله تعالى بها إلا أربعُ سنين: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾[1] الآية، لكن سيأتي إن شاء الله تعالى آثارٌ تدلُّ على مدنيَّة ما ذُكِر، ولعلَّها لا تصلحُ للمعارضة.

ونزلت يومَ الثلاثاء على ما أخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً: «لا تحتَجِمُوا يوم الثلاثاء، فإنَّ سورةَ الحديد أُنزِلَت عليَّ يوم الثلاثاء»[2]. وفيه أيضاً خبرٌ رواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف[3].

وهي تسعٌ وعشرون آية في العراقي، وثمان وعشرون في غيره.

ووجهُ اتصالها بالواقعة أنَّها بُدِئَت بذكر التسبيح، وتلك خُتِمت بالأمر به، وكان أولُها واقعاً موقعَ العلَّة للأمر به، فكأنه قيل: سبِّحْ باسم ربِّكَ العظيمِ؛ لأنَّه سبَّحَ له ما في السماوات والأرض.

وجاء في فضلها مع أخواتها ما أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن عِرْباض بن سارية أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ المسبِّحات قبل أنْ يرقُدَ، وقال: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألف آيةٍ»[4].

---

(١) المعجم الكبير (٩٧٧٣)، والمستدرك ٢/ ٤٧٩، وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٢) من طريق عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه أخبره أنه لم يكن... إلخ، ولم يذكر ابن مسعود.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب (٧٣٩٥)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٣)، وفي إسناده عمر بن موسى الوجيهي، قال يحيى: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال ابن عدي: هو في عداد من يضع الحديث متناً وإسناداً.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٧٠، وعزاه للطبراني أيضاً الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٩٣ وقال: فيه مسلمة بن علي الخشني، وهو ضعيف، وسلف الكلام على أحاديث ذِكرِ الأيام ص٢٠١ وما بعد من هذا الجزء.

(٤) المسند (١٧١٦٠)، وسنن أبي داود (٥٠٥٧)، وسنن الترمذي (٢٩٢١)، وسنن النسائي الكبرى (٧٩٧٢)، وشعب الإيمان (٢٥٠٣)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠.

وأخرج ابن الضريس نحوه عن يحيى بن أبي كثير، ثم قال: قال يحيى: نراها الآية التي في آخر «الحشر»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ التسبيحُ على المشهور: تنزيهُ الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليقُ بجنابه سبحانه، مِن سبح في الأرض والماءِ: إذا ذهب وأَبْعَدَ فيهما، وحيث أسند هاهنا إلى غير العقلاء أيضاً فإنَّ «ما في السماوات والأرض» يعمُّ جميعَ ما فيهما سواء كان مستقرًّا فيهما أو جزءاً منهما. بل المرادُ بما فيهما الموجوداتُ، فيكونُ أظهرَ في تناول السماوات والأرض، ويتناول أيضاً الموجوداتِ المجرَّدةَ عند القائل بها.

قال الجمهور: المرادُ به معنًى عامٌّ مجازيٌّ شاملٌ لِمَا نَطَق به لسانُ المقال، كتسبيح الملائكةِ والمؤمنين من الثقلين، ولسان الحال كتسبيح غيرِهم، فإنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الموجوداتِ يدلُّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديمِ الواجبِ الوجود، المتَّصفِ بكلِّ كمال، المنزَّهِ عن كلِّ نقص.

وذهب بعضٌ إلى أنَّ التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع، وهو مبنيٌّ على ثبوت النفوس الناطقة والإدراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكلٍّ، وقد صرَّح به جمعٌ من الصوفية، فتسبيح كلِّ شيءٍ عندهم قاليٌّ وإنْ تفاوت الأمر.

وقيل: معنى «سبَّح»: حَمَلَ رائيه العاقل على قول: سبحان الله تعالى، وَنَبَّهَهُ عليه. وهو كما ترى.

ومَن يجوِّز استعمالَ اللفظ في حقيقته ومجازه معاً لا يحتاج إلى عموم المجاز.

وجوَّز الطبرسي كون «ما» للعالم فقط، مثلُها في قول أهل الحجاز ـ كما حكى

(١) فضائل القرآن لابن الضريس (٢٢٩)، وهو مرسل.

أبو زيد ـ عند سماع الرعد: سبحان ما سبحت له[1]. ولا يخفى أنَّ عمومَها العالم وغيرَه أولَى.

والظاهرُ أنَّها في الوجهَين موصولةٌ.

وقال بعضُهم: إنَّها نكرةٌ موصوفةٌ، وأنَّ أصل الكلام: ما في السماوات وما في الأرض، ثم حُذِفت «ما» الثانية وأقيمَت صفتُها مقامها، ولا يحسُن أن تكون موصولةً لأنَّ الصِّلةَ لا تقوم مقامَ الموصولِ عند البصريين، وتقومُ الصفةُ مقام الموصوفِ عند الجميع، والحملُ على المتفق عليه أَولَى من الحمل على المختلف فيه، وكونُ المذكورة موصولةً والمحذوفة نكرةً موصوفةً مما لا وجه له. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ حذْفَ الموصول الصريح في مثل ذلك أكثرُ من أن يُحصَى.

وجيءَ باللام مع أنَّ التسبيح متعدٌّ بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] للتأكيد، فهي مزيدةٌ لذلك كما في: نصحتُ لهُ وشكرتُ له.

وقيل: للتعليل والفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: فَعَل التسبيح وأوقَعَه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه. وفيه شيءٌ لا يخفَى.

وعبَّر بالماضي هنا وفي بعض الأخوات، وبالمضارع في البعض الآخر إيذاناً بتحقُّق التسبيح في جميع الأوقات، وفي كلٍّ دلالةٌ على أنَّ مِن شأن ما أُسنِدَ إليه التسبيحُ أنْ يُسبِّحَه، وذلك هجِّيْرَاه[2] ودَيدنه، أما دلالةُ المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الإخبار، وكذلك فيما يأتي من الزمان؛ لعموم المعنى المقتضي للتسبيح، وصلوحِ اللفظ لذلك، حيث جُرِّد عن الدلالة على الزمان وأُوثِرَ على الاسم دلالة على تجدُّد تسبيحٍ غِبَّ تسبيح، وأما دلالة الماضي فللتَّجرُّد عن الزمان أيضاً مع التحقيق الذي هو مقتضاه، فيشملُ الماضي من الزمان ومستقبله كذلك.

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٣٧.
(٢) أي: دأبه.

وقيل: الإيذانُ والدلالةُ على الاستمرار مستفادان من مجموعي الماضي والمضارع، حيث دلَّ الماضي على الاستمرار إلى زمان الإخبار، والمضارع على الاستمرار في الحال والاستقبال، فشملا معاً جميعَ الأزمنةِ.

وقال الطيبي: افتُتِحَت بعضُ السور بلفظ المصدر وبعضٌ بالماضي وبعضٌ بالمضارع وبعضٌ بالأمر فاستوعبَ جميعَ جهات هذه الكلمة، إعلاماً بأنَّ المكوَّنات من لدُن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مُسبِّحةٌ مقدَّسةٌ لذاته سبحانه وتعالى قولاً وفعلاً طوعاً وكرهاً ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الغالبُ الذي لا ينازعه ولا يمانعُه شيءٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحةُ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، مشعرٌ بعلَّة الحكم، وكذا قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي التصرُّف الكلِّي فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجادُ والإعدامُ وسائرُ التصرُّفات.

وقوله سبحانه: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يفعلُ الإحياءَ والإماتةَ، استئنافٌ مبيِّنٌ لبعض أحكام الملك، وإذا جُعل خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو يحيي ويميت، كانت تلك الجملةُ كذلك، وجعلُه حالاً من ضمير «له» يُوهم تقييدَ اختصاصِ الملك بهذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغٌ في القدرة، تذييلٌ وتكميل لِمَا قبله.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابقُ على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجودٌ قبلَ كلِّ شيءٍ حتى الزمان؛ لأنَّه جل وعلا الموجِدُ والمحدِثُ للموجودات.

﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقةً أو نظراً إلى ذاتها مع قَطْع النظر عن مبقيها، فإنَّ جميع الموجودات الممكنة إذا قُطِع النظرُ عن علَّتها فهي فانية.

ومن هنا قال ابن سينا: الممكنُ في حدِّ ذاته ليس، وهو عن عِلَّته أَيْس. فلا ينافي هذا كون بعضِ الموجوداتِ الممكنة لا تفنَى كالجنة والنار ومَن فيهما كما هو مقرَّر مبيَّنٌ بالآيات والأحاديث؛ لأنَّ فناءها في حدِّ ذاتها أمرٌ لا ينفكُّ

عنها، وقد يقال: فناءُ كلِّ ممكنٍ بالفعل ليس بمشاهد، والذي يدلُّ عليه الدليل إنما هو إمكانه، فالبعدية في مثله بحسب التصوُّر والتقدير.

وقيل: هو «الأول» الذي تبتدِئ منه الأسباب، إذ هو سبحانه مسبِّبُها، و«الآخرُ» الذي تنتهي إليه المسبَّبات، فالأولية ذاتية والآخِريَّة بمعنى أنَّه تعالى إليه المرجع والمصيرُ، بقَطْع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة.

وقيل: «الأولُ» خارجاً لأنَّه تعالى أوجدَ الأشياء، فهو سبحانَه متقدِّمٌ عليها في نفس الأمر الخارجي، و«الآخر» ذهناً وبحسب التعلُّق لأنَّه عز شأنه يُستَدَلُّ عليه بالموجودات الدالةِ على الصانع القديمِ، كما قيل: ما رأيتُ شيئاً إلا رأيتُ الله تعالى بعدَه.

وقال حُجَّة الإسلام الغزاليُّ: إنَّ «الأول» يكون أولاً بالإضافة إلى شيء، و«الآخر» يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان فلا يتصوَّر أن يكونَ الشيءُ الواحد من وجهٍ واحدٍ بالإضافة إلى شيء واحدٍ أولاً وآخراً جميعاً، بل إذا نظرتَ إلى ترتيب الوجودِ ولاحظتَ سلسلةَ الموجوداتِ المترتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذ كلُّها استفادَت الوجودَ منه سبحانه، وأما هو عز وجل فموجودٌ بذاته، وما استفادَ الوجودَ من غيره، سبحانه وتعالى عن ذلك، ومهما نظرتَ إلى ترتيب السلوك ولاحظتَ منازلَ السالكين فهو تعالى آخرٌ، إذ هو آخرُ ما ترتقي إليه درجاتُ العارفين، وكلُّ معرفةٍ تحصل قبلَ معرفته تعالى فهي مرقاة إلى معرفته جل وعلا، والمَنْزِلُ الأقصى هو معرفةُ الله جل جلاله، فهو سبحانه بالإضافة إلى السلوك آخرٌ، وبالإضافة إلى الوجود أَوَّل، فمنه عز شأنه المبتدأ أولاً وإليه سبحانه المرجع والمصير آخراً[(١)]. انتهى.

والظاهرُ أنَّ كونَه تعالى أولاً وآخراً بالنسبة إلى الموجودات أَولَى، ولعلَّ ما ذكره أوفقُ[(٢)] بمشرب القوم.

---

(١) المقصد الأسنى ص١٣٥-١٣٦.

(٢) في الأصل: أرفق.

﴿وَٱلظَّـٰهِرُ﴾ أي: بوجوده؛ لأنَّ كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهرٌ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ بكُنْهِهِ سبحانه فلا تحومُ حولَه العقولُ.

وقال حجة الإسلام: هذان الوصفان من المضافات، فلا يكونُ الشيء ظاهراً لشيء وباطناً له من وجهٍ واحد، بل يكون ظاهراً من وجهٍ بالإضافة إلى إدراك، وباطناً من وجهٍ آخرَ، فإنَّ الظهورَ والبطونَ إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله تعالى باطنٌ إنْ طُلِبَ من إدراك الحواسِّ وخِزانة الخيال، ظاهرٌ إنْ طُلب من خزانة العقل بالاستدلال، والرَّيب من شدَّة الظهور، وكلُّ ما جاوز الحدَّ انعكسَ إلى الضدِّ[1].

وإلى تفسير الباطن بغير المدرَك بالحواسِّ ذهب الزمخشري، ثم قال: إنَّ الواوَ الأُولى لعطف المفرَد على المفرد، فتفيدُ أنَّه تعالى الجامعُ بين الصفتَين الأوَّلية والآخريَّة، والأخيرة أيضاً كذلك، فتفيدُ أنَّه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فلعطف المركَّب على المركَّب، فتفيدُ أنَّه جل وعلا الجامعُ بين مجموع الصفتَين الأُولَيَيْن ومجموعِ الصفتَين الأُخْرَيَين، فهو تعالى المستمرُّ الوجودِ في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو تعالى في جميعها ظاهرٌ وباطنٌ جامعٌ للظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرَك بالحواسِّ، وفي هذا حجة على مَن جوَّز إدراكه سبحانه في الآخرة بالحاسَّة[2]، أي: وذلك لأنَّه تعالى ما مِن وقتٍ يصحُّ اتِّصافُه بالأَولية والآخرية إلا ويصحُّ اتصافُه بالظاهرية والباطنية معاً، فإذا جوَّز إدراكه سبحانه بالحاسَّة في الآخرة، فقد نُفي كونه سبحانه باطناً، وهو خلاف ما تدل عليه الآية.

وأجاب عن ذلك صاحب «الكشف» فقال: إنَّ تفسيرَ الباطن بأنَّه غيرُ مدرَكٍ بالحواسِّ تفسيرٌ بحسب التشهِّي، فإنَّ بُطونَه تعالى عن إدراك العقولِ كبطونه عن إدراك الحواسِّ؛ لأنَّ حقيقةَ الذات غيرُ مدرَكةٍ لا عقلاً ولا حسًّا باتفاقٍ بين المحقِّقين من الطائفتَين، والزمخشريُّ ممن سلَّم، فهو الظاهرُ بوجوده والباطنُ

---

(١) المقصد الأسنى ص١٣٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه.

بكنهه، وهو سبحانه الجامعُ بين الوصفَين أزلاً وأبداً، وهذا لا ينافي الرؤيةَ، لأنَّها لا تفيدُ ذلك عند مثبتيها[١]. انتهى، وهو حسَنٌ فلا تغفل.

وعليه فالتذليل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لئلا يُتوَهَّم أنَّ بطونَه تعالى عن الأشياء يستلزمُ بطونَها عنه عز وجل كما في الشاهد.

وقال الأزهريُّ: قد يكونُ الظاهرُ والباطنُ بمعنى العالم لِمَا ظهرَ وبطَنَ[٢]؛ وذلك أنَّ مَن كان ظاهراً احتجَبَ عنه الباطنُ، ومَن كان باطناً احتجَبَ[٣] عنه الظاهر، فإنْ أردْتَ أنْ تَصِفَه بالعلم قلتَ: هو ظاهرٌ باطنٌ، مثلُه قولُه تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] أي: لا شرقية فقط ولا غربية فقط، ولكنَّها شرقيةٌ غربيةٌ، وفي التذييل المذكور حينئذٍ خفاء.

وقريب منه من وَجْه ما نُقل أنَّ الظاهر بمعنى العالي على كلِّ شيء، الغالب له، من قولهم: ظهر عليهم: إذا علاهم وغلبهم، والباطنُ الذي بطن كلَّ شيء، أي: علم باطنَه.

وتعقِّب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه، وأنَّ «بَطَنَه» بمعنى: عَلِمَ باطنه، غيرُ ثابت في اللغة، لكن قيل: في الآثار ما ينصر تفسيرَ الظاهر بما فسّر؛ أخرج مسلم والترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمةُ رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تسألُه خادماً فقال لها: «قولي: اللهم ربَّ السماوات السبع وربَّ العرش الكريم العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء، مُنزِلَ التوراةِ والإنجيل والفرقان، فالقَ الحبِّ والنوى، أعوذُ بك مِن شرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخذٌ بناصيته، أنت الأولُ فليسَ قبلَك شيءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدَك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيء، اقضِ عنَّا الدَّين وأَغْنِنَا من الفقر»[٤].

---

(١) في (م): مثبتها.

(٢) ينظر تهذيب اللغة ١٣/ ٣٧٤.

(٣) بعدها في الأصل: استتر.

(٤) صحيح مسلم (٢٧١٣)، وسنن الترمذي (٣٤٠٠) و(٣٤٨١)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٦٢-٢٦٣، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٩٣.

وقال الطيبي: المعنيُّ بـ «الظاهر» في التفسير النبوي: الغالب الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب، فيتصرَّف في المكوَّنات على سبيل الغلبة والاستيلاء، إذ ليس فوقه أحدٌ يمنعُه، وبـ «الباطن» مَن لا ملجأ ولا منجَى دونَه يَلتجئ إليه مُلتجِئٌ.

وبُحث فيه بجواز أنْ يكونَ المراد: أنت الظاهرُ فليس فوقك شيءٌ في الظهور، أي: أنت أظهرُ مِن كلِّ شيء، إذ ظهورُ كلِّ شيء بك، وأنت الباطنُ فليس دونك في البطون شيء، أي: أنت أَبْطَنُ من كلِّ شيء، إذ كلُّ شيء يَعلم حقيقتَه غيرُه وهو أنت، وأنت لا يعلمُ حقيقتَك غيرُك، أو لأنَّ كلَّ شيء يمكنُ معرفةُ حقيقته، وأنت لا يمكن أصلاً معرفةُ حقيقتك، وأيضاً في دلالة الباطن على ما قال خفاءٌ جدًّا، على أنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر ما عدَلَ عنه أجلَّةُ العلماء، فإنَّ الخبر صحيح، وقد جاء نحوه من رواية الإمام أحمد وأبي داود وابن ماجه[1]؛ ويَبعُدُ عدمُ وقوفِ أولئك الأجلَّة عليه، وأبعدُ من ذلك أن يكونَ ما ذكره ﷺ من أسمائه تعالى غير ما في الآية.

ويحتمل أنَّه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله: «فليس دونك شيء»: ليس أقرب منك شيءٌ، ويُؤيِّده ما أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» عن مقاتل قال: بلغَنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ إلخ: هو الأولُ قبل كلِّ شيء، والآخرُ بعد كلِّ شيء، والظاهرُ فوق كلِّ شيء، والباطن أقربُ من كلِّ شيء، وإنما يعني القربَ بعِلْمه وقُدرته، وهو فوق عرشِهِ[2]. والذي يترجَّحُ عندي ما ذكر أولاً.

وعن بعض المتصوِّفة أهلِ وحدة الوجود أنَّ المراد بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ إلخ أنَّه لا موجودَ غيرُه تعالى، إذ كلُّ ما يُتصوَّر موجوداً فهو إما أول أو آخر، أو ظاهر أو باطن، فإذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كلُّ ما يُتصوَّر موجوداً هو سبحانه لا غيره، وأيَّدوه بما في حديثٍ مرفوع أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وجماعة عن أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لو أنَّكم دَلَّيتُم بحبل إلى الأرض السُّفلَى لهبط

---

(١) المسند (٨٩٦٠)، وسنن أبي داود (٥٠٥١)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧١) و(٣٨٧٣).

(٢) الأسماء والصفات (٩١٠).

على الله» قال أبو هريرة: ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وحال القول بوحدة الوجود مشهور، وأما الخبر فمن المتشابه، وقد قال فيه الترمذي: فسَّر أهلُ العلم الحديثَ فقالوا: أي لهبَطَ على علم الله تعالى وقُدرته وسلطانه(٢). ويُؤيِّد هذا ذكرُ التذييل وعدمُ اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ما قبله.

وهذه الآية ينبغي لمن وجَدَ في نفسه وسوسَةً فيما يتعلَّق بالله تعالى أنْ يقرأَها، فقد أخرج أبو داود عن أبي زُمَيْل أنَّ ابن عباس قال له وقد أعلمه أنَّ عنده وسوسة في ذلك: إذا وجدْتَ في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الآية(٣).

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عمر وأبي سعيد ﵃ عن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ الناسُ يسألون عن كلِّ شيء حتى يقولوا: هذا الله كانَ قبلَ كلِّ شيء، فماذا كان قبلَ الله؟ فإنْ قالوا لكم ذلك فقولوا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾»(٤).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بيانٌ لبعض أحكام ملكهما، وقد مرَّ تفسيره مراراً.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ مرَّ بيانه في سورة سبأ(٥).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تمثيلٌ لإحاطة علمه تعالى بهم، وتصويرٌ لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل: المعيَّة مجازٌ مرسَل عن العلم بعلاقة السببية،

---

(١) المسند (٨٨٢٨)، وسنن الترمذي (٣٢٩٨)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.
(٢) سنن الترمذي عند الحديث (٣٢٩٨).
(٣) سنن أبي داود (٥١١٠).
(٤) العظمة (١١٧).
(٥) آية رقم (٢).

والقرينة السباق واللحاق مع استحالة الحقيقة، وقد أوَّلَ السلفُ هذه الآية بذلك، أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنَّه قال فيها: عالمٌ بكم أينما كنتم[1]. وأخرج أيضاً عن سفيان الثوري أنَّه سئل عنها فقال: علمُه معكم[2].

وفي «البحر»: أنَّه اجتمعَت الأُمة على هذا التأويل فيها، وأنَّها لا تُحمَل على ظاهرها من المعيَّة بالذات، وهي حُجةٌ على [مَن] مَنَعَ التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل على الظاهر، وقد تأوَّلَ هذه الآيةَ وتَأوَّلَ الحجَرَ الأسود يمين الله في الأرض، ولو اتَّسع عقلُه لتأوَّل غيرَ ذلك مما هو في معناه[3]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ الأسلم تركُ التأويل، فإنَّه قولٌ على الله تعالى من غير علمٍ، ولا نُؤوِّل إلا ما أوَّله السلفُ، ونتَّبعهم فيما كانوا عليه، فإنْ أوَّلوا أوَّلنا، وإن فوَّضوا فوَّضنا، ولا نأخذُ تأويلَهم لشيء سلَّماً لتأويل غيره. وقد رأيتُ بعض الزنادقة الخارجين من رِبْقة الإسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ويسخرون من القرآن الكريم لذلك، وهو جهلٌ فظيع وكفرٌ شنيع، نسألُ الله تعالى العصمةَ والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبارةٌ عن إحاطته بأعمالهم، وتأخيرُ صفةِ العلم الذي هو مِن صفات الذاتِ عن الخلق الذي هو من صفات الأفعال - مع أنَّ صفات الذاتِ متقدِّمةٌ على صفات الأفعال - لِمَا أنَّ المراد الإشارةُ إلى ما يدور عليه الجزاءُ من العلم التابع للمعلوم.

وقيل: لأنَّ[4] الخلق دليلُ العلم، إذ يُستدَل بخلْقِهِ تعالى وإيجادِه سبحانه لمصنوعاتِه المتقَنَة على أنَّه عز وجل عالمٌ، ومن شأن المدلولِ التأخُّرُ عن الدليل لتوقُّفه عليه.

---

(١) لم نقف عليه في الأسماء والصفات، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٤١٢).
(٢) الأسماء والصفات ٢/ ٣٤١ (٩٠٨).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٧، وما بين حاصرتين منه.
(٤) في (م): إن.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تكريرٌ للتأكيد، وتمهيدٌ لقوله سبحانه المُشْعِرِ بالإعادة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه تعالى وحدَه لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً تُرْجَعُ جميعُ الأمور أعراضُها وجواهرُها، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج: «تَرْجِعُ» مبنيًّا للفاعل من رَجَع رجوعاً، وعلى البناء للمفعول ـ كما في قراءة الجمهور ـ هو من رَجَعَ رَجْعاً[1].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ مرَّ تفسيره مراراً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ﴾ أي: مبالغٌ في العلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمكنوناتها اللازمة لها، بيانٌ لإحاطة علمه تعالى بما يُضمرونه من نيَّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يُظهرونها، وجوِّز أن يُراد بـ «بذات الصدور» نفسها وحقيقتها على أنَّ الإحاطةَ بما فيها تُعلم بالأولَى.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلَكم سبحانه خلفاءَ عنه عز وجل في التصرُّف فيه من غير أنْ تملكوه حقيقةً، عبَّر جل شأنه عما بأيديهم من الأموال بذلك تحقيقاً للحقِّ وترغيباً في الإنفاق، فإنَّ من علم أنَّها لله تعالى، وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفُها إلى ما عيَّنه الله تعالى من المصارف، هانَ عليه الإنفاق.

أو: جعلكم خلفاء عمَّن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم، وفيه أيضاً ترغيبٌ في الإنفاق وتسهيلٌ له؛ لأنَّ مَن علم أنَّه لم يبقَ لمن قبلَه وانتقل إليه علم أنَّه لا يدومُ له وينتقل لغيره، فيسهلُ عليه إخراجُه ويرغبُ في كسب الأجر بإنفاقه. ويكفيكَ قولُ الناسِ فيما ملَكْتَه: لقد كان هذا مرَّةً لفلانٍ. وفي الحديث: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبسْتَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ»[2].

---

(١) البحر ٨/ ٢١٧، والقراءة بالبناء للفاعل من القراءات المتواترة قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما في التيسير ص٨٠، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥) و(١٦٣٠٦)، ومسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ.

والمعنى الأول هو المناسب لقوله تعالى: (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وعليه ما حكي أنَّه قيل لأعرابي: لِمَن هذه الإبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي. ويميلُ إليه قول القائل:

وما المالُ والأهلون إلا ودائعٌ ولا بدَّ يوماً أنْ تُردَّ الودائعُ[1]

والآية على ما روي عن الضحاك نزلَت في تبوك[2]، فلا تغفل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ حسبما أُمِرُوا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعدٌ فيه من المبالغات ما لا يخفَى، حيث جعَلَ الجملةَ اسميةً، وكان الظاهر أن تكون فعليةً في جواب الأمر، بأنْ يقال مثلاً: آمِنُوا بالله ورسوله وأنفِقُوا تُعطَوا أجراً كبيراً، وأُعيدَ ذكر الإيمان والإنفاق دون أنْ يقال: فمَنْ يفعل ذلك فله أجرٌ كبير، وعدل عن: فللذين آمَنوا منكم وأنفقوا أجرٌ، إلى ما في النظم الكريم، وفُخِّم الأجرُ بالتنكير، ووُصِف بالكبير.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئنافٌ قيل: مسوقٌ لتوبيخهم على ترك الإيمان حسبما أُمِرُوا به، بإنكار أنْ يكون لهم في ذلك عُذرٌ ما في الجملة، على أنَّ «لا تؤمنون» حالٌ من ضمير «لكم» والعامل ما فيه من معنى الاستقرار، أي: أيُّ شيء حصَلَ لكم غيرَ مؤمنين، على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقُّق المسبَّب، وهو مضمون الجملة الحالية أعني عدمَ الإيمان، فـ «أيُّ» لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وقد يتوجَّه الإنكار والنفي في مثل هذا التركيبِ لسبب الوقوعِ، فيسريان إلى المسبَّب أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾ إلخ [يس: ٢٢]، ولا يمكن إجراءُ ذلك هنا لتحقُّق عدمِ الإيمان، وهذا المعنى مما لا غبار عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ حالٌ من ضمير «لا تؤمنون» مفيدةٌ - على ما قيل - لتوبيخهم على الكفر مع تحقُّق ما يوجبُ عدمه بعد توبيخهم

---

(١) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٧٠، وسلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الأنعام.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٨.

عليه مع عدم ما يوجبُه، ولام «لتؤمنوا» صلة «يدعو» وهو يتعدَّى بها وبـ : «إلى»، أي: وأيُّ عذر في ترك الإيمان والرسولُ يدعوكم إليه وينبهكم عليه. وجوَّز أنْ تكون اللامُ تعليليةً.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حالٌ من فاعل «يدعوكم» أو من مفعوله، أي: وقد أخذ الله ميثاقَكم بالإيمان من قبل، كما يُشعرُ به تخالفُ الفعلَين مضارعاً وماضياً. وجوِّز كونه حالاً معطوفةً على الحال قبلها، فالجملةُ حالٌ بعد حال من ضمير «تؤمنون»، والتخالفُ بالاسمية والفعلية يُبعدُ ذلك في الجملة.

وأيَّامّا كان فأخذُ الميثاق إشارةٌ إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والأنفُسية والتمكينِ من النظر، فقوله تعالى: (وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ) إشارةٌ إلى الدليل السمعي، وهذا إشارةٌ إلى الدليل العقليِّ، وفي التقديم والتأخير ما يؤيِّدُ القولَ بشرف السمعيِّ على العقليِّ.

وقال البغوي: هو ما كان حين أخرجَهم من ظهر آدمَ وأشهدَهم بأنَّه سبحانه ربُّهم فشهدوا(١). وعليه لا مجاز.

والأول اختيارُ الزمخشري(٢)، وتعقَّبه ابنُ المنيِّر فقال: لا عليه أنْ يحمل العهدَ على حقيقته، وهو المأخوذُ يومَ الذرِّ، وكلُّ ما أجازه العقلُ وورَدَ به الشرعُ وجبَ الإيمان به(٣). وروي ذلك عن مجاهد وعطاء والكلبي ومقاتل، وضعفه الإمام بأنَّ المرادَ إلزامُ المخاطبين الإيمانَ، ونَفْيُ أنْ يكونَ لهم عذرٌ في تركه، وهم لا يعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول، فقَبْل التصديق بالرسول لا يكون سبباً لإلزامهم الإيمان به(٤).

وقال الطيبي: يمكنُ أن يقال: إنَّ الضميرَ في «أَخَذ» إن كان لله تعالى فالمناسبُ أن يُراد بالميثاق ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٢.
(٣) الانتصاف ٤/ ٦٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢١٧.

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة:٣٨] إلخ لأنَّ المعنى: فإما يأتينَّكم منِّي هدًى برسولٍ أبعثُه إليكم وكتابٍ أُنزله عليكم. ويدلُّ على الأول قوله سبحانه: (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا) وعلى الثاني: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ) إلخ، وإن كان للرسول ﷺ فالظاهرُ أنْ يُراد به ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] على أنْ يُضافَ الميثاقُ إلى النبيِّين إضافتَه إلى المُوثق لا المُوثق عليه، أي: الميثاق الذي وثَّقه الأنبياءُ على أممهم، وهو الوجه لأنَّ الخطاب مع الصحابة ﷺ كما يدلُّ عليه ما بعد، ولعل الميثاقَ نحو ما روينا عن الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت: بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمع والطاعة في النشاط والكَسَل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقولَ في الله تعالى ولا نخاف لومةَ لائم(١). انتهى.

ويضعَّف الأول بنحو ما ضعَّف به الإمام حملَ العهد على ما كان يوم الذرِّ، وضَعْفُ الثاني أظهرُ من أنْ ينبَّه عليه.

والخطاب قال صاحب «الكشف»: عامٌّ يوبِّخُ مَن لم يؤمن منهم بعدم الإيمان، ثم مَن آمن بعدم الإنفاق في سبيله، وكلامُ أبي حيان ظاهرٌ في أنَّه للمؤمنين، وجَعَل «آمنوا» أمراً بالثبات على الإيمان ودوامه «وما لكم لا تؤمنون» إلخ على معنى: كيف لا تَثبتُون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة(٢).

وظاهرُ كلام بعضهم كونُه للكفرة، وهو الذي أشرنا إليه من قبل، ولعلَّ ما ذكره صاحب «الكشف» أولَى، إلا أنَّه قيل عليه: إنَّ «آمنوا» إذا كان خطاباً للمتَّصفين بالإيمان ولغير المتَّصفين به يلزمُ استعمال الأمر في طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين، وفي طلب الثبات نظراً للمتصفين، وفيه ما فيه، ويحتاج في التفصِّي عن ذلك إلى إرادة معنًى عامٍّ للأمرَين.

---

(١) المسند (٢٢٦٧٩) و(٢٢٧٧٠).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٨.

وقد يقال: أراد أنَّه عَمَد إلى جماعة مختلفين في الأحوال فأُمِرُوا بأوامرَ شتَّى، وخُوطبوا بخطابات متعدِّدة، فتوجَّه كلُّ أمرٍ وكل خطاب إلى مَن يليق به، وهذا كما يقولُ الوالي لأهل بلده: أذِّنوا وصلُّوا ودَرِّسوا، وأنفقُوا على الفقراء، وأَوفُوا الكيلَ والميزانَ، إلى غير ذلك، فإنَّ كلَّ أمر ينصرفُ إلى مَن يليقُ به منهم، فتأمل.

وقرئ: «وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله»[١].

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكم» بالبناء للمفعول ورفع «ميثاقُكم»[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ جوابُه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبل، والمعنى: إن كنتم مؤمنين لموجب مّا فهذا مُوجبٌ لا مُوجبَ وراءَه، وجوِّز أن يكونَ المرادُ: إن كنتم ممن يؤمنُ فما لكم لا تؤمنون والحالةُ هذه؟!

وقال الواحدي: أي: إن كنتم مؤمنين بدليل عقليٍّ أو نقليٍّ فقد بان وظهرَ لكم على يدَي محمدٍ ﷺ ببعثته وإنزالِ القرآن عليه[٣].

وأيًّامّا كان فلا تناقضَ بين هذا وقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾.

وقال الطبري في ذلك: المرادُ: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فآمنوا الآن[٤].

وقيل: إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد ﷺ، فإنَّ شريعتَهما تقتضي الإيمانَ به عليه الصلاة والسلام، أو: إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذِ عليكم في عالم الذَّرِّ فآمنوا الآن.

وقيل: المراد: إن دمتُم على الإيمان فأنتم في رُتَب شريفةٍ وأقدار رفيعة. والكل كما ترى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٢.
(٢) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٥.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠.

وظاهرُ الأخير أنَّ الخطاب مع المؤمنين، وهو الذي اختاره الطيبي، وقال في هذا الشرط: يمكنُ أن يجريَ على التعليل كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] لأنَّ الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخ والتقريع يدلُّ عليه ما بعدُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يَعِنُّ لكم من المصالح ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ، والظاهرُ أنَّ المراد بها آياتُ القرآن، وقيل: المعجزات.

﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: الله تعالى إذ هو سبحانه هو المخبَر عنه، أو العبد لقرب الذكر، والمرادُ: ليخرجَكم بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفرِ إلى نور الإيمان.

وقرئ في السبعة: «ينزل» مضارعاً، فبعضٌ ثقَّل وبعضٌ خفَّف(١). وقرأ الحسن بالوجهَين، وقرأ زيد بن علي والأعمش: «أَنزل» ماضياً(٢).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالِغ في الرأفة والرحمة، حيث أزالَ عنكم موانعَ سعادة الدارَين، وهداكم إليها على أتمِّ وجه، وقرئ في السبعة: «لرؤوف» بواوين.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ توبيخٌ على تَرْك الإنفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين، أو لأولئك الموبَّخين أولاً على ترك الإيمان، وبَّخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أنْ يكونَ لهم في ذلك أيضاً عذرٌ من الأعذار.

و «أنْ» مصدرية لا زائدة كما قيل، واقتضاه كلام الأخفش(٣)، والكلامُ على تقدير حرف الجرِّ، فالمصدر المؤوَّل في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على القولَين، وحذفُ مفعول الإنفاق للعلم به مما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتشديد التوبيخ، والمرادُ به كلُّ خير يقرِّبهم إليه

---

(١) قرأ بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وقرأ الباقون بالتشديد. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٢) القراءتان في المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٨-٢١٩.

تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية، أي: أيُّ شيءٍ لكم في أنْ لا تُنفقوا فيما هو قربةٌ إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤُه سبحانه في صَرْفه إلى ما عيَّنه عز وجل من المصارف، أو ما انتقل إليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: يرِثُ كلَّ شيء فيهما ولا يبقَى لأحدٍ مالٌ، على أنَّ ميراثهما مجازٌ أو كنايةٌ عن ميراث ما فيهما؛ لأنَّ أَخْذَ الظرف يلزمه أَخْذُ المظروف.

وجوِّز أنْ يُراد: يرثهما وما فيهما، واختير الأول لأنَّه[1] يكفي لتوبيخهم، إذ لا علاقةَ لأخذ السماوات والأرض هنا.

والجملةُ حالٌ من فاعل «لا تنفقوا» أو مفعوله، مؤكدة للتوبيخ، فإنَّ تَرْكَ الإنفاق بغير سببٍ قبيحٌ منكَرٌ، ومع تحقُّق ما يوجبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبح وأدخلُ في الإنكار، فإنَّ بيانَ بقاء جميعِ ما في السماوات والأرضِ من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أنْ يبقَى لأحدٍ من أصحابها شيء أقوَى في إيجاب الإنفاق عليهم من بيان أنَّها لله تعالى في الحقيقة، أو أنَّها انتقلَت إليهم من غيرهم، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله تعالى والحالُ أنَّه لا يبقَى لكم ولا لغيركم منها شيءٌ، بل تبقَى كلُّها لله عز وجل. وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ بيانٌ لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوتِ أحوالهم في الإنفاق، بعد بيان أنَّ لهم أجراً كبيراً على الإطلاق، حثًّا لهم على تحرِّي الأفضل، وعطفَ القتال على الإنفاق للإيذان بأنَّه من أهمِّ موادِّ الإنفاق، مع كونه في نفسه من أفضل العبادات، وأنَّه لا يخلو من الإنفاق أصلاً، وقسيمُ «من أنفق» محذوفٌ، أي: لا يستوي ذلك وغيرُه، وحُذِف لظهوره ودلالةِ ما بعدُ عليه.

---

(١) في (م): أنه.

والفتح فتح مكة على ما روي عن قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد، وهو المشهور، فتعريفُه للعهد أو للجنس ادِّعاء، وقال الشعبي: هو فتحُ الحديبية، وقد مرَّ وجهُ تسميته فتحاً في سورة الفتح[١]، وفي بعض الآثار ما يدلُّ عليه؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحُديبية، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يُوشكُ أن يأتيَ قومٌ تحقرونَ أعمالَكم مع أعمالهم» قلنا: مَن هم يا رسول الله، أقريشٌ؟ قال: «لا ولكنْ هم أهلُ اليمن، هم أرقُّ أفئدةً وألْينُ قلوباً»، فقلنا: أهم خيرٌ منَّا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحَدِهم جبلٌ من ذهبٍ فأنفقَهُ ما أدرَكَ مدَّ أحدِكم ولا نَصِيفَه، ألا إنَّ هذا فَضْلُ ما بيننا وبين الناس: (لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ) الآية»[٢].

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «قبل» بغير «مِن»[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن أنفق»، والجمعُ بالنظر إلى معنى «من» كما أنَّ إفرادَ الضميرَين السابقَين بالنظر إلى لفظها، ووُضِعَ اسم الإشارة البعيد موضعَ الضمير للتعظيم والإشعارِ بأنَّ مدارَ الحكم هو إنفاقُهم قبل الفتح وقتالهم، ومحلُّه الرفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي: أولئك المنعوتون بذَيْنك النعتَين الجليلَين أرفعُ منزلةً وأجلُّ قدراً. ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ﴾ أي[٤]: بعد الفتح ﴿وَقَٰتَلُوا۟﴾.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ فاعل «لا يستوي» ضميرٌ يعود على الإنفاق، أي: لا يستوي هو، أي: الإنفاق، أي: جنسه، إذ منه ما هو قبل الفتحِ ومنه ما هو

(١) آية رقم (١).
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٤، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢، وورد في الأصل و(م): يحتقرون، بدل: تحقرون، والمثبت من تفسير الطبري.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٩.
(٤) قوله: أي، ليس في (م).

بعدَه، و«مَن أنفق» مبتدأ، وجملةُ «أولئك أعظمُ» خبرُه، وفيه تفكيكُ الكلام وخروجٌ عن الظاهر لغير موجِبٍ، فالوجهُ ما تقدَّم، ويعلم منه التزاماً التفاوتُ بين الإنفاق قبل الفتح والإنفاقِ بعده، وإنما كان أولئك أعظمَ درجةً من الذين أنفقوا بعدُ؛ لأنَّهم إنما فعلوا ما فعلوا عند كمالِ الحاجةِ إلى النُّصْرَة بالنفس والمال لقلَّة المسلمين وكثرةِ أعدائهم، وعدمِ ما ترغَبُ فيه النفوس طبعاً مِن كثرة الغنائم، فكان ذلك أنفع وأشدّ على النفس، وفاعلُه أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظمُ رغبةً فيه، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ من الفريقَين لا الأولين فقط ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبَة الحسنى، وهي الجنة على ما روي عن مجاهد وقتادة، وقيل: أعمُّ من ذلك والنصر والغنيمة في الدنيا.

وقرأ ابن عامر وعبد الوارث: «وكلٌّ» بالرفع[1]، والظاهر أنَّه مبتدأ والجملةُ بعده خبرٌ، والعائد محذوف، أي: وعَدَه، كما في قوله:

وخالدٌ يحمَدُ ساداتُنا ... بالحقِّ لا يحمَدُ بالباطلِ[2]

يريد: يحمَدُه. والجملةُ عطفٌ على «أولئك أعظمُ درجةً» وبينهما من التطابق ما ليس على قراءة الجمهور، ومنع البصريون حذفَ العائد من خبر المبتدأ، وقالوا: لا يجوزُ إلا في الشعر بخلاف حذفِه من جملة الصفة، وهم محجُوجُون بهذه القراءة.

وقولُ بعضهم فيها: إنَّ «كلٌّ» خبرُ مبتدأ تقديره: وأولئك كلٌّ، وجملةُ «وعد الله» صفة «كلّ» تأويلٌ ركيكٌ، وفيه زيادةُ حذفٍ، على أنَّ بعض النحاة منَعَ وصْفَ «كل» بالجملة؛ لأنَّه معرفةٌ بتقدير: وكلُّهم.

وقال الشهاب: الصحيحُ ما ذهب إليه ابنُ مالك من أنَّ عدم جوازِ حذفِ العائد من جملة الخبر في غير «كل» وما ضاهاها في الافتقار والعموم، فإنَّه في ذلك

(١) قراءة ابن عامر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.
(٢) سلف ٢/ ٣٩٥.

مطَّردٌ، لكن ادَّعى فيه الإجماع، وهو محلُّ نزاع(١).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بظاهره وباطنه ويُجازيكم على حسبه، فالكلامُ وعْدٌ ووعيدٌ.

وفي الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والأنصار ما لا يخفى، والمرادُ بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبلَ فتحِ مكةَ أو قبل الحديبية، بناءً على الخلاف السابق، والآيةُ على ما ذكره الواحدي عن الكلبي نزلَت في أبي بكر الصديق ﷺ(٢)، أي: بسببه، وأنت تعلمُ أنَّ خصوصَ السبب لا يدلُّ على تخصيص الحكم، فلذلك قال: «أولئك» ليشملَ غيرَه ﷺ ممن اتَّصف بذلك، نعم هو أكملُ الأفراد، فإنَّه أنفقَ قبل الفتحِ وقبل الهجرة جميعَ ماله، وبذل نفسَه معه عليه الصلاة والسلام، ولذا قال ﷺ: «ليس أحدٌ أمنَّ عليَّ بصحبته من أبي بكر»(٣) وذلك يكفي لنزولها فيه.

وفي «الكشاف»: إنَّ «أولئك» هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال النبيُّ ﷺ فيهم: «لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أحدٍ ذهباً ما بلغَ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»(٤)، قال الطيبي: الحديث من رواية البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أَحَداً أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»(٥).

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه على هذا لا يختصُّ بالسابقين الأوَّلين كما أشار في «الكشاف» إليه، وهو مبنيٌّ على أنَّ الخطابَ في «لا تسبُّوا» ليس للحاضرين

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٥٥.

(٢) أسباب النزول ص٤٣٣، والوسيط ٤/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٣٤)، والبخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه أحمد (٢٤٣٢)، والبخاري (٤٦٧) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ.

(٤) الكشاف ٤/ ٦٢، وانظر التعليق الآتي.

(٥) صحيح البخاري (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم (٢٥٤١)، وسنن أبي داود (٤٦٥٨)، وسنن الترمذي (٣٨٦١)، وفي المصادر: أحدكم، بدل: أحداً.

ولا للموجودين في عصره ﷺ، بل لكلِّ مَن يصلُح للخطاب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ الآية [الأنعام:٢٧] وإلا فقد قيل: إنَّ الخطاب يقتضي الحضورَ والوجودَ، ولا بدَّ من مغايرة المخاطبين بالنهي عن سبِّهم، فهم[١] السابقون الكاملون في الصحبة.

وأقولُ: شاعَ الاستدلالُ بهذا الحديثِ على فضل الصحابةِ مطلقاً بناءً على ما قالوا: إنَّ إضافةَ الجمع تفيدُ الاستغراقَ، وعليه صاحب «الكشف»، واستشكل أمر الخطاب، وأُجيبَ عنه بما سمعتَ، وبأنَّه على حدِّ خطاب الله تعالى الأزلي.

لكن في بعض الأخبار ما يؤيِّد أنَّ المخاطَبين بعضٌ من الصحابة، والممدوحين بعضٌ آخر منهم، فتكون الإضافة للعهد، أو بحمل الأصحابِ على الكاملين في الصحبة، أخرج أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بنِ الوليد وبين عبد الرحمن بنِ عوف كلامٌ، فقال خالدٌ لعبد الرحمن بن عوف: تَستطيلونَ علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلَغَ النبيَّ ﷺ فقال: «دَعُوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتُم مثلَ أُحدٍ، أو مثلَ الجبال ذهباً، ما بلغتُم أعمالَهم»[٢]، ثم في هذا الحديث تأييدٌ مّا لكون «أولئك» هم الذين أنفقوا قبل الحديبية، لأنَّ إسلامه ؓ كان بين الحديبية وفتحِ مكة كما في «التقريب»[٣] وغيره، والزمخشريُّ[٤] فسَّر الفتحَ بفتح مكة، فلا تغفل.

واختار[٥] الجلال المحلِّي كون الخطاب في «لا تسبُّوا» للصحابة السابِّين، وقال: نزَّلَهم ﷺ بسبِّهم الذي لا يليقُ بهم منزلَةَ غيرِهم، حيث علَّل بما ذكره عليه الصلاة والسلام. وهو وجهٌ حسنٌ فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ نَدْبٌ بليغٌ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله، مؤكِّدٌ للأمر السابق به وللتوبيخ على تركه، فالاستفهام ليس على

---

(١) في الأصل: فهو، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٨/ ١٥٦، والكلام منه.
(٢) المسند (١٣٨١٢).
(٣) تقريب التهذيب ص١٣١.
(٤) في الكشاف ٤/ ٦٢.
(٥) في (م): وقال.

حقيقته بل للحثِّ، والقرض الحسن الإنفاق بالإخلاص وتحرِّي أكرمِ المال وأفضل الجهات.

وذكر بعضُهم أنَّ القرض الحسن ما يجمع عشر صفات: أنْ يكونَ من الحلال، فإنَّ الله تعالى طيبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً، وأنْ يكون من أكرم ما يملكه المرءُ، وأن يكون والمرءُ صحيحٌ شحيحٌ يأمل العيشَ ويخشَى الفقر، وأن يضعَه في الأحوج الأولَى، وأن يكتمَ ذلك، وأن لا يتبعَه بالمنِّ والأذى، وأن يقصد به وجْهَ الله تعالى، وأن يستحقِرَ ما يُعطي وإن كثر، وأن يكون من أحبِّ أمواله إليه، وأن يتوخَّى في إيصاله للفقير ما هو أسرُّ لديه من الوجوه، كحمله إلى بيته. ولا يخفى أنَّه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر.

وأيما كان فالكلامُ إما على التجوُّز في الفعل، فيكون استعارةً تبعية تصريحيةً، أو التجوُّز في مجموع الجملة فيكون استعارةً تمثيليةً، وهو الأبلغ، أي: من ذا الذي يُنفق ماله في سبيل الله تعالى مخلصاً متحرِّياً أكرمَهُ وأفضلَ الجهات، رجاء أنْ يعوِّضَه سبحانه بدله كمن يُقرضُه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فيعطيَه أجرَه على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله.

﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: وذلك الأجرُ المضموم إليه الإضعافُ كريمٌ مرضيٌّ في نفسه، حقيقٌ بأنْ يتنافس فيه المتنافسون، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الأجر كما أنَّه زائدٌ في الكمِّ بالغٌ في الكيف، فالجملةُ حالية لا عطف على «فيضاعفه»، وجوَّز العطفُ والمغايرة ثابتة بين الضِّعف والأجر نفسِه، فإنَّ الإضعاف من مَحْض الفضل والمثل فضل هو أجر.

ونصب «يضاعفَه» على جواب الاستفهام بحسب المعنى، كأنَّه قيل: أيُقرِضُ اللهَ تعالى أحدٌ فيضاعفَه له، فإنَّ المسؤول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لكنَّه في المعنى هو الفعل، إذ ليس المرادُ أنَّ الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك: مَن جاءك اليوم؟ إذا علمتَ أنَّه جاءه جاءٍ لم تعرفه بعينه، وإنما أُوردَ على هذا الأسلوب للمبالغة في الطلب، حتى كأنَّ الفعلَ لكثرة دواعيه قد وقَعَ، وإنما يُسأَلُ

عن فاعلِه ليجازَى، ولم يعتبر الظاهر لأنَّه يُشترَط بلا خلافٍ في النصب بعد الفاء أنْ لا يتضمَّن ما قبلُ وقوعَ الفعل نحو: لِمَ ضربتَ زيداً فيجازيك، فإنَّه حينئذٍ لا يتضمَّن سبق مصدر مستقبل. وعلى هذا يؤوَّلُ كلُّ ما فيه نصبٌ وما قَبْلُ متضمِّنٌ للوقوع.

وقرأ غيرُ واحد: «فيُضاعفُه» بالرفع على القياس نظراً للظاهر المتضمِّن للوقوع، وهو إما عطف على «يقرض»، أو على: فهو يضاعفه. وقرئ: «فيضعِّفه» بالرفع والنصب[1].

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرفٌ لِمَا تعلَّق به «له»، أو له، أو لقوله تعالى: «فيضاعفه» أو منصوبٌ بإضمار«اذكر» تفخيماً لذلك اليوم، والرؤيةُ بصريةٌ، والخطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه، أو لسيد المخاطبين ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال من مفعول «ترى» والمراد بالنور حقيقتُه على ما ظهر من شموس الأخبار، وإليه ذهب الجمهور، والمعنى: يسعَى نورُهم إذا سَعَوا ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود أنَّه قال: يُؤْتَون نورَهم على قَدْر أعمالهم، يمرُّون على الصراط، منهم مَن نورُه مثل الجبل، ومنهم مَن نورُه مثل النخلة، وأدناهم نوراً مَن نورُه على إبهامه يُطفَأ مرَّةً ويَقِدُ أخرى[2]. وظاهره أنَّ هذا النور يكون عند المرور على الصراط.

وقال بعضهم: يكونُ قبل ذلك ويستمرُّ معهم إذا مرُّوا على الصراط، وفي الأخبار ما يقتضيه كما ستسمَعُه قريباً إن شاء الله تعالى.

والمرادُ أنَّه يكون لهم في جهتَين، جهةِ الأمام وجهةِ اليمين، وخُصَّا لأنَّ

---

(١) قرأ «فيضعِّفَه» بالنصب ابن عامر ويعقوب، وقرأ «فيضعِّفُه» بالرفع ابن كثير وأبو جعفر، وقرأ «فيضاعفَه» بالنصب عاصم، وقرأ الباقون: «فيضاعفُه» بالرفع. السبعة ص٦٢٥، والتيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٨، والمستدرك ٢/ ٤٧٨، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢.

السعداء يُؤتَون صحائفَ أعمالهم من هاتَين الجهتَين، كما أنَّ الأشقياء يُؤتَونها من شمائلهم ووراء ظهورهم.

وفي «البحر»: الظاهرُ أنَّ النورَ قسمان: نورٌ بين أيديهم يُضيء الجهة التي يَؤمُّونها، ونورٌ بأيمانهم يُضيء ما حواليهم من الجهات. وقال الجمهور: إنَّ النورَ أصلُه بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسطُ من ذلك. وقيل: الباء بمعنى «عن» أي: وعن أيمانهم، والمعنى: في جميع جهاتهم، وذكر الأيمان لشرفها[(١)]. انتهى.

ويشهدُ لهذا المعنى ما أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير[(٢)] أنَّه سمع أبا ذرٍّ وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولُ مَن يؤذَنُ له في السُّجودِ يومَ القيامة، وأوَّلُ مَن يُؤذَنُ له فيرفَعُ رأسَه، فأرفع رأسي، فأنظرُ بين يديَّ ومِن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرفُ أمتي بين الأممِ» فقيل: يا رسول الله، وكيف تعرفُهم من بين الأممِ ما بين نوحٍ عليه السلام إلى أمتك؟ قال: «غرٌّ محجَّلون من أثَرِ الوضوءِ، ولا يكونُ لأحدٍ غيرهم[(٣)]، وأعرفُهم أنَّهم يُؤتَون كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرفُهم بسيماهُم في وجوههم من أثَرِ السجود، وأعرفُهم بنورهم الذي يسعَى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم»[(٤)]، وظاهرُ هذا الخبر اختصاصُ النور بمؤمني هذه الأمةِ، وكذا إيتاءُ الكتب بالأيمان.

وبعضُ الأخبار يقتضي كونه لكلِّ مؤمنٍ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: تُبعَثُ ظلمة يومَ القيامة فما من مؤمنٍ ولا كافر يرَى كفَّه، حتى يبعثَ الله تعالى بالنور للمؤمنين بقَدْرِ أعمالهم، الخبر[(٥)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٠.

(٢) في الأصل و(م): نضير، وهو تصحيف.

(٣) جاء في هامش الأصل: أي: من الأمم وإلا فقد قيل: إن الأنبياء عليهم السلام كلهم كذلك. اهـ منه.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٦، والمستدرك ٢/ ٤٧٨، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧.

وأخرج عنه الحاكم وصححه وابن أبي حاتم من وجه آخرَ وابن المبارك والبيهقي في «الأسماء والصفات» خبراً طويلاً فيه أيضاً ما هو ظاهرٌ في العموم[(١)].

وكذا ما أخرج ابن جرير والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس قال: بينما الناسُ في ظلمة إذ بَعَث الله تعالى نوراً، فلمَّا رأى المؤمنون النورَ توجَّهوا نحوه، وكان النور دليلاً لهم من الله عز وجل إلى الجنة[(٢)].

ولا ينافي هذا الخبرَ كونُهم يمرُّون بنورهم على الصراط كما لا يخفى، وكذا إيتاء الكتب بالأيمان، ففي «هداية المريد لجوهرة التوحيد»: ظاهرُ الآيات والأحاديث عدمُ اختصاصه ـ يعني أَخْذَ الصحف ـ بهذه الأمة، وإن تردَّد فيه بعضُ العلماء[(٣)]. انتهى.

ويمكن أن يقال: إنَّ ما يكونُ من النور لهذه الأمةِ أجلَى من النور الذي يكون لغيرها، أو هو ممتازٌ بنوعٍ آخرَ من الامتياز، وأما إيتاءُ الكتب بالأيمان فلعلَّه لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الأمم تُعرَف به، وفي هذا المطلب أبحاثٌ أُخَرُ تُذكر إن شاء الله تعالى في محلها.

وقيل: أُريدَ بالنور القرآنُ. وقال الضحاك: النورُ استعارةٌ عن الهدى والرضوانِ الذي هم فيه.

وقرأ سهل بن شعيب السهمي وأبو حيوة: «وبإيمانهم» بكسر الهمزة[(٤)]، وخَرَّج ذلك أبو حيان على أنَّ الظرفَ ـ يعني «بين أيديهم» ـ متعلِّقٌ بمحذوف، والعطفُ عليه بذلك الاعتبار، أي: كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم[(٥)]. وهو كما ترى.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٦٨ - زوائد نعيم)، والمستدرك ٢/ ٤٠٠-٤٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧، والأسماء والصفات (١٠١٥).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١، واستدراكات البعث والنشور (١٨٥).

(٣) ينظر إتحاف المريد بجوهرة التوحيد ص٢٣٢.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢١.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

ولعلَّه متعلِّقٌ بالقول المقدَّر في قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك، وجملةُ القول؛ إما معطوفةٌ على ما قبلُ، أو استئنافٌ، أو حال، ويجوز على الحالية تقديرُ الوصف منه، أي: مقولاً لهم، والقائلُ الملائكة الذين يتلقَّونهم.

والمراد بالبشرى ما يبشَّرُ به، دون التبشير، والكلام على حذف مضافٍ، أي: ما تُبشَّرون به دخولُ جناتٍ، ويصح[1] بدونه، أي: ما تبشرون به جناتٌ[2]، وما قيل: البشارةُ لا تكون بالأعيان، فيه نظر، وتقديرُ المضاف لا يُغني عن تأويل البشرى؛ لأنَّ التبشير ليس عين الدخول.

وجملة قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في موضع الصفة لـ «جنات»، وقولُه سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ من «جنات»، قال أبو حيان: وفي الكلام التفاتٌ من ضمير الخطاب في «بشراكم» إلى ضمير الغائب في «خالدين» ولو أُجري على الخطاب لكان التركيب: خالداً أنتم فيها[3].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتملُ أن يكونَ من كلامه تعالى، فالإشارة إلى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات، ويحتمل أن يكونَ من كلام الملائكةِ عليهم السلام المتلقِّين لهم، فالإشارة إلى ما هم فيه من النور وغيرِه، أو إلى الجنات بتأويل ما ذُكر، أو لكونها فوزاً على ما قيل.

وقرئ: «ذلك الفوز» بدون «هو»[4].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدلٌ مِن «يوم تَرى»، وجوز أنْ يكون معمولاً لـ: اذكر، وقال ابن عطية: يظهرُ لي أنَّ العاملَ فيه «ذلك هو الفوز العظيم»، ويكون معنى الفوز عليه أعظمَ، كأنَّه قيل: إنَّ المؤمنين يفوزون يوم يعتري المنافقين

(١) في (م): جنات يصح، بدون واو.
(٢) قوله: ويصح بدونه أي ما تبشرون به جنات، مكرر في (م).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦١، والكشاف ٤/ ٦٣، ومفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٣، وعزاها الفراء لابن مسعود.

والمنافقات كذا وكذا؛ لأنَّ ظهورَ المرء يوم خمول عدوِّه ومضادِّه[1] أبدعُ وأفخم[2].

وتعقبه في «البحر» بأن ظاهر تقريره أنَّ «يوم» منصوبٌ بالفوز، وهو لا يجوز؛ لأنَّه مصدرٌ قد وُصِف قبلَ أخْذِ متعلَّقاته، فلا يجوزُ إعمالُه، ولو أَعملَ وصفَه وهو «العظيم» لجاز، أي: الفوزُ الذي عَظُم ـ أي: قَدْرُه ـ يوم[3]. انتهى، وفي عدم جوازِ إعمالِ مثلِ هذا المصدر في مثل هذا المعمول خلافٌ، ثم إنَّ تعلُّق هذا الظرف بشيء من تلك الجملة خلافُ الظاهر.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه، وذلك أنْ يلحقوا بهم فيستنيروا به، وقيل: فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم، تخيَّلُوا تأتِّي ذلك فقالوه، وأصلُ الاقتباس طلبُ القَبَس، أي: الجذوة من النار.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: انظروا إلينا نقتبس.. إلخ، لأنَّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنورُ بين أيديهم فيستضيئون به، فـ «انظرونا» على الحذف والإيصال؛ لأنَّ النظر بمعنى مجرَّد الرؤية يتعدَّى بـ «إلى»، فإن أُريدَ التأمل تعدَّى بـ «في»، لكن حمل الآية على ذلك خلافُ الظاهر.

وقولهم للمؤمنين ذلك؛ لأنَّهم في ظلمة لا يدرون كيف يمشُون فيها، وروي أنَّه يكون ذلك على الصراط.

وفي الآثار دلالة على أنَّهم يكونُ لهم نورٌ فيُطفَأ فيقولون ذلك، أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يَدْعُو الناسَ يومَ القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط فإنَّ الله تعالى يُعطي كلَّ مؤمنٍ نوراً وكلَّ منافقٍ نوراً، فإذا استَوَوا على الصراط أطفَأَ اللهُ نورَ المنافقين

---

(١) في الأصل و(م): عدوه مضادة، والمثبت من المصدر والبحر ٨/ ٢٢١، والدر المصون ١٠/ ٢٤٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

والمنافقات فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: أَتْمِم لنا نورَنا، فلا يَذكرُ عند ذلك أحدٌ أحداً»[١].

وفي حديث آخر مرفوع عنه أيضاً: «أنَّ نورَ المنافق يُطفَأ قبل أنْ يأتيَ الصراطَ»[٢].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي فاختة: يجمعُ الله تعالى الخلائقَ يوم القيامة ويُرسِلُ الله سبحانه على الناس ظُلمةً، فيستغيثون ربَّهم، فيُؤتي اللهُ تعالى كلَّ مؤمنٍ منهم نوراً، ويُؤتي المنافقين نوراً، فينطلقون جميعاً متوجِّهين إلى الجنة معهم نورُهم، فبينما هم كذلك إذ أطفَأ الله تعالى نورَ المنافقين، فيتردَّدون في الظلمة، ويسبقُهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم، فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم، . . الخبر[٣]، والأخبار في إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرةٌ، وليس في الآية ما يأباه.

وقرأ زيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة: «أنظرونا» بقَطْعِ الهمزة وفَتْحِها وكَسْرِ الظاء[٤]، من النَّظِرَة وهي الإمهال، يقال: أَنظِر المديونَ، أي: أَمهلْه، وضع «أنظرونا» بمعنى المهلة وإنظارِ الدائنِ المديونَ موضعَ اتِّئادِ الرفيقِ ومشيه الهوينا ليَلْحَقَه رفيقُه على سبيل الاستعارة بعد سَبْق تشبيه الحالة بالحالة مبالغةً في العَجْز وإظهار الافتقار.

وقيل: هو من أَنظِر، أي: أَخِّر، والمراد: اجعلونا في آخركم ولا تسبقونا بحيث تفوتونا[٥] ولا نلحق بكم.

---

(١) المعجم الكبير (١١٢٤٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٩: وفيه إسحاق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك.

(٢) أخرجه مطولاً الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق١/ ١٣٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٧٣.

(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٣-١٧٤.

(٤) قراءة حمزة في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر ٨/ ٢٢١.

(٥) في هامش الأصل: تفوتونا، صح.

وقال المهدوي: «أنظِرونا» و«انظُرونا» بمعنًى، وهما من الانتظار؛ تقول العربُ: أنظرتُه بكذا وانتظرتُه، بمعنى واحد، والمعنى: أمْهِلونا.

﴿قِيلَ﴾ القائلون على ما روي عن ابن عباس المؤمنون، وعلى ما روي عن مقاتل الملائكة عليهم السلام: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ قال ابن عباس: أي مِن حيث جئتُم من الظُّلمة، أو إلى المكان الذي قُسِم فيه النورُ، على ما صحَّ عن أبي أمامة ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ هناك.

قال مقاتل: هذا من الاستهزاء بهم كما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا: آمنا، وليسوا بمؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥] أي: حين يقالُ لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً.

وقال أبو أمامة: يرجِعُون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذي قُسِم فيه النور، فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضُرِبَ بينهم بسور، وهي خدعةُ الله تعالى التي خَدَع بها المنافقين حيث قال سبحانه: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وقيل: المراد: ارجعُوا إلى الدنيا والتمسُوا نوراً، أي: بتحصيل سببِهِ، وهو الإيمان، أو تنحّوا عنَّا والتمِسُوا نوراً غيرَ هذا، فلا سبيلَ لكم إلى الاقتباس منه. والغرضُ التهكُّم والاستهزاء أيضاً.

وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفةِ تهكُّماً بهم، وهو خلافُ الظاهر.

وأيًّامّا كان فالظاهر أنَّ «وراءكم» معمولٌ لـ «ارجعوا»، وقيل: لا محلَّ له من الإعراب؛ لأنَّه بمعنى ارجعوا، فكأنَّه قيل: ارجعوا ارجعوا، كقولهم: وراءك أوسع لك، أي: ارجع تَجِد مكاناً أوسعَ لك.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الفريقَين، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير: «فضَرَب» مبنيًّا للفاعل[1]، أي: فضَرَب هو، أي: الله عز وجل.

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢١.

﴿بِسُورٍ﴾ أي: بحاجز، قال ابن زيد: هو الأعراف. وقال غير واحد: حاجزٌ غيرُه، والباء مزيدة.

﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي: الباب كما روي عن مقاتل أو السور، وهو الجانب الذي يلي مكانَ المؤمنين أعني الجنة ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ الثوابُ والنعيمُ الذي لا يُكتَنه ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ الجانبُ الذي يلي مكان المنافقين أعني النارَ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي: من جهته ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾.

وهذا السور قيل: يكونُ في تلك النشأة وتبدُّلِ هذا العالم واختلاف أوضاعه في موضع الجدارِ الشرقيِّ من مسجد بيت المقدس، أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: كنتُ مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادي جهنم، يعني المكان المعروف عند بيت المقدس، فحدَّث عن أبيه أنَّه قال وقد تلا قولَه تعالى: (فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ): هذا موضعُ السور عند وادي جهنم(١).

وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنَّ السور الذي ذكره الله تعالى في القرآن (فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ) هو سورُ بيتِ المقدس الشرقي (بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ) المسجد (وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ) يعني وادي جهنَّم وما يليه(٢).

وأخرج عن عبادةَ بنِ الصامت أنَّه كان على سور بيتِ المقدس الشرقيِّ فبكى، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنم(٣).

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠٣، والمستدرك ٤/ ٦٠١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤.

(٣) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤. وأخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز عن زياد بن أبي سودة أنَّ عبادة بن الصامت قام على سور بيت المقدس...، وذكر الخبر، وزياد قال عنه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل لابنه ٣/ ٥٣٤: لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ.
وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩، من طريق محمد بن ميمون عن بلال بن =

ولا يخفى أنَّ هذا ونظائرَه أمورٌ مبنيةٌ على اختلاف العالَمين وتغايرِ النشأتَين على وجهٍ لا تَصِلُ العقولُ إلى إدراك كيفيته والوقوفِ على تفاصيله، فإنْ صحَّ الخبرُ لم يَسَعْنا إلا الإيمان، لعدم خروج الأمر عن دائرة الإمكان، وأبو حيان حكى عمَّن سمعتَ وعن كعب الأحبار أنَّه الجدارُ الشرقيُّ من مسجد بيت المقدس واستبعدَه، ثم قال: ولعلَّه لا يصحُّ عنهم(١).

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنَّه قيل: فماذا يفعلون بعد ضَرْب السورِ ومشاهدةِ العذاب؟ فقيل: يُنادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات: ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمْ﴾ يريدون به موافقَتَهم لهم في الظاهر ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتُم معنا كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَحَنْتُموها بالنفاق وأهلكتُموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائرَ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتُم في أمور الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الفارغةُ التي من جملتها الطمعُ في انتكاس الإسلام.

وقال ابن عباس: «فتنتُم أنفسَكم» بالشهوات واللذات «وتربَّصتُم» بالتوبة. «وارتبتُم» قال محبوب الليثي: شككتم في الله «وغرَّتكم الأماني» طول الآمال. وقال أبو سنان: قلتُم: سيغفر لنا.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطانُ؛ قال لكم: إنَّ الله عفوٌّ كريمٌ لا يعذبكم. وعن قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، واللهِ ما زالوا عليها حتى قذَفَهم الله تعالى في النار.

وقرأ سماك بن حرب: «الغُرور» بالضم، قال ابن جني: وهو كقوله: وغرَّكم بالله تعالى الاغترارُ، وتقديره على حذف المضاف، أي: وغرَّكم بالله تعالى سلامةُ الاغترار، ومعناه: سلامتكم منه [مع] اغتراركم(٢).

= عبد الله عن عبادة، به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: بل منكر وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سودة قال: رئي عبادة. . . فهذا المرسل أجود. اهـ.

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

(٢) المحتسب ٢/ ٣١١-٣١٢، وما بين حاصرتين منه.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيُّها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ فداءٌ، وهو ما يُبذَل لحفظ النفس عن النائبة، والناصبُ لـ «يوم» الفعلُ المنفي بـ «لا»، وفيه حجةٌ على مَن منع ذلك، وقرأ أبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو: «لا تُؤخَذ» بالتاء الفوقية[١].

﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ظاهراً وباطناً، فيغايرُ المخاطبين المنافقين.

ثم الظاهرُ أنَّ المراد بالفدية ما هو من جنس المال ونحوه، وجوِّز أنْ يراد بها ما يعمُّ الإيمان والتوبة، فتدلُّ الآية على أنَّه لا يُقبَلُ إيمانُهم وتوبتُهم يوم القيامة، وفيه بُعدٌ، وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى يقول للكافر: أرأيتَكَ لو كان لك أضعافُ الدنيا أكنتَ تَفتَدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا ربِّ، فيقول الله تبارك وتعالى: قد سألتُك ما هو أيسرُ من ذلك وأنتَ في ظَهْر أبيكَ آدمَ، أنْ لا تُشرِكَ بي، فأبيتَ إلا الشِّرك»[٢].

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ محلُّ أُويِّكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: ناصركم، من باب:

تــحــيــةُ بــيــنــهــم ضَــرْبٌ وَجِــيــعُ[٣]

والمراد نَفْي الناصر على البتات[٤] بعدَ نفي أخذِ الفدية وخلاصهم بها عن العذاب، ونحوه قولهم: أُصيب بكذا فاستنصرَ الجزَعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال الكلبي والزجّاج والفراء وأبو عبيدة: أي: أولَى بكم[٥]. كما في قول لبيد يصفُ بقرةً وحشيةً نفرَتْ من صوت الصائد:

---

(١) قراءة أبي جعفر وابن عامر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وهي قراءة يعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٢٢٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢٨٨)، والبخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) سلف ٤/ ٩٢.

(٤) في الأصل: الثبات، والمثبت من (م) والكشاف ٤/ ٦٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥، وللفراء ٣/ ١٣٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٤.

فغَدَت كلا الفَرْجَين تحسبُ أنَّهُ مَوْلَى المخافةِ خَلفُها وأمامُها[(١)]

أي: فغَدَت كلا جانبيها الخلفُ والأمام تحسب أنَّه أولَى بأنْ يكونَ فيه الخوفُ، قال الزمخشري: وحقيقة «مولاكم» هي على هذا: محراكم[(٢)] ومقمنكم، أي: المكانُ الذي يُقال فيه: هو أولَى بكم، كما قيل: هو مئنَّةٌ للكرم، أي: مكان لقول القائل: إنَّه لكريم[(٣)]. فـ «أولَى» نوعٌ من اسم المكان لُوحِظَ فيه معنى أولى، لا أنَّه[(٤)] مشتقٌّ منه، كما أنَّ المئنَّة ليسَت مشتقةً من إنَّ التحقيقية.

وفي «التفسير الكبير»: إنَّ قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى، وليس بتفسير اللفظ؛ لأنَّه لو كان «مولى» و«أولى» بمعنى واحد في اللغة لصحَّ استعمالُ كلٍّ منهما في مكان الآخر، وكان يجبُ أنْ يصحَّ: هذا أَولَى فلان، كما يقال: هذا مولَى فلان، ولمَّا بطل ذلك علمنا أنَّ الذي قالوه معنى وليس بتفسير، ثم صرَّح بأنَّه أراد بذلك ردَّ استدلالِ الشريف المرتضى بحديث الغدير: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» على إمامة الأمير كرَّم الله تعالى وجهه حيث قال: أحدُ معاني «المولَى»: الأَولَى، وحملُه في الخبر عليه متعيِّن، لأنَّ إرادةَ غيره يجعلُ الإخبارَ عبثاً، كإرادة الناصر والصاحب وابن العمِّ، أو يجعلُه كذباً كالمعتِق والمعتَق[(٥)]. ولا يخفَى على المنصف أنَّه إنْ أراد بكونه معنًى لا تفسير ما أشار إليه الزمخشريُّ من التحقيق، فهو لا يردُّ الاستدلالَ، إذ يكفي للمرتضى أنْ يقول: المولَى في الخبر بمعنى المكان الذي يقال فيه أَولَى، إذ يلزم على غيره العبثُ أو الكذب، وإنْ أرادَ أنَّ ذلك معنًى لازمٌ لِمَا هو تفسيرٌ له، كأنْ يكون تفسيرُه: القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك

---

(١) شرح ديوان لبيد ص٣١١، ومجاز القرآن ٢/ ٢٥٤، والكشاف ٤/ ٦٤، وحاشية الشهاب ٨/ ١٥٨، وجاء في هامش الأصل: (فغدت) بالغين المعجمة أو العين المهملة. اهـ، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٢) أي: المكان الذي يقال فيه: إنه أحرى وأحقُّ بكم، من قولهم: هو حريٌّ بكذا، أي: خليق وحقيق وجدير به. حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٤.

(٤) في (م): إلا أنه، والمثبت من الأصل وهو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٥) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٧-٢٢٨، والحديث أخرجه أحمد (٩٥٠)، والترمذي (٣٧١٣) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

لازماً له، ففي ردِّه الاستدلالَ أيضاً تردُّد، وإنْ أراد شيئاً آخر فنحن لا ندري ما هو، وهو لم يبيِّنه، والحقُّ أنَّه ولو جعل المولى بمعنى الأَولَى أو المكان الذي يقال فيه الأَولَى لا يتمُّ الاستدلال بالخبر على الإمامة التي تدعيها الإماميَّة للأمير كرم الله تعالى وجهه لِمَا بُيِّن في موضعه[١]، وفي «التحفة الاثني عشرية» ما فيه كفايةٌ لطالب الحقِّ.

وقال ابن عباس: أي: مصيركم. وتحقيقه على ما قال الإمام: أنَّ المولَى بمعنى موضع الوَلْي، وهو القربُ، والمعنى: هي موضعُكم الذي تقربون منه وتَصِلُون إليه[٢]. وأنت تعلم أنَّ الإخبارَ بذلك بعد الإخبارِ بأنَّها مأواهم ليس فيه كثيرُ جدوَى، على أنَّ وضْعَ اسمِ المكان للموضع الذي يتَّصفُ صاحبُه بالمأخذ[٣] حالَ كونِهِ فيه، والقربُ من النار وصفٌ لأولئك قبل الدخول فيها، ولا يحسن وصفُهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لا يخفى.

وجوَّز بعضُهم اعتبارَ كونه اسمَ مكانٍ من الوَلْي بمعنى القرب، لكن على أنَّ المعنى: هي مكانُ قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكُّم بهم.

وقيل: أي: متولِّيكم، أي: المتصرفةُ فيكم كتصرُّفكم فيما أوجَبَها واقتضاها في الدنيا من المعاصي، والتصرُّف استعارةٌ للإحراق والتعذيب، وقيل: مشاكلةٌ تقديرية.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النارُ، وهي المخصوص بالذمِّ المحذوفُ لدلالة السياق.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسُلِ فيما نُدِبُوا إليه، والمعاتَبُ على ما قاله الزجَّاج[٤] طائفةٌ من المؤمنين، وإلا فمنهم مَن لم يزل خاشعاً منذ أسلمَ إلى أنْ ذهب إلى ربِّه، وما نقل

---

(١) ينظر ما سلف ٧/ ٣٢٢ وما بعدها.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٧.
(٣) أي: مأخذ اشتقاقه، ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨، وجاءت العبارة فيه: ولا يخفى أن وضع اسم المكان لاتِّصاف صاحبه بمأخذ اشتقاقه وهو فيه.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٢٥.

عن الكلبي ومقاتل أنَّ الآية نزلت في المنافقين، فهم المرادُ بالذين آمنوا مما لا يكاد يصحُّ، وقد سمعتَ صدر السورة الكريمة ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال: لمَّا قدم أصحابُ رسول الله ﷺ المدينةَ فأصابوا من لِيْن العيشِ ما أصابوا بعد ما كان من الجهد، فكأنَّهم فَتَرُوا عن بعض ما كانوا عليه، فعُوتِبُوا فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية[1].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنَّ الله تعالى استبطَأَ قلوبَ المهاجرين، فعاتَبَهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية. وفي خبر ابن مردويه عن أنس: بعد سبْعَ عشرةَ سنة من نزول القرآن. وأخرج عن عائشة قالت: خرج رسولُ الله ﷺ على نَفَر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون، فسَحَب رداءَه محمرًّا وجهُهُ فقال: «أتضحكون ولم يأتِكم أمانٌ مِن ربكم بأنَّه قد غَفَر لكم، وقد نَزَل عليَّ في ضَحِكِكُم آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ﴾ إلخ؟ قالوا: يا رسول الله فما كفارةُ ذلك؟ قال: «تبكون بقَدرِ ما ضحكتُم»[2].

وفي خبر أنَّ أصحاب النبيِّ عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاحُ والضحك فنزلَت[3].

وحديث مسلم ومَن معه السابق[4] مقدَّمٌ على هذه الآثار على ما يقتضيه كلامُ أهل الحديث.

و«يَأْنِ» مضارع أَنَى الأمر أَنْياً وأَنًى وإِنًى[5] بالكسر: إذا جاء أَناه، أي: ألم يَجِئْ وقتُ أنْ تخشَعَ قلوبُهم لذكره عز وجل.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٤)، وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٢) الأثران والحديث في الدر المنثور ٦/ ١٧٤-١٧٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان كما في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٤) سبق في أول السورة ص٣٩١ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(م): أنياً وأناء وإناء، والصواب ما أثبتناه. ينظر اللسان والتاج (أني).

وقرأ الحسن وأبو السمال: «ألمَّا» بالهمزة[1]، و«لمَّا» النافية الجازمة كـ «لم» إلا أنَّ فيه أنَّ المنفيَّ مُتوقَّعٌ. وقرأ الحسن: «يَئِنْ» مضارع آن أَيْناً بمعنى أَنى السابق[2]، وقال أبو العباس: قال قومٌ: آنَ يئين أيناً الهمزةُ مقلوبةٌ فيه عن الحاء، وأصله حان يحين حيناً وأصل الكلمة من الحين[3].

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن، وهو عطف على «ذِكْرِ الله» فإنْ كان هو المراد به أيضاً فالعطفُ لتغاير العنوانين نحو:

هـو الـمـلـكُ الـقَـرمُ وابـنُ الـهـمـامِ[4]

فإنَّه ذكرٌ وموعظة كما أنَّه حقٌّ نازلٌ من السماء، وإلا بأنْ كان المراد به تذكيرَ الله تعالى إياهم فالعطفُ لتغاير الذاتَين على ما هو الشائع في العطف، وكذا إذا أُريدَ به ذكرُهم اللهَ تعالى بالمعنى المعروف.

وجوِّز العطف على الاسم الجليل إذا أُريدَ بالذكر التذكيرُ، وهو كما ترى.

وقال الطيبي: يمكنُ أنْ يحمل الذكر على القرآن، و«ما نزلَ من الحقِّ» على نزول السكينة معه، أي: الواردات الإلهية، ويعضدُه ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي عن البراء: كان رجلٌ يقرأ سورةَ الكهف، وعنده فرسٌ مربوطٌ بشَطَنَين، فغشيَتْه سحابةٌ فجعَلَت تدنو وجعل فرسُه ينفرُ منها، فلما أصبح أتَى النبيَّ ﷺ، فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينةُ تنزل للقرآن»، وفي رواية: «اقْرَأْ فلان فإنَّها السكينةُ تنزلُ عند القرآن أو للقرآن»[5]. انتهى، ولا يخفى بُعدُ ذلك جدًّا، ولعلك تختار حملَ الذكر و«ما نزل» على القرآن لِمَا يُحَسُّ مما بعدُ من نوع تأييد له.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢.

(٣) مفردات الراغب (أين).

(٤) سلف ٢/ ٣٥٠.

(٥) صحيح البخاري (٣٦١٤) و(٤٨٣٩) و(٥٠١١)، وصحيح مسلم (٧٩٥)، وسنن الترمذي (٢٨٨٥)، وأخرجه أحمد (١٨٤٧٤)، والشطنين: تثنية شَطَن، وهو الحبل الطويل المضطرب.

وفُسِّر الخشوعُ للقرآن بالانقياد التامِّ لأوامره ونواهيه، والعكوفِ على العمل بما فيه من الأحكام من غير توانٍ ولا فُتُور، والظاهرُ أنَّه اعتَبَر كونَ اللام صلةَ الخشوع، وجوِّز كونها للتعليل على أوجه الذكر، فالمعنى: ألم يَأْنِ لهم أنْ ترِقَّ قلوبُهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحقِّ النازل، فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها.

وفي الآية حضٌّ على الخشوع، وكان ابن عمر رضي الله عنهما ـ كما أخرج عنه ابن المنذر ـ إذا تلاها بكى ثم قال: بلَى يا ربِّ بلى يا ربِّ(١).

وعن الحسن: أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤون من القرآن أقلَّ مما تقرؤون، فانظروا في طول ما قرأتُم وما ظهر فيكم من الفِسْق.

وروى السُّلمي عن أحمد بن أبي الحواري قال: بينا أنا في بعض طرقاتِ البصرة إذ سمعتُ صعقةً فأقبلتُ نحوها، فرأيتُ رجلاً قد خرَّ مغشيًّا عليه فقلتُ: ما هذا؟ فقالوا: كان رجلاً حاضرَ القلب فسمع آيةً من كتاب الله فخرَّ مغشيًّا عليه، فقلتُ: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فأفاق الرجلُ عند سماع كلامنا فأنشأ يقول:

أمَا آنَ للهجرانِ أنْ يَتَصرَّما ... وللغُصن غُصْنِ البانِ أنْ يتبسَّما
وللعاشق الصَّبِّ الذي ذابَ وانحنَى ... ألم يأن أنْ يُبكَى عليه ويُرْحَما
كتبتُ بماء الشوقِ بين جوانحي ... كتاباً حكَى نَقْشَ الوشي المُنَمْنَمَا

ثم قال: إشكال إشكال إشكال، فخرَّ مغشيًّا عليه فحرَّكناه فإذا هو ميِّت(٢).

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنَّ هذه الآية قُرِئَت بين يدَيه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قسَت القلوبُ(٣). ولعلَّه

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٢) تفسير السلمي٢/ ٣٠٩، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٢٩، وفيه: المتيما، بدل من: المنمنما.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٤، ومفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٩.

أراد رضي الله عنه أنَّ الطرازَ الأولَ كان كذلك حتى قسَتَ قلوبُ كثيرٍ من الناس، ولم يتأسّوا بالسابقين، وغرضُه مدحُ أولئك القوم بما كان هو ونظراؤُه عليه رضي الله عنهم، ويحتملُ أنْ يكونَ قد أراد ما هو الظاهر، والكلامُ من باب هضمِ النفس كقوله رضي الله عنه: أقيلوني فلسْتُ بخيركم(١).

وقال شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي قدس سره: معناه تصلَّبَت وأدمنَتْ سماعَ القرآن وأَلِفَت أنوارَه، فما تستغربه حتى تَتغيَّر كما تغيَّر هؤلاء السامعون. انتهى، وهو خلافُ الظاهر، وفيه نوعُ انتقاصٍ للقوم، ورمزٌ إلى أنَّ البكاء عند سماع القرآن لا يكونُ من كامل كما يزعمه بعضُ جهلة الصوفية القائلين: إنَّ ذلك لا يكون إلا لضَعْف القلب عن تحمُّل الواردات الإلهية النورانية، ويجلُّ عن ذلك كلام الصديق رضي الله عنه.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «وما نَزَّل» بالتشديد(٢)، والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية يونس وعباس عنه: «نُزِّل» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً(٣)، وعبد الله: «أَنزَلَ» بهمزة النقل مبنيًّا للفاعل(٤).

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ «لا» نافيةٌ وما بعدَها منصوبٌ معطوفٌ على «تخشع». وجوِّز أن تكون ناهيةً وما بعدها مجزومٌ بها، ويكون ذلك انتقالاً إلى

---

(١) قوله: أقيلوني، أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣)، وفي إسناده: تليد بن سليمان، قال عنه ابن معين: كذاب يشتم عثمان. وقال أبو داود: رافضي يشتم أبا بكر وعمر. الميزان ١/ ٣٥٨. وعزاه الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ٤٥ لأبي خير الطالقاني في السنة ثم قال: وهو منكر متناً ضعيف منقطع سنداً. اهـ. وقوله: لست بخير، أخرجه ابن إسحاق عن أنس رضي الله عنه كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٦٠-٦٦١، وفيه: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني...
وقوله: فلست بخيركم، أخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف ١١/ ٣٣٦، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢١٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠/ ٣٠٢ و٣٠٤.

(٢) قرأ نافع وحفص بالتخفيف والباقون بالتشديد كما في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وهو خلاف المشهور عن أبي جعفر وأبي عمرو.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

نَهي أولئك المؤمنين عن مماثلة أهلِ الكتاب بعد أنْ عُوتِبُوا بما سمعتَ، وعلى النفي هو في المعنى نهيٌ أيضاً.

وقرأ أبو بحرية وأبو حيوة وابن أبي عبلة وإسماعيل عن أبي جعفر وعن شيبة ويعقوب وحمزة في رواية عن سليم عنه: «ولا تكونوا» بالتاء الفوقية[1] على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير، وفي «لا» ما تقدَّم، والنهيُ مع الخطاب أظهرُ منه مع الغيبة.

﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ أي: الأجل بطول أعمارهم وآمالهم، أو: طالَ أمدُ ما بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبَعُدَ العهدُ بهم، وقيل: أمدُ انتظار القيامة والجزاء، وقيل: أمدُ انتظارِ الفتح، وفرَّقوا بين الأمد والزمان بأنَّ الأمدَ يقال باعتبار الغاية، والزمان عامٌّ في المبدأ والغاية.

وقرأ ابن كثير في رواية: «الأمدُّ» بتشديد الدال[2]، أي: الوقتُ الأطولُ.

﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ صلبَت فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدود دينهم، رافضون لِمَا في كتابهم بالكلية، قيل: من فرط القسوة، ذُكِرَ أنَّه مأخوذٌ من كون الجملة حالاً، وفيه خفاءٌ، والأظهر أنَّه من السياق، والمراد بـ «الكتاب» الجنس، فالموصولُ يعمُّ اليهودَ والنصارى، وكانوا كلُّهم في أوائل أمرهم يحولُ الحقُّ بينهم وبين كثير من شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيلَ خَشَعُوا لله تعالى ورقَّت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمانُ غلبهم الجفاءُ والقسوةُ، وزالت عنهم الروعةُ التي كانوا يجدونها عند سماع الكتابَين، وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء، وتفرَّقت بهم السبل.

والقسوةُ مبدأُ الشرور وتنشأُ من طول الغفلة عن الله تعالى، وعن عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلامَ بغير ذكر الله تعالى فتقسوَ قلوبُكم، فإنَّ القلبَ القاسي بعيدٌ عن الله عز وجل، ولا تنظروا إلى ذنوب العبادِ كأنَّكم أربابٌ وانظروا في

---

(١) قراءة يعقوب من رواية رويس في النشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وليس فيه ذكر أبي بحرية.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وهو خلاف المشهور عنه.

ذنوبكم كأنَّكم عباد، والناسُ رجلان مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهلَ البلاء، واحمَدُوا على العافية[١].

ومَن أحسَّ بقسوةٍ في قلبه فليهْرَع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجِعُ إليه حالُه، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيلٌ ذُكِرَ استطراداً لإحياء القلوب القاسيةِ بالذكر والتلاوة بإحياء الأرضِ الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارَين.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدقات، وقد قرأ أبيّ كذلك[٢]، وقرأ ابن كثير وأبو بكر والمفضل وأبان وأبو عمرو في رواية هارون بتخفيف الصاد[٣] من التصديق لا من الصدقة كما في قراءة الجمهور، أي: الذين صَدَّقوا واللاتي صدَّقْنَ اللهَ عز وجل ورسولَه ﷺ، والقراءةُ الأولى أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقيل: الثانية أرجحُ لأنَّ الإقراضَ يُغني عن ذكر التَّصَدُّق، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدتَه.

وعطف «أقرضوا» على معنى الفعل من «المصَّدِّقين» على ما اختاره أبو علي والزمخشري؛ لأنَّ «أل» بمعنى «الذين»، واسم الفاعل بمعنى الفعل، فكأنه قيل: إنَّ الذين اصَّدَّقوا أو صَدَّقوا ـ على القراءتَين ـ وأقرضوا[٤].

وتعقبه أبو حيان وغيرُه بأنّ فيه الفصلَ بين أجزاء الصلة ـ إذ المعطوفُ على الصلة صلةٌ ـ بأجنبي وهو «المصدقات»، وذلك لا يجوز[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

(٣) قراءة ابن كثير وأبي بكر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والمشهور عن أبي عمرو خلاف هذه القراءة.

(٤) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٧٥، والكشاف ٤/ ٦٤-٦٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

وقال صاحب «التقريب»: هو محمولٌ على المعنى، كأنَّه قيل: إنَّ الناس الذين تصدَّقوا وتصدَّقْنَ وأقرضوا، فهو عطفٌ على الصلة من حيث المعنى بلا فصل.

وتعقِّبَ بأنَّه لا محصِّل له إلا إذا قيل: إنَّ «أل» الثانية زائدةٌ لئلا يعطف على صورة جزءِ الكلمة، وفيه بُعدٌ. ولا يخفى أنَّ حديث اعتبار المعنى يدفعُ ما ذُكِرَ، ومن هنا قيل: إنَّه قريبٌ، ولا يبعدُ تنزيلُ ما تقدَّم عن أبي علي والزمخشري عليه.

وقيل: العطف على صلة «أل» في «المصدقات» واختلاف الضمائر تأنيثاً وتذكيراً لا يضرُّ؛ لأنَّ «أل» تصلح للجميع، فيراد بها معنى «اللاتي» عند عَوْد ضميرِ جَمْعِ الإناث عليها، ومعنى «الذين» عند عَوْدِ ضميرِ جمعِ الذكور عليها. وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: هو من باب: كلُّ رجل وضيعتهُ، أي: إنَّ المصدقين مقرونون مع المصدقات في الثواب والمنزلة، أو يقدَّر خبر، أي: إنَّ المصدقين والمصدقات يفلحون، و«أقرضوا» في الوجهَين ليس عطفاً على الصلة، بل مستأنف، و«يضاعف» بعدُ صفةُ «قرضاً» أو استئناف. ومَن أنصف لم يَرَ ذلك مما ينبغي أنْ يُخرَّج عليه كلامُ أدنَى الفصحاء، فضلاً عن كلام ربِّ العالمين.

واختار أبو حيان تخريجَ ذلك على حَذْف الموصولِ لدلالة ما قبلَه عليه، كأنَّه قيل: والذين أقرضوا، فيكون مثلَ قوله:

فمَن يهجو رسولَ الله منكم ويَمدَحُه ويَنصرُهُ سواءُ[1]

وهو مقبولٌ على رأي الكوفيين دونَ رأي البصريين، فإنَّهم لا يجوِّزون حذفَ الموصول في مثله.

وبعضُ أئمة المحقِّقين بعد أن استقرَبَ توجيهَ «التقريب» ولم يستبعد تنزيلَ ما سمعتَ عن الزمخشري وأبي علي عليه قال: وأقربُ منه أنْ يقال: إنَّ «المصدقات» منصوبٌ على التخصيص، كأنَّه قيل: إنَّ المتصدقين عامًّا على

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والبيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٦٤، وسلف ١٣/ ٦٣، ووقع في (م): يهجر، بدل: يهجو.

التغليب وأخصُّ المتصدقات منهم، كما تقول: إنَّ الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا، ووجهُ التخصيص ما ورَدَ في قوله ﷺ: «يا معشرَ النساءِ تصدَّقْنَ فإنِّي أُرِيْتُكنَّ أكثرَ أهلِ النار»[1]، يحضُّهُنَّ على الصدقة، بأنَّهنَّ إذا فعلْنَ ذلك كان له تعالى أَقْبَلَ، وجزاؤه عنه سبحانه أَوْفَرَ وأَفْضَلَ، ثم قال: ولمَّا لم يكن الإقراض غيرَ ذلك التصدُّق قيل: «وأقرضوا»، أي: بذلك التصدُّق، تحقيقاً لكينونته، وأنَّهم في[2] مثل ذلك ممثَّلون عند الله تعالى بمن يعامل مع أجود الأجودين معاملةً برضاه، ولو قيل: والمقرضين، لفاتَتْ هذه النكتة. انتهى.

ولا يخفى أنَّ نصبَ «المصدقات» على التخصيص خلافُ الظاهر، وأما ما ذكره في نكتة العدول عن: والمقرضين[3]، فحسن، وهو متأتٍّ على تخريج أبي علي والزمخشري، وعلى تخريج أبي حيان.

وقال الخفاجي: القولُ - أي: قول أبي البقاء - بأنَّ «أقرضوا» إلخ معترضٌ بين اسم «إنَّ» وخبرها أظهرُ وأسهلُ[4]. وكأنَّ النكتةَ فيه تأكيدُ الحكم بالمضاعفة.

وزعْمُ أنَّ الجملة حالٌ بتقدير «قد» أو بدونها من ضميري «المصدقين والمصدقات» لا يخفى معنًى وعربيةً، فتدبر.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الضميرُ لجميع المتقدِّمين الذكور والإناث على التغليب، كضمير «أقرضوا»، والجارُّ والمجرور نائب الفاعل، وقيل: هو ضمير التصدُّق أو ضمير القرضِ على حذف مضاف، أي: يضاعَف ثوابُ التصدُّق أو ثواب القرض لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قوله: في، ليس في (م).

(٣) تصحف في (م) إلى: المقروضين.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ١٥٩، وقول أبي البقاء في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٨٤-٣٨٥.

وقرأ ابن كثير وابن عامر: «يُضعَّف» بتشديد العين[1]، وقرئ: «يُضَاعِف» بالبناء للفاعل[2]، أي: يُضاعِفُ اللهُ عز وجل ثوابَ ذلك.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد مرَّ الكلام فيه[3].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ قد بَيَّن كيفيةَ إيمانهم في خاتمة سورة البقرة[4]، والموصولُ مبتدأ أول، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ، وهو إشارةٌ إلى الموصول، وما فيه من معنى البُعدِ لِمَا مرَّ مراراً، وقوله سبحانه: ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث، وقوله عز وجل: ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ﴾ خبرُ الثالث، والجملة خبرُ الثاني، وهو مع خبره خبرُ الأول، أو «هم» ضميرُ فصل وما بعده خبرُ الثاني.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ ـ على ما قيل ـ بالثبوت الذي تقتضيه الجملة، أي: أولئك عند ربهم عز وجل وفي حُكْمِه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء.

والمراد: أولئك في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلوِّ الرُّتبة ورِفعة المحلِّ، وهم الذين سبَقُوا إلى التصديق ورسخُوا فيه واستُشْهِدوا في سبيل الله جل جلاله.

وسُمِّي مَن قُتِلَ مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً؛ لأنَّ الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهودٌ له بالجنة، وقيل: لأنَّه حيٌّ لم يمت كأنَّه شاهدٌ، أي: حاضر. وقيل: لأنَّ ملائكة الرحمة تشهدُه. وقيل: لأنَّه شهد ما أعدَّ الله تعالى له من الكرامة. وقيل غير ذلك، فهو إما فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول، على اختلاف التأويل.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبرٌ ثانٍ للموصول على أنَّه جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ، أو «لهم» الخبر وما بعده مرتفعٌ به على الفاعلية، وضمير «لهم» للموصول، والضميران الأخيران للصدِّيقين والشهداء. والغرضُ بيانُ ثمرات ما وُصفوا به من

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/٢٢٨، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب.
(٢) نسبها القرطبي ٢٠/٢٥٧ للأعمش.
(٣) تقدم ص٤١٣، من هذا الجزء.
(٤) آية رقم (٢٨٥).

نعوت الكمال، أي: أولئك لهم مثلُ أجرِ الصدِّيقين والشهداء ونورِهم المعروفين بغاية الكمال وعزَّة المنال، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حدَّ الاتحاد، كما فعل ذلك أولاً حيث قيل: «أولئك هم الصديقون والشهداء»، وليست المماثلة بَيْن ما للفريق الأولِ من الأجر والنور، وبَيْن تمامِ ما للفريقَين الأخيرَين، بل بَيْن تمام ما للأول من الأصل والإضعاف، وبين ما للأخيرَين من الأصل بدون الإضعاف، فالإضعافُ هو الذي امتاز به الفريقان الأخيران على الفريق الأولِ.

وقد لا يُعتَبر تشبيهٌ بليغٌ في الكلام أصلاً ويبقى على ظاهره، والضمائرُ كلُّها للموصول، أي: أولئك هم المبالغون في الصدق، حيث آمنوا وصدَّقوا جميعَ أخبار الله تعالى وأخبارِ رسله عليهم الصلاة والسلام، والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائرِ صفاتِ الكمال، ولهم[١] بما يليقُ بهم من ذلك، لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وقال بعضهم: وصَفَهم بالشهادة لكونهم شهداءَ على الناس كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فـ «عند ربهم» متعلِّقٌ بـ «الشهداء»، والمرادُ: والشهداء على الناس يوم القيامة، وجوِّز تعلُّقه بـ «الشهداء» أيضاً على الوجه الأول على معنى: الذين شهدوا مزيدَ الكرامة بالقتل في سبيل الله تعالى يوم القيامة، أو في حظيرة رحمته عز وجل، أو نحو ذلك.

ويشهدُ لكون «الشهداء» معطوفاً على «الصديقين» آثارٌ كثيرة:

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ مؤمني أمتي شهداءُ»، ثم تلا النبيُّ ﷺ: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ)[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنَّه قال يوماً لقومٍ عنده: كلُّكم صدِّيقٌ وشهيد. قيل له: ما تقول يا أبا هريرة؟ قال: اقرؤوا: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ) الآية.

---

(١) أي: وللرسل. حاشية الشهاب ٨/ ١٥٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤١٤-٤١٥.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال: كلُّ مؤمن صدِّيقٌ وشهيدٌ، ثم تلا الآية.

وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون[(١)].

وأخرج ابنُ حبان عن عمرو بن مرَّة الجهني قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله أرأيتَ إنْ شهدتُ أنْ لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله، وصليتُ الصلوات الخمسَ، وأديتُ الزكاةَ، وصمتُ رمضان وقمتُه، فمِمَّن أنا؟ قال: «من الصِّدِّيقين والشهداء»[(٢)].

وينبغي أنْ يحمل «الذين آمنوا» على مَن لهم كمالٌ في ذلك يُعتدُّ به، ولا يتحقَّقُ إلا بفعل طاعات يُعتدُّ بها، وإلا فيبعُدُ أنْ يكون المؤمنُ المنهمكُ في الشهوات الغافلُ عن الطاعات صدِّيقاً شهيداً، ويُستأنَسُ لذلك بما جاء من حديث عمرَ ﵁: ما لكم إذا رأيتمُ الرجلَ يُخرِّقُ أعراض الناس أن لا تعيبوا عليه؟ قالوا: نخافُ لسانَه. قال: ذلك أَحرَى أنْ لا تكونوا شهداءَ[(٣)]. قال ابنُ الأثير[(٤)]: أي: إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا في جملة الشهداء الذين يُستشهَدُون يوم القيامة على الأمم التي كذَّبَت أنبياءَها. وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام: «اللَّعَّانون لا يكونون شهداء»[(٥)]، بناءً على أحد قولَين فيه[(٦)].

---

(١) الآثار الثلاثة في الدر المنثور ٦/ ١٧٦، وأثر مجاهد في مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٦٩.

(٢) صحيح ابن حبان (٣٤٣٨).

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٥٢، وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٤٧)، وفيهما: تعرِّبوا، بدل: تعيبوا، قال أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢٦٤: وعندي أن «تعيبوا» تصحيف، وإنما هو: أن تعرِّبوا عليه، أي: تردُّوا عليه. اهـ، وقال أبو زيد والأصمعي كما نقل أبو عبيد: قوله: أن لا تعربوا، يعني: أن لا تفسدوا عليه كلامه وتقبحوه له.

(٤) في النهاية (شهد).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وأبو داود (٤٩٠٧) من حديث أبي الدرداء ﵁.

(٦) أي: لا تسمع شهادتهم، أو: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم الخالية. النهاية (شهد). والثاني هو الذي عناه المصنف بقوله: على أحد قولين.

وفي بعض الأخبار ما ظاهرُه إرادةُ طائفةٍ من خواصِّ المؤمنين، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ مخافةَ الفتنةِ على نفسه ودينِهِ كُتِبَ عند الله صدِّيقاً، فإذا ماتَ قَبَضَه الله شهيداً» وتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ ثم قال: «هذه فيهم» ثم قال: «والفرَّارون بدينهم من أرضٍ إلى أرضٍ يومَ القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة»[1]. ويجوز أنْ يُراد من قوله: «هذه فيهم» أنَّها صادقةٌ عليهم وهم داخلون فيها دخولاً أوليًّا، ويقال في قوله عليه الصلاة والسلام: «مع عيسى في دَرَجتِهِ»: المرادُ معه في مثل درجته، وتُوَجَّه المماثلة بما مرَّ، والخبرُ إذا صحَّ يُؤيِّد الوجهَ الأولَ في الآية.

وروي عن الضحاك أنَّها نزلَت في ثمانية نفرٍ سبقوا أهلَ الأرض في زمانهم إلى الإسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلي وحمزة وطلحة والزبير وسعد وزيد رضي الله عنهم أجمعين[2]. وهذا لا يضرُّ في العموم كما لا يخفى.

وقيل: «الشهداءُ» مبتدأ و«عند ربهم» خبرُه، وقيل: الخبرُ «لهم أجرهم»، والكلامُ عليهما قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس والضحاك قالا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هذه مفصولةٌ، سمَّاهم صدِّيقين ثم قال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[3]، وروى جماعةٌ عن مسروق ما يوافقه.

واختلفوا في المراد بـ«الشهداء» على هذا؛ فقيل: الشهداء في سبيل الله تعالى، وحكي ذلك عن مقاتل بن سليمان، وقيل: الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون للأمم وعليهم[4]، وحكي ذلك عن مسروق ومقاتل بن حيان، واختاره الفراء والزجَّاج[5].

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٦.
(٢) وتاسعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته، كما في الوسيط ٤/ ٢٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، ووقع في (م): . . . وهم أبو بكر وعمر وعلي. . . .
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٤١٣-٤١٤.
(٤) في (م): للأمم عليهم.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٥، وللزجاج ٥/ ١٢٦.

وزعم أبو حيان أنَّ الظاهر كونُ الشهداء مبتدأً وما بعدَه خبرٌ[1]. ومَن أنصفَ يعلمُ أنَّه ليس كما قال، وأنَّ الذي تقتضيه جزالةُ النظم الكريم هو ما تقدَّم.

ثم النور على جميع الأوجه على حقيقته، وعن مجاهد وغيره أنَّه عبارةٌ عن الهدَى والكرامة والبشرى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بجميعها على اختلاف أنواعها، وهو إشارةٌ إلى كفرهم بالرسل عليهم السلام جميعهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ بعدما بيّن حال الفريقَين في الآخرة شرح حال الحياة التي اطمأنَّ بها الفريقُ الثاني، وأُشيرَ إلى أنَّها من محقَّرات الأمور التي لا يَركَنُ إليها العقلاء فضلاً عن الاطمئنان بها = بأنَّها «لعبٌ» لا ثمرةَ فيها سوى التعبِ، «ولَهْوٌ» تشغلُ الإنسانَ عمَّا يَعنيه ويهمُّه، «وزينةٌ» لا يحصل منها شرفٌ ذاتي، كالملابس الحسنة والمراكبِ البهية والمنازل الرفيعة، «وتفاخرٌ» بالأنساب والعظامِ البالية، «وتكاثر» بالعُدَد والعَدَد، وقرأ السلمي: «وتفاخرُ بينِكم» بالإضافة[2].

ثم أُشيرَ إلى أنَّها مع ذلك سريعةُ الزوالِ وشيكةُ الاضمحلال بقوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ مَطَرٍ ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: رَاقَهم ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: النبات الحاصل به، والمرادُ بالكفار إما الحُرَّاث على ما روي عن ابن مسعود؛ لأنَّهم يكفرون، أي: يسترون البَذْر في الأرض، ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهرٌ، وإما الكافرون بالله سبحانه، ووجْهُ تخصيصهم أنَّهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا، فإنَّ المؤمنَ إذا رأى معجِباً انتقل فكرُه إلى قدرة موجِدِه عز وجل فأُعجِبَ بها، ولذا قال أبو نواس في النرجس:

عيونٌ من لجينٍ شاخصَاتٌ ... على أطرافها ذَهَبٌ سبيكُ

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٤.

علـى قـضـب الـزَّبـرجَـدِ شـاهـدات بــأنَّ الله لــيــس لــه شــريــكُ[1]

والكافرُ لا يتخطَّى فكرُه عما أحسَّ به فيستغرِقُ إعجاباً. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتحرَّك إلى أقصى ما يتأتّى له، وقيل: أي: يجِفُّ بعد خُضرته ونضارته ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ يا مَن تصحُّ منه الرؤية ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيتَه ناضراً مونقاً، وقرئ: «مصفارًّا»[2] وإنما لم يقل: فيصفَرُّ، قيل: إيذاناً بأنَّ اصفرارَه غيرُ مقارِنٍ لهيجانه، وإنما المترتِّب عليه رؤيتُه كذلك، وقيل: للإشارة إلى ظهور ذلك لكلِّ أحدٍ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسِّراً من اليَبْس.

ومحلُّ الكاف قيل: النصبُ على الحالية من الضمير في «لَعِبٌ» لأنَّه في معنى الوصف، وقيل: الرفعُ على أنَّه خبرٌ بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف إليه، أي: مَثَلُ الحياة كمَثَل.. إلخ، ولتضمُّن ذلك تشبيهَ جميع ما فيها من السنين الكثيرةِ بمدَّة نباتِ غَيْثٍ واحدٍ يفنَى ويضمحلّ في أقلِّ من سنة، جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقربِ اضمحلالها.

وبعدما بيّن حقارة أمرِ الدنيا تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها أشيرَ إلى فخامة شأن الآخرة وعِظَم ما فيها من اللذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها المقيم، وتحذيراً من عذابها الأليم، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنَّه من نتائج الانهماك فيما فصِّل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عظيمٌ لا يقادَر قَدْرُه.

وفي مقابلة العذاب الشديدِ بشيئَين إشارةٌ إلى غلبة الرحمة، وأنَّه من باب: «لن يغلبَ عسرٌ يُسرَيْن»[3]، وفي تَرْك وصفِ العذابِ بكونه من الله تعالى مع وصف

---

(١) سلفا ٢/ ٢٧-٢٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٤.

(٣) وهو حديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٦ عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً وإسناده ضعيف، وفي =

ما بعدَه بذلك إشارةٌ إلى غلبتها أيضاً، ورمزٌ إلى أنَّ الخير هو المقصود بالقصد الأولى.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن اطمأنَّ بها ولم يجعلها ذريعةً للآخرة ومطيَّةً لنعيمها، روي عن سعيد ين جبير: الدنيا متاعُ الغرور إنْ ألهتكَ عن طلب الآخرة، فأما إذا دَعَتْكَ إلى طلب رضوانِ الله تعالى وطلبِ الآخرة، فنعمَ المتاعُ ونعم الوسيلة.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أي: سارعوا مسارعةَ السابقين لأقرانهم في المضمار إلى أسباب مغفرةٍ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والكلامُ على الاستعارة، أو المجاز المرسَل واستعمالِ اللفظ في لازم معناه، وإنَّما لزم ذلك لأنَّ اللازم أنْ يبادِر مَن يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخولِ الجنة لا أنْ يعمله أو يتَّصف بذلك سابقاً على آخر.

وقيل: المرادُ: سابقوا ملكَ الموت قبل أنْ يقطعَكم بالموت عن الأعمال الموصلةِ لِمَا ذكر.

وقيل: سابقوا إبليسَ قبل أنْ يصدَّكم بغروره وخداعِهِ عن ذلك. وهو كما ترى.

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال في الآية: كن أوَّلَ داخلٍ [في][1] المسجد وآخرَ خارجٍ. وقال عبد الله: كونوا في أول صفٍّ [في] القتال. وقال أنس: اشهدوا تكبيرةَ الإحرام مع الإمام. وكلُّ ذلك من باب التمثيل، واستُدلَّ بهذا الأمرِ على أنَّ الصلاة بأوَّل وقتها أفضلُ من التأخير.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرضهما جميعاً لو أُلصِقَ أحدُهما بالآخر، وإذا كان العَرْضُ ـ وهو أقصرُ الامتدادَين ـ موصوفاً بالسَّعة دلَّ على سَعَة الطول بالطريق الأَوْلَى، فالاقتصار عليه أبلغُ من ذكر الطول معه.

= الباب عن عمر ﵁ ذكره مالك في الموطأ [٢/ ٤٤٦] عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر ﵁. . . وهذا أصح طرقه. اهـ.

(١) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٢٢٥، والكلام منه.

وقيل: المرادُ بالعرض البسطةُ، ولذا وُصف به الدعاء ونحوه مما ليس من ذوي الأبعاد. وتقدَّم قولٌ آخرُ في تفسير نظير الآية من سورة آل عمران[١].

وتقديمُ المغفرة على الجنة لتقدُّم التخلية على التحلية.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: هُيِّئت لهم. واستُدلَّ بذلك على أنَّ الجنة موجودةٌ الآن لقوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ﴾ بصيغة الماضي، والتأويلُ خلافُ الظاهر، وقد صُرِّح بخلافه في الأحاديث الصحيحة[٢]، وتمامُ الكلام في علم الكلام.

وعلى أنَّ الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاق الجنةِ؛ لذكره وحده فيما في حيِّز ما يُشعر بعلَّة الإعداد، وإدخالُ العمل في الإيمان المعدَّى بالباء غيرُ مسلَّم. كذا قالوا، ومتى أُريدَ بـ «الذين آمنوا» المذكورين مَن لهم درجةٌ في الإيمان يُعتدُّ بها، وقيل: بأنَّها لا تحصلُ بدون الأعمالِ الصالحة على ما سمعتَه منَّا قريباً = انخدَشَ الاستدلالُ الثاني في الجملة كما لايخفى.

وذكر النيسابوري في وجه التعبير هنا بـ «سابقوا» وفي آية «آل عمران» بـ «سارعوا»، وبـ «السماء» هنا، وبـ «السماوات» هناك، وبـ «كعَرْض» هنا وبـ «عرض» بدون أداة تشبيه ثَمَّ = كلاماً مبنيًّا على أنَّ المراد بالمتقين هناك السابقون المقرَّبون، وبـ «الذين آمنوا» هنا مَن هم دون أولئك حالاً[٣]. فتأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي وعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ عطاؤه الغيرُ الواجب عليه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءَه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يَبعُدُ منه عز وجل التفضُّلُ بذلك على مَن يشاءُ وإنْ عظم قدرُه، فالجملةُ تذييلٌ لإثبات ما ذُيِّل بها.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: نائبةٍ أيِّ نائبة، وأصلها في الرمية، وهي مِن أصابَ السهمُ: إذا وصَلَ إلى المرمى بالصواب، ثم خُصَّت بها. وزعم بعضُهم أنَّها لغةً عامةٌ في الشرِّ والخير، وعُرفاً خاصةٌ بالشر.

---

(١) آية رقم (١٣٣).

(٢) ينظر صحيح مسلم، كتاب الجنة ونعيمها وأهلها.

(٣) غرائب القرآن ٢٧/ ١٠٠.

و«مِنْ» مزيدة للتأكيد، و«أصاب» جاء في الشرِّ كما هنا، وفي الخير كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٣] وذكر بعضُهم أنَّه يستعمل في الخير اعتباراً بالصَّوْب، أي: بالمطر، وفي الشرِّ اعتباراً بإصابة السهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل، وتذكير الفعل في مثل ذلك جائزٌ كتأنيثه، وعليه قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر:٥].

والكلامُ على العموم لجميع الشرور، أي: مصيبةٍ أيِّ مصيبة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجَدْب وعاهة في الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة كالجرح والكسر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: إلا مكتوبة مُثبتة في اللوح المحفوظ، وقيل: في علم الله عز وجل.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: نخلقَها، والضمير على ما روي عن ابن عباس وقتادة والحسن وجماعة للأنفس، وقيل: للأرض، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة؛ لأنَّها هي المحدَّثُ عنها، وذكرُ الأرض والأنفس إنَّما هو على سبيل ذِكْر محلِّها، وذكر المهدوي جوازَ عَوْده على جميع ما ذكر[١]. وقال جماعة: يعودُ على المخلوقات وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ.

وقيل: المرادُ بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشرٍّ. وهو خلافُ الظاهر من استعمال المصيبة، إلا أنَّ فيما بعد نوعَ تأييدٍ له.

وأيَّامّا كان فـ «في الأرض» متعلِّق بمحذوف مرفوعٍ أو مجرورٍ صفة لـ «مصيبة» على الموضع أو على اللفظ، وجوِّز أن يكونَ ظرفاً لـ «أصاب» أو للمصيبة، قيل: وإنما قُيِّدَت المصيبةُ بكونها في الأرض والأنفس؛ لأنَّ الحوادث المطلقةَ كلَّها ليسَت مكتوبةً في اللوح؛ لأنَّها غيرُ متناهية واللوحُ متناهٍ، وهو لا يكون ظرفاً لغير المتناهي، ولذا جاء: «جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[٢].

وفي الآية تخصيصٌ آخر، وهو أنَّه سبحانه لم يذكر أحوالَ أهل السماوات لعدم

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٥.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣) عن ابن عباس دون لفظ: «إلى يوم القيامة».

تعلُّق الغرضِ بذلك مع قلَّة المصائب في أهلها، بل لا يكادُ يُصيبهم سوى مصيبة الموت.

وما ذكره في وجه التخصيص الأول لا يتمُّ إذا أُريدَ بالكتاب علمُه سبحانه، أو قيل[1]: بأنَّ كتابة الحوادثِ فيه على نحو كتابتها في القرآن العظيم، بناءً على ما يقولون: إنَّه ما مِن شيءٍ إلا ويمكنُ استخراجُه منه، حتى أسماء الملوك ومُدَدهم وما يقعُ منهم. ولو قيل في وجهه: إنَّ الأوفقَ بما تقدَّم من شرح حالِ الحياة الدنيا إنَّما هو ذكر المصائب الدنيوية، فلذا خُصَّت بالذكر، لكان تامًّا مطلقاً.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في الكتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا غيره سبحانه ﴿يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العُدَّة والمُدَّة، وإنْ أُريد بذلك تحقُّقها في علمه جل شأنه، فيُسْره لأنَّه من مقتضيات ذاته عز وجل.

وفي الآية رَدٌّ على هشام بن الحكم الزاعم أنَّه سبحانه لا يعلم الحوادثَ قبل وقوعها. وفي «الإكليل»: إنَّ فيها ردًّا على القدرية[2]. وجاء ذلك في خبر مرفوع، أخرج الديلمي عن سليم بن جابر الهجيمي[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «سيُفتَحُ على أمتي بابٌ من القَدَر في آخر الزمانِ لا يسدُّه شيءٌ، يكفيكم منه أنْ تَلقَوه بهذه الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾» الآية[4].

---

(١) في (م): وقيل، بدل: أو قيل.

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٥٥.

(٣) في الأصل و(م): الجهيمي، وفي مطبوع الدر المنثور ٦/ ١٧٧ (والكلام منه): النجيمي، والصواب ما أثبتناه، ويقال في اسمه أيضاً: جابر بن سليم، وهو صحابي له أحاديث كما في التقريب، ولكن ذكره في هذا الحديث وهم، والصواب أنه من رواية سليمان بن حفص عن النبي ﷺ مرسلاً، كما في تهذيب الكمال ١١/ ٣٩٣، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٢٢، وتهذيب الكمال ١١/ ٣٩٣، ووقع في الفردوس: سليم بن حفص، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٦)، وفيه سليمان بن جعفر، وذكر فيه الآية (٤٢) من سورة الزمر بدل هذه الآية. والحديث مع إرساله إسناده ضعيف بجهالة سليمان بن حفص كما ذكر الحافظ في التقريب.

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي حسان أنَّ رجلَين دخلا على عائشة ﵂ فقالا: إنَّ أبا هريرة يُحدِّثُ أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأةِ والدَّابةِ والدار» فقالت: والذي أنزلَ القرآنَ على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، ولكنْ كان رسول الله ﷺ يقول: «كان أهلُ الجاهليةِ يقولون: إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأة والدَّابة والدار»، ثم قرأت: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ) الآية[1].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي: أخبرناكم بذلك لئلَّا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نِعَم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم[2] الله تعالى منها، فإنَّ مَن علم أنَّ الكلَّ مقدَّرٌ، يفوتُ ما قدِّرَ فواتُه، ويأتي ما قُدِّر إتيانُه لا محالةَ لا يعظُمُ جزعُه على ما فات، ولا فرحُه بما هو آتٍ، وعلم كونَ الكلِّ مقدَّراً، مع أنَّ المذكور سابقاً المصائبُ دون النِّعم وغيرها؛ لأنَّه لا قائلَ بالفرق، وليس في النظم الكريم اكتفاءٌ[3] كما تُوهِّم، نعم إنْ حملت المصيبة على الحوادث من خيرٍ وشرٍّ كان أمرُ العلم أوضحَ كما لا يخفَى.

وترك التعادل بين الفعلَين في الصِّلتَين حيث لم يُسندا إلى شيءٍ واحد بل أُسنِدَ الأولُ إلى ضمير الموصول والثاني إلى ضميره تعالى؛ لأنَّ الفواتَ والعدمَ ذاتيٌّ للأشياء، فلو خُلِّيَت ونفسها لم تَبْقَ، بخلاف حصولها وبقائها؛ فإنَّه لا بدَّ من استنادهما إليه عز وجل كما حُقِّق في موضعه، وعليه قول الشاعر:

فلا تُتْبِعِ الماضي سُؤَالَك لِمْ مَضَى ... وعرِّجْ على الباقي وسائلْهُ لِمْ بَقي[4]

ومِثْلُ هذه القراءةِ قراءةُ عبد الله: «أُوتيتُم» مبنيًّا للمفعول[5]، أي: أُعطِيتُم.

---

(١) المسند (٢٦٠٣٤) و(٢٦٠٨٨)، والمستدرك ٢/ ٤٧٩.

(٢) في (م): أعطاكموه.

(٣) هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازمٌ وارتباط، فيكتفى بأحدِهما عن الآخر لنكتة، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، وخصص الحَرّ لأن العرب كانت بلادهم حارة، فالوقاية من الحَرِّ عندهم أهمّ. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٤) البيت للبحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٩، وسلف ١٧/ ٣٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٥.

وقرأ أبو عمرو: «أتاكم» من الإتيان[١]، أي: جاءكم، وعليها بين الفعلَين تعادل.

والمرادُ نَفْي الحزن المخرج إلى ما يَذهَل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاءِ ثوابِ الصابرين، ونَفْي الفرح المُطغِي المُلهي عن الشكر، وأما الحزنُ الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرورُ بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

أخرج جماعةٌ منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: ليس أحدٌ إلا وهو يحزَن ويفرَح، ولكنْ مَن أصابته مصيبةٌ جعلها صبراً، ومَن أصابه خيرٌ جعله شكراً[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تذييلٌ يُفيدُ أنَّ الفرحَ المذمومَ هو الموجب للبطرِ والاختيال، والمختال: المتكبِّر عن تَخيُّل فضيلةٍ تَراءَت له من نفسه، والفخورُ: المباهي في الأشياء الخارجةِ عن المرءِ كالمال والجاه. وذكر بعضهم أنَّ الاختيال في الفعل، والفخر فيه وفي غيره.

والمرادُ مِن «لا يحبُّ»: يُبغِضُ، إذ لا واسطةَ بين الحبِّ والبغضِ في حقِّه عز وجل، وأُوِّلا بالإثابة والتعذيب، ومذهبُ السلف تركُ التأويل مع التنزيه، ومَن لا يحبُّ كلَّ مختال لا يحبُّ كلَّ فَرْدٍ من ذلك، لا أنَّه لا يحبُّ البعضَ دون البعض، ويُرَدُّ بذلك على الشيخ عبد القاهر في قوله[٣]: إذا تأمَّلنا وجدنا إدخالَ كلٍّ في حيِّز النفي لا يصلحُ إلا حيث يُراد أنَّ بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إنَّ هذا الحكم أكثريٌّ لا كلِّي.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدلٌ من«كلّ مختالٍ» بدلَ كلٍّ من كل، فإنَّ المختال بالمال يضِنُّ به غالباً ويأمرُ غيرَه بذلك، والظاهرُ أنَّ المرادَ أنَّهم يأمرون حقيقةً، وقيل: كانوا قدوةً فكأنَّهم يأمرون.

---

(١) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٧٩، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣-٣٧٤، والطبري ٢٢/ ٤٢١.

(٣) في دلائل الإعجاز ص٢٨٣-٢٨٤ بنحوه.

أو هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين.. إلخ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ تقديره: يُعرِضون عن الإنفاق الغنيّ عنه الله عز وجل، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فإنَّ معناه: ومَن يُعرِض عن الإنفاق فإنَّ الله سبحانه غنيٌّ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته لا يضرُّه الإعراضُ عن شكره بالتقرُّب إليه بشيءٍ من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره: مستغنًى عنهم، أو موعودون بالعذاب، أو مذمومون.

وجوِّز أن يكون في موضع نصب على إضمار «أعني»، أو على أنَّه نعتٌ لـ «كلَّ مختال» فإنَّه مخصَّصٌ نوعاً مّا من التخصيص، فساغَ وصفُه بالمعرفة، وهذا ليس بشيء، وقال ابن عطية: جوازُ مثلِ ذلك مذهبُ الأخفش[(١)].

ولا يخفَى ما في الجملة من الإشعار بالتهديد لمن تولَّى.

وقرأ نافع وابن عامر: «فإنَّ الله الغنيُّ» بإسقاط «هو»[(٢)]، وكذا في مصاحف المدينة والشام، وهو في القراءة الأخرى ضميرُ فصلٍ، قال أبو علي[(٣)]: ولا يَحسُنُ أنْ يكون مبتدأً، وإلا لم[(٤)] يَجُز حذفُه في القراءة الثانية؛ لأنَّ ما بعدَه صالحٌ لأنْ يكون خبراً، فلا يكونُ هناك دليلٌ على الحذف.

وهذا مبنيٌّ على وجوب توافق القراءتَين إعراباً، وليس بلازم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: من بني آدم كما هو الظاهر ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب الشامل للكلِّ، والظرفُ حالٌ مقدَّرةٌ منه على ما قال أبو حيان[(٥)]، وقيل: مقارِنةٌ، بتنزيل الاتصال منزلةَ المقارنة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٦، والكلام منه.
(٢) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر.
(٣) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٧٦ بنحوه.
(٤) قوله: لم، مكرر في (م).
(٥) في البحر المحيط ٨/ ٢٢٦.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره، وإنزالُه إنزالُ أسبابه ولو بعيدة، وأَمْرُ الناس باتِّخاذه مع تعليم كيفيَّته.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ علَّةٌ لإنزال الكتاب والميزان، والقيامُ بالقسط ـ أي: بالعدل ـ يشملُ التسويةَ في أمور التعامل باستعمال الميزان، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب، وهو لفظٌ جامع مشتمِلٌ على جميع ما ينبغي الاتصاف به معاشاً ومعاداً.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قال الحسن: أي: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ﴾ [الزمر:٦]. وهو تفسيرٌ بلازم الشيء، فإنَّ كلَّ مخلوقٍ مُنزَلٌ باعتبار ثبوتِهِ في اللوح وتقديره موجوداً حيث ما ثبَتَ فيه.

وقال قطرب: هيَّأناه لكم وأنعمنا به عليكم، مِن: نُزُل الضيف.

﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ أي: عذاب ﴿شَدِيدٌ﴾ لأنَّ آلات الحرب تُتَّخذ منه، وهذا إشارةٌ إلى احتياج الكتاب والميزانِ إلى القائم بالسيف ليحصلَ القيامُ بالقسط، فإنَّ الظلم من شِيَم النفوس.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم ومصالحهم، إذ ما مِن صنعةٍ إلا والحديدُ أو ما يعمل به آلتُها؛ للإيماء إلى أنَّ القيامَ بالقسط كما يحتاجُ إلى الوازع ـ وهو القائم بالسيف ـ يحتاجُ إلى ما به قوام التعايش ومَن يقوم بذلك أيضاً، ليتمَّ التمدُّن المحتاج إليه النوع، وليتمَّ القيامُ بالقسط، كيف وهو شاملٌ أيضاً لِمَا يخصُّ المرءَ وحدَه.

والجملةُ الظرفية في موضع الحال، وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ عطفٌ على محذوف يدلُّ عليه السياق أو الحال؛ لأنَّها متضمِّنةٌ للتعليل، أي: لينفعَهم وليعلمَ الله تعالى علماً يتعلَّق به الجزاءُ مَن ينصرُهُ ورسلَه باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه، والحذف للإشعار بأنَّ الثاني هو المطلوب لذاته، وأنَّ الأولَ مقدِّمةٌ له، وجوِّز تعلُّقه بمحذوفٍ مؤخَّرٍ، والواو اعتراضية، أي: وليعلمَ.. إلخ أنزلَه، أو مقدَّمٍ والواو عاطفةٌ والجملةُ معطوفة على ما قبلها، وقد حُذِفَ المعطوفُ وأُقيمَ متعلّقه مقامَه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من فاعل «ينصرُ»، أو من مفعوله، أي: غائباً منهم، أو غائبين منه.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ جِيءَ به تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أنَّ تكليفَهم الجهادَ وتعريضَهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهارِ دينه إلى نصرتهم، بل إنَّما هو لينتفعوا به ويصلُوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلا فهو جل وعلا غنيٌّ بقدرته وعزَّته عنهم في كلِّ ما يُريد.

هذا وذهب الزمخشريُّ[١] إلى أنَّ المرادَ بالرسل رُسلُ الملائكة عليهم السلام، أي: أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام، وفَسَّر «البينات» كما فسَّرنا؛ بناءً على أنَّ[٢] الملائكة ترسَل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنَّها معجزاتٌ، وإلا فكان الظاهرُ الاقتصارَ على الحُجَج، وإنزالُ الكتاب ـ أي: الوحي ـ مع أولئك الرسل ظاهر، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته، قال: روي أنَّ جبريلَ عليه السلام نزَلَ بالميزان فدفَعَه إلى نوح عليه السلام وقال: مُرْ قومك يَزِنوا به. وفسَّرَه كثيرٌ بالعدل.

وعن ابن عباس في إنزال الحديد: نَزَل مع آدم عليه السلام المِيْقَعة والسِّنْدَان والكَلْبَتَان. وروي أنَّه نزَلَ ومعه المَرُّ والمِسْحَاة[٣]، وقيل: نَزَل ومعه خمسةُ أشياء من الحديد: السِّنْدان والكَلْبتان والإبرة والمِطْرقة والمِيْقَعة، وفُسِّرَت بالمِسَنِّ، وتجيء بمعنى المِطْرَقة أو العُظَيمة منها، وقيل: ما تُحَدُّ به الرَّحَى، وفي حديث ابن عباس: نزل آدمُ عليه السلام من الجنة بالباسنة[٤]، وهي آلات الصناع، وقيل: سكةُ الحرث، وليس بعربيٍّ مَحْض. والله تعالى أعلم.

واستظهر أبو حيان كون: «ليقومَ الناسُ بالقسط» علَّةً لإنزال الميزان فقط، وجوَّز ما ذكرناه[٥]، وهو الأولى فيما أرى.

---

(١) في الكشاف ٤/ ٦٦.
(٢) قوله: أن، ساقط من (م).
(٣) المَرُّ بالفتح: الحبل، والمسحاة كالمجرفة إلا أنها من حديد. الصحاح (مرّ) و(سحا).
(٤) ذكره ابن الأثير في النهاية (بَسَنَ)، وما سيأتي من شرحه منقول منه.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ نوعُ تفصيلٍ لِمَا أُجمِلَ في قوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا) وتكريرُ القسم لإظهار مزيدِ الاعتناء بالأمر، أي: وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب، وقال ابن عباس: الكتاب الخطُّ بالقلم.

وفي مصحف عبد الله: «والنبية» مكتوبة بالياء عوض الواو[1].

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من الذرية؛ وقيل: أي من المرسَل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم، ولم يقل: ومنهم ضالٌّ، مع أنَّه أظهرُ في المقابلة؛ لأنَّ ما عليه النظم الكريم أبلغُ في الذمِّ؛ لأنَّ الخروجَ عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكُّن منه ومعرفته أبلغُ من الضلال عنه، ولإيذانه بغَلَبة أهل الضلال على غيرهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: أرسلنا بعدَهم رسولاً بعد رسولٍ. وأصلُ التقفية: جَعْلُ الشيء خلف القَفَا، وضميرُ «آثارهم» لنوح وإبراهيم ومَن أُرسِلا إليهم مِن قومهما.

وقيل: لمن عاصَرَهما من الرسل عليهم السلام. واعترض بأنَّه لو عاصر رسولٌ نوحاً، فإما أنْ يُرسَل إلى قومه، كهارون مع موسى عليهما السلام، أو إلى غيرهم، كلوط مع إبراهيم عليهما السلام، ولا مجالَ للأول لمخالفته للواقع، ولا إلى الثاني إذ ليس على الأرض قومٌ غيره. وأُجيبَ بأنَّ ذاك توجيهٌ لجمع الضمير، وكونُ لوطٍ مع إبراهيم كافٍ فيه.

وقيل: للذرية. وفيه أنَّ الرسُلَ المقفَّى بهم من الذرية، فلو عاد الضميرُ عليهم لزم أنَّهم غيرُهم، أو اتحادُ المقفَّى والمقفَّى به، وتخصيصُ الذرية مرجعِ الضمير بالأوائل منهم خلافُ الظاهر من غير قرينةٍ تدلُّ عليه.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ جعلناه بعد، وحاصلُ المعنى: أرسلنا رسولاً بعد

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٦-١٣٧.

رسولٍ حتى انتهى الإرسالُ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ بأنْ أوحيناه إليه، وليس هو الذي بين أيدي النصارى اليوم، أعني المشتمل على قصة ولادتِهِ، وقصة صَلْبه المفتراة.

وقرأ الحسنُ: «الأنجيل» بفتح الهمزة[١]، قال أبو الفتح: وهو مثالٌ لا نظيرَ له[٢]. قال الزمخشري[٣]: وأمرُه أهونُ من أمر «البَرْطيل» - بفتح الباء والكسرُ أشهرُ، وهو حجرٌ مستطيل، واستعمالُه في الرشوة مولَّد مأخوذٌ منه بنوع تجوُّزٍ - لأنَّه عجمي وهذا عربي[٤]، وهم يتلاعبون بالعجمي ولا يلتزمون فيه أوزانهم.

وزعم بعضٌ أنَّ لفظ «الإنجيل» عربيٌّ من نَجِلْتُ بمعنى استخرجتُ، لاستخراج الأحكام منه.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: خلَقْنا، أو: صيَّرنا، فـ «في قلوب» في موضع المفعول الثاني، وأيًّاما كان فالمرادُ: جعلنا ذلك في قلوبهم فهم يرأفُ بعضُهم ببعض ويرحمُ بعضُهم بعضاً، ونظيرُه في شأن أصحابِ النبي ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والرأفة في المشهور الرحمةُ، وقال بعضُ الأفاضل: إنها إذا ذُكرَت معها يُراد بالرأفة ما فيه دَرْءُ الشرِّ ورأبُ الصدع، وبالرحمة ما فيه جَلبُ الخير، ولذا ترى في الأغلب تقديمَ الرأفةِ على الرحمة، وذلك لأنَّ دَرْءَ المفاسد أهمُّ من جلب المصالح. وقرئ: «رآفة» على فعالة كشجاعة[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٣١٣.

(٣) في الكشاف ٤/ ٦٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٤) يعني أن البِرطيل بكسر الباء عربي، ففتح فائه - أي: الباء - إذا سمع فيه غيرُ هَيِّنٍ؛ لأن فَعْليلاً بالفتح ليس من أبنية العرب، فالعدول فيه عن سَنَنِ ألفاظهم غير سهل، بخلاف إنجيل فإنه أعجمي على الصحيح المشهور، فالعدول فيه عن أوزانهم سهل. حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبٌ بفعل مضمَر يُفسِّره الظاهرُ، أي: وابتدعوا رهبانيةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ فهو من باب الاشتغال.

واعترض بأنَّه يُشتَرَط فيه ـ كما قال ابن الشجري وأبو حيان[1] ـ أن يكونَ الاسمُ السابقُ مختصًّا يجوزُ وقوعُه مبتدأً، والمذكور نكرة لا مسوِّغَ لها من مسوِّغات الابتداء.

ورُدَّ بأنَّه على فرض تسليمِ هذا الشرطِ الاسمُ هنا موصوفٌ معنًى بما يُؤخَذ من تنوين التعظيم، كما قيل في قولهم: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ[2]. ومما يدلُّ عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

أو منصوب بالعطف على ما قبل، وجملة «ابتدعوها» في موضع الصفة، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً وحبَّ رهبانيةٍ مُبتَدَعةٍ لهم.

وبعضُهم جعله معطوفاً على ما ذكر ولم يتعرَّض للحذف، وقال: الرَّهبانيةُ من أفعال العباد؛ لأنَّها المبالغةُ في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، وأصلُ معناها: الفعلةُ المنسوبة إلى الرَّهْبَان وهو الخائفُ، فَعْلان مِن: رَهِب، ك : خَشْيَان من خَشِي، وأفعالُ العباد يتعلَّق بها جَعْلُ الله تعالى عند أهل الحقِّ، وهي في عين كونها مخلوقةً له تعالى مكتسبةٌ للعبد.

والزمخشريُّ جوَّز العطفَ المذكور وفسَّر الجعل بالتوفيق، كأنَّه قيل: وفَّقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرَّهبانية واستحداثها[3]، بناءً على مذهبه أنَّ الرهبانيةَ فعلُ العبد المخلوق له باختياره، وفائدة «في قلوب» على هذا التصويرُ على ما قيل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٨ وكلامه عن ابن الشجري نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٢) مثل يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله، أهرَّه: إذا حمله على الهَرِيْر، والهريرُ: صوت الكلب دون نباحه من قلة صبره على البرد. مجمع الأمثال ١/ ٣٧٠، والقاموس المحيط (هرَّ).

(٣) الكشاف ٤/ ٦٨.

ولا يخفى ما في هذا التفسير من العدول عن الظاهر، لكن الإنصاف أنَّه لا يحسُنُ العطفُ بدون هذا التأويل، أو اعتبارِ حذفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامَه على ما تقدَّم، أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوبِ كالخوف المفرِط المقتضي للغلوِّ في التعبُّد، ويُرتكب نوعُ تجوُّز في «ابتدعوها» وما بعدَه، كأنْ يكونَ المرادُ ابتداعَ أعمالها وآثارِها، أو ارتكاب استخدام[1] في الكلام بأنْ يُعتبَرَ للرَّهبانية معنيان: الخوفُ المفرط مثلاً ويراد في «جعلنا في قلوبهم رهبانيةً»، والأعمالُ التعبدية الشاقَّة كرفْضِ الدنيا وشهواتها من النساء وغيرِهنَّ، ويُراد في «ابتدعوها» وما بعدَه، وليس الداعي للتأويل الاعتزالُ، بل كون الرهبانية بمعنى الأعمال البدنية ليسَت مما تُجعَل في القلب كالرأفة والرحمة فتأمل.

وقرئ: «رُهبانية» بضم الراء[2]، وهي منسوبةٌ إلى الرُّهبان بالضم، وهو كما قال الراغب[3]: يكونُ واحداً وجمعاً، فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً. ومَن ظنَّ اختصاصَ المضموم بالجمع قال: إنَّه لمَّا اختصَّ بطائفة مخصوصةٍ أُعطي حُكم العَلَم، فنِسْبتُه إليه كما قالوا في أنصار وأنصاري، أو أنَّ النسبةَ إلى رَهبان المفتوح، وضَمُّ الراء في المنسوب من تغييرات النَّسَب كما في دُهْري بضم الدال.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكنَّهم[4] ابتدَعُوها وألزموا أنفسَهم بها ابتغاءَ رضوان الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما حافظوا عليها حقَّ المحافظة، ذمٌّ لهم من حيث إنَّ ذلك كالنَّذر، وهو عهدٌ مع الله تعالى يجب رعايتُه لا سيما إذا قُصِد به رضاه عز وجل. واستُدلَّ بذلك على أنَّ مَن اعتاد تطوُّعاً كُره له تركُه.

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (رهب).
(٤) في (م): ولكن.

وجوِّز أنْ يكون قولُه تعالى: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا﴾ إلخ صفةً أخرى لـ «رهبانية» والنفي متوجِّهٌ إلى قيد الفعل لا نفسه، كما في الوجه الأول، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾ إلخ استثناءٌ متصلٌ من أعمِّ العلل، أي: ما قضيناها عليهم بأنْ جعلناهم يبتدعونها لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوانَ الله تعالى ويَستحِقُّوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أنْ يحافظوا عليها ويُراعوها حقَّ رعايتها، فما رَعَوها[1] كذلك. والوجهُ الأول مرويٌّ عن قتادة وجماعة، وهذا مرويٌّ عن مجاهد، ولا مخالفةَ عليه بين «ابتدعوها» و«ما كتبناها عليهم» إلخ ـ حيثُ إنَّ الأولَ يقتضي أنَّهم لم يُؤمَروا بها أصلاً، والثاني يقتضي أنَّهم أُمِروا بها لابتغاء رضوان الله تعالى ـ لِمَا أشرنا إليه من معنى «ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء» إلخ.

ودفع بعضُهم المخالفةَ بأنْ يقال: الأمرُ وقَعَ بعد ابتداعها، أو يُؤوَّل «ابتدعوها» بأنَّهم أولُ مَن فعلها بعد الأمر، ويؤيِّد ما ذكره في الدفع أولاً ما أخرجه أبو داود وأبو يعلى والضياء عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُشدِّدُوا على أنفسِكم فيُشَدَّدَ عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدُوا على أنفسِهم فشُدِّدَ عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامعِ والدِّيَارَات ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾»[2] يعني الآية.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ «فما رَعَوها» لأولئك الذين ابتدعوا الرَّهبانيةَ، والمراد نفيُ وقوعِ الرعاية من كلِّهم، على أنَّ المعنى: فما رعاها كلُّهم بل بعضُهم، وليس المرادُ بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم، بل المراد به ما يعمُّ النصارى إلى زمان الإسلام، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ أصل الابتداع كان من قومٍ مخصوصين؛ لأنَّ إسنادَه على نحو الإسناد في: بنو تميم قتلوا زيداً، والقاتلُ بعضُهم.

وقال الضحاك وغيره: الضمير في «فما رعوها» للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين. والأول أوفقُ بالصناعة.

---

(١) في الأصل: راعوها.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٠٤)، ومسند أبي يعلى (٣٦٩٤)، والأحاديث المختارة ٦/ ١٧٣-١٧٤ (٢١٧٨).

والمراد بالذين آمنوا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾: الذين آمنوا إيماناً صحيحاً، وهو لمن أدركَ وقتَ النبيِّ ﷺ الإيمان به عليه الصلاة والسلام، أي: فآتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً بعد رعاية رهبانيتهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي: ما يختصُّ بهم من الأجر، وهو الأجرُ على ما سلَفَ منهم، والأجر على الإيمان به عليه الصلاة والسلام، وليس المرادُ بهم الذين بَقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا؛ لأنَّ رعايتها لَغْوٌ محضٌ وكفرٌ بَحْتٌ، وإنما لها استتباعُ الأجر.

ويجوز أنْ يقال: إنَّ الذين لم يَرعَوا الرهبانيةَ حقَّ رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام، قال الزجَّاج: قوله تعالى: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) على ضربَين: أحدُهما أنْ يكونوا قصَّروا فيما ألزمُوه أنفسَهم، والآخرُ ـ وهو الأجودُ ـ أنْ يكونوا حينَ بُعِثَ النبيُّ ﷺ ولم يؤمنوا، فكانوا تاركين لطاعةِ الله تعالى، فما رَعَوا تلك الرهبانية، ودليل ذلك قوله تعالى: (فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ) إلخ[١]. انتهى، فحَمَل «الذين آمنوا» على مَن أدرك وقتَه عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به ﷺ، والفاسقين في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ على الذين لم يؤمنوا به ﷺ، ومقتضَى حمل «الذين آمنوا» على ما سمعتَ أولاً حَمْلُه على الأعمِّ الشامل لمن خرَجَ عن اتِّباع عيسى عليه السلام من قبل.

وحملُ الفريقَين على مَن مضى مِن المُراعِين لحقوق الرهبانيةِ قبل النَّسخ، والمخلِّين بها إذ ذاك بالتثليث والقولِ بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك، من غير تعرُّضٍ لإيمانهم برسول الله ﷺ وكفرِهم به = مما لا يُساعدُه المقام.

وفي الآثار ما يأباه ففي حديث طويل أخرجه جماعةٌ منهم الحاكم وصححه والبيهقي في «شعب الإيمان» من طرق عن ابن مسعود: «اختلفَ مَن كان قبلَنا على ثنتَين وسبعين فرقةً، نجا منه ثلاثٌ وهلك سائرُها، فرقة آزتِ الملوك[٢] وقاتلتهم

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٠.

(٢) أي: قاومتهم، يقال: فلان إزاءٌ لفلان: إذا كان مقاوماً له. تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٤، والنهاية واللسان (أزي)، ووقع في الأصل و(م): وازت.

على دين الله وعيسى ابن مريم، وفرقة لم تكن لهم طاقةٌ بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهرَانَي قومهم فدعَوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلَهم الملوك ونشَرَتهم بالمناشر، وفرقةٌ لم تكن لهم طاقةٌ بموازاة الملوكِ ولا بالمقام معهم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهم الذين قال الله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الذين جَحَدوا بي وكفروا بي»[1]، وهذا الخبرُ يؤيِّدُ ما استجودَه الزجَّاجُ، ويُعلم منه أيضاً سببُ ابتداع الرهبانية.

وليس في الآية ما يدلُّ على ذمِّ البدعة مطلقاً، والذي تدلُّ عليه ظاهراً ذمُّ عدم رعاية ما التزموه، وتفصيل الكلام في البدعة ما ذكره الإمام محيي الدين النووي في «شرح صحيح مسلم»: قال العلماء: البدعة خمسةُ أقسامٍ: واجبة ومندوبة ومحرمة ومكروهة ومباحة؛ فمن الواجبة تعلُّمُ أدلة المتكلِّمين للردِّ على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك، ومن المندوبة تصنيفُ كتب العلم وبناءُ المدارس والربطِ وغير ذلك، ومن المباحة التبسُّط[2] في ألوان الأطعمة وغيرِ ذلك، والحرام والمكروه ظاهران، فعُلِمَ أنَّ قولَه ﷺ: «كلُّ بدعةٍ ضلالة» من العامِّ المخصوص[3].

وقال صاحب «جامع الأصول»: الابتداعُ من المخلوقين إنْ كان في خلاف ما أمرَ الله تعالى به ورسولُه ﷺ فهو في حَيِّز الذمِّ والإنكار، وإن كان واقعاً تحت عمومِ ما ندَب الله تعالى إليه وحضَّ عليه أو رسوله ﷺ فهو في حيِّز المدحِ، وإن لم

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٨٠، وشعب الإيمان (٩٥١٠)، وأخرجه المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠-٤٣١، والطبراني (١٠٥٣١)، وفيه عقيل بن يحيى الجعدي، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٨٨: قال البخاري: منكر الحديث يروي عن أبي إسحاق، وتكلم فيه ابن حبان. وأخرجه الطبراني (١٠٣٥٨) من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠-٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف وثقه أحمد وغيره وفيه ضعف.

(٢) في الأصل: والتبسط.

(٣) شرح مسلم ٦/ ١٥٤-١٥٥. والحديث أخرجه أحمد (١٧١٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ، ومسلم (٨٦٧) من حديث جابر ﷺ.

يكن مثالُه موجوداً كنوع من الجود والسخاءِ وفعلِ المعروف، ويعضد ذلك قولُ عمر بن الخطاب ﷺ في صلاة التراويح: نِعمَت البدعةُ هذه[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استظهر أبو حيان[٢] كونَ الخطابِ لمن آمن من أُمَّته ﷺ غير أهل الكتاب، والآثار تُؤيِّد ذلك، أخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، وابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قالا: إنَّ أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبيِّ ﷺ، فشهدوا معه أُحُداً، فكانت فيهم جراحاتٌ، ولم يُقتَل منهم أحدٌ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنَّا أهلُ ميسرةٍ فأْذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص:٥٢-٥٣-٥٤] فجعل لهم أجرَين، فلمَّا نزلَت هذه الآية قالوا: يا معشرَ المسلمين أمَّا مَن آمن منَّا بكتابكم فله أجران، ومَن لم يُؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم. فأنزل الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) الآية[٣]، أي: رادًّا عليهم قولهم: ومَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم.

وفي «الكشاف»[٤]: إنَّ قائل ذلك مَن لم يكن آمن من أهل الكتاب، قالوه حين سمِعُوا تلك الآية يفخرون به على المسلمين، والمعنى: يا أيُّها الذين اتَّصفوا بالإيمان ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اثبُتوا على تقواهُ عز وجل فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ واثبُتُوا على الإيمان برسوله الذي أرسله إليكم، وهو محمد ﷺ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفَى من الدلالة على جلالة قَدْره عليه الصلاة والسلام.

(١) جامع الأصول: ١/ ٢٨٠-٢٨١.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٢٢٩.
(٣) المعجم الأوسط (٧٦٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢١: وفيه من لم أعرفه. وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٨، وزاد: فزادهم النور والمغفرة، وقال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.
(٤) ٤/ ٦٨.

﴿يُؤْتِكُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قال أبو موسى الأشعري: ضعفَين بلسان الحبشة. وقال غيرُ واحد: نصيبَين، والمرادُ إيتاؤهم أجرَين كمؤمني أهل الكتاب، كأنَّه قيل: يؤتكم ما وَعَد مَن آمن من أهل الكتاب من الأجرَين لأنَّكم مثلُهم في الإيمان بالرسل المتقدِّمين وبخاتَمهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين، لا تُفرِّقون بين أحدٍ من رسله.

وقال الراغب: الكِفلُ الحظُّ الذي فيه الكِفايةُ، كأنَّه تكفَّل بأمره، والكِفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1] [البقرة: ٢٠١] ولا دلالة على التخصيص.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة، وهو النور المذكورُ في قوله تعالى: «يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم» ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلَفَ منكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغٌ في المغفرة والرحمة، فلا بِدعَ إذا فعل سبحانه ما فعل.

وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: متعلِّقٌ بمضمون الجملة الطلبية المتضمِّنةِ لمعنى الشرط؛ إذ التقدير: إنْ تَتَّقوا الله وتُؤمنوا برسوله يُؤتِكم كذا وكذا لئلا.. إلخ، وقيل: متعلِّقٌ بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع، أو بمقدَّرٍ كـ: فَعَلَ ذلك، وأعلمهم، ونحوه. و«لا» مزيدة مثلُها في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] ويجوز زيادتُها مع القرينة كثيراً، و«أنْ» مخففة من الثقيلة واسمُها المحذوف ضميرُ أهل الكتاب، أي: أنَّهم، وقيل: ضميرُ الشأن، وما بعد خبرُها، والجملةُ في حيِّز النصب على أنَّها مفعول «يعلم»، أي: ليَعلمَ أهلُ الكتاب القائلون: مَن آمن بكتابكم منَّا فله أجران، ومَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم، أنَّهم لا ينالون شيئاً من فضل الله من الأجرَين وغيرِهما، ولا يتمكَّنون مِن نَيْله ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ. وحاصلُه الإعلامُ بأنَّ إيمانهم بنبيِّهم لا ينفعُهم شيئاً ما لم يؤمنوا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، فقولُهم: مَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ، باطلٌ.

---

(١) مفردات الراغب (كفل).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بنِ حيان قال: لما نزلت (أُوْلَتَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ) فخَرَ مؤمنو أهلِ الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ فقالوا: لنا أجران ولكم أجرٌ، فاشتدَّ ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى: (يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلخ فجعل لهم سبحانه أجرَين مثل ما لمؤمني أهل الكتاب[١]. وقال الثعلبي: فأنزل الله تعالى: (يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ) الآية فجعل لهم أجرَين وزادَهم النور ثم قال سبحانه: (لِّئَلَّا يَعْلَمَ) إلخ[٢]، وحاصلُه على هذا: ليعلموا أنَّهم ليسوا مُلَّاكَ فضله عز وجل، فيَزْوُوْهُ عن المؤمنين، ويَستبدُّوا به دونَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ عطف على «أنْ لا يقدرون» داخلٌ معه في حيِّز العلم.

وقوله سبحانه: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «أنَّ»، أو هو الخبرُ وما قبله على ما قيل: حالٌ لازمةٌ، أو استئنافٌ.

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

وذهب بعضٌ إلى أنَّ الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهودِ والنصارى، أو لمن لم يؤمن منهم بعدُ، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد ﷺ، أي: اثبُتُوا على الإيمان به، أو أحدِثوا الإيمانَ به عليه الصلاة والسلام، يؤتكم نصيبَين من رحمته: نصيباً على إيمانكم بمن آمنتُم به أولاً، ونصيباً على إيمانكم بمحمد ﷺ آخِراً، ليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتابِ أنَّهم لا ينالون شيئاً مما ينالُه المؤمنون منهم، ولا يتمكَّنُون من نَيله حيثُ لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله ﷺ. وأُيِّد ذلك بما في «صحيح البخاري»: «مَن كانت له أَمَةٌ علَّمها فأحسَنَ تعليمَها، وأدَّبها فأحسَنَ تأديبَها، وأعتَقَها وتزوَّجها، فله أجران، وأيُّما رجلٍ مِن أهل الكتابِ آمَنَ بنبيِّه وآمن بي فله أجرانِ، وأيُّما مملوكٍ أدَّى حقَّ الله

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٨.

(٢) تفسير الثعلبي ٩/ ٢٥٠.

تعالى وحقَّ مواليه فله أجران»(١)، ولا إشكال في ذلك بالنسبة إلى النصارى، ولذا قيل: الخطابُ لهم لأنَّ ملَّتهم غيرُ منسوخةٍ قبل ظهور الملةِ المحمدية ومعرفتهم بها، فيثابُون على العمل بها حتى يجبَ عليهم الإيمانُ بالنبيِّ ﷺ، فإذا آمنوا أُثِيبُوا أيضاً فكان لهم ثوابان.

نعم قد يُستَشكلُ بالنسبة إلى غيرهم؛ لأنَّ مِلَلَهم منسوخةٌ بملَّة عيسى عليه السلام، والمنسوخُ لا ثوابَ في العمل به، ويجابُ بأنه لا يَبعدُ أنْ يُثابوا على العمل بملَّتهم السابقة - وإنْ كانت منسوخةً - ببركة الإسلام.

وأجاب بعضُهم: أنَّ الإثابةَ على نفس إيمان ذلك الكتابي بنبيِّه وإن كان منسوخَ الشريعة، فإنَّ الإيمان بكلِّ نبيٍّ فرضٌ، سواء كان منسوخَ الشريعة أم لا.

وقيل: إنَّ «لا» في «لأن لا يعلم» غيرُ مزيدةٍ، وضمير «لا يقدرون» للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، أي: فعلنا ما فعلنا لئلَّا يعتقدَ أهلُ الكتاب أنَّ الشأن لا يقدِرُ النبيُّ ﷺ والمؤمنون به على شيء من فضل الله تعالى، الذي هو عبارةٌ عما أُوتُوه من سعادة الدارَين ولا ينالونه، أو أنَّهم - أي: النبيُّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنون - لا يقدرون.. إلخ، على أنَّ عدم عِلْمهم بعدم قدرتهم على ذلك كنايةٌ عن علمهم بقدرتهم عليه، فيكون قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ إلخ معطوفاً على «أن لا يعلم» داخلاً معه في حيِّز التعليل دون «أن لا يقدر»، فكأنه قيل: فعلنا ما فعلنا لئلا يعتقدوا كذا؛ ولأنَّ الفضل بيد الله، فيكونُ من عَطْف الغايةِ على الغاية بناءً على المشهور.

ولتكلُّف هذا القيل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب إليه معظمُ المفسرين.

وقرأ حِطَّان(٢) بن عبد الله: «لأنْ لا يعلم» بالإظهار(٣). وعبد الله بن مسعود

---

(١) صحيح البخاري (٩٧) و(٣٠١١) و(٣٤٤٦)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٥٤)، وهو من حديث أبي موسى الأشعري ﵁.

(٢) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٢٢٩: خطاب، والصواب ما أثبتناه، وهو حطان بن عبد الله الرقاشي، - ويقال: السدوسي - البصري، قرأ القرآن على أبي موسى الأشعري ﵁، وقرأ عليه الحسن البصري، توفي سنة نيف وسبعين. معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٧.

(٣) البحر ٨/ ٢٢٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧١: «لأي =

وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة على اختلاف: «ليعلم»[(١)]، وقرأ الجحدري أيضاً: «وليَيَّعلم»[(٢)] على أنَّ أصله: لئن يعلم، فقُلبَت الهمزةُ ياءً لكسرة ما قبلها، وأدغمَت النون في الياء بغير غنَّة.

وروى ابن مجاهد عن الحسن: «لَيْلَا» مثل ليلى اسم المرأة «يعلمُ» بالرفع[(٣)]، ووُجِّه بأنَّ أصلَه: لَأنْ لا، بفتح لام الجرِّ وهي لغة، وعليه قوله:

أُريدُ لَأَنْسى ذكرَها فكأنَّما تَمَثَّلُ ليْ ليلى بكلِّ سبيلِ[(٤)]

فحذِفَت الهمزةُ اعتباطاً وأُدغِمَت النون في اللام فصار: لَلَّا، فاجتمعَت الأمثالُ وثَقُل النطقُ بها، فأبدلوا من اللام المدغمة ياءً نظير ما فعلوا في قيراط ودينار، حيث أنَّ الأصل: قِرَّاط ودِنَّار، فأبدلوا أحدَ المثلَين فيهما ياءً للتخفيف فصار: «لَيْلَا»، ورفع الفعل لأنَّ «أَنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع.

وروى قطرب عن الحسن أيضاً: «لِيْلَا» بكسر اللام[(٥)]، ووَجْهُه كالذي قبله إلا أنَّ كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجرِّ.

وعن ابن عباس: «كي يعلم»، وعنه أيضاً: «لكيلا يعلم»[(٦)]. وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة: «لكي يعلم»[(٧)].

= يعلم»، وفي تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٧٨، والدر المصون ١٠/ ٢٥٩: «لأن يعلم».

(١) القراءات الشاذة ص١٥٣، والقرطبي ٢٠/ ٢٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٩.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وهي من القراءات الشاذة ص١٥٣: «لي يعلم»، والبحر ٨/ ٢٢٩: «لينيعلم»، والدر المصون ١٠/ ٢٥٩: «لينَّعلم»، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٦٨ بلفظ: «لين يعلم» دون نسبة وقال: بإدغام النون في الياء.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٢٩.

(٤) البيت لكُثيِّر عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٦، وسلف ٧/ ٨٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر ٨/ ٢٢٩.

(٦) القراءتان في المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر ٨/ ٢٢٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٩.

وقرأ عبد الله: «أن لا يقدروا» بحذف النون(١)، على أنَّ «أنْ» هي الناصبة للمضارع، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما ذكره المتصوفة قُدِّسَت أسرارهم في بعض آياتها: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قالوا: هو إشارةٌ إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطةِ بالكلِّ.

وقالوا: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا وجودَ لهم في جميع مراتبهم بدون وجودِه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ إشارةٌ إلى ظهور تجلِّي الجلال في تجلِّي الجمال، وبالعكس.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ إشارةٌ للمشايخ الكاملين إلى تربية المريدين بإفاضة ما يقوِّي استعدادَهم مما جعلَهم الله تعالى متمكِّنين فيه من الأحوال والملكات.

وقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لئلا يقنَط القاسي من رحمته تعالى، ويترُكَ الاشتغالَ بمداواة القلب الميت.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أوردها الصوفية في باب الرعاية، وقسموها إلى رعاية الأعمال والأحوال والأوقات، ويرجِعُ ما قالوه فيها ـ على ما قيل ـ إلى حفظها عن إيقاع(٢) خللٍ فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبَين، نصيباً من معارف الصفاتِ الفعلية، ونصيباً من معارف الصفات الذاتية ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ من نور ذاته عز وجل، وهو ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى البقاء بعد الفناء، وقيل: هذا النور إشارةٌ إلى نور الكشف والمشاهدة، رتَّبَ سبحانه جعلَه للمؤمن على تقواه وإيمانِهِ برسوله الأعظم ﷺ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٧١، والبحر المحيط ٨/٢٢٩.

(٢) في الأصل: اتباع.

وقيل: هو نورُ العلم النافع الذي يتمكَّن معه من السير في الحضرات الإلهية كما يُشِير إليه وصفه بقوله عز وجل: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ وفي بعض الآثار: مَن عمل بما علم علَّمه الله تعالى عِلْمَ ما لم يعلَم[1]. وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكلٌّ ذلك في الحقيقة فضلُ الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم، نسألُه سبحانه أنْ لا يحرِمَنا من فضله العظيم ولُطفِه العميم، وأنْ يُثبِّتَنا على متابعة حبيبه الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

(١) سلف ١/١٠٦.

(٥٨) سورة المجادلة مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

● سورة المجادلة مدنية وقد تناولت أحكاماً تشريعية كثيرة كاحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهر وحكم التناجي وآداب المجالس وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ وعدم مودة أعداء الله ، الى غير ذلك كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة « خولة بنت ثعلبة » التي ظاهر منها زوجها على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار وقد جاءت تلك المرأة رسول الله ﷺ تشكو ظلم زوجها لها وقالت يا رسول الله : « أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني » ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله : ما طلقني ولكنه ظاهر ، فيرد عليها قوله السابق ، ثم قالت : اللهم اني أشكو إليك ، فاستجاب الله دعاءها ، وفرّج كربتها وشكواها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله .. ﴾ الآيات .

● ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور .. ﴾ الآيات .

● ثم تحدثت عن موضوع التناجي ، وهو الكلام سراً بين اثنين

فأكثر ، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين ، فبينت حكمه وحذّرت المؤمنين من عواقبه ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم .. إلى قوله : إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ..﴾ الآيات .

● وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة ، ظاهرها التحية والسلام وباطنها الشتيمة والمسبَّة كقولهم : السامُ عليك يا محمد يعنون الموت ﴿ وإذا جاءوك حيوك بمالم يحيّك به الله ..﴾

● وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب ، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء ، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم ﴿ ألم تر إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ..﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله ، والبغض في الله ، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين ، ولا بدّ في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا أباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ..﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

سورة المجادلة

[٨٩٨] أخرج الحاكم وصححه[١] عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله [ﷺ] وتقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللّهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[٢] وهو أوس بن الصامت.

[٨٩٩] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان بين النبي [ﷺ] وبين اليهود موادعة فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحابه جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه فنهاهم النبي [ﷺ] عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾[٣] الآية.

[٩٠٠] وأخرج أحمد والبزار والطبراني بسند جيد عن عبدالله بن عمرو إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله [ﷺ] سام عليكم ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾[٤] وفي الباب عن أنس وعائشة.

[٩٠١] ك.. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٥] الآية.

[٩٠٢] وأخرج أيضاً عنه قال: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا

---

[٨٩٨] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٣١) بأطول من ذلك من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة بها بنحوه وأطول منه.

(٢) سورة المجادلة: الآية (١).

[٨٩٩] (٣) سورة المجادلة: الآية (٨).

[٩٠٠] (٤) سورة المجادلة: الآية (٨).

[٩٠١] (٥) سورة المجادلة: الآية (١٠).

بمجلسهم عند رسول الله [ﷺ] فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾(١) الآية.

[٩٠٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت يوم جمعة وقد جاء ناس من أهل بدر وفي المكان ضيق فلم يفسح لهم فقاموا على أرجلهم فأقام [ﷺ] نفراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم فكره أولئك النفر ذلك فنزلت.

[٩٠٤] وأخرج من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله [ﷺ] حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾(٢) الآية فلما نزلت صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾(٣) الآية.

[٩٠٥] وأخرج الترمذي وحسّنه وغيره(٤) عن علي قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾(٥) قال لي النبي [ﷺ] **«ما ترى دينار»** قلت: لا يطيقونه قال: **«فنصف دينار»** قلت: لا يطيقونه قال: **«فكم»** قلت شعيرة قال: **«إنك لزهيد»** فنزلت ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾(٦) الآية فبي خفف الله عن هذه الأمة قال الترمذي: حسن.

[٩٠٦] وأخرج أحمد والحاكم وصححه(٧) عن ابن عباس قال: كان رسول الله [ﷺ] في ظل حجره وقد كاد الظل أن يتقلص فقال: **«إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه»** فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فدعاه رسول الله [ﷺ] فقال له حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: **«ذرني آتك بهم»** فانطلق فدعاهم فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا فأنزل الله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾(٨) الآية.

---

[٩٠٢] (١) سورة المجادلة: الآية (١١).
[٩٠٤] (٢) سورة المجادلة: الآية (١٢).
(٣) سورة المجادلة: الآية (١٣).
[٩٠٥] (٤) سنن الترمذي (٣٣٠٠) والمعجم الكبير للطبراني (١/١٠٩)، وصحيح ابن حبان (١٧٦٤و ١٧٦٥و ٢٢٢٨)، موارد الظمآن، وابن جرير (٢٨/١٥).
(٥) سورة المجادلة: الآية (١٢).
(٦) سورة المجادلة: الآية (١٣).
[٩٠٦] (٧) راجع فقرة (٤٨٨).
(٨) سورة المجادلة: الآية (١٨).

[٩٠٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾[(١)] الآية. فقال بلغنا أنها نزلت في عبدالله بن نبتل.

[٩٠٨] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾[(٢)] الآية.

[٩٠٩] وأخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فأنزلت.

[٩١٠] وأخرج ابن المنذر[(٣)] عن ابن جريج قال: حدثت أن أبا قحافة سب النبي [ﷺ] فصكه أبو بكر صكة فسقط فذكر ذلك للنبي [ﷺ] فقال: **«أفعلت يا أبا بكر»** فقال: والله لو كان السيف قريباً مني لضربته به فنزلت ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾[(٤)] الآية.

* * *

---

[٩٠٧] (١) سورة المجادلة: الآية (١٤).

[٩٠٨] (٢) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

[٩١٠] (٣) انظر الدر المنثور (٦/١٨٦).

(٤) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

سورة المجادلة

وهي عشرون وآيتان مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾

روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت رآها زوجها وهي تصلي، وكانت حسنة الجسم، وكان بالرجل لمم، فلما سَلَّمت راودها، فأبت، فغضب، وكان به خفة فظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: إن أوسًا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني وكثر ولدي جعلني كأمه، وإن لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، ثم هاهنا روايتان: يروى أنه عليه السلام قال لها: «مَا عِنْدِي فِي أَمْرِكِ شَيْءٌ» وروي أنه عليه السلام قال لها: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ» فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقًا، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليَّ، فقال: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ» فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وكلما قال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ» هتفت وشكت إلى الله، فبينما هي كذلك إذ تربد وجه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى زوجها، وقال: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فقال: الشيطان فهل من رخصة؟ فقال: «نَعَمْ»، وقرأ عليه الأربع آيات، وقال له: «هَلْ تَسْتَطِيعُ الْعِتْقَ؟» فقال: لا والله، فقال: «هَلْ تَسْتَطِيعُ الصَّوْمَ؟» فقال: لا والله لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لكلَّ بصري ولظننت أني أموت، فقال له: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟» فَقَالَ: لاَ واللَّه يَا رَسُولَ اللَّه إِلاَّ أَنْ تُعِينَنِي مِنْكَ بِصَدَقَةٍ، فَأَعَانَهُ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا، وَأَخْرَجَ أَوْسٌ مِنْ عِنْدِهِ مِثْلَهُ فَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى سِتِّينَ مِسْكِينًا[١] **واعلم أن في هذا الخبر مباحث:**

الأول: قال أبو سليمان الخطابي: ليس المراد من قوله في هذا الخبر: (وكان به لمم)، الخبل والجنون إذ لو كان به ذلك ثم ظاهر في تلك الحالة لم يكن يلزمه شيء، بل معنى اللمم هنا: الإلمام بالنساء، وشدة الحرص، والتوقان إليهن.

البحث الثاني: أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية، لأنه في التحريم أوكد ما يمكن، وإن كان ذلك الحكم صار مقررًا بالشرع كانت الآية ناسخة له، وإلا لم يعد نسخًا، لأن النسخ إنما

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الطلاق) باب (في الظهار) (٢/ ٩٥٢) حديث رقم (٢٢١٤) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٤١٠) من طريق محمد بن إسحاق... به.

يدخل في الشرائع لا في عادة الجاهلية، لكن الذي روى أنه ﷺقال لها: «حَرُمْتِ» أو قال: «مَا أَرَاكِ إِلاَّ قَدْ حَرُمْتِ» كالدلالة على أنه كان شرعًا. وأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك.

البحث الثالث:أن هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مُهِمِّهِ أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك المهم، ولنرجع إلى التفسير، أماقوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ قَدْ﴾ معناه التوقع، لأن رسول الله والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها.

المسألة الثانية: كان حمزة يدغم الدال في السين من: ﴿ قَدْ سَمِعَ﴾ وكذلك في نظائره، واعلم أن الله تعالى حكى عن هذه المرأة أمرين: أولهما: المجادلة وهي قوله: ﴿ تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي تجادلك في شأن زوجها، وتلك المجادلة أنه عليه الصلاة والسلام كلما قال لها: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ» قالت: والله ما ذكر طلاقًا، وثانيهما: شكواها إلى الله، وهو قولها: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وقولها: إن لي صبية صغارًا، ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ والمحاورة المراجعة في الكلام، من حار الشيء يحور حورًا، أي رجع يرجع رجوعًا، ومنها نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، ومنه فما أحار بكلمة، أي فما أجاب، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كلام من يناديه، ويبصر من يتضرع إليه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ اعلم أن قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ما يتعلق بالمباحث اللغوية والفقهية، فنقول في هذه الآية بحثان:

أحدهما:أن الظهار ما هو؟.

الثاني:أن المظاهر من هو؟ وقوله: ﴿ مِّن نِّسَآئِهِم﴾ فيه بحث: وهو أن المظاهر منها من هي؟.

أما البحث الأول:وهو أن الظهار ما هو؟ **ففيه مقامان:**

المقام الأول:في البحث عن هذه اللفظة بحسب اللغة وفيه قولان: أحدهما: أنه عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فهو مشتق من الظهر.

والثاني:وهو صاحب (النَّظْم)، أنه ليس مأخوذًا من الظهر الذي هو عضو من الجسد، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر في هذا الموضع من سائر الأعضاء التي هي مواضع المباضعة والتلذذ، بل الظهر هاهنا مأخوذ من العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]أي

يعلوه، وكل من علا شيئًا فقد ظهره، ومنه سمي المركوب ظهرًا، لأن راكبه يعلوه، وكذلك امرأة الرجل ظهره، لأنه يعلوها بملك البضع، وإن لم يكن من ناحية الظهر، فكأن امرأة الرجل مركب للرجل وظهر له، ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول في الطلاق: نزلت عن امرأتي أي طلقتها، وفي قولهم: أنت عليَّ كظهر أمي، حذف وإضمار، لأن تأويله: ظهرك علي، أي ملكي إياك وعلوي عليك حرام، كما أن علوي على أمي وملكها حرام علي.

المقام الثاني: في الألفاظ المستعملة بهذا المعنى في عرف الشريعة. الأصل في هذا الباب أن يقال: أنت علي كظهر أمي، فإما أن يكون لفظ الظهر، ولفظ الأم مذكورين وإما أن يكون لفظ الأم مذكورًا دون لفظ الظهر، وإما أن يكون لفظ الظهر مذكورًا دون لفظ الأم، وإما أن لا يكون واحد منهما مذكورًا، فهذه أقسام أربعة.

القسم الأول: إذا كانا مذكورين وهو معتبر بالاتفاق، ثم لا مناقشة في الصلات إذا انتظم الكلام، فلو قال: أنت علي كظهر أمي، أو أنت مني كظهر أمي، فهذه الصلات كلها جائزة ولو لم يستعمل صلة، وقال: أنت كظهر أمي، فقيل: إنه صريح، وقيل: يحتمل أن يريد إنها كظهر أمه في حق غيره، ولكن هذا الاحتمال كما لو قال لامرأته: أنت طالق، ثم قال: أردت بذلك الإخبار عن كونها طالقًا من جهة فلان.

القسم الثاني: أن تكون الأم مذكورة، ولا يكون الظهر مذكورًا، وتفصيل مذهب الشافعي فيه أن الأعضاء قسمان، منها ما يكون التشبيه بها غير مشعر بالإكرام، ومنها ما يكون التشبيه بها مشعر بالإكرام، أما الأول: فهو كقوله: أنت علي كرجل أمي، أو كيد أمي، أو كبطن أمي، وللشافعي فيه قولان: الجديد أن الظهار يثبت، والقديم أنه لا يثبت، أما الأعضاء التي يكون التشبيه بها سببًا للإكرام، فهو كقوله: أنت علي كعين أمي، أو روح أمي، فإن أراد الظهار كان ظهارًا، وإن أراد الكرامة فليس بظهار، فإن لفظه محتمل لذلك، وإن أطلق ففيه تردد، هذا تفصيل مذهب الشافعي، وأما مذهب أبي حنيفة، فقال أبو بكر الرازي في (أحكام القرآن): إذا شبه زوجته بعضو من الأم يحل له النظر إليه لم يكن ظهارًا، وهو قوله: أنت علي كيد أمي أو كرأسها، أما إذا شبهها بعضو من الأم يحرم عليه النظر إليه كان ظهارًا، كما إذا قال: أنت علي كبطن أمي أو فخذها، والأقرب عندي هو القول القديم للشافعي، وهو أنه لا يصح الظهار بشيء من هذه الألفاظ، والدليل عليه أن حل الزوجة كان ثابتًا، وبراءة الذمة عن وجوب الكفارة كانت ثابتة، والأصل في الثابت البقاء على ما كان ترك العمل به فيما إذا قال: أنت علي كظهر أمي لمعنى مفقود في سائر الصور، وذلك لأن اللفظ المعهود في الجاهلية هو قوله: أنت علي كظهر أمي، ولذلك سمي ظهارًا، فكان هذا اللفظ بسبب العرف مشعرًا بالتحريم، ولم يوجد هذا المعنى في سائر الألفاظ، فوجب البقاء على حكم الأصل.

القسم الثالث: ما إذا كان الظهر مذكورًا ولم تكن الأم مذكورة، فهذا يدل على ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: أن يجري التشبيه بالمحرمات من النسب والرضاع، وفيه قولان: القديم أنه لا يكون ظهارًا، والقول الجديد أنه يكون ظهارًا، وهو قول أبي حنيفة. المرتبة الثانية: تشبيهها بالمرأة المحرمة تحريمًا مؤقتًا مثل أن يقول لامرأته: أنت علي كظهر فلانة، وكان طلقها والمختار عندي أن شيئًا من هذا لا يكون ظهارًا، ودليله ما ذكرناه في المسألة السالفة، وحجة أبي حنيفة أنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ [المجادلة: ٣] وظاهر هذه الآية يقتضي حصول الظهار بكل محرم فمن قصره على الأم فقد خص والجواب: أنه تعالى لما قال بعده: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ دل على أن المراد هو الظهار بذكر الأم، ولأن حرمة الأم أشد من حرمة سائر المحارم، فنقول: المقتضى لبقاء الحل قائم على ما بيناه، وهذا الفارق موجود، فوجب أن لا يجوز القياس.

القسم الرابع: ما إذا لم يذكر لا الظهر ولا الأم، كما لو قال: أنت علي كبطن أختي، وعلى قياس ما تقدم يجب أن لا يكون ذلك ظهارًا.

البحث الثاني: في المظاهر وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الشافعي رحمه الله: الضابط أن كل من صح طلاقه صح ظهاره، فعلى هذا ظهار الذمي عنده صحيح، وقال أبو حنيفة: لا يصح، واحتج الشافعي بعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ وأما القياس فمن وجهين: الأول: أن تأثير الظهار في التحريم والذمي أهل لذلك، بدليل صحة طلاقه، وإذا ثبت هذا وجب أن يصح هذا التصرف منه قياسًا على سائر التصرفات، الثاني: أن الكفارة إنما وجبت على المسلم زجرًا له عن هذا الفعل الذي هو منكر من القول وزور، وهذا المعنى قائم في حق الذمي فوجب أن يصح، واحتجوا لقول أبي حنيفة بهذه الآية من وجهين: الأول: احتج أبو بكر الرازي بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وذلك خطاب للمؤمنين فيدل على أن الظهار مخصوص بالمؤمنين، الثاني: من لوازم الظهار الصحيح، وجوب الصوم على العائد العاجز عن الإعتاق بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٣] وإيجاب الصوم على الذمي ممتنع، لأنه لو وجب لوجب، إما مع الكفر وهو باطل بالإجماع، أو بعد الإيمان وهو باطل، لقوله عليه السلام: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**»(١) والجواب: عن الأول من وجوه: أحدها: أن قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ خطاب مشافهة فيتناول جميع الحاضرين، فلم قلتم: إنه مختص بالمؤمنين؟ سلمنا أنه مختص بالمؤمنين، فلم قلتم: إن تخصيصه بالمؤمنين في الذكر يدل على أن حال غيرهم بخلاف ذلك، لا سيما ومن مذهب هذا القائل: أن التخصيص بالذكر لا يدل على أن حال ما عداه بخلافه، سلمنا بأنه يدل عليه، لكن دلالة المفهوم أضعف من دلالة المنطوق، فكان التمسك بعموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ أولى، سلمنا الاستواء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١١٢/ ١٢١) من طريق شماسة بن المهدي عن عمرو بن العاص... بنحوه.

في القوة، لكن مذهب أبي حنيفة أن العام إذا ورد بعد الخاص كان ناسخًا للخاص، والذي تمسكنا به وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣] متأخر في الذكر عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ والظاهر أنه كان متأخرًا في النزول أيضًا لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ ليس فيه بيان حكم الظهار، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ فيه بيان حكم الظهار، وكون المبين متأخرًا في النزول عن المجمل أولى والجواب عن الثاني من وجوه الأول: أن لوازمه أيضًا أنه متى عجز عن الصوم اكتفى منه بالإطعام فهاهنا إن تحقق العجز وجب أن يكتفى منه بالإطعام، وإن لم يتحقق العجز فقد زال السؤال، والثاني: أن الصوم بدل عن الإعتاق، والبدل أضعف من المبدل، ثم إن العبد عاجز عن الإعتاق مع أنه يصح ظهاره، فإذا كان فوات أقوى اللازمين لا يوجب المنع، مع صحة الظهار، ففوات أضعف اللازمين كيف يمنع من القول بصحة الظهار، الثالث: قال القاضي حسين من أصحابنا إنه يقال: إن أردت الخلاص من التحريم، فأسلم وصم، أما قوله عليه الصلاة والسلام: «**الإسلام يجب ما قبله**» قلنا: إنه عام، والتكليف بالتكفير خاص، والخاص مقدم على العام، وأيضًا فنحن لا نكلفه بالصوم بل نقول: إذا أردت إزالة التحريم فصم، وإلا فلا تصم.

المسألة الثانية: قال الشافعي وأبو حنيفة ومالك رحمهم الله: لا يصح ظهار المرأة من زوجها وهو أن تقول المرأة لزوجها: أنت علي كظهر أمي، وقال الأوزاعي: هو يمين تكفرها، وهذا خطأ لأن الرجل لا يلزمه بذلك كفارة يمين، وهو الأصل فكيف يلزم المرأة ذلك؟ ولأن الظهار يوجب تحريمًا بالقول، والمرأة لا تملك ذلك بدليل أنها لا تملك الطلاق.

المسألة الثالثة: قال الشافعي وأبو حنيفة: إذا قال: أنت علي كظهر أمي اليوم، بطل الظهار بمضي اليوم، وقال مالك وابن أبي ليلى: هو مظاهر أبدًا. لنا أن التحريم الحاصل بالظهار قابل للتوقيت وإلا لما انحل بالتكفير، وإذا كان قابلاً للتوقيت، فإذا وقَّته وجب أن يتقدر بحسب ذلك التوقيت قياسًا على اليمين، فهذا ما يتعلق من المسائل بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾، أما قوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ فيتعلق به أحكام المظاهر منه، واختلفوا في أنه هل يصح الظهار عن الأمة؟ فقال أبو حنيفة والشافعي: لا يصح، وقال مالك والأوزاعي: يصح، حجة الشافعي أن الحل كان ثابتًا، والتكفير لم يكن واجبًا، والأصل في الثابت البقاء، والآية لا تتناول هذه الصورة لأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣] يتناول الحرائر دون الإماء، والدليل عليه قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] والمفهوم منه الحرائر ولولا ذلك لما صح عطف قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١] لأن الشيء لا يعطف على نفسه، وقال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فكان ذلك على الزوجات دون ملك اليمين.

المسألة الرابعة: فيما يتعلق بهذه الآية من القراءات، قال أبو علي: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (والذين يَظَّهَّرُونَ) بغير الألف، وقرأ عاصم: (يُظاهِرُونَ) بضم الياء وتخفيف الظاء

والألف، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي (يَظَّاهَرُون) بفتح الياء وبالألف مشددة الظاء، قال أبو علي: ظاهر من امرأته، ظَهَّر مثل ضاعف وضعف، وتدخل التاء على كل واحد منهما فيصير تَظاهر وتَظَهَّر، ويدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر، ثم تدغم التاء في الظاء لمقاربتها لها، فيصير يَظَّاهر ويَظَّهر، وتفتح الياء التي هي حرف المضارعة، لأنها للمطاوعة كما يفتحها في يَتَدحرج الذي هو مطاوع، دحرجته فتدحرج، وإنما فتح الياء في يَظَّاهَر ويَظَّهَر، لأنه المطاوع كما أن يتدحرج كذلك، ولأنه على وزنهما، وإن لم يكونا للإلحاق، وأما قراءة عاصم (يُظَاهِرُون) فهو مشتق من ظَاهَر يُظَاهِر إذا أتى بمثل هذا التصرف.

المسألة الخامسة: لفظة: ﴿مِنكُم﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصة دون سائر الأمم، وقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية المفضل: (أُمَّهاتُهُم) بالرفع، والباقون بالنصب على لفظ الخفض، وجه الرفع أنه لغة تميم، قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أن النفي كالاستفهام فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه، فكذا ينبغي أن لا يغير النفي الكلام عما كان عليه، ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز، والأخذ في التنزيل بلغتهم أولى، وعليها جاء قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]ووجهه من القياس أن (ما) تشبه (ليس) في أمرين: أحدهما: أن: (مَا) تدخل على المبتدأ والخبر، كما أن (لَيْسَ) تدخل عليهما، والثاني: أن (مَا) تنفي ما في الحال، كما أن (لَيْسَ) تنفي ما في الحال، وإذا حصلت المشابهة من وجهين وجب حصول المساواة في سائر الأحكام، إلا ما خص بالدليل قياسًا على باب مالا ينصرف.

المسألة الثانية: في الآية إشكال: وهو أن من قال لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، فهو شبَّه الزوجة بالأم، ولم يقل: إنها أم، فكيف يليق أن يقال على سبيل الإبطال لقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ وكيف يليق أن يقال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ والجواب: أما الكذب إنما لزم لأن قوله: أنتِ علي كظهر أمي، إما أن يجعله إخبارًا أو إنشاء، وعلى التقدير الأول أنه كذب، لأن الزوجة محللة والأم محرمة، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب، وإن جعلناه إنشاء كان ذلك أيضًا كذبًا، لأن كونه إنشاء معناه أن الشرع جعله سببًا في حصول الحرمة، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه، كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم يكون كذبًا وزورًا، وقال بعضهم: إنه تعالى إنما وصفه بكونه: ﴿مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ لأن الأم محرمة تحريمًا مؤبدًا، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريمًا مؤبدًا، فلا جرم كان ذلك منكرًا من القول وزورًا، وهذا الوجه ضعيف لأن تشبيه الشيء بالشيء لا يقتضي وقوع المشابهة بينهما من كل الوجوه، فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالأم في الحرمة تشبيهها بها في كون الحرمة مؤبدة، لأن مسمى الحرمة أعم من الحرمة المؤبدة والمؤقتة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ أما الكلام في تفسير لفظة اللائي، فقد تقدم في سورة الأحزاب عند قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ﴾ [الأحزاب: ٤] ثم في الآية سؤالان: وهو أن ظاهرها يقتضي أنه لا أم إلا الوالدة، وهذا مشكل، لأنه قال في آية أخرى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] وفي آية أخرى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦] ولا يمكن أن يدفع هذا السؤال بأن المعنى من كون المرضعة أمًّا، وزوجة الرسول أمًّا، حرمة النكاح، وذلك لأنا نقول: إن بهذا الطريق ظهر أنه لا يلزم من عدم الأمومة الحقيقية عدم الحرمة، فإذًا لا يلزم من عدم كون الزوجة أمًّا عدم الحرمة، وظاهر الآية يوهم أنه تعالى استدل بعدم الأمومة على عدم الحرمة، وحينئذ يتوجه السؤال، والجواب: أنه ليس المراد من ظاهر الآية ما ذكره السائل بل تقدير الآية كأنه قيل: الزوجة ليست بأم، حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة، ولم يرد الشرع بجعل هذا اللفظ سببًا لوقوع الحرمة حتى تحصل الحرمة، فإذًا لا تحصل الحرمة هناك ألبتة فكان وصفهم لها بالحرمة كذبًا وزورًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إما من غير التوبة لمن شاء، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] أو بعد التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ قال الزجاج: (الذين) رفع بالابتداء وخبره فعليهم تحرير رقبة، ولم يذكر عليهم لأن في الكلام دليلاً عليه، وإن شئت أضمرت فكفارتهم تحرير رقبة. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ فاعلم أنه كثر اختلاف الناس في تفسير هذه الكلمة، ولا بد أولاً من بيان أقوال أهل العربية في هذه الكلمة، وثانيًا من بيان أقوال أهل الشريعة **وفيها مسائل:**

المسألة الأولى: قال الفراء: لا فرق في اللغة بين أن يقال: يعودون لما قالوا، وإلى ما قالوا وفيما قالوا، أبو علي الفارسي: كلمة إلى واللام يتعاقبان، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦] وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥].

المسألة الثانية: لفظ (مَا قَالُوا) في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه لفظ الظهار، والمعنى أنهم يعودون إلى ذلك اللفظ، والثاني: أن يكون المراد بقوله: ﴿لِمَا قَالُوا۟﴾ المقول فيه، وهو الذي حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أي ونرثه المقول، وقال عليه السلام: «**الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» وإنما هو عائد في الموهوب، ويقول الرجل: اللهم أنت رجاؤنا، أي

مرجونا، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموقن به، وعلى هذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي يعودون إلى الشيء الذي قالوا فيه ذلك القول، ثم إذا فسرنا هذا اللفظ بالوجه الأول فنقول: قال أهل اللغة: يجوز أن يقال: عاد لما فعل، أي فعله مرة أخرى، ويجوز أن يقال: عاد لما فعل، أي نقض ما فعل، وهذا كلام معقول، لأن من فعل شيئًا ثم أراد أن يفعل مثله، فقد عاد إلى تلك الماهية لا محالة أيضًا، وأيضًا من فعل شيئًا ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه، لأن التصرف في الشيء بالإعدام لا يمكن إلا بالعود إليه.

المسألة الثالثة: ظهر مما قدمنا أن قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة، ويحتمل أن يكون المراد منه، ثم يعودون إلى تكوين مثله مرة أخرى، أما الاحتمال الأول فهو الذي ذهب إليه أكثر المجتهدين واختلفوا فيه على وجوه: الأول: وهو قول الشافعي أن معنى العود لما قالوا السكوت عن الطلاق بعد الظهار زمانًا يمكنه أن يطلقها فيه، وذلك لأنه لما ظاهر فقد قصد التحريم، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد تمم ما شرع منه من إيقاع التحريم، ولا كفارة عليه، فإذا سكت عن الطلاق، فذاك يدل على أنه ندم على ما ابتدأ به من التحريم، فحينئذ تجب عليه الكفارة، واحتج أبو بكر الرازي في (أحكام القرآن) على فساد هذا القول من وجهين: الأول: أنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ وثم تقتضي التراخي، وعلى هذا القول يكون المظاهر عائدًا عقيب القول بلا تراخ، وذلك خلاف مقتضى الآية، الثاني: أنه شبهها بالأم والأم لا يحرم إمساكها، فتشبيه الزوجة بالأم لا يقتضي حرمة إمساك الزوجة، فلا يكون إمساك الزوجة نقضًا لقوله: أنت علي كظهر أمي، فوجب أن لا يفسر العود بهذا الإمساك والجواب عن الأول: أن هذا أيضًا وارد على قول أبي حنيفة فإنه جعل تفسير العود استباحة الوطء، فوجب أن لا يتمكن المظاهر من العود إليها بهذا التفسير عقيب فراغه من التلفظ بلفظ الظهار حتى يحصل التراخي، مع أن الأمة مجمعة على أن له ذلك، فثبت أن هذا الإشكال وارد عليه أيضًا، ثم نقول: إنه ما لم ينقض زمان يمكنه أن يطلقها فيه، لا يحكم عليه بكونه عائدًا، فقد تأخر كونه عائدًا عن كونه مظاهرًا بذلك القدر من الزمان، وذلك يكفي في العمل بمقتضى كلمة: (ثم) والجواب عن الثاني: أن الأم يحرم إمساكها على سبيل الزوجية ويحرم الاستمتاع بها، فقوله: أنت علي كظهر أمي، ليس فيه بيان أن التشبيه وقع في إمساكها على سبيل الزوجية، أو في الاستمتاع بها، فوجب حمله على الكل، فقوله: أنت علي كظهر أمي، يقتضي تشبيهها بالأم في حرمة إمساكها على سبيل الزوجية، فإذا لم يطلقها فقد أمسكها على سبيل الزوجية، فكان هذا الإمساك مناقضًا لمقتضى قوله: أنت علي كظهر أمي، فوجب الحكم عليه بكونه عائدًا، وهذا كلام ملخص في تقرير مذهب الشافعي، الوجه الثاني: في تفسير العود، وهو قول أبي حنيفة: أنه عبارة عن استباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة، قالوا: وذلك لأنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الأشياء، ثم قصد استباحة هذه الأشياء كان ذلك مناقضًا

لقوله: أنت علي كظهر أمي، واعلم أن هذا الكلام ضعيف، لأنه لما شبهها بالأم، لم يبين أنه في أي الأشياء شبهها بها، فليس صرف هذا التشبيه إلى حرمة الاستمتاع، وحرمة النظرَ أولى من صرفه إلى حرمة إمساكها على سبيل الزوجية، فوجب أن يحمل هذا التشبيه على الكل، وإذا كان كذلك، فإذا أمسكها على سبيل الزوجية لحظة، فقد نقض حكم قوله: أنت علي كظهر أمي، فوجب أن يتحقق العود، الوجه الثالث: في تفسير العود وهو قول مالك: أن العود إليها عبارة عن العزم على جماعها وهذا ضعيف، لأن القصد إلى جماعها لا يناقض كونها محرمة إنما المناقض لكونها محرمة القصد إلى استحلال جماعها، وحينئذ نرجع إلى قول أبي حنيفة رحمه الله، الوجه الرابع: في تفسير العود وهو قول طاوس والحسن البصري: أن العود إليها عبارة عن جماعها، وهذا خطأ لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا۟ۚ﴾ بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يقتضي كون التكفير بعد العود، ويقتضي قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا۟ۚ﴾ أن يكون التكفير قبل الجماع، وإذا ثبت أنه لا بد وأن يكون التكفير بعد العود، وقبل الجماع، وجب أن يكون العود غير الجماع، واعلم أن أصحابنا قالوا: العود المذكور هاهنا، هب أنه صالح للجماع، أو للعزم على الجماع، أو لاستباحة الجماع، إلا أن الذي قاله الشافعي رحمه الله هو أقل ما ينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه؛ لأنه هو الذي به يتحقق مسمى العود، وأما الباقي فزيادة لا دليل عليها ألبتة.

الاحتمال الثاني: في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ أي يفعلون مثل ما فعلوه، وعلى هذا الاحتمال في الآية أيضًا وجوه: الأول: قال الثوري: العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام، وتقريره أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار، فجعل الله تعالى حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ يريد في الجاهلية: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي في الإسلام، والمعنى أنهم يقولون في الإسلام مثل ما كانوا يقولونه في الجاهلية، فكفارته كذا وكذا، قال أصحابنا: هذا القول ضعيف؛ لأنه تعالى ذكر الظهار وذكر العود بعده بكلمة: ثم، وهذا يقتضي أن يكون المراد من العود شيئًا غير الظهار، فإن قالوا: المراد والذين كانوا يظاهرون من نسائهم قبل الإسلام، والعرب تضمر لفظ كان، كما في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي ما كانت تتلو الشياطين، قلنا: الإضمار خلاف الأصل، القول الثاني: قال أبو العالية: إذا كرر لفظ الظهار فقد عاد، فإن لم يكن يكرر لم يكن عودًا، وهذا قول أهل الظاهر، واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ يدل على إعادة ما فعلوه، وهذا لا يكون إلا بالتكرير، وهذا أيضًا ضعيف من وجهين: الأول: أنه لو كان المراد هذا لكان يقول: ثم يعيدون ما قالوا، الثاني: حديث أوس فإنه لم يكرر الظهار إنما عزم على الجماع وقد ألزمه رسول الله الكفارة، وكذلك حديث سلمة بن صخرة البياضي فإنه قال: كنت لا أصبر عن الجماع فلما دخل شهر رمضان ظاهرت من امرأتي مخافة أن لا أصبر عنها بعد طلوع الفجر فظاهرت منها شهر

رمضان كله ثم لم أصبر فواقعتها فأتيت رسول الله فأخبرته بذلك وقلت: أَمْضِ فيَّ حكم الله، فقال: «أَعْتِقْ رَقَبَةً» فأوجب الرسول عليه السلام عليه الكفارة مع أنه لم يذكر تكرار الظهار القول الثالث: قال أبو مسلم الأصفهاني: معنى العود، هو أن يحلف على ما قال أولاً من لفظ الظهار، فإنه إذا لم يحلف لم تلزمه الكفارة قياسًا على مالو قال في بعض الأطعمة، إنه حرام عليَّ كلحم الآدمي، فإنه لا تلزمه الكفارة، فأما إذا حلف عليه لزمه كفارة اليمين، وهذا أيضًا ضعيف لأن الكفارة قد تجب بالإجماع في المناسك ولا يمين هناك وفي قتل الخطأ ولا يمين هناك.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا فيما يحرمه الظهار، فللشافعي قولان: أحدهما: أنه يحرم الجماع فقط، القول الثاني: وهو الأظهر أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ودليله وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ فكان ذلك عامًّا في جميع ضروب المسيس، من لمس بيد أو غيرها، والثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ ألزمه حكم التحريم بسبب أنه شبهها بظهر الأم، فكما أن مباشرة ظهر الأم ومسه يحرم عليه، فوجب أن يكون الحال في المرأة كذلك، الثالث: روى عكرمة: **«أَنَّ رَجُلاً ظَاهَرَ مِنِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ وَاقَعَهَا قَبْلَ أَنْ يُكَفِّرَ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ اعْتَزِلْهَا حَتَّى تُكَفِّرَ»**(١).

المسألة الثانية: اختلفوا فيمن ظاهر مرارًا، فقال الشافعي وأبو حنيفة: لكل ظهار كفارة إلا أن يكون في مجلس واحد، وأراد بالتكرار التأكيد، فإنه يكون عليه كفارة واحدة، وقال مالك: من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة مائة فليس عليه إلا كفارة واحدة، دليلنا أن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ . . . ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يقتضي كون الظهار علة لإيجاب الكفارة، فإذا وجد الظهار الثاني فقد وجدت علة وجوب الكفارة، والظهار الثاني إما أن يكون علة للكفارة الأولى، أو لكفارة ثانية، والأول باطل لأن الكفارة وجبت بالظهار الأول وتكوين الكائن محال، ولأن تأخر العلة عن الحكم محال، فعلمنا أن الظهار الثاني يوجب كفارة ثانية، واحتج مالك بأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ يتناول من ظاهر مرة واحدة، ومن ظاهر مرارًا كثيرة، ثم إنه تعالى أوجب عليه تحرير رقبة، فعلمنا أن التكفير الواحد كاف في الظهار، سواء كان مرة واحدة أو مرارًا كثيرة والجواب: أنه تعالى قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] فهذا يقتضي أن لا يجب في الأيمان الكثيرة إلا

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الطلاق) باب (في الظهار) (٢/ ٢٧٥) حديث رقم (٢٢٢٥) قال: كتب إلى الحسين بن حريث. . . به والترمذي في كتاب (الطلاق) باب (في كفارة الظهار) (٣/ ٤٩٤) حديث رقم (١١٩٩) قال: وأنبأنا الحسين بن حريث وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن والنسائي في كتاب (الطلاق) باب (الظهار) (٣/ ٥٠٨) حديث رقم (٣٤٥٧) وابن ماجه في كتاب (الطلاق) باب (المظاهر يجامع قبل أن يكفر) (١/ ٦٦٦) حديث رقم (٢٠٦٥) من طريق غندر. . . به كلاهما (الفضل بن موسي، غندر) عن معمر. . . به.

كفارة واحدة، ولما كان باطلاً، فكذا ما قلتموه.

المسألة الثالثة: رجل تحته أربعة نسوة فظاهر منهن بكلمة واحدة وقال: أنتن علي كظهر أمي، للشافعي قولان: أظهرهما أنه يلزمه أربع كفارات، نظرًا إلى عدد اللواتي ظاهر منهن، ودليله ما ذكرنا، أنه ظاهر عن هذه، فلزمه كفارة بسبب هذا الظهار، وظاهر أيضًا عن تلك، فالظهار الثاني لا بد وأن يوجب كفارة أخرى.

المسألة الرابعة: الآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسة، فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة، وهو قول أكثر أهل العلم، كمالك وأبي حنيفة والشافعي وسفيان وأحمد وإسحاق رحمهم الله، وقال بعضهم: إذا واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان، وهو قول عبدالرحمن بن مهدي. دليلنا أن الآية دلت على أنه يجب على المظاهر كفارة قبل العود، فهاهنا فاتت صفة القبلية، فيبقى أصل وجوب الكفارة، وليس في الآية دلالة على أن ترك التقديم يوجب كفارة أخرى.

المسألة الخامسة: الأظهر أنه لا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفر، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينه وبينها ويجبره على التكفير، وإن كان بالضرب حتى يوفيها حقها من الجماع، قال الفقهاء: ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها، لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة وامتناع من إيفاء حقها.

المسألة السادسة: قال أبو حنيفة رحمه الله: هذه الرقبة تجزئ سواء كانت مؤمنة أو كافرة، لقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ فهذا اللفظ يفيد العموم في جميع الرقاب، وقال الشافعي: لا بد وأن تكون مؤمنة ودليله وجهان: الأول: أن المشرك نجس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة: ٢٨] وكل نجس خبيث بإجماع الأمة وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، الثاني: أجمعنا على أن الرقبة في كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فكذا هاهنا، والجامع أن الإعتاق إنعام، فتقييده بالإيمان يقتضي صرف هذا الإنعام إلى أولياء الله وحرمان أعداء الله، وعدم التقييد بالإيمان قد يفضي إلى حرمان أولياء الله، فوجب أن يتقيد بالإيمان تحصيلاً لهذه المصلحة.

المسألة السابعة: إعتاق المكاتب لا يجزئ عند الشافعي رحمه الله، وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن أعتقه قبل أن يؤدي شيئًا جاز عن الكفارة، وإذا أعتقه بعد أن يؤدي شيئًا، فظاهر الرواية أنه لا يجزئ، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه يجزئ، حجة أبي حنيفة أن المكاتب رقبة لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١١٧] والرقبة مجزئة لقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾، حجة الشافعي أن المقتضى لبقاء التكاليف بإعتاق الرقبة قائم، بعد إعتاق المكاتب، وما لأجله ترك العمل به في محل الرقاب غير موجود هاهنا، فوجب أن يبقى على الأصل، بيان المقتضى أن الأصل في الثابت البقاء على ما كان، بيان الفارق أن المكاتب كالزائل عن ملك المولى وإن لم

يزل عن ملكه، لكنه يمكن نقصان في رقه، بدليل أنه صار أحق بمكاسبه، ويمتنع على المولى التصرفات فيه، ولو أتلفه المولى يضمن قيمته، ولو وطئ مكاتبته يغرم المهر، ومن المعلوم أن إزالة الملك الخالص عن شوائب الضعف أشق على المالك من إزالة الملك الضعيف، ولا يلزم من خروج الرجل عن العهدة بإعتاق العبد القن خروجه عن العهدة بإعتاق المكاتب، والوجه الثاني: أجمعنا على أنه لو أعتقه الوارث بعد موته لا يجزئ عن الكفارة، فكذا إذا أعتقه المورث والجامع كون الملك ضعيفًا.

المسألة الثامنة: لو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنية الكفارة عتق عليه، لكنه لا يقع عن الكفارة عند الشافعي، وعند أبي حنيفة يقع، حجة أبي حنيفة التمسك بظاهر الآية، وحجة الشافعي ما تقدم.

المسألة التاسعة: قال أبو حنيفة: الإطعام في الكفارات يتأدى بالتمكين من الطعام، وعند الشافعي لا يتأدى إلا بالتمليك من الفقير، حجة أبي حنيفة ظاهر القرآن وهو أن الواجب هو الإطعام، وحقيقة الإطعام هو التمكين، بدليل قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وذلك يتأدى بالتمكين والتمليك، فكذا هاهنا، وحجة الشافعي القياس على الزكاة وصدقة الفطر.

المسألة العاشرة: قال الشافعي: لكل مسكين مد من طعام بلده الذي يقتات منه حنطة أو شعيرًا أو أرزًا أو تمرًا أو أقطًا، وذلك بمد النبي ﷺ ولا يعتبر مد حدث بعده، وقال أبو حنيفة: يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير ولا يجزئه دون ذلك، حجة الشافعي أن ظاهر الآية يقتضي الإطعام، ومراتب الإطعام مختلفة بالكمية والكيفية، فليس حمل اللفظ على البعض أولى من حمله على الباقي، فلا بد من حمله على أقل مالا بد منه ظاهرًا، وذلك هو المد، حجة أبي حنيفة ما روي في حديث أوس بن الصامت: «لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ» وعن علي وعائشة قالا: لكل مسكين مدان من بر، ولأن المعتبر حاجة اليوم لكل مسكين، فيكون نظير صدقة الفطر، ولا يتأدى ذلك بالمد، بل بما قلنا، فكذلك هنا.

المسألة الحادية عشرة: لو أطعم مسكينًا واحدًا ستين مرة لا يجزئ عند الشافعي، وعند أبي حنيفة يجزئ، حجة الشافعي ظاهر الآية، وهو أنه أوجب إطعام ستين مسكينًا، فوجب رعاية ظاهر الآية، وحجة أبي حنيفة أن المقصود دفع الحاجة وهو حاصل، وللشافعي أن يقول: التحكمات غالبة على هذه التقديرات، فوجب الامتناع فيها من القياس، وأيضًا فلعل إدخال السرور في قلب ستين إنسانًا، أقرب إلى رضا الله تعالى من إدخال السرور في قلب الإنسان الواحد.

المسألة الثانية عشرة: قال أصحاب الشافعي: إنه تعالى قال في الرقبة: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤] وقال في الصوم: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فذكر في الأول: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ وفي الثاني: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ فقالوا: مَنْ مَالُه غائب لم ينتقل إلى الصوم

بسبب عجزه عن الإعتاق في الحال أما من كان مريضًا في الحال، فإنه ينتقل إلى الإطعام وإن كان مرضه بحيث يرجى زواله، قالوا: والفرق أنه قال في الانتقال إلى الإطعام: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ وهو بسبب المرض الناجز، والعجز العاجل غير مستطيع، وقال في الرقبة: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ والمراد فمن لم يجد رقبة أو مالاً يشتري به رقبة، ومَنْ مالُه غائب لا يسمى فاقدًا للمال، وأيضًا يمكن أن يقال في الفرق إحضار المال يتعلق باختياره وأما إزالة المرض فليس باختياره.

المسألة الثالثة عشرة: قال بعض أصحابنا: الشبق المفرط والغلمة الهائجة، عذر في الانتقال إلى الإطعام، والدليل عليه أنه عليه السلام لما أمر الأعرابي بالصوم قال له: وهل أُتِيتُ إلا من قِبَل الصوم فقال عليه السلام «أَطْعِمْ» دل الحديث على أن الشبق الشديد عذر في الانتقال من الصوم إلى الإطعام، وأيضًا الاستطاعة فوق الوسع، والوسع فوق الطاقة، فالاستطاعة هو أن يتمكن الإنسان من الفعل على سبيل السهولة، ومعلوم أن هذا المعنى لا يتم مع شدة الشبق، فهذه جملة مختصرة مما يتعلق بفقه القرآن في هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قال الزجاج: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للتغليظ في الكفارة ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه، وقال غيره ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي تؤمرون به من الكفارة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وتركه.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ثم ذكر تعالى حكم العاجز عن الرقبة فقال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فدلت الآية على أن التتابع شرط، وذكر في تحرير الرقبة والصوم أنه لا بد وأن يوجدا من قبل أن يتماسا، ثم ذكر تعالى أن من لم يستطع ذلك فإطعام ستين مسكينًا، ولم يذكر أنه لا بد من وقوعه قبل المماسة، إلا أنه كالأولين بدلالة الإجماع، والمسائل الفقهية المفرعة على هذه الآية كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ وجهان الأول: قال الزجاج: إنه في محل الرفع، والمعنى الفرض ذلك الذي وضعناه، الثاني: فعلنا ذلك البيان والتعليم للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية من جعل الظهار أقوى أنواع الطلاق **وفي الآية مسائل**:

المسألة الأولى: استدلت المعتزلة باللام في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ على أن فعل الله معلل بالغرض وعلى أن غرضه أن تؤمنوا بالله، ولا تستمروا على ما كانوا عليه في الجاهلية من الكفر، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الإيمان وعدم الكفر.

المسألة الثانية: استدل من أدخل العمل في مسمى الإيمان بهذه الآية، فقال: أمرهم بهذه الأعمال، وبيَّن أنه أمرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين، فدلت الآية على أن العمل من الإيمان ومن أنكر ذلك قال: إنه تعالى لم يقل: (ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّه بِعَمَلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ)، ونحن نقول المعنى ذلك لتؤمنوا بالله بالإقرار بهذه الأحكام، ثم إنه تعالى أكد في بيان أنه لا بد لهم من الطاعة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لمن جحد هذا وكذب به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في المحادة قولان قال المبرد: أصل المحادة: الممانعة، ومنه يقال للبواب: حداد، وللممنوع الرزق محدود، قال أبو مسلم الأصفهاني: المحادة مفاعلة من لفظ الحديد، والمراد المقابلة بالحديد سواء كان ذلك في الحقيقة، أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد، أما المفسرون فقالوا: يحادون أي يعادون ويشاقون، وذلك تارة بالمحاربة مع أولياء الله وتارة بالتكذيب والصد عن دين الله.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿يُحَآدُّونَ﴾ يمكن أن يكون راجعًا إلى المنافقين، فإنهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرون على الرسول عليه السلام فأذلهم الله تعالى، ويحتمل سائر الكفار فأعلم الله رسوله أنهم ﴿كُبِتُواْ﴾ أي خذلوا، قال المبرد: يقال: كبت الله فلانًا إذا أذله، والمردود بالذل يقال له: مكبوت، ثم قال: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من أعداء الرسل: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ تدل على صدق الرسول: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بهذه الآيات: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم، فبيَّن سبحانه أن عذاب هؤلاء المحادين في الدنيا الذل والهوان، وفي الآخرة العذاب الشديد.

ثم ذكر تعالى ما به يتكامل هذا الوعيد فقال:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوب بينبئهم أو بمهين أو بإضمار اذكر، تعظيمًا لليوم، وفي قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ قولان: أحدهما: كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث، والثاني: مجتمعين في حال واحدة، ثم قال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ تخجيلاً لهم، وتوبيخًا وتشهيرًا لحالهم، الذي يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار، لما يلحقهم من الخزي على رءوس الأشهاد وقوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي أحاط بجميع أحوال تلك الأعمال من الكمية والكيفية، والزمان والمكان لأنه تعالى عالم

بالجزئيات، ثم قال: ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم استحقروها وتهاونوا بها فلا جرم نسوها: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي مشاهد لا يخفى عليه شيء ألبتة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالمًا بكل المعلومات فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم وأقول هذا حق لأن كونه تعالى عالمًا بالأشياء لا يرى، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل، وإنما أطلق لفظ الرؤية على هذا العلم، لأن الدليل على كونه عالمًا، هو أن أفعاله محكمة متقنة متسقة منتظمة، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم.

أما المقدمة الأولى: فمحسوسة مشاهدة في عجائب السموات والأرض، وتركيبات النبات والحيوان.

أما المقدمة الثانية: فبديهية، ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك ظاهرًا لا جرم بلغ هذا العلم والاستدلال إلى أعلى درجات الظهور والجلاء، وصار جاريًا مجرى المحسوس المشاهد، فلذلك أطلق لفظ الرؤية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وأما أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، فلأن علمه علم قديم، فلو تعلق بالبعض دون البعض من أن جميع المعلومات مشتركة في صحة المعلومية لافتقر ذلك العلم في ذلك التخصيص إلى مخصص، وهو على الله تعالى محال، فلا جرم وجب كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات، واعلم أنه سبحانه قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يقل: يعلم ما في الأرض وما في السموات وفي رعاية هذا الترتيب سر عجيب.

ثم إنه تعالى خص ما يكون من العباد من النجوى فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ابن جني: قرأ أبو حيوة (ما تكون من نجوى ثلاثة) بالتاء ثم قال والتذكير الذي عليه العامة هو الوجه، لما هناك من الشياع وعموم الجنسية، كقولك: ما جاءني من امرأة، وما حضرني من جارية، ولأنه وقع الفاصل بين الفاعل والمفعول، وهو كلمة (من)، ولأن النجوى تأنيثه ليس تأنيثًا حقيقيًا، وأما التأنيث فلأن تقدير الآية: ما تكون نجوى، كما يقال: ما قامت امرأة وما حضرت جارية.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ من كان التامة، أي ما يوجد ولا يحصل من نجوى ثلاثة.

المسألة الثالثة: النجوى: التناجي وهو مصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤] وقال الزجاج: النجوى مشتق من النجوة، وهي ما ارتفع ونجا، فالكلام المذكور سرًّا لما خلا عن استماع الغير صار كالأرض المرتفعة، فإنها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير، ويجوز أيضًا أن تجعل النجوى وصفًا، فيقال: قوم نجوى، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] والمعنى: هم ذوو نجوى، فحذف المضاف، وكذلك كل مصدر وصف به.

المسألة الرابعة: جر ثلاثة في قوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مجرورًا بالإضافة، والثاني: أن يكون النجوى بمعنى المتناجين، ويكون التقدير: ما يكون من متناجين ثلاثة فيكون صفة.

المسألة الخامسة: قرأ ابن أبي عبلة (ثَلاَثَةً) و(خَمْسَةً) بالنصب على الحال، بإضمار يتناجون لأن نجوى يدل عليه.

المسألة السادسة: أنه تعالى ذكر الثلاثة والخمسة، وأهمل أمر الأربعة في البين، وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن هذا إشارة إلى كمال الرحمة، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا أخذ اثنان في التناجي والمشاورة، بقي الواحد ضائعًا وحيدًا، فيضيق قلبه فيقول الله تعالى: أنا جليسك وأنيسك، وكذا الخمسة إذا اجتمعوا بقي الخامس وحيدًا فريدًا، أما إذا كانوا أربعة لم يبق واحد منهم فريدًا، فهذا إشارة إلى أن كل من انقطع عن الخلق ما يتركه الله تعالى ضائعًا، وثانيها: أن العدد الفرد أشرف من الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فخص الأعداد الفرد بالذكر تنبيهًا على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور، وثالثها: أن أقل مالا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة، حتى يكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما، فحينئذ تكمل تلك المشورة ويتم ذلك الغرض، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشاورة، فلا بد فيهم من واحد يكون حكمًا مقبول القول، فلهذا السبب لا بد وأن تكون أرباب المشاورة عددهم فردًا، فذكر سبحانه الفردين الأولين واكتفى بذكرهما تنبيهًا على الباقي، ورابعها: أن الآية نزلت في قوم من المنافقين، اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين، وكانوا على هذين العددين، قال ابن عباس نزلت هذه الآية في ربيعة وحبيب ابني عمرو، وصفوان بن أمية، كانوا يومًا يتحدثون، فقال أحدهم: هل يعلم الله ما تقول؟ وقال الثاني: يعلم البعض دون البعض، وقال الثالث: إن كان يعلم البعض فيعلم الكل، وخامسها: أن في مصحف عبدالله: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ اللَّه رَابِعُهُمْ، وَلاَ أَرْبَعَةٍ إِلاَّ اللَّه خَامِسُهُمْ، وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ اللَّه سَادِسُهُمْ، وَلاَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ اللَّه مَعَهُمْ إِذَا أَخَذُوا فِي التَّنَاجِي).

المسألة السابعة: قرئ: (وَلا أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ) بالنصب على أن (لا) لنفي الجنس،

ويجوز أن يكون ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ بالرفع معطوفًا على محل (لا) مع (أَدْنَى)، كقولك: لا حَوْلَ ولا قوةٌ إلا بالله، بفتح الحول ورفع القوة، والثالث: يجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك: لا حَولٌ ولا قوةٌ إلا بالله، والرابع: أن يكون ارتفاعهما عطفًا على محل ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾ كأنه قيل: ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم، والخامس: يجوز أن يكونا مجرورين عطفًا على ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم.

المسألة الثامنة: قرئ: (ولا أكبر) بالباء المنقطة من تحت.

المسألة التاسعة: المراد من كونه تعالى رابعًا لهم، والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالمًا بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم، وكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة.

المسألة العاشرة: قرأ بعضهم: (ثُمَّ يُنْبِئُهُمْ) بسكون النون، وأنبأ ونَبَّأ واحد في المعنى، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أي يحاسب على ذلك ويجازي على قدر الاستحقاق، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٨﴾

ثم إنه تعالى بيَّن حال أولئك الذين نهوا عن النجوى فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ واختلفوا في أنهم من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود، ومنهم من قال: هم المنافقون، ومنهم من قال: فريق من الكفار، والأول أقرب، لأنه تعالى حكى عنهم فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وهذا الجنس فيما روي وقع من اليهود، فقد كانوا إذا سلموا على الرسول عليه السلام قالوا: السام عليك، يعنون الموت، والأخبار في ذلك متظاهرة، وقصة عائشة فيها مشهورة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: قال المفسرون: إنه صح أن أولئك الأقوام كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك، فلما أكثروا ذلك شكا المسلمون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن الإثم والعدوان هو مخالفتهم للرسل في النهي عن النجوى لأن الإقدام على المنهي يوجب الإثم والعدوان، سيما إذا كان ذلك الإقدام لأجل المناصبة وإظهار التمرد.

والثاني: أن الإثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم، لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أو شيء يسوءهم.

المسألة الثانية: قرأ حمزة وحده، (وينْتَجُون) بغير ألف، والباقون: (يتناجون)، قال أبو علي: ينتجون يفتعلون من النجوى، والنجوى مصدر كالدعوى والعدوى، فينتجون ويتناجون واحد، فإن يفتعلون، ويتفاعلون، قد يجريان مجرى واحد، كما يقال: ازدوجوا، واعتوروا، وتزاوجوا وتعاوروا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] و(ادَّرَكُوا) فادَّركوا افتعلوا، وادَّاركوا تفاعلوا، وحجة من قرأ: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾، قوله: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المجادلة: ١٢] ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [المجادلة: ٩] فهذا مطاوع ناجيتم، وليس في هذا رد لقراءة حمزة: ينتجون، لأن هذا مثله في الجواز، وقوله تعالى: ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ قال صاحب الكشاف: قرئ (ومعصيات الرسول)، والقولان هاهنا كما ذكرناه في الإثم والعدوان وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم ذكر تعالى أنهم ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ يعني أنهم يقولون في أنفسهم: إنه لو كان رسولاً فلم لا يعذبنا الله بهذا الاستخفاف.

ثم قال تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمعنى أن تقدم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة، أو بحسب المصلحة، فإذا لم تقتض المشيئة تقديم العذاب، ولم يقتض الصلاح أيضًا ذلك، فالعذاب في القيامة كافيهم في الردع عما هم عليه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾.

اعلم أن المخاطبين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قولين، وذلك لأنا إن حملنا قوله فيما تقدم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٨] على اليهود حملنا في هذه الآية قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على المنافقين، أي يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم، وإن حملنا ذلك على جميع الكفار من اليهود والمنافقين، حملنا هذا على المؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، أتبعه بأن نهى أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقتهم، فقال: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ﴾ وهو ما يقبح مما يخصهم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو ما يؤدي إلى ظلم الغير ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو ما يكون خلافًا عليه، وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان وبالتقوى وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي، واعلم أن القوم متى تناجوا

بما هذه صفته قلّت: مناجاتهم، لأن ما يدعو إلى مثل هذا الكلام يدعو إظهاره، وذلك يقرب من قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وأيضًا فمتى عرفت طريقة الرجل في هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته أحد.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى حيث يحاسب ويجازي وإلا فالمكان لا يجوز على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الألف واللام في لفظ ﴿النَّجْوَىٰ﴾ لا يمكن أن يكون للاستغراق، لأن في النجوى ما يكون من الله ولله، بل المراد منه المعهود السابق وهو النجوى بالإثم والعدوان، والمعنى أن الشيطان يحملهم على أن يقدموا على تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين، قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا وهزموا، ويقع ذلك في قلوبهم ويحزنون له.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: ليس يضر التناجي بالمؤمنين شيئًا، والثاني: الشيطان ليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقيل: بعلمه، وقيل: بخلقه، وتقديره للأمراض وأحوال القلب من الحزن والفرح، وقيل: بأن يبين كيفية مناجاة الكفار حتى يزول الغم.

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإن من توكل عليه لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سببًا للتباغض والتنافر، أمرهم الآن بما يصير سببًا لزيادة المحبة والمودة، وقوله: ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض، من قولهم: افسح عني، أي تنح، ولا تتضاموا، يقال: بلدة فسيحة، ومفازة فسيحة، ولك فيه فسحة، أي سعة.

المسألة الثانية: قرأ الحسن وداود بن أبي هند: (تفاسَحُوا)، قال ابن جني: هذا لائق

بالغرض لأنه إذا قيل: (تَفَسَّحُوا)، فمعناه ليكن هناك تفسح، وأما التفاسح فتفاعل، والمراد هاهنا المفاعلة، فإنها تكون لما فوق الواحد كالمقاسمة والمكايلة، وقرئ: (في المجلس) قال الواحدي: والوجه التوحيد لأن المراد مجلس النبي ﷺ وهو واحد، ووجه الجمع أن يجعل لكل جالس مجلس على حدة، أي موضع جلوس.

المسألة الثالثة: ذكروا في الآية أقوالاً: الأول: أن المراد مجلس رسول الله ﷺ كانوا يتضامون فيه تنافسًا على القرب منه، وحرصًا على استماع كلامه، وعلى هذا القول ذكروا في سبب النزول وجوهًا: الأول: قال مقاتل بن حيان: كان عليه السلام يوم الجمعة في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سُبِقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف رسول الله ﷺ ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه، وشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرفت الكراهية في وجوههم، وطعن المنافقون في ذلك، وقالوا: والله ما عدل على هؤلاء، إن قومًا أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فنزلت هذه الآية يوم الجمعة، الثاني: روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن الشماس، وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يريد القرب من الرسول عليه الصلاة والسلام للوقر الذي كان في أذنيه فوسعوا له حتى قرب، ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينه كلام، ووصف للرسول محبة القرب منه ليسمع كلامه، وإن فلانًا لم يفسح له، فنزلت هذه الآية، وأمر القوم بأن يوسعوا ولا يقوم أحد لأحد، الثالث: أنهم كانوا يحبون القرب من رسول الله ﷺ، وكان الرجل منهم يكره أن يضيق عليه فربما سأله أخوه أن يفسح له فيأبى فأمرهم الله تعالى بأن يتعاطفوا ويتحملوا المكروه وكان فيهم من يكره أن يمسه الفقراء، وكان أهل الصفة يلبسون الصوف ولهم روائح، القول الثاني: وهو اختيار الحسن أن المراد تفسحوا في مجالس القتال، وهو كقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ [آل عمران: ١٢١] وكان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا، فيأبون لحرصهم على الشهادة والقول الثالث: أن المراد جميع المجالس والمجامع، قال القاضي: والأقرب أن المراد منه مجلس الرسول عليه السلام، لأنه تعالى ذكر المجلس على وجه يقتضي كونه معهودًا، والمعهود في زمان نزول الآية ليس إلا مجلس الرسول ﷺ الذي يعظم التنافس عليه، ومعلوم أن للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من سماع حديثه، ولما فيه من المنزلة، ولذلك قال عليه السلام: «لِيَلِيَنِي مِنكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى» ولذلك كان يقدم الأفاضل من أصحابه، وكانوا لكثرتهم يتضايقون، فأمروا بالتفسح إذا أمكن، لأن ذلك أدخل في التحبب، وفي الاشتراك في سماع مالا بد منه في الدين، وإذا صح ذلك في مجلسه، فحال الجهاد ينبغي أن يكون مثله، بل ربما كان أولى، لأن الشديد البأس قد يكون متأخرًا عن الصف الأول، والحاجة إلى تقدمه ماسة فلا بد من

التفسح، ثم يقاس على هذا سائر مجالس العلم والذكر.

أما قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فهو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة.

واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور في قلبه، ولذلك قال عليه السلام: «**لاَ يَزَالُ اللَّه فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا زَالَ الْعَبْدُ فِي عون أخيه المسلم**»

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ابن عباس: إذا قيل لكم: ارتفعوا فارتفعوا، واللفظ يحتمل وجوهًا: أحدها: إذا قيل لكم: قوموا للتوسعة على الداخل، فقوموا، وثانيها: إذا قيل: قوموا من عند رسول الله ﷺ، ولا تطولوا في الكلام، فقوموا ولا تركزوا معه، كما قال: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهو قول الزجاج، وثالثها: إذا قيل لكم: قوموا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير وتأهبوا له، فاشتغلوا به وتأهبوا له، ولا تتثاقلوا فيه، قال الضحاك وابن زيد: إن قومًا تثاقلوا عن الصلاة، فأمروا بالقيام لها إذا نودي.

المسألة الثانية: قرئ: (انْشُزُوا) بكسر الشين وبضمها، وهما لغتان مثل: (يَعْكِفُونَ) و﴿يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، و﴿يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] و(يَعْرُشُونَ).

واعلم أنه تعالى لما نهاهم أولاً عن بعض الأشياء، ثم أمرهم ثانيًا ببعض الأشياء وعدهم على الطاعات، فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامر رسوله، والعالمين منهم خاصة درجات، ثم في المراد من هذه الرفعة قولان: الأول: وهو القول النادر: أن المراد به الرفعة في مجلس الرسول عليه السلام، والثاني: وهو القول المشهور: أن المراد منه الرفعة في درجات الثواب، ومراتب الرضوان.

واعلم أنا أطنبنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] في فضيلة العلم، وقال القاضي: لا شبهة أن علم العالم يقتضي لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن، ولذلك فإنه يقتدى بالعالم في كل أفعاله، ولا يقتدى بغير العالم، لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ منه غيره، وفي الوجوه كثرة، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من الطاعات في درجة الثواب، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب، لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيرًا منه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد: أولها: إعظام الرسول عليه السلام وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره، وثانيها: نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة، وثالثها: قال ابن عباس: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية شَحَّ كثير من الناس فكفوا عن المسألة، ورابعها: قال مقاتل بن حيان: إن الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي عليه الصلاة والسلام وأكثروا من مناجاته حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فأما الأغنياء فامتنعوا، وأما الفقراء فلم يجدوا شيئًا، واشتاقوا إلى مجلس الرسول عليه السلام، فتمنوا أن لو كانوا يملكون شيئًا فينفقونه ويصلون إلى مجلس رسول الله ﷺ، فعند هذا التكليف ازدادت درجة الفقراء عند الله، وانحطت درجة الأغنياء، وخامسها: يحتمل أن يكون المراد منه التخفيف عليه، لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول، ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة، ويحتمل أنه كان في ذلك ما يشغل قلب بعض المؤمنين، لظنه أن فلانًا إنما ناجى رسول الله ﷺ لأمر يقتضي شغل القلب فيما يرجع إلى الدنيا، وسادسها: أنه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا، فإن المال محك الدواعي.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبًا، لأن الأمر للوجوب، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه، ومنهم من قال: إن ذلك ما كان واجبًا، بل كان مندوبًا، واحتج عليه بوجهين الأول: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض، والثاني: أنه لو كان ذلك واجبًا لما أزيل وجوبه بكلام متصل به، وهو قوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ﴾ [المجادلة: ١٣] إلى آخر الآية، والجواب عن الأول: أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر، فالواجب أيضًا يوصف بذلك، والجواب عن الثاني: أنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين في التلاوة، كونهما متصلتين في النزول، وهذا كما قلنا في الآية الدالة على وجوب الاعتداد بأربعة أشهر وعشرًا، إنها ناسخة للاعتداد بحول، وإن كان الناسخ متقدمًا في التلاوة على المنسوخ، ثم اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ، فقال الكلبي: ما بقي ذلك التكليف إلا ساعة من النهار ثم نسخ، وقال مقاتل بن حيان: بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ.

المسألة الثالثة: روي عن علي عليه السلام أنه قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد

قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم، فكلما ناجيت رسول الله ﷺ قدمت بين يدي نجواي درهمًا، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، وروي عن ابن جريج والكلبي وعطاء عن ابن عباس: أنهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه أحد إلا علي عليه السلام تصدق بدينار، ثم نزلت الرخصة. قال القاضي والأكثر في الروايات: أنه عليه السلام تفرد بالتصدق قبل مناجاته، ثم ورد النسخ، وإن كان قد روي أيضًا أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك، وإن ثبت أنه اختص بذلك فلأن الوقت لم يتسع لهذا الغرض، وإلا فلا شبهة أن أكابر الصحابة لا يقعدون عن مثله، وأقول على تقدير أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك، فهذا لا يجر إليهم طعنًا، وذلك الإقدام على هذا العمل مما يضيق قلب الفقير، فإنه لا يقدر على مثله فيضيق قلبه، ويوحش قلب الغني فإنه لما لم يفعل الغني ذلك وفعله غيره صار ذلك الفعل سببًا للطعن فيمن لم يفعل، فهذا الفعل لما كان سببًا لحزن الفقراء ووحشة الأغنياء، لم يكن في تركه كبير مضرة، لأن الذي يكون سببًا للألفة أولى مما يكون سببًا للوحشة، وأيضًا فهذه المناجاة ليست من الواجبات ولا من الطاعات المندوبة، بل قد بينا أنهم إنما كلفوا بهذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة، ولما كان الأولى بهذه المناجاة أن تكون متروكة لم يكن تركها سببًا للطعن.

المسألة الرابعة: روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: لما نزلت الآية دعاني رسول الله ﷺ فقال: «مَا تَقُولُ فِي دِينَارٍ؟» قلت: لا يطيقونه، قال: «كَمْ؟» قلت: حبة أو شعيرة، قال: «إِنَّكَ لَزَهِيدٌ» (١) والمعنى إنك قليل المال فقدرت على حسب مالك.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي ذلك التقديم خير لكم في دينكم وأطهر لأن الصدقة طهرة.

أما قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمراد منه الفقراء، وهذا يدل على أن من لم يجد ما يتصدق به كان معفوًا عنه.

المسألة الخامسة: أنكر أبو مسلم وقوع النسخ وقال: إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وإن قومًا من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهرًا وباطنًا إيمانًا حقيقيًا، فأراد الله

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في كتاب (التفسير) باب (في سورة المجادلة) (٥/ ٤٠٦) حديث رقم (٣٣٠٠) من طريق وكيع قال حدثنا يحيى بن آدم... به والنسائي في (السنن الكبرى) (٥/ ١٥٢) حديث رقم (٨٥٣٧) من طريق قاسم الجرمي عن سفيان... به والبزار في (مسنده) (٢/ ٢٥٨) حديث رقم (٦٦٨) من طريق يحيى بن آدم... به وابن أبي شيبة في مصنفه حديث رقم (٣٢٧٨٩) من طريق سفيان الثوري... به بتحقيقنا وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٣٢٢) حديث رقم (٤٠٠) قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يحيى بن آدم حدثنا عبيد الله الأشجعي... به وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٥٩) حديث رقم (٩٠) قال حدثني ابن أبي شيبة حدثنا يحيى بن آدم... به وضعف إسناده الألباني في ضعيف الترمذي (قلت) ولعل علته علي بن علقمة الأنماري قال البخاري في حديثه نظر.

تعالى أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًّا عمن بقي على نفاقه الأصلي، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت، وحاصل قول أبي مسلم: أن ذلك التكليف كان مقدرًا بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة، فلا يكون هذا نسخًا، وهذا الكلام حسن ما به بأس، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] ومنهم من قال: إنه منسوخ بوجوب الزكاة.

قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

والمعنى أَخِفْتُم تقديم الصدقات لما فيه من إنفاق المال، فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به وتاب الله عليكم ورخص لكم في أن لا تفعلوه، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات. فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف، وبيانه من وجوه: أولها: قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟﴾ وهو يدل على تقصيرهم، وثانيها: قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾، وثالثها: قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قلنا: ليس الأمر كما قلتم، وذلك لأن القوم لما كلفوا بأن يقدموا الصدقة ويشغلوا بالمناجاة، فلا بد من تقديم الصدقة، فمن ترك المناجاة يكون مقصرًا، وأما لو قيل بأنهم ناجوا من غير تقديم الصدقة، فهذا أيضًا غير جائز، لأن المناجاة لا تمكن إلا إذا مكن الرسول من المناجاة، فإذا لم يمكنهم من ذلك لم يقدروا على المناجاة، فعلمنا أن الآية لا تدل على صدور التقصير منهم، فأما قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ فلا يمتنع أن الله تعالى علم ضيق صدر كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل لو دام الوجوب، فقال هذا القول، وأما قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فليس في الآية أنه تاب عليكم من هذا التقصير، بل يحتمل أنكم إذا كنتم تائبين راجعين إلى الله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فقد كفاكم هذا التكليف، أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني محيط بأعمالكم ونياتكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المسلمون ولا من اليهود ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ والمراد من هذا الكذب إما ادعاؤهم كونهم مسلمين، وإما أنهم كانوا يشتمون الله ورسوله ويكيدون المسلمين فإذا قيل لهم: إنكم فعلتم ذلك خافوا على

أنفسهم من القتل، فيحلفون أنا ما قلنا ذلك وما فعلناه، فهذا هو الكذب الذي يحلفون عليه.

واعلم أن هذه الآية تدل على فساد قول الجاحظ إن الخبر الذي يكون مخالفًا للمخبر عنه إنما يكون كذبًا لو علم المخبر كون الخبر مخالفًا للمخبر عنه، وذلك لأن لو كان الأمر على ما ذهب إليه لكان قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تكرارًا غير مفيد، يروى أن عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرته إذ قال: يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان فدخل رجل عيناه زرقاوان فقال له: لم تسبني فجعل يحلف فنزل قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٥ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والمراد منه عند بعض المحققين عذاب القبر ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ الحسن: (اتخذوا إِيمَانَهم) بكسر الهمزة، قال ابن جني: هذا على حذف المضاف، أي اتخذوا ظهور إيمانهم جنة عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين، أو جنة عن أن يقتلهم المسلمون، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الإسلام.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي عذاب الآخرة، وإنما حملنا قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على عذاب القبر، وقوله هاهنا: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على عذاب الآخرة، لئلا يلزم التكرار، ومن الناس من قال: المراد من الكل عذاب الآخرة، وهو كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

روي أن واحدًا منهم قال: لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

قال ابن عباس: إن المنافق يحلف لله يوم القيامة كذبًا كما يحلف لأوليائه في الدنيا كذبًا أما الأول: فكقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وأما الثاني: فهو كقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] والمعنى أنهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة أنه يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب، فكان هذا الحلف الذميم يبقى معهم أبدًا، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] قال الجبائي والقاضي: إن أهل

الآخرة لا يكذبون، فالمراد من الآية أنهم يحلفون في الآخرة أنا ما كنا كافرين عند أنفسنا، وعلى هذا الوجه لا يكون هذا الحلف كذبًا، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي في الدنيا، واعلم أن تفسير الآية بهذا الوجه لا شك أنه يقتضي ركاكة عظيمة في النظم، وقد استقصينا هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

قال الزجاج: استحوذ في اللغة: استولى، يقال: حاوزت الإبل، وحذتها إذا استوليت عليها وجمعتها، قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقالت عائشة في حق عمر: كان أحوذيًّا، أي سائسًا ضابطًا للأمور، وهو أحد ما جاء على الأصل نحو: استصوب واستنوق، أي ملكهم الشيطان واستولى عليهم، ثم قال: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ واحتج القاضي به في خلق الأعمال من وجهين: الأول: ذلك النسيان لو حصل بخلق الله لكانت إضافتها إلى الشيطان كذبًا، والثاني: لو حصل ذلك بخلق الله لكانوا كالمؤمنين في كونهم حزب الله لا حزب الشيطان.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

أي في جملة من هو أذل خلق الله، لأن ذل أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني، فلما كانت عزة الله غير متناهية، كانت ذلة من ينازعه غير متناهية أيضًا، ولما شرح ذلهم، بَيَّن عز المؤمنين فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر: (أَنَا وَرُسُلِيَ) بفتح الياء، والباقون لا يحركون، قال أبو علي: التحريك والإسكان جميعًا جائزان.

المسألة الثانية: غلبة جميع الرسل بالحجة مفاضلة، إلا أن منهم من ضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف، ومنهم من لم يكن كذلك، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ على نصرة أنبيائه: ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يدفعه أحد عن مراده، لأن كل ما سواه ممكن الوجود لذاته، والواجب لذاته يكون غالبًا للممكن لذاته، قال مقاتل: إن المسلمين قالوا: إنا لنرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي: أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموهم، كلا والله إنهم أكثر جمعًا وعدة فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله، وذلك لأن من أحب أحدًا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه وهذا على وجهين: أحدهما: أنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله، لم يحصل فيه الإيمان، فيكون صاحبه منافقًا، والثاني: أنهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافرًا بسبب هذا الوداد، بل كان عاصيًا في الله، فإن قيل: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحرمة المحظورة؟ قلنا: المودة المحظورة هي إرادة منافسته دينًا ودنيا مع كونه كافرًا، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه، ثم إنه تعالى بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه: أولها: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان، وثانيها: قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوبًا مطروحًا بسبب الدين، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وأبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَتِّعْنَا بِنَفْسِكَ»(١) ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر، أخبر أن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضبًا لله ودينه وثالثها: أنه تعالى عدد نعمه على المؤمنين، فبدأ بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المعنى أن من أنعم الله عليه بهذه النعمة العظيمة كيف يمكن أن يحصل في قلبه مودة أعداء الله، واختلفوا في المراد من قوله: ﴿كَتَبَ﴾ أما القاضي فذكر ثلاثة أوجه على وفق قول المعتزلة أحدها: جعل في قلوبهم علامة تعرف بها الملائكة ما هم عليه من الإخلاص، وثانيها: المراد شرح صدورهم للإيمان بالألطاف والتوفيق، وثالثها: قيل في: ﴿كَتَبَ﴾ قضى أن قلوبهم بهذا الوصف، واعلم أن هذه الوجوه الثلاثة نسلمها للقاضي ونفرع عليها صحة قولنا، فإن الذي قضى الله به أخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ، لو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبًا وهذا محال، والمؤدي إلى المحال محال، وقال أبو علي الفارسي معناه:

---

(١) إسناده ضعيف: الحاكم في (المستدرك) (٣/ ٥٣٩) حديث رقم (٦٠٠٤) من طريق الحسن بن الجهم حدثنا الحسين بن الفرج حدثنا محمد بن عمر . . . به وأورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٠١) وقال: وفي إسناده الواقدي وهو ضعيف.

جمع، والكتيبة: الجمع من الجيش، والتقدير أولئك الذين جمع الله في قلوبهم الإيمان، أي استكملوا فلم يكونوا ممن يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] ومتى كانوا كذلك امتنع أن يحصل في قلوبهم مودة الكفار، وقال جمهور أصحابنا: ﴿كَتَبَ﴾ معناه أثبت وخلق، وذلك لأن الإيمان لا يمكن كتبه، فلا بد من حمله على الإيجاد والتكوين.

المسألة الثانية: روى المفضل عن عاصم: (كُتِبَ) على فعل مالم يسم فاعله، والباقون: (كَتَبَ) على إسناد الفعل إلى الفاعل، والنعمة الثانية: قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وفيه قولان: الأول: قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمى تلك النصرة روحًا لأن بها يحيا أمرهم، والثاني: قال السدي: الضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ عائد إلى الإيمان والمعنى أيدهم بروح من الإيمان يدل عليه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، النعمة الثالثة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وهو إشارة إلى نعمة الجنة، النعمة الرابعة: قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وهي نعمة الرضوان، وهي أعظم النعم وأجل المراتب، ثم لما عدد هذه النعم ذكر الأمر الرابع من الأمور التي توجب ترك الموادة مع أعداء الله فقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

واعلم أن الأكثرين اتفقوا على أن قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وإخباره أهل مكة بمسير النبي ﷺ لما أراد فتح مكة، وتلك القصة معروفة وبالجملة فالآية زجر عن التودد إلى الكفار والفساق.

عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلاَ لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعْمَةً فَإِنِّي وَجَدْتُ فِيمَا أَوحيت** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ **إِلَى آخِرِهِ**» والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة المجادلة

وهي اثنتان وعشرون آية

مدنيَّة في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء: أنَّ العشر الأوَّل منها مدنيٌّ وباقيها مكيٌّ، وقال الكلبيُّ: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [الآية: ٧] نزلت بمكَّة(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التي اشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل: بنت حكيم. وقيل: اسمها جميلة. وخَوْلة أصحُّ، وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبادة بن الصامت، وقد مرَّ بها عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته ـ والناس معه ـ على حمار، فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنتَ تدعى عُمَيرًا، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ يا عمر؛ فإنَّه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقفُ لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: واللهِ لو حبستني من أوَّل النهار إلى آخره لا زلتُ إلا للصلاة المكتوبة، أتدرونَ من هذه العجوز؟ هي خَوْلة بنت ثعلبة، سمع اللهُ قولَها من فوقِ سبع سماوات، أيسمع ربُّ العالمين قولَها ولا يسمعه عمر(٢)؟!

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٧ .

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي ص ١٦٤ - ١٦٥ ، والخبر أخرجه الدارمي في الرد على الجهميَّة ص٢١ ، =

وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وَسِع سمعه كلَّ شيء، إنِّي لأسمع كلامَ خَوْلةَ بنتِ ثعلبةَ ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجَها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسولَ الله! أكَلَ شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرت سنِّي، وانقطع ولدي، ظاهَرَ منِّي، اللهمَّ إنِّي أشكو إليكَ! فما بَرِحتْ حتى نزل جبريلُ بهذه الآية: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلك في زوجِها وتَشْتَكِي إلى اللهِ» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»[١].

والذي في البخاريِّ من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها»[٢].

وقال الماورديُّ[٣]: هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف؛ لأنَّ أحدهما أبوها، والآخر جدُّها، فنُسبت إلى كلٍّ واحد منهما، وزوجها أَوْس بن الصَّامِت[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: هي خَوْلة بنت خويلد الخزرجيَّة، كانت تحت

= وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٢ (١٨٨٤١) من طريق جرير بن حازم، عن أبي يزيد المدني قال: لقيت امرأةٌ عمرَ، يقال لها: خولة بنت ثعلبة... الخبر بنحوه، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٤ - ١٧٣٥.

(١) برقم (٢٠٦٣)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٧٨٠)، والطبري ٢٢/ ٤٥٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨١، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٣.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ. ومعنى: نثرت له بطني: أرادت أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. وامرأة نثور: كثيرة الولد. النهاية (نثر).

(٢) البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، قبل حديث (٧٣٨٦) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله أحمد (٢٤١٩٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٨٨)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٦٨، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٤.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٧.

(٤) بعدها في (م): أخو عبادة بن الصامت.

أَوس بنِ الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت، وكانت حسنةَ الجِسم، فرآها زوجها ساجدةً، فنظر عجيزتها فأعجبه أَمْرَها، فلما انصرفت أرادها، فأَبَتْ، فغضب عليها، قال عُرْوة: وكان امرأً به لَمَم، فأصابه بعضُ لَمَمِه فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمِّي ـ وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ـ فسألت النبيَّ ﷺ فقال لها: «حَرُمْتِ عليه» فقالت: واللهِ ما ذَكَر طلاقًا. ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابنِ عمِّي، وقد نفضتُ له بطني[١]. فقال: «حَرُمْتِ عليه» فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية.

وروى الحسن: أنَّها قالت: يا رسولَ الله! قد نسخ الله سننَ الجاهلية، وإنَّ زوجي ظاهر منِّي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ في هذا شيء» فقالت: يا رسولَ الله، أوحي إليكَ في كلِّ شيء وطُويَ عنك هذا؟! فقال: «هو ما قلتُ لكِ» فقالت: إلى اللهِ أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها وتَشْتَكِي إلى اللهِ» الآية[٢].

وروى الدَّارَقُطْنِيُّ من حديث قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثه قال: إنَّ أَوْس بن الصّامت ظاهَرَ من امرأته خُوَيْلَةَ بنتِ ثعلبةَ، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقالت: ظاهَرَني حين كَبِرَتْ سِنِّي ورقَّ عظمي. فأنزل الله تعالى آيةَ الظهار، فقال رسول الله ﷺ لأوس: «أعتق رقبةً» قال: مالي بذلك يدان. قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: أما إنِّي إذا أخطأني أن آكل في اليوم[٣] يكِلُّ بصري. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً» قال: ما

---

(١) نَفَضَتِ المرأةُ كَرِشَها، فهي نفوض: كثيرة الولد. اللسان (نفض)، والخبر أورده العيني في عمدة القاري ٢٠/ ٢٨١ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٧ - ٤٨٨، ولم نقف عليه عند غيره.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(ق) و(م): ثلاث مرات، والمثبت من (ظ)، والدارقطني (٣٨٥٣ طبعة مؤسسة الرسالة)، وأخرجه أيضاً من طريقه الواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٤ - ٤٣٥، وورد في مطبوع الدارقطني (بتحقيق عبد الله هاشم اليماني) ٣/ ٣١٦ زيادة كلمة: مرَّتين. بعد قوله: أن آكل في اليوم. وكذا أضافها محقق أسباب النزول، ولعله اعتمد على مطبوع الدارقطني الآنف الذكر. وفي إسناد الحديث: سعيد بن بشير الدمشقي، الراوي عن قتادة، وهو ضعيف. تقريب التهذيب، والجرح والتعديل للرازي ٤/ ٦-٧، والمغني في الضعفاء للذهبي ١/ ٢٥٦.

وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤٧-٤٤٨ عن قتادة من قوله بنحوه.

أَجِدُ إلا أن تعينني منك بعَوْنٍ وصِلَة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا حتى جمع الله له، والله رحيم(١)، قال: فكانوا يرون أنَّ عنده مثلَها، وذلك لستِّين مسكيناً.

وفي الترمذِّي و«سنن ابن ماجه»: أنَّ سلمة بنَ صخر البياضيَّ ظاهَرَ من امرأته، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أعتق رقبةً» قال: فضربت صفحة عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحقِّ ما أصبحتُ أملكُ غيرَها. قال: «فصم شهرين» فقلت: يا رسولَ الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً» الحديث(٢).

وذكر ابن العربي في «أحكامه»(٣): روي أنَّ خولةَ بنت دُلَيْج ظاهَرَ منها زوجها، فأتتِ النبيَّ ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبيُّ ﷺ: «قد حَرُمْتِ عليه» فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. [ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه» فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه] وعائشة تغسل شقَّ رأسه الأيمن، ثم تحوَّلت إلى الشقِّ الآخر، وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: اسكتي؛ فإنَّه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: «أعتق رقبة» قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين» قال: إن لم آكل في اليوم ثلاث مرَّات خفت أن يعشوَ(٤) بصري. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً». قال: فأعنِّي. قال: فأعانه بشيء.

قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنَّها خولة وزوجها أَوْس بن الصّامت، واختلفوا في نسبها، فقال بعضهم: هي أنصاريَّة وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دُلَيْج، وقيل: هي بنت خُوَيلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت(٥)، وقال

---

(١) بعدها في (م): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٢) الترمذي (٣٢٩٩)، وابن ماجه (٢٠٦٦)، واللفظ للترمذي، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٢١٣)، وأحمد (١٦٤٢١). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وسليمان بن يسار لم يسمع عندي من سلمة بن صخر، ويقال: سلمة بن صخر، وسليمان بن صخر. اهـ.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٦، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٤٤٦ - ٤٤٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٨٤ - ٣٨٥ عن أبي العالية مرسلاً بنحوه، وأورده الزمخشري في الكشاف ٤/ ٦٩ مختصراً.

(٤) في (د) و(ظ): يغشو.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٢ بنحوه.

بعضهم: هي أمَة كانت لعبد الله بن أُبَيٍّ، وهي التي أنزل الله فيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] لأنَّه كان يُكرهها على الزنى[١]. وقيل: هي بنت حكيم. قال النحَّاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرَّةً إلى أبيها، ومرَّةً إلى أمِّها، ومرَّةً إلى جدِّها، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبيٍّ، فقيل لها: أنصارية بالولاء؛ لأنَّه كان في عداد الأنصار، وإن كان من المنافقين.

الثانية: قرئ: «قَد سَّمِعَ اللهُ» بالإدغام، و«قَدْ سَمِعَ اللهُ» بالإظهار[٢]. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ابن فُورك: الصحيح أنَّه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنَّه المدرِك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن، وذلك راجع إلى أنَّ الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غيرَ موصوف بالحِسِّ المركَّب في الأذن، كالأصمِّ من الناس لمَّا لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلًا لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة، والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متَّصفاً بهما[٣].

وشكى واشتكى بمعنى واحد. وقرِئ: «تُحَاوِرُكَ»[٤] أي: تراجعك الكلام. و«تُجَادِلُكَ» أي: تسائلك.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٩-٣٤٠ عن مقاتل أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ...﴾ الآية، نزلت في ستِّ جوارٍ لعبد الله بن أُبَيٍّ، كان يُكرِههنَّ ويأخذ أجورهنَّ، وهنَّ: معاذة، ومُسَيْكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقُتيلة... الخبر.

(٢) النشر ٢/ ٣ - ٤، والإدغام عن أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام.

(٣) الأسنى ص ٢٧٨، وكلام الحاكم أبي عبد الله ـ وهو الحليمي ـ في كتابه شعب الإيمان ١/ ١٩٩.

(٤) وهي قراءة ابن مسعود، القراءات الشاذة ص ١٥٣.

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾[1] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ وخلف: «يَظَّاهَرونَ» بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «يَظَّهَّرُونَ» بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء. وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرُّ بن حُبَيش: «يُظاهِرُونَ» بضمِّ الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء[2]. وقد تقدَّم هذا في «الأحزاب»[3]. وفي قراءة أُبَيٍّ: «يَتَظَاهَرُونَ»[4] وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة.

وذكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدميَّة إنَّما يُركَب بطنها، ولكن كنَّى عنه بالظهر؛ لأنَّ ما يُركَب من غير الآدميَّات فإنَّما يركب ظهره، فكنَّى بالظهر عن الركوب[5]. ويقال: نزل عن امرأته، أي: طلَّقها، كأنَّه نزل عن مركوب. ومعنى: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي: أي: أنتِ عليَّ محرَّمة لا يحلُّ لي ركوبك.

الثانية: حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلَّل بظهرٍ محرَّم[6]، ولهذا أجمع الفقهاء على أنَّ من قال لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. أنَّه مظاهر[7]. وأكثرهم على أنَّه إن قال لها: أنتِ عليَّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، أنَّه مظاهر، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. واختلف فيه عن الشافعي ﷺ، فروي عنه نحو قول مالك؛ لأنه شبَّه امرأته بظهر محرَّم

(١) كذا في النسخ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وكذا سترد في كل المواضع الآتية من هذه السورة.

(٢) السبعة ص٦٢٨، والتيسير ص٢٠٦-٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٥.

(٣) لم نقف عليه هناك، بل أحال الكلام هناك على هذه السورة.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٦، ومسألة الظهار وأحكامه في المدونة ٣/ ٤٩-٨٤، وبدائع الصنائع ٥/ ٣-٢٤، والأم ٥/ ٢٦١-٢٧٢، والمغني ١١/ ٥٤-١١٩، فلتراجع لمن أراد التوسع فيها.

(٧) الإجماع لابن المنذر ص ٩٢.

عليه مؤبَّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أنَّ الظهار لا يكون إلا بالأمِّ وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأوَّل قول الحسن والنخعيِّ والزهريِّ والأوزاعيِّ والثوريِّ[١].

الثالثة: أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. وإنَّما ذكر الله الظهر كنايةً عن البطن وستراً. فإن قال: أنتِ عليَّ كأمِّي، ولم يذكر الظهر، أو قال: أنتِ عليَّ مثل أمِّي؛ فإن أراد الظهار، فله نيته، وإن أراد الطلاق، كان مطلِّقاً ألْبَتَّة عند مالك، وإن لم يكن له نية في طلاق ولا في ظهار، كان مظاهراً. ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق، كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار، وكناية الظهار خاصَّة تنصرف بالنية إلى الطلاق الْبتِّ[٢].

الرابعة: ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية؛ فالصريح: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وأنتِ عندي، وأنتِ منِّي، وأنتِ معي، كظهر أمِّي. وكذلك: أنتِ عليَّ كبطن أمِّي، أو: كرأسها، أو: فرجها، أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليَّ كظهر أمِّي، فهو مظاهر، مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق، تطلق عليه. وقال الشافعيُّ في أحد قوليه: لا يكون ظهاراً. وهذا ضعيف منه؛ لأنَّه قد وافقنا على أنَّه يصحُّ إضافة الطلاق إليه خاصَّة حقيقة، خلافًا لأبي حنيفة، فصحَّ إضافة الظهار إليه. ومتى شبَّهها بأمِّه أو بإحدى جدَّاته من قِبَلِ أبيه أو أمه، فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبَّهها بغيرهنَّ من ذوات المحارم التي لا تحلُّ له بحال، كالبنت والأخت والعمَّة والخالة، كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعيِّ ﷺ على الصحيح من المذهب، على ما ذكرنا[٣].

والكناية أن يقول: أنتِ عليَّ كأمِّي، أو: مثل أمِّي، فإنَّه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهار، كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار، لم يكن مظاهراً عند الشافعيِّ وأبي حنيفة.

---

(١) المغني لابن قدامة ١١/٥٨ .

(٢) الكافي لابن عبد البر ٢/٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) المغني ١١/ ٦٠ وما بعدها .

وقد تقدَّم مذهب مالك ﷺ في ذلك، والدليل عليه أنَّه أطلق تشبيه امرأته بأمِّه، فكان ظهاراً. أصله إذا ذكر الظهر، وهذا قويٌّ؛ فإنَّ معنى اللفظ فيه موجود ـ واللفظ بمعناه ـ ولم يلزم حكم الظهر للفظه، وإنَّما أُلْزِمَه بمعناه وهو التحريم، قاله ابن العربيّ[1].

الخامسة: إذا شبَّه جملة أهله بعضوٍ من أعضاء أمِّه، كان مظاهراً، خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنَّه إن شبَّهها بعضوٍ يحلُّ له النظر إليه، لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحلُّ له، وفيه وقع التشبيه، وإيَّاه قصد المظاهر، وقد قال الإمام الشافعيُّ في قول: إنَّه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأنَّ كلَّ عضو منها محرَّم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر؛ ولأنَّ المظاهر إنَّما يقصد تشبيه المحلَّل بالمحرَّم؛ فلزم على المعنى.

السادسة: إن شبَّه امرأته بأجنبيَّة، فإن ذكر الظهر، كان ظهاراً؛ حملًا على الأوَّل، وإن لم يذكر الظهر، فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقاً. وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا يكون شيئاً. قال ابنُ العربيّ[2]: وهذا فاسد؛ لأنَّه شبَّه محلَّلًا من المرأة بمحرَّم، فكان مقيَّدًا بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها، وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قويٌّ عند مالك، وأصحابُه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصَّة، ولا يرى الظهار بغيرهنَّ. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ابني أو غلامي، أو كظهر زيد أو كظهر أجنبيَّة، ظهار لا يحلُّ له وطؤها في حين يمينه. وقد روي عنه أيضاً: أنَّ الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء[3]، كما قال الكوفيُّ والشافعيُّ. وقال الأوزاعيُّ: لو قال لها: أنتِ عليَّ كظهر فلانٍ ـ رجلٍ ـ فهو يمين يكفِّرها. والله أعلم.

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٧، وما بعده منه أيضاً.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٧، وما قبله منه أيضاً.

(٣) الكافي ٢/ ٦٠٤.

السابعة: إذا قال: أنتِ عليَّ حرام كظهر أمِّي، كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأنَّ قوله: أنتِ حرام عليَّ، يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلَّقة، ويحتمل التحريم بالظهار، فلما صرَّح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضى به فيه(١).

الثامنة: الظهار لازم في كلِّ زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها، على أيِّ الأحوال كانت، من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهنَّ، لزمه الظهار فيهنَّ. وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ(٢): وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا؛ لأنَّ مالكاً يقول: إذا قال لأمته: أنتِ عليَّ حرام. لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم، وتصحُّ كنايته، ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾(٣) [النساء: ٢٣] لأنَّه أراد من محلَّلاتكم(٤). والمعنى فيه أنَّه لفظ يتعلَّق بالبُضع دون رَفْعِ العقد، فصحَّ في الأمة، أصله الحلف بالله تعالى.

التاسعة: ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك. ولا يلزم عند الشافعيِّ وأبي حنيفة؛ لقوله تعالى: «مِنْ نِسَائِهِمْ» وهذه ليست من نسائه(٥). وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة «براءة»(٦) عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [الآية: ٧٥].

العاشرة: الذمِّيُّ لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعيُّ: يصحُّ ظهار الذمِّيِّ؛ ودليلنا قوله تعالى: «مِنْكُمْ» يعني: من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذمِّيِّ من الخطاب. فإن قيل: هذا استدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو استدلال بالاشتقاق،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٧ .

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٩ ، وما قبله منه أيضاً.

(٣) في (م) : ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ .

(٤) في (م) : محللاتهم .

(٥) المغني ١١/ ٧٥ .

(٦) ١٠/ ٣٠٩ .

والمعنى: فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقَّة الفسخ، فلا يتعلَّق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحَّة فهي فاسدة، ولا ظهارَ في النكاح الفاسد بحال[١].

الحادية عشرة: قوله تعالى: «مِنْكُمْ» يقتضي صحَّة ظهار العبد، خلافاً لمن منعه. وحكاه الثعلبيُّ عن مالك؛ لأنَّه من جملة المسلمين، وأحكام النكاح في حقِّه ثابتة، وإن تعذَّر عليه العتق والإطعام، فإنَّه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك ﷺ: ليس على النساء تظاهر، إنَّما قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ» ولم يقل: واللاتي يَظَّهَّرنَ منكم[٢] من أزواجهنَّ، إنَّما الظهار على الرجال. قال ابن العربيِّ[٣]: هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأنَّ الحلَّ والعقد [والتحليل والتحريم] في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء، وهذا إجماع.

قال أبو عمر[٤]: ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء، قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعيُّ: لا ظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعيُّ: إذا قالت المرأة لزوجها: أنتَ عليَّ كظهر أمِّي فلانة، فهي يمين تكفِّرُهَا. وكذلك قال إسحاق، قال: لا تكون امرأةٌ متظاهرةً من رجل، ولكن عليها يمين تكفِّرها. وقال الزهريُّ: أرى أن تُكفِّر كفَّارة الظهار، ولا يَحُول قولُها هذا بينها وبين زوجها أن يُصيبها، رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرَّمت ما أحلَّ الله، عليها كفَّارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٣٨، وما بعده منه أيضاً.

(٢) في (م): منهن.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/١٧٣٩، وما بين حاصرتين استدركناه منه.

(٤) في الاستذكار ١٧/١٢٦ - ١٢٨.

(٥) الاستذكار ١٧/١٢٦ - ١٢٧، وقول الزهري وعطاء أخرجه عنهما عبد الرزاق في المصنف (١١٥٩٣) و(١١٥٩٥).

الثالثة عشرة: من به لَمَمٌ وانتظمت له في بعض الأوقات الكَلِم، إذا ظاهر، لزم ظهارُه؛ لما روي في الحديث: أنَّ خَوْلة بنت ثعلبة، وكان زوجها أَوْس بن الصَّامت، وكان به لَمَم، فأصابه بعض لَمَمِه، فظاهر من امرأته[١].

الرابعة عشرة: من غضب فظاهر من امرأته، أو طلَّق، لم يُسقط عنه غضبُه حكمَه. وفي بعض طرق هذا الحديث: قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدَّثتني خَوْلة امرأة أَوْس بنِ الصَّامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء؛ دليل على منازعة أحرجته[٢]، فظاهر منها. والغضب: لغو لا يرفع حكمًا ولا يغيِّر شرعاً، وكذلك السكران. وهي:

الخامسة عشرة: يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه[٣]؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣] على ما تقدَّم في «النساء»[٤] بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة: ولا يَقرُب المظاهر امرأته، ولا يباشرها، ولا يتلذَّذ منها بشيء حتى يكفِّر، خلافًا للشافعي في أحد قوليه؛ لأنَّ قوله: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، يقتضي تحريمَ كلِّ استمتاع[٥] بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفِّر، وهي:

السابعة عشرة: اِسْتَغْفَر اللهَ تعالى وأمسكَ عنها حتى يكفِّر كفَّارة واحدة[٦]. وقال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩ ، والحديث سلف تخريجه في أول السورة .

(٢) في النسخ الخطية : أحوجته . والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩ والكلام منه ، والحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٢٥٨) ، والطبري في التفسير ٢٢/ ٤٥٥ من طريق معمر بن عبد الله، عن يوسف بن عبد الله بن سلام، به. ومعمر بن عبد الله بن حنظلة مجهول.

وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٣١٩) ، وأبو داود (٢٢١٤) و(٢٢١٥) بلفظ : فراجعته بشيء. بدل: كان بيني وبينه شيء . وحسَّنه الحافظ في الفتح ٩/ ٤٣٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩ .

(٤) ٦/ ٣٣٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠ .

(٦) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٦ .

مجاهد وغيره: عليه كفَّارتان(١). روى سعيد عن قتادة ومطر(٢)، عن رجاء بن حَيْوة، عن قَبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بنِ العاص في المظاهر: إذا وَطِئَ قبل أن يكفِّر، عليه كفَّارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفَّارتان(٣).

وروى جماعة من الأئمة ـ منهم ابن ماجه والنسائيُّ عن ابن عباس: أنَّ رجلًا ظاهر من امرأته، فغشيها قبل أن يكفِّر، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: «ما حَمَلَكَ على ذلك»؟ فقال: يا رسول الله! رأيتُ بياض خلخالها في ضوء القمر، فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبيُّ ﷺ، وَأَمَرَه ألَّا يَقْرَبَها حتى يكفِّر(٤). وروى ابن ماجه والدَّارقُطْنيُّ عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر أنَّه ظاهر في زمان النبيِّ ﷺ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفِّر، فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، فأمره أن يكفِّر تكفيراً واحدًا(٥).

الثامنة عشرة: إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله: أنتنَّ عليَّ كظهر أمِّي، كان مظاهراً من كلٍّ واحدة منهنَّ، ولم يجز له وَطْء إحداهنَّ، وأجزأته كفَّارة واحدة. وقال الشافعيُّ: تلزمه أربع كفَّارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك؛ لأنَّ لفظ الجمع إنَّما وقع في عامَّة المؤمنين، والمعوَّل على المعنى(٦). وقد روى الدَّارقُطْنيُّ(٧) عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة، فظاهر منهنَّ، يجزيه كفَّارة واحدة. فإن ظاهر من واحدة بعد

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٢.

(٢) في (د) و(ظ) و(م): مطرف. والمثبت من (ق) وسنن الدارقطني (٣٨٥٧) والكلام منه، وهو الصواب. قال في التعليق المغني على الدارقطني: قال أحمد بن حنبل والدارقطني والبيهقي: إن قبيصة بن ذؤيب لم يسمع من عمرو بن العاص.

(٣) الدارقطني (٣٨٥٨).

(٤) النسائي في المجتبى ٦/ ١٦٧، وابن ماجه (٢٠٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٢٢٥)، والترمذي (١١٩٩) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٥) ابن ماجه (٢٠٦٤)، والدارقطني (٣٨٥٩) واللفظ له، وأخرجه أيضاً الترمذي (١١٩٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠.

(٧) في سننه (٣٨٦٥).

أخرى، لزمه في كلِّ واحدة منهنَّ كفَّارة[١]. وهذا إجماع.

التاسعة عشرة: فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكنَّ فأنتنَّ عليَّ كظهر أمِّي، فتزوَّج إحداهنَّ لم يَقْرَبْها حتى يكفِّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهنَّ. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهنَّ حتى يكفِّر. والأوَّل هو المذهب[٢].

الموفية عشرين: وإن قال لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمِّي، وأنتِ طالق ألبَتّة. لزمه الطلاق والظهار معًا، ولم يكفِّر حتى ينكحها بَعْدُ زوجٌ[٣]، ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفِّر، فإن قال لها: أنتِ طالق ألبتة، وأنتِ عليَّ كظهر أمِّي، لزمه الطلاق، ولم يلزمه الظهار؛ لأنَّ المبتوتةَ لا يلحقها طلاق.

الحادية والعشرون: قال بعض العلماء: لا يصحُّ ظهار غير المدخول بها. وقال المزنيُّ: لا يصحُّ الظهار من المطلَّقة الرجعية. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ أحكام الزوجيَّة في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار؛ قياسًا ونظرًا. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما نساؤهم بأمَّهاتهم. وقراءة العامة: «أُمَّهَاتِهِمْ» بخفض التاء على لغة أهل الحجاز، كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]. وقرأ أبو معمر والسلميُّ وغيرهما: «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع[٤] على لغة تميم. قال الفرَّاء[٥]: أهل نجد وبنو تميم يقولون: «مَا هَذَا بَشَرٌ»، و«مَا هُنَّ أَمَّهَاتُهُمْ» بالرفع. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي: ما أمَّهاتهم إلا الوالدات. وفي المَثَل: وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ[٦]. وقد تقدَّم القول في اللائي في «الأحزاب»[٧].

---

(١) الإقناع لابن المنذر ١/ ٣٢٠.

(٢) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٥، وما بعده منه أيضاً.

(٣) بعدها في (م): آخر. والمثبت من النسخ الخطية، والكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٥.

(٤) السبعة ص ٦٢٨ عن عاصم في رواية المفضل عنه.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٦) أي: مَن نَفِسْتِ به. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٩.

(٧) لم نقف عليه هناك.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: فظيعًا من القول لا يُعرَف في الشرع. والزور: الكذب[١] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفَّارة عليهم مخلِّصة لهم من هذا القول المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ هذا ابتداء، والخبر: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وحذف: عليهم؛ لدلالة الكلام عليه[٢]، أي: فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أي: فكفَّارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي[٣]. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: «وإنَّهم ليقُولُونَ مُنْكَراً من القولِ وزُورًا» فمن قال هذا القول، حرم عليه وطء امرأته. فمن عاد لِمَا قال، لزمته كفَّارة الظهار؛ لقوله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا فتحريرُ رقبةٍ» وهذا يدلُّ على أنَّ كفَّارة الظهار لا تلزم بالقول خاصَّة حتى ينضمَّ إليها العَوْد[٤]، وهذا حرف مُشكِل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة[٥]:

الأوَّل: أنَّه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٤.

(٣) الإجماع ص ٩٢.

(٤) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٤.

(٥) الأقوال السبعة في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠ - ١٧٤١، والاستذكار ١٧/ ١٢٩ وما بعدها، والمغني ١١/ ٧٣ وما بعدها.

(٦) بدائع الصنائع ٥/ ٢٢.

وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها، كان عَوْدًا، وإن لم يعزم، لم يكن عَوْدًا.

الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها، قاله مالك.

الثالث: العزم عليهما. وهو قول مالك في «موطئه»[١]، قال مالك في قول الله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا» قال: سمعت أنَّ تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته، ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك، فقد وجبت عليه الكفَّارة، وإن طلَّقها ولم يُجمِع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها، فلا كفَّارة عليه. قال مالك: وإن تزوَّجها بعد ذلك لم يمسَّها حتى يكفِّر كفَّارة التظاهر.

القول الرابع: أنَّه الوطء نفسه، فإن لم يطأ لم يكن عَوْدًا، قاله الحسن ومالك أيضًا[٢].

الخامس: وقال الإمام الشافعيُّ[٣] ﷺ: هو أن يُمسكها زوجةً بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنَّه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاقَ، فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم، ولا كفَّارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق، فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفَّارة.

السادس: أنَّ الظهار يوجب تحريمًا لا يرفعه إلا الكفَّارة. ومعنى العَود عند القائلين بهذا: أنَّه لا يستبيح وطأها إلا بكفَّارة يُقدِّمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد[٤].

السابع: هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس[٥]،

---

(١) ٢/ ٥٦٠.

(٢) المنتقى للباجي ٤/ ٤٩.

(٣) في الأم ٨/ ٢٦٥.

(٤) الاستذكار ١٧/ ١٣٢.

(٥) المحلى ١٠/ ٥٢.

قالوا: إذا كرَّر اللفظ بالظهار، فهو العَوْد، وإن لم يكرِّر، فليس بِعَود. ويسند ذلك إلى بكير بن الأشجِّ[١] وأبي العالية وأبي حنيفة[٢] أيضًا، وهو قول الفرَّاء[٣]. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له؛ لأنَّه قال: «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» أي: إلى قول ما قالوا. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا» هو أن يقول لها: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. فإذا قال لها ذلك، فليست تحلُّ له حتى يكفِّر كفَّارة الظهار[٤].

قال ابن العربي[٥]: فأما القول بأنَّه العَوْد إلى لفظ الظهار، فهو باطل قطعًا لا يصحُّ عن بكير، وإنَّما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذِكْر الكفَّارة عليهم ذِكْر لِعَود القول منهم، وأيضًا فإنَّ المعنى ينقضه؛ لأنَّ الله تعالى وصفه بأنَّه مُنكَر من القول وزور، فكيف يقال له: إذا أَعَدْتَ القول المحرَّم والسببَ المحظور، وجبت عليك الكفَّارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أنَّ كلَّ سبب يوجب الكفَّارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره.

قلت: قوله: يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. حملٌ منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم.

وأما قول الشافعيِّ: بأنَّه ترك الطلاق مع القدرة عليه، فينقضه ثلاثة أمور أمهات:

---

(١) الاستذكار ١٧/ ١٣٤، وبكير هو: ابن عبد الله بن الأشج، أبو عبد الله، ويقال: أبو يوسف القرشي، مولى بني مخزوم، معدود في صغار التابعين (ت ١٢٧ هـ). الكاشف ١/ ١٠٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ١٧٠.

(٢) لم نقف على قوله فيما بين أيدينا من مصادر، ولعلَّ المصنِّف اشتبه عليه بما عند ابن حزم في المحلى ١٠/ ٥١، حيث ذكر ابن حزم تعليل قول أبي حنيفة - السالف الذكر في القول السادس آنفاً - بما نصه: والظهار قول كانوا يقولونه في الجاهلية، فنهوا عنه، فكل من قاله فقد عاد لما قال. اهـ. وينظر لزاماً الاستذكار ١٧/ ١٣٢، وتفسير ابن كثير ٨/ ٣٩.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦٠ - ٤٦١ من طريق معاوية، عن علي بن أبي طلحة، به.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤١.

الأوَّل: أنَّه قال: «ثُمَّ» وهذا بظاهره يقتضي التراخي.

الثاني: أنَّ قوله تعالى: «ثُمَّ يَعُودُونَ» يقتضي وجود فعل من جهة، ومرور الزمان ليس بفعل منه.

الثالث: أنَّ الطلاق الرجعيَّ لا ينافي البقاء على الملك، فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأمِّ، لم يمسكها؛ إذ لا يصحُّ إمساك الأمِّ بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا[١]: إذا عزم على خلاف ما قال، ورآها خلاف الأمِّ، كفَّر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أنَّ العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولًا اقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولًا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصحُّ أن يكون منه ابتداء عقد؛ لأنَّ العقد باقٍ، فلم يَبْقَ إلا أنَّه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وإذا كان ذلك، كفَّر وعاد إلى أهله؛ لقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا». وهذا تفسير بالغ [في فنه].

الثانية: قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا، أي: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا، فالجار في قوله: «لِمَا قَالُوا» متعلِّق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء، وهو: عليهم، قاله الأخفش[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: المعنى: ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في

(١) القائل ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٠ - ١٧٤١، وما بين حاصرتين منه، وما قبله منه أيضاً.

(٢) ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ٣٧٣، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٥ - ٧٠٦.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٥.

الإسلام، فكفَّارة من عاد أن يحرِّر رقبة[١]. الفرَّاء[٢]: اللام بمعنى «عن» والمعنى: ثم يَرجعون عمَّا ما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا، وإلى ما قالوا، واحد، واللام و«إلى» يتعاقبان، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليه إعتاق رقبة، يقال: حرَّرته، أي: جعلته حرًّا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كلِّ عيب، ومن كمالها إسلامها عند مالك والشافعي، كالرقبة في كفَّارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تُجزئ الكافرة ومن فيها شائبة رِقٍّ، كالمكاتبة وغيرها[٣].

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين، فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعيُّ: يجزئ؛ لأنَّ نصف العبدين في معنى العبد الواحد[٤]؛ ولأنَّ الكفَّارة بالعتق طريقها المال، فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزِّي، كالإطعام، ودليلنا قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأنَّ العبادة المتعلِّقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنَّه لو أَمَرَ رجلين أن يحجَّا عنه حجَّة، لم يجز أن يحجَّ عنه واحد منهما نصفها، كذلك هذا، ولأنَّه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه، لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا، وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يَتَجزَّى في الكفَّارة عندنا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: يجامعها، فلا يجوز للمظاهر

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩ .

(٣) المسألة في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٢٥ ، والمغني ١١/ ٨١ ، والكافي ٢/ ٦٠٦ ، والأم ٥/ ٢٦٦ ، والمبسوط ٧/ ٢ .

(٤) بداية المجتهد ٣/ ١٥٨ .

الوطء قبل التكفير[١]، فإن جامعها قبل التكفير، أَثِمَ وعصى، ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنَّه إذا وَطِئَ قبل أن يُشرع في التكفير، لزمته كفَّارة أخرى[٢]. وعن غيره: أنَّ الكفَّارة الواجبة بالظهار تسقط عنه، ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأنَّ الله تعالى أوجب الكفَّارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخَّرها حتى مسَّ، فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفَّارة؛ لأنَّه بوطئه ارتكب إثماً، فلم يكن ذلك مسقطاً للكفَّارة، ويأتي بها قضاءً، كما لو أخَّر الصلاة عن وقتها[٣]. وفي حديث أَوْس بن الصامت لما أخبر النبيَّ ﷺ بأنَّه وطئ امرأته، أمره بالكفَّارة[٤]. وهذا نصٌّ، وسواء كانت كفَّارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفَّارته بالإطعام، جاز أن يطأ، ثم يطعم[٥].

فأمَّا غير الوطء من القُبلة والمباشرة والتلذُّذ، فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعيِّ[٦]. وقيل: وكلُّ ذلك محرَّم وكلُّ معاني المسيس، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعيِّ[٧]. وقد تقدَّم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وغيره.

السابعة: من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكاً لها إلا أنَّه شديد الحاجة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٥.

(٢) سلف تخريجه قريبًا.

(٣) الاستذكار ١٧/ ١٢٣، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٢٠.

(٤) لم يرد في حديث أوس المتقدم أنه وطئ امرأته، بل ورد في حديث سلمة بن صخر، كما مرَّ في أول السورة، عند المسألة السابعة عشرة.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٥، ولم نقف عليه في المظانِّ من كتبه، وذكره الكاساني في بدائع الصنائع ٥/ ٣٧ وعزاه لمالك.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٥، والاستذكار ١٧/ ١٢٣، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦١ عن الحسن وسفيان.

(٧) المغني ١١/ ٦٧.

إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنَّه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره، ولا يجد شيئًا سواه، فله أن يصوم عند الشافعيِّ. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق، ولو كان محتاجًا إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم، لزمه العتق(١)، فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة: فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر، استأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبني، قاله ابن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعيِّ، وهو الصحيح من مذهبه(٢). وقال مالك: إنَّه إذا مرض في صيام كفَّارة الظهار، بنى إذا صحَّ. ومذهب أبي حنيفة ﷺ أنَّه يبتدئ. وهو أحد قولي الشافعيِّ(٣).

التاسعة: إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة، أتمَّ الصيام وأجزاه عند مالك والشافعيِّ؛ لأنَّه بذلك أُمِرَ حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه(٤)؛ قياسًا على الصغيرة المعتدَّة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها، فإنَّها تستأنف الحيضَ إجماعًا من العلماء. وإذا ابتدأ سفرًا في صيامه فأفطر، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعيِّ وأبي حنيفة؛ لقوله: «مُتَتَابِعَيْنِ». ويبني في قول الحسن البصري(٥)؛ لأنَّه عُذر [وقياسًا على رمضان، فإن تخلَّلها زمان لا يحلُّ صومه في الكفَّارة، كالعيدين وشهر رمضان، انقطع](٦).

العاشرة: إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهارًا، بطل التتابع في قول الشافعيِّ، وليلًا، فلا يبطل؛ لأنه ليس محلًّا للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل

---

(١) المسألة في الإشراف لابن المنذر ٤/ ٢٥٠ - ٢٥١ ، والمغني ١١/ ٨٥ - ٨٦ ، والأم ٥/ ٢٦٩ .

(٢) المغني ١١/ ٨٨ بنحوه ، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(٣) المسألة في الإشراف لابن المنذر ٤/ ٢٤٩ ، والكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٧ ، والمبسوط ٧/ ١٢ .

(٤) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٥٠ ، والمدونة ٣/ ٦٤ ، والأم ٥/ ٢٧٠ ، والمبسوط ٧/ ١٢ .

(٥) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٤٩ ، والمنتقى للباجي ٤/ ٤٤ ، والأم ٥/ ٢٧٠ ، والمبسوط ٧/ ١٢ .

(٦) ما بين حاصرتين لم يرد في (ظ) .

بكلِّ حال، ووجب عليه ابتداء الكفَّارة[(١)]؛ لقوله تعالى: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطئ قبل انقضائهما، فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه استئنافه، كما لو قال: صلِّ قبل أن تُكلِّم زيدًا. فكلَّم زيدًا في الصلاة، أو قال: صلِّ قبل أن تبصر زيدًا. فأبصره في الصلاة، لزمه استئنافها؛ لأنَّ هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها، كذلك هذا، والله أعلم.

الحادية عشرة: ومن تطاول مرضه طولاً لا يُرجَى برؤه، كان بمنزلة العاجز من كِبَر، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يُرجَى برؤه واشتدَّت حاجته إلى وطء امرأته، كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كفَّر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام، أجزأه[(٢)].

الثانية عشرة: ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر، لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفِّر، صام. وإنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفِّر. ولو جامعها في عدمه وعسره، فلم يصم حتى أيسر، لزمه العتق. ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر، فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها، تمادى. وإن كان اليوم واليومين ونحوهما، ترك الصوم وعاد إلى العتق، وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنَّه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة، أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة: ولو أعتق رقبتين عن كفارتَي ظهار وقتل أو فطر في رمضان، وأَشرك بينهما في كلِّ واحدة منهما، لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة من كفَّارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كلِّ واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إنَّ ذلك يجزيه[(٣)].

ولو ظاهر من امرأتين له، فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها، لم يجز له وطء

---

(١) المسألة في المغني ١١/ ٩١ - ٩٢، والأم ٥/ ٢٦٥، والمدونة ٣/ ٦٦، والمبسوط ٧/ ١٤.

(٢) الكافي ٢/ ٦٠٨، وما بعده منه أيضًا.

(٣) الكافي ٢/ ٦٠٨ - ٦٠٩، وما بعده منه أيضًا.

واحدةٍ منهما حتى يكفِّر كفَّارة أخرى. ولو عيَّن الكفَّارة عن إحداهما، جاز له أن يطأها قبل أن يكفِّر الكفَّارة عن الأخرى.

ولو ظاهر من أربع نسوة، فأعتق عنهنَّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنَّه إنَّما صام عن كلِّ واحدة خمسة عشر يومًا، فإن كفَّر عنهنَّ بالإطعام، جاز أن يطعم عنهنَّ مئتي مسكين [وأربعين مسكيناً]، وإن لم يَقْدر، فرّق، بخلاف العتق والصيام؛ لأنَّ صيام الشهرين لا يفرق، والإطعام يفرق[(١)].

فصل وفيه ستُّ مسائل:

الأولى: ذكر الله عزَّ وجلَّ الكفَّارة هنا مرتَّبةً، فلا سبيلَ إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام، وجب عليه إطعام ستِّين مسكيناً، لكلِّ مسكين مُدَّان بمُدِّ النبيِّ ﷺ. وإن أطعم مدّاً بمدِّ هشام، وهو مدَّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّاً ونصفًا بمدِّ النبيِّ ﷺ، أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر[(٢)]: وأفضل ذلك مدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يقل في كفَّارة الظهار: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] فواجب قصد الشبع.

قال ابنُ العربيِّ[(٣)]: وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم: مُدٌّ بمدِّ هشام، وهو الشبع ها هنا؛ لأنَّ الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ: [قيل له: ألم تكن قلت: مدّ هشام؟ قال: بلى، ومدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ][(٤)] أحبُّ إليَّ. وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضًا.

قلت: وهي رواية ابن وهب ومطرِّف عن مالك: أنَّه يُعطي مدَّين لكلِّ مسكين،

---

(١) الكافي ٢/٦٠٨ - ٦٠٩ ، وما بين حاصرتين لم يرد في النسخ ، واستدركناه منه ، وكذلك كلمة : فرّق . لم ترد في النسخ الخطية ولا الكافي ، وهي من (م) ، ولا بدَّ منها .

(٢) في الكافي ٢/٦٠٧ ، وما قبله منه أيضاً .

(٣) في أحكام القرآن له ٤/١٧٤٤ ، وكلام مالك ـ الآتي ـ في المدونة ٣/٦٨-٦٩ .

(٤) ما بين حاصرتين لم يرد في (د) .

بمدِّ النبيِّ ﷺ[١]. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه[٢]. ومذهب الشافعيِّ[٣] وغيره: مدٌّ واحد لكلِّ مسكين، لا يلزمه أكثر من ذلك؛ لأنَّه يكفِّر بالإطعام، ولم يلزمه صرف زيادة على المدِّ، أصله كفَّارة الإفطار واليمين. ودليلنا قوله تعالى: «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً» وإطلاق الإطعام يتناول الشِّبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدٍّ واحد إلا بزيادة عليه.

وكذلك قال أشهب: قلت لمالك: أيختلف الشِّبع عندنا وعندكم؟ قال: نعم، الشِّبع عندنا مدٌّ بمدِّ النبيِّ ﷺ، والشِّبع عندكم أكثر؛ لأنَّ النبي ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن[٤].

وقال أبو الحسن القابسيُّ: إنَّما أخذ أهل المدينة بمدِّ هشام في كفَّارة الظهار؛ تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنَّهم يقولون منكراً من القول وزورًا.

قال ابنُ العربيِّ[٥]: وقع الكلام ها هنا في مدِّ هشام كما ترون، وَوَدِدْتُ أن يهشم الزمانُ ذِكْره، ويمحوَ من الكتب رَسْمه؛ فإنَّ المدينة التي نزل الوحيُ بها، واستقرَّ الرسول بها، ووقع عندهم الظهار، وقيل لهم فيه: «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً» فهموه وعرفوا المراد به وأنَّه الشِّبع. وقَدْره معروف عندهم، متقرِّر لديهم، وقد ورد ذلك الشِّبع في الأخبار كثيراً، واستمرَّت الحال على ذلك أيَّام الخلفاء الراشدين المهديِّين، حتى نفخ الشيطانُ في أذن هشام، فرأى أنَّ مدَّ النبيِّ ﷺ لا يُشبِعه، ولا مثله من حواشيه ونظرائه، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه، فجعله رِطْلين، وحمل الناس عليه، فإذا ابتلَّ عاد نحو الثلاثة أرطال؛ فغيَّر السُّنَّة، وأَذْهبَ محلَّ البركة. قال

---

(١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ٥/ ٣٠٧، والبيان والتحصيل لابن رشد ٥/ ١٧٠.

(٢) المبسوط ٧/ ١٦.

(٣) الأم ٥/ ٢٧٢.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٤، ودعاؤه ﷺ لأهل المدينة بالبركة، سيأتي قريباً.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٤ - ١٧٤٥، وهشام هو: ابن عبد الملك الخليفة الأموي، كما صرَّح بذلك أبو داود في سننه (٣٢٨٠) عن محمد بن محمد بن خلاد.

النبيُّ ﷺ حين دعا ربَّه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدِّهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكَّة[١]، فكانت البركة تجري بدعوة النبيِّ ﷺ في مدِّه، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب له في ذلك إلا هِشام، فكان من حقِّ العلماء أن يُلْغُوا ذِكْره، ويمحوا رسمه، إذا لم يُغيِّروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذِكْره في الأحكام، ويجعلوه تفسيراً لما ذَكَره الله ورسوله بعد أن كان مفسَّراً عند الصحابة الذين نزل عليهم، فخَطْبٌ جسيم، ولذلك كانت رواية أشهب في ذِكْر مدَّين بمدِّ النبيِّ ﷺ في كفَّارة الظهار أحبُّ إلينا من الرواية بأنَّها بمدِّ هشام. ألا ترى كيف نبَّه مالك على هذا العِلْم بقوله لأشهب: الشِّبع عندنا بمدِّ النبيِّ ﷺ، والشِّبع عندكم أكثر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ دعا لنا بالبركة. وبهذا أقول، فإنَّ العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن، كانت أسرعَ إلى القَبول، وإن كانت في المال، كان قليلُها أثقلَ في الميزان، وأبركَ في يد الآخذ، وأطيبَ في شدْقه، وأقلَّ آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه. والله أعلم.

الثانية: ولا يجزئ عند مالك والشافعيِّ أن يُطعِم أقلَّ من ستِّين مسكيناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكيناً واحداً كلَّ يوم نصف صاع حتى يكمل العدد، أجزأه[٢].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر العربيُّ[٣]: من غريب الأمر أنَّ أبا حنيفة قال: إنَّ الحَجْرَ على الحرِّ باطل. واحتجَّ بقوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» ولم يفرِّق بين الرشيد والسفيه؛ وهذا فِقْهٌ ضعيفٌ لا يناسب قَدْرَه، فإنَّ هذه الآية عامَّة، وقد كان القضاء بالحَجْرِ في أصحاب رسول الله ﷺ فاشياً، والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حَجْر لِصغَرٍ أو لولاية، وبلغ سفيهاً، قد نهي عن دَفْع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه، والخاصُّ يقضي على العامِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٦٠): (٤٥٥) عن عبد الله بن زيد ﷺ.

(٢) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٥٣، والمدونة ٣/ ٦٨، والأم ٥/ ٢٧٢، والمبسوط ٧/ ١٧.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٦.

الرابعة: وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً، وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قِلابة وغيرهما[١].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفَّارة «لِتُؤْمِنُوا» أي: لتصدِّقوا أنَّ الله أمر به[٢]. وقد استدلَّ بعض العلماء على أنَّ هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لما ذكرها وأوجبها قال: «ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أي: ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى، واقفين عند حدوده لا تتعدّوها، فسمَّى التكفير ـ لأنَّه طاعة ومراعاة للحدِّ ـ إيماناً، فثبت أنَّ كلَّ ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قوله: «ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أي: لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور. قيل له: قد يجوز أن يكون هذا مقصودًا، والأول مقصوداً، فيكون المعنى: ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تَدَعونهما؛ طاعةً لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرَّمهما، ولتجتنبوا المظاهَر منها إلى أن تُكفِّروا، إذ كان الله منع من مسيسها، وتكفِّروا إذ كان الله تعالى أَمَرَ بالكفَّارة وألزم إخراجها منكم، فتكونوا بهذا كلِّه مؤمنين بالله ورسوله؛ لأنَّها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدُّونها، والطاعة لله ولرسوله ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: بيَّن معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمن لم يصدِّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده،

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥٢ - ٥٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٥٥، وقول أبي قلابة أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١٥٧٨)، والطبري ٢٢/ ٤٥٦.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٦١.

ذكر المحادِّين المخالفين لها. والمحادَّة: المعاداة والمخالفة في الحدود، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]. وقيل: «يُحَادُّونَ اللهَ» أي: أولياءَ الله[١]، كما في الخبر: «من أهان لي وليًّا، فقد بارزني بالمحاربة»[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: المحادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حدَّ صاحبك. وأصلها الممانعة، ومنه: الحديد، ومنه: الحدَّاد للبوَّاب[٤].

﴿كُبِتُوا﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أُهلكوا. وقال قتادة: اخْزُوا كما أُخْزي الذين من قبلهم. وقال ابن زيد: عذِّبوا. وقال السُّدِّيُّ: لعنوا[٥]. وقال الفرَّاء[٦]: غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون[٧]. وقيل: المنافقون. ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقيل: «كُبِتُوا» أي: سَيُكْبَتون، وهو بِشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأُخرج الكلام بلفظ الماضي؛ تقريبًا للمخبَر عنه. وقيل: هي بلغة مَذْحج[٨]. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيمن حادَّ اللهَ ورسولَه من الذين مِن قبلهم فيما فعلنا بهم. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بـ«عَذَابٍ مُهِينٍ» أو بفعل مضمر، تقديره: واذكر تعظيمًا لليوم[٩]. ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٥.

(٢) سلف ١٨/ ٤٧٥.

(٣) ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨٩.

(٤) الصحاح (حدد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٩ دون قول ابن زيد، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٥، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦٦.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٦٣.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٩.

(٩) الكشاف ٤/ ٧٣.

حالة واحدة[(١)] ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ في الدنيا ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ هم حتى ذكَّرهم به في صحائفهم؛ ليكون أبلغَ في الحجَّة عليهم .﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ مطَّلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية .﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ قراءة العامة بالياء؛ لأجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى: «مَا تَكُونُ» بالتاء[(٢)]؛ لتأنيث الفعل. والنَّجوى: السِّرَار[(٣)]، وهو مصدر، والمصدر قد يوصف به، يقال: قوم نجوى، أي: ذوو نجوى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[(٤)] [الإسراء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ خفض بإضافة «نَجْوَى» إليها[(٥)]. قال الفرَّاء[(٦)]: «ثَلَاثَةٍ» نعت للنجوى فانخفضت، وإن شئت أضفتَ «نَجْوَى» إليها. ولو نصبت على إضمار فعل، جاز. وهي قراءة ابن أبي عبلة: «ثَلَاثَةً» و«خَمْسَةً» بالنصب على الحال، بإضمار يتناجون؛ لأنَّ نجوى يدلُّ عليه، قاله الزمخشريُّ[(٧)]. ويجوز رفع «ثلاثة» على البدل من موضع «نَجْوَى»[(٨)]. ثم قيل: كلُّ سِرَار نجوى. وقيل: النجوى: ما يكون من خلوة

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٤ .
(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٣ ، والمحتسب ٢/ ٣١٥ ، والنشر ٢/ ٣٨٥ .
(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٧ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٥ .
(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٠ .
(٧) في الكشاف ٤/ ٧٣ ، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٣٥ .
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٥ .

ثلاثة يُسرُّون شيئًا ويتناجون به. والسِّرار: ما كان بين اثنين[١].

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم؛ يدلُّ عليه افتتاح الآية بالعِلْم ثم ختمها بالعِلْم. وقيل: النجوى: من النَّجْوة: وهي ما ارتفع من الأرض[٢]، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرِّهما، كخلو المرتفع من الأرض عمَّا يتصل به، والمعنى: أنَّ سَمْع الله محيطٌ بكلِّ كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ قرأ سلَّام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع[٣] على موضع «مِنْ نَجْوَى» قبل دخول «مِنْ» لأنَّ تقديره: ما يكون نجوى، و«ثَلَاثَةٍ» يجوز أن يكون مرفوعًا على محلِّ «لَا» مع «أَدْنَى» كقولك: لا حولَ ولا قوّةً إلا بالله، بفتح الحول ورَفْع القوَّة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك: لا حولٌ ولا قوَّةٌ إلا بالله[٤]. وقد مضى في «البقرة»[٥] بيان هذا مستوفًى.

وقرأ الزهريُّ وعكرمة: «أكبر» بالباء[٦]. والعامَّة بالثاء وفتح الراء على اللفظ، وموضعها جرٌّ. وقال الفرَّاء[٧] في قوله: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم» قال: المعنى غير مصمود[٨]، والعدد غير مقصود؛ لأنَّه تعالى إنَّما قصد ـ وهو أعلم ـ أنَّه مع كلِّ عدد، قلَّ أو كثر، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا، ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك اكتفى بذِكْر بعض العدد دون بعض. وقيل: معنى ذلك أنَّ الله معهم بِعلْمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٩٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٧ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٨٥ .

(٤) الكشاف ٤/ ٧٤ .

(٥) ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٦) الكشاف ٤/ ٧٤ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٠ ، وما قبله منه أيضاً .

(٨) في (ظ) : مضمر . وفي (د): مضمور . وكذا هي في معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٠ . ولعلَّ الصواب ما أثبتناه من (ق) ، و(ز) ، و (م) ، يقال : صَمَد صَمْدَ الأَمْر : قصد قصده واعتمده . اللسان (قصد) .

ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرًّا، فأعلم الله أنّه لا يخفى عليه ذلك، قاله ابن عباس[١]. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من حسَن وسيِّئ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قيل: إنَّ هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدَّمناه. وقيل: في المسلمين[٢]. قال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلَّهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قَتْل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك، فكثرت شكواهم إلى النبيِّ ﷺ، فنهاهم عن النجوى، فلم ينتهوا، فنزلت[٣]. وقال مقاتل: كان بين النبيِّ ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مرَّ بهم رجل من المؤمنين، تناجوا بينهم حتى يظنَّ المؤمن شرًّا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسولُ الله ﷺ[٤] فلم يَنتهوا، فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبيَّ ﷺ فيسأله الحاجة، ويناجيه، والأرض يومئذٍ حرب، فيتوهَّمون أنَّه يناجيه في حرب، أو بليَّة، أو أمر مهِمٍّ، فيفزعون لذلك، فنزلت[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٥ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٠.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٨.

(٤) في النسخ الخطية: فنهاهم الله. والمثبت من (م)، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٣ (١٨٨٤٢)، وزاد المسير ٨/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥ بنحوه.

الثانية: روى أبو سعيد الخدريُّ قال: كنَّا ذاتَ ليلةٍ نتحدَّث، إذ خرج علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى، ألم تُنهوا عن النجوى»؟ فقلنا: تبنا إلى الله يا رسولَ الله؛ إنَّا كنَّا في ذِكْر المسيخ ـ يعني الدجال ـ فَرَقًا منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه»؟ قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: «الشرك الخفيُّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل» ذكره الماورديُّ[1].

وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب: «وَيَنْتَجُونَ»[2] في وزن يفتعلون، وهي قراءة عبد الله وأصحابه[3]. وقرأ الباقون: «وَيَتَنَاجَوْنَ» في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: «إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» و«تَنَاجَوْا». النحَّاس: وحكى سيبويه أنَّ تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنًى واحد، نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا، فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و«يَنْتجُون» واحد[4].

ومعنى ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: الكذب والظلم. ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد: «وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول»[5] بالجمع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا خلافَ بين النقلة أنَّ المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبيَّ ﷺ فيقولون: السَّامُ عليك. يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبيُّ ﷺ: «عليكم» في رواية، وفي رواية أخرى: «وعليكم»[6]. قال ابن العربيِّ[7]: وهي مُشْكِلَة. وكانوا يقولون: لو كان

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٩٠ - ٤٩١ ، والحديث أخرجه أحمد (١١٢٥٢) ، وابن ماجه (٤٢٠٤) . قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٣٧ : إسناده حسن . اهـ . وورد في المصادر : المسيح ، بدل : المسيخ .

(٢) السبعة ص ٦٢٨ ، والتيسير ص ٢٠٩ ، والنشر ٢/ ٣٨٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦ .

(٦) سيأتي تخريجهما قريباً .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٦ - ١٧٤٧ ، وما قبله منه أيضاً .

محمد نبيًا لما أَمهلنا الله بسبِّه والاستخفاف به، وجهلوا أنَّ البارئ تعالى حليم لا يعاجل من سبَّه، فكيف من سبَّ نبيَّه. وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا أحدَ أصبر على الأذى من الله، يدعون له الصاحبةَ والولدَ، وهو يعافيهم ويرزقهم»(١) فأنزل الله تعالى هذا؛ كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم، ومعجزةً لرسوله ﷺ.

وقد ثبت عن قتادة، عن أنس: أنَّ يهوديًّا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السامُ عليكم. فردَّ عليه النبيُّ ﷺ وقال: «أتدرون ما قال هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال كذا، ردُّوه عليَّ»، فَرَدُّوه، قال: «قلتَ: السامُ عليكم»؟ قال: نعم. فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: «إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليكَ ما قلتَ» فأنزل الله تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ»(٢). قلت: خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وثبت عن عائشة أنَّها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: السامُ عليكَ يا أبا القاسم. فقلت: السامُ عليكم، وَفَعَلَ اللهُ بكم وفَعَلَ. فقال عليه السلام: «مَهْ يا عائشة، فإنَّ الله لا يحبُّ الفُحْش ولا التّفحُّش» فقلت: يا رسولَ الله، ألستَ ترى ما يقولون؟! فقال: «ألستِ تَرَيْنَ أردُّ عليهم ما يقولون، أقول: وعليكم» فنزلت هذه الآية: «بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ» أي: إنَّ الله سلَّم عليك، وهم يقولون: السامُ عليكَ. والسامُ: الموت(٣). خرَّجه البخاريُّ ومسلم بمعناه(٤).

وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا سلَّم

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٤٦ وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على الحديث عند غيره.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٤٦ - ١٧٤٧، والحديث أخرجه الترمذي (٣٣٠١)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦ - ٤٣٧.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٤.

(٤) البخاري (٦٢٥٦)، ومسلم (٢١٦٥)، والحديث بلفظه عند الطبري ٢٢/ ٤٧٠ - ٤٧١، ومن طريقه الواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦.

عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم» كذا الرواية: «وعليكم»[١] بالواو، وتكلَّم عليها العلماء؛ لأنَّ الواو العاطفة تقتضي التشريك، فيلزم منه أن نَدْخُلَ معهم فيما دَعَوْا به علينا من الموت، أو من سآمة ديننا، وهو الملال[٢]. يقال: سئم يسأم سآمةً وسآماً. فقال بعضهم: الواو زائدة، كما زيدت في قول الشاعر:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى[٣]

أي: لما أجزنا، انتحى، فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنَّه قال: والسامُ عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرُّنا ذلك؛ لأنَّا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا، كما قال النبيُّ ﷺ، روى [أبو] الزبير أنَّه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلَّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السامُ عليكَ يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى، قد سمعتُ فَرَدَدْتُ عليهم، وإنَّا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا» خرَّجه مسلم[٤]. ورواية الواو أحسن معنًى، وإثباتها أصحُّ روايةً وأشهر[٥].

وقد اختلف في ردِّ السلام على أهل الذمة، هل هو واجب كالردِّ على المسلمين، وإليه ذهب ابن عباس والشَّعبيُّ وقتادة؛ للأَمْرِ بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أنَّ ذلك ليس بواجب، فإن رَدَدْتَ، فقل: عليكَ. وقد اختار

(١) البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣): (٧)، وهو عند أحمد (١١٩٤٨)، ورواية: «عليكم» بدون الواو عند مسلم (٢١٦٥): (...) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) هذا تأويل قتادة، كما في المفهم ٥/ ٤٩٠، وسلف ٦/ ٤٩٩.

(٣) المفهم ٥/ ٤٩٠ - ٤٩١، وما بعده منه أيضاً، وصدر البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٥، وعجزه:

بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

(٤) في صحيحه برقم (٢١٦٦)، وما بين حاصرتين منه، ولم ترد في النسخ، وسلف ٦/ ٤٩٩.

(٥) المفهم ٥/ ٤٩١، وسلف الكلام في سورة النساء ٦/ ٥٠٠.

ابن طاوس أن يقول في الردِّ عليهم: علاكَ السلامُ، أي: ارتفع عنك. واختار بعض أصحابنا: السِّلام - بكسر السين - يعني: الحجارة. وما قاله مالك أَولى، اتباعًا للسنة، والله أعلم[١].

وروى مسروق عن عائشة قالت: أتى النَّبيَّ ﷺ ناسٌ من اليهود، فقالوا: السامُ عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم». قالت عائشة: قلت: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعتَ ما قالوا! فقال: «أوليسَ قد رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا، قلتُ: وعليكم». وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة، فسبَّتهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة، فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفُحْش والتفحُّش» وزاد: فأنزل الله تبارك وتعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ» إلى آخر الآية[٢]. الذام بتخفيف الميم، هو: العيب، وفي المثل: لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا. أي: عيباً، ويهمز ولا يهمز، يقال: ذَأَمَهُ يَذْأَمُه، مثل دأب عليه يدأب[٣]، والمفعول مذءوم مهموزًا، ومنه: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨] ويقال: ذامَهُ يَذُومُه مخفَّفًا، كَرَامَهُ يَرُومُه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ قالوا: لو كان محمد نبيًّا لعذَّبنا اللهُ بما نقول، فهلَّا يُعذِّبنا الله[٤]. وقيل: قالوا: إنَّه يردُّ علينا، ويقول: وعليكم السامُ، والسام: الموت، فلو كان نبيًّا لاستُجيب له فينا ومتنا[٥]. وهذا موضع تعجُّب منهم؛ فإنَّهم كانوا أهلَ الكتاب، وكانوا يعلمون أنَّ الأنبياء قد يُغضَبون، فلا

---

(١) المفهم ٥/ ٤٩٢، وكلام مالك في المنتقى للباجي ٧/ ٢٨٠ - ٢٨١، وقول ابن طاوس أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٣٢، وسلفا ٦/ ٥٠٠.

(٢) أخرجهما مسلم (٢١٦٥): (١١) و (...) على الترتيب.

(٣) في (م): ذأب يذأب. والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٤٩٣، والكلام - وما بعده - منه أيضاً. والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ٢/ ٣٩٨ ومعناه: لا يخلو أحدٌ من شيء يُعاب به.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤١.

يُعاجَل من يُغضبهم بالعذاب. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيهم جهنَّم، عقابًا غدًا ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» أي: تساررتم. ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى بن وثَّاب وعاصم ورويس عن يعقوب: «فلا تَنْتجُوا»[(١)] من الانتجاء ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ﴾ أي: بالطاعة ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيُّها الذين آمنوا بزعمهم[(٢)]. وقل: أي يا أيها الذين آمنوا بموسى. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا توهَّموا أنَّ المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذ رَأَوْا[(٣)] اجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربَّما كانوا يناجون النبيَّ ﷺ فيظنُّ المسلمون أنَّهم ينتقصونهم عند النبيِّ ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي: التناجي ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته[(٤)] وقيل: بعِلْمه. وعن ابن عباس: بأَمْرِه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي:

(١) النشر ٢/ ٣٨٥.

(٢) زاد المسير ٨/ ١٩٠ وعزاه لعطاء ومقاتل.

(٣) في (م): إذا أجروا.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٥.

يكلون أمرهم إليه[١]، ويفوّضون جميعَ شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كلِّ شرٍّ، فهو الذي سلَّط الشيطان بالوساوس؛ ابتلاءً للعبد، وامتحاناً، ولو شاء لصَرَفه عنه.

الثانية: في «الصحيحين»[٢] عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثةٌ، فلا يتناجى اثنان دون الواحد». وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجْلِ أن يُحْزِنَه»[٣]. فبيَّن في هذا الحديث غايةَ المنع، وهي أن يَجِدَ الثالثُ من يتحدَّث معه، كما فعل ابن عمر، وذلك أنَّه كان يتحدَّث مع رجل، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه حتى دعا رابعًا، فقال له وللأوَّل: تأخَّرا، وناجى الرجلَ الطالبَ للمناجاة. خرَّجه «الموطأ»[٤].

وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أجل أن يحزنه» أي: يقع في نفسه ما يَحزن لأَجْله. وذلك بأن يقدِّر في نفسه أنَّ الحديث عنه بما يكره، أو أنَّه لم يَرَوْهُ أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلْقِيات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كلُّه من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره، أُمِن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحدٍ، ولا عشرة، ولا ألف، مثلًا؛ لوجود ذلك المعنى في حقِّه؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنَّما خصَّ الثلاثة بالذِّكر؛ لأنَّه أوَّل عددٍ يتأتَّى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعمُّ جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٦٥.

(٢) البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) واللفظ له.

(٤) ٢/ ٩٨٨، والمصنف نقله عنه بواسطة القرطبي في المفهم ٥/ ٥٢٤ - ٥٢٥، والكلام - وما بعده - منه أيضًا.

مندوبٍ أو مباح أو واجب، فإنَّ الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ ذلك كان في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ ذلك كان في حال المنافقين، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلمَّا فشا الإسلام، سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاصٌّ بالسفر في المواضع التي لا يَأْمن الرجل فيها صاحبه، فأمَّا في الحَضَر وبين العمارة، فلا(١)؛ فإنَّه يَجِدُ من يعينه، بخلافِ السفر فإنَّه مظنَّة الاغتيال وعدم المغيث. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ لما بيَّن أنَّ اليهود يحيُّونه بما لم يحيِّه به الله، وذمَّهم على ذلك، وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسولِ الله ﷺ، حتى لا يضيِّقوا عليه المجلس، وأَمَرَ المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعضٍ، حتى يتمكَّنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه.

قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبيِّ ﷺ، فأُمِروا أن يفسح بعضهم لبعض(٢). وقاله الضحَّاك(٣).

وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب(٤).

قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان النبيُّ ﷺ إذا قاتل المشركين تشاحَّ أصحابه

(١) المفهم ٥/ ٥٢٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٧ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٩١ - ١٩٢ ،وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٧٨ .

على الصف الأوَّل، فلا يُوسع بعضهم لبعض؛ رغبةً في القتال والشهادة، فنزلت[١]. فيكون كقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وقال مقاتل: كان النبيُّ ﷺ في الصُّفَّة، وكان في المكان ضِيْقٌ يومَ الجمعة، وكان النبيُّ ﷺ يُكرِم أهلَ بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت ابن قيس بن شماس، وقد سُبِقوا في المجلس، فقاموا حيالَ النبيِّ ﷺ على أرجلهم، ينتظرون أن يُوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فقال لمن حوله من [غير] أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان» بعدد القائمين من أهل بدر، فشقَّ ذلك على من أُقيم، وعرف النبيُّ ﷺ الكراهيةَ في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلَّموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبُّوا القربَ من نبيِّهم فَسبقوا إلى المكان؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[٢].

«تَفَسَّحُوا»: أي: توسَّعوا. وفَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه، يَفْسَح فَسْحًا، أي: وسَّع له؛ ومنه قولهم: بلد فَسِيح، ولك في كذا فُسْحة، وفَسَح يَفْسَح ـ مثل منع يَمْنَع ـ أي: وسَّع في المجلس، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُمُ كرامة أي: صار واسعًا؛ ومنه: مكان فسيح[٣].

الثانية: قرأ السُّلَميُّ وزِرُّ بن حُبَيش وعاصم: «في الْمَجَالِسِ»[٤]. وقرأ قتادة وداود ابن أبي هند والحسن باختلاف عنه: «إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا»[٥]، الباقون: «تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِس» فمن جمع؛ فلأنَّ قوله: «تَفَسَّحُوا في الْمَجَالِسِ» يُنْبِئُ أنَّ لكلِّ واحد مجلسًا. وكذلك إن أُريد به الحرب. وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيِّ ﷺ، وجمع؛

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨ بنحوه مختصراً، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٩ بنحوه.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٧ دون ذكر: ثابت بن قيس، وما بين حاصرتين منه ومن (م)، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٣ - ٣٣٤٤ (١٨٨٤٦).

(٣) الصحاح (فسح)، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٢٧، ولسان العرب (فسح).

(٤) السبعة ص ٦٢٨، والتيسير ص ٢٠٩ عن عاصم.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨.

لأنَّ لكلِّ جالس مجلسًا. وكذلك يجوز إن أُريد بالمجلس المفرد مجلس النبيِّ ﷺ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس، كقولهم: كثر الدينار والدرهم(١).

قلت: الصحيح في الآية أنَّها عامَّة في كلِّ مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حربٍ أو ذِكْر أو مجلس يوم الجمعة؛ فإنَّ كلَّ واحد أحقُّ بمكانه الذي سبَق إليه، ولكن يُوسِّع لأخيه ما لم يتأذَّ بذلك، فيخرجه الضيق عن موضعه(٢). روى البخاريُّ ومسلم عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يُقِيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه»(٣). وعنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه نهى أن يُقام الرجل من مجلسه ويجلسَ فيه آخر، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاريّ(٤).

الثالثة: إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعدَ مكانه؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يقيمنَّ أحدكم أخاه يوم الجمعة، ثم يخالف إلى مقعده، فيقعدَ فيه، ولكن يقول: افسحوا»(٥).

فرع: القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه، نُظِر؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوَّل في سماع كلام الإمام، لم يكره له ذلك، وإن كان أبعدَ من الإمام، كره له ذلك؛ لأنَّ فيه تفويت حظِّه.

الرابعة: إذا أَمَر إنسان إنسانًا أن يبكِّر إلى الجامع، فيأخذ له مكانًا يَقعد فيه، لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لما روي: أنَّ ابنَ سيرين كان يُرسِل غلامَه

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٠.

(٢) المفهم ٥/ ٥١٠ - ٥١١ بنحوه.

(٣) البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧)، واللفظ للبخاري.

(٤) في صحيحه (٦٢٧٠)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢١٧٧): (٢٨) و(٢٩)، وهو عند أحمد (٤٦٥٩).

(٥) مسلم (٢١٧٨).

إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه[١].

فرع: وعلى هذا من أرسل بساطًا أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد[٢]...

الخامسة: روى مسلم[٣] عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قام أحدكم ـ وفي حديث أبي عوانة: من قام ـ من مجلسه، ثم رجع إليه، فهو أحقُّ به». قال علماؤنا: هذا يدلُّ على صحَّة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنَّه إذا كان أولى به بعد قيامه، فقَبْله أولى به وأَحرى. وقد قيل: إنَّ ذلك على الندب؛ لأنَّه موضع غيرُ متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده. وهذا فيه نظر؛ وهو أن يقال: سلَّمنا أنَّه غيرُ متملَّك، لكنه يختصُّ به إلى أن يَفرُغ غَرضُه منه، فصار كأنَّه يملك منفعته؛ إذ قد مُنع غيره من أن يزاحمه عليه[٤]. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسِّع عليكم في الدنيا والآخرة[٥]. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمِّ الشين فيهما[٦]. وكسر الباقون، وهما لغتان مثل: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] و﴿يَعْرِشُونَ﴾[٧] [الأعراف:١٣٧] والمعنى: انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير، قاله أكثر المفسرين[٨]. وقال مجاهد والضحَّاك: إذا نوديَ للصلاة

---

(١) أورده ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٣٣.

(٢) بعدها في النسخ الخطية بياض، وعبَّر عنه بعض النُّسَّاخ بقوله: بياض في الأم. اهـ. وأورد المسألة العجيلي ـ الشهير بالجمل ـ في الفتوحات الإلهية ٤/ ٣٠٥ وجاءت تتمَّتها هكذا: حتى يحضر هو فيجلس عليها فذلك حرام لما فيه من تحجير المسجد بلا فائدة، وقيل: مكروه. والأول هو المعتمد كما في حواشي المنهج. اهـ.

(٣) في صحيحه (٢١٧٩)، وهو عند أحمد (٧٥٦٨).

(٤) المفهم ٥/ ٥١١.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٦) السبعة ص ٦٢٩، والتيسير ص ٢٠٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤١، وسلفت القراءة فيهما ٩/ ٣١٧.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٩.

فقوموا إليها. وذلك أنَّ رجالًا تثاقلوا عن الصلاة، فنزلت[١]. وقال الحسن ومجاهد أيضًا: أي: انهضوا إلى الحرب[٢]. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبيِّ ﷺ، كان كلُّ رجل منهم يحبُّ أن يكون آخر عهدِه بالنبيِّ ﷺ، فقال الله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا» عن النبيِّ ﷺ «فَانْشُزُوا» فإنَّ له حوائجَ، فلا تمكثوا[٣]. وقال قتادة: المعنى: أجيبوا إذا دعيتم إلى أمرٍ بمعروف. وهذا هو الصحيح[٤]؛ لأنَّه يعمُّ.

والنشز: الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض، وهو ارتفاعها، يقال: نَشَزَ يَنشُز ويَنْشِز: إذا انتحى من موضعه، أي: ارتفع منه. وامرأة ناشز: منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشَز: هو ما ارتفع من الأرض وتنحَّى[٥]، ذكره النحَّاس.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم[٦]. وقال ابن مسعود: مدح اللهُ العلماءَ في هذه الآية، والمعنى: أنَّه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم «دَرَجاتٍ»[٧] أي: درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به[٨]. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يُزاحمهم من يلبس الصوف، فيسْتَبِقون إلى مجلس النبيِّ ﷺ فالخطاب لهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلًا من الأغنياء يقبض ثوبَه نفورًا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: «يا فلان خشيت أن يتعدَّى غناكَ إليه أو فقره إليك»[٩]. وبيَّن

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٩ عن عكرمة والضحاك، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٩ عن الضحاك.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٧٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٨.

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٤ - ٣٠٥، والصحاح واللسان (نشز) بنحوه.

(٦) زاد المسير ٨/ ١٩٣.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٧.

(٨) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٨١ عن ابن زيد.

(٩) لم نقف عليه.

في هذه الآية أنَّ الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم: الذين قرؤوا القرآن.

وقال يحيى بن يحيى عن مالك: «يَرفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الصحابة «وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» يرفع الله بها العالم والطالب للحقّ.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية، فيرفع المؤمن بإيمانه أوَّلًا، ثم بعِلْمه ثانياً[١].

وفي «الصحيح» أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يقدِّم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلَّموه في ذلك، فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ أعلمه اللهُ إيَّاه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٢].

وفي «البخاري» عن عبد الله بن عباس، قال: قدم عُيَينة بن حصن بنِ حذيفة بنِ بدرٍ فنزل على ابنِ أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القُرَّاءُ أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كُهولًا كانوا أو شبانًا. الحديث وقد مضى في آخر «الأعراف»[٣].

وفي «صحيح مسلم» أن نافع بن عبد الحارث لقيَ عمر بعُسْفَان، وكان عمر يستعمله على مكَّة، فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابنُ أبزى؟ قال: مَوْلًى من موالينا. قال: فاستخلفتَ عليهم مولًى! قال: إنَّه قارئٌ لكتاب الله، وإنَّه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»[٤] وقد مضى أول الكتاب، ومضى القول في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٩ .

(٢) البخاري (٣٦٢٧) .

(٣) ٩/ ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٤) سلف ١٧/ ٢٢٤ .

فضل العِلْم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب[1]، والحمد لله.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «بين العالم والعابد مئة درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الجواد المُضمَّر سبعين سنة»[2]. وعنه ﷺ: «فَضْل العالم على العابد، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب»[3]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[4] فأعظِم بمنزلة هي واسطة بين النبوَّة والشهادة، بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان بين العِلْم والمال والملك، فاختار العِلْم، فأُعطيَ المال والملك معه[5].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ «ناجيتم» ساررتم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أنَّ المسلمين كانوا يُكثرون المسائلَ على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يُخفِّف عن نبيِّه ﷺ، فلمَّا قال ذلك، كفَّ كثير من

---

(١) ١/ ٤٣٠ و٥/ ٦٣ - ٦٤، وغيرها.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٦، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٥٣ من طريق عبد الله بن محرر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: وهذا بهذا الإسناد منكر، لا أعلم يرويه عن الزهري إلا ابن محرر ومحمد بن عبد الملك، وجميعاً ضعيفان. اهـ.

وذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٢٩) أن ابن عون رواه عن ابن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: ومَن دون ابن عون لا يحتج به. اهـ. وسلف ٧/ ٦٠ من قول ابن محيريز.

(٣) سلف ١٠/ ٤٣١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) عن عثمان بن عفان ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد ضعيف؛ لضعف علّاق بن أبي مسلم. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٥: رواه ابن ماجه وأبو يعلى والعقيلي والبيهقي في الشعب من حديث عثمان، وفيه: عنبسة بن عبد الرحمن، وهو متروك.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٦، وقول ابن عباس ذكره الديلمي في الفردوس ٢/ ١٩٢، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٢٢/ ٢٧٥ عن ابن عباس مرفوعًا.

الناس، ثم وسَّع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أنَّ قومًا من المسلمين كانوا يستخلون النبيَّ ﷺ ويناجونه، فظنَّ بهم قوم من المسلمين أنَّهم ينتقصونهم في النجوى، فشقَّ عليهم ذلك، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى؛ ليقطعهم عن استخلائه(١).

وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أنَّ المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيَّ ﷺ ويقولون: إنَّه أُذنٌ، يسمع كلَّ ما قيل له، وكان لا يمنع أحدًا مناجاته. فكان ذلك يشقُّ على المسلمين؛ لأنَّ الشيطان كان يُلقي في أنفسهم أنَّهم ناجَوْه بأنَّ جموعًا اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّها الَّذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُم فلا تَتَنَاجَوْا بالإثم والعُدوانِ ومَعْصِيَتِ الرسولِ» الآية [٩]، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنَّهم لم يُقدِّموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقَّ ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة، فخفَّف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية: قال ابنُ العربي(٢): وفي هذا الخبر عن زيد ما يدلُّ على أنَّ الأحكام لا تترتَّب بحسب المصالح، فإنَّ الله تعالى قال: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ» ثم نسخه، مع كونه خيرًا وأطهر. وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد ابنُه عبد الرحمن، وقد ضعَّفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ» نصٌّ متواتر في الردِّ على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة: روى الترمذيُّ(٣) عن عليِّ بن علقمة الأنماريِّ، عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٩٣ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٨٤ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٤ (١٨٨٤٨) .

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٠ ، وما قبله منه أيضًا .

(٣) في سننه (٣٣٠٠) .

سألته[١]، قال لي النبيُّ ﷺ: «ما ترى دينارًا»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «فنصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. . قال: «فكم». قلت: شعيرة. قال: «إنَّك لزهيد». قال: فنزلت: «أأَشْفَقْتُم أن تُقدِّموا بين يدي نَجْواكم صَدَقاتٍ» الآية. قال: فَبِي خفَّف الله عن هذه الأمَّة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، إنَّما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله: شَعِيرة. يعني: وزنَ شعيرةٍ من ذهب. قال ابنُ العربيِّ[٢]: وهذا يدلُّ على مسألتين حسنتين أصوليَّتَيْن: الأولى: نَسْخُ العبادة قبل فعلها. والثانية: النظر في المقدَّرات بالقياس، خلافًا لأبي حنيفة.

قلت: الظاهر أنَّ النَّسْخ إنَّما وقع بعد فِعْل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أنَّ أوَّل من تصدَّق في ذلك عليُّ بن أبي طالب ﷺ، وناجى النبيَّ ﷺ. روي أنَّه تصدَّق بخاتم[٣]. وذكر القشيريُّ وغيره عن عليِّ بن أبي طالب أنَّه قال: في كتاب الله آية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: «يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا ناجَيْتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صَدَقةً» كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيتُ الرسولَ، تصدَّقت بدرهم حتى نفدَ؛ فنسخت بالآية الأخرى: «أأَشْفَقْتُم أن تُقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صَدَقاتٍ»[٤]. وكذلك قال ابن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها[٥].

---

(١) لم ترد هذه اللفظة في مطبوع الترمذي.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٩ - ١٧٥٠، وقال عقبها: وهذا كلُّه لا يصح. اهـ. وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠ - ٦٦١، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠، والطبري ٢٢/ ٤٨٢ - ٤٨٣، وفيه أنه تصدَّق بدينار.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٨، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٢/ ٨١، والطبري ٢٢/ ٤٨٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨١ - ٤٨٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ. إلا أنه وقع في مطبوع المستدرك - وهي طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، وكذا ورد في طبعة دار الكتب العلمية - مرفوعاً، وهو خطأ، لأن سياق الحديث يدلُّ على أنَّ قائله هو عليٌّ، وهو الذي كان يتصدَّق عندما كان يناجي النبيَّ ﷺ، ولأنه لم يَرِدْ ذكر رسول الله ﷺ في تلخيص المستدرك للذهبي، ولا في إتحاف المهرة لابن حجر (١٤٥٨٥) عند ذكره لإسناد هذا الحديث وعزوه للحاكم.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٦، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

وقال ابن عمر: لقد كانت لعليٍّ ﷺ ثلاثة، لو كانت لي واحدة منهنَّ كانت أحبَّ إليَّ من حُمُر النَّعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى[١].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من إمساكها ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ يعني الفقراء[٢] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: «أأشْفَقْتُمْ» أي: أبخلتم بالصدقة[٣]، وقيل: خفتم. والإشفاق: الخوف من المكروه[٤]. أي: خفتم وبخلتم بالصدقة، وشقَّ عليكم ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. قال مقاتل بن حيان: إنَّما كان ذلك عشر ليالٍ، ثم نُسخ. وقال الكلبيُّ: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة[٥]. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نُسخ. وكذا قال قتادة[٦]. والله أعلم.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٥ ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١٩٩) إلا أنه ورد فيه : وغلق الأبواب ، بدل : وآية النجوى . وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٩٦ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ١٢٠ عن عمر ﷺ ، وفيه : وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل له فيه ما يحل له ، بدل : وآية النجوى . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٢١ : رواه أبو يعلى في الكبير ، وفيه : عبد الله بن جعفر بن نجيح ، وهو متروك .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١١ .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٦ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٨٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١١ ، إلا أنه ورد عن الكلبي أنه قال: ما كانت إلا ساعة من نهار . وكذا أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠ عن قتادة .

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدَّق به ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فنسخت فرضيَّةُ الزكاة هذه الصدقةَ(١). وهذا يدلُّ على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليٍّ ﷺ ضعيف(٢)؛ لأنَّ الله تعالى قال: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا» وهذا يدلُّ على أنَّ أحداً لم يتصدَّق بشيء. والله أعلم. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ قال قتادة: هم المنافقون تولَّوا اليهود(٣) ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين، بل هم ﴿مُّذَبْذَبِينَ(٤) بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣] وكانوا يحملون أخبارَ المسلمين إليهم.

قال السُّدِّيُّ ومقاتل: نزلت في عبد الله بنِ أُبيٍّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن؛ كان أحدهما يجالس النبيَّ ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبي ﷺ في حُجْرة من حُجُراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلب جبَّار، وينظر بعينَي شيطان» فدخل عبد الله بن نَبْتَل ـ وكان أزرقَ أسمرَ قصيراً خفيف اللحية ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: «علامَ تشتُمني أنتَ وأصحابُك؟» فحلف بالله ما فعلَ ذلك. فقال له

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٠، كما مرَّ قريبًا.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠، والطبري ٢٢/ ٤٨٧.

(٤) في (م): مذبذبون. والمثبت من النسخ الخطية وتفسير البغوي ٤/ ٣١١، والكلام منه.

النبيُّ ﷺ: «فعلتَ» فانْطَلقَ، فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه؛ فنزلت هذه الآية[١]. وقال معناه ابن عباس، روى عِكرمة عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ جالساً في ظلِّ شجرة قد كاد الظلُّ يتقلَّص عنه إذ قال: «يجيئكم الساعة رجل أزرق، ينظر إليكم نظر شيطان» فنحن على ذلك، إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبيُّ ﷺ فقال: «علامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك» قال: دعني أجيئك بهم. فمرَّ فجاء بهم، فحلفوا جميعاً أنَّه ما كان من ذلك شيء؛ فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً» إلى قوله: «هُمُ الْخَاسِرُونَ»[٢] واليهود مذكورون في القرآن بـ «غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ».

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المنافقين ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في جهنَّم، وهو الدَّرْك الأسفل. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس الأعمال أعمالهم ﴿اتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجِنُّون بها من القتل[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية: «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا، وفي «الْمُنَافقون»[٤]. أي: إقرارهم اتَّخذوه جُنَّة، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار. والصَّدُّ: المنع «عَنْ سَبِيلِ اللهِ» أي: عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر؛ لِمَا أظهروه من النفاق. وقيل: أي: بإلقاء الأراجيف، وتثبيط المسلمين عن الجهاد، وتخويفهم[٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٨ - ٤٣٩، وتفسير البغوي ٤/ ٣١١.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٩ بإسناده عن ابن عباس، وأخرجه عنه أيضاً أحمد (٢٤٠٧)، والبزار (٢٢٧٠ كشف الأستار)، والطبري ٢٢/ ٤٨٩، والطبراني في الكبير (١٢٣٠٩)، والحاكم ٢/ ٤٨٢ من طرق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. ولم نقف على رواية عكرمة. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٢: رواه أحمد والبزار، ورجال الجميع رجال الصحيح.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٧.

(٤) المحتسب ٢/ ٣١٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٩٤، وزاد المسير ٨/ ١٩٧ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذابه شيئًا. وقال مقاتل: قال المنافقون: إنَّ محمّدًا يزعم أنَّه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذًا! فواللهِ لنُنْصرَنَّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾[1] أي: لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليومَ، وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدًا. وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2][الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بإنكارهم وحلفهم. قال ابن زيد: ظنُّوا أنَّهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: «وَيَحْسَبُونَ» في الدنيا «أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ» لأنَّهم في الآخرة يعلمون الحقَّ باضطرار. والأوَّل أظهر. وعن ابن عباس قال: قال النبيُّ ﷺ: «يُنادي منادٍ يومَ القيامة: أين خصماءُ الله، فتقوم القَدَريَّة مسودَّة وجوههم، مزرقَّة أعينهم، مائل شدقهم، يسيل لعابهم، فيقولون: واللهِ ما عَبَدْنَا مِن دونك شمسًا ولا قمرًا ولا صنمًا ولا وثَنًا، ولا اتخذنا من دونك إلهًا». قال ابن عباس: صدقوا واللهِ! أتاهم الشِّرْك من حيث لا يعلمون؛ ثم تلا: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هم واللهِ القَدَريَّة. ثلاثًا[3].

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: غلب واستعلى[4]، أي: بوسوسته في الدنيا. وقيل: قَوي عليهم. وقال المفضَّل: أحاط بهم[5]. ويحتمل رابعًا، أي:

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨١ بنحوه ودون عزوٍ.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٨ دون عزوٍ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨١ وعزاه للثعلبي، وأخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٨- ١٣٩.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٩٤.

جَمَعَهُم[١] وضمَّهم. يقال: أَحوذَ الشيءَ، أي: جمعه وضمَّ بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقويَ عليهم وأحاط بهم. ﴿فَأَنسَـٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجره في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك[٢]، والوجهان محتملان هنا. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ طائفته ورهطه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنَّهم باعوا الجنَّة بجهنَّم، وباعوا الهدى بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تقدم أوَّل السورة. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: من جملة الأذلَّاء، لا أذلَّ منهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي: قضى الله ذلك[٣]. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ، عن قتادة[٤]. الفرَّاء: كتب بمعنى «قال». ﴿أَنَا۠﴾ توكيد[٥] ﴿وَرُسُلِىٓ﴾ من بُعث منهم بالحرب؛ فإنَّه غالب بالحرب، ومن بُعث منهم بالحجَّة، فإنَّه غالب بالحجَّة[٦]. قال مقاتل: قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكَّة والطائف وخيبر وما حولهنَّ رجَوْنا أن يظهرنا الله على فارس والروم. فقال عبد الله ابن أُبيٍّ ابن سَلُول: أتظنُّون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟! واللهِ إنَّهم لأكثر عددًا، وأشدُّ بطشًا من أن تظنُّوا فيهم ذلك؛ فنزلت: «لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي». نظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٥ ، ووقع في مطبوعه : الشرك ، بدل : الترك . وهو خطأ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢ ، ولم ينسب القول الأول لقتادة، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٩ .

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ أي: يحبُّون ويُوالون ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تقدَّم ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ قال السُّدِّيُّ: نزلت في [عبد الله بن] عبد الله بن أبيّ، جلس إلى النبيِّ ﷺ فشرب النبيُّ ﷺ ماءً، فقال له: باللهِ يا رسولَ الله ما أبقيتَ من شرابك فضلةً أسقيها أبي؛ لعلَّ الله يُطهِّر بها قلبه. فأَفْضَلَ له، فأتاه بها، فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فَضْلة من شراب النبيِّ ﷺ جئتك بها تشربها، لعلَّ اللهَ يطهِّر قلبَك بها. فقال له أبوه: فهلَّا جئتني ببول أمِّك، فإنَّه أطهر منها. فغضب، وجاء إلى النبيِّ ﷺ، وقال: يا رسولَ الله! أما أذنتَ لي في قتل أبي؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بل ترفق به، وتحسن إليه»(١).

وقال ابن جريج: حُدِّثت أنَّ أبا قُحافة سبَّ النبيَّ ﷺ فصكَّه أبو بكر - ابنُه - صكَّةً سقط منها على وجهه، ثم أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلكَ له، فقال: «أَوَفعلته! لا تَعُدْ إليه» فقال: والذي بعثك بالحقِّ نبيًّا، لو كان السيف منِّي قريباً لقتلته(٢). وقال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجرَّاح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد(٣)، وقيل: يوم بدر. وكان الجرَّاح يتصدَّى لأبي عبيدة، وأبو عبيدة يَحيدُ عنه، فلما أكثر، قصد إليه أبو عبيدة فقتله؛ فأنزل الله حين قتل أباه: «لا تَجِدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ»

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٩٩ ، وما بين حاصرتين منه .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨٦ لابن المنذر .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠ ، وأورده الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ١٤١ ، والبغوي ٤/ ٣١٢ .

الآية[١]. قال الواقديُّ: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألتُ رجالاً من بني الحارث ابن فهر فقالوا: تُوفِّي أبوه من قبل الإسلام.

﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعني: أبا بكر دعى ابنَه عبدَ الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبيُّ ﷺ: «مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنَّك عندي بمنزلة السمع والبصر»[٢].

﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ يعني مصعبَ بنَ عمير قتل أخاه عبيدَ بنَ عمير يوم أُحُد[٣]. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بنَ الخطاب قتل خالَه العاصَ بنَ هشام بنِ المغيرة يوم بدر، وعليًّا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر[٤]. وقيل: إنَّ الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة، لما كتب إلى أهل مكَّة بمسير النبيِّ ﷺ عامَ الفتح[٥]، على ما يأتي بيانه أوَّل سورة «الممتحنة» إن شاء الله تعالى، بيَّن أنَّ الإيمان يفسد بموالاة الكفَّار، وإن كانوا أقارب.

الثانية: استدلَّ مالك ـ رحمه الله ـ من هذه الآية على معاداة القَدَرِيَّة وتَرْك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القَدَرِيَّة وعادِهم في الله؛ لقوله تعالى:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥١، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٠١ عن عبد الله بن شوذب مرسلاً. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ١٠٢: وهذا معضل، وكان الواقدي ينكره ....

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، وأخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٢٥٧، وذكره عنه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٨٦، وورد عند الواقدي أنَّ ابنَ أبي بكر اسمه: عبد الرحمن، ولم يصرِّح باسمه الواحديُّ في أسباب النزول، ولعلَّ الصواب ما ذكره الواقدي؛ لأن ابن الجوزي ذكر في كتابه تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠٧-١٠٨ أولادَ أبي بكر، وعدَّ منهم عبد الله وعبد الرحمن...، وبيَّن أن عبد الرحمن هو الذي شهد يوم بدر مع المشركين، ثم أسلم، وأما عبد الله فإنه شهد مع النبي ﷺ الطائف فجرح وبقي إلى خلافة أبيه...

(٣) في (م): بدر، والمثبت من النسخ الخطية، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، والكلام منه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، والمغازي للواقدي ١/ ٦٩.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٢، وما بعده منه أيضاً.

«لا تَجِدُ قومًا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه»[١].

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوريِّ أنَّه قال: كانوا يَرَوْنَ أنَّها نزلت في مَن كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي روَّاد[٢] أنَّه لقيَ المنصورَ في الطواف، فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «اللهمَّ لا تجعل لفاجر عندي نعمة، فإنِّي وجدتُ فيما أوحيت: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى قوله: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِم الْإِيمَانَ»»[٣] أي: خلق في قلوبهم التصديق[٤]، يعني من لم يُوالِ من حادَّ الله[٥]. وقيل: كتب: أثبت، قاله الربيع بن أنس. وقيل: جعل[٦]، كقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] أي: اجعلنا. وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقيل: «كَتَبَ» أي: جمع، ومنه: الكَتيبة، أي: لم يكونوا ممن يقول: نؤمن ببعض ونكفر ببعض[٧].

وقراءة العامة: بفتح الكاف من «كَتَبَ»، ونصب النون من «الإيمان» بمعنى: كَتَبَ الله، وهو الأجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾. وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم: «كُتِبَ» على ما لم يُسمَّ فاعله، «الْإِيمَانُ» برفع النون[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥١، إلا أنه وقع فيه: ابن وهب، بدل: أشهب. وقد وردت في إحدى نسخه الخطية، كما أشار لذلك محققه.

(٢) في (د) و(م): داود.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٨ - ٧٩، والحديث أورده الديلمي في الفردوس (٢٠١١)، وابن مردويه كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٦.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٦٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ١٩٩.

(٧) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٧٧.

(٨) السبعة ص ٦٣٠.

وقرأ زِرّ بن حُبيش: «وَعَشِيرَاتِهِمْ» بألف وكسر التاء على الجمع، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم[١]. وقيل: «كَتَبَ في قُلُوبِهِمْ» أي: على قلوبهم، كما في قوله: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وخصَّ القلوب بالذِّكْر؛ لأنَّها موضع الإيمان. «وَأَيَّدَهُمْ» قوَّاهم ونصرهم بروح منه، قال الحسن: وبنصر منه. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن وحُججه. وقال ابن جريج: بنور وإيمان وبرهان وهدي. وقيل: برحمة من الله. وقال بعضهم: أيَّدهم بجبريلَ عليه السلام[٢]. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: قَبِلَ أعمالهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجانيُّ، عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلهي! مَن حِزْبُكَ وحَوْلَ عرشِك؟ فأوحى الله إليه: «يا داود الغاضَّةُ أبصارهم، النقيَّة قلوبهم، السليمة أكفُّهم، أولئك حزبي وحول عرشي»[٣].

ختمت السورة والحمد لله.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٤ عن علي ﵁، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣، دون ذكر قول ابن جريج، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٢ دون نسبته إليه.

(٣) لم نقف عليه.

سُورَةُ المُجَادلَة

مَدنيَّةٌ، وقيل: العشرُ الأوَّلُ مكيٌّ والباقي مدنيٌّ، وآيُها ثنتان وعشرون[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رُوِيَ أنَّ خولةَ بنت ثعلبةَ ظاهَرَ عنها زَوجُها أَوسُ بنُ الصَّامتِ فاستفتَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ فقال: «حَرُمْتِ عليه»، فقالت: ما طلَّقَني فقال: «حَرُمْتِ عليه»، فاغتمَّتْ لصغَرِ أولادِها وشكَتْ إلى اللهِ تَعالى، فنزلَتْ هذه الآياتُ الأربَعُ[٢].

وقد تشعرُ بأنَّ الرَّسولَ عليهِ السَّلامُ أو المجادِلةَ يتوقَّعُ أنَّ اللهَ يسمَعُ مُجادَلَتها وشكواها ويفرِّجُ عنها كربَها.

وأدغمَ حمزةُ والكِسائيُّ وأبو عمرٍو وهِشامٌ عن ابن عامرٍ دالَها في السِّينِ[٣].

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٤٢)، وفيه: إحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي واثنتان وعشرون في عدد الباقين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٦) من طريق أبي العالية، و(٢٢/ ٤٥١) من طريق محمد بن كعب القرظي. وروى بعضه ابن ماجه (٢٠٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأبو داود (٢٢١٤) من حديث خولة.

(٣) انظر: «النشر» (٣/ ١٥٢٧).

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ تراجُعَكُما الكلامَ، وهو على تغليبِ الخطابِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ للأقوالِ والأحوالِ.

(٢) - ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الظِّهارُ أن يقولَ الرَّجلُ لامرأَتِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمِّي، مُشتَقٌّ مِن الظَّهرِ، وألحقَ به الفُقهاءُ تشبيهَها بجزءٍ مَحْرَمٍ، وفي ﴿مِنكُم﴾ تهجينٌ لعادَتِهم فيه، فإنَّه كان مِن أَيْمانِ أهلِ الجاهليَّةِ، وأصلُ: (يَظَّهَّرون): يَتظهَّرُونَ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يظَّاهرون﴾ من اظَّاهر، وعاصمٌ: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾[1] مِن ظاهرَ.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي: على الحقيقةِ.

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تُشَبَّه بهنَّ في الحرمةِ إلَّا مَن ألحقَها اللهُ بهنَّ، كالمرضعاتِ وأزواجِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ.

وعن عاصمٍ: (أمهاتُهم) بالرَّفعِ على لغةِ تَميمٍ[2].

وقُرِئَ: (بأمَّهاتِهم)[3]، وهو أيضًا على لغةِ مَن يَنصِبُ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذ الشَّرعُ أنكرَهُ.

﴿وَزُورًا﴾ مُحرَّفًا عن الحقِّ، فإنَّ المُزوَّجةَ لا تشبهُ الأمَّ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لِمَا سلفَ مِنه مطلقًا، أو إذا تيبَ عنه[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٨). وقرأ الباقون: ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ انظر: «النشر» (٤/ ٢٦٧٩).

(٢) رواية المفضل عن عاصم كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٤).

(٣) وهي قراءة ابن مسعود، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٤).

(٤) في نسخة الخيالي: «عليه».

(٣) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ أي: إلى قولِهم بالتَّدارُكِ، ومنه المثلُ: عادَ الغيثُ على ما أفسدَ[١].

وهو بنقضِ ما يقتضيهِ.

وذلك عندَ الشَّافعيِّ بإمساكِ المُظاهَرِ عنها في النِّكاحِ زمانًا يمكنُه مُفارَقَتُها فيه، إذ التَّشبيهُ يَتناولُ حُرمتَهُ لصحَّةِ استثنائِها عنه، وهو أقلُّ ما ينتقضُ به.

وعندَ أبي حنيفةَ باستباحةِ استِمتاعِها ولو بنظرةِ شَهوةٍ[٢].

وعند مالكٍ بالعزمِ على الجماعِ[٣].

وعند الحسنِ: بالجماعِ أو بالظِّهارِ في الإسلامِ[٤].

على أنَّ قولَه: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بمعنى: يعتادونَ الظِّهارَ، أو[٥] كانوا يُظاهِرُونَ في الجاهليَّةِ، وهو قولُ الثَّوريِّ[٦].

---

(١) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٢٢٠)، وفيه يضرب للرجل يحسن بعد الإساءة.

(٢) قال السمرقندي في «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢١٤): والعود عندنا هو العزم على وطئها بعد الظهار، وقال الكاساني في «بدائع الصنائع» (٣/ ٢٣٦): العود هو العزم على وطئها عزماً مؤكداً حتى لو عزم ثم بدا له في أن يطأها لا كفارة عليه لعدم العزم المؤكد، لا أنه وجبت الكفارة بنفس العزم ثم سقطت كما قال بعضهم؛ لأن الكفارة بعد سقوطها لا تعود إلا بسبب جديد، اهـ. ولم أقف على قول الإمام البيضاوي رحمه الله في التخصيص بالنظر بشهوة سوى ما ورد في عموم المذهب من أن النظر بشهوة يتعلق به التحريم، انظر: «التجريد» للقدوري (٩/ ٤٤٦١)، والله أعلم.

(٣) هو أحد ثلاثة أقوال رويت عن الإمام مالك والثاني هو الوطء نفسه، ولكن يقدم عليه الكفارة، والثالث: العزم على الإمساك والوطء، وإلى هذا ذهب وأشار في الموطأ، وتابعه أحمد على أنه العزم على الوطء، انظر: «عيون المسائل» للقاضي عبد الوهاب (ص: ٣٦١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) في نسخة الخيالي: «إذ».

(٦) وكذا هو قول مجاهد، انظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥١).

أو بتكرارِه لفظًا، وهو قولُ الظَّاهريَّةِ(١).

أو معنًى؛ بأَنْ يحلفَ على ما قالَ، وهو قول أبي مسلمٍ(٢).

أو إلى المقولِ فيها؛ بإمساكِها أو استباحةِ استمتاعِها أو وطئِها.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليهم أو فالواجبُ إعتاقُ رقبةٍ، والفاءُ للسَّببيَّةِ، ومِن فَوائدِها الدَّلالةُ على تكريرِ وُجوبِ التَّحريرِ بتكرُّرِ الظِّهارِ، والرقبةُ مُقيدةٌ بالإيمانِ عندَنا قياسًا على كفَّارةِ القتلِ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أن يستمتعَ كلٌّ مِن المُظاهِرِ والمظاهَرِ عنها بالآخرِ لعمومِ اللَّفظِ ومُقتضى التَّشبيهِ، أو أن يجامعَا، وفيه دليلٌ على حرمةِ ذلك قبلَ التَّكفيرِ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الحكمُ بالكفَّارةِ ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لأنه يدلُّ على ارتكابِ الجنايةِ الموجبةِ للغرامةِ ويَردَعُ عنه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافيةٌ.

(٤) ـ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الرقبةَ والذي غابَ مالُه واجِدٌ.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإِنْ أفطرَ لغيرِ عُذرٍ لزمَه الاستئنافُ، وإن أفطرَ لعذرٍ ففيه خلافٌ، وإن جامعَ المظاهَرَ عنها ليلًا لم ينقطِع التَّتابعُ عندنا خلافًا لأبي حنيفةَ(٣) ومالكٍ(٤).

---

(١) انظر: «المحلى» لابن حزم (٩/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٩/ ٤٨٤).

(٣) وهو قول محمد أيضاً، ووافق أبو يوسف الإمام الشافعي في عدم انقطاع التتابع، انظر: «المبسوط» للسرخسي (٣/ ٨٤).

(٤) انظر: «جامع الأمهات» لابن الحاجب (ص: ٣١٣).

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي: الصَّومَ لهرمٍ أو مرضٍ مُزمنٍ أو شَبَقٍ مُفرطٍ فإنَّه عليه السَّلامُ رخصَ للأعرابيِّ المفطرِ أن يَعدِلَ(١) لأجلِه(٢).

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ستِّينَ مُدًّا بمُدِّ رَسولِ اللهِ ﷺ، وهو رِطلٌ وثلثٌ؛ لأنه أقلُّ ما قيل في الكفَّاراتِ، وجِنسُه المخرجُ(٣) في الفطرةِ.

وقال أبو حنيفة: يعطي كلَّ مسكينٍ نصفَ صاعٍ مِن بُرٍّ أو صاعًا من غيرِه(٤).

وإنما لم يُذكَر التماسُّ مع الإطعامِ اكتفاءً بذكرِهِ مع الآخرَينَ، أو لجوازِهِ في خلالِ الإطعامِ كما قال أبو حنيفةَ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك البيانُ أو التَّعليمُ للأحكامِ، ومحلُّه النَّصبُ بفعلٍ مُعلَّلٍ بقولِه: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فرَضَ ذلك لتصدِّقُوا باللهِ ورسولِه في قبولِ شَرائعِه ورفضِ ما كُنتُم عليه في جاهليَّتِكم.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوزُ تَعدِّيها.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي: الذينَ لا يقبلونَها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو نظيرُ قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

---

(١) في نسخة الخيالي: «يفدي».

(٢) رواه أبو داود (٢٢١٣)، والترمذي (٣٢٩٩) من حديث سلمة بن صخر قال: كنت رجلًا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امراتي حتى ينسلخ رمضان... الحديث، قال الترمذي: هذا حديث حسن، والحديث أصله في البخاري (٦٧١١)، ومسلم (١١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله فقال: هلكت يا رسول الله قال: «وما أهلكك؟» قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: «هل تجد ما تعتق رقبة؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا... الحديث.

(٣) في نسخة الفاروقي: «ما قيل من المخرج».

(٤) انظر: «الأصل» للشيباني (٥/ ٢٢).

(٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعادونَهُما، فإنَّ كلًّا مِن المتعاديَيْن في حدٍّ غيرِ حدِّ الآخرِ، أو يضعونَ، أو يختارونَ حُدودًا غيرَ حُدودِهما.

﴿كُبِتُواْ﴾ أُخزُوا أو أهلِكُوا، وأصلُ الكبتِ الكَبُّ.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفَّارَ الأممِ الماضيةِ.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تدلُّ على صدقِ الرَّسولِ وما جاءَ به.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُذهبُ عِزَّهُم وتكبُّرَهُم.

(٦) ـ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوبٌ بـ﴿مُّهِينٌ﴾ أو بإضمارِ اذكر ﴿جَمِيعًا﴾ كلَّهم لا يدعُ أحدًا غيرَ مَبعوثٍ، أو مُجتمعينَ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أي: على رؤوسِ الأشهادِ تشهيرًا لحالِهم وتقريرًا لعذابِهم.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاطَ به عددًا لم يَغِب منه شيءٌ ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرتِه أو تهاوُنِهم به.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيبُ عنه شيءٌ.

(٧) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كليًّا وجزئيًّا.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ ما يقعُ مِن تناجِي ثلاثةٍ، ويجوزُ أن يقدَّرَ مُضافٌ، أو يُؤوَّلَ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ بـ: مُتناجين، ويُجعلَ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ صفةً لها.

واشتقاقُها مِن النَّجوةِ، وهي ما ارتفعَ مِن الأرضِ، فإنَّ السِّرَّ أمرٌ مَرفوعٌ إلى الذِّهنِ لا يَتيسَّرُ لكلِّ أحدٍ أَنْ يطَّلِعَ عليه.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا اللهُ يجعَلُهم أربعةً مِن حيثُ إنَّه يشارِكُهم في الاطِّلاعِ عليها، والاستثناءُ مِن أعمِّ الأحوالِ.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسةٍ ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيصُ العددينِ إمَّا لخُصوصِ الواقعةِ، فإنَّ الآيةَ نزلَتْ في تناجي المُنافقينَ، أو لأنَّ اللهَ وِترٌ يحبُّ الوترَ،

والثلاثَةُ أَوَّلُ الأوتارِ، أو لأنّ التَّشاوُرَ لا بُدَّ له مِن اثنينِ يكونانِ كالمتنازعينِ وثالثٍ يتوسَّطُ بينَهُما.

وقُرِئَ: (ثلاثةً) و(خمسةً) بالنَّصبِ(١) على الحالِ بإضمارِ يَتناجونَ، أو تأويلِ ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ بمُتناجينَ.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ ولا أقلَّ ممَّا ذكرَ كالواحدِ والاثنينِ ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ يعلَمُ ما يجري بينَهُم.

وقرأ يعقوبَ: ﴿وَلَآ أكثرُ﴾ بالرَّفعِ(٢) عطفًا على محلِّ ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾ أو محلِّ ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾ إن جُعِلت (لا) لنَفْيِ الجنسِ.

﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ فإنَّ عِلمَهُ بالأشياءِ ليسَ لقُربٍ مَكانيٍّ حتَّى يتفاوتَ باختلافِ الأمكِنَةِ.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَفْضيحًا لهم وتقريرًا لِمَا يَستحقُّونَه مِن الجَزاءِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِه المُقتضيَةِ للعلمِ إلى الكلِّ على سَواءٍ.

(٨) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ نزلَتْ في اليهودِ والمُنافقينَ كانوا يتناجَونَ فيما بينَهُم ويَتغامَزونَ بأعيُنِهم إذا رَأَوا المؤمنينَ، فنَهاهُم رسولُ اللهِ ﷺ ثمَّ عادوا لمثلِ فِعلِهم(٣).

﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: بما هو إثمٌ وعُدوانٌ للمُؤمنينَ وتواصٍ بمعصيَةِ الرَّسولِ.

---

(١) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٤٦).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٩).

وقرأ حمزةُ: ﴿وَيَنْتَجُونَ﴾، ورُوِيَ عَن يعقوبَ مثلُه، وهو يَفتَعِلونَ مِن النَّجوَى[١].

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون: السَّامُ عليكَ، أو أنعِمْ صباحًا، واللهُ سبحانَه يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما بينَهُم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلَّا يُعذِّبُنا بذلك لو كانَ محمَّدٌ نبيًّا.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا[٢] ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدخلونَها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ.

(٩) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعَلُه المنافقونَ.

وعَن يعقوبَ: ﴿فَلَا تَنْتَجُوا﴾[٣].

﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ بما يتضمَّنُ خيرَ المؤمنينَ والاتِّقاءَ عَن معصيةِ الرَّسولِ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتونَ وتذرونَ فإنَّه مُجازيكُمْ عليه.

(١٠) - ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: النَّجوى بالإثمِ والعُدوانِ ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإنَّه المزيِّنُ لها والحاملُ عليها.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوهُّمِهِم لأنَّها في نكبةٍ أصابَتِهِم.

﴿وَلَيْسَ﴾ الشَّيطانُ أو التَّناجي ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ بضارٍّ المُؤمنينَ ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئَتِه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا تُبالوا[٤] بنَجواهُم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩)، و«النشر» (٢/ ٣٨٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «عذابها».

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٥).

(٤) في نسخة الفاروقي: «ولا تبال».

(١١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجۡلِسِ﴾ توسَّعُوا فيه وليفسَح بعضُكُم عَن بعضٍ، مِن قولهم: افسَحْ عنِّي؛ أي: تنحَّ.

وقُرِئَ: (تَفَاسَحُوا)[١].

والمرادُ بالمجلسِ الجنسُ، ويدلُّ عليه قراءةُ عاصمٍ بالجمعِ[٢]، أو مجلسُ رَسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّهم كانوا يَتضامُّونَ به تنافُسًا على القُربِ منه وحرصًا على استماعِ كلامِه.

﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ فيما تريدونَ التَّفسُّحَ فيه مِن المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ وغيرِها.

﴿وَإِذَا قِيلَ انْشِزُوا﴾ انهَضُوا للتَّوسِعةِ أو لِما أُمِرْتُم به كصَلاةٍ أو جهادٍ، أو ارتفِعُوا في[٣] المجلسِ.

﴿فانْشِزُوا﴾ وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ بضمِّ الشِّينِ فيهما[٤].

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ بالنَّصرِ وحُسنِ الذِّكرِ في الدُّنيا وإيوائِهم غرفَ الجنَّاتِ في الآخرةِ.

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ ويرفعُ العلماءَ مِنْهُم خاصَّةً درجاتٍ بما جمعَوا مِن العلمِ والعَملِ، فإنَّ العلمَ مع علوِّ دَرجتِه يَقتَضي للعملِ المَقرونِ بِهِ مَزيدَ رِفعَةٍ، ولذلك يُقتَدى بالعالمِ في أفعالِه ولا يُقتدَى بغيرِه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٥)، عن الحسن وداود بن أبي هند.

(٢) وقراءة الباقين بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «عن».

(٤) انظر: «النشر» (٤/ ٢٦٨٠).

وفي الحديثِ: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القَمرِ ليلةَ البَدرِ على سائرِ الكَواكبِ»[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تهديدٌ لِمَن لَمْ يَمتَثِلِ الأمرَ أو استكْرهَهُ.

(١٢) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ فتصدَّقوا قدَّامَها، مُستعارٌ ممَّنْ له يدانِ، وفي هذا الأمرِ تَعظيمُ الرَّسولِ، وإنفاعُ الفُقراءِ، والنَّهيُ عن الإفراطِ في السُّؤالِ، والميزُ بينَ المُخلصِ والمنافقِ ومُحبِّ الآخرةِ ومُحبِّ الدُّنيا.

واختُلِفَ في أنَّه للنَّدبِ أو للوُجوبِ، لكنَّه مَنسوخٌ بقولِه: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ وهو وإن اتَّصلَ بِهِ تِلاوةً لم يتَّصِلْ به نزولًا.

وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: إنَّ في كتابِ اللهِ آيةً ما عَمِلَ بها أحدٌ غيري، كان لي دينارٌ فصَرفتُه فكنتُ إذا ناجَيْتُه تَصدَّقْتُ بدِرهَمٍ[٢].

وهو على القَولِ بالوُجوبِ لا يقدَحُ في غيرِه، فلعلَّهُ لم يتَّفِق للأغنياءِ مُناجاةٌ في مدَّةِ بقائِه، إذ رُوِيَ أنَّه لم يَبْقَ إلا عشرًا[٣]، وقيل: إلا ساعةً[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢١٢٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٩٤) وصححه، وزاد أبو عبيد والطبري: ثم نسخت. وعند الحاكم: ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٖۚ﴾ الآية».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١٥٩) عن مقاتل بن حيان.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٧٨) عن الكلبي وقتادة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك التَّصدُّقُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لأنفُسِكُم مِن الرِّيبَةِ وحُبِّ المالِ، وهو يُشعِرُ بالنَّدبيَّةِ، لكنَّ قولَه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لِمَن لم يَجِد، حيثُ رخَّصَ له في المناجاةِ بلا تَصدُّقٍ= أدَلُّ على الوجوبِ.

(١٣) ـ ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخِفْتُم الفقرَ مِن تَقديمِ الصَّدقةِ، أو أخِفْتُم التَّقديمَ لِمَا يَعِدُكم الشَّيطانُ عليه مِن الفَقرِ، وجمعُ ﴿صَدَقَاتٍ﴾ لجمعِ المُخاطبينَ أو لكثرةِ التَّناجي.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بـأَنْ رخَّصَ لكم أن لا تَفعَلوهُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ إشفاقَهُم ذنبٌ تَجاوزَ اللهُ عنه لِمَا رأى مِنْهم ممَّا قامَ مقامَ تَوبَتِهم، و(إذ) على بابِها، وقيل: بمعنى (إذا) أو (إن).

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فلا تُفرِّطوا في أدائِهما.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائرِ الأوامرِ فإنَّ القيامَ بها كالجابرِ للتَّفريطِ في ذلك.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا.

(١٤) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ والَوْا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني: اليهودَ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنَّهم مُنافِقونَ مُذَبذبونَ بينَ ذلك.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ وهو ادِّعاءُ الإسلامِ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المحلوفَ عليه كذبٌ، كمَنْ يَحلِفُ بالغَمُوسِ، وفي هذا التَّقييدِ دليلٌ على أنَّ الكذبَ يعمُّ ما يعلمُ المخبرُ عدمَ مُطابقتِه وما لا يعلَمُ مطابقتَه للواقع[1].

ورُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ كان في حُجرةٍ مِن حجراتِه فقال: «يدخلُ عليكُم الآنَ

---

(١) في نسخة الفاروقي زيادة: «فكان حينئذ الكذب نوعين».

رَجلٌ قلبُه قلبُ جبَّارٍ ويَنظرُ بعينِ شَيطانٍ»، فدخلَ عبدُ اللهِ بن نَبْتَلٍ المنافقُ وكانَ أزرقَ، فقالَ عليهِ السَّلامُ له: «علامَ تَشتِمُني أنتَ وأصحابُكَ»، فحلفَ باللهِ ما فعلَ، ثمَّ جاءَ بأصحابِه فحَلَفوا، فنزلَتْ[1].

(١٥) - ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعًا مِن العَذابِ مُتفاقِمًا.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتمرَّنُوا على سوءِ العملِ وأَصرُّوا عليه.

(١٦) - ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: التي حَلَفوا بها.

وقُرِئَ بالكسرِ[2]؛ أي: إيمانَهُم الذي أظهروهُ.

﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دونَ دِمائِهم وأموالِهم.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصَدُّوا النَّاسَ في خلالِ أَمنِهم عن دينِ اللهِ بالتَّحريشِ والتَّثبيطِ.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوَصفٍ آخرَ لعَذابِهم.

وقيل: الأوَّلُ عَذابُ القَبرِ، وهذا عذابُ الآخرةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١٦٠) عن السدي ومقاتل.

وروى نحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٢١٤٧) (٢٤٠٧) (٣٢٧٧)، والبزار في «مسنده» (٥٠١٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٣٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٢): رواه أحمد والبزار، ورجال الجميع رجال الصحيح.

ولفظ الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل حجرته فقال لأصحابه: «يجيئكم رجل ينظر إليكم بعين شيطان، فإذا رأيتموه فلا تكلموه»، فجاء رجل أزرق، فلمَّا رآه النبي ﷺ دعاه، فقال: «علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟» قال: كما أنت حتى آتيك بهم، قال: فذهب، فجاء بهم، فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا وما فعلوا. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أي: (إيمانَهم) وهي عن الحسن، انظر: «المحتسب» (٢/ ٣١٥).

(١٧) ـ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قد سبقَ مِثلُه.

(١٨) ـ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: للهِ على أنَّهُم مُسلمونَ ويقولونَ[١] ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدُّنيا: إنَّهُم لمِنكُم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[٢] لأنَّ تمكُّنَ النِّفاقِ[٣] في نُفوسِهِم بحيثُ يُخيِّلُ إليهم في الآخرةِ أنَّ الأيمانَ الكاذبةَ تُروِّجُ الكذبَ على اللهِ كما تَروجُهُ عليكُم في الدُّنيا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالِغونَ الغايةَ في الكذبِ حيثُ يكذبونَ مع عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ ويحلفونَ عليه.

(١٩) ـ ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استَوْلى عليهم، من حُذْتُ الإبلَ وحُزْتُها: إذا استوليتَ عليها وجمعتَها، وهو ممَّا جاءَ على الأصلِ.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ لا يذكرونَه بقُلوبِهم ولا بألسِنَتِهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنودُه وأتباعُه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنَّهُم فوَّتُوا على أنفُسِهم النَّعيمَ المُؤبَّدَ وعرَّضوها للعذابِ المُخلَّدِ.

(٢٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جملةِ مَن هو أذَلُّ خلقِ اللهِ تعالى.

(٢١) ـ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللَّوحِ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي: بالحُجَّةِ.

---

(١) «ويقولون»: ليست في نسخة الفاروقي.

(٢) في نسخة الفاروقي زيادة: «في حلفهم الكاذب».

(٣) في نسخة الخيالي: «الكذب والنفاق».

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿ورسليَ﴾ بفتحِ الياءِ[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نصرِ أنبيائِه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَبُ عليه في مرادِه.

(٢٢) - ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لا يَنبَغي أن تَجِدَهُم وادِّين أعداءَ اللهِ، والمراد: أنه لا يَنبَغِي أَنْ يوادُّوهُم.

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كانَ المُحادُّونَ أقربَ النَّاسِ إليهِم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي: الذينَ لَمْ يُوادُّوهُم ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أثبتَه فيها، وهو دليلٌ على خروجِ العَملِ مِن مَفهومِ الإيمانِ، فإنَّ جُزءَ الثَّابتِ[(٢)] في القلبِ يكونُ ثابتًا فيه، وأعمالُ الجوارحِ لا تثبُتُ فيه.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن عندِ اللهِ، وهو نورُ القلبِ، أو القرآنُ، أو النَّصرُ على العدوِّ. وقيل: الضَّميرُ لـ﴿ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ فإنَّه سببٌ لحياةِ القلبِ.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعَتِهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بقضائِه، أو بما وعدَهُم مِن الثَّوابِ.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ جندُه وأنصارُ دينِه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزونَ بخيرِ الدَّارينِ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ المجادلةِ كُتِبَ مِن حزبِ اللهِ يومَ القيامةِ»[(٣)].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(٢) في نسخة الفاروقي: «فإن ما كتب».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١١٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٥٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٥٨) سورة المجادلة مدنية
وآياتها اثنتان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ إلى آخر الآية(١). وفي رواية عنها أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام (خولة بنت ثعلبة) ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرتْ سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾، قالت: وزوجها أوس بن الصامت(٢). وروى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد قال: «لقيتْ امرأةٌ عمر يقال لها (خولة بنت ثعلبة) وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ووضع يديه على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز، قال: ويحك وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضى حاجتها»(٣). وعن عامر قال: المرأة التي جادلت في زوجها خولة امرأة (أوس بن الصامت) وأمها معاذة.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، ورواه النسائي وابن ماجة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وهو منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب كما قاله ابن كثير.

مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

روى الإمام أحمد، عن خولة بنت ثعلبة، قالت: فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنتِ عليّ كظهر أمي؛ قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت، قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعت بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت، حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً»، ثم قرأ عليّ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ إلى قوله تعالى ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ قالت، فقال رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة»، قالت، فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين»، قالت، فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر»، قالت، فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت، فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بفرق من تمر»، قالت، فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بفرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً». قالت: ففعلت[1]. هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة؛ قال ابن عباس: أول من ظاهر من امرأته (أوس بن الصامت) أخو عبادة بن الصامت وامرأته (خولة بنت ثعلبة بن مالك) فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أوساً ظاهر مني، وإنا إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ إلى قوله تعالى ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها، قال، فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله[2].

وقوله تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (٢) رواه ابن جرير، قال ابن كثير: وإلى ما ذكرناه ذهب ابن عباس والأكثرون.

الأَمَّة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف، وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية فوقّت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة[١]، وقوله تعالى: ﴿ما هن أُمّهاتهم إن أُمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت عليّ كأُمّي، أو مثل أُمي، أو كظهر أُمي وما أشبه ذلك، لا تصير أُمه بذلك إنما أمه التي ولدته، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً، ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم، كما روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أُختي، فقال: «أختك هي؟»[٢] فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأُم وبين غيرها من سائر المحارم من أُخت وعمَّة وخالة وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم، وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، وقال أحمد ابن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك وعنه أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، وعن سعيد بن جبير ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم. وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفّر. وقال ابن عباس: ﴿من قبل أن يتماسا﴾ والمس النكاح[٣]. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر، وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة، عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عزَّ وجلَّ»[٤].

وقوله تعالى: ﴿فتحرير رقبة﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان. فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيّد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، وقوله تعالى: ﴿ذلكم توعظون به﴾ أي تزجرون به، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي خبير بما يصلحكم ﴿عليم﴾ بأحوالكم، وقوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان ﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي شرعنا هذا لهذا، وقوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها. وقوله تعالى ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان.
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم، ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله. والانقياد له والخضوع لديه، ثم قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر، ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى. ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا، فقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة﴾ أي من سر ثلاثة ﴿إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾، أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾، وقال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم. بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾، ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم. فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم قال تعالى: ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم، ﴿والعدوان﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يصرون عليها ويتواصون بها، وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾. عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»، قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوسمعتِ ما أقول وعليكم؟»، فأنزل الله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾[2]. وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا». وروى ابن جرير. عن أنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ أتى عليهم يهودي، فسلم عليهم فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟» قالوا: سلم يا رسول الله، قال: «بل قال: سام عليكم» أي تسامون دينكم، قال رسول الله ﷺ: «ردوه»، فردوه عليه، فقال نبي الله ﷺ: «أقلت سام عليكم؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك»[3]، أي عليك ما قلت.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ أي يفعلون هذا ويقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك الله أن يعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يصلونها فبئس المصير﴾، عن عبدالله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك. ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول * حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾[4]. وقال ابن عباس: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك، قال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾، ثم قال الله تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين، ﴿وتناجوا بالبر والتقوى

(١) روي هذا عن مجاهد ومقاتل بن حيان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أصله في الصحيحين، وهذا الحديث روي عن عائشة في الصحيح بنحوه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها، روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»[1]. ثم قال تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً، ﴿من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك ﴿بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ ومن أحسّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله، وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما روى ابن مسعود، قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[2]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجلس: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»، قال قتادة نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض، وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان وأنت يا فلان» فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قَبِلَ عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيّهم، فأقامهم، وأجلس من أبطأ عنه، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً يفسح لأخيه»، فجعلوا يقومون بعد ذلك

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود.

سراعاً فيفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة[١]. وقد ورد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا»[٢]. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»[٣]. **وقد اختلف الفقهاء** في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم»، ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»، ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم، فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك.

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس؛ فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق رضي الله عنه يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره؛ وبين يديه غالباً عثمان وعليّ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهما بذلك؛ كما روى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٤]، وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه، وفي الحديث الصحيح: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها، وأما الآخر فجلس وراء الناس، وأدبر الثالث ذاهباً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة؟ أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض، فأعرض الله عنه». وروى الإمام أحمد، عن عبدالله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»[٥]. وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري في قوله تعالى: ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ يعني في مجالس الحرب، قالوا: ومعنى قوله: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي انهضوا للقتال، وقال قتادة: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها، وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه أن ذلك يكون نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره، ولهذا قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾، أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه، روى الإمام أحمد. عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[1]. وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في «شرح كتاب العلم» من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره، ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها، ثم قال تعالى: ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول. ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال مجاهد: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة، وقال علي رضي الله عنه: آية في كتاب الله عزّ وجلّ لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فنسخت، ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾[2] الآية. وقال ابن عباس ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾، وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيّه عليه السلام، فلما قال ذلك جبن كثير من المسلمين، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق؛ وقال قتادة ومقاتل: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، ففطمهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها، حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم من غير وجه عن الزهريّ. (٢) هذه رواية ليث بن أبي سليم عن مجاهد.

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ
حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾. وقال ههنا: ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن، ثم قال تعالى: ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود، ثم قال تعالى: ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى: ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾، أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة، ثم قال تعالى: ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾، أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم: ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً، ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي يحلفون بالله عزّ وجلّ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي حلفهم ذلك لربهم عزّ وجلّ، ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب، روى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، أن ابن عباس حدَّثه أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه»، فجاء

رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان» نفر دعاهم بأسمائهم قال، فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عزّ وجلّ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[2]. قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة، ثم قال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، ثم قال تعالى: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي في الأشقياء المبعدين الأذلين في الدنيا والآخرة، ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له ولكُتُبه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، ﴿وأن العاقبة للمتقين﴾، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، وقال ههنا: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أنزلت هذه الآية ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخرها، في (أبي عبيدة بن الجراح) حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، وقيل: في قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه أحمد وابن جرير.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً.

﴿أو أبناءهم﴾ في الصديق، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد ابن عمير يومئذ، ﴿أو عشيرتهم﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله، ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي كتب له السعادة وقررها في قلبه، وزين الإيمان في بصيرته، قال السدي: ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ جعل في قلوبهم الإيمان، وقال ابن عباس ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي قواهم، وقوله تعالى: ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.

وفي قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته، وقوله تعالى ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة. وفي الحديث: «إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يدعوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة»، فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[1]، وقال الحسن، قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيته إليّ: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾»[2].

[آخر تفسير سورة المجادلة، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أبو أحمد العسكري.

تفسير سورة المجادلة

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وَسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية [(١)] .

وهكذا رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقاً فقال : وقال الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، فذكره [(٢)] . وأخرجه النسائى ، وابن ماجة ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من غير وجه ، عن الأعمش ، به [(٣)] .

وفى رواية لابن أبى حاتم عن الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكَلَ شبابى ، ونَثَرَتْ [(٤)] له بطنى ، حتى إذا كَبُرَت سِنِّى ، وانقطع ولدى ، ظَاهَر منِّى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ . وقال [(٥)] : وزوجها أوس بن الصامت .

وقال ابن لَهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة : هو أوس بن الصامت ــ وكان أوس امرأ به لمم، فكان إذا أخذه لممه [(٦)] واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

وهكذا روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن رجلاً كان به لممٌ ، فذكر مثله .

---

(١) المسند (٦/٤٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٨٥) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٨) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٥) .

(٤) فى أ : « وبرت » .

(٥) فى م : « وقالت » .

(٦) فى م : « أخذه لمم » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة ، حدثنا جرير ـ يعنى ابن حازم ـ قال : سمعت أبا يزيد يحدث قال : لقيت امرأة عُمَرَ ـ يقال لها : خولة بنت ثعلبة ـ وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟! قال : ويحك ! وتدرى من هذه ؟ قال : لا . قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها ، ثم أرجع إليها حتى تقضى حاجتها (١) .

هذا منقطع بين أبى يزيد وعمر بن الخطاب . وقد روى من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا المنذر بن شاذان(٢) ، حدثنا يعلى ، حدثنا زكريا عن عامر قال: المرأة التى جادلت فى زوجها خولة بنت الصامت ، وأمها معاذة التى أنزل الله فيها : ﴿**وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾ [النور:٣٣] .

صوابه : خولة امرأة أوس بن الصامت .

﴿ **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا سعد (٣) بن إبراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى مَعْمَر بن عبد الله بن حنظلة ، عن ابن عبد الله بن سلام ، عن خويلة (٤) بنت ثعلبة قالت : فىَّ ـ والله ـ وفى أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىَّ يوماً فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىَّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل علىَّ فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا ، والذى نفس خويلة (٥) بيده ، لا تخلص إلىَّ وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخَ الضعيف ، فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجتُ إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيتُ منه ، وجعلت أشكو إليه ما

(١) ورواه الدارمى فى الرد على الجهمية (ص٢٦) من طريق أبى يزيد ، عن عمر بن الخطاب به . قال الذهبى فى العلو (ص١١٣) : «هذا إسناد صالح فيه انقطاع ، أبو يزيد لم يلحق عمر » .

(٢) فى أ : « حدثنا الوليد بن المنذر به شاذان » . (٣) فى أ: «سعيد » . (٤ ، ٥) فى أ : « خولة» .

ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ياخويلة [١]، ابنُ عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سُرِّيَ عنه ، فقال لى : « يا خويلة [٢] ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك » . ثم قرأ عليَّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « مُريه فليعتق رقبة» . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وَسْقًا من تَمر» . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بعَرَق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعَرَق آخر ، قال : « فقد أصبت وأحسَنْت ، فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت .

ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين ، عن محمد بن إسحاق بن يسار، به [٣]. وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خُوَيلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سَلَمة بن صَخْر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله فى هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سُلَيمان ابن يَسَار ، عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنتُ امرأ قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فَرَقاً من أن أصيب فى ليلتى شيئاً فأتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع ، فبينا هى تخدمنى من الليل إذ تكشف لى منها شىء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحتُ غدوتُ على [٤] قومى فأخبرتهم خبرى وقلت : انطلقوا معى إلى النبى [٥] ﷺ فأخبره بأمرى. فقالوا :لا، والله لا نفعل ؛ نتخوف أن ينزل فينا [٦] ـ أو يقول فينا رسول الله ﷺ ـ مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال: فخرجتُ حتى أتيتُ النبى ﷺ ، فأخبرته خبرى. فقال لى : « أنت بذاك ». فقلت : أنا بذاك. فقال: « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض فيَّ حكم الله تعالى [٧] ، فإنى صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتى [٨] بيدى وقلت: لا ، والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال : « فصم شهرين » .قلت : يا رسول الله ، وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذى بعثك بالحق ،

(١ ، ٢) فى أ : « يا خولة » .
(٣) المسند (٦/ ٤١٠) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٤، ٢٢١٥) .
(٤) فى م : « إلى » . (٥) فى م : « رسول الله » . (٦) فى أ : « فينا شىء » .
(٧) فى م ، أ : « عز وجل » . (٨) فى م : « عنقى » .

لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى مالنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زُريق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال: فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعَة والبركة ، قد أمر لى بصدقتكم ، فادفعوها إلىَّ . فدفعوها إلىَّ .

وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجة ، واختصره الترمذى وحَسَّنه (١) .

وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُوَيلة بنت ثعلبة ، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

قال خَصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك ، فلما ظاهر منها خَشِيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً ظاهر منى ، وإنا إن افترقنا هلكنا، وقد نَثَرتُ بطنى منه ، وقَدمتْ صُحْبَتُه . وهى تشكو ذلك وتبكى ، ولم يكن جاء فى ذلك شىء . فأنزل الله : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ** ﴾ إلى قوله : ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ فدعاه رسولُ الله ﷺ فقال : « أتقدر على رقبة تعتقها ؟ » . قال : لا ، والله يا رسول الله ما أقدر عليها ؟ قال : فجمع له رسول الله ﷺ ، حتى أعتق عنه ، ثم راجع أهله رواه ابن جرير (٢) .

ولهذا ذهب ابنُ عباس والأكثرون إلى ما قلناه ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم** ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت عَلَيَّ كَظَهْرِ أمى ، ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت علىَّ كظهر أمى ، حُرِّمت عليه، فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها : « خويلة بنت ثعلبة (٣) » . فظاهر منها ، فأسقط فى يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حَرُمت على . وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقى إلى رسول الله ﷺ . فأتت رسول الله فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فقال : « يا خويلة ، ما أمرنا فى أمرك بشىء (٤) » . فأنزل الله على رسوله ﷺ ، فقال : « يا خويلة ، أبشرى» قالت : خيراً . فقرأ عليها : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن**

---

(١) المسند (٤/٣٧) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٦٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٩) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٨/٦) .

(٣) فى أ : « بنت خويلد » وهو خطأ .

(٤) فى م : « ما أمرنا فيك بشىء » .

يتماسَّا ﴾ . قالت : وأى رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيرى . قال : ﴿ **فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ** ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره ! قال : ﴿ **فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾ . قالت : من أين ؟ ما هى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فدعا بشطر وَسْق ـ ثلاثين صاعاً ، والوسق : ستون صاعاً ـ فقال : « ليطعم ستين مسكينا وليراجعك » (١) ، وهذا إسناد جيد قوى ، وسياق غريب ، وقد روى عن أبى العالية نحو هذا ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا على بن عاصم ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية قال : كانت خولة بنت دُلَيج تحت رجل من الأنصار ، وكان ضرير البصر فقيراً سيئ الخلق ، وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته ، قال : « أنت علىَّ كظهر أمى » . وكان لها منه عَيِّل أو عَيِّلان ، فنازعته يوماً فى شىء فقال : « أنت علىَّ كظهر أمى » . فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبى ﷺ ، وهو فى بيت عائشة ، وعائشة تغسل شق رأسه ، فقدمت عليه ومعها عَيّلها ، فقالت : يا رسول الله ، إن زوجى ضرير البصر ، فقير لا شىء له سيئ الخُلُق ، وإنى نازعته فى شىء فغضب ، فقال : « أنت علىَّ كظهر أمى » ، ولم يرد به الطلاق ، ولى منه عَيّل أو عَيلان ، فقال : « ما أعلمك إلا قد حَرُمت عليه » . فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأبا صبيىٍّ. قال : ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر ، فدارت معها ، فقالت : يا رسول الله ، زوجى ضرير البصر ، فقير سيئ الخلق ، وإن لى منه عَيِّلاً أو عيلين ، وإنى نازعته فى شىء فغضب ، وقال: «أنت علىَّ كظهر أمى» ، ولم يرد به الطلاق ! قالت : فرفع إلى رأسه وقال : « ما أعلمك إلا قد حرمت عليه ». فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأبا صبيىٍّ ؟ قال : ورأت عائشة وجه النبى ﷺ تَغَيَّر ، فقالت لها : « وراءك وراءك ؟ » فتنحت ، فمكث رسول الله ﷺ فى غشيانه ذلك ما شاء الله، فلما انقطع الوحى قال : « يا عائشة ، أين المرأة » فدعتها ، فقال لها رسول الله ﷺ : «اذهبى فأتنى بزوجك » . فانطلقت تسعى فجاءت به . فإذا هو ـ [كما قالت](٢) ـ ضرير البصر ، فقير سيئ الخلق . فقال النبى ﷺ : « أستعيذ بالله السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا [وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ]** (٣) ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا [فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ]** (٤) ﴾ . قال النبى ﷺ : « أتجد رقبة تعتقها من قبل أن تمسها ؟ » . قال : لا . قال : « أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ » . قال : والذى بعثك بالحق، إنى إذا لم آكل المرتين والثلاث يكاد أن يعشو بصرى . وقال : « أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ » . قال : لا ، إلا [أن] (٥) تعيننى . قال : فأعانه رسول الله ﷺ فقال : « أطعم ستين مسكيناً » . قال :

(١) تفسير الطبرى (٢٨/٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٠٧٦) « كشف الأستار » من طريق عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة به وقال : « لا نعلمه بهذا اللفظ فى الظهار عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد ، وأبو حمزة لين الحديث ، وقد خالف فى روايته ومتن حديثه الثقات فى أمر الظهار ؛ لأن الزهرى رواه عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، وهذا إسناد لا نعلم بين علماء أهل الحديث اختلافاً فى صحته ، وأنه ﷺ دعا بإناء فيه خمسة عشر صاعاً ، وحديث أبى حمزة منكر ، وفيه لفظ يدل على خلاف الكتاب ؛ لأنه قال :« وليراجعك ، وقد كانت امرأته ، فما معنى مراجعته امرأته ولم يطلقها ، وهذا مما لا يجوز على رسول الله ﷺ، وإنما أتى هذا من رواية أبى حمزة الثمالى » .

(٢، ٣) زيادة من م . (٤) زيادة من أ . (٥) زيادة من م .

وحَوّل الله الطلاق ، فجعله ظهاراً .

ورواه ابن جرير ، عن ابن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، سمعت أبا العالية ، فذكره نحوه ، بأخصر من هذا السياق [١] .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر ، وجعل فى الظهار الكفارة . رواه ابن أبى حاتم ، بنحوه .

وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله : ﴿ **مِنكُم** ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿ **مِن نِّسَائِهِم** ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ، ولا تدخل فى هذا الخطاب .

وقوله : ﴿ **مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ** ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : «أنت علىَّ كأمى » أو « مثل أمى » أو « كظهر أمى » [٢] ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التى ولدته ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا** ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما رواه أبو داود : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أختى . فقال : « أختك هى ؟ » ، فهذا إنكار [٣] ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك؛ لأنه لم يقصده ، ولو قصده لحرمت عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا** ﴾ : اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله : ﴿ **ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا** ﴾ ، فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم [٤] . وقول داود ، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بُكَيْر ابن الأشج والفراء ، وفرقة من أهل الكلام .

وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق .

وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة .

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك [٥] ، وعنه أنه الجماع .

وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر [٦] الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣) .

(٢) فى م : « كظهر أمى أو كأمى أو مثل أمى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٢١٠) من حديث أبى تميمة الهجيمى ، رضى الله عنه .

(٤) فى هـ ، أ : « ابن جرير » والمثبت من م . مستفاداً من هامش ط ـ الشعب .

(٥) فى م : « أو الإمساك » .

(٦) فى م : « ظاهر » .

وقال ابن لَهِيعة : حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جبير : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان .

وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر .

وقد رَوَىَ أهل السنن من حديث عكرمة ، عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال: رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل » [١] .

وقال الترمذى : حسن غريب صحيح [٢] . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلاً . قال النسائى : وهو أولى بالصواب [٣] .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى ، رحمه الله ، ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد [٤] فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه [٥] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف [٦] بن موسى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إنى تظاهرت [٧] من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر . فقال رسول الله ﷺ : « ألم يقل الله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ . قال : أعجبتنى ؟ قال : « أمسك حتى تكفر » [٨] .

ثم قال البزار : لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا ، وإسماعيل بن مسلم تكلم فيه ، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم . وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢٢٣) والترمذى فى السنن برقم (١١٩٩٠) والنسائى فى السنن (٦/ ١٦٧) وابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٦٥) .

(٢) فى م : « حسن صحيح غريب » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٢٢١، ٢٢٢٢) وسنن النسائى (٦/ ١٦٨) .

(٤) فى م : « واعتمد » .

(٥) الموطأ (٢/ ٧٧٧) والمسند (٥/ ٤٤٧) وصحيح مسلم برقم (٥٣٧) .

(٦) فى أ : « حدثنا يونس » . (٧) فى م : « إنى ظاهرت » .

(٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٠٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٣٨٦) من طريق إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار به نحوه ، وقال الذهبى : « فيه إسماعيل بن مسلم وهو واهٍ » .

وقوله : ﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أى : تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى : خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ : وقد تقدمت الأحاديث الواردة [١] بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان .

﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها .

وقوله : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم [٢] بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى: لا يغيب عنه شىء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ

---

(١) فى م : « الآمرة » . (٢) فى أ : « فيجزيهم » .

ثَلاثَةٍ ﴾ أى: من سر ثلاثة ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أى : يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم ، كما قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] . وقال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى (١) ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾ .

قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد [فى قوله] (٢) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ﴾ قال : اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبى ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ـ أو : بما يكره المؤمن ـ فإذا رأى المؤمن ذلك خَشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبى ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنى سفيان بن حمزة ، عن كثير بن زيد ، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى ، عن أبيه ، عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ، نبيت عنده ؛ يطرُقه من الليل أمر (٣) ، وتبدو له حاجة . فلما كانت ذات ليلة كَثُر أهل النّوب والمحتسبون ، حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا النجوى ؟ ألم تُنْهَوا عن النجوى ؟ » . قلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيح،

---

(١) فى م : « علمه تعالى » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى م : « أمراً » وهو خطأ .

فَرَقا منه . فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى منه ؟ » . قلنا : بلى يا رسول الله . قال: « الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء (١) .

وقوله : ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصِرون عليها ويتواصون بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ : قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن نمير ، عن الأعمش ، [عن مسلم] (٢) عن مسروق ، عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام [واللعنة] (٣) . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت : ألا تسمعهم يقولون: السام عليك ؟ فقال رسول الله:« أو ما سمعت أقول(٤):وعليكم؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٥) .

وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة. وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا » (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلَّم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبى الله ﷺ : « هل تدرون ما قال ؟ » . قالوا : سلم يا رسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبى الله : «أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت (٧) .

وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة ، بنحوه (٨) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٣٠) وابن ماجة فى السنن برقم (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد به نحوه، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٩٦) : « هذا إسناد حسن ، كثير بن زيد وربيع بن عبد الرحمن مختلف فيهما » .

(٢) زيادة من المسند (٦/ ٢٢٩) .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « ما أقول » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٦٥) من طريق يعلى بن عبيد ، عن الأعمش به نحوه .

(٦) انظر :صحيح البخارى برقم (٦٠٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٦٦) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

(٧) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١) .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢١٦٣) .

يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى: جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم: ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه (١) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله إذا حيّوه : « سام عليك » ، قال الله: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

ثم قال الله مُؤدّباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى: فيخبركم (٢) بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْزٌ وعفان قالا : أخبرنا همام ، حدثنا قتادة ، عن صفوان بن مُحْرِز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قَرّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار (٣) والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث قتادة (٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما النجوى ــ وهى المُسَارّة ــ حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله ، فإنه لا يضره شىء بإذن الله .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذٍ على مؤمن،كما قال الإمام أحمد :

---

(١) المسند (٢/ ١٧٠) .

(٢) فى أ : « فيجزيكم » . (٣) فى م : « الكافرون » .

(٤) المسند (٢/ ٧٤) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨) .

حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا : حدثنا الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَيَنَّ اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجاه من حديث الأعمش (١) .

وقال عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه » . انفرد بإخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل ، كلاهما عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، به (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ ﴾ ، وقرئ : ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ ، ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من بَنَى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » (٣) وفى الحديث الآخر : « ومن يَسَّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، [ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة] (٤) والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (٥) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس (٦) الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم جُمُعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . فرد النبى ﷺ ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبى ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يُفسَح لهم ، فشق ذلك على النبى ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ، من غير أهل بدر : « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » . فلم يزل

---

(١) المسند (١/ ٤٣١) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٤) ولم أقع عليه عند البخارى عن الأعمش ، وإنما هو عنده عن منصور ، عن أبى وائل برقم (٦٢٩٠) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٣) .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٣٣) من حديث عثمان ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من صحيح مسلم (٢٦٩٩) .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) فى م : « فى مجلس » .

يقيمهم بعدة [١] النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبى ﷺ الكراهة فى وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبلُ عدلَ على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً فَسَح [٢] لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً ، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم ، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . رواه ابن أبى حاتم .

وقد قال الإمام أحمد ، والشافعى : حدثنا سفيان ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا » .

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث نافع ، به [٣] .

وقال الشافعى : أخبرنا عبد المجيد ، عن ابن جريج قال : قال سليمان بن موسى ، عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيمن أحدُكم أخاه يوم الجمعة ،ولكن ليقل : افسحوا » . على شرط السنن ولم يخرجوه [٤].

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا فُلَيْح ، عن أيوب بن عبد الرحمن بن [أبى] [٥] صَعْصَعَة ، عن يعقوب بن أبى يعقوب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم » [٦] .

ورواه أيضاً عن سُرَيج [٧] بن يونس ، ويونس بن محمد المؤدب ، عن فُلَيْح ، به . ولفظه : «لا يقوم الرجلُ للرجل من مجلسه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم » تفرد به أحمد [٨] .

وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص فى ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » [٩] . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أَحَبَّ أن يَتَمثَّلَ له الرجال قياماً ، فَلْيَتبوأْ مَقْعَدَه من النار » [١٠] ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ،وللحاكم فى محل ولايته،كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبى ﷺ حاكماً

---

(١) فى أ : « بعدد » . (٢) فى م ، أ : « يفسح » .

(٣) لم يقع هذا الحديث لى فى مسند أحمد هكذا ، وإنما هو فيه (٢/٢٢) : عن ابن نمير ،عن عبيد الله بن عمر، عن نافع ، عن ابن عمر، (٢/٤٥) عن غندر ، عن شعبة ، عن أيوب بن موسى ، عن نافع ، عن ابن عمر. وهو فى صحيح البخارى برقم (٦٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٧) .

(٤) مسند الشافعى برقم (٤٥٤) « بدائع المنن » .

(٥) زيادة من المسند (٢/٥٢٣) .

(٦) المسند (٢/٥٢٣) .

(٧) فى م ، أ : « شريح » .

(٨) المسند (٢/٣٣٨) .

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٢٢٩) والترمذى فى السنن برقم (٢٧٥٥) من حديث معاوية رضى الله عنه ، وقال الترمذى : «إسناد حسن » .

فى بنى قريظه فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته (١) لذلك (٢) (٣) .

وفى الحديث المروى فى السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة ، رضى الله عنهم ، يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى ؛ لأنهما كانا ممن يكتب (٤) الوحى ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن أبى مَعْمَر ، عن أبى مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لِيَلِينِى منكم أولو الأحلام والنُّهَى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٥) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا أمر أولئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر ، إما لتقصير أولئك فى حق البدريين ، أو ليأخذ البدريون من العلم بنصيبهم ، كما أخذ أولئك قبلهم ، أو تعليماً بتقديم الأفاضل إلى الأمام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن الأعمش ، عن عُمَارة بن عمير (٦) التيمى (٧) ، عن أبى معمر ، عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلينى منكم أولو الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود (٨) : فأنتم اليوم أشد اختلافاً .

وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذى ، من طرق عن الأعمش ، به (٩) .

وإذا كان هذا أمره لهم فى الصلاة أن يليه العقلاء (١٠) ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك فى غير الصلاة .

وروى أبو داود من حديث معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن كثير بن مرة ، عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « أقيموا الصفوف ، وحَاذُوا بين المناكب، وسُدُّوا الخلل ، ولِينُوا بأيدى إخوانكم، ولا تَذَروا فرجات الشيطان، ومن وَصَل صَفًّا وصله الله، ومن قطع صفًّا قطعه الله » (١١) .

(١) فى م : « من كراهيته » .
(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٧٥٤) من حديث أنس ، رضى الله عنه .
(٣) وللإمام النووى ـ رحمه الله ـ رسالة سماها : « الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمزية من أهل الإسلام» أطنب فى الكلام على هذه المسألة ، وهى مطبوعة بدار الفكر بدمشق .
(٤) فى م : « يكتبان » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٤٣٢) .
(٦) فى أ : « بكير » . (٧) فى م ، أ : « الليثى » . (٨) فى أ : « سعيد » .
(٩) المسند (٤/ ١٢٢) وصحيح مسلم برقم (٤٣٢) وسنن أبى داود برقم (٦٧٤) وسنن النسائى (٢/ ٨٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٧٦) .
(١٠) فى أ : « الفضلاء » .
(١١) سنن أبى داود برقم (٦٦٦) .

ولهذا كان أبى بن كعب ــ سيد القراء ــ إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء (١) الناس ، ويدخل هو فى الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس فى المكان الذى يقوم له صاحبه عنه ، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أوردناه . ولنقتصر على هذا المقدار (٢) من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج (٣) إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ، أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه» (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عتَّاب بن زياد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا أسامة بن زيد ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث أسامة بن زيد الليثى ، به (٥) . وحسنه الترمذى .

وقد رُوى عن ابن عباس ، والحسن البصرى وغيرهما أنهم قالوا (٦) فى قوله تعالى : ﴿ **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَلِسِ** (٧) **فَافْسَحُوا** ﴾ ، يعنى : فى مجالس الحرب ، قالوا : ومعنى قوله : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا** ﴾ أى : انهضوا للقتال .

وقال قتادة : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا** ﴾ أى : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل [ابن حيان] (٨) : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبى ﷺ فى بيته فأرادوا الانصراف أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده ، فربما يشق (٩) ذلك عليه ــ عليه السلام ــ وقد تكون له (١٠) الحاجة ، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله : ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا**(١١) **فَارْجِعُوا** ﴾ [النور:٢٨] .

وقوله : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية (١٢) عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره ، ونَشَر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ**

---

(١) فى م ، أ : « أفناد » . (٢) فى م : « القدر » . (٣) فى م : « محتاج » .
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٦) .
(٥) المسند (٢/٢١٣) وسنن أبى داود برقم (٤٨٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٧٥٢) .
(٦) فى م ، أ : « أنهما قالا » . (٧) فى أ : « المجالس » . (٨) زيادة من م .
(٩) فى م : « شق » . (١٠) فى م : « لهم » . (١١) فى م : « وإذا قيل ارجعوا » وهو خطأ .
(١٢) فى م : « ورتبة » ، وفى أ : « ومنزلة » .

آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبى الطفيل عامر ابن وائلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . قال : وما ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر [بن الخطاب] [١] : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر ، رضى الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » [٢] .

وهكذا رواه مسلم من غير وجه ، عن الزهرى ، به [٣]. وَرُوِى من غير وجه عن عمر بنحوه[٤]. وقد ذكرت [٥] فضل العلم وأهله وما ورد فى ذلك من الأحاديث مستقصاة فى شرح « كتاب العلم » من صحيح البخارى ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : **﴿ذَلِكَ [٦] خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾** .

ثم قال : **﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾** أى : إلا من عجز عن ذلك لفقده **﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : **﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾** أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ، **﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا**

---

(١) زيادة من م .

(٢) المسند (١/ ٣٥) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٨١٧) .

(٤) جاء من طريق حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن بن مسلم : أن عمر استعمل ابن عبد الحارث على مكة ، فذكر نحوه ، أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/ ١٨٥) وفيه انقطاع. وأيضاً من طريق الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت : أن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : خرجت مع عمر ، فاستقبلنا أمير مكة ـ نافع بن علقمة ـ فذكر نحو الحديث المتقدم ، أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/ ١٨٦) .

(٥) فى م : « ذكرنا » .

(٦) فى أ : « ذلكم » وهو خطأ .

الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم .

وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

قال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبى ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا على بن أبى طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبى ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، قال على ، رضى الله عنه : آية فى كتاب الله ، عز وجل، لم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان عندى دينار فصرفته بعشر دراهم ، فكنت إذا ناجيت [١] رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، ثم تلا هذه الآية :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن على بن علقمة الأنمارى ، عن على [بن أبى طالب] [٢] ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ﷺ :« ما ترى ، دينار ؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « نصف دينار ؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « ما ترى ؟ » . قال : شَعِيرة ، فقال له النبى ﷺ : « إنك زهيد [٣] » . قال : قال على : فبى خَفَّف الله عن هذه الأمة ، وقوله : ﴿ **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا]** [٤] **إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ ، فنزلت : ﴿ **أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ** ﴾ [٥] .

ورواه الترمذى عن سفيان بن وكَيع ، عن يحيى بن آدم ، عن عبيد الله الأشجعى ، عن سفيان الثورى ، عن عثمان بن المغيرة الثقفى ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن على بن علقمة الأنمارى ، عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ [إلى آخرها] [٦] ، قال [٧] لى النبى ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قلت[٨] : لا يطيقونه. وذكره بتمامه ، مثله ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ». ثم قال : ومعنى قوله : « شعيرة » : يعنى وزن شعيرة من ذهب [٩] .

ورواه أبو يعلى ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يحيى بن آدم ، به [١٠] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ إلى ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما

---

(١) فى أ : « جئت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى م ، أ: « إنك لزهيد » .
(٤) زيادة من م .
(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ١٥) وعلى بن علقمة فيه ضعف . قال البخارى : فى حديثه نظر .
(٦) زيادة من م . (٧) فى م : « فقال » . (٨) فى م : « قال » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٠) .
(١٠) مسند أبى يعلى (١/ ٣٢٢) .

نزلت الزكاة نسخ هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، عليه السلام . فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا : ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَة (١) فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق .

وقال عكرمة والحسن البصرى فى قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ : نسختها الآية التى بعدها : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً (٢) ﴾ إلى آخرها .

وقال سعيد [بن أبى عروبة] (٣) ، عن قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبى الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال معْمَر ، عن قتادة : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ : إنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار . وهكذا روى عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن مجاهد قال على : ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت وأحسبه قال : وما كانت إلا ساعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [النساء:١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعنى :

(١ ، ٢) فى أ : « صدقات » . (٣) زيادة من م ، أ .

اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود .

ثم قال : ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعنى : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياذاً بالله منه (١) ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا بالله [له](٢) أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى :فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة .

ثم قال : ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً (٣) إذا جاءهم ، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ثم قال :﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى : يحلفون بالله (٤) ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم (٥) : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا زهير ، عن (٦) سَماك بن حرب ، حدثنى سعيد بن جُبَير ؛ أن ابن عباس حدثه : أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حُجَره ، وعنده نفر من المسلمين قد كان يَقلصُ عنهم الظل ، قال :« إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال ؛ « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟ » ـ نفر دعاهم بأسمائهم ـ قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال : فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

---

(١) فى م : « عياذاً بالله من ذلك » . (٢) زيادة من م . (٣) فى م : « بأس الله » .
(٤) فى م : « لله » . (٥) فى م ، أ : « حسابهم » . (٦) فى م : « حدثنا » .

وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين ، عن سماك ، به [١]. ورواه ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن سماك ، به نحوه [٢] ، وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثورى، عن سماك ، بنحوه . إسناد جيد ولم يخرجوه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٣، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطانُ حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ؛ ولهذا قال أبو داود :

حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زائدة ، حدثنا السائب بن حُبَيش ، عن مَعْدان بن أبى طلحة اليَعْمُرى ، عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بَدْو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة [٣] .

ثم قال تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين[٤] لله ورسوله ، يعنى : الذى هم فى حَدٍّ والشرع فى حَدٍّ ، أى : مجانبون للحق مشاقون له ، هم فى ناحية والهدى فى ناحية ، ﴿ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلين فى الدنيا والآخرة .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أى: قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقَدَره الذى لا يُخالَف ولا يُمانع ، ولا يبدل ، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة

---

(١) المسند (١/ ٢٤٠) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٨/١٧) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥٤٧) .

(٤) فى أ : « المحاربين » .

للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] . وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أى: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين ، كما قال تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤] .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة ، رضى الله عنهم : « ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » .

وقيل فى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾: نزلت فى أبى عبيدة ،قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ : فى(١) الصديق ، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ : فى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ : فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل (٢) تمكنى من فلان ــ قريب لعمر ــ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست (٣) فى قلوبنا هوادة للمشركين . . . القصة بكاملها .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى : كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته .

(١) فى م : « وفى » . (٢) فى م : « بل » . (٣) فى م : « ليس » .

وقال السدى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان .

وقال ابن عباس : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : قواهم .

وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة .

وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عَوّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ،والفضل العميم .

وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى: هؤلاء حزبُ الله ، أى : عباد الله [(١)] وأهل كرامته .

وقوله : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم[(٢)] فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا هارون بن حميد الواسطى ، حدثنا الفضل بن عَنْبَسة ، عن رجل قد سماه ــ يقال [(٣)] : هو عبد الحميد بن سليمان ، انقطع من كتابى ــ عن الذَّيَّال بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : أعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله على أيدى أوليائه لأوليائه ، وإنهم الخامل ذكرهم ،الخفية شخوصهم،ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ: « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يُفتَقَدوا ، وإذا حضروا لم يُدْعَوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » [(٤)]. فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال نُعَيم بن حَمّاد : حدثنا محمد بن ثور ، عن يونس ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ: « اللهم ، لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيته إلى : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ » . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . ورواه أبو أحمد العسكرى .

---

(١) فى م : « عباده » . (٢) فى م : « ونصرتهم » . (٣) فى م : « فقال » .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٨٩) من طريق ابن لهيعة ،عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه، عن عمر مرفوعاً ، وفيه ابن لهيعة وقد توبع ، تابعه عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن به، رواه الحاكم فى المستدرك (٣٢٨/٤) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

سورة المجادلة

مدنيّة، وقيل: ما عدا العشر الأوّل، وقيل: ما عدا قوله تعالى:
﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ الآية [المجادلة، ٥٨/٧].[١] وهي ثِنتان وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ بإظهار "الدال"، وقُرئ بإدغامها في "السين".[٢] ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تُراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقِّها مِن الظِّهار، وقُرئ: "تُحَاوِرُكَ"[٣] و"تُحَاوِلُكَ"،[٤] أي: تُسائلك. ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، أي: تتضرَّع إليه تعالى. وقيل: حال مِن فاعله، أي: تُجادلك وهي متضرِّعة إليه تعالى.[٥]

وهي خولةُ بنت ثعلبةَ بن مالك بن حرامةَ الخزرجيّة،[٦] ظاهَرَ عنها زوجُها

---

١ س ي – وقيل: ما عدا العشر الأوّل، وقيل: ما عدا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ الآية.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام. النشر لابن الجزري، ٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٤/٤.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٥١٧/١٨.

٦ اختُلف في اسمها على جملة مِن الأقوال: فقيل: خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر، وقيل: خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الدخشم، وقيل: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل: خولة أو خُويلة بنت الدُّليج، وقيل: خولة أو خويلة بنت الصامت، وقيل: خُويلة بنت خُويلد الأنصاريّة. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٤٦/٢٢؛ وتهذيب الكمال للمِزّي، ١٦٣/٣٥. وفي مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٠/٢٦: «قال المقاتلان: هي خولة بنت ثعلبة بن مالك بن حرام الخزرجيّة مِن بني عمرو بن عوف»، وفي بعض أصوله «خزامة» مكان «حرام». أسلمت وبايعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكانت تحت أوس بن الصامت. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٥٣/١٠؛ والاستيعاب لابن عبد البر، ١٨٣٠/٤.

أوس بن الصامت[١] أخو عبادة ثمّ ندم على ما قال، فقال لها: «ما أظنُّك إلّا قد حَرُمتِ عليّ»، فشقّ عليها ذاك، فاستفتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «حَرُمتِ عليه»، فقالت: «يا رسول الله ما ذَكَر طلاقًا»، فقال: «حرُمتِ عليه». وفي رواية: «ما أُراكِ إلّا قد حرُمتِ عليه»، في المِرار كلِّها، فقالت: «أشكو إلى الله فاقتي ووجدي»، وجعلت تُراجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكلّما قال عليه الصلاة والسلام: «حَرُمتِ عليه» هتفتْ وشكتْ إلى الله تعالى،[٢] فنزلت.[٣]

وفي كلمة ﴿قَدْ﴾ إشعار بأنّ الرسول عليه السلام والمجادِلة كانا يتوقّعان أن يُنزِّل الله تعالى حُكم الحادثة ويفرّج عنها كربها كما يلوِّح به ما رُوي أنّه عليه السلام قال لها عند استفتائها: «ما عندي في أمرك شيء»،[٤] وأنّها كانت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: «اللّٰهمّ إني أشكو إليك، فأنزِلْ على لسان نبيّك».[٥]

ومعنى سمعِه تعالى لقولها إجابةُ دعائها لا مجرّدُ عِلمه تعالى بذلك، كما هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: يعلم تراجُعكما الكلامَ. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدُّده، وفي نظمها في سِلك الخطاب تغليبًا تشريفٌ لها مِن جهتين. والجملة استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما قبله، فإنّ إلحافها في المسألة ومبالغتَها في التضرّع إلى الله تعالى ومدافعتِه عليه السلام إيّاها بجواب منبئ عن التوقّف[٦] وترقّب الوحي وعِلمه تعالى بحالهما مِن دواعي الإجابة. وقيل: هي حال، وهو بعيد.[٧]

---

[١] هو أوس بن الصامت بن قيس بن أصرَم بن فِهر بن ثعلبة بن غَنَم بن سالم بن عوف بن الخزرج الأنصاري (ت. ٣٤هـ/٦٥٤م). هو أخو عبادة بن الصامت. شهد بدرًا وأُحدًا وسائر المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبقي إلى زمن عثمان بن عفّان، وكان شاعرًا مُحسِنًا، وهو أوّل مَن ظاهر بالإسلام وكان به لَمَمٌ. توفّي بالرملة وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً. انظر: الطبقات الكبرى، ٥٠٧/٣؛ والاستيعاب لابن عبد البرّ، ١١٨/١؛ والإصابة لابن حجر، ١٥٦/١.

[٢] س – تعالى.

[٣] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٤٦/٢٢-٤٤٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٩/١٨-٥٠.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٤/٤.

[٥] معالم التنزيل للبغوي، ٤٩/١٨.

[٦] وفي هامش م: فإنّ ما ذُكر مِن الروايتين يشهد بأنّ قوله عليه السلام: «حرُمتِ عليه» ليس بطريق القطع. «منه».

[٧] الكلام في اللباب لابن عادل، ٥١٧/١٨.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ تعليل لِما قبله / بطريق التحقيق، [١٧٤و] أي: مبالغ في العِلم بالمسموعات والمبصَرات، ومِن قضيّته أن يسمع تحاورهما ويرى ما يُقارنه مِن الهيئات التي مِن جملتها رفعُ رأسها إلى السماء وسائرُ آثار التضرّع. وإظهار الاسمِ الجليلِ في الموقعين لتربية المهابة وتعليلِ الحكم بوصف الألوهيّة وتأكيدِ استقلال الجملتين.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ شروع في بيان شأن الظِّهار في نفسه وحُكمه المترتِّب عليه شرعًا بطريق الاستئناف. والظِّهار أن يقول الرجل لامرأته: "أنت عليَّ كظهر أمّي"، مشتقّ مِن الظَّهر، وقد مرّ تفصيله في الأحزاب،[١] وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزءٍ محرَّم. وفي ﴿مِنكُم﴾ مزيد توبيخ للعرب وتهجينٌ لعادتهم فيه، فإنّه كان مِن أيمان أهل جاهليّتهم خاصّة دون سائر الأمم. وقُرئ: "يَظَّاهَرُونَ"[٢] مِن "اظَّاهَرَ" و"يَتَظَاهَرُونَ"[٣] و"يَتَظَهَّرُونَ".[٤]

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ خبر للموصول، أي: ما نساؤهم أمّهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحتٌ. وقُرئ: "أُمَّهَاتُهمْ"[٥] بالرفع على لغة تميم، و"بِأُمَّهَاتِهِمْ".[٦] ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: ما هنّ ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تُشبَّه بهنّ في الحُرمة إلّا مَن ألحقها الشرع بهنّ مِن المرضِعات وأزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فدخلن بذلك في حُكم الأمّهات، وأمّا الزوجات فأبعد شيء مِن الأمومة.

---

١ في تفسير الأحزاب، ٣٣/٤.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٥٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب ويزيد بن قُطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وشيبان وابن نبهان كلّهم عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٥٤.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ على أنّ مناط التأكيد ليس صدورَ القول عنهم فإنّه أمر محقَّق، بل كونه منكرًا، أي: عند الشرع وعند العقل والطبع أيضًا، كما يُشعِر به تنكيره. ونظيرُه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء، ٤٠/١٧]. ﴿وَزُورًا﴾ أي: محرّفًا عن الحقّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالِغ في العفو والمغفرة، فيغفِر لِما سلف منه على الإطلاق أو بالمَتاب عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ تفصيل لحُكم الظِّهار بعد بيان كونه أمرًا منكَرًا بطريق التشريع الكلّي المنتظِم / لحُكم الحادثة [١٧٤ظ]
انتظامًا أوّليًا، أي: والذين يقولون ذلك القول المنكَر ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾، أي: إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي، لا بالتقرير والتكرير كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور، ١٧/٢٤]، فإنّ "اللام" و"إلى" تتعاقبان كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٤٣/٧]، وقولِه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٢٣/٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود، ٣٦/١١].

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فتداركُه، أو فعليه، أو فالواجبُ إعتاق رقبة أيِّ رقبةٍ كانت. وعند الشافعي رحمه الله تعالى يشترط الإيمان.[١] و"الفاء" للسببيّة، ومِن فوائدها الدلالةُ على تكرّر وجوب التحرير بتكرّر الظِّهار. وقيل: ﴿مَا قَالُواْ﴾ عبارةٌ عمّا حرّموه على أنفسهم بلفظ الظِّهار تنزيلًا للقول منزلةَ المقولِ فيه، كما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم، ٨٠/١٩] أي: المقول فيه مِن المال والولد، فالمعنى: ثمّ يريدون العَود للاستمتاع، فتحريرُ رقبة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: مِن قبل أن يستمتع كلٌّ مِن المُظاهِر والمُظاهَر منها بالآخر جِماعًا ولَمسًا ونظرًا إلى الفرج بشهوة، وإن وَقَع شيءٌ مِن ذلك قبل التكفير يجب عليه

---

[١] الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٧/٤.

أن يستغفر ولا يعود حتّى يكفِّر، وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مسّ عليه أن يستأنف عند أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى الحُكم المذكور، وهو مبتدأ خبرُه ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزجَرون به عن ارتكاب المنكَر المذكور، فإنّ الغراماتِ مَزاجِر عن تعاطي الجنايات، والمراد بذِكره بيانُ أنّ المقصود مِن شرع هذا الحُكم ليس تعريضَكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو عَلَم في استتباع الثواب العظيم؛ بل هو ردعُكم وزجركم عن مباشرة ما يُوجِبه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال التي مِن جملتها التكفير وما يُوجبه مِن جناية الظِّهار ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بظواهرها وبواطنها ومُجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرَع لكم ولا تُخِلّوا بشيء منها.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي: الرقبةَ ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ فعليه صيامُ شهرين ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ليلًا أو نهارًا عمدًا أو خطأً، ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ أي: الصيام لسبب مِن الأسباب ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ/ مِسۡكِينٗا﴾ لكلّ مسكين نصفُ صاع مِن برّ أو صاعٌ مِن غيره، ويجب تقديمُه على المسيس، لكن لا يستأنف إن مسّ في خلال الإطعام. [١٧٥و]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن البيان والتعليمِ للأحكام والتنبيهِ عليها. وما فيه مِن معنى البُعد قد مرّ سِرّه مرارًا. ومحلّه إمّا الرفع على الابتداء، أو النصب بمضمَر معلَّل بما بعده، أي: ذلك واقعٌ، أو فعلْنا ذلك. ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شَرَعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليّتكم.

﴿وَتِلۡكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة، وما فيه مِن معنى البُعد لتعظيمها، كما مرّ غيرَ مرّة. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعدّيها، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين لا يعملون بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عُبّر عنه بذلك للتغليظ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُعادونهما ويشاقّونهما، فإنّ كلًّا مِن المتعادِيَين كما أنّه يكون في عُدوةٍ وشِقّ غيرِ عُدوة الآخرِ وشِقّه كذلك يكون في حدٍّ غيرِ حدّ الآخرِ، غيرَ أنّ لورود المُحادّة في أثناء ذِكر حدود الله دون المُعاداة والمُشاقّة مِن حُسن الموقع ما لا غايةَ وراءه.

﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أُخزوا، وقيل: خُذلوا، وقيل: أُذلّوا، وقيل: أُهلِكوا، وقيل: لُعنوا، وقيل: غِيظوا. وهو ما وَقَع يوم الخندق، قالوا: معنى ﴿كُبِتُواْ﴾ سيكبتون،[1] على طريقة قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١٦/١]. وقيل: أصل الكبت الكبّ. ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن كفّار الأمم الماضية المعادِين للرسل عليهم السلام.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ حال مِن واو ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: كُبتوا لمُحادّتهم، والحال أنّا قد أنزلنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَن حادّ الله ورسوله ممّن قبلهم مِن الأمم وفيما فعلنا بهم. وقيل: ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ تدلّ على صدق الرسول وصحّة ما جاء به.[2] ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بتلك الآيات، أو بكلّ ما يجب الإيمان به، فيدخل فيه تلك الآيات دخولًا أوّليًا. ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ / يذهب بعزّهم وكِبرهم. [١٧٥ظ]

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوب بما تعلّق به "اللام" مِن الاستقرار، أو بـ﴿مُّهِينٞ﴾، أو بإضمار "اذكُرْ" تعظيمًا لليوم وتهويلًا له. ﴿جَمِيعٗا﴾ أي: كلّهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حالة واحدة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ مِن القبائح ببيان صدورها عنهم، أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها مِن الصور الهائلة على رءوس الأشهاد تخجيلًا لهم وتشهيرًا بحالهم وتشديدًا لعذابهم.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله مِن السؤال، إمّا عن كيفيّة التنبئة أو عن سببها، كأنّه قيل: كيف ينبّئهم بأعمالهم

---

[1] هذه الأقوال كلّها في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٣١.
[2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٦٨.

وهي أعراض متقضّية متلاشية؟ فقيل: أحصاه الله عددًا لم يفُته منه شيء. فقوله تعالى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينئذ حال مِن مفعول ﴿أَحْصَىٰ﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور، أو قيل: لِمَ ينبّئهم بذلك؟ فقيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فينبّئهم به ليعرفوا أنّ ما عاينوه مِن العذاب إنّما حاق بهم لأجله، وفيه مزيدُ توبيخ وتنديم لهم غيرُ التخجيل والتشهيرِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر مِن الأمور قطّ. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرّر لإحصائه تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢] وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٢٥/٢٦]، أي: ألم تعلم عِلمًا يقينيًا متاخمًا للمشاهدة أنّه تعالى يعلم ما فيهما مِن الموجودات سواءٌ كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئيّة منهما.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾... إلى آخره، استئناف مقرِّر لِما قبله مِن سَعة عِلمه تعالى ومبيّن لكيفيّته. و﴿يَكُونُ﴾ مِن "كان" التامّة. وقُرئ: "تَكُونُ"[١] بـ"التاء" اعتبارًا لتأنيث النجوى وإن كان غيرَ حقيقي، أي: ما يقع مِن تناجي ثلاثة نفر، أي: مِن مُسارّتهم، على أنّ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مضافة إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، أو على أنّها موصوفة بها إمّا بتقدير مضاف، أي: مِن أهل نجوى ثلاثة، أو بجعلهم نجوى في أنفسهم مبالغةً، / ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ: ﴿رَابِعُهُمْ﴾ أي: جاعلهم [١٧٦و]
أربعةً مِن حيث إنّه تعالى يشاركهم في الاطّلاع عليها، وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسةٍ ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

وتخصيص العددين بالذِّكر إمّا لخصوص الواقعة، فإنّ الآية نزلت في تناجي المنافقين، وإمّا لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين، وقد عُمِّم الحكم بعد ذلك فقيل: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: ممّا ذُكر كالواحد والاثنين ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ كالستّة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ يعلم ما يجري بينهم. وقُرئ: "وَلَا أَكْثَرُ"[١] بالرفع عطفًا على محلّ ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾، أو محلّ ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾ بأن جُعل ﴿لَا﴾ لنفي الجنس. ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ مِن الأماكن، ولو كانوا تحت الأرض، فإنّ عِلمه تعالى بالأشياء ليس لقُرب مكانيّ حتّى يتفاوت باختلاف الأمكنة قُربًا وبُعدًا.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ وقُرئ: "يُنْبِئُهُمْ"[٢] بالتخفيف ﴿بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحًا لهم وإظهارًا لِما يُوجِب عذابَهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للعِلم إلى الكلّ سواء.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٨﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجَون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ عادوا لمِثل فعلهم. والخِطاب للرسول عليه السلام، و"الهمزة" للتعجيب مِن حالهم، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرّر عَودهم وتجدّده واستحضار صورته العجيبة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ عطفٌ عليه داخلٌ في حُكمه، أي: بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول عليه السلام. وذِكره عليه السلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجِّهين

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٩/٤.

إليه عليه السلام لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم. وقُرئ: "وَيَنْتَجُونَ بِالإِثْمِ"،[١] و"العِدْوَانِ"[٢] بكسر "العين"، "وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ".[٣]

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون: "السام عليكم" أو "انعم صباحًا"، والله سبحانه يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات، ١٨١/٣٧]. ﴿وَيَقُولُونَ / فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: هلا يعذّبنا الله بذلك لو كان محمّد نبيًّا، ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ[٤] ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: جهنّم. [١٧٦ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ في أنديتكم وفي خلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون. وقُرئ: "فَلَا تَنْتَجُوا"[٥] و"فَلَا تَنَاجَوا"[٦] بحذف إحدى التاءين.

﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: بما يتضمّن خير المؤمنين والاتّقاءَ عن معصية الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وحدَه لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا فيُجازيكم بكلّ ما تأتون وما تذرون.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا مِن غيره، فإنّه المزيّن لها والحاملُ عليها. وقوله تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خبرٌ آخرُ، أي: إنّما هي ليحزُن المؤمنين بتوهّمهم أنّها في نكبة أصابتهم.

---

١ قرأ بها حمزة ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك ومقاتل بن حيّان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٢.

٤ م س ي: وبئس.

٥ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي: الشيطان أو التناجي بضارّ المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء أو شيئًا مِن الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يُبالوا بنجواهم، فإنّه تعالى يعصِمهم مِن شرّه وضرّه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ﴾ أي: توسّعوا ولْيَفْسَح بعضكم عن بعض، ولا تتضامُّوا مِن قولهم: "افسحْ عنّي"، أي: تنحَّ. وقُرئ: "تَفَاسَحُوا".[١] وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ متعلِّق بـ﴿قِيلَ﴾. وقُرئ: "فِي المَجْلِسِ"،[٢] على أنّ المراد به الجنس.

وقيل: مجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يتضامُّون تنافسًا في القرب منه عليه السلام وحرصًا على استماع كلامه. وقيل: هو المَجلِس مِن مجالس القتال، وهي مراكز الغُزاة، كقوله تعالى: ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران، ١٢١/٣]. قيل: كان الرجل يأتي الصفّ ويقول: تفسّحوا فيأبَون لحرصهم على الشهادة.[٣] وقُرئ: "في المَجْلَسِ"[٤] / بفتح "اللام" فهو متعلِّق بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ قطعًا، [١٧٧و]
أي: توسّعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه.

﴿فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: في كلّ ما تريدون التفسّح فيه مِن المكان والرزق والصدر والقبر وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي: انهضوا للتوسعة على المقبِلين، أو لِما أمرتُم به مِن صلاة أو جهاد أو غيرهما مِن أعمال الخير، ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ فانهضوا ولا تتثبّطوا ولا تُفرّطوا. وقُرئ بكسر "الشين".[٥]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وداود بن هند. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

[٢] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٧٠/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالنصر وحُسن الذِّكر في الدنيا والإيواء إلى غُرف الجِنان في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ منهم خصوصًا ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ عاليةً بما جمعوا مِن أَثَرتي العِلم والعمل، فإنّ العِلم مع عُلوّ رتبته يقتضي العمل المقرون به مزيدَ رفعة، لا يُدرِك شأوَه العملُ العاري عنه وإن كان في غاية الصلاح، ولذلك يُقتدى بالعالم في أفعاله ولا يُقتدى بغيره. وفي الحديث: «فضلُ العالمِ على العابد كفضل القمرِ ليلةَ البدر على سائر الكواكب».[1]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمَن لم يمتثل بالأمر. وقُرئ: "يَعْمَلُونَ"[2] بـ"الياء" التحتانيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ في بعض شئونكم المهمّة الداعية إلى مناجاته عليه السلام ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: فتصدّقوا قبلها، مستعارٌ ممّن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإنفاعُ الفقراء والزجرُ عن الإفراط في السؤال والتمييزُ بين المخلِص والمنافق ومحِبّ الآخرة ومُحِبّ الدنيا.

واختُلف في أنّه للندب أو للوجوب، لكنّه نُسِخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ [المجادلة، ١٣/٥٨]، وهو وإن كان متّصلًا به تلاوةً لكنّه متراخٍ عنه نزولًا. وعن عليّ رضي الله عنه: «إنّ في كتاب الله آيةً ما عمِل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته، فكنتُ إذا ناجيتُه عليه السلام تصدّقت بدِرهم»،[3] وهو على القول بالوجوب محمول على أنّه لم يتّفق للأغنياء مناجاة في مدّة بقائه؛ / إذ رُوي أنّه لم يبقَ إلّا عشرًا. وقيل: إلّا ساعةً.[4] [١٧٧ظ]

---

١ سنن ابن ماجه، ١٥١/١ (٢٢٣)؛ سنن أبي داود، ٤٨٥/٥ (٣٦٤١)؛ سنن الترمذي، ٥٠/٥ (٢٦٨٥)؛

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٣.

٣ بلفظ قريب في المصنَّف لابن أبي شيبة، ٣٧٣/٦ (٣٢١٢٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٧١/٤-٣٧٢.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٣/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التصدّق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لأنفسكم مِن الرِّيبة وحبِّ المال. وهذا يُشعِر بالندب، لكنّ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ منبئ عن الوجوب؛ لأنّه ترخيص لمَن لم يجد في المناجاة بلا تصدّق.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي: أخِفتُم الفقرَ مِن تقديم الصدقات، أو أخِفتُم التقديم لِما يعدكم الشيطان عليه مِن الفقر وجمعِ صدقات لجمع المخاطَبين. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ما أُمِرتم به وشقّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخَّص لكم ألّا تفعلوه، وفيه إشعارٌ بأنّ إشفاقهم ذنبٌ تجاوز الله عنه لِما رأى منهم مِن الانفعال ما قام مقامَ توبتهم، و﴿إِذْ﴾ على بابها مِن المضيّ. وقيل: بمعنى "إذا" كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر، ٧١/٤٠]. وقيل: بمعنى "إن".[١]

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فإذ فرَّطتم فيما أُمِرتم به مِن تقديم الصدقات فتداركوه بالمُثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر، فإنّ القيام بها كالجابر لِما وقع في ذلك مِن التفريط. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيبٌ مِن حال المنافقين الذين كانوا يتّخذون اليهود أولياءَ ويُناصحونهم وينقلون إليهم أسرارَ المؤمنين، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: والَوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، ٦٠/٥]. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنّهم منافقون مذبذَبون بين ذلك. والجملة مستأنَفةٌ أو حالٌ مِن فاعل ﴿تَوَلَّوْا۟﴾.

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٤/٣.

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ أي: يقولون واللهِ إنّا لَمسلمون، وهو عطفٌ على ﴿تَوَلَّوۡا۟﴾ داخل في حُكم التعجيب، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرّر الحَلِف وتجدّده / حسب تكرّر ما يقتضيه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حال مِن فاعل [١٧٨و] ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ مفيدة لكمال شناعةِ ما فعلوا، فإنّ الحَلِف على ما يُعلَم أنّه كذبٌ في غاية القبح. وفيه دلالةٌ على أنّ الكذب يعمّ ما يعلَم المُخبِر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه.

رُوي أنّه عليه السلام كان في حُجرة مِن حجراته فقال: «يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبُه قلبُ جبّار، وينظر بعين شيطان»، فدخل عبد الله بن نَبْتَلٍ المنافق، وكان أزرقَ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «علامَ تشتمني أنت وأصحابُك؟»، فحلف بالله ما فعل، فقال عليه السلام: «فعلتَ»، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه، فنزلت.[١]

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ نوعًا مِن العذاب متفاقمًا ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ فيما مضى مِن الزمان المتطاول فتمرَّنوا على سوء العمل وضَرُوا به وأصرُّوا عليه.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة، وقُرئ بكسر "الهمزة"،[٢] أي: إيمانهم الذي أظهروه لأهل الإسلام. ﴿جُنَّةٗ﴾ وِقايةً وسُترةً دون دمائهم وأموالهم، فالاتّخاذ على هذه القراءة عبارة عن التستّر بما أظهروه بالفعل، وأمّا على القراءة الأولى فهي عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل،

---

١ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣١٦/٥ (٣٢٧٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.

فإنّ ذلك متأخِّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية والخيانة، واتّخاذُ الجُنّة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضًا، كما يُعرب عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ﴾ أي: الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في خلال أَمْنِهم بتثبيط مَن لَقُوا عن الدخول في الإسلام وتضعيفِ أمر المسلمين عندهم.

﴿فَلَهُمْ[1] عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصف آخرَ لعذابهم. وقيل: الأوّل عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة.[2]

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الإغناء، رُوي أنّ رجلًا منهم قال: لنُنصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات القبيحة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها ومقارنوها، ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ قيل: هو ظرف لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى يومئذ على أنّهم مسلمون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ / في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [١٧٨ظ] مِن جَلْب منفعة أو دَفْع مضرّة، كما كانوا عليه في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم ويستجرُّون بها فوائدَ دنيويّة.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ البالغون في الكذب إلى غاية لا مطمحَ وراءها، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علّام الغيوب وزعموا أنّ أيمانهم الفاجرة تروّج الكذب لديه كما تروّجه عند الغافلين.

---

[1] م س: ولهم.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٤.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استولى عليهم مِن "حُذْتُ الإبلَ" إذا استوليتَ عليها وجمعتَها، وهو ممّا جاء على الأصل كـ"استصوَب" و"استنوَق"، أي: مَلَكهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غايةَ وراءه حيث فوّتوا على أنفسهم النعيمَ المقيم وأخذوا بدله العذابَ الأليم. وفي تصدير الجملة بحرفَي التنبيهِ والتحقيقِ وإظهار المضافين معًا في موقع الإضمارِ بأحد الوجهين[١] وتوسيطِ ضمير الفصل؛ مِن فنون التأكيدِ ما لا يخفى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف مسوق لتعليل ما قبله مِن خسران حزب الشيطان. عُبّر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ مُوادّة مَن حادّ الله ورسوله مُحادّةٌ لهما، والإشعارِ بعلّة الحكمِ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ بما فعلوا مِن التولّي والمُوادّة ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جملة مَن هو أذلّ خلق الله مِن الأوّلين والآخِرين؛ لأنّ ذِلّة أحد المتخاصمَين على مقدار عزّة الآخر، وحيث كانت عزّة الله عزّ وجلّ غيرَ متناهية كانت ذِلّة مَن يحادّه كذلك.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ استئناف واردٌ لتعليل كونهم في الأذلّين، أي: قُضي وأُثبِت في اللوح، وحيث جرى ذلك مَجرى القسم أجيبَ بما يُجاب به فقيل: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي: بالحجّة / والسيف وما يجري مَجراه، أو بأحدهما، ونظيرُه قوله تعالى: [١٧٩و]

---

١ وفي هامش م: بأن يقال ألا إنّهم، أو يقال: ألا إنّ حزبه. «منه».

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. وقُرِئَ: "وَرُسُلِيَ"[١] بفتح "الياء".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾[٢] على نصر أنبيائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب عليه في مراده.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد. و﴿تَجِدُ﴾ إمّا متعدٍّ إلى اثنين فقوله تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعوله الثاني، أو إلى واحد فهو حالٌ مِن مفعوله لتخصُّصه بالصفة. وقيل: صفة أخرى له،[٣] أي: قومًا جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين مُوادّة أعداء الله ورسوله. والمراد بنفيِ الوجدان نفيُ المُوادّة، على معنى أنّه لا ينبغي أن يتحقّق ذلك، وحقُّه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جدّ في طلبه كلّ أحد.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ أي: مَن حادّ الله ورسوله. والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ آباء الموادّين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنّ قضيّة الإيمان بالله تعالى أن يُهجَر الجميعُ بالمرّة. والكلام في "لو" قد مرّ على التفصيل مِرارًا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادُّونهم وإن كانوا أقربَ الناس إليهم وأمسَّهم رحمًا، وما فيه مِن معنى البُعد لرفعة درجتهم في الفضل. وهو مبتدأ خبرُه ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي: أثبتَه فيها، وفيه دلالةٌ على خروج العمل مِن مفهوم الإيمان، فإنّ جزء الثابت في القلب ثابتٌ فيه قطعًا، ولا شيءَ مِن أعمال الجوارح يثبُت فيه. ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن عند الله تعالى،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.

[٢] م: لقويّ.

[٣] القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٥٨.

وهو نور القلب، أو القرآن، أو النصر على العدوّ. وقيل: الضمير للإيمان لحياة القلوب به،[١] فـ"مِن" تجريديّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾... إلى آخره، بيانٌ لآثار رحمته الأخرويّة إثرَ بيان ألطافه الدنيويّة، أي: ويُدخِلهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدَ الآبدِين.

وقوله تعالى:﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما أفاض عليهم مِن آثار رحمته / العاجلة والآجلة. وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بيان [١٧٩ظ] لابتهاجهم بما أوتوه عاجلًا وآجلًا. وقوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عزّ وعلا. وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين. والكلام في تحلية الجملةِ بفنون التأكيد كما مرّ في مِثلها.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المجادلة كُتب مِن حزب الله يوم القيامة».[٢]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٤/٤.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٨/٢٦ (المجادلة، ١/٥٨)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٨/٤ (المجادلة، ١/٥٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٨

سورة المجادلة

مدنية، ثنتان وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿قَد سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِي تُجادِلُكَ﴾: تُراجِعُك ـ أيها النبيّ ـ ﴿في زَوجِها﴾ المُظاهِر منها ـ كان قال لها: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمّي. وقد سألَتِ النبيَّ عن ذلك، فأجابها بأنها حَرُمتْ عليه، على ما هو المعهود عندهم، من أنّ الظِّهار مُوجَبُه فُرقةٌ مُؤبّدة. وهي خَولةُ بنتُ ثعلبةَ، وهو أوسُ بنُ الصامت ـ ﴿وتَشتكِي إلَى اللهِ﴾ وحدتَها وفاقتها وصِبية صِغارًا، إن ضمّتهم إليه ضاعوا، أو إليها جاعوا. ﴿واللهُ يَسمَعُ تَحاوُرَكُما﴾: تَراجُعَكما. ﴿إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: عالم.

٢ ـ ﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾ ـ أصلُه «يَتَظَهَّرُونَ» أُدغمَتِ التاءُ في الظاء........................

سورة المجادلة

سورةُ ﴿قد سَمِعَ﴾

قولُهُ: (كَانَ قَالَ) عدمُ الجزمِ دليلُ وجودِ الجزمِ.

قولُهُ: (حَرُمَتْ عَليهِ) فقالَت: ما طلَّقني، فقالَ: «حرُمْتِ عليهِ»، فاغتمَّت لصِغَرِ أولادِها، وشكَتْ إلى اللهِ تعالى، فنزلَت هذه الآياتُ الأربعُ(١).

قولُهُ: (جَاعُوا) فكأنَّ النَّفقةَ لم تكُنْ واجِبةً.

قولُهُ: (عَالِمٌ) بالأقوالِ والأحوالِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٢٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا.

وفي قراءة بألف بين الظاء والهاء الخفيفة، وفي أُخرى كـ «يُقاتِلُونَ». وفي الموضع الثاني كذلك ـ ﴿مِنكُم مِن نِسائِهِم ما هُنَّ أُمَّهاتِهِم، إنْ أُمَّهاتُهُم إلاّ اللاّئي﴾، بهمزة وياء وبلا ياء، ﴿وَلَدْنَهُم، وإنَّهُم﴾ بالظِّهار ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا، مِنَ القَولِ وزُورًا﴾: كذبًا. ﴿وإنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمُظاهِر، بالكفّارة.

٣ ـ ﴿والَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِسائِهِم، ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ أي: فيه،........

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ وحمزةَ والكسائيِّ[١]، من اظَّاهرَ أصلُهُ: تظاهَرَ.

قولُهُ: (وَفِي أُخرَى) لعاصمٍ[٢].

قولُهُ: (كـ«يقاتِلُونَ») أي: من بابِ المفاعَلةِ.

قولُهُ: (بهَمزَةٍ) تقدَّمَ تفصيلُهُ في أوَّلِ الأحزابِ[٣].

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَدْنَهُم﴾) والأمَّهاتُ مخدوماتٌ والزَّوجاتُ خادماتٌ، فلا يشبَّهُ بهنَّ في الحرمةِ إلَّا ما ألحقَها اللهُ بهنَّ كالمرضعاتِ وأمَّهاتِ المؤمنينَ.

قولُهُ تعالى: (﴿مُنْكَرًا﴾) إذ الشَّرعُ وكذا الحقيقةُ أنكرَهُ ﴿وزُورًا﴾ محرَّفاً عن الحقِّ وكذباً وباطلاً، فإنَّ الزَّوجةَ ليست أمًّا في الحقيقةِ.

قولُهُ: (للمُظَاهِرِ) الظَّاهرُ: لما سَلَفَ من الظِّهارِ مطلقاً، أو إذا تيبَ عنهُ.

قولُهُ: (أي: فِيهِ) يعني: في قولِهِم، أو إلى قولِهِم بالتَّدارُكِ، وهو ينقضُ ما يقتضيهِ الظِّهارُ، وذلك عندَ الشَّافعيِّ[٤] بإمساكِ المُظاهَرِ عنها زماناً يمكنُهُ مفارقتُها فيهِ، وعندَ أبي حنيفةَ: باستباحةِ استِمتاعِها ولو بنظرِ شهوةٍ، وعندَ مالكٍ: بالعزمِ على الجماعِ[٥]، وعندَ الحسنِ: بالجِماعِ[٦]، كذا قالَهُ القاضي[٧]، لكنَّ ما نسبَهُ إلى أبي حنيفةَ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ مذهبَهُ كمذهبِ مالكٍ، وقد صرَّحَ به البغويُّ[٨] من الشَّافعيَّةِ، وصاحبُ «المداركِ»[٩]

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

(٣) في الآية رقم: (٤).

(٤) انظر: «الحاوي الكبير» (١٠/ ٤٤٣).

(٥) انظر: «المعونة على مذهب عالم المدينة» (ص: ٨٩١).

(٦) رواه الجهضمي في «أحكام القرآن» (٢٨١).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩٢).

(٨) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٤٠).

(٩) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٤٥).

بأن يُخالفوه بإمساك المُظاهَر منها، الذي هو خِلاف مقصود الظِّهار من وصف المرأة بالتحريم، ﴿فتَحرِيرُ رَقَبةٍ﴾ أي: إعتاقُها عليه ﴿مِن قَبلِ أن يَتَماسّا﴾ بالوطء. ﴿ذلِكُم تُوعَظُونَ بِهِ، واللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

٤ ـ ﴿فمَن لَم يَجِدْ﴾ رقبةً ﴿فصِيامُ شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ مِن قَبلِ أن يَتَماسّا، فمَن لَم يَستَطِعْ﴾ أي: الصيامَ ﴿فإطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا﴾ عليه، أي: مِن قبل أن يتماسّا حملاً للمُطلق على المُقيّد، لكُلّ مسكينٍ مُدٌّ من غالب قُوت البلد. ﴿ذلِكَ﴾ أي: التخفيف في الكفّارة ﴿لِتُؤمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ، وتِلكَ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ، ولِلكافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذابٌ أليمٌ﴾: مُؤلم.

من الحنفيَّةِ[١].

قولُهُ: (عَلَيهِ) الظَّاهرُ: فعليهم، أو فالواجبُ، والرَّقبةُ مقيَّدةٌ بالإيمانِ عندَ الشَّافعيِّ[٢]، مطلقةٌ عندَنا[٣] لإطلاقِ الآيةِ.

قولُهُ: (بالوطءِ) وهو الصَّحيحُ من مذهبِ الشَّافعيِّ[٤]، وفي «المدارك»[٥]: المماسَّةُ: الاستمتاعُ بها مِن جماعٍ أو لمسٍ بشهوةٍ أو نظرٍ إلى فرجِها بشَهوةٍ، فإن مسَّ قبلَ أن يُكفِّرَ استغفرَ، ولا يعودُ حتَّى يكفِّرَ، انتهى، ومذهَبُنا أظهرُ لعمومِ اللَّفظِ ومقتضى التَّشبيهِ.

قولُهُ: (أي: الصِّيَامَ) لهرمٍ أو مرضٍ مزمنٍ، أو شبقٍ مفرطٍ؛ فإنَّهُ ﷺ رخَّصَ للأعرابيِّ المفطرِ أن يعدِلَ لأجلِهِ إلى الإطعامِ[٦].

قولُهُ: (حَمْلاً للمُطْلَقِ) وعندَنا: أطلقَ لجوازِهِ في خلالِ الإطعامِ[٧].

قولُهُ: (مُدٌّ) وعندَنا[٨]: نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، وصاعٌ من غيرِهِ.

قولُهُ: (التَّخفِيفُ) أو البيانُ، أو التَّعليمُ للأحكامِ.

قولُهُ: (بِهَا) الَّذين لا يقبَلونَها ولا يترُكونَ ما كانوا عليه في الجاهليَّةِ.

---

(١) وهو كما قال، انظر: «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢١٤).

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» (١٠/ ٤٦١).

(٣) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٦٦).

(٤) انظر: «الحاوي الكبير» (١٠/ ٤٥١).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٤٦).

(٦) رواه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) انظر: «شرح مختصر الطحاوي» للجصاص (٥/ ٢٠٠)، و«البناية» للعيني (٥/ ٥٤٢).

(٨) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٦٨).

٥ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ﴾: يُخالفون ﴿اللهَ ورَسُولَهُ كُبِتُوا﴾: أُذِلّوا ﴿كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ في مُخالفتهم رسلَهم، ﴿وقَد أنزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ﴾: دالّةً على صِدق الرسول، ﴿ولِلكافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة، ٦ ـ ﴿يَومَ يَبعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا، فيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُوا. أحصاهُ اللهُ ونَسُوهُ. واللهُ على كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾.

٧ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أَنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ؟ ما يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُم﴾ بعلمه، ﴿ولا خَمْسةٍ إلاّ هُوَ سادِسُهُم، ولا أدنَى مِن ذلِكَ ولا أكثَرَ إلاّ هُوَ مَعَهُم، أينَما كانُوا. ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بما عَمِلُوا يَومَ القِيامةِ. إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ ـ ﴿أَلَـم تَـرَ﴾: تنظرْ ﴿إِلَـى الَّذِينَ نُهُوا عَـنِ النَّجْوَى، ثُمَّ يَعُـودُونَ لِما نُهُوا عَنـهُ، ويَتَناجَونَ بِالإثمِ والعُـدوانِ، ومَعصِيـةِ الرَّسُـولِ﴾ هم اليهود، نهاهم النبـيّ عما كانوا يفعلون مـن تناجيهم، أي: تحدّثهم سِرًّا، ناظريـن إلـى المُؤمنين ليُوقعـوا في قُلوبهـم الريبة، ﴿وإذا جـاؤُوكَ حَيَّـوكَ﴾ ـ أيها النبـيُّ ـ ﴿بِما لَـم يُحَيِّـكَ بِـهِ اللهُ﴾، وهـو قولهم: «السـامُ عليكَ» أي: المـوتُ، ﴿ويَقُولُـونَ في أنفُسِـهِم: لَولا﴾: هلاّ ﴿يُعَذِّبُنـا اللهُ بِمـا نَقُـولُ﴾ مـن التحيّـة وأنّـه ليـس بنبـيّ، إن كان نبيًّـا؟ ﴿حَسْبُهُم جَهَنَّـمُ يَصلَونَهـا﴾: يدخلونهـا. ﴿فبِئسَ المَصِيـرُ﴾ هـي!

٩ ـ ١٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا تَناجَيتُم فلا تَتَناجَوا بِالإثمِ والعُدوانِ ومَعصِيةِ الرَّسُولِ، وتَناجَوا بِالبِرِّ والتَّقوَى، واتَّقُوا اللهَ الَّذِي إلَيهِ تُحشَرُونَ. إنَّما النَّجْوَى﴾ بالإثم ونحوه ﴿مِنَ الشَّيطانِ﴾ بغروره ﴿لِيَحزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، ولَيسَ﴾ هو ﴿بِضارِّهِم شَيئًا، إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾ أي: إرادته! ﴿وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾.

قولُهُ: (يُخَالِفُونَ) فإنَّ كلًّا من المتخالِفينَ في حدٍّ دونَ الآخرِ.

قولُهُ: (أُذِلُّوا) أو أهلِكوا، وأصلُ الكبتِ: الكَبُّ.

قولُهُ: (ذُو إِهَانَةٍ) يذهبُ عزَّهُم وتكبُّرَهُم، وهو عاملٌ في: ﴿يَوْمَ﴾، أو اذكُرْ مقدَّراً.

قولُهُ: (بِعِلمِهِ) أي: إلَّا اللهُ يجعلُهُم أربعةً؛ من حيثُ إنَّه يشاركُهُم في الاطِّلاعِ عليها، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ.

قولُهُ: أي: أنعِم صباحاً[١]، واللهُ سبحانَهُ يقولُ: ﴿سلام على المرسلين﴾ [الصافات: ١٨١].

قولُهُ: (ونَحوِهِ) من العُدوانِ.

قولُهُ: (بغُرُورِهِ) لأنَّه المزيِّنُ لها والحاملُ عليها.

---

(١) لم أقف على هذه العبارة في «الجلالين». وكأنها مقحمة هنا، والله أعلم.

١١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا قِيلَ لَكُم: تَفَسَّحُوا﴾ توسّعوا ﴿في المَجلِسِ﴾: مجلس النبيّ ﷺ أو الذِّكر، حتّى يجلس من جاءكم ـ وفي قراءة: «المَجالِسِ» ـ ﴿فافسَحُوا، يَفسَحِ اللهُ لَكُم﴾ في الجنّة، ﴿وإذا قِيلَ: انشِزُوا﴾: قوموا إلى الصلاة وغيرها من الخيرات، ﴿فانشِزُوا﴾ ـ وفي قراءة بضمّ الشين فيهما ـ ﴿يَرفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم﴾ بالطاعة في ذلك، ﴿و﴾ يرفع ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ﴾ في الجنّة. ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١٢ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا ناجَيتُمُ الرَّسُولَ﴾: أردتم مناجاته ﴿فقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجواكُم﴾: قبلَها ﴿صَدَقةً ـ ذلِكَ خَيرٌ لَكُم وأطهَرُ﴾ لذُنوبكم ـ ﴿فإن لَم تَجِدُوا﴾ ما تتصدّقون به ﴿فإنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لمُناجاتكم ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم. يعني: فلا عليكم في المُناجاة من غير صدقة. ثم نُسخ ذلك بقوله:........

قولُهُ: (أوِ الذِّكرِ) أو المرادُ بـ(المجلسِ): الجنسُ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لعاصمٍ[1].

قولُهُ: (في الجَنَّةِ) أو فيما تريدونَ التَّفسُّحَ فيه من المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ وغيرِها.

قولُهُ: (إلى الصَّلاةِ) أي: لما أُمِرتُم به كصلاةٍ وجهادٍ، أو للتَّوسعةِ، أو ارتفِعوا في المجلسِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) نافعٌ وشاميٌّ وعاصمٌ بخلافٍ عن شعبةَ[2].

قولُهُ: (بالطَّاعَةِ) أو بالنَّصرِ وحسنِ الذِّكرِ، وإيوائِهِم غرفَ الجنَّاتِ في الآخرةِ.

قولُهُ: (فِي الجَنَّةِ) بما جمَعوا من العلمِ والعَملِ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ[3]: «فَضلُ العالمِ على العابدِ كفَضلِي على أدناكُم».

قولُهُ: (قَبْلَهَا) مستَعارٌ ممَّن له يَدانِ.

قولُهُ: (لِذنُوبِكُم) أو لأنفسِكُم مِنَ الزِّينةِ[4]، وحبِّ المالِ.

قولُهُ: (ثمَّ نُسِخَ ذلكَ) أي: الحُكمُ للوجوبِ، أو النَّدبِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٣٣) (٧٩١١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) كذا في الأصول وفي «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٥): الريبة.

١٣ ـ ﴿أأشفَقتُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا وتسهيلِها، وإدخالِ ألف بين المُسهّلة والأُخرى وتركِه ـ أي: أخِفتم من ﴿أن تُقدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجْواكُم صَدَقاتٍ﴾ الفقرَ؟ ﴿فإذْ لَم تَفعَلُوا﴾ الصدقة، ﴿وتابَ اللهُ عليكُم﴾: رجَع بكم عنها، ﴿فأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ، وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ﴾، أي: دوموا على ذلك. ﴿واللهُ خَبيرٌ بِما تَعمَلُونَ﴾.

١٤ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوا﴾ ـ هم المُنافقون ـ ﴿قَومًا﴾ هم اليهود، ﴿غَضِبَ اللهُ عليهِم، ما هُم﴾ أي: المُنافقون ﴿مِنكُم﴾: من المُؤمنين ﴿ولا مِنهُم﴾: من اليهود، بل هم مُذبذَبون، ﴿ويَحلِفُونَ علَى الكَذِبِ﴾ أي قولِهم: إنهم مُؤمنون، ﴿وهُم يَعلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون فيه؟ ١٥ ـ ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُم عَذابًا شَدِيدًا. إنَّهُم ساءَ ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ من المعاصي! ١٦ ـ ﴿اتَّخَذُوا أَيمانَهُم جُنَّةً﴾: سِترًا عن أنفُسهم وأموالهم، ﴿فصَدُّوا﴾ بها المُؤمنين ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: الجِهادِ فيهم بقتلهم وأخذ أموالهم، ﴿فلَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة. ١٧ ـ ﴿لَن تُغنِيَ عَنهُم أَموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ﴾: من عذابه ﴿شَيئًا﴾ من الإغناء! ﴿أُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ اذكرْ ﴿يَومَ يَبعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا، فيَحلِفُونَ لَهُ﴾ إنهم مُؤمنون ﴿كَما يَحلِفُونَ لَكُم، ويَحسَبُونَ أَنَّهُم علَى شَيءٍ﴾ من نفعِ حلفِهم في الآخرة كالدنيا. ﴿أَلا إنَّهُم هُمُ الكاذِبُونَ. استَحْوَذَ﴾: استولى ﴿علَيهِمِ الشَّيطانُ﴾ بطاعتهم له،..........................

قولُهُ: (بتَحْقِيقِ) تقدَّمَ(١).

قولُهُ: (رَجَعَ) بأنْ رخَّصَ لكم أن لا تفعَلوهُ.

قولُهُ: (المُنَافِقُونَ) والَوْا.

قولُهُ: (مؤمنون) الظَّاهِرُ: آمَنوا.

قولُهُ: (سِتْراً) ووقايةً.

قولُهُ: (بقَتْلِهِم) أو فصدُّوا النَّاسَ في خلالِ أمنِهم عن دينِ اللهِ بالتَّحريشِ والتَّعويقِ.

قولُهُ: (ذُو إِهَانَةٍ) وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخرَ لعذابِهِم، وقيل: الأوَّلُ عذابُ القبرِ، وهذا عذابُ الآخرةِ.

قولُهُ: (مِنَ الإِغنَاءِ) أو العَذابِ.

قولُهُ: (بِطَاعَتِهِم لَهُ) أي: استولى وغلبَ وقَوِيَ، وهو ممَّا جاءَ على الأصلِ من غيرِ إعلالٍ بخلافِ نحوِ: استقامَ.

---

(١) في الآية رقم: (٨) من سورة «ص».

﴿فأنساهُم ذِكرَ اللهِ. أُولئِكَ حِزبُ الشَّيطانِ﴾: أتباعُه. ﴿ألا إنَّ حِزبَ الشَّيطانِ هُمُ الخاسِرُونَ. إنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ﴾: يُخالفون ﴿اللهَ ورَسُولَهُ أُولئِكَ في الأذَلِّينَ﴾: المغلوبينَ. ٢١ ـ ﴿كَتَبَ اللهُ﴾ في اللوح المحفوظ أو قضى، ﴿لَأَغلِبَنَّ أنا ورُسُلِيَ﴾ بالحُجّة والسيف. ﴿إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

٢٢ ـ ﴿لا تَجِدُ قَومًا، يُؤمِنُونَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ، يُوادُّونَ﴾: يُصادقون ﴿مَن حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ، ولَو كانُوا﴾ أي: المُحادّون ﴿آباءَهُم﴾ أي: المُؤمنين، ﴿أو أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عَشِيرَتَهُم﴾. بل يقصِدونهم بالسوء، ويقاتلونهم على الإيمان كما وقع لجماعة من الصحابة. ﴿أُولئِكَ﴾ الذين لا يُوادّونهم ﴿كَتَبَ﴾: أثبتَ ﴿في قُلُوبِهِمِ الإيمانَ، وأيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾: بنور ﴿مِنهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ويُدخِلُهُم جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها، رَضِيَ اللهُ عَنهُم﴾ بطاعته، ﴿ورَضُوا عَنهُ﴾ بثوابه. ﴿أُولئِكَ حِزبُ اللهِ﴾: يتّبعون أمرَه، ويجتنبون نهيَه. ﴿ألا إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون.

قولُهُ: (المَغْلُوبِينَ) أي: في جملةِ مَن هو أذلُّ خلقِ اللهِ.

قولُهُ: (يُصَادِقُونَ) والمرادُ: أنَّه لا ينبغِي أن يوادُّوهُم.

قولُهُ: (لجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ) رويَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الآيَةَ عُني بها جماعةٌ من الصَّحابةِ؛ فقولُهُ: (﴿وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم﴾) يريدُ: أبا عبيدةَ؛ لأنَّهُ قتلَ أباهُ يومَ أحدٍ، (﴿أَوْ أَبْنَاءَهُم﴾) يريدُ: أبا بكرٍ؛ لأنَّه دعا ابنَهُ للبرازِ يومَ بدرٍ، فأمرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أن يقعُدَ، (﴿أَوْ إِخْوَانَهُم﴾) يريدُ: مصعبَ بنَ عُميرٍ؛ لأنَّهُ قتلَ أخاهُ يومَ أحدٍ، (﴿أَوْ عَشِيرَتَهُم﴾) يريدُ: عليًّا ونحوَهُ، ممَّن قتَلوا عشائرَهُم، كذا في «المبهماتِ»[1].

قولُهُ: (بِنُورٍ) وهو نورُ القلبِ، أو القرآنُ، أو النَّصرُ على العدوِّ.

قولُهُ: (تعالى) أي: من عندِهِ.

قولُهُ: (بِطَاعَتِهِم) أو بطاعتِهِ.

قولُهُ: (بِثَوَابِهِ) أي: بما وعدَهُم من الثَّوابِ، أو بقضائِهِ.

قولُهُ: (يَتَّبِعُونَ) أي: جندَهُ وأنصارَ دينِهِ.

قولُهُ: (الفَائِزُونَ) بخيرِ الدَّارينِ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٧) وعزاه لابن عساكر فقال: روى ابن نطيس عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره.

سورة المجادلة

بفتح الدال وكسرها، والثاني هو المعروف، وتسمَّى سورة «قد سمع»، وسُمِّيتْ في مصحف أُبيٍّ ﷺ: الظِّهار. وهي ـ على ما روي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ ـ مدنيَّةٌ؛ قال الكلبيُّ: وابن السائب: إلا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [الآية: ٧]، وعن عطاء: العشرُ الأوَّلُ منها مدنيٌّ، وباقيها مكِّي، وقد انعكسَ ذلك على البيضاويِّ[١].

وآيُها[٢] إحدى وعشرون في المكي والمدني الأخير، واثنتان وعشرون في الباقي، وفي «التيسير»: هي عشرون وأربع آيات. وهو خلافُ المعروف في كتاب «العدد»[٣].

ووجه مناسبتها لما قبلها أنَّ الأولى خُتمتْ بفضل الله تعالى، وافتتحت هذه بما هو من ذلك، وقال بعض الأجلَّة في ذلك: لَمَّا كان في مَطْلع الأولى ذِكْرُ صفاته تعالى الجليلة، ومنها: «الظاهر والباطن»، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] افتتح هذه بذِكْر أنه جلَّ وعلا سَمِعَ قولَ المجادِلة التي شَكَتْ إليه تعالى، ولهذا قالت عائشة ـ فيما رواه النسائي وابن ماجه والبخاري تعليقاً[٤] ـ حين نزلت: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة إلى النبيِّ ﷺ تُكلِّمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقول، فأنزل الله تعالى: (قَدْ سَمِعَ) إلخ.

---

(١) حيث قال في تفسيره ٥/ ١٢١: مدنية، وقيل: العشر الأول مكي والباقي مدني.

(٢) في (م): وأنها، وهو تحريف.

(٣) من أنَّ عددها إحدى وعشرون أو اثنتان وعشرون. البيان في عَدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني ص٢٤٢.

(٤) النسائي في المجتبى ٦/ ١٦٨، وابن ماجه (٢٠٦٣)، والبخاري قبل الحديث (٧٣٨٦)، وهو عند أحمد (٢٤١٩٥).

وذَكَرَ سبحانه بعد ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية، وهي تفصيلٌ لإجمال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وبذلك تُعرَفُ الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشرِ، مع تواخيهما في الافتتاح بـ «سبَّحَ». إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتأمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ بإظهار الدال، وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ وابن محيصن بإدغامها في السين[1]، قال خلف بن هشام البزار: سمعتُ الكسائيَّ يقول: من قرأ: «قد سمع» فبيَّنَ الدالَ، فلسانه أعجميٌّ ليس بعربيٍّ. ولا يُلتفتُ إلى هذا، فكلا الأمرين فصيحٌ متواترٌ، بل الجمهور على البيان.

﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تراجعك الكلامَ في شأنه وفيما صَدَرَ عنه في حَقِّها من الظهار، وقرئ: «تحاورك» ـ والمعنى على ما تقدَّم ـ و«تحاولك»، أي: تسائلك[2].

﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ عَطْفٌ على «تجادلك» فلا محلَّ للجملة من الإعراب، وجُوِّزَ كونها حالاً، أي: تجادلك شاكيةً حالها إلى الله تعالى، وفيه بُعْد معنى، ومع هذا يُقدَّرُ معها مبتدأ، أي: وهي تشتكي؛ لأنَّ المضارعيةَ لا تقترنُ بالواو في الفصيح، فيقدَّرُ معها المبتدأُ لتكونَ اسميةً.

واشتكاؤها إليه تعالى: إظهارُ بَثِّها وما انطوتْ عليه من الغَمِّ والهَمِّ وتضرّعها إليه عزَّ وجلَّ، وهو من الشَّكْو، وأصله فَتْحُ الشَّكْوَةِ وإظهارُ ما فيها، وهي سقاءٌ صغيرٌ يجعلُ فيه الماء، ثم شاع في ذلك.

وهي امرأةٌ صحابيةٌ من الأنصار، اختلفَ في اسمها واسم أبيها، فقيل: خولةُ بنتُ ثعلبةَ بن مالك، وقيل: بنتُ خويلد، وقيل: بنتُ حكيم، وقيل: بنتُ

---

(١) النشر ٢/ ٣-٤.

(٢) القراءتان في الكشاف ٤/ ٦٩، والأولى عزاها في القراءات الشاذة ص١٥٣ لابن مسعود.

الصامت، وقيل: خويلةُ ـ بالتصغير ـ بنتُ ثعلبة، وقيل: بنتُ مالك بن ثعلبة، وقيل: جميلةُ بنت الصامت، وقيل غير ذلك، والأكثرون على أنها خولةُ بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية.

وأكثر الرواة على أنَّ الزوجَ في هذه النازلة أوسُ بن الصامت أخو عبادةَ بن الصامت، وقيل: هو سلمةُ بن صَخْرٍ الأنصاري، والحقُّ أنَّ لهذا قصةٌ أخرى(١).

والآيةُ نزلت في خولة وزوجها أوس، وذلك أنَّ زوجَها أوساً كان شيخاً كبيراً، قد ساء خُلُقه، فدخل عليها يوماً فراجعته بشيءٍ فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي ـ وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حَرُمَتْ عليه، وكان هذا أول ظِهارٍ في الإسلام ـ فندمَ من ساعته، فدعاها فأبتْ، وقالت: والذي نفسُ خولةَ بيده لا تَصِلُ إليَّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكمَ اللهُ ورسوله ﷺ فينا، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ أوساً تزوَّجني وأنا شابةٌ مرغوبٌ فيَّ، فلما خلا سِنِّي، ونَثَرْتُ بطني ـ أي: كَثُرَ ولدي ـ جعلني عليه كأمِّه، وتركني إلى غير أحد، فإنْ كنتَ تجدُ لي رخصةً يا رسول الله تنعشني بها وإياه فحدِّثني بها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والله ما أُمرتُ في شأنك بشيءٍ حتى الآن»، وفي رواية: «ما أراك إلا قد حَرُمْتِ عليه» قالت: ما ذَكَرَ طلاقاً، وجادلتْ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام مراراً، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شِدَّةَ وحدتي وما يشقُّ عليَّ من فراقه. وفي رواية: قالت: أشكو إلى الله تعالى فاقتي وشِدَّة حالي، وإنَّ لي صبيةً صغاراً، إن ضَمَمْتُهمْ إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهم إليَّ جاعوا. وجعلتْ ترفعُ رأسَها إلى السماء وتقول: اللهمَّ إني أشكو إليك، اللهم فأنزلْ على لسان نبيِّك. وما برِحَتْ حتى نزل القرآن فيها، فقال ﷺ: «يا خولةُ أبشري» قالت: خيراً؟ فقرأ عليه الصلاة والسلام عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآيات(٢).

وكان عمر رضي الله عنه يكرمها إذا دخلتْ عليه ويقول: قد سمع الله تعالى لها. وروى

---

(١) أخرجها أحمد (١٦٤٢١)، وأبو داود (٢٢١٣)، والترمذي (٣٢٩٩)، وابن ماجه (٢٠٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤) و(٢٢١٥)، وابن الجارود (٧٤٦)، والطبراني في الكبير (٦١٦) و٢٤/ (٦٣٣)، والبيهقي ٧/ ٣٨٩، ٣٩١-٣٩٢.

ابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»: أنها لقيَتهُ رضي الله عنه وهو يسيرُ مع الناس فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى إليها، ووضعَ يده على منكبيها حتى قضتْ حاجتها وانصرفت، فقال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين حَبَسْتَ رجالَ قريشٍ على هذه العجوز. قال: ويحكَ أتدري مَنْ هذه؟ قال: لا. قال: هذه امرأةٌ سَمِعَ الله تعالى شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولةُ بنتُ ثعلبة، والله لو لم تنصرفْ حتى أتى الليلُ ما انصرفتُ حتى تقضيَ حاجتَها(١).

وفي روايةٍ للبخاريِّ في «تاريخه»(٢) أنها قالت له: قفْ يا عمر. فوقفَ، فأغلظتْ له القولَ، فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين ما رأيتُ كاليومَ! فقال رضي الله عنه: وما يمنعني أن أستمعَ إليها، وهي التي استمعَ الله تعالى لها، فأَنزل فيها ما أنزل: (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ) الآيات.

والسماع مجازٌ عن القَبول والإجابة بعلاقة السببية أو كنايةٌ عن ذلك، و«قد» للتحقيق أو للتوقُّع، وهو مصروفٌ إلى تفريج الكَرْب لا إلى السمع؛ لأنه محقَّقٌ، أو إلى السمع؛ لأنه مجازٌ أو كناية عن القبول، والمراد توقُّع المخاطب ذلك، وقد كان ﷺ يتوقَّعُ أن يُنزِلَ الله تعالى حُكْمَ الحادثة، ويُفرِّجَ عن المجادلة كَرْبها، وفي الأخبار ما يُشعر بذلك.

والسمع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ على ما هو المعروفُ فيه من كونه صفةً يُدرك بها الأصوات غيرَ صفة العلم، أو كونِه راجعاً إلى صفة العلم.

والتحاور: المرادَّةُ في الكلام، وجُوِّزَ أن يُرادَ به الكلامُ المردَّد، ويقال: كلَّمتهُ فما رَجَعَ إليَّ حَوَاراً وحَويراً ومَحُورَةً، أي: ما رَدَّ عليَّ بشيءٍ، وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدُّده، وفي نَظْمها في سِلْكِ الخطاب تغليباً تشريفٌ لها من جهتين، والجملةُ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لما قبله، فإنَّ إلحافَها في المسألة ومبالغتَها في التضرُّع إلى الله تعالى، ومدافعته عليه الصلاة والسلام إياها وعِلْمَهُ عزَّ وجلَّ بحالهما من دواعي الإجابة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٧٩، والأسماء والصفات (٨٨٦).

(٢) ٧/ ٢٤٥.

وقيل: هي حالٌ كالجملة السابقة، وفيه أيضاً بُعْدٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ تعليلٌ لما قبله بطريق التحقيق، أي: إنه تعالى يسمعُ كلَّ المسموعات، ويُبصرُ كلَّ المبصَرات على أتمِّ وجهٍ وأكمله، ومن قضية ذلك أن يسمعَ سبحانه تحاورهما، ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رَفْعُ رأسها إلى السماء، وسائر آثار التضرُّع.

والاسمُ الجليلُ في الموضعين لتربية المهابة وتعليلِ الحُكْم بما اشتهر به الاسمُ الجليل من وَصْفِ الألوهية وتأكيدِ استقلال الجملتين.

وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ شروعٌ في بيان شأن الظِّهار في نفسه، وحُكْمِه المترتِّبِ عليه شرعاً، وفي ذلك تحقيقُ قبول تضرُّع تلك المرأة وإشكاؤها[١] بطريق الاستئناف.

والظِّهار لغةً: مصدرُ ظاهَرَ، وهو مفاعلةٌ من الظَّهر، ويُرادُ به معانٍ مختلفةٌ راجعةٌ إلى الظَّهر معنًى ولَفْظاً باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهَرَ زيدٌ عَمْراً، أي: قابَلَ ظَهْرَهُ بظهره حقيقةً، وكذا إذا غايظه وإن لم يقابل حقيقة، باعتبار أنَّ المغايظةَ تقتضي هذه المقابلة، وظاهَرَهُ: إذا نَصَرَهُ، باعتبار أنه يقال: قوَّى ظَهْرَهُ: إذا نَصَرَهُ، وظاهَرَ بين ثوبين: إذا لَبسَ أحدهما فوقَ الآخر، باعتبار جَعْل ما يلي به كلّ منهما الآخر ظَهْراً للثوب، وظاهَرَ من امرأته إذا قال لها: أنت عليَّ كَظَهْرِ أمي، وغاية ما يلزمُ كونُ لفظ الظَّهر في بعض هذه التراكيب مجازاً، وهو لا يمنعُ الاشتقاقَ منه، ويكون المشتَقُّ مجازاً أيضاً، وهذا الأخيرُ هو المعنى الذي نزلتْ فيه الآيات.

وعرَّفه الحنفيةُ شَرْعاً بأنه: تشبيهُ المنكوحة، أو عضوٍ[٢] منها يُعبَّرُ به عن الكُلِّ كالرأس، أو جزءٍ[٣] شائعٍ منها كالثلث، بقريبٍ مُحرَّمٍ عليه على التأبيد، أو بعضوٍ منه يَحرُمُ عليه النظرُ إليه.

---

(١) أي: إزالة شكايتها. القاموس (شكر).
(٢) في (م): عضواً.
(٣) في (م): جزءاً.

وحكي عن الشافعية أنه: تشبيهها أو عضوٍ منها بمحرَّمٍ من نَسَبٍ، أو رضاع، أو مصاهرة، أو عضوٍ منه لا يُذْكَرُ للكرامة كاليد والصدر، وكذا العضو الذي يُذْكَرُ لها كالعين والرأس إن قَصَدَ معنى الظهار، وهو التشبيهُ بتحريم نحو الأم، لا إن قَصَدَ الكرامةَ أو أطلقَ في الأصح، وتخصيصُ المحرَّم بالأمِّ قولٌ قديمٌ للشافعيِّ عليه الرحمة، وتفصيلُ ذلك في كتب الفقه للفريقين.

وكان الظهار بالمعنى السابق طلاقاً في الجاهلية، قيل: وأول الإسلام.

وحكى بعضُهم أنه كان طلاقاً يُوجبُ حرمةً مؤبَّدةً لا رجعةَ فيه، وقيل: لم يكنْ طلاقاً من كلِّ وجهٍ، بل لتبقى معلَّقةً، لا ذاتَ زوجٍ ولا خليةً تَنكِحُ غيرَهُ، وذَكَرَ بعضُ الأَجلَّة أنهم كانوا يعدُّونه طلاقاً مؤكَّداً باليمين على الاجتناب، ولذا قال الشافعية: إنَّ فيه الشائبتين، وسيأتي إن شاء الله تعالى الإشارة إلى حكمه الشرعي.

وعُدِّي بـ «من» مع أنه يتعدَّى بنفسه لتضمُّنه معنى التبعيدِ، ولِمَا سمعتَ أنه كان طلاقاً، وهو مبعدٌ.

والظَّهر في قولهم: أنت عليَّ كظهر أمي، قيل: مجازٌ عن البطن؛ لأنه إنما يَرْكَبُ البطنَ، فـ «كظهر أمي» أي: كبطنها، بعلاقةِ المجاورة، ولأنه عموده، لكن لا يظهرُ ما هو الصارفُ عن الحقيقة من النكات.

وقيل: خُصَّ الظهرُ لأنه محلُّ الركوب، والمرأةُ مركوبُ الزوج، ومن ثَمَّ سُمِّيَ المركوبُ ظهراً. وقيل: خُصَّ ذلك، لأنَّ إتيانَ المرأة من ظهرها في قُبُلها كان حراماً، فإتيانه أمَّه من ظهرها أحرمُ، فكَثُرَ التغليظ.

وإقحام «منكم» في الآية للتصوير والتهجين؛ لأنَّ الظِّهارَ كان مخصوصاً بالعرب، ومنه يُعلَمُ أنه ليس من مفهوم الصِّفة ليستدلَّ به على عدم صحة ظهار الذميِّ كما حُكي عن المالكية، ومن هنا قال الشافعية: يصحُّ من الذِّمِّيِّ والحربيِّ؛ لعموم الآية، وكذا الحنابلة. والحنفيةُ يقولون: لا يصحُّ منهما، وفي روايةٍ عن أبي حنيفةَ صِحَّته من الذمي، والروايةُ المعوَّلُ عليها عدمُ الصِّحَّة؛ لأنه ليس من أهل الكفارة، وشُنِّع على الشافعية في قولهم بصحَّته منه مع اشتراطهم النيةَ في الكفارة،

والإيمانَ في الرقبة، وتعذُّر ملكه لها؛ لأنَّ الكافرَ لا يملكُ المؤمن.

وقال بعضُ أجِلَّتهم: إنَّ في الكفارة شائبة الغرامات، ونيَّتها في كافرٍ كَفَّرَ بالإعتاق للتمييز كما في قضاء الديون، لا الصوم؛ لأنه لا يصحُّ منه لأنه عبادةٌ بدنيةٌ، ولا ينتقلُ عنه للإطعام لقدرته عليه بالإسلام، فإن عجزَ انتقلَ ونوى للتمييز أيضاً، ويُتَصوَّرُ مِلْكُهُ للمسلم بنحو إرثٍ أو إسلامِ قِنِّه، أو يقول لمسلم: أعتِقْ قِنَّكَ عن كفَّارتي. فيجيب، فإن لم يمكنهُ شيءٌ من ذلك وهو مظاهِرٌ موسِرٌ، مُنِعَ من الوطء لقدرته على مِلْكه بأن يُسْلِمَ فيشتريه[1]. انتهى.

وفي كتب بعض الأصحاب كـ «البحر»[2] وغيره كلامٌ مع الشافعية في هذه المسألة فيه نقضٌ وإبرامٌ لا يخلو عن شيءٍ، والسبب في ذلك قلةُ تتبُّعِ معتبرات كتبهم.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «يظَّهَّرون» بشدِّ الظاء والهاء، والأخوان وابن عامر: «يظَّاهرون» مضارعُ: اظَّاهَر[3]، وأبيٌّ: «يَتَظاهرون» مضارعُ: تظاهر[4]، وعنه أيضاً: «يتظهَّرون»[5] مضارع: تظهَّر.

والموصول مبتدأٌ خبرهُ محذوف، أي: مخطؤون، وأُقيم دليله وهو قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ مقامه، أو هو الخبرُ نفسُهُ، أي: ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كَذِبٌ بَحْتٌ.

وقرأ المفضَّل عن عاصم: «أمهاتُهم» بالرفع على لغة تميم[6]، وقرأ ابن مسعود «بأمهاتهم» بزيادة الباء[7]، قال الزمخشريُّ: في لغةِ مَنْ ينصب[8]، أي: بـ «ما» الخبرَ، وهم الحجازيون، يعني أنهم الذين يزيدون الباءَ دون التميميين، وقد تبعَ في

---

(١) ينظر تحفة المحتاج ٨/ ١٨٨-١٨٩.
(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم الحنفي ٤/ ١٠٤.
(٣) التيسير ص٢٠٦-٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٥
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٢.
(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والبحر المحيط٨/ ٢٣٢.
(٦) السبعة ص٦٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٢، وهي خلاف المشهور عن عاصم.
(٧) القراءات الشاذة ص١٥٣، والكشاف ٤/ ٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣.
(٨) الكشاف ٤/ ٧٠.

ذلك أبا عليٍّ الفارسي[1]، ورُدَّ بأنه سُمِعَ خلافه، كقول الفرزدق وهو تميميٌّ:

لَعَمْرُكَ ما مَعْنٌ بتاركِ حَقِّه ... ولا مُنسِئٌ مَعْنٌ ولا مُتيسِّر[2]

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم على الحقيقة ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا يُشبَّهُ بهنَّ في الحرمة إلا مَنْ ألحقها الله تعالى بهنَّ كالمرضعات ومنكوحات الرسول ﷺ، فَدَخَلْنَ في حكم الأمهات، وأما الزوجاتُ فأبعدُ شيءٍ من الأمومة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يُنكرهُ الشرعُ والعقل والطَّبع أيضاً، كما يُشعر به التنكير، ومناطُ التأكيد كونه منكراً، وإلا فصدور القول عنهم أمرٌ محقَّقٌ.

﴿وَزُورًا﴾ أي: وكَذِباً باطلاً منحرفاً عن الحق، ووجهُ كون الظهار كذلك عند مَنْ جعله إخباراً كاذباً علَّقَ عليه الشارعُ الحرمة والكفارة ظاهرٌ، وأما عند مَنْ جعله إنشاءً لتحريم الاستمتاع في الشرع ـ كالطلاق على ما هو الظاهر ـ فوجههُ أنَّ ذلك باعتبار ما تضمَّنه من إلحاق الزوجة بالأمِّ المنافي لمقتضى الزوجية.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالغٌ في العفو والمغفرة، فيغفرُ ما سلف منه، ويعفو عمَّن ارتكبه مطلقاً، أو بالتوبة.

ويُعلَمُ من الآيات أنَّ الظِّهارَ حرامٌ، بل قالوا: إنه كبيرةٌ؛ لأنَّ فيه إقداماً على إحالة حُكْم الله تعالى وتبديله بدون إذنه، وهذا أخطرُ من كثيرٍ من الكبائر؛ إذ قضيَّتُهُ الكفر لولا خلوُّ الاعتقاد عن ذلك، واحتمالُ التشبيه لذلك وغيره، ومن ثَمَّ سمَّاه عزَّ وجلَّ: «منكرا من القول وزورا» وإنما كره ـ على ما ذكره بعض الشافعية ـ: أنتِ عليَّ حرامٌ؛ لأنَّ الزوجيةَ ومطلقَ الحرمة يجتمعان، بخلافها مع التحريم المشابه لتحريم نحو الأمِّ، ومن ثَمَّ وَجَبَ هنا الكفارةُ العظمى، وثَمَّ ـ على ما قالوا ـ كفارةُ يمين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ إلخ، تفصيلٌ لحُكْمِ الظِّهار بعد بيان كونه أمراً منكراً بطريق التشريع الكُلِّيِّ المنتظم لحُكْم الحادثة انتظاماً أوَّليًّا.

---

(١) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٧٧.

(٢) ديوان الفرزدق ١/ ٣١٠.

والموصولُ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتدأ آخر خبرُه مقدَّرٌ، أي: فعليهم تحريرُ رقبة، أو فاعلُ فعلٍ مقدَّرٍ، أي: فيلزمهم تحريرُ، أو خبرُ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: فالواجبُ عليهم تحرير، وعلى التقادير الثلاثة الجملةُ خبرُ الموصول، ودخلتهُ الفاءُ لتضمُّنِ المبتدأ معنى الشرط.

و«ما» موصولةٌ أو مصدريةٌ، واللام متعلِّقةٌ بـ «يعودون»، وهو يتعدَّى بها كما يتعدَّى بـ «إلى» وبـ «في»، فلا حاجةَ إلى تأويله بأحدهما كما فعل البعض.

والعَوْدُ لما قالوا على المشهور عند الحنفية: العَزْمُ على الوطء، كأنه حمل العَوْد على التدارك مجازاً؛ لأنَّ التداركَ من أسباب العَوْد إلى الشيء، ومنها المَثَلُ: عاد غيثٌ على ما أفسد[1]. أي: تدارَكَهُ بالإصلاح، فالمعنى: والذين يقولون ذلك القولَ المنكر، ثم يتداركونه بنقضه، وهو العزمُ على الوطء، فالواجبُ عليهم إعتاقُ رقبة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: كلٌّ من المظاهِرِ والمظاهَرِ منها، والتماسُّ: قيل: كنايةٌ عن الجماع، فيحرُم قبل التكفير على ما تدلُّ عليه الآية، وكذا دواعيه من التقبيل ونحوه عندنا، قيل: وهو قولُ مالك والزهري والأوزاعي والنخعي، وروايةٌ عن أحمد، فإنَّ الأصلَ أنه إذا حَرُمَ حَرُمَ بدواعيه؛ إذ طريقُ المحرَّم محرَّمٌ، وعدمُ اطِّراد ذلك في الصوم والحيض لكثرة وجودهما، فتحريمُ الدواعي يُفضي إلى مزيد الحرج.

وقال العلامة ابن الهمام: التحقيق أنَّ الدواعي منصوصٌ على منعها في الظهار، فإنه لا مُوجبَ لحمل التماسِّ في الآية على المجاز لإمكان الحقيقة، ويحرمُ الجماعُ لأنه من أفراد التماسِّ كالمسِّ والقُبْلة[2].

وقال غيره: تحرمُ أقسام الاستمتاع قبل التكفير؛ لعموم لفظ التماسِّ، فيشملها بدلالة النص ومقتضى التشبيه في قوله: كظهر أمي، فإنَّ المشبَّهَ به لا يحلُّ الاستمتاع به بوجهٍ من الوجوه، فكذا المشبَّه.

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٨، ويضرب للرجل فيه فساد ولكنَّ الصلاح أكثر.
(٢) فتح القدير ٣/ ٢٢٧.

ويحرمُ عند الشافعية أيضاً الجماعُ قبله، وكذا يحرمُ لمسٌ ونحوه من كلِّ مباشرةٍ، لا نظرٌ بشهوةٍ في الأظهر كما في «المحرر»[1]، وقال الإمام النووي عليه الرحمة: الأظهر الجواز[2]. لأنَّ الحرمةَ ليست لمعنًى يُخِلُّ بالنكاح، فأشبه الحيض، ومن ثَمَّ حَرُمَ الاستمتاعُ فيه فيما بين السُّرَّة والرُّكْبة. وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام.

وحكى البيضاويُّ عن الإمام أبي حنيفةَ ﷺ أنَّ نَقْضَ القول المراد بالعَوْد بإباحة التمتع بها ولو بنظرةٍ بشهوة[3]. وحُمل ذلك على استباحة التمتع بمباشرته بوجهٍ مّا دون عَدِّه مباحاً من غير مباشرة.

ولعله أُريد بالمباشرة بوجهٍ مّا مباشرةٌ ليست من التماسِّ الذي قالوا بحرمته قبل التكفير.. وأيًّا ما كان، فظاهرُ تعليق الحكم بالموصول يدلُّ على عِلِّيَّةِ ما في حَيِّز الصِّلة، أعني: الظهار والعود له، فهما سببان للكفارة، وهذا أحدُ أقوالٍ في المسألة.

قال العلامة ابن الهمام: اختلف في سبب وجوبها، فقال في «المنافع»: تجب بالظهار والعَوْد؛ لأنَّ الظهارَ كبيرةٌ، فلا يصلحُ سبباً للكفارة؛ لأنها عبادة، أو المغلَّبُ فيها معنى العبادة، ولا يكون المحظورُ سبباً للعبادة، فعلّقَ وجوبها بهما ليخفَّ معنى الحرمة باعتبار العَوْد الذي هو إمساكٌ بمعروفٍ، فيكون دائراً بين الحظر والإباحة، وعليه فيصلحُ سبباً للكفارة الدائرة بين العبادة والعقوبة، وقيل: سببُ وجوبها العَوْدُ، والظهارُ شرطٌ[4]، ولفظُ الآية - أي: المذكورة - يحتملهما، فيمكنُ كون ترتيبها عليهما، أو على الأخير، لكن إذا أمكن البساطةُ صِيْرَ إليها؛ لأنها

---

(١) المحرر في فروع الشافعية للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفى في حدود سنة (٦٢٣هـ)، وهو الذي اختصره الإمام النووي وسماه: المنهاج. كشف الظنون ٢/ ١٦١٢-١٦١٣.

(٢) ينظر تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمي ٨/ ١٨٥.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١٦٧.

(٤) في (م): شرطه. والمثبت من الأصل والمصدر.

الأصلُ بالنسبة إلى التركيب، فلهذا قال في «المحيط»: سببُ وجوبها العَزْمُ على الوطء، والظهارُ شرط[١]، وهو بناء على أنَّ المراد من العود في الآية العزمُ على الوطء، واعتُرض بأنَّ الحكم يتكرَّرُ بتكرُّرِ سببه، لا شَرْطِه، والكفارةُ متكرِّرةٌ بتكرُّرِ الظهار لا العزم، وكثيرٌ من مشايخنا على أنه العَزْمُ على إباحة الوطء بناءً على إرادة المضاف في الآية، أي: يعودون لضدِّ ما قالوا، أو لتَدَارُكه، ويَرِدُ عليه ما يَرِدُ على ما قبله، ونصَّ صاحب «المبسوط» على أنَّ بمجرد العزم لا تتقرَّرُ الكفارة، حتى لو أبانها أو ماتت من بعد العزم، فلا كفارةَ، فهذا دليلٌ على أنها غيرُ واجبةٍ لا بالظهار ولا بالعود؛ إذ لو وجبتْ لما سقطتْ، بل موجبُ الظهار ثبوتُ التحريم، فإذا أراد رَفْعَهُ وَجَبَ عليه في رَفْعه الكفارة، كما تقول لمن أراد الصلاة النافلة: يجبُ عليك إن صَلَّيتها أن تُقدِّمَ الوضوء[٢]. انتهى.

ولا يخفى أنَّ إرادةَ المضاف غير متعيِّن بناءً على ما نقل عن الكثير من المشايخ، وأنَّ ظاهرَ الآية يفيد السببية كما ذكرنا آنفاً، ويكون الموجب للكفارة الأمران، وبه صرَّحَ بعضُ الشافعية، وجَعَل ذلك قياسَ كفارة اليمين، ثم قال: ولا ينافي ذلك وجوبها فوراً، مع أنَّ أحد سببيها ـ وهو العود ـ غيرُ معصية؛ لأنه إذا اجتمع حلالٌ وحرامٌ ولم يمكن تميُّزُ أحدهما عن الآخر غُلِّبَ الحرام.

وظاهرُ كلام الإمام النووي عليه الرحمة أنَّ موجبها الظهار، والعودُ شَرْطٌ فيه[٣]. وهو بعكس ما نقل عن «المحيط».

ثم إنَّ مَنْ جَعَل السببَ العزم، أراد به العزمَ المؤكَّد، حتى لو عزمَ ثم بدا له أن لا يطأها، لا كفارةَ عليه؛ لعدم العزم المؤكَّد، لا أنها وجبتْ بنفس العزم ثم سقطتْ ـ كما قاله بعضهم ـ لأنها بعد سقوطها لا تعود إلا بسببٍ جديد. كذا في «البدائع»[٤].

وذكَر ابن نجيم في «البحر» عن «التنقيح» أنَّ سبب الكفارة ما نُسبت إليه من أمرٍ

---

(١) في الأصل و(م): شرطه. والمثبت من المصدر.

(٢) فتح القدير ٣/ ٢٢٥، وينظر المبسوط للسرخسي ٦/ ٢٢٥.

(٣) ينظر تحفة المحتاج ٨/ ١٨٣.

(٤) بدائع الصنائع للإمام الكاساني ٥/ ٢٢.

دائرٍ بين الحظر والإباحة، ثم قال: إنَّ كونَ كفارة الظهار كذلك على قول مَنْ جَعَلَ السببَ مركَّباً من الظهار والعود، ظاهرٌ؛ لكون الظهار محظوراً والعودِ مباحاً؛ لكونه إمساكاً بالمعروف ونقضاً للزور.

وأما على القول بأنَّ المضاف إليه ـ وهو الظهار ـ سببٌ، وهو قول الأصوليين، فكونه دائراً بين الحظر والإباحة مع أنه منكرٌ من القول وزورٌ باعتبار أنَّ التشبيهَ يحتملُ أن يكون للكرامة، فلم يتمحَّضْ كونُه جنايةً.

واستَظْهَر بعدُ أنه لا ثمرةَ للاختلاف في سببها معلِّلاً بأنهم اتفقوا على أنه لو عجَّلها بعد الظهار قبل العود جاز، ولو كرَّر الظهارَ تكرَّرتِ الكفارةُ، وإن لم يتكرَّر العزم، ولو عَزَمَ ثم تَرَكَ، فلا وجوب، ولو عَزَمَ ثم أبانها سقطتْ، ولو عجَّلها قبل الظهار لم يصحَّ. ثم إنه لا استحالة في جَعْلِ المعصية سبباً للعبادة التي حُكْمها أن تُكفِّر المعصيةَ وتُذهبَ السيئة، خصوصاً إذا صار معنى الزجر فيها مقصوداً، وإنما المحال أن تُجعل سبباً للعبادة الموصلة إلى الجنة[1]. انتهى. ولا يخلو عن حُسْنٍ ما عدا توجيه كون الظهار دائراً بين الحظر والإباحة، فإنه كما ترى.

وفسَّرَ بعضُهم العودَ بالرجوع، واللام بـ «عن» كما نقل عن الفراء[2]، أي: ثم يرجعون عمَّا قالوا، فيريدون الوطء. قال الزيلعيُّ[3]: وهذا تأويلٌ حَسَن؛ لأنَّ الظهارَ موجبه التحريم المؤبَّد، فإذا قَصَدَ وَطْأَها وعَزَمَ عليه، فقد رجع عمَّا قال. ولا يخفى أنَّ جَعْلَ اللام بمعنى «عن» خلافُ الظاهر.

وقيل: العَوْدُ: الرجوع، والمراد بـ «ما قالوا»: ما حرَّموه على أنفسهم بلفظ الظهار، وهو التَّماسُّ؛ تنزيلاً للقول منزلةَ المقول فيه، نحو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] والمعنى: ثم يريدون العَوْدَ للتماسِّ، وفيه تجوُّزان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ معنى «ثم يعودون»: ثم يندمون ويتوبون، أي: يعزمون على التوبة، كأنه حَمَلَ العَوْدَ على التدارك، والتائبُ متدارِكٌ لما صَدَرَ عنه بالتوبة.

---

(١) البحر الرائق ٤/١٠٨-١٠٩.
(٢) معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.
(٣) في كتابه تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ٣/ ٤.

واعتُرِض بأنه يقتضي أنه إذا لم يندمْ لا تلزمه الكفارة، وإذا جُعلتِ الكفارةُ نفس التوبة، فأين معنى العود؟ وأيضاً لا معنى لقولِ القائل: ثم يعزمون على الكفارة فتحرير. . إلخ.

والعَوْدُ عند الشافعية يتحقَّقُ في غير مؤقَّتٍ ورجعية بأن يمسكها على الزوجية ـ ولو جهلاً ونحوه ـ بعد فراغ ظهاره، ولو مكرَّراً للتأكيد، وبعد علمه بوجود الصفة في المعلَّق وإن نسيَ أو جُنَّ عند وجودها، زمنَ إمكان فرقةٍ شَرْعاً، فلا عَوْدَ في نحو حائضٍ إلا بالإمساك بعد انقطاع دمها؛ لأنَّ تشبيهها بالمحرَّم يقتضي فراقها، فبعدم فِعْله صار ناقضاً له متداركاً لما قال، فلو اتَّصل بلفظ الظهار فُرقةٌ بموتٍ أو فسخٍ، أو انفساخٌ بنحو رِدَّةٍ قبل وَطْءٍ، أو طلاقٌ بائنٌ أو رجعيٌّ، ولم يراجع، أو جُنَّ أو أُغمي عليه عَقِبَ اللَّفظ، ولم يمسكها بعد الإفاقة، فلا عَوْدَ؛ للفُرْقة، أو تعذُّرِها. أو لاعَنَها في الأصحِّ بشرطِ سَبْقِ القذفِ والرفعِ للقاضي ظهارَه[1] في الأصحِّ.

ولو راجعَ مَنْ ظاهَرَ منها رجعيةً أو مَنْ طلَّقها رجعيًّا عقِبَ الظهار، أو ارتدَّ متصلاً وهي موطوءة ثم أسلم، فالمذهب أنه عائدٌ بالرجعة لأنَّ المقصودَ بها استباحةُ الوَطْءِ، لا بالإسلام؛ لأنَّ المقصود به العَوْدُ للدين الحق، والاستباحةُ أمرٌ يترتَّبُ عليه، إلا إذا أمسكها بعده زمناً يَسَعُ الفرقة.

وفي الظهار المؤقَّتِ الواقع كما التزم على الصحيح[2] لخبرٍ صحيح فيه، الأصحُّ أنَّ العودَ لا يحصلُ بإمساكٍ، بل بوطءٍ مشتملٍ على تغييب الحشفة أو قَدْرِها من مقطوعها في المدة للخبر أيضاً، ولأنَّ الحِلَّ منتظرٌ بعدها، فالإمساك يحتمل كونه لانتظاره أو للوطء فيها، فلم يتحقَّقِ الإمساك لأجل الوطء إلا بالوطء فيها، فكان المحصِّلَ للعود.

واعتُرِض ما قالوه بأنَّ «ثم» تدلُّ على التراخي الزماني، والإمساكُ المذكورُ معقّب لا متراخٍ، فلا يُعطَفُ بـ «ثم» بل بالفاء. وَرُدَّ بأنَّ مُدَّةَ الإمساك ممتدَّةٌ، ومثله يجوز فيه العَطْفُ بـ «ثم» والعَطفُ بالفاء، باعتبار ابتدائه وانتهائه، وعلى هذا لا حاجة إلى القول بأنها للدلالة على أنَّ العَوْدَ أشدُّ تبعةً وأقوى إثماً من نفسِ

---

(١) قوله: ظهارَه، مفعول به للمصدر «سَبْق» في قوله: بشرط سَبْقِ القذف. . .

(٢) جاء في هامش الأصل: كونه لغواً أو مؤبداً، خلاف الصحيح. اهـ منه.

الظهار حتى يقال عليه: إنه غيرُ مُسلَّم، ولا إلى قول الإمام أنه مشتركُ الإلزام بين الشافعية والحنفية القائلين بأنَّ العَوْدَ استباحةُ الاستمتاع، فيمنع أيضاً؛ لأنَّ الاستباحةَ المذكورةَ عَقِبَ الظهار ـ قولاً ـ نادرةٌ، فلا يتوجَّه ذلك على الحنفية.

واعترض أيضاً بأنَّ الظهار لم يوجبْ تحريمَ العقد حتى يكونَ العَوْدُ إمساكها، ومن تعليل الشافعية السابق يُعلَمُ ما فيه.

وفي «التفريع» لابن الجلاب المالكي[1] أنه روي عن الإمام مالك في المراد بالعَوْد روايتان: إحداهما: أنه العزم على إمساكها بعد الظهار منها، والرواية الأخرى: أنه العزم على وطئها، ثم قال: ومن أصحابنا من قال: العودُ في إحدى الروايتين عن مالك هو الوطءُ نفسُهُ، والصحيحُ عندي ما قدمته. انتهى من مدوَّنه.

وابن حجر نسبَ القولَ بأنه العزمُ على الوطء إلى الإمام مالك والإمام أحمد، والقولَ بأنه الوطءُ نفسُهُ إلى الإمام أبي حنيفة، وذكر أنهما قولان للإمام الشافعي في القديم[2]، وما حكاه عن الإمام أبي حنيفةَ لم يَحْكِهِ عنه فيما نعلم أحدٌ من أصحابه، وحكاه الزيلعيُّ عن الإمام مالك، ولم يحْك عنه غيرهُ، وحكاه أبو حيان في «البحر»[3] عن الحسن وقتادة وطاوس والزهري وجماعة، وأفاد أنه إحدى روايتين عن مالك، ثانيتهما: أنه العزمُ على الإمساك والوطء.

واعترض القولُ به ممن كان، وكذا القول بأنه العزم على الوطء، بأنَّ الآيةَ لما نزلت وأمرَ ﷺ المظاهِرَ بالكفارة، لم يسأله هل وَطِئَ أو عَزَمَ على الوطء؟ والأصل عَدَمُ ذلك، والوقائع القوليةُ كهذه يُعمِّمها الاحتمال، وأنها ناصَّةٌ على وجوب الكفارة قبل الوطء، فيكون العَوْدُ سابقاً عليه، فكيف يكونُ هو الوطء؟!

وأجاب القائلُ بأنه العزم على الوطء عن تَرْكِ السؤال بأنَّ ذلك لِعِلْمِهِ عليه الصلاة والسلام به من خَوْلة، فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن المنذر

---

(١) هو أبو القاسم عبيد الله بن الحسن الفقيه الأصولي، وكتابه التفريع في المذهب مشهور معتمد، توفي سنة (٣٧٨هـ). الديباج المذهب ص١٤٦، وشجرة النور الزكية ص٩٢.
(٢) تحفة المحتاج ٨/ ١٨٣-١٨٤.
(٣) ٨/ ٢٣٣.

والطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال: حدثتني خولةُ بنتُ ثعلبة قالت: فيَّ وفي أوس بن الصامت أنزل الله تعالى صَدْرَ سورة المجادلةِ، كنتُ عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خُلُقُهُ، فدخل عليَّ يوماً، فراجعته بشيءٍ فغضِبَ فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم رَجَعَ فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قلت: كلا والذي نفسُ خولةَ بيده، لا تَصِلُ إليَّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكمَ الله تعالى ورسوله ﷺ فينا، ثم جئتُ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فذكرتُ له ذلك، فما بَرِحْتُ حتى نزل القرآن. . . الخبر[1]. فإنَّ ظاهرَ قولها: فذكرتُ له ذلك. أنها ذكرتْ كلَّ ما وقع، ومنه طَلَبُ أوسٍ وَطْأها المكنَّى عنه بـ: يريدني عن نفسي. وذِكْرُ ذلك له عليه الصلاة والسلام أهمُّ لها من ذِكْرها إياه ليوسف بن عبد الله بن سلام.

وأجيب ـ من جهة القائل بأنه الوطءُ ـ عن الأخير، بأنَّ المرادَ من الآية عند ذلك القائل: من قبل أن يُباحَ التماسُّ شرعاً، والوطءُ أولاً حرامٌ موجبٌ للتكفير. وهو كما ترى.

ونُقل عن الثوريِّ ومجاهدٍ أنَّ معنى الآية: والذين كانتْ عادتُهم أن يقولوا هذا القولَ المنكر، فقطعوه بالإسلام، ثم يعودون لمثله، فكفَّارةُ مَنْ عاد أن يُحرِّرَ رقبةً ثم يماس المظاهَر منها. فحملا العَوْدَ والقول على حقيقتهما. وفي اعتبار العادة دلالةٌ على أنَّ العدول إلى المضارع في الآية للاستمرار فيما مضى وقتاً فوقتاً، وأخذ القطع من دلالة «ثم» على التراخي؛ وليصحَّ على وجهٍ لا يلزمُ تعليق وجوب الكفارة بتكرار لفظ الظهار كما سيأتي إن شاء الله تعالى حكايته.

وتعقب ذلك بأنَّ فيه أنَّ الاستمرار ينافي القطع، ثم إنهم ما كانوا قطعوه بالإسلام؛ لأنَّ الشرع لم يكنْ وَرَدَ بعدُ بتحريمه، وظاهر النظم الجليل أنه مظاهَرةٌ بعد الإسلام لأنه مسوقٌ لبيان حُكْمه فيه، وعليه ينطبقُ سببُ النزول، وهو يقتضي أن يكون مجردُ الظهار من غير عَوْدٍ موجباً للكفارة، وهو خلافُ ما عليه علماء الأمصار.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٧٩، وأحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤) و(٢٢١٥)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي ٧/ ٣٨٩، ٣٩١-٣٩٢.

وأجيب عن هذا الأخير بأنهما إن نقل عنهما ذلك اجتهاداً فلا يلزمهما موافقة غيرهما، وهو المصرَّحُ به في كتاب «الأحكام»(١) وغيره، وإن لم ينقل عنهما غير تفسير العود في الآية بما أشير إليه، فيجوز أن يشترطا لوجوب الكفارة شيئاً مما مرَّ، لكن لا يقولان: إنه المراد بالعود فيها.

وقال أهل الظاهر: المعنى: الذين يقولون هذا القولَ المنكر ثم يعودون له فيكرِّرونه، بأن يقول أحدهم: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ثم يعودُ له ويقوله ثانياً، فكفَّارته تحريرُ رقبةٍ . . إلخ، فحملوا العَوْدَ والقول على حقيقتهما أيضاً.

وروي ذلك عن أبي العالية وبُكير بن عبد الله بن الأشجّ والفراء أيضاً(٢)، وحكاه أبو حيان رواية عن الإمام أبي حنيفة(٣). ولا نعلم أحداً من أصحابه رواه عنه.

وتُعقِّب بأنه لو أُريد ذلك لقيل: يعودون له، فإنه أخصر، ولا يبقى لكلمة «ثم» حُسْنُ موقع.

هذا، ولا فقه فيه من حيث المعنى، والمُنْزَلُ فيه ـ أعني قصة خولة ـ يدفعه؛ إذ لم ينقل التكرار، ولا سأل عنه ﷺ، وهذا الدفع قويٌّ، وأما ما قيل، فقد أجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون الفقه فيه أنه ليس صريحاً في التحريم، فلعلَّه يسبقُ لفظه به من غير قصدٍ لمعناه، فإذا كرَّره تعيَّن أنه قصده، وأنَّ العدول عن «له» إلى: «لما قالوا» لِقَصْد التأكيد بالإظهار، وأنَّ العطف بـ «ثم» لتراخي رتبة الثاني وبُعْدِهِ عن الأول؛ لأنه الذي تحقَّق به الظهار، وقول الزيلعيِّ في الاعتراض عليه: إنَّ اللفظَ لا يحتمله؛ لأنه لو أُريد ذلك لقيل: يُعِيدون القول الأول ـ بضمِّ الياء وكسر العين من الإعادة، لا من العود ـ جهلٌ ناشئٌ من قِلَّة العود لكلام الفصحاءِ، والرجوع إلى محاوراتهم.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: معنى العود أن يحلفَ أولاً على ما قال من الظهار بأن يقول: والله أنتِ عليَّ كظهر أمي، وهو عَوْدٌ لما قال وتكرارٌ له معنى؛ لأنَّ

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٧، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٨/ ١٦٧.

(٢) معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣٣.

القَسَمَ لكونه مؤكِّداً للمقسَم عليه يفيد ذلك، فلا تلزمُ الكفارةُ في الظهار من غير قَسَمٍ عنده. وهذا القولُ إلغاءٌ للظهار معنًى؛ لأنَّ الكفارةَ لحلفه على أمرٍ كَذَبَ فيه، وأيضاً المنزل فيه يدفعه إذ لم ينقل الحلف ولا سأل عنه رسول الله ﷺ، والأصل عَدَمُهُ، وقيل: عَوْده: تكراره الظهار معنًى بأن يقول: أنت عليَّ كظهر أمي إن فعلتُ كذا. ثم يفعله، فإنه يحنثُ وتلزمه الكفارة، وتُعَدُّ مباشرته ذلك تكريراً للظهار، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وأما تعليقُ الظهار فقد ذكر الشافعية أنه يصحُّ؛ لأنه لاقتضاء التحريم كالطلاق والكفارة كاليمين، وكلاهما يصحُّ تعليقه، فإذا قال: إن دخلتِ الدارَ فأنتِ عليَّ كظهر أمي. فدخلتْ، ولو في حال جنونه أو نسيانه، صَحَّ لكن لا عَوْدَ عندهم في الصورة المفروضة حتى يمسكها عَقِبَ الإفاقة، أو تذكُّره، وعلمه بوجود الصفة قَدْر إمكان طلاقها ولم يطلقها، وقد أطالوا في تفاريع التعليق الكلامَ بما لا يسعه هذا المقام.

وعندنا أيضاً يصحُّ تعليقه، وكذا تقييده بيومٍ أو شهر، ولا يبقى بعد مُضيِّ المدة، نعم لو ظاهر واستثنى يوم الجمعة مثلاً، لم يجزْ، ولو عَلَّقَ الظهارَ بشرطٍ ثم أبانها، ثم وجدَ الشرط في العِدَّة، لا يصيرُ مظاهراً، بخلاف الإبانة المعلَّقة، كما بُيِّنَ في محلِّه.

وقال الأخفش: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرها: والذين يُظاهرون من نسائهم فتحرير رقبةٍ لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم. ولا يذهبُ إليه إلا أخفش أو أعشى أو أعمش.

وفي قوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ دليلٌ لنا، وكذا للشافعي وأحمد وجمعٍ كثيرٍ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، على أنه لو ظاهَرَ من أمته الموطوءة أو غيرها لا يصحُّ، وبيان ذلك أنه يتناول نساءنا، والأَمَةُ وإن صَحَّ إطلاقُ لفظ نسائنا عليها لغةً، لكن صحة الإطلاق لا تستلزمُ الحقيقة؛ لأنَّ حقيقةَ إضافة النساء إلى رجلٍ أو رجالٍ إنما تتحقَّق مع الزوجات دون الإماء؛ لأنه المتبادر، حتى يصحّ أن يقال: هؤلاء جواريه لا نساؤه، وحرمة بنت الأَمَة ليس لأنَّ أُمَّها من نسائنا مرادةٌ بالنصِّ،

بل لأنها [بنت] موطوءةٌ وَطْءاً حلالاً عند الجمهور، وبلا هذا القيد عندنا، على أنه لو أريد بالنساء هناك ما تصحُّ به الإضافة، حتى يشملَ المعنى الحقيقيَّ وهنَّ الزوجات، والمجازيَّ ـ أعني: الإماء ـ بعموم المجاز، لأمكنَ؛ للاتفاق على ثبوت ذلك الحكم في الإماء كثبوته في الزوجات، أما هنا فلا اتفاقَ ولا لزومَ عندنا أيضاً ليثبتَ بطريق الدلالة؛ لأنَّ الإماءَ لَسْنَ في معنى الزوجات؛ لأنَّ الحِلَّ فيهن تابعٌ غيرُ مقصود من العقد ولا من الملك حتى يثبُتا مع عَدَمِهِ في الأمة المجوسية والمراضعة[1]، بخلاف عقد النكاح لا يصحُّ في موضعٍ لا يحتمل الحِلَّ، واستدلَّ أيضاً بأنَّ القياسَ شأنه أن لا يُوجبَ هذا التشبيه الذي في الظهار سوى التوبة، ووردَ الشرعُ بثبوت التحريم فيه في حَقِّ مَنْ لها حقّ الاستمتاع، ولا حقَّ للأمة فيه، فيبقى في حَقِّها على أصل القياس، وبأنَّ الظهار كان طلاقاً فنُقِلَ عنه إلى تحريمٍ مُغيًّا بالكفارة، ولا طلاقَ في الأمة، وهذا ليس بشيءٍ للمتأمّل.

ونُقل عن مالك والثوري صحةُ الظهار في الأمة مطلقاً، وعن سعيد بن جبير وعكرمة وطاوس والزهري صحته في الموطوءة. ثم إنَّ الشرطَ كونها زوجة في الابتداء، فلو ظاهَرَ من زوجته الأمة، ثم مَلَكَها، بقي الظهارُ، فلا يجوز له وَطْؤها حتى يُكفِّرَ كما صرَّحوا به، والمراد بالزوجة المنكوحةُ التي يصحُّ إضافةُ الطلاق إليها، فلا فَرْقَ بين مدخولٍ بها وغيرها، فلا يصحُّ الظهارُ من مُبانة ـ ومنه ما سمعتَ آنفاً ـ ولا من أجنبيةٍ إلا إذا أضافه إلى التزوُّج، كأن قال لها: إن تزوجتك فأنتِ عليَّ كظهر أمي. ثم تزوَّجها، فإنه يكون مظاهِراً، نعم في «التتارخانية»: لو قال: إذا تزوَّجتك فأنتِ طالق، ثم قال: إذا تزوجتك فأنت عليَّ كظهر أمي. فتزوَّجها، يقعُ الطلاق، ولا يلزمُ الظهارُ في قول أبي حنيفة، وقال صاحباه: لزماهُ جميعاً، وعن مالكٍ أنه إذا ظاهَرَ من أجنبيةٍ ثم نكحها، لَزِمَ الظهارُ، أضافهُ إلى التزوُّج أم لا.

وقال بعض العلماء: لا يصحُّ ظهارُ غيرِ المدخول بها.

وقال المُزَنيُّ: لا يصحُّ ظهارُ المطلَّقة الرجعية.

---

(١) في فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٢٣٣: والمواضعة، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

وظاهر «الذين يظاهرون» يشملُ العبدَ، فيصحُّ ظهاره، وقد ذكر أصحابنا أنه يصحُّ ظهارُ الزوج البالغ العاقل المسلم، ويُكفِّرُ العبدُ بالصوم، ولا يُنَصَّفُ لما فيه من معنى العبادة، كصوم رمضان، ومثله المحجورُ عليه بالسَّفَه على قولهما المفتى به.

وحكى الثعلبيُّ عن مالكٍ أنه لا يصحُّ ظهارُ العبد.

ولا تدخلُ المرأةُ في هذا الحكم، فلو ظاهرتْ من زوجها، لم يلزمْ شيءٌ كما نقل ذلك في «التتارخانية» عن أبي يوسف. وقال أبو حيان[١]: قال الحسن بن زياد: تكون مظاهرة. وقال الأوزاعيُّ وعطاء وإسحاق وأبو يوسف: إذا قالت المرأة لزوجها: أنتَ عليَّ كظهر فلانة. فهي يمينٌ تُكفِّرها، وقال الزهريُّ: أرى أن تُكفِّرَ كفارةَ الظهار، ولا يحولُ قولُها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها. انتهى.

والرقبة من الحيوان معروفة، وتُطلَقُ على المملوك، وذلك من تسمية الكُلِّ باسم الجزء، كما في «المُغْرِب»[٢]، وهو المراد هنا.

وفي «الهداية»: هي عبارةٌ عن الذات المرقوق من كلِّ وجه[٣]. فيجزئُ في الكفارة إعتاقُ الرقبة الكافرة والمؤمنة، والذكر والأنثى، والكبير والصغير ـ ولو رضيعاً ـ لأنَّ الاسمَ ينطلقُ على كلِّ ذلك، ومقتضى ذلك إجزاءُ إعتاق المرتدِّ والمرتدَّة والمستأمَنِ والحربيِّ، وفي «التتارخانية» أنَّ المرتدَّ يجوزُ عند بعض المشايخ، وعند بعضهم لا يجوز، والمرتدَّةُ تجوزُ بلا خلافٍ، أي: لأنها لا تُقْتَلُ، وفي «الفتح»[٤]: إعتاقُ الحربيِّ في دار الحرب لا يجزيه في الكفارة، وإعتاقُ المستأمَنِ يجزيه.

وفي «التتارخانية»: لو أعتقَ عبداً حربيًّا في دار الحرب، إن لم يُخْلِ سبيله، لا يجوز، وإن خلَّى سبيله ففيه اختلافُ المشايخ، فبعضُهم قالوا: لا يجوز، وشمل

(١) في البحر المحيط ٨/ ٢٣٣ وما قبله منه أيضاً.
(٢) المُغْرب في ترتيب المعرب للمطرزي مادة (رقب).
(٣) الهداية (مع فتح القدير) ٣/ ٢٣٤.
(٤) شرح فتح القدير ٣/ ٢٣٥.

الرقبة الصحيح والمريض فيجزي كلّ منهما، واستثنى في «الخانية» مريضاً لا يرجى برؤه، فإنه لا يجوز لأنه ميتٌ حُكْماً، وفي جواز إعتاق حلالِ الدم كلام، فحكى في «البحر» أنه إذا أعتق عبداً حلال الدم قد قضى بدمه ثم عفى عنه أو(١) كان أبيضَ العينين فزال البياض، أو كان مرتدًّا فأسلم، لا يجوز.

وفي «جامع الفقه»: جاز المديونُ والمرهون ومباح الدم، ويجوز إعتاقُ الآبق إذا عُلم أنه حيٌّ، ولا بدَّ أن تكونَ الرقبةُ غيرَ المرأة المظاهَر منها لما في «الظهيرية» و«التتارخانية»: أمةٌ تحت رجل ظاهَرَ منها، ثم اشتراها وأعتقها كفارة ظهارها، قيل: تجزئ، وقيل: لا تجزئ في قول أبي حنيفة ومحمد خلافاً لأبي يوسف(٢).

ويجوز الأصمُّ استحساناً إذا كان بحيث إذا صيح عليه يسمع، وفي رواية «النوادر»: لا يجوز.

ولا تجزي العمياءُ ولا المقطوعةُ اليدين أو الرجلين، وكذا مقطوعُ إبهام اليدينِ ومقطوعُ إحدى اليدين وإحدى الرجلين من جانبٍ واحدٍ، والمجنونُ الذي لا يعقل.

ولا يجوزُ إعتاقُ المدبَّر وأمِّ الولد، وكذا المكاتب الذي أدى بعضَ المال، وإن اشترى أباه أو ابنه ينوي بالشراء الكفارةَ جاز عنها، وإن أعتقَ نصفَ عبدٍ مشترك وهو موسرٌ فَضَمِنَ قيمةَ باقيه، لم يجز عند الإمام، وجاز عند صاحبيه، وإن أعتقَ نصفَ عبده عن كفارته ثم جامعَ ثم أعتق باقيه، لم يجزه عنده؛ لأنَّ الإعتاق يتجزَّأ عنده، وشَرْطُ الإعتاق أن يكون قبل المسيس بالنَّصِّ؛ وإعتاقُ النِّصف حَصَلَ بعده، وعندهما إعتاقُ النصف إعتاقُ الكلِّ، فحصل الكلُّ قبل المسيس، واشترط الشافعيُّ عليه الرحمة كونَ الرقبة مؤمنة ولو تَبَعاً لأصلٍ أو دارٍ أو سابٍ(٣)؛ حَمْلاً للمطلق في هذه الآية على المقيَّد في آية القتل(٤) بجامع عدم الإذن في السبب.

---

(١) في الأصل و(م): فلو. والمثبت من البحر الرائق ٤/ ١١٠.
(٢) ينظر البحر الرائق ٤/ ١١٠.
(٣) أي: إذا كان السابي للرقبة مؤمناً، يحكم بإيمانها.
(٤) وهي الآية (٩٢) من سورة النساء.

وقال الحنفية: لا يُحمَلُ المطلق على المقيَّد إلا في حُكمٍ واحدٍ في حادثةٍ واحدةٍ؛ لأنه حينئذٍ يلزمُ ذلك لزوماً عقليًّا؛ إذ الشيءُ لا يكون نفسُهُ مطلوباً إدخاله في الوجود مطلقاً ومقيَّداً، كالصوم في كفارة اليمين وَرَدَ مطلقاً، ومقيَّداً بالتتابع في القراءة المشهورة التي تجوز القراءةُ بمثلها، والكلامُ في تحقيق هذا الأصل في الأصول.

وقالوا على تقدير[١] التنزل إلى أصل الشافعية من الحمل مطلقاً: إنه لا يلزمُ من التضييق في كفارةِ الأمرِ الأعظم ـ وهو القتلُ ـ ثبوتُ مثله فيما هو أخفُّ منه، ليكونَ التقييدُ فيه بياناً في المطلق، وما ذكروه من الجامع لا يكفي. ووافقوا في كثيرٍ مما عدا ذلك، وخالفوا أيضاً في كثيرٍ، فقالوا: يُشترَطُ في الرقبة أن تكونَ بلا عَيبٍ يُخِلُّ بالعمل والكَسْبِ، فيجزئُ صغيرٌ ولو عَقِبَ ولادته، وأقرع وأعرج يمكنه من غير مشقَّةٍ لا تحتملُ عادةً تتابعَ المشي، وأعور لم يضعفْ نظرُ سليمته حتى أَخَلَّ بالعمل إخلالاً بَيِّناً، وأصمُّ وأخرس يَفهمُ إشارةَ غيره ويَفهمُ غيرُهُ إشارته مما يحتاج إليه، وأخشم، وفاقدُ أنفه وأذنيه وأصابع رجليه وأسنانه، وعِنِّينٌ ومجبوبٌ ورتقاءُ وقرناءُ وأبرص ومجذومٌ وضعيفُ بَطْشٍ، ومَنْ لا يُحسِنُ صَنْعةً، وولدُ زنًى، وأحمق ـ وهو مَنْ يَضَعُ الشيءَ في غير محلِّه مع عِلْمه بقبحه ـ وآبق ومغصوبٌ وغائبٌ عُلِمتْ حياته أو بانتْ وإن جُهلتْ حالةُ العتق، لا زَمِنٌ[٢]، وجنينٌ وإن انفصل لدون ستَّة أشهرٍ من الإعتاق، أو فاقدُ يدٍ أو رجلٍ أو أَشَلُّ أحدهما، أو فاقدُ خنصرٍ وبنصرٍ معاً من يدٍ، أو أنملتين من غيرهما، أو أنملة إبهام ـ كما قال النووي عليه الرحمة ـ ولا هَرِمٌ عاجزٌ، ولا مَنْ هو في أكثر وقته مجنونٌ، ولا مريضٌ لا يُرجى عند العتق بُرْءُ مرضه ـ كَسُلال[٣] ـ فإن بَرِئَ بعد إعتاقه بان الإجزاء في الأصح. ولا مَنْ قُدِّمَ لقتلٍ، بخلاف من تحتَّم قتله في المحاربة قبل الرفع للإمام، ولا يُجزِئ شراءُ أو تملُّكُ قريبٍ: أصلٍ أو فرعٍ بنيَّة كفارةٍ، ولا عتقُ أمِّ ولد،

---

(١) في (م): تقدر.
(٢) زَمِنَ الشخصُ زَمَناً فهو زَمِنٌ، وهو مرض يدوم زماناً طويلاً. المصباح (زمن).
(٣) أي: السِّل. مختار الصحاح (سلل).

ولا ذو كتابةٍ صحيحةٍ قبل تعجيزه، ويُجزئ مدبَّرٌ ومُعلَّقٌ عتقُه بصفةٍ غير التدبير، وقالوا: لو أعتق مُعسرٌ نصفين له من عبدين عن كفارة، فالأصحُّ الإجزاء إن كان باقيهما أو باقي أحدهما حرًّا، إلى غير ذلك[1].

وفي الإتيان بالفاء في قوله تعالى: (فَتَحۡرِيرُ) إلخ دلالةٌ ـ على ما قال بعضُ الأجلَّة ـ على تكرُّرِ وجوب التحرير بتكرُّر الظهار، فإذا كان له زوجتان مثلاً، فظاهَرَ من كلٍّ منهما على حِدَةٍ، لزمه كفارتان.

وفي «التلويح»: لو ظاهَرَ من امرأته مرتين أو ثلاثاً في مجلسٍ واحدٍ، أو مجالسَ متفرقة، لَزِمه بكلِّ ظهارٍ كفارة. وفي إطلاقه بحثٌ، فقد ذكر بعضُهم أنه لو قصد التأكيدَ في المجلس الواحد لم تتعدَّد

وفي «شرح الوجيز» للغزالي ما محصّله: لو قال لأربع زوجات: أنتنَّ عليَّ كظهر أمي. فإن كان دفعةً واحدةً، ففيه قولان، وإن كان بأربع كلماتٍ، فأربعُ كفارات، ولو كرَّرها والمرأةُ واحدةٌ فإما أن يأتي بها متوالية أو لا، فعلى الأول إن قَصَدَ التأكيدَ فواحدة، وإلا ففيه قولان: القديم ـ وبه قال أحمد ـ واحدةٌ كما لو كرَّر اليمينَ على شيءٍ واحد، والقولُ الجديد: التعدُّد، وبه قال أبو حنيفة ومالك، وإذا لم تتوالَ أو قَصَدَ بكلِّ واحدةٍ ظهاراً، أو أطلقَ ولم يَنْوِ التأكيدَ، فكلُّ مرَّةٍ ظهارٌ برأسه، وفيه قولٌ: إنه لا يكون الثاني ظهاراً إن لم يُكفِّرْ عن الأول، وإن قال: أردتُ إعادةَ الأول، ففيه اختلافٌ بناءً على أنَّ الغالبَ في الظهار أنَّ معنى الطلاق أو اليمين لما فيه من الشبهين[2]. انتهى.

وظاهرُ بعض عبارات أصحابنا أنه لو قيَّدَ الظهارَ بعددٍ اعتُبر ذلك العدد؛ ففي «التتارخانية»: لو قال لأجنبية: إن تزوَّجتُكِ فأنت عليَّ كظهر أمي مئة مرَّة. فعليه ـ أي: إذا تزوَّجها ـ لكلٍّ كفَّارةٌ.

وتدلُّ الآيةُ على أنَّ الكفارةَ المذكورةَ قبل المسيس، فإنْ مَسَّ أثِمَ، ولا يُعاودُ

---

(١) ينظر تحفة المحتاج ٨/ ١٩٠ وما بعدها.

(٢) ينظر العزيز شرح الوجيز ٩/ ٢٧٧-٢٧٩.

حتى يُكفِّرَ، فقد روى أصحاب السنن الأربعة[١] عن ابن عباس أنَّ رجلاً ـ وهو سلمةُ بن صَخْرٍ الأنصاري كما في حديث أبي داود والترمذي وغيرهما ـ ظاهَرَ من امرأته، فَوَقَعَ عليها قبل أن يُكفِّر، فقال ﷺ: «ما حَمَلك على ذلك؟» فقال: رأيتُ خلخالها في ضوء القمر ـ وفي لفظٍ: بياض ساقها ـ قال عليه الصلاة والسلام: «فاعتزلها حتى تُكفِّر»، ولفظُ ابن ماجه: فضحك رسول الله ﷺ وأَمَرَهُ أن لا يقربها حتى يُكفِّر. قال الترمذيُّ: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ.

ونفيُ كونه صحيحاً ردَّه المنذريُّ في «مختصره»[٢] بأنه صحَّحه الترمذيُّ ورجاله ثقاتٌ مشهورٌ سماعُ بعضهم من بعض.

وروى الترمذيُّ ـ وقال: حَسَنٌ غريبٌ ـ عن ابن إسحاقٍ بالسند إلى سلمة المذكور عن النبيِّ ﷺ أنه قال في المظاهِرِ يُواقِعُ قبل أن يُكفِّرَ: «كفارةٌ واحدةٌ تلزمه»[٣] ويردُّ به على مجاهدٍ في قوله: يلزمه كفَّارةٌ أخرى، ونُقل هذا عن عمرو بن العاص وقبيصة وسعيد بن جبير والزهري وقتادة، وعلى مَنْ قال: تلزمهُ ثلاثُ كفَّارات، ونُقل ذلك عن الحسن والنخعي، وبه وبما تقدَّمَ يُرَدُّ على ما قيل: من أنه تسقطُ الكفارةُ الواجبةُ عليه ولا يلزمهُ شيءٌ.

ولا ترتفعُ حُرْمةُ المسيس إلا بها، لا بمِلْكٍ ولا بزوجٍ ثانٍ، حتى لو طلَّقها من بعد الظهار ثلاثاً فعادتْ إليه من بعد زوجٍ آخر، أو كانت أمةً فملكها بعد ما ظاهَرَ منها، لا يَحلُّ قُربانها حتى يُكفِّرَ.

وهو واجبٌ على التراخي ـ على الصحيح ـ لكون الأمر الدالة عليه الآيةُ مطلقاً، حتى لا يأثم بالتأخير عن أول أوقات الإمكان، ويكونُ مؤدِّياً لا قاضياً، ويتعيَّنُ في آخر عمره، ويأثمُ بموته قبل الأداء، ولا تُؤخَذُ من تَرِكَتِهِ إن لم يُوصِ ولو تبرَّعَ الورثةُ في الإعتاق، وكذا في الصوم لا يجوز، كذا في «البدائع»[٤]. فإن

(١) أبو داود (٢٢١٣)، والترمذي (٣٢٩٩)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٦٧، وابن ماجه (٢٠٦٦). والحديث سلف تخريجه ص٤٦٥ من هذا الجزء.
(٢) ينظر مختصر أبي داود للمنذري ٣/ ١٣٩-١٤٢.
(٣) سنن الترمذي (١١٩٨).
(٤) ٦/ ٣٦٨.

أوصى كان من الثلث. وفي «التتارخانية»: لو كان مريدُ التكفير مريضاً، فأعتقَ عبدَهُ عن كفَّارته، وهو لا يخرجُ من ثلث ماله، فمات من ذلك المرض، لا يجوزُ عن كفارته وإن أجازتِ الورثةُ، ولو أنه برئ من مرضه جاز.

وللمرأة مطالبته بالوطء والتكفير؛ وعليها أن تمنعه من الاستمتاع بها حتى يُكفِّر، وعلى القاضي أن يُجبرُه على التكفير دَفْعاً للضَّرر عنها بحبسٍ، فإن أبى ضَرَبه؛ ولو قال: قد كفَّرتُ. صُدِّق ما لم يكنْ معروفاً عند الناس بالكذب.

هذا، وبقيت مسائلُ أُخَر مذكورة في كتب الفقه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارةُ إلى الحُكْم بالكفارة، والخطابُ للمؤمنين الموجودين عند النزول، أو لهم ولغيرهم من الأمة ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزجَرون به عن ارتكاب المنكر، فإنَّ الغرامات مزاجر عن تعاطي الجنايات، والمرادُ بيانُ أنَّ المقصودَ من شَرْعِ هذا الحكم ليس تعريضَكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو عَلَمٌ في استتباع الثواب العظيم، بل هو رَدْعكُم وزَجْركم عن مباشرة ما يوجبه. كذا في «الإرشاد»[(١)] وهو ظاهرٌ في كون الكفارة عقوبةً محضةً، وقد تقدَّم القولُ بأنها دائرةٌ بين العبادة والعقوبة، وكلامُ الزيلعيِّ يدلُّ على أنَّ جهةَ العبادة فيها أغلب.

وفي «شرح منهاج النووي» لابن حجر في كتاب كفارة الظهار: الكفارة من الكَفْرِ، وهو السَّتر؛ لسَتْرها الذنبَ بمَحْوِهِ أو تخفيفِ إثمه بناءً على أنَّ الكفاراتِ زواجر كالتعازير، أو جوابر للخَلَل، ورجَّحَ ابنُ عبد السلام الثاني؛ لأنها عبادةٌ لافتقارها للنية، أي: فهي كسجود السهو. والفرق بينها ـ على الثاني ـ وبين الدَّفْن ـ الكفارةُ للبَصْق[(٢)] ـ على ما هو المقرَّرُ فيه أنه يقطعُ دوامَ الإثم، أنَّ الدفنَ مزيلٌ لعينِ ما به المعصية، فلم يبق بعده شيءٌ يدومُ إثمه، بخلافها هنا، فإنها ليستْ كذلك، وعلى الأول، الممحوُّ هو حقُّ الله تعالى من حيثُ هو حَقُّهُ، وأما بالنظر لنحو الفسق بموجبها، فلا بدَّ فيه من التوبة نظيرَ نَحْوِ الحدِّ[(٣)]. انتهى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢١٧.

(٢) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (١٢٠٦٢)، وأبو يعلى (٣٢٢٢) واللفظ له، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «البزاق في المسجد خطيئة كفارتها دفنها».

(٣) تحفة المحتاج ٨/ ١٨٨.

ومتى قيل بأنَّ الإعتاقَ المذكورَ كفارةٌ، وأنَّ الكفارةَ تستُر الذنبَ بمحوه أو تخفيف إثمه، لم يكنْ بُدٌّ من استتباعه الثواب، وكون ذلك لا يُعَدُّ ثواباً لا يخلو عن نظر؛ ولعلَّ المرادَ أنَّ المقصودَ الأعظمَ من شَرْعِ هذا الحكم الردعُ والزجرُ عن مباشرة ما يوجبه، دون التعريض للثواب، وإن تضمَّنه في الجملة، فتأمل.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال كالتكفير وما يوجبه من جناية الظهار ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ بظواهرها وبواطنها، ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شَرَعَ لكم ولا تُخِلُّو بشيءٍ منها.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: فمن لم يجدْ رقبةً، فالواجبُ عليه صيامُ شهرين متتابعين من قبل التماسِّ، والمراد بـ «مَنْ لم يجد»: مَنْ لم يملكْ رقبةً ولا ثمنَها فاضلاً عن قَدْرِ كفايته؛ لأنَّ قَدْرها مستحقُّ الصَّرْفِ فصار كالعدم، وقَدْرُ الكفاية من القوت للمحترف قوتُ يوم، وللَّذي يعملُ قوتُ شهر على ما في «البحر»[(1)]، ومَن له عبدٌ يحتاجُ لخدمته واجدٌ، فلا يُجزئه الصوم، وهذا بخلاف مَنْ له مسكنٌ؛ لأنه كلباسه ولباس أهله.

وعند الشافعية: المرادُ به مَنْ لم يملكْ رقبةً أو ثمنها فاضلاً كلٌّ منهما عن كفاية نفسه وعياله العمرَ الغالبَ نفقةً وكسوةً وسكنى وأثاثاً لا بدَّ منه، وعن دَينه ولو مؤجَّلاً.

وقالوا: إذا لم يُفْضُلِ القِنُّ أو ثمنُهُ عمَّا ذُكِرَ لاحتياجِه لخدمته لمنصبٍ يأبى خدمته بنفسه أو ضخامةٍ كذلك، بحيثُ يحصل له بعتقه مشقةٌ شديدةٌ لا تُحتَمَلُ عادةً، ولا أَثَرَ لفوات رفاهيةٍ أو مرضٍ به أو بمموِّنه، فلا عِتْقَ عليه؛ لأنه فاقدٌ شَرْعاً، كمَنْ وَجَدَ ماءً وهو يحتاجه لعطش، وإلى اعتبار كون ذلك فاقداً ـ كواجد الماء المذكور ـ ذهب الليث أيضاً.

والفرق عندنا ـ على ما ذكره الرازيُّ في «أحكام القرآن»[(2)] ـ أنَّ الماءَ مأمورٌ بإمساكه لعطشه، واستعمالُهُ محظورٌ عليه، بخلاف الخادم.

---

(1) البحر الرائق ٤/ ١١٣-١١٤.
(2) أحكام القرآن للرازي الجصاص ٣/ ٤٢٥.

واليسارُ والإعسارُ معتبران وقتَ التكفير والأداء، وبه قال مالك، وعن الشافعيِّ أقوالٌ في وقتهما:

أظهرها كما هو عندنا، قالوا: لأنَّ الكفارةَ ـ أعني الإعتاق ـ عبادةٌ لها بدلٌ من غير جنسها، كوضوءٍ وتيمُّمٍ وقيامِ صلاةٍ وقعودها، فاعتُبر وقتُ أدائها، وغُلِّبَ.

الثاني ـ كمذهب أحمد والظاهرية ـ شائبةُ العقوبة، فاعتبر وقت الوجوب، كما لو زنى قِنٌّ ثم عتق، فإنه يُحَدُّ حَدَّ القِنِّ.

والثالث: الأغلظُ من الوجوب إلى الأداء.

والرابعُ: الأغلظُ منهما، وأعرض عمَّا بينهما.

ومن يملك ثمنَ رقبةٍ إلا أنه دينٌ على الناس، فإنْ لم يقدرْ على أَخْذه من مديونه، فهو فاقدٌ، فيجزئه الصوم، وإن قَدَرَ فواجدٌ، فلا يجزئه، وإن كان له مالٌ ووجبَ عليه دينٌ مثله، فهو فاقدٌ بعد قضاء الدين، وأما قبله فقيل: فاقدٌ أيضاً بناء على قول محمد أنه تَحِلُّ له الصدقة، المشير إلى أنَّ ماله لكونه مستحقّ الصرف إلى الدين ملحَقٌ بالعدم حُكْماً، وقيل: واجدٌ؛ لأنَّ ملك المديون في ماله كاملٌ بدليل أنه يملكُ جميعَ التصرفات فيه.

وفي «البدائع»: لو كان في مِلْكه رقبةٌ صالحةٌ للتكفير، فعليه تحريرها، سواءٌ كان عليه دينٌ أو لم يكن؛ لأنه واجدٌ حقيقة[1].

وحاصله أنَّ الدَّينَ لا يمنعُ تحريرَ الرقبة الموجودة، ويمنعُ وجوبَ شرائها بما عنده من مِثْلِ الدين على أحد القولين، والظاهرُ أنَّ الشراءَ متى وَجَبَ يُعتَبرُ فيه ثمنُ المِثْلِ، وصرَّحَ بذلك النوويُّ وغيره من الشافعية فقالوا: لا يجبُ شراء الرقبة بغُبْنٍ، أي: زيادةٍ على ثمنِ مثلها، نظير ما يُذْكَرُ في شراء الماء للطهارة، والفرقُ بينهما بتكرُّر ذلك ضعيف، وعلى الأول ـ كما قال الأذرعي وغيره نقلاً عن الماوردي واعتمدوه ـ لا يجوزُ العدولُ للصوم، بل يلزمهُ الصبرُ إلى الوجود بثمنِ المثل، وكذا لو غاب مالُهُ فيكلَّفُ الصبرَ إلى وصوله أيضاً، ولا نَظَرَ إلى تضرُّرهما بفواتِ التمتُّع مدَّةَ الصَّبر؛ لأنه الذي وَرَّطَ نفسَهُ فيه[2]. انتهى.

---

(١) بدائع الصنائع ٦/ ٣٧١.

(٢) تحفة المحتاج ٨/ ١٩٧.

وما ذكروه فيما لو غاب مالُهُ، موافقٌ لمذهبنا فيه.

ولو كان عليه كفَّارتا ظهارٍ لامرأتين وفي ملْكه رقبةٌ فقط، فصام عن ظهار إحداهما، ثم أعتق عن ظهارِ الأخرى، ففي «المحيط» في نظير المسألة ما يقتضي عدمَ إجزاء الصوم عن الأولى، قال: عليه كفَّارتا يمين، وعنده طعامٌ يكفي لإحداهما، فصامَ عن إحداهما، ثم أَطعم عن الأخرى، لا يجوزُ صومه؛ لأنه صامَ وهو قادرٌ على التكفير بالمال، فلا يجزئه.

ويُعتبَرُ الشهرُ بالهلال فلا فَرْقَ بين التامِّ والناقص، فَمَنْ صامَ بالأهلَّة واتفقَ أنَّ كلَّ شهرٍ تسعةٌ وعشرونَ، حتى صار مجموعُ الشهرين ثمانيةً وخمسينَ، أجزأه ذلك، وإن غُمَّ الهلال اعتبر ـ كما في «المحيط» ـ كلّ شهر ثلاثين، وإن صام بغير الأهلَّة فلا بدَّ من ستِّين يوماً كما في «فتح القدير»[1]. ويُعتبر الشهر بالهلال عند الشافعية أيضاً، وقالوا: إن بدأ في أثناء شهرٍ حَسَبَ الشهرَ بعده بالهلال لتمامه، وأتَمَّ الأولَ من الثالث ثلاثينَ؛ لتعذُّر الهلال فيه بتلفُّقه من شهرين، وعلى هذا يتَّفقُ كونُ صيامه ستينَ، وكونه تسعة وخمسين، ولا يتعينُ الأولُ كما لا يخفى، فلا تغفل.

وإن أفطرَ يوماً من الشهرين ـ ولو الأخير ـ بعذرٍ من مرضٍ أو سفرٍ، لَزِمَ الاستئنافُ؛ لزوال التتابع وهو قادرٌ عليه عادة، وقال أبو حيان: إنْ أفطرَ بعذرٍ كسفر، فقال ابن المسيَّب والحسنُ وعطاءٌ وعمرو بن دينار والشعبيُّ ومالكٌ والشافعيُّ في أحد قوليه: يبني[2].

وإن جامع التي ظاهَرَ منها في خلال الشهرين ليلاً عامداً، أو نهاراً ناسياً، استأنفَ الصومَ عند أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: لا يستأنفُ؛ لأنه لا يمنعُ التتابع؛ إذ لا يفسدُ به الصوم، وهو الشرط، ولهما أنَّ المأمورَ به صيامُ شهرين متتابعين لا مسيسَ فيهما، فإذا جامعها في خلالها لم يأتِ بالمأمور به، وإن جامعَ زوجةً أخرى غيرَ المظاهَر منها ناسياً، لا يستأنف عند الإمام أيضاً، كما لو أكلَ ناسياً؛ لأنَّ حُرْمَةَ الأكل والجماع إنما هو للصوم لئلّا ينقطع التتابع، ولا ينقطعُ

---

(١) ٣/ ٢٣٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤.

بالنسيان، فلا استئنافَ، بخلاف حُرْمة جماعِ المظاهَرة، فإنه ليس للصوم بل لوقوعه قبل الكفارة، وتقدُّمها على المسيس شَرْطُ حِلِّها، فبالجماع ناسياً في أثنائه يبطلُ حُكْمُ الصوم المتقدِّم في حَقِّ الكفارة.

ثم إنه يلزمُ في الشهرين أن لا يكون فيهما صومُ رمضان؛ لأنَّ التتابعَ منصوصٌ عليه، وشهرُ رمضانَ لا يقعُ عن الظهار؛ لما فيه من إبطال ما أَوجب الله تعالى، وأن لا يكون فيهما الأيامُ التي نهي عن الصوم فيها، وهي يوما العيدين وأيام التشريق؛ لأنَّ الصومَ فيها ناقصٌ بسبب النهي عنه، فلا ينوبُ عن الواجب الكامل.

وفي «البحر»[(١)]: المسافر في رمضان له أن يصومه عن واجبٍ آخر، وفي المريض روايتان، وصومُ أيام نَذْرٍ معيَّنةٍ في أثناء الشهرين بنية الكفارة لا يقطعُ التتابع، ومَنْ قَدَرَ على الإعتاق في اليوم الأخير من الشهرين قبل غروب الشمس وَجَبَ عليه الإعتاق؛ لأنَّ المرادَ استمرارُ عدم الوجود إلى فراغ صومهما، وكان صومُهُ حينئذٍ تطوُّعاً، والأفضل إتمامُ ذلك اليوم، وإن أفطرَ لا قضاء عليه؛ لأنه شَرَعَ فيه مُسقطاً لا ملتزماً، خلافاً لزفر.

وفي «تحفة» الشافعية: لو بانَ بعد صومهما أنَّ له مالاً وَرِثَهُ ولم يكنْ عالماً به، لم يُعَتدَّ بصومه على الأَوْجَه؛ اعتباراً بما في نفس الأمر[(٢)]. أي: وهو واجدٌ بذلك الاعتبار، وليس في بالي حُكْمُ ذلك عند أصحابنا، ومقتضى ظاهر ما ذكروه فيمن تيمَّم وفي رَحْله ماءٌ وَضَعَهُ غيرُهُ ولم يَعلمْ به من صحة تيمُّمه الاعتداد بالصوم هاهنا، وقد صرَّحَ الشافعيةُ فيمن أَدرجَ في رحله ماءً ولم يُقصِّرْ في طلبه، أو كان بقُرْبه بئرٌ خفيةُ الآثار، بعدم بطلان تيمُّمه، فلْيُنظرِ الفرقُ بين ما هنا وما هناك، ولعلَّه التغليظُ في أمر الكفارة دون التيمم، فليراجع.

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ أي: صيام شهرين متتابعين، وذلك بأن لم يستطعْ أصلَ

---

(١) البحر الرائق ٤/ ١١٤-١١٥.

(٢) تحفة المحتاج ٨/ ١٩٨.

الصيام، أو بأن لم يستطعْ تتابعه لسببٍ من الأسباب؛ كَكِبَرٍ أو مرضٍ لا يُرجى زواله كما قيَّده بذلك ابن الهمام[(١)] وغيره وعليه أكثر الشافعية، وقال الأقلُّون منهم ـ كالإمام[(٢)] ومن تبعه ـ وصحَّحه في «الروضة»[(٣)]: يعتبر دوامه في ظنه مدة شهرين بالعادة الغالبة في مثله، أو بقول الأطباء. قال ابن حجر[(٤)]: ويظهر الاكتفاءُ بقولِ عَدْلٍ منهم.

وصَرَّحَ الشافعيةُ بأنَّ مَنْ تلحقهُ بالصيام أو تتابعه مشقَّةٌ شديدةٌ لا تُحتَملُ عادةً ـ وإن لم تُبِحِ التيممَ فيما يظهرُ ـ غيرُ مستطيع، وكذا مَنْ خاف زيادةَ مرض، وفي حديث أوسٍ ـ على ما ذكر أبو حيان ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فهل تستطيعُ أن تصومَ شهرين متتابعين؟» فقال: والله يا رسول الله إني إذا لم آكلْ في اليوم والليلة ثلاثَ مرَّاتٍ كَلَّ بصري، وخشيتُ أن تَعشُوَ عيني. الخبر[(٥)].

وعدُّوا من أسباب عدم الاستطاعة الشَّبق، وهو شِدَّةُ الغُلْمة. واستُدلَّ له بما أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذيُّ وحسنه، والحاكم وصحَّحه، وغيرهم عن سلمة بن صخر قال: كنتُ رجلاً قد أُوتيتُ من جماع النساء ما لم يؤتَ غيري، فلما دخل رمضانُ ظاهرتُ من امرأتي حتى ينسلخَ رمضان فَرِقاً من أن أُصيب منها في ليلي، فأتتابع في ذلك، ولا أستطيعُ أن أنزعَ حتى يدركني الصبحُ، فبينما هي تخدمني ذاتَ ليلة؛ إذ تكشَّفَ لي منها شيءٌ، فوثبتُ عليها. . . ، إلى أن قال: فخرجتُ فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرته بخبري فقال: «أنت بذاك»؟ قلت: أنا بذاك. فقال: «أنت بذاك» قلت: أنا بذاك، وها أنا ذا، فأمضِ فيَّ حكم الله تعالى، فإني صابرٌ لذلك، قال: «أعتقْ رقبةً» فضربتُ صَفْحةَ عنقي بيدي، فقلت: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ، ما أصبحتُ أملكُ غيرها. قال: «فَصُمْ شهرين متتابعين»

(١) في فتح القدير ٣/ ٢٤١.
(٢) هو إمام الحرمين الجويني.
(٣) ص١٤٧٦-١٤٧٧(دار ابن حزم).
(٤) في تحفة المحتاج ٨/ ٢٠٠.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤، وينظر ما ورد من روايات في ذلك في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٦-٤٥٢.

فقلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» الحديث[(١)]، فإنه أشارَ بقوله: وهل أصابني.. إلخ إلى شِدَّةِ شَبَقه الذي لا يستطيعُ معه صيام شهرين متتابعين، وإنما لم يكنْ عُذْراً في صوم رمضان، قال ابن حجر: لأنه لا بدلَ له، وذكر أنَّ غلبةَ الجوع ليستْ عذراً ابتداءً؛ لفقده حينئذٍ، فيلزمهُ الشروعُ في الصيام، فإذا عجزَ عنه أفطر وانتقل عنه للإطعام، بخلاف الشَّبَق؛ لوجوده عند الشروع[(٢)]. فيدخلُ صاحبه في عموم قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾.

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعٌ من تمرٍ أو شعيرٍ ودقيقٍ، كلٌّ كأصله، وكذا السويق، وذلك لأخبارٍ ذكرها ابنُ الهمام في «فتح القدير»[(٣)].

والصَّاعُ: أربعةُ أمداد. وقال الشافعية: لكلِّ مسكينٍ مُدٌّ؛ لأنه صَحَّ في رواية، وصَحَّ في الأخرى: صاعٌ، وهي محمولةٌ على بيان الجواز الصادق بالنَّدْب لتعذُّرِ النسخ[(٤)]، فتعيَّن الجمعُ بما ذُكر مما يكونُ فِطْرةً، بأن يكونَ من غالب قوت محلِّ المكفِّر في غالب السنة كالأَقِط ـ ولو للبلديِّ ـ فلا يُجزئُ نحو دقيقٍ مما لا يُجزئ في الفطرة عندهم.

ومذهبُ مالكٍ كما قال أبو حيان: مُدٌّ وثلثٌ بالمدِّ النبويِّ[(٥)]. وروى عنه ابن وهب مُدَّان.

وقيل: مُدٌّ وثلثا مُدٍّ، وقيل: ما يُشبع، من غير تَحديد.

ولا فَرْقَ بين التمليك والإباحة عندنا، فإن غدَّى الستينَ وعَشَّاهم، أو غدَّاهم مرتين، أو عشَّاهم كذلك، أو غدَّاهم وسحَّرهم، أو سحَّرهم مرَّتين وأشبعهم بخبزٍ

(١) أحمد (٢٣٧٠٠)، وأبو داود (٢٢١٣)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، والترمذي (١٢٠٠)، والحاكم ٢/ ٢٠٣.
(٢) تحفة المحتاج ٨/ ٢٠٠-٢٠١.
(٣) ٣/ ٢٤١.
(٤) في هامش الأصل و(م): قوله: لتعذر النسخ، فيه تأمل.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٣٤.

بُرٍّ أو شعيرٍ أو نحوه كَذُرَةٍ بإدام، أجزأه وإن لم يبلغْ ما شبعوا به المقدارَ المعتبرَ في التمليك، ويُعتبرُ اتحادُ الستين، فلو غدَّى مثلاً ستينَ مسكيناً، وعشَّى ستينَ غيرَهم لم يُجْز إلا أن يُعيدَ على إحدى الطائفتين غداءً أو عشاءً، ولو أطعم مئةً وعشرين مسكيناً في يومٍ واحدٍ أكلةً واحدةً مشبعةً لم يُجْز إلا عن نصف الإطعام، فإن أعاده على ستين منهم أجزأه.

واشترط الشافعية التمليكَ اعتباراً بالزكاة وصدقة الفطر، وهذا لأنَّ التمليكَ أدفعُ للحاجة، فلا ينوبُ منابه الإباحة، ونحن نقول: المنصوصُ عليه هنا هو الإطعام، وهو حقيقةٌ في التمكين من الطُّعْم، وفي الإباحة ذلك كما في التمليك، وفي الزكاة الإيتاء، وفي صدقة الفطر الأداء، وهما للتمليك حقيقة. كذا في «الهداية»(١).

قال العلامة ابن الهمام: لا يقال: اتفقوا على جواز التمليك، فلو كان حقيقةُ الإطعام ما ذُكِرَ كان مشتركاً معمَّماً، أو في حقيقته ومجازه؛ لأنَّا نقول: جوازُ التمليك عندنا بدلالة النص، والدلالةُ لا تمنعُ العملَ بالحقيقة، كما في حُرْمة الشتم والضرب مع التأفيف، فكذا هذا، فلما نصّ على دَفْعِ حاجةِ الأكل، فالتمليكُ الذي هو سببٌ لدفع كلِّ الحاجات التي من جملتها الأكلُ أَجْوَزُ، فإنه حينئذٍ دافعٌ لحاجةِ الأكل وغيره(٢).

وذكر الواني أنَّ الإطعامَ جَعْلُ الغيرِ طاعماً، أي: آكلاً؛ لأنَّ حقيقةَ: طَعِمْتُ الطعامَ: أكلتُهُ، والهمزةُ تُعدِّيه إلى المفعول الثاني، أي: جعلتُهُ آكلاً، وأما نحو: أَطعمتُكَ هذا الطعامَ، فيكونُ هبةً وتمليكاً بقرينة الحال، قالوا: والضابطُ أنه إذا ذُكر المفعولُ الثاني فهو للتمليك، وإلا فللإباحة. هذا، والمذكورُ في كتب اللغة أنَّ الإطعامَ إعطاءُ الطعام، وهو أعمُّ من أن يكونَ تمليكاً أو إباحةً. انتهى، فلا تغفل.

ويجوزُ الجمعُ بين الإباحة والتمليك لبعض المساكين دون البعض، كما إذا

---

(١) ١/ ٣٠١.

(٢) فتح القدير ٣/ ٢٤٢-٢٤٣.

مَلَّكَ ثلاثِينَ وأطعمَ ثلاثين غداءً وعشاءً، وكذا لرجلٍ واحدٍ في إحدى روايتين، كأنْ غدَّاهُ مثلاً وأعطاهُ مُدًّا، وإن أعطى مسكيناً واحداً ستينَ يوماً أجزأه، وإن أعطاه في يومٍ واحدٍ لم يُجْزِهِ إلا عن يومه؛ لأنَّ المقصودَ سَدُّ خُلَّةِ المحتاج، والحاجةُ تتجدَّدُ في كلِّ يوم، فالدفعُ إليه في اليوم الثاني كالدفع إليه في غيره، وهذا في الإباحة من غير خلاف، وأما التمليكُ من مسكينٍ واحدٍ بدَفَعاتٍ فقد قيل: لا يجزيه، وقيل: يجزيه؛ لأنَّ الحاجةَ إلى التمليك قد تتجدَّدُ في يومٍ واحدٍ بخلاف ما إذا دفع بدفعة؛ لأنَّ التفريقَ واجبٌ بالنص.

وخالف الشافعية، فقالوا: لا بدَّ من الدَّفْع إلى ستينَ مسكيناً حقيقةً، فلا يُجزئُ الدَّفْعُ لواحدٍ في ستينَ يوماً، وهو مذهبُ مالكٍ، والصحيح من مذهب أحمد، وبه قال أكثر العلماء؛ لأنه تعالى نصَّ على ستينَ مسكيناً، وبتكرُّر الحاجة في مسكينٍ واحدٍ لا يصيرُ هو ستين، فكان التعليلُ بأنَّ المقصودَ سَدُّ خُلَّةِ المحتاج.. إلخ، مُبطلاً لمقتضى النص فلا يجوز. وأصحابنا أشدُّ موافقة لهذا الأصل، ولذا قالوا: لا يُجزئ الدَّفْعُ لمسكينٍ واحدٍ وظيفة ستين بدفعة واحدة، مُعلِّلين له بأنَّ التفريقَ واجبٌ بالنصِّ، مع أنَّ تفريقَ الدَّفع غيرُ مصرَّح به، وإنما هو مدلولٌ التزاميٌّ لعددِ المساكين، فالنصُّ على العدد أولى؛ لأنه المستلزم، وغايةُ ما يُعطيه كلامهم أنه بتكرُّر الحاجة يتكرَّرُ المسكينُ حُكْماً، فكان تعدُّداً حُكْماً، وتمامهُ موقوفٌ على أنَّ ستينَ مسكيناً في الآية مرادٌ به الأعمُّ من الستين حقيقةً أو حُكْماً. ولا يخفى أنه مجازٌ فلا مصيرَ إليه بموجبه. فإن قلت: المعنى الذي باعتباره يصيرُ اللفظُ مجازاً ويندرجُ فيه التعدُّد الحكميُّ ما هو؟ قلتُ: هو الحاجةُ، فيكونُ ستينَ مسكيناً مجازاً عن ستينَ حاجة، وهو أعمُّ من كونها حاجات ستين، أو حاجاتِ واحدٍ إذا تحقَّقَ تكرُّرها، إلا أنَّ الظاهرَ إنما هو عددٌ معدودُه ذواتُ المساكين، مع عقلية أنَّ العددَ مما يقصد لِمَا في تعميم الجميع من بركة الجماعة وشمول المنفعة واجتماع القلوب على المحبة والدعاء. قاله في «فتح القدير»[1] وهو كلامٌ متينٌ يظهر منه ترجيحُ مذهب الجمهور.

---

(١) ٣/ ٢٤٣.

وذهب الأصحابُ إلى أنه لا يُشترطُ اتحادُ نوع المدفوع لكلٍّ من المساكين، فلو دَفَعَ لواحدٍ بعضاً من الحنطة وبعضاً من الشعير مثلاً، جاز إذا كان المجموعُ قدر الواجب، كأنْ دَفَعَ رُبعَ صاعٍ من بُرٍّ ونصفَ صاعٍ من شعير، وجاز نحو هذا التكميل لاتحاد المقصود وهو الإطعام. ولا يجوزُ دَفْعُ قيمة القَدْر الواجب من منصوص عليه، وهو البُرُّ والشعيرُ، ودقيقُ كلٍّ وسويقُهُ، والزبيبُ والتمرُ، إذا كانت من منصوصٍ عليه آخر، إلا أن يبلغَ المدفوعُ الكميةَ المقدَّرة شرعاً، فلو دَفَعَ نصفَ صاعِ تمرٍ يبلغُ قيمةَ نصف صاع بُرٍّ لا يجوز، فالواجبُ عليه أن يُتِمَّ للذين أعطاهم القَدْرَ المقدَّرَ من ذلك الجنس الذي دَفَعَهُ إليهم، فإن لم يجدهم بأعيانهم استأنفَ في غيرهم، ومن غير المنصوص كالأرز والعدس يجوز، كما إذا دَفَعَ ربعَ صاعٍ من أرزٍّ يساوي قيمةَ نصفِ صاعٍ من بُرٍّ مثلاً، وذلك لأنه لا اعتبار لمعنى النصِّ في المنصوص عليه، وإنما الاعتبارُ في غير المنصوص عليه، ونقل في ذلك خلاف الشافعي رحمه الله تعالى، فلا يجوزُ دَفْعُ القيمة عنده مطلقاً، ولا يجوز في الكفارة إعطاءُ المسكين أقلَّ من نصفِ صاع من البُرِّ مثلاً فقط، ففي «التتارخانية»: لو أعطى ستينَ مسكيناً كلَّ مسكينٍ مُدًّا من الحنطة لم يُجزِ، وعليه أن يُعيدَ مُدًّا آخرَ على كلٍّ، فإن لم يجد الأوَّلينَ فأعطى ستين آخرين كُلًّا مدًّا لم يُجْزِ، ولو أعطى كُلًّا من المساكين مُدًّا ثم استغنوا، ثم افتقروا، فأعاد على كلٍّ مدًّا لم يُجْزِ، وكذا لو أعطى المكاتَبين مُدًّا مُدًّا، ثم رُدُّوا إلى الرقِّ، ومواليهم أغنياء، ثم كُوتبوا ثانياً، ثم أعاد عليهم لم يُجْزِ؛ لأنهم صاروا بحالٍ لا يجوزُ دَفْعُ الكفارة إليهم، فصاروا كجنسٍ آخر، وعليه فالمرادُ بـ«ستين مسكيناً»: ستونَ مسكيناً لم يَعرِضْ لهم في أثناء الإطعام ما ينافي ذلك.

والظاهرُ أنَّ فاعلَ «إطعام» هو المظاهِرُ الغير المستطيع للصيام، ولا فَرْقَ بين أن يُباشِرَ ذلك أو يأمرَ به غيرَهُ، فإن أَمَرَ غيرَهُ فأطعم أجزأ؛ لأنه استقراضٌ معنًى، فالفقيرُ قابضٌ له أولاً، ثم يتحقَّقُ تملُّكه ثم تمليكه.

والمراد بالمسكين ما يعمُّ الفقيرَ، وقد قالوا: المسكينُ والفقيرُ إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

ويُشتَرطُ أن لا يكون المُطْعَمُ أصلَهُ، أو فَرْعَهُ، أو زوجته، أو مملوكه،

أو هاشميًّا لمزيد شَرَفه، فيُجَلُّ عن هذه الغُسَالة، ولا حربيًّا ولو مستأمناً لمزيد خِسَّته، فليس أهلاً لأدنى منفعة، ويجوزُ أن يكون ذِمِّيًّا.

ولو دفع بتحرٍّ فبان أنه ليس بمصرفٍ أجزأه عندهما خلافاً لأبي يوسف كما في «البدائع»[١].

واستنبطَ الشافعيةُ من التعبير بعدم الوجود عند الانتقال إلى الصوم، وبعدم الاستطاعة عند الانتقال إلى الإطعام، أنه لو كان له مالٌ غائبٌ، ينتظرهُ ولا يصوم، ولو كان مريضاً يُرجى برؤه يُطعم ولا ينتظرُ الصحةَ ليصوم، وهو موافقٌ لمذهبنا في الصوم لا في الإطعام كما سمعتَ.

ثم هذا الحكم في الأحرار، أما العبدُ فلا يجوزُ له إلا الصومُ؛ لأنه لا يملكُ، وإن مَلَكَ - والإعتاقُ والإطعامُ شَرْطُهما المِلْكُ - فإن أعتق عنه المولى أو أطعمَ لم يُجْزِ، ولو بأمره.

ويجبُ تقديمُ الإطعام على المسيس، فإن قَرُبَ المظاهِرُ المظَاهَرَة في خلاله أَثِمَ، ولم يستأنفْ؛ لأنه عزَّ وجلَّ ما شَرَطَ فيه أن يكونَ قبل المسيس كما شَرَطَ فيما قبل، ونحن لا نحملُ المطلقَ على المقيَّد وإن كانا في حادثةٍ واحدةٍ بعد أن يكونا حُكْمين، والوجوبُ قيل: لم يثبتْ إلا لتوهُّم وقوع الكفارة بعد التماسِّ، بيانه أنه لو قَدَرَ على العتق أو الصيام في خلال الإطعام أو قبله، يلزمهُ التكفيرُ بالمقدور عليه، فلو جُوِّزَ للعاجز عنهما القربان قبل الإطعام، ثم اتفقَ قدْرته فلَزِمَ التكفير به، لَزِمَ أن يقعَ العتقُ بعد التماس، والمفضي إلى الممتنع ممتنعٌ.

وتُعُقِّبَ بأنَّ فيه نظراً، فإنَّ القدرةَ حالَ قيام العجز بالفقر والكبر والمرض الذي لا يُرجى زواله أمرٌ موهومٌ، وباعتبار الأمور الموهومة لا تثبتِ الأحكامُ ابتداءً، بل يثبتُ الاستحبابُ وَرَعاً، فالأولى الاستدلالُ عل حُرْمة المسيس قبل الإطعام لمن يتعيَّن كفارة له بما ورد من حديث: «اعتزلها حتى تُكفِّر»[٢] ونحوه.

---

(١) ٦/ ٣٨٤.

(٢) سلف ص٤٨٥.

وما ذكر من أنه لو قدر على العتق مثلاً خلالَ الإطعام لَزِمَ التكفير به، خالفَ فيه الشافعيةُ، قال ابن حجر عليه الرحمة: لا أثر لقدرته على صومٍ أو عِتْقٍ بعد الإطعام، ولو لمدٍّ، كما لو شَرَعَ في صومِ يومٍ من الشهرين فَقَدَرَ على العتق[١].

وأجاز بعضُ المسيسَ في خلال الإطعام من غير إثم، ونُقل ذلك عن أبي حنيفة رضي الله عنه، وهو توهُّمٌ نشأ من عدم إيجابه الاستئنافَ، وقد صرَّح في «الكشاف»[٢] بأنه لا فرق عند أبي حنيفة بين الكفَّارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس، وأنَّ تَرْكَ ذِكْرِه عند الإطعام؛ للدلالة على أنه إذا وُجِدَ في خلال الإطعام لم يستأنفْ كما يستأنف الصوم.

وجعل بعضُهم ذِكْرَ القيد فيما قبل وتَرْكَهُ في الإطعام دليلاً لأبي حنيفة في قوله بعدم الاستئناف، أي: مع الإثم.

وتعقَّبه ابن المنيِّر في «الانتصاف» بأنَّ لقائلٍ أن يقول لأبي حنيفة: إذا جعلتَ الفائدةَ في ذِكْرِ عدم التماس في بعضها وإسقاطِه من بعضها الفرقَ بين أنواعها، فلِمَ جعلته مؤثِّراً في أحد الحكمين دون الآخر؟ وهل التخصيصُ إلا نوعٌ من التحكُّم؟ ثم قال: وله أن يقول: اتفقنا على التسوية بين الثلاث في هذا الحكم، أعني: حُرْمةَ المساس قبل التكفير، وقد نطقتِ الآيةُ بالتفرقة، فلم يمكنْ صَرْفُها إلى ما وقع الاتفاق على التسوية فيه، فتعيَّنَ صَرْفُهُ إلى الآخر، هذا منتهى النظر مع أبي حنيفة[٣]. وأطال الكلام في هذا المقام بما لا يخلو عن بحثٍ على أصول الإمام.

وإذا عجز المظاهر عن الجميع، قال الشافعية: استقرَّتْ في ذِمَّته، فإذا قَدَرَ على خَصْلةٍ فَعَلها، ولا أَثَرَ لقدرته على بعضِ عِتْقٍ أو صومٍ، بخلاف بعضِ الطعام ولو بعضَ ما يجِب لواحدٍ من المساكين، فيخرجه ثم الباقي إذا أيسر.

والظاهرُ بقاءُ حُرْمة المسيس إلى أن يؤدِّيَ الكفارةَ تماماً، ولم يُبالِ بإضرار

(١) تحفة المحتاج ٨/ ٢٠١.
(٢) ٤/ ٧٢.
(٣) الانتصاف (مع الكشاف) ٤/ ٧١-٧٢.

المرأة بذلك؛ لأنَّ الإيسارَ مترقَّبٌ كزوال المرض المانع من الجماع، ولم أراجعْ حكم المسألة في الظهار عند الحنفية، وأما في الجماع في نهار رمضان الموجب للكفارة فقد قال ابن الهمام بعد نَقْلِ حديث الأعرابيِّ الواقعِ على امرأته فيه، العاجز عن الخصال الثلاثة، وفيه: فأُتيَ النبيُّ ﷺ بعَرَقٍ فيه تمر فقال: «تَصدَّقْ به» فقال: أَعَلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابَتيها أفقر مني، ولا أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك ﷺ حتى بَدَتْ نواجذه ثم قال: «خُذْهُ فأطعمه أهلك»، [و] في لفظ لأبي داود: زادَ الزهريُّ: وإنما كان هذا رخصة له خاصة، ولو أنَّ رجلاً فعل ذلك اليوم لم يكنْ لهُ بُدٌّ من التكفير[1]. وجمهور العلماء على قوله.

وذكر النوويُّ في «شرح صحيح مسلم»[2] أنَّ للشافعيِّ في هذا العاجز قولين:

أحدهما: لا شيءَ عليه ـ واحتجَّ له بحديث الأعرابيِّ المذكور؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقلْ له: إنَّ الكفارةَ ثابتةٌ في ذمته، بل أَذِنَ له في إطعام عياله.

والثاني ـ وهو الصحيح عند أصحابنا وهو المختار ـ: أنَّ الكفارةَ لا تسقطُ، بل تستقرُّ في ذِمَّته حتى يتمكَّن، قياساً على سائر الديون والحقوق والمؤاخذات، كجزاء الصيد وغيره، وأما الحديثُ فليس فيه نفيُ استقرار الكفارة، بل فيه دليلٌ لاستقرارها؛ لأنه أَخبرَ النبيَّ ﷺ بالعجز عن الخصال، ثم أُتيَ عليه الصلاة والسلام بعرقِ التمر، فأمره بإخراجِه في الكفارة، فلو كانت تسقطُ بالعَجْزِ لم يكنْ عليه شيءٌ، فلم يأمره بالإخراج، فدلَّ على ثبوتها في ذمته، وإنما أَذِنَ له في إطعام عياله؛ لأنه محتاجٌ إلى الإنفاق عليهم في الحال، والكفارةُ واجبةٌ على التراخي، وإنما لم يُبيِّنْ عليه الصلاة والسلام بقاءها في ذمته؛ لأنَّ تأخيرَ البيان إلى وقت الحاجة جائزٌ عند جماهير الأصوليين، فهذا هو الصوابُ في معنى الحديث وحكم المسألة، وفيها أقوالٌ وتأويلاتٌ أُخَر ضعيفة. انتهى.

ومن الناس من قال: لم يكن هناك تأخيرُ بيانٍ وإنما اكتفى ﷺ بفَهْم الأعرابيِّ

(١) فتح القدير ٢/ ٧٢. وما بين حاصرتين منه.
(٢) ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

عن التصريح له بالاستقرار، والأخبار في وقوع مثل ذلك للمظاهِر مضطربةٌ كما لا يخفى على مَنْ راجعَ «الدرَّ المنثورَ»(١) للسيوطي.

ومسائلُ الظهار كثيرةٌ، والمذاهِبُ في ذلك مختلفةٌ، ومَنْ أراد كمالَ الاطِّلاع فليرجعْ إلى كتب الفروع، ولولا التأسِّي ببعض الأجِلَّةِ لَمَا ذكرنا شيئاً منها، ومع هذا لا يخلو أكثرُه عن تعلُّقٍ بتفسير الآية، والله تعالى أعلم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من البيان والتعليم، ومحلُّهُ إما الرفعُ على الابتداء، أو النصبُ بمضمَرٍ معلَّلٍ بما بعده، أي: ذلك واقعٌ، أو فَعَلنا ذلك ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شَرَعها لكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم.

﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكامُ المذكورةُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوزُ تعدِّيها، فالزموها وقفوا عندها.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين يتعدَّونها ولا يعملون بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على كُفْرهم، وأُطلقَ الكافر على متعدِّي الحدود تغليظاً لزجره، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يعادونهما ويشاقُّونهما؛ لأنَّ كلًّا من المتعادِيَين في حدٍّ وجهةٍ غير حَدِّ الآخَر وَجِهَتِه، كما أنَّ كلًّا منهما في عُدوةٍ وشَقٍّ غير عُدوةِ الآخر وشَقِّه.

وقيل: إطلاقُ ذلك على المتعادِيَين باعتبار استعمال الحديد؛ لكثرة ما يقع بينهما من المحاربة بالحديد؛ كالسيوف والنِّصال وغيرها. والأول أظهر. وفي ذكر المحادَّة في أثناء ذِكْر حدود الله تعالى دون المعاداة والمشاقَّة حُسْنُ موقعِ جاوَزَ الحدَّ.

وقال ناصر الدين البيضاوي: أو يضعونَ أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله ﷺ(٢). ومناسبته لما قبله في غاية الظهور.

---

(١) ٦/ ١٧٩ وما بعدها.
(٢) تفسير البيضاوي ٨/ ١٦٩.

قال المولى شيخ الإسلام سعد الله جلبي: وعلى هذا ففيه وعيدٌ عظيمٌ للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلافَ ما حَدَّه الشرعُ، وسمَّوها: الْيَسَا[١] والقانون، والله تعالى المستعان على ما يصفون.

وقال شهاب الدين الخفاجي بعد نقله: وقد صنَّفَ العارفُ بالله الشيخُ بهاء الدين قدَّسَ الله تعالى روحه رسالةً في كُفْر من يقول: يعملُ بالقانون والشرع إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وقد وَصَلَ الدينُ إلى مرتبةٍ من الكمال لا تقبل[٢] التكميل، وإذا جاء نهر الله بَطَلَ نهرٌ مَعْقِل، ولكن أين مَنْ يعقل[٣]؟! انتهى.

وليتني رأيتُ هذه الرسالة ووقفتُ على ما فيها، فإنَّ إطلاقَ القول بالكفر[٤] مشكلٌ عندي، فتأمل[٥]. ثم إنه لا شبهة في أنه لا بأس بالقوانين السياسية[٦] . . .

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): اليسا هو بياء مثناة تحتية وسين مهملة: وضع قانون للمعاملة، ويقال: يسق، لفظ غير عربي. كذا قاله الشهاب، ورأيت في بعض كتب اللغة التركية أنَّ يصاق ـ بفتح الياء والصاد المهملة بعدها ألف بعدها قاف ـ معناه: المنع.

(٢) في الأصل و(م): يقبل. والمثبت من المصدر.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٦٩.

(٤) في الأصل: بكفر من يقول ذلك.

(٥) جاء في هامش الأصل: وقد علمت ما قال المحققون في إكفار المسلم من أنه إذا كان في المسألة تسعة وتسعون قولاً في الإكفار وقول واحد بعدم الإكفار يفتى بعدم الإكفار، وأنه ينبغي للمفتي أن يؤوِّل ما ظاهره كفر إذا صدر من مسلم صوناً له عما يلزم المرتد، والعياذ بالله عز وجل.

(٦) جاء في هامش (م): أرسل إلينا الفاضل الأديب الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثري مقالةً تتعلَّقُ بالقوانين السياسية، وأخبرنا أنه وجدها بهامش نسخةِ الأصل المخطوطة بخطِّ أحد تلاميذ المؤلف رحمه الله تعالى، فوضعناها في مكانها إتماماً للفائدة.

يقول محمد بهجة الأثري البغدادي:

قوله: ثم إنه لا شبهةَ في أنه لا بأس بالقوانين السياسية. . إلى قوله: كما لا يخفى على العارف النبيه. ليس للمؤلف، وإنما وجدته على هامش الأصل بخطِّ أحد تلاميذه، وقد كتبه عِوَضاً عن بحثٍ نفيس لصاحب التفسير في القانون والشرع، لم تسمح السلطةُ الغاشمةُ بنشره، وإليك نصّ ذلك نقلاً عن خَطِّه:

=

. . . .

= قال: وليتني رأيتُ هذه الرسالةَ ووقفتُ على ما فيها، فإنَّ إطلاقَ القول بالكُفْر مشكلٌ عندي.
نعم لا شكَّ في كُفْر من يستحسنُ القانونَ ويُفضِّله على الشرع ويقول: هو أوفقُ بالحكمة وأصلحُ للأمة، ويتميَّزُ غيظاً ويتقصَّفُ غَضَباً إذا قيل له في أمرٍ: أَمْرُ الشرع فيه كذا، كما شاهدنا ذلك في بعض مَنْ خَذَلهم الله فأصَمَّهم وأعمى أبصارهم، وهذا القانونُ الذي ذكروه قد نقصتْ منه اليوم أمور، وزِيدتْ فيه أمور، وسُمِّي بالأصول، وأُلِّفتْ فيها رسائلُ وطُبعتْ ونُشرتْ وفُرِّقتْ، وأُلزِمَ العملَ بما حَوَتها كلُّ أميرٍ ومأمورٍ، وعُقِدَتْ مجالسُ الشورى عليها، ورجع في إحكام الأحكام إليها، ومَنْ خالفها نُكِّلَ تنكيلاً، وربما حُبس حبساً طويلاً، وكم قد قال لي بعضُ الولاة: إياك أن تقولَ في مجلسنا: المسألةُ شرعاً كذا، وقد أصابني منه ـ عامله الله بعدله ـ لعدولي عن قوله مزيدُ الأذى، واتفق أن قال لي بعضُ خاصَّته يوماً: أرى ثلثَي الشرع شرًّا، فقلت له ـ وإن كنتُ عالماً أنَّ في أذنيه وَقْراً ـ: نعم ظهر الشرُّ لَمَّا أذهبتم من الشرع العين، ولم تأخذوا من اسمه سوى حرفين؛ فتأمَّلَ العبارةَ، وتغيَّرَ وجهه لَمَّا فَهِمَ الإشارة.
والذي ينبغي أن يقال في ذلك: إنَّ ما يرجعُ من تلك الأصول إلى ما يتعلَّقُ بسَوق الجيوش وتعبئتهم وتعليمهم ما يلزمُ في الحرب مما يغلب على الظَّنِّ الغلبةُ به على الكَفَرة، وما يتعلَّقُ بأحكام المدن والقلاع ونحو ذلك، لا بأسَ في أكثره على ما نعلم، وكذا ما يتعلَّقُ بجزاء ذوي الجنايات التي لم يردْ فيها عن الشارع حَدٌّ مخصوصٌ، بل فُوِّضَ التأديبُ عليها إلى رأي الإمام كأنواع التعاذير، وللإمام أن يستوفيَ ذلك وإن عفا المجنيُّ عليه؛ لأنَّ الساقطَ به حقُّ الآدمي، والذي يستوفيه الإمامُ حقُّ الله تعالى للمصلحة كما نصَّ على ذلك العلامةُ ابنُ حجر في «شرح المنهاج» [٩/ ١٨٠-١٨١] والقواعد لا تأباه، نعم ينبغي أن يجتنبَ في ذلك الإفراط والتفريط، وقد شاهدنا في العراق مما يسمونه: جزاءً، ما القتلُ أهونُ منه بكثير. ومثل ذلك ظلمٌ عظيمٌ وتعدٌّ كبير.
وأما ما يتعلَّقُ بالحدود الإلهية كقطع السارق؛ ورجم الزاني المحصَنِ، وما فُصِّلَ في حَقِّ قُطَّاع الطريق من قَطْعِ الأيدي والأرجل من خلافٍ، وغيره مما فُصِّلَ في آيتهم، إلى غير ذلك، فظاهرُ أمره دخولُهُ في حُكْم الآية هنا على ما ذكره البيضاويُّ.
وأما ما يتعلَّقُ بالمعاملات والعقود، فإن كان موافقاً لما وَرَدَ عن الشارع فيها من الصحة وعدمها، سمَّيناه: شرعاً، ولا نسمِّيه: قانوناً، وأصولاً، وإن لم يكنْ موافقاً لذلك كالحُكْم في إعطاء الربا مثلاً المسمَّى عندهم ـ بالكرشته ـ لزعم أنه تتعطَّلُ مصالحُ الناس لو لم يُحكَمْ بذلك، فهو حُكْمٌ بغير ما أنزل الله عزَّ وجلَّ.
وأما ما يتعلَّقُ بحقِّ بيت المال في الأراضي، فما كان موافقاً لعمل النبيِّ ﷺ وخلفائه الراشدين فذاك، وما كان مخالفاً لعمل الخلفاء الصادر منهم باجتهادٍ، فإن كانتْ مخالفته إلى =

. . . .

= ما هو أسهلُ وأنفعُ للناس، فنظراً إلى زمانهم، فهو مما لا بأس فيه، وإن كانتْ مخالفته إلى ما هو أشقُّ، ففيه بأس. ولا يجري هذا التفصيلُ فيما وَصَفه رسول الله عليه الصلاة والسلام كالعُشْر في بعض الأراضي التي فُتحت في زمنه الشريف ﷺ، فإنه لا تجوزُ المخالفةُ فيه أصلاً على ما ذكره أبو يوسف في كتاب «الخراج». وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ بحسب الظاهر، بأن لم يكنْ منصوصاً عليه، فإن كان يندرج في العمومات المنصوص عليها في أمر الأراضي فذاك، وإلا فقَبوله ورَدُّهُ باعتبار المدخول في العمومات الواردة في الحظر والإباحة، فإن دخل في عمومات الإباحة قُبِلَ، وإن في عمومات الحظر رُدَّ.

وأَمْرُ تكفير العامل بالأصول المذكورة خَطرٌ، فلا ينبغي إطلاقُ القول فيه، نعم لا ينبغي التوقُّفُ في تكفير مَنْ يستَحسنُ ما هو بيِّن المخالفة للشرع منها، ويُقدِّمهُ على الأحكام الشرعية متنقِّصاً لها به، ولقد سمعتُ بعضَ خاصَّةِ أتباع بعض الولاة يقول: وإنَّ تلك الأحكام أصولٌ وقوانين سياسيةٌ كانت حَسَنةً في الأزمنة المتقدِّمة لَمَّا كان أكثرُ الناس بُلْهاً، وأما اليوم فلا يستقيمُ أَمْرُ السياسة بها، والأصولُ الجديدة أحسنُ وأوفقُ للعقل منها، ويقول كلَّما ذكرها: الأصول المستحسنة، وكان يُرشِّحُ كلامه بنفي رسالة النبيِّ ﷺ، وكذا رسالة الأنبياء عليهم السلام قبله، ويزعمُ أنهم كانوا حكماءَ في أوقاتهم، توصَّلوا إلى أغراضهم بوَضْع ما ادَّعوا فيه أنه وحيٌ من الله تعالى، فهذا وأمثاله مما لا شكَّ في كُفره.

وفي كُفر مَنْ يُدْعَى للمرافعة عند القاضي فيأبى إلا المرافعة بمقتضى تلك الأصول عند أهل تلك الأصول راضياً بما يقضون به عليه = تردُّدٌ، وإنما لم يُجْزَمْ بكفره مع قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] لأنَّ حُكْمَ أكثر القضاة مخالفٌ لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ في أكثر المسائل، والبليَّةُ العظمى أنهم يُسمُّون ذلك شرعاً، ومع ذلك يأخذون عليه ما يأخذون من المال ظُلْماً، فلِمَنْ لم يرضَ بالمرافعة عند هؤلاء القضاة العجزة، ويرضى بالمرافعة عند أهل الأصول عُذْرٌ لذلك. ولقد سمعتُ من كثيرٍ أنَّ أحدَ أسباب وَضْعِ الأصول الجديدة هؤلاء القضاةُ الظلمةُ، حيث اتَّبعوا الهوى، وحكموا بغير ما أنزل المولى جلَّ وعلا، ولم يمكن خلاصُ الشريعة من أيديهم وتطهيرُ المحاكم من أرجاسهم لملاحظاتٍ مقبولةٍ أو غير مقبولة، فوضعوا ما يهونُ به في زَعْم الواضع شَرُّهم، ويَهِن به أمرهم، ثم إنَّ باطلَ أولئك القضاة لا قاعدةَ له، فيتلوَّنُ تلوُّنَ الحرباء؛ لأنه تابعٌ لهوى الأنفس وتفاوت الرِّشا أمور أخرى، وباطل غيرهم له قاعدة ما في الأغلب.

وقصارى الكلام أنَّ ما خالف الشرعَ مردودٌ كائناً ما كان، ولا فَرْقَ في ذلك بين ما عليه أكثرُ القضاة اليوم بين الأصول المخالفة:

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه   أخوها غذته أمه بلبانها

وإلى الله تعالى المشتكى، وهو عزَّ وجلَّ حسبنا وكفى. انتهى كلامه.

إذا وقعتْ باتفاق ذوي الآراء من أهل الحلِّ والعقد على وجهٍ يَحسنُ به الانتظام، ويصلح أمر الخاصِّ والعام، ومنها تعيينُ مراتب التأديب والزجر على معاصٍ وجناياتٍ لم يَنُصَّ الشارعُ فيها على حَدٍّ معيَّنٍ، بل فوَّضَ الأمرَ في ذلك لرأي الإمام، فليس ذلك من المحادَّة لله تعالى ورسوله ﷺ في شيءٍ، بل فيه استيفاءُ[1] حَقِّه تعالى على أتمِّ وجهٍ، لما فيه من الزجر عن المعاصي، وهو أمرٌ مهمٌّ للشارع عليه الصلاة والسلام، ويُرشد إليه ما في «تحفة المحتاج»[2] أنَّ للإمام أن يستوفي التعزيرَ إذا عفا صاحبُ الحقِّ؛ لأنَّ الساقطَ بالعفوِ هو حقُّ الآدمي، والذي يستوفيه الإمامُ هو حَقُّ الله تعالى للمصلحة. وفي كتاب «الخراج»[3] للإمام أبي يوسف عليه الرحمة إشارةٌ إلى ذلك أيضاً، ولا يُعكِّر على ذلك ونحوِه قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] لأنَّ المراد إكماله من حيث تضمُّنه ما يدلُّ على حكمه تعالى خصوصاً أو عموماً، ويُرشدُ إلى هذا عدمُ النكير على أحدٍ من المجتهدين إذا قال بشيءٍ لم يكنْ منصوصاً عليه بخصوصه، ومن ذلك ما ثبتَ بالقياس بأقسامه، نعم القانون الذي يكونُ وراء ذلك بأن كان مصادماً لِمَا نطقتْ به الشريعةُ الغرَّاء زائغاً عن سَنَن المحجَّة البيضاء فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف النبيه.

وقد يقال في الآية على المعنى الذي ذكره البيضاويُّ: إنَّ المرادَ بالموصول الواضعونَ لحدود الكفر وقوانينه، كأئمة الكفر، أو المختارونَ لها العاملون بها كأتباعهم، ثم إنَّ الآية ـ على ما في «البحر»[4] ـ نزلتْ في كفار قريش.

﴿كُبِتُوا﴾ أي: أُخْزوا كما قال قتادة، أو: غِيظُوا كما قال الفراء[5]، أو: رُدُّوا مخذولين كما قال ابن زيد، أو: أُهلكوا كما قال أبو عبيدة[6] والأخفش.

وعن أبي عبيدة أنَّ تاءه بدلٌ من الدال، والأصلُ: كُبدوا، أي: أصابهم داءٌ في

---

(١) في الأصل: استبقاء.
(٢) ٩/ ١٨٠-١٨١.
(٣) ص١٥٢.
(٤) ٨/ ٢٣٤.
(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٥٤.

أكبادهم. وقال السدي: لُعنوا، وقيل: الكَبْتُ: الكَبُّ، وهو الإلقاء على الوجه، وفسَّره الراغبُ هنا بالرَّدِّ بعنفٍ وتذليلٍ(١).

وذلك إشارة عند الأكثرين إلى ما كان يوم الخندق، وقيل: إلى ما كان يوم بدر.

وقيل: معنى «كبتوا»: سيُكْبَتون، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وهو بشارةٌ للمؤمنين بالنصر على الكفار وتحقُّق كَبْتهم.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من كفار الأمم الماضية المحادِّين لله عزَّ وجلَّ ورسله عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ حالٌ من واو «كُبتوا»، أي: كُبتوا لمحادَّتهم، والحالُ أنَّا قد أنزلنا آياتٍ واضحاتٍ فيمن حادَّ الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم، وفيما فعلنا بهم. وقيل: آياتٍ تدلُّ على صدق الرسول وصحَّة ما جاء به.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بتلك الآيات، أو بكلِّ ما يجبُ الإيمان به، فتدخلُ فيه تلك الآياتُ دخولاً أوَّليًا.

﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يذهبُ بعِزِّهم وكِبْرهم.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوبٌ بما تَعلَّق به اللامُ من الاستقرار، أو بـ «مهين»، أو بإضمار «اذكر»، أي: اذكر ذلك اليومَ تعظيماً له وتهويلاً.

وقيل: منصوبٌ بـ «يكون» مضمراً على أنه جوابٌ لمن سأل: متى يكونُ عذابُ هؤلاء؟ فقيل له: يوم يبعثهم، أي: يكون يوم.. إلخ، وقيل: بالكافرين. وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾ حالٌ جيءَ به للتأكيد، والمعنى: يبعثهم الله تعالى كلَّهم بحيثُ لا يبقى منهم أحدٌ غيرُ مبعوث، ويجوز أن يكونَ حالاً غير مؤكِّدة، أي: يبعثهم مجتمعين في صعيدٍ واحدٍ.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ من القبائح ببيان صدورها عنهم، أو بتصويرها في تلك

---

(١) مفردات الراغب (كبت).

النشأة بما يليقُ بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد، تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وزيادةً في خزيهم ونكالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ وَقَعَ جواباً عمَّا نشأ مما قبله من السؤال؛ إما عن كيفية التنبئة، أو عن سببها، كأنه قيل: كيف يُنبِّئهم بأعمالهم وهي أعراضٌ متقضِّيةٌ متلاشيةٌ؟ فقيل: أحصاه الله تعالى عدداً، ولم يَفُتْهُ سبحانه منه شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينئذٍ حالٌ من مفعول «أحصى» بإضمار «قد» أو بدونه. أو قيل: لِمَ ينبِّئهم بذلك؟ فقيل: أحصاه الله تعالى ونسوه، فينبِّئهم به ليعرفوا أنَّ ما عاينوه من العذاب إنما حاقَ بهم لأجله، وفيه مزيدُ توبيخٍ وتنديمٍ لهم غير التخجيل والتشهير.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيبُ عنه أمرٌ من الأمور أصلاً، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لإحصائه تعالى أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهادٌ على شمول شهادته تعالى، أي: ألم تعلمْ أنه عزَّ وجلَّ يعلمُ ما فيهما من الموجودات، سواءٌ كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلخ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من سَعَةِ علمه تعالى، و«يكون» من «كان» التامة، و«من» مزيدةٌ، و«نجوى» فاعلٌ، وهي مصدرٌ بمعنى التناجي، وهو المُسَارَّة، مأخوذةٌ من النَّجوة، وهي ما ارتفع من الأرض؛ لأنَّ المتسارَّين يخلوان وحدهما بنجوةٍ من الأرض، أو لأنَّ السِّرَّ يُصانُ، فكأنه رُفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء.

وقيل: أصلُ ناجيته من النجاة، وهو أن تُعاونه على ما فيه خلاصُهُ، أو أن تنجوَ بسِرِّكَ من أن يطَّلع عليه.

وهي مضافةٌ إلى «ثلاثة»، أي: ما يقعُ من تناجي ثلاثةِ نفرٍ، وقد يُقدَّرُ مضافٌ، أي: من ذوي نجوى، أو يُؤوَّلُ نجوى بمتناجين، فـ «ثلاثة» صفةٌ للمضاف المقدَّر، أو لـ «نجوى» المؤوَّل بما ذُكر، وجُوِّزَ أن يكون بدلاً أيضاً، والتأويل والتقدير المذكوران ليتأتَّى الاستثناءُ الآتي من غير تكلُّفٍ.

وفي «القاموس»: النجوى: السِّرُّ، والمُسَارُّون، اسمٌ ومصدرٌ[1]. وظاهره أنَّ استعماله في كلٍّ حقيقةٌ، فإذا أُريد المسارُّون لم يحتجْ إلى تقديرٍ أو تأويلٍ، لكن قال الراغب: إنَّ النجوى أصله المصدر كما في الآيات بعد، وقد يُوصَفُ به فيقال: هو نجوى، وهم نجوى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[2] [الإسراء: ٤٧] وعليه يحتملُ أن يكون من باب: زيدٌ عَدْلٌ.

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وشيبة: «ما تكون»[3] بالتاء الفوقية لتأنيث الفاعل. والقراءةُ بالياء التحتية، قال الزمخشريُّ: على أنَّ النجوى تأنيثها غيرُ حقيقيٍّ، و«من» فاصلةٌ، أو على أنَّ المعنى: ما يكونُ شيءٌ من النجوى[4].

واختار في «الكشف» الثاني، فقال: هو الوجه؛ لأنَّ المؤنَّثَ وحدهُ لم يُجْعَلْ فاعلاً لفظاً؛ لوجود «من»، ولا معنًى؛ لأنَّ المعنى: شيءٌ منها، فالتذكيرُ هو الوجهُ لفظاً ومعنًى، وهو قراءةُ العامة. انتهى.

وإلى نحوه يشير كلامُ صاحب «اللوامح» وصرَّحَ بأنَّ الأكثرَ في هذا الباب التذكير، وتعقَّبه أبو حيان بالمنع، وأنَّ الأكثرَ التأنيثُ، وأنه القياس؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٤]، ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر: ٥][5]، فتأمل.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، والرابعُ - لإضافته إلى غير مماثله هنا - بمعنى الجاعل المصيِّرِ لهم أربعةً، أي: ما يكونون في حالٍ من الأحوالِ إلا في حال تصيير الله تعالى لهم أربعة، حيث إنه عزَّ وجلَّ يطَّلعُ أيضاً على نجواهم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي: ولا نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ﴾ أي: ولا نجوى أدنى ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مما ذُكر كالاثنين والأربعة ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالسِّتَّة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا

---

(١) القاموس (نجو).

(٢) مفردات الراغب (نجو).

(٣) النشر ٢/ ٣٨٥ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٢٣٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٣٥.

كَانُوآْ﴾ من الأماكن، ولو كانوا في بطن الأرض، فإنَّ عِلْمهُ تعالى بالأشياء ليس لقربٍ مكانيٍّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قُرْباً وبُعْداً.

وفي الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة وجهان:

أحدهما: أنَّ قوماً من المنافقين تخلَّفوا للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة، فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثةٌ ولا خمسةٌ كما ترونهم يتناجون كذلك، ولا أدنى من عددهم، ولا أكثر إلا والله تعالى معهم يعلم ما يقولون، فالآيةُ تعريضٌ بالواقع على هذا، وقد روي عن ابن عباس أنها نزلتْ في ربيعة وحبيب ابني عمرو، وصفوان بن أمية، كانوا يوماً يتحدَّثون فقال أحدهم: أترى أنَّ الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إنْ كان يعلمُ بعضاً فهو يعلمه كلَّه. أي: لأنَّ مَنْ عَلِمَ بعضَ الأشياء بغير سببٍ فقد علمها كلَّها؛ لأنَّ كونه عالماً بغير سببٍ ثابتٌ له مع كلِّ معلوم.

والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرتْ عليه العادةُ من أعداد أهل النجوى، والجالسين في خَلوةٍ للشورى، والمنتدبون لذلك إنما هم طائفةٌ مجتباةٌ من أُولي الأحلام والنُّهى، وأولُ عددهم الاثنان فصاعداً، إلى خمسةٍ إلى ستةٍ إلى ما اقتضته الحال، وحَكَمَ به الاستصواب، فذكر عزَّ وجل الثلاثةَ والخمسةَ، وقال سبحانه: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ فدلَّ على الاثنين والأربعة، وقال تعالى: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ فدلَّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه، كذا في «الكشاف»[1].

وفي «الكشف» في خلاصة الوجه الثاني أنه خصَّ العددان على المعتاد من عدد أهل النجوى، فإنهم قليلو العدد غالباً، فلَزِمَ أن يخصَّ بالذكر نحو الثلاثة والأربعة إلى الثمانية والتسعة، فأُوثر الثلاثةُ ليكون قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ دالًّا على ما تحتها؛ إذ لو أُوثر الأربعةُ والستةُ مثلاً، كان الأدنى الثلاثة دون الاثنين، إلا على التوسع، ولَمَّا أُوثرت جِيءَ بالخمسة لتناسِبَ الوِتْرَين، وكان الأمرُ دائراً بين الثلاثة والخمسة،

(١) ٤/ ٧٣-٧٤.

والأربعة والستة، فأوثرا بالتصريح لذلك، ولأنه تعالى وترٌ يُحبُّ الوتر[١]. انتهى.

وقد يقال: إنَّ التناجي يكونُ في الغالب للشورى، وهي لا تكونُ إلا بين عددٍ، وأهلُها قليلو العدد غالباً، والأليقُ أن يكونوا[٢] وتراً من الأعداد كالثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة، ليتحقَّقَ عند الاختلاف طرفٌ يترجَّحُ بالزيادة على الطرف الآخر، فيرجعُ إليه دونه، كما هو العادةُ اليومَ عند اختلاف أهل الشورى.

وجَعْلُ عمر رضي الله عنه الشورى في ستةٍ لانحصار الأمر فيهم، كما يدلُّ عليه قوله لهم: نظرتُ فوجدتكم رؤساءَ الناس وقادتهم، ولا يكونُ هذا الأمر إلا فيكم، وقد قُبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ. ومع هذا أمرَ ابنه عبد الله رضي الله عنه أن يحضرَ معهم وإن لم يكن له من أمرِ الخلافة شيءٌ[٣].

فدارَ الأمر بعد اعتبار ما ذُكِرَ من وترية العدد وقِلَّته بين الثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة، فاختيرتِ الثلاثة؛ لأنها أولُ الأوتار العددية، وإذا ضُربتْ في نفسها حَصَلَ منتهاها من الآحاد، ولا يخلو منها اعتبارُ كلِّ ممكنٍ، حتى إنَّ المطالبَ الفكريةَ للمتناجين مثلاً لا تتمُّ بدون ثلاثة أشياء: الموضوع والمحمول والحدُّ الأوسط، بل القضيةُ التي يُتناجى لها لا بدَّ فيها من ثلاثة أجزاء. والخمسةُ؛ لأنها عددٌ دائرٌ لا تنعدمُ بالضرب في نفسها، وكذا بضَرْبِ الحاصل في نفسه إلى ما لا يتناهى، فلها شَبَهٌ بالثلاثة من حيث إنها دائرةٌ مع مراتب الضرب لا تنعدمُ أصلاً، كما أنَّ الثلاثةَ دائرةٌ مع اعتبارات الممكن لا تنعدمُ أصلاً، ومع ذلك هي عددُ المشاعر التي يُحتاجُ إليها في التناجي، وكذا عددُ الحواسِّ الظاهرة، ويدخلُ ما عداهما في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ولا يدخلُ في العموم الواحد؛ لأنَّ التناجي للمشاورة لا بدَّ فيه من اثنين فأكثر، ومَنْ أدخله لم يعتبرِ التناجي لها،

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧)، وأحمد (٨١٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لله تسعة وتسعون اسماً، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر، يحب الوتر».

(٢) في (م): يكون.

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٤/ ١٩٢.

ولا يضرُّ دخولُ الأشفاع فيه؛ لأنَّ أَلْيقية كون المتناجين وتراً إنما كانت نكتة للتصريح بالعددين السابقين، ولا تأبى تحقُّقَ النجوى في الأشفاع كما لا يخفى.

وادَّعى ابن سراقة أنَّ النجوى مختصَّةٌ بما كان بين أكثر من اثنين، وأنَّ ما يكونُ بين اثنين يُسمَّى سِراراً. وقال ابن عيسى: كلُّ سِرارٍ نجوى.

وفي الآية لطائفُ وأسرارٌ لا يعقلها إلا العالمون، فليتأمل.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ثلاثةً» و«خمسةً» بالنَّصب على الحال[1] بإضمار: يتناجون، يدلُّ عليه نجوى، أو على تأويل نجوى بمتناجين، ونصبُهما من المستكنِّ فيه.

وفي مصحف عبد الله: «إلا الله رابعهم، ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا»[2].

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والأعمش وأبو حيوة وسلام ويعقوب: «ولا أكثرُ» بالرفع[3]، قال الزمخشري: على أنه معطوفٌ على محلِّ «لا أدنى» كقولك: لا حولَ ولا قوَّةٌ إلا بالله، بفتح الحول ورفع القوة، ويجوزُ أن يعتبر «أدنى» مرفوعاً على هذه القراءةِ، ورَفْعُهما على الابتداء، والجملةُ التي بعد «إلا» هي الخبر، أو على العَطْفِ على محلِّ «من نجوى» كأنه قيل: ما يكون أدنى ولا أكثرُ إلا هو معهم. و«أكثر» على قراءة الجمهور يحتملُ أن يكونَ مجروراً بالفتح معطوفاً على لفظ «نجوى» كأنه قيل: ما يكونُ من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. وأن يكون مفتوحاً؛ لأنَّ «لا» لنفي الجنس[4].

وقرأ كلٌّ من الحسن ويعقوب أيضاً، ومجاهدٌ والخليل بن أحمد: «ولا أكبرُ» بالباء الموحدة والرفع[5]، وهو على ما سمعت.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم وإظهاراً لما يُوجب عذابهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٤، والبحر ٨/ ٢٣٥، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٨٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦، والبحر ٨/ ٢٣٥.

وقُرئ: «يُنبِئُهم» بالتخفيف والهمز[١]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ بالتخفيف وتَرْك الهمز وكَسْر الهاء[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاته المقتضي للعلم إلى الكلِّ على السواء.

وقد بدأ الله تعالى في هذه الآيات بالعلم حيث قال سبحانه: «ألم تر أن الله يعلم» إلخ، وخَتَمَ جلَّ وعلا بالعلم أيضاً حيث قال الله تعالى: «إن الله» إلخ، ومن هنا قال معظم السلف فيما ذكر في البين من قوله عزَّ وجلَّ: «رابعهم» و«سادسهم» و«معهم»: إنَّ المرادَ به كونه تعالى كذلك بحَسَبِ العلم، مع أنهم الذين لا يُؤوِّلون، وكأنهم لم يَعُدُّوا ذلك تأويلاً؛ لغايةِ ظهوره واحتفافه بما يدلُّ عليه دلالةً لا خَفاء فيها، ويُعلم من هذا أنَّ ما شاع من أنَّ السلفَ لا يُؤوِّلون ليس على إطلاقه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلتْ في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون إليهم، ويتغامزون بأعينهم عليهم، يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شرٌّ، فلا يزالون كذلك حتى تَقْدُمَ أقاربهم، فلما كَثُرَ ذلك منهم شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ، فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين، فعادوا لمثل فعلهم[٣].

وقال مجاهد: نزلت في اليهود. وقال ابن السائب: في المنافقين.

والخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام، والهمزة للتعجيب من حالهم، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرُّر عَوْدهم وتجدُّده، واستحضار صورته العجيبة، وقوله تعالى:

﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ عَطْفٌ عليه، داخلٌ في حكمه، أي: ويتناجون بما هو إثمٌ في نفسه ووبالٌ عليهم وتعدٍّ على المؤمنين وتواصٍ بمخالفة الرسول ﷺ، وذِكْرُهُ عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجِّهَيْن إليه[٤] ﷺ؛ لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥.

(٢) أي: يُنبِهِم. البحر المحيط ٨/ ٢٣٥.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٣٦.

(٤) في (م): وإليه. والمثبت من الأصل، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢١٩ والكلام منه.

وقرأ حمزةُ وطلحةُ والأعمشُ ويحيى بن وثَّاب ورُويس: «ويَنْتَجُون» بنونٍ ساكنةٍ بعد الياء، وضَمِّ الجيم، مضارع انتجى(١).

وقرأ أبو حيوة: «العِدوان» بكسر العين حيثُ وقع(٢).

وقرئ: «معصيات» بالجمع، ونُسبتْ فيما بعدُ إلى الضحاك(٣).

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ صَحَّ من رواية البخاريِّ ومسلم(٤) وغيرهما عن عائشة أنَّ ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسم. فقال عليه الصلاة والسلام: «وعليكم» قالت عائشة: وقلتُ: عليكم السَّامُ، ولَعَنَكُمُ الله وغَضِبَ عليكم. وفي روايةٍ: عليكم السَّامُ والذَّام واللَّعنة. فقال عليه الصلاة والسلام: «يا عائشة، إنَّ الله لا يُحبُّ الفاحشَ ولا المتفحِّش» فقلت: ألا تسمعهم يقولون: السَّام؟! فقال ﷺ: «أو ما سمعتِ أقول: وعليكم»؟! فأنزل الله تعالى: (وَإِذَا جَآءُوكَ) الآية.

وأخرج أحمد والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» بسندٍ جيدٍ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ اليهودَ كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سامٌ عليك. يريدونَ بذلك شَتْمَهُ، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يُعذِّبنا الله بما نقول. فنزلتْ هذه الآية: (وَإِذَا جَآءُوكَ) إلخ(٥).

والسَّام: قال ابن الأثير: المشهورُ فيه تَرْكُ الهمز، ويَعنون به الموت. وجاء في روايةٍ مهموزاً، ومعناه: أنكم تسأمون دينكم(٦).

وصرَّح الخفاجيُّ بأنه بمعنى الموت عبرانيّ(٧)، ولم يذكر فيه الهمزَ وتَركه.

---

(١) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٥ عن حمزة ورويس، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

(٤) البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥). وهو عند أحمد (٢٥٩٢٤).

(٥) الدر المنثور ٦/ ١٨٤، وأحمد (٧٠٦١)، وشعب الإيمان (٩١٠٠) وهو من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، لا من حديث ابن عمر كما ذكر المصنِّف.

(٦) النهاية (سئم) وينظر في رواية الهمز وتركه فتح الباري ١١/ ٤٢.

(٧) حاشية الشهاب ٨/ ١٧٠.

وقال الطبرسيُّ: مَنْ قال: السام: الموت، فهو من سأم الحياة بذهابها[١]. وهذا إرجاعٌ له إلى المهموز.

وجَعَلَ البيضاويُّ[٢] من التحية التي لم يُحيِّهِ بها الله تعالى تحيَّتهم له عليه الصلاة والسلام بـ : أنعِمْ صباحاً، وهي تحيةُ الجاهلية كـ : عِمْ صباحاً، ولم نقفْ على أثرٍ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فيما بينهم، وجُوِّزَ إبقاؤه على ظاهره ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: هلّا يُعذِّبنا الله تعالى بسبب ذلك لو كان محمدٌ ﷺ نبيًّا، أي: لو كان نبيًّا عذَّبنا الله تعالى بسبب ما نقول من التحية = أوفق بالأول؛ لأنَّ أَنعِمْ صباحاً، دعاءٌ بخيرٍ، والعدولُ إليه عن تحية الإسلام التي حيّا الله تعالى بها رسوله ﷺ، وأشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] وما جاء في التشهد: «السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته»[٣] = ليس فيه كثيرُ إثمٍ يُتوقَّعُ معه التعذيبُ الدنيويُّ، حتى إنهم يقولون ذلك إذا لم يُعذَّبوا، اللهم إلَّا إذا انضمَّ إليه أنهم قصدوا بذلك تَحقيراً وإعلاناً بعدم الاكتراث، ولعلَّ قائل ذلك هم المنافقون من المشركين، وهو أظهرُ من كون قائله اليهود، وحُكْمُ التحية به اليوم أنها خلافُ السنة، والقولُ بالكراهة غيرُ بعيد.

وفي «تحفة المحتاج»[٤]: لا يستحقُّ مبتدئٌ بنحو: صبَّحك الله بالخير، أو: قوَّاك الله، جواباً، ودعاؤه له في نظيره حَسَنٌ، إلا أن يقصدَ بإهماله له تأديبه لِتَرْكِهِ سُنَّةَ السلام. انتهى.

و: أَنْعِمْ صباحاً، نحو: صبَّحك الله بالخير، غايةُ ما في الباب أنه دعاءٌ كان يُستعملُ تحية في الجاهلية، نعم تحيَّتُهم به له عليه الصلاة والسلام على الوجه الذي قصدوه حرامٌ بلا خلاف.

---

(١) مجمع البيان ٢٨/ ١٢.

(٢) في تفسيره ٥/ ١٢٢.

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٢٢)، والبخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) (٥٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) ٩/ ٢٢٩.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها، أو يقاسون حَرَّها، أو يصطلون بها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ في أنديتكم وفي خلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يفعله المنافقون، فالخطاب للخُلَّصِ تعريضاً بالمنافقين، وجُوِّزَ جَعْلُهُ لهم، وسُمُّوا مؤمنين باعتبار ظاهر أحوالهم.

وقرأ الكوفيون والأعمش وأبو حيوة ورويس: «فلا تنتجوا»[1] مضارعُ انتجى، وقرأ ابنُ محيصن: «فلا تّناجوا» بإدغام التاء في التاء[2]، وقُرِئ بحَذْفِ إحداهما[3].

﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ بما يتضمَّنُ خيرَ المؤمنين، والاتقاء عن معصية الرسول ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا﴾ فيما تأتون وما تذرون ﴿اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم على ذلك.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان والمعصية ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لا من غيره، باعتبار أنه هو المزيِّنُ لها والحاملُ عليها، وقوله تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خبرٌ آخر، أي: إنما هي لِيَحْزُنَ المؤمنين بتوهُّمهم أنها في نكبةٍ أصابتهم.

وقرئ: «لِيَحْزَنَ» بفتح الياء والزاي[4]، فـ «الذين» فاعلٌ.

﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾ أي: ليس الشيطان أو التناجي بضارٍّ المؤمنين ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إلا بإرادته ومشيئته عزَّ وجلَّ، وذلك بأن يقضيَ سبحانه الموت أو الغلبةَ على أقاربهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٥ عن رويس، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٣٦.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.
(٣) ونسبت لابن محيصن أيضاً، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧.
(٤) الكشاف ٤/ ٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

وحاصله أنَّ ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين، إنْ وَقَعَ فبإرادة الله تعالى ومشيئته، لا دخل لهم فيه، فلا يكترثِ المؤمنون بتناجيهم، وليتوكَّلوا على الله عزَّ وجلَّ ولا يحزنوا منه، فهذا الكلامُ لإزالة حُزْنهم، ومنه ضُعِّفَ ما أشار إليه الزمخشريُّ من جواز أن يرجعَ ضميرُ «ليس بضارِّهم» للحُزْن[١]، وأجيب بأنَّ المقصودَ يحصل عليه أيضاً، فإنه إذا قيل: إنَّ هذا الحزنَ لا يَضرُّهم إلا بإرادة الله تعالى، اندفعَ حُزْنهم.

هذا، ومن الغريب ما قيل: إنَّ الآيةَ نازلةٌ في المنامات التي يراها المؤمنُ في النوم تسوءُهُ ويحزنُ منها، فكأنها نجوى يُناجَى بها. وهذا ـ على ما فيه ـ لا يناسبُ السباقَ والسِّياق كما لا يخفى.

ثم إنَّ التناجي بين المؤمنين قد يكونُ منهيًّا عنه، فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ وأبو داود[٢] عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دونَ الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أنَّ ذلك يُحزنه».

ومثل التناجي في ذلك أن يتكلَّم اثنان بحضور ثالثٍ بلُغةٍ لا يفهمها الثالث، إن كان يُحزنه ذلك.

ولَمَّا نهى سبحانه عن التناجي والسِّرار، علم منه الجلوس مع الملأ، فذكرَ جلَّ وعلا آدابه بعده بقوله عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ إلخ. أو: لما نهى عزَّ وجلَّ عمَّا هو سببٌ للتباغض والتنافر، أَمَرَ سبحانه بما هو سببٌ للتوادِّ والتوافق، أي: إذا قال لكم قائلٌ كائناً مَنْ كان: توسَّعوا، فليفسحْ بعضُكم عن بعضٍ في المجالس، ولا تتضامُّوا فيها، من قولهم: افسحْ عني، أي: تَنَحَّ، والظاهرُ تعلُّق «في المجالس» بـ«تفسَّحوا»، وقيل: متعلِّقٌ بـ«قيل».

وقرأ الحسن وداود بنُ أبي هندٍ وقتادة وعيسى: «تفاسَحُوا»[٣]، وقرأ الأخيران

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٧٥.

(٢) صحيح البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤)، والترمذي (٢٨٢٥)، وأبو داود (٤٨٥١).

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

وعاصم: «في المجالس»(١)، والجمهور: «في المجلس» بالإفراد(٢)، فقيل: على إرادة الجنس؛ لقراءة الجمع. وقيل: على إرادة العهد، والمراد به مجلسه ﷺ، والجمع لتَعدُّده باعتبار مَنْ يجلسُ معه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ لكلِّ أحدٍ منهم مجلساً. وفي أخبار سبب النزول ما يؤيد كلًّا، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان: كان ﷺ يومَ جمعةٍ في الصُّفَّة، وفي المكان ضِيْقٌ، وكان عليه الصلاة والسلام يُكرِمُ أهلَ بدرٍ من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدرٍ منهم ثابتُ بن قيس بن شماس، وقد سُبقوا إلى المجالس، فقاموا حِيالَ رسول الله ﷺ فقالوا: السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ النبيُّ ﷺ، ثم سَلَّموا على القوم، فردُّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّعَ لهم، فلم يفسحوا لهم، فَشَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، فقال لبعضِ مَنْ حوله: «قم يا فلان ويا فلان» فأَقام نفراً مقدارَ مَنْ قَدِمَ، فَشَقَّ ذلك عليهم، وعُرفتْ كراهيته في وجوههم، وقال المنافقون: ما عَدَلَ بإقامة مَنْ أَخذَ مجلسه وأَحَبَّ قُرْبه لمن تأخَّر عن الحضور. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلخ(٣)، وكان ذلك ممن لم يفسحْ تنافساً في القُرْب من رسول الله ﷺ ورغبةً فيه، ولا تكادُ نفسٌ تُؤْثِر غيرها بذلك.

وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان الصحابةُ يتشاحُّون في مجالس القتال إذا اصطفُّوا للحرب، فلا يُوسِّعُ بعضُهم لبعضٍ رغبةً في الشهادة، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلخ(٤).

والأكثرونَ على أنها نزلتْ لِمَا كان عليه المؤمنون من التضامِّ في مجلسه ﷺ، والضِّنَّة بالقرب منه، وترك التفسُّخ لِمُقْبلٍ. وأيًّا ما كان فالحُكْمُ مُطَّردٌ في مجلسه عليه الصلاة والسلام ومصافِّ القتال وغير ذلك.

وقرئ: «في المجلَس» بفَتْح اللام(٥)، فإما أن يُرادَ به ما أُريد بالمكسور،

(١) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٥ عن عاصم، والكلام من البحر ٨/ ٢٣٦.
(٢) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٥.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٣-٣٣٤٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٣٦.
(٥) الكشاف ٤/ ٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦.

والفتحُ شاذٌّ في الاستعمال، وإما أن يُراد به المصدر، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تفسحوا»، أي: إذا قيل لكم توسَّعوا في جلوسكم ولا تضايقوا فيه.

﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: في رحمته، أو في منازلكم في الجنة، أو في قبوركم، أو في صدوركم، أو في رزقكم. أقوالٌ.

وقال بعضهم: المراد: يفسح سبحانه لكم في كلِّ ما تريدون الفَسْحَ فيه، أي: مما ذُكر وغيره، وأنت تعلمُ أنَّ الفَسْحَ يختلفُ المرادُ منه باختلاف متعلّقاته كالمنازل والرزق والصَّدْر، فلا تغفل.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي: انهضوا للتوسعة على المقبلين ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ فانهضوا ولا تتثبَّطوا، وأصله من النَّشْز: وهو المرتفع من الأرض، فإنَّ مُريد التوسعة على المقبل يرتفعُ إلى فوق، فيتَّسعُ الموضع، أو لأنَّ النهوضَ نفسه ارتفاع. قال الحسن وقتادة والضحاك: المعنى: إذا دعيتم إلى قتالٍ أو صلاةٍ أو طاعةٍ فأجيبوا. وقيل: إذا دُعيتم إلى القيام عن مجلس النبيِّ ﷺ فقوموا، وهذا لأنه عليه الصلاة والسلام كان يُؤثر أحياناً الانفرادَ في أَمْرِ الإسلام، أو لأداء وظائفَ تخصُّهُ ﷺ لا تتأتَّى أو لا تكملُ بدون الانفراد.

وعُمِّمَ الحكم فقيل: إذا قال صاحب مجلسٍ لمن في مجلسه: قوموا. ينبغي أن يُجاب، وفِعْلُ ذلك لحاجةٍ إذا لم يترتَّبْ عليه مفسدةٌ أعظمُ منها مما لا نزاع في جوازه، نعم لا ينبغي لقادمٍ أن يُقيم أحداً ليجلسَ في مجلسه، فقد أخرج مالكٌ والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا»[1].

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وطلحةُ وجمعٌ من السبعة: «انشِزوا فانشِزوا» بكَسْر الشين فيهما[2].

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ جوابُ الأمر، كأنه قيل: إن تنشزوا يرفع عزَّ وجلَّ

---

(١) البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧): (٢٨)، والترمذي (٢٧٤٩)، ولم نقف عليه عند مالك، وهو عند أحمد (٤٦٥٩).

(٢) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٧. وجاء في (م): منهما.

المؤمنين منكم في الآخرة جزاءً للامتثال ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الشرعيَّ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: كثيرةً جليلةً كما يُشعر به المقام، وعَطْفُ «الذين أُوتوا العلم» على «الذين آمنوا» من عَطْفِ الخاصِّ على العام؛ تعظيماً لهم بَعدِّهم كأنهم جنسٌ آخر، ولذا أُعيد الموصولُ في النَّظْم الكريم، وقد أخرج الترمذيُّ وأبو داود والدارميُّ عن أبي الدرداء مرفوعاً: «فَضْلُ العالم على العابد، كَفَضْل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب»(١).

وأخرج الدارمي(٢) عن عمر بن كثير عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءه الموتُ وهو يطلبُ العلم ليحيي به الإسلامَ، فبينه وبين النبيين درجة».

وعنه ﷺ: «بين العالم والعابد مئة درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الجواد المضمر سبعين سنة»(٣).

وعنه عليه الصلاة والسلام: «يشفعُ يومَ القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»(٤) فأَعْظِمْ بمرتبةٍ بين النبوَّة والشهادة، بشهادة الصادق المصدوق ﷺ.

وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والملك والمال، فاختارَ العلم، فأعطاه الله تعالى الملك والمال تبعاً له(٥).

---

(١) الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والدارمي ١/ ١١٠.

(٢) في سننه ١/ ١١٢ مرسلاً.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٥٣ من طريق عبد الله بن محرر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ، وقال: وهذا بهذا الإسناد منكر، لا أعلم يرويه عن الزهري إلا ابن محرر ومحمد بن عبد الملك، وجميعاً ضعيفان.
وذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٢٩) أن ابن عون رواه عن ابن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: ومَنْ دون ابن عون لا يحتج به.
وحُضْر الفرس: العَدْو. النهاية (حضر).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) من حديث عثمان بن عفان ﷺ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٦٥: رواه ابن ماجه وأبو يعلى والعقيلي والبيهقي في الشعب من حديث عثمان، وفيه: عنبسة بن عبد الرحمن، وهو متروك.

(٥) ذكره الديلمي في الفردوس ٢/ ١٩٢، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٧٥ عن ابن عباس مرفوعاً.

عن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكلُّ عِزٍّ لم يُوطَّدْ بعلمٍ فإلى ذُلٍّ ما يصير.

وعن بعض الحكماء: ليت شعري أيّ شيءٍ أدرك مَنْ فاته العلم؟ وأيُّ شيءٍ فاته مَنْ أدرك العلم؟

والدالُّ على فَضْل العلم والعلماء أكثرُ من أن يحصى، وأرجى حديثٍ عندي في فضلهم ما رواه الإمام أبو حنيفة في «مسنده» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمعُ الله تعالى العلماءَ يومَ القيامة فيقول: إني لم أجعلْ حكمتي في قلوبكم إلا وأنا أُريد بكم الخير، اذهبوا إلى الجنة فقد غفرتُ لكم على ما كان منكم»[1]. وذكر العارف إلياس الكوراني أنه أحد الأحاديث المسلسلة بالأولية.

ودلالة الآية على فَضْلهم ظاهرةٌ، بل أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قال: ما خَصَّ الله تعالى العلماءَ في شيءٍ من القرآن ما خَصَّهم في هذه الآية، فَضَّلَ الله الذين آمنوا وأُوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم بدرجات[2]. وجَعَل بعضُهم العَطْفَ عليه للتغاير بالذات بحَمْل «الذين آمنوا» على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم. وفي روايةٍ أخرى عنه: يا أيها الذين آمنوا افهموا معنى هذه الآية، ولترغِّبكم في العلم، فإنَّ الله تعالى يرفعُ المؤمنَ العالِمَ فوقَ الذي لا يعلم.

وادَّعى بعضهم أنَّ في كلامه ﷺ إشارةً إلى أنَّ «الذين أوتوا» معمولٌ لفعلٍ محذوف، والعَطْفُ من عَطْفِ الجمل، أي: ويرفع الله تعالى الذين أوتوا العلمَ خاصةً درجات، ونحوه كلامُ ابن عباس، فقد أخرج عنه ابن المنذر والبيهقيُّ في «المدخل» والحاكم وصحَّحه أنه قال في الآية: يرفعُ الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات[3].

وقال بعض المحققين: لا حاجةَ إلى تقدير العامل، والمعنى على ذلك من غير تقدير. واختار الطيبيُّ التقديرَ، وجَعَلَ الدرجات معمولاً لذلك المقدَّر، وقال:

---

(١) مسند أبي حنيفة ص ٣٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٨٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٨٥، والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ص٢٤٧، والمستدرك ٢/ ٤٨١.

يُضمَرُ المذكور أحطَّ منه مما يناسب المقامَ نحو أن يقال: يرفع الله الذين آمنوا في الدنيا بالنَّصر وحُسْنِ الذكر، أو يرفعهم في الآخرة بالإيواء إلى ما يليق[1] بهم من غُرَفِ الجنات، ويرفع الذين أُوتوا العلم درجاتٍ تعظيماً لهم.

وجُوِّزَ كونُ المراد بالموصولَيْن واحداً، والعَطْفُ لتنزيل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذات، فالمعنى: يرفع الله المؤمنين العالمين درجات، وكونُ العَطْفِ من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ هو الأظهر.

وفي «الانتصاف»: في الجزاء برَفْعِ الدرجات مناسبةٌ للعمل المأمور به، وهو التفسُّحُ في المجالس وتَرْكُ ما تنافسوا فيه من الجلوس في أرفعها وأقربها من النبيِّ ﷺ، فلما كان الممتثل لذلك يخفضُ نفسَهُ عمَّا يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جُوزيَ على تواضعه برَفْعِ الدرجات، كقوله: «مَنْ تواضَعَ لله تعالى رَفَعَهُ الله تعالى»[2] ثم لَمَّا عَلِمَ سبحانه أنَّ أهل العلم بحيثُ يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاعَ مجالسهم، خَصَّهم بالذكرِ عند الجزاء، ليسهُلَ عليهم تركُ ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله عزَّ وجلَّ[3].

وقيل: إنه تعالى خَصَّ أهلَ العلم ليسهلَ عليهم تركُ ما عُرفوا بالحرص عليه من رِفْعة المجالس وحُبِّهم للتصدير، وهذا من مغيّبات القرآن؛ لِمَا ظهر من هؤلاء في سائر الأعصار من التنافس في ذلك.

والخفاجيُّ[4] أدرجَ هذا في نقل كلام صاحب «الانتصاف»، وكلامه على ما سمعته أوفقُ بالأدب مع أهل العلم، ولا أظنُّ بـ «الذين أوتوا العلم» المذكورين في الآية أنهم كالعلماء الذين عرَّض بهم الخفاجيُّ، نعم إنه عليه الرحمة صادقٌ فيما قال بالنسبة إلى كثيرٍ من علماء آخر الزمان، كعلماء زمانه وكعلماء زماننا، لكن كثيرٌ من هؤلاء إطلاقُ اسم العالم على أحدهم مجازٌ لا تُعرف علاقته، ومع ذلك قد

(١) في (م): إلى ما لا يليق، وهو سهو من الطباعة.
(٢) الحديث أخرجه أحمد (٩٠٠٨)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) الانتصاف ٤/ ٧٥.
(٤) في حاشيته ٨/ ١٧١.

امتلأ قلبه من حُبِّ الصَّدر، وجَعَلَ يزاحم العلماء حقيقة عليه، ولم يَدْرِ أنَّ محلَّه لو أنصف العَجُز.

هذا واستدلَّ غيرُ واحدٍ بالآية على تقديم العالم ولو باهليًّا شابًّا على الجاهل ولو هاشميًّا شيخاً، وهو بناءً على ما تقدَّم من معناها لدلالتها على فضل العالم على غيره من المؤمنين، وأنَّ الله تعالى يرفعه يوم القيامة عليه، ويجعلُ منزلته فوقَ منزلته، فينبغي أن يكونَ محلُّه في مجالس الدنيا فوقَ محلِّ الجاهل.

وقال الجلال السيوطيُّ في كتاب «الأحكام»: قال قوم: معنى الآية: يرفع الله تعالى المؤمنين العلماءَ منكم درجاتٍ على غيرهم، فلذلك أَمَرَ بالتفسُّحِ من أجلهم، ففيه دليلٌ على رَفْعِ العلماء في المجالس، والتفسُّح لهم عن المجالس الرفيعة[1]. انتهى.

وهذا المعنى الذي نقله ظاهرٌ في أنَّ المتعاطِفَين متَّحدان بالذات، والعَطْفُ لجعل تغايرِ الصفات بمنزلة تغاير الذات، وهو احتمالٌ بعيدٌ، ويظهر منه أيضاً أنه ظنَّ رَفْعَ «يرفع» على أنَّ الجملةَ استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن السؤال عن عِلَّةِ الأمر السابق، مع أنَّ الأمرَ ليس كذلك، ويحتملُ أنه عَلِمَ أنه مجزومٌ في جواب الأمر، لكن لم يعتبر كون الرفع درجات جزاء[2] الامتثال على نحو كون الفسح قبله جزاءه. فتأمله.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديدٌ لمن لم يمتثل بالأمر واستكره[3]. وقرئ: «بما يعملون» بالياء التحتانية[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: إذا أردتم المناجاةَ معه عليه الصلاة والسلام لأمرٍ ما من الأمور ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: فتصدَّقوا قبلها، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ، وأصل التركيب يُستعملُ فيمن له يدان، أو مكنيةٌ بتشبيه النجوى بالإنسان، وإثبات اليدين تخييل، وفي «بين» ترشيحٌ على ما قيل، ومعناه: قبل. وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسول ﷺ، ونفعٌ للفقراء، وتمييزٌ بين المخلص

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٥٧.

(٢) تحرفت في (م) إلى: جزاءه.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير البيضاوي ٨/ ١٧٢: أو استكرهه. وهو أنسب بالسياق.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٧.

والمنافقِ، ومُحبِّ الآخرة ومحبِّ الدنيا، ودفعٌ للتكاثر عليه ﷺ من غير حاجةٍ مهمةٍ؛ فقد روي عن ابن عباس وقتادة أنَّ قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول عليه الصلاة والسلام في غير حاجة، إلا لتظهر منزلتهم، وكان ﷺ سمحاً لا يردُّ أحداً، فنزلت هذه الآية.

وعن مقاتلٍ أنَّ الأغنياء كانوا يأتون النبيَّ ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كَرِهَ عليه الصلاة والسلام طولَ جلوسهم ومناجاتهم، فنزلت.

واختلف في أنَّ الأمر للندب، أو لِلوجوب لكنه نُسِخَ بقوله تعالى: (ءَأَشْفَقْتُمْ) إلخ، وهو وإن كان متصلاً به تلاوةً، لكنه غيرُ متَّصل به نزولاً، وقيل: نُسِخَ بآية الزكاة. والمعوَّلُ عليه الأول.

ولم يُعيَّنْ مقدارُ الصدقة لِيُجزئ الكثيرُ والقليلُ، أخرج الترمذيُّ وحسنه، وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: لما نزلت: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ) إلخ قال لي النبيُّ ﷺ: «ما ترى في دينار؟» قلت: لا يطيقونه، قال: «نصف دينار؟» قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم؟» قلت: شعيرة، قال: «فإنك لزهيد» فلما نزلت: (ءَأَشْفَقْتُمْ) الآية، قال ﷺ: «[فَبِي] خفَّف الله عن هذه الأمة»(١).

ولم يَعْمَلْ بها على المشهور غيره كرَّم الله تعالى وجهه، أخرج الحاكم وصححه، وابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهم عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ في كتاب الله تعالى لآية، ما عَمِلَ بها أحدٌ قبلي، ولا يعملُ بها أحدٌ بعدي: آيةُ النجوى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ) إلخ، كان عندي دينارٌ فبعتُه بعشرة دراهم، فكنتُ كلَّما ناجيتُ النبيَّ ﷺ قدَّمتُ بين يدي نجواي درهماً، ثم نُسختْ فلم يعملْ بها أحدٌ، فنزلت: (ءَأَشْفَقْتُمْ) الآية(٢).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٨٥، وسنن الترمذي (٣٣٠٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وما بين حاصرتين منهما.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٨٥، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٨١-٤٨٢، وأخرجه - أيضاً - ابن أبي شيبة ١٢/ ٨١، والطبري ٢٢/ ٤٨٣.
وورد في مطبوع المستدرك مرفوعاً، وهو خطأ لأن سياق الحديث يدل على أن قائله هو علي، وهو الذي كان يتصدق عندما كان يناجي النبي ﷺ، ولأنه لم يرد ذكر رسول الله ﷺ

قيل: وهذا على القول بالوجوب محمولٌ على أنه لم يتفقْ للأغنياء مناجاةٌ في مدَّة بقاء الحكم، واختلف في مدَّة بقائه، فعن مقاتلٍ أنه عشرة ليالٍ، وقال قتادة: ساعةٌ من نهار، وقيل: إنه نُسِخَ قبل العمل به. ولا يصحُّ لِمَا صَحَّ آنفاً.

وقرئ: «صدقات» بالجمع، لجمع المخاطَبين(1).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تقديم الصدقات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الثواب ﴿وَأَطْهَرُ﴾ وأزكى لأنفسكم؛ لِمَا فيه من تعويدها على عدم الاكتراث بالمال، وإضعاف علاقة حُبِّه المدنِّس لها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ في ذلك إعداد النفس لمزيد الاستفاضة من رسول الله ﷺ عند المناجاة.

وفي الكلام إشعارٌ بنَدْبِ تقديم الصدقةِ، لكنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ - أي: لمن لم يجدْ حيثُ رَخَّصَ سبحانه له في المناجاة بلا تقديم صدقة - أَظْهرُ إشعاراً بالوجوب.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي: أَخِفْتم الفقرَ لأجل تقديم الصدقات، فمفعول «أشفقتم» محذوفٌ، و«أن» على إضمار حَرْفِ التعليل، ويجوز أن يكونَ المفعول «أن تقدموا» فلا حَذْفَ، أي: أَخِفْتُمْ تقديمَ الصدقات لتوهُّم ترتُّب الفقر عليه، وجمع الصدقات لما أنَّ الخوفَ لم يكنْ في الحقيقة من تقديم صَدَقةٍ واحدةٍ؛ لأنه ليس مظنَّة الفقر، بل من استمرار الأمر، وتقديم صدقات، وهذا أولى مما قيل: إنَّ الجمع لجمعِ المخاطبين؛ إذ يُعلَمُ منه وجهُ إفراد الصدقة فيما تقدَّم على قراءة الجمهور.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أُمرتم به وشَقَّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رَخَّصَ لكم المناجاةَ من غير تقديم صدقة، وفيه - على ما قيل - إشعارٌ بأنَّ إشفاقهم ذنبٌ

= في تلخيص المستدرك للذهبي، ولا في إتحاف المهرة لابن حجر (١٤٥٨٥) عند ذكره لإسناد هذا الحديث وعزوه للحاكم.

وجاء في هامش الأصل: وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أن علياً كرم الله تعالى وجهه سأل النبي ﷺ في تلك العشر عن عشرة خصال.

(1) البحر المحيط ٨/ ٢٣٧.

تجاوزَ الله تعالى عنه لما رُئيَ[1] منهم من الانقياد وعدم خوف الفقر بعدُ ما قام مقام توبتهم. و«إذ» على بابها، أعني أنها ظرفٌ لما مضى، وقيل: إنها بمعنى «إذا»[2] الظرفية للمستقبل كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١]. وقيل: بمعنى «إنْ» الشرطية، كأنه قيل: فإن لم تفعلوا ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والمعنى على الأول: إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واعتُبرت المثابرة؛ لأنَّ المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة، وعُدِلَ عن: فصلُّوا، إلى: «فأقيموا الصلاة» ليكونَ المرادُ المثابرةَ على توفية حقوق الصلاة ورعاية ما فيه كمالها، لا على أصل فِعْلها فقط، ولَمَّا عُدِلَ عن ذلك لِمَا ذُكِرَ جيءَ بما بعده على وزانه؛ ولم يقل: وزكُّوا؛ لئلَّا يتوهَّم أنَّ المرادَ الأمرُ بتزكية النفس. كذا قيل، فتدبَّر.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: في سائر الأوامر، ومنها ما تقدَّم في ضمن قوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟) الآيات، وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً. وعن أبي عمرو: «يعملون» بالتحتية[3].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيبٌ من حال المنافقين الذين كانوا يتَّخذون اليهودَ أولياء، ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرارَ المؤمنين، وفيه على ما قال الخفاجيُّ: تلوينٌ للخطاب بصَرْفه عن المؤمنين إلى الرسول ﷺ[4]، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: والوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم اليهود ﴿مَّا هُم﴾ أي: الذين تولَّوا ﴿مِّنكُمْ﴾ معشرَ المؤمنين ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: من أولئك القوم المغضوب عليهم، أعني: اليهود؛ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك، وفي الحديث: «مَثَلُ المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين ـ أي: المتردِّدة بين قطيعين ـ لا تدري أيّهما تتبع»[5].

---

(١) في تفسير البيضاوي ٨/ ١٧٢، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢٢١: رأى.

(٢) في (م): إذ، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٧.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ١٧٣.

(٥) أخرجه أحمد (٥٠٧٩)، ومسلم (٢٧٨٤): (١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وجوَّزَ ابنُ عطيةَ أن يكون «هم» لليهود[(١)]، وضمير «منهم» للذين تولَّوا، ثم قال: فيكونُ فِعْلُ المنافقين على هذا أخسَّ[(٢)]؛ لأنهم تولَّوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيَلْزَمَهم ذِمامُهم، ولا من القوم المحقِّين فتكونَ الموالاةُ صواباً[(٣)].

والأولُ هو الظاهر، والجملةُ عليه مستأنفة، وجُوِّزَ كونُها حالاً من فاعل «تولَّوا»، وَرُدَّ بعدم الواو، وأُجيب بأنهم صرَّحوا بأنَّ الجملةَ الاسميةَ المثبتةَ أو المنفيةَ إذا وقعتْ حالاً تأتي بالواو فقط، وبالضمير فقط، وبهما معاً، وما هاهنا أتَتْ بالضمير، أعني: «هم». وعلى ما قال ابنُ عطية: في موضع الصِّفة لـ «قوم».

وذكر المولى سعد الله أنَّ في «منكم» التفاتاً، وتُعقِّبَ بأنه إن غلِّب فيه خطابُ الرسول ﷺ فظاهرٌ أنه لا التفاتَ فيه، وإن لم يغلَّبْ فكذلك لا التفات فيه؛ إذ ليس فيه مخالفةٌ لمقتضى الظاهر؛ لسَبْقِ خطابهم قبله، وفي جَعْله التفاتاً على رأي السكاكيِّ نظر.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ عَطْفٌ على «تولَّوا» داخلٌ في حَيِّز التعجيب، وجُوِّزَ عَطْفُهُ على جملة «ما هم منكم»، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرُّر الحلف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حالٌ من فاعل «يحلفون» مفيدةٌ لكمال شناعة ما فعلوا، فإنَّ الحلفَ على ما يعلم أنه كذبٌ في غاية القبح، واستدلَّ به على أنَّ الكَذِبَ يَعُمُّ ما يعلم المخبِرُ مطابقته للواقع، وما لا يعلم مطابقته له[(٤)]، فيردُّ به على مذهَبي النَّظَّام والجاحظ؛ إذ عليهما لا حاجة إليه. وبُحِثَ فيه بأنه يجوزُ أن يُرادَ بالكذب ما خالف اعتقادهم [وقوله][(٥)]: «وهم يعلمون» بمعنى: يعلمون خلافه، فيكون جملةً حاليةً مؤكِّدةً لا مقيِّدة، نعم التأسيسُ هو الأصل، لكنه غيرُ متعيِّن، والاحتمالُ يُبطلُ الاستدلالَ.

---

(١) في الأصل و(م): للقوم، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠، والبحر ٨/ ٢٣٨.

(٢) في مطبوع المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٨: أحسن. والوَجْهُ ما ذكره المصنف.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠.

(٤) في تفسير أبي السعود ٨/ ٢٢١، وتفسير البيضاوي ٨/ ١٧٣: ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلم.

(٥) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ١٧٣، والكلام منه.

والكذبُ الذي حلفوا عليه دعواهم الإسلام حقيقة، وقيل: إنهم ما شتموا النبيَّ ﷺ؛ بناءً على ما روي أنه كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ حُجْرةٍ من حُجَره، وعنده نفرٌ من المسلمين، فقال: «إنكم سيأتيكم إنسانٌ ينظرُ إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم فلا تُكلِّموه»، فلم يلبثوا أنْ طَلَعَ عليهم رجلٌ أزرقُ، فقال عليه الصلاة والسلام حين رآه: «علامَ تشتُمني أنت وأصحابك؟» فقال: ذرني آتك بهم. فانطلق فدعاهم فحلفوا، فنزلت. وهذا الحديثُ أخرجه الإمام أحمد والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الدلائل» وابن مردويه والحاكم وصححه، عن ابن عباس إلا أنَّ آخره: فأنزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية والتي بعدها[(١)]، ولعلَّه يُؤيِّدُ أيضاً اعتبارَ كون الكَذِبِ دعواهم أنهم ما شتموا.

وفي «البحر» روايةُ نحو ذلك عن السدي ومقاتل، وهو أنه عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «يدخلُ عليكم رجلٌ قلبه قلبُ جبارٍ، وينظرُ بعينَي شيطان»، فدخل عبد الله بن نَبْتَل وكان أزرقَ أسمرَ قصيراً، خفيفَ اللحية، فقال ﷺ: «علامَ تشتمني أنتَ وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل، فقال له: «فعلتَ» فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه، فنزلت[(٢)]. والله تعالى أعلم بصحته.

وعبد الله هذا هو الرجل المبهم في الخبر الأول، وهو: ابنُ نبتل - بفتح النون وسكون الباء الموحدة، وبعدها تاءٌ مثنَّاةٌ من فوق ولام - بن الحارث بن قيس الأنصاري الأوسي، ذكره ابنُ الكلبيِّ والبلاذري في المنافقين، وذكره أبو عبيد[(٣)] في الصحابة، فيحتمل كما قال ابن حجر: أنه اطَّلع على أنه تاب[(٤)]. وأما قوله في

(١) الدر المنثور ٦/ ١٨٦، وأحمد (٢٤٠٧)، والبزار (٢٢٧٠ - كشف الأستار)، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٢٨٢-٢٨٣، والحاكم ٢/ ٤٨٢.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٢: رواه أحمد والبزار، ورجال الجميع رجال الصحيح.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٣٨، وينظر أسباب النزول للواحدي ص٤٣٨-٤٣٩.

(٣) في كتاب «النسب» كما ذكر ذلك ابن حجر في الإصابة ١٠/ ١٣٩. وجاء في (م): عبيدة.

(٤) الإصابة ١٠/ ١٣٩.

«القاموس»: عبد الله بن نَبيل كأمير[1]، من المنافقين، فيحتمل أنه هو هذا، واختلف في ضَبْطِ اسم أبيه، ويحتمل أنه غيره.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما اعتادوا عمله وتمرَّنوا عليه.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرةَ التي يحلفون بها عند الحاجة ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً وسترةً عن المؤاخذة.

وقرأ الحسن: «إيمانهم» بكسر الهمزة[2]، أي: إيمانهم الذي أظهروه للنبيِّ ﷺ وخُلَّصِ المؤمنين.

قال في «الإرشاد»: والاتخاذ على هذا عبارةٌ عن التستر بالفعل. كأنه قيل: تستَّروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم وأموالهم، وعلى قراءة الجمهور عبارةٌ عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة، وتهيئتهم لها إلى وقتِ الحاجة ليحلفوا بها، ويخلصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنَّ ذلك متأخِّرٌ عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، وعن سببها أيضاً كما يُعربُ عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا﴾ أي: الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في خلالِ أَمْنهم بتثبيط مَنْ لقُوا عن الدخول في الإسلام وتضعيفِ أمر المسلمين عندهم[3].

وقيل: فصدُّوا المسلمين عن قتلهم، فإنه سبيل الله تعالى فيهم.

وقيل: «صَدُّوا» لازمٌ، والمراد: فأعرضوا عن الإسلام حقيقةً. وهو كما ترى.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوَصْفٍ آخرَ لعذابهم، وقيل: الأولُ عذابُ القبر، وهذا عذابُ الآخرة، ويُشعرُ به وَصْفُهُ بالإهانة المقتضية للظهور، فلا تكرار.

---

(١) كذا في الأصل و(م): ابن نبيل كأمير، وقد نقله المصنف من حاشية الشهاب ٨/ ١٧٣. والذي في القاموس (نبتل): ابن نبتل.

(٢) المحتسب ٢/ ٣١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٨.

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٢٢.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ قد سبق مثله في سورة آل عمران[1]، وسبق الكلامُ فيه، فمَنْ أراده فليرجع إليه.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ تقدَّمَ الكلام في نظيره غير بعيد ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى يومئذٍ قائلين: والله ربِّنا ما كنَّا مشركين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا أنهم مسلمونَ مثلكم، والتشبيهُ بمجرَّدِ الحلفِ لهم في الدنيا، وإن اختلف المحلوف عليه بناءً على ما قدَّمنا من سبب النزول.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من جَلْبِ منفعةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ كما كانوا عليه في الدنيا، حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم، ويستجرُّون بها فوائد دنيوية.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون في الكذب إلى غايةٍ ليس وراءها غاية، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علّام الغيوب، وزعموا أنَّ أيمانهم الفاجرةَ تروِّجُ الكذب لديه عزَّ وجلَّ كما تروِّجه عند المؤمنين.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: غلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه، فكان مستولياً عليهم، وقال الراغبُ[2]: الحوذ أن يتبعَ السائقُ حاذَي البعير، أي: أدبار فخذيه، فيُعنِّفُ في سَوْقه، يقال: حاذَ الإبلَ يَحُوذُها، أي: ساقها سَوْقاً عنيفاً، وقوله تعالى: (ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ) أي: استاقهم مستولياً عليهم، أو من قولهم: استحوذَ العيرُ على الأتان، أي: استولى على حاذَيها، أي: جانبَي ظهرها.

وصرَّحَ بعضُ الأجلَّة أنَّ الحَوْذَ في الأصل: السَّوقُ والجمع، وفي «القاموس»[3] تقييدُ السَّوقِ بالسريع، ثم أُطلق على الاستيلاء، ومثله الإحواذ والأحْوَذي، وهو كما قال الأصمعيُّ: المشمِّرُ في الأمور، القاهرُ لها، الذي لا يشذُّ

---

(١) الآية (١٠) و(١١٦).

(٢) في المفردات (حوذ).

(٣) مادة (حوذ).

عنه منها شيء، ومنه قول عائشة في عمر رضي الله عنه: كان أَحوذيًّا نسيجَ وَحْده[1]. مأخوذٌ من ذلك، و«استحوذَ» مما جاء على الأصل في عَدَم إعلاله على القياس؛ إذ قياسُهُ: استحاذ، بقَلْبِ الواو ألفاً كما سُمع فيه قليلاً، وقرأ به هنا أبو عمرو[2]، فجاء مخالفاً للقياس كـ: استنوق واستصوب، وإن وافقَ الاستعمالَ المشهور فيه، ولذا لم يُخِلَّ استعماله بالفصاحة، وفي استفعل هنا من المبالغة ما ليس في فَعَلَ.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ في معنى: لم يمكّنهم من ذِكْره عزَّ وجلَّ بما زيَّنَ لهم من الشهوات، فهم لا يذكرونه أصلاً، لا بقلوبهم ولا بألسنتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غايةَ وراءه، حيث فوَّتوا على أنفسهم النعيمَ المقيمَ، وأخذوا بدله العذابَ الأليم، وفي تصدير الجملة بحرفَي التنبيه والتحقيق، وإظهارِ المتضايفين معاً في موقع الإضمار بأحد الوجهين، وتوسيطِ ضمير الفصل، من فنون التأكيد ما لا يخفى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل ما قبله من خُسْران حزبِ الشيطان، عَبَّرَ عنهم بالموصول ذمًّا لهم بما في حَيِّز الصِّلة، وإشعاراً بعِلَّة الحكم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جملة مَنْ هو أَذَلُّ خَلْقِ الله عزَّ وجلَّ من الأولين والآخرين، معدودون في عدادهم؛ لأنَّ ذِلَّةَ أحد المتخاصمين على مقدار عِزَّةِ الآخر، وحيثُ كانت عِزَّةُ الله عزَّ وجلَّ غير متناهيةٍ كانت ذِلَّةُ مَنْ حادَّهُ كذلك.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٢١٤.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٠: رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طرق، ورجال أحدها ثقات.

(٢) كذا في الأصل و(م). والذي في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨١، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٨، والدر المصون ١٠/ ٢٧٤: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ واردٌ لتعليل كونهم في الأذلين، أي: أثبتَ في اللوح المحفوظ، أو قضى وحَكَم. وعن قتادة: قال. وأيًّا ما كان، فهو جارٍ مجرى القَسَم، فلذا قال سبحانه: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: بالحُجَّةِ والسيف وما يجري مجراه، أو بأحدهما، ويكفي في الغلبة بما عدا الحُجَّة تحقُّقُها للرسل عليهم السلام في أزمنتهم غالباً، فقد أَهْلَكَ سبحانه الكثيرَ من أعدائهم بأنواع العذاب، كقوم نوحٍ وقوم صالحٍ وقوم لوطٍ وغيرهم، والحربُ بين نبيِّنا ﷺ وبين المشركين وإن كان سجالاً، إلاّ أنَّ العاقبةَ كانتْ له عليه الصلاة والسلام، وكذا لأتباعهم بعدهم لكن إذا كان جهادهم لأعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم، بأن يكونَ خالصاً لله عزَّ وجلَّ لا لطلب مُلْكٍ وسَلْطنةٍ وأغراضٍ دنيوية، فلا تكادُ تجدُ مجاهداً كذلك إلا منصوراً غالباً.

وخَصَّ بعضُهم الغلبةَ بالحُجَّة لاطِّرادها، وهو خلافُ الظاهر، ويُبعده سببُ النزول؛ فعن مقاتلٍ: لما فتح الله تعالى مكةَ للمؤمنين، والطائف وخيبر وما حولها، قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله تعالى على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبيٍّ: أتظنُّون الرومَ وفارسَ كبعضِ القرى التي غلبتم عليها، والله إنهم لأكثرُ عدداً وأشدُّ بَطْشاً من أن تظنُّوا فيهم ذلك، فنزلت: (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ)[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نَصْرِ رسله ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَبُ على مراده عزَّ وجلَّ.

وقرأ نافع وابن عامر: «ورسليَ» بفتح الياء[2].

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ يصلح له، و«تجد» إما متعدٍّ إلى اثنين، فقوله تعالى: «يوادون» إلخ مفعوله الثاني، وإما متعدٍّ إلى واحدٍ، فهو حالٌ من مفعوله لتخصُّصه بالصفة. وقيل: صفةٌ أخرى له، أي: قوماً جامعين بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وبين موادَّة أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ. وليس بذاك.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ٣٢٨/٢٠.
(٢) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٣٨٦/٢.

والكلام على ما في «الكشاف»[١] من باب التخييل؛ خيّل أنَّ من الممتنع المحال أن تجدَ قوماً مؤمنين يوادُّون المشركين، والغرضُ منه أنه لا ينبغي أن يكونَ ذلك، وحَقُّهُ أن يمتنعَ ولا يوجدَ بحالٍ مبالغةً في النهي عنه والزجرِ عن ملابسته، والتصلُّب في مجانبة أعداء الله تعالى.

وحاصلُ هذا على ما في «الكشف» أنه من فَرْضِ غير الواقع واقعاً محسوساً، حيث نُفي الوجدانُ على الصفة، وأُريد نفيُ انبغاء الوجدان على تلك الصفة، فجعل الواقع نفي الوجدان، وإنما الواقعُ نفي الانبغاء، فخيّل أنه هو[٢]، فالتصويرُ في جَعْل ما لا يمتنعُ ممتنعاً.

وقيل: المراد: لا تجدُ قوماً كاملي الإيمان على هذه الحال، فالنفيُ باقٍ على حقيقته.

والمرادُ بموادَّةِ المحادِّين: موالاتُهم ومظاهرتهم، والمضارع قيل: لحكايةِ الحال الماضية، و«مَنْ حادَّ الله ورسوله» ظاهرٌ في الكافر؛ وبعضُ الآثار ظاهرٌ في شموله للفاسق، والأخبار مصرِّحةٌ بالنهي عن موالاة الفاسقين كالمشركين، بل قال سفيان: يرونَ أنَّ الآيةَ المذكورةَ نزلتْ فيمن يُخالط السلطان، وفي حديثٍ طويلٍ أخرجه الطبرانيُّ والحاكم والترمذيُّ[٣] عن واثلةَ بن الأسقع مرفوعاً: «يقول الله تبارك وتعالى: وعِزَّتي لا ينالُ رحمتي مَنْ لم يوالِ أوليائي ويُعادِ أعدائي».

وأخرج أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعاً: «أوثقُ الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله»[٤].

وأخرج الديلميُّ من طريق الحسن عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم

---

(١) ٤/ ٧٨.

(٢) جاء في هامش الأصل: قيل: بجعل ما لا يليق كالعدم لمشاركته له في عدم الاعتداد به، فتأمل.

(٣) الطبراني في الكبير ٢٢/ ٥٩ (١٤٠). ولم نقف عليه عند الحاكم والترمذي، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للحكيم الترمذي، وهو في نوادر الأصول ١٥١-١٥٢.

(٤) مسند أحمد (١٨٥٢٤)، وأخرجه أيضاً الطيالسي (٧٤٧)، وابن أبي شيبة ١١/ ٤١ و١٣/ ٢٢٩، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤).

لا تجعلْ لفاجر ـ وفي رواية: ولا لفاسقٍ ـ عليَّ يداً ولا نعمةً، فيَوَدَّه قلبي، فإني وجدتُ فيما أوحيتَ إليَّ: (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ)»(١).

وحكى الكواشيُّ عن سهلٍ أنه قال: مَنْ صحَّح إيمانه، وأَخْلَصَ توحيده، فإنه لا يأنسُ إلى مبتدعٍ، ولا يُجالسه، ولا يؤاكله، ولا يشاربه، ولا يصاحبه، ويُظهرُ له من نفسه العداوة والبغضاء، ومَنْ داهَنَ مبتدعاً، سَلَبَهُ الله تعالى حلاوةَ السنن، ومَنْ تحبَّبَ إلى مبتدعٍ يطلبُ عِزَّ الدنيا أو عَرَضاً منها، أَذَلَّهُ الله تعالى بذلك العِزِّ، وأفقرهُ بذلك الغنى، ومَنْ ضَحِكَ إلى مبتدعٍ نَزَعَ الله تعالى نورَ الإيمان من قلبه، ومَنْ لم يُصدِّقْ فليجرِّب. انتهى.

ومن العجيب أنَّ بعضَ المنتسبين إلى المتصوفة ـ وليس منهم ولا قُلامة ظفر ـ يوالي الظلمةَ، بل مَنْ لا علاقة له بالدين منهم، وينصرهم بالباطل، ويُظهر من محبَّتهم ما يضيقُ عن شرحه صدرُ القِرْطاس، وإذا تليت عليه آيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ الزاجرة عن مثل ذلك يقول: سأعالجُ قلبي بقراءة نحو ورقتين من كتاب «المثنوي الشريف» لمولانا جلال الدين القونوي قُدِّسَ سِرُّهُ، وأُذْهِبُ ظلمته ـ إن كانت ـ بما يحصلُ لي من الأنوار حالَ قراءته، وهذا لَعَمري هو الضلالُ البعيد، وينبغي للمؤمنين اجتناب مثل هؤلاء.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ أي: مَنْ حادَّ الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، والجمعُ باعتبار معنى «مَنْ» كما أنَّ الإفرادَ فيما قبلُ باعتبار لفظها ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ أي: الموادِّين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنَّ قضيةَ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي يُحشر المرءُ فيه مع مَنْ أَحبَّ أن يهجروا الجميعَ بالمرَّة، وليس المرادُ بِمَنْ ذُكِرَ خصوصهم، وإنما المرادُ الأقاربُ مطلقاً، وقدَّم الآباء؛ لأنه يجبُ على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، وثنَّى بالأبناء؛ لأنهم أعلقُ بهم لكونهم أكبادهم، وثلَّث بالإخوان؛ لأنهم الناصرون لهم:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٨٧، ومسند الفردوس (٢٠١١).

أخـاكَ أخـاكَ إنَّ مَـنْ لا أخـا لـه كسـاعٍ إلى الـهـيجا بغير سلاح(١)

وخَتَمَ بالعشيرة؛ لأنَّ الاعتمادَ عليهم والتناصرَ بهم بعد الإخوان غالباً:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستَبِحْ إبلي بنو اللَّقيطةِ من ذُهْلِ بنِ شيبانا

إذاً لقامَ بِنَصْري معشرٌ خُشُنٌ عند الحفيظة إنْ ذو لوثةٍ لانا

لا يسألونَ أخاهم حين يَندُبهمْ في النائبات على ما قال برهانا(٢)

وقرأ أبو رجاء: «وعشائرهم» بالجمع(٣).

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذين لا يُوادُّونهم وإن كانوا أقربَ الناس إليهم وأَمَسَّهم رَحِماً بهم، وما فيه من معنى البعد لرِفْعة درجتهم في الفضل، وهو مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي: أثبتَهُ الله تعالى فيها، ولَمَّا كان الشيءُ يُراد أولاً، ثم يُقالُ، ثم يُكتبُ، عبَّر عن المبدأ بالمنتهى للتأكيد والمبالغة، وفيه دليلٌ على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإنَّ جُزْءَ الثابتِ في القلب ثابتٌ فيه قطعاً، ولا شيءَ من أعمال الجوارح يثبتُ فيه.

وقرأ أبو حيوة والمفضل عن عاصم: «كُتِبَ» مبنيًّا للمفعول «الإيمانُ» بالرفع على النيابةِ عن الفاعل(٤).

﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوَّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من عنده عزَّ وجلَّ، على أنَّ «من» ابتدائية، والمرادُ بالروح نورُ القلب، وهو نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب مَنْ يشاء من عباده، تحصلُ به الطمأنينة والعروجُ على معارج التحقيق، وتسميته روحاً مجازٌ مرسلٌ؛ لأنه سببٌ للحياة الطيبة الأبدية، وجُوِّزَ كونه استعارة، وقولُ بعض الأَجلَّة: إنَّ نورَ القلب ما سَمَّاه الأطباءُ روحاً، وهو الشعاعُ اللَّطيفُ المتكوِّنُ في القلب،

---

(١) البيت لمسكين الدارمي، وهو في العقد الفريد ٢/ ٣٠٤، والحماسة البصرية ٢/ ٦٠، والخزانة ٣/ ٦٥.

(٢) الأبيات لقريط بن أنيف العنبري، وهي في حماسة أبي تمام (شرح المرزوقي) ١/ ٢٢-٣١، والعقد الفريد ٣/ ١٦، وتاج العروس (لقط).

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣٩.

(٤) معاني الفراء ٣/ ١٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٩.

وبه الإدراك، فالروحُ على حقيقته = ليس بشيءٍ كما لا يخفى، أو المرادُ به القرآنُ على الاحتمالين السابقين، واختيرت الاستعارةُ، أو جبريل عليه السلام وذلك يوم بدر، وإطلاقُ الروح عليه شائعٌ. أقوال.

وقيل: ضمير «منه» للإيمان، والمرادُ بالروح الإيمان أيضاً، والكلامُ على التجريد البديعي، فـ «من» بيانيةٌ أو ابتدائيةٌ على الخلاف فيها، وإطلاقُ الروح على الإيمان على ما مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ إلخ بيانٌ لآثار رحمته تعالى الأُخروية إثرَ بيان ألطافه سبحانه الدنيوية، أي: ويدخلهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبَدَ الآبدين.

وقوله تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لما أفاضَ سبحانه عليهم من آثار رحمته عزَّ وجلَّ العاجلة والآجلة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بيانٌ لابتهاجهم بما أُوتوه عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ تشريفٌ لهم ببيان اختصاصهم[1] به تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بيانٌ لاختصاصهم بسعادة الدارين، والكلامُ في تحلية الجملة بـ «ألا» و«إنَّ» على ما مرَّ في أمثالها.

والآيةُ قيل: نزلتْ في أبي بكرٍ ﷺ، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حُدِّثتُ أنَّ أبا قحافةَ سَبَّ النبيَّ ﷺ، فَصَكَّهُ أبو بكرٍ صَكَّةً فسقط؛ فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «أَفَعلتَ يا أبا بكر؟» قال: نعم، قال: «لا تَعُدْ» قال: والله لو كان السيفُ قريباً مني لضربته. وفي رواية: لقتلته. فنزلت: (لَّا تَجِدُ قَوْمًا) الآيات[2].

وقيل: في أبي عبيدةَ بن عبد الله بن الجراح، أخرج ابن أبي حاتم والطبرانيُّ

---

(١) جاء في هامش الأصل: روى السلمي عن أبي عثمان: حزب الله تعالى من يغضبُ لله سبحانه ولا يأخذه فيه عز وجل لومة لائم.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٠، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ١٨٦ لابن المنذر.

وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقيُّ في «سننه» عن عبد الله بن شوذب[1] قال: جعل والدُ أبي عبيدة يتصدَّى له يومَ بدرٍ، وجعل أبو عبيدة يَحيدُ عنه، فلما أكثرَ قَصَدَهُ أبو عبيدة فقتله، فنزلت: (لَّا تَجِدُ) إلخ[2].

وفي «الكشاف»[3] أنَّ أبا عبيدةَ قتلَ أباه عبد الله بن الجراح يومَ أحد.

وقال الواقديُّ في قصة قتله إياه: كذلك يقولُ أهل الشام، وقد سألتُ رجالاً من بني فِهْرٍ فقالوا: توفِّيَ أبوه قبل الإسلام، أي: في الجاهلية قبل ظهور الإسلام[4]. انتهى.

والحقُّ أنه قتله في بدر، أخرج البخاريُّ ومسلم عن أنس قال: كان ـ أي: أبو عبيدة ـ قَتَلَ أباه وهو من جملة أسارى بدر بيده، لَمَّا سمع منه في رسول الله ﷺ ما يكره، ونهاهُ فلم يَنتهِ[5].

وقيل: نزلت فيه حيث قتل أباه، وفي أبي بكرٍ دعا ابنه يومَ بدر إلى البراز، وقال لرسول الله ﷺ: دعني أكونُ في الرَّعْلَة الأولى ـ وهي القطعةُ من الخيل ـ قال: «مَتِّعنا بنفسك يا أبا بكر، ما تعلمُ أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري؟»[6]، وفي مصعب بن عمير، قتل أخاه عُبيدَ بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتلَ خاله العاص بن

---

(١) في الأصل و(م): عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب، وهو خطأ.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٨٦، والمعجم الكبير (٣٦٠)، والحلية ١/ ١٠١، وسنن البيهقي ٩/ ٢٧. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٠٢: وهذا معضل، وكان الواقدي ينكره.
(٣) ٤/ ٧٩.
(٤) ونقله عنه أيضاً القرطبي في تفسيره ٢٠/ ٣٣٠.
(٥) هو من زيادات رزين بن معاوية العبدري كما ذكر ابن الأثير في جامع الأصول ٩/ ٢٠ إثر حديث البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح» ولم ترد هذه الزيادة في الصحيحين، ولعلها في كتاب «تجريد الصحاح» لرزين، فقد ذكر له الذهبي في السير ٢٠/ ٢٠٥ هذا الكتاب.
(٦) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٠، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٢٥٧، وذكره عنه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٨٦، وورد عند الواقدي أن ابن أبي بكر اسمه: عبد الرحمن.

هشام يوم بدر، وفي عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر.

وتفصيل ذلك ما رواه أبو داود[1] عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه قال: لَمَّا كان يومُ بدرٍ تقدَّم عتبةُ بنُ ربيعةَ ومعه ابنه وأخوه، فنادى: مَنْ يبارز؟ إلى قوله: فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا حمزةُ، قُمْ يا عليّ، قُمْ يا عبيدة بن الحارث» فأقبلَ حمزةُ إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة[2]، واختلفتْ بين عُبيدةَ والوليد ضربتان، فأثخنَ كلٌّ منهما صاحبه، ثم مِلْنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة.

هذا ورتَّبَ بعضُ المفسرين: «ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» على قصة أبي عبيدة وأبي بكرٍ ومصعب وعليٍّ كرم الله تعالى وجهه ومَنْ معه. وقيل: إنَّ قوله تعالى: «لا تجد قوما» إلخ، نَزَلَ في حاطبِ بن أبي بلتعة، والظاهرُ ـ على ما قيل ـ أنه متصلٌ بالآي التي في المنافقين الموالين لليهود.

وأيًّا ما كان فحكم الآيات عامٌّ وإن نزلت في أناسٍ مخصوصين كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

تم بعون الله تعالى الجزء السادس والعشرون
ويليه الجزء السابع والعشرون ويبدأ
بسورة الحشر

---

(١) في سننه (٢٦٦٥).
(٢) في هامش الأصل: أي: فقتلناهما، كما نطقت به رواية رزين.

(٥٩) سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون

سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحورُ الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن « غزوة بني النضير » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة ، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير » وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ، وبإيجاز هي سورة الغزوات والجهاد والغنائم .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده ، فالكون بما فيه من إنسان وحيوان ، ونبات ، وجماد ، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله ، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿ سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ .

● **ثم ذكرت** السورة بعض آثار قدرته ، ومظاهر عزته ، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم ، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع ، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم ، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ..﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** السورة موضوع الفيء والغنيمة ، فبينت شروطه وأحكامه ، ووضحت الحكمة عن تخصيص الفيء بالفقراء لئلا

يستأثر به الاغنياء ، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع ، بما فيه خير الفريقين ، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين ..﴾ الآيات .

● **وتناولت** السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر ، فنوَّهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار . فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله والانصار نصروا دين الله ، وآثروا إخوانهم - المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿للفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .. الآيات .

● وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وضربت لهم أسوأ الأمثال بالشيطان الذي يغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذ له ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجَنّ معكم -﴾ الآيات .

● **ووعظت** السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا يفيد فيه جاه ولا مال وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ... ﴾ الآيات وختمت السورة بذكر أسماء الله الحُسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هو الله الذي لا آله الا هو ..﴾ الآيات . وهكذا يتناسق البدء والختام .

سورة الحشر

[٩١١] أخرج البخاري عن ابن عباس قال: سورة الأنفال نزلت في بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

[٩١٢] وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة فحاصرهم رسول الله [ﷺ] حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة وهي السلاح فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

[٩١٣] وأخرج البخاري وغيره(٢) عن ابن عمر أن رسول الله [ﷺ] حرق نخل بني النضير وقطع وادي البويرة فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾(٣) الآية.

[٩١٤] وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن جابر قال: رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي [ﷺ] فقالوا: يا رسول الله هل علينا إثم فيما قطعناه أو تركناه؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾(٤) الآية.

[٩١٥] ك.. وأخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: لما نزل رسول الله [ﷺ] ببني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن النساء وتعيبه فما بال قطع النخل وتحريقها فنزلت.. وأخرج ابن جرير عن قتادة ومجاهد مثله.

[٩١٦] وأخرج ابن المنذر عن يزيد الأصم أن الأنصار قالوا: يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين قال: **«لا ولكن تكفونهم المؤنة**

---

[٩١٢] (١) سورة الحشر: الآية (١).

[٩١٣] (٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريقين مختلفين ووجهين مختلفين عن ابن عمر ص (٢٣٧و ٢٣٨).

(٣) سورة الحشر: الآية (٥).

[٩١٤] (٤) سورة الحشر: الآية (٥).

وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم» قالوا رضينا فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾[1] الآية.

[٩١٧] وأخرج البخاري[2] عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله [ﷺ] فقال: يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله [ﷺ] لا تدخريه شيئاً قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله [ﷺ] فقال: «لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة» فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

[٩١٨] وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي: أن رجلاً من المسلمين فذكر نحوه وفيه. أن الرجل الذي أضاف ثابت بن قيس بن شماس فنزلت فيه هذه الآية.

[٩١٩] وأخرج الواحدي من طريق محارب بن دثار عن ابن عمر قال: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله [ﷺ] رأس شاة فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4] الآية.

[٩٢٠] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال أسلم ناس من أهل قريظة وكان فيهم منافقون وكانوا يقولون لأهل النضير لئن أخرجتم لنخرجن معكم فنزلت هذه الآية فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ﴾[5].

* * *

---

[٩١٦] (١) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩١٧] (٢) صحيح البخاري (٨/ ١٨٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٠)، والشجري في أماليه (١/ ٢٨٣) وابن أبي عاصم (١/ ٢٥٠) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٣٨).

(٣) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩١٩] (٤) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩٢٠] (٥) سورة الحشر: الآية (١١).

سورة الحشر

وهي عشرون واربع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي المنعوت في التوراة بالنصر، فلما هزم المسلمون يوم أحد تابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة، فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري، فقتل كعبًا غيلة، وكان أخاه من الرضاعة، ثم صحبهم رسول الله ﷺ بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف، فقال لهم: اخرجوا من المدينة، فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله ﷺ عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فبعث إليهم عبد الله بن أبي وقال: لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم، فحصنوا الأزقة فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح، فأبى إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق، وآل حيي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة بالحيرة **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى هذه اللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الجواب: إنما هي اللام في قولك: جئت لوقت كذا، والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر.

السؤال الثاني: ما معنى أول الحشر؟ الجواب: أن الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، وأما أنه لم سمى هذا الحشر بأول الحشر فبيانه من وجوه: أحدها: وهو قول ابن عباس

والأكثرين إن هذا أول حشر أهل الكتاب، أي أول مرة حشروا وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، لأنهم كانوا أهل منعة وعز، وثانيها: أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشرًا، وجعله أول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة إلى ناحية الشام، ثم تدركهم الساعة هناك، وثالثها: أن هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام، ورابعها: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما يحشرهم لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله وخامسها: قال قتادة هذا أول الحشر، والحشر الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾.

قال ابن عباس: إن المسلمين ظنوا أنهم لعزتهم وقوتهم لا يحتاجون إلى أن يخرجوا من ديارهم، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تعظيمًا لهذه النعمة، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم، فالمسلمون ما ظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود، فيتخلصون من ضرر مكايدهم، فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة أعظم.

قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

قالوا: كانت حصونهم منيعة فظنوا أنها تمنعهم من رسول الله، وفي الآية تشريف عظيم لرسول الله، فإنها تدل على أن معاملتهم مع رسول الله هي بعينها نفس المعاملة مع الله، فإن قيل: ما الفرق بين قولك: ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه، قلنا: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسمًا، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم، وهذه المعاني لا تحصل في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ **في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: في الآية وجهان: الأول: أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ عائد إلى اليهود، أي فأتاهم عذاب الله وأخذهم من حيث لم يحتسبوا، والثاني: أن يكون عائدًا إلى المؤمنين أي فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا، ومعنى: لم يحتسبوا، أي لم يظنوا ولم يخطر ببالهم، وذلك بسبب أمرين: أحدهما: قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة، وذلك مما أضعف قوتهم، وفتت عضدهم، وفلَّ من شوكتهم، والثاني: بما قذف في قلوبهم من الرعب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء، فدل على أن باب التأويل مفتوح، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرئ (فَآتَاهُمُ اللَّهُ) أي فآتاهم الهلاك، واعلم أن هذه القراءة لا تدفع ما بيناه من وجوه التأويل، لأن هذه القراءة لا تدفع القراءة الأولى، فإنها ثابتة بالتواتر، ومتى كانت ثابتة بالتواتر لا يمكن دفعها، بل لا بد فيها من التأويل.

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ قال أهل اللغة: الرعب، الخوف الذي يستوعب الصدر، أي يملؤه، وقذفه إثباته فيه، وفيه قالوا في صفة الأسد: مُقْذِف، كأنما قذف باللحم قذفًا لاكتنازه وتداخل أجزائه، واعلم أن هذه الآية تدل على قولنا من أن الأمور كلها لله، وذلك لأن الآية دلت على أن وقوع ذلك الرعب في قلوبهم كان من الله ودلت على أن ذلك الرعب صار سببًا في إقدامهم على بعض الأفعال، وبالجملة فالفعل لا يحصل إلا عند حصول داعية متأكدة في القلب، وحصول تلك الداعية لا يكون إلا من الله، فكانت الأفعال بأسرها مسندة إلى الله بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو علي: قرأ أبو عمرو وحده: (يُخَرِّبُونَ) مشددة، وقرأ الباقون: (يُخْرِبُونَ) خفيفة، وكان أبو عمرو يقول: الإخراب أن يترك الشيء خرابًا والتخريب الهدم، وبنو النضير خربوا وما أخربوا، قال المبرد: ولا أعلم لهذا وجهًا، ويخربون هو الأصل خَرِب المنزل وأَخْربه صاحبه كقوله: عَلِم وأَعْلمه وقام وأقامه فإذا قلب يخربون من التخريب فإنما هو تكثير، لأنه ذكر بيوتًا تصلح للقليل والكثير، وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان في الكلام، فيجري كل واحد مجرى الآخر، نحو فَرَّحْتُه وأَفْرحته، وحَسَّنه الله وأَحْسنه، وقال الأعشى:

وَأَخْـرَبْـتُ مِـنْ أَرْضِ قَـوْمٍ دِيَـارًا (١)

وقال الفراء: (يُخَرِّبُون) بالتشديد يهدمون، وبالتخفيف يخربون منها ويتركونها.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في بيان أنهم كيف كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وجوهًا أحدها: أنهم لما أيقنوا بالجلاء، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج، وثانيها: قال مقاتل: إن المنافقين دسوا إليهم أن لا يخرجوا، ودربوا على الأزقة وحصنوها، فنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على أبواب الأزقة، وكان المسلمون يَخربون سائر الجوانب، وثالثها: أن المسلمين إذا ظهروا على درب من دروبهم خربوه، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم، وينقبونها من أدبارها، ورابعها: أن المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد، واليهود لما أيقنوا بالجلاء، وكانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم، وينزعونها ويحملونها على الإبل، فإن قيل: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلنا: قال الزجاج: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوه إياهم.

---

(١) تقدمت ترجمة الأعشى.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية في كتاب (الْمَحْصُولُ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ) على أن القياس حجة فلا نذكره هاهنا، إلا أنه لا بد هاهنا من بيان الوجه الذي أمر الله فيه بالاعتبار، وفيه احتمالات أحدها: أنهم اعتمدوا على حصونهم، وعلى قوتهم وشوكتهم، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم، ثم قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ولا تعتمدوا على شيء غير الله، فليس للزاهد أن يعتمد على زهده، فإن زهده لا يكون أكثر من زهد بلعام، وليس للعالم أن يعتمد على علمه، أنظر إلى ابن الراوندي مع كثرة ممارسته كيف صار، بل لا اعتماد لأحد في شيء إلا على فضل الله ورحمته، وثانيها: قال القاضي: المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر، والكفر في البلاء والجلاء، والمؤمنون أيضًا يعتبرون به فيعدلون عن المعاصي.

فإن قيل: هذا الاعتبار إنما يصح لو قلنا: إنهم غدروا وكفروا فعذبوا، وكان السبب في ذلك العذاب هو الكفر والغدر، إلا أن هذا القول فاسد طردًا وعكسًا، أما الطرد فلأنه رب شخص غدر وكفر، وما عذب في الدنيا وأما العكس فلأن أمثال هذه المحن، بل أشد منها وقعت للرسول عليه السلام ولأصحابه، ولم يدل ذلك على سوء أديانهم وأفعالهم، وإذا فسدت هذه العلة فقد بطل هذا الاعتبار، وأيضًا فالحكم الثالث في الأصل هو أنهم: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وإذا عللنا ذلك بالكفر والغدر يلزم في كل من غدر وكفر أن يخرب بيته بيده وبأيدي المسلمين، ومعلوم أن هذا لا يصلح، فعلمنا أن هذا الاعتبار غير صحيح، والجواب: أن الحكم الثابت في الأصل له ثلاث مراتب: أولها: كونه تخريبًا للبيت بأيديهم وأيدي المؤمنين، وثانيها: وهو أعم من الأول، كونه عذابًا في الدنيا، وثالثها: وهو أعم من الثاني، كونه مطلق العذاب، والغدر والكفر إنما يناسبان العذاب من حيث هو عذاب، فأما خصوص كونه تخريبًا أو قتلاً في الدنيا أو في الآخرة فذاك عديم الأثر، فيرجع حاصل القياس إلى أن الذين غدروا وكفروا وكذبوا عذبوا من غير اعتبار أن ذلك العذاب كان في الدنيا أو في الآخرة، والغدر والكفر يناسبان العذاب، فعلمنا أن الكفر والغدر هما السببان في العذاب، فأينما حصلا حصل العذاب من غير بيان أن ذلك العذاب في الدنيا أو في الآخرة، ومتى قررنا القياس والاعتبار على هذا الوجه زالت المطاعن والنقوض وتم القياس على الوجه الصحيح.

المسألة الثانية: الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العَبْرة عَبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد، وسمي المعبر معبرًا لأن به تحصل المجاوزة، وسمي العلم المخصوص بالتعبير، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع، ويقال: السعيد من اعتبر بغيره، لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ولهذا قال المفسرون: الاعتبار

هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها، وفي قوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ وجهان: الأول: قال ابن عباس: يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر، والثاني: قال الفراء: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يا من عاين تلك الواقعة المذكورة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾

معنى الجلاء في اللغة، الخروج من الوطن والتحول عنه، فإن قيل: إن ﴿لَوۡلَآ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب في الدنيا، لكن الجلاء نوع من أنواع التعذيب، فإذًا يلزم من ثبوت الجلاء عدمه وهو محال، قلنا معناه: ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة، وأما قوله: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ فهو كلام مبتدأ وغير معطوف على ما قبله، إذ لو كان معطوفًا على ما قبله لزم أن لا يوجد لما بينا، أن (لَوْلاَ) تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ فهو يقتضي أن علة ذلك التخريب هو مشاقة الله ورسوله، فإن قيل: لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال: أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب، ومعلوم أنه ليس كذلك، قلنا: هذا أحد ما يدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها.

ثم قال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ والمقصود منه الزجر.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بيان لـ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾، ومحل ﴿مَا﴾ نصب بقطعتم، كأنه قال: أي شيء قطعتم، وأنث الضمير الراجع إلى (ما) في قوله: ﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا﴾ لأنه في معنى اللينة.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة: اللينة النخلة ما لم تكن عجوة أو برنية، وأصل لِينة لِوْنة، فذهبت الواو لكسرة اللام، وجمعها ألوان، وهي النخل كله سوى البرني والعجوة، وقال بعضهم: اللينة النخلة الكريمة، كأنهم اشتقوها من اللين وجمعها لين، فإن قيل: لم خصت اللينة بالقطع؟ قلنا: إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرئ (قُوَّمًا عَلَى أُصْلِها)، وفيه وجهان أحدهما: أنه جمع أَصْل كرَهْن ورُهْن، واكتفى فيه بالضمة عن الواو، وقرئ (قائمًا على أصوله)، ذهابًا إلى لفظ ما، وقوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي قطعها بإذن الله وبأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَسِقِينَ﴾ أي ولأجل إخزاء الفاسقين، أي اليهود أذن الله في قطعها.

المسألة الرابعة: روي أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق، قالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية، والمعنى أن الله إنما أذن في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم.

المسألة الخامسة: احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة، وعن ابن مسعود قطعوا منها ما كان موضعًا للقتال.

المسألة السادسة: روي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة، والآخر اللون، فسألهما رسول الله ﷺ، فقال هذا: تركتها لرسول الله، وقال هذا: قطعتها غيظًا للكفار، فاستدلوا به على جواز الاجتهاد، وعلى جوازه بحضرة الرسول.

قال المبرد: يقال: فاء يفيء إذا رجع، وأفاءه الله إذا رده، وقال الأزهري: الفيء: ما رده الله على أهل دينه من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال، إما بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم، كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن لكل ثلاثة منهم حِمْل بعير مما شاءوا سوى السلاح، ويتركوا الباقي، فهذا المال هو الفيء، وهو ما أفاء الله على المسلمين، أي رده من الكفار إلى المسلمين، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من يهود بني النضير، قوله: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يَجِفُ وجفًا ووجيفًا، وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه، إذا حمله على السير السريع، وقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على ما أفاء الله، وقوله: ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ الركاب ما يركب من الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارسًا، ومعنى الآية أن الصحابة طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم، فذكر الله الفرق بين الأمرين، وهو أن الغنيمة ما أتعبتم أنفسكم في تحصيلها وأوجفتم عليها الخيل والركاب بخلاف الفيء فإنكم ما تحملتم في تحصيله تعبًا، فكان الأمر فيه مفوضًا إلى الرسول يضعه حيث يشاء.

ثم هاهنا سؤال: وهو أن أموال بني النضير أخذت بعد القتال لأنهم حوصروا أيامًا، وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء فوجب أن تكون تلك الأموال من جملة الغنيمة لا من جملة

الفيء، ولأجل هذا السؤال ذكر المفسرون هاهنا وجهين: الأول: أن هذه الآية ما نزلت في قرى بني النضير لأنهم أوجفوا عليهم بالخيل والركاب وحاصرهم رسول الله ﷺ والمسلمون بل هو في فدك، وذلك لأن أهل فدك انجلوا عنه فصارت تلك القرى والأموال في يد الرسول عليه السلام من غير حرب فكان عليه الصلاة والسلام يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي في السلاح والكراع، فلما مات ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فدكًا، فقال أبو بكر: أنت أعز الناس علي فقرًا، وأحبهم إلي غنى، لكني لا أعرف صحة قولك، ولا يجوز أن أحكم بذلك، فشهد لها أم أيمن ومولى للرسول عليه السلام، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع فلم يكن، فأجرى أبو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول ﷺ ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول، ويجعل ما يبقى في السلاح والكراع، وكذلك عمر جعله في يد علي ليجريه على هذا المجرى، ورد ذلك في آخر عهد عمر إلى عمر، وقال: إن بنا غنى وبالمسلمين حاجة إليه، وكان عثمان رضي الله عنه يجريه كذلك، ثم صار إلى علي فكان يجريه هذا المجرى فالأئمة الأربعة اتفقوا على ذلك، والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في بني النضير وقراهم، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، ولم يقطعوا إليها مسافة كثيرة، وإنما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشيًا، ولم يركب إلا رسول الله ﷺ وكان راكب جمل، فلما كانت المقاتلة قليلة والخيل والركب غير حاصل، أجراه الله تعالى مجرى مالم يحصل فيه المقاتلة أصلاً فخص رسول الله ﷺ بتلك الأموال، ثم روى أنه قسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة.

ثم إنه تعالى ذكر حكم الفيء فقال:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾

قال صاحب الكشاف: لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها وغير أجنبية عنها، واعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بنو هاشم وبنو المطلب. قال الواحدي: كان الفيء في زمان رسول الله ﷺ مقسومًا على خمسة أسهم: أربعة منها لرسول الله ﷺ خاصة وكان الخمس الباقي يقسم على خمسة أسهم، سهم منها لرسول الله أيضًا، والأسهم الأربعة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فللشافعي فيما كان من الفيء لرسول الله قولان: أحدهما: أنه للمجاهدين المرصدين للقتال في الثغور لأنهم قاموا مقام رسول الله في رباط الثغور، والقول الثاني: أنه

يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يبدأ بالأهم فالأهم، هذا في الأربعة أخماس التي كانت لرسول الله ﷺ، وأما السهم الذي كان له من خمس الفيء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال المبرد: الدُّولَة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا مرة، والدَّولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم، فالدُّولة بالضم اسم ما يتداول، وبالفتح مصدر من هذا، ويستعمل في الحالة السارة التي تحدث للإنسان، فيقال: هذه دولة فلان أي تداوله، فالدولة اسم لما يتداول من المال، والدولة اسم لما ينتقل من الحال، ومعنى الآية كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها واقعًا في يد الأغنياء ودولة لهم.

المسألة الثانية: قرئ: (دَولَةً وَدُوْلَةً) بفتح الدال وضمها، وقرأ أبو جعفر: (دُولَةٌ) مرفوعة الدال والهاء، قال أبو الفتح: ﴿يَكُونَ﴾ هاهنا هي التامة كقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠] يعني كي لا يقع دولة جاهلية، ثم قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ يعني ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حلال وما نهاكم عن أخذه فانتهوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أمر الفيء ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على ما نهاكم عنه الرسول، والأجود أن تكون هذه الآية عامة في كل ما آتى رسول الله ونهى عنه وأمر الفيء داخل في عمومه.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

اعلم أن هذا بدل من قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] كأنه قيل: أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا، ثم إنه تعالى وصفهم بأمور: أولها: أنهم فقراء، وثانيها: أنهم مهاجرون، وثالثها: أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم يعني أن كفار مكة أحوجوهم إلى الخروج فهم الذين أخرجوهم، ورابعها: أنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، والمراد بالفضل ثواب الجنة وبالرضوان قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وخامسها: قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بأنفسهم وأموالهم، وسادسها: قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ظهر

صدقهم في دينهم، وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر رضي الله عنه، فقال: هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، والله يشهد على كونهم صادقين، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم: يا خليفة رسول الله، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته.

ثم إنه تعالى ذكر الأنصار وأثنى عليهم حين طابت أنفسهم عن الفيء للمهاجرين دونهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ والمراد من الدار: المدينة وهي دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، وتقدير الآية: والذين تبوءوا المدينة والإيمان من قبلهم فإن قيل: في الآية سؤالان: أحدهما: أنه لا يقال: تبوأ الإيمان، والثاني: بتقدير أن يقال ذلك لكن الأنصار ما تبوءوا الإيمان قبل المهاجرين، والجواب عن الأول من وجوه: أحدها: تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله:

وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي الْوَغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا[١]

وثانيها: جعلوا الإيمان مستقرًا ووطنًا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما أنهم لما سألوا سلمان عن نسبه فقال: أنا ابن الإسلام، وثالثها: أنه سمى المدينة بالإيمان، لأن فيها ظهر الإيمان وقوي، والجواب: عن السؤال الثاني من وجهين: الأول: أن الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان، والثاني: أنه على تقدير حذف المضاف والتقدير: تبوءوا الدار والإيمان من قبل هجرتهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ وقال الحسن: أي حسدًا وحرارة وغيظًا مما أوتي المهاجرون من دونهم، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحرارة، لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة، فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية، ثم قال: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ﴾ يقال: آثره بكذا إذا خصه به، ومفعول الإيثار محذوف، والتقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم. عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ دُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَقَسَمْتُ لَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ كَمَا قَسَمْتُ لَهُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَ لَهُمُ الْغَنِيمَةُ وَلَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ**» **فَقَالُوا: لاَ بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَلاَ نُشَارِكُهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ**[٢]. فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ﴾ فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال،

---

(١) الشطر الثاني من البيت راية لعبد الله بن الزبعر وتقدمت ترجمته وشطره الأول هكذا:

يا ليت زوجك قد غدا ... متقلدًا سيفًا ورمحا

(٢) ضعيف: أورده الفتني في (تذكر الموضوعات) (١/ ١٨٤) وقال: لابن مردويه والديلمي وأبي موسى والكل ضعيف، أورده ابن كثير في (تفسيره) (٨/ ٥٥) قال: وقال نعيم بن حماد حدثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن... فذكره.

ولكنه عن حاجة وخصاصة وهي الفقر، وأصلها من الخصاص وهي الفرج، وكل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع فهي خصاص، الواحد خصاصة، وذكر المفسرون أنواعًا من إيثار الأنصار للضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف، ثم ذكروا أن الآية نزلت في ذلك الإيثار، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات، ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشح بالضم والكسر، وقد قرئ بهما.

واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس، لا جرم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا، قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئًا نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئًا أمره الله بإعطائه فقد وقى شح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضًا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد، وقيل: التابعون بإحسان وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، وذكر تعالى أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان، وهو قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي غشًا وحسدًا وبغضًا.

واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم، وبيَّن أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

قال المقاتلان: يعني عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، كانوا من الأنصار، ولكنهم نافقوا يقولون لإخوانهم، وهذه الأخوة تحتمل وجوهًا: أحدها: الأخوة في الكفر لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد ﷺ، وثانيها: الأخوة بسبب المصادقة

والموالاة والمعاونة، وثالثها: الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد ﷺ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قالوا لليهود: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في خذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ ووعدوهم النصر أيضًا بقولهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم إنه تعالى شهد على كونهم كاذبين في هذا القول فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

ولما شهد على كذبهم على سبيل الإجمال أتبعه بالتفصيل فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، فعلم الموجودات في الأزمنة الثلاثة، والمعدومات في الأزمنة الثلاثة، وعلم في كل واحد من هذه الوجوه الستة، أنه لو كان على خلاف ما وقع كيف كان يكون على ذلك التقدير، فهاهنا أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فهؤلاء المنافقون لا يخرجون معهم، وقد كان الأمر كذلك، لأن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا أيضًا فما نصروهم، فأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ فتقديره كما يقول المعترض الطاعن في كلام الغير: لا نسلم أن الأمر كما تقول، ولئن سلمنا أن الأمر كما تقول، لكنه لا يفيد لك فائدة، فكذا هاهنا ذكر تعالى أنهم لا ينصرونهم، وبتقدير أن ينصروا إلا أنهم لا بد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا، ويتركوا أولئك المنصورين في أيدي الأعداء، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأما قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه راجع إلى المنافقين يعني لَيَنْهزِمَنَّ المنافقون: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بعد ذلك أي يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم والثاني: لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

ثم ذكر تعالى أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله تعالى فقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يريد أن هؤلاء اليهود والمنافقين لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالخنادق والدروب أو من وراء جدر، وذلك بسبب أن الله ألقى في قلوبهم الرعب، وأن تأييد الله ونصرته معكم، وقرئ (جُدْرٍ) بالتخفيف وجِدَار وجُدُر وجَدْر وهما الجدار.

ثم قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ **وفيه ثلاثة أوجه:**

أحدها: يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما يكون إذا كان بعضهم مع بعض، فأما إذا قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله. **وثانيها:** قال مجاهد: المعنى أنهم إذا اجتمعوا يقولون: لنفعلن كذا وكذا، فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون، ثم يحترزون عن الخروج للقتال فبأسهم فيما بينهم شديد، لا فيما بينهم وبين المؤمنين. **وثالثها:** قال ابن عباس: معناه بعضهم عدو للبعض، والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني تحسبهم في صورتهم مجتمعين على الألفة والمحبة، أما قلوبهم فشتى، لأن كل أحد منهم على مذهب آخر، وبينهم عداوة شديدة، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ **فيه وجهان:**

الأول: أن ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ لهم.

والثاني: لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما يوهن قواهم.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب فإن قيل: بم انتصب ﴿قَرِيبًا﴾، قلنا: بمثل، والتقدير كوجود مثل أهل بدر. ﴿قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله من قولهم: كلأ وبيل أي وخيم وسيئ العاقبة يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مثل المنافقين الذين غروا بني النضير بقولهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] ثم خذلوهم وما وفوا بعهدهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد إما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر، وإما إغواء الشيطان قريشًا يوم بدر بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال مقاتل: فكان عاقبة المنافقين واليهود مثل عاقبة الشيطان والإنسان حيث صارا إلى النار.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: قرأ ابن مسعود (خالدان فيها)، على أنه خبر (أن)، و(في النار) لغو، وعلى القراءة المشهورة الخبر هو الظرف و﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ حال، وقرئ: (عَاقِبَتُهُمَا) بالرفع، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم إنه تعالى رجع إلى موعظة المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾. الغد: يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له، ثم ذكر النفس والغد على سبيل التنكير. أما الفائدة في تنكير النفس فاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: الغد لا يعرف كنهه لعظمه.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيدًا، أو يحمل الأول: على أداء الواجبات والثاني: على ترك المعاصي.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ وفيه وجهان: الأول: قال المقاتلان: نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، الثاني: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ والمقصود منه الذم، واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين إلى ما هو مصلحتهم يوم القيامة بقوله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨] وهدد الكافرين بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ بيّن الفرق بين الفريقين فقال:

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ

﴿ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

واعلم أن التفاوت بين هذين الفريقين معلوم بالضرورة، فذكر هذا الفرق في مثل هذا الموضع يكون الغرض منه التنبيه على عظم ذلك الفرق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المعتزلة احتجوا على أن صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة، لأن الآية دلت على أن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان، فلو دخل صاحب الكبيرة في الجنة لكان أصحاب النار وأصحاب الجنة يستويان، وهو غير جائز، وجوابه معلوم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالذمي، وقد بينا وجهه في الخلافيات.

ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم أمر القرآن فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ والمعنى أنه لو جعل في الجبل عقل كما جعل فيكم، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار، وغلظ طباعهم، ونظير قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ﴾ [البقرة: ٧٤] واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

وقيل: السر والعلانية، وقيل: الدنيا والآخرة.

اعلم أنه تعالى قدم الغيب على الشهادة في اللفظ وفيه سر عقلي، أما المفسرون فذكروا أقوالاً في الغيب والشهادة، فقيل: الغيب المعدوم، والشهادة الموجود ما غاب عن العباد وما شاهدوه.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ وكل ذلك قد تقدم تفسيره.

ثم قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ قرئ: بالضم والفتح، وهو البليغ في النزاهة في الذات والصفات، والأفعال والأحكام والأسماء، وقد شرحناه في أول سورة الحديد، ومضى شيء منه في تفسير قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال الحسن: إنه الذي كثرت بركاته.

وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في كونه سليمًا من النقائص كما يقال: رجاء، وغياث، وعدل، فإن قيل فعلى

هذا التفسير لايبقى بين القدوس، وبين السلام فرق، والتكرار خلاف الأصل، قلنا: كونه قدوسًا، إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، وكونه: سليمًا، إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب، فإنه تزول سلامته ولا يبقى سليمًا، الثاني: أنه سلام بمعنى كونه موجبًا للسلامة.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه الذي آمن أولياءه عذابه، يقال: آمنه يؤمنه فهو مؤمن، والثاني: أنه المصدق، إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم، أو لأجل أن أمة محمد ﷺ يشهدون لسائر الأنبياء، كما قال: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ثم إن الله يصدقهم في تلك الشهادة، وقرئ بفتح الميم، يعني المُؤمَن به على حذف الجار كما حذف في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قالوا: معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء. ثم في أصله قولان، قال الخليل وأبو عبيدة: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبًا على الشيء، وقال آخرون: مهيمن أصله مؤيمن، من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، وقد تقدم استقصاؤه عند قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال ابن الأنباري: المهيمن: القائم على خلقه برزقه، وأنشد:

أَلاَ إِنَّ خَيْـرَ النَّـاسِ بَعْـدَ نَبِيِّـهِ ... مُهَيْمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

قال معناه: القائم على الناس بعده.

وما ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فهو إما الذي لا يوجد له نظير، وإما الغالب القاهر.

وأما ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه فعَّال من جبر إذا أغنى الفقير، وأصلح الكسير. قال الأزهري: وهو لعمري جابر كل كسير وفقير، وهو جابر دينه الذي ارتضاه، قال العجاج:

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرَ(١)

والثاني: أن يكون الجبار من جَبَره على كذا إذا أكرهه على ما أراده، قال السدي: إنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراده، قال الأزهري: هي لغة تميم، وكثير من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي يقول: جَبَره السلطان على كذا بغير ألف. وجعل الفراء الجبَّار بهذا معنى من أجبره، وهي اللغة المعروفة في الإكراه، فقال: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين، وهما جبَّار من أجبر، ودرَّاك من أدرك، وعلى هذا القول الجبار هو القهار، الثالث: قال ابن الأنباري: الجبار في صفة الله الذي لا ينال، ومنه قيل للنخلة التي فاتت يد المتناول: جبارة، الرابع: قال ابن عباس: الجبار، هو الملك العظيم، قال الواحدي: هذا الذي ذكرناه من معاني الجبار في صفة الله، وللجبار معان في صفة الخلق: أحدها: المسلط كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، والثاني: العظيم الجسم كقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]،

(١) تقدم ترجمة العجاج.

والثالث: المتمرد عن عبادة الله، كقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾[مريم: ٣٢]، والرابع: القتال كقوله: ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[الشعراء: ١٣٠] وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ١٩].

أما قوله: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ففيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله، وثانيها: قال قتادة: المتعظم عن كل سوء، وثالثها: قال الزجاج: الذي تعظم عن ظلم العباد، ورابعها: قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، والكبرياء عند العرب: المُلْك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ٧٨]، واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا، فكان ذلك مذمومًا في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الإسم: قال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾ والخلق هو التقدير معناه أنه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة.

ثم قال: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ وهو بمنزلة قولنا: صانع وموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام، ولذلك يقال في الخلق: برية ولا يقال في الأعراض التي هي كاللون والطعم.

وأما ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ فمعناه أنه يخلق صور الخلق على ما يريد، وقدم ذكر الخالق على البارئ، لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور، لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقد فسرناه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف: ١٨٠].

أما قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقد مر تفسيره في أول سورة الحديد والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب،

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحَشْر

مدنِيَّةٌ في قول الجميع. وهي أربع وعشرون آية[1]، روى ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، لم يَبْقَ شيء من الجنَّة والنار والعرش والكرسيِّ والسماوات والأرض والهوامِّ والريح والسحاب والطير والدوابِّ والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلَّوْا عليه، واستغفروا له. فإنْ مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». خرَّجه الثعلبيُّ[2]. وخرَّج الثعالبيُّ عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آخر سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» ـ إلى آخرها ـ فمات من ليلته مات شهيداً»[3].

وروى الترمذيُّ عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح ثلاثَ مرَّات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعين ألف مَلك يُصَلُّون عليه حتى يُمْسِي، وإن مات في يومه مات شهيداً، ومن قرأها حين يُمْسِي فكذلك». قال: حديث غريب[4].

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

تقدَّم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣.

(٢) لم نقف عليه عند غيره.

(٣) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٠٢ وعزاه إلى ابن مردويه.

(٤) وقعت العبارة في بعض النسخ الخطية و(م): حسن غريب، ولم ترد عند الترمذي (٢٩٢٢)، وهو عند أحمد (٢٠٣٠٦) وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٦٣١، وقال: لم يحسِّنه الترمذي، وهو حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النَّضير. وهم رهط من اليهود من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فِتن بني إسرائيل؛ انتظاراً لمحمَّد ﷺ، وكان من أمرهم ما نصَّ الله عليه[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ الحشرُ: الجمعُ[٢]؛ وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة؛ أمَّا الذي في الدنيا فقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال الزهريُّ: كانوا من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء، وكان الله عزَّ وجلَّ قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذَّبهم في الدنيا[٣]. وكان أوَّلَ حشْر حُشِروا في الدنيا إلى الشام[٤]. قال ابن عباس وعكرمة: من شكَّ أنَّ المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال قتادة: هذا أوَّل المحشر. قال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٢ ، والأثر أخرجه البخاري (٤٠٢٩)، ومسلم (٣٠٣١).

(٢) من هنا إلى نهاية قول قتادة الآتي من التذكرة ص١٩٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، وأبو عبيد في الأموال (٨١)، والطبري ٢٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٧٦ - ١٧٧ .

ابن عباس: هم أوَّل من حُشِر من أهل الكتاب وأُخرِج من دياره[١]. وقيل: إنَّهم أُخرجوا إلى خَيْبر، وأنَّ معنى «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر ﷺ إياهم من خَيْبر إلى نجد وأذرِعات. وقيل: تَيماء وأرِيحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم[٢]. وأما الحشر الثاني: فحشرهم قربَ القيامة. قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تَبِيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم مَن تخلَّف[٣]. وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤]. ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال: قلت لمالك: هو جلاؤهم من ديارهم؟ فقال لي: الحشر يوم القيامة حشر اليهود. قال: وإجلاء رسول الله ﷺ اليهودَ إلى خَيْبر حين سُئلوا عن المال فكتموه، فاستحلَّهم بذلك. قال ابن العربيّ[٥]: للحشر أوَّل ووسط وآخِر؛ فالأوَّل: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء خيبر، والآخِر: حشر يوم القيامة. وعن الحسن: هم بنو قُرَيظة. وخالفه بقيَّة المفسرين وقالوا: بنو قُرَيظة ما حُشروا ولكنهم قتلوا. حكاه الثعلبيُّ.

الثالثة: قال الكيا الطبريُّ[٦]: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنَّما كان ذلك في أوَّل الإسلام، ثم نُسخ. والآن فلابدَّ من قتالهم، أو سَبْيِهم، أو ضرب الجِزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ يريد: لِعظم أَمْرِ اليهود ومَنَعتهم وقوَّتهم في

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٩، عدا قول قتادة فمن النكت والعيون ٥/ ٤٩٩، وقول ابن عباس أخرجه البزار (٣٤٢٦ كشف الأستار)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٥ (١٨٨٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣: رواه البزار، وفيه: أبو سعدالبقال، والغالب عليه الضعف.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٥، وأذرعات وتيماء وأريحاء من بلاد الشام، كما قاله السهيلي.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، والطبري ٢٢/ ٤٩٩.

(٤) ص١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٢، وما قبله منه أيضاً.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٥.

صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ قيل: هي الوَطِيح والنَّطاة والسُّلالِم والكَتِيبة[١]. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أمره، وكانوا أهل حَلْقة ـ أي: سلاح كثير ـ وحصون منيعة، فلم يمنعهم شيء منها. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وعذابه[٢]. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: لم يظنوا[٣]. وقيل: من حيث لم يعلموا. وقيل: «مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» بقتل كَعْب بن الأشرف، قاله ابن جُريج والسُّدِّيُّ وأبو صالح[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بقتل سَيِّدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله هو محمد بن مَسْلمة، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش ـ وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ـ وعبّاد بن بِشر بن وَقْش، والحارث بن أَوْس بن معاذ، وأبو عَبْس بن جبر. وخبره مشهور في السيرة[٥]. وفي «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نُصِرتُ بالرُّعْب بين يَدَي مَسِيرةِ شهر»[٦] فكيف لا يُنْصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلَّة بني النضير. وهذه خصيصَة لمحمَّد ﷺ دون غيره[٧].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب، أي: يهدمون. وقرأ السُّلمِيُّ والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو: «يُخَرِّبون» بالتشديد[٨] من التخريب. قال أبو عمرو: إنَّما اخترت التشديد؛ لأنَّ الإخراب تركُ الشيء خراباً بغير ساكن، وبنو النَّضير لم يتركوها خراباً، وإنما خرَّبوها بالهدم، يؤيده

---

(١) التعريف والإعلام ص١٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ عن ابن جبير والسدي.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥ .

(٦) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٣ .

(٨) السبعة ص٦٣٢ ، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤ .

قوله تعالى: «بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ». وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنًى واحد، والتشديد بمعنَى التكثير(١). وحكى سيبويه: أنَّ معنى فَعَّلت وأَفعلت يتعاقبان، نحو أخربته وخرَّبته، وأفرحته وفرَّحته(٢). واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأُولى.

قال قتادة والضحَّاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يُخربون من داخل ليبنُوا به ما خُرِّب من حِصْنهم(٣). فرُوِيَ أنَّهم صالحوا رسولَ الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يومَ بَدْر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِت في التوراة، فلا تُردُّ له راية. فلما هُزِم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكَّة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصاريَّ، فقتل كَعْباً غِيلةً، ثم صبَّحهم بالكتائب، فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحبُّ إلينا من ذلك، فتنادَوْا بالحرب. وقيل: استمهلوا رسولَ الله ﷺ عشرة أيام ليتجهَّزوا للخروج، فدسَّ إليهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أُخرِجتم لنخرجنَّ معكم. فدُرِّبُوا على الأزقَّة وحصنوها إحدى وعشرين ليلةً، فلما قذف الله في قلوبهم الرُّعب، وأَيِسُوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء(٤)، على ما يأتي بيانه.

وقال الزهريُّ وابن زيد وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبيُّ ﷺ على أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا يستحسنون الخَشَبَة والعمود فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها(٥). وعن ابن زيد أيضاً: كانوا يخربونها؛ لئلا يسكنها

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ عن قتادة، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن الضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٧٩ - ٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن ابن زيد وابن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٥٠١ عن الزهري.

المسلمون بعدهم. وقال ابن عباس: كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم، هدموها ليتَّسع موضع القتال، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها؛ ليتحصَّنوا فيها، ويرموا بالتي أخرِجوا منها المسلمين[١]. وقيل: ليسدُّوا بها أزِقَّتهم[٢]. وقال عِكرمة: «بِأَيْدِيهِمْ» في إخراب دواخلها وما فيها؛ لئلا يأخذه المسلمون. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إخراب ظاهرها؛ ليَصِلُوا بذلك إليهم[٣]. قال عكرمة: كانت منازلهم مزخرفةً، فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج. وقيل: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ» بنقض الموادعة[٤] «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» بالمقاتلة، قاله الزهريُّ أيضاً. وقال أبو عمرو بن العلاء: «بِأَيْدِيهِمْ» في تركهم لها. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إجلائهم عنها. قال ابن العربيِّ[٥]: التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقةً، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً؛ إلا أنَّ قول الزهريِّ في المجاز أمْثَل من قول أبي عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: اتَّعِظُوا يا أصحابَ العقول والألباب. وقيل: يا من عاين ذلك ببصره[٦]، فهو جمع للبصر. ومن جملة الاعتبار هنا أنَّهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها. ومن وجوهه: أنَّه سلَّط عليهم من كان ينصرهم. ومن وجوهه أيضاً: أنَّهم هدموا أموالهم بأيديهم. ومن لم يعتبر بغيره، اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: السَّعيد من وُعِظ بغيره[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ دون نسبته إلى عكرمة، وما بعده منه أيضاً.

(٤) في النسخ: المواعدة، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ والكلام منه، والموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح. اللسان (ودع).

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٣.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٤، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٤٣، وورد في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٦) عن عبد الله =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: لولا أنَّه قضى أنَّه سيُجْليهم عن دارهم، وأنَّهم يبقون مدَّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي: بالقتل والسَّبْي[١]، كما فعل ببني قُرَيظة. والجلاء: مفارقة الوطن[٢]، يقال: جَلَا بنفسه جلاءً، وأَجلاه غيرُه إجلاءً[٣]. والفرق بين الجلاء والإخراج ـ وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً ـ من وجهين: أحدهما: أنَّ الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة، قاله الماورديُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عادَوْه، وخالفوا أمره[٥]. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ قرأ طلحة بن مُصرِّف ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ»[٦] بإظهار التضعيف، كالتي في «الأنفال»[٧]، وأدغم الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

فيه خمس مسائل:

= ابن مسعود ﷺ. وفي إسناده: أبو إسحاق وهو: عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، وهو مدلِّس، وقد عنعنه ولم يصرِّح بالسماع. والمحفوظ أنه موقوف على ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٦) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣] وسلفت ٩/ ٤٦٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ «ما» في محلِّ نصب بـ «قَطَعْتُمْ»[(١)]، كأنَّه قال: أيّ شيء قطعتم. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل على حصون بني النضِير ـ وهي البُوَيْرة ـ حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحُد، أمر بقَطْع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا في عدد ذلك، فقال قتادة والضحَّاك: إنَّهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ستَّ نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنَّهم قطعوا نخلة، وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره؛ إمَّا لإضعافهم بها، وإما لسعَة المكان بقَطْعها. فشقَّ ذلك عليهم فقالوا ـ وهم يهود أهل الكتاب ـ: يا محمَّد، ألستَ تزعم أنَّك نبيٌّ تريد الصلاح، أفمن الصلاح قَطْع النخل وحرق الشجر؟[(٢)] وهل وجدتَ فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا؛ لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[(٣)]. وقال شاعرهم سماك اليهوديُّ في ذلك:

أَلَسْنَا وَرِثْنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم نَصْدِفِ
وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عِجافٍ ... بسَهْلِ تِهامة والأَخْيَفِ
تَرَونَ الرعايةَ مجداً لكم ... لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِفِ
فيا أيها الشاهدون انتهُوا ... عن الظلم والمنطق المُؤْنِفِ
لعلَّ الليالي وصَرف الدهور ... يُدِلْنَ من العادل المنصف
بقتل النَّضِير وإجلائها ... وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَفِ[(٤)]

فأجابه حسان بن ثابت:

---

(١) الكشاف ٤/ ٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠١، وخبر قطع نخيل بني النضير وإحراقها أخرجه البخاري (٤٠٣٢)، ومسلم (١٧٤٦): (٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

تفاقَدَ مَعْشَرٌ نصرُوا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُوا أوتوا الكتاب فضيَّعوه ... وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرَان وقد أبيتم ... بتصديق الذي قال النذيرُ
وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ[1]

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أدام الله ذلك من صنيعٍ ... وحرَّق في نواحيها السَّعِيرُ
ستَعْلَمُ أيُّنا منها بنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أيُّ أرْضِيْنا تَضيرُ
فلو كان النخيل بها رِكاباً ... لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا[2]

الثانية: كان خروج النبيِّ ﷺ إليهم في ربيع الأوَّل، أوَّل السنة الرابعة من الهجرة، وتحصَّنوا منهم في الحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذٍ نزل تحريم الخمر. ودسَّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النَّضير: إنَّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم؛ فاغترُّوا بذلك. فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن دمائهم ويُجْلِيهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم، كَحُيَيِّ بن أَخْطَب، وسَلَّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع. فدانت لهم خَيبر[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، والأبيات في شرح ديوان حسان لعبد الرحمن البرقوقي ص٢٥٠ ، قال شارحه: وقوله: تفاقَدَ معشر: أي: فَقَدَ بعضهم بعضاً. وقوله: بُورُ: يعني ضُلَّال أو هلكى، من البوار وهو الهلاك. وقوله: سراة بني لؤي: أي خيارهم. والبويرة: موضع بني قريظة. ا هـ. والبيت الأخير سيأتي ضمن خبر ابن عمر، وثمة تخريجه هناك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، وورد فيه: طرائقها، بدل: نواحيها. وأبو سفيان بن الحارث: هو ابن عبد المطلب، وهو ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان حينئذٍ لم يُسلم، وقد أسلم بعدُ في الفتح. وبنزه: ببعد. وتضير: من الضَّيْر، وهو بمعنى الضُّرِّ. فأبو سفيان يقول: تخرَّبت أرض بني النضير، وتخريبها إنما يضرُّ أرضَ من جاورها، وأرضكم [يعني أرض الأنصار] هي التي تجاورها فهي التي تتضرَّر لا أرضنا [يعني أرض قريش]. فتح الباري ٧/ ٣٣٣-٣٣٤ . والبيتان الأول والثاني ذكرهما البخاري (٤٠٣٢) ضمن خبر ابن عمر الآتي قريباً، وكما أشرنا إليه هناك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، حيث ذكر أن هذه الغزوة كانت سنة أربع، وكذا ذكر =

الثالثة: ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قطع نخل بني النَّضير وحَرَّق، ولها يقول حسان:

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

وفي ذلك نزلت: «مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ» الآية[1].

واختلف الناس في تخريب دار العدوِّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأوَّل: أنَّ ذلك جائز، قاله في «المدوَّنة»[2]. الثاني: إن علم المسلمون أنَّ ذلك لهم، لم يفعلوا، وإن يئسوا، فعلوا، قاله مالك في «الواضحة». وعليه يناظر أصحاب الشافعي. ابن العربيِّ[3]: والصحيح الأوَّل. وقد علم رسول الله ﷺ أنَّ نخل بني النَّضير له، ولكنه قَطع وحَرَّق؛ ليكون ذلك نكايةً لهم، ووَهْناً فيهم، حتى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعاً، مقصودة عقلاً.

الرابعة: قال الماورديُّ: إنَّ في هذه الآية دليلاً على أنَّ كلَّ مجتهد مصيبٌ. وقاله الكِيَا الطَّبَرِيُّ[4] قال: وإن كان الاجتهاد يَبعُد في مثله مع وجود النبيِّ ﷺ بين

= البلاذري في فتوح البلدان ص٣١، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٥٠ أن ابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في هذا الموضع - أي بعد غزوة أحد - وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر. اهـ. وخبر الزهري في مغازيه ص٧١، وأخرجه البلاذري في فتوح البلدان ص٣١ ولكن ورد فيه أن وقيعة بني النضير من يهود كانت على ستة أشهر من يوم أحد. وعلَّقه البخاري قبل حديث (٤٠٢٨) عن الزهري عن عروة، ووصله عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٧، وردَّه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٢٣، وذكر الواقدي في المغازي ١/ ٣٦٣ أنها كانت في ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجرة النبي ﷺ.

(١) مسلم (١٧٤٦): (٣٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٠٣٢)، وزاد: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرَّق في نواحيها السعير

ستعلم أيُّنا منها بنزه ... وتعلم أيُّ أرضينا تضير

وسلفت قريباً.

(٢) ٣/ ٧ - ٨، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦.

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٦.

أظهرهم، ولا شكَّ أنَّ رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت، فتلَقَّوا الحكم من تقريره فقط. قال ابن العربيّ[١]: وهذا باطل؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهادَ مع حضور رسول الله ﷺ، وإنَّما يدلُّ على اجتهاد النبيِّ ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذاً بعموم الأذِيَّة للكفار، ودخولاً في الإذن للكلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، وذلك قوله تعالى: «وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ».

الخامسة: اختلف في اللِّينة ما هي، على أقوال عشرة: الأوَّل: النخل كلُّه إلا العَجْوةَ، قاله الزهريُّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل[٢]. وعن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنَّها النخل كلُّه، ولم يستثنوا عَجْوةً ولا غيرها[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها لون من النخل. وعن الثوريِّ: أنَّها كرام النخل[٤]. وعن أبي عبيدة[٥]: أنَّها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْنِي. وقال جعفر بن محمد: إنَّها العجوة خاصّةً[٦]. وذكر أنَّ العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة. والعتيق: الفحل. وكانت العجوة أصلَ الإناث كلِّها، فلذلك شقَّ على اليهود قطعها، حكاه الماورديُّ[٧]. وقيل: هي ضَرْبٌ من النخل، يقال لتمره: اللَّون، تمره أجود التمر، وهو شديد الصفرة يُرَى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضِّرس؛ النخلة منها أحبُّ إليهم من وَصِيف[٨]. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وأنشد الأخفش:

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ ، دون عزوه لسعيد بن جبير وعزاه له النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٠٧ عن عكرمة والزهري وابن عباس وآخرين.

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٠٨ عن ابن عباس. وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ عن الحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠٩ .

(٥) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ وعزاه لمقاتل، والوصيف: الخادم، غلاماً كان أو جارية. اللسان (وصف).

قـد شـجـانـي الـحـمـام حـيـن تَـغَـنَّـى بـفـراق الأحـبـاب مـن فـوق لِـيـنَـهْ[١]

وقيل: إنَّ اللِّينة: الفَسِيلة؛ لأنَّها ألين من النخلة. ومنه قول الشاعر:

غَـرَسُـوا لِـيـنـهـا بـمـجـرى مَـعِـيـن ثـم حَـفّـوا الـنـخـيـل بـالآجـامِ[٢]

وقيل: إنَّ اللينة: الأشجارُ كلُّها؛ للينها بالحياة، قال ذو الرُّمَّة:

طِـراقُ الـخَـوَافـي واقـعٌ فـوق لِـيـنـة نَـدَى لـيـلـه فـي ريـشـه يـتـرقـرقُ[٣]

والقول العاشر: أنَّها الدقَل، قاله الأصمعيُّ. قال: وأهل المدينة يقولون: لا تنتفخ[٤] الموائد حتى توجد الألوان، يعنون: الدَّقَل. قال ابن العربيِّ[٥]: والصحيح ما قاله الزهريُّ ومالك؛ لوجهين: أحدهما: أنَّهما أعرف ببلدهما وأشجارهما. الثاني: أنَّ الاشتقاق يَعْضُده، وأهل اللُّغة يصححونه؛ فإنَّ اللِّينة وزنها لُونة، واعتلَّت على أصولهم، فآلت إلى لِينة، فهي لون، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها؛ كَبَرْك: الصَّدْرُ ـ بفتح الباء ـ وبِرْكة ـ بكسرها ـ لأجل الهاء.

وقيل: لِينة، أصلها لِوْنة، فقلِبت الواو ياءً؛ لانكسار ما قبلها. وجمع اللينة: لِين.

وقيل: لِيان، قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه:

وسـالـفـة كـسَـحُـوقِ الـلِّـيـا نِ أضْـرَمَ فـيـهـا الـغَـويُّ الـسُّـعُـرْ[٦]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ولم ينسبه، وأورده الحميري في الروض المعطار ص٦١٧ ، إلا أنه ورد فيه: الفسيل، بدل: النخيل، وكما نسبه لبعض ولد يثرب بن قانية أول من نزل مدينة النبي ﷺ، وسمِّيت باسمه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ٤٨٨ إلا أنه ورد فيه: ريعة، بدل: لينة. قال شارحه: طراق: أي بعضه على بعض. والخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. والريعة: المكان المرتفع. ويترقرق: يجيء ويذهب.

(٤) في (خ): لا ينتفخ. وفي أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٧ والكلام منه: لا ننحى. وقول الأصمعي ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧١ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٦) الصحاح (لون)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٥ ، إلا أنه ورد فيه: اللُّبان، بدل: اللِّيان، قال شارحه: السالفة: العُنُق. وكسحوق اللُّبان: كالشجرة في الطول. واللُّبان: شجرة اللُّبان، وهو الكُنْدر.

وقال الأخفش: إنَّما سمِّيت لينةً؛ اشتقاقاً من اللَّون، لا من اللين[١]. المهدوِيُّ: واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي من اللون، وأصلها لُونة. وقيل: أصلها لِينة، من لان يلين.

وقرأ عبد الله: «ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قُوَّماً على أصولها»[٢] أي: قائمة على سوقها. وقرأ الأعمش: «ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولِها»[٣] المعنى: لم تقطعوها. وقرئ: «قُوَّماً على أُصُلِها». وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه جمع أصلٍ، كَرَهْن ورُهُن. والثاني: اكْتُفِي فيه بالضمَّة عن الواو. وقرئ: «قائماً على أصوله» ذهاباً إلى لفظ «ما»[٤]. ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليذلَّ اليهودَ الكفَّارَ به وبنبيِّه وكتبه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ هذه الآية والتي بعدها إلى قوله: «شَدِيدُ الْعِقَابِ» **فيه عشر مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ما ردَّه الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أموال بني النَّضِير. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أوْضَعْتم عليه. والإيجاف: الإيضاع في السير، وهو الإسراع[٥]، يقال: وَجَف الفرسُ: إذا أسرع، وأوجفته أنا، أي: حرَّكته

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٤ إلا أنه ورد فيه: أصوله، بدل: أصولها.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣ .

وأتعبته، ومنه قول تميم بن مقبل:

مَذاوِيد بالبِيض الحديثِ صِقالُها عن الركب أحياناً إذا الركب أَوْجَفُوا[(١)]

والركاب: الإبل، واحدها: راحلة[(٢)]. يقول: لم تقطعوا إليها شُقَّة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقَّة؛ وإنَّما كانت من المدينة على مِيلَيْن، قاله الفرَّاء[(٣)]. فمشَوْا إليها مَشْياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، إلا النبيَّ ﷺ فإنَّه ركب جملاً، وقيل: حماراً مخطوماً بليف، فافتتحها صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم[(٤)]. فسأل المسلمون النبيَّ ﷺ أن يَقسم لهم فنزلت: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ» الآية. فجعل أموال بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خاصَّةً يضعها حيث شاء، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين. ـ قال الواقديُّ: ورواه ابن وهب عن مالك ـ ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثةَ نفر محتاجين، منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة[(٥)]. وقيل: إنَّما أعطى رجلين، سهلاً وأبا دُجَانة. ويقال: أعطى سعد بن معاذ سيفَ ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم[(٦)]. ولم يُسلم من بني النَّضير إلا رجلان: سفيان بن عمير، وسعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها[(٧)].

وفي «صحيح مسلم» عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبيت في ديوان تميم بن أُبيٍّ بن مقبل ص٣٧٢ ، والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٥ ، عدا قوله: وقيل: حماراً مخطوماً بليف. فمن الكشاف ٤/ ٧٩ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٦) المغازي للواقدي ١/ ٣٧٩ ، والقول الأول أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٢٦ عن عبد الله بن أبي بكر ﷺ.

(٧) الدرر لابن عبد البر ص١٨٥ ، وورد فيه أنهما: يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب، وكذا وردا في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢ .

رسوله، مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيِّ ﷺ خاصَّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ، وما بقي يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله تعالى[١].

وقال العباس لعمر رضي الله عنهما: اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ـ يعني: عليّاً ﷺ، فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير ـ فقال عمر: أتعلمانِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا نُورث ما تركناه صدقة» قالا: نعم. قال عمر: إنَّ الله عزَّ وجلَّ كان خصَّ رسوله ﷺ بخاصَّة ولم يُخَصِّص بها أحداً غيره. قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» ـ ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا ـ فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النَّضير، فو اللهِ ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أُسْوَةَ المال... الحديث بطوله، خرَّجه مسلم[٢]. وقيل: لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم، طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظٌّ كالغنائم، فبيَّن الله تعالى أنَّها فَيْءٌ، وكان قد جرى ثَمَّ بعضُ القتال؛ لأنَّهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق، بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار، وخصَّ الله تلك الأموال برسوله ﷺ. وقال مجاهد[٣]: أَعلمهم الله تعالى وذكَّرهم أنَّه إنَّما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كُراع ولا عُدَّة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من أعدائه. وفي هذا بيان أنَّ تلك الأموال كانت خاصَّةً لرسول الله ﷺ دون أصحابه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة، وفَدَك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر. وقُرَى

(١) مسلم (١٧٥٧)، وهو عند البخاري (٢٩٠٤)، وأحمد (١٧١)، والكراع: الدوابُّ التي تصلح للحرب.
(٢) برقم (١٧٥٧): (٤٩)، وهو عند البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد (٤٢٥).
(٣) في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥١٤ .

عُرَينة[١]. ويَنْبُع جعلها الله لرسوله. وبيَّن أنَّ في ذلك المال الذي خصَّه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول، نظراً منه لعباده.

وقد تكلَّم العلماء في هذه الآية والتي قبلها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال، فقال قوم من العلماء: إنَّ قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أوَّل الإسلام تُقسم الغَنِيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما[٢]. ونحوه عن مالك. وقال قوم: إنَّما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا رِكاب، فيكون لمن سمَّى الله تعالى فيه فَيْئاً، والأُولى للنبيِّ ﷺ خاصَّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين. وقال معمر: الأُولى للنبيِّ ﷺ، والثانية هي الجزية والخراج، للأصناف المذكورة فيه. والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين[٣]. وقال قوم منهم الشافعيُّ: إنَّ معنى الآيتين واحد، أي: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيِّ ﷺ. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القربى - وهم بنو هاشم وبنو المطلب - لأنَّهم مُنِعوا الصدقة، فجعل لهم حقٌّ في الْفَيْء، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٤]. وأما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي كان من الْفَيْء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعيِّ في قولٍ إلى المجاهدين المترصِّدين للقتال في الثغور؛ لأنَّهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يُصرَف إلى مصالح المسلمين من سدِّ الثغور وحفر الأنهار وبناء

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٧ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥٦ ، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥١٧ - ٥١٨ عن يزيد بن رومان وقتادة.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٩ .

(٤) الأم ٤/ ٧٧ ، وأحكام القرآن للشافعي جمع الإمام البيهقي ١/ ١٥٣ وما بعدها.

القناطر، يُقدَّم الأهمُّ فالأهمِّ، وهذا في أربعة أخماس الفيء(١). فأمَّا السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خلاف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس لي من غنائمكم إلا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم»(٢). وقد مضى القول فيه في سورة «الأنفال»(٣). وكذلك ما خلَّفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يُصرَف عنه إلى مصالح المسلمين، كما قال عليه السلام: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صدقة»(٤). وقيل: كان مال الفيء لنبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» فأضافه إليه؛ غير أنَّه كان لا يتأثَّل(٥) مالاً، إنَّما كان يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ(٦): لا إشكالَ أنَّها ثلاثةُ معانٍ في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قوله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» ثم قال تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يريد كما بَيَّنَّا؛ فلا حقَّ لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنَّها كانت خالصةً لرسول الله ﷺ، يعني بني النضير وما كان مثلها. فهذه آية واحدة ومعنًى متَّحد. الآية الثانية: قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» وهذا كلام مبتدأ غير الأوَّل لمستحقٍّ غيرِ الأوَّل. وسمَّى الآية الثالثة آيةَ الغنيمة، ولا شكَّ في أنَّه معنًى آخر باستحقاق ثانٍ لمستحقٍّ آخر، بَيْدَ أنَّ الآية الأولى والثانية، اشتركتا في أنَّ كلَّ واحدة منهما تضمَّنت شيئاً

---

(١) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٩٥ .

(٢) سلف ٩/ ٤٤٤ .

(٣) ١٠/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) أي: غير جامع، يقال: مال مؤثَّل، ومجد مؤثَّل. أي: مجموع ذو أصل، وأثلة الشيء: أصله. النهاية (أثل).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦٠ - ١٧٦١ .

أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنَّه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنَّه حاصل بقتال، وعرِيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» عن ذِكْر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من ها هنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كلّه ونحوه. ومن طائفة قالت: هي ملحقة بالثانية، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنَّها ملحقة بآية الأنفال، اختلفوا؛ هل هي منسوخة ـ كما تقدَّم ـ أو مُحكَمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أَوْلى؛ لأنَّ فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أنَّ حمل الحرف من الآية ـ فضلاً عن الآية ـ على فائدة متجدِّدة أَوْلى من حمله على فائدة معادة.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: «فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» هي[1] النضير، لم يكن فيها خمس، ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافيةً لرسول الله ﷺ، فقَسَمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار، حسب ما تقدَّم. وقوله: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» هي قُرَيظة، وكانت قُريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربيّ[2]: قول مالك: إنَّ الآية الثانية في بني قُريظة، إشارة إلى أنَّ معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ، وهذا أقوى من القول بالإحكام، ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيَّنَّا أنَّ الآية الثانية لها معنًى مجدَّد حسب ما دلَّلنا عليه. والله أعلم.

قلت: ما اختاره حَسَن. وقد قيل: إنَّ سورة «الحشر» نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدِّمُ المتأخِّرَ[3]. وقال ابن أبي نَجيح: المال ثلاثة: مَغْنم، أوْفَيْءٌ، أو صَدَقة، وليس منه درهم إلا وقد بيَّن الله موضعه[4]. وهذا أشبه.

---

(١) في (د) و(م): بني. والمثبت من (ظ) و(خ) و(ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٩ - ١٧٦٠ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦١ .

(٣) نواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٨ .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٥ وعزاه لابن المنذر.

الثالثة: الأموال التي للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ، ثلاثةُ أضْرُب: ما أُخِذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات. والثاني: الغنائم، وهو ما يحصُل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث: الْفَيْءُ، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عَفواً صفْواً من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجِزية والخراج والعشور المأخوذة من تجّار الكفّار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارثَ له. فأمّا الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها، حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في «براءة»[(١)]. وأمّا الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبيِّ ﷺ يصنع فيها ما شاء، كما قال في سورة «الأنفال»: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الآية: ١]، ثم نسخ بقوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الآية [٤١: من سورة الأنفال]. وقد مضى في الأنفال بيانه[(٢)].

فأما الفَيْءُ فقسمته وقسمة الخمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما، قَسَمه كلَّه بين الناس، وسوَّى فيه بين عربِيِّهم ومَوْلاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا، ويعطوا ذَوُو القربى من رسول الله ﷺ من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حدٌّ معلوم. واختلف في إعطاء الغنيِّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه، لأنَّه حقٌّ لهم. وقال مالك: لا يُعطَى منه غير فقرائهم؛ لأنَّه جُعل لهم عِوَضاً من الصدقة[(٣)].

وقال الشافعيُّ: أيّما حصل من أموال الكفّار من غير قتال كان يقسم في عهد النبيِّ ﷺ على خمسة وعشرين سهماً: عشرون للنبيِّ ﷺ يفعل فيها ما يشاء. والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الدَّاوُديّ: وهذا قول

(١) ١٠/ ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) ١٠/ ١٩ وما بعدها.

(٣) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨ .

ما سبقه به أحدٌ علمناه، بل كان ذلك خالصاً له، كما ثبت في الصحيح عن عمر[(١)] مبيِّناً للآية. ولو كان هذا لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يدلُّ على أنَّه يجوِّز الموهوبةَ لغيره، وأنَّ قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] يجوِّز أن يشركهم فيها غيرهم. وقد مضى قول الشافعيِّ مستوعَباً في ذلك، والحمد لله. ومذهب الشافعيِّ ﷺ: أنَّ سبيل خمس الْفَيْء سبيل خمس الغنيمة، وأنَّ أربعة أخماسه كانت للنبيِّ ﷺ، وهي بعده لمصالح المسلمين. وله قول آخر: أنَّها بعده للمرصدين أنفسَهم للقتال بعده خاصة، كما تقدَّم.

الرابعة: قال علماؤنا: ويُقسم كلُّ مال في البلد الذي جُبيَ فيه، ولا يُنقَل عن ذلك البلد الذي جُبِيَ فيه حتى يَغنَوا، ثم يُنقَل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في أعوام الرَّمادة، وكانت خمسةَ أعوام أو ستَّة. وقد قيل: عامين. وقيل: عامٌ فيه اشتدَّ الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا، ورأى الإمام إيقافَ الْفَيْء، أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس، ويبدأ بمن أبوه فقير. والْفَيْء حلال للأغنياء. ويسوِّي بين الناس فيه إلا أنَّه يُؤْثِر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنَّما يكون على قَدْر الحاجة. ويُعطى منه الغرماء ما يؤدُّون به ديونهم. ويُعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلاً، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأوْلاهم بتوفر الحظّ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً. ومن أخذ من الْفَيْء شيئاً في الديوان، كان عليه أن يغزو إذا غزى[(٢)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ قراءة العامة: «يَكُونَ» بالياء. «دُولَةً» بالنصب، أي: كي لا يكون الفَيْء دُولةً[(٣)]. وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ـ عن ابن

(١) سلف تخريجه عند الآية السادسة من هذه السورة.

(٢) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨، وأعوام الرمادة كانت سنة ثمان عشرة للهجرة، وخبرها في تاريخ الطبري ٤/ ٩٦-١٠١. والمنفوس: المولود. معجم متن اللغة (نفس).

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٢٥.

عامر ـ وأبو حيوة: «تكون» بتاء، «دُولةٌ» بالرفع[١]، أي: كي لا تقع دُولة. فكان تامَّة. و«دُولَةٌ» رفع على اسم كان، ولا خبرَ له. ويجوز أن تكون ناقصةً، وخبرها: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». وإذا كانت تامَّة فقوله: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» متعلِّق بـ «دُولة» على معنى: تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» وصفاً لـ «دُولة». وقراءة العامة: «دُولة» بضمِّ الدال. وقرأها السُّلَمِيُّ وأبو حيوة بالنصب[٢]. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعيُّ: هما لغتان بمعنًى واحد[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدَّوْلَة ـ بالفتح ـ الظَّفَر في الحرب وغيره، وهي المصدر. وبالضمِّ: اسم الشيء الذي يتداول من الأموال[٤]. وكذا قال أبو عبيدة: الدُّولة: اسم الشيء الذي يُتداول. والدَّوْلة: الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفَيْء؛ كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا، أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفي منها أيضاً بعد المرْباع ما شاء[٥]، وفيها قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصَّفايا[٦]

يقول: كي لا يُعمَل فيه كما كان يُعمَل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله ﷺ، يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: ما

---

(١) التيسير ص٢٠٩ عن هشام، والنشر ٢/ ٣٨٦، والمحتسب ٢/ ١٥٤ عن أبي جعفر، وما بعده منه، ومن الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/ ٣١٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن السلمي.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦ عن عيسى بن عمر، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٣ عن يونس والأصمعي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٨.

(٦) هذا صدر بيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وعجزه:

وحُكمك والنشيطة والفضول

وسلف ١٠/ ٢٤.

أعطاكم من مال الغَنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول، فانتهوا، قاله الحسن وغيره. السُّدِّيُّ: ما أعطاكم من مال الْفَيْءِ، فاقبلوه، وما منعكم منه، فلا تطلبوه. وقال ابن جُريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردِيُّ[1]: وقيل: إنَّه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

السابعة: قال المهدوِيُّ: قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هذا يوجب أنَّ كلَّ ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ أمْرٌ من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم، فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دخل فيها. وقال الحَكَم بن عُمير - وكانت له صحبة -: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَب، عسير على من تركه، يسير على من اتَّبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب، وهو الحَكَم، فمن استمسك بحديثي وحَفِظَه، نجامع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي، خسر الدنيا والآخرة. وأُمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتَّبعوا سُنَّتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي، فقد استهزأ بالقرآن، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[2].

الثامنة: قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابنُ مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ عليَّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[3].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، وما قبله منه أيضاً، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٥ ، والطبري ٢٢/ ٥٢٢ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٦٣٠) مقتصراً على طرفه الأول، وفي إسناده: عيسى بن إبراهيم القرشي، وهو منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩ وعدَّه من مناكيره.

(٣) الكشاف ٤/ ٨٢ - ٨٣ ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد، دون ذكر ابن مسعود ﷺ.

وقال عبيد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِيُّ: سمعتُ الشافعيَّ ﷺ يقول: سلوني عمَّا شئتم، أُخبركم من كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّكم ﷺ. قال: فقلت له: ما تقولُ ـ أصلحكَ اللهُ ـ في المُحْرِم يقتل الزُّنْبُور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وحدَّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن عبد الملك بن عُمير، عن رِبْعِيِّ بنِ حراش، عن حُذيفة بن اليَمَان، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر». وحدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن مِسْعر بن كِدَام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أنَّه أمر بقَتْل الزُّنْبُور[1].

قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحُسْنِ، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيَّن أنَّه يَقتدي فيه بعمر، وأنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بالاقتداء به، وأنَّ الله سبحانه أَمَرَ بقبول ما يقوله النبيُّ ﷺ، فجواز قَتْله مستنبَط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سُئل عن أمهات الأولاد فقال: هنَّ أحرار. في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية: ٥٩][2].

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن علقمة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفلِّجاتِ للحُسْن، المُغَيِّرَاتِ

---

(١) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢١٢ من طريق عبد الله بن وهب الدينوري، عن الفريابي، به، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩ -١١٠ من طريق محمد يزيد بن حكيم، قال: رأيت محمد بن إدريس الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس يجلس عليها، . فأتاه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ قال: حرام. فقال الخراساني: حرام؟! فقال: نعم، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والمعقول، . . . الخبر، فذكر الآية المذكورة أعلاه، وخبر الاقتداء، وخبر عمر لكن بإسناد آخر عنه. وقوله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، أحدهما: عن أحمد بن منيع، عن ابن عيينة، به. والآخر: عن الحسن بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، به. وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥). قال الترمذي: وكان سفيان بن عيينة يُدلِّس في هذا الحديث، فربَّما ذكره عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، وربَّما لم يذكر فيه: عن زائدة. وقال أيضاً: هذا حديث حسن. اهـ. وبرقم (٣٦٦٣) من طريق عمرو بن هرم، عن ربعي، به.
وقول عمر أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨ ، وسلف ٨/ ١٨٣ .

(٢) ٦/ ٤٣٠ .

خَلْقَ الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: بلغني أنَّك لعنتَ كَيْتَ وكيت! فقال: ومالِيَ لا ألعنُ مَن لَعَنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وَجَدْتِيه! أما قرأتِ: «وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»! قالت: بلى. قال: فإنَّه قد نهى عنه.. الحديث. وقد مضى القول فيه في «النساء» مستوفًى[١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء: وهو المناولة، فإنَّ معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، فقابله بالنهي، ولا يُقابل النهي إلا بالأمر، والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبل[٢]، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمْرٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[٣]. وقال الكلبيُّ: إنَّها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله ﷺ من أموال المشركين: يا رسولَ الله، خُذ صَفِيَّك والرُّبع، ودعنا والباقي؛ فهكذا كنَّا نفعل في الجاهلية. وأنشدوه:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايَا وحُكْمُكَ والنَّشِيطةُ والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عذاب الله، إنَّه شديد لمن عصاه[٥]. وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيِّعوها[٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ - ١٧٦٣ بتمامه، والحديث عند مسلم (٢١٢٥)، ولم يرد منه عبارة: قال رسول الله ﷺ. والحديث سلف ٧/ ١٤٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ .

(٣) سلف ٥/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، والبيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وسلف ١٠/ ٢٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٤ .

(٦) الكشاف ٤/ ٨٢ .

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: الفَيْءُ والغنائمُ «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ». وقيل: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ» ولكن يكون «لِلْفُقَرَاءِ»[1]. وقيل: هو بيان لقوله: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»[2] فلما ذُكروا بأصنافهم، قيل: المال لهؤلاء؛ لأنَّهم فقراء ومهاجرون، وقد أُخرجوا من ديارهم؛ فهم أحقُّ الناس به. وقيل: «وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» للفقراء المهاجرين؛ لكيلا يكون المال دولةً للأغنياء من بني الدنيا. وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين؛ أي: شديد العقاب للكفَّار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أَجْلهم. ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدِّم ذكرهم في قوله تعالى: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى». وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأتِ بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لِبَكْر لفلان لفلان.

والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ حُبّاً فيه ونُصْرَةً له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان، حبّاً لله ولرسوله، حتى إنَّ الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صُلبه من الجوع، وكان الرجل يتَّخذ الحَفِيرة في الشتاء ماله دِثار غيرها[3]. وقال عبد الرحمن بن أبزى وسعيد بن جُبَير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجُّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى الفَقْر، وجعل لهم سهماً في الزكاة[4]. ومعنى «أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ»، أي: أخرجهم كفَّار مكَّة، أي: أحْوَجُوهم إلى الخروج، وكانوا مئة رجل. ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون. ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: غنيمة في الدنيا ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ في الآخرة، أي:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٩٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٢٨٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/٣١٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/٥٢٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/٥٢٣ عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

مرضاة ربِّهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهاد في سبيل الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في فعلهم ذلك. ورُويَ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبَيَّ بنَ كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيدَ بنَ ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذَ بنَ جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإنَّ الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألَا وإنِّي بادٍ بأزواج النبيِّ ﷺ فمعطيهنَّ، ثم بالمهاجرين الأوَّلين؛ أنا وأصحابي أُخْرِجنا من مكَّة من ديارنا وأموالنا[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لا خلافَ أنَّ الذين تبوَّؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها[٢]. «وَالْإِيمَانَ» نصب بفعل غير تبوَّأ؛ لأنَّ التبوُّءَ إنَّما يكون في الأماكن. و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ «مِنْ» صلة تبوَّأ، والمعنى: والذين تبوَّؤوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكان يتبوَّأ، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أي: وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو عليٍّ والزمخشري[٣] وغيرهما. ويكون من باب قوله:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٥ وعزاه إلى علي بن رباح اللخمي، وأخرجه عنه أبو عبيد في الأموال (٥٤٨). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٧٩٥) من طريق عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وقال: لم يروِ هذا الحديث عن داود بن الحصين إلا ابنه سليمان، تفرَّد به عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٥: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله موثقون.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٣) في الكشاف ٤/ ٨٣، وما بعده منه أيضاً.

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبـنـاً ومـاءً بـارداً[١]

ويجوز حمله على حذف المضاف، كأنه قال: تبوَّؤوا الدارَ ومواضعَ الإيمان. ويجوز حمله على ما دلَّ عليه تبوَّأ، كأنَّه قال: لزموا الدارَ ولزموا الإيمانَ، فلم يفارقوهما. ويجوز أن يكون تبوَّأ الإيمان على طريق المَثَل، كما تقول: تبوَّأ من بني فلان الصميم[٢]. والتبوُّء: التمكُّن والاستقرار. وليس يريد أنَّ الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبيِّ ﷺ إليهم.

الثانية: واختلف أيضاً هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها، أو معطوفة؟ فتأوَّل قوم أنَّها معطوفة على قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ الآياتِ التي في الحَشْر كلَّها معطوفة بعضها على بعض. ولو تأمَّلوا ذلك وأنصفوا، لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» إلى قوله: «الْفَاسِقِينَ» فأخبر عن بني النَّضِير وبني قَيْنُقاع. ثم قال: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» فأخبر أنَّ ذلك للرسول ﷺ؛ لأنَّه لم يُوجف عليه حين خَلَّوه. وما تقدَّم فيهم من القتال وقَطْع شجرهم، فقد كانوا رجعوا عنه، وانقطع ذلك الأمر. ثم قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» وهذا كلام غيرُ معطوف على الأوَّل. وكذا: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» ابتداءُ كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم؛ فإنَّهم سلَّموا ذلك الْفَيْءَ للمهاجرين؛ وكأنَّه قال: الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار يُحبُّون لهم، لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الْفَيْء. وكذا «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ابتداءُ كلام، والخبر: «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا».

وقال إسماعيل بن إسحاق: إنَّ قوله: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا»

(١) سلف ١/ ٢٩١ .

(٢) قال المبرِّد في الكامل ٣/ ١٠٩٣ : الصميم: الخالص من كل شيء، يقال: فلان من صميم قومه، أي: من خالصهم.

معطوف على ما قبلُ، وأنَّهم شركاء في الفيء، أي: هذا المال للمهاجرين والذين تبوَّؤوا الدار.

وقال مالك بن أوْس: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» حتى بلغ: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»، «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ثم قال: لئن عشتُ ليأتينَّ الراعِيَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر نصيبُه منها لم يَعْرَق فيها جبينه[1].

وقيل: إنَّه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتحَ الله عليه من ذلك، وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه، ثم اغدوا عليَّ. ففكَّر في ليلته فتبيَّن له أنَّ هذه الآيات في ذلك أُنزلت. فلما غدَوْا عليه قال: قد مررت البارحةَ بالآيات التي في سورة «الحشر» وتلا: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» إلى قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» فلما بلغ قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» قال: ما هي لهؤلاءِ فقط. وتلا قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» إلى قوله: «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ». ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. والله أعلم.

الثالثة: روى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنَّ عمر قال: لولا من يأتي من آخِرِ الناس ما فُتحت قريةٌ إلا قسمتها، كما قسم رسولُ الله ﷺ خَيْبر[2]. وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة: أنَّ عمر أَبقى سوادَ العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم[3]؛ لتكونَ من أُعْطِيات المقاتلة وأرزاق الحِشْوة والذَّراري، وأنَّ الزبير وبِلالاً

(١) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٤، وأبو عبيد في الأموال (٥٢٦)، وهو عند البخاري (٤٠٣٣)، ومسلم (١٧٥٧) مطولاً بنحوه. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٧ عن أبي عمرو: السرو: ما انحدر من حزونة الجبل، وارتفع عن منحدر الوادي، فما بينهما سرو.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٤) من طريق عبد الرحمن، عن مالك، به، وهو عند أحمد (٢٨٤)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٢٠) وسلف ١٠/ ٩.

(٣) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٤٤ - ٤٥، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٩٥. والسواد: جماعة النخل والشجر؛ لخضرته واسوداده، والسواد: ما حوالي الكوافة من القرى والرساتيق. اللسان (سود).

وغيرَ واحد من الصحابة أرادوه على قَسْمِ ما فتح عليهم، فكره ذلك منهم، واختلف فيما فعل من ذلك، فقيل: إنَّه استطاب أنفس أهل الجيش؛ فمن رضيَ له بترك حَظّه بغير ثمن ليُبْقِيَه للمسلمينِ قلَّةٌ. ومن أبى، أعطاه ثمن حظِّه[١]. فمن قال: إنَّما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم، جعل فعله كفعل النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قسم خَيْبر؛ لأنَّ اشتراءه إيَّاها وتركَ من ترك عن طيب نفسه، بمنزلة قسمها. وقيل: إنَّه أبقاها بغير شيء أَعطاه أهل الجيوش. وقيل: إنَّه تأوّل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» إلى قوله: «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» على ما تقدّم[٢]. والله أعلم.

الرابعة: واختلف العلماء في قسمة العَقار؛ فقال مالك: للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين. وقال أبو حنيفة: الإمام مخيَّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفاً لمصالح المسلمين. وقال الشافعيُّ: ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم، كسائر الأموال. فمن طاب نفساً عن حقِّه للإمام أن يجعله وقْفاً عليهم، فله. ومن لم تَطِب نفسُه، فهو أحقُّ بماله[٣]. وعمر ﷺ استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم[٤].

قلت: وعلى هذا يكون قوله: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» مقطوعاً مما قبله، وأنَّهم نُدبوا بالدعاء للأوَّلين والثناء عليهم.

الخامسة: قال ابن وهب: سمعت مالكاً يذكر فَضْلَ المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إنَّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرَى افتُتِحت بالسيف، ثم قرأ: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» الآية[٥]. وقد مضى الكلام في هذا، وفي فَضْلِ الصلاة في المسجدين: المسجد

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٣٣ بنحوه.

(٣) التمهيد ٦/ ٤٥٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ .

الحرام ومسجد المدينة، فلا معنى للإعادة[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَيْء وغيره، كذلك قال الناس[٢]. وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى: مَسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أوتوا. وكلُّ ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة. وكان المهاجرون في دُوْرِ الأنصار، فلما غَنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النَّضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: «إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضِير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسَلَّمنا يا رسولَ الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار». وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم[٣]. ويحتمل أن يريد به: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلاً [بل] يقنعون به، ويرضَوْن عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيِّ ﷺ دُنْيَا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا. وقد أنذرهم النبيُّ ﷺ وقال: «سترون بعدي أَثَرَة، فاصبروا حتى تلقَوْني على الحوض»[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في الترمذيِّ عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً بات به ضيفٌ، فلم يكن عنده إلا قوتُه وقوتُ صبيانه؛ فقال

---

(١) ٨/ ١٨٨ و١٢/ ١٥١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣.

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩ عن أم العلاء رضي الله عنها، وسلف ذكر الثلاثة ص٣٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ - ١٧٦٤ وما بين حاصرتين منه، والحديث سلف ١١/ ٦١.

لامرأته: نَوِّمي الصِّبيةَ، وأَطفئي السراج، وقَرِّبي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ». قال: هذا حديث حسن صحيح. خرَّجه مسلم أيضاً(١).

وخرَّج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. ثم أرسل إلى الأُخرى فقالت مثل ذلك، حتى قُلْنَ كلُّهنَّ مثلَ ذلك: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. فقال: «مَن يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله»؟. فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانْطَلَق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: هل عندكِ شيءٌ؟ قالت: لا، إلا قوتُ صِبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفُنا، فأَطفئي السِّراج وأَرِيه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تُطفئيه. قال: فقعدوا وأَكَلَ الضيف. فلما أصبح غدَا على النبيِّ ﷺ فقال: «قد عَجِبَ اللهُ من صنيعكما بضيفكما الليلة»(٢).

وفي رواية عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ليُضيفه، فلم يكن عنده ما يُضيفُه. فقال: «ألا رَجُلٌ يُضيفُ هذا رحمه الله»؟ فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة. فانطلق به إلى رحله، وساق الحديث بنحو الذي قبله، وذكر فيه نزولَ الآية(٣).

وذكر المهدويُّ عن أبي هريرة أنَّ هذا نزل في ثابت بنِ قيس ورجلٍ من الأنصار ـ نزل به ثابت ـ يقال له: أبو المتوكِّل، فلم يكن عند أبي المتوكِّل إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته: أطفئي السراج ونوِّمي الصبيةَ؛ وقَدَّم ما كان عنده إلى ضيفه. وكذا ذكر النحَّاس قال: قال أبو هريرة: نزل برجل من الأنصار ـ يقال له: أبو المتوكِّل ـ ثابت بن قيس ضيفاً، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته:

(١) الترمذي (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠٥٤): (١٧٣).

(٢) مسلم (٢٠٥٤)، وهو عند البخاري (٤٨٨٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥ - ٤٤٦ بنحوه.

(٣) مسلم (٢٠٥٤): (...).

أطفئي السراج ونوِّمي الصبية؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» إلى قوله: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وقيل: إنَّ فاعل ذلك أبو طلحة[1]. وذكر القشيريُّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم: وقال ابن عمر: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَه أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعةُ أبيات، حتى رجعت إلى أولئك؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[2]. ذكره الثعلبيُّ عن أنس قال: أهْدِيَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة - وكان مجهوداً - فوجَّه به إلى جارٍ له، فتداولته سبعةُ أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأوَّل، فنزلت: «وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[3].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ للأنصار يوم بني النَّضير: «إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم من الغنيمة شيئاً» فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[4]. والأوَّل أصحُّ[5].

وفي «الصحيحين» عن أنس: أنَّ الرجل كان يجعل للنبيِّ ﷺ النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قُرَيْظة والنَّضِير، فجعل بعد ذلك يردُّ عليه ما كان أعطاه. لفظ مسلم[6]. وقال الزُّهريُّ عن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون - من مكَّةَ - المدينةَ، قَدِموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ بنحوه، وسلف ذكر أبي طلحة في حديث مسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢١٤ بنحوه، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٤٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٠ ، وزاد المسير ٨/ ٢١٤ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٤ .

(٦) برقم (١٧٧١)، والبخاري (٣١٢٨).

على أن أعطوهم أنصافَ ثمار أموالهم كلَّ عام، ويكفُونهم العملَ والمؤونة، وكانت أمُّ أنس بن مالك تُدْعَى بأمِّ سُلَيم، وكانت أمَّ عبدِ الله بن أبي طلحة، كان أخاً لأنَسٍ لأمِّه، وكانت أعطت أمُّ أنَسٍ رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمَّ أيْمَنَ مَوْلَاتَه، أمَّ أسامة بنِ زيد. قال ابنُ شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم. قال: فردَّ رسول الله ﷺ إلى أمِّي عِذاقها، وأعطى رسولُ الله ﷺ أمَّ أيْمَن مكانهنَّ من حائطه. خرَّجه مسلم أيضاً(١).

الثامنة: الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظِها الدنياوية، رغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوَّة اليقين، وتوكيد المحبَّة، والصبر على المشقَّة(٢). يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضَّلته(٣). ومفعول الإيثار محذوف، أي: يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنًى، بل مع احتياجهم إليها(٤)، حسب ما تقدَّم بيانه.

وفي «موطأ مالك»: أنَّه بلغه عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، أنَّ مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إيَّاه. فقالت: ليس لكِ ما تُفطِرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيَّاه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهْدَى لنا أهلُ بيت، أو إنسانٌ، ما كان يُهدى لنا: شاةً وكَفَنَها. فدعتني عائشة فقالت: كُلِي من هذا، فهذا خير من قُرْصك(٥).

قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزاكي عند الله تعالى، يعجِّل منه

---

(١) برقم (١٧٧١)، وهو عند البخاري (٢٦٣٠)، وعذاقاً: جميع عَذق، وهي النخلة، والمنيحة: المنحة. النهاية (عذق) و(منح).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ .
(٣) اللسان (أثر).
(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٧ .
(٥) الموطأ ٢/ ٩٩٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٢).

ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدَّخر عنه. ومن تَرَكَ شيئاً لله، لم يجد فَقْدَه. وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأنَّ من فعل ذلك، فقد وقي شُحَّ نفسِه، وأفلح فلاحاً لا خسارةَ بعده. ومعنى: شاةٌ وكَفَنَها: فإنَّ العرب ـ أو بعض العرب، أو بعض وجوههم ـ كان هذا من طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطَّوْه كلَّه بعجِينِ البُرِّ، وكفنُوه به، ثم عَلَّقوه في التَّنُّور، فلا يخرج من وَدَكِه شيء إلا في ذلك الكفن؛ وذلك من طيِّب الطعام عندهم(١).

وروى النسائيُّ عن نافع أنَّ ابن عمر اشتكى واشتهى عِنَباً، فاشْتُرِي له عنقود بدرهم، فجاء مسكين فسأل، فقال: أَعطوه إيَّاه. فخالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكينُ فسأل، فقال: أَعطوه إيَّاه. ثم خالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع، فمنع. ولو علم ابنُ عمر أنَّه ذلك العنقود ما ذاقه(٢)؛ لأنَّ ما خرج للهِ لا يعود فيه.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا محمد بن مطرِّف قال: حدَّثنا أبو حازم، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع، عن مالك الدار: أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربع مئة دينار، فجعلها في صُرَّة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عُبيدة بنِ الجرَّاح، ثم تَلَكَّأْ

(١) الاستذكار ٢٧/ ٤٠٦ - ٤٠٧، ووقع في مطبوعه: وأفلح فلا حاجة لإحسان بعده. بدل: وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده. والوَدَك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. اللسان (ودك).

(٢) لم نقف عليه عند النسائي في المجتبى والكبرى، وأخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٠٧ من طريق القيروان، عن أحمد بن شعيب النسائي، عن الحسن بن الحسن المروذي، والطبراني في الكبير (١٣٠٦٧)، ـ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٩٧ ـ من طريق نعيم بن حماد، كلاهما عن ابن المبارك، عن عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، عن نافع، به.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٤٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير نعيم بن حماد، وهو ثقة. اهـ.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٧ من طريق خبيب بن عبد الرحمن، عن نافع، أن ابن عمر اشتهى عنباً... بنحوه.

ساعةً في البيت حتى تنظرَ ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وَصَلَه الله ورَحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتَلَكَّأْ في البيت ساعةً حتى تنظرَ ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووَصَله، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأةُ معاذ فقالت: ونحن! واللهِ مساكين، فأعطنا. ولم يَبْقَ في الخرقة إلا ديناران فدحا[1] بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال: إنَّهم إخوة! بعضهم من بعض[2]. ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إيَّاها، وكان عشرة آلاف، وكان المُنْكَدِر دخل عليها[3].

فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدُّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنَّما كره ذلك في حقِّ من لا يُوثَق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرَّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه. فأمَّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) في (م): قد جاء. والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج، ودحا: رمى وألقى. اللسان (دحا).

(٢) الزهد لابن المبارك (٥١١) ـ ومن طريقه أخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٠/ ٣٣ (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٧ ـ عن محمد بن مطرِّف، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير، ومالك الدار: لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقوله: تلكَّأْ. في الموضعين، وقعت عند ابن المبارك والطبراني: تلهَّ. وعند أبي نعيم وقعت في الموضع الأول: تلبَّث، وفي الموضع الثاني: وتلهَّ. قال ابن الأثير في النهاية (لها): وحديث عمر أنه بعث إلى أبي عبيدة بمال في صرَّة، وقال للغلام: اذهب بها إليه، ثم تلهَّ ساعة في البيت... أي: تشاغل وتعلَّل.

(٣) بعدها في (د)و(ظ) بياض، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/ ٢٨ .

وكان الإيثار فيهم أفضلَ من الإمساك. والإمساك لمن لا يصبر ويتعرَّض للمسألة أَولى من الإيثار[١]. وروي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: «يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدَّق به، ثم يقعد يتكفَّف الناس»[٢]، والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس. ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْس أقصَى غاية الجُودِ[٣]

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حدِّ المحبة: أنَّها الإيثار، ألا ترى أنَّ امرأة العزيز لمَّا تناهت في حُبِّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] وأفضل الجودِ بالنفس الجودُ على حماية رسول الله ﷺ، ففي الصحيح: أنَّ أبا طَلْحة تَرَّس على النبيِّ ﷺ يوم أُحُد، وكان النبيُّ ﷺ يتطلَّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تُشرِف يا رسولَ الله! لا يصيبونك! نَحْرِي دون نَحْرِك! ووَقَى بيده رسولَ الله ﷺ، فشُلَّت[٤].

وقال حُذيفة العدوِيُّ: انطلقتُ يوم اليَرْمُوك أطلب ابنَ عمٍّ لي ـ ومعي شيء من الماء ـ وأنا أقول: إن كان به رَمقٌ سقيتُه، فإذا أنا به، فقلت له: أَسقيك؟ فأشار برأسه أنْ نَعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابنُ عمِّي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٨ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٣) و(١٦٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٢) واللفظ له. وفي إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو مدلِّس، ولم يصرِّح بالتحديث.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ ، وما بعده منه أيضاً، والمثل عجز بيت لمسلم بن الوليد، ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٩٥، وصدره:

يجود بالنفس إذ ضنَّ الجواد بها

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ ، والخبر أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١)، وأحمد (١٢٠٢٤) عن أنس ﷺ.

ابن العاص فقلت: أَسقيكَ؟ فأشار أنْ نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمِّي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البِسْطَامِيُّ: ما غَلَبِني أحد ما غَلَبني شابٌّ من أهل بَلْخ! قدِم علينا حاجّاً، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إنْ وَجَدْنا أَكَلْنا. وإن فقدنا صَبَرْنَا. فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا. فقلت: وما حَدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فَقَدْنا شكرنا، وإن وَجَدْنا آثرنا(١).

وسُئل ذو النُّون المصريُّ: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وتَرْك طلب المفقود، والإيثار عند القوت. وحكي عن أبي الحسن الأنطاكيِّ: أنَّه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرِّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعَهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام؛ فلما رفُع، فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلُّ بها الحال. وأصلها من الاختصاص، وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة: الانفراد بالحاجة؛ أي: ولو كان بهم فاقة وحاجة. ومنه قول الشاعر:

أمَّا الربيع إذا تكون خصاصةٌ عاش السقيم به وأَثْرَى الْمُقْتِرُ(٢)

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشُّحُّ والبُخْلُ سواء(٣)، يقال: رجل شحيح: بَيِّن الشُّحِّ والشَّحِّ والشَّحاحة(٤). قال عمرو ابن كلثوم:

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ - ٢٨٨، وفيه: صبرنا، بدل: شكرنا.

(٢) لم نقف على قائله.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٢٩.

تـرى الـلَّـحِـزَ الـشَّـحـيـحَ إذا أُمِـرَّتْ عـلـيـه لِـمـالِـه فـيـهـا مُـهِـيـنـا[١]

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحَّ أشدَّ من البخل. وفي «الصحاح»[٢]: الشُّحُّ: البخلُ مع حِرص، تقول: شَحِحْتَ ـ بالكسر ـ تَشَحُّ. وشَحَحْتَ أيضاً تَشُحُّ وتَشِحُّ. ورجل شحيح، وقومٌ شِحاح و أشِحَّة.

والمراد بالآية: الشّحُّ بالزكاة وما ليس بفرض، من صلة ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك، وإن أمسك عن نفسه. ومن وَسَّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات، فلم يُوقَ شُحَّ نفسه.

وروى الأسْوَد عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أتاه فقال له: إنِّي أخاف أن أكون قد هَلكتُ؟ قال: وما ذاك؟ قال: سمعتُ الله عَزَّ وجلَّ يقول: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وأنا رجل شحيح لاأكادُ أن أُخرِجَ من يدي شيئاً. فقال ابن مسعود: ليس ذلك بالشُّحِّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن، إنَّما الشُّحُّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مالَ أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشَّيء البخل[٣]. ففرَّق ﷺ بين الشُّحِّ والبخل.

وقال طاوس: البخل: أن يبخلَ الإنسان بما في يده، والشُّحُّ: أن يَشِحَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحِلِّ والحرام، لا يقنع. ابن جبير: الشُّحُّ: منع الزكاة وادِّخار الحرام. ابن عُيَيْنَة: الشُّحُّ: الظلم. الليث: ترك الفرائض، وانتهاك المحارم. ابن عباس: من اتَّبع هواه ولم يقبل الإيمان، فذلك الشحيح[٤].

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان ص٤٦ ، قال شارحه: اللَّحِز: الضَّيِّق الخُلُق. وأُمِرَّت: أُديرت عليه. والمعنى: فإذا كُرِّرت عليه الخمر اتسعَ صدره، وأنفق ماله.

(٢) مادة (شحح).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٦ -٥٠٧ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٩/٩٨ ، والطبري ٢٢/٥٢٩ - ٥٣٠ ، والحاكم ٢/٤٩٠ من طرق، عن الأسود بن هلال، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) النكت والعيون ٥/٥٠٦ - ٥٠٧ .

ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً [لشيء] نهاه الله عنه، ولم يَدْعُه الشُّحُّ [على أن يمنع شيئاً من شيء] أمره الله به، فقد وقاه الله شُحَّ نفسه[١].

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «بَرِئَ من الشُّحِّ من أدَّى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة»[٢]. وعنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بِكَ من شُحِّ نفسي وإسرافها ووساوسها»[٣].

وقال أبو الهَيَّاج الأسدي: رأيت رجلاً في الطّواف يدعو: اللهمَّ قِنِي شُحَّ نفسي. لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له؟ فقال: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزْنِ، ولم أفعل. فإذا الرجل عبد الرحمن بن عَوْف[٤].

قلت: يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «اتَّقوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قَبلكم، حملهم على أن سَفَكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». وقد بيَّنَّاه في آخر «آل عمران»[٥]. وقال كِسرى لأصحابه: أيُّ شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر. فقال كِسرى: الشُّحُّ أضرُّ من الفقر؛ لأنَّ الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣١ - ٥٣٢ ، وما بين حاصرتين منهما ومن (م).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠ - ٥٣١ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق، عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، عن إسماعيل بن عياش، عن مجمع بن جارية، عن عمه، عن أنس، به. ومحمد بن إسحاق هو: ابن عمرو بن عمر بن عمران أبو الحسن القرشي المؤذِّن المعروف بابن الحريص، ختن هشام بن عمار. ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٢/ ٢٦ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد توفي سنة (٢٢٨هـ).

وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٠٩٧)، وابن حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢ من طريق مجمع بن يحيى، عن عمِّه خالد بن زيد، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨ : رواهما الطبراني في الكبير، وفيه: إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف. اهـ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الإصابة ٣/ ٥٨ .

(٣) أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٤٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠ ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٨٣ .

(٥) ٥/ ٤٤١ ، وسلف تخريج الحديث ثمة.

(٦) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٣٨ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ⑩﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة(١). قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم. فاجْهَدْ ألَّا تخرج من هذه المنازل(٢).

وقال بعضهم: كن شَمْساً، فإن لم تستطع فكن قَمَراً، فإن لم تستطع فكن كَوْكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً، ومن جهة النور لا تَنقطِع. ومعنى هذا: كن مهاجريّاً. فإن قلت: لا أجد، فكن أنصارِيّاً. فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبَّهم واستغفر لهم كما أمَرَك الله. وروى مصعب بن سعد قال: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقِيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت(٣).

وعن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسين ﵁، أنَّه جاءه رجل فقال له: يابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الآية؟ قال: لا. قال: فواللهِ لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: «والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» الآية؟ قال: لا. قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام! وهي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وِلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٣ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٦/ ١٨٦٨ (١٠٣٠٣).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ .

بِالْإِيمَانِ» الآية. وقد قيل: إنَّ محمد بن علي بن الحسين ﷺ، روى عن أبيه: أنَّ نفراً من أهل العِراق جاؤوا إليه، فسبُّوا أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ثم عثمان ـ ﷺ ـ فأكثروا، فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأوَّلين أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفمن الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرَّأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنَّكم لستم من الذين قال الله عزَّ وجلَّ: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا للذين آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» قوموا، فعل الله بكم وفعل!! ذكره النحَّاس[(١)].

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبَّة الصحابة؛ لأنَّه جعل لمن بعدهم حظّاً في الفَيْء ما أقاموا على محبَّتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأنَّ مَن سبَّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرّاً أنَّه لا حقَّ له في الْفَيْء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يُبْغِض أحداً من أصحاب محمَّد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حقٌّ في فَيْء المسلمين؛ ثم قرأ: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» الآية[(٢)].

الثالثة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض، شملاً بين المسلمين أجمعين ـ كما فعل ﷺ ـ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه، لاختلاف الناس عليه، وأنَّ هذه الآية قاضية بذلك؛ لأنَّ الله تعالى أخبر عن الْفَيْء وجعله لثلاثِ طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلومون ـ «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ». فهي عامَّة في جميع التابعين والآتِيْنَ بعدهم إلى يوم الدين. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحقونَ، ودِدْت أن رأيت إخواننا». قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: «بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ، وأنا فَرَطُهم على

(١) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦ ، وقول مالك أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧ .

الحَوْض». فبيَّن ﷺ أنَّ إخوانهم كلُّ من يأتي بعدهم[١]. لا كما قال السُّدِّيُّ والكَلْبيُّ: إنَّهم الذين هاجروا بعد ذلك[٢]. وعن الحسن أيضاً «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»: مَن قصد إلى النبيِّ ﷺ إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب في موضع الحال[٣]، أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أُمِروا أن يستغفروا لمن سَبَقَ هذه الأمَّة من مؤمني أهل الكتاب. قالت عائشة رضي الله عنها: فأُمِروا أن يستغفروا لهم، فسبُّوهم. الثاني: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار[٤].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمَّد ﷺ، وهو يعلم أنَّهم سَيُفْتَنُونَ. وقالت عائشة: أُمِرْتُم بالاستغفار لأصحاب محمَّد فسببتموهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمَّة حتى يلعنَ آخرُها أوَّلَها»[٥]. وقال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا: لعن الله أشَرَّكم»[٦]. وقال العوَّام بن حَوْشَب: أدركتُ صدر هذه الأمَّة يقولون: اذكروا محاسن أصحابِ رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شَجَر بينهم فتُحرِّشوا[٧] الناس عليهم[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٧، والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٩٣).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧، وقول عائشة أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٧ (١٨٨٥٦).

(٥) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٣٢١، وفي الباب لقوله ﷺ: «حتى يلعن آخرها أولها» عن أويس القرني عن النبي ﷺ قال: «احفظوني في أصحابي، فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها،...» الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٨٧.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٦٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦، قال الطبراني: لم يروِ هذا الحديث عن عبيد الله إلا سيف، تفرَّد به النضر. وقال الذهبي: رواه الترمذي عن أبي بكر بن نافع، عن العتكي، وقال: هذا منكر.

(٧) في (د) و(م): فتجسَّروا. والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٥٠، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٢١٥ بتمامه، =

وقال الشعبيُّ: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَن خيرُ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شرُّ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمَّد، أُمِروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجَّتهم. أعاذنا الله وإيَّاكم من الأهواء المضلَّة[١]. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: حِقْداً وحسداً ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

تعجُّبٌ من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنَّهم لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً. ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول، وعبد الله بن نَبْتَل، ورفاعة بن زيد. وقيل: رافعة بن تابوت، وأوْس بن قَيْظِيّ[٢]، كانوا من الأنصار ولكنَّهم نافقوا، وقالوا ليهود قُريظة والنَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. وقيل: هو من قول بني النَّضير لقُرَيْظَة[٣]. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعنون محمَّداً ﷺ، لا نطيعه في قتالكم. وفي هذا دليل على صحَّة نُبُوَّة محمَّدٍ ﷺ من جهة علم الغيب[٤]؛ لأنَّهم أُخرجوا فلم يَخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم[٥]، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

= والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٣٩٨) مختصراً. وفي إسناده: شهاب بن خراش، قال عنه ابن عدي: ولشهاب أحاديث ليست بكثيرة، وفي بعض رواياته ما ينكر عليه....

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١، وأخرجه عنه ابن الجوزي في الموضوعات (٤١٣) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٥ عن مجاهد، وذكر فيه: رفاعة، أو رافعة بن تابوت، ودون ذكر: رفاعة بن زيد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٩/ ٢٨٨، وقول مجاهد في التفسير ٢/ ٦٦٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

(٤) الكشاف ٤/ ٨٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٧.

﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم وفعلهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: منهزمين[1]. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ قيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» طائعين. «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» مكرهين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» لا يدومون على نصرهم. هذا على أنَّ الضميرين متفقان. وقيل: إنَّهما مختلفان، والمعنى: لئن أُخرِج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن نصر اليهودُ المنافقين «لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ». وقيل: «لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم أنَّهم لا يخرجون إن أُخرجوا. «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم ذلك. ثم قال: «لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ» فأخبر عمَّا قد أخبر أنَّه لا يكون، كيف كان يكون لو كان؟[2] وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: معنى «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن شئنا أن ينصروهم زَيَّنَّا ذلك لهم. «لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ».

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشرَ المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً وخشية[3] ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني صدور بني النَّضير. وقيل: في صدور المنافقين[4].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦ .

(٢) الكشاف ٤/ ٨٥ ، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

(٤) زاد المسير ٨/ ٢١٧ – ٢١٨ ، وعزا القول الأول للفراء، والثاني لمقاتل، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٦ .

ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين، أي: يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربِّهم ذلك الخوف. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون قَدْرَ عظمة الله وقدرته[1].

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهود[2] ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: بالحيطان والدُّور، يظنُّون أنَّها تمنعهم منكم. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من خَلْف حيطان يستترون بها؛ لجُبْنِهم وَرَهْبَتِهم.

وقراءة العامة: «جُدُرٍ» على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتِم؛ لأنَّها نظير قوله تعالى: «فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ» وذلك جمع. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثِير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو: «جِدَارٍ» على التوحيد[3]؛ لأنَّ التوحيد يؤدِّي عن الجمع[4]. وروي عن بعض المكِّيِّين: «جَدْر» بفتح الجيم وإسكان الدال[5]، وهي لغة في الجدار. ويجوز أن يكون معناه: مِن وراء نخيلهم وشجرهم[6]، يقال: أَجْدَرَ النخلُ: إذا طلعت رؤوسه في أوَّل الربيع. والجَدْر: نبتٌ، واحدته: جَدْرة[7]. وقُرِئ: «جُدْر» بضمِّ الجيم وإسكان الدال[8]، جمع الجدار. ويجوز أن تكون الألف في الواحد، كألف كِتاب، وفي الجمع، كألف ظِراف. ومثله: ناقة هِجَانٌ، ونُوقٌ هجان؛ لأنَّك تقوله في التثنية:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٣) السبعة ص٦٣٢، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن ابن كثير في رواية.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤.

(٨) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحتسب ٢/ ٣١٦، وما بعده منه أيضاً.

هجانان، فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ، مختلفين في المعنى، قاله ابن جِنِّيٍّ[١].

قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض. وقال مجاهد: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: بالكلام والوعيد لنفعلنَّ كذا. وقال السُّدِّيُّ: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتَّفقوا على أمر واحد[٢]. وقيل: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: إذا لم يلقَوْا عدوّاً نسبوا أنفسهم إلى الشِّدَّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوَّ انهزموا. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني اليهود والمنافقين، قاله مجاهد. وعنه أيضاً: يعني المنافقين. الثوريُّ: هم المشركون وأهل الكتاب. وقال قتادة: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً» أي: مجتمعين على أمر ورأي. «وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» متفرِّقة. فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهلِ الحقِّ. وعن مجاهد أيضاً: أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود[٣]. وهذا ليقوِّيَ أنفس المؤمنين عليهم. وقال الشاعر:

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقَّت العَصَا ... هي اليوم شَتَّى وهي أمس جُمَّعُ[٤]

وفي قراءة ابن مسعود: «وقلوبهم أشَتّ»[٥] يعني أشدَّ تشتيتاً، أي: أشدَّ اختلافاً[٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ذلك التشتيت والكفر بأنَّهم لا عقلَ لهم يعقلون به أمر الله[٧].

---

(١) في الخصائص ٢/ ١٠١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٨ .

(٤) القائل: قيس بن الملوَّح، وهو في ديوانه ص١٩١ ، والنِّيَّة والنوى جميعاً: البُعد. اللسان (نوي).

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٥٠٨ .

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦ .

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥﴾

قال ابن عباس: يعني به قَيْنُقَاع، أمكن الله منهم قبل بني النَّضير[١]. وقال قتادة: يعني بني النَّضِير، أمكن الله منهم قبل قُرَيظة. مجاهد: يعني كفَّار قريش يوم بدر[٢]. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ من انتقم منه على كفره قبل بني النَّضِير من نوح إلى محمد ﷺ[٣]. ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ جزاءَ كفرهم. ومن قال: هم بنو قُرَيظة، جعل «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقَتْل المقاتلة وسَبْيِ الذُّرِّيَّة. وهو قول الضحَّاك[٤]. ومن قال: المراد بنو النَّضِير قال: «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» الجلاء والنفي. وكان بين النّضير وقُرَيظة سنتان[٥]. وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النَّضير بستَّة أشهر؛ فلذلك قال: «قَرِيباً» وقد قال قوم: غزوة بني النَّضير بعد وقعة أحد[٦]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ هذا ضرب مثلٍ للمنافقين واليهود في تخاذلهم، وعدم الوفاء في نُصْرتهم[٧]. وحَذَف حرف العطف، ولم يقل: وكمثل الشيطان؛ لأنَّ حذف حرف العطف كثير، كما تقول: أنت عاقل، أنت كريم، أنت عالم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩ ، وخبر تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، وهو عند أحمد (١١١٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

(٦) سلف الكلام عليها ص٣٤٠-٣٤١ من هذا الجزء.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: أنَّ الإنسان الذي قال له الشيطان: اكفر، راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها، فزيَّن له الشيطان، فوطئها فحملت، ثم قتلها؛ خوفاً أن يفتضح، فدلَّ الشيطانُ قومَها على موضعها، فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنَّه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرَّأ منه، فأسلمه. ذكره القاضي إسماعيل وعليُّ بنُ المدِيني عن سفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيِّ، عن النبيِّ ﷺ[(١)].

وذكر خبره مطوَّلاً ابنُ عباس ووهب بن مُنَبِّه. ولفظهما مختلف. قال ابن عباس في قوله تعالى: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ»: كان راهب في الفَتْرة يقال له: برصيصا، قد تعبَّد في صَوْمعته سبعين سنة، لم يعصِ الله فيها طَرْفةَ عين، حتى أعيا إبليسَ، فجمع إبليس مردةَ الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض - وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبيَّ ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] - فقال: أنا أكْفِيكَه. فانطلق فتزيّا بزِيِّ الرهبان، وحَلَق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصِيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ عشرة أيام يوماً، ولا يُفطر إلا في كلِّ عشرة أيام، وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيضُ أنَّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صَوْمعته، فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيضَ قائماً يصلِّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكونَ معك، فأتأدَّب بأدبك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة. فقال: إنِّي في

(١) التعريف والإعلام ص١٦٧، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٦١)، وابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ وفي تلبيس إبليس ص٢٦ من طريق عبد الرحمن بن يونس، عن سفيان بن عيينة، به. ورواية عبيد بن رفاعة عن النبي ﷺ مرسلة. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ عن وهب ابن منبّه مطوَّلاً، وسيأتي.

شغل عنك. ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة، فلما رأى برصيصا شدَّة اجتهاده وعبادته قال له: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فأرتفعَ إليك. فأَذِنَ له، فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يُفطر إلا في كلِّ أربعين يوماً يوماً واحداً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ أربعين يوماً، وربما مدَّ إلى الثمانين، فلما رأى برصيصا اجتهاده، تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يَشْفِي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون. فعلَّمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم تعرَّض لرجل فخنقه، ثم قال لأهله ـ وقد تصوَّر في صورة الآدميين ـ: إنَّ بصاحبكم جنوناً أفأطِبّه؟ قالوا: نعم. فقال: لا أقوى على جِنِّيَّته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإنَّ عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، فجاؤوه، فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان. ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك، ويرشدهم إلى برصيصا فيعافَوْن. فانطلق إلى جارية من بناتِ الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه، وكان عمُّها مَلِكاً في بني إسرائيل، فعذَّبها وخنقها، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبِّب ليعالجها فقال: إنَّ شيطانها مارد لا يطاق، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت. فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا. قال: فابْنُوا صومعةً في جانب صومعته، ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك، فأبى، فبنَوْا صومعةً، ووضعوا فيها الجارية، فلما انفتل من صلاته عاينَ الجاريةَ وما بها من الجمال، فَأُسْقِطَ في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكان يكشف عنها ويتعرَّض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: وَيْحَكَ! واقِعْها، فما تجد مثلَها ثم تتوب بعد ذلك. فلم يزل به حتى واقعها، فحملت وظهر حَمْلها. فقال له الشيطان: ويحكَ! قد افتُضحتَ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوبَ؛ فلا تفتضح، فإن جاؤوك، سألوك فقل: جاءها شيطانها، فذهب بها. فقتلها برصيصا ودفنها ليلاً، فأخذ الشيطان طَرف ثوبها

حتى بقي خارجاً من التراب، ورجع برصيصا إلى صلاته. ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال: إنَّ برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلها ودفنها في جبل كذا وكذا، فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها. فصدَّقوه وانصرفوا. ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنَّها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإنَّ طرف ردائها خارج من التراب، فانطلَقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه، فأَمَرَ بقتله. فلما صُلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال: لا والله! قال: أنا صاحبك الذي علَّمتك الدعوات، أما اتقيتَ الله، أما استحييتَ وأنت أعبد بني إسرائيل! ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحتَ نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس! فإن متَّ على هذه الحالة، لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم، وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال: تسجد لي سجدةً واحدة، فقال: أنا أفعل. فسجد له من دون الله. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربِّك، إنِّي بريء منك، إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين[1].

وقال وهب بن منَبّه. إنَّ عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبدِ أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بِكراً، ليست لهم أخت غيرها، فخرج البعثُ على ثلاثتهم، فلم يَدْروا عند من يخلِّفون أختهم، ولا عند من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال: فاجتمع رأيهم على أن يخلِّفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقةً في أنفسهم، فأَتَوْه فسألوه أن يخلِّفوها عنده، فتكون في كَنَفه وجواره إلى أن يقفلوا من غَزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوَّذ بالله منهم ومن أختهم. قال: فلم يزالوا به

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣٢٢ - ٣٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٤٨ (١٨٨٦٠)، وأخرجه الطبري ٢٢/٥٤٣ عن محمد بن سعد، عن أبيه، عن عمِّه، عن أبيه، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والراوي عن ابن عباس عطية بن سعد العوفي ومن قبله من رجال الإسناد ضعفاء، وأخرجه أيضاً الخرائطي في اعتلال القلوب ص١١٥ - ١١٦ بإسناد آخر عن ابن عباس، وبنحوه مختصراً.

حتى أطاعهم[(١)] فقال: أنزلوها في بيتٍ حِذاءَ صَوْمعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً، يُنزِل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يُغلِق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطَّف له الشيطان فلم يزل يرغِّبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوِّفه أن يراها أحد فيعلقها. قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظمَ لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، وقال: لو كنتَ تكلِّمها وتحدِّثها فتأنس بحديثك، فإنَّها قد استوحشت وحشةً شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زماناً، يطَّلع عليها من فوق صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنتَ تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدِّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدِّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدِّثها، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدَّثان، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريباً من باب بيتها، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير، وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوتَ من باب بيتها فحدَّثتها ولم تَخرج من بيتها. ففعل، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدِّثها. فلبثَا بذلك حيناً،

---

(١) في النسخ: أطمعهم. والمثبت من المنتظم لابن الجوزي ٢/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام منه بإسناده عن وهب بن منبِّه.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٥، والطبري ٢٢/ ٥٤١، والحاكم ٢/ ٤٨٢ عن علي بن أبي طالب بنحوه مختصراً، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٥٤٢ عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مختصراً.

ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلتَ البيت معها تحدِّثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد، كان أحسنَ بك. فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يُحدِّثها نهارَه كلَّه، فإذا أمسى صعد في صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزيِّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقَبَّلها. فلم يزل به إبليس يحسِّنها في عينه، ويسوِّل له حتى وقع عليها، فأحبلها، فولدت له غلاماً. فجاءه إبليس فقال له: أرأيتَ إن جاء إخوة هذه الجارية وقد وَلدتْ منك! كيف تصنعُ؟! لا آمنُ عليك أن تُفتضَح أو يفضحوك! فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه؛ فإنَّها ستكتم عليكَ؛ مخافةَ إخوتها أن يطَّلعوا على ما صنعتَ بها، ففعل. فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحَفِيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرةً عظيمة، وسوَّى عليها التراب، وصعد في صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها، فنعاها لهم وترحَّم عليها، وبكى لهم وقال: كانت خيرَ أَمَة، وهذا قبرها فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحَّموا عليها، وأقاموا على قبرها أيَّاماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، أتاهم الشيطان في النوم في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذَّبه الشيطان وقال: لم يَصْدُقْكم أمْرَ أختكم، إنَّه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه؛ فزعاً منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خَلْفَ الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانْطَلِقوا فادخلوا البيتَ الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنَّكم ستجدونهما هنالك جميعاً كما أخبرتكم. قال: وأتى الأوسطَ في منامه، وقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرَهم فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم، استيقظوا متعجِّبين لما رأى كلُّ واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض، يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى. قال أكبرهم: هذا حُلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودَعُوا هذا. قال أصغرهم: لا

أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنه العابد، فصدَّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستعدَوْا عليه مَلِكَهم، فأُنزِل من صومعته فقدَّموه لِيُصْلَب، فلما أَوثقوه[١] على الخشبة أتَاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنِّي صاحبك الذي فتنتُك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها، فإن أنتَ أطعتني اليوم، وكفرتَ بالله الذي خلقك، خلَّصتك مما أنتَ فيه. قال: فكفر العابد بالله، فلما كفر، خلَّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ» إلى قوله: «جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

قال ابن عباس: فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود. وذلك أن الله تعالى أمر نبيَّه عليه السلام أن يُجْلي بني النَّضِير من المدينة، فَدَسَّ إليهم المنافقون ألَّا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنَّا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبيَّ ﷺ، فخذلهم المنافقون، وتبرَّؤوا منهم كما تبرَّأ الشيطان من بَرْصِيصَا العابد. فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتَّقِيَّة والكتمان. وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرموهم بالبُهتان والقبيح، حتى كان أمر جُريج الراهب، وبرَّأه الله، فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس[٢].

وقيل: المعنى: مَثَلُ المنافقين في غدرهم[٣] لبني النَّضِير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[٤] الآية [٤٨ من

---

(١) في (م): أوقفوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٥ ، واتقيت الشيء تقيَّة: حذرته. اللسان (وقي)، وخبر جريج سلف تخريجه ٥/ ١٣٩ .

(٣) في (د): وعدهم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٨ .

سورة الأنفال]. وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إيَّاهم[١].

ومعنى قوله تعالى: «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ» أي: أغواه حتى قال: إنِّي كافر. وليس قول الشيطان: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» حقيقة، إنَّما هو على وجه التبرُّؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ».

وفتح الياء من «إنِّي» نافع وابن كثير وأبو عمرو. وأسكن الباقون[٢]. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ نصب على الحال. والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان. ومن جعلها في الجنس، فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين. ونصب «عَاقِبَتَهُمَا» على أنَّه خبر «كان»، والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ»، وقرأ الحسن: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا» بالرفع[٣]، على الضدِّ من ذلك. وقرأ الأعمش: «خَالِدَانِ فِيهَا» بالرفع[٤]، وذلك خلاف المرسوم. ورفعه على أنَّه خبر «أنَّ» والظرف ملغى[٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ يعني: يوم القيامة[٦]. والعرب تكني عن المستقبل بالغدِ. وقيل: ذِكْر الغدِ؛ تنبيهاً على أنَّ الساعة قريبة، كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٢) السبعة ص٦٣٢، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠١، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٥) المشكل لمكي ٢/ ٧٢٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٢.

وإنَّ غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب[١]

وقال الحسن وقتادة: قرَّب الساعة حتى جعلها كغَدٍ. ولا شكَّ أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ[٢]، والموت لا محالة آتٍ. ومعنى «ما قَدَّمت» يعني: من خير أو شرٍّ[٣]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا؛ تكريراً، كقولك: اعجل اعجل، اِرْم اِرْم. وقيل: التقوى الأولى: التوبة فيما مضى من الذنوب. والثانية: اتِّقاء المعاصي في المستقبل. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي: بما يكون منكم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيراً، قاله ابن حبَّان. وقيل: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقَّ أنفسهم، قاله سفيان. وقيل: «نَسُوا اللهَ» بترك شكره وتعظيمه. «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً، حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله: «نَسُوا اللهَ» عند الذنوب «فَأَنْسَاهُم أَنفُسَهُمْ» عند التوبة[٥].

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في «أَنْسَاهُمْ» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه. وقيل: معناه: وجدهم تاركين أمره ونهيه، كقولك: أحمدت الرجل: إذا وجدته محموداً. وقيل: «نَسُوا اللهَ» في الرخاء «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» في الشدائد.

---

(١) هذا عجز بيت أورده ابن حبان في روضة العقلاء ص٢٧، ولم ينسبه، وصدره هكذا:

ألـم تَـرَ أن الـيـوم أسـرع ذاهـب

والبيت ذكره ضمن أبيات لم ينسبها، وهي لأبي العتاهية في ديوانه ص٢١، دون ذكر البيت الآنف الذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١١، وقول سفيان أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٤٨.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون. وقال ابن زيد: الكاذبون[١]. وأصل الفسق: الخروج، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ أي: في الفضل والرتبة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي: المقرَّبون المكرَّمون. وقيل: الناجون من النار[٢]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «المائدة»[٣] عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية:١٠٠] وفي سورة «السجدة»[٤] عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [الآية:١٨] وفي سورة «صۤ»[٥]: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [الآية:٢٨] فلا معنى للإعادة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾ حثٌّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنَّه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنَّه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدِّعةً، أي: متشقِّقةً من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدِّع: المتشقِّق[٦]. وقيل: «خَاشِعاً» لله بما كلَّفه من طاعته. «مُتَصَدِّعاً» من خشية الله أن يعصيَه فيعاقبه. وقيل:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٣) ٨/ ٢٢٥ -٢٢٦ .

(٤) ١٧/ ٣٧ .

(٥) ١٨/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .

هو على وجه المَثَل للكفار[١].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: إنَّه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لخشع لوعده، وتصدَّع لوعيده، وأنتم أيُّها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده؟! وقيل: الخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمَّد على جبل لما ثبت، وتصدَّع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبَّتْناك له، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبَّته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنَّه خطاب للأمَّة، وأنَّ الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدَّعت من خشية الله. والإنسان أقلّ قوَّةً وأكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقِّه إن أطاع، ويقدر على ردِّه إن عصى؛ لأنَّه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قال ابن عباس: عالم السِّرِّ والعلانية. وقيل: ما كان وما يكون. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا[٣]. وقيل: «الْغَيْبِ» ما لم يَعْلَم العباد ولا عاينوه. «وَالشَّهَادَةِ» ما عَلموا وشاهدوا[٤]. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزَّه عن كلّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٢.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.

(٥) ١/ ١٥٩ - ١٦٠.

نقص، والطاهر عن كلِّ عيب. والقَدَس ـ بالتحريك ـ: السَّطْل، بلغة أهل الحجاز؛ لأنَّه يتطهَّر به. ومنه القادوس: لواحد الأواني التي يُستخرج بها الماء من البئر بالسانِية[١]. وكان سِيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح، بفتح أوَّلهما. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنَّه سمع عند الكسائيِّ أعرابيّاً فصيحاً يُكْنَى أبا الدينار يقرأ: «القَدُّوس» بفتح القاف[٢]. قال ثعلب: كلُّ اسم على فَعُّول، فهو مفتوح الأوَّل، مثل سَفُّود وكَلُّوب وتَنّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبُّوح والقُدُّوس فإنَّ الضمَّ فيهما أكثر، وقد يفتحان. وكذلك الذُّرُّوح ـ بالضمِّ ـ وقد يفتح[٣].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيِّ: اتَّفق العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ على أنَّ معنى قولنا في الله «السَّلَامُ»: النسبة، تقديره: ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأوَّل: معناه الذي سلِم من كلِّ عيب، وبَرِئ من كلِّ نقص. الثاني: معناه ذو السلام، أي: المسلِّم على عباده في الجنَّة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. الثالث: أنَّ معناه الذي سلم الخَلْقُ من ظلمه[٤].

قلت: وهذا قول الخطابي، وعليه ـ والذي قبله ـ يكون صفةَ فعل. وعلى أنَّه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه: المسلِّم لعباده[٥].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدِّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدِّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب[٦]. وقيل: «المؤمن»

(١) الأسنى ص٢٢٩، وما بعده منه أيضاً، والسانية: الناضحة، وهي الناقة التي يُستقى عليها. اللسان (سنا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٤ بنحوه.

(٣) الأسنى ص٢٢٩، والسَّفُّود: حديدة يشوى به اللحم. والكلُّوب بمعناه. والسَّمُّور: دابة معروفة تسوَّى من جلودها فِراء غالية الأثمان. والشبُّوط: ضرب من السمك. والذرُّوح: دُوَيْبَّة أعظم من الذباب شيئاً. اللسان (سفد) و(كلب) و(سمر) و(شبط) و(ذرح) على الترتيب.

(٤) الأسنى ص٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) الأسنى ص٢١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٦.

الذي يؤمِّن أولياءه من عذابه[١]، ويؤمِّن عباده من ظلمه[٢]، يقال: آمنه، من الأمان الذي هو ضدُّ الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤] فهو مؤمن، قال النابغة:

والمُؤْمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّنَدِ[٣]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وَحَّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [آل عمران:١٨]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأوَّل من يخرج من وافق اسمُه اسمَ نبيٍّ، حتى إذا لم يَبْقَ فيها من يوافق اسمه اسمَ نبيٍّ، قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيُخرجهم من النار؛ ببركة هذين الاسمين[٥]. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقدَّم الكلام في المهيمن في «المائدة»[٦]، وفي «العزيز» في غير موضع[٧]. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس: هو العظيم. وجبروت الله: عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات[٨]، من قولهم: نخلة جَبَّارة. قال امرؤ القيس:

سوامق جبَّار أثِيثٍ فروعُه وعالَيْنَ قِنْواناً من البُسْر أَحْمرا[٩]

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) ديوان النابغة ص٣٥، إلا أنه ورد فيه: والسعد، بدل: والسند. قال في زهر الأكم لليوسي ١/ ٨٠: وأراد بالعائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة. أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغيل والسعد: أَجَمتان بين مكة والمدينة. والمعنى: أي: أقسم بالله تعالى الذي أمَّن الطير العائذات أن تصاد أو أن تؤخذ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ دون نسبة.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ٨/ ٣٥.

(٧) ٢/ ٤٠٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٩) الأسنى ص٣٧٦ - ٣٧٧، والبيت في شرح ديوان امرئ القيس ص٥٧، قال شارحه: والسوامق: النخل المرتفعات الطوال. والجبَّار: الذي قد فات اليدَ لطوله. والأثيث: الغزير. وعالين قنواناً: أي =

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ.

فكان هذا الاسم يدلُّ على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث. وقيل: هو من الجَبْر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبَر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعَّال من جبر، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير[(١)]. وقال الفرَّاء: هو من أَجبره على الأمر، أي: قهره. قال: ولم أسمع فعَّالاً من أفعل إلا في جبَّار، ودرَّاك من أدرك. وقيل: الجبَّار لذي لا تُطاق سطوته.

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ الذي تكبَّر بربوبيَّته فلا شيء مثله. وقيل: المتكبِّر عن كلِّ سوء، المتعظِّم عمَّا لا يليق به من صفات الحدث والذَّمِّ. وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلَّة الانقياد[(٢)]. وقال حميد بن ثور:

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأَصبحتْ ... بـهـا كـبـريـاءُ الـصَّـعْـبِ وهـي ذلـولُ[(٣)]

والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمٌّ[(٤)]. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما، قصمته، ثم قذفته في النار»[(٥)]. وقيل: المتكبِّر، معناه: العالي. وقيل: معناه: الكبير؛ لأنَّه أَجَلُّ من أن

= قد أدرك هذا النخل وأينع فتمايلت عروقه، وإنما قصد تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من ألوان.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧ .

(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي ص٥٨ ، إلا أنه ورد فيه: الطليح، بدل: الفصيل.وركوب، بدل: ذلول. وعفت الأرض: غطَّاها النبات.وعفا البعير: سمن وكثر شعر ظهره وطال حتى غطى دبره. والطليح: البعير المهزول المعيي. القاموس المحيط (عفا) و(طلح).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٤ .

(٥) أخرجه أحمد (٩٣٥٩) دون ذكر لفظة: قصمته. وهي عند الحاكم ١/ ٦١ بلفظ: الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما أخرجه مسلم [٢٦٢٠] من طريق الأغر، عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ. وقال الذهبي: أخرجه مسلم من حديث الأغر، عن أبي هريرة [وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني، عَذَّبته] بنحو منه. اهـ.

يتكلَّف كبراً. وقد يقال: تظلَّم بمعنى ظلم، وتشتَّم بمعنى شتم[١]، واستقرَّ بمعنى قرَّ. كذلك المتكبِّر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق، إذا وصف بتفعَّل إذا نسب إلى ما لم يكن منه.

ثم نَزَّه نفسه فقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لجلالته وعظمته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ «الْخَالِقُ» هنا المقدِّر. و«الْبَارِئُ» المنشئ المخترع[٢]. و«الْمُصَوِّرُ» مصوِّر الصور ومركِّبها على هيئات مختلفة[٣]. فالتصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لهما. ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويتميَّز عن غيره بِسمتها. فتبارك الله أحسن الخالقين[٤]. وقال النابغة[٥]:

الخالق البارئ المصوِّر في الْـ ... أرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخَلْق بمعنى التصوير[٦]، وليس كذلك، وإنَّما التصوير آخِراً، والتقدير أوّلاً، والبراية بينهما. ومنه قوله الحقّ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال زُهير:

ولأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٧٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٤.
(٣) الأسنى ص٣٤٩.
(٤) الأسنى ص٣٥٠.
(٥) وهو: الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٣٣.
(٦) وهما ابن العربي وابن الحصار كما ذكر ذلك القرطبي في الأسنى ص٣٣٦، والكلام منه.
(٧) سلف ١/ ٣٤١.

يقول: تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه، أي: تُمضيه على وَفْق تقديرك، وغيرك يقدِّر ما لا يتمُّ له ولا يقع فيه مراده؛ إمَّا لقصوره في تصوُّر تقديره، أو لعجزه عن تمام مراده. وقد أتينا على هذا كلِّه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[١] والحمد لله.

وعن حاطب بن أبي بَلْتَعَة أنَّه قرأ: «البارئ المصوَّرَ» بفتح الواو ونصب الراء، أي: الذي يُبرِئُ المصوَّر، أي: يميِّز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات. ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٢].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٣].

وعن أبي هريرة قال: سألتُ خليلي أبا القاسم رسولَ الله ﷺ عن اسم اللهِ الأعظم فقال: «يا أبا هريرة، عليك بآخرِ سورة الحشر فأَكْثِر قراءَتها» فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ[٤]. وقال جابر بن زيد: إنَّ اسم الله الأعظم هو الله؛ لمكان هذه الآية[٥]. وعن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[٦]. وعن أبي أُمامة قال: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار، فقبضه اللهُ في تلك الليلة أو ذلك اليوم، فقد أَوجب الله له الجنَّة»[٧].

---

(١) ص٣٣٦ وما بعدها.

(٢) في الكشاف ٤/ ٨٧ - ٨٨ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ عن اليماني.

(٣) ١/ ٤٢٨ و٢/ ٤٠٣ و١٣/ ٨٩ .

(٤) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٧ من رواية علي بن رزيق، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، به، وعلي بن رزيق: ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٤/ ٥٣ وقال: المقرئ المصري، يروي عن ابن لهيعة، روى عنه حرملة بن يحيى. اهـ. وهشام ابن سعد هو أبو عباد المدني، صدوق له أوهام. التهذيب.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٠٩ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣ ، والطبري ٢٢/ ٥٥٥ .

(٦) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٧ من رواية يزيد بن أبان، عن أنس، به، ويزيد بن أبان هو: أبو عمرو الرَّقَاشي القاصُّ، زاهد ضعيف. التهذيب.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠١)، والقزويني في التدوين ٤/ ٢٦ من طريق محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، به.

قال البيهقي: تفرَّد به سليم بن عثمان هذا عن محمد بن زياد. اهـ. قلنا: وسُلَيْم بن عثمان هو: الفوزي الحمصي، متَّهم واهٍ. المغني في الضعفاء ١/ ٢٨٤ .

سُورَةُ الحَشْرِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها أربعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ صالحَ بني النَّضيرِ على أَنْ لا يكونوا له ولا عليهِ، فلَمَّا ظهرَ يومَ بَدرٍ قالوا: إنَّه النَّبيُّ المَنعوتُ في التَّوراةِ بالنُّصرةِ، فلمَّا هُزِمَ المُسلمونَ يومَ أحدٍ ارتابوا ونكثوا وخرجَ كعبُ بنُ الأشرفِ في أربعينَ راكبًا إلى مكَّةَ وحالَفُوا أبا سُفيانَ، فأمرَ رسولُ اللهِ أخا كعبٍ مِن الرَّضاعةِ فقتلَهُ غِيلةً ثمَّ صبَّحَهُم بالكتائبِ وحاصرَهُم حتى صالَحُوه على الجَلاءِ، فجَلَا[1] أكثرُهُم إلى الشَّامِ ولَحِقَت طائفةٌ بخيبرَ والحِيرةِ فأنزلَ اللهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

(٢) ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أوَّلِ حشرِهم من جزيرةِ العربِ؛ إذ لم يُصِبْهم هذا الذلُّ قبلَ ذلك.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فجلوا».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٦/ ١٧٩)، وانظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٣١٧)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (١/ ٢١٤).

أو في أولِ حشرِهم للقتالِ أو الجَلاءِ إلى الشَّام، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ إيَّاهم من خيبرَ إليه(١).

أو في أوَّلِ حشرِ النَّاسِ إلى الشَّامِ وآخرِ حَشرِهِم؛ فإنَّهُم يُحشَرونَ إليه عندَ قيامِ السَّاعةِ فيدركُهُم هناك، أو أنَّ نارًا تخرجُ مِن المشرقِ فتَحشُرُهم إلى المغربِ.

والحشرُ: إخراجُ جمعٍ مِن مَكانٍ إلى آخرَ.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشِدَّةِ بَأسِهم ومَنَعتِهِم.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ حُصونَهُم تمنَعُهم مِن بأسِ اللهِ، وتغييرُ النَّظمِ وتَقديمُ الخبرِ وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِ (هم) للدَّلالةِ على فرطِ وُثوقِهم بحَصانَتِها واعتِقادِهِم في أَنفُسِهم أَنَّهم في عزَّةٍ ومَنعةٍ بسببِها، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا لـ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: عذابُه، وهو الرُّعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ.

وقيل: الضَّميرُ للمُؤمنينَ؛ أي: فأتاهُم نصرُ اللهِ.

وقُرِئَ: (فآتاهم)(٢) أي: العذابَ أو النَّصرَ.

﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ لقوَّةِ وُثوقِهِم.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وأثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعِبُها؛ أي: يملَؤُها.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًّا بها على المسلمينَ وإخراجًا لِمَا استحسَنُوا مِن آلاتِها.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّهُم أيضًا كانوا يُخربونَ ظواهِرَها نكايةً وتوسيعًا لِمَجالِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١٨٦) عن مرة الهمداني

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٣٨)، و«الكشاف» (٩/ ٤٠).

القتالِ، وعطفُها على (أيديهم) مِن حيثُ إنَّ تخريبَ المؤمنينَ مُسبَّبٌ عَن نقضِهم، فكأنَّهُم استعملوهُم فيه، والجملةُ حالٌ أو تفسيرٌ لـ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿يخرِّبونَ﴾ بالتَّشديدِ[1]، وهو أبلَغُ لِمَا فيه مِن التَّكثيرِ.

وقيل: الإخرابُ: التَّعطيلُ أو تركُ الشَّيءِ خَرابًا، والتَّخريبُ الهَدمُ.

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فاتَّعِظُوا بحالِهم فلا تَغدُروا ولا تعتَمِدُوا على[2] غيرِ اللهِ، واستُدِلَّ به على أنَّ القِياسَ حُجَّةٌ مِن حيثُ إنَّه أَمرٌ بالمجاوزةِ مِن حالٍ إلى حالٍ، وحملِها[3] عليها في حُكمٍ لِمَا بينَهُما مِن المشاركةِ المُقتضيَةِ له على ما قرَّرْناهُ في الكتبِ الأُصوليَّةِ.

(٣) ـ ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ الخروجَ مِن أوطانِهم ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتلِ والسَّبيِ كما فُعل ببَنِي قُريظةَ.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئنافٌ مَعناه: أنَّهُم إن نَجوا مِن عذابِ الدُّنيا لم يَنْجوا مِن عذابِ الآخرةِ.

(٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكرَ مما حاقَ بهم، وما كانوا بصَددِهِ، وما هو مُعَدٌّ لهم، أو إلى الأخيرِ.

(٥) ـ ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أيَّ شيءٍ قَطَعتُم مِن نخلةٍ، فِعْلَةٌ مِن اللونِ، ويُجمعُ على ألوانٍ.

وقيل: من اللِّينِ، ومعناها: النَّخلةُ الكريمةُ، وجمعها أَلْيَان.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «شيء».

(٣) قوله: «وحملها» بالجر عطف على «بالمجاوزة»، والضَّمير لـ(حال) الثَّانية، وقولُه: «عليها» الضَّمير لـ(حال) الأولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا﴾ الضَّميرُ لـ(ما)، وتأنيثُها لأنَّها مُفسَّرةٌ باللِّينةِ.

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وقُرِئَ: (أُصُلِها) اكتفاءً بالضمَّةِ عن الواوِ[1]، أو على أنَّه كـ﴿رُهُنٌ﴾.

﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمرِه ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ عِلَّةٌ لِمَحذوفٍ؛ أي: وفعَلْتُم، أو وأَذِنَ لكم في القطعِ ليُخزِيَهُم على فسقِهِم بما غاظَهُم منه.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا أمرَ بقَطعِ نَخيلِهِم قالوا: يا محمَّدُ! قد كنتَ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ، فما بالُ قطعِ النَّخلِ وتَحريقِها؟ فنزلَتْ[2].

واستُدِلَّ به على جوازِ هدمِ ديارِ الكفَّارِ وقطعِ أشجارِهِم زيادةً لغيظِهِم.

(٦) ـ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وما أعادَهُ عليه، بمَعنى: صيَّرَه له أو ردَّهُ عليه، فإنَّه كانَ حقيقًا بأن يكونَ له لأنَّه تعالى خلقَ النَّاسَ لِعبادَتِه وخلقَ ما خلقَ لَهُم ليتوسَّلُوا به إلى طاعَتِه، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمُطيعينَ.

﴿مِنۡهُمۡ﴾ مِن بني النَّضيرِ أو مِن الكفرةِ.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فما أجريتُمْ على تحصيلِه، مِن الوَجيفِ، وهو سرعةُ السَّيرِ.

﴿مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ ما يُركبُ مِن الإبلِ، غلبَ فيه كما غلبَ الراكبُ على راكبِه، وذلك إن كانَ المرادُ فيءَ بني النَّضيرِ فلأنَّ قُراهُم كانَتْ على مِيلَيْنِ مِن المدينةِ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٢)، و«البحر» (٢٠/ ٢٦٩) دون نسبة.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٩١)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥١٠)، وانظر: «تخريج الأحاديث والآثار» للزيلعي (٢/ ٤٢٨)، وفيه: ورواه ابن مردويه في «تفسيره» من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره. وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص: ٤٧٩) عن الكلبي: متهم بالكذب.

فمَشَوا إليها رجالًا غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّه ركبَ جَمَلًا أو حِمَارًا، ولم يجرِ مزيدُ قتالٍ، ولذلك لم يُعطِ الأنصارَ مِنه شيئًا إلا ثلاثةً كانَتْ بهم حاجةٌ(١).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بقذفِ الرُّعبِ في قُلوبِهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يريدُ تارةً بالوسائطِ الظَّاهرةِ وتارةً بغيرِها.

(٧) ـ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيانٌ للأوَّلِ، ولذلك لم يُعطَف عليهِ.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ اختُلِفَ في قسمِ الفيءِ فقيل: يُسدَّسُ لظاهرِ الآيةِ ويُصرَف سهمُ اللهِ في عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجدِ.

وقيل: يخمّسُ لأنَّ ذكرَ اللهِ تَعالى للتَّعظيمِ، ويُصرَفُ الآنَ سهمُ الرَّسولِ إلى الإمامِ على قولٍ، وإلى العساكرِ والثغور على قولٍ، وإلى مَصالحِ المسلمينَ على قولٍ.

وقيل: يخمَّسُ خمسُهُ كالغنيمةِ فإنَّه عليهِ السَّلامُ كان يقسمُ الخمسَ كذلك، ويَصرفُ الأخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ، والآن على الخلافِ المذكورِ.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيءُ الذي حقُّهُ أن يكونَ للفُقراءِ.

﴿دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ الدُّولةُ: ما يَتداوَلُه الأغنياءُ ويَدورُ بينَهُم كما كانَ في الجاهليَّةِ.

وقُرِئَ: (دَوْلَةً)(٢)، بمعنى: كيلا يكونَ الفيءُ ذا تَداوُلٍ بينَهُم، أو أَخْذُهُ غَلَبَةً تكونُ بينَهُم، و﴿دُولةٌ﴾(٣) بالرَّفعِ على كانَ التَّامَّةِ؛ أي: كيلا يقعَ دولةٌ جاهليَّةٌ.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وما أعطاكُم مِن الفيءِ أو من الأمرِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٢٠٢)، والثلاثة هم: أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة، انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٥/ ٥٠٣).

(٢) وهي قراءة علي والسلمي وابن عامر في غير المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٤).

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٦).

﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنَّه حلالٌ لَكُم، أو فتمسَّكُوا به لأنه واجبُ الطَّاعةِ.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذِه منه أو عن إتيانِه.

﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مُخالفةِ رسولِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَن خالفَ.

(٨) ـ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ بدلٌ مِن ﴿لذي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عُطِفَ عليه، فإنَّ الرَّسولَ لا يُسمَّى فقيرًا، ومَن أعطى أغنياءَ ذوي القُربى خصَّصَ الإبدالَ بما بعدَهُ، أو الفيءَ بفيءِ بني النَّضيرِ.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أخرَجُوهم وأَخذوا أَموالَهُم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ حالٌ مُقيِّدةٌ لإخراجِهِم بما يوجِبُ تفخيمَ شأنِهم.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بأنفُسِهم وأموالِهِم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ الذين ظهرَ صِدقُهُم في إيمانِهم.

(٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾، والمرادُ بهم الأنصارُ فإنَّهم لَزِموا المدينةَ والإيمانَ وتمكَّنوا فيهما.

وقيل: المعنى: تبوَّؤا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ، فحُذِفَ المضافُ مِن الثَّاني والمضافُ إليه مِن الأوَّلِ وعُوِّضَ عنه اللامُ، أو تبوَّؤا الدَّارَ وأخلَصُوا الإيمانَ كقولِه:

علفتُـــه تبنًـــا ومـــاءً بـــاردًا(١)

---

(١) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دبير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤) و(٣/ ١٢٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّـى شَـتَتْ هَمَّالَـةً عَيْناهَـا

وقد تقدم غير مرة.

وقيل: سمَّى المدينةَ بالإيمانِ؛ لأنَّها مَظهَرُه ومَصِيرُه.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبلِ هجرةِ المهاجرينَ، وقيل: تقديرُ الكلامِ: والذين تبوَّؤُا الدَّارَ مِن قبلِهِم والإيمانَ.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يثقلُ عليهِم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ في أنفُسِهم ﴿حَاجَةً﴾ ما تحملُ عليه الحاجةُ، كالطَّلبِ والحزازةِ والحسدِ والغيظِ.

﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ مما أُعطِيَ المهاجرونَ من الفيءِ وغيرِه.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ويقدمونَ المُهاجرينَ على أنفُسِهم، حتى إنَّ مَن كانَ عندَهُ امرأتانِ نزلَ عَن واحدةٍ وزوَّجَها مِن أَحدِهِم.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجةٌ؛ مِن خَصَاص البناءِ، وهي فُروجُه.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتَّى يُخالِفَها فيما يغلبُ عليها مِن حبِّ المالِ وبُغضِ الإنفاقِ.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزونَ بالثَّناءِ العاجلِ والثَّوابِ الآجلِ.

(١٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم الذين هاجروا بعدُ حينَ قَوِيَ الإسلامُ، أو التَّابعون بإحسانٍ وهم المؤمنونَ بعدَ الفَريقينِ إلى يومِ القيامةِ، ولذلك قيل: إنَّ الآيةَ قد استوعبَتْ جميعَ المؤمنينَ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: لإخوانِنا في الدِّينِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حِقدًا لهم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فحقيقٌ بأن تُجيبَ دُعاءَنا.

(١١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريدُ الذينَ بينَهُم وبينَهُم أخوَّةُ الكفرِ أو الصَّداقةُ والموالاةُ.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ مِن ديارِكُم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالِكُم أو خِذلانكُم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: مِن رسولِ اللهِ والمُسلمينَ[1].

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ لنُعاونَنَّكُم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لعلمهِ بأنَّهُم لا يفعلونَ ذلك كما قال:

(١٢) ـ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك، فإنَّ ابنَ أُبيٍّ وأصحابَه راسلوا بني النَّضيرِ بذلك ثمَّ أخلَفُوهم، وفيه دليلٌ على صحَّةِ النبوَّةِ وإعجازِ القُرآنِ.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرضِ والتَّقديرِ ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ انهزامًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بعدُ، بل يخذلُهم ولا يَنفَعُهم نصرةُ المنافقينَ أو نفاقُهُم؛ إذ ضميرُ الفعلينِ يحتملُ أن يكونَ لليهودِ وأن يكونَ للمُنافقينَ.

(١٣) ـ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مَرهوبيَّةً، مصدرٌ للفعلِ المبني للمَفعولِ.

﴿فِى صُدُورِهِم﴾ فإنَّهُم كانوا يُضمرونَ مَخافتَهُم مِن المؤمنين.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على ما يُظهرونَه نفاقًا، فإنَّ استبطانَ رهبَتِكُم سببٌ لإظهارِ رهبةِ اللهِ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمونَ عظمةَ اللهِ حتَّى يَخشَوْنهُ حقَّ خشيتِه ويعلمون أنَّه الحقيقُ بأَنْ يُخشى.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والمؤمنين».

(١٤) ـ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ اليهودُ والمنافقونَ ﴿جَمِيعًا﴾ مُجتمعينَ ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدُّروبِ والخَنادقِ ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ لفرطِ رَهبَتِهم.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ﴿جدار﴾ وأمالَ أبو عمرٍو فتحةَ الدَّالِ[1].

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: وليسَ ذلك لضَعفِهم وجُبنِهم، فإنَّه يشتدُّ بأسُهُم إذا حاربَ بعضُهُم بعضًا، بل لقذفِ اللهِ الرُّعبَ في قلوبِهم، ولأنَّ الشُّجاعَ يَجبُنُ والعزيزَ يَذِلُّ إذا حاربَ اللهَ ورسولَه.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعينَ مُتَّفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقةٌ لافتراقِ عَقائدِهِم واختلافِ مَقاصِدِهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحُهُم وأنَّ تَشتُّتَ القلوبِ يُوهِنُ قُواهُم.

(١٥) ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مَثَلُ اليَهودِ كمثَلِ أهلِ بدرٍ أو بني قَينُقاع إن صحَّ أنَّهُم أُخرجوا قبلَ النَّضيرِ، أو المهلَكينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

﴿قَرِيبًا﴾ في زمانٍ قريبٍ، وانتصابُه بـ(مَثَلِ) إذ التَّقديرُ كوجودِ مَثَلٍ.

﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبةِ كفرِهِم في الدُّنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

(١٦) ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مَثَلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهودِ على القتالِ كمَثَلِ الشَّيطانِ.

﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراهُ على الكفرِ إغراءَ الآمرِ المأمورَ.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ تبرَّأَ عنه مخافةَ أن يُشارِكَه في العذابِ ولم ينفَعْه ذلك كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(١٧) ـ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمرادُ مِن الإنسانِ الجنسُ.

وقيل: أبو جهلٍ، قال له إبليسُ يومَ بدرٍ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

وقيل: راهبٌ حملَهُ على الفجورِ والارتدادِ.

وقُرِئَ: (عاقبَتُهما)(١)، و(خالدانِ)(٢) على أنَّهما الخبرانِ لـ(كان) و(أنَّ)، و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لغوٌ.

(١٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامةِ، سمَّاه به لدُنوِّه، أو لأنَّ الدُّنيا كيومٍ والآخرةُ غدُه، وتنكيرُه للتَّعظيمِ، وأما تنكيرُ النَّفسِ فلاستقلالِ الأنفُسِ النَّواظرِ فيما قدَّمْنَ للآخرةِ كأنَّه قال: فلتنظُرْ نفسٌ واحدةٌ في ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مكررٌ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ في أداءِ الواجباتِ لأنَّه مَقرونٌ بالعملِ، والثَّاني في تركِ المحارمِ؛ لاقترانِه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيدِ على المعاصي.

(١٩) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ نسُوا حقَّه.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلَهُم ناسينَ لها حتَّى لم يسمَعُوا ما ينفعُها ولم يفعَلُوا ما يخلِّصُها، أو أراهم يومَ القيامةِ مِن الهولِ ما أنسَاهُم أنفُسَهُم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملونَ في الفسوقِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، عن الحسن وسليمان بن أرقم.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥) عن الأعمش، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩) عن ابن مسعود والأعمش، وزاد في «البحر» (٢٠/ ٢٨١) نسبتها لزيد بن علي وابن أبي عبلة.

(٢٠) ـ ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الذين استكمَلُوا نفوسَهُم فاستأهَلُوا الجنَّةَ والذين استَمْهَنُوها فاستحقُّوا النَّارَ، واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ المسلمَ لا يُقتَلُ بالكافرِ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالنَّعيم المقيم.

(٢١) ـ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله﴾ تمثيلٌ وتخييلٌ كما مرَّ في قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولذلك عقَّبَه بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإنَّ الإشارةَ إليه وإلى أمثالِه، والمرادُ توبيخُ الإنسانِ على عدمِ تَخشُّعِه عندَ تلاوةِ القرآنِ لقَساوةِ قلبِه وقلَّةِ تَدبُّرِه، والتَّصدُّعُ: التَّشقُّقُ.

وقُرِئَ: (مُصَّدِّعًا)[1] على الإدغام.

(٢٢) ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ما غابَ عن الحسِّ مِن الجواهرِ القدسيَّةِ وأحوالِها وما حضرَ لهُ مِن الأجرامِ وأعراضِها، وتقدمُ الغيبِ لتَقدُّمِه في الوجودِ وتعلُّقِ العلمِ[2] القديمِ به، أو المعدومِ والموجودِ، أو السرِّ والعلانيةِ.

(٢٣) ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ البليغُ[3] في النَّزاهةِ عمَّا يوجبُ نقصانًا.

وقُرِئَ بالفَتحِ[4]، وهو لغةٌ فيه.

---

(١) وهي قراءة طلحة بن مصرف، انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩).

(٢) قوله: «وتعلق العلم» بالجر عطفٌ على «الوجود». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «البالغ».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٧)، وعزاها ابن خالويه لأبي السمال، ثم قال: قال أعرابي: حضرت الكسائي فقرأ كذلك، بينما نقل ابن جني عن ابن مجاهد وأبي حاتم عن يعقوب قال: سمعت أعرابياً يكنى أبا الدينار عند الكسائي يقرأ (القدوس).

﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾ ذو السَّلامةِ مِن كلِّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمُبالغةِ.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمنِ، وقُرِئَ بالفتحِ[(١)] بمَعنى المؤمَنِ به على حذفِ الجارِّ.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرَّقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ، مُفَيْعِلٌ مِن الأمنِ، قُلِبَتْ همزَتُه هاءً.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبرَ خلقَهُ على ما أرادَ، أو جَبرَ حالَهم بمعنى أصلَحَه.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّرَ عن كلِّ ما يوجِبُ حاجةً أو نقصانًا.

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يُشارِكُه في شيءٍ مِن ذلك.

(٢٤) ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾ المقدرُ للأشياءِ على مُقتَضى حكمتِه.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجِدُ لها بريئًا مِن التَّفاوُتِ.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجِدُ لصُوَرِها وكيفيَّاتِها كما أراد، ومَن أرادَ الإطنابَ في شرحِ هذه الأسماءِ وأخواتها فعليهِ بكتابي المُسمَّى بـ«منتهى المُنى»[(٢)].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّها دالَّةٌ على محاسنِ المَعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لتنزُّهِه عَن النَّقائصِ كلِّها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامعُ للكمالاتِ بأَسرِهَا، فإنَّها راجعةٌ إلى الكمالِ في القدرةِ والعلمِ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الحشرِ غفرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِه وما تأخَّرَ»[(٣)].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، و«البحر» (٢٠/ ٢٨٧) عن أبي جعفر محمد بن علي، أو أبي جعفر المدني.

(٢) تقدم التعريف به في مقدمة تحقيق هذا الكتاب، وكذا أفاض المصنف في شرح الأسماء الحسنى على وجوه ومعان لم نقف عليها عند غيره في كتابه «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للبغوي» فلتنظر ثمة.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٢٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه محمَّد بن يونس الكديمي ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما ضعيفان كما في «التقريب».

(٥٩) سورة الحشر مدنية
وآياتها أربع وعشرون

(وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير)

روى البخاري، عن سعيد بن جبير قال، قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾
وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات والأرض يسبّح له ويمجّده، ويقدّسه ويوحّده كقوله تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي منيع الجناب ﴿الحكيم﴾ في قدره وشرعه، وقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني يهود بني النضير، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأجلاهم النبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ظنوا أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيّرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى (أذرعات) من أعالي الشام، وهي أرض المحشر

والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى (خيبر) وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم، روى أبو داود، عن عبدالرحمن ابن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن كفّار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيّ) ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر إنكم أدنيتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لنخرجنكم، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك (عبدالله بن أُبيّ) ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود، إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء، وهو الخلاخيل، فلمّا بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقي بمكان النصف، وليسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: «إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه»، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ نقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة.

وقوله تعالى: ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الآية الأُخْرَى ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، وقوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل. وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها، ثم حصنوها ودربوها، يقول الله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، وقوله: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا﴾ أي لولا أن الله كتب عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند

الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: «ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام، قال: والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض - إلى قوله - وليخزي الفاسقين﴾[1]»، قال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد، وقال الضحّاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء فهذا الجلاء، وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرِعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أُخْرَى. وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، ثم قال: ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾، وقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد، قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة، قال ابن جرير: هو جميع النخل، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرعاباً لقلوبهم، فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة. اي ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم. روى الإمام أحمد، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرّق[2]. ولفظ البخاري، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط (عبد الله بن سلام) ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة[3]. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[4]. ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بنحوه.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه الشيخان.

قال أبو إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أُحُد وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾

الفيء كل مال أخذ من الكفّار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح، التي ذكرها الله عزّ وجلّ في هذه الآيات فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ أي من بني النضير، ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ يعني الإبل، ﴿ولكنّ الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء، ثم قال تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح في سبيل الله عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ، قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف، فما وجدت فيه الذي تقول، قال: فما وجدتِ فيه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلك، قال: فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت، ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: ﴿وما أريد

أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ؟[١] . وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله عزّ وجلّ. قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، قالت: بلى ؟ قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا[٢]. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[٣]. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾، أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين. ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، قال عمر: «وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم»[٤]. وقوله تعالى: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، روى الإمام أحمد، عن أنس قال، قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.
(٣) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية.

المؤنة وأشركونا في المهنـأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[١]. ودعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة»[٢]. وقال البخاري، عن أبي هريرة قال، قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا، ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة، قال الحسن البصري ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعني الحسد ﴿مما أوتوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أعطي إخوانهم، وقال عبدالرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ يعني مما أوتوا: المهاجرون، قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ قال، وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»، فقالوا: نعم يا رسول الله، وقوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني حاجة، أي يقدموا المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل»، ومن هذا المقام تصدق الصدّيق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وقال البخاري، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله»، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عزّ وجلّ - أو ضحك - من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[٣]. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، عن جابر ابن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري، ورواه مسلم والترمذي والنسائي بنحوه.

من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[1]. وعن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[2]. وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبدالله فقال: يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبدالله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبدالله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل[3]، وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه[4]. وفي الحديث: « بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة »[5].

وقوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون﴾ أي قائلين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾، وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وقال ابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآية[6]، وقال ابن جرير: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿عليم حكيم﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ حتى بلغ ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه[7].

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه ابن أبي حاتم.
(٤) رواه ابن جرير.
(٥) أخرجه ابن جرير عن أنس مرفوعاً.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٧) أخرجه ابن جرير.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير، يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾، قال الله تعالى: ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ أي لا يقاتلون معهم، ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون ﴾، وهذه بشارة مستقلة بنفسها. ثم قال تعالى: ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة، ثم قال تعالى: ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى: ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾، قال مجاهد والسدي: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع، وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾. روى ابن جرير، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها

أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجَر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: بل قصها علينا، قال، فقصها؛ فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله قد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء. قال، فانطلقوا، فاستَعْدُوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به، فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال، فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو (برصيصا) فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جزاء كل ظالم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال، فجاءه قوم حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، قال، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن، وأقام الصلاة فصلّى، ثم خطب فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ - إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر - ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ - تصدق رجل من ديناره من درهمه، من ثوبه، من صاع بر، من صاع تمره - حتى قال - ولو بشق تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1]، فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد ثان ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير، وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم، فإن الجزاء من جنس العمل،

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ .

خطب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل، وهو في عمل الله عزّ وجلّ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عزّ وجلّ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عزّ وجلّ أن تكونوا أمثالهم ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ ، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم »[1] . وقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾، وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار﴾ ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ أي الناجون المسلّمون من عذاب الله عزّ وجلّ.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عزّ وجلّ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم، وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ إلى آخرها، يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ،

(١) أخرجه الحافظ الطبراني ، قال ابن كثير : اسناده جيد ورجاله كلهم ثقات .

ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾، وقال الحسن البصري: إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ الآية، وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن، ثم قال تعالى: ﴿هو الله لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إلّه إلا هو، فلا رب غيره ولا إلّه للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات، وقوله تعالى: ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، وقال تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ وقال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، ثم قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو الملك﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

وقوله تعالى: ﴿القدوس﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر، وقال مجاهد وقتادة: أي المبارك، وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام، ﴿السلام﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿المؤمن﴾ قال ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد: صدّق عباده المؤمنين في إيمانهم به، وقوله تعالى: ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾، وقوله: ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، وقوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿العزيز﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿الجبار المتكبر﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته»، وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء، وقال ابن جرير: الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء، ثم قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾. وقوله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارىء المصور﴾ الخلق: التقدير، والبرء: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتّبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عزّ وجلّ. قال الشاعر يمدح آخر

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي أنت تنفذ ما خلقت، أي قدرت بخلاف غيرك؛ فإنه لا يستطيع ما يريده فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ، ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فرى، أي قطع على ما قدره بحسب ما يريده، وقوله تعالى: ﴿الخالق البارئ المصور﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، ولهذا قال المصور أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: ﴿له الأسماء الحسنى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، ونذكر الحديث المروي

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباريء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبديء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[1]. وقوله تعالى: ﴿يسبح له ما في السماوات والأرض﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾، وقوله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ أي فلا يرام جنابه، ﴿الحكيم﴾ في شرعه وقدره، عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[2].

[آخر تفسير سورة الحشر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرج بعضه الشيخان واللفظ للترمذي.

(٢) رواه الترمذي والإمام أحمد.

تفسير سورة الحشر

[وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير] (١) . وهى مدنية .

قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال : أنزلت فى بنى النضير .

ورواه البخارى ومسلم من وجه آخر ، عن هُشَيْم ، به (٢) . ورواه البخارى من حديث أبى عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قُل : سورة النَّضير (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلى له ويوحده (٤) ، كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ] (٥) ﴾ [الإسراء:٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قَدره وشرعه .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم

(١) زيادة من أ .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٣) .
(٤) فى م : « وحده » .
(٥) زيادة من م .

عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا مَرَدّ [(١)] له ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد [معه] [(٢)] الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مُقَاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال :« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء ـ وهى الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ [بالكتائب] [(٣)] فحصرهم ، قال لهم: « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغَد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى

---

(١) فى م : « لا يرد » .

(٢ ، ٣) زيادة من سنن أبى داود .

منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة [(١)] .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله [(٢)] ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ،وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتل [(٣)] عمرو بن أمية الضمرى ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُومان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن [(٤)] تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ــ فَمَن [(٥)] رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصَعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، رضى الله عنهم . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ،وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه: أن يا محمد،قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه،فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى [بن] [(٦)] سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل [(٧)] ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخَلّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة

(١) سنن أبى داود برقم (٣٠٠٤) .
(٢) فى م : « أصحاب النبى » . (٣) فى م : « قتلهما » . (٤) فى م : « لم » .
(٥) فى أ : « فمر » . (٦) زيادة من م ، أ . (٧) فى أ : « نوفل » .

يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَة ذكرا فَقْرًا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ .

قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَير [١] بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأنى » . فجعل يامين بن عُمَير [٢] لرجل جُعِل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها [٣] .

وهكذا روى يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق ، بنحو ما تقدم [٤] .

فقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعنى : بنى النضير ﴿ **مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال :من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ـ يعنى الشام فَلْيَتْل [٥] هذه الآية : ﴿**هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : «اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف ، عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ، قال : « هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر » .

ورواه ابن جرير ، عن بُنْدَار ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، به [٦] .

وقوله : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصَرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النحل:٢٦] .

وقوله : ﴿ **وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ أى : الخوف والهَلَع والجَزَع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١ ، ٢) فى م : « بن عمرو » .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٠ـ١٩٢) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٢١) .

(٤) فى م : « مما تقدم » . (٥) فى م ، أ : « فليقرأ » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٠) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٤٢) عن هوذة بن خليفة ، عن عوف ، عن الحسن به وهو مرسل .

وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض [١] ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ، وتحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .

وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان [٢] اليهود إذا علَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ أى: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عُرْوَة ، والسُّدِّى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلّت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبَل الشام . قال : والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .

وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد .

وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضى ، حدثنا محمد بن سعيد [٣] العوفى ، حدثنى أبى ، عن عمى ، حدثنى أبى عن جدى ، عن ابن عباس قال : كان النبى [٤] ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مَبْلَغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ، والجلاء إخراجهم من أرضهم [٥] إلى أرض أخرى [٦] .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد

---

(١) فى أ : « بعض » . (٢) فى م : « وكانت » . (٣) فى أ : « سعد » .
(٤) فى م : « كان رسول الله » . (٥) فى م : « أرض » .
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٥٩) وإسناده مسلسل بالضعفاء .

ابن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بنى النضير، وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاث ليال (١) (٢) .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسَلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين فى (٣) البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين: نوع من التمر ، وهو جيد .

قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبَرْنِىّ من التمر .

وقال كثيرون (٤) من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة .

قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البُوَيرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم (٥) إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : [فبعث بنو النضير] (٦) يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته (٧) ورضاه ، وفيه نكاية العدو (٨) ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل(٩) القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه .

وقد روى نحو هذا مرفوعاً ، فقال النسائى : أخبرنا الحسن بن محمد ، عن (١٠) عفان ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله ﷺ : هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ (١١) .

(١) فى م : « أيام » .
(٢) دلائل النبوة (٣/ ٣٦٠) .
(٣) فى م : « من » . (٤) فى م : « كثير » . (٥) فى م : « نخلهم » .
(٦) فى هـ بياض ، وفى م : « بنو قريظة » وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى . ومستفادا من هامش ط. الشعب .
(٧) فى م : « وقدره » . (٨) فى م : « للعدو » . (٩) فى م : « فأنزل » .
(١٠) فى م : « بن » .
(١١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن سليمان بن موسى ، عن جابر ــ وعن أبى الزبير ، عن جابر ــ قال : رخص لهم فى قطع النخل، ثم شدد عليهم ، فأتوا [١] النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، علينا إثم فيما قطعنا ؟ أو علينا وزر فيما تركنا ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرّق .

وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة ، بنحوه [٣] ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : حاربت[٤] النضيرُ وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم[٥] نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمَّنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ،ويهود بنى حارثة ،وكلّ يهود بالمدينة .

ولهما أيضا عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع ــ وهى البُوَيرةُ ــ فأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [٦] .

وللبخارى ، رحمه الله ، من رواية جُوَيْرية بن أسماء عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير [٧] . ولها يقول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

وَهَـان عَلى سَراة بنى لُؤىّ ... حَـريـق بالبُـوَيـرَة مُسْتَـطِيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدَام اللهُ ذلـكَ مـن صَنـيع ... وَحـرّق فى نَـوَاحيها السَّعير
سَتَـعلم أيُّـنا منْـها بِـنُـزْهٍ ... وتَعْلُمُ أىّ أرْضينَـا نَضِيــرُ

---

(١) فى م : « فسألوا » .

(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٥) وفيه سفيان بن وكيع ، وهو ضعيف .

تنبيه : رواية سليمان بن موسى عن جابر لم أجدها فى مسند أبى يعلى المطبوع فلعلها سقطت .

(٣) المسند (٢/ ٧) وصحيح البخارى برقم (٢٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦)

(٤) فى م : « حارب » . (٥) فى م : « فقتل من رجالهم وسبى وقسم » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦) .

(٧) فى هـ ، أ : « نخل بنى النضير ، وقطع البويرة » ، وقوله : « وقطع البويرة » غير ثابت فى البخارى ، ويبدو أنه سهو من الناسخ . مستفاداً من هامش ط ــ الشعب .

كذا رواه البخارى [١] ، ولم يذكره ابن إسحاق .

وقال محمد بن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير وقتل ابن الأشرف :

لَقَد خزيت[٢] بغَدْرَتِها الحُبُور ... كَذَاكَ الدهرُ ذو صَرْف يَدُورُ
وَذَلك أنَّهم كفَرُوا بِربٍّ ... عَظيم أمرُهُ أمرٌ كَبيرُ
وقَد أوتوا معاً فَهماً وعلما ... وَجَاءهُمُ من الله النَّذيرُ
نَذير صَادق أدّى[٣] كتابا ... وآيات مُبَيَّنَةً تُنيرُ
فقال[٤] : ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جَديرُ
فَقَال : بَلى لَقد أديتُ حقاً ... يُصَدّقنى بـه الفَهم الخَبيرُ
فَمن يَتْبعه يُهدَ لِكُل رُشْد ... وَمَن يَكفُر به يُجزَ الكَفُورُ
فَلَمَّا أُشربُوا غَدْراً وكُفْراً ... وَجَدّ بهم عن الحَقّ النّفورُ
أرَى الله النبىّ بِرأى صدْق ... وكانَ الله يَحكُم لا يَجُورُ
فَأيَّدَهُ وَسَلَّطَه عَلَيهم ... وكَانَ نَصيرهُ نعْم النَّصيرُ
فَغُودرَ منْهمُو كَعب صريعاً ... فَذلَّتْ بعدَ مَصْرَعه النَّضيرُ
عَلَى الكَفَّين ثمَّ وقَدْ عَلَتْهُ ... بأيدينا مُشَهَّرة ذكُورُ
بأمْر مُحَمَّد إذ دَس لَيلا ... إلى كَعب أخَا كَعب يَسيرُ
فَمَا كَرَه فَأنزَلَه بِمكْر ... وَمحمودُ أخُو ثقَة جَسُورُ
فَتلْك بَنُو النَّضير بدار سَوء ... أبَارَهُمُ بما اجترموا المُبيرُ
غَداة أتاهُمُ فى الزّحْف رَهواً ... رَسُولُ الله وَهْوبهم بَصيرُ
وَغَسَّانُ الحماةُ مُوازرُوه ... عَلَى الأعداء وهولهم وَزيرُ
فَقَالَ: السلْم ويحكمُ فَصدّوا ... وَحَالفَ أمْرَهم كَذبٌ وَزُورُ
فَذَاقُوا غبّ أمْرهمُ دَبَالا ... لكُلّ ثَلاثَة منهُم بَعيرُ
وَأجلوا عَامدين لقَينُقَاع ... وَغُودرَ منهُم نَخل ودُورُ [٥]

قال : وكان مما [٦] قيل من الأشعار فى بنى النضير قولُ ابن لُقَيم العَبْسىّ ـ ويقال : قالها قيس

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣٢) .
(٢) فى أ : « خربت » . (٣) فى م : « أوتى » . (٤) فى م: « فقالوا » .
(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٩٩) .
(٦) فى م : « ومما كان » .

ابن بحر بن طريف ، قال ابن هشام الأشجعى :

أهلى فداءٌ لامرئ غير هالك ... أحلّ [(١)] اليهودَ بالحَسى[(٢)] المُزَنَّم
يَقيلُونَ فى جَمْر الغَضاة وبُدِّلُوا ... أهَيضبَ عودا بالوَدى المُكَمَّم
فإن يَكُ ظَنى صادقاً بمُحمد ... يَرَوا خَيلَه بينَ الصّلا ويَرمْرَمَ[(٣)]
يَؤمّ بها عَمرو بنُ بُهثَةَ إنَّهُمْ ... عَدُو وما حَىّ صَديق كمُجرم
عَلَيهنّ أبطالُ مَساعيرُ فى الوَغَى ... يَهُزّونَ أطرافَ الوَشيج المُقَوّم
وكُلّ رَقيق الشَّفرتَين مُهَنَّد ... تُورِثْنَ من أزْمان عاد وَجُرْهُم
فَمَن مُبلغٌ عَنى قُرَيشاً رسالة ... فَهَلْ بَعدَهُم فى المجْد من مُتكرّم
بأنّ أخاكمُ فاعلَمنّ مُحَمَّداً ... تَليدُ النَّدى بينَ الحَجُون وزَمْزَم
فَدينُوا له بالحقّ تَجْسُمْ أمُوركم ... وتَسْمُوا منَ الدنْيا إلى كُل مُعْظَم
نبى تلافَته منَ الله رَحمةٌ ... ولا تَسْألُوهُ أمْرَ غَيب مُرَجَّم
فَقَدْ كانَ فى بَدْر لَعَمْرى عبرَةٌ ... لَكُم يا قُرَيش والقَليب المُلَمَّم
غَدَاة أتَى فى الخَزْرَجيَّة عامِداً ... إليكُم مُطيعاً للعَظيم المُكَرّم
مُعَاناً برُوح القُدْس يَنْكى عَدوه ... رَسُولاً منَ الرّحمن حقّا بمَعْلم
رَسُولاً منَ الرّحمن يَتْلُو كتابَهُ ... فَلَمّا أنارَ الحَقّ لم يَتَلعثَم
أرَى أمْرَهُ يَزْدَادُ فى كُلّ مَوْطن ... عُلُوّا لأمرْ حَمَّه اللهُ مُحْكَم[(٤)]

وقد أورد ابن إسحاق ، رحمه الله ، هاهنا أشعاراً كثيرة ، فيها آداب ومواعظ وحكم ، وتفاصيل للقصة ، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر [(٥)] .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

(١) فى أ : « أجلى » . (٢) فى م ، أ : « بالحس » . (٣) فى أ : « بين الصفا وبزمزم » .
(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٥) .
(٥) صحيح البخارى (٧/ ٣٢٩) « فتح » .

الأَغْنيَاءِ منكُمْ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً لمال الفيء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء: كلّ مال أخذ من الكفار بغير [١] قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه [٢] بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ**﴾ أى : من بنى النضير ﴿ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ أى: جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ومَعْمَر ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان ، عن عمر ، رضى الله عنه ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة [٣] ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته [٤] ــ وقال مرّة : قوت [٥] سنته ــ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل .

هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم ــ إلا ابن ماجة ــ من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به [٦] . وقد رويناه مطولاً ، فقال أبو داود ، رحمه الله :

حدثنا الحسن بن على ومحمد بن يحيى بن فارس ــ المعنى واحد ــ قالا : حدثنا بشر بن عُمَر الزهرانى ، حدثنى مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىَّ عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مالِ ، إنه قد دَفّ أهل أبيات [٧] من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرتَ غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه [٨] يرفا ، فقال : يا أمير

(١) فى م : « من غير » . (٢) فى م : « عليه المسلمون » . (٣) فى م : « خاصة » .
(٤) فى م : « سنة » . (٥) فى أ : « مسيرة » .
(٦) المسند (١/ ٢٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن أبى داود برقم (٢٩٦٥) وسنن الترمذى برقم (١٧١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٥) .
(٧) فى أ : « أهل بنات » . (٨) فى م : « فجاء » .

المؤمنين، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ــ يعنى : علياً ــ فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس: خُيّل إلىَّ أنهما قَدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر ، رضى الله عنه : اتئدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة» . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم،فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة ــ أو : نفقته ونفقة أهله سنة ــ ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل علىٌّ أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىٍّ والعباس فقال : أنشدُكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله ﷺ وولىّ أبى بكر ، فَوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتما جَميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى علَى ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عَجَزتُما عنها فَرُدّاها إلى .

أخرجوه من حديث الزهرى ، به(١) . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عارم وعفان قالا : حدثنا معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا أنس بن مالك ، عن نبىّ الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ،حتى فُتحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول :

---

(١) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٣) وصحيح البخارى برقم (٣٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن النسائى (٧/١٣٦) وسنن الترمذى برقم (١٦١٠) .

كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .

رواه البخارى ومسلم من طُرُق عن معتمر ، به (١) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد (٢) .

وقوله : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى: جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا سعيد ، عن قتادة، عن الحسن العوفى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشىء وجدته فى كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، شىء وجدته فى كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت : والله لقد تصفحتُ ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول ! . قال : فما وجدت فيه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة . قالت : فلعله فى بعض أهلك . قال : فادخلى فانظرى . فدخلت فَنَظرت ثم خرجَت ، قالت : ما رأيتُ بأسا . فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، [عن إبراهيم] (٣) ، عن علقمة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات، والمُتفَلّجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله ،عز وجل. قال: فبلغ امرأة فى البيت يقال لها: « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ . قال : ما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت : [إنى] (٤) لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبى فانظرى .

(١) المسند (٣/٢١٩) وصحيح البخارى برقم (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٧١) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » .

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

فذهَبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سفيان الثورى (١) .

وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هُرَيرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (٢) .

وقال النسائى : أخبرنا أحمد بن سعيد ، حدثنا يزيد ، حدثنا منصور بن حيان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عُمَر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتم والنَّقير والمزَفَّت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفىء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صَدَقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر : وأوصى الخليفة [من] (٤) بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ،

(١) المسند (١/ ٤٣٣) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٢٥) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٨) .
(٤) زيادة من أ .

وأن يعفو [١] عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا [٢] .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمِهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين [٣] ويواسونهم بأموالهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا حميد ، عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَونا المَؤنة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم » [٤] .

لم أره فى الكتب من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] [٥] أثرة » .

تفرد به البخارى من هذا الوجه [٦] .

وقال البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنَةَ ونَشركْكُم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم [٧] .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة .

قال الحسن البصرى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد .

﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ : قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تَنطُف[٨] لحيته من وضوئه ، قد تَعلَّق[٩] نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته [١٠] أيضاً ، فطلع

---

(١) فى م : « وأن يعفى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٨) .
(٣) فى أ : « يحبون من هاجر إليهم » .
(٤) المسند (٣ / ٢٠٠) .
(٥) زيادة من صحيح البخارى .
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٤) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٢٥) .
(٨) فى م : « ينفض » .
(٩) فى م : « قد علق » .
(١٠) فى م : «مثل حاله » .

ذلك الرجل على مثل حاله الأولى (١) . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى (٢) إليك حتى تمضى فعلتُ . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى (٣) ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعارّ وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر (٤) ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرَار (٥) : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار (٦) ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملكَ فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير (٧) عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لأحد من المسلمين غشّا ، ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تَطاق (٨) .

ورواه النسائى فى اليوم والليلة ، عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن معمر به(٩). وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين،لكن رواه عقيل وغيره عن الزهرى ،عن رجل،عن أنس (١٠). فالله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله :﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى: ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ : المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم (١١) الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله (١٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (١٣) ﴾ يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ » . وهذا المقام

(١) فى م : « الأول » . (٢) فى أ : « أن تورينى » . (٣) فى م : « الليالى الثلاث » .
(٤) فى م ، أ : « ولا هجرة » . (٥) فى م : « مرات » . (٦) فى م : « المرات » .
(٧) فى م : « كبير » . (٨) فى م : « لا نطيق » ، وفى أ : « لا تطيق » .
(٩) المسند (٣/١٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٩٩) .
(١٠) انظر : تحفة الأشراف للمزى (١/ ٣٩٥) وكلام الحافظ ابن حجر فى النكت الظراف بهامشه .
(١١) فى م : « ويقاسمونكم » .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/٢٨) .
(١٣) ذكر فى « م » بقية الآية .

أعلى من حال الذين وَصَف اللهُ بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ (١) ﴾ [الإنسان:٨] . وقوله : ﴿وآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق ، رضى الله عنه ، بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . وهذا (٢) الماء الذى عُرِض (٣) على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثلث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فُضيل بن غَزوان، حدثنا أبو حازم الأشجعى ، عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله ، عز وجل ــ أو : ضحك ــ من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٤) .

وكذا رواه البخارى فى موضع آخر ، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه (٥) . وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه .

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى :من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا داود بن قيس الفراء ، عن عُبَيد الله بن مِقْسَم ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلّم ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُحَّ ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سَفَكوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم » .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه عن القَعْنَبِىّ ، عن داود بن قيس ، به (٦) .

وقال الأعمش وشعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زهير بن الأقمر ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظُّلْم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفُحْش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّشَ ، وإياكم والشُّحَّ ؛ فإنه أهلكَ من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

---

(١) فى أ : « حبه مسكيناً » . (٢) فى م : « وهكذا » . (٣) فى م : « اعرضوه » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٩) .
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٢) .
(٦) المسند (٣/ ٣٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) .

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة ، والنسائى من طريق الأعمش ، كلاهما عن عمرو بن مُرّة ، به [(١)] .

وقال الليث ، عن يزيد [بن الهاد] [(٢)] ، عن سُهَيل بن أبى صالح ، عن صفوان بن أبى يزيد ، عن القعقاع بن اللجلاج [(٣)] ، عن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » [(٤)].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا المسعودى، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** ، وأنا رجل شحيح ، لا أكاد أن أخرج من يدى شيئاً ! فقال عبد الله : ليس ذلك [(٥)] بالشح الذى ذكر فى القرآن ، إنما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك [(٦)] البخل ، وبئس الشىء البخل » [(٧)] .

وقال سفيان الثورى ، عن طارق بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول :« اللهم قنى شح نفسى » . لا يزيد على ذلك ، فقلت لـه ، فـقـال : إنى إذا وقيت شـح نفسى لم أسـرق ولـم أزن ولم أفـعل » ، وإذا الـرجـل عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه . ورواه ابن جرير [(٨)] .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسحاق ، حدثنا سلميان بن عبد الرحمن الدمشقى ، حدثنا إسماعيل بن عيّاش ، حدثنا مُجمع بن جارية الأنصارى ، عن عمه يزيد بن جارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « بَرئ من الشح مَن أدى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى فى النائبة » [(٩)] .

وقوله : **﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾** : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون بإحسان ، كما قال فى آية براءة : **﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾** [التوبة : ١٠٠] .فالتابعون لهم بإحسان

---

(١) المسند (٢/١٥٩) وسنن أبى داود برقم (١٦٩٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٣) .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى م : « الجلاح » .

(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/١٣) .

(٥) فى م : « ليس ذاك » . (٦) فى م : « ذاك » .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/٢٩) من طريق جامع به .

(٨) تفسير الطبرى (٢٨/٢٩) .

(٩) تفسير الطبرى (٢٨/٢٩) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق به، وروى مرسلاً ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/١٨٨) من طريق عمرو بن يحيى وإبراهيم بن إسماعيل ، وابن حبان فى الثقات (٤/٢٠٢) من طريق ابن المبارك ، كلهم عن مجمع بن يحيى ، عن عمه مرسلاً .

هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى: قائلين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أى: بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ،عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم ! ثم قرأت هذه الآية :﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ الآية .

وقال إسماعيل بن عُلَيَة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . ورواه البغوى [١] .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن الزهرى قال : قال عمر ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ قال الزهرى : قال عمر : هذه لرسول الله ﷺ خاصة ، قُرى [عربية : فَدَك وكذا] [٢] وكذا ، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وللفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق ــ قال أيوب: أو قال: حظ ــ إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع [٣] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] ، ثم قال هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ [وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ] [٤] ﴾ [الأنفال: ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ،

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٨٠) وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٣٠٢٢) عن عروة قال : قالت لى عائشة : « يا بن أختى ، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى ﷺ فسبوهم » .

(٢) زيادة من م ، أ ، وسنن أبى داود .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٦) .

(٤) زيادة من م .

وليس أحد إلا له فيها حق [١] ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى ـ وهو بسرو حمير ـ نصيبه فيها، لم يعرق فيها جبينه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبى وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم [٢] قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم [٣] لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء:٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ [٤] ﴾ يعنى : أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة [٥] ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر [٦] محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

---

(١) فى أ : « فيها جزء » . (٢،٣) فى م : « إما لأنهم » . (٤) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .
(٥) فى م : « والمقاتلة » . (٦) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .

ثم قال : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم [فيما][١] بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

قال إبراهيم النخعى : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى، ومقاتل بن حيان : [يعنى][٢] : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد ابن إسحاق .

وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ [٣]سول للإنسان ــ والعياذ بالله ــ الكفر ، فإذا دخل فيما سوله [٤] تبرأ منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هى منه مع غيرها من الوقائع المشاكله لها ، فقال ابن جرير :

حدثنا خَلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شُمَيْل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهيك قال : سمعت علياً ، رضى الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة ،فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال : فجاؤوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال: إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : كانت

(١) زيادة من م ، أ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى م : « إذا » .
(٤) فى م ، أ : « سوله له » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

امرأة ترعى الغنم ، وكان لها أربعة أخوة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب . قال : فنزل الراهب ففجَر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مُصدَّق يسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال : فأتى الشيطانُ إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ، بل قصها علينا . قال: فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقالوا : فوالله ما هذا إلا لشىء . قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى، فاسجد لى سجدة واحدةً وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به مَلكهم تَبَرأ منه ، وأُخِذَ فقتل (١) .

وكذا روى عن ابن عباس ، وطاوس ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك .واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا ، والله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جُرَيج العابد ، فإن جريجاً اتهمته امرأة بَغى بنفسها ، وادعت أن حَملها منه ، ورفعت أمره إلى ولى الأمر ، فأمر به فأنزل من صومعته وخُربت صومعته وهو يقول : ما لكم ؟ ما لكم ؟ فقالوا : يا عدو الله ، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا . فقال جريج : اصبروا . ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : يا غلام ، من أبوك؟ قال (٢) :أبى الراعى ـــ وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه ـــ فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب. قال: لا ، بل أعيدوها من طين،كما كانت.

وقوله : ﴿ **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا** ﴾ أى :فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما (٣) إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيْفة ، عن المنذر ابن جرير ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابى النمار ـــ أو : العبَاء ـــ مُتَقَلِّدى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء:١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ ،

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

(٢) فى م : « فقال » .

(٣) فى م : « ومصيرهما » .

تَصَدَّق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صاع تمره ـ حتى قال ـ : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن يَنقُص من أجورهم شىء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة ، بإسناد مثله (١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أمر بتقواه ، وهى تشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر .

وقوله : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم (٢) ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقال (٣) : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى :حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ،حدثنا [أبو] (٤) المغيرة ، حدثنا حَريز بن عثمان ، عن نعيم بن نَمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، [وائتضحوا بسنائه وبيانه] (٥) إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

(١) المسند (٣٥٨/٤) وصحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

(٢) فى م : « وخفيها » . (٣) فى م : « وقوله » .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى .

(٥) زيادة من م ، والمعجم الكبير .

[الأنبياء: ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم (١) .

هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَرِيز بن عثمان ، وهو نعيم بن نمحة ، لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستانى قد حكم بأن شيوخ حَرِيز كلهم ثقات . وقد روى لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى (٢) : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ ﴾ الآية [غافر: ٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله ، سبحانه ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى : فإن كان الجبل فى غلظته وقساوته ،لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ،لخشع وتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ [لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا] (٣) ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حَمّلته إياه ، لتصدع (٤) وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم

---

(١) المعجم الكبير (١/ ٦٠) .
(٢) بياض فى م .
(٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « لصدع » .

قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .

وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع وجعل [١] يئن كما يئن الصبى الذى يُسكَّن [٢]، لما كان يُسمَع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع » [٣] . وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته [٤] ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ الآية [الرعد:٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب [٥] والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات .

وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] .

وقال [٦] : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أى: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة .

وقوله : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك: وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام .

---

(١) حديث حنين الجذع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر ، وبرقم (٣٥٨٤،٣٥٨٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « يسكت » .

(٣) رواه أبو القاسم البغوى كما فى البداية والنهاية للمؤلف (٦/ ١٣٢) من طريق شيبان بن فروخ ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن أنس فى قصة الجذع ، ثم زاد : فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : « يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله شوقاً إليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه » .

(٤) فى م : « من خشية الله » . (٥) فى م : « بالغيب » . (٦) فى م : « ثم قال » .

﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ بكماله [١] فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس: [أى] [٢] أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمَّن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صَدّق عبادَه المؤمنين فى إيمانهم به .

وقوله : ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : أى [٣] : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد:٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عزّ كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجَبْرِيّة إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما تقدم فى الصحيح : « العَظَمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبته » .

وقال قتادة : الجبار : الذى جَبَر خلقه على ما يشاء .

وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .

وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٤] ﴾ .

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ : الخلق : التقدير ، والبَراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر [٥] :

ولأنت تَفرى ما خَلَقت وبعـ ـضُ القوم يَخلُق ثم لا يَفْرى

أى : أنت تنفذ ما خلقت ، أى : قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد . فالخلق : التقدير . والفرى : التنفيذ . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فَرَى ، أى : قطع عل ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار:٨] ولهذا قال : ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

---

(١) فى م : « لكماله » . (٢) زيادة من م . (٣) فى م : « إنه » .

(٤) فى م : « يصفون » وهو خطأ .

(٥) هو زهير بن أبى سلمى يمدح به هرم بن سنان ، والبيت فى ديوانه (ص٩٤) أ . هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب .

وقوله : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » ــ واللفظ للترمذى ــ : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ،الظاهر ، الباطن، الولى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (١) (٢) .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جَنَابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا خالد ــ يعنى : ابن طَهْمَان ، أبو العلاء الخَفَّاف ــ حدثنا نافع ابن أبى نافع ، عن مَعقِل بن يسار ، عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » .

ورواه الترمذى عن محمود بن غَيْلان ، عن أبى أحمد الزبيرى ، به (٣)، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

---

(١) فى م : « ها هنا » .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) المسند (٥/٢٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٢) .

سورة الحشر

مدنيّة، وهي أربع وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام في صدر سورة الحديد، وقد كُرِّر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلّ مِن الفريقين بالتسبيح.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قدم المدينة صالَحَ بني النضير، وهم رهط مِن اليهود مِن ذرّيّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا لبعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعاهدهم ألّا يكونوا له ولا عليه، فلمّا ظهر عليه السلام يوم بدر قالوا: «هو النبيّ الذي نعتُه في **التوراة** لا تُرَدّ له رايةٌ»، فلمّا كان يومُ أُحُد ما كان ارتابوا ونكثوا.

فخرج كعبُ بن الأشرف في الأربعين راكبًا إلى مكّةَ فحالفوا قريشًا عند الكعبة على قتاله عليه السلام، فأمر عليه السلام محمّد بن مسلمةَ الأنصاريَّ[1]

---

١ محمّد بن مسلمة بن خالد الأنصاري الأوسي، أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله (ت. ٤٣هـ/٦٦٣م). حليف لبني الأشهل، كان مِن فُضلاء الصحابة، شهد بدرًا والمشاهد كلّها، وعاش ومات بالمدينة. استخلفه النبيّ عليه الصلاة والسلام على المدينة في إحدى غزواته، كان ممّن اعتزل الفتنة ولا حضر الجَمَل ولا صِفّين، بل اتّخذ سيفًا مِن خشب، وتحوّل إلى الرَّبذة فأقام بها مُديدة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٧٧/٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٩/٢.

فقتل كعبًا غِيلةً وكان أخاه مِن الرضاعة، ثمّ صبّحهم بالكتائب، فقال لهم: «اخرجوا مِن المدينة»، فاستمهلوه عليه السلام عشرةَ أيّام ليتجهّزوا للخروج.

فدسّ عبدُ الله بنُ أبيّ المنافقُ وأصحابه إليهم لا تخرجوا مِن الحِصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم، فدَرَّبوا على الأزِقّة وحصّنوها، فحاصرهم النبيّ عليه السلام إحدى وعشرين ليلةً.

فلمّا قذف الله في قلوبهم الرعب وأيِسُوا مِن نصر المنافقين طلبوا الصلحَ
[١٨٠و] / فأبى عليهم إلّا الجلاءَ على أن يحمل كلُّ ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا مِن متاعهم، فجَلَوا إلى الشام إلى أريحا وأذرِعات إلّا أهلَ بيتين منهم: آلَ أبي الحقيق وآلَ حُيَيّ بن أخطبَ،[١] فإنّهم لحِقوا بخيبرَ،[٢] ولحقت طائفة بالحِيرة، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ بيان لبعض آثار عزّته تعالى وأحكام حكمته إثرَ وصفه تعالى بالعزّة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق. والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إمّا بناءً على كمال ظهور اتّصافه تعالى بهما مع مساعدة تامّة مِن المقام، أو على جعلِه مستعارًا لاسم الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام، ٦/٤٦]، أي: بذلك، وعليه قول رؤبة بن العجّاج:

كأنّه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[٤]

---

[١] هو حُيَيّ بن أخطب النضري (ت. ٥هـ/٦٢٦م)، أبو صفيّة أمّ المؤمنين. سيّد اليهود، كان يُنعت بسيّد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثمّ قتلوه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣/٤٨٤؛ والأعلام للزركلي، ٢/٢٩٢.

[٢] خيبر: هو الموضع المذكور في غزوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي ناحية على ثمانية بُرد مِن المدينة. ولفظ خيبر بلسان اليهود يعني الحصن. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/٤٠٩.

[٣] الحشر، ٥٩/١-٦. | والخبر بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٦٧-٦٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٥.

[٤] في ديوانه، ص ١٠٤؛ وهو له في الصحاح للجوهري، «بهق»، وفيه «البهق: بياض يعتري الجلد يخالف لونه، ليس مِن البرص». والشاهد فيه أنّه قال: «كأنّه»، بضمير المفرد المذكّر، وكان قال قبله:

كما هو المشهور، كأنّه قيل: ذلك المنعوت بالعزّة والحكمة الذي أخرج... إلخ، ففيه إشعارٌ بأنّ في الإخراج حكمةً باهرةً.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أوّل حشرهم إلى الشام، وكانوا مِن سِبْطٍ[١] لم يُصبهم جلاءٌ قطّ، وهم أوّل مَن أُخرِج مِن جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله عنه إيَّاهم مِن خيبر إلى الشام. وقيل: آخرُ حشرِهم حشرُ يوم القيامة؛ لأنّ المَحشَر يكون بالشام.[٢]

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ مِن ديارهم بهذا الذلّ والهَوان لشدّة بأسهم وقوّة مَنَعتِهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنُّوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتُهم مِن بأس الله.

وتغييرُ النظم بتقديم الخبرِ وإسنادِ الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم، واعتقادِهم في أنفسهم أنّهم في عزّةٍ ومَنَعة لا يُبالى معها بأحد يتعرَّض لهم أو يطمع في مُعازّتهم. ويجوز أن يكون ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾ خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾ و﴿حُصُونُهُم﴾ مرتفعًا على الفاعليّة.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُ الله تعالى / وقدَرُه المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتلُ رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنّه ممّا أضعفَ قوّتهم وفلّ شوكتَهم وسَلَب قلوبهم الأمن والطُّمأنينة. وقيل: الضمير في ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ و﴿لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ للمؤمنين، أي: فأتاهم نصر الله. وقُرئ: "فَآتَاهُمْ"،[٣] أي: فآتاهم الله العذابَ أو النصرَ. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: أثبت فيها الخوفَ الذي يَرْعبُها، أي: يملؤها. [١٨٠ظ]

فيها خطوط مِن سواد وبَلَقْ

ولهذا راجعه فيه أبو عبيدة في خبر نقله في مجاز القرآن، ٤٤/١ (البقرة، ٦٨/٢)، فقال: «قال أبو عبيدة فقلتُ لرؤبة: إن كانت خطوطٌ فقل: "كأنّها"، وإن كانت سودٌ وبُلقٌ فقلْ: "كأنّهما"، فقال: كأنّ ذلك ويلك توليغُ البهَق».

١ السِّبط مِن اليهود: كالقبيلة في العرب. لسان العرب لابن منظور، «سبط».

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٧٥/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأحمد بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ليسدّوا بما نَقَضوا منها مِن الخشب والحجارةِ أفواهَ الأزِقّة، ولئلّا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمين، ولينقلوا معهم بعضَ آلاتها المرغوبِ فيها ممّا يقبل النقلَ. ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حيث كانوا يُخرِّبونها إزالةً لمتحصِّنهم ومتمنِّعهم وتوسيعًا لمجال القتالِ ونكايةً لهم. وإسنادُ هذا إليهم لِما أنّهم السبب فيه، فكأنّهم كلّفوهم إيّاه وأمروهم به. قيل: الجملة حال، أو تفسير لـ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾.[١] وقُرئ: "يُخَرِّبُونَ"[٢] بالتشديد للتكثير. وقيل: الإخرابُ: التعطيل، أو تركُ الشيء خرابًا، والتخريب: النقض والهدم.[٣]

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فاتّعِظوا بما جرى عليهم مِن الأمور الهائلة على وجه لا يكاد يهتدي إليه الأفكار واتّقوا مباشرة ما أدّاهم إليه مِن الكفر والمعاصي، أو انتقلوا مِن حال الفريقين إلى حال أنفسكم، فلا تعوِّلوا على تعاضد الأسباب؛ بل توكّلوا على الله عزّ وجلّ، وقد استُدلّ به على حجّيّة القياس، كما فُصِّل في موقعه.

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ أي: الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والسبي كما فُعل ببني قريظةَ، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئناف غيرُ متعلِّق بجواب ﴿لَوۡلَا﴾، جيء به لبيان أنّهم إن نجَوا مِن عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاةَ لهم مِن عذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما حاق بهم وما سيحيق ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنّهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وفعلوا ما فعلوا ممّا حُكي عنهم مِن القبائح. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وقُرئ: "يُشَاقِقِ الله"[٤] كما في الأنفال.[٥] والاقتصار على ذِكر مُشاقّته تعالى لتضمُّنها لمُشاقّته عليه السلام، / وليُوافق قولَه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهو إمّا نفس الجزاء [١٨١و]

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٨.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٨.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.
٥ الأنفال، ٨/١٣.

قد حُذف منه العائد إلى ﴿مَن﴾ عند مَن يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف، أي: يعاقبه الله، فإنّ الله شديدُ العقاب.

وأيًا ما كان فالشرطيّة تكملة لِما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببيّة بالطريق البرهاني، كأنّه قيل: ذلك الذي حاق بهم مِن العقاب العاجل والآجل بسبب مُشاقّتهم لله تعالى ورسوله، وكلّ[1] مَن يشاقِ الله كائنًا مَن كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديد، فإذن لهم عقابٌ شديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: أيُّ شيء قطعتم مِن نخلة، وهي فِعْلة مِن "اللون"، وياؤها مقلوبة مِن واوٍ لكسرةِ ما قبلها كـ"دِيمة" وتُجمَع على "ألوان". وقيل: مِن "اللِّين" وتُجمَع على "لِيَن" وهي النخلة الكريمة. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لـ﴿مَا﴾، وتأنيثُه لتفسيره باللِّينة كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر، ٢/٣٥]. ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت مِن غير أن تتعرَّضوا لها بشيء ما. وقُرِئ: "عَلَى أُصُلِهَا"[2] إمّا على الاكتفاء مِن "الواو" بالضمّ، أو على أنّه جمع كـ"رُهُن". وقُرِئ: "قَائِمًا"[3] على أصوله ذهابًا إلى لفظ ﴿مَا﴾. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فذاك، أي: قطعُها وتركُها بأمر الله تعالى.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وليُذِلّ اليهود ويَغيظهم أذِن في قطعها وتركِها؛ لأنّهم إذا رأوا المؤمنين يتحكّمون في أموالهم كيف أحبُّوا، ويتصرَّفون فيها حسبما شاءوا مِن القَطْع والتركِ يزدادون غيظًا ويتضاعفون حسرةً.[4] واستُدلّ به على جواز هدمِ ديار الكفَرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم زيادةً لغيظهم. وتخصيص اللِّينة بالقطع إن كانت مِن الألوان لاستبقاء العَجوة والبَرنيّة اللتين هما كِرامُ النخيل، وإن كانت هي الكِرام ليكون غيظهم أشدَّ.

---

[1] س - كلّ.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[4] وفي هامش م: لأنّ الترك أيضًا لمصلحة المؤمنين. «منه».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ شروع في بيان حالِ ما أُخِذ مِن أموالهم بعد بيان ما حلّ بأنفسهم مِن العذاب العاجل والآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم مِن التخريب والقطع، أي: ما أعاده إليه مِن مالهم. وفيه إشعارٌ بأنّه كان حقيقًا بأن يكون له عليه السلام، وإنّما وقع في أيديهم بغير حقّ فرجعه الله تعالى إلى مستحقّه؛ لأنّه تعالى خَلَق الناس لعبادته وخَلَق ما خَلَق ليتوسَّلوا به إلى طاعته، فهو جدير / بأنْ يكون للمطيعين. ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: مِن بني النَّضير. [١٨١ظ]

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: فما أجريتم على تحصيله وتغنُّمه مِن الوجيف: وهو سرعة السَّير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هي ما يُركَب مِن الإبل خاصّة، كما أنّ الراكب عندهم راكبُها لا غيرُ، وأمّا راكب الفرس فإنّما يسمُّونه فارسًا، ولا واحدَ لها مِن لفظها، وإنّما الواحدة منها "راحلة"، والمعنى: ما قطعتُم لها شُقّةً بعيدةً ولا لقيتُم مشقّةً شديدةً ولا قتالًا شديدًا؛ وذلك لأنّه كانت قراهم على مِيلين مِن المدينة فمشَوا إليها مشيًا، وما كان فيهم راكب إلّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فافتتحها صُلحًا مِن غير أن تجري بينهم مسايفةٌ، كأنّه قيل: وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصَّلتموه بكدّ اليمين وعرقِ الجبين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: سنّته تعالى جارية على أن يسلِّطهم على مَن يشاء مِن أعدائهم تسليطًا خاصًّا، وقد سلّط النبيَّ عليه السلام على هؤلاء تسليطًا غيرَ معتاد مِن غير أن تقتحموا مضايقَ الخطوب وتُقاسُوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارةً على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان لمصارف الفيء بعد بيانِ إفاءته عليه عليه السلام مِن غير أن يكون للمقاتِلة فيه حقٌّ. وإعادةُ عين العبارة الأولى لزيادة التقرير، ووضعُ أهل القرى موضعَ ضميرهم للإشعار بشمول ما لعقاراتهم أيضًا.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «اختُلف في قسمة الفيء، قيل: تُسدَّس لظاهر الآية ويُصرَف سهم الله إلى عِمارة الكعبة وسائر المساجد. وقيل: تُخمَّس؛ لأنّ ذِكر الله للتعظيم، ويُصرَف الآن سهمُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الإمام على قول، وإلى العساكر والثغور على قول، وإلى مصالح المسلمين على قول. وقيل: / يُخمَّس خُمُسه كالغنيمة، فإنّه [١٨٢و] صلّى الله عليه وسلّم كان يقسِّم الخُمُس كذلك، ويصرِف الأخماس الأربعةَ كما يشاء، والآن على الخلاف المذكور».[١]

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيءُ الذي حقُّه أن يكون للفقراء يعيشون به ﴿دُولَةًۢ﴾ بضمّ "الدال"، وقُرئ بفتحها،[٢] وهي ما يَدُول للإنسان، أي: يدور مِن الغنى والجَدّ والغَلَبة. وقيل: "الدَّولة" بالفتح مِن "المُلك" بالضمّ، وبالضمّ مِن "المِلك" بكسرها، أو بالضمّ في المال، وبالفتح في النُّصرة،[٣] أي: كيلا يكون جَدًّا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولةً جاهليّةً بينكم؛ فإنّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون: «مَن عزّ بزّ».[٤] وقيل: الدُّولة بالضمّ: ما يُتداول كالغُرفة: اسم ما يُغترَف، فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئًا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراءَ. والدَّولة بالفتح: بمعنى التداول، فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم، أو كيلا يكون إمساكه تداولًا بينهم لا يُخرِجونه إلى الفقراء.[٥] وقُرئ: "دَوْلَةٌ"[٦] بالرفع على أنّ "كان" تامّة، أي: كيلا يقع دولة، على ما فُصِّل مِن المعاني.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والسُّلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٧٩.

٤ المستقصى للزمخشري، ٢/٣٥٧.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٨.

٦ قرأ بها أبو جعفر وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكموه مِن الفيء أو مِن الأمر ﴿فَخُذُوهُ﴾ فإنّه حقّكم أو فتمسّكوا به، فإنّه واجب عليكم. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه أو عن تعاطيه ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته عليه السلام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيُعاقب مَن يُخالف أمرَه ونهيَه.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بدل مِن لـ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عُطف عليه، فإنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يُسمّى فقيرًا. ومَن[1] أعطى أغنياء ذوي القربى خصَّ الإبدال بما بعده، وأمّا تخصيصُ اعتبار الفقر بفيء بني النضير[2] فتعسفٌ ظاهر.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرّهم كفّار مكّة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رزقًا في الدنيا ومرضاة في الآخرة، وُصفوا أوّلًا بما يدلّ على استحقاقهم للفيء مِن الإخراج مِن الدِّيار والأموال. وقُيِّد ذلك ثانيًا بما يُوجِب تفخيمَ شأنهم ويؤكِّده.

[١٨٢ظ] ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ / عطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، فهي حال مقدّرة، أي: ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارِنةٌ، فإنّ خروجهم مِن بين الكفّار مراغِمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرةٌ وأيُّ نصرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل مِن الصفات الحميدة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الراسخون في الصِّدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورًا بيّنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

---

[1] وفي هامش م: كالشافعي وأحمدَ رحمهما الله تعالى. «منه».

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ كلام مستأنَف مسوقٌ لمدح الأنصار بخصال حميدة، مِن جملتها محبّتُهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسنَ رضا وأكمَلَه. ومعنى تبوُّئهم الدار أنّهم اتّخذوا المدينة والإيمان مباءةً وتمكّنوا فيهما أشدّ تمكُّن، على تنزيل الحالِ منزلةَ المكان. وقيل: ضُمِّن التبوّء معنى اللزوم.[١] وقيل: تبوّءوا الدار وأخلصوا الإيمان،[٢] كقول مَن قال:

علفتُها تِبنًا وماءً باردًا[٣]

وقيل: المعنى تبوّءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحُذف المضاف مِن الثاني، والمضاف إليه مِن الأوّل، وعُوِّض منه "اللام". وقيل: سمّى المدينة بالإيمان لكونها مَظهره ومنشأه.[٤]

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قبل هجرة المهاجرين، على المعاني الأُوَل؛ ومِن قبل تبوُّء المهاجرين، على الأخيرين. ويجوز أن يُجعَل اتّخاذ الإيمان مَباءةً ولزومَه وإخلاصَه على المعاني الأُوَل عبارةً عن إقامة كافّة حقوقه التي مِن جملتها إظهارُ عامّة شعائره وأحكامِه، ولا ريبَ في تقدّم الأنصار في ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلبًا واعتقادًا؛ إذ لا يتصوَّر تقدُّمهم عليهم في ذلك.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ خبر للموصول، أي: يحبُّونهم مِن حيث مهاجرتُهم إليهم لمحبّتهم الإيمانَ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ أي: في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي: شيئًا محتاجًا إليه، يقال: "خُذْ منه حاجتَك"، أي: ما تحتاج إليه. وقيل: أثرَ حاجةٍ كالطلب والحَزازة والحسد والغيظ.[٥] ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ممّا أوتيَ المهاجرون مِن الفيء وغيره.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يقدِّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كلّ شيء مِن أسباب المعاش حتّى إنّ مَن كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوِّجها واحدًا منهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وخلّة، وأصلُها خَصاص البيت: وهي فروجه. والجملة في حيّز الحال، وقد عرفتَ وجهَه مرارًا.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٨٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٩.
٣ لا يُعلَم قائله. ومضى تخريجه في تفسير الذاريات ٥١/٣٨.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قسَّم أموال بني النَّضير على المهاجرين ولم يُعطِ الأنصار إلّا ثلاثةَ نفر محتاجين: أبا دُجانةَ سِماكَ بن خَرَشةَ / وسهلَ [١٨٣و] بن حُنَيف والحارثَ بن الصِّمّة،[1] وقال لهم:[2] «إن شئتم قسمتم للمهاجرين مِن أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يُقسَم لكم شيء مِن الغنيمة»، فقالت الأنصار: «بل نقسم لهم مِن أموالنا وديارنا ونُؤثِرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها»، فنزلت.[3] وهذا صريح في أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾... إلخ مستأنَف غير معطوف على ﴿ٱلْفُقَرَآءِ﴾ أو ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾. نعم، يجوز عطفه على ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فإنّ ذلك إنّما يستدعي شركةَ الأنصار للمهاجرين في الصِّدق دون الفيء، فيكون قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ وما عُطف عليه استئنافًا مقرِّرًا لصدقهم، أو حالًا مِن ضمير ﴿تَبَوَّءُو﴾.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ بالضمّ والكسر -وقد قُرئ به أيضًا-[4] اللؤمُ، وإضافتُه إلى النفس لأنّه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل، أي: ومَن يُوقَ بتوفيق الله تعالى شحَّها حتّى يُخالفها فيما يغلب عليها مِن حبّ المال وبُغضِ الإنفاق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار معناها العامّ المنتظِم للمذكورين انتظامًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب الناجون عن كلّ مكروه. والجملة اعتراض واردٌ لمدح الأنصار والثناءِ عليهم. وقُرئ: "يُوَقَّ"[5] بالتشديد.

---

[1] هو الحارث بن الصمّة بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن عامر أبو سعيد. صحب النبيّ عليه الصلاة والسلام وروى عنه. آخى النبيّ بينه وبين صُهيب بن سنان. ذُكر في أهل بدر، وشهد أحدًا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وثبت حين انكشف الناس، وبايعه على الموت. وشهد بئر معونة واستشهد فيها. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٧١/٣؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٩٢/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٧٨/١.

[2] وفي هامش م: أي: للأنصار. «منه».

[3] بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٧/٨؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلامُ، أو التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل: إنّ الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. وأيًّا ما كان فالموصولُ مبتدأ خبرُه ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ، والجملةُ مسوقة لمدحهم بمحبّتهم لمَن تقدّمهم مِن المؤمنين ومراعاتِهم لحقوق الأخوّة في الدِّين والسَّبق بالإيمان، كما أنّ ما عُطفت عليه مِن الجملة السابقة لمدح الأنصار، أي: يدعون لهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ أي: في الدِّين الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهم مِن النسب. ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصفوهم بذلك اعترافًا بفضلهم. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ وقُرئ: "غِمْرًا"،[١] وهما الحقد. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإطلاق. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغٌ في الرأفة والرحمة، فحقيقٌ بأن تُجيب دعاءنا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ حكايةٌ لِما جرى بين الكفرة والمنافقين مِن الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة، وتعجيبٌ منها بعد حكاية محاسنِ أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم. / والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، [١٨٣ظ]
أو لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ استئنافٌ لبيان المتعجَّب منه. وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتبليغ. والمراد بأخوّتهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم وابن غزوان عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

إمّا توافقُهم في الكفر أو صداقتُهم وموالاتُهم. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي: مِن دياركم قسرًا، موطِّئة للقسم. وقوله تعالى: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم، أي: والله لئن أُخرِجتم لنخرجنّ معكم البتّةَ ونذهبنَّ في صحبتكم أينما ذهبتُم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعُنا مِن الخروج معكم ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان.

وقيل: لا نُطيع في قتالكم أو خذلانِكم.[١] وليس بذاك؛ لأنّ تقدير القتال مترقَّب بعد، ولأنّ وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرّدَ عدم طاعتهم لمَن يدعوهم إلى قتالهم؛ بل نصرتهم عليه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لنعاوننّكم على عدوّكم، على أنّ دعوتهم إلى خذلان اليهودِ ممّا لا يمكن صدوره عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين حتّى يدّعوا عدم طاعتهم فيها، ضرورةَ أنّها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنُصرتهم وإظهارِ كفرهم، ولا ريبَ في أنّ ما يفعله عليه السلام عند ذلك قتلُهم لا دعوتُهم إلى ترك نُصرتِهم، وأمّا الخروج معهم فليس بهذه المرتبة مِن إظهار الكفر لجواز أن يدَّعوا أنّ خروجهم معهم لِما بينهم مِن الصداقة الدنيويّة، لا للموافقة في الدين.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾... إلخ تكذيبٌ لهم في كلّ واحد مِن أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكلّ على الإجمال. ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإنّ ابن أُبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النَّضير ذلك سرًّا ثمّ أخلفوهم. وفيه حُجّة بيّنة لصحّة النبوّة وإعجازِ القرآن.

---
[١] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨١/٤.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفَرْض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ فِرارًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: المنافقون بعد ذلك، أي: يُهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقُهم لظهور كفرهم، أو لينهزمَنّ اليهودُ ثمّ لا ينفعهم نُصرة المنافقين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مرهوبيّةً، على أنّها مصدر مِن المبنيّ للمفعول. ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رهبتُهم منكم في السرّ أشدُّ ممّا يُظهرونه لكم مِن رهبة الله، فإنّهم كانوا يدَّعون عندهم رهبةً عظيمةً مِن الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن كون رهبتهم منكم أشدَّ مِن رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: شيئًا حتّى يعلموا عظمةَ الله تعالى / فيخشَوه حقَّ خشيته. [١٨٤و]

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهودُ والمنافقون، بمعنى لا يقدِرون على قتالكم ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين متّفقين في موطِن مِن المواطن ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ دون أن يُصحِرُوا لكم ويُبارزوكم، لفرط رهبتهم. وقُرئ: "جُدْرٍ"[١] بالتخفيف، وقُرئ: "جِدَارٍ"،[٢] وبإمالة فتحة "الدال"،[٣] و"جَدْرٍ"،[٤] و"جَدَرٍ"،[٥] وهما الجِدار.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئناف سِيق لبيان أنّ ما ذُكر مِن رهبتهم ليس لضعفهم وجُبنهم في أنفسهم، فإنّ بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديدٌ، وإنّما ضعفهم وجبنُهم بالنسبة إليكم بما قذف الله عزّ وجلّ في قلوبهم مِن الرعب. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متّفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرّقة لا ألفةَ بينها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩.

٢ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٣ قرأ بها أبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد واليماني، وهارون عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة، وابن جُبير عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن تشتّت قلوبهم بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا حتّى يعرفوا الحقّ ويتّبعوه وتطمئنّ به قلوبهم وتتّحد كلمتهم ويَرمُوا عن قوس واحدة، فيقعون في تِيه الضلال وتتشتّت قلوبهم حسب تشتُّت طرقه وتفرُّق فنونه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: لا يعقلون أنّ تشتّت القلوب ممّا يُوهِن قواهم،[1] فبمَعزِل مِن السَّداد.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف تقديرُه "مَثلُهم"، أي: مَثلُ المذكورين مِن اليهود والمنافقين كمَثل أهل بدر، أو بني قينُقاع على ما قيل: إنّهم أُخرِجوا قبل بني النَّضير.[2] ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابُه بـ﴿مَثَلِ﴾؛ إذ التقديرُ كوقوع مَثل... إلخ.

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: سوءَ عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قَدْرُه. والمعنى أنّ حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة، لكن لا على أنّ حال كلّهم كحالهم؛ بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك.

وأمّا حالُ المنافقين فهي ما نطق به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فإنّه خبر ثانٍ للمبتدأ المقدّر مبيّن لحالهم متضمّن لحال أخرى لليهود، وهي اغترارهم بمقالة المنافقين أوّلًا وخيبتُهم آخرًا، وقد أُجمِل في النظم الكريم، حيث أُسنِد كلّ مِن الخبرين إلى المقدَّر المضاف إلى ضمير الفريقين مِن غير تعيين ما أُسنِد إليه بخصوصه ثقةً بأنّ السامع يرُدّ كلًّا مِن المَثلين إلى ما يُماثله. كأنّه قيل: مَثلُ اليهود في حلول العذاب بهم كمَثل الذين مِن قبلهم... إلخ، ومَثل المنافقين في إغرائهم إيّاهم على القتال حسبما نقل عنهم كمَثل الشيطان.

﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: أغراه على الكفر إغراءَ الآمر المأمور على المأمور به، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ وقُرئ:" أَنَا بَرِيءٌ مِنْكَ".[3] إن أريدَ

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤-٣٨٢.
[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٣.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

بالإنسان الجنسُ فهذا التبرُّء مِن الشيطان يكون يومَ القيامة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[١] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وإن أريدَ به أبو جهل، فقوله تعالى: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ عبارةٌ عن قول إبليسَ يومَ بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ [الأنفال، ٤٨/٨]، وتبرؤه قولُه يومئذ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأنفال، ٤٨/٨].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَا﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها. ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ وقرئ بالعكس،[٢] وقد مرّ أنّه / أوضحُ. ﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ وقُرئ: "خَالِدَانِ فِيهَا"[٣] على أنّه خبر ﴿أَنَّ﴾ و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لغوٌ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلودُ في النار جزاءُ الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصّة. [١٨٤ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ أي: أيَّ شيء قدَّمت ليوم القيامة. عُبِّر عنه بذلك لدنوِّه، أو لأنّ الدنيا كيومٍ والآخرةُ غدُه. وتنكيره لتفخيمه وتهويله، كأنّه قيل: لغدٍ لا يُعرَف كنهه لغاية عِظَمه، وأمّا تنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل، كأنّه قيل: ولتنظُر نفسٌ واحدة في ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأوّل في أداء الواجبات، كما يُشعِر به ما بعده مِن الأمر بالعمل، وهذا في ترك المحارم، كما يؤذِن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: مِن المعاصي.

---

١ م - تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وزيد بن عليّ والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسُوا حقوقه تعالى وما قدَروه حقَّ قدره، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حقَّ رعايتها، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها حتّى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلِّصها، أو أراهم يوم القيامة ما أنساهم أنفسَهم. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسُوا الله تعالى فاستحقُّوا الخلودَ في النار ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين اتّقوا الله فاستحقُّوا الخلودَ في الجنَّة. ولعلّ تقديمَ ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذِّكر للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ القصور الذي يُنبئ عنه عدمُ الاستواء مِن جهتهم لا مِن جهة مقابليهم، فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتَين زيادةً ونقصانًا وإن جاز اعتبارُه بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتبارُه بحسب نُقصانِ الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، إلى غير ذلك مِن المواقع. وأمّا قوله
[١٨٥و] تعالى: / ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، فلعلّ تقديمَ الفاضل فيه لأنّ صلته مَلَكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها.

ولا دلالةَ في الآية الكريمة على أنّ المسلم لا يُقتصّ بالكافر وأنّ الكفّار لا يملكون أموالَ المسلمين بالقهر؛[١] لأنّ المراد عدم الاستواء في الأحوال الأخرويّة، كما يُنبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبيّة النار وصاحبيّةِ الجنّة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فإنّه استئناف مبيِّن لكيفيّة عدم الاستواءِ بين الفريقين، أي: هم الفائزون بكلّ مطلوب، الناجُون عن كلّ مكروه.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطوي على فنون القوارع ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٣/٤.

مِن الجبال ﴿لَرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه عَلَمًا في القسوة وعدمِ التأثّر ممّا يُصادمه ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقِّقًا منها. وقُرئ: "مُصَّدِّعًا"[١] بالإدغام. وهذا تمثيل وتخييل لعُلوّ شأن القرآن وقوّةِ تأثير ما فيه مِن المواعظ، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أريدَ به توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه وعدمِ تخشّعه عند تلاوته وقلّةِ تدبّره فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الحسّ مِن الجواهر القدسيّة وأحوالها وما حضَر له مِن الأجرام وأعراضِها، وتقديمُ الغيب على الشهادة لتقدّمه في الوجود وتعلّق العِلمِ القديم به، أو المعدومِ[٢] والموجودِ، أو السرّ والعلانيةِ.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُرّر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغ في النزاهة عمّا يُوجِب نقصانًا ما. وقُرئ بالفتح،[٣] وهي لغة فيه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة مِن كلّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِف به للمبالغة. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمن. وقُرئ بالفتح[٤] بمعنى المؤمَن به على حذف الجارّ. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلّ شيء "مُفَيْعِل" مِن الأمن بقلب همزته هاءً. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَر خلقَه على ما أراد، أو جَبَر أحوالهم، أي: أصلحها. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبّر عن كلّ ما يُوجِب حاجةً أو نقصانًا،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠.

٢ السياق: ما غاب... أو المعدوم...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدِّينار والأعرابي وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة وأبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٥.

أو البليغُ الكبرياء والعظمة. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عمّا
[١٨٥ظ] يشركونه به تعالى، أو عن إشراكهم به تعالى / إثرَ تعداد صفاته التي لا يمكن أن يُشاركه تعالى في شيء منها شيءٌ ما أصلًا.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدِّر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ المُوجِد لها بريئًا مِن التفاوت. وقيل: المميِّز بعضها مِن بعض بالأشكال المختلفة.[١] ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفيّاتها كما أراد. ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ينطق بتنزّهه عن جميع النقائص تنزّهًا ظاهرًا. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كافّةً فإنّها مع تكثّرها وتشعّبها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعِلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر».[٢]

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨٨/٨.

٢ بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٢٦ (الحشر، ١/٥٩)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٩/٤ (الحشر، ١/٥٩)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٩

سُورَةُ الحَشْرِ

مدنية، أربع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: نَزَّهَه ـ فاللام مزيدة، وفي الإتيان بـ «ما» تغليبٌ للأكثر ـ ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في مُلكه وصُنعه. ٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أخرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ﴾ هم بنو النَّضير من اليهود ﴿مِن دِيارِهِم﴾: مساكنهم بالمدينة، ﴿لِأَوَّلِ الحَشرِ﴾ هو حشرهم إلى الشام. وآخرُه أن جلاهم عُمر في خلافته إلى خَيبر، ﴿ما ظَنَنتُم﴾ ـ أيها المُؤمنون ـ..............

سُورَةُ الحَشْرِ

قولُهُ: (فِي مُلْكِهِ) رويَ أنَّه ﷺ لمَّا قدمَ المدينةَ صالحَ بني النَّضيرِ على أن لا يَكونوا له ولا عليه، فلمَّا غلبَ النبيُّ ﷺ قالوا: إنَّه النبيُّ المنعوتُ في التَّوراةِ بالنُّصرةِ، فلمَّا هُزِمَ المسلمونَ يومَ أحدٍ ارتابوا ونكثُوا، وخرجَ كعبُ بنُ الأشرفِ في أربعينَ راكباً إلى مكَّةَ وحالَفوا أبا سفيانَ، فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ محمَّدَ بنَ مسلمةَ أخا كعبٍ من الرَّضاعةِ، فقتلَهُ خديعة ثمَّ صبَّحَهُم بالعسكرِ وحاصرَهُم حتَّى صالَحُوهُ على الجلاءِ، فجلا أكثرُهُم إلى الشَّامِ، ولحقَتْ طائفَةٌ بخيبرَ والحيرةِ، فأنزلَ اللهُ: ﴿سَبَّحَ للهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُهُ: (إِلَى حنين[١]) موضعٌ بينَ مكَّةَ والطَّائفِ، وحُنيناءُ بالشَّامِ، كذا في «القاموسِ»[٢]، والثَّاني هو المناسبُ الموافقُ للمَنقولِ.

قولُهُ: (أَيُّهَا المُؤمِنُونَ) لشدَّةِ بأسِهِم ومنعَتِهِم.

---

(١) كذا في الأصول، وفي (الجلالين): «إلى خيبر».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٩٢).

﴿أن يَخرُجوا، وظَنُّوا أَنَّهم مانِعتُهم﴾: خبرُ «أنّ» ﴿حُصُونُهُم﴾: فاعلُه تمَّ به الخبر ﴿مِنَ اللهِ﴾: من عذابه، ﴿فأتاهُمُ اللهُ﴾: أمرُه وعذابه ﴿مِن حَيثُ لَم يَحتَسِبُوا﴾: لم يَخطر ببالهم من جِهة المُؤمنين، ﴿وقَذَفَ﴾: ألقى ﴿في قُلُوبِهِمِ الرُّعْبَ﴾، بسكون العين وضمّها: الخوفَ بقتل سيّدهم كعب بن الأشرف، ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ - بالتشديد، والتخفيف من: أخرَبَ - ﴿بُيُوتَهُم﴾ لينقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره ﴿بِأيدِيهِم وأيدِي المُؤمِنِينَ. فاعتَبِرُوا، يا أُولِي الأبصارِ﴾.

٣ - ٤ - ﴿ولَولا أن كَتَبَ اللهُ﴾: قضى ﴿علَيهِمِ الجَلاءَ﴾ بالخُروج من الوطن ﴿لَعَذَّبَهُم في الدُّنيا﴾ بالقتل والسبي كما فعل بقُريظة من اليهود. ﴿ولَهُم في الآخِرةِ عَذابُ النّارِ. ذلِكَ بِأَنَّهُم شاقُّوا﴾: خالفوا ﴿اللهَ ورَسُولَهُ، ومَن يُشاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾ له.

٥ - ﴿ما قَطَعتُم﴾ ....

قولُهُ: (خَبَرَ: ﴿أَنَّ﴾) وقيل: هو خبرٌ مقدَّمٌ.

قولُهُ: (وعَذَابُهُ) وهو الرُّعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ.

قولُهُ: (لَمْ يَخطُرْ ببَالِهِم) لقوَّةِ وثوقِهِم.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) لشاميٍّ والكسائيِّ[1].

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) بصريٌّ[2].

قولُهُ: (لِيَنْقُلُوا) وبُخلاً بها على المسلمينَ، وقولُهُ تعالى: (﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾) فإنَّهُم أيضاً كانوا يخرِّبونَ ظواهِرَها نِكايةً وتوسيعاً لمجالِ القتالِ، وعطَفَها على: ﴿أَيْدِيهِم﴾ من حيثُ إنَّ تخريبَ المؤمنينَ مسبَّبٌ عن بُغضِهِم، فكأنَّهُم استعملوهُم فيه.

قولُهُ: (كمَا فَعَلَ بِقُرِيظَةَ) قالَ ابن[3] إسحاقَ: كانَ إجلاءُ بني النَّضيرِ بعدَ مرجعِ النَّبيِّ ﷺ مِن أُحدٍ، وفتحُ قريظةَ عندَ مرجعِهِ من الأحزابِ، وبينَهُما سنتانِ[4].

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَهُمْ في الآخِرَةِ﴾) استئنافٌ معناهُ: أنَّهُم إن نجَوا من عذابِ الدُّنيا لم ينجوا من عذابِ الآخرةِ، ويمكنُ أن يكونَ معناهُ: ولهم معَ ذلك.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) في الأصول: «أبو»، والصواب ما أثبته.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٦/ ١٨٥)، و«التفسير البسيط» (٢١/ ٣٦٣).

يا مسلمين ـ ﴿مِن لِينةٍ﴾: نخلة ﴿أو تَركتُمُوها قائمةً علَى أُصُولِها فبِإذنِ اللهِ﴾ أي: خيَّركم في ذلك، ﴿ولِيُخزِيَ﴾ بالإذن في القطع ﴿الفاسِقِينَ﴾: اليهود في اعتراضهم بأنّ قطع الشجر المُثمر فسادٌ، ٦ ـ ﴿وما أفاءَ﴾: ردّه ﴿اللهُ علَى رَسُولِهِ مِنهُم فما أوجَفتُم﴾: أسرعتم ـ يا مسلمين ـ ﴿علَيهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿خَيلٍ ولا رِكابٍ﴾: إبلٍ، أي: لم تُقاسوا فيه مشقّة، ﴿ولكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ علَى مَن يَشاءُ. واللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾. فلا حقّ لكم فيه، ويختصّ به النبيُّ ﷺ ومَن ذُكر معه في الآية الثانية من الأصناف الأربعة، على ما كان يقسمه من أنّ لكُلّ منهم خُمسَ الخُمسِ، وله ﷺ الباقي يفعل فيه ما يشاء. فأعطى منه المهاجرين وثلاثةً من الأنصار لفقرهم.

٧ ـ ﴿ما أفاءَ اللهُ علَى رَسُولِهِ مِن أهلِ القُرَى﴾ كالصفراء ووادي القُرى.........................

قولُهُ: (يَا مُسلِمُونَ[1]) أي: أيُّ شيءٍ قطعتُم وضميرُ (﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾) لـ﴿ما﴾ وتأنيثُه؛ لأنَّهُ مفسَّرٌ باللِّينةِ.

قولُهُ: (خَيَّرَكُم) بأمرِهِ لرسولِهِ، أو بإرادتِهِ.

قولُهُ: (بالإِذنِ) علّةٌ لمحذوفٍ؛ أي: وفعلتُم، أو أذنَ لكم في القطعِ ليخزيَهُم على فسقِهِم بما غاظَهُم منه.

قولُهُ: (فَسَادٌ) رويَ: أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أمرَهُم بقطعِ نخيلِهِم، قالوا: يا محمَّدُ؛ قد كنْتَ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ، فما بالُ قطعِ النَّخلِ وتحريقِها؟ فنزلَتْ[2]، واستدلَّ بها على جوازِ هدمِ ديارِ الكفَّارِ وقطعِ أشجارِهِم زيادةً لغيظِهِم.

قولُهُ تعالى: (﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾) أي: جعلَهُ فيئاً له خاصَّةً، أو أعادَهُ عليه؛ بمعنى: صيَّرَهُ له، أو ردَّهُ عليهِ؛ فإنَّهُ كانَ حقيقاً بأن يكونَ له؛ لأنَّه تعالى خلقَ النَّاسَ لعبادتِهِ، وخلقَ ما خلقَ لهم ليتوَسَّلوا به إلى طاعتِهِ، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعينَ، وهو رئيسُهُم، وقولُهُ: (﴿منهُم﴾) مِن بني النَّضيرِ، أو من الكفرةِ.

قولُهُ: (أَسْرَعْتُم) على تحصيلِهِ.

قولُهُ: (إِبلٍ) أي: ما يركَبُ من الإبلِ، غلبَ فيه كما غلبَ الرَّاكبُ على راكبِهِ، وذلك لأنَّ قرى بني النَّضيرِ كانَتْ قريبةً مِن المدينةِ، فمشوا إليها رجالاً غيرَ النَّبيِّ ﷺ فإنَّهُ ركبَ جملاً أو حماراً، ولم يجرِ مزيدُ قتالٍ.

قولُهُ: (لِفَقرِهِم) أي: الثَّلاثةِ.

قولُهُ: (كالصَّفرَاءِ) في «المداركِ»[3]: وإنَّما لم يُدخِلِ العاطفَ على هذه الجملةِ؛ لأنَّها بيانٌ للأولى، فهي

---

(١) في بعض الأصول: «يا مسلمين».

(٢) رواه أبو داود في «المراسيل» (٣٤٦) عن المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبي بكر مرسلًا.
ورواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٧١) عن يزيد بن رومان مرسلاً.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٥٧).

ويَنبُعَ ﴿فـلِلهِ﴾ يأمر فيه بما يشاء، ﴿وللرَّسُولِ ولِذِي﴾: صاحبِ ﴿القُربَى﴾: قرابةِ النبيّ من بني هاشم وبني المُطّلب، ﴿واليَتامَى﴾: أطفالِ المُسلمين الذين هلَكت آباؤهم وهم فُقراء، ﴿والمَساكِينِ﴾: ذوي الحاجة من المسلمين، ﴿وابنِ السَّبِيلِ﴾: المُنقطع في سفره من المُسلمين، أي: يستحقّه النبيّ والأصنافُ الأربعة على ما كان يقسمه، من أنّ لكُلّ من الأربعة خُمسَ الخُمس وله الباقي، ﴿كَيلا﴾ ـ كي: بمعنى اللام، «وأن» مُقدّرة بعدها ـ ﴿يَكُونَ﴾: عِلّةٌ لقَسْمه كذلك ﴿دُولةً﴾: مُتداوَلاً ﴿بَينَ الأغنِياءِ مِنكُم، وما آتاكُمُ﴾: أعطاكم ﴿الرَّسُولُ﴾ من الفيء وغيره ﴿فخُذُوهُ، وما نَهاكُم عَنهُ فانتَهُوا. واتَّقُوا اللهَ. إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

منها غيرُ أجنبيَّةٍ عنها، بيَّنَ لرسولِ اللهِ ﷺ ما يصنعُ بما أفاءَ اللهُ عليه، وأمرَهُ أن يضعَهُ حيثُ يضعُ الخمسَ مِن الغنائمِ مقسوماً على الأقسامِ الخمسةِ، وزيَّفَ هذا القولَ بعضُ المفسِّرينَ وقالَ: الآيَةُ الأولى نزلَتْ في أموالِ بني النَّضيرِ، وقد جَعلَها اللهُ لرسولِهِ خاصَّةً، وهذه في غنائمِ كلِّ قريةٍ تُؤخَذُ بقوَّةِ الغزاةِ، وفي الآيةِ بيانُ مصرفِها، فهي مبتدأةٌ، لا معطوفةٌ ولا بيانيَّةٌ، وتقدَّمَ في «الأنفالِ»[1] أنَّ سهمَهُ ﷺ الآنَ ساقطٌ، وكذا سهمُ ذوي القربى، وإنَّما يعطَونَ لفقرِهِم.

وقالَ القاضي[2]: واختُلِفَ في قسمِ الفيءِ فقيل: يُسدَّسُ لظاهرِ الآيةِ، ويُصرَفُ سهمُ اللهِ في عمارةِ الكعبةِ والمساجدِ، وقيل: يُخمَّسُ لأنَّ ذكرَ اللهِ للتَّعظيمِ، ويُصرَفُ الآنَ سهمُ الرَّسولِ إلى الإمامِ على قولٍ، وإلى العساكرِ والثُّغورِ على قولٍ، وإلى مصالحِ المسلمينَ على قولٍ.

وقالَ البغويُّ[3]: للشَّافعيِّ قولانِ: أحدُهُما هو للمقاتلةِ، والثَّاني لمصالحِ المسلمينَ، وذهبَ الأكثرونَ إلى أنَّه لا يُخَمَّسُ بل مصرِفُ جميعِهِ واحدٌ ولجميعِ المسلمينَ فيهِ حقٌّ، قرأَ عمرُ بنُ الخطَّابِ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى﴾ حتَّى بلغَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِهم﴾ ثمَّ قالَ: هذهِ استوعَبَتِ المسلمينَ عامَّةً، وقالَ: ما على وجهِ الأرضِ مسلمٌ إلَّا له في هذا الفيءِ حقٌّ إلَّا ما ملكَت أيمانُكُم، انتهى.

قلتُ: وإلَّا الرَّافضةُ فإنَّهم جاؤوا بعدَهُم، وما استغفَروا لهم بل سبُّوهُم.

قولُهُ: (ويَنْبُعَ) وقيل: قريظةُ والنَّضيرُ وخيبرُ.

قولُهُ: (مُتَدَاولاً) أي: كي لا يكونَ الفيءُ الَّذي حقُّهُ أن يكونَ للفقراءِ ﴿دُولَةً﴾ يتداولُهُ الأغنياءُ ويدورُ بينهُم كما كانَ في الجاهليَّةِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من الأمرِ.

---

(١) في الآية رقم: (٤١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩٩).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٥٦).

٨ ـ ﴿لِلفُقَراءِ﴾: مُتعلّقٌ بمحذوف ـ أي: اعجَبوا ـ ﴿المُهاجِرينَ الَّذينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم وأموالِهِم، يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ ورِضوانًا، ويَنصُرُونَ اللهَ ورَسُولَهُ! أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، ٩ ـ ١٠ ـ ﴿والَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدّارَ﴾ أي: المدينةَ ﴿والإيمانَ﴾ أي: أَلِفوه ـ وهم الأنصار ـ ﴿مِن قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ إلَيهِم، ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حاجةً﴾: حسدًا ﴿مِمّا أُوتُوا﴾ أي: آتى النبيُّ ﷺ المُهاجرين من أموالِ بني النَّضير المختصّةِ به، ﴿ويُؤثِرُونَ علَى أنفُسِهِم، ولَو كانَ بِهِم خَصاصةٌ﴾: حاجة إلى ما يُؤثَرون به ـ ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ﴾: حِرصَها على المال.........

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ) الصَّحيحُ الَّذي عليه المفسِّرونَ كالبغويِّ[١] والقاضي[٢] وصاحبِ «المداركِ»[٣] أنَّه بدلٌ مِن: ﴿لِذِي القُرْبَى﴾، و﴿ما﴾: عطفٌ عليهِ؛ فإنَّ الرَّسولَ لا يُسَمَّى فقيراً.

قولُهُ: (أي: المَدِينَةَ) في «القاموسِ»[٤]: الدَّارُ: المحلُّ والبلدُ، ومدينةُ النَّبيِّ ﷺ، وهو عطفٌ على: ﴿المهاجرينَ﴾.

قولُهُ: (أي: أَلِفُوهُ) أي: نزَلوا المدينةَ، وألِفوا الإيمانَ، أو قبِلوهُ، أو أخلصوهُ، فيكونُ من بابِ:

علفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً

وقيل: المعنى تبوَّؤا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ، فحذفَ المضافَ من الثَّاني والمضافَ إليهِ من الأوَّلِ، وعوَّضَ عنه اللَّامَ، وقيل: المعنى: لزِمُوا المدينةَ والإيمانَ وتمَكَّنوا فيهما، وهو الأحسنُ، وقولُهُ تعالى: (﴿مِنْ قَبْلِهِم﴾) أي: قبلَ هجرةِ المهاجرينَ.

قولُهُ: (حَسَداً) أي: ما يحملُ عليه الحاجةُ كالطَّلبِ وضِيْقِ النَّفسِ والحسدِ والغَيظِ.

قولُهُ: (أي: آتَى) يعني: من أجلِ ما أُعطيَ المهاجرونَ من الفيءِ وغيرِهِ.

قولُهُ: (حَاجَةٌ) أي: يقدمونَ المهاجرينَ خصُوصاً على أنفسِهِم، حتَّى إنَّ من كانَ عندَهُ امرأتانِ نزلَ عن واحدةٍ ـ هي أحسنُ ـ وزوَّجَها مِن أحدِهِم، وكذا من كانَ عندَهُ دارانِ أو بُستانانِ.

قولُهُ: (حِرْصَهَا) حتَّى يخالفَهَا فيما يغلبُ عليها مِن حبِّ المالِ وبُغضِ الإنفاقِ.

---

(١) ولم يصرح البغوي بأنه بدل. انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٥٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٥٨).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٩٣).

﴿فأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ ـ والَّذِينَ جاؤُوا مِن بَعدِهِم﴾: من بعد المُهاجرين والأنصارِ إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ: رَبَّنا، اغفِرْ لَنا ولِإخوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ، ولا تَجعَلْ في قُلُوبِنا غِلًّا﴾: حقدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنا، إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

١١ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إلَى الَّذِينَ نافَقُوا؟ يَقُولُونَ لِإخوانِهِمِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ﴾، وهم بنو النَّضير وإخوانهم في الكُفر: ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسَمٍ في الأربعة ـ ﴿أُخرِجتُم﴾ من المدينة ﴿لَنَخرُجَنَّ مَعَكُم، ولا نُطِيعُ فِيكُم﴾: في خِذلانكم ﴿أحَدًا أبَدًا، وإن قُوتِلتُم﴾ ـ حُذفت منه اللام المُوطِّئة ـ ﴿لَنَنصُرَنَّكُم. واللهُ يَشهَدُ إنَّهُم لَكاذِبُونَ﴾. ١٢ ـ ﴿لَئِنْ أُخرِجُوا لا يَخرُجُونَ مَعَهُم، ولَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُم، ولَئِنْ نَصَرُوهُم﴾ أي: جاؤوا لنصرهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ﴾ ـ واستُغنِيَ بجواب القسمِ المُقدّرِ عن جواب الشرط في المواضع الخمسة ـ ﴿ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ أي: اليهودُ. ١٣ ـ ﴿لَأنتُم أشَدُّ رَهبَةً﴾: خوفًا ﴿في صُدُورِهِم﴾ أي: المُنافقين ﴿مِنَ اللهِ﴾ لتأخير عذابه. ﴿ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يَفقَهُونَ﴾.

قولُهُ: (فِي الكُفرِ) أو الصَّداقةِ أو الموالاةِ.

قولُهُ: (لامُ قَسَمٍ) الصَّحيحُ: أنَّها موطِّئةٌ للقسمِ، كما تقدَّمَ(١).

قولُهُ: (مِنَ المَدِينَةِ) أو مِن ديارِكُم.

قولُهُ: (في خِذلانِكُم) أو قتالِكُم.

قولُهُ: (حُذِفَتْ) الظَّاهرُ: أنَّه معطوفٌ على الشَّرطِ السَّابقِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لَا يَنْصُرُونَهُم﴾) وكانَ كذلك، فإنَّ ابنَ أُبيٍّ وأصحابَهُ راسَلوا بني النَّضيرِ بذلكَ، ثمَّ أخلفوهُم، وفيهِ دليلٌ على صحَّةِ النُّبوَّةِ وإعجازِ القرآنِ.

قولُهُ: (جَاؤُوا لِنَصرِهِم) على الفرضِ والتَّقديرِ.

قولُهُ: (أي: اليَهُودُ) أو المنافقونَ.

قولُهُ: (خَوفاً) مصدرٌ من المبنيِّ للمفعولِ؛ أي: مرهوبيَّةً.

قولُهُ: (أي: المُنَافِقِينَ) لأنَّهُم كانوا يُضْمِرونَ مخافتَهُم من المؤمنينَ.

قولُهُ: (لِتَأخِيرِ عَذَابِهِ) أو على ما يظهِرونَهُ نفاقاً؛ فإنَّ استبطانَ رهبتِكُم سببٌ لإظهارِ رهبةِ اللهِ.

---

(١) انظر الآية رقم: (٨١) من سورة آل عمران.

١٤ ـ ﴿لا يُقاتِلُونكُم﴾ أي: اليهودُ ﴿جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ ﴿إلاَّ في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو مِن وَراءِ جِدارٍ﴾: سُور. وفي قِراءة: «جُدُرٍ». ﴿بأسُهم﴾: حربهم ﴿بَينَهُم شَدِيدٌ. تَحسَبُهُم جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ، ﴿وقُلُوبُهُم شَتَّى﴾: مُتفرّقةٌ خِلاف الحِسبان. ﴿ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يَعقِلُونَ﴾. مَثلُهم في ترك الإيمان ١٥ ـ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم قَرِيبًا﴾: بزمن قريب، وهم أهل بدر من المُشركين. ﴿ذاقُوا وَبالَ أمرِهِم﴾: عُقوبتَه في الدنيا من القتل وغيره، ﴿ولَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم في الآخرة. مَثَلُهم أيضًا، في سماعهم من المُنافقين وتخلّفهم عنهم، ١٦ ـ ﴿كَمَثَلِ الشَّيطانِ، إذ قالَ لِلإنسانِ: اكفُرْ. فلَمّا كَفَرَ قالَ: إنّي بَرِيءٌ مِنكَ، إنّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ﴾. كذبٌ منه ورياء. ١٧ ـ ﴿فكانَ عاقِبَتَهُما﴾ أي: الغاوي والمُغوِي ـ وقُرِئ بالرفع ـ ﴿أنَّهُما في النّارِ خالِدَينِ فِيها. وذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللهَ، ولْتَنظُرْ نَفسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: ليوم القِيامة،.......

قولُهُ: (أي: اليَهُودُ) أو المنافقونَ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وكوفيٍّ[1].

قولُهُ: (مُتَفَرِّقَةٌ) لافتراقِ عقائدِهِم واختلافِ مقاصدِهِم.

قولُهُ: (مثلُهُم) أي: مثلُ اليهودِ.

قولُهُ: (بِزَمَنٍ) أي: في زمانٍ، وانتصابُهُ بـ﴿مثل﴾؛ إذ التَّقديرُ: كوجودِ مثلِ.

قولُهُ: (عُقُوبَتَهُ) أي: سوءَ عاقبةِ كفرِهِم.

قولُهُ: (مُؤلِمٌ) في العُقبى.

قولُهُ: (مثلُهُم أيضاً) أو مثلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهودِ على القتالِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لِلْإِنسَانِ﴾) قيل: هو برصيصا العابدُ[2]، حملَ على الفجورِ والارتدادِ، وقيل: أبو جهلٍ، قالَ له إبليسُ يومَ بدرٍ: لا غالبَ لكُم اليومَ، والظَّاهرُ أنَّ المرادَ: الجنسُ.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) على أنَّهما الخبرُ لـ﴿كانَ﴾، و﴿خَالِدَيْنِ﴾ حالٌ، وقُرِئَ: (خَالِدَانِ)[3] على أنَّه الخبرُ لـ﴿أنَّ﴾، و﴿في النَّارِ﴾ لغوٌ.

قولُهُ: (لِيَومِ القِيَامَةِ) سمَّاهُ به لدنوِّهِ، أو لأنَّ الدُّنيا كيومٍ والآخرةَ غَدُهُ، وكرَّرَ: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ للمأموراتِ، والثَّاني للمنهيَّاتِ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود والأعمش وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٧٠).

﴿واتَّقُوا اللهَ ـ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعمَلُونَ ـ ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللهَ﴾: تركوا طاعته، ﴿فأنساهُم أنفُسَهُم﴾، أن يُقدّموا لها خيرًا. ﴿أُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ. لا يَستَوِي أصحابُ النّارِ وأصحابُ الجَنّةِ. أصحابُ الجَنّةِ هُمُ الفائزُونَ﴾.

٢١ ـ ﴿لَو أنزَلْنا هذا القُرآنَ علَى جَبَلٍ﴾، وجُعل فيه تمييز كالإنسان، ﴿لَرَأيتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾: مُتشققًا ﴿مِن خَشيةِ اللهِ. وتِلكَ الأمثالُ﴾ المذكورة ﴿نَضرِبُها لِلنّاسِ، لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيُؤمنون. ٢٢ ـ ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: السرِّ والعلانية. ﴿هُوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٣ ـ ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ، المَلِكُ القُدُّوسُ﴾: الطاهر عمّا لا يليق به، ﴿السَّلامُ﴾: ذُو السلامة من النقائص، ﴿المُؤمِنُ﴾: المُصدِّق رسلَه بخلق المعجزة لهم، ﴿المُهَيمِنُ﴾ ـ مِن: هَيمَنَ يُهَيمِنُ، إذا كان رقيبًا على الشيء ـ أي: الشهيدُ على عِباده بأعمالهم، ﴿العَزِيزُ﴾: القويّ، ﴿الجَبّارُ﴾ جَبرَ خلقَه على ما أراد، ﴿المُتكَبِّرُ﴾ عمّا لا يليق به. ﴿سُبحانَ اللهِ﴾ نَزَّهَ نفسَه ﴿عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به! ٢٤ ـ ﴿هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِئُ﴾: المُنشئ من العدم، ﴿المُصَوِّرُ، لَهُ الأسماءُ الحُسنَى﴾ التسعةُ والتسعون الواردُ بها الحديثُ ـ والحسنى: مُؤنّث الأحسن ـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرضِ، وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ تقدّمَ أوّلَها.

قولُهُ: (أنْ يُقَدِّمُوا) أو أراهُم يومَ القيامةِ من الهولِ ما أنساهُم أنفسَهُم.

قولُهُ: (فَيُؤمِنُونَ) أو فيعمَلونَ به، والمرادُ: توبيخُ الإنسانِ على عدمِ تخشُّعِهِ عند تلاوةِ القرآنِ وسماعِهِ؛ لقساوةِ قلبِهِ، وقلّةِ تدبُّرِهِ.

قولُهُ: (السِّرِّ والعَلانِيَةِ) أو المعدومِ والموجودِ.

قولُهُ: (ذُو السَّلامَةِ) أو مصدرٌ وُصفَ به للمُبالغةِ.

قولُهُ: (المُصَدِّقُ) أو واهبُ الأمنِ.

قولُهُ: (جَبَرَ خَلقَهُ) أو جبرَ حالَهُم؛ بمعنى: أصلحَهُ.

قولُهُ: (عَمّا لا يَلِيقُ) أو عن كلِّ ما يوجِبُ حاجةً.

قولُهُ: (نَزَّهَ) يحتملُ الماضي والأمرَ.

قولُهُ: (بِهِ) إذ لا يشاركُهُ أحدٌ في شيءٍ من ذلكَ.

قولُهُ: (المُنشِئُ) أوِ (﴿الخالِقُ﴾) المقدِّرُ للأشياءِ على مُقتَضى حكمتِهِ (﴿البارِئُ﴾) الموجدُ لها بريئًا من التَّفاوتِ، (﴿المصوِّرُ﴾) الموجدُ لصورِها وكيفيّاتِها كما أرادَ.

قولُهُ: (تَقَدَّمَ أَوَّلَها) أي: في أوّلِ السُّورةِ، وحاصلُهُ هنا: أنّه يسبِّحُ لتنزُّهِهِ عنِ النَّقائصِ كُلِّها، وهو الجامعُ للكمالاتِ بأسرِها؛ فإنّها راجعةٌ إلى الكمالِ في القدرةِ والعلمِ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

سُورَةُ الحَشْرِ

قال البقاعيُّ: وتسمَّى سورة: بني النضير[1]. وأخرج البخاريُّ[2] وغيره عن ابن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر. قال: قلْ: سورة بني النضير. قال ابن حجر: كأنه كَرِهَ تسميتها بالحشر؛ لئلّا يظنَّ أنَّ المراد به يوم القيامة[3]. وإنما المراد هاهنا إخراج بني النضير.

وهي مدنيَّةٌ، وآيُها أربعٌ وعشرون بلا خلاف.

ومناسبتها لما قبلها أنَّ في آخر تلك: (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ) وفي أول هذه: (فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ) وفي آخر تلك ذِكْرُ مَنْ حادَّ الله ورسوله، وفي أول هذه ذِكْرُ مَنْ شاقَّ الله ورسوله، وأنَّ في الأولى ذِكْرُ حال المنافقين واليهود وتَوَلِّي بعضهم بعضاً، وفي هذه ذِكْرُ ما حَلَّ باليهود، وعدمُ إغناء تَوَلِّي المنافقين إياهم شيئاً، فقد روي أنَّ بني النضير كانوا قد صالحوا رسولَ الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظَهَرَ يومَ بدر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِتَ في التوراة، لا تُرَدُّ له راية. فلما هُزِمَ المسلمونَ يومَ أُحدٍ، ارتابوا ونكثوا، فخرج كعبُ بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأخبر جبريلُ عليه السلام الرسولَ ﷺ بذلك، فأَمر بقتل كعبٍ، فقتله محمدُ بن مسلمة غِيلةً وهو عروسٌ، بعد أن أخذ بفَوْد[4] رأسه أخوه رضاعاً أبو نائلةَ سِلْكان بن سلامة أحدُ بني عبد الأشهل، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطَّلع منهم

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور ١٩/ ٤٠٢.

(٢) برقم (٤٨٨٣).

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٣٢.

(٤) الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. القاموس المحيط (فود).

على خيانةٍ حين أتاهم يستعينهم في ديةِ المسْلِمَين من بني عامر[1] اللَّذَين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري عند منصرفه من بئر معونة، فهمُّوا بطَرْح الحجر عليه ﷺ، فعَصَمُه الله تعالى.

وبعد أن قُتِلَ كعبٌ بأشهرٍ على الصحيح لا على الأثر كما قيل، أَمَرَ ﷺ بالتهيُّؤ لحربهم والسير إليهم، وكان ذلك سنةَ أربعٍ في شهر ربيعِ الأول، وكانوا بقريةٍ يقال لها: الزهرة، فسار المسلمون معه عليه الصلاة والسلام وهو على حمارٍ مخطومٍ بليف، وقيل: على جملٍ، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، حتى إذا نزل ﷺ بهم وجدهم ينوحون على كعبٍ، وقالوا: ذَرْنا نبكي شجوناً، ثم ائتمرْ أمرك، فقال: «اخرجوا من المدينة» فقالوا: الموتُ أقربُ لنا من ذلك، فتنادَوا بالحرب، وقيل: استمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرةَ أيامٍ ليتجهَّزوا للخروج، ودَسَّ المنافقونَ عبدُ الله بن أبيٍّ وأضرابه إليهم أن لا يخرجوا من الحِصْن، فإن قاتلوكم فنحن معكم، ولننصرنَّكم، وإن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم، فَدُرِّبوا على الأَزقَّة وحصَّنوها، ثم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فقالوا: اخرجْ في ثلاثينَ من أصحابك، ويخرجُ منَّا ثلاثون ليسمعوا منك، فإن صدَّقوك آمنَّا كلّنا، ففعل، فقالوا: كيف نفهمُ ونحن ستُّون، اخرجْ في ثلاثةٍ، ويخرجُ إليك ثلاثةٌ من علمائنا، ففعل عليه الصلاة والسلام، فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك، فأرسلتِ امرأةٌ منهم ناصحةً إلى أخيها وكان مسلماً، فأخبرته بما أرادوا فأسرعَ إلى الرسول ﷺ فسارَّه بخبرهم قبل أن يصلَ إليهم، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم ـ على ما قال ابن هشام في «سيرته»[2] ـ ستَّ ليالٍ، وقيل: إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعبَ وأَيسوا من نَصْر المنافقين، فطلبوا الصُّلحَ، فأبى عليه الصلاة والسلام عليهم إلا الجلاء، على أن يحملَ كلُّ ثلاثةِ أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من المتاع، فَجَلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات، إلا أهل بيتين منهم: آل سلام بن أبي الحقيق وآل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وآل حُيَي بن أخطب، فلحقوا

(١) في هامش الأصل: وكان بينهم وبين بني النضير عقد.
(٢) ٢/ ١٩١.

بخيبر، ولحقتْ طائفةٌ بالحيرة، وقَبضَ النبيُّ ﷺ أموالهم وسلاحهم، فوجد خمسين دِرْعاً وخمسين بيضةً وثلاثَ مئةٍ وأربعين سيفاً، وكان ابن أبيٍّ قد قال لهم: معي ألفان من قومي وغيرهم أُمدُّكم بها، وتمدُّكم قريظةُ وحلفاؤكم من غَطَفان، فلما نازلهم ﷺ اعتزلتهم قريظة، وخَذَلهم ابن أبيٍّ وحلفاؤهم من غطفان، فأنزل الله تعالى قوله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥﴾[(١)] وتقدَّم الكلامُ على نظير هذه الجملة في صَدْر سورة الحديد، وكُرِّرَ الموصولُ هاهنا لزيادة التقرير، والتنبيهِ على استقلال كلٍّ من الفريقين بالتسبيح.

وقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بيانٌ لبعض آثار عِزَّته تعالى، وأحكام حكمته عزَّ وجلَّ إثرَ وَصْفه تعالى بالعِزَّة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق.

والمراد بـ «الذين كفروا» بنو النضير ـ بوزن الأمير ـ وهم قبيلةٌ عظيمةٌ من يهود خيبر كبني قُريظة، ويقال للحَيَّين: الكاهنان؛ لأنهما من ولد الكاهن بن هارون كما في «البحر»[(٢)]، ويقال: إنهم نزلوا قريباً من المدينة في فئةٍ من بني إسرائيل انتظاراً لخروج الرسول ﷺ، فكان من أمرهم ما قصَّه الله تعالى.

وقيل: إنَّ موسى عليه السلام كان قد أرسلهم إلى قتل العماليق، وقال لهم: لا تستحيوا منهم أحداً، فذهبوا ولم يفعلوا وعصوا موسى عليه السلام، فلما رجعوا

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٠ وما بعدها، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٢. وقصة قتل كعب بن الأشرف عند البخاري (٤٠٣٧).

(٢) ٨/ ٢٤٢.

إلى الشام وجدوه قد مات عليه السلام، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاةُ الله تعالى، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فانصرفوا إلى الحجاز، إلى أن كان ما كان.

وروي عن الحسن أنهم بنو قريظة. وهو وَهْمٌ كما لا يخفى.

والجارُّ الأول متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: كائنين من أهل الكتاب، والثاني متعلِّقٌ بـ «أخرج». وصحَّتْ إضافةُ الديار إليهم؛ لأنهم كانوا نزلوا بَرِّيةً لا عُمران فيها، فبنوا فيها وسكنوا. وضمير «هو» راجعٌ إليه تعالى بعنوان العِزَّة والحكمة؛ إما بناءً على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدةٍ تامةٍ من المقام، أو على جَعْله مستعاراً لاسم الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: ٤٦] أي: بذلك، فكأنه قيل: ذلك المنعوتُ بالعِزَّةِ والحكمة الذي أخرج.. إلخ، ففيه إشعارٌ بأنَّ في الإخراج حكمة باهرة.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ متعلِّقٌ بـ «أخرج»، واللامُ لامُ التوقيت، كالتي في قولهم: كتبته لعشرٍ خلونَ، ومآلها إلى معنى «في» الظرفية، ولذا قالوا هنا، أي: في أول الحشر، لكنهم لم يقولوا: إنها بمعنى «في» إشارة إلى أنها لم تخرجْ عن أصل معناها، وأنها للاختصاص؛ لأنَّ ما وقع في وقتٍ اختصَّ به دون غيره من الأوقات.

وقيل: إنها للتعليل. وليس بذاك.

ومعنى «أول الحشر» أنَّ هذا أولُ حشرهم إلى الشام، أي: أول ما حُشروا وأُخرجوا، ونبّه بالأولية على أنهم لم يُصبهمْ جلاءٌ قبل، ولم يُجْلِهِمْ بُخْتنصَّر حين أجلى اليهود بناءً على أنهم لم يكونوا معهم إذ ذاك، وأنَّ نقلهم من بلاد الشام إلى أرض العرب كان باختيارهم، أو لم يُصبهم ذلك في الإسلام، أو على أنهم أولُ محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، ولا نظر في ذلك إلى مقابلة الأول بالآخر، وبعضهم يعتبرها، فمعنى أول الحشر أنَّ هذا أولُ حشرهم، وآخرُ حشرهم إجلاءُ عمرَ ﷺ إياهم من خيبرَ إلى الشام، وقيل: آخرُ حشرهم حشرهم يوم القيامة؛ لأنَّ المحشر يكون بالشام.

وعن عكرمة: مَنْ شكَّ أنَّ المحشر هاهنا ـ يعني الشام ـ فليقرأ هذه الآية. وكأنه أخذ ذلك من أنَّ المعنى: لأول حَشْرهم إلى الشام، فيكون لهم آخر حشرٍ إليه أيضاً ليتمَّ التقابل، وهو يوم القيامة من القبور، ولا يخفى أنه ضعيفُ الدلالة.

وفي «البحر» عن عكرمة والزهري أنهما قالا: المعنى: لأول موضع الحشر، وهو الشام، وفي الحديث أنه ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[1]. ولا يخفى ضَعْفُ هذا المعنى أيضاً.

وقيل: آخرُ حَشْرهم أنَّ ناراً تخرجُ قبل الساعة، فتحشرهم كسائر الناس من المشرق إلى المغرب.

وعن الحسن أنه أُريد حَشْرُ القيامة، أي: هذا أوله، والقيامُ من القبور آخره، وهو كما ترى.

وقيل: المعنى: أَخرجهم من ديارهم لأول جَمْعٍ حَشَرَهُ النبيُّ ﷺ، أو حَشَرَهُ الله عزَّ وجلَّ لقتالهم؛ لأنه ﷺ لم يكن قبلُ قَصَدَ قتالهم، وفيه من المناسبة لوصف العِزَّة ما لا يخفى، ولذا قيل: إنه الظاهر.

وتُعقِّبَ بأنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن جمع المسلمين لقتالهم في هذه المرة أيضاً، ولذا رَكِبَ عليه الصلاة والسلام حماراً مخطوماً بليفٍ، لعدم المبالاة بهم. وفيه نظر.

وقيل: لأول جمعهم للمقاتلة مع المسلمين؛ لأنهم لم يجتمعوا لها قبل.

والحشر: إخراجُ جَمْعٍ سواء كان من الناس لحربٍ أو لا، نعم يُشترطُ فيه كونُ المحشور جَمْعاً من ذوي الأرواح لا غير. ومشروعيةُ الإجلاء كانت في ابتداء الإسلام، وأما الآن فقد نُسختْ، ولا يجوز إلا القتل أو السَّبيُ أو ضَرْبُ الجزية.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشِدَّةِ بأسهم ومَنَعَتهم، ووثاقة حصونهم، وكَثْرة عَدَدهم وعُدَّتهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٤٣، والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٢٢١، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية عن ابن عباس ﷺ، وفي إسناده سعيد بن المرزبان وهو ضعيف.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنُّوا أنَّ حصونهم مانعتهم، أو تمنعهم من بأس الله تعالى، فـ «حصونهم» مبتدأٌ، و«مانعتهم» خبرٌ مقدَّمٌ، والجملةُ خبرُ «أنَّ». وكان الظاهرُ لمقابلة «ما ظننتم أن يخرجوا»: وظنُّوا أن لا يخرجوا، والعدول إلى ما في النظم الجليل؛ للإشعار بتفاوت الظَّنَّين، وأنَّ ظَنَّهم قارَبَ اليقين، فناسَبَ أن يُؤتَى بما يدلُّ على فَرْطِ وُثوقهم بما هم فيه، فجيءَ بـ «مانعتهم» و«حصونهم» مقدّماً فيه الخبر على المبتدأ؛ ومدارُ الدلالة التقديمُ، لما فيه من الاختصاص، فكأنه لا حِصْنَ أمنعُ من حصونهم، وبما يدلُّ على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عِزَّةٍ ومنعةٍ لا يُبالَى معهما بأحدٍ يتعرَّضُ لهم، أو يطمعُ في معازَّتهم، فجيءَ بضمير «هم» وصُيِّرَ اسماً لـ «أنَّ» وأُخبر عنه بالجملة لما في ذلك من التقوِّي على ما في «الكشف» و«شرح الطيبيِّ». وفي كون ذلك من باب التقوِّي بحثٌ.

ومنع بعضُهم جوازَ الإعراب السابق بناءً على أنَّ تقديمَ الخبر المشتقِّ على المبتدأ المحتمِل للفاعلية لا يجوز، كتقديم الخبر إذا كان فعلاً، وصُحِّحَ الجوازُ في المشتقِّ دون الفعل، نعم اختار صاحب «الفرائد» أن يكون «حصونهم» فاعلاً لـ «مانعتهم» لاعتماده على المبتدأ.

وجوِّز كونُ «مانعتهم» مبتدأ، خبره: «حصونهم»، وتُعقِّبَ بأنَّ فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة إن كانت إضافةً مانعةً لفظيةً، وعدم كون المعنى على ذلك إن كانت معنويةً بأن قصد استمرار المنع، فتأمل.

وكانت حصونهم ـ على ما قيل ـ أربعةٌ: الكَتيبة، والوَطِيح، والسُّلالم، والنَّطاة، وزاد بعضُهم: الوَخْدة[1]، وبعضُهم: شقّا، والذي في «القاموس»[2] أنه موضعٌ بخيبر، أو وادٍ به.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): الكتيبة بالتاء المثناة والتصغير. والوطيح بفتح الواو وكسر الطاء وبالحاء المهملة. والسلالم بضم السين، وقيل: بفتحها. ويقال فيه: السلاليم. والنطاة من النَّطو: البعد. والوخدة: بفتح الواو وسكون المعجمة وبالدال مهملة اهـ منه.

(٢) مادة (شقق).

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه سبحانه، وقَدَرُه عزَّ وجلَّ المتاحُ لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ ولم يخطرْ ببالهم؛ وهو ـ على ما روي عن السدي وأبي صالح وابن جريج ـ قَتْلُ رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنه مما أضعفَ قوَّتهم وفلَّ شوكتهم، وسَلَبَ قلوبهم الأمنَ والطمأنينةَ.

وقيل: ضمير «أتاهم» و«لم يحتسبوا» للمؤمنين، أي: فأتاهم نَصْرُ الله من حيث لم يحتسبوا، وفيه تفكيكُ الضمائر.

وقرئ: «فآتاهم الله»(١) وهو حينئذٍ متعدٍّ لمفعولين، ثانيهما محذوف، أي: فآتاهم الله العذابَ أو النصرَ.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: الخوفَ الشديدَ، من رَعَبْتُ الحوضَ: إذا ملأتَهُ؛ لأنه يتصوَّرُ فيه أنه مِلْءُ القلب، وأصلُ القذف: الرميُ بقوةٍ أو من بعيد، والمراد به هنا ـ للعُرْف ـ إثباتُ ذلك ورَكْزُه في قلوبهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدُّوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواهَ الأزقَّة، ولئلّا تبقى صالحةً لسُكنى المسلمين بعد جلائهم، ولينقلوا بعضَ آلاتها المرغوب فيها مما يقبلُ النقلَ كالخشب والعُمُد والأبواب.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يُخربونها من خارجٍ ليدخلوها عليهم، وليزيلوا تحصُّنَهم بها، وليتَّسعَ مجالُ القتال، ولتزدادَ نكايتهم، ولَمَّا كان تخريبُ أيدي المؤمنين بسببِ أمرِ أولئك اليهود، كان التخريبُ بأيدي المؤمنين كأنه صادرٌ عنهم، وبهذا الاعتبار عُطفتْ «أيدي المؤمنين» على «أيديهم» وجُعلتْ آلةً لتخريبهم، مع أنَّ الآلةَ هي أيديهم أنفسهم، فـ «يُخربون» على هذا إما من الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو من عموم المجاز، والجملةُ إما في محلِّ نصبٍ على الحالية من ضمير «قلوبهم»، أو لا محلَّ لها من الإعراب، وهي إما مستأنفةٌ جوابٌ عن سؤالٍ تقديره: فما حالُهم بعد الرعب أو معه؟ أو تفسيرٌ للرعب بادِّعاء الاتحاد؛ لأنَّ ما فعلوه يدلُّ على رُعْبهم؛ إذ لولاه ما خربوها.

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٠.

وقرأ قتادةُ والجحدريُّ ومجاهدٌ وأبو حيوة وعيسى وأبو عمرو: «يُخرِّبون» بالتشديد(١)، وهو للتكثير في الفعل أو في المفعول، وجُوِّزَ أن يكون في الفاعل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: خَرَّبَ بمعنى: هَدَمَ وأفسدَ، وأَخْرَبَ: تَرَكَ الموضِعَ خراباً وذهبَ عنه، فالإخرابُ يكون إِثْرَ التخريب، وقيل: هما بمعنًى، عُدِّيَ خرَّبَ اللازم بالتضعيف تارةً، وبالهمزة أخرى.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾ فاتَّعِظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تكادُ تهتدي إليه الأفكار، واتقوا مباشرةَ ما أدَّاهم إليه من الكفر والمعاصي، واعبروا من حالهم في غَدْرهم واعتمادهم على غير الله تعالى ـ الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، ومفارقة أوطانهم مُكرَهين ـ إلى حالِ أنفسكم، فلا تُعوِّلوا على تعاضُدِ الأسباب، وتعتمدوا على غيره عزَّ وجلَّ، بل توكَّلوا عليه سبحانه.

واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: إنه تعالى أَمَرَ فيها بالاعتبار، وهو العُبور والانتقالُ من الشيء إلى غيره، وذلك متحقِّقٌ في القياس، إذ(٢) فيه نقلُ الحكم من الأصل إلى الفرع، ولذا قال ابن عباس في الأسنان: اعتُبرَ حُكْمها بالأصابعِ في أنَّ ديتها متساوية، والأصلُ في الإطلاق الحقيقة، وإذ ثبت الأمر ـ وهو ظاهرٌ في الطَّلب الغير الخارج عن اقتضاء الوجوب أو الندب ـ ثبتتْ مشروعيةُ العمل بالقياس.

واعترض بعد تسليم ظهور الأمر في الطلب بأنَّا لا نسلِّمُ أنَّ الاعتبارَ ما ذكر، بل هو عبارةٌ عن الاتعاظ؛ لأنه المتبادرُ حيث أُطلق، ويقتضيه في الآية ترتيبهُ بالفاء على ما قبله كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]، ولأنَّ القائسَ في الفرع إذا قَدَمَ على المعاصي ولم يتفكَّرْ في أَمْرِ آخرته، يقال: إنه غيرُ مُعتبرٍ، ولو كان القياسُ

---

(١) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤.

(٢) في (م): إذا.

هو الاعتبارَ لم يصحَّ هذا السلب. سلَّمنا، لكنْ ليس في الآية صيغةُ عموم تقتضي العمل بكلِّ قياسٍ، بل هي مطلقةٌ فيكفي في العمل بها العمل بالقياس العقليِّ. سلَّمنا، لكنَّ العامَّ مخصَّصٌ بالاتفاق؛ إذ قلتم: إنه إذا قال لوكيله: أعتقْ غانماً لسواده، لا يجوز تعدِّيه ذلك إلى سالم، وإن كان أسود، وهو بعد التخصيص لا يبقى حُجَّةً فيما عدا محلِّ التخصيص. سلَّمنا، غيرَ أنَّ الخطابَ مع الموجودين وقته، فيختصُّ بهم.

وأجيب بأنه لو كان الاعتبارُ بمعنى الاتعاظ حيث أطلق، لما حَسُنَ قولهم: اعتبر فاتعظ؛ لما يلزمُ فيه حينئذٍ من ترتُّبِ الشيء على نفسه، وترتيبُه في الآية على ما قبله لا يمنعُ كونَه بمعنى الانتقال المذكور؛ لأنه متحقِّقٌ في الاتعاظ؛ إذ المتعظُ بغيره منتقلٌ من العلم بحال ذلك الغير إلى العلم بحال نفسه، فكان مأموراً به من جهة ما فيه من الانتقال، وهو القياس، والآيتان على ذلك، ولا يصحُّ غير معتبر في القائس العاصي نظراً إلى كونه قائساً، وإنما صَحَّ ذلك نظراً إلى أمرِ الآخرة، وأُطلق النفيُ نظراً إلى أنه أعظمُ المقاصد وقد أخلَّ به، والآيةُ إن دلَّتْ على العموم فذاك، وإن دلَّتْ على الإطلاق وَجَبَ الحملُ على القياس الشرعيِّ؛ لأنَّ الغالبَ من الشارع مخاطبتنا بالأمور الشرعية دون غيرها، وقد برهنَ على أنَّ العامَّ بعد التخصيص حُجَّة، وشمولُ حُكْمِ خطاب الموجودين لغيرهم إلى يوم القيامة قد انعقد الإجماعُ عليه، ولا يضرُّ الخلافُ في شمول اللفظ وعدمه، على أنه إن عَمَّ أو لم يَعُمَّ هو حُجَّةٌ على الخصوم في بعض محلِّ النزاع، ويلزمُ من ذلك الحكم في الباقي ضرورةَ أنه لا يقول بالفرق.

هذا وقال الخفاجيُّ في وجه الاستدلال: قالوا: إنَّا أُمرنا في هذه الآية بالاعتبار، وهو رَدُّ الشيء إلى نظيره بأن يُحكَمَ عليه بحكمه، وهذا يشملُ الاتعاظَ والقياسَ العقليَّ والشرعيَّ، وسَوْقُ الآية للاتعاظ، فتدلُّ عليه عبارةً وعلى القياس إشارةً[1]. وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٧٦.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: الإخراجَ ـ أو الخروجَ ـ عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل كأهل بدرٍ وغيرهم، أو كما فعل سبحانه ببني قُريظة في سنة خمسٍ؛ إذ الحكمةُ تقتضيه لو لم يكتب الجلاء عليهم.

وجاء: أجليتُ القومَ عن منازلهم، أي: أخرجتهم عنها وأبرزتهم، وجَلُوا عنها: خَرَجوا وبرزوا، ويقال أيضاً: جلاهم. وفرَّقَ بعضُهم بين الجلاء والإخراج، بأنَّ الجلاءَ ما كان مع الأهل والولد، والإخراجَ قد يكون مع بقاءِ الأهل والولد.

وقال الماورديُّ[١]: الجلاءُ لا يكون إلا لجماعة، والإخراجُ قد يكون لواحدٍ ولجماعة.

ويقال فيه: الجلأ، مهموزاً من غير ألفٍ كالنبأ، وبذلك قرأ الحسن بن صالح، وأخوه عليُّ بن صالح، وطلحة[٢].

و«أنْ» مصدريةٌ، لا مخفَّفةٌ، واسمها ضميرُ شأنٍ كما تُوْهِمُه عبارة «الكشاف»[٣]، وقد صرَّح بذلك الرضيُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾ استئنافٌ غيرُ متعلِّقٍ بجواب «لولا» أي: إنهم إن نجوا من عذاب الدنيا ـ وهو القتل ـ لأمرٍ أَشَقّ عليهم وهو الجلاء، لم ينجوا من عذاب الآخرة، فليس تمتُّعهم أياماً قلائلَ بالحياة وتهوينُ أمر الجلاء على أنفسهم بنافع. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القتلَ أشدُّ من الجلاء، لا لذاته، بل لأنهم يَصلُون عنده إلى عذاب النار، وإنما أُوثر الجلاءُ لأنه أشقُّ عندهم، وأنهم غيرُ معتقدين لِمَا أمامهم من عذاب النار، أو معتقدون ولكن لا يُبالون به بالة، ولم تجعل حاليةً لاحتياجها للتأويل لعدم المقارَنة.

---

(١) في تفسيره النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في البحر ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ١٠/ ٢٧٩ أن الحسن وعليًا ابنا صالح قرأ: «الجلا» مقصوراً، وطلحة مهموزاً من غير ألف.

(٣) ينظر ٤/ ٨١.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما نزل بهم وما سينزل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وفعلوا ما فعلوا من القبائح ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وقرأ طلحةُ: «يشاقق»[1] بالفكِّ كما في الأنفال[2]، والاقتصارُ على ذِكْر مشاقَّته عزَّ وجلَّ لتضمُّنها مشاقَّته عليه الصلاة والسلام، وفيه من تهويل أمرها ما فيه، وليوافق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ وهذه الجملةُ إما نفسُ الجزاء، وقد حُذف منه العائد إلى «مَنْ» عند من يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف، أي: يعاقبه الله فإنَّ الله شديد العقاب، وأيًّاما كان، فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها، وتقريرٌ لمضمونه، وتحقيقٌ للسببية بالطريق البرهانيِّ، كأنه قيل: ذلك الذي نزلَ وسينزلُ بهم من العقاب بسبب مشاقَّتهم لله تعالى ورسوله ﷺ، وكلُّ من يُشاقِّ الله تعالى كائناً من كان، فله بسبب ذلك عقابٌ شديدٌ، فإذاً لهم عقاب شديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ هي النخلةُ مطلقاً على ما قال الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون والراغب[3]، وهي فِعْلَةٌ من اللّون، وياؤها مقلوبةٌ من واوٍ لكَسْر ما قبلها، كَدِيمة، وتُجمَعُ على ألوانٍ، وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة: هي النخلةُ ما لم تكن عَجْوة. وقال أبو عبيدة وسفيان: ما تَمْرُها لُونٌ، وهو نوعٌ من التمر، قال سفيان: شديدُ الصُّفرة يَشِفُّ عن نواه فيُرى من خارج، وقال أبو عبيدة أيضاً: هي ألوانُ النخل المختلطة التي ليس فيها عَجوةٌ ولا بَرْنيٌّ[4]. وقال جعفر الصادق ﷺ: هي العجوةُ. وقال الأصمعيُّ: هي الدَّقَل. وقيل: هي النخلةُ القصيرةُ. وقال الثوريُّ: الكريمةُ من النخل، كأنهم اشتقُّوها من اللِّين فتجمع على لِيْنٍ، وجاء جمعها: لياناً كما في قول امرئ القيس:

وسالفةٍ كسَحُوقِ اللِّيا … نِ أَضْرَمَ فيه الغَوِيُّ السُّعُرْ[5]

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣].

(٣) في المفردات مادة (لين).

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٥٦.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٦٥، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٩٢ و٣/ ٥٠٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٥، والبحر ٨/ ٢٤٠، واللسان (لين) و(لون). والسالفة: العنق. والسحوق: النخلة الطويلة.
=

وقيل: هي أغصانُ الأشجار للينها. وهو قولٌ شاذٌّ.

وأنشدوا على كونها بمعنى النخلة سواء كانت من اللّون أو من اللِّين قولَ ذي الرُّمَّة:

كـأنَّ قـتُـودي فـوقَـهـا عُـشُّ طـائـرٍ على لِينةٍ سَوْقاءَ تهفو جُنوبها[1]

ويمكن أن يقال: أراد باللِّينة النخلة الكريمة؛ لأنه يَصِفُ الناقةَ بالعراقة في الكرم، فينبغي أن يرمزَ في المشبَّه به إلى ذلك المعنى.

و«ما» شرطيةٌ منصوبةٌ بـ «قطعتم»، و«من لينة» بيانٌ لها، ولذا أنّثَ الضمير في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: أبقيتموها كما كانت ولم تتعرَّضوا لها بشيءٍ ما، وجوابُ الشرط قوله سبحانه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فذلك ـ أي: قَطْعُها أو تَرْكُها ـ بأمر الله تعالى الواصل إليكم بواسطة رسوله ﷺ، أو بإرادته سبحانه ومشيئته عزَّ وجلَّ.

وقرأ عبد الله والأعمشُ وزيدُ بن عليٍّ: «قُوَّماً» ـ على وزنُ فُعَّل؛ كَضُرَّبٍ ـ جَمْعَ قائم. وقرئ: «قائماً» اسم فاعل مذكَّر على لفظ «ما»، وأبقي «أصولها» على التأنيث. وقرئ: «أُصُلها» بضمَّتين[2]، وأصله: أصولها، فحذفت الواو اكتفاءً بالضمة، أو هو كـ : رُهُن بضمَّتين من غير حَذْفٍ وتخفيف.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ متعلِّقٌ بمقدَّرٍ على أنه عِلَّةٌ له، وذلك المقدَّر عطف على مقدَّرٍ آخر، أي: ليُعِزَّ المؤمنين وليخزيَ الفاسقين، أي: ليذلَّهم أذِنَ عزَّ وجلَّ في القَطْع والتَّرْك، وجُوِّزَ فيه أن يكونَ معطوفاً على قوله تعالى: «بإذن الله» وتُعطَفُ العِلَّةُ على السبب، فلا حاجةَ إلى التقدير فيه.

= وقوله: أضرم فيها الغوي السعر، أراد كما قال ابن دريد: حفيف عنق الفرس في جريها كحفيف نار في نخلة. ورواية الديوان: اللُّبان بالباء، قال ابن دريد: لا تلتفتن إلى ذلك فإن شجر اللُّبان لا يبلغ قامة الرجل، ولا يسمى سحوقاً إلا النخل.

(١) البيت في ديوانه ٢/ ٦٩٩. قال شارحه: القتود: عيدان الرحل. أراد: كأن قتودي على نخلة سوقاء، أي أن الناقة طويلة يصغر الرحل عليها.

(٢) تنظر هذه القراءات في الكشاف ٤/ ٨١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

والمراد بـ «الفاسقين» أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب، ووُضِعَ الظاهرُ موضِعَ المضمر إشعاراً بعلَّةِ الحكم، واعتبارُ القَطْع والترك في المعلَّل هو الظاهر، وإخزاؤهم بقَطْع اللِّينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي أعدائهم المسلمين، وبتَرْكها لحسرتهم على بقائها في أيدي أولئك الأعداء. كذا في «الانتصاف»(١).

قال بعضهم: وهاتان الحسرتان تتحقَّقان كيفما كانت المقطوعة والمتروكة؛ لأنَّ النخلَ مطلقاً مما يعزُّ على أصحابه، فلا تكاد تسمحُ أنفسهم بتصرُّفِ أعدائهم فيه حسبما شاؤوا، وعِزَّتُهُ على صاحبه الغارس له أعظمُ من عِزَّته على صاحبه غير الغارس له، وقد سمعتُ بعضَ الغارسين يقول: السَّعْفَةُ عندي كأُصبعٍ من أصابع يدي. وتحقُّقُ الحسرةِ على الذهاب إن كانت المقطوعةُ النخلةَ الكريمة أظهر، وكذا تحقُّقها على البقاء في أيدي أعدائهم المسلمين إن كانت هي المتروكةَ.

والذي تدلُّ عليه بعضُ الآثار أنَّ بعض الصحابة كان يقطعُ الكريمةَ، وبعضَهم يقطعُ غيرها، وأقرَّهما النبيُّ ﷺ لَمَّا أفصحَ الأولُ بأنَّ غَرَضَهُ إغاظةُ الكفار، والثاني بأنه استبقاءُ الكريمة للمسلمين، وكان ذلك أول نزول المسلمين على أولئك الكَفَرة ومحاصرتهم لهم، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام أَمَرَ في صَدْرِ الحرب بقَطْع نخيلهم، فقالوا: يا محمد، قد كنتَ تنهى عن الفساد في الأرض، فما بالُ قَطْعِ النخل وتحريقها؟! فنزلت الآية: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إلخ(٢)، ولم يتعرَّضْ فيها للتحريق؛ لأنه في معنى القطع، فاكتفى به عنه، وأما التعرُّضُ للترك مع أنه ليس بفسادٍ عندهم أيضاً، فلتقرير عدم كون القَطْعِ فساداً لنَظْمه في سلك ما ليس بفسادٍ إيذاناً بتساويهما في ذلك.

واستدلَّ بالآية على جواز هَدْمِ ديار الكَفَرة، وقَطْع أشجارهم، وإحراقِ زروعهم زيادةً لغيظهم، وحاصلُ ما ذكره الفقهاءُ في المسألة أنه إن عُلِمَ بقاءُ ذلك في أيدي الكَفَرة، فالتخريبُ والتحريقُ أولى، وإلا فالإبقاء أولى ما لم يتضمَّنْ ذلك مصلحة.

---

(١) ٤/ ٨١.

(٢) أخرج البخاري (٤٨٨٤)، ومسلم (١٧٤٦) من حديث ابن عمر ﵄ أن النبي ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع، وَهيَ البويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ شروعٌ في بيان حال ما أُخذ من أموالهم، بعد بيان ما حلَّ بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع، أي: وما أعاده الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أولئك الكفرة، وهم بنو النضير، و«ما» موصولةٌ مبتدأ، والجملةُ بعدها صلة، والعائدُ محذوفٌ كما أشرنا إليه، والجملةُ المقترنةُ بالفاء بعدُ خبر. ويجوز كونها شرطية والجملةُ بعدُ جواب. والمراد بما أفاء سبحانه عليه ﷺ منهم، أموالُهم التي بقيتْ بعد جلائهم، والمراد بإعادتها عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحويلُها إليه، وهو إن لم يقتضِ سَبْقَ حصولها له ﷺ نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] ظاهرٌ، وإن اقتضى سَبْقَ الحصول كان فيما ذُكر مجازاً، وفيه إشعارٌ بأنها كانت حَرِيَّة بأن تكونَ له ﷺ، وإنما وقعتْ في أيديهم بغير حَقٍّ، فأرجعها الله تعالى إلى مستحقِّها، وكذا شأنُ جميع أموال الكَفَرة التي تكونُ فيئاً للمؤمنين؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسَّلوا به إلى طاعته، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعين، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحقُ فيها مشقة: فيءٌ، مع أنه من فاءَ الظِّلُّ إذا رجع، ونقل الراغبُ عن بعضهم أنه سُمِّيَ بذلك تشبيهاً بالفيء الذي هو الظِّلُّ، تنبيهاً على أنَّ أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظِلٍّ زائل(١).

و«أفاء» على ما في «البحر» بمعنى المضارع، أما إذا كانت «ما» شرطية فظاهر، وأما إذا كانت موصولة، فلأنها إذا كانت الفاءُ في خبرها تكونُ مشبَّهةً باسم الشرط، فإن كانت الآيةُ نازلةً قبل جلائهم كانت مخبرةً بغيب، وإن كانت نزلتْ بعد جلائهم وحصول أموالهم في يدِ الرسول ﷺ كانت بياناً لما يستقبل، وحكم الماضي [المتقدم] حكمه(٢). والذي يدلُّ عليه الأخبار أنها نزلتْ بعدُ، روي أنَّ بني النضير لما أُجْلُوا عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم، طلبَ المسلمون تخميسها كغنائم بدر، فنزل: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ إلخ، فكانت

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فيأ).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤-٢٤٥، وما بين حاصرتين استدرك منه.

لرسول الله ﷺ خاصة، فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ[1] وغيرهم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ، مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفقُ على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعلُ ما بقي في السلاح والكُراع[2] عُدَّةً في سبيل الله تعالى.

وقال الضحاك: كانت له ﷺ خاصة، فآثر بها المهاجرين، وقَسَمها عليهم، ولم يُعطِ الأنصارَ منها شيئاً إلا أبا دجانة سِماك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة، أعطاهم لفقرهم. وذكر نحوه ابن هشام[3]، إلا أنه ذكر الأوَّلَين ولم يذكر الحارث، وكذا لم يذكره ابن سَيِّد الناس[4]، وذكر أنه أعطى سعدَ بن معاذ سيفاً لابن أبي الحقيق، كان له ذِكْرٌ عندهم.

ومعنى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾: ما أَجريتم على تحصيله، من الوَجيف: وهو سرعةُ السير، وأنشد عليه أبو حيان قولَ نصيب[5]:

ألا رُبَّ رَكْبٍ قد قَطَعتُ وجيفَهم إليك ولولا أنت لم تُوجفِ الرَّكْبُ

وقال ابن هشام: أوجفتم: حرَّكتم وأتعبتم في السير، وأنشد قولَ تميم بن مقبل:

مَذَاويدَ بالبِيض الحديثِ صِقالُها عن الركب أحياناً إذا الركبُ أَوجفوا[6]

والمآل واحد. و«من» في قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾ زائدةٌ في المفعول للتنصيص على الاستغراق، كأنه قيل: فما أوجفتم عليه فرداً من أفراد الخيل أصلاً ﴿وَلَا

(١) صحيح البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٥)، والترمذي (١٧١٩)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٣٢، وهو عند أحمد (١٧١).

(٢) الكُراع: اسم لجميع الخيل. النهاية (كرع).

(٣) في السيرة النبوية ٢/ ١٩٢.

(٤) ينظر عيون الأثر ٢/ ٥١.

(٥) ذكره الماوردي في تفسيره ٥/ ٥٠٣ بدون نسبة.

(٦) السيرة النبوية ٢/ ١٩٣-١٩٤، والبيت في ديوان تميم بن أبيّ بن مقبل ص٣٧٢. والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

رِكَابٍ﴾ ولا ما يُركَبُ من الإبل، غُلِّبَ فيه كما غُلِّبَ الراكبُ على راكبه، فلا يقال في الأكثر الفصيح: راكبٌ، لِمن كان على فرسٍ أو حمارٍ ونحوه، بل يقال: فارس، ونحوه، وإن كان ذلك عامًّا لغيره وَضْعاً.

وإنما لم يعملوا الخيل ولا الركاب، بل مشوا إلى حصون بني النضير رِجَالاً ـ إلا رسول الله ﷺ فإنه كان على حمارٍ أو على جمل كما تقدم ـ لأنها قريبةٌ على نحو ميلين من المدينة، فهي قريبةٌ جدًّا منها، وكأن المراد: إنَّ ما حَصَلَ لم يحصل بمشقَّةٍ عليكم وقتالٍ يُعتدُّ به منكم، ولهذا لم يُعطِ ﷺ الأنصارَ إلا مَنْ سمعتَ، وأما إعطاؤه المهاجرين فلعلَّه لكونهم غرباء، فنزِّلتْ غربتُهم منزلةَ السفر والجهاد، ولما أُشير إلى نفي كون حصول ذلك بعملهم أُشيرَ إلى عِلَّةِ حصوله بقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ولكنَّ سُنَّتهُ عزَّ وجلَّ جاريةٌ على أن يُسلِّطَ رسله على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصًّا، وقد سلَّط رسولَهُ محمداً ﷺ على هؤلاء تسليطاً غير معتادٍ من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم، ويكون أَمرُها مفوَّضاً إليه ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ فيفعلُ ما يشاء كما يشاء، تارةً على الوجوه المعهودة، وأخرى على غيرها.

وقيل: الآيةُ في فَدَكَ؛ لأنَّ بني النضير حُوصِروا وقوتلوا دون أهل فَدَكٍ، وهو خلافُ ما صحَّتْ به الأخبار، والواقعُ من القتال شيءٌ لا يُعتدُّ به.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيانٌ لحكم ما أفاءه الله تعالى على رسوله ﷺ من قُرى الكفار على العموم، بعد بيان حُكم ما أفاءه من بني النضير كما رواه القاضي أبو يوسف في كتاب «الخراج»(١) عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويُشعر به كلامه رضي الله عنه في حديثٍ طويلٍ فيه مرافعةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والعباس

(١) ص٢٦-٢٧.

في أمر فَدَك؛ أخرجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرهم[١]، فالجملةُ جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ ناشئٍ مما فُهم من الكلام السابق، فكأنَّ قائلاً يقول: قد عَلِمنا حُكْمَ ما أفاءَ الله تعالى من بني النضير، فما حكم ما أفاء عزَّ وجلَّ من غيرهم؟ فقيل: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» إلخ، ولذا لم يُعطَفْ على ما تقدم، ولم يذكر في الآية قيد الإيجاف ولا عَدَمه، والذي يُفهَمُ من كتب بعض الشافعية أنَّ ما تضمَّنته حُكْمَ الفيء لا الغنيمة ولا الأعمّ، وفرَّقوا بينهما، قالوا: الفيءُ: ما حصل من الكفار بلا قتالٍ وإيجافِ خيلٍ وركابٍ، كجزيةٍ وعُشْر تجارة، وما صُولحوا عليه من غير نحو قتالٍ، وما جَلَوا عنه خوفاً قبل تقابل الجيشين أما بعده فغنيمة، وما لمرتدٍّ قُتل أو ماتَ على رِدَّته، وذمِّيٍّ أو معاهدٍ أو مستأمنٍ ماتَ بلا وارثٍ مُستغرِقٍ.

والغنيمةُ: ما حصل من كفارٍ أصليين حربيين بقتال - وفي حُكْمه تقابلُ الجيشين - أو إيجافٍ منَّا لا من ذِمِّيين، فإنه لهم لا يُخمَّسُ، وحكمها مشهور.

وصرَّحَ غيرُ واحدٍ من أصحابنا بالفرق أيضاً نقلاً عن «المُغْرِب»[٢] وغيره؛ فقالوا: الغنيمةُ: ما نِيلَ من الكفار عَنْوةً والحربُ قائمةٌ، وحُكمها أن تُخمَّس، وباقيها [بعد الخمس] للغانمين خاصة. والفيءُ: ما نِيلَ منهم بعد وَضْعِ الحرب أوزارها، وصيرورةِ الدار دارَ إسلام، وحُكْمه أن يكون لكافَّةِ المسلمين، ولا يُخمَّس، أي: يُصْرَفُ جميعُهُ لمصالحهم. ونَقَل هذا الحكمَ ابنُ حجرٍ عمَّن عدا الشافعيَّ رضي الله عنه من الأئمة الثلاثة، والتخميسُ عنه استدلالاً بالقياس على الغنيمة المخمَّسة بالنصِّ، بجامع أنَّ كلًّا راجعٌ إلينا من الكفار، واختلافُ السبب بالقتال وعدمه لا يؤثِّر، والذي نطقتْ به الأخبارُ الصحيحةُ أنَّ عمرَ رضي الله عنه صَنَعَ في سوادِ العراق ما تضمَّنته الآية، واعتبرها عامةً للمسلمين، محتجًّا بها على الزبير وبلال وسلمان الفارسي وغيرهم، حيث طلبوا منه قِسْمته على الغانمين بعقاره وعُلُوجه،

(١) البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٤)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣٤)، وهو عند أحمد (٤٢٥).

(٢) مادة (غنم) وينظر البحر الرائق ٨٩/٥، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

ووافقه على ما أراد عليٌّ وعثمان وطلحة والأكثرون، بل المخالفونَ أيضاً بعد أن قال خاطباً: اللهمَّ اكفني بلالاً وأصحابه(١)، مع أنَّ المشهورَ في كتب المغازي أنَّ السوادَ فُتِحَ عَنْوة، وهو يقتضي كونه غنيمة، فيقسم بين الغانمين، ولذا قال بعض الشافعية: إنَّ عمر رضي الله عنه استطابَ قلوبَ الغانمين حتى تركوا حَقَّهم، فاستردَّ السوادَ على أهله بخَراجٍ يُؤَدُّونه في كلِّ سنة، فليُراجَعْ وليحقق.

وما جعله الله تعالى من ذلك لمن تضمَّنه قوله تعالى: «فلله وللرسول» إلى «ابن السبيل» هو خُمْسُ الفيء على ما نصَّ عليه بعضُ الشافعية، ويُقسَمُ هذا الخُمْسُ خمسةَ أسهم لمن ذكر الله عزَّ وجلَّ، وسهمه سبحانه وسهم رسوله واحد، وذِكْره تعالى ـ كما روي عن ابن عباس والحسن بن محمد بن الحنفية ـ افتتاحُ كلامٍ للتيمُّن والتبرُّك، فإنَّ لله ما في السماوات وما في الأرض، وفيه تعظيمٌ لشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال أبو العالية: سهمُ الله تعالى ثابتٌ يُصرَفُ إلى بناء بيته ـ وهو الكعبة المشرَّفة ـ إن كانت قريبةً، وإلا فإلى مسجدِ كلِّ بلدةٍ ثبت فيها الخمس.

ويلزمه أنَّ السهامَ كانت ستَّة، وهو خلافُ المعروف عن السلف في تفسير ذلك.

وسهمُ الرسول ﷺ قد كان له في حياته بالإجماع، وهو خُمْسُ الخمس، وكان يُنفق منه على نفسه وعياله، ويدَّخرُ منه مؤنة سنة، أي: لبعض زوجاته، ويصرفُ الباقي في مصالح المسلمين، وسقط عندنا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، قالوا: لأنَّ عملَ الخلفاء الراشدين على ذلك، وهم أمناءُ الله تعالى على دينه، ولأنَّ الحكمَ معلَّقٌ بوَصْفٍ مشتقٍّ وهو الرسول، فيكونُ مبدأ الاشتقاق ـ وهو الرسالة ـ علةً، ولم توجد في أحدٍ بعده، وهذا كما سقط الصفيُّ(٢).

(١) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص٢٦، والبيهقي ٦/٣١٨.

(٢) الصفيُّ: سهم كان للنبي ﷺ من الغنيمة، إن شاء عبداً، وإن شاء أمة، وإن شاء فرساً، يختاره قبل الخمس. زاد المعاد ٣/١٠٢.

ونقل عن الشافعي أنه يُصرَفُ للخليفة بعده؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يستحقُّهُ لإمامته دون رسالته، ليكون ذلك أَبْعَدَ عن توهُّم الأجر على الإبلاغ، والأكثرونَ من الشافعية أنَّ ما كان له ﷺ من خُمْسِ الخمس يُصرَفُ لمصالح المسلمين كالثغور، وقضاة البلاد، والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ولو مبتدئين، والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء، وسائر مَنْ يشتغلُ على نحو كسبه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم، وأُلحق بهم العاجزون عن الكسب، والعطاءُ إلى رأي الإمام، معتبراً سعة المال وضيقه، ويقدِّمُ الأهمَّ فالأهمَّ وجوباً، وأهمُّها سَدُّ الثغور. وَرَدُّ سهمه ﷺ بعد وفاته للمسلمين الدالُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الصحيح: «ما لي مما أفاء الله تعالى عليكم إلا الخمس، والخمسُ مردودٌ عليكم»[1] صادقٌ بصَرْفه لمصالح المسلمين، كما أنه صادقٌ بضمِّه إلى السهام الباقية، فيُقسَمُ معها على سائر الأصناف، ولا يسلم ظهوره في هذا دون ذاك.

وسهمٌ لذي القربى، وسهمٌ لليتامى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لابن السبيل، فهذه خمسةُ أسهمِ الخُمُس.

والمراد بذي القربى قرابته ﷺ، والمراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ لأنه ﷺ وَضَعَ السَّهْمَ فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، ومن ذُرِّيته عثمان، وأخيهما لأبيهما نوفل، مجيباً عن ذلك بقوله ﷺ: «نحن وبنو المطلب شيءٌ واحد» وشَبَّكَ بين أصابعه. رواه البخاري[2]، أي: لم يفارقوا بني هاشم في نُصْرته ﷺ جاهليةً ولا إسلاماً، وكأنه لمزيد تعصُّبهم وتوافقهم - حتى كأنهم على قلبِ رجلٍ واحد - قيل: «لذي القربى» دون: لذوي، بالجمع.

قال الشافعية: يشترك في هذا السهم الغنيُّ والفقير؛ لإطلاق الآية، ولإعطائه ﷺ العباسَ وكان غنيًّا، بل قيل: كان له عشرونَ عبداً يتَّجرون له، والنساءُ؛ لأنَّ فاطمة، وصفيةَ عمَّة أبيها رضي الله عنهما كانا يأخذان منه، ويُفضَّلُ الذكر

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي ٦/ ٢٦٢-٢٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) في صحيحه (٣١٤٠) من حديث جبير بن مطعم، وهو عند أحمد (١٦٧٤١).

كالإرث، بجامع أنه استحقاقٌ بقرابةِ الأب، فله مثلُ حَظِّي الأنثى، ويستوي فيه العالم والصغير وضدُّهما، ولو أعرضوا عنه لم يسقطْ كالإرث، ويثبتُ كونُ الرجل هاشميًّا أو مُطَّلبيًّا بالبيِّنة، وذَكَرَ جَمْعٌ أنه لا بدَّ معها من الاستفاضة. وبقول الشافعي قال أحمد، وعند مالك: الأمرُ مُفوَّضٌ إلى الإمام، إن شاء قَسَمَ بينهم، وإن شاء أعطى بعضَهم دونَ بعضٍ، وإن شاء أعطى غيرَهم إن كان أمرُهُ أهمَّ من أمرهم.

وقال المزني والثوري: يستوي الذكرُ والأنثى، ويُدفع للقاصي والداني ممن له قرابة، والغني والفقير سواء؛ لإطلاق النص، ولأنَّ الحكم المعلَّقَ بوَصْفٍ مشتقٍّ معلَّلٌ بمبدأ الاشتقاق.

وعندنا ذو القربى مخصوصٌ ببني هاشم وبني المطَّلب للحديث، إلا أنهم ليس لهم سهمٌ مستقلٌّ، ولا يُعطَون مطلقاً، وإنما يُعطَى مسكينهم ويتيمهم وابن سبيلهم؛ لاندراجه في «اليتامى والمساكين وابن السبيل» لكن يُقدَّمون على غيرهم من هذه الأصناف؛ لأنَّ الخلفاء الثلاثة لم يُخرجوا لهم سهماً مخصوصاً، وإنما قَسَموا الخمسَ ثلاثةَ أسهم: سهمٌ لليتامى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لابن السبيل، وعليٌّ كرَّمَ الله تعالى وجهه في خلافته لم يخالفهم في ذلك مع مخالفته لهم في مسائل، ويُحمَلُ على الرجوع إلى رأيهم - إن صَحَّ عنه - أنه كان يقول بسهم[1] ذوي القربى على ما حكي عن الشافعي، وفائدةُ ذِكْرهم - على القول بأنَّ استحقاقهم لوَصْفٍ آخر غير القرابة، كالفقر - دَفْعُ توهُّم أنَّ الفقيرَ منهم مثلاً لا يستحقُّ شيئاً؛ لأنه من قبيل الصَّدقة، ولا تحلُّ لهم، ومن تتَّبع الأخبار وَجَدَ فيها اختلافاً كثيراً؛ ومنها ما يدلُّ على أنَّ الخلفاء كانوا يُسهمونهم مطلقاً، وهو رأي علماء أهل البيت.

واختار بعضُ أصحابنا أنَّ المذكورَ في الآية مصارفُ الخمس على معنى أنَّ كلًّا يجوزُ أن يُصرَفَ له، لا المستحقِّين، فيجوز الاقتصارُ عندنا على صِنْفٍ واحدٍ، كأن يُعطَى تمامُ الخمس لابن السبيل وحده مثلاً. والكلامُ مستوفًى في «شروح الهداية».

---

(١) في (م): سهم.

والمراد باليتامى الفقراء منهم، قال الشافعية: اليتيمُ: هو صغيرٌ لا أبَ له، وإن كان له جَدٌّ، ويُشترطُ إسلامه وفَقْره، أو مسكنته، على المشهور أنَّ لفظ اليتيم يُشعر بالحاجة، وفائدةُ ذِكْرهم مع شمول المساكين لهم عدمُ حرمانهم لتوهُّم أنهم لا يصلحون للجهاد، وإفرادهم بخُمْسٍ كاملٍ، ويدخلُ فيهم وَلَدُ الزنى، والمنفيُّ، لا اللَّقيطُ على الأَوْجَه؛ لأنَّا لم نتحققْ فَقْدَ أبيه، على أنه غنيٌّ بنفقته في بيت المال، ولا بدَّ في ثبوت اليتيم والإسلام والفقر هنا من البيِّنةُ، ويكفي في المسكين وابن السبيل قولهما، ولو بلا يمين، وإن اتُّهما، نعم يظهرُ في مُدَّعي تلفِ مالٍ له عُرِفَ أو عيالٍ أنه يُكلَّفُ بينة. انتهى، واشتراطُ الفقر في اليتيم مُصرَّحٌ به عندنا في أكثر الكتب، وليراجع الباقي.

هذا والأربعةُ الأخماس الباقية مصرفُها ـ على ما قال صاحب «الكشف»، وهو شافعيٌّ، بعد أن اختارَ جَعْلَ «للفقراء» بدلاً من «ذي القربى» وما عُطِفَ عليه ـ مَن تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ [الآية: ٩] إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الآية: ١٠] على معنى أنَّ له عليه الصلاة والسلام أن يَعُمَّ الناسَ بها حَسَبَ اختياره، وقال: إنها للمقاتلين الآن على الأصحِّ.

وفي «تحفة» ابن حجر أنها على الأظهر للمرتزقة وقضاتهم وأئمتهم ومؤذِّنيهم وعُمَّالهم، ما لم يوجد تبرُّع، والمرتزقة: الأجنادُ المرصودون في الديوان للجهاد؛ لحصول النُّصرة بهم بعده ﷺ. وصرَّح في «التحفة» بأنَّ الأكثرينَ على أنَّ هذه الأخماس الأربعة كانت له عليه الصلاة والسلام مع خُمْسِ الخمس، فجملةُ ما كان يأخذه ﷺ من الفيء أحدٌ وعشرون سهماً من خمسةٍ وعشرين، وكان على ما قال الروياني: يَصرفُ العشرينَ التي له عليه الصلاة والسلام ـ يعني الأربعة الأخماس ـ للمصالح وجوباً في قولٍ ونَدْباً في آخر، وقال الغزاليُّ: كان الفيءُ كلُّه له ﷺ في حياته، وإنما خُمِّسَ بعد وفاته.

وقال الماورديُّ: كان له ﷺ في أول حياته، ثم نُسخ في آخرها.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ قوله تعالى: (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ) إلخ بيانٌ للجملة الأولى ـ يعني قوله تعالى: (وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ) ولذا لم يدخل العاطف عليها ـ بيِّن فيها

لرسول الله ﷺ ما يصنعُ بما أفاء الله تعالى عليه، وأمره أن يضعهُ حيث يضعُ الخُمْسَ من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة(١). وظاهره أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، والسؤالُ عن مصارف ما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ من بني النضير الذي أفادت الجملةُ الأولى أنَّ أمرهُ مفوَّضٌ إليه ﷺ، لا يلزم أن يقسم قسمةَ الغنائم التي قُوتل عليها قتالاً معتدًّا به وأخذت عَنوة وقهراً، كما طلب الغزاة لتكونَ أربعة أخماسها لهم، وأنَّ ما يُوضَعُ موضعَ الخُمس من الغنائم هو الكلُّ لا أنَّ خمسه كذلك والباقي ـ وهو أربعة أخماسه ـ لمن تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ على ما سمعتَ سابقاً، وأنَّ المرادَ بأهل القرى هو المرادُ بالضمير في «منهم» أعني بني النضير، وعدل عن الضمير إلى ذلك ـ على ما في «الإرشاد» ـ إشعاراً بشمول ما في «ما أفاء الله» لعقاراتهم أيضاً(٢). واعترض صاحب «الكشف» ما يُشعر به الظاهرُ من أنَّ الآيةَ دالةٌ على أمره ﷺ بأن يضعَ الجميعَ حيث يضعُ الخمس من الغنائم، ووجَّه الآيةَ بما أيد به مذهبه، ودقَّق الكلام في ذلك، فليراجع وليتدبر.

وقال ابن عطية: أهل القرى المذكورون في الآية هم أهلُ الصَّفراء، ويَنْبُع، ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب التي تُسمَّى قُرى عُرينة، وحكمها مخالفٌ لحكم أموال بني النضير، فإنَّ تلك كلَّها له ﷺ خاصة، وهذه قَسَمها كغيرها(٣).

وقيل: المراد بـ «ما أفاء الله على رسوله» خيبر، وكان نصفُها لله تعالى ورسوله ﷺ، ونصفُها الآخر للمسلمين، فكان الذي لله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام من ذلك الكتيبةُ والوطيحُ وسُلالم ووَخْدة، وكان الذي للمسلمين الشقّ، وكان ثلاثةَ عشر سهماً، ونَطاة، وكانت خمسة أسهم، ولم يَقسم عليه الصلاة والسلام من خيبرَ لأحدٍ من المسلمين إلا لمن شَهِدَ الحديبية، ولم يأذن ﷺ لأحدٍ

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٢.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٢٧-٢٢٨.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦.

تخلَّف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهدَ معه خيبرَ، إلا جابر بن عبد الله بنِ عمرو الأنصاري، وروي هذا عن ابن عباس(١).

وخصَّ بعضهم ما أفاء الله تعالى بالجزية والخراج، وعن الزهري أنه قال: بلغني أنه ذلك. وأنت قد سمعتَ أنَّ عمر ﷺ إنما احتجَّ بهذه الآية على إبقاء سواد العراق بأيادي أهله، وضَرَبَ الخراج والجزية عليهم ردًّا على مَنْ طلب قِسْمته على الغزاة بعُلُوجه، لكن ليس ذلك إلا لأنَّ وصولَ نَفْعِ ما أفاء الله تعالى إلى عامة المسلمين كان بما ذكر دون القسمة، فافهم.

وفي إعادة اللام في «الرسول» و«ذي القربى» مع العاطف ما لا يخفى من الاعتناء، وفيه على ما قيل تأييدٌ ما لمن يذهب إلى عدم سقوط سهميهما، ووجهُ إفراد ذي القربى قد ذكرناه غير بعيد، ولَمَّا كان أبناءُ السبيل بمنزلة الأَقارب قيل: «وابن السبيل» بالإفراد كما قيل: «ولذي القربى»، وعلى ذلك قوله:

أيا جارتا إنَّا غريبان هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ(٢)

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾ تعليلٌ للتقسيم، وضميرُ «يكون» لما أفاء الله تعالى، أي: كي لا يكون الفيءُ ﴿دُولَةَۢ﴾ هي بالضَّمِّ وكذا بالفتح: ما يدولُ، أي: ما يدور للإنسان من الغناء والجدِّ والغَلَبة، وقال الكسائيُّ وحُذَّاق البصرة: الدَّولة بالفتح في المُلْكِ بالضم، والدُّولة بالضم في المِلك بالكسر، أو بالضَّمِّ في المال، وبالفتح في النُّصرة، قيل: وفي الجاه، وقيل: هي بالضم ما يتداول، كالغُرْفة اسم ما يغترف، وبالفتح مصدرٌ بمعنى التداول. والراغب(٣) وعيسى بن عمر وكثير أنهما بمعنى واحد.

وجمهورُ القراء قرؤوا بضمِّ الدال والنصب، وبالياء التحتية في «يكون»(٤) على أنَّ اسم «يكون» الضمير، و«دولة» الخبر، أي: كي لا يكونَ الفيءُ جدًّا ﴿بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ

---

(١) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٩٢.

(٢) البيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص٦٠.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (دول).

(٤) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

مِنكُمْ﴾ أي: بينهم خاصةً يتكاثرون به، أو كي لا يكون دولةً وغَلَبَةً جاهليةً بينكم، فإنَّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون: مَنْ عَزَّ بَزَّ(١)، وقيل: المعنى: كي لا يكونَ شيئاً يتداوله الأغنياءُ خاصةً بينهم، ويتعاورونه، فلا يُصيبُ أحداً من الفقراء.

وقرأ عبد الله: «تكون» بالتاء الفوقية(٢)، على أنَّ الضميرَ على «ما» باعتبار المعنى؛ إذ المراد بها الأموال. وقرأ أبو جعفر وهشام كذلك، ورفع «دُولةٌ» بضمِّ الدال(٣)، على أنَّ «كان» تامة، و«دولةٌ» فاعلٌ، أي: كي لا يقعَ دولةٌ. وقرأ عليٌّ والسُّلميُّ كذلك أيضاً، ونَصْب «دَولةً» بفتح الدال(٤)، على أنَّ «كان» ناقصة اسمها ما سمعت، و«دَولةً» خبرها، ويُقدَّرُ مضافٌ على القول بأنها مصدرٌ إن لم يُتجوَّز فيه، ولم يقصد المبالغة، أي: كي لا تكونَ ذاتَ تداولٍ بين الأغنياء، لا يُخرجونها إلى الفقراء.

وظاهرُ التعليل بما ذُكر اعتبارُ الفقر فيمن ذُكر، وعدمُ اتصافه تعالى به ضروريٌّ، مع أنَّ ذكرهُ سبحانه كان للتيمُّن عند الأكثرين، لا لأنَّ له عزَّ وجلَّ سهماً، وكذا يُجَلُّ رسولُ الله ﷺ عن أن يُسمَّى فقيراً، وما اشتهر من قوله عليه الصلاة والسلام: «الفقر فخري» لا أصل له، وكيف يُتوهَّم مثله والدنيا كلُّها لا تساوي عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وهو ﷺ أحبّ خلقه إليه سبحانه، حتى قال بعضُ العارفين: لا يقال له ﷺ زاهدٌ؛ لأنه التاركُ للدنيا، وهو عليه الصلاة والسلام لا يتوجَّهُ إليها فضلاً عن طلبها اللازم للترك. وقيل: إنَّ الخبرَ لو صَحَّ(٥) يكونُ

---

(١) أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب. ينظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧.

(٢) البحر ٨/ ٢٤٥.

(٣) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦، ولهشام أيضاً: «كي لا يكونَ دُولةٌ» بالياء والرفع وضم الدال.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٥.

(٥) ولم يصح، فقد قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠٩: سئل عنه الحافظ ابن تيمية فقال: إنه كذب لا يعرف في شيء من كتب المسلمين المروية. وجزم الصغاني بأنه موضوع.

المرادُ بالفقر فيه الانقطاعَ عن السِّوى بالمرة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو غيرُ الفقر الذي الكلامُ فيه. واعتباره فيمَن بَعْدُ لا محذورَ فيه، حتى إنه ربما يكونُ دليلاً على القول بأنه لا يُعطى أغنياءُ ذوي القربى، وإنما يُعطى فقراؤهم.

وإذا حُمل الكلامُ على ما حملناه عليه كفى في التعليل أن يكونَ فيمن يُدفع إليه شيءٌ من الفيءِ فَقْرٌ، ولا يلزمُ أنَّ كلَّ مَنْ يُدفَعُ إليه شيءٌ منه فقيراً.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حقُّكم الذي أحلَّه الله تعالى لكم.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه منه ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ فيعاقب مَنْ يخالفه ﷺ.

وحَمْلُ الآية على خصوصِ الفيء مرويٌّ عن الحسن، وكأنَّ ذلك لقرينة المقام، وفي «الكشاف»: الأجودُ أن تكونَ عامةً في كلِّ ما أَمَر به ﷺ ونهى عنه، وأَمْرُ الفيء داخلٌ في العموم[1]. وذلك لعموم لفظ «ما»، على أنَّ الواو لا تصحُّ عاطفةً، فهي اعتراضٌ على سبيل التذييل، ولذلك عقَّب بقوله تعالى: «واتقوا الله» تعميماً على تعميم، فيتناول كلَّ ما يجبُ أن يُتَّقى؛ ويدخلُ ما سِيقَ له الكلام دخولاً أوَّليًّا كدخوله في العموم الأول، وروي ذلك عن ابن جريج.

وأخرج الشيخان وأبو داود والترمذي[2] وغيرهم عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله تعالى الواشماتِ والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسْنِ، المغيِّرات لخلق الله تعالى. فبلغ ذلك امرأةً من بني أسدٍ يقال لها: أُمُّ يعقوب، وكانت تقرأُ القرآن، فأتته فقالت: بلغني أنك لعنتَ كَيْتَ وكَيْتَ؟ فقال: ما لِيَ لا أَلعنُ مَنْ لَعَنَ رسولُ الله ﷺ، وهو في كتاب الله عزَّ وجلَّ. فقالت: لقد قرأتُ

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٢.

(٢) البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥)، وأبو داود (٤١٦٩)، والترمذي (٢٧٨٢)، وهو عند أحمد (٤١٢٩).

ما بين لوحَي المصحف فما وجدته؟ قال: إن كنتِ قرأتيه فقد وَجَدْتيه، أما قرأتِ قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه ﷺ قد نهى عنه.

وعن الشافعيِّ أنه قال: سلوني عمَّا شئتم أُخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ. فقال عبد الله بن محمد بن هارون: ما تقول في المُحْرِمِ يقتل الزُّنبور؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعيِّ بن حِراش[١]، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وحدثنا سفيان بن عيينة، عن مِسْعر بن كِدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزُّنبور[٢]. وهذا من غريب الاستدلال، وفيه على عِلَّاته ـ ككلام ابن مسعود ـ حمل ما في الآية على العموم، وعن ابن عباس ما يدلُّ على ذلك أيضاً، قيل: والمعنى حينئذٍ: ما آتاكم الرسول من الأمر فتمسَّكوا به، وما نهاكم عن تعاطيه فانتهوا عنه.

والأمر جُوِّزَ أن يكونَ واحد الأمور، وأن يكون واحد الأوامر لمقابلة «نهاكم» له، قيل: والأولُ أقربُ؛ لأنه لا يقال: أعطاهُ الأمرَ بمعنى: أمره، إلا بتكلُّفٍ كما لا يخفى.

واستُنبط من الآية أنَّ وجوبَ الترك يتوقَّفُ على تحقُّق النهي، ولا يكفي فيه عدمُ الأمر، فما لم يتعرَّضْ له أمراً ولا نهياً لا يجب تركه.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ قال الزمخشريُّ: بدلٌ من قوله تعالى: «لذي القربى» والمعطوف عليه، والذي منع الإبدال من «لله وللرسول» وما بعد ـ وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ ـ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخرجَ رسوله عليه الصلاة والسلام من الفقراء في

(١) في الأصل و(م): خراش. والمثبت هو الصواب.

(٢) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن ٥/ ٢١٢. وقوله: «اقتدوا...» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥)، وقول عمر في قتل الزنبور أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨.

قوله سبحانه: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وأنه يترفَّعُ برسول الله عليه الصلاة والسلام عن التسمية بالفقير، وأنَّ الإبدالَ على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا كما لا يجوزُ أن يُوصَفَ سبحانه بـ: علَّامة؛ لأجلِ التأنيث لفظاً؛ لأنَّ فيه سوء أدب. انتهى.

وعنى أنه بدل كلٍّ من كلٍّ لاعتبار المبدَل منه مجموع ما ذكر، قال الإمام: فكأنه قيل: أعني بأُولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين[٢]. وما ذكر من الإبدال من «لذي القربى» وما بعده مبنيٌّ على قول الحنفية: إنه لا يُعطى الغنيُّ من ذوي القربى، وإنما يُعطى الفقير، ومن يرى ـ كالشافعي ـ أنه يُعطَى غنيُّهم كما يُعطى فقيرهم خَصَّ الإبدالَ باليتامى وما بعده. وقيل: يجوز ذلك أيضاً، إلا أنه يقول بتخصيص اعتبار الفقر بفيء بني النضير، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعطِ غنيًّا شيئاً منه، والآيةُ نازلةٌ فيه، وفيه تعسُّفٌ ظاهر.

وفي «الكشف» أنَّ «للفقراء» ليس للقيد، بل بياناً للواقع من حال المهاجرين، وإثباتاً لمزيد اختصاصهم، كأنه قيل: لله وللرسول وللمهاجرين.

وقال ابن عطية: «للفقراء» إلخ، بيانٌ لقوله تعالى: «اليتامى والمساكين وابن السبيل» وكُرِّرتْ لامُ الجرِّ لما كان ما تقدَّم مجروراً بها لتبيين أنَّ البدلَ هو منها[٣].

وقيل: اللامُ متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه قوله تعالى: «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» كأنه قيل: ولكن يكون للفقراء المهاجرين.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما خطر لنا في ذلك من الاحتمال بناءً على ما يُفهَمُ من ظاهر كلام عمر بن الخطاب بمحضر جمعٍ من الأصحاب[٤].

(١) إلى هنا انتهى كلام الزمخشري، ينظر الكشاف ٤/ ٨٣.
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٦.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦-٢٨٧.
(٤) ينظر ما سيرد ص٤٢ من هذا الجزء.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرَّهم كفارُ مكةَ وأحوجوهم إلى الخروج، فخرجوا منها، وهذا وَصْفٌ باعتبار الغالب، وقيل: كان هؤلاء مئةَ رجل.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رِزْقاً في الدنيا ومرضاةً في الآخرة، وُصِفُوا أولاً بما يدلُّ على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار والأموال، وقُيِّدَ ذلك ثانياً بما يُوجبُ تفخيم شأنهم ويؤكِّده، مما يدلُّ على توكُّلهم التامّ ورضاهم بما قَدَّره المليك العلَّام.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطْفٌ على «يبتغون» فهي حالٌ مقدَّرةٌ، أي: ناوين لنُصْرة الله تعالى ورسوله ﷺ، أو مقارِنةٌ، فإنَّ خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نُصرةٌ وأيُّ نُصرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان، حيث فعلوا ما يدلُّ أقوى دلالةٍ عليه، مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله، لا غيرهم ممن آمنَ في مكة ولم يخرجْ من داره وماله، ولم يثبتْ منه نحو ما ثبتَ منهم لنحو لِينٍ منه مع المشركين، فالحصرُ إضافيٌّ، وُوُجِّهَ بغير ذلك.

وحملَ بعضُهم الكلامَ على العموم لحذف متعلّق الصدق، وتمسَّك به لذلك في الاستدلال على صحة إمامة أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه؛ لأنَّ هؤلاء المهاجرين كانوا يَدْعونه بخليفة رسول الله ﷺ، والله تعالى قد شَهِدَ بصِدْقهم، فلا بدَّ أن تكونَ إمامته رضي الله عنه صحيحةً ثابتةً في نفس الأمر؛ وهو تمسُّكٌ ضعيفٌ مستغنيةٌ عن مثله دعوى صحة خلافة الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة، ومنهم عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، ونسبةُ التَّقية إليه بالموافقة لا يوافقُ الشيعةَ عليها مُتَّقٍ، كدعوى الإكراه، بل مستغنية بغير ذلك أيضاً.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الأكثرون على أنه معطوفٌ على «المهاجرين» والمراد بهم الأنصار؛ والتبوُّؤُ: النزولُ في المكان، ومنه المَبَاءة للمنزل؛ ونسبته

إلى الدار ـ والمراد بها المدينة ـ ظاهرٌ، وأما نسبته إلى الإيمان فباعتبار جَعْله مستقرًّا ومتوطناً على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية. والتعريفُ في «الدار» للتنويه، كأنها الدارُ التي تستحقُّ أن تُسمَّى داراً، وهي التي أعدَّها الله تعالى لهم ليكون تبوُّؤهم إياها مَدْحاً لهم.

وقال غير واحدٍ: الكلام من باب:

علفتها تبناً وماءً باردا[1]

أي: تبوؤوا الدارَ وأخلصوا الإيمان.

وقيل: التبوؤ مجازٌ مرسلٌ عن اللزوم، وهو لازمُ معناه، فكأنه قيل: لزموا الدارَ والإيمان، وقيل في توجيه ذلك: إنَّ «أل» في «الدار» للعهد، والمرادُ دارُ الهجرة، وهي تغني غناء الإضافة، وفي «والإيمان» حَذْفُ مضافٍ، أي: ودارُ الإيمان، فكأنه قيل: تبوؤوا دارَ الهجرة ودارَ الإيمان، على أنَّ المرادَ بالدارين المدينة، والعَطْفُ كما في قولك: رأيتُ الغيثَ والليثَ. وأنت تريدُ زيداً. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف والتعسُّف.

وقيل: إنَّ الإيمانَ مجازٌ عن المدينة، سُمِّي محلُّ ظهور الشيء باسمه مبالغةً. وهو كما ترى.

وقيل: الواو للمعية، والمراد: تبوؤوا الدارَ مع إيمانهم، أي: تبوؤوها مؤمنين. وهو أيضاً ليس بشيء.

وأحسنُ الأوجه ما ذكرناه أولاً. وذكر بعضُهم أنَّ الدار عَلَمٌ بالغلبة على المدينة، كالمدينة، وأنه أحدُ أسماءٍ لها، منها: طيبةُ وطابةُ ويثربُ وجابرةُ، إلى غير ذلك. وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم حديثاً مرفوعاً يدلُّ على ذلك[2].

---

(١) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ١/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠ وعجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. ونسبه الفراء لبعض بني أسد. وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٢) وهو قوله ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء، وهي المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار». الدر المنثور ٦/ ١٩٥، وورد فيه تسعة أسماء لا عشرة!.

﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: من قبل المهاجرين؛ والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تبوؤوا»، والكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: من قبل هجرتهم، فنهايةُ ما يلزمُ سَبْق إيمان[1] الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزمُ منه سَبْقُ إيمانهم على إيمانهم ليقال: إنَّ الأمرَ بالعكس.

وجُوِّزَ أن لا يقدَّرَ مضافٌ، ويقال: ليس المراد سَبْقَ الأنصار لهم في أصل الإيمان، بل سَبْقَهم إياهم في التمكُّن فيه؛ لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه.

وقيل: الكلامُ على التقديم والتأخير، والتقديرُ: تبوؤوا الدارَ من قبلهم والإيمانَ، فيفيدُ سَبْقَهم إياهم في تبوُّؤ الدار فقط. وهو خلافُ الظاهر، على أنَّ مثله لا يُقبَلُ ما لم يتضمَّنْ نكتةً سَرِيَّةٍ، وهي غيرُ ظاهرةٍ هاهنا.

وقيل: لا حاجةَ إلى شيءٍ مما ذكر، وقصارى ما تدلُّ الآيةُ عليه تقدُّم مجموع تبوُّؤ الأنصار وإيمانهم على تبوُّؤ المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقدم المجموع تقدُّم بعض أجزائه، وهو هاهنا تبوُّؤ الدار.

وتُعقِّبَ بمنع الكفاية، ولو سلِّمتْ لَصَحَّ أن يقال بتقدُّم المهاجرين وإيمانهم، على تبوُّؤ الأنصار وإيمانهم؛ لتقدُّم إيمان المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ في موضع الحال من الموصول، وقيل: استئنافٌ، والكلامُ قيل: كنايةٌ عن مواساتهم المهاجرين وعدمِ الاستثقال والتبرُّم منهم إذا احتاجوا إليهم، وقيل: على ظاهره، أي: يُحبُّون المهاجرَ إليهم من حيثُ مهاجرته إليهم لِحُبِّهم الإيمان.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ﴾ أي: ولا يعلمون في أنفسهم ﴿حَاجَةٗ﴾ أي: طلب محتاج إليه ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: مما أُعطيَ المهاجرون من الفيء وغيره، وحاصله أنَّ نفوسَهم لم تتبع ما أُعطيَ المهاجرون، ولم تطمحْ إلى شيءٍ منه تحتاج إليه، فالوجدان إدراكٌ علميٌّ، وكونه في الصَّدرِ من باب المجاز. و«الحاجةُ» بمعنى المحتاج إليه، وهو استعمالٌ شائعٌ، يقال: خُذْ منه حاجتك، وأعطاه من ماله

---

(١) في (م): الإيمان.

حاجته، و«من» تبعيضية، وجُوِّزَ كونُها بيانية، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ وهو «طلب»، وفيه فائدةٌ جليلةٌ، كأنهم لم يتصوَّروا ذلك ولا مرَّ في خاطرهم أنَّ ذلك محتاجٌ إليه حتى تطمحَ إليه النفس.

ويجوز أن يكون المعنى: لا يجدون في أنفسهم ما يَحملُ عليه الحاجة كالحزازة والغيظ والحسد والغِبطة لأجل ما أُعطي المهاجرون، على أنَّ الحاجةَ مجازٌ عمَّا يتسبَّبُ عنها، وقيل: على أنها كنايةٌ عمَّا ذُكر؛ لأنه لا ينفكُّ عن الحاجة، فأُطلق اسمُ اللازم على الملزوم. وما تقدَّم أولى، وقولُ بعضهم: أي أثر حاجةٍ، تقديرُ معنًى لا إعراب.

و«من» في قوله تعالى: (مِّمَّآ أُوتُوا۟) تعليلية.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يُقدِّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كلِّ شيءٍ من الطيِّبات، حتى إنَّ مَنْ كان عنده امرأتان، كان ينزلُ عن إحداهما ويزوِّجها واحداً منهم، ويجوزُ أن لا يعتبر مفعول «يؤثرون» خصوص المهاجرين، أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائي(١) وغيرهم عن أبي هريرة قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا رجلٌ يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله؟» فقام رجلٌ من الأنصار، وفي رواية: فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله. فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيفَ رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبيةُ العشاء فنوِّميهم، وتعالي فأطفئي السراجَ ونطوي الليلةَ لضيف رسول الله ﷺ، ففعلت، ثم غدا الضيفُ على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ الله الليلةَ من فلانٍ وفلانة» وأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ إلخ.

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الشعب» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أُهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة، فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَهُ أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعثُ به واحدٌ إلى

---

(١) البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤)، والترمذي (٣٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٨).

آخر حتى تداوله أهلُ سبعةِ أبيات، حتى رَجَعَ إلى الأول، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(١).

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجةٌ، من خَصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفُرَج والفُتوح، والجملةُ في موضع الحال، وقد تقدم وجهُ ذلك مراراً.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشُّحُّ: اللُّؤمُ، وهو أن تكونَ النفسُ كَزَّةً حريصةً على المنع، كما قال:

يمارسُ نفساً بين جنبيه كَزَّة إذا هَمَّ بالمعروف قالت له مهلا(٢)

وأُضيفَ إلى النفس لأنه غريزةٌ فيها، وأما البخل: فهو المنعُ نفسُهُ، وقال الراغب: الشُّحُّ: بُخْلٌ مع حِرْصٍ؛ وذلك فيما كان عادة(٣).

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قال: البخلُ أن يبخلَ الإنسانُ بما في يده، والشُّحُّ أن يَشِحَّ على ما في أيدي الناس(٤).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» والحاكم وصححه، وجماعة عن ابن مسعود: أنَّ رجلاً قال له: إني أخافُ أن أكونَ قد هَلَكْتُ؟! قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الآية، وأنا رجلٌ شحيحٌ لا يكادُ يخرُج مني شيءٌ. فقال له ابن مسعود: ليسَ ذاك بالشُّحِّ، ولكنه البخل، ولا خيرَ في البخل، وإنَّ الشُّحَّ الذي ذَكَرهُ الله تعالى: أن تأكلَ مالَ أخيك ظُلْماً(٥).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٥، والحاكم ٢/ ٤٨٣-٤٨٤، والبيهقي (٣٤٧٩). قال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٢) البيت في غرر الخصائص الواضحة ص٢٨٥ دون نسبة.

(٣) المفردات (شح).

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، والخبر فيه عن طاوس، وخبر الحسن غيره، وقد ورد في الدر قبله، فنسبته إليه وهم من المصنف رحمه الله، ولفظ الحسن: النظر إلى المرأة لا يملكها من الشح.

(٥) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٥٢٩-٥٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ ٩٨، والبيهقي (١٠٨٤١)، والحاكم ٢/ ٤٩٠.

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه[1] عن ابن عمر ﵄ أنه قال: ليس الشُّحُّ أن يمنعَ الرجلُ ماله، ولكنه البخلُ، إنما الشُّحُّ أن تطمحَ عينُ الرجل إلى ما ليس له.

ولم أرَ لأحدٍ من اللُّغويين شيئاً من هذه التفاسير للشُّحِّ، ولعلَّ المرادَ أنه البخلُ المتناهي، بحيث يبخلُ المتَّصِفُ به بمالِ غيره، أي: لا يَودُّ جُوْدَ الغير به، وتنقبضُ نفسُهُ منه، ويسعى في أن لا يكون، أو بحيثُ يبلغُ به الحِرْصُ إلى أن يأكلَ مالَ أخيه ظُلْماً، أو تطمحَ عينُهُ إلى ما ليس له، ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره. فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: «ومن يُوَقَّ» بشدِّ القاف[2]، وقرأ ابن عمر وابن أبي عبلة: «شِحَّ» بكسر الشين[3]، وجاء فيه لغة أيضاً، ومعنى الكلِّ واحد.

ومعنى الآية: ومن يُوقَ بتوفيق الله تعالى ومعونته شُحَّ نفسه حتى يخالفها فيما يغلبُ عليها من حُبِّ المال وبُغْضِ الإنفاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، الناجون من كلِّ مكروه. والجملةُ الشرطيةُ تذييلٌ حَسَنٌ، ومَدْحٌ للأنصار بما هو غايةٌ؛ لتناوله إياهم تناولاً أوليًّا، وفي الإفراد أولاً والجمع ثانياً رعايةٌ لِلَفْظِ «مَنْ» ومعناها، وإيماءٌ إلى قِلَّة المتَّصفينَ بذلك في الواقع عدداً، وكَثْرتهم معنًى:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ ... وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنا[4]

ويُفهمُ من الآية ذَمُّ الشُّحِّ جدًّا، وقد وردتْ أخبارٌ كثيرةٌ بذَمِّهِ، أخرج الحكيم الترمذيُّ وأبو يعلى وابن مردويه عن أنسٍ مرفوعاً: «ما محقَ الإسلامَ محقَ الشُّحِّ شيءٌ قط»[5].

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ١٩٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨. ونسبها في القراءات الشاذة ص١٥٤ لمحمد بن النضر القارئ.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر ٥/ ٢٨٨، والبحر ٨/ ٢٤٧.

(٤) البيت لابن دريد، وهو في شرح مقصورته للتبريزي ص١٨٤.

(٥) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، وهو في نوادر الأصول ص٢١٦، ومسند أبي يعلى (٣٤٨٨)، وفي إسناده: علي بن أبي سارة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٢: ضعيف.

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقيُّ في «الشعب»، والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ نار جهنَّم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمعُ الإيمانُ والشُّحُّ في قلب عبدٍ أبداً»(١).

وأخرج أبو داود والترمذيُّ ـ وقال: غريبٌ ـ والبخاريُّ في «الأدب» وغيرهم عن أبي سعيدٍ الخدري مرفوعاً: «خصلتان لا يجتمعان في جوفِ مسلمٍ: البخلُ وسوءُ الخلقْ(٢)».

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عدي والحاكم والخطيب عن أنس(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «خلقَ الله تعالى جنةَ عدنٍ، وغَرَسَ أشجارها بيده، ثم قال لها: انطقي. فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتِي وجلالي، لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأخرج أحمد والبخاريُّ في «الأدب» ومسلم والبيهقيُّ عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «اتقوا الظلم، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ قد أهلكَ مَنْ كان قبلكم، حملهم على أنْ سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم»(٤). إلى غير ذلك من الأخبار، لكن ينبغي أن يُعلَمَ أن تقوى الشُّحّ لا تتوقَّفُ على أن يكونَ الرجلُ جواداً بكلِّ شيءٍ، فقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى والطبراني والضياء عن مجمع بن يحيى[عن خالد بن زيد الأنصاري] مرفوعاً: «بَرِئَ من الشُّحِّ مَنْ أدَّى الزكاةَ، وقَرَى الضيفَ، وأدَّى في النائبة»(٥).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، والنسائي في الكبرى (٤٣٠٣)، والبيهقي في السنن ٩/ ١٦١، وفي الشعب (٤٢٥٧)، والحاكم ٢/ ٧٢. وهو عند أحمد (٨٤٧٩) (٨٥١٢).

(٢) الترمذي (١٩٦٢)، والبخاري في الأدب (٢٨٢). ولم نقف عليه عند أبي داود.

(٣) ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٣٧، والحاكم ٢/ ٣٩٢، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: بل ضعيف.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، وأحمد (١٤٤٦١)، والبخاري في الأدب (٤٨٣)، ومسلم (٢٥٧٨)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣٢).

(٥) أخرجه من طريق أبي يعلى ابنُ حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢، وهو في المعجم الكبير =

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما يقربُ منه[١]، وكذا ابن جرير والبيهقيُّ عن أنس[٢].

وأخرج ابن المنذر عن عليٍّ كرَّمَ الله تعالى وجهه قال: مَنْ أدى زكاةَ ماله، فقد وُقيَ شُحَّ نفسه[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عَطْفٌ عند الأكثرين أيضاً على «المهاجرين»، والمراد بهؤلاء قيل: الذين هاجروا حين قويَ الإسلام، فالمجيءُ حِسِّيٌّ، وهو مجيئهم إلى المدينة، وضمير «من بعدهم» للمهاجرين الأولين، وقيل: هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، فالمجيءُ إما إلى الوجود، أو إلى الإيمان، وضمير «من بعدهم» للفريقين المهاجرين والأنصار، وهذا هو الذي يدلُّ عليه كلامُ عمر رضي الله عنه، وكلامُ كثيرٍ من السلف كالصريح فيه، فالآيةُ قد استوعبتْ جميعَ المؤمنين.

وجملة قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ، حاليةٌ، وقيل: استئنافٌ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ أي: في الدين الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهم من النسب ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وَصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ أي: حقداً، وقُرئ «غِمْراً»[٤]. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ أي: مبالغٌ في الرأفة والرحمة، فحقيقٌ بأن تجيب دعاءنا.

وفي الآية حَثٌّ على الدعاء للصحابة، وتصفيةِ القلوب من بُغْضِ أحدٍ منهم، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وجماعة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُمروا أن

= (٤٠٩٧)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، وما بين حاصرتين من المصادر، وإسناده حسن كما في الإصابة ٣/ ٥٨، لكنه مرسل كما قال ابن حبان.

(١) وأخرجه الطبراني في الصغير (١٢٦)، وقال في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨: فيه يحيى بن زكريا الوقار، وهو ضعيف.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٣٠-٥٣١، والشعب (١٠٨٤٢)، وفي إسناده إسماعيل بن عياش، وهو مخلِّط في روايته عن غير أهل بلده، وهذا الحديث منها.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٩٦.

(٤) وهي قراءة الأعمش، ينظر المحتسب ٢/ ٣١٨، والكشاف ٤/ ٨٥.

يستغفروا لأصحاب النبيِّ ﷺ، فسبُّوهم، ثم قرأتْ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو﴾ إلخ[١].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر ﵄ أنه سمع رجلاً وهو يتناولُ بعضَ المهاجرين، فدعاه، فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار أفمنهم أنت؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: لا، والله ليس من هؤلاء مَنْ سَبَّ هؤلاء[٢].

وفي رواية أنَّ ابنَ عمر ﵁ بلغه أنَّ رجلاً نالَ من عثمان ﵁، فدعاه فقرأ عليه الآيات وقال له ما قال.

وقال الإمام مالك: مَنْ كان له في أحدٍ من الصحابة ﵃ قولٌ سيئٌ أو بُغْضٌ، فلا حَظَّ له في الفيء؛ أَخْذاً من هذه الآية[٣].

وفيها ما يدلُّ على ذَمِّ الغِلِّ لأحدٍ من المؤمنين، وفي حديثٍ أخرجه الحكيمُ الترمذيُّ والنسائيُّ عن أنسٍ ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال في أيامٍ ثلاثة: «يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة» فطلعَ فيها رجلٌ من الأنصار، فباتَ معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاثَ ليالٍ مستكشفاً حاله، فلم يَرَ له كثيرَ عملٍ، فأخبره الخبرَ، فقال له: ما هو إلا ما رأيتَ غيرَ أني لا أجدُ في نفسي غِلًّا لأحدٍ من المسلمين، ولا أحسده على خيرٍ أعطاه الله تعالى إياه، فقال له عبد الله: هذه التي بلغتْ بك، وهي التي لا نطيق[٤].

وفي رواية أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأُخذتْ مني لم أحزنْ عليها، ولو أُعطِيتُها لم أفرحْ بها، وأَبِيتُ وليس في قلبي غِلٌّ على أحدٍ، فقال عبد الله: لكني

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٨، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩٨.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.
(٤) النسائي في الكبرى (١٠٦٣٣)، وهو عند أحمد (١٢٦٩٧).

أقومُ الليلَ وأصومُ النهارَ، ولو وهبتْ لي شاةٌ لفرحتُ بها، ولو ذهبتْ لحزنتُ عليها، والله لقد فضَّلكَ الله تعالى علينا فَضْلاً بيِّناً[(١)].

هذا وذهب بعضُهم إلى أنَّ قوله تعالى: «والذين تبوَّؤوا» إلخ مبتدأ، وجملةُ «يُحبُّون» إلخ خبره، والكلامُ استئنافٌ مسوقٌ لمدح الأنصار، وجُوِّزَ كونُ ذلك معطوفاً على «أولئك» فيفيدُ شِرْكةَ الأنصار للمهاجرين في الصِّدق، وجملةُ «يُحبُّون» إلخ إما استئنافٌ مقرِّرٌ لصِدْقهم، أو حالٌ من ضمير «تبوَّؤوا»، وإلى أنَّ قوله تعالى: «والذين جاؤوا» إلخ مبتدأ؛ وجملة «يقولون» إلخ خبره، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة السابقة، مسوقةٌ لمدح هؤلاء بمحبَّتهم مَنْ تقدَّمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأُخوَّة في الدين، والسَّبْق بالإيمان، كما أنَّ ما عُطفتْ عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار.

واستُدلَّ لعدم عَطْفِ «الذين تبوَّؤوا» على «المهاجرين» بما روي أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قسمَ أموالَ بني النضير على المهاجرين، ولم يُعطِ الأنصارَ إلا ثلاثة كما تقدم، وقال عليه الصلاة والسلام لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم من هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم ديارُكم وأموالكم، ولم يُقسمْ لكم شيءٌ من الغنيمة»، فقالوا: بل نقسمُ لهم - أي: المهاجرين - من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلى آخره[(٢)].

وبعضُ القائلين بالعَطْف يقولون: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ إلخ بيانٌ لحكم الأخماس الأربعة، على معنى أنَّ له عليه الصلاة والسلام أن يعمَّ الناسَ بها حَسَبَ اختياره، وأنَّ الأنصارَ مَصْرِفٌ من المصارف، ولكن قد اختارَ ﷺ أن يكونَ إعطاؤهم بالشرط الذي ذكره عليه الصلاة والسلام لهم، وهم اختاروا ما اختاروا إيثاراً منهم، وذلك لا يُخرجهم عن كونهم مَصْرِفاً، بل في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٩، وهو في نوادر الأصول ص١٨٢.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٨٤. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٦٦: ذكره الثعلبي هكذا بغير سند.

أَنفُسِهِمْ) رمزٌ إليه، على أنَّ في الأخبار ما هو أَصحُّ وأصرحُ في الدلالة على عَطْفهم على ما تقدم، وأنهم يُعطَون من الفيء، وكذا عَطْفُ «الذين جاؤوا من بعدهم» فقد أخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن حبان وغيرهم عن مالك بن أوس بن الحدثان في حديثٍ طويلٍ أنَّ عمر رضي الله عنه قال ـ أي: في قضاءٍ بين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وعَمِّه العباس رضي الله عنه في فَدَك، وقد كان عمرُ دفعها إليهما وأخذَ عليهما عَهْدَ الله تعالى على أن يعملا فيها بما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعمل به فيها، فتنازعا ـ: إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، ثم قال سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى آخر الآية، ثم والله ما أعطاها هؤلاء وَحْدَهم حتى قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثم والله ما جعلها لهؤلاء وَحْدهم حتى قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فقسمها هذا القَسْمَ على هؤلاء الذين ذكر، ولئن بقيتُ ليأتينَّ الرُّويعيَّ بصنعاءَ حَقُّهُ ودمه في وجهه(١).

وظاهر هذا الخبر يقتضي أنَّ للمهاجرين سَهْماً غير السهام السابقة، فلا يكون «للفقراء» بدلٌ من «لذي القربى» وما بعده، ولا مما بعده دونه، وكذا ظاهر ما في مصحف عبد الله وزيد بن ثابت كما أخرجه ابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن الأعمش: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين في سبيل الله»، على أنَّ الإبدالَ يقتضي ظاهراً كونَ اليتامى مهاجرين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، إلى آخر الصفات، وفي صدْقِ ذلك عليهم بُعْدٌ، وكذا يقتضي كون ابن السبيل كذلك، وفيه نوعُ بُعْدٍ أيضاً كما لا يخفى، فلعلَّه اعتبر تعلُّقه بفعلٍ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ

---

(١) البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٤)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣٤)، وابن حبان (٦٦٠٨)، وهو عند أحمد (٤٢٥).

بيانيٌّ، وذلك أنهم كانوا يعلمون أنَّ الخمسَ يُصرَفُ لمن تضمَّنه قوله تعالى: (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ) فلما ذُكر ذلك انقدَح في أذهانهم أنَّ المذكورينَ مصرفُ الخمس، ولم يعلموا مصرفَ الأخماس الأربعة الباقية، فكأنهم قالوا: فلمنْ تكونُ الأخماسُ الأربعةُ الباقية؟ أو: فلمن يكونُ الباقي؟ فقيل: تكونُ الأخماسُ الأربعة الباقية ـ أو يكون الباقي ـ للفقراء المهاجرين. . إلى آخره. ولم أرَ مَنْ تعرَّضَ لذلك، فتأمل، والله تعالى الهادي إلى أحسن المسالك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ حكايةٌ لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيبٌ منها، بعدَ حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم. والخطابُ لرسول الله عليه الصلاة والسلام، أو لكلِّ أحدٍ ممن يصلحُ للخطاب، والآيةُ ـ كما أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس ـ نزلت في رَهْطٍ من بني عوف، منهم عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، ووديعةُ بن مالك، وسويدٌ، وداعسٌ، بعثوا إلى بني النضير بما تضمَّنته الجمل المحكية بقوله تعالى: «يقولون» إلخ[(١)].

وقال السديُّ: أسلم ناسٌ من بني قريظة والنضير، وكان فيهم منافقون، فبعثوا إلى بني النضير ما قصَّ الله تعالى. والمعوَّل عليه الأول.

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئنافٌ لبيانِ المتعجَّب منه، وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته، واللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للتبليغ؛ والمرادُ بأُخُوَّتهم: الأخوَّةُ في الدين واعتقادِ الكفرة، أو الصداقةُ، وكَثُرَ جَمْعُ الأخ ـ مراداً به ما ذكر ـ على: إخوان، ومراداً به الأخوة في النسب على: إخوة، وقلَّ خلافُ ذلك.

واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم؛ وقوله سبحانه: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جوابُ القَسَم، أي: والله لئن أُخرجتم من دياركم قَسْراً، لنخرجنَّ من ديارنا معكم ألبتة، ونذهبنَّ في صُحْبتكم أينما ذهبتم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٩.

في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعنا من الخروج معكم، وهو لدفع أن يكونوا وَعَدُوهم الخروجَ بشرط أن يمنعوا منه ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان.

وقيل: لا نُطيعُ في قتالكم أو خِذْلانكم، قال في «الإرشاد»: وليس بذاك؛ لأنَّ تقديرَ القتال مترقَّبٌ بعدُ، ولأنَّ وَعْدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرَّد عدمِ طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم، بل نصرتهم عليه كما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لنعاوننَّكم على عدوِّكم، على أنَّ دعوتَهم إلى خِذلان اليهود مما لا يمكنُ صدوره عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حتى يدعوا عدمَ طاعتهم فيها، ضرورةَ أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنُصْرتهم وإظهار كُفْرهم، ولا ريبَ في أنَّ ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم، لا دعوتُهم إلى تَرْك نُصرتهم، وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر، لجواز أن يدَّعوا أنَّ خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة في الدين[1]. ونوقش في ذلك. وجواب «إنْ» محذوفٌ، و«لننصرنكم» جوابُ قَسَم محذوف قبل «إن» الشرطية، وكذا يقال فيما بعدُ على ما هو القاعدة المشهورة فيما إذا تقدَّم القَسَمُ على الشرط.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مواعيدهم المؤكَّدة بالأيمان.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ إلى آخره تكذيبٌ لهم في كلِّ واحدٍ من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم في الكلِّ على الإجمال.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمرُ كذلك.

والإخبارُ عن خُلْفهم في الميعاد قيل: من الإخبار بالغيب، وهو من أدلة النبوَّة وأحد وجوه الإعجاز. وهذا مبنيٌّ على أنَّ السورةَ نزلت قبل وقعة بني النضير، وكلامُ أهل الحديث والسِّيَر ـ على ما قيل ـ يدلُّ على خلافه.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ قوله تعالى: «يقولون... لئن أخرجتم» إلخ من باب الإخبار بالغيب بناءً على ما روي أنَّ عبد الله بن أُبَيّ دَسَّ إليهم لا يخرجوا، فأَطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام على ما دَسَّهُ.

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٠.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ أي: المنافقون ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فراراً ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بعد ذلك، أي: يُهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو: ليولنَّ، أي: اليهودُ المفروضةُ نصْرةُ المنافقين إياهم ولَيَنْهَزِمُنَّ، ثم لا ينفعهم نصرةُ المنافقين.

وقيل: الضميرُ المرفوع في «نصروهم» لليهود، والمنصوبُ للمنافقين، أي: ولئن نَصَرَ اليهودُ المنافقين ليولِّي اليهودُ الأدبارَ. وليس بشيء، وكأنه دعا قائلَه إليه دَفْعُ ما يتوهَّمُ من المنافاة بين «لا ينصرونهم» و«لئن نصروهم» على الوجه السابق، وقد أشرنا إلى دَفْع ذلك من غير حاجةٍ إلى هذا التوجيه الذي لا يخفى حاله.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مرهوبية، على أنَّ «رهبةً» مصدرٌ من المبني للمفعول؛ لأنَّ المخاطَبين ـ وهم المؤمنون ـ مرهوبٌ منهم لا راهبون. ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رهبتُهم منكم في السِّرِّ أشدُّ مما يظهرونه لكم من رهبة الله عزَّ وجلَّ، وكانوا يُظهرون لهم رهبةً شديدةً من الله عزَّ وجلَّ.

ويجوز أن يُرادَ: إنهم يخافونكم في صدورهم أشدّ من خوفهم من الله تعالى، ولشدَّة البأس والتشجُّع ما كانوا يُظهرون ذلك. قيل: إنَّ «في صدورهم» على الوجه الأول مبالغةٌ وتصويرٌ على نحوِ: رأيته بعيني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من كونكم أشدَّ رهبةً في صدورهم من الله تعالى ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ شيئاً حتى يعلموا عظمةَ الله عزَّ وجلَّ، فيخشوه حقَّ خشيته سبحانه وتعالى. والمراد بهؤلاء اليهود، وقيل: المنافقون، وقيل: الفريقان.

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهود والمنافقون، وقيل: اليهود، يعني: لا يقتدرون على قتالكم ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين مُتَّفقين في موطنٍ من المواطن. ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ونحوها ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يتستَّرون بها دون أن يصحروا لكم[١] ويبارزوكم؛ لِقَذْفِ الله تعالى الرعبَ في قلوبهم ومزيد رهبتهم منكم.

---

(١) يصحروا لكم: يبرزوا لكم. القاموس المحيط (صحر).

وقرأ أبو رجاء والحسن وابن وثّاب: «جُذْر» بإسكان الدال تخفيفاً، ورُويتْ عن ابن كثيرٍ وعاصمٍ والأعمش[١].

وقرأ أبو عمرو وابن كثير في الرواية المشهورة، وكثيرٌ من المكيين: «جدارٍ» بكسر الجيم وألفٍ بعد الدال[٢]، وهي مفردُ: الجدر، والقصد فيه إلى الجنس، أو المراد به السُّور الجامعُ للجُدُر والحيطان.

وقرأ جمعٌ من المكيين، وهارون عن ابن كثير: «جَدْر» بفتح الجيم وسكون الدال[٣]، قال صاحب «اللوامح»: وهو الجدار بلغة اليمن. وقال ابن عطية: معناه أصلُ بنيان كـ: سُوْرٍ وغيره، ثم قال: ويحتملُ أن يكون من جَدر النخل، أي: من وراء نخلهم؛ إذ هي مما يُتَّقى به عند المصافَّة[٤].

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئنافٌ سِيْقَ لبيان أنَّ ما ذُكِرَ من رهبتهم ليس لضعفهم وجُبْنهم في أنفسهم، فإنَّ بأسَهم إذا اقتتلوا شديدٌ، وإنما ضَعْفُهم وجُبْنهم بالنسبة إليكم بما قَذَفَ الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين ذوي أُلْفةٍ واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ جمع: شتيت، أي: متفرقةٌ لا أُلفةَ بينها، يعني: أنَّ بينهم إِحَناً وعداواتٍ فلا يتعاضدون حقَّ التعاضد، ولا يرمونَ عن قوسٍ واحدة، وهذا تجسيرٌ للمؤمنين وتشجيعٌ لقلوبهم على قتالهم.

وقرأ مبشر بن عبيد: «شتًّى» بالتنوين[٥]، جَعَلَ الألفَ ألفَ الإلحاق، وعبد الله: «وقلوبهم أَشَتّ»[٦] أي: أكثر ـ أو: أشدُّ ـ تفرُّقاً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٥، والمحرر ٥/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ٢٤٩.

(٢) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر ٥/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩. ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٢٤٩، ووقع في مطبوع المحرر: عند المضايقة. بدل: عند المصافة.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٤٩.

(٦) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذُكر من تشتُّت قلوبهم بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ شيئاً حتى يعلموا طُرُقَ الألفة وأسبابَ الاتفاق.

وقيل: لا يعقلون أنَّ تشتُّتَ القلوب مما يُوهِنُ قواهم المركوزة فيهم بحَسَبِ الخِلْقة، ويُعينُ على تدميرهم واضمحلالهم. وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: مثلهم، أي: مَثَلُ المذكورين من اليهود بني النضير، أو منهم ومن المنافقين كمَثَل أهل بدر ـ كما قال مجاهد ـ أو كبني قينقاع ـ كما قال ابن عباس ـ وهم شَعْبٌ من اليهود الذين كانوا حوالي المدينة، غزاهم النبيُّ ﷺ يومَ السبت على رأس عشرين شهراً من الهجرة في شوال، قبل غزوة بني النضير، حيثُ كانت في ربيع سنة أربعٍ، وأجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أَذْرعات على ما فُصِّلَ في كتب السِّيَر.

وقيل: أي: مَثَلُ هؤلاء المنافقين كمَثَل منافقي الأمم الماضية.

﴿قَرِيبًا﴾ ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوءَ عاقبة كُفْرهم في زمنٍ قريبٍ من عصيانهم، أي: لم تتأخَّر عقوبتهم، وعُوقبوا في الدنيا إثْرَ عصيانهم.

وقيل: انتصاب «قريباً» بـ «مَثَل»، إذ التقديرُ: كوقوع مَثَلِ الذين.

وتُعقِّبَ بأنَّ الظاهرَ أنه أُريد أنَّ في الكلام مضافاً هو العامل حقيقةً في الظرف، إلا أنه لمّا حُذِفَ عَمِلَ المضاف إليه فيه لقيامه مقامه، ولا يخفى أن المعنى ليس عليه؛ لأنَّ المرادَ تشبيهُ المَثَل بالمَثَل ـ أي: الصفة الغريبة لهؤلاء بالصفة الغريبة للذين من قبلهم ـ دون تشبيه المثل بوقوع المثل.

وأُجيب بأنَّ الإضافةَ من إضافة الصِّفة إلى موصوفها، فيرجعُ التشبيهُ إلى تشبيهِ المثل بالمثل، فكأنه قيل: مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذين من قبلهم الواقع قريباً.

وفيه أنَّ ذلك التقدير ركيكٌ، وما ذُكر لا يدفعُ الركاكة، والقولُ بتقدير مضافٍ في جانب المبتدأ أيضاً، أي: وقوعُ مثلهم كوقوع مثل الذين من قبلهم قريباً، فيكون قد شُبِّهَ وقوعُ المثل بوقوع المثل = تعسُّفٌ لا ينبغي أن يُرتَكَبَ في الفصيح.

وقيل: إنَّ العاملَ فيه التشبيه، أي: يُشبهونهم في زمنٍ قريب. وقيل: متعلّقُ الكاف؛ لأنه يدلُّ على الوقوع. وكلا القولين كما ترى.

ولا يبعدُ تعلُّقه بما تعلَّقتْ به الصلة، أعني: «من قبلهم»، أي: الذين كانوا من قبلهم في زمنٍ قريبٍ، فيفيدُ أنَّ قَبْليَّتهم قَبْليَّةٌ قريبةٌ، ويلزمُ من ذلك قُرْبُ ما فُعل بهم، وهو المثل، ويكونُ هذا مَطْمَح النظر في الإفادة، ويتضمَّنُ تعييرهم بأنهم كانت لهم في أهل بدر أو بني قينقاع أسوةٌ، فبعدُ لم ينطمسْ آثارُ ما وقع بهم، وهو كذلك على تقدير الوقوع ونحوه.

وجملة «ذاقوا» مفسِّرةٌ للمَثَل لا محلَّ لها من الإعراب، ويتعيَّنُ تعلُّقُ «قريباً» بما بعدُ على تقدير أن يُرادَ بمن قبل منافقو الأمم الماضية، فتدبَّر.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه، والجملة قيل: عَطْفٌ على الجملة السابقة، وإن اختلفتا فعلية واسمية، وقيل: حالٌ مقدَّرةٌ من ضمير «ذاقوا». وأيًّا ما كان فهو داخلٌ في حَيِّز المثل، وقيل: عَطْفٌ على جملة «مَثَلُهم كَمَثَلِ الذين من قبلهم» ولا يخفى بُعْدُه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ جعله غيرُ واحدٍ خبرَ مبتدأ محذوف أيضاً، أي: مَثَلُهم كَمَثَلِ الشيطان، على أنَّ ضمير «مَثَلُهم» هاهنا للمنافقين، وفيما تقدَّم لبني النضير، وقال بعضُهم: ضميرُ «مثلهم» المقدَّر في الموضعين للفريقين. وجعله بعضُ المحقِّقين خبراً ثانياً للمبتدأ المحذوف في قوله تعالى: «كمثل الذين» على أنَّ الضميرَ هناك للفريقين، إلا أنَّ المَثَلَ الأولَ يخصُّ بني النضير، والثاني يخصُّ المنافقين، وأُسند كلٌّ من الخبرين إلى ذلك المقدَّر المضافِ إلى ضميرهما من غير تعيينِ ما أُسند إليه بخصوصه، ثقةً بأنَّ السامعَ يَرُدُّ كلًّا إلى ما يليق به ويماثله، كأنه قيل: مَثَلُ أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم، كَمَثَلِ الذين من قبلهم، ومَثَلُ المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نُقِلَ عنهم كَمَثَلِ الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: أغراه على الكفر إغراءَ الآمِر للمأمور به، فهو تمثيلٌ واستعارة.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ تبرّأً منه مخافَةَ أن يُشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أبدَ الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الخلودُ في النار ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ على الإطلاق دون المذكورين خاصة.

والجمهورُ على أنَّ المرادَ بالشيطان والإنسان الجنسُ، فيكونُ التبرِّي يومَ القيامة، وهو الأوفق بظاهر قوله: «إني أخاف» إلخ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ بالشيطان إبليس، وبالإنسان أبو جهل عليهما اللعنة، قال له يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨]، فلمّا وقعوا فيما وقعوا قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]، وفي الآية عليه - مع ما تقدم عن مجاهد - لطيفةٌ؛ وذلك أنه لما شَبَّهَ أولاً حالَ إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدرٍ، شَبَّه هنا حالَ المنافقين بحال الشيطان في قصة أهل بدر.

ومعنى «اكفر» على تخصيص الإنسان بأبي جهل: دُمْ على الكُفْر، عند بعض، وقال الخفاجيُّ: لا حاجةَ لتأويله بذلك؛ لأنه تمثيل(١).

وأخرج أحمد في «الزهد»، والبخاري في «تاريخه»، والبيهقي في «الشعب»، والحاكم وصححه(٢)، وغيرهم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ رجلاً كان يتعبَّدُ في صومعته، وأنَّ امرأةً كانت لها إخوةٌ، فَعَرَضَ لها شيءٌ، فأتَوه بها، فزيَّنتْ له نفسُهُ، فوقع عليها، فحملتْ، فجاءه الشيطانُ فقال: اقتلها، فإنهم إن ظهروا عليك افتُضِحتَ. فقتلها ودفنها، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيَّنتُ لك، فاسجْد لي سجدةً أُنجِّيكَ. فسجد له، أي: ثم تبرَّأَ منه، وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية، وهذا الرجل هو برصيصا الراهب، وقد رُويتْ قِصَّته على وجهٍ أكثر تفصيلاً

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٨٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩٩، والبخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، والبيهقي في الشعب (٥٤٥٠)، والحاكم ٢/ ٤٨٤-٤٨٥.

مما ذُكر، وهي مشهورةٌ في القصص[١]، وفي «البحر»[٢]: إنَّ قولَ الشيطان: «إني أخاف الله» كان رياء، وهو لا يمنعه الخوف عن سوءٍ يُوقع فيه ابنَ آدم.

وقرئ: «أنا بريء»[٣]. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم: «فكان عاقبتُهما» بالرفع[٤] على أنه اسم «كان»، و«أنهما» إلخ في تأويل مصدرٍ خبرها على عكس قراءة الجمهور.

وقرأ عبد الله وزيد بن عليٍّ والأعمشُ وابن أبي عبلةَ: «خالدان» بالألف[٥] على أنه خبرُ «أنَّ»، و«في النار» متعلِّقٌ به، وقُدِّمَ للاختصاص، وفيها تأكيدٌ له وإعادةٌ بضميره، وجُوِّزَ أن يكون «في النار» خبر «أنَّ»، و«خالدان» خبراً ثانياً، وهو في قراءة الجمهور حالٌ من الضمير في الجارِّ والمجرور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما تأتون وتذرون ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: أيّ شيءٍ قدَّمتْ من الأعمال ليوم القيامة، عبَّر عنه بذلك لدنُوه دنوَّ الغد من أَمْسه، أو لأنَّ الدنيا كيومٍ والآخرةَ غَدُهُ، يكون فيها أحوالٌ غيرُ الأحوال السابقة، وتنكيره لتفخيمه وتهويله، كأنه قيل: لغدٍ لا يُعرَفُ كُنْهه؛ لغايةِ عِظَمه، وأما تنكير «نفس» فلاستقلال الأنفس النواظر، كأنه قيل: ولتنظر نفسٌ واحدةٌ في ذلك، وفيه حَثٌّ عظيمٌ على النظر، وتعييرٌ بالترك، وبأنَّ الغفلةَ قد عمَّتِ الكلَّ، فلا أحد خَلُصَ منها، ومنه ظهر ـ كما في «الكشف» ـ أنَّ جَعْله من قبيل قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] غيرُ مطابقٍ للمقام، أي: فهو كما في الحديث: «الناسُ كإبلٍ مئة، لا تجدُ فيها راحلة»[٦]، لأنَّ الأمرَ بالنظر وإن عمَّ، لكنَّ المؤتمر الناظر أقلّ من القليل، والمقصودُ بالتقليل هو هذا؛ لأنَّ المأمورَ لا ينظر إليه ما لم يأتمر.

---

(١) ينظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٤٨، والطبري ٢٢/٥٤٣، والبغوي ٤/٣٢٢-٣٢٤.
(٢) ٨/ ٢٥٠.
(٣) الكشاف ٤/٨٦.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٦) أخرجه أحمد (٤٥١٦)، ومسلم (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وجوَّزَ ابنُ عطيةَ أن يُراد بغدٍ يوم الموت[١]. وليس بذاك.

وقرأ أبو حيوة ويحيى بن الحارث: «ولِتنظر» بكَسْر اللام، وروي ذلك عن حفصٍ عن عاصم[٢]. وقرأ الحسنُ بكَسْرها وفتح الراء[٣]، جَعَلَها لامَ «كي»، وكأن المعنى: ولكي تنظرَ نفسٌ ما قدَّمتْ لغدٍ أَمَرنا بالتقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات كما يُشعرُ به ما بعده من الأمر بالعمل، وهذا في تَرْك المحارم كما يُؤذن به الوعيد بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ أي: من المعاصي، وهذا الوجهُ الثاني أرجحُ لفَضْلِ التأسيس على التأكيد، وفي ورود الأمرين مطلَقَين من الفخامة ما لا يخفى.

وقيل: إنَّ التقوى شاملةٌ لتَرْك ما يؤثم، ولا وجهَ وجيه للتوزيع، والمقام مقام الاهتمام بأمرها، فالتأكيدُ أولى وأقوى. وفيه مَنْعٌ ظاهرٌ، وكيف لا والمتبادر من «ما قدَّمت» أعمال الخير. كذا قيل، ولعلَّ مَنْ يقولُ بالتأكيد يقول: إنَّ قوله سبحانه: (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ) إلخ يتضمَّنُ الوعدَ والوعيدَ، ويُعمّم «ما قدمت» أيضاً، ولعلك مع هذا تميلُ للتأسيس.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: نسوا حقوقه تعالى شأنه، وما قدروا الله حقَّ قَدْره، ولم يُراعوا مواجبَ أمره سبحانه ونواهيه عزَّ وجلَّ حقَّ رعايتها ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾ الله تعالى بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: جعلهم سبحانه ناسين لها، حتى لم يسعوا بما ينفعها، ولم يفعلوا ما يُخلِّصها، أو أراهم جلَّ جلاله يومَ القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم، أي: أراهم أمراً هائلاً وعذاباً أليماً، ونسيانُ النفس حقيقةً قيل: مما لا يكون؛ لأنَّ العلمَ بها حضوريٌّ، وفيه نظرٌ، وإن نصَّ عليه ابنُ سينا وأشياعه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ الكاملون في الفسوق.

وقرأ أبو حيوة: «ولا يكونوا»[٤] بياء الغَيبة على سبيل الالتفات، وقال ابن

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥٠.

(٤) المصدر السابق.

عطية: كنايةٌ عن نفسٍ المراد بها الجنس[1].

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله تعالى، فاستحقُّوا الخلود في النار ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين اتقوا الله، فاستحقوا الخلودَ في الجنة، ولعلَّ تقديمَ أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي يُنبئ عنه عدمُ الاستواء، من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإنَّ مفهومَ عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونقصاناً، وإن جاز اعتباره بحَسَب زيادة الزائد، لكنَّ المتبادرَ اعتباره بحسب نقصان الناقص؛ وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] إلى غير ذلك.

ولعلَّ تقديمَ الفاضل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] لأنَّ صفتَه مَلَكةٌ لصفة المفضول، والأعدامُ مسبوقةٌ بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء عدمُ الاستواء في الأحوال الأخروية كما يُنبئُ عنه التعبيرُ عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فإنه استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية عدم الاستواء بينهما، أي: هم الفائزون في الآخرة بكلِّ مطلوبٍ الناجونَ عن كلِّ مكروه.

والآيةُ تنبيهٌ للناس وإيذانٌ بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فِكْرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات الزائلة، كأنهم لا يعرفونَ الفَرْقَ بين الجنة والنار، والبونَ العظيمَ بين أصحابهما، وأنَّ الفوزَ مع أصحاب الجنة، فمن حَقِّهم أن يعلموا ذلك ويُنبَّهوا عليه، وهذا كما تقول لمن عَقَّ أباه: هو أبوكَ، تجعله بمنزلة مَنْ لا يعرفه، فتنبِّههُ على حَقِّ الأُبوَّةِ الذي يقتضي البرَّ والتعطُّفَ. ومما ذُكر يُعلَمُ ضَعْفُ استدلال أصحاب الشافعيِّ ﷺ بالآية على أنَّ المسلمَ لا يُقتَلُ بالكافر، وأنَّ الكفارَ لا يملكون أموالَ المسلمين بالقهر. وانتُصِر لهم بأنَّ لهم أن يقولوا: لَمَّا حَثَّ سبحانه على التقوى فعلاً وتَرْكاً، وزَجَرَ عزَّ وجلَّ عن الغفلة التي تضادّها غاية المضادَّة، بذِكْرِ غايتها، أعني: نسيان الله تعالى ترشيحاً للتقريع، أردفه سبحانه بأنَّ أصحابَ التقوى وأصحابَ هذه الغفلة لا يستوون في شيءٍ ما، وعبَّرَ عنهم

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١.

بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادةَ تصويرٍ وتبيين، فالمقامُ يقتضي التباين في حُكْمَي الدارين، وإن كان المقصودُ بالقصد الأول تباينهم في الدار التي هي المدار، وأنت تعلمُ أنَّ بيانَ اقتضاء المقام ذلك في مقابلة قول أصحاب أبي حنيفة: إنَّ المقامَ يقتضي التخصيص، وإلا فالشافعيةُ يقولون: إنَّ العمومَ مدلولُ نفي المساواة لغة؛ لأنَّ النفيَ داخلٌ على مسمَّى المساواة، فلا بدَّ من انتفائها من جميع الوجوه؛ إذ لو وُجدتْ من وجهٍ لما كان مسمَّاها منتفياً، وهو خلافُ مقتضى اللفظ، وقول الحنفية: إنَّ الاستواءَ مطلقاً أعمُّ من الاستواء من كلِّ وجهٍ، ومن وجهٍ دون وجه، والنفيُ إنما دَخَلَ على الاستواء الأعمّ، فلا يكونُ مُشعِراً بأحد القِسْمين الخاصَّين، وحاصله أنَّ الأعمَّ لا يُشعِرُ بالأخصِّ، فيه أنَّ ذلك في الإثبات مُسلَّمٌ وفي النفي ممنوع، ألا ترى أنَّ مَنْ قال: ما رأيتُ حيواناً، وكان قد رأى إنساناً مثلاً، عُدَّ كاذباً؟.

وتمامُ ذلك في كتب الأصول، والإنصافُ أنَّ كونَ المراد هنا نفيُ الاستواء في الأمور الأُخروية ظاهرٌ جدًّا، فلا ينبغي الاستدلالُ بها على ما ذكر.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطويَ على فنون القوارع ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، أو جبلٍ عظيمٍ ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقِّقاً منها.

وقرأ طلحة(١): «مُصَّدِّعاً» بإدغام التاء في الصاد، وهذا تمثيلٌ وتخييلٌ لعلوِّ شأن القرآن، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر، والغرضُ توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه، وقِلَّة تخشُّعه عند تلاوة القرآن وتدبُّر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أُنزل على جبلٍ وقد رُكِّبَ فيه العقلُ لَخَشَعَ وتصدَّع، ويُشير إلى كونه تمثيلاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ فإنَّ الإشارةَ فيه إلى قوله تعالى: «لو أنزلنا» إلخ وإلى أمثاله، فالكلامُ بتقدير وقوع تلك، أو المراد: تلك وأشباهها، والأمثالُ في الأغلب تمثيلاتٌ متخيَّلةٌ.

---

(١) في الأصل (م): أبو طلحة، وهو خطأ، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط ٨/ ٢٥١ وهو طلحة بن مصرف كما في المحرر.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو ما لم يتعلَّق به عِلْمُ مخلوقٍ وإحساسُهُ أصلاً، وهو الغيبُ المطلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما يُشاهده مخلوق. قال الراغب: الشهود والشهادة: الحضورُ مع المشاهدة؛ إما بالبصرِ أو بالبصيرة، وقد يُعتبرُ الحضورُ مفرداً، لكنَّ الشهودَ بالحضور المجردِ أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى(١).

وحَمْلُ الغيبِ على المطلق هو المتبادر، و«أل» فيه للاستغراق؛ إذ لا قرينةَ للعهد، ومقامُ المدح يقتضيه مع قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيشملُ كلَّ غيبٍ واجباً كان أو ممكناً، موجوداً أو معدوماً، أو ممتنعاً لم يتعلَّق به عِلْمُ مخلوق، ويُطلقُ الغيبُ على ما لم يتعلَّق به عِلمُ مخلوقٍ معيَّنٍ، وهو الغيبُ المضاف، أي: الغيبُ بالنسبة إلى ذلك المخلوق، وهو على ما قيل: مرادُ الفقهاء في قولهم: مُدَّعي علم الغيب كافرٌ، وهذا قد يكونُ من عالم الشهادة كما لا يخفى، وذِكْرُ الشهادة مع أنه إذا كان كلُّ غيبٍ معلوماً له تعالى كان كلُّ شهادةٍ معلوماً له سبحانه بالطريق الأولى من باب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقيل: الغيبُ: ما لا يقعُ عليه الحِسُّ من المعدوم أو الموجود الذي لا يُدرَك، والشهادةُ ما يقع عليه الإدراك بالحسِّ.

وقال الإمام أبو جعفر رضي الله عنه: الغيبُ: ما لم يكن، والشهادةُ: ما كان.

وقال الحسن: الغيبُ: السِّرُّ. والشهادةُ: العلانية.

وقيل: الأول الدنيا بما فيها. والثاني الآخرةُ بما فيها.

وقيل: الأولُ: الجواهرُ المجرَّدةُ وأحوالها. والثاني: الأجرامُ والأجسام وأعراضها. وفيه أنَّ في ثبوت المجرَّدات خلافاً قويًّا، وأكثرُ السلف على نفيها.

وتقديمُ الغيب؛ لأنَّ العلمَ به كالدليل على العلم بالشهادة، وقيل: لتقدُّمه على الشهادة، فإنَّ كلَّ شهادةٍ كان غيباً، وما برز ما برز إلا من خزائن الغيب، وصاحب

(١) المفردات (شهد).

القِيل الأخير يقول: إنَّ تقديمَ الغيب لتقدُّمه في الوجود وتعلُّق العلم القديم به.

واستدلّ بالآية على أنه تعالى عالمٌ بجميع المعلومات، ووَجْهُه ما أشرنا إليه، وتتضمَّنُ على ما قيل دليلاً آخر عليه؛ لأنها تدلُّ على أنه لا معبودَ إلا هو، ويلزمه أن يكون سبحانه خالقاً لكلِّ شيءٍ بالاختيار، كما هو الواقع في نفس الأمر، والخلق بالاختيار يستحيلُ بدون العلم، ومن هنا قيل: الاستدلالُ بها على هذا المطلب أولى من الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ برحمةٍ تليقُ بذاته سبحانه، والتأويل وإن ذكره علماءُ أجلَّاءُ من الماتريدية والأشاعرة، لا يحتاج إليه سلفيٌّ كما حُقِّقَ في التميز وغيره.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُرِّرَ لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المتصرِّفُ بالأمر والنهي، أو المالك لجميع الأشياء، الذي له التصرُّف فيها، أو الذي يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، ويستحيلُ عليه الإذلال، أو الذي يُولِّي ويعزلُ، ولا يتصوَّرُ عليه توليةٌ ولا عزلٌ، أو المنفرد بالعِزِّ والسلطان، أو ذو المُلْكِ والمُلْكُ خَلْقُهُ، أو القادرُ، أقوالٌ حكاها الآمديُّ(١)، وحكى الأخيرَ عن القاضي أبي بكر.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغُ في النزاهة عمَّا يُوجبُ نقصاناً، أو الذي له الكمالُ في كلِّ وَصْفٍ اختصَّ به، أو الذي لا يُحَدُّ ولا يُتصوَّرُ.

وقرأ أبو السمال وأبو دينار الأعرابي: «القَدُّوس» بفتح القاف(٢)، وهو لغةٌ فيه، لكنها نادرة، فقد قالوا: فُعول بالضَّمِّ كثير، وأما بالفتح فيأتي في الأسماء؛ كَسَمُّور وتَنُّور وهَبُّود ـ اسمُ جبلٍ باليمامة ـ وأما في الصفات فنادرٌ جدًّا، ومنه: سَبُّوح، بفتح السين.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كلِّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغة، وعن الجبائي: هو الذي تُرجى منه السلامة، وقيل: أي: الذي يُسلِّمُ على أوليائه فيَسْلَمون من كلِّ مخوف.

---

(١) في كتابه أبكار الأفكار ٢/ ٥٠٤-٥٠٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحتسب ٢/ ٣١٧.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ قيل: المصدِّقُ لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلَّغوه عنه سبحانه؛ إما بالقول أو بخَلْقِ المعجزة، أو واهبُ عبادهِ الأمنَ من الفزع الأكبر، أو مؤمِّنُهم منه؛ إما بخَلْق الطمأنينة في قلوبهم، أو بإخبارهم أن لا خوفَ عليهم.

وقيل: مؤمِنُ الخلقِ من ظُلْمه، وقال ثعلب: المصدِّقُ المؤمنينَ في أنهم آمنوا، وقال النحاس: في شهادتهم على الناس يومَ القيامة[1]. وقيل: ذو الأمنِ من الزوال لاستحالته عليه سبحانه، وقيل غير ذلك.

وقرأ الإمامُ أبو جعفر محمدُ بن عليّ بن الحسين ﵄ - وقيل: أبو جعفر المدني ـ: «المؤمَن» بفتح الميم[2] على الحذف والإيصال كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: المؤمَن به.

وقال أبو حاتم: لا يجوزُ إطلاقُ ذلك عليه تعالى؛ لإيهامه ما لا يليق به سبحانه؛ إذ المؤمَنُ المطلَقُ مَنْ كان خائفاً وآمنه غيرُه[3]. وفيه أنه متى كان ذلك قراءةً ـ ولو شاذَّة ـ لا يصحُّ هذا؛ لأنَّ القراءةَ ليست بالرأي.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ، مُفَيعِلٌ من الأَمْن بقلب همزته هاءً، وإليه ذهب غيرُ واحد، وتحقيقه كما في «الكشف» أنَّ أيْمَنَ على فَيْعَلَ مبالغةُ أمِن العدوَّ، للزيادة في البناء، وإذا قلت: أمِن الراعي الذئبَ على الغنم مثلاً، دلَّ على كمال حفظه ورقبته، فالله تعالى أمِنَ كلَّ شيءٍ سواه سبحانه على خَلْقه ومُلْكه؛ لإحاطة علمه وكمال قدرته عزَّ وجلَّ، ثم استعمل مجرد الدلالة بمعنى الرقيب والحفيظ على الشيء من غير ذِكْرِ المفعُول بلا واسطةٍ للمبالغة في كمال الحِفْظ كما قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وجَعْلُهُ من ذاك أولى من جَعْله من الأمانة، نظراً إلى أنَّ الأمينَ على الشيء حافظٌ له؛ إذ لا يُنبئُ عن المبالغة ولا عن شمول العلم والقدرة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/ ٨٧، والبحر ٨/ ٢٥١، والكلام منه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥١.

وجَعَلَه في «الصحاح»[1] اسم فاعل من آمنه الخوفَ على الأصل، فأُبدلت الهمزةُ الأصليةُ ياءً كراهةَ اجتماع الهمزتين، وقُلبت الأولى هاءً كما في: هَرَاق الماء. وقولهم في إياك: هيّاك، كأنه تعالى بحفظه المخلوقين صَيَّرهم آمنين، وحرفُ الاستعلاء كـ «مهيمناً عليه» لتضمين معنى الاطّلاع ونحوه. وأنت تعلم أنَّ الاشتقاقَ على ما سمعت أولاً أدلُّ، والخروج عن القياس فيه أقلّ.

وظاهرُ كلام «الكشف» أنه ليس من التصغير في شيء، وقال المبرد: إنه مُصغَّرٌ. وخُطِّئَ في ذلك، فإنه لا يجوزُ تصغيرُ أسمائه عزَّ وجلَّ.

﴿ٱلْعَـزِيزُ﴾ الغالب. وقيل: الذي لا مِثْلَ له، وقيل: الذي يُعذِّبُ من أراد. وقيل: الذي عليه ثوابُ العاملين. وقيل: الذي لا يُحَطُّ عن منزلته. وقيل غيرُ ذلك.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَرَ خَلْقَهُ على ما أراد وقَسَرَهم عليه، ويقال في فِعْله: أَجْبَرَ، وأمثلةُ المبالغة تُصاغُ من غير الثلاثي، لكن بِقِلَّةٍ، وقيل: إنه من جَبَره بمعنى أَصلحه، ومنه: جبرتُ العظمَ فانجبر، فهو الذي جَبَر أحوالَ خَلْقه، أي: أصلحها. وقيل: هو المنيعُ الذي لا يُنال، يقال للنخلة إذا طالت وقَصُرَت عنها الأيدي: جبَّارة، وقيل: هو الذي لا يُنافَسُ في فعله، ولا يُطالَبُ بعِلَّةٍ ولا يُحْجَرُ عليه في مقدوره. وقال ابن عباس: هو العظيم. وقيل غير ذلك.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغُ الكبرياء والعظمة؛ لأنه سبحانه بريءٌ من التكلُّف الذي تُؤذن به الصيغة، فيرجعُ إلى لازمه من أنَّ الفعلَ الصادرَ عن تأنُّقٍ أقوى وأبلغ، أو الذي تكبَّرَ عن كلِّ ما يُوجب حاجةً أو نقصاناً.

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تنزيهٌ لله تعالى عمَّا يشركون به سبحانه، أو عن إشراكهم به عزَّ وجلَّ، إثر تعداد صفاته تعالى التي لا يمكن أن يُشارَك سبحانه في شيءٍ منها أصلاً.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾ المقدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة، أو مبدِعُ الأشياء من غير أصلٍ ولا احتذاء، ويُفسَّرُ الخلقُ بإيجاد الشيء من الشيء.

---

(١) مادة (همن).

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئةً من تفاوت ما تقتضيه بحسب الحكمة والجِبِلَّة، وقيل: المميِّز بعضها عن بعضٍ بالأشكال المختلفة.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصُوَرها وكيفياتها كما أراد.

وقال الراغب: الصورة ما تَنتقش بها الأعيان، وتتميَّزُ بها عن غيرها، وهي ضَرْبان: محسوسةٌ تُدركها العامة والخاصة، بل الإنسانُ وكثيرٌ من الحيوانات؛ كصورة الفرس المشاهَدة. ومعقولةٌ تدركها الخاصةُ دون العامة؛ كالصورة التي اختُصَّ الإنسانُ بها من العقل والرَّويَّة، والمعاني التي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] إلى آياتٍ أُخَر(١). انتهى فلا تغفل.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وحاطبُ بن أبي بلتعة والحسن وابن السَّميفع: «المصوَّرَ» بفتح الواو والنصب(٢) على أنه مفعول للبارئ، وأُريد به جنس المصوَّر.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه فَتْحُ الواو وكَسْرُ الراء(٣) على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، نحو: الضارب الغلام.

وفي «الخانية»: إنَّ قراءة «المصوَّر» بفتح الواو هنا تُفسدُ الصلاة. ولعله أراد إذا أجراهُ حينئذٍ على الله سبحانه، وإلا ففي دعوى الفساد بعد ما سمعتَ نظرٌ.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على محاسن المعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات بلسان الحال لِمَا تضمَّنته من الحِكَم والمصالح التي يضيقُ عن حَصْرها نطاقُ البيان، أو بلسان المقال الذي أُوتيه كلٌّ منها حسبما يليقُ به على ما قاله كثيرٌ من العارفين، وقد تقدَّم الكلام فيه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ الجامعُ للكمالات كافة، فإنها مع تكثُّرها وتشعُّبها راجعةٌ إلى كمال القدرة المؤذن به «العزيز» بناءً على تفسيره بالغالب، وإلى كمال

(١) المفردات (صور).

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/ ٨٧-٨٨، والبحر ٨/ ٢٥١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥١.

العلم المؤذن به «الحكيم» بناءً على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة، وفي ذلك إشارةٌ إلى التحلية بعد التخلية كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فتأمل ولا تغفل.

ولهذه الآيات فضلٌ عظيمٌ كما دلَّتْ عليه عِدَّةُ روايات، وأخرج الإمام أحمد والدارميُّ والترمذيُّ وحسنه والطبرانيُّ وابن الضُّريس والبيهقيُّ في «الشعب» عن معقل بن يسار عن النبيِّ ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاثَ مرَّاتٍ: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاثَ آياتٍ من آخر سورة الحشر، وَكَّلَ الله به سبعينَ ألفَ ملكٍ يُصلُّون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم ماتَ شهيداً، ومَنْ قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة(١)».

وأخرج الديلميُّ عن ابن عباس مرفوعاً: «اسمُ الله الأعظم في سِتِّ آيات من آخر سورة الحشر(٢)».

وأخرج أبو عليٍّ عبدُ الرحمن بن محمد النيسابوريُّ في «فوائده» عن محمد بن الحنفية أنَّ البراء بن عازب قال لعليِّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصَّكَ به رسول الله عليه الصلاة والسلام، مما خَصَّه به جبريلُ، مما بعثَ به الرحمنُ عزَّ وجلَّ. قال: يا براء، إذا أردتَ أن تدعوَ اللهَ باسمه الأعظم، فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر، ثم قلْ: يا من هو هكذا وليس شيءٌ هكذا غيره، أسألك أن تفعلَ لي كذا وكذا، فو الله يا براء لو دعوتَ عليَّ لخسف بي(٣).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، وأحمد (٢٠٣٠٦)، والدارمي (٣٤٢٥)، والترمذي (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٢٢٩ (٥٣٧)، وفي الدعاء (٣٠٨)، وفضائل القرآن لابن الضريس (٢٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٢)، وإسناده ضعيف كما ذكر محققو المسند، وتحسين الترمذي لم يرد في مطبوعه ولا في تحفة الأشراف ٨/ ٤٦٥، ولا في تفسير ابن كثير حيث ذكره آخر هذه السورة. وينظر تحفة الأحوذي ٨/ ٢٤٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، ومسند الفردوس ١/ ٤١٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، وذكره في كنز العمال ٢/ ٢٤٨ عن ابن النجار بإسناده، وفيه عمرو بن ثابت، وهو متروك كما في المغني في الضعفاء للذهبي ص٤٨٢.

وأخرج الديلميُّ[(١)] عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وابن مسعود ﷺ مرفوعاً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾ إلى آخر السورة: «هي رقيةُ الصداع».

وأخرج الخطيب البغداديُّ في «تاريخه»[(٢)] قال: أنبأنا أبو نعيم الحافظ[(٣)]، أنبأنا أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف بن جعفر المقرئ البغدادي ـ يُعرَفُ بغلام ابن شنبوذ ـ أنبأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأتُ على خلفٍ، فلما بلغتُ هذه الآية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على [سُليم، فلما بلغت هذه الآية. قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على] حمزةَ، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على الأعمش، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على يحيى بن وثّاب، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على علقمة والأسود، فلما بلغتُ هذه الآية قالا: ضَعْ يدك على رأسك، فإنَّا قرأنا على عبد الله ﷺ، فلما بلغنا هذه الآية قال: ضَعَا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأتُ على النبيِّ ﷺ، فلما بلغتُ هذه الآية قال لي: «ضَعْ يدكَ على رأسك، فإنَّ جبريلَ عليه السلام لما نزل بها إليَّ قال: ضَعْ يدك على رأسك، فإنها شفاءٌ من كلِّ داءٍ إلا السَّام، والسَّامُ: الموت»[(٤)] إلى غير ذلك من الآثار، والله تعالى أعلم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، ومسند الفردوس ٣/ ٢٢٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٠١، وتاريخ بغداد ١/ ٣٧٧، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٣) في الأصل و(م): أبو عبيد الحافظ، والمثبت من الدر المنثور وتاريخ بغداد، وهو الصواب، وقد أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٥٤.

(٤) قال الذهبي: حديث باطل، وما في إسناده متهم إلا شيخ أبي نعيم أبو الطيب، فهو الآفة. ينظر تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٥.

(٦٠) سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ

● هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تهتم بجانب التشريع ومحورُ السورة يدور حول فكرة « الحب والبغض في الله » الذي هو أوثق عرى الايمان وقد نزل صدر السورة عتاباً لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم أن رسول ﷺ قد تجهز لغزوهم ، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرؤهم من المشركين .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ..﴾ الآيات .

● **ثم بينت** السورة أن القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة لن تنفع الأنسان أبداً يوم القيامة حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ..﴾ الآيات

● **ثم ضربت** المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، حين تبرءوا من قومهم المشركين ، ليكون ذلك حافزاً لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قد كانت لكم اسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ...﴾ الآيات .

● **وتحدثت** السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ..﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ..﴾ الآيات .

● **وبينت** السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة ، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن ، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر ، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن ..﴾ الآيات وقوله ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله ، ليتناسق الكلام في البدء والختام .

سورة الممتحنة

[٩٢١] أخرج الشيخان(١) عن علي قال بعثنا رسول الله [ﷺ] أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به»** فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: اخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصيها فأتينا به رسول الله [ﷺ] فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي [ﷺ] فقال: **«ما هذا يا حاطب؟»** قال: لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب فيهم أن اتخذ يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر فقال النبي [ﷺ]: **«صدق»** وفيه نزلت هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾(٢).

[٩٢٢] وأخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتتني أمي راغبة فسألت النبي [ﷺ] أأصلها قال: **«نعم»** فأنزل الله فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(٣).

[٩٢٣] وأخرج أحمد والبزار والحاكم وصححه عن عبدالله بن الزبير: قال قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية فقدمت على بنتها بهدايا فأبت أسماء أن تقبل منها أو تدخلها منزلها حتى أرسلت

---

[٩٢١] (١) صحيح البخاري (٤/٧٢و ٥/٩٨)، ومسلم في صحيحه كتاب فضل الصحابة (١٦١) والترمذي في سننه (٣٣٠٥) وأبو داود (٢٦٥٠)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٧٩و ١٠٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٥/١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٤٦) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٠).

(٢) سورة الممتحنة: الآية (١).

[٩٢٢] (٣) سورة الممتحنة: الآية (٨).

إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله [ﷺ] فأخبرته فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(١) الآية.

[٩٢٤] وأخرج الشيخان عن المسوّر ومروان بن الحكم أن رسول الله [ﷺ] لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(٢).

[٩٢٥] ك.. وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد: قال هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهدنة فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله [ﷺ] وكلماه في أم كلثوم أن يردها إليهم فنقض الله العهد بينه وبين المشركين خاصة في النساء ومنع أن يرددن إلى المشركين فأنزل الله آية الامتحان.

[٩٢٦] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب أنه بلغه أنها نزلت في أميمة بنت بشر امرأة أبي حسان الدحداحة.

[٩٢٧] ك.. وأخرج عن مقاتل أن امرأة تسمى سعيدة كانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة جاءت زمن الهدنة فقالوا ردها علينا فنزلت.

[٩٢٨] ك.. وأخرج ابن جرير عن الزهري أنها نزلت عليه وهو بأسفل الحديبية وكان صالحهم أنه من أتاه رده إليهم فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية.

[٩٢٩] ك.. وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين فأنزل الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(٣).

[٩٣٠] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾(٤) الآية قال نزلت في أم الحكم بنت سفيان ارتدت فتزوجها رجل ثقفي ولم ترتد امرأة من قريش غيرها.

[٩٣١] ك.. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة

---

[٩٢٣] (١) سورة الممتحنة: الآية (٨).
[٩٢٤] (٢) سورة الممتحنة: الآية (١٠).
[٩٢٩] (٣) سورة الممتحنة: الآية (١٠).
[٩٣٠] (٤) سورة الممتحنة: الآية (١١).

(أو)[1] سعيد عن ابن عباس قال كان عبدالله بن عمر وزيد بن الحارث يوادان رجالاً من يهود فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[2] الآية.

* * *

---

[٩٣١] (١) بالأصل (وأبو).

(٢) سورة الممتحنة: الآية (١٣).

سورة الممتحنة

وهي ثلاث عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن من جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو أنهما يشتركان في بيان حال الرسول ﷺ مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن بعضهم أقدموا على الصلح واعترفوا بصدقه، ومن جملتهم بنو النضير، فإنهم قالوا: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته وصفته في التوراة، وبعضهم أنكروا ذلك وأقدموا على القتال، إما على التصريح وإما على الإخفاء، فإنهم مع أهل الإسلام في الظاهر، ومع أهل الكفر في الباطن، وأما تعلق الأول بالآخر فظاهر، لما أن آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها، وأول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات.

المسألة الثانية: أما سبب النزول فقد روي أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يتجهز للفتح ويريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل ذلك الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم، يقال لها سارة جاءت إلى النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فقال عليه السلام: «أَمُسْلِمَةٌ جِئْتِ؟» قالت: لا، قال: «أَمُهَاجِرَةٌ جِئْتِ؟» قالت: لا، قال: «فَمَا جَاءَ بِكِ؟» قالت: قد ذهب الموالي يوم بدر أي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردًا واستحملها ذلك الكتاب إلى أهل مكة، فخرجت سائرة، فأطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك، فبعث عليًا وعمر وعمارًا وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان، فأدركوها وسألوها عن ذلك فأنكرت وحلفت، فقال علي عليه السلام: والله ما كذبنا، ولا كذب رسول الله، وسل سيفه، فأخرجته من عقاص شعرها، فجاءوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فعرضه على حاطب فاعترف، وقال: إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم، وقد علمت أن الله تعالى ينزل

بأسه عليهم، فصَدَّقه وقبل عذره، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «مَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ لَعَلَّ اللَّه تَعَالَى قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَهُمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَفَاضَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فنزلت(١)، وأما تفسير الآية فالخطاب في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قد مر، وكذلك في الإيمان أنه في نفسه شيء واحد وهو التصديق بالقلب أو أشياء كثيرة وهي الطاعات، كما ذهب إليه المعتزلة، وأما قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ فاتخذ يتعدى إلى مفعولين، وهما عدوي وأولياء، والعَدُوفَعُول من عَدَا، كعَفُو من عفا، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد، والعداوة ضد الصداقة، وهما لا يجتمعان في محل واحد، في زمان واحد، من جهة واحدة، لكنهما يرتفعان في مادة الإمكان، وعن الزجاج والكرابيسي ﴿عَدُوِّى﴾ أي عدو ديني، وقال عليه السلام: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» وقال عليه السلام لأبي ذر: «يا أبا ذر أي عرا الْإِيمَانِ أَوْثَقُ، فَقَالَ اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ الْمُوَالَاةُ فِي اللَّه وَالْحُبُّ فِي اللَّه وَالْبُغْضُ فِي اللَّه» وقوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿تُلْقُونَ﴾ بماذا يتعلق، نقول: فيه وجوه: الأول: قال صاحب النظم: هو وصف النكرة التي هي أولياء، قاله الفراء، والثاني: قال في الكشاف: يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالاً من ضميره، وأولياء صفة له، الثالث: قال ويجوز أن يكون استئنافًا، فلا يكون صلة لأولياء، والباء في المودة كهي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥] والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، ويدل عليه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

المسألة الثانية: في الآية مباحث: الأول: اتخاذ العدو وليًّا كيف يمكن، وقد كانت العداوة منافية للمحبة والمودة، والمحبة والمودة من لوازم ذلك الاتخاذ، نقول: لا يبعد أن تكون العداوة بالنسبة إلى أمر، والمحبة والمودة بالنسبة إلى أمر آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] والنبي ﷺ قال: «أولادنا أكبادنا» الثاني: لما قال: ﴿عَدُوِّى﴾ فلم لم يكتف به حتى قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ لأن عدو الله إنما هو عدو المؤمنين؟ نقول: الأمر لازم من هذا التلازم، وإنما لا يلزم من كونه عدوًّا للمؤمنين أن يكون عدوًّا لله، كما قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، الثالث: لم قال: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولم يقل بالعكس؟ فنقول: العداوة بين المؤمن والكافر بسبب محبة الله تعالى ومحبة رسوله، فتكون محبة العبد من أهل الإيمان لحضرة الله تعالى لعلة، ومحبة حضرة الله تعالى للعبد لا لعلة، لِمَا أنه غني على الإطلاق، فلا حاجة به إلى الغير أصلاً، والذي لا لعلة مقدم على الذي لعلة، ولأن

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (غزوة الفتح) (٧/ ٥٩٢) حديث رقم (٤٢٧٤) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضائل بدر) (٤/ ١٦١/ ١٩٤١) كلاهما من طريق عمرو بن دينار . . . به.

الشيء إذا كان له نسبة إلى الطرفين، فالطرف الأعلى مقدم على الطرف الأدنى، الرابع: قال: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقل: وليًّا، والعدو والولي بلفظ، فنقول: كما أن المعرف بحرف التعريف يتناول كل فرد، فكذلك المعرف بالإضافة، الخامس: منهم من قال: الباء زائدة، وقد مر أن الزيادة في القرآن لا تمكن، والباء مشتملة على الفائدة، فلا تكون زائدة في الحقيقة.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟﴾ الواو للحال، أي وحالهم أنهم كفروا: ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ﴾ الدين ﴿ٱلْحَقِّ﴾، وقيل: من القرآن ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني من مكة إلى المدينة ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ أي لأن تؤمنوا ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ قال الزجاج: هو شرط جوابه متقدم وهو: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، وقوله: ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ منصوبان لأنهما مفعولان لهما، ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عن مقاتل بالنصيحة، ثم ذكر أنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فقال: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من المودة للكفار ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي أظهرتم، ولا يبعد أن يكون هذا عامًّا في كل ما يخفى ويعلن، قال بعضهم: هو أعلم بسرائر العبد وخفاياه وظاهره وباطنه، من أفعاله وأحواله، وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ يجوز أن تكون الكناية راجعة إلى الإسرار، وإلى الإلقاء، وإلى اتخاذ الكفار أولياء، لما أن هذه الأفعال مذكورة من قبل، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه وجهان: الأول: عن ابن عباس: أنه عدل عن قصد الإيمان في اعتقاده، وعن مقاتل: قد أخطأ قصد الطريق عن الهدى.

ثم في الآية مباحث: الأول: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلق بلا تتخذوا، يعني لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي، و﴿تُسِرُّونَ﴾ استئناف، معناه: أي طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي. **الثاني:** لقائل أن يقول: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ الآية، قضية شرطية، ولو كان كذلك فلا يمكن وجود الشرط، وهو قوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ بدون ذلك النهي، ومن المعلوم أنه يمكن، فنقول: هذا المجموع شرط لمقتضى ذلك النهي، لا للنهي بصريح اللفظ، ولا يمكن وجود المجموع بدون ذلك لأن ذلك موجود دائمًا، فالفائدة في ابتغاء مرضاتي ظاهرة، إذ الخروج قد يكون ابتغاء لمرضاة الله وقد لا يكون. **الثالث:** قال تعالى: ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ ولم يقل: بما أسررتم وما أعلنتم، مع أنه أليق بما سبق وهو ﴿تُسِرُّونَ﴾، فنقول فيه من المبالغة ما ليس في ذلك، فإن الإخفاء أبلغ من الإسرار، دل عليه قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي أخفى من السر. **الرابع:** قال: ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ قدم العلم بالإخفاء على الإعلان، مع أن ذلك مستلزم لهذا من غير عكس. فنقول هذا بالنسبة إلى علمنا، لا بالنسبة إلى علمه تعالى، إذ هما سيان في علمه كما مر، ولأن المقصود هو بيان ما هو الأخفى وهو الكفر، فيكون مقدمًا.

الخامس: قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ ما الفائدة في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ ومن المعلوم أن من فعل هذا الفعل ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ نقول: إذا كان المراد من ﴿مِنكُمْ﴾ من المؤمنين فظاهر، لأن من يفعل ذلك الفعل لا يلزم أن يكون مؤمنًا.

قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

ثم إنه أخبر المؤمنين بعداوة كفار أهل مكة فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ﴾ في غاية العداوة، وهو قول ابن عباس، وقال مقاتل: يظهروا عليكم يصادقوكم ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾ بالشتم ﴿وَوَدُّواْ﴾ أن ترجعوا إلى دينهم، والمعنى أن أعداء الله لا يخلصون المودة لأولياء الله لما بينهم من المباينة ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ لما عوتب حاطب على ما فعل اعتذر بأن له أرحامًا - وهي القرابات والأولاد - فيما بينهم، وليس له هناك من يمنع عشيرته، فأراد أن يتخذ عندهم يدًا ليحسنوا إلى من خَلَفهم بمكة من عشيرته، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم، وتتقربون إليهم مخافة عليهم، ثم قال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم فيدخل أهل الإيمان الجنة، وأهل الكفر النار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي بما عمل حاطب. **ثم في الآية مباحث:**

الأول: ما قاله صاحب الكشاف: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ كيف يورد جواب الشرط مضارعًا مثله، ثم قال: ﴿وَوَدُّواْ﴾ بلفظ الماضي نقول: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم. **الثاني:** ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف لأي شيء، قلنا لقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أو يكون ظرفًا ليفصل وقرأ ابن كثير: (يُفْصَلُ) بضم الياء وفتح الصاد، و﴿يَفْصِلُ﴾ على البناء للفاعل وهو الله، و(نَفْصِلُ) بالنون. **الثالث:** قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولم يقل: خبير، مع أنه أبلغ في العلم بالشيء، والجواب: أن الخبير أبلغ في العلم والبصير أظهر منه فيه، لما أنه يجعل عملهم كالمحسوس بحس البصر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾

اعلم أن الأسوة ما يؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به، يقال: هو أسوتك، أي أنت مثله وهو

مثلك، وجمع الأسوة أسى، فالأسوة: اسم لكل ما يقتدى به، قال المفسرون: أخبر الله تعالى أن إبراهيم وأصحابه تبرءوا من قومهم وعادوهم، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾، وأمر أصحاب رسول الله ﷺ أن يأتسوا بهم وبقولهم، قال الفراء: يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم في التبرئة من أهله في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وهو مشرك، وقال مجاهد: نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفرون للمشركين، وقال مجاهد وقتادة: ائتسوا بأمر إبراهيم كله إلا في استغفاره لأبيه، وقيل: تبرءوا من كفار قومكم فإن لكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه من المؤمنين في البراءة من قومهم، لا في الاستغفار لأبيه، وقال ابن قتيبة: يريد أن إبراهيم عاداهم وهجرهم في كل شيء إلا في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وقال ابن الأنباري: ليس الأمر على ما ذكره، بل المعنى قد كانت لكم أسوة في كل شيء فعله، إلا في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه يقول له: ما أغنى عنك شيئًا، ولا أدفع عنك عذاب الله إن أشركت به، فوعده الاستغفار رجاء الإسلام، وقال ابن عباس: كان من دعاء إبراهيم وأصحابه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية، أي في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ رجعنا بالتوبة عن المعصية إليك إذ المصير ليس إلا إلى حضرتك. **وفي الآية مباحث:**

الأول: لقائل أن يقول: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ ما الفائدة في قوله: ﴿وَحْدَهُۥٓ﴾ والإيمان به وبغيره من اللوازم، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥] فنقول: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، من لوازم الإيمان بالله وحده، إذ المراد من قوله: ﴿وَحْدَهُۥٓ﴾ هو وحده في الألوهية، ولا نشك في أن الإيمان بألوهية غيره، لا يكون إيمانًا بالله، إذ هو الإشراك في الحقيقة، والمشرك لا يكون مؤمنًا.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ استثناء من أي شيء هو، نقول: من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لما أنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به، ويتخذوه سنة يستنون بها.

الثالث: إن كان قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مستثنى من القول الذي سبق وهو: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فما بال قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[الفتح: ١١] نقول: أراد الله تعالى استثناء جملة قوله لأبيه، والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده مبني عليه وتابع له، كأنه قال: أنا أستغفر لك، وما وسعي إلا الاستغفار.

الرابع: إذا قيل: بم اتصل قوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ نقول: بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة، ويجوز أن يكون المعنى هو الأمر بهذا القول تعليمًا للمؤمنين وتتميمًا لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة، والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم تنبيهًا

على الإنابة إلى حضرة الله تعالى، والاستعاذة به.

الخامس: إذا قيل: ما الفائدة في هذا الترتيب؟ فنقول: فيه من الفوائد مالا يحيط به إلا هو، والظاهر من تلك الجملة أن يقال: التوكل لأجل الإفادة، وإفادة التوكل مفتقرة إلى التقوى قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] والتقوى الإنابة، إذ التقوى الاحتراز عما لا ينبغي من الأمور، والإشارة إلى أن المرجع والمصير للخلائق حضرته المقدسة ليس إلا، فكأنه ذكر الشيء، وذكر عقيبه ما يكون من اللوازم لإفادة ذلك كما ينبغي، والقراءة في ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ على أربعة أوجه: بُرَآء كشُرَكَاء، وبُرَّاء كظُرَّاف، وبُرَاء على إبدال الضم من الكسر كرُخَال، وبَرَاء على الوصف بالمصدر والبَرَاء والبَرَاءة، مثل الظَمَاء والظَمَاءة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ من دعاء إبراهيم. قال ابن عباس: لا تسلط علينا أعداءنا فيظنوا أنهم على الحق، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك، وقيل: لا تبسط عليهم الرزق دوننا، فإن ذلك فتنة لهم، وقيل: قوله ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾، أي عذابًا أي سببًا يعذب به الكفرة، وعلى هذا ليست الآية من قول إبراهيم. وقوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ الآية، من جملة ما مر، فكأنه قيل: لأصحاب محمد ﷺ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ثم أعاد ذكر الأسوة تأكيدًا للكلام، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي في إبراهيم والذين معه، وهذا هو الحث عن الائتساء بإبراهيم وقومه، قال ابن عباس: كانوا يبغضون من خالف الله ويحبون من أحب الله، وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الائتساء بهم ويميل إلى مودة الكفار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن مخالفة أعدائه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ إلى أوليائه. أما قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ فقال مقاتل: لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم والبراءة منهم فأنزل الله تعالى قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي من كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾ وذلك بميلهم إلى الإسلام ومخالطتهم مع أهل الإسلام ومناكحتهم إياهم. وقيل: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة، وكانت أم حبيبة قد أسلمت، وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة، فتنصر وراودها على النصرانية

فأبت، وصبرت على دينها، ومات زوجها، فبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فخطبها عليه، وساق عنه إليها أربعمائة دينار، وبلغ ذلك أباها فقال: ذَلِكَ الْفَحْلُ لاَ يُقْدَعُ أنفه[١]، و﴿عَسَى﴾ وعد من الله تعالى: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ يريد نفرًا من قريش آمنوا بعد فتح مكة، منهم أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، والله تعالى قادر على تقليب القلوب، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهم إذا تابوا وأسلموا، ورجعوا إلى حضرة الله تعالى، قال بعضهم: لا تهجروا كل الهجر، فإن الله مطلع على الخفيات والسرائر. ويروى: أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما.

ومن المباحث في هذه الحكمة هو أن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ إذا كان تأويله: لا تسلط علينا أعداءنا مثلاً، فلم ترك هذا، وأتى بذلك؟ فنقول: إذا كان ذلك بحيث يحتمل أن يكون عبارة عن هذا، فإذا أتى به فكأنه أتى بهذا وذلك، وفيه من الفوائد ما ليس في الاقتصار على واحد من تلك التأويلات.

الثاني: لقائل أن يقول: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ وقد كان الكلام مرتبًا إذا قيل: لا تجعلنا فتنة للذين كفروا إنك أنت العزيز الحكيم فنقول: إنهم طلبوا البراءة عن الفتنة، والبراءة عن الفتنة لا يمكن وجودها بدون المغفرة، إذ العاصي لو لم يكن مغفورًا كان مقهورًا بقهر العذاب، وذلك فتنة، إذ الفتنة عبارة عن كونه مقهورًا، و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ قد يكون بمعنى الحامد، وبمعنى المحمود، فالمحمود أي يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم، والحامد أي يحمد الخلق، ويشكرهم حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال.

ثم إنه تعالى بعدما ذكر من ترك انقطاع المؤمنين بالكلية عن الكفار رخص في صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار فقال:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

اختلفوا في المراد من ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ فالأكثرون على أنهم أهل العهد الذين عاهدوا رسول الله ﷺ على ترك القتال، والمظاهرة في العداوة، وهم خزاعة كانوا عاهدوا الرسول على أن لا يقاتلوه ولا يخرجوه، فأمر الرسول عليه السلام بالبر والوفاء إلى مدة أجلهم، وهذا قول

(١) لم أجده.

ابن عباس والمقاتلين والكلبي، وقال مجاهد: الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا، وقيل: هم النساء والصبيان، وعن عبد الله بن الزبير: أنها نزلت في أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها قتيلة عليها وهي مشركة بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فأمرها النبي ﷺ أَنْ تُدْخِلَهَا وَتَقْبَلَ مِنْهَا وَتُكْرِمَهَا وَتُحْسِنَ إِلَيْهَا (١)، وعن ابن عباس: أنهم قوم من بني هاشم منهم العباس أخرجوا يوم بدر كرهًا، وعن الحسن: أن المسلمين استأمروا رسول الله في أقربائهم من المشركين أن يصلوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل الآية في المشركين، وقال قتادة: نسختها آية القتال. وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ وكذلك ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ﴾ والمعنى: لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا رحمة لهم لشدتهم في العداوة، وقال أهل التأويل: هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين، وإن كانت الموالاة منقطعة، وقوله تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس يريد: بالصلة وغيرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يريد أهل البر والتواصل، وقال مقاتل: أن توفوا لهم بعهدهم وتعدلوا، ثم ذكر من الذين ينهاهم عن صلتهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ . . . ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ وفيه لطيفة: وهي أنه يؤكد قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة، إما أن يستمر عناده، أو يرجى منه أن يترك العناد، أو يترك العناد ويستسلم، وقد بيَّن الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال.

أما قوله تعالى:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]فهو إشارة إلى الحالة الأولى، ثم قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧]إشارة إلى الحالة الثانية، ثم قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ إشارة إلى الحالة الثالثة، ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الأخلاق، لأنه تعالى ما أمر المؤمنين في مقابلة تلك الأحوال الثلاث بالجزاء إلا بالتي هي أحسن، وبالكلام إلا بالذي هو أليق.

(١)لم أجده.

واعلم أنه تعالى سَمَّاهن مؤمنات لصدور ما يقتضي الإيمان وهو كلمة الشهادة منهن، ولم يظهر منهن ما هو المنافي له، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان، والامتحان هو الابتلاء بالحلف، والحلف لأجل غلبة الظن بإيمانهن، وكان رسول الله ﷺ يقول للممتحنة: «**باللَّه الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ مَا خَرَجْتِ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، باللَّه مَا خَرَجْتِ رَغْبَةً مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، باللَّه مَا خَرَجْتِ الْتِمَاسَ دُنْيَا، باللَّه مَا خَرَجْتِ إِلاَّ حُبًّا للَّه وَلِرَسُولِهِ**»[1] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ ﴾ منكم والله يتولى السرائر: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ ﴾ العلم الذي هو عبارة عن الظن الغالب بالحلف وغيره، ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ ﴾ أي تردوهن إلى أزواجهن المشركين، وقوله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ ﴾ أي أعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك أن الصلح عام الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة يرد إليهم، ومن أتى مكة منكم لم يرد إليكم، وكتبوا بذلك العهد كتابًا وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبي ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر المخزومي، وقيل: صيفي بن الراهب، فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا شرطًا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طية الكتاب لم تجف، فنزلت بيانًا لأن الشرط إنما كان للرجال دون النساء. وعن الزهري أنه قال: إنها جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي عاتق، فجاء أهلها يطلبون من رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم، وكانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد، فرد رسول الله ﷺ أخويها وحبسها فقالوا: ارددها علينا، فقال عليه السلام: «**كَانَ الشَّرْطُ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ**» وعن الضحاك: أن العهد كان إن يأتك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا، وإن دخلت في دينك ولها زوج ردت على زوجها الذي أنفق عليها، وللنبي ﷺ من الشرط مثل ذلك، ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد، واستحلفها الرسول عليه السلام فحلفت وأعطى زوجها ما أنفق، ثم تزوجها عمر، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ ﴾ أي مهورهن إذ المهر أجر البضع ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ والعصمة: ما يعتصم به من عهد وغيره، ولا عصمة بينكم وبينهن ولا علقة لنكاح كذلك، وعن ابن عباس أن اختلاف الدارين يقطع العصمة، وقيل: لا تقعدوا للكوافر، وقرئ: (تُمَسِّكُوا)، بالتخفيف والتشديد، و ﴿ تُمۡسِكُواْ ﴾ أي ولا تتمسكوا، وقوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ ﴾ وهو إذا لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ولم يدفعوها إليكم فعليهم أن يغرموا صداقها كما يغرم لهم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ ﴾ أي بين المسلمين والكفار، **وفي الآية مباحث:**

الأول: قوله: ﴿ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ﴾ أمر بمعنى الوجوب أو بمعنى الندب أو بغير هذا وذلك؟ قال

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤١٢) حديث رقم (٣٣٠٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب والحارث في (مسنده) (٢/ ٧٣٠) حديث رقم (٧٢٢) الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٣٢٥) والطحاوي في مشكل الآثار) (١٠/ ٤٠٤) حديث رقم (٤١٥٧) جميعًا من طريق الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس... فذكره وضعفه الألباني في (ضعيف الترمذي) (٣٥٣٩).

الواحدي: هو بمعنى الاستحباب. **الثاني:** ما الفائدة في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ وذلك معلوم من غير شك؟ نقول: فائدته بيان أن لا سبيل إلى ما تطمئن به النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب. **الثالث:** ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ويمكن أن يكون في أحد الجانبين دون الآخر؟ نقول: هذا باعتبار الإيمان من جانبهن ومن جانبهم إذ الإيمان من الجانبين شرط للحل ولأن الذكر من الجانبين مؤكد لارتفاع الحل، وفيه من الإفادة مالا يكون في غيره، فإن قيل: هب أنه كذلك لكن يكفي قوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ لأنه لا يحل أحدهما للآخر فلا حاجة إلى الزيادة عليه والمقصود هذا لا غير، نقول: التلفظ بهذا اللفظ لا يفيد ارتفاع الحل من الجانبين بخلاف التلفظ بذلك اللفظ وهذا ظاهر.

البحث الرابع: كيف سمى الظن علمًا في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾؟ نقول: إنه من باب أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم، وأن صاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ثم قال تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

روى عن الزهري ومسروق أن من حكم الله تعالى أن يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة إذا صارت إليهم، ويسأل الكفار من المسلمين مهر من صارت إلينا من نسائهم مسلمة، فأقر المسلمون بحكم الله وأبى المشركون فنزلت: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ أي سبقكم وانفلت منكم، قال الحسن ومقاتل: نزلت في أم حكيم بنت أبي سفيان ارتدت وتركت زوجها عباس بن تميم القرشي، ولم ترتد امرأة من غير قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام، وقوله تعالى: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فغنمتم، على قول ابن عباس ومسروق ومقاتل، وقال أبو عبيدة: أصبتم منهم عقبى، وقال المبرد ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فعلتم ما فعل بكل يعني ظفرتم، وهو من قولك: العقبى لفلان، أي العاقبة، وتأويل العاقبة الكرة الأخيرة، ومعنى عاقبتم: غزوتم معاقبين غزوًا بعد غزو، وقيل: كانت العقبى لكم والغلبة، فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا عليهن من المهر، وهو قوله: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، وقرئ: (فَأَعْقَبْتُم) و(فَعَقَّبْتُم) بالتشديد، و(فَعَقَبْتُم) بالتخفيف بفتح القاف وكسرها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

روي أن النبي ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا

وعمر أسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أُبَايِعُكُنَّ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكْنَ باللَّه شَيْئًا»، فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيناك أخذته على الرجال، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَلاَ تَسْرِقْنَ»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هناة فما أدري أتحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ»، قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال: «وَلاَ تَزْنِينَ»، فقالت: أتزني الحرة، وفي رواية ما زنت منهن امرأة قط، فقال: «وَلاَ تَقْتُلْنَ أَوْلاَدَكُنَّ»، فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال: «وَلاَ تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ»، وهو أن تقذف على زوجها ما ليس منه، فقالت هند: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ»، فقالت: واللَّه مَا جَلَسْنَا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك فِي شَيْءٍ[(١)].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال والنقصان من العبادة، فإنه يقال: أسرق من السارق من سرق من صلاته، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يحتمل حقيقة الزنا ودواعيه أيضًا على ما قال ﷺ: «الْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَالرِّجْلاَنِ وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[(٢)] وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد وغيره، وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ نهى عن النميمة أي لا تنم إحداهن على صاحبها فيورث

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (خروج النساء في العيد) (١/ ٢٩٦) حديث رقم (١١٣٩) من طريق إسحاق بن عثمان حدثني إسماعيل بن عبد الرحمن ابن عطية. . . به وابن حبان في (صحيحه) (٧/ ٣١٣) حديث رقم (٣٠٤١) من طريق إسحاق بن عثمان قال حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية. . . به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٨٥) من طريق إسحاق بن عثمان الكلابي. . . به والضياء في (الأحاديث المختارة) (١/ ٤٠٢) حديث رقم (٢٨٥) من طريق وكيع حدثنا إسحاق بن عثمان الكلابي حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية الأنصاري. . . به وقال: إسناده حسن وابن خزيمة في (صحيحه) (٣/ ١١٢) حديث رقم (١٧٢٢) من طريق إسحاق بن عثمان الكلابي حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية الأنصاري. . . به والبزار في (مسنده) (١/ ٣٧٤) حديث رقم (٢٥٢) من طريق إسحاق بن عثمان الكلابي حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية الأنصاري. . . به وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ١٩٦) حديث رقم (٢٢٦) وقال الهيثمي في (المجمع) (٦/ ٣٨) رواه أبو داود باختصار كثير رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجاله ثقات من طريق إسحاق بن عثمان الكلابي حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية الأنصاري. . . به.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (القدر) باب (قدر علي ابن آدم حظه من الزني وغيره) (٤/ ٢١/ ٢٠٤٧) وأبو داود في كتاب (النكاح) باب (ما يؤمر به من غض البصر) (٢/ ٩٢٣) حديث رقم (٢١٥٤) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧٩) من طريق سهيل عن أبي صالح. . . به.

القطيعة، ويحتمل أن يكون نهيًا عن إلحاق الولد بأزواجهن. قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولدًا ليس منه، قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن وذلك أن الولد إذا رضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المعنى نهيهن عن الزنا، لأن النهي عن الزنا قد تقدم، وقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي كل أمر وافق طاعة الله، وقيل: في أمر بر وتقوى، وقيل في كل أمر فيه رشد، أي ولا يعصينك في جميع أمرك، وقال ابن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي مما تأمرهن به وتنهاهن عنه، كالنوح وتمزيق الثياب، وجز الشعر ونتفه، وشق الجيب، وخمش الوجه، ولا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا رحم محرم، ولا تخلو برجل غير محرم، ولا تسافر إلا مع ذي رحم محرم، ومنهم من خص هذا المعروف بالنوح، وعن رسول الله ﷺ، قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»(١) وقال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(٢) وقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»(٣) وقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، أي إذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن، واختلفوا في كيفية المبايعة، فقالوا: كان يبايعهن وبين يده وأيديهن ثوب، وقيل: كان يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن، قاله الكلبي، وقيل: بالكلام، وقيل: دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه، ثم غمسن أيديهن فيه، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط(٤).

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ولم يقل: فامتحنوهن، كما قال في المهاجرات، والجواب: من وجهين: أحدهما: أن الامتحان حاصل بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ إلى آخره، وثانيهما: أن المهاجرات يأتين من دار الحرب فلا اطلاع لهن على الشرائع، فلا بد من الامتحان، وأما المؤمنات فهن في دار الإسلام وعلمن الشرائع فلا حاجة إلى الامتحان.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤) وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٤٤) حديث رقم (٢٢٩٦٣) جميعًا من طريق يحيى بن أبي كثير، عن زيد عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري، أن النبي ﷺ قال... به.

(٢) انظر سابقة.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (ليس منا من ضرب الخدود) (٣/ ١٩٨) حديث رقم (١٢٩٧) من طريق عمرو بن حفص عن أبي... به ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (تحريم ضرب الخدود) (١/ ١٠٠/ ١٦٦) من طريق عيسى بن يونس... به جميعًا (حفص، عيسى، ابن إدريس) عن الأعمش... به.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الطلاق) باب (إذا أسلمت المشركة أو النصرانية...) (٥/ ٢٠٢٥) حديث رقم (٤٩٨٣) ومسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤٨٩/ ١٨٦٦) كلاهما من طريق ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة... به.

الثاني: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ وما وجهه؟ نقول: من قال: المرأة إذا التقطت ولدًا، فإنما التقطت بيدها، ومشت إلى أخذه برجلها، فإذا أضافته إلى زواجها فقد أتت ببهتان تفترينه بين يديها ورجليها، وقيل: يفترينه على أنفسهن، حيث يقلن: هذا ولدنا وليس كذلك، إذ الولد ولد الزنا، وقيل: الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها.

الثالث: ما وجه الترتيب في الأشياء المذكورة وتقديم البعض منها على البعض في الآية؟ نقول: قدم الأقبح على ما هو الأدنى منه في القبح، ثم كذلك إلى آخره، وقيل: قدم من الأشياء المذكورة ما هو الأظهر فيما بينهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

قال ابن عباس: يريد حاطب ابن أبي بلتعة يقول: لا تتولوا اليهود والمشركين، وذلك لأن جمعًا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم، فنهوا عن ذلك ويئسوا من الآخرة، يعني أن اليهود كذبت محمدًا ﷺ، وهم يعرفون أنه رسول الله وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه فهم يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، والتقييد بهذا القيد ظاهر، لأنهم إذا ماتوا على كفرهم كان العلم بخذلانهم وعدم حظهم في الآخرة قطعيًا، وهذا هو قول الكلبي وجماعة، يعني الكفار الذين ماتوا يئسوا من الجنة، ومن أن يكون لهم في الآخرة خير، وقال الحسن: يعني الأحياء من الكفار يئسوا من الأموات، وقال أبو إسحق: يئس اليهود الذين عاندوا النبي ﷺ كما يئس الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الممتحنة

مدنيَّةٌ في قول الجميع(١)، وهي ثلاث عشرة آية(٢)

الممتحِنة - بكسر الحاء - أي: المختبِرة، أُضيفَ الفعل إليها مجازًا، كما سُمِّيت سورة «براءة» المبعثِرة والفاضِحة؛ لما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحَنة - بفتح الحاء - فإنَّه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أمُّ كُلثُوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط، قال الله تعالى: «فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَانِهِنَّ» الآية. وهي امرأة عبد الرحمن بن عَوْف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن(٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ عَدَّى اتَّخذ إلى مفعولين، وهما «عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ». والعَدُوُّ فَعُول من عَدَا، كعفُوّ من عَفَا. ولكونه على زِنَة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد(٤). **وفي هذه الآية سبع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن عليٍّ ﷺ قال: بَعَثَنا رسولُ الله ﷺ أنا والزُّبيرَ والمِقْدادَ فقال:

---

(١) النكت والعيون ٥/٥١٦ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٠ .

(٣) التعريف والإعلام ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) الكشاف ٤/٨٩ .

«ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فإنَّ بها ظَعِينة معها كتاب، فخذوه منها»، فانطلقنا تَعادَى بنا خَيْلنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أَخْرِجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لَتُخْرِجنَّ الكتابَ أوْ لَتُلْقِيَنَّ الثياب. فأخرجته من عِقاصها. فأتينا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين من أهل مكَّة يُخبِرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطبُ ما هذا»؟ قال: لا تَعجلْ عليَّ يا رسولَ الله، إنِّي كنت امْرأً مُلْصَقًا في قريش - قال سفيان: كان حَلِيفًا لهم، ولم يكن من أنفُسِها - وكان ممَّن كان معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يَحْمُون بها أهليهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم أن أتَّخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعلْه كُفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكُفر بعد الإسلام. فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَق». فقال عمر: دَعْنِي يا رسول الله، أَضرِبُ عنقَ هذا المنافق. فقال: «إنَّه قد شهد بدرًا، وما يدرِيك لعلَّ اللهَ اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: «يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياء»(١).

قيل: اسم المرأة سارة من موالي قريش. وكان في الكتاب: أمَّا بعدُ، فإنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل، وأقسم بالله لو لم يَسِر إليكم إلا وحدَه لأظفره الله بكم، وأنجز له مَوْعِدَه فيكم، فإنَّ الله ولِيُّه وناصره. ذكره بعض المفسرين(٢).

وذكر القُشَيرِيُّ والثَّعْلبيُّ: أنَّ حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ كان رجلًا من أهل اليمن، وكان له حِلْف بمكَّة في بني أسد بن عبد العُزَّى رَهْطِ الزبير بن العَوَّام. وقيل: كان حليفاً للزبير بن العوَّام(٣)، فقدمت من مكَّة سارَة مولاة أبي عمرو بن صَيْفِيِّ بن

---

(١) البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٥٢١)، وأحمد (٦٠٠)، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٤٨ - ٤٤٩ . وروضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة. والظعينة: المرأة، وسميت بذلك؛ لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن. النهاية (خوخ) و(ظعن).

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٨ .

(٣) الاستيعاب (٢/ ٢٨٠ بهامش الإصابة)، والإصابة ٢/ ١٩٢ - ١٩٣ .

هاشم[١] بن عبد مناف إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهَّز لفتح مكَّة ـ وقيل: كان هذا في زمن الحُدَيْبِية ـ فقال لها رسول الله ﷺ: «أمهاجرة جئتِ يا سارَة»؟ فقالت: لا. قال: «أمسلمةً جئتِ»؟ قالت: لا. قال: «فما جاء بكِ»؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة، وقد ذهب الموالي ـ تعني قُتلوا يومَ بدر ـ وقد احتجتُ حاجةً شديدةً فقدِمتُ عليكم؛ لتعطوني وتكسوني. فقال عليه الصلاة والسلام: «فأين أنتِ عن شباب أهل مكَّة» وكانت مغنِّية، قالت: ما طُلب منِّي شيء بعد وقعة بدر. فحثَّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها، فكسَوْها وأعطوْها وحملُوها، فخرجت إلى مكَّة، وأتاها حاطب فقال: أعطيك عشرة دنانير وبُرُداً على أن تبلِّغي هذا الكتاب إلى أهل مكَّة. وكتب في الكتاب: أنَّ رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حِذْركم. فخرجت سارة، ونزل جبريلُ فأخبرَ النبيَّ ﷺ بذلك، فبعث عليًّا والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِيَّ ـ وفي رواية: عليًّا والزبير والمِقْداد. وفي رواية: أرسل عليًّا وعمّار بن ياسِر. وفي رواية: عليًّا وعمارًا وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد ـ وكانوا كلُّهم فرساناً، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظعينةً، ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها وخلُّوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم، فاضربوا عنقها» فأدركوها في ذلك المكان، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت ما معها كتاب، ففتَّشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ: واللهِ ما كَذَّبْنا ولا كَذَبنا! وسَلَّ سيفه وقال: أخرجي الكتابَ وإلَّا واللهِ لأجردنَّكِ ولأضربَنَّ عنقكِ، فلما رأت الجِدَّ، أخرجته من ذؤابتها ـ وفي رواية: من حُجْزَتها ـ فخلَّوْا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فأرسل إلى حاطب فقال: «هل تعرف الكتاب»؟ قال: نعم. وذكر الحديث بنحو ما تقدَّم[٢]. ورُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ أمَّن

---

(١) في (م): هشام.

(٢) المغازي للواقدي ٢/٧٩٧ - ٧٩٩، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٩٨ - ٣٩٩، وتفسير أبي الليث ٣/٣٥٠ - ٣٥١، والبغوي ٤/٣٢٨ - ٣٢٩، والكشاف ٤/٨٨. وقول المصنِّف: وقيل: كان هذا في زمن الحديبية. أخرجه ابن المنذر عن قتادة، وابن مردويه عن أنس، كما في الدر المنثور ٦/٢٠٣. والحديث سلف تخريجه قريباً، ورواية إرسال علي والزبير وأبي مرثد الغنوي عند البخاري (٦٢٥٩) ومسلم (٢٤٩٤): (...) وإرسال علي والزبير والمقداد عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

جميعَ الناس يوم الفتح إلا أربعة، هي أحدهم[١].

الثانية: السورة أصلٌ في النَّهْيِ عن موالاة الكفَّار. وقد مضى ذلك في غير موضع. من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٢] [المائدة:٥١]. ومثله كثير. وذكر أنَّ حاطبًا لما سمع: «يا أيها الذين آمنوا» غُشِيَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني بالظاهر؛ لأنَّ قلب حاطب كان سليمًا؛ بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «أمَّا صاحبكم فقد صَدَقَ» وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده[٣].

والباء في «بِالْمَوَدَّةِ» زائدة[٤]، كما تقول: قرأت السورة، وقرأت بالسورة، ورميت إليه ما في نفسي، وبما في نفسي. ويجوز أن تكون ثابتة على أنَّ مفعول «تُلْقُونَ» محذوف، معناه: تلقون إليهم أخبارَ رسولِ الله ﷺ بسبب المودَّة التي بينكم وبينهم. وكذلك «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة» أي: بسبب المودَّة[٥]. وقال الفرَّاء[٦]: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» من صلة «أولياء»، ودخول الباء في المودَّة وخروجها سواء. ويجوز أن تتعلَّق بـ «لا تَتَّخِذُوا» حالًا من ضميره. وبـ «أولياء» صفة له. ويجوز أن تكون استئنافًا. ومعنى «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ»: تخبرونهم بسرائر المسلمين، وتنصحون لهم،

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٨ - ٨٩ ، والخبر أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٦٠ - ٦١ عن أنس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٦٧-١٦٨ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: الحكم بن عبد الملك، وهو ضعيف. اهـ. وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٠٥ - ١٠٦ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لمَّا كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين... الحديث. دون ذكر اسم المرأتين.

(٢) سلفت ٥/ ٨٧ ، ٢٧٢ و٨/ ٤٦ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ٨٩ .

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٧ - ١٤٩ .

وقاله الزجاج(١).

الرابعة: مَن كَثُر تطلُّعه على عورات المسلمين، وينبِّه عليهم، ويعرِّف عدوَّهم بأخبارهم، لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعله لغَرَض دُنْيَوِيٍّ واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَدِ، ولم يَنْوِ الرِّدَّة عن الدِّين(٢).

الخامسة: إذا قلنا: لا يكون بذلك كافرًا، فهل يقتل بذلك حدًّا، أم لا؟ اختلف الناس فيه، فقال مالك وابن القاسم وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام. وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك، قُتل؛ لأنَّه جاسوس، وقد قال مالك بقتل الجاسوس - وهو صحيح - لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض. ولعل ابن الماجِشُون(٣) إنَّما اتَّخذ التكرار في هذا؛ لأنَّ حاطبًا أُخذ في أوَّل فعله. والله أعلم.

السادسة: فإن كان الجاسوس كافرًا، فقال الأوزاعيُّ: يكون نقضًا لعهده. وقال أَصْبَغ: الجاسوس الحربِيُّ يُقتَل، والجاسوس المسلم والذميُّ يعاقبان إلا أن يظاهرا(٤) على الإسلام، فيُقتلان. وقد روي عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أتى بَعينٍ للمشركين اسمه فُرَات بن حَيَّان، فأمر به أن يُقتل، فصاح: يا معشرَ الأنصار، أُقْتَلُ وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله! فأمر به النبيُّ ﷺ، فخلَّى سبيله. ثم قال: «إنَّ منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرَات بن حَيَّان»(٥).

---

(١) في معاني القرآن له ٥/ ١٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧١ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ : ابن الجارود. وأشير في هامشه إلى أنه ورد في إحدى النسخ: ابن الماجشون.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ : أن يتعاهدا. وأشير في هامشه إلى لفظة: يظاهرا.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ ، والحديث أخرجه هكذا ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٣٢ . وفي إسناده: جُبَارة بن المُغَلِّس، وهو ضعيف. التهذيب. وأخرجه أيضاً البزار (٢٧٤٨ كشف الأستار) عن علي ﷺ بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٨١ : رواه البزار، وفيه: ضرار بن صُرَد، وهو ضعيف. اهـ. وهو عند أبي داود (٢٦٥٢)، وأحمد (١٨٩٦٥) عن فرات بن حيان بنحوه. وعن بعض أصحاب النبي ﷺ وهو عند أحمد (١٦٥٩٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٠ - ٣٨١ : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب، وهو ثقة.

وقوله: «وَقَدْ كَفَرُوا» حال، إمَّا من «لَا تَتَّخِذُوا»، وإما من «تُلْقُونَ»، أي: لا تتولّوهم أو تُوادُّوهم، وهذه حالهم. وقرأ الْجَحْدَرِيُّ: «لما جاءكم»[(١)] أي: كفروا؛ لأجل ما جاءكم من الحقّ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ استئناف كلام، كالتفسير لكفرهم وَعُتُوِّهم، أو حال من «كَفَرُوا». ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لـ «يخرِجون» المعنى: يُخرِجون الرسولَ، ويخرجونكم من مكَّة؛ لأن تؤمنوا بالله، أي: لأجل إيمانكم بالله[(٢)]. قال ابن عباس: وكان حاطب ممن أُخرج مع النبيِّ ﷺ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: إن كنتم خرجتم جهادًا فِي سبيلي، وابتغاء مرضاتي، فلا تلقوا إليهم بالمودَّة. وقيل: «إِنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي» شرط، وجوابه مقدَّم. والمعنى: إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي فلا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء[(٣)]. ونصب «جِهَادًا» و«ابْتِغَاءَ» لأنَّه مفعول له[(٤)]. وقوله: «تُسِرُّون إِلَيْهِمْ بِالْمَودّةِ» بدل من «تلقون» ومبيِّن عنه. والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان:٦٨]. وأنشد سِيبويه:

مَتَى تأتِنَا تَلْمِم بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونارًا تأجَّجا[(٥)]

وقيل: هو على تقدير: أنتم تُسِرُّون إليهم بالمودَّة. فيكون استئنافًا. وهذا كلُّه معاتبةٌ لحاطب. وهو يدلُّ على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله ﷺ وصِدْقِ إيمانه،

---

(١) الكشاف ٤/٨٩ ، وما بعده منه أيضاً.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٩ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١ - ٤٢ ، وما بعده منه أيضًا.

(٥) سلف ٢/ ٨٥ .

فإنَّ المعاتبة لا تكون إلا من مُحِبٍّ لحبيبه. كما قال:

أعاتب ذا المودَّة من صديقٍ إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العِتاب فليس وُدٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتاب[١]

ومعنى «بِالْمَوَدَّةِ» أي: بالنصيحة في الكتاب إليهم[٢]. والباء زائدة، كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ أضمرتم ﴿وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ أظهرتم. والباء في «بِمَا» زائدة، يقال: علمت كذا وعلمت بكذا. وقيل: وأنا أعلم من كلِّ أحد بما تخفون وما تعلنون[٣]، فحذف: من كلِّ أحد. كما يقال: فلان أعلم وأفضل من غيره. وقال ابن عباس: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ أي: من يُسِرُّ إليهم ويكاتبهم منكم ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ قصد الطريق.

قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ يلقوكم[٤] ويصادفوكم، ومنه: المثاقفة، أي: طلب مصادفة الغُرّة في المسايفة وشبهها[٥]. وقيل: «يَثْقَفُوكُمْ» يظفروا بكم ويتمكَّنوا منكم[٦] ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: أيديهم بالضرب والقتل،

---

(١) القائل علي بن الجهم، والبيتان في بهجة المجالس ٢/ ٧٢٨ .

(٢) تفسير أبي الليث٣/ ٣٥١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦ .

(٥) أساس البلاغة للزمخشري (ثقف)، وقال الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٤٧ : فإن قالوا: رمى فأصاب الغُرَّة، وأصاب عين القرطاس: فهو الذي ليس فوقه أحد.

(٦) الكشاف ٤/ ٩٠ ، وما بعده منه أيضاً.

وألسنتهم بالشتم. ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بمحمَّد؛ فلا تناصحوهم؛ فإنَّهم لا يناصحونكم.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③﴾

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ لما اعتذر حاطب بأنَّ له أولادًا وأرحامًا فيما بينهم، بيَّن الرَّبُّ عزَّ وجلَّ أنَّ الأهل والأولاد لا ينفعون شيئًا يوم القيامة إن عُصِيَ من أجل ذلك[١]. ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيدخِل المؤمنين الجنَّة، ويدخل الكافرين النار[٢].

وفي «يفصل» قراءات سبع: قرأ عاصم: «يَفصِل» بفتح الياء وكسر الصاد مخففًا. وقرأ حمزة والكسائيُّ مشدَّدًا إلا أنَّه على ما لم يُسَمَّ فاعله[٣]. وقرأ طلحة والنَّخعيُّ: بالنون وكسر الصاد مشدَّدة[٤]. وروي عن علقمة كذلك بالنون مخفَّفة. وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة: «يَفْصِل» بضمِّ الياء وكسر الصاد مخفَّفة، من أفصل[٥]. وقرأ الباقون: «يُفْصَل» بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد، على الفعل المجهول[٦]، واختاره أبو عبيد. فمن خفَّف؛ فلقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧] وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ [النبأ:١٧]. ومن شدَّد؛ فلأنَّ ذلك أبين في الفعل الكثير المكرَّر المتردِّد. ومن أتى به على ما يُسَمَّ فاعله؛ فلأنَّ الفاعل معروف. ومن أتى به مُسَمَّى الفاعل، ردَّ الضمير إلى الله تعالى[٧]. ومن قرأ بالنون؛ فعلى التعظيم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٣ .

(٣) السبعة ص ٦٣٣ ، والتيسير ص ٢١٠ .

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٩٠ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٤ .

(٦) السبعة ص ٦٣٣ ، والتيسير ص ٢١٠ .

(٧) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦ ، والكشف لمكي ٢/ ٣١٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لما نهى عن موالاة الكفَّار، ذكر قصَّة إبراهيم عليه السلام، وأنَّ من سيرته التبرُّؤ من الكفَّار، أي: فاقتدوا به وأْتَمُّوا، إلا في استغفاره لأبيه[١]. والإِسْوَةُ والأُسْوَةُ: ما يُتَأَسَّى به، مثل القِدْوة والقُدْوة[٢]. ويقال: هو إسوتك، أي: مثلك، وأنت مثله. وقرأ عاصم: «أُسْوَة» بضمِّ الهمزة لغتان[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: أصحاب إبراهيم من المؤمنين[٤]. وقال ابن زيد: هم الأنبياء[٥] ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفَّار[٦] ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام. وبُرَآء: جمع بَرِيْء[٧]، مثل شريك وشركاء، وظريف وظرفاء.

وقراءة العامة على وزن فُعَلَاء. وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «بِرَاء» بكسر الباء على وزن فِعال[٨]، مثل قَصير وقِصار، وطَويل وطِوال، وظَريف وظِراف. ويجوز ترك الهمزة حتى تقول: بَرًا، وتنوِّن. وقرِئ: «بَرَاء» على الوصف بالمصدر.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٢ .

(٣) السبعة ص ٦٣٣ ، والتيسير ص ١٧٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦ .

(٥) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٠ .

(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٥ ، والمحتسب ٢/ ٣١٩ .

وقرئ: «بُراء» على إبدال الضمِّ من الكسر، كرُخَال ورُباب[١].

والآية نصٌّ في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله. وذلك يصحِّح أنَّ شَرْعَ مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله[٢].

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بما آمنتم به من الأوثان. وقيل: أي: بأفعالكم، وكذَّبناها وأنكرنا أن تكونوا على حقٍّ[٣]. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم مادتم على كفركم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فحينئذٍ تنقلب المعاداةُ موالاةً ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا تتأسَّوْا به في الاستغفار فتستغفرون للمشركين؛ فإنَّه كان عن مَوْعِدة منه له، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما[٤]. وقيل: معنى الاستثناء أنَّ إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه[٥]، ثم بيَّن عذره في سورة «التوبة»[٦].

وفي هذا دلالة على تفضيل نبيِّنا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء؛ لأنَّا حين أُمِرْنَا بالاقتداء به أُمِرْنَا أمرًا مطلقًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] وحين أُمِرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثني بعض أفعاله. وقيل: هو استثناء منقطع، أي: لكن قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرنَّ لك. إنَّما جرى؛ لأنَّه ظنَّ أنَّه أسلم، فلما بان له أنَّه لم يُسلم، تبرَّأ منه. وعلى هذا يجوز

---

(١) الكشاف ٤/ ٩١، والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٥٥ عن عيسى بن عمر، والرخال، جمع رخل: وهي الأنثى من أولاد الضأن. والرباب، جمع الرُّبَّى: وهي الشاة التي وضعت حديثاً. اللسان (رخل) و(ربب).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ عن قتادة، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٧، والطبري ٢٢/ ٥٦٨، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٧ - ٥٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ وعزاه للكلبي.

(٦) عند الآية (١١٤)، وسلفت ١٠/ ٤٠٠.

الاستغفار لمن يُظَنُّ أنَّه أسلم، وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظَّنِّ، فَلِمَ توالوهم؟!.

﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذابِ الله شيئًا إن أشركتَ به. ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه. وقيل: علَّم المؤمنين أن يقولوا هذا[1]، أي: تبرَّؤوا من الكفَّار، وتوكَّلوا على الله، وقولوا: «ربنا عليك توكلنا» أي: اعتمدنا ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي: رجعنا ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لك الرجوع في الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا تُظهر عدوَّنا علينا؛ فيظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، فيفتتنوا بذلك[2]. وقيل: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا ويعذِّبونا[3]. ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ﴾ أي: في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء[4]. ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ أي: في التبرُّؤ من الكفَّار. وقيل: كرّر؛ للتأكيد. وقيل: نزل الثاني بعد الأوَّل بمدَّة، وما أكثر المكرَّرات في القرآن على هذا الوجه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإسلام وقبول هذه المواعظ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: لم يتعبَّدهم لحاجته إليهم. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في نفسه وصفاته.

ولما نزلت، عادى المسلمون أقرباءَهم من المشركين، فعلم الله شدَّة وَجْدِ المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ وهذا

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ وعزاه لابن عباس، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٠.

بأن يُسْلِم الكافر. وقد أَسلم قوم منهم بعد فتح مكَّة، وخالطهم المسلمون[١]، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وحكيم بن حِزام[٢]. وقيل المودَّة: تزويج النبيِّ ﷺ أمَّ حَبيبة بنت أبي سفيان؛ فلانت عند ذلك عَرِيكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة[٣].

قال ابن عباس: كانت المودَّة بعد الفتح تزويج النبيِّ ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبد الله بن جَحْش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة. فأمَّا زوجها فتنصَّر وسألها أن تتابعه على دينه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانيَّة. فبعث النبيُّ ﷺ إلى النجاشيِّ فخطبها، فقال النجاشيُّ لأصحابه: من أَوْلاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص. قال: فزوِّجْها من نبيِّكم. ففعل، وأمهرها النجاشيُّ من عنده أربع مئة دينار. وقيل: خطبها النبيُّ ﷺ إلى عثمان بن عَفَّان، فلما زوَّجه إيَّاها، بعث إلى النجاشيِّ فيها، فساق عنه المهر، وبعث بها إليه. فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبيِّ ﷺ ابنته: ذلك الفَحْلُ لا يُقْدَع أنْفُه[٤].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥٠.

(٢) خبر إسلام أبي سفيان في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠٣، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ١٠٣ عن الزهري مرسلاً. وخبر إسلام الحارث بن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤١٣، وخبر إسلام سهيل بن عمرو في طبقات ابن سعد ٧/ ٤٠٤، وأما خبر حكيم بن حزام فأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٠ بإسناده عن موسى بن عقبة.

(٣) الكشاف ٤/ ٩١، والعريكة: الطبيعة. ولانت عريكته: إذا انكسرت نخوته. والشكيمة: الأَنَفة والانتصار من الظلم. اللسان (عرك) و(شكم).

(٤) الكشاف ٨/ ٩١، وقول ابن عباس: كانت المودَّة بعد الفتح تزويج النبي ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان. أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٩٩، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٢٩، وفي إسناده: محمد بن السائب الكلبي، وعنده مناكير. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٧ ـ ١٦٨ بعد أن أورد الخبر بطوله: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، ومجموعه مفرَّق في أحاديثه، وروى أبو داود [٢١٠٧]، والحاكم [٤/ ٢٢] من رواية الزهري، عن عروة، عن أم حبيبة أنها كانت تحت عبد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل ابن حسنة. وروى الحاكم [٤/ ٢٠] عن الزهري قال: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش الأسدي، وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة، ثم افتُتِن وتنصر ومات نصرانيًا وأثبت الله الإسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة فخطبها رسول الله ﷺ فزوَّجها إياه عثمان بن عفان. قال الزهري: وزعموا أن النبي ﷺ كتب إلى النجاشي فزوَّجها إياه، وساق =

«يقدع» بالدال غير المعجمة، يقال: هذا فحل لا يُقدَع أنفه، أي: لا يُضرَب أنفه. وذلك إذا كان كريمًا(١).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: هذه الآية رُخصةٌ من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. قال ابن زيد: كان هذا في أوَّل الإسلام عند الموادعة وتَرْكِ الأمر بالقتال، ثم نسخ(٢). قال قتادة: نسختها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٣) [التوبة: ٥]. وقيل: كان هذا الحكم لعلَّة، وهو الصلح، فلما زال الصلح بفتح مكَّة، نُسخ الحكم وبقي الرسم يُتْلَى. وقيل: هي مخصوصة في حلفاء النبيِّ ﷺ ومَنْ بينه وبينه عهد لم ينقضه، قاله الحسن. الكلبي: هم خُزَاعة وبنو الحارث بن عبد مناف. وقاله

= عنه أربعين أوقية. وروى الواقدي في المغازي وأخرجه عنه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٩٨ - ٩٩ ومن طريقه الحاكم [٤/ ٢٢] من رواية جعفر بن محمد، عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النجاشي يخطب عليه أم حبيبة، وأصدقها من عنده أربع مئة دينار. قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر، عن عبد الواحد بن أبي عون قال: لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي ﷺ ابنته قال: ذاك الفحل لا يقدع أنفه. وقال أبو نعيم في الدلائل: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فزوَّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدقها عنه أربع مئة دينار، وبعث بها إليه، وقال: وكان ذلك في سنة ستٍّ من الهجرة بعد رجوعه من خيبر، ولا أعلم في ذلك خلافاً. انتهى كلام ابن حجر.

ومسألة زواجه ﷺ من أمّ حبيبة ذكرها مفصَّلة ابن عبد البر في (الاستيعاب ١٣/ ٣ بهامش الإصابة) والمقريزي في إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ٦/ ٦٣ وما بعدها، فلتنظر لمن أراد التوسع فيها.

(١) تاج العروس والنهاية (قدع)، وكذا وردت في الاستيعاب (١٣/ ٨ بهامش الإصابة)، ويروى بالراء كما في المستدرك للحاكم ٤/ ٢٢ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٥٠ ، والنهاية (قرع) أي: كُفْءٌ كريم لا يُرَدُّ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٣ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٧ ، والطبري ٢٢/ ٥٧٣ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٦٧ ، وابن الجوزي في نواسخ القرآن ص ٢٣٩ .

أبو صالح، وقال: هم خزاعة[(١)]. وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا[(٢)]. وقيل: يعني به النساء والصبيان؛ لأنَّهم ممَّن لا يقاتل، فأذن الله في بِرِّهم. حكاه بعض المفسرين[(٣)].

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة. واحتجوا بأنَّ أسماء بنت أبي بكر سألت النبيَّ ﷺ: هل تَصِلُ أمَّها حين قدِمت عليها مشركة؟ قال: «نعم». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[(٤)]. وقيل: إنَّ الآية فيها نزلت. روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه: أنَّ أبا بكر الصديق طلَّق امرأته قُتيلة في الجاهلية، وهي أمُّ أسماء بنت أبي بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفَّار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قُرْطاً وأشياء، فكرهت أن تَقْبَلَ منها حتى أتت رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: «لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الَّذين لم يُقاتِلوكُم في الدِّيْنِ». ذكر هذا الخبر الماورديُّ[(٥)] وغيره، وخرَّجه أبو داود الطَّيَالِسي في «مسنده»[(٦)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ «أن» في موضع خفض على البدل من

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٦٦ - ٦٧.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٩، وممن قال بذلك الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ١٥٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٤، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٦٨، والحديث عند البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)، وسلف ٦/ ١٤.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٥٢٠.

(٦) برقم (١٦٣٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١١١)، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٥٢، والطبري ٢٢/ ٥٧٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٧٢ - ٧٣، والحاكم ٢/ ٤٨٥ - ٤٨٦، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٥٠ من طريق مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. قلنا: في إسناده مصعب بن ثابت، وهو ضعيف. وأصل الخبر عند البخاري (٥٩٧٨)، ومسلم (١٠٠٣) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهي التي سألت النبيَّ ﷺ.

«الَّذِينَ»[١]، أي: لا ينهاكم الله عن أن تبرُّوا الذين لم يقاتلوكم. وهم خُزاعة، صالحوا النبيَّ ﷺ على ألَّا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه أحدًا، فأمر ببرِّهم والوفاء لهم إلى أجلهم، حكاه الفرَّاء[٢]. ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل؛ فإنَّ العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربيّ[٣].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر في كتاب «الأحكام» له[٤]: استدلَّ به بعض مَن تُعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر. وهذه وهلة[٥] عظيمة، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدلُّ على وجوبه، وإنَّما يعطيك الإباحة خاصَّةً. وقد بيَّنَّا أنَّ إسماعيل بنَ إسحاق القاضي دخل عليه ذِمِّيٌّ، فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: جاهدوكم على الدِّين ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاة أهل مكَّة. ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾ أي: عاونوا على إخراجكم[٦]، وهم مشركو أهل مكَّة[٧] ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ «أنْ» في موضع جرٍّ على البدل[٨]، على ما تقدَّم في «أنْ تَبرُّوهُمْ». ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي: يتَّخذهم أولياء وأنصاراً وأحبابًا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٤.
(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٠.
(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٧٣.
(٤) ٤/ ١٧٧٤.
(٥) وَهِل في الشيء وعنه وَهِلاً: غلط فيه ونسيه. اللسان (وهل).
(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٨.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٢.
(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٨.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ **فيه ست عشرة مسألة:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين، اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوْكد أسباب الموالاة، فبيَّن أحكام مهاجرة النساء. قال ابن عباس: جرى الصلح مع مشركي قريش عام الْحُدَيْبِيَة، على أنَّ من أتاه من أهل مكَّة، ردَّه إليهم، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة بعدَ الفراغ من الكتاب، والنبيُّ ﷺ بالحديبية بعدُ، فأقبل زوجها وكان كافراً ـ وهو صَيْفِيُّ بن الراهب. وقيل: مسافر المخزومي ـ فقال: يا محمَّد، اردد عليَّ امرأتي، فإنَّك شرطتَ ذلك! وهذه طِينة الكتاب لم تَجِفَّ بعدُ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

وقيل: جاءت أمُّ كلثوم بنتُ عُقْبة بن أبي مُعَيْط، فجاء أهلها يسألون رسولَ الله ﷺ أن يردَّها[(٢)]. وقيل: هربت من زوجها عمرو بنِ العاص وتبعها[(٣)] أخواها عِمارة والوليد، فردَّ رسول الله ﷺ أَخَويْها وحبسها، فقالوا للنبيِّ ﷺ: ردَّها علينا للشرط،

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٣٣٢ عن ابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٥٢١ وعزاه للكلبي، وورد في (م): سعيدة، بدل: سبيعة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧١١) و(٢٧١٢) عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) في (د) و(ظ) و(ز) و(م): ومعها. والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما ورد في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٥ - ٣٢٦، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٣٠.

فقال ﷺ: «كان الشرط في الرجال لا في النساء» فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وعن عروة قال: كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيِّ ﷺ يومَ الْحُدَيْبِيَة: ألَّا يأتيك منَّا أحد ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددتَه إلينا، حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل، يُومِئ إلى أنَّ الشرط في ردِّ النساء نُسخ بذلك[٢]. وقيل: إنَّ التي جاءت أمَيْمة بنتُ بشر، كانت عند ثابت بنِ الشِّمْراخ، ففرَّت منه وهو يومئذٍ كافر، فتزوَّجها سَهْل بن حُنيف فولدت له عبد الله، قاله يزيد بن أبي حبيب[٣]. كذا قال الماورديُّ: أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بنِ الشِّمْراخ. وقال المهدوِيُّ: وروى ابن وهب عن خالد أنَّ هذه الآية نزلت في أُمَيْمَة بنت بشر من بني عمرو بن عوف. وهي امرأة حسَّان بن الدَّحدَاح، وتزوَّجها بعد هجرتها سهل بن حُنيف[٤]. وقال مقاتل: إنَّها سعيدة زوجة صَيْفِي بن الراهب مشرك من أهل مكة[٥]. والأكثر من أهل العلم أنَّها أمُّ كلثوم بنت عُقبة.

الثانية: واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظًا أو عمومًا؛ فقالت طائفة منهم: قد كان شرط ردّهنَّ في عقد المهادنة لفظًا صريحاً، فنسخ الله ردَّهنَّ من العقد ومنعَ منه، وبَقّاه في الرجال على ما كان. وهذا يدلُّ على أنَّ للنبيِّ ﷺ أن يجتهد رأيه في الأحكام، ولكن لا يقرُّه الله على خطأ. وقالت طائفة من أهل العلم: لم يشترط ردَّهنَّ في العقد لفظًا، وإنَّما أطلق العقد في ردِّ من أَسلم. فكان ظاهر العموم اشتماله عليهنَّ مع الرجال، فبيَّن الله تعالى خروجهنَّ عن عمومه، وفرَّق بينهنَّ وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهنَّ ذوات فروج يَحْرمْنَ عليهم. الثاني: أنهنَّ

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٤، وأورده ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤١٩ وعزاه لابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠٧، والحديث سلف تخريجه قريباً.

(٣) في النسخ: زيد بن حبيب، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٢١ والكلام منه، وورد فيه: ابن الدحداحة، بدل: ابن الشمراخ. وينظر لزاماً أسد الغابة ٧/ ٢٥، والإصابة ١٢/ ١٣٣.

(٤) وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٩ (١٨٨٦٥) عن يزيد بن أبي حبيب ﷺ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٢١، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٠ (١٨٨٦٦).

أرقُّ قلوبًا وأسرع تقلُّبًا منهم. فأما المقيمة منهنَّ على شركها، فمردودة عليهم(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ قيل: إنَّه كان من أرادت منهنَّ إضرارَ زوجها فقالت: سأهاجر إلى محمَّد ﷺ، فلذلك أمر ﷺ بامتحانهنَّ. واختلف فيما كان يمتحنهنَّ به على ثلاثة أقوال:

الأوَّل: قال ابن عباس: كانت الْمِحنَة أن تُستحلف بالله أنَّها ما خرجت من بُغْضِ زوجها، ولا رغبةً من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقًا لرجل منَّا؛ بل حُبًّا لله ولرسوله(٢). فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبيُّ ﷺ زوجَها مهرَها وما أَنفق عليها، ولم يردَّها(٣)، فذلك قوله تعالى: «فإن عَلِمْتُموهنَّ مؤمناتٍ فلا تَرجعُوهُنَّ إلى الكفَّار لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

الثاني: أنَّ المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، قاله ابن عباس أيضًا(٤).

الثالث: بما بيَّنه في السورة بعدُ من قوله تعالى: «يا أيُّها النَّبِيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ»(٥) قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يمتحن إلا بالآية التي قال الله: «إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبايِعْنَكَ» رواه مَعْمَر، عن الزُّهْرِيّ، عن عائشة. خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح(٦).

الرابعة: أكثر العلماء على أنَّ هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشًا، مِن أنَّه يردُّ إليهم من جاءه منهم مسلمًا، فنُسِخ من ذلك النساء. وهذا مذهب

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢١ ، وما بعده منه أيضًا.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢١ - ٥٢٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٢٢ .

(٦) الترمذي (٣٣٠٦)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٢١٤)، ومسلم (١٨٦٦)، وأحمد (٢٥٣٠٠).

من يرى نسخَ السُّنَّة بالقرآن[١].

وقال بعض العلماء: كلُّه منسوخ في الرجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العدوَّ على أن يردَّ إليهم من جاءه مسلمًا؛ لأنَّ إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز. وهذا مذهب الكوفيين[٢]. وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك.

وقد احتجَّ الكوفيون لما ذهبوا إليه من ذلك بحديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن خالد بن الوليد، أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثه إلى قوم من خَثْعَم، فاعتصموا بالسجود، فقتلهم، فَوَداهم رسولُ الله ﷺ بنصف الدِّيَة، وقال: «أنا بريء من كلِّ مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تَراءَى ناراهما». قالوا: فهذا ناسخٌ لردِّ المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد بَرِئَ ممَّن أقام معهم في دار الحرب[٣]. ومذهب مالك والشافعيِّ أنَّ هذا الحكم غيرُ منسوخ. قال الشافعيُّ[٤]:

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٧٤ وما بعده منه أيضًا.

(٢) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس٣/ ١١٣ ، وما بعده منه أيضًا، والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في الديات (٢٤٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٣٨٣٦) من طريق حفص ابن غياث، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٥٣ : رواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ. قلنا: وهو عند أبي داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق أبي معاوية، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم... الحديث بنحوه. وقال أبو داود إثره: رواه هشيم ومعمر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريراً.

وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، وسعيد بن منصور ٢/ ٢٤٩ ، وابن أبي شيبة ١٤/ ٣٤٠ من طرق، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصحُّ... وسمعت محمداً [يعني البخاري] يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.اهـ.

وقوله ﷺ: لا تراءى ناراهما. قال الطحاوي في شرح المشكل ٨/ ٢٧٥ - ٢٧٦ : أي: هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان. أو: لا يحل لمسلم أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهما نار صاحبه.

(٤) في الأم ٤/ ١١٧ ، والمصنف نقله عنه بواسطة النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١١٣ .

وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره؛ لأنَّه يَلي الأموال كلَّها. فمن عقد ـ غير الخليفة ـ هذا العقد، فهو مردود.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾ أي: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهنَّ[١]؛ لأنه مُتَوَلِّي السرائر. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ﴾ أي: بما يظهر من الإيمان. وقيل: إن علمتموهنَّ مؤمنات قبل الامتحان ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لم يحِلّ اللهُ مؤمنةً لكافر، ولا نكاح مؤمن لمشركة[٢].

وهذا أدلُّ دليل على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتها. وقال أبو حنيفة: الذي فرَّق بينهما هو اختلاف الدارين. وإليه إشارة في مذهب مالك، بل عبارة. والصحيح الأوَّل؛ لأنَّ الله تعالى قال: «لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلونَ لهنَّ» فبيَّن أنَّ العلَّة عدم الحِلِّ بالإسلام، وليس باختلاف الدار[٣]. والله أعلم. وقال أبو عمر[٤]: لا فرق بين الدارين لا في الكتاب ولا في السنة ولا في القياس، وإنَّما المراعاة في ذلك الدِّينان، فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما، لا بالدار. والله المستعان.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أمر الله تعالى إذا أُمْسِكت المرأة المسلمة أن تَرُدَّ على زوجها ما أَنفق، وذلك من الوفاء بالعهد؛ لأنَّه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام، أَمر بردِّ المال حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال[٥].

السابعة: ولا غُرْمَ إلا إذا طالب الزوج الكافر، فإذا حضر وطالب منعناها

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥.

(٤) في الاستذكار ١٦/ ٣٣٢.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥.

وغَرِمنا. فإذا كانت ماتت قبل حضور الزوج، لم نَغرَم المهر؛ إذ لم يتحقق المنع. وإن كان المسمَّى خمرًا أو خنزيرًا، لم نَغْرم شيئًا؛ لأنَّه لا قيمةَ له.

وللشافعيِّ في هذه الآية قولان: أحدهما: أن هذا منسوخ. قال الشافعيُّ: وإذا جاءتنا المرأة الحرَّة من أهل الهُدنَة مسلمةً مهاجِرةً من دار الحرب إلى الإمام في دار السلام أو في دار الحرب، فمن طلبها مِن وَلِيٍّ - سِوَى زوجها - مُنع منها بلا عِوَض. وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته، ففيه قولان: أحدهما: يُعطَى العِوض، والقول ما قال الله عزَّ وجلَّ. وفيه قول آخر: أنَّه لا يُعطَى الزوج المشرك الذي جاءت زوجته مسلمةً العِوضَ. فإن شرط الإمامُ ردَّ النساء، كان الشرط [منتقضاً، ومن قال هذا قال: إن شرط رسول الله ﷺ لأهل الحديبية - أن فيه أن يردَّ من جاء منهم، وكان النساء منهم - كان شرطاً صحيحاً، فنسخه الله تعالى وردَّ العوض مِن نَسْخ من نَسَخَه منهم، فلما قضى الله تعالى ثم رسوله ﷺ ألَّا يردَّ النساء، كان شَرْطُ من شَرَطَ ردَّ النساء منسوخًا، وليس عليه عِوض؛ لأنَّ الشرط المنسوخ باطل، ولا عوض للباطل[(١)].

الثامنة: أمر الله تعالى بردِّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأنَّ المخاطَب بهذا الإمامُ، ينفذ ممَّا بين يديه من بيت المال الذي لا يتعيَّن له مصرف[(٢)]. وقال مقاتل: يردُّ المهر الذي يتزوَّجها من المسلمين، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد، فليس لزوجها الكافر شيء[(٣)]. وقال قتادة: الحكم في ردِّ الصداق إنَّما هو في نساء أهل العهد، فأمَّا من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يردُّ إليهم الصداق. والأمر كما قاله.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني إذا أَسلمنَ وانقضت عِدَّتهنَّ؛ لما ثبت من تحريم نكاح المشركة [والمعتدَّة[(٤)]. فإن أَسلمت قبل الدخول

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٠ - ١١١ ، وما بين حاصرتين منه، ومن الأم للشافعي ٤/ ١١٥ - ١١٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥ - ١٧٧٦ .

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٤١ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦ ، وما بين حاصرتين لم يرد في (د) و(ظ).

ثبت النكاح] في الحال، ولها التزوُّج.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر؛ لأنَّ الإسلام فرَّق بينها وبين زوجها الكافر(١).

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قراءة العامة بالتخفيف؛ من الإمساك. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو: «وَلَا تُمَسِّكُوا»(٢) مشدَّدة من التمسُّك. يقال: مَسَّك يُمَسِّك تمسُّكًا، بمعنى: أمسك يُمسك. وقرئ: «وَلَا تَمَسَّكوا»(٣) بنصب التاء، أي: لا تتمسكوا.

والعِصَم، جمع العِصْمة: وهو ما اعتصم به. والمراد بالعصمة هنا النكاح. يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكَّة فلا يعتدُّ بها، فليست له امرأة، فقد انقطعت عصمتها(٤)؛ لاختلاف الدارين. وعن النَّخَعِيِّ: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر(٥).

وكان الكفَّار يتزوَّجون المسلمات، والمسلمون يتزوَّجون المشركات، ثم نسخ ذلك في هذه الآية(٦). فطلَّق عمر بن الخطاب حينئذٍ امرأتين له بمكَّة مشركتين: قُرَيبة بنت أبي أميَّة، فتزوَّجها معاوية بن أبي سفيان، وهما على شِرْكهما بمكَّة. وأمَّ كُلْثوم بنت عمرو الخُزَاعِيَّة أمَّ عبد الله بنِ المغيرة، فتزوَّجها أبو جَهم بن حُذافة وهما على شِرْكهما(٧).

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦ ، ولم ترد المسألتان التاسعة والعاشرة في (ح).

(٢) السبعة ص ٦٣٤ ، والتيسير ص ٢١٠ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٨٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٥٥ عند أبي عمرو والحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٩٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ ، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٧ ، عن ابن إسحاق، عن الزهري، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٤ ، وأخرجه أيضاً البخاري ضمن حديث صلح الحديبية (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) =

فلما وَلِيَ عمر، قال أبو سفيان لمعاوية: طلِّق قُرَيبة؛ لئلا يرى عمر سَلَبَه في بيتك، فأبى معاوية من ذلك[١]. وكانت عند طلحة بن عبيد الله أَرْوَى بنت ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، ففرَّق الإسلام بينهما، ثم تزوَّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص، وكانت ممَّن فرَّ إلى النبيِّ ﷺ من نساء الكفَّار، فحبسها وزوَّجها خالدًا[٢].

وزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ ابنتَه ـ وكانت كافرةً ـ من أبي العاص بنِ الربيع، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها. ذَكر عبد الرزاق، عن ابن جُريج، عن رجل، عن ابن شهاب، قال: أسلمت زينب بنت النبيِّ ﷺ، وهاجرت بعد النبيِّ ﷺ في الهجرة الأولى، وزوجها أبو العاص بن الربيع عبد العُزَّى مشرك بمكَّة. الحديث، وفيه: أنَّه أسلم بعدها. وكذلك قال الشعبيُّ. قال الشَّعبيُّ: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأةَ أبي العاص بنِ الربيع، فأسلمت ثم لحقت بالنبيِّ ﷺ، ثم أتى زوجها المدينةَ، فأمَّنته، فأسلم، فردَّها عليه النبيُّ ﷺ[٣].

وقال أبو داود: عن عكرمة عن ابن عباس: بالنكاح الأوَّل، ولم يحدث شيئاً. قال محمد بن عمرو في حديثه: بعد ستِّ سنين. وقال الحسن بن عليٍّ: بعد سنتين[٤]. قال أبو عمر[٥]: فإن صحَّ هذا، فلا يخلو من وجهين: إمَّا أنَّها لم تَحِضْ حتى أسلم

= بلفظ: فطلَّق عمر يومئذ امرأتين، كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. اهـ وقصة طلاق أمِّ كلثوم بنت عمرو أخرجها ابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة ٢/ ٧١٧ من طريق الزهري، عن عروة. وورد في مصادر التخريج: أم عبيد الله بن عمر، بدل: أم عبد الله بن المغيرة. وورد أيضاً عند ابن هشام وغوامض الأسماء المبهمة: حذيفة، بدل: حذافة.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٨٤ - ٥٨٥ عن الزهري.

(٣) قول الزهري عند عبد الرزاق في المصنف (١٢٦٤٩). وقول الشعبي عند البغوي ٤/ ٣٣٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق (١٢٦٤٠)، ومن طريقه الطبراني في الكبير ٢٠/ ٢٠١ (٤٥٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥: رواه الطبراني وفيه: جابر الجعفي، وهو ضعيف، وقد وثق. اهـ.
وأخرجه من طريق أخرى سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٧٣.

(٤) سنن أبي داود (٢٢٤٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١١٤٣)، وابن ماجه (٢٠٠٩)، وأحمد (١٨٧٦) من طريق داود بن حصين، عن عكرمة، به. قال الترمذي: هذا حديث ليس بإسناده بأس ...

(٥) في الاستذكار ١٦/ ٣٢٦.

زوجها، وإمَّا أنَّ الأمر فيها منسوخ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨] يعني: في عِدَّتهنَّ. وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنَّه عنى به العِدَّة. وقال ابن شهاب الزهريُّ ـ رحمه الله ـ في قصَّة زينب هذه: كان قبل أن تنزل الفرائض. وقال قتادة: كان هذا قبل أن تنزل سورة «براءة» بقطع العهود بينهم وبين المشركين. والله أعلم.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ المراد بالكوافر هنا: عبدة الأوثان، مَن لا يجوز ابتداءً نكاحها، فهي خاصَّة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وقيل: هي عامَّة، نُسِخَ منها نساء أهل الكتاب. ولو كان إلى ظاهر الآية، لم تحلَّ كافرة بوجه. وعلى القول الأوَّل إذا أسلم وَثَنِيٌّ أو مجوسيٌّ ولم تُسلم امرأته، فرّق بينهما. وهذا قول بعض أهل العلم. ومنهم من قال: ينتظر بها تمام العِدَّة. فمن قال يفرّق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العِدَّة إذا عرض عليها الإسلام ولم تُسلم، مالكُ بن أنس، وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحَكَم، واحتجُّوا بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ»[١].

وقال الزهريُّ: ينتظر بها العِدَّة. وهو قول الشافعي وأحمد[٢]. واحتجُّوا بأنَّ أبا سفيان بن حرب أَسلم قبل هند بنت عُتبة امرأتِه، وكان إسلامه بمرِّ الظَّهْران، ثم رجع إلى مكَّة وهندٌ بها كافرة مقيمة على كفرها، فأَخذت بلحيته وقالت: اقتلوا الشيخ الضَّالَّ. ثم أَسلمت بعده بأيام، فاستقرَّا على نكاحهما؛ لأنَّ عدَّتها لم تكن انقضت. قالوا: ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته، ثم أَسلمت بعده، فكانا على نكاحهما[٣].

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٣ - ١١٤، وقول مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٥، والمدونة ٢/ ٢٩٨، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ١٠٤ - ١٠٥، والمسألة ذكرها أيضاً ابن المنذر في الإشراف ٤/ ٢١٠ وعزاها للمذكورين أعلاه.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٤ - ١١٥، وقول الشافعي في الأم ٤/ ١٨٥، وقول أحمد في المغني ١٠/ ٨.

(٣) الاستذكار ١٦/ ٣٢٤ - ٣٢٥، وما بعده منه أيضاً، وينظر الأم ٤/ ١٨٥ و٥/ ٤١، ومرُّ الظهران: =

قال الشافعيُّ: ولا حجَّة لمن احتج بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِر» لأنَّ نساء المسلمين محرَّمات على الكفَّار، كما أنَّ المسلمين لا تحلُّ لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيَّات بقول الله عزَّ وجلَّ: «لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لهنَّ» ثم بيَّنت السنَّة أنَّ مراد الله من قوله هذا أنَّه لا يَحِلُّ بعضهم لبعض إلا أن يُسلم الباقي منهما في العِدَّة.

وأما الكوفيون ـ وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه ـ فإنَّهم قالوا في الكافرين الذِّمِّيِّين: إذا أَسلمت المرأة، عُرِض على الزوج الإسلام، فإن أَسلم، وإلا فُرِّق بينهما. قالوا: ولو كانا حربيين فهي امرأته حتى تحيضَ ثلاثَ حِيَضٍ[١]. إذا كانا جميعاً في دار الحرب، أو في دار الإسلام. وإن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب، انقطعت العصمة بينهما، فراعوا الدار، وليس بشيء. وقد تقدَّم.

الثالثة عشرة: هذا الاختلاف إنَّما هو في المدخول بها، فإن كانت غيرَ مدخول بها، فلا نعلم اختلافًا في انقطاع العصمة بينهما؛ إذ لا عِدَّة عليها. كذا يقول مالك في المرأة ترتدُّ وزوجها مسلم: انقطعت العصمة بينهما. وحجَّته: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح بن حَيٍّ. ومذهب الشافعي وأحمد أنَّه ينتظر بها تمام العدَّة[٢].

الرابعة عشرة: فإن كان الزوجان نصرانيين، فأسلمت الزوجة، ففيها أيضًا اختلاف، ومذهب مالك وأحمد والشافعيِّ الوقوف إلى تمام العدَّة. وهو قول مجاهد[٣]. وكذا الوَثَنِي تُسلم زوجته، أنَّه إن أسلم في عدَّتها فهو أحقُّ بها، كما كان

= قرية قرب مكة. معجم البلدان ٤/ ٦٣ . وخبر إسلام هند بنت عتبة أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٣٦ بإسناده عن عبد الله بن الزبير، وعلَّق طرفاً منه البخاري (٣٨٢٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(١) الاستذكار ١٦/ ٣٣١ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٥ - ١١٦ ، وسلف ذكر الأقوال قريباً.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٦ ، وقول مالك في المدونة ٢/ ٢٩٨ ، وقول أحمد في المغني ١٠/ ٦ ، وقول الشافعي في الأم ٥/ ٤٣ ، وقول مجاهد أخرجه عنه ابن أبي شيبة ٥/ ٩٣ .

صَفْوان بن أمَيّة وعِكْرمة بن أبي جهل أحقَّ بزوجتَيْهما لمَّا أَسلما في عدَّتيهما، على حديث ابن شهاب. ذكره مالك في «الموطأ»[١]، قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوانَ وبين إسلام زوجتِه نحوٌ من شهر. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أنَّ امرأةً هاجرت إلى رسول الله ﷺ وزوجها كافر مقيم بدار الحرب، إلا فرَّقت هجرتُها بينها وبين زوجها، إلا أن يقْدَم زوجها مهاجرًا قبل أن تنقضي عدَّتها. ومن العلماء من قال: ينفسخ النكاح بينهما. قال يزيد بن علقمة: أسلم جدِّي ولم تُسلم جدَّتي، ففرَّق عمر بينهما ﷺ، وهو قول طاوس. وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا: لا سبيلَ عليها إلا بخطبة[٢].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدَّات إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتُوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرَها. وكان ذلك نَصَفًا وعدلًا بين الحالتين. وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصَّةً بإجماع الأمة، قاله ابن العربيِّ[٣].

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذكر في هذه الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

(١) ٢/ ٥٤٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٦، وقول يزيد ذكره عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٢٨٢، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٥/ ٩١ بلفظ: أن رجلاً من بني ثعلب يقال له: عباد بن النعمان فكان تحته امرأة من بني تميم، فأسلمت، فدعاه عمر فقال: إما أن تسلم، وإما أن أنزعها منك. فأبى أن يسلم، فنزعها منه عمر. وقول طاوس وعطاء والحسن أخرجه عنهم ابن أبي شيبة ٥/ ٩٠، وذكره عنهم ابن المنذر في الإشراف ٤/ ٢٠٩.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٧٦.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ في الخبر: أنَّ المسلمين قالوا: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين، فامتنعوا، فنزلت: «وإنْ فَاتَكُم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار فعاقَبْتُم فآتُوا الَّذِينَ ذهبتْ أزواجُهم مثلَ ما أنفقوا»[١]. وروى الزهريُّ، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: حكم الله عزَّ وجلَّ بينكم فقال جلَّ ثناؤه: «واسْأَلُوا ما أَنفقتُم ولْيَسْأَلُوا ما أَنفقوا» فكتب إليهم المسلمون: قد حكم الله عزَّ وجلَّ بيننا بأنَّه إن جاءتكم امرأة منَّا أن توجِّهوا إلينا بصداقها، وإن جاءتنا امرأة منكم وجَّهنا إليكم بصداقها. فكتبوا إليهم: أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء فوجِّهوا به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وإنْ فَاتَكُم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار فعاقبتُم فآتُوا الذين ذهبتْ أزواجُهم مثلَ ما أنفقوا»[٢].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: «ذلكم حُكْم اللهِ يَحكُم بَينكُم» أي: بين المسلمين والكفَّار من أهل العهد من أهل مكَّة، يردُّ بعضهم إلى بعض. قال الزهريُّ: ولولا العهد لأمسك النساء ولم يردَّ إليهم صداقًا[٣]. وقال قتادة ومجاهد: إنَّما أمروا أن يُعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثلَ ما أنفقوا من الْفيء والغَنِيمة. وقالا: هي فيمن بيننا وبينه عهد، وليس بيننا وبينه عهد. وقالا: ومعنى «فعاقبتم» فاقتصصتم. ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ يعني الصدقات. فهي عامَّة في جميع الكفَّار. وقال قتادة أيضًا: وإن فاتكم شيء من أزوجكم إلى الكفَّار الذين بينكم وبينهم عهد، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا. ثم نسخ هذا في سورة «براءة»[٤]. وقال الزهريُّ: انقطع هذا عامَ الفتح. وقال سفيان الثوريُّ: لا يعمل به اليوم[٥]. وقال قوم: هو ثابت

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٤ بنحوه.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٧ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ - ١٢٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٨ - ٥٨٩ . وقول قتادة أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٩ دون ذكر النسخ.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ .

الحكم الآن أيضاً. حكاه القشيريُّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قراءة العامة: «فَعَاقَبْتُمْ»، وقرأ عَلْقمة والنَّخَعِيُّ وحُميد والأعرج: «فعقَّبتم» مشدَّدة. وقرأ مجاهد: «فأعقبتم»، وقال: صنعتم كما صنعوا بكم. وقرأ الزهريُّ: «فَعَقَبْتُم» خفيفة بغير ألف. وقرأ مسروق وشَقيق بن سلمة: «فعقِبتم» بكسر القاف خفيفة[1]، وقال: غنمتم. وكلها لغات بمعنًى واحد. يقال: عاقب وعَقَب وعقَّب، وأعقب وتعقَّب واعتقب وتعاقب: إذا غنم[2]. وقال القُتَبيُّ[3]: «فعاقبتم»: فغزوتم، معاقبين غزوًا بعد غَزْو. وقال ابن بحر: أي: فعاقبتم المرتدَّة بالقتل، فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين[4].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ قال ابن عباس: يقول: إن لحقت امرأة مؤمنة بكفَّار أهل مكَّة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قِبَلَكم، فغنمتم، فأعطوا هذا الزوجَ المسلمَ مهرَه من الغنيمة قبل أن تُخَمَّس[5]. وقال الزهريُّ: يُعْطَى من مال الفيء[6]. وعنه: يُعْطَى من صداق من لَحِق بنا[7]. وقيل: أي: إن امتنعوا من أن يَغْرَمُوا مهرَ هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فانبذوا العهدَ إليهم حتى إذا ظفرتم، فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش: هي منسوخة. وقال عطاء: بل حكمها ثابت. وقد تقدَّم جميع هذا.

القُشيريُّ: والآية نزلت في أمِّ الحكم بنت أبي سفيان، ارتدَّت وتركت زوجها

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣١٩ - ٣٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٤.

(٣) في غريب القرآن له ص ٤٦٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٩١ بنحوه.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٩٣ بنحوه.

(٧) الكشاف ٤/ ٩٤، وأورده النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤١٦ بنحوه.

عِيَاض بن غَنْم القرشيَّ، ولم ترتدَّ امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام(١).

وحكى الثعلبيُّ عن ابن عباس: هنَّ ستُّ نسوة رجعن عن الإسلام ولحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: أمُّ الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن أبي شدَّاد الفهريِّ. وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أمِّ سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما هاجر عمر أبَتْ وارتدَّت. وبَرْوَع بنت عقبة، كانت تحت شَمَّاس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العُزَّى، كانت تحت هشام بن العاص. وأم كلثوم بنت جَرْوَل كانت تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غَيْلان. فأعطاهم النبيُّ ﷺ مهورَ نسائهم من الغنيمة(٢). ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ احذروا أن تتعدَّوْا ما أمرتم به.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ لما فتح رسول الله ﷺ مكَّة، جاء نساء أهل مكَّة يبايعنه، فأُمِر أن يأخذ عليهنَّ أَلَّا يُشْرِكن(٣). وفي «صحيح مسلم» عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرنَ إلى رسول الله ﷺ يُمْتَحَنَّ بقولِ الله تعالى: «يا أيُّها النبيُّ إذا جاءَكَ المؤمناتُ يُبايعْنَكَ على أَلَّا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِيْنَ» إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا من

(١) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤، ولم يعزه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٤، والكشاف ٤/ ٩٤، ولم يرد فيهما ذكر: شهبة بنت غيلان، بل ورد فيهما: بدلاً عنها: هند بنت أبي جهل وكانت تحت هشام بن العاص. وورد أيضاً أن عبدة بنت عبد العزى كانت تحت عمرو بن عبد ودٍّ، لا تحت هشام بن العاص.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦.

المؤمنات، فقد أقرَّ بالمِحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقْررن بذلك من قولهنَّ، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقْنَ فقد بايَعْتُكنَّ» ولا واللهِ ما مَسَّت يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قطُّ، غيرَ أنَّه بايعهنَّ بالكلام. قالت عائشة: واللهِ، ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قطُّ إلا بما أمره الله عزَّ وجلَّ، وما مسَّتْ كَفُّ رسولِ الله ﷺ كفَّ امرأةٍ قطُّ، وكان يقول لهنَّ إذا أخذ عليهنَّ: «قد بايَعْتُكُنَّ كلامًا»[1].

وروي أنَّه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهنَّ ثوب، وكان يشترط عليهنَّ[2]. وقيل: لما فرغ من بيعة الرجال، جلس على الصَّفَا ومعه عمر أسفل منه، فجعل يشترط على النساء البَيْعة، وعمر يصَافحهنَّ[3]. ورُوِيَ أنَّه كلَّف امرأةً وقفت على الصَّفَا فبايعتهنَّ[4]. ابن العربيِّ: وذلك ضعيف، وإنَّما ينبغي التعويل على ما في الصحيح.

وقالت أمُّ عَطِيَّة: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة جَمَعَ نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، فقام على الباب فسلَّم فرَدَدْنَ عليه السلام، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكنَّ، ألَّا تشرِكن بالله شيئاً. فقلنَ: نعم. فمدَّ يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: اللَّهُمَّ اشهد[5].

---

(١) مسلم (١٨٦٨)، وهو عند البخاري (٥٢٨٨).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦١ بنحوه، والخبر أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥/ ٢٠١ (٤٥٤)، وفي الأوسط (٢٨٧٦) عن معقل بن يسار ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه: عتاب بن حرب، وهو ضعيف. اهـ. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ وعزاه للشعبي، وأخرجه عنه أبو داود في المراسيل (٣٧٣).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦١ بنحوه، والنكت والعيون ٥/ ٥٢٤ وعزاه لمقاتل، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٠ (١٨٨٧٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٩ وما بعده منه، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ أنه أَمَرَ أُميمة بنت رقيقة ـ أخت خديجة خالة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ بعد أن بايعته، أن تبايع النساء عنه. والخبر أخرجه الترمذي (١٥٩٧)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٥٢ ، وابن ماجه (٢٨٧٤)، وأحمد (٢٧٠٠٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٠٧٩٧)، وأبو يعلى (٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٤١)، والطبراني =

وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء، فغمس يده فيه، ثم أمر النساء فغمسنَ أيديهنَّ فيه[١].

الثانية: رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لما قال: «على ألّا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا» قالت هِنْد بنت عُتْبة وهي مُنْتَقِبة؛ خوفاً من النبيِّ ﷺ أن يعرفها لِمَا صنعته بِحَمْزَة يوم أُحُد: واللهِ إنَّك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال ـ وكان بايع الرجال يومئذٍ على الإسلام والجهاد فقط ـ فقال النبيُّ ﷺ: «ولا يَسْرِقن». فقالت هند: إنَّ أبا سفيان رجل شَحِيح، وإنِّي أُصيب من ماله قُوتَنَا. فقال أبو سفيان: هو لكِ حلال. فضحك النبيُّ ﷺ وعَرفَها، وقال: «أنت هند»؟ فقالت: عفا الله عمَّا سلف. ثم قال: «ولا يزنينَ». فقالت هند: أَوَتَزْنِي الحرَّة! ثم قال: «ولا يقتلنَ أولادهنَّ». أي: لا يَئِدْنَ الموؤدَات، ولا يُسقطن الأجِنَّة. فقالت هند: رَبَّيناهم صِغارًا، وقتلتهم كبارًا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر. وروى مقاتل أنَّها قالت: ربَّيناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، وأنتم وهم أعلم. فضحك عمر ابن الخطاب حتى استلقى[٢]. وكان حنظلة بن أبي سفيان ـ وهو بِكْرُها ـ قُتِل يوم بَدْر[٣].

ثم قال: «ولا يَأْتِيْنَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بينَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ ولا يَعْصِيْنَكَ في

= في الكبير ٢٥/ ٤٥ (٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو داود [١١٣٩] باختصار كثير، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات. اهـ.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١١ من طريق محمد بن عمر الواقدي، وهو ضعيف. وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٧/ ١٤٩ (٣٧٦) عن عروة بن مسعود الثقفي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩ : رواه الطبراني، وفيه: عبد الله بن عكيم، أبو بكر الداهري، وهو ضعيف.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ - ٥٢٥ ، والبغوي ٤/ ٣٣٤ - ٣٣٥ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٩٦ عن ابن عباس ﷺ، دون ذكر قول مقاتل، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥١ (١٨٨٧٢)، وأورد الخبر ابن كثير في التفسير ٨/ ٩٨ - ٩٩ من طريق الطبري وقال: وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. اهـ. وخبر نفقة هند مع زوجها أبي سفيان عند البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥ ، والخبر في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٧٠٨ والذي قتله هو: زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ويقال: اشترك فيه حمزة وعلي وزيد.

معروفٍ». قيل: معنى «بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ» ألسنتهنَّ بالنَّمِيمة. ومعنى بين «أَرْجُلِهِنَّ» فروجهنَّ. وقيل: ما كان بين أيديهنَّ: من قُبْلة، أو جَسَّة. وبين أرجلهنَّ: الجماع. وقيل: المعنى لا يُلْحِقن برجالهنَّ ولدًا من غيرهم. وهذا قول الجمهور(١). وكانت المرأة تلتقط ولدًا فَتُلْحقه بزوجها وتقول: هذا ولدي منكَ. فكان هذا من البهتان والافتراء. وقيل: ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأنَّ بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها(٢). وهذا عامٌّ في الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج، وإن سبق النهي عن الزِّنى. وروي أنَّ هند لما سمعت ذلك قالت: واللهِ إنَّ البهتان لأمر قبيح؛ ما تأمرُ إلا بالأرشد ومكارِمِ الأخلاق(٣)!.

ثم قال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال قتادة: لا يَنُحْنَ. ولا تخلُو امرأة منهنَّ إلا بذي مَحْرَم. وقال سعيد بن المسيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم: هو ألَّا يَخْمِشْنَ وجهًا، ولا يَشْقُقْنَ جَيْباً، ولا يَدْعُونَ وَيْلًا، ولا يَنْشُرْن شعرًا، ولا يحدِّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم(٤). وروت أمُّ عطيَّة عن النبيِّ ﷺ أنَّ ذلك في النَّوْح(٥). وهو قول ابن عباس(٦). وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ: «وَلَا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ» فقال: «هو النَّوْح»(٧). وقال مصعب بن نوح: أدركتُ عجوزًا ممن بايع النبيَّ ﷺ، فحدَّثتني عنه عليه الصلاة والسلام في قوله: «وَلَا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ» فقال: «النوح»(٨).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥ عن ابن المسيب ومحمد بن السائب، وزاد المسير ٨/ ٢٤٧ عن زيد بن أسلم.

(٥) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٢٠٧٩١).

(٦) زاد المسير ٨/ ٢٤٧ ، وأخرجه البخاري (٤٨٩٣) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥، والحديث أخرجه الترمذي (٣٣٠٧)، وابن ماجه (١٥٧٩)، وأحمد (٢٦٧٢٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٨ ، وأحمد (١٦٥٥٦)، والطبري ٢٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩ ، وفي إسناده: مصعب بن نوح، وهو مجهول. تعجيل المنفعة ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

وفي «صحيح مسلم» عن أمِّ عطية لما نزلت هذه الآية: «يُبَايِعْنَكَ على ألَّا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا» إلى قوله: «ولا يَعْصِينَكَ في معروفٍ» قال: «كان منه النياحة» قالت: فقلت: يا رسول الله إلا آل فلان؛ فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بُدَّ لي من أن أسعدهم. فقال رسول الله ﷺ: «إلَّا آل فلان»[١]. وعنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ألَّا نَنُوح، فما وَفَتْ منَّا امرأةٌ إلا خمسٌ: أمُّ سُليم، وأمُّ العلاء، وابنةُ أبي سَبْرة امرأة معاذ أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ[٢].

وقيل: إنَّ المعروف ها هنا الطاعة للَّه ولرسوله، قاله ميمون بن مِهران[٣]. وقال بكر بن عبد الله المُزَنِيُّ: لا يعصِينك في كلِّ أمر فيه رشدهنَّ. الكلبيُّ: هو عامٌّ في كلِّ معروف أمر الله عزَّ وجلَّ ورسولُه به[٤]. فروي أنَّ هندًا قالت عند ذلك: ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصِيك في شيء[٥].

الثالثة: ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ ورسولُه عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالًا شَتَّى، صُرِّح فيهنَّ بأركان النهي في الدِّين، ولم يذكر أركان الأمر. وهي ستَّة أيضًا: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة. وذلك لأنَّ النهي دائم في كلِّ الأزمان، وكلِّ الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد. وقيل: إنَّ هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهنَّ عنها شرف النسب، فَخُصَّت بالذِّكْر لهذا. ونحوٌ منه قوله عليه الصلاة والسلام لوَفْد عبد القيس: «وأنهاكم عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقِير والمُزَفَّت». فنبَّههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي؛ لأنَّها كانت شهوتهم وعادتهم، وإذا ترك المرء شهوته من

---

(١) مسلم (٩٣٦): (٣٦)، وهو عند أحمد (٢٠٧٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٢٧٣٠٥).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦ .

(٥) الوسيط ٤/ ٣٥٥ ، والبغوي ٤/ ٣٣٥ ، والكشاف ٤/ ٩٥ ، ضمن خبر طويل، وسلف قريبًا.

المعاصي، هان عليه ترك سائرها مما لا شهوةَ له فيها[١].

الرابعة: لما قال النبيُّ ﷺ في البيعة: «ولا يَسْرِقن» قالت هند: يا رسولَ الله، إنَّ أبا سفيان رجل مَسِيك فهل عليَّ حرج أن آخذ ما يكفيني وولدي؟ قال: «لا، إلَّا بالمعروف» فخشِيتْ هند أن تقتصر على ما يعطيها، فتضيع، أو تأخذ أكثرَ من ذلك، فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لا» أي: لا حرجَ عليكِ فيما أخذتِ بالمعروف. يعني: من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة. قال ابن العربيّ[٢]: وهذا إنَّما هو فيما لا يَخْزُنه عنها في حجاب، ولا يَضبِطُ عليه بقُفْل، فإنَّه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه، كانت سارقةً تعصي به، وتُقطَع يدها.

الخامسة: قال عُبادة بن الصَّامت: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: «ألَّا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضًا، ولا تَعْصُوا في معروف آمركم به»[٣]. معنى «يَعْضَه»: يسحر. والعَضْه: السِّحر. ولهذا قال ابن بحر وغيره في قوله تعالى: «ولا يأتين ببهتان» إنَّه السحر[٤]. وقال الضَّحَّاك: هذا نهي عن البهتان، أي: لا يَعْضَهْنَ رجلًا ولا امرأة. «بِبُهْتَانٍ» أي: بسحر. والله أعلم. ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والجمهور على أنَّ معنى «بِبُهْتَانٍ» بولد يفترينه بين أيديهنَّ ما أخذَتْه لقيطًا. «وَأَرْجُلِهِنَّ» ما ولدته من زنًى. وقد تقدَّم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٢ - ١٧٨٣، والحديث أخرجه البخاري (١٣٩٨)، ومسلم (١٧)، والدُّبَّاء: القَرْع. والحنتم: جِرار مدهونة خضر كانت تُحمل الخمر فيها إلى المدينة. والمزفَّت: الإناء الذي طلي بالزِّفْت. وهذه كلها أوعية ينتبذون فيها فتسرع الشِّدَّة في الشراب. النهاية (دبب) و(حنتم) و(زفت).

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٣، وما قبله منه أيضًا. والحديث سلف قريبًا.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في السنن المأثورة ٢/ ٢٦٨، وهو عند مسلم (١٧٠٩): (٤٣)، وأحمد (٢٢٧٣٢).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في البخاريِّ[1] عن ابن عباس في قوله تعالى: «ولا يعصينك في معروف» قال: إنَّما هو شرط شرطه الله للنساء. واختلف في معناه على ما ذكرنا. والصحيح أنَّه عامٌّ في جميع ما يأمر به النبيُّ ﷺ وينهى عنه؛ فيدخل فيه النَّوْح، وتخريق الثياب، وجَزُّ الشعر، والخَلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك. وهذه كلُّها كبائر ومن أفعال الجاهلية.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع في أمَّتي من أمر الجاهلية» فذكر منها النياحة[2]. وروى يحيى بن أبي كَثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه النوائح يُجعلنَ يوم القيامة صفَّين، صفًّا عن اليمين، وصفًّا عن اليسار، ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُؤمَر بهنَّ إلى النار». وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصلِّي الملائكة على نائحة ولا مُرِنَّة». وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه سمع نائحةً، فأتاها فضربها بالدِّرَّة حتى وقع خِمارها عن رأسها. فقيل: يا أمير المؤمنين، المرأةَ المرأةَ! قد وقع خمارها. فقال: إنَّها لا حُرْمَة لها. أسند جميعَه الثعلبيُّ رحمه الله[3].

أما تخصيص قوله: «في مَعْرُوفٍ» مع قوَّة قوله: «وَلَا يَعْصِينَكَ» ففيه قولان:

---

(١) برقم (٤٨٩٣).

(٢) مسلم (٩٣٤)، وسلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٣) والحديث الأول أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٥) من طريق سليمان بن داود اليمامي، عن يحيى ابن أبي كثير، به، إلا أنه لم يرد فيه قوله ﷺ: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يؤمر بهنَّ إلى النار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٤: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. اهـ.

والحديث الثاني أخرجه الطيالسي (٢٤٥٧)، ومن طريقه أحمد (٨٧٤٦)، وأبو يعلى (٦١٣٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه: أبو مُرَاية [وتصحَّفت في مطبوع المجمع إلى: مرانة. قال ابن حجر في تبصير المنتبه ٤/ ١٢٧١: مُرَاية، بالضم والتخفيف، وبعد الألف ياء تحتانية. أبو مراية العجلي اسمه: عبد الله بن عمرو. اهـ. وذكره ابن حبان في الثقات ٥/ ٣١]، ولم أجد من وثقه ولا جرحه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وخبر عمر بن الخطاب ذكره الذهبي في الكبائر في الكبيرة التاسعة والأربعين.

أحدهما: أنَّه تفسير للمعنى على التأكيد، كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢] لأنَّه لو قال: احكم، لكفى. الثاني: إنَّما شرط المعروف في بَيْعة النبيِّ ﷺ؛ حتى يكون تنبيهاً على أنَّ غيره أولى بذلك، وألزم له، وأنفى للإشكال.

السابعة: روى البخاريُّ عن عبادة بن الصامت قال: كنَّا عند النبيِّ ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألَّا تشركوا بالله شيئًا. ولا تزنوا، ولا تسرقوا» قرأ آيةَ النساء. وأكثر لفظ سفيان: قرأ في الآية: «فمن وَفَى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب، فهو كفَّارة له، ومن أصابَ من ذلك شيئًا فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له منها»(١).

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدتُ الصلاةَ يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلُّهم يصلِّيها قبل الخطبة، ثم يخطب، فنزل نبيُّ الله ﷺ فكأنِّي أنظرُ إليه حين يُجلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يَشُقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلِّها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك»؟ فقالت امرأة واحدة لم يُجبْه غيرُها: نعم، يا رسول الله. لا يَدْرِي الحسن من هي. قال: «فَتَصَدَّقْنَ» وبسط بلال ثوبَه، فجعلن يُلقِيْنَ الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال. لفظ البخاريِّ(٢).

الثامنة: قال المَهدَوِيُّ: أجمع المسلمون على أنَّه ليس للإمام أن يشترط عليهنَّ هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتِيج إلى المِحنة من أجل تباعد الدار، كان على إمام المسلمين إقامة المحنة.

---

(١) البخاري (٤٨٩٤)، وهو عند مسلم (١٧٠٩): (٤٢).

(٢) برقم (٤٨٩٥)، وهو عند مسلم (٨٨٤)، وأحمد (٣٠٦٣). قال عبد الرزاق إثر رواية البخاري (٩٧٨): الفَتَخ: الخواتيم العظام كانت في الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود[١]. وذلك أنَّ ناساً من فقراء المسلمين كانوا يُخْبِرون اليهود بأخبار المؤمنين ويواصلونهم، فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهُوا عن ذلك[٢]. ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: اليهود، قاله ابن زيد[٣]. وقيل: هم المنافقون. وقال الحسن: هم اليهود والنصارى. قال ابن مسعود: معناه أنَّهم تركوا العمل للآخرة، وآثروا الدنيا. وقيل: المعنى يئسوا من ثواب الآخرة، قاله مجاهد[٤]. ومعنى ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي: الأحياء من الكفَّار. ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم، قاله الحسن وقتادة[٥]. قال ابن عرفة: وهم الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقال مجاهد: المعنى: كما يئس الكفَّار الذين في القبور أن يرجعوا إلى الدنيا[٦].

وقيل: إنَّ الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفَّار، وهي خطاب لحاطب بن أبي بَلْتَعَة وغيره. قال ابن عباس: «يا أيُّها الذين آمنوا لا تَتولَّوا» أي: لا توالوهم ولا تناصحوهم، رجع تعالى بطَوْله وفَضْله على حاطب بن أبي بَلْتَعَة. يريد أنَّ كفَّار قريش قد يئسوا من خير الآخرة، كما يئس الكفَّار المقبورون من حظٍّ يكون لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى. وقال القاسم بن أبي بَزَّة في قوله تعالى: «قد يَئِسُوا من الآخرةِ كما يَئِسَ الكفَّارُ من أصحابِ القبورِ» قال: من مات من الكفَّار، يئس من الخير. والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦ وعزاه لمقاتل.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٦.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٧.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٧٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٤.
(٥) وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٦٠٢ - ٦٠٣، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٩.
(٦) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٤.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها ثلاثَ عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلَتْ في حاطبِ بن أبي بَلْتعةَ، فإنَّه لَمَّا عَلِمَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يغزو أهلَ مَكَّةَ كتبَ إليهم: أنَّ رسولَ اللهِ يريدُكُم فخُذوا حِذرَكُم، وأرسلَ مع سارةَ مولاةِ بني المطَّلبِ، فنزلَ جبريلُ فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عليًّا وعمَّارًا وطلحةَ والزُّبيرَ والمقدادَ وأبا مَرْثَدٍ وقال: «انطَلِقُوا حتَّى تأتوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظَعينةً مَعها كتابُ حاطبٍ إلى أهلِ مكَّةَ فخُذوا منها وخلُّوها، فإنْ أبَتْ فاضرِبُوا عنقَها»، فأدركُوها ثَمَّ، فجحَدَتْ[1]، فسَلَّ عليٌّ السَّيفَ فأخرَجَتْهُ مِن عَقِيصَتِها، فاستحضرَ رَسولُ اللهِ حاطبًا وقال: «ما حملكَ عليه؟» فقال: ما كفرتُ منذُ أسلَمْتُ وما غَشَشْتُكَ منذُ نَصحتُكَ، ولكنِّي كنتُ امرأً مُلْصَقًا في قريشٍ وليسَ لي فيهم مَن يَحمِي أهلي، فأردتُ أن آخُذَ عِندَهُم يدًا، وقد علمتُ أنَّ كتابي لا يُغني عنهم شيئًا، فصدَّقَهُ رسولُ اللهِ وعذرَهُ[2].

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «فهمّوا بالرجوع».

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسولُ الله ﷺ أنا والزبير، والمقداد، فقال: «انْطَلِقوا حتى تأتوا روضةَ خَاخٍ، فإنَّ بها ظَعينةً معها =

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفضونَ إليهم المودَّةَ بالمكاتبةِ، والباءُ مَزيدةٌ، أو إخبارَ رسولِ اللهِ[1] بسببِ المودةِ، والجملةُ حالٌ مِن فاعلِ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ أو صِفةٌ لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جرَتْ على غيرِ مَنْ هيَ له، فلا حاجةَ فيها إلى إبرازِ الضَّميرِ لأنَّه مَشروطٌ في الاسمِ دون الفعلِ.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حالٌ مِن فاعلِ أحدِ الفِعلينِ.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: مِن مكَّةَ، وهو حالٌ مِن ﴿كَفَرُوا۟﴾، أو استئنافٌ لبَيانِه.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ بأَنْ تؤمِنُوا به، وفيه تغليبُ المخاطَبِ والالتفاتُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ للدَّلالةِ على ما يوجِبُ الإيمانَ.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانِكُم ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ عِلَّةٌ للخروجِ وعمدةٌ للتَّعليقِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بدلٌ مِن ﴿تُلْقُونَ﴾ أو استئنافٌ مَعناه: أيُّ طائلٍ لكُم في إسرارِ المودَّةِ أو الإخبارِ بسببِ المودَّةِ.

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: مِنكُم.

= كتابٌ، فخُذوه منها» قال: فانطَلَقْنا تَعادَى بنا خيلُنا حتى أَتينا الروضةَ، فإذا نحن بالظَّعِينة، فقُلنا لها: أَخْرِجي الكتاب، قالت: ما معي كتابٌ، فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لَنُلْقِيَنَّ الثِّياب، قال: فأخرجَتْه مِن عِقَاصِها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: مِن حاطبِ بن أبي بلتعةَ، إلى ناسٍ بمكة من المشركين، يُخْبِرُهم ببعضِ أَمْرِ رسول الله ﷺ... ثم ذكر قصة حاطب مع النبي ﷺ لما سأله عن الكتاب.

والخبر كما ذكره المصنف تابع فيه صاحب «الكشاف» (٩/ ٦٢) مختصراً، وروى بعضه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وسمى المرأة: أم سارة. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٦٨): فيه الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف.

(١) قوله: «أو إخبار رسول الله» عطف على «المودة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣١٩).

وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارعٌ والباءُ مَزيدةٌ، و(ما) موصولةٌ أو مَصدريَّةٌ.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: يفعلُ الاتِّخاذَ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأَهُ.

(٢) ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفـرُوا بكـم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ولا ينفعكُم إلقاءُ المودَّةِ إليهم.

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ ما يَسوؤُكُم كالقتلِ والشَّتمِ.

﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنَّوا ارتِدادَكُم، ومجيئُه وحدَهُ بلفظِ الماضي للإشعارِ بأنَّهُم وَدُّوا ذلك قبلَ كلِّ شيءٍ، وأنَّ وَدادَتَهُم حاصلةٌ وإن لم يَثْقَفُوكُم.

(٣) ـ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتُكُـم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذيـن تُوالـونَ المشـركينَ لأَجلِهِم.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفرقُ بينكُم بما عَراكُم مِن الهولِ فيفِرُّ بَعضُكُم مِن بَعضٍ، فما لكم تَرفضونَ اليومَ حقَّ اللهِ لِمَن يَفِرُّ عنكم غدًا.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ بكسرِ الصَّادِ والتَّشديدِ وفتحِ الفَاءِ، وعاصمٌ: ﴿يَفْصِلُ﴾، وقرأَ ابنُ عامرٍ ﴿يُفَصَّلُ﴾[1] على البناءِ للمَفعولِ مع التَّشديدِ: وهو بينكُم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكُمْ عليه.

(٤) ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوةٌ حسنةٌ، اسمٌ لِمَا يُؤتَسى به.

﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ صفةٌ ثانيةٌ أو خبرُ (كان) و﴿لَكُمْ﴾ لغوٌ، أو حالٌ[2] مِن المستكنِّ في ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صِلَةٌ لها لا لـ﴿أُسْوَةٌ﴾؛ لأنَّها وُصِفَت.

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ ظـرفٌ لخبـرِ (كان): ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ جمـعُ بَـريءٍ كظَريـفٍ وظُرَفاءَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٠).

(٢) قوله: «أو حال» هو مع ما بعده عطف على «صفة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٢١).

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينِكُم أو معبودِكُم، أو بِكُم وبه فلا نعتَدُّ بشأنِكُم وآلِهتِكُم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فتنقلبُ العداوةُ والبَغضاءُ أُلفةً ومَحبَّةً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءٌ مِن قولِه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فإنَّ استغفارَهُ لأبيهِ الكافرِ ليس ممَّا ينبغي أن يَأتَسُوا به، فإنَّه كانَ قبلَ النَّهيِ، أو لموعدَةٍ وعدَها إيَّاه.

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِن تَمامِ قولِهِ المُستثنى، ولا يلزمُ مِن استثناءِ المَجموعِ استثناءُ جميعِ أَجزائِه.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مُتَّصِلٌ بما قبلَ الاستثناءِ، أو أمرٌ مِن اللهِ للمُؤمنينَ بأَنْ يقولوه تتميمًا لِمَا وَصَّاهُم به مِن قطعِ العَلائقِ بينهم وبين الكُفَّارِ.

(٥) ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأَنْ تُسَلِّطَهُم علينا فيَفتِنُونا بعذابٍ لا نتحمَّلُه، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرطَ.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومَن كانَ كذلك كانَ حقيقًا بأن يُجيرَ المتوكِّلَ ويُجيبَ الدَّاعِيَ.

(٦) ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكريرٌ لِمَزيدِ الحثِّ على التأسِّي بإبراهيمَ، ولذلك صُدِّرَ بالقسمِ وأُبدِلَ قولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ مِن ﴿لَكُمْ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّه لا ينبَغِي لِمُؤمنٍ أن يتركَ التَّأسِّيَ بهم، وأنَّ تركَهُ مُؤذِنٌ بسوءِ العقيدةِ، ولذلك عقَّبَه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فإنَّه جديرٌ بأن يوعِدَ به الكفرةَ.

(٧) ـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لَمَّا نزلَ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ عادى المؤمنونَ أقاربهم المشركينَ وتبرَّؤُوا عنهم، فوعدَهُم الله بذلك وأنجزَ إذ أسلمَ أكثرُهُم وصارُوا لهم أولياءَ.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرطَ مِنْكُم في مُوالاتِهم مِن قبلُ ولما بقيَ في قلوبِكُم مِن ميلِ الرَّحِمِ.

(٨) ـ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يَنهاكُم عَن مبرَّةِ هؤلاءِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ تُفْضُوا إليهم بالقسطِ؛ أي: العدلِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلينَ.

رُوِيَ أن قُتَيلة بنتَ عبد العُزَّى قَدِمَتْ مُشرِكَةً على بنتِها أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ بهدايا فلَمْ تَقبَلْها ولم تأذَنْ لها بالدُّخولِ، فنزلَتْ[1].

(٩) ـ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمُشرِكي مَكَّةَ فإنَّ بعضَهُم سَعَوْا في إخراجِ المؤمنينَ، وبعضَهُم أعانوا المُخرَجِين.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلَ الاشتمالِ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوَضْعِهِم الولايةَ في غيرِ مَوضعِها.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٦٨)، من حديث عروة بن الزبير، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٠٤)، من حديث عبد الله بن الزبير، قال: قدمت قتيلة بنت العزى بنت أسعد من بني مالك بن حسل على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما... فذكره بنحوه. وأصل الحديث رواه مسلم (١٠٠٣)، وعلقه البخاري (٥٩٧٩) جزماً، من حديث أسماء رضي الله عنها.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٥٦): اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها في أسماء بنت أبي بكر، والثاني: أنها نزلت في خزاعة وبني مدلج...، وعزاه لابن عباس والحسن، والثالث: نزلت في قوم من بني هاشم من الهباس، قاله عطيّة العوفي ومرّة الهمداني، والرابع: أنها عامة في الكفار، وهي منسوخة بقوله تعالى ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قاله قتادة، والخامس: نزلت في النساء والصبيان، حكاه الزجاج.

(١٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبِرُوهنَّ بما يُغلِّبُ على ظنِّكُم موافقةَ قلوبِهنَّ لسانَهُنَّ(١) في الإيمانِ.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فإنَّه المطَّلِعُ على ما في قلوبهنَّ.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلمَ الذي يمكنكُم تَحصيلُه وهو الظنُّ الغالبُ بالحلفِ وظهورِ الأَماراتِ، وإنَّما سمَّاه علمًا إيذانًا بأنَّه كالعلمِ في وجوبِ العملِ به.

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهنَّ الكفرةِ؛ لقولِه: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتَّكريرُ للمُطابقةِ والمبالغةِ، أو الأوَّلُ لحُصولِ الفرقةِ والثَّانيةُ للمنعِ عن الاستئنافِ.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ما دفعوا إليهنَّ مِن المهورِ، وذلك لأنَّ صُلحَ الحديبيَّةِ جرى على أنَّ مَن جاءَنا مِنكُم ردَدْناه، فلمَّا تعذَّرَ عليه ردُّهُنَّ لوُرودِ النَّهيِ عنه لَزِمَه ردُّ مُهورهنَّ إذ رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ كان بعدُ بالحديبيةِ إذ جاءَتْه سُبَيْعةُ بنتُ الحارثِ الأَسلميَّةُ مُسلِمَةً فأقبلَ زَوجُها مسافرٌ المخزوميُّ طالبًا لها فنزلَتْ، فاستَحْلَفَها رسولُ اللهِ ﷺ فحلفَتْ، فأعطَى زَوْجَها ما أنفقَ وتزوَّجَها عمرُ رضيَ اللهُ عنه(٢).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنَّ الإسلامَ حالَ بينَهنَّ وبينَ أزواجهنَّ الكفَّارِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «ألسنتهن».

(٢) ذكر الخبر عند تفسير هذه الآية مقاتل والفراء وأبو الليث السمرقندي والثعلبي والبغوي وابن عطية وابن الجوزي في تفاسيرهم، وهبة الله بن سلامة في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٧٧ ـ ١٧٨)، وعزاه الثعلبي والبغوي، وكذا الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٢٤) لابن عباس لكن دون إسناد، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٥٢١) عن الكلبي، فلعله كغيره من الأخبار التي رويت من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ شَرَطَ إيتاءَ المهرِ في نكاحهنَّ إيذانًا بأنَّ ما أُعطيَ أزواجُهُنَّ لا يقومُ مقامَ المهرِ.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ بما تعتَصِمُ به الكافراتُ مِن عقدٍ وسببٍ[1]، جمعُ عصمةٍ، والمرادُ نهيُ المؤمنينَ عن المُقامِ على نكاحِ المُشركاتِ.

وقرأَ البَصريَّانِ: ﴿ولا تمسِّكوا﴾ بالتَّشديدِ[2].

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ مِن مُهورِ نِسائِكُم اللاحقاتِ بالكفَّارِ ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ مِن مُهورِ أزواجِهِم المهاجراتِ.

﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ يعني: جميعَ ما ذكرَ في الآيةِ.

﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ استئنافٌ أو حالٌ مِن الحكمِ على حذفِ الضَّميرِ، أو جَعلِ الحكمِ حاكمًا على المبالغةِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ يشرعُ ما تقتضيهِ حِكمَتُه.

(١١) ـ ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ﴾ وإن سبقَكُم وانفلتَ مِنْكُم ﴿شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ أحدٌ مِن أَزواجِكُم، وقد قُرِئَ به[3]، وإيقاعُ ﴿شَيۡءٞ﴾ موقِعَه للتَّحقيرِ والمبالغةِ في التَّعميمِ، أو شيءٌ مِن مُهورهنَّ.

﴿إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ فجاءَتْ عُقْبَتُكم؛ أي: نَوْبَتُكم مِن أداءِ المهرِ، شَبَّهَ الحكمَ

---

(١) في النسخ: «ونسب»، والمثبت ما في «حاشية الخفاجي»، قال: وقولُه: (وسبب) أي: من أسبابِ النكاح، وفي نسخَةٍ: (نسب) بالنُّون، وهوَ من تحريف النَّاسخ. ونحوه في «حاشية القونوي» (١٩/ ٦٠)، و«حاشية شيخ زاده» (٨/ ١٩٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٠)، و«النشر» (٢/ ٣٨٧).

(٣) وهي قراءة ابن مسعود، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٥١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٤)، و«الكشاف» (٩/ ٧٥).

بأداءِ هؤلاءِ مهورَ نِساءِ أولئك تارةً وأداءِ أولئكَ مُهورَ نِساءِ هؤلاءِ أُخرى بأمرٍ يَتعاقبونَ فيه كما يُتعاقَبُ في الرُّكوبِ وغيرِه.

﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ مِن مهرِ المهاجرةِ، ولا تؤتوهُ زوجَها الكافرَ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا نزلَت الآيةُ المتقدِّمةُ أبى المشركونَ أن يُؤَدُّوا مهرَ الكوافرِ فنزلَتْ[1].

وقيل: معناهُ: إن فاتَكُم فأصَبْتُم مِن الكفَّارِ عُقْبى ـ وهي الغنيمةُ ـ فآتوا بدلَ الفائتِ مِن الغنيمةِ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ فإنَّ الإيمانَ به يقتَضِي التَّقوى منه.

(١٢) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ نزلَتْ يومَ الفتحِ فإنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا فرغَ عن بيعةِ الرِّجالِ أخذَ في بَيعةِ النِّساءِ.

﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ يريدُ وأدَ البناتِ.

﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ في حسنةٍ تأمرُهُنَّ بها، والتَّقييدُ بالمَعروفِ مع أنَّ الرَّسولَ لا يأمرُ إلَّا به تنبيهٌ على أنَّه لا يجوزُ طاعةُ مَخلوقٍ في مَعصيةِ الخالقِ.

﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ إذا بايَعْنَك بضمانِ الثَّوابِ على الوفاءِ بهذه الأشياءِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

(١٣) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: عامَّةَ الكفَّارِ، أو اليهودَ، إذ رُوِيَ أنَّها نزلَتْ في بعضِ فُقراءِ المُسلمينَ، كانوا يواصِلُونَ اليهودَ ليُصيبوا مِن ثمارِهِم.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٠٤) عن الزهري.

﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكُفرِهِم بها أو لعلمِهِم بأنَّه لا حظَّ لهم فيها لعنادِهِم الرَّسولَ المنعوتَ في التَّوراةِ المؤيَّدَ بالآياتِ.

﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يُبعَثوا أو يُثابوا أو يَنالَهم خيرٌ منهم، وعلى الأوَّلِ وُضِعَ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ المُضمَرِ للدَّلالةِ على أنَّ الكفرَ آيَسَهُم.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ المُمتحنةِ كانَ له المؤمنونَ والمؤمناتُ شفعاءَ يومَ القيامةِ»(١).

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٢٨٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٨١)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٠) سورة الممتحنة مدنية
وآياتها ثلاث عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ
يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم
بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ
لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة (حاطب بن أبي بلتعة)، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، أمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عمِّ عليهم خبرَنا»، فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً. روى الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقينّ الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام،

فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ونزلت فيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾[1]. وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة. فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ يعني المشركين والكفّار الذين هم محاربون لله ولرسوله، نهى الله أن يتخذوهم أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وكقوله تعالى: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾، وقوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي فلا توالوا أعدائي، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم، وقوله تعالى: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً، وقوله تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله، إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم، فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

(١) أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين والتبري منهم: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا معه، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد، وقوله تعالى ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه؛ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين، هكذا قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد. ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم، فقالوا ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك المصير﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير أي المعاد في الدار الآخرة ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله تعالى: ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إنك أنت العزيز﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك، ﴿الحكيم﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وهذا تأكيد لما تقدم، وقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى ﴿ومن يتول﴾ أي عما أمر الله به، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾، كقوله تعالى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وقال ابن عباس: ﴿الغني﴾ الذي قد كمل في غناه، وهو الله ليس كمثله شيء، و ﴿الحميد﴾ المستحمد إلى خلقه، أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه.

* عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ أي محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، ﴿والله قدير﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾، وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟»، وقال الله تعالى ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

وقوله تعالى: ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم، إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان، وعن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر ابن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل، فلقي ذا الخمار مرتداً، فقاتله فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين، قال ابن شهاب: وهو ممن أنزل الله فيه: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ [١] الآية، وقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾، أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة، الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿أن تبروهم﴾ أي تحسنوا إليهم، ﴿وتقسطوا إليهم﴾ أي تعدلوا، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.
عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[٢]. وقال الإمام أحمد حدثنا عارم، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مصعب بن ثابت، حدثنا عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها[٣]، وقوله تعالى: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ في الحديث الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا». وقوله تعالى: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم﴾ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عزّ وجلّ عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فقال: ﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.
(٣) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحُدَيبية، الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: على أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصِّصة للسنة، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عزّ وجلّ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلون لهنّ﴾، وسبب النزول ما روي أنه لما هاجرت (أُم كلثوم) بنت عقبة بن أبي معيط، خرج أخواها (عمارة) و (الوليد) حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان[1]، روى ابن جرير، عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء، قال: كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله[2]. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وقال مجاهد: ﴿فامتحنوهن﴾ فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمنَّ فارجعوهن إلى أزواجهن، وقال عكرمة: يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك، فذلك قوله ﴿فامتحنوهن﴾، وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحرص عليه، فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن.

وقوله تعالى: ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً، وقوله تعالى: ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أمر (أبي العاص بن الربيع) زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت

---

(١) ذكره في المسند الكبير في ترجمة عبدالله بن جحش.

(٢) رواه ابن جرير ورواه البزار من طريقه وذكر أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب.

امرأته زينب في فدائه بقلادة لهـا كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لهـا رقة شديدة وقـال للمسلمين: «إن رأيتم أن تطلقوا لهـا أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة (اثنتين) إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة (ثمان) فردها إليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لهـا صداقاً؛ كما روى الإمام أحمد، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً»[1]. وروي أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديـد ونكاح جديـد[2]، والذي عليه الأكثرون أنهـا متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه، وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة[3]، وقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فأنكحوهن بشرطه، من انقضاء العدة والولي وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ تحريم من الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لمـا عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نسـاء من المؤمنات فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ إلى قوله ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما (معاوية بن أبي سفيان) والأخرى (صفوان بن أُميّة)، وقال الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاء النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين، أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإنما حكم الله بينهم بذلك لأجل مـا كان بينهم وبينهم من العهد، وقوله تعالى: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ أي وطالبوا بمـا أنفقتم على أزواجكم، اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بمـا أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين، وقوله تعالى: ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم بـه بين خلقه، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فـآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها، وقال ابن عباس في هـذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة،

(١) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد والعمل عليه عند أهل العلم.

(٣) قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وغير واحد.

وهكذا قال مجاهد ﴿ فعاقبتم ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ يعني مهر مثلها، وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢)

روى البخاري، عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله ﴿ غفور رحيم ﴾، قال عروة، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: « قد بايعتك » كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك » هذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد، عن أُمية بنت رقيقة[٢] قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿ أن لا نشرك بالله شيئاً ﴾ الآية، وقال: « فيما استطعتن وأطقتن »، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: « إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة »[٣]. وعن (سلمى بنت قيس) – وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ – وقد صلت معه القبلتين، قالت: جئت رسول الله ﷺ، نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: « ولا تغششن أزواجكن » قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ: ما غش أزواجنا؟ قال، فسألته فقال: « تأخذ ماله فتحابي به غيره »[٤]. وقال الإمام أحمد، عن عائشة بنت قدامة – يعني ابن مظعون – قالت: أنا مع أمي رائطة ابنة سفيان الخزاعية والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول: « أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف – قلن نعم – فيما استطعتن » فكن يقلن وأقول معهن وأمي تقول لي: أي بنية نعم، فكنت أقول كما يقلن »[٥]. وقال البخاري، عن أُم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿ ولا تشركن بالله شيئاً ﴾، ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة يدها، قالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها، وفي رواية: فما وفى منهن امرأة غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان[٦]

---

(١) في اللباب، أخرج ابن أبي حاتم: ﴿ وإن فاتكم ﴾ نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت فتزوجها ثقفي.

(٢) قوله (أميمة بنت رقيقة) هي أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري، عن ابن عباس، قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ، فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟»، فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله. لا يدري حسن من هي، قال: فتصدقن، قال: وبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال[1]. وعن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التي أخذت على النساء إذا جاءك المؤمنات - فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»[2]. وقد روى ابن جرير، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال: «قل لهن إن رسول الله ﷺ يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً» وكانت (هند بنت عتبة بن ربيعة) التي شقت بطن حمزة متنكرة في النساء، فقالت هند وهي متنكرة: كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال؟ فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر: «قل لهن: ولا يسرقن»، قالت هند: والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات ما أدري أيحلهن لي أم لا، قال أبو سفيان: ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها، فقال: «ولا يزنين»، فقالت: يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة، قال: «لا والله ما تزني الحرة» قال: «ولا يقتلن أولادهن»، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر، قال: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ قال: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قال: منعهن أن ينحن، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب، ويخدشن الوجوه، ويقطعن الشعور، ويدعون بالويل والثبور[3]. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الفتح، بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعمر بايع النساء يحلفهن عن رسول الله ﷺ، فذكر بقيته كما تقدم، وزاد: فلما قال: «ولا تقتلن أولادكن» قالت هند: ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى[4].

فقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن أموال الناس الأجانب، وقوله تعالى: ﴿ولا يزنين﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾. وقال الإمام أحمد، عن عروة عن عائشة قالت: جاءت (فاطمة بنت عتبة) تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين﴾ الآية قال: فوضعت

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه ابن جرير قال ابن كثير: في بعضه نكارة وهو أثر غريب.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية[١]، وقوله تعالى: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه، وقوله تعالى: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾، قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ويؤيد هذا الحديث الذي رواه أبو داود، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»[٢].

وقوله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر، عن ابن عباس قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء، وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف، وقد قال غير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وعن الحسن قال: كان فيما أخذ النبي ﷺ، ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يمذي بين فخذيه[٣]، وقال ابن جرير، عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا رسول الله ﷺ من المعروف حين بايعناه أن لا ننوح، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك[٤]. وعن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه في معروف أن لا نخمش وجهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً ولا ندعو ويلاً»[٥] وروى ابن جرير عن أم عطية قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب وسلم علينا فرددن، أو فرددنا عليه السلام ثم قال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن، فقالت، فقلنا: مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله، فقال: تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين، قالت، فقلنا: نعم، قالت، فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال: اللهم اشهد، قالت: وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ولا جمعة علينا، ونهى عن اتباع الجنائز: قال إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قالت: النياحة[٦]. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[٧]. وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾، قال: النوح.

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه أبو داود.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه ابن جرير ورواه البخاري بنحوه.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٦) رواه ابن جرير.
(٧) أخرجه الشيخان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فيه قولان: **أحدهما** كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم، الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه، قال ابن عباس: يعني من مات من الذين كفروا، فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عزّ وجلّ، وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات، وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. **والقول الثاني**: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير[1]، قال ابن مسعود: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

[آخر تفسير سورة الممتحنة، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي.

تفسير سورة الممتحنة

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ .

كان سبب نزول صدر هذه السورة (١) الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال (٢) ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً (٣) لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبى ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عَمِّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ [من غزوهم] (٤) ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك (٥) ، استجابة لـدعائه. فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين فى الحديث المتفق على صحته . قال الإمام أحمد :

حدثنا سفيان ، عن عَمْرو ، أخبرنى حَسَن بن محمد بن على ، أخبرنى عُبَيد الله (٦) بن أبى رافع ــ وقال مرة : إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره : أنه سمع علياً ، رضى الله عنه ، يقول : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظَعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا تَعَادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب . قالت : ما معى كتاب . قلنا : لتخرجن الكتاب أو لنُلقين الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عِقَاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة

---

(١) فى هـ : « الآية » ، والمثبت من م ، أ .
(٢) فى م : « وأموال » .
(٣) فى أ : « ضيفاً » .
(٤) زيادة من م .
(٥) فى م : « فأصلح الله على ذلك رسوله » .
(٦) فى م : « عبد الله »

إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل على ، إنى كنت امرأ مُلصَقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنه صَدَقكم » . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لَعَلّ الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة ، من غير وجه ، عن سفيان بن عُيَينة ، به [(١)] . وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » : فأنزل الله السورة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [(٢)] . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ قال [(٣)] : « لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عمرو » . قال البخارى : قال على ــ يعنى : ابن المدينى ــ : قيل لسفيان فى هذا : نزلت ﴿ **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى [(٤)] أحداً حفظه غيرى [(٥)] .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث حُصَين بن عبد الرحمن ، عن سعد [(٦)] بن عُبَيدة ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَد ، والزبير بن العوام ، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتابُ ؟ فقالت: ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ ! لتخرجن الكتاب أو لنُجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حُجْزتها وهى مُحتَجزة بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فَدعنى فلأضْرِب عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لى عند القوم يَدٌ يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً ». فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر؟ » فقال : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ــ أو:

---

(١) المسند (١/٧٩، ٨٠) وصحيح البخارى برقم (٣٠٠٧، ٤٨٩٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤) وسنن أبى داود برقم (٢٦٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٢٧٤) .

(٣) فى م : « وقال » .

(٤) فى م : « ولا أرى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٠) .

(٦) فى م : « عن سعيد » .

قد غفرت لكم » . فدَمِعت عينا عُمر ، وقال : الله ورسوله أعلم [(١)] .

هذا لفظ البخارى فى « المغازى » فى غزوة بدر ، وقد روى من وجه آخر عن على قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسن الهِسْنجَانى ، حدثنا عبيد بن يعيش ، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازى ، عن أبى سِنان ــ هو سعيد بن سنان ــ عن عمرو بن مُرة الجَمَلى ، عن أبى البخترى الطائى [(٢)] ، عن الحارث ، عن على قال : لما أراد النبى ﷺ أن يأتى مكة ، أسرّ إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة ، فيهم حاطب بن أبى بلتعة وأفشى فى الناس أنه يريد خيبر . قال : فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم . فأخبر رسول الله ﷺ قال : فبعثنى رسول الله ﷺ وأبا مَرثد، وليس منا رجل إلا وعند [(٣)] فرس ، فقال : « ائتوا روضة خاخ ، فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب، فخذوه منها » . فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذى ذَكَر رسولُ الله ﷺ . فقلنا لها : هات الكتاب . فقالت : ما معى كتاب . فوضعنا متاعها وفتشناها [(٤)] فلم نجده فى متاعها ، فقال أبو مرثد: لعله ألا يكون معها . فقلت : ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا [(٥)] . فقلنا لها : لتخرجِنَّه أو لنُعرينَّك . فقالت : أما تتقون الله ؟ ! ألستم مسلمين ؟ فقلنا : لتخرجنه أو لنعرينَّك . قال عمرو بن مرة : فأخرجته من حُجُزَتها . وقال حبيب بن أبى ثابت : أخرجته [(٦)] من قُبُلها . فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا الكتاب من حاطب بن أبى بلتعة . فقام عمر فقال : يا رسول الله ، خان الله ورسوله ، فائذن لى فلأضرب عنقه . فقال رسول الله : « أليس قد شهد بدراً ؟ » . قالوا : بلى . قال عمر : بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك . فقال رسول الله ﷺ : « فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، إنى بما تعملون بصير » . ففاضت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فقال : « يا حاطب ، ما حملك على ما صنعت ؟ » . فقال : يا رسول الله ، إنى كنت امرأ مُلصَقاً فى قريش ، وكان لى بها مال وأهل ، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله ، فكتبت إليهم بذلك ووالله ــ يا رسول الله ــ إنى لمؤمن بالله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً » . قال [(٧)] حبيب ابن أبى ثابت : فأنزل الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ** ﴾ الآية .

وهكذا رواه ابن جرير ،عن ابن حميد ، عن مِهْران ، عن أبى سِنان ــ سعيد بن سنان ــ بإسناده مثله[(٨)] . وقد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير ، فقال محمد بن إسحَاق بن يَسَار فى السيرة :

حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُرْوَة بين الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤) .

(٢) فى هـ : « عن أبى إسحاق البخترى الطائى » والمثبت من الطبرى .

(٣) فى م ، أ : « وعنده » . (٤) فى م : « وفتشناه » . (٥) فى م : « ولا كُذب » .

(٦) فى م : « فأخرجته » . (٧) فى م : « فقال » .

(٨) تفسير الطبرى (٢٣/٣٨) .

الله ﷺ المسير[١] إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ـ زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها : سارة ، مولاة لبنى عبد المطلب ـ وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قُريشاً فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا [٢] له من أمرهم » .

فخرجا حتى أدركاها بالخُلَيْفَة ـ خليفة [٣] بنى أبى أحمد ـ فاستنزلاها بالخليفة ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا[٤]، ولتُخرجِنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنَّك . فلما رأت الجدّ منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلت قُرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » . فقال : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله[٥] ، ما غَيَّرت ولا بَدّلت،ولكن كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وَلَد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله،دعنى فَلأضربْ عنقه، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ :« وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ». فأنزل الله ، عز وجل، فى حاطب : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة [٦] .

وروى مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوَة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاها عشرة دراهم ، وأن رسول الله ﷺ بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة . . . وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم. وعن السدى قريب منه. وهكذا قال العوفى ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد : إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ** ﴾ يعنى : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله [٧] عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ٥١] .

(١) فى م : « السير » . (٢) فى م ،أ : « اجتمعنا » . (٣) فى أ : « بالحليفة حليفة » .
(٤) فى م : « ولا كذبنا » . (٥) فى م : « وبرسوله » .
(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣٩) من طريق أبى إسحاق .
(٧) فى م : « شرع لهم » .

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَكُمْ هُزُوًا وَلَعبًا مِّنَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ من قَبْلكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمنينَ ﴾ [المائدة:٥٧] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْكَافرينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ أَتُريدُونَ أَن تَجْعَلُوا للَّه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبينًا ﴾ [النساء:١٤٤] . وقال تعالى : ﴿ لا يَتَّخذ الْمُؤْمنُونَ الْكَافرينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ فَلَيْسَ منَ اللَّه في شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا منْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:٢٨] ؛ ولهذا قَبِل رسول الله ﷺ عُذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ،لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا مصعب بن سلام ، حدثنا الأجلح ، عن قيس بن أبى مسلم ، عن ربعى بن حرّاش ، سمعت حُذيفة يقول : ضَرَب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً : واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة ، وتسعة ، وأحد عشر ــ قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرها ، قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء،فأظهر الله أهل الضعف عليهم،فَعَمَدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلّطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه » (١) .

وقوله:﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُم ﴾:هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تُؤْمنُوا باللَّه رَبِّكُم ﴾ أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا منْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمنُوا باللَّه الْعَزيز الْحَميد ﴾ [البروج:٨] ، وكقوله : ﴿ الَّذينَ أُخْرِجُوا من ديَارِهِم بغَيْر حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جهَادًا في سَبيلي وَابْتغَاءَ مَرْضَاتي ﴾ أى : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء ، إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم فلا توالوا أعدائى وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم .

وقوله : ﴿ تُسرُّونَ إِلَيْهِم بالْمَوَدَّة وَأَنَا أَعْلَمُ بمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أى : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ منكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْديَهُمْ وَأَلْسنَتَهُم بالسُّوء﴾ أى: لو قدروا عليكم لما اتقوا (٢) فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال . ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى : ويحرصون على ألا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً .

وقوله : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقيَامَة يَفْصلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴾ أى : قراباتكم لا تنفعكم عند الله (٣) إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما

(١) المسند (٥/٤٠٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٣٢) : « وفيه الأجلح الكندى وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) فى أ : « لما أبقوا » . (٣) فى م : « عند الله ولا أولادكم » .

يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخَسِر وضَلّ عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبى من الأنبياء . قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبى؟ قال : « فى النار » فلما [(١)] قَفَّى دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث حماد بن سلمة ، به [(٢)] .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم : **﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾** أى : وأتباعه الذين آمنوا معه **﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾** أى : تبرأنا منكم **﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾** أى : بدينكم وطريقكم ، **﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾** يعنى : وقد شُرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم **﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾** أى : إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان .

وقوله : **﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾** أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن مَوعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يَدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله ، عز وجل : **﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾** [التوبة:١١٣، ١١٤] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : **﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾** إلى قوله : **﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾** أى :

---

(١) فى م : « قال : فلما » .

(٢) المسند (٣/٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٣) وسنن أبى داود برقم (٤٧١٨) .

ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى : فى الاستغفار للمشركين، هكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك وغير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم ، فلجؤوا إلى الله وتضرّعوا [١] إليه فقالوا : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلّمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المعاد فى الدار الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة لا تُظْهِرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير [٢] .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله : ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : الذى لا يُضَام من لاذ بجناحك[٣] ، ﴿الْحَكِيمُ ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبة [٤] هاهنا هى الأولى بعينها .

وقوله : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ : تهييج إلى ذلك كل مقر [٥] بالله والمعاد .

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى : عما أمر الله به ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :﴿ الْغَنِيُّ ﴾ : الذى [قد] [٦] كمل فى غناه ، وهو الله ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شىء ، سبحان الله الواحد القهار . ﴿الْحَمِيدُ ﴾ : المستحمد إلى خلقه ، أى : هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن

(١) فى م : « وضرعوا » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٨/ ٤٢) .
(٣) فى أ : « بجنابك » . (٤) فى أ : « المبينة » . (٥) فى م : « لكل موقن » .
(٦) زيادة من م .

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ﴾ أى : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة . ﴿ **وَاللَّهُ قَدِيرٌ** ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا** ﴾ الآية [آل عمران:١٠٣] . وكذا قال لهم النبى ﷺ: « ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بى ؟ » [(١)] . وقال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. وفى الحديث « أحبِبْ حَبيبَكَ هوناً مّا ، فعسى أن يكونَ بَغيضَكَ يوماً ما . وأبغِض بغيضَكَ هوناً ما ، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما » [(٢)]. وقال الشاعر [(٣)] :

وَقَد يجمعُ اللهُ الشتيتين بعدما ... يَظُنان كُل الظنّ ألا تَلاقَيا

وقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أىّ ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت فى أبى سفيان ،صخر بن حرب ، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته ، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه .

وفى هذا الذى قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول الله تزوج بأم حبيبة بنت أبى سفيان قبل الفتح ، وأبو سفيان إنما أسلم [(٤)] ليلة الفتح بلا خلاف . وأحسن من هذا ما رواه ابن أبى حاتم حيث قال :

قُرِئَ على محمد بن عَزيز : حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، حدثنى ابن شهاب ؛ أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقى ذا الخمار مرتداً ، فقاتله ، فكان أول من قاتل فى الردة وجاهد عن الدين . قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ، رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٧) من طريق سويد بن عمرو ، عن حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ،عن أبى هريرة مرفوعاً به ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روى هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا رواه الحسن بن أبى جعفر ، وهو حديث ضعيف أيضاً بإسناد له عن على ، عن النبى ﷺ ، والصحيح عن على موقوف قوله » .

(٣) هو قيس بن الملوح كما فى ديوانه (ص٣١٥) واللسان ، مادة « شتت » أ . هـ . مستفاداً من حاشية ط ــ الشعب.

(٤) فى م : « وإنما أسلم أبو سفيان » .

الله فيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنيهنّ . قال: « نعم » . قال : وتؤمّرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : « نعم » . قال : وعندى أحسن العرب وأجمله ، أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها . . . الحديث . وقد تقدم الكلام عليه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم ، ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن فاطمة بنت المنذر ، عن أسماء ـ هى بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ـ قالت : قَدِمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبى (٣) ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلى أمك » أخرجاه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا مصعب بن ثابت ، حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه قال: قدمت قُتَيلة على ابنتها أسماء ابنة أبى بكر بهدايا : صِنَاب وأقط (٥) وسمن ، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى ﷺ ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث مصعب بن ثابت ، به (٦) . وفى رواية لأحمد وابن (٧) جرير : « قُتَيلة بنت عبد العزى بن [عبد] (٨) أسعد ، من بنى مالك بن حسل (٩) . وزاد ابن أبى حاتم : « فى المدة التى كانت بين قريش ، ورسول الله ﷺ » .

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ١٣٠) وعزاه لابن أبى حاتم ، وهو مرسل .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) من حديث ابن عباس ، رضى الله عنه ، وقول الحافظ :« تقدم الكلام عليه»لا أدرى ما مقصوده ، فإنه ذكر الحديث عند تفسير الآية :٢٢٧ من سورة الشعراء ، ولم يتكلم عليه بشىء ، و قد يكون تكلم عليه فى مكان آخر لم أقع عليه ، والله أعلم .والحديث استشكل ، فقول أبى سفيان فى الحديث: وعندى أم حبيبة أزوجكها ، منقوض بأن أبا سفيان إنما أسلم يوم فتح مكة ، والنبى ﷺ تزوج أم حبيبة قبل ذلك بزمان طويل . انظر كلام الإمام النووى فى : المنهاج (١٦/ ٦٣) وإجابته على ذلك .

(٣) فى م : « رسول الله » .

(٤) الحديث وقع لى من غير هذا الطريق ، انظر :المسند (٦/ ٣٤٤،٣٤٧) وصحيح البخارى برقم (٢٦٢٠،٣١٨٣،٥٩٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٠٣) .

(٥) فى م :« وصناب وقرظ » ،وفى أ : « وضباب وقرط » ، والمثبت من الطبرى .

(٦) المسند (٤/ ٤) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٤٣) .

(٧) فى م : « ولابن » .

(٨) زيادة من مسند الإمام أحمد .

(٩) فى أ :« قبيلة بنت العزى بن سعد من بنى مالك بن حنبل » .

وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ، حدثنا أبو قتادة العدوى ، عن ابن أخى الزهرى ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة وأسماء أنهما قالتا : قدمت علينا أمنا المدينة ، وهى مشركة ، فى الهدنة التى كانت بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، إن أمنا قدمت علينا المدينة راغبةً ، أفنصلها ؟ قال : «نعم ، فَصِلاها » (١) .

ثم قال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة إلا من هذا الوجه .

قلت : وهو منكر بهذا السياق ؛ لأن أم عائشة هى أم رومان ، وكانت مسلمة مهاجرة ، وأم أسماء غيرها ، كما هو مصرح باسمها فى هذه الأحاديث المتقدمة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح :« المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهاليهم ، وما وَلُوا » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ : أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ .

(١) مسند البزار برقم (١٨٧٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « حديث أسماء فى الصحيح ، وأم عائشة غير أم أسماء » ؛ ولهذا أنكره الحافظ هنا ، وفيه عبد الله بن شبيب شيخ البزار ضعيف .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما .

تقدم فى سورة « الفتح » ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على ألا يأتيك منا رجل ــ وإن كان على دينك ــ إلا رددته إلينا ». وفى رواية: « على أنه لا يأتيك منا أحد ــ وإن كان على دينك ــ إلا رددته إلينا » . وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد ، والزهرى ، ومقاتل ، والسدى . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله ، عز وجل ، أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علِموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن .

وقد ذكرنا فى ترجمة عبد الله بن أبى أحمد بن جحش ، من المسند الكبير ، من طريق أبى بكر ابن أبى عاصم ، عن محمد بن يحيى الذهلى ، عن يعقوب بن محمد ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن مُجَمِّع بن يعقوب ، عن حسين بن أبى لُبانة ، عن عبد الله بن أبى أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط فى الهجرة ، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلماه فيها أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة ، ومنعهن أن يُرْدَدْنَ إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان [١] .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا يونس بن بُكَيْر ، عن قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حُصَين ، عن أبى نصر الأسدى قال : سُئِل ابنُ عباس : كيف كان امتحانُ رسول الله ﷺ النساءَ ؟ قال : كان يمتحنهن : بالله ما خَرجت من بُغض زوج ؟ وبالله ما خَرجت رَغبةً عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله؟[٢] .

ثم رواه من وجه آخر ، عن الأغر بن الصباح ، به . وكذا رواه البزار من طريقه ، وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب [٣] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ : كان امتحانهن أن يَشهدْن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله [٤] ورسوله .

وقال مجاهد : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : فاسألوهن : ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سَخْطة أو غيره ، ولم يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن .

وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا

---

(١) جامع المسانيد و السنن لابن كثير (٧/ ٢٤٣) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٣/ ٦٧) من طريق أبى بكر بن أبى عاصم ، وعبد العزيز ابن عمران ضعيف .

(٢) تفسير الطبرى (٢٨/ ٤٤) .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٧٢) « كشف الأستار » وقال : « لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد،ولا روى عن أبى نصر إلا خليفة ». قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٢٣) : « وفيه قيس بن الربيع ، وثقه شعبة والثورى ، وضعفه غيرهما ، وبقية رجاله ثقات » . وتعقبه ابن حجر فى مختصر الزوائد (١/ ١١٢) . قلت :« أعله الشيخ بقيس ، وقد ذكر البخارى أن أبا نصر لم يسمع من ابن عباس فهى العلة » .

(٤) فى م : « وأن محمداً عبده » .

فرار من زوجك ؟ فذلك قوله : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ .

وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحِرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قُبل ذلك منهن .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً .

وقوله : ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ : هذه الآية هى التى حَرّمَت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ﷺ زينب ، رضى الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينت فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقَّةً شَدِيدَةً ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا » . ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، رضى الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن إسحاق ، حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينت على أبى العاص [بن الربيع] (١) ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صَدَاقاً .

ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجة (٢) . ومنهم من يقول : « بعد سنتين » ، وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . وقال الترمذى : « ليس بإسناده بأس ، ولا نعرف (٣) وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين . وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديث ابن الحجاج ــ يعنى ابن أرطاة ــ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبى العاص ابن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب » .

قلت : وقد رَوَى حديث الحجاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب الأمامُ أحمد والترمذى وابن ماجة (٤) ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم .

---

(١) زيادة من مسند الإمام أحمد .

(٢) المسند (١/ ٢٦١) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٠) وسنن الترمذى برقم (١١٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٠٩).

(٣) فى م :« و لا يعرف » .

(٤) المسند (٢/ ٢٠٧) وسنن الترمذى برقم (١١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٠) .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عِدّتها منه ؛ لأن الذى عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم [١] انفسخَ نكاحُها منه .

وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هى بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ يعنى : أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يعنى : إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ : تحريم من الله ، عز وجل ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن .

وفى الصحيح ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن المسور ومَرْوان بن الحكم : أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساءٌ من المؤمنات ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ [فَامْتَحِنُوهُنَّ][٢] ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية [٣] .

وقال ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، وقال : ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [٤] .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الزهرى : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة ، فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية ، وهى أم عُبَيد الله ، فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غانم ، رجل من قومه ، وهما على شركهما ، وطلق طلحةُ بن عبيد الله أروى بنتَ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص [٥] .

وقوله : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ أى : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتى

---

(١) فى م : « ولم تسلم » .

(٢) زيادة من م .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨ / ٤٦) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٨ / ٤٧) مع اختلاف يسير .

يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتى هاجرن إلى المسلمين .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : فى الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بما يصلح عباده ،حكيم فى ذلك .

ثم قال: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء ، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، رَدّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العَقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهم اللاتى آمن وهاجرنَ ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقى لهم. والعقب : ما كان [بأيدى المؤمنين] (١) من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق .

وهكذا قال مجاهد : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ،وإبراهيم ، وقتادة ،ومقاتل ، والضحاك ، وسفيان بن حسين ، والزهرى أيضاً .

وهذا لا ينافى الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول (٣) فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتى تؤخذ من أيدى الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ .

(١) زيادة من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى (٢٨/٤٨) .
(٣) فى م :« أمكن بالأول » .
(٤) فى م : « والله أعلم » .

قال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى ابن شهاب ، عن عمه قال : أخبرنى عروة أن عائشة زوج النبى ﷺ ، أخبرته : أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَك ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . قال عروة : قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » ، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قَطّ فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخارى [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن الْمُنْكَدِر ، عن أميمة بنت رُقَيقة قالت : أتيت رسول الله [٢] ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : ﴿ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية ، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال « إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة[٣] كقولى لمائة امرأة » .

هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ــ والنسائى أيضاً من حديث الثورى ــ ومالك بن أنس كلهم ، عن محمد بن المنكدر ، به [٤] . وقال الترمذى : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر .

وقد رواه أحمد أيضا من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن المنكدر ، عن أميمة ، به . وزاد : « ولم يصافح منا امرأة » [٥] . وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة ، عن محمد ابن المنكدر ، به [٦] . ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر الرازى ، عن محمد بن المنكدر : حدثتنى أميمة بنت رقيقة ــ وكانت أخت خديجة خالة فاطمة ، من فيها إلى فى ، فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، حدثنى سليط بن أيوب بن الحكم بن سُلَيم ، عن أمه سلمى بنت قيس ــ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار ــ قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ــ قال: « ولا تغشُشْن أزواجكن». قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعى فسلى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » [٧] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٩١) ووقع فى رواية أبى ذر : « حدثنا إسحاق ،حدثنا يعقوب بن إبراهيم » .
(٢) فى م : « أتيت النبى » . (٣) فى م : « واحدة منكن » .
(٤) المسند (٦/ ٣٥٧) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٧) وسنن النسائى (٧/ ١٤٩) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨٧٤).
(٥) المسند (٦/ ٣٥٧) .
(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٣) .
(٧) المسند (٦/ ٣٧٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبى العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن محمد بن حاطب ، حدثنى أبى ، عن أمه عائشة بنت قُدَامة ــ يعنى : ابن مظعون ــ قالت : أنا مع أمى رائطة بنت سفيان الخزاعية ، والنبى ﷺ يبايع النسوة ويقول : « أبايعكنّ على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني فى معروف » . [قالت : فأطرقن . فقال لهن النبى ﷺ] (١) : « قُلن : نعم فيما استطعتن » . فكُنّ يقلن وأقول معهن ، وأمى تُلَقّنى : قولى (٢) : أى بنية ، نعم [فيما استطعتُ] (٣) فكنت أقول كما يقلن (٤) .

وقال البخارى : حدثنا أبو مَعْمَر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب ، عن حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية قالت : بايَعْنَا رسولَ الله ﷺ ، فقرأ (٥) علينا : ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ، ونهانا عن النّياحة ، فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتنى فلانة أريد أن أجزيها . فما قال لها رسول الله شيئا، فانطلقت ورجعت فبايعها .

ورواه مسلم (٦) . وفى رواية : « فما وفى منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » .

وللبخارى عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وَفَت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان ــ أو : ابنة أبى سَبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى (٧) .

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهدُ النساءَ بهذه البيعة يوم العيد ، كما قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا هارون بن (٨) معروف ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرنى ابن جُرَيج : أن الحسن بن مسلم أخبره ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بَعدُ ، فنزل نبى الله ﷺ ، فكأنى أنظر إليه حين(٩) يُجَلِّس الرجالَ بيده ، ثم أقبل يَشقّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ، حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ــ لا يدرى الحسن (١٠) من هى ــ قال : « فتصدقن » ، قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن(١١) يلقين الفَتَخَ

(١) زيادة من مسند الإمام أحمد .
(٢) زيادة من مسند الإمام أحمد ،وفى هـ ، م ،أ : « تقول لى » .
(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد .
(٤) المسند (٦/ ٣٦٥) .
(٥) فى م : « فشرط » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٦) .
(٧) صحيح البخارى برقم (١٣٠٦) .
(٨) فى م : « حدثنا » .
(٩) فى م : « إليه حتى » .
(١٠) فى م،أ : « لا يدرى حسن » .
(١١) فى م : « فجعل » .

والخواتيم فى ثوب بلال [(١)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن سليمان بن سُليم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام ، فقال : « أبايعك على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ، ولا تزنى ، ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفترينه بين يَديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى تبرج الجاهلية الأولى » [(٢)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : « تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ــ قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ** ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به ، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه ، فهو إلى الله ،إن شاء غفر له ،وإن شاء عذبه ». أخرجاه فى الصحيحين [(٣)] .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن مرثد [(٤)] بن عبد الله اليَزنى [(٥)] ، عن أبى عبد الله عبد الرحمن بن عُسَيلة الصُنَابجى [(٦)] ، عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، وقال : « فإن وَفَيتم فلكم الجنة » رواه ابن أبى حاتم .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال : « قل لهن : إن رسول الله يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً » ـ وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة مُنكرة فى النساء ــ فقالت : « إنى إن أتكلم يعرفنى ، وإن عرفنى قتلنى » . وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله ﷺ ، فسكت النسوة اللاتى مع هند ، وأبين أن يتكلمن . فقالت هند وهى مُنكَّرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ ففطن [(٧)] إليها رسول الله وقال لعمر : « قل لهن : ولا تسرقن » . قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهَنَات ، ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شىء مضى أو قد بقى ، فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فدعاها فأخذت بيده ، فعاذت [(٨)] به ، فقال : « أنت هند ؟ » . قالت : عفا الله عما سلف. فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : « ولا تزنين » ، فقالت: يا رسول الله ، وهل تزنى الحرة ؟ قال : « لا ، والله ما تزنى الحرة » . فقال : « ولا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٥) .
(٢) المسند (٢/١٩٦) .
(٣) المسند (٥/ ٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٩٤) وصحيح مسلم برقم (٩ -١٧) .
(٤) فى م : « يزيد » . (٥) فى أ : « المزنى » . (٦) فى أ : « الصالحى » .
(٧) فى أ : « فنظر » . (٨) فى أ : «فعادتنا » .

يقتلن أولادهن » . قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، فأنت وهم أبصر . قال : ﴿ **وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** ﴾ قال : ﴿ **وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** ﴾ . قال : منعهن أن ينحن ، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ،ويقطعن الشعور ، ويدعون بالثبور . والثبور : الويل (١) .

وهذا أثر غريب ، وفى بعضه نكارة ، والله أعلم ؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يخيفهما ، بل أظهرا الصفاء والود له ، وكذلك كان الأمر من جانبه ، عليه السلام، لهما .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا ، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ ، فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال : ﴿ **وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ ، قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثتنى غبطة بنت سليمان ، حدثتنى عمتى ، عن جدتها (٢) ، عن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه ، فنظر إلى يدها فقال : « اذهبى فغيرى يدك » . فذهبت فغيرتها بحناء ، ثم جاءت فقال : « أبايعك على ألا تشركى بالله شيئا » ، فبايعها وفى يدها سواران من ذهب ، فقالت : ما تقول فى هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من جمر جهنم » (٣) .

فقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ** ﴾ أى: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط، فبايعها ، ﴿ **عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ** ﴾ أى : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان بغير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شَحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنى ، فهل علىَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ :« خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » . أخرجاه فى الصحيحين (٤) .

وقوله : ﴿ **وَلا يَزْنِينَ** ﴾ كقوله : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وفى حديث سَمُرة ذكرُ عقوبة الزناة بالعذاب الأليم فى نار الجحيم (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوة ، عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبى ﷺ فأخذ عليها : ﴿ **أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ** ﴾ الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة :

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٢) .

(٢) فى أ : « حدثنى عمى عن جدى » .

(٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٨/ ١٩٥) عن نصر بن على به نحوه ، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٧) :« فيه من لم أعرفهن » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧١٨٠) وصحيح مسلم برقم (١٧١٤) .

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ١٥) .

أقِرّى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا . قالت : فنعم إذاً . فبايعها بالآية [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، عن حصين ، عن عامر ــ هو الشعبى ــ قال : بايع رسول الله ﷺ النساء ، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ، ثم قال : «ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصينا بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يبايعنه ، جمعهن فعرض عليهن ، فإذا أقررن رجعن .

وقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم . وكذا قال مقاتل . ويؤيد هذا الحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح ،حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو ــ يعنى :ابن الحارث ــ عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن يونس ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هُرَيرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة : « أيما امرأة أدخَلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله فى شىء ، ولن يدخلها الله جنّته ، وأيما رجل جَحَد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه ، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين » [٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعنى :فما أمرتهن به من معروف،ونهيتهن عنه من منكر .

قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى قال : سمعت الزبير ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شَرَطه الله للنساء [٣] .

وقال ميمون بن مِهْرَان : لم يجعل الله لنبيه طاعة إلا لمعروف [٤] ، والمعروف : طاعة .

وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خيَرة الله من خلقه فى المعروف .

وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجَعْد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح . وقد تقدم حديث أم عطية فى ذلك أيضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة فى هذه الآية : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ أخذ عليهن النياحة ، ولا تحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف: يا نبى الله ، إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نسائنا . فقال رسول الله ﷺ : « ليس أولئك

---

(١) المسند (٦/ ١٥١) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٢٦٣) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٣) .

(٤) فى م :« فى معروف » .

عَنَيتُ ، ليس أولئك عَنَيتُ » [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، حدثنى مبارك ، عن الحسن قال : كان فيما أخذ النبى ﷺ : « ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يَمذى بين فخذيه » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون ، عن عمرو ، عن عاصم [٢] ، عن ابن سيرين ، عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشتُرط علينا [٣] من المعروف حين بايعنا [٤] ألا ننوح ، فقالت امرأة من بنى فلان : إن بنى فلان أسعدونى ، فلا حتى أجزيهم [٥] فانطلقت فأسعَدَتْهم، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفى منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة مِلْحان أم أنس بن مالك [٦] .

وقد روى البخارى هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية نسيبة الأنصارية ، رضى الله عنها [٧] . وقد روى نحوه من وجه آخر أيضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا عُمَر بن فروخ القَتَّاب ، حدثنى مصعب بن نوح الأنصارى قال : أدركت عجوزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ . قالت : فأتيته لأبايعه ، فأخذ علينا فيما أخذ ألا تنحن . فقالت عجوز : يا رسول الله [٨] ، إن ناساً قد كانوا [٩] أسعدونى على مصائب أصابتنى ، وإنهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم . قال : «فانطلقى فكافئيهم» . فانطلقت فكافأتهم ، ثم إنها أتته فبايعته ، وقال : هو [١٠] المعروف الذى قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ** ﴾ [١١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا القَعْنَبى [١٢] ، حدثنا الحجاج بن صفوان ، عن أسيد [١٣] بن أبى أسيد البراد ، عن امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ : ألا نعصيه فى معروف : ألا نخمش وجوهاً [١٤] ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيبا ، ولا ندعوا ويلاً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن يزيد مولى الصهباء ، عن شهر بن حَوشب، عن أم سلمة ، عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ** ﴾ ، قال : «النوح» .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥١) .

(٢) فى م : « عن عمرو بن عاصم » .

(٣) فى م :« علينا رسول الله » .

(٤) فى م ، أ : « حين بايعناه » .

(٥) فى أ : « حتى أحدثهم ».

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٢) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٢) .

(٨) فى م : « يا نبى الله » .

(٩) فى م : « كانوا قد » .

(١٠) فى م :« هذا » .

(١١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٢) .

(١٢) فى م : « الضبى » .

(١٣) فى أ : « عن أسد » .

(١٤) فى م ، أ : «وجهاً».

ورواه الترمذى فى التفسير ، عن عبد بن حُمَيد ، عن أبى نُعَيم ــ وابن ماجة ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع ــ كلاهما عن يزيد بن عبد الله الشيبانى مولى [1] الصهباء ، به [2]. وقال الترمذى : حسن غريب .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد [3] بن سنان القزاز ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا إسحاق ابن عثمان أبو يعقوب ، حدثنى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ، عن جدته أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فقام على الباب وسلم علينا ، فرددن ــ أو : فرددنا ــ عليه السلام ، ثم قال : « أنا رسُولُ رسول الله ﷺ إليكن ». قالت : فقلنا : مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله . فقال : « تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ولا تزنين ؟» قالت: قلنا : نعم . قالت : فمد يده من خارج الباب ــ أو : البيت ــ ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : « اللهم اشهد » . قالت : وأمرنا فى العيدين أن نخرج فيه الحُيَّض والعواتق ، ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز . قال إسماعيل : فسألت جدتى عن قوله : ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ . قالت : النياحة [4] .

وفى الصحيحين من طريق الأعمش ، عن عبد الله بن مُرة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضَرَب الخدود ، وشَقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » [5] .

وفى الصحيحين أيضاً عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة [6].

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا هُدْبَة بن خالد ، حدثنا أبان بن يزيد ، حدثنا يحيى بن أبى كثير : أن زيداً حدثه : أن أبا سلام حدثه : أن أبا مالك الأشعرى حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة . وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران، ودرع من جَرَب » .

ورواه مسلم فى صحيحه منفرداً به ، من حديث أبان بن يزيد العطار ، به [7] .

وعن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ لعن النائحة والمستمعة . رواه أبو داود [8] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ .

---

(١) فى أ : « عن أبى » .
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٥٧٩) .
(٣) فى م : « حدثنا أحمد » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٣) .
(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٠٣) .
(٦) صحيح البخارى برقم (١٢٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٤) .
(٧) مسند أبى يعلى (٣/ ١٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤) .
(٨) سنن أبى داود برقم (٣١٢٨) .

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر « هذه السورة » كما نهى عنها فى أولها فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة ، أى : من ثواب الآخرة ونعيمها فى حكم الله عز وجل .

وقوله : ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه .

قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة ، يعنى : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات .

وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواهن ابن جرير .

والقول الثانى : معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير .

قال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود : ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زيد ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختيار ابن جرير .

سورة الممتحنة

مدنيّة، وآيها[1] ثلاثَ عشرةَ.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بَلْتعة،[3] وذلك أنّه لمّا تجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لغزوة الفتح كتب إلى أهل مكّة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يريدكم فخُذوا حِذركم وأرسله مع سارة مولاة بني المطّلب، فنزل جبريلُ عليه السلام بالخبر، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليًّا وعمّارًا وطلحةَ والزُّبير والمِقداد وأبا مَرثَد، وقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ،[4] فإنّ بها ظعينةً معها كتاب حاطبٍ إلى أهل مكّة، فخذوه منها وخلّوها، فإنْ أبتْ فاضربوا عُنقها»، فأدركوها ثمّة فجحدتْ، فسلّ عليٌّ سيفه، فأخرجته مِن عِقاصها، فاستحضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حاطبًا وقال: «ما حملك على هذا؟»، فقال: يا رسولَ الله

---

[1] س: وهي.

[2] س ي + آية.

[3] هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة اللخمي المكّي (ت. ٣٠هـ/٦٥٠م). حليف بني أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ. مِن مشاهير المهاجرين اشتهر بقصّة كتابه إلى مكّة. شهد المشاهد كلّها. وكان رسولَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقس صاحب مصر. وهو مِن الرُّماة الموصوفين، له تجارة واسعة، كان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهليّة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٣١٢/١، والإصابة لابن حجر، ٤/٢، والأعلام للزركلي، ١٥٩/٢.

[4] روضة خاخ: موضع بين الحرمين بقرب حمراء الأسد مِن المدينة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٣٥/٢.

[١٨٦و] ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا غششتُك منذ نصحتُك، ولكنّي كنتُ / امرءًا مُلصَقًا في قريش ليس فيهم مَن يحمي أهلي، فأردتُ أن آخذ عندهم يدًا، وقد علمتُ أنّ كتابي لن يُغنيَ عنهم شيئًا. فصدَّقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقبِل عُذرَه.[١]

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصلون إليهم المودّةَ، على أنّ "الباء" زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، أو تُلقون إليهم أخبارَ النبيّ عليه السلام بسبب المودّة التي بينكم وبينهم. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ أو صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾. وإبرازُ الضمير في الصفات الجارية على غير مَن هي له إنّما يشترط في الاسم دون الفعل، أو استئناف.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾. وقيل: مِن فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾.[٢] وقُرِئ: "لِمَا جَاءَكُمْ"،[٣] أي: كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى: جُعل ما هو سبب الإيمان سببًا للكفر.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: مِن مكّة، وهو إمّا حال مِن فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، أو استئناف مبيِّن لكفرهم. وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج وفيه تغليبُ المخاطَب على الغائب، والتفاتٌ مِن التكلّم إلى الغَيبة، للإشعار بما يوجِب الإيمان مِن الألوهيّة والربوبيّة. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ متعلّق بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، كأنّه قيل: لا تتولّوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ استئناف واردٌ على نهج العِتاب والتوبيخ، أي: تُسِرُّون إليهم المودّةَ أو الأخبارَ بسبب المودّة. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ أي: والحالُ أنّي أعلمُ منكم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ ومُطلِع رسولي على ما تُسِرُّون، فأيُّ طائل لكم في الإسرار. وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارع و"الباء" مزيدة و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة.[٤] وتقديم الإخفاءِ على الإعلان قد مرّ وجهُه

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٥٩/٤ (٣٠٠٧)؛ وصحيح مسلم، ١٩٤١/٤ (٢٤٩٤).

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٦/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٦/٣.

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢]. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: الاتّخاذ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحقّ والصواب.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ / أي: يُظهِروا [١٨٦ظ] ما في قلوبهم مِن العداوة ويرتّبوا عليها أحكامها ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بما يسوءكم مِن القتل والأسْر والشتم ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنّوا ارتدادكم. وصيغة الماضي للإيذان بتحقّق وَدادتهم قبل أن يَثْقَفوهم أيضًا.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين تُوالون المشركين لأجلهم وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجَلْب نفع أو دَفْع ضرّ، ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ لبيان عدم نفعِ الأرحام والأولاد يومئذ، أي: يفرّق الله بينكم بما اعتراكم مِن الهَول الموجِب لفرار كلّ منكم مِن الآخر حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية [عبس، ٣٤/٨٠]، فما لكم ترفضون حقّ الله تعالى لمراعاة حقّ مَن هذا شأنُه. وقُرئ: "يُفْصَلُ"[١] و"يُفَصَّلُ"[٢] مبنيًا للمفعول، و"يُفصِلُ"[٣] و"يُفَصِّلُ"[٤] مبنيًا للفاعل وهو الله تعالى، و"نُفْصِلُ"[٥] و"نُفَصِّلُ"[٦] بـ"النون". ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم به.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٢ قرأ بها ابن ذكوان وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن مِقسَم، وهارون عن أبي عمرو، وابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد عن طلحة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة وطلحة وابن أبي عبلة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٣.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: خَصلة حميدة حقيقة بأن يُؤتسى ويُقتدى بها. وقوله تعالى: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: مِن أصحابه المؤمنين صفة ثانية لـ﴿أُسْوَةٌ﴾، أو خبر لـ﴿كَانَ﴾، و﴿لَكُمْ﴾ للبيان، أو حال مِن المستكنّ في ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صلة لها، لا لـ﴿أُسْوَةٌ﴾ عند مَن لا يجوّز العمل بعد الوصف.

﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ ظرف لخبر ﴿كَانَ﴾ ﴿لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمع "بريء" كـ"ظَريف" و"ظُرَفاء". وقُرئ: "بِرَاءٌ"[1] كـ"ظِراف"، و"بُرَاءٌ"[2] كـ"رُخَال"، و"بَرَاءٌ"[3] على الوصف بالمصدر مبالغةً. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم أو بمعبودكم، أو بكم وبه، فلا نعتدّ بشأنكم وبآلهتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه مِن الشِّرك فينقلب العداوةُ حينئذ ولايةً والبغضاءُ محبّةً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فإنّ استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر، وإن كان جائزًا عقلًا وشرعًا لوقوعه قبل تبيُّن أنّه مِن أصحاب الجحيم كما نطق به النصّ، لكنّه ليس ممّا ينبغي أن يُؤتسى به أصلًا؛ إذ المراد به ما يجب الائتساءُ به حتمًا لورود الوعيد / على [١٨٧و] الإعراض عنه بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد، ٢٤/٥٧]، فاستثناؤه عن الأسوة إنّما يفيد عدمَ وجوب استدعاءِ الإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.

والمغفرةِ للكافر المرجوّ إيمانه، وذلك ممّا لا يرتاب فيه عاقل، وأمّا عدم جوازه فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا.

هذا، وأمّا تعليلُ عدم كونِ استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر ممّا ينبغي أن يُؤتسى به بأنّه[1] كان قبل النهي أو لمَوعدة وعدها إيّاه،[2] فبمَعزِل مِن السَّداد بالكلّيّة؛ لابتنائه على تناول النهي لاستغفاره عليه السلام له، وإنبائه عن كونه مؤتسًى به لو لم يُنهَ عنه، وكلاهما بيّن البطلان لِما أنّ مورد النهي هو الاستغفارُ للكافر بعد تبيّن أمره، وقد عرفتَ أنّ استغفاره عليه السلام لأبيه كان قبل ذلك قطعًا، وأنّ ما يُؤتسى به ما يجب الائتساء به، لا ما يجوز فعله في الجملة، وتجويزُ أن يكون استغفاره عليه السلام له بعد النهي كما هو المفهوم مِن ظاهر قوله:[3] "أو لموعدة وعدها إيّاه" ممّا لا مساغَ له.

وتوجيه الاستثناء إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي﴾ الآية [الشعراء، ٨٦/٢٦]؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام على الاستغفار، وتخصيصُ هذه العِدَة بالذِّكر دون ما وقع في سورة مريم مِن قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم، ٤٧/١٩] لورودها على طريق التوكيد القَسَمي، وأمّا جعلُ الاستغفار دائرًا عليها وترتيبُ التبرّؤ على تبيُّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في سورة التوبة.[4]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ مِن تمام القول المستثنى، محلُّه النصب على أنّه حال مِن فاعل ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، أي: أستغفر لك وليس في طاقتي إلّا الاستغفار، فموردُ الاستثناء نفسُ الاستغفار لا قيدُه الذي هو في نفسه مِن خصال الخير لكونه إظهارًا للعجز وتفويضًا للأمر إلى الله تعالى.

وقوله تعالى:[5] ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾... إلى آخره، / مِن تمام ما نُقل عن إبراهيمَ عليه السلام ومَن معه مِن الأسوة الحسنة. [١٨٧ظ]

---

١ السياق: وأمّا تعليل... بأنّه...

٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٦/٣.

٣ أي: البيضاوي.

٤ التوبة، ١١٤/٩.

٥ س – وقوله تعالى.

وتقديم الجارّ والمجرور لقَصْر التوكّل والإنابةِ والمصير على الله تعالى، قالوه بعد المجاهرة وقشرِ العصا التجاءً إلى الله عزّ وجلّ في جميع أمورهم لا سيّما في مدافعة الكفَرة وكفايةِ شرورِهم، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن تُسلِّطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نُطيقه، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منّا مِن الذنوب، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يذلّ مَن التجأ إليه ولا يخيب رجاءُ مَن توكَّل عليه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما فيه حكمةٌ بالغة. وتكرير النداء للمبالغة في التضرّع والجؤار.

هذا، وأمّا جعل الآيتين تلقينًا للمؤمنين مِن جهته تعالى وأمرًا لهم بأن يتوكّلوا عليه وينيبوا إليه ويستعيذوا به مِن فتنة الكفرة ويستغفروا ممّا فرط منهم تكملةً لِما وصّاهم به مِن قطع العلائق بينهم وبين الكفرة،[١] فلا يُساعده النظم الكريم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيمَ ومَن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير للمبالغة في الحثّ على الائتساء به عليه السلام، ولذلك صُدِّر بالقسم. وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ بدل مِن ﴿لَكُمْ﴾، فائدتُه الإيذان بأنّ مَن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداءَ بهم وأنّ تركه مِن مخايل عدم الإيمان بهما، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فإنّه ممّا يُوعَد بأمثاله الكفرة.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن أقاربكم المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يوافقوكم في الدِّين. وَعَدهم الله تعالى بذلك لِما رأى منهم مِن التصلّب في الدِّين والتشدّد في مُعاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم

[١] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٨.

ومقاطعتهم إيّاهم بالكلّيّة تطييبًا[١] لقلوبهم، ولقد أنجز وعدَه الكريم حين أتاح لهم الفتح، فأسلم قومهم فتمّ بينهم مِن التّحابّ والتّصافي ما تمّ.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: مبالِغ في القدرة، فيقدر على تقليب القلوب وتغييرِ الأحوال وتسهيلِ أسباب المودّة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لمَن أسلم مِن المشركين ويرحمهم. / وقيل: غفور لِما فرط منكم في موالاتهم مِن قبل ولِما بقي في قلوبكم مِن مَيل الرَّحِم.[٢] [١٨٨و]

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن البرّ بهؤلاء، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل مِن الموصول. ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُفضوا إليهم بالقسط، أي: العدل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

رُوي أنّ قُتيلةَ بنت عبد العُزّى[٣] قدِمتْ مشركةً على بنتها أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنه بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت، فأمرها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن تُدخِلها وتقبل منها وتُكرِمها وتُحسِن إليها.[٤] وقيل: المراد بهم خزاعةُ، وكانوا صالحوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ألّا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه.[٥]

---

١ السياق: وعدهم... تطييبًا...

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٣.

٣ هي قُتيلة بنت عبد العُزّى العامريّة، كانت زوجة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وطلّقها في الجاهلية، وله مِن الولد منها أسماء ذات النطاقين وعبد الله. لم تدخل الإسلام. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٥/٣، ٢٤٠/١٠.

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٧٢/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٩٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/٤.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٩٥/٨.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاةُ أهل مكّة ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم سائر أهلها ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل اشتمال مِن الموصول، أي: إنّما ينهاكم عن أن تتولّوهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في موضع العداوة، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بيان لحكم مَن يُظهِر الإيمان بعد بيان حُكم فريقَي الكافرين ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ مِن بين الكفّار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهنّ بما يغلِب على ظنّكم موافقةُ قلوبهنّ للسانهنّ في الإيمان. يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول للتي يمتحنها: «بالله الذي لا إلهَ إلّا هو ما خرجتِ مِن بغض زوج؟ بالله ما خرجتِ رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ؟ بالله ما خرجتِ التماسَ دنيا؟ بالله ما خرجتِ إلّا حبًّا لله ولرسوله؟».[١] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لأنّه المطّلع على ما في قلوبهنّ. والجملة اعتراضٌ.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ عِلمًا يُمكنكم تحصيلُه وتبلغه طاقتُكم بعد اللُّتيّا والتي،[٢] مِن الاستدلال بالعلائم والدلائل والاستشهاد بالأمارات والمَخايل وهو الظنّ الغالب. وتسميتُه عِلمًا للإيذان بأنّه جارٍ مَجرى العِلم في وجوب العمل به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهنّ الكفَرة لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فإنّه تعليل للنهي عن رجعهنّ إليهم.

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٢/٥٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٩٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٠.

٢ اللُّتيّا والتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

والتكرير إمّا لتأكيد الحرمة، أو لأنّ الأوّل / لبيان زوال النكاح الأوّل، والثاني لبيان امتناعِ النكاح الجديد. [١٨٨ظ]

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي: وأعطُوا أزواجهنّ مِثلَ ما دفعوا إليهنّ مِن المهور، وذلك أنّ صُلح الحديبية كان على أنّ مَن جاءنا منكم رددناه، فجاءت سُبيعةُ بنت الحارث الأسلميّة[١] مسلمةً، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالحديبية، فأقبل زوجها مُسافرٌ المخزوميُّ، وقيل: صيفيُّ بن الراهب، فقال: يا محمّد، اردُد عليّ امرأتي، فإنّك قد شرطتَ أن تردّ علينا مَن أتاك منّا، فنزلت لبيان أنّ الشرط إنّما كان في الرجال دون النساء، فاستحلفها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوّجها عمرُ رضي الله عنه.[٢]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنّ إسلامهنّ حالَ بينهنّ وبين أزواجهنّ الكفّار ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ شُرط إيتاءُ المهر في نكاحهنّ إيذانًا بأنّ ما أعطيَ أزواجهنّ لا يقوم مقامَ المهر. ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جمع عِصمة، وهي: ما يُعتصَم به مِن عقدٍ وسبب، أي: لا يكن بينكم وبين المشركات عِصمة ولا عُلْقَةُ زوجيّةٍ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: مَن كانت له امرأة كافرة بمكّة فلا يعتدّنّ بها مِن نسائه؛ لأنّ اختلاف الدارين قَطَع عصمتَها منه. وعن النخَعي رحمه الله: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهدٍ: أمرَهم بطلاق الباقيات مع الكفّار ومفارقتهنّ.[٣] وقُرئ: "وَلَا تُمَسِّكُوا"[٤] بالتشديد و"لَا تَمَسَّكُوا"[٥] بحذف إحدى التاءين مِن "تتمسّكوا". ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ مِن مهور نسائكم اللاحقات بالكفّار ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ مِن مهور أزواجهم المهاجرات.

---

١ هي سُبيعة بنت الحارث الأسلميّة كانت تحت سعد بن خولة، فتوّفي عنها ونُفِست بعد وفاة زوجها بليالٍ فجاءت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاستأذنته أن تَنكِح فأذِن لها فنكَحت، وروى هذا الحديث عنها فقهاء المدينة وفقهاء الكوفة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٧٢/١٠؛ **والإصابة** لابن حجر، ٦٩٠/٧.

٢ بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩٧/٨-٩٨؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٩٠/٤.

٣ بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩١/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم ومعاذ. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

٥ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذُكِر ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنَف، أو حال مِن ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ على حذف الضمير، أي: يحكمه الله، [١٨٩و] أو جُعل الحُكم حاكمًا على المبالغة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ / يشرع ما يقتضيه الحكمةُ البالغة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

رُوي أنّه لمّا نزلت الآية أدّى المؤمنون ما أُمِروا به مِن مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين وأبى المشركون أن يؤدّوا شيئًا مِن مهور الكوافر إلى أزواجهنّ المسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي: سبقكم وانفلتَ منكم ﴿شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: أحد مِن أزواجكم، وقد قُرئ كذلك.[١] وإيقاعُ ﴿شَىْءٌ﴾ موقعَه للتحقير والإشباع في التعميم، أو شيءٌ مِن مهور أزواجكم. ﴿فَعَاقَبْتُم﴾ أي: فجاءت عُقْبَتُكم، أي: نَوبتكم مِن أداء المهر، شُبِّه ما حُكم به على المسلمين والكافرين مِن أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك تارةً وأداء أولئك مهورَ نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يُتَعاقب في الركوب وغيرِه. ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ مِن مَهر المهاجِرة التي تزوّجتموها، ولا تُؤتوه زوجَها الكافر.

وقيل: معناه إن فاتكم فأصبتُم مِن الكفّار عُقبى، هي الغنيمة فآتوا بدلَ الفائت مِن الغنيمة.[٢] وقُرئ: "فَأَعْقَبْتُمْ"،[٣] و"فَعَقَّبْتُمْ"[٤] بالتشديد، و"فَعَقَبْتُمْ" بالتخفيف وفتح القاف[٥] وبكسرها.[٦] قيل: جميع مَن لحِق بالمشركين مِن نساء المؤمنين المهاجرين

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

[٢] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/٣٩٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزعفراني والحسن وحُميد والأعمش. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والزُّهري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسروق. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١.

ستُّ نسوةٍ أمُّ الحَكَم بنت أبي سفيان[١] وفاطمةُ بنت أميّةَ وبَرْوَع بنت عُقبة وعَبدةُ بنت عبد العُزّى وهندُ بنت أبي جهل وكلثومُ بنت جرول.[٢]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ فإنّ الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ أي: مبايعاتٍ لك، أي: قاصداتٍ للمبايعة، نزلت يوم الفتح فإنّه عليه السلام لمّا فرغ مِن بيعة الرجال شرع في بيعة النساء ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء أو شيئًا مِن الإشراك ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ أريدَ به وأدُ البنات. وقُرئ: "وَلَا يُقَتِّلْنَ"[٣] بالتشديد.

﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولودَ فتقول لزوجها: "هو ولدي منك"، كُنّي عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها. ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ أي: فيما تأمرهنّ به مِن معروف وتنهاهنّ عنه / مِن منكَر. [١٨٩ظ]
والتقييد بالمعروف مع أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يأمر إلّا به للتنبيه

---

[١] هي أمّ الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس، وأمّها هند بنت عُتبة بن ربيعة. أسلمت يوم الفتح، وكانت تحت عِياض بن عنم الفهري وحين نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة، ١٠/٦٠] طلّقها، فتزوّجها عبد الله بن عثمان الثقفي فولدت له عبد الرحمن المعروف بابن أمّ الحكم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٢٨/١٠؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٩٣٢/٤.

[٢] مرويّ عن ابن عبّاس في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩٩/٨-١٠٠. | هي أمّ كلثوم بنت جرول الخزاعيّة، كانت تحت عمر بن الخطّاب، ففرق الإسلام بينهما، ولها منه مِن الولد عبيد الرحمن وزيد الأصغر، وقيل: طلّقها عمر في الجاهليّة وتزوّجها أبو جَهْم بن حذيفة بن غانم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٤٥/٣؛ **والروض الأُنف** للسُهيلي، ٤٧٤/٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٦٢٨/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي والحسن وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ١٧٨٥.

على أنّه لا يجوز طاعةُ مخلوق في معصية الخالق. وتخصيص الأمور المعدودة بالذِّكر في حقِّهنّ لكثرة وقوعها فيما بينهنّ مع اختصاص بعضها بهنّ.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: على ما ذُكر وما لم يُذكَر، لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة مِن الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام. وتقييدُ مبايعتهنّ بما ذُكر مِن مجيئهنّ لحثّهنّ على المسارعة إليها مع كمال الرغبةِ فيها مِن غير دعوة لهنّ إليها. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضِمْن المبايعة، فإنّها عبارة عن ضمان الثواب مِن قِبَله عليه السلام بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة مِن قبلهنّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في المغفرة والرحمة فيغفر لهنّ ويرحمهنّ إذا وفينَ بما بايعنَ عليه.

واختُلف في كيفيّة مبايعته عليه السلام لهنّ يومئذ، فرُوي أنّه عليه السلام لمّا فرغ مِن بَيعة الرجال جلس على الصَّفا ومعه عمرُ أسفلَ منه، فجعل عليه السلام يشترط عليهنّ البَيعة وعمرُ يصافحهنّ.[1] ورُوي أنّه كلّف امرأة وقفت على الصَّفا فبايَعتْهُنّ. وقيل: دعا بقدح مِن ماء فغمس منه يده، ثمّ غمسنَ أيديَهنّ. ورُوي أنّه عليه السلام بايعهنّ وبين يديه وأيديهنّ ثوب قِطْري.[2]

والأظهر الأشهر ما قالت عائشةُ رضي الله عنها: «واللهِ ما أخذ رسول الله على النساء قطّ إلّا بما أمر الله تعالى، وما مسّت كفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كفّ امرأة قطّ»، وكان يقول إذا أخَذ عليهنّ: «قد بايعتُكنّ كلامًا»، وكان المؤمنات إذا هاجرنَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمتحنهنّ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى آخر الآية، فإذا أقررنَ بذلك مِن قولهنّ قال لهنّ: «انطلقن فقد بايعتُكنّ».[3]

---

[1] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/٤.

[2] لم أجد هذه الروايات في مظانّها. وهي بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤.

[3] حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ قريب في صحيح مسلم، ١٤٨٩/٣ (١٨٦٦)؛ وسنن ابن ماجه، ١٢٩/٤ (٢٨٧٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٢/٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ هم عامّة الكفرة، وقيل: اليهود، لِما رُوي أنّها نزلت في بعض فقراء المسلمين، كانوا يواصلون اليهود ليُصيبوا مِن ثمارهم.[1] ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لكفرهم بها، أو لعلمهم بأنّه لا خلاقَ لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيَّد بالآيات.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: كما يئس منها الذين ماتوا منهم؛ لأنّهم وقفوا على حقيقة الحال، وشاهدوا حرمانَهم مِن نعيمها المقيم، وابتلاءَهم بعذابها الأليم، والمرادُ وصفهم بكمال اليأس منها. وقيل: المعنى كما يئسوا مِن موتاهم أن يُبعثوا ويُرجعوا إلى الدنيا أحياءً.[2] والإظهارُ في موقع الإضمار للإشعار بعلّة يأسهم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاءَ يوم القيامة».[3]

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١١٠٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٤١/١٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٢٦ (الممتحنة، ١/٦٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨١/٤ (الممتحنة، ١/٦٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٠

سُورَةُ المُمتَحنَةِ

مدنية، ثلاثَ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم﴾ أي: كُفّارَ مكّة ﴿أَولِياءَ، تُلقُونَ﴾: تُوصِلون ﴿إلَيهِم﴾ قَصْدَ النبي غزوَهم الذي أسرَّه إليكم ووَرَّى بِحُنين، ﴿بِالمَوَدّةِ﴾ بينكم وبينهم ـ كتبَ حاطبُ ابنُ أبي بَلتعةَ إليهم كتابًا بذلك لِما له عِندهم من الأولاد والأهل المُشركين، فاستردّه النبيّ ممّن أرسله معه بإعلام الله ـ تعالى ـ له بذلك، وقبِلَ عُذرَ حاطب فيه ـ ﴿وقَد كَفَرُوا بِما جاءَكُم مِنَ الحَقِّ﴾ أي: دِين الإسلام والقُرآن، ﴿يُخرِجُونَ الرَّسُولَ وإيّاكُم﴾ من مكّة بتضييقهم عليكم، ﴿أن تُؤمِنُوا﴾ أي: لِأجل أن آمنتم ﴿بِاللهِ رَبِّكُم، إن كُنتُم خَرَجتُم جِهادًا﴾: للجِهاد ﴿في سَبِيلِي وابتِغاءَ مَرضاتِي﴾ ـ وجواب الشرط دلّ عليه ما قبله، أي: فلا تتّخذوهم أولياء ـ ﴿تُسِرُّونَ إلَيهِم بِالمَوَدّةِ، وأنا أعلَمُ بِما أخفَيتُم، وما أعلَنتُم. ومَن يَفعَلْهُ مِنكُم﴾ أي: إسرارَ خبر النبي إليهم ﴿فقَد ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾: أخطأ طريق الهدى. والسواء في الأصل: الوسَط.

سُورَةُ المُمتَحنَةِ

قولُهُ: (قَصْدَ النَّبيِّ) وأَخبارَهُ بسببِ المودَّةِ، أو توصِلونَ إليهم المودَّةَ بالمكاتبةِ، والباءُ مزيدةٌ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ: ﴿لَا تَتَّخذُوا﴾.

قولُهُ: (أي: لِأَجْلِ أَنْ) أو بأن.

قولُهُ: (للجِهَادِ) علَّةٌ للخروجِ.

قولُهُ: (أي: إِسرَارَ) أو الاتِّخاذَ.

٢ ـ ٣ ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا لَكُم أعداءً، ويَبسُطُوا إِلَيكُم أيدِيَهُم﴾ بالقتل والضربِ ﴿وألسِنتَهُم بِالسُّوءِ﴾: بالسبّ والشتم، ﴿ووَدُّوا﴾: تمنَّوا ﴿لَو تكفُرُونَ. لَن تَنفَعَكُم أرحامُكُم﴾: قراباتُكم ﴿ولا أولادُكُم﴾ المُشركون الذين لأجلهم أسررتم الخبرَ، من العذاب في الآخرة. ﴿يَومَ القِيامةِ يُفصَلُ﴾ ـ بالبناء للمفعول، وللفاعل ـ ﴿بَينَكُم﴾ وبينهم، فتكونون في الجنّة، وهم في جُملة الكُفّار في النار. ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٤ ـ ﴿قَد كانَتْ لَكُم إِسْوَةٌ﴾، بكسر الهمزة وضمّها في الموضعين: قُدوةٌ ﴿حَسَنَةٌ في إبراهِيمَ﴾ أي: به قولاً وفعلاً ﴿والَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المُؤمنين، ﴿إذ قالُوا لِقَومِهِم: إنّا بُرَآءُ﴾: جمع بَريء كظَريف ﴿مِنكُم ومِمّا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ، كَفَرنا بِكُم﴾: أنكرناكم، ﴿وبَدا بَينَنا وبَينَكُمُ العَداوةُ والبَغضاءُ أبَدًا﴾ ـ بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية واوًا ـ ﴿حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَحدَهُ، إلاّ قَولَ إبراهِيمَ لِأبِيهِ: لَأستَغفِرَنَّ لَكَ﴾: مُستثنى من «إسوة»، فليس لكم التأسّي به في ذلك بأن تستغفروا للكُفّار، وقولَه ﴿وما أملِكُ لَكَ مِنَ اللهِ﴾ أي: من عذابه وثوابه ﴿مِن شَيءٍ﴾. كنى به عن أنه لا يملك له غيرَ الاستغفار........

قولُهُ: (تَمَنَّوا) قبلَ كلِّ شيءٍ.

قولُهُ: (مِنَ العَذَابِ) متعلِّقٌ بـ﴿لَنْ تَنْفَعَكُم﴾.

قولُهُ: (بالبِنَاءِ للمَفعُولِ) مخفَّفاً نافعٌ ومكيٌّ وبصريٌّ، ومشدَّداً ابنُ عامرٍ[١].

قولُهُ: (والفَاعِلِ) مخفَّفاً ثلاثيًّا عاصمٌ، ومشدَّداً حمزةُ والكسائيُّ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) عاصمٌ.

قولُهُ: (قُدوَةٌ) اسمٌ لما يُقْتَدى به، أو مصدرٌ بمعنى: اقتداء، وهو ظاهرُ كلامِ الشَّيخِ حيثُ قالَ: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: بِهِ.

قولُهُ: (كَظَرِيفٍ) وظُرَفاء، وهو ظرفٌ لخبرِ: ﴿كَانَ﴾.

قولُهُ: (أَنْكَرْنَاكُم) أو كفَرْنا بدينِكُم، أو معبودِكُم، أو بكُم وبه، فلا نعتدُّ بشأنِكُم وآلهتِكُم.

قولُهُ: (وإِبدَالِ الثَّانِيةِ) الحرميَّانِ وبصريٌّ[٢].

قولُهُ: (مُستَثْنَى) منقطعٌ.

---

(١) هذا وما بعده انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٣).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٤٧).

فهو مبنيّ عليه مستثنى من حيثُ المرادُ منه، وإن كان من حيثُ ظاهرُه مِمّا يُتأسّى فيه: «قُلْ: فمَن يَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شيئًا»؟ واستغفارُه له قبل أن يتبيّن له أنه عدوّ لله كما ذُكر في «براءة». ﴿رَبَّنا، علَيكَ توَكَّلْنا، وإلَيكَ أنَبْنا، وإلَيكَ المَصِيرُ﴾: من مقول الخليل ومَن معه، أي: وقالوا: ٥ ـ ﴿رَبَّنا، لا تَجعَلْنا فِتْنةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تُظهِرْهم علينا فيظنّوا أنهم على الحقّ، فيَفتِنونا بنا أي: تذهبَ عقولهم بنا، ﴿واغفِرْ لَنا. رَبَّنا، إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في مُلكك وصُنعك.

٦ ـ ﴿لَقَد كانَ لَكُم﴾ يا أُمّة مُحمّد ـ جوابُ قسم مُقدّر ـ ﴿فِيهِم إسوةٌ حَسَنةٌ، لِمَن كانَ﴾: بدلُ اشتمال من «كُم» بإعادة الجارّ ﴿يَرجُو اللهَ واليَومَ الآخِرَ﴾ أي: يخافُهما أو يظنّ الثوابَ والعِقاب. ﴿ومَن يَتَوَلَّ﴾ بأن يُوالِيَ الكُفّارَ ﴿فإنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ لِأهل طاعته.

٧ ـ ﴿عَسَى اللهُ أن يَجعَلَ بَينَكُم وبَينَ الَّذِينَ عادَيتُم مِنهُم﴾: من كُفّار مكّة طاعةً للهِ ـ تعالى ـ ﴿مَوَدَّةً﴾ بأن يهديهم للإيمان، فيصيروا لكم أولياء. ﴿واللهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ـ وقد فعله بعد فتح مكّة ـ ﴿واللهُ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قولُهُ: (مِنْ حَيثُ المُرَادُ) أي: الاستغفارُ منهيٌّ ولو معَ هذا القولِ، ولا يلزمُ من استثناءِ المجموعِ استثناءُ جميعِ أجزائِهِ.

قولُهُ: (وقَالُوا) إشارةٌ إلى أنَّه متَّصلٌ بما قبلَ الاستثناءِ، وقيل: أمرٌ من اللهِ تعالى لمؤمني هذهِ الأمَّةِ بأن يقولوهُ تتميماً لما وصَّاهُم به مِن قطعِ العلائقِ بينهُم وبينَ الكفَّارِ.

قولُهُ: (فيُفْتَنُوا) بالبناءِ للمفعولِ، أو فيَفتِنُونا بعذابٍ لا نتحمَّلُهُ.

قولُهُ: (يَا أمَّةَ مُحمَّدٍ) تكريرٌ لمزيدِ الحثِّ على التَّأسِّي بإبراهيمَ والَّذينَ معه.

قولُهُ: (أو يَظُنُّ) الظَّاهرُ: يأملُ.

قولُهُ: (بِأَنْ) أي: يُعرِض عن حُكمِنا وموالاتِنا وموالاةِ أوليائِنا.

قولُهُ: (مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ) قالَ ابنُ شهابٍ: نزلَت في جماعةٍ منهم أبو سفيانَ، كذا في «المبهماتِ»[1].

قولُهُ: (طَاعَةً) علَّةٌ لـ﴿عَادَيْتُم﴾.

قولُهُ: (لِمَا سَلَفَ) من إظهارِ موالاتِهِم، ولما بقيَ في القلوبِ من مَيلِ الرَّحمِ، فإنَّ الأمورَ الطَّبيعيَّةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ، فهي معفوَّةٌ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

٨ ـ ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقاتِلُوكُم﴾ من الكُفّار ﴿في الدِّينِ ولَم يُخرِجُوكُم مِن دِيارِكُم، أن تَبَرُّوهُم﴾: بدلُ اشتمال من «الذين»، ﴿وتُقسِطُوا﴾: تُفضُوا ﴿إلَيهِم﴾ بالقسط، أي: العدل. وهذا قبل الأمر بجِهادهم ـ ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ﴾: العادلينَ ـ ٩ ـ ﴿إنَّما يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُم في الدِّينِ، وأخرَجُوكُم مِن دِيارِكُم، وظاهَرُوا﴾: عاونوا ﴿عَلَى إخراجِكُم، أن تَوَلَّوهُم﴾: بدلُ اشتمال من «الذين»، أي: تتّخذوهم أولياء. ﴿ومَن يَتَوَلَّهُم فأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا جاءَكُمُ المُؤمِناتُ﴾ بألسنتهنّ ﴿مُهاجِراتٍ﴾ من الكُفّار، بعد الصُّلح معهم في الحُدَيبية على أنّ من جاء منهم إلى المُؤمنين يُردّ، ﴿فامتَحِنُوهُنَّ﴾ بالحلف أنهنّ ما خرجْنَ إلاّ رغبة في الإسلام لا بُغضًا لأزواجهنّ الكُفّار ولا عِشقًا لرجال من المُسلمين ـ كذا كان النبيّ ﷺ يُحلّفهنّ.

قولُهُ: (بَدَلُ اشْتِمَالٍ) أي: لا ينهاكُم عن مبرَّةِ هؤلاءِ وإحسانِهم.

قولُهُ: (تُفْضُوا) يعني: لتضمينِ الإفضاءِ والوصولِ، عُدِّي بـ«إلى».

قولُهُ: (وعَاوَنُوا) فإنَّ بعضَ أهلِ مكَّةَ سعَوا في إخراجِ المؤمنينَ، وبعضَهُم أعانوا المخرَجينَ.

قولُهُ: (بألسِنَتِهِنَّ) يعني: سمَّاهنَّ مؤمناتٍ لنطقِهِنَّ بكلمةِ الشَّهادةِ، أو لأنَّهُنَّ مشارفاتٌ؛ لثباتِ إيمانِهِنَّ بالامتحانِ.

قولُهُ: (بالحَلِفِ) قالَ القاضي[1] وصاحبُ «المدارِكِ»[2]: فاختبروهُنَّ بما يغلُبُ على ظنِّكُم موافقةَ قلوبِهِنَّ ألسنَتَهُنَّ بالإيمانِ، وفي «التَّوضيحِ»[3] أنَّ الإسلامَ هو التَّصديقُ والإقرارُ، وهو نوعانِ ظاهرٌ بنشوئِهِ بين المسلمينَ وثابتٌ بالبيانِ بأن يصفَ اللهَ تعالى كما هو، إلَّا أنَّ في اعتبارِهِ على سبيلِ التَّفصيلِ حرجاً فيكفي الإجمالُ أن يصدِّقَ بكلِّ ما أتى به النبيُّ ﷺ، فلهذا قُلنا: إنَّ الواجبَ أن يستوصفَ فيُقالُ: أهو كذا؟ فإذا قالَ: نعم؛ يكملُ إيمانُهُ، وهذا هو المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾.

قولُهُ: (يُحَلِّفُهُنَّ) هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ[4]، وقالَتْ عائشةُ[5]: كانَ النبيُّ ﷺ يمتحنُهُنَّ بهذه الآيةِ: ﴿يَا أَيُّهَا النبيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فمَن أقرَّ بهذا الشَّرطِ منهنَّ قالَ لها: «قد بايعْتُكِ» كلاماً يكلِّمُها به، واللهِ ما مسَّتْ يدُهُ يدَ امرأةٍ قطُّ في المبايعةِ، ما بايعَهُنَّ إلَّا بقولِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٦).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧٠).

(٣) وانظر: «شرح التلويح على التوضيح» (٢/ ١٣).

(٤) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٦/ ٣٠٦).

(٥) رواه البخاري (٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦).

﴿اللهُ أعلَمُ بإيمانِهِنَّ ـ فإن عَلِمتُمُوهُنَّ﴾: ظننتموهنّ بالحلف ﴿مُؤمِناتٍ فلا تَرجِعُوهُنَّ﴾: تردّوهنّ ﴿إلَى الكُفّارِ ـ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُم ولا هُم يَحِلُّونَ لَهُنَّ ـ وآتُوهُم﴾ أي: أعطُوا الكُفّارَ أزواجَهنّ ﴿ما أنفَقُوا﴾ عليهنّ من المُهور، ﴿ولا جُناحَ علَيكُم أن تَنكِحُوهُنَّ﴾ بشرطه ﴿إذا آتَيتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: مُهورهنَّ.

﴿ولا تُمَسِّكُوا﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿بِعِصَمِ الكَوافِرِ﴾ زوجاتِكم لقطع إسلامكم لها بشرطه أو اللاحقات بالمُشركين مُرتدّاتٍ لقطع ارتدادهنّ نكاحَكم بشرطه،..........

قولُهُ: (ظَنَنْتُمُوهُنَّ) أي: العلمَ الَّذي يمكنُكُم تحصيلُهُ، وهو الظَّنُّ الغالبُ بالحلفِ، وظهورِ الأماراتِ، وإنَّما سمَّاهُ علماً إيذاناً بأنَّهُ كالعلمِ في وجوبِ العملِ به.

قولُهُ: (مِنَ المُهُورِ) أي: ممَّا دفَعوا إليهنَّ، وذلك لأنَّ صلحَ الحديبيةِ جرى على أنَّ من جاءَنا منكُم ردَدْناهُ، فلمَّا تعذَّرَ عليهِ ردُّهُنَّ؛ لورودِ النَّهي عنه لزمَهُ ردُّ مهورِهِنَّ، وفي «المدارِكِ»[١]: فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةِ بياناً أنَّ ذلك في الرِّجالِ لا في النِّساءِ؛ لأنَّ المسلمةَ لا تحلُّ للكافرِ، وقيل: نَسَخَتْ هذهِ الآيةُ حكمَ الأوَّلِ.

قولُهُ: (بِشَرْطِهِ) من الوليِّ وغيرِه.

قولُهُ: (مُهُورَهُنَّ) لأنَّ المهرَ أجرُ البضعِ، قالَ في «المدارِكِ»[٢]: وبه احتجَّ أبو حنيفةَ على أن لا عدَّةَ على المهاجرةِ[٣]، قالَ القاضي[٤]: وشَرَطَ إيتاءَ المهرِ في نكاحِهِنَّ إيذاناً بأنَّ ما أعطى أزواجُهُنَّ لا يقومُ مقامَ المهرِ.

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) بصريٌّ[٥].

قولُهُ: (زَوجَاتِكُم) أي: بما تعتصمُ به الكافراتُ مِن عقدٍ ونسبٍ، والمرادُ: نهيُ المؤمنينَ عن المقامِ على نكاحِ المشركاتِ ولو كانَت قريبتَهُ، وفي «المدارِكِ»[٦]: عن ابنِ عبَّاسٍ مَن كانَت له امرأةٌ كافرةٌ بمكَّةَ فلا يعتدَّنَّ بها مِن نسائِهِ؛ لأنَّ اختلافَ الدَّارينِ قطعَ عصمَتَها عنه[٧].

قولُهُ: (مُرتَدَّاتٍ) في «الحصرِ»: إذا ارتدَّ أحدُ الزَّوجينِ وقعَتِ الفرقةُ للحالِ عندَنا[٨]؛ يعني: معشرَ الحنفيَّةِ،

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل/ مكتبة الإرشاد» (٤/ ٤٧٧). سقط هذا الكلام من النسخة التي نعزو إليها، ثم وجدته في نسختنا ولله الحمد.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧٠).

(٣) انظر: «المبسوط» (٥/ ٥٧).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٦).

(٥) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٩).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧١).

(٧) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٦/ ٣١٠).

(٨) انظر: «البناية» (٥/ ٢٤٧).

﴿واسألُوا﴾: اطلبوا ﴿ما أنفقتُم﴾ عليهنّ من المُهور في صُورة الارتداد ممّن تزوَّجهنَّ من الكُفّار، ﴿ولْيَسألُوا ما أنفقُوا﴾ على المُهاجرات كما تقدّم أنهم يُؤتَونه - ﴿ذلِكُم حُكمُ اللهِ، يَحكُمُ بَينكُم﴾ به. ﴿واللهُ عَليمٌ حَكِيمٌ - وإن فاتَكُم شَيءٌ مِن أزواجِكُم﴾ أي: واحدةٌ فأكثرُ منهنّ أو شيء من مُهورهنّ بالذهاب ﴿إلَى الكُفّارِ﴾ مُرتدّاتٍ، ﴿فعاقَبتُم﴾: فغزَوتم وغنمتم، ﴿فآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أزواجُهُم﴾ من الغنيمة ﴿مِثلَ ما أنفَقُوا﴾ لِفواته عليهم من جِهة الكُفّار، ﴿واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أنتُم بِهِ مُؤمِنُونَ﴾. وقد فعل المُؤمنون ما أُمروا به، من الإيتاء للكُفّار والمُؤمنين، ثمّ ارتفع هذا الحُكم.

١٢ - ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، إذا جاءَكَ المُؤمِناتُ يُبايِعْنَكَ علَى ألاّ يُشرِكْنَ بِاللهِ شَيئًا، ولا يَسرِقْنَ ولا يَزنِينَ ولا يَقتُلْنَ أولادَهُنَّ﴾ كما كان يُفعل في الجاهليّة من وأد البنات، أي: دفنِهنّ أحياءً خوفَ العار والفقر، ﴿ولا يأتِينَ بِبُهتانٍ يَفتَرِينَهُ بَينَ أيدِيهِنَّ وأرجُلِهِنَّ﴾ أي: بولد ملقوط يَنسِبْنَه إلى الزوج - ووُصِفَ بصِفة الولد الحقيقيّ، فإنّ الأُمّ إذا وضعتْه سقطَ بين يديها ورجليها - ﴿ولا يَعصِينَكَ في مَعرُوفٍ﴾ هو ما وافق طاعة الله - تعالى - كترك النِّياحةِ وتمزيقِ الثياب وجزِّ الشعور وشقِّ الجيب وخمشِ الوجه، ﴿فبايِعْهُنَّ﴾ - فَعَلَ النبيُّ ﷺ ذلك بالقول، ولم يُصافح واحدة منهنّ - ﴿واستَغفِرْ لَهُنَّ اللهَ. إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٣ - ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَتَوَلَّوا قَومًا، غَضِبَ اللهُ علَيهِم﴾ هم اليهود، ....

وعندَ الشّافعيِّ[١]: إن كانَ غيرَ مدخولٍ بها فكذلكَ، وأمَّا المدخولُ بها فلا تبينُ إلَّا بعدَ ثلاثِ حيضٍ.

قولُهُ: (بِهِ) في «المدارِكِ»[٢]: الإشارةُ إلى جميعِ ما ذكرَ في هذهِ الآيةِ، قالَ: وهو منسوخٌ، فلم يبقَ سؤالُ المهرِ لا منَّا ولا منهُم.

قولُهُ: (أي: وَاحِدَةٌ) يعني: إنِ انفلَتْ أحدٌ منهُنَّ إلى الكفَّارِ، وهو في قراءةِ ابنِ مسعودٍ: (أحدٌ)[٣].

قولُهُ: (فَغَزَوْتُم) يعني: فأصبتُموهُم في القتالِ بعقوبةٍ حتَّى غنمْتُم.

قولُهُ: (مِنَ الغَنِيمَةِ) في «المدارِكِ»[٤]: أي: فأعطوا المسلمينَ الَّذينَ ارتدَّت أزواجُهُم ولحقَتْ بدارِ الحربِ مهورَ زوجاتِهِم من هذهِ الغنيمَةِ، وقيل: هذا الحكمُ منسوخٌ أيضاً.

قولُهُ: (هُمُ اليَهُودُ) كذا في الأصلِ.

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (٩/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧١).

(٣) وانظر: «الكشاف» (٤/ ٥١٩).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧١).

﴿قَد يَئِسُوا مِنَ الآخِرةِ﴾ أي: من ثوابها مع إيقانهم بها، لِعنادهم النبيَّ مع علمهم بصِدقه، ﴿كَما يَئِسَ الكُفّارُ﴾ الكائنون ﴿مِن أصحابِ القُبُورِ﴾ أي: المقبورين من خير الآخرة، إذ تُعرض عليهم مقاعدهم من الجنّة لو كانوا آمنوا، وما يصيرون إليه من النار.

قولُهُ: (أي: مِنْ ثَوَابِهَا) لعلمِهِم بأنَّه لا حظَّ لهم فيها.

قولُهُ: (المَقبُورِيْنَ) إشارَةٌ إلى أنَّ: ﴿مِنْ﴾ بيانيَّة، والمعنى: كما يئسَ الكفَّارُ من أصحابِ القبورِ؛ أي: مِن أن يبعَثوا، أو يُثابوا، أو ينالَهُم غضب، واللهُ أعلمُ.

***

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

قال ابن حجر: المشهور في هذه التسمية أنها بفتح الحاء، وقد تكسر؛ فعلى الأول هي صفةُ المرأة التي أُنزلت بسببها، وعلى الثاني صفةُ السورة، كما قيل لبراءة: الفاضحة(١). وفي «جمال القراء»(٢): تسمَّى أيضاً سورةَ الامتحان، وسورةَ المودَّة.

وأطلق ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم القول بمدنيَّتها، وذكر بعضُهم أنَّ أوَّلها نزلَ يوم فتح مكة، فكونُها مدنيةً إما من باب التغليب، أو مبنيٌّ على أنَّ المدنيَّ ما نزل بعد الهجرة. وهي ثلاث عشرة آية بالاتفاق.

ومناسبتها لما قبلها أنه ذُكِرَ فيها قبلُ موالاةُ الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب، وذُكِرَ في هذه نهيُ المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياءَ؛ لئلّا يُشابهوا المنافقين، وبُسِطَ الكلامُ فيه أتمَّ بَسْط.

وقيل في ذلك أيضاً: إنَّ فيما قبل ذِكْرُ المعاهَدين من أهل الكتاب، وفي هذه ذِكْرُ المعاهَدين من المشركين؛ لأنَّ فيها ما نزل في صلح الحديبية. ولشدَّةِ اتصالها بالسورة قبلها فُصل بها بينها وبين الصف، مع تواخيهما في الافتتاح بـ «سبّح».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في حاطب بن عمرو أبي بلتعة، وهو مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى؛ أخرج

(١) فتح الباري ٨/ ٦٣٣.
(٢) ٢/ ٨٦٧.

الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبير والمِقْداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ[1]، فإنَّ بها ظَعينة[2] معها كتاب، فخذوه منها فَأْتوني به» فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظَّعينة فقلنا: أَخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتاب. قلنا: لَتُخرِجنَّ الكتابَ أو لَتُلقينَّ الثياب. فأخرجته من عِقاصها[3]، فأتينا به النبيَّ ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أَمْر النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «ما هذا يا حاطب»؟! قال: لا تعجلْ عليَّ يا رسول الله، إني كنتُ امرأً مُلْصَقاً في قريشٍ، ولم أكنْ من أَنفُسِها، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يَحمونَ بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم، أن أَصطنعَ إليهم يداً يَحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفْراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه شَهِدَ بدراً، وما يُدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إلخ[4].

وفي رواية ابن مردويه عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمرَ وعليًّا رضي الله عنهما في أَثر تلك المرأة، فلحقاها في الطريق، فلم يقدرا على شيءٍ معها، فأقبلا راجعَين، ثم قال أحدهما لصاحبه: والله ما كَذَّبنا ولا كَذَبنا، ارجع بنا إليها، فرجعا فسلّا سيفيهما وقالا: والله لَنُذيقنَّكِ الموتَ أو لتدفعنَّ الكتابَ. فأنكرت ثم قالت: أَدفعه إليكما على أن لا تردَّاني إلى رسول الله ﷺ. فقبلا ذلك، فأخرجته

---

(١) جاء في هامش الأصل: بخاءين معجمتين مكان بين مكة والمدينة، يجوز صرفه وعدمه.

(٢) جاء في هامش الأصل: الظعينة بالظاء المعجمة المشالة والعين المهملة: المرأة ما دامت في هودجها، وتطلق على المرأة مطلقاً.

(٣) جاء في هامش الأصل: من المعقوص وهو نحو من المضفور.

(٤) أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٥٢١)، وابن حبان (٦٤٩٩).

لهما من قرونِ رأسها، وفيه ـ على ما في «الدر المنثور»[١] ـ أنَّ المرأةَ تُدعى أمَّ سارة، كانت مولاةً لقريش[٢].

وفي «الكشاف»[٣]: يقال لها: سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم.

وفي صحة خبر أنس تردُّدٌ، وما تضمَّنه من رجوع الإمامين رضي الله عنهما بعيد.

وقيل: إنَّ المبعوثين في أثرها عمر وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ وعمارٌ والمقدادُ وأبو مرثد، وكانوا فرساناً. والمعوَّل عليه ما قدَّمنا، والذين كانوا له في مكة بَنُوهُ وإخوته على ما روي عن عروةَ بن الزبير عن عبد الرحمن بن حاطب المذكور، وفي روايةٍ لأحمدَ[٤] عن جابر أنَّ حاطباً قال: كانت والدتي معهم. فيحتمل أنها مع بَنِيْه وإخوته.

وصورة الكتاب ـ على ما في بعض الروايات ـ: إنَّ رسولَ الله ﷺ توجَّهَ إليكم بجيشٍ كالليل يسيرُ كالسيل، وأَقسمَ بالله لو سارَ إليكم وَحْدَهُ لنصرهُ الله عليكم، فإنه منجزٌ له ما وَعَدَهُ.

وفي الخبر السابق ـ على ما قيل ـ دليلٌ على جواز قتل الجاسوس لتعليله ﷺ المنعَ عن قتله بشهوده بدراً، وفيه بحثٌ.

وفي التعبير عن المشركين بالعدوِّ مع الإضافة إلى ضميره عزَّ وجلَّ تغليظٌ لأمرِ اتِّخاذهم أولياء، وإشارةٌ إلى حلول عقاب الله تعالى بهم، وفيه رمزٌ إلى معنى قوله:

إذا صافى صديقُكَ مَنْ تعادي ... فقد عاداك وانقطعَ الكلامُ[٥]

والعدوُّ فَعُولٌ من عَدَا، كَعَفُوٍّ من عَفَا، ولكونه على زِنَةِ المصدر أُوقِعَ على الجمع إيقاعَه على الواحد، ونُصِبَ «أولياء» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «تتخذوا».

---

(١) ٦/ ٢٠٤، والخبر أخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٥٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٦٠-٦١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٦٧-١٦٨: فيه الحكم به عبد الملك، وهو ضعيف.

(٢) جاء في هامش الأصل: وقيل مولاة بني المطلب.

(٣) ٤/ ٨٨.

(٤) برقم (١٤٧٧٤).

(٥) البيت في غرر الخصائص الواضحة ص٤٣٢، وسلف ٤/ ١٠٦ و٨/ ٧٤.

وقوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفسيرٌ للموالاة أو لاتخاذها، أو استئنافٌ، فلا محلَّ لها من الإعراب، والباءُ زائدةٌ في المفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]. وإلقاءُ المودَّةِ مجازٌ عن إظهارها، وتفسيرُه بالإيصال، أي: تُوصلون إليهم المودةَ، لا يقطعُ التجوُّزَ.

وقيل: الباء للتعدية؛ لكون المعنى: تُفضون إليهم بالمودَّة، و: أفضى، يتعدَّى بالباء كما في «الأساس»[1]. وقيل: هي للسببية، والإلقاءُ مجازٌ عن الإرسال، أي: ترسلون إليهم أخبارَ النبيِّ ﷺ بسبب المودَّة التي بينكم. وعن البصريين أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بالمصدر الدالِّ عليه الفعل، وفيه حَذْفُ المصدر مع بقاء معموله.

وجُوِّزَ كونُ الجملة حالاً من فاعل «لا تتخذوا»، أو صفةً لـ «أولياء»، ولم يقلْ: تلقون إليهم أنتم، بناءً على أنه لا يجبُ مثلُ هذا الضمير مع الصفة الجارية على غير مَنْ هي له، أو الحال، أو الخبر، أو الصلة، سواءٌ في ذلك الاسمُ والفعلُ كما في «شرح التسهيل» لابن مالك إذا لم يحصلْ إلباسٌ نحو: زيدٌ هندٌ ضاربها أو يضربها، بخلاف: زيد عمرو ضاربه أو يضربه، فإنه يجبُ معه «هو» لمكان الإلباس.

وزعم بعضُهم أنَّ الإبرازَ في الصفات الجارية على غير مَنْ هي له إنما يُشترط في الاسم دون الفعل كما هنا، ومنع ذلك.

وتُعقِّبَ الوجهان بأنهما يُوهِمان أنه تجوزُ الموالاةُ عند عدم الإلقاء، فيحتاج إلى القول بأنه لا اعتبار للمفهوم للنهي عن الموالاة مطلقاً في غير هذه الآية، أو يقال: إنَّ الحالَ والصفةَ لازمةٌ، ولذا كانت الجملةُ مفسِّرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حالٌ من فاعل «لا تتخذوا» وهي حالٌ مترادفةٌ إن كانت جملةُ «تلقون» حاليةً أيضاً، أو من فاعل «تلقون» وهي متداخلةٌ على تقدير حاليَّتها، وجُوِّزَ كونهُ حالاً من المفعول وكونه مستأنفاً.

---

(١) مادة (فضو).

وقرأ الجَحْدريُّ والمعلَّى عن عاصم: «لِمَا» باللام[١]، أي: لأجل ما جاءكم، بمعنى جعل ما هو سبب للإيمان سبب الكفر.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: من مكة ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لإيمانكم، أو كراهةَ إيمانكم، أو بسبب إيمانكم[٢] بالله عزَّ وجلَّ، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «يخرجون». والجملةُ قيل: حالٌ من فاعل «كفروا»، أو استئنافٌ كالتفسير لكُفْرهم كأنه قيل: كيف كفروا؟ وأُجيب بأنهم كفروا أشدَّ الكفر بإخراج الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين؛ لإيمانهم خاصة، لا لغرضٍ آخر، وهذا أرجحُ من الوجه الأول لطباقه للمقام وكثرة فوائده. والمضارع لاستحضار الحال الماضية لما فيها من مزيد الشناعة، والاستمرارُ غيرُ مناسبٍ للمعنى، وفي «تؤمنوا» قيل: تغليبٌ للمؤمنين.

والالتفاتُ عن ضمير المتكلِّم بأن يقال: بي، إلى ما في النظم الجليل؛ للإشعار بما يُوجب الإيمانَ من الألوهية والربوبية.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: «لا تتخذوا» إلخ، كأنه قيل: لا تتولَّوا أعدائي إن كنتم أوليائي، فجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه ما تقدم. وجعله الزمخشريُّ حالاً من فاعل «لا تتخذوا»[٣]، ولم يُقدِّرْ له جواباً، أي: لا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياءَ، والحالُ أنكم خرجتمْ لأجل الجهاد وطَلَبِ مرضاتي. واعتُرض بأنَّ الشرطَ لا يقعُ حالاً بدون جوابٍ في غير «إنْ» الوصلية، ولا بدَّ فيها من الواو، وأنْ تَرِدَ حيث يكون ضدّ المذكور أولى كـ: أَحْسِنْ إلى زيدٍ وإن أساءَ إليك. وما هنا ليس كذلك.

وأجيب بأنَّ ابنَ جِنِّي جوَّزه، وارتضاه جارُ الله هنا؛ لأنَّ البلاغةَ وسَوْقَ الكلام يقتضيانه، فيقال لمن تحقَّقتْ صداقته من غير قَصْدٍ للتعليق والشَّكِّ: لا تخذلني إن كنتَ صديقي؛ تهييجاً للحَمِيَّة، وفيه من الحُسْنِ ما فيه، فلا يضرُّ إذا خالفَ

(١) الكشاف ٤/ ٨٩، والبحر ٨/ ٢٥٣.
(٢) قوله: أو بسبب إيمانكم. ليس في (م).
(٣) الكشاف ٤/ ٨٩.

المشهور. ونَصْبُ المصدرين على ما أشرنا إليه على التعليل، وجُوِّز كونهما حالين، أي: مجاهدين ومبتغين.

والمراد بالخروج إما الخروج للغزو، وإما الهجرة، فالخطابُ للمهاجرين خاصة؛ لأنَّ القصةَ صدرتْ منهم كما سمعتَ في سبب النزول.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنهم لَمَّا استشعروا العتابَ مما تقدَّم، سألوا: ما صَدَرَ عنَّا حتى عوتبنا؟ فقيل: «تُسرُّون» إلخ، وجُوِّزَ أن يكونَ بدلاً من «تلقون» بدلَ كلٍّ من كلٍّ إن أُريد بالإلقاء الإلقاء خفية، أو بدلَ بعضٍ إن أُريد الأعمّ؛ لأنَّ منه السِّرُّ والجهر.

وقال أبو حيان: هو شبيهٌ ببدل الاشتمال[1]. وجوَّزَ ابنُ عطيةَ كونه خبر مبتدأ محذوف، أي: أنتم تُسرُّون[2]، والكلامُ استئنافٌ للإنكار عليهم، وأنت تعلمُ أنَّ الاستئنافَ لذلك حَسَنٌ لكنه لا يحتاجُ إلى حَذْف.

والكلامُ في الباء هنا ـ على ما يقتضيه ظاهرُ كلامهم ـ كالباء فيما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ في موضع الحال، و«أعلم» أَفعل تفضيل، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ، أي: منكم. وأجاز ابنُ عطيةَ[3] كونه مضارعاً، والعِلْمُ قد يتعدَّى بالباء، أو هي زائدة. و«ما» موصولةٌ أو مصدريةٌ.

وذِكْرُ «ما أعلنتم» مع الاستغناء عنه؛ للإشارة إلى تساوي العِلْمين في عِلْمه عزَّ وجلَّ، ولذا قُدِّمَ «ما أخفيتم»، وفي هذه الحال إشارةٌ إلى أنه لا طائلَ لهم في إسرار المودَّة إليهم، كأنه قيل: تُسرُّون إليهم بالمودة والحال أني أعلمُ ما أخفيتم وما أعلنتم، ومُطْلِعٌ رسولي على ما تُسرُّون، فأيُّ فائدةٍ وجدوى لكم في الإسرار؟!

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أي: الإسرار. وقال ابن عطية وجمعٌ: أي: الاتخاذ[4]. ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ أي: الطريق المستوي والصراط الحقَّ، فإضافة «سواء»

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥٣.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤.
(٤) المصدر السابق.

من إضافة الصفة إلى الموصوف، ونَصْبُهُ على المفعول به لـ «ضَلَّ» وهو يتعدَّى كأضل. وقيل: لا يتعدَّى؛ و«سواء» ظرفٌ كقوله:

كـمـا عَـسَـلَ الـطـريـقَ الـثـعـلـبُ(١)

﴿إن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم، وأصلُ الثَّقْف: الحِذْقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنه: رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ، وتُجوِّزَ به عن الظَّفَر والإدراك مطلقاً. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: عداوةٌ يترتَّبُ عليها ضررٌ بالفعل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: بما يسوؤكم من القتل والأسر والشَّتْم، فكأنه عَطْفٌ تفسيريٌّ، فوقوع «يكونوا» إلخ جواب الشرط بالاعتبار الذي أشرنا إليه، وإلا فكونهم أعداء للمخاطبين أمرٌ متحقِّقٌ قبل الشرطِ، بدليل ما في صَدْر السورة، ومثله قولُ بعضهم: أي: يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة، ويرتِّبوا عليها أحكامها.

وقيل: المراد بذلك لازمُ العداوة وثمرتها، وهو ظهورُ عدم نفع التودُّد، فكأنه قيل: إن يثقفوكم يظهر لكم عدمُ نفع إلقاء المودَّة إليهم والتودُّدِ لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ عَطْفٌ على الجواب، وهو مستقبَلٌ معنًى كما هو شأن الجواب، ويُؤوَّلُ كما أُوِّلَ سابقه بأن يقال ـ على ما في «الكشف» ـ المراد: ودادة يترتَّبُ عليها القُدرة على الرَّدِّ إلى الكفر، أو يقال ـ على ما قال البعض ـ المرادُ: إظهار الودادة وإجراء ما تقتضيه، والتعبير بالماضي وإن كان المعنى على الاستقبال؛ للإشعار بأنَّ ودادتهم كُفْرَهم قبل كلِّ شيء، وأنها حاصلةٌ وإن لم يثقفوهم.

وتحقيقُ ذلك أنَّ الودادةَ سابقةٌ بالنوع متأخِّرةٌ باعتبار بعض الأفراد، فعُبِّرَ بالماضي نظراً للأول، وجُعلت جواباً متأخِّراً نظراً للثاني.

وآثر الخطيب الدمشقي(٢) العطف على مجموع الجملة الشرطية كقوله تعالى:

---

(١) عجز بيت لساعدة بن جُؤيَّة الهذلي، وهو في الكامل ١/ ٤٧٤، والخزانة ٣/ ٨٣، وصدره:
لَـدْنٌ بِـهَـزِّ الـكـف يـعـسِـلُ مـتـنُـهُ

(٢) يعني القزويني في كتابه الإيضاح ص٩٤-٩٥ (علم المعاني)، وقد عُرف بخطيب دمشق كما في كشف الظنون ٢/ ١٧٦٤.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر:١٢] في السورة قبل[1]، و: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩] عند جمع، قال: لأنَّ ودادتهم أن يرتدُّوا كفاراً حاصلةٌ وإن لم يظفروا بهم، فلا يكونُ في التقييد بالشرط فائدة. وإلى ذلك ذهب أبو حيان[2]، وجوابه يُعلم مما ذكرنا.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ ودادةَ كُفْرهم بعد الظفر لمَّا كانت غيرَ ظاهرة؛ لأنهم حينئذٍ سَبْيٌ وخَدَمٌ لا يُعتدُّ بهم، فيجوز أن لا يتمنَّى كفرهم، فيحتاج إلى الإخبار عنه، بخلاف الودادة قبل الظفر، فيكون للتقييد فائدة؛ لأنها ودادةٌ أخرى متأخِّرةٌ.

وقال بعض الأفاضل: إنَّ المعطوفَ على الجزاء في كلام العرب على أنحاء: الأولُ: أن يكونَ كلٌّ منهما جزاءً وعلةً نحو: إن تأتني آتك وأُعْطِكَ. الثاني: أن يكون الجزاءُ أحدَهما، وإنما ذُكر الآخرُ لشدَّةِ ارتباطه به؛ لكونه مسبباً له مثلاً، نحو: إذا جاء الأميرُ استأذنتُ وخرجتُ لاستقباله، ونحو: حبستُ غريمي لأستوفي حَقِّي وأُخلِّيه. الثالث: أن يكونَ المقصودُ جَمْعَ أمرين، وحينئذٍ لا ينافي تقدُّمُ أحدهما[3]، كـ: خرجت مع الحجاج لأرافقهم في الذهاب، ولا أرافقهم في الإياب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية [الفتح: ١-٢].

وما في النظم الجليل هنا قيل: محتملٌ للأول لاستقبال الودادة من بعض الاعتبارات كما تقدم، وعبّر بالماضي اعتباراً للتقدُّم الرُّتَبِيِّ من حيث إنَّ الرَّدَّ عند الكَفَرة أشقُّ المضارِّ لعلمهم أنَّ الدينَ أعزُّ على المؤمنين من أرواحهم؛ لأنهم باذلون لها دونه، وأهمّ شيءٍ عند العدو أن يقصد أهمَّ شيءٍ عند صاحبه؛ ومحتملٌ للثالث بأن يكونَ المرادُ المجموع بتأويل: يريدون لكم مضارَّ الدنيا والآخرة، قيل: وللثاني أيضاً؛ بأن يكونَ الجزاءُ هو «يبسطوا» وذُكرت عداوتهم وودادتهم الرَّدَّ لشِدَّةِ الارتباط لما هناك من السببية والمسببية، وهو كما ترى. وجَعَل الطيبيُّ المجموعَ

(١) الذي في الإيضاح قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].
(٢) في البحر ٨/ ٢٥٣.
(٣) بعدها في (م): نحو.

مجازاً من إطلاق السبب وإرادة المسبَّب، وهو مضارُّ الدارين، وذكر أنَّ الجوابَ في الحقيقة مقدَّرٌ، أي: يريدوا لكم مضارَّ الدنيا والدين، وما ذُكر دليلُه أُقيم مقامه.

وقيل: عبّر في الودادة بالماضي لتحقُّقها عند المؤمنين أتمّ من تحقُّقِ ما قبلها، وحُمل عليه كلامٌ لصاحب «المفتاح»[١].

وعن بعضهم أنَّ الواوَ واوُ الحال، لا واوُ العطف، والجملةُ في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه. ولا يخفى أنَّ العطفَ هو المتبادر، وكونه على الجزاء أبعدُ مغزًى، وإخراجُ الشرط والجزاء على نحو ذلك أكثرُ من أن يُحصى.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ دَفْعٌ لما عسى أن يتخيَّلوا كونه عُذْراً نافعاً، من أنَّ الداعي للاتخاذ وإلقاء المودَّة صيانةُ الأرحام والأولاد من أذى أولئك.

والرَّحِمُ في الأصل: رَحِمُ المرأة، واشتَهر في القرابة حتى صارَ كالحقيقة فيها، فإما أن يُرادَ به ذلك، أو يُجعل مجازاً عن القريب، أو يُعتبرَ معه مضاف، أي: ذوو أرحامكم، ويؤيِّد التأويلَ عَطْفُ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي: لن ينفعكم قراباتكم أو أقاربكم، ولا أولادكم الذين تُوالون المشركينَ لأجلهم، وتتقرَّبون إليهم محاماةً عليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدفع ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذٍ، أي: يُفرِّقُ الله تعالى بينكم بما يكونُ من الهول الموجب لفرار كلٍّ منكم من الآخر حسبما نَطَقَ به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية [عبس: ٣٤] فلا ينبغي أن يُرفَضَ حَقُّ الله تعالى وتُوالَى أعداؤه سبحانه لمن هذا شأنه. وما أشرنا إليه من تعلُّقِ «يوم القيامة» بالفعل قبله هو الظاهر، وجُوِّزَ تعلُّقهُ بـ «يفصل» بعده.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ وثاب: «يُفصِّلُ» بضم الياء وتشديد الصاد مبنيًّا للفاعل[٢]، وقرأ أبو حيوة وابنُ أبي عبلة كذلك، إلا أنهما خفَّفا[٣]، وطلحةُ

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٤٠ وحاشية الشهاب ٨/ ١٨٦.
(٢) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥.

والنخعيُّ: «نُفَصِّلُ» بالنون مضمومة والتشديد والبناء للفاعل[١]، وهما أيضاً وزيد بن علي بالنون مفتوحةً مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل[٢]، وأبو حيوةَ أيضاً بالنون مضمومة[٣].

وقرأ الأعرج وعيسى وابن عامر: «يُفَصَّلُ» بالياء والتشديد والبناء للمفعول[٤]، وجمهور القراء كذلك إلا أنهم خفَّفوا[٥]، ونائبُ الفاعل إما «بينكم» وهو مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى متوغِّلٍ في البناء كما قيل، وإما ضمير المصدر المفهوم من الفاعل، أي: يفصل هو، أي: الفصل.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ فيجازيكم به.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ تأكيدٌ لأمر الإنكار عليهم والتخطئة في موالاة الكفار بقصة إبراهيم عليه السلام ومن معه؛ ليُعلَمَ أنَّ الحبَّ في الله والبغضَ فيه سبحانه من أوثق عُرَى الإيمان، فلا ينبغي أن يُغفَلَ عنهما.

و«الأُسوةُ» بضمِّ الهمزة وكسرها، وهما لغتان، وبالكسر قرأ جميعُ القراء إلا عاصماً[٦]، وهي بمعنى الائتساء والاقتداء، وتطلقُ على الخصلة التي من حَقِّها أن يؤتَسَى ويُقتدى بها، وعلى نفس الشخص المؤتسى به، فـ: في زيد أُسوةٌ، من باب التجريد نحو:

ولـلـضـعـفـاء فـي الـرحـمـن كـاف[٧]

و: في البيضة عشرونَ مَنًّا حديد[٨]، وكلٌّ من ذلك قيل محتملٌ في الآية، ورُجِّحَ إرادةُ الخصلة لأنَّ الاستثناءَ الآتي عليها أظهر، و«لكم» للبيان متعلِّقٌ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥.
(٢) الكشاف ٤/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥، والبحر ٨/ ٢٥٤.
(٣) أي: نُفْصِلُ. الكشاف ٤/ ٩٠، والبحر ٨/ ٢٥٤.
(٤) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والبحر ٨/ ٢٥٤.
(٥) أي: «يُفْصَل» وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر.
(٦) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٨.
(٧) سلف ٤/ ٤٠١ برواية: وفي الرحمن للضعفاء كافٍ.
(٨) البيضة: الخوذة. والمنُّ: معيار قديم قدره رطلان. المعجم الوسيط (بيض) و(منن).

بمحذوفٍ كما في: سُقياً لك، أو هو متعلِّقٌ بـ «كان» على رأي مَنْ يُجوِّزُ تعلُّقَ الظرف بها، و«أسوة» اسمها و«حَسَنة» صفته، و«في إبراهيم» خبرها، أو «لكم» هو الخبر، و«في إبراهيم» صفةٌ بعد صفةٍ لـ «أسوة»، أو خبرٌ بعد خبر لـ «كان»، أو حالٌ من المستكنِّ في «لكم» على ما قيل، أو في «حسنة» ولم يُجوِّزْ كونه صلةَ «أسوة» بناءً على أنها مصدرٌ، أو اسمه، وهو إذا وُصِفَ لا يعملُ مطلقاً لضَعْفِ شبهه بالفعل، قيل: وإذا قلنا: إنها ليست مصدراً ولا اسمه، أو قلنا: إنه يغتفر عمله ـ وإن وُصِفَ قبل العمل ـ في الظرف للاتساع فيه، جاز ذلك.

والظاهر أنَّ المراد بـ «الذين معه» عليه السلام أتباعه المؤمنون، لكن قال الطبريُّ[1] وجماعة: المراد بهم الأنبياء الذين كانوا قريباً من عصره عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ لأنه عليه السلام لم يكن معه وقتَ مكافحته قومه وبراءته منهم أتباعٌ مؤمنون كافحوهم معه وتبرَّؤوا منهم، فقد روي أنه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ: «ما على الأرض مَنْ يعبدُ الله تعالى غيري وغيرك[2]». وأنت تعلمُ أنه لا يلزمُ وجودُ الأتباع المؤمنين في أول وقت المكافحة، بل اللازمُ وجودُهم ولو بَعْدُ، ولا شكَّ في أنهم وُجدوا بعدُ، فليُحمل «مَنْ معه» عليهم، ويكون التبرِّي المحكيُّ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ إلخ وقتَ وجودهم، و«إذ» قيل: ظرفٌ لخبر «كان» والعاملُ الجارُّ والمجرورُ، أو المتعلَّق، أو لـ «كان» نفسها على ما مرَّ، أو بدلٌ من «أسوة».

و«برآء» جمعُ بَريء كظَريف وظُرَفاء. وقرأ الجَحْدريُّ: «بِرَاء» كظِراف جَمْعُ ظَرِيف أيضاً، وقرأ أبو جعفر: «بُراء» بضمِّ الباء[3]، كتُؤَام وظُؤَار، وهو اسمُ جمعٍ؛ الواحدُ: بَريء وتَوْأم وظِئْر، وقال الزمخشريُّ: إنَّ ذلك على إبدال الضمِّ من الكَسْر كرُخال بضمِّ الراء جَمْعُ رِخْلٍ[4]. وتُعقِّبَ بأنه ضَمٌّ أصليٌّ، والصيغةُ من

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

(٣) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٥٥، والبحر ٨/ ٢٥٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٩١. والرخل: الأنثى من أولاد الضأن. لسان العرب (رخل).

أوزان أسماء الجموع، وليس ذلك جمعَ تكسير فتكونَ الضمةُ بدلاً من الكسرة؛ ورُويت هذه القراءةُ عن عيسى، قال أبو حاتم: زعموا أنه عيسى الهمداني. وعنه: «بَرَاء»(١) على فَعال، كالذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ في الزخرف [الآية: ٢٦]، وهو مصدرٌ على فَعَال يُوصفُ به المفرد وغيره.

وتأكيدُ الجملة لمزيد الاعتناء بشأنها، أو لأنَّ قومهم المشركين مستبعِدُون ذلك شاكُّون فيه، حيث يحسبون أنفسَهم على شيءٍ، وكأنهم استشعروا ذلك منهم فقالوا لهم: «إنا برآء منكم».

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ بيانٌ لقوله سبحانه: (إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ) إلى آخره، فهو على معنى: كفرنا بكم وبما تعبدون من دون الله، ويكون المراد بـ «كُم» القوم ومعبوديهم بتغليب المخاطبين، والكفر بذلك مجازٌ أو كنايةٌ عن عدم الاعتداد، فكأنه قيل: إنَّا لا نعتدُّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم، وما أنتم عندنا على شيء.

وفي «الكشف» أنَّ الأصلَ: كفرنا بما تعبدون، ثم: كفرنا بكم وبما تعبدون؛ لأنَّ مَنْ كَفَرَ بما أتى به الشخص فقد كفر به، ثم اكتفى بـ «كفرنا بكم» لتضمُّنه الكفرَ بجميع ما أتوا به وما تلبَّسوا به، لاسيما وقد تقدَّمه «إنَّا برآء» وفُسِّرَ بـ : إنَّا لا نعتدُّ.. إلخ تنبيهاً على أنه تهكُّمٌ بهم، فإنَّ ذلك لا يُسمَّى كُفْراً لغةً وعرفاً وإنما هو اسمٌ يقع على أَدْخَلِ الأشياء في الاستهجان والذَّمِّ. وما ذكرناه أقرب، وهو معنى ما في «الكشاف» دونه، وأما ما قيل: إنَّ في الكلام معطوفاً على الجارِّ والمجرور محذوفاً، أي: بكم وبما تعبدون، وحُذِفَ اكتفاءً بدلالة السياق، فليس بشيء.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلبَ العداوةُ ولايةً والبغضاءُ محبةً، وفسَّر الفيروزآبادي «البغضاء» بشِدَّةِ البُغْض ضدّ الحبّ، وأفاد أنَّ العداوةَ

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٠، والبحر ٨/ ٢٥٤.

ضدّ الصداقة، وفسَّرَ الصداقةَ بالمحبة[1]، فالعداوةُ والبغضاءُ على هذا متقاربان.

وأفاد الراغبُ أنَّ العداوةَ منافاةُ الالتئام قلباً، وقال: البُغْضُ نِفارُ النفس عن الشيءِ الذي ترغبُ عنه، وهو ضدّ الحبِّ، ثم قال: يقال: بَغُضَ الشيء بُغْضاً وبغضة وبغضاء[2]. وهو نحو كلام الفيروزآبادي، والذي يُفهَمُ من كلام غير واحدٍ أنه كثيراً ما يُعتبَرُ في العداوة التخاذل دون البغضاء، فليراجع هذا المطلب.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله تعالى: «أسوة حسنة» كما قاله قتادة وجماعة، وهو على تقدير التجريد أو تفسيرِ الأسوةِ بالاقتداء منقطعٌ بلا ريبٍ، وأما على تقدير أن يُرادَ بها ما يُؤتَسى به، فقيل: هو متصلٌ؛ وقيل: منقطعٌ، وإليه ذهب الأكثر، وتوجيهُ الاستثناء إلى العِدَة بالاستغفار، لا إلى نفس الاستغفار المحكيِّ عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ الآية [الشعراء: ٨٦] مع أنه المراد، قيل: لأنها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه، ويُعلم من ذلك استثناءُ نفس الاستغفار بطريق الأولى، وجَعَلَها بعضُهم كنايةً عن الاستغفار؛ لأنَّ عِدَةَ الكريم خصوصاً مثل إبراهيم عليه السلام، لاسيَّما إذا أُكِّدتْ بالقَسَم، يلازمها الإنجازُ، وليس بلازمٍ كما لا يخفى، وكأنَّ هذه العِدَة غيرُ العِدَة السابقة في سورة مريم في قوله تعالى حكايةً عنه عليه السلام: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ الآية [مريم: ٤٧] ولعلها وقعتْ منه عليه السلام بعد تلك تأكيداً لها، وحُكيتْ هاهنا على سبيل الاستثناء.

وفي «الإرشاد»: تخصيصها بالذكر دون ما وقع في سورة مريم؛ لورودها على طريق التوكيد القَسَمي[3].

واستثناءُ ذلك من الأُسوة الحسنة، قيل: لأنَّ استغفارَهُ عليه السلام لأبيه الكافر ـ بمعنى أن يُوفِّقه الله تعالى للتوبة، ويهديه سبحانه للإيمان ـ وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً لوقوعه قبل تبيُّنِ أنه من أصحاب الجحيم، وأنه يموتُ على الكفر،

---

(١) القاموس المحيط (بغض) و(عدا) و(صدق).

(٢) المفردات (عدا) و(بغض). وجاء في مطبوعه: وبَغَضْتُه بغضاء. بدل: وبغضة وبغضاء.

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٧.

كما دلَّ عليه ما في سورة التوبة[1]، لكنه ليس مما ينبغي أن يُؤتَسى به أصلاً؛ إذ المرادُ به ما يجب الائتساءُ به حَتْماً لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى بعد: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦] فاستثناؤه عمَّا سبق إنما يفيدُ عدمَ وجوب استدعاء الإيمان والمغفرة للكافر المرجوِّ إيمانهُ؛ وذلك مما لا يرتاب فيه عاقلٌ، وأما عدمُ جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعاً، وزعم الإمامُ[2] ـ على ما نُقِلَ عنه ـ دلالة الآية على ذلك؛ ولا يلزمُ أن يكونَ الاستغفارُ منه عليه السلام معصية؛ لأنَّ كثيراً من خواصِّ الأنبياء عليهم السلام لا يجوزُ التأسِّي به؛ لأنه أُبيحَ لهم خاصة. وهو كما ترى؛ إذ هو ظاهرٌ في أنَّ ذلك الاستغفار الذي وقع منه عليه السلام لو فُرِضَ واقعاً من غيره، لكان معصية، وليس كذلك، بل هو مباحٌ مِمَّنْ وقع.

وعن الطيبيِّ ما حاصله: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لَمَّا أجاب قولَ أبيه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] رحمةً ورأفةً به، ولم يكن عارفاً بإصراره على الكفرِ، وَفَّى بوَعْده، وقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء: ٨٦] فلمَّا تبيَّنَ إصرارُهُ تركَ الدعاءَ وتبرَّأ منه، فظهر أنَّ استغفارَهُ لم يكن مُنكَراً وهو في حياته، بخلافِ ما نحن فيه، فإنه فَصَّل عداوتهم وحِرْصهم على قَطْع أرحامهم بقوله تعالى: (لَن تَنفَعَكُمْ) إلخ، وسلَّاهم عن القطيعة بقصة إبراهيم عليه السلام، ثم استثنى منها ما ذكر، كأنه قيل: لا تجاملوهم ولا تُبدوا لهم الرأفةَ كما فعل إبراهيم؛ لأنه لم يتبيَّن له كما تبيَّن لكم. انتهى.

وفيه رمزٌ إلى احتمال أن يكونَ المستثنى نفسَ العِدَة من حيثُ دلالتها على الرأفة والرحمة، ومآل ذلك استثناءُ الرأفة والرحمة.

وعلَّلَ بعضُ الأَجِلَّة عدمَ كون استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر مما لا ينبغي أن يُؤتَسى به، بأنه كان قبل النهي أو لموعدةٍ وَعَدها إياه.

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. [الآية ١١٤].

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٩/٣٠١.

وتُعقِّبَ الثاني بأنَّ الوَعْدَ بالمحظور لا يرفعُ حَظْره، والأولُ بأنه مبنيٌّ على تناول النهي لاستغفاره عليه السلام له، مع أنَّ النهيَ إنما وَرَدَ في شأن الاستغفار بعد تبيُّنِ الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبله، ومنبئٌ عن كون الاستغفار مؤتسًى به لو لم ينهَ عنه، مع أنَّ ما يُؤتسى به ما يجبُ الائتساء به، لا ما يجوز فعله في الجملة. وأُجيب بما لا يرفعُ القالَ والقيل؛ فالأَولى التعليل بما سبق.

واستظهر أبو حيان أنَّ الاستثناءَ من مضافٍ لإبراهيم مقدَّرٍ في نظم الآية الكريمة، أي: لقد كان لكم أسوةٌ حَسَنةٌ في مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه، إلا قولَ إبراهيم.. إلخ، وجزمَ باتصال الاستثناء عليه[1]. وكذا جزم الطيبيُّ باتصاله على قول البغويِّ، أي: لكم أسوةٌ حَسَنةٌ في إبراهيم وأموره، إلا في استغفاره لأبيه المشرك[2].

ولا يخفى أنَّ التقديرَ خلافُ الظاهر، ومتى ارتُكب فالأَولى تقديرُ: أمور.

بقي أنه قيل: إنَّ الآيةَ تدلُّ على منع التأسِّي بإبراهيم عليه السلام في الاستغفار للكافر الحيِّ، مع أنه بالمعنى السابق ـ أعني طلب الإيمان له ـ لا مَنْعَ عنه.

وأجيب بأنه إنما مُنِعَ من التأسِّي بظاهره، وظَنٌّ أنه جائزٌ مطلقاً كما وقع لبعض الصحابة ﷺ، وفيه أنه قد تقدَّمَ أنَّ دلالةَ الآية على أنَّ الاستغفارَ ليس مما يجبُ الائتساءُ به حَتْماً، لا على منعه وحرمته، ثم إنه ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ تبيُّنَ كون أبيه من أصحاب الجحيم الذي كان الاستغفارُ قبله، كان في الدنيا، وكذا التبرِّي منه بعده، وقد تقدَّم في سورة التوبة[3] قولٌ بكون ذلك في الآخرة؛ لدلالة ظواهر بعض الأخبار الصحيحة عليه، فإنها دالةٌ على أنه عليه السلام يشفعُ لأبيه يوم القيامة، وهي استغفارٌ أيُّ استغفار فيه، ولو كان تبيَّنَ أنه يموتُ كافراً في الدنيا لم يكنْ ليشفع ويطلب على أتمِّ وجهِ المغفرةَ له، ضرورةَ أنه عليه السلام عالمٌ أنَّ الله تعالى لا يغفرُ أن يُشرَكَ به، وإنكارُ ذلك مما لا يكادُ يُقدِمُ عليه عاقل، والذاهبون إلى أنَّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥٤.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٠.

(٣) عند تفسير الآية (١١٤).

التبيُّنَ كان في الدنيا كما عليه سلفُ الأمة ـ وهو الصحيح الذي أجزمُ به اليوم ـ أشكلتْ عليهم تلك الظواهر من حيثُ دلالتها على الشفاعة التي هي في ذلك اليوم استغفار، وأتهموا وأنجدوا في الجواب عنها، وقد تقدَّم جميعُ ما وجدته لهم، فارجع إليه واختر لنفسك ما يحلو.

ثم إني أقول: الذي يغلبُ على ظنِّي أنَّ الاستغفارَ الذي كان منه عليه السلام قبل التبيُّنِ بالمعنى المشهور، لا بمعنى التوفيق للإيمان، والآياتُ التي في سورة التوبة وما وَرَدَ في سبب نزولها تُؤيِّدُ ظواهرُها ذلك.

والتزم أنَّ امتناع جواز الاستغفار إنما عُلم بالوحي لا بالعقل؛ لأنه يجوزُ أن يغفرَ الله تعالى للكافر وهو سبحانه الغفور الرحيم، وأنه عليه السلام لم يكن إذ استغفرَ عالماً بالوحي امتناعَه، ومعنى الآية ـ والله تعالى أعلم ـ: إنَّ لكم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه في البراءة من الكَفرة، لكنَّ استغفارَهُ للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه، ومآله: يجبُ عليكم البراءة، ويحرم عليكم الاستغفار وإبداءُ الرأفة، فليس لكم الذي اعتبرناه في الاستثناء من باب قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ [التوبة: ١١٣]، ودلالةُ ذلك على المنع ظاهرةٌ. فتأمل جميع ما قدمناه، ووراءه كلامٌ مبنيٌّ على قول مَنْ قال: ليس لله عزَّ وجلَّ قضاءٌ مبرَمٌ، ونُقل ذلك عن القطب الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّسَ سِرُّهُ، وشَيَّدَ بعضُ الأَجِلَّة أركانه في رسالةٍ مستقلةٍ بَسَطَ فيها الأدلةَ على ذلك، لكنها لا تخلو عن بحثٍ، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من تمام القول المستثنى، محلّه النصب على أنه حالٌ من فاعل «لأستغفرنَّ» وموردُ الاستثناء نفسُ الاستغفار، لا قيده، فإنه في نفسه من خصال الخير لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر إلى الله تعالى، فالكلامُ من قبيل ما رجع فيه النفيُ للمقيَّد دون القيد.

وفي «الكشف»: إنه وإن كان في نفسه كلاماً مطابقاً للواقع، حَسَناً أن يُجعل أُسوة، إلا أنه شفع بقوله: «لأستغفرن لك» تحقيقاً للوعد، كأنه قيل: لأستغفرنَّ لك

وما في طاقتي إلا هذا، فهو مبذولٌ لا محالة، وفيه أنه لو مَلَكَ أكثرَ من ذلك لفعل، وعلى هذا فهو حقيقٌ بالاستثناء.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ إلى آخره، جملةٌ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، متصلةٌ معنًى بقصة إبراهيم عليه السلام ومَنْ معه، على أنها بيانٌ لحالهم في المجاهدة لأعداء الله عزَّ وجلَّ وقَشْر العصا، ثم اللجأ إلى الله تعالى في كفاية شَرِّهم، وأنَّ تلك منهم له عزَّ وجلَّ لا لِحَظِّ نفسي.

وقيل: اتصالها بما تقدَّم لفظيٌّ على أنها بتقدير قولٍ معطوفٍ على: «قالوا إنا برآء»، أي: وقالوا: «ربنا» إلخ.

وجُوِّزَ أن يكونَ المعنى: قولوا: «ربنا»، أمْراً منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه، وتعليماً منه عزَّ وجلَّ لهم، وتتميماً لما وصَّاهم سبحانه به من قَطْع العلائق بينهم وبين الكفار، والائتساء بإبراهيم عليه السلام وقومه في البراءة منهم، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله تعالى، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر، والاستغفار مما فَرَطَ منهم، وهو كما قيل: وجهٌ حَسَنٌ لا يأباهُ النَّظْمُ الكريم، وفيه شَمَّةٌ من أسلوب: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] لأنه سبحانه لَمَّا حَثَّهم على الائتساء بِمَنْ سمعتَ في الانتهاء عن الكفر وموالاة أهله، ثم قال سبحانه ما يدلُّ على اللجأ إليه تعالى، يكون في المعنى نهياً عن الأول وأمراً بالثاني. وجَعَلَ بعضُهم القولَ على هذا الوجه معطوفاً على «لا تتخذوا» أي: وقولوا: «ربنا» إلخ.

وأيًّاما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور في المواضع الثلاثة للقَصْر، كأنه قيل: ربنا عليك توكَّلنا لا على غيرك، وإليك أنبنا لا إلى غيرك، وإليك المصير لا إلى غيرك.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تُسلِّطهم علينا فيسبُّوننا ويعذِّبوننا. قاله ابن عباس، فالفتنةُ مصدرٌ بمعنى المفتون، أي: المعذَّب، من فَتَنَ الفضةَ: إذا أذابها، فكأنه قيل: ربنا لا تجعلنا معذَّبين للذين كفروا. وقال مجاهد: أي: لا تُعذِّبنا بأيديهم، أو بعذابٍ من عندك، فيظنُّوا أنهم مُحقُّون وأنَّا مُبطلون فيُفتَنوا لذلك. وقال قريباً منه قتادة وأبو مجلز، والأول أرجح.

ولم تُعطَفْ هذه الجملةُ الدُّعائيةُ على التي قبلها سلوكاً بهما مسلكَ الجملِ المعدودة، وكذا الجملةُ الآتيةُ، وقيل: إنَّ هذه الجملة بدلٌ مما قبلها، وَرُدَّ بعدم اتحاد المعنيين كلًّا وجزءاً، ولا مناسبةَ بينهما سوى الدعاء.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ما فرط منَّا ﴿رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ الذي لا يذلُّ من التجأ إليه؛ ولا يَخيبُ رجاءُ مَنْ توكَّل عليه ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٥﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ بالغةٌ.

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ﴾ أي: في إبراهيم عليه السلام ومن معه ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الكلام فيه نحو ما تقدم. وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ - أي: ثوابه تعالى، أو لقاءه سبحانه ونعيم الآخرة، أو أيام الله تعالى، واليوم الآخر خصوصاً، والرجاءُ يحتمل الأملَ والخوفَ - صلةٌ لـ «حَسَنة» أو صفةٌ، وجُوِّزَ كونه بدلاً من «لكم» بناءً على ما ذهب إليه الأخفش من جواز أن يُبدلَ الظاهر من ضمير المخاطب - وكذا من ضمير المتكلِّم - بدلَ الكلِّ، كما يجوز أن يُبدَلَ من ضمير الغائب، وأن يُبدلَ من الكلِّ بدل البعض، وبدل الاشتمال، وبدل الغلط.

ونُقل جوازُ ذلك الإبدال عن سيبويه أيضاً، والجمهورُ على منعه وتخصيص الجواز ببدل البعض والاشتمال والغلط.

وذكر بعضُ الأَجلَّة أنه لا خلافَ في جواز أن يُبدَلَ من ضمير المخاطب بدل الكلِّ فيما يفيد إحاطةً كما في قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] وجعل ما هنا من ذلك، وفيه خفاء.

وجملةُ «لقد كان» إلخ قيل: تكريرٌ لما تقدم من المبالغة في الحثِّ على الائتساء بإبراهيم عليه السلام ومن معه، ولذلك صُدِّرتْ بالقَسَم، وهو على ما قال الخفاجيُّ: إن لم يُنظر لقوله تعالى: (إِذۡ قَالُواْ) فإنه قيدٌ مخصِّصٌ، فإن نُظِرَ له كان ذلك تعميماً بعد تخصيص[١]. وهو مأخوذٌ من كلام الطيبيِّ في تحقيق أمر هذا التكرير. والظاهر أنَّ هذا مقيَّدٌ بنحو ما تقدَّم، كأنه قيل: لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حَسَنةٌ إذ قالوا.. إلخ.

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٨٨.

وفي قوله سبحانه: «لمن كان» إلخ، إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ كان يرجو الله تعالى واليومَ الآخر لا يتركُ الاقتداءَ بهم، وأنَّ تَرْكَهُ من مخايل عدم رجاءِ الله سبحانه واليوم الآخر الذي هو من شأن الكَفَرة، بل مما يُؤذِنُ بالكفر كما يُنبئُ عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ فإنه مما يُوعَدُ بأمثاله الكَفَرة.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من أقاربكم المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يُوافقوكم في الدِّين، وَعَدهم الله تعالى بذلك لمَّا رأى منهم التصلُّبَ في الدين والتشدُّدَ في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية؛ تطييباً لقلوبهم، ولقد أنجز الله سبحانه وَعْدَهُ الكريم حين أتاحَ لهم الفتحَ، فأسلم قومهم، فتمَّ بينهم من التحابِّ والتصافي ما تمَّ، ويدخلُ في ذلك أبو سفيان وأضرابه من مُسلِمةِ الفتح من أقاربهم المشركين.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» وابن عساكر من طريق الكلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت المودَّةُ التي جَعَلَ الله تعالى بينهم تزوُّجَ النبيِّ ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أمَّ المؤمنين، وصارَ معاويةُ خالَ المؤمنين(١).

وأنت تعلم أنَّ تزوُّجها كان وقتَ هجرة الحبشة، ونزولُ هذه الآيات سنةَ سِتٍّ من الهجرة، فما ذُكِرَ لا يكادُ يصحُّ بظاهره، وفي ثبوته عن ابن عباس مقال.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ مبالغٌ في القدرة، فيقدرُ سبحانه على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ مبالغٌ في المغفرة، فيغفرُ جلَّ شأنه لما فرط منكم في موالاتهم ﴿رَّحِيمٌ ۝٧﴾ مبالغٌ في الرحمة، فيرحمكم عزَّ وجلَّ بضَمِّ الشَّمْلِ واستحالة الخيانة ثقةً، وانقلاب المَقْتِ مِقَةً(٢). وقيل: يغفر سبحانه لمن أسلم من المشركين ويرحمهم. والأول أفيدُ وأنسبُ بالمقام.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٥، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٢٩، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤٥٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٢٠٧ و٥٩/ ١٠٣ وهذا إسناد تالف.

(٢) مَقَته مَقْتاً ومقاتة: أبغضه. وَوَمِقَه وَمْقاً ومِقَةً: أحبَّه. القاموس (مقت) و(ومق).

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: لا ينهاكم سبحانه وتعالى عن البرِّ بهؤلاء، كما يقتضيه كون «أن تبرُّوهم» بدل اشتمال من الموصول ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُفضوا إليهم بالقسط، أي: العدل، فالفعلُ مُضمَّنٌ معنى الإفضاء، ولذا عُدِّي بـ «إلى» ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ أي: العادلين.

أخرج البخاريُّ وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبةً وهي مشركةٌ في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألتُ رسولَ الله ﷺ: أأَصِلُها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ إلخ، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم صِلي أمَّك»[1].

وفي رواية الإمام أحمد[2] وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال: قدمتْ قُتيلةُ[3] بنت عبد العزَّى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا: صِناب[4] وأَقِط وسمن، وهي مشركةٌ، فأبتْ أسماء أن تقبلَ هديَّتها أو تدخلها بيتها، حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها أن تسألَ رسولَ الله ﷺ عن هذا، فسألته، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، فأمرها أن تقبلَ هديَّتها وتُدخلَها بيتها.

وقُتيلة هذه ـ على ما في «التحرير» ـ كانت امرأةَ أبي بكرٍ رضي الله عنه، فطلَّقها في الجاهلية، وهي أمُّ أسماء حقيقةً، وعن ابن عطيةَ أنها خالتها، وسَمَّتها أمًّا مجازاً[5]. والأولُ هو المعوَّلُ عليه.

وقال الحسن وأبو صالح: نزلتِ الآيةُ في خُزاعة وبني الحارث بن كعب وكنانة ومُزينة وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسولَ الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٢٠)، وهو عند مسلم (١٠٠٣).

(٢) برقم (١٦١١١)، وهي عند أبي داود الطيالسي (١٦٣٩)، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٥٢، والطبري في التفسير ٢٢/ ٥٧٢.

(٣) في هامش الأصل: بالقاف والتاء بزنة المصغَّر.

(٤) جاء في هامش الأصل: الصناب: الخردل المعمول بالزبيب وهو صبغ يؤتدم به. اهـ. وكذا وردت عند ابن كثير عند تفسير الآية، في حين وردت عند أحمد وأكثر مصادر التخريج: ضباب.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٧.

عليه. وقال مرة[1] الهمداني وعطية العوفي: نزلت في قومٍ من بني هاشم منهم العباس.

وعن عبد الله بن الزبير أنها نزلت في النساء والصبيان من الكفرة. وقال مجاهدٌ: في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، فكان المهاجرون والأنصار يتحرَّجون من بِرِّهم لتَرْكهم فَرْضَ الهجرة. وقيل: في مؤمنينَ من أهل مكة وغيرها، أقاموا بين الكَفَرة وتركوا الهجرة، أي: مع القدرة عليها. وقال النحاس والثعلبيُّ: نزلتْ في المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة[2].

والأكثرونَ على أنها في كَفَرَةٍ اتصفوا بما في حَيِّز الصِّلة. وعلى ذلك قال الكيا: فيها دليلٌ على جواز التصدُّق على أهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للأب الذِّمِّيِّ دون الحربي لوجوب قتله[3].

ويخطر لي أني رأيتُ في «الفتاوى الحديثية» لابن حجرٍ عليه الرحمة الاستدلالَ بها على جواز القيام لأهل الذمة؛ لأنه من البِرِّ والإحسان إليهم، ولم نُنْهَ عنه، لكن راجعتُ تلك «الفتاوى» عند كتابتي هذا البحثَ فلم أظفرْ بذلك، ومع هذا وجدتُهُ نَقَلَ في آخر «الفتاوى الكبرى» في باب السِّيَر عن العزِّ بن عبد السلام أنه لا يفعلُ القيامُ لكافرٍ؛ لأنَّا مأمورونَ بإهانته وإظهار صَغاره، فإنْ خِيفَ من شَرِّه ضَرَرٌ عظيمٌ جاز؛ لأنَّ التلفُّظَ بكلمة الكفر جائزٌ للإكراه، فهذا أولى[4]. ولم يتعقَّبه بشيء، ثم إنَّ في كون القيام من البِرِّ مطلقاً تردُّداً، وتخصيصُ العِزِّ جوازَ القيام للكافر بما إذا خِيفَ ضررٌ عظيمٌ مخالفٌ لقول ابن وهبان من الحنفية:

وللمَيل أو للمال يُخدَمُ كافرٌ ... وللمَيل للإسلام لو قام يغفر

---

(١) في الأصل و(م): قرة. وكذا ورد في البحر المحيط ٨/ ٢٥٥ وعنه نقل المصنِّف، والمثبت هو الصواب، وهو مرَّة بن شراحيل، من رجال التهذيب.

(٢) البحر ٨/ ٢٥٥، والذي اختاره النحاس وحسَّنه في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٦٨ أن الآية عامة.

(٣) أحكام القرآن للكيا الهرَّاسي ٢/ ٤٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٦٠.

(٤) الفتاوى الكبرى الفقهية لابن حجر ٤/ ٢٤٧، وينظر الفتاوى الحديثية له ص٢٨١.

ومن الناس من يجعل كلَّ مصلحةٍ دينيةٍ كالميل للإسلام، لكن بشرط أن لا يقصدَ القائمُ تعظيماً، والله تعالى أعلم.

ونقل الخفاجيُّ عن «الدر المنثور» أنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة:٥][1]. والاستدلالُ بها على ما سمعتَ بتقدير عدم النسخ إن تمَّ، إنما يتمُّ على بعض الأقوال فيها.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة، فإنَّ بعضَهم سعوا في إخراج المؤمنين، وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدلٌ من الموصول بدل اشتمال أيضاً، أي: إنما ينهاكم سبحانه عن أن تتولّوهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ لوضعهم الولاية موضعَ العداوة، أو: هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب، وفي الحصر من المبالغة ما لا يخفى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيانٌ لحكم مَنْ يُظهر الإيمانَ بعد بيان حُكم فريقي الكافرين ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي: بحسب الظاهر ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من بين الكفار، وقرئ: «مهاجراتٌ»[2] بالرفع على البدل من «المؤمنات» فكأنه قيل: إذا جاءكم مهاجراتٌ ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن بما يغلبُ على ظنكم موافقة قلوبهنَّ لألسنتهنَّ في الإيمان.

أخرج ابن المنذر والطبرانيُّ في «الكبير» وابن مردويه بسندٍ حَسَنٍ، وجماعة عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهنَّ: كانت المرأةُ إذا جاءت النبيَّ ﷺ حلَّفها عمرُ رضي الله عنه بالله ما خرجتْ رغبةً بأرضٍ عن أرض، وبالله ما خرجتْ من بُغْضِ زوج، وبالله ما خرجتِ التماس دنيا، وبالله ما خرجتْ إلا حُبًّا لله ورسوله[3]. وفي رواية

---

(١) حاشية الشهاب ١٨٨/٨، وجاء في هامش الأصل: لعله غير ما للسيوطي من التفسير، فإني راجعته في هذه الآية فلم أجد ما ذكر. اهـ قلنا: بل هو فيه ٢٠٥/٦ عند تفسير هذه الآية منسوباً لقتادة، وقد أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢٨٧/٢، والطبري ٥٧٣/٢٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٦٧/٣، وردَّه الطبري والنحاس.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٥، والبحر ٢٥٦/٨.

(٣) لم نقف عليه عند الطبراني، وأخرجه الطبري في التفسير ٥٧٥/٢٢، وابن أبي حاتم ٣٣٥٠/١٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢٠٨/٦ لابن أبي أسامة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

عنه أيضاً: كانت محنةُ النساء أنَّ رسولَ الله ﷺ أَمَرَ عمرَ بنَ الخطاب فقال: قل لهنَّ: إنَّ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام بايعكنَّ على أن لا تشركنَ بالله شيئاً.. إلخ(١).

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ من كلِّ أحدٍ أو منكم ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ فإنه سبحانه هو المطَّلعُ على ما في قلوبهنَّ، والجملةُ اعتراضٌ.

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: ظننتموهنَّ ظنًّا قويًّا يشبه العلمَ بعد الامتحان ﴿مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ في نفس الأمر ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ أي: إلى أزواجهنَّ الكَفَرة لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ فإنه تعليلٌ للنهي عن رجعهنَّ إليهم، والجملةُ الأُولى لبيان الفُرْقة الثابتة، وتحقُّقِ زوال النكاح الأول. والثانية لبيان امتناع ما يُستأنفُ ويُستقبلُ من النكاح، ويُشعر بذلك التعبيرُ بالاسم في الأُولى والفعل في الثانية.

وقال الطيبيُّ في وجه اختلاف التعبيرين: إنه أُسندتِ الصفةُ المشبَّهةُ إلى ضمير المؤمنات في الجملة الأولى إعلاماً بأنَّ هذا الحكمَ - يعني نفيَ الحِلِّ - ثابتٌ فيهنَّ، لا يجوز فيه الإخلالُ والتغييرُ من جانبهنَّ، وأُسند الفعل إلى ضمير الكفار إيذاناً بأنَّ ذلك الحكمَ مستمرُّ الامتناع في الأزمنة المستقبلة، لكنه قابلٌ للتغيير باستبدال الهدى بالضلال، وجُوِّزَ أن يكون ذلك تكريراً للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة، وفيه من أنواع البديع ما سمَّاه بعضُهم بالعكس والتبديل كالذي في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولعلَّ الأول أولى.

واستدلَّ بالآية على أنَّ الكفارَ مخاطبون بالفروع كما في «الانتصاف»(٢)، والقولُ بأنَّ المخاطَبَ في حقِّ المؤمنة هي، وفي حقِّ الكافر الأئمة، بمعنى أنهم مخاطبونَ بأنْ يمنعوا ذلك الفعلَ من الوقوع = لا يخفى حاله.

وقرأ طلحة: «لا هنَّ يَحْلُلْنَ لهم»(٣).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢١٠، وعزاه لابن جرير وابن مردويه.
(٢) ٤/ ٩٢.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٦.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: وأعطوا أزواجهنَّ مثلَ ما دفعوا إليهنَّ من المهور. قيل: وجوباً، وقيل: ندباً، روي أنه ﷺ عامَ الحديبية أمرَ عليًّا كرمَ الله تعالى وجهه أن يكتبَ بالصُّلح، فكتب: باسمك اللَّهمَّ، هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سهيلَ بنَ عمرو، اصطلحا على وَضْعِ الحرب عن الناس عَشْرَ سنين، تأمَنُ فيه الناس، ويَكفُّ بعضُهم عن بعض، على أنَّ مَنْ أتى محمداً من قريشٍ بغير إذن وليِّهِ، رَدَّهُ عليه، ومن جاء قريشاً من محمدٍ لم يردُّوه عليه، وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفة، وأن لا إسلالَ ولا إغلال، وأنه مَنْ أحبَّ أن يدخلَ في عَقْدِ محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عَقْدِ قريشٍ وعهدهم دخلَ فيه، فردَّ رسولُ الله ﷺ أبا جندل بنَ سهيل، ولم يأتِ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام أحدٌ من الرجال إلا رَدَّهُ في مُدَّة العهد وإن كان مسلماً، ثم جاء المؤمناتُ مهاجراتٍ، وكانت أمُّ كلثوم بنتُ عقبة بن أبي مُعيط ممن خرجَ إلى رسول الله ﷺ، وكانت أوَّلَ المهاجرات، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قَدِما على رسول الله ﷺ، فكلَّماه في أمرها ليردَّها عليه الصلاة والسلام إلى قريشٍ، فنزلت الآية، فلم يردَّها عليه الصلاة والسلام، ثم أنكحها ﷺ زيدَ بن حارثة رضي الله عنه(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه جاءت امرأةٌ تُسمَّى سبيعة بنت الحارث الأسلمية مؤمنة، وكانت تحت صَيفيِّ بن الراهب، وهو مشركٌ من أهل مكة، فطلبوا رَدَّها، فأنزل الله تعالى الآية(٢). وروي أنها كانت تحت مسافر المخزومي، وأنه أُعطي ما أنفق، وتزوَّجها عمرُ رضي الله عنه(٣).

وفي رواية أنها نزلتْ في أميمةَ بنت بشر امرأة من بني عمرو بن عون، كانت تحت أبي حسان بن الدحداحة، هاجرت مؤمنةً إلى رسول الله ﷺ، وطلبوا رَدَّها،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧١١) و(٢٧١٢) و(٤١٨٠) و(٤١٨١) من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة. وجاء في الأصل و(م): عمار. بدل: عمارة. ينظر تفسير القرطبي ٢٠/ ٤١٠، والدر المنثور ٦/ ٢٠٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٠٨. وفيه أن اسمها: سعيدة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٥١.

فنزلت الآية، فلم يَرُدَّها عليه الصلاة والسلام، وتزوَّجها سهيلُ بن صيف فولدت له عبد الله بن سهيل[١].

ولعلَّ سببَ النزول متعدِّدٌ، وأيًّا ما كان فالآيةُ ـ على ما قيل ـ نزلت بياناً؛ لأنَّ الشرطَ في كتاب المصالحة إنما كان في الرجال دون النساء، وتراخي المخصِّصِ عن العامِّ جائزٌ عند الجبَّائيِّ ومَنْ وافقه، ونُسب للزمخشريِّ أنَّ ذلك من تأخير بيان المجمَلِ؛ لأنه لا يقول بعموم تلك الألفاظ، بل يجعلها مطلقات، والحملُ على العموم والخصوص بحَسَبِ المقام، والحنفيةُ يُجوِّزونه، لا يقال: إنه شبهُ التأخير عن وقت الحاجة، وهو غيرُ جائزٍ عند الجميع؛ لأنَّ وقتَ الحاجة ـ أي: العمل بالخطاب ـ كان بعد مجيء المهاجرات وطَلَبِ رَدِّهنَّ، لا حينَ جرتِ المهادنةُ مع قريش، وهذا ذهب إليه بعض الشافعية أيضاً، ومنهم من زَعَمَ أنَّ التعميمَ كان منه ﷺ عن اجتهادٍ أُثيب عليه بأجرٍ واحدٍ ولم يُقَرَّ عليه، ومنهم من وافقَ جمهورَ الحنفية على النسخ لا التخصيص، فَمَنْ جَوَّزَ منهم نَسْخَ السُّنَّة بالكتاب قال: نُسِخَ بالآية، ومَنْ لم يُجوِّزْ قال: بالسُّنَّة، أي: امتناعه ﷺ من الرَّدِّ، ووردتِ الآيةُ مقرِّرةً لفعله عليه الصلاة والسلام.

وعن الضحاك: كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهدٌ أن لا تأتيكَ منَّا امرأةٌ ليست على دينك إلا رَدَدتها إلينا، فإن دخلتْ في دينك ولها زوجٌ أن تُرَدَّ على زوجها الذي أنفقَ عليها، وللنبيِّ ﷺ من الشرط مثلُ ذلك[٢]. وعليه فالآيةُ موافقةٌ لما وقع عليه العهدُ، لكن أخرجَ أبو داود في «ناسخه» وابن جرير، وغيرهما عن قتادة أنه نُسِخَ هذا العهدُ وهذا الحكم ـ يعني: إيتاء الأزواج ما أنفقوا - [في] «براءة»[٣]، أما نَسْخُ العهد فلِما أُمر فيها من النَّبذ، وأما نَسْخُ الحكم، فلأنَّ الحكم فَرْعُ العهد، فإذا نُسِخَ نُسِخَ، والذي عليه معظم الشافعية أنَّ الغرامةَ لأزواجهنَّ غيرُ ثابتة، وبيَّن ذلك في «الكشف» على القول بنَسْخِ رَدِّ المرأة، والقول بالتخصيص،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٥٠.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٥٨١.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٠٦-٢٠٧، وما بين حاصرتين منه.

والقول بأنَّ التعميمَ كان عن اجتهادٍ لم يُقَرَّ عليه ﷺ، ثم قال: وأما على قول الضحاك ـ أي: السابق ـ فهو مشكلٌ، ووجهُهُ أنه حُكْمٌ في مخصوصين، فلا يَعُمُّ غيرَ تلك الوقعة، على أنه عزَّ وجلَّ خَصَّ الحكم بالمهاجرين، ولم يبقَ بعد الفتح هجرةٌ كما ثبتَ في الصحيح(١)، فلا يبقى الحكم.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في نكاحهنَّ حيثُ حالَ إسلامهنَّ بينهنَّ وبين أزواجهنَّ الكفار ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: وقت إيتائكم إياهنَّ مهورهنَّ، فـ «إذا» لمجرَّد الظرفية، ويجوزُ كونُها شرطيةً وجوابها مقدَّرٌ بدليل ما قبل، وعلى التقديرين يُفهَمُ اشتراطُ إيتاء المهور في نفي الجناح في نكاحهنَّ، وليس المرادُ بإيتاء الأجور إعطاءَها بالفعل، بل التزامها والتعهُّد بها، وظاهرُ هذا مع ما تقدم من قوله تعالى: «وآتوهم ما أنفقوا» أنَّ هناك إيتاءً إلى الأزواج وإيتاءً إليهنَّ، فلا يقوم ما أُوتي إلى الأزواج مقامَ مهورهنَّ، بل لا بدَّ مع ذلك من إصداقهنَّ، وقيل: لا يخلو إما أن يُرادَ بالأجور ما كان يُدفعُ إليهنّ ليَدْفَعنَه إلى أزواجهنَّ، فيُشترط في إباحة تزويجهنَّ تقديمُ أدائه، وإما أن يُرادَ أنَّ ذلك إذا دُفع إليهنَّ على سبيل القرض، ثم تزوَّجْنَ على ذلك لم يكنْ به بأسٌ، وإما أنْ يُبيَّنَ إليهم أنَّ ما أُعطي لأزواجهنَّ لا يقوم مقام المهر، وهذا ما ذكرناه أولاً من الظاهر، وهو الأصحُّ في الحكم، والوجهان الآخران ضعيفان فقهاً ولفظاً.

واحتجَّ أبو حنيفةَ ﷺ بالآية على أنَّ أحدَ الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة، وبقي الآخرُ حربيًّا، وقعت الفُرْقة. ولا يرى العِدَّةَ على المهاجرة، ويُبيحُ نكاحَها من غير عِدَّة، إلا أن تكون حاملاً، وهذا للحديث المشهور الذي تجوز بمثله الزيادة على النص: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَسقِينَّ ماءَهُ زَرْعَ غيره»(٢).

ومذهب الشافعيِّ ـ على ما قيل ـ أنه لا تقع الفرقة إلا بإسلامها، وأما بمجرد الخروج فلا، فإن أسلمتْ قبل الدخول تنجَّزتِ الفرقة، وبعد الدخول توقَّفتْ إلى

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩١)، والبخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس ﷺ.
(٢) أخرجه ابن حبان (٤٨٥٠)، والبيهقي ٩/ ٦٢.

انقضاء العِدَّة، وتُعقِّبَ الاحتجاجُ بأنَّ الآيةَ لا تدلُّ على مجموع ما ذكر، نعم قد احتُجَّ بها على عدم العِدَّةِ في الفرقة بخروج المرأة إلينا من دار الحرب مسلمةً، وَوُجِّه بأنه سبحانه نفى الجُناحَ من كلِّ وجهٍ في نكاح المهاجرات بعد إيتاء المهر، ولم يُقيِّدْ جلَّ شأنه بمُضِيِّ العِدَّة، فلولا أنَّ الفرقةَ بمجرد الوصول إلى دار الإسلام لكان الجُناحُ ثابتاً، ومع هذا فقد قيل: الجوابُ على أصل الشافعية أنَّ رَفْعَ الإطلاق ليس بنَسْخٍ ظاهرٌ؛ لأنَّ عدمَ التعرُّضِ ليس تعرُّضاً للعدم، وأما على أصل الحنفية فكسائر الموانع، وكونها حاملاً بالاتفاق، فتأمل.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جَمْعُ: كافرة، وجَمْعُ فاعلةٍ على فواعل مُطَّردٌ، وهو وَصْفُ جماعة الإناث، وقال الكرخيُّ: «الكوافر» يشملُ الإناثَ والذكور، فقال له الفارسيُّ: النحويُّونَ لا يَرَوْنَ هذا إلا في الإناث جمعَ «كافرة»، فقال: أليس يقال: طائفةٌ كافرةٌ وفِرْقَةٌ كافرةٌ، قال الفارسيُّ: فَبُهِتُّ[1]. وفيه أنه لا يقال: كافرةٌ، في وَصْفِ الذكور إلا تابعاً للموصوف، أو يكون محذوفاً مراداً، أما بغير ذلك فلا تُجمَعُ فاعلةٌ على فواعل إلا ويكون للمؤنَّث. قاله أبو حيان[2].

و«عِصَم» جمعُ: عِصْمة، وهي ما يُعتَصَمُ به من عَقْدٍ وسبب، والمراد نهيُ المؤمنين عن أن يكونَ بينهم وبين الزوجات المشركات الباقية في دار الحرب عُلقةٌ من عُلَقِ الزوجيَّة أصلاً، حتى لا يمنع إحداهنَّ نكاح خامسة، أو نكاح أختها في العِدَّة بناءً على أنه لا عِدَّةَ لهنَّ.

قال ابن عباس: من كانت له امرأةٌ كافرةٌ بمكة، فلا يعتدَّنَّ بها من نسائه؛ لأنَّ اختلافَ الدارين قَطَعَ عِصْمَتَها منه.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعي[3] أنه قال: نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ إلخ، في المرأة من المسلمين تلحقُ بالمشركين، فلا يُمسك زوجُها بعِصْمتها، قد بَرِئَ منها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٠٨.

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد وسعيد بن جبير نحوَه[١]، وفي روايةٍ أخرى عن مجاهدٍ أنه قال: أمرهم سبحانه بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهنَّ[٢].
ويُروى أنَّ عمر ﷺ طلَّق لذلك امرأته فاطمةَ أخت أمِّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي، فتزوَّجها معاويةُ بن أبي سفيان، وامرأته كلثوم بنت جَرْوَل الخزاعي، فتزوَّجها أبو جهم بن حذيفة العدوي[٣]. وكذا طلَّق طلحةُ زوجته أروى بنت ربيعة.

وتعقب ذلك بأنه بظاهره مخالفٌ لمذهب الحنفية والشافعية، أما عند الحنفية، فلأنَّ الفُرْقة بنفس الوصول إلى دار الإسلام، وأما عند الشافعية، فلأنَّ الطلاقَ موقوفٌ، إن جمعتهما العِدَّةُ تبيَّنَ وقوعه من حين اللفظ، وإلا فالبينونة بواسطة بقاء المرأة في الكفر، فظاهر الآية لا يدلُّ على ما في هذه الرواية.

وقرأ أبو عمرٍو، ومجاهد بخلافٍ عنه، وابن جبير والحسن والأعرج: «تُمَسِّكوا» مضارع مَسَّكَ مشدَّداً[٤]، والحسن أيضاً، وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد الحميد، وأبو عمرو في رواية معاذ: «تَمسَّكوا»[٥] مضارع تمسَّكَ محذوف إحدى التاءين، والأصل تتمسَّكوا.

وقرأ الحسن أيضاً: «تَمْسِكُوا»[٦] بكسر السين مضارع مَسَكَ ثلاثيًّا.

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: واسألوا الكفار مهورَ نسائكم اللاحقات بهم ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: وليسألكم الكفار مهورَ نسائهم المهاجرات إليكم، وظاهره أمر الكفار؛ وهو من باب: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] فهو أمرٌ للمؤمنين بالأداء مجازاً، وقيل: المراد التسوية.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٧.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٥٨٥.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) بدون ذكر اسم الزوجتين. وينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ٢٢/ ٥٨٤.
(٤) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٧.
(٥) القراءات الشاذة ص١٥٥، والكشاف ٤/ ٩٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٧.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٧.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكر ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: فاتبعوه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، أو حالٌ من «حكم» بحذف الضمير العائد إليه، وهو مفعولٌ مطلقٌ، أي: يحكمه الله تعالى بينكم، أو العائد إليه الضمير المستتر في «يحكم» بجَعْلِ الحكم حاكماً مبالغة، كأنَّ الحكمَ لقوَّته وظهوره غير محتاجٍ لحاكم آخر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ يشرعُ ما تقتضيه الحكمةُ البالغةُ.

روي أنه لما تقرَّرَ هذا الحكم، أدَّى المؤمنون ما[1] أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهنَّ، وأبى المشركون أن يؤدُّوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهنَّ المؤمنين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي: سبقكم وانفلتَ منكم ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: أحدٌ من أزواجكم، وقرئ كذلك[2]، وإيقاعُ «شيءٍ» موقعه لزيادة التعميم وشمول مُحَقَّرِ الجنس نصًّا، وفي «الكشف»: لك أن تقول: أُريد التحقير والتهوين على المسلمين؛ لأنَّ مَنْ فات من أزواجهم إلى الكفار يستحقُّ الهون والهوان، وكانت الفائتات ستًّا على ما نقله في «الكشاف»[3] وفصَّله، أو: إن فاتكم شيءٌ من مهور أزواجكم، على أنَّ «شيء» مستعملٌ في غير العقلاء حقيقة، و«من» ابتدائيةٌ لا بيانيةٌ كما في الوجه الأول.

﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ من العُقْبة، لا من العقاب، وهي في الأصل النَّوبةُ في ركوب أحد الرفيقين على دابةٍ لهما والآخرُ بعده، أي: فجاءت عُقْبتكم، أي: نوبتكم من أداء المهر، شَبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك تارةً، وأداء أولئك مهورَ نساء هؤلاء أخرى، أو شَبَّهَ الحكمَ بالأداء المذكور بأمرٍ يتعاقبون فيه كما يُتعاقبُ في الركوب، وحاصل المعنى: إنْ لَحِقَ أحدٌ من أزواجكم بالكفار، أو فاتكم شيءٌ من مهورهنَّ ولزمكم أداء المهر كما لزم الكفار ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهر المهاجرة التي تزوَّجتموها، ولا تؤتوه زوجها الكافر ليكونَ قصاصاً، ويُعلم مما ذكرنا أنَّ «عاقب» لا يقتضي المشاركة،

---

(١) في (م): مما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٢٤٠، والكلام منه.
(٢) نسبها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٩٤ لابن مسعود ﷺ.
(٣) ٤/ ٩٤.

وهذا كما تقول: إبلٌ معاقبةٌ تَرْعَى الحَمْضَ[١] تارةً وغيره أخرى، ولا تريد أنها تُعاقِبُ غيرَها من الإبل في ذلك، وحَمْلُ الآية على هذا المعنى يوافقُ ما روي عن الزهريِّ أنه قال: يُعطى مَنْ لحقتْ زوجته بالكفار من صَداقِ مَنْ لَحِقَ بالمسلمين من زوجاتهم.

وعن الزجاج: أنَّ معنى «فعاقبتم»: فغنمتم، وحقيقته: فأصبتم في القتال بعقوبةٍ حتى غنمتم[٢]. فكأنه قيل: وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفار، ولم يُؤدُّوا إليكم مهورهنَّ، فغنمتم منهم، فآتوا الذين ذهبتْ أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة. وهذا هو الوجه دون ما سبق، وقد كان ﷺ ـ كما روي عن ابن عباس ـ يُعطي الذي ذهبتْ زوجته من الغنيمة قبل أن تُخَمَّسْ المهرَ، ولا ينقص من حَقِّه شيئاً[٣].

وقال ابن جني: روينا عن قطرب أنه قال: «فعاقبتم»: فأصبتم عُقْباً منهم؛ يقال: عاقبَ الرجلُ شيئاً: إذا أخذ شيئاً[٤]، وهو في المعنى كالوجه قبله.

وقرأ مجاهدٌ والزهريُّ والأعرجُ وعكرمةُ وحُميد وأبو حيوة والزعفرانيُّ: «فعقَّبتم» بتشديد القاف مِن عَقَّبه: إذا قَفَاه؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتعاقِبَين يقفي صاحبه. والزهريُّ والأعرج وأبو حيوة أيضاً، والنخعيُّ وابن وثاب بخلاف عنه: «فَعَقَبْتُم» بفتح القاف وتخفيفها. والزهريُّ والنخعيُّ أيضاً بالكسر والتخفيف. ومجاهدٌ أيضاً: «فأعقبتم»[٥] أي: دخلتم في العُقْبة؛ وفسَّرَ الزجاجُ[٦] هذه القراءات الأربعة بأنَّ المعنى: فكانت العُقبى لكم، أي: الغلبة والنصر حتى غنمتم؛ لأنها العاقبة التي تستحقُّ أن تُسمَّى عاقبة.

---

(١) الحَمْض من النبت: ما كان فيه ملوحة، والخُلَّة ما سوى ذلك، وتقول العرب: الخُلَّة خبزُ الإبل، والحمض فاكهتها. المصباح (حمض).
(٢) معاني القرآن ٥/ ١٦٠.
(٣) ينظر تفسير الطبري ٢٢/ ٥٩١.
(٤) ينظر المحتسب ٢/ ٣٢٠.
(٥) ينظر مجموع هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣١٩-٣٢٠، والكشاف ٤/ ٩٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٧.
(٦) في معاني القرآن ٥/ ١٦٠.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝﴾ فإنَّ الإيمانَ به عزَّ وجلَّ يقتضي التقوى منه سبحانه وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: مبايعات لك، أي: قاصدات للمبايعة ﴿عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من الإشراك.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أُريد به على ما قال غير واحد: وَأْدُ البنات بالقرينة الخارجية، وإن كان الأولادُ أعمّ منهنَّ، وجُوِّزَ إبقاؤه على ظاهره، فإنَّ العربَ كانت تفعلُ ذلك من أجل الفقر والفاقة، وانظر هل يجوز حملُ هذا النهي على ما يعمُّ ذلك وإسقاطَ الحمل بعد أن ينفخ فيه الروح.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، والحسن والسُّلَميُّ: «ولا يُقتِّلْنَ» بالتشديد[1].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قال الفراء[2]: كانت المرأة في الجاهلية تلتقطُ المولودَ فتقول: هذا ولدي منك، فذلك البهتانُ المفترَى بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ. وذلك أنَّ الولد إذا وضعته الأمُّ سَقَطَ بين يديها ورجليها.

وفي «الكشاف» كنَّى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تُلصقه بزوجها كَذِباً؛ لأنَّ بطنَها الذي تحملهُ فيه بين اليدين، وفَرْجَها الذي تلدهُ به بين الرجلين[3].

وقيل: كنَّى بذلك عن الولد الدَّعِيّ؛ لأنَّ اللواتي كُنَّ يُظهِرنَ البطونَ لأزواجهن في بدء الحال، إنما فعلنَ ذلك امتناناً عليهم، وكُنَّ يُبدينَ في ثاني الحال عند الطَّلْق حين يَضَعْنَ الحملَ بين أرجلهنَّ أنهنَّ وَلَدْنَ لهم، فنُهينَ عن ذلك الذي هو من شعار الجاهلية المنافي لشعار المسلمات؛ تصويراً لِتَيْنِك الحالتين، وتهجيناً لما كُنَّ يفعلنه.

وأيَّاما كان، فَحمْلُ الآية على ما ذُكِرَ هو الذي ذهب إليه الأكثرون، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٢، والبحر ٨/ ٢٥٨.
(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٢.
(٣) الكشاف ٤/ ٩٤-٩٥.

وقال بعضُ الأجلَّة: معناه: لا يأتينَ ببهتانٍ من قِبَلِ أنفسهنَّ، واليدُ والرجلُ كنايةٌ عن الذات؛ لأن معظمَ الأفعال بهما، ولذا قيل للمعاقَبِ بجنايةٍ قوليةٍ: هذا ما كسبتْ يداك، أو معناه: لا يأتِيْنَ ببهتانٍ يُنْشِئْنَهُ في ضمائرهنَّ وقلوبهنَّ، والقلبُ مقرُّهُ بين الأيدي والأرجل، والكلامُ على الأول كنايةٌ عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهنَّ، وعلى الثاني كنايةٌ عن كون البهتان من دخيلة قلوبهنَّ المبنية على الخُبْثِ الباطني.

وقال الخطابيُّ: معناه: لا يَبْهَتْنَ الناسَ كفاحاً ومواجهةً، كما يقال للأمر بحضرتك: إنه بين يديك. وَرُدَّ بأنهم وإن كنوا عن الحاضر بما ذُكِرَ، لكن لا يقال فيه: وهو بين رجليك، وهو واردٌ لو ذُكرتِ الأرجلُ وحدها، أما إذا ذُكرت مع الأيدي تبعاً فلا. والكلام قيل: كنايةٌ عن خَرْق جلباب الحياء، والمراد النهيُ عن القذف، ويدخلُ فيه الكذبُ والغيبة. وروي عن الضحاك حَمْلُ ذلك على القذف.

وقيل: بين أيديهنَّ: قُبلةٌ أو جَسَّةٌ، وأرجلهنَّ: الجماع. وقيل: بين أيديهنَّ: ألسنتهنَّ بالنميمة، وأرجلهنَّ: فروجهنَّ بالجماع. وهو ـ وكذا ما قبله ـ كما ترى.

وقيل: البهتان: السحر، وللنساء مَيلٌ إليه جدًّا، فنُهِينَ عنه. وليس بشيء.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: فيما تأمرهنَّ به من معروفٍ، وتنهاهنَّ عنه من منكر، والتقييدُ بالمعروف مع أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمر إلا به، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعةُ مخلوقٍ في معصية الخالق، ويُرَدُّ به على من زَعَمَ من الجهلة أنَّ طاعةَ أولي الأمر لازمةٌ مطلقاً، وخصَّ بعضُهم هذا المعروفَ بتَرْك النياحة؛ لما أخرج الإمامُ أحمد والترمذيُّ وحَسَّنه، وابن ماجه[1] وغيرهم عن أمِّ سلمةَ الأنصارية: قالت امرأةٌ من هذه النسوة: ما هذا المعروفُ الذي لا ينبغي لنا أن نعصيكَ فيه؟ فقال ﷺ: «لا تَنُحنَ» الحديث، ونحوه من الأخبار الظاهرة في تخصيصه بما ذكر كثير، والحقُّ العموم، وما ذكر في الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة،

---

(١) أحمد (٢٦٧٢٠)، والترمذي (٣٣٠٧)، وابن ماجه (١٥٧٩).

ويشهد للعموم قول ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم: هو النَّوح، وشَقُّ الجيوب، وَوَشْمُ الوجوه، وَوَصْلُ الشعر، وغير ذلك من أوامر الشريعة، فَرْضِها ونَدْبِها.

وتخصيصُ الأمور المعدودة بالذكر في حَقِّهنَّ لكثرةِ وقوعها فيما بينهنَّ، مع اختصاص بعضها بهنَّ على ما سمعت أولاً.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء، وتقييدُ مبايعتهنَّ بما ذكر من مجيئهنَّ؛ لِحَثِّهنَّ على المسارعة إليها، مع كمال الرغبة فيها من غير دعوةٍ لهنَّ إليها ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادةٌ على ما في ضِمْنِ المبايعة من ضمان الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: مبالغٌ جلَّ شأنه في المغفرة والرحمة، فيغفرُ عزَّ وجلَّ لهنَّ، ويرحمهنَّ إذا وفَّيْنَ بما بايعنَ عليه.

وهذه الآيةُ نزلتْ ـ على ما أخرج ابن أبي حاتم(١) عن مقاتل ـ يوم الفتح، فبايع(٢) رسولُ الله ﷺ الرجالَ على الصفا، وعمر رضي الله عنه يُبايع النساءَ تحتها عن رسول الله ﷺ.

وجاء أنه عليه الصلاة والسلام بايعَ النساءَ أيضاً بنفسه الكريمة، أخرج الإمام أحمد والنسائيُّ وابن ماجه والترمذيُّ وصححه(٣)، وغيرهم عن أُمَيْمَة بنت رُقَيْقَة قالت: أتيتُ النبيَّ ﷺ لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشركَ بالله شيئاً، حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ فقال: «فيما استطعنَ وأَطَقْنَ» قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا من أنفسنا يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أُصافح النساء، إنما قولي لمئةِ امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدة».

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد عن الشعبيِّ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايعَ النساءَ وَضَعَ على يده ثوباً(٤). وفي بعض الروايات أنه ﷺ يبايعهنَّ وبين يديه

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٠٩.

(٢) جاء في هامش الأصل: كانت المبايعة في اليوم الثاني على ما في البحر.

(٣) أحمد (٢٧٠٠٦) و(٢٧٠٠٧) و(٢٧٠٠٨) و(٢٧٠٠٩) و(٢٧٠١٠)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٥٢، وفي الكبرى (٧٧٥٦)، وابن ماجه (٢٨٧٤)، والترمذي (١٥٩٧).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٠٩، وطبقات ابن سعد ٨/ ٥.

وأيديهنَّ ثوبٌ قِطْرِي[١]. ومَنْ يُثبتُ ذلك يقول بالمصافحة وقتَ المبايعة، والأشهر المعوَّل عليه أن لا مصافحة، وأخرج ابن سعد وابن مردويه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايع النساءَ دعا بقدحٍ من ماء، فغمس يده فيه، ثم يغمسنَ أيديهنَّ فيه[٢]. وكأنَّ هذا بدل المصافحة، والله تعالى أعلم بصحته.

والمبايعةُ وقعتْ غيرَ مرَّةٍ، ووقعتْ في مكةَ بعد الفتح، وفي المدينة؛ وممن بايعنه عليه الصلاة والسلام في مكةَ هندُ بنتُ عتبةَ زوج أبي سفيان، ففي حَديث أسماء بنت يزيد بن السَّكَن[٣]: كنتُ في النسوة المبايعات، وكانت هندُ بنت عتبة في النساء، فقرأ ﷺ عليهنَّ الآية، فلما قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ قالت هند: وكيف نطمعُ أن يقبل منَّا ما لم يقبله من الرجال؟ تعني أنَّ هذا بيِّنٌ لزومه، فلما قال: «ولا يَسْرقنَ» قالت: والله إني لأُصيب الهَنَةَ من مال أبي سفيان لا يدري، أيحلُّ لي ذلك؟ فقال أبو سفيان: ما أصبتِ من شيءٍ فيما مضى وفيما غَبَر فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعفُ عمَّا سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك، فقال: «ولا يَزْنينَ»، فقالت: أَوَتَزْني الحُرَّةُ؟ ـ تريد أنَّ الزنى في الإماء بناءً على ما كان في الجاهلية من أنَّ الحُرَّة لا تزني غالباً، وإنما يزني في الغالب الإماء، وإنما قُيِّدَ بالغالب لما قيل: إنَّ ذوات الرايات كُنَّ حرائر ـ فقال: «ولا يقتلن أولادهنَّ» فقالت: ربَّيناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً ـ تعني ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبي سفيان، فإنه قتل يوم بدر ـ فضحك

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٥، وأبو داود في المراسيل (٣٧٣) من حديث الشعبي. وجاء في الأصل و(م): قطوي. وجاء في هامش الأصل: بالواو، ضربٌ من البرود فيه حمرة وله أعلام وفيه بعض الخشونة اهـ، وذكر في عمدة القاري ٤/ ١٠٠ شرح القطري بنحو هذا.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢١١، وطبقات ابن سعد ٨/ ١١ من طريق محمد بن عمر الواقدي، وهو ضعيف. وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبراني في الكبير ١٧/ ١٤٩ (٣٧٦) عن عروة بن مسعود الثقفي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩: وفيه: عبد الله بن حكيم، أبو بكر الداهري، وهو ضعيف.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥٨، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٩٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عمر حتى استلقى، وتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ - وفي رواية: أنها قالت: قتلتَ الآباء وتُوصِينا بالأولاد؟! فضحك ﷺ - فقال: «ولا يأتينَ ببهتان» فقالت: والله إنَّ البهتانَ لأمرٌ قبيح، ولا يأمرُ الله تعالى إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينكَ في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصِيَكَ في شيءٍ. وكأنَّ هذا منها دون غيرها من النساء لمكان أمِّ حبيبة رضي الله عنها من رسول الله ﷺ، مع أنها حديثةُ عهد بجاهلية.

ويُروى أنَّ أولَ من بايع النبيَّ ﷺ من النساء أمُّ سعد بنِ معاذ، وكَبْشَة بنت رافع، مع نسوة أُخَر رضي الله عنهنَّ[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عن الحسن وابن زيد ومنذر بن سعيد أنهم اليهود؛ لأنه عزَّ وجلَّ قد عَبَّرَ عنهم في غير هذه الآية بالمغضوب عليهم، وروي أنَّ قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليُصيبوا من ثمارهم، فنزلت.

وقيل: هم اليهود والنصارى. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنهم كفار قريش. وقال غيرُ واحد: هم عامةُ الكَفَرة.

وهذه الآيةُ - على ما قال الطيبيُّ - متَّصلةٌ بخاتمةِ قصة المشركين الذين نُهي المؤمنون عن اتخاذهم أولياء بقوله تعالى: (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) وهي قوله سبحانه: (وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)، وقوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ) إلخ مستطردٌ، فإنه لما جرى حديثُ المعاملة مع الذين لا يقاتلون المسلمين، والذين يقاتلونهم وقد أخرجوهم من ديارهم، من الأمر بمبرَّةِ أولئك، والنهي عن مَبرَّة هؤلاء، أتى بحديث المعاملة مع نسائهم، ولما فرغ من ذلك أوصل الخاتمةَ بالفاتحة على منوال رَدِّ العَجُزِ على الصَّدر من حيثُ المعنى. وفي «الانتصاف»[2] جَعَلَ هذه الآية نفسَها من باب الاستطراد، وهو ظاهرٌ على القول بأنَّ المرادَ بالقوم اليهود أو أهل الكتاب مطلقاً.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٢ عن قتادة.
(٢) ٤/ ٩٥.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ استئنافٌ، والمراد: قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها؛ لعنادهم الرسولَ ﷺ المنعوت في كتابهم، المؤيَّد بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات، وإذا أُريد بالقوم الكفرة، فيأسُهم من الآخرة لكُفْرهم بها ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي: الذين هم أصحاب القبور، أي: الكفار الموتى، على أنَّ «من» بيانيةٌ، والمعنى: أنَّ يأسَ هؤلاء من الآخرة كَيَأْسِ الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور، وتبيَّنوا حِرْمانهم من نعيمها المقيم، وقيل: كيأسهم من أن ينالهم خيرٌ من هؤلاء الأحياء، والمراد وَصْفُهم بكمال اليأس من الآخرة.

وكون «من» بيانيةً مرويٌّ عن مجاهد وابن جبير وابن زيد، وهو اختيار ابن عطية[1] وجماعة، واختار أبو حيان[2] كونها لابتداء الغاية، والمعنى أنَّ هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من موتاهم أن يُبعَثوا ويلقوهم في دار الدنيا. وهو مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقتادة، فالمراد بالكفار أولئك القوم، وَوُضِعُ الظاهر موضعَ ضميرهم تسجيلاً لكُفْرهم وإشعاراً بعِلَّة يأسهم.

وقرأ ابن أبي الزناد: «كما يئس الكافر»[3] بالإفراد على إرادة الجنس.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في بعض الآيات ما قيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلخ إشارةٌ للسالك إلى تَرْكِ موالاة النفس الأمارة وإلقاءِ المودة إليها، فإنها العدوُّ الأكبر كما قيل: أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك. وهي لا تزال كارهةً للحقِّ، ومعارضةً لرسول العقل، نافرةً له، ولا تنفكُّ عن ذلك حتى تكون مطمئنةً راضيةً مرضيةً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٠.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٢٥٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥٩.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ إشارةٌ إلى أنه متى أطاعت النفسُ وأُمِنَ جماحُها، جاز إعطاؤها حظوظَها المباحة، وإليه الإشارةُ بما روي: «إنَّ لنفسك عليك حقاً»[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلخ إشارةٌ إلى مبايعة المرشدِ المريدَ الصادقَ ذا النفس المؤمنة، وذلك أن يُبايعه على ترك الاختيار وتفويض الأمور إلى الله عزَّ وجلَّ، وأن لا يرغبَ فيما ليس له بأهل، وأن لا يلجَّ في شهوات النفس، وأن لا يَئِدَ الواردَ الإلهاميَّ تحت تراب الطبيعة، وأن لا يفتريَ فيزعم أنَّ الخاطرَ السِّرِّيَّ خاطرُ الروح، وخاطرَ الروح خاطرُ الحقِّ، إلى غير ذلك، وأن لا يَعصي في معروف يفيده معرفة الله عزَّ وجلَّ، وأن يطلبَ من الله سبحانه في ضمن المبالغة أن يستر صفاته بصفاته، ووجوده بوجوده، وحاصله أن يطلبَ له البقاء بعد الفناء، وذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٣) عن عبد الله عمرو رضي الله عنهما.

(٦١) سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة

● سورة الصف هي إحدى السور المدنية التي تُعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع « القتال » وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته. وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ولكنّ المحور الذي تدور عليه السورة هو القتال ، ولهذا سميت سورة الصف .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بعد تسبيح الله وتحميده بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿ سبّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾

● **ثم تحدثت** عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل وهو رفع منار الحق وإعلاء كلمة الله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾

● **وتناولت** السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام وما أصابهما من أذى في سبيل الله وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني .. ﴾

● **وتحدثت** السورة عن سنة الله في نصر دينه وأنبيائه وأوليائه

وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمٌّ نوره ولو كره الكافرون . ﴾

● ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والتنفيس لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم باسلوب الترغيب والتشويق ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ... ﴾ الآيات .

● وختمت السورة بدعوة أهل الايمان إلى نصرة دين الرحمن ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله .. ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام .

سورة الصف

[٩٣٢] أخرج الترمذي والحاكم وصححه[1] عن عبدالله بن سلاّم قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله [ﷺ] فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾[2] فقرأها علينا رسول الله [ﷺ] حتى ختمها.

ك. . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

[٩٣٣] ك. .وأخرج عن أبي صالح قال: قالوا لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾[3] الآية فكرهوا الجهاد فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾[4].

[٩٣٤] ك. . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس نحوه.

[٩٣٥] ك. . وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس وابن جرير عن الضحاك قال: أنزلت ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[5] في الرجل يقول في القتال ما لم يفعله من الضرب والطعن والقتل.

[٩٣٦] ك. . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في توليهم يوم أحد.

[٩٣٧] ك. . وأخرج عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

[٩٣٢] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٢) من طريق الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبدالله بن سلاّم.

(٢) سورة الصف: الآية (١و٢).

[٩٣٣] (٣) سورة الصف: الآية (١٠).

(٤) سورة الصف: الآية (٢).

[٩٣٥] (٥) سورة الصف: الآية (٢).

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾[1] قال المسلمون لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فنزلت: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

* * *

[٩٣٧] (١) سورة الصف: الآية (١٠).

(٢) سورة الصف: الآية (١٠).

سورة الصف

اربع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾

وجه التعلق بما قبلها هو أن في تلك السورة بيان الخروج جهادًا في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١] وفي هذه السورة بيان ما يحمل أهل الإيمان ويحثهم على الجهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وأما الأول بالآخر، فكأنه قال: إن كان الكفرة بجهلهم يصفون لحضرتنا المقدسة بما لا يليق بالحضرة، فقد كانت الملائكة وغيرهم من الإنس والجن يسبحون لحضرتنا، كما قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض و﴿الْعَزِيزُ﴾ من عز إذا غلب، وهو الذي يغلب على غيره أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره و﴿الْحَكِيمُ﴾ من حكم على الشيء إذا قضى عليه، وهو الذي يحكم على غيره، أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره، فقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على الربوبية والوحدانية إذن، ثم إنه تعالى قال في البعض من السور: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١]، وفي البعض: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١، التغابن: ١]، وفي البعض: ﴿سَبِّحِ﴾ [الأعلى: ١] بصيغة الأمر، ليعلم أن تسبيح حضرة الله تعالى دائم غير منقطع لما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان، والأمر يدل عليه في الحال، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ منهم من قال: هذه الآية في حق جماعة من المؤمنين، وهم الذين أحبوا أن يعملوا بأحب الأعمال إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ [الصف: ١٠] الآية و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ [الصف: ٤] فأحبوا الحياة وتولوا يوم أحد فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وقيل في حق من يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وفعلت ولم يفعل، وقيل: إنها في حق أهل النفاق في القتال، لأنهم تمنوا القتال، فلما أمر الله تعالى به قالوا: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ [النساء: ٧٧] وقيل: إنها في حق كل مؤمن، لأنهم قد اعتقدوا الوفاء بما وعدهم الله به من الطاعة والاستسلام والخضوع والخشوع

فإذا لم يوجد الوفاء بما وعدهم خيف عليهم في كلِ زلة أن يدخلوا في هذه الآية ثم في هذه الجملة مباحث:

الأول: قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١] في أول هذه السورة، ثم قاله تعالى في أول سورة أخرى، وهذا هو التكرار، والتكرار عيب، فكيف هو؟ فنقول: يمكن أن يقال: كرره ليعلم أنه في نفس الأمر غير مكرر لأن ما وجد منه التسبيح عند وجود العالم بإيجاد الله تعالى فهو غير ما وجد منه التسبيح بعد وجود العالم، وكذا عند وجود آدم وبعد وجوده.

الثاني: قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ ولم يقل: سبح لله السموات والأرض وما فيهما، مع أن في هذا من المبالغة ما ليس في ذلك؟ فنقول: إنما يكون كذلك إذا كان المراد من التسبيح، التسبيح بلسان الحال مطلقًا، أما إذا كان المراد هو التسبيح المخصوص فالبعض يوصف كذا، فلا يكون كما ذكرتم.

الثالث: قال صاحب الكشاف: ﴿لِمَ﴾ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وفيم وعم ومم، وإنما حذفت الألف لأن (مَا) والحرف كشيء واحد، وقد وقع استعمالها في كلام المستفهم، ولو كان كذلك لكان معنى الاستفهام واقعًا في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ والاستفهام من الله تعالى محال وهو عالم بجميع الأشياء، فنقول: هذا إذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم، أما إذا كان المراد إلزام من أعرض عن الوفاء بما وعد أو أنكر الحق وأصر على الباطل فلا.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

والمقت هو البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، قال صاحب الكشاف: المقت أشد البغض وأبلغه وأفحشه، وقال الزجاج: ﴿أَن﴾ في موضع رفع و: ﴿مَقْتًا﴾ منصوب على التمييز، والمعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتًا عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥].

قرأ زيد بن علي: (يُقَاتَلون) بفتح التاء، وقرئ (يقتلون) أن يصفون صفًّا، والمعنى يصفون أنفسهم عند القتال كأنهم بنيان مرصوص، قال الفراء: مرصوص بالرصاص، يقال: رصصت البناء إذا لاءَمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقال الليث: يقال: رصصت البناء إذا ضممته، والرص انضمام الأشياء بعضها إلى بعض، وقال ابن عباس: يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فتسميه أهل مكة المرصوص، وقال أبو إسحاق: أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص، وقال:

ويجوز أن يكون على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضًا كالبنيان المرصوص، وقيل: ضرب هذا المثل للثبات: يعني إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر، وقيل: فيه دلالة على فضل القتال راجلاً، لأن العرب يصطفون على هذه الصفة، ثم المحبة في الظاهر على وجهين: أحدهما: الرضا عن الخلق وثانيهما: الثناء عليهم بما يفعلون، ثم ما وجه تعلق الآية بما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن﴾ نقول تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا، وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ ﴾

معناه اذكر لقومك هذه القصة، و ﴿ إِذْ﴾ منصوب بإضمار اذكر أي حين قال لهم: ﴿ تُؤْذُونَنِى﴾ وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولاً وفعلاً، فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]وقيل: قد رموه بالأدرة، وقوله تعالى: ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال، أي تؤذونني عالمين علمًا قطعيًا أني رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير، وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي مالوا إلى غير الحق ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي أمالها عن الحق، وهو قول ابن عباس وقال مقاتل: ﴿ زَاغُوٓا۟﴾ أي عدلوا عن الحق بأبدانهم ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾ أي أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم جزاء ما عملوا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال أبو إسحاق معناه: والله لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول ﷺ حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ﴿ وَقَد﴾ معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينيًا لا شبهة لكم فيه.

قوله: ﴿ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا أني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقًا بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعًا ممن تقدم وتأخر ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ يصدق بالتوراة على مثل تصديقي، فكأنه قيل له: ما اسمه؟ فقال: اسمه أحمد، فقوله: ﴿ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ جملتان في موضع الجر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول، وفي ﴿ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ﴾ قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ [نوح: ٢٨]

فمن أسكن في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِى ٱسۡمُهُۥٓ﴾ حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين، وهما الياء والسين من اسمه، قاله المبرد وأبو علي، وقوله تعالى: ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمدًا لله من غيره، وثانيهما: المبالغة من المفعول، يعني أنه يُحمدُ بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر مما يحمد غيره.

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام، بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: (وَأَنَا أَطْلُبُ لَكُمْ إِلَيَّ أَبِي حَتَّى يَمْنَحَكُمْ، وَيُعْطِيَكُمُ الْفَارَقَلِيطَ حَتَّى يَكُونَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَالْفَارَقَلِيطُ هُوَ رُوحُ الْحَقِّ الْيَقِينِ) هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: (وَأَمَّا الْفَارَقَلِيطُ رُوحُ الْقُدُسِ يُرْسِلُهُ أَبِي بَاسِمِي، وَيُعَلِّمُكُمْ وَيَمْنَحُكُمْ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ يُذَكِّرُكُمْ مَا قُلْتُ لَكُمْ) ثم ذكر بعد ذلك بقليل: (وَإِنِّي قَدْ خَبَّرْتُكُمْ بِهَذَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ تُؤْمِنُونَ)، وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: (وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمُ الْآنَ حَقًّا يَقِينًا انْطِلَاقِي عَنْكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ، فَإِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ عَنْكُمْ إِلَى أَبِي لَمْ يَأْتِكُمُ الْفَارَقَلِيطُ، وَإِنِ انْطَلَقْتُ أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ، فَإِذَا جَاءَ هُوَ يُفِيدُ أَهْلَ الْعَالَمِ، وَيُدِينُهُمْ وَيَمْنَحُهُمْ وَيُوقِفُهُمْ عَلَى الْخَطِيئَةِ وَالْبِرِّ وَالدِّينِ) وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا: (فَإِنَّ لِي كَلَامًا كَثِيرًا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى قَبُولِهِ وَالِاحْتِفَاظِ بِهِ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ رُوحُ الْحَقِّ إِلَيْكُمْ يُلْهِمُكُمْ وَيُؤَيِّدُكُمْ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتَكَلَّمُ بِدْعَةً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ) هذا ما في الإنجيل، فإن قيل: المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، هو عيسى يجيء بعد الصلب؟ نقول: ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئًا من الشريعة، وما علمهم شيئًا من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلاً، مثل أنه قال: (أَنَا الْمَسِيحُ فَلَا تَظُنُّونِي مَيِّتًا، بَلْ أَنَا نَاجٍ عِنْدَ اللَّهِ نَاظِرٌ إِلَيْكُمْ، وَإِنِّي مَا أُوحِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ) فهذا تمام الكلام، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: هو عيسى، وقيل: هو محمد، ويدل على أن الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبينات التي تبين أن الذي جاء به إنما جاء به من عند الله، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ساحر مبين.

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي من أقبح ظلمًا ممن بلغ افتراؤه المبلغ الذي يفتري على الله الكذب وأنهم قد علموا أن ما نالوه من نعمة وكرامة فإنما نالوه من الله تعالى، ثم كفروا به وكذبوا على الله وعلى رسوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوافقهم الله للطاعة عقوبة لهم.

وفي الآية بحث: وهو أن يقال: بم انتصب ﴿مُّصَدِّقٗا﴾ و﴿وَمُبَشِّرَۢا﴾ أبما في الرسول من معنى الإرسال أم ﴿إِلَيۡكُم﴾؟ نقول: بل بمعنى الإرسال لأن ﴿إِلَيۡكُم﴾ صلة للرسول.

قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾

﴿ لِيُطْفِئُوا۟ ﴾ أي أن يطفئوا وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك، كما زيدت اللام في لا أبا لك، تأكيدًا لمعنى الإضافة في أباك، وإطفاء نور الله تعالى بأفواههم، تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ [الصف: ٦] مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه، كذا ذكره في الكشاف، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرئ بكسر الراء على الإضافة، والأصل هو التنوين، قال ابن عباس: يظهر دينه، وقال صاحب الكشاف: متم الحق ومبلغه غايته، وقيل: دين الله، وكتاب الله، ورسول الله، وكل واحد من هذه الثلاثة بهذه الصفة لأنه يظهر عليهم من الآثار وثانيها: أن نور الله ساطع أبدًا وطالع من مطلع لا يمكن زواله أصلاً وهو الحضرة القدسية، وكل واحد من الثلاثة كذلك، وثالثها: أن النور نحو العلم، والظلمة نحو الجهل، أو النور الإيمان يخرجهم من الظلمات إلى النور، أو الإسلام هو النور، أو يقال: الدين وضع إلهي سائق لأولي الألباب إلى الخيرات باختيارهم المحمود وذلك هو النور، والكتاب هو المبين قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] فالإبانة والكتاب هو النور، أو يقال: الكتاب حجة لكونه معجزًا، والحجة هو النور، فالكتاب كذلك، أو يقال في الرسول: إنه النور، وإلا لما وصف بصفة كونه رحمة للعالمين، إذ الرحمة بإظهار ما يكون من الأسرار وذلك بالنور، أو نقول: إنه هو النور، لأنه بواسطته اهتدى الخلق، أو هو النور لكونه مبينًا للناس ما نزل إليهم، والمبين هو النور، ثم الفوائد في كونه نورًا وجوه: منها: أنه يدل على علو شأنه وعظمة برهانه، وذلك لوجهين: أحدهما: الوصف بالنور وثانيهما: الإضافة إلى الحضرة، ومنها: أنه إذا كان نورًا من أنوار الله تعالى كان مشرقًا في جميع أقطار العالم، لأنه لا يكون مخصوصًا ببعض الجوانب، فكان رسولاً إلى جميع الخلائق، لما روي عنه ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»(١) فلا يوجد شخص من الجن والإنس إلا ويكون من أمته إن كان مؤمنًا فهو من أمة المتابعة، وإن كان كافرًا فهو من أمة الدعوة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٤٥) عن ابن إسحاق... به وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (المواضع التي لا يجوز فيها الصلاة) (١/ ٢٤٠) حديث رقم (٤٨٩) من طريق عبيد بن عمير... به والدارمي في كتاب (السير) باب (الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا) (٢/ ٨٧) حديث رقم (٢٤٦٧) والحديث متفق عليه من رواية جابر بن عبد الله في البخاري كتاب (التيمم) باب (حديث نزول آية التيمم) (١/ ٥١٩) حديث رقم (٧٣٥) ومسلم في كتاب (المساجد) باب (المقدمة) (١/ ٣/ ٣٧٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين، وقوله: ﴿ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ لمن اتبعه ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ قيل: الحق هو الله تعالى، أي دين الله، وقيل: نعت للدين، أي والدين هو الحق، وقيل: الذي يحق أن يتبعه كل أحد و﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ يريد الإسلام، وقيل: ليظهره، أي الرسول ﷺ بالغلبة وذلك بالحجة **وهاهنا مباحث:**

الأول: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ والتمام لا يكون إلا عند النقصان، فكيف نقصان هذا النور؟ فنقول إتمامه بحسب النقصان في الأثر، وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار وهو الإتمام، يؤيده قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] وعن أبي هريرة: أن ذلك عند نزول عيسى من السماء، قال مجاهد. **الثاني:** قال هاهنا: ﴿ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ [النور: ٣٥] وهذا عين ذلك أو غيره؟ نقول: هو غيره، لأن نور الله في ذلك الموضع هو الله تعالى عند أهل التحقيق، وهناك هو الدين أو الكتاب أو الرسول. **الثالث:** قال في الآية المتقدمة: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وقال في المتأخرة: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: إنهم أنكروا الرسول، وما أنزل إليه وهو الكتاب، وذلك من نعم الله، والكافرون كلهم في كفران النعم، فلهذا قال: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والمراد من الكافرين هاهنا اليهود والنصارى والمشركون، وهنا ذكر النور وإطفاءه، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام، وهي اعتراض على الله تعالى كما قال:

أَلاَ قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لِي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ [(١)]
أَسَأْتَ عَلَى اللّه فِي فِعْلِهِ ... كَأَنَّهُ لم تعرض لِي مَا وَهَبْ

والاعتراض قريب من الشرك، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام، كان أكثرهم من قريش وهم المشركون، ولما كان النور أعم من الدين والرسول، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، والإرسال والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ في معنى الأمر عند الفراء، يقال: هل أنت ساكت أي اسكت

---

(١) هذا البيت للشاعر منصور بن إسماعيل الفقيه وهو منصور بن إسماعيل الفقيه؟ - ٣٠٦هـ/ ؟ - ٩١٨م شاعر وفقيه شافعي، ضرير، أصله من رأس العين (بالجزيرة) سافر إلى بغداد في شبابه، ومدح بها الخليفة والمعتز ثم سكن مصر وتوفي بها. وكان خبيث اللسان في الهجو، ونقل عنه كلام في الدين، وشهد عليه بذلك شاهد، فقال القاضي (أبو عبيد) إن شهد عليه ثان ضربت عنقه فاستولى عليه الخوف ومات.

وبيانه: أن هل، بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضًا وحثًا، والحث كالإغراء، والإغراء أمر، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] دل عليه ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والتجارة عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء، وكما أن التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر، ورحمة الصبر على ما هو من لوازمه، فكذلك هذه التجارة وهي التصديق بالجنان والإقرار باللسان، كما قيل في تعريف الإيمان فلهذا قال بلفظ التجارة، وكما أن التجارة في الربح والخسران، فكذلك في هذا، فإن من آمن وعمل صالحًا فله الأجر، والربح الوافر، واليسار المبين، ومن أعرض عن العمل الصالح فله التحسر والخسران المبين، وقوله تعالى: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قرئ مخففًا ومثقلاً، و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف، كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو خبر في معنى الأمر، ولهذا أجيب بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة، جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس، ومنعها عن اللذات والشهوات، وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم ويرحمهم وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زادًا لمعاده فتكون على خمسة أوجه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني الذي أمرتم به من الإيمان بالله تعالى والجهاد في سبيله خير لكم من أن تتبعوا أهواءكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تنتفعون بما علمتم فهو خير لكم، **وفي الآية مباحث:**

الأول: لم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بلفظ الخبر؟ نقول: للإيذان بوجوب الامتثال، عن ابن عباس قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملنا، فنزلت هذه الآية، فمكثوا ما شاء الله يقولون: يا ليتنا نعلم ما هي؟ فدلهم الله عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

الثاني: ما معنى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نقول: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم كان خيرًا لكم، وهذه الوجوه للكشاف، وأما الغير فقال: الخوف من نفس العذاب لا من العذاب الأليم، إذ العذاب الأليم هو نفس العذاب مع غيره، والخوف من اللوازم كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ومنها أن الأمر بالإيمان كيف هو بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فنقول: يمكن أن يكون المراد من هذه الآية المنافقين، وهم الذين آمنوا في الظاهر، ويمكن أن يكون أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة آمنوا بالله وبمحمد رسول الله، ويمكن أن يكون أهل الإيمان كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤] وهو الأمر بالثبات كقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهو الأمر بالتجدد كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] وفي قوله ﷺ: «**من جدد وُضوءَهُ فكأنَّما جَدَّدَ إيمانَهُ**»[1]، ومنها: أن رجاء النجاة كيف هو إذا آمن بالله

(١) لم أجده.

ورسوله، ولم يجاهد في سبيل الله، وقد علق بالمجموع، ومنها أن هذا المجموع وهو الإيمان بالله ورسوله والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله خبر في نفس الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١١] لما أنه في معنى الأمر، كما مر فكأنه قال: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله يغفر لكم، وقيل جوابه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الصف: ١١] وجزم: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ لما أنه ترجمة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومحله جزم، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠] لأن محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ جزم على قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ وقيل: جزم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بهل، لأنه في معنى الأمر، وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إلى آخر الآية، من جملة ما قدم بيانه في التوراة، ولا يبعد أن يقال: إن الله تعالى رغبهم في هذه الآية إلى مفارقة مساكنهم وإنفاق أموالهم والجهاد، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني ذلك الجزاء الدائم هو الفوز العظيم، وقد مر، وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي تجارة أخرى في العاجل مع ثواب الآجل، قال الفراء: وخصلة أخرى تحبونها في الدنيا مع ثواب الآخرة، وقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو مفسر للأخرى، لأنه يحسن أن يكون: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفسرًا للتجارة إذ النصر لا يكون تجارة لنا بل هو ربح للتجارة، وقوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي عاجل وهو فتح مكة، وقال الحسن: هو فتح فارس والروم، وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

ثم في الآية مباحث:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ [الصف: ١١] لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك. ويقال أيضًا: بم نصب من قرأ: (نصرًا من الله وفتحًا قريبًا)، فيقال: على الاختصاص، أو على تنصرون نصرًا، ويفتح لكم فتحًا، أو على يغفر لكم، ويدخلكم ويؤتكم خيرًا، ويرى نصرًا وفتحًا، هكذا ذكر في الكشاف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإدامة النصرة والثبات عليه، أي ودوموا على ما أنتم عليه من

النصرة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: (كونوا أنتم أنصار الله) فأخبر عنهم بذلك، أي أنصار دين الله وقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني من يمنعني من الله، وقال عطاء: من ينصر دين الله، ومنهم من قال: أمر الله المؤمنين أن ينصروا محمدًا ﷺ كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام، وفيه إشارة إلى أن النصر بالجهاد لا يكون مخصوصًا بهذه الأمة، والحواريون أصفياؤه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلًا، وحواري الرجل صفيه وخلصاؤه من الحَوَر، وهو البياض الخالص، وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب، أي يبيضونها، وأما الأنصار فعن قتادة: أن الأنصار كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة ابن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام **ثم في الآية مباحث:**

البحث الأول: التشبيه محمول على المعنى، والمراد كونوا كما كان الحواريون.

الثاني: ما معنى قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؟ نقول: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين والذي يطابقه أن يكون المعنى: من عسكري متوجهًا إلى نصرة الله، وإضافة ﴿أَنصَارِي﴾ خلاف إضافة ﴿أَنصَارُ اللَّهِ﴾ لما أن المعنى في الأول: الذين ينصرون الله، وفي الثاني: الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله.

الثالث: أصحاب عيسى قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وأصحاب محمد لم يقولوا هكذا، نقول: خطاب عيسى عليه السلام بطريق السؤال فالجواب لازم، وخطاب محمد ﷺ بطريق الإلزام، فالجواب غير لازم، بل اللازم هو امتثال هذا الأمر، وهو قوله تعالى: ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

قال ابن عباس: يعني الذين آمنوا في زمن عيسى عليه السلام، والذين كفروا كذلك، وذلك لأن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء تفرقوا ثلاث فرق، فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفة المسلمة فقتلوهم وطردوهم في الأرض، فكانت الحالة هذه حتى بعث الله محمدًا ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، وقال مجاهد: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ يعني من اتبع عيسى، وهو قول المقاتلين، وعلى هذا القول معنى الآية: أن من آمن بعيسى ظهروا على من كفروا به فأصبحوا غالبين على أهل الأديان، وقال إبراهيم: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ وأن عيسى كلمة الله وروحه، قال الكلبي: ظاهرين بالحجة، والظهور بالحجة هو قول زيد بن علي رضي الله عنه، والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الصَّفّ

مَدَنِيَّةٌ في قول الجميع، فيما ذكر الماورديُّ[(١)]. وقيل: إنَّها مكِّيَّة، ، ذكره النحَّاس[(٢)] عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾

تقدَّم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ روى الدَّارِميُّ أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سَلاَم قال: قَعَدنا نَفَرٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ حتى ختمها.

قال عبد الله: فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سَلاَم. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٢٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢٢ .

(٣) ص٢٣٥ من هذا الجزء.

الأوزاعيُّ، وقرأها علينا محمد[١]. وقال ابن عباس: قال عبد الله بن رَوَاحة: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه، فلما نزل الجهاد كرهوه[٢].

وقال الكلبيُّ: قال المؤمنون: يا رسولَ الله، لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله، لسارعنا إليها، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين، فدلَّهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾ الآية. فابتُلُوا يوم أُحُد، ففرُّوا، فنزلت تعيِّرهم بترك الوفاء[٣].

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: اللَّهمَّ اشهد! لئن لقِينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ، ففرُّوا يوم أُحُد فعيَّرهم الله بذلك. وقال قتادة والضحَّاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأَبْلَيْنَا، ولم يفعلوا[٤].

وقال صُهيب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم، فَقَتَلْتُه. فقال رجل:

---

(١) سنن الدارمي (٢٣٩٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٣٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٣ من طريقين، عن محمد بن كثير، به. إلا أنه ورد في أسباب النزول مختصراً. قال الترمذي: وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي. وروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن سلام، أو عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام. اهـ. قلنا: هو عند أحمد (٢٣٧٨٩) من طريق يعمر، عن ابن المبارك، به.

وأخرجه ايضاً الحاكم ٢/ ٤٨٦-٤٨٧ من طريق الوليد بن مزيد وأبي إسحاق الفزاري، كلاهما عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن سلام، بنحوه. وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤١٩ : وقد وقع لنا سماع هذه السورة [يعني الصف] مسلسلاً في حديث ذكر في أوله سبب نزولها، وإسناده صحيح قلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٥٤ دون عزوٍ، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٤ (١٨٨٨٥) عن مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وقول قتادة والضحاك أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٦٠٨-٦٠٩ .

يا نبيَّ الله، إنِّي قتلت فلاناً، ففرح النبيُّ ﷺ بذلك. فقال عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عَوْف: يا صُهيب، أما أخبرتَ رسولَ الله ﷺ أنَّك قتلتَ فلاناً! فإنَّ فلاناً انْتَحَل قَتْلَه، فأخبره فقال: «أكذلك يا أبا يحيى»؟ قال: نعم، واللهِ يارسول الله، فنزلت الآية في المنتحِل[1]. وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين، كانوا يقولون للنبيِّ ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم، خرجنا معكم وقاتلنا، فلما خرجوا، نكصوا عنهم وتخلفوا[2].

الثانية: هذه الآية توجب على كلِّ من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة، أن يفيَ بها[3]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى[4] أنَّه بعث إلى قرَّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثُ مئةِ رجلٍ قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيارُ أهل البصرة وقرَّاؤهم، فاتْلُوه ولا يَطُولَنَّ عليكم الأمَدُ فتَقْسُوَ قلوبكم، كما قستْ قلوب من كان قَبلكم. وإنَّا كُنَّا نقرأ سورةً، كنَّا نُشبِّهها في الطُّول والشِّدَّة بـ«براءة» فأُنْسيتها، غيرَ أنِّي قد حفِظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يَملأُ جوفَ ابنِ آدم إلا التراب. وكنا نقرأ سورة كنَّا نشبهها بإحدى المسُبِّحات فأُنسيتها، غير أنِّي حفظتُ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فتُكْتَب شهادةً في أعناقكم فتُسألون عنها يوم القيامة. قال ابن العربيِّ[5]: وهذا كلُّه ثابت في الدِّين. أما قوله تعالى:

(١) الكشاف ٤/ ٩٦ ، وأورده أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٥٠ بنحوه، وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٩ للثعلبي، ومعنى قوله: وأنكاهم. أي: أصاب منهم. اللسان(نكي).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٩ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٤٢ .

(٤) برقم (١٠٥٠)، إلا أنه لم يرد فيه: عن أبي موسى، بل ورد فيه: عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه [وهو: ظالم بن عمرو الدِّيْلي]، قال: بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، ...الخبر.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٧، وما بين حاصرتين منه، والكلام الآتي كلُّه منه إلى قوله: والصحيح عندي أن الوفاء به على كل حال إلا لعذر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فثابت في الدِّين لفظاً ومعنًى في هذه السورة.

وأما قوله: «شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة» فمعنًى ثابتٌ في الدِّين؛ فإنَّ من التزم شيئاً، لزمه شرعاً. والملتَزَم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرُّبٍ مبتدأ كقوله: للهِ عليَّ صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القُرَب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً.

ونذرُ مباحٍ: وهو ما علِّق بشرطِ رغبةً، كقوله: إن قَدِمَ غائبي، فعليَّ صدقة، أو عُلِّق بشرط رهبةً، كقوله: إن كفاني الله شرَّ كذا، فعليَّ صدقة.

فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به[(١)]. وقال الشافعيُّ في أحد أقواله: إنَّهُ لا يلزمه الوفاء به[(٢)]. وعموم الآية حجَّة لنا؛ لأنَّها بمطلقها تتناول ذمَّ من قال مالا يفعله على أيِّ وجه كان من مطلق أو مقيَّد بشرط. وقد قال أصحابه: إنَّ النذر إنَّما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة. وهذا وإن كان من جنس القربة، لكنه لم يُقصَد به القربة، وإنَّما قصد مَنْع نفسه عن فعل، أو الإقدام على فعل. قلنا: القُرب الشرعية مَشَقَّات[(٣)] وكُلَف، وإن كانت قربات. وهذا تكلُّف [في] التزام هذه القربة بمشقَّة، لجَلْبِ نفع أو دفع ضرٍّ، فلم يخرج عن سنن التكليف، ولازال عن قصد التقرُّب. قال ابن العربيِّ: فإن كان المقول منه وعداً، فلا يخلو أن يكون منوطاً بسببٍ، كقوله: إن تزوَّجتَ، أعنتُك بدينار، أو ابتعتَ حاجةَ كذا، أَعطيتك [كذا]. فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء. وإن كان وعداً مجرَّداً، فقيل: يلزم بتعلُّقه[(٤)]. وتعلَّقوا بسبب الآية، فإنَّه روي أنَّهم كانوا يقولون: لو نعلم أيَّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله، لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهو حديث لا بأس به.

---

(١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ٤/ ١٨ ، وبدائع الصنائع ٦/ ٣٥٥ .

(٢) الأم ٧/ ٦١ .

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: مقتضيات.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي: بمطلقه.

وقد روي عن مجاهد أنَّ عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أُقتل[(١)]. والصحيح عندي: أنَّ الوعد يجب الوفاء به على كلِّ حال إلا لعذر.

قلت: قال مالك: فأما العِدَة مثل أن يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَهَب له الهبة، فيقولَ له: نعم. ثم يبدو له ألَّا يفعل، فما أرى ذلك يلزمه. وقال ابن القاسم: إذا وعَد الغرماءَ فقال: أُشهدكم أنِّي قد وهبت له من أين يؤدِّي إليكم[(٢)]، فإنَّ هذا يلزمه. وأما أن يقول: نعم أنا أفعل. ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي: لا يقضى عليه بذلك، فأمَّا في مكارم الأخلاق وحسن المروءة، فنَعَم. وقد أثنى الله تعالى على من صَدقَ وعده ووَفَى بنذره فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وقد تقدَّم بيانه.

الثالثة: قال النَّخَعِيُّ: ثلاث آيات منعتني أن أقصَّ على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

وخرَّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار، عن ثُمَامة، أنَّ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ ليلة أُسْرِيَ بي على قوم تُقرَض شفاههم بمقاريضَ من نار، كلَّما قُرِضت، وَفَت. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أُمَّتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرؤون كتابَ الله ولا يَعملون»[(٣)]. وعن بعض السلف أنَّه قيل له: حدِّثْنَا. فسكت. ثم قيل له: حدِّثْنَا. فقال: أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل،

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧١، وأخرجه عنه عبد الله بن المبارك في الجهاد (٣)، والطبري ٢٢/ ٦٠٧-٦٠٨.

(٢) في (خ)و(د) و(م): من أن يؤدي إليكم. والمثبت من (ف) و(ز) والتمهيد ٣/ ٢٠٨ والكلام منه.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٦-٣٨٧، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان(١٧٧٣) من طريق صدقة بن موسى والحسن بن جعفر، عن مالك بن دينار، به. وصدقة بن موسى ضعيف. ومعنى: وفت، أي: تمَّت وطالت. النهاية(وفا).

وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٠٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٢ من طريقين، عن سليمان التيمي، عن أنس بنحوه والإسنادان صحيحان.

فأستَعْجِلَ مَقْتَ الله[١]!.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير مالا يفعله؛ أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خُلْفاً، وكلاهما مذموم. وتأوّل سفيان بن عُيَينة قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لِمَ تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرونَ هل تفعلون أو لا تفعلون. فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قد يحتجُّ به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي[٢].

و«أنْ» رفع بالابتداء، وما قبلها الخبر، وكأنَّه قال: قولكم ما لا تفعلون مذمومٌ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف[٣]. الكسائي: «أن» في موضع رفع؛ لأنَّ «كَبُرَ» فعلٌ بمنزلة: بئسَ رجلاً أخوكَ[٤]. و«مَقْتاً» نصب بالتمييز، المعنى: كبر قولهم مالا يفعلونَ مقتاً[٥]. وقيل: هو حال. والمقت والمَقَاتة مصدران، يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبّه الناس[٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧ .

(٢) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٣ ، ونذر اللجاج والغضب: هو أن يمنع نفسه من فعل، أو يحثها عليه بتعليق التزام قربة بالفعل أو بالترك. ويقال فيه: يمين اللجاج والغضب، ويقال له أيضاً: يمين الغَلَق، ونذر الغَلَق. المجموع ٨/ ٣٧٦ .

(٣) المشكل لمكي ٢/ ٧٣٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٣ .

(٦) الصحاح (مقت) .

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي: يصفُّون صفًّا[١]: والمفعول مضمر، أي: يصفُّون أنفسهم صفًّا. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قال الفرَّاء[٢]: مرصوص بالرَّصاص. وقال المبرِّد: هو من رصصت البناء إذا لا أَمْتَ بينه وقاربتَ حتى يصيرَ كقطعة واحدة[٣]. وقيل: هو من الرصيص، وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض.

والتراصُّ: التلاصق. ومنه: وتراصُّوا في الصف[٤]. ومعنى الآية: يحبُّ مَن يثبت في الجهاد في سبيل الله، ويلزم مكانه كثبوت البناء[٥]. وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوِّهم.

الثانية: وقد استدلَّ بعض أهل التأويل بهذا على أنَّ قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأنَّ الفرسان لا يصطفُّون على هذه الصفة[٦]. المهدَوِيُّ: وذلك غير مستقيم؛ لما جاء في فضل الفارس فِي الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأنَّ معناه الثبات.

الثالثة: لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو فِي رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز، و لا خلاف فيها[٧]. وفي الخروج عن الصفِّ للمبارزة، خلاف على قولين: أحدهما: أنَّه لا بأسَ بذلك، إرهاباً للعدوِّ، وطلباً للشهادة، وتحريضاً على القتال. وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالباً لذلك؛ لأنَّ فيه رياءً وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوِّ. وإنما تكون

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٣١٢ ولم يعزه.

(٤) لسان العرب (رصص) بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٤ .

(٦) الكشاف ٤/ ٩٧ ، وذكره الطبري في التفسير ٢٢/ ٦١١ بنحوه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٩ ، وما بعده منه أيضاً.

المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبيِّ ﷺ يوم بَدْر، وفي غَزْوة خَيْبر، وعليه دَرَج السلف. وقد مضى القول مستوفى في هذا في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] [الآية: ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيَّن أنَّ موسى وعيسى أَمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحلَّ العقاب بمن خالفهما، أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصَّة[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة، حسب ما تقدَّم في آخر سورة«الأحزاب»[3]. ومن الأذى ما ذكر في قصَّة قارون: أنَّه دسَّ إلى امرأة تَدَّعي على موسى الفجور[4]. ومن الأذى قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[5] [الأعراف: ١٣٨]. وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[6] [المائدة: ٢٤]. وقولهم: إنَّك قتلتَ هارونَ. وقد تقدَّم هذا[7].

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول يُحترم ويعظَّم[8]. ودخلت «قد» على «تعلمون» للتأكيد؛ كأنَّه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهةَ لكم فيه.

---

(١) ٣/ ٢٦٠.

(٢) زاد المسير ٨/ ٢٥٣.

(٣) عند الآية (٦٩).

(٤) عرائس المجالس ص٢١٨.

(٥) سلفت ٩/ ٣١٧.

(٦) سلفت ٧/ ٣٩٩.

(٧) ٩/ ٣٤٨.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: مالوُا عن الحقِّ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: أمالها عن الهُدَى[١]. وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الطاعة «أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الهداية[٢].

وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الإيمان«أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الثواب. وقيل: أي: لما تركوا ما أمِرُوا به من احترام الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعة الربِّ، خَلَقَ اللهُ الضلالةَ في قلوبهم؛ عقوبةً لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي: واذكر لهم هذه القصَّة أيضاً. وقال: «يَابنِي إسرائيل» ولم يقل: «ياقوم» كما قال موسى؛ لأنَّه لا نسبَ له فيهم، فيكونون قومه.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾أي: بالإنجيل .﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ لأنَّ في التوراة صفتي، وأنِّي لم آتكم بشيء يُخالِفُ التوراة، فتنفروا عني .﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ مصدِّقاً.

«وَمُبَشِّراً» نصب على الحال[٣]، والعامل فيها معنى الإرسال. و«إليكم» صلة الرسول.

﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «مِنْ بَعْدِيَ» بفتح الياء[٤]. وهي قراءة السُّلَمِيِّ وزرِّ بن حُبيش وأبي بكر، عن عاصم. واختاره أبو حاتم؛

---

(١) زاد المسير ٨/ ٢٥٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والنشر ٢/ ٣٨٧ .

لأنَّه اسم، مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت. الباقون: بالإسكان. وقرئ: «من بعدي اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ[١].

و«أحمد» اسم نبيِّنا ﷺ. وهو اسم عَلَمٍ منقول من صفة، لا من فعل، فتلك الصفة «أفعل» التي يراد بها التفضيل. فمعنى «أحمد» أي: أَحْمَدُ الحامدين لربِّه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلُّهم حامدونَ الله، ونبيُّنا أحمدُ أكثرُهم حمداً.

وأمَّا محمد فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى: محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمَّد هو الذي حُمِد مرَّةً بعد مرَّةٍ. كما أنَّ المُكَرَّم من الكرم مرَّة بعد مرَّة. وكذلك الممدَّح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سمَّاه قبل أن يُسَمِّيَ به نفسَه. فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوَّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو محمود في الدنيا، لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة، بالشفاعة. فقد تكرَّر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ.

ثم إنَّه لم يكن مُحَمَّداً حتى كان أحمدَ، حَمِد ربَّه فَنبَّأه وشرَّفه، فلذلك تقدَّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: «اسْمُهُ أَحمَدُ». وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربُّه: تلك أمَّة أحمد، فقال: اللَّهُمَّ اجعلني من أمَّة أحمد. فبأحمد ذَكره قبل أن يذكره بمحمَّد؛ لأنَّ حَمْدَه لرَبِّه كان قبل حَمْدِ الناس له. فلما وُجد وبُعث، كان محمداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربَّه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربِّه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته[٢].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اسمي في التوراة: أحيد؛ لأنِّي أحيد أمَّتي عن النار، واسمي في الزبور: الماحي؛ محا الله بي عَبَدة الأوثان، واسمي في الإنجيل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ ونسبها إلى ابن محيصن وحمزة والكسائي.

(٢) من قوله: وأحمد، اسم نبينا ﷺ، إلى هنا من التعريف والإعلام ص١٦٩ ، والروض الأنف ١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

أحمد، واسمي في القرآن محمَّد؛ لأنِّي محمود في أهل السماء والأرض»[١]. وفي الصحيح: «لِي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بيَ الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قَدَمي، وأنا العاقب». وقد تقدَّم[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: عيسى[٣]. وقيل: محمَّد صلى الله عليهما وسلم[٤]. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة: «ساحر»[٥] نعتاً للرجل. وروي أنَّها قراءة ابن مسعود. الباقون: «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تقدَّم في غير موضع[٦]. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذا تعجُّب ممن كفر بعيسى ومحمَّد بعد المعجزات التي ظهرت لهما.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَهُوَ يَدَّعِي» بفتح الياء والدال وشدِّها وكسر العين[٧]، أي: ينتسب. ويَدَّعِي وينتسب سواء. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من كان في حكمه أنَّه يُختَم له بالضلالة.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٩ ، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٨٥ في ترجمة إسحاق بن بشر بنحوه وعزاه لابن عدي بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه: إسحاق بن بشر، وهو كذَّاب متروك، وأورده أيضاً الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص٣٢٦ ، وقال: في إسناده وضَّاع.

(٢) البخاري (٤٨٩٦) ، ومسلم (٢٣٥٤)، وسلف ١٠/ ٤٥١ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٨ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦١٣ .

(٥) السبعة ص٢٤٩ ، والتيسير ص١٠١ .

(٦) ٨/ ٣٣٩و٤٥٧ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٥ ، والمحتسب ٢/ ٣٢١ وما بعده منه، إلا أن القراءة وردت في مطبوع القراءات الشاذة هكذا: وهو يدعى إلا الإسلام. كما ينظر هامش القراءة المتعلِّق بها.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الإطفاء: هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يَجري مجراها من الضياء والظهور[١]. ويَفترق الإطفاء والإخماد من وجه، وهو أنَّ الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنَّما يستعمل في الكثير دون القليل، فيقال: أطفأت السراج، ولا يقال: أخمدت السراج.

وفي «نُور اللهِ» هنا خمسة أقاويل: أحدها: أنَّه القرآن، يريدون إبطالَه وتكذيبه بالقول، قاله ابن عباس وابن زيد.

والثاني: أنَّه الإسلام، يريدون دفعه بالكلام، قاله السُّدِّيُّ.

الثالث: أنَّه محمَّد ﷺ، يريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضحَّاك.

الرابع: حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، قاله ابن بحر.

الخامس: أنَّه مثَل مضروب، أي: من أراد اطفاءَ نور الشمس بِفِيْهِ، فوجده مستحيلاً ممتنعاً، فكذلك من أراد إبطال الحقِّ، حكاه ابن عيسى[٢].

وسبب نزول هذه الآية حكاه عطاء، عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يامعشرَ اليهود، أَبشِروا! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمَّد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ أمره. فحزن رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واتَّصل الوحي بعدها، حكى جميعَه الماورديُّ[٣] رحمه الله.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: بإظهاره في الآفاق. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «واللهُ مُتمُّ نُورِه»[٤] بالإضافة على نيَّة الانفصال، كقوله تعالى:

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ : والنور. والكلام ـ وما بعده ـ منه.

(٢) الأقوال الخمسة في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ ، وقول ابن زيد أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وشبهه، حسب ما تقدَّم بيانه في «آل عمران»[١]. الباقون: «مُتِمٌّ نُورَهُ» لأنَّه فيما يستقبل، فعمِل. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من سائر الأصناف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: محمَّداً بالحقِّ والرشاد. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالحجج. ومن الظهور الغلبَةُ باليد في القتال، وليس المراد بالظهور ألَّا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد: يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألَّا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان. قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلَّا دين الإسلام[٢].

وقال أبو هريرة: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» بخروج عيسى[٣]. وحينئذ لايبقى كافر إلا أسلم. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاص، فلا يُسْعَى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسدُ، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ»[٤]. وقيل: «لِيُظْهِرَهُ»أي: ليطلع محمَّداً ﷺ على سائر الأديان، حتى يكون عالماً بها، عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حَرَّفوا وغَيَّروا منها. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي: الأديان؛ لأنَّ الدين مصدر يعبَّر به عن جمع.

---

(١) ٥/ ٤٤٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ٤٢٣ و٢٢/ ٦١٥.

(٤) مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو عند أحمد (١٠٤٠٤)، والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. النهاية (قلص).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون، وذلك أنَّه قال لرسول الله ﷺ: لو أَذِنْتَ لي فطلَّقتُ خَوْلة، وتَرَهَّبْتُ واخْتَصَيْتُ وحَرَّمْتُ اللَّحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أُفطر بنهار أبداً! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِن سُنَّتي النكاح، ولا رَهبَانيَّةَ في الإسلام، إنَّما رهبانية أمَّتي الجهادُ في سبيل الله، وخِصاءُ أُمَّتي الصومُ، ولا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لكم. ومِنْ سُنَّتي أنام وأقوم، وأُفطر وأصوم، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي». فقال عثمان: واللهِ لوَدِدْتُ يا نبيَّ الله أيَّ التجاراتِ أحبُّ إلى الله فأتَّجر فيها، فنزلت[1].

وقيل: «أَدُلُّكُمْ» أي: سأدلكم. والتجارة: الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب.

---

(١) لم نقف عليه هكذا، بل ورد معناه في عدة أحاديث، منها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، وأحمد (١٥٨٨) عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد ردَّ ذلك ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ على عثمان بن مظعون التبتُّلَ، ولو أَذِنَ له لاختصينا. ومنها: ما أخرجه أحمد (١٣٨٠٧)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٠٤) عن أنس، عن النبي ﷺ قال: لكل نبيٍّ رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله. ومنها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٤) عن عبد الله قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. ومنها ما أخرجه البخاري (٥٠٦٣) عن أنس في الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها... فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وهو عند مسلم (١٤٠١) بنحوه.

الثانية: قوله: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تخلصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم. وقد تقدَّم[١].

وقراءة العامة: «تُنْجِيكُمْ» بإسكان النون من الإنجاء. وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة: «تُنَجِّيكُمْ» مشدَّداً[٢]، من التَّنجية. ثم بيَّن التجارة وهي المسألة:

الثالثة: فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ذكر الأموال أوّلاً؛ لأنَّها التي يبدأ بها في الإنفاق. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. و«تُؤْمِنُونَ» عند المبرِّد والزجَّاج[٣] في معنى: آمنوا، ولذلك جاء «يَغْفِرْ لَكُمْ» مجزوماً على أنَّه جواب الأمر. وفي قراءة عبد الله «آمنوا بالله»، وقال الفرَّاء: «يَغْفِرْ لَكُمْ» جواب الاستفهام، وهذا إنَّما يصحُّ على الحمل على المعنى، وذلك أن يكون «تُؤْمِنُونَ بِالله وتُجَاهِدُونَ» عطف بيان على قوله: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَارةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» كأنَّ التجارة لم يُدْرَ ماهي، فبُيِّنت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. فكأنَّه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون، يغفر لكم. الزَّمَخْشرِيُّ[٤]: وجه قول الفرَّاء أنَّ متعلَّق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسَّرة بالإيمان والجهاد. كأنَّه قيل: هل تتَّجرون بالإيمان والجهاد، يغفر لكم. قال المهدوِيُّ: فإن لم تقدِّر هذا التقدير، لم تصحَّ المسألة؛ لأنَّ التقدير يصير: إن دُللتم، يغفر لكم، والغفران إنَّما نُعت بالقبول والإيمان، لابالدلالة. قال الزجّاج[٥]: ليس إذا دلَّهم على ما ينفعهم، يغفر لهم، إنَّما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن عليّ: «تؤمنوا»، «وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر، كقوله:

---

(١) ١/ ٣٠١.

(٢) السبعة ص٦٣٥، والتيسير ص٢١٠.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦، وقراءة ابن مسعود فيه، وفي معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤، وما بعده منه أيضاً.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠٠.

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦.

مـحـمَّـدُ تَـفْـدِ نـفـسَـكَ كـلُّ نـفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مـن شـيء تَـبَـالا[١]

أراد: لِتَفْدِ. وأدغم بعضهم فقال: «يغفر لكم»[٢] والأحسن ترك الإدغام؛ لأنَّ الراء حرف متكرِّر قويٌّ، فلا يحسن إدغامه في اللام؛ لأنَّ الأقوى لا يُدغَم في الأضعف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرَّج أبو الحسين[٣] الآجُرِّي عن الحسن قال: سألتُ عمرانَ بنَ الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية: «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً» فقالا: على الخبير سقطتَ، سَأَلْنا رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «قَصْرٌ من لؤلؤة في الجنَّة، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار سبعون بيتاً من زَبَرْجَدة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كلِّ لَوْن، على كلِّ فراش سبعون امرأةً من الحُور العين، في كلِّ بيت سبعون مائدة، على كلِّ مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كلِّ بيت سبعون وَصيفاً ووصيفة، فيُعطي الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوَّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كلِّه».

﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادة الدائمة الكبيرة. وأصل الفوز الظَّفَر بالمطلوب.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠٠، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٢٦٣، والبيت سلف ٤/ ٤٣٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٧ ونسبها لأبي عمرو بن العلاء، وما بعده منه أيضاً.

(٣) كذا في النسخ، ولعلّه: محمد بن الحسين الآجري في كتابه «النصيحة»، كما عزاه إليه السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٣٧٦، والحديث أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (١٥٧٧)، والبزار في البحر الزخار (٣٥٦٣)، والطبري ١١/ ٥٥٨-٥٥٩، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ١٨٣٩ (١٠٣٠٢)، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٦٠ (٣٥٣) من طرق، عن الحسن، به.

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٠٤) وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفي إسناده: جسر بن فرقد، قال يحيى: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال أبو حاتم بن حبان: خرج عن حدِّ العدالة. اهـ. وأورده أيضاً ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٣٨٢-٣٨٣. اهـ. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٠/ ٢٨٦: وهذا الحديث غريب، بل الأشبه أنه موضوع، وإذا كان الخبر ضعيفاً لم يمكن اتصاله، فإن جسراً هذا ضعيف جداً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ قال الأخفش والفرَّاء: «أُخْرَى» معطوفة على «تِجَارَةٍ» فهي في محلِّ خفض[(١)]. وقيل: محلُّها رفع، أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة تحبونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو نصر من الله، فـ«نصر» على هذا تفسير «وأخرى»[(٢)]. وقيل: رفع على البدل من «أُخْرَى» أي: ولكم نصر من الله[(٣)]. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: غنيمة في عاجل الدنيا[(٤)]، وقيل: فتح مكة. وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم[(٥)]. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكَّد أمر الجهاد، أي: كونوا حوارِيَّ نبيِّكم؛ ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواريَّ عيسى على مَن خالفهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «أنصاراً لِلهِ» بالتنوين[(٦)]. قالوا: لأنَّ معناه: اثبتوا وكونوا أعواناً لِلهِ بالسيف على أعدائه[(٧)]. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام: «أنصار الله» بلا تنوين، وحذفوا لامَ الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عُبيد لقوله: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ» ولم ينوَّن، ومعناه: كونوا أنصاراً لدين الله[(٨)]. ثم قيل: في الكلام إضمار، أي: قل لهم يا محمَّد: كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء

---

(١) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٨ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٩٣ ، ونسب القول الأول للكلبي، والثاني لعطاء.

(٦) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٩ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٣ .

خطاب من الله، أي: كونوا أنصاراً، كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً، وكانوا حواريِّين.

والحوَارِيُّون: خواصُّ الرسل. قال مَعْمَر: كان ذلك بحمد الله، أي: نصروه وهم سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلةَ العَقَبَة[(١)]. وقيل: هم من قريش، وسمَّاهم قتادة: أبا بكر، وعمر، [وعثمان]، وعليّاً، وطلحة، والزبير، وسعد بن مالك، وأبا عبيدة ـ واسمه عامر ـ وعثمان بن مَظْعُون، وحمزة بن عبد المطلب، ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب ﷺ أجمعين[(٢)]. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران»[(٣)]، وهم أوَّل من آمن به من بني إسرائيل، قاله ابن عباس[(٤)]. وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلتَ القريةَ فَأْتِ النهر الذي عليه القَصَّارون، فاسألهم النُّصرة، فأتاهم عيسى وقال: مَن أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك. فصدَّقوه ونصروه. ومعنى «مَنْ أَنْصَارِي إلى اللهِ» أي: مَن أنصاري مع الله، كما تقول: الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل، أي: مع الذَّوْد. وقيل: أي: مَن أنصاري فيما يقرِّب إلى الله. وقد مضى هذا في «آل عمران»[(٥)]. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدَّم في «آل عمران»[(٦)] بيانه. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالبين[(٧)]. قال ابن عباس: أيَّد الله الذين آمنوا في

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢٠-٦٢١، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٩ بهامش الإصابة) عن معمر، عن قتادة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٧٠، وما بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢١، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤، إلا أنهم زادوا: عبد الرحمن ابن عوف.

(٣) ٥/ ١٤٩ ولم يذكر هناك أسماءهم، بل ذكر سبب تسميتهم.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠١ دون عزو.

(٥) ٥/ ١٤٨، والذَّوْدُ من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر، والمعنى: إذا جمعتَ القليل مع القليل، صار كثيراً. الصحاح (ذود).

(٦) ٥/ ١٥٤.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٤.

زمن عيسى بإظهار محمَّد على دين الكفار[١]. وقال مجاهد: أُيِّدوا في زمانهم على مَن كفر بعيسى. وقيل: أَيَّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالَّتين، من قال: كان الله فارتفع، ومن قال: كان ابْنَ الله فرفعه الله إليه؛ لأنَّ عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً، ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد بن عليٍّ وقتادة: «فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ»: غالبين بالحجَّة والبرهان؛ لأنَّهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمونَ أنَّ عيسى كان ينام، واللهُ لا ينام، وأنَّ عيسى كان يأكل، واللهُ تعالى لا يأكل!. وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال ابنُ اسحاق[٢]: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريِّين والأتباع فطرس[٣] وبولس إلى رُومِية، وأندراييس[٤] ومثى[٥] إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس[٦] إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس[٧] إلى قُرْطَاجَنَّة، وهي أفريقية. ويحنس[٨] إلى دفسوس[٩] قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورِيشَلم وهي بيت المقدس. وابن تلما إلى العرابية[١٠] وهي أرض الحجاز. وسِيمن إلى أرض البربر.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٩ بنحوه.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦٠٣ ، وقد اختلفت النسخ الخطية في رسم هذه الأسماء، فأثبتناه من التاريخ كما هو، ثم أشرنا إلى اختلاف النسخ الخطية، ووردت أسماءهم أيضاً عند الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤ ، والماوردي في المحبر ص٤٦٤ بنحو ما ذكر هنا، وينظر لزاماً: الإعلام بأصول الأعلام للدكتور عبد الرحيم، وقاموس الكتاب المقدس.

(٣) في (ف) و(د) و(خ): قطرس، وفي (ظ): يطرس.

(٤) في (خ): اندراريس.

(٥) في (ف): متا، وفي (خ): ومتنا.

(٦) في (ف) و(خ): بوناس، وفي (د): اتوناس.

(٧) في (ف) : قليس، وفي (خ): قَيْلِيْس.

(٨) ضبطها في (ع) هكذا: يُحَنْس.

(٩) في (ف) و(د) و(خ) : أقسوس. وفي (ظ): أفسوس.

(١٠) في النسخ الخطية: الأعرابية.

ويهوذا وبردس[١] إلى الإسكندرية وما حولها. فأيَّدهم الله بالحجَّة ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ﴾ أي: عالين، من قولك: ظهرتُ على الحائط، أي: عَلَوْت عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سُورَةُ الصَّفِّ

مَدنيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ[1]، وآيها أربعَ عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبقَ تفسيرُه.

(٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّ المسلمينَ قالوا: لو عَلِمْنا أحبَّ الأَعمالِ إلى اللهِ لبَذَلْنا فيهِ أَموالَنا وأنفُسَنا فأنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ فولَّوا يومَ أحدٍ، فنزَلَتْ[2].

و﴿لِمَ﴾ مركَّبَةٌ مِن لامِ الجرِّ و(ما) الاستفهاميَّةِ، والأكثرُ حذفُ ألِفِها مع حرفِ الجرِّ لكثرةِ استعمالِهِما معًا واعتِناقِهِما في الدلالةِ على المُستفهَمِ عنه.

(٣) ـ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المَقْتُ: أشَدُّ البُغْضِ،

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٤٥)، وفيه: مدنية في قول قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكِّيَّة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٩٩)، قال الذهبي في «التلخيص»: على شرط البخاري ومسلم.

ونصبُه على التَّمييزِ للدَّلالةِ على أنَّ قولَهُم هذا مقتٌ خالصٌ كبُرَ عندَ مَن يَحقُرُ دونَهُ كلُّ عظيمٍ مُبالغَةً في المنعِ عنهُ.

(٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ مُصطفِّينَ، مَصدرٌ وُصِفَ به.

﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ في تراصِّهم مِن غيرِ فُرجةٍ، حالٌ مِن المستكنِّ في الحالِ الأولى.

والرَّصُّ: اتِّصالُ بعضِ البناءِ بالبعضِ واستحكامُه.

(٥) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكر، أو كانَ كذا.

﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالعِصيانِ والرَّمي بالأُدْرةِ.

﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ بما جِئتُكم مِن المُعجزاتِ، والجملةُ حالٌ مُقرِّرةٌ للإنكارِ، فإنَّ العلمَ بنبُوَّتِه يوجِبُ تَعظيمَه ويمنَعُ إيذاءَه، و(قد) لتَحقيقِ العلمِ.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عن الحقِّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ صَرَفَها عن قبولِ الحقِّ والميلِ إلى الصَّوابِ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هدايةً مُوصِلَةً إلى معرفةِ الحقِّ أو إلى الجنَّةِ.

(٦) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولعلَّه لم يقل: (يا قوم) كما قالَ مُوسى؛ لأنَّه لا نسبَ له فيهِم.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا﴾ في حالِ تَصديقِي لما تقدَّمني مِن التَّوراةِ وتَبشيرِي ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ والعامِلُ في الحالينِ ما في الرَّسولِ مِن معنى الإرسالِ لا الجارِّ؛ لأنَّه لغوٌ إذ هو صِلَةٌ للرَّسولِ فلا يعملُ.

﴿اَسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني: محمدًا عليه السَّلامُ، والمعنى: ديني التَّصديقُ بكُتُبِ اللهِ وأنبيائِه، فذكرَ أوَّلَ الكتبِ المَشهورةِ الذي حكم به النَّبيُّونَ، والنَّبيَّ الذي هو خاتَمُ المُرسلَين(١).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الإشارةُ إلى ما جاءَ به أو إليه، وتَسمِيَتُه سِحرًا للمُبالغَةِ، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ: ﴿هذا ساحرٌ﴾(٢) على أنَّ الإشارةَ إلى عيسى.

(٧) - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّنْ يُدعى إلى الإسلامِ الظَّاهرِ حَقِّيَّتُه المقتضى له خيرُ الدَّارينِ فيضعُ مَوضِعَ إجابَتِه الافتراءَ على اللهِ بتكذيبِ رَسُولِه وتسميةِ آياتِه سِحرًا، فإنَّه يَعُمُّ إثباتَ المنفيِّ ونفيَ الثَّابتِ.

وقُرِئَ: (يُدَّعَى)(٣) يقال: دَعاهُ وادَّعاهُ كـ: لَمَسهُ والتَمَسهُ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يُرشِدُهُم إلى ما فيه فلاحُهُم.

(٨) - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾ أي: يريدونَ أن يُطفِئُوا، واللامُ مَزيدَةٌ لِمَا فيها مِن مَعنى الإرادةِ تأكيدًا(٤) كما زِيدَتْ لِمَا فيها مِن مَعنى الإضافةِ تأكيدًا لها في: (لا أبا لك)، أو يريدونَ الافتراءَ ليُطفِئُوا.

﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني: دينَهُ أو كتابَهُ أو حُجَّتَه ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطَعنِهِم فيه.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «خاتم النَّبيين».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٣) وهي قراءة طلحة بن مصرف، انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢١)، و«الكشاف» (٩/ ٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٣).

(٤) في نسخة الخيالي زيادة: «لها».

﴿والله متِمٌّ نورَهُ﴾ مبلِّغٌ غايَتَه بنَشرِه وإعلائِه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالإضافةِ[1].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إرغامًا لهم.

(٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقُرآنِ والمُعجِزَةِ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والمِلَّةِ الحنيفيَّةِ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبَه على جميعِ الأَديانِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لِمَا فيهِ مِن محضِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ.

(١٠) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿تُنَجِّيكُم﴾ بالتَّشديدِ[2].

(١١) - ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ للتِّجارةِ، وهو الجمعُ بينَ الإيمانِ والجهادِ المُؤدِّي إلى كمالِ عزِّهم[3]، والمرادُ به الأمرُ، وإنَّما جيءَ بلَفظِ الخبرِ إيذانًا بأنَّ ذلك مما لا يُترَكُ.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: ما ذكرَ مِن الإيمانِ والجِهادِ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إنْ كُنتم مِن أهلِ العلمِ؛ إذ الجاهلُ لا يُعتَدُّ بفعلِه.

(١٢) - ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأَمرِ المَدلولِ عليه بلفظِ الخبرِ، أو لشرطٍ أو استفهامٍ دلَّ عليه الكلامُ تقديرُه: أن تُؤمِنُوا وتُجاهِدُوا، أو هَلْ تَقبلونَ أَنْ أَدُلَّكُم يغفِر لكم، ويبعُدُ جعلُه جوابَ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ لأنَّ مُجرَّدَ دلالته لا تُوجِبُ المغفرةَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «غيرهم»، وفسره الخفاجي بقوله: لأَنَّهُ يحملهم على الإسلام. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكرَ مِن المغفرةِ وإدخالِ الجنَّةِ.

(١٣) ـ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذهِ النِّعمَةِ المذكورةِ نِعمَةٌ أُخرَى عاجِلَةٌ مَحبوبَةٌ، وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريضٌ بأنَّهُم يُؤثِرونَ العاجلَ على الآجلِ.

وقيل: ﴿أخرى﴾ منصوبةٌ بإضمارِ: يُعطِكُم أو تُحبُّونَ، أو مبتدأٌ خبرُه:

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو على الأوَّلِ بدلٌ أو بيانٌ، وعلى قولِ النَّصبِ خبرُ محذوفٍ، وقَدْ قُرِئَ بما عطفَ عليه بالنَّصبِ(١) على البدلِ أو الاختصاصِ أو المصدرِ.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾ عاجلٌ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، مثل: قُلْ يا أيها الذينَ آمَنُوا وبشِّر، أو على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّه في معنى الأمرِ، كأنَّه قال: آمِنُوا وجاهِدُوا أيُّها المؤمنونَ وبشِّرْهُم يا رسولَ اللهِ بما وعدتَهُم عليه آجلًا وعاجِلًا.

(١٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقرأَ الحِجازيَّانِ وأبو عمرٍو بالتَّنوينِ واللامِ(٢)، لأنَّ المعنى: كونوا بعضَ أنصارِ اللهِ.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن جُندي مُتوجِّهًا إلى نصرةِ اللهِ؛ ليطابقَ قولَه:

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والإضافةُ الأُولى إضافةُ أحدِ المُتشاركينِ إلى الآخرِ لِمَا بينَهُما مِن الاختصاصِ، والثَّانيةُ إضافةُ الفاعلِ إلى المفعولِ(٣)، والتَّشبيهُ باعتبارِ

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٤)، و«البحر» (٢٠/ ٣١٩) عن ابن أبي عبلة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠)، و«النشر» (٢/ ٣٨٧).

(٣) قوله: «والإضافة الأولى»؛ أي: في ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾، «والثانية»؛ أي: في ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٣٠).

المعنى؛ إذ المرادُ: قُل لَهُم كمَا قال عيسى، أو كونوا أنصارًا كما كانَ الحواريُّونَ حينَ قال لهم عيسَى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والحواريُّونَ: أصفياؤُه وهُمْ أَوَّلُ مَن آمنَ به، مِن الحَوَارِ[1] وهو البياضُ، وكانوا اثْنَي عشرَ رَجُلًا.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ أي: بعيسى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بالحُجَّةِ أو بالحربِ، وذلك بعدَ رَفعِ عيسى ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالِبينَ.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ الصفِّ كان عيسى مصليًّا عليه مُستغفرًا له ما دامَ في الدُّنيا وهو يومَ القيامةِ رَفيقُه»[2].

***

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «من الحور»، وأشار الخفاجي في «حاشيته» إلى النسختين.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٤٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٩٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦١) سورة الصف مدنية
وآياتها أربع عشرة

روى الترمذي، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إنكار على من يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان»، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ الآية، وهكذا هذه الآية كما قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عزّ وجلّ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيّه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا بالإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها

---

(١) أخرجه الترمذي والإمام أحمد.

الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[1] ؟ وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ فبين لهم، فابتلوا يوم أُحُد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين، فأنزل الله في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال قتادة والضحّاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا ؛ ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد: نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون لهم بذلك، وقال مجاهد: نزلت في نفر من الأنصار فيهم (عبدالله بن رواحة)، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت ؟ فأنزل الله تعالى هذا فيهم، فقال عبدالله بن رواحة: لا أبرح حبيساً في سبيل الله أموت فقتل شهيداً .

ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين، إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذ صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال »[2] . وقال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: لله أبوك، فقد لقيت فهات، فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم **أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة**، قال: أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ، قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عزّ وجلّ ؟ قال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً، فلقي العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] وذكر الحديث. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ أي ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس : ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض، وقال ابن جرير، عن يحيى ابن جابر الطائي، عن أبي بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ قال، وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفت في الصف فجأوا[4] في لحيي .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم

(١) وهذا اختيار ابن جرير .

(٢) أخرجه ابن ماجة والإمام أحمد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والنسائي بنحوه . (٤) فجأوا: أي اضربوا (من: وجأ عنقه أو في عنقه) ضربه .

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون إني رسول الله إليكم﴾، أي لم توصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفّار . وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى: ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني التوراة، وقد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي (أحمد) فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن لي أسماء، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب »[1] . قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد ، لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أُمّته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »[2]. وقال رسول الله ﷺ: « إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أُمّي التي رأت وكذلك أُمَّهات النبيين يرين »[3]. وروى أحمد عن أبي أمامة قال، قلت: يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام »[4]. وقال عبدالله بن مسعود : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً، منهم (عبدالله بن مسعود) و (جعفر) و (عبدالله ابن رواحة) و (عثمان بن مظعون) و (أبو موسى) فأتوا النجاشي، وبعثت قريش (عمرو بن العاص) و (عمارة

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم بنحوه .

(٢) رواه ابن إسحاق ، قال ابن كثير : إسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن العرباض بن سارية مرفوعاً .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

ابن الوليد) بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له : إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا ، وعن ملتنا ، قال: فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلّم ولم يسجد ، فقالوا له : مالك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عزّ وجل ، قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم ، قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأُمّه ؟ قال : نقول كما قال الله عزّ وجلّ : هو كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ، ولم يعترضها ولد ، قال ، فرفع عوداً من الأرض ، ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجده في الإنجيل ، وأنه الذي بَشّر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فرُدَّتْ إليهما[1] . **والمقصد** أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بُعث ، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض ، على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكّة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، وكذا على لسان عيسى بن مريم ، ولهذا قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بن مريم ، ورؤيا أمي التي رأت » أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص ، فذكره صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ قال ابن جريج ، ﴿ فلما جاءهم ﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿ هذا سحر مبين﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ ، أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يُدْعى إلى التوحيد والإخلاص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفيء شُعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ، وقد تقدّم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السير .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فسَّر الله تعالى هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها، ثم قال تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، ولهذا قال تعالى: ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿وأُخْرَى تحبونها﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وقال تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿وفتح قريب﴾ أي عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى، حين قال: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ﴿قال الحواريون﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نحن أنصار الله﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به، وموازروك على ذلك، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» حتى قيض الله عزّ وجلّ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ﷺ ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله (الأنصار) وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم. وقوله تعالى: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة

إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قـائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء . وقوله تعالى: ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي عليهم وذلك ببعثة محمد ﷺ . قال ابن عباس: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ، فأُمّة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الصف ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الصّف

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ــ وعن عطاء بن يسار ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلينا رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيد البيروتى(٢) قراءة قال : أخبرنى أبى ، سمعت الأوزاعى ، حدثنى يحيى بن أبى كثير ، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، حدثنى عبد الله ابن سلام . أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهبْنَا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلا رجلا حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة : (سبح) الصف قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها . قال أبو سلمة : وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها ، قال يحيى بن أبى كثير وقرأها علينا أبو سلمة كلها . قال الأوزاعى : وقرأها علينا يحيى بن أبى كثير كلها . قال أبى : وقرأها علينا الأوزاعى كلها .

وقد رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى : حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم : أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه . فأنزل الله : **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . [كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا](٣) ﴾** قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة . قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعى . قال عبد الله : فقرأها علينا ابن كثير .

ثم قال الترمذى : وقد خولف محمد بن كثير فى إسناد هذا الحديث عن الأوزاعى ، فروى ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن هلال بن أبى ميمونة ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن سلام ــ أو : عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام (٤) .

قلت : وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن يَعْمَر ، عن ابن المبارك ، به (٥) .

---

(١) المسند (٥/ ٤٥٢) .

(٢) فى أ : « السرورى » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٩) .

(٥) المسند (٥/ ٤٥٢) .

قال الترمذى : وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعى ، نحو رواية محمد بن كثير .

قلت : وكذا رواه الوليد بن يزيد ، عن الأوزاعى ، كما رواه ابن كثير .

قلت : وقد أخبرنى بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبى طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع ، أخبرنا أبو المُنَجَّا عبد الله بن عُمَر بن اللَّتى (١) ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى ابن شُعَيب السِّجْزىّ قال : أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود الداودى، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَمَّوَيَة السرَخسِىّ ، أخبرنا عيس بن عُمَر بن عمران السمرقندى ، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى بجميع مسنده (٢) ، أخبرنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى . . . فذكر بإسناده مثله ، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبى العباس الحجار ، ولم يقرأها ، لأنه كان أميا ، وضاق الوقت عن تلقينها إياه . ولكن أخبرنى الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، رحمه الله : أخبرنا القاضى تقى الدين سليمان بن الشيخ أبى عمر ، أخبرنا أبو المنجا بن اللَّتى (٣) . . . فذكره بإسناده ، وتَسلل (٤) لى من طريقة، وقرأها على بكمالها ، ولله الحمد والمنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ .

تقدم الكلام على قوله : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ إنكار على من يَعد عدَةً ، أو يقول قولا لا يفى به ، ولهذا استد بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث :إذا حَدَّث كذب ،وإذا وَعَد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»(٥) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصْلَة من نفاق حتى يَدَعها » (٦). ـ فذكر منهن إخلاف الوعد . وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة . ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ .

---

(١) فى أ :« الليثى » . (٢) فى أ : « سنده » . (٣) فى أ : « الليثى » .

(٤) فى أ : « وتسلسل » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وقد روى الإمام أحمدُ وأبو داود ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ [في بيتنا] (١) وأنا صبى قال : فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمى : يا عبد الله : تعال أعطك . فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تُعطيه ؟ » . قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لو لم تفعلى كُتبت عليك كِذْبة » (٢) .

وذهب الإمام مالك ،رحمه الله ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : « تزوج ولك على كل يوم كذا » . فتزوجَ ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمى ، وهو مبنى على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيَّة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ، قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله ــ عز وجل ــ دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعملَ به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به (٣) لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير (٤) .

وقال مقاتل بن حَيّان :قال المؤمنون : لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ،فولوا عن النبى ﷺ مدبرين ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى .

ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل : «قاتلت» ، ولم يقاتل (٥) . «وطعنت» ، ولم يطعن و«ضربت» ، ولم يضرب و«صبرت» ، ولم يصبر .

وقال قتادة ، والضحاك : نزلت (٦) توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا» . ولم يكونوا فعلوا ذلك .

---

(١) زيادة من المسند .

(٢) المسند (٣/ ٤٤٧) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩١) .

(٣) فى م :« إيمان بالله » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٦) .

(٥) فى م : « ولم أقاتل » .

(٦) فى م :« أنزلت » .

وقال ابن يزيد : نزلت فى قوم من المنافقين ، كانوا يَعدون المسلمين النصرَ ، ولا يَفُون لهم بذلك.

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ ؟ ، قال : فى الجهاد .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ إلى قوله :﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ فما بين ذلك : فى نفر من الأنصار ،فيهم عبد الله بن رواحة ، قالوا فى مجلس : لو نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت .فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح (١) حبيسا فى سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا على بن مُسْهِر (٢) ، عن داود بن أبى هند ،عن أبى حَرْب بن أبى الأسود الدِّيلى (٣) ، عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل ، كلهم قد قرأ القرآن ، فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات ، فأنسيناها ، غير أنى قد حفظت منها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ . فتكتب شهادة فى أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِه صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ ، فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله فى حومة الوغى ، يقاتلون فى سبيل الله مَن كفر بالله ،لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان.

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا هُشَيْم ، قال مُجالد أخبرنا عن أبى الودَّاك، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .

ورواه ابن ماجة من حديث مجالد ، عن أبى الوَدَّاك جبر بن نوف ، به (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا الأسود ــ يعنى ابن شيبان ــ حدثنى يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : قال مُطرِّف : كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغنى عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالنى أكذب على خليلى ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا فى سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل ، ثم قرأ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِه صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ . . . وذكر الحديث .

---

(١) فى أ :« فما أبرح » . (٢) فى أ : « شهر » . (٣) فى أ : « الديلمى » .

(٤) المسند (٣/ ٨٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٧/١) :« هذا إسناد فيه مقال، مجالد بن سعيد وإن أخرج له مسلم فى صحيحه فإنما روى له مقروناً بغيره قال ابن عدى : عامة ما يرويه غير محفوظ » .

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق ، وبهذا اللفظ ، واختصره . وقد أخرجه الترمذى والنسائى من حديث شعبة ، عن منصور بن المعتمر ، عن رِبْعَى بن حِرَاش ، عن زيد بن ظَبْيَان ، عن أبى ذَرّ بأبسط من هذا السياق وأتم (١) وقد أوردناه فى مواضع أخر ،ولله الحمد .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : « عبدى المتوكل المختار ليس بفَظٍّ ولا غَليظ ولا سَخَّاب فى الأسواق ، ولا يخزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطابة،وملكه بالشام ، وأمته الحمادون يحمَدُون الله على كلّ حال ، وفى كل منزلة ، لهم دَوِىٌّ كدوى النحل فى جو السماء بالسحَر ، يُوَضّون أطرافهم ، ويأتزرون على أنصافهم ، صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ **إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقَاتلُونَ فِى سَبِيلِه صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ ، « رعاة الشمس ، يصلون الصلاة حيث أدركتهم، ولو على ظهر دابة » رواه ابن أبى حاتم .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقَاتلُونَ فِى سَبِيلِه صَفًّا** ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال .

وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .

وقال ابن عباس : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : مُثَبّت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض .

وقال قتادة : ﴿**كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل [يحب أن] (٢) لا يختلف أمره ،وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفَّهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد بن عَمرو السكونى ، حدثنا بَقيَّة بن الوليد ،عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن يحيى بن جابر الطائى ، عن أبى بحرية (٣) قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبون القتال على الأرض ، لقول الله عز وجل : ﴿ **إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقَاتلُونَ فِى سَبِيله صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ قال : وكان أبو بحرية (٤) يقول : إذا رأيتمونى التفتُّ فى الصف فَجَئُوا فى لَحْيِى (٥) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٨) وسنن النسائى (٥/ ٨٤،٣/ ٢٠٧) وقال الترمذى :« هذا حديث صحيح » .
(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « عن أبى يحيى به » . (٤) فى أ : « أبو بحيرة » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٧) .

بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ **لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ** ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب [١] من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[٢] .وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى ﷺ أو يُوصّلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ [الأحزاب :٦٩] .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ يعنى : التوراة قد بَشَّرَت بى ، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشِّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ، هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام [٣] فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة .وما أحسن ما أورد البخارى الحديثَ الذى قال فيه:

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى محمد بن جُبَير بن مُطعم ، عن أبيه قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

ورواه مسلم ، من حديث الزهرى ، به نحوه [٤] .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى عُبَيدة ، عن أبى موسى قال : سَمَّى لنا رسول الله ﷺ نَفسه أسماءَ ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ،والتوبة ،والملحمة » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، به [٥] .

---

(١) فى م : « فيما أصابه » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) فى م: « وقد قام » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٥) مسند الطيالسى برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١]

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى ثور بن يَزيد ، عن خالد بن مَعْدَانَ ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى [١] كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » [٢] .

وهذا إسناد جيد . ورُوى له شواهد من وجوه أخر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن سعيد بن سُوَيد الكلبى ، عن عبد الأعلى بن هلال [٣] السلمى ، عن العِرْباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجَدلُ فى طِينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَين » [٤] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر قال : سمعت أبا أمامة قال : قلتُ يا نبى الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام»[٥].

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى : سمعت خُدَيجاً أخا زهير بن معاوية ، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَة] [٦] ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثَت قريش عَمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشى سَجَدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له : إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم فى أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد ،

---

(١) فى م:« حملتنى » .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠٠) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق به ، وقال :« خالد بن معدان من خيار التابعين ، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة ، فإذا أسند حديث إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه » . قلت : وقد ورد موصولاً كما سيأتى فى رواية أحمد .

(٣) فى أ :« بلال » .

(٤) المسند (٤/ ١٢٧) وسعيد بن سويد لم يوثقه غير ابن حبان .

(٥) المسند (٥/ ٢٦٢) .

(٦) زيادة من المسند ، ومكانه بياض فى هـ ، م ، أ .

فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول ، التى لم يمسها بَشَر ولم يَفْرِضْها [١] ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلَغه موته [٢] .

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بَدْء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ قال ابن جريج وابن جرير : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم**﴾ أحمد ، أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنَّوه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ **هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ** ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله [٣] ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ .

(١) فى أ : « ولم يعترضها ».
(٢) المسند (١/ ٤٦١) .
(٣) فى م : « يفترى على الله الكذب » .

ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون (١) أن يَرُدّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ،وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ .

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، رضى الله عنهم ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها .

ثم قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم(٤) به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

(١) فى أ : « أى يجادلون » .
(٢) فى م ،أ :« كذاك ذلك » .
(٣) فى أ : « والله أعلم » .
(٤) فى أ :« ما آمركم » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ أى : من مُعينى فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ ـ وهم أتباع عيسى عليه السلام ـ : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاةٌ إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : « من رجل يُؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى »[(١)] . حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ،وصار ذلك علما عليهم، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره مَن وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ،حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فِرَقا وشيَعاً ، فمن قائل منهم :إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة: الأب ، والابن ،وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء .

وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله .

حدثنى أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المِنْهال ـ يعنى ابن عمرو ـ عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشر[(٢)] مرة بعد أن آمن بى . قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ،ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢) فى م ، أ : « اثنتى عشرة » .

فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى عليه السلام من روزَنة فى البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلَبُ من اليهود ، فأخذوا شبْهَه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ، ﴿ **فَآمَنت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ** ﴾ يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ، ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ ، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ **فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ .

هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة . وهكذا رواه النسائى عند تفسير هذه الآية من سننه ، عن أبى كُرَيْب محمد بن العلاء ، عن أبى معاوية ، بمثله سواء [1] .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت [بذلك][2] الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩١) .
(٢) زيادة من م، أ .

[١٩٠و]

/ سورة الصفّ

مدنيّة، وقيل:[١] مكّيّة، وهي أربعَ عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في نظيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ رُوي أنّ المسلمين قالوا: لو عَلِمنا أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسَنا، فلمّا نزل الجهادُ كرهوه، فنزلت.[٢] وما قيل: مِن أنّ النازل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾،[٣] بيّنُ الاختلال. ورُوي أنّهم قالوا: يا رسول الله لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه، فنزلت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾،[٤] فولّوا يوم أحد. وفيه التزامُ أنّ ترتيب الآيات الكريمةِ ليس على ترتيب النزول.

وقيل: لمّا أخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالتِ الصحابة: اللّٰهمّ اشهد لئن لقِينا قتالًا لنُفرّغن فيه وسعنا ففرّوا يوم أحد، فنزلت.[٥] وقيل: إنّها نزلت فيمن يتمدّح كاذبًا، حيث كان الرجل يقول: "قتلتُ" ولم يقتل، و"طعنتُ" ولم يطعَن،

---

[١] س - مدنيّة، وقيل.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٢/٦٠٦-٦٠٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٣] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٠٠.

[٤] الصف، ٦١/١٠-١١.

[٥] مرويّ عن محمّد بن كعب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

وهكذا.[١] وقيل: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم، فقتله صهيبٌ وانتحل قَتْلَه آخرُ، فنزلت في المُنتحِل.[٢] وقيل: نزلت في المنافقين،[٣] ونداؤهم بالإيمان تهكُّم بهم وبإيمانهم.[٤] وليس بذاك كما ستعرفه.

و﴿لِمَ﴾ مركَّبة مِن "اللام" الجارّة و"ما" الاستفهاميّة، قد حُذفت ألفها تخفيفًا لكثرة استعمالهما معًا كما في "عمَّ" و"فيمَ" ونظائرهما. معناها لأيّ شيء تقولون نفعل ما لا تفعلون مِن الخير والمعروف، على أنّ مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنّما وُجّها إلى قولهم تنبيهًا على تضاعف معصيتهم ببيان أنّ المُنكَر ليس ترك الخير الموعود فقط؛ بل الوعد به أيضًا، وقد كانوا يحسبونه معروفًا. ولو قيل: "لِمَ لا تفعلون ما تقولون" لفُهِم منه[٥] أنّ المُنكَر هو تركُ الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بيان لغاية قُبح ما فعلوه وفرطِ سماجته. و﴿كَبُرَ﴾ مِن باب "نِعمَ" و"بئس" فيه ضمير مبهَم مفسَّر بالنكرة بعده، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المخصوص بالذمّ. وقيل: قُصد فيه التعجّب مِن غير لفظه، وأُسنِد إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾. ونُصِب ﴿مَقْتًا﴾ على تفسيره دلالة على أنّ قولهم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ مقتٌ خالص لا شَوب فيه كَبُر عند مَن يُحقَّر دونه كلُّ عظيم.

[١٩٠ظ] وقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ بيان لِما هو مَرضيّ عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده. وهذا صريح في أنّ ما قالوه عبارةٌ عن الوعد بالقتال لا عمّا تقوّله المتمدّح أو انتحله المنتحِل أو ادّعاه المنافق،

---

[١] مرويّ عن قتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢/٦٠٨-٦٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٣] مرويّ عن ابن زيد في جامع البيان للطبري، ٢٢/٦٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٤] ذكر ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٩٤.

[٥] س - منه.

وأنّ مناط التعييرِ والتوبيخِ هو إخلافُهم لا وعدُهم كما أشيرَ إليه. وقُرئ: "يُقَاتَلُونَ"[١] بفتح "التاء"، و"يُقَتِّلُونَ".[٢] و﴿صَفًّا﴾ مصدر وَقَع موقعَ الفاعل أو المفعول، ونصبُه على الحاليّة مِن فاعل ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ أي: صافّين أنفسَهم أو مصفوفين.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ حال مِن المستكنّ في الحال الأولى، أي: مشبّهين في تراصّهم مِن غير فُرجة وخُلَل ببنيان رُصَّ بعضُه إلى بعض ورُصِف حتّى صار شيئًا واحدًا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله مِن شَناعة تَرْك القتال. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي: واذكر لهؤلاء المعرِضين عن القتال وقتَ قولِ موسى لبني إسرائيلَ حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة، ٥/٢١]، فلم يمتثلوا بأمره وعصَوه أشدَّ عصيان حيث: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة، ٥/٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة، ٥/٢٤]، وأصرُّوا على ذلك وآذَوه عليه السلام كلَّ الأذيّة.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ أي: بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به. وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة لإنكار الإيذاءِ ونفيِ سببه. و﴿قَد﴾ لتحقيق العِلم. وصيغة المضارع للدلالة على استمراره، أي: والحال أنكم تعلمون عِلمًا قطعيًّا مستمرًّا بمشاهدة ما ظهر بيدي مِن المعجزات القاهرة التي معظمُها إهلاكُ عدوِّكم وإنجاؤكم مِن ملكته أنّي رسول الله إليكم

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد ين عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[١٩١و] لأرشدكم / إلى خير الدنيا والآخرة، ومِن قضيّة عِلمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتُسارعوا إلى طاعتي.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: أصرُّوا على الزَّيغ عن الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام واستمرُّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صَرَفها عن قَبول الحقّ والميلِ إلى الصواب لصَرْف اختيارهم نحو الغَي والضلال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اعتراض تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله مِن الإزاغة، ومؤذِن بعلّته، أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاجِ الحقّ المصرّين على الغَواية هِدايةً موصِلةً إلى البُغية، لا هِدايةً موصِلةً إلى ما يُوصِل إليها، فإنّها شاملة للكلّ. والمراد بهم إمّا المذكورون خاصّة، والإظهارُ في موقع الإضمار لذمّهم بالفسق وتعليلِ عدم الهداية به، أو جنسُ الفاسقين وهم داخلون في حُكمهم دخولًا أوّليًا. وأيًا ما كان فوصفُهم بالفسق ناظرٌ إلى ما في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٥/٥] وقولِه تعالى:[١] ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٦/٥]. هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم.

وأمّا ما قيل بصدد بيان أسبابِ الأذيّة مِن أنّهم كانوا يؤذونه عليه السلام بأنواع الأذى مِن انتقاصه وعيبِه في نفسه وجحودِ آياته وعصيانِه فيما تعود إليهم منافعه وعبادتِهم البقرَ وطلبِهم رؤية الله جهرةً والتكذيبِ الذي هو تضييعُ حقِّ الله وحقِّه،[٢] فممّا لا تعلّق له بالمقام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إمّا معطوف على ﴿إِذْ﴾ الأولى معمول لعاملها، وإمّا معمول لمضمر معطوف على عاملها. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

---

[١] س - تعالى.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٥/٤.

ناداهم بذلك استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فإنّ تصديقه عليه السلام إيّاها مِن أقوى الدواعي إلى تصديقهم إيّاه.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا/ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ داعٍ [١٩١ظ]
إلى تصديقه عليه السلام مِثله مِن حيث إنّ البشارة به واقعةٌ في التوراة. والعاملُ فيهما ما في الرسول مِن معنى الإرسالِ لا الجارّ، فإنّه صلة للرسول، والصلات بمَعزِل مِن تضمّن معنى الفعل، وعليه يدور العمل، أي: أُرسِلتُ إليكم حال كوني مصدِّقًا لِما تقدّمني مِن التوراة ومبشِّرًا بمَن يأتي مِن بعدي مِن رسول ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي: محمّد صلّى الله عليه وسلّم. يريد أنّ ديني التصديقُ بكتب الله وأنبيائه جميعًا ممّن تقدَّم وتأخَّر. وقُرِئ: "مِن بَعْديَ"[١] بفتح "الياء".

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مشيرين إلى ما جاء به، أو إليه عليه السلام. وتسميتُه سحرًا للمبالغة، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "هَذَا سَاحِرٌ".[٢]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ﴾ أي: أيُّ الناس أشدّ ظلمًا ممّن يُدعى إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضعَ الإجابة الافتراءَ على الله عزّ وجلّ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقّ: هذا سحرٌ، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن لم يتعرّض ظاهرُ الكلام لنفي المساوي، وقد مرّ بيانُه غيرَ مرّة. وقُرِئ: "يُدَّعَى"،[٣] يقال: "دَعاه وادّعاه" مثل "لمسَه والتمسَه".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يُرشِدهم إلى ما فيه فلاحُهم لعدم توجّههم إليه.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ⁨٨⁩﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدون أن يطفئوا دينَه أو كتابَه أو حجّتَه النيّرة. و"اللام" مزيدة لِما فيها مِن معنى الإرادة تأكيدًا لها، كما زِيدت لِما فيها مِن معنى الإضافة تأكيدًا لها في "لا أبا لك". أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطعنهم فيه، مُثِّلتْ حالهم بحال مَن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: مبلّغُه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه. وقُرِئ: "مُتِمٌّ نُورَهُ"[١] بلا إضافة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: إرغامًا لهم. والجملة في حيّز الحال على ما بُيّن مرارًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ⁨٩⁩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو بالمعجزةِ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والملّة الحنيفيّة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُغْلبَهُ / على جميع الأديان المخالفة له. ولقد [١٩٢و] أنجز الله عزّ وعلا وعدَه، حيث جَعَله بحيث لم يبقَ دين مِن الأديان إلّا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك. وقُرئ: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ نَبِيَّهُ".[٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⁨١٠⁩ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⁨١١⁩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقُرئ: "تُنَجِّيكُمْ"[٣] بالتشديد.

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله، كأنّهم قالوا: كيف نعمل؟ أو ماذا نصنع؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾... إلخ. وهو خبرٌ في معنى الأمر، جيء به للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنّه قد وَقَع فأُخبِر بوقوعه، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا"،[١] وقُرئ: "تُؤمِنُوا" و"تُجَاهِدُوا"[٢] على إضمار لام الأمر.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الإيمان والجهاد بقسميه، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ سرُّه غيرَ مرّة. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق، أو مِن ﴿أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتُم مِن أهل العِلم، فإنّ الجَهَلة لا يُعتدّ بأفعالهم، أو إن كنتم تعلمون أنّه خير لكم كان خيرًا لكم حينئذ؛ لأنّكم إذا علمتُم ذلك واعتقدتموه أحببتُم الإيمانَ والجهادَ فوق ما تُحبّون أنفسَكم وأموالَكم فتُخلصون وتُفلحون.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، أو لشرطٍ، أو استفهامٍ دلّ عليه الكلام، تقديره: أن تُؤمنوا وتُجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلَّكم يَغفِرْ لكم. وجعلُه جوابًا لـ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ بعيدٌ؛ لأنّ مجرّد الدلالة لا يُوجِب المغفرة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن المغفرة وإدخالِ الجنّات الموصوفة بما ذُكر مِن الأوصاف الجليلة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ولكم إلى هذه النِّعم العظيمة نعمةٌ أخرى عاجلة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وترغبون فيها. وفيه تعريضٌ بأنّهم يُؤثِرون العاجل على الآجل. وقيل: ﴿أُخْرَىٰ﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

منصوبة بإضمار "يُعطِكم" أو "تحبّون"، أو مبتدأ خبرُه ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾،[١] وهو على الأوّل بدل أو بيان، وعلى تقدير النصب خبرُ مبتدأ محذوف. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل، عطفٌ على ﴿نَصْرٌ﴾ على الوجوه المذكورة. وقُرئ: "نَصْرًا" و"فَتْحًا قَرِيبًا"[٢] على الاختصاص، أو على المصدر، أي: تُنصَرون / نصرًا ويُفتَح لكم فتحًا، أو على البدليّة مِن ﴿أُخْرَىٰ﴾ على تقدير نصبها، أي: يُعطِكم نعمةً أخرى نصرًا وفتحًا. [١٩٢ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوف، مثل قلْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿وَبَشِّرِ﴾، أو على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فإنّه في معنى "آمِنوا"، كأنّه قيل: آمِنوا وجاهدوا أيّها المؤمنون وبشِّرهم يا أيّها الرسول بما وعدتَهم على ذلك عاجلًا وآجلًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقُرئ: "أَنْصَارًا لله"[٣] بلا إضافة؛ لأنّ المعنى كونوا بعضَ أنصار الله. وقُرئ: "كُونُوا أَنْتُمْ أَنْصَارَ اللهِ".[٤] ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن جُندي متوجِّهًا إلى نصرة الله؟ كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. والإضافةُ الأولى إضافةُ أحدِ المتشاركين إلى الآخر لِما بينهما مِن الاختصاص، والثانيةُ إضافةُ الفاعل إلى المفعول. والتشبيهُ باعتبار المعنى أي: كونوا أنصار الله كما كان الحواريّون أنصاره حين قال لهم عيسى: مَن أنصاري إلى الله؟ أو قل لهم: كونوا كما قال عيسى للحواريّين. والحواريّون: أصفياؤه، وهم أوّل مَن آمن به، وكانوا اثني عشرَ رجلًا.

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٢/٣.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٢.

[٣] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٩.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به مِن نصرة الدين ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى به وقاتلوهم ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي: قوّيناهم بالحُجّة أو بالسيف، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الصفّ كان عيسى مصلّيًا عليه مستغفِرًا له ما دام في الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقُه».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/٣٤٠ (الصف، ١/٦١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٩٠ (الصف، ١/٦١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦١

سورة الصف

مكية أو مدنية، أربعَ عشْرَة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: نزّهَه ـ فاللام: مزيدة. وجيء بـ «ما» دون «مَن» تغليبًا للأكثر ـ ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه. ٢ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لِمَ تَقُولُونَ﴾ في طلب الجِهاد ﴿ما لا تَفعَلُونَ﴾، إذِ انهزمتم بأُحُد؟ ٣ ـ ٤ ـ ﴿كَبُرَ﴾: عظُمَ ﴿مَقْتًا﴾: تمييزٌ ﴿عِندَ اللهِ أن تَقُولُوا﴾: فاعلُ «كبُر» ﴿ما لا تَفعَلُونَ. إنَّ اللهَ يُحِبُّ﴾: يَنصر ويُكرم ﴿الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفًّا﴾: حالٌ أي: صافين ﴿كأَنَّهُم بُنيانٌ مَرصُوصٌ﴾: مُلزَقٌ بعضُه إلى بعض ثابتٌ.

سورة الصف

قولُـهُ: (بأُحُـدٍ) رويَ أنَّ المسـلمينَ قالـوا: لـو عَلِمنـا أحبَّ الأعمالِ إلـى اللهِ لبَذَلنـا فيه أموالَنا وأنفُسَـنا، فأنـزلَ اللهُ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُـونَ فِي سَـبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٤] فولَّـوا يومَ أحـدٍ؛ فنزلَتْ(١).

قولُهُ: (تَمييزٌ) والمقتُ: أشدُّ الغضبِ(٢).

قولُهُ: (أي: صَافِّينَ) أو مصطفِّينَ، مصدرٌ وُصفَ به.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٢٦) ونسب القول للمفسرين.

وروى الترمذي (٣٣٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٣٨٤) عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام، قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، قال عبد الله بن سلام: «فقرأها علينا رسول الله ﷺ».

(٢) كذا في الأصول، وفي التفاسير: «البغض»، إلا أنه جاء في «البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٣٧): المقت: أشد الاحتقار والبغض والغضب.

٥ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ: يا قَومِ، لِمَ تُؤذُونَنِي﴾ ـ قالوا: «إنه آدَرُ»، أي: مُنتفِخُ الخُصيةِ. وليس كذلك، وكذّبوه ـ ﴿وقَد﴾: للتحقيق ﴿تَعلَمُونَ أنّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم﴾ الجملة حال، والرسولُ يُحترم؟ ﴿فلَمّا زاغُوا﴾: عدلوا عن الحقّ بإيذائه ﴿أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾: أمالَها عن الهُدى على وَفق ما قدّره في الأزل ـ ﴿واللهُ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقِينَ﴾: الكافرين في عِلمه ـ ٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ عِيسَى بنُ مَريَمَ: يا بَنِي إسرائيلَ﴾ ـ لَم يقلْ: «يا قومِ» لأنه لم يكن له فيهم قرابة ـ ﴿إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيَّ﴾: قبلي ﴿مِنَ التَّوراةِ، ومُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يأتِي مِن بَعدِي، اسمُهُ أحمَدُ﴾. قال تعالى: ﴿فلَمّا جاءَهُم﴾: جاء أحمدُ الكُفّارَ ﴿بِالبَيِّناتِ﴾: الآيات والعلامات ﴿قالُوا: هذا﴾ أي: المجيء به ﴿سِحرٌ﴾ ـ وفي قِراءة: «ساحِرٌ» أي: الجائي به ـ ﴿مُبِينٌ﴾: بيّنٌ. ٧ ـ ﴿ومَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ﴾ أشدّ ظُلمًا ﴿مِمَّنِ افتَرَى علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بنِسبةِ الشريك والولد إليه، ووصفِ آياته بالسِّحر، ﴿وهُوَ يُدعَى إلَى الإسلامِ؟ واللهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

قولُهُ: (وكَذَّبُوهُ) وعصَوهُ.

قولُهُ: (حَالٌ) مقرِّرةٌ للإنكارِ، فإنَّ العلمَ بنبوَّتِهِ يوجبُ تعظيمَهُ ويمنعُ إيذاءهُ.

قولُهُ: (أَمَالَهَا) وصَرفَها؛ أي: زادَ زَيغَها عن قَبولِ الحقِّ، والميلِ إلى الصَّوابِ.

قولُهُ: (الكَافِرِينَ) هدايةً موصلةً إلى معرفةِ الحقِّ، أو إلى الجنَّةِ.

قولُهُ: (لَمْ يَقُلْ) قالَ البيضاويُّ[1]: ولعلَّهُ لم يقُلْ [يا قوم] كما قالَ موسى، إذ لا نسبَ له فيهم؛ يعني: مِن جانبِ الأبِ، فإنَّهُ هو المُعتبَرُ في النَّسبِ، وأمَّا قولُ الشَّيخِ[2]: (لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِم قَرَابَةٌ) غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّهُ من بني إسرائيلَ بلا شبهةٍ.

قولُهُ: (جَاءَ أَحمَدُ) أو عيسَى.

قولُهُ: (أي: المَجِيءُ بِهِ) أو الجائي به، وتسميتُهُ سحراً للمبالغةِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُهُ: (ووَصْفِ آيَاتِهِ) وتكذيبِ أنبيائِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٨).

(٢) العلامة المحلي.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

٨ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا﴾ ـ منصوب بـ «أن» مُقدّرة، واللام: مزيدة ـ ﴿نُورَ اللهِ﴾: شرعَه وبراهينه ﴿بِأفواهِهِم﴾: بأقوالهم: إنه سِحرٌ وشِعر وكِهانة، ﴿واللهُ مُتِمٌّ﴾: مُظهرٌ ﴿نُورَهُ﴾، وفي قراءة بالإضافة، ﴿ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾ ذلك. ٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ﴾: يُعليَه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: جميع الأديان المُخالفة له، ﴿ولَو كَرِهَ المُشرِكُونَ﴾ ذلك.

١٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، هَل أدُلُّكُم عَلَى تِجارةٍ تُنجِيكُم﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿مِن عَذابٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم؟ فكأنهم قالوا: نعم. ١١ ـ فقال: ﴿تُؤمِنُونَ﴾: تدومون على الإيمان ﴿بِاللهِ ورَسُولِهِ، وتُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأموالِكُم وأنفُسِكُم ـ ذلِكُم خَيرٌ لَكُم، إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ أنه خير فافعلوه، ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿يَغفِرْ﴾: جوابُ شرط مُقدّر، أي: إن تفعلوه يغفرْ ﴿لَكُم ذُنُوبَكُم، ويُدخِلْكُم جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدنٍ﴾: إقامةٍ، ....

قولُهُ: (واللَّامُ مَزِيدَةٌ) أو يُريدونَ الافتراءَ.

قولُهُ: (شَرعَهُ) يعني: دينَهُ، أو كتابَهُ، أو حجَّتَهُ بطعنِهِم فيه.

قولُهُ: (مُظهِرٌ) ومُبلغٌ غايتَهُ بنشرِهِ وإعلائِهِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ وكوفيٍّ غيرُ شعبةَ[1].

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: إرغاماً لهم.

قولُهُ: (لِيُعلِيَهُ) وليغلِّبَهُ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) لما فيه مِن محضِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ.

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ[2].

قولُهُ: (فَقَالَ) استئنافاً مبيِّناً للتِّجارةِ، وهو الجمعُ بين الإيمانِ والجهادِ المؤدِّي إلى كمالِ عزِّهِم، والمرادُ به: الأمرُ، وإنَّما جيء بلفظِ الخبرِ؛ إيذاناً بأنَّ ذلك ممَّا لا يُترَكُ.

قولُهُ: (جَوَابُ شَرطٍ) أو جوابٌ للأمرِ المدلولِ عليهِ بلفظِ الخبرِ.

قولُهُ: (مُقَدَّرٍ) دلَّ عليهِ الكلامُ.

قولُهُ: (إنْ تَفعَلُوهُ) أي: ما ذكرَ من الإيمانِ والجهادِ، أو إن تؤمنوا.

---

(١) قال في «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٥): قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿متمُّ نورِه﴾ مضافاً، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: (متمٌّ نورَه) بالتنوين وفتح الراء.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٥).

﴿ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ، و﴾ يُؤتِكم نِعمةً ﴿أُخرَى تُحِبُّونَها، نَصرٌ مِنَ اللهِ وفَتحٌ قَرِيبٌ ـ وبَشِّرِ المُؤمِنِينَ﴾ بالنصر والفتح.

١٤ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا أنصارًا لِلهِ﴾: لِدِينه ـ وفي قراءة بالإضافة ـ ﴿كَما﴾ المعنى: كما كان الحواريّون كذلك الدالّ عليه: ﴿قالَ عِيسَى بنُ مَريَمَ لِلحَوارِيِّينَ: مَن أنصارِيَ إِلَى اللهِ﴾ أي: مَن الأنصار الذين يكونون معي مُتوجّهًا إلى نُصرة الله؟ ﴿قالَ الحَوارِيُّونَ: نَحنُ أنصارُ اللهِ﴾. والحواريّون أصفياءُ عِيسَى وهم أوّل من آمن به، وكانوا اثني عشَرَ رجلاً، من الحَوَر، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يُحوّرون الثِّيابَ، أي: يُبيّضونها. ﴿فآمَنَتْ طائفةٌ مِن بَنِي إسرائيلَ﴾ بعِيسَى، وقالوا: إنه عبد الله، رُفِعَ إلى السماء. ﴿وكَفَرَتْ طائفةٌ﴾ لقولهم: إنه ابن الله، رَفعه إليه. فاقتتلت الطائفتان، ﴿فأيَّدْنا﴾: قوّينا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الطائفتين ﴿عَلَى عَدُوِّهِم﴾: الطائفة الكافرة، ﴿فأصبَحُوا ظاهِرِينَ﴾: غالِبِينَ.

قولُهُ: (يُؤتِكُم) أو تحبُّونَ، أو لكُم إلى هذهِ النِّعمةِ المذكورةِ نعمةٌ أخرى محبوبةٌ، وفي ﴿تحبُّونَهَا﴾ تعريضٌ بأنَّهم يؤثِرونَ العاجلَ على الآجلِ، كذا قالَهُ القاضي[1] وصاحبُ المداركِ[2]، وهو غريبٌ منهما، إذِ المحبوبةُ مفسَّرةٌ بالنَّصرِ والفتحِ، وهو محبوبٌ دينيٌّ وأخرويٌّ، ولو كانَ متضمِّناً للغنيمةِ؛ فهي إنَّما كانوا يحبُّونَها ليستَعينوا بها على العُقْبى، ويتقَوَّوا على الأعداءِ، فنعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ﴾ وهو على الأوَّلِ خبرُ محذوفٍ، وعلى الثَّاني بدلٌ أو بيانٌ.

قولُهُ: (بالنَّصرِ) عطفٌ على: «قُلْ» مقدَّراً قبلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويمكنُ أن يكونَ مِن بابِ الالتفاتِ مِن المؤمنينَ إلى رئيسِهِم، كأنَّه قالَ: وبشِّرِ الَّذينَ فعَلوا بما أُمِروا، وحُذِفَ المبشَّرَ به لإفادةِ العمومِ، أو بـ«مَا لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ»[3].

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ والكوفيِّ[4].

قولُهُ: (كذلِكَ) أي: أنصارُ عيسى حينَ قالَ لهم عيسى: ﴿مَنْ أنصاري إلى اللهِ﴾.

قولُهُ: (الدَّالُّ عَلَيهِ) أي: على هذا التَّقديرِ.

قولُهُ: (مِنَ الحَوَرِ) أي: مأخوذٌ منه.

قولُهُ: (الكَافِرَةِ) بالحجَّةِ، أو الحربِ.

قولُهُ: (غَالِبِينَ[5]) أي: فصاروا غالبينَ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٩). (٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧٧).

(٣) جاء ذلك فيما رواه البخاري (٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

(٥) في الأصول: «عالين»، والصواب ما أثبته من «الجلالين» وهو موافق للشرح.

سُورَةُ الصَّفِّ

وتسمى أيضاً سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام، وهي مدنيَّةٌ في قول الجمهور، وروي ذلك عن ابن الزبير وابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد. وقال ابن يسار: مكية، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، والمختار الأول، ويدلُّ له ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبُّ إلى الله تعالى لَعملناه[١]. فأنزل الله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها، وروي هذا الحديث مسلسلاً يقرؤها علينا، وهو حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، أخرجه الإمام أحمد والترمذيُّ[٢] وخلقٌ كثيرٌ، حتى قال الحافظ ابن حجر[٣]: إنه أصحُّ مسلسلٍ يُروى في الدنيا، إن وقع في المسلسلات مثله في مزيد عُلوِّه.

وكذا ما روي في سبب النزول عن الضحاك من أنه قولُ شبابٍ من المسلمين: فعلنا في الغزو كذا. ولم يفعلوا[٤]. وما روي عن ابن زيد من أنه قولُ المنافقين للمؤمنين: نحن منكم ومعكم. ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك[٥].

---

(١) جاء في هامش الأصل: جاء في بعض الروايات أنه قال أناس: وددنا أن نعرف أحبَّ الأعمال إلى ربنا حتى نعنى فيه. ففرض الجهاد، وأَعْلَم الله بحب المجاهدين، فكرهه قوم وفرَّ بعضهم في أحد فنزلت. اهـ، وهو في البحر المحيط ٨/ ٢٦١.

(٢) الحاكم ٢/ ٤٨٦-٤٨٧، وأحمد (٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩).

(٣) في فتح الباري ٨/ ٤١٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠٨- ٦٠٩بنحوه.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠٩.

وآيها أربعَ عشرةَ آيةً بلا خلاف. ومناسبتها لما قبلها اشتمالُها على الحثِّ على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك من تأكيد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء الذي تضمَّنه ما قبلُ ما فيه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الكلامُ فيه كالكلام المارِّ في نظيره. والنداءُ بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ على ما عدا القول الأخير في سبب النزول ظاهرٌ، وعليه قيل: هو للتهكُّم بأولئك المنافقين وبإيمانهم، و«لِمَ» مركَّبةٌ من اللام الجارَّة، و«ما» الاستفهامية، قد حُذِفَ ألِفُها ـ على ما قال النحاة ـ للفرق بين الخبر والاستفهام، ولم يعكس حرصاً على الجواب. وقيل: لكثرة استعمالهما معاً، فاستحقَّ التخفيف. وإثباتُ الكثرة المذكورة أمرٌ عسيرٌ.

وقيل: لاعتناقهما في الدلالة على المستفهَم عنه. وبُيِّنَ بأنَّ قولك: لم فعلتَ؟ مثلاً، المستفهَم عنه عِلَّةُ الفعل، فهو كالمركَّب من العلة والفعل، والعلةُ مدلولُ اللام، والفعل مدلول «ما» لأنها بمعنى: أيّ شيء، والمفيدُ لذلك المجموع، وعند عدم الحرف، المسؤولُ عنه الفعل وحده. وهو كما ترى.

والمعنى: لأيِّ شيءٍ تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟! على أنَّ مدارَ التوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنما وُجِّهَ إلى قولهم؛ تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أنَّ المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد أيضاً، وقد كانوا يحسبونه معروفاً، ولو قيل: لِمَ لا تفعلون ما تقولون، لفُهِمَ منه أنَّ المنكرَ هو تركُ الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ بيانٌ لغاية قُبح ما فعلوه، و«كَبُرَ» من باب «بِئْسَ» فيه ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بالنكرة بعده، و«أن تقولوا» هو المخصوص بالذَّمِّ. وجُوِّزَ أن يكون في «كَبُرَ» ضميرٌ يعود على المصدر المفهوم من

قوله سبحانه: (لِمَ تَقُولُونَ) أي: كَبُرَ هو ـ أي: القولُ ـ مقتاً، و«أن تقولوا» بدلٌ من المضمَر، أو خبرُ مبتدأ محذوف.

وقيل: قُصِدَ فيه كثر التعجُّب[1]، من غير لفظه، كما في قوله:

وجارة جَسَّاسٍ أَبَأْنا بنابِها كُلَيباً غلَتْ نابٌ كُلَيبٌ بَواؤها[2]

ومعنى التعجُّب: تعظيمُ الأمر في قلوب السامعين؛ وأُسند إلى «أن تقولوا» ونصب «مقتاً» على تفسيره دلالة على أنَّ قولهم ما لا يفعلون مَقْتٌ خالصٌ لا شَوْبَ فيه؛ لفرط تمكُّن المقتِ منه.

واختير لفظُ المقتِ لأنه أشدُّ البغض وأبلغه؛ ومنه نكاحُ المقتِ: لتزوُّجِ الرجل امرأةَ أبيه، ولم يقتصرْ على أنْ جَعَلَ البُغْضَ كبيراً، حتى جعل أشدّه وأفحشه، وعند الله أبلغ من ذلك؛ لأنه إذا ثبت كُبْرُ مَقْته عند الله تعالى الذي يُحقَرُ دونه سبحانه كلُّ عظيم، فقد تمَّ كبْره وشِدَّته، وانزاحت عنه الشكوك.

وتفسيرُ المقت بما سمعتَ، ذهب إليه غيرَ واحدٍ من أهل اللغة. وقال ابن عطية: المقتُ: البُغض من أجل ذنبٍ أو ريبةٍ أو دناءةٍ يصنعها الممقوت[3].

وقال المبرِّد: رجلٌ ممقوتٌ ومقيتٌ، إذا كان يُبغضه كلُّ واحد[4].

واستدلَّ بالآية على وجوب الوفاء بالنذر. وعن بعض السلف أنه قيل له: حدِّثنا. فسكت، فقيل له: حدثنا. فقال: وما تأمرونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مَقْتَ الله عزَّ وجلَّ؟!

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ بيانٌ لما هو مرضيٌّ عنده سبحانه وتعالى، بعد بيان ما هو ممقوتٌ عنده

---

(١) عبارة أبي السعود ٨/ ٢٤٢ (والكلام منه): وقيل: قصد فيه التعجب، دون: كثر، ولعله الأنسب.

(٢) البيت في المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٧٨، والكشاف ٤/ ٩٧، وسلف ١٩/ ٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦١.

جلَّ شأنه، وظاهره يُرجِّحُ أنَّ ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال، دون ما يقتضيه ما روي عن الضحاك أو عن ابن زيد في سبب النزول، ويقتضي أنَّ مناطَ التوبيخ هو إخلافهم، لا وعدُهم، و«صَفّ» مصدرٌ وَقَعَ موقعَ اسم الفاعل، أو اسم المفعول، ونَصْبه على الحال من ضمير «يقاتلون»، أي: صافِّين أنفسَهم أو مصفوفين. و«كأنهم» إلخ حالٌ من المستكنِّ في الحال الأولى، أي: مُشَبَّهين في تلاصقهم ببنيان.. إلخ، وهذا ما عناه الزمخشريُّ بقوله: هما ـ أي: «صفًّا» و«كأنهم» إلخ ـ حالان متداخلان[1]. وقول ابن المنيِّر[2]: إنَّ معنى التداخل أنَّ الحالَ الأولى مشتملةٌ على الحال الثانية، فإنَّ هيئةَ الاتصاف هي هيئةُ الارتصاص خلاف المعروف من التداخل في اصطلاح النحاة. وجُوِّزَ أن يكون حالاً ثانيةً من الضمير.

وقال الحوفيُّ: هو في موضع النعت لـ «صفًّا». وهو كما ترى.

والمرصوص ـ على ما قال الفراء[3] ومنذر بن سعيد ـ هو المعقود بالرصاص. ويراد به المُحْكَم، وقال المبرِّد: رصصتُ البناء، لَاأَمْت بين أجزائه وقاربته حتى يصيرَ كقطعةٍ واحدةٍ، ومنه الرصيص: وهو انضمام الأسنان.

والظاهر أنَّ المرادَ تشبيههم في الْتِحَامِ بعضهم ببعضٍ بالبنيان المرصوص من حيث إنهم لا فُرْجةَ بينهم ولا خَلَل، وقيل: المراد استواءُ نيَّاتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. والأكثرون على الأول.

وفي «أحكام القرآن»: فيه استحبابُ قيام المجاهدين في القتال صفوفاً كصفوف الصلاة، وأنه يُستحبُّ سَدُّ الفُرَج والخَلَل في الصفوف، وإتمام الصَّفِّ الأول فالأول، وتسويةُ الصفوف: عدمُ تقدُّم بعضٍ على بعضٍ فيها.

وقال ابن الفرس: استدلَّ به بعضُهم على أنَّ قتالَ الرَّجَّالة أفضلُ من قتال الفرسان؛ لأنَّ التراصَّ إنما يمكن منهم، ثم قال: وهو ممنوع[4]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧.

(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٤/ ٩٧.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٣.

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي (ويسميه المصنف: أحكام القرآن) ص٢٦٢.

ثم إنَّ القتال على هذه الهيئة اليوم من أصول العساكر المحمدية النظامية، لا زالت منصورةً مؤيَّدةً بالتأييدات الربانية، وأنت تعلمُ أنَّ للوسائل حُكم المقاصد، فما يُتوصَّلُ به إلى تحصيل الاتصاف بذلك، مما لا ينبغي أن يُتكاسل في تحصيله.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يُقاتَلون» بفتح التاء، وقرئ: «يُقتَّلون»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقرِّرٌ لما قبله من شناعة ترك القتال، و«إذ» منصوبٌ على المفعولية بمُضْمَرٍ خُوطب به سَيِّدُ المخاطبين ﷺ بطريق التلوين، أي: اذكرْ لهؤلاء المُعْرِضين عن القتال وقتَ قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل حين نَدَبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] فلم يمتثلوا لأمره عليه السلام، وعَصَوْه أشدَّ عصيان حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٢-٢٤] وأصرُّوا على ذلك كلَّ الإصرار، وآذوه عليه السلام كلَّ الأذية، فوبَّخهم على ذلك بقوله: (يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى) بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملةٌ حاليةٌ مؤكِّدةٌ لإنكار الإيذاء ونفي سببه.

و«قد» لتحقيق العلم، لا للتقليل ولا للتقريب؛ لعدم مناسبة ذلك للمقام، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار، أي: والحالُ أنكم تعلمون علماً قطعيًّا مستمرًّا بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاكُ عدوِّكم وإنجاؤكم من مَلَكَتِهِ أني رسول الله إليكم لأُرشدكم إلى خيرَي الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي: أَصرُّوا على الزَّيغ والانحراف عن الحقِّ الذي جاء به عليه السلام، واستمرُّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صَرَفها عن قبول الحقِّ والميل إلى الصواب؛ لصَرْفِ اختيارهم نحو العمى(٢) والضلال.

(١) الكشاف ٤/ ٩٧، والبحر ٨/ ٢٦١.

(٢) في إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤٣ والكلام منه: الغي.

وقيل: أي: فلما زاغوا في نفس الأمر وبمقتضى ما هم عليه فيها، أزاغ الله تعالى في الخارج قلوبهم؛ إذ الإيجادُ على حسب الإرادة، والإرادةُ على حَسَب العلم، والعلمُ على حَسَب ما عليه الشيءُ في نفس الأمر.

وعلى الوجهين لا إشكالَ في الترتيب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من الإزاغة، ومُؤْذِنٌ بعِلَّته، أي: لا يهدي القومَ الخارجين عن الطاعة ومنهاجِ الحقِّ، المُصِرِّينَ على الغواية، هدايةً موصِلةً إلى البُغية، وإلا فالهدايةُ إلى ما يُوصِلُ إليها شاملةٌ للكلِّ، والمراد بهم إما المذكورونَ خاصةً والإظهارُ في مقام الإضمار لِذَمِّهم بالفسق وتعليلِ عدم الهداية به، أو جنس الفاسقين، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أوليًّا، قيل: وأيًّا ما كان فهو ناظرٌ إلى ما في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

هذا، وقيل: «إذ» ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلٍ مقدَّرٍ يدلُّ عليه ما بعده، كـ: زاغوا ونحوه، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها عَطْفَ القصة على القصة.

وذهب بعضهم إلى أنَّ إيذاءهم إياه عليه السلام بما كان من انتقاصه وعَيبه في نفسه، وجحودِ آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطَلَبهم رؤيةَ الله سبحانه جَهْرةً، والتكذيبُ الذي هو حقُّ الله تعالى وحقُّه عليه السلام، وما ذُكر أولاً هو الذي تقتضيه جزالةُ النَّظْم الكريم ويرتضيه الذوق السليم.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إما معطوفٌ على «إذ» الأولى، معمولٌ لعاملها، وإما معمولٌ لمضمرٍ معطوف على عاملها: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولعلَّه عليه السلام لم يقل: «يا قومي» كما قال موسى عليه السلام، بل قال: «يا بني إسرائيل» لأنه ليس له النسبُ المعتاد، وهو ما كان من قِبَل الأب فيهم، أو إشارةٌ إلى أنه عاملٌ بالتوراة، وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام؛ هَضْماً لنفسه بأنه لا أتباعَ له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إنَّ الاستعطاف بما ذُكر؛ لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنِسْبَتهم إلى إسرائيل عليه السلام.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مُرسَلٌ منه تعالى إليكم حالَ كوني مُصدِّقاً، فَنَصْبُ «مصدِّقاً» على الحال من الضمير المستتر في «رسول» وهو العامل فيه، و«إليكم» متعلِّقٌ به، وهو ظرفٌ لغو لا ضميرَ فيه ليكونَ صاحبَ حال، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾ معطوفٌ على «مصدِّقاً»، وهو داعٍ أيضاً إلى تصديقه عليه السلام من حيث إن البشارة بهذا الرسول ﷺ واقعةٌ في التوراة، كقوله تعالى في الفصل العشرين من السِّفر الخامس منها: أقبل الله من سيناء، وتجلَّى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه الربوات الأطهار عن يمينه[1].

وقوله سبحانه في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأُقيم لبني إسرائيلَ نبيًّا من إخوتهم مثلك، أَجعلُ كلامي في فيه[2]، ويقول لهم ما آمره فيه، والذي لا يقبلُ قولَ ذلك النبيِّ الذي يتكلَّمُ باسمي أنا، أَنتقمُ منه ومن سِبْطه[3].

إلى غير ذلك، ويتضمَّنُ كلامه عليه السلام أنَّ دينه التصديقُ بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جميعاً، مَنْ تقدَّم ومَنْ تأخَّر.

وجملة «يأتي» إلخ في موضع الصفة لـ «رسول»، وكذا جملةُ قوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهذا الاسم الجليل عَلَمٌ لنبيِّنا محمد ﷺ، وعليه قولُ حسان[4]:

صلَّى الإلهُ ومن يَحُفُّ بعرشه والطيبونَ على المبارك أحمدِ

وصحَّ من رواية مالك والبخاري ومسلم والدارمي والترمذي والنسائي عن

---

(١) الكتاب المقدس، سفرتثنية الاشتراع (بركات موسى ص٤١١). وجاء في هامش الأصل: سينا: الجبل الذي كلم الله تعالى عنده موسى عليه السلام، وساعير: جبل الخليل بالشام كان يتعبد فيه المسيح عليه السلام، وفاران: جبل بني هاشم وكان يتعبد فيه نبينا ﷺ.

(٢) في هامش الأصل: إشارة إلى أنه أُمِّيٌّ.

(٣) الكتاب المقدس، سفرتثنية الاشتراع (الأنبياء ص٣٨٦).

(٤) البيت في ديوانه ص٥٨.

جبير بن مطعم(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب» والعاقبُ: الذي ليس بعده نبيٌّ.

وهو منقولٌ من المضارع للمتكلِّم، أو من أَفعل التفضيل، من الحامدية، وجُوِّزَ أن يكونَ من المحمودية بناءً على أنه قد سُمع «أحمد» اسم تفضيل منها نحو: العَوْدُ أحمد، وإلا فأَفعل من المبنيِّ للمفعول ليس بقياسيٍّ.

وقرئ: «من بعديَ» بفتح الياء(٢).

هذا، وبشارته عليه السلام بنبيِّنا ﷺ مما نطق به القرآن المعجز، فإنكارُ النصارى ذلك ضَرْبٌ من الهذيان، وقولهم: لو وقعتْ لَذُكرت في الإنجيل، الملازَمةُ فيه ممنوعة، وإذا سُلِّمتْ قلنا بوقوعها في الإنجيل، إلا أنَّ جامعيه بعد رَفْعِ عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاءً بما في التوراة ومزامير داود عليه السلام وكتب شَعْيا(٣) وحبقوق وإِرْمِياء، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أنَّ علماءَ النصارى بعدُ ـ حُبًّا لدينهم أو لأمرٍ مّا غير ذلك ـ أسقطوها. كذا قيل.

وأنا أقول: الأناجيلُ التي عند النصارى أربعة: إنجيلُ متَّى من الاثني عشر الحواريين، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رَفْع عيسى عليه السلام بثماني سنين، وعِدَّةُ إصحاحاته ثمانيةٌ وستون إصحاحاً. وإنجيل مُرْقُص، وهو من السبعين، جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعِدَّةُ إصحاحاته ثمانيةٌ وأربعون إصحاحاً. وإنجيل لُوقا، وهو من السبعين أيضاً، جمعه بالإسكندرية باللغة اليونانية، وعِدَّةُ إصحاحاته ثلاثةٌ وثمانون إصحاحاً. وإنجيل

---

(١) مالك في الموطأ ٢/ ١٠٠٤، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، والدارمي ٢/ ٣١٧-٣١٨، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٥٢٦)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٤).

(٢) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، وأبي بكر عن عاصم. ينظر التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧.

(٣) في الأصل: اشعيا. وفي (م): شعياء.

يوحنَّا، وهو حبيبُ المسيح، جمعه بمدينة أُفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعِدَّةُ إصحاحاته في النُّسَخ القِبطية ثلاثةٌ وثلاثون إصحاحاً.

وهي مختلفةٌ، وفيها ما يشهد الإنصاف بأنه ليس كلامَ الله عزَّ وجلَّ ولا كلامَ عيسى عليه السلام، كقصة صَلْبه الذي يزعمونه، ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء، فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شَرْحُ بعض أحوال عيسى عليه السلام، ولادةً ورَفْعاً ونحو ذلك، وبعضُ كلماتٍ له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلَّفة في بعض الأكابر والصالحين، فلا يضرُّ إهمالها بعضَ الأحوال والكلماتِ التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد، وبشارته بنبيِّنا ﷺ.

على أنَّ في إنجيل يوحنَّا ما هو بشارةٌ بذلك عند مَنْ أنصف، وسَلَكَ الصراطَ السَّويَّ وما تعسَّف، ففي الفصل الخامس عشر منه: قال يسوع المسيح: إنَّ الفارقليط روحُ الحقِّ الذي يُرسله أبي، يُعلِّمكم كلَّ شيء.

وقال يوحنَّا أيضاً: قال المسيح: مَنْ يُحبّني يحفظْ كلمتي، وأبي يُحبُّه، وإليه يأتي، وعنده يتَّخذُ المنزلةَ، كلَّمتكم بهذا لأني لستُ عندكم بمقيم، والفارقليط: روح القدس الذي يُرسله أبي، هو يُعلِّمكم كلَّ شيءٍ، وهو يذكِّركم كلّ ما قلت لكم، أستودعكم سلامي، لا تقلقْ قلوبكم ولا تجزعْ، فإني منطلقٌ وعائدٌ إليكم، لو كنتم تحبُّوني كنتم تفرحون بمُضِيِّي إلى الأب.

وقال أيضاً: إنَّ خيراً لكم أن أنطلقَ لأبي؛ لأني إن لم أذهبْ لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقتُ أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يُوبِّخُ العالم على الخطيئة، وإنَّ لي كلاماً كثيراً أُريد قوله، ولكنكم لا تستطيعون حَمْله، لكن إذا جاءَ روحُ الحقِّ ذاكَ الذي يُرشدكم إلى جميع الحقِّ؛ لأنه ليس ينطقُ من عنده، بل يتكلَّمُ بما يسمعُ، ويخبركم بكلِّ ما يأتي، ويُعرِّفكم جميعَ ما للأب.

وقال أيضاً: إن كنتم تحبُّوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يُعطيَكم فارقليطاً آخرَ يَثبتُ معكم إلى الأبد، روحَ الحق الذي لم يطقِ العالم أن

يقبلوه؛ لأنهم لم يعرفوه[١]، ولست أَدَعُكُمْ أيتاماً؛ لأني سآتيكم من قريب[٢].

والفارقليط: لفظٌ يُؤذن بالحَمد، وتَعيُّنُ إرادته ﷺ من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصُّب عن عينيه، وقد فسَّرهُ بعضُ النصارى بالحمَّاد، وبعضُهم بالحامد، فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد، وفسَّره بعضُهم بالمخلِّص لقول عيسى عليه السلام: فالله يُرسل مخلِّصاً آخر، فلا يكون ما ذكر بشارة به ﷺ بعنوان الحمد، لكنه بشارة به ﷺ بعنوان التخليص، فيستدلُّ به على ثبوت رسالته ﷺ، وإن لم يستدلّ به على ما في الآية هنا.

وزعم بعضُهم أنَّ الفارقليطَ إشارةٌ إلى أَلسُنٍ ناريةٍ نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلوا الآيات والعجائب. ولا يخفى أنَّ وَصْفه بـ «آخَرَ» يأبى ذلك؛ إذ لم يتقدَّمْ لهم غيره.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ مشيرين إلى ما جاء به عليه السلام، فالتذكير بهذا الاعتبار، وقيل: مشيرين إليه عليه السلام.

وتسميته سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب: «هذا ساحر»[٣]. وكون فاعل «جاءهم» ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر؛ لأنه المحدّث عنه، وقيل: هو ضمير «أحمد» عليه الصلاة والسلام، لمَّا فرغ من كلام عيسى تطرَّقَ إلى الإخبار عن أحمد ﷺ، أي: فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات قالوا.. إلخ.

---

(١) في هامش الأصل: أي لِمَا يغلب عليهم من عبادة الأصنام ونحوها، وفي الحقيقة ما آمن به عليه الصلاة والسلام إلا من أشهده الله تعالى من نبوته ما هدى قلبه إليه ﷺ.

(٢) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا ص٣٣٧-٣٣٩ بنحوه، واستخدمت فيه كلمة: المؤيد، بدل: الفارقليط، ولكن أشير في حاشيته إلى أنها في الأصل اليوناني: الباراقليط.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي أيضاً، ينظر التيسير ص١٠١، والنشر ٢/٢٥٦، والكشاف ٤/٩٩، والبحر ٨/٢٦٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: أَيُّ الناس أشدُّ ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين، فيضعُ موضعَ الإجابة الافتراءَ على الله عزَّ وجلَّ بتكذيب رسوله، وتسمية آياته سحراً، فإنَّ الافتراءَ على الله تعالى يعمُّ نفيَ الثابت وإثباتَ المنفي، أي: لا أَظْلَمُ من ذلك، والمراد أنه أظلمُ من كلِّ ظالم.

وقرأ طلحة: «يَدَّعي»(١) مضارع: ادَّعى، مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره تعالى، و«يَدَّعي» بمعنى يدعو، يقال: دعاه وادَّعاه نحو لمسه والتمسه. وقيل: الفاعلُ ضمير المفتري، و: ادَّعى، يتعدَّى بنفسه إلى المفعول به، لكنه لَمَّا ضُمِّنَ معنى الانتماء والانتساب عُدِّيَ بـ «إلى»، أي: وهو ينتسب إلى الإسلام مُدَّعياً أنه مُسلمٌ. وليس بذاك. وعنه: «يُدَّعى»(٢)، مضارعُ ادَّعى أيضاً، لكنه مبنيٌّ للمفعول، ومعناه كما سبق.

والآيةُ فيمن كذَّب من هذه الأمة على ما يقتضيه ما بعدُ، وهي إن كانت في بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام، ففيها تأييدٌ لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذي جاء به نبيُّنا ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ أي: لا يُرشدهم إلى ما فيه فلاحهم؛ لسوء استعدادهم وعدم توجُّههم إليه.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تمثيلٌ لحالهم في اجتهادهم في إبطال الحقِّ بحالة مَنْ ينفخُ الشمسَ بِفِيْه ليُطفئها، تهكُّماً وسخريةً بهم، كما تقول الناس: هو يُطفئُ عينَ الشمس.

وذهب بعضُ الأجلَّة إلى أنَّ المرادَ بنور الله: دينه تعالى الحقّ ـ كما روي عن السدي ـ على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ و«مُتِمّ» تجريدٌ، وفي قوله تعالى: «بأفواههم» توريةٌ، وعن ابن عباس وابن زيد:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣٢١، والبحر ٨/ ٢٦٢.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٢١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٣، والبحر ٨/ ٢٦٢.

يريدون إبطالَ القرآن وتكذيبه بالقول، وقال ابن بحر: يُريدون إبطالَ حُجَجِ الله تعالى بتكذيبهم، وقال الضحاك: يريدون هلاك الرسول ﷺ بالأراجيف.

وقيل: يريدونَ إبطالَ شأن النبيِّ ﷺ وإخفاءَ ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم، فقد روي عن ابن عباس أنَّ الوحيَ أَبْطَأَ أربعينَ يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر يهود: أبشروا، أطفأ الله تعالى نورَ محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ نوره. فحزن الرسولُ ﷺ، فنزلت: «يريدون» إلى آخره[١].

وفي «يريدون ليطفؤوا» مذاهب: أحدها: أنَّ اللامَ زائدةٌ، والفعلَ منصوبٌ بـ «أن» مقدَّرة بعدها، وزِيدت لتأكيد معنى الإرادة، لما في لام العلَّة من الإشعار بالإرادة والقصد، كما زيدت اللام في: لا أبا لك؛ لتأكيد معنى الإضافة.

ثانيها: أنها غيرُ زائدةٍ للتعليل، ومفعول «يريدون» محذوفٌ، أي: يريدون الافتراءَ لأن يطفؤوا.

ثالثها: أنَّ الفعل ـ أعني: «يريدون» ـ حالٌّ محلَّ المصدر، مبتدأ، واللام للتعليل، والمجرور بها خبرٌ، أي: إرادتهم كائنةٌ للإطفاء، والكلامُ نظير: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه[٢]، من وجه.

رابعها: أنَّ اللام مصدرية، بمعنى «أن» من غير تقدير، والمصدرُ مفعولٌ به، ويكثر ذلك بعد فعل الإرادة والأمر.

خامسها: أنَّ «يريدون» منزَّلٌ منزلةَ اللازم؛ لتأويله بـ: يوقعون الإرادة، قيل: وفيه مبالغةٌ لجعل كلِّ إرادة لهم للإطفاء، وفيه كلامٌ في «شرح المغني» وغيره.

وقرأ العربيان ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن: «متمٌّ» بالتنوين «نورَه» بالنصب على المفعولية لـ «مُتِمّ»[٣].

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٢) المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٧٠.

(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والمحرر ٥/ ٣٠٣، والبحر ٨/ ٢٦٣. والعربيان هما: أبو عمرو وابن عامر.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾ حالٌ من المستكنِّ في «مُتمّ»، وفيه إشارةٌ إلى أنه عزَّ وجلَّ مُتِمٌّ ذلك إرغاماً لهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ بالقرآن، أو بالمعجزة بجَعْلِ ذلك نفس الهدى مبالغة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفيَّة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليُعليه على جميع الأديان المخالفة له، ولقد أنجز الله عزَّ وجلَّ وعده، حيث جعله بحيث لم يبقَ دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام.

وعن مجاهد: إذا نزل عيسى عليه السلام لم يكن في الأرض إلا دينُ الإسلام، ولا يضرُّ في ذلك ما ورد من أنه يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه[(١)]؛ إذ لا دلالةَ في الآية على الاستمرار.

وقيل: المراد بالإظهار الإعلاءُ من حيثُ وضوحُ الأدلة، وسطوعُ البراهين، وذلك أمرٌ مستمرٌّ أبداً.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ ذلك؛ لِمَا فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.

وقرئ: «هو الذي أرسل نبيَّه»[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ جليلة الشأن ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ يوم القيامة، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر: «تُنَجِّيكم» بالتشديد[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما هذه التجارة؟ دُلَّنا عليها. فقيل: تؤمنون.. إلخ، والمضارعُ في الموضعين كما قال المبرِّد وجماعة: خبرٌ بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجاهدوا.

---

(١) يشير إلى ماروي من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي ﷺ مرفوعاً وموقوفاً، أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٣، والداني في السنن الواردة في الفتن ٣/ ٥٤٥، والبيهقي في الشعب (١٩٠٨) و(١٩٠٩)، وفي إسناده انقطاع.

(٢) الكشاف ٤/ ٩٩.

(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٢٥٩ عن ابن عامر، والكلام من البحر ٨/ ٢٦٣.

ويُؤيِّده قراءةُ عبد الله كذلك[١]، والتعبيرُ به للإيذان بوجوب الامتثال، كأنَّ الإيمانَ والجهاد قد وقعا، فأخبر بوقوعهما، والخطابُ إذا كان للمؤمنين الخُلَّص، فالمراد: تَثبتون وتدومون على الإيمان، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد، أي: بين تكميل النفس وتكميل الغير، وإن كان للمؤمنين ظاهراً، فالمراد: تُخلصون الإيمان. وأيًّا ما كان، فلا إشكال في الأمر.

وقال الأخفش: «تؤمنون» إلخ عَطْفُ بيانٍ على «تجارة». وتُعقِّبَ بأنه لا يُتخيَّلُ إلا على تقدير أن يكونَ الأصلُ: أن تؤمنوا، حتى يتقدَّر بمصدر، ثم حذف «أن» فارتفع الفعل، كما في قوله:

ألا أيُّـهـذا الـزاجـري أحـضـرُ الـوغـى[٢]

يريد: أن أَحْضُرَ. فلما حذف «أن» ارتفع الفعل، وهو قليل.

وقال ابن عطية: «تؤمنون» فعلٌ مرفوعٌ بتقدير: ذلك أنه تؤمنون[٣]. وفيه حَذْفُ المبتدأ و«أنَّ» واسمها وإبقاء خبرها، وذلك على ما قال أبو حيان: لا يجوز[٤].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تؤمنوا» و«تجاهدوا»[٥] بحذف نون الرفع فيهما، على إضمار لام الأمر، أي: لتؤمنوا وتجاهدوا، أو: لتجاهدوا، كما في قوله:

قـلـتُ لـبـوَّابٍ عـلـى بـابـهـا ... تـأذَنْ لـنـا إنِّـي مـنَ احـمـائـهـا[٦]

وكذا قوله:

---

(١) المحرر ٥/ ٣٠٤، والبحر ٨/ ٢٦٣.

(٢) صدر بيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٢، وتمامه:

وأن أشـهـد الـلـذات هـل أنـتَ مُـخـلـدي

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

محمد تَفْدِ[1] نفسَكَ كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ من أمرٍ تبالا[2]

وجُوِّزَ الاستئناف، والنونُ حذفت تخفيفاً كما في قراءة: «ساحران تَظَّاهَرَا»[3] [القصص:٤٨]، وقوله:

ونَقِّري ما شئتِ أن تُنقِّري قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تحذري[4]

وكذا قوله:

أبيتُ أسري وتبيتي تَدلُكي وجهكِ بالعنبر والمِسْكِ الذَّكي[5]

وأنت تعلم أنَّ هذا الحذفَ شاذٌّ.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم؛ إذ الجهلة لا يُعتَدُّ بأفعالهم حتى تُوصَفَ بالخيرية، وقيل: أي: إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم كان خيراً لكم حينئذٍ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم[6]، أحببتم الإيمانَ والجهاد فوق ما تُحبُّون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، كما في قولهم: اتقى الله تعالى امرؤٌ، فعلَ خيراً يُثَبْ عليه[7]؛ أو جوابٌ لشرطٍ أو استفهامٍ دلَّ

---

(١) جاء في هامش الأصل: وجوَّز بعضهم كون: تفد، خبراً بمعنى الأمر وحذف الياء كما في نحو: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]. وأنت تعلم أن حذفها في غير الفواصل والقوافي غير ثبت.

(٢) اختلف في نسبته للأعشى وحسان وأبي طالب، وليس في ديوان أحد منهم، وهو في الكتاب ٣/ ٨، والمقتضب ٢/ ١٣٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٥٠، وشرح المفصل ٧/ ٣٥، والخزانة ٩/ ١١. وقوله: تبالا: هو سوء العاقبة، وأصله وبال، فتاؤه مبدلة من الواو. قاله الأعلم كما في الخزانة ٩/ ١٣ وسلف ١٣/ ١١٢.
والبيت سلف ١٣/ ٢٢١.

(٣) في الأصل و(م): يظاهرا. وينظر ما سلف ٢٠/ ٢١٠.

(٤) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٤٦.

(٥) البيت في الخصائص ١/ ٣٨٨، والخزانة ٨/ ٣٣٩ دون نسبة.

(٦) في إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤٥ والكلام منه: واعتقدتموه.

(٧) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦].

عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يَغْفِرْ لكم، أو: هل تقبلون أن أدلَّكم؟ أو: هل تتَّجرونَ بالإيمان والجهاد؟ يَغْفِرْ لكم.

وقال الفراء: جوابٌ للاستفهام المذكور، أي: «هل أدلُّكم». وتُعقِّبَ بأنَّ مجردَ الدلالة لا يُوجبُ المغفرة، وأُجيب بأنه كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] وقد قالوا فيه: إنَّ القولَ لَمَّا كان للمؤمن الراسخ الإيمان، كان مظنةً لحصول الامتثال، فجُعل كالمُحقَّقِ وقوعه، فيقال هاهنا: لما كانت الدلالة مظنة لذلك، نُزِّلتْ منزلةَ المحقَّق، ويؤيِّده: «إن كنتم تعلمون» لأنَّ مَنْ له عقلٌ إذا دَلَّهُ سَيِّدُهُ على ما هو خيرٌ له لا يتركه، وادِّعاءُ الفرق لِمَا ثَمَّة[1] من الإضافة التشريفية، وما هنا من المعاتبة، قيل: غير ظاهر. فتدبَّر.

والإنصافُ أنَّ تخريج الفراء لا يخلو عن بُعدٍ، وأما ما قيل: من أنَّ الجملةَ مستأنفةٌ لبيان أنَّ ذلك خيرٌ لهم، و«يغفر» مرفوعٌ سُكِّنَ آخرُهُ كما سُكِّنَ آخر «أشرب» في قوله:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثماً من الله ولا واغِلِ[2]

فليس بشيءٍ؛ لما صرَّحوا به من أنَّ ذلك ضرورة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: طاهرةً زكيةً مستلذَّةً، وهذا إشارةٌ إلى حُسْنها بذاتها، وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إشارة إلى حُسْنها باعتبار محلِّها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من المغفرة وما عُطِفَ عليها ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: ولكم إلى ما ذُكِرَ من النِّعم نعمةٌ أخرى، فـ«أخرى» مبتدأٌ، وهي في الحقيقة صفةٌ للمبتدأ المحذوف، أُقيمت مقامه بعد حذفه، والخبرُ محذوفٌ.

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٩٣.
(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، وروايته: أُسقى، بدل: أشرب، مع العلم بأن رواية النحويين وغيرهم كما ذكر المصنِّف، ينظر ما سلف ١١/ ٤٢١.

قاله الفراء، وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ في موضع الصفة، وقوله سبحانه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجلٌ، بدلٌ أو عَطْفُ بيان، وجملةُ المبتدأ وخبره قيل: حاليةٌ؛ وفي «الكشف» إنها عَطْفٌ على جواب الأمر ـ أعني: «يغفر» ـ من حيث المعنى، كما تقول: جاهدوا تؤجروا، ولكم الغنيمة.

وفي «تُحبُّونَها» تعييرٌ لهم، وكذلك في إيثار الاسمية على الفعلية، وعَطْفِها عليها، كأنَّ هذه عندهم أثبتُ وأمكنُ، ونفوسهم إلى نَيلها والفوز أسكن.

وقيل: «أخرى» مبتدأٌ خبره «نَصْر». وقال قومٌ: هي في موضع نَصْبٍ بإضمار فِعْل، أي: ويُعطِكم أخرى، وجعل ذلك من باب:

عَلَفْتُها تبناً وماءً بارداً[١]

ومنهم مَنْ قدَّرَ: تُحبُّون أخرى، على أنه من باب الاشتغال، و«نَصْرٌ» على التقديرين خبرُ مبتدأ محذوف، أي: ذلك - أو: هو ـ نصر، أو: مبتدأٌ خبرُهُ محذوف، أي: نَصْرٌ وفَتْحٌ قريبٌ عنده.

وقال الأخفش: هي في موضع جَرٍّ بالعطف على «تجارة». وهو كما ترى.

وقرأ ابن أبي عبلة: «نَصْراً وفتحاً قريباً»[٢] بالنصب بـ: أعني مقدَّراً، أو على المصدر، أي: تُنصرون نَصْراً ويُفتَحُ لكم فتحاً، أو على البدلية من «أخرى» على تقدير نَصْبها.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ عَطْفٌ على «قل» مقدَّراً قبل قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا)، وقيل: على «أبشر» مقدَّراً أيضاً، والتقدير: فأَبشرْ يا محمد وبَشِّر.

وقال الزمخشري: هو عَطْفٌ على «تؤمنون» لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يُثبكم الله تعالى وينصركم، وبَشِّر يا رسول الله المؤمنين بذلك[٣].

---

(١) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ١/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠، وعجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤، والبحر ٨/ ٢٦٤.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠١.

وتعقَّبه في «الإيضاح» بأنَّ فيه نظراً؛ لأنَّ المخاطبين في «تؤمنون» هم المؤمنون، وفي «بَشِّر» هو النبيُّ ﷺ، ثم قوله تعالى: «تؤمنون» بيانٌ لما قبله على طريق الاستئناف، فكيف يصحُّ عَطْفُ «بشِّر المؤمنين» عليه[١]؟

وأجيب بما خلاصته: أنَّ قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ للنبيِّ ﷺ وأمته، كما تقرَّرَ في أصول الفقه، وإذا فُسِّرَ بـ «آمنوا» و«بَشِّر»، دَلَّ على تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارتهم الصالحة، وقدّم «آمنوا» لأنه فاتحةُ الكُلِّ، ثم لو سلِّم، فلا مانعَ من العَطْفِ على جواب السائل بما لا يكون جواباً إذا ناسبه، فيكون جواباً للسؤال وزيادة، كيف وهو داخلٌ فيه، كأنهم قالوا: دُلَّنا يا ربنا، فقيل: آمنوا يكنْ لكم كذا، وبَشِّرهم يا محمدُ بثبوته لهم، وفيه من إقامة الظاهر مقامَ المضمر وتنويعِ الخطاب ما لا يخفى نُبْلُ موقعه، واختاره صاحب «الكشف»، فقال: إنَّ هذا الوجهَ [أَوْلَى][٢] من وَجْهِ العطف على «قل» ووَجْهِ العطف على: فأبشر، لخلوِّهما عن الفوائد المذكورة، يعني: ما تضمَّنه الجواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: نَصرةَ دينه سبحانه وعَونَةَ رسوله عليه الصلاة والسلام، وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان: «أنصاراً لله» بالتنوين[٣]، وهو للتبعيض، فالمعنى: كونوا بعضَ أنصاره عزَّ وجلَّ.

وقرأ ابن مسعود على ما في «الكشاف»[٤]: «كونوا أنتم أنصار الله»، وفي «موضح» الأهوازي والكواشي: «أنتم» دون «كونوا».

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ جُندي، متوجِّهاً إلى نُصرةِ الله تعالى، ليطابق قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وقيل: «إلى» بمعنى «مع»، و«نحن أنصار الله» بتقدير: نحن أنصارُ نبيِّ الله، فيحصل التطابق، والأول أولى. والإضافةُ في «أنصاري» إضافةُ أحد المتشاركين إلى الآخر؛

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص١٦٠.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٩٤.
(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والبحر ٨/ ٢٦٤.
(٤) ٤/ ١٠١.

لأنهما لَمَّا اشتركا في نُصْرة الله عزَّ وجلَّ، كان بينهما ملابسةٌ تُصحِّحُ إضافةَ أحدهما للآخر، والإضافةُ في «أنصار الله» إضافةُ الفاعل إلى المفعول، والتشبيهُ باعتبار المعنى؛ إذ المرادُ: قُلْ لهم ذلك كما قال عيسى، وقال أبو حيان: هو على معنى: قلنا لكم كما قال عيسى(١).

وقال الزمخشريُّ: هو على معنى: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: مَنْ أنصاري إلى الله(٢).

وخلاصته على ما قيل: إنَّ «ما» مصدرية، وهي مع صلتها ظرفٌ، أي: كونوا أنصارَ الله وقتَ قولي لكم، ككون الحواريين أنصاره وقتَ قول عيسى، ثم قيل: كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة، وجيء بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم، فهو نظير «كاليوم» في قولهم: كاليومَ رجلٌ، أي: كرجلٍ رأيته اليوم، فحذف الموصوف مع صفته، واكتفى بالظرف عنهما؛ لدلالته على الفعل الدالِّ على موصوفه، وهذا من توسُّعاتهم في الظروف.

وقد جُعلت الآية من الاحتباك، والأصل: كونوا أنصارَ الله حين قال لكم النبيُّ ﷺ: مَنْ أنصاري إلى الله، كما كان الحواريون أنصارَ الله حين قال لهم عيسى عليه السلام: مَنْ أنصاري إلى الله، فُحذِفَ من كلٍّ منهما ما دلَّ عليه المذكور في الآخر، وهو لا يخلو عن حسن.

والحواريون: أصفياؤه عليه السلام، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم، وهم أولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً فرَّقهم ـ على ما في «البحر»(٣) ـ عيسى عليه السلام في البلاد، فمنهم من أرسله إلى رُومِيَة، ومنهم من أرسله إلى بابل، ومنهم من أرسله إلى أفريقية، ومنهم من أرسله إلى أُفسس، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس، ومنهم من أرسله إلى الحجاز، ومنهم من أرسله إلى

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.
(٢) الكشاف ٤/ ١٠١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.

أرض البربر وما حولها، وتعيينُ المرسَلِ إلى كلٍّ فيه[١]، ولستُ على ثقةٍ من صحة ذلك، ولا من ضبط أسمائهم، وقد ذكرها السيوطيُّ أيضاً في «الإتقان»[٢] فليلتمس ضبطُ ذلك من مظانِّه.

واشتقاق الحواريين من الحَوَر: وهو البياض، وسُمُّوا بذلك لأنهم كانوا قصَّارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل: لنقاء ظاهرهم وباطنهم، وزعم بعضُهم أنَّ ما قيل من أنهم كانوا قصَّارين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يُطهِّرون نفوسَ الناس بإفادتهم الدين والعلم، وما قيل: من أنهم كانوا صيَّادين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يصطادون نفوسَ الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحقِّ.

وقيل: الحواريون: المجاهدون، وفي الحديث: «لكلِّ نبيٍّ حَوَاريٌّ، وحَواريَّ الزبير»[٣]، وفُسِّر بالخاصة من الأصحاب والناصر، وقال الأزهريُّ: الذي أُخْلِصَ ونُقِّيَ من كلِّ عيب[٤].

وعن قتادة إطلاقُ الحواريِّ على غيره ﷺ أيضاً، فقد قال: إنَّ الحواريين كلُّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين[٥].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم الذين كفروا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ فصاروا غالبين؛ قال زيد بن علي وقتادة: بالحُجَّة والبرهان، وقيل: إنَّ عيسى عليه السلام حين رُفع إلى السماء، قالت طائفةٌ من قومه: إنه الله سبحانه، وقالت أخرى: إنه

(١) أي في البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.
(٢) ٢/ ١١٠٤.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٢٩٧)، والبخاري (٧٢٦١)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد (٦٨٠) من حديث علي ﷺ، و(١٦١١٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ.
(٤) تهذيب اللغة ٥/ ٢٢٩.
(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢١.

ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ رفعه الله عزَّ وجلَّ إليه، وقالت طائفة: إنه عبدُ الله ورسوله، فاقتتلوا، فظهرتِ الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة، حتى بُعث النبيُّ ﷺ فظهرت المؤمنةُ على الكافرتين، وروي ذلك عن ابن عباس. وقيل: اقتتلَ المؤمنون والكفرةُ بعد رَفْعه عليه السلام، فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهورُ أنَّ القتالَ ليس من شريعته عليه السلام.

وقيل: المراد: فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيلَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، وكفرتْ أخرى به ﷺ، فأيَّدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين. وهو خلافُ الظاهر، والله تعالى أعلم.

(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة

هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة بيانُ أحكام « صلاة الجمعة » التي فرضها الله على المؤمنين .

● **تناولت** السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبيَّنت أنه الرحمة المهداة ، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال ، وأكرم به الإنسانية ، فكانت رسالته بَلْسَماً لأمراض المجتمع البشري ، بعد أن كان يتخبط في الظلام .

● **ثم تحدثت** السورة عن اليهود ، وانحرافهم عن شريعة الله حيث كلفوا بالعمل بأحكام التوراة ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلاً لهم بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ولكنه لا يناله منها إلا العناء ، والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة .

● **ثم تناولت** أحكام « صلاة الجمعة » فدعت المؤمنين إلى المسارعة لاداء الصلاة ، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها ، وختمت بالتحذير من الانشغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين .

سورة الجمعة

[٩٣٨] أخرج الشيخان[1] عن جابر قال: كان النبي [ﷺ] يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا إثنا عشر رجلاً فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾[2].

[٩٣٩] ك.. وأخرج ابن جرير عن جابر أيضاً قال: كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبي [ﷺ] قائماً على المنبر وينفضون إليها فنزلت وكأنها نزلت في الأمرين معاً.

[٩٤٠] ك.. ثم رأيت ابن المنذر أخرجه عن جابر لقصة النكاح وقدوم العير معاً من طريق واحد وأنها نزلت في الأمرين فالله الحمد.

* * *

---

[٩٣٨] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٣).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١١).

سورة الجمعة

وهي إحدى عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الصف: ١] بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل، فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل، وأما تعلق الأول بالآخر، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غني على الإطلاق، ومنزه عما يخطر ببال الجهلة في الآفاق، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدسًا ومنزهًا عما لا يليق بحضرته العالية بالاتفاق، ثم إذا كان خلق السموات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١] ولا ملك أعظم من هذا، وهو أنه خالقهم ومالكهم وكلهم في قبضة قدرته وتحت تصرفه، يسبحون له آناء الليل وأطراف النهار بل في سائر الأزمان، كما مر في أول تلك السورة، ولما كان المُلْك كله له فهو المَلِك على الإطلاق، ولما كان الكل بخلقه فهو المالك، والمالك والملك أشرف من المملوك، فيكون متصفًا بصفات يحصل منها الشرف، فلا مجال لما ينافيه من الصفات فيكون قدوسًا، فلفظ ﴿الْمَلِكِ﴾ إشارة إلى إثبات ما يكون من الصفات العالية، ولفظ ﴿الْقُدُّوسِ﴾ هو إشارة إلى نفي مالا يكون منها، وعن الغزالي ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المنزه عما يخطر ببال أوليائه، وقد مر تفسيره وكذلك ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ثم الصفات المذكورة قرئت بالرفع على المدح، أي هو الملك القدوس، ولو قرئت بالنصب لكان وجهًا، كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد، كذا ذكره في (الكشاف) **ثم في الآية مباحث:**

الأول: قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: يسبح الله، فما الفائدة؟ نقول: هذا من جملة ما يجري فيه اللفظان: كشكره وشكر له، ونصحه ونصح له.

الثاني: ﴿الْقُدُّوسِ﴾ من الصفات السلبية، وقيل: معناه المبارك.

الثالث: لفظ ﴿الْحَكِيمِ﴾ يطلق على الغير أيضًا، كما قيل في لقمان: إنه حكيم، نقول: الحكيم

عند أهل التحقيق هو الذي يضع الأشياء فِي مواضعها، والله تعالى حكيم بهذا المعنى.

ثم إنه تعالى بعدما فرغ من التوحيد والتنزيه شرع في النبوة فقال:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

الأمي منسوب إلى أمة العرب، لما أنهم أمة أميون لا كتاب لهم، ولا يقرأون كتابًا ولا يكتبون. وقال ابن عباس: يريد الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم، وقيل: الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه وقد مر بيانه، وقرئ (الأُمِّينَ) بحذف ياء النسب، كما قال تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢] يعني محمدًا ﷺ نسبه من نسبهم، وهو من جنسهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال أهل المعاني: وكان هو ﷺ أيضًا أميًّا مثل الأمة التي بعث فيهم، وكانت البشارة به في الكتب قد تقدمت بأنه النبي الأمي، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة، فكانت حاله مشاكلة لحال الأمة الذين بعث فيهم، وذلك أقرب إلى صدقه.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي بيناته التي تبين رسالته وتظهر نبوته، ولا يبعد أن تكون الآيات هي الآيات التي تظهر منها الأحكام الشرعية، والتي يتميز بها الحق من الباطل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من خبث الشرك، وخبث ما عداه من الأقوال والأفعال، وعند البعض ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يصلحهم، يعني يدعوهم إلى اتباع ما يصيرون به أزكياء أتقياء ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والكتاب: ما يتلى من الآيات، والحكمة: هي الفرائض، وقيل: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة، لأنه كان يتلو عليهم آياته ويعلمهم سننه، وقيل: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآيات نصًّا، والحكمة ما أودع فيها من المعاني، ولا يبعد أن يقال: الكتاب آيات القرآن والحكمة وجه التمسك بها، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لأنهم كانوا عبدة الأصنام وكانوا في ضلال مبين وهو الشرك، فدعاهم الرسول ﷺ إلى التوحيد والإعراض عما كانوا فيه. **وفي هذه الآية مباحث:**

أحدها: احتجاج أهل الكتاب بها قالوا قوله: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يدل على أنه عليه السلام كان رسولاً إلى الأميين وهم العرب خاصة، غير أنه ضعيف فإنه لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أنه لا يفهم منه أنه يخطه بشماله، ولأنه لو كان رسولاً إلى العرب خاصة كان قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] لا يناسب ذلك، ولا مجال لهذا لما اتفقوا على ذلك، وهو صدق الرسالة المخصوصة، فيكون قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] دليلاً على أنه عليه الصلاة والسلام كان رسولاً إلى الكل.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على الأميين. يعني بعث في آخرين منهم، قال المفسرون: هم الأعاجم يعنون بهم غير العرب أي طائفة كانت، قاله ابن عباس وجماعة، وقال مقاتل: يعني التابعين من هذه الأمة الذين لم يلحقوا بأوائلهم، وفي الجملة معنى جميع الأقوال فيه كل من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة فالمراد بالأميين: العرب. وبالآخرين سواهم من الأمم، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مجرور لأنه عطف على المجرور يعني الأميين، ويجوز أن ينتصب عطفًا على المنصوب في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ [الجمعة: ٢] أي ويعلمهم ويعلم آخرين منهم، أي من الأميين وجعلهم منهم، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، فالمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلف أجناسهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١] وأما من لم يؤمن بالنبي ﷺ ولم يدخل في دينه فإنهم كانوا بمعزل عن المراد بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وإن كان النبي مبعوثًا إليهم بالدعوة فإنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وغير المؤمنين ليس من جملة من يعلمه الكتاب والحكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ من حيث جعل في كل واحد من البشر أثر الذل له والفقر إليه، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حيث جعل في كل مخلوق ما يشهد بوحدانيته، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال ابن عباس: يريد حيث ألحق العجم وأبناءهم بقريش، يعني إذا آمنوا ألحقوا في درجة الفضل بمن شاهد الرسول عليه السلام، وشاركوهم في ذلك، وقال مقاتل: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ يعني الإسلام ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ وقال مقاتل بن حيان: يعني النبوة فضل الله يؤتيه من يشاء، فاختص بها محمدًا ﷺ. والله ذو المن العظيم على جميع خلقه في الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة كما مر، وفي الآخرة بتفخيم الجزاء على الأعمال.

ثم إنه تعالى ضرب لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة والإيمان بالنبي ﷺ مثلاً فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾

اعلم أنه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة، وبيَّن في النبوة أنه عليه السلام بعث إلى الأميين واليهود لما أوردوا تلك الشبهة، وهي أنه عليه السلام بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة، والإيمان بالنبي

عليه السلام، والمقصود منه أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شُبِهوا بالحمار؛ لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها، ولم يوردوا تلك الشبهة، وذلك لأن فيها نعت الرسول عليه السلام، والبشارة بمقدمه، والدخول في دينه، وقوله: ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي حملوا العمل بما فيها، وكلفوا القيام بها، وحملوا وقرئ: بالتخفيف والتثقيل، وقال صاحب (النظم): ليس هو من الحمل على الظهر، وإنما هو من الحمالة بمعنى الكفالة والضمان، ومنه قيل للكفيل: الحميل، والمعنى: ضمنوا أحكام التوراة ثم لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها. قال الأصمعي: الحميل، الكفيل، وقال الكسائي: حَمَلتُ له حمالة. أي كفلت به، والأسفار جمع سِفْر وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ، ونظيره شِبْر وأشبار، شبه اليهود إذ لم ينتفعوا بما في التوراة، وهي دالة على الإيمان بمحمد ﷺ بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولا يدري ما فيها. وقال أهل المعاني: هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه، ولهذا قال ميمون بن مهران: يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها على ما بيناه، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتبًا، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم، ثم ذم المثل، والمراد منه ذمهم فقال: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بئس القوم مثلاً الذين كذبوا، كما قال: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: ١٧٧] وموضع (الذين) رفع، ويجوز أن يكون جرًا، وبالجملة لما بلغ كذبهم مبلغًا وهو أنهم كذبوا على الله تعالى كان في غاية الشر والفساد، فلهذا قال: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ والمراد بالآيات هاهنا الآيات الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ، وهو قول ابن عباس ومقاتل، وقيل: الآيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد ﷺ، وهذا أشبه هنا. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال عطاء: يريد الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء **وهاهنا مباحث:**

البحث الأول: ما الحكمة في تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات؟ نقول: لوجوه منها: أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] والزينة في الخيل أكثر وأظهر؛ بالنسبة إلى الركوب وحمل الشيء عليه، وفي البغال دون، وفي الحمار دون البغال، فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال، وغيرهما من الحيوانات، ومنها: أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة، وذلك في الحمار أظهر، ومنها: أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير، والغرض من الكلام في هذا المقام تعيير القوم بذلك وتحقيرهم، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى، ومنها أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم، لكونه ذلولاً، سلس القياد، لين الانقياد، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة، وهذا من جملة ما يوجب

حسن الذكر بالنسبة إلى غيره، ومنها: أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى.

الثاني: ﴿يَحۡمِلُ﴾ ما محله؟ نقول: النصب على الحال، أو الجر على الوصف كما قال في (الكشاف): إذ الحمار كاللئيم في قوله:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَرَرْتُ ثَمَّةَ قُلْتُ لاَ يَعْنِينِي[1]

الثالث: قال تعالى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ كيف وصف المثل بهذا الوصف؟ نقول: الوصف وإن كان في الظاهر للمثل فهو راجع إلى القوم، فكأنه قال: بئس القوم قومًا مثلهم هكذا.

ثم إنه تعالى أمر النبي ﷺ بهذا الخطاب لهم وهو:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾

هذه الآية من جملة ما مر بيانه، وقرئ: (فَتَمَنَّوِا المَوْتَ) بكسر الواو، و﴿هَادُوٓاْ﴾ أي تهودوا، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، فلو كان قولكم حقًّا وأنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعًا إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه، قال الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[2]

فهم يطلبون الموت لا محالة إذا كانت الحالة هذه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر وتحريف الآيات، وذكر مرة بلفظ التأكيد ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾[البقرة: ٩٥] ومرة بدون لفظ التأكيد ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بظلمهم من تحريف الآيات وعنادهم لها، ومكابرتهم إياها.

---

(١) هذا البيت لشمر الحنفي وهو هكذا:

وَلقدْ مررْتُ على اللّئيمِ يسبُّني فمضيْتُ ثُمّت قُلْتُ لا يعْنِيني

شمر الحنفي هو: شمر بن عمرو الحنفي. شاعر من شعراء بني حنيفة باليمامة، روى صاحب الأغاني أن شمرًا قتل المنذر بن ماء السماء غيلة نحو (٥٦٤م) وكان الحارث بن جبلة الغساني قد بعث إلى المنذر بمائة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الأمان على أن يخرج له من ملكه. ويكون من قبله فركن المنذر إلى ذلك وأقام الغلمان معه فاغتاله شمر وتفرق من كان مع المنذر وانتهبوا عسكره.

(٢) هذا البيت للشاعر ابن الرعلاء وهو: عدي بن الرعلاء الغساني شاعر جاهلي اشتهر بنسبه إلى أمه، وضاع اسم أبيه. وهو صاحب القصيدة التي مطلعها:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وفات ابن حبيب ذكره في كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾

يعني أن الموت الذي تفرون منه بما قدمت أيديكم من تحريف الآيات وغيره ملاقيكم لا محالة، ولا ينفعكم الفرار ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة يعني ما أشهدتم الخلق من التوراة والإنجيل وعالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد ﷺ وما أسررتم في أنفسكم من تكذيبكم رسالته، وقوله تعالى: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إما عيانًا مقرونًا بلقائكم يوم القيامة، أو بالجزاء إن كان خيرًا فخير. وإن كان شرًّا فشر، فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ هو التنبيه على السعي فيما ينفعهم في الآخرة، وقوله: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ هو الوعيد البليغ والتهديد الشديد. **ثم في الآية مباحث:**

البحث الأول: أدخل الفاء لما أنه في معنى الشرط والجزاء، وفي قراءة ابن مسعود ﴿ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ من غير ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾.

الثاني: أن يقال: الموت ملاقيهم على كل حال، فروا أو لم يفروا، فما معنى الشرط والجزاء؟ قيل: إن هذا على جهة الرد عليهم إذ ظنوا أن الفرار ينجيهم، وقد صرح بهذا المعنى، وأفصح عنه بالشرط الحقيقي في قوله:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا تَنَالُهُ ... وَلَوْ نَالَ أسباب السماء بسلم

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾

وجه التعلق بما قبلها هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك، فنبههم الله تعالى بقوله: ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي إلى ما ينفعكم في الآخرة، وهو حضور الجمعة، لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية، قال تعالى: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧] ووجه آخر في التعلق، قال بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث، افتخروا بأنهم أولياء الله واحباؤه، فكذبهم بقوله: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦] وبأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفارًا، وبالسبت وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِىَ ﴾ يعني النداء إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل، وأنه كما قال لأنه

لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواء كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد، وكذا على عهد أبي بكر وعمر، وقوله تعالى: ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي لوقت الصلاة يدل عليه قوله: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ ولا تكون الصلاة من اليوم، وإنما يكون وقتها من اليوم، قال الليث: الجمعة يوم خص به لاجتماع الناس في ذلك اليوم، ويجمع على الجُمُعات والجُمَع، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّ آدم جمع فيها خَلْقُهُ**» (١) وقيل: لما أنه تعالى فرغ فيها من خلق الأشياء، فاجتمعت فيها المخلوقات. قال الفراء: وفيها ثلاث لغات التخفيف، وهي قراءة الأعمش، والتثقيل وهي قراءة العامة، ولغة لبني عقيل، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي فامضوا، وقيل: فامشوا وعلى هذا معنى السعي: المشي لا العدو، وقال الفراء: المضي والسعي والذهاب في معنى واحد، وعن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ قال من أقرأك هذا، قال: أبي، قال: لا يزال يقرأ بالمنسوخ، لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي، وقيل: المراد بالسعي القصد دون العدو، والسعي التصرف في كل عمل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢] قال الحسن: والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه سعي بالقلوب، وسعي بالنية، وسعي بالرغبة، ونحو هذا، والسعي هاهنا هو العمل عند قوم، وهو مذهب مالك والشافعي، إذ السعي في كتاب الله العمل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] و﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤] أي العمل، وروي عنه ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَلَكِنِ ائْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السكينة**» (٢) واتفق الفقهاء على: (أن النبي كَانَ مَتَى أَتَى الْجُمُعَةَ أَتَى عَلَى هَيِّنَةٍ) وقوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذكر هو الخطبة عند الأكثر من أهل التفسير، وقيل: هو الصلاة، وأما الأحكام المتعلقة بهذه الآية فإنها تعرف من الكتب الفقهية، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، وقال عطاء: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء، وقال الفراء: إنما حرم البيع والشراء إذا نودي للصلاة لمكان الاجتماع ولندرك له كافة الحسنات، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو خير لكم وأصلح، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا

---

(١) **ضعيف**: رواه الخطيب في (تاريخ بغداد) (٢/ ٣٩٧) حديث رقم (٩١٨) والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ٢٤٨) تحت ترجمة محمد بن عيسى بن أبي موسى أبو جعفر كلاهما من طريقه عن عبد الله بن عمرو بن أبي أمية حدثنا قيس عن الأعمش عن إبراهيم بن علقمة عن مرفع الضبي عن سلمان... به وأورده أبو الفضل محمد بن طاهر القدسي في (أطراف الغرائب والأفراد) (٣/ ١١٧) حديث رقم (٢٢٠١) وقال: تفرد به من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد به قيس بن الربيع عنه وتفرد به عبد الله بن عمرو بن أبي أمية عن قيس فجور إسناده ا. هـ وأورده الألباني في (السلسلة الضعيفة) (٣٢٢٤) وقال: ضعيف.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة) باب (المشي إلى الجمعة) (٢/ ٤٥٣) حديث رقم (٩٠٨) من طريق ابن أبي ذئب... به ومسلم في كتاب (المساجد) باب (استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة) (١/ ١٥١/ ٤٢٠) من طريق سفيان... به كلاهما (ابن أبي ذئب، سفيان) عن الزهري... به.

قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا صيغة الأمر بمعنى الإباحة لما أن إباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة، فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض ويبتغوا من فضل الله، وهو الرزق، ونظيره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨]، وقال ابن عباس: إذا فرغت من الصلاة فإن شئت فاخرج، وإن شئت فصل إلى العصر، وإن شئت فاقعد، كذلك قوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ فإنه صيغة أمر بمعنى الإباحة أيضًا لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع، بقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ وعن مقاتل: أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة، فمن شاء خرج. ومن شاء لم يخرج، وقال مجاهد: إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وقال الضحاك، هو إذن من الله تعالى إذا فرغ، فإن شاء خرج، وإن شاء قعد، والأفضل في الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق، أو الولد الصالح أو العلم النافع وغير ذلك من الأمور الحسنة، والظاهر هو الأول، وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين(١)، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال مقاتل: باللسان، وقال سعيد بن جبير: بالطاعة، وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين كثيرًا حتى يذكره قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، والمعنى إذا رجعتم إلى التجارة وانصرفتم إلى البيع والشراء مرة أخرى فاذكروا الله كثيرًا، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧]. وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«إِذَا أَتَيْتُمُ السُّوقَ فَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنَّ مَنْ قَالَهَا كَتَبَ اللَّه لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَحَطَّ عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ خَطِيئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ»**(٢) وقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من جملة ما قد مر مرارًا. **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: ما الحكمة في أن شرع الله تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف؟ فنقول: قال القفال: هي أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم إلى الوجود وجعل منهم جمادًا وناميًا وحيوانًا، فكان ما سوى الجماد أصنافًا، منها بهائم وملائكة وجن وإنس، ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم، ولما كرمهم الله تعالى به من النطق، وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع، ولم يَخْفَ موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم

(١) أورده ابن أبي حاتم في (التفسير) (١٢/ ٣١٣) وقال: كان عراك بن مالك... فذكره.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي في كتاب (الدعوات) باب (ما يقول إذا دخل السوق) (٥/ ٤٥٧) حديث رقم (٣٤٢٨) من طريق محمد بن واسع... به وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب وابن ماجه في كتاب (التجارات) باب (الأسواق ودخولها) (٢/ ٧٥٢) حديث رقم (٢٢٣٥) من طريق عبد الله بن دينار... به والدارمي في كتاب (الاستئذان) باب (ما يقول إذا دخل السوق) (٢/ ١٧٣) حديث رقم (٢٦٩٢) والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٣٨) من طريق محمد بن واسع... به كلاهما عن سالم بن عبد الله... به.

من الأيام السبعة التي فيها أنشئت الخلائق وتم وجودها، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ماأنعم الله تعالى به عليهم، وإذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدئوا من نعمة تتخللهم، وإن منة الله مثبتة عليهم قبل استحقاقهم لها، ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة، روي عن رسول الله ﷺأنه قال: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّه لَهُ فَلِلْيَهُودِ غَدًا وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» (١)ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة في الأعياد، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرًا بالنعمة وحثًّا على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم، إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع، والله أعلم.

الثاني: كيف خص ذكر الله بالخطبة، وفيها ذكر الله وغير الله؟ نقول: المراد من ذكر الله الخطبة والصلاة لأن كل واحدة منهما مشتملة على ذكر الله، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والثناء عليهم والدعاء لهم فذلك ذكر الشيطان.

الثالث: قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ لم خص البيع من جميع الأفعال؟ نقول: لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش، وفيه إشارة إلى ترك التجارة، ولأن البيع والشراء في الأسواق غالبًا، والغفلة على أهل السوق أغلب، فقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ تنبيه للغافلين، فالبيع أولى بالذكر ولم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة.

الرابع: ما الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانيًا؟ فنقول: الأول من جملة مالا يجتمع مع التجارة أصلاً إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر، والثاني من جملة ما يجتمع كما في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قال مقاتل: إن دحية بن خليفة الكلبي أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم وكان معه من أنواع التجارة، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والصفق: وكان ذلك في يوم الجمعة والنبي ﷺقائم

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة) باب (هل علي من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم) (٢/ ٤٤٤) حديث رقم (٨٩٦) من طريق وهيب... به ومسلم في كتاب (الجمعة) باب (هداية هذه الأمة ليوم الجمعة والطيب والسواك) (٢/ ١٩/ ٥٨٥) من طريق سفيان... به كلاهما (وهيب، سفيان) عن ابن طاووس... به.

على المنبر يخطب فخرج إليه الناس وتركوا النبي ﷺ ولم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أو أقل كثمانية أو أكثر كأربعين، فقال عليه السلام: لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة، ونزلت الآية(١): وكان من الذين معه أبو بكر وعمر. وقال الحسن: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدمت عير والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها، فقال النبي ﷺ: «لَوِ اتَّبَعَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ لَالْتَهَبَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا»(٢) قال قتادة: فعلوا ذلك ثلاث مرات، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ وهو الطبل، وكانوا إذا أنكحوا الجواري يضربون المزامير، فمروا يضربون، فتركوا النبي ﷺ، وقوله: ﴿انفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي تفرقوا، وقال المبرد: مالوا إليها وعدلوا نحوها، والضمير في (إِلَيْهَا) للتجارة، وقال الزجاج: انفضوا إليه وإليها، ومعناهما واحد كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا۟ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] واعتبر هنا الرجوع إلى التجارة لما أنها أهم إليهم، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ اتفقوا على أن هذا القيام كان في الخطبة للجمعة قال جابر: ما رأيت رسول الله ﷺ في الخطبة إلا وهو قائم(٣)، وسئل عبد الله أكان النبي يخطب قائمًا أو قاعدًا فقرأ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي ثواب الصلاة والثبات مع النبي ﷺ ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ﴾ من اللهو الذي مر ذكره، والتجارة التي جاء بها دحية، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ هو من قبيل أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، والمعنى إن أمكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين، وقيل: لفظ الرازق لا يطلق على غيره إلا بطريق المجاز، ولا يرتاب في أن الرازق بطريق الحقيقة خير من الرازق بطريق المجاز **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: أن التجارة واللهو من قبيل ما لا يرى أصلاً، ولو كان كذلك كيف يصح ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ نقول: ليس المراد إلا ما يقرب منه اللهو والتجارة، ومثله حتى يسمع كلام الله، إذ الكلام غير مسموع، بل المسموع صوت يدل عليه.

الثاني: كيف قال: ﴿انفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ وقد ذكر شيئين وقد مر الكلام فيه، وقال صاحب (الكشاف): تقديره: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوًا انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه.

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ مناسب للتجارة التي مر ذكرها لا للهو، نقول: بل هو مناسب للمجموع لما أن اللهو الذي مر ذكره كالتبع للتجارة، لما أنهم أظهروا ذلك فرحًا بوجود التجارة كما مر، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) **مرسل:** الطبري في (تفسيره) (٢٢/ ٣٨٧) من طريق ابن وهب قال ابن زيد... فذكره.

(٢) **مرسل:** الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٣٨٨) من طريق ابن ثور عن معمر عن قتادة... به.

(٣) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ٩٣) حديث رقم (٢٠٩٠٣) من طريق حسين بن علي عن زائدة عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال... به، الطبراني في (الكبير) (٢/ ٢٤١) حديث رقم (٢٠١٣) من طريق عبيد الله بن موسى عن حسن بن صالح عن سماك بن حرب قال: سمعت جابر بن سمرة... به.

سورة الجُمُعة

مدنيّةٌ في قول الجميع، وهي إحدى عشرة آية[٢].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خير يومٍ طَلَعَتْ عليه الشمس يومُ الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدخِل الجنَّة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[٣]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخِرون [الأوّلون] يوم القيامة، ونحن أوَّل من يدخل الجنَّة، بيدَ أنَّهم أوتوا الكتاب مِن قَبْلِنا، وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقِّ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا، وغدًا لليهود، وبعد غدٍ للنصارى»[٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾

تقدَّم الكلام فيه. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ

(١) في (ف) و(خ) و(ظ): وبودس.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٩.

(٣) مسلم (٨٥٤): (١٨) وهو عند أحمد (٩٤٠٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٥): (٢٠)، وما بين حاصرتين منه، والبخاري (٨٧٦)، وأحمد (٧٣١٠).

الْحَكِيمُ» كلُّها رفعاً[١]؛ أي: هو المَلِكُ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: الأمِّيُّون: العرب كلُّهم، من كتَب منهم ومن لم يكتُب؛ لأنَّهم لم يكونوا أهلَ كتاب. وقيل: الأمِّيُّون الذين لا يكتبون. وكذلك كانت قريش[٢]. وروى منصور عن إبراهيم قال: الأمِّيُّ: الذي يقرأ ولا يكتب[٣]. وقد مضى في «البقرة»[٤].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني محمَّداً ﷺ. وما من حَيٍّ من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد وَلَدُوه. قال ابن إسحاق: إلا حَيَّ تَغْلِب؛ فإنَّ الله تعالى طهَّر نبيَّه ﷺ منهم لنَصْرَانِيَّتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة. وكان أمِّيًّا لم يقرأ من كتاب، ولم يتعلَّم ﷺ. قال الماورديُّ[٥]: فإن قيل: ما وجه الامتنان بأن بُعث نبيًّا أمِّيًّا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدّمت بشارة الأنبياء. الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقربَ إلى موافقتهم. الثالث: لينتفي عنه سوء الظَّنِّ في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها، والحِكَم التي تلاها.

قلت: وهذا كلُّه دليل معجزته وصدق نبوَّته.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، قاله ابن عباس. وقيل: يطهِّرهم من دنس الكفر والذنوب، قاله ابن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٦ عن شقيق بن سلمة ورؤبة وأبي الدينار الأعرابي، والكشاف ٤/ ١٠٢ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢/ ١٥٣ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١/ ١٥٢ (٧٩١) من طريق سفيان، عن منصور، به.

(٤) ٢/ ٢١٦ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٦ .

جُريج ومقاتل. وقال السُّدِّيُّ: يأخذ زكاة أموالهم[١] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّة، قاله الحسن. وقال ابن عباس: «الكتاب»: الخطُّ بالقلم؛ لأنَّ الخطَّ فَشَا في العرب بالشرع لمَّا أُمِروا بتقييده بالخطِّ. وقال مالك بن أنس: «الحِكْمَة»: الفقه في الدِّين. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٢]. ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْله وقَبْل أن يرسل إليهم. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ هو عطف على «الأمِّيين» أي: بعث في الأمِّيِّين وبعث في آخرين منهم. ويجوز أن يكون منصوباً بالعطف على الهاء والميم في «وَيُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمهُمْ»[٣]؛ أي: يعلِّمهم ويعلِّم آخرين من المؤمنين؛ لأنَّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلُّه مسندًا إلى أوَّله، فكأنَّه هو الذي تولَّى كلَّ ما وجد منه.

﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ أي: لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم[٤]. قال ابن عمر وسعيد بن جبير: هم العجم[٥]. وفي «صحيح البخاريِّ ومسلم» عن أبي هريرة قال: كنَّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ، إذ نزلت عليه سورة «الجمعة»، فلما قرأ: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ». قال رجل: مَن هؤلاءِ يا رسول الله؟ فلم يُراجعْه النبيُّ ﷺ حتى سألَه مَرَّة أو مرَّتين أو ثلاثاً. قال: وفينا سَلْمانُ الفارسيُّ. قال: فوضع النبيُّ ﷺ يدَه على سلمانَ، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثُّريَّا لناله رجال من هؤلاء»[٦]. في رواية: «لو

(١) النكت والعيون ٦/٦ وما بعده منه أيضاً.

(٢) ٢/ ٤٠٣ ، وقول مالك أخرجه الطبري ٢/ ٥٧٦ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٥٣٢ (٢٨٢٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥-٤٢٦ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٢ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٢٥٩ .

(٦) البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦): (٢٣١)، وهو عند أحمد (٩٤٠٦).

كان الدِّين عند الثُّرَيَّا لذهب به رجل من فارس ـ أو قال: من أبناء فارس ـ حتى يتناوله» لفظ مسلم[١].

وقال عكرمة: هم التابعون[٢]. مجاهد: هم الناس كلُّهم، يعني: من بعد العرب الذين بُعث فيهم محمَّد ﷺ[٣]. وقاله ابن زيد ومقاتل بن حَيَّان قالا: هم من دخل في الإسلام بعد النبيِّ ﷺ إلى يوم القيامة[٤]. وروى سهل بن سعد السَّاعديُّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في أصلاب أمَّتي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم تلا: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»[٥]. والقول الأوَّل أثبت.

وقد روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رأيتُني أسقي غنماً سوداً، ثم أتبعتها غنماً عُفْرًا، أوِّلْها يا أبا بكر»؟ فقال: يا رسولَ الله، أمَّا السود فالعرب، وأما العُفْر فالعجم تتبعك بعد العرب. فقال النبيُّ ﷺ: «كذا أَوَّلَها المَلَك» يعني: جبريل عليه السلام. رواه ابن أبي لَيلَى عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، وهو عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٦].

---

(١) برقم (٢٥٤٦): (٢٣٠)، وهو عند أحمد (٨٠٨١).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٠.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٣١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٣١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧ عن مقاتل بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٠٩)، والطبراني في الكبير (٦٠٠٥)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٥ (١٨٨٩١) بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠٨: رواه الطبراني وإسناده جيد.

(٦) لم نقف عليه هكذا، بل أخرجه الحاكم ٤/ ٣٩٥ من طريق حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى، عن أيوب ﷺ مرفوعاً بنحوه. ومن طريق زيد بن أسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بنحوه ومع زيادة. قال الحاكم: هذا حديث على شرط البخاري، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرج أحمد (٢٣٨٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٥١)، وأبو يعلى (٩٠٤)، والبزار (٢٧٨٥)، واللفظ له، عن أبي الطفيل ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: رأيت فيما يرى النائم غنماً سودًا تتبعها غنم عفر، فأولت أن الغنم السود العرب، وأن العفر العجم. مع زيادة فيما عداه من المصادر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٨٣: رواه البزار، وفيه: علي بن زيد، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات.
وذكر ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٤١٣ أن أبا ذر الهروي أخرجه في كتابه الرؤيا عن ابن مسعود، وورد في آخره: «فعبِّرها يا أبا بكر». قال: ألي الأمرَ بعدك، ويليه بعدي عمر. قال: «كذلك عبَّرها الملك». وفي سنده: أيوب بن جابر، وهو ضعيف، وهذه الزيادة منكرة. اهـ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس: حيث ألحق العجم بقريش. وقيل: يعني الإسلام، فضلُ الله يؤتيه من يشاء، قاله الكلبيُّ[(١)]. وقيل: يعني الوحي والنبوَّة، قاله مقاتل. وقول رابع: إنَّه المال يُنفق في الطاعة، وهو معنى قول أبي صالح. وقد روى مسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنَّ فقراء المهاجرين أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك»؟ قالوا: يُصَلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتِقُون ولا نُعْتِق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أُعلِّمكم شيئاً تُدرِكون به مَن سبقكم، وتَسبِقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم، إلا من صنع مثلَ ما صنعتم». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تُسبِّحون، وتُكبِّرون، وتَحمدون، دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين مرَّة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمِع إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مِثْلَه. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(٢)]. وقول خامس: أنَّه انقياد الناس إلى تصديق النبيِّ ﷺ، ودخولهم في دينه ونصرته[(٣)]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

ضرب مَثَلاً لليهود لمَّا تركوا العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمَّد ﷺ[(٤)]. ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: كُلِّفوا العمل بها، عن ابن عباس. وقال الجُرْجانيُّ: هو من الحَمالة

(١) النكت والعيون ٦/ ٧ - ٨ ، وما بعده منه أيضاً.
(٢) مسلم (٥٩٥)، وهو عند البخاري (٨٤٣) بنحوه.
(٣) النكت والعيون ٦/ ٨ .
(٤) زاد المسير ٨/ ٢٦٠ .

بمعنى الكفالة، أي: ضمنوا أحكام التوراة. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هي جمع سِفْر: وهو الكتاب الكبير[١]؛ لأنَّه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال مَيمون بن مِهْران: الحمار لا يدري أسِفْر على ظهره أم زبل[٢]، فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلَّم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذَّمِّ ما لحق هؤلاء. وقال الشاعر:

زواملُ للأسفارِ لا عِلْم عندهم ... بجيِّدها إلا كعِلْم الأباعر
لَعَمْرُك ما يدري البعيرُ إذا غَدَا ... بأوساقِه أو راحَ ما في الغرائر[٣]

وقال يحيى بن يمان: يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهَّم ولا يتدبَّر، فإذا سُئل أحدهم عن مسألة جلس كأنَّه مكاتب[٤]. وقال الشاعر:

إنَّ الرواةَ على جهل بما حَمَلوا ... مِثْلُ الجِمال عليها يُحمل الوَدَعُ
لا الوَدْع ينفعه حَمْلُ الجِمال له ... ولا الجِمال بحَمْل الوَدْع تنتفع[٥]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٥ .

(٢) في (م): زبيل.

(٣) من هنا إلى نهاية أشعار البلوطي من جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ١٠٣١-١٠٣٢ ، والبيتان لمروان ابن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، يهجو قوماً من رواة الشعر بأنهم لا يعلمون ما هو، على كثرة استكثارهم من روايته، والبيتان في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٣٠ إلا أنه ورد فيه: المطي، بدل: البعير، وذكرهما أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ١٠٣٧ ، والجرجاني في دلائل الإعجاز ص٢٥٤ إلا أنه ورد فيهما: للأشعار، بدل: للأسفار. قال المرصفي في رغبة الآمل ٧/ ٣٧ : الزوامل جمع زاملة: وهي البعير يحمل عليه المتاع والطعام. والأوساق جمع وَسْق: وهو حِمْل البعير. والغرائر جمع الغِرارة: وهي الأوعية التي تسمى بالجَوالق.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٩٧٦)، والكلام - وما قبله وما بعده - منه.

(٥) جامع بيان العلم ٢/ ١٠٣٢ ، ونسبهما لعمار الكلبي، وأوردهما اليوسي في زهر الأكم ٢/ ١٣٨ ولم ينسبهما، إلا أنه ورد عنده صدر البيت الأول هكذا: إن الرواة بلا فهم لما حفظوا.
قال اليوسي: والوَدَع: خرز أبيض يستخرج من البحر، الواحد: وَدَعة، والجمع: وَدَع - وتُسكَّن الدال أيضاً - وودعات.

وقال منذر بن سعيد البَلُّوطي ـ رحمه الله ـ فأحسن[١]:

إنْعِقْ[٢] بما شئتَ تجد أنصارًا وزمَّ[٣] أسفارًا تجد حِمارًا
يَحملُ ما وضعتَ من أسفارِ مَثَلُه[٤] كمثل الحمارِ
يَحملُ أسفارًا له وما دَرَى إن كان ما[٥] فيها صواباً أو خطا
إن سُئلوا قالوا كذا روينا ما إن كَذَبْنا [لا] ولا اعتديْنَا
كبيرهم يصغر عند الحَفلِ لأنه قَلّد[٦] أهل الجهلِ

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها[٧]. شبَّههم ـ والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها ـ بالحمار يحمل كتبًا، وليس له إلا ثِقْل الحِمل من غير فائدة. و«يحمل» في موضع نصب على الحال، أي: حاملاً[٨]. ويجوز أن يكون في موضع جرٍّ على الوصف؛ لأنَّ الحمار كاللئيم[٩]. قال:

ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسُبّني[١٠]

---

(١) الأبيات في جامع بيان العلم ٢/ ١٠٣٢ مع اختلاف يسير، وما بين حاصرتين منه، وبزيادة بيت بعد البيت الرابع، وهو:

أوْجههم من قال: ذي رواية ليس بمعناها له دراية

(٢) في (د) و(ز): أنفق.

(٣) في (ظ): ورمّ. وزمَّ: تكلَّم. المعجم الوسيط (زمم).

(٤) في (م): يحمله.

(٥) زيادة من (خ) و(م).

(٦) في (ق): قدّر.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٦.

(٩) الكشاف ٤/ ١٠٣، وما بعده منه أيضاً.

(١٠) صدر بيت لرجل من بني سلول، كما ذكر ذلك سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٤، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٢٦ إلى شَمِر بن عمرو الحنفي، أحد شعراء بني حنيفة باليمامة، إلا أنه ورد فيه: مررت، بدل: أمرّ. وجاءت رواية عجزه عندهما هكذا: =

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ المثل الذي ضربناه لهم؛ فحذف المضاف[1]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من سَبَقَ في علمه أنَّه يكون كافرًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾

لما ادَّعت اليهود الفضيلة، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] قال الله تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ فللأولياء عند الله الكرامة. ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أسلفوه من تكذيب محمَّد ﷺ، فلو تمنَّوه، لماتوا، فكان في ذلك بطلان قولهم، وما ادَّعوه من الولاية. وفي حديثٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «والذي نفس محمَّد بيده، لو تمنَّوا الموت، ما بقي على ظهرها يهوديٌّ إلا مات»[2]. وفي هذا إخبار عن الغيب، ومعجزةٌ للنبيِّ ﷺ. وقد مضى معنى هذه الآية في «البقرة» في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ

= فمضيت ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني

وأورده أيضاً المبرِّد في الكامل ٢/ ٩٨٣ ولم ينسبه، وجاءت رواية عجزه هكذا:

فأجوز ثم أقول لا يعنيني

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٧ .

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٨٦ ، ومن طريقه الطبري ٢/ ٢٦٨ ، عن ابن عباس موقوفاً، بلفظ: لو تمنَّوه يوم قال لهم ذلك، ما بقي على ظهر الأرض يهودي إلا مات. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ٥٢ ، ومن طريقه الطبري ٢/ ٢٦٨ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١/ ١٧٧ (٩٣٨) عن ابن عباس بنحوه موقوفاً. قال ابن حجر في العجاب ١/ ٢٨٦ عن إسناده: وهذا سند صحيح.

وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٢٦)، والبزار (٢١٨٩ كشف الأستار)، وأبو يعلى (٢٦٠٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه: .... ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورَأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣١٤ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. اهـ. وينظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٤٢ .

ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١) [الآية: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

قال الزجَّاج(٢): لا يقال: إنَّ زيدًا فمنطلق، وهاهنا قال: «فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ» لِما في معنى «الَّذِي» من الشرط والجزاء، أي: إن فررتم منه، فإنَّه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنَّه لا ينفع الفرار منه. قال زهير:

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسبابَ السماء بُسلَّمِ(٣)

قلت: ويجوز أن يتمَّ الكلام عند قوله: «الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ»، ثم يبتدئ: «فإنَّه مُلَاقِيكُمْ»(٤). وقال طرفة:

وكفَى بالمَوْت فاعلم واعظاً ... لِمَن المَوْتُ عليه قد قُدِرْ
فاذكر الموتَ وحاذر ذكره ... إنَّ في الموت لذي اللُّبِّ عِبَرْ
كلُّ شيءٍ سوف يَلْقَى حَتْفَه ... في مقامٍ أو على ظَهْرِ سَفَرْ
والمنايا حَوْلَه تَرْصُدُه ... ليس يُنجيه من الموت الحَذَرْ(٥)

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ قرأ

---

(١) ٢/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) في معاني القرآن له٥/ ١٧١.

(٣) سلف ٣/ ٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧١.

(٥) لم نقف عليها.

عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما: «الجُمْعة» بإسكان الميم على التخفيف[(١)]. وهما لغتان. وجمعهما: جُمَع، وجُمُعات. قال الفرَّاء[(٢)]: يقال: الْجُمْعَة - بسكون الميم - والجُمُعة - بضمِّ الميم - والجُمَعة - بفتح الميم - فيكون صفة اليوم، أي: تجمع الناس. كما يقال: ضُحَكة للذي يضحك. وقال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤوها جُمُعة، يعني: بضمِّ الميم[(٣)]. وقال الفرَّاء[(٤)] وأبو عبيد: والتخفيف أقْيَس وأحسن، نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وحُجْرة وحُجَر. وفتحُ الميم لغة بني عقيل. وقيل: إنَّها لغة النبيِّ ﷺ.

وعن سَلْمان أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّما سُمِّيت جمعةً؛ لأنَّ الله جمَع فيها خَلْقَ آدم»[(٥)]. وقيل: لأنَّ الله تعالى فرغ فيها من خَلْق كلِّ شيء، فاجتمعت فيها المخلوقات. وقيل: لتجتمع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة[(٦)]. و«مِن» بمعنى «في»، أي: في يوم[(٧)]، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: في الأرض.

الثانية: قال أبو سلمة: أول من قال: «أما بعد» كعب بن لُؤَيٍّ، وكان أوَّل من سَمَّى الجمعة جمعة. وكان يقال ليوم الجمعة: العَرُوبة[(٨)].

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧ عن الأعمش.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦ .

(٣) أورده السيوطي في الإتقان ١/ ٩٣-٩٤ وعزاه للداني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧١٨)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٠٤ عن سلمان مطولاً، ويشهد لخلق آدم يوم الجمعة ما أخرجه مسلم (٨٥٤): (١٨)، وأحمد (٩٤٠٩) عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، ...» الحديث، وسلف في بداية السورة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ .

(٧) البيان ٢/ ٤٣٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ ، وذكر ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٠٤ أن القاضي أبا أحمد الغساني أخرج من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن [أنَّ أول من قال: أما بعد، كعب بن لؤي] وإسناده ضعيف. اهـ. وذكر في ٢/ ٣٥٣ أن الزبير أخرج في كتابه «النسب» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف مقطوعاً [أنَّ أول من سمَّى الجمعة جمعةً كعب بن لؤي].

وقيل: أول من سمَّاها جمعةً الأنصارُ، قال ابن سيرين: جَمَّع أهلُ المدينة مِن قبل أن يَقْدَم النبيُّ ﷺ المدينةَ، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذين سمَّوها الجمعة؛ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ لليهود يوماً يجتمعون فيه، في كلِّ سبعة أيام يوم، وهو السبت. وللنصارى يوم مثل ذلك، وهو الأحد، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعلَ يوماً لنا نذكر اللهَ ونصلِّي فيه، ونستذكر - أو كما قالوا - فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَرُوبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارة - أبو أمامة ﷺ - فصلَّى بهم يومئذٍ ركعتين وذكَّرهم، فسمَّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا، فذبح لهم أسعد شاةً، فتعشَّوْا وتغدَّوْا منها لقلَّتهم[١]. فهذه أوَّل جمعة في الإسلام.

قلت: وروي أنَّهم كانوا اثني عشر رجلاً على ما يأتي. وجاء في هذه الرواية: أنَّ الذي جَمَّع بهم وصلَّى أسعد بن زُرَارة، وكذا في حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه كعب على ما يأتي[٢]. وقال البَيْهَقِيُّ[٣]: وروينا عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزُّهْرِيِّ أنَّ مُصْعَب بنَ عمير كان أوَّلَ من جَمَّع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يَقْدَمها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال البيهقيُّ: يحتمل أن يكون مصعب جَمَّع بهم بمعونة أسعد بن زُرارة، فأضافه كعب إليه. والله أعلم.

وأما أوَّل جمعة جمَّعها النبيُّ ﷺ بأصحابه، فقال أهل السير والتواريخ: قَدِم رسولُ الله ﷺ مهاجراً حتى نزل بقُبَاء، على بني عمرو بنِ عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيعٍ الأوَّل حين اشتدَّ الضُّحَى - ومن تلك السنة يُعَدُّ التاريخ - فأقام بقُبَاء إلى يوم الخميس، وأسَّس مسجدَهم. ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عَوْف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فجمَّع بهم وخَطَب. وهي أوَّل خُطْبة خطبها بالمدينة[٤]،

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١، وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٥١٤٤)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري ٢/ ٣٥٣ وصحَّحه.

(٢) ص٤٨١-٤٨٢ من هذا الجزء.

(٣) في دلائل النبوة له ٢/ ٤٤١ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٤ ، ٥٠٠ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٩٤-٣٩٦ ، وما بين حاصرتين =

وقال فيها: «الحمدُ لِله. أحْمَده وأستعينه، وأستغفره وأَستهديه، وأُومن به ولا أَكفُره، وأُعادي من يكفُر به. وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له. وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أَرسله بالهُدَى ودِين الحقِّ، والنور والموعظة والحكمة، على فَتْرة من الرُّسل، وقلَّة من العلْم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودُنُوٍّ من الساعة، وقُرْب من الأجل. من يُطِع الله ورسولَه، فقد رَشَد، ومن يَعْصِ الله ورسوله، فقد غَوَى وفرَّط وضلَّ ضلالاً بعيداً. أُوصِيكم بتَقْوَى الله، فإنَّه خير ما أَوصَى به المسلمُ المسلمَ، أن يحضَّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. واحذروا ما حذَّركم الله من نفسه، فإنَّ تقوى الله لمن عَمِل به على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربِّه عَوْنُ صدقٍ على ما تبغُون من [أمر] الآخرة. ومن يُصْلِح الذي بينه وبين ربِّه من أمره في السرِّ والعَلَانِية، لا ينوي به إلا وَجْهَ الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذُخْرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قَدَّم. وما كان مما سوى ذلك يَوَدُّ لو أنَّ بينه وبينه أمداً بعيداً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. هو الذي صدَق قولَه وأنجز وَعْدَه لا خُلْف لذلك؛ فإنَّه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]. فاتَّقوا الله في عاجل أمركم وآجِله، في السرِّ والعلانية؛ فإنَّه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. ومن يَتَّقِ الله فقد فاز فوزًا عظيماً. وإنَّ تقوى الله توقي مَقْتَه، وتوقي عقوبتَه، وتوقي سَخَطه. وإنَّ تقوى الله تبيِّض الوجوهَ، وتُرْضي الربَّ، وترفع الدرجة. فخُذوا بحظِّكم ولا تفرِّطوا في جَنْبِ الله، فقد علَّمكم كتابَه، ونَهَج لكم سبيلَه؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأَحسنوا كما أَحسن الله إليكم، وعادوا أعداءَه، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وسمَّاكم المسلمين. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله، فأكثِروا ذِكْرَ الله تعالى، واعمَلوا لما بعد الموت، فإنَّه من يُصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه اللهُ ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضِي على الناس

= منه، والكلام دون ذكر الخطبة من تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ ، وأخرجها البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٥٢٤-٥٢٥ من طريق ابن إسحاق بنحوها.

ولا يَقْضُون عليه، ويملِك من الناس ولا يملِكون منه. الله أكبر، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم».

وأوَّل جمعة جُمِّعت بعدها جمعة بقرية يقال لها: جُوَاثى، من قُرَى الْبَحْرَين[١]. وقيل: إنَّ أوَّل من سمَّاها الجمعة كعب بن لؤيٍّ بن غالب؛ لاجتماع قريش فيه إلى كعب[٢]، كما تقدَّم.

الثالثة: خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين؛ تشريفاً لهم وتكريماً فقال: «يا أَيُّهَا الَّذين آمنُوا» ثم خصَّه بالنداء، وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٥٨] ليدلَّ على وجوبه، وتأكيد فرضه. وقال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة هاهنا معلوم بالإجماع، لا من نفس اللفظ. قال ابن العربيِّ[٣]: وعندي أنَّه معلوم من نفس اللفظ بنكتة، وهي قوله: «مِنْ يَومِ الْجُمُعَةِ» وذلك يفيده؛ لأنَّ النداء الذي يختصُّ بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة. فأمَّا غيرها فهو عامٌّ في سائر الأيام، ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها، معنًى ولا فائدة.

الرابعة: فقد تقدَّم حكم الأذان في سورة «المائدة» مستوفًى[٤]. وقد كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ كما في سائر الصلوات، يؤذِّن واحد إذا جلس النبيُّ ﷺ على المنبر. وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعليٌّ بالكوفة. ثم زاد عثمان على المنبر أذاناً ثالثاً على داره التي تسمَّى: الزَّوْراء[٥]، حين كثر الناس بالمدينة. فإذا سمعوا أقبلوا، حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذَّن مؤذِّن النبيِّ ﷺ، ثم يخطب عثمان. خرَّجه ابن

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٤ ،وسلف تخريجه قريباً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٠-١٧٩٢ ، وما قبله منه أيضاً.

(٤) ٨/ ٥٩ وما بعدها.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩١ وما بعده منه أيضاً، والزوراء: موضع عند سوق المدينة قرب المسجد، قال الداودي: هو مرتفع كالمنارة، وقيل: بل الزوراء سوق المدينة نفسه. معجم البلدان ٣/ ١٥٦ .

ماجه في «سُنَنه»[١] من حديث محمد بن إسحاق، عن الزُّهريِّ، عن السائب بن يزيد قال: ما كان لرسول الله ﷺ إلا مؤذِّن واحد، إذا خرج أذَّن، وإذا نزل أقام. وأبو بكر وعمر كذلك. فلما كان عثمان وكثر الناس، زاد النداءَ الثالثَ على دارٍ في السوق، يقال لها: الزوراء، فإذا خرج أذَّن، وإذا نزل أقام. خرَّجه البخاري[٢] من طرق بمعناه. وفي بعضها[٣]: أنَّ الأذان الثاني يوم الجمعة أَمَرَ به عثمان بن عَفَّان حين كثر أهل المسجد، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام.

وقال الماوَرْدِيُّ[٤]: فأمَّا الأذان الأوَّل فمحدَث، فعله عثمان بن عَفَّان؛ ليتأهَّب الناس لحضور الخطبة عند اتِّساع المدينة وكثرة أهلها. وقد كان عمر ﷺ أمر أن يؤذَّن في السوق قبل المسجد؛ ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذَّن في المسجد، فجعله عثمان ﷺ أذانين في المسجد. قال ابن العربيِّ[٥]: وفي الحديث الصحيح: أنَّ الأذان كان على عهد رسول الله ﷺ واحداً، فلما كان زمن عثمان، زاد الأذانَ الثالث على الزوراء، وسمَّاه في الحديث: ثالثاً؛ لأنَّه أضافه إلى الإقامة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بين كلِّ أذانين صلاة لمن شاء»[٦] يعني: الأذان والإقامة. فتوهَّم الناس أنَّه أذان أَصْليٌّ، فجعلوا المؤذِّنين ثلاثة، فكان وَهَماً، ثم جمعوهم في وقت واحد، فكان وهَمَاً على وَهَم. ورأيتهم يؤذِّنون بمدينة السلام[٧] بعد أذان المنار بين يدي الإمام تحت المنبر في جماعة، كما كانوا يفعلون عندنا في الدُّوَل الماضية، وكلُّ ذلك مُحْدَث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في معنى السَّعْي هاهنا على

---

(١) برقم (١١٣٥).

(٢) في صحيحه (٩١٢) و(٩١٣) و(٩١٥) و(٩١٦).

(٣) البخاري (٩١٥).

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٩-١٠ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩١-١٧٩٢ .

(٦) أخرجه البخاري (٦٢٤)، ومسلم (٨٣٨): (٣٠٤)، وأحمد (١٦٧٩٠) من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

(٧) يعني: بغداد. معجم البلدان ٣/ ٢٣٣ .

ثلاثة أقوال: أوَّلها: القَصد. قال الحسن: واللهِ ما هو بسَعْي على الأقدام، ولكنَّه سَعْيٌ بالقلوب والنيَّة.

الثاني: أنَّه العمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] وهذا قول الجمهور(١). وقال زهير:

سَعَى بعدهم قومٌ لِكَيْ يدركوهُم(٢)

وقال أيضاً:

سَعَى ساعِيَا غَيْظِ بن مُرَّةَ بعدما تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرة بِالدَّمِ(٣)

أي: فاعملوا على المضيِّ إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتَّوجُّه إليه.

الثالث: أنَّ المراد به السَّعْي على الأقدام. وذلك فضلٌ وليس بشرط(٤). ففي البخاري(٥): أنَّ أبا عَبْس بن جَبْر - واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة - مشى إلى الجمعة راجلاً وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله، حرَّمه الله على النار».

ويحتمل ظاهره رابعاً: وهو الجري والاشتداد. قال ابن العربي(٦): وهو الذي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٢، والأقوال ذكرها أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٨-٩ بنحوه، وقول الحسن ذكره البغوي في التفسير ٤/ ٣٤١ .

(٢) شرح ديوان زهير ص١١٤، وتمامه: فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يألُوا.
قال شارحه: أي: سَبَقَتْ آباؤهم فلم يدركوهم، ولم يلاموا على تقصيرهم، ولم يألوا أن يبلغوا آباءهم.

(٣) شرح ديوان زهير ص١٤، قال شارحه: الساعيان: الحارث بن عوف وهَرِم بن سنان سعَيَا في الحَمَالة. وغيظ بن مرَّة: حيٌّ من غطفان بن سعد. وتَبَزَّل بالدم: أي: تشقَّق. يقول: كان بينهم صلح فتشقَّق بالدم.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٢، وما بعده منه أيضاً.

(٥) برقم (٩٠٧)، وهو عند أحمد (١٥٩٣٥).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٢-١٧٩٣، وما قبله منه أيضاً.

أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون. وقرأها عمر: «فامضوا إلى ذِكرِ اللهِ» فرارًا عن طريق الجَرْي والاشتداد الذي يدلُّ على الظاهر. وقرأ ابن مسعود كذلك[١]، وقال: لو قرأتُ: «فاسْعَوْا» لسعيتُ حتى يسقط ردائي[٢]. وقرأ ابن شهاب: «فامضُوا إلى ذكر الله سالكاً تلك السبيل». وهو كلُّه تفسير منهم؛ لا قراءة قرآن مُنزَل. وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير.

قال أبو بكر الأنباري: وقد احتجَّ من خالف المصحفَ بقراءة عمر وابن مسعود، وأنَّ خرشة بن الحُرِّ قال: رآني عمر ﷺ ومعي قطعة فيها: «فاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللهِ» فقال لي عمر: من أقراكَ هذا؟ قلت: أُبَيٌّ. فقال: إنَّ أبَيًّا أقرؤنا للمنسوخ. ثم قرأ عمر: «فامضُوا إلى ذِكرِ الله». حدَّثنا إدريس، قال: حدَّثنا خلَف، قال: حدَّثنا هُشيم، عن المُغيرة، عن إبراهيم، عن خَرَشة؛ فذكره[٣].

وحدَّثنا محمد بن يحيى، أخبرنا محمد ـ وهو ابن سَعدان ـ قال: حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن الزُّهريِّ، عن سالم، عن أبيه قال: ما سمعتُ عمرَ يَقرأُ قطُّ إلا: «فامضُوا إلى ذكر الله»[٤]. وأخبرنا إدريس، قال: حدَّثنا خلف، قال: حدَّثنا هشيم، عن المغيرة، عن إبراهيم أن عبد الله بن مسعود قرأ: «فامضوا إلى ذكر الله» وقال: لو

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحتسب ٢/ ٣٢١-٣٢٢ عن عمر وابن مسعود وابن الزبير وابن عباس وابن عمر وغيرهم. والقراءة عن عمر أوردها البخاري تعليقاً قبل حديث (٤٨٩٧) ووصلها عبد الرزاق في المصنف (٥٣٥٠)، والطبري ٢٢/ ٦٣٨-٦٣٩، وعن ابن مسعود أخرجها ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧، والطبري ٢٢/ ٦٣٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧١، وأحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٥، وسيرد قريباً.

(٣) وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٥-١٨٦ بتمامه، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧ مختصراً من طريق هشيم، به. والطبري ٢٢/ ٦٣٨ من طريق المغيرة، عن إبراهيم أنه قيل لعمر ﷺ: إنَّ أُبَيًّا يقرؤها: فاسعوا، ... الخبر، ولم يذكر فيه: خَرَشة بن الحرِّ. وصححه في الفتح ٨/ ٦٤٢.

(٤) وأخرجه أيضاً الشافعي في الأم ١/ ١٧٤، والطبري ٢٢/ ٦٣٨، والدارقطني في العلل ٢/ ٢٥٣ من طريق سفيان، به. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٣٤٨) من طريق الزهري، به.

كانت «فاسْعَوْا» لسعيتُ حتى يسقطَ ردائي[١]. قال أبو بكر: فاحتجَّ عليه بأنَّ الأمَّة أَجمعت على «فَاسْعَوْا» برواية ذلك عن الله ربِّ العالمين ورسولِه ﷺ. فأمَّا عبد الله بن مسعود فما صحَّ عنه «فَامْضُوا» لأنَّ السَّنَد غيرُ متصل؛ إذ إبراهيم النَّخَعِيُّ لم يسمع عن عبد الله بن مسعود شيئاً[٢]، وإنَّما ورد: «فامضوا» عن عمر ﷺ، فإذا انفرد أحدٌ بما يخالف الأمة[٣] والجماعة، كان ذلك نسياناً منه. والعرب مُجْمِعة على أنَّ السعيَ يأتي بمعنى المُضِيِّ؛ غير أنَّه لا يخلو من الجِدِّ والانكماش. قال زهير:

سَعَى ساعِيَا غَيْظِ بن مُرَّةَ بعدَما تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرةِ بالدَّمِ[٤]

أراد بالسَّعْي المضيَّ بِجِدٍّ وانكماش، ولم يقصد للعَدْوِ والإسراع في الخَطْو. وقال الفرَّاء[٥] وأبو عبيدة: معنى السعي في الآية المضيُّ. واحتجَّ الفرَّاء بقولهم: هو يسعى في البلاد يطلب فَضْلَ الله، معناه: هو يمضي بجدٍّ واجتهاد. واحتجَّ أبو عبيدة بقول الشاعر:

أسْعَى على جُلِّ بني مالِكٍ كلُّ امرِئٍ في شأنه ساعي[٦]

فهل يحتمل السعي في هذا البيت إلا مذهب المضي بالانكماش، ومحال أن يخفى هذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيَّته.

قلت: ومما يدلُّ على أنَّه ليس المراد ها هنا العَدو؛ قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٦ من طريق هشيم، به، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧، والطبري ٢٢/ ٦٣٩، والطبراني في الكبير (٩٥٣٩) من طريق الأعمش، عن إبراهيم، به. وينظر التعليق الآتي.

(٢) وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٤ تعليقاً على الخبر، وقال أيضاً ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٤٢: وأخرجه الطبراني، ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع.

(٣) في (م): الآية.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦.

(٦) القائل: أبو قيس بن الأسلت، وهو في المفضليات ص٢٨٢، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٥١.

«إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعَون، ولكن ائتوها وعليكم السكينة»(١). قال الحسن: أمَا واللهِ ما هو بالسَّعي على الأقدامِ، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار؛ ولكن بالقلوب والنِّيَّة والخشوع. وقال قتادة: السعي: أن تسعى بقلبك وعملك(٢). وهذا حسن، فإنَّه جمع الأقوال الثلاثة. وقد جاء في الاغتسال للجمعة والتطيُّب والتزيُّن باللباس أحاديث مذكورة في كتب الحديث(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمكلَّفين بإجماع. ويخرج منه المَرْضَى والزَّمْنَى والمسافرون والعبيد والنساء؛ بالدليل، والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة(٤). روى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر، فعليه الجمعة يومَ الجمعة، إلا [على] مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك، فمن استغنى بلَهْوٍ أو تجارةٍ، استغنى الله عنه، والله غنيٌّ حميدٌ» خرَّجه الدَّارقُطْنيُّ(٥).

وقال علماؤنا رحمهم الله: ولا يتخلَّف أحدٌ عن الجمعة ممَّن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه معه الإتيان إليها؛ مثل المرض الحابس، أو خوف الزيادة في المرض، أو خوف جَوْرِ السلطان عليه في مال أو بَدَنٍ دون القضاء عليه بحقٍّ. والمطر الوابل مع الوَحَل عذر إن لم ينقطع ـ ولم يَرَهُ مالكٌ عذراً له، حكاه المهدوِيُّ ـ ولو تخلَّف عنها متخلِّف على وَليٍّ حَمِيمٍ له قد حضرته الوفاةُ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره، رَجَا أن يكون في سَعَة. وقد فعلَ ذلك ابن عمر(٦). ومن تخلَّف عنها بغير عذر، فصلَّى قبل

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠٢)، وأحمد (٧٢٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٦٣٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦٦).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٣ .

(٤) المسألة في المغني ٣/ ٢١٦-٢٢١ ، وينظر كلام أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٨٧ .

(٥) في سننه (١٥٧٦)، وما بين حاصرتين استدركناه منه، وأخرجه أيضاً البيهقي ٣/ ١٨٤ ، وفي إسناده: ابن لهيعة يروي عن معاذ بن محمد الأنصاري، وهما ضعيفان. قال ابن التركماني في الجوهر النقي (بهامش السنن الكبرى للبيهقي): ومعاذ هذا شيخ لابن لهيعة لا يعرف. كذا ذكر الذهبي.

(٦) الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٥٢ ، وما بعده منه أيضاً، وخبر عمر أخرجه البخاري (٣٩٩٠) عن نافع: أن ابن عمر رضي الله عنهما ذُكرَ له أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ وكان بدرياً ـ مرض في يوم جمعة، فركب إليه بعد أن تعالى النهارُ، واقتربت الجمعةُ، وتَرَكَ الجمعةَ.

الإِمام، أعاد، ولا يجزيه أن يصلِّي قبله، وهو في تخلُّفه عنها مع إمكانه لذلك عاصٍ لِله بفعله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ يختصُّ بوجوب الجمعة القريبُ الذي يسمع النداء، فأمَّا البعيد الدار الذي لا يسمع النداء، فلا يدخل تحت الخطاب. واختلف فيمن يأتي الجمعة من الدَّاني والقاصي[١]، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس: تجب الجمعة على من في المِصْر على ستَّة أميال. وقال ربيعة: أربعة أميال. وقال مالك والليث: ثلاثة أميال[٢]. وقال الشافعيُّ[٣]: اعتبار سماع الأذان؛ أن يكون المؤذن صَيِّتاً، والأصوات هادئة، والريح ساكنة، وموقف المؤذن عند سُور البلد.

وفي الصحيح عن عائشة: أنَّ الناس كانوا ينتابون الجمعة من منازلهم ومن العَوَالي، فيأتون في العَباء[٤]، ويصيبهم الغُبار، فتخرج منهم الريح، فقال رسول الله ﷺ: «لواغتسلتم ليومكم هذا»! قال علماؤنا: والصَّوْت إذا كان منيعاً، والناس في هدوء وسكون، فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال. والعَوَالي من المدينة أقربها على ثلاثة أميال. وقال أحمد بن حنبل وإسحاق: تجب الجمعة على من سمع النداء[٥].

وروى الدَّارَقُطْنيُّ[٦] من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّما الجمعة على من سمع النداء». وقال أبو حنيفة وأصحابه:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٤ .

(٢) الاستذكار ٧/ ٣٠-٣١ ، والتمهيد ١٠/ ٢٧٨-٢٨٢ ، وقول أبي هريرة أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٥ ، وقول مالك في المدونة ١/ ١٥٣ .

(٣) في الأم ١/ ١٧٠ .

(٤) في (د) و(م): الغبار. وكذا وقع عند البخاري (٩٠٢)، قال ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٣٨٦ : كذا وقع للأكثر، وعند القابسي: فيأتون في العباء. بفتح المهملة والمد، وهو أصوب، وكذا هو عند مسلم [٨٤٧] والإسماعيلي وغيرهما من طريق ابن وهب. اهـ .

(٥) التمهيد ١٠/ ٢٨١-٢٨٢ .

(٦) في سننه (١٥٨٩).

تجب على مَن في المصْر، سَمِع النداءَ أو لم يسمعه، ولا تجب على من هو خارج المصر وإن سمع النداء[١]. حتى سئل: وهل تجب الجمعة على أهل زبارا ـ بينها وبين الكوفة مجرى نهر[٢] ـ؟ فقال: لا. وروي عن ربيعة أيضاً: أنَّها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً، أدرك الصلاة[٣]. وقد روي عن الزُّهْرِيّ: أنَّها تجب عليه إذا سمع الأذان.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنَّ الجمعة لا تجب إلا بالنداء، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت[٤]، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا حضرت الصلاةُ، فأذِّنا ثم أقِيما، ولْيَؤُمّكما أكبركما» قاله لمالك بن الحُوَيْرِث وصاحبِه[٥]. وفي البخاريِّ[٦] عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصلِّي الجمعة حين تميل الشمس. وقد روي عن أبي بكر[٧] الصِّديق وأحمد ابن حنبل أنَّها تُصَلَّى قبل الزوال. وتمسَّك أحمد في ذلك بحديث سَلَمة بن الأكْوَع: كنا نصلِّي مع النبيِّ ﷺ ثم ننصرف، وليس للحيطان ظِلٌ[٨]. وبحديث ابن عمر: ما كنَّا نَقِيل ولا نتغدَّى إلا بعد الجمعة[٩]. ومثلُه عن سَهْل. خرَّجه مسلم[١٠]. وحديث سَلَمة محمول على التبكير[١١]. رواه هشام بن عبد الملك، عن يَعْلَى بن الحارث، عن إياس

(١) الاستذكار ٧/ ٣١-٣٢، وقول أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٩٠.

(٢) وقال الحموي في معجم البلدان ٣/ ١٢٩: موضع أظنُّه من نواحي الكوفة.

(٣) الاستذكار ٧/ ٣١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥.

(٥) سلف ٨/ ٦٢-٦٣.

(٦) برقم (٩٠٤).

(٧) ليست في (م).

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥، وما بعده منه أيضاً، والحديث أخرجه البخاري (٤١٦٨)، ومسلم (٨٦٠): (٣٢)، وأحمد (١٦٤٩٦).

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٠٧ بنحوه.

(١٠) برقم (٨٥٩)، وهو عند البخاري (٩٤١).

(١١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥.

ابن سلمة بن الأكْوَع، عن أبيه[١]. وروى وَكِيع، عن يَعْلَى، عن إياس، عن أبيه قال: كنَّا نُجَمِّع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس، ثم نرجع نتتبع الفَيْء[٢]. وهذا مذهب الجمهور من الخلَف والسَّلَف، وقياساً على صلاة الظهر. وحديث ابن عمر وسَهْلٍ، دليلٌ على أنَّهم كانوا يبكِّرون إلى الجمعة تبكيراً كثيراً عند الغداةِ أو قبلها، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة. وقد رأى مالك أن التبكير بالجمعة إنَّما يكون قرب الزوال بيسير. وتأوَّل قولَ النبيِّ ﷺ: «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرَّب بَدَنَة...» الحديث بكماله. أنَّه كان في ساعة واحدة[٣]. وحَمَله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتي عشرة ساعة المستوية أو المختلفة، بحسب زيادة النهار ونقصانه. ابن العربيِّ[٤]: وهو أصحُّ؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: ما كانوا يَقِيلون ولا يتغدَّون إلا بعد الجمعة؛ لكثرة البكور إليها.

التاسعة: فرض الله تعالى الجمعة على كلِّ مسلم؛ ردًّا على من يقول: إنَّها فرض على الكفاية[٥]، ونقل عن بعض الشافعية[٦]. ونقل عن مالك من لم يُحَقِّق: أنَّها سنة[٧]. وجمهور الأمَّة والأئمة أنَّها فرض على الأعيان[٨]؛ لقول الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾. وثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٠): (٣٢) عن إسحاق بن إبراهيم، عن هشام بن عبد الملك، به. وسلف تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٠): (٣١) عن يحيى بن يحيى وإسحاق بن إبراهيم، عن وكيع، به.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥، وما بعده منه أيضاً، والحديث سلف ١٤/ ٣٩٥.

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٥، وما قبله منه أيضاً، وخبر عمر سلف تخريجه قريباً.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦.

(٦) المجموع للنووي ٤/ ٣٥١، حيث نقل عن أبي إسحاق المروزي أن هذا لا يحلُّ أن يحكى عن الشافعي.

(٧) الاستذكار ٥/ ١١٩، وأجاب عن ذلك بأن شهودها سُنَّة على أهل القرى الذين اختلف السلف والخلف في إيجاب الجمعة عليهم. وأما أهل الأمصار، فلا.

(٨) الإجماع لابن المنذر ص٢٦.

قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن وَدْعِهِم الجُمُعات، أو لَيَخْتِمنّ الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»[١]. وهذا حجَّة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها. وفي «سُنن ابن ماجه»[٢] عن أبي الجَعْد الضَّمْرِيِّ ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تَرَكَ الجمعة ثلاث مرَّات تهاوناً بها، طبع الله على قلبه». إسناده صحيح. وحديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من تَرَكَ الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة، طَبَع الله على قلبه»[٣]. ابن العربيّ: وثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الرَّواح إلى الجمعة واجبٌ على كلِّ مسلم»[٤].

العاشرة: أوجب اللهُ السَّعْيَ إلى الجمعة مطلقاً من غير شَرْط. وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات؛ لقوله عز وجل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية [٦: من سورة المائدة]. وقال النبيُّ ﷺ: «لا يَقبلُ الله صلاةً بغير طهور»[٥]. وأغْرَبت طائفة فقالت: إنَّ غسل الجمعة فرض. ابنُ العربيِّ: وهذا باطل؛ لما روى النسائيُّ وأبو داود في «سننهما» أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من توضَّأ يوم الجمعة فبها ونِعْمَتْ. ومن اغتسل فالغسل أفضل»[٦]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضَّأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت، غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام. ومن مَسَّ الحَصَى

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٥) عن ابن عمر وأبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (١١٢٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٨٨، وأحمد (١٥٤٩٨). قال الترمذي: حديث أبي الجعد حديث حسن.

(٣) سنن ابن ماجه (١١٢٦)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١٦٦٩)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، والحديث أخرجه النسائي في المجتبى ٣/ ٨٩ عن حفصة زوج النبي ﷺ، وفيه: محتلم، بدل: مسلم. وهو عند أبي داود (٣٤٢) بلفظ: على كل محتلم رواح إلى الجمعة، وعلى كل من راح إلى الجمعة الغسل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، والحديث سلف ٧/ ٣٦٦.

(٦) النسائي في المجتبى ٣/ ٩٤، وأبو داود (٣٥٤)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٤٩٧)، وأحمد (٢٠٠٨٩) عن سمرة بن جندب ﷺ. قال الترمذي: حديث سمرة حديث حسن. اهـ ومعنى قوله: ﷺ: فبها ونعمت: أي ونِعْمت الفعلة والخصلة هي، وقيل: هو راجع إلى السُّنَّة، أي: فبالسنة أخذ. النهاية (نعم).

فقد لَغا» وهذا نَصٌّ[١]. وفي «الموطأ»[٢]: أنَّ رجلاً دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب[٣]... الحديث، إلى أن قال: ـ ما زدتُ على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء، أيضاً؟! وقد علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل. فأمر عمر بالغسل، ولم يأمره بالرجوع، فدلَّ على أنَّه محمول على الاستحباب، فلم يمكن وقد تلبَّس بالفرض ـ وهو الحضور والإنصات للخطبة ـ أن يرجع عنه إلى السُّنَّة، وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالي عمر، وفي مسجد النبيِّ ﷺ[٤].

الحادية عشرة: لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد، خلافاً لأحمد بنِ حَنْبل فإنَّه قال: إذا اجتمع عِيدٌ وجمعة، سقط فرض الجمعة؛ لتقدُّم العيد عليها، واشتغال الناس به عنها. وتعلَّق في ذلك بما روي أنَّ عثمان أذِن في يوم عِيد لأهل العَوَالي أن يتخلَّفوا عن الجمعة. وقول الواحد من الصحابة ليس بحجَّة إذا خولف فيه، ولم يجمع معه عليه. والأمر بالسَّعْي متوجِّه يوم العيد كتوجُّهه في سائر الأيام[٥]. وفي «صحيح مسلم» عن النُّعمان بن بَشير قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين. أخرجه أبو داود

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، وما بعده منه أيضاً، والحديث عند مسلم (٨٥٧): (٢٧) مع اختلاف يسير.

(٢) ١/ ١٠١ عن سالم بن عبد الله، وأخرجه أيضاً البخاري (٨٧٨)، ومسلم (٨٤٥)، وأحمد (١٩٩) لكن عن ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه.

(٣) وتمامه: فقال عمر: أيَّة ساعة هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من السوق، فسمعت النداء، فما زدت على أن توضأت.... الخبر.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٧، وقول أحمد في المغني لابن قدامة ٣/ ٢٤٢، وقول عثمان أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٨٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣١٨، والعوالي: أماكن بأعلى أراضي المدينة، وأدناها من المدينة على أربعة أميال، وأبعدها من نجد ثمانية أميال. النهاية (علا).

والترمِذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه[١].

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الصلاة. وقيل: الخطبة والمواعظ، قاله سعيد بن جُبير[٢]. ابن العربيّ[٣]: والصحيح أنَّه واجب في الجميع، وأوَّله الخطبة. وبه قال علماؤنا، إلا عبد الملك بن الماجِشُون فإنَّه رآها سُنَّة. والدليل على وجوبها أنَّها تُحَرِّم البيع، ولولا وجوبها ما حَرَّمته؛ لأنَّ المستحبَّ لا يُحَرِّم المباح. وإذا قلنا: إنَّ المراد بالذكر الصلاة، فالخطبة من الصلاة، والعبد يكون ذاكراً للهِ بفعله، كما يكون مُسَبِّحًا للهِ بفعله. الزَّمَخْشَرِيُّ[٤]: فإن قلتَ: كيف يفسَّر ذِكْر الله بالخطبة، وفيها غير ذلك! قلت: ما كان من ذِكْر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم ذكر الله. فأمَّا ما عدا ذلك من ذكر الظَّلَمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقَّاء بعكس ذلك، فهو من ذِكْر الشيطان، وهو من ذِكْر الله على مراحل.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ منع الله عزَّ وجلَّ منه عند صلاة الجمعة، وحرَّمه في وقتها على من كان مخاطباً بفرضها[٥]. والبيع لا يخلو عن شراء، فاكتفى بذِكْر أحدهما[٦]، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]. وخصَّ البيع؛ لأنَّه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشِّراء.

---

(١) مسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٨٤، وابن ماجه (١٢٨١)، وهو عند أحمد (١٨٣٨٣).

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩ لكن عن سعيد بن المسيب.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٣ .

(٤) في الكشاف ٤/ ١٠٥-١٠٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٣ .

وفي وقت التحريم قولان: إنَّه من بعد الزوال إلى الفراغ منها، قاله الضحَّاك والحسن وعطاء. الثاني: من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة، قاله الشافعيُّ[١].

ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودِيَ للصَّلاة، ويفسخ عنده ما وقَع من ذلك من البيع في ذلك الوقت[٢]. ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره؛ إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع. قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ. ابن العربيِّ[٣]: والصحيح فسخ الجميع؛ لأنَّ البيع إنما مُنع منه للاشتغال به، فكلُّ أمرٍ يَشْغَل عن الجمعة من العقود كلِّها، فهو حرام شرعاً، مفسوخ رَدْعًا. المهدويُّ: ورأى بعض العلماء البيعَ في الوقت المذكور جائزاً، وتأوَّل النهْيَ عنه ندباً، واستدلَّ بقوله تعالى: «ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ».

قلت: وهذا مذهب الشافعي؛ فإنَّ البيع ينعقد عنده ولا يفسخ[٤]. وقال الزَّمَخْشَرِيُّ في «تفسيره»[٥]: إنَّ عامة العلماء على أنَّ ذلك لا يؤدِّي فساد البيع. قالوا: لأنَّ البيع لم يَحْرُم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة، والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب. وعن بعض الناس أنَّه فاسد.

قلت: والصحيح فساده وفسخه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ عملٍ ليس عليه أمْرُنَا فهو رَدٌّ»[٦]. أي: مردود. والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٩ ، وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ١٣٤ ، والطبري ٢٢/ ٦٤٢ ، وقول الشافعي في الأم ١/ ١٧٣ .

(٢) المدونة ١/ ١٥٤ .

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٤ .

(٤) الأم ١/ ١٧٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦ .

(٦) سلف ٢/ ٤٦ .

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا أمر إباحةٍ[١]، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:٢]. يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرُّف في حوائجكم. ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه[٢] وكان عِراك بن مالك إذا صلَّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللَّهُمَّ إنِّي أجبت دعوتك، وصلَّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين[٣]. وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: «وابْتَغُوا من فَضل اللهِ» إنَّه العمل في يوم السبت[٤]. وعن الحسن وسعيد بن المسَيّب: طلب العلم. وقيل: صلاة التطوُّع. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنَّما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة الأخ في الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: بالطاعة واللسان، وبالشكر على ما به أَنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تفلحوا. قال سعيد بن جبير: الذكر: طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذَكَره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كان كثيرَ التسبيح. وقد مضى هذا مرفوعاً في «البقرة»[٦].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٢ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٣ .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٥٦ (١٨٨٩٧)، والنكت والعيون ٦/ ١٠ ، والوسيط ٤/ ٣٠٠ ، وعراك بن مالك هو الغفاري المدني، من خيار التابعين، مات في خلافة يزيد بن عبد الملك بعد المئة. تهذيب التهذيب ٣/ ٨٨-٨٩ .

(٤) في (م): السبب. والكلام من النكت والعيون ٦/ ١٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦ .

(٦) ٢/ ٤٥٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ في «صحيح مسلم»[(١)] عن جابر بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يَبْقَ إلا اثنا عشر رجلاً - في رواية[(٢)]: أنا فيهم - فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. في رواية[(٣)]: فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقد ذكر الكلبيُّ وغيره: أنَّ الذي قدِم بها دِحْيَة بن خليفة الكلبيُّ من الشام عند مجاعةٍ وغلاءِ سعر، وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُرٍّ ودقيق وغيره، فنزل عند أحجار الزيت، وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه، فخرج الناس إلا اثني عشر رجلاً. وقيل: أحد عشر رجلاً[(٤)]. قال الكلبيُّ: وكانوا في خطبة الجمعة، فانفضوا إليها، وبقي مع رسول الله ﷺ ثمانية رجال، حكاه الثعلبيُّ عن ابن عباس[(٥)].

وذكر الدَّارَ قُطْنِيُّ[(٦)] من حديث جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يخطبنا يوم الجمعة إذ أَقبلت عِيرٌ تحمل الطعام، حتى نزلت بالبقِيع، فالتفتوا إليها وانفضوا

---

(١) برقم (٨٦٣)، وهو عند البخاري (٩٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٥٥-٤٥٦ .

(٢) مسلم (٨٦٣): (٣٧)، والعِيْر: القافلة. النهاية (عير).

(٣) مسلم (٨٦٣): (٣٨).

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٥ ، والكشاف ٤/ ١٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩ ، وورد في بعضها: أنه ورد بتجارة زيت من الشام، بدل: عند أحجار الزيت، وهي هكذا عند البغوي، وقال بعدها: وهو مكان في سوق المدينة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩.

(٦) في سننه (١٥٨٣)، وأخرجه أيضاً من طريقه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٨٢ ، وضعَّف إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٧ ، وقال: تفرَّد به عليُّ بن عاصم، وخالف أصحاب حصين به.

إليها، وتركوا رسول الله ﷺ ليس معه إلا أربعون رجلاً أنا فيهم. قال: وأنزل الله عزَّ وجلَّ على النبيِّ ﷺ: «وَإِذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً». قال الدَّارَ قُطْنيُّ: لم يقل في هذا الإسناد: «إلا أربعين رجلاً» غير عليِّ بن عاصم، عن حُصين، وخالفه أصحاب حُصين فقالوا: لم يَبْقَ مع النبيِّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً.

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»، ذكره الزَّمَخْشرِيُّ[(١)].

وروي في حديثٍ مرسلٍ أسماء الاثني عشر رجلاً، رواه أسد بن عمرو والد أسد ابن موسى بن أسد. وفيه: أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يَبْقَ معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وسعيد بن زيد وبلال، وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين. وفي الرواية الأخرى: عَمَّار بن ياسِر[(٢)].

قلت: لم يذكر جابراً، وقد ذكر مسلم أنَّه كان فيهم، والدَّارَقُطْنِيُّ أيضاً[(٣)]. فيكونون ثلاثة عشر. وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر. وقد ذكر أبو داود في «مراسيله» السببَ الذي ترخَّصوا لأنفسهم في تَرْكِ سماع الخطبة، وقد كانوا خليقاً بفضلهم ألا يفعلوا[(٤)]، فقال: حدَّثنا محمود بن خالد، قال: حدَّثنا الوليد، قال: أخبرني أبو معاذ بكر بن معروف أنَّه سمع مقاتل بنَ حَيَّان قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي الجمعة قبل الخطبة مثل العِيدين، حتى كان يومُ جمعة والنبيُّ ﷺ يخطب، وقد صلَّى الجمعة، فدخل رجل فقال: إنَّ دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيَّ قدم

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٠٦ ، وأخرجه أبو يعلى (١٩٧٩)، ومن طريقه ابن حبان في صحيحه (٦٨٧٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بنحوه.

(٢) التعريف والإعلام ص١٧١-١٧٢ ، ورواية أسد بن عمرو وصلها العقيلي كما في الضعفاء الكبير ٢/ ٤٢٤ من رواية أسد بن عمرو، عن حصين، عن سالم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٤ : ورواية العقيلي عن ابن عباس: أنَّ منهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وأناساً من الأنصار. أقوى وأشبه بالصواب.

(٣) سلف ذكره قريباً.

(٤) التعريف والإعلام ص ١٧٢ .

بتجارة، وكان دِحْيَة إذا قدم، تلقَّاه أهله بالدِّفاف، فخرج الناس فلم يظنُّوا إلا أنَّه ليس في ترك الخطبة شيء؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾. فقدَّم النبيُّ ﷺ الخطبةَ يوم الجمعة وأخَّر الصلاة. وكان لا يخرج أحدٌ لرُعاف أو أحداث بعد النَّهي حتى يستأذنَ النبيَّ ﷺ، يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام، فيأذنَ له النبيُّ ﷺ، ثم يشير إليه بيده، فكان من المنافقين من ثَقُل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، وكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه مستتراً به حتى يخرج، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ الآية(١) [٦٣ من سورة النور]. قال السُّهَيْلِيُّ(٢): وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت، فالظنُّ الجميل بأصحاب النبيِّ ﷺ يوجب أن يكون صحيحاً.

وقال قتادة: وبلغنا أنَّهم فعلوه ثلاثَ مرَّات؛ كلّ مَرَّة عِير تَقْدُم من الشام، وكلُّ ذلك يوافق يومَ الجمعة(٣). وقيل: إنَّ خروجهم لقدوم دِحْيَة الكَلْبيِّ بتجارته ونظرهم إلى العِير تَمُرُّ، لَهْوٌ لا فائدةَ فيه، إلَّا أنَّه كان ممَّا لا إثمَ فيه لو وقع على غير ذلك الوجه، ولكنَّه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله ﷺ والانفضاض عن حضرته، غَلُظ وكَبُر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللَّهو ما نزل. وجاء عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «كلُّ ما يَلْهو به الرجل باطل إلا رَمْيه بقَوْسه». الحديث. وقد مضى في سورة «الأنفال»(٤) فلله الحمد.

وقال جابر بن عبد الله: كانت الجواري إذا نُكحن، يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها؛ فنزلت(٥). وإنما رَدَّ الكناية إلى التجارة؛ لأنَّها أهمُّ(٦). وقرأ طلحة بن

---

(١) مراسيل أبي داود (٦٢)، وقال عنه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٥: شاذٌّ معضل.
(٢) في التعريف والإعلام ص١٧٢ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/٣٠٩ .
(٤) ١٠/٥٦ .
(٥) أخرجه الطبري ٢٢/٦٤٨ ، وأبو عوانة في صحيحه كما في فتح الباري ٢/ ٤٢٤ . وأخرجه أيضاً الشافعي في الأم ١/١٧٧ من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، مرسلاً، دون ذكر جابر، وبنحوه، وورد عند الطبري: بالكَبَر، بدل: الطبل. وهما بمعنًى. النهاية (كبر).
(٦) تفسير البغوي ٤/٣٤٦ .

مُصَرِّف: «وإذا رأوا التجارة واللّهو انْفَضُّوا إليها»[١]. وقيل: المعنى: وإذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها، أو لهوًا انفضُّوا إليه، فحذف لدلالته[٢]. كما قال:

نـحـن بـمـا عـنـدنـا وأنـتَ بـمـا عـنـدك راضٍ والـرأيُ مُـخْـتَـلِـفُ[٣]

وقيل: الأجود في العربية أن يجعل الراجع في الذكر للآخِر من الاسمين[٤].

الثانية: واختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على أقوال؛ فقال الحسن: تنعقد الجمعة باثنين. وقال الليث وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة. وقال سفيان الثَّوْريُّ وأبو حنيفة: بأربعة. وقال ربيعة: باثني عشَر رجلاً[٥].

وذكر النجَّاد أبو بكر أحمد بن سليمان قال: حدَّثنا أبو خالد يزيد بن الهَيْثم بن طَهْمان الدَّقاق، حدَّثنا صبح بن دِينار، قال: حدَّثنا المعافى بن عمران، حدَّثنا مَعْقِل ابن عبيد الله، عن الزهريِّ بسنده إلى مُصعب بن عمير: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه إلى المدينة، وأنَّه نزل في دار سعد بن مُعاذ، فجمَّع بهم وهم اثنا عشر رجلاً، ذبح لهم يومئذ شاة[٦]. وقال الشافعيُّ[٧]: بأربعين رجلاً.

وقال أبو إسحاق الشِّيرازيُّ في كتاب «التنبيه على مذهب الإمام الشافعي»[٨]: كلُّ قرية فيها أربعون رجلاً بالغِين عقلاء أحراراً مقيمين، لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاءً إلا ظَعْنَ حاجة، وأن يكونوا حاضرين من أوَّل الخطبة إلى أن تقام الجمعة، وجبت

---

(١) لم نقف عليها.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٢ .

(٣) سلف ١٠/ ١٨٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٧ .

(٥) حلية العلماء للقفال الشاشي ٢/ ٢٣٠ إلا أنه ذكر الأوزاعي، بدل: الليث. وذكر ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٣ أن جملة ما للعلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة خمسة عشر قولاً، فلتنظر لمن أراد التوسع.

(٦) الخبر ذكره ابن سعد في الطبقات ٣/ ١١٨ بإسناد آخر، وينظر ما سلف ص٤٦٣ من هذا الجزء.

(٧) في الأم ١/ ١٦٩ .

(٨) ص٤٣-٤٤ .

عليهم الجمعة. ومال أحمد وإسحاق إلى هذا القول ولم يشترطا هذه الشروط[١]. وقال مالك: إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد، فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد[٢]. وكتب عمر بن عبد العزيز: أيُّ قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتاً، فعليهم الجمعة.

وقال أبو حنيفة: لا تجب الجمعة على أهل السَّواد والقرى، لا يجوز لهم إقامتها فيها. واشترط في وجوب الجمعة وانعقادها: المِصر الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة والنهر الجاري. واحتجَّ بحديث عليٍّ: لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع، ورفقة تعينهم[٣].

وهذا يردُّه حديث ابن عباس، قال: إنَّ أوَّل جمعة جُمِّعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بقرية يقال لها: جُوَاثى، من قرى البحرين[٤]. وحجَّة الإمام الشافعيِّ في الأربعين حديث جابر المذكور الذي خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ[٥].

وفي «سنن ابن ماجه» والدَّارَقُطْنيِّ أيضاً و«دلائل النبوَّة» للبَيْهَقيِّ عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصرُه، فإذا خرجتُ به إلى الجمعة، فسمع الأذان، صلَّى على أبي أمَامة واستغفرَ له، قال: فمكث كذلك حيناً لا يسمعُ الأذان بالجمعة إلا فعل ذلك، فقلت له: يا أبةِ، استغفارُك لأبي أمامة كلَّما سمعتَ أذان الجمعة، ما هو؟ قال: أي بُنَيَّ، هو أوَّلُ من جَمَّع بالمدينة في هَزْم من

---

(١) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٢٨، وقول أحمد في مسائله برواية ابن هانئ ١/ ٨٨ .

(٢) النوادر والزيادات للقيرواني ١/ ٤٥١-٤٥٢ .

(٣) المسألة في بدائع الصنائع٢/ ١٨٨-١٩٠ ، والمبسوط٢/ ١٢٠-١٢١ ، وقول علي أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٣/ ١٦٧ ، وابن أبي شيبة ٢/ ١٠١ دون قوله: ورفقة تعينهم. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧١ : وإسناده ضعيف.

(٤) سلف ص٤٦٣ من هذا الجزء.

(٥) برقم (١٥٧٩) وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٧ ، وقال: تفرَّد به عبد العزيز القرشي، وهو ضعيف، ولفظه: مضت السُّنَّة أن في كل ثلاثة إماماً، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضحى وفطراً، وذلك أنهم جماعة. وينظر المجموع للنووي ٤/ ٣٧١ .

حَرَّة بني بَيَاضة، يقال له: نَقيع الخَضِمات. قال: قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون رجلاً[١].

وقال جابر بن عبد الله: مضت السُّنة أنَّ في كلِّ ثلاثة إماماً، وفي كلِّ أربعين فما فوق ذلك جمعة وأَضْحَى وفِطرًا، وذلك أنَّهم جماعة. خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ[٢].

وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النَّجَّاد: قرئ على عبد الملك بن محمد الرّقاشي وأنا أسمع، حدَّثني رجاء بن سلمة، قال: حدَّثنا أبي، قال: حدَّثنا رَوْح بن غُطيف الثَّقفيُّ، قال: حدَّثني الزُّهرِيُّ، عن أبي سلمة قال: قلت لأبي هريرة: على كم تجب الجمعة من رجل؟ قال: لما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ خمسين رجلاً جمَّع بهم رسول الله ﷺ. قُرئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع، قال: حدَّثنا رجاء بن سلمة، قال: حدَّثنا عَبَّاد بن عَبَّاد المُهَلَّبيُّ، عن جعفر بنِ الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجب الجمعة على خمسين رجلاً، ولا تجب على من دون ذلك»[٣].

قال ابن المنذر[٤]: وكتب عمر بن عبد العزيز: أيّما قريةٍ اجتمع فيها خمسون رجلاً، فليصلُّوا الجمعة.

وروى الزّهريُّ عن أمِّ عبد الله الدَّوسِيَّة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الجمعة واجبة على كلِّ قرية، وإن لم يكن فيها إلا أربعة». يعني: بالقُرَى: المدائن. لا يصحُّ

(١) ابن ماجه (١٠٨٢)، والدارقطني (١٥٨٥)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٤١ ، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٠٦٩). وحسَّن إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٦ وقال: حرة بني بياضة: قرية على ميل من المدينة، ونقيع الخضمات: موضع معروف.

(٢) سلف تخريجه قريباً.

(٣) أوردهما هكذا ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٠٤ عن أبي بكر النَّجاد بإسناده عنهما، وأخرج الثاني أيضاً الدارقطني في السنن(١٥٨٠) من طريق خالد بن الهيَّاج، عن أبيه، عن جعفر بن الزبير، به. وقال بعده: جعفر بن الزبير متروك. اهـ. وأورده أيضاً الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٦٥ .

(٤) في الأوسط له ٤/ ٢٨ ، وأورده أيضاً مالك في المدونة ١/ ١٥٣ ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٨ .

هذا عن الزهريِّ. في رواية: «الجمعة واجبة على أهل كلِّ قرية، وإن لم يكونوا إلا ثلاثة رابعهم إمامهم». [الزهري] لا يصحُّ سماعه من الدَّوسية. والحكم [هذا] متروك[١].

الثالثة: وتصحُّ الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره. وقال أبو حنيفة: من شرطها الإمام أو خليفته[٢]. ودليلنا أنَّ الوليد بن عُقْبة والي الكوفة أبطأ يومًا، فصلَّى ابن مسعود بالناس من غير إذنه[٣]. ورُوِيَ أنَّ عليًّا صلَّى الجمعة يوم حصِر عثمان ولم يُنقل أنَّه استأذنه[٤]. وروي أنَّ سعيد بن العاصي والي المدينة لما خرج من المدينة، صلَّى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان[٥]. وقال مالك[٦]: إنَّ للهِ فرائض في أرضه

---

(١) سنن الدارقطني (١٥٩٢) و(١٥٩٤)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً من طريقه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٩ .

(٢) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه أحمد (٤٢٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٢٤، وفي الدلائل ٦/ ٣٩٧ من طريق القاسم ابن عبد الرحمن، عن أبيه: أن الوليد بن عقبة أخَّر الصلاة مرَّة، فقام عبد الله بن مسعود فثوَّب بالصلاة، فصلى بالناس... الخبر.

وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (٣٧٩٠)، والطبراني في الكبير (٩٥٠٠) من طريق القاسم بن عبد الرحمن أنه قال: أخَّر الوليد بن عقبة الصلاة مرَّة.... الخبر مرسلاً، ولم يذكر فيه: عبدَ الرحمن بنَ عبد الله بن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد١/ ٣٢٤ : رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات. اهـ ولم يذكر أنه عند الطبراني مرسل.

(٤) أورده ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٠٦-٢٠٧، لكن جاء عن ابن عبد البر في التمهيد ١٠/ ٢٩٢ ، والاستذكار ٧/ ٣٥ أنه قال: وقد صلَّى بالناس - في حين حصار عثمان - جماعة من الفضلاء الجِلَّة منهم: أبو أيوب الأنصاري، وطلحة، وسهل بن حنيف، وأبو أمامة بن سهل وغيرهم، وصلَّى بهم علي ابن أبي طالب ﷺ صلاة العيد فقط. اهـ وعزا صلاة علي العيدَ إلى ابن المبارك، وأخرجها مالك في الموطأ ١/ ١٧٩، وابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ٤/ ١٢١٦ عن أبي عبيد مولى ابن أزهر. وأما صلاة سهل بن حنيف الجمعة بهم فأخرجها ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ٣/ ١١١٢ ، قال ابن حجر في فتح الباري ٢/ ١٨٩ : وإسناده قوي. اهـ وينظر تتمة كلام ابن حجر حول المسألة ثمَّة، وفي التلخيص الحبير ٢/ ٥٨ .

(٥) أورده ابن المنذر في الأوسط ٤/ ١١٣ بنحوه.

(٦) في المدونة ١/ ١٥٣ .

لا يضيِّعها، وَلِيَها والٍ أو لم يَلِها.

الرابعة: قال علماؤنا: من شرط أدائها المسجد المسقَّف. قال ابن العربيّ[(١)]: ولا أعلم وجهه.

قلت: وجهه قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦]. وحقيقة البيت أن يكون ذا حيطان وسقف. هذا العُرْف، والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ شرط في قيام الخطيب على المنبر إذا خطب. قال عَلقَمة: سئل عبد الله أكان النبيُّ ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ فقال: أما تقرأ: «وَتَرَكُوكَ قَائِمًا»[(٢)]؟! وفي «صحيح مسلم» عن كعب بن عُجْرَة أنَّه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أمِّ الحكم يخطب قاعداً فقال: انظروا إلى هذا الخبيث، يخطب قاعداً! وقال الله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وتَرَكُوكَ قَائِمًا»[(٣)]. وخرَّج عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ كان يخطب قائمًا، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب [قائمًا]، فمن نبَّأكَ أنَّه كان يخطب جالساً، فقد كذب، فقد واللهِ صلَّيتُ معه أكثر من ألفي صلاة[(٤)]. وعلى هذا جمهور الفقهاء، وأئمة العلماء.

وقال أبو حنيفة: ليس القيام بشرط فيها[(٥)]. ويروى أنَّ أوَّ ل من خطب قاعداً معاوية[(٦)]. وخطب عثمان قائمًا حتى رقَّ، فخطب قاعداً[(٧)]. وقيل: إنَّ معاوية إنَّما

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١١٢-١١٣ .

(٣) مسلم (٨٦٤).

(٤) مسلم (٨٦٢): (٣٥)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٢٠٨٤٢).

(٥) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٧-١٧٩٨ ، وما بعده منه أيضاً، وخبر معاوية أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٥٩)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٢ عن طاوس مرسلاً. ورواه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٢/ ٤٠١ عن الحسن ؓ.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٥٨) عن قتادة مرسلاً.

خطب قاعداً لسِنِّه[١]. وقد كان النبيُّ ﷺ يخطب قائماً، ثم يقعد، ثم يقوم، ولا يتكلَّم في قعدته. رواه جابر بن سَمرة. ورواه ابن عمر في كتاب البخاري[٢].

السادسة: والخطبة شرط في انعقاد الجمعة لا تصحُّ إلا بها، وهو قول جمهور العلماء. وقال الحسن: هي مستحبَّة[٣]. وكذا قال ابن الماجِشُون: إنها سُنَّة، وليست بفرض[٤]. وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر، فإذا تركها وصلَّى الجمعة، فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر[٥]. والدليل على وجوبها قوله تعالى: «وَتَرَكُوكَ قَائماً». وهذا ذمٌّ، والواجب هو الذي يُذَمُّ تاركه شرعاً[٦]، ثم إنَّ النبيَّ ﷺ لم يصلِّها إلا بخطبة.

السابعة: ويخطب متوكِّئاً على قوس أو عَصاً. وفي «سنن ابن ماجه» قال: حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد، قال: حدَّثني أبي، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قَوْس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصاً[٧].

الثامنة: ويسلِّم إذا صَعِد المِنبر على الناس عند الشافعيِّ[٨] وغيره. ولم يره

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٦٤) عن جعفر بن محمد، عن أبيه أنه قال: فلما كان معاوية استأذنَ الناسَ في إحدى الخطبتين، وقال: إني قد كبرت... الخبر. وابن أبي شيبة ٢/ ١١٣ عن الشعبي أنه قال: إنما خطب معاوية قاعداً حيث كثر شحم بطنه ولحمه.

(٢) رواية جابر بن سمرة عند مسلم (٨٦٢): (٣٥) وسلفت قريباً، لكن دون قوله: ولا يتكلم في قعدته. ورواية ابن عمر عند البخاري (٩٢٠)، ومسلم (٨٦١).

(٣) حلية العلماء ٢/ ٢٣٤ ، والأوسط لابن المنذر ٤/ ٥٩ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٨ .

(٥) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦٠ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٩٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٨ .

(٧) ابن ماجه (١١٠٧)، قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف أولاد سعد وأبيه عبد الرحمن. اهـ وفي الباب عن الحكم بن حزن الكُلَفي عند أبي داود (١٠٩٦)، وفيه: فأقمنا بها أياماً شهدنا فيها الجمعة مع رسول الله ﷺ فقام متوكئاً على عصاً أو قوس، ... الخبر.

(٨) الأم ١/ ١٧٧ .

مالك[١]. وقد روى ابن ماجه[٢] من حديث جابر بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم.

التاسعة: فإن خطب على غير طهارة الخطبةَ كلِّها أو بعضها، أساء عند مالك[٣]، ولا إعادةَ عليه إذا صلَّى طاهراً. وللشافعيِّ قولان في إيجاب الطهارة، فَشرطها في الجديد، ولم يشترطها في القديم[٤]. وهو قول أبي حنيفة[٥].

العاشرة: وأقلُّ ما يجزىء في الخطبة أن يحمد الله ويصلِّي على نبيِّه ﷺ، ويوصي بتقوى الله، ويقرأ آيةً من القرآن. ويجب في الثانية أربع كالأولى، إلا أن الواجب بدلاً من قراءة الآية في الأولى الدعاء، قاله أكثر الفقهاء. وقال أبو حنيفة: لو اقتصر على التحميد أو التسبيح أو التكبير، أجزأه[٦]. وعن عثمان ﷺ أنَّه صعد المنبر فقال: الحمد لله، وأُرْتِجَ عليه فقال: إنَّ أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالاً، وإنَّكم إلى إمام فَعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال، وستأتيكم الخُطبة، ثم نزل فصلَّى[٧]. وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد. وقال أبو يوسف ومحمد: الواجب ما تناوله اسم خطبة[٨]. وهو قول الشافعيِّ[٩]. قال أبو عمر بن عبد البرِّ[١٠]: وهو أصحُّ

---

(١) النوادر والزيادات للقيرواني ١/ ٤٧١ .

(٢) في سننه برقم (١١٠٩)، قال في الزوائد: في إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف .

(٣) النوادر والزيادات ١/ ٤٧٦ .

(٤) المجموع للنووي ٤/ ٣٨٧ .

(٥) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٧ .

(٦) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦١-٦٢ ، وقول أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٩٥ .

(٧) أخرجه العسكري في الأوائل ١/ ٢٦٣ عن أبي العالية، وأورده السرقسطي في غريب الحديث ٢/ ٥٢٣ وقال: أُرْتج على فلان: إذا أراد قولاً فلم يَصِلْ إلى تمامه، وهو مأخوذ من الرِّتاج، وهو الباب المغلق. اهـ. وقال الزيلعي في نصب الراية ٢/ ١٩٧ : غريب واشتهر في الكتب... اهـ. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١٠/ ٢١٦ عن الخبر: فهو شيء يذكره صاحب العِقْد الفريد [٤/ ٦٦] وغيره، ممَّن يذكر طرف الفوائد، ولكن لم أرَ هذا بإسناد تسكن النفس إليه، والله أعلم. اهـ.

(٨) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٥ .

(٩) في الأم ١/ ١٧٨ .

(١٠) في الكافي له ١/ ٢٥١ .

ما قيل في ذلك.

الحادية عشرة: في «صحيح مسلم»[(١)] عن يَعْلَى بن أُميَّة أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف:٧٧]. وفيه: عن عَمْرَة بنت عبد الرحمن، عن أختٍ لِعَمْرَة قالت: ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كلِّ جمعة[(٢)]. وقد مضى في أوَّل «قٓ»[(٣)].

وفي «مراسيل أبي داود» عن الزهريِّ قال: كان صَدْرُ خطبة النبيِّ ﷺ: «الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهد أنْ لا إله إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، أَرسله بالحقِّ بشيراً ونذيراً بين يَدَي الساعة، من يطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَد، ومن يعصِهما فقد غَوَى». نسأل اللهَ ربَّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتَّبع رضوانه ويجتنب سَخطه، فإنَّما نحن به وله[(٤)].

وعنه[(٥)] قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يقول إذا خطب: «كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، لا بُعْدَ لما هو آتٍ. لا يُعجِّل اللهُ لعَجَلةِ أحدٍ، ولا يَخِفُّ لأمر الناس، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الله أمراً ويريد الناسُ أمراً، ما شاءَ الله كان ولو كَرِه الناس، ولا مُبْعِدَ لما قرَّب الله، ولا مقرِّب لما بعَّد اللهُ، لا يكون شيءٌ إلا بإذن الله جلَّ وعزَّ».

وقال جابر: كان النبيُّ ﷺ يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يَحْمَد الله ويصلِّي على أنبيائه: «أيُّها الناس إنَّ لكم معالم، فانتهُوا إلى معالمكم، وإنَّ لكم نهاية،

(١) برقم (٨٧١)، وهو عند البخاري (٣٢٣٠)، وأحمد (١٧٩٦١).

(٢) مسلم (٨٧٢)، وفيه: أخذت: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ مِن في رسول الله ﷺ يوم الجمعة، ... الخبر.

(٣) ١٩/ ٤٢٤، وسلف هناك من حديث أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها.

(٤) مراسيل أبي داود (٥٦).

(٥) أي: عن الزهري، والخبر في مراسيل أبي داود (٥٨).

فانتهوا إلى نهايتكم، إنَّ العبد المؤمن بين مخافتين؛ بين أجلٍ قد مَضَى لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه، وبين أَجَلٍ قد بَقِيَ لا يدري ما اللهُ صانع فيه، فلْيَأْخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل الممات، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنَّة أو النار، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»[١]. وقد تقدَّم ما خطب به عليه الصلاة والسلام أوَّل جمعة عند قدومه المدينة[٢].

الثانية عشرة: السكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوبَ سُنَّة. والسُّنَّة أن يسكت لها من يسمع ومَن لم يسمع، وهما ـ إن شاء الله ـ في الأجر سواء[٣]. ومن تكلَّم حينئذٍ، لَغَا، ولا تفسد صلاته بذلك. وفي الصحيح عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قلتَ لصاحبك: أنْصِت. يومَ الجمعة، والإمامُ يخطب، فقد لَغَوْتَ»[٤]. الزَّمَخْشريُّ[٥]: وإذا قال المُنْصِت لصاحبه: صَهْ، فقد لغا، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً؟ نعوذ بالله من غُرْبة الإسلام ونكد الأيام.

الثالثة عشرة: ويستقبلُ الناس الإمام إذا صَعِد المنبر؛ لما رواه أبو داود مُرْسَلاً عن أبان بن عبد الله، قال: كنتُ مع عَدِيِّ بن ثابت، يوم الجمعة، فلما خرج الإمام ـ أو قال: صعد المنبر ـ استقبله، وقال: هكذا أصحابُ رسولِ الله ﷺ يفعلون برسول الله ﷺ[٦]. خرَّجه ابن ماجه عن عديٍّ بن ثابت، عن أبيه، فزاد في الإسناد:

---

(١) ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ٣٠٢-٣٠٣، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٢٣١، والمبرِّد في الكامل ١/ ٢٧٠-٢٧١، ولم ينسبوها.

(٢) ص٤٦١-٤٦٣ من هذا الجزء.

(٣) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦٩-٧٠.

(٤) سلف ٤/ ١٧.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦.

(٦) مراسيل أبي داود (٥٤)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٢/ ١١٧، من طريق وكيع، عن أبان، به، وأبان ابن عبد الله، في حفظه لين، وباقي رجال الإسناد ثقات.

عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام على المنبر، استقبله أصحابه بوجوههم. قال ابن ماجه: أرجو أن يكون متَّصلاً[١].

قلت: وخرَّج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا محمد بن مَعْمر، قال: حدَّثنا عبد الله ابن محمد بن ناجية، قال: حدَّثنا عبَّاد بن يعقوب، قال: حدَّثنا محمد بن الفضل الخُرَاسانيُّ، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا. تفرَّد به محمد بن الفضل بن عطيَّة، عن منصور[٢].

الرابعة عشرة: ولا يركع من دَخل المسجد والإمام يخطب، عند مالك رحمه الله. وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره[٣]، وفي «المُوَطَّأ» عنه[٤]: فخروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام. وهذا مرسل. وفي «صحيح مسلم»[٥] من حديث جابر عن النبيِّ ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فليركع ركعتين، وليتجوَّز فيهما». وهذا نصٌّ في الركوع. وبه يقول الشافعيُّ وغيره[٦].

الخامسة عشرة: ابن عَوْن، عن ابن سيرين، قال: كانوا يكرهون النَّوم والإمام يخطب، ويقولون فيه قولاً شديداً. قال ابن عَوْن: ثم لَقِيَني بعد ذلك فقال: تدري ما

(١) ابن ماجه (١١٣٦)، قال البوصيري في الزوائد: رجال إسناده ثقات، إلا أنه مرسل.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٤٤، و٣/ ٢٣٦، وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٠٩) عن عباد بن يعقوب، به. وقال: وحديث منصور لا نعرفه إلا من حديث محمد بن الفضل بن عطية، ومحمد بن الفضل بن عطية ضعيف ذاهب الحديث عند أصحابنا، ... ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء.

(٣) الاستذكار ٥/ ٤٩-٥٠.

(٤) أي: عن ابن شهاب الزهري، وكلامه في الموطأ ١/ ١٠٣، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٢/ ١٢٥ عن هشيم، عن أشعث، عن الزهري، به. والشافعي في الأم ١/ ١٧٥ عن ابن شهاب، عن ثعلبة بن أبي مالك: أن قعود الإمام يقطع السبحة، وأن كلامه يقطع الكلام.

(٥) برقم (٨٧٥): (٥٩)، وهو عند أحمد (١٤٤٠٥).

(٦) منهم الإمام أحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وداود، والطبري. الاستذكار ٥/ ٥٢، وكلام الشافعي في الأم ١/ ١٧٥، وكلام أحمد في المغني ٣/ ١٩٢.

يقولون؟ قال: يقولون: مَثَلُهم كَمَثل سَرِيَّة أخفقوا، ثم قال: هل تدري ما أخفقوا؟ لم تَغْنَم شيئاً. وعن سَمُرة بن جُنْدب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا نَعَس أحدكم، فليتحوَّل إلى مقعد صاحبه، وليتحوَّل صاحبُه إلى مقعده»[1].

السادسة عشرة: نذكر فيها من فضل الجمعة وفرضيَّتها ما لم نذكره. روى الأئمة عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلِّي يسأل الله عزَّ وجلَّ شيئاً إلا أعطاه إيَّاه» وأشار بيده يُقَلِّلها[2]. وفي «صحيح مسلم»[3] من حديث أبي موسى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة».

وروي من حديث أنس أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ علينا ذات يوم، فلما خرج قلنا: احتبستَ! قال: «ذاك أنَّ جبريل أتاني بكهيئة المرآة البيضاء فيها نُكْتة سَوْداء، فقلتُ: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة، فيها خير لك ولأمَّتك، وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطؤها، وهداكم الله لها، قلت: يا جبريل ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة التي في يوم الجمعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إيَّاه، أو ادَّخر له مثله يوم القيامة، أو صرف عنه من السوء مثله، وإنَّه خير الأيام عند الله، وإنَّ أهل الجنة يسمُّونه يوم المزيد». وذكر الحديث[4].

---

(١) أخرجه البزار (٦٣٦ و٦٣٧ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٦٩٥٦) و(٧٠٠٣) و(٧٠٠٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٨٠ : رواه البزار والطبراني، وفيه: إسماعيل المكي، وهو ضعيف.
وفي الباب عن ابن عمر عند أبي داود (١١١٩)، والترمذي (٥٢٦)، وأحمد (٤٧٤١) ولفظه: إذا نعس أحدكم في مجلسه يوم الجمعة فليتحوَّل إلى غيره. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٣٧ : ولا يثبت رفع هذا الحديث، والمشهور عن ابن عمر من قوله. وقال في معرفة السنن والآثار ٤/ ٤٠٧ : والموقوف أصحُّ. وقال النووي في المجموع ٤/ ٤٢٢ : والصواب أنه موقوف كما قال البيهقي، وأما تصحيح الترمذي والحاكم فغير مقبول.

(٢) البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٦ ، وابن ماجه (١١٣٧)، وأحمد (٧١٥١).

(٣) برقم (٨٥٣).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٢٩٤-٢٩٦ ، وهو عند ابن أبي =

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: حدَّثنا المسعوديُّ، عن المِنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة، عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة في كَثِيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القُرْب ـ قال ابن المبارك ـ: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم إلى الجمعة في الدنيا. وزاد: فيُحْدِث لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك. قال يحيى: وسمعتُ غيرَ المسعوديِّ يزيد فيه: وهو قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1] [ق: ٣٠].

قلت: قوله «في كَثيب» يريد أهل الجنَّة. أي: وهم على كثيب، كما روى الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة ينظرون إلى رَبِّهم في كلِّ جمعة على كثيب من كافور لا يُرَى طرفاه، وفيه نهرٌ جارٍ حافتاه المسك، عليه جوارٍ يَقْرأْنَ القرآنَ بأحسن أصواتٍ سمعها الأوَّلون والآخِرون، فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كلُّ رجلٍ بيد ما شاء منهنَّ، ثم يمرُّون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم، فلولا أنَّ الله يهديهم إلى منازلهم ما اهتدوا إليها لما يحدث الله لهم في كلِّ جمعة» ذكره يحيى بن سلام[2].

وعن أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «ليلة أُسْرِيَ بي رأيت تحت العرش سبعين مدينة، كلُّ مدينة مثل مدائنكم هذه سبعين مرَّة، مملوءة من الملائكة يسبِّحون الله ويقدِّسونه ويقولون في تسبيحهم: اللهمَّ اغفر لمن شهد الجمعة، اللهمَّ اغفر لمن اغتسل يوم

= شيبة ٢/ ١٥٠-١٥١ ، والبزار (٣٥١٩ كشف الأستار)، وأبي يعلى (٤٢٢٨)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٥) وفي الأوسط (٦٧١٣) من طرق، عن أنس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١: رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه، وأبو يعلى باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وأحد إسنادي الطبراني رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثَّقه غير واحد، وضعَّفه غيرهم، وإسناد البزار فيه خلاف.

(١) سلف ١٩/ ٤٥٦ .

(٢) سلف ١٩/ ٤٥٧ .

الجمعة» ذكره الثَّعلبيُّ[١].

وخرَّج القاضي الشريف أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن إبراهيم الهاشميُّ العِيسَوِيُّ ـ من ولد عيسى بن عليِّ بن عبد الله بن عباس ـ ﷺ بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث الجمعة زهراءَ منيرةً، أهلها يحفُّون بها كالعروس تُهْدَى إلى كريمها، تضيء لهم، يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم يسطع كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثَّقَلان، ما يطرقون تعجُّباً، يدخلون الجنَّة لا يخالطهم أحد إلا المؤذِّنون المحتسِبون»[٢].

وفي «سُنن ابن ماجه» عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة كفَّارة ما بينهما، مالم تُغْشَ الكبائر» خرَّجه مسلم بمعناه[٣].

وعن أوس بن أوس الثَّقَفيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، وبَكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغُ،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤١) عن أبي الحسن علي بن عبد الله الهاشمي، عن محمد بن عمرو، عن عبد الكريم بن الهيثم، عن الربيع بن نافع، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، عن طاوس، عن أبي موسى الأشعري، به.

وأخرجه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه (١٧٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٥٥٧)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٢١-١٥٢٢ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٧٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤١) من طرق، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، عن طاوس، عن أبي موسى الأشعري، به. قال الحاكم: هذا حديث شاذ صحيح الإسناد، فإن أبا معبد من ثقات الشاميين الذين يجمع حديثهم، والهيثم بن حميد من أعيان أهل الشام، غير أن الشيخان لم يخرجاه عنهما. وقال الذهبي: خبر شاذ صحيح السند، والهيثم وحفص ثقتان. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٦٤-١٦٥ : رواه الطبراني في الكبير، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، وقد وثقهما قوم، وضعفهما آخرون، وهما محتج بهما.

(٣) ابن ماجه (١٠٨٦)، ومسلم (٢٣٣).

كان له بكلِّ خطوة عمل سَنَةٍ، أجْرُ صيامها وقيامها»[1]. وعن جابر بن عبد الله قال: خَطَبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا. وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربِّكم؛ بكثرةِ ذِكْركم له، وكثرة الصَّدقة في السرِّ والعلانية، تُرزقوا وتُنصروا وتُؤجروا. واعلموا أنَّ الله قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي، وله إمام عادل أو جائر، استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جَمَعَ اللهُ شَمْلَه، ولا باركَ له في أمره، ألَا ولا صلاةَ له، ولا زكاةَ له، ولا حَجَّ له، ألَا ولا صومَ له، ولا بِرَّ له، حتى يتوبَ، فمن تاب، تاب الله عليه، ألَا لا تَؤُمَّنَّ امرأةٌ رجلاً، ولا يؤمَّ أعرابيٌّ مهاجراً، ولا يؤمَّ فاجرٌ مؤمناً، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفَه أو سَوْطه»[2].

وقال مَيْمون بن أبي شبيب[3]: أردت الجمعة مع الحجَّاج فتهيَّأت للذهاب، ثم قلتُ: أين أذهب أصلِّي خلف هذا الفاجر؟ فقلت مرَّة: أذهب، ومرَّة: لا أذهب، ثم أجمَع رأيي على الذهاب، فناداني منادٍ من جانب البيت: «يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ»[4].

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فيه

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٥)، والترمذي (٤٩٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩٥-٩٦، وابن ماجه (١٠٨٧)، وأحمد (١٦١٧٣). ومعنى قوله ﷺ: غسَّل: أراد المجامعة قبل الخروج إلى الصلاة، وقيل: أراد غسَّل غيره واغتسل هو، وقيل: أراد بغسَّل: غَسْلَ أعضائه للوضوء، ثم يغتسل للجمعة، وقيل: هما بمعنى واحد، وكرَّره للتأكيد. ومعنى قوله ﷺ: بكَّر: أي أتى الصلاة في أول وقتها. وابتكر: أي أدرك أوَّل الخطبة. وقيل: معنى اللفظتين واحد، وكرِّر للتأكيد. النهاية (غسل) و(بكر).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٨١)، وفيه: وتجبروا، بدل: وتؤجروا. قال البوصيري في الزوائد: إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان وعبد الله بن محمد العدوي.

(٣) في (م): شيبة. وهو أبو نصر ميمون بن أبي شبيب الرَّبَعي، مات سنة ثلاث وثمانين. تهذيب التهذيب ٤/ ١٩٧-١٩٨.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٣٦، وابن أبي الدنيا في الصمت (٥٣٩)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٧٥.

وجهان: أحدهما: ما عند اللهِ من ثواب صلاتكم خير من لذَّة لهوكم، وفائدة تجارتكم. الثاني: ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خيرٌ مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم[١]. وقرأ أبو رجاء العُطارِديُّ: «قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ للذين آمنوا»[٢]. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: خير من رزق وأعطى[٣]، فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نَيْل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢.

(٢) لم نقف عليها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها إحدى عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقد قُرِئَ الصِّفاتُ الأربعُ بالرَّفعِ على المدحِ[1].

(٢) - ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في العربِ؛ لأنَّ أكثرَهُم لا يكتبونَ ولا يقرؤونَ.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ مِن جُملَتِهم، أو أمِّيًّا مِثلَهُم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مع كونِهِ أُمِّيًّا مثلَهم لم تُعهَدْ منه قراءةٌ ولا تعلُّمٌ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ مِن خبائثِ العَقائدِ والأعمالِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القرآنَ والشَّريعةَ أو معالمَ الدِّينِ مِن المنقولِ والمعقولِ، ولو لم يكن سِواهُ مُعجزَةٌ لكَفاهُ.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن الشِّركِ وخَبَثِ الجاهليَّةِ، وهو بيانٌ لشدَّةِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٦)، عن أبي وائل شقيق بن سلمة ورؤبة وأبي الدينار.

احتياجهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهُم وإزاحةٌ لِمَا يُتوهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ، و(إن) هي المُخفَّفةُ واللامُ تَدلُّ عليها.

(٣) ـ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أو المنصوبِ في ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾، وهم الذينَ جاؤُوا بعدَ الصَّحابةِ إلى يومِ الدِّينِ، فإنَّ دعوتَه وتعليمَهُ يعمُّ الجميعَ.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ لم يلحَقُوا بهم بعدُ وسَيلحَقُون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في تمكينِه مِن هذا الأمرِ الخارقِ للعادةِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في اختيارِه وتعليمِه.

(٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ ذلك الفضلُ الذي امتازَ به عن أقرانِه فضلُهُ.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ تَفضُّلًا وعَطِيَّةً.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي يُستحقَرُ دونه نعيمُ الدُّنيا ونعيمُ الآخرةِ، أو نعيمُهما[1].

(٥) ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ عُلِّمُوها وكُلِّفُوا العملَ بها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعمَلُوا ولم يَنتَفِعُوا بما فيها.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كتبًا من العلمِ يَتعَبُ في حملِها ولا يَنتَفِعُ بها، و﴿يَحْمِلُ﴾ حالٌ والعامِلُ فيه معنى المثلِ، أو صفةٌ؛ إذ ليسَ المرادُ مِن الحمارِ معيَّنًا.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: مثلُ الذين كذَّبُوا وهم اليَهودُ المكذبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالةِ على نبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةً للقومِ، والمخصوصَ بالذَّمِّ مَحذوفًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «نعم الدنيا ونعيم الآخرة»، وفي نسخة الخيالي: «نعيم الدنيا والآخرة»، وليس فيها «أو نعيمهما»، وأشار الأنصاري في «الحاشية» (٥/ ٣٣٢) إلى ذلك.

(٦) - ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ تهوَّدُوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولونَ نحنُ أولياءُ اللهِ وأحبَّاؤُه.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فتمَنَّوْا مِن اللهِ أَنْ يُميتكُم وينقُلَكُم مِـن دارِ البلـيَّةِ إلى محلِّ الكرامةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في زَعمِكُم.

(٧) - ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسببِ ما قدَّموا مِن الكفرِ والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيُجازِيهِم على أعمالِهم.

(٨) - ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافونَ أَنْ تتمنَّوْهُ بلِسانِكُم مخافةَ أَنْ يُصيبَكُم فتؤخَذُوا بأعمالِكُم.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾[1] لاحِقٌ بكُمْ، والفاءُ لتَضمُّنِ الاسمِ معنى الشَّرطِ باعتبارِ الوَصفِ، وكأنَّ فرارَهُم يُسرِّعُ لحوقَهُ بهم.

وقد قُرِئَ بغيرِها[2]، ويجوزُ أن يكونَ الموصولُ خبرًا والفاءُ عاطفَةً.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأَنْ يُجازيَكُمْ عليه.

(٩) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أُذِّنَ لها.

﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيـانٌ لـ﴿إِذَا﴾، وإنَّمـا سُـمِّيَ جمعـةً لاجتمـاعِ النَّـاسِ فيه للصَّـلاةِ، وكانـت العـربُ تُسـمِّيهِ العَرُوبة.

وقيل: سمَّاه كعبُ بنُ لُؤَيٍّ لاجتماعِ النَّاسِ فيه إليه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي زيادة: «لا تفوتونه» وجاءت في نسخة الخيالي: «لا تفوتون».

(٢) أي: بغير الفاء، وهي قراءة زيد بن علي رضي الله عنه: (إنه ملاقيكم)، انظر: «الكشاف» (٩/ ١٠٤)، و«البحر» (٢٠/ ٣٢٧).

وأوَّلُ جمعةٍ جمَّعَها رسولُ اللهِ ﷺ أنه لَمَّا قدمَ المدينةَ نزلَ قُباءَ وأقامَ بها إلى الجمعةِ، ثمَّ دخلَ المدينةَ وصلَّى الجمعةَ في دارٍ لِبَني سالمِ بنِ عَوفٍ[١].

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فامْضُوا إليه مُسرعينَ قصدًا، فإنَّ السَّعيَ دونَ العَدْوِ، والذِّكرُ الخُطبةُ، وقيل: الصَّلاةُ. والأمرُ بالسَّعيِ إليها يدلُّ على وُجوبِها.

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملةَ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: السَّعيُ إلى ذكرِ اللهِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن المُعاملَةِ، فإنَّ نفعَ الآخرةِ خَيرٌ وأَبْقى.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشَّرَّ الحَقيقيينِ، أو إن كنتُم مِن أهلِ العلمِ.

(١٠) ـ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أُدِّيَتْ وفُرغَ مِنْها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقٌ لما حُظرَ عليهم. واحتجَّ به مَن جعلَ الأمرَ بعدَ الحظرِ للإباحةِ.

وفي الحديثِ: «﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ليسَ بطلبِ الدُّنيا وإنَّما هو عيادةٌ وحُضورُ جنازةٍ وزيارةُ أخٍ في اللهِ»[٢].

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروهُ في مَجامعِ أَحوالِكُم ولا تخصُّوا ذكرَهُ بالصَّلاةِ.

﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بخيرِ الدَّارينِ.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩٤). ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥١٢) عن عبد الرحمن بن عويم، قال: أخبرني بعض قومي... فذكره.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤٤) عن أنس مرفوعًا، وفي سنده أبو عامر الصائغ، قال الذهبي في «المغني في الضعفاء» (٢/ ٧٩٤): أبو عامر الصائغ عن أبي خلف عن أنس، قال الأزدي: كان يضع الحديث. وأخرجه ابنُ مردويه عن ابنِ عبَّاسٍ موقوفًا. انظر: «الدر المنثور» (٨/ ١٦٥).

(١١) ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ كان يخطبُ للجمعةِ فمرَّتْ عِيرٌ تحملُ الطَّعامَ فخرجَ النَّاسُ إليهم إلَّا اثني عشرَ، فنزلَتْ[١].

وإفرادُ التِّجارةِ بردِّ الكنايةِ لأنَّها المقصودةُ، فإنَّ المرادَ مِن اللهوِ الطَّبلُ الذي كانوا يستقبلونَ به العِيرَ، والتَّرديدُ للدَّلالةِ على أنَّ مِنْهُم من انفضَّ بِمُجرَّدِ سَماعِ الطَّبلِ ورُؤيَتِه، أو للدَّلالةِ[٢] على أنَّ الانفضاضَ إلى التِّجارةِ مع الحاجةِ إليها والانتفاعِ بها إذا كانَ مذمومًا كان الانفضاضُ إلى اللهوِ أَوْلَى بذلك.

وقيل: تَقديرُه: إذا رأوا تجارة انفَضُّوا إليها، وإذا رَأَوا لهوًا انفضُّوا إليه.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي: عَلى المِنبَرِ.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِـن الثَّوابِ ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ فإنَّ ذاك محقَّقٌ مخلَّدٌ بخلافِ ما تتوهَّمُونَ مِن نَفعِهِما.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فتوكَّلُوا عليه واطلُبوا الرِّزقَ مِنه.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الجُمعةِ أُعطِيَ مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعَددِ مَن أَتى الجُمعةَ ومَنْ لَمْ يَأتِها في أَمصارِ المُسلمينَ»[٣].

* * *

(١) رواه البخاري (٩٣٦)، ومسلم (٨٦٣) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) قوله: «أو للدلالة» عطف على «للدلالة» قبله، لا على قوله: «لأنها المقصودة». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٩٤)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه يسبّح له ما في السماوات وما في الأرض، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾، ثم قال تعالى ﴿الملك القدوس﴾ أي هو مالك السماوات والأرض، المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدس أي المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال، ﴿العزيز الحكيم﴾، وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾، الأميون: هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم﴾؟ وتخصيص الأمّيّين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، فبعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾، وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيّروه. واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها، وغيّروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه، بشرع عظيم كامل شامل، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وقوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ . روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء»[1] . في هذا الحديث دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسَّر قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم﴾ بفارس، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قال: هم الأعاجم وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره، وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أُمته من بعثه ﷺ إليهم.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود، الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها؛ مثلهم في ذلك ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ . عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت ليس له جمعة»[2]، ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأنّ محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تزعمونه، قال الله تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي بما يعلمون من الكفر والظلم والفجور ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ الآية . عن ابن عباس قال، قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال، فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً »[1] ، وقوله تعالى: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وفي معجم الطبراني عن الحسن عن سمرة مرفوعاً: « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره: فقالت له الأرض، يا ثعلب ديني، فخرج له حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات »[2] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ، وفيه كمل جميع الخلائق، وفيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، وفيه تقوم الساعة، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح، وقد كان يقال له (يوم العروبة)، وثبت أن الأمم قبلنا أُمروا به فضلوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمّة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم . عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد »[3]. ولمسلم: « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق »[4] . وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ أي أقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾، فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما أخرجاه في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

(٢) رواه الحافظ الطبراني .

(٣) هذا لفظ البخاري .

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

فأتموا » . وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال: « ما شأنكم ؟ » قالوا: استعجلنا إلى الصلاة قال: « فلا تفعلوا . إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »(١). وفي رواية : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »(٢) ، قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ، ولهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » . وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده »(٣). وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من غسّل واغتسل يوم الجمعة ، وبكّر وابتكر ، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها »(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، إن رسول الله ﷺ قال: « من اغتسل يوم الجمعة غسل جنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »(٥) ويستحب أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر . لما روى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأُخرَى »(٦) .وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار ، فقال: « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوب مهنته »(٧). وقوله تعالى: ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ المراد بهذا النداء هو (النداء الثاني) الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين (عثمان بن عفّان) رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله، عن السائب بن يزيد

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه مسلم .

(٤) قال ابن كثير : هذا الحديث له طرق وألفاظ وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسّنه الترمذي .

(٥) أخرجه الشيخان .

(٦) أخرجه الإمام أحمد

(٧) رواه ابن ماجة .

قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء»[1] يعني يؤذن بـه على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد. وذلك النداء الذي يحرم عنده الشراء والبيع إذا نودي به، فأمر عثمان رضي الله عنه أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع النـاس، وإنمـا يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع.

وقوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلمـاء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني، وقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة ﴿خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿إن كنتم تعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ أي فرغ منها ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، كما كان (عراك ابن مالك) رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[2]. وروي عن بعض السلف أنه قال: من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقول الله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾، وقوله تعالى: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي في حـال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة». وقال مجاهـد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينـة يومئذ، فقال تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ أي على المنبر تخطب، عن جابر رضي الله عنه قال: قدمت عير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾[3]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر بن عبد الله قال: بينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.

هذه الآية: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾، وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[1] ، وفي قوله تعالى: ﴿وتركوك قائماً﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً، وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكّر الناس، ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن هذه القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل، عن مقاتل بن حيان يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، يعني فانفضوا، ولم يبق معه إلا نفر يسير[2] ، وقوله تعالى: ﴿قل ما عند الله﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.

[آخر تفسير سورة الجمعة، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) رواه الحافظ الموصلي.

(٢) أخرجه أبو داود.

تفسير سورة الجمعة

وهى مدنية .

عن ابن عباس ، وأبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين . رواه مسلم فى صحيحه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يُسبّح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ثم قال : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ : تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ الأميون هم : العرب كما قال تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وآكد ، كما فى قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤] ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ،وقوله : ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ،وقوله إخبارا عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود :١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق(٢)،أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك فى سورة الأنعام ،بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وبرقم (٨٧٩) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(٢) فى أ :« الثقلين » .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ،وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم ،إلا بقايا من أهل الكتاب ــ أى : نزرا يسيرا ــ ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ . وذلك أن العرب كانوا [قديما] (١) متمسكين بدين إبراهيم [الخليل] (٢) عليه السلام فبدلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا (٣) ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله (٤) ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله. حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب فى الأصول والفروع . وجمَعَ له تعالى ، وله الحمد والمنة ، جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعطِ أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه [دائماً] (٥) إلى يوم الدين .

وقوله : ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ : قال الإمام أبو عبد الله البخارى رحمه الله .

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبى الغَيْث ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ** ﴾ ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثُّرَيَّا لناله رجال ــ أو : رَجُلٌ ــ مِن هؤلاء » .

ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق عن ثور بن زيد الدِّيلى (٦) ، عن سالم أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، به (٧) .

ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله : ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ** ﴾ بفارس ؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ** ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبى ﷺ من غير العرب .

---

(١) زيادة من م،أ . (٢) زيادة من م . (٣) فى أ :« شركا فيه » .
(٤) فى م :« لم يأذن الله بها » . (٥) زيادة من م،أ .
(٦) فى أ : « الديلمى » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٤٦) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٢) وتفسير الطبرى (٦٢/٢٨) .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى[(١)]، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَ فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال [من أصحابى رجالا] [(٢)] ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » ، ثم قرأ : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [(٣)] يعنى : بقية من بقى من أمة محمد ﷺ.

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ ﴾ أى : ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعنى : ما أعطاه الله محمدا ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، فلم يعملوا بها ، مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حَملا حسيا [(٤)] ولا يدرى ما عليه . وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظا ولم يفهموه [(٥)] ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهمَ له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقال هاهنا : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا ابن نُمَير ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذى يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة » [(٦)] .

---

(١) فى أ : « الترمذى » .

(٢) زيادة من الدر المنثور . مستفاداً من هامش ط. الشعب.

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ٢٠١) وابن أبى عاصم فى السنة برقم (٣٠٩) من طريق الوليد بن مسلم ، عن أبى محمد ــ عيسى بن موسى ــ به ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٨) : « إسناده جيد»

(٤) فى أ : « حسناً » . (٥) فى م : « ولم يتفهموه » .

(٦) المسند (١/ ٢٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٨٤) : « فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائى فى رواية ».

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ،وأن محمدا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بما يعملون لهم [(١)] من الكفر والظلم والفجور ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وقد قدمنا فى سورة « البقرة » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٤ ـ ٩٦] . وقد أسلفنا الكلام هناك ،وبينا أن المراد أن يدعوا على الضال[(٢)] من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ومباهلة المشركين فى سورة مريم : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ [مريم :٧٥] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقى أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن[(٣)] عبد الكريم بن مالك الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيتُ محمدا عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذَته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تَمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من[(٤)] النار . ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » .

رواه البخارى والترمذى والنسائى،من حديث عبد الرزاق عن معمر،عن عبد الكريم، [به][(٥)] [(٦)] قال البخارى : « وتبعه [(٧)] عمرو بن خالد ، عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ». ورواه النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عبيد الله الحلَبىَ ، عن عبيد الله بن عمرو الرقى ، به أتم [(٨)] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

وفى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهذلى ، عن يونس ، عن الحسن ، عن سَمُرَة مرفوعا : « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب دينى . فخرج له حُصَاص ، فلم يزل كذلك حتى

---

(١) فى أ : « هم » .
(٢) فى م : « الضلال » .
(٣) فى م : « بن » .
(٤) فى أ : « فى » .
(٥) زيادة من أ .
(٦) المسند (١/٢٤٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٥) .
(٧) فى م ، أ :« وتابعه » .
(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٦١) .

تقطعت عنقه ، فمات »[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ .

إنما سميت الجمعة جُمعة ؛ لأنها مشتقة من الجَمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه فى كل أسبوع مَرّةً بالمعابد الكبار وفيه كَمُل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من السنة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وفيه خلق[٢] آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه[٣] إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح[٤] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عَبِيدةُ بن حُمَيد ، عن منصور ، عن أبى معشر ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن قَرْثَع الضَبى ، حدثنا سلمان قال : قال أبو القاسم ﷺ : «يا سلمان ، ما يوم الجمعة ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « يوم جُمع فيه أبواك ــ أو : أبوكم »[٥] .

وقد رُوى عن أبى هُرَيرة ، من كلامه ، نحو هذا ، فالله أعلم .

وقد كان يقال له فى اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَلّوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذى لم يقع فيه خلق[٦] ، واختار النصارى يومَ الأحد الذى ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة [يوم][٧] الجمعة الذى أكمل الله فيه الخَليقَةَ ،كما أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يَومُهم الذى فَرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تَبَعٌ ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد »[٨] . لفظ البخارى .

---

(١) المعجم الكبير (٧/ ٢٢٢) ورواه العقيلى فى الضعفاء (٤/ ٢٠٠) ومن طريقه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٠٥) وقال ابن الجوزى: « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ومعاذ فى حديثه وهم ، ولايتابع على رفعه ، وإنما هو موقوف على سمرة ».

(٢) فى أ : «خلق الله » .

(٣) فى أ :« أعطاه الله » .

(٤) منها حديث أبى هريرة رضى الله عنه رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨٥٤) وبرقم (٨٥٢) وحديث أوس بن أوس رضى الله عنه رواه أحمد فى المسند (٤/ ٨) .

(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ٢٣٧) والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٧٧) من طريق جرير بن عبد الحميد، عن منصور ، عن أبى معشر به، وقال الحاكم :« صحيح الإسناد واحتج الشيخان بجميع رواية غير قرثع سمعت أباعلى القارى يقول : أردت أن أجمع مسانيد قرثع الضبى فإنه من زهاد التابعين فلم يسند تمام العشرة » .

(٦) فى م : « خلق آدم » .

(٧) زيادة من م، أ .

(٨) هذا اللفظ لم أقع عليه من هذا الطريق فى صحيح البخارى وهو فى صحيح مسلم برقم (٨٥٥) وهذا لفظه .

وفى لفظ لمسلم : « أضل الله من كان قبلنا [١] . فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا ،والأولون يوم القيامة ،المقضى بينهم [٢] قبل الخلائق ».

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ أى : اقصدوا واعمدوا [٣] واهتموا فى مَسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [الإسراء:١٩] . وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضى الله عنهما يقرآنها : «فامضوا إلى ذكر الله » . فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه ، لما أخرجاه فى الصحيحين ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار، ولا تُسرِعوا ، فما أدركتم فصلُّوا ، وما فاتكم فأتموا » . لفظ البخارى [٤] .

وعن أبى قتادة قال : بينما نحن نُصَلى مع النبى ﷺ إذ سمع جَلَبَة رجال ، فلما صلى قال : «ما شأنكم ؟ » . قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة [٥] ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » . أخرجاه [٦] .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ،ولكن ائتوها تمشون ، وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

رواه الترمذى من حديث عبد الرزاق كذلك [٧] ، وأخرجه من طريق يزيد بن زُرَيع ، عن معمر، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، بمثله [٨] .

قال الحسن : أما والله ما هو بالسعى على الأقدام ، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينةُ والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ **فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ يعنى : أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها ، وكان يتأولُ قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ [الصافات:١٠٢] أى : المشى معه . روى عن محمد بن كعب، وزيد بن أسلم ، وغيرهما نحو ذلك .

ويستحَب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عُمَر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدُكم الجمعةَ فَلْيغتسل » [٩] .

(١) بعدها فى أ :« ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم » .
(٢) فى م ، أ : « لهم » .
(٣) فى أ : « واعبدوا » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٨٥٦) .
(٥) فى م :« فعليكم السكينة والوقار » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٣٦) وصحيح مسلم برقم (٦٠٢) .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٨) .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٧) .
(٩) صحيح البخارى برقم (٨٧٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٤) .

ولهما عن أبى سعيد ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل مُحتَلِم » [١] .

وعن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » . رواه مسلم [٢] .

وعن جابر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « على كل رجل مسلم فى كل سبعة أيام غسل يوم ، وهو يوم الجمعة » . رواه أحمد ، والنسائى ، وابن حبان [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن حسان بن عطية ، عن أبى الأشعث الصنعانى ، عن أوس بن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من غَسَّل واغتسل يوم الجمعة ،وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ،ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة ، أجر صيامها وقيامها » .

وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحَسَّنَهُ الترمذى [٤] .

وعن أبى هُرَيرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنه ،ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ،ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه [٥] .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وفى حديث أبى سعيد المتقدم : « غسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواكُ ، وأن يَمَس من طيب أهله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى ، عن عمران بن أبى يحيى ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبى أيوب الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومَس من طيب أهله ــ إن كان عنده ــ ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع [٦] ــ إن بدا له ــ ولم يُؤذ أحدا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » [٧] .

وفى سنن أبى داود وابن ماجة ، عن عبد الله بن سلام ، رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مِهْنَته » [٨] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٨٧٩) وصحيح مسلم برقم (٨٤٦) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٩) .
(٣) المسند (٣/ ٣٠٤) وسنن النسائى (٣/ ٩٢) وصحيح ابن حبان برقم (٥٥٨) « موارد ».
(٤) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن أبى داود برقم (٣٤٥) وسنن الترمذى برقم (٤٩٦) وسنن النسائى (٣/ ٩٥) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٨٧) .
(٥) صحيح البخارى برقم (٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٨٥٠) .
(٦) فى م ، أ : « فركع » .
(٧) المسند (٥/ ٤٢٠) .
(٨) سنن أبى داود برقم (١٠٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٩٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النّمار ، فقال : « ما على أحدكم إن وجد سَعَةَ أن يتخذ ثوبين لجمعته ، سوى ثوبى مهنته » . رواه ابن ماجة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ ﴾ : المراد بهذا النداء هو النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذى زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخارى رحمه الله حيث قال : حدثنا آدم ـ هو ابن أبى إياس ـ حدثنا ابن أبى ذئب ، عن الزهرى ، عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أولهُ إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان [بعد زمن] (٢) ، وكثر الناس، زاد النداء الثانى(٣) على الزوراء (٤) يعنى : يؤذن به على الدار التى تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا محمد بن راشد المكحولى ، عن مكحول : أن النداء كان فى يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام ،ثم تقام الصلاة ، وذلك النداء الذى يحرم عنده البيع والشراء (٥) إذا نودى به ، فأمر عثمان ،رضى الله عنه، أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس .

وإنما يؤمر بحضور الجمعة [الرجال] (٦) الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقَيِّم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع .

وقوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة : ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أى : فُرغ منها ، ﴿ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾: لَمَّا حَجَرَ عليهم فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عراَك بن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم ، أجبتُ دعوتَك ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ،

(١) سنن ابن ماجة برقم (١٠٩٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٣٦٥) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» .

(٢) ما بين المعقوفين غير ثابت فى الصحيح . مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٣) فى الصحيح :« النداء الثالث » ومثله فى سنن ابن ماجة ، كتاب الإقامة ، باب ما جاء فى الأذان يوم الجمعة ،حديث رقم (١١٣٥) ١/ ٣٥٩ مستفاداً من هامش ط. الشعب .

(٤) صحيح البخارى برقم (٩١٢) .

(٥) فى م : « الشراء والبيع » .

(٦) زيادة من أ .

فارزقني من فضلك ،وأنت خير الرازقين . رواه أبي حاتم .

وروى [١] عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ،لقول الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ أي : في حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعَطَائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ؛ ولهذا جاء في الحديث : « من دخل سوقا من الأسواق فقال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير كُتبت[٢] له ألفُ ألف حَسنة ، ومُحى عنه ألفُ ألف سَيئة » [٣] .

وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)** ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا** ﴾ أي : على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد بن أسلم ، وقتادة .

وزعم مقاتل بن حبان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم . وقد صَحّ بذلك الخبر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا ابن إدريس ، عن حُصَين ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : قَدمَت عيرٌ المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا ، فنزلت : ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا** ﴾ .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث سالم ، به [٤] .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا هُشَيم ، عن حُصَين ، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان ، عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عيرٌ إلى المدينة ، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا، فقال رسول الله ﷺ :« والذي نفسي بيده ، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادي

---

(١) في م : « وروى أيضا ». (٢) في أ : « كتب الله » .

(٣) جاء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٧) والترمذي في السنن برقم (٣٤٢٨) وابن ماجة في السنن برقم (٢٢٣٥) وقال الترمذي : « هذا حديث غريب » .

(٤) المسند (٣/ ٣١٣) وصحيح البخاري برقم (٤٨٩٩) وصحيح مسلم برقم (٨٦٣) .

ناراً » ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ، وقال : كان فى الاثنى عشر الذين ثَبَتُوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما (١) .

وفى قوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ : دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما . وقد رَوَى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سَمُرَة قال : كانت للنبى ﷺ خطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ويذكر الناس .

لكن هاهنا شيء ينبغى أن يُعلَم وهو : أن هذه القصة قد قيل : إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، كما رواه أبو داود فى كتاب المراسيل : حدثنا محمود بن خالد، عن الوليد ، أخبرنى أبو معاذ بُكَير بن مَعروف ، أنه سمع مُقَاتل بن حَيَّان يقول : « كان رسول الله ﷺ يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى إذا كان يومٌ والنبى ﷺ يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحيةَ بن خليفةَ قد قدمَ بتجارة (٢) . يعنى : فانفضوا ، ولم يبق معه إلا نفر يسير .

وقوله : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : الذى عند الله من الثواب فى الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : لمن توكل عليه ،وطلب الرزق فى وقته .

---

(١) مسند أبى يعلى (٤٦٨/٣) .
(٢) المراسيل برقم (٦٢) .

سورة الجمعة

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تسبيحًا مستمرًا ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وقد قُرئ الصفاتُ الأربع بالرفع على المدح.[1]

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في العرب؛ لأنّ أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون. قيل: بُدئت الكتابة بالطائف أخذوها مِن أهل الحِيرة وهم مِن أهل الأنبار.[2] ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: كائنًا مِن جملتهم أمّيًا مثلَهم ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مع كونه أمّيًا مثلَهم لم يُعهَد منه قراءة ولا تعلُّم. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ صفة أخرى لـ﴿رَسُولٗا﴾ معطوفة على ﴿يَتۡلُواْ﴾ أي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياءَ مِن خبائث العقائد والأعمال.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ صفة أخرى لـ﴿رَسُولٗا﴾ مترتِّبة في الوجود على التلاوة. وإنّما وُسِّط بينهما التزكية -التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوّتها العمليّة وتهذيبها المتفرّع على تكميلها، بحسب القوّة النظريّة الحاصل بالتعليم المترتِّب على التلاوة- للإيذان بأنّ كلًّا مِن الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيبُ الوجود لَتبادَر إلى الفهم كونُ الكلّ نعمةً واحدةً، كما مرّ في سورة البقرة.[3] وهو السرُّ في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن شقيق ومسلمة بن محارب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٠/٤.

[3] البقرة، ١٢٩/٢.

وأخرى بالكتاب والحكمة رمزًا إلى أنّه باعتبار كلّ عنوان نعمة على حِدَة، ولا يقدح فيه شمولُ الحكمة لِما في تضاعيف الأحاديث النبويّة مِن الأحكام والشرائع.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن الشِّرك وخَبَث الجاهليّة، وهو بيانٌ لشدّة افتقارهم إلى مَن يرشدهم وإزاحةٌ لِما عسى يُتوهَّم مِن تعلّمه عليه السلام مِن الغير. و﴿إِن﴾ هي المخفَّفة، و"اللام" هي الفارقة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، أو على المنصوب في ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يعلِّمهم ويعلِّم آخرين منهم، أي: مِن الأمّيّين، وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدِّين، فإنّ دعوته عليه السلام وتعليمه يعمُّ الجميع. ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ صفة لـ﴿ءَاخَرِينَ﴾، أي: لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالِغُ في العزّة والحكمة، ولذلك مكّن رجلًا أمّيًا مِن ذلك الأمر العظيم واصطفاه مِن بين كافّة البشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي امتاز به مِن بين سائر الأفراد ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ
[١٩٣ظ] مَن يَشَآءُ﴾ تفضّلًا وعطيّةً. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي / يُستحقَر دونه نِعَم الدنيا ونعيم الآخرة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: عُلِّموها وكُلِّفوا العمل بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بما في تضاعيفها مِن الآيات التي مِن جملتها الآيات الناطقة بنبوّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كتبًا مِن العِلم يَتْعَبُ بحملها ولا ينتفع بها. و﴿يَحْمِلُ﴾ إمّا حال والعامل فيها معنى المَثل، أو صفة للحمار؛ إذ ليس المراد به معيّنًا، فهو في حُكم النكرة،

كما في قول مَن قال:

ولـقـد أمــرُّ عـلـى الـلـئـيـم يـسبُّـنـي[١]

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بئس مثلًا مَثل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله، على أنّ التمييز محذوف والفاعل المفسَّر به مستتر. و﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ هو المخصوص بالذمّ، والموصول صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾. أو بئس مَثَلُ القوم مَثَلُ الذين كذَّبوا... إلخ، على أنّ ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ فاعلُ ﴿بِئۡسَ﴾ والمخصوصُ بالذمّ الموصول بحذف المضاف، أو بئس مثلُ القوم المكذِّبين مثلُ هؤلاء، على أنّ الموصول صفة ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، وهم اليهود الذين كذَّبوا بما في التوراة مِن الآيات الشاهدة بصحّة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين للتكذيب في موضع التصديق أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ أي: تهوَّدوا ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحبّاؤه، ويدَّعون أنّ الدار الآخرة لهم عند الله خالصةً، ويقولون: لن يدخل الجنّة إلّا مَن كان هودًا، فأُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يقول لهم إظهارًا لكذبهم: إن زعمتم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: فتمنّوا مِن الله أن يُميتكم وينقلكم مِن دار البليّة إلى دار الكرامة. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جوابه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين / بأنّه حقّ فتمنّوا الموتَ، فإنّ مَن أيقن بأنّه مِن أهل الجنّة أحبّ أن [١٩٤و] يتخلّص إليها مِن هذه الدار التي هي قرارة الأكدار.

---

[١] صدر بيت تمامه:

فمضيتُ ثُمّت قلتُ لا يعنيني

واختُلف في نسبته: فهو لرجل مِن سلول في كتاب سيبويه، ٢٤/٣؛ ولشَمِر بن عمرو الحَنفي في الأصمعيّات للأصمعي، ص١٢٦؛ ولعُمَيرة بن جابر الحنفي في حماسة البُحتري، ص٣٤٠؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٤. وانظر في الكلام على البيت خزانة الأدب للبغدادي، ٣٥٧/١.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ إخبار بما سيكون منهم، و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلِّقة بما يدلُّ عليه النفي، أي: يأبون التمنّي بسبب ما عملوا مِن الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول النار. ولمّا كانت اليد مِن بين جوارح الإنسانِ مناطَ عامّة أفاعيله عُبّر بها تارةً عن النفس وأخرى عن القدرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بهم. وإيثارُ الإظهار على الإضمار لذمّهم والتسجيل عليهم بأنّهم ظالمون في كلِّ ما يأتون وما يذرون مِن الأمور التي مِن جملتها ادّعاء ما هم عنه بمَعزِل.

والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّرة لمضمونه، أي: عليم بهم وبما صدر عنهم مِن فنون الظلم والمعاصي المُفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم مِن الاحتراز عمّا يؤدّي إلى ذلك، فوقع الأمر كما ذُكر فلم يتمنَّ منهم موتَه أحدٌ، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾، فإنّ ذلك إنّما يقال لهم بعد ظهور فرارهم مِن التمنّي، وقد قال عليه السلام: «لو تمنّوا لَماتوا مِن ساعتهم»،[1] وهذه إحدى المعجزات، أي: إنّ الموت الذي تفرّون منه ولا تجسرون على أن تتمنّوه مخافةَ أن تُؤخذوا بوبال كفركم، ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ البتّةَ مِن غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه. و"الفاء" لتضمّن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وقُرئ بدونها،[2] وقُرئ: "تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ".[3]

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي بأن يُجازيَكم بها.

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه مِن غير نصّ على أنّه حديث في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٠١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فُعل النداء لها، أي: أُذِن لها ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيان لـ﴿إِذَا﴾ وتفسيرٌ لها، وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى "في"، كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر، ٤٠/٣٥] أي: في الأرض.[١] وإنّما سُمّي جمعةً لاجتماع الناس فيه للصلاة.

وقيل: أوّل مَن سمّاها جمعةً كعب بن لؤيّ،[٢] وكانت العرب تُسمّيه العَروبة. / وقيل: إنّ الأنصار قالوا قبل الهجرة: لليهود يوم يجتمعون فيه بكلّ [١٩٤ظ] سبعة أيّام، وللنصارى مثلُ ذلك، فهلمُّوا نجعل لنا يومًا نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونُصلّي، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة، فاجتمعوا إلى سعد بن زُرارة[٣] فصلّى بهم ركعتين وذكّرهم، فسمَّوه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل الله آية الجمعة، فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام.[٤]

وأمّا أوّل جمعةٍ جمّعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهي أنّه لمّا قدم المدينة مهاجرًا نزل قُباء على بني عمرو بن عوف،[٥] وأقام بها يوم الإثنين

---

١ القول في **التبيان** للعكبري، ١٢٢٣/٢.

٢ هو كعب بن لؤيّ بن غالب، أبو هصيص (ت.١٧٣ق هـ/٤٥٤م). مِن قريش مِن عدنان، جدّ جاهلي، خطيب. مِن سلسلة النسب النبوي، كان عظيم القدر عند العرب حتّى أرّخوا بموته إلى عام الفيل، وهو أوّل مَن سنّ الاجتماع يوم الجمعة، وكان اسمه يوم العَروبة فكانت قريش تجتمع إليه فيه فيخطبهم ويعظهم. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٢٢٨/٥.

٣ هو سعد بن زُرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غَنَم بن مالك النجار الأنصاري، أبو أمامة. جدُّ عمرة بنت عبد الرحمن، أخو أسعد بن زُرارة. يُذكر أنّه مِن الصحابة وفيه نظر، وقد يكون لم يدركه الإسلام؛ لأنّ أكثرهم لم يذكروه، وذكروا أنّه كان يُنسب إلى النِفاق، ولعلّه تاب، والله أعلم. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٥٩١/٢؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٢٦٤/٤.

٤ القولان في **معالم التنزيل** للبغوي، ١١٦/٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٢/٤.

٥ بنو عمرو بن عوف بن الخزرج بن حارثة، وهم بطن مِن بطون عوف بن مالك بن الأوس، وهم أهل قُباء، ومِن نسله عوف وسالم وغنم وعنز، وكلُّهم بطون، انظر: **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ٣٥٣، ٤٧٠.

والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسّس مسجدهم، ثمّ خرج يوم الجمعة عامدًا المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلّى الجمعة.[١]

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امشوا واقصِدوا إلى الخطبة والصلاة ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملة. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: السعيُ إلى ذِكر الله وتركُ البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن مباشرته، فإنّ نَفْع الآخرة أجلّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخير والشرّ الحقيقيّين، أو إن كنتم أهل العلم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أدِّيت وفُرِغ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الربح، فالأمر للإطلاق بعد الحظر. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يؤمروا بطلب شيء مِن الدنيا، إنّما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله. وعن الحسن وسعيد بن المسيّب: طلبُ العِلم. وقيل: صلاة التطوّع.[٢] ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذِكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا، ولا تخصّوا ذِكره تعالى بالصلاة ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رُوي أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة[٣] بتجارة مِن زيت الشام والنبيّ عليه السلام يخطب

---

[١] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١١٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٤.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٥/٤. ولم أجدها في مظانّها.

[٣] هو دِحية بن خليفة بن فضالة الكلبي القُضاعي (ت. نحو ٤٥هـ/ نحو ٦٦٥م). كان مِن كبار الصحابة وروى أحاديث. شهد أحدًا وما بعدها مِن المشاهد، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يشبّهه بجبريل عليه السلام، أرسله النبيُّ عليه الصلاة والسلام رسولًا إلى قيصر في الهدنة. نزل دمشق وسكن المِزّة، وعاش إلى خلافة معاوية. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤٦١/٢؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٥٠/٢؛ والأعلام للزركلي، ٣٣٧/٢.

يوم الجمعة، فقاموا إليه خشية / أن يُسبقوا إليه، فما بقي معه عليه السلام إلّا [١٩٥و]
ثمانيةٌ، وقيل: أحدَ عشرَ، وقيل: اثنا عشر، وقيل: أربعون، فقال عليه السلام: «والذي نفس محمّد بيده لو خرجوا جميعًا لأضرم الله عليهم الوادي نارًا».[١] وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، وهو المراد باللهو. وتخصيص التجارة برجع الضمير لأنّها المقصودة، أو لأنّ الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاعِ بها إذا كان مذمومًا، فما ظنّك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه. وقيل: تقديره إذا رأوا تجارةً انفضّوا إليها أو لهوًا انفضّوا إليه، فحُذف الثاني لدلالة الأوّل عليه. وقُرئ: "إلَيهِمَا".[٢] ﴿وَتَرَكُوكَ قَآيِمًا﴾ أي: على المنبر.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ فإنّ ذلك نفع محقَّق مخلَّد بخلاف ما فيهما مِن النفع المتوهَّم. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإليه اسعَوا ومنه اطلبوا الرزق.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الجمعة أعطيَ مِن الأجر عشرَ حسنات بعدد مَن أتى الجمعة ومَن لم يأتِها في أمصار المسلمين».[٣]

---

١ بلفظ قريب في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٠٠/٤؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٣.

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٧٠/٢٦ (الجمعة، ٦٢/١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٩٤/٤ (الجمعة، ٦٢/١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٢

سورة الجمعة

مدنية، إحدى عشرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ﴾: يُنزِّهُه، فاللام: زائدة، ﴿ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ ـ في ذكر «ما» تغليبٌ للأكثر ـ ﴿المَلِكِ القُدُّوسِ﴾: المُنزَّهِ عمّا لا يليق به ﴿العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ في مُلكه وصُنعه.

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ﴾: العربِ ـ والأُمِّيُّ: من لا يكتب ولا يقرأ كتابًا ـ ﴿رَسُولاً مِنهُم﴾ هو مُحمّد ﷺ ﴿يَتلُو علَيهِم آياتِهِ﴾: القُرآنَ، ﴿ويُزَكِّيهِم﴾: يُطهّرُهم من الشِّرك، ﴿ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ﴾: القُرآن ﴿والحِكْمَةَ﴾: ما فيه من الأحكام، ﴿وإنْ﴾: ....

سورة الجمعة

قولُهُ: (في مُلكِهِ وصُنعِهِ) لفٌّ ونشرٌ، وقرأ الأربعُ بالرَّفعِ[1] على المدحِ.

قولُهُ: (العَربِ) لأنَّ أكثرَهُم لا يكتبونَ ولا يقرؤُونَ.

قولُهُ: (هُو مُحمَّدٌ) من جملتِهم أو أميًّا مثلَهم.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) وخبائثِ الجاهليَّةِ.

قولُهُ: (مَا فِيهِ مِنَ الأَحكَامِ) يعني: الشَّريعةَ، أو معالمَ الدِّينِ من المنقولِ والمعقولِ، ولو لم يكُنْ له سواهُ معجزةٌ لكَفاهُ.

كفاكَ بالعلمِ في الأمِّيِّ معجزةً ... في الجاهليَّةِ والتَّأديبِ في اليَتَمِ[2]

---

(١) أي: (الملكُ القدوسُ العزيزُ الحكيمُ) وهي قراءة شاذة، ونسبت لشقيق بن سلمة ورؤبة وأبي الدينار الأعرابي، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٥٦).

(٢) هذا من بردة البوصيري رحمه الله رقمه: (١٣٩).

مُخفّفة من الثقيلة واسمها محذوف، أي: وإنّهم ﴿كانُوا مِن قَبلُ﴾: قبلِ مجيئه ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ، ٣ ـ ﴿وآخَرِينَ﴾: عطفٌ على «الأُمِّيِّينَ» أي: الموجودين منهم وآتين ﴿مِنهُم﴾ بعدهم، ﴿لَمّا﴾: لم ﴿يَلحَقُوا بِهِم﴾ في السابقة والفضل، ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في صُنعه. وهم التابعون، والاقتصار عليهم كافٍ في بيان فضل الصحابة المبعوثِ فيهم النبيُّ على من عداهم، ممّن بُعث إليهم وآمنوا به من جميع الإنس والجنّ إلى يوم القيامة لأنّ كُلّ قرن خير ممّن يليه. ٤ ـ ﴿ذلِكَ فَضلُ اللهِ، يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ﴾ النبيَّ ومَن ذُكر معه، ﴿واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

٥ ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ﴾: كُلّفوا العملَ بها، ﴿ثُمَّ لَم يَحمِلُوها﴾: لم يعملوا بما فيها من نعته ﷺ فلم يُؤمنوا به ﴿كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا﴾ أي: كُتبًا في عدم انتفاعه بها، ﴿بِئسَ مَثَلُ القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ﴾ المُصدّقةِ للنبيّ! والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره: هذا المَثَل. ﴿واللهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

قولُهُ: (مُخَفَّفَةٌ) واللّامُ تدلُّ عليها.

قولُهُ: (لَمْ ﴿يلحَقُوا﴾) يعني: في الزّمانِ، أو في الإيمانِ، فـ﴿لمَّا﴾ بمعنى: لم فقط، وقولُ القاضي[١]: لم يَلْحَقوا بهم بعدُ وسيلحَقونَ، مُشعِرٌ بأنَّ ﴿لمَّا﴾ على بابِها، ومشيرٌ بأنَّ اللَّاحقَ لا يكونُ في مرتبةِ السَّابقِ.

قولُهُ: (وهُمُ التَّابِعُونَ) وأخرجَ الشَّيخانِ[٢] عن أبي هريرةَ مرفوعاً: «أنَّهم قومُ سلمانَ»، وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ[٣] عن مجاهدٍ قالَ: همُ الأعاجمُ، والأظهرُ ما قالَ البيضاويُّ[٤]: إنَّهُم الَّذينَ جاؤوا بعدَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم إلى يومِ الدِّينِ، فإنَّ دعوتَهُ وتعليمَهُ تعمُّ الجميعَ.

قولُهُ: (كُلِّفُوا العَمَلَ بِهَا) بعدَ ما عَلِمُوها.

قولُهُ: (لَم يَعمَلُوا) ولم ينتَفِعوا.

قولُهُ: (فِي عَدَمِ انتِفَاعِهِ بِهَا) ووجودِ التَّعبِ في حَملِها.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) أو ﴿الَّذينَ كذَّبُوا﴾ بتقديرِ: مثلُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢١١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ١٥٣).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢١١).

٦ ـ ﴿قُلْ: يا أَيُّها الَّذِينَ هادُوا، إن زَعَمتُم أَنَّكُم أَولِياءُ لِلهِ مِن دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوتَ، إن كُنتُم صادِقِينَ﴾. تعلّقَ بتمنّيه الشرطانِ، على أنّ الأول قيد في الثاني، أي: إن صدقتُم في زعمكم أنكم أولياء للهِ، والوليُّ يُؤثِر الآخرة ومبدؤها الموت، فتمنَّوه. ٧ ـ ﴿ولا يَتَمَنَّونَهُ أَبَدًا بِما قَدَّمَتْ أَيدِيهِم﴾ من كُفرهم بالنبيّ المستلزم لكذبهم، ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

٨ ـ ﴿قُلْ: إنَّ المَوتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنهُ فإنَّهُ﴾ ـ الفاء: زائدة ـ ﴿مُلاقِيكُم، ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَى عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: السّرّ والعلانية، ﴿فيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تعمَلُونَ﴾ فيُجازيكم به.

٩ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن﴾ بمعنى: في ﴿يَومِ الجُمُعةِ فاسعَوا﴾: فامضُوا ﴿إلَى ذِكرِ اللهِ﴾ أي: الصلاة، ﴿وذَرُوا البَيعَ﴾ اتركوا عَقدَه ـ ﴿ذلِكُم خَيرٌ لَكُم، إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ أنه خير فافعلوه ـ ١٠ ـ ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانتَشِرُوا في الأرضِ﴾: أمرُ إباحة، ﴿وابتَغُوا﴾: اطلبوا الرزقَ ﴿مِن فَضلِ اللهِ، واذكُرُوا اللهَ﴾: ذكرًا ﴿كَثِيرًا، لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تفوزون.

كان ﷺ يخطب يوم الجُمعة، فقَدِمتْ عِير وضُرب لقُدومها الطبل على العادة، فخرج لها الناس من المسجد غيرَ اثنَي عشَرَ رجلاً، فنزل:........................

قولُهُ: (يُؤثِرُ الآخِرَةَ) لأنَّها محلُّ الكرامةِ، والدُّنيا دارُ أكدارٍ ومحنَةٍ.

قولُهُ: (لِكُفرِهِم) بسائرِ الأنبياءِ.

قولُهُ: (الفَاءُ زَائِدَةٌ) وقد قُرئَ بغيرِها[1]، وقيل: الفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشَّرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأنَّ فرارهم يسرِّعُ لحوقَهُ بهم.

قولُهُ: (بِمَعنَى: فِي) أو بيانٌ لـ﴿إِذَا﴾.

قولُهُ: (الصَّلاةِ) أو الخطبَةِ؛ أي: فامضُوا إليها مسرعينَ قَصداً، فإنَّ السَّعيَ دونَ العَدْوِ.

قولُهُ: (عَقْدَهُ) أو المعامَلةَ، وما في معناهُ من الأمورِ الشَّاغلةِ عنها.

قولُهُ: (أَنَّهُ خَيرٌ) أو ﴿إن كنتُم تعلمُونَ﴾ الخيرَ والشَّرَّ الحقيقيَّينِ.

قولُهُ: (اطلُبُوا الرِّزقَ) وفي الحديثِ: «﴿وابتغُوا مِنْ فضلِ اللهِ﴾ ليسَ لطلبِ الدُّنيا، وإنَّما هو عيادةٌ، وحضورُ جنازةٍ، وزيارةُ أخٍ في اللهِ»[2].

قولُهُ: (تَفُوزُونَ) بخيرِ الدَّارينِ.

---

(١) وهي قراءة شاذة ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٥٣١) لزيد بن علي رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٨٥)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٦/ ٤٢٦) (٣١٤١) من حديث أنس رضي الله عنه.

١١ ـ ﴿وإذا رَأَوا تِجارةً أو لَهْوًا انفَضُّوا إلَيها﴾ أي: التجارةِ لأنها مطلوبُهم دُونَ اللهو، ﴿وتَرَكُوكَ﴾ في الخُطبة ﴿قائمًا. قُلْ: ما عِندَ اللهِ﴾ من الثواب ﴿خَيرٌ﴾ للذين آمنوا ﴿مِنَ اللَّهوِ ومِنَ التِّجارةِ، واللهُ خَيرُ الرّازِقِينَ﴾. يقال: كُلّ إنسان يَرزق عائلته، أي: من رِزق الله تعالى.

قولُهُ: (دُونَ اللَّهوِ) والتَّرديدُ للدِّلالةِ على أنَّ منهُم من انفضَّ لمجرَّدِ سماعِ الطَّبلِ ورؤيتِهِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

سورة الجمعة

مدنيَّةٌ كما روي عن ابن عباس وابن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، وإليه ذهب الجمهور، وقال ابن يسار: هي مكِّيَّةٌ، وحكي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، والأول هو الصحيح؛ لما في «صحيح البخاري»[1] وغيره عن أبي هريرة قال: كنَّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة.. الحديث، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى، وإسلامه رضي الله عنه بعد الهجرة بمدَّةٍ بالاتفاق، ولأنَّ أمرَ الانفضاض الذي تضمَّنه آخرُ السورة، وكذا أمرُ اليهود المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ﴾ إلخ لم يكن إلا بالمدينة.

وآيها إحدى عشرةَ آيةً بلا خلاف، ووجهُ اتصالها بما قبلها، أنه تعالى لمَّا ذكر فيما قَبلُ حالَ موسى عليه السلام مع قومه وأذاهم له ناعياً عليهم ذلك، ذَكَرَ في هذه السورة حالَ الرسول ﷺ وفَضْلَ أمته تشريفاً لهم؛ ليُنْظَر فَضْلُ ما بين الأمَّتين، ولذا تعرَّضَ فيها لذكر اليهود. وأيضاً لما حكى هناك قول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] قال سبحانه هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ إشارة إلى أنه الذي بشَّر به عيسى. وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسمَّاه تجارة، ختم هذه بالأمر بالجمعة، وأخبر أنَّ ذلك خيرٌ من التجارة الدنيوية. وأيضاً في كلتا السورتين إشارةٌ إلى اصطفافٍ في عبادة، أما الأولى فظاهرٌ، وأما في هذه، فلأنَّ فيها الأمر بالجمعة، وهي يشترط فيها الجماعة التي تستلزمُ الاصطفافَ، إلى غير ذلك.

وقد كان ﷺ ـ كما أخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن

(١) برقم (٤٨٩٧)، وهو عند أحمد (٩٤٠٦)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

عباس - يقرأ في الجمعة بسورتها، و: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾[1].

وأخرج ابن حبان والبيهقيُّ في «سننه»[2] عن جابر بن سَمُرة أنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكان يقرأ في صلاة العشاء الأخيرة ليلةَ الجمعة سورة الجمعة والمنافقون. وفي ذلك دلالةٌ على مزيد شَرَفِ هذه السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيحاً متجدِّداً على سبيل الاستمرار ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ صفاتٌ للاسم الجليل، وقد تقدَّم معناها، وقرأ أبو وائل ومسلمة بن محارب ورؤبة وأبو الدينار الأعرابي[3] برفعها على المدح، وحسَّن ذلك الفصلُ الذي فيه نوعُ طول بين الصفة والموصوف، وجاء كذلك عن يعقوب، وقرأ أبو الدينار، وزيد بن عليٍّ: «القَدُّوس» بفتح القاف[4].

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني سبحانه العربَ؛ لأنَّ أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون.

وقد أخرج البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائيُّ عن ابن عمر[5] عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّا أُمَّةٌ أمِّيَّةٌ، لا نكتبُ ولا نحسب» وأُريد بذلك أنهم على أصل ولادة أُمِّهم لم يتعلَّموا الكتابةَ والحساب، فهم على جِبِلَّتهم الأولى، فالأُمِّيُّ نسبة

---

(١) مسلم (٨٧٩)، وأبو داود (١٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١٧٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه ابن ماجه (١١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ابن حبان (١٨٤١)، والبيهقي ٣/ ٢٠١.

(٣) في الأصل و(م): والأعرابي، والمثبت من القراءات الشاذة ص١٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٦.

(٥) البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائي في المجتبى ٤/ ١٤٠، والكبرى (٢٤٦١).

إلى الأمِّ التي ولدته، وقيل: نسبة إلى أُمَّة العرب؛ وقيل: إلى أُمِّ القرى، والأول أشهر، واقتصر بعضُهم في تفسيره على أنه الذي لا يكتب، والكتابةُ على ما قيل: بُدئت بالطائف، أخذوها من أهل الحيرة، وهم من أهل الأنبار.

وقرئ: «الأُمِّين» بحذف ياء النسب[1].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: كائناً من جملتهم، فـ «من» تبعيضيةٌ، والبعضيةُ: إما باعتبار الجنس، فلا تدلُّ على أنه عليه الصلاة والسلام أُمِّيٌّ، أو باعتبار الخاصة المشتركة في الأكثر، فتدلّ، واختار هذا جَمْعٌ، فالمعنى: رسولاً من جملتهم أمِّيًّا مثلهم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مع كونه أُمِّيًّا مثلهم، لم يُعهد منه قراءةٌ ولا تعلُّمٌ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عَطْفٌ على «يتلو» فهو صفةٌ أيضاً لـ «رسولاً»، أي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياءَ طاهرين من خبائث العقائد والأعمال.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ صفةٌ أيضاً لـ «رسولاً» مترتِّبةٌ في الوجود على التلاوة، وإنما وسّط بينهما[2] التزكيةَ التي هي عبارةٌ عن تكميل النفس بحَسَبِ قوَّتها العملية، وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلها بحَسَبِ القوة النظرية، الحاصل بالتعليم المترتِّب على التلاوة؛ للإيذان بأنَّ كلًّا من الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلةٌ على حيالها، مستوجبةٌ للشكر، ولو رُوعي ترتيبُ الوجود لربما يتبادر إلى الفهم كون الكلِّ نعمة واحدة كما مرَّ في سورة البقرة[3]، وهو السِّرُّ في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات؛ وأخرى بالكتاب والحكمة؛ رمزاً إلى أنه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ على حِدَة، ولا يقدحُ فيه شمولُ الحكمة؛ لما في تضاعيف الأحاديث النبوية من الأحكام والشرائع. قاله بعض الأجلة.

وجُوِّزَ كونُ الكتاب والحكمة كنايةً عن جميع النقليات والعقليات، كالسماوات والأرض لجميع الموجودات، والأنصار والمهاجرين لجميع الصحابة ﷺ، وفيه

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/٣.

(٢) في (م): بينهم، وهو تحريف.

(٣) عند تفسير الآية (١٢٩).

من الدلالة على مزيد علمه ﷺ ما فيه؛ ولو لم يكن له عليه الصلاة والسلام سوى ذلك معجزةً لكفاه، كما أشار إليه البوصيريُّ بقوله:

كفاكَ بالعلم في الأُمِّيِّ معجزةً   في الجاهلية والتأديبِ في اليُتُمِ(١)

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ من الشرك وخُبْث الجاهلية، وهو بيانٌ لشدةِ افتقارهم إلى مَنْ يُرشدهم، وإن كان نسبةُ الضلال إليهم باعتبار الأكثر؛ إذ منهم مهتدٍ كَوَرقةَ وأضرابِه، وفي الكلام إزاحةٌ لما عسى أن يُتوهَّم من تعلُّمه عليه الصلاة والسلام من الغير. و«إن» هي المخفَّفة، واللامُ هي الفارقة.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ جمع آخَر، بمعنى الغير، وهو عَطْفٌ على «الأميين» أي: وفي آخرين ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الأميين، و«من» للتبيين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعدُ، وسيلحقون، وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين. وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على المنصوب في «ويعلِّمهم» أي: ويُعلِّمهم ويُعلِّم آخرين؛ فإنَّ التعليمَ إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلُّه مستنداً إلى أوله، فكأنه عليه الصلاة والسلام هو الذي تولَّى كلَّ ما وُجد منه. واستُظهرَ الأول.

والمذكور في الآية قومه ﷺ وجنس الذين بُعث فيهم، وأما المبعوث إليهم فلم يتعرّض له فيها نفياً أو إثباتاً، وقد تعرّض لإثباته في آيات أُخر، وخصوص القوم لا ينافي عموم ذلك، فلا إشكالَ في تخصيص الآخرين بكونهم من الأميين، أي: العرب في النسب.

وقيل: المراد: من الأميين في الأُمِّية، فيشمَلُ العَجَم، وبهم فسَّره مجاهد، كما رواه عنه ابن جرير(٢) وغيره. وتُعقِّبَ بأنَّ العَجَم لم يكونوا أُمِّيين.

وقيل: المراد: منهم في كونهم منسوبين إلى أمةٍ مطلقاً، لا في كونهم لا يقرؤون ولا يكتبون. وهو كما ترى، إلا أنه لا يُشكل عليه ـ وكذا على ما قبله ـ ما أخرجه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعةٌ عن أبي هريرة قال: كنَّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ

(١) البيت من قصيدته المشهورة البردة، ينظر القصائد البوصيرية ص٤٥.
(٢) في التفسير ٢٢/٦٢٨-٦٢٩.

حين أُنزلت سورةُ الجمعة، فتلاها، فلما بلغ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ قال له رجلٌ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فَوَضَعَ يده على سلمان الفارسيِّ ﷺ، وقال: «والذي نفسي بيده، لو كان الإيمانُ بالثُّريا، لناله رجالٌ من هؤلاء»[1]، فإنه ﷺ أشار بذلك إلى أنهم فارس، ومن المعلوم أنهم ليسوا من الأميين المراد بهم العرب في النسب.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالأميين مقابلُ أهل الكتاب؛ لعدم اعتناء أكثرهم بالقراءة والكتابة؛ لعدم كتابٍ لهم سماوي تدعوهم معرفتُهُ إلى ذلك، فيشمل الفرس؛ إذ لا كتابَ لهم كالعرب؛ وعلى ذلك يُخرَّجُ ما أشار إليه الحديثُ من تفسير الآخرين بالفرس، وهو مع ذلك من باب التمثيل، والاقتصارُ على بعض الأنواع بناءً على أنَّ بعضَ الأمم لا كتابَ لهم أيضاً.

وربما يقال: إن «من» في «منهم» اسميةٌ بمعنى «بعض» مبتدأ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ [البقرة:٨] وضمير الجمع لـ «آخرين»، وجملة «لَمَّا يلحقوا بهم» خبرٌ، فيشمل «آخرين» طوائف الناس الذين يلحقون إلى يوم القيامة، من العرب والروم والعجم وغيرهم؛ وبذلك فسَّره الضحاكُ وابن حيان ومجاهد في رواية، ويكون الحديث من باب الاقتصار والتمثيل، كقول ابن عمر: هم أهلُ اليمن، وابن جبير: هم الروم والعجم. فتدبَّر.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد بقوله تعالى: «لما يلحقوا بهم» أنهم لم يلحقوا بهم في الفَضْل؛ لفَضْل الصحابة على التابعين ومَنْ بعدهم، وفيه أنَّ «لما» مَنْفيُّها مستمرٌّ إلى الحال، ويُتوقَّعُ وقوعه بعده، فتفيدُ أنَّ لحوقَ التابعين ومَنْ بعدهم في الفضل للصحابة مُتوقَّعُ الوقوع، مع أنه ليس كذلك، وقد صرَّحوا أنه لا يبلغُ تابعيٌّ وإن جَلَّ قَدْراً في الفضل مرتبةَ صحابيٍّ، وإن لم يكن من كبار الصحابة، وقد سُئل عبد الله بن المبارك عن معاوية وعمر بن عبد العزيز أيُّهما أفضل؟ فقال: الغبار الذي دخل أنفَ

---

(١) البخاري (٤٨٩٧)، والترمذي (٣٢٦٠)، والنسائي في الكبرى (٨٢٢٠)، وهو عند أحمد (٩٤٠٦)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١). وسلف ص٢١٣ من هذا الجزء.

فرس معاوية، أفضلُ عند الله من مئة عمر بن عبد العزيز، فقد صلَّى معاويةُ خلفَ رسول الله ﷺ، فقرأ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلخ، فقال معاوية: آمين.

واستدلَّ على عدم اللُّحوق بما صحَّ من قوله عليه الصلاة والسلام فيهم: «لو أنفق أحدكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه»(١)، على القول بأنَّ الخطابَ لسائر الأمة، وأما قوله ﷺ: «أمتي كالمطر، لا يُدرى أولُهُ خيرٌ أم آخِرُه»(٢)، فمبالغةٌ في خَيريَّتهم، كقول القائل في ثوبٍ حَسَنِ البطانة: لا يُدرَى ظهارته خيرٌ أم بطانته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من كونه عليه الصلاة والسلام رسولاً في الأميين ومَنْ بعدهم، مُعلِّماً مُزكِّياً، وما فيه من معنى البعد للتعظيم، أي: ذلك الفضل العظيم ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه جل شأنه ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ من عباده تفضُّلاً، ولا يشاء سبحانه إيتاءه لأحدٍ بعده ﷺ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ الذي يستحقر دونه نِعَم الدنيا والآخرة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي: عُلِّموها وكُلِّفوا العملَ بما فيها، والتحميلُ في هذا شائعٌ يُلحَقُ بالحقيقة، والمراد بهم اليهود ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بما في تضاعيفها التي من جملتها الآياتُ الناطقةُ بنبوَّة رسول الله ﷺ.

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أي: كتباً كباراً ـ على ما يُشعر به التنكير، وإيثارُ لفظ السِّفر وما فيه من معنى الكشف ـ من العلم يتعبُ بحَمْلها ولا ينتفع بها، و«يحملُ» إما حالٌ من «الحمار» لكونه معرفةً لفظاً، والعاملُ فيه معنى المثل، أو صفةٌ له؛ لأنَّ تعريفه ذهنيٌّ، فهو معنًى نكرةٌ، فيُوصَفُ بما تُوصَفُ به على الأصحِّ.

ونسب أبو حيان للمحقِّقين تعيُّنَ الحالية في مثل ذلك(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠٧٩)، والبخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٢٧)، والترمذي (٢٨٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦٦.

ووَجْهُ ارتباط الآية بما قبلها تضمُّنها الإشارةَ إلى أنَّ ذلك الرسولَ المبعوثَ قد بعثه الله تعالى بما نَعَتَهُ به في التوراة، وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل، كأنه قيل: هو الذي بعث المبشَّرَ به في التوراة المنعوت فيها بالنبيِّ الأُمِّيِّ، المبعوث إلى أُمَّةٍ أُميينَ؛ مَثَلُ مَنْ جاءه نَعْتُهُ فيها وعَلِمه ثم لم يؤمنْ به، مَثَلُ الحمار.

وفي الآية دليلٌ على سوء حال العالِمِ الذي لا يعملُ بعلمه، وتخصيصُ الحمار بالتشبيه به؛ لأنه كالعَلَم في الجهل، ومن ذلك قول الشاعر:

زواملُ للأسفار لا عِلْم عندهم بجيِّدها إلا كعِلْم الأباعر
لَعَمْرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غدا بأَوساقِهِ أو راحَ ما في الغرائر(١)

بناءً على نَقْلٍ عن ابن خالويه أنَّ البعيرَ اسمٌ من أسماء الحمار كالجمل البازل.

وقرأ يحيى بن يعمر، وزيد بن عليٍّ: «حَمَلوا» مبنيًّا للفاعل، وقرأ عبد الله: «حِمارٍ» بالتنكير، وقرئ: «يُحمَّلُ» بشدِّ الميم مبنيًّا للمفعول(٢).

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بئس مَثَلُ القوم مَثَلُ الذين كذَّبوا، فحُذِفَ المضاف وهو المخصوص بالذَّمِّ، وأُقيم المضافُ إليه مقامه، ويجوز أن يكون «الذين» صفةُ القوم، والمخصوص محذوفٌ، أي: بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله هو، والضمير راجعٌ إلى «مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة».

وظاهر كلام «الكشاف»(٣) أنَّ المخصوصَ هو «مَثَل» المذكور، والفاعلُ مستترٌ يُفسِّره تمييزٌ محذوف، والتقدير: بئسَ مثلاً مثلُ القوم.. إلخ.

---

(١) البيتان لمروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، وهما في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٣٠، والكامل ٢/ ١٠٣٧، ودلائل الإعجاز ص٢٥٤ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
قال المرصفي في رغبة الآمل ٧/ ٣٧: الزوامل جمع زاملة: وهي البعير يحمل عليه المتاع والطعام. والأوساق جمع وَسْق: وهو حِمْل البعير. والغرائر جمع الغِرارة: وهي الأوعية التي تسمى بالجوالق.
وجاء في (م): ذوامل. بدل: زوامل.
(٢) القراءات الثلاث في المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٦.
(٣) ينظر ٤/ ١٠٣.

وتُعقِّبَ بأنَّ سيبويه نصَّ على أنَّ التمييزَ الذي يُفسِّرُ الضميرَ المستترَ في باب «نِعْمَ» لا يجوز حَذْفُهُ، ولو سُلِّمَ جوازه، فهو قليلٌ.

وأُجيبَ بأنَّ ذاكَ تقريرٌ لحاصل المعنى، وهو أقربُ لاعتبار الوجه الأول، وكأنَّ قولَ ابن عطية[1]: التقدير: بئسَ المَثَلُ مَثَلُ القوم، من ذلك الباب، وإلا ففيه حَذْفُ الفاعل، وقد قالوا بعدم جوازه إلا في مواضعَ ليس هذا منها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ أي: الواضعين للتكذيب في موضع التصديق، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بسبب التكذيب.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: تهوَّدوا، أي: صاروا يهوداً ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ أي: أحبَّاءُ له سبحانه، ولم يُضِفْ «أولياء» إليه تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢] قال الطيبيُّ: ليُؤْذِنَ بالفرق بين مُدَّعي الولاية، ومَنْ يخصُّه عزَّ وجلَّ بها ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ حالٌ من الضمير الراجع إلى اسم «إنْ»، أي: متجاوزين عن الناس.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فتمنَّوا من الله تعالى أن يُميتكم، وينقلكم من دار البليَّة إلى محلِّ الكرامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ جوابه محذوفٌ؛ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين في زَعْمكم واثقينَ بأنه حقٌّ، فتمنَّوا الموتَ، فإنَّ مَنْ أيقنَ أنه من أهل الجنة، أَحَبَّ أن يتخلَّص إليها من هذه الدار التي هي قرارةُ الأنكاد والأكدار.

وأُمر ﷺ أن يقول لهم ذلك؛ إظهاراً لكذبهم، فإنهم كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحبَّاؤه، ويَدَّعون أنَّ الآخرةَ لهم عند الله خالصةً، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١].

وروي أنه لما ظهر رسول الله ﷺ، كتبتْ يهودُ المدينة ليهود خيبر: إن اتَّبعتمْ محمَّداً أطعناه، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا: نحن أبناءُ خليل الرحمن، ومنَّا عزيرٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧بنحوه، ونقله عنه المصنف بواسطة البحر المحيط ٨/ ٢٦٧.

ابن الله والأنبياء، ومتى كانت النبوَّة في العرب، نحن أحقُّ بها من محمد، ولا سبيلَ إلى اتباعه، فنزلت: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ الآية[١].

واستعمال «إن» التي للشَّكِّ مع الزعم - وهو محقَّقٌ - للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يجزم به لوجود ما يكذبه.

وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وابن السميفع: «فتمنوِا الموتَ» بكسر الواو[٢]؛ تشبيهاً بـ: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٢]، وعن ابن السميفع أيضاً فتحها[٣]، وحكى الكسائيُّ عن بعض الأعراب أنه قرأ بالهمزة مضمومة بدل الواو[٤].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ إخبارٌ بحالهم المستقبلة، وهو عدمُ تمنِّيهم الموتَ، وذلك خاصٌّ - على ما صرَّح به جمعٌ - بأولئك المخاطَبين، وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال لهم: «والذي نفسي بيده، لا يقولها أحدٌ منكم إلا غَصَّ بريقه»[٥]، فلم يتمنَّهُ أحدٌ منهم. وما ذلك إلا لأنهم كانوا موقنين بصِدْقه عليه الصلاة والسلام، فعلموا أنهم لو تمنَّوا لماتوا من ساعتهم، ولَحِقَهم الوعيد، وهذه إحدى المعجزات، وجاء نفي هذا التمنِّي في آيةٍ أخرى بـ «لن»[٦] وهو من باب التفنُّن على القول المشهور في أنَّ كلًّا من «لا» و«لن» لنفي المستقبل من غير تأكيد، ومَنْ قال بإفادة «لن» التأكيد، فَوَجْهُ اختصاص التوكيد عنده بذلك الموضع أنهم ادَّعوا الاختصاصَ دون الناس في الموضعين، وزادوا هنالك أنه أمرٌ مكشوفٌ لا شبهةَ فيه محقَّقة عند الله، فناسَبَ أن يُؤكِّد ما ينفيه.

والباء في قوله سبحانه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ سببيةٌ متعلِّقةٌ بما يدلُّ عليه النفي، أي: يأبون التمنِّي بسبب ما قدَّمت، وجُوِّزَ تعلُّقه بالانتفاء، كأنه قيل: انتفى تمنِّيهم

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٦٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحتسب ٢/ ٣٢١، والبحر ٨/ ٢٦٧.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦٧.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٦، والبحر ٨/ ٢٦٧.
(٥) أخرجه البيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٤.
(٦) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥].

بسبب ما قدَّمتْ، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] والمراد بما قدَّمته أيديهم: الكفر والمعاصي الموجبةُ لدخول النار، ولَمَّا كانت اليدُ من بين جوارح الإنسان مناطَ عامة أفعاله، عبَّر بها تارةً عن النفس، وأخرى عن القدرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ أي: بهم، وإيثارُ الإظهار على الإضمار لذَمِّهم، والتسجيلِ عليهم بأنهم ظالمون في كلِّ ما يأتون ويذرون من الأمور التي من جملتها ادِّعاءُ ما هم عنه بمعزل، والجملةُ تذييلٌ لما قبلها، مقرِّرةٌ لما أشار إليه من سوء أفعالهم واقتضائها العذاب، أي: والله تعالى عليمٌ بما صَدَرَ منهم من فنون الظلم والمعاصي، وبما سيكون منهم، فيجازيهم على ذلك.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون على أن تمنَّوه مخافةَ أن تُؤخَذوا بوبال أفعالكم.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ البتَّةَ من غير صارفٍ يلويه، ولا عاطفٍ يثنيه، والجملة خبرُ «إنَّ»، والفاءُ لتضمُّنِ الاسم معنى الشرط، باعتبار وَصْفه بالموصول، فإنَّ الصفةَ والموصوفَ كالشيءِ الواحد، فلا يقال: إنَّ الفاءَ إنما تَدخلُ الخبرَ إذا تضمَّنَ المبتدأُ معنى الشرط، والمتضمِّنُ له الموصول، وليس بمبتدأ. ودخولُها في مثل ذلك ليس بلازم كدخولها في الجواب الحقيقي، وإنما يكون لنكتةٍ تليقُ بالمقام، وهي هاهنا المبالغةُ في عدم الفوت، وذلك أنَّ الفرارَ من الشيءِ في مجرى العادة سببُ الفوت عليه، فجيءَ بالفاء لإفادة أنَّ الفرارَ سببُ الملاقاة، مبالغةً فيما ذكر وتعكيساً للحال. وقيل: ما في حيِّزها جوابٌ من حيث المعنى، على معنى الإعلام، فتفيدُ أنَّ الفرارَ المظنونَ سبباً للنجاة سببٌ للإعلام بملاقاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وهو وجهٌ ضعيفٌ فيما نحن فيه، لا مبالغةَ فيه من حيثُ المعنى.

ومنعَ قومٌ منهم الفراءُ[1] دخولَ الفاء في نحو هذا، وقالوا: هي هاهنا زائدة.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١٥٥.

وجُوِّزَ أن يكون الموصول خبر «إنَّ» والفاء عاطفةٌ، كأنه قيل: إنَّ الموتَ هو الشيءُ الذي تفرُّون منه فيلاقيكم.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «إنه ملاقيكم» بدون فاء[1]، وخُرِّجَ على أنَّ الخبرَ هو الموصول، وهذه الجملةُ مستأنفةٌ، أو هي الخبر، والموصولُ صفة كما في قراءة الجمهور، وجُوِّزَ أن يكون الخبر: «ملاقيكم»، و«إنه» توكيداً لـ «إنَّ الموتَ»، وذلك أنه لما طال الكلامُ أُكِّدَ الحرفُ مصحوباً بضمير الاسم الذي لـ «إنَّ».

وقرأ ابن مسعود: «تفرُّون منه ملاقيكم» بدون الفاء ولا «إنه»، وهي ظاهرة[2].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا يَخْفَى عليه خافيةٌ.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ من الكفر والمعاصي بأن يُجازيكم بها، واستشعر غيرُ واحدٍ من الآية ذَمَّ الفرار من الطاعون، والكلامُ في ذلك طويلٌ، فمنهم من حَرَّمه، كابن خزيمة فإنه ترجم في «صحيحه»: باب: الفرار من الطاعون من الكبائر، وأنَّ الله تعالى يُعاقبُ مَنْ وقع منه ذلك ما لم يعفُ عنه، واستدلَّ بحديث عائشةَ: «الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف» رواه الإمام أحمد والطبراني وابن عدي وغيرهم، وسنده حسن[3].

وذكر التاج السبكيُّ أنَّ الأكثرَ على تحريمه، ومنهم من قال بكراهته كالإمام مالك، ونقل القاضي عياض[4] وغيره جوازَ الخروج عن الأرض التي يقعُ بها عن جماعةٍ من الصحابة منهم: أبو موسى الأشعري والمغيرةُ بن شعبة، وعن التابعين منهم الأسود بن هلال ومسروق.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠٤، والبحر ٨/ ٢٦٧.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٤، والمحرر ٥/ ٣٠٨.

(٣) أحمد (٢٤٥٢٧)، والطبراني في الأوسط (٥٥٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وابن عدي ٥/ ١٧٦٥ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ولم نقف على الحديث وقولِ ابن خزيمة في المطبوع من صحيحه، والكلام منقول من الفتاوى الكبرى للهيتمي ٤/ ٩، ٢٦.

(٤) في كتابه إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ١٣٤.

وروى الإمام أحمد والطبرانيُّ أنَّ عمرو بن العاص قال في الطاعون في آخر خطبته: إنَّ هذا رِجْزٌ مثل السَّيل، مَنْ تنكَّبه أخطأه، ومثلُ النار، مَنْ تنكَّبها أخطأها، ومَنْ أقام أحرقته. وفي لفظٍ: إنَّ هذا الطاعونَ رِجْسٌ، فتفرَّقوا منه في هذه الشِّعاب وهذه الأودية. فتفرَّقوا، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فلم ينكره ولم يكرهه(١).

وعن طارق بن شهاب قال: كنا نتحدَّثُ إلى أبي موسى الأشعري وهو في داره بالكوفة، فقال لنا وقد وقع الطاعون: لا عليكم أن تنزحوا عن هذه القرية، فتخرجوا في فسيح بلادكم، حتى يُرفَع هذا الوباء، فإني سأخبركم بما يُكره من ذلك، أن يظنَّ مَنْ خَرجَ أنه لو أقام [مات، ويظنَّ مَن أقام] فأصابه ذلك أنه لو خرج لم يُصبهُ، فإذا لم يظنَّ هذا، فلا عليه أن يخرجَ ويتنزَّهَ عنه(٢).

وأخرج البيهقيُّ(٣) وغيره عنه بسندٍ حَسَنٍ أنه قال: إنَّ هذا الطاعونَ قد وقع، فمن أراد أن يتنزَّهَ عنه فليفعل، واحذروا اثنتين، أن يقول قائلٌ: خَرَجَ خارجٌ فَسَلِمَ، وجَلَسَ جالسٌ فأُصيب، فلو كنتُ خرجتُ لسلِمتُ كما سَلِمَ فلانٌ، ولو كنتُ جلستُ أُصبتُ كما أُصيبَ فلان.

ويُفهَمُ أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أنَّ كلَّ مقدَّرٍ كائنٌ، وكأنِّي بك تختارُ ذلك، لكن في «فتاوى»(٤) العلامة ابن حجر أنَّ محلَّ النزاع فيما إذا خرجَ فارًّا منه، مع اعتقاد أنه لو قدر عليه لأصابه، وأنَّ فراره لا يُنجيه، لكن يخرجُ مؤمِّلاً أن ينجو، أما الخروجُ من محلِّه بقَصْد أنَّ له قدرةً على التخلُّص من قضاء الله تعالى، وأنَّ فِعْله هو المنجي له، فواضحٌ أنه حرامٌ، بل كفرٌ اتفاقاً.

وأما الخروج لعارضِ شُغْلٍ، أو للتداوي من عِلَّةٍ طعن فيه، أو غير ذلك، فهو

(١) أحمد (١٧٧٥٦)، والطبراني في الكبير (٧٢٠٩).
(٢) أخرجه الطبري في التاريخ ٤/ ٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٣) كذا عزاه ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ١٨٨، ولم نقف عليه عند البيهقي، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣٠٥.
(٤) الفتاوى الكبرى ٤/ ١٠.

مما لا ينبغي أن يُختَلفَ في جوازه كما صرَّح به بعضُ المحققين، ومن ذلك ـ فيما أرى ـ عروضُ وسوسةٍ طبيعيةٍ له لا يقدرُ على دَفْعها، تضرُّ به ضرراً بيِّناً، وغلبةُ ظنٍّ عدم دفنه أو تغسيله إذا مات في ذلك المحلِّ.

قيل: ولا يقاسُ على الفرار من الطاعون الفرارُ من غيره من المهالك، فإنه مأمورٌ به؛ وقد قال الجلال السيوطيُّ: الفرارُ من الوباء كالحُمَّى، ومن سائر أسباب الهلاك جائزٌ بالإجماع، والطاعونُ مستثنًى من عموم المهالك المأمور بالفرار منها؛ للنهي التحريميِّ أو التنزيهيِّ عن الفرار منه.

واختلفوا في عِلَّة النهي فقيل: هي أنَّ الطاعونَ إذا وقعَ في بلدٍ مثلاً، عمَّ جميعَ مَنْ فيه بمداخلة سببه، فلا يفيدُ الفرارُ منه، بل إن كان أجلُهُ قد حَضَرَ، فهو ميتٌ وإن رحل، وإلا فلا، وإن أقام، فتعيَّنتِ الإقامةُ، لما في الخروج من العبث الذي لا يليقُ بالعقلاء.

واعتُرض بمَنْع عمومه إذا وَقَعَ في بلدٍ جميعَ مَنْ فيه بمداخلةِ سببه، ولو سلِّمَ فالوباء مثله في أنَّ الشخص الذي في بلده إن كان أَجلُهُ قد حَضَرَ، فهو ميتٌ وإن رحل، وإلا فلا وإن أقام، مع أنهم جوَّزوا الفرارَ منه.

وقيل: هي أنَّ الناسَ لو تواردوا على الخروج لضاعت المرضى العاجزون عن الخروج؛ لفقد من يتعهَّدهم، والموتى؛ لفَقْدِ مَنْ يُجهِّزهم، وأيضاً في خروج الأقوياء كسرٌ(١) لقلوب الضعفاء عن الخروج، وأيضاً إنَّ الخارجَ يقول: لو لم أخرجْ لمتُّ، والمقيم: لو خرجتُ لسَلِمْتُ، فيقعان في اللَّوِّ المنهيِّ عنه.

واعتُرض كلُّ ذلك بأنه موجودٌ في الفرار عن الوباء أيضاً، وكذا الداءُ الحادثُ ظهورُه المعروف بين الناس بأبي زَوْعة الذي أعيا الأطباءَ علاجُه، ولم ينفع فيه التحفُّظ والعُزْلة على الوجه المعروف في الطاعون.

وقيل: هي أنَّ للميت به وكذا للصابر المحتسب المقيم في محلِّه وإن لم يمتْ

---

(١) في (م): كسراً. والكلام من الفتاوى الكبرى للهيتمي ٤/ ٢٦-٢٧.

به أجر شهيد، وفي الفرار إعراضٌ عن الشهادة، وهو محلُّ التشبيه في حديث عائشة عند بعض[١].

واعتُرض بأنه قد صحَّ أنه ﷺ مرَّ بحائطٍ مائلٍ، فأسرع[٢]، ولم يمنع أحدٌ من ذلك، وكذا من الفرار من الحريق، مع أنَّ الميتَ بذلك شهيدٌ أيضاً.

وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ النهيَ تعبُّديٌّ، وكأنه لَمَّا رأى أنه لا تسلمُ عِلَّةٌ له عن الطعن قال ذلك، ولهم في هذه المسألة رسائل عديدة، فمن أراد استيفاء الكلام فيها، فليرجع إليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فُعِلَ النداءُ لها، أي: الأذان، والمراد به ـ على ما حكاه في «الكشاف» ـ الأذان عند قعود الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله ﷺ مؤذِّنٌ واحدٌ، فكان إذا جلس على المنبر أذَّنَ على باب المسجد، فإذا نزل عليه الصلاة والسلام أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر على ذلك، حتى إذا كان عثمان وكَثُرَ الناسُ وتباعدتِ المنازلُ، زاد مؤذِّناً آخر، فأمر بالتأذين الأول على داره التي تُسمَّى زوراء، فإذا جلس على المنبر أذَّنَ المؤذنُ الثاني، فإذا نزل أقام للصلاة[٣]، فلم يُعَبْ ذلك عليه.

وفي حديث الجماعة ـ إلا مسلماً ـ: فلما كان عثمان وكَثُرَ الناس زاد النداء الثالث على الزوراء[٤]. وفي روايةٍ للبخاريِّ ومسلم: زاد النداءَ الثاني[٥]. والكلُّ بمعنًى، وتسميةُ ما يُفعَلُ من الأذان أولاً ثانياً، باعتبار أنه لم يكن على عهد

(١) أخرج أحمد (٢٥٢١٢)، والبخاري (٣٤٧٤) أن عائشة سألت رسول الله عن الطاعون فقال: «إنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وإن الله جعله رحمةً للمؤمنين ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد».

(٢) أخرجه أحمد (٨٦٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠٤. وجاء في (م): أقام الصلاة. والمثبت من الأصل والمصدر.

(٤) البخاري (٩١٢)، وأبو داود (١٠٨٧)، والترمذي (٥١٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٠٠-١٠١، وابن ماجه (١١٣٥).

(٥) صحيح البخاري (٩١٥)، ولم نقف على هذا الحديث عند مسلم.

رسول الله ﷺ، وإنما كان بعدُ، وتسميته ثالثاً؛ لأنَّ الإقامةَ تُسمَّى أذاناً كما في الحديث: «بين كلِّ أذانين صلاة»[1].

وقال مفتي الحنفية في دار السلطنة السنية الفاضل سعد الله جلبي: المعتبرُ في تعلُّقِ الأمر - يعني قوله تعالى الآتي: «فاسعوا» - هو الأذان الأولُ في الأصحِّ عندنا؛ لأنَّ حصولَ الإعلام به، لا الأذان بين يدي المنبر. وَرُدَّ بأنَّ الأولَ لم يكن على عهد النبيِّ ﷺ كما سمعتَ، فكيف يقال: المراد الأولُ في الأصحِّ؟ وأما كونُ الثاني لا إعلامَ فيه فلا يضرُّ؛ لأنَّ وقتَهُ معلومٌ تخميناً، ولو أُريد ما ذُكِرَ وَجَبَ بالأول السعيُ، وحَرُمَ البيعُ. وليس كذلك.

وفي كتاب «الأحكام»[2]: روي عن ابن عمر والحسن في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ إلخ قال: إذا خرج الإمامُ وأَذَّنَ المؤذِّنُ، فقد نودي للصلاة. انتهى، وهو التفسيرُ المأثورُ، فلا عبرةَ بغيره. كذا قال الخفاجيُّ[3].

وفي كتب الحنفية خلافه، ففي «الكنز» وشرحه: ويجبُ السعيُ وتركُ البيع بالأذان الأول؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ الآية، وإنما اعتُبر لحصول الإعلام به، وهذا القولُ هو الصحيحُ في المذهب. وقيل: العبرةُ للأذان الثاني الذي يكونُ بين يدي المنبر؛ لأنه لم يكنْ في زمنه إلا هو. وهو ضعيف؛ لأنه لو اعتُبر في وجوب السعي لم يتمكَّن من السُّنَّةِ القَبْلِيَّة، ومن الاستماع، بل ربما يُخشَى عليه فواتُ الجمعة. انتهى.

ونحوه كثيرٌ، لكنَّ الاعتراضَ عليه قويٌّ، فتدبَّر.

﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ أي: فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: فيها، وجوَّزَ أبو البقاء أيضاً كون «من» للتبعيض[4].

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٩٠)، والبخاري (٦٢٤)، ومسلم (٨٣٨) (٣٠٤) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.
(٢) للجصاص ٣/ ٤٤٤.
(٣) في حاشيته ٨/ ١٩٦.
(٤) ينظر الإملاء ٤/ ٣٩٩.

وفي «الكشاف»[١]: هي بيانٌ لـ «إذا» وتفسيرٌ له. والظاهر أنه أراد البيانَ المشهورَ، فأُورِدَ عليه أنَّ شرطَ «من» البيانيَّة أن يصحَّ حَمْلُ ما بعدها على المبيَّن قبلها، وهو منتفٍ هنا؛ لأنَّ الكلَّ لا يُحمَلُ على الجزء، واليومُ لا يصِحُّ أن يُرادَ به هنا مطلقُ الوقت؛ لأنَّ يوم الجمعة عَلَمٌ لليوم المعروف لا يُطلَقُ على غيره في العرف، ولا قرينةَ عليه هنا.

وقيل: أراد البيانَ اللُّغويَّ، أي: لبيان أنَّ ذلك الوقتَ في أيِّ يومٍ من الأيام؛ إذ فيه إبهامٌ[٢]، فيُجامع كونها بمعنى «في» وكونها للتبعيض. وهو كما ترى.

والجمُعة بضمِّ الميم، وهو الأفصح، والأكثرُ الشائعُ، وبه قرأ الجمهور. وقرأ ابن الزبير وأبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن عليٍّ والأعمش بسكونها[٣]، وروي عن أبي عمرو، وهي لغةُ تميم. وجاء فتحُها، ولم يُقرأ به، ونقل بعضُهم الكسرَ أيضاً.

وذكروا أنَّ الجمُعة بالضَّمِّ مثلُ الجُمْعة[٤] بالإسكان، ومعناه: المجموع، أي: يوم الفوج المجموع، كقولهم: ضُحْكَة، للمضحوك منه، وأما الجُمَعة ـ بالفتح ـ فمعناه: الجامع، أي: يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضُحَكة، لكثير الضَّحِك.

وقال أبو البقاء: الجُمُعة بضمَّتين وبإسكان الميم مصدرٌ بمعنى الاجتماع. وقيل في المسكَّن: هو بمعنى المجتمَع فيه، كرجلٍ ضُحْكة، أي: كثير الضحك منه[٥]. انتهى.

وقد صار يوم الجمعة عَلَماً على اليوم المعروف من أيام الأسبوع، وظاهرُ عبارة أكثر اللُّغويين أنَّ «الجمعةَ» وَحْدَها من غير «يوم» صارت عَلَماً له، ولا مانع منه، وإضافةُ العامِّ المطلق إلى الخاصِّ جائزةٌ مستحسنةٌ فيما إذا خفي الثاني كما هنا؛ لأنَّ التسميةَ حادثةٌ كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، فليست قبيحةً كالإضافة في: إنسان زيد.

---

(١) ٤/ ١٠٤.
(٢) في الأصل: إيهام.
(٣) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٨، والبحر ٨/ ٢٦٧.
(٤) في الأصل: مثقل الجمعة.
(٥) الإملاء ٤/ ٣٩٩.

وكانت العرب ـ على ما قال غير واحد ـ تُسمِّي يومَ الجمعة: عَروبة، قيل: وهو علمُ جنسٍ يستعمل بـ «أل» وبدونها؛ وقيل: «أل» لازمةٌ. قال الخفاجيُّ: والأول أصحُّ[1].

وفي «النهاية» لابن الأثير: عروبة: اسمٌ قديمٌ للجمعة، وكأنه ليس بعربيٍّ، يقال: يومُ عَروبة، ويومُ العَروبة، والأفصحُ أن لا يدخُلَها الألفُ واللام[2]. انتهى.

وما ظنّه من أنَّه ليس بعربيٍّ جزمَ به مختصِرُ كتاب: «التذييل والتكميل مما استعمل من اللفظ الدخيل» لجمال الدين عبد الله بن أحمد الشهير بالبشبيشي[3]، فقال: عَروبة منكَّراً ومعرَّفاً: هو يوم الجمعة، اسمٌ سريانيٌّ معرَّبٌ، ثم قال: قال السهيلي[4]: ومعنى العروبة: الرحمة، فيما بلغنا عن بعض أهل العلم. انتهى، وهو غريبٌ فليحفظ.

وأول من سمَّاه جمعة قيل: كعب بن لؤيٍّ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين قال: جمَّعَ أهلُ المدينة قبل أن يَقْدَمَ النبيُّ ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: لليهود يومٌ يجتمعون فيه بكلِّ سبعة أيام، وللنصارى

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٩٦.
(٢) النهاية (عرب).
(٣) في الأصل و(م): بالشيشي. والمثبت من إنباء الغمر ٧/ ٢٨٧، والضوء اللامع ٥/ ٧، وهو جمال الدين عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز البشبيشي، تفقَّه بابن الملقن، وبرع في الفقه والعربية واللغة، وله كتاب في الألفاظ المعرَّبة، وكتاب استوعب فيه أخبار قضاة مصر، وكتاب في شواهد العربية، (ت٨٢٠هـ). وترجم له أيضاً ابن العماد في شذرات الذهب ٩/ ٢١٤، لكن نسبه هكذا: البشيتي، نسبة إلى بشيت قرية بأرض فلسطين. أما: البشبيشي فهي نسبة لقرية من أعمال المحلة الغربية. وقد ذكر العلَّامة أحمد شاكر في مقدمة تحقيقه لكتاب المعرَّب للجواليقي بأنه وجد على طرَّة إحدى نُسَخ الكتاب ترجمةً لمؤلف الكتاب لخَّصها الناسخ من مقدمة التذييل للفاضل عبد الله بن محمد بن أحمد العذري الشهير بالبشبيشي من خطه، كما ذكر أيضاً ـ أي العلَّامة أحمد شاكر ـ بأن الكتاب لم يذكره صاحب كشف الظنون، وذُكر في الطبعة الثانية من فهرس دار الكتب في فهرس علم اللغة برقم (٢٣١) وعُرف فيها بما نصه: تأليف أبي الفضل عبد الله بن محمد بن أحمد العذري المعروف بالبشبيشي، كما هو مكتوب على ظاهر النسخة بخط جديد.
(٤) في كتابه الروض الأنف ٢/ ١٩٦.

مثلُ ذلك، فَهَلُمَّ فلنجعلْ لنا يوماً نجتمعُ فيه، فنذكر الله تعالى ونشكره، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة ـ وكانوا يُسمُّونَ يوم الجمعة بذلك ـ فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلَّى بهم يومئذٍ ركعتين، وذكَّرهم، فسمَّوه الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاةً، فتغدَّوا وتعشَّوا منها، وذلك لعامَّتهم؛ فأنزل الله تعالى في ذلك بَعْدُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[1].

وكون أسعد هذا أولَ من جمَّع مرويٌّ عن غير ابن سيرين أيضاً، وأخرج أبو داود وابن ماجه وابن حبان والبيهقيُّ عن عبد الرحمن بن كعب أنَّ أباه كان إذا سمع النداءَ يوم الجمعة ترحَّم على أسعد بن زرارة، فقلت: يا أبتاه أرأيت استغفارَكَ لأسعد بن زرارة كلَّما سمعتَ الأذان للجمعة، ما هو؟ قال: لأنه أولُ من جمَّع بنا في نقيع الخَضِمات[2] من حَرَّة بني بياضة، قلت: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: أربعونَ رجلاً[3].

وظاهر قول ابن سيرين: فأنزل الله تعالى في ذلك بعدُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلخ، أنَّ أسعد أقام الجمعةَ قبل أن تُفرَضَ، وكذا قوله: جمَّع أهلُ المدينة قبل أن يقْدَمَ النبيُّ ﷺ وقبل أن تنزلَ الجمعة، وفي «فتح القدير» التصريحُ بذلك[4].

وقال العلامة ابن حجر في «تحفة المحتاج»[5]: فُرضتْ ـ يعني صلاة الجمعة ـ بمكة، ولم تقمْ بها لفَقْدِ العدد، أو لأنَّ شِعارها الإظهار، وكان ﷺ بها

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢١٨، ومصنف عبد الرزاق (٥١٤٤)، وهو مرسل صحيح الإسناد كما في فتح الباري ٢/ ٣٥٥. وورد في المصادر: لقلَّتهم، بدل: لعامَّتهم.

(٢) في هامش الأصل: نقيع بالنون والقاف، الخضمات بالخاء والضاد المعجمتين: موضع بنواحي المدينة.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢١٨، وأبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وابن حبان (٧٠١٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٤٤١. وحسَّن إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٦ وقال: حرة بني بياضة: قرية على ميل من المدينة.

(٤) فتح القدير لابن الهمام ١/ ٤٠٩.

(٥) ٢/ ٤٠٥-٤٠٦.

مستخفياً، وأولُ من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة[١]. انتهى.

فلعلَّها فُرضتْ ثم نزلت الآية، كالوضوء للصلاة، فإنه فُرِضَ أولاً بمكةَ مع الصلاة، ثم نزلت آيتُهُ، لكن يُعكِّر على هذا ما أخرجه ابنُ ماجه[٢] عن جابرٍ أنَّ رسول الله ﷺ خطب، فقال: «إنَّ الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا إلى يوم القيامة، فمَنْ تَرَكها استخفافاً بها أو جحوداً بها، فلا جمعَ الله شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاةَ له، ولا زكاة له، ولا حجَّ له، ولا صوم له، ولا بِرَّ له حتى يتوبَ، فمن تاب تاب الله عليه».

فإنَّ الظاهرَ أنَّ هذه الخطبَةَ كانت في المدينة، بل ظاهرُ الخبر أنها بعد الهجرة بكثيرٍ؛ إذ ظاهرُ قوله عليه الصلاة والسلام فيه: «لا حَجَّ له» أنَّ الحجَّ كان مفروضاً إذ ذاك، وهو وإن اختلف في وقت فَرْضه فقيل: فُرِضَ قبل الهجرة، وقيل: أولُ سِنِيِّها، وقيل: ثانيها، وهكذا إلى العاشرة، لكن قالوا: إنَّ الأصحَّ أنه فُرض في السنة السادسة، فإما أن يُقْدَحَ في صحَّة الحديث، وإما أن يقال: مفادُهُ افتراضُ الجمعة إلى يوم القيامة، أي: بهذا القيد، ويقال: إنَّ الحاصلَ قبل افتراضها غيرُ مقيَّدٍ بهذا القيد.

ثم ما تقدَّم من كون أسعد أولَ مَن جَمَّعَ بالمدينة يخالفه ما أخرج الطبرانيُّ عن أبي مسعودٍ الأنصاري قال: أولُ مَنْ قَدِمَ من المهاجرين المدينة مصعب بن عمير، وهو أولُ مَنْ جَمَّعَ بها يوم الجمعة، جَمَّعَ بهم قبل أن يقدمَ رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً[٣].

---

(١) في هامش الأصل: ويُلْغَز، فيقال: صلاة مفروضة صلاها الناس قبل النبي ﷺ.

(٢) في سننه (١٠٨١) وفيه عبد الله العدوي، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٣: واهي الحديث.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢١٨، والتلخيص الحبير ٢/ ٥٦، وهو في المعجم الأوسط (٦٢٩٠) دون قوله: وهم اثنا عشر رجلاً. قال الحافظ: في إسناده صالح بن أبي الأخضر، وهو ضعيف.

وأخرج البخاريُّ ـ على ما نقله السيوطي ـ نحوَه[١]، وكان ذلك بأمره عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج الدارقطنيُّ عن ابن عباس قال: أَذِنَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالجمعة قبل أن يُهاجرَ، ولم يستطع أن يُجمِّعَ بمكة، فكتب إلى مصعب بن عمير: «أما بعد، فانظر اليومَ الذي تجهرُ فيه اليهود بالزَّبور، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مالَ النهارُ عن شَطْره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقرَّبوا إلى الله تعالى بركعتين»، قال: فهو أولُ مَنْ جَمَّعَ، حتى قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة فجَمَّعَ عند الزوال من الظهر، وأظهر ذلك[٢].

فلعلَّ ما يدلُّ على كون أسعد أول مَنْ جَمَّعَ أثبت من هذه الأخبار، أو يُجمَعُ بأنَّ أسعدَ أولُ من أقامها بغير أمرٍ منه ﷺ كما يدلُّ عليه خبر ابن سيرين، وصرَّح به ابن الهمام[٣]، ومصعباً أولُ من أقامها بأمره عليه الصلاة والسلام. أو بأنَّ مصعباً أولُ من أقامها في المدينة نفسها، وأسعدَ أولُ من أقامها في قريةٍ قربَ المدينة، وقولهم: في المدينة، تسامحٌ. وقال الحافظ ابن حجر: يُجمَعُ بين الحديثين بأنَّ أسعدَ كان آمراً[٤]، ومصعباً كان إماماً. وهو كما ترى.

ولم يُصرَّح في شيءٍ من الأخبار التي وقفتُ عليها فيمن أقامها قبل الهجرة بالمدينة بالخطبة التي هي أحد شروطها، وكأنَّ في خبر ابن سيرين رمزاً إليها بقوله: وذكَّرهم، وقد يقال: إنَّ صلاةَ الجمعة حقيقةٌ شرعيةٌ في الصلاة المستوفية للشروط، فمتى قيل: إنَّ فلاناً أولُ مَنْ صلَّى الجمعةَ، كان متضمِّناً لتحقُّق الشروط، لكن يبعدُ كلَّ البعد كونُ ما وَقَعَ من أسعد رضي الله عنه ـ إن كان قبل فرضيَّتها ـ مستوفياً لما هو معروفٌ اليومَ من الشروط. ثم إني لا أدري هل صلَّى أسعد الظهرَ ذلك اليوم، أم اكتفى بالركعتين اللَّتين صلَّاهما عنها؟ وعلى تقدير الاكتفاء، كيف ساغَ له ذلك

---

(١) لم نقف عليه عند البخاري في صحيحه ولا عند السيوطي في الدر المنثور.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢١٨، ونسبه له أيضاً ابن رجب في فتح الباري ٨/ ٦٥ وقال: أظنه في أفراده، ثم قال بعد أن ذكره بإسناده: وهذا إسناد موضوع... وفي هذا السياق ألفاظ منكرة.

(٣) في فتح القدير ١/ ٤٠٩.

(٤) في الأصل و(م): أميراً، والمثبت من التلخيص الحبير ٢/ ٥٦.

بدون أمره عليه الصلاة والسلام؟! وقُصارى ما يظنُّ أنَّ الأنصار عَلِموا فرضية الجمعة بمكة، وعَلِموا شروطها وإغناءها عن صلاة الظهر، فأرادوا أن يفعلوها قبل أن يُؤمَروا بخصوصهم، فَرَغَّبَ خواصُّهم عوامَّهم على أحسن وجهٍ، وجاؤوا إلى أسعد فصلَّى بهم، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، فتدبَّر، والله تعالى الموفق.

وأما ما كانَ من صلاته عليه الصلاة والسلام إياها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قَدِمَ المدينةَ مهاجراً نزل قُباء على بني عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسَّسَ مسجدَهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته صلاةُ الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلَّى الجمعةَ، وهي أول جمعة صلَّاها عليه الصلاة والسلام(١).

وقال بعضهم: إنما سُمِّي هذا اليومُ يوم الجمعة؛ لأنَّ آدمَ عليه السلام اجتمع فيه مع حواء في الأرض. وقيل: لأنَّ خَلْقَ آدم عليه السلام جُمِعَ فيه، وهو نحوُ ما أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه(٢) عن أبي هريرة قال: قلت: يا نبيَّ الله، لأيِّ شيءٍ سُمِّي يوم الجمعة؟ فقال: «لأنَّ فيها جُمعتْ طينةُ أبيكم آدم عليه السلام» الخبر، ويُشعر ذلك بأنَّ التسميةَ كانت قبل كعب بن لؤي.

ويُسمِّيه الملائكة يوم القيامة: يوم المزيد؛ لِمَا أنَّ الله تعالى يتجلَّى فيه لأهل الجنة فيُعطيهم ما لم تَرَ عينٌ، ولم تسمعْ أذنٌ، ولم يخطرْ على قلب بشر، كما في حديثٍ رواه ابن أبي شيبةَ عن أنسٍ مرفوعاً(٣).

وهو من أفضل الأيام، وفي خبرٍ رواه كثيرون منهم الإمام أحمد وابن ماجه(٤) عن أبي لبابة بن عبد المنذر مرفوعاً: «يوم الجمعة سيِّدُ الأيام، وأعظمُ عند الله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٤-٥٠٠، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٩٤-٣٩٦، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٥٢٤-٥٢٥.
وجاء في (م): وهو أول.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢١٦، وهو عند أحمد (٨١٠٢).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٠-١٥١، وأخرجه - أيضاً - أبو يعلى (١٤٧٣).
(٤) أحمد (١٥٥٤٨)، وابن ماجه (١٠٨٤)، وإسناده ضعيف. ينظر حاشية المسند.

تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى»، وفيه: أنَّ فيه خَلْقَ آدم، وإهباطَهَ إلى الأرض، وموتَه، وساعةَ الإجابة ـ أي: للدعاء ـ ما لم يكن سؤال حرام، وقيامَ الساعة. وفي خبر الطبراني[(١)]: «وفيه دخل الجنة، وفيه خرج». وصحَّحَ ابن حبان[(٢)] خبر: «لا تطلعُ الشمسُ ولا تغربُ على يومٍ أفضل من يوم الجمعة»، وفي خبر مسلم[(٣)]: «فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، وفيه تقومُ الساعة، وأنه خيرُ يومٍ طلعتْ عليه الشمس»، وصحَّ خبر: «وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات»[(٤)].

وأخذ أحمد من خبري مسلم وابن حبان أنه أفضلُ حتى من يوم عرفة، وفضَّلَ كثيرٌ من الحنابلة ليلته على ليلة القدر، قيل: ويردُّهما أنَّ لِذَينك دلائل خاصة فقُدِّمت.

واختلف في تعيين ساعة الإجابة فيه، فعن أبي بُرْدَة: هي حين يقومُ الإمامُ في الصلاة حتى ينصرفَ عنها. وعن الحسن: هي عند زوال الشمس. وعن الشعبي: هي ما بين أن يُحرَّمَ البيعُ إلى أن يَحِلَّ. وعن عائشة: هي حين ينادي المنادي بالصلاة. وفي حديثٍ مرفوعٍ أخرجه ابن أبي شيبةَ[(٥)] عن كثير بن عبد الله المزني: هي حين تقامُ الصلاةُ إلى الانصراف منها. وعن أبي أمامة: إني لأرجو أن تكونَ الساعةُ التي في الجمعة إحدى هذه الساعات: إذا أذَّنَ المؤذِّنُ، أو جلس الإمامُ على المنبر، أو عند الإقامة[(٦)]. وعن طاوس ومجاهد: هي بعد العصر[(٧)]. وقيل غير ذلك، ولم يصحَّ تعيينٌ عند[(٨)] الأكثرين، وقد أخفاها الله تعالى كما أخفى سبحانه الاسمَ الأعظمَ وليلةَ القدر وغيرهما لحكمةٍ لا تخفى.

---

(١) في الأوسط (٤٣٣٥)، وهو عند أحمد (٩٤٠٩)، ومسلم (٨٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) في صحيحه (٢٧٧٠)، وهو عند أحمد (٧٦٨٧).
(٣) برقم (٨٥٤).
(٤) أخرجه أحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٥) ٢/ ١٥٠، وهو عند الترمذي (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨) وقال الترمذي: حسن غريب.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٤٣.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٤٤.
(٨) قوله: عند. ليس في (م).

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امشوا إليه بدون إفراطٍ في السرعة، وجاء في الحديث مقابلةُ السعي بالمشي، وجُعل ذلك من خصائص الجمعة، فقد أخرج السِّتَّةُ في كتبهم عن أبي سلمةَ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينةُ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا»(١).

والمراد بذِكْر الله: الخطبةُ والصلاةُ، واستُظهرَ أنَّ المرادَ به الصلاة، وجُوِّزَ كونُ المراد به الخطبة، وهو ـ على ما قيل ـ مجازٌ من إطلاق البعض على الكلِّ، كإطلاقه على الصلاة، أو لأنها كالمحلِّ له، وقيل: الذِّكرُ عامٌّ يشملُ الخطبةَ المعروفةَ، ونحوَ التسبيحة.

واستدلُّوا بالآية لأبي حنيفةَ ﷺ على أنه يكفي في خطبة الجمعة التي هي شرطٌ لصحَّتها الذكرُ مطلقاً، ولا يُشترطُ الطويل، وأقلُّه قَدْر التشهد كما اشترطه صاحباه، وبيَّنوا ذلك بأنه تعالى ذَكَرَ الذِّكرَ من غير فَصْلٍ بين كونه ذِكْراً طويلاً يُسمَّى خُطبة، أو ذِكْراً لا يُسمَّى خُطبة، فكان الشرطُ هو الذكر الأعمّ بالقاطع، غيرَ أنَّ المأثورَ عنه ﷺ اختيارُ أحد الفردين، وهو الذكرُ المسمَّى بالخطبة والمواظبة عليه، فكان ذلك واجباً أو سُنَّة، لا أنه الشرطُ الذي لا يُجزئ غيره؛ إذ لا يكون بياناً لعدم الإجمال في لفظ الذكر، والشافعيةُ يشترطونَ خطبتين، ولهما أركانٌ عندهم، واستدلوا على ذلك بالآثار.

وأيّاما كان فالأمرُ بالسَّعي للوجوب. واستُدلَّ بذلك على فرضية الجمعة حيثُ رتَّبَ فيها الأمر بالسَّعي لذكر الله تعالى على النداء للصلاة، فإنْ أُريد به الصلاة، أو هي والخطبةُ، فظاهرٌ، وكذلك إن أُريد به الخطبة؛ لأنَّ افتراضَ السَّعي إلى الشرط ـ وهو المقصودُ لغيره ـ فَرْعُ افتراض ذلك الغير، ألا ترى أنَّ مَنْ لم تجبْ عليه الصلاةُ لا يجبُ عليه السعي إلى الجمعة بالإجماع، وكذا ثبتت فرضيَّتها بالسنة والإجماع، وقد صرَّح بعضُ الحنفية بأنها آكدُ فرضيةً من الظهر، وبإكفار جاحدها.

---

(١) البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢)، وأبو داود (٥٧٢)، والترمذي (٣٢٧)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١١٤-١١٥، وابن ماجه (٧٧٥).

وهي فرضُ عينٍ، وقيل: كفاية. وهو شاذٌّ. وفي حديثٍ رواه أبو داود ـ وقال النوويُّ: على شرط الشيخين ـ: «الجمعةُ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ في جماعةٍ إلا أربعة: مملوكٌ، أو امرأةٌ، أو صبيٌّ، أو مريضٌ»[1].

وأجمعوا على اشتراط العدد فيها لهذا الخبر وغيره، وقول القاشاني[2]: تصحُّ بواحدٍ. لا يُعتدُّ به، كما في «شرح المهذَّب»[3]، لكنهم اختلفوا في مقداره على أقوال:

أحدها: أنه اثنان أحدهما الإمام. وهو قول النخعي والحسن بن صالح وداود.

الثاني: ثلاثة أحدهم الإمام. وحكي عن الأوزاعي وأبي ثور، وعن أبي يوسف ومحمد، وحكاه الرافعيُّ وغيره عن قول الشافعي القديم.

الثالث: أربعةٌ أحدهم الإمام. وبه قال أبو حنيفة والثوري والليث، وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعيِّ وأبي ثور واختاره، وحكاه في «شرح المهذب»[4] عن محمد، وحكاه صاحب «التلخيص»[5] قولاً للشافعي في القديم.

الرابع: سبعة. حُكي عن عكرمة.

الخامس: تسعة. حُكي عن ربيعة.

السادس: اثنا عشر[6] في روايةٍ عن ربيعة، وحكاه الماورديُّ عن محمد والزهري والأوزاعي.

---

(١) أبو داود (١٠٦٧) من حديث طارق بن شهاب.
قال أبو داود: طارق بن شهاب قد رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً.
وقال النووي في المجموع ٤/ ٣٥١: وهذا الذي قاله أبو داود لا يقدح في صحة الحديث لأنه إن ثبت عدم سماعه يكون مرسل صحابي، ومرسل الصحابي حجة عند أصحابنا.
وأما قوله: على شرط الشيخين. فقد نقله عنه المناوي في فيض القدير ٣/ ٣٥٨.
(٢) في الأصل: القاساني، وفي المجموع ٤/ ٣٧٣: الفاساني. والمثبت من (م)، والحاوي للسيوطي ١/ ٩٩ والكلام منه. وجاء في هامش الأصل: حكاه الدارمي.
(٣) المجموع ٤/ ٣٧٣.
(٤) المجموع ٤/ ٣٧٣.
(٥) وهو ابن القاص كما في المجموع.
(٦) في (م): اثني عشر، والمثبت من الأصل والحاوي ١/ ١٠٠.

السابع: ثلاثةَ عشرَ أحدهم الإمام. حُكي عن إسحاق بن راهويه.

الثامن: عشرون. رواه ابن حبيب عن مالك.

التاسع: ثلاثون، في روايةٍ عن مالك.

العاشر: أربعون أحدهم الإمام. وبه قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، والإمام الشافعي في الجديد، وهو المشهور عن الإمام أحمد، وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبد العزيز.

الحادي عشر: خمسون، في الرواية الأخرى عنه.

الثاني عشر: ثمانون. حكاه المازري.

الثالث عشر: جَمْعٌ كثيرٌ بغير قيد. وهو مذهبُ مالك، فقد اشتهر أنه قال: لا يشترط عددٌ معينٌ، بل تُشتَرطُ جماعةٌ تسكنُ بهم قرية، ويقعُ بينهم البيع، ولا تنعقدُ بالثلاثة والأربعة ونحوهم.

قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»: ولعلَّ هذا المذهبَ أرجحُ المذاهب من حيث الدليل(١). وأنا أقول: أرجحُها مذهبُ الإمام أبي حنيفة، وقد رجَّحه المزنيُّ ـ وهو من كبار الآخذين عن الشافعي ـ وهو اختيار الجلال السيوطي، ووجه اختياره مع ذِكْر أدلة أكثر الأقوال بما لها وعليها مذكورٌ في رسالةٍ له سماها: ضوءَ الشمعةِ في عدد الجمعة(٢). ولولا مزيد التطويل لذكرنا خلاصتها. ومن أراد ذلك فليرجع إليها ليظهر له بنورها حقيقة الحال.

وقرأ كثيرٌ من الصحابة والتابعين: «فامضوا»(٣)، وحُملت على التفسير بناءً على أنه لا يُرادُ بالسعي الإسراعُ في المشي، ولم تُجعل قرآناً لمخالفتها سوادَ المصحف المجمَعِ عليه.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا المعاملةَ، على أنَّ البيعَ مجازٌ عن ذلك، فيعمُّ البيعَ

---

(١) فتح الباري ٢/ ٤٢٣، والكلام من الحاوي.

(٢) وهي ضمن الحاوي للفتاوي ١/ ١٠٠.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحتسب ٢/ ٣٢١-٣٢٢.

والشراءَ والإجارةَ وغيرها من المعاملات، أو هو دالٌّ على ما عداه بدلالة النص. ولعلَّه الأولى. والأمرُ للوجوب، فيحرُمُ كلُّ ذلك، بل رُوي عن عطاء حرمةُ اللهو المباح، وأن يأتي الرجلُ أهله، وأن يكتب كتاباً أيضاً.

وعبَّر بعضُهم بالكراهة، وحُملت على كراهة التحريم، وقولُ الأكمل في «شرح المنار»[١]: إنَّ الكراهةَ تنْزيهيةٌ. مردودٌ، وكأنه مأخوذٌ من زَعْم القاضي الإسبيجابي[٢] أنَّ الأمرَ في الآية للندب، وهو زَعْمٌ باطلٌ عند أكثر الأئمة.

وعامةُ العلماء على صحَّة البيع وإن حَرُمَ، نظيرُ ما قالوا في الصلاة بالثوب المغصوب أو في الأرض المغصوبة. وقال ابن العربي[٣]: هو فاسدٌ، وعبَّر مجاهدٌ بقوله: مردودٌ.

ويستمرُّ زمنُ الحرمة إلى فراغ الإمام من الصلاة، وأولُه إما وقت أذان الخطبة ـ وروي عن الزهري، وقال به جمعٌ ـ وإما أول وقت الزوال، وروي ذلك عن عطاء والضحاك والحسن.

والظاهر أنَّ المأمورين بتَرْك البيع هم المأمورونَ بالسعي إلى الصلاة. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن القاسم أنَّ القاسم دخلَ على أهله يومَ الجمعة وعندهم عطَّارٌ يبايعونه، فاشتروا منه، وخرج القاسم إلى الجمعة، فوَجَدَ الإمام قد خرج، فلما رجع أَمَرَهم أن يُناقضوه البيع[٤]. وظاهره حرمةُ البيع إذا نُودي للصلاة على غير مَنْ تجبُ عليه أيضاً.

والظاهرُ حرمة البيع والشراء حالةَ السعي، وصرَّح في «السراج الوهاج» بعَدَمها إذا لم يشغله ذلك.

---

(١) وهو: الأنوار في شرح المنار لأكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي المتوفى سنة (٧٨٦هـ). ينظر كشف الظنون ٢/ ١٨٢٤.

(٢) علي بن محمد السمرقندي الحنفي، له: الفتاوى، وشرح مختصر الطحاوي، ت(٥٣٥هـ). الأعلام ٤/ ٣٢٩.

(٣) ينظر أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٤.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٢٠.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المذكورُ من السعي إلى ذكر الله تعالى وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنفعُ من مباشرة البيع، فإنَّ نَفْعَ الآخرة أجلُّ وأبقى، وقيل: أنفعُ من ذلك ومن تَرْكِ السعي، وثبوتُ أصل النفع للمفضَّل عليه باعتبار أنه نفعٌ دنيويٌّ لا يدلُّ على كون الأمر للندب والاستحباب دون الحتم والإيجاب كما لا يخفى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ الخيرَ والشَّرَّ الحقيقيين، أو: إن كنتم من أهل العلم، على تنزيل الفعل منزلةَ اللازم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أُدِّيتْ وفُرِغَ منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الربح على ما قيل.

وقال مكحول والحسن وابن المسيب: المأمورُ بابتغائه هو العلم.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: لم يُؤمروا بشيءٍ من طلب الدنيا، إنما هو عيادةُ مريضٍ، وحضورُ جنازةٍ، وزيارةُ أخٍ في الله تعالى[(١)].

وأخرج نحوه ابن جرير عن أنس مرفوعاً[(٢)].

والأمرُ للإباحة على الأصحِّ، فيباح بعد قضاء الصلاة الجلوسُ في المسجد، ولا يجبُ الخروج، وروي ذلك عن الضحاك ومجاهد.

وحكى الكرمانيُّ في «شرح البخاري»[(٣)] الاتفاقَ على ذلك. وفيه نظر، فقد حكى السرخسيُّ[(٤)] القولَ بأنه للوجوب. وقيل: هو للندب.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن بُسْر الحُبْراني قال: رأيتُ عبد الله بن بسر المازني صاحبَ النبيِّ ﷺ إذا صلَّى الجمعةَ خرجَ فدارَ في السوق ساعةً ثم رجع إلى المسجد فصلَّى ما شاء الله تعالى أن يُصلِّي، فقيل له: لأي شيءٍ تصنعُ هذا؟ قال: إني رأيتُ سيِّدَ المرسلين ﷺ هكذا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٤٤.

(٣) ٦/ ٤٧.

(٤) المبسوط ٣٠/ ٢٥٠.

يصنعُ، وتلا هذه الآية: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ إلخ[١].

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: إذا انصرفتَ يومَ الجمعة فاخرج إلى باب المسجد، فساوِمْ بالشيءِ وإن لم تشتره[٢].

ونُقل عنه القولُ بالنَّدْبية، وهو الأقربُ والأوفق بقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ذِكْراً كثيراً، ولا تخصُّوا ذِكْره عزَّ وجلَّ بالصلاة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ كي تفوزوا بخير الدارين. ومما ذكرنا يُعلَمُ ضَعْفُ الاستدلال بما هنا على أنَّ الأمرَ الواردَ بعد الحظر للإباحة.

واستدلَّ بالآية على تقديم الخُطبة على الصلاة، وكذا على عدم ندب صلاةِ سُنَّتها البعدية في المسجد، ولا دلالةَ فيها على نفي سنةٍ بعدية لها. وظاهرُ كلام بعض الأَجلَّة أنَّ من الناس مَنْ نفى أنَّ للجمعة سنَّةً مطلقاً، فيحتمل على بُعْدٍ أن يكونَ استشعرَ نفيَ السنة البعدية من الأمر بالانتشار وابتغاء الفضل، وأما نفيُ القبلية فقد استند فيه إلى ما روي في الصحيح ـ وقد تقدَّم ـ من أنَّ النداءَ كان على عهده عليه الصلاة والسلام إذا جلسَ على المنبر[٣]؛ إذ من المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام إذا كمل الأذان أخذَ في الخطبة، وإذا أتمَّها أخذ في الصلاة، فمتى كانوا يُصلُّون السنة؟

وأُجيب عن هذا بأنَّ خروجَهُ عليه الصلاة والسلام كان بعد الزوال بالضرورة، فيجوزُ كونه بعد ما كان يُصلِّي الأربع، ويجبُ الحُكم بوقوع الحكم بهذا المجوِّز؛ لعموم ما صحَّ من أنه ﷺ كان يُصلِّي إذا زالت الشمسُ أربعاً[٤]، وكذا يجبُ في حَقِّهم لأنهم أيضاً يعلمون الزوالَ كالمؤذِّن، بل ربما يُعلِمونه بدخول الوقت ليؤذِّن.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٠. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٩٤: رواه الطبراني في الكبير، وعبد الله الحبراني ضعفه يحيى القطان وجماعة، ووثقه ابن حبان.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٠.

(٣) ينظر ص١٣٢ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٠)، وابن ماجه (١١٦١) من حديث علي كرّم الله وجهه.

واستَدلَّ بقوله تعالى: «إذا نودي» إلخ، مَنْ قال: إنما يجبُ إتيان الجمعة من مكانٍ يسمعُ فيه النداء، والمسألةُ خلافيةٌ، فقال ابن عمر وأبو هريرة ويونس والزهري: يجبُ إتيانها من ستةِ أميال، وقيل: من خمسة، وقال ربيعة: من أربعة، وروي ذلك عن الزهري وابن المنكدر.

وقال مالك والليث: من ثلاثة.

وفي «بحر»[1] أبي حيان: وقال أبو حنيفة وأصحابه: يجب الإتيانُ على مَنْ في المِصْر سَمِعَ النداءَ أو لم يسمعْ، لا على مَنْ هو خارج المِصْر وإن سَمِعَ النداء. وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق: على مَنْ سَمِعَ النداء. وعن ربيعةَ: على مَنْ إذا سَمِعَ وخرجَ من بيته ماشياً أدرك الصلاة.

وكذا استَدلَّ بذلك مَنْ قال بوجوب الإتيان إليها، سواءٌ كان إذنٌ عامٌّ أم لا، وسواءٌ أقامها سلطان أو نائبه أو غيرهما، أم لا؛ لأنه تعالى إنما رَتَّبَ وجوبَ السَّعي على النداء مطلقاً. كذا قيل، وتحقيقُ الكلام على ذلك كلِّه في كتب الفروع المطولة.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وجماعة عن جابر بن عبد الله[2]، قال: بينما النبيُّ ﷺ يخطبُ يوم الجمعة قائماً؛ إذ قَدِمَتْ عِيرٌ المدينةَ، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يبقَ منهم إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم، وأبو بكر وعمر. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً﴾ إلى آخر السورة.

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنه بقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «لو خرجوا كلُّهم لاضطرمَ المسجدُ عليهم ناراً»[3].

وفي روايةٍ عن قتادة: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو اتَّبع آخرُكم أوَّلَكم لالتهبَ الوادي عليكم ناراً»[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٦٨ وما قبله منه أيضاً.
(٢) أحمد (١٤٩٧٨)، والبخاري (٩٣٦)، ومسلم (٨٦٣)، والترمذي (٣٣١١).
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٠.
(٤) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢١.

وقيل: لم يبقَ إلا أحدَ عشر رجلاً، وهم على ما قال أبو بكر غالبُ بن عطيّة: العشرةُ المبشَّرة، وعمارٌ في رواية، وابنُ مسعودٍ في أخرى. وعلى الرواية السابقة عَدُّوا العشرةَ أيضاً منهم، وعَدُّوا بلالاً وجابراً؛ لكلامه السابق. ومنهم مَنْ لم يذكر جابراً، وذَكرَ بلالاً وابنَ مسعود، ومنهم مَنْ ذَكَرَ عمَّاراً بدلَ ابن مسعود، وقيل: لم يبقَ إلا ثمانية. وقيل: بقي أربعون.

وكانت العِيرُ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ تحملُ طعاماً، وكان قد أصاب أهلَ المدينة جوعٌ وغلاءُ سِعْر.

وأخرج أبو داود في «مراسيله»[1] عن مقاتل بن حَيَّان قال: كان رسول الله ﷺ يُصلِّي الجمعةَ قبل الخطبة مثل العِيدين حتى كان يومُ جمعةٍ والنبيُّ ﷺ يخطب، وقد صلَّى الجمعة، فدخل رجلٌ فقال: إنَّ دِحْيَةَ بن خليفة قَدِمَ بتجارة، وكان إذا قَدِمَ تلقَّاه أهله بالدِّفاف، فخرج الناس ولم يظنُّوا إلا أنه ليس في ترك حضور الخطبة شيءٌ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾ إلخ، فقدَّم النبيُّ ﷺ الخطبةَ يومَ الجمعة وأخَّر الصلاة.

ولا أظنُّ صِحَّةَ هذا الخبر، والظاهرُ أنه ﷺ لم يزلْ مقدِّماً خطبتها عليها، وقد ذكروا أنها شرطُ صحَّتها، وشَرْطُ الشيء سابقٌ عليه، ولم أرَ أحداً من الفقهاء ذَكَرَ أنَّ الأمرَ كان كما تضمَّنه، ولم أظفرْ بشيءٍ من الأحاديث مستوفٍ لشروط القبول متضمِّنٌ ذلك، نعم ذكر العلامة ابن حجر الهيتميّ[2] أنَّ بعضَهم شَذَّ عن الإجماع على كون الخطبة قبلها. والله تعالى أعلم.

والآيةُ لَمَّا كانت في أولئك المنفضِّين وقد نزلت بعد وقوع ذلك منهم، قالوا: إنَّ «إذا» فيها قد خرجتْ عن الاستقبال، واستعملت للماضي كما في قوله:

ونـدمـانٍ تـزيـد الـكـاسَ طـيـبـاً ... سـقـيـتُ إذا تـغـوَّرتِ الـنـجـوم[3]

---

(١) برقم (٦٢)، قال عنه ابن حجر في الفتح ٢/ ٤٢٥: شاذ معضل.

(٢) في تحفة المحتاج ٢/ ٤٤٤.

(٣) البيت لبُرج بن مُسْهر، وهو في شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٢٧٢. وفيه: تعرضت، بدل: تغوَّرت، وسلف ٥/ ٨٣.

ووحّد الضمير لأنَّ العطف بـ «أو»، واختير ضميرُ التجارة دون اللهو؛ لأنها الأهمُّ المقصود، فإنَّ المراد باللهو ما استقبلوا به العِيرَ من الدُّفِّ ونحوه، أو لأنَّ الانفضاضَ للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها، إذا كان مذموماً، فما ظنُّكَ بالانفضاض إلى اللهو وهو مذمومٌ في نفسه؟!

وقيل: الضمير للرؤية المفهومة من «رأوا». وهو خلافُ الظاهر المتبادر.

وقيل: في الكلام تقديرٌ، والأصل: إذا رأوا تجارةً انفضُّوا إليها، أو لهواً انفضُّوا إليه. فحُذِفَ الثاني لدلالة الأول عليه. وتُعقِّبَ بأنه بعد العطف بـ «أو» لا يحتاج إلى الضمير لكلٍّ منهما، بل يكفي الرجوعُ لأحدهما، فالتقديرُ من غير حاجة.

وقال الطيبيُّ: يمكن أن يقال: إنَّ «أو» في «أو لهواً» مثلها في قوله:

بَدَتْ مثلَ قَرْنِ الشمس في رونق الضُّحى وصورتها أو أنتِ في العين أملحُ[١]

فقال الجوهريُّ: يُريد: بل أنتِ[٢]. فالضمير في «إليها» راجعٌ إلى اللهو باعتبار المعنى، والسِّرُّ فيه أنَّ التجارةَ إذا شغلتِ المكلَّفَ عن ذِكْرِ الله تعالى عُدَّتْ لهواً، وتُعَدُّ فضلاً إن لم تشغله كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. انتهى، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقرأ ابن أبي عبلة: «إليه» بضمير اللهو[٣]، وقرئ: «إليهما» بضمير الاثنين[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] وهو متأوَّلٌ؛ لأنه بعد العطف بـ «أو» ـ لكونها لأحد الشيئين ـ لا يُثنى الضمير، وكذا الخبر والحال والوصف، فهي على هذه القراءة بمعنى الواو كما قيل به في الآية التي ذكرناها.

---

(١) البيت في خزانة الأدب ١١/ ٦٥. وسلف ٢/ ٣٣٩.
(٢) الصحاح (أو).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦٩.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآيِمًاۚ﴾ أي: على المنبر. واستُدلَّ به على مشروعية القيام في الخطبة، وهو عند الحنفية أحدُ سننها، وعند الشافعية هو شرطٌ في الخطبتين إن قدر عليه.

وأخرج ابن ماجه[١] وغيره عن ابن مسعود أنه سئل: أكان النبيُّ ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ فقال: أما تقرأ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآيِمًاۚ﴾؟! وكذا سئل ابن سيرين وأبو عبيدة، وأجابا بذلك.

وأولُ مَنْ خطب جالساً معاوية[٢]، ولعلَّ ذلك لعجزه عن القيام، وإلا فقد خالفَ ما كان عليه رسول الله ﷺ، فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه[٣] عن ابن عمر أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يخطبُ خُطبتين يجلس بينهما.

وذكر أبو حيان أنَّ أولَ من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه[٤]. وكأنه أراد بالاستراحة غير الجلوس بين الخطبتين؛ إذ ذاك ما كان عليه ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ فإنَّ ذلك نفعٌ محقَّقٌ مخلَّدٌ بخلاف ما فيهما من النفع، فإنَّ نَفْعَ اللهو ليس بمحقَّقٍ، بل هو متوهَّم، ونَفْع التجارة ليس بمخلَّد، وتقديمُ اللَّهو ليس من تقديم العَدَم على المَلَكة كما تُوهم، بل لأنه أقوى مَذَمَّة، فناسَبَ تقديمه في مقام الذَّمِّ.

وقال ابن عطية: قُدِّمتِ التجارةُ على اللهو في الرؤية لأنها أهمُّ، وأُخِّرت مع التفضيل لتقعَ النفسُ أولاً على الأبْيَن[٥]. وهو قريبٌ مما ذكرنا.

---

(١) في سننه (١١٠٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٥٩) عن سليمان بن موسى، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٢ عن طاوس.

(٣) البخاري (٩٢٠)، ومسلم (٨٦١)، والترمذي (٥٠٦)، والنسائي في الكبرى (١٧٣٣)، وفي المجتبى ٣/ ١٠٩، وابن ماجه (١١٠٣)، وهو عند أحمد (٤٩١٩).

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٠.

وقال الطيبيُّ: قدَّم ما كان مؤخَّراً وكرَّرَ الجارَّ لإرادة الإطلاق في كلٍّ واحد واستقلاله فيما قصد منه ليخالف السابق في اتحاد المعنى؛ لأنَّ ذلك في قصةٍ مخصوصة.

واستدلَّ الشيخ عبد الغني النابلسي عفا الله تعالى عنه على حِلِّ الملاهي بهذه الآية؛ لمكان أفعل التفضيل المقتضي لإثبات أصلِ الخيرية لِلَّهو كالتجارة، وأنت تعلمُ أنَّ ذلك مبنيٌّ على الزعم والتوهُّم، وأعجبُ منه استدلاله على ذلك بعطف التجارة المباحة على اللهو في صدر الآية، والأعجبُ الأعجبُ أنه ألَّف رسائلَ في إباحة ذلك مما يستعمله الطائفةُ المنسوبةُ إلى مولانا جلال الدين الرومي دائرة على أدلةٍ أضعف من خَصْر شادنٍ يدورُ على محور الغَنَج في مقابلتهم، ومنها أكاذيبُ لا أصلَ لها، لن يرتضيها عاقلٌ ولن يقبلها، ولا أظنُّ ما يفعلونه إلا شبكةً لاصطياد طائرِ الرزق، والجهلةُ يظنونه مَخْلَصاً من ربقة الرِّقِّ، فإياك أن تميلَ إلى ذلك، وتوكَّل على الله المالك.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ فإليه سبحانه اسعوا، ومنه عزَّ وجلَّ اطلبوا الرزق.

واستدلَّ بما وقع في القصة على أقلِّ العدد المعتبَرِ في جماعة الجمعة بأنه اثنا عشر بناءً على ما في أكثر الروايات من أنَّ الباقين بعد الانفضاض كانوا كذلك، ووجهُ الدلالة منه أنَّ العددَ المعتبَرَ في الابتداء يُعتَبرُ في الدوام، فلما لم تبطلِ الجمعةُ بانفضاض الزائد على اثني عشر، دَلَّ على أنَّ هذا العددَ كافٍ، وفيه أنَّ ذلك وإن كان دالًّا على صِحَّتها باثني عشرَ رجلاً بلا شبهة، لكن ليس فيه دلالةٌ على اشتراط اثني عشر وأنها لا تصحُّ بأقلَّ من هذا العدد، فإنَّ هذه واقعةُ عينٍ أكثرُ ما فيها أنهم انفضُّوا وبقي اثنا عشر رجلاً، وتمَّت بهم الجمعة، وليس فيها أنه لو بقي أقلُّ من هذا العدد لم تتمَّ بهم.

وفي ما يصنعُ الإمام إن اتفقَ تفرُّقُ الناس عنه في صلاة الجمعة خلاف، فعند أبي حنيفة: إن بقي وحده أو مع أقلّ من ثلاثة رجالٍ، يستأنفُ الظهرَ إذا نفروا قبل الركوع، وعند صاحبيه: إذا كبَّر وهم معه مضى فيها، وعند زفر: إذا نفروا قبل القَعدة بطلت؛ لأنَّ العدد شرطُ ابتداءٍ، فلا بدَّ من دوامه كالوقت، ولهما أنه شرطُ

الانعقاد، فلا يُشتَرطُ دوامه كالخطبة، وللإمام أنَّ الانعقادَ بالشروع في الصلاة، ولا يتمُّ ذلك إلا بتمام الركعة؛ لأنَّ ما دونها ليس بصلاةٍ فلا بدَّ من دوامه إلى ذلك بخلاف الخطبة؛ لأنها تنافي الصلاة، فلا يُشترطُ دوامها.

وقال جمهور الشافعية: إن انفضَّ الأربعون، أو بعضُهم في الصلاة، ولم يُحرِمْ عَقِبَ انفضاضهم في الركعة الأولى عددٌ نحوهم سَمِعَ الخطبة، بطلتِ الجمعةُ، فيُتمُّونها ظهراً لنحو ما قال زفر، وفي قولٍ: لا يضرُّ إن بقي اثنان مع الإمام؛ لوجود مسمَّى الجماعة؛ إذ يُغتَفرُ في الدوام ما لا يُغتَفرُ في الابتداء. وتمام ذلك في محلهِّ.

وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابةَ ﷺ بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضُّوا إلى اللهو والتجارة، ورَغِبوا عن الصلاة التي هي عمادُ الدين وأفضلُ كثيرٍ من العبادات، لاسيما مع رسول الله ﷺ، وروي أنَّ ذلك قد وقع مراراً منهم. وفيه: أنَّ كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وسائر العشرة المبشَّرة لم ينفضُّوا، والقصةُ كانت في أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثرُ القوم تامَّ التحلِّي بحلية آداب الشريعة بَعْدُ، وكان قد أصابَ أهلَ المدينة جوعٌ وغلاءُ سِعْرٍ، فخافَ أولئك المنفضُّون اشتدادَ الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتاتُ به لو لم ينفضُّوا، ولذا لم يتوعَّدهم الله تعالى على ذلك بالنار أو نحوها، بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم وَوَعظهم ونصحهم. وروايةُ أنَّ ذلك وقع منهم مراراً، إن أُريد بها روايةُ البيهقيِّ في «شعب الإيمان»[1] عن مقاتل بن حيان أنه قال: بلغني ـ والله تعالى أعلم ـ أنهم فعلوا ذلك ثلاثَ مرات. فمثل ذلك لا يُلتفتُ إليه، ولا يُعوَّلُ عند المحدِّثين عليه، وإن أُريد بها غيرها، فليُبيَّن ولتثبتْ صِحَّته، وأنَّى بذلك.

وبالجملة الطَّعنُ بجميع الصحابة لهذه القصة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم، وقد عقبها منهم عباداتٌ لا تُحصى = سَفَهٌ ظاهرٌ وجهلٌ وافرٌ.

❁ ❁ ❁

---

(١) برقم (٦٤٩٥).

هذا ومن باب الإشارة ـ على ما قيل ـ في الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إشارةٌ إلى عظيم قدرته عزَّ وجلَّ، وأنَّ إفاضةَ العلوم لا تتوقَّفُ على الأسباب العادية، ومنه قالوا: إنَّ الوليَّ يجوزُ أن يكون أُمِّيًّا كالشيخ معروف الكرخي ـ على ما قال ابنُ الجوزي ـ وعنده من العلوم اللَّدُنِّية ما تقصُرُ عنها العقول.

وقال العز بن عبد السلام: قد يكون الإنسانُ عالماً بالله تعالى، ذا يقينٍ، وليس عنده علمٌ من فروض الكفايات، وقد كان الصحابةُ أعلمَ من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة، مع أنَّ في علماء التابعين من هو أَقْوَمُ بعلم الفقه من بعض الصحابة، ومَن انقطعَ إلى الله عزَّ وجلَّ وخَلُصَتْ روحُهُ، أُفيض على قلبه أنوارٌ إلهيةٌ تهيَّأت بها لإدراك العلوم الربانية والمعارف اللدنيَّة، فالولايةُ لا تتوقَّفُ قَطْعاً على معرفة العلوم الرسمية كالنحو والمعاني والبيان وغير ذلك، ولا على معرفة الفقه مثلاً على الوجه المعروف، بل على تعلُّم ما يلزمُ الشخصَ من فروض العين على أيِّ وجهٍ كان من قراءةٍ أو سماعٍ من عالم أو نحو ذلك، ولا يُتصوَّرُ ولايةُ شخصٍ لا يعرفُ ما يلزمه من الأمور الشرعية كأكثر من تُقَبَّلُ يدهُ في زماننا، وقد رأيتُ منهم من يقول ـ وقد بلغ من العمر نحو سبعين سنة ـ إذا تشهَّد: لا إله إنَّ الله، بـ «إنَّ» بدل «إلا» فقلت له: منذ كم تقول هكذا؟ فقال: من صغري إلى اليوم، فكرَّرتُ عليه الكلمةَ الطيبةَ، فما قالها على الوجه الصحيح إلا بجهد، ولا أظنُّ ثباتَهُ على ذلك، وخبر: لا يتخذُ الله وليًّا جاهلاً، ولو اتَّخذه لعلَّمه[1]. ليس من كلامه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك لا يفيد في دعوى ولاية من ذكرنا.

وذكر بعضهم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الإفاضة القلبية بعد الإشارة إلى الإفادة القالية اللسانية، وقال بحصولها للأولياء المرشدين، فيزكُّون مُريديهم بإفاضة الأنوار على قلوبهم، حتى تخلُصَ قلوبهم وتزكوَ نفوسهم، وهو سِرُّ ما يقال له: التوجُّهُ، عند السادة

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٣٥: قال في المقاصد: لم أقف عليه مرفوعاً. وقال الحافظ ابن حجر: ليس بثابت، ولكن معناه صحيح.

النقشبندية، وقالوا بالرابطة؛ ليتهيَّأ ببركتها القلبُ لما يُفاضُ عليه، ولا أعلمُ لثبوتِ ذلك دليلاً يُعوَّلُ عليه عن الشارع الأعظم ﷺ، ولا عن خلفائه رضي الله عنهم، وكلُّ ما يذكرونه في هذه المسألة ويَعُدُّونه دليلاً لا يخلو عن قادحٍ، بل أكثرُ تمسُّكاتهم فيها تشبهُ التمسُّكَ بحبال القمر، ولولا خوفُ الإطناب لذكرتها مع ما فيها، ومع هذا لا أُنكر بركةَ كلٍّ من الأمرين: التوجُّه، والرابطة، وقد شاهدتُ ذلك من فضل الله عزَّ وجلَّ، وأيضاً لا أدَّعي الجزمَ بعدم دليلٍ في نفس الأمر، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم، ولعلَّ أولَ من أرشد إليهما من السادة، وَجَدَ فيهما ما يُعوَّلُ عليه، أو يقالُ: يكفي للعمل بمثل ذلك نحو ما تمسَّك به بعضُ أجلَّة متأخِّريهم، وإن كان للبحث فيه مجالٌ، ولأرباب القال في أمره مقال.

وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إلخ بناءً على عطفه على الضمير المنصوب قيل: إشارةٌ إلى عدم انقطاع فَيْضِه ﷺ عن أمته إلى يوم القيامة؛ وقد قالوا بعدم انقطاع فيض الوليِّ أيضاً بعد انتقاله من دار الكثافة والفناء إلى دار التجرُّد والبقاء.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ إلخ، إشارةٌ إلى سوء حال المنكِرين مع علمهم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الآية، إشارةٌ إلى جواز امتحان مُدَّعي الولاية ليظهرَ حاله بالامتحان، فعند ذلك يُكرمُ أو يُهان، وفي عتاب الله تعالى المنفضِّين إشارةٌ إلى نوعٍ من كيفيات تربية المريد إذا صَدَرَ منه نوعُ خلافٍ، ليَسْلُكَ الصراطَ السَّويَّ، ولا يرتكبَ الاعتساف، وفي الآيات بعدُ إشاراتٌ يضيقُ عنها نطاقُ العبارات، و: «من عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه الله عزَّ وجلَّ عِلْمَ ما لم يعلم»[1].

---

(١) سلف ١/١٠٦، وينظر الكلام عليه ثمة.

(٦٣) سورة المنافقون مدنية وآياتها إحدى عشرة

● سورة « المنافقون » مدنية ، شأنها شأن سائر السور المدنية ، التي تعالج « التشريعات والاحكام » وتتحدث عن الاسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

● والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين ، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لاستار النفاق « سورة المنافقون » .

● **تناولت** السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين . وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم ؛ فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدُّون الناس من دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله المعلن لكفره ، ولذلك كان خطرهم أعظم وضررهم أكبر وأجسم « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

● **كما تحدثت** السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتتلاشى ، وأنهم بعد عودته من « غزوة بني المصطلق » سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة

المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة .

● **وختمت** السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبينت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالانفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم

سورة المنافقين

[٩٤١] أخرج البخاري وغيره[١] عن زيد بن أرقم قال سمعت عبدالله بن أُبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك للنبي [ﷺ] فدعاني النبي [ﷺ] فحدثته فأرسل رسول الله [ﷺ] إلى عبدالله بن أُبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبني وصدقه فأصابني شيء لم يصبني قط مثله فجلست في البيت فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله [ﷺ] ومقتك فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[٢] فبعث إلى رسول الله [ﷺ] فقرأها ثم قال: **«إن الله قد صدقك»** له طرق كثيرة عن زيد وفي بعضها أن ذلك في غزوة تبوك وأن نزول السورة ليلاً.

[٩٤٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال قيل لعبد الله بن أُبي لو أتيت النبي [ﷺ] فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه فنزلت فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾[٣] الآية. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله.

[٩٤٣] ك.. وأخرج[٤] عن عروة قال: لما نزلت: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٥] قال النبي [ﷺ]: **«لأزيدن على السبعين»** فأنزل الله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[٦] الآية. ك.. وأخرج عن مجاهد وقتادة مثله.

[٩٤٤] ك.. وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت آية براءة قال النبي [ﷺ] وأنا أسمع: **«أني قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم»** فنزلت.

* * *

[٩٤١] (١) ورواه الترمذي في سننه (٣٣١٢و ٣٣١٤) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٣).
(٢) سورة المنافقون: الآية (١).
[٩٤٢] (٣) سورة المنافقون: الآية (٥).
[٩٤٣] (٤) رواه ابن جرير (١٠/١٣٨).
(٥) سورة التوبة: الآية (٨٠).
(٦) سورة المنافقون: الآية (٦).

سورة المنافقون

إحدى عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول ﷺ، وذكر من كان يكذبه قلبًا ولسانًا بضرب المثل كما قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [الجمعة: ٥] وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبًا دون اللسان ويصدقه لسانًا دون القلب، وأما الأول بالآخر، فذلك أن في آخر تلك السورة تنبيهًا لأهل الإيمان على تعظيم الرسول ﷺورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم والمتابعة من شيم المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون، كما قال في أول هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي أنه أرسلك فهو يعلم أنك لرسوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أنهم أضمروا غير ما أظهروا، وإنه يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وحقيقة كل كلام كذلك، فإن من أخبر عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب، لما أن الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظي والوجود الذهني، كما أن الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهني، والوجود الخارجي، ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم: نشهد إنك لرسول الله، وسماهم الله كاذبين لما أن قولهم يخالف اعتقادهم، وقال قوم: لم يكذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إنما كذبهم بغير هذا من الأكاذيب الصادرة عنهم في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤]الآية. و﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]وجواب إذا ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ﴾ أي أنهم إذا أتوك شهدوا لك بالرسالة، فهم كاذبون في تلك الشهادة، لما مر أن قولهم يخالف اعتقادهم.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: أنهم قالوا: نشهد إنك لرسول الله، فلو قالوا: نعلم إنك لرسول الله، أفاد مثل ما أفاد هذا، أم لا؟ نقول: ما أفاد، لأن قولهم: نشهد إنك لرسول الله، صريح في الشهادة على إثبات الرسالة، وقولهم: نعلم ليس بصريح في إثبات العلم، لما أن علمهم في الغيب عند غيرهم.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي سترًا ليستتروا به عما خافوا على أنفسهم من القتل. قال في (الكشاف): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يجوز أن يراد أن قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[المنافقون: ١] يمين من أيمانهم الكاذبة، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف في التأكيد، يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى: وبه استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين، ويجوز أن يكون وصفًا للمنافقين في استخفافهم بالإيمان، فإن قيل: لم قالوا نشهد، ولم يقولوا: نشهد بالله كما قلتم؟ أجاب بعضهم عن هذا بأنه في معنى الحلف من المؤمن وهو في المتعارف إنما يكون بالله، فلذلك أخبر بقوله: نشهد عن قوله بالله.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله، وقيل: صدوا، أي صرفوا ومنعوا الضعفة عن اتباع رسول الله ﷺ ﴿سَآءَ﴾ أي بئس ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما أضمروا مشاكلة للمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ ذلك إشارة إلى قوله: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قال مقاتل: ذلك الكذب بأنهم آمنوا في الظاهر، ثم كفروا في السر، وفيه تأكيد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧، الحشر: ١١] وقوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبرون، ولا يستدلون بالدلائل الظاهرة. قال ابن عباس: ختم على قلوبهم، وقال مقاتل: طبع على قلوبهم بالكفر فهم لا يفقهون القرآن، وصدق محمد ﷺ، وقيل: إنهم كانوا يظنون أنهم على الحق، فأخبر تعالى أنهم لا يفقهون أنه طبع على قلوبهم**ثم في الآية مباحث:**

البحث الأول: أنه تعالى ذكر أفعال الكفرة من قبل، ولم يقل: إنهم ساء ما كانوا يعملون، فلم قال هنا؟ نقول: إن أفعالهم مقرونة بالأيمان الكاذبة التي جعلوها جنة، أي سترة لأموالهم ودمائهم عن أن يستبيحها المسلمون كما مر.

الثاني: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، فما معنى قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؟ نقول: قال في (الكشاف) ثلاثة أوجه: أحدها: ﴿ءَامَنُواْ﴾ نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ ثم ظهر كفرهم بعد ذلك، وثانيها: ﴿ءَامَنُواْ﴾ نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[البقرة: ١٤، ٧٧]، وثالثها: أن يراد أهل الذمة منهم.

الثالث: الطبع على القلوب لا يكون إلا من الله تعالى، ولما طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم أن يتدبروا ويستدلوا بالدلائل، ولو كان كذلك لكان هذا حجة لهم على الله تعالى، فيقولون: إعراضنا عن الحق لغفلتنا، وغفلتنا بسبب أنه تعالى طبع على قلوبنا، فنقول: هذا الطبع من الله

تعالى لسوء أفعالهم، وقصدهم الإعراض عن الحق، فكأنه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يعني عبد الله بن أبي، ومغيث بن قيس، وجد بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها، وكان عبد الله بن أبي جسيمًا صبيحًا فصيحًا، وإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي ويقولوا: إنك لرسول الله تسمع لقولهم، وقرئ (يُسْمَعْ) على البناء للمفعول، ثم شبههم بالخشب المسندة، وفي الخُشُب التخفيف كبَدَنة وبُدْن وأَسَد وأُسْد، والتثقيل كذلك كثَمَرة وثُمُر، وخَشَبة وخُشُب، ومَدَرة ومُدُر. وهي قراءة ابن عباس، والتثقيل لغة أهل الحجاز، والخشب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم، والاستبصار بمنزلة الخشب. وأما المسندة يقال: سند إلى شيء، أي مال إليه، وأسنده إلى الشيء، أي أماله فهو مسند، والتشديد للمبالغة، وإنما وصف الخشب بها، لأنها تشبه الأشجار القائمة التي تنمو وتثمر بوجه ما، ثم نسبهم إلى الجبن وعابهم به، فقال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ وقال مقاتل: إذا نادى مناد في العسكر، وانفلتت دابة، أو نشدت ضالة مثلاً ظنوا أنهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب، وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة، ثم أعلم (الله) رسوله بعداوتهم فقال: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهرهم فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم، وقوله تعالى: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ مفسر وهو دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا بذلك، و﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يعدلون عن الحق تعجبًا من جهلهم وضلالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ قال الكلبي: لما نزل القرآن على الرسول ﷺ بصفة المنافقين مشى إليه عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت، وقال ابن عباس: لما رجع عبد الله بن أبي من أحد بكثير

من الناس مقته المسلمون وعنفوه وأسمعوه المكروه فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله ﷺ حتى يستغفر لك ويرضى عنك، فقال: لا أذهب إليه، ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه فنزلت[1]. وعند الأكثرين إنما دعى إلى الاستغفار لأنه قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧] فقيل له: تعال يستغفر لك رسول الله فقال: ماذا قلت، فذلك قوله تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ وقرئ: (لَوَوْا) بالتخفيف والتشديد للكثرة والكناية قد تُجْعَل جمعًا والمقصود واحد وهو كثير في أشعار العرب قال جرير:

لاَ بَارَكَ اللَّه فِيمَنْ كَانَ يَحْسَبُكُمْ إلاَّ عَلَى العَهْدِ حَتَّى كَانَ مَا كَانَا[2]

وإنما خاطب بهذا امرأة وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن استغفار رسول الله ﷺ، ذكر تعالى أن استغفاره لا ينفعهم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية بعد قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وذلك لأنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «خَيَّرَنِي رَبِّي فَلأَزِيدَنَّهُمْ على السَّبْعِينَ»[3] فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: المنافقين، وقال قوم: فيه بيان أن الله تعالى يملك هداية وراء هداية البيان، وهي خلق فعل الاهتداء فيمن علم منه ذلك، وقيل: معناه لا يهديهم لفسقهم، وقالت المعتزلة: لا يسميهم المهتدين إذا فسقوا وضلوا، **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: لم شبههم بالخشب المسندة لا بغيره من الأشياء المنتفع بها؟ نقول: لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد في الغير: الأولى: قال في (الكشاف): شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير، بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحائط شبهوا بها في حسن صورهم، وقلة جداوهم، الثانية: الخشب المسندة في الأصل كانت غصنًا طريًا يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها، ثم تصير غليظة يابسة، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحًا لكذا وكذا، ثم يخرج عن تلك الصلاحية، الثالثة: الكفرة من جنس الإنس حطب، كما قال تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] والخشب المسندة حطب أيضًا، الرابعة: أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة، والآخر إلى جهة أخرى، والمنافقون كذلك، لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى

---

(١) أورده ابن كثير في (تفسيره) (٨/ ١٢٧) وقال: وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير... فذكره ثم قال: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير.

(٢) الشاعر جرير تقدمت ترجمته.

(٣) **مرسل**: ورواه الطبري في (تفسيره) (١٤/ ٣٩٧) حديث رقم (١٧٠٣١) من طريق يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة... به.

جهة أهل الكفر، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام، الخامسة: المعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام، إنها من الجمادات أو النباتات.

الثاني: من المباحث أنه تعالى شبههم بالخشب المسندة، ثم قال من بعد ما ينافي هذا التشبيه وهو قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾[المنافقون: ٤] والخشب المسندة لا يحسبون أصلاً، نقول: لا يلزم أن يكون المشبه والمشبه به يشتركان في جميع الأوصاف، فهم كالخشب المسندة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع، وليسوا كالخشب المسندة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها.

الثالث: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: القوم الكافرين أو المنافقين أو المستكبرين مع أن كل واحد منهم من جملة ما سبق ذكره؟ نقول: كل أحد من تلك الأقوام داخل تحت قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أي الذين سبق ذكرهم وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

أخبر الله تعالى بشنيع مقالتهم فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ كذا وكذا: ﴿يَنفَضُّوا﴾ أي يتفرقوا، وقرئ: (يُنْفِضُوا) من أَنْفَضَ القوم إذا فنيت أزوادهم، قال المفسرون: اقتتل أجير عمر مع أجير عبد الله بن أبي في بعض الغزوات فأسمع أجير عمر عبد الله بن أبي المكروه واشتد عليه لسانه، فغضب عبد الله وعنده رهط من قومه فقال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على قومه فقال: لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء يعني المهاجرين لأوشكوا أن يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فنزلت، وقرئ: (لَيَخْرُجَنَّ) بفتح الياء، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: (لَنُخْرِجَنَّ) بالنون ونصب الأعز والأذل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: يعني مفاتيح الرزق والمطر والنبات، والمعنى أن الله هو الرزاق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[يونس: ٣١] وقال أهل المعاني: خزائن الله تعالى مقدوراته لأن فيها كل ما يشاء مما يريد إخراجه، وقال الجنيد: خزائن الله تعالى في السماوات الغيوب وفي الأرض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفقهون أن: ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] وقوله: يقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا﴾ أي من تلك الغزوة وهي غزوة بني المصطلق إلى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾

أي الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان وأعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولو علموه ما قالوا مقالتهم هذه، قال صاحب (الكشاف): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين، وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيهًا قال: ليس بتيه ولكنه عزة فإن هذا العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه، وتلا هذه الآية قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى: العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة، ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر، قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن من نار الكبر، فإن قيل: قال في الآية الأولى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفي الأخرى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فَقِه يَفْقَه، كعَلِم يَعْلَم، ومن فَقَهَ يَفْقُه: كعَظُمَ يَعْظُم، والأول لحصول الفقه بالتكلف، والثاني لا بالتكلف، فالأول علاجي، والثاني مزاجي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم كما شغلت المنافقين، وقد اختلف المفسرون منهم من قال: نزلت في حق المنافقين، ومنهم من قال في حق المؤمنين، وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج أو عن طاعة الله تعالى وقال الضحاك: الصلوات الخمس، وعند مقاتل: هذه الآية وما بعدها خطاب للمنافقين الذين أقروا بالإيمان ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ألهاه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني وقيل: هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله ﷺ من التوحيد والبعث.

وقال الكلبي: الجهاد، وقيل: هو القرآن وقيل: هو النظر في القرآن والتفكر والتأمل فيه

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ قال ابن عباس يريد: زكاة المال و(من) للتبعيض، وقيل: المراد هو الإنفاق الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة إلى الدنيا وهو قوله: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وقيل حضهم على إدامة الذكر، وأن لا يضنوا بالأموال، أي هلا أمهلتني وأخرت أجلي إلي زمان قليل، وهو الزيادة في أجله حتى يتصدق ويتزكى وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا دليل على أن القوم لم يكونوا مؤمنين إذ المؤمن لا يسأل الرجعة. وقال الضحاك: لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت إلا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية، وقال صاحب (الكشاف): من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الإنفاق، ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ما كان متمكنًا منه، وعن ابن عباس تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: أحج وقرئ (وأَكُونَ) وهو على لفظ فأصدق، (وَأَكُنْ)، قال المبرد: وأَكُنْ على ما قبله لأن قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ جواب للاستفهام الذي فيه التمني والجزم على موضع الفاء، وقرأ أبي: (فَأَتصدق) على الأصل وأكن عطفًا على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: وأنشد سيبويه أبياتًا كثيرة في الحمل على الموضع منها:

(مُعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ) فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلاَ الْحَدِيدَا[1]

فنصب الحديد عطفًا على المحل والباء في قوله: بالجبال، للتأكيد لا لمعنى مستقل يجوز حذفها وعكسه قول ابن أبي سلمى:

بَدَا لي أني لست مدرك ما مَضَى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا[2]

توهم أنه قال بمدرك فعطف عليه قوله سابق، عطفًا على المفهوم، وأما قراءة أبي عمرو (وأكون) فإنه حمله على اللفظ دون المعنى، ثم أخبر تعالى أنه لا يؤخر من انقضت مدته وحضر أجله فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ يعني عن الموت إذا جاء أجلها، قال في (الكشاف): هذا نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي، وبالجملة فقوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ تنبيه على الذكر قبل الموت: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ تنبيه على الشكر لذلك وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لو رد إلى الدنيا ما زكى ولا حج، ويكون هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٨] والمفسرون على أن هذا خطاب جامع لكل عمل خيرًا أو شرًا وقرأ عاصم (يعملون) بالياء على قوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ لأن النفس وإن كان واحدًا في اللفظ، فالمراد به الكثير فحمل على المعنى والله أعلم وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) البيت لابن الزبير الأسدي وهو ضمن قصيدة من البحر الوافر وتقدمت ترجمة ابن الزبير الأسدي.
(٢) وابن أبي سلمى تقدمت ترجمته.

سورة المنافقون

مدنِيّةٌ في قول الجميع، وهي إحدى عَشْرة آيةً(٤)

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ روى البخاريُّ عن زيد بن أَرْقم قال: كنت مع عَمِّي فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنِ سلول يقول: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا. وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكر عمِّي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله صلى ا لله عليه وسلم وكَذَّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» إلى قوله: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُول اللَّهِ» إلى قوله: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» فأرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ، [فقرأها عليَّ] ثم

(٤) تفسير البغوي ٤/٣٤٧.

قال: «إنَّ الله قد صدقك». خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وفي الترمذيِّ[(٢)] عن زيد بنِ أرقم قال: غَزَوْنَا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا أناس من الأعراب، فكنَّا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه، فيسبق الأعرابيُّ أصحابَه فيملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل النِّطْع عليه حتى تجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابيًّا، فأرْخَى زمامَ ناقته لتشربَ، فأَبَى أن يَدَعَه، فانتزع حجراً فغاض الماء، فرفع الأعرابيُّ خشبةً، فضرب بها رأس الأنصاريِّ فشَجَّه، فأتى عبدَ الله بنَ أبَيٍّ - رأس المنافقين - فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبدُ الله بنُ أبَيٍّ ثم قال: لا تُنْفِقُوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضُّوا مِن حوله - يعني: الأعراب - وكانوا يحضرون رسولَ الله ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: إذا انفضُّوا من عند محمد فَأْتوا محمَّداً بالطعام، فليأكل هو ومَن عنده. ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. قال زيد: وأنا رِدْف عمِّي، فسمعتُ عبدَ الله ابنَ أُبَيٍّ، فأخبرت عمِّي، فانْطَلَق فأخبَر رسولَ الله ﷺ، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ فَحَلَفَ وجَحَد. قال: فصدَّقه رسولُ الله ﷺ وكَذَّبني. قال: فجاء عمِّي إليَّ فقال: ما أردتَ إلَّا أن مَقَتَك رسول الله ﷺ وكَذَّبك والمنافقون. قال: فوقع عليَّ من جرأتهم ما لم يقع على أحد. قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفرٍ قد خفَقْتُ برأسي من الهَمِّ، إذ أتاني رسولُ الله ﷺ فَعَركَ أذني وضحك في وجهي، فما كان يَسُرُّني أنَّ لي بها الخُلْد في الدنيا. ثم إنَّ أبا بكر لحقني فقال: ما قال لكَ رسولُ الله ﷺ؟ قلت: ما قال شيئاً، إلا أنَّه عَرَكَ أذني، وضحك في وجهي، فقال: أَبْشِرْ! ثم لحقني عمرُ، فقلتُ له مثلَ قولي لأبي بكر. فلما أصبحنا، قرأ رسول الله ﷺ سورةَ المنافقين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) البخاري (٤٩٠١) وما بين حاصرتين منه، والترمذي (٣٣١٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٣٣٣)، وهو عند مسلم (٢٧٧٢) بنحوه.

(٢) برقم (٣٣١٣) بنحوه، والخبر نقله المصنف عن الواحدي في أسباب النزول ص٤٥٧-٤٥٨ واللفظ منه.

وسئل حُذيفة بن اليَمَان عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وهم اليومَ شرٌّ منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يكتمونه، وهم اليوم يظهرونه[١].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خان»[٢]. وعن عبد الله بن عمرو أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعَها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر»[٣]. أخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ من جمع هذه الخصال كان منافقاً، وخبره صدق. وروي عن الحسن أنَّه ذكر له هذا الحديث فقال: إنَّ بني يعقوب حدَّثوا فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، وأُتُمِنوا فخانوا[٤]. إنَّما هذا القول من النبيِّ ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شَفَقًا أن تُفْضِيَ بهم إلى النفاق. وليس المعنى: أنَّ من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد، أنَّه منافق. وقد مضى في سورة «براءة»[٥] القول في هذا مستوفًى، والحمد لله. وقال

(١) النكت والعيون ٦/ ١٣ ، وقول حذيفة أخرجه وكيع في الزهد (٤٧١)، ومن طريقه عبد الله بن أحمد في السنة (٨٠٦)، وابن أبي شيبة ١٥/ ١١٥ ، والفريابي في صفة المنافق (٧٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٨١-٢٨٢ . وفي إسناده: أبو يحيى، وهو: عبيد بن كرب، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٦/ ٣ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٤١٣ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وهو عند أحمد (٨٦٨٥).

(٣) سلف ١٠/ ٣١٢ .

(٤) أخرج العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/ ٧ عن عبد العزيز بن أبي روَّاد قال: أخبر عطاء عن الحسن أنه كان يقول: ثلاث من كن فيه فهو منافق. فقال عطاء: أبا سعيد، قد حدَّث إخوة يوسف فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، واؤتمنوا فخانوا، فمنافقين كانوا؟! قال: فصحت بهم صيحة. قال: قلت: أنت سمعت هذا من عطاء؟ قال: فاصفرَّ لونه. وهو عند الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ٤٠ عن محمد المحرم، عن عطاء بنحوه، وفي آخره قال الحسن: صدق عطاء هكذا الحديث، وهذا في المنافقين. وينظر فيض القدير ١/ ٦٣ .

(٥) ١٠/ ٣١٢ .

رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا حدَّث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا اؤتمنَ وَفَّى»[(١)].
والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدَّث صدق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ قيل: معنى «نَشْهَدُ» نحلف. فعبَّر عن الحَلِف بالشهادة؛ لأنَّ كلَّ واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مُغَيَّب، ومنه قول قيس بن ذَرِيح:

وأشهد عند الله أني أحِبُّها ... فهذا لها عندي فما عندها لِيَا[(٢)]

ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنَّهم يشهدون أنَّ محمداً رسول الله ﷺ؛ اعترافاً بالإيمان، ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه[(٣)]. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ كما قالوه بألسنتهم. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما أظهروا من شهادتهم وحَلِفهم بألسنتهم. وقال الفرَّاء[(٤)]: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» بضمائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر. وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمان تصديق القلب، وعلى أنَّ الكلام الحقيقيَّ كلام القلب. ومن قال شيئاً واعتقد خلافه، فهو كاذب[(٥)]. وقد مضى هذا المعنى في أول «البقرة»[(٦)] مستوفى. وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم[(٧)]، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٠٠) ومن طريقه إسحاق بن راهويه كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ١/ ١٥٧ عن الزبير ﷺ بزيادة. ونقل البوصيري عن ابن حجر قوله: هكذا رواه إسحاق في مسند الزبير بن العوام، وهكذا رواه أحمد بن منصور الرمادي عن عبد الرزاق، ورواه زهير بن معاوية وغير واحد عن أبي إسحاق، عن الزبير بن عدي، ورواه غيرهم عن أبي إسحاق، عن الزبير غير منسوب، فإن كان معمر حفظه فهو صحيح الإسناد لكنه منقطع، وإن كان زهير حفظه فهو معضل.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣ ، والبيت في ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوَّح ص٢٩٤ و٣٠٠ ، ولم نقف عليه من قول قيس بن ذريح صاحب لبنى. وأخباره في معجم الشعراء ٢/ ٦٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٨ .

(٥) الوسيط ٤/ ٣٠٢ .

(٦) عند الآية (٨).

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٤ .

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي: سُترة[١]. وليس يرجع إلى قوله: «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ»، وإنَّما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أُبَيٍّ أنَّه حَلَفَ ما قال، وقد قال[٢]. وقال الضَّحَّاك: يعني حلفهم بالله: «إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ»[٣]. وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرَّبُّ عنهم في سورة «براءة» إذ قال: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [الآية: ٧٤].

الثانية: من قال: أُقْسِم بالله، أو: أَشْهد بالله، أو: أَعْزِم بالله، أو: أحلف بالله، أو: أَقسمتُ بالله، أو: أشهدت بالله، أو: أَعزمت بالله، أو: أَحلفتُ بالله، فقال في ذلك كلِّه: «بالله» فلا خلاف أنَّها يمين[٤]. وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال: أُقْسِم، أو: أَشْهد، أو أَعْزِم، أو: أَحلف، ولم يقل: «بالله»، إذا أراد «بالله». وإن لم يرد «بالله» فليس بيمين. وحكاه الكِيَا[٥] عن الشافعيِّ، قال الشافعيُّ[٦]: إذا قال: أشهد بالله. ونوى اليمينَ، كان يميناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أشهد بالله لقد كان كذا. كان يميناً[٧]، ولو قال: أشهد لقد كان كذا. دون النِّيَّة، كان يميناً لهذه الآية؛ لأنَّ الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً». وعند الشافعيِّ[٨] لا يكون ذلك يمينًا وإن نوى اليمين؛ لأنَّ قوله تعالى: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٠ ، والحديث سلف قريباً.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٥١ .

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٤٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ٤١٧ .

(٦) في الأم ٧/ ٥٦ .

(٧) بدائع الصنائع ٤/ ١٣-١٤ .

(٨) في الأم ٧/ ٥٥ .

جُنَّةً» ليس يرجع إلى قوله: «قَالُوا نَشْهَدُ»، وإنَّما يرجع إلى ما في «براءة» من قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [الآية: ٧٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وهو من الصدود. أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل، والسَّبي، وأخذ الأموال، فهو من الصدِّ، أو منعوا الناسَ عن الجهاد بأن يتخلَّفوا، ويقتدي بهم غيرهم. وقيل: فصدُّوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، بأن يقولوا: هانحن كافرون بهم، لو كان محمد حقًّا لعرف هذا منَّا، ولجعلنا نكالًا. فبيَّن الله أنَّ حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أنَّ من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئست أعمالهم الخبيثة ـ من نفاقهم، وأيمانهم الكاذبة، وصدِّهم عن سبيل الله ـ أعمالاً.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنَّ المنافق كافر، أي: أقرُّوا باللسان، ثم كفروا بالقلب(١). وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا، ثم ارتدوا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خُتم عليها بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان ولا الخير. وقرأ زيد بن عليٍّ: «فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم. ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ يعني عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبَيٍّ وسِيمًا جسيمًا صحيحًا صبِيحًا ذَلِق اللسان، فإذا قال سمع النبيُّ ﷺ مقالته(٣).

---

(١) الوسيط ٤/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٦ ونسبها إلى الأعمش.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨، وفيه: فصيحاً، بدل صبيحاً. ووردت العبارتان معاً عند الزمخشري في =

وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة(١). وقال الكلبيُّ: المراد ابن أُبَيٍّ، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة(٢). وفي «صحيح مسلم»(٣): وقوله: «كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ» قال: كانوا رجالًا أجملَ شيء، كأنَّهم خشب مسندةٌ. شبَّههم بخُشب مسنَّدة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام(٤). وقيل: شبَّههم بالخُشُب التي قد تآكلت، فهي مسندة بغيرها، لا يعلم ما في بطنها(٥).

وقرأ قنبُل وأبو عمرو والكسائيُّ: «خُشْبٌ» بإسكان الشين(٦). وهي قراءة البَرَاء بن عازب، واختيار أبي عبيد(٧)؛ لأنَّ واحدتها خَشَبة. كما تقول: بَدَنة وبُدْن، وليس في اللغة فَعَلَة يجمع على فُعُل(٨). ويلزم من ثقلها أن تقول: البُدُن، فتقرأ: «والبُدُن»(٩) [الحج:٣٦]. وذكر اليزيديُّ أنَّه جماع الخشباء(١٠)، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ [عبس:٣٠] واحدتها: حديقة غلباء. وقرأ الباقون بالتثقيل، وهي رواية البَزِّيِّ عن ابن كَثِير، وعيَّاش عن أبي عمرو، وأكثر الروايات عن عاصم. واختاره أبو حاتم، كأنَّه جمع خِشاب وخُشُب، نحو ثَمرة وثِمار وثُمُر. وإن شئت جمعت خشبة على خُشب كما قالوا: بَدَنَة وبُدْن وبُدُن. وقد رُوي عن ابن المسيّب فتح الخاء والشين في «خُشُب». قال سِيبويه: خَشَبة وخُشُب، مثل بَدَنة وبدن. قال: ومثله بغير هاء: أَسَد وأُسْد، ووَثَن ووُثْن. وتقرأ: خُشُب، وهو جمع الجمع، خشبة وخِشاب وخُشُب، مثل

= الكشاف ٤/ ١٠٩ ، وذَلَقُ اللسان: حِدَّته. اللسان (ذلق).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤ ولم يعزه للكلبي.

(٣) برقم (٢٧٧٢)، وهو عند البخاري (٤٩٠٣)، وأحمد (١٩٣٣٤) عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص٦٣٦ ، والتيسير ص٢١١ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٣ .

(٩) وهي قراءة الحسن وعيسى. القراءات الشاذة ص٩٥ .

(١٠) الكشاف ٤/ ١٠٩ .

ثمرة وثمار وثُمُر(١). والإسناد: الإمالة، تقول: أسندت الشيء، أي: أملته. و«مُسَنَّدَة» للتكثير(٢)، أي: استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: كلَّ أهل صيحة عليهم، هم العدُوُّ. فـ «هم العَدُوّ» في موضع المفعول الثاني؛ على أنَّ الكلام لا ضميرَ فيه(٣). يصفهم بالجُبْن والخَوَر. قال مقاتل والسُّدِّيُّ: أي: إذا نادى منادٍ في العسكر ـ إن انفلتت دابة، أو أُنشِدت ضالَّة ـ ظنُّوا أنَّهم المرادون؛ لما في قلوبهم من الرعب(٤). كما قال الشاعر وهو الأخطل:

مازلت تحسب كلَّ شيء بعدهم ... خيلاً تَكُرُّ عليهمُ ورجالًا(٥)

وقيل: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ» كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد، وتقديره: يحسبون كلَّ صيحة عليهم أنَّهم قد فُطن بهم وعُلم بنفاقهم؛ لأنَّ للرِّيبة خوفًا. ثم استأنف الله خطابَ نبيِّه ﷺ فقال: «هُمُ الْعَدُوُّ» وهذا معنى قول الضَّحَّاك وقيل: يحسبون كلَّ صيحة يسمعونها في المسجد أنَّها عليهم، وأنَّ النبيَّ ﷺ قد أمر فيها بقتلهم، فهم أبدًا وَجِلون من أن يُنزل الله فيهم أمرًا يُبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم(٦). وفي هذا المعنى قول الشاعر:

فلو أنها عُصْفورةٌ لحسبتها ... مُسَوَّمَةً تَدْعُو عُبَيْدًا وأَزْنَمَا(٧)

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٣٣، وقراءة ابن المسيب في البحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٠٩ ولم ينسبها.

(٢) تفسير البغوي ٤/٣٤٨.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٥ عن مقاتل.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٩، ولم نقف على البيت في ديوان الأخطل، بل ورد في ديوان جرير ١/ ٥٣ [وهكذا نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢] ضمن قصيدة يهجو بها الأخطل. وورد فيه: عليكم، بدل: عليهم. وهي الأَوْلى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٥.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٨، والبيت للعوَّام بن شوذب يصف فيه جبن بسطام بن قيس كما في الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٤٠ و٦/ ٤٣٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٢٧ حيث يقول: لو أن عصفورة طارت لحسبتها ـ من جبنك ـ خيلاً معلمة، تدعو عبيداً وأزنما، أي شعارهم: يال عبيد أزنم.

بطن من بني يَرْبُوع، ثم وصفه الله بقوله: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» حكاه عبد الرحمن ابن أبي حاتم(١). وفي قوله تعالى: «فَاحْذَرْهُمْ» وجهان: أحدهما: فاحذر أن تثقَ بقولهم، أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر مُمَايلتهم لأعدائك، وتخذيلهم لأصحابك.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم اللهُ، قاله ابن عباس وأبو مالك ـ وهي كلمة ذمٍّ وتوبيخ. وقد تقول العرب: قاتله اللهُ ما أشعره! فيضعونه موضعَ التعجُّب ـ وقيل: معنى «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ» أي: أحلَّهم محلَّ من قاتله عدوٌّ قاهر؛ لأنَّ الله تعالى قاهر لكلِّ معاند. حكاه ابن عيسى(٢). ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يكذبون، قاله ابن عباس. قتادة: معناه: يعدلون عن الحقّ. الحسن: معناه: يصرفون عن الرشد. وقيل: معناه: كيف تضلُّ عقولهم عن هذا(٣) مع وضوح الدلائل، وهو من الإفك وهو الصرف(٤). و«أنَّى» بمعنى كيف، وقد تقدَّم(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لـمَّا نزل القرآن بصفتهم، مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتُضحتم بالنفاق، فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم. فَلَوَّوْا رؤوسهم، أي: حَرَّكوها استهزاءً وإباءً، قاله ابن عباس(٦). وعنه أنَّه كان لعبد الله بن أُبَيٍّ موقف في كلِّ سبب يحضُّ على طاعة الله

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٥ وما بعده منه أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦ وعزا القول الأخير للسدي.

(٤) اللسان (أفك).

(٥) ٤/ ٧-٨.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥ وعزاه للكلبي.

وطاعة رسوله، فقيل له: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ عليك غضبان، فَأْتِه يَستغفرْ لك. فأبى وقال: لا أذهب إليه.

وسبب نزول هذه الآيات أنَّ النبيَّ ﷺ غزا بني المُصطلِق على ماء يقال له: المُرَيْسِيع، من ناحية قُدَيد، إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له: جهْجَاه، مع حَليف لعبد الله بن أُبيٍّ يقال له: سِنان، على ماء بالمُشَلَّلِ، فصرخ جهجاهُ بالمهاجرين، وصرخ سِنانُ بالأنصار، فلطَم جهجاهُ سِناناً، فقال عبد الله بنُ أُبَيٍّ: أَوَقد فعلوها! واللهِ ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الأوَّل: سَمِّن كلبك يَأْكُلْك، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ ـ يعني: أُبيًّا ـ الأذلَّ ـ يعني محمَّدًا ﷺ ـ ثم قال لقومه: كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على مَن عندَه حتى ينفضوا ويتركوه. فقال زيد بن أَرْقَم ـ وهو من رهط عبد الله ـ: أنتَ واللهِ الذليل المُنتَقَص في قومك، ومحمَّد ﷺ في عِزٍّ من الرحمن، ومودَّة من المسلمين، واللهِ لا أُحِبُّك بعد كلامكَ هذا أبدًا. فقال عبد الله: اسكت، إنَّما كنت ألعب. فأخبر زيدٌ النبيَّ ﷺ بقوله، فأقسم بالله ما فَعَلَ ولا قال، فعذره النبيُّ ﷺ. قال زيد: فوجدت في نفسي، ولَامَنِي الناس، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله. فقيل لعبد الله: قد نزلت فيكَ آيات شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فألوى برأسه، فنزلت الآيات. خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ بمعناه. وقد تقدَّم أوَّل السورة[(١)].

وقيل: «يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» يستتبكم من النفاق؛ لأنَّ التوبة استغفار. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يُعرِضون عن الرسول متكبِّرين عن الإيمان[(٢)].

---

(١) ص٤٩٤-٤٩٥ من هذا الجزء، والخبر ذكره الواقدي في المغازي ٢/ ٤١٥-٤١٨ ، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠ وما بعدها، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٨-٤٦١ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٣٤٨-٣٤٩ ، وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٦٦٦-٦٦٩ عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر، وعن عبد الله ابن أبي بكر، وعن محمد بن يحيى بن حبَّان. قال: كلٌّ قد حدَّثني بعض حديث بني المصطلق. . . . الخبر».

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧ .

وقرأ نافع: «لَوَوْا» بالتخفيف[١]. وشدَّد الباقون، واختاره أبو عبيد، وقال: هو فعل لجماعة. النحَّاس: وغلط في هذا؛ لأنَّه نزل في عبد الله بن أُبَيٍّ لما قيل له: تعالَ يَستغفرْ لك رسولُ الله ﷺ، حَرَّك رأسه استهزاءً. فإن قيل: كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له: العرب تفعل هذا إذا كَنَّت عن الإنسان. أنشد سِيبويه لحسان:

ظننتم بأن يَخْفى الذي قد صنعتمُ وفينا رسولٌ عنده الوَحْي واضِعُه[٢]

وإنَّما خاطب حَسَّانُ ابنَ الأبيرِق في شيء سَرَقه بمكَّة، وقصته مشهورة.

وقد يجوز أن يخبر عنه وعمَّن فعل فعله. وقيل: قال ابن أُبَيٍّ لمَّا لَوَى رأسه: أمرتموني أن أومِن، فقد آمنت، وأن أُعطي زكاة مالي، فقد أعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمَّد[٣]!.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعني كلّ ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئاً؛ لأنَّ اللهَ لا يغفر لهم. نظيره: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقد تقدَّم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من سبَق في عِلْم الله أنَّه يموت فاسقاً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾

ذكرنا سبب النزول فيما تقدَّم. وابن أُبَيٍّ قال: لا تُنفقوا على مَن عند محمَّد حتى

---

(١) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٢١١.

(٢) سلف ٧/ ١١٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٥، والبغوي ٤/ ٣٥٠.

ينفضُّوا، حتى يتفرَّقوا عنه[١]. فأعلمهم الله سبحانه أنَّ خزائن السماوات والأرض له، يُنفِقُ كيف يشاء. قال رجل لحاتم الأصَمِّ: من أين تأكل؟ فقال: «ولِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»[٢]. وقال الْجُنَيد: خزائن السماوات: الغيوب، وخزائن الأرض: القلوب؛ فهو عَلَّام الغيوب ومُقَلِّب القلوب[٣]. وكان الشِّبْليُّ يقول: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فأين تذهبون. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أنَّه إذا أراد أمرًا يَسَّرَه.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

القائل ابن أُبَيٍّ، كما تقدَّم. وقيل: إنَّه لمَّا قال: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أيَّاماً يسيرة حتى مات، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه، فنزلت هذه الآية: «لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». وقد مضى بيان هذا كلِّه في سورة «براءة»[٤] مستوفًى. وروي أنَّ عبد الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إنَّ رسول الله ﷺ هو الأعَزُّ وأنا الأذلُّ؛ فقاله[٥]. تَوَهَّمُوا أنَّ العزَّة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أنَّ

(١) الكشاف ٤/ ١١١ .

(٢) أخرجه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٥).

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥ .

(٤) ١٠/ ٣٢٠ .

(٥) أخرج الترمذي (٣٣١٥) عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنَّا في غزاة ـ قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يَالَ المهاجرين. وقال الأنصاري: يَالَ الأنصار. فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها؛ فإنها منتنة». فسمع ذلك عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، فقال: أَوَقَدْ فعلوها، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وقال غير عمر: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: واللهِ لا تنفلت حتى تُقِرَّ أنَّكَ الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

العِزَّة والمَنَعَة والقُوَّة لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾

حذَّر المؤمنين أخلاقَ المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا ـ للشُّح بأموالهم ـ: لا تُنفِقُوا على مَن عند رسول الله. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحجِّ والزكاة[١]. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إدامة الذكر[٢]. وقيل: عن الصلوات الخمس، قاله الضحاك[٣]. وقال الحسن: جميع الفرائض؛ كأنَّه قال: عن طاعة الله[٤]. وقيل: هو خطاب للمنافقين، أي: آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربِّه[٥] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يدلُّ على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً[٦]. وكذلك سائر العبادات إذا تعيَّن وقتها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧٣ عن سفيان.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٧ .
(٣) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٧٠-٦٧١ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٥ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٠ .
(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٧ .

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سأل الرجعةَ إلى الدنيا ليعملَ صالحاً. وروى الترمذيُّ عن الضَّحَّاك بن مُزاحم، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلِّغه حجَّ بيتِ ربِّه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ، فلم يَفعلْ، سَأَلَ الرجعةَ عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتَّقِ الله، إنَّما سأل الرجعةَ الكفَّارُ؟ فقال: سأتلو عليك بذلك قرآنًا: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولَاَ أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قِبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» إلى قوله: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المالُ مئتين فصاعداً. قال: فما يوجب الحجَّ؟ قال: الزاد والراحلة[١].

قلت: ذكره الحَلِيمِيُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «مِنهاج الدِّين»[٢] مرفوعاً فقال: وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مال يبلِّغه الحج. . .» الحديث؛ فذكره. وقد تقدَّم في «آل عمران» لفظه[٣].

الثالثة: قال ابن العربيّ[٤]: أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصَّةً دون النفل؛ فأمَّا تفسيره بالزكاة فصحيح كلُّه عموماً وتقديراً بالمئتين. وأما القول في الحجِّ ففيه إشكال؛ لأنَّا إن قلنا: إنَّ الحجَّ على التراخي، ففي المعصية في الموت قبل الحجِّ، خلاف بين العلماء؛ فلا تُخَرَّج الآية عليه. وإن قلنا: إنَّ الحجَّ على الفور، فالآية في العموم صحيح؛ لأنَّ من وجب عليه الحجُّ، فلم يؤدِّهِ، لَقيَ مِنَ الله ما يودُّ أنَّه رجع ليأتيَ بما ترك من العبادات. وأمَّا تقدير الأمر بالزاد والراحلة، ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء. وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل؛ لأجل أنَّ الرجعة

---

(١) الترمذي (٣٣١٦)، وسلف ٥/ ٢٣٢ عن ابن عباس مرفوعاً. قال الترمذي عن الموقوف: وهذا أصح. . . .

(٢) ٢/ ٣٤١ .

(٣) ٥/ ٢٣٢ .

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٠١-١٨٠٢ .

والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنَّما يدخل في المتَّفق عليه. والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن؛ لأجل أنَّ ما عدا ذلك لا يتطرَّق إليه تحقيق الوعيد.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هَلَّا[1]؛ فيكون استفهاماً. وقيل: «لا» صلة؛ فيكون الكلام بمعنى التمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمنِّي بالفاء. ﴿وَأَكُن﴾ عطف على «فَأَصَّدَّقَ» وهي قراءة أبي عمرو وابن مُحَيْصِن ومجاهد. وقرأ الباقون: «وَأَكُنْ» بالجزم، عطفاً على موضع الفاء؛ لأنَّ قوله: «فَأَصَّدَّق» لو لم تكن الفاء، لكان مجزوماً، أي: أصدق. ومثله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٦] فيمن جزم[2]. قال ابن عباس: هذه الآية أشدُّ على أهل التوحيد؛ لأنَّه لا يتمنَّى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحدٌ له عند الله خير في الآخرة.

قلت: إلا الشهيدَ فإنَّه يتمنَّى الرجوع حتى يقتل؛ لما يرى من الكرامة. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشرٍّ[3]. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو بكر عن عاصم والسُّلَميّ بالياء[4]؛ على الخبر عمَّن مات وقال هذه المقالة.

تمت السورة بحمد الله وعونه

تم الجزء العشرون من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الواحد والعشرون، ويبدأ بتفسير سورة التغابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/١٧٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٣٦-٤٣٩، والقراءة في السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١، والمحرر الوجيز ٥/٣١٦.

(٣) الوسيط ٤/٣٠٥.

(٤) السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مَدنيَّةٌ، وآيُها إحدى عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشَّهادةُ: إخبارٌ عن علمٍ؛ مِن الشُّهودِ، وهوَ الحضورُ والاطِّلاعُ، ولذلكَ صدَّقَ المشهودَ بهِ وكذَّبَهم في الشَّهادةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنَّهم لم يعتقدوا ذلك.

(٢) ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ حلفَهُم الكاذبَ أو شهادتَهُم هذهِ، فإنها تجري مجرَى الحلِفِ في التَّوكيدِ.

وقُرِئَ: (إيمانَهُم)[1].

﴿جُنَّةٗ﴾ وقايةً عن القتلِ والسَّبيِ.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صَدًّا أو صُدودًا.

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مِن نِفاقِهم وصَدِّهِم.

(٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكلامِ المتقدِّمِ؛ أي: ذلكَ القولُ الشَّاهدُ على

---

(١) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢٢).

سـوءِ أعمالِهـم، أو إلـى الحـالِ المذكـورةِ مـن النِّفـاقِ والكـذبِ والاسـتجنانِ بالإيمـانِ[(١)].

﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ بسببِ أنَّهُم آمنوا ظاهرًا ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ سرًّا، أو آمنُوا إذا رأَوا آيةً ثمَّ كفرُوا حينما سمعُوا من شياطِينهم شُبهةً.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرَّنُوا على الكفرِ واستحكمُوا فيهِ.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقةَ الإيمانِ ولا يَعرفونَ صِحَّتهُ.

(٤) ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخَامَتِها وصَباحَتِها.

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذَلاقَتِهـم وحَـلاوةِ كلامِهـم، وكان ابنُ أبيٍّ جسـيمًا فصيحًـا يحضـرُ مجلسَ رسـولِ اللهِ في جمـعٍ مثلِـهِ، فيُعجَبُ بهيكَلِهـم ويُصغَى إلى كلامِهم[(٢)].

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ حالٌ من الضَّميرِ المجرورِ فـي ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: تسمعُ لما يقولونه مشبَّهينَ بأخشابٍ مَنصوبةٍ مسندةٍ إلى الحائطِ في كونِهم أشباحًا خاليةً عن العلمِ والنَّظرِ.

وقيل: الخُشُبُ جمع خشباءَ، وهـي الخشبةُ التي نَخِرَ جوفُها، شبِّهُوا بها في حسنِ المَنْظَرِ وقبحِ المَخْبَرِ.

---

(١) قوله: «بالإيمان»؛ بكسر الهمزة وفتحها. انظر: «حاشية الخفاجي»، وضبط في نسخة الفاروقي بالوجهين.

(٢) قوله: «فيعجب» و«يصغى» بالبناء للمجهول، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يعجبه مثل هؤلاء الصور الفارغة. انظر: «حاشية الخفاجي».

وقرأ أبو عمرو[١] والكِسائيُّ وقُنبل عن ابنِ كثيرٍ بسكون الشِّينِ على التَّخفيفِ[٢]، أو على أنه كبُدْن في جمعِ بَدَنةٍ.

﴿يَحسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم لجُبنِهم واتهامِهم، فـ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ثاني مفعولَي ﴿يَحسِبُونَ﴾[٣]، ويجوزُ أن يكونَ صلتَهُ والمفعولُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، وعلى هذا يكونُ الضَّميرُ للكلِّ، وجمعُه بالنَّظرِ إلى الخبرِ، لكنَّ ترتُّبَ قولِه: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عليهِ يدلُّ على أنَّ الضَّميرَ للمنافقينَ.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهِم، وهو طلبٌ من ذاتِهِ أن يلعنَهُم، أو تعليمٌ للمؤمنينَ أن يدعُوا عليهِم بذلكَ.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيفَ يُصرفونَ عن الحقِّ.

(٥) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عَطَفُوها إعراضًا واستكبارًا عن ذلكَ.

وقرأ نافع بتخفيف الواو[٤].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرِضونَ عن الاستغفارِ[٥] ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عَن الاعتذارِ.

(٦) - ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرُسوخِهم في الكفرِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «وقرأ أبو بكر».

(٢) وهي بخلف عن قنبل فروى ابن مجاهد عنه الإسكان، وروى ابن شنبوذ عنه الضم، وقراءة الباقين: ﴿خُشُبٌ﴾، انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢١١)، و«النشر» (٢/ ٢١٧).

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي بكسر السين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٢٣٦).

(٤) وقراءة الباقين بالتشديد، انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٥) في نسخة الفاروقي: «يعرضون عن استكبار». وفي الهامش كالمثبت نسخة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجينَ عن مَظِنَّةِ الاستصلاحِ[١] لانهماكِهم في الكفرِ والنِّفاقِ.

(٧) ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصارِ ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ يعنونَ فقراءَ المهاجرينَ.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيدِهِ الأرزاقُ والقِسَمُ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلكَ لجهلِهم باللهِ.

(٨) ـ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ رُوِيَ أنَّ أعرابيًّا نازعَ أنصاريًّا في بعضِ الغزواتِ على ماءٍ، فضربَ الأعرابيُّ رأسَهُ بخشبةٍ فشكى إلى ابنِ أُبيٍّ فقال: لا تنفِقُوا على من عندَ رسولِ اللهِ حتى ينفضُّوا، وإذا رَجَعْنا إلى المدينةِ فلَيُخرج الأعزُّ الأذلَّ. عنى بالأعزِّ نفسَهُ وبالأذلِّ رسولَ اللهِ[٢].

---

(١) في نسخة الخيالي: «الإصلاح».

(٢) ذكر الأثر بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٤٥٢ ـ ٤٦٣)، وعزاه لأهل التفسير وأصحاب السير، وكذلك تلميذه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٣١ ـ ٤٣٣)، ورواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٩٠) في غزوة بني المصطلق من طريق ابن إسحاق، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٦٦) من طريق ابن إسحاق.

قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٣٤): واعلَمْ أن الحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما مختصراً من حديث زيد بن أرقم، اهـ.

ورواه البخاري (٤٩٠٠) وأطرافه، ومسلم (٢٧٧٢).

وروى طرفاً منه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه بعد قول ابن أبي: والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، قال عمر: دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق، فقال: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتلُ أصحابه».

وقُرِئَ: (لَيَخْرُجَنَّ) بفتحَ الياءِ[1]، و(لَيُخْرَجَنَّ) على بناءِ المفعولِ[2]، و(لَنُخرِجَنَّ) بالنُّونِ ونصبِ (الأعزَّ) و(الأذلَّ)[3] على هذهِ القراءاتِ[4]؛ مَصْدرٌ أو حالٌ على تقديرِ مُضافٍ، كخُرُوجٍ أو إخراجٍ أو مثل.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللهِ الغلبةُ والقوَّةُ ولِمَن أعزَّهُ مِن رسولهِ والمؤمنينَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنْ فرطِ جهلِهم وغُرورِهم.

(٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا يُشْغِلْكم تدبيرُها والاهتمامُ بها عن ذكرهِ كالصَّلاةِ وسائرِ العباداتِ المذكِّرة للمعبودِ، والمرادُ نهيُهم عن اللَّهوِ بها، وتوجيهُ النَّهيِ إليها للمبالغةِ، ولذلكَ قال:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اللَّهوَ بها، وهو الشُّغلُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٥)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥)، ونسبها ابن عطية وأبو حيان للكسائي والفراء عن قوم لم يسمهم، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦٠)، وليس فيه التصريح بكونها قراءة، ولفظه: «ويجوز في القراءة...» فذكرها.

ومعناها كما قال ابن خالويه: ليخرجن العزيز منها ذليلاً، وليصيرن العزيز ذليلاً، قال: حكاه الخليل في كتاب «العين»، قلت: لم أجد ذلك في مطبوعه، وقاله الفراء في الموضع المذكور من «معاني القرآن».

(٢) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٢٨)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥) دون نسبة.

(٣) وهي قراءة الحسن وابن أبي عبلة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٤٨)، و«الكشاف» (٩/ ١٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٥)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥)، وهي في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦٠) دون نسبة.

(٤) يعني القراءات الثلاث.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لأنَّهم باعوا العظيمَ الباقي بالحقيرِ الفاني.

(١٠) - ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ بعضَ أموالِكُم ادِّخارًا للآخرةِ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أن يرى دلائلَهُ ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ أمهلتَني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أمدٍ غيرِ بعيدٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالتَّدارُكِ.

وجزمُ ﴿أكن﴾ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَهُ.

وقرأَ أبو عمرٍو ﴿وأكونَ﴾ منصوبًا[١] عطفًا على أصَّدق، وقُرِئَ بالرَّفعِ[٢] على: وأنا أكونُ فيكونُ عِدَةً بالصَّلاحِ.

(١١) - ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ ولن يُمهلَها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ آخرُ عمرِها.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فمُجازٍ عليهِ.

وقرأَ أبو بكرٍ بالياءِ[٣] ليوافقَ ما قبلَهُ في الغَيبةِ.

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأَ سورةَ المنافقينَ بَرِئَ من النِّفاقِ»[٤].

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٢) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٣٢)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣١٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٠٢). وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٦٣) سورة المنافقون مدنية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين، أنهم إنما يتفوهون بالإسلام ظاهراً فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾. ثم قال تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي فيما أخبروا به لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم، وقوله تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ليصدقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا، ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، ﴿فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي. وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في

غاية الضعف والخور والهلع والجزع، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، ، وفي الحديث: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صُخب بالنهار »[١] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . عن سفيان ﴿ لوّوا رؤوسهم ﴾ حوّل سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شزراً، ثم قال: هو هذا[٢] ، وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في (عبد الله بن أبيّ بن سلول) كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى . قال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ ، فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً .

وقال أبو إسحاق في قصة بني المصطلق: فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء (جهجاه بن سعيد الغفاري) وكان أجيراً لعمر بن الخطاب و (سنان بن يزيد)، فقال سنان: يا معشر الأنصار ، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند (عبد الله بن أُبي) فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً ، وقال يزيد بن مرة : سُخُب بالنهار أي بالسين .

(٢) رواه عنه ابن أبي حاتم .

الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها (زيد بن أرقم) رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ، وهو غليم عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: « فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن ناد يا عمر: الرحيل »، فلما بلغ عبدالله بن أُبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال، ما قال عليه (زيد بن أرقم) وكان عند قومه بمكان، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل، وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه (أسيد بن الحضير) رضي الله عنه، فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أُبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل »، قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً، فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي، عن جابر بن عبدالله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجُلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: « ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة »، وقال (عبدالله بن أُبي بن سلول) وقد فعلوها: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: « دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[1]. وروى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبدالله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال، فحلف عبدالله ابن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال، فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال، فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال، فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: « إن الله قد أنزل عذرك وصدقك »، قال، فنزلت هذه الآية: ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ حتى بلغ ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾[2].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد رحمه الله، عن زيد بن أرقم قال: خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبدالله بن أُبي بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فحدثته، فأرسل إلى عبدالله بن أُبي بن سلول وأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همّ لم

(١) رواه البيهقي، ورواه أحمد والبخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري عند هذه الآية.

يصبني مثله قط، وجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك! قال، حتى أنزل الله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾، قال، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ عليَّ، ثم قال: «إن الله قد صدقك»[1]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبدالله بن عبدالله بن أُبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[2]، وذكر عكرمة أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف (عبدالله بن عبدالله) على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه (عبدالله بن أُبي) قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ شكا إليه عبدالله بن أُبي ابنه، فقال ابنه عبدالله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن، وقال الحميدي في مسنده: قال عبدالله بن عبدالله بن أُبي بن سلول لأبيه: «والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل، قال: وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق لئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عن طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كما قال تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعونِ * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه محمد بن إسحاق بن يسار

(٣) رواه الحميدي في مسنده.

أي لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله، ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ . روى الترمذي، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرآناً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾ إلى قوله ﴿والله خبير بما تعملون﴾ قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير[1] . وروى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»[2]

[آخر تفسير سورة المنافقين ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه الترمذي عن الضحّاك عن ابن عباس ، قال ابن كثير : ورواية الضحّاك عن ابن عباس فيها انقطاع .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء .

تفسير سورة المنافقون

وهى مدنية (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبى ﷺ ، فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضدّ من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أى : إذا حضَروا عندك (٢) واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليسوا كما يقولون: ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : ﴿ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون (٣) ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من (٤) شأنهم إنهم كانوا (٥) فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبَلا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير (٦) على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ولهذا كان الضحاك بن مُزَاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً » أى : تصديقهم الظاهر جُنَّة ، أى : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها (٧) : ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين .

[وقوله] (٨) : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : إنما قُدّر عليهم

---

(١) فضائل هذه السورة ذكرت فى أول سورة الجمعة .
(٢) فى أ : « إليك » . (٣) فى أ : « فاعتقدهم مسلمين » . (٤) فى م : « فى » .
(٥) فى أ : « كانوا يقولون » . (٦) فى أ : « كثير » . (٧) فى م، أ : « قرؤوها » .
(٨) زيادة من م ، أ .

النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أى: فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أى : كانوا أشكالاً حسنة وذوى فصاحة وألسنة ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم [(١)] لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخَوَر والهلع والجزع والجبن ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجبنهم ، أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٩] ، فهم جَهَامات وصور بلا معانى . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قُدَامة الجُمَحى ، عن إسحاق بن بكر[(٢)] بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى. عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، عن النبىﷺ قال: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهْبَة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرا ، مستكبرين لا يألَفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل، صُخُب بالنهار » .وقال يزيد مَرَّةً : سُخُبٌ بالنهار [(٣)] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين ــ عليهم لعائن الله ــ أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صَدوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقارا لما قيل لهم. ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ . ثم جازاهم على ذلك فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة «براءة »، وقد تقدم الكلام عن ذلك ، وإيراد الأحاديث المروية هنالك .

(١) فى م :« إلى قلوبهم » . (٢) فى أ :« بكير » .
(٣) المسند (٢/ ٢٩٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابنُ أبى عُمَر العَدَنى [١] قال : قال سفيان ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ : قال ابن أبى عمر : حولَ سفيان وجهه على يمينه ، ونظر بعينه شَزْرا ، ثم قال : هم[٢] هذا .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقد قال محمد بن إسحاق فى السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ــ يعنى مَرْجعَه من أحد ــ وكان عبد الله بن أبى ابن سلول ــ كما حدثنى ابن شهاب الزهرى ــ له مقام يَقُومه كل جُمُعة لا يُنكر، شَرَفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفا ، إذا جلس النبى ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه ،واسمعوا له وأطيعوا . ثم جلس ،حتى إذا صَنَع يوم أحُد ما صنع ــ يعنى مرجعه بثلث الجيش ــ ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهلٍ ، وقد صنعتَ ما صنعتَ . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ؛ أن قُمت أشدد أمره . فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى [٣] .

وقال قتادة والسدى : أنزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعَذَموه [٤] ، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو [٥] الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا [٦].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبير : أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلا لم يرتحل حتى يصلى فيه ، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أنَ عبدَ الله بن أبى ابن سلول قال : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ . فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار ، وقيل لعبد الله بن أبى : ائت النبى ﷺ حتى يستغفر لك . فأنزل الله : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير . وقوله : إن ذلك كان فى غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ؛ فإنَ عبد الله بن أبى ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك ، بل رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير أن ذلك كان فى غزوة المُرَيسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

---

(١) فى أ : « العدوى » .
(٢) فى م ، أ : « هو » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٥) .
(٤) فى م: « وعزلوه » ، وفى أ : « وعرموه » .
(٥) فى م ، أ : « وقيل لعبد » .
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٧١) .

قال يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق : حدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن عُمَر بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينا رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهجاه بن سعيد الغفارى ــ وكان أجيرا ــ لعمر بن الخطاب ، وسنان بن وَبْر [١] قال ابن اسحاق: فحدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان : يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين ــ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبى ــ فلما سمعها قال : قد ثاوَرونا فى بلادنا . والله ما مثلُنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : «سَمن كلبك يأكلك » . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيِّمٌ ــ وعنده بن الخطاب رضى الله عنه ــ فأخبره الخبر ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله مرُ عَبّاد بن بشْر [٢] فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس ــ يا عمر ــ أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر فى الرحيل » .

فلما بلغ عبدَ الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسولَ الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ــ وكان عند قومه بمكان ــ فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل .

وراح رسول الله ﷺ مُهجَراً فى ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكَرَةَ ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك [٣] ما قال صاحبك ابن أبى ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت ــ يا رسول الله ــ العزيزُ وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخرَزَ لِنتُوّجه ، فإنه ليرى [٤] أن قد استلبتَه ملكا .

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصَدرَ يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَس الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين [٥] .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق ، أخبرنا بشر بن موسى ، حدثنا الحُمَيدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا [٦] عمرو بن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار . وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبى ابن سلول ــ وقد فعلوها ــ : والله لئن رجعنا

(١) فى م : « سنان بن يزيد » . (٢) فى أ : « بشير » . (٣) فى م : « ما بلغك » .
(٤) فى م : « يرى » .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٠ ــ٢٩٢) .
(٦) فى م :« عن » .

إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (١) .

ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزى ، عن سفيان بن عيينة (٢) . ورواه البخارى عن الحميدى ، ومسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وغيره ، عن سفيان ، به نحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القُرَظى ، عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فقال عبد الله بن أبى : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبى (٤) ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبى أنه لم يكن شىء من ذلك . قال : فلامنى قومى وقالوا : ما أردتَ إلى هذا؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيبا حَزينا ، قال : فأرسل إلى نبى الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عُذركَ وصَدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾ .

ورواه البخارى عند هذه الآية ، عن آدم بن أبى إياس ، عن شعبة (٥) ، ثم قال : « وقال ابن أبى زائدة ، عن الأعمش ، عن عمرو ، عن ابن أبى ليلى ، عن زيد ، عن النبى ﷺ ورواه الترمذى والنسائى عندها أيضا من حديث شعبة ، به (٦) .

طريق أخرى عن زيد : قال الإمام أحمد ، رحمه الله ، حدثنا يحيى بن آدم ، ويحيى بن أبى بُكَير(٧) قال: حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم ـ وقال ابن أبى بُكَير (٨) : عن زيد بن أرقم ـ قال : خرجت مع عمى فى غزاة ، فسمعت عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك لعمى ، فذكره عمى لرسول الله ﷺ فأرسل إلىَّ رسولُ الله ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه فحلفوا ما قالوا : فكَذبنى رسول الله ﷺ وصَدَقه ، فأصابنى هَمٌ لم يصبنى مثله قط ، وجلست فى البيت ، فقال عمى : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك. قال: حتى أنزل الله : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ** ﴾ قال : فبعث إلىَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله على ، ثم قال : « إن الله قد صدقك » (٩) .

ثم قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق : أنه سمع زيد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٥٣) .
(٢) المسند (٣/٣٩٢) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤) .
(٤) فى م :« رسول الله » .
(٥) المسند (٤/٣٦٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٠٢) .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٣١٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٤) .
(٧) فى أ : « بكر » . (٨) فى م : « وقال أبو بكر » .
(٩) المسند (٤/٣٧٣) .

ابن أرقم يقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناس شدةٌ ، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله ، فاجتهد يمينَه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع فى نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شىء .

وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى ، من حديث زهير (١) . وورواه البخارى أيضا والترمذى من حديث إسرائيل ، كلاهما عن عن أبى إسحاق عمرو (٢) بن عبد الله السَّبيعىّ الهمدانى الكوفى ، عن زيد ، به (٣) .

طريق أخرى عن زيد : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى سعد (٤) الأزدى قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نَبتَدرُ الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النِّطع عليه حتى يجىء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبدَ الله ابن أبىّ رأسَ المنافقين فأخبره ــ وكان من أصحابه ــ فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ــ يعنى الأعراب ــ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردْف عَمّى ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عَمّى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجَحَد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبكَ والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر وقد خَفَقْتُ برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت : ما قال لى رسول الله شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى. فقال : أبشر . ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين .

انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى عن

(١) المسند (٤/ ٣٧٣) وصحيح البخارى برقم (٤٩٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٨) .

(٢) فى أ : « عن أبى إسحاق عن عمرو » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٢)

(٤) فى م: « عن أبى سعيد » .

الحاكم عن أبى العباس محمدين أحمد المحبوبى ، عن سعيد بن مسعود ، عن عبيد الله بن موسى ، به [١]. وزاد بعد قوله « سورة المنافقين » ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ﴾ حتى بلغ : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ .

وقد روى عبد الله بن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عُروَةَ بن الزبير فى المغازى ـ وكذا ذكر موسى بن عقبة فى مغازيه أيضا هذه القصة بهذا السياق ، ولكن جعلا الذى بَلَّغ رسول الله ﷺ كلام عبد الله بن أبىّ ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم ، من بنى الحارث بن الخزرج. فلعله مبلغ آخر ، أو تصحيف من جهة السمع ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا محمد بن عزيز الأيلى ، حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، أخبرنى محمد بن مسلم ، أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصارى أخبراه : أن رسول الله ﷺ غزا عزوة المريسيع ، وهى التى هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التى كانت بين قفا المُشَلَّل وبين البحر ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان فى غزوة رسول الله ﷺ تلك ، أحدهما من المهاجرين ، والآخر من بَهْز ، وهم حلفاء الأنصار ، فاستعلى الرجل الذى من المهاجرين على البهزى ، فقال البهزى : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار، وقال المهاجرى : يا معشر المهاجرين . فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شىء من القتال ، ثم حُجز بينهم فانكفأ كل منافق ـ أو : رجل فى قلبه مرض ـ إلى عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، فقال : قد كنت تُرْجَى وتَدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب ـ وكانوا يَدعُون كُلّ حديث هجرة [٢] : الجلابيب ـ فقال عبد الله بن أبى عدو الله : [والله] [٣] لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .قال مالك بن الدخْشُم ـ وكان من المنافقين ـ : أولم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . فسمع بذلك عمرُ بن الخطاب ، فأقبل يمشى حتى جاء [٤] رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس ، أضربُ عنقه ـ يريد عمرُ عبدَ الله بن أبى ـ فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أو قاتله أنتَ إن أمرتُك بقتله ؟ » . قال : عمر [نعم][٥] والله لئن أمرتنى بقتله لأضربَنّ عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . فأقبل أسيدُ بن الحضير [٦] ـ وهو أحد الأنصار، ثم أحد بنى عبد الأشهل ـ حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس [حتى] [٧] أضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « أوقاتله أنتَ إن أمرتُك بقتله ؟ » . قال : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن بالسيف تحت قُرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . ثم قال رسول الله ﷺ : « آذنوا بالرحيل » . فَهَجَّرَ بالناس ، فسار

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣١٣) ودلائل النبوة للبيهقى (٤/ ٥٤) .

(٢) فى م :«أهجرة » . (٣) زيادة من م . (٤) فى أ : « حتى أتى » .

(٥) زيادة من م ، أ . (٦) فى م: « حضير » . (٧) زيادة من م .

يومه وليلته والغد حتى مَتَعَ النهار ، ثم نزل . ثم هَجَّر بالناس مثلها ، فَصبح [(١)] بالمدينة فى ثلاث سارها من قفا المُشَلَّل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه ، فقال له رسول الله : «أىْ عمر ، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟ » قال [(٢)] عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ لأرغمتَ أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه [(٣)] فيتحدث الناسُ أنى قد وقعت على أصحابى فأقتلهم صبراً » . وأنزل الله عز وجل : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ إلى قوله : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ [لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ] [(٤)] ﴾ الآية .

وهذا سياق غريب ، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه .

وقال محمد بن إسحاق بن يَسار : حدثنى عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن عَبدَ الله بن أبى ــ يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ــ أتـى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبَىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » [(٥)] .

وذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذنَ لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء رسول الله ﷺ ــ وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبدُ الله بن أبىّ ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير فى مسنده : حدثنا سفيان بن عُيَينة ، حدثنا أبو هارون المدنى قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسولُ الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد أن تقتل أبى ، فو الذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى [(٦)] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا

(١) فى م : « حتى صبح » .
(٢) فى م : « فقال » .
(٣) فى م : « لقتلوه » .
(٤) زيادة من م ، أ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٢) .
(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٢٠) .

جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑪ ﴾ .

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَلَهّىَ بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : **﴿وأنفقوا من مَّا رزقْنَاكُم مّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فيقُولَ ربّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مّنَ الصَّالِحين ﴾** ، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال [الله] (١) تعالى: **﴿ وأنذرِ النَّاس يَوْمَ يَأْتيهمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذين ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مّن قَبْلُ مَا لَكُم مّن زَوَالٍ﴾** [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى : **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبّ ارْجِعُون . لَعَلّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠] .

ثم قال تعالى : **﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : **﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾** .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو جَنَاب الكلبى ، عن الضحاك بن مُزاحم ، عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب فيه عليه زكاةٌ ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عباس ، اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار . فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّه وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وأنفقوا من مَّا رزقْنَاكُم مّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ [وَأَكُن مّنَ الصَّالِحين . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا]** (٢) **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير .

ثم قال : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن يحيى بن أبى حَيَّة ــ وهو أبو جناب الكلبى ــ عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، بنحوه (٣) .

ثم قال : وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره ، عن أبى جَنَاب ، عن ابن الضحاك ، عن ابن عباس، من قوله . وهو أصح ، وضعَّف أبا جناب الكلبى .

---

(١) زيادة من أ .

(٢)زيادة من م ،وفى هـ : « إلى قوله » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٦).

قلت : رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا سليمان بن عطاء ، عن مسلمة الجهنى ، عن عمه ــ يعنى أبا مشجعة بن رِبْعِى ــ عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة فى العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة فى العمر أن يرزق الله العبدَ ذُرية صالحة يدعون له ، فليحقه دعاؤهم فى قبره » (١) .

آخر تفسير سورة « المنافقون » (٢) ، ولله الحمد والمنة

---

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٨٥) من طريق الوليد بن عبد الملك، عن سليمان بن عطاء به وسليمان بن عطاء مجمع على ضعفه.

(٢) فى أ :« المنافقين » .

سورة المنافقون[1]

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: حضروا مجلسك ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مؤكِّدين كلامَهم بـ﴿إِنَّ﴾ و"اللام" للإيذان بأنّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوصِ اعتقادهم ووفورِ رغبتهم ونشاطِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اعتراض مقرّر لمنطوق كلامهم وُسِّط بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تحقيقًا وتعيينًا لِما نيط به التكذيب مِن أنّهم قالوه عن اعتقاد كما أشيرَ إليه، وإماطةً مِن أوّل الأمر لِما عسى يُتوهَّم مِن توجّه التكذيب إلى منطوق كلامهم، أي: والله يشهد إنّهم لكاذبون فيما ضمّنوا مقالتهم مِن أنّها صادرة عن اعتقاد وطُمأنينة قلبٍ. / والإظهار في موقع الإضمار لذمّهم والإشعارِ بعلّة الحُكم. [١٩٥ظ]

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الفاجرة التي مِن جملتها ما حُكي عنهم ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقايةً عمّا يتوجّه إليهم مِن المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك. واتّخاذُها جُنّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنّ ذلك متأخِّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتّخاذُ الجُنّة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضًا،

[1] س: المنافقين.

كما يُفصح عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فصدُّوا مَن أراد الدخول في الإسلام بأنّه عليه السلام ليس برسول ومَن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه كما سيُحكى عنهم، ولا ريبَ في أنّ هذا الصدّ منهم متقدِّم على حلفهم بالفعل.

وقُرئ: "إيمَانَهُمْ"،[١] أي: ما أظهروه على ألسنتهم، فاتّخاذُه جُنّةً عبارة عن استعماله بالفعل، فإنّه وقاية دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ﴾ حينئذ: فاستمرُّوا على ما كانوا عليه مِن الصدود والإعراض عن سبيله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن النفاق والصدّ. وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التعجّبِ وتعظيمِ أمرهم عند السامعين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن القول الناعي عليهم أنّهم أسوأ الناس أعمالًا، أو إلى ما وُصف مِن حالهم في النِّفاق والكذب والاستتار بالإيمان الصُّوري. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الشرّ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر مَن يدخل في الإسلام، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ظهر كفرهم بما شُوهد منهم مِن شواهد الكفر ودلائله، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثمّ نطقوا بالكفر عند شياطينهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتّى تمرَّنوا على الكفر واطمأنّوا به. وقُرئ على البناء للفاعل،[٢] وقُرئ: "فَطَبَعَ اللهُ".[٣] ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقّيّته أصلًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٤؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والأعمش وعُبيد بن عُمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٤؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٤.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها ويَروقك منظرهم لصَباحة وجوههم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وذَلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامِهم، وكان ابن أُبيّ جسيمًا فصيحًا / يحضر مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في [١٩٦و]
نفر مِن أمثاله وهم رؤساء المدينة، وكان عليه السلام ومَن معه يُعجَبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم. وقيل: الخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ويؤيِّده قراءة: "يُسْمَعْ"[١] على البناء للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ في حيّز الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو كلام مستأنَف لا محلّ له، شُبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مستندين فيها بخُشب منصوبة مُسنَّدة إلى الحائط في كونهم أشباحًا خاليةً عن العِلم والخير. وقُرئ: "خُشْبٌ"[٢] على أنّه جمع "خَشَبة" كـ"بُدْن" جمع "بَدَنة". وقيل: هو جَمعُ "خَشباء" وهي الخشبةُ التي دَعِر جوفها، أي: فسَد، شُبّهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم.[٣] وقُرئ: "خَشَبٌ"[٤] كـ"مَدَرة" و"مَدَر".

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم ضارّةً لهم لجُبنهم واستقرارِ الرعب في قلوبهم. وقيل: كانوا على وَجَل مِن أن يُنزل الله فيهم ما يهتك أستارهم، ويُبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، فإنّ أعدى الأعادي العدوُّ المكاشِر الذي يُكاشِرك وتحت ضلوعه الداء الدويُّ.

والجملة مستأنَفة، وجَعْلُها مفعولًا ثانيًا للحسبان ممّا لا يُساعده النظم الكريم أصلًا، فإنّ "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم وطلبٌ مِن ذاته تعالى أن يلعنهم ويُخزيهم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عطيّة بن سعيد العَوفي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٠٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيبٌ مِن حالهم، أي: كيف يُصرَفون عن الحقّ إلى ما هم عليه مِن الكفر والضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عطفوها استكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرِضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ كما إذا جاءوك معتذرين مِن جنايتهم. وقُرئ: "اسْتَغْفَرْتَ"[١] بحذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليه. وقُرئ: "آسْتَغْفَرْتَ"[٢] بإشباع همزة الاستفهام، لا بقلب همزة الوصل ألفًا. ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما إذا أصرّوا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار.

[١٩٦ظ] ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبدًا لإصرارهم على الفِسق ورسوخهم في الكفر. / ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الكاملين في الفِسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمِكين في الكفر والنِّفاق. والمراد إمّا هم بأعيانهم، والإظهارُ في موقع الإضمار لبيان غلوّهم في الفِسق، أو الجنسُ وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًّا.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصار ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يعنُون فقراء المهاجرين. استئنافٌ جارٍ مَجرى التعليل لفِسقهم،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الصوفي، والأديب، والعنبري عن أبي بكر، والزهريّ، وثابتٍ الأنطاكيّ عن أبي جعفر. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي جعفر، والخبازي لفضل عنه. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

أو لعدم مغفرته تعالى لهم. وقُرئ: "حَتَّى يُنفِضُوا"[١] مِن "أنفَض القومُ" إذا فنيت أزوادهم، وحقيقتُه: حان لهم أن يُنفضوا مزاودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ردٌّ وإبطال لِما زعموا مِن أنّ عدم إنفاقهم يؤدّي إلى انفضاض الفقراء مِن حوله عليه السلام ببيان أنّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصّة يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشئونه، ولذلك يقولون مِن مقالات الكفر ما يقولون.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ رُوي أنّ جَهْجَاه بن سعيد[٢] أجيرَ عمرَ رضي الله عنه نازع سِنانًا الجُهَنيَّ[٣] حليفَ ابن أُبيّ واقتتلا، فصرخ جَهْجَاه يا لَلمهاجرين وسِنان يا لَلأنصار، فأعان جَهْجَاهًا جِعالٌ مِن فقراء المهاجرين ولطَم سِنانًا، فاشتكى إلى ابن أُبيّ، فقال للأنصار: ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾... إلخ، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ جانبَ المؤمنين.[٤]

وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به، فرُدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله الغلبة والقوّة ولِمن أعزّه الله مِن رسوله والمؤمنين لا لغيرهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٩٥.

٢ هو جهجاه بن سعيد الغفاري، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود. مِن فقراء المهاجرين، وهو أجير لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه. شهد بيعة الرضوان بالحُديبية، وشهد غزوة المُريسيع مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وهو الذي نازع سِنان بن وبر الجُهني يوم المُرَيسيع الدلو وهما يستقيان الماء، والقصّة مذكورة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠٨/٥؛ والإصابة لابن حجر، ٥١٨/١.

٣ هو سِنان الجهني، كان حليفًا في بني سالم مِن الأنصار، شهد المُرَيسيع مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هو الذي نازع جهجاه بن سعيد يومئذ الدلو، وتنادوا بالقبائل. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٦٧/٥.

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦٦٧/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِن فرط جهلِهم وغرورهم فيَهْذون ما يَهْذون. رُوي أنّ عبد الله بن أُبيّ لمّا أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان مخلِصًا، وقال: لئن لم تُقرّ لله ورسوله بالعزّ لأضربنّ عنقك، فلمّا رأى منه الجِدّ قال: أشهد أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، / فقال [١٩٧و] النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ⑨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمامُ بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتّع بها عن الاشتغال بذِكره عزّ وجلّ مِن الصلاة وسائرِ العبادات المذكِّرة للمعبود. والمراد نهيُهم عن التلهّي بها، وتوجيهُ النهي إليها للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾... إلخ، [المائدة، ٥/٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: التلهّي بالدنيا مِن الدِّين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ⑩﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم تفضّلًا مِن غير أن يكون حصوله مِن جهتكم ادّخارًا للآخرة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويُعاين أماراته ومخايله. وتقديمُ المفعول على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بما قُدّم والتشويق إلى ما أُخّر. ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقُّنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ أي: أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمدٍ قصير ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بالنصب على جواب التمنّي. وقُرئ: "فَأَتَصَدَّقَ".[١] ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم عطفًا

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٦.

على محلّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنّه قيل: إن أخّرتني أصّدّق وأكن. وقُرئ: "وَأَكُونَ"[١] بالنصب عطفًا على لفظه، وقُرئ: "وَأَكُونُ"[٢] بالرفع، أي: وأنا أكون، عِدَةً منه بالصلاح.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ أي: ولن يمهلها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: آخرُ عمرها، أو انتهى إن أريدَ بالأجل الزمان الممتدّ مِن أوّل العمر إلى آخره. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجازٍ لكم عليه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، فسارعوا في الخيرات واستعدُّوا لِما هو آت. وقُرئ: "يَعْمَلُونَ"[٣] بـ"الياء" التحتانيّة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المنافقين برئ مِن النِّفاق».[٤]

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٠/٢٦ (المنافقون، ١/٦٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٠٢/٤ (المنافقون، ١/٦٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤١٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٣

سُورَةُ المُنَافِقُون

مدنية، إحدى عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا جاءَكَ المُنافِقُونَ قالُوا﴾ بألسنتهم على خِلاف ما في قُلوبهم: ﴿نَشهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ـ واللهُ يَعلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ـ واللهُ يَشهَدُ﴾: يعلم ﴿إنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ فيما أضمروه مُخالفًا لما قالوه، ٢ ـ ٣ ـ ﴿اتَّخَذُوا أيمانَهُم جُنَّةً﴾: سُترة عن أموالهم ودمائهم، ﴿فصَدُّوا﴾ بها ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: عن الجهاد فيهم. ﴿إنَّهُم ساءَ ما كانُوا يَعمَلُونَ! ذلِكَ﴾ أي: سُوءُ عملهم ﴿بِأنَّهُم آمَنُوا﴾ باللسان، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بالقلب، أي: استمرّوا على كُفرهم به، ﴿فطُبِعَ﴾: خُتم ﴿علَى قُلُوبِهِم﴾ بالكُفر، ﴿فهُم لا يَفقَهُونَ﴾ الإيمانَ.

٤ ـ ﴿وإذا رأيتَهُم تُعجِبُكَ أجسامُهُم﴾ لجمالها،..................................

سُورَةُ المُنَافِقُون

قولُهُ: (بِهَا) صدًّا، أو صدوداً؛ أي: منعاً، أو إعراضاً.

قولُهُ: (أي: عَنِ الجِهَادِ) أو عن دينِهِ.

قولُهُ: (أي: سُوءُ عَمَلِهِم) أي: ذلك القولُ الشَّاهدُ على سوءِ أعمالِهِم.

قولُهُ: (بالكُفرِ) حتَّى استَحكَموا فيه.

قولُهُ: (الإِيمَانَ) أي: حقيقتَهُ وصحَّتَهُ.

قولُهُ: (لِجَمَالِهَا) وضخامَتِها.

﴿وإن يَقُولُوا تَسمَعْ لِقَولِهِم﴾ لفصاحته. ﴿كأنَّهُم﴾ من عِظَمِ أجسامهم في ترك التفهّم ﴿خُشْبٌ﴾ - بسكون الشين وضمّها - ﴿مُسَنَّدةٌ﴾: مُمالة إلى الجِدار، ﴿يَحسِبُونَ كُلَّ صَيحةٍ﴾ تُصاحُ كنِداء في العسكر وإنشاد ضالّة ﴿علَيهِم﴾ لِما في قلوبهم من الرُّعب، أن ينزل فيهم ما يُبيح دماءهم. ﴿هُمُ العَدُوُّ. فاحذَرْهُم﴾ فإنهم يُفشون سِرّك للكُفّار. ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ﴾: أهلكَهم. ﴿أنّى يُؤفَكُونَ﴾: كيف يُصرفون عن الإيمان بعد قيام البُرهان؟

٥ - ٦ - ﴿وإذا قِيلَ لَهُم: تَعالَوا﴾ مُعتذِرِينَ، ﴿يَستَغفِرْ لَكُم رَسُولُ اللهِ. لَوَّوْا﴾، بالتشديد والتخفيف: عطفوا ﴿رُؤُوسَهُم، ورأيتَهُم يَصُدُّونَ﴾: يُعرِضُونَ عن ذلك، ﴿وهُم مُستكبِرُونَ. سَواءٌ علَيهِم أستَغفَرتَ لَهُم﴾ - استُغنِيَ بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل - ﴿أم لَم تَستَغفِرْ لَهُم. لَن يَغفِرَ اللهُ لَهُم. إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقِينَ﴾.

٧ - ٨ - ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لِأصحابهم من الأنصار: ﴿لا تُنفِقُوا علَى مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾ من المُهاجرين ﴿حَتَّى يَنفَضُّوا﴾: يتفرّقوا عنه - ﴿ولِلهِ خَزائنُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ بالرزق، ....

قولُهُ: (لِفَصَاحَتِهِ) وحلاوتِهِ.

قولُهُ: (فِي تَرْكِ التَّفَهُّمِ) أي: في كونِهِم أشباحاً خاليةً عن العلمِ والنَّظرِ.

قولُهُ: (بِسُكُونِ الشِّينِ) قنبلٌ وبصريٌّ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (مُمَالَةٌ) لا هي مركَّبةٌ في البناءِ، ولا مغروسةٌ فينتفعُ بها.

قولُهُ: (أَهلَكَهُم) دعاءً عليهم، وهو طلبٌ من ذاتِهِ تعالى أن يلعنَهُم، أو تعليمٌ للمؤمنينَ أن يَدعوا عليهِم بذلك.

قولُهُ: (بالتَّخْفِيفِ) نافعٌ[2].

قولُهُ: (عَطَفُوا) إعراضاً واستكباراً.

قولُهُ: (عَن ذَلِكَ) أي: الاستغفارِ، وهم مستكبِرونَ عن الاعتذارِ.

قولُهُ: (عَن هَمزَةِ الوَصلِ) بل حُذِفَت في الدَّرجِ كما هو شَأنُها، لا لخصُوصِ همزَةِ الاستفهامِ.

قولُهُ: (مِنَ المُهَاجِرِينَ) أي: فقرائِهِم.

قولُهُ: (بالرِّزقِ) أي: بيدِهِ الأرزاقُ والقسمُ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) انظر المصدر السابق.

فهو الرازق للمُهاجرين وغيرهم، ﴿ولكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَفقَهُونَ ـ يَقُولُونَ: لَئِنْ رَجَعْنا﴾ أي: من غزوة بني المُصطلِق، ﴿إلَى المَدِينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ﴾: عنَوا به أنفُسَهم ﴿مِنها الأذَلَّ﴾: عنَوا به المُؤمنين. ﴿ولِلهِ العِزَّةُ﴾: الغلبةُ ﴿ولِرَسُولِهِ ولِلمُؤمِنِينَ، ولكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك.

٩ ـ ١٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تُلْهِكُم﴾: تَشغَلْكم ﴿أموالُكُم ولا أولادُكُم عَن ذِكرِ اللهِ﴾: الصلوات الخمس ـ ﴿ومَن يَفعَلْ ذلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ ـ وأنفِقُوا﴾ في الزكاة ﴿مِمّا رَزَقْناكُم مِن قَبلِ أن يأتِيَ أحَدَكُمُ المَوتُ، فيَقُولَ: رَبِّ، لَولا﴾ ـ بمعنى: هلاّ، أو لا: زائدة ولو: للتمنّي ـ ﴿أخَّرتَنِي إلَى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّقَ﴾، بإدغام التاء في الأصل في الصاد: أتَصَدّق بالزكاة، ﴿وأكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ﴾، بأن أحُجّ. قال ابن عبّاس: ما قصّر أحد في الزكاة والحجّ إلاّ سأل الرجعةَ عِند الموت.

١١ ـ ﴿ولَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إذا جاءَ أجَلُها، واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُونَ﴾، بالتاء والياء.

قولُهُ: (أي: مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ) قصّتُها مذكورةٌ في الكتبِ المبسوطةِ.

قولُهُ: (أَنْفُسَهُم) أو خسيسَهُم.

قولُهُ: (المُؤْمِنِينَ) أو رئيسَهُم.

قولُهُ: (الغَلَبَةُ) والقوَّةُ، ولمن أعزَّهُ.

قولُهُ: (ذلِكَ) مِن فرطِ جهلِهِم، وغايةِ غرورِهِم.

قولُهُ: (الصَّلوَاتِ) أي: تدبيرِها والاهتمامِ بها عن ذكرِهِ؛ كالصَّلواتِ وسائرِ العباداتِ المذكِّرة للمعبودِ، والمرادُ: نهيُهم عن اللَّهوِ بها، وتوجيهُ النَّهي إليها للمُبالغةِ، فإنَّها غالباً تُلهي.

قولُهُ: (في الزَّكَاةِ) أي: بعضَ أموالِكُم ادِّخاراً للآخرةِ.

قولُهُ: (هَلَّا) وهو تحضيضٌ، أو عرضٌ، أو تقديمٌ.

قولُهُ تعالى: (وأَكُونَ) بالنَّصبِ بصريٌّ[1] عطفاً على: ﴿أَصَّدَّقَ﴾، والجمهورُ على جزمِ: ﴿أَكُنْ﴾ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَها، ويُسَمَّى العطفَ على المعنى.

قولُهُ: (والياءِ) شعبةُ[2]؛ ليوافقَ ما قبلَهُ في الغيبةِ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) انظر المصدر السابق.

سُورَةُ المنَافِقُونَ

مدنيَّةٌ، وعدد آياتها إحدى عشرةَ آيةً بلا خلاف.

ووجهُ اتصالها أنَّ سورةَ الجمعة ذُكِرَ فيها المؤمنون، وهذه ذُكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون، ولهذا أخرج سعيد بن منصور والطبرانيُّ في «الأوسط» بسندٍ حَسَنٍ عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأُ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيُحرِّضُ بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيُقرِّعُ بها المنافقين[(١)].

وقال أبو حيان في ذلك: إنه لَمَّا كان سببُ الانفضاض عن سماع الخطبة ربَّما كان حاصلاً عن المنافقين، واتَّبعهم ناسٌ كثيرٌ من المؤمنين في ذلك؛ لسرورهم بالعِير التي قَدِمَتْ بالمِيْرة؛ إذ كان الوقتُ وقتَ مجاعةٍ، جاء ذِكْرُ المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان، وأتبع بقبائح أفعالهم وأقوالهم[(٢)]. والأولُ أولى.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: حضروا مجلسكَ، والمرادُ بهم عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ التأكيدُ بـ «إنَّ» واللام لِلَازِم فائدة الخبر، وهو عِلْمُهم بهذا الخبر المشهود به، فيفيد تأكيدَ الشهادة، ويدلُّ على ادِّعائهم فيها المواطأةَ، وإن كانت في نفسها تقعُ على الحقِّ والزور.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٢، والطبراني في الأوسط (٩٢٧٥).

وجاء في مطبوع الطبراني، وكذا في مجمع الزوائد ٢/ ١٩١: فيُفزِعُ. بدل: فيُقرِّع.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٧١.

والتأكيد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لمزيد الاعتناء حقيقةً بشأن الخبر، أو: ليس إلا ليوافقَ صنيعَهم، وجِيءَ بالجملة اعتراضاً لإماطة ما عسى أن يُتوهَّمَ من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ من رجوع التكذيب إلى نفس الخبر المشهود به من أول الأمر، وذكر الطِّيبيُّ أنَّ هذا نوعٌ من التتميم لطيفُ المسلك، ونظيره قول أبي الطيب:

وتحتقرُ الدنيا احتقارَ مُجرِّبٍ ترى كلَّ ما فيها وحاشاكَ فانياً[(١)]

فالتكذيبُ راجعٌ إلى «نشهد» باعتبار الخبر الضِّمني الذي دلَّ عليه التأكيدُ، وهو دعوى المواطأة في الشهادة، أي: والله يشهدُ إنهم لكاذبون فيما ضمَّنوه قولهم: «نشهد» من دعوى المواطأة وتَوَافُقِ اللسان والقلب في هذه الشهادة.

وقد يقال: الشهادةُ خبرٌ خاصٌّ، وهو ما وافقَ فيه اللسانُ القلبَ، وأما شهادةُ الزور فتجوز كإطلاق البيع على غير الصحيح، فهم كاذبون في قولهم: «نشهد» المتفرِّعِ على تسمية قولهم ذلك شهادة، وهو مرادُ من قال: أي: لكاذبون في تسميتهم ذلك شهادةً، فلا تغفل.

وعلى هذا لا يحتاجُ في تحقُّق كَذِبهم إلى ادِّعائهم المواطأةَ ضِمْناً؛ لأنَّ اللفظَ موضوعٌ للمواطِئ، وجُوِّز أن يكونَ التكذيبُ راجعاً إلى قولهم: «إنك لرسول الله» باعتبار لازم فائدة الخبر، وهو بمعنى رجوعه إلى الخبر الضمني، وأن يكون راجعاً إليه باعتبار ما عندهم، أي: لكاذبون في قولهم: «إنك لرسول الله» عند أنفسهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنه كَذِبٌ وخبرٌ على خلاف ما عليه حالُ المخبَر عنه، قيل: وعلى هذا، الكذبُ هو الشرعيُّ اللاحقُ به الذَّمُّ، ألا ترى أنَّ المجتهدين لا يُنسَبونَ إلى الكذب، وإن نُسِبوا إلى الخطأ.

وجوَّزَ العلامة الثاني أن يكون التكذيبُ راجعاً إلى حلف المنافقين، وزَعْمِهم[(٢)] أنهم لم يقولوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، و: لئن

(١) ديوان المتنبي ٤/ ٤٢٧.
(٢) في (م): وزعموا.

رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل؛ لما ذُكِرَ في «صحيح البخاري»[١] عن زيد بن أرقم أنه قال: كنت في غزاةٍ مع رسول الله ﷺ فسمعتُ عبدَ الله بن أبيٍّ بن سلول يقول: لا تُنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله، ولو رَجَعنا من عنده ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكره لنبيِّ الله ﷺ، فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه، فحلفوا أنهم ما قالوا. فكذَّبني رسولُ الله ﷺ وصَدَّقه، فأصابني هَمٌّ لم يُصبني مثلُهُ قَطّ، فجلستُ في البيت، فقال لي عمِّي: ما أردتَ إلى أنْ كذَّبك رسول الله ﷺ ومَقَتك. فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ، فقرأ فقال: «إنَّ الله صَدَّقك يا زيد».

وجوَّزَ بعضُ الأفاضل أن يكونَ المعنى: إنَّ المنافقينَ شأنُهم الكذب، وإن صَدَقوا في هذا الخبر. وأيًّا ما كان فلا يتمُّ للنَّظَّام الاستدلالُ بالآية على أنَّ صِدْقَ الخبر مطابقتُهُ لاعتقاد المخبِر، ولو كان ذلك الاعتقادُ خطأً، وكَذِبَهُ عدمُها.

وإظهارُ المنافقين في موقع الإضمار لِذَمِّهم، والإشعار بعلَّة الحكم، والكلامُ في «إذا» على نحو ما مرَّ آنفاً.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: الكاذبة على ما يشير إليه الإضافة ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقايةً عمَّا يتوجَّه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبي أو غير ذلك. قال قتادة: كلَّما ظهرَ على شيءٍ منهم يُوجب مؤاخذتهم، حَلَفوا كاذبينَ عِصْمةً لأموالهم ودمائهم، وهذا كلامٌ مستقلٌّ تعداداً لقبائحهم، وأنهم من عادتهم الاستجنان بالأيمان الكاذبة، كما استَجَنُّوا بالشهادة الكاذبة. ويجوزُ أن يُرادَ بأيمانهم شهادتهم السابقة؛ والشهادةُ وأفعالُ العلم واليقين أَجْرَتْها العربُ مجرى القَسَم؛ وتلقَّتها بما يُتلقَّى القَسَمُ، ويؤكَّدُ بها الكلامُ كما يُؤكَّدُ به، فلهذا يُطلَقُ عليها اليمين، وبهذا استشهد أبو حنيفة على أنَّ: أشهد، يمين. واعترضه ابن المنير[٢] بأنَّ غايةَ ما في الآية أنه سُمِّي يميناً، والكلامُ في وجوب الكفارة بذلك، لا في إطلاق الاسم، وليس كلُّ ما يُسمَّى يميناً

---

(١) برقم (٤٩٠٠) و(٤٩٠١) و(٤٩٠٤)، وهو عند أحمد (١٩٣٣٣).

(٢) الإنصاف ٤/ ١٠٨.

تجبُ فيه الكفارة، فلو قال: أحلفُ على كذا. لا تجبُ عليه الكفارة، وإن كان حلفاً. والجمعُ باعتبار تعدُّد القائلين، والكلامُ على هذا استئنافٌ يدلُّ على فائدة قولهم ذلك عندهم، مع الذَّمِّ البالغ بما عقبه.

وقيل: إنَّ «اتخذوا» جواب «إذا»، وجملة «قالوا» السابقة في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه. وهو خلافُ الظاهر، وأبعدُ منه جَعْلُ الجملة حالاً، وتقديرُ جوابٍ لـ «إذا».

وقال الضحاك: أي: اتَّخذوا حَلِفَهم بالله إنهم لمنكم جُنَّةً عن القتل أو السبي، أو نحوهما مما يُعامَلُ به الكفار. ومن هنا أخذ الشاعر قوله:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لِصَوْنِ دمائهم أن لا تُسالا[1]

وعن السُّدِّي أنهم اتخذوا ذلك جُنَّةً من تَرْكِ الصلاة عليهم إذا ماتوا، وهو كما ترى وكذا ما قبله.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ أراد الدخولَ في دين الإسلام؛ أو مَنْ أراد فِعْلَ طاعةٍ مطلقاً، على أنَّ الفعلَ متعدٍّ والمفعولَ محذوفٌ، أو: أعرضوا عن الإسلام حقيقةً، على أنَّ الفعلَ لازمٌ، وأيًّا ما كان فالمراد ـ على ما قيل ـ استمرارُهم على ذلك.

وحَمَلَ بعضُ الأجلَّة الأيمانَ على ما يعمُّ ما حكي عنهم من الشهادة، ثم قال: واتخاذها جُنَّةً عبارةٌ عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها، ويتخلَّصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنَّ ذلك متأخِّرٌ عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتخاذُ الجُنَّةِ لا بدَّ أن يكونَ قبل المؤاخذة، وعن سببها[2] أيضاً كما يُفصِحُ عنه الفاء في «فصدُّوا» أي: مَنْ أرادَ الإسلامَ، أو الإنفاقَ كما سيُحكى عنهم، ولا ريب في أنَّ هذا الصَّدَّ متقدِّمٌ على حَلِفهم. وقرئ ـ أي: قرأ الحسن ـ: «إيمانهم» بكسر الهمزة[3]، أي: الذي أظهروه على ألسنتهم،

---

(١) البيت في البحر المحيط ٨/ ٢٧١ دون نسبة.

(٢) أي: ومتأخر عن سببها.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحتسب ٢/ ٣٢٢، والكلام من تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٢.

فاتخاذهُ جُنَّةً عبارةٌ عن استعماله بالفعل، فإنه وقايةٌ دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: «فصدوا»: فاستمرُّوا على ما كانوا عليه من الصُّدود والإعراض عن سبيله تعالى. انتهى، وفيه ما يُعرَفُ بالتأمُّلِ، فتأمل.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ من النفاق وما يتبعه، وقد مرَّ الكلام في «ساء» غيرَ مرَّةٍ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من القول الناعي عليهم أنهم أسوأُ الناس أعمالاً، أو إلى ما ذُكِرَ من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان الفاجرة، أو الإيمان الصُّوري، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه؛ لما مرَّ مراراً من الإشعار في مثل هذا المقام ببعد منزلته في الشَّرِّ، وجوَّزَ ابن عطية كونه إشارة إلى سوء ما عملوا، فالمعنى: ساء عملهم[1] ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر مَنْ يدخل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ ظهر كُفْرهم وتبيَّنَ بما اطَّلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمدٌ حقًّا فنحن حمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمعُ هذا الرجل أن تُفتَحَ له قصورُ كسرى وقيصر، هيهات. وغير ذلك. و«ثم» على ظاهرها، أو لاستبعاد ما بين الحالين. أو: ثم أَسرُّوا الكفرَ، ف «ثم» للاستبعاد لا غير. أو: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. وقيل: الآيةُ في أهل الردة منهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى يموتوا على الكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ حقيقة الإيمان أصلاً.

وقرأ زيد بن علي «فَطَبع» بالبناء للفاعل[2]، وهو ضميره تعالى، وجُوِّزَ أن يكون ضميراً يعودُ على المصدر المفهوم مما قبل، أي: فَطَبع هو، أي: تلعابُهم بالدين.

وفي روايةٍ أنه قرأ: «فَطَبع الله» مصرِّحاً بالاسم الجليل، وكذا قرأ الأعمش[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩، والبحر ٨/ ٢٧١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحرر ٥/ ٣١٢، والبحر ٨/ ٢٧٢.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لصَبَاحَتها وتَنَاسُبِ أعضائها ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، وحلاوة كلامهم، وكان ابن أبيٍّ جسيماً فصيحاً يحضُر مجلس رسول الله ﷺ في نفرٍ من أمثاله كالجَدِّ بن قيس، ومُعتِّب بن قُشير، فكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يَعجبون من هياكلهم، ويسمعون لكلامهم.

والخطابُ قيل: لكلِّ مَنْ يصلحُ له، وأُيِّدَ بقراءة عكرمة وعطية العوفي: «يُسْمَعْ» بالياء التحتية والبناء للمفعول[١]. وقيل: لسيِّد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وهذا أبلغُ على ما في «الكشف» لأنَّ أجسامهم إذا أعجبته ﷺ فأولى أن تُعجِبَ غيره؛ وكذا السماعُ لقولهم، وليوافق قوله تعالى: «إذا جاءك».

والسماعُ مُضمَّنٌ معنى الإصغاء، فليستِ اللامُ زائدةً.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لذمِّهم، لا محلَّ له من الإعراب؛ وجُوِّزَ أن يكون في حَيِّز الرفع، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم كأنهم.. إلخ؛ والكلامُ مستأنفٌ أيضاً. وأنت تعلم أنَّ الكلامَ صالحٌ للاستئناف من غير تقدير، فلا حاجةَ إليه.

وقيل: هو في حَيِّز النَّصْبِ على الحال من الضمير المجرور في «القولهم»، أي: تسمع لما يقولونَ مُشبَّهين بخُشُبٍ مُسنَّدةٍ كما في قوله:

فقلت عسى أن تُبصريني كأنما ... بَنِيَّ حواليَّ الأُسُودُ الحَوارِدُ[٢]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، والبحر ٨/ ٢٧٢.
وجاء في مطبوع القراءات الشاذة ص١٥٧: «تسمع» من غير تقييد.

(٢) في الأصل: الخوادر، وفي (م): الحوادر. وكلاهما غلط. والمثبت من دلائل الإعجاز ص٢١١، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٠٤.
والبيت للفرزدق وهو في ديوانه ص١٤٦ وفيه: اللوابد، بدل: الحوارد. قال الشيخ محمود محمد شاكر في تعليقه على الدلائل: وهي ـ أي: رواية الديوان ـ أصح الروايتين وأولاها بهذا الشعر، ورواية أكثر كتب البلاغة كما هنا (يعني الدلائل)، والحوارد: الغضاب، واللوابد: جمع لابد، وهو الأسد.

وتُعقِّبَ بأنَّ الحاليةَ تفيدُ أنَّ السماعَ لقولهم لأنهم كالخُشُبِ المسنَّدة. وليس كذلك.

و«خُشُب» جمعُ خَشَبة كَثَمرةٍ وثُمُر، والمراد به ما هو المعروفُ، شُبِّهوا في جلوسهم [في][1] مجالس رسول الله ﷺ مستندين فيها، وما هم إلا أجرامٌ خاليةٌ عن الإيمان والخير، بخُشُبٍ منصوبةٍ مُسنَّدةٍ إلى الحائط في كونهم أشباحاً خاليةً عن الفائدة؛ لأنَّ الخُشُبَ تكونُ مُسنَّدةً إذا لم تكن في بناءٍ أو دعامة بشيءٍ آخر.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالخُشُبِ المسنَّدةِ الأصنامُ المنحوتةُ من الخُشُبِ المسنَّدة إلى الحيطان، شُبِّهوا بها في حُسْنِ صُوَرِهم وقِلَّة جَدْواهم، وفي مثلهم قال الشاعر:

لا يَخْدَعَنْكَ اللِّحى ولا الصّورُ ... تسعةُ أعشارِ مَن تَرَى بقرُ
تراهمُ كالسَّحاب منتشراً ... وليس فيها لطالبٍ مطرُ
وفي شجر السّرو منهمُ شَبَهٌ ... له رَواءٌ وما له ثمرُ[2]

وقرأ البراء بن عازب، والنحويان، وابن كثير: «خُشْبٌ» بإسكان الشين[3]، تخفيف «خُشُب» المضموم، ونظيره: بَدَنة وبُدْن. وقيل: جمع خشباء، كحُمْرٍ وحَمْراء، وهي الخشبةُ التي نُخِرَ جوفُها، شُبِّهوا بها في فساد بواطنهم لنفاقهم. وعن اليزيديِّ حَمْلُ قراءة الجمهور بالضَّمِّ على ذلك، وتُعقِّبَ بأنَّ: فعلاء، لا يُجمَعُ على: فُعُلٍ، بضمَّتين، ومنه يُعلَمُ ضَعْفُ القيل؛ إذ الأصلُ تَوَافُقُ القراءات.

وقرأ ابن عباس وابن المسيب وابن جبير: «خَشَبٌ» بفتحتين، كَمَدَرةٍ ومَدَر، وهو اسمُ جنسٍ على ما في «البحر»[4]، وَوَصْفُهُ بالمؤنَّثِ كما في قوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعة عليهم ضارَّة لهم؛ لجُبْنهم وهَلَعهم،

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٢، والكلام منه.
(٢) الأبيات لابن لنكك محمد بن محمد البصري، وهي في يتيمة الدهر ٢/ ٤١٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٢.
(٣) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٢١٦، والبحر ٨/ ٢٧٢.
(٤) ٨/ ٢٧٢، وينظر الكشاف ٤/ ١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

فكانوا كما قال مقاتل: متى سمعوا بِنِشْدان ضالَّةٍ، أو صياحاً بأيٍّ وجهٍ كان، طارت عقولهم، وظنُّوا ذلك إيقاعاً بهم، وقيل: كانوا على وَجَلٍ من أن يُنزلَ الله عزَّ وجلَّ فيهم ما يَهتِكُ أستارهم، ويُبيح دماءهم وأموالهم؛ ومنه أخذ جريرٌ قوله يُخاطِبُ الأخطل:

ما زلتَ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهم خيلاً تكرُّ عليهم ورجالا[1]

وكذا المتنبي قوله:

وضاقتِ الأرضُ حتى ظنَّ هاربهم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّهُ رَجُلا[2]

والوقف على «عليهم» الواقع مفعولاً ثانياً لـ «يحسبون»، وهو وقفٌ تامٌّ كما في الكواشي، وعليه كلام الواحديّ.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ استئنافٌ، أي: هم الكاملون في العداوة، والراسخون فيها، فإنَّ أعدى الأعادي العدوُّ المداجي، الذي يكاشرك[3] وتحت ضلوعه الداءُ الدويُّ، ككثيرٍ من أبناء الزمان ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لكونهم أعدى الأعادي، ولا تغترَّنَّ بظاهرهم.

وجوَّزَ الزمخشريُّ كونَ «عليهم» صلة «صيحة»، و«هم العدو» المفعول الثاني لـ «يحسبون» كما لو طرح الضمير، على معنى أنهم يحسبون الصيحةَ نفسَ العَدُوِّ[4]. وكان الظاهر عليه: هو أو هي العدوّ، لكنه أتى بضمير العقلاء المجموع لمراعاة معنى الخبر، أعني: العدوّ، بناءً على أنه يكون جمعاً ومفرداً، وهو هنا جمعٌ. وفيه أنه تخريجٌ متكلَّفٌ بعيدٌ جدًّا لا حاجة إليه، وإن كان المعنى عليه لا يخلو عن بلاغةٍ ولطف، ومع ذلك لا يساعد عليه ترتُّبُ «فاحذرهم»؛ لأنَّ التحذيرَ منهم يقتضي وَصْفَهم بالعداوة لا بالجبن.

---

(١) ديوان جرير ١/ ٥٣.

(٢) البيت في ديوانه ٣/ ٢٨٧.

(٣) الكَشْر: في الأسنان يكون في الضحك وغيره. القاموس المحيط (كشر).

(٤) الكشاف ٤/ ١٠٩.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لَعنَهم وطردهم، فإنَّ القتلَ قُصارى شدائد الدنيا وفظائعها، وكذلك الطردُ عن رحمة الله تعالى والبعدُ عن جنابه الأقدس منتهى عذابه عزَّ وجلَّ، وغاية نكاله جلَّ وعلا في الدنيا والآخرة. والكلامُ دعاءٌ وطَلَبٌ من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى، وهو من أسلوب التجريد، فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير؛ لأنه يفوتُ به نضارةُ الكلام، أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، فهو على معنى: قولوا: قاتلهم الله.

وجُوِّز أن لا يكونوا من الطلب في شيءٍ، بأن يكونَ المرادُ أنَّ وقوعَ اللَّعْنِ بهم مقرَّرٌ لا بدَّ منه. وذكر بعضُهم أنَّ «قاتله الله» كلمةُ ذَمٍّ وتوبيخ، وتستعملها العربُ في موضع التعجُّب من غير قَصْدٍ إلى لعن، والمشهورُ تعقيبها بالتعجُّب نحو: قاتله الله ما أشعره، وكذا قوله سبحانه هنا: «قاتلهم الله».

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ وهذا تعجيبٌ من حالهم، أي: كيف يُصرَفون عن الحقِّ إلى ما هم عليه من الكفر والضلال؟! فـ «أنَّى» ظرفٌ متضمِّنٌ للاستفهام، معمولٌ لما بعده، وجوَّز ابنُ عطيةَ كونه ظرفاً لـ «قاتلهم» وليس هناك استفهام[1]. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «أنَّى» لا تكونُ لمجرَّدِ الظرفية أصلاً، فالقول بذلك باطل[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عَطَفوها، وهو كنايةٌ عن التكبُّر والإعراض على ما قيل؛ وقيل: هو على حقيقته، أي: حرَّكوها استهزاءً، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج[3].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرضون عن القائل، أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ عن ذلك.

روي أنه لما صدَّق الله تعالى زيدَ بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبيّ، مَقَتَ الناسُ ابنَ أبيٍّ، ولامه المؤمنون من قومه، وقال بعضُهم له: امضِ إلى رسول الله ﷺ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٧٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٤.

واعترف بذنبك، يستغفر لك. فلوَّى رأسه إنكاراً لهذا الرأي، وقال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنت، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاةَ مالي ففعلت، ولم يبقَ لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ﷺ(١).

وفي حديثٍ أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن جبير أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «تب»، فجعل يلوي رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إلخ(٢).

وفي حديثٍ أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد، بعد نقل القصة إلى أن قال: حتى أنزل الله تعالى تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ما نصُّه: فدعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فَلوَّوْا رؤوسهم(٣).

فَجَمْعُ الضمائر: إما على ظاهره، وإما من باب: بنو تميمٍ قتلوا فلاناً، و«إذا» على ما مرَّ، و«يستغفر» مجزومٌ في جواب الأمر، و«رسول الله» فاعلٌ له، والكلام ـ على ما في «البحر»(٤) ـ من باب الإعمال؛ لأنَّ «رسول الله» يطلبه عاملان: «يستغفر» و«تعالوا»، فأُعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة، ولو أُعمل الأولُ لكان التركيبُ: تعالوا يستغفرْ لكم إلى رسول الله.

وجملة «يصدُّون» في موضع الحال، وأتت بالمضارع ليدلَّ على الاستمرار التجدُّدي، ومثلها في الحالية جملةُ: «هم مستكبرون».

وقرأ مجاهدٌ ونافعٌ وأهلُ المدينة، وأبو حيوة وابن أبي عبلة والمفضل، وأبان عن عاصم، والحسن ويعقوب بخلافٍ عنهما: «لَوَوْا» بتخفيف الواو(٥)، والتشديدُ في قراءة باقي السبعة للتكثير.

---

(١) عزاه ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٢ للثعلبي.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٤.

(٣) أحمد (١٩٣٣٤)، والبخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، والترمذي (٣٣١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٤).

(٤) ٨/ ٢٧٣.

(٥) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن نافع وروح (راوية يعقوب)، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٣.

ولمَّا نعى سبحانه عليهم إباءهم عن الإتيان ليستغفر لهم رسول الله ﷺ وإعراضَهم واستكبارَهم، أشارَ عزَّ وجلَّ إلى عدم فائدة الاستغفار لهم ـ لِمَا عَلِمَ سبحانه من سوء استعدادهم واختيارهم ـ بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فهو للتسوية بين الأمرين؛ الاستغفار لهم وعدمه، والمراد الإخبارُ بعدم الفائدة كما يُفصِحُ عنه قوله جلَّ شأنه: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وتعليلُهُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح، المنهمكين لسوء استعدادهم بأنواع القبائح، فإنَّ المغفرةَ فرعُ الهداية. والمراد بهؤلاء القوم إما المحدَّثُ عنهم بأعيانهم، والإظهارُ في مقام الإضمار لبيان غُلُوِّهم في الفسق؛ والإشارة إلى عِلَّة الحكم، أو الجنس، وهم داخلون دخولاً أوَّليًّا.

والآيةُ في ابن أُبيٍّ كسوابقها كما سمعت، ولواحقها كما صحَّ وستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى، والاستغفار لهم قيل: على تقدير مجيئهم تائبين معتذرين من جناياتهم، وكأن ذلك قد اعتُبر في جانب الأمر الذي جُزِمَ في جوابه الفعلُ، وإلا فمجرَّدُ الإتيان لا يَظْهَرُ كونُه سبباً للاستغفار، ويُومئُ إليه قوله ﷺ في خبر ابن جبير لابن أُبيٍّ: «تب». وترك الاستغفار على تقدير الإصرار على القبائح والاستكبار وتَرْكِ الاعتذار، وحيث لم يكن منهم توبةٌ لم يكن منه عليه الصلاة والسلام استغفارٌ لهم.

وحكى مكِّي أنه ﷺ استغفرَ لهم لأنهم أظهروا له الإسلام، أي: بعد ما صَدَرَ منهم ما صَدَرَ بالتوبة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت آيةُ «براءة»: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ﴾ [التوبة: ٨٠] إلخ، قال النبيُّ ﷺ: «أسمعُ ربِّي قد رخَّصَ لي فيهم، فواللهِ لأستغفرنَّ لهم أكثرَ من سبعين مرة، لعلَّ الله أن يغفر لهم» فنزلت هذه الآية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ إلخ[1].

(١) تفسير الطبري ١١/٦٠١.

وأخرج أيضاً عن عروةَ نحوه[١]، وإذا صحَّ هذا لم يتأتَّ القولُ بأنَّ «براءةَ» بأسرها آخرُ ما نزل، ولا ضرورةَ تدعو لالتزامه إلا إن صحَّ نقلٌ غيرُ قابلٍ للتأويل. ولعلَّ هذه الآيةَ إشارةٌ منه تعالى لنبيِّه ﷺ إلى أنَّ المراد بالعدد هناك التكثير دون التحديد؛ ليكونَ حكمُ الزائد مخالفاً لحكم المذكور، فيكون المراد بالآيتين عند الله تعالى واحداً، وهو عدمُ المغفرة لهم مطلقاً. والآيةُ الأولى - فيما أختار - نزلتْ في اللَّامِزين كما سمعتَ هناك عن ابن عباس[٢]، وهو الأوفقُ بالسباق، وهذه نزلتْ في ابن أُبيٍّ وأصحابه كما نطقت به الأخبار الصحيحة، ويجمعُ الطائفتين النفاق، ولذا قال ﷺ ما قال مع اختلاف أعيان الذين نزلتا فيهم.

ثم إني لم أقف في شيءٍ مما أعوِّلُ عليه على أنَّ ابنَ أُبيٍّ كان مريضاً إذ ذاك، ورأيتُ في خبرٍ أخرجه عبد بن حميد عن ابن سيرين ما يُشعر بأنه بعد قوله: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، بأيامٍ قلائلَ اشتكى واشتدَّ وَجَعُهُ، وفيه أنه قال للنبيِّ ﷺ وقد ذَهَبَ إليه بشفاعةِ ولده: حاجتي إذا أنا مِتُّ أن تشهد غسلي وتكفيني في ثلاثة أثوابٍ من أثوابك، وتمشي مع جنازتي، وتُصلِّي عليَّ. ففعل ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٣] [التوبة: ٨٤].

ولا يُشْكِلُ الاستغفارُ إن كان قد وقع لأحدٍ من المنافقين بعد نزول ما يفيد كونه تعالى لا يهدي القومَ الفاسقين؛ إذ لا يتعيَّنُ اندراجُ كلٍّ منهم إلا بتبيُّن أنه بخصوصه من أصحاب الجحيم، كأنْ يموتَ على ما هو عليه من الكفر والنفاق.

وهذا الذي ذكرتُهُ هنا هو الذي ظهر لي بعد كتابة ما كتبتُ في آية «براءة»، والمقامُ بعدُ محتاجٌ إلى تحقيقٍ، فراجعْ وتأملْ، والله تعالى وليُّ التوفيق.

وقرأ أبو جعفر: «آستغفرتَ» بمدَّةٍ على الهمزة[٤]، فقيل: هي عِوَضٌ من همزة

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٩٩.

(٢) ينظر ما سلف ١٠/ ٤٤١.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٨٨.

الوصل، وهي مثلُ المدَّة في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام: ١٤٣] لكنَّ هذه المدَّةَ في الاسم لئلّا يلتبس الاستفهام بالخبر، ولا يحتاجُ ذلك في الفعل؛ لأنَّ همزةَ الوصل فيه مكسورةٌ.

وعنه أيضاً ضَمُّ ميم: «عليهم» - إذ أصلها الضَّمُّ - وَوَصْلُ الهمزة[١].

وروى معاذُ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين، ووصل الهمزة[٢]، فتسقطُ في القراءتين، واللفظُ خبرٌ والمعنى على الاستفهام، وجاء حَذْفُ الهمزة ثقةً بدلالة «أم» عليها كما في قوله:

بسبعٍ رَمينَ الجمرَ أم بثمانِ[٣]

وقال الزمخشريُّ: قرأ أبو جعفر: «آستغفرتَ» إشباعاً لهمزة الاستفهام؛ للإظهار والبيان، لا قَلْباً لهمزة الوصل ألِفاً كما في «آلسحر» [يونس: ٨١] و«آلله» [يونس: ٥٩][٤].

وقال [ابن عطية: وقرأ][٥] أبو جعفر بن القعقاع بمدَّةٍ على الهمزة، وهي ألفُ التسويةِ، وقرأ أيضاً بوَصْل الألف دون همزةٍ على الخبر، وفي كلٍّ ذلك ضَعْفٌ؛ لأنه في الأولى أثبتَ همزةَ الوصل وقد أغنتْ عنها همزةُ الاستفهام، وفي الثانية حَذَفَ همزةَ الاستفهام وهو يريدها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لبعض ما يدلُّ على فِسْقهم، وجُوِّزَ أن يكونَ جارياً مجرى التعليل لعدم مغفرته تعالى لهم. وليس بشيءٍ؛ لأنَّ ذاك مُعلَّلٌ بما قبل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٦٦، وصدره: فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ. وسلف ١٦/ ١٦٧.

(٤) الكشاف ٤/ ١١١.

(٥) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٣٧٣، وعنه نقل المصنف، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤.

والقائلُ رأسُ المنافقين ابنُ أبيٍّ، وسائرهم راضُون بذلك، أخرج الترمذيُّ[١] وصححه، وجماعةٌ عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا ناسٌ من الأعراب، فكنا نبتدرُ الماءَ، وكان الأعرابُ يسبقونا إليه، فيسبقُ الأعرابيُّ أصحابه فيملأ الحوض، ويجعلُ حوله[٢] حجارة، ويجعلُ النِّطْعَ عليه حتى يجيءَ أصحابه، فأتى رجلٌ من الأنصار أعرابيًا فأرخى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يَدَعَهُ، فانتزع حجراً ففاض[٣]، فرفع الأعرابيُّ خشبةً فضربَ رأسَ الأنصاريِّ فشجَّه، فأتى عبدَ الله بن أبيٍّ ـ رأسَ المنافقين ـ فأخبره، وكان من أصحابه، فغضب، وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله، يعني الأعراب، ثم قال لأصحابه: إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعزُّ منها الأذلَّ، قال زيد: وأنا رِدْفُ عمِّي[٤]، فسمعتُ عبدَ الله، فأخبرتُ عمِّي، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ، فأرسل إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام فَحَلَفَ وجَحَدَ، وصدَّقه ﷺ وكذَّبني، فجاء عمِّي إليَّ فقال: ما أردتَ إلى أن مقتكَ وكذَّبك المسلمون، فَوَقَعَ عليَّ من الهمِّ ما لم يقع على أحدٍ قطّ، فبينا أنا أسير وقد خفضت رأسي[٥] من الهمِّ، إذ[٦] أتاني رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذني وضَحِكَ في وجهي، ثم إنَّ أبا بكرٍ ﵁ لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قلت: ما قال لي شيئاً إلا أنه عَرَكَ أذني وضحك في وجهي، فقال: أبشرْ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حتى بلغ ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. وقد تقدم عن البخاريِّ

---

(١) برقم (٣٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٥٠٤١)، والحاكم ٢/ ٤٨٨-٤٨٩، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٥٤-٥٥.

(٢) في الأصل و(م): حوضه. والمثبت من المصادر.

(٣) كذا في الأصل و(م) والمستدرك والدلائل، وجاء في مطبوع سنن الترمذي وعارضة الأحوذي ١٢/ ٢٠٢، وتحفة الأحوذي ٩/ ٢١٥، وجامع الأصول ٢/ ٣٩٣: فانتزع قباضَ الماء، وفي المعجم الكبير: فانتزع حجراً ففاض الماء. وكذا نقله ابن كثير عن الترمذي، ومثله في الدر المنثور ٦/ ٢٢٢.

(٤) في سنن الترمذي: وأنا ردف رسول الله ﷺ.

(٥) في المصادر: خفقت برأسي.

(٦) في (م): إذا.

ما يدلُّ على أنه قائل ذلك أيضاً[(١)]. وأخرج الإمام أحمد ومسلم والنسائي نحو ذلك[(٢)]، والأخبار فيه أكثرُ من أن تحصى.

وتلك الغَزاةُ التي أشار إليها زيدٌ، قال سفيان: يرون أنها غزاة بني المصطلق، وفي «الكشاف»[(٣)] خبرٌ طويلٌ في القصة يُفهَمُ منه أنهم عَنوا بمَنْ عند رسول الله فقراءَ المهاجرين.

والظاهرُ أنَّ التعبير بـ «رسول الله» ـ أي: بهذا اللفظ ـ وَقَعَ منهم، ولا يأباهُ كُفْرهم؛ لأنهم منافقون مقرُّون برسالته عليه الصلاة والسلام ظاهراً.

وجُوِّزَ أن يكونوا قالوه تهكُّماً، أو لغلبته عليه ﷺ حتى صار كالعَلَم، لم يُقصَدْ منه إلا الذات، ويحتَملُ أنهم عبَّروا بغير هذه العبارة، فغيَّرها الله عزَّ وجلَّ إجلالاً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام وإكراماً.

والانفضاضُ: التفرُّق، و«حتى» للتعليل، أي: لا تنفقوا عليهم كي يتفرَّقوا عنه عليه الصلاة والسلام ولا يصحبوه.

وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: «يُنْفِضُوا»[(٤)] من أَنْفَضَ القومُ: فَنِيَ طعامهم، فَنَفَضَ الرجلُ وعاءه، والفعل مما يتعدَّى بغير الهمزة وبالهمزةِ لا يتعدَّى، قال في «الكشاف»[(٥)]: وحقيقته: حان لهم أن يَنْفُضُوا مزاوِدَهُم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رَدٌّ وإبطالٌ لما زعموا من أنَّ عدم إنفاقهم على من عند رسول الله ﷺ يؤدِّي إلى انفضاضهم عنه عليه الصلاة والسلام، ببيان أنَّ خزائنَ الأرزاق بيد الله تعالى خاصةً، يُعطي منها من يشاء ويمنع من يشاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشؤونه عزَّ وجلَّ، ولذلك يقولون من مقالات الكفرة ما يقولون.

---

(١) ينظر ص١٦٨ من هذا الجزء.

(٢) أحمد (١٩٣٣٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٤).

(٣) ٤/ ١١٠.

(٤) الكشاف ٤/ ١١١، والمحرر ٥/ ٣١٤، والبحر ٨/ ٢٧٤.

(٥) ٤/ ١١١.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قائله كما سمعتَ ابنُ أُبَيٍّ، وعنى بالأعزِّ نفسَهُ أو: مَنْ يلوذُ به، وبالأذلِّ مَنْ أعزَّه الله عزَّ وجلَّ، وهو الرسول ﷺ، أو: هو عليه الصلاة والسلام والمؤمنون، وإسنادُ القول المذكور إلى جميعهم لرضائهم به كما في سابقه.

وقرأ الحسن وابن أبي عبلةَ والمسيبي[(١)] في اختياره: «لَنُخرِجَنَّ» بالنون، ونصب «الأعزّ» و«الأذلّ»[(٢)] على أنَّ «الأعزَّ» مفعولٌ به، و«الأذلَّ» إما حالٌ بناءً على جواز تعريف الحال، أو زيادة «أل» فيه نحو:

أرسلها العِراك[(٣)] ....

و: ادخُلوا الأوَّلَ فالأوَّل، وهو المشهورُ في تخريج ذلك، أو حالٌ بتقدير: مثل، وهو لا يتعرَّفُ بالإضافة، أي: مِثْلَ الأذل، أو مفعول به لحالٍ محذوفة، أي: مُشْبِهاً الأذلَّ، أو مفعول مطلق على أنَّ الأصلَ: إخراجَ الأذلِّ، فحُذف المصدر المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فانتصب انتصابَه.

وحكى الكسائيُّ والفراءُ أنَّ قوماً قرؤوا: «لَيَخرُجَنَّ» بالياء مفتوحة وضمّ الراء، ورَفْع «الأعزُّ» على الفاعلية، ونَصْبِ «الأذلَّ» على ما تقدم[(٤)]، بيد أنك تُقدِّرُ على تقدير النصب على المصدرية: خروجَ. وقرئَ: «لَيُخْرَجَنَّ» بالياء مبنيًّا للمفعول، ورفع «الأعزُّ» على النيابة عن الفاعل، ونصب «الأذلّ» على ما مرَّ[(٥)].

وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني: «لَنَخْرُجَنَّ» بنون الجماعة مفتوحةً وضمِّ

---

(١) في الأصل و(م): والسبتي، والمثبت هو الصواب، ينظر الدر المصون ١٠/٣٤٣.
والمسيبي هو إسحاق بن محمد المخزومي المدني، من جلة أصحاب نافع المحققين. معرفة القراء الكبار ١/٣١٢

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٧، والكشاف ٤/١١١، والبحر ٨/٢٧٤.

(٣) قطعة من بيت للبيد بن ربيعة العامري، وهو في ديوانه ص٨٦ برواية:
فأوردها العِراكَ ولم يَذُدْهَا ولم يُشفق على نَغَص الدِّخال

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٧، والبحر ٨/٢٧٤.

(٥) البحر المحيط ٨/٢٧٤.

الراء، ونَصْب «الأعزَّ» و«الأذلَّ» وحكى هذه القراءةَ أبو حاتم(١)، وخُرِّجتْ على أنَّ نَصْبَ «الأعزّ» على الاختصاص كما في قولهم: نحن العربَ أقرى الناس للضيف، ونَصْبَ «الأذلّ» على أحد الأوجه المارَّة فيما حكاه الكسائي والفرَّاء، والمقصود إظهارُ التضجُّر من المؤمنين، وأنهم لا يمكنهم أن يُساكنوهم في دار. كذا قيل، وهو كما ترى، ولعلَّ هذه القراءة غيرُ ثابتةٍ عن الحسن.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ رَدٌّ لما زعموه ضِمْناً من عِزَّتهم وذلِّ مَنْ نسبوا إليه الذِّلَّ، وحاشاه منه، أي: ولله تعالى الغَلَبةُ والقوَّةُ، ولمن أعزَّهُ الله تعالى من رسوله ﷺ والمؤمنين لا للغير، ويُعلَم مما أشرنا إليه توجيه الحصر المستفاد من تقديم الخبر. وقيل: إنَّ العَطْفَ معتَبرٌ قبل نسبة الإسناد، فلا ينافي ذلك، ولا يضرُّ إعادةُ الجارِّ؛ لأنها ليست لإفادة الاستقلال في النسبة، بل لإفادة تفاوت ثبوت العزة، فإنَّ ثبوتها لله تعالى ذاتيٌّ، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة، وللمؤمنين بواسطة الإيمان، وجاء من عِدَّة طُرقٍ أنَّ عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ـ وكان مخلصاً ـ سلَّ سيفَهُ على أبيه عندما أشرفوا على المدينة، فقال: واللهِ عليَّ أن لا أغمده حتى تقولَ: محمدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ. فلم يبرحْ حتى قال ذلك(٢).

وفي رواية أنه ﷺ وَقَفَ والناسُ يدخلون حتى جاء أبوه، فقال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟! قال: واللهِ لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ﷺ، ولتعلمنَّ اليومَ الأعزّ من الأذلّ، فرجع حتى لقي رسولَ الله ﷺ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبيُّ ﷺ أن خَلِّ عنه يدخلْ. ففعل(٣).

وصحَّ من رواية الشيخين والترمذي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أنه لما بلغ رسولَ الله ﷺ ما قال ابنُ أبيٍّ قام عمر ﷺ، فقال: يا رسولَ الله دعني أضرب عنقَ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣١٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٦٦ - ٣٦٧. عن محمد بن سيرين مرسلاً.

هذا المنافق؟ فقال النبيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه»(١).

وفي روايةٍ عن قتادة أنه قال له عليه الصلاة والسلام: يا نبيَّ الله، مُرْ معاذاً أن يضربَ عنقَ هذا المنافق، فقال ﷺ ذلك(٢).

وفي الآية من الدلالة على شَرَفِ المؤمنين ما فيها، ومن هنا قالت بعض الصالحات وكانت في هيئةٍ رَثَّة: ألستُ على الإسلام، وهو العِزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنى الذي لا فَقْرَ معه(٣).

وعن الحسن بن عليٍّ على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام أنَّ رجلاً قال له: إنَّ الناسَ يزعمون أنَّ فيك تِيهاً؟ قال: ليس بتيهٍ، ولكنه عِزَّة. وتلا هذه الآية(٤). وأريد بالتِّيه الكِبْر، وأشارَ الخبر(٥) إلى أنَّ العِزَّةَ غيرُ الكِبْر، وقد نصَّ على ذلك أبو حفص السهروردي قُدِّسَ سِرُّه، فقال: العِزَّةُ غيرُ الكبر؛ لأنَّ العِزَّة معرفةُ الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامُها أن لا يضعها لأقسامٍ عاجلة، كما أنَّ الكبر جهلُ الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها، فالعِزَّةُ ضد الذِّلة، كما أنَّ الكبر ضدّ التواضع.

وفسَّر الراغبُ العِزَّةَ بحالةٍ مانعةٍ للإنسان من أن يُغلَبَ، مِن قولهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبَةٌ، وتعزَّزَ اللحمُ: اشتدَّ، كأنه حَصَلَ في عَزازٍ يصعبُ الوصولُ إليه، وقد تُستعار للحَمِيَّةِ والأنفة المذمومة(٦). وهي بهذا المعنى تَثْبُتُ للكَفَرة، وتفسيرها بالقوة والغلبة كما سمعتَ شائعٌ، ولك أن تُريدَ بها هنا الحالةَ المانعةَ من المغلوبية، فإنها أيضاً ثابتةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على الوجه اللائق بكلٍّ.

---

(١) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣)، والترمذي (٣٣١٥)، وهو عند أحمد (١٥٢٢٣).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٦ عن رابعة العدوية.

(٤) الكشاف ٤/ ١١١.

(٥) في (م): العز.

(٦) المفردات (عزّ).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، فيهذون ما يهذون، والفعلُ هنا مُنزَّلٌ منزلةَ اللازم، فلذا لم يُقدَّرْ له مفعولٌ، ولا كذلك الفعلُ فيما تقدم، وهو ما اختاره غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، وقيل في وجهه: إنَّ كَونَ العِزَّة لله عزَّ وجلَّ مستلزِمٌ لكون الأرزاق بيده دون العكس، فناسَبَ أن يعتبر الإطلاق[1] في الجملة المذيِّلة لِمَا يفيد كونَ العزَّة له سبحانه قَصْداً للمبالغة، والتقييد للجملة المذيِّلة لِمَا يفيد كونَ الأرزاق بيده تعالى.

ثم قيل: خصَّ الجملةَ الأولى بـ «لا يفقهون» والثانية بـ «لا يعلمون»؛ لأنَّ إثباتَ الفقه للإنسان أبلغُ من إثبات العلم له، فيكون نفيُ العلم أبلغَ من نفي الفقه، فأُوثر ما هو أبلغُ لِمَا هو أَدْعَى له.

وعن الراغب: معنى قوله تعالى: (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا) إلخ، أنهم يأمرون بالإضرار بالمؤمنين، وحبسِ النفقات عنهم، ولا يفطنون أنهم إذا فعلوا ذلك أَضرُّوا بأنفسهم، فهم لا يفقهون ذلك ولا يفطنون له، ومعنى الثاني إيعادهم بإخراج الأعزِّ للأذلِّ، وعندهم أنَّ الأعزَّ مَنْ له القوَّةُ والغلبةُ على ما كانوا عليه في الجاهلية، فهم لا يعلمون أنَّ هذه القدرةَ التي يَفضُلُ بها الإنسانُ غيرَهُ إنما هي من الله تعالى، فهي له سبحانه ولمن يخصُّهُ بها من عباده، ولا يعلمون أنَّ الذُّلَّ لمن يقدرون فيه العِزَّة، وأنَّ الله تعالى مُعِزُّ أوليائه بطاعتهم له، ومُذلُّ أعدائه بمخالفتهم أمره عزَّ وجلَّ، فقد اختصَّ كلّ آيةٍ بما اقتضاه معناها، فتدبَّر.

والإظهارُ في مقام الإضمار لزيادة الذَّمِّ مع الإشارة إلى عِلَّة الحكم في الموضعين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمامُ بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها، عن الاشتغال بذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، من الصلاة وسائر العبادات المذكِّرة للمعبود الحقِّ جلَّ شأنه، فذِكْرُ الله تعالى مجازٌ عن مطلق العبادة كما يقتضيه كلامُ الحسن وجماعة، والعلاقةُ السببيةُ؛

(١) في (م): الأخلاق.

لأنَّ العبادةَ سببٌ لذِكْره سبحانه، وهو المقصودُ في الحقيقة منها.

وفي روايةٍ عن الحسن أنَّ المرادَ به جميعُ الفرائض. وقال الضحاك وعطاء: الذِّكْرُ هنا الصلاةُ المكتوبة. وقال الكلبيُّ: الجهادُ مع الرسول ﷺ. وقيل: القرآن. والعمومُ أولى.

ويُفهِمُ كلامُ «الكشاف»[1] أنَّ المرادَ بالأموال والأولاد الدنيا، وعبَّر بهما عنها لكونهما أرغبَ الأشياء منها، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فإذا أُريد بذِكْر الله العموم، يَؤُولُ المعنى إلى: لا تشغلنَّكم الدنيا عن الدين، والمراد بنهي الأموال وما بعدها نهيُ المخاطبين، وإنما وُجِّهَ إليها للمبالغة؛ لأنها لقوَّة تسبُّبها لِلَّهو، وشِدَّة مدخليَّتها فيه، جُعلتْ كأنها لاهيةٌ وقد نُهيت عن اللهو، فالأصل: لا تلهوا بأموالكم.. إلخ، فالتجوُّزُ في الإسناد.

وقيل: إنه تجوُّزٌ بالسبب عن المسبَّب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢] أي: لا تكونوا بحيث تُلهيكم أموالكم.. إلخ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اللهو بها، وهو الشغل، وهذا أبلغُ مما لو قيل: ومن تُلْهِهِ تلك.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ حيث باعوا العظيمَ الباقي بالحقير الفاني. وفي التعريف بالإشارة والحَصْر للخسران فيهم، وفي تكرير الإسناد وتوسيط ضمير الفصل، ما لا يخفى من المبالغة، وكأنه لمَّا نُهي المنافقون عن الإنفاقِ على مَنْ عند رسول الله ﷺ وأُريد الحثُّ على الإنفاق، جعل قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) إلخ تمهيداً وتوطئةً للأمر بالإنفاق، لكن على وجه العموم في قوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعضَ ما أعطيناكم وتفضَّلنا به عليكم من الأموال ادِّخاراً للآخرة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أماراته ومقدِّماته، فالكلامُ على تقدير مضاف، ولذا فُرِّعَ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ أي: أمهلتني

(١) ٤/ ١١١.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمدٍ قصيرٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي: فأتصدقَ، وبذلك قرأ أبيٌّ وعبد الله وابن جبير(١)، ونَصْبُ الفعل في جواب التمنِّي.

والجزمُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ بالعَطْف على موضع «فأصَّدَّق» كأنه قيل: إن أَخَّرتني أَصَّدَّقْ وأكنْ، وإلى هذا ذهب أبو عليٍّ الفارسي والزجَّاج(٢)، وحكى سيبويه عن الخليل أنه على توهُّم الشرط الذي يدلُّ عليه التمنِّي؛ لأنَّ الشرطَ غيرُ ظاهرٍ ولا يُقدَّرُ حتى يُعتبَرَ العَطْفُ على الموضع كما في قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرْهُم﴾ [الأعراف: ١٨٦] فيمن قرأ بالجزم(٣)، وهو حَسَنٌ بَيْدَ أنَّ التعبيرَ بالتوهُّم هنا ينشأ منه توهُّمٌ قبيحٌ، والفرقُ بين العطف على الموضع والعطف على التوهُّم أنَّ العاملَ في العطف على الموضع موجودٌ وأثره مفقودٌ، والعاملَ في العطف على التوهُّم مفقودٌ وأثره موجود.

واستُظْهِر أنَّ الخلافَ لفظيٌّ، فمراد أبي عليٍّ والزجَّاج العطفُ على الموضع المتوهَّم، أي: المقدَّر؛ إذ لا موضعَ هنا في التحقيق، لكنهما فرَّا من قُبْحِ التعبير.

وقرأ الحسن وابن جبير وأبو رجاء وابن أبي إسحاق ومالك بن دينار والأعمش وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري وأبو عمرو: «وأكونَ» بالنصب(٤)، وهو ظاهرٌ. وقرأ عبيد بن عمير: «وأكونُ» بالرفع على الاستئناف(٥)، والنحويُّون وأهلُ المعاني قدَّروا المبتدأ في أمثال ذلك من الأفعال المستأنفة، فيقال هنا: أي: وأنا أكونُ. ولا تراهم يُهملون ذلك، ووُجِّهَ بأنَّ ذلك لأنَّ الفعلَ لا يصلحُ للاستئناف مع الواو الاستئنافية كما هنا، ولا بدونها، وتُعقِّبَ بأنه لم يذهبْ إلى عدم صلاحيته لذلك أحدٌ من النحاة، وكأنه لهذا صرَّحَ العلامةُ التفتازانيُّ بأنَّ التزامَ التقدير مما لم يظهر له وجهه. وقيل: وجههُ أنَّ الاستئنافَ بالاسميَّة أظهرُ. وهو كما ترى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر ٥/ ٣١٥، والبحر ٨/ ٢٧٥.
(٢) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٩٣، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٨.
(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو، ينظر التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٣.
(٤) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٧٥.

وجُوِّزَ كونُ الفعل على هذه القراءة مرفوعاً بالعطف على «أَصَّدَّق» على نحو القولين السابقين في الجزم.

هذا، وعن الضحاك أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يعني الزكاة والنفقة في الحجِّ. وعليه قولُ ابن عباس فيما أخرج عنه ابن المنذر[1]: «فأصدق» أُزكِّي «وأكن من الصالحين» أَحُجُّ.

وأخرج الترمذيُّ وابن جرير والطبرانيُّ وغيرهم عنه أيضاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مالٌ يُبلِّغه حَجَّ بيت ربِّه، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعلْ، سألَ الرجعةَ عند الموت» فقال له رجل: يا ابن عباس، اتَّقِ الله تعالى، فإنما يسألُ الرجعةَ الكفارُ؟ فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر السورة، كذا في «الدر المنثور»[2].

وفي «أحكام القرآن» رواية الترمذيِّ عنه ذلك موقوفاً عليه[3].

وحكى عنه في «البحر»[4] وغيره أنه قال: إنَّ الآيةَ نزلتْ في مانع الزكاة، ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله تعالى، يسألُ المؤمنون الكرَّةَ؟! فأجاب بنحو ما ذكر.

ولا يخفى أنَّ الاعتراضَ عليه، وكذا الجواب أوفقُ بكونه نفسه ادَّعى سؤالَ الرجعة، ولم يرفع الحديث بذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٦.

(٢) ٦/ ٢٢٦، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠١، والإكليل للسيوطي (ويسميه المصنف: أحكام القرآن) ص٢٦٤. وقد أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً (٣٣١٦)، وهو في تفسير الطبري ٢٢/ ٦٧٢ موقوفاً، وفي المعجم الكبير (١٢٦٣٥) مرفوعاً. وكلاهما من طريق أبي جناب الكلبي عن الضحاك عن ابن عباس. والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وأبو جناب قال عنه الترمذي: ليس بالقوي في الحديث.

(٤) ٨/ ٢٧٤.

وإذا كان قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ إلخ، سؤالاً للرجعة بمعنى الرجوع إلى الدنيا بعد الموت، لم يحتجْ قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى تقدير مضافٍ كما سمعتَ آنفاً.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ أي: ولن يمهلها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ أي: آخرُ عمرها، أو انتهى الزمانُ الممتدُّ لها من أول العمر إلى آخره على تفسير الأجل به.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ فمُجازٍ عليه. وقرأ أبو بكر بالياء آخر الحروف[١]، ليوافقَ ما قبله في الغَيبة. و«نفساً» لكونها نكرة في سياق النفي في معنى الجمع.

واستدلَّ الكيا[٢] بقوله تعالى: «وأنفقوا» إلخ على وجوب إخراج الزكاة على الفور ومنع تأخيرها.

ونُسِبَ للزمخشري أنه قال: ليس في الزجر عن التفريط في هذه الحقوق أعظم من ذلك، فلا أحدَ يُؤخِّر ذلك إلا ويجوز أن يأتيه الموتُ عن قريبٍ، فيلزمه التحرُّزُ الشديدُ عن هذا التفريط في كلِّ وقت[٣].

وقد أبطلَ الله تعالى قولَ المجبِّرة من جهات: منها قوله تعالى: «وأنفقوا»، ومنها أنه إن كان قبلَ حضور الموت لم يَقْدِرْ على الإنفاق، فكيف يتمنَّى تأخيرَ الأَجَل؟ ومنها قوله تعالى مُؤيِّساً له في الجواب: «ولن يؤخر الله» ولولا أنه مختارٌ لأُجيب باستواء التأخير والموت حين التمنِّي، وأجيب بأنَّ أهلَ الحقِّ لا يقولون بالجبر، فالبحثُ ساقطٌ عنهم، على أنه لا دلالةَ في الأول كما في سائر الأوامر كما حُقِّقَ في موضعه، والتمنِّي ـ وهو متمسَّكُ الفريق ـ لا يصحُّ الاستدلالُ به، والقولُ المؤيِّسُ إبطالٌ لتمنِّيهم، لا جوابٌ عنه؛ إذ لا استحقاقَ لوضوح البطلان، والله تعالى أعلم.

---

(١) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨.

(٢) في أحكام القرآن له ٢/ ٤١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٦٤.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١١٢.

(٦٤) سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة

سورة التغابن من السور المدنية التي تُعنى بالتشريع ، ولكنّ جوّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الاسلامية .

● **تحدثت** السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته ، ثم تناولت موضوع الانسان المعترف بربه والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله .

● **وضربت** الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله وما حلّ بهم من العذاب والدمار نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم .

● **وأقسمت** السورة على أن البعث حقٌ لا بدَّ منه ، أقرَّ به المشركون أو أنكروه .

● **وأمرت** بطاعة الله وطاعة رسوله وحذّرت من الاعراض عن دعوة الله .

● **كما حذَّرت** من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة .

● **وختمت** السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شطر الجهاد في سبيل الله .

سورة التغابن

[٩٤٥] أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(١) في قوم من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا المدينة فلما قدموا على رسول الله [ﷺ] رأوا الناس قد فقهوا فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾(٢) الآية.

[٩٤٦] وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾(٣) نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

[٩٤٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(٤) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٥).

* * *

---

[٩٤٥] (١) سورة التغابن: الآية (١٤).
(٢) سورة التغابن: الآية (١٤).
[٩٤٦] (٣) سورة التغابن: الآية (١٤).
[٩٤٧] (٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).
(٥) سورة التغابن: الآية (١٦).

سورة التغابن

ثمان عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين، وأيضًا تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرًّا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر قلنا: من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائمًا، وهم الذين يسبحون، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ معناه إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد، ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر إلى القدرة فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في (الكشاف): قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك في الحقيقة له لأنه مبدئ لكل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، كذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قيل: معناه وهو على كل شيء أراده قدير، وقيل: قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه ولا ينقص. وقد مر ذلك. **وفي الآية مباحث:**

الأول: أنه تعالى قال في الحديد: ﴿سَبَّحَ﴾ [الحديد: ١]والحشر والصف كذلك، وفي الجمعة والتغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه قد تقدم.

البحث الثاني: قال في موضع: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]وفي موضع آخر ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]فما الحكمة فيه؟ قلنا: الحكمة لا بد منها، ولا نعلمها كما هي، لكن نقول: ما يخطر بالبال، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر، فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع

وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال: قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد، ومن وجه شيئان بل أشياء كثيرة، والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء، وغير ما في ذلك أيضًا ولا يلزم من وجود الشيء في المجموع أن يوجد في كل جزء من أجزائه إلا بدليل منفصل، فقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما أنه يدل على تسبيح ما في السموات وعلى تسبيح ما في الأرض، كذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه تعالى خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا، وقال عطاء: إنه يريد فمنكم مصدق، ومنكم جاحد، وقال الضحاك: مؤمن في العلانية كافر في السر كالمنافق، وكافر في العلانية مؤمن في السر كعمار بن ياسر، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقال الزجاج: فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه، وهو من أهل الطبائع والدهرية، ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨] وقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الكهف: ٣٧] وقال أبو إسحاق: خلقكم في بطون أمهاتكم كفارًا ومؤمنين، وجاء في بعض التفاسير أن يحيى خلق في بطن أمه مؤمنًا، وفرعون خلق في بطن أمه كافرًا، دل عليه قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين من أعمالكم، والمعنى أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التي هي الخلق فانظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عبادًا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تفرقتم فرقًا فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالإرادة القديمة على وفق الحكمة، ومنهم من قال: بالحق، أي للحق وهو البعث، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أحسن أي أتقن وأحكم على وجه لا يوجد بذلك الوجه في الغير، وكيف يوجد وقد وجد في أنفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة، وثانيهما: أن نصرف الحسن إلى حسن المنظر، فإن من نظر في قد الإنسان وقامته وبالنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي البعث وإنما أضافه إلى نفسه لأنه هو النهاية في خلقهم والمقصود منه، ثم قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لأنه لا يلزم من خلق الشيء أن يكون مصورًا بالصورة، ولا يلزم

من الصورة أن تكون على أحسن الصور، ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع ليس إلا له، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نبه بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه ما يُسِرُّه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه ما في الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لا يخفى عليه شيء لما أنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ألبتة أزلاً وأبدًا، وفي الآية مباحث:

الأول: أنه تعالى حكيم، وقد سبق في علمه أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر والإصرار عليه، فأي حكمة دعته إلى خلقهم؟ نقول: إذا علمنا أنه تعالى حكيم، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة، وخلق هذه الطائفة فعله، فيكون على وفق الحكمة، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة.

الثاني: قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وقد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الخلقة؟ نقول: لا سماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطًا بينًا لا يظهر حسنه، وإلا فهو داخل في حيز الحسن غير خارج عن حده.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يوهم الانتقال من جانب إلى جانب، وذلك لا يمكن إلا أن يكون الله في جانب، فكيف هو؟ قلت: ذلك الوهم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون في نفس الأمر، فإن نفس الأمر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب إلى جانب إذا كان المنتقل إليه منزهًا عن الجانب وعن الجهة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾

اعلم أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خطاب لكفار مكة وذلك إشارة إلى الويل الذي ذاقوه في الدنيا وإلى ما أعد لهم من العذاب في الآخرة. فقوله: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي شدة أمرهم مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ أي بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشرًا. ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا فكفروا وتولوا، وكفروا بالرسل وأعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ من جملة ما سبق، والحميد بمعنى المحمود أي المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ قال في (الكشاف): الزَعْم ادعاء العلم، ومنه قوله ﷺ: «زَعَمُوا

مَطِيَّةَ الْكَذِبِ»[1] وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية، الكذب زعموا، ويتعدى إلى مفعولين، تعدى العلم، قال الشاعر:

وَلَمْ أَزْعُمْكَ عَنْ ذَلِكَ مَعْزُولاً

والذين كفروا هم أهل مكة ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد أن وهو البعث، وقيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ يحتمل أن يكون تعليمًا للرسول ﷺ، أي يعلمه القسم تأكيدًا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي لا يصرفه صارف، وقيل: إن أمر البعث على الله يسير، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا ترابًا، فأخبر أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم. **وفي الآية مباحث:**

الأول: قوله: ﴿فَكَفَرُوا﴾ يتضمن قوله: ﴿وَتَوَلَّوا﴾ فما الحاجة إلى ذكره؟ نقول: إنهم كفروا وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وهذا في معنى الإنكار والإعراض بالكلية، وذلك هو التولي، فكأنهم كفروا وقالوا قولاً يدل على التولي، ولهذا قال: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾.

الثاني: قوله: ﴿وَتَوَلَّوا وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معًا، والله تعالى لم يزل غنيًّا، قال في (الكشاف): معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

الثالث: كيف يفيد القسم في إخباره عن البعث وهم قد أنكروا رسالته. نقول: إنهم وإن أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقادًا لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفي اعتقاده، والفائدة في الإخبار مع القسم ليس إلا هذا، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم.

ولما بالغ في الإخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان قال:

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾

قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا﴾ يجوز أن يكون صلة لما تقدم؛ لأنه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالأمم

(١) لم أجده بهذا اللفظ وإنما جاء بلفظ (بئس مطية الرجل زعموا) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (٢/ ٢٣١) حديث رقم (٧٦٢) وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (في قول الرجل زعموا) (٤/ ٢١١٨) حديث رقم (٤٩٧٢) وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٠١) جميعا من طريق الأوزاعي... به، وأورده الشيخ الألباني في (الصحيحة) (٢) حديث رقم (٨٦٦).

الماضية، وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ أنتم ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ وهو القرآن فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى بالنور في الظلمات، وإنما ذكر النور الذي هو القرآن لما أنه مشتمل على الدلالات الظاهرة على البعث، ثم ذكر في (الكشاف) أنه عنى برسوله والنور محمدًا ﷺ والقرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي بما تسرون وما تعلنون فراقبوه وخافوه في الحالين جميعًا وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾ يريد به يوم القيامة جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض، و﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ والتغابن تفاعل من الغبن في المجازاة والتجارات، يقال: غبنه يغبنه غبنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قومًا في النار يعذبون وقومًا في الجنة يتنعمون، وقيل: هو يوم يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، وأهل الهدى أهل الضلالة، وأهل الإيمان أهل الكفر، فلا غبن أبين من هذا، وفي الجملة فالغبن في البيع والشراء وقد ذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾[الصف: ١٠] الآية، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يؤمن بالله على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك، ويعمل صالحًا أي يعمل في إيمانه صالحًا إلى أن يموت، قرئ (يَجْمَعُكُم ويُكفِّر ويُدْخِل) بالياء والنون، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بوحدانية الله تعالى وبقدرته ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بآياته الدالة على البعث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **ثم في الآية مباحث:**

الأول: قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بطريق الإضافة، ولم يقل: ونوره الذي أنزلنا بطريق الإضافة مع أن النور هاهنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف إليه؟ نقول: الألف واللام في النور بمعنى الإضافة كأنه قال: ورسوله ونوره الذي أنزلنا.

الثاني: بم انتصب الظرف؟ نقول: قال الزجاج: بقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾[التغابن: ٧] وفي (الكشاف) بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾[التغابن: ٧] أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد. كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر.

الثالث: قال تعالى في الإيمان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بلفظ المستقبل، وفي الكفر قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بلفظ الماضي، فنقول: تقدير الكلام: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

الرابع: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ بلفظ الواحد و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلفظ الجمع، نقول: ذلك بحسب اللفظ، وهذا بحسب المعنى.

الخامس: ما الحكمة في قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وذلك بئس المصير فنقول: ذلك وإن كان في معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي بأمر الله قاله الحسن، وقيل: بتقدير الله وقضائه، وقيل: بإرادة الله تعالى ومشيئته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعلمه وقضائه وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ أي عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ أي للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٦، ١٥٧] ، قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى، وقرئ (نهد قلبه) بالنون، وعن عكرمة (يُهْدَ قَلْبُهُ) بفتح الدال وضم الياء، وقرئ (يَهْدَأْ) قال الزجاج: هدأ قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل ﴿مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾[البقرة: ١٣٠] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل: عليم بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ﴾ فيما جاء به من عند الله يعني هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى، ومن الرسول فيما دعاكم إليه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر والبيان البائن، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] فإن من كان موصوفًا بهذه الصفات ونحوها: فهو الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل في كل باب، وإليه المرجع والمآب، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بيان أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه، ولا يتقوى إلا به لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس إلا هو، وقال في (الكشاف): هذا بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه والتقوي به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه، فإن قيل: كيف يتعلق ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ بما قبله ويتصل به؟ نقول: يتعلق بقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التغابن: ٨] لما أن من يؤمن بالله فيصدقه يعلم ألا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦ ﴾

قال الكلبي: كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته فقالوا: أنت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع أهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم، ومنهم من لا يطيع ويقول: أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفعكم شيئًا أبدًا، فلما جمع الله بينهم أمرهم أن ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا، وقال أبو مسلم الخراساني: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله: عدوًّا لكم فاحذروهم أن تطيعوا وتدعوا الهجرة، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ ﴾ قال هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا في الدين همَّ أن يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم، ولم يصبهم بخير فنزل: ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ ﴾ الآية، يعني أن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم، ينهون عن الإسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم، فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان، ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدوًّا لهم، وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطيعوهم في معصية الله تعالى وفتنة أي بلاء وشغل عن الآخرة، وقيل: أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله، كغصب مال الغير وغيره: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي جزيل، وهو الجنة أخبر أن عنده أجرًا عظيمًا ليتحملوا المؤونة العظيمة، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم. وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ قال مقاتل: أي ما أطقتم يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع، قال قتادة: نسخت هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ومنهم من طعن فيه وقال: لا يصح لأن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والاستطاعة، وقوله: ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ أي لله ولرسوله ولكتابه وقيل: لما أمركم الله ورسوله به ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ الله فيما يأمركم ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ من أموالكم في حق الله خيرًا لأنفسكم، والنصب بقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ كأنه قيل: وقدموا خيرًا لأنفسكم، وهو كقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ ﴾ [النساء: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾ الشح: هو البخل، وإنه يعم المال وغيره،

يقال: فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف، وقيل: يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم، ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح فإن قيل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، يدل على أن الأموال والأولاد كلها من الأعداء و﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يدل على أن بعضهم من الأعداء دون البعض، فنقول: هذا في حيز المنع فإنه لا يلزم أن يكون البعض من المجموع الذي مر ذكره من الأولاد يعني من الأولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع، فيكون البعض منهم عدوًّا دون البعض.

قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه شكور يحب المتقربين إلى حضرته حليم لا يعجل بالعقوبة غفور يغفر لكم، والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال، وقيل: هو التصدق بطيبة نفسه، والقرض هو الذي يرجى مثله وهو الثواب مثل الإنفاق في سبيل الله، وقال في (الكشاف): ذكر القرض تلطف في الاستدعاء وقوله: ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة إلى ما شاء من الزيادة وقرئ (يُضَعِّفْهُ) ﴿شَكُورٌ﴾ مجاز أي يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم، ثم لقائل أن يقول: هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة، والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، فنقول قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يدل على القدرة من عز إذا غلب و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على الحكمة، وقيل: العزيز الذي لا يعجزه شيء، والحكيم الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير، والله تعالى كذلك فيكون عالمًا قادرًا حكيمًا جل ثناؤه وعظم كبرياؤه، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

سورة التَّغَابُن

مدنيَّةٌ في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مَكِّيَّة. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية[(١)].

وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن سورة التغابن نزلت بمكة، إلا آياتٍ من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالكٍ الأشْجَعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاءَ أهله وولده، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ إلى آخر السورة[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو[(٣)] قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من مولود يولدُ إلَّا وفي تشابيك رأسه مكتوبٌ خمسُ آيات من فاتحة سورة التغابن»[(٤)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

تقدَّم في غير موضع[(٥)]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٩٠٢)، وسيذكره المصنف أيضاً عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) في النسخ: عبد الله بن عمر، والتصويب من المصادر الآتية.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ٨١ - ٨٢، والطبراني في مسند الشاميين (٩٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣١٦) وفي إسناده الوليد بن الوليد العنسي؛ قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به فيما يروي. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وقال ابن كثير في تفسيره ٨/ ١٣٥: غريب جداً، بل منكر.
وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٤٥ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً. قال ابن عرَّاق في تنزيه الشريعة ١/ ١٩٦: وهو أشبه. اهـ. وجاء عند الطبراني: خمس آيات من سورة التغابن، دون لفظة: فاتحة.

(٥) ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩، ١٣/ ٨٩، ٢٠/ ٢٣٥.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدمَ مؤمناً وكافراً، ويُعيدهم في[١] القيامة مؤمناً وكافراً.

وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ قال: خَطَبَنا النبيُّ ﷺ عَشِيَّةً، فذكر شيئاً مما يكون فقال: «يولد الناس على طبقات شتَّى: يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، ويولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً»[٢].

وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «خلق الله فرعونَ في بطن أمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مومناً»[٣].

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: «وإن أحدكم لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باع، فيسبِق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلُها. وإن أحدكم لَيعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعُ أو باع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها». خرَّجه البخاريُّ، والترمذيُّ وليس فيه ذكر الباع[٤].

---

(١) بعدها في (م): يوم. وقول ابن عباس في الوسيط ٤/ ٣٠٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٥٢ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢١ .

(٢) سلف ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٤٣)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٢١ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٩). وفي إسناده أبو هلال الراسبي.

قال النسائي: ليس بالقوي. وقال أحمد بن حنبل: يحتمل في حديثه إلا أنه يخالف في قتادة وهو مضطرب الحديث. قاله الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣/ ٥٧٧ . وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٩٨ ، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٤٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٢١) وفيه نصر بن طريف، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٥١ : قال أحمد: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: من المعروفين بوضع الحديث.

(٤) صحيح البخاري (٦٥٩٤) وسنن الترمذي (٢١٣٧)، وسلف ١/ ٢٩٦ .

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد السَّاعديِّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل لَيعمل عمل أهل الجنة فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل لَيعمل عمل أهل النار فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل الجنة»(١).

قال علماؤنا: والمعنى: تعلَّق العلم الأزليُّ بكلِّ معلوم، فيَجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمانَ شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك الكفر.

وقيل في الكلام محذوف: فمنكم مؤمنٌ ومنكم كافر ومنكم فاسق، فحذف لِمَا في الكلام من الدَّلالة عليه. قاله الحسن. وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود [به] ذكرُ الطرفين(٢). وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا. قالوا: وتمام الكلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾. ثم وصفهم فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] الآية. قالوا: فالله خلقهم، والمَشْيُ فعلُهم(٣). واختاره الحسين بن الفضل، قال: لو خلقهم مؤمنين وكافرين، لَمَا وصفهم بفعلهم في قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. واحتجُّوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفِطرة، فأبَوَاه يُهوِّدانِه ويُنَصِّرانِه ويُمَجِّسانِه» الحديث. وقد مضى في «الروم»(٤) مستوفًى.

قال الضحاك: فمنكم كافرٌ في السِّرِّ مؤمنٌ في العلانية؛ كالمنافق، ومنكم مؤمنٌ في السِّر كافرٌ في العلانية؛ كعَمَّار وذَوِيه(٥). وقال عطاء بن أبي رَبَاح: فمنكم كافر

(١) صحيح مسلم (١١٢) كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه. وهو عند أحمد (٢٢٨١٣)، والبخاري (٢٨٩٨) مطول.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢ .

(٤) ١٦/ ٤٢٢ . وأخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨): (٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ٢١ .

بالله مؤمنٌ بالكواكب، ومنكم مؤمنٌ بالله كافرٌ بالكواكب، يعني في شأن الأنواء(١).

وقال الزجاج ـ وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمةُ والجمهور من الأمة ـ: إن الله خلق الكافر، وكُفْرُه فِعْلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الكفر. وخَلَق المؤمن، وإيمانُهُ فعلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خَلْق الله إياه؛ لأن الله تعالى قَدَّر ذلك عليه وعَلِمَه منه. ولا يجوز أن يوجد من كلٍّ واحد منهما غيرُ الذي قدَّر عليه وعَلِمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ، ووجود خلاف المعلوم جَهْلٌ، ولا يَلِيقان بالله تعالى. وفي هذا سلامةٌ من الجبر والقَدَر(٢)، كما قال الشاعر:

يا ناظراً في الدِّين ما الأمْرُ ... لا قَدَرٌ صحَّ ولا جَبْرُ(٣)

وقال سِيلان: قَدِم أعرابيٌّ البصرة فقيل له: ما تقول في القَدَر؟ فقال: أمرٌ تغالت فيه الظُّنون، واختلف فيه المختلفون؛ فالواجبُ أن نَرُدَّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم في غير موضع(٤)، أي: خلقها حقًّا يقيناً لا ريب فيه. وقيل: الباء بمعنى اللام، أي: خلقهما(٥) للحق، وهو أن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٨، وزاد المسير ٨/ ٢٨٠ - ٢٨١، والأنواء جمع نوء وهو النجم مال للغروب، أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. القاموس (ناء).

(٢) ذكر نحو هذا الكلام البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥٢ ولم ينسبه.

(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/ ٢٥١.

(٤) ٨/ ٣١٣، ٤٢٩.

(٥) في (د) و(ق) و (م): أي خلقها.

يَجْزِيَ الذين أساؤوا بما عمِلوا، ويجزيَ الذين أحسنوا بالحُسْنَى. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني آدمَ عليه السلام، خلقه بيده كرامةً له. قاله مقاتل. الثاني: جميع الخلائق[(١)]. وقد مضى معنى التصوير[(٢)]، وأنه التخطيط والتشكيل.

فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كلِّه وأبهاه صورةً؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنَّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّوَر. ومِن حُسْن صورته أنه خُلِق منتصِباً غيرَ مُنْكَبٍّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[(٣)] [التين: ٤] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجِع، فيجازي كلًّا بعلمه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

تقدَّم في غير موضع. فهو عالمُ الغيبِ والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

الخطاب لقريش، أي: ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية. ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عوقبوا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجِع. وقد تقدَّم[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا العذابُ لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١.

(٢) ٢٠/ ٣٩٣.

(٣) الكشاف ٤/ ١١٣.

(٤) ١/ ٣٠١.

أي: بالدَّلائل الواضحة. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: أنكروا أن يكون الرسول من البشر. وارتفع «أَبَشَرٌ» على الابتداء. وقيل: بإضمار فعل، والجمعُ على معنى بشر، ولهذا قال: «يَهْدُونَنَا»، ولم يقل: يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكونُ اسماً للجنس، وواحدُه إنسانٌ؛ لا واحد له من لفظه[1]. وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد، نحو قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ أي: بهذا القول، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعثُ مَن يشاء إلى عباده. وقيل: كفروا بالرسل وتولَّوا عن البرهان، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي: بسلطانه عن طاعة عباده. قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرُّشد وتقودُ إلى الهداية[2].

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ أي: ظنُّوا، والزَّعْمُ هو القول بالظن. وقال شُريح: لكلِّ شيء كُنْيةٌ، وكُنْيَةُ الكذب زعموا[3]. قيل: نزلت في العاص بن وائلٍ السَّهْميِّ مع خَبَّاب، حسب ما تقدَّم بيانُه في آخر سورة مريم[4]، ثم عَمَّت كلَّ كافر. ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي: لَتُخْرَجُنَّ من قبوركم أحياء. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾: لَتُخْبَرُنَّ. ﴿بِمَا عَمِلْتُمْۚ﴾ أي: بأعمالكم. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ الإعادةُ أسهلُ من الابتداء.

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١.

(٣) الكشاف ٤/ ١١٤، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٣٧ - ٦٣٨.

(٤) ١٣/ ٥٠٥.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرَّفهم قيامَ الساعة. ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن، وهو نورٌ يُهْتدى به من ظُلمة الضلال. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ العاملُ في «يَوْمَ» «لَتُنَبَّؤُنَّ» أو «خَبِيرٌ» لِمَا فيه من معنى الوعيد، كأنه قال: والله يعاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار: اذكر[1]. والغَبْنُ: النقص. يقال: غَبَنَه غَبْناً: إذا أخذ الشيءَ منه بدون قيمته.

وقراءةُ العامة: «يَجْمَعُكُمْ» بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأخبر، ولِذِكر اسم الله أوَّلاً. وقرأ نصر وابنُ أبي إسحاقَ والجَحْدَريُّ ويعقوبُ وسلام: «نجمعكم» بالنون[2]؛ اعتباراً بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

ويومُ الجمع: يومٌ يجمع الله الأوَّلين والآخِرين والإنسَ والجنَّ وأهلَ السماء وأهل الأرض. وقيل: هو يومٌ يجمع الله فيه بين كلِّ عبد وعمله. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظَّالم والمظلوم. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبيٍّ وأمَّته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقابِ أهل المعاصي. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يومُ القيامة. قال:

وما أرتجي بالعيش في دار فُرقةٍ ألَا إنَّما الراحاتُ يومَ التغابنِ

وسمِّيَ يومُ القيامة يومَ التَّغابُن؛ لأنه غَبَن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار[3]. أي: إنَّ

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٥، ووقع في (ظ): اذكروا، بدل: اذكر.

(٢) قراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٨٨، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٥٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣.

أهل الجنة أخذوا الجنة، وأَخذَ أهلُ النار النارَ على طريق المبادلة، فوقع الغَبْن لأجل مبادلتهم الخيرَ بالشرِّ، والجيِّدَ بالرديء، والنعيمَ بالعذاب(١). يقال: غَبَنتُ فلاناً: إذا بايعتَه أو شاريتَه، فكان النقصُ عليه والغَلَبةُ لك. وكذا أهلُ الجنة وأهلُ النار؛ على ما يأتي بيانه. ويقال: غَبَنتُ الثوب وخبنتُه: إذا طال عن مِقدارك فخِطتَ منه شيئاً، فهو نقصانٌ أيضاً. والْمَغَابِنُ: ما انثنى من الخلق نحو الإبْطين والفخذين. قال المفسرون: فالمغبونُ مَن غَبَن أهلَه ومنازله في الجنة. ويظهر يومئذ غَبْنُ كلِّ كافر بتركه(٢) الإيمانَ، وغَبْنُ كلِّ مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام(٣). قال الزجاج(٤): وَيَغْبِن مَن ارتفعت منزلتُه في الجنة مَن كان دون منزلته.

الثانية: فإن قيل: فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغَبْن فيها. قيل له: هو تمثيلُ الغَبْن في الشراء والبيع(٥)، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]. ولمَّا ذكر أن الكفار اشتَرَوُا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا، ذَكَر أيضاً أنهم غُبِنوا، وذلك أن أهل الجنة اشتَرَوُا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهلُ النار الدنيا بترك الآخرة. وهذا نوعُ مبادلة اتِّساعاً ومجازاً.

وقد فرَّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للنار. ومنازلُ الكلِّ موضوعةٌ في الجنة والنار. فقد يسبق الخِذلانُ على العبد ـ كما بيَّنَّاه في هذه السورة(٦) وغيرها ـ فيكونُ من أهل النار، فيحصُلُ الموفَّق على منزل المخذول، ومنزلُ الموفَّق في النار للمخذول، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن. والأمثالُ موضوعةٌ للبيان في حكم اللغة والقرآن. وذلك كلُّه مجموعٌ مِن نشر الآثار، وقد جاءت

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ .

(٢) في (د)ز و(م): بترك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٨٠ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ .

(٦) في تفسير الآية الثانية منها.

مفرَّقةٌ في هذا الكتاب[١]. وقد يُخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيَّنّاه في «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»[٢]. والله أعلم. وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعدُ، ولكنه أراد التغابن الذي لا جُبران لنهايته.

وقال الحسن وقتادة: بلغنا أنَّ التغابن في ثلاثة أصناف: رجلٍ عَلِم عِلماً فعلَّمه وضيَّعه هو ولم يعمل به، فشَقيَ به، وعَمِل به مَن تعلَّمه منه فَنَجا به. ورجلٍ اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشحَّ عليه، وفرَّط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيراً، وتركه لوارث لا حسابَ عليه فيه، فعمل ذلك الوارثُ فيه بطاعة ربِّه. ورجلٍ كان له عبدٌ، فعمل العبد بطاعة ربِّه فسَعِد، وعمل السيِّد بمعصية ربِّه فشَقي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه، فيقول الله تعالى لهما: قُولَا فما أنتما بقائلين، فيقول الرجل: يا ربِّ أوجبتَ نفقتها عليَّ، فتعسَّفتُها من حلال وحرام، وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك، ولم يَبْقَ لي ما أُوفي به، فتقولُ المرأة: يا ربِّ وما عسى أن أقول، اكتسبَه حراماً وأكلتُه حلالاً، وعصاك في مَرْضاتي ولم أرضَ له بذلك، فبُعداً له وسُحْقاً، فيقول الله تعالى: قد صدقتِ، فيؤمرُ به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة، فَتَطَّلِعُ عليه من طبقات الجنة وتقول له: غَبَنَّاك غَبَنَّاك، سَعِدنا بما شَقِيتَ أنت به» فذلك يوم التغابن[٣].

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٤]: استدل علماؤنا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ على أنه لا يجوز الغَبْن في المعاملة الدُّنيوية؛ لأن الله تعالى خصَّص التغابنَ بيوم القيامة فقال: «ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ» وهذا الاختصاصُ يُفيد أنه لا غَبْن في الدنيا، فكلُّ مَن اطَّلع

---

(١) ينظر ١/ ٢٩٦، ١٥/ ١٥ - ١٦، وص٦-٧ من هذا الجزء. والكلام السالف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ - ١٨٠٤.

(٢) ١٥/ ١٥ - ١٦.

(٣) لم نقف عليه، والضعف في سياقه ظاهر.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٤ - ١٨٠٥.

على غَبْن في مَبيع، فإنه مردودٌ إذا زاد على الثلُث. واختاره البغداديون واحتجُّوا عليه بوجوه: منها قولُه ﷺ لحَبَّان بن مُنْقِذ: «إذا بايعت فقُلْ: لا خِلابة، ولك الخيارُ ثلاثاً»[(١)]. وهذا فيه نظرٌ طويلٌ بيَّنَّاه في مسائل الخلاف. نُكْتَتُه أن الغَبْن في الدنيا ممنوعٌ بإجماعٍ في حكم الدين، إذ هو من باب الخِداع المحرَّمِ شرعاً في كلِّ ملَّة، لكنَّ اليسيرَ منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد، فمضى في البيوع، إذ لو حَكَمْنا بردِّه ما نفذ بيعٌ أبداً؛ لأنه لا يخلو منه، حتى إذا كان كثيراً أمكن الاحتراز منه؛ فوجب الردُّ به. والفرقُ بين القليل والكثير أصلٌ في الشريعة معلومٌ، فقدَّر علماؤنا الثلثَ لهذا الحدِّ، إذ رأوه في الوصية وغيرها. ويكون معنى الآية على هذا: ذلك يومُ التغابنِ الجائزِ مطلقاً من غير تفصيل. أو: ذلك يومُ التغابنِ الذي لا يُستدرك أبداً؛ لأن تغابن الدنيا يُستدرك بوجهين: إما بردٍّ في بعض الأحوال، وإمَّا بربح في بيع آخرَ وسِلْعَةٍ أخرى. فأمَّا مَنْ خَسِر الجنة فلا درك له أبداً. وقد قال بعض علماء الصوفية: إن الله كتب الغَبْنَ على الخلق أجمعين، فلا يلقى أحدٌ ربَّه إلا مغبوناً؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصُلَ له استيفاء الثواب. وفي الأثر قال النبيُّ ﷺ: «لا يلقى اللهَ أحدٌ إلا نادماً؛ إن كان مسيئاً أنْ لم يحسن، وإن كان محسناً أنْ لم يزدد»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما، والباقون بالياء[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لمَّا ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكافرين؛ كما تقدَّم في

---

(١) سلف ٤/ ٤٣٥.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي (والكلام منه): ... إذ لم يحسن، .. إذ لم يزدد. ولم نقف عليه.

(٣) السبعة ص٦٣٨، والتيسير ص٢١١.

غير موضع.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته وقضائه(١). وقال الفرَّاء: يريد: إلا بأمر الله(٢). وقيل: إلا بعلم الله(٣). وقيل: سببُ نزولها أنَّ الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا، فبيَّن الله تعالى أنَّ ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، يقتضي هَمًّا أو يُوجِب عقاباً عاجلاً أو آجلاً، فبعلم الله وقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدِّقْ ويعلمْ أنه لا يصيبه مصيبةٌ إلا بإذن الله(٤) ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للصبر والرضا. وقيل: يُثَبِّته على الإيمان. وقال أبو عثمان الحيري(٥): مَن صحَّ إيمانه، يَهدِ الله قلبه لاتباع السُّنة(٦). وقيل: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ» عند المصيبة، فيقول: «إنَّا للهِ وإنَّا إِلَيْهِ رَاجعُونَ»(٧). قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه(٨). وقال الكَلْبيُّ: هو إذا ابْتُليَ صَبَرَ، وإذا أُنعِم عليه شَكَر، وإذا ظُلم غَفَر(٩). وقيل: يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب في الجنة.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣ .

(٥) في (خ) و(ف) و(م): الجيزي، وهو غلط، والصواب ما أثبتناه.

(٦) زاد المسير ٨/ ٢٨٣ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦١ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٣ ، ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٨٣ لمقاتل.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢ .

(٩) النكت والعيون ٦/ ٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ٢٨٣ .

وقراءةُ العامة: «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لِذكرِ اسم الله أولاً. وقرأ السُّلَميُّ وقتادةُ: «يُهْدَ قَلْبُه» بضمِّ الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء[1]؛ لأنه اسمُ فعلٍ لم يُسمَّ فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج: «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم. «قَلْبَه» بالنصب[2].
وقرأ عكرمة: «يَهْدَأ قلبُه» بهمزة ساكنة ورفع الباء[3]، أي: يسكُنْ ويطمئن. وقرأ مثلَه مالكُ بن دينار، إلا أنه لَيَّن الهمزة[4].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليمُ مَن انقاد وسلَّم لأمره، ولا كراهةُ مَن كرهه.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: هوِّنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله، واعملوا بكتابه[5]، وأطيعوا الرسل في العمل بسُنَّته، فإن توليتم عن الطاعة، فليس على الرسول إلا التبليغ. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود سواه، ولا خالق غيره، فعليه توكَّلُوا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا

---

(١) قراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) ذكرها عن طلحة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٧ ، وذكرها عن الأعرج - وهو عبد الله بن هرمز - أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٧٨ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٢٣ .

(٤) ذكر هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٧ ونسبها لعمرو بن فائد.

(٥) في (ظ): واتلوا كتابه.

لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عَوْف بن مالكٍ الأشْجَعيِّ، شكا إلى النبيِّ ﷺ جَفاءَ أهلِه وولدِه؛ فنزلت، ذكره النحاس[١]. وحكاه الطَّبَريُّ[٢] عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلُّها بمكةَ إلَّا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ نزلت في عَوْف بن مالكٍ الأشْجَعيِّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغَزْوَ بَكَوْا إليه ورقَّقُوه فقالوا: إلى مَن تَدَعُنا؟ فَيرِقُّ فيُقيم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ الآيةُ كلُّها بالمدينة في عَوْف بن مالكٍ الأشجعيّ. وبقيةُ الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وروى الترمذيُّ[٣] عن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ـ قال: هؤلاء رجالٌ أسلموا من أهل مكةَ، وأرادوا أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فلمَّا أتَوُا النبيَّ ﷺ، رأَوُا الناس قد فَقُهُوا في الدِّين؛ هَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الآية. [قال أبو عيسى:] هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٤]: هذا يبيِّن وجه العداوة، فإن العدوَّ لم يكن عدوًّا لذاته، وإنما كان عدوًّا بفعله. فإذا فَعَل الزوج والولد فِعْلَ العدُوِّ، كان عدوًّا، ولا فِعْلَ أقبحُ من الحيلولة بين العبد وبين الطَّاعة. وفي صحيح البخاريِّ من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الشيطان قَعَد لابن آدم في طريق الإيمان، فقال له: أتؤمنُ وتَذَرُ دِينَك[٥] ودِين آبائك، فخالَفَه فآمن. ثم قعد له على طريق

---

(١) سلف أول السورة.

(٢) في تفسيره ٢٣/ ١٥ .

(٣) برقم (٣٣١٧)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٦ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) و(ق): وتذر ذريتك.

الهجرة، فقال له: أتهاجرُ وتتركُ مالك وأهلك، فخالَفَه فهاجَر. ثم قعد له على طريق الجهاد، فقال له: أتجاهدُ فتقتُلَ نفسك، فتُنكَحَ نساؤك، ويُقسمَ مالك، فخالَفَه فجاهَدَ فقُتِل، فحقٌّ على الله أن يُدخِله الجنة»(١).

وقعود الشيطان يكون بوجهين:

أحدهما: يكون بالوسوسة.

والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوجَ والولدَ والصاحب، قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وفي حكمة عيسى عليه السلام: مَن اتخذ أهلاً ومالاً وولداً، كان للدنيا عبداً. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد، قال النبيُّ ﷺ: «تَعِس عبد الدينار، تَعِس عَبْدُ الدِّرْهم، تَعِس عبد الخَميصَة، تَعِس عبد القَطيفة، تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش»(٢). ولا دناءة أعظمُ من عبادة الدينار والدرهم، ولا همَّة أخسُّ من همَّة ترتفع بثوب جديد(٣).

الثالثة: كما أن الرجل يكون له ولدُه وزَوْجُه عدُوًّا، كذلك المرأةُ يكون لها زوجُها وولدها عدوًّا بهذا المعنى بعينه. وعمومُ قوله: «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» يدخل فيه الذَّكَر والأنثى؛ لدخولهما في كلِّ آية. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ معناه على أنفسكم. والحذرُ على النفس يكون

---

(١) لم يخرجه البخاري في صحيحه كما قال المصنف، لكن أخرجه في التاريخ الكبير ٤/ ١٨٨ من حديث سبرة بن الفاكه بنحوه، وسلف ١٠/ ١٤٢ من حديث سبرة بن الفاكه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقوله: تَعِس: أي عثر وانكبَّ لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك. والخميصة: هي ثوب خزٍّ أو صوف مُعْلَم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعْلمة. والقطيفة: هي كساء له خَمْل. وانتكس: أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة. وقوله: وإذا شيك فلا انتقش: أي إذا شاكته شوكة، فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش. النهاية (تعس) و(خمص) و(قطف) و(نكس) و(شوك). وسلف ١٩/ ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٧ ، والمسألتان الآتيتان منه.

بوجهين: إمَّا لضرر في البدن، وإمَّا لضرر في الدِّين. وضررُ البدن يتعلَّق بالدنيا، وضررُ الدِّين يتعلق بالآخرة. فحذَّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ روى الطَّبَريُّ[(١)] عن عكرمةَ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: كان الرجل يريد أن يأتيَ النبيَّ ﷺ، فيقول له أهلُه: أين تذهب وتدعُنا؟ قال: فإذا أسلم وَفَقُهَ قال: لأرجعنَّ إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلأفعلنّ ولأفعلنّ، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: ما عادَوهم في الدنيا، ولكنْ حملهم[(٢)] مودَّتُهم لهم[(٣)] على أن أخذوا لهم الحرام، فأعطَوه إيَّاهم.

والآيةُ عامةٌ في كلِّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوصُ السبب لا يمنع عموم الحكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ واختبار يحملكم على كسب الحرام ومنعِ حقِّ الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: «يُؤتَى برجل يوم القيامة فيقال: أكَلَ عِيالُهُ حسناتِه»[(٤)]. وعن بعض السلف: العِيال

---

(١) في تفسيره ٢٣/ ١٤ .

(٢) في (م): حملتهم.

(٣) لفظة: لهم، ليست في (د) و(م).

(٤) الكشاف ٤/ ١١٦ ، ولم نقف عليه مرفوعاً، لكن أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٤٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٩٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٨١ عن سفيان الثوري بلفظ: يؤمر بالرجل يوم القيامة إلى النار، فيقال: هذا عياله أكلوا حسناته. قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٤٢ : غريب مرفوعاً. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٣ : لم أره مرفوعاً.

سُوس الطاعات[١]. وقال القُتَيْبي: «فِتْنَةٌ» أي: إغرام، يقال: فُتِن الرجل بالمرأة، أي: شُغف بها[٢]. وقيل: «فِتْنَةٌ»: مِحْنة. ومنه قول الشاعر:

لـقـد فُـتِـن الـنـاسُ فـي ديـنـهـمْ وخَـلَّـى ابـنُ عـفَّـان شـرًّا طـويـلا[٣]

وقال ابن مسعود: لا يقولنَّ أحدكم: اللَّهُمّ اعْصِمْني من الفتنة، فإنه ليس أحدٌ منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتملٌ على فتنة، ولكن ليقل: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من مُضِلَّات الفتن[٤].

وقال الحسن في قوله تعالى: «إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»: أدخل «مِن» للتبعيض؛ لأن كلَّهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر «مِن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة، واشتغال القلب بهما[٥].

وروى الترمذيُّ وغيرُهُ عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال: رأيت النبيَّ ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثُران، فنزل رسول الله ﷺ، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. نظرت إلى هذين الصبيَّيْن يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»، ثم أخذ في خُطبته[٦].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجرَ أعظمُ منها في قول

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٦ .

(٢) في (ظ): غرم بها، والكلام من تفسير غريب القرآن ص٤٦٩ .

(٣) أورده المرزباني في معجم الشعراء ص٢٤٠ ، والبغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٤١٩ ونسباه لكثير بن عبد الله النهشلي، ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤٧٢ للفرزدق.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٠ .

(٥) أورد هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥٤ ولم ينسبه. ونقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٨٥ عن الفراء.

(٦) سنن الترمذي (٣٧٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد. وهو عند أحمد (٢٢٩٩٥)، وأبي داود (١١٠٩)، والنسائي ٣/ ١٠٨ ، ١٩٢ ، وابن ماجه (٣٦٠٠).

المفسّرين. وفي الصحيحين[1] ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألَا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك، فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً»[2]. وقد تقدَّم.

ولا شك في أن الرِّضَا غايةُ الآمال. وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك:

امتحن الله به خلقهُ   فالنارُ والجنة في قبضتِهْ
فهجرُه أعظمُ من نارِهِ   ووَصْلُه أطْيَبُ من جَنَّتِهْ[3]

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخةٌ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، منهم قتادةُ والربيع بن أنس والسُّدِّيُّ وابن زيد[4]. ذكر الطبري[5]: وحدَّثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: جاء أمر

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٠٨ ـ والكلام منه ـ: وعندي ما هو أعظم منها وهو ما ثبت في الصحيح...

(٢) صحيح البخاري (٦٥٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٢٩)، وسلف ٥/٥٨ مختصراً.

(٣) أوردهما أحمد بن محمد المقري التلمساني في نفخ الطيب ٢/٣٩.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٥/٦٤٢ - ٦٤٣.

(٥) في تفسيره ٥/٦٤٣.

شديد، قال[١]: ومَن يعرفُ قدر هذا أو يبلغه؟ فلمَّا عَرَف الله أنه قد اشتدَّ ذلك عليهم، نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إنها لم تنسخ، ولكن حقّ تقاته أن يجاهد لله حَقَّ جهاده، ولا يأخذهم في الله لومةُ لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقد تقدم[٢].

الثانية: فإن قيل: فإذا كانت هذه الآيةُ محكمةً غيرَ منسوخة، فما وجهُ قوله في سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وكيف يجوز اجتماع الأمر باتِّقاء الله حقَّ تُقاته، والأمرِ باتِّقائه ما استطعنا، والأمرُ باتِّقائه حقَّ تُقاته إيجابُ القرآن بغير خصوص ولا وصلٍ بشرط، والأمرُ باتِّقائه ما استطعنا أمرٌ باتِّقائه موصولاً بشرط؟

قيل له: قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» بمعزِل ممَّا دلَّ عليه قوله تعالى: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ». وإنما عنى بقوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جُعل فتنةً لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتُهم، وتصدَّكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين. وذلك أن الله جلَّ ثناؤه قد كان عَذَر مَن لم يقدِر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٧-٩٩]. فأخبر أنه قد عفا عمَّن لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك، فكذلك معنى قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. وممَّا يدلُّ على صحة هذا أنَّ قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» عقيبُ قوله:

---

(١) في (م): قالوا.

(٢) ٢٣٨/٥، وقد رجح المصنف هناك أن هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ هي بيان للتي في آل عمران، والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى .اهـ. وهذا ما ذهب إليه النحاس في الناسخ والمنسوخ ١٢٩/٢، ومكي في ناسخ القرآن ومنسوخه ص٢٠٣ - ٢٠٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أنَّ هذه الآياتِ نزلت بسبب قوم[١] تأخَّروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إيَّاهم عن ذلك، حسب ما تقدم[٢]. وهذا كلُّه اختيار الطَّبري[٣].

وقيل: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فيما تُطُوِّع به من نافلة أو صدقة، فإنه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، اشتدَّ على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم[٤] وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فنسخت الأولى. قاله ابن جُبير. قال الماورديُّ[٥]: ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المُكْرَهَ على المعصية غيرُ مؤاخذ بها؛ لأنه لا يستطيع اتِّقاءها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي: اسمعوا ما تُوعظون به، وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنْهَوْن عنه. وقال مقاتل: «اسْمَعُوا» أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله، وهو الأصلُ في السماع. «وَأَطيعُوا» لرسوله فيما أمركم أو نهاكم. وقال قتادة: عليهما بُويع النبيُّ ﷺ على السمع والطاعة[٦]. وقيل: «وَاسْمَعُوا» أي: اقبلوا ما تسمعون، وعبَّر عنه بالسماع لأنه فائدته[٧].

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاجُ حين تلاها وقَصَرها على عبد الملك بن مروان فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ هي لعبد الملك بنِ مروان أمينِ

---

(١) بعدها في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) و(ق) و(م): كفار، والتصويب من (د)، ويؤيده ما جاء في اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ١٣٩، والكلام فيه قال.. نزلت بسبب قوم كانوا تأخروا..

(٢) في الآية (١٤).

(٣) في تفسيره ٢٣/ ١٤.

(٤) العراقيب جمع عرقوب: وهو عصب غليظ فوق عَقب الإنسان. القاموس (عرقب).

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٦ وما قبله منه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٦.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٠.

الله وخليفتِه، ليس فيها مَثْنَوِيَّة، واللهِ لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد، فخرج من غيره لحلَّ لي دمُه[١]. وَكَذب في تأويلها! بل هي للنبيِّ ﷺ أوّلًا، ثم لأُولي الأمر من بعده. دليلُه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ قيل: هو الزكاة. قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفْل[٢]. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقةُ الرجل لنفسه[٣]. قال ابن العربي[٤]: وإنما أوقع قائلَ هذا قولُه: «لِأَنْفُسِكُمْ»، وخفِيَ عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقةُ الرجل على نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. وكلُّ ما يفعله الرجل من خير، فإنما هو لنفسه. والصحيحُ أنها عامة. ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: «أنفِقْهُ على نفسك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفِقْهُ على عيالك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفِقْهُ على ولدك» قال: عندي آخر: قال: «تصدَّقْ به»[٥]. فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصلُ في الشرع.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ «خَيْراً» نصب بفعل مضمر عند سيبويه[٦]؛ دلَّ عليه: «وَأَنْفِقُوا». كأنه قال: ايتُوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدِّموا خيراً لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والفَرَّاء نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أنفقوا إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة[٧] خَبرُ كان مضمرة، أي: يكن خيراً

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٣).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٠ دون أن ينسب القول الأول.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦، وزاد المسير ٨/ ٢٨٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٠.

(٥) أخرجه أحمد (٧٤١٩)، وأبو داود (١٦٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه، وجاء عند أبي داود تقديم الولد على الزوجة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٧) ينظر مجاز القرآن له ١/ ١٤٣.

لكم. ومَن جعل الخير المال فهو منصوبٌ بـ «أنفِقوا»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٢]. وكذا ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ تقدَّم الكلام فيه أيضاً في «البقرة» وسورةِ الحديد[٣]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ تقدَّم معنى الشكر في «البقرة»[٤]. والحليمُ: الذي لا يَعْجَل.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب وحضر. وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القاهر، فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، أي: من الله القاهر المُحْكِم خالقِ الأشياء. وقال الخطَّابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسر العين ـ فيتأوَّل[٥] معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء، وأنه لا مِثل له، والله أعلم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه. وقال ابن الأنباري: «الْحَكِيمُ»: هو المُحْكِم لخلق الأشياء، صُرِف عن مُفْعِل إلى فَعِيل، ومنه قوله عز وجل: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ معناه المُحْكَم، فصُرَف عن مُفْعَل إلى فَعِيل. والله أعلم.

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٣٩ .

(٢) ٢٠/ ٣٦٩ .

(٣) ٤/ ٢١٩ وما بعدها، و٢٠/ ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): فيتناول.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مختلَفٌ فيها[١]، وآيُها ثمانِ عشرةَ[٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدَلالتِها على كمالِهِ واستغنائِهِ.

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدَّمَ الظَّرفينِ للدَّلالةِ على اختِصَاصِ الأمرينِ بهِ مِن حيثُ الحقيقةُ[٣].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِهِ المقتضيةِ للقدرةِ إلى الكلِّ على سواءٍ.

ثمَّ شرعَ فيما ادَّعاهُ[٤] فقالَ:

---

(١) أي: مكيَّة أو مدنيَّة؛ وقد ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٢٧٩) عن عطاء بن يسار: هي مكيّة إلّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ واللّتان بعدها، ونسب القول بمدنيتها للجمهور، ومنهم: ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، ونسب للضحاك القول بأنها مكية كلها. أمَّا الداني فقد نَسب قول عطاء لابن عباس ومجاهد أيضًا. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص٢٤٨).

(٢) ليس في عدد آياتها اختلاف. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص٢٤٨).

(٣) فلا مُلكَ في الحقيقة إلا مُلكه، وملك غيره تسليط منه تعالى للعبد فهو له بالذات، ولغيره بالعرض، ولا يستحقُّ الحمد سواه سبحانه وتعالى.

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المدعَّى هنا كونه قادراً على كل شيء من الذوات والصفات.

(٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ مقـدَّرٌ كفـرُهُ موجَّهٌ إليـهِ[١] ما يحملُهُ عليهِ ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مقدَّرٌ إيمانُهُ موفَّقٌ لما يدعوهُ إليهِ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعامِلُكُم بما يناسبُ أعمالَكُم.

(٣) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحِكْمَةِ البالغةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فصوَّركُم مِن جُملةِ ما خلقَ فيهما بأحسنِ صورةٍ، حيثُ زيَّنكُم بصَفوةِ أوصافِ الكائناتِ، وخصَّكُم بخُلاصةِ خصائصِ المبدَعاتِ، وجعلَكُم أنموذَجَ جميعِ المخلوقاتِ.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسِنُوا سرائرَكُم حتى لا يَمسَخَ بالعذابِ ظواهِرَكُم[٢].

(٤) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يخفَى عليهِ ما يصحُّ أن يُعلَمَ كليًّا كانَ أو جزئيًّا؛ لأنَّ نسبةَ المقتَضِي لعلمِهِ إلى الكلِّ واحدةٌ.

وتقديمُ تقريرِ القدرةِ على العلمِ؛ لأنَّ دلالةَ المخلوقاتِ عـلـى قدرتهِ أوَّلًا وبالذَّاتِ وعلى علمِه بما فيها من الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ.

(٥) ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أيُّها الكفَّارُ ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كقومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ.

﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ضررَ كفرِهِم فـي الدُّنيا، وأصلُهُ[٣] الثِّقَلُ، ومـنهُ: «الوبيلُ» لطَعَامٍ يَثقلُ على المَعِدَةِ، و«الوابلُ» للمطرِ الثَّقيلِ القِطارِ[٤].

---

(١) معنى التوجيه إليه: خلقه مستعدًّا ومتهيِّأً لما خُلق له.

(٢) المسخ: تغيير الصورة، فإنَّه بالعذاب تُبدَّل أحسن صورة إلى أقبح صورة. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١١٣).

(٣) أي: أصل «وبال».

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «الثقيل القطار» من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، وهو بزنة «كتاب»: جمع «قَطر».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الوبالِ والعذابِ ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسببِ أنَّ الشَّأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزاتِ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكَرُوا وتعجَّبُوا أن يكونَ الرُّسلُ بشرًا، و«البشرُ» يُطلقُ للواحدِ والجمعِ.

﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرُّسلِ ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التَّدبُّرِ في البيِّناتِ.

﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن كلِّ شيءٍ فضلًا عن طاعتِهم.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتِهم وغيرِها ﴿حَمِيدٌ﴾ يدلُّ على حمدِهِ كلُّ مخلوقٍ.

(٧) ـ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ الزَّعمُ: ادِّعاءُ العلمِ، ولذلكَ يتعدَّى إلى مفعولَينِ، وقد قامَ مقامَهُما «أنْ» بما في حيِّزِهِ.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي: بلى تُبعثونَ ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسمٌ أُكِّدَ بهِ الجوابُ[١].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بالمحاسبةِ والمجازاةِ.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقَبولِ المادَّةِ وحصولِ القدرةِ التامَّةِ[٢].

(٨) ـ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآنَ، فإنَّهُ بإعجازِهِ ظاهرٌ بنفسِهِ مُظهِرٌ لغيرِهِ ممَّا فيهِ شرحُهُ وبيانُهُ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمُجازٍ عليهِ.

(٩) ـ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرفٌ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو مقدَّرٌ بـ: اذكرْ، وقرأَ يعقوبُ: ﴿نجمَعُكُم﴾[٣].

---

(١) انظر: «شرح قواعد الإعراب» لشيخ زاده (١/ ٨٥).

(٢) لأنَّ تعسُّر البعث إمَّا لعدم قبول مادَّته للإيجاد، أو لعدم قدرة الفاعل، وكلاهما مُنتفٍ.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٨).

﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ لأجلِ ما فيهِ منَ الحسابِ والجزاءِ، والجمعُ جمعُ الملائكةِ والثَّقلينِ.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ يَغبِنُ فيهِ بعضُهم بعضًا لنزولِ السُّعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ، وبالعكسِ[١]، مستعارٌ من تَغابُنِ التُّجَّارِ، واللَّامُ فيهِ[٢] للدَّلالةِ على أنَّ التَّغابُنَ الحقيقيَّ هوَ التَّغابُنُ في أمورِ الآخرةِ لعِظَمِها ودوامِها.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي عملًا صالحًا.

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالنُّونِ فيهما[٣].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرينِ[٤]، ولذلكَ جعلَهُ الفوزَ العظيمَ لأنَّهُ جامعٌ للمصالحِ مِن دفعِ المضارِّ وجلبِ المنافعِ.

(١٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كأنَّها والآيةَ المتقدِّمةَ بيانٌ للتَّغابُنِ وتفصيلٌ لهُ[٥].

---

(١) يشهد له ما روى البخاري (٦٥٦٩) وغيره عن أبي هريرة قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنَّة إلا أُرِيَ مقعدَه من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحد إلا أُرِيَ مقعده من الجنَّة لو أحسنَ؛ ليكون عليه حسرة».

(٢) أي: في كلمة ﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾، ولام التعريف تدل على أنه كامل في بابه. انظر: «الكتاب» (٢/ ١٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٨)، و«النشر» (ص: ٢١١).

(٤) أي: تكفير السيِّئات ودخول الجنَّات.

(٥) الآيتان بيَّنتا منازل السعداء والأشقياء، ففيهما توضيح لمعنى التغابن، وإنما قال: «كأنها» لأنه لا تعرُّض هنا لنزول السعداء منازل الأشقياء، وبالعكس، وتمام بيان التغابن بالتعرض لذلك. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١١٩).

(١١) - ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إلَّا بتقديرِهِ وإرادتِهِ.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ للثَّباتِ والاسترجاعِ عندَ حلُولِها[١].

وقُرِئَ: «يُهْدَ قلبُه» بالرَّفعِ على إقامتِهِ مقامَ الفاعلِ، وبالنَّصبِ[٢] على طريقةِ ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾[٣]، و«يَهْدَأ» بالهمزِ[٤]؛ أي: يسكُنْ.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ حتَّى القلوبِ وأحوالِها.

(١٢) - ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: فإن تولَّيتُم فلا بأسَ عليهِ؛ إذ وظيفتُهُ التَّبليغُ وقد بلَّغَ.

(١٣) - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لأنَّ إيمانَهُم بأنَّ الكلَّ منهُ يقتضِي ذلكَ.

(١٤) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ يَشْغَلُكم عن طاعةِ اللهِ أو يخاصمُكم في أمرِ الدِّينِ أو الدُّنيا.

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ ولا تأمنُوا غوائِلَهُم.

﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن ذنوبِهم بتركِ المُعاقبةِ ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ بالإعراضِ وتركِ التَّثريبِ عليها ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ بإخفائِها وتمهيدِ معذرَتِهم فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يعاملُكُم بمثلِ ما عمِلتُم ويتفضَّلُ عليكُم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦١)، و«التفسير البسيط» (٢١/ ٤٨٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨) عن أبي جعفر والسلمي.

(٣) وفيه وجهان من التأويل: أنه تمييز محوَّل عن فاعل وقد جاء معرفة شذوذًا، أو هو منصوب بنزع الخافض. انظر: «شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (٢/ ٧٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢٣) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعكرمة وعمرو بن دينار.

(١٥) - ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبارٌ لكُم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثرَ محبَّةَ اللهِ وطاعتَهُ على محبَّةِ الأموالِ والأولادِ والسَّعيِ لهُم.

(١٦) - ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ابذلُوا في تقواهُ جُهدَكم وطاقتكُم.

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ مواعظَهُ ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ أوامرَهُ ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ في وجوهِ الخيرِ خالصًا لوجهِهِ.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: افعلوا ما هوَ خيرٌ لها، وهو تأكيدٌ للحثِّ على امتثالِ هذهِ الأوامرِ، ويجوزُ أن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: إنفاقًا، أو خبرًا لـ(كانَ) مقدَّرٍ جوابًا للأوامرِ.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سبقَ تفسيرُهُ.

(١٧) - ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بصرفِ المالِ فيما أمرَهُ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقرونًا بإخلاصٍ وطيبِ قلبٍ[1].

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعلْ لكُم بالواحدِ عشرًا إلى سبعِ مئةٍ وأكثرَ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿يُضَعِّفْهُ لَكُم﴾[2].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركةِ الإنفاقِ.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيلَ بالقليلِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ.

(١٨) - ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليهِ شيءٌ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تامُّ القدرةِ والعلمِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ التَّغابُنِ دُفِعَ عنهُ موتُ الفجأةِ»[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وطيب نفس».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٨)، و«التيسير» (ص: ٨١)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٤٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٠٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور سورة سورة. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات، وقد تقدّم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى ﴿له الملك وله الحمد﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره . وقوله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ، أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل والحكمة، ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾ أي أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وكقوله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآل . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلّ بهم من العذاب والنكال، في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الدار الآخرة، ثم علل ذلك فقال: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين، ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فكفروا وتولوا﴾ أي كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿واستغنى﴾ أي عنهم، ﴿والله غني حميد﴾.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾(١) أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي بعثكم ومجازاتكم، ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ يعني القرآن ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون، في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقال تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾

---

(١) هذه هي الآية الثالثة التي أمر رسول الله ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد، فالأولى في يونس: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ والثانية في سبأ: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة هي هذه: ﴿زعم الذين كفروا﴾ الآية.

يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ قال ابن عباس: بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته،﴿ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب عوّضه عما فاته من الدنيا، هدى في قلبه ويقينا صادقاً، قال ابن عباس: يعني يهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقال الأعمش عن علقمة ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم، وقال سعيد بن جبير: يعني يسترجع يقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»(١)، وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال تعالى: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمّل من البلاغ، وعليكم ما حمّلتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد: ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد، أن منهم من هو عدوّ الزوج والوالد، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿فاحذروهم﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه، وقال ابن أبي حاتم: عن ابن عباس، وساله رجُل عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

أجر عظيم﴾ . يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد ﴿ فتنة﴾ أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: ﴿ والله عنده﴾ أي يوم القيامة ﴿ أجر عظيم﴾ كما قال تعالى: ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ . روي أن رسول الله ﷺ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[1] . وقال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة»[2] .

وقوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» ، وهذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فنسخت الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿ واسمعوا وأطيعوا﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، وقوله تعالى: ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى: ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر ، وقوله تعالى: ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزّل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم»[3] ، ولهذا قال تعالى ﴿ يضاعفه لكم﴾، كما قال تعالى: ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ﴿ ويغفر لكم﴾، أي ويكفر عنكم السيئات ، ﴿ والله شكور﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ، ﴿ حليم﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات، ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾[4] تقدم تفسيره غير مرة .

[آخر تفسير سورة التغابن ، ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) رواه أحمد وأهل السنن عن أبي بريدة .

(٢) أخرجه الحافظ البزار .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

(٤) في اللباب : أخرج ابن جرير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم﴾ نزلت في عوف بن ملك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه حتى يرق ويقيم .

تفسير سورة التغابن

وهى مدنية ، وقيل : مكية .

قال الطبرانى : حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقى ،حدثنا العباس بن الوليد الخلال ، حدثنا الوليد بن الوليد ،حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن أبى رباح ،عن عبد الله بن عَمرو، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » (١) .

أورده ابن عساكر فى ترجمة « الوليد بن صالح » (٢) ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ .

هذه السورة هى آخر المُسبِّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛ ولهذا قال : ﴿ **لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ** ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ** ﴾ أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ .

ثم قال: ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾ أى : بالعدل والحكمة ،﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم** ﴾ أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ**

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٠) عن أحمد ، عن أيوب بن محمد الوزان، عن الوليد بن الوليد به ، وقال : « لم يروه عن ابن ثوبان إلا الوليد القلانسى » والوليد ضعيف .

(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٨٣١ « المخطوط ») .

فعدلَكَ . فِي أيِّ صُورَةٍ مَّا شاءَ رَكَّبَك ﴾ [الانفطار: ٦ـ ٨] ، وكقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذى جعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرارًا والسَّماءَ بناءً وَصوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ورزقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر: ٦٤] ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصيرِ﴾ أى: المرجع والمآب .

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ،فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أى : خبرهم وما كان من أمرهم ، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والخزى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوى . ثم علل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾؟ أى: استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى : عنهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أى : لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : بعثكم ومجازاتكم .

وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى فى سورة يونس: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية فى سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية

[سبأ:٣] ، والثالثة هي هذه [﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾] [١] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ يعني : القرآن ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ : وهو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد .

وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويُذْهَب بأولئك إلى النار .

قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد تقدم تفسير مثلُ هذه [٢] غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد:٢٢] ، وهكذا قال هاهنا: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: قال ابن عباس : بأمر الله ، يعني : عن قدره [٣] ومشيئته .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه ، ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعني : يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) في م : « هذا » ، وفي أ : « ذلك ».
(٣) في أ : « عن قدرته » .

وقال الأعمش ، عن أبى ظَبْيان قال: كنا عند علقمة فقُرئ عنده هذه الآية : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ، فسُئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير(١) ، وابن أبى حاتم (٢) .

وقال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعنى: يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] .

وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٣) .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح ؛ أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول : سمعت عبادة بن الصامت يقول : إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهونَ من هذا يا رسول الله . قال : « السماحة والصبر » . قال : أريد أهون من ذلك يارسول الله . قال : « لا تتهم الله فى شىء ، قضى لك به » . لم يخرجوه (٤) .

وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى (٥) وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة .

قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم (٦) .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فالأول خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أى: وحدوا الإلهية له ، وأخلصوا لديه ،وتوكلوا عليه ،كما قال تعالى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ .

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٧٩) .

(٢) فى م : « وابن أبى حاتم فى تفسيرهما » .

(٣) الحديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٥/ ٣١٨) .

(٥) فى م : « ما ينهى عنه » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه معلقاً (١٣/ ٥٠٣) « فتح » .

يقول تعالى مخبراً على الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلتهى به عن العمل الصالح ، كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون:٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم .

وقال مجاهد : ﴿ **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ** ﴾ قال : يحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه .

وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ،حدثنا محمد بن خلف العسقلانى [١] ، حدثنا الفريابى ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سماك بن حرب ،عن عكرمة ، عن ابن عباس ــ وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ ــ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناسَ قد فقهوا فى الدين ، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

وكذا رواه الترمذى عن محمد بن يحيى ، عن الفريابى ــ وهو محمد بن يوسف ــ به [٢]. وقال: حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبرانى ، من حديث إسرائل ، به [٣] . ورُوى من طريق العوفى ، عن ابن عباس ، نحوه ، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء .

وقوله : ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ : يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ عِندَهُ** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ كما قال : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** [**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ والتى بعدها] [٤] [آل عمران:١٤، ١٥].

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حُسَين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بُرَيْدة، سمعت أبى [٥] بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين ،رضى الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال : « صدق الله ورسوله ،إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » .

---

(١) فى م : « الصيدلانى » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣١٧) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٨٠) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٢٧٥) .

(٤) زيادة من م ، وفى هـ : « الآية » .

(٥) فى هـ ، م ، أ : « أبا » ، والمثبت من المسند .

ورواه أهل السنن من حديث حُسَين بن واقد ، به [١]. وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديثه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لى فى مَخرَجى إليك من ابنة جمْد ، ولَوَدِدْتُ أن بمكانه : شبعَ القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذاك : إنهم لمجبنة مَحْزنة إنهم لمجبنة مَحْزنة » تفرد به أحمد [٢] ، رحمه الله تعالى .

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر ، حدثنا أبى ، عن عيسى [بن أبى وائل] [٣]، عن ابن أبى ليلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مَجبنة مَبخلة محزنة » ثم قال :لا يعرف إلا بهذا الإسناد [٤] .

وقال الطبرانى : حدثنا هاشم بن مرثد [٥] ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَمُ بنُ زُرْعَةَ ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزاً لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالُك الذى ملكت يمينك » [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [٧] .

وقد قال بعض المفسرين ــ كما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ــ إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتى فى «آل عمران» وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدثنى ابن لَهيعة ، حدثنى عطاء ــ هو ابن دينار ــ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، فنسخت الآية الأولى .

---

(١) المسند (٥/ ٣٥٤) وسنن أبى داود برقم (١١٠٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٧٤) وسنن النسائى (٣/ ١٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٠٠).

(٢) المسند (٥/ ٢١١) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) مسند البزار برقم (١٨٩٢) « كشف الأستار » قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٥) : « وفيه عطية العوفى وهو ضعيف » المجبنة : مظنة للجبن ، والمبخلة : سبب للبخل ، والمحزنة : سبب للحزن .

(٥) فى هـ ، م ، أ : « مزيد » ، والمثبت من المعجم الكبير .

(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤) وفيه ضعف وانقطاع وقد تقدم بيانه مراراً .

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

وروى عن أبى العالية ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسُّدِّىّ ، ومُقاتل بن حَيَّان ، نحو ذلك .

وقوله : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ،ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ ﴾ أى : وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحَاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم ، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تقدم تفسيره فى سورة « الحشر » وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة ، وقوله: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه ، ونزل ذلك منزلة القرض له ، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول : « من يقرض غير ظلوم ولا عديم » [1] . ولهذا قال : ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أى : يجزى على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ ﴾ أى :[يعفو و] [2] يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : تقدم تفسيره غير مرة .

---

(١) صحيح مسلم برقم(٧٥٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه

(٢) زيادة من م.

/ سورة التغابن [١٩٧ظ]

مختلفٌ فيها، وهي ثماني عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يُنزِّهه سبحانه جميعُ ما فيهما مِن المخلوقات عمّا لا يليق بجناب كبريائه تنزيهًا مستمرًّا. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ لا لغيره؛ إذ هو المبدئ لكلّ شيء وهو القائم به والمهيمن عليه، وهو المُولي لأصول النِّعم وفروعها، وأمّا مُلك غيره فاسترعاء مِن جنابه وحمدُ غيره اعتدادٌ بأنّ نعمة الله جرت على يده. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكلّ سواء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ خلقًا بديعًا حاويًا لجميع مبادي الكمالات العِلميّة والعمليّة، ومع ذلك ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ أي: فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسبٌ له على خلاف ما يستدعيه خلقتُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ مختار للإيمان كاسبٌ له حسبما يقتضيه خلقتُه، وكان الواجب عليكم جميعًا أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرّع عليها مِن سائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه؛ بل تشعّبتُم شُعَبًا وتفرّقتُم فِرَقًا. وتقديمُ الكفر لأنّه الأغلب فيما بينهم والأنسبُ بمقام التوبيخ. وحملُه على معنى: فمنكم كافر مقدَّر كفرُه متوجِّه إليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدَّر إيمانُه موفَّق لِما يدعوه إليه،[١] ممّا لا يلائم المقام.

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤١٠.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يُجديكم مِن الإيمان والطاعة، وإيّاكم وما يُرديكم مِن الكفر والعصيان.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة المتضمِّنة للمصالح الدينيّة والدنيويّة ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ حيث برأكم في أحسن تقويم وأودعَ فيكم مِن القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نِيطَ بها جميعُ الكمالات البارزة والكامنة، وزيَّنكم بصفوة صفاتِ مصنوعاته وخصَّكم بخلاصة خصائص مبدعاته، وجَعَلكم أنموذجَ جميع مخلوقاته في هذه النشأة، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فأحسِنوا سرائركم باستعمال تلك القُوى والمشاعر فيما خُلِقْن له.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الأمور الكلّيّة والجزئيّة والأحوال الجليّة والخفيّة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أي: ما تُسرُّونه فيما بينكم وما تُظهرونه مِن الأمور. والتصريح به مع اندراجه فيما قبله؛ لأنّه الذي يدور عليه الجزاء، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما.

[١٩٨و] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ/ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن شمول علمه تعالى لسرِّهم وعلنهم، أي: هو محيط بجميع المضمرات المستكنّة في صدور الناس بحيث لا تُفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما يسرُّونه وما يعلنونه. وإظهار الجلالة للإشعار بعلّة الحُكم وتأكيدِ استقلال الجملة. قيل: وتقديمُ تقرير القدرة على تقرير العِلم؛ لأنّ دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى عِلمه بما فيها مِن الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.[١]

---

[١] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١١/٣.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥﴾

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أيُّها الكفرة ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ كقوم نوح ومَن بعدهم مِن الأمم المصرّة على الكفر ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾. والوبال الثِّقَل والشدّة المترتِّبة على أمر مِن الأمور. وأمرهم: كفرهم عُبِّر عنه بذلك للإيذان بأنّه أمر هائل وجناية عظيمة، أي: ألم يأتِكم خبر الذين كفروا مِن قبلُ فذاقوا مِن غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنّ الشأنَ ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿كَانَت﴾ ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ أي: قال كلّ قوم مِن المذكورين في حقّ رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكِرين لكون الرسول مِن جنس البشر متعجّبين مِن ذلك: أبشَرٌ يهدينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر، ٢٤/٥٤]. وقد أُجمِل في الحكاية فأُسنِد القول إلى جميع الأقوام وأريدَ بالبشر الجنس فوُصِف بالجمع، كما أُجمِل الخطابُ والأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ أي: بالرسل ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن التدبّر فيما أتوا به مِن البيّنات وعن الإيمان بهم، ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾ أي: أظهَر استغناءه عن إيمانهم وطاعتِهم حيث أهلكهم وقَطَع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهما لَمَا فعل ذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين فضلًا عن إيمانهم وطاعتهم، ﴿حَمِيدٞ﴾ يحمده كلّ مخلوق بلسان الحال، أو مستحقٌّ للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾

[١٩٨ظ] ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ / الزعم: ادِّعاءُ العِلم، يتعدّى إلى مفعولين، وقد قام مقامَهما ﴿أَن﴾ المخفَّفة مع ما في حيّزه. والمراد بالموصول كفّار مكّة، أي: زعموا أنّ الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبدًا. ﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وإبطالًا لزعمهم بإثبات ما نفَوه: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: تُبعثون.

وقوله: ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتحاسبنَّ وتُجزَونَّ بأعمالكم، جملة مستقلّة داخلةٌ تحت الأمر واردةٌ لتأكيد ما أفاده كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ مِن إثبات البعث وبيانِ تحقّق أمر آخرَ متفرّع عليه منوطٍ به، ففيه تأكيدٌ لتحقّق البعثِ بوجهين. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن البعث والجزاءِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لتحقّق القدرة التامّة وقَبول المادّة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ فصيحة مَفصِحة عن شرط قد حُذف ثقةً بغاية ظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهو القرآن فإنّه بإعجازه بيّن بنفسه مبيّنٌ لغيره، كما أنّ النور كذلك. والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الامتثال بالأمر وعدمِه ﴿خَبِيرٞ﴾ فمُجازيكم عليه. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن الأمر، موجِبٌ للامتثال به بالوعد والوعيد. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيدِ استقلال الجملة.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ ظرف ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾،[١] وقيل: لـ﴿خَبِيرٞ﴾،[٢] لِما فيه مِن معنى الوعيد، كأنّه قيل: والله مُجازيكم ومُعاقبكم يومَ يجمعكم، أو مفعول لـ"اذكرْ".[٣]

[١] التغابن، ٧/٦٤.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/٤.

وقُرِئ: "نَجْمَعُكُمْ"[١] بنون العظمة. ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ ليوم يُجمَع فيه الأوّلون والآخِرون، أي: لأجل ما فيه مِن الحساب والجزاء.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أي: يومُ غَبْن بعض الناس بعضًا بنزول السُّعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا سعداءَ وبالعكس. وفي الحديث: «ما مِن عبد يدخل الجنّة إلّا أريَ مقعدَه مِن النار لو أساء لِيزدادَ شكرًا، وما مِن عبد يدخل النارَ إلّا أريَ مقعده مِن الجنّة لو أحسَنَ لِيزدادَ حسرةً».[٢] وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأنّ التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ / أي: عملًا صالحًا ﴿يُكَفِّرۡ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، وقُرِئ بنون العظمة.[٣] ﴿عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ وقُرِئ: "نُدْخِلْهُ"[٤] بـ"النون". ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن تكفير السيّئات وإدخالِ الجنّات ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فَوْزَ[٥] وراءه لانطوائه على النجاة مِن أعظم الهَلَكات والظفرِ بأجلِّ الطَّلِبات. [١٩٩و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: النارُ.

كأنّ هاتين الآيتين الكريمتين بيانٌ لكيفيّة التغابن.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ مِن المصائب الدنيويّة ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره وإرادته، كأنّها بذاتها متوجِّهة إلى الإنسان متوقِّفة على إذنه تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٧٨/١٦ (١٠٩٨٠)؛ وصحيح البخاري، ١١٧/٨ (٦٥٦٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٨٠/١ (٣٧١).

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٤ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٥ وفي هامش م: الفوز: هو النجاة مِن المكروه والظفر بالخير. قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «فوز».

يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند إصابتها للثبات والاسترجاع. وقيل: يهدِ قلبه حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه. وقيل: يهدِ قلبه، أي: يلطُف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير.[١] وقُرئ: "يُهْدَ قَلْبُهُ"[٢] على البناء للمفعول ورُفِع ﴿قَلْبَهُۥ﴾، وقُرئ بنصبه[٣] على نهج ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة، ٢/١٣٠]، وقُرئ: "يَهْدَأْ قَلْبُهُ"[٤] بالهمزة، أي: يسكُن.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها القلوب وأحوالها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم إيمانَ المؤمن ويهدي قلبَه إلى ما ذُكر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كُرِّر الأمرُ للتأكيد والإيذانِ بالفرق بين الطاعتين في الكيفيّة وتوضيحِ مَوْرِد التولّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأسَ عليه؛ إذ ما عليه إلّا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مَزيد عليه.

وإظهارُ الرسول مضافًا إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه السلام والإشعارِ بمدار الحُكم الذي هو كون وظيفته عليه السلام محضَ البلاغ، ولزيادة تشنيعِ التولّي عنه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

[١٩٩ظ] / ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، أي: هو المستحقّ للمعبوديّة لا غير. وفي إضمار خبرِ ﴿لَآ﴾ مثل "في الوجود" أو "يصحّ أن يوجد" خلافٌ للنُّحاة معروف.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١٥-٤١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وعكرمة وعمرو بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصّة دون غيره لا استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمارِ للإشعار بعلّة التوكّل والأمرِ به، فإنّ الألوهيّة مقتضية للتبتّل إليه تعالى بالكلّيّة وقطعِ التعلّق عمّا سواه بالمرّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله تعالى، أو يُخاصمونكم في أمور الدِّين أو الدنيا. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدوّ، فإنّه يُطلَق على الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء، ٧٧/٢٦]، أو للأزواج والأولادِ جميعًا، فالمأمور به على الأوّل الحذرُ عن الكلّ،[١] وعلى الثاني إمّا الحذر عن البعض، لأنّ منهم مَن ليس بعدوّ، وإمّا الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدوّ.

﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلِّقةً بأمور الدنيا أو بأمور الدِّين، لكن مقارنة للتوبة، ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ بتَرْك التثريبِ والتعيير ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ بإخفائها وتمهيد عُذرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يُعاملكم بمثل ما عملتُم ويتفضّل عليكم.

وقيل: إن ناسًا مِن المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجُهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتُضيِّعوننا، فَرَقُّوا لهم ووقفوا، فلمّا هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأوّلين قد فَقُهوا في الدِّين أرادوا أن يُعاقبوا أزواجَهم وأولادهم فزُيِّن لهم العفو. وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدَعُون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم، فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعَنا الله في دار الهجرة لم نُصبكم بخير، فلمّا هاجروا منعوهم الخير، فحُثّوا على أن يعفوا عنهم ويردُّوا إليهم البرّ والصلة.[٢]

---

[١] وفي هامش م: أي: عن كلّ ما رجع إليه الضمير. «منه».

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١٦.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ بلاء ومِحْنة يُوقعونكم في الإثم مِن حيث لا تحتسبون. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمَن آثَر محبّة الله تعالى وطاعته على محبّة الأموال والأولاد والسعي في تدبير مصالحهم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا في تقواه جُهدَكم وطاقتَكم ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظَه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ممّا رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ائتوا خيرًا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفعُ. وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر وبيانٌ لكون الأمور المذكورة خيرًا لأنفسهم. ويجوز أن يكون صفةً لمصدر محذوف، أي: إنفاقًا خيرًا، أو خبرًا لـ"كان" مقدّرًا جوابًا للأوامر، أي: يكن خيرًا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مرام.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيّنها ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مقرونًا بالإخلاص وطِيب النفس، ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ بالواحد عشرةً إلى سبعمائة وأكثرَ. وقُرِئ: "يُضَعِّفْهُ لَكُمْ".[1] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم مِن بعض الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بمقابلة النزر القليل، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

---

[1] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه خافية، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التغابن دُفع عنه موتُ الفجأة».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/٤٨٠ (التغابن، ١/٦٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٠٦ (التغابن، ١/٦٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١٧. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦٤

سورة التغابن

مكية أو مدنية، ثمانيْ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: يُنزِّهه ـ فاللام: زائدة، وأُتِيَ بـ «ما» دُون «مَن» تغليبًا للأكثر ـ ﴿لَهُ المُلكُ ولَهُ الحَمدُ، وهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم، فمِنكُم كافِرٌ ومِنكُم مُؤمِنٌ﴾ في أصل الخلقة، ثم يُميتهم ويُعيدهم على ذلك، ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ، وصَوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكُم﴾ إذ جعل شكل الآدميّ أحسن الأشكال، ﴿وإلَيهِ المَصِيرُ، يَعلَمُ ما في السَّماواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما تُسِرُّونَ وما تُعلِنُونَ. واللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما فيها من الأسرار والمُعتقدات.

٥ ـ ﴿ألَم يأتِكُم﴾ ـ يا كُفّارَ مكّةَ ـ ﴿نَبَأُ﴾: خبرُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ، فذاقُوا وَبالَ أمرِهِم﴾: عُقوبةَ الكُفر في الدنيا، ﴿ولَهُم﴾ في الآخرة ﴿عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم؟ ٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: عذاب الدنيا ﴿بِأنَّهُ﴾ ـ ضميرُ الشأن ـ ﴿كانَت تأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾:..

سورة التغابن

قولُهُ: (في أصلِ الخِلْقَةِ) فواحدٌ مقدَّرٌ كفرُهُ موجَّهٌ إليهِ ما يحملُهُ عليهِ عدلاً، وآخرُ مقدَّرٌ إيمانُه موفَّقٌ لِمَا يدعُوهُ إليهِ فضلاً، لا يسألُ عمَّا يفعلُ أصلاً.

قولُهُ: (يا كُفَّارَ مَكَّةَ) العُمومُ أولى.

قولُهُ: (عُقُوبَةَ كُفرِهِم) وضررَهُ، وأصلُهُ: الثِّقلُ.

قولُهُ: (أي: عَذَابُ الدُّنيَا) والأظهرُ: المذكورُ من الوَباءِ والعَذابِ.

بالحُجج الظاهرات على الإيمان، ﴿فقالُوا: أبَشَرٌ﴾ ـ أُريدَ به الجنسُ ـ ﴿يَهدُونَنا؟ فكَفَرُوا وتَوَلَّوا﴾ عن الإيمان، ﴿واستَغنَى اللهُ﴾ عن إيمانهم. ﴿واللهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في أفعاله.

٧ ـ ٨ ـ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنْ﴾ ـ مُخففةٌ واسمها محذوف ـ أي: أنّهم ﴿لَن يُبعَثُوا. قُلْ: بَلَى ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلتُم. وذلِكَ علَى اللهِ يَسِيرٌ. فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ﴾: القُرآن ﴿الَّذِي أنزَلْنا. واللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. ٩ ـ ١٠ ـ اذكرْ ﴿يَومَ يَجمَعُكُم لِيَومِ الجَمعِ﴾: يومِ القيامة. ﴿ذلِكَ يَومُ التَّغابُنِ﴾: يَغبِنُ المُؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم وأهليهم في الجنّة، لو آمنوا ﴿ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ صالِحًا يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئاتِهِ ويُدخِلْهُ﴾ ـ وفي قراءة بالنون في الفعلين ـ ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا ـ ذلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ ـ والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾: القُرآن ﴿أُولئِكَ أصحابُ النّارِ خالِدِينَ فِيها، وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي!

قولُهُ: (الحُجَجِ) أو المعجزاتِ.

قولُهُ: (أُرِيْدَ بِهِ الجِنْسُ) أنكَروا وتعجَّبوا أن يكونَ الرَّسولُ بشراً، وجوَّزوا أن يكونَ الإلهُ حجراً.

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) أو عن التَّدبُّرِ في البيِّناتِ.

قولُهُ: (عَن إِيمَانِهِم) وغيرِهِ.

قولُهُ: (عَن خَلقِهِ) فضْلاً عن طاعتِهِم.

قولُهُ: (مَحمُودٌ في أَفْعَالِهِ) حُمِدَ أو لم يُحمَدْ، أو يدلُّ على حمدِهِ كلُّ مخلوقٍ.

قولُهُ: (القُرآنِ) فإنَّهُ بإعجازِهِ ظاهرٌ بنفسِهِ مظهرٌ لغيرِهِ بما فيه شرحُهُ وبيانُهُ.

قولُهُ: (يَومِ القِيَامَةِ) لأجلِ ما فيهِ من الحسابِ والجزاءِ، و﴿الجمعِ﴾ جمعُ الملائكةِ والثَّقلينِ.

قولُهُ: (يَغبِنُ) أي: يغبنُ فيه بعضُهم بعضاً؛ لنزولِ السُّعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ، وبالعكسِ، مستعارٌ من تغابنَ التُّجَّارُ، واللَّامُ فيه للدَّلالةِ على أنَّ التَّغابنَ الحقيقيَّ هو التَّغابنُ في أمورِ الآخرةِ لعُظْمِها ودوامِها، فيظهرُ غبنُ كلِّ كافرٍ بتركِ الإيمانِ، وغبنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرِهِ في الإحسانِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ[1].

قولُهُ: (في الفِعْلَينَ) أي: الأخيرينِ[2] كأنَّ الآيتينِ بيانٌ للتَّغابنِ وتفصيلٌ له.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) في أكثر الأصول زيادة: «قوله» ووجودها خطأ.

١١ ـ ١٢ ـ ﴿ما أصابَ مِن مُصِيبةٍ إلاّ بإذنِ اللهِ﴾: بقضائه، ﴿ومَن يُؤمِنْ باللهِ﴾ في قوله: «إنّ المُصيبة بقضائه» ﴿يَهدِ قَلبَهُ﴾ للصبر عليها، ﴿واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ. وأطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ. فإن تَوَلَّيتُم فإنَّما علَى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِينُ﴾: البيِّنُ. ١٣ ـ ﴿اللهُ لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ، وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾.

١٤ ـ ١٥ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إنَّ مِن أزواجِكُم وأولادِكُم عَدُوًّا لَكُم. فاحذَرُوهُم﴾ أن تُطيعوهم في التخلّف عن الخير، كالجِهاد والهِجرة ـ فإنّ سبب نُزول الآية الإطاعةُ في ذلك ـ ﴿وإن تَعفُوا﴾ عنهم في تثبيطهم إياكم عن ذلك الخير مُعتلّين بمشقّة فِراقكم عليهم، ﴿وتَصفَحُوا وتَغفِرُوا، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنَةٌ﴾ لكم شاغلةٌ عن أُمور الآخرة، ﴿واللهُ عِندَهُ أجرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا تُفوّتوه باشتغالكم بالأموال والأولاد.

١٦ ـ ﴿فاتَّقُوا اللهَ ما استَطَعتُم﴾ ـ ناسخةٌ لقوله: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ» ـ ﴿واسمَعُوا﴾ ما أُمرتم به سماعَ قَبول ﴿وأطِيعُوا، وأنفِقُوا﴾ في الطاعة، ﴿خَيرًا لِأنفُسِكُم﴾: خبرُ «يكن» مُقدّرة جواب الأمر. ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون.

١٧ ـ ﴿إن تُقرِضُوا اللهَ قَرضًا حَسَنًا يُضاعِفْهُ لَكُم﴾ ـ وفي قِراءة: «يُضَعِّفْهُ» بالتشديد. بالواحدةِ عشرًا إلى سبعِمائَةٍ وأكثرَ...

قولُهُ: (للصَّبرِ) والاسترجاعِ عندَ حُلولها.

قولُهُ تعالى: (﴿وإن تعفوا وَتَصْفَحُوا﴾) بالإعراضِ وتركِ التَّرتيبِ (﴿وتغفرُوا﴾) بإخفائِها وتمهيدِ معذرتِهِم فيها (﴿فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾) يعاملُكُم بمثلِ ما عامَلتُم.

قولُهُ: (عَنهُم) أي: عن ذنوبِهِم بتركِ المعاقَبةِ.

قولُهُ: (شَاغِلَةٌ) أو اختبارٌ لكُم، ولذا قالَ بعضُ أهلِ الأحوالِ: كثرةُ العيالِ فضيحةُ الرِّجالِ.

قولُهُ: (نَاسِخَةٌ) أو مبيِّنةٌ مفسِّرةٌ، فإنَّ معناهُ: ابذُلوا في تقواهُ جهدَكُم وطاقتَكُم.

قولُهُ: ﴿اللهَ﴾ أي: أوامرَهُ.

قولُهُ: (مَا أُمِرْتُم) أو مواعِظَ.

قولُهُ: (فِي الطَّاعَةِ) خالصاً لوجهِهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وبصريٍّ[1].

---

(١) الصواب: لمكي وشامي، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٨)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٨٨).

وهو التصدّق عن طِيب قلب ـ ﴿ويَغفِرْ لَكُم﴾ ما يشاء. ﴿واللهُ شَكُورٌ﴾: مُجازٍ على الطاعة ﴿حَلِيمٌ﴾ في العِقاب على المعصية، ١٨ ـ ﴿عالِمُ الغَيبِ﴾: السرّ ﴿والشَّهادةِ﴾: العلانية ﴿العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه.

قولُهُ: (وهُو التَّصَدُّقُ) أي: صرفُ المالِ في سُبُلِ الخيرِ مقروناً بإخلاصٍ.

قولُهُ: (مَا يَشَاءُ) ببركةِ الإنفاقِ.

قولُهُ: (مُجَازٍ) يُعطِي الجزيلَ بالقليلِ.

قولُهُ: (عَلى المَعصِيَةِ) لا يعاجلُ بالعقوبةِ خُصُوصاً على البخلاءِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مدنيَّةٌ في قول الأكثرين، وعن ابن عباس وعطاء بن يسار أنها مكيةٌ إلا آياتٍ من آخرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ.

وعددُ آيها تسعَ عشرةَ آيةً بلا خلاف. ومناسَبَتُها لِمَا قبلها أنه سبحانه ذكر هناك حالَ المنافقين، وخاطَبَ بعدُ المؤمنين، وذكر جلَّ وعلا هنا تقسيمَ الناس إلى مؤمنٍ وكافرٍ. وأيضاً في آخر تلك: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾، وفي هذه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وهذه الجملة على ما قيل كالتعليل لتلك. وأيضاً في ذكر التغابن نوعُ حَثٍّ على الإنفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل.

واستنبطَ بعضُهم عُمُرَ النبيِّ ﷺ ثلاثاً وستين من قوله تعالى في تلك السورة: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ فإنها رأسُ ثلاثٍ وستين سورة، وعقَّبها سبحانه بالتغابن ليظهر التغابنُ في فَقْده عليه الصلاة والسلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُنزِّهه سبحانه وتعالى جميعُ المخلوقات عمَّا لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تسبيحاً مستمرًّا، وذلك بدلالتها على كماله عزَّ وجلَّ واستغنائه تعالى، والتجدُّد باعتبار تجدُّد النظر في وجوه الدلالة على ذلك.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لا لغيره تعالى؛ إذ هو جلَّ شأنه المبدئ لكلِّ شيءٍ، وهو القائم به والمهيمنُ عليه، وهو عزَّ وجلَّ المولي لأُصول النِّعم وفروعها، وأما مُلك

غيره سبحانه فاسترعاءٌ منه تعالى وتسليط، وأما حَمْدُ غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده، فكلا الأمرين له تعالى في الحقيقة، ولغيره بحَسَبِ الصورة. وتقديمُ «له الملك» لأنه كالدليل لما بعده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ لأنَّ نسبةَ ذاته جلَّ شأنه ـ المقتضيةِ للقدرة ـ إلى الكلِّ سواء، فلا يُتصوَّر كونُ بعضٍ مقدوراً دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ إلخ بيانٌ لبعض قدرته تعالى العامة، والمراد: هو الذي أَوجدكم كما شاء.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ ـ أي: فبعضكم كافرٌ به تعالى، وبعضُكم مؤمنٌ به عزَّ وجلَّ، أو: فبعضٌ منكم كافرٌ به سبحانه، وبعضٌ منكم مؤمنٌ به تعالى ـ تفصيلٌ لما في «خلقكم» من الإجمال؛ لأنَّ كونَ بعضهم أو بعضٍ منهم كافراً، وكونَ بعضهم أو بعضٍ منهم مؤمناً، مرادٌ منه، فالفاء مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ إلخ [النور: ٤٥]، فيكون الكفر والإيمان في ضِمْنِ الخلق، وهو الذي تؤيِّده الأخبار الصحيحةُ كخبر البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود عن ابن مسعود قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «إنَّ خَلْقَ أحدكم يُجمَعُ في بطنِ أُمِّه أربعينَ يوماً نُطفةً، ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك، ثم يكونُ مُضْغة مثل ذلك، ثم يَبعثُ الله إليه ملكاً بأربع كلمات: يكتب رزقَهُ، وأجلَهُ، وعملَهُ، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يَنفُخُ فيه الروح...» الحديث(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مكثَ المنيُّ في الرَّحِم أربعينَ ليلةً، أتاهُ ملكُ النفوس، فعَرَجَ به إلى الرَّبِّ، فيقول: يا ربِّ أَذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاضٍ، فيقول: أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ». وقرأ أبو ذَرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، والترمذي (٢١٣٧)، وأبو داود (٤٧٠٨). وهو عند أحمد (٣٦٢٤). وسلف ٣/ ٣٢٤.

قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

والجمعُ بين الخبرين مما لا يخفى على مَنْ أوتي نصيباً من العلم. وتقديمُ الكفر لأنه الأغلب.

واختار بعضُهم كونَ المعنى: هو الذي خَلَقَكم خَلْقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادي الكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك فمنكم مختارٌ للكفر كاسبٌ له على خلاف ما تستدعيه خِلْقته، ومنكم مختارٌ للإيمان كاسبٌ له حسبما تقتضيه خِلْقته، وكان الواجبُ عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخَلْق والإيجاد وما يتفرَّعُ عليهما من سائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه، بل تشعَّبتم شُعَباً وتفرَّقتم فِرَقاً. وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ، بَيْدَ أنه فسَّرَ الكافرَ بالآتي بالكُفْرِ والفاعل له، والمؤمنَ بالآتي بالإيمان والفاعل له؛ لأنه الأوفقُ بمذهبه من أنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله، وأنَّ الآيةَ لبيان إخلالهم بما يقتضيه التَّفضُّل عليهم بأصل النِّعم، الذي هو الخَلْقُ والإيجادُ من العَدَم(٢)، وأنَّ الآيات بعدُ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يُعصَى الخالقُ ولا تُشكَر نعمته. ثم قال: فما أجهلَ مَنْ يمزجُ الكفرَ بالخَلْق، ويجعلهُ من جملته، والخلقُ أعظمُ نعمةٍ من الله تعالى على عباده، والكفرُ أعظمُ كفرانٍ من العباد لربِّهم سبحانه.

وجعل الطِّيبيُّ الفاءَ على هذا للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة، كاللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهي كالفاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ولم يجعلها للتفصيل كما قيل.

واختار في الآية المعنى السابق مؤيِّداً له بالأحاديث الصحيحة، وبأنَّ السياقَ عليه، مُدَّعياً أنَّ الآيات كلَّها واردةٌ لبيانِ عَظَمة الله تعالى في مُلْكه وملكوته، واستبداده فيهما، وفي شمول علمه تعالى كلّها، وفي إنشائه تعالى المكوَّنات ذواتها

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٧، وأخرجه أيضاً الدارمي في الرد على الجهمية ص٢٥. وأخرجه الطبري ٢٣/ ٦ عن أبي ذرٍّ موقوفاً.

(٢) في الأصل و(م): النعم، والمثبت من الكشاف ٤/ ١١٣.

وأعراضها. ووافقه في اختيار ذلك تلميذُهُ المدقِّقُ صاحبُ «الكشف»، واعترض قولَ الزمخشريِّ: فما أجهلَ.. إلخ، بقوله: فيه ما مرَّ مراراً، كأنه يعني مخالفةَ النصوص في عدم كون الكفر مخلوقاً كغيره، على أنَّ خَلْقَ الكفر أيضاً من النِّعَم العظام، فلولا خَلْقه وتبيين ما فيه من المضارِّ، ما ظهر مقدارُ الإنعام بالإيمان وما فيه من المنافع، ثم إنَّ كونه كُفراً باعتبار قيامه بالعبد، ومنه جاءَ القُبْحُ، لا باعتبار كونه خَلْقه تعالى، على ما حُقِّق في موضعه، ثم قال: ومنه يظهر أنَّ تكلُّفه في قوله تعالى: «فمنكم» إلخ ليخرجه عن تفصيل المجمل في «خَلَقكم»، تحريفٌ لكتاب الله تعالى. انتهى.

ويُرجِّحُ التفصيلَ عندي في الجملة قوله تعالى: «كافر» و«مؤمن» دون: من يكفر، ومن يؤمن، نعم عدمُ دخول الكفر والإيمان في الخلق أوفقُ بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وقوله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة»(١). والإنصافُ أنَّ الآية تحتملُ كلًّا من المعنيين؛ المعنى الذي ذُكر أولاً، والمعنى الذي اختاره البعضُ، والسياقُ يحتملُ أن يُحمَلَ على ما يناسب كلًّا، وليس نصًّا في أحد الأمرين اللَّذَين سمعتهما، حتى قيل: إنَّ الآيات واردةٌ لبيان ما يتوقَّفُ عليه الوعد والوعيد بعدُ من القدرة التامَّة والعلم المحيط بالنشأتين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ - أي: فيجازيكم بما يناسبُ ذلك - لا ينافي خَلْقَ الكفر والإيمان؛ لأنهما مكسوبان للعبد، وخَلْقُ الله تعالى إياهما لا ينافي كونَهما مكسوبين للعبد، كما بُيِّنَ في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] لكنَّ أكثرَ الأحاديث تؤيِّدُ المعنى الأول، وكأني بك تختارُ الثاني؛ لأن كون المقام للتوبيخ على الكفر أظهرُ، وهو أوفقُ به.

وعن عطاء بن أبي رباح: «فمنكم كافر» أي: بالله تعالى، مؤمنٌ بالكوكب، «ومنكم مؤمنٌ» بالله تعالى كافرٌ بالكوكب.

وقيل: «فمنكم كافرٌ» بالخلق، وهم الدهرية، «ومنكم مؤمنٌ» به.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٢)، والبخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن الحسن أنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: ومنكم فاسقٌ. ولا أراه يصحُّ، وكأنه من كَذِبِ المعتزلة عليه.

والجملةُ ـ على ما استظهر بعضُ الأفاضل ـ معطوفةٌ على الصِّلة، ولا يضرُّهُ عدمُ العائد؛ لأنَّ المعطوفَ بالفاء يكفيه[1] وجودُ العائد في إحدى الجملتين كما قرَّروه في نحو: الذي يطيرُ فيغضبُ زيدٌ الذبابُ، أو يقال: فيها رابطٌ بالتأويل، أي: فمنكم مَنْ قُدِّرَ كُفْره، ومنكم مَنْ قُدِّرَ إيمانه، أو: فمنكم كافرٌ به، ومنكم مؤمنٌ به، ويُقدَّرُ الحذفُ تدريجاً. وجُوِّزَ أن يكونَ العَطْفُ على جملة: «هو الذي خلقكم».

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة المتضمِّنة للمصالح الدينية والدنيوية، قيل: وأصلُ الحقِّ مقابلُ الباطل، فأُريد به الغَرَضُ الصحيحُ الواقعُ على أتمِّ الوجوه، وهو الحكمةُ العظيمةُ.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ حيث بَرَأَكُمْ سبحانه في أحسن تقويم، وأَودَعَ فيكم من القُوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نِيْطَ بها جميعُ الكمالات البارزة والكامنة، وزيَّنكم بصَفْوةِ صفاتِ مصنوعاته، وخَصَّكم بخلاصة خصائص مُبدَعاته، وجعلكم أُنموذجَ جميع مخلوقاته في هذه النشأة، وقد ذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ الإنسانَ جامعٌ بين العالم العلويِّ والسُّفلي، وذلك لروحه التي هي من عالم المجرَّدات، وبدنه الذي هو من عالم المادِّيات، وأنشدوا:

وتزعمُ أنك جِرْمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[2]

ولعَمْري إنَّ الإنسان أعجبُ نسخَةٍ في هذا العالم، قد اشتملتْ على دقائق أسرارٍ شهدتْ ببعضها الآثارُ، وعَلِمَ ما عَلِمَ منها ذوو الأبصار، وخصَّ بعضُهم الصورةَ بالشكل المدرَك بالعين كما هو المعروف، وكلُّ ما يُشاهَدُ من الصُّوَر الإنسانية حَسَنٌ، لكنَّ الحُسْنَ كغيره من المعاني على طبقاتٍ ومراتبَ، فلانحطاط

(١) جاء في هامش الأصل: المصرَّح أن ذلك فيما إذا كانت الفاء للسببية، فلا تغفل.
(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي بن أبي طالب ﷺ ص٤٥.

بعضِها عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيِّناً، وإضافتها إلى المُوْفي عليها، لا تُسْتَملح، وإلا فهي داخلةٌ في حَيِّز الحُسْنِ غيرُ خارجةٍ من حَدِّه؛ ألا ترى أنك قد تعجبُ بصورةٍ وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملحَ وأعلى في مراتب الحُسْن، فينبو عن الأُولى طَرْفُكَ، وتستثقلُ النظرَ إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها، وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان.

وقرأ زيد بن عليٍّ وأبو رزين: «صِوَرَكم» بكسر الصاد[1]، والقياسُ الضَّمُّ كما في قراءة الجمهور.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ في النشأة الأُخرى، لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فاصرفوا ما خُلِقَ لكم فيما خُلِقَ له؛ لئلّا يمسخ ما يشاهَد من حُسْنكم بالعذاب.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأمور الكليَّة والجزئيَّة، والأحوال الجَلِيَّةِ والخفيَّة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ما تُسرُّونه فيما بينكم، وما تظهرونه من الأمور، والتصريحُ به مع اندراجه فيما قبله؛ للاعتناء بشأنه؛ لأنه الذي يدورُ عليه الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قبله من شمول عِلْمه تعالى لِسِرِّهم وعَلَنهم، أي: هو عزَّ وجلَّ محيطٌ بجميع المُضْمَراتِ المستكنَّةِ في صدور الناس، بحيث لا تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه تعالى ما يُسرُّونه وما يعلنونه؟ وإظهارُ الجلالة للإشعار بعِلَّة الحُكْم وتأكيد استقلال الجملة، قيل: وتقديمُ تقرير القدرة على العلم؛ لأنَّ دلالةَ المخلوقات على قدرته تعالى بالذات، وعلى عِلْمه سبحانه لِمَا[2] فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.

وقرأ عبيد عن أبي عمرو، وأبان عن عاصم: «ما يُسرُّون وما يُعلنون» بياء الغيبة[3].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر ٥/ ٣١٨، والبحر ٨/ ٢٧٧.

(٢) في تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٦ (والكلام منه): بما، وكلاهما صواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٠٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٧٧.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: أيُّها الكَفَرَةُ؛ لدلالة ما بعدُ على تخصيص الخطاب بهم، وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة أنَّ المرادَ بهم أهلُ مكة، فكأنه قيل: ألم يأتكم يا أهل مكة ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم المصرَّة على الكفر ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ضَرَرَ كُفْرهم في الدنيا من غير مُهْلة، وأصلُ الوبال: الثِّقَلُ والشِّدَّةُ المترتِّبةُ على أمرٍ من الأمور، ومنه الوبيل: لطعام يَثْقُلُ على المعدة، والوابلُ: للمطر الثقيل القِطَار، واستُعمل للضرر؛ لأنه يثقلُ على الإنسان ثِقَلاً معنويًّا، وعبّر عن كفرهم بالأمر؛ للإيذان بأنه أمرٌ هائلٌ وجنايةٌ عظيمةٌ.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنَّ الشأن ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا﴾ عَطْفٌ على «كانت» ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: قال كلُّ قومٍ من أولئك الأقوام الذين كفروا في حَقِّ رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات، منكرين لكون الرسول من جنس البشر، أو متعجِّبينَ من ذلك: أَبَشَرٌ يهدينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] وقد أجمل في الحكاية، فأُسند القول إلى جميع الأقوام، وأُريد بالبشر الجنس فوُصِفَ بالجمع، كما أُجمل الخطاب والأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وارتفاعُ «بشر» على الابتداء، وجملة «يهدوننا» هو الخبر عند الحوفيِّ وابنِ عطية[1]، والأحسنُ أن يكونَ مرفوعاً على الفاعليَّة بفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرهُ المذكورُ؛ لأنَّ همزةَ الاستفهام أَمْيَلُ إلى الفعل، والمادة من باب الاشتغال.

﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التأمُّل فيما أُتوا من البينات؛ وعن الإيمان بهم ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم، حيث أهلكهم وقَطَعَ دابرهم، ولولا غناهُ عزَّ وجلَّ عنهما لما فعل ذلك. والجملةُ عَطْفٌ على ما قبلها، وقيل: في موضع الحال، على أنَّ المعنى: فكفروا وتولَّوا،

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣١٨.

وقد استغنى الله تعالى عن كلِّ شيءٍ. والأول هو الوجه ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ﴿حَمِيدٌ ۝٦﴾ يَحمدهُ كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال الذي هو أفصحُ من لسان المقال، أو مستحقٌّ جلَّ شأنه للحَمْدِ بذاته، وإن لم يحمده سبحانه حامدٌ.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ الزَّعْمُ: ادِّعاءُ العلم، وأكثرُ ما يستعمل للادِّعاء الباطل.

وعن ابن عمر وابن شريح أنه كُنْيةُ الكذب، واشتهر أنه مطيَّةُ الكذب، ولما فيه من معنى العلم يتعدَّى إلى مفعولين، وقد قام مقامهما هنا «أن» المخفَّفة وما في حَيِّزها، والمراد بالموصول ـ على ما في «الكشاف»[1] ـ أهلُ مكة. فهو ـ على ما سمعتَ في الخطاب ـ من إقامة الظاهر مقام المضمر، ويؤيده ظاهراً قوله تعالى:

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ قال في «الكشف»: ويحتمل التعميمَ، فيتناولهم وأضرابهم لتقدُّم كفار مكة في الذِّكر وغيرهم ممن حُملوا على الاعتبار بحالهم، وهذا أبلغُ، أي: زعموا أنَّ الشأنَ لن يُبعثوا بعد موتهم، قُلْ ردًّا عليهم وإظهاراً لبطلان زَعْمهم بإثبات ما نفوه: بلى تبعثون، وأكَّد ذلك بالجملة القَسَمية، فهي داخلةٌ في حَيِّز الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتحاسبنَّ وتُجزَونَّ بأعمالكم، وزِيدَ ذلك لبيان تحقُّق أمرٍ آخرَ متفرِّعٍ على البعث، منوطٍ به، ففيه أيضاً تأكيدٌ له. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ لتحقُّقِ القدرة التامة وقبول المادة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ مُفْصِحةٌ بشرطٍ قد حُذِفَ ثقةً بغاية ظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ الذي سمعتم ما سمعتم من شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهو القرآن، فإنه بإعجازه بيِّنٌ بنفسه، مُبيِّنٌ لغيره، كما أنَّ النورَ كذلك، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز العناية بأمر الإنزال، وفي ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الامتثال

(١) ٤/ ١١٤.

بالأمر وتَرْكه ﴿خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ عالم بباطنه. والمراد كمالُ علمه تعالى بذلك، وقيل: عالمٌ بأخباره.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرفٌ لـ «تُنَبَّؤُنَّ»، وقوله تعالى: «وذلك على الله يسير» وقوله سبحانه: «فآمنوا» إلى «خبير» من الاعتراض، فالأولُ يُحقِّقُ القدرةَ على البعث، والثاني يُؤكِّدُ ما سيق له الكلامُ من الحثِّ على الإيمان به وبما تضمَّنه من الكتاب وبمَنْ جاء به، وبالحقيقة هو نتيجةُ قوله تعالى: «لتبعثن ثم لتنبؤن» قُدِّمَ على معموله للاهتمام، فجرى مجرى الاعتراض، وقوله سبحانه: «والله بما تعملون خبير» اعتراضٌ في اعتراض؛ لأنه من تتمَّة الحثِّ على الإيمان كما تقول: اعمل إني غيرُ غافلٍ عنك.

وقال الحوفي: ظرفٌ لـ «خبير». وهو عند غير واحد من الأجلَّة بمعنى: مجازيكم، فيتضمَّنُ الوعدَ والوعيدَ.

وجعله الزمخشريُّ بمعنى: معاقبكم، ثم جوَّزَ هذا الوجه[1]. وتُعقِّبَ بأنه يَرد عليه أنه ليس لمجرَّد الوعيد، بل للحثِّ، كيف لا والوعيدُ قد تمَّ بقوله تعالى: «لتنبؤن بما عملتم» فلم يحسُنْ جعلُهُ بمعنى معاقبكم، فتدبَّر.

وجوِّزَ كونه منصوباً بإضمار: اذكر، مقدَّراً، وتُعقِّبَ بأنه وإن كان حَسَناً، إلا أنه حَذْفٌ لا قرينةَ ظاهرة عليه. وجُوِّزَ كونه ظرفاً لمحذوفٍ بقرينة السياق، أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يُحيطُ به نطاقُ المقال يوم يجمعكم. وتُعقِّبَ بأنَّ فيه ارتكابَ حذفٍ لا يحتاج إليه، فالأرجحُ الوجه الأول.

وقرئ: «يَجْمَعْكُمْ» بسكون العين[2]، وقد يُسكَّنُ الفعلُ المضارعُ المرفوعُ مع ضمير جمع المخاطَبين المنصوب، وروي إشمامُها الضَّمَّ[3].

---

(١) في الكشاف ٤/ ١١٥: فإن قلتَ: بم انتصب الظرف؟ قلتُ: بقوله: «لتنبَّؤنَّ»، أو بـ «خبير» لِمَا فيه من معنى الوعيد، كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار: اذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٩، والبحر ٨/ ٢٧٨.

(٣) المصدران السابقان.

وقرأ سلامٌ ويعقوب وزيد بن عليٍّ والشعبيُّ: «نجمعكم» بالنون[1].

﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ليوم يُجمَعُ فيه الأولون والآخرون، وقيل: الملائكةُ عليهم السلام والثقلان، وقيل غير ذلك، والأول أظهر. واللام قيل: للتعليل، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: لأجل ما في يوم الجمع من الحساب، وقيل: بمعنى «في» فلا تقدير.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا: يومٌ غَبَنَ فيه أهلُ الجنة أهلَ النار[2]. فالتفاعلُ فيه ليس على ظاهره، كما في التواضع والتحامل، لوقوعه من جانبٍ واحد، واختير للمبالغة، وإلى هذا ذهب الواحديُّ.

وقال غير واحد: أي: يومٌ غَبَنَ فيه بعضُ الناس بعضاً بنزول السُّعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا سُعداء، وبالعكس، ففي الصحيح: «ما من عبدٍ يدخلُ الجنةَ إلا أُريَ مقعدَهُ من النار لو أساءَ؛ ليزدادَ شكراً، وما من عبدٍ يدخلُ النارَ إلا أُريَ مقعدَهُ من الجنة لو أحسن؛ ليزدادَ حَسْرةً»[3]، وهو مستعارٌ من تغابُنِ القوم في التجارة، وفيه تهكُّمٌ بالأشقياء؛ لأنهم لا يَغبُنونَ حقيقةً السعداءَ بنزولهم في منازلهم من النار، أو جُعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة، فالتفاعلُ على هذا القول على ظاهره، وهو حَسَنٌ، إلا أنَّ التغابنَ فيه تغابنُ السعداء والأشقياء على التقابل، والأحسنُ الإطلاق، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت في الصحاح، واختار ذلك محيي السنة[4] حيث قال: التغابنُ تفاعُلٌ من الغَبْن، وهو فوتُ الحظِّ، والمراد بالمغبون مَنْ غُبِنَ في أهله ومنازله في الجنة، فيظهرُ يومئذٍ غَبْنُ كلِّ كافرٍ بتَرْك الإيمان، وغَبْنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيره في الإحسان.

قال الطيبيُّ: وعلى هذا الراغبُ حيث قال: الغَبْنُ: أن تبخسَ صاحبَكَ في

---

(١) النشر ٢/٣٨٨ عن يعقوب، والكلام من البحر ٨/٢٧٨.

(٢) الدر المنثور ٦/٢٢٧.

(٣) صحيح البخاري (٦٥٦٩)، وأخرجه أحمد (١٠٩٨٠)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) وهو البغوي في تفسيره ٤/٣٥٣.

معاملةٍ بينك وبينه بضَرْبٍ من الإخفاء، فإنْ كان ذلك في مالٍ يقال: غُبِنَ فلانٌ، بضمِّ الغين وكَسْر الباء. وإن كان في رأي يقال: غَبِنَ، بفتح الغين وكسر الباء. ويوم التغابن: يومُ القيامة؛ لظهور الغَبْنِ في المبايعة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] فعلم أنهم قد غُبنوا فيما تركوا من المبايعة، وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً(١). انتهى.

والجملةُ مبتدأٌ وخبرٌ، والتعريفُ للجنس، وفيها دلالةٌ على استعظام ذلك اليوم، وأنَّ تغابُنَهُ هو التغابنُ في الحقيقة، لا التغابنُ في أمور الدنيا وإن جَلَّتْ وعَظُمَتْ.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي: عملاً صالحاً ﴿يُكَفِّرۡ﴾ أي: الله تعالى ﴿عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ في ذلك اليوم ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ أي: مُقدَّرين الخلود فيها، والجمعُ باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ الإفراد باعتبار لفظه.

وقرأ الأعرجُ وشيبةُ وأبو جعفر وطلحةُ ونافعٌ وابن عامر، والمفضل عن عاصم، وزيد بن عليٍّ، والحسن بخلافٍ عنه: «نُكفِّر» و«نُدخله» بنون العَظَمة فيهما(٢).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من تكفير السيئاتِ وإدخال الجنات ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ الذي لا فوزَ وراءه؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات، والظفر بأَجلِّ الطلبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾ أي: النارُ. وكأنَّ هذه الآية والتي قبلها ـ لاحتوائهما على منازل السعداء والأشقياء ـ بيانٌ للتغابن على تفسيره بتغابُنِ الفريقين على التقابل، ولِمَا فيه من التفصيل نُزِّلَ منزلةَ المغاير، فعُطِفَ بالواو. وكذا على الإطلاق، لكنه عليه بيانٌ في الجملة.

---

(١) مفردات الراغب (غبن).

(٢) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٢٤٨ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٨.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: ما أصاب أحداً مصيبةٌ، على أنَّ المفعولَ محذوفٌ، و«من» زائدةٌ، و«مصيبة» فاعلٌ، وعدمُ إلحاق التاء في مثل ذلك فصيحٌ، لكنَّ الإلحاقَ أكثرُ، كقوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر: ٥]، ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [الأنعام: ٤].

والمراد بالمصيبة: الرَّزِيَّة وما يسوءُ العبدَ في نفسٍ، أو مالٍ، أو ولدٍ، أو قولٍ، أو فعلٍ، أي: ما أصابَ أحداً من رزايا الدنيا أيَّ رزيةٍ كانت ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته سبحانه وتمكينه عزَّ وجلَّ، كأنَّ الرَّزِيَّةَ بذاتها متوجِّهةٌ إلى العبد، متوقِّفةٌ على إرادته تعالى وتمكينه جلَّ وعلا. وجُوِّزَ أن يُراد بالمصيبة: الحادثةُ من شَرٍّ أو خير، وقد نصُّوا على أنها تستعملُ فيما يصيبُ العبدَ من الخير، وفيما يصيبه من الشَّرِّ، لكن قيل: إنها في الأول من الصَّوب، أي: المطر، وفي الثاني من إصابة السهم، والأولُ هو الظاهر، وإن كان الحُكْمُ بالتوقف على الإذن عامًّا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند إصابتها للصبر والاسترجاع على ما قيل، وعن علقمةَ: للعلم بأنها من عند الله تعالى، فيسلِّم لأمر الله تعالى ويرضى بها. وعن ابن مسعود قريبٌ منه. وقال ابن عباس: «يهدِ قلبه» لليقين، فيعلمُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقيل: «يَهدِ قلبه»، أي: يَلْطُفْ به ويشرحُهُ لازدياد الخير والطاعة.

وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة: «نَهْدِ» بنون العظمة[١].

وقرأ السُّلَميُّ والضحاكُ وأبو جعفر: «يُهْدَ» بالياء مبنيًّا للمفعول «قلبُهُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[٢]، وقرئ كذلك لكن بنصب «قلبَه»[٣]، وخُرِّجَ على أنَّ نائبَ الفاعل ضمير «مَن»، و«قلبَهُ» منصوبٌ بنزع الخافض، أي: يُهْدَ في قلبه، أو يُهْدَ إلى قلبه، على معنى أنَّ الكافرَ ضالٌّ عن قلبه بعيدٌ منه، والمؤمنَ واجدٌ له مهتدٍ إليه

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٨.
(٢) الكشاف ٤/ ١١٥، والبحر ٨/ ٢٧٩.
(٣) الكشاف ٤/ ١١٥، وتفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٨/ ٢٠٣.

كقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧] فالكلام من الحذف والإيصال نحو: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفيه جَعْلُ القلب بمنزلة المقصد، فمن ضَلَّ فقد مُنِعَ منه، ومن وَصَلَ فقد هُدي إليه. وجُوِّزَ أن يكون نصبُهُ على التمييز بناءً على أنه يجوز تعريفه.

وقرأ عكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار: «يَهْدَأ» بهمزةٍ ساكنةٍ «قلبُهُ» بالرفع[1]، أي: يطمئنُّ قلبه ويسكنُ بالإيمان، ولا يكونُ فيه قلقٌ واضطراب.

وقرأ عمرو بن فائد: «يَهْدَا» بألف بدلاً من الهمزة الساكنة[2]، وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً: «يَهْدَ» بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة[3]، وإبدالُ الهمزة في مثل ذلك ليس بقياسٍ على ما قال أبو حيان[4]، وأجاز ذلك بعضُهم قياساً، وبنى عليه جوازَ حَذْفِ تلك الألف للجازم، وخُرِّجَ عليه قول زهير بن أبي سلمى[5]:

جريءٍ متى يُظْلَمْ يُعاقِبْ بظُلْمِهِ ... سريعاً وإن لا يُبْدَ بالظُّلم يَظْلِمِ

أصله: يبدأ، فأُبدلتِ الهمزةُ ألفاً، ثم حُذفتْ للجازم تشبيهاً بألف «يخشى» إذا دخل عليه الجازم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوبُ وأحوالُها ﴿عَلِيمٞ ١١﴾ فيعلمُ إيمانَ المؤمن، ويهدي قلبه عند إصابة المصيبة، فالجملةُ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «ومن يؤمن» إلخ، وجُوِّز أن تكونَ متعلِّقةً بقوله سبحانه: «ما أصاب» إلخ، على أنها تذييلٌ له للتقرير والتأكيد.

وذكر الطيبيُّ أنَّ في كلام «الكشاف» رمزاً إلى أنَّ في الآية حَذْفاً، أي: فمَن لم يؤمن لم يلطف به، أو لم يَهْدِ قلبه، ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه. وبنى عليه أنَّ المصيبة

(١) المحتسب ٢/ ٣٢٣، والمحرر ٥/ ٣١٩-٣٢٠، والبحر ٨/ ٢٧٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٧. وتصحف فائد في الأصل و(م) إلى: قائد.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٧٩.
(٤) في البحر ٨/ ٢٧٩.
(٥) البيت في ديوانه ص٢٤.

تشملُ الكفرَ والمعاصي أيضاً؛ لورودها عَقيبَ جزاء المؤمن والكافر، وإردافها بالأمر الآتي، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ منهما؟ وهو كما أشار إليه يدفع في نَحْرِ المعتزلة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذانِ بالفرق بين الإطاعتين في الكيفية، وتوضيحِ مورد التولِّي في قولهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: عن إطاعة الرسول، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾ تعليلٌ للجواب المحذوف أُقيم مقامه، أي: فلا بأس عليه؛ إذ ما عليه إلا التبليغُ المبينُ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه، وإظهارُ الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره؛ لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعارِ بمدار الحكم الذي هو كونُ وظيفته ﷺ محضَ البلاغ، ولزيادة تشنيع التولِّي عنه، والحصرُ في الكلام إضافيٌّ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ الكلامُ فيها كالكلام في كلمة التوحيد، وقد مرَّ وحلا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصةً دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمار؛ للإشعار بعلَّةِ التوكُّل، أو الأمرِ به، فإنَّ الألوهية مقتضيةٌ للتبتُّلِ إليه تعالى بالكلية، وقَطْعِ التعلُّق بالمرَّة عمَّا سواه من البَرِيَّة.

وذكر بعضُ الأَجِلَّة أنَّ تخصيصَ المؤمنين بالأمر بالتوكُّل؛ لأنَّ الإيمانَ بأنَّ الكلَّ منه تعالى يقتضي التوكُّل، ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمَّلَ في الحثِّ على التوكُّلِ أعظمُ من هذه الآية لإيمائها إلى أنَّ مَنْ لا يتوكَّل على الله تعالى ليس بمؤمن، وهي على ما قال الطيبيُّ: كالخاتمة والفَذْلكة لما تقدم، وكالمخلص إلى مَشْرع آخر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ أي: إنَّ بعضَهم كذلك، فمِنَ الأزواج أزواجاً يُعادِينَ بعولتهنَّ، ويخاصمنهم ويجلبنَ عليهم، ومن الأولاد أولاداً يُعادون آباءهم، ويعقُّونهم ويُجرِّعونهم الغُصَص والأذى، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلتْ زوجَها، ومن أفسدتْ عقلَهُ بإطعام بعض المفسدات للعقل، ومن كَسَرَتْ قارورةَ عِرْضه، ومن مزَّقتْ كيسَ ماله، ومَن ومَن، وكذا من الأولاد مَنْ فعلَ نحو ذلك ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي: كونوا منهم على حَذَرٍ، ولا تأمنوا

غوائلهم وشَرَّهم، والضميرُ للعدوِّ، فإنه يُطلَقُ على الجمع نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] فالمأمورُ به الحذرُ عن الكلِّ، أو للأزواج والأولاد جميعاً، فالمأمورُ به إما الحذرُ عن البعض؛ لأنَّ منهم مَنْ ليس بعدوٍّ، وإما الحذرُ عن مجموع الفريقين؛ لاشتمالهم على العدو.

﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو، بأن تكونَ متعلِّقةً بأمور الدنيا، أو بأمور الدين لكنْ مقارِنة للتوبة، بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ تُعرِضوا بترك التثريب والتعيير ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ تستروها بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ قائمٌ مقامَ الجواب، والمرادُ: يُعاملكم بمثلِ ما عملتم ويتفضَّلُ عليكم، فإنه عزَّ وجلَّ غفورٌ رحيمٌ، ولَمَّا كان التكليفُ هاهنا شاقًّا؛ لأنَّ الأذى الصادرَ ممن أحسنتَ إليه أشدُّ نكايةً وأبعثُ على الانتقام، ناسَبَ التأكيدَ في قوله سبحانه: «وإن تعفوا» إلخ.

وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ عداوتَهم من حيثُ إنهم يَحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يحملونهم على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم، كما روي عنه ﷺ: «يأتي زمانٌ على أمتي، يكون فيه هلاكُ الرجل على يدِ زوجه وولده، يُعيِّرانه بالفقر، فيركب مراكبَ السُّوء، فيهلك»[(١)]. ومن الناس من يحمله حُبُّهم والشفقةُ عليهم على أن يكونوا في عيشٍ رَغدٍ في حياته وبعد مماته، فيرتكبُ المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه منه، فيهلك.

وسببُ النزول أوفقُ بهذا القول، أخرج الترمذيُّ والحاكم وصححاه، وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ، في قومٍ من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فأبى أزواجُهم وأولادهم أن يَدَعوهم، فلما أتوا رسولَ الله ﷺ فرأوا الناسَ قد فَقُهُوا في الدين، همُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى الآية[(٢)].

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٤٣٩).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٧-٢٢٨، والترمذي (٣٣١٧)، والحاكم ٢/ ٤٩٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٤.

وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال: كان الرجلُ يُريدُ الهجرةَ فيحبسه امرأته وولده فيقول: أما واللهِ لئن جَمَعَ الله تعالى بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلنَّ ولأفعلنَّ، فجمعَ الله عزَّ وجلَّ بينهم في دار الهجرة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ الآية[1].

وقيل: إنهم قالوا لهم: لئن جمعنا الله تعالى في دار الهجرة لم نُصِبْكم بخيرٍ، فلما هاجروا منعوهم الخير. فنزلت.

وعن عطاء بن أبي رباح أنَّ عوفَ بن مالك الأشجعيَّ أراد الغزو مع النبيِّ ﷺ، فاجتمعَ أهلُهُ وأولاده فثبَّطوه وشكوا إليه فِراقه، فَرَقَّ ولم يَغْزُ، ثم إنه نَدِمَ، فهمَّ بمعاقبتهم، فنزلت[2].

واستدلَّ بها على أنه لا ينبغي للرجل أن يحقِدَ على زوجه وولده إذا جَنَوا معه جنايةً، وأن لا يدعوَ عليهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ ومحنةٌ؛ لأنهم يترتَّبُ عليهم الوقوعُ في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك، وفي الحديث: «يُؤتَى برجلٍ يومَ القيامة فيقال: أَكَلَ عيالُهُ حسناته»[3]، وعن بعض السلف: العيال سُوسُ الطاعات.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه والحاكم وصححه عن بريدة قال: كان النبيُّ ﷺ يخطُبُ، فأقبلَ الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويَعْثُران، فنزلَ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام من المنبر، فحملهما واحداً من ذا الشِّقِّ، وواحداً من ذا الشِّقِّ، ثم صَعِدَ المنبرَ فقال: «صَدَقَ الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ إني لَمَّا نظرتُ إلى هذين الغلامين

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وعزاها لعبد بن حميد وابن مردويه، وأخرجها أيضاً ابن جرير ٢٣/ ١٤.
(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٥، وعزاه في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ إلى ابن جرير وابن إسحاق.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٤٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٩٣، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٨١ عن سفيان الثوري. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٣: لم أره مرفوعاً.

يمشيان ويَعثُران، لم أَصبرْ أن قطعتُ كلامي ونزلت إليهما»[١].

وفي رواية ابن مردويه[٢] عن عبد الله بن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ بينما هو يخطبُ الناسَ على المنبر، خرجَ حسينُ بن عليٍّ على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام، فَوَطِئَ في ثوبٍ كان عليه، فسقط فبكى، فنزل رسولُ الله ﷺ عن المنبر، فلما رآه الناسُ سَعوا إلى حسين يتعاطونه، يُعطيه بعضُهم بعضاً، حتى وَقَعَ في يد رسول الله ﷺ، فقال: «قاتلَ الله الشيطانَ، إن الولدَ لفتنةٌ، والذي نفسي بيده ما دريتُ أني نزلتُ عن منبري»[٣].

وقيل: إذا أمكنكم الجهادُ والهجرةُ فلا يَفْتِنْكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما. قال في «الكشف»: الفتنةُ على هذا: الميلُ إلى الأموال والأولاد دونَ العقوبة والإثم.

وقُدِّمت الأموال قيل: لأنها أعظمُ فتنةً ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦-٧]، وأخرج أحمد والطبرانيُّ والحاكم والترمذيُّ وصحَّحه عن كعب بن عياض، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ لكلِّ أمةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أُمَّتي المال»[٤].

وأخرج نحوه ابن مردويه عن عبد الله بن [أبي] أوفى مرفوعاً[٥].

وكأنه لِغَلَبةِ الفتنةِ في الأموال والأولاد لم تُذْكَر «من» التبعيضيَّة كما ذُكِرتْ فيما تقدَّم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وأحمد (٢٢٩٩٥)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٠٨، وابن ماجه (٣٦٠٠)، والحاكم ١/ ٢٨٧ و٤/ ١٨٩.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٨.

(٣) جاء في هامش الأصل: ليت شعري لو رأى رسول الله ﷺ حال الحسين ـ على جده وعليه الصلاة والسلام ـ في واقعة كربلاء ماذا كان يصنع؟! فلعنة الله تعالى وملائكته ورسله والناس أجمعين على مَن أمر بما كان، ومَن أَلْجَمَ وأَسْرجَ أو رضي أو كثَّر سواداً.

(٤) أحمد (١٧٤٧١)، والطبراني في الكبير ١٩/ ١٧٩ (٤٠٤)، وفي الأوسط (٣٣١٩)، وفي مسند الشاميين (٢٠٢٧)، والحاكم ٤/ ٣١٨، والترمذي (٢٣٣٦).

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وما بين حاصرتين منه.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ لمن آثرَ محبَّةَ الله تعالى وطاعته على محبَّة الأموال والأولاد، والسعي في مصالحهم على وجهٍ يُخِلُّ بذلك.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا في تقواه عزَّ وجلَّ جهدكم وطاقتكم كما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس(١)، وحكي عن أبي العالية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] اشتدَّ على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمَتْ عَراقيبهم، وتقرَّحتْ جباهم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فنسخت الآيةَ الأولى(٢). وجاء عن قتادة نحوٌ منه، وعن مجاهد: المراد أن يُطاعَ سبحانه فلا يعصى. والكثيرُ على أنَّ هذا هو المرادُ في الآية التي ذكرناها.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظه تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره عزَّ وجلَّ ونواهيه سبحانه ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه جلَّ شأنه، كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ وذِكْرُ ذلك تخصيصٌ بعد تعميم.

ونَصْبُ «خيراً» عند سيبويه على أنه مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ، أي: وأْتُوا خيراً لأنفسكم(٣)، أي: افعلوا ما هو خيرٌ لها وأنفع، وهذا تأكيدٌ للحَثِّ على امتثال هذه الأوامر وبيانٌ لكون الأمور خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد، وفيه شَمَّةٌ من التجريد، وعند أبي عبيد(٤) على أنه خبرٌ لـ «يكن» مقدَّراً جواباً للأمر، أي: يكن خيراً، وعند الفراء والكسائي على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنفاقاً خيراً.

وقيل: هو نصب بـ «أنفقوا»، والخير: المال. وفيه بُعْدٌ من حيثُ المعنى.

وقال بعض الكوفيين: هو نَصْبٌ على الحال، وهو بعيدٌ في المعنى والإعراب.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جاء في هامش الأصل: لأن السوابق كلها من إتيان الخير.
(٤) كذا في الأصل و(م). ولعله أبو عبيدة، ينظر مجاز القرآن ١/ ١٤٣، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٤.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وهو البخل مع الحرص ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ الفائزون بكلِّ مرام.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ تصرفوا المالَ إلى المصارف التي عيَّنها عزَّ وجلَّ، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بالإخلاص وطِيب النفس ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعلْ لكم جلَّ شأنه بالواحد عَشْراً إلى سبع مئةٍ وأكثر، وقرئ: يُضَعِّفْهُ[1] ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يُعطي الجزيلَ بمقابلة النَّزْر القليل ﴿حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ لا يُعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه سبحانه شيءٌ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ المبالغ في القدرة والحكمة، وفي الآية من الترغيب بالإنفاق ما فيها، لكن اختلف في المراد به فقيل: الإنفاقُ المفروضُ، يعني الزكاة المفروضة، وقد صُرِّح به، وقيل: الإنفاق المندوب، وقيل: ما يعمُّ الكلَّ، والله تعالى أعلم.

---

(١) بالتشديد قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، ينظر التيسير ص٨١، والنشر ٢/٢٢٨.

(٦٥) سورة الطلاق مدنية وآياتها اثنتا عشرة

سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة باحوال الزوجين ، كبيان أحكام الطلاق . السني وكيفيته ، وما يترتب على الطلاق من العدة ، والنفقة ، والسكن ، وأجر المرضع إلى غير ما هنالك من أحكام .

● **تناولت** السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق – الطلاق السنّي ، والطلاق البدعي – فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق ، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية ، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها .

● وفي هذا التوجيه الإلهي دعوةٌ للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية ، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولولا الضرورات القسرية لكان الطلاق محرماً .

● **ودعت** السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها لئلا تختلط الأنساب ، ولئلا يطول الأمد على المطلَّقة فيلحقها الضرر ، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله وعدم عصيان أوامره .

● **وتناولت** السورة أحكام العدة ، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض بكبرٍ أو مرض ، وكذلك عدة الصغيرة ، وعدة الحامل

فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد .

● وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى « تقوى الله » بالترغيب تارة ، وبالترهيب أخرى لئلا يقع حيفٌ أو ظلم من أحد الزوجين ، كما وضحت أحكام السن والنفقة .

وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله ، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله وما ذاقت من الوبال والدمار .
ثم أشارت الى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق وكلها براهين على وحدانية رب العالمين .

سورة الطلاق

[٩٤٨] أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة ثم نكح امرأة من مزينة فجاءت إلى رسول الله [ﷺ] فقالت: يا رسول الله ما عني إلا عن هذه الشعرة فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾(١) وقال الذهبي الإسناد واهٍ والخبر خطأ فأن عبد يزيد لم يدرك الإسلام.

[٩٤٩] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أنس قال: طلق رسول الله [ﷺ] حفصة فأتت أهلها فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾(٢) فقيل له راجعها فإنها صوامة قوامة. وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً وابن المنذر عن ابن سيرين مرسلاً.

[٩٥٠] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(٣) الآية. قال بلغنا أنها نزلت في عبدالله بن عمرو بن العاص وطفيل بن الحارث وعمرو بن سعيد بن العاص.

[٩٥١] وأخرج الحاكم(٤) عن جابر قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾(٥) في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال فأتى رسول الله [ﷺ] فسأله فقال له: **«اتق الله واصبر»** فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم وكان العدو أصابوه فأتى رسول الله [ﷺ] فأخبره خبرها فقال: **«كلها»** فنزلت قال الذهبي حديث منكر له شاهد.

ك.. وأخرج ابن جرير مثله عن سالم بن أبي الجعد. ك.. والسدي وسمي الرجل عوفاً الأشجعي. ك.. وأخرجه الحاكم أيضاً من حديث ابن مسعود وسماه كذلك.

---

[٩٤٨] (١) سورة الطلاق: الآية (١).
[٩٤٩] (٢) سورة الطلاق: الآية (١).
[٩٥٠] (٣) سورة الطلاق: الآية (١).
[٩٥١] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٦).
(٥) سورة الطلاق: الآية (٢).

[٩٥٢] وأخرج ابن مردوية[١] من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعي فقال يا رسول الله أن ابني أسره العدو وجزعت أمه فما تأمرني؟ قال: «**آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله**» فقالت المرأة: نعم. ما أمرك فجعلا يكثران منها فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٢] الآية. وأخرجه الخطيب في تاريخه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. ك.. وأخرجه الثعلبي من وجه آخر ضعيف. ك.. وابن أبي حاتم من وجه آخر مرسلاً.

[٩٥٣] وأخرج ابن جرير وإسحاق بن راهويه والحاكم وغيرهم عن أُبي بن كعب قال: لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد من عدد النساء قالوا: قد بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن الصغار والكبار ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾[٣] فأنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾[٤] الآية صحيح الإسناد.

[٩٥٤] وأخرج مقاتل في تفسيره أن خلاّد بن عمرو بن الجموح سأل النبي [ﷺ] عن عدة التي لا تحيض فنزلت.

* * *

---

[٩٥٢] (١) انظر الدر المنثور (٦/ ٢٣٣).
(٢) سورة الطلاق: الآية (٢).
[٩٥٣] (٣) سورة الطلاق: الآية (٤).
(٤) سورة الطلاق: الآية (٤).

سورة الطلاق

اثنتا عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾

أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] والملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل منه نظام الملك، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمنًا لا يفتقر إلى التأول فيه، فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة، وأما الأول بالآخر فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [التغابن: ١٨] وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام المخصوصة بطلاقهن، فكأنه بيَّن ذلك الكلي بهذه الجزئيات، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة فأتت إلى أهلها فنزلت، وقيل: رَاجِعْهَا فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ [(١)] وعلى هذا إنما نزلت الآية بسبب خروجها إلى أهلها لما طلقها النبي ﷺ فأنزل الله في هذه الآية: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وقال الكلبي: إنه عليه السلام غضب على حفصة لما أسر إليها حديثًا فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت، وقال السدي: نزلت في عبد الله بن عمر لما طلق امرأته حائضًا والقصة في ذلك مشهورة، وقال مقاتل: إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل ابن عمر، وهم عمرو بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت فيهم، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وجهان: أحدهما: أنه نادى النبي ﷺ ثم خاطب أمته لما أنه سيدهم وقدوتهم، فإذا خوطب خطاب

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الشيباني في (الآحاد والمثاني) (٥/ ٤٠٩) حديث رقم (٣٠٥٢) والطبراني في (الكبير) (٢٣/ ١٨٨) حديث رقم (٣٠٦) وأبو نعيم في (الحلية) (٢/ ٥٠) جميعًا من طريق الحسن بن أبي جعفر . . . به والبزار في (مسنده) (٤/ ٢٣٧) حديث رقم (١٤٠١) من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن عمار بن ياسر . . . به أورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٢٤٤) وقال: رواه الطبراني والبزار وفي إسنادهما الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف.

الجمع كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب. قال أبو إسحاق: هذا خطاب النبي عليه السلام، والمؤمنون داخلون معه في الخطاب، وثانيهما: أن المعنى يا أيها النبي قل لهم: إذا طلقتم النساء فأضمر القول، وقال الفراء: خاطبه وجعل الحكم للجميع، كما تقول للرجل: ويحك أما تتقون الله أما تستحيون، تذهب إليه وإلى أهل بيته و ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أي إذا أردتم التطليق، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾[المائدة: ٦] أي إذا أردتم الصلاة، وقد مر الكلام فيه، وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال عبد الله: إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، فيطلقها طاهرًا من غير جماع، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل والحسن، قالوا: أمر الله تعالى الزوج بتطليق امرأته إذا شاء الطلاق في طهر لم يجامعها فيه، وهو قوله تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي لزمان عدتهن، وهو الطهر بإجماع الأمة، وقيل: لإظهار عدتهن، وجماعة من المفسرين قالوا: الطلاق للعدة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، وبالجملة، فالطلاق في حال الطهر لازم، وإلا لا يكون الطلاق سنيًّا، والطلاق في السنة إنما يتصور في البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل، إذ لا سنة في الصغير وغير المدخول بها، والآيسة والحامل، ولا بدعة أيضًا لعدم العدة بالأقراء، وليس في عدد الطلاق سنة وبدعة، على مذهب الشافعي حتى لو طلقها ثلاثًا في طهر صحيح لم يكن هذا بدعيًّا بخلاف ما ذهب إليه أهل العراق، فإنهم قالوا: السنة في عدد الطلاق أن يطلق كل طلقة في طهر صحيح. وقال صاحب (النظم): ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ صفة للطلاق كيف يكون، وهذه اللام تجيء لمعان مختلفة للإضافة وهي أصلها، ولبيان السبب والعلة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[الإنسان: ٩] وبمنزلة (عند) مثل قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[الإسراء: ٧٨] أي عنده، وبمنزلة (في) مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] وفي هذه الآية بهذا المعنى، لأن المعنى فطلقوهن في عدتهن، أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن فقال صاحب (الكشاف): فطلقوهن مستقبلات لعدتهن كقوله: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي مستقبلاً لها، وفي قراءة النبي ﷺ: (مِنْ قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ)(١) فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة العدة، المراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه، يخلين إلى أن تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة وما كان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات، وقال مالك بن أنس: لا أعرف طلاقًا إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة، وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد، وروي أن النبي ﷺ قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض: «مَا هَكَذَا

---

(١) ابن الجارود في (المنتقى) (٢/ ٢٩٤) حديث رقم (٧١٤) من طريق أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل ابن عمر رضي الله عنه.

أَمَرَكَ اللَّه تَعَالَى إِنَّمَا السُّنَّةُ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الطُّهْرَ اسْتِقْبَالاً وَتُطَلِّقَهَا لِكُلِّ قُرْءٍ تَطْلِيقَةً» (١) وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح، فمالك يراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي أقراءها فاحتفظوا لها واحفظوا الحقوق والأحكام التي تجب في العدة واحفظوا نفس ما تعتدون به وهو عدد الحيض، ثم جعل الإحصاء إلى الأزواج يحتمل وجهين: أحدهما: أنهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤن، وثانيهما: ليقع تحصين الأولاد في العدة، **ثم في الآية مباحث:**

الأول: ما الحكمة في إطلاق السنة وإطلاق البدعة؟ نقول: إنما سمي بدعة لأنها إذا كانت حائضًا لم تعتد بأيام حيضها عن عدتها بل تزيد على ثلاثة أقراء فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أقراء وهي في الحيض الذي طلقت فيه في صورة المعلقة التي لا هي معتدة ولا ذات بعل والعقول تستقبح الإضرار، وإذا كانت طاهرة مجامعة لم يؤمن أن قد علقت من ذلك الجماع بولد ولو علم الزوج لم يطلقها، وذلك أن الرجل قد يرغب في طلاق امرأته إذا لم يكن بينهما ولد ولا يرغب في ذلك إذا كانت حاملاً منه بولد، فإذا طلقها وهي مجامعة وعنده أنها حائل في ظاهر الحال ثم ظهر بها حمل ندم على طلاقها ففي طلاقه إياها في الحيض سوء نظر للمرأة، وفي الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه وقد حملت فيه سوء نظر للزوج، فإذا طلقت وهي طاهر غير مجامعة أُمِنَ هذان الأمران، لأنها تعتد عقب طلاقه إياها، فتجري في الثلاثة قروء، والرجل أيضًا في الظاهر على أمان من اشتمالها على ولد منه. **الثاني:** هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ نقول: نعم، وهو آثم لما روي عن النبي ﷺ أن رجلاً طلق امرأته ثلاثًا بين يديه، فقال له: «أو تلعبون بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» (٢). **الثالث:** كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو غير ذلك؟ نقول: الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر، وقال محمد وزفر: لا يطلق للسنة إلا واحدة. وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة، ولا يراعى الوقت. **الرابع:** هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ نقول: اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا، والظاهر الكراهة. **الخامس:** ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ عام يتناول المدخول بهن، وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء، والآيسات والصغار والحوامل، فكيف يصح تخصيصه بذوات الأقراء والمدخول بهن؟ نقول: لا عموم ثمة ولا خصوص أيضًا،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الطلاق) باب (قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١]) (٩/ ٢٥٨) حديث رقم (٥٢٥١) من طريق إسماعيل بن عبد الله... به ومسلم في كتاب (الطلاق) باب (تحريم طلاق الحائض بغير رضاها) (٢/ ١/ ١٠٩٣) من طريق يحيى بن يحيى التيمي... به جميعًا عن مالك... به.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه النسائي في كتاب (الطلاق) باب (الثلاث المجموعة وما فيه من التغليظ) (٣/ ٤٧٧) حديث رقم (٣٤٠١) وأورده التبريزي في (مشكاة المصابيح) (٢/ ٩٨٠/ ٩٨١) حديث رقم (٣٢٩٢) ورجاله ثقات لكنه من رواية مخرمة عن أبيه ولم يسمع منه... به.

لكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن، وفي بعضهن، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ علم أنه أطلق على بعضهن، وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض، كذا ذكره في (الكشاف).

قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال مقاتل: اخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ أي لا تخرجوا المعتدات من المساكن التي كنتم تساكنونهن فيها قبل الطلاق، فإن كانت المساكن عارية فارتجعت كان على الأزواج أن يعينوا مساكن أخرى بطريق الشراء، أو بطريق الكراء، أو بغير ذلك، وعلى الزوجات أيضًا أن لا يخرجن حقًّا لله تعالى إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت ليلاً أو نهارًا كان ذلك الخروج حرامًا، ولا تنقطع العدة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال ابن عباس: هو أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن، قال الضحاك والأكثرون: فالفاحشة على هذا القول هي الزنا، وقال ابن عمر: الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة، قال السدي والباقون: الفاحشة المبينة هي العصيان المبين، وهو النشوز، وعن ابن عباس: إلا أن يبذون فيحل إخراجهن لبذائهن وسوء خلقهن، فيحل للأزواج إخراجهن من بيوتهن، **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: هل للزوجين التراضي على إسقاطها؟ نقول: السكنى الواجبة في حال قيام الزوجية حق للمرأة وحدها فلها إبطالها، ووجه هذا أن الزوجين ما داما ثابتين على النكاح فإنما مقصودهما المعاشرة والاستمتاع، ثم لا بد في تمام ذلك من أن تكون المرأة مستعدة له لأوقات حاجته إليها، وهذا لا يكون إلا بأنه يكفيها في نفقتها، كطعامها وشرابها وأدمها ولباسها وسكناها، وهذه كلها داخلة في إحصاء الأسباب التي بها يتم كل ما ذكرنا من الاستمتاع، ثم ما وراء ذلك من حق صيانة الماء ونحوه، فإن وقعت الفرقة زال الأصل الذي هو الانتفاع وزواله بزوال الأسباب الموصلة إليه من النفقة عليها، واحتيج إلى صيانة الماء فصارت السكنى في هذه الحالة بوجوبها الإحصاء لأسبابها، لأن أصلها السكنى، لأن بها تحصينها، فصارت السكنى في هذه الحالة لا اختصاص لها بالزوج، وصيانة الماء من حقوق الله، ومما لا يجوز التراضي من الزوجين على إسقاطه، فلم يكن لها الخروج، وإن رضي الزوج، ولا إخراجها، وإن رضيت إلا عن ضرورة مثل انهدام المنزل، وإخراج غاصب إياها أو نقلة من دار بكراء قد انقضت إجارتها أو خوف فتنة أو سيل أو حريق، أو غير ذلك من طريق الخوف على النفس، فإذا انقضى ما أخرجت له رجعت إلى موضعها حيث كان الثاني: قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: واتقوا الله مقصورًا عليه فنقول: فيه من المبالغة ما ليس في ذلك فإن لفظ الرب ينبههم على أن التربية التي هي الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون في التقوى حينئذ خوفًا من فوت تلك التربية، الثاني: ما معنى الجمع بين إخراجهم وخروجهن؟ نقول: معنى الإخراج أن لا يخرجهن البعولة غضبًا عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهن في

الخروج إذا طلبن ذلك، إيذانًا بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك. الثالث: قرئ: ﴿ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ و(مُبَيَّنةٍ) فمن قرأ مبينة بالخفض فمعناه: أن نفس الفاحشة إذا تفكر فيها تبين أنها فاحشة، ومن قرأ (مُبَيَّنَةٍ) بالفتح فمعناه أنها مبرهنة بالبراهين، ومبينة بالحجج، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ والحدود هي الموانع عن المجاوزة نحو النواهي، والحد في الحقيقة هو النهاية التي ينتهي إليها الشيء، قال مقاتل: يعني ما ذكر من طلاق السنة وما بعده من الأحكام ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ضر نفسه، ولا يبعد أن يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعًا لم يضعه فيه ربه، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قال ابن عباس: يريد الندم على طلاقها والمحبة لرجعتها في العدة وهو دليل على أن المستحب في التطليق أن يوقع متفرقًا، قال أبو إسحاق: إذا طلقها ثلاثًا في وقت واحد فلا معنى في قوله: ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن انقضاء أجل العدة لا انقضاء أجلهن، والمراد من بلوغ الأجل هنا مقاربة البلوغ، وقد مر تفسيره. قال صاحب (الكشاف): هو آخر العدة وشارفته، فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة، واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر العدة، ثم يطلقها تطويلاً للعدة وتعذيبًا لها.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة ذوي عدل، وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كما في قوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد، وأن لا يتهم في إمساكها ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث، وقيل: الإشهاد إنما أمروا به للاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة فتنقضي العدة فتنكح زوجًا. ثم خاطب الشهداء فقال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ وهذا أيضًا مر تفسيره، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ قال الشعبي: من يطلق للعدة يجعل الله له سبيلاً إلى الرجعة، وقال غيره: مخرجًا من كل أمر ضاق على الناس، قال الكلبي: ومن يصبر على المصيبة يجعل الله له

مخرجًا من النار إلى الجنة، وقرأها النبي ﷺفقال: «مَخْرَجًا مِنْ شُبُهَاتِ الدُّنْيَا وَمِنْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَمِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)] وقال أكثر أهل التفسير: أنزل هذا وما بعده في عوف بن مالك الأشجعي أسر العدو ابنًا له فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك وشكا إليه الفاقة فقال له: «اتَّقِ اللَّهَ وَاصْبِرْ وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه»[(٢)] ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه، وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه، وقال صاحب (الكشاف): فبينا هو في بيته، إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها، فذلك قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ويجوز أنه إن اتقى الله وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقال في (الكشاف): ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة كما مر. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي من وثق به فيما ناله كفاه الله ما أهمه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه» وقرئ: (إن الله بَالِغٌ أَمْرَهُ)، بالإضافة: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي نافذ أمره، وقرأ المفضل (بالغًا أمرَه)، على أن قوله ﴿قَدْ جَعَلَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، و(بالغًا) حال. قال ابن عباس: يريد في جميع خلقه والمعنى سيبلغ الله أمره فيما يريد منكم و ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي تقديرًا وتوقيتًا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، قال الكلبي ومقاتل: لكل شيء من الشدة والرخاء أجل ينتهي إليه قدر الله تعالى ذلك كله لا يقدم ولا يؤخر. وقال ابن عباس: يريد قدرت ما خلقت بمشيئتي، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مَخْرَجًا﴾ آية، ومنه إلى قوله: ﴿قَدْرًا﴾ آية أخرى عند الأكثر، وعند الكوفي والمدني المجموع آية واحدة ثم في هذه الآية لطيفة: وهي أن التقوى في رعاية أحوال النساء مفتقرة إلى المال، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وقريب من هذا قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] فإن قيل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ يدل على عدم الاحتياج للكسب في طلب الرزق، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] يدل على الاحتياج فكيف هو؟ نقول: لا يدل على الاحتياج، لأن قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ٢٨٩) من طريق عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس... فذكره وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٤٦٣) حديث رقم (٢٩٧١) وقال: رواه الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٤٤٧) من طريق سفيان عن عمار بن أبي معاوية الدهني عن سالم بن أبي الجعد... به وهذا إسناد مرسل وقد جاء موصلاً، أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٢) من طريق عبيد بن كثير العامري، عن عباد بن يعقوب، عن يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن عمار بن أبي معاوية، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر، رضي الله عنه، قال: نزلت هذه الآية... فذكر نحو رواية السدي، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وتعقبه الذهبي بقوله: (بل منكر، فيه عباد بن يعقوب رافضي جبل، وعبيد بن كثير العامري متروك، قاله الأزدي).

﴿ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ للإباحة كما مر، والإباحة مما ينافي الاحتياج إلى الكسب لما أن الاحتياج مناف للتخيير.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية، ذكر الله تعالى في سورة البقرة عدة ذوات الأقراء والمتوفى عنها زوجها وذكر عدة سائر النسوة اللائي لم يذكرن هناك في هذه السورة، وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله قد عرفنا عدة التي تحيض، فما عدة التي لم تحض فنزل: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي إن أشكل عليكم حكمهن في عدة التي لا تحيض، فهذا حكمهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ الإياس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فلما نزل قوله تعالى: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ قام رجل فقال: يا رسول الله فما عدة الصغيرة التي لم تحض؟ فنزل: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي هي بمنزلة الكبيرة التي قد يئست عدتها ثلاثة أشهر، فقام آخر وقال: وما عدة الحوامل يا رسول الله؟ فنزل: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معناه أجلهن في انقطاع ما بينهن وبين الأزواج وضع الحمل، وهذا عام في كل حامل، وكان علي عليه السلام يعتبر أبعد الأجلين، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾[البقرة: ٢٣٤] لا يجوز أن يدخل في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ وذلك لأن أولات الأحمال إنما هو في عدة الطلاق، وهي لا تنقض عدة الوفاة إذا كانت بالحيض، وعند ابن عباس عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين. وأما ابن مسعود فقال: يجوز أن يكون قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ مبتدأ خطاب ليس بمعطوف على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ ولما كان مبتدأ يتناول العِدَد كلها، ومما يدل عليه خبر سبيعة بنت الحارث أنها وضعت حملها بعد وفاة زوجها بخمسة عشر يومًا، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتزوج[1]، فدل على إباحة النكاح قبل مضي أربعة أشهر وعشر، على أن عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل في جميع الأحوال. وقال الحسن: إن وضعت أحد الولدين انقضت عدتها، واحتج بقوله تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يقل: أحمالهن، لكن لا يصح، وقرئ (أحمالهن)، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ييسر الله عليه في أمره، ويوفقه للعمل الصالح. وقال

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (الطلاق) باب (عدة الحامل المتوفى عنها زوجها) (٣/ ٥٣٧) حديث رقم (٣٥٠٩) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٣١١) من طريق شعبة... به.

عطاء: يسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يعني الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم، ومن يتق الله بطاعته، ويعمل بما جاء به محمد ﷺ يكفر عنه سيئاته من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة، ويعظم له في الآخرة أجرًا، قاله ابن عباس. فإن قيل: قال تعالى: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يقل: أن يلدن، نقول: الحمل اسم لجميع ما في بطنهن، ولو كان كما قاله، لكانت عدتهن بوضع بعض حملهن، وليس كذلك.

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: ٤] كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات، فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ قال صاحب (الكشاف): (من) صلة، والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم. قال أبو عبيدة: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي وسعكم وسعتكم، وقال الفراء: على قدر طاقتكم، وقال أبو إسحاق: يقال وجدت في المال وُجْدًا، أي صرت ذا مال، وقرئ بفتح الواو أيضًا وبخفضها، والوجد: الوسع والطاقة، وقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ نهي عن مضارتهن بالتضييق عليهن في السكنى والنفقة ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهذا بيان حكم المطلقة البائنة، لأن الرجعية تستحق النفقة، وإن لم تكن حاملاً، وإن كانت مطلقة ثلاثًا أو مختلعة فلا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً، وعند مالك والشافعي، ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها، وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها بت طلاقها، فقال لها رسول الله ﷺ «لاَ سُكْنَى لَكِ وَلاَ نَفَقَةَ» (١). وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني حق الرضاع وأجرته وقد مر، وهو دليل على أن اللبن وإن خلق لمكان الولد فهو ملك لها وإلا لم يكن لها أن تأخذ الأجر، وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد وحق الإمساك والحضانة والكفالة على

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الطلاق) باب (المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها) (٢/ ٣٦/ ١١١٤) وأبو داود في كتاب (الطلاق) باب (في نفقة المبتوتة) (٢/ ٢٩٤) حديث رقم (٢٢٨٤) من طريق العقبي... به والنسائي في كتاب (النكاح) باب (إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم) (٣/ ٣٨٩) حديث رقم (٣٢٤٥) ومالك في (الموطأ) (٢/ ٥٨٠) حديث رقم (٦٧) قال: حدثنا يحيى... به وأحمد في (مسنده) (٦/ ٤١٢) قال: قرأت على عبد الرحمن بن مهدي وفي (٦/ ٤١٢) قال: حدثنا إسحاق بن عيسى جميعا (يحيى، العقبي ابن مهدي، إسحاق) عن مالك... به.

الزوجات وإلا لكان لها بعض الأجر دون الكل، وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ قال عطاء: يريد بفضل معروفًا منك، وقال مقاتل: بتراضي الأب والأم، وقال المبرد: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف، والخطاب للأزواج من النساء والرجال، والمعروف هاهنا أن لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا هي في حق الولد ورضاعه وقد مر تفسير الائتمار، وقيل: الائتمار، التشاور في إرضاعه إذا تعاسرت هي، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي في الأجرة: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ غير الأم، ثم بين قدر الإنفاق بقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أمر أهل التوسعة أن يوسعوا على نسائهم المرضعات على قدر سعتهم ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك، ونظيره: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أي ما أعطاها من الرزق، قال السدي: لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء، وكان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة، فأعلمهم الله تعالى أنه يجعل بعد عسر يسرًا وهذا كالبشارة لهم بمطلوبهم. **ثم في الآية مباحث:**

الأول: إذا قيل: (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ ما هي؟ نقول: هي التبعيضية أي بعض مكان سكناكم إن لم يكن (لَكُمْ) غير بيت واحد فأسكنوها في بعض جوانبه. **الثاني:** ما موقع ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾؟ نقول: عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي مكانًا من مسكنكم على قدر طاقتكم. **الثالث:** فإذا كانت كل مطلقة عندكم يجب لها النفقة، فما فائدة الشرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ نقول: فائدته أن مدة الحمل ربما طال وقتها، فيظن أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار مدة الحمل، فنفى ذلك الظن.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الكلام في كأين قد مر، وقوله: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وصف القرية بالعتو والمراد أهلها، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] قال ابن عباس: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي أعرضت عنه، وقال مقاتل: خالفت أمر ربها، وخالفت رسله، فحاسبناها حسابًا شديدًا، فحاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها العذاب، وهو قوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذابًا منكرًا

عظيمًا، فسر المحاسبة بالتعذيب. وقال الكلبي: هذا على التقديم والتأخير، يعني فعذبناها في الدنيا وحاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا، والمراد حساب الآخرة وعذابها ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي شدة أمرها وعقوبة كفرها. وقال ابن عباس: عاقبة كفرها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي عاقبة عتوها خسارًا في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يخوف كفار مكة أن يكذبوا محمدًا فينزل بهم ما نزل بالأمم قبلهم، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ خطاب لأهل الإيمان، أي فاتقوا الله عن أن تكفروا به وبرسوله، وقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ هو على وجهين: أحدهما: أنزل الله إليكم ذكرًا، هو الرسول، وإنما سماه ذكرًا لأنه يَذْكُرُ ما يرجع إلى دينهم وعقباهم، وثانيهما: أنزل الله إليكم ذكرًا، وأرسل رسولاً. وقال في (الكشاف): ﴿رَّسُولًا﴾ هو جبريل عليه السلام، أبدل من ﴿ذِكْرًا﴾ لأنه وصف بتلاوة آيات الله، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر، والذكر قد يراد به الشرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقد يراد به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤] وقرئ (رَسُولٌ) على هو رسول، و﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخفض والنصب، والآيات هي الحجج، فبالخفض؛ لأنها تبين الأمر والنهي والحلال والحرام، ومن نصب يريد أنه تعالى أوضح آياته وبينها أنها من عنده.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يعني من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الشبهة إلى نور الحجة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم.

وفي الآية مباحث:

الأول: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أم لا؟ فنقول: قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يؤكد قول من قال: المراد من ﴿قَرْيَةٍ﴾ أهلها، لما أنه يدل على أن خطاب الله تعالى لا يكون إلا لذوي العقول فمن لا عقل له فلا خطاب عليه، وقيل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ مشتمل على الترهيب والترغيب.

الثاني: الإيمان هو التقوى في الحقيقة وأولو الألباب الذين آمنوا كانوا من المتقدمين بالضرورة فكيف يقال لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؟ نقول: للتقوى درجات ومراتب فالدرجة الأولى هي التقوى من الشرك والبواقي هي التقوى من المعاصي التي هي غير الشرك فأهل الإيمان إذا أمروا بالتقوى كان ذلك الأمر بالنسبة إلى الكبائر والصغائر لا بالنسبة إلى الشرك.

الثالث: كل من آمن بالله فقد خرج من الظلمات إلى النور، وإذا كان كذلك فحق هذا الكلام وهو قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أن يقال: ليخرج الذين كفروا؟ نقول: يمكن أن يكون المراد: ليخرج الذين يؤمنون على ما جاز أن يراد من الماضي المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٥] أي وإذ يقول الله، ويمكن أن يكون ليخرج الذين آمنوا من ظلمات تحدث لهم بعد إيمانهم.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب، وقرئ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء والنون، و﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ قال الزجاج: رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها، وقيل: ﴿رِزْقًا﴾ أي طاعة في الدنيا وثوابًا في الآخرة، ونظيره ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

قال الكلبي: خلق سبع سموات بعضها فوق بعض مثل القبة، ومن الأرض مثلهن في كونها طباقًا متلاصقة كما هو المشهور أن الأرض ثلاث طبقات طبقة أرضية محضة وطبقة طينية، وهي غير محضة، وطبقة منكشفة بعضها في البحر وبعضها في البر وهي المعمورة، ولا بعد في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ من كونها سبعة أقاليم على حسب سبع سموات، وسبع كواكب فيها وهي السيارة فإن لكل واحد من هذه الكواكب خواص تظهر آثار تلك الخواص في كل إقليم من أقاليم الأرض فتصير سبعة بهذا الاعتبار، فهذه هي الوجوه التي لا يأباها العقل، وما عداها من الوجوه المنقولة عن أهل التفسير فذلك من جملة ما يأباها العقل مثل ما يقال: السموات السبع أولها: موج مكفوف، وثانيها: صخر، وثالثها: حديد، ورابعها: نحاس، وخامسها: فضة، وسادسها: ذهب، وسابعها: ياقوت، وقول من قال: بين كل واحدة منها مسيرة خمسمائة سنة وغلظ كل واحدة منها كذلك، فذلك غير معتبر عند أهل التحقيق، اللهم إلا أن يكون نقل متوترًا، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك والله أعلم بأنه ما هو وكيف هو. فقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرئ (مِثْلَهُنَّ) بالنصب عطفًا على ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وبالرفع على الابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قال عطاء يريد الوحي بينهن إلى خلقه في كل أرض وفي كل سماء، وقال مقاتل: يعني الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى، وقال مجاهد: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك ذاك مثلاً وقال قتادة: في كل سماء من سماواته وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه، وقرئ (ينزل الأمر بينهن) قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قرئ (لِيَعْلَمُوا) بالياء والتاء أي لكي تعلموا إذا تفكرتم في خلق السموات والأرض، وما جرى من التدبير فيها أن من بلغت قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره كانت قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عما أراده وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من قبل ما تقدم ذكره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ يعني بكل شيء من الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بجميع الأشياء وقادر على الإنشاء بعد الإفناء، فتبارك الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة الطلاق

مَدنِيَّةٌ في قول الجميع[1]. وهي إحدى عشرةَ آية، أو اثنتا عشرة آية[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

فيه أربعَ عشْرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، خُوطب بلفظ الجماعةِ تعظيماً وتفخيماً[3].

وفي سنن ابنِ ماجه[4]: عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن عمر بنِ الخطاب: أنَّ رسول الله ﷺ طلَّق حفصةَ رضي الله عنها، ثم راجعها.

وروى قتادة عن أنس قال: طلَّق رسولُ الله ﷺ حفصة رضي الله عنها، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وقيل: له: راجعها؛ فإنها صَوَّامةٌ قَوَّامة، وهي من أزواجك في الجنة. ذكره الماورديُّ[5]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٢، وزاد المسير ٨/ ٢٨٧.

(٢) زاد في الكشاف ٤/ ١١٧: أو ثلاث عشرة آية.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٢.

(٤) برقم (٢٠١٦)، وسلف ٤/ ٥٥.

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٨. وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٥٩ (١٨٩٠٧). وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠ عن قتادة مرسلاً. وقد سلف الحديث دون ذكر نزول الآية ١٧/ ١٢٠.

والقُشَيريُّ والثَّعْلبِيُّ. زاد القُشيري: ونزل في خروجها إلى أهلها قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾.

وقال الكَلْبيّ[١]: سبب نزولِ هذه الآيةِ غضبُ رسولِ الله ﷺ على حفصة لمَّا أسرَّ إليها حديثاً فأظهرته لعائشة، فطلَّقها تطليقةً، فنزلت الآية.

وقال السُّدِّيّ: نزلت في عبد الله بن عمر، طلَّق امرأته حائضاً تطليقةً واحدة، فأمره رسولُ الله ﷺ أن يراجعَها، ثم يُمسِكَها حتى تطهرَ وتحيضَ ثم تطهر، فإذا أراد أن يطلِّقَها فلْيطلِّقها حين تطهر مِن قَبْل أنْ يجامعَها. فتلك العدَّةُ التي أمر اللهُ تعالى أن يُطلَّقَ لها النساء[٢].

وقد قيل: إنَّ رجالاً فعلوا مثلَ ما فعل عبد الله بنُ عمر، منهم عبد الله بنُ عمرو ابنِ العاص، وعمرو بن سعيد بنِ العاص، وعُتْبة بنُ غَزْوان، فنزلت الآية فيهم[٣].

قال ابن العربي: وهذا كلُّه وإن لم يكن صحيحاً، فالقولُ الأوَّلُ أمثل. والأصحُّ فيه أنه بيانٌ لشَرْعٍ مبتدَأ. وقد قيل: إنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أمَّته. وغايَرَ بين اللفظين مِن حاضرٍ وغائب، وذلك لغةٌ فصيحة، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]. تقديره: يا أيها النبيُّ قل لهم: إذا طلَّقتم النساءَ فطلقوهنَّ لعدَّتهنّ. وهذا هو قولُهم: إنَّ الخطاب له وحده، والمعنى له وللمؤمنين. وإذا أراد اللهُ بالخطاب المؤمنين، لاطفه بقوله: «يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ». فإذا كان الخطابُ باللفظ والمعنى جميعاً له، قال: «يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ»[٤].

---

(١) كلامه في تفسير أبي الليث ٣/ ٣٧٣.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٦٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٨٧ - ٢٨٨. وحديث ابن عمر رضي الله عنهما سلف ٤/ ٤٠، وسيرد في المسألة السادسة، - وهو في الصحيحين - وليس فيه سبب نزول الآية.

(٣) أخرجه هذا القول ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٩ عن مقاتل، وفيه: طفيل بن الحارث، بدل: عتبة بن غزوان. وذكره عن مقاتل أيضاً الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٩ ولم يذكر عبد الله بن عمرو.

(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨١١ - ١٨١٢.

قلت: ويدلُّ على صحة هذا القولِ نزولُ العِدَّةِ في أسماء بنتِ يزيد بنِ السَّكَن الأنصارية[١]. ففي كتاب أبي داود عنها: أنها طُلِّقت على عهد النبيِّ ﷺ، ولم يكن للمطلَّقة عِدَّة، فأنزل الله تعالى حين طُلِّقت أسماءُ بالعِدَّة للطلاق، فكانت أوَّلَ مَن أُنزل فيها العِدَّةُ للطلاق[٢].

وقيل: المراد به نداءُ النبيِّ ﷺ تعظيماً، ثم ابتدأ فقال: «إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ»؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]. فذكر المؤمنين على معنى تقديمِهم وتكريمهم، ثم افتتح فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ الآية[٣].

الثانية: روى الثّعلبيُّ من حديث ابنِ عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِن أبغض الحلالِ إلى الله تعالى الطلاق»[٤]. وعن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «تزوَّجوا ولا تطلِّقوا؛ فإنَّ الطلاق يهتزُّ منه العرش»[٥]. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطلِّقوا النساء إلَّا من رِيبة؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحب الذوَّاقين ولا الذوَّاقات»[٦]. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حلف بالطلاق ولا استَحلف به إلا منافق»[٧].

---

(١) الأشهلية، أم عامر، وأم سلمة. بنت عمة معاذ بن جبل. من المبايعات المجاهدات. قَتلتْ يوم اليرموك تسعةً. عاشت إلى دولة يزيد بن معاوية. السير ٢/ ٢٩٦ .

(٢) سنن أبي داود (٢٢٨١). قال المنذري في مختصره ٣/ ٨٧ : في إسناده إسماعيل بن عياش، وقد تكلم فيه غير واحد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٢ .

(٤) وأخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨) عن محارب بن دثار، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود (٢١٧٧) عن محارب، مرسلاً. قال المنذري في مختصره ٣/ ٩٢ : المشهور فيه المرسل، وهو غريب.

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٦٤ ، والخطيب في تاريخه ١٢/ ١٩١ ، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٨١ . وفيه عمرو بن جميع، قال الخطيب: يروي المناكير عن المشاهير والموضوعات عن الأثبات.

(٦) أخرجه البزار (٣٠٦٤) و(٣٠٦٥) و(٣٠٦٦)، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٤). قال عبد الحق: وليس لهذا الحديث إسناد قوي. قال ابن القطان: صدق، بل هو مع ذلك منقطع. فيض القدير ٦/ ٤١١ .

(٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٧/ ٣٩٣ وقال: غريب جداً، وأورده السيوطي في الجامع الصغير =

أسند جميعَه الثَّعلبيُّ رحمه الله في كتابه.

وروى الدَّارَقُطْنيُّ قال: حدّثنا أبو العباس محمد بنُ موسى بنِ علي الدُّولابي ويعقوبُ بنُ إبراهيم، قالا: حدَّثنا الحسن بنُ عرفة قال: حدَّثنا إسماعيل بنُ عَيَّاش، عن حُميد بن مالك اللَّخْمِيّ، عن مَكْحول، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، ما خلق اللهُ شيئاً على وجه الأرض أحبَّ إليه من العِتاق، ولا خلق اللهُ شيئاً [على وجه الأرض] أبغضَ من الطلاق. فإذا قال الرجل لمملوكه: أنت حرٌّ إن شاء الله، فهو حرٌّ ولا استثناء له. وإذا قال الرجل لامرأته: أنتِ طالقٌ [إن شاء الله]، فله استثناؤه ولا طلاق عليه». حدَّثنا محمد بن موسى بنِ عليٍّ قال: حدَّثنا حميد بن الربيع قال: حدَّثنا يزيد بن هارون: حدَّثنا إسماعيل بن عَيَّاش؛ بإسناده نحوَه. قال حميد: قال لي يزيد بن هارون، وأيُّ حديث لو كان حميد بنُ مالك معروفاً! قلت: هو جَدِّي. قال يزيد: سَرَرْتَني سَرَرْتَني! الآن صار حديثاً[1].

حدَّثنا عثمان بنُ أحمد الدَّقاق قال: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بنِ سُنَين، حدثنا عمر بن إبراهيم بنِ خالد، حدَّثنا حميد بن مالك اللَّخْميُّ، حدَّثنا مَكْحُول، عن مالك ابن يَخامِر، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحلَّ اللهُ شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق، فمن طلَّق واستثنى فله ثُنْياه»[2].

قال ابن المنذر[3]: اختلفوا في الاستثناء في الطلاق والعِتْق؛ فقالت طائفة: ذلك جائز. وروينا هذا القول عن طاوس. وبه قال حمادٌ الكوفيُّ والشافعيُّ وأبو ثَوْر وأصحابُ الرأي. ولا يجوز الاستثناء في الطلاق في قول مالكٍ والأوزاعي. وهذا

= ٥/ ٤٤٣ (فيض القدير) ورمز لضعفه.

(١) سنن الدارقطني (٣٩٨٤) (٣٩٨٥). وما سلف بين حاصرتين منه. وحميد بن مالك اللخمي ضعَّفه يحيى، وأبو زرعة، وغيرهما، وقال النسائي: لا أعلم روى عنه غير إسماعيل بن عياش. ميزان الاعتدال ١/ ٦١٦ ، ومكحول لم يسمع من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا من أنس ﷺ، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٦٥ . وقد سلف جميعه ٤/ ٥٦ .

(٢) سنن الدارقطني (٣٩٨٦)، وحميد بن مالك اللخمي ضعيف، كما سلف ذكره.

(٣) في الإشراف ٤/ ١٨٦ ، وقد سلف كلامه ٤/ ٥٦ - ٥٧ .

قول قتادةَ في الطلاق خاصَّة. قال ابن المنذر: وبالقول الأوَّلِ أقول.

الثالثة: روى الدَّارَقُطْنيُّ[(١)] من حديث عبد الرزَّاق: أخبرني عَمِّي وَهْب بنُ نافع قال: سمعت عكرمة يحدِّث عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان، ووجهان حرامان؛ فأمَّا الحلال: فأنْ يطلِّقَها طاهراً عن غير جماع، وأنْ يطلِّقها حاملاً مُستبيناً حَمْلُها. وأما الحرام: فأنْ يطلِّقها وهي حائض، أو يطلِّقَها حين يجامعُها، لا يدري؛ أشتمل الرَّحِمُ على وَلَدٍ أم لا.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ في كتاب أبي داود: عن أسماء بنتِ يزيد بنِ السَّكَن الأنصارية: أنَّها طُلِّقت على عهد النبيِّ ﷺ ولم يكن للمطلَّقة عِدَّة، فأنزل اللهُ سبحانه حين طلِّقت أسماءُ بالعِدَّة للطلاق؛ فكانت أوَّلَ مَن أُنزل فيها العِدَّةُ للطلاق. وقد تقدَّم[(٢)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يقتضي أنهن اللاتي دُخل بهنَّ من الأزواج؛ لأن غيرَ المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[(٣)] [الأحزاب: ٤٩].

السادسة: مَن طلَّق في طُهْر لم يجامع فيه، نَفَذ طلاقُه وأصاب السُّنَّة. وإن طلَّقها حائضاً، نفذ طلاقه وأخطأ السُّنة. وقال سعيد بن المسيّب في آخرين[(٤)]: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلافُ السنة. وإليه ذهبت الشِّيعة.

وفي الصحيحين ـ واللفظ للدَّارَقُطْنيّ[(٥)] ـ عن عبد الله بن عمر قال: طلَّقتُ امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمرُ لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ رسولُ الله ﷺ، فقال:

---

(١) في سننه (٣٨٩٠).

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٢ .

(٤) في (د) و(م): أخرى.

(٥) صحيح البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١). وسنن الدارقطني (٢٨٩٦)، وسلف ٤/ ٤٠ بنحوه.

«ليراجعْها، ثم لْيُمسكْها حتى تحيضَ حيضةً مستقبَلَةً سوى حيضتها التي طلَّقها فيها، فإن بدَا له أن يطلِّقَها، فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يَمَسَّها؛ فذلك الطلاقُ والعِدة كما أمر الله». وكان عبد الله بن عمر طلَّقها تطليقة، فحُسبت من طلاقها، وراجعها عبد الله بنُ عمر كما أمره رسولُ الله ﷺ.

في رواية[1] عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «هي واحدة». وهذا نصٌّ. وهو يردُّ على الشِّيعة قولَهم.

السابعة: عن عبد الله بن مسعود قال: طلاق السُّنَّة أن يطلِّقَها في كل طهرٍ تطليقة؛ فإذا كان آخرُ ذلك، فتلك العِدَّةُ التي أمر اللهُ تعالى بها. رواه الدَّارَقُطْنيُّ[2] عن الأعْمَش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحْوص، عن عبد الله.

قال علماؤنا: طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة: وهو أن يطلِّقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهراً، لم يَمَسَّها في ذلك الطهر، ولا تقدَّمه طلاقٌ في حيض، ولا تَبِعه طلاق في طُهْر يتلوه، وخلا عن العِوَض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابنِ عمر المتقدِّم.

وقال الشافعي: طلاق السنة أن يطلقها في كل طُهْرٍ خاصَّةً، ولو طلقها ثلاثاً في طُهْر لم يكن بِدْعة.

وقال أبو حنيفة: طلاق السنة أن يطلِّقَها في كل طهرٍ طلقة.

وقال الشعبي: يجوز أن يطلِّقها في طهر جامعها فيه.

فعلماؤنا قالوا: يطلِّقها واحدةً في طُهْر لم يَمَسَّ فيه، ولا تبعه طلاقٌ في عِدَّة، ولا يكون الطُّهر تالياً لحيض وقع فيه الطلاق؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك، وإن شاء طلق. فتلك العِدَّةُ التي أمر الله أن يطلَّق لها النساء». وتعلَّق الإمام الشافعيُّ بظاهر قولِه تعالى:

---

(١) عند الدارقطني (٣٩١٥).

(٢) في سننه (٣٨٩١).

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وهذا عامٌّ في كل طلاق، كان واحدةً أو اثنتين أو أكثر، وإنما راعى اللهُ سبحانه الزمانَ في هذه الآيةِ ولم يعتبر العدد. وكذلك حديث ابنِ عمر؛ لأن النبيَّ ﷺ علَّمه الوقت لا العدد.

قال ابن العربي[1]: وهذه غفلةٌ عن الحديث الصحيح؛ فإنه قال: «مُرْهُ فليراجعها». وهذا يدفع الثلاث. وفي الحديث أنه قال: أرأيتَ لو طلَّقها ثلاثاً؟ قال: حَرُمت عليك، وبانت منك بمعصية[2].

وقال أبو حنيفة: ظاهر الآية يدلُّ على أنَّ الطلاق الثلاث والواحدةَ سواء - وهو مذهب الشافعيِّ - لولا قولُه بعد ذلك: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذا يُبطل دخولَ الثلاث تحت الآية. وكذلك قال أكثر العلماء؛ وهو بديعٌ لهم.

وأما مالكٌ فلم يَخْفَ عليه إطلاقُ الآية كما قالوا، ولكنَّ الحديث فسَّرها كما قلنا. وأما قول الشعبيِّ: إنه يجوز طلاقٌ في طُهر جامعها فيه، فيردُّه حديثُ ابن عمر بنصِّه ومعناه. أمَّا نَصُّه فقد قدمناه، وأمَّا معناه؛ فلأنه إذا منع من طلاق الحائض لعدم الاعتداد به، فالطهر المجامَع فيه أوْلى بالمنع؛ لأنه يسقط الاعتداد به؛ مَخافةَ شغل الرَّحِم، وبالحيض التالي له.

قلت: وقد احتجَّ الشافعيُّ في طلاق الثلاث بكلمة واحدة بما رواه الدَّارَقُطنيُّ عن سلمة بن أبي سلمة بنِ عبد الرحمن، عن أبيه: أنَّ عبد الرحمن بنَ عَوف طلَّق امرأته تُماضِر بنتَ الأصبغ الكلبية - وهي أمُّ أبي سلمة - ثلاثَ تطليقات في كلمة واحدة؛ فلم يبلغنا أنَّ أحداً من أصحابه عاب ذلك. قال: وحدَّثنا سَلمة بنُ أبي سلمة، عن أبيه: أنَّ حفص بن المُغِيرة[3] طلَّق امرأته فاطمة بنتَ قيس على عهد رسولِ الله ﷺ

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٤، وما قبله منه.

(٢) هو قطعة من حديث ابن عمر أخرجه الدارقطني (٣٩٦٧) و(٣٩٧٤)، وأخرجه بنحوه أيضاً (٣٩٢٧) من قول ابن عباس ﷺ، وقد ساق المصنف لفظ الحديث من أحكام القرآن.

(٣) هو أبو عمرو بن حفص بن المغيرة، القرشي المخزومي، وقيل: أبو حفص بن عمرو بن المغيرة. واختلف في اسمه، فقيل: أحمد، وقيل: عبد الحميد، وقيل: اسمه كنيته. الإصابة ١١/ ٢٦٦. وسيأتي ذكره في المسألة الثانية عشرة.

ثلاث تطليقات في كلمة؛ فأبانها منه رسولُ الله ﷺ، ولم يبلغنا أنَّ النبيَّ ﷺ عاب ذلك عليه[١].

واحتجَّ أيضاً بحديث عُوَيْمِرِ العَجْلانِيِّ[٢] لمَّا لاعن، قال: يا رسول الله، هي طالق ثلاثاً، فلم ينكر عليه النبيُّ ﷺ. وقد انفصل علماؤنا عن هذا أحسنَ انفصال. بيانُه في غير هذا الموضع. وقد ذكرناه في كتاب «المقتبس من شرح مُوَطَّأ مالك بنِ أنس».

وعن سعيد بن المسيب وجماعةٍ من التابعين أنَّ من خالف السنة في الطلاق، فأوقعه في حيض أو ثلاث، لم يقع؛ وشبَّهوه بمن وكِّل بطلاق السُّنة فخالف[٣].

الثامنة: قال الجُرْجَانيّ: اللام في قوله تعالى: «لِعِدَّتِهِنَّ» بمعنى في؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]. أي: في أوَّل الحشر. فقوله: «لِعِدَّتِهِنَّ» أي: في عِدَّتهن؛ أي: في الزمان الذي يصلح لعدَّتهن. وحصل الإجماع على أنَّ الطلاق في الحيض ممنوع، وفي الطهر مأذونٌ فيه. ففيه دليلٌ على أنَّ القَرْء هو الطُّهر. وقد مضى القولُ فيه في «البقرة»[٤].

فإن قيل: معنى «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» أي: في قُبُل عدتهن، أو لِقُبُل عدَّتهن. وهي قراءةُ النبيِّ ﷺ؛ كما قال ابن عمر في صحيح مسلم[٥] وغيره. فقُبُل العِدَّة آخرُ الطُّهر، حتى يكونَ القَرءُ الحيض. قيل له: هذا هو الدليلُ الواضح لمالك ومَن قال بقوله؛ على أنَّ الأقراء هي الأطهار. ولو كان كما قال الحنفيُّ ومَن تبعه، لَوجب أنْ يقال: إنَّ مَن طلَّق في أوَّل الطُّهر لا يكون مطلقاً لقُبُل الحيض، لأن الحيض لم يُقبِل بعد. وأيضاً إقبالُ الحيض يكون بدخول الحيض، وبانقضاء الطُّهر لا يتحقق إقبالُ الحيض.

---

(١) سنن الدارقطني (٣٩٢١) (٣٩٢٢).

(٢) سلف ١٥/١٥٧ .

(٣) الكشاف ٤/١١٨ .

(٤) ٤/٣٧ فما بعد.

(٥) برقم (١٤٧١): (١٤). وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٨ ، وابن جني في المحتسب ٢/٣٢٣ .

ولو كان إقبال الشيءِ إدبارَ ضدِّه، لَكان الصائمُ مفطِراً قبل مغيب الشمس؛ إذ الليلُ يكون مقبلاً في إدبار النهار قبل انقضاء النهار. ثم إذا طلَّق في آخر الطُّهر، فبقيَّةُ الطُّهر قَرْء، ولأن بعض القَرْء يسمَّى قَرءاً، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] يعني شوَّالاً وذا القَعدة وبعضَ ذي الحِجَّة؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣] وهو يَنْفِر في بعض اليوم الثاني. وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفًى.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني: في المدخول بها؛ لأنَّ غير المدخول بها لا عِدَّة عليها، وله أن يراجعَها فيما دون الثلاثِ قبل انقضاء العِدَّة، ويكونُ بعدها كأحد الخُطَّاب. ولا تحلُّ له في الثلاث إلَّا بعد زوج(١).

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ معناه: احفظوها؛ أي: احفظوا الوقتَ الذي وقع فيه الطلاق، حتى إذا انفصل المشروطُ منه ـ وهو الثلاثةُ قروءٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] ـ حَلَّت للأزواج. وهذا يدلُّ على أنَّ العِدَّة هي بالأطهار، وليست بالحيض. ويؤكِّده ويفسِّره قراءةُ النبيِّ ﷺ: «لقُبُل عِدّتهن»؛ وقُبُل الشيء بعضُه، لغةً وحقيقةً، بخلاف استقباله، فإنه يكون غيرَه(٢).

الحادية عشرة: مَن المخاطَبُ بأمر الإحصاء؟ وفيه ثلاثةُ أقوال: أحدها: أنهم الأزواج. الثاني: أنهم الزوجات. الثالث: أنهم المسلمون. ابنُ العربيّ(٣): والصحيح أنَّ المخاطَب بهذا اللفظِ الأزواج؛ لأنَّ الضمائر كلَّها مِن «طَلّقتم» و«أَحْصُوا» و«لَا تُخْرِجُوهُنَّ» على نظام واحدٍ يرجع إلى الأزواج، ولكنَّ الزوجاتِ داخلةٌ فيه بالإلحاق بالزوج؛ لأن الزوج يُحْصِي ليراجع، ويُنفقَ أو يقطعَ، وليُسكِنَ أو يُخْرِج، وليُلْحِقَ نَسَبَه أو يقطع. وهذه كلُّها أمورٌ مشتركة بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٤ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٤ - ١٨١٥ ، وما قبله منه.

وكذلك الحاكمُ يفتقر إلى الإحصاء للعدَّة؛ للفتوى عليها، وفصلِ الخصومة عند المنازعة فيها. وهذه فوائدُ الإحصاء المأمورِ به.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: لا تَعصوه. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: ليس للزوج أن يُخرِجَها من مسكن النكاحِ ما دامت في العِدَّة، ولا يجوز لها الخروجُ أيضاً؛ لحقِّ الزوج، إلَّا لضرورةٍ ظاهرة، فإنْ خرجت أثِمت[1]، ولا تنقطع العِدَّة. والرجعيةُ والمَبْتُوتة في هذا سواء. وهذا لصيانة ماءِ الرجل. وهذا معنى إضافةِ البيوتِ إليهنّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فهو إضافةُ إسكان، وليس إضافةَ تمليك. وقولُه: «لَا تُخْرِجُوهُنَّ» يقتضي أن يكونَ حقًّا على الأزواج. ويقتضي قولُه: «وَلَا يَخْرُجْنَ» أنه حقٌّ على الزوجات[2].

وفي صحيح الحديثِ عن جابر بن عبد الله قال: طُلِّقت خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلَها، فزَجرَها رجل أن تخرج؛ فأتت النبيَّ ﷺ، فقال: «بلى فَجُدِّي نخلكِ؛ فإنكِ عسى أنْ تَصَدَّقي أو تفعلي معروفاً». خرَّجه مسلم[3].

ففي هذا الحديثِ دليلٌ لمالك والشافعيِّ وابنِ حنبل واللَّيثِ على قولهم: إنَّ المعتدَّة تخرج بالنهار في حوائجها، وإنما تَلزم منزلَها بالليل. وسواءٌ عند مالك كانت رجعِيَّة أو بائنة.

وقال الشافعيُّ في الرجعية: لا تخرج ليلاً ولا نهاراً، وإنما تخرج نهاراً المَبْتُوتَةُ.

وقال أبو حنيفة: ذلك في المُتَوَفَّى عنها زوجُها، وأما المطلَّقة فلا تخرج لا ليلاً ولا نهاراً[4]. والحديث يردُّ عليه.

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣١٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٧.

(٣) صحيح مسلم (١٤٨٣)، وهو عند أحمد (١٤٤٤٤).

(٤) المفهم ٤/ ٢٧٩.

وفي الصحيحين أنَّ أبا حفص بنَ عمرٍو خرج مع عليٍّ بن أبي طالب إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمةَ بنتِ قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارثَ ابنَ هشام وعَيَّاش بنَ أبي ربيعة بنفقةٍ؛ فقالا لها: واللهِ ما لَك مِن نفقة إلَّا أن تكوني حاملاً. فأتتِ النبيَّ ﷺ، فذكرت له قولَهما. فقال: «لا نفقةَ لكِ»، فاستأذنته في الانتقال، فأذِن لها؛ فقالت: أين يا رسولَ الله؟ فقال: «إلى ابن أمِّ مَكْتُوم»، وكان أعمى، تضع ثيابَها عنده ولا يراها. فلما مضت عِدَّتُها أنكحها النبيُّ ﷺ أسامة بنَ زيد. فأرسل إليها مروانُ قَبيصةَ بن ذُؤَيب يسألها عن الحديث، فحدَّثته. فقال مَرْوان: لم نسمع هذا الحديثَ إلَّا من امرأة، سنأخذ بالعِصْمة التي وَجَدْنا الناسَ عليها. فقالت فاطمة حين بلَغها قولُ مروان: فبيني وبينكم القرآن، قال الله عزَّ وجلَّ: «لَا تُخرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ» الآية، قالت: هذا لمن كانت له رجعة؛ فأيُّ أمرٍ يَحْدُث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون: لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً، فعلامَ تحبسونها؟ لفظُ مسلم[١].

فبيّن أنَّ الآية في تحريم الإخراج والخروجِ إنما هو في الرجعية[٢]. وكذلك استدلَّت فاطمة بأنَّ الآية التي تليها إنما تضمَّنت النَّهيَ عن خروج المطلَّقةِ الرجعية؛ لأنها بصدد أن يحدُثَ لمطلِّقها رأيٌ في ارتجاعها ما دامت في عِدَّتها؛ فكأنها تحت تصرف الزوجِ في كل وقت. وأما البائن، فليس له شيءٌ من ذلك؛ فيجوز لها أن تَخرُجَ إذا دعتها إلى ذلك حاجة، أو خافت عورةَ منزلها؛ كما أباح لها النبيُّ ﷺ ذلك[٣].

وفي مسلم[٤]: قالت فاطمة: يا رسول الله، زَوْجي طلَّقني ثلاثاً، وأخاف أن يُقتَحمَ عليّ. قال: فأمرها فتحوَّلت.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٨٠): (٤١)، وهو عند أحمد (٢٧٣٣٧). ولم نقف عليه عند البخاري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٨.

(٣) المفهم ٤/ ٢٧٧.

(٤) صحيح مسلم (١٤٨٢).

وفي البخاريّ[١] عن عائشة: أنها كانت في مكانٍ وَحْش، فخيف على ناحيتها؛ فلذلك أرخصَ النبيُّ ﷺ لها.

وهذا كلُّه يردُّ على الكوفيِّ قولَه. وفي حديث فاطمة: أنَّ زوجها أرسل إليها بتطليقة كانت بقيت من طلاقها؛ فهو حُجَّةٌ لمالك، وحجة على الشافعيّ[٢]، وهو أصحُّ من حديث سلمة بنِ أبي سلمة، عن أبيه: أنَّ حفص بنَ المغيرة طلَّق امرأته ثلاثَ تطليقات في كلمة؛ على ما تقدَّم[٣].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ قال ابن عباس وابن عمر والحسنُ والشَّعْبيُّ ومجاهد: هو الزِّنَى؛ فتُخرج ويُقام عليها الحدّ[٤].

وعن ابن عباس أيضاً والشافعيّ: أنه البَذاءُ على أحمائها؛ فَيَحِلُّ لهم إخراجُها[٥]. وروي عن سعيد بن المسيّب أنه قال في فاطمة: تلك امرأةٌ استطالت على أحمائها بلسانها؛ فأمرها عليه الصلاة والسلام أن تنتقل[٦]. وفي كتاب أبي داود[٧]: قال سعيد: تلك امرأة فَتنت الناس، إنها كانت لَسِنَةً؛ فوُضِعَتْ على يدي ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى.

قال عكرمة: في مصحف أُبَيّ: «إِلَّا أَنْ يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ»[٨]. ويقوِّي هذا أنَّ محمد ابنَ إبراهيم بنِ الحارث روى أنَّ عائشة قالت لفاطمة بنت قيس: اتقِّي اللهَ؛ فإنكِ

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٢٦).

(٢) في (د): وحجة للشافعي.

(٣) في المسألة السابعة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢ - ٣٣ عن الحسن والشعبي ومجاهد. وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس كما في الدر المنثور ٦/ ٢٣١ . ونسبه لابن عمر صاحب المفهم ٤/ ٢٧٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٣/ ٣٤ .

(٦) أخرجه الشافعي في الأم ٥/ ٢١٧ - ٢١٨ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٦٩ .

(٧) برقم (٢٢٩٦).

(٨) ذكره ابن عطية ٥/ ٣٢٣ ، دون نسبة.

تعلمين لِمَ أُخرجتِ؟[١].

وعن ابن عباس أيضاً: الفاحشة كلُّ معصية، كالزِّنى والسرقةِ والبَذاء على الأهل. وهو اختيار الطَّبَري[٢].

وعن ابن عمر أيضاً والسُّدِّيّ: الفاحشة خروجُها من بيتها في العِدَّة[٣]. وتقدير الآية: إلَّا أنْ يأتين بفاحشة مبيِّنة بخروجهنَّ من بيوتهنَّ بغير حقّ؛ أي: لو خرجت كانت عاصية[٤].

وقال قتادة: الفاحشة النُّشوز، وذلك أن يطلِّقها على النشوز، فتتحوَّلَ عن بيته[٥].

قال ابن العربي: أمَّا من قال: إنه الخروجُ للزِّنى، فلا وجهَ له؛ لأن ذلك الخروجَ هو خروجُ القتل والإعدام، وليس ذلك بمستثنًى في حلال ولا حرام. وأما مَن قال: إنه البَذاء؛ فهو مفسَّر[٦] في حديث فاطمة بنتِ قيس. وأما من قال: إنه كلُّ معصية، فوهم؛ لأن الغِيبة ونحوَها من المعاصي لا تُبيح الإخراجَ ولا الخروج. وأما مَن قال: إنه الخروج بغير حقّ؛ فهو صحيح، وتقدير الكلام: لا تُخرجوهنَّ من بيوتهن ولا يَخرجن شرعاً إلَّا أنْ يخرجن تعدِّياً.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكامُ التي بيَّنها أحكامُ الله على العباد، وقد منع التجاوزَ عنها، فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مورد الهلاك.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ الأمر الذي يُحدِثه اللهُ أن يقلِّب قلبَه من

(١) أخرجه الشافعي في الأم ٥/ ٢١٧ ، ومن طريقه البيهقي ٧/ ٤٣٣ .

(٢) في تفسيره ٢٣/ ٣٦ ، وأخرج أثر ابن عباس ص٣٤ .

(٣) أخرجه عن ابن عمر عبد الرزاق في المصنف (١١٠١٩)، وعن السدي الطبري ٢٣/ ٣٥ .

(٤) ينظر النكت والعيون ٦/ ٢٩ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥ .

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٩ : معتبر.

بُغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها[١].

وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبةَ في الرجعة. ومعنى القول التحريضُ على طلاق الواحدةِ والنهيُ عن الثلاث؛ فإنه إذا طلَّق ثلاثاً، أضرَّ بنفسه عند الندم على الفراق، والرغبةِ في الارتجاع، فلا يجدُ عند [إرادة] الرجعة سبيلاً[٢]. وقال مقاتل: «بَعْدَ ذَلِكَ» أي: بعد طلقة أو طلقتين، «أَمْراً» أي: المراجعة من غير خلاف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربنَ انقضاءَ العِدَّة[٣]؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١] أي: قَرُبن من انقضاء الأجل. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني المراجعة بالمعروف؛ أي: بالرغبةِ من غير قصد المضارَّةِ في الرجعة تطويلاً لعِدَّتها. كما تقدَّم في «البقرة»[٤]. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنَّ حتى تنقضيَ عِدَّتُهنَّ فيملِكْنَ أنفسَهنّ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ما يوجب أن يكونَ القولُ قولَ المرأة في انقضاء العِدَّةِ إذا ادَّعت ذلك[٥]، على ما بيَّناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾[٦] [البقرة: ٢٢٨] الآية.

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٠، وما بين حاصرتين منه.

(٣) الوسيط ٤/ ٣١٢، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٠.

(٤) ٤/ ١٠١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢١.

(٦) ٤/ ٤٤.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيه سِتُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟﴾ أمْرٌ بالإشهاد على الطلاق. وقيل: على الرجعة. والظاهر رجوعُه إلى الرجعة لا إلى الطلاق. فإنْ راجع من غير إشهاد، ففي صحة الرجعةِ قولان للفقهاء[1]. وقيل: المعنى: وأشهِدوا عند الرجعة والفُرْقة جميعاً. وهذا الإشهاد مندوبٌ إليه عند أبي حنيفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وعند الشافعيِّ واجبٌ في الرجعة، مندوبٌ إليه في الفُرقة. وفائدة الإشهاد ألَّا يقعَ بينهما التجاحد، وألّا يُتَّهَم في إمساكها، ولئلا يموتَ أحدُهما فيدَّعيَ الباقي ثبوتَ الزوجية لِيرِث[2].

الثانية: الإشهاد عند أكثر العلماء على الرَّجْعة نَدْب، وإذا جامع أو قَبَّل أو باشر يريد بذلك الرجعة، وتكلَّم بالرجعة يريد به الرجعة، فهو مراجعٌ عند مالك، وإن لم يُرد بذلك الرجعةَ فليس بمراجع.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا قَبَّل أو باشر أو لمسَ[3] بشهوة، فهو رجعة. قالوا: والنظرُ إلى الفَرْج رجعة.

وقال الشافعيُّ وأبو ثَوْر: إذا تكلَّم بالرجعة فهو رجعة.

وقد قيل: وَطْؤُه مراجعةٌ على كل حال، نواها أو لم ينوِها. وروي ذلك عن طائفة من أصحاب مالك. وإليه ذهب اللَّيث. وكان مالك يقول: إذا وَطِئ ولم ينوِ الرجعة، فهو وَطءٌ فاسد؛ ولا يعودُ لوطئها حتى يستبرئَها من مائه الفاسد، وله الرجعةُ في بقية العِدَّةِ الأولى، وليس له رجعةٌ في هذا الاستبراء.

الثالثة: أوجبَ الإشهادَ في الرجعة أحمد بنُ حنبل في أحد قوليه، والشافعيُّ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٤/ ١١٩، وتفسير الرازي ٣٠/ ٣٤، وسيأتي مزيد كلام عليه في المسألة الثالثة.

(٣) في (خ) و(م): لامس، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الإشراف ٤/ ٣٠٣، والاستذكار ١٨/ ٦٢. وقد سلف الكلام على هذه المسألة ٤/ ٤٧ - ٤٩.

كذلك؛ لظاهر الأمر. وقال مالكٌ وأبو حنيفة وأحمد والشافعيُّ في القول الآخَر: إنَّ الرجعة لا تفتقر إلى القَبول، فلم تفتقر إلى الإشهاد، كسائر الحقوق، وخصوصاً حَلّ الظِّهار بالكفَّارة.

قال ابن العربي[١]: وركَّب أصحاب الشافعيِّ على وجوب الإشهاد في الرجعة أنه لا يصحُّ أن يقول: كنتُ راجعتُ أمسِ وأنا أُشهد اليوم [لأنه إشهاد] على الإقرار بالرجعة، ومِن شَرْطِ الرجعة الإشهادُ [عليها]، فلا تصحُّ دونه. وهذا فاسدٌ مبنيٌّ على أنَّ الإشهاد في الرجعة تَعَبُّد. ونحن لا نسلِّم فيها ولا في النكاح؛ بأن نقول: إنه موضوع[٢] للتوثُّق، وذلك موجودٌ في الإقرار كما هو موجودٌ في الإنشاء.

الرابعة: مَن ادَّعى بعد انقضاء العدَّة أنه راجعَ امرأتَه في العدَّة، فإن صدَّقَتْه جاز، وإن أنكرتْ حلفت[٣]، فإن أقام بيِّنةً أنه ارتجعها في العدَّة ولم تَعلَمْ بذلك، لم يَضُرَّه[٤] جهلُها بذلك، وكانت زوجتَه، وإن كانت قد تزوَّجت ولم يَدخل بها، ثم أقام الأوَّلُ البيِّنةَ على رجعتها؛ فعن مالك في ذلك روايتان: إحداهما: أنَّ الأوَّل أحقُّ بها. والأخرى: أنَّ الثاني أحقُّ بها. فإن كان الثاني قد دخل بها، فلا سبيل للأوَّل إليها.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال الحسن: مِن المسلمين. وعن قتادة: من أحراركم[٥]. وذلك يوجب اختصاصَ الشهادة على الرجعة بالذُّكور دون الإناث؛ لأن «ذَوَيْ» مذكَّر. ولذلك قال علماؤنا: لا مَدخلَ للنساء فيما عدا

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٢٣ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه. والمعتمد عند الشافعي عدم اشتراط الإشهاد، وما ذكره أولاً مذهبه القديم. ينظر نهاية المحتاج ٧/ ٥٨ - ٥٩ ، والعزيز شرح الوجيز ٩/ ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) في (م): موضع.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٤ .

(٤) في (ظ): يضر، وفي الكافي ٢/ ٦١٨ ـ والكلام منه ـ: يضرها.

(٥) الكشاف ٤/ ١١٩ .

الأموال[١]. وقد مضى ذلك في سورة البقرة[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي: تقرُّباً إلى الله في إقامة الشهادةِ على وجهها، إذا مسَّت الحاجةُ إليها، من غير تبديلٍ ولا تغيير. وقد مضى في سورة البقرة معناه عند قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾[٣] [الآية: ٢٨٢].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يرضى به. ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فأمَّا غيرُ المؤمن فلا ينتفعُ بهذه المواعظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. عن النبيِّ ﷺ أنه سئل عمن طلَّق ثلاثاً أو ألفاً: هل له مِن مَخرَج؟ فتلاها[٤].

وقال ابن عباس والشَّعْبيُّ والضحَّاك: هذا في الطلاق خاصة، أي: مَن طلَّق كما أمره الله، يكن له مخرجٌ في الرجعة في العِدَّة، وأنْ يكونَ كأحد الخُطَّاب بعد العِدَّة[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»: ينجيه من كل كَرْبٍ في الدنيا والآخرة. وقيل: المخرج هو أن يُقْنِعَه اللهُ بما رزقه؛ قاله عليُّ بن صالح. وقال الكَلْبي: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ» بالصبر عند المصيبة، «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من النار إلى الجنة[٦]. وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٤ .

(٢) ٤/ ٤٤٧ .

(٣) ٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٤) الكشاف ٤/ ١٢٠ ، وأخرج ابن عدي ٤/ ١٦٣١ ، والدارقطني (٣٩٤٣)، والخطيب في تاريخه ١٤/ ٢٢٧ و ٢٢٨ عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: طلق بعض آبائي امرأته ألفاً، فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن أبانا طلق أمنا ألفاً، فهل له من مخرج؟ فقال: «إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجاً، بانت منه امرأته بثلاث على غير السنة، وتسع مئة وتسعون إثم هي في عنقه». قال الدارقطني: رواته مجهولون، وضعفاء كلهم، إلا شيخنا وابن عبد الباقي.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣١ عن الضحاك، وذكره الرازي ٣٠/ ٣٤ عن الشعبي، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٤ عن عكرمة والضحاك.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣١ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٣ .

شدَّة. الربيع بنُ خُثَيم: «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من كل شيءٍ ضاق على الناس[1]. الحسين ابنُ الفضل: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ» في أداء الفرائض، «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من العقوبة.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثوابَ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: يبارِك له فيما آتاه. وقال سهل بنُ عبد الله: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ» في اتِّباع السُّنَّة، «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من عقوبة أهل البِدَع، ويرزقْه الجنةَ من حيث لا يحتسب. وقيل: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ» في الرزق بقطع العلائق، يجعلْ له مخرجاً بالكفاية. وقال عمر[2] بن عثمان الصَّدفي: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ» فيقفْ عند حدوده ويجتنب معاصيَه، يُخرجْه من الحرام إلى الحلال، ومن الضِّيق إلى السَّعة، ومن النار إلى الجنة، «وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» من حيث لا يرجو. وقال ابن عُيينة: هو البركة في الرزق. وقال أبو سعيد الخُدْرِيّ: ومَن يبرأُ مِن حَوْله وقوَّته بالرجوع إلى الله، يجعلْ له مخرجاً ممَّا كلَّفه بالمعونة له. وتأوَّل ابنُ مسعود ومسروقٌ الآيةَ على العموم[3].

وقال أبو ذَرّ: قال النبيُّ ﷺ: «إني لأَعْلَمُ آيةً لو أخذ بها الناسُ لكفَتهم، ثم تلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. فما زال يكرِّرها ويعيدها[4].

وقال ابن عباس: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غَمَرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[5].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ ، وقول الربيع بن خثيم أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٤ .

(٢) في (ق): عمرو، ولم نقف على ترجمته.

(٣) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٤٣ .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٠)، وأحمد (٢١٥٥١) عن أبي السَّلِيل ضُرَيب بن نُقَير، عن أبي ذر ﷺ. قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٣٤٢ : هذا إسناد رجاله ثقات، إلا أنه منقطع؛ أبو السليل لم يدرك أبا ذر.

(٥) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣١٣ .

وقال أكثر المفسرين فيما ذكر الثَّعلبي[١]: إنها نزلت في عَوْف بن مالكٍ الأشْجَعِيّ. روى الكَلْبيُّ عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: جاء عَوْف بن مالكٍ الأشجعيُّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ ابني أَسَرَه العدوُّ، وجَزِعت الأمّ[٢]؛ وعن جابر بن عبد الله: نزلت في عَوْف بن مالك الأشجعي، أَسَر المشركون ابناً له يُسَمَّى سالماً، فأتَى رسولَ الله ﷺ وشكا إليه الفاقةَ وقال: إنَّ العدوَّ أسر ابني وجَزِعت الأمّ، فما تأمرني؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اِتَّقِ اللهَ واصبِر، وآمرُك وإيَّاها أن تستكثِرا من قول: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِالله». فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني وإيَّاكِ أن نستكثرَ من قول: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله. فقالت: نِعْمَ ما أَمرنا به. فجعلا يقولان؛ فَغفَل العَدُوُّ عن ابنه، فساق غنمَهم وجاء بها إلى أبيه؛ وهي أربعة آلاف شاة. فنزلت الآية، وجعل النبيُّ ﷺ تلك الأغنامَ له[٣].

في رواية: أنه جاء وقد أصاب إبلاً من العدوّ وكان فقيراً.

قال الكلبي: أصاب خمسين بعيراً.

وفي رواية: فأفلت ابنُه من الأسْر وركب ناقةً للقوم، ومرَّ في طريقه بسَرْحٍ لهم فاستاقه.

وقال مقاتل: أصاب غَنماً ومتاعاً؛ فسأل النبيَّ ﷺ: أَيحِلُّ لي أن آكلَ مما أتى به ابني؟ قال: «نعم». ونزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤].

---

(١) وذكره الواحدي في الوسيط ٤/٣١٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) وتتمته بنحو الخبر التالي، وأخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٧٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٢٣٣.

(٣) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٩٢، والواحدي في أسباب النزول ص٤٦٤ - ٤٦٥ بنحوه. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧٤: فيه عبيد بن كثير تركه الأزدي، وعباد بن يعقوب وهو رافضي. اهـ. وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٤ - ٤٥ عن السدي وسالم بن أبي الجعد.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ بنحوه.

وروى[١] الحسن عن عِمْران بنِ الحُصَيْن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن انقطع إلى الله، كفاه اللهُ كلَّ مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومَن انقطع إلى الدنيا، وَكَله اللهُ إليها»[٢].

وقال الزجَّاج: أي: إذا اتَّقى وآثر الحلالَ والصبرَ[٣] على أهله، فتح اللهُ عليه إن كان ذا ضَيْقة[٤]، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أكثر الاستغفار، جعل اللهُ له من كل هَمٍّ فَرَجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: مَن فوَّض إليه أمرَه، كفاه ما أهَمَّه[٦]. وقيل: أي: مَن اتَّقى اللهَ وجانب المعاصيَ وتوكَّل عليه، فله فيما يعطيه في الآخرة مِن ثوابه كفاية. ولم يُرِد الدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يُقتَل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ قال مسروق: أي: قاضٍ أمْرَه فيمن توكَّل عليه وفيمن لم يتوكَّل عليه؛ إلَّا أنَّ مَن توكَّل عليه يكفِّر عنه سيئاتِه ويُعْظِمْ لَهُ أجراً[٧].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): فروى.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٣٨٣)، والخطيب في تاريخه ٧/ ١٩٦، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٨٠١. قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٠٣ - ٣٠٤: فيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل، وهو ضعيف، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يغرب ويخطئ ويخالف، وبقية رجاله ثقات.

(٣) في النسخ عدا (ظ): والتصبر، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨٤.

(٤) في (ظ): صنعة.

(٥) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٢١٧)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والحاكم ٤/ ٢٦٢ وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي فقال: الحكم ـ بن مصعب ـ فيه جهالة.

(٦) الوسيط ٤/ ٣١٤.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧ - ٤٨.

وقراءة العامة: «بالِغٌ» منوناً، «أمْرَه» نصباً. وقرأ عاصم[١]: «بالِغُ أمْرِه»، بالإضافة وحذف التنوين استخفافاً. وقرأ المفضَّل: «بالِغاً أمْرَه»، على أنَّ قوله: «قَدْ جَعَلَ اللهُ» خبرُ «إنَّ»، و«بالغاً» حال[٢]. وقرأ داود بنُ أبي هند: «بَالِغٌ أَمْرُه» بالتنوين ورفعِ الراء[٣]. قال الفرَّاء: أي: أمرُه بالغ. وقيل: «أَمْره» مرتفعٌ بـ«بالغ» والمفعولُ محذوف؛ والتقدير: بالغٌ أمرُه ما أراد.

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: لكل شيءٍ من الشِّدَّة والرَّخاء أجلاً ينتهي إليه[٤]. وقيل: تقديراً[٥]. وقال السُّدِّيّ: هو قَدْر الحيض في الأجل والعِدَّة[٦].

وقال عبد الله بن رافع: لما نزل قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ قال أصحاب النبيِّ ﷺ: فنحن إذا توكَّلنا عليه، نُرسل ما كان لنا ولا نحفظه؛ فنزلت: «إنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» فيكم وعليكم.

وقال الربيع بن خُثَيم: إنَّ الله تعالى قضى على نفسه أنَّ مَن توكَّل عليه كفاه، ومَن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وَثِق به نَجَّاه، ومن دعاه أجاب له. وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) في رواية حفص، السبعة ص٦٣٩، والتيسير ص٢١١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٨، والمحتسب ٢/ ٣٢٤.

(٤) الوسيط ٤/ ٣١٤.

(٥) الكشاف ٤/ ١٢١.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ لمَّا بيَّن أمرَ الطلاق والرَّجعةِ في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عِدَّةَ ذواتِ الأقراء، عرَّفهم في هذه السورةِ عِدَّةَ التي لا ترى الدم.

وقال أبو عثمان عمر[(١)] بنُ سالم: لمَّا نزلت عِدَّةُ النساءِ في سورة البقرة في المطلقة والمتوفَّى عنها زوجُها، قال أُبَي بنُ كعب: يا رسول الله، إنَّ ناساً يقولون: قد بقيَ من النساء مَن لم يُذكر فيهنَّ شيء: الصِّغارُ وذوات الحَمْل، فنزلت: «وَاللَّائِي يَئِسْنَ» الآية[(٢)].

وقال مقاتل: لمَّا ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال خَلَّاد بنُ النعمان: يا رسول الله، فما عِدَّةُ التي لم تَحِض، وعِدَّة التي انقطع حَيْضُها، وعِدَّةُ الحبلى؟ فنزلت: «وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيض مِنْ نِسَائِكُمْ» يعني: قَعدنَ عن المحيض[(٣)].

وقيل: إنَّ معاذ بن جَبل سأل عن عِدَّة الكبيرةِ التي يئست؛ فنزلت الآية. والله أعلم.

وقال مجاهد: الآية واردةٌ في المستحاضة لا تَدري: دمُ حيضٍ هو أو دمُ عِلَّة[(٤)].

---

(١) الأنصاري، ويقال: عمرو. وقد سلف ذكره ٦/ ١٧٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٢٩٨ ، والطبري ٢٣/ ٥١ ، والحاكم ٢/ ٤٩٢ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٦٥ . قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٨ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٦٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٥ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: شككتُم، وقيل: تَيَقَّنتُم. وهو من الأضداد؛ يكون شكًّا ويقيناً كالظنّ[١]. واختيار الطبريّ[٢] أن يكونَ المعنى: إنْ شككتُم فلم تدروا ما الحكمُ فيهنّ. وقال الزَّجاج[٣]: إن ارتبتُم في حيضها وقد انقطع عنها الحيضُ وكانت ممن يحيض مِثلُها. القشيريّ: وفي هذا نظر؛ لأنّا إذا شككنا هل بلغت سِنَّ اليأس، لم نقل: عِدَّتُها ثلاثةُ أشهر. والمعتبر في سن اليأس في قولٍ: أقصى عادةِ امرأةٍ في العالم، وفي قولٍ: غالبُ نساء عشيرةِ المرأة. وقال مجاهد: قوله «إِنِ ارْتَبْتُمْ» للمخاطبين؛ يعني: إن لم تعلموا عِدَّةَ اليائسة والتي لم تَحِض، فالعِدَّةُ هذه[٤]. وقيل: المعنى: إن ارتبتُم أنَّ الدم الذي يظهر منها من أجل كِبَر، أو من الحيض المعهود، أو من الاستحاضة، فالعِدَّةُ ثلاثة أشهر. وقال عكرمة وقتادة: مِن الرِّيبة المرأةُ المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض؛ تحيض في أَوّل الشهر مراراً وفي الأشهر مرة[٥]. وقيل: إنه متَّصلٌ بأول السورة، والمعنى: لا تُخرجوهنَّ من بُيوتهنَّ إن ارتبتم في انقضاء العِدَّة. وهو أصحُّ ما قيل فيه.

الثالثة: المرتابة في عِدَّتها لا تُنكحُ حتى تستبرئَ نفسَها من رِيبتها، ولا تَخرجُ من العِدة إلَّا بارتفاع الرِّيبة. وقد قيل في المرتابة التي ترتفع[٦] حيضتُها وهي لا تدري ما يَرفعها: إنها تنتظر سَنَةً من يوم طلَّقها زوجها؛ منها تسعةُ أشهرٍ استبراء، وثلاثةٌ عِدَّة. فإنْ طلَّقها فحاضت حيضةً أو حيضتين، ثم ارتفع عنها بغير يأسٍ منها، انتظرت تسعةَ أشهر، ثم ثلاثةً من يوم طَهُرت من حيضتها، ثم حَلَّت للأزواج. وهذا قاله الشافعيُّ

---

(١) قال السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٣٥٥ : وأغرب ما قيل: إنَّ «إن ارتبتم» بمعنى: تيقنتم، فهو من الأضداد.

(٢) في تفسيره ٢٣/ ٥٢ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٨٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢ عن قتادة، عن عكرمة.

(٦) في النسخ: ترفعها، والمثبت موافق لما في الكافي ٢/ ٦٢٠ ، والكلام منه.

بالعراق[١]. فعلى قياس هذا القولِ تُقيم الحُرَّة المُتَوَفَّى عنها زوجُها المسترابةُ[٢] بعد التسعة أشهرٍ أربعةَ أشهر وعشراً، والأَمَةُ شهرين وخمسَ ليالٍ بعد التسعة الأشهر. وروي عن الشافعيِّ أيضاً أنَّ أَقراءها على ما كانت حتى تبلغ سِنَّ اليائسات. وهو قول النَّخعيِّ والثَّوريِّ وغيرهما، وحكاه أبو عبيدٍ عن أهل العراق[٣].

فإن كانت المرأة شابَّة ـ وهي:

المسألة الرابعة ـ اسْتُؤْنيَ بها هل هي حاملٌ أم لا؛ فإن استبان حملُها، فإنَّ أجلَهَا وَضْعُه. وإن لم يَسْتَبِن، فقال مالك: عِدَّةُ التي ارتفع حيضُها وهي شابَّة سَنَةٌ. وبه قال أحمد وإسحاق، ورووُه عن عمر بنِ الخطاب ﷺ وغيرِه[٤]. وأهلُ العراق يَرَوْن أنَّ عِدَّتها ثلاثُ حيض، بعد ما كانت حاضت مرَّةً واحدة في عمرها وإن مكثت عشرين سنة، إلَّا أن تبلُغَ من الكِبَر مبلغاً تيأس فيه من الحيض، فتكون عِدَّتُها بعد الإياس ثلاثةَ أشهر.

قال الثعلبيّ: وهذا الأصحُّ من مذهب الشافعيِّ، وعليه جمهورُ العلماء. وروي ذلك عن ابن مسعود وأصحابِهِ[٥].

قال الكِيَا[٦]: وهو الحقّ؛ لأنَّ الله تعالى جعل عِدَّةَ الآيسة ثلاثةَ أشهر، والمرتابةُ ليست آيسة.

الخامسة: وأمَّا مَن تأخَّر حَيْضُها لمرض؛ فقال مالكٌ وابن القاسم وعبد الله

(١) الإشراف لابن المنذر ٤/ ٢٨٤ .

(٢) في (م): المستبرأة، وفي باقي النسخ عدا (خ): المستبرأ به، وفي الكافي: المرتابة، والمثبت من (خ).

(٣) الإشراف ٤/ ٢٨٥ .

(٤) أخرجه عن عمر ﷺ مالك في الموطأ ٢/ ٥٨٢ . وينظر الإشراف ٤/ ٢٨٤ – ٢٨٥ ، والاستذكار ١٨/ ٩٤ فما بعد، وأحكام القرآن للكيا ٤/ ٤٢١ ، ولابن العربي ٤/ ١٨٢٦ .

(٥) أخرجه عن ابن مسعود ﷺ ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٠ ، وينظر الاستذكار ١٨/ ٩٦ – ٩٧ .

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ٤٢١ .

وأَصْبَغ[١]: تعتدُ تسعة أشهر ثم ثلاثة. وقال أشهب: هي كالمرضع بعد الفطام، بالحيض أو بالسَّنة. وقد طلَّق حَبَّان بنُ مُنْقِذ امرأته وهي تُرْضع؛ فمكثت سنةً لا تحيض لأجل الرَّضاع، ثم مرِض حَبَّان، فخاف أن ترثَه، فخاصمها إلى عثمان وعنده عليٌّ وزيد، فقالا، نرى أن تَرِثه؛ لأنها ليست من القواعد ولا من الصِّغار؛ فمات حَبَّان، فورِثْته، واعتدَّت عِدَّةَ الوفاة[٢].

السادسة: ولو تأخَّر الحيضُ لغير مرض ولا رضاع، فإنها تنتظر سَنةً لا حَيْض فيها، تسعةَ أشهرٍ ثم ثلاثة؛ على ما ذكرناه، فتَحِلُّ ما لم تَرْتَب بحَمْل؛ فإن ارتابت بحمل، أقامت أربعةَ أعوام، أو خمسةً، أو سبعة؛ على اختلاف الروايات عن علمائنا. ومشهورُها: خمسةُ أعوام؛ فإن تجاوزتْها حَلَّت. وقال أشهب: لا تَحِلُّ أبداً حتى تنقطعَ عنها الرِّيبة.

قال ابن العربي[٣]: وهو الصحيح؛ لأنه إذا جاز أن يبقى الولدُ في بطنها خمسة أعوام، جاز أن يبقى عشرةً وأكثرَ من ذلك، وقد رُوي عن مالك مثلُه.

السابعة: وأما التي جُهل حيضُها بالاستحاضة، ففيها ثلاثةُ أقوال:

قال ابن المسيب: تعتدُّ سَنة[٤]. وهو قول الليث، قال الليث: عِدَّةُ المطلَّقة وعدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها إذا كانت مستحاضةً سَنةٌ[٥]. وهو مشهورُ قولِ علمائنا[٦]؛ سواءٌ علمت دمَ حيضِها من دم استحاضتِها وَميَّزَت ذلك أو لم تميِّزه، عِدَّتها في ذلك كلِّه

(١) في النسخ: وعبد الله بن أصبغ، والمثبت موافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٥، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن، والأثر أخرجه مالك ٢/ ٥٧٢، وعبد الرزاق (١١١٠٠) و(١١١٠١) و(١١١٠٢)، وابن أبي شيبة ٥/ ٢١٠ بألفاظ متقاربة.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٦، وما قبله منه. وقد ثبت علمياً ـ كما ذكرنا ١٢/ ٢٢ ـ أن الجنين لا يمكث في بطن أمه أكثر من عشرة أشهر؛ وإلا مات الجنين في بطن أمه.

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي ٤/ ١٨١٦. وقول ابن المسيب أخرجه مالك ٢/ ٥٨٣.

(٥) الاستذكار ١٨/ ١٠٠.

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٨١٦.

عند مالكٍ في تحصيل مذهبه سَنة؛ منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثةٌ عِدَّة[١].

وقال الشافعيُّ في أحد أقواله: عِدَّتها ثلاثة أشهر. وهو قول جماعةٍ من التابعين والمتأخرين من القرويِّين. ابن العربيّ[٢]: وهو الصحيح عندي.

وقال أبو عمر[٣]: المستحاضة إذا كان دمُها ينفصل، فعلِمت إقبالَ حيضتها وإدبارَها[٤]، اعتدَّت ثلاثةَ قُرُوء. وهذا أصحُّ في النظر، وأثبت في القياس والأثَر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ ـ يعني الصغيرة ـ فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر؛ فأضمر الخبر. وإنما كانت عدَّتها بالأشهر؛ لعدم الأقراء فيها عادة، والأحكامُ إنما أجراها اللهُ تعالى على العادات؛ فهي تعتدُّ بالأشهر. فإذا رأت الدم في زمنِ احتمالِه عند النساء، انتقلت إلى الدم؛ لوجود الأصل، وإذا وجد الأصلُ لم يبقَ للبدل حكم؛ كما أن المُسِنَّةَ إذا اعتدَّت بالدم ثم ارتفع، عادت إلى الأشهر[٥]. وهذا إجماع[٦].

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ وَضْعُ الحمل وإن كان ظاهراً في المطلَّقة؛ لأنه عليها عُطف، وإليها رَجَعَ عَقِبُ الكلام؛ فإنه في المتوفَّى عنها زوجُها كذلك؛ لعموم الآية وحديثِ سُبَيْعة[٧]. وقد مضى في «البقرة» القولُ فيه مستوفًى[٨].

الثانية: إذا وضعت المرأةُ ما وضعت مِن عَلَقة أو مُضْغَة، حَلَّت. وقال الشافعيُّ

(١) الكافي ٢/ ٦٢٠ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٦ ، وما قبله منه.

(٣) في الكافي ٢/ ٦٢٠ .

(٤) في (د) و(م): أو إدبارها.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٥ - ١٨٢٦ .

(٦) الإشراف ٤/ ٢٨٥ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٦ .

(٨) ٤/ ١٢٦ فما بعد. وسلف هناك حديث سبيعة.

وأبو حنيفة: لا تَحِلُّ إلَّا بما يكون ولداً[(١)]. وقد مضى القولُ فيه في سورة البقرة، وسورة الرعد، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ قال الضحَّاك: أي: من يَتَّقِه في طلاق السُّنَّة، يجعلْ له مِن أمره يُسراً في الرجعة. مقاتل: وَمن يَتَّقِ اللهَ في اجتناب معاصيه، يجعل له من أمره يُسْراً في توفيقه للطاعة[(٢)]. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي ذكر من الأحكام أمْرُ الله أنزله إليكم وبَيَّنه لكم. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: يعمل بطاعته. ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة[(٣)]. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ قال أشهبُ عن مالك: يَخرج عنها إذا طلَّقها ويتركها في المنزل؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾. فلو كان معها، ما قال: أسكِنوهن. وقال ابن نافع: قال مالكٌ في قول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ يعني المطلَّقاتِ اللاتي بِنَّ من أزواجهن فلا رَجْعَةَ لهم عليهنَّ وليست حاملاً، فلها السُّكْنَى ولا نفقة لها ولا كِسوة، لأنها بائنٌ منه لا يتوارثان ولا رَجْعَةَ له عليها. وإن كانت حاملاً فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضيَ عِدَّتُها. فأمَّا مَن لم تَبِنْ منهنّ، فإنهنَّ نساؤهم يتوارثون، ولا يَخرُجن إلَّا أن يأذنَ لهن أزواجُهنَّ ما كُنَّ في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٦ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣ .

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ٣١٥ ، وفيه إشارة إلى حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» وسلف ٦/ ٢٦١ .

عِدَّتهنّ. ولم يؤمروا بالسُّكنى لهن؛ لأن ذلك لازمٌ لأزواجهنّ مع نفقتهنّ وكسوتهنّ، حواملَ كنَّ أو غيرَ حوامل. وإنما أمر اللهُ بالسكنى للّائي بِنَّ مِن أزواجهن[1]، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾. فجعل عزَّ وجلَّ للحوامل اللائي قد بِنَّ مِن أزواجهنَّ السُّكنى والنفقة.

قال ابن العربي[2]: وبَسْطُ ذلك وتحقيقُه أنَّ الله سبحانه لمَّا ذكر السُّكْنَى، أَطْلقَها لكلِّ مطلَّقة، فلمَّا ذكر النفقةَ قيَّدها بالحمل، فدلَّ على أنَّ المطلَّقة البائن لا نفقة لها. وهي مسألةٌ عظيمة قد مَهَّدنا سُبُلَها قرآنًا وسُنَّةً ومعنىً في مسائل الخلاف. وهذا مأخذُها من القرآن.

قلت: اختلف العلماء في المطلَّقة ثلاثاً على ثلاثة أقوال، فمذهبُ مالك والشافعيِّ: أنَّ لها السُّكنى ولا نفقة لها. ومذهب أبي حنيفة وأصحابِه: أنَّ لها السكنى والنفقة. ومذهب أحمدَ وإسحاق وأبي ثَوْر: أنْ لا نفقة لها ولا سُكنى[3]؛ على حديث فاطمة بنتِ قيس، قالت: دخلتُ إلى رسول الله ﷺ ومعي أخو زوجي، فقلت: إنَّ زوجي طلَّقني، وإنَّ هذا يزعم أنْ ليس لي سكنى ولا نفقة؟! قال: «بل لكِ السُّكْنَى ولكِ النفقة». قال: إنَّ زوجها طلَّقها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة على مَن له عليها الرجعة». فلما قدمتُ الكوفة، طلبني الأسود بنُ يزيد لِيسألَني عن ذلك، وأنَّ أصحاب عبدِ الله يقولون: إنَّ لها السكنى والنفقة. خرَّجه الدارقطني[4].

ولفظ مسلمٍ عنها[5]: أنه طلَّقها زوجُها في عهد النبيِّ ﷺ، وكان أنفق عليها نفقةَ دُونٍ، فلمَّا رأت ذلك قالت: والله لأُعْلِمَنَّ رسولَ الله ﷺ، فإن كان لي نفقةٌ أخذت

(١) في (د) و(م) زيادة: مع نفقتهن.

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٨٢٧، وما قبله منه.

(٣) الإشراف ٤/١٦٧.

(٤) في سننه (٣٩٥٤) وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف.

(٥) صحيح مسلم (١٤٨٠): (٣٧).

الذي يُصلحني، وإن لم تكن لي نفقةٌ لم آخذ شيئاً. قالت: فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لا نفقة لكِ ولا سُكْنى».

وذكر الدارقطني عن الأسود قال: قال عمر لمَّا بلغه قولُ فاطمة بنتِ قيس: لا نُجيزُ في المسلمين قولَ امرأة. وكان يجعل للمطلَّقة ثلاثاً السُّكنى والنفقةَ. وعن الشعبيِّ قال: لَقِيَني الأسود بنُ يزيد فقال: يا شَعْبيّ، اِتَّقِ اللهَ وارجِع عن حديث فاطمة بنتِ قيس؛ فإنَّ عمر كان يجعل لها السُّكنى والنفقة. قلت: لا أرجع عن شيء حدثتني [به] فاطمة بنتُ قيس عن رسول الله ﷺ(١).

قلت: ما أحسن هذا. وقد قال قتادة وابنُ أبي ليلى: لا سُكنى إلَّا للرجعية؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾(٢)، وقولُه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ راجعٌ إلى ما قبله، وهي المطلَّقة الرجعية. والله أعلم. ولأنَّ السُّكنى تابعةٌ للنفقة وجاريةٌ مَجراها؛ فلمَّا لم تجِب للمبتوتة نفقة، لم يجب لها سُكنى.

وحجَّة أبي حنيفة أنَّ للمبتوتة النفقةَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وتركُ النفقة من أكبر الأضرار. وفي إنكار عمرَ على فاطمة قولَها ما يبيِّنُ هذا، ولأنها معتدَّةٌ تستحقُّ السُّكنى عن طلاق، فكانت لها النفقةُ كالرجعية، ولأنها محبوسةٌ عليه لحقِّه، فاستحقت النفقةَ كالزوجة. ودليلُ مالكٍ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ الآية. على ما تقدَّم بيانُه.

وقد قيل(٣): إنَّ الله تعالى ذكر المطلَّقة الرجعيةَ وأحكامها أوَّلَ الآية إلى قوله: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ثم ذَكَر بعد ذلك حُكْمًا يَعمُّ المطلَّقاتِ كلَّهنَّ، من تعديد الأشهر وغيرِ ذلك. وهو عامٌّ في كل مطلقة؛ فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كلِّ مطلقة.

(١) سنن الدارقطني (٣٩٥٥)، (٣٩٥٦). وما بين حاصرتين منه.

(٢) ذكر قولهما ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٧.

(٣) القائل ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٢٨.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: من سَعَتكم[١]؛ يقال: وَجَدْتُ في المال أَجِدُ وُجْداً [ووَجْداً ووِجْداً] وجِدَةً[٢]. والوُجْد: الغِنى والمقدرة[٣].

وقراءة العامة بضمِّ الواو. وقرأ الأعرج والزُّهريُّ بفتحها، ويعقوبُ بكسرها[٤]. وكلُّها لغاتٌ فيها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ قال مجاهد: في المسكن. مُقاتل: في النفقة؛ وهو قولُ أبي حنيفة[٥]. وعن أبي الضحى: هو أن يطلِّقَها فإذا بقي يومان من عِدَّتها، راجعها ثم طلَّقها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسُّكنى للحامل المطلَّقة ثلاثاً أو أقلَّ منهنَّ حتى تضعَ حملها. فأما الحاملُ المُتَوَفَّى عنها زوجُها، فقال عليٌّ وابن عمر وابن مسعود وشُرَيح والنَّخَعيُّ والشَّعبيُّ وحمَّاد وابن أبي ليلى وسفيان والضَّحاك: يُنفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعيُّ وأبو حنيفة وأصحابه[٦]: لا ينفق عليها إلَّا من نصيبها. وقد مضى في «البقرة» بيانُه[٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ **فيه أربعُ مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ ـ يعني المطلَّقات ـ أولادَكم منهنَّ، فعلى

---

(١) أخرج هذا القول الطبري ٢٣/ ٥٩ - ٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

(٢) الصحاح (وجد) وما بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٧١ .

(٤) قراءة يعقوب من العشرة، وهي من رواية روح. النشر ٢/ ٣٨٨ ، وقراءة الأعرج في القراءات الشاذة ص١٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٦١ .

(٦) في النسخ عدا (د) و(ف): وأصحابهم. وينظر زاد المسير ٨/ ٢٩٧ .

(٧) ٥/ ١٤١ .

الآباء أنْ يعطوهنَّ أُجرةَ إرضاعهنّ. وللرجل أن يستأجرَ امرأتَه للرَّضاع كما يستأجر أجنبيَّة.

ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابِه الاستئجارُ إذا كان الولدُ منهنَّ ما لم يُبِنْ. ويجوز عند الشافعيّ[1]. وتقدَّم القولُ في الرَّضاع في «البقرة» و«النساء» مستوفًى ولله الحمد[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هو خطابٌ للأزواج والزوجات؛ أي: ولْيَقْبَل بعضُكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميلُ منها إرضاعُ الولد من غير أجرة. والجميل منه توفيرُ الأجرة عليها للإرضاع. وقيل: ائتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحقَ الولدَ إضرار. وقيل: هو الكِسوة والدِّثار. وقيل: معناه: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: في أجرة الرَّضاع: فأبى الزوجُ أن يعطيَ الأمَّ رَضاعها، وأبت الأمُّ أنْ ترضعه، فليس له إكراهُها؛ ولْيستأجرْ مرضعةً غيرَ أمِّه.

وقيل: معناه: وإن تضايقتم وتشاكستم[3]؛ فليَسترضع لولده غيرَها؛ وهو خبر في معنى الأمر.

وقال الضحَّاك: إنْ أبت الأمُّ أن ترضعَ؛ استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل، أُجبرت أمُّه على الرَّضاع بالأجر[4].

وقد اختلف العلماء فيمن يجب عليه رَضاعُ الولد على ثلاثة أقوال: قال علماؤنا: رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية؛ إلَّا لشرفها وموضعها[5]، فعلى

(١) الكشاف ٤/ ١٢٢.

(٢) ٤/ ١٠٦ فما بعد، ٦/ ١٧٩ فما بعد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥، وينظر تفسير غريب القرآن ص٤٧١.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٦٥ بنحوه.

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٨ (والكلام منه): أو مرضها.

الأب رضاعُه يومئذ في ماله. الثاني: قال أبو حنيفة[١]: لا يجب على الأمّ بحال. الثالث[٢]: يجب عليها في كل حال.

الرابعة: فإنْ طلَّقها، فلا يَلزمُها رضاعُه إلّا أن يكونَ غيرَ قابلٍ ثَدْيَ غيرِها، فيلزمها حينئذ الإرضاع[٣]. فإن اختلفا في الأجر، فإن دعت إلى أجر مثلها وامتنع الأب إلّا تبرُّعًا، فالأمُّ أوْلى بأجر المثل إذا لم يجد الأبُ متبرعاً. وإن دعا الأبُ إلى أجر المثل وامتنعت الأمُّ لِتطلُبَ شططاً، فالأبُ أوْلَى به. فإن أعسرَ الأبُ بأجرتها، أُخذت جبراً برَضَاع ولدها[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ﴾ أي: لِيُنفق الزوجُ على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وُسعِه حتى يوسِّعَ عليهما إذا كان مُوَسَّعًا عليه. ومَن كان فقيراً فعلى قَدْر ذلك. فتُقدَّر النفقةُ بحسب الحالة من المنِفق والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مَجرى العادة[٥]؛ فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنْفَق عليه، ثم ينظر إلى حالة المنفِق، فإن احتملت الحالةُ [الحاجةَ] أمضاها عليه، فإن قصَّرت حالتُه عن[٦] حاجة المنفَق عليه، ردَّها إلى قدر احتماله.

---

(١) في المطبوع من أحكام القرآن زيادة: والشافعي.

(٢) بعدها في أحكام القرآن: قال أبو ثور.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥ .

(٥) قبلها في (م): حياة.

(٦) في (م): اقتصرت حالته على ..، والعبارة ساقطة من النسخ الخطية، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٩ ، والكلام وما بين حاصرتين منه.

وقال الإمام الشافعيُّ ﷺ وأصحابُه: النفقة مقدَّرةٌ محدَّدة، ولا اجتهاد لحاكم ولا لِمُفتٍ فيها. وتقديرها هو بحال الزوجِ وَحْدَه من يُسْره وعُسْره، ولا يُعتبر بحالها وكفايتها؛ قالوا: فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس. فإن كان الزوج مُوسِراً لَزِمه مُدَّان، وإن كان متوسِّطًا فَمُدٌّ ونصف، وإن كان مُعسِراً فَمُدّ. واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الآية. فجعلَ الاعتبارَ بالزوج في اليُسْر والعُسْر دونَها؛ ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره؛ فيؤدِّي إلى الخصومة؛ لأن الزوج يدَّعي أنها تلتمس فوق كفايتها، وهي تزعمُ أنَّ الذي تطلب تطلبه قدرَ كفايتها؛ فجعلناها مقدَّرةً قطعاً للخصومة. والأصل في هذا عندهم قولُه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ فجعل الاعتبار بالزوج[1] كما ذكرنا، وقولُه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

والجواب أنَّ هذه الآية لا تعطي أكثرَ مِن فرقٍ بين نفقة الغنيِّ والفقير، وإنها تختلف بعُسْر الزوج ويُسْره. وهذا مُسَلَّم. فأمَّا إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه، فليس فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وذلك يقتضي تعلُّقَ المعروفِ في حقِّهما؛ لأنه لم يخصَّ في ذلك واحداً منهما. وليس من المعروف أن يكونَ كفايةُ الغنيَّةِ مثلَ نفقة الفقيرة؛ وقد قال رسول الله ﷺ لهِند: «خُذِي ما يكْفيكِ وولدَكِ بالمعروف». فأحالها على الكفاية حين عَلِمَ السَّعَةَ من حال أبي سفيان الواجبِ عليه بطلبها[2]، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتك وأنَّ الواجب لكِ شيءٌ مقدَّر، بل ردَّها إلى ما يعلمه مِن قَدْر كفايتِها ولم يعلِّقه بمقدار معلوم. ثم ما ذكروه من التحديد يحتاج إلى توقيف؛ والآيةُ لا تقتضيه.

---

(١) قوله: فجعل الاعتبار بالزوج، من (ظ).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٠ ، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٢٣١)، والبخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤). من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ٣/ ٢٤٩ .

الثانية: روي أنَّ عمر ﷺ فرض للمنفوس[١] مئةَ درهم، وفرض له عثمانُ خمسين درهمًا[٢].

ابن العربيّ[٣]: واحتَمل أن يكونَ هذا الاختلافُ بحسب اختلاف السنين، أو بحسب حال القدر في التسعير لثمن القوت والملبس، وقد روى محمد بنُ هلال المَدِينيُّ[٤] قال: حدَّثني أبي، عن جدَّتي[٥]: أنها كانت تَرِد على عثمان، ففقدها، فقال لأهله: مالي لا أرى فلانة؟ فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين، وَلدت الليلة؛ فبعث إليها بخمسين درهمًا وشُقَيْقَةٍ سُنْبُلانِية[٦]. ثم قال: هذا عطاءُ ابنِك وهذه كِسوته، فإذا مَرَّت له سَنَةٌ رفعناه إلى مئة[٧]. وقد أُتيَ عليٌّ ﷺ بمنبوذ ففرض له مئة[٨].

قال ابن العربيّ[٩]: هذا الفرضُ قبل الفِطام مما اختلف فيه العلماء؛ فمنهم مَن رآه مستحبًّا لأنه داخلٌ في حكم الآية، ومنهم مَن رآه واجباً لِما تجدَّد من حاجته وعَرض من مؤنته؛ وبه أقول. ولكن يختلف قَدْرُه بحاله عند الولادة وبحاله عند الفطام. وقد روى سفيان بنُ وهب أنّ عمر أخذ المُدْيَ[١٠] بيدٍ والقِسْطَ[١١] بيد،

(١) أي: المولود. والأثر ذكره ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٩٨ دون سند.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٠، وما قبله منه.

(٤) هو من رجال التهذيب، ووقع في النسخ والمطبوع من أحكام القرآن: المزني، وهو خطأ.

(٥) في النسخ والمطبوع من أحكام القرآن: وجدتي. والتصويب من المصادر الآتية.

(٦) الشقيقة: تصغير شُقَّة، وهي جنس من الثياب. وقوله سنبلانية، أي: سابغة الطول. النهاية (شقق) (سنبل).

(٧) أخرجه أبو عبيد في الأموال (٥٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه ٣٩/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٨) أخرجه أبو عبيد في الأموال (٥٨٧). والمنبوذ: اللقيط.

(٩) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣١، وما قبله منه.

(١٠) في (ز) و(م) وأحكام القرآن: المد. والمدي: مكيال لأهل الشام. النهاية (مدي).

(١١) هو نصف صاع النهاية (قسط).

فقال: إني فرضتُ لكل نفسٍ مسلمةٍ في كل شهرٍ مُدْيَي[١] حِنْطةٍ وقِسْطَيْ خَلٍّ وقِسْطَيْ زيت. زاد غيره: وقال: إنَّا قد أجرينا لكم أُعطياتِكم وأرزاقَكم في كل شهر، فمَن انتقصها فَعَلَ اللهُ به كذا وكذا. فدعا عليه. قال أبو الدَّرْدَاء: كم سُنَّةٍ راشدةٍ مَهْديَّةٍ قد سَنَّها عمرُ ﷺ في أمة محمدٍ ﷺ[٢]!

والمُدْيُ[٣] والقِسْط كيلان شاميَّان في الطعام والإدام؛ وقد دُرِسَا بعرف آخر.

فأمَّا المُدْيُ[٤] فَدُرِس إلى الكَيْلَجَة، وأما القِسْط فدُرِس إلى الكيل، ولكن التقدير فيه عندنا رُبعان في الطعام وثُمنان في الإدام. وأما الكِسوة فبقدر العادة: قميصٌ وسراويل وجُبَّة في الشتاء، وكساءٌ وإزار وحصير. وهذا الأصل، ويتزيد بحسب الأحوال والعادة.

الثالثة: هذه الآية أصلٌ في وجوب النفقةِ للولد على الوالد دونَ الأم؛ خلافاً لمحمد بن الموَّاز إذ يقول: إنها على الأبوين على قدر الميراث.

ابن العربيّ[٥]: ولعلَّ محمداً أراد أنها على الأم عند عدم الأب. وفي البخاريِّ عن النبيِّ ﷺ: «تقول لك المرأة: أنفق عليَّ وإلَّا طلِّقني، ويقول لك العبد: أنفق عليَّ واستعملني، ويقول لك ابنك: أنفق عليّ، إلى مَن تَكِلُني؟»[٦] فقد تعاضد القرآنُ والسُّنَّةُ وتواردا في شِرْعة واحدة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: لا يكلِّف الفقيرَ مثلَ

---

(١) في النسخ وأحكام القرآن: مدي. والمثبت من الفائق والنهاية (مدي)، والخبر فيهما بنحوه.

(٢) أخرج هذه الآثار أبو عبيد في الأموال (٦١٣)، (٦١٤)، (٦١٥).

(٣) في النسخ: والمدُّ، والمثبت موافق لما سلف وما سيرد.

(٤) في (ظ) وأحكام القرآن: المد.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣١، وما قبله منه.

(٦) صحيح البخاري (٥٣٥٥). وهو من كلام أبي هريرة ﷺ (كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٥٠١)، قاله عقب روايته للحديث، وهو: «أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

ما يكلِّف الغنيّ. ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: بعد الضيق غِنًى، وبعد الشِّدَّةِ سَعَة.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ لمَّا ذكرَ الأحكامَ؛ ذَكَرَ وحذَّر مخالفةَ الأمر، وذكر عُتُوَّ قومٍ وحلولَ العذاب بهم. وقد مضى القولُ في «كأيِّن» في «آل عمران» والحمدُ لله[(١)].

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: عصت؛ يعني القرية والمرادُ أهلُها. ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: جازيناها بالعذاب في الدنيا ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في الآخرة. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير؛ فعذَّبناها عذابًا نُكْراً في الدنيا، بالجوع والقَحْط والسيف والخَسْف والمَسْخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا[(٢)]. والنُّكْر: المنكَر. وقُرئ مُخَفَّفًا ومُثَقَّلا، وقد مضى في سورة الكهف[(٣)].

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عاقبة كُفرِها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: هلاكًا في الدنيا بما ذكرنا؛ والآخرةِ بجهنم. وجيء بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ونحوِ ذلك؛ لأن المنتَظرَ مِن وعد الله ووعيدِه مَلقيّ في

---

(١) ٥/ ٣٤٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦١.

(٣) في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الآية: ٧٤]. ولم يتعرض المصنف هناك لذكر القراءات فيها. وقد قرأ بالتثقيل «نُكُراً» نافع وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان عن ابن عامر. والباقون من السبعة بالتخفيف «نُكْراً»؛ في «الكهف» و«الطلاق». السبعة ص٣٩٥، والتيسير ص١٤٤.

الحقيقة؛ وما هو كائنٌ فكأن قَد[١]. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بيَّنَ ذلك الخُسْرَ وأنه عذابُ جهنم في الآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدلٌ من «أُولِي الأَلْبَابِ» أو نعتٌ لهم؛ أي: يا أُولي الألباب الذين آمنتم بالله؛ اِتَّقوا اللهَ؛ الذي أَنزل عليكم القرآن، أي: خافوه واعملوا بطاعته وانتهوا عن معاصيه. وقد تقدَّم.

﴿رَّسُولًا﴾ قال الزَّجّاج[٢]: إنزالُ الذِّكْر دليلٌ على إضمار: أرسل؛ أي: أَنزل إليكم قرآنًا وأرسل رسولاً. وقيل: إنَّ المعنى: قد أنزل اللهُ إليكم صاحبَ ذِكرٍ رسولًا؛ فـ«رسولًا» نعتٌ للذِّكر على تقدير حذفِ المضاف. وقيل: إنَّ «رسولًا» معمولٌ للذِّكر؛ لأنه مصدر؛ والتقدير: قد أنزل اللهُ إليكم أنْ ذَكَرَ رسولًا. ويكونُ ذِكْرُه الرسولَ قولَه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. ويجوز أن يكونَ «رَسُولًا» بدلاً مِن: ذِكْر، على أن يكونَ «رَسُولًا» بمعنى رسالة، أو على أن يكونَ على بابه ويكونَ محمولًا على المعنى، كأنه قال: قد أظهر الله لكم ذِكْرًا رسولًا، فيكون من باب بدلِ الشيء من الشيء وهو هو. ويجوز أن ينتصبَ «رَسُولًا» على الإغراء، كأنه قال: اتَّبعوا رسولًا. وقيل: الذِّكر هنا الشرف، نحو قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ثم بيَّن هذا الشرفَ فقال: «رَسُولًا». والأكثرُ على أنَّ المراد بالرسول هنا محمدٌ ﷺ. وقال الكلبيّ: هو جبريل، فيكونان جميعاً منزَلَين[٣].

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ لرسول. و«آياتِ اللهِ»: القرآن. ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾ قراءةُ العامَّة بفتح الياء، أي: بيَّنها الله. وقرأ ابن عامر وحفصٌ وحمزة والكسائيُّ بكسرها[٤]، أي: يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام. والأَوْلى قراءة ابنِ عباس

---

(١) الكشاف ٤/ ١٢٣.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ١٨٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٦.

(٤) التيسير ص١٦٢.

واختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم، لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: مَن سبق له ذلك في علم الله ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: من الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: الهدى والإيمان. قال ابن عباس: نزلت في مؤمني أهل الكتاب[1]. وأضاف الإخراجَ إلى الرسول؛ لأنَّ الإيمان يَحصُل منه بطاعته.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. قرأ نافعٌ وابن عامر بالنون، والباقون بالياء[2]. ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي: وسَّع اللهُ له في الجنات.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ دلَّ على كمال قدرتِهِ وأنه يقدر على البعث والمحاسبة. ولا خلاف في السماوات أنها سبعٌ بعضُها فوق بعض؛ دلَّ على ذلك حديثُ الإسراء وغيره[3].

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني سبعاً. واختُلف فيهنَّ على قولين:

أحدهما ـ وهو قول الجمهور ـ أنها سبعُ أَرَضين طِباقًا بعضُها فوق بعض[4] بين كلِّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ كما بين السماء والسماء، وفي كل أرضٍ سكانٌ مِن خلق الله سبحانه وتعالى.

وقال الضحَّاك: «وَمِنَ الْأَرْض مِثْلَهُنّ» أي: سبعاً من الأَرَضين، ولكنها مُطبقةٌ بعضُها على بعض من غير فُتُوق، بخلاف السماوات.

---

(١) نسب هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٦ للفراء.

(٢) السبعة ص٦٣٩، والتيسير ص٢١١.

(٣) سلف حديث الإسراء ١٣/ ٧، وينظر النكت والعيون ٦/ ٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٦.

والأوَّل أصحّ؛ لأنَّ الأخبار دالَّةٌ عليه في الترمذيِّ والنَّسائيِّ وغيرهما[١]. وقد مضى ذلك مبيَّنًا في «البقرة»[٢].

وقد خرَّج أبو نعيم قال: حدَّثنا محمد بنُ عليِّ بنِ حُبيش قال: حدَّثنا إسماعيل بنُ إسحاق السرَّاج (ح) وحدَّثنا أبو محمد بنُ حَيَّان[٣] قال: حدَّثنا عبد الله بنُ محمد بنِ ناجية قال: حدَّثنا سُويد بن سعيد قال: حدَّثنا حفص بنُ ميسرة، عن موسى بنِ عقبة، عن عطاء بن أبي مروان، عن أبيه: أنَّ كعباً حلف له بالذي فَلَق البحرَ لموسى أنَّ صُهَيْبًا حدَّثه، أنَّ محمداً ﷺ لم يَرَ قريةً يريد دخولَها إلَّا قال حين يراها: «اللَّهُمّ رَبَّ السماواتِ السبعِ وما أظْلَلْنَ، ورَبّ الأرَضِينَ السبعِ وما أقْلَلْنَ، ورَبَّ الشياطينِ وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرياحِ وما أذْرَيْنَ، إنَّا نسألك خيرَ هذه القريةِ وخيرَ أهلها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها، وشرِّ مَن فيها». قال أبو نعيم: هذا حديثٌ ثابتٌ مِن حديث موسى بنِ عقبة، تفرَّد به عن عطاء، رواه[٤] عنه ابنُ أبي الزناد وغيرُه[٥].

وفي صحيح مسلمٍ عن سعيد بنِ زيد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن أخذ شِبراً من الأرض ظلماً، فإنه يُطَوَّقُه يومَ القيامة مِن سبع أرَضِينَ» ومثلُه حديثُ عائشة، وأبينُ منهما حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حَقِّه، إلَّا طوَّقه الله إلى سبع أرَضينَ يوم القيامة»[٦].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٨)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٦٠٢) و(١٠٩١٣).

(٢) ١/ ٣٨٧ - ٣٨٩ ، وفيه حديث الترمذي والنسائي.

(٣) في (د) و (م): حبان، وهو خطأ. وأبو محمد هذا هو المعروف بأبي الشيخ.

(٤) يعني عن موسى، وفي النسخ: روى، والمثبت من المصادر.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ٤٦ ، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٣٠٢) من طريق حفص بن ميسرة، به. وقد خالف ابن أبي الزناد حفصاً في إسناده، فرواه فيما أخرجه النسائي (١٠٣٠٣) عن موسى بن عقبة، عن عطاء، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن مغيث، عن كعب، فأدخل عبد الرحمن بن مغيث بين أبي مروان وكعب.

(٦) صحيح مسلم (١٦١٠)، (١٦١١)، (١٦١٢). وسلفت هذه الأحاديث ١/ ٣٨٧ .

قال الماورديّ: وعلى أنها سبعُ أرضينَ بعضُها فوق بعض؛ تختصُّ دعوةُ أهل الإسلامِ بأهل الأرض العليا، ولا تلزم مَن في غيرها من الأرضين، وإن كان فيها مَن يعقِل من خلق مميَّز. وفي مشاهدتهم السماءَ واستمدادِهم الضوءَ منها قولان: أحدهما: أنهم يشاهدون السماء من كل جانبٍ من أرضهم ويستمدُّون الضياءَ منها. وهذا قولُ مَن جعل الأرضَ مبسوطة. والقول الثاني: أنهم لا يشاهدون السماء، وأنَّ الله تعالى خلق لهم ضياءً يستمدُّونه. وهذا قولُ مَن جعل الأرضَ كالكُرَة.

وفي الآية قولٌ ثالثٌ حكاه الكَلْبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس: أنها سبعُ أرضين منبسطة؛ ليس بعضُها فوق بعض، تفرِّق بينها البحار، وتُظِلُّ جميعَهم السماءُ. فعلى هذا إنْ لم يكن لأحد من أهل الأرض وصولٌ إلى أرض أخرى، اختصَّت دعوةُ الإسلام بأهل هذه الأرض، وإن كان لقوم منهم وصولٌ إلى أرض أخرى، احتمل أنْ تَلزمَهم دعوةُ الإسلام عند إمكان الوصولِ إليهم؛ لأنَّ فصل البحار إذا أمكن سلوكُها لا يمنع من لزوم ما عمَّ حكمُه، واحتمل ألَّا تلزَمَهم دعوةُ الإسلام؛ لأنها لو لزمتهم لَكان النصُّ بها واردًا، ولَكان النبيُّ ﷺ بها مأمورًا. والله أعلم [بصحة] ما استأثر بعلمه، وصوابِ ما اشتَبَهَ على خلقه(١).

ثم قال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قال مجاهد: يتنزَّل الأمرُ من السماوات السبع إلى الأرضين السبع(٢). وقال الحسن: بين كل سماءَين أرضٌ وأمر. والأمر هنا الوحي؛ في قول مقاتلٍ وغيره. وعليه فيكون قولُه: «بَيْنَهن» إشارةً إلى ما بين هذه الأرضِ العليا التي هي أدناها، وبين السماءِ السابعة التي هي أعلاها. وقيل: الأمر: القضاء والقدر. وهو قول الأكثرين. فعلى هذا يكون المرادُ بقوله تعالى: «بَيْنَهُنَّ» إشارةً إلى ما بين الأرضِ السُّفْلَى التي هي أقصاها، وبين السماء السابعةِ التي هي أعلاها(٣). وقيل:

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦ - ٣٧ . وما بين حاصرتين منه.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٢ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧ .

«يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» بحياة بعضٍ وموتِ بعض[١]، وغِنَى قوم وفقْرِ قوم. وقيل: هو ما يُدَبِّر فيهنَّ من عجيب تدبيره؛ فيُنزل المطرَ، ويُخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيفِ والشتاء، ويخلق الحيواناتِ على اختلاف أنواعها وهيئاتها؛ فَينقُلُهم من حال إلى حال[٢]. قال ابن كَيْسان: وهذا على مجال اللغةِ واتِّساعها؛ كما يقال للموت: أمْرُ الله؛ وللريح والسحابِ ونحوها.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا الملكِ العظيم، فهو على ما بينهما مِن خلقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن، وإن استوى كلٌّ ذلك في مقدوره ومُكْنَته[٣]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَۢا﴾ فلا يَخرُجُ شيءٌ عن علمه وقدرته. ونصب «عِلْمًا» على المصدر المؤكِّد؛ لأنَّ «أَحَاطَ» بمعنى: علم. وقيل: بمعنى: وأنَّ الله أحاط إحاطةً عِلْمًا.

واللهُ سبحانه وتعالى الموفِّقُ بِمَنِّه وكرمِه لصَوْبِ الصواب.

خُتمت السورةُ بحمد الله وعونه

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٠ عن مجاهد.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنيَّةٌ، وآيُها اثنتا عشرةَ، أو إحدى عشرةَ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصَّ النِّداءَ وعمَّ الخطابَ[2] بالحكمِ لأنَّهُ إمامُ أُمَّتِهِ، فنداؤُهُ كندائِهم، أو لأنَّ الكلامَ معهُ والحكمُ يعمُّهم، والمعنى: إذا أردتُم تطليقَهُنَّ على تنزيلِ المُشارِفِ لهُ منزلةَ الشَّارعِ فيهِ[3].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: وَقْتِها، وهو الطُّهرُ، فإنَّ اللَّامَ في الأزمانِ وما يُشبِهُها للتَّأقيتِ، ومَن عدَّ العِدَّةَ بالحيضِ علَّقَ اللَّامَ بمحذوفٍ مثل: مستقبِلاتٍ[4].

---

(١) «أو إحدى عشرةَ» من نسخة الطبلاوي. وقال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص٢٤٩): وهي إحدى عشرة آية في البصري، واثنتا عشرة في عدد الباقين.

(٢) أي: نادى النَّبيَّ ﷺ وحده، ثم جاء الخطاب للجماعة.

(٣) المشارِف: الذي يريد القيام بالفعل ولم يبدأ فيه، والشارع: مَن بدأ بالفعل.

(٤) قدَّره الزمخشري كذلك، وقال أبو حيان: وتقديرُ الزَّمخشريِّ هُنا حالٌ محذوفَةً يدلُّ عليها المعنى متعلِّقًا بها المجرورُ؛ أي: مُستقبلاتٍ لِعدَّتِهنَّ= ليسَ بجيِّدٍ؛ لأنَّه قدرَ عامِلًا خاصًّا ولا يحذفُ العامِلُ في الظَّرفِ، والجارِّ المجرورِ إذا كانَ خاصًّا، بل إذا كانَ كونًا مطلقًا. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٣٦٤).

وظاهـرُهُ يـدلُّ علـى أنَّ العِـدَّةَ بالأطهـارِ، وأنَّ طـلاقَ المعتـدَّةِ بالأَقْـرَاءِ ينبغي أن يكـونَ فـي الطُّهـرِ، وأنَّهُ يحرمُ فـي الحيضِ مـن حيثُ إنَّ الأمرَ بالشَّـيءِ يسـتلزمُ النَّهـيَ عـن ضـدِّهِ، ولا يدلُّ على عـدمِ وقوعِهِ؛ إذ النَّهيُ لا يسـتلزمُ الفسـادَ[١]، كيفَ وقـد صـحَّ أنَّ ابنَ عمـرَ لمَّا طلَّقَ امرأَتَـهُ حائضًا أمرَهُ عليه السَّـلامُ بالرَّجعـةِ[٢]، وهو سـببُ نزولِهِ.

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبِطُوها وأكمِلوها ثلاثةَ أقراءٍ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويلِ العِدَّةِ والإضرارِ بهنَّ.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مـن مسـاكنِهنَّ وقـتَ الـفِراقِ حتَّـى تنقضـيَ عِدَّتُهـنَّ، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باسـتبدادِهنَّ، أمَّا لـو اتَّفقا على الانتقالِ جـازَ[٣]؛ إذ الحقُّ لا يعدوهمـا، وفـي الجمـعِ بيـنَ النَّهييـنِ دلالـةٌ علـى اسـتحقاقِها السُّـكنى ولزومِها ملازمـةُ[٤] مسـكَنِ الفِراقِ.

وقولُـه: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ مسـتثنًى مـن الأوَّلِ، والمعنـى: إلَّا أن تبذوَ على الزَّوجِ[٥]، فإنَّهُ كالنُّشـوزِ في إسـقاطِ حقِّهـا، أو: إلَّا أن تزنيَ فتخرُجَ لإقامةِ

---

(١) هذه قاعدة أصولية حولها بحث ونقاش، وفيها كتاب لصلاح الدين العلائي بعنوان: تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد. وانظر: «نفائس الأصول في شرح المحصول» للقرافي (٤/ ١٧٠١)، و«قواعد الأصول ومعاقد الفصول» للقطيعي (ص١٢٥)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٦٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

(٣) قيل: إنه مذهب الشافعيّ، والحنفية لا يُجوِّزونه. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١٢٨).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «لزومِها» بالجر عطف على «استحقاقِها»، وهو مصدر مضاف لمفعوله، و«ملازمةُ» بالرفع فاعله. قلت: المراد: فيه دليل على أن المطلقة تستحق السكنى، ويلزمها أن لا تفارق المنزل الذي حصلت فيه الفرقة.

(٥) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «مستثنى من الأول»؛ أي من قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾،

الحدِّ عليها، أو مِنَ الثَّاني[1] للمبالغةِ في النَّهيِ والدَّلالةِ على أنَّ خروجَها فاحشةٌ.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الأحكامِ المذكورةِ.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بأن عرَّضَها للعقابِ.

﴿لَا تَدْرِى﴾ أي: النَّفسُ، أو أنت أيُّها النَّبيُّ، أو المطلِّقُ.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرَّغبةُ في المطلَّقةِ برجعةٍ أو استئنافٍ.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفنَ آخرَ عِدَّتِهنَّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحُسنِ عِشرةٍ وإنفاقٍ مناسِبٍ.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاءِ الحقِّ واتِّقاءِ الضِّرارِ مثلَ أن يراجِعَها ثمَّ يطلِّقَها تطويلًا لعِدَّتِها.

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرَّجعةِ أو الفُرقةِ تبريًّا عن الرِّيبةِ وقطعًا للتَّنازُعِ، وهو ندبٌ كقولهِ: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعن الشَّافعيِّ وجوبهُ في الرَّجعةِ[2].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أيُّها الشُّهودُ عندَ الحاجةِ خالصًا لوجهِهِ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يريدُ الحثَّ على الإشهادِ والإقامةِ أو على جميعِ ما في الآيةِ.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإنَّهُ المنتفعُ به والمقصودُ تذكيرُهُ، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدةٌ لِمَا

و«البذاء» بالذال المعجمة والموحدة: هو الكلام القبيح كالشَّمِّ، فإذا أطالت لسانها على الزوج أو إحمائه كانت كالناشزة، فيسقط حقها في السكنى.

(١) وهو ﴿لا يخرجن﴾.

(٢) انظر: «المجموع شرح المهذب» للنووي (١٧/ ٢٧٠).

سبقَ بالوعدِ على الاتِّقاءِ عمَّا نهى عنهُ صريحًا أو ضِمْنًا مِن الطَّلاقِ في الحيضِ والإضرارِ بالمعتدَّةِ وإخراجِها من المسكنِ وتعدِّي حدودِ اللهِ وكتمانِ الشَّهادةِ وتوقُّعِ جُعْلٍ على إقامَتِها= بأن يجعلَ اللهُ لهُ مخرجًا ممَّا في شأنِ الأزواجِ من المضايقِ والغمومِ، ويرزقَهُ فرجًا وخَلَفًا من وجهٍ لم يخطر ببالِهِ، أو بالوعدِ لعامَّةِ المتَّقينَ بالخلاصِ عن مضارِّ الدَّارَينِ والفوزِ بخيرِهما من حيثُ لا يحتسبونَ، أو كلامٌ جيءَ بهِ للاستطرادِ عندَ ذكرِ المؤمنينَ.

وعنهُ عليهِ السَّلامُ: «إنِّي لأعلمُ آيةً لو أخذَ النَّاسُ بها لكفتهُم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾» فما زالَ يقرؤُها ويعيدُها(١).

ورُوِيَ: أنَّ سالمَ بنَ عوفِ بنِ مالكٍ الأشجعيَّ أسرهُ العدوُّ فشكا أبوهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «اتَّقِ اللهَ وأكثر قولَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ»، ففعلَ، فبينا هو في بيتهِ إذ قرعَ ابنُهُ البابَ ومعهُ مئةٌ من الإبلِ غَفَّلَ عنها العدوَّ فاستاقَها، وفي روايةٍ: رجعَ ومعهُ غُنيماتٌ ومتاعٌ فاستاقَها فنزلَت(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٥٥١)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٣٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨١٩)، وصححه، من طريق أبي السليل عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ. وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٤١): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع؛ أبو السليل ـ وهو ضُريب بن نُقَير ـ لم يدرك أبا ذرٍّ رضي الله عنه.

(٢) قوله: «فاستاقها فنزلت» من نسخة الفاروقي، والحديث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٥٥٦)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

وروى نحو هذه القصة الحاكم في «المستدرك» (١٩٩٣) من طريق أبي عبيدة عن أبيه ابن مسعود =

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه.

﴿إِنَّ اللهَ بالِغٌ أمرَهُ﴾ يبلغُ ما يريدهُ ولا يفوتهُ مرادٌ.

وقرأ حفصُ بالإضافةِ[1]، وقُرِئَ: «بالغٌ أمرُه»[2] أي: نـافذٌ، و«بالغًا»[3] على أنَّهُ حالٌ، والخبرُ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرًا أو مقدارًا أو أجلًا لا يتأتَّى تغييرُهُ، وهو بيانٌ لوجوبِ التَّوكُّلِ، وتقريرٌ لِمَا تقدَّمَ من تأقيتِ الطَّلاقِ بزمانِ العِدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتمهيدٌ لما سيأتي من مقادِيرها.

(٤) ـ ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لكبَرِهنَّ ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتُم في عِدَّتِهنَّ؛ أي: جَهِلتُم[4] ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾.

رُوِيَ أنَّـهُ لمـا نـزلَ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقـرة: ٢٢٨]

= رضي الله عنه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: أبو عبيدة ثقة لكن قال الحافظ في «التقريب»: الراجح أنه لا يصح سماعه من أبيه.

وروى نحوها الحاكم أيضاً (٣٨٢٠) من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٧٤): فيه عبيد بن كثير تركه الأزدي.

قلت: ورويت في القصة مرسلات عن السدي وسالم بن أبي الجعد عند الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٣ ـ ٤٥)، وعن محمد بن إسحاق عند ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند هذه الآية.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٩)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢٤)، عن داود بن أبي هند وابن أبي عبلة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٦٠)، و«البحر» (٢٠/ ٣٧٠) عن المفضل.

(٤) هذا مأخوذ من كلام «الكشاف» (٩/ ١٦٠) وعبارته أنسب، فإنه قال: إنْ أشكَلَ عليكم حُكمُهنَّ وجَهِلتم كيف يعتَدِدْنَ.

قيلَ: فما عِدَّةُ اللائي لا يحضنَ؟ فنزلَت[١]: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾؛ أي: واللَّائي لم يحضنَ بعدُ كذلكَ.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ مُنْتَهى عِدَّتِهنَّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكمٌ يعمُّ المطلَّقاتِ والمتوفَّى عنهنَّ أزواجُهنَّ، والمحافظةُ على عمومِهِ أولى من محافظةِ عمومِ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤][٢]؛ لأنَّ عمومَ ﴿أولاتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ بالذَّاتِ وعمومُ ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بالعرَضِ، والحكمُ معلَّلٌ هاهنا بخلافِ ثَمَّ، ولأنَّه صحَّ أنَّ سُبيعةَ بنتَ الحارثِ وضعَتْ بعدَ وفاةِ زوجِها بليالٍ فذكرَتْ ذلكَ لرسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ فقال: «قد حللتِ فتزوَّجِي»[٣]، ولأنَّهُ متأخِّرُ النُّزولِ، فتقديمُهُ في العملِ تخصيصٌ، وتقديمُ الآخرِ بناءٌ للعامِّ على الخاصِّ، والأوَّلُ راجحٌ للوفاقِ عليهِ[٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِهِ فيراعي حقوقَها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يُسَهِّلْ عليهِ أمرَهُ ويوفِّقْهُ للخيرِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧١٠٤)، وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٣٧٥٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٢١) وصححه، من طريق عمرو بن سالم عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وعمرو لم يدرك أبيًّا كما قال أبو حاتم عندما سُئل عن هذا الحديث. انظر: «العلل» لابنه (١/ ٤٣٨).

(٢) هذا للردِّ على من يقول: تعتدُّ آخرَ الأجلين، وهو قول رُوي عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «الأم» للشافعي (٧/ ٢٧٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٠٩) و(٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٥)، والنسائي (٣٥٠٩) من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.

ورواه بنحوه البخاري (٥٣١٩)، ومسلم (١٤٨٤)، من حديث سبيعة رضي الله عنها.

(٤) الأول هو العمل بالمتأخِّر على وجه التخصيص عند الشافعي، والنسخ عند الحنفية، أمَّا بناء العام على الخاصِّ فهو مذهب الشافعي وحده. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١٣٨).

(٥) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَ من الأحكامِ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِهِ فيراعي حقوقها ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنَّ الحسناتِ يذهبنَ السَّيِّئاتِ، ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفةِ.

(٦) ـ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: مكانًا مِن مكانِ[1] سُكناكُم.

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ من وُسعِكُم؛ أي: مما تُطِيقُونَهُ، وهو عطفُ بيانٍ لقولِهِ: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾[2].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السُّكنَى ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ فتُلجئوهنَّ إلى الخروجِ.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجنَ من العِدَّةِ، وهذا يدلُّ على اختصاصِ استحقاقِ النَّفقةِ بالحامِلِ من المعتدَّاتِ[3]، والأحاديثُ تؤيِّدُهُ[4].

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعدَ انقطاعِ عُلْقةِ[5] النِّكاحِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاعِ.

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ وليأمر بعضُكم بعضًا بجميلٍ في الإرضاعِ والأجرِ.

---

(١) «مكان»: ليس في نسخة الفاروقي والخيالي.

(٢) أنكر أبو حيان عطف البيان مع إعادة العامل، وذهب إلى أنه بدل. انظر: «البحر المحيط» (٢٠/ ٣٧٤).

(٣) هو مذهب مالك والشافعي، يريان استحقاق المطلقة غير الحامل السُّكنى دون النفقة، وذهب الأحناف إلى استحقاقها النفقة والسكنى، وأحمد إلى عدم استحقاقها شيئًا. انظر: «الإشراف على مذاهب العلماء» لابن المنذر (٥/ ٣٤٥).

(٤) روى مسلم (١٤٨٠/ ٤٤) عن فاطمة بنت قيس، عن النَّبيِّ ﷺ في المطلقة ثلاثًا، قال: «ليس لها سكنى، ولا نفقة»، وقد أنكر عليها حديثها عمر وعائشة رضي الله عنهما كما في مسلم (١٤٨٠/ ٤٦) و(١٤٨١/ ٥٤). وانظر كلام الإمام الشافعي على هذا الحديث في «الأم» (٥/ ١١٧).

(٥) في نسخة الخيالي: «عقدة».

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تضايَقتُم ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ امـرأةٌ أخرى، وفيهِ معاتبةٌ للأمِّ على المعاسَرَةِ.

(٧) ـ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فلينفقْ كلٌّ من الموسرِ والمعسِرِ ما بلغَهُ وسعُهُ.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فإنَّهُ تعالى لا يكلِّفُ نفسًا إلا وُسعَها، وفيهِ تطييبٌ لقلبِ المُعسرِ، ولذلكَ وعدَ لهُ باليسرِ فقالَ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: عاجلًا أو آجلًا.

(٨) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهـلِ قـريةٍ ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضَتْ عنهُ إعراضَ العاتي المعانِدِ ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاءِ والمناقشةِ[1] ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكرًا، والمرادُ حسابُ الآخرةِ وعذابُها، والتَّعبيرُ بلفظِ الماضي للتَّحقيقِ.

(٩) ـ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبةَ كفرِها ومَعاصيها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ لا ربحَ فيهِ أصلًا.

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكريرٌ للوَعيدِ وبيانٌ لِمَا يوجبُ التَّقوى المأمورَ بهِ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ويجـوزُ أن يكـونَ المرادُ بالحسـابِ استقصاءَ ذنوبِهـم وإثباتَها فـي صحائفِ الحفَظـةِ وبالعـذابِ مـا أصيبُوا بـه عاجلًا[2].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ يعني بالذِّكرِ:

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «بالاستقصاء»؛ أي: طلب أقصاه وغايته، والمراد: التشديد والدقة فيه، وهو المراد بالمناقشة، وأصل المناقشة: إخراج شوكة بشوكة أخرى، ثم صار حقيقة فيما ذكرناه.

(٢) هذا وجه آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

ـ جبرئيلَ لكثرةِ ذكرِهِ، أو لنزولِهِ بالذِّكرِ وهوَ القرآنُ، أو لأنَّهُ مذكورٌ في السَّماواتِ، أو ذا ذِكرٍ؛ أي: شرفٍ.

ـ أو محمَّدًا[1] عليهِ السَّلامُ؛ لمواظبَتِهِ على تلاوةِ القرآنِ أو تبليغِهِ، وعبَّرَ عن إرسالِهِ بالإنزالِ ترشيحًا، أو لأنَّهُ مسبَّبٌ عن إنزالِ الوحيِ إليهِ، وأبدلَ عنهُ ﴿رَسُولًا﴾ للبيانِ[2].

ـ أو أرادَ بهِ[3] القرآنَ، و﴿رَسُولًا﴾ منصوبٌ بمقدَّرٍ مثلِ: أرسلَ، أو «ذكرًا»[4]، والرَّسولُ مفعولُهُ أو بدلُهُ على أنَّه بمعنى الرِّسالةِ[5].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حالٌ مِن اسمِ ﴿ٱللَّهِ﴾، أو صفةُ ﴿رَسُولًا﴾، والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ليُحَصِّلَ لهم ما هم عليهِ الآنَ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، أو ليُخرجَ مَن عَلِمَ أو قدَّرَ أنَّهُ يؤمنُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضَّلالةِ إلى الهُدى، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿نُدْخِلْه﴾ بالنُّونِ[6].

---

(١) معطوف على «جبريلَ».

(٢) أنكره أبو حيان؛ لتغاير المدلولين حقيقة. انظر: «البحر المحيط» (٢٠/ ٣٨٠).

(٣) أي: بالذِّكرِ.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «أو اذكر».

(٥) قوله: «أو ذكرًا» معطوف على قوله: «بمقدر»؛ أي: ﴿رسولا﴾ منصوب بالمصدر ﴿ذكرًا﴾ على وجهين: أن يعرب ﴿رسولا﴾ مفعولًا للمصدر، أو أن يُعرب ﴿رسولا﴾ الذي بمعنى الرسالة والمراد به القرآن بدل اشتمال من ﴿ذكرًا﴾. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ١٤٥).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٩)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيهِ تعجُّبٌ وتعظيمٌ لما رُزِقُوا منَ الثَّوابِ.

(١٢) ـ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ.

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلقَ مثلَهنَّ في العددِ منَ الأرضِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] على الابتداءِ، والخبرُ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُ اللهِ وقضاؤُهُ بينهنَّ، وينفُذُ حكمُهُ فيهنَّ.

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ عِلَّـةٌ لــ﴿خَلَقَ﴾ أو ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، أو مضمَرٌ يعمُّهمَا، فإنَّ كلًّا منهمُا يدلُّ على كمالِ قدرتِهِ وعلمِهِ.

عنِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «من قرأ سورةَ الطَّلاقِ ماتَ على سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ»[2].

***

(١) أي: «مثلُهنَّ»، وهي رواية عصمة عن أبي بكر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٥١٧ ـ ٥١٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣١٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) ﴾

خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ وعن أنس قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها، فإنها صوّامة قوامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة »[1]. وروى البخاري أن عبد الله بن عمر طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عزَّ وجلَّ »[2]. وفي رواية لهم: « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ». وقال عبد الله في قوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: الطهر من غير جماع، وقال ابن عباس: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، وقال عكرمة: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ العدة الطهر، والقرء الحيضة أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا؟ ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سُنّة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعي هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؛ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام مستقصى في كتب الفروع.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج، ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أي في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها متعلقة لحق الزوج أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، والفاحشة المبينة تشمل الزنا[1]، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال[2]، وقوله تعالى: ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي بفعل ذلك، وقوله تعالى: ﴿ لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، قال الزهري عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى: ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قالت: هي الرجعة[3]، ومن ههنا ذهب من السلف إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث (فاطمة بنت قيس) حين طلقها زوجها (أبو عمرو بن حفص) آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لكِ عليه نفقة»، ولمسلم: «ولا سكنى»، وأمرها أن تعتد في بيت أُم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك[4]» الحديث.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بمعروف ﴾ أي محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بمعروف ﴾ أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن، وقوله تعالى: ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما روي عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلّقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد عل طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد[5]،

---

(١) كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

(٢) كما قاله أُبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

(٣) وكذا قال الشعبي وعطاء والضحّاك وقتادة ومقاتل بن حيان.

(٤) قصة طلاق فاطمة بنت قيس ذكرها الإمام أحمد والنسائي والطبراني وغيرهم.

(٥) أخرجه أبو داود وابن ماجة.

وقال ابن جريج: كان عطاء يقول: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل، كما قال الله عزّ وجلّ إلا أن يكون من عذر، وقوله تعالى: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي من جهة لا تخطر بباله.

عن عبدالله ابن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وإن أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾[١]. وفي المسند، عن عبدالله بن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»[٢]. وقال ابن عباس: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، وقال الربيع بن خيثم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ أي من كل شيء ضاق على الناس، ﴿من حيث لا يحتسب﴾ أي من حيث لا يدري، وقال قتادة ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ من حيث يرجو ولا يأمل، وقال السدي: ﴿ومن يتق الله﴾ يطلق للسنة، ويراجع للسنة، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عوف بن مالك الأشجعي، كان له ابن وأن المشركين أسروه فكان فيهم، وكان أبوه يأتي رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر، ويقول له: «إن الله سيجعل لك فرجاً»، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدوّ، فمر بغنم من أغنام العدو فاستاقها، فجاء بها إلى أبيه وجاء معه بغنم قد أصابه من المغنم، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٣]. وروى الإمام أحمد، عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٤]. وعن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ روى الإمام أحمد، عن ابن عباس: أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٦] وقال الإمام أحمد، عن ابن مسعود، قال، قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل»[٧]. وقوله تعالى:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) رواه أحمد في المسند. (٣) رواه ابن جرير. (٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.
(٥) رواه ابن أبي حاتم. (٦) رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح. (٧) أخرجه الإمام أحمد.

﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ .

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ﴿ ثلاثة أشهر ﴾ عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ إن ارتبتم ﴾ فيه قولان: **أحدهما** : وهو قول طائفة من السلف[1] أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه، **والقول الثاني** : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا مروي عن سعيد عن جبير، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى لما روي عن أُبي بن كعب قال، قلت لرسول الله ﷺ: إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكرن في البقرة: الصغار والكبار اللائي قد انقطع منهن الحيض، وذوات الحمل، قال، فأنزلت التي في النساء القصرى: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ يقول تعالى ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة، في قول جمهور العلماء كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنّة النبوية، وقد روي عن (علي) و (ابن عباس) رضي الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر، عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة، روى البخاري، عن أبي سلمة قال: جاء رجُل إلى ابن عباس – وأبو هريرة جالس – فقال: افتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت: أنا ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي – يعني أبا سلمة – فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أُم سلمة يسألها، فقالت: قُتِل زوج (سبيعة الأسلمية) وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخُطِبتْ فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها »[3] .

وروى البخاري ومسلم: أن سبيعة كانت تحت (سعد بن خولة) وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجملت للخطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجّين النكاح ! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ

---

(١) كمجاهد والزهري وابن زيد . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، ورواه ابن جرير بنحوه .

(٣) هكذا أورد البخاري هذا الحديث مختصراً ، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أُخر .

فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالترويج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم، ورواه البخاري مختصراً، ثم قال البخاري بعد روايته الحديث الأول عند هذه الآية، وقال أبو سليمان بن حرب وأبو النعمان، حدَّثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن محمد هو ابن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عبدالرحمن ابن أبي ليلى، وكان أصحابه يعظمونه فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبيعة بنت الحارث عن عبدالله ابن عتبة قال: فضمز لي بعض أصحابه، قال محمد: ففطنت له، فقلت له: إني لجريء أن أكذب على عبدالله، وهو في ناحية الكوفة قال، فاستحيا وقال: لكن عمه لم يقل ذلك، فلقيت أبا عطية مالك بن عامر، فسألته، فذهب يحدثني بحديث سبيعة، فقلت: هل سمعت عن عبدالله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبدالله فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة؟ فنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. وروى ابن جرير عن علقمة بن قيس أن عبدالله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت يريد بآية المتوفى عنها ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[1]. وقال ابن أبي حاتم، عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً رضي الله عنه يقول آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته إن التي في النساء القصرى نزلت بعد البقرة ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[2].
وقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي يسهل له أمره وييسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، ثم قال تعالى: ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ، ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده، إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل، حتى تنقضي عدتها فقال: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم﴾ أي عندكم ﴿من وجدكم﴾ قال ابن عباس: يعني سعتكم، وقال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه، وقوله تعالى: ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه، وقال الثوري: يطلقها فإذا بقي يومان راجعها، وقوله تعالى: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ قال كثير من العلماء: هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً، وقال آخرون: بل السياق كله في

(١) رواه ابن جرير والنسائي. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه أبو داود وابن ماجة.

الرجعيات ، وإنمـا نص على الانفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنمـا تجب النفقة بمقدار مدة العدة، وقوله تعالى: ﴿ فـإن أرضعن لكم﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾، وقوله تعالى: ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى: ﴿لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أُخرى﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بمـا استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها، وقوله تعالى: ﴿ لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته، ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممـا آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾، كقوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، روى ابن جرير، عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عـن أبي عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام فجاءه الرسول فأخبره، فقال رحمه الله تعالى: تأول هذه الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾، وقوله تعالى: ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وعد منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾، وقد روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها وإلى التنور فسجرته، ثم قالت : اللهم ارزقنا، فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال، وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا، قال، فرجع الزوج فقال: أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأته: نعم من ربنا، فأمّ إلى الرحى فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة »(١) .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذَّب رسله وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب

(١) أخرجه الإمام أحمد .

ذلك فقال تعالى: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نكراً﴾ أي منكراً فظيعاً، ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي غب مخالفتها وندموا حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ أي في الدار الآخرة مع ما عجّل لهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بالله ورسله ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ يعني القرآن، كقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وقوله تعالى: ﴿رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات﴾، قال بعضهم: ﴿رسولاً﴾ بدل اشتمال؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية، ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾، كقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾، وقال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾، أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله ﴿نوراً﴾ لما يحصل به من الهدى، كما سماه ﴿روحاً﴾ لما يحصل به من حياة القلوب فقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا ولله الحمد والمنة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات﴾، كقوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾؟، وقوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين». وقد تقدم في سورة الحديد ذكر الأرضين السبع وبعد ما بينهن وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام، وهكذا قال ابن مسعود وغيره، وكذا في الحديث الآخر: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة»، وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها»[1]

[آخر تفسير سورة الطلاق، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تفسير سورة الطلاق

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ .

خُوطب النبى ﷺ أولا تشريفاً وتكريما ،ثم خاطب الأمة تبعاً فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن ثواب بن سعيد الهبارى ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة ، فأتت أهلها ، فأنزل الله ، عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهى من أزواجك ونسائك فى الجنة .

ورواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن عبد الأعلى،عن سعيد ،عن قتادة . . . فذكره مرسلا(١). وقد ورد من غير وجه : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها .

وقال البخارى : حدثنا يحى بن بُكَيْر ، حدثنا الليث وعقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره : أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله ، عز وجل » (٢) .

هكذا رواه البخارى هاهنا وقد رواه فى مواضع من كتابه ، ومسلم ، ولفظه : « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » (٣) .

ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة (٤) ، ومواضع استقصائها كتب الأحكام .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٨٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٢٥١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧١) .

(٤) المسند (٢/ ٦،٢٦،٤٣،٥١،٥٤،٥٨) وسنن أبى داود برقم (٢١٧٩) وسنن النسائى (٦/ ١٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٢٣) .

وأمَسّ لفظ يورَد هاهنا ما رواه مسلم فى صحيحه ، من طريق ابن جُرَيْج : أخبرنى أبو الزبير : أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن ـ مولى عَزة يسأل ابن عمر ـ وأبو الزبير يسمع ذلك : كيف ترى فى رجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طَلَّق ابن عمر امرأتهُ حائضا على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهى حائض ،فقال رسول الله ﷺ: «ليراجعها» فَردَّها ، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » . قال ابن عمر : وقرأ النبى ﷺ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ (١) .

وقال الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله فى قوله : ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ قال: الطهر من غير جماع (٢). وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد ،والحسن، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مِهْران ، ومقاتل بن حيان مثل ذلك . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ قال :لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه ، ولكن : تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة .

وقال عكرمة : ﴿ **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ : العدة : الطهر ،والقرء الحيضة ، أن يطلقها حبلى مستبينا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا يدرى حبلى هى أم لا .

ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملا قد استبان حملها . والبدعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام فى ذلك وما يتعلق به مستقصى فى كتب الفروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : ﴿ **وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ** ﴾ أى : احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج . ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ** ﴾ أى : فى ذلك .

وقوله : ﴿ **لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ** ﴾ أى : فى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة (٣) لحق الزوج أيضاً .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ أى : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، كما قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المُسَيَّب ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين ،ومجاهد ، وعكْرِمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو قِلابة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراسانى ، والسُّدِّى ، وسعيد بن

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٧١) .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٨٣) .

(٣) فى أ : « لأنها متعلقة » .

أبى هلال ، وغيرهم . وتشمل ما ذا [١] نشزَت المرأة أو بَذَت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال، كما قاله أبى بن كعب ، وابن عباس ، وعكرمة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى : بفعل ذلك .

وقوله : ﴿ لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى : إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رَجْعَتَها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل .

قال الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قال : هى الرجعة. وكذا قال الشعبى ، وعطاء ،وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ابن حيان ، والثورى . ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم ،كالإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله ، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة ، وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية ، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، وكان غائباً عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير ــ [يعنى] [٢] : نفقة ــ فَتَسَخَّطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة . فأتت رسول الله ﷺ ، فقال : « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم:ولا سكنى ، وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال :« تلك امرأة يغشاها أصحابى، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك » الحديث [٣] .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر ، فقال :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس ، فحدثتنى أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ ، فبعثه رسول الله ﷺ فى سَرية . قالت : فقال لى أخوه : اخرجى من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل . قال : لا . قالت : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلانا طلقنى ، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة ، [فأرسل إليه] [٤] فقال: « مالك ولابنة آل قيس »، قال: يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثا جميعاً. قالت : فقال رسول الله ﷺ : « انظرى يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى . اخرجى فانزلى على فلانة ». ثم قال : «إنه يُتحَدّث إليها ، انزلى على ابن أم مكتوم ، فإنه أعمى لا يراك » وذكر تمام الحديث [٥] .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عبد الله البزار التُّسْتَرِىّ ،حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف ،حدثنا بكر بن بكار ، حدثنا سعيد بن يزيد البَجلى ، حدثنا عامر الشعبى : أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشى ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة

---

(١) فى م ، أ : « وتشمل ما إذا » .
(٢) زيادة من م .
(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٨٠) .
(٤) زيادة من المسند .
(٥) المسند (٦/ ٣٧٣) .

المخزومى، فقالت : إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق فى جيش إلى اليمن بطلاقى ، فسألت أولياءه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا فى ذلك شيئاً ، ولا أوصانا به . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقى ، فطلبت السكنى والنفقة على ، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا فى ذلك بشىء . فقال رسول الله ﷺ : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » .

وكذا رواه النسائى [(١)] عن أحمد بن يحيى الصوفى ، عن أبى نعيم الفضل بن دُكَيْن ، عن سعيد ابن يزيد وهو الأحمسى البَجَلى الكوفى . قال أبو حاتم الرازى : هو شيخ ، يروى عنه [(٢)] .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ .

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده . ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى: محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أى : على الرجعة إذا عَزَمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجة ، عن عمران [(٣)] بن حُصَين : أنه سُئِل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا رجعتها فقال : طَلَّقتَ لغير سنة ، ورجعت لغير سنة ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تَعُدْ [(٤)] [(٥)] .

وقال ابن جُرَيج : كان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : لا يجوز فى نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله ، عز وجل ، إلا أن يكون من عذر .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا،ويخاف عقاب [(٦)] الله فى الدار الآخرة .

(١) المعجم الكبير (٢٤/ ٣٨٢) وسنن النسائى (٦/ ١٤٤) .
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٤/ ٧٤) .
(٣) فى م :«عن عمرو » .
(٤) فى أ : « ولا تعتد » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٢١٨٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٢٥) .
(٦) فى م : « ويخاف عذاب » .

ومن هاهنا ذهب الشافعي ـ في أحد قوليه ـ إلى وجوب الإشهاد في الرجعة ، كما يجب عنده في ابتداء النكاح . وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها .

وقوله : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ أي : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترَك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي : من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا كَهمس بن الحسن ،حدثنا أبو السليل ،عن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو عَلَيَّ هذه الآية : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » . قال : فجعل يتلوها ويُرددها علي حتى نَعَست ، ثم قال : « يا أبا ذر ، كيف تصنع إن (١) أخرجت من المدينة ؟ » . قلت : إلى السعة والدّعة (٢) أنطلق ، فأكون حمامة من حمام مكة . قال : «كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟ » . قال: قلت : إلى السعة والدعة ، وإلى الشام والأرض المقدسة. قال: « وكيف تصنع إن أخرجتَ من الشام ؟ ». قلت : إذا ـ والذي بعثك بالحق (٣) ـ أضع سيفي على عاتقي . قال : « أوخير من ذلك ؟ » . قلت : أوخير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع، وإن كان عبداً حبشياً » (٤) .

وقال ابن أبي حاتم :حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا زكريا ، عن عامر ، عن شُتَير (٥) ابن شكَل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل: ٩٠] ، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ .

وفي المسند : حدثني مهدي بن جعفر ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الحكم بن مصعب ، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجاً ، ومن كل ضِيق مَخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٦) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ .

وقال الربيع بن خثيم : ﴿ **يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ أي : من كل شيء ضاق على الناس .

وقال عكرمة :من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك.

---

(١) في م: « إذا » .　(٢) في م : « إلى الدعة والسعة » .　(٣) في أ : « بالحق نبيا » .
(٤) المسند (٥/١٧٨) .
(٥) في أ : « عن بسر ».
(٦) المسند (١/٢٤٨) .

وقال ابن مسعود ، ومسروق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ : يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾ أى [(١)] : من حيث لا يدرى .

وقال قتادة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من شبهات الأمور والكرب [(٢)] عند الموت، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل .

وقال السدى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّه ﴾ : يطلق للسنة ، ويراجع للسنة ، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له : « عوف بن مالك الأشجعى » كان له ابن ، وأن المشركين أسروه ، فكان فيهم ، وكان أبوه يأتى رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التى هو بها وحاجته ، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر ، ويقول له :« إن الله سيجعل لك فرجاً [(٣)] » . فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدى العدو فمر بغنم من أغنام العدو ، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه ، وجاء معه بغنى [(٤)] قد أصابه من الغنم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ .

رواه ابن جرير [(٥)] ، وروى أيضاً من طريق سالم بن أبى الجعد مرسلا نحوه [(٦)] .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبى الجعد ، عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد لَيُحْرَمُ الرزق بالذنب يُصيبُه ، ولا يرد القَدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » .

ورواه النسائى وابن ماجة ، من حديث سفيان ــ وهو الثورى ــ به [(٧)] .

وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعى إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابنى عوف . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » . وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسَرْح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ،فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب، فقال أبوه : عَوفٌ ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأتاه . وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ــ فاستبقا الباب والخادم ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعاً بمالك » . ونزل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ

---

(١) فى م :«أو » . (٢) فى أ :« والكروب » . (٣) فى م ، أ : « مخرجاً ».

(٤) فى م :« بغنم » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٨٩) .

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٠) وقد جاء موصلاً ،أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٩٢) من طريق عبيد بن كثير العامرى ، عن عباد بن يعقوب ، عن يحيى بن آدم ، عن إسرائيل ، عن عمار بن أبى معاوية ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن جابر ، رضى الله عنه ، قال: نزلت هذه الآية . . . فذكر نحو رواية السدى ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « بل منكر، فيه عباد بن يعقوب رافضى جَبَل ، وعبيد بن كثير العامرى متروك ، قاله الأزدى » .

(٧) المسند (٥/ ٢٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٢٢) .

يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ .

رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، حدثنا الفضيل بن عياض ، عن هشام بن حسان [١] ، عن عمران بن حُصَين قال : قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مئُونة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكَله إليها » [٢] .

وقوله : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ : قال الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، حدثنا قيس بن الحجاج ، عن حَنَش الصنعانى ، عن عبد الله بن عباس : أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام، وجفت الصحف » .

وقد رواه الترمذى من حديث الليث بن سعد ، وابن لَهيعة ، به [٣] . وقال : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا بشير بن سلمان ، عن سيار أبى الحكم ، عن طارق بن شهاب ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تُسَهَّل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت آجل » .

ثم رواه عبد الرزاق ، عن سفيان ، عن بشير ، عن سيار أبى حمزة ، ثم قال : وهو الصواب ، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق [٤] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ** ﴾ أى : منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريده ويشاؤه ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ كقوله : ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد:٨] .

﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)

(١) فى م ، أ ، هـ : « الحسن » مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (١/١١٦) ومن طريقه الخطيب فى تاريخه (٧/١٩٧) من طريق جعفر بن محمد البغدادى ، عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق به ،وقال الطبرانى : « لم يروه عن هشام إلا الفضيل ، تفرد به إبراهيم بن الأشعث » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٠٤) :« وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال: يغرب ويخطئ ويخالف ،وبقية رجاله ثقات » .

(٣) المسند (١/٢٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٣٢٦) .

(٤) المسند (١/٤٤٢) .

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة ــ وهى التى قد انقطع عنها الحيض لكبرها ــ : أنها ثلاثة أشهر ، عوضاً عن الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة » [١] ، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ؛ ولهذا قال: ﴿**وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ**﴾ .

وقوله :﴿ **إِنِ ارْتَبْتُمْ** ﴾ فيه قولان :

أحدهما ــ وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهرى ، وابن زيد ــ : أى إن رأين دما وشككتم فى كونه حيضاً أو استحاضة ، وارتبتم فيه .

والقول الثانى : إن ارتبتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروى ، عن سعيد بن جبير . وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر فى المعنى ، وَاحتَجَّ عليه بما رواه عن أبى كُرَيْب وأبى السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ، أخبرنا مطرف ، عن عمرو بن سالم قال:قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن عدداً من عدد النساء لم تذكر فى الكتاب : الصغار والكبار وأولات الأحمال [٢] . قال : فأنزل الله ، عز وجل :﴿ **وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ .

ورواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا السياق فقال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن مُطَرِّف ، عن عمر [٣] بن سالم ، عن أبى بن كعب قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن ناسا من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التى فى « البقرة » فى عدة النساء قالوا : لقد بقى من عدة النساء عددٌ لم يُذكَرْنَ فى القرآن : الصغار والكبار اللائى قد انقطع عنهن الحيض ، وذوات الحمل . قال : فأنزلت التى فى النساء القصرى : ﴿ **وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ : يقول تعالى : ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة [٤] ، فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد رُوى عن على ، وابن عباس ، رضى الله عنهم [٥] ، أنهما ذهبا فى المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ، عملا بهذه الآية الكريمة ، والتى فى سورة « البقرة » . وقد قال البخارى :

حدثنا سعد [٦] بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن يحيى قال : أخبرنى أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس ــ وأبو هريرة جالس ــ فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس: آخر الأجلين . قلت أنا : ﴿ **وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾. قال أبو هريرة:

---

(١) هى الآية ٢٢٨.

(٢) فى أ :« الأحمال أجلهن » .
(٣) فى أ : « عن عمرو » .
(٤) فى أ: « بفراق تامة » .

(٥) فى أ : « عنهما » .
(٦) فى أ : « سعيد » .

أنا مع ابن أخى ــ يعنى أبا سلمة ــ فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها ، فقالت : قُتل زوج سُبَيعة الأسلمية وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها (١) .

هكذا أورد البخارى هذا الحديث هاهنا مختصراً . وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولا من وجوه أخر (٢) ، وقال الإمام أحمد :

حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرنا هشام ، عن أبيه ، عن المسور بن مَخْرَمَة ؛ أن سُبَيعَة الأسلمية تُوفى عنها زوجُها وهى حامل ، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت ، فلما تَعَلَّت من نفاسها خُطِبت ، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى النكاح ، فأذن لها أن تُنكَح ، فنُكحت .

ورواه البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجة من طرق عنها (٣) ، كما قال مسلم ابن الحجاج :

حدثنى أبو الطاهر ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة : أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهرى يأمره أن يدخل على سُبَيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته . فكتب عُمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سَعد (٤) بن خَولة ــ وكان ممن شهد بدراً ــ فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَنشَب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعَلَّت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعكك فقال لها : ما لى أراك متجملة ؟ لعلك تَرجين النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمرَ عليك أربعة أشهر وعشرٌ . قالت سُبَيعة : فلما قال لى ذلك جَمعتُ علىّ ثيابى حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَلَلت حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج (٥) إن بدا لى .

هذا لفظ مسلم . ورواه البخارى مختصراً (٦) ، ثم قال البخارى بعد [ذلك ، أى : بعد] (٧) رواية الحديث الأول عند هذه الآية :

وقال(٨) سليمان بن حرب وأبو النعمان : حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد ــ هو ابن سيرين ــ قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى ، رحمه الله ، وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال :

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٣١٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٥) وسنن النسائى (٦/ ١٩١) .

(٣) المسند (٤/ ٣٢٧) وصحيح البخارى برقم(٥٣٢٠) وسنن النسائى (٦/ ١٩٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٢٩) كلهم من هذا الطريق الذى ساقه الإمام أحمد ، وأما مسلم وأبو داود فهو هذا الطريق الآتى بعده ، صحيح مسلم برقم (١٤٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٣٠٦) .

(٤) فى أ :« سعيد » .　　(٥) فى م، أ : « بالتزويج » .

(٦) صحيح مسلم برقم(١٤٨٤) وصحيح البخارى برقم (٥٣١٩، ٣٩٩١) .

(٧) زيادة من أ .　　(٨) فى م : « وقال أبو سليمان » .

فَضَمَّزَلى [(١)] بعض أصحابه ، قال محمد : ففطنت له فقلت : إنى لجرىءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو فى ناحية الكوفة . قال : فاستحيا وقال : ولكن عَمّه لم يقل ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته ، فذهب يحدثنى بحديث سُبَيعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ نزلت [(٢)] سورة النساء القصرى بعد الطولى : ﴿ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [(٣)] .

ورواه ابن جرير ، من طريق سفيان بن عُيَينة وإسماعيل بن عُلَيَّة ، عن أيوب به مختصرا [(٤)] . ورواه النسائى فى التفسير عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد بن الحارث ، عن ابن عون ، عن محمد بن سيرين ، فذكره [(٥)] .

وقال ابن جرير : حدثنى زكريا بن يحيى بن أبان المصرى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنى ابن شُبْرُمة الكوفى ، عن إبراهيم ، عن علقمة بن قيس ؛ أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعنته ، ما نزلت : ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . قال : وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقد رواه النسائى من حديث سعيد بن أبى مريم ، به [(٦)] . ثم قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن مَنِيع ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى قال: ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين ، فقال : من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التى فى النساء القصرى نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر ثم قال أجل الحامل أن تضع ما فى بطنها [(٧)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سِنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى الضُّحى ، عن مسروق قال : بلغ ابن مسعود أن عليا ، رضى الله عنه ، يقول : آخر الأجلين . فقال : من شاء لاعنته ، إن التى فى النساء القُصرَى نزلت بعد البقرة: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

ورواه أبو داود وابن ماجة ، من حديث أبى معاوية ، عن الأعمش [(٨)] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى محمد بن أبى بكر المقدّمى ، أخبرنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنى المثنى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ، عن أبى بن كعب قال: قلت للنبى ﷺ : ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾، المطلقة ثلاثا أو المتوفى

---

(١) فى أ : « فضم لى » . (٢) فى م :« أنزلت » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٠) .
(٤) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٢) .
(٥) هو فى سنن النسائى (٦/ ١٩٦) ولم أقع عليه فى الكبرى .
(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٢) وسنن النسائى (٦/ ١٩٧) .
(٧) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٢) .
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٣٠٧) وسنن ابن ماجة برقم(٢٠٣٠) .

عنها [١] ؟ فقال : « هى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » [٢] .

هذا حديث غريب جدا ، بل منكر؛ لأن فى إسناده المثنى بن الصباح ،وهو متروك الحديث بمرّة، ولكن رواه ابن أبى حاتم بسند آخر ، فقال :

حدثنا محمد بن داود السِّمْنانى ، حدثنا عمرو بن خالد ـ يعنى : الحرانى ـ حدثنا ابن لَهيعة ، عن عمرو بن شعيب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى بن كعب ، أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله ﷺ : لا أدرى أمشتركة أم مبهمة ، قال رسول الله ﷺ : « أية آية ؟ » . قال : ﴿ **أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ ، المتوفى عنها والمطلقة ؟ قال : « نعم » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن موسى بن داود ، عن ابن لهيعة ، به . ثم رواه عن أبى كريب أيضا ، عن مالك بن إسماعيل ، عن ابن عيينة ، عن عبد الكريم بن أبى المخارق أنه حدث عن أبىّ بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن : ﴿ **وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ قال : « أجل ، كل حامل أن تضع ما فى بطنها » [٣] .

عبد الكريم هذا ضعيف ، ولم يدرك أُبَيّا .

وقوله : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** ﴾ أى : يسهل له أمره ، وييسره عليه ، ويجعل له فرجا قريباً ومخرجاً عاجلاً .

ثم قال : ﴿ **ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ** ﴾ أى : حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا** ﴾ أى : يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)** ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلّق أحدُهم المرأة أن يُسكنَها فى منزل حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم** ﴾ أى : عندكم ، ﴿ **مِّن وُجْدِكُمْ** ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى سَعَتكم . حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه .

---

(١) فى م : « عنها زوجها » .

(٢) زوائد المسند (٥/ ١١٦) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٣) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ٦٥٤) بعد ما ساق هذه الرواية : « وهذا المرفوع وإن كان لا يخلو شىء من أسانيده عن مقال ، لكن كثرة طرقه تشعر بأن له أصلاً ،ويعضده قصة سبيعة المذكوره » .

وقوله : ﴿ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ : قال مقاتل بن حيان : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج من مسكنه .

وقال الثورى ، عن منصور ، عن أبى الضُّحَى : ﴿ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال : يطلقها، فإذا بقى يومان راجعها .

وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُن ﴾ : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها ، سواء كانت حاملاً أو حائلا .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة .

واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبَّأ ــ وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالباً إلا به ــ فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة «البقرة» : ﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

وقوله : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرَها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : لينفق على المولود والده ، أو وليه ، بحسب قدرته ، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ كقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

روى ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكَّام ، عن أبى سِنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها : فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن

قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (١) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا هاشم بن مرثد الطبرانى ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، أخبرنى أبى ، أخبرنى ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى ـ واسمه الحارث ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة نفر ، كان لأحدهم عشرة دنانير ، فتصدق منها بدينار . وكان لآخر عشر أوراق ، فتصدق منها بأوقية . وكان لآخر مائة أوقية ، فتصدق منها بعشر أواق » . فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الأجر سواء ، كل قد تصدق بعشر ماله ، قال الله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ » (٢) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ : وعدٌ منه تعالى ، ووعده حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦].

وقد روى الإمام أحمد حديثا يحسن أن نذكره هاهنا ، فقال : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عبد الحميد بن بَهْرَام ، حدثنا شَهْر بن حَوْشَب قال : قال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له فى السلف الخالى لا يقدران على شىء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعا قد أصاب (٣) مَسْبَغَةً شديدة ، فقال لامرأته : عندك شىء ؟ قالت : نعم ، أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحثها ، فقال : ويحك ! ابتغى إن كان عندك شىء . قالت : نعم ، هُنَيهة ـ ترجو رحمة الله ـ حتى إذا طال عليه الطوى (٤) قال : ويحك ! قومى فابتغى إن كان عندك شىء فائتينى به ، فإنى قد بُلغتُ وجَهدتُ . فقالت : نعم ، الآن يُنضج التنور فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحيّنت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمتُ فنظرتُ إلى تنورى ؟ فقامَتْ فنظرَت إلى تَنّورها ملآن جُنوبَ الغنم ، وَرحييها تطحَنان . فقامت إلى الرحى فنَفَضتها ، واستخرجت ما فى تنورها من جنوب الغنم .

قال أبو هريرة : فو الذى نفس أبى القاسم بيده ، هو (٥) قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما فى رَحييها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة » (٦).

وقال فى موضع آخر : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البَرِيَّة، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسَجَرته ، ثم قالت: اللهم ارزقنا .فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدى شيئا ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا . قام إلى الرحى ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ :« أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة » (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/٩٦) .

(٢) المعجم الكبير (٣/٢٩٢) وفى إسناده ضعف وانقطاع كما تقدم مراراً .

(٣) فى م ،أ : « أصابته » . (٤) فى م : « الطول » . (٥) فى م : « عن » .

(٦) المسند (٢/٤٢١) .

(٧) المسند (٢/٥١٣) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ .

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك ، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى : منكراً فظيعاً .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أى : غبّ مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى الدار الآخرة ، مع ما عَجَّل لهم فى الدنيا .

ثم قال بعد ما قَص من خبر هؤلاء : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى : الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ،﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : صدقوا بالله ورسله،﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعنى : القرآن . كقوله :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

وقوله : ﴿ رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ : قال بعضهم : ﴿ رَّسُولاً ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة ؛ لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر .

وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر ، يعنى: تفسيراً له؛ ولهذا قال :﴿رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أى : فى حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧] ، أى : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وقد سمى الله تعالى الوحى الذى أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى ،كما سماه روحاً ؛ لما يحصل به من حياة القلوب،فقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] .

وقوله : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ

أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ : قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرّة ، بما أغنى عن إعادته .

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم : **﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾** كقوله إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : **﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾** [نوح: ١٥] . وقال تعالى : **﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾** [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : **﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُن ﴾** أى : سبعا أيضا ، كما ثبت فى الصحيحين : « من ظلم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين»(١) . وفى صحيح البخارى: «خُسِف به إلى سبع أرضين» (٢) . وقد ذُكرت طُرقه وألفاظه وعزوه فى أول « البداية والنهاية » (٣) عند ذكر خلق الأرض، ولله الحمد والمنة .

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النَّجْعَة ، وأغرق فى النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند . وقد تقدم فى سورة « الحديد » عند قوله : **﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾** [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع ، وبعد ما بينهن ، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام . وهكذا قال ابن مسعود وغيره ، وكذا الحديث الآخر : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا وَكيع ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم بن مُهَاجر، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : **﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُن ﴾** قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب بن عبد الله بن سعد القُمّى الأشعرى ، عن جعفر بن أبى المغيرة الخزاعى ، عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : **﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾** الآية . فقال ابن عباس : ما يؤمنك إن أخبرتك بها فتكفر .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ومحمد بن المثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى الضُّحى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : **﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾** قال عمرو : قال فى كل أرض مثل إبراهيم ، ونحو ما على الأرض من

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٦١٢) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٤) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما .

(٣) البداية والنهاية (١٦/١) ما جاء فى سبع أرضين .

(٤) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

الخلق . وقال ابن المثنى فى حديثه : فى كل سماء إبراهيم [(١)] .

وقد روى البيهقى فى كتاب « الأسماء والصفات » هذا الأثر عن ابن عباس بأبسط من هذا [السياق][(٢)] ، فقال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وحدثنا أحمد بن يعقوب ، حدثنا عبيد بن غنام النخعى ، أخبرنا على بن حكيم ، حدثنا شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ قال : سبع أرضين ، فى كل أرض نبى كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى .

ثم رواه البيهقى من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس فى قول الله ، عز وجل : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ قال : فى كل أرض نحو إبراهيم ،عليه السلام .

ثم قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة ، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعاً ، والله أعلم .

قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتابه « التفكر والاعتبار » : حدثنى إسحاق بن حاتم المدائنى ، حدثنا يحيى بن سليمان ، عن عثمان بن أبى دهرش قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون ،فقال : « ما لكم لا تتكلمون ؟ » . فقالوا : نتفكر فى خلق الله ، عز وجل . قال : « فكذلك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء ، نورها ساحتها [(٣)] ــ أو قال : ساحتها [(٤)] نورها ــ مسيرة الشمس أربعين يوماً ، بها خلقٌ [(٥)] الله لم يعصُوا الله طَرفة عَين قطّ » . قالوا : فأين الشيطان عنهم ؟ قال : « ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق ؟ » . قالوا : أمن ولد آدم ؟ قال : « ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق » [(٦)] .

وهذا حديث مرسل ، وهو منكر جداً ، و« عثمان بن أبى دهرش » ذكره ابن أبى حاتم فى كتابه فقال : روى عن رجل من آل الحكم بن أبى العاص ، وعنه سفيان بن عيينة ، ويحيى بن سليم الطائفى، وابن المبارك ــ سمعت أبى يقول ذلك [(٧)] .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/٩٩) .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى م : « نورها بياضها» .

(٤) فى م : « بياضها » .

(٥) فى م : « خلق من خلق » .

(٦) الحديث ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٨٠٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

(٧) الجرح والتعديل (٦/١٤٩) .

سورة الطلاق

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ[1] أو ثنتا[2] عشرةَ آيةً.[3]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تخصيصُ النداء به صلّى الله عليه وسلّم مع عموم الخطابِ لأمّته أيضًا لتشريفه عليه السلام وإظهارِ جلالة منصبه وتحقيقِ أنّه المخاطَب حقيقةً. ودخولُهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه السلام إيّاهم وتغليبُه عليهم لا لأنّ نداءه كندائهم، فإنّ ذلك الاعتبار لو كان في حيّز الرِّعاية لَكان الخطاب هو الأحقَّ به لشمول حُكمه للكلّ قطعًا. والمعنى إذا أردتُم تطليقهنّ وعزمتُم عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: مستقبِلات لها، كقولك: "أتيتُه لليلة خلَتْ مِن شهر كذا"، فإنّ المرأة إذا طُلّقت في طُهر يعقُبه القرءُ الأوّل مِن أقرائها فقد طُلّقت مستقبلةً لعدّتها. والمراد أن يُطلِّقن / في طُهر لم يقع فيه جماعٌ، ثمّ يُخلَّين حتّى تنقضي عدّتهنّ، وهذا أحسنُ الطلاق وأدخَلُه في السُّنّة. [٢٠٠ظ]

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكمِلوها ثلاثةَ أقراء كواملَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في تطويل العِدّة عليهنّ والإضرار بهنّ. وفي وصفه تعالى بربوبيّته لهم تأكيدٌ للأمر ومبالغةٌ في إيجاب الاتّقاء. ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مِن مساكنهنّ

---

[1] س + آية.

[2] س: اثنا.

[3] س – آية؛ س + أو ثلاث عشرة.

عند الفراق إلى أن تنقضي عدّتهنّ. وإضافتُها إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي ببيان كمالِ استحقاقهنّ لسُكناها كأنّها أملاكهنّ.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولو بإذن منكم، فإنّ الإذن بالخروج في حُكم الإخراج. وقيل: المعنى لا يخرجنَ باستبدادٍ منهنّ، أمّا إذا اتّفقا على الخروج جاز؛ إذ الحقّ لا يعدوهما.[١] ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ استثناء مِن الأوّل. قيل: هي الزنا فيخرجن لإقامة الحدّ عليهنّ، وقيل: إلّا أن يَبْذُون[٢] على الأزواج فيحلّ حينئذ إخراجهنّ، ويؤيّده قراءة: "إِلَّا أَن يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ"،[٣] أو مِن الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أنّ خروجها فاحشة.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الأحكام. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ درجتها وبُعد منزلتها. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي عيّنها لعباده ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: حدوده المذكورة بأن أخلّ بشيء منها على أنّ الإظهار في حيّز الإضمار لتهويل أمر التعدّي والإشعارِ بعلّة الحُكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أضرّ بها.

وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب،[٤] يأباه قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، فإنّه استئنافٌ مسوق لتعليل مضمون الشرطيّة، وقد قالوا: إنّ الأمر الذي يُحدثه الله تعالى أن يَقلِب قلبه عمّا فعله بالتعدّي إلى خلافه، فلا بدّ أن يكون الظلم عبارةً عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعدّيه ولا يمكن تداركه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأُخروي، ويُخصّ التعليل بالدنيوي لكون احترازِ الناس منه أشدّ واهتمامِهم بدفعه أقوى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى﴾ خطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدّي، لا للنبيّ عليه السلام كما تُوهِّم، فالمعنى ومَن يتعدَّ حدود الله فقد أضرّ بنفسه، / فإنّك لا تدري أيّها المتعدّي عاقبة الأمر، لعلّ اللهَ يُحدِث في قلبك [٢٠١و]

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٥/٣.

٢ مِن البَذاء، وهو الفُحش والكلام القبيح. لسان العرب لابن منظور، «بذو».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٦.

٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٥/٣.

بعد ذلك الذي فعلتَ مِن التعدّي أمرًا يقتضي خلافَ ما فعلتَه فيُبدِّل ببغضها محبّةً وبالإعراض عنها إقبالًا إليها، ولا يتسنّى تلافيه برجعة أو استئنافِ نكاح.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفنَ آخرَ عدتهنّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحُسن معاشرة وإنفاق لائق ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحقّ واتّقاء الضِّرار بأن يُراجعها ثمّ يُطلِّقها تطويلًا للعدّة. ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الرَّجعة والفُرقة قطعًا للتنازع. وهذا أمر نُدب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٢]. ويروى عن الشافعي أنّه للوجوب في الرجعة.[١] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أيُّها الشهود عند الحاجة خالصًا لوجهه تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحثّ على الإشهاد والإقامةِ، أو على جميع ما في الآية ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إذ هو المنتفَع به والمقصودُ تذكيرُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾... إلخ جملة اعتراضيّة مؤكِّدة لِما سبق مِن وجوب مراعاة حدود الله تعالى بالوعد على الاتّقاء عن تعدّيها، كما أنّ ما تقدّم مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٢] مؤكِّد له بالوعيد على تعدّيها، فالمعنى: ومَن يتّقِ الله فطلّق للسنّة ولم يضارَّ المعتدَّة ولم يُخرجها مِن مَسكنها واحتاط في الإشهاد وغيره مِن الأمور ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ممّا عسى يقع في شأن الأزواج مِن الغُموم والوقوع في المضايق، ويفرِّج عنه ما يعتريه مِن الكروب.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: مِن وجه لا يُخطِره بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يكون كلامًا جيء به على نهج الاستطراد عند ذِكر قوله تعالى:

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٠/٤.
[٢] الطلاق، ١/٦٥.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾... إلخ،[١] فالمعنى ومَن يتّقِ الله في كلّ ما يأتي وما يذَر يجعل له مخرَجًا ومخلَصًا مِن غُموم الدنيا والآخرة، فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجًا أوّليًّا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قرأها فقال: «مخرَجًا مِن شُبُهات الدنيا ومِن غَمَرات الموت ومِن شدائد يوم القيامة»،[٢] وقال عليه السلام: «إنّي لأعلم آيةً لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾»،[٣] فما زال يَقرؤها ويُعيدها. ورُوي أنّ عَوف بن مالك / الأشجعي[٤] أسر المشركون ابنه سالمًا فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أُسِر ابني، وشكا إليه الفاقة»، فقال عليه السلام: «اتّقِ الله وأكثِرْ قولَ: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»، ففعل، فبينا هو في بيته إذ قَرَع ابنه البابَ ومعه مائة مِن الإبل غَفَل عنها العدوّ فاستاقها، فنزلت.[٥] [٢٠١ظ]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ أي: كافيه في جميع أموره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بالإضافة، أي: مُنفِذُ أمره. وقُرئ بتنوين ﴿بَٰلِغٌ﴾ ونصب ﴿أَمْرَهُۥ﴾،[٦] أي: يبلغ ما يريده لا يفوته مرادٌ ولا يُعجِزه مطلوبٌ، وقُرئ برفع ﴿أَمْرُهُۥ﴾،[٧] على أنّه مبتدأ و﴿بَٰلِغٌ﴾ خبرٌ مقدَّم، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، أو "بَالِغٌ" خبرُ ﴿إِنَّ﴾ و"أَمْرُه" مرتفعٌ به على الفاعليّة، أي: نافذٌ أمره. وقُرئ: "بَالِغًا أَمْرُهُ"[٨] على أنّه حال وخبر ﴿إِنَّ﴾.

---

١ الطلاق، ٦٥/٢.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٦٠/٢٦؛ **حلية الأولياء** لأبي نُعيم، ٣٤٠/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢١/٤.

٣ بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ٤٣٦/٣٥ (٢١٥٥١)؛ و**سنن الدارمي**، ١٧٩٢/٣ (٢٧٦٧)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٢١/٤.

٤ هو عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني، في كنيته أقوال: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله، وغير ذلك (ت. ٧٣هـ/٦٩٢م). كان مِن نبلاء الصحابة، شهد فتح مكّة وكان معه راية الأشجع، وشهد غزوة مؤتة، له جملة أحاديث، حدّث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني وغيرهم. آخى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين أبي الدرداء. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٨٧/٢-٤٩٠؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٧٤٢/٤، و**الأعلام** للزركلي، ٩٦/٥.

٥ بلفظ قريب في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٥٧؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٥١/٨؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٥٥/٢٦؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٢١/٤.

٦ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن داود بن أبي هند وابن أبي عبلة، وعِصمة عن أبي عمرو، والسمّان عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٠٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والمفضّل. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٠٢.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا أو مِقدارًا، وهو بيان لوجوب التوكّل عليه تعالى وتفويضِ الأمر إليه؛ لأنّه إذا عُلِم أنّ كلّ شيء مِن الرزق وغيرِه لا يكون إلّا بتقديره تعالى، لا يبقى إلّا التسليمُ للقَدَر والتوكّل على الله تعالى.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ④﴾

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لكِبَرهنّ، وقد قدّروه بستّين سنةً وبخمس وخمسين. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتُم وجهلتُم كيف عِدّتهنّ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعدُ لصغرهنّ، أي: فعدّتهنّ أيضًا كذلك، فحُذف ثقةً بدلالة ما قبله عليه. ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: منتهى عدّتهنّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كنّ مطلّقات أو مُتوفّى عنهنّ أزواجهنّ. وقد نُسِخ به عمومُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة، ٢٣٤/٢] لتراخي نزوله عن ذلك، لِما هو المشهور مِن قول ابن مسعود رضي الله عنه: مَن شاء باهَلتُه أنّ سورة النساء القُصرى نزلت بعد التي / في سورة البقرة، وقد صحّ أنّ سُبيعة بنت الحارث الأسلميّة وَلَدت بعدَ وفاةِ زوجها بليالٍ، فذكَرَت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لها: «قد حللتِ فتزوّجي».[1] [٢٠٢و]

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شأن أحكامه ومراعاةِ حقوقها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: يُسهِّل عليه أمرَه ويُوفِّقه للخير.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ⑤﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الأحكام. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الفضل. وإفراد "الكاف" مع أنّ الخطاب للجمع كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ لِما أنّها لمجرّد الفرقِ

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٨٠/٥ (٣٩٩١)؛ وصحيح مسلم، ١١٢٢/٢ (١٤٨٤)؛ وهو في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٤.

بين الحاضر والمنقضي، لا لتعيين خصوصيّة المخاطَبين، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ[1] يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٣٢/٢] مِن سورة البقرة.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنّ الحسناتِ يُذهِبن السيّئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ استئناف وَقَع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله مِن الحثّ على التقوى، كأنّه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدّات؟ فقيل: أسكنوهنّ مسكنًا مِن حيث سكنتُم، أي: بعضَ مكان سُكناكم. وقوله تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: مِن وُسعكم، أي: ممّا تُطيقونه، عطفُ بيانٍ لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسيرٌ له. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي: في السُّكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وتُلجئوهنّ إلى الخروج.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن مِن العدَّة، أمّا المتوفّى عنهنّ أزواجهنّ فلا نفقةَ لها. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد ذلك ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تشاوروا. وحقيقتُه لِيأمر بعضكم بعضًا بجميل في الإرضاع / والأجرِ ولا يكن [٢٠٢ظ] مِن الأب مماكَسة ولا[2] مِن الأمّ معاسَرة. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: تضايقتُم ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: فستُوجَد ولا تُعوِز مرضعةٌ أخرى. وفيه معاتبةٌ للأمّ على المعاسَرة.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وإن قلّ، أي: لِيُنفِق كلّ واحد مِن الموسِر والمُعسِر ما يبلغه وُسعه. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا

---

[1] س ي - منكم.

[2] س - لا.

﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ جلّ أو قلّ، فإنّه تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وُسعها. وفيه تطييبٌ لقلب المُعسِر وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكّد ذلك بالوعد حيث قيل: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: عاجلًا أو آجلًا.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثير مِن أهل قريةٍ ﴿عَتَتْ﴾ أي: أعرضَت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ بالعُتوّ والتمرّد والعِناد ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كلّ نقير وقِطمير ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكَرًا عظيمًا. وقُرئ: "نُكُرًا"،[1] والمراد حساب الآخرة وعذابُها. والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحقّقهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٧/٤٤]. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ هائلًا لا خُسرَ وراءه.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد وبيانٌ لكونه مترقَّبا، كأنّه قيل: أعدّ الله لهم هذا العذاب ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويجوز أن يُراد بـ"الحساب" استقصاءُ ذنوبهم وإثباتُها في صحائف الحفظة وبـ"العذاب" ما أصابهم عاجلًا، وقد جُوِّز[2] أن يكون ﴿عَتَتْ﴾ وما عُطف عليه صفةً للقرية، و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ جوابًا لقوله تعالى: ﴿كَأَيِّن﴾. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوب بإضمار "أعني" بيانًا للمنادى أو عطفُ بيانٍ له أو نعتٌ، وفي إبداله منه ضعفٌ لتعذُّر حلوله محلَّه.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب وذكوان وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

[2] س - قد جُوّز. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س.

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ هو جبريلُ عليه السلام سُمّي به لكثرة ذِكره، أو لنزوله بالذِّكر الذي هو **القرآن**، كما يُنبئ عنه إبدال قوله تعالى: ﴿رَسُولٗا﴾ منه، أو لأنّه مذكور في السماوات وفي الأمم، أو أريدَ بالذِّكر الشرفُ، كما في قوله تعالى: / ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، كأنّه في نفسه [٢٠٣و] شرفٌ، إمّا لأنّه شرفٌ للمنزَل عليه، وإمّا لأنّه ذو مجدٍ وشرفٍ عند الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير، ٨١/٢٠]، أو هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعليه الأكثرُ، عُبّر عنه بالذِّكر لمواظبته على تلاوة **القرآن**، أو تبليغِه والتذكيرِ به، وعُبّر عن إرساله بالإنزال بطريق الترشيح، أو لأنّه مسبَّب عن إنزال الوحي إليه، وأُبدلَ منه ﴿رَسُولٗا﴾ للبيان، أو هو **القرآن**، و﴿رَسُولٗا﴾ منصوب بمقدَّر مثلِ "أرسَل"، أو بـ﴿ذِكۡرٗا﴾ على إعمال المصدر المنوَّن، أو بدلٌ منه على أنّه بمعنى الرسالة.

وقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾ نعت لـ﴿رَسُولٗا﴾، و﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **القرآنُ**، و﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾ حال منها، أي: حال كونها مبيِّنات لكم ما تحتاجون إليه مِن الأحكام. وقُرئ: "مُبَيَّنَاتٍ"،[١] أي: بيَّنها الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الحديد، ٥٧/١٧].

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ متعلِّقة بـ﴿يَتۡلُواْ﴾ أو بـ﴿أَنزَلَ﴾، وفاعل ﴿يُخۡرِجَ﴾ على الأوّل ضمير الرسول عليه السلام، أو ضمير الجلالة. والموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله، أي: ليُحصِّل لهم الرسول أو الله عزّ وعلا ما هم عليه الآن مِن الإيمان والعملِ الصالح، أو ليُخرج مَن عَلِم أو قدَّر أنّه سيؤمن. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن الضلالة إلى الهدى.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ حسبما بيِّن في تضاعيف ما أُنزِل مِن الآيات المبيِّنات ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وقُرئ: "نُدْخِلْهُ"[٢] بـ"النون".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٢٥.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ حال مِن مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ حال أخرى منه أو مِن الضمير في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بطريق التداخل. وإفرادُ ضمير ﴿لَهُۥ﴾ قد مرّ وجهُه، وفيه معنى التعجّبِ والتعظيمِ لِما رَزَقه الله المؤمنين مِن الثواب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأ وخبرٌ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: خَلَق مِن الأرض مثلهنّ في العدد. وقُرئ: "مِثْلُهُنَّ"[1] بالرفع على أنّه مبتدأ و﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ خبره. واختُلف في كيفيّة طبقات الأرض، قالوا: الجمهورُ على أنّها سبع أرَضين طباقًا بعضُها فوق بعض، بين كلّ أرض وأرضٍ مسافةٌ كما بين السماء والأرض، وفي كلّ أرضٍ سُكّان مِن خَلْق الله تعالى. / وقال الضحّاك: [٢٠٣ظ]
«مطبقة بعضُها فوق بعض مِن غير فُتوقٍ، بخلاف السماوات».[2] قال القرطبي: والأوّل أصحُّ؛ لأنّ الأخبار دالّة عليه،[3] كما روى البخاري وغيره مِن أنّ كعبًا حَلَف بالذي فَلَق البحر لموسى أنّ صهيبًا حدَّثه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يرَ قريةً يريد دخولها إلّا قال حين يراها: «اللّهمّ ربّ السماواتِ السبع وما أظللنَ، وربّ الأرَضين السبع وما أقللنَ، وربّ الشياطين وما أضللنَ، وربّ الرياح وما أذرَينَ، نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها، ونعوذ بك مِن شرّها وشرّ أهلها وشرّ مَن فيها».[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضَّل مِن طريق المليحي، واللؤلئي عن أبي عمرو، والضحّاك، واليماني. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٨٠٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في تفسير القرطبي، ١٧٥/١٨؛ واللباب لابن عادل، ١٨١/١٩.

٣ انظر: تفسير القرطبي، ١٧٥/١٨.

٤ لم أجده في صحيح البخاري. وهو بلفظ قريب في صحيح ابن خزيمة، ١٥٠/٤ (٢٥٦٥)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٣٣/٨ (٧٢٩٩)؛ وتفسير القرطبي، ١٧٥/١٨.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ نافع بن الأزرق[١] سأله: «هل تحت الأرضين خلقٌ؟»، قال: «نعم»، قال: «فما الخلقُ؟»، قال: «إمّا ملائكة أو جنٌّ».[٢] قال الماوردي:[٣] وعلى هذا تختصّ دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا دون مَن عداهم، وإن كان فيهنّ مَن يعقل مِن خلق، وفي مشاهدتهم السماءَ واستمدادِهم الضوءَ منها قولان: أحدهما أنّهم يشاهدون السماء مِن كلّ جانب مِن أرضهم ويستمدّون الضياءَ منها، والثاني أنّهم لا يشاهدون السماء وأنّ الله تعالى خلق لهم ضياءً يشاهدونه.[٤] وحكى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها سبع أرَضين متفرّقة بالبحار وتُظلّ الجميعَ السماءُ.[٥]

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُه وقضاؤه بينهنّ وينفذ ملكه فيهنّ. وعن قتادةَ: «في كلّ سماء وفي كلّ أرض خَلْق مِن خلقه وأمرٌ مِن أمره وقضاءٌ مِن قضائه».[٦] وقيل: هو ما يدبّر فيهنّ مِن عجائب تدبيره.[٧] وقُرئ: "يُنَزِّلُ الأمْرَ".[٨]

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ متعلّق بـ﴿خَلَقَ﴾ أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ أو بمضمَر يعمّهما، أي: فعل ذلك لتعلموا أنّ مَن قَدَر على ما ذُكِر قادر على كلّ شيء.

---

١ هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري، أبو راشد (ت. ٦٥هـ/٦٨٥م). مِن أهل البصرة. رأس الأزارقة وإليه نسبتهم. كان أمير قومه وفقيههم، كان هو وأصحاب له مِن أصحاب الثورة على عثمان ووالوا عليًّا رضي الله عنهما، وبعد قضيّة التحكيم نادَوا بالخروج على عليّ رضي الله عنه، فعُرفوا بالخوارج. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٣٥١/٧.

٢ لم أجِده في مظانّه. وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٥/٤.

٣ هو عليّ بن محمّد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي، أبو الحسن (ت. ٤٥٠هـ/١٠٥٨م). كان مِن وجوه الفقهاء الشافعيّة ومِن كبارهم. أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثمّ عن الشيخ أبي حامد الإسفرايني ببغداد. وفُوِّض إليه القضاء ببلدان كثيرة. مِن تصانيفه: **الحاوي**، و**الإقناع**، و**النكت والعيون**، وغيرها. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلِّكان، ٢٨٢/٣؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٨، ٦٤؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣٢٧/٤.

٤ انظر: **النكت والعيون** للماوردي، ٣٦/٦-٣٧؛ و**تفسير القرطبي**، ١٧٥/١٨؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٨١/١٩.

٥ بلفظ قريب في **النكت والعيون** للماوردي، ٣٧/٦؛ و**تفسير القرطبي**، ١٧٥/١٨؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٨١/١٩.

٦ **جامع البيان** للطبري، ٨٠/٢٣؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٨.

٧ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٥/٤.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١٨٠٥.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لاستحالة صدور الأفاعيل المذكورة ممَّن ليس كذلك. ويجوز أن يكون العامل في "اللام" بيانُ ما ذُكر مِن الخلق وتنزُّلِ الأمر، أي: أوحى ذلك وبيَّنه لتعلموا بما ذُكر مِن الأمور التي تشاهدونها والتي تتلقَّونها مِن الوحي مِن عجائب المصنوعات / أنّه لا يخرج عن قدرته وعِلمه شيء ما أصلًا، وقُرئ: "لِيَعْلَمُوا".[1] [٢٠٤و]

عن النبيّ[2] صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الطلاق مات على سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[3]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب بن إبراهيم الزُّهري عن نافع. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٨٠٥.

٢ س: رسول الله.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٥١٧/٢٦-٥١٨ (الطلاق، ١/٦٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣١٠/٤ (الطلاق، ١/٦٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٥

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية، ثلاثَ عشرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ﴾ المُراد هو وأُمّته بقرينة ما بعده، أو قل لهم: ﴿إذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ﴾: أردتُمُ الطلاق ﴿فطَلِّقوهُنَّ لِعِدّتِهِنَّ﴾:.......................................

سُورَةُ الطَّلَاقِ

قولُهُ: (المُرَادُ هُوَ وأُمَّتُهُ) يعني: خصَّ النِّداءَ وعمَّ الخطابَ بالحكمِ؛ لأَنَّهُ إمامُ أُمَّتِهِ، فنداؤُهُ كندائِهِم، أو لأنَّ الكلامَ معه والحكمُ يعمُّهُم.

قولُهُ: (أَرَدْتُمُ الطَّلَاقَ) أي: تطليقَهُنَّ على تنزيلِ المُشارفِ له منزلةَ الشَّارعِ فيه.

قولُهُ: (لأَوَّلِهَا) أو وقتِها، وهو الطُّهرُ، وهو مذهبُ الشَّافعيِّ[1]، وعندَنا[2]: العدَّةُ بالحيضِ لقولِهِ ﷺ: «دعِي الصَّلاةَ أيَّامَ أقرائِكِ»[3]، وقولِهِ: «طلاقُ الأمةِ تطليقتانِ، وعدَّتُها حيضتانِ»[4] وهو قولُ الخلفاءِ الأربعةِ،

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (١١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٧٤).

(٣) رواه الدارقطني في «السنن» (٨٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه ابن ماجه (٦٢٤)، وأحمد في «المسند» (٢٤١٤٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٦٠) (٨٩٥) من حديث عائشة أيضاً بلفظ: «دعي الصلاة أيام حيضتك».

(٤) رواه أبو داود (٢١٨٩)، والترمذي (١١٨٢)، وابن ماجه (٢٠٨٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٧٤٩)، والدارقطني في «السنن» (٤٠٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال أبو داود: وهو حديث مجهول. وقال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث.

لِأوّلها، بأن يكون الطلاق في طُهر، لم تُمسَّ فيه ـ لتفسيره ﷺ بذلك، رواه الشيخان ـ ﴿وأحصُوا العِدّةَ﴾: احفظوها لتُراجعوا قبل فراغها، ﴿واتّقُوا اللهَ رَبّكُم﴾: أطيعوه في أمره ونهيه، ﴿لا تُخرِجُوهُنّ مِن بُيُوتِهِنّ ولا يَخرُجْنَ﴾ منها حتّى تنقضي عِدّتهنّ، ﴿إلاّ أن يأتِينَ بِفاحِشةٍ﴾: زنًى ﴿مُبيِّنةٍ﴾، ....

والعبادلةِ(١) وغيرِهم من الصَّحابةِ والتَّابعينَ(٢)، فاللَّامُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ مثلُ: مستقبلاتٍ، وفي قراءةِ رسولِ اللهِ ﷺ: (في قبيلِ عدَّتِهِنَّ)(٣)، وإذا طُلِّقَتِ المرأةُ في الطُّهرِ المتقدِّمِ على القرءِ الأوَّلِ من أقرائِها فقد طُلِّقَت مستقبلةً لعدَّتِها؛ فالحديثُ الَّذي ذكرَهُ الشَّيخُ لا ينافي مذهَبَنا بل يؤيِّدُنا.

وقولُهُ: (لأَوَّلِهَا) ليسَ لفظُ الحديثِ ليكونَ نصًّا في مذهبِهِ، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (احفَظُوهَا) واضبِطوهَا وأكمِلوا ثلاثةَ أقراءٍ.

قولُهُ: (أَطِيعُوهُ) أو في تطويلِ العدَّةِ والإضرارِ بهنَّ.

قولُهُ تعالى: (﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾) أو مساكنِهِنَّ وقتَ الطَّلاقِ، وفي الجمعِ بين النَّهيَينِ دلالةٌ على استحقاقِها السُّكنى، ولزومِها ملازمةَ مسكَنِ الفراقِ.

قولُهُ: (زِنًا) هذا قولُ ابنِ مسعودٍ(٤)، وبه أخذَ أبو يوسفَ، وقيل: البذاء على الزَّوجِ وأقاربِهِ، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ(٥)، فيكونُ الاستثناءُ من الأوَّلِ، وقالَ النَّخعيُّ(٦): هي نفسُ الخروجِ، وبه أخذَ أبو حنيفةَ(٧)، فيكونُ الاستثناءُ من الثَّاني للمبالغةِ في النَّهي، والدَّلالةِ على أنَّ خُروجَها فاحِشةٌ.

---

(١) قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ١٢١): العبادلة في اصطلاح أصحابنا ثلاثة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وفي اصطلاح غيرهم أربعة: فأخرجوا ابن مسعود، وأدخلوا ابن عمرو بن العاص، وزادوا ابن الزبير، قاله أحمد بن حنبل وغيره، وغلطوا صاحب «الصحاح» إذ أدخل ابن مسعود، وأخرج ابن العاص، قال البيهقي: لأن ابن مسعود تقدمت وفاته، وهؤلاء عاشوا حتى احتيج إلى علمهم، ويلتحق بابن مسعود كل من سمي بعبد الله من الصحابة، وهم نحو من مائتين وعشرين رجلا، قاله النووي وغيره.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٠٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤١٥).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٥٨) إلا أنها جاءت (فطلقوهن في قُبُل عدتهن).

(٤) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٤) عن ابن عباس ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: الزنا، وروي عن ابن مسعود وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي وعكرمة في إحدى الروايات، والضحاك في إحدى الروايات، وسعيد بن جبير ومجاهد، ومحمد بن سيرين وأبي قلابة، وعطاء الخراساني، وأبي صالح والسدي وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبي هلال نحو ذلك.

(٥) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١٠٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥٤٨٤).

(٦) انظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٠).

(٧) انظر: «البناية» (٥/ ٦٢٥).

بفتح الياء وكسرها، أي: بُيِّنتْ أو بَيِّنةٍ، فيُخرَجن لإقامة الحدّ عليهنّ. ﴿وتِلْكَ﴾ المذكورات ﴿حُدُودُ اللهِ، ومَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فقَد ظَلَمَ نَفسَهُ. لا تَدرِي: لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعدَ ذلِكَ﴾ الطلاقِ ﴿أمرًا﴾: مُراجعةً فيما إذا كان واحدةً أو ثِنتين.

٢ ـ ﴿فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ﴾: قارَبْنَ انقضاء عِدّتهنّ ﴿فأمسِكُوهُنَّ﴾ بأن تُراجعوهن ﴿بِمَعرُوفٍ﴾ من غير ضِرار، ﴿أو فارِقُوهُنَّ بِمَعرُوفٍ﴾: اتركوهنّ حتّى تنقضي عِدّتهنّ ولا تُضارّوهنّ بالمُراجعة، ﴿وأشهِدُوا ذَوَي عَدلٍ مِنكُم﴾ على المُراجعة أو الفِراق، ﴿وأقِيمُوا الشَّهادةَ﴾ لا للمشهود عليه أو له. ﴿ذلِكُم يُوعَظُ بِهِ مَن كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ، ومَن يَتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لَهُ مَخرَجًا﴾ من كَرب الدنيا والآخرة، ٣ ـ ﴿ويَرزُقْهُ مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ﴾: يَخطر بباله، ﴿ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في أُموره ﴿فهُوَ حَسْبُهُ﴾: كافيه. ﴿إنَّ اللهَ بالِغُ أمرِهُ﴾: مُرادَه ـ.........................

قولُهُ: (بِفَتحِ اليَاءِ) مكّيٌّ وشعبةُ[1].

قولُهُ: (المَذكُورَاتُ) من الأحكامِ.

قولُهُ: (مُرَاجَعَةً) الأمرُ هو الرَّغبةُ في المطلَّقةِ برجعةٍ، أو استئنافٍ، وقولُهُ تعالى: (﴿لَا تَدْرِي﴾) أي: النَّفسُ، أو أنتَ أيُّها النَّبيُّ، أو المطلِّقُ.

قولُهُ: (مِنْ غَيرِ ضِرَارٍ) أي: بحسنِ عشرةٍ، وإنفاقٍ مناسبٍ.

قولُهُ: (اتْرُكُوهُنَّ) أي: بإيفاءِ الحقِّ، واتِّقاءِ الضِّرارِ مثلَ أن يراجعَها، ثمَّ يطلِّقَها تطويلاً لعدَّتِها.

قولُهُ: (أوِ الفرَاقِ) تبرِّياً عن الرِّيبةِ وقطعاً للمُنازعةِ، وهو ندبٌ عندَنا[2]، وعن الشَّافعيِّ: وجوبُهُ في الرَّجعةِ[3]؛ كقولِهِ: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قولُهُ: (كُرَبِ) بضمِّ الكافِ وفتحِ الرَّاءِ، جمعُ: كربةٍ، أو بفتحٍ فسكونٍ جنسٌ، وعنهُ عليه السَّلام: «إنِّي لأعلمُ آيةً لو أخذَ النَّاسُ بها لكفتْهُم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾» فما زالَ يقرأُها ويعيدُها، رواهُ الحاكمُ وغيرُه[4].

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

(٢) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٥٤).

(٣) وهذا قوله في الإملاء، وأما في القديم والجديد فهو مستحب، انظر: «الحاوي الكبير» (١٠/ ٣١٩).

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥٥١)، والدارمي في «السنن» (٢٧٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨١٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٦٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

وفي قراءة بالإضافة ـ ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ كرَخاءٍ وشِدّة ﴿قَدْرًا﴾: مِيقاتًا.

٤ ـ ﴿واللائي﴾ ـ بهمزة وياء، وبلا ياء، في الموضعين ـ ﴿يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ بمعنى: الحيض ﴿مِن نِسائكُم، إنِ ارتَبْتُم﴾: شككتم في عِدّتهنّ، ﴿فعِدّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشهُرٍ، واللائي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لِصِغرهنّ فعِدّتهنّ ثلاثة أشهر ـ والمسألتان في غير المُتوفّى عنهنّ أزواجُهنّ. أمّا هنّ فعِدّتهنّ ما في آيةِ «يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ أربَعَةَ أشهُرٍ وعَشْرًا» ـ ﴿وأُولاتُ الأحمالِ أجَلُهُنَّ﴾: انقضاءُ عِدّتهنّ مُطلّقاتٍ أو مُتوفًّى عنهنّ أزواجُهنّ ﴿أن يَضَعْنَ حَملَهُنَّ. ومَن يَتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لَهُ مِن أمرِهِ يُسرًا﴾ في الدنيا والآخرة. ٥ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور في العِدّة ﴿أمرُ اللهِ﴾: حُكمه، ﴿أنزَلَهُ إلَيكُم، ومَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئاتِهِ، ويُعظِمْ لَهُ أجرًا﴾.

٦ ـ ﴿أسكِنُوهُنَّ﴾ أي: المُطلّقاتِ ﴿مِن حَيثُ سَكَنتُم﴾ أي: بعضَ مساكنكم ﴿مِن وُجدِكُم﴾

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ(١).

قولُهُ: (﴿قَدْرًا﴾) أي: أجلاً لا يتأتّى تغييرُهُ، أو تقديراً، أو مِقداراً، وهو بيانٌ لوجوبِ التَّوكُّلِ.

قولُهُ: (بِهَمْزَةٍ) سبقَ في الأحزابِ(٢).

قولُهُ: (بِمَعْنَى الحَيضِ) مصدرٌ ميميٌّ؛ يعني: لكبَرِهِنَّ.

قولُهُ: (شَكَكْتُم) أي: جهلْتُم.

قولُهُ: (لِصِغَرِهِنَّ) أي: واللَّائي لم يحضْنَ بعدُ كذلكَ.

قولُهُ: (أو مُتَوَفَّىً عَنْهُنَّ أَزوَاجُهُنَّ) والمحافظةُ على عمومِهِ أولى من محافظةِ عمومِ قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأنَّ عمومَ ﴿أُولَاتِ الأَحْمَالِ﴾ بالذَّاتِ، وعمومَ ﴿أزواجاً﴾ بالعرضِ، والحكمُ معلَّلٌ هاهنا بخلافِ ثَمَّ، ولأنَّهُ صحَّ أنَّ سبيعةَ بنتَ الحارثِ وضعَتْ بعدَ وفاةِ زوجِها بليالٍ، فذكرَت ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «لقد حلَلْتِ فتزوَّجِي» رواهُ الشَّيخانِ(٣).

قولُهُ: (المَذكُورُ) أي: ما ذُكِرَ من الأحكامِ.

قولُهُ: (بَعْضَ مَسَاكِنِكُم) أي: مكاناً من سكناكُم.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

(٢) في الآية رقم: (٤).

(٣) رواه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، ولفظه عند البخاري: عن أم سلمة، زوج النبي ﷺ: أن امرأة من أسلم يقال لها سبيعة، كانت تحت زوجها، توفي عنها وهي حبلى، فخطبها أبو السنابل بن بعكك، فأبت أن تنكحه، فقال: «والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدي آخر الأجلين»، فمكثت قريباً من عشر ليال، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: «انكحي».

أي: سَعتكم، عطفُ بيان أو بدلٌ ممّا قبله بإعادة الجارّ وتقدير مضاف، أي: أمكنةِ سَعتكم لا ما دُونها، ﴿ولا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عليهِنَّ﴾ المساكنَ فيحتجْنَ إلى الخُروجِ، أو النفقةَ فيفتدين منكم، ﴿وإن كُنَّ أُولاتِ حَملٍ فأنفِقُوا عليهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَملَهُنَّ، فإن أرضَعْنَ لَكُم﴾ أولادَكم منهنّ ﴿فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، ﴿واْتَمِرُوا بَينَكُم﴾ وبينهنّ ﴿بِمَعرُوفٍ﴾: بجميل في حقّ الأولاد بالتوافق على أجر معلوم للإرضاع، ﴿وإن تَعاسَرتُم﴾: تضايقتم في الإرضاع فامتنع الأبُ من الأجرة والأُمُّ من فعله ﴿فَسَتُرضِعُ لَهُ﴾: للأب ﴿أُخرَى﴾، ولا تُكرَهُ الأُمُّ على إرضاعه.

٧ ـ ﴿لِيُنفِقْ﴾ على المُطلّقات والمُرضِعات ﴿ذُو سَعةٍ مِن سَعتِهِ، ومَن قُدِرَ﴾: ضُيِّقَ ﴿علَيهِ رِزقُهُ فلْيُنفِقْ مِمّا آتاهُ﴾: أعطاه ﴿اللهُ﴾ على قدْره. ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا إلاّ ما آتاها. سَيَجعَلُ اللهُ بَعدَ عُسرٍ يُسرًا﴾. وقد جعله بالفتوح.

٨ ـ ﴿وكَأَيِّنْ﴾ ـ هي كاف الجرّ، دخلت على «أيّ»، بمعنى: كم ـ ﴿مِن قَريةٍ﴾ أي: وكثيرٌ من القُرى ﴿عَتَتْ﴾: عصَت، يعني: أهلَها، ﴿عَن أمرِ رَبِّها ورُسُلِهِ، فحاسَبْناها﴾ في الآخرة، وإن لم تجئ لتحقق وقوعها، ﴿حِسابًا شَدِيدًا، وعَذَّبْناها عَذابًا نُكْرًا﴾، بسكون الكاف وضمّها: فظيعًا،..............

قولُهُ: (سَعَتِكُم) أي: وُسْعِكُم؛ يعني: مما تطيقونَهُ.

قولُهُ تعالى: (﴿حَتَّى يَضَعْنَ﴾) قالَ القاضي[1]: وهذا يدلُّ على اختصاصِ استحقاقِ النَّفقةِ بالحاملِ مِن المعتدَّاتِ، وقالَ صاحبُ «المداركِ»[2]: فائدةُ اشتراطِ الحملِ أنَّ مدَّةَ الحملِ ربَّما تطولُ فيُظَنُّ أنَّ النَّفقةَ تسقطُ إذا مضى مقدارُ عدَّةِ الحاملِ، فنفى ذلك الوهمَ.

قولُهُ: (مِنهُنَّ) بعدَ انقطاعِ عُلْقَةِ النِّكاحِ.

قولُهُ: (عَلى قَدْرِهِ) أي: فلْيُنفِقْ كلٌّ من الموسرِ والمعسرِ ما بلغَهُ وسعُهُ بدليلِ ما بعدَهُ.

قولُهُ: (وقَد جَعَلَهُ بالفُتُوحِ) أي: عاجلاً، أو آجلاً.

قولُهُ: (عَصَتْ) وأعرضَتْ إعراضَ العاتي المعانِدِ.

قولُهُ: (يَعني: أَهلَهَا) على حذفِ مضافٍ، أو ذكرِ المحلِّ وإرادةِ الحالِ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) نافعٌ وابنُ ذكوانَ وشعبةُ[3].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٢٢).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٢٤).

وهو عذاب النار، ٩ ـ ﴿فذاقَت وَبالَ أمرِها﴾: عُقوبتَه، ﴿وكانَ عاقِبةُ أمرِها خُسرًا﴾: خسارًا وهلاكًا!

١٠ ـ ﴿أعَدَّ اللهُ لَهُم عَذابًا شَدِيدًا﴾ تكريرٌ للوعيد توكيدًا. ﴿فاتَّقُوا اللهَ، يا أُولِي الألبابِ﴾: أصحابَ العقول ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: نعتٌ للمنادى أو بيان له. ﴿قَد أنزَلَ اللهُ إلَيكُم ذِكرًا﴾ هو القُرآنُ، ١١ ـ ﴿رَسُولاً﴾ أي: محمدًا، منصوبٌ بفعل مقدّر، أي: وأرسلَ رسولاً، ﴿يَتلُو علَيكُم آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ﴾ ـ بفتح الياء وكسرها كما تقدّم ـ ﴿لِيُخرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ بعد مجيء الذكر والرسول ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر الذي كانوا عليه ﴿إلَى النُّورِ﴾: الإيمان الذي قام بهم بعد الكفر. ﴿ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ صالِحًا يُدخِلْهُ﴾ ـ وفي قراءة بالنون ـ ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا، قَد أحسَنَ اللهُ لَهُ رِزقًا﴾ هو رزق الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

١٢ ـ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثلَهُنَّ﴾ يعني سبعَ أرَضِينَ، ﴿يَتَنَزَّلُ الأمرُ﴾: الوحيُ ﴿بَينَهُنَّ﴾: بين السماوات والأرض، يَنزل به جِبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة،

قولُهُ: (عُقُوبَتَهُ) أي: عقوبةَ كُفرِها ومعاصيها.

قولُهُ: (خَسَاراً) لا ربحَ فيه أصلاً.

قولُهُ: (تَوكِيداً) وبياناً لما يوجِبُ التَّقوى المأمورَ بها فيما بعدَهُ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالحسابِ: استقصاءَ ذنوبِهم وإثباتَها في صحائفِ الحفظَةِ، وبالعذابِ ما أُصيبوا به عاجِلاً.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) شاميٌّ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ[1].

قولُهُ: (كَمَا تَقَدَّمَ) يعني في ﴿مبيِّنَة﴾، لكن بينَهُما فرقٌ في القراءةِ.

قولُهُ: (والرَّسُولِ) أي: ليخرجَ اللهُ من علمَ، أو قدَّرَ أنَّه يؤمنُ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ[2].

قولُهُ: (يَعنِي: سَبعَ أَرَضِينَ) أي: وخلقَ مثلَهُنَّ في العددِ من الأرضِ.

قولُهُ: (الوَحيُ) قالَ القاضي[3]: يجري أمرُ اللهِ وقضاؤهُ بينهُنَّ، وينفذُ حكمُهُ فيهنَّ.

قولُهُ: (يَنزِلُ بِهِ جِبرِيلُ) هذا زيادةٌ من عندِ الشَّيخِ على المنقولِ، وهو زيادةُ ضررٍ؛ لأنَّها غيرُ مستقيمةٍ بالنِّسبةِ إلى الأرضِ السَّابعةِ؛ إذ لا يُعرَفُ في غيرِ هذه الأرضِ الأولى من ينزلُ عليه جبريلُ بالوحيِ،

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٢).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٢٣).

﴿لِتَعلَمُوا﴾: مُتعلّق بمحذوف، أي: أعلمَكم بذلك الخلق والتنزيل، ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلمًا﴾.

نعم المنقولُ عن مجاهدٍ بين السَّماءِ السَّابعةِ والأرضِ السَّابعةِ، كما في «صحيحِ البخاريِّ»[1].

وقالَ البغويُّ[2]: بالوحي بينَ السَّماءِ السَّابعةِ والأرضِ السُّفلى، ثمَّ قالَ: وقالَ أهلُ المعاني: هو ما يدبِّرُ فيهنَّ من عجيبِ تدبيرِهِ فيُنزِلُ المطرَ، ويُخرِجُ النَّباتَ، ويأتي باللَّيلِ والنَّهارِ والصَّيفِ والشِّتاءِ، ويخلقُ الحيوانَ على اختلافِ هيئاتِها، وينقُلُها مِن حالٍ إلى حالٍ، وقالَ قتادةُ[3]: في كلِّ أرضٍ مِن أرضِهِ، وسماءٍ مِن سمائِهِ خلقٌ من خلقِهِ، وأمرٌ من أمرِه، وقضاءٌ من قضائِهِ، انتهى.

فهذهِ النُّقولُ متطابقةٌ متَوافقةٌ، والوحيُ في كلامِ البغويِّ يُحمل على معنى الإلهامِ من بابِ ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ليلتئمَ الكلامُ، واللهُ أعلمُ بالمرامِ.

قولُهُ: (بمَحذُوفٍ) وقيل: بـ﴿خلق﴾، أو ﴿يتنزَّلُ﴾.

قولُهُ: (بذلِكَ الخَلقِ والتَّنَزُّلِ) فإنَّ كلًّا منهُما يدلُّ على كمالِ قدرتِهِ وعلمِهِ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) ذكره البخاري (٩/ ١٤٢) تعليقاً. ووصله الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ١١٤).

(٣) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣٢٤٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٧٠).

سورة الطلاق

وتُسمَّى: سورةَ النساء القصرى. كذا سمَّاها ابن مسعود كما أخرجه البخاري(1) وغيره، وأنكره الداووديُّ(2)، فقال: لا أرى «القُصرى» محفوظاً، ولا يقال لشيءٍ من سُوَرِ القرآن: قُصرى، ولا صُغْرى، وتعقَّبه ابن حجر(3) بأنه رَدٌّ للأخبار الثابتة بلا مُستَنَدٍ، والقِصَرُ والطُّول أمرٌ نسبيٌّ، وقد أخرج البخاريُّ عن زيد بن ثابت أنه قال: طولى الطوليين(4). وأراد بذلك سورةَ الأعراف.

وهي مدنيَّةٌ بالاتفاق. واختلف في عدد آياتها(5)، ففي البصري إحدى عَشْرَةَ آية، وفيما عداه اثنتا عَشْرة آية. ولما ذكر سبحانه فيما تقدم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وكانت العداوةُ قد تفضي إلى الطلاق ذَكَرَ جلَّ شأنه هنا الطلاقَ، وأرشدَ سبحانه إلى الانفصال منهنَّ على الوجه الجميل، وذكر عزَّ وجلَّ أيضاً ما يتعلَّقُ بالأولاد في الجملة، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصَّ النداءَ به ﷺ وعمَّ الخطاب بالحكم؛ لأنَّ

---

(١) في صحيحه (٤٥٣٢).

(٢) الداوودي: هو عبد الله بن أحمد بن محمد المغلِّس الظاهري، له من التصانيف: أحكام القرآن، وغيره. توفي سنة (٣٢٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٥/ ٧٧.

(٣) في الفتح ٨/ ٦٥٦.

(٤) صحيح البخاري (٧٦٤)، وهو عند أحمد (٢١٦٣٣).

(٥) في هامش الأصل: والخلاف في ثلاث آيات: «يجعل له مخرجاً» كوفي مكي والمدني الأخير، «واليوم الآخر» شامي، «يا أولي الألباب» المدني الأول.

النبيَّ عليه الصلاة والسلام إمامُ أمته، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان: افعلوا كَيْتَ وكَيْت؛ إظهاراً لتقدُّمه، واعتباراً لترؤُّسه، وأنه المتكلِّم عنهم، والذي يَصدرون عن رأيه، ولا يستبدُّون بأمرٍ دونه، فكان هو وحده في حُكْمهم كلِّهم، وسادًّا مَسَدَّ جميعهم، وفي ذلك من إظهار جلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ما فيه، ولذلك اختير لفظ «النبي» لما فيه من الدلالة على علوِّ مرتبته ﷺ.

وقيل: الخطابُ كالنداء له ﷺ، إلا أنه اختير ضميرُ الجمع للتعظيم، نظيرَ ما في قوله:

ألا فارحموني يا إله محمد[1]

وقيل: إنه بعد ما خاطبه عليه الصلاة والسلام بالنداء، صَرَفَ سبحانه الخطابَ عنه لأمته تكريماً له ﷺ، لِمَا في الطلاق من الكراهة، فلم يُخاطَبْ به تعظيماً. وجعل بعضُهم الكلامَ على هذا بتقدير القول، أي: قُلْ لأمتك: إذا طلقتم. وقيل: حُذِفَ نداءُ الأمة، والتقدير: يا أيُّها النبيُّ وأمَّةُ النبيِّ إذا طلقتم.

وأيًّا ما كان فالمعنى: إذا أردتم تطليقهنَّ، على تنزيل المُشَارِفِ للفعل منزلةَ الشارع فيه، واتفقوا على أنه لولا هذا التجوُّز لم يستقمِ الكلامُ؛ لما فيه من تحصيل الحاصل، أو كون المعنى: إذا طلَّقتم فطلقوهنَّ مرَّةً أخرى. وهو غيرُ مراد.

وقال بعض المحقِّقين: لك أن تقول: لا حاجةَ إلى ذلك، بل هو من تعليق الخاصِّ بالعامِّ، وهو أبلغُ في الدلالة على اللزوم، كما يقال: إن ضربتَ زيداً فاضْرِبهُ ضَرْباً مُبرحاً؛ لأنَّ المعنى: إن يصدر منكَ ضَرْبٌ فليكن ضرباً شديداً، وهو أحسنُ من تأويله بالإرادة، فتدبَّر. انتهى، وأنت تعلمُ أنَّ المتبادر فيما ذكره كونه على معنى الإرادة أيضاً.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لاستقبال عِدَّتهنَّ، واللامُ للتوقيت نحو: كتبتُهُ لأربع ليالٍ بقين من جمادى الأولى، أو: مستقبِلاتٍ لها على ما قدَّره الزمخشريُّ[2]،

(١) سلف ١٧/ ١١٢.
(٢) في الكشاف ٤/ ١١٧.

وتعقَّبه أبو حيان[(١)] بما فيه نظر. واعتبار الاستقبال رأيُ مَنْ يَرى أنَّ العِدَّةَ بالحيض، وهي القروءُ في آية البقرة[(٢)] ـ كالإمام أبي حنيفة ـ ليكون الطلاقُ في الطهر، وهو الطلاقُ المأمور به، والمراد بالأمر بإيقاعه في ذلك النهيُ عن إيقاعه في الحيض، وقد صرَّحوا جميعاً بأنَّ ذلك طلاقٌ بِدْعيٌّ حرامٌ، وقُيِّدَ الطهر بكونه لم يُجامَعْنَ فيه، واستدلَّ لذلك ولاعتبار الاستقبال بما أخرجه الإمامان مالك والشافعي، والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وآخرون عن ابن عمر أنه طلَّق امرأته وهي حائضٌ، فذكر ذلك عمرُ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ فيه رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «ليُراجعها، ثم يُمسكها حتى تطهر، ثم تحيضَ فتطهرَ، فإن بدا له أن يُطلِّقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسَّها، فتلك العِدَّةُ التي أمر الله تعالى أن يُطلَّقَ لها النساء»، وقرأ النبيُّ ﷺ: «يا أيها النبيُّ إذا طلَّقتم النساءَ فطلِّقوهنَّ في قُبُلِ عِدَّتهنَّ»[(٣)] وكان ابن عمر كما أخرج عنه ابن المنذر وغيره يقرأ كذلك، وكذلك ابن عباس[(٤)]، وفي روايةٍ عنهما أنهما قرأا: «لِقُبُلِ عِدَّتهنَّ»[(٥)].

ومن يرى أنَّ العِدَّة بالأطهار ـ وهي القروء في تلك الآية ـ كالإمام الشافعيِّ، يُعلِّقُ لامَ التوقيت بالفعل، ولا يعتبر الاستقبال.

---

(١) في البحر المحيط ٨/ ٢٨١.
وجاء في هامش الأصل: وهو أنه لا يحذف متعلق الظرف إذا كان كوناً خاصاً، فالصحيح تقدير المضاف. وفيه أنه إذا كانت قرينة جاز حذف كلٍّ، وإلا امتنع حذف كلٍّ. اهـ منه.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ الآية: ٢٢٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٩، ومالك في الموطأ ٢/ ٥٧٦، والشافعي في المسند ٢/ ٣٢-٣٣ بترتيب السندي، والبخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١): (١٤)، وأبو داود (٢١٨٥)، والترمذي (١١٧٦)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٣٨-١٣٩، وابن ماجه (٢٠١٩). وهو عند أحمد (٥٥٢٣)، ولم ترد قراءة النبي ﷺ في رواية البخاري والموطأ والترمذي وابن ماجه. وهذه القراءة محمولة على التفسير لا التلاوة؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون. ينظر البحر ٨/ ٢٨١.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٣-٢٤، والقراءات الشاذة ص١٥٨، والمحتسب ٢/ ٣٢٣.

(٥) أخرجها مالك في الموطأ ٢/ ٥٨٧، وابن الأنباري كما في الدر المنثور ٦/ ٢٣٠ عن ابن عمر، وهي كذلك محمولة على التفسير لمخالفتها سواد المصحف.

واعتُرض على التأويل بـ: مستقبلاتٍ لعِدَّتهنَّ، بأنه إن أُريد التلبُّس بأولها فهو للشافعي ومن يرى رأيه لا عليه، وعلى المخالف لا له، وإن أُريد المشارَفةُ عادةً، فخلافُ مقتضى اللفظ؛ لأنَّ اللامَ إذا دخلت الوقت[١] أفادت معنى التأقيت والاختصاص بذلك الوقت، لا استقبال الوقت. وعلى الاستدلال بقراءة رسول الله ﷺ حسبما تضمَّنه الحديثُ السابق بأنَّ قُبُلَ الشيء أوَّله، نقيضُ دُبُره، فهي مؤكِّدةٌ لمذهب الشافعي لا دافعةٌ له، ويشهدُ لكون العِدَّة بالأطهار قراءةُ ابن مسعود: «لِقُبُل طُهْرهنَّ»[٢].

ومنهم من قال: التقديرُ: لأطهار عِدَّتهنَّ. وتُعقِّبَ بأنه إن جُعلتِ الإضافةُ بمعنى «من» دلَّ على أنَّ القُرْءَ هو الحيضُ والطهرُ معاً، وإن جُعلت بمعنى اللام، فيكفي ما في قولك: لأطهار الحيض، من التنافر رَدًّا، مع ما فيه من الإضمار من غير دليل.

وفي «الكشاف»: المراد - أي: من الآية - أن يُطلِّقْنَ في طُهْرٍ لم يُجامَعْنَ فيه، ثم يُخَلَّينَ حتى تنقضيَ عِدَّتهنَّ، وهو أحسنُ الطلاق وأَدخلُهُ في السنة، وأبعدُ من الندم، ويدلُّ عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ كانوا يستحبُّون أن لا يُطلِّقها للسُّنَّةِ إلا واحدة، ثم لا يُطلِّقوا غيرَ ذلك حتى تنقضي العِدَّة، وكان أحسنَ عندهم من أن يُطلِّقَ الرجلُ ثلاثاً في ثلاثة أطهار.

وقال مالك: لا أعرفُ طلاقَ السُّنَّة إلا واحدة. وكان يكره الثلاث مجموعةً كانت أو مفروقة، وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طُهْرٍ واحدٍ، فأما مفروقاً في الأطهار فلا؛ لما روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لابن عمر حين طلَّق امرأته وهي حائض: «ما هكذا أمركَ الله، إنما السُّنَّةُ أن تستقبلَ الطُّهْرَ استقبالاً، وتُطلِّقها لكلِّ قُرْءٍ تطليقة»[٣]، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمر:

---

(١) في هامش الأصل: أي: حقيقة أو حكماً فلا تغفل.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨١.

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٤٥٥)، والبيهقي ٧/ ٣٣٠، ٣٣٤، وابن الجوزي في التحقيق (١٧٠٤)، وسلف ٣/ ٢٩٧، وينظر نصب الراية ٣/ ٢٢٠.

«مُرْ ابنَكَ فليراجعها، ثم ليدعها حتى تحيضَ، ثم تطهرَ، ثم ليطلِّقها إن شاء»[١].

وعند الشافعي[٢]: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرفُ في عَدد الطلاق سُنَّةً ولا بِدْعة، وهو مباحٌ.

فمالكٌ يُراعي في طلاق السُّنَّة الواحدةَ والوقتَ، وأبو حنيفة يُراعي التفريق والوقت، والشافعي يُراعي الوقت[٣]. انتهى.

وفي «فتح القدير» في الاحتجاج على عدم كراهة التفريق على الأطهار وكونه من الطلاق السُّنِّيِّ رواية غير ما ذكر عن ابن عمر أيضاً، وقد قال فيها ما قال، إلا أنه في الآخرة رجَّحَ قَبولها[٤].

والمراد بإرسال الثلاث دَفْعةً ما يعمُّ كونَها بألفاظٍ متعدِّدةٍ، كأن يقال: أنتِ طالقٌ أنتِ طالقٌ أنتِ طالقٌ، أو بلفظٍ واحدٍ كأن يقال: أنت طالقٌ ثلاثاً. وفي وقوع هذا ثلاثاً خلافٌ، وكذا في وقوع الطلاق مطلقاً في الحيض، فعند الإماميَّة لا يقعُ الطلاق بلفظ الثلاث، ولا في حالة الحيض؛ لأنه بِدْعةٌ محرَّمةٌ، وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[٥]، ونقله غيرُ واحدٍ عن ابن المسيب وجماعة من التابعين.

وقال قومٌ ـ منهم فيما قيل طاوس وعكرمة ـ: الطلاقُ الثلاثُ بفمٍ واحدٍ يقعُ به واحدة، وروى هذا أبو داود عن ابن عباس[٦]، وهو اختيارُ ابن تيميةَ من الحنابلة[٧]، وفي «الصحيحين»[٨]: أنَّ أبا الصَّهباء قال لابن عباس: ألم تعلمْ أنَّ

---

(١) سلف ص١٩٩.

(٢) في هامش الأصل: ومثله الإمام أحمد.

(٣) الكشاف ٤/ ١١٨.

(٤) ينظر فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٢٤.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥٤٧٢)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂.

(٦) عقب الحديث (٢١٩٧).

(٧) الاختيارات الفقهية ص٣٦٧.

(٨) صحيح مسلم (١٤٧٢): (١٦). ولم نقف عليه عند البخاري.

الثلاثَ كانت تُجعَلُ واحدةً على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وصَدْرٍ من خلافة عمر؟ قال: نعمَ. وفي روايةٍ لمسلم[١]: أنَّ ابن عباس قال: كان الطلاقُ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وسنتين من خلافة عمر طلاقُ الثلاث واحدة، فقال عمر: إنَّ الناسَ قد استعجلوا في أمرٍ كان لهم فيه أناةٌ، فلو أمضيناه عليهم. فأمضاه عليهم.

ومنهم من قال: في المدخول بها يقع ثلاث، وفي الغير واحدة؛ لما في مسلم وأبي داود والنسائي[٢] أنَّ أبا الصهباء كان كثيرَ السؤال من ابن عباس، قال: أما علمتَ أنَّ الرجلَ إذا طلَّق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخلَ بها جعلوها واحدة؟ فقال ابن عباس: بلى، كان الرجلُ إذا طلَّقَ امرأته ثلاثاً قبل أن يدخلَ بها، جعلوا ذلك واحدةً على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وصدرٍ من خلافة عمر.. الحديث.

والذي ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ـ ومنهم الأئمةُ الأربعةُ ـ وقوع الثلاث بفمٍ واحد، بل ذكر الإمام ابنُ الهمام وقوعَ الإجماع السكوتيِّ من الصحابة على الوقوع. ونَقَل عن أكثر مجتهديهم كعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة وعثمان بن عفان وعبد الله بن عمرو بن العاص الإفتاءَ الصريحَ بذلك. وذَكَر أيضاً أنَّ إمضاءَ عمرَ الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بأنها كانت واحدةً، لا يُمكن إلا لأنهم قد اطَّلعوا في الزمان المتأخِّر على وجودِ ناسخ، أو لعِلْمهم بانتهاء الحكم؛ لعِلْمهم بإناطته بمعانٍ عَلِموا انتهاءها في الزمان المتأخِّر[٣].

واستحسن ابن حجر في «التحفة» الجوابَ بالاطِّلاع على ناسخٍ، بعد نقله جوابين سواه وتزييفه لهما، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى بعضُ أخبارٍ مرفوعةٍ يُستَدلُّ بها على وقوع الثلاث، لكن قيل: إنَّ الثلاثَ فيها ما يحتملُ أن تكونَ بألفاظٍ ثلاثةٍ، كـ: أنت طالقٌ أنت طالقٌ أنت طالقٌ. ولعلَّه هو الظاهرُ، لا بلفظٍ واحدٍ كـ:

---

(١) برقم (١٤٧٢): (١٥).

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٢)، وأبو داود (٢١٩٩)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٤٥.

(٣) شرح فتح القدير ٣/ ٢٥.

أنت طالقٌ ثلاثاً، وحينئذٍ لا يصلحُ ذلك للرَّدِّ على مَنْ لم يوقع الثلاثَ بهذا اللفظ، لكن إذا صحَّ الإجماعُ ولو سكوتيًّا على الوقوع، لا ينبغي إلا الموافقة والسكوت وتأويل ما رويَ عن عمر، ولذا قال بعض الأئمة: لو حَكَمَ قاضٍ بأنَّ الثلاثَ بفمٍ واحدٍ واحدةٌ، لم ينفذْ حُكْمه؛ لأنه لا يسوغُ الاجتهادُ فيه؛ لإجماع الأئمَّة المعتبَرين عليه، وإن اختلفوا في معصيةِ مَنْ يُوقعه كذلك، ومن قال بمعصيته استدلَّ بما روى النسائيُّ[1] عن محمود بن لبيد، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ عن رجلٍ طلَّق امرأته ثلاثاً جميعاً، فقام غضبان، فقال: «أَيُلْعَبُ بكتاب الله وأنا بين أظهركم»؟! حتى قام رجلٌ، فقال: يا رسول الله ألا أقتله؟

وبما أخرجه عبد الرزاق[2] عن عبادة بن الصامت أنَّ أباهُ طلَّق امرأةً له ألفَ تطليقة، فانطلقَ عبادةُ فسأله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «بانتْ بثلاثٍ في معصية الله، وبقي تسعُ مئة وسبعة وتسعون عدوانٌ وظلمٌ، إن شاء الله تعالى عذَّبه وإن شاء غفر له»، ويُفهَمُ من هذا حُرْمةُ إيقاع الزائد أيضاً، وهو ظاهرُ كلام ابن الرفعة. ومقتضى قول الرُّوياني - واعتمده الزركشيُّ وغيره - أنه يُعزَّرُ فاعله، وَوُجِّهَ بأنه تعاطي نحو عقدٍ فاسدٍ، وهو حرام، ونُوزِعَ في ذلك بما فيه نظر، وبما في «سنن أبي داود» عن مجاهد قال: كنتُ عند ابن عباس، فجاءه رجلٌ فقال إنه طلَّقَ زوجته ثلاثاً، فقال له: عصيتَ ربَّكَ، وبانتْ منك امرأتك[3]. إلى غير ذلك.

ومن قال بعَدَمها استدلَّ بما رواه الشيخان[4] من أنَّ عُويمراً العجلانيَّ لمَّا لاعَنَ امرأته، طلَّقها ثلاثاً قبل أن يُخبره ﷺ بحُرْمتها عليه. وقال: إنه لو كان معصيةً لنهاه عنه؛ لأنه أوقعه معتقداً بقاءَ الزوجيَّة، ومع اعتقادها يحرُمُ الجمعُ عند المخالف، ومع الحرمة يجبُ الإنكار على العالِم وتعليم الجاهل، ولم يوجدا، فدلَّ على أنْ لا حرمةَ، وبأنه قد فعله جماعةٌ من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف طلَّق زوجته

(١) في المجتبى ٦/ ١٤٢.
(٢) في المصنف (١١٣٣٩) بنحوه.
(٣) سنن أبي داود (٢١٩٧).
(٤) صحيح البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢). وهو عند أحمد (٢٢٨٣٠).

تُماضَر ثلاثاً في موضعه[١]. والحسن بن عليٍّ ﷺ طلَّق زوجته شهباء[٢] ثلاثاً لَمَّا هَنَّته بالخلافة بعد وفاة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

وقال بعضُ الحنفية في ذلك: إنه محمولٌ على أنهم قالوا ثلاثاً للسُّنَّة؛ وهو أبعدُ من قول بعض الشافعية فيما روي من الأدلة الدالة على العصيان فيه أنه محمولٌ على أنه كان في الحيض، فالمعصيةُ فيه من تلك الحيثيَّة.

واستدلَّ على كونه معصية إذا كان في الحيض بما هو أظهرُ من ذلك كالروايتين السابقتين فيما نُقل عن «الكشاف»، وفي الاستدلال بهما على حُرْمة إرسال الثلاث بحثٌ، وربما يُستَدلُّ بالثانية على وجوب الرجعة، لكن قد ذَكَرَ بعضُ أَجلَّة الشافعية أنها لا تجبُ، بل تُنْدَبُ في الطلاق البِدعيِّ، وإنما لم تجب لأنَّ الأمرَ بالأمر بالشيء ليس أمراً بذلك الشيء، وليس في «فليراجعها» أمرٌ لابن عمر؛ لأنه تفريعٌ على أمرِ عمر، فالمعنى: فليراجعها لأجل أَمْرِكَ لكَوْنك والده، واستفادةُ الندب منه حينئذٍ إنما هي من القرينة، وإذا راجعَ ارتفعَ الإثمُ المتعلِّقُ بحقِّ الزوجة لأن[٣] الرجعة قاطعةٌ للضرر من أصله، فكانت بمنزلة التوبة ترفعُ أَصْلَ المعصية، وبه فارقَ دفنَ البُصاق في المسجد، فإنه قاطعٌ لدوام ضَرَره، لا لأصله؛ لأنَّ تلويثَ المسجد به قد حصل. ويندفعُ بما ذُكِرَ ما قيل: رَفْعُ الرجعة للتحريم كالتوبة يدلُّ على وجوبها؛ إذ كونُ الشيء بمنزلة الواجب في خصوصيةٍ من خصوصياته، لا يقتضي وجوبه.

ولا يُستَدلُّ بما اقتضته الآيةُ من النهي عن إيقاع الطلاق في الحيض على فساد الطلاق فيه، إذ النهيُ عند أبي حنيفة لا يستلزمُ الفساد مطلقاً، وعند الشافعي يدلُّ على الفساد في العبادات، وفي المعاملات إذا رَجَعَ إلى نفس العقد، أو إلى أمرٍ

---

(١) أخرجه الدار قطني ٤/ ٦٤، والبيهقي ٧/ ٣٦٢.

(٢) في الأصل و(م): شهبانو. والمثبت من فتح القدير ٣/ ٢٦ والكلام منه، ومثله في المبسوط للسرخسي ٦/ ٤، والخبر أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٥٧)، وفيه أن اسمها: عائشة بنت خليفة الخثعمية، وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٣٩: في رجاله ضعف، وقد وثِّقوا.

(٣) قوله: لأن، تصحف في (م) إلى: لا في.

داخلٍ فيه، أو لازمٍ له، فإنْ رَجَعَ إلى أمرٍ مقارِنٍ كالبيع وقتَ النداء فلا؛ وما نحن فيه لأمرٍ مقارنٍ وهو زمانُ الحيض، فهو عنده لا يستلزمُ الفسادَ هنا أيضاً، وأُيِّدَ ذلك بأمرِ ابن عمر بالرجعة؛ إذ لو لم يقع الطلاقُ لم يُؤْمَرْ بها.

قيل: وما كان منه من التطليق في الحيض سببُ نزول هذه الآية، والذي رواه ابن مردويه(١) من طريق أبي الزبير، عنه وحكي عن السدي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتلٍ قال: بلغنا أنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ الآية نزل في عبد الله بن عمرو بن العاص، وطفيل بن الحارث، وعمرو بن سعيد بن العاص(٢). وقال بعضهم: فعله ناسٌ منهم ابن عمرو بن العاص، وعُتْبةُ بن غزوان، فنزلت الآية.

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنها نزلت في حفصةَ بنت عمر طلَّقها رسول الله ﷺ واحدةً، فنزلت إلى قوله تعالى: ﴿يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ فراجَعَها عليه الصلاة والسلام(٣). ورواه قتادة عن أنس(٤).

وقال القرطبيُّ نقلاً عن علماء الحديث: إنَّ الأصحَّ أنها نزلتِ ابتداءً لبيان حُكْمٍ شرعيٍّ، وكلُّ ما ذُكِرَ من أسباب النزول لها لم يصحّ(٥). وحكى أبو حيان نحوه عن الحافظ أبي بكر بن العربي(٦).

وظاهرها أنَّ نفسَ الطلاق مباحٌ، واستدلَّ له أيضاً بما رواه أبو داود وابن ماجه عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ من أبغضِ المباحات عند الله عزَّ وجلَّ الطلاق»، وفي لفظ:

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠ عن قتادة مرسلاً. وأخرج أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢١٣، وابن ماجه (٢٠١٦) عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

(٥) تفسير القرطبي ٢١/ ٢٧.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٨١، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١١.

«أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق»[١] لوصفه بالإباحة والحلِّ، لأنَّ أفعلَ بعضُ ما يُضاف إليه، والمراد من كونه مبغوضاً التنفيرُ عنه، أو كونه كذلك من حيثُ إنه يُؤدِّي إلى قَطْعِ الوصْلة وحَلِّ قَيْدِ العِصْمة، لا من حيثُ حقيقتُهُ في نفسه.

وقال البيهقي: البغضُ على إيقاعه كلَّ وقتٍ من غير رعايةٍ لوقته المسنون[٢].

وبطلاقه ﷺ حفصةَ، ثم أَمْرِه تعالى إياه أن يُراجعها فإنها صوَّامةٌ قوَّامةٌ[٣].

وقال غيرُ واحدٍ: هو محظورٌ لِمَا فيه من كُفْران نعمة النكاح، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لعن الله كلَّ مذواق مطلاق»[٤]، وإنما أُبيح للحاجة، قال ابن الهمام: وهذا هو الأصحُّ، فيكره إذا لم يكن حاجة، ويُحمَلُ لفظُ المباح على ما أُبيحَ في بعض الأوقات، أعني: أوقات تحقُّقِ الحاجة المبيحة، وهو ظاهرٌ في روايةٍ لأبي داود[٥]: «ما أحلَّ الله تعالى شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»، فإنَّ الفعلَ لا عمومَ له في الأزمان، ومن الحاجة الكِبَرُ وعدمُ اشتهائه جماعَها بحيثُ يعجزُ أو يتضرَّرُ بإكراهه نفسَهُ عليه، وهي لا ترضى بتَرْك ذلك، وما روي عن الحسن ـ وكان قيل له في كَثْرةِ تزوُّجه وطلاقه ـ من قوله: أُحِبُّ الغِنَى، قال الله سبحانه: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] فهو رأيٌ منه إن كان على ظاهره، وكلُّ ما نُقِلَ من طلاقِ الصحابة؛ كطلاق المغيرة بن شعبةَ الزوجات الأربع دفعة، فقد قال لهنَّ: أنتنَّ حَسَناتُ الأخلاق، ناعماتُ الأطواق، طويلاتُ الأعناق، اذهبنَ فأنتنَّ طلاق. فمحملهُ وجودُ الحاجة، وإن لم يُصرِّحْ بها[٦].

وقال ابن حجر: هو إما واجبٌ كطلاق مُوْلٍ لم يُرِدِ الوطءَ، وحَكَمَين رَأَياه، أو

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ولم نقف عليه باللفظ الأول.

(٢) السنن الكبرى ٧/ ٣٢٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ ٣٦٥ (٩٣٤)، والحاكم ٤/ ١٥ من حديث قيس بن زيد رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤٤٥: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أورده ابن نجيم في البحر الرائق ٣/ ٢٥٣، ولم نقف عليه بهذا اللفظ مسنداً.

(٥) برقم (٢١٧٧) عن محارب والحديث مرسل.

(٦) فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٢٢.

مندوبٌ كأن يعجزَ عن القيام بحقوقها، ولو لِعَدَمِ الميل إليها، أو تكون غير عفيفةٍ ما لم يخشَ الفجورَ بها، ومن ثَمَّ أمرَ ﷺ مَنْ قال: إنَّ زوجتي لا تردُّ يدَ لامسٍ[(١)].
أي: لا تمنعُ مَنْ يُريدُ الفجورَ بها على أحدِ أقوالٍ في معناه = بإمساكها خشيةً من ذلك، ويلحقُ بخشية الفجور بها حصولُ مشقَّةٍ له بفراقها تؤدِّي إلى مبيحِ تيمُّم، وكونُ مقامها عنده أمنعُ لفجورها فيما يظهر فيهما، أو سيِّئة الخُلُق، أي: بحيثُ لا يصبرُ على عشْرتها عادةً فيما يظهر، وإلا فغيرُ سيِّئة الخُلُق كالغراب الأعصم، أو يأمرُهُ به أحدُ والديه، أي: من غير تعنُّتٍ كما هو شأنُ الحمقى من الآباء والأمهات، ومع عدم خوف فتنةٍ أو مشقَّةٍ بطلاقها فيما يظهر، أو حرامٌ كالبدعيِّ، أو مكروهٌ بأن سَلِمَ الحالُ عن ذلك كلِّه؛ للخبر الصحيح: «ليس شيءٌ من الحلال أبغضَ إلى الله من الطلاق»[(٢)] ولدلالته على زيادة التنفير عنه قالوا: ليس فيه مباحٌ، لكن صوَّره الإمامُ بما إذا لم يشتهها، أي: شهوةً كاملةً، ولا تسمحُ نفسُهُ بمؤنتها من غير تمتُّعٍ بها[(٣)].

والآية على ما لا يخفى على المنصف لا تدلُّ على أكثرَ من حُرْمته في الحيض، والمرادُ بالنساء فيها المدخولُ بهنَّ من المعتدَّات بالحيض على ما في «الكشاف»[(٤)] وغيره لمكان قوله سبحانه: «فطلقوهن لعدتهن».

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثةَ قروءٍ كوامل، وأصلُ معنى الإحصاء العَدُّ بالحصى كما كان معتاداً قديماً، ثم صار حقيقةً فيما ذكر.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العِدَّة عليهنَّ، والإضرار بهنَّ، وفي وَصْفه تعالى بربوبيته عزَّ وجلَّ لهم تأكيدٌ للأمر، ومبالغةٌ في إيجاب الاتقاء.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهنَّ عند الطلاق إلى أن تنقضيَ عِدَّتهنَّ، وإضافتها إليهنَّ - وهي لأزواجهنَّ - لتأكيدِ النهي ببيان كمال استحقاقهنَّ لسُكْناها

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى ٦/ ١٧٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وسلف ١٨/ ٢٤٠.
(٢) أخرجه البيهقي ٧/ ٣٢٢ من حديث محارب بن دثار رضي الله عنه.
(٣) تحفة المحتاج ٨/ ٢-٣. وقوله: بها. ليس في (م).
(٤) ٤/ ١١٩.

كأنها أملاكهنَّ، وعدمُ العطف للإيذان باستقلاله بالطلب اعتناءً به، والنهيُ عن الإخراج يتناولُ عدمَ إخراجهنَّ غَضَباً عليهنَّ، أو كراهةً لمساكنتهنَّ، أو لحاجةٍ لهم إلى المساكن، أو مَحْض سَفَهٍ بمنطوقه، ويتناولُ عدمَ الإذن لهنَّ في الخروج بإشارته؛ لأنَّ خروجهنَّ محرَّمٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أما إذا كانت «لا» ناهية كالتي قبلها فظاهرٌ، وأما إذا كانت نافية، فلأنَّ المراد به النهي، وهو أبلغُ من النهي الصريح كما لا يخفى، والإذنُ في فِعْلِ المحرَّم محرَّمٌ، فكأنه قيل: لا تُخْرجوهنَّ، ولا تأذنوا لهنَّ في الخروج إذا طَلَبْنَ ذلك، ولا يخرجْنَ بأنفسهنَّ إن أرَدْنَ، فهناك دلالةٌ على أنَّ سكونهنَّ في البيوت حقٌّ للشرع مؤكَّدٌ، فلا يسقطُ بالإذن، وهذا ـ على ما ذكره الجلبيُّ ـ مذهبُ الحنفية، ومذهبُ الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جازَ؛ إذ الحقُّ لا يَعْدُوهما، فالمعنى: لا تُخرجوهنَّ ولا يخرجْنَ باستبدادهنَّ. وتعقَّبَ الشهابُ كونَ ذلك مذهب الحنفية بقوله: فيه نظرٌ، وقد ذكر الرازيُّ في «الأحكام» ما يدلُّ على خلافه، وأنَّ السُّكْنى كالنفقة تسقطُ بالإسقاط[١]. انتهى.

والذي يظهرُ من كلامهم ما ذكره الجلبيُّ، وقد نصَّ عليه الحصكفيُّ في «الدر المختار»[٢] وعلَّله بأنَّ ذلك حقُّ الله تعالى، فلا يسقطُ بالإذن، وفي «الفتح»[٣]: لو اختلعت على أنْ لا سُكْنَى لها، تبطلُ مؤنةُ السُّكنى عن الزوج، ويلزمُها أن تكتريَ بيته، وأما أن يحلَّ لها الخروجُ فلا.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي: ظاهرةٍ، هي نفسُ الخروج قبل انقضاء العِدَّة، كما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقيُّ في «سننه» وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عمر[٤]، وروي عن السُّدِّيِّ وابن السائب والنخعي، وبه أخذ أبو حنيفة. والاستثناءُ عليه راجعٌ إلى «لا يَخْرُجْنَ» والمعنى: لا يُطْلَقُ لهنَّ في الخروج إلا في الخروج الذي هو فاحشة، ومن المعلوم أنه لا يُطلَقُ لهنَّ فيه، فيكونُ ذلك منعاً عن الخروج على أبلغ وجه.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٠٥، وأحكام القرآن للجصاص الرازي ٣/ ٤٥٤.
(٢) ١/ ٣٦٥.
(٣) فتح القدير ٣/ ٢٩٧.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٣١، والبيهقي ٧/ ٤٣١، والحاكم ٢/ ٤٩١.

وقال الإمام ابن الهمام[١]: هذا كما يقال في الخطابية: لا تزنِ إلا أن تكونَ فاسقاً، ولا تشتمْ أمَّكَ إلا أن تكون قاطعَ رَحِم، ونحو ذلك، وهو بديعٌ وبليغٌ جدًّا.

والزنى، على ما روي عن قتادة والحسن والشعبي وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث، وهو قولُ ابن مسعود وقول ابن عباس، وبه أخذ أبو يوسف، والاستثناءُ عليه راجعٌ إلى «لا تخرجوهنَّ» على ما يقتضيه ظاهرُ كلام جَمْعٍ، أي: لا تخرجوهنَّ إلا إن زنينَ، فأَخرجوهن لإقامة الحدِّ عليهنَّ.

وقال بعض المحقِّقين: هو راجعٌ إلى الكلِّ وما يُوجبُ حدًّا من زنًى أو سرقةٍ أو غيرهما، كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب[٢]، واختاره الطبريُّ[٣].

والبَذاء على الأحماء، أي: أو على الزوج، كما أخرجه جماعةٌ من طُرُقٍ عن ابن عباس[٤]. والاستثناءُ راجعٌ إلى الأول، أي: لا تخرجوهنَّ إلا إذا طالتْ ألسنتهنَّ وتكلَّمْنَ بالكلام الفاحش القبيح على أزواجهنَّ أو أحمائهنَّ، وأُيِّدَ بقراءة أُبيٍّ: «إلا أن يَفْحُشْنَ عليكم» بفتح الياء وضمِّ الحاء[٥]، وفي «موضح» الأهوازي: «يُفْحِشْنَ» من أَفْحَشَ، قال الجوهريُّ: أفحشَ عليه في النطق، أي: أتى بالفحش[٦]، وفي حرف ابن مسعود: «إلا أن يَفْحُشْنَ»[٧] بدون «عليكم».

والنشوز، والمراد: إلا أن يُطَلَّقْنَ على النشوز، على ما روي عن قتادة أيضاً، والاستثناءُ عليه قيل: راجعٌ إلى الأول أيضاً، وفي «الكشف»: هو راجعٌ إلى الكلِّ؛ لأنه إذا سقط حقُّها في السُّكنى حلَّ الإخراجُ والخروج أيضاً.

---

(١) في الفتح ٣/ ٢٩٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣١.
(٣) في تفسيره ٢٣/ ٣٦.
(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٤، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٣١ لجماعة منهم عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وغيرهم.
(٥) الكشاف ٤/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٣.
(٦) الصحاح (فحش)، وفيه: في المنطق، بدل: في النطق.
(٧) أخرجها عنه عبد الرزاق في المصنف (١١٠٢٠).

وأيًّا ما كان فليس في الآية حَصْرُ المبيح لفعل المنهيِّ عنه بالإتيان بالفاحشة، وقد بُيِّنَتِ المبيحاتُ في كتب الفروع، فليراجعها من أراد ذلك.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر: «مبيَّنة» بالفتح(١).

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الأحكام، أي: تلك الأحكامُ الجليلةُ الشأنِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي عيَّنها لعباده عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: حدوده تعالى المذكورة بأنْ أخلَّ بشيءٍ منها، على أنَّ الإظهارَ في موضع الإضمار لتهويل أمرِ التعدِّي، والإشعار بعلَّة الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أَضرَّ بها، كما قال شيخ الإسلام، ونَقَلَ عن بعضٍ تفسيرَ الظلمِ بتعريضها للعقاب، وتعقَّبه بأنه يأباه قوله سبحانه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝﴾ فإنه استئنافٌ مَسُوقٌ لتعليلِ مضمون الشرطية؛ وقد قالوا: إنَّ الأمرَ الذي يُحدِثُهُ الله تعالى أن يُقلِّبَ قلبَهُ عمَّا فعله بالتعدِّي إلى خلافه، فلا بدَّ أن يكونَ الظلمُ عن ضَرَرٍ دنيويٍّ يلحقهُ بسبب تعدِّيه ولا يمكنه تداركه، أو عن مطلقِ الضَّرَرِ الشامل للدنيويِّ والأُخرويِّ، وخُصَّ التعليلُ بالدنيويِّ لكَوْنِ احترازِ أكثر الناس منه أشدّ، واهتمامهم بدَفْعه أقوى(٢).

ورُدَّ بأنَّ الضَّرَرَ الدنيويَّ غيرُ محقَّقٍ، فلا ينبغي تفسيرُ الظلم هاهنا به، وأنَّ قوله تعالى: «لا تدري» إلخ ليس تعليلاً لما ذُكِرَ، بل هو ترغيبٌ للمحافظة على الحدود بعد الترهيب، وفيه أنه بالترهيب أشبهُ منه بالترغيب، ولعلَّ المرادَ مِن أَضرَّ بها: عرَّضها للضرر، فالظلمُ هو ذلك التعريضُ، ولا محذورَ في تفسيره به فيما يظهر.

وجملةُ الترجِّي في موضع النصب بـ «لا تدري»، وعدَّ أبو حيان «لعلَّ» من المعلِّقات(٣). والخطابُ في «لا تدري» للمتعدِّي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدِّي، لا للنبيِّ ﷺ كما قيل، فالمعنى: مَنْ يتعدَّى حدودَ الله تعالى

---

(١) التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٦٠-٢٦١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٨٢.

فقد عرَّضَ نفسَهُ للضَّرر، فإنك لا تدري أيُّها المتعدِّي عاقبةَ الأمر؛ لعلَّ الله تعالى يُحدِثُ في قلبك بعد ذلك الذي فعلتَ من التعدِّي أمراً يقتضي خلافَ ما فعلته، فيكون بدل بُغْضِها محبَّةً، وبدل الإعراض عنها إقبالاً إليها، ولا يتسنَّى تلافيه برَجْعةٍ أو استئنافِ نكاح.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارَفْنَ آخِرَ عِدَّتهنَّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحُسْنِ معاشرةٍ وإنفاقٍ مناسبٍ للحال من الجانبين ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحقِّ واتِّقاء الضرار، مثل أن يُراجعها ثم يطلِّقها، تطويلاً للعِدَّة.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الرجعة إن اخترتموها، أو الفُرقة إن اخترتموها؛ تَبرِّياً عن الريبة وقَطْعاً للنزاع، وهذا أمرُ ندبٍ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال الشافعيُّ في القديم: إنه للوجوب في الرجعة، وزعم الطبرسيُّ أنَّ الظاهرَ أنه أمرٌ بالإشهاد على الطلاق، وأنه مرويٌّ عن أئمَّة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وأنه للوجوب وشَرْطٌ في صِحَّة الطلاق[1].

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: أيُّها الشهود عند الحاجة ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً لوجهه تعالى.

وفي الآية دليلٌ على بطلان قول من قال: إنه إذا تعاطَفَ أمران لمأمورَين، يلزمُ ذِكْرُ النداء، أو يقبحُ تَرْكه، نحو: اضربْ يا زيد وقُمْ يا عمرو، ومن خَصَّ جوازَ الترك بلا قُبْحٍ باختلافهما كما في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩] فإنَّ المأمورَ بقوله تعالى: «أشهدوا» للمطلِّقين؛ وبقوله سبحانه: «أقيموا الشهادة» للشهود كما أشرنا إليه، وقد تعاطَفَ من غير اختلافٍ في أفصح الكلام.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لأنه المنتفِعُ بذلك، والإشارةُ على ما اختاره صاحب «الكشاف»[2] إلى الحثِّ على إقامة الشهادة لله

---

(١) مجمع البيان ٢٨/١٠٧.

(٢) ٤/١٢٠.

تعالى، والأولى كما في «الكشف» أن يكونَ إشارةً إلى جميع ما مرَّ: من إيقاع الطلاق على وجه السنة، وإحصاء العِدَّة، والكَفِّ عن الإخراج والخروج، وإقامة الشهادة للرجعة أو المفارقة؛ ليكون أشدَّ ملاءمةً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ فإنه اعتراضٌ بين المتعاطِفَين، جيءَ به لتأكيد ما سَبَقَ من الأحكام بالوعد على اتقاء الله تعالى فيها، فالمعنى: ومَنْ يتَّقِ الله تعالى فَطَلَّقَ للسُّنَّة، ولم يُضارّ المعتدَّة، ولم يُخْرِجْها من مسكنها، واحتاطَ فأشهدَ، يجعل له سبحانه مخرجاً مما عسى أن يقعَ في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق، ويُفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب، ويرزقهُ من وجهٍ لا يخطرُ بباله ولا يحتسبه. وفي الأخبار عن بعض أَجِلَّة الصحابة ـ كعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابن عباس في بعض الروايات عنه ـ ما يُؤيِّدُ بظاهره هذا الوجه.

وجُوِّزَ أن يكونَ اعتراضاً جيءَ به على نهج الاستطراد عند ذِكْرِ قوله تعالى: (ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ) إلخ، فالمعنى: ومَنْ يتَّقِ الله تعالى في كلِّ ما يأتي وما يَذَرْ، يجعلْ له مخرجاً من غموم الدنيا والآخرة. وهو أولى؛ لعموم الفائدة، وتناوله لِمَا نحن فيه تناولاً أَوَّليًّا، ولاقتضاء أخبارٍ في سبب النزول وغيره له، فقد أخرج أبو يعلى، وأبو نعيم، والديلميُّ من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ إلخ، فقال: «مخرجاً من شُبُهات الدنيا، ومن غَمَرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[1].

وأخرج أحمد، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، والبيهقيُّ[2] عن أبي ذرٍّ قال: جعلَ رسولُ الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ فجعل يُرَدِّدها حتى نَعَسْتُ، ثم قال: «يا أبا ذرّ، لو أنَّ الناس كلَّهم أخذوا بها لكفتهم».

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٢، والديلمي في الفردوس ٤/ ٤١٧، ولم نقف عليه عند أبي يعلى، وأخرجه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ٣١٣. وهو عند أبي نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٤٠ لكن عن قتادة قوله.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣٣ دون عزوه لأبي نعيم، وهو عند أحمد (٢١٥٥١)، والحاكم ٢/ ٤٩٢، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٦٦٦٩).

وأخرج ابن مردويه[(١)] من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس قال: جاء عوفُ بن مالك الأشجعي، فقال: يا رسول الله إنَّ ابني[(٢)] أَسَرَهُ العدوُّ، وجَزِعَتْ أمُّه، فما تأمرني؟ قال: «آمرك وإياها أن تستكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله»، فقالت المرأة: نِعْمَ ما أَمَرَكَ، فجعلا يُكثِران منها، فتغفَّلَ العدوَّ، فاستاق غَنَمهم فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وفي رواية ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق مولى آل قيس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعيّ إلى النبيِّ ﷺ، فقال له: أُسِرَ ابن عوف. فقال له عليه الصلاة والسلام: «أرسلْ إليه أنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرك أن تسكثرَ من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله»، وكانوا قد شَدُّوه بالقِدِّ، فَسَقَطَ القِدُّ عنه، فخرج، فإذا هو بناقةٍ لهم فركبها، فإذا سَرْحُ للقوم الذين كانوا شَدُّوه، فصاح بها فاتبع آخرها أوّلها، فلم يَفْجَأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فأتى أبوه رسولَ الله ﷺ فأخبره، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ إلخ[(٣)].

وفي بعض الروايات: أنه أصابه جَهْدٌ وبلاءٌ، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «اتَّق الله واصبر»، فرجع ابنه وقد أصابَ أَعْنُزاً، فذكر ذلك للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، فنزلت، فقال: «هي لك»[(٤)].

إلى غير ذلك مما هو مضطربٌ على ما لا يخفى على المتتبِّع.

وعلى القول بالاستطراد قيل: المعنى: «مَنْ يَتَّقِ» الحرام يجعل له مخرجاً إلى الحلال. وقيل: مخرجاً من الشِّدَّة إلى الرخاء، وقيل: من النار إلى الجنة. وقيل: مخرجاً من العقوبة، «ويرزقه من حيث لا يحتسب» من الثواب. وقال الكلبيُّ: «مَنْ يَتَّقِ الله» عند المصيبة، «يجعلْ له مخرجاً» إلى الجنة. والكلُّ كما ترى، والمعوَّلُ عليه العمومُ الذي سمعته.

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٣٣، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٩/ ٣٣٦.

(٢) في هامش الأصل: اسمه سالم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٣٣، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٤) أخرجه ابن جرير ٢٣/ ٤٥ عن سالم بن أبي الجعد، وينظر الإصابة ٤/ ١٠١ ترجمة سالم بن عوف بن مالك.

وفي «الكشف»: إنَّ تنويعَ الوعد للمتَّقي، وتكريرَ الحَثِّ عليه بعد الدلالة على أنَّ التقوى ملاكُ الأمر عند الله تعالى، ناطَ به سبحانه سعادةَ الدارين، يدلُّ على أنَّ أَمْرَ الطلاق والعِدَّةِ من الأمور التي تحتاجُ إلى فَضْلِ تقوى؛ لأنه أبغضُ المباح إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لما يتضمَّنُ من الإيحاش وقَطْع الأُلفة الممهّدة، ثم الاحتياطُ في أمر النَّسَب الذي هو من جِلَّة المقاصد يُؤْذِنُ بالتشديد في أمر العِدَّة، فلا بدَّ من التقوى ليقعَ الطلاقُ على وجهٍ يُحمَدُ عليه، ويُحتَاط في العِدَّة ما يجبُ، فهنالك يحصلُ للزوجين المخرجُ في الدنيا والآخرة. وعليه فالزوجةُ داخلةٌ في العموم كالزوج.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه عزَّ وجلَّ في جميع أموره.

وأخرج أحمد في «الزهد» عن وهب قال: يقول الربُّ تبارك وتعالى: إذا توكَّلَ عليَّ عبدي، لو كادَتْهُ السماواتُ والأرضُ، جَعَلْتُ له من بين ذلك المَخْرَجَ[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بإضافة الوَصْفِ إلى مفعوله، والأصلُ: «بالغٌ أَمْرَهُ» بالنصب، كما قرأ به الأكثرون[2]، أي: يبلغُ ما يُريده عزَّ وجلَّ، ولا يفوته مراد.

وقرأ ابن أبي عبلةَ في رواية، وداود بن أبي هند، وعصمةُ عن أبي عمرو: «بالغٌ» بالرفع منوَّناً «أمرُهُ»[3] بالرفع على أنه فاعلُ «بالغ» الخبر لـ «إنَّ»، أو مبتدأ و«بالغ» خبرٌ مقدَّمٌ له، والجملةُ خبرُ «إنَّ»، أي: نافذٌ أمرُهُ عزَّ وجلَّ.

وقرأ المفضل في روايةٍ أيضاً: «بالغاً» بالنصب «أمرُهُ» بالرفع[4]، وخُرِّجَ ذلك على أنَّ «بالغاً» حالٌ من فاعل «جعل» في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ لا من المبتدأ؛ لأنهم لا يرتضون مجيءَ الحال منه، وجملة «قد جعل» إلخ خبرُ «إنَّ»، وجُوِّزَ أن يكون «بالغاً» هو الخبرَ على لغة من ينصب الجزأين بـ «إنَّ»، كما في قوله:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٤، والزهد ص٦٩.

(٢) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨، ولم يقرأ بالإضافة سوى حفص.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٨، والمحتسب ٢/ ٣٢٤، والبحر ٨/ ٢٨٣.

(٤) الكشاف ٤/ ١٢٠، والبحر ٨/ ٢٨٣.

إذا اسودَّ جُنْحُ الليلِ فلتأتِ ولتكُنْ خُطاكَ خِفافاً إنَّ حُرَّاسَنا أُسْدا(١)

وتُعقِّبَ بأنها لغةٌ ضعيفةٌ.

ومعنى «قَدْراً»: تقديراً، والمرادُ: تقديرُهُ قبلَ وجوده، أو مقداراً من الزمان، وهذا بيانٌ لوجوب التوكُّل عليه تعالى وتفويضِ الأمر إليه عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا عُلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزق وغيره لا يكونُ إلا بتقديره تعالى، لا يبقى إلا التسليمُ للقَدَر، وفيه على ما قيل تقريرٌ لما تقدَّمَ من تأقيت الطلاق، والأمر بإحصاء العِدَّة، وتمهيدٌ لما سيأتي إن شاء الله تعالى من مقاديرها.

وقرأ جناح بن حبيش: «قَدَراً» بفتح الدال(٢).

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: الحيض، وقرئ: «يَيأسْنَ» مضارعاً(٣) ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ لِكِبَرهنَّ، وقد قَدَّرَ بعضُهم سِنَّ اليأس بستِّين سنة، وبعضُهم بخمسٍ وخمسين، وقيل: هو غالبُ سِنِّ يأس عشيرةِ المرأة، وقيل: غالبُ سِنِّ يأس النساء في مكانها التي هي فيه، فإنَّ المكانَ إذا كان طَيِّبَ الهواء والماء - كبعض الصحارى - يُبطِئُ فيه سِنُّ اليأس.

وقيل: أقصى عادةِ امرأةٍ في العالم. وهذا القول بالغٌ درجةَ اليأس من أن يُقبلْ.

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: إن شَكَكْتُمْ وتردَّدتم في عِدَّتهنَّ، أو: إن جهلتم عِدَّتهنَّ.

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ أخرج الحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «سننه» وجماعةٌ عن أُبيِّ بن كعب(٤) أنَّ ناساً من أهل المدينة لَمَّا نزلت هذه الآيةُ التي في البقرة في عدَّة النساء، قالوا: لقد بقيَ من عِدَّة النساء عِدَدٌ لم تُذْكَر في القرآن: الصِّغارُ والكبارُ اللاتي قد انقطع عنهنَّ الحيض، وذواتُ الحمل، فأنزل الله تعالى في سورة النساء القُصْرى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ الآية.

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة كما في شرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ١٢٢، وسلف ٩/ ٥٤١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٨، والبحر ٨/ ٢٨٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٣٤، والحاكم ٢/ ٤٩٢، والبيهقي ٧/ ٤١٤.

وفي روايةٍ أنَّ قوماً منهم أبيُّ بن كعب وخَلَّاد بن النعمان لما سمعوا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قالوا: يا رسول الله، فما عِدَّة مَنْ لا قُرْءَ لها من صِغَرٍ أو كِبَر؟ فنزل: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ إلخ، فقال قائل: فما عِدَّة الحامل؟ فنزل: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ إلخ[1].

ويُعلم مما ذُكِرَ أنَّ الشرط هنا لا مفهومَ له عند القائلين بالمفهوم؛ لأنه بيانٌ للواقعة التي نزل فيها من غير قصدٍ للتقييد.

وتقديرُ متعلّق الارتياب ما سمعتَ هو ما أشار إليه الطبريُّ[2] وغيره.

وقيل: «إن ارتبتم» في دم البالغات مَبْلَغَ اليأس أهو دمُ حيضٍ أو استحاضةٍ، «فعدَّتهنَّ» إلخ، وإذا كانت هذه عِدَّةُ المرتابِ بها، فغيرُ المرتاب بها أولى بذلك.

وقال الزجاج[3]: المعنى: إن ارتبتم في حيضهنَّ وقد انقطعَ عنهنَّ الدَّمُ، وكُنَّ ممن يحيضُ مثلهنَّ. وقال مجاهد: الآيةُ واردةٌ في المستحاضة أطبقَ بها الدم، لا تدري أهو دمُ حيضٍ أو دمُ عِلَّة؟ وقيل: «إن ارتبتم»، أي: إن تيقَّنتم إياسهنَّ، والارتيابُ من الأضداد. والكلُّ كما ترى.

والموصول قالوا: إنه مبتدأٌ خبرُهُ جملةُ «فعدَّتهنَّ» إلخ، و«إن ارتبتم» شرطٌ جوابه محذوفٌ، تقديره: فاعلموا أنها ثلاثة أشهر. والشرطُ وجوابه جملةٌ معترضةٌ، وجُوِّزَ كونُ «فعدَّتهنَّ» إلخ جوابَ الشرط باعتبار الإعلام والإخبار كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، والجملةُ الشرطيةُ خبرٌ من غير حَذْفٍ وتقدير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ مبتدأٌ خبره محذوفٌ، أي: واللائي لم يَحِضْنَ كذلك، أو: عِدَّتهنَّ ثلاثةُ أشهر، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وجُوِّزَ عَطْفُ هذا الموصول على الموصول السابق، وجَعْلُ الخبر لهما من غير تقدير.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٦٥.

(٢) في التفسير ٢٣/ ٥٢.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٨٥.

والمراد بـ «اللائي لم يحضنَ» الصغارُ اللائي لم يبلغنَ سِنَّ الحيض.

واستظهر أبو حيان شمولَهُ مَنْ لم يحضنَ لِصِغَرٍ، ومن لا يكون لهنَّ حيضٌ ألبتَّة؛ كبعض النساء يَعِشْنَ إلى أن يمتنَ ولا يحضنَ، ومن أتى عليها زمانُ الحيض وما بلغتْ به ولم تحض، ثم قال: وقيل: هذه تعتدُّ سنة(١).

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: منتهى عِدَّتهنَّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولو نحوَ مُضْغةٍ وعَلَقة، ولا فَرْقَ في ذلك بين أن يكنَّ مطلَّقاتٍ أو متوفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ، كما روي عن عمر وابنه، فقد أخرج مالكٌ والشافعيُّ وعبد الرزاق وابن أبي شيبةَ وابن المنذر(٢) عن ابن عمر أنه سُئل عن المرأة يُتوفَّى عنها زوجُها وهي حاملٌ، فقال: إذا وضعتْ حملَها فقد حلَّت. فأخبره رجلٌ من الأنصار أنَّ عمر بن الخطاب قال: لو ولدتْ وزوجُها على سريره لم يدفنْ، لَحَلَّتْ.

وعن ابنِ مسعود، فقد أخرج عنه أبو داود والنسائيُّ وابن ماجه(٣) أنه قال: من شاء لاعنتُهُ، إنَّ الآيةَ التي في سورة النساء القُصرى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ إلخ نزلتْ بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهراً، وكلُّ مُطلَّقةٍ أو متوفَّى عنها زوجُها، فأَجَلُها أن تضعَ حملها. وفي رواية ابن مردويه(٤) عن أبي سعيدٍ الخدري بسبع سنين، ولعلَّه لا يصحُّ.

وعن أبي هريرة وأبي مسعودٍ البدري وعائشة، وإليه ذهب فقهاء الأمصار.

وروي ذلك عن رسول الله ﷺ، أخرج عبد الله بن أحمد(٥) في «زوائد المسند»، وأبو يعلى، والضياء في «المختارة»، وابن مردويه عن أُبيٍّ بن كعب قال: قلتُ للنبيِّ ﷺ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أهي المطلَّقةُ ثلاثاً

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣٧، ومالك في الموطأ ٢/ ٥٨٩-٥٩٠، والشافعي في مسنده ٢/ ٥٣ ترتيب السندي، وعبد الرزاق (١١٧١٨).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٣٥، وأبو داود (٢٣٠٧)، والنسائي ٦/ ١٩٧، وابن ماجه (٢٠٣٠).

(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٣٦.

(٥) في الأصل و(م): عبد بن حميد، وهو خطأ. والمثبت من الدر المنثور ٦/ ٢٣٥.

والمتوفَّى عنها؟ قال: «هي المطلَّقةُ ثلاثاً والمتوفَّى عنها»[١] وروى جماعةٌ نحوه عنه من وجهٍ آخر[٢].

وصَحَّ أنَّ سُبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت تحتَ سعدِ بن خولة[٣]، فتُوفِّيَ عنها في حَجَّةِ الوداع وهي حاملٌ، فَوَضَعَتْ بعد وفاته بثلاثةٍ وعشرين يوماً - وفي روايةٍ: بخمسٍ وعشرين ليلة، وفي أخرى: بأربعين ليلة - فاختضبتْ وتكحَّلتْ وتزيَّنتْ تُريد النكاح، فأُنكر ذلك عليها، فسُئِلَ النبيُّ ﷺ فقال: «إن تفعل فقد خلا أجلُها»[٤].

وذهب عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس رضي الله عنهما إلى أنَّ الآيَةَ في المطلَّقات، وأما المتوفى عنها زوجُها فعِدَّتها آخرُ الأَجَلين، وهو مذهبُ الإمامية كما في «مجمع البيان»[٥].

وعلى ما تقدَّمَ، فالآيةُ ناسخةٌ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤]، على رأي أصحاب أبي حنيفةَ ومَنْ وافقهم من الشافعية؛ لأنَّ العامَّ المطلَقَ المتأخِّرَ ناسخٌ عندهم، فأَولى أن يكونَ العامُّ من وجهٍ كذلك، وأما مَنْ لم يذهبْ إليه، فَمَنْ لم يُجوِّزْ تأخيرَ بيان العامِّ قال بالنسخ أيضاً؛ لأنَّ العامَّ الأولَ حينئذٍ مرادٌ تناوله لأفراده، وفي مثله لا خلافَ في أنَّ الخاصَّ المتراخي ناسخٌ بقَدْرِه لا مخصِّص، ومَنْ جَوَّزَ ذهبَ إلى التخصيص بناءً على أنَّ التي في القُصْرى أخصُّ مطلقاً، ووجههُ أنه ذُكِرَ في البقرة حُكْمُ المطلَّقات من النساء وحُكْمُ المتوفَّى عنهنَّ الأزواجُ على التفريق، ثم وردت هذه مخصِّصةً في البابين لشمول لفظ الأجل العِدَّتين، وخصوصِ «أولات الأحمال» مطلقاً بالنسبة إلى

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٥، وعبد الله بن أحمد في مسند أبيه (٢١١٠٨)، والضياء في المختارة (١٢١٢).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣٥، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، والدارقطني [في سننه(٣٨٠١)].
(٣) في هامش الأصل: وكان بدرياً.
(٤) أخرجه أحمد (١٨٧١٤) من حديث أبي السنابل بن بعكك، وأخرجه البخاري (٤٩٠٩)، ومسلم (١٤٨٥) من حديث أبي سلمة رضي الله عنه.
(٥) ٢٨/ ١٠٨.

الأزواج، وهذا كما يقول القائل: هِنْديةُ الموالي لهم كذا، وتُرْكِيَّتهم لهم كذا، لِجنْسٍ آخرَ، ثم يقول: والكهول منهم لهم دون ذلك أو فوقه أو كذا، مريداً صِنْفاً آخر، يكونُ الأخيرُ مخصِّصاً للحُكْمين، ولا نظر إلى اختلاف العطايا؛ لشمول اللفظ الدالِّ على الاختصاص، وخصوصِ الكهول من الموالي مطلقاً، كذلك فيما نحن فيه لا نظر إلى اختلاف العِدَّتين؛ لشمول لفظ الأجل، وخصوصِ «أولات الأحمال» بالنسبة إلى الأزواج مطلقاً، وإن شئتَ فقل: بالنسبة إلى المطلَّقات والمتوفَّى عنهنَّ رجالهنَّ مطلقاً، فلا فَرْقَ. قاله في «الكشف»، ثم قال: ومَنْ ذَهب إلى أبعد الأَجَلين احتجَّ بأنَّ النَّصَّين متعاضدان؛ لأنَّ بينهما عموماً وخصوصاً من وجهٍ، ولا وَجْهَ للإلغاء، فيلزمُ الجمع، وفي القول بذلك يحصلُ الجَمْعُ لأنَّ مُدَّةَ الحمل إذا زادت فقد تربَّصتْ أربعةَ أشهرٍ وعشراً مع الزيادة، وإن قَصُرَتْ وتربَّصت المدةَ، فقد وضعتْ وتربَّصتْ، فيحصلُ العملُ بمقتضى الآيتين. والجوابُ أنه إلغاءٌ للنَّصَّين لا جَمْعٌ؛ إذ المعتبرُ الجمعُ بين النَّصَّين لا بين المدَّتين، وذلك لفوات الحصر والتوقيت الذي هو مقتضى الآيتين. اهـ. فتدبَّر.

وقرأ الضحاك: «أحمالهنَّ» جمعاً[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شأن أحكامه تعالى ومراعاة حقوقها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ بأن يُسهِّلَ عزَّ وجلَّ أمره عليه، وقيل: اليُسْرُ: الثواب. و«مِن» قيل: للبيان، قُدِّمَ على المبيَّن للفاصلة. وقيل: بمعنى «في». وقيل: تعليلية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الأحكام، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان ببُعْدِ المنزلة في الفضل، وإفرادُ الكاف ـ مع أنَّ الخطابَ للجمع كما يُفصِحُ عنه قوله تعالى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ ـ لما أنها لمجرَّدِ الفَرْقِ بين الحاضر والمنقضي، لا لتعيين خصوصية المخاطبين.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه عزَّ وجلَّ ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنَّ الحسنات يذهبنَ السيئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ بالمضاعفة.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤.

وقرأ الأعمش: «نُعْظِمْ»[1] بالنون التفاتاً من الغيبة إلى التكلُّم، وقرأ ابن مقسم: «يُعَظِّمْ» بالياء والتشديد[2]، مضارعُ «عَظَّمَ» مشدَّداً.

وقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن سؤالٍ نشأ مما قبله من الحَثِّ على التقوى، كأنه قيل: كيف نعملُ بالتقوى في شأن المعتدَّات؟ فقيل: أسكنوهنَّ.. إلخ.

و«مِنْ» للتبعيض، أي: أسكنوهنَّ بعضَ مكانِ سُكْناكم، ولتَسْكُنْ إذا لم يكنْ إلا بيتٌ واحدٌ في بعض نواحيه، كما روي عن قتادة. وقال الحوفيُّ وأبو البقاء[3]: هي لابتداء الغاية.

وقوله تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: من وُسْعكم، أي: مما تطيقونه، عَطْفُ بيانٍ لقوله تعالى: (مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم) على ما قاله الزمخشريُّ[4]، وردَّهُ أبو حيان بأنه لا يُعرَفُ عَطْفُ بيانٍ يُعاد فيه العاملُ، إنما هذا طريقةُ البدل مع حرف الجرِّ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً[5].

وتُعقِّبَ بأنَّ المرادَ أنَّ الجارَّ والمجرورَ عَطْفُ بيانٍ للجارِّ والمجرور، لا المجرور فقط حتى يقال ذلك، مع أنه لا يبرد له بسلامة الأمير، وأنه لا فَرْقَ بين عَطْفِ البيان والبدل إلا في أمرٍ يسير، ولا يخفى قوةُ كلام أبي حيان.

وقرأ الحسن والأعرج وابن أبي عبلة وأبو حيوة: «من وَجْدكم» بفتح الواو[6]، وقرأ الفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب بكَسْرها[7]، وذكرها المهدويُّ عن الأعرج، والمعنى في الكلِّ الوُسْع.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤.
(٣) الإملاء ٤/ ٤٠٢.
(٤) في الكشاف ٤/ ١٢١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٨٥، والإملاء ٤/ ٤٠٣.
(٦) القراءات الشاذة ص١٥٨، والكشاف ٤/ ١٢٢، والبحر ٨/ ٢٨٥.
(٧) هي رواية روح عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٣٨٨، والكلام من البحر ٨/ ٢٨٥.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولا تستعملوا معهنَّ الضِّرار في السُّكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فتلجؤوهنَّ إلى الخروج، بشُغْلِ المكان، أو بإسكان مَنْ لا يُرِدْنَ السُّكنى معه، ونحو ذلك.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجْنَ عن العِدَّة، وأما المتوفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ فلا نفقةَ لهنَّ عند أكثر العلماء، وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابن مسعود: تجب نفقتهنَّ في التَّرِكة.

ولا خلافَ في وجوب سُكْنى المطلَّقات أولاتِ الحمل ونفقتهنَّ، بُتَّ الطلاقُ أو لم يُبَتّ.

واختلف في المطلَّقات اللاتي لَسْنَ أولاتِ حَمْلٍ بعد الاتفاق على وجوب السُّكنى لهنَّ إذا لم يكنَّ مبتوتات، فقال ابن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء والشعبي والحسن ومالك والأوزاعي وابن أبي ليلى والشافعي وأبو عبيد: للمطلَّقة الحائل المبتوتة السُّكنى، ولا نفقةَ لها.

وقال الحسن وحماد وأحمد وإسحاق وأبو ثور والإمامية: لا سُكْنى لها ولا نفقة؛ لحديث فاطمةَ بنت قيس قالت: طَلَّقَني زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي أَلبتَّةَ، فخاصمتُهُ إلى رسول الله ﷺ في السُّكنى والنفقة، فلم يجعل لي سُكنى ولا نفقة، وأمرني أن أعتدَّ في بيت ابن أمِّ مكتوم، ثم أنكحني أسامةَ بن زيد(١).

وقال أبو حنيفة والثوري: لها السُّكنى والنفقة، فهما عنده لكلِّ مطلَّقة وإن لم تكن ذاتَ حمل، ودليله أنَّ عمر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في المبتوتة: «لها النفقة والسُّكنى»(٢) مع أنَّ ذلك جزاء الاحتباس، وهو مشتركٌ بين

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٦٨ من طريق إبراهيم النخعي عن عمر به، وإسناده منقطع. وينظرالكلام عليه في المحلى ١٠/ ٢٩٨، وزاد المعاد ٥/ ٥٣٩. وأخرج مسلم (١٤٨٠): (٤٦) من طريق الأسود بن يزيد عن عمر قال: لا نترك كتاب الله وسنَّة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة.

الحائل والحامل، ولو كان جزاءً للحمل لَوَجَبَ في ماله إذا كان له مالٌ، ولم يقولوا به.

ويؤيِّد ذلك قراءة ابن مسعود: «أسكنوهنَّ من حيث سكنتم، وأنفقوا عليهنَّ من وجدكم»[١].

ومن خَصَّ الإنفاقَ بالمعتدَّات أولات الحمل استدلَّ بهذه الآية لمكان الشرط فيها، وهو لا يتمُّ على النافين لمفهوم المخالفة، مع أنَّ فائدةَ الشرط هاهنا أنَّ الحاملَ قد يتوهَّمُ أنها لا نفقةَ لها لطول مُدَّةِ الحمل، فأُثبتَ لها النفقة ليُعلَمَ غيرُها بالطريق الأولى، كما في «الكشاف»[٢]، فهو من مفهوم الموافقة، وحديثُ فاطمة بنت قيس قد طعن فيه عمر وعائشة وسليمان بن يسار والأسود بن يزيد وأبو سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: بعد أن يَضَعْنَ حملهنَّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ خطابٌ للآباء والأمهات، والافتعالُ بمعنى التفاعل، يقال: ائتمرَ القومُ وتآمروا بمعنًى، قال الكسائيُّ: والمعنى: تشاوروا، وحقيقته: ليأمرْ بعضُكم بعضاً بمعروفٍ، أي: جميلٍ في الأجرة والإرضاع؛ ولا يكنْ من الأبِ مماكسةٌ، ولا من الأمِّ معاسرةٌ. وقيل: المعروف: الكسوة والدثار.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: تضايقتم، أي: ضَيَّقَ بعضُكم على الآخر بالمشاحَّة في الأجرة، أو طلب الزيادة، أو نحو ذلك ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي: فستُوجَدُ ولا تعوزُ مرضعة أخرى، وفيه على ما قيل: معاتبةٌ للأم؛ لأنه كقولك لمن تستقضيه حاجةً فتتعذَّر منه: سيقضيها غيرُكَ، أي: ستُقْضَى وأنت ملومٌ.

وخصَّ الأمَّ بالمعاتبة على ما قال ابن المنير: لأنَّ المبذولَ من جهتها هو لبنُها لولدها، وهو غيرُ متموَّلٍ ولا مضنون[٣] به في العُرْف، وخصوصاً من الأم على

---

(١) ذكرها السرخسي في المبسوط ٥/ ٢٠٢.

(٢) ينظر ٤/ ١٢٢.

(٣) في الأصل و(م): مضمون. والمثبت من المصدر.

الولد، ولا كذلك المبذولُ من جهة الأب، فإنه المالُ المضنونُ به عادةً، فالأُمُّ إذن أجدرُ باللَّوم وأحقُّ بالعَتَب[١].

والكلام على معنى: فليطلبْ له الأبُ مرضعةً أخرى، فيظهرُ الارتباطُ بين الشرط والجزاء.

وقال بعض الأَجلَّة: إنَّ الكلامَ لا يخلو عن معاتبةِ الأبِ أيضاً، حيث أُسقِط في الجواب عن حَيِّز شَرَفِ الخطاب، مع الإشارة إلى أنه إذا ضايقَ الأمَّ في الأجر فامتنعتْ من الإرضاع لذلك، فلا بدَّ من إرضاعِ امرأةٍ أخرى، وهي أيضاً تطلبُ الأجرَ في الأغلب، والأمُّ أشفقُ، فهي به أولى، وبذلك يظهرُ كمالُ الارتباط. والأول أظهرُ، فتدبَّر.

وقيل: «فسترضع» خبرٌ بمعنى الأمر، أي: فلترضع. وليس بذاك.

وهذا الحكم إذا قَبِلَ الرضيعُ ثديَ أخرى، أما إذا لم يقبلْ إلا ثديَ أمِّه، فقد قالوا: تُجبَرُ على الإرضاع بأجرةِ مثلها.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ﴾ أي: ضُيِّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وإن قلَّ، والمراد: لينفقْ كلُّ واحدٍ من الموسِرِ والمعسِرِ ما يبلغه وُسْعُهُ.

والظاهر أنَّ المأمورَ بالإنفاق الآباء، ومن هنا قال ابن العربي: هذه الآيةُ أصلٌ في وجوب النفقة على الأب، وخالفَ في ذلك محمدُ بن الموَّاز فقال بوجوبها على الأبوين على قَدْر الميراث[٢].

وحكى أبو معاذ أنه قرئ: «لينفقَ» بلام «كي» ونَصْبِ القاف[٣] على أنَّ التقدير: شَرَعنا ذلك لينفقَ. وقرأ ابن أبي عبلة: «قُدِّرَ» مشدَّد الدال[٤].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: إلا بقَدْرِ ما أعطاها من الطاقة، وقيل:

---

(١) الانتصاف ٤/ ١٢٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٨، والكشاف ٤/ ١٢٣، والبحر ٨/ ٢٨٥-٢٨٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٨، والكشاف ٤/ ١٢٣، والبحر ٨/ ٢٨٦.

ما أعطاها من الأرزاق قلَّ أو جَلَّ، وفيه تطييبٌ واستمالةٌ لقلب المعسِرِ؛ لمكان عبارة: «آتاها» الخاصَّة بالإعسار قبلُ وذِكْر العُسْر بعدُ. واستدلَّ بالآية مَنْ قال: لا فَسْخَ بالعَجْزِ عن الإنفاق على الزوجة؛ وهو ما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة وجماعة. وعن أبي هريرة والحسن وابن المسيب ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق: يُفْسَخُ النكاحُ بالعجز عن الإنفاق، ويُفرَّقُ بين الزوجين.

وفيها على ما قال السيوطيُّ: استحبابُ مراعاة الإنسان حالَ نفسهِ في النفقة والصدقة، ففي الحديث: «إنَّ المؤمنَ أَخَذَ عن الله تعالى أدباً حسناً، إذا هو سبحانه وَسَّعَ عليه وَسَّعَ، وإذا هو عزَّ وجلَّ قَتَّرَ عليه قَتَّر»[١].

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ موعدٌ لفقراء ذلك الوقت بفَتْحِ أبواب الرزق عليهم، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يُقصِّروا، وهو على الوجهين تذييلٌ، إلا أنه على الأول مستقلٌّ، وعلى الثاني غيرُ مستقلٍّ.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرٌ من أهل قرية. وقرأ ابن كثير: «وكائن» بالمدِّ والهمزة[٢]، وتفصيلُ الكلام فيها قد مرَّ. ﴿عَتَتْ﴾ تجبَّرتْ وتكبَّرتْ مُعرضةً ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ فلم تمتثل ذلك ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كلِّ نقيرٍ من الذنوب وقطمير ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ أي: منكراً عظيماً، والمراد: حسابُ الآخرة وعذابها، والتعبيرُ عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحقُّقهما كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩].

وقرأ غيرُ واحدٍ «نُكُراً» بضمَّتين[٣].

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبةَ عتوِّها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ هائلاً لا خُسْرَ وراءه.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٥٩١) وقال: هذا حديث منكر، وروي هذا من قول الحسن البصري.

(٢) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/٢٤٢، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً.

(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/٢١٦، وهي قراءة أبي بكر ونافع وابن ذكوان ويعقوب وأبي جعفر.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكريرٌ للوعيد، وبيانٌ لما يُوجِبُ التقوى المأمور بها بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ كأنه قيل: أعدَّ الله تعالى لهم هذا العذابَ، فليكنْ لكم ذلك يا أولي الألباب داعياً لتقوى الله تعالى وحَذَرِ عقابه.

وقال الكلبيُّ: الكلامُ على التقديم والتأخير، والمراد: فعذَّبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقَحْط والسيف وسائر المصائب والبلايا، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة. والظاهر أنَّ قوله تعالى: «أعد» إلخ، عليه تكريرٌ للوعيد أيضاً. وجُوِّزَ أن يُرادَ بالحساب الشديد استقصاءُ ذنوبهم وإثباتُها في صحائف الحفظة، وبالعذاب النُّكُر ما أصابهم عاجلاً، وتُجعل جملةُ «عتت» إلخ صفةً لـ «قرية»، والماضي في «فحاسبناها» و«عذَّبناها» على الحقيقة، وخبرُ «كأيِّنْ» جملةُ «أعدَّ الله» إلخ، أو تُجعلُ جملة «عتت» إلخ هي الخبر، وجملةُ «أعدَّ الله» إلخ استئنافٌ لبيان أنَّ عذابَهم غيرُ منحصرٍ فيما ذُكِرَ، بل لهم بعده عذابٌ شديد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوبٌ بإضمار: أعني، بياناً للمنادى السابق، أو نعتٌ له أو عطفُ بيان، وفي إبداله منه ضَعْفٌ؛ لعدم صحَّة حلوله محلَّه.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ هو النبيُّ ﷺ، عبّر به عنه لمواظبته عليه الصلاة والسلام على تلاوة القرآن الذي هو ذِكْرٌ، أو تبليغه والتذكير به، وقوله تعالى: ﴿رَّسُولًا﴾ بدلٌ[1] منه؛ وعبّر عن إرساله بالإنزال ترشيحاً للمجاز، أو لأنَّ الإرسالَ مسبَّبٌ عنه فيكون «أنزل» مجازاً مرسلاً.

وقال أبو حيان: الظاهر أنَّ الذِّكْرَ هو القرآن، والرسولَ هو محمدٌ ﷺ، فإما أن يُجعَلَ نفسُ الذِّكر مجازاً، أو يكونَ بدلاً على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذِكْرَ رسولٍ، وقيل: هو نعتٌ على حَذْفِ ذلك، أي: ذا رسولٍ، وقيل: المضافُ محذوفٌ من الأول، أي: ذا ذِكْرِ رسولاً، فيكون «رسولاً» نعتاً لذلك المحذوف أو بدلاً. وقيل: «رسولاً» منصوبٌ بمقدَّرٍ مثل: أرسلَ رسولاً، دلَّ عليه «أنزل»، ونحا إلى هذا

---

(١) في (م): بدلاً، والمثبت من الأصل وهو الصواب.

السُّدِّيُّ، واختاره ابن عطية[1]. وقال الزجاج[2] وأبو عليٍّ: يجوزُ أن يكونَ معمولاً للمصدر الذي هو ذِكْرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥]، وقول الشاعر:

بِـضَـرْبٍ بـالـسـيـوف رؤوسَ قـومٍ أَزَلْـنـا هـامَـهُـنَّ عـن الـمـقـيـلِ[3]

أي: أنزل الله تعالى ذِكْرَهُ رسولاً، على معنى: أنزل الله عزَّ وجلَّ ما يدلُّ على كرامته عنده وزُلْفاه. ويُراد به على ما قيل: القرآن. وفيه تعسُّفٌ، ومثله جَعْلُ «رسولاً» بدلاً منه، على أنه بمعنى الرسالة.

وقال الكلبيُّ: الرسول هاهنا جبريلُ عليه السلام، وجُعِلَ بدلاً أيضاً من «ذكراً»، وإطلاق الذكر عليه لكثرة ذِكْره، فهو من الوصف بالمصدر مبالغةً، كـ: رجلٌ عَدْلٌ، أو لنزوله بالذِّكر وهو القرآن، فبينهما ملابسةٌ نحو الحلول، أو لأنه عليه السلام مذكورٌ في السماوات وفي الأمم، فالمصدرُ بمعنى المفعول، كما في: درهمٌ ضَرْبُ الأميرِ، وقد يُفسَّرُ الذِّكْرُ حينئذٍ بالشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فيكون كأنه في نفسه شَرَفٌ، إما لأنه شَرَفٌ للمنزَّل عليه، وإما لأنه ذو مجدٍ وشَرَفٍ عند الله عزَّ وجلَّ كقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

وفي «الكشف»: إذا أُريد بالذكر القرآن، وبالرسول جبريل عليه السلام، يكون البدلُ بدلَ اشتمال، وإذا أُريد بالذِّكر الشرفُ وغيره، يكون من بدل الكلِّ، فتدبَّر.

وقرئ: «رسولٌ» على إضمار هو[4].

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ نعتٌ لـ «رسولاً» وهو الظاهر، وقيل: حالٌ من اسم «الله» تعالى، ونسبةُ التلاوة إليه سبحانه مجازيةٌ كـ: بنى الأمير

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٧.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١٨٨.

(٣) البحر ٨/ ٢٨٦-٢٨٧، والبيت للمرار بن منقذ، وهو في الكتاب ١/ ١١٦، ١٩٠، وحاشية الأشموني ٢/ ٢٤٢، والهام: جمع هامة، وهي الرأس. والمقيل: العنق.

(٤) البحر ٨/ ٢٨٧.

المدينة، و«آيات الله»: القرآن، وفيه إقامةُ الظاهر مقام المضمر على أحد الأوجه. و«مبيِّنات» حالٌ منها، أي: حالَ كونها مبيِّناتٍ لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام، وقرئ: «مبيَّنات»[١] أي: بيَّنها الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [آل عمران: ١١٨].

واللام في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلِّقٌ بـ «أنزل» أو بـ «يتلو»، وفاعلُ «يُخرج» على الثاني ضميرُ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو ضميره عزَّ وجلَّ، والمراد بالموصول المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية؛ أو مَنْ عَلِمَ سبحانه وقدَّرَ أنه سيؤمنُ، أي: ليحصلَ لهم الرسول أو الله عزَّ وجلَّ ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح، أو لِيُخرِجَ مَنْ عَلِمَ وقدَّرَ أنه يؤمنُ من أنواع الضلالات إلى الهدى، فالمُضِيُّ إما بالنظر لنزول هذه الآية، أو باعتبار عِلْمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلي.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ حَسْبَما بُيِّن في تضاعيف ما أُنزل من الآيات المبينات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقرأ نافع وابن عامر: «ندخله» بنون العَظَمة[٢]، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ حالٌ من مفعول «يُدخله» والجمعُ باعتبار معنى «مَنْ»، كما أنَّ الإفرادَ في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ حالٌ أخرى منه، أو من الضمير في «خالدين» بطريق التداخل، وإفرادُ ضمير «له» باعتبار اللفظ أيضاً، وفيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزقه الله تعالى المؤمنين من الثواب، وإلا لم يكن في الإخبار بما ذُكِرَ هاهنا كثيرُ فائدةٍ كما لا يخفى.

واستدلَّ أكثرُ النحويين بهذه الآية على جواز مراعاة اللفظ أولاً ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ، وزعم بعضُهم أنَّ ما فيها ليس كما ذُكِرَ؛ لأنَّ الضمير في «خالدين» ليس عائداً على «مَنْ» كالضمائر قبل، وإنما هو عائدٌ على مفعول «يُدخل»،

---

(١) التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/٢٤٨، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وشعبة وأبي جعفر ويعقوب.

(٢) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/٢٤٨، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً.

و«خالدين» حالٌ منه، والعامل فيها «يُدخل» لا فِعْلُ الشرط، وهو كما ترى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهنَّ، على أنَّ «مثلهنَّ» مفعولٌ لفعلٍ محذوف، والجملةُ عَطْفٌ على الجملة قبلها.

وقيل: «مثلهنَّ» عَطْفٌ على «سبع سماوات»، وإليه ذهب الزمخشريُّ[(١)]، وفيه الفصلُ بالجارِّ والمجرور بين حرف العطف والمعطوف، وهو مختصٌّ بالضرورة عند أبي عليٍّ الفارسيِّ.

وقرأ المفضل عن عاصم، وعصمة عن أبي بكر: «مِثْلُهنَّ» بالرفع على الابتداء، و«من الأرض» الخبر[(٢)].

والمِثْليةُ تَصْدُقُ بالاشتراك في بعض الأوصاف، فقال الجمهور: هي هاهنا في كونها سبعاً وكونها طباقاً بعضُها فوق بعض، بين كلِّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ كما بين السماء والأرض، وفي كلِّ أرضٍ سكانٌ من خَلْقِ الله عزَّ وجلَّ، لا يعلمُ حقيقتهم إلا الله تعالى، وعن ابن عباس أنهم إما ملائكةٌ أو جِنٌّ، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وفي «الأسماء والصفات»[(٣)] من طريق أبي الضحى عنه أنه قال في الآية: سَبْعُ أرضين، في كلِّ أرضٍ نبيٌّ كنبيِّكم، وآدمُ كآدم، ونوحٌ كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال الذهبيُّ[(٤)]: إسناده صحيحٌ، ولكنه شاذٌّ بمرَّةٍ، لا أعلم لأبي الضُّحى عليه متابعاً. وذكر أبو حيان في «البحر»[(٥)] نحوه عن الحبر، وقال: هذا حديثٌ لا شكَّ في وَضْعه، وهو من رواية الواقديِّ الكذاب.

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٢٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٨، والبحر ٨/ ٢٨٧.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٣٨، وابن جرير ٢٣/ ٧٨، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦١، والحاكم ٢/ ٤٩٣، والأسماء والصفات (٨٣١) و(٨٣٢).

(٤) كذا في الأصل و(م)، وهو خطأ، والصواب: البيهقي. وكلامه في الأسماء والصفات (٨٣٢)، وكذا نقل عنه السيوطي في الدر.

(٥) ٨/ ٢٨٧.

وأقول: لا مانعَ عقلاً ولا شرعاً من صِحَّته، والمراد أنَّ في كلِّ أرضٍ خَلْقاً يرجعون إلى أصلٍ واحدٍ رجوعَ بني آدم في أرضنا إلى آدم عليه السلام، وفيه أفرادٌ ممتازون على سائرهم كنوحٍ وإبراهيمَ وغيرهما فينا.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه[١] عن ابن عمرو[٢] مرفوعاً أنَّ بين كلِّ أرضٍ والتي تليها خمسَ مئة عام، والعليا منها على ظهر حوتٍ قد التقى طرفاه في السماء، والحوتُ على صخرةٍ، والصخرةُ بيد مَلَك، والثانيةُ مَسْجَنُ الريح، والثالثةُ فيها حجارةُ جهنم، والرابعةُ فيها كبريتُها، والخامسةُ فيها حَيَّاتها، والسادسةُ فيها عقاربها، والسابعة فيها سَقَرٌ، وفيها إبليسُ مُصَفَّدٌ بالحديد، يدٌ أمامه ويدٌ خلفه، يُطلقه الله تعالى لمن يشاء. وهو حديثٌ منكرٌ كما قال الذهبيُّ، لا يُعوَّلُ عليه أصلاً، فلا تغترَّ بتصحيح الحاكم، ومثله في ذلك أخبارٌ كثيرةٌ في هذا الباب، لولا خوفُ الملل لذكرناها لك.

لكن كون ما بين كلِّ أَرْضَيْن خمس مئة سنة كما بين كلِّ سماءين، جاءَ في أخبارٍ معتبرةٍ كما روى الإمام أحمد والترمذيُّ عن أبي هريرة قال: بينما النبيُّ ﷺ جالسٌ وأصحابه، قال: «هل تدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الرقيعُ، سقفٌ محفوظٌ، وموجٌ مكفوفٌ»، قال: «هل تدرون ما بينكم وبينها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينكم وبينها خمس مئة عام»، ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «سماءٌ، وإنَّ بُعْدَ ما بينهما خمس مئة سنة» ثم قال كذلك حتى عدَّ سبعَ سماواتٍ، ما بين كلِّ سماءين ما بين السماء والأرض، ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «وإنَّ فوق ذلك العرشُ، بينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين» ثم قال: «هل تدرون ما تحتكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها الأرض»، ثم

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٨، ومستدرك الحاكم ٤/ ٥٩٤.

(٢) في الأصل و(م): عمر، والمثبت من المصادر، وهو الصواب؛ لأن عيسى بن هلال الصدفي - راوي الحديث - يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، لا عن ابن عمر، تنظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٣/ ٥٣.

قال: «هل تدرون ما تحت ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنَّ تحتَها أرضاً أخرى بينهما مسيرةُ خمس مئة سنة» حتى عَدَّ ﷺ سبعَ أَرَضِين ما بين كلِّ أَرْضَيْن خمس مئة سنة[١].

والأخبار في تقدير المسافة بما ذُكِرَ بين كلِّ سماءين أكثرُ من الأخبار في تقديرها بين كلِّ أرضين وأصحّ، ومنها ما هو مذكورٌ في «صحيح البخاري»[٢] وغيره من الصِّحاح، وفيها أيضاً أنَّ ثخن كلِّ سماء خمس مئة عام، فقول الرازي[٣] في ذلك: إنه غيرُ معتبَرٍ عند أهل التحقيق. كلامٌ لا يخفى بشاعتُهُ على مَنْ سَلَكَ من السُّنَّةِ أقومَ طريق، نعم ما حكاه من أنَّ السماءَ الأولى موجٌ مكفوف، والثانيةَ صَخْرٌ، والثالثةَ حديدٌ، والرابعةَ نحاسٌ، والخامسةَ فضةٌ، والسادسةَ ذهبٌ، والسابعةَ ياقوتٌ. ليس بمعتَبَرٍ أصلاً، ولم يَرِدْ بما تضمَّنه من التفصيل خبرٌ صحيحٌ، لكن في قوله: إنه مما يأباه العقلُ. إن أراد به نفيَ الإمكان عقلاً مَنْعٌ ظاهر.

وقال الضحاك: هي في كونها سبعاً بعضُها فوقَ بعضٍ، لا في كونها كذلك مع وجود مسافةٍ بين أرضٍ وأرض، واختاره بعضُهم زاعماً أنَّ المراد بهاتِيكَ السبع طبقةُ التراب الصِّرْفة المجاورة للمركز، والطبقة الطينية، والطبقة المعدنية التي يتكوَّنُ فيها المعادن، والطبقةُ الممتزجةُ بغيرها المنكشفةُ التي هي مسكنُ الإنسان ونحوه من الحيوان، وفيها ينبتُ النبات، وطبقة الأدخنة، والطبقة الزمهريرية، وطبقة النسيم الرقيق جدًّا، ولا يخفى أنه أشبه شيءٍ بالهَذَيان، ومثله ما يزعمه بعضُ الناظرين في كتب العلوم المسمَّاة بالحكمة الجديدة، من أنَّ الأرضَ انفصلت بسبب بعض الحوادثِ من بعض الأجرام العلوية صغيرةً، ثم تكوَّنت فوقَها طبقةٌ، وهكذا حتى صار المجموعُ سبعاً، وزعم أنهم شاهدوا بين كلِّ طبقةٍ وطبقةٍ آثاراً من مخلوقاتٍ مختلفة.

---

(١) أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢٨: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٢) لم نقف عليه في صحيحه.

(٣) في تفسيره ٣٠/ ٤٠.

وقال أبو صالح: هي في كونها سبعاً لا غير، فهي سَبْعُ أَرَضِين منبسطة، ليس بعضُها فوقَ بعضٍ، يُفَرِّقُ بينها البحار، ويُظِلُّ جميعَها السماء، وروي ذلك عن ابن عباس، فالنسبةُ بين أرضٍ وأرضٍ على هذا، نحو نسبة أمريقيا[١] إلى آسيا أو أوروبا أو أفريقيا، لكن قيل: إنَّ تلك البحار الفارقة لا يمكن قَطْعُها.

وقيل: هن[٢] الأقاليمُ السبعةُ، وهي مختلفةُ الحرارة والبرودة، والليل والنهار، إلى أمورٍ أُخَر. واختاره بعضُهم، ولا أظنُّه شيئاً؛ لأنَّ المتبادَرَ اعتبارُ انفصال أرضٍ عن أرضٍ انفصالاً حقيقيًّا في المِثْلية.

وقيل: المثليةُ في الخَلْقِ لا في العدد، ولا في غيره، فهي أرضٌ واحدةٌ مخلوقةٌ كالسماوات السبع، وأُيِّدَ بأنَّ الأرضَ لم تُذْكَرْ في القرآن إلا مُوحَّدة، ورُدَّ بأنه قد صحَّ من رواية البخاري وغيره: «اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظللنَ، وربَّ الأرضين السبع وما أقللنَ» الحديث[٣]، وكذا صحَّ: «مَنْ غَصَبَ قِيْدَ شِبْرٍ من أرضٍ طُوِّقَهُ من سبعِ أَرَضين»[٤].

وأصحُّ الأقوال ـ كما قال القرطبيُّ[٥] ـ قولُ الجمهور السابق، وعليه اختُلِفَ في مشاهدة أهل ما عدا هذه الأرض السماءَ، واستمدادِهم الضوءَ منها، فقيل: إنهم يُشاهدون السماءَ من كلِّ جانبٍ من أرضهم، ويستمدُّون الضياء منها. وقيل: إنهم لا يُشاهدون السماءَ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ خَلَقَ لهم ضياءً يشاهدونه.

وروى الإماميَّةُ عن بعض الأئمة نحواً مما قاله الجمهور، أخرج العياشيُّ بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا رضي الله عنه قال: بَسَطَ كَفَّهُ اليسرى، ثم وَضَعَ اليمنى عليها فقال: هذه الأرضُ الدنيا والسماءُ الدنيا عليها قُبَّة، والأرضُ

---

(١) أي: أمريكا.
(٢) في (م): من.
(٣) لم نقف عليه عند البخاري، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٣٠٢) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.
(٥) في تفسيره ٢١/ ٦٤.

الثانية فوقَ السماء الدنيا، والسماءُ الثانية فوقها قُبَّةٌ، والأرضُ الثالثةُ فوقَ السماء الثانية، والسماءُ الثالثة فوقها قُبَّة، حتى ذَكَرَ الرابعةَ والخامسةَ والسادسةَ، فقال: والأرضُ السابعةُ فوقَ السماء السادسة، والسماءُ السابعةُ فوقها قُبَّة، وعَرْشُ الرحمن فوقَ السماء السابعة، وهو قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إلخ[1].

وأنا أقول بنحو ما قاله الجمهور راجياً العِصْمةَ ممن على محور إرادته تدور أفلاك الأمور: هي سبعُ أَرَضِين، بين كلِّ أرضٍ وأرضٍ منها مسافةٌ عظيمةٌ، وفي كلِّ أرضٍ خَلْقٌ لا يعلمُ حقيقتهم إلا الله عزَّ وجلَّ، ولهم ضياءٌ يستضيؤون به، ويجوز أن يكون عندهم ليلٌ ونهارٌ، ولا يتعيَّنُ أن يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر، وقد غلب على ظنِّ أكثر أهل الحكمة الجديدة أنَّ القمرَ عالمٌ كعالم أرضنا هذه، وفيه جبالٌ وبحارٌ يزعمون أنهم يحسُّون بها بواسطة أرصادهم، وهم مُهتمُّون بالسَّعي في تحقيق الأمر فيه، فليكن ما نقولُ به من الأَرَضِين على هذا النحو، وقد قالوا أيضاً: إنَّ هذه الشمس في عالمٍ هي مركز دائرته، وبلقيسُ مملكته، بمعنى أنَّ جميعَ ما فيه من كواكبهم السيارة تدورُ عليها فيه على وجهٍ مخصوصٍ ونمطٍ مضبوط، وقد تقرُبُ إليها فيه، وتبعُدُ عنها إلى غايةٍ لا يعلمها إلا الله تعالى كواكبُ ذوات الأذناب، وهي عندهم كثيرةٌ جدًّا، تتحرَّكُ على شكلٍ بيضيٍّ، وأنَّ الشمسَ بعالمها من توابعِ كوكبٍ آخرَ، تدورُ عليه دوران توابعها من السيارات عليها، هو فيما نسمعُ أحدُ كواكب النجم، ولهم ظنٌّ في أنَّ ذلك أيضاً من توابع كوكبٍ آخر، وهكذا، ومُلْكُ الله تعالى العظيم عظيمٌ لا تكاد تُحيطُ به منطقةُ الفكر، ويضيقُ عنه نطاقُ الحَصْر، وسماءُ كلِّ عالمٍ ـ كالقمر ـ عندهم ما انتهى إليه هواؤه حتى صار ذلك الجِرْمُ في نحو خلاءٍ فيه، لا يعارضه ولا يُضعِفُ حركته شيءٌ، والجسمُ متى تحرَّكَ في خلاءٍ لا يسكنُ لعدمِ المعارض، فليكن كلُّ أرضٍ من هذه الأَرَضِين محمولةٌ بيد القدرة بين كلِّ سماءين على نحو ما سمعتَ عن الرضا على آبائه وعليه السلام، وهناك ما يستضيءُ به أهلها سابحاً في فَلَكٍ بحرِ قُدْرةِ الله عزَّ وجلَّ، ونسبةُ كلِّ أرضٍ إلى سمائها نسبةُ الحَلْقة إلى الفلاة، وكذا نسبةُ السماء إلى السماء التي فوقها.

---

(١) مجمع البيان ٢٨/ ١١٥.

ويمكن أن تكونَ الأَرَضُون وكذا السماوات أكثر من سبع، والاقتصارُ على العدد المذكور الذي هو عددٌ تامٌ لا يستدعي نفيَ الزائد، فقد صرَّحوا بأنَّ العدَد لا مفهومَ له، والسماء الدنيا منتهى دائرةٍ يتحرَّكُ فيها أعلى كوكب من السيارات، وبينها وبين هذه الأرض بُعْدٌ بعيد.

وقوله ﷺ: «خمس مئة عام» من باب التقريب للأفهام، ويُقرِّبُ الأمرَ إذا اعتُبر ذلك بالنسبة إلى الراكب المجدِّ، كما وقع في كثيرٍ من أخبارٍ فيها تقديرُ مسافة.

وقوله عليه الصلاة والسلام في السماء الدنيا: «موجٌ مكفوفٌ» يمكن أن يكونَ من التشبيه البليغ في اللَّطافة ونحوها، أو هو على حقيقته، والتنوينُ فيه للنوعية حتى يقومَ الدليلُ العقليُّ الصحيحُ على امتناعها، وتزيينُ هذه السماء بالكواكب لظهورها فيها على ما يُشاهَدُ، فلا يضرُّ في ذلك كونها كُلًّا أو بعضاً فوقها أو تحتها، ولم يقمْ دليلٌ على أنَّ شيئاً من الكواكب مغروزٌ في شيءٍ من السماوات كالفَصِّ في الخاتم، والمسمار في اللَّوح، بل في بعض الأخبار ما يدلُّ على خلافه.

نعم أكثرُ الأخبار في أمر السماوات والأرض والكواكب لا يُعوَّلُ عليها كما أشار إليه النسفيُّ في «بحر الكلام»، وكذا ما قاله قدماءُ أهل الهيئة ومُحدَثُوهم، وفي كلٍّ مما ذهب الفريقان إليه ما يوافقُ أصولنا وما يخالفه، وما شريعتنا ساكتةٌ عنه لم تتعرَّضْ له بنفي أو إثبات، وحيث كان من أصولنا أنه متى عارضَ الدليلُ العقليُّ الدليلَ السمعيَّ، وَجَبَ تأويلُ الدليلِ السمعيِّ للدليل العقليِّ؛ لأنه أصله، ولو أبطل به، لزمَ بطلانه نفسه، فالأمرُ سهلٌ لأنَّ بابَ التأويل أوسعُ من فَلَكِ الثوابت، ولا أرى بأساً في ارتكاب تأويلِ بعض الظواهر المستبعدة بما لا يستبعد، وإن لم يصل الاستبعادُ إلى حَدِّ الامتناع إذا تضمَّنَ ذلك مصلحةً دينيةً، ولم يستلزم مصادمةَ معلومٍ من الدين بالضرورة، وقد يلتزمُ الإبقاء على الظاهر وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لا يتعاصاها شيءٌ رعايةً لأذهان العوامِّ المقيَّدين بالظواهر، الذين يَعدُّون الخروجَ عنها لاسيما إلى ما يوافق الحكمةَ الجديدةَ ضلالاً محضاً، وكُفْراً صِرْفاً؛ ورحم الله تعالى امرءاً جَبَّ الغيبة عن نفسه.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الضُّرَيس وابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس في هذه الآية، قال: لو حدَّثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها[١].

وبالجملة مَنْ صَدَّقَ بسعة مُلْكِ الله تعالى وعظيم قدرته عزَّ وجلَّ، لا ينبغي أن يتوقَّفَ في وجود سَبْع أَرَضِين على الوجه الذي قدَّمناه، ويحمل السَّبع على الأقاليم أو على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما مما تقدم، وليس في ذلك ما يُصادِمُ ضروريًّا من الدين، أو يخالفُ قطعيًّا من أدلة المسلمين، ولعلَّ القولَ بذلك التعدُّد هو المتبادَرُ من الآية، وتقتضيه الأخبار، ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين، فلا يكفَّرُ منكرهُ، أو المتردِّدُ فيه، لكن لا أرى ذلك إلا عن جهلٍ بما هو الأليق بالقدرة، والأحرى بالعَظَمة، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُ الله تعالى وقضاؤه وقَدَرُهُ عزَّ وجلَّ بينهنَّ وينفذُ مُلْكه فيهنَّ.

وأخرج ابن المنذر وغيره[٢] عن قتادة قال: في كلِّ سماءٍ وفي كلِّ أرضٍ خَلْقٌ من خلقه تعالى، وأَمْرٌ من أمره، وقضاءٌ من قضائه عزَّ وجلَّ.

وقيل: «يتنزَّلُ الأمر» بينهنَّ بحياةٍ وموتٍ وغِنًى وفقر.

وقيل: هو ما يدبِّرهُ سبحانه فيهنَّ من عجيب تدبيره جلَّ شأنه.

وقال مقاتل وغيره: «الأمر» هنا الوحي، و«بينهنَّ» إشارةٌ إلى بين هذه الأرض التي هي أدناها وبين السماء السابعة.

والأكثرون على أنه القضاء والقَدَر كما سبق، وأنَّ «بينهن» إشارةٌ إلى بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها.

وقرأ عيسى وأبو عمرو في روايةٍ: «يُنزِّلُ» مضارع نزَّل مشدَّداً «الأمرَ» بالنصب[٣]، أي: يُنزِّلُ الله الأمرَ.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٨، وابن الضُّريس في فضائل القرآن (٣)، وابن جرير ٢٣/ ٧٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣٨، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٩.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢٤، والبحر ٨/ ٢٨٧.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ متعلِّقٌ بـ «خلق»، أو بـ «يتنزَّلُ»، أو بمضمرٍ يعمُّهما، أي: فَعَلَ ذلك لتعلموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذُكِرَ قادرٌ على كلِّ شيء، وقيل: التقدير: أخبرتكم أو أعلمتكم بذلك لتعلموا، وقرئ: «ليعلموا» بياء الغيبة[١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ لاستحالة صدور هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك.

---

(١) المصدران السابقان.

(٦٦) سورة التحريم مدنية وآياتها اثنتا عشرة

سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشؤون التشريعية وهي هنا تعالج قضايا وأحكاماً تتعلق « ببيت النبوة » وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات ، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة .

● **تناولت** السورة الكريمة في بدء الحديث تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته « مارية القبطية » على نفسه وامتناعه عن معاشرتها ارضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيّق على نفسه ما وسَّعه الله له ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك .. ﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** السورة أمراً على جانب كبير من الخطورة ألا وهو « إفشاء السر » الذي يكون بين الزوجين والذي يهدد الحياة الزوجية ، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسر الى حفصة بسر واستكتمها إياه فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع ، مما أغضب الرسول حتى همّ بتطليق أزواجه ﴿ وإذ أسّر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً .. ﴾ الآية .

● **وحملت** السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة على أزواج النبي

ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس وغيرة بعضهن من بعض لأمور يسيره وتوعدنهن بإبدال الله لرسول عليه السلام بنساء خير منهن إنتصاراً لرسول الله ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات ..﴾ الآية .

● **وختمت** السورة بضرب مثلين ، مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن ومثل للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد ولا ينفع حسب ولا نسب إذا لم يكن عمل الانسان صالحاً ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما – أي كفرتا بالله ولم تؤمنا – فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ..﴾ الآيات وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان .

سورة التحريم

[٩٥٥] أخرج الحاكم والنسائي بسند صحيح عن أنس أن رسول الله [ﷺ] كانت له أمة يطؤها فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾(١) الآية.

[٩٥٦] وأخرج الضياء في المختارة من حديث ابن عمر عن عمر قال: قال رسول الله [ﷺ] لحفصة: **«لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم عليّ حرام»** فلم يقربها حتى أخبرت عائشة فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾(٢) الآية.

[٩٥٧] ك.. وأخرج الطبراني بسند ضعيف من حديث أبي هريرة قال: دخل رسول الله [ﷺ] بمارية سريته بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه فقالت: يا رسول الله في بيتي دون بيوت نسائك فقال: **«فإنها عليّ حرام أن أمسها يا حفصة واكتمي هذا علي»**. فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾(٣) الآيات.

[٩٥٨] وأخرج البزار بسند صحيح عن ابن عباس قال نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾(٤) الآية في سريته.

[٩٥٩] وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله [ﷺ] يشرب عند سودة العسل فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً ثم دخل على حفصة فقالت: مثل ذلك فقال: **«أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه»** فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾(٥) الآية. وله شاهد في الصحيحين. قال الحافظ ابن حجر يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً.

---

[٩٥٥] (١) سورة التحريم: الآية (١).
[٩٥٦] (٢) سورة التحريم: الآية (٢).
[٩٥٧] (٣) سورة التحريم: الآية (١).
[٩٥٨] (٤) سورة التحريم: الآية (١).
[٩٥٩] (٥) سورة التحريم: الآية (١).

[٩٦٠] وأخرج ابن سعد عن عبدالله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾(١) قالت كانت عندي عكة من عسل أبيض فكان النبي [ﷺ] يلعق منها وكان يحبه فقالت له عائشة: نحلها بحرجي عرفطاً فحرمها فنزلت هذه الآية.

[٩٦١] ك.. وأخرج الحارث بن [أبي](٢) أسامة في مسنده عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح أنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾(٣) فأنفق عليه غريب جداً في سبب نزولها.

[٩٦٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾(٤) في المرأة التي وهبت نفسها للنبي [ﷺ] غريب أيضاً وسنده ضعيف.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] الآية.

[٩٦٣] تقدم سبب نزولها وهو قول عمر في سورة البقرة.

* * *

[٩٦٠] (١) سورة التحريم: الآية (١).
[٩٦١] (٢) سقط من الأصل.
(٣) سورة التحريم: الآية (٢).
[٩٦٢] (٤) سورة التحريم: الآية (١).

سورة التحريم

اثنتا عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ①﴾

أما التعلق بما قبلها، فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء، واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملاً على تحريم ما أحل الله، وأما الأول بالآخر، فلأن المذكور في آخر تلك السورة، يدل على عظمة حضرة الله تعالى، كما أنه يدل على كمال قدرته وكمال علمه، لما كان خلق السموات والأرض وما فيهما من الغرائب والعجائب مفتقرًا إليهما وعظمة الحضرة مما ينافي القدرة على تحريم ما أحل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ واختلفوا في الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه، قال في (الكشاف): روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة، فقال لها: «اكْتُمِي عَلَيَّ وَقَدْ حَرَّمْتُ مَارِيَةَ عَلَى نَفْسِي وَأُبَشِّرُكِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْلِكَانِ بَعْدِي أَمْرَ أُمَّتِي»، فأخبرت به عائشة، وكانتا متصادقتين، وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاها بذلك واستكتمها، فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه، ومكث تسعًا وعشرين ليلة في بيت مارية، وروي أن عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك، فنزل جبريل عليه السلام، وقال: راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة، وروي أنه ما طلقها وإنما نوه بطلاقها، وروي أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير، وكان رسول الله ﷺ يكره التفل فحرم العسل[(١)]، فمعناه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من ملك اليمين أو من العسل، والأول قول الحسن ومجاهد وقتادة والشعبي ومسروق ورواية ثابت عن أنس قال مسروق: حرم النبي ﷺ أم ولده وحلف أن لا يقربها فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)] فقيل له: أما الحرام فحلال، وأما اليمين التي حلفت عليها، فقد

---

(١) قلت الحديث أصله في الصحيحين أخرجه البخاري في (التفسير) باب (تفسير سورة التحريم) (٨/ ٥٢٤) حديث رقم (٤٩١٢) ومسلم في كتاب (الطلاق) باب (وجوب الكفارة) (٢/ ١١٠٠/ ٢٠) جميعًا من طريق ابن جريج . . . به.

(٢) **حسن**: أخرجه ابن جرير الطبري في (تفسيره) (٢٨/ ١٥٦) من طريق ابن علية قال حدثنا داود بن أبي هند . . . =

فرض الله لكم تحلة أيمانكم. وقال الشعبي: كان مع الحرام يمين فعوتب في الحرام، وإنما يكفر اليمين، فذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ [التحريم: ٢] الآية قال صاحب (النظم) قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والإنكار من الله تعالى نهي، وتحريم الحلال مكروه، والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ و﴿تَبْتَغِى﴾ حال خرجت مخرج المضارع والمعنى: لم تحرم مبتغيًا مرضات أزواجك قال في (الكشاف): ﴿تَبْتَغِى﴾، إما تفسير لتحرم، أو حال أو استئناف، وهذا زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد غفر لك ما تقدم من الزلة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك لم يؤاخذك به.

ثم في الآية مباحث:

البحث الأول: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب الوصف، وهو النبي ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم فكيف هو نقول: الظاهر أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن كما ينبغي.

البحث الثاني: تحريم ما أحل الله تعالى غير ممكن، لما أن الإحلال ترجيح جانب الحل والتحريم ترجيح جانب الحرمة، ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين فكيف يقال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾؟ نقول: المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حرامًا بعدما أحل الله تعالى فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالاً ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا.

البحث الثالث: إذا قيل: ما حكم تحريم الحلال؟ نقول: اختلفت الأئمة فيه فأبو حنيفة يراه يمينًا في كل شيء، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعامًا فقد حلف على أكله أو أمة فعلى وطئها أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن وكذلك إن نوى اثنين، وإن نوى ثلاثًا فكما نوى، فإن قال: نويت الكذب دين فيما بينه وبين ربه ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى ولا يراه الشافعي يمينًا، ولكن سببًا فِي الْكَفَّارَةِ في النساء وحدهن، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده، وأما اختلاف الصحابة فيه فكما هو في (الكشاف)، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك.

=به والبيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٣٥٢) حديث رقم (١٤٨٤٧) من طريق عبد الوهاب بن عطاء أخبرنا داود... به وهذا الإسناد مرسل من مراسيل والحديث جاء موصولاً من طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله عز وجل (... الآية) أخرجه النسائي في كتاب (عشرة النساء) باب (الغيرة) (٣/ ٧٤١) حديث رقم (٣٩٦٩) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٢٨) حديث رقم (١٩٤٢٠) من طريق داود عن الشعبي عن مسروق... به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝﴾

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال مقاتل: قد بين الله، كما في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النور: ١] وقال الباقون: قد أوجب، قال صاحب (النظم): إذا وصل بعلى لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين، وقوله تعالى: ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي تحليلها بالكفارة وتَحِلَّة على وزن تَفْعِلَة وأصله تَحْلِلَة وتحلة القسم على وجهين: أحدهما: تحليله بالكفارة كالذي في هذه الآية، وثانيهما: أن يستعمل بمعنى الشيء القليل، وهذا هو الأكثر كما روي في الحديث: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ إلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَم»[1] يعني زمانًا يسيرًا، وقرئ (كَفَّارَةَ أَيْمَانِكُمْ)، ونقل جماعة من المفسرين أن النبي ﷺ حلف أن لا يطأ جاريته فذكر الله له ما أوجب من كفارة اليمين، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الحرام يمين، يعني إذا قال: أنت علي حرام ولم ينو طلاقًا ولا ظهارًا كان هذا اللفظ موجبًا لكفارة يمين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي وليكم وناصركم وهو العليم بخلقه الحكيم فيما فرض من حكمه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك وقيل لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين تحريم الأَمَة على نفسه والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر، قاله ابن عباس، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي أخبرت به عائشة وأظهره الله عليه أطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي ﷺ حفصة عند ذلك ببعض ما قالت وهو قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ حفصة: ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ لم يخبرها أنك أخبرت عائشة على وجه التكرم والإغضاء، والذي أعرض عنه ذكر خلافة أبي بكر وعمر، وقرئ (عَرَفَ) مخففًا أي جازى عليه من قولك للمسيء لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ما صنعت قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣] أي يجازيهم وهو يعلم ما في قلوب الخلق أجمعين، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ﴾ حفصة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وصفه بكون خبيرًا بعد ما وصفه بكونه عليمًا لما أن في الخبير من المبالغة ما ليس في العليم، **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: كيف يناسب قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان) باب (قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]) (١١/ ٥٥٠) حديث رقم (٦٦٥٦) قال: حدثنا إسماعيل ومسلم في كتاب (البر) باب (فضل من يموت له ولد فيحتسبه) (٤/ ١٥٠/ ٢٠٢٨) قال: حدثنا يحيى بن يحيى جميعًا (إسماعيل، يحيى، قتيبة) عن مالك... به.

لَكَ﴾[التحريم: ١] ؟ نقول: يناسبه لما كان تحريم المرأة يمينًا حتى إذا قال لامرأته: أنت علي حرام فهو يمين ويصير موليًا بذكره من بعد ويكفر.

البحث الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنه كانت منه يمين فهل كفر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك؟ نقول: عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفورًا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين، وعن مقاتل أنه أعتق رقبة في تحريم مارية.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما والتوبة من التعاون على رسول الله ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي عدلت ومالت عن الحق، وهو حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق العتاب بأدنى تقصير وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير: كان خيرًا لكما، والمراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ التثنية، قال الفراء: وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان في الإنسان كاليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على ذلك ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الاثنين، وقد مر هذا، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تعاونا على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي لم يضره ذلك التظاهر منكما و﴿مَوْلَىٰهُ﴾ أي وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رأس الكروبيين، قرن ذكره بذكره مفردًا له من الملائكة تعظيمًا له وإظهارًا لمكانته عنده ﴿وَصَٰلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال ابن عباس: يريد أبا بكر وعمر مواليين النبي ﷺ على من عاداه، وناصرين له، وهو قول المقاتلين، وقال الضحاك خيار المؤمنين، وقيل من صلح من المؤمنين، أي كل من آمن وعمل صالحًا، وقيل: من برئ منهم من النفاق، وقيل: الأنبياء كلهم، وقيل: الخلفاء، وقيل: الصحابة، وصالح هاهنا ينوب عن الجمع، ويجوز أن يراد به الواحد والجمع، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد حضرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي فوج مظاهر للنبي ﷺ، وأعوان له وظهير في معنى الظهراء، كقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩] قال الفراء: والملائكة بعد نصرة هؤلاء ظهير، قال أبو علي: وقد جاء فعيل مفردًا يراد به الكثرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[المعارج: ١٠-١١] ثم خوف نساءه بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ قال المفسرون: عسى من الله واجب، وقرأ أهل الكوفة ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ بالتخفيف، ثم إنه تعالى كان عالمًا أنه لا يطلقهن لكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدله خيرًا منهن تخويفًا لهن،

والأكثر في قوله: ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾ الإظهار، وعن أبي عمرو إدغام القاف في الكاف، لأنهما من حروف الفم، ثم وصف الأزواج اللاتي كان يبدله فقال: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي خاضعات لله بالطاعة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات بتوحيد الله تعالى مخلصات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ طائعات، وقيل: قائمات بالليل للصلاة، وهذا أشبه لأنه ذكر السائحات بعد هذا والسائحات الصائمات، فلزم أن يكون قيام الليل مع صيام النهار، وقرئ (سَيِّحَاتٍ)، وهي أبلغ وقيل للصائم: سائح لأن السائح لا زاد معه، فلا يزال ممسكًا إلى أن يجد من يطعمه فشبه بالصائم الذي يمسك إلى أن يجيء وقت إفطاره، وقيل: سائحات: مهاجرات، ثم قال تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأن أزواج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة بعضها من الثيب وبعضها من الأبكار، فالذكر على حسب ما وقع، وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي ﷺ ليس على حسب الشهوة والرغبة، بل على حسب ابتغاء مرضات الله تعالى.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: قوله ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم، وقرئ (تَظَّاهَرا) و(تَتَظَاهَرا) و(تَظَّهَّرا).

البحث الثاني: كيف يكون المبدلات خيرًا منهن، ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟ نقول: إذا طلقهن الرسول لعصيانهن له، وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله خيرًا منهن.

البحث الثالث: قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ يوهم التكرار، والمسلمات والمؤمنات على السواء؟ نقول: الإسلام هو التصديق باللسان والإيمان هو التصديق بالقلب، وقد لا يتوافقان فقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ تحقيق للتصديق بالقلب واللسان.

البحث الرابع: قال تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ بواو العطف، ولم يقل: فيما عداهما بواو العطف، نقول: قال في (الكشاف): إنهما صفتان متنافيتان، لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات. فلم يكن بد من الواو.

البحث الخامس: ذكر الثيبات في مقام المدح وهي من جملة ما يقلل رغبة الرجال إليهن. نقول: يمكن أن يكون البعض من الثيب خيرًا بالنسبة إلى البعض من الأبكار عند الرسول لاختصاصهن بالمال والجمال، أو النسب، أو المجموع مثلاً، وإذا كان كذلك فلا يقدح ذكر الثيب في المدح لجواز أن يكون المراد مثل ما ذكرناه من الثيب.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾

﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي بالانتهاء عما نهاكم الله تعالى عنه، وقال مقاتل: أن يؤدب المسلم نفسه

وأهله، فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، وقال في (الكشاف): ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به أنفسكم، وقيل: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ مما تدعو إليه أنفسكم إذ الأنفس تأمرهم بالشر، وقرئ: (وأهلوكم) عطفًا على واو ﴿قُوٓاْ﴾ وحسن العطف للفاصل، و﴿نَارًا﴾ نوعًا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة، وعن ابن عباس هي حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًّا إذا أوقد عليها، وقرئ: ﴿وَقُودُهَا﴾ بالضم، وقوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ في أجرامهم غلظة وشدة أي جفاء وقوة، أو في أفعالهم جفاء وخشونة، ولا يبعد أن يكونوا بهذه الصفات في خلقهم، أو في أفعالهم بأن يكونوا أشداء على أعداء الله، رحماء على أولياء الله كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ يدل على اشتدادهم لمكان الأمر، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله تعالى والانتقام من أعدائه، وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ لما ذكر شدة العذاب بالنار، واشتداد الملائكة في انتقام الأعداء، فقال: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي يقال لهم: لا تعتذروا اليوم إذ الاعتذار هو التوبة، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول في النار، فلا ينفعكم الاعتذار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني إنما أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب في الحكمة **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: أنه تعالى خاطب المشركين في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ وقال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] جعلها معدة للكافرين، فما معنى مخاطبته به المؤمنين؟ نقول: الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار، فإنهم مع الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ باجتناب الفسق ومجاورة الذين أعدت لهم هذه النار، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد.

البحث الثاني: كيف تكون الملائكة غلاظًا شدادًا وهم من الأرواح، فنقول: الغلظة والشدة بحسب الصفات لما كانوا من الأرواح لا بحسب الذات، وهذا أقرب بالنسبة إلى الغير من الأقوال.

البحث الثالث: قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ في معنى قوله: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فما الفائدة في الذكر فنقول: ليس هذا في معنى ذلك لأن معنى الأول أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا ينكرونها، ومعنى الثاني أنهم يُؤَدُّونَ ما يؤمرون به كذا ذكره في (الكشاف).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ

ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

قوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي توبة بالغة في النصح، وقال الفراء: نصوحًا من صفة التوبة والمعنى توبة تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم، وعن عاصم: (نُصُوحًا) بضم النون، وهو مصدر نحو العُقُود، يقال: نصحت له نصحًا ونصاحة ونصوحًا، وقال في (الكشاف): وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، وهو أن يتوبوا عن القبائح نادمين عليها غاية الندامة لا يعودون، وقيل: من نصاحة الثوب، أي خياطته و﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إطماع من الله تعالى لعباده.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ نصب بيدخلكم، و﴿لَا يُخْزِى﴾ تعريض لمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسق واستحماد للمؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم، ثم المعتزلة تعلقوا بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ وقالوا: الإخزاء يقع بالعذاب، فقد وعد بأن لا يعذب الذين آمنوا، ولو كان أصحاب الكبائر من الإيمان لم نخف عليهم العذاب، وأهل السنة أجابوا عنه بأنه تعالى وعد أهل الإيمان بأن لا يخزيهم، والذين آمنوا ابتداء كلام، وخبره ﴿يَسْعَىٰ﴾، أو ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾، ثم من أهل السنة من يقف على قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي لا يخزيه في رد الشفاعة، والإخزاء الفضيحة، أي لا يفضحهم بين يدي الكفار، ويجوز أن يعذبهم على وجه لا يقف عليه الكفرة، وقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي عند المشي ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عند الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير، ويسعى النور بين أيديهم في موضع وضع الأقدام وبأيمانهم، لأن خلفهم وشمالهم طريق الكفرة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ قال ابن عباس: يقولون ذلك عند إطفاء نور المنافقين إشفاقًا، وعن الحسن: أنه تعالى متمم لهم نورهم، ولكنهم يدعون تقربًا إلى حضرة الله تعالى، كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وهو مغفور، وقيل: أدناهم منزلة من نوره بقدر ما يبصر مواطئ قدمه، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه، وقيل: السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط، وبعضهم كالريح، وبعضهم حبوًا وزحفًا، فهم الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ قاله في (الكشاف)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكر المنافقين مع أن لفظ الكفار يتناول المنافقين ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي شدد عليهم، والمجاهدة قد تكون بالقتال، وقد تكون بالحجة تارة باللسان، وتارة بالسنان، وقيل: جاهدهم بإقامة الحدود عليهم، لأنهم هم المرتكبون الكبائر، لأن أصحاب الرسول عصموا منها ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وقد مر بيانه.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: كيف تعلق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما سبق وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ٧]؟ فنقول: نبههم تعالى على دفع العذاب في ذلك اليوم بالتوبة في هذا اليوم، إذ في ذلك اليوم لا تفيد، وفيه لطيفة: وهي أن التنبيه على الدفع بعد الترهيب فيما مضى يفيد الترغيب بذكر أحوالهم والإنعام في حقهم وإكرامهم.

البحث الثاني: أنه تعالى لا يخزي النبي في ذلك اليوم ولا الذين آمنوا، فما الحاجة إلى قوله ﴿مَعَهُۥ﴾؟ فنقول: هي إفادة الاجتماع، يعني لا يخزي الله المجموع الذي يسعى نورهم وهذه فائدة عظيمة، إذ الاجتماع بين الذين آمنوا وبين نبيهم تشريف في حقهم وتعظيم.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ يوهم أن الذنب لازم لكل واحد من المؤمنين والذنب لا يكون لازمًا، فنقول: يمكن أن يكون طلب المغفرة لما هو اللازم لكل ذنب، وهو التقصير في الخدمة والتقصير لازم لكل واحد من المؤمنين.

البحث الرابع: قال تعالى في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[التحريم: ١] ومن بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه كقوله لآدم: يا آدم، ولموسى: يا موسى ولعيسى: يا عيسى، نقول: خاطبه بهذا الوصف، ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر.

البحث الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدل على أن مصيرهم بئس المصير مطلقًا إذ المطلق يدل على الدوام، وغير المطلق لا يدل لما أنه يطهرهم عن الآثام.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي بين حالهم بطريق التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم وبين نبيهم وإنكارهم للرسول ﷺ، فيما جاء به من عند الله وإصرارهم عليه، وقطع العلائق، وجعل الأقارب من جملة الأجانب بل أبعد منهم وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيًّا كحال امرأة نوح ولوط، لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان وقيل لهما في اليوم الآخر ادخلا النار ثم بيَّن حال المسلمين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم كحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة ظالم من أعداء الله تعالى، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة، والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفارًا، وفي ضمن

هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين، وهما حفصة وعائشة لما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر، وضرب مثلاً آخر في امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت قصة إلقاء موسى عصاه، وتلقف العصا، فعذبها فرعون عذابًا شديدًا بسبب الإيمان، وعن أبي هريرة أنه وتدها بأربعة أوتاد، واستقبل بها الشمس، وألقى عليها صخرة عظيمة، فقالت: رب نجني من فرعون فرقى بروحها إلى الجنة، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، قال الحسن. رفعها إلى الجنة تأكل فيها وتشرب، وقيل: لما قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ رأت بيتها في الجنة يبنى لأجلها، وهو من درة واحدة، والله أعلم كيف هو وما هو؟

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: ما فائدة قوله تعالى ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ ؟ نقول: هو على وجهين: أحدهما: تعظيمًا لهم كما مر، الثاني: إظهارًا للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عنده إلا بالصلاح.

البحث الثاني: ما كانت خيانتهما؟ نقول: نفاقهما وإخفاؤهما الكفر، وتظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه إنه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف إبراهيم، ولا يجوز أن تكون خيانتهما بالفجور، وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط، وقيل: خيانتهما في الدين.

البحث الثالث: ما معنى الجمع بين ﴿عِندَكَ﴾ و﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ؟ نقول: طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها: ﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ أو أرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش.

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

أحصنت أي عن الفواحش لأنها قذفت بالزنا. والفرج حمل على حقيقته، قال ابن عباس: نفخ جبريل في جيب الدرع ومده بأصبعيه ونفخ فيه، وكل ما في الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج، وقيل: ﴿أَحْصَنَتْ﴾ تكلفت في عفتها، والمحصنة العفيفة: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فرج ثوبها، وقيل: خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في عيسى، ومن قرأ (فِيهَا) أي في نفس عيسى والنفث مؤنث، وأما التشبيه بالنفخ فذلك أن الروح إذا خلق فيه انتشر في تمام الجسد كالريح إذا نفخت في شيء، وقيل: بالنفخ لسرعة دخوله فيه نحو الريح وصدقت بكلمات ربها. قال مقاتل: يعني بعيسى، ويدل عليه قراءة الحسن (بِكَلِمَةِ رَبِّهَا) وسمي عيسى (كَلِمَةَ اللَّهِ) في مواضع من القرآن. وجمعت تلك الكلمة هنا، وقال أبو علي الفارسي: الكلمات الشرائع التي شرع لها دون القول، فكأن المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ

بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه، وقرئ (كَلِمَةِ) و(كَلِمَاتِ)، و(كُتُبِهِ) و(كِتَابِهِ)، والمراد بالكتاب هو الكثرة والشياع أيضًا قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الطائعين قاله ابن عباس، وقال عطاء: من المصلين.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: ما كلمات الله وكتبه؟ نقول: المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وبكتبه الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله تعالى به ملائكته وما كتبه في اللوح المحفوظ وغيره، وقرئ: (بكلمة الله وكتابه) أي بعيسى وكتابه وهو الإنجيل، فإن قيل: لم قِيلَ ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ على التذكير، نقول: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه، ومن للتبعيض، قاله في (الكشاف)، وقيل: من القانتين لأن المراد هو القوم، وأنه عام، كـ ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] أي كوني من المقيمين على طاعة الله تعالى، ولأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام.

وأما ضرب المثل بامرأة نوح المسماة بواعلة، وامرأة لوط المسماة بواهلة، فمشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى، منها التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم، والعذاب الأليم، ومنها العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصلح، ومنها أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتي نوح ولوط، ومنها العلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة، كما أفاد مريم بنت عمران، كما أخبر الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومنها التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب، وإليه المرجع والمآب، جلت قدرته وعلت كلمته، لا إله إلا هو وإليه المصير، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه وسلم.

سورة التحريم

مَدَنِيَّةٌ في قول الجميع، وهي اثنتا عشرة آية. وتسمَّى سورة النَّبيِّ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ ثبت في «صحيح مسلم»[2] عن عائشة رضي اللهُ عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَمكثُ عند زينب بنتِ جَحْش، فيشربُ عندها عَسَلاً؛ قالت: فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيَّتَنا ما دخَل عليها رسولُ الله ﷺ فلتقلْ: إني أجدُ منك رِيحَ مَغَافِير! أَكَلْتَ مَغَافِير؟ فدخَل على إحداهما فقالت له ذلك. فقال: «بل شربتُ عسلاً عند زينب بنتِ جحش ولن أعودَ له». فنزَل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائشة وحفصة. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: «بل شربتُ عسلاً».

وعنها أيضاً[3] قالت: كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ الحَلْواء والعسلَ، فكان إذا صلَّى العصرَ دار على نسائه فيَدْنُو منهنَّ؛ فدخل على حفصة، فاحتَبَس عندها أكثرَ مما يَحتبِس؛ فسألتُ عن ذلك فقيل لي: أهدتْ لها امرأة من قومها عُكَّةً من عسلٍ، فسقتْ رسولَ الله ﷺ منه شَرْبَةً. فقلتُ: أمَا واللَّهِ لَنَحْتَالَنَّ له، فذكرتُ ذلك لسَوْدةَ، وقلت: إذا دخَل عليكِ فإنه[4] سَيَدْنُو منكِ، فقولي له: يا رسولَ الله، أكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فإنه

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٨ ، والكشاف ٤/ ١٢٤ .

(٢) برقم (١٤٧٤) (٢٠)، وهو عند الإمام أحمد (٢٥٨٥٢)، والبخاري (٤٩١٢) و(٥٢٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦٨) و(٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤): (٢١). وما بين حاصرتين منهما.

(٤) بدلها (ظ): رسولُ الله ﷺ.

سيقولُ لكِ: لا. فقولي [له]: ما هذه الريحُ؟ ـ وكان رسولُ الله ﷺ يَشتدُّ عليه أن يُوجدَ منه الريحُ ـ فإنه سيقولُ لكِ: سقَتْني حَفْصَةُ شَرْبَةَ عسلٍ. فقولي له: جَرَسَتْ نَحلُه العُرْفُطَ. وسأقول ذلك له، وقوليهِ أنتِ يا صفِيَّةُ. فلما دخَل على سَوْدَةَ ـ قالت: تقول سَوْدَةُ: واللَّهِ الذي لا إلهَ إلا هو لقد كِدْتُ أن أبادِئَه بالذي قلتِ لي وإنه لَعلى الباب، فَرَقاً منكِ. فلما دنا رسولُ اللهِ ﷺ قالت: يا رسولَ الله، أكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الريحُ؟ قال: «سَقَتْني حَفْصَةُ شَرْبَةَ عسلٍ» قالت: جَرَسَتْ نَحْلُه الْعُرْفُطَ. فلما دخلَ عليَّ قلتُ له مثلَ ذلك. ثم دخَل على صَفِيَّة فقالت بمثل ذلك. فلما دخلَ على حَفْصَة قالت: يا رسولَ الله، ألا أَسقيك منه. قال: «لا حاجةَ لي به» قالت: تقول سَوْدَةُ: سبحان الله! [واللهِ] لقد حَرَمْناه. قالت: قلتُ لها: اسكتي.

ففي هذه الرواية أنَّ التي شرب عندها العسلَ حفصة. وفي الأولى زينب. وروى ابنُ أبي مليكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة[(١)].

وقد قيل: إنما هي أمُّ سلَمة؛ رواه أسباط عن السُّدِّيِّ[(٢)]. وقاله عطاء بن أبي مسلم.

ابن العربي[(٣)]. وهذا كلُّه جهلٌ أو تصوُّر بغير علم.

فقال باقي نسائه حَسَداً وغَيْرَةً لمن شرب ذلك عندها: إنا لَنجِد منك ريحَ المغافير. والمغافِير: بقلةٌ أو صمغة متغيرةُ الرائحة، فيها حلاوة. واحدها مُغْفُور، وجَرَست: أكلت. والعُرْفُطَ: نبتٌ له ريحٌ كريح الخمر[(٤)]. وكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/١١٧ (١١٢٢٦) به، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٤٦٨ عن ابن أبي مليكة أن سودة...، قال الحافظ ابن حجر في الفتح٩/ ٣٧٦: والراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٩. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٣٧٧ : وهو مرجوح لإرساله وشذوذه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٣ .

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٣/ ٣٤٦، وإكمال المعلم ٥/ ٢٧، والنهاية (عرفط ـ غفر ـ جرس).

يُعجِبه أن يُوجدَ منه الريحُ الطيبةُ أو يجدها[١]، ويكره الريح الخبيثةَ؛ لمناجاة المَلَك[٢].

فهذا قول. وقول آخر: ـ إنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نَفْسَها للنبيّ ﷺ، فلم يَقبلها لأجل أزواجِه؛ قاله ابن عباس وعِكرمة[٣]. والمرأة أمُّ شريك[٤].

وقول ثالث: إن التي حرَّم مارية القبطية ـ وكان قد أهداها له المُقَوْقِس ملك الإسكندرية. قال ابن إسحاق[٥]: هي من كُورة أنْصِنا من بلدٍ يقال له: حَفْن[٦] ـ فواقعها في بيت حفصة. روى الدَّارَ قُطْنِيُّ[٧] عن ابن عباس، عن عمر قال: دخَل رسولُ الله ﷺ بأمِّ ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها ـ وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها[٨] ـ فقالت له: تُدخلها بيتي! ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا مِن هَواني عليك. فقال لها: «لاتَذْكُرِي هذا لعائشة. فهي عليَّ حرامٌ إن قَرُبْتُها»، قالت حفصة: وكيف تحرّم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها ألا يَقْرَبها. فقال النبيُّ ﷺ لحفصة[٩]: «لا تذكريه لأحدٍ». فذكرته لعائشة، فآلَى لا يدخل على نسائه شهراً، فاعتزلهنَّ تسعاً وعشرين ليلةً؛ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ الآية.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠٠٣)، وأبو داود (٤٠٧٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، بلفظ: وكان يحب الريح الطيبة.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٩، والكلام بنحوه في مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ١١٩.

(٣) المصدر السابق، عن ابن عباس.

(٤) واسمها غزية أو غزيلة، سلفت قصتها والخلاف في التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ١٧/ ١٢٥ و١٨٢-١٨٣.

(٥) كما في السيرة النبوية ١/ ١٩١.

(٦) هي من قرى أَنْصِنا، وأنصنا هذه من نواحي الصعيد على شرقي النيل. ينظر معجم البلدان ١/ ٢٦٥ و٢/ ٢٧٦.

(٧) في سننه (٤٠١٣). وفي سنده عبد الله بن شبيب، قال فيه الذهبي في الميزان ٢/ ٤٣٨: أخباري علّامة، لكنه واه. قال أبو أحمد الحاكم: ذاهب الحديث اهـ.

(٨) قوله: وكانت حفصة غابت في بيت أبيها، من (خ) و(م).

(٩) لفظة: لحفصة من (خ) وسنن الدارقطني. وجاءت العبارة في (ز) و(ظ) و(ف): فقال لها النبي ﷺ...

الثانية: أصحُّ هذه الأقوال أوَّلُها. وأضعفها أوسطها. قال ابن العربي(١): أما ضعفُه في السند فلعدمِ عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبيِّ ﷺ للموهوبة ليس تحريماً لها؛ لأن مَن رَدَّ ما وُهِب له لم يَحْرم عليه، إنما حقيقةُ التحريم بعد التحليل.

وأما من روى أنه حَرَّم مارية القبطيةَ فهو أمثل في السند، وأقرب إلى المعنى؛ لكنه لم يدوَّن في الصحيح، ورُوي مرسلاً: وقد روى ابن وهب، عن مالك، عن زيد ابن أسلم قال: حرَّم رسولُ الله ﷺ أمَّ إبراهيم فقال: «أنتِ عليَّ حرامٌ واللَّهِ لا آتينَّكِ(٢)». فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾(٣) وروى مثله ابنُ القاسم عنه(٤). وروى أشهب عن مالك قال: راجعتْ عمرَ امرأةٌ له من الأنصار في شيء، فاقشعرَّ من ذلك، وقال: ما كان النساءُ هكذا! قالت: بلى، وقد كان أزواجُ النبيِّ ﷺ يُراجعنه. فأخذ ثوبَه فخرَج إلى حَفْصة فقال لها: أتُراجعين رسولَ اللهِ ﷺ؟ قالت: نعم، ولو أعلم أنك تَكْرَه ما فعلتُ. فلمَّا بلغ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هَجَرَ نساءه قال: رَغِمَ أنْفُ حفصةَ(٥).

وإنّما الصحيحُ أنه كان في العسل وأنه شَرِبه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، وجرَى ما جرَى فحلف ألَّا يشربَه وأسرَّ ذلك. ونزلت الآيةُ في الجميع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إن كان النبيُّ ﷺ حرَّم ولم يَحلِف فليس ذلك

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٣ .

(٢) في النسخ عدا (د) و(م): لا آتيك.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ بلفظ: «... وواللهِ لا أطؤك».

(٤) في المدونة ٢/ ٣٩٥

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٣ - ١٨٣٤ ، ولم نقف عليه عند غيره من حديث مالك، وأخرج نحوه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) (٣١) و(٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه عند البخاري: ... فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم... فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني... وذكره، وسيذكره المصنف ١٨/ ١٨٩ وما بعد.

بيمين عندنا. ولا يُحرِّم قولُ الرجل: «هذا عليَّ حرام» شيئاً حاشا الزوجةَ. وقال أبو حنيفة: إذا أُطلقَ حُمل على المأكول والمشروب دون الملبوس، وكانت يميناً تُوجب الكفارة. وقال زُفَر: هو يمين في الكلّ حتى في الحركة والسكون. وعوَّل المخالفُ على أن النبيَّ ﷺ حرَّم العسل فلزمته الكفارة. وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فسمَّاه يميناً. ودليلُنا قول اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. فذمَّ اللهُ المحرِّمَ للحلال، ولم يوجب عليه كفارة[١].

قال الزجاج[٢]: ليس لأحدٍ أن يحرِّم ما أحلَّ اللهُ. ولم يجعل لنبيِّه ﷺ أن يحرِّم إلا ما حرَّم اللهُ عليه. فمن قال لزوجته أو أمتِه: أنتِ عليَّ حرام؛ ولم يَنْوِ طلاقاً ولا ظِهاراً فهذا اللفظُ يوجب كفارةَ اليمين[٣]. ولو خاطب بهذا اللفظ جمعاً من الزوجاتِ والإماء فعليه كفارةٌ واحدة. ولو حرَّم على نفسه طعاماً أو شيئاً آخر لم يَلزمه بذلك كفارةٌ عند الشافعيّ ومالك. وتجب بذلك كفارةٌ عند ابن مسعود والثَّوْرِيّ وأبي حنيفة[٤].

الرابعة: واختلف العلماءُ في الرجل يقول لزوجته: «أنت عليَّ حرام» على ثمانية عشر قولاً:

أحدها: لا شيء عليه. وبه قال الشعبيُّ ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأَصْبغ. وهو عندهم كتحريم الماء والطعام[٥]؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٤.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٣ .

(٤) الكلام بنحوه في إكمال المعلم ٥/ ٢٧ ، والمفهم ٤/ ٢٥٠ .

(٥) إكمال المعلم ٥/ ٢٧ ، والمفهم ٤/ ٢٤٨ .

﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧] والزوجة من الطيبات ومما أحلَّ الله. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦]. وما لم يحرِّمه اللهُ فليس لأحدٍ أن يحرِّمه، ولا أن يَصير بتحريمه حراماً. ولم يَثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لِما أحلَّه اللهُ: هو عليَّ حرام. وإنما امتنع من ماريةَ ليمين تقدَّمت منه وهو قوله: «واللهِ لا أقربُها بعد اليوم»[1] فقيل له: لم تحرِّم ما أحلَّ اللهُ لك؟ أي: لِمَ تمتنع منه بسبب اليمين؟ يعني: اقْدم عليه وكَفِّر[2].

وثانيها: أنها يمين يكفرها؛ قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبدُ الله بن مسعود[3] وابن عباس[4] وعائشة[5] رضي اللهُ عنهم. وبه قال[6] الأوزاعيُّ؛ وهو مقتضى الآيةِ.

قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: إذا حَرَّم الرجلُ عليه امرأته فإنما هي يمين يُكفِّرها.

وقال ابن عباس: لقد كان لكم في رَسُول اللَّه أُسْوَةٌ حَسَنة؛ يعني أن النبيَّ ﷺ كان حرَّم جاريته فقال الله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٨٦ عن زيد بن أسلم أن النبي ﷺ...، وسلف بنحوه ص٦٩ من هذا الجزء.

(٢) الكشاف ٤/ ١٢٦ .

(٣) أخرجه عنهم سعيد بنُ منصور في سننه (١٦٩٥)، وابن أبي شيبة ٥/ ٧٤ من طريق جويبر عن الضحاك أن أبا بكر وعمر وابن مسعود قالوا في الحرام يمين. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧٥: إسناده ضعيف ومنقطع .

وأخرجه أيضاً الإمام أحمد (١٩٧٦)، والدارقطني (٤٠٠٧) عن عكرمة أن عمر قال: الحرام يمين تكفِّرها. وفيه انقطاع أيضاً؛ عكرمة لم يدرك عمر ﷺ.

(٤) أخرجه عنه البخاري في صحيحه (٤٩١١)، ومسلم (١٤٧٣) .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ٧٣ ، والبيهقي ٧/ ٣٥١ عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) لفظة: به قال. من (ظ). وذكر قوله ابنُ العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٥ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٠ .

لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ فكفَّر عن يمينه وصيَّر الحرام يميناً. خرَّجه الدَّارَقُطْنيُ[(١)].

وثالثها: أنها تجب فيها كفارةٌ وليست بيمين؛ قاله ابن مسعود وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه، والشافعيُّ في أحد قوليه[(٢)]، وفي هذا القول نظرٌ. والآية تردُّه على ما يأتي.

ورابعها: هي ظِهار؛ ففيها كفارة الظِّهار، قاله عثمان وأحمد بن حنبل وإسحاق[(٣)].

وخامسها: أنه إن نوى الظِّهارَ وهو ينوي أنها محرَّمة كتحريم ظَهرِ أُمِّه كان ظِهاراً. وإن نوى تحريمَ عَيْنها عليه بغير طلاقٍ تحريماً مطلقاً وجبت كفَّارةُ يمين. وإن لم ينو شيئاً فعليه كفارة يمين، قاله الشافعيُّ[(٤)].

وسادسها: أنها طلقة رجعية، قاله عمر بن الخطاب والزُّهْرِيُّ وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجِشُون[(٥)].

وسابعها: أنها طلقة بائنة؛ قاله حماد بن سلمة[(٦)] وزيد بن ثابت. ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك[(٧)].

---

(١) برقم (٤٠٠٨)، وهو من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهونفسه حديث البخاري (٤٩١١)، ومسلم (١٤٧٣)، والسالف آنفاً.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥ .

(٣) المصدر السابق، وذكره عن إسحاق القاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٢٧ ، وأبو العباس في المفهم ٤/ ٢٤٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٦ .

(٥) وقع في (م) و(د) و(ظ) و(ف): وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماجشون. وفي (ق): والماجشون. والمثبت من (خ)وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥. وهو الصواب والله أعلم. وذكر هذا القول عن عبد العزيز بن أبي سلمة ـ أيضاً ـ القاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٢٤ ، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٢٤٩ .

(٦) في والنسخ عدا (ظ): حماد بن أبي سليمان. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥ .

(٧) هو عن زيد في الكشاف ٤/ ١٢٦ ، وعن ابن خويزمنداد عن مالك في أحكام القرآن لابن العربي، وإكمال المعلم ٥/ ٢٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٠ ، والمفهم ٤/ ٢٤٩ .

وثامنها: أنها ثلاث تطليقات، قاله علي بنُ أبي طالب وزيد بن ثابت أيضاً وأبو هريرة[١].

وتاسعها: هي في المدخول بها ثلاث، ويُنوى في غير المدخول بها، قاله الحسن وعلي بن زيد والحكم. وهو مشهور مذهب مالك[٢].

وعاشرها: هي ثلاث؛ ولا يُنوى بحالٍ ولا في محل وإن لم يدخل بها[٣]، قاله عبد الملك في المبسوط، وبه قال ابن أبي لَيْلى[٤].

وحادي عشرها: هي في التي لم يَدخل بها واحدة، وفي التي دخل بها ثلاثٌ؛ قاله أبو مصعب ومحمد بنُ عبد الحكم[٥].

وثاني عشرها: أنه إن نوى الطلاقَ أو الظِّهار كان ما نَوَى. فإنْ نوى الطلاقَ فواحدة بائنة إلا أن ينويَ ثلاثاً. فإن نوى اثنتين فواحدة. فإن لم ينو شيئاً كانت يميناً، وكان الرجلُ مُولِياً من امرأته؛ قاله أبو حنيفة وأصحابُه. وبمثله قال زُفَر؛ إلا أنه قال: إذا نوى اثنتين ألزمناه[٦].

وثالث عشرها: أنه لا تنفعه نِيَّةُ الظِّهار، وإنما يكون طلاقاً؛ قاله ابن القاسم.

ورابع عشرها: قال يحيى بن عمر: يكون طلاقاً؛ فإن ارتجعها لم يَجز له وَطْؤُها حتى يكفِّر كفّارةَ الظِّهار[٧]. وخامس عشرها: إن نوى الطلاقَ فما أراد من أعداده.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥ .

(٢) المفهم ٤/ ٢٤٩ .

(٣) لفظه: بها. من (ظ) والمفهم.

(٤) المفهم، وذكرها ـ أيضاً ـ ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٦ ، والقاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٢٣ . وقوله: وإن لم يدخل، ليست في أحكام ابن العربي. وجاءت العبارة في إكمال المعلم والمفهم: ولا يُنوى في أقل وإن لم يدخل بها.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٦ ، وإكمال المعلم ٥/ ٢٤ ، والمفهم ٤/ ٢٤٩ .

(٦) المفهم ٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ووقع في (ظ): لزمتاه، بدل: ألزمناه. وهو موافق لإكمال المعلم ٥/ ٢٧ ، والمسألة ذكرها أيضاً ابن العربي في أحكامه ٤/ ١٨٣٥ ، والقاضي عياض في الإكمال بنحوه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥ .

وإن نوى واحدة فهي رجعيةٌ. وهو قول الشافعيِّ ﷺ. وروي مثله عن أبي بكر وعمر وغيرهما[١] من الصحابة والتابعين.

وسادس عشرها: إن نوى ثلاثاً فثلاثاً، وإن نوى واحدةً فواحدةً. وإن نوى يميناً فهي يمين. وإن لم يَنْوِ شيئاً فلا شيء عليه. وهو قولُ سفيان. وبمثله قال الأوزاعيُّ وأبو ثور؛ إلا أنهما قالا: إن لم يَنْو شيئاً فهي واحدة.

وسابع عشرها: له نِيَّتُه ولا يكون أقل من واحدة؛ قاله ابن شهاب.

وإن لم يَنْو شيئاً لم يكن شيء؛ قاله ابن العربي[٢]. ورأيت لسعيد بن جُبير وهو:

الثامن عشر: أن عليه عِتْق رَقَبة وإن لم يجعلها ظِهاراً. ولست أعلم لها وجهاً ولا يبعد[٣] في المقالات عندي.

قلت: قد ذكره الدَّارَقُطْنيُّ في سننه عن ابن عباس فقال: حدَّثنا الحسين بن إسماعيل قال: حدّثنا محمد بن منصور قال: حدَّثنا رَوْح قال: حدّثنا سفيان الثَّوْري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي عليَّ حراماً. فقال: كذبت! ليست عليك بحرام؛ ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ الآية عليك أغلظُ الكفارات: عِتْقُ رَقَبةٍ[٤].

وقد قال جماعة من أهل التفسير: إنه لما نزلت هذه الآية كفّر عن يمينه بعتق رقبة، وعاد إلى مارية ﷺ؛ قاله زيد بن أسلم[٥] وغيره[٦].

(١) في النسخ عدا (ظ): وغيرهم. والمثبت من (ظ) والمفهم ٤/ ٢٤٩ ، والكلام وما سيأتي منه.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٦ ، وما سيأتي منه.

(٣) بدلها في أحكام القرآن: ولا يتعدد.

(٤) سنن الدارقطني (٤٠١٦)، وهو عند النسائي ٦/ ١٥١ ، وفي الكبرى (٥٥٨٣)، والحاكم ٢/ ٤٩٣ - ٤٩٤ . وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٥) في (ظ): ثابت.

(٦) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٦٥ دون نسبة، ونسبه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٢٦ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ٤٤ ، والطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٢٢ لقتادة.

الخامسة: قال علماؤنا: سببُ الاختلاف في هذا الباب أنه ليس في كتاب الله ولا في سُنّة رسول الله ﷺ نصٌّ ولا ظاهرٌ صحيحٌ يُعتمد عليه في هذه المسألة، فتجاذبها العلماء لذلك. فمن تمسَّك بالبراءة الأصلية فقال: لا حكم، فلا يلزم بها شيء[1]. وأما من قاله: إنها يمين؛ فقال: سَمَّاها اللهُ يميناً. وأما مَن قال: تجب فيها كفارة وليست بيمين؛ فبناه على أحد أمرين: أحدهما: أنه ظنَّ أن الله تعالى أوجب الكفارةَ فيها وإن[2] لم تكن يميناً. والثاني: أن معنى اليمين عنده التحريمُ، فوقعت الكفارة على المعنى.

وأما من قال: إنها طلقة رجعية؛ فإنه حمل اللفظ على أقلِّ وجوهه، والرجعية محرِّمة الوطء كذلك؛ فيحمل اللفظ عليه. وهذا يلزم مالكاً؛ لقوله: إن الرجعية محرِّمة الوطء. وكذلك وجه من قال: إنها ثلاث، فحمله على أكثر معناه، وهو الطلاق الثلاث.

وأما من قال: إنه ظهار، فلأنه أقلُّ درجات التحريم، فإنه تحريمٌ لا يرفع النكاح.

وأما من قال: إنه طلقة بائنة، فَعَوَّل على أن الطلاق الرجعيَّ لا يحرِّم المطلقة، وأن الطلاق البائن يحرِّمها. وأما قول يحيى بن عمر فإنه احتاط بأن جعله طلاقاً، فلمَّا ارتجعها احتاط بأن يلزمه الكفَّارة. ابن العربي[3]: وهذا لا يصحُّ لأنه جمع بين المتضادَّين، فإنه لا يجتمع ظِهارٌ وطلاق في معنى لفظ واحد، فلا وجه للاحتياط فيما لا يصح اجتماعه في الدليل.

وأما من قال: إنه يُنَوَّى في التي لم يدخل بها، فلأن الواحدة تُبينُها وتحرِّمها شرعاً إجماعاً. وكذلك قال من لم يحكم باعتبار نيته: إن الواحدة تكفي قبل الدخول في التحريم بالإجماع، فيكفي أخذاً بالأقل المتفَق عليه.

---

(١) المفهم ٤/ ٢٥٠.

(٢) لفظة: إن، من (م). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٦.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٧ - ١٨٣٨. وما قبله منه.

وأما من قال: إنه ثلاث فيهما؛ فلأنه أخذ بالحكم الأعظم، فإنه لو صرَّح بالثلاث لنفذت في التي لم يدخل بها نفوذَها في التي دخل بها. ومن الواجب أن يكون المعنى مثله وهو التحريم. واللَّهُ أعلم. وهذا كلُّه في الزوجة. وأما في الأَمَة فلا يَلزم فيها شيءٌ من ذلك، إلا أن يَنوي به العتقَ عند مالك. وذهب عامَّةُ العلماء إلى أنَّ عليه كفارةَ يمين[1]. ابن العربي[2]: والصحيحُ أنها طلقةٌ واحدة؛ لأنه لو ذكَر الطلاقَ لَكان أقلّه وهو الواحدة إلا أن يعدِّده. كذلك إذا ذَكَر التحريمَ يكون أقلّه إلا أن يقيِّده بالأكثر، مثل أن يقول: أنتِ عليَّ حرامٌ إلا بعد زوج، فهذا نصٌّ على المراد.

قلت: أكثرُ المفسرين على أن الآية نَزلت في حفصة لمَّا خلا النبيُّ ﷺ في بيتها بجاريته؛ ذكره الثعلبيُّ. وعلى هذا فكأنه قال: لا يَحْرُم عليك ما حرَّمتَه على نفسك ولكن عليك كفارة يمين، وإن كان في تحريم العسل والجارية أيضاً. فكأنه قال: لم يَحْرُم عليك ما حَرَّمتَه، ولكن ضَمَمْتَ إلى التحريم يميناً فكفِّر عن اليمين. وهذا صحيحٌ، فإن النبيَّ ﷺ حَرَّم ثم حلَف، كما ذكره الدَّارَقُطْنيُّ[3]. وذكر البخاريُّ[4] معناه في قصة العَسَل: عن عبيد بن عُمير، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يشْرَب عند زينب بنت جَحْش عسلاً ويَمكُث[5] عندَها، فتواطأتُ أنا وحفصةُ على: أيَّتُنا دخَل عليها فلْتَقُلْ: أكلتَ مَغافِير؟ إني لَأجدُ منك رِيحَ مَغَافير! قال: «لا، ولكن شربتُ عسلاً، ولن أعود له، وقد حلَفتُ. لا تُخبري بذلك أحداً». يبتغي مرضات أزواجه. فيعني بقوله: «ولن أعود له» على جهة التحريم. وبقوله: «حلفت» أي: باللَّهِ، بدليل أنَّ اللَّهَ تعالى أنزَل عليه عند ذلك معاتبتَه على ذلك، وحوالته على كفَّارة اليمين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ يعني العسلَ المحرّمَ بقوله: «لن أعود له».

---

(١) المفهم ٤/ ٢٥٠ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٣٨ .

(٣) في سننه (٤٠١٣)، وسلف ص٦٩ من هذا الجزء.

(٤) في صحيحه (٤٩١٢) وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

(٥) في (ظ): ويواظب.

﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ أي: تفعل ذلك طلباً لرضاهن. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ غفورٌ لما أوجب المعاتبة، رحيمٌ برفع المؤاخذة(١). وقد قيل: إن ذلك كان ذنباً من الصغائر. والصحيحُ أنه معاتبةٌ على ترك الأَولى، وأنَّه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة(٢).

قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ تحليل اليمين كفّارتها، أي: إذ أحببتم استباحة المحلوف عليه، وهو قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [الآية:٨٩]. ويتحصل من هذا أن من حَرَّم شيئاً من المأكول أو(٣) المشروب لم يَحْرُم عليه عندنا؛ لأن الكفارة لليمين لا للتحريم على ما بيَّنّاه(٤). وأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء، ويعتبرُ الانتفاعَ المقصود فيما يحرِّمه، فإذا حَرَّم طعاماً فقد حلَف على أكله، أو أَمَةً فعلى وطئها، أو زوجةً فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية، وإن نوى الظِّهار فظهارٌ، وإن نوى الطلاق فطلاقٌ بائن. وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثاً. وإن قال: نَوَيتُ الكذب؛ دِينَ فيما بينه وبين اللهِ تعالى. ولا يَدينُ في القضاء بإبطال الإيلاء. وإن قال: كلُّ حلال علي(٥) حرام؛ فعلى الطعام والشراب إذا لم يَنْو، وإلا فعلى ما نَوَى. ولا يراه الشافعيُّ يميناً ولكن سبباً في الكفارة [في النساء] وحدَهن. وإنْ نوى الطلاقَ فهو رجعيٌّ عنده(٦)، على ما تقدَّم بيانه(٧). فإن حلَف ألا

(١) المفهم ٤/ ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) الكلام بنحوه في تفسير القشيري ٣/ ٦٠٤ .

(٣) في (د) و(م): و.

(٤) ص٧٠-٧١ من هذا الجزء.

(٥) في النسخ عدا (ظ): عليه، والمثبت من (ظ) والكشاف ٢/ ١٢٥ .

(٦) الكشاف ٤/ ١٢٥ - ١٢٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٤٢ ، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) ص٧٤ من هذا الجزء.

يأكله حنِث ويَبَرُّ[١] بالكفارة.

الثانية: فإن حَرَّم أَمَته أو زوجته فكفَّارةُ يمين، كما في صحيح مسلم[٢] عن ابن عباس قال: إذ حَرَّم الرجل عليه امرأته، فهي يمين يكفِّرها. وقال: لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

الثالثة: قيل: إن النبيَّ ﷺ كفَّر عن يمينه. وعن الحسن: إنه[٣] لم يكفِّر؛ لأن النبيَّ ﷺ قد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وكفارةُ اليمين في هذه السورة إنما أمر بها الأمَّة. والأول أصحُّ، وأن المراد بذلك النبيُّ ﷺ.

ثم إن الأمَّة تقتدي به في ذلك. وقد قدَّمنا[٤] عن زيد بن أسلم أنه عليه الصلاة والسلام كفَّر بعتق رقبةٍ. وعن مقاتل: أن رسول الله ﷺ أعتق رقبةً في تحريم مارية[٥]. والله أعلم.

وقيل: أي: قد فرَضَ اللهُ لكم تحليلَ مِلْك اليمين، فبيَّن في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب:٣٨] أي: فيما شرَعه له في[٦] النساء المحلَّلات. أي: حلَّل لكم مِلكَ الأيمان[٧]، فلم تُحَرِّم مارية على نفسك مع تحليل الله إيَّاها لك؟

وقيل: تحِلَّةُ اليمين الاستثناء، أي: فرض الله لكم الاستثناءَ المخرج عن اليمين[٨]. ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الأيمان متى شاء وإن تَحلَّل مدَّةً. وعند

(١) في (ظ): وأُمر.

(٢) برقم (١٤٧٣): (١٩)، وسلف ص٧٢ من هذا الجزء.

(٣) لفظه: إنه من (ظ) والكشاف ٤/ ١٢٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٤٤، والكلام منهما.

(٤) ص٧٥ من هذا الجزء.

(٥) الكشاف ٤/ ١٢٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٤٤، ومجمع البيان ٢٨/ ١٢٢.

(٦) في (ظ): من.

(٧) (ظ): اليمين.

(٨) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ٣٩، والكشاف ٤/ ١٢٥.

المُعْظَم لا يجوز إلا متصلاً، فكأنه قال: استثنِ بعد هذا فيما تحلِف عليه.

وتَحِلَّةُ اليمين تَحليلُها بالكفارة[١]، والأصل تحللة، فأدغمت. وتفعلة من مصادر فَعَّل؛ كالتَّسمية والتَّوصية[٢]. فالتَّحِلَّة: تحليلُ اليمين. فكأن اليمين عَقْدٌ والكفارة حلٌّ. وقيل: التَّحلَّة: الكفارة، أي: إنها تُحِلُّ للحالف ما حَرَّم على نفسه، أي: إذا كَفَّرَ صار كمن لم يحلِف. ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾: وَلِيُّكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرِّمونه على أنفسكم، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفارة، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفّارة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي: واذكر إذ أسرَّ النبيُّ إلى حفصة «حَدِيثاً» يعني تحريمَ مارية على نفسه واستكتامه إياها ذلك[٤]. وقال الكَلْبيُّ: أسرَّ إليها أن: أباك وأبا عائشة يكونان خليفَتيَّ على أمَّتي من بعدي؛ وقاله ابن عباس[٥]؛ قال: أسرّ أمر الخلافة بعده إلى حفصة فذكرته حفصة. روى الدَّارَقُطْنيُّ في سننه عن الكَلْبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال: اطَّلعت حفصةُ على النبيِّ ﷺ مع أم إبراهيم فقال: «لا تخبري عائشة» وقال لها: «إن أباك وأباها سيملكان ـ أو سَيَلِيَان ـ بعدي فلا تخبري عائشة»

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٣ .

(٢) الوسيط ٤/ ٣١٨ ، وزاد المسير ٨/ ٣٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٣ بنحوه.

(٤) المصدر السابق.

(٥) في (ظ): وقال ابن عباس. وذكر هذين القولين البغوي في تفسيره ٤/ ٣٦٤ وينظر الدر المنثور ٦/ ٢٤٠ .

قال: فانطلقت حفصة فأخبرت عائشةَ، فأظهره اللَّهُ عليه، فعرَّف بعضَه وأعرَض عن بعض. قال: أعرَضَ عن قوله: «إن أباكِ وأباها يكونان بعدي». كَرِه رسولُ الله ﷺ أن يُنشَر ذلك في الناس(١). ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: أخبرت به عائشةَ لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبيِّ ﷺ. ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه اللهُ على أنها قد نَبَّأت به(٢).

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «فلما أنبأت»(٣) وهما لغتان: أنبأ ونبَّأ(٤). ومعنى ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۢ﴾: عَرَّف حفصةَ بعضَ ما أوحي إليه من أنها أخبرَت عائشةَ بما نهاها عن أن تخبرها، وأعرَض عن بعض تَكَرُّماً؛ قاله السُّدّيّ(٥). وقال الحسن: ما استقصى كريمٌ قطُّ(٦)، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۢ﴾.

وقال مقاتل: يعني أخبرها ببعض ما قالت لعائشة، وهو حديث أمِّ ولده، ولم يخبرها ببعضٍ؛ وهو قول حفصة لعائشة: إن أبا بكر وعمر سيملكان بعده(٧).

وقراءة العامة: «عَرَّفَ»مشدَّداً(٨)، ومعناه ما ذكرناه.

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۢ﴾ أي: لم يعرِّفها إياه. ولو كانت مخففة لقال في ضدِّه: وأنكر بعضاً(٩).

---

(١) سنن الدارقطني (٤٣٠٢)، وفي إسناده الكلبي، قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص٤١٥: متهمٌ بالكذب.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٦١.

(٥) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٤٠ بنحوه.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣١، وزاد المسير ٨/ ٣٠٩.

(٧) لم نقف عليه من قول مقاتل، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٤٠ عن الضحاك، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٠٩ عن ابن عباس، والضعف في الخبر ظاهر.

(٨) السبعة ص٦٤٠، والتيسير ص ٢١٢.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٦١، وبنحوه في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٣٢٦.

وقرأ عليٌّ وطلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلَميُّ والحسن وقتادة والكلبي والكسائي والأعمش، عن أبي بكر: «عَرَف» مخففةً[١].

قال عطاء: كان أبو عبد الرحمن السُّلمي إذا قرَأ عليه الرجلُ: «عرّف» مشدّدةً حَصَبه بالحجارة.

قال الفرَّاء[٢]: وتأويل قوله عزَّ وجلَّ: «عَرَف بَعْضَهُ» بالتخفيف، أي: غضب فيه وجازى عليه؛ وهو كقولك لمن أساء إليك: لأعرفَنَّ لك ما فعلت، أي: لأجازِيَنَّك عليه. وجازاها النبيُّ ﷺ بأن طلَّقها طلقةً واحدة. فقال عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله ﷺ طلَّقكِ[٣]. فأمره جبريل بمراجعتها وشفع فيها. واعتَزل النبيُّ ﷺ نساءه شهراً، وقعَد في مَشْرُبَةِ مارية أمِّ إبراهيم حتى نَزَلت آيةُ التحريم[٤] على ما تقدَّم[٥].

وقيل: هَمَّ بطلاقها حتى قال له جبريل: لا تطلِّقها فإنها صوَّامة قَوَّامةٌ، وإنها من نسائك في الجنة. فلم يطلِّقها[٦]. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: أخبر حفصةَ بما أظهره الله عليه. ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ يا رسولَ الله عني. فظنَّت أن عائشة أخبرته، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: الذي لا يخفى عليه شيء[٧]. و«هذا» سدَّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٩١-٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣١ ، وجامع البيان للداني ٢/ ٤٤٦.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٦٦ وما قبله منه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٤ ، والكشاف ٤/ ١٢٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٤ .

(٥) الذي سلف ص٦٩ من هذا الجزء أنه ﷺ اعتزل نساءه شهراً، وأما أنه ﷺ قعد في مشربة مارية رضي الله عنها فسيأتي قريباً عند الآية (٤) من السورة، ص٨٦ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٥٢)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١٨٨ (٣٠٦)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٥٠ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما، بلفظ: أراد رسول الله ﷺ أن يطلق حفصة.... الحديث قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٤٤: رواه البزار والطبراني وفي إسناديهما الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف .اهـ. وسلف ١٤/ ١٦٥ و١٨/ ١٤٨.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٢ - ٩٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣١٠ بنحوه.

مسدَّ مفعولَي «أنْبَأ». و«نَبَّأ»[١] الأول تعدّى إلى مفعولَين[٢]، و«نَبَّأ الثاني تعدَّى إلى مفعول واحدٍ، لأن نَبَّأ وأنبأ إذا لم يدخلا على المبتدأ والخبر جاز أن يكتفى فيهما بمفعولٍ واحد وبمفعولين، فإذا دخَلا على الابتداء والخبر تعدَّى كلٌّ واحدٍ منهما إلى ثلاثة مفاعيل[٣]. ولم يجز الاقتصارُ على الاثنين دون الثالث؛ لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل فلا يقتصر دونه، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر[٤].

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني حفصة وعائشة[٥]، حَثَّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسولِ الله ﷺ. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: زاغَتْ ومالت عن الحقِّ. وهو أنهما أَحَبَّتَا ما كَرِه النبيُّ ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل[٦]، وكان عليه الصلاة والسلام يحبُّ العسل[٧] والنساء[٨].

---

(١) في (خ) و(د) و(ظ) و(ف) أنبأ.

(٢) المثبت من (خ)، وفي غيرها: مفعول، وهو خطأ.

(٣) في النسخ عدا (ظ): ثلاثة مفعولين.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣١.

(٦) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٣، وزاد المسير ٨/ ٣١٠ بنحوه

(٧) سلف أول السورة عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يحب الحلواء والعسل.

(٨) يشير المصنف رحمه الله إلى قوله ﷺ: «حبِّب إليّ من الدنيا النساء، والطِّيبُ . . . الحديث، وذلك بما ركّبه الله تعالى في طبع البشر. كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام، فلو أن المصنف أورد لفظ الحديث لكان أليق. وقد سلف ١٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ من حديث أنس ﷺ.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير ٣/ ٣٧١: ... فحبب إليه (النساء) والإكثارُ منهن؛ لنقل ما بطن من الشريعة مما يستحيى من ذِكره مِن الرجال، ولأجل كثرة سواد المسلمين، فكأنه يقول: حبي لهاتين الخصلتين إنما هو لأجل غيري.

قال ابن زيد: مالت قلوبُهما بأن سَرَّهما أن يحتبس عن أم ولده، فسرَّهما ما كَرِهه رسولُ الله ﷺ(١). وقيل: فقد مالت قلوبكما إلى التوبة(٢).

وقال: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ولم يقل: فقد صغى قلباكما، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشَّيئين من اثنين جمعوهما، لأنه لا يُشْكِل. وقد مضى هذا المعنى في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾(٣) [الآية: ٣٧].

وقيل: كلُّ ما ثبتت الإضافةُ فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليقُ به؛ لأنه أمكن وأخفُّ.

وليس قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ جزاء للشرط؛ لأن هذا الصَّغْو كان سابقاً، فجواب الشرط محذوف للعلم به، أي: إن تتوبا كان خيراً لكما، إذ قد صغَت قلوبكما(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: تتظاهرا وتتعاونا على النبيِّ ﷺ بالمعصية والإيذاء(٥). وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: مكثت سنةً وأنا أريد أن أسألَ عمر بنَ الخطاب عن آية، فما أستطيعُ أن أسأله هيبةً له، حتى خَرَج حاجّاً، فخرجت معه، فلمَّا رجَع فكنَّا ببعض الطريق عَدَل إلى الأراك لحاجة له، فوقفتُ حتى فرَغ، ثم سِرْت معه فقلت: يا أميرَ المؤمنين، مَن اللتان تظاهرَتا على رسولِ الله ﷺ مِن أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة. قال: فقلت له: واللهِ إنْ كنتُ لأريد أن أسألَك عن هذا منذُ سنة فما أستطيع هيبةً لك. قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٩٤ .

(٢) تفسير أبي الليث السمرقندي ٤/ ٣٨٠ بنحوه.

(٣) ٧/ ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٤ بنحوه.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣١٠ .

فسَلْني عنه، فإن كنتُ أعلمُه أخبرتُك... وذكر الحديث[١]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: وَلِيُّه وناصره[٢]، فلا يضرُّه ذلك التظاهرُ منهما. ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة وسعيد بنُ جُبير: أبو بكر وعمر؛ لأنهما أبوا عائشة وحفصة، وقد كانا عوناً له عليهما[٣].

وقيل: صالح المؤمنين: عليٌّ ﷺ[٤].

وقيل: خيار المؤمنين[٥].

وصالح: اسمُ جنسٍ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، قاله الطَّبَريّ[٦].

وقيل: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم: الأنبياء، قاله العَلَاء بن زياد[٧] وقتادة وسفيان[٨].

وقال ابن زيد: هم الملائكة. السُّدّيُّ: هم أصحاب محمدٍ ﷺ[٩].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٧٩): (٣١)، وهو عند البخاري (٤٩١٣)، وسلفت قطعة منه ١/ ٤٧.
قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٢٨٠ في قوله: «فكنا ببعض الطريق»: المكان المذكور هو: مر الظهران، كما عينه مسلم: [(١٤٧٩) (٣٢) (٣٣).] والأراك هي الشجرة التي يتخذ منها المساويك، دخلها عمر ﷺ مستتراً بها، ينظر عمدة القاري ١٩/ ٢٥٠ - ٢٥١.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٧، والكشاف ٤/ ١٢٧.
(٣) النكت والعيون ٦/ ٤١، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٠-٣٨١. وزاد المسير ٨/ ٣١٠.
(٤) النكت والعيون ٦/ ٤١.
(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٩٧ - ٩٨ عن الضحاك.
(٦) في تفسيره ٢٣/ ٩٨.
(٧) في (م): العلاء بن زيادة، وفي (ظ): العلاء بن عبد الرحمن. والمثبت من باقي النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢، والدر المنثور ٦/ ٢٤٤ وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٨) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٠٢، وتفسير الطبري ٢٣/ ٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢، والنكت والعيون ٦/ ٤١.
(٩) النكت والعيون ٦/ ٤١.

وقيل: «صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» ليس لفظ الواحد[١] وإنما هو: صالحو المؤمنين، فأضاف الصالحين إلى المؤمنين، وكُتب بغير واو على اللفظ؛ لأن لفظ الواحد والجمع واحدٌ فيه. كما جاءت أشياء في المصحف متنوّع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط[٢].

وفي صحيح مسلم[٣] عن ابن عباس قال: حدَّثني عمر بن الخطاب ﷺ قال: لمَّا اعتزَل نبيُّ الله ﷺ نساءه قال دخلتُ المسجدَ فإذا الناسُ يَنْكُتُون[٤] بالحصى ويقولون: طلَّق رسولُ الله ﷺ نساءه ـ وذلك قبل أن يُؤْمَرْنَ بالحجاب ـ فقال عمر: فقلت: لَأَعْلَمَنَّ ذلك اليومَ، قال فدخلتُ على عائشة فقلت: يا بنة أبي بكر، أَقَد بَلَغ من شأنكِ أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! فقالت: مالي ومالكَ يا ابن الخطاب، عليك بِعَيْبَتِكَ[٥]! قال: فدخلت على حفصةَ ابنة عمرَ، فقلت لها: يا حفصةُ، أَقَد بلغ من شأنِكِ أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! واللَّهِ لقد علمتِ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُحبُّكِ، ولولا أنا لَطلَّقكِ رسولُ الله ﷺ. فبكت أشدَّ البكاء، فقلت لها: أين رسولُ الله ﷺ؟ قالت: هو في خِزانتهِ في الْمَشْرُبَةِ. فدخلت فإذا أنا بِرَباحٍ غلامِ رسولِ الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ[٦] مُدَلٍّ رجليه على نَقِيرٍ[٧] من خشب، وهو جِذعٌ يَرْقَى عليه رسولُ الله ﷺ

---

(١) في (ظ) المؤمن.

(٢) الكشاف ٤/ ١٢٧، وبنحوه في مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ١٢٣.

(٣) برقم (١٤٧٩)، وهو عند البخاري (٢٤٦٨) وما بين حاصرتين من مسلم. وهو جزء من الحديث السالف آنفاً.

(٤) «ينكتون الحصى» أي: يضربون به الأرضَ، فعلَ المشغول السرِّ الواجم. إكمال المعلم ٥/ ٤١.

(٥) أي: بخاصتك وموضع سرِّك، وتعني بذلك ابنتَه حفصة. المفهم ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ وجاءت العبارة في (ظ): عليك ببنتك، وفي (د) اذهب إلى ابنتك.

(٦) الأُسكفّة: عتبة الباب. والمشرُبَةُ: الغرفة.

(٧) النقير ـ كما فسره في الحديث ـ: جذع يُنقر ويُجعل فيه شبه المراقي؛ يُصعَدُ عليه إلى الغُرَف. النهاية (نقر). وجاء في (ظ): فقير، بدل نقير وهو موافق لما في المفهم ٤/ ٢٦١. قال أبو العباس: هو الذي جُعلت فيه فِقَر كالدرج يصعد عليها.

وينحَدرُ. فناديت: يا رباحُ، استأذِن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظَر رَباحٌ إلى الغُرْفة ثم نظَر إليَّ، فلم يَقُل شيئاً. ثم قلت: يا رَبَاح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظَر رَبَاحٌ إلى الغرفة ثم نظَر إليَّ، فلم يَقُل شيئاً. ثم رفعت صوتي فقلت: يَا رَباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظنُّ أن رسولَ الله ﷺ ظنَّ أني جئتُ من أجل حفصة، واللهِ لئن أمرني رسولُ الله ﷺ بضرب عُنُقِها. لأضربنَّ عنقها. ورفعتُ صوتي. فأَوْمَأَ إليَّ: أنِ ارْقَهْ. فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ على حصير، فجلست، فَأَدْنَى عليه إزارَه وليس عليه غيرُه؛ وإذا الحَصيرُ قد أثَّرَ في جنبه، فنظرتُ ببصري في خِزانة رسولِ الله ﷺ، فإذا أنا بِقَبضَةٍ من شعيرٍ نحوِ الصَّاع، ومِثلِها قَرَظاً[١] في ناحية الغُرْفة؛ وإذا أَفِيقٌ[٢] معلَّق، قال: فابتدرتْ عيناي. قال: «ما يُبْكيك يا ابن الخطاب»؟ قلت: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثَّرَ في جنبك، وهذه خِزانتُك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قَيْصَرُ وكِسْرى في الثِّمار والأنهار وأنت رسولُ الله صلَى اللهُ عليك وصَفْوَتُه، وهذه خِزانتك! فقال: «يا ابن الخطاب. ألا ترضى أن تكون لنا الآخرةُ ولهم الدنيا؟» قلت: بلى. قال: ودخلتُ عليه حين دخلتُ وأنا أرى في وجهه الغضبَ، فقلت: يا رسولَ اللهِ، ما يشقُّ عليك من شأنِ النساء؛ فإن كنتَ طلَّقتهن، فإن اللهَ معك وملائكتَه وجبريلَ وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلَّما تكلَّمتُ - وأَحْمَدُ الله - بكلامٍ إلا رَجَوتُ أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ يُصدِّق قولي [الذي أقولُ]. ونزلت هذه الآيةُ، آيةُ التَّخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾. و﴿إِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. وكانت عائشة بنتُ أبي بكر وحفْصَةُ تَظاهرانِ على سائر نساء رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسولَ الله، أطلَّقتَهنَّ؟ قال: «لا». قلت: يا رسولَ الله، إني دخلت المسجدَ والمسلمون يَنْكُتُون بالحصى يقولون: طلَّق رسولُ الله ﷺ

(١) هو ورق السَّلَم. النهاية (قرظ). والسَّلم شجر يُصبغ به.

(٢) الأَفِيقُ: الجلد لم يتم دباغه. إكمال المعلم ٥/ ٤١.

نساءَه، أفأُنزل فأخبرَهم أنك لم تطلِّقهن؟ قال: «نعم إن شئت». فلم أزل أحدِّثه حتى تَحَسَّر[(١)] الغضبُ عن وجهه، وحتى كَشَر[(٢)] فضحِك، وكان من أحسن الناسِ ثَغْراً. ثم نزَل نبيُّ الله ﷺ ونزَلتُ؛ فنزلتُ أتشبَّث بالجذْع، ونزَل رسول الله ﷺ كأنَّما يمشي على الأرض ما يمسُّه بيده. فقلت: يا رسول الله، إنما كنتَ في الغرفة تسعاً وعشرين. قال: «إن الشهر يكون تسعاً وعشرين» فقمتُ على باب المسجد فناديتُ بأعلى صوتي: لم يطلِّق رسولُ الله ﷺ نساءه. ونزَلت هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣]. فكنت أنا استنبطتُ ذلك الأمرَ؛ وأنزَل اللهُ آيَةَ التخيير.

قوله تعالى: ﴿وجبريلُ﴾ فيه لغات تقدَّمت في سورة البقرة[(٣)]. ويجوزُ أن يكون معطوفاً على «مَوْلَاهُ» والمعنى: اللَّهُ وَلِيُّهُ وجبريلُ وليُّهُ؛ فلا يوقف على «مَوْلَاهُ»، ويوقف على «جِبْرِيلُ»، ويكون «وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» مبتدأً «والْمَلَائِكَةُ» معطوفاً عليه، و«ظَهِيرٌ» خبراً؛ وهو بمعنى الجمع[(٤)]. وصالح المؤمنين أبو بكر؛ قاله المسيّب بن شريك. وقال سعيد بن جُبير: عمر[(٥)]. وقال عكرمة: أبو بكر وعمر[(٦)]. وروى شقيق عن عبد الله عن النبيّ ﷺ في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ قال: إن صالح المؤمنين أبو بكر وعمر[(٧)]. وقيل: هو عليٌّ. عن أسماء بنت عُمَيْس قالت: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾: عليُّ بن أبي

---

(١) في (ظ) نحيتُ.

(٢) قال ابن السكيت: كشر، وتبسَّم، وابتسم وافترَّ كلها بمعنى واحد، وقال صاحب «الأفعال»: كشر: أبدى أسنانه تبسُّماً أو غضباً . اهـ. المفهم ٤/ ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٣) ٢/ ٢٦٢ وما بعدها.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٣١٠ .

(٦) سلف قريباً .

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٠٥ - ٢٠٦ (١٠٤٧٧)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٢٠ .

طالب»[١]. وقيل غير هذا مما تقدَّم القول فيه .

ويجوز أن يكون «وجِبْرِيلُ» مبتدأ، وما بعده معطوفاً عليه. والخبر: «ظَهِيرٌ» وهو بمعنى الجمع أيضاً[٢]. فيوقف على هذا على «مَوْلَاهُ». ويجوز أن يكون «جِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»، معطوفاً على «مَوْلَاهُ» فيوقف على «الْمُؤْمِنِينَ» ويكون «وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» ابتداءً وخبراً. ومعنى «ظَهِيرٌ»: أعوان، وهو بمعنى ظهراء، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]. وقال أبو عليّ: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[٣][المعارج: ١٠-١١].

وقيل: كان التظاهرُ منهما في التحكُّم على النبيِّ ﷺ في النفقة، ولهذا آلى منهنَّ شهراً واعتزلهنَّ .

وفي صحيح مسلم[٤]عن جابر بن عبد الله قال: دخَل أبو بكر يَستأذِنُ على رسول اللهِ ﷺ ، فوجَد الناسَ جلوساً ببابه لم يؤذَن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخَل، ثم أقبل عمرُ فاستأذن فأُذِن له، فوجَدَ النبيَّ ﷺ جالساً حَوْله نساؤه واجماً ساكتاً ـ قال ـ فقال: لأَقُولَنَّ شيئاً أُضحكُ النبيَّ ﷺ؛ فقال: يا رسولَ الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة سَأَلَتْني النفقةَ، فقمتُ إليها فوَجَأْتُ عُنُقَها؛ فضحِك رسول الله ﷺ وقال: «هُنَّ حَوْلي كما ترى يَسأَلْنَني النفقةَ». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عُنقَها؛ وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها؛ كلاهما يقول: تَسْأَلْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليس عنده! فقلْنَ: واللهِ لا نسألُ رسولَ الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلَهنَّ شهراً أو تسعاً وعشرين. ثم نزَلت عليه هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩] الحديث وقد ذكرناه في سورة الأحزاب[٥].

---

(١) أخرجه ابن مردويه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢ ، وبنحوه في إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٤ - ٤٥ .

(٤) برقم: (١٤٧٨) (٢٩).

(٥) ١٧/ ١١٧ - ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قد تقدّم في الصحيح أن هذه الآيَةَ نزلت على لسان عمر ﷺ[١].

ثم قيل: كلُّ «عَسَى» في القرآن واجبٌ؛ إلا هذا. وقيل: هو واجبٌ ولكن الله عزَّ وجل علَّقه بشرطٍ وهو التطليق ولم يطلِّقهن[٢]. ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ لأنكنَّ لو كُنتنَّ خيراً منهنَّ ما طلَّقكنَّ رسولُ الله ﷺ، قال معناه السُّدّيّ. وقيل: هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ، لو طلَّقهن في الدنيا أن يزوِّجه في الدنيا نساءً خيراً منهن[٣].

وقرئ: «أن يُبدله» بالتشديد والتخفيف[٤]. والتبديلُ والإبدال بمعنىً، كالتنزيل والإنزال.

واللهُ كان عالماً بأنه كان لا يطلِّقهنَّ، ولكن أخبر عن قدرته، على أنه إن طلَّقهنَّ أبدله خيراً منهنَّ تخويفاً لهنَّ[٥]. وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨]. وهو إخبار عن القدرة وتخويفٌ لهم، لا أنَّ في الوجود مَن هو خيرٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ[٦].

قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ يعني مُخْلِصَات. قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: معناه مسلمات لأمرِ الله تعالى وأمرِ رسوله ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: مصدِّقات بما أُمِرن به ونُهين عنه.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٧٩) وسلف قريباً.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨١، والوسيط ٤/ ٣٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦٦.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٤١.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد، والباقون من السبعة بالتخفيف، السبعة ص٦٤٠ -٦٤١، والتيسير ص١٤٥.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٥.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٧.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: مطيعات[١]. والقنوت: الطاعة. وقد تقدَّم[٢]. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي: من ذنوبهن؛ قاله السُّدّيُّ. وقيل: راجعات إلى أمرِ رسولِ الله ﷺ؛ تاركات لمحابِّ أنفسِهن[٣]. ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: كثيرات العبادة لله تعالى. وقال ابن عباس: كلُّ عبادة في القرآن فهو التوحيد[٤]. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: صائمات؛ قاله ابن عباس والحسن وابن جُبير[٥]. وقال زيد بن أسلم وابنه عبدُ الرحمن ويَمَان: مهاجرات[٦]. قال زيد: وليس في أمَّة محمدٍ ﷺ سياحة إلا الهجرة[٧]. والسِّيَاحَة: الجَوَلان في الأرض. وقال الفرّاءُ والقُتَبيُّ وغيرهما: سُمِّي الصائمُ سائحاً لأنَّ السائحَ لا زاد معه، وإنما يأكلُ من حيثُ يجدُ الطعامَ[٨].

وقيل: ذاهبات في طاعة اللهِ عزَّ وجلَّ[٩]؛ مِن ساح الماءُ: إذا ذهب. وقد مضى في سورة براءة[١٠] والحمدُ لله. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: منهنَّ ثَيِّبٌ ومنهن بِكْرٌ. وقيل: إنما سُمِّيَت الثَّيِّب ثيِّباً لأنها راجعةٌ إلى زوجها إن أقام معها، أو إلى غيره إن فارقها. وقيل: لأنها ثابَتْ إلى بيتِ أبويها. وهذا أصحُّ؛ لأنه ليس كل ثَيِّبٍ تعود إلى زوج. وأما البِكْرُ فهي العذراءُ؛ سُمِّيت بِكْراً لأنها على أوَّل حالتها التي خُلقت بها. وقال الكلبيُّ: أراد بالثَّيِّب مثلَ آسية امرأة فرعون، وبالبكر مثلَ مريم ابنة عمران[١١].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٤١ .

(٢) ٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٣/ ١٨٣ - ١٨٥ و١٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٤٢ .

(٤) تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٣٥٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٤٢ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٣١٢ ، ومجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ١٢٤ ، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٠٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢ ، والكشاف ٤/ ١٢٨ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٠٢ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٠ (١٠٠٣٣).

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٧ ،والنكت والعيون ٦/ ٤٢ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٨١ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢ .

(١٠) ١٠/ ٣٩٣ وما بعدها.

(١١) النكت والعيون ٦/ ٤٢ .

قلت: وهذا إنما يمشي على قول من قال: إن التبديل وعدٌ من الله لنبيِّه لو طلَّقهنَّ في الدنيا زوَّجه في الآخرة خيراً منهنَّ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾

فيه مسألة واحدة: وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسَه وأهلَه النارَ. قال الضحاك: معناه قُوا أنفسَكم وأهلوكم فَلْيَقُوا أنفسهم ناراً. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: قُوا أنفسكم وأْمُرُوا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يَقِيَهم اللهُ بكم. وقال عليٌّ ﷺ وقتادة ومجاهد: قُوا أنفسكم بأفعالكم وقُوا أهليكم بوصِيَّتكم[1]. ابن العربي[2]: وهو الصحيحُ، والفقه الذي يعطيه العطف الذي يقتضي التشريكَ بين المعطوف والمعطوف عليه في معنى الفعل؛ كقوله:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً[3]

وكقوله:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى   متقلِّداً سيفاً ورُمْحَا[4]

فعلى الرجل أن يُصلِحَ نفسَه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاحَ الراعي للرعية. ففي صحيح الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعِيَّته، فالإمامُ الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم»[5]. وعن هذا عبَّر الحسنُ في هذه الآية [بقوله]: يأمرهم وينهاهم. وقال بعض العلماء: لمَّا قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ دخَل فيه الأولاد؛ لأن الولدَ بعضٌ منه. كما دخَل

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٤٤ وتفسير الطبري ٢٣/ ١٠٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) سلف ١/ ٢٩١.

(٤) قائله عبد الله بن الزبعرى، وسلف ١/ ٢٩١.

(٥) قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، سلف ٦/ ٤٢٧.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾[النور: ٦١] فلم يُفْرَدُوا بالذِّكر إفرادَ سائر القرابات. فيعلِّمه الحلالَ والحرام، ويجنِّبه المعاصي والآثامَ، إلى غير ذلك من الأحكام. وقال عليه الصلاة والسلام: «حَقُّ الولد على الوالد أن يحسن اسمَه، ويعلِّمَه الكتابة، ويزوِّجه إذا بلغ»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما نَحَل والدٌ ولداً أفضلَ من أدبٍ حسن»[٢].

وقد روى عمرو بنُ شعيب عن أبيه، عن جده، عن النبيِّ ﷺ قال[٣]: «مُرُوا أبناءَكم بالصلاة لسبعٍ، واضربوهم عليها لعشرٍ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع». خرَّجه جماعة من أهل الحديث. وهذا لفظ أبي داود[٤].

وخرَّج أيضاً عن سَمُرَة بن جُنْدُب[٥] قال: قال النبيُّ ﷺ: «مُرُوا الصَّبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبعَ سنين، فإذا بلغ عشرَ سنين فاضربوه عليها».

وكذلك يخبر أهلَه بوقت الصلاة، ووجوبِ الصيام، ووجوب الفِطر إذا وجب؛ مستنداً في ذلك إلى رؤية الهلال. وقد روى مسلمٌ أن النبيَّ ﷺ كان إذا أَوْتَر يقول:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في البر والصلة (١٥٦)، وابن أبي الدنيا في العيال (١٧١) من قول سفيان الثوري دون قوله: ويعلمه الكتابة.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٦٦٦) من حديث أبي سعيد وابن عباس مرفوعاً، ولفظه: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً، فإنما إثمه على أبيه».

وأما قوله: «ويعلمه الكتابة» فقد أخرجه البيهقي (٨٦٦٥) ضمن حديث أبي رافع ـ مرفوعاً ـ ولفظه: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي وأن يورثه طيباً». وفي إسناده عيسى بن إبراهيم الهاشمي، قال البيهقي: يروي مالا يتابع عليه، وقال في السنن ١٠/ ١٥: حديث ضعيف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٥٤٠٣)، والترمذي (١٩٥٢) من حديث أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن أبي عامر....، ثم قال: وهذا عندي حديث مرسل.

(٣) لفظه: قال من (ظ).

(٤) برقم (٤٩٥)، وهو في مسند أحمد (٦٦٨٩) و(٦٧٥٦). وله شواهد، الحديث الآتي منها.

(٥) كذا في النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي، والكلام منه، وهو خطأ، والصواب: عن سَبْرَة، وهو في مسند أحمد (١٥٣٣٩)، وسنن أبي داود (٤٩٤)، وسنن الترمذي (٤٠٧).

«قومي فأوْتِري يا عائشة»(١) .

ورُوي أن النبيَّ ﷺ قال: «رحم اللهُ امرأً قام من الليل فصلَّى فأيقظ أهلَه، فإنْ لم تقم رَشَّ وجهَها بالماء، رحم اللهُ امرأةً قامت من الليل تصلِّي وأيقظت زوجَها، فإذا لم يقم رشَّت على وجهه من الماء»(٢). ومنه قوله ﷺ: «أيقِظوا صواحبَ الحُجَر»(٣). ويدخل هذا في عموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٤) [المائدة: ٢] .

وذكر القشيريُّ أن عمر ﷺ قال لمَّا نَزَلت هذه الآيةُ: يا رسول اللهِ، نقي أنفسَنا، فكيف لنا بأهلينا؟ .فقال: «تنهَونهم عمَّا نهاكم اللهُ، وتأمرونهم بما أمرَ اللهُ»(٥). وقال مقاتل: ذلك حقٌّ عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه(٦) .

قال الكِيا(٧): فعلينا تعليم أولادِنا وأهلينا الدِّينَ والخير، وما لا يُستغنى عنه من الأدب، وهو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ونحو قوله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وفي الحديث: «مُرُوهم بالصلاة وهم أبناء سَبْع».

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ تقدَّم في سورة البقرة(٨)، القولُ فيه .

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعني الملائكة الزبانيةَ غِلاظ القلوب لا يَرْحمون إذا

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٤) (١٣٤)، وهو عند أحمد (٢٥١٨٤). وهو من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٧٤٠٩)، وأبو داود (١٣٠٨) و(١٤٥٠)، والنسائي ٣/ ٢٠٥ ، وابن ماجه (١٣٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٥٤٥) والبخاري (١١٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٠ - ١٨٤١ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٢١ عن عمر ﷺ، وأخرج نحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٠٣ ، والطبري ٢٣/ ١٠٤ - ١٠٥ عن قتادة.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٤٤ ، ومجمع البيان ٢٨/ ١٢٦ .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٢٦ ..

(٨) ١/ ٣٥٤ وما بعد.

اسْتُرْحِمُوا[١]، خُلقوا من الغضب، وحُبِّب إليهم عذابُ الخلق كما حُبِّبَ لبني آدم أكلُ الطعام والشراب. ﴿شِدَادٌ﴾ أي: شداد الأبدان. وقيل: غِلاظُ الأقوال شداد الأفعال[٢]. وقيل: غِلاظٌ في أخذهم أهلَ النار، شدادٌ عليهم. يقال: فلان شديد على فلان، أي: قَويٌّ عليه يعذِّبه بأنواع العذاب. وقيل: أراد بالغلاظ ضخامةَ أجسامهم، وبالشدَّة القوَّة[٣]. قال ابن عباس: ما بين مَنْكِبَي الواحد منهم مسيرةُ سنة، وقوَّة الواحد منهم أن يَضرب بالمِقْمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسانٍ في قعر جهنم[٤]. وذكر ابنُ وهب قال: وحدَّثنا عبد الرحمن بن زيد قال: قال رسولُ الله ﷺ في خَزَنة جهنم: «ما بين مَنْكِبَي أحدهم[٥] كما بين المشرق والمغرب».

قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخالفونه في أمره من زيادةٍ أو نقصان. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: في وقته، فلا يؤخرونه ولا يقدِّمونه[٦]. وقيل: أي لذتهم في امتثال أمرِ اللَّهِ؛ كما أن سرورَ أهلِ الجنة في الكون في الجنة؛ ذكره بعض المعتزلة[٧]. وعندهم أنه يستحيل التكليف غداً. ولا يخفى معتقَد أهلِ الحقِّ في أن الله يكلِّف العبدَ اليوم وغداً، ولا يُنْكَرَ التكليفُ غداً[٨] في حقِّ الملائكة. ولله أن يفعل ما يشاء[٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ فإنَّ عُذْرَكم لا ينفعُ[١٠]. وهذا

---

(١) الكلام بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣١٣.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٤٥.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٣ بنحوه.
(٤) ذكره عنه ابنُ الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٣.
(٥) في (ظ): الواحد.
(٦) النكت والعيون ٦/ ٤٥.
(٧) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن الجبائي بنحوه.
(٨) لفظة: غداً. ليست في (م).
(٩) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٤٦.
(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ بنحوه.

النَّهي لتحقيق اليأس. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. ونظيره: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]. وقد تقدَّم(١).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمرٌ بالتوبة، وهي فرضٌ على الأعيان في كل الأحوال وكلِّ الأزمان. وقد تقدَّم بيانُها والقولُ فيها في «النساء» وغيرها. ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ اختلفت عبارةُ العلماء وأربابِ القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً، فقيل: هي التي لا عَوْدةَ بعدها كما لا يعودُ اللَّبَن إلى الضَّرع(٢)؛ وروي عن عمر(٣)، وابن مسعود(٤)، وأُبيِّ بن كعب(٥)، ومُعاذ بن جبل ﷺ. ورفعه مُعاذٌ إلى النبيِّ ﷺ(٦).

وقال قتادة: النَّصوح: الصادقةُ الناصحة(٧).

---

(١) ١٤/ ٤٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٧، والكشاف ٤/ ١٢٩.

(٣) أخرجه عنه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٠٣، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٧٩، وهناد في الزهد (٩٠١)، والطبري ٢٣/ ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٠، والطبري ٢٣/ ١٠٧ موقوفاً، وأخرجه الإمام أحمد (٤٢٦٤) مرفوعاً قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٩٩ - ٢٠٠: رواه أحمد وإسناده ضعيف.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٥ وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٤٧) مطولاً. وفي إسناده نوح بن أبي مريم قال الحافظ ابن حجر في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٠٨.

وقيل: الخالصة: يقال: نصح أي: أخلص له القولَ.

وقال الحسن: النَّصُوحُ: أن يُبْغِض الذنبَ الذي أحبَّه، ويستغفرَ منه إذا ذكره.

وقيل: هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وَجَلٍ منها.

وقيل: هي التي لا يحتاج معها إلى توبة(١).

وقال الكلبيُّ: التوبة النصوح: النَّدمُ بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاعُ عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود(٢).

وقال سعيد بن جُبير: هي التوبة المقبولة؛ ولا تُقبل ما لم يكن فيها ثلاثةُ شروط: خوفٌ ألا تُقبل، ورجاء أن تُقبل، وإدمان الطاعات(٣).

وقال سعيد بن المسيّب: توبةٌ تنصحون بها أنفسكم.

وقال القُرظيُّ: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمارُ تركِ العَوْد بالجَنان، ومهاجرة سيِّىء الخِلَّان(٤). وقال سفيان الثَّوْريُّ: علامةُ التوبة النصوح أربعةٌ: القِلَّة والعِلَّة، والذِّلَّةُ والغُرْبة.

وقال الفُضَيل بن عياض: هو أن يكون الذنْبُ بين عينيه، فلا يزال كأنه ينظُر إليه(٥). ونحوه عن ابن السَّمَّاك: أن تَنْصب الذنب الذي أقللتَ فيه الحياءَ من الله أمامَ عينك وتستعدَّ لمنتظَرك(٦).

وقال أبو بكر الوَرَّاق المصري: هو أن تضيق عليك الأرضُ بما رَحُبَت، وتضيق عليك نفسُك؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا(٧).

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٤٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٧ ، ومجمع البيان ٢٨/ ١٢٧ بنحوه.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ١٢٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٧، وقول القرظي ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٣/ ٣٨٢ عن ابن عباس.

(٥) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢ ، والطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٢٧ دون نسبة.

(٦) الكشاف ٤/ ١٢٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٤ ، والكشاف ٢/ ٢١٩ ، وهو في الرسالة القشيرية ٢/ ١٢٠ من قول ذي =

وقال أبو بكر الواسطي: هي توبةٌ لا لفقد عِوضٍ؛ لأن مَن أذنب في الدنيا لِرَفَاهِية نفسه ثم تاب طلباً لرفاهيتها في الآخرة؛ فتوبته على حفظ نفسه لا للهِ.

وقال أبو بكر الدَّقاق المصريُّ: التوبة النصوح هي ردُّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمانُ الطاعات.

وقال رُوَيْم: هو أن تكون لله وجهاً بلا قَفَا، كما كنت له عند المعصية قَفاً بلا وجه.

وقال ذو النُّون: علامة التوبة النصوح ثلاث: قِلَّة الكلام، وقِلَّة الطعام، وقِلَّة المنام.

وقال شقيق: هو أن يُكثِر صاحبها لنفسه الملامةَ، ولا ينفكَّ من الندامة؛ لينجُوَ من آفاتها بالسلامة.

وقال سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين؛ لأن من صحب[١] توبته أحبَّ أن يكون الناس مثله.

وقال الجُنَيْد: التوبة النصوح هو أن ينسى الذنبَ فلا يذكره أبداً؛ لأن من صحَّت توبته صار مُحِبّاً لِلَّه[٢]، ومن أحبَّ الله نَسيَ ما[٣] دون الله.

وقال ذو الأُذنيْن[٤]: هو أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح، وقلبٌ عن المعاصي جَمُوحٌ.

وقال فتح المَوْصِليّ: علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرةُ البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيُّ: هي التوبة لأهل السنة والجماعة؛ لأن المبتدع

= النون. وقصةُ الثلاثة الذين خلفوا في الصحيح، وسلفت ٤١٣/١٠ وما بعد.

(١) في (ظ): نصحت.

(٢) الرسالة القشيرية ١١٩/٢ بنحوه.

(٣) في (ظ): من.

(٤) في (د) و(ظ) أبو الأديان، وفي (خ) (ف) و(ق) أبو الأذنان.

لا توبة له؛ بدليل قوله ﷺ: «حجب اللهُ على كل صاحب بدعة أن يتوب»[١].

وعن حُذَيْفَة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن[٢] الذنب ثم يعود فيه.

وأصل التوبة النصوح: من الخُلُوص؛ يقال: هذا عَسَلٌ ناصح: إذا خَلَص من الشَّمْع.

وقيل: هي مأخوذةٌ من النِّصاحة، وهي: الخياطة. وفي أخذها منها وجهان:

أحدهما: لأنها توبة قد أحكَمَتْ طاعتَه وأوثقتها كما يُحكم الخيّاطُ الثوبَ بخياطته ويوثقه.

والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء اللهِ وألصقته بهم؛ كما يجمع الخيَّاطُ الثوبَ ويُلصق بعضه ببعض[٣].

وقراءة العامة: «نَصُوحاً» بفتح النون[٤]، على نعت التوبة، مثل: امرأة صبور، أي: توبةٌ بالغة في النصح[٥].

وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بالضم[٦]؛ وتأويله على هذه القراءة: توبةَ نصحٍ لأنفسكم[٧].

وقيل: يجوز أن يكون «نُصُوحاً» جمع نُصح، وأن يكون مصدراً، يقال: نصح نَصاحة ونُصُوحاً[٨]. وقد يتفق فَعالة وفُعول في المصادر، نحو الذَّهاب والذُّهوب.

---

(١) سلف تخريجه ٩/ ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) في(م) من. والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ١٢٩. وكلام حذيفة فيه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٤٥ ، وبنحوه في مجمع البيان ٢٨/ ١٢٧ .

(٤) السبعة ص٦٤١ ، والتيسير ص٢١٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٤ ، ورواية أبي بكر عن عاصم في السبعة.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٤٥ .

(٨) زاد المسير ٨/ ٣١٣ بنحوه.

وقال المبرِّد: أراد توبة ذات نُصح، يقال: نصحت نُصحاً ونَصاحة ونُصوحاً.

الثانية: في الأشياء التي يُتاب منها، وكيف التوبة منها:

قال العلماء: الذنبُ الذي تكون منه التوبةُ لا يَخلو إما أن يكون حقّاً لِلّه أو للآدميين، فإن كان حقّاً لله؛ كترك صلاة، فإن التوبة لا تصحُّ منه حتى ينضمَّ إلى النَّدم قضاءُ ما فات منها، وهكذا إن كان ترْكَ صومٍ أو تفريطاً في الزكاة.

وإن كان ذلك قتلَ نفْسٍ بغير حقٍّ؛ فأن يُمَكِّن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوباً به. وإن كان قذفاً يوجب الحدَّ؛ فيبذل ظهْرَه للجلد إن كان مطلوباً به. فإن عُفي عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص. وكذلك إن عُفيَ عنه في القتل بمال؛ فعليه أن يؤدِّيَه إن كان واجداً له، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨]. وإن كان ذلك حَدّاً من حدود الله ـ كائناً ما كان ـ فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. وقد نصَّ اللهُ تعالى على سقوط الحدِّ عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم. وفي ذلك دليلٌ على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم؛ حسب ما تقدَّم بيانه(١).

وكذلك الشُّرَّاب والسُّراق والزُّناة إذا أصلحوا وتابوا وعُرف ذلك منهم، ثم رُفعوا إلى الإمام؛ فلا ينبغي له أن يحدَّهم. وإن رُفعوا إليه فقالوا: تُبْنَا، لم يُتركوا وهم في هذه الحالة؛ كالمحاربين إذا غُلبوا. هذا مذهب الشافعيِّ.

فإن كان الذنب من مظالم العباد؛ فلا تصحُّ التوبة منه إلا بردِّه إلى صاحبه والخروج عنه ـ عَيْناً كان أو غيره ـ إن كان قادراً عليه، فإن لم يكن قادراً فالعزم أن يؤدِّيَه إذا قَدَر في أعجل وقتٍ وأسرعه.

وإن كان أضرَّ بواحدٍ من المسلمين ـ وذلك الواحد لا يشعُر به أو لا يدري من أين أتى ـ فإنه يُزيل ذلك الضررَ عنه، ثم يَسأله أن يعفوَ عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه

---

(١) ٧/ ٤٣٤ وما بعدها.

فقد سقط الذنب عنه. وإن أرسل من يسأل ذلك له، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه ـ عَرَفَه بعينه أو لم يعرفه ـ فذلك صحيحٌ.

وإن أساء رجلٌ إلى رجل بأن فزَّعه بغير حقٍّ، أو غمَّه أو لَطَمَه، أو صفعَه بغير حقٍّ، أو ضرَبه بسوط فآلمه، ثم جاءه مستعفِياً نادماً على ما كان منه، عازماً على ألّا يعود، فلم يزل يتذلَّل له حتى طابت نفسه فعفا عنه، سقط عنه ذلك الذنب. وهكذا إن كان شانَه بشتمٍ لا حدَّ فيه[١].

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ «عَسَى» من الله واجبةٌ[٢].وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «التائبُ من الذنب كَمَنْ لا ذنْبَ له»[٣]. و«أن» في موضع [نصب][٤].

قوله تعالى: ﴿ويدخلَكم﴾ معطوف على «يُكفِّرَ». وقرأ ابن أبي عَبْلة: «وَيُدْخِلْكُمْ» مجزوماً، عطفاً على محل عسى أن يكفِّر. كأنه قيل: تُوبُوا يوجب تكفيرَ سيئاتكم ويدخلْكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ[٥]. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «يُدخلكم»[٦] أو فعلٌ مضمر. ومعنى «يُخزي» هنا يعذِّب، أي: لا يعذِّبه ولا يعذِّب الذين آمنوا معه. ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ تقدم في سورة الحديد[٧].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس

---

(١) المنهاج للحليمي ٣/ ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٥ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وسلف ١٥/ ١٣٦.

(٤) ما بين حاصرتين لضرورة السياق، ولم يرد في النسخ غير (ظ)، فقد جاء فيها: «في موضع رفع اسم عسى». وهو خطأ. وينظر اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٢١٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ١٣٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٤ .

(٧) ٢٠/ ٢٤٥ .

ومجاهد[١] وغيرهما: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ اللهُ نورَ المنافقين؛ حسب ما تقدَّم بيانُه في سورة الحديد[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ **فيه مسألة واحدة:** وهو التشديد في دين الله[٣]. فأمرَه أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى اللهِ، والمنافقين بالغِلْظةِ وإقامة الحجة، وأن يعرِّفهم أحوالَهم في الآخرة، وأنهم لا نورَ لهم يَجُوزون به الصراطَ مع المؤمنين.

وقال الحسن: أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم[٤]؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وكانت الحدود تُقامُ عليهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يرجع إلى الصِّنفين. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع[٥].

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾

ضرَب اللهُ تعالى هذا المَثَل تنبيهاً على أنه لا يُغْني أحدٌ في الآخرة عن قريبٍ ولا نسيب إذا فرَّق بينهما الدِّينُ. وكان اسم امرأة نوحٍ والهة[٦]. واسم امرأة لوط والعة[٧]؛

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٤، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٠٩.

(٢) ٢٠/ ٢٤٧.

(٣) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٤٢٦.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٤٦، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨٣.

(٦) في (خ) و(ظ): والغة.

(٧) في (خ) و(ف) والغة، وفي (ظ) بالغة.

قاله مقاتل[١]. وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها: إن جبريل نزل على النبيِّ ﷺ فأخبَره أن اسم امرأة نوح واعلة[٢] واسم امرأة لوط والهة. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال عكرمة والضحاك: بالكفر[٣].

وقال سليمان بن قَتَّة[٤] عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بَغَت امرأة نبيٍّ قط[٥]. وهذا إجماعٌ من المفسرين فيما ذكر القُشيريُّ؛ إنما كانت خيانتهما في الدِّين، وكانتا مشركتين.

وقيل: كانتا منافقتين.

وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى [الله] إليهما شيئاً أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحاك.

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخّنت لتُعْلِم قومها أنه قد نزل به ضيف؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما ـ لمَّا عَصتَا ـ شيئاً من عذابِ الله؛ تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة[٦].

ويقال: إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمداً ـ ﷺ ـ يشفع لنا؛ فبيَّن اللهُ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٤٧، وزاد المسير ٨/ ٣١٥ . والتعريف والإعلام ص٧٨ .

(٢) في (م) و(خ) و(ف) و(ق) واغلة. والمثبت من (د) و(ظ) والنكت والعيون ٦/ ٤٧ والكلام منه.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٣/ ١١٣ .

(٤) في النسخ عدا (خ) سليمان بن رقية. والخبر في (خ) وتفسير عبد الرزاق ١/ ٣١٠، والطبري ١٢/ ٤٣٠ و٢٣/ ١١١ - ١١٢، والحاكم ٢/ ٤٩٦ .

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٢/ ٤٣٠ و٢٣/ ١١٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٤٦ - ٤٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

تعالى أن شفاعتَه لا تنفع كفّارَ مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعةُ نوح لامرأته وشفاعةُ لوط لامرأته، مع قربهما لهما؛ لكفرهما. وقيل لهما: «ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» في الآخرة؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم[(١)].

ثم قيل: يجوز أن تكون «امرأة نوح» بدلاً من قوله: «مَثَلاً» على تقدير حذف المضاف[(٢)]، أي: ضرب الله مثلاً مثلَ امرأةِ نوحٍ. ويجوز أن يكونا مفعولين[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم. قال يحيى بن سلام: قوله: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا» مَثَلٌ ضربه الله يحذِّر به عائشة وحَفْصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مَثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران؛ ترغيباً في التمسك بالطاعة والثبات على الدِّين[(٤)].

وقيل: هذا حَثٌّ للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي: لا تكونوا في الصبر عند الشِّدة أضعفَ من امرأة فرعون حين صَبَرت على أذى فرعون[(٥)]. وكانت آسية آمنت بموسى[(٦)]. وقيل: هي عمةُ موسى آمنت به[(٧)]. قال أبو العالية: اطَّلع فرعون على إيمان امرأته، فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنتِ مزاحم؟ فأثْنَوْا عليها. فقال لهم: إنها تعبدُ رَبّاً غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوْتَدَ لها أوتاداً وشدَّ يديها

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨٣.
(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٤٩.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٥.
(٤) النكت والعيون ٦/ ٤٧، وزاد المسير ٨/ ٣١٥.
(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨٣.
(٦) الوسيط ٤/ ٣٢٣، وزاد المسير ٨/ ٣١٥.
(٧) الكشاف ٤/ ١٣١.

ورجليها، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ووافَقَ ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتَها في الجنة. فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنَّا نعذبُها وهي تضحك؛ فَقُبِض روحُها[1].

وقال سَلْمان الفارسي فيما روى عنه أبو[2] عثمان النَّهْديُّ: كانت تعذَّبُ بالشمس، فإذا آذاها حَرُّ الشمس أظلَّتها الملائكةُ بأجنحتها[3]. وقيل: سمَّر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رَحىً؛ فأطلعها اللهُ حتى رأت مكانَها في الجنة[4].

وقيل: لما قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ أُرِيَت بيتها في الجنة يُبْنَى. وقيل: إنه من دُرَّةٍ[5]؛ وعن الحسن: ولمَّا قالت: ﴿وَنَجِّنِي﴾ نجَّاها الله أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعَّمُ[6]. ومعنى ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ تعني بالعمل الكفر[7]. وقيل: من عمله مِن عذابه وظلمِه وشماتته[8]. وقال ابن عباس: الجِماع[9]. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الكلبي: هم أهل مصر. مقاتل: القبط[10]. قال الحسن وابن كَيْسان: نجَّاها اللهُ أكرمَ نجاةٍ، ورفعها إلى الجنة؛ فهي

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٤٧ - ٤٨ .

(٢) لفظة: أبو، من (ظ) والمصادر الآتية الذكر.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٣١ ، والطبري ٢٣/ ١١٥ ، والحاكم ٢/ ٤٩٦ ، والأصبهاني في الحلية ١/ ٢٠٥ - ٢٠٦، ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٣٧) .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٣/ ١١٥ عن القاسم بن أبي بزة، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٣٨) عن أبي رافع. والذي في «الشعب» على بطنها، بدل: ظهرها.

(٥) في (ظ): لما قالت ذلك بني من درة.

(٦) الكشاف ٤/ ١٣١ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٠ .

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ١١٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٥ .

(٨) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨٣ .

(٩) النكت والعيون ٦/ ٤٨ ، والوسيط ٤/ ٣٢٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦٨ . وضعف هذا القول ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٥ .

(١٠) النكت والعيون ٦/ ٤٨ .

فيها تأكل وتشرب[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أي: واذكر مريمَ. وقيل: هو معطوفٌ على امرأة فرعون[٢]. والمعنى: وضرَب اللهُ مَثَلاً مريمَ ابنة عمران وصبرها على أذى اليهود. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: عن الفواحش. وقال المفسرون: إنه أراد بالفرْج هنا الجيبَ؛ لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وجبريل عليه السلام إنما نفَخ في جيْبها ولم ينفُخ في فرجها[٣]. وهي في قراءة أُبَيٍّ: «فنفخنا في جَيْبها من رُوحِنا»[٤]. وكلُّ خَرْقٍ في الثوب يسمى جَيْباً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٥] [ق:٦]. ويَحتمل أن تكون أحصنَت فرجَها ونفخ الروح في جَيبها[٦]. ومعنى ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أرسلنا جبريلَ فنفخ في جيبها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: روحاً من أرواحنا، وهي روح عيسى[٧]. وقد مضى في آخر سورة النساء بيانُه مستوفىً والحمد لله[٨]. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ قراءة العامة «وَصَدَّقَتْ» بالتشديد. وقرأ حُميد والأموي «وَصَدَقَتْ» بالتخفيف[٩]. ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الآية [مريم:١٩]. وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى وأنه نبيٌّ وعيسى كلمةُ الله. وقد تقدم[١٠]. وقرأ الحسن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٨.

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٤٩.

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٣٨٤.

(٤) ذكرها في تفسير السمعاني ٥/ ٤٧٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩، وتفسير الطبري ٢٣/ ١١٦.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٤٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٤.

(٨) ٧/ ٢٣٠ وما بعد..

(٩) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٢٩٥، من قراءة يعقوب وقتادة وأبي مجلز وعاصم في رواية، وذكرها الرازي ٣٠/ ٥٠ دون نسبة وهي قراءة شاذة.

(١٠) النكت والعيون ٦/ ٤٨، وتقدم ٥/ ١٢٨.

وأبو العالية: «بِكَلِمَةِ رَبِّهَا وكِتَابِهِ»[١]. وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم: «وكُتُبِه» جمعاً[٢]. وعن أبي رجاء: «وكُتْبِهِ» مخفف التاء[٣]. والباقون: «بِكِتَابِه» على التوحيد. والكتاب يُراد به الجنس، فيكون في معنى كلِّ كتابٍ أنزل اللهُ تعالى[٤]. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من المطيعين، وقيل: من المصلِّين بين المغرب والعشاء[٥]. وإنما لم يقل: من القانتات؛ لأنه أراد: وكانت من القوم القانِتين. ويجوز أن يرجعَ هذا إلى أهل بيتها، فإنهم كانوا مطيعين لله[٦].

وعن مُعاذ بن جبل ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها: «أتكرهين ما قد نَزَل بكِ ولقد جعل الله في الكره خيراً، فإذا قدمت على ضَرَّاتك فأقرئيهن مني السلام: مريم بنْت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة[٧] ـ أو قال حكيمة[٨] ـ بنت عمران أخت موسى بن عمران». فقالت: بالرفاء والبنينَ يا رسول الله[٩].

وروى قتادة عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خُوَيلْد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم»[١٠]. وقد مضى في «آل عمران». الكلام في هذا مستوفًى والحمد لله[١١].

---

(١) زاد المسير ٨/ ٢١٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٠ .

(٢) السبعة ص٦٤١ ، والتيسير ص٢١٢ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٢٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٦ .

(٤) زاد المسير ٨/ ٣١٧ ، وبنحوه في المحتسب ٢/ ٣٢٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ٣٢٤ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٨ ، وبنحوه في الكشاف ٤/ ١٣٢ .

(٧) في (ظ) حليمة.

(٨) في (د) و(ظ) و(ف): حليمة. والذي في المصادر الآتية الذكر: كُلْثُم أخت موسى.

(٩) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٤٥١ - ٤٥٢ (١١٠٠)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٧٠/ ١١٩ عن ابن أبي رَوَّاد. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢١٨ : منقطع الإسناد، وفيه محمد بن الحسن ابن زَبالة، وهو ضعيف.

(١٠) أخرجه الإمام أحمد (١٢٣٩١)، والترمذي (٣٨٧٨).

(١١) ٥/ ١٢٧ .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها ثِنتَا عشرةَ[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ رُويَ: أنَّهُ عليهِ السَّلامُ خلا بماريَّةَ في يومِ عائشةَ أو حفصةَ، فاطَّلعَت على ذلكَ حفصةُ فعاتبَتْهُ فيهِ، فحرَّمَ ماريَّةَ، فنزلَتْ[٢].

---

(١) ليس في هذا اختلاف. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص٢٥٠).

(٢) رواه بنحوه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٤٠) من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٧٨): فيه إسماعيل البجلي وهو ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

ورواه بنحوه أيضًا العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٥٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٣١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٧): رواه الطبراني في «الأوسط» من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير عن عمه، قال الذهبي: مجهول، وخبره ساقط. وقال العقيلي: موسى بن جعفر الأنصاري مجهول بالنقل لا يتابع على حديثه ولا يصح إسناده.

وفي كلا الحديثين أن ذلك كان في بيت حفصة رضي الله عنها، وأمَّا كونه في بيت عائشة رضي الله عنها فقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٧٥): لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة. ثم ذكر أن ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٨٦) رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن ذلك كان في يوم عائشة لكن في بيت حفصة، وليس فيه ذكر البشارة بخلافة أبي بكر =

وقيل: شَرِبَ عسَلًا عندَ حفصةَ[١] فواطأَت عائشةُ سودةَ وصفيَّةَ فقُلْنَ لهُ: إنا نَشُمُّ[٢] منكَ ريحَ المغافيرِ[٣]، فحرَّمَ العسلَ، فنزلَتْ[٤].

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسيرٌ لـ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حالٌ من فاعلِهِ، أو استئنافٌ ببيانِ الدَّاعِي إليهِ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لكَ هذهِ الزَّلَّةَ؛ فإنَّهُ لا يجوزُ تحريمُ ما أحلَّهُ اللهُ[٥].

= وعمر رضي الله عنهما، وجاء في آخره: فأُمر فكفَّر يمينه، وحبس نساءَه عليه. وفيه الواقدي شيخ ابن سعد، وهو متروك.

(١) كذا في جميع النسخ، وهو خطأ، والصواب أنه عند زينب كما في المصادر.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «نتنسم».

(٣) جمع «مُغفور» بضم الميم، وهو صمغ حلو له رائحة كريهة، يكون بشجر يسمى العرفط، ويقال له: مغاثير. انظر: «معالم السنن» للخطابي (٤/ ٢٧٢).

(٤) رواه البخاري (٥٢٦٧)، ومسلم (١٤٧٤/ ٢٠)، وجاء في رواية عند البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤/ ٢١): وكان رسولُ الله ﷺ يشتدُّ عليه أن يُوجَدَ منه الرِّيحُ.

قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: اختلف في سبب النزول؛ فقيل: قصة مارية رضي الله عنها، وقيل: قصة العسل، وقال في «شرح مسلم»: الصحيح أنها في قصة العسل، لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح. انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٠/ ٧٧)، وكلامه منقول عن القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٥/ ٢٠).

(٥) لم يرتض السيوطي هذه العبارة، ورأى فيها سوء أدب مع النَّبيِّ ﷺ، فقال في «حاشيته»: أستغفر الله من هذه الكلمة الشنعاء، ما حكيتها إلا لأردَّها، وأحذِّر الناس منها، والمصنف تبع فيها الزمخشري، وقد أطبق الأئمة على التشنيع عليه فيها.

وقد قيل: إن الزمخشري والمصنف لم يقصدا بالزلة إلا ترك الأولى، أما كونه حرَّم حلالًا فلم يخطر لهما ببال؛ لأنه غير متصوَّر من النبي ﷺ. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٩/ ١٧٥)، و«الانتصاف» لابن المنير (٤/ ٥٦٢)، و«حاشية القونوي» (١٩/ ١٥١).

﴿رَحِيمٌ﴾ رحمَكَ حيثُ لم يُؤاخِذكَ بهِ، وعاتبَكَ مُحاماةً[١] على عِصمَتِكَ.

(٢) ـ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قد شرعَ لكُم تحليلَها، وهو حلُّ ما عقدتَهُ بالكفَّارةِ، أو الاستثناءُ فيها بالمشيئةِ حتَّى لا يحنثَ، من قولِهم: «حلَّلَ في يمينِهِ» إذا استثنى فيها[٢].

واحتجَّ بهِ من رأى التَّحريمَ مطلقًا أو تحريمَ المرأةِ يمينًا[٣]، وهو ضعيفٌ؛ إذ لا يلزمُ من وجوبِ كفَّارةِ اليمينِ فيهِ كونُهُ يمينًا، مع احتمالِ أنَّهُ عليهِ السَّلامُ أتى بلفظِ اليمينِ كما قيلَ.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ متولِّي أمرِكُم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحُكُم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقنُ في أفعالِهِ وأحكامِهِ.

(٣) ـ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ يعني: حفصةَ ﴿حَدِيثًا﴾ تحريمَ ماريَّةَ أو العسلِ، أو أنَّ الخلافةَ بعدهُ لأبي بكرٍ وعمرَ[٤].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: فلمَّا أخبرَت حفصةُ عائشةَ بالحديثِ.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلعَ النَّبيَّ عليهِ السَّلامُ على الحديثِ؛ أي: على إفشائِهِ.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ عرَّفَ الرَّسولُ حفصةَ بعضَ ما فعلَتْ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ عن إعلامِ بعضٍ تكرُّمًا، أو جازاها على بعضِهِ بتطليقِهِ إيَّاها، وتجاوزَ عن بعضٍ،

---

(١) أي: محافَظة.

(٢) انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٣/ ١٨٨)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦٧٥).

(٣) التحريم المطلق نحو: «الحلال عليه حرام»، والمقيد بالمرأة نحو: زوجته عليه حرام»، وقد اختلف فيه السلف، وعدَّه أبو حنيفة يمينًا، وخالفه الشافعي. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ١٥٢).

(٤) وهذا يستند إلى حديث ابن عباس رضي الله عنه الذي رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٤٠)، وقد تقدَّم في أول السورة.

ويؤيِّدُهُ[١] قراءةُ الكسائيِّ بالتَّخفيفِ[٢]، فإنَّهُ لا يحتملُ هاهنا غيرَهُ، لكنَّ المشدَّدَ من بابِ إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ للسَّببِ والمخفَّفُ بالعكسِ، ويُؤيِّدُ الأوَّلَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؛ فإنَّهُ أوفقُ للإعلامِ.

(٤) ـ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ رضي الله عنهما على الالتفاتِ للمبالغةِ في المُعاتبةِ.

﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وُجدَ منكُما ما يُوجبُ التَّوبةَ، وهو ميلُ قلوبِكُما عن الواجبِ من مخالصةِ[٣] الرَّسولِ بحبِّ ما يحبُّهُ وكراهةِ ما يكرَهُهُ.

﴿وإن تَظَّاهَرَا عليهِ﴾ وإن تَتَظاهرا عليهِ بما يسوؤُهُ، وقرأَ الكوفيُّونَ بالتَّخفيفِ[٤].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ فلن يعدمَ مَن يُظاهِرُهُ من اللهِ والملائكةِ وصُلحاءِ المؤمنينَ؛ فإنَّ اللهَ ناصرُهُ، وجبرئيلُ رئيسُ الكَروبيِّينَ[٥] قرينُهُ، ومَن صلحَ من المؤمنينَ أتباعُهُ وأعوانُهُ، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرونَ،

---

(١) أي: يؤيد أنَّ «عرف» بمعنى جازى، ووجه التأييد: أنَّ «عرف» يستعمل في كثير من كلام العرب بمعنى المجازاة، ومنه قولك للمسيء: قد عرفتُ ما صنعتَ. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ١٥٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٣) كذا في النسخ الخطية التي بين أيدينا، والمخالصة: المناصحة، والظاهر أنَّ ثمة نسخ جاءت الكلمة فيها على خلاف هذا، فقد قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «من مخالقة رسول الله» بالخاء المعجمة واللام والقاف؛ أي: موافقة أخلاقه والتخلق بها، وهو بيان للواجب، والفاء تحريف من الناسخ. ونحوه في «حاشية القونوي» (١٩/ ١٥٦). وتطلق المخالصة اليوم على نوع من العقود يتضمن الإبراء. انظر: «معجم لغة الفقهاء» (ص٤١٥).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ٧٤)، و«النشر» (٢/ ٢١٨).

(٥) رُوي عن أبي العالية أنَّه قال: الكروبيُّون: سادة الملائكة. منهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١١٨)، و«الفائق» للزمخشري (٣/ ٢٥٨).

وتخصيصُ جبريلَ لتعظيمِهِ، والمرادُ بالصَّالحِ الجنسُ، ولذلكَ عـمَّ بالإضـافةِ، وقولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ تعظيمٌ لمظاهَرةِ الملائكةِ من جملةِ ما ينصرهُ اللهُ بهِ.

(٥) ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التَّغليبِ أو تعميمِ الخطابِ، وليسَ فيهِ ما يدلُّ على أنَّهُ لم يطلِّقْ حفصةَ وأنَّ في النِّساءِ خيرًا منهنَّ؛ لأنَّ تعليقَ طلاقِ الكلِّ لا ينافي تطليقَ واحدةٍ، والمعلَّقُ بما لم يقع لا يجبُ وقوعهُ.

وقرأَ نافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿يُبْدِلَهُ﴾ بالتَّخفيفِ(١).

﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مُقرَّاتٍ مُخلصاتٍ، أو منقاداتٍ مصدِّقاتٍ.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصليَّاتٍ، أو مواظباتٍ على الطَّاعةِ.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذُّنوبِ.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّداتٍ، أو متذلِّلاتٍ لأمرِ الرَّسولِ.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائماتٍ، سمَّى الصَّائمَ سائحًا لأنهُ يَسيحُ بالنَّهارِ بلا زادٍ، أو مهاجراتٍ.

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وُسِّطَ العاطفُ بينَهُما لتنافِيهما، ولأنَّهما في حكمِ صفةٍ واحدةٍ؛ إذِ المعنى مشتملاتٍ على الثيِّباتِ والأبكارِ(٢).

---

(١) هذا سهو من المصنف رحمه الله، حيث قرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: يعني: ليست هذه الواو واو الثمانية كما تُوهِّم.

قلت: سبق للمصنف أن ذكرَ واو الثمانية في تفسير الآية (١١٢) من سورة التوبة، وقد سبق الكلام عليها ثمَّة، وقال ابن هشام في «المغني» (ص: ٤٧٤): ذكرها جماعة من الأدباء كالحريري، ومن النحويين الضعفاء كابن خالويه، ومن المفسرين كالثعلبي.

(٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بتركِ المعاصِي وفعلِ الطَّاعاتِ.

﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ بالنُّصحِ والتَّأديبِ.

وقُرِئَ: «وأهْلُوكم»[1] عطفًا على واوِ ﴿قُوٓاْ﴾، فيكونُ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ أنفسَ القبيلَتينِ[2] على تغليبِ المخاطَبِينَ.

﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ نارًا تتَّقدُ بهما اتِّقادَ غيرِها بالحطبِ.

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تَلِي أمرَها وهم الزَّبانيةُ ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ غلاظُ الأقوالِ شِدادُ الأفعالِ[3]، أو غلاظُ الخُلُقِ شدادُ الخَلْقِ[4] أقوياءُ على الأفعالِ الشَّديدةِ.

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ فيما مضى ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فيما يُستقبلُ، أو لا يمتنعونَ عن قبولِ الأوامرِ والتزامِها ويُؤدُّونَ ما يؤمَرُونَ به.

(٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يُقالُ لهم ذلكَ عندَ دخولِهمُ النَّارَ، والنَّهيُ عنِ الاعتذارِ لأنَّهُ لا عُذرَ لهم أو العذرُ لا ينفعُهم.

(٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ بالغةً في النُّصحِ، وهو[5]

---

(١) قال الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٤٧٨): قال أبو معاذ: وذكر وكيع في حديث «قوا أنفسكم وأهلوكم». وانظر: «الكشاف» (٩/ ١٨٥)، و«البحر» (٢٠/ ٣٩٦) دون نسبة.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المراد بـ«القبيلين»: هم وأهلوهم. قلت: لفظ «القبيلين» الذي ذكره أظهر مما أثبتناه من النسخ الخطية.

(٣) ذكره الكرماني في «لباب التفاسير» في تفسير الآية، ونقل عن ابن عيسى أنه قال: غِلاظٌ في الأخلاق رِقاقٌ في الأجسام.

(٤) يجوز أيضًا أن تكون بكسر الخاء وفتح اللام، جمع خِلْقة. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٦٨٩).

(٥) أي: لفظ «نصوح».

صفةُ التَّائبِ فإنَّهُ ينصحُ نفسَهُ بالتَّوبةِ، وُصفَت بهِ[١] على الإسنادِ المجازيِّ مبالغةً، أو في النَّصَاحةِ[٢]، وهي الخِياطَةُ، كأنَّها تنصحُ ما خرَقَ الذَّنبُ.

وقرأَ أبو بكرٍ بضمِّ النُّونِ[٣]، وهو مصدرٌ بمعنى: النُّصحِ؛ كـ«الشُّكرِ» و«الشُّكورِ»، أو: النَّصاحةِ؛ كـ«الثَّباتِ» و«الثُّبوتِ»، تقديرُهُ: ذاتَ نُصوحٍ، أو تنصحُ نُصوحًا، أو توبوا نُصوحًا لأنفُسِكُم.

وسُئلَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ عن التَّوبةِ فقال: يجمعُها ستَّةُ أشياءَ: على الماضي من الذُّنوبِ النَّدامةُ، وللفرائضِ الإعادةُ، وردُّ المظالِم، واستحلالُ الخصومِ، وأن تعزِمَ على أن لا تعودَ، وأن تُذيبَ نفسَكَ في طاعةِ اللهِ كما ربَّيتَها في المعصيةِ[٤].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذكرَ بصيغةِ الإطماعِ جريًا على عادةِ الملوكِ، وإشعارًا[٥] بأنَّه تفضُّلٌ والتَّوبةُ غيرُ موجِبٍ، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ بينَ خوفٍ ورجاءٍ.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرفٌ لـ﴿يدخلكم﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ إحمادًا لهم وتعريضًا لمن ناوأَهُم، وقيلَ: مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: على الصِّراطِ ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طفِئَ نورُ المنافقينَ:

---

(١) قوله: «وُصفَت به»؛ أي: وصفت التوبة بلفظ «نصوح» الذي هو صفة التائب في الحقيقة.

(٢) عطف على قوله: «في النصح». انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٢٦٢).

(٣) وقراءة الباقين بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٤١)، و«التيسير» (ص: ٢١٢)، و«النشر» (٢/ ٣٨٨).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، وفيه شيخ الثعلبي الحسن بن محمد بن حبيب أبو القاسم المفسر صاحب الأصم، وهَّاه الحاكم. انظر: «المغني في الضعفاء» (١/ ١٦٦).

(٥) قال القونوي: الأولى: «أو إشعارًا» بـ(أو) الفاصلة؛ إذ جمع المعنيين مشكل. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وقيل: تتفاوتُ أنوارُهم بحسَبِ أعمالِهم، فيسألونَ إتمامَهُ تفضُّلًا.

(٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسَّيفِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجَّةِ ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ واستعمِلِ الخُشونةَ فيما تجاهدُهم إذا بلغَ الرِّفقُ مداهُ.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ أو مأواهُم.

(١٠) ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ مثَّلَ اللهُ حالَهم في أنَّهم يُعاقَبونَ بكفرِهم ولا يُحابَونَ[1] بما بينَهم وبينَ النَّبيِّ والمؤمنينَ منَ النِّسبةِ بحالِهما.

﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ يريدُ بهِ تعظيمَ نوحٍ ولوطٍ.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنِّفاقِ.

﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ فلم يغنِ النَّبيَّانِ عنهما بحقِّ الزَّواجِ إغناءً ما.

﴿وَقِيلَ﴾ أي: لهُما عندَ موتِهما أو يومَ القِيامةِ: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ مع سائرِ الدَّاخلينَ منَ الكفرةِ الَّذينَ لا وُصلةَ بينَهُم وبينَ الأنبياءِ.

(١١) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ شبَّهَ حالَهُم في أنَّ وُصلةَ الكافرينَ لا تضرُّهم بحالِ آسيةَ، ومنزلَتُها عندَ اللهِ تعالى مع أنَّها كانت تحتَ أعدى أعداءِ اللهِ.

﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾ ظرفٌ للمثلِ المحذوفِ.

﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ قريبًا من رحمتِك، أو في أعلى درجاتِ المقرَّبينَ.

---

(١) يقال: حاباهُ مُحاباةً: نصرَه واختصَّه ومالَ إليه. انظر: «تاج العروس» (٣٧/ ٣٩٤).

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ من نفسِهِ الخبيثةِ وعملِهِ السَّيِّءِ.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القِبطِ التَّابعينَ لهُ في الظُّلمِ.

(١٢) ـ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ تسليةً للأراملِ.

﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرِّجالِ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرجِها.

وقُرِئَ: «فيها»[(١)]؛ أي: في مريمَ، أو الحَبَلَةِ.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن روحٍ خلقناهُ بلا توسُّطِ أصلٍ.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصُحفِهِ المنزَّلةِ، أو بما أوحَى إلى أنبيائِهِ ﴿وكِتابِه﴾ وما كتبَ في اللَّوحِ، أو جنسِ الكتبِ المنزلةِ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ البصريَّيْنَ وحفصٍ بالجمعِ[(٢)].

وقُرِئَ: «بكلمةِ اللهِ وكتابِه»[(٣)]؛ أي: بعيسى عليهِ السَّلامُ والإنجيلِ.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ من عِدادِ المواظبينَ على الطَّاعةِ، والتَّذكيرُ للتَّغليبِ والإشعارِ بأنَّ طاعتَها لم تَقصُر عن طاعةِ الرِّجالِ الكاملينَ حتى عُدَّت من جملَتِهم.

أو: من نَسلِهم[(٤)]، فتكونُ ﴿مِنَ﴾ ابتدائيةً.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٩٥)، و«البحر» (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٩).

(٣) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ١٩٦) والرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٥٧٦) هكذا، ولم أقف عليها في كتب القراءات، وقراءة الجمهور ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾، وقرأ مجاهد والجحدري والحسن: «بكلمةِ ربِّها» كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٩)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٥٠).

(٤) وجه ثانٍ لتفسير قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

عن النَّبيِّ ﷺ: «كمُلَ من الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يكمُل من النِّساءِ إلا أربعٌ: آسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، وفضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطَّعامِ»[١].

وعنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ التَّحريمِ آتاهُ اللهُ توبةً نَصوحًا»[٢].

***

(١) روى هذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٧١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد توسع محققه في دراسته وخلص إلى أن ذكر العدد وذكر السيدتين خديجة وفاطمة رضي الله عنهما فيه محمول على الشذوذ، والحديث رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، وليس في روايتهما: «وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»، ورواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٩٥) بنحوه، وذكر فيه خديجة وفاطمة، ولكن في إسناده المثنى بن إبراهيم شيخ الطبري لم أقف له على ترجمة، غير أن فضل خديجة وفاطمة رضي الله عنهما ورد من طرق صحيحة منها:
ما رواه البخاري (٣٤٣٢) و(٣٨١٥)، ومسلم (٢٤٣٠) ، عن عليٍّ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خيرُ نسائها مريمُ بنتُ عِمران، وخيرُ نسائها خديجةُ بنت خويلد».
ومنها ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٩٧) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٤٨) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠١٠)، والطبراني في «الكبير» (١١٩٢٨)، عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً وفيه: «أفضلُ نساء أهل الجنَّة: خديجةُ بنت خُويلدٍ، وفاطمةُ بنت محمَّد، وَآسيةُ بنتُ مُزاحمٍ امرأة فرعون، ومريمُ ابنةُ عمرانَ»، وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح كما قال محققو «المسند».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣١٧)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّة وآياتها اثنتا عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

أُختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن (مارية) وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآية، روى النسائي، عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة، حتى حرمها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى آخر الآية[1]، وروى ابن جرير، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أُم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟ فجعلها عليه حراماً، فقالت: أي رسول الله كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟! وعن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرم، فعوتب في التحريم، وأُمر بالكفارة باليمين[2]، وعن سعيد بن جبير: أن ابن عباس

---

(١) أخرجه النسائي في سننه .

(٢) رواه ابن جرير .

(٣) رواه ابن جرير أيضاً .

كان يقول في الحرام يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ يعني أن رسول الله ﷺ حرم جاريته، فقال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ فكفّر يمينه فصيّر الحرام يميناً[١]، ومن ههنا قال بعض الفقهاء بوجوب الكفارة على من حرّم جاريته، أو زوجته، أو طعاماً أو شراباً، أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد، وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمَة نفذ فيهما، والآية نزلت في تحريمه العسل كما روى البخاري عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند (زينب بنت جحش) ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» ﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾[٢].

وقال البخاري في «كتاب الطلاق» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالنّ له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحله العرفط وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك، قالت، تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها، قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إليّ، قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه»، قالت: تقول سودة والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري ولمسلم، قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح، يعني الريح الخبيثة، ولهذا قلن له أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بل شربت عسلاً» قلن: جرست نحله العرفط، أي رعت نحله شجر العرفط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته، قال الجوهري: جرست النحل العرفط إذا أكلته، ومنه قيل للنحل جوارس، وفي رواية عن عائشة أن (زينب بنت جحش) هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال إنهما واقعتان، ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد

(١) أخرجه ابن جرير، ورواه البخاري عن ابن عباس بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

صغت قلوبكما﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر ، وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت : يا أمير المؤمنين: من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ ؟ فقال عمر : واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي (عائشة وحفصة) . قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أُميَّة بن زيد بالعوالي، فغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم، قلت : وتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل ؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم (أي أجمل) وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - ، قال: وكان لي جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاء، فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك، أجاءت غسان ؟ قال: لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت عليَّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك لـه فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي، فقال: فقد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمت فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل قـد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رمال حصير وقـد أثر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إليّ، وقال: « لا »، فقلت: الله أكبر ، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يوماً ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قـد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قـد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قـد دخلت على حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال: « نعم » ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهب مقامه، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال:

« أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا »، فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عزّ وجلّ .

وروى البخاري، عن أنَس قال، قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيرًا منكن﴾ فنزلت هذه الآية، وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[1] . وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات، ومعنى قوله: ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات﴾ ظاهر، وقوله تعالى: ﴿ سائحات﴾ أي صائمات قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وتقدم فيه حديث مرفوع، ولفظه « سياحة هذه الأمة الصيام »، وقال زيد بن أسلم ﴿ سائحات﴾ أي مهاجرات، وتلا ﴿ السائحون﴾ أي المهاجرون، والقول الأول أولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ ثيبات وأبكاراً﴾ أي منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿ ثيبات وأبكاراً﴾ قال: وعد الله نبيّه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب آسية امرأة فرعون، وبالأبكار مريم بنت عمران[2] . وذكر الحافظ ابن عساكر، عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فرت خديجة فقال: إن الله يقرؤها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم »[3] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ قُوْا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ يقول أدبوهم وعلموهم، وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار، وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها، وقال الضحاك: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه الحافظ الطبراني في المعجم الكبير .

(٣) أخرجه ابن عساكر في ترجمة مريم عليها السلام .

وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه، وفي معنى هذه الآية الحديث الشريف: « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها »[1] ، قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ ، وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر . وقوله تعالى: ﴿ وقودها الناس والحجارة﴾ وقودها: أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم. ﴿ والحجارة﴾ قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾، وقال ابن مسعود ومجاهد: هي حجارة من كبريت، أنتن من الجيفة، وقوله تعالى: ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شداد﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. كما روى ابن حاتم . عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أول أهل النار إلى النار ، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة. لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفاً ، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها[2] ، وقوله: ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم، ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات ، **قال عمر (التوبة النصوح) أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه**، وقال أبو الأحوص: سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لا يعود إليه أبداً، وقال ابن مسعود ﴿ توبة نصوحاً﴾ قال: يتوب ثم لا يعود، ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه، وفي الحديث الصحيح: « الندم توبة »[3] ، وعن أبيّ بن كعب قال: قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمّة عند اقتراب الساعة: منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، قال زر : فقلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح ؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: « هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً »[4]. وقال

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة موقوفاً .

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم .

الحسن: «التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته» فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبداً، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام: «التوبة تجب ما قبلها»؟ وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وعسى من الله موجبة ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾، كما تقدّم في سورة الحديد: ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قال مجاهد والضحّاك: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ. روى الإمام أحمد عن يحيى ابن غسان عن رجُل من بني كنانة قال: صلّيت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أُمّتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أُمّتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أُمّتي من بين الأمم»، فقال رجل: يا رسول الله: وكيف تعرف أُمّتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفّار والمنافقين هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وأغلظ عليهم﴾ أي في الدنيا، ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ أي في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشر والاختلاط،

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه محمد بن نصر المروزي عن أبي ذر وأبي الدرداء.

﴿ فخانتاهما﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لكفرهما، ﴿ وقيل﴾ أي للمرأتين ﴿ ادخلا النار مع الداخلين﴾، وليس المراد بقوله ﴿ فخانتاهما﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، كما قدمنا في سورة النور، قال ابن عباس ﴿ فخانتاهما﴾ قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وقال الضحّاك: عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين[1] .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذاكانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى: ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه ، وروى ابن جرير، عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة ، فقولها : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار، ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ ونجني من القوم الظالمين﴾ وهذه المرأة هي (آسية بنت مزاحم) رضي الله عنها، عذَّبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهي صابرة، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعذّبها وهي تضحك، فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها . وقوله تعالى : ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي بواسطة الملك وهو (جبريل) فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه بفِيهِ في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي بقدره وشرعه، ﴿وكانت من القانتين﴾ . وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[2] .

[آخر تفسير سورة التحريم ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وهو الصحيح كما قال ابن عباس : خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما .

(٢) أخرجه الشيخان .

تفسير سورة التحريم

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ .

اختُلف فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فقيل : نزلت فى شأن مارية ،وكان رسول الله ﷺ قد حرمها ، فنزل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ . . . الآية.

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد ، حدثنا أبى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حَرَّمها ، فأنزل الله ،عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى آخر الآية [(١)] .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى [(٢)] ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا أبو غسان، حدثنى زيد بن أسلم : أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه ، فقالت : أى رسول الله ، فى بيتى وعلى فراشى ؟ ! فجعلها عليه حراماً . فقالت : أىْ رسول الله ، كيف يَحْرمُ عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها . فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ قال زيد : فقوله : أنت علىَّ حرام لغو [(٣)] .

وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم ، قال: قل لها : « أنت علىَّ حرام ، ووالله لا أطؤك » .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٠٧) .

(٢) فى أ : « الرقى » .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ١٠٠) .

وقال سفيان الثورى وابن عُلَيَّة ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : آلى رسول الله ﷺ وحرَّمَ ، فعُوتبَ فى التحريم ، وأمر بالكفارة فى اليمين . رواه ابن جرير . وكذا روى عن قتادة ، وغيره ، عن الشعبى ، نفسه . وكذا قال غير واحد من السلف ، منهم الضحاك ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وروى العوفى ، عن ابن عباس القصة مطولة .

وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى ، حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة . وكان بدء الحديث فى شأن أم إبراهيم القبطية ، أصابها النبى ﷺ فى بيت حفصة فى نوبتها[١] ، فَوَجَدت حفصة ، فقالت : يا نبى الله ، لقد جئت إلىَّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك ، فى يومى ، وفى دورى ، وعلى فراشى . قال : « ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ » . قالت : بلى . فحرَّمها وقال : « لا تذكرى ذلك لأحد » . فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ** ﴾ الآيات [٢] فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر [عن] [٣] يمينه ، وأصاب جاريته [٤] .

وقال الهيثم بن كُلَيب فى مسنده : حدثنا أبو قِلابة عبد الملك بن محمد الرقاشى ، حدثنا مسلم ابن إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر قال : قال النبى ﷺ لحفصة : « لا تخبرى أحداً ، وإن أم إبراهيم علىَّ حرام » . فقالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : « فوالله لا أقربها » . قال : فلم يقربها حتى أخبرت عائشة . قال : فأنزل الله : ﴿ **قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ** ﴾ .

وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا هشام الدَّسْتُوَائى قال : كتب إلى يحيى يحدث عن يعلى بن حكيم ، عن سعيد بن جبير : أن ابن عباس كان يقول فى الحرام: يمين تكفرها ، وقال ابن عباس : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعنى : أن رسول الله حرم جاريته فقال الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ **قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ** ﴾ ، فكفر يمينه ، فصير الحرام يميناً [٦] .

ورواه البخارى عن معاذ بن فضالة ، عن هشام ـ هو الدستوائى ـ عن يحيى ـ هو ابن كثير ـ عن ابن حكيم ـ وهو يعلى ـ عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى الحرام : يمين تُكَفر . وقال

(١) فى أ : « فى يومها » . (٢) فى م ، أ : « الآيات كلها » . (٣) زيادة من أ .
(٤) تفسير الطبرى (٢٨/ ١٠٢) وأصله فى الصحيح وسيأتى .
(٥) المختارة للضياء المقدسى برقم (١٨٩) .
(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ١٠١) .

ابن عباس : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب: ٢١] (١) .

ورواه مسلم من حديث هشام الدَّسْتُوَائى به (٢) .

وقال النسائى : أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد بن على ، حدثنا مَخْلَد ــ هو ابن يزيد ــ حدثنا سفيان ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أتاه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى عَلَىَّ حرَاما ؟ قال : كذبتَ ليست عليك بحرام . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة .

تفرد به النسائى من هذا الوجه ، بهذا اللفظ (٣) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن زكَريا ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن مسلم، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ؟ قال : حرم رسول الله ﷺ سُرِّيَّته (٤) .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حَرَّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما فى قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاقَ الزوجة أو عتق الأمة ، نفذ فيهما .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنى أبو عبد الله الظهرانى (٥) ، أخبرنا حفص بن عمر العَدَنى ، أخبرنا الحكم بن أبان ، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ؟ فى المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ .

وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العَسَل ، كما قال البخارى عند هذه الآية:

حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن عبيد (٦) ابن عمير ، عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جَحش ، ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصةُ على : أيتُنا دخلَ عليها ، فلتقل له : أكلتَ مَغَافير ؟ إنى أجد منك ريح مغافير. قال : « لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جَحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا » ، ﴿ **تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ** ﴾ (٧) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا بهذا اللفظ ، وقال فى كتاب « الأيمان والنذور » :

حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جريج قال : زعم عطاء أنه سمع عُبَيد بن عمير يقول : سمعتُ عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جَحش ويشرب

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩١١) .
(٢) صحيح مسلم برقم (١٤٧٣) .
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٠٩) .
(٤) المعجم الكبير (١١/٨٦) .
(٥) فى م : « الطبرانى » . (٦) فى أ : « عن عبد » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩١٢) .

عندها عَسَلا ، فتواصيتُ أنا وحفصة أن أيتُنا دخل عليها النبى ﷺ فَلْتَقُلْ : إنى أجد منك ريح مغافير؛ أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما النبى ﷺ ، فقالت ذلك له ، فقال : « لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جَحش ،ولن أعود له » . فنزلت : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ؟ إلى : ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا** ﴾ لقوله : « بل شربت عسلا » . وقال إبراهيم بن موسى ، عن هشام : « ولن أعود له ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحداً » [١] .

وهكذا رواه فى كتاب «الطلاق» بهذا الإسناد ، ولفظه قريب منه [٢]. ثم قال : المغافير :شبيه بالصمغ ، يكون فى الرِّمث فيه حلاوة ، أغفر الرِّمث : إذا ظهر فيه . واحدها مغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهرى ، قال : وقد يكون المغفور أيضاً للعُشر والثُّمام والسَّلَم والطلح. قال : والرِّمث ، بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، وهو من الحَمْض . قال : والعرفط : شجر من العضاه ينضَح المغفُور [منه] [٣] .

وقد روى مسلم هذا الحديث فى كتاب « الطلاق » من صحيحه ، عن محمد بن حاتم ، عن حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، أخبرنى عطاء ، عن عُبيد بن عمير ، عن عائشة ،به [٤] . ولفظه كما أورده البخارى فى « الأيمان والنذور » .

ثم قال البخارى فى كتاب « الطلاق » : حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا على بن مُسْهَر ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ،عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحَلوى والعَسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنو من إحداهن . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فَغِرْتُ فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت لها امرأة من قومها عُكَّة عَسَل ، فسقت النبى ﷺ منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالَن له . فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ : إنه سيدنو منك ، فإذا دنا منك فقولى : أكلت مغَافير ؟ فإنه سيقول ذلك [٥] : لا . فقولى له : ما هذه الريح التى أجد ؟ فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل . فقولى : جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ . وسأقول ذلك، وقولى أنت له يا صفية ذلك ، قالت ــ تقول سودة ــ : والله [٦] ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتنى فرقاً منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله ، أكلت مغافير ؟ قال : « لا ». قالت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟ قال:« سقتنى حفصة شَربة عسل» . قالت : جَرَسَت نَحلُه العرفطَ. فلما دار إلىَّ قلت نحو ذلك ،فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله ، ألا أسقيك منه ؟ قال:« لا حاجةَ لى فيه» . قالت ــ تقول سودة ــ : والله لقد حَرَمْنَاه . قلت لها : اسكتى [٧] .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٩١) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٧) .
(٣) زيادة من الصحاح ،مادة « عرفط » ٣/ ١١٤٢.
(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٤) .
(٥) فى م : « سيقول لك » .
(٦) فى م: « فوالله» .
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٨) .

هذا لفظ البخارى . وقد رواه مسلم عن سُوَيد بن سَعيد ، عن على بن مُسْهِر ، به . وعن أبى كُرَيْب وهارون بن عبد الله والحسن بن بشر ، ثلاثتهم عن أبى أسامة حماد بن أسامة ، عن هشام بن عروة ، به [(١)] . وعنده قالت : وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعنى : الريح الخبيثة ؛ ولهذا قلن له : أكلت مغافير لأن ريحها فيه شىء . فلما قال : « بل شربت عسلا» . قلن: جَرَسَت نحلُه العرفطَ ، أى : رَعَت نحلُه شَجَر العرفط الذى صَمغُه المغافير ؛ فلهذا ظهر ريحهُ فى العسل الذى شربته .

قال الجوهرى : جَرَسَت نحلُه العرفط تَجْرِس : إذا أكلته ، ومنه قيل للنحل : جوارس ، قال الشاعر :

تَظَلّ عَلَى الثَّمْرَاء مِنها جَوَارِسُ

وقال : الجَرْس والجِرْس : الصوت الخفى . ويقال : سمعت جرس الطير : إذا سمعتَ صوت مناقيرها على شىء تأكله ، وفى الحديث : « فيسمعون جَرْس طير الجنة » . قال الأصمعى : كنت فى مجلس شُعبة قال : « فيسمعون جَرْشَ طير الجنة » بالشين [المعجمة] [(٢)] ، فقلت : « جرس » ؟! فنظر إلى فقال : خذوها عنه ، فإنه أعلم بهذا منا [(٣)] .

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هى الساقية للعسل ، وهو من طريق هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن خالته عائشة . وفى طريق ابن جريج عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة أن زينب بنت جَحش هى التى سقت العسل ، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه ، فالله أعلم . وقد يقال : إنهما واقعتان ، ولا بُعْدَ فى ذلك ، إلا أن كونَهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ،والله أعلم.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة ، رضى الله عنهما ، هما المتظاهرتان الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن أبى ثور ، عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ ، حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدَل عمر وعدلت معه بالإداوة . فتبرز ثم أتانى ، فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ ، اللتان قال الله تعالى : ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ ؟ فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس ــ قال الزهرى : كره ــ والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال : هى حفصة وعائشة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث . قال : كنا مَعشَر قريش قوماً نَغلبُ النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تَغلبُهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال : وكان منزلى فى دار بنى أمية بن زيد بالعَوَالى . قال : فغضبَت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تُرَاجِعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى[(٤)]

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٧٤) .

(٢) زيادة من م .

(٣) انظر : الصحاح للجوهرى ٩٠٨/٢ ولسان العرب لابن منظور ، مادة « جرس » .

(٤) فى م : « إن أزواج رسول الله » .

ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخَسر ، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ولا تسأليه شيئاً ، وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسمُ وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ــ يريد عائشة ــ قال : وكان لى جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحى وغيره ، وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غَسَّان تُنعِل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابى ثم نادانى ، فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلَّق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصةُ وخَسِرت ، قد كنت أظن[(١)] هذا كائنا .حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ علىَّ ثيابى ثم نزلت ، فدخلت على حفصة وهى تبكى فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشربَة [(٢)] . فأتيت غلاماً له أسودَ فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلىَ فقال : ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلا ،ثم غلبنى ما أجد،فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمرَ.فدخل ثم خرج فقال : فقد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرتك له فصمتَ . فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمَال [(٣)] حَصِير .

قال الإمام أحمد : وحدثنا يعقوب فى حديث صالح : رُمَال حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أطلَّقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت علىَّ امرأتى يوما ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت .فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، فَدخَلت على حفصة فقلت : لا يغُرنَّكِ أن كانت جارتُكِ هى أوسمُ ــ أو : أحب ــ إلى رسول الله ﷺ منك . فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله . قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أهَبَةٌ ثلاثة [(٤)] . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسَّع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : «أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يا رسول الله . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ، عز وجل [(٥)] .

---

(١) فى م : « أظن أن » . (٢) المشربة : هى الغرفة . (٣) فى م : « على رمل » .

(٤) فى م : « معان » .

(٥) المسند (١/ ٣٣،٣٤) .

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن الزهرى ، به [١] وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن عُبَيد بن حُنَين ، عن ابن عباس ، قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق ،عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال : فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين ،من اللتان [٢] تظاهرتا على النبى ﷺ ؟ [٣] .

هذا لفظ البخارى ، ولمسلم : من المرأتان اللتان قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ ؟ قال : عائشة وحفصة. ثم ساق الحديث بطوله ، ومنهم من اختصره .

وقال مسلم أيضاً : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا عمر بن يونس الحنفى ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن سماك بن الوليد ــ أبى زميل ــ حدثنى عبد الله بن عباس ،حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبى الله ﷺ نساءه ، دخلت المسجد ، فإذا الناس يَنكُتُون بالحصى ،ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يُؤمَر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم . . . فذكر الحديث فى دخوله على عائشة وحفصة ،ووعظه إياهما ، إلى أن قال : فدخلت ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكُفَّة المشربَة ، فناديت فقلت : يا رباح ، استأذن لى على رسول الله ﷺ . . . فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : فقلت يا رسول الله ما يَشُقّ عليك من أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريلَ وميكائيلَ وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمتُ ــ وأحمد الله ــ بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدق قولى ، ونزلت هذه الآية ،آية التخيير : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ، ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾. فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » .فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر [٤] .

وكذا قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل بن حيان ، والضحاك ، وغيرهم :﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أبو بكر وعمر ــ زاد الحسن البصرى : عثمان . وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : على بن أبى طالب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبى عمر ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين قال : أخبرنى رجل ثقة يرفعه إلى على قال : قال رسول الله ﷺ [فى] [٥] قوله :﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: هو على بن أبى طالب . إسناده ضعيف . وهو منكر جداً.

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا هُشَيم ، عن حُميد ، عن أنس ، قال : قال

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٩١،٢٤٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٨) وسنن النسائى (١٣٧/٤) .

(٢) فى م: « المرأتان اللتان » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٣) وصحيح مسلم برقم(١٤٧٩) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٩) .

(٥) زيادة من م ،أ .

عمر: اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُن ﴾ فنزلت هذه الآية [١] .

وقد تقدّم أنه وافق القرآن فى أماكنَ ، منها فى نزول الحجاب ، ومنها فى أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] [٢] الأنصارى ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : بلغنى شىء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبى ﷺ ، فاستقريتهن [٣] أقول : لتكفن عن رسول الله أو ليبدلَنّه الله أزواجاً خيرا منكن. حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين ، فقالت : يا عمر ، أما لى برسول الله ما يعظ نساءه ، حتى تعظهن ؟ ! فأمسكت ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

وهذه المرأة التى ردّته عما كان فيه من وَعظ النساء هى أم سلمة ، كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى [٤] .

وقال الطبرانى ، حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل البجلى ، حدثنا أبو عَوَانة، عن أبى سنان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ ، قال : دخلت حفصة على النبى ﷺ فى بيتها وهو يَطأ مارية ، فقال لها رسول الله ﷺ : « لا تخبرى عائشة حتى أبشرك ببشارة ، فإن أباك يَلى الأمَر من بعد أبى بكر إذا أنا مت » . فذهبت حفصة فأخبَرتْ عائشة ، فقالت عائشة لرسول الله ﷺ: من أنبأك هذا ؟ قال :« ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ». فقالت عائشة : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية .فحرمها ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [٥] .

إسناده فيه نظر ، وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات .

ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ ﴾ ظاهر .

وقوله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : صائمات ، قاله أبو هريرة ، وعائشة ،وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومحمد بن كعب القرظى ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وأبو مالك ، وإبراهيم النخعى ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسُدّىّ ، وغيرهم. وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ من سورة « براءة » ، ولفظة : «سياحةُ هذه الأمة الصيامُ » .

وقال زيد بن أسلم ،وابنه عبد الرحمن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن :

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩١٦) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) فى م : « فاستقريته » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٣) ولم أر فيه التصريح بأنها أم سلمة والله أعلم .

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ١١٧) ووجه ضعفه: أن فيه إسماعيل البجلى وهو ضعيف ، والضحاك لم يلق ابن عباس فهو منقطع .

﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] أى : المهاجرون . والقول الأول أولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أى : منهن ثيبات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يبسُط النفسَ ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

وقال أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أبو بكر بن صدقة ، حدثنا محمد بن محمد ابن مرزوق ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنا عبد القدوس ، عن صالح بن حَيَّان ، عن ابن بُرَيْدَة ، عن أبيه :﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ قال : وعد الله نبيه ﷺ فى هذه الآية أن يزوجه ، فالثيب : آسية امرأة فرعون ،وبالأبكار : مريم بنت عمران [١] .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « مريم عليها السلام » من طريق سُوَيْد بن سعيد [٢] : حدثنا محمد بن صالح بن عمر ، عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال : إن الله يقرئها السلام ، ويبشرها ببيت فى الجنة من قَصَب ، بعيد من اللهب [٣] ، لا نَصَب فيه ولا صَخَب ، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم [٤] .

ومن حديث أبى بكر الهذلى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ دخل على خديجة ، وهى فى الموت، فقال . « يا خديجة ، إذا لقيت ضرائرك فاقرئيهن منى السلام » . فقالت : يا رسول الله ، وهل تزوجت قبلى ؟ قال : « لا » ، ولكن الله زوجنى مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وكلثم أخت موسى » . ضعيف أيضاً [٥] .

وقال أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعرة ، حدثنا عبد النور بن عبد الله ، حدثنا يونس [٦] بن شعيب ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعُلِمْتُ أن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران ، وكلثم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون » . فقلتَ : هنيئاً لك يا رسول الله [٧] .

وهذا أيضاً ضعيف وروى مرسلا عن ابن أبى داود .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي

(١) لم أقع عليه فى المطبوع من المعجم الكبير للطبرانى .

(٢) فى أ : « بن سعد » . (٣) فى أ : « من اللهو » .

(٤) تاريخ دمشق (ص ٣٨٣) « تراجم النساء » ط . المجمع العلمى بدمشق .

(٥) تاريخ دمشق (ص ٣٨٤) « تراجم النساء » ط . المجمع العلمى بدمشق .

(٦) فى م ، أ ، هـ : « يوسف » والمثبت من المعجم الكبير للطبرانى .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٠٩/٨) والعقيلى فى الضعفاء (٤٥٩/٤) من طريق عبد النور بن عبد الله به ، وعبد النور كذاب، قال العقيلى :« وليس بمحفوظ ».

اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن منصور ، عن رجل ، عن على ، رضى الله عنه ، فى قوله تعالى : ﴿**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ يقول : أدبوهم ، عَلموهم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومُروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار .

وقال مجاهد : ﴿ **قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ قال : اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله .

وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصية الله ، وأن يقومَ عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ، قَدعتهم عنها وزجرتهم عنها .

وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله ، من قرابته وإمائه وعبيده ، ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه .

وفى معنى هذه الآية الحديثُ الذى رواه الإمـام أحمد ، وأبـو داود ، والترمذى ،من حديث عبد الملك بن الربيع بن سَبْرَة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » (١) .

هذا لفظ أبى داود ،وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وروى أبو داود ،من حديث عمرو بن شعيب ،عن أبيه،عن جده ،عن النبى ﷺ مثل ذلك (٢).

قال الفقهاء : وهكذا فى الصوم ؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكى يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله : ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ :﴿**وَقُودُهَا**﴾ أى : حطبها الذى يلقى فيها جُثث بنى آدم . ﴿ **وَالْحِجَارَةُ** ﴾ قيل : المراد بذلك الأصنام التى كانت تعبد لقوله : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ [الأنبياء:٩٨] .

وقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وأبو جعفر الباقر ، والسدى : هى حجارة من كبريت ــ زاد مجاهد : أنتن من الجيفة .

وروى ذلك ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقرى ، حدثنا عبد العزيز ــ يعنى ابن أبى روَّاد ــ قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ ، وعنده بعض أصحابه ، وفيهم

(١) المسند (٣/ ٤٠٤) وسنن أبى داود برقم (٤٩٤) وسنن الترمذى برقم (٤٠٧) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٩٥) .

شيخ ، فقال الشيخ : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال : النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لَصَخرة من صخر جهنم أعظمُ من جبَال الدنيا كلها » . قال : فوقع الشيخُ مغشياً عليه، فوضع النبى ﷺ يده على فؤاده فإذا هُوَ حَيّ فناداه قال : « يا شيخ » ، قل : « لا إله إلا الله » . فقالها ، فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يا رسول الله ، أمن بيننا ؟ قال : « نعم ، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ » [إبراهيم: ١٤] . هذا حديث مرسل غريب .

وقوله : ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ﴾ أى : طباعهم غليظة ، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، ﴿ شِدادٌ ﴾ أى : تركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج .

قال (1) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، حدثنا أبى ، عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول أهل النار إلى النار ،وَجَدوا على الباب أربعمائة ألف من خزَنَة جهنم ، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذَرَة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفاً ،ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثلَ ما وجدوا على الباب الأول ، حتى ينتهوا إلى آخرها .

وقوله : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه . وهؤلاء هم الزبانية عياذاً بالله منهم . وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أى : توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه ،وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات .

قال ابن جرير : حدثنا ابن مثنى ، حدثنا محمد،حدثنا شعبة ،عن سِمَاك بن حَرب:سمعت النعمان بن بشير يخطب : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقولَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ قال : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه .

وقال الثورى ، عن سِماك ،عن النعمان ، عن عمر قال : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يعود فيه .

وقال أبو الأحوص وغيره ، عن سماك ، عن النعمان ، سُئِل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وقال الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله : ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

---

(1) فى م: « كما قال » .

وقد روى هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، عن إبراهيم الهَجَرى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود فيه » . تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهَجَرى ، وهو ضعيف ، والموقوف أصح (١) ، والله أعلم .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب فى الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزِم على ألا يفعل فى المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمى ردّه إليه بطريقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عبد الكريم ، أخبرنى زياد بن أبى مريم ، عن عبد الله ابن مَعقِل قال : دخلت مع أبى عَلى عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبى ﷺ يقول : «الندم توبة ؟ » . قال : نعم . وقال مرَة : نعم سمعته يقول : « الندم توبة » .

ورواه ابن ماجة ، عن هشام بن عَمَّار ، عن سفيان بن عُيينة ، عن عبد الكريم ــ وهو ابن مالك الجَزَرىّ ــ به (٢).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنى الوليد بن بُكَيْر أبو خباب ، عن عبد الله ابن محمد العَدَوى ، عن أبى سِنان البصرى ، عن أبى قِلابة ، عن زرّ بن حُبَيش ، عن أبى بن كعب قال : قيل لنا أشياء تكون فى آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها : نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . ومنها : نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا ، حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً . قال زر : فقلت لأبى بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « هو الندم على الذنب حينَ يَفرُط منك ، فتستغفرُ الله بندامتك منه عند الحاضر ، ثم لا تعود إليه أبداً » (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ،حدثنا عمرو بن على ، حدثنا عباد بن عمرو ، حدثنا أبو عمرو ابن العلاء ، سمعت الحسن يقول : التوبة النصوح : أن تُبغِض الذنبَ كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

فأما إذا حَزَم بالتوبة وصَمم عليها فإنها تَجُب ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبتت فى الصحيح : «الإسلام يَجُب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » (٤) .

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات ، كما تقدم فى الحديث وفى الأثر: « لا يعود فيه أبداً » ، أو يكفى العزم على ألا يعود فى تكفير الماضى ، بحيث لو وقع منه

(١) المسند (١/ ٤٤٦) .
(٢) المسند (١/ ٣٧٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٠٨) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٥٤٥٧) من طريق إسماعيل الصفار ، عن الحسن بن عرفة به، وقال : « إسناده ضعيف » .
(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص ، رضى الله عنه .

ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله ، عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها ؟ » . وللأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضاً : « مَن أحسنَ فى الإسلام لم يُؤاخَذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »[١] . فإذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة ، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ و﴿عَسَىٰ﴾ من الله موجبة ، ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أى : ولا يخزيهم معه يعنى : يوم القيامة ، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ كما تقدم فى سورة الحديد .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصرى وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يَرَون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طفِئ .

وقال محمد بن نصر المروزى : حدثنا محمد بن مقاتل المروزى ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا ابن لَهيعة ، حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظرُ بين يَدَىّ فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن يمينى فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن شمالى فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال رجل : يا رسول الله ، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم . قال :« غُرٌّ مُحجلون من آثار الطُّهور[٢] ، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتَون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم »[٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقانى ، حدثنا ابن المبارك ، عن يحيى بن حسان ، عن رجل من بنى كنانة قال :صليت خلف النبى ﷺ، عام الفتح ،فسمعته يقول : « اللهم، لا تخزنى يوم القيامة »[٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑨ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ⑩ ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « الوضوء ».

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٦١) ورواه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٩) من هذا الطريق ـ طريق ابن المبارك ـ وعن حسن ،عن ابن لهيعة به نحوه ، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ١٥١) : « رواه أحمد ،وفى إسناده ابن لهيعة،وهوحديث حسن فى المتابعات » . وهو هنا من رواية ابن المبارك وهى رواية صحيحه .

(٤) المسند (٤/ ٢٣٤).

الحدود عليهم ، ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِم ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : فى الآخرة (١) .

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدى عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلا فى قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ أى : نبيين رسولين عندهما فى صحبتها (٢) ليلا ونهاراً ، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أى : فى الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ، فلم يُجْد ذلك كلّه شيئاً ، ولا دفع عنهما محذورا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لكفرهما ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى : للمرأتين : ﴿ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

وليس المراد : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع فى الفاحشة ؛ لحرمة الأنبياء ، كما قدمنا فى سورة النور .

قال سفيان الثورى ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سليمان بن قَتَّةَ : سمعتُ ابن عباس يقولُ فى هذه الآية : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس قال : كانت خيانتهما أنهما كانتا على عَورتيهما فكانت امرأة نُوح تَطَّلع على سر نُوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء .

وهكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وغيرهم .

[وقال الضحاك عن ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، إنما كانت خيانتهما فى الدين] (٣) .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعضُ العلماء على ضعف الحديث الذى يأثرُه كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له ، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبى ﷺ فى المنام فقال : يا رسول الله ، أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال: «لا، ولكنى الآن أقوله » (٤) .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

(١) فى م: « فى الأخرى » . (٢) فى م : « فى صحبتاهما » . (٣) زيادة من م .

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذا ليس له إسناد عند أهل العلم ولا هو فى شىء من كتب المسلمين ، إنما يروونه عن سنان ، وليس معناه صحيحاً على الإطلاق ، فقد يأكل مع المسلمين الكفار والمنافقون» أ.هـ نقله الألبانى فى الضعيفة (١/ ٣٢٦) وذكره الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص ١٤٠) وقال : « موضوع ، وغاية ما روى فيه أنه منام رآه بعض الناس » .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** ﴾ [آل عمران:٢٨] .

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوالله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه .

وقال ابن جرير : حدثنا إسماعيل بن حفص الأبُلِّيّ ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان النهدى [(١)] ، عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعَذَّب فى الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة .

ثم رواه عن محمد بن عبيد المحاربى عن أسباط بن محمد ، عن سليمان التيمى ، به [(٢)] .

ثم قال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا بن عُلَيَة ، عن هشام الدَّسْتُوَائى ،حدثنا القاسم بن أبى بَزَّة قال : كانت امرأة فرعون تسأل : من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقالت : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهى امرأته ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزع الله روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح [(٣)] .

فقولها : ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ** ﴾ : قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار . وقد ورد شىء من ذلك فى حديث مرفوع ، ﴿ **وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ** ﴾ أى : خلصنى منه ، فإنى أبرأ [إليك] [(٤)] من عمله ، ﴿ **وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾. وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم ، رضى الله عنها .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية قال : كان إيمانُ امرأة فرعونَ من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ،وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون ، فوقع المشط من يدها ، فقالت تعس من كفر بالله ؟ فقالت لها ابنة فرعون : ولك رب غير أبى ؟ قالت : ربى ورب أبيك ورب كل شىء اللهُ . فلطمتها بنتُ فرعونَ وضربتها ، وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين ربا غيرى ؟ قالت : نعم ، ربى وربك ورب كل شىء الله ، وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً ، فشد رجليها ويديها وأرسل عليها الحيات ، وكانت كذلك ، فأتى عليها يوماً فقال لها : ما أنت منتهية؟ فقالت له : ربى وربك وربُ كل شىء الله . فقال لها : إنى ذابح ابنك فى فيك إن لم تفعلى . فقالت له : اقض ما أنت قاض . فذبح ابنها فى فيها ، وإن روح ابنها بشرها ، فقال لها : أبشرى يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا . فصبرت ثم أتى [عليها] [(٥)] فرعون يوماً آخر فقال لها

---

(١) فى أ :« الترمذى » .
(٢ ، ٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ١١٠) .
(٤) زيادة من م ،أ .
(٥) زيادة من م .

مثل ذلك ، فقالت له ، مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر فى فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها . اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا . قال : وسمعت امرأة فرعون كلاَم روح ابنها الأكبر ثم الأصغر ،فآمنت امرأةُ فرعونَ ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً ، فاطَّلع فرعون على إيمانها ، فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها ، فقال لهم : إنها تعبد غيرى . فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً ، فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ . فوافق ذلك أن حضرها فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ، إنا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها ، رضى الله عنها [(١)] .

وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى : حفظته وصانته . الإحصان : هو العفاف والحرية ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أى : بواسطة المَلَك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سَوِى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى ،عليه السلام . ولهذا قال : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ أى : بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا داود بن أبى الفرات ، عن عِلْباء ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : خَطَّ رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط ، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون » [(٢)]

وثبت فى الصحيحين من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرَة ، عن مُرَة الهَمْدانى ، عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خُوَيلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام » [(٣)] .

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها والكلام عليها فى قصة عيسى ابن مريم ،عليهما السلام، فى كتابنا « البداية والنهاية » ولله الحمد والمنة [(٤)] ، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هى وآسية بنت مزاحم من أزواجه ، عليه السلام ، فى الجنة عند قوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ١٠) .

(٢) المسند (١/ ٢٩٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٢٣) : « رجاله رجال الصحيح »

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٤١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣١) .

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٥٥ ـ ٥٨) .

سورة التحريم

مدنيّة، وهي اثنتا[1] عشرةَ آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خلا بماريةَ في يوم عائشةَ وعلمتْ بذلك حفصةُ، فقال لها: «اكتُمي عليّ، فقد حرّمتُ ماريةَ على نفسي وأبشِّرك أنّ أبا بكر وعمرَ يملِكان بعدي أمرَ أمّتي». فأخبرت به عائشةَ، وكانتا متصادقتين.[3] وقيل: خلا بها في يوم حفصةَ فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتُم، فطلّقها واعتزل نساءه، فنزل جبريلُ عليه السلام، فقال: «راجِعها فإنّها صوّامة قوّامة، وإنّها لَمِن نسائك في الجنّة».[4] ورُوي أنّه عليه السلام شرب عسلًا في بيت زينبَ بنت جحشٍ، فتواطأت عائشةُ وحفصةُ فقالتا: نشَمّ منك ريح المغافير،[5] وكان رسول الله يكره التَّفَل، فحرَّم العسل، فنزلت.[6] فمعناه لِمَ تحرِّم ما أحلّ الله لك مِن مِلك اليمين أو مِن العسل.

﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ إمّا تفسير لـ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حال مِن فاعله، أو استئناف ببيان ما دعاه إليه مؤذِن بعدم صلاحيّته لذلك.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ مبالغٌ في الغفران قد غفر لك هذه الزلّة، ﴿رَّحِيمٞ﴾ قد رَحِمك ولم يؤاخذك به، وإنّما عاتبك مُحاماةً على عصمتك.

---

[1] س: ثنتا.

[2] س + وتُسمّى سورة النبيّ.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٨٥/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٨-١٦٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٦/٤.

[4] بلفظ قريب في المستدرك للحاكم، ١٦/٤ (٦٧٥٣)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٣/٢٦ (الطلاق، ١/٦٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٤.

[5] المغافير: صمغ يسيل مِن شجر العُرفُط، رائحته ليست بطيّبة. لسان العرب لابن منظور، «غفر».

[6] بمعناه في صحيح البخاري، ٤٤/٧ (٥٢٦٧)؛ وسنن أبي داود، ٥٥٠/٥ (٣٧١٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦١/٨-١٦٢؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٤.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: شَرَع لكم تحليلها، وهو حلّ ما عقده بالكفّارة أو بالاستثناء متّصلًا حتّى لا يحنث، والأوّل هو المراد ههنا.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سيّدكم ومتولّي أموركم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُصلِحكم فيشرعه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقِن في أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلّا حسبما يقتضيه الحكمةُ.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصةُ ﴿حَدِيثًا﴾ أي: حديثَ تحريم مارية، أو العسلِ، أو أمرِ الخلافة، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: أخبرتْ حفصةُ عائشةَ بالحديث / وأفشَتْه إليها، وقُرئ: "أَنْبَأَتْ بِهِ".[١] ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله [٢٠٤ظ]
تعالى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على إفشاء حفصةَ، ﴿عَرَّفَ﴾ أي: النبيُّ عليه السلام حفصةَ ﴿بَعْضَهُۥ﴾ بعضَ الحديث الذي أفْشَتْه. قيل: هو حديث الإمامة، رُوي أنّه عليه السلام قال لها: «ألم أقل لك اكتمي عليّ»، قالت: «والذي بعثك بالحقّ ما ملكتُ نفسي»،[٢] فرحًا بالكرامة التي خصّ الله تعالى بها أباها. ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: عن تعريف بعض تكرّمًا. قيل: هو حديث مارية.[٣]

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: أخبر النبيّ عليه السلام حفصةَ بما عرّفه مِن الحديث ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: إفشاءَها للحديث، ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧.

[٢] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٢٩.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٢٩.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصةَ وعائشةَ على الالتفات للمبالغة في العِتاب. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ "الفاء" للتعليل، كما في قولك: "اعبد ربّك فالعبادةُ حقّ"، أي: فقد وُجد منكما ما يُوجِب التوبة مِن مَيل قلوبكما عمّا يجب عليكما مِن مخالصة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحبِّ ما يُحبّه وكراهةِ ما يكرهه. وقُرئ: "فَقَدْ زَاغَتْ".[١]

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التاءين. وقُرئ على الأصل،[٢] وبتشديد "الظاء"،[٣] و"تَظَهَّرَا"،[٤] أي: تتعاونا عليه بما يَسوءه مِن الإفراط في الغَيرة وإفشاءِ سرّه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلن يَعْدَم مَن يُظاهِره، فإنّ الله هو ناصره وجبريلُ رئيس الكروبيّين قرينُه، ومَن صلح مِن المؤمنين أتباعُه وأعوانُه.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمرَ»، وقد رُوي ذلك مرفوعًا إلى النبيّ عليه السلام، وبه قال عكرمةُ ومقاتل.[٥] وهو اللائق بتوسيطه بين جبريلَ والملائكة عليهم السلام، فإنّه جَمَع بين الظهير المعنوي والظهير الصوري، كيف لا، وإنّ جبريلَ ظهير له عليهما السلام يُؤيِّده بالتأييدات الإلهيّة، وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأنّ بيان مظاهرتهما له عليه السلام أشدّ تأثيرًا في قلوب بنتيهما وتوهينًا لأمرهما، فكان حقيقًا بالتقديم بخلاف ما إذا أُريدَ به جنس الصالحين كما هو المشهور.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السماواتِ مِن جموعهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: أي: بعد نصرة الله عزّ وجلّ وناموسِه الأعظم وصالحِ المؤمنين.[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش، وأبي معمر عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٧.

٥ مرويّ عن مجاهد والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/٩٧؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٨/١٦٩، وعن عكرمة وشقيق عن عبد الله في اللباب لابن عادل، ١٩/١٩٩.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٠.

﴿ظَهِيرٌ﴾ أي: فوج مظاهِرٌ له كأنّهم يد واحدة على مَن يعاديه، فماذا يفيد تظاهُر امرأتين على مَن هؤلاء ظهراؤه، وما ينبئ عنه قوله تعالى بعد ذلك مِن فَضْل نُصرتهم على نصرة غيرهم مِن حيث إنّ نُصرة الكلّ نصرةُ الله تعالى، / وأنّ نُصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم أفضلُ مِن سائر وجوه نُصرته. هذا ما قالوا. [٢٠٥و]

ولعلّ الأنسبَ أن يُجعَل ذلك إشارةً إلى مظاهَرة صالحِ المؤمنين خاصّة، ويكونَ بيانُ بعديّة مظاهَرة الملائكة تداركًا لِما يُوهِمه الترتيب الذِّكري مِن أفضليّة المقدَّم، فكأنّه قيل بعد ذِكر مظاهَرة صالحِ المؤمنين: وسائرُ الملائكة بعد ذلك ظهيرٌ له عليه السلام، إيذانًا بعلوّ رتبة مظاهَرتهم وبُعد منزلتها وجَبرًا لفَضلها عن مظاهَرة جبريلَ عليه السلام.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ أي: يعطيَه عليه السلام بدلكنّ ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميمِ الخطاب، وليس فيه ما يدلّ على أنّه عليه السلام لم يُطلِّق حفصةَ وإنّ في النساء خيرًا منهنّ، فإنّ تعليق[1] طلاقِ الكلّ لا يُنافي تطليقَ واحدةٍ، وما عُلِّق بما لم يقع لا يجب وقوعه. وقُرئ: "أَنْ يُبَدِّلَهُ"[2] بالتشديد.

﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقِرّات مخلِصات أو منقادات مصدِّقات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلِّيات أو مواظِبات على الطاعة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ مِن الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّدات أو متذلِّلات لأمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات -سُمّي الصائم سائحًا؛ لأنّه يسيح في النهار بلا زاد- أو مهاجِرات. وقُرئ: "سَيِّحَاتٍ".[3] ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وُسِّط بينهما العاطفُ لتنافيهما.

---

١ س: تطليق.

٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فائد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٧.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. وقُرِئ: "أَهْلُوكُمْ"[١] عطفًا على واو ﴿قُوٓا۟﴾، فيكون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ عبارةً عن أنفس الكلّ على تغليب المخاطَبين، أي: قُوا أنتم وأهلوكم أنفسَكم. ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: نارًا تتّقد بهما اتّقاد غيرها بالحطب. وأمرُ المؤمنين باتّقاء هذه النار المعدّة للكافرين كما نُصّ عليه في سورة البقرة[٢] للمبالغة في التحذير.

﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ﴾ أي: تَلي أمرَها وتعذيبَ أهلها، / وهم الزبانية. ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [٢٠٥ظ] غِلاظ الأقوال شِداد الأفعال، أو غِلاظ الخُلق شِداد الخَلق أقوياء على الأفعال الشديدة. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي: "أَمْرَه" على أنّه بدل اشتمال مِن ﴿ٱللَّهَ﴾، أو "فيما أَمَرهم به" على نزع الخافض، أي: لا يمتنعون مِن قَبول الأمر ويلتزمونه. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: ويؤدُّون ما يؤمَرون به مِن غير تثاقل ولا توانٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ مقول لقولٍ قد حُذف ثقةً بدلالة الحالِ عليه، أي: يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إيّاهم النارَ حسبما أُمِروا به. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الكفر والمعاصي بعد ما نُهيتم عنهما أشدَّ النهي وأُمِرتم بالإيمان والطاعة فلا عُذرَ لكم قطعًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن وكيع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

٢ البقرة، ٢/٢٤.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: بالغةً في النصح وُصِفت التوبة بذلك على الإسناد المجازي، وهو وصفُ التائبين، وهو أن يَنصحوا بالتوبة أنفسَهم فيأتوا بها على طريقتها، وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقُبحها نادمين عليها مغتمِّين أشدَّ الاغتمام لارتكابها عازمين على أنّهم لا يعودون في قبيح مِن القبائح مُوطِّنين أنفسهم على ذلك، بحيث لا يلويهم عنه صارفٌ أصلًا.

عن عليّ رضي الله تعالى عنه: إنّ التوبة يجمعها ستّة أشياءَ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ،[1] وللفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، واستحلالُ الخصومِ، وأن تعزِم على ألّا تعود، وأن تُذيب نفسَك في طاعة الله تعالى كما ربَّيْتَها في المعصية، وأن تُذيقها مَرارةَ الطاعة كما أذقتها حلاوةَ المعاصي. وعن شهر بن حَوشبَ ألّا يعود ولو حُزّ بالسيف وأُحرِق بالنار.[2]

وقيل: ﴿نَصُوحًا﴾ مِن نِصاحة الثوب، أي: توبة ترفو خروقَك في دينك وتَرُمّ خَلَلك. وقيل: خالصةً، / مِن قولهم: "عسلٌ ناصحٌ" إذا خلص مِن الشمع. [٢٠٦و]
ويجوز أن يُراد توبةً تنصح الناس، أي: تدعوهم إلى مِثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعمالِه الجِدَّ والعزيمةَ في العمل بمقتضياتها.

وقُرئ: "تَوْبًا نَصُوحًا"،[3] وقُرئ: "نُصُوحًا"،[4] وهو مصدر "نَصَح"، فإنّ "النُّصح" و"النُّصوح" كـ"الشُّكر" و"الشُّكور"، أي: ذات نُصوح، أو تَنْصَحُ نُصوحًا، أو توبوا لنُصح أنفسِكم على أنّه مفعول له.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وُرودُ صيغة الإطماع للجري على سَنن الكبرياء والإشعارِ بأنّه تفضُّل والتوبةُ غير موجِبة له وأنّ العبد ينبغي أن يكون بين خوفٍ ورجاء وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة.

---

[1] س – الندامة.

[2] لم أجدهما في مظانّهما. وهما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

[4] قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٨.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرف لـ﴿يُدْخِلَكُمْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾. وفيه تعريضٌ بمَن أخزاهم الله تعالى مِن أهل الكفر والفسوق واستحمادٌ إلى المؤمنين على أن عَصَمهم مِن مِثل حالهم. وقيل: هو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: على الصراط.[١]

وهو على الأوّل استئناف أو حال، وكذا قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ، وعلى الثاني خبرٌ آخرُ للموصول، أي: يقولون إذا طفئ نور المنافقين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل: يدعون تقرُّبًا إلى الله مع تمام نورهم.[٢] وقيل: تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضّلًا. وقيل: السابقون إلى الجنّة يمرُّون مثل البرق على الصراط، وبعضُهم كالريح، وبعضُهم حَبْوًا وزَحْفًا، وأولئك الذين يقولون: ربّنا أتمم لنا نورَنا.[٣]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحجّة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمِل الخشونةَ على الفريقين فيما تُجاهدهما مِن القتال والمُحاجّة.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ سيَرَون فيها عذابًا غليظًا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: جهنّمُ أو مصيرُهم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضَربُ المثل في أمثال هذه المواقع / عبارةٌ [٢٠٦ظ]
عن إيراد حالةٍ غريبة ليُعرف بها حالةٌ أخرى مشاكِلةٌ لها في الغرابة، أي: جَعَل الله مثلًا لحال هؤلاء الكَفَرة حالًا ومآلًا على أنّ ﴿مَثَلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿ضَرَبَ﴾،

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٢/٣.
٢ مرويّ عن الحسن في اللباب لابن عادل، ٢١٣/١٩.
٣ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٤.

و"اللام" متعلِّقةٌ به. وقوله تعالى: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: حالَهما، مفعولُه الأوّل أخِّر عنه ليتّصل به ما هو شرحٌ وتفسير لحالهما، ويتّضحَ بذلك حالُ هؤلاء، فقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ بيانٌ لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح، أي: كانتا في عصمة نبيَّين عظيمَي الشأنِ متمكّنتين مِن تحصيل خيرِ الدنيا والآخرة وحيازةِ سعادتَيهما.

وقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيان لِما صدر عنهما مِن الجناية العظيمة مع تحقّق ما ينفيها مِن صحبة النبيّ، أي: خانتاهما بالكفر والنِّفاق. وهذا تصوير لحالهما المُحاكية لحال هؤلاء الكَفَرة في خيانتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالكفر والعصيان مع تمكّنهم التامّ مِن الإيمان والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾... إلخ، بيان لِما أدّى إليه خيانتُهما، أي: فلم يُغنِ النبيّان ﴿عَنْهُمَا﴾ بحقّ الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى[1] ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء. ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما، أو يومَ القيامة: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: مع سائر الداخلين مِن الكفرة الذين لا وُصلةَ بينهم وبين الأنبياء.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: جُعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أنّ وُصلة الكفرة لا تضرُّهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداءِ الله، وهي في أعلى غُرف الجنّة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرفٌ لمحذوف أشيرَ إليه، أي: ضَرَب الله مثلًا للمؤمنين حالَها إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ قريبًا مِن رحمتك، أو في أعلى درجات المقرَّبين. رُوي أنّها لمّا قالت ذلك أُريَتْ بيتَها في الجنّة مِن درّة وانتزع روحها.[2] ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: مِن نفسه الخبيثة وعملِه السيّء، ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن القبط التابعين له / في الظلم. [٢٠٧و]

---

[1] س – تعالى.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٤.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ١٢﴾

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ تسليةً للأرامل، أي: وضَرَب مثلًا للذين آمنوا حالها وما أوتيت مِن كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاءِ على نساء العالمين مع كون قومها كفّارًا. ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ وقُرئ: "فِيهَا"،[1] أي: في مريم ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن روحٍ خلقناه بلا توسُّط أصلًا. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصُحفه المنزَلة، أو بما أوحى إلى أنبيائه، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بجميع كتبه المنزَلة. وقُرئ: "بِكَلِمَةِ اللهِ وَكِتَابِهِ"،[2] أي: بعيسى وبالكتاب المنزَل عليه وهو الإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: مِن عِداد المواظِبين على الطاعة. والتذكير للتغليب والإشعارِ بأنّ طاعتها لم تقصر مِن طاعات الرجال حتّى عُدَّت مِن جملتهم، أو مِن نسلهم؛ لأنّها مِن أعقاب هارونَ أخي موسى عليهما السلام.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كمُل مِن الرجال كثيرٌ ولم تكمل مِن النساء إلّا أربع: آسيةُ بنت مزاحِم ومريمُ بنت عمرانَ وخديجةُ بنت خُويلد وفاطمةُ بنت محمّد. وفضلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».[3]

وعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التحريم آتاه الله تعالى توبةً نصوحًا».[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٢٩/٥ (٣٧٦٩)؛ وسنن الترمذي، ٢٧٥/٤؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/٤-٤٣٥.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٧ (التحريم، ١/٦٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣١٧/٤ (التحريم، ١/٦٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٦

سورة التحريم

مدنية، اثنتا عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ من أمَتِكَ مارِيَةَ القِبطيّة، لمّا واقَعَها في بيت حفصةَ وكانت غائبة، فجاءت وشقّ عليها كونُ ذلك في بيتها وعلى فِراشها، حيثُ قلتَ: هي حرامٌ عليَّ، ﴿تَبتَغِي﴾ بتحريمها ﴿مَرضاةَ أزواجِكَ﴾ أي: رِضاهنّ؟ ﴿واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفرَ لك هذا التحريم، ٢ ـ ﴿قَد فَرَضَ اللهُ﴾: شَرَعَ ﴿لَكُم تَحِلَّةَ أيمانِكُم﴾: تحليلَها بالكفّارة المذكورة في سورة «المائدة» ـ ومِن الأيمان تحريم الأمَة..

سورة التحريم

قولُهُ: (وَاقَعَهَا) في يومِ عائشةَ أو حفصَةَ.

قولُهُ: (فَجَاءَتْ) واطَّلعَت على ذلك.

قولُهُ: (وشَقَّ) فعاتَبَتْهُ فيه.

قولُهُ: (هَذا التَّحرِيمَ) ولم يؤاخِذْكَ به وعاتَبَكَ، محاماةً على عصمتِهِ.

قولُهُ: (تَحلِيلَهَا) وهو حلُّ ما عقَّدَتْهُ الأيمانُ.

قولُهُ: (تَحرِيمُ الأمَةِ) فيه أنَّ التَّحريمَ ليسَ بيمينٍ في مذهبِ الشَّافعيِّ[١] على ما صرَّحَ به البغويُّ[٢] والبيضاويُّ[٣]،..

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (١٠/ ١٨٢).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ١١٧).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٢٤).

وهل كفَّرَ ﷺ؟ قال مُقاتل: أعتقَ رقبة في تحريم ماريَةَ، وقال الحسن: لم يكفِّر لأنه مغفور له ـ ﴿واللهُ مَولاكُم﴾: ناصركم، ﴿وهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾.

٣ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ أَسَرَّ النَّبِيُّ إلَى بَعضِ أزواجِهِ﴾ ـ هي حفْصةُ ـ ﴿حَدِيثًا﴾ هو تحريم ماريَةَ، وقال لها: لا تُفشِيه. ﴿فلَمّا نَبّأَتْ بِهِ﴾ عائشةَ ظنًّا منها أن لا حرجَ في ذلك، ﴿وأظهَرَهُ اللهُ﴾: أطلَعه ﴿علَيهِ﴾: على المُنبَّإ به، ﴿عَرَّفَ بَعضَهُ﴾ لحفصةَ، ﴿وأعرَضَ عَن بَعضٍ﴾ تكرّمًا منه، ﴿فلَمّا نَبأها بِهِ قالَتْ: مَن أنبَأكَ هذا؟ قالَ: نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ أي: اللهُ.

٤ ـ ﴿إن تَتُوبا﴾ أي حفصةُ وعائشةُ ﴿إلَى اللهِ فقَد صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾: مالت إلى تحريم ماريةَ، أي سرَّكما ذلك مع كراهة النبيِّ له،..

وفي «المداركِ»(١): تحريمُ الحلالِ يمينٌ عندَنا(٢).

قولُهُ: (نَاصِرُكُم) أو متولِّي أمورِكُم.

قولُهُ: (فِي ذَلكَ) حيثُ إنَّ الإعلامَ لواحدةٍ لا يكونُ إفشاءً في العرفِ، لكنَّ كلَّ سرٍّ جاوزَ الاثنينِ شاعَ.

قولُهُ: (عَلى المُنبَّإ بِهِ) أو على الحديثِ؛ أي: إفشائِهِ.

قولُهُ: (لِحَفصَةَ) أي: أعلمَ بعضَهُ، وفيه إشكالٌ لنا؛ إذ حديثُ ماريَةَ غيرُ قابلٍ للتَّبعيضِ، فالمَخلَصُ منه ما ذكرَهُ البغويُّ(٣): أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا رأى الكراهيةَ في وجهِ حفصَةَ أرادَ أن يتراضَاها، فأسرَّ إليها شيئينِ: تحريمَ الأمَةِ على نفسِهِ، وتبشيرَها بأنَّ الخلافةَ بعدَهُ في أبي بكرٍ وعُمَرَ، فأخبرَتْ به حفصةُ عائشةَ، وأطلعَ اللهُ نبيَّهُ عليهِ، (﴿عَرَّفَ﴾) حفصةَ وأخبرَها ببعضِ ما أخبرَت به عائشةَ، وهو تحريمُ الأمَةِ (﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾) يعني: ذكْرَ الخلافةِ كرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ أن ينتشرَ في النَّاسِ، انتهى، وقرأَ الكسائيُّ: (عَرَفَ)(٤) بالتَّخفيفِ؛ أي: جازاها ببعضِ ما فعلَتْ.

قولُهُ: (تكَرُّماً) قالَ الحسنُ(٥): ما استَقصى كريمٌ قطُّ.

قولُهُ: (أَيْ) ندائيَّةٌ أو تفسيريَّةٌ؛ يعني: هي خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ على الالتِفاتِ؛ للمُبالغةِ في المعاتبةِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٥٠٤).

(٢) انظر: «التجريد» (١٠/ ٤٨٩٣).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ١١٩).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٣).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥/ ١١٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٢٨).

وروى ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٨/ ٢١٩) نحوه عن علي رضي الله عنه.

وذلك ذنب ـ وجواب الشرط محذوف أي: تُقبَلا. وأُطلِقَ «قلوب» على قلبين ولم يُعبَّر به لاستثقال الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ـ ﴿وإن تَظّاهَرا﴾، بإدغام التاء الثانية في الأصل في الظاء، وفي قراءة بدونها: تَتعاونا ﴿عليه﴾ أي: النبيِّ فيما يكرهه ﴿فإنَّ اللهَ هُوَ﴾ ـ فصلٌ ـ ﴿مَولاهُ﴾: ناصرُه ﴿وجبريلُ وصالحُ المُؤمِنينَ﴾ أبو بكرٍ وعُمرُ: معطوف على محلّ اسم «إنّ» فيكونون ناصريه، ﴿والمَلائكةُ بَعدَ ذلِكَ﴾ أي: بعد نصر الله والمذكورين ﴿ظَهِيرٌ﴾: ظُهراء، أعوان له في نصره عليكما.

٥ ـ ﴿عَسَى رَبُّهُ، إن طَلَّقَكُنَّ﴾ أي: طلّق النبيُّ أزواجَه، ﴿أن يُبَدِّلَهُ﴾، بالتشديد والتخفيف، ﴿أزواجًا خَيرًا مِنكُنَّ﴾: خبرُ «عسى» ـ والجملة: جواب الشرط. ولم يقع التبديل لعدم وقوع الشرط ـ ﴿مُسلِماتٍ﴾: مُقِرّاتٍ بالإسلام، ﴿مُؤمِناتٍ﴾: مُخلصاتٍ ﴿قانِتاتٍ﴾:..........................

قولُهُ: (ذَنبٌ) يعني: فقد وُجِدَ منكُما ما يوجِبُ التَّوبةَ، وهو ميلُ قلوبِكُما عن الواجبِ من مخالطةِ الرَّسولِ بحبِّ ما يحبُّهُ وكراهةِ ما يكرهُهُ.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) الظَّاهرُ أنَّ جوابَهُ قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾.

قولُهُ: (لاستِثقَالِ الجَمْعِ) ولعدمِ الإلباسِ؛ كطويلِ الشَّواربِ، وعريضِ الحواجبِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للكوفيِّ[1].

قولُهُ: (بِدُونِهَا) أي: التَّاءِ الثَّانيةِ، أو إحدى التَّاءينِ ولو قالَ: بدونِهِ ـ أي: الإدغامِ ـ لكانَ أولى.

قولُهُ: (نَاصِرُهُ) أي: فلن يُعدمَ مَن يظاهرُهُ من اللهِ والملائكةِ وصُلحاءِ المؤمنينَ؛ فإنَّ اللهَ ناصرُهُ، وجبريلَ رئيسُ الكروبين قرينُهُ، ومَن صَلَحَ من المؤمنينَ أتباعُهُ وأعوانُهُ، والملائكةُ متظاهِرونَ.

قولُهُ: (أَبُو بَكرٍ وعُمَرُ) وقيل: نزلَت في عُمَرَ خاصَّةً، كذا في «المبهماتِ»[2]، والأظهرُ: أنَّ المرادَ بالصَّالحِ: الجنسُ، ولذلك عمَّ بالإضافةِ.

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وبصريٌّ[3].

قولُهُ: (أَزوَاجَهُ) على تعميمِ الخطابِ، أو التَّغليبِ.

قولُهُ: (خَبرُ: ﴿عَسَى﴾) أي: قولُهُ: ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ﴾.

قولُهُ: (مُخلِصَاتٍ) أو منقاداتٍ مصدِّقاتٍ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٣).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٠). ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٨٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٣٣٣).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٣).

مُطيعات، ﴿تائباتٍ عابِداتٍ سائحاتٍ﴾: صائماتٍ أو مُهاجرات، ﴿ثَيِّباتٍ وأبكارًا﴾.

٦ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، قُوا أنفُسَكُم وأهلِيكُم﴾ بالحمل على طاعة الله ﴿نارًا، وَقُودُها النّاسُ﴾: الكفّار ﴿والحِجارةُ﴾ كأصنامهم منها ـ يعني أنها مُفرطة الحرارة تتّقد بما ذُكر لا كنار الدنيا تتّقد بالحطب ونحوه ـ ﴿علَيها مَلائكةٌ﴾: خزَنتها عِدّتهم تسعةَ عشَرَ كما سيأتي في «المدّثّر» ﴿غِلاظٌ﴾ من غِلظ القلب ﴿شِدادٌ﴾ في البطش، ﴿لا يَعصُونَ اللهَ ما أمَرَهُم﴾: بدلٌ من الجلالة، أي: لا يعصون أمرَ الله، ﴿ويَفعَلُونَ ما يُؤمَرُونَ﴾: تأكيدٌ ـ والآية تخويف للمُؤمنين عن الارتداد وللمُنافقين المُؤمنين بألسنتهم دُون قُلوبهم ـ ٧ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ كَفَرُوا، لا تَعتَذِرُوا اليَومَ﴾ يقال لهم ذلك عِند دُخولهم النارَ، أي: لأنه لا ينفعكم. ﴿إنَّما تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه.

٨ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، تُوبُوا إلَى اللهِ تَوبةً نَصُوحًا﴾، بفتح النون وضمّها: صادقةً بألاّ يُعادَ إلى الذنب، ولا يُرادَ العودُ إليه، ﴿عَسَى رَبُّكُم﴾: تَرجيةٌ تَقَعُ........................

قولُهُ: (مُطِيعَاتٍ) أو مواظباتٍ على الطَّاعةِ، أو مصلِّياتٍ.

قولُهُ: (صَائِمَاتٍ) سُمِّي الصَّائمُ سائحاً؛ لأنَّهُ يسيحُ بالنَّهارِ بلا زادٍ.

قولُهُ: (فِي البَطْشِ) أي: أقوياءُ على الأفعالِ الشَّديدةِ، أو غلاظُ الأقوالِ شِدادُ الأفعالِ، أو غلاظُ الخُلُقِ شِدادُ الخَلقِ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أو الأوَّلُ فيما مضى، والثَّاني فيما يستقبَلُ.

قولُهُ: (أي: أنَّهُ) أي: العذرَ على الفرضِ، أو على زعمِهم.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) شعبةُ[١]، وهو مصدرٌ؛ بمعنى: النُّصحِ، تقديرُهُ: ذاتُ نصوحٍ، أو تنصحُ نصوحاً، أو توبوا نُصحاً لأنفسِكُم.

قولُهُ: (صَادِقَةً) أو بالغةً في النُّصحِ، وهو في الأصلِ صفةُ التَّائبِ، فإنَّهُ ينصحُ نفسَهُ بالتَّوبةِ، وُصِفَت به على الإسنادِ المجازيِّ مبالغةً.

قولُهُ: (بأَنْ لا يُعَادَ) هذا شَرطُ الكمالِ.

قولُهُ: (ولا يُرَادُ) هذا شَرطُ الصِّحَّةِ.

قولُهُ: (تَرجِيَةٌ) ذكرَ بصيغةِ الإطماعِ جرياً على عادةِ الملوكِ، وإشعاراً بأنَّهُ تفضُّلٌ، والتَّوبةُ غيرُ موجبَةٍ، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ بينَ خوفٍ ورجاءٍ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٣).

﴿أن يُكَفِّرَ عَنكُم سَيِّئاتِكُم، ويُدخِلَكُم جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ يَومَ لا يُخزِي اللهُ﴾، بإدخال النّار، ﴿النَّبِيَّ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُم يَسعَى بَينَ أيدِيهِم﴾: أمامَهم ﴿و﴾ يكون ﴿بِأَيمانِهِم، يَقُولُونَ﴾، مُستأنف: ﴿رَبَّنا، أتمِمْ لَنا نُورَنا﴾ إلى الجنّة ـ والمُنافقون يَطفأ نورُهم ـ ﴿واغفِرْ لَنا. إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، جاهِدِ الكُفّارَ﴾ بالسيف ﴿والمُنافِقِينَ﴾ باللسان والحُجّة، ﴿واغلُظْ عَلَيهِم﴾ بالانتهار والمقت. ﴿ومَأواهُم جَهَنَّمُ، وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي!

١٠ ـ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ. كانَتا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبادِنا صالِحَينِ، فخانَتاهُما﴾ في الدِّين إذ كفرَتا ـ وكانت امرأةُ نُوح واسمها واهِلةُ تقول لقومه: إنه مجنون. وامرأةُ لُوط واسمها واعِلةُ تدلّ قومه على أضيافه إذا نزلوا به ليلاً بإيقاد النار ونهارًا بالتدخين ـ ﴿فلَم يُغنِيا﴾ أي: نُوحٌ ولُوط ﴿عَنهُما مِنَ اللهِ﴾: من عذابه ﴿شَيئًا! وقِيلَ﴾ لهما: ﴿ادخُلا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ﴾ من كُفّار قوم نُوح وقوم لُوط.

١١ ـ ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امرأةَ فِرعَونَ﴾، آمنت بمُوسى واسمها آسِيةُ فعذّبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها، وألقى على صدرها رحًى عظيمة واستقبل بها الشمسَ، فكانت إذا تفرّق عنها من وُكل بها ظلّلتها الملائكة، ﴿إذ قالَتْ﴾ في حال التعذيب:..

قولُهُ: (بِإدخَالِ النَّارِ) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لـ﴿يدخل﴾، وعطفَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على: ﴿النَّبِيَّ﴾ إحماداً لهم، وتعريضاً لمن ناوأَهُم، وقيل: مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿نورُهُم... ﴾ إلخ.

قولُهُ: (يَكُونُ) لا ضَرُورةَ إلى تقديرِهِ.

قولُهُ: (بالانتِهَارِ) أي: استعملِ الخشونةَ فيما تجاهدُهُم، إذ بلغَ الرِّفقُ غايتَهُ واللُّطفُ نهايتَهُ.

قولُهُ: (هيَ) أي: جهنَّمُ، أو مأواهُم.

قولُهُ: (في الدِّينِ) وقيل: بالنِّفاقِ.

قولُهُ: (وَاهِلَةُ) أو والفةُ.

قولُهُ: (وَاعِلَةُ) أو والهةُ.

قولُهُ: (وقَومِ لُوطٍ) الَّذينَ لا وصلةَ بينَهُم وبينَ الأنبياءِ.

قولُهُ: (آمَنَتْ) فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ وصلةَ الكافرينِ لا تضرُّ معَ الإيمانِ، كما أنَّ وصلةَ الأنبياءِ لا تنفعُ معَ الكفرِ.

﴿رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيتًا في الجَنَّةِ﴾، فكُشف لها فرأته فسهُل عليها التعذيب، ﴿ونَجِّني مِن فِرعَونَ وعَمَلِهِ﴾: وتعذيبه، ﴿ونَجِّني مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ أهل دينه. فقبض الله رُوحها. وقال ابن كَيسانَ: رُفعت إلى الجنّة حيّة فهي تأكل وتشرب ـ ١٢ ـ ﴿ومَريَمَ﴾: عطفٌ على «امرأة فِرعون» ﴿ابنتَ عِمرانَ الَّتي أحصَنَتْ فَرْجَها﴾: حفظتْه، ﴿فنَفَخْنا فِيهِ مِن رُوحِنا﴾ أي: جِبريلَ حيثُ نفخ في جَيب دِرعها بخلق الله ـ تعالى ـ فِعلَه الواصلَ إلى فرجها فحملتْ بعيسى، ﴿وصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها﴾: شرائعِه ﴿وكُتُبِهِ﴾ المُنْزلَة، ﴿وكانَتْ مِنَ القانِتِينَ﴾: من القوم المُطيعين.

قولُهُ: (عَلى ﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾) تسليةٌ للأراملِ.

قولُهُ: (حَفِظَتْهُ) من الرِّجالِ.

قولُهُ: (جِبرِيلَ) أو من روحٍ خَلَقناهُ بلا توسُّطِ أصلٍ.

قولُهُ: (إِلَى فَرجِهَا) فقولُهُ: ﴿فيه﴾ يعني: في فرجِها، وقُرِئَ: (فيها)[1] أي: في مريمَ.

قولُهُ: (المُنَزَّلَةِ) وقرأَ غيرُ البصريِّ وحفصٌ بالإفرادِ للجنسِ[2].

قولُهُ: (المُطِيعِينَ) المواظبينَ على الطَّاعةِ، والتَّذكيرُ للتَّغليبِ، والإشعارِ بأنَّ طاعتَها لم تقصُرْ عن طاعةِ الرِّجالِ الكاملينَ حتَّى عدَّتْ من جملتِهِم، عن النَّبيِّ ﷺ: «كمُلَ مِنَ الرِّجالِ كثيرٌ، ولمْ يكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلَّا أربعٌ: آسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وخديجةُ بنتُ خويلدَ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، وفضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطَّعامِ» رواهُ أبو نُعيم في «الحليةِ»[3]، وأصلُهُ في الصَّحيحِ[4] بدونِ ذكرِ خديجةَ وفاطمةَ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٧٨).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٣).

(٣) وكذلك قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٦٧) إلا أن الذي رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٩٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، موافق لما هو في «الصحيحين»؛ أي: من دون ذكر خديجة وفاطمة رضي الله عنهما، فالله أعلم.

(٤) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

ويقال لها: سورة «المتحرّم»، وسورة «لم تُحرِّم»، وسورة «النبيِّ» ﷺ، وعن ابن الزبير: سورة «النساء».

والمشهور أنها مدنيَّة، وعن قتادة أنَّ المدنيَّ منها إلى رأس العشر، والباقي مكِّي.

وآيها اثنتا عشرةَ آيةً بالاتفاق، وهي متواخيةٌ مع التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبيِّ ﷺ، وتلك مشتملةٌ على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإماء، وبينهما من الملابسة ما لا يخفى، ولما كانت تلك في خصام نساء الأُمَّةِ ذُكِرَ في هذه خصومةُ نساء المصطفى ﷺ؛ إعظاماً لمنصبهنَّ أن يُذْكَرْنَ مع سائر النسوة، فأُفْرِدْنَ بسورةٍ خاصةٍ، ولذا خُتمتْ بذِكْرِ زوجيه ﷺ في الجنة آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران. قاله الجلال السيوطي عليه الرحمة[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ روى البخاريُّ وابنُ سعدٍ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يمكثُ عند زينبَ بنت جحش، ويشربُ عندها عَسَلاً، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أنَّ أَيَّتنا دَخَلَ عليها النبيُّ ﷺ فلتقلْ: إني أَجدُ منك ريحَ مَغافير، أكلتَ مغافير؟ فدخل على إحداهما، فقالت ذلك

---

(١) في كتابه تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٦، وسيأتي تخريج الحديث في آخر السورة ص١٦٥ من هذا الجزء.

له، فقال: «لا، بلْ شربتُ عَسَلاً عند زينبَ بنتِ جحش ولن أعود»[(١)]، وفي روايةٍ[(٢)]: «وقد حلفتُ، فلا تخبري بذلك أحداً» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إلخ، وفي رواية[(٣)]: قالت سودة: أكلتَ مغافير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجدُ منك؟ قال: «سقتني حفصةُ شَرْبةَ عسل»، فقالت: جَرَسَتْ نحلُهُ العُرْفط[(٤)]. فحرَّم العسل، فنزلت.

وفي حديثٍ رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائي[(٥)] عن عائشة: شَرِبَ العَسَلَ في بيت حفصة، والقائلةُ سودةُ وصفيَّة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ـ قال الحافظ السيوطيُّ: بسندٍ صحيح[(٦)] ـ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ شَرِبَ من شرابٍ عند سَوْدةَ من العَسَلِ، فدخل على عائشةَ، فقالت: إني أجدُ منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إني أجدُ منك ريحاً. فقال: «أراه من شرابٍ شربتُهُ عند سودة، والله لا أشربه» فنزلت.

وأخرج النسائيُّ والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أنَّ رسولَ الله ﷺ كانت له أَمَةٌ يطؤها، فلم تزلْ به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إلخ[(٧)].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣٩، والبخاري (٥٢٦٧) و(٦٦٩١)، وابن سعد في الطبقات ٨/ ١٠٧، وهو عند أحمد (٢٥٨٥٢)، ومسلم (١٤٧٤) (٢٠) والمغافير: شيء يَنْضَحه شجرُ العرفط حلو كالناطف. النهاية (غفر)، وسيأتي تعريفه قريباً.

(٢) صحيح البخاري (٤٩١٢).

(٣) صحيح البخاري (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١).

(٤) في هامش الأصل: جرس الطير: صوت منقارها على شيء تأكله. اهـ. وقال ابن الأثير في النهاية (جرس): جَرَسَتْ نحلُه العُرْفَط، أي: أكلت، يقال للنحل: الجوارس، والجرس في الأصل: الصوت الخفي. والعرفط: شجر.

(٥) صحيح البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١)، وأبو داود (٣٧١٥)، ولم نقف عليه عند النسائي.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٣٩ وهو في المعجم الكبير (١١٢٢٦).

(٧) الدر المنثور ٦/ ٢٣٩، والنسائي في الكبرى (١١٥٤٣)، والحاكم ٢/ ٤٩٣.

ويوافقه ما أخرجه البزار والطبرانيُّ بسندٍ حَسَنٍ صحيحٍ عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآية في سُرِّيَّته[١].

والمشهور أنها مارية، وأنه عليه الصلاة والسلام وَطِئَها في بيت حفصة في يومها، فَوَجَدَتْ وعاتبته، فقال ﷺ: «ألا ترضَيْنَ أن أُحرِّمها فلا أقربها؟» قالت: بلى، فحرَّمها[٢]، وفي رواية أنَّ ذلك كان في بيت حفصة في يوم عائشة[٣].

وفي «الكشاف»: روي أنَّ رسول الله ﷺ خلا بماريةَ في يوم عائشة، وعلمتْ بذلك حفصةُ، فقال لها: «اكتمي عليَّ، وقد حرَّمتُ ماريةَ على نفسي، وأُبشِّرك أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمرَ أمتي» فأخبرت عائشةَ وكانتا متصادقتين[٤].

وبالجملة، الأخبارُ متعارضة، وقد سمعتَ ما قيل فيها، لكن قال الخفاجيُّ: قال النووي في «شرح مسلم»: الصحيحُ أنَّ الآيةَ في قصة العسل، لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين، ولم تأتِ قصةُ ماريةَ في طريقٍ صحيحٍ. ثم قال الخفاجيُّ نقلاً عنه أيضاً: الصوابُ أنَّ شُرْبَ العَسَل كان عند زينب رضي الله عنها[٥]. وقال الطيبيُّ فيما نقلناه عن «الكشاف»: ما وجدته في الكتب المشهورة، والله تعالى أعلم.

والمغافير: بفتح الميم والغين المعجمة وبياءٍ بعد الفاء ـ على ما صوَّبه القاضي عياض ـ جمعُ مُغْفور ـ بضمِّ الميم ـ شيءٌ له رائحةٌ كريهةٌ ينضحهُ العُرْفط، وهو: شجرٌ أو نباتٌ له وَرَقٌ عريضٌ[٦]. وعن «المطلع» أنَّ العُرْفُطَ هو الصَّمْغ،

---

(١) مسند البزار (٢٢٧٤ - كشف)، والمعجم الكبير (١١١٣٠) والكلام من الدر المنثور ٦/ ٢٣٩، ووقع في مطبوعه: الترمذي، بدل: البزار.
(٢) أخرجه الدارقطني (٤٠١٣).
(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٥، والبيهقي ٧/ ٣٥٣.
(٤) الكشاف ٤/ ١٢٤، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٦٤٠) بنحوه من طريق الضحاك عن ابن عباس. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٧٨: وفيه إسماعيل البجلي، وهو ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٢١٠، وشرح صحيح مسلم ١٠/ ٧٧.
(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٥/ ٢٧ وفيه: ينفخه، بدل: ينضحه.

والمُغْفور: شوكٌ له نَوْرٌ يأكلُ منه النحلُ، يظهر العُرْفط عليه.

وكان ﷺ يُحِبُّ الطِّيبَ جدًّا، ويكره الرائحةَ الكريهةَ؛ للطافة نفسه الشريفة، ولأنَّ المَلَك يأتيه وهو يكرهها، فَشَقَّ عليه ﷺ ما قيل، فجرى ما جرى.

وفي ندائه ﷺ بـ: «يا أيها النبي» في مفتَتَحِ العتاب من حُسْن التلطُّفِ به والتنويهِ بشأنه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

والمراد بالتحريم الامتناعُ، وبما أحلَّ اللهُ العَسَلُ على ما صحَّحه النوويُّ رحمه الله تعالى، أو وَطْءُ سُرِّيَّته على ما في بعض الروايات، ووجه التعبير بـ «ما» على هذين التفسيرين ظاهرٌ. وفسَّرَ بعضُهم «ما» بمارية؛ والتعبير عنها بـ «ما» على ما هو الشائعُ في التعبير بها عن ملك اليمين، والنكتةُ فيه لا تخفى.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ حالٌ من فاعل «تُحرِّم»، واختاره أبو حيان[1]، فيكونُ هو محلَّ العتاب على ما قيل، وكأنَّ وجهه أنَّ الكلامَ الذي فيه قيدٌ، المقصودُ فيه القيدُ إثباتاً أو نفياً، أو يكون التقييد على نحو: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] على أنَّ التحريمَ في نفسه محلُّ عَتَبٍ؛ والباعثُ عليه كذلك كما في «الكشف». أو استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ، وهو الأولى، ووجههُ أنَّ الاستفهامَ ليس على الحقيقة، بل هو معاتبةٌ على أنَّ التحريمَ لم يكن عن باعثٍ مرضيٍّ، فاتَّجه أن يَسألَ: ما يُنكَرُ منه وقد فعله غيري من الأنبياء عليهم السلام، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]؟ فقيل: «تبتغي مرضات أزواجك» ومِثْلُكَ من أجلُّ أن تطلبَ مرضاتهنَّ بمثل ذلك.

وجُوِّزَ أن يكون تفسيراً لـ «تُحرِّم» بجَعْل ابتغاءِ مرضاتهنَّ عينَ التحريم مبالغةً في كونه سبباً له، وفيه من تفخيم الأمر ما فيه. والإضافةُ في «أزواجك» للجنس لا للاستغراق.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ فيه تعظيمُ شأنه ﷺ بأنَّ تَرْكَ الأَولى بالنسبة إلى مقامه

---

(١) في البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.

السامي الكريم يُعَدُّ كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأنَّ عِتابه ﷺ ليس إلا لمزيد الاعتناء به.

وقد زلَّ الزمخشريُّ هاهنا كعادته، فَزَعَمَ أنَّ ما وقع من تحريم الحلال المحظور، لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام، وقد شنَّ ابن المنير في «الانتصاف» الغارةَ في التشنيع عليه، فقال ما حاصله: إنَّ ما أطلقه في حَقِّه ﷺ تقوُّلٌ وافتراءٌ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام منه بَراء، وذلك أنَّ تحريمَ الحلال على وجهين: الأول اعتقادُ ثبوتِ حُكْم التحريم فيه، وهو كاعتقاد ثبوت حُكْمِ التحليل في الحرام محظورٌ يُوجبُ الكفرَ، فلا يمكنُ صدوره من المعصوم أصلاً. والثاني: الامتناعُ من الحلال مطلقاً، أو مؤكَّداً باليمين، مع اعتقاد حِلِّهِ، وهذا مباحٌ صِرْف وحلالٌ محضٌ؛ ولو كان تَرْكُ المباح والامتناعُ منه غيرَ مباحٍ، لاستحالتْ حقيقةُ الحلال[1]، وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع، وإنما عاتبه الله تعالى عليه رِفْقاً به، وتنويهاً بقَدْره، وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يُراعي مرضاةَ أزواجه بما يشقُّ عليه، جَرْياً على ما أَلِفَ من لطف الله تعالى به[2].

وتأوَّلَ بعضُهم كلامَ الزمخشري، وفيه ما ينبو عن ذلك.

وقيل: نسبةُ التحريم إليه ﷺ مجازٌ، والمراد: لِمَ تكون سبباً لتحريم الله تعالى عليك ما أحلَّ لك بِحَلفِكَ على تَرْكه. وهذا لا يحتاج إليه، وفي وقوع الحَلِفِ خلافٌ، ومَن قال به احتجَّ ببعض الأخبار، وبظاهرِ قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: قد شَرَعَ لكم تحليلها، وهو حِلُّ ما عقدته الأيمان بالكفارة، فالتَّحِلَّةُ مصدر حَلَّل، كَتَكْرِمة من كَرَّمَ، وليس مصدراً مقِيساً، والمقيسُ التحليلُ والتكريمُ؛ لأنَّ قياسَ «فَعَّلَ» الصحيحِ العينِ غير المهموز هو: التفعيل، وأصله تَحْلِلَة، فأُدغم، وهو من الحَلِّ ضدّ العقد، فكأنه باليمين على الشيء لالتزامه عَقَدَ عليه، وبالكفارة يحلُّ ذلك، ويحلُّ أيضاً بتصديق اليمين كما في قوله ﷺ:

---

(١) كذا في الأصل و(م). والذي في الانتصاف: الحال.
(٢) الانتصاف ٤/ ١٢٥.

«لا يموتُ لرجلٍ ثلاثةُ أولادٍ، فتمسَّه النار، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَم»(١) يعني: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ إلخ [مريم: ٧١]، وتحليلُه بأقلِّ ما يقعُ عليه الاسمُ، كَمَنْ حَلَفَ أن ينزلَ، يكفي فيه إلمامٌ خفيفٌ، فالكلامُ كنايةٌ عن التقليل، أي: قَدْر الاجتياز اليسير. وكذا يَحِلُّ بالاستثناء، أي: بقول الحالف: إن شاء الله تعالى، بشَرْطه المعروف في الفقه.

ويُفهَم من كلام «الكشاف»(٢) أنَّ التحليلَ يكونُ بمعنى الاستثناء، ومعناه كما في «الكشف»: تعقيبُ اليمين عند الإطلاق بالاستثناء حتى لا تنعقد، ومنه:

حـلَّا، أبـيـتَ الـلَّـعـنَ.........(٣)

وعلى القول بأنه كان منه عليه الصلاة والسلام يمينٌ كما جاء في بعض الروايات، وهو ظاهرُ الآية، اختُلِفَ هل أعطى ﷺ الكفارةَ أم لا؟ فعن الحسن أنه عليه الصلاة والسلام لم يُعْطِ؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر، وإنما هو تعليمٌ للمؤمنين(٤). وفيه أنَّ غُفرانَ الذنب لا يصلحُ دليلاً؛ لأنَّ تَرَتُّبَ الأحكام الدنيوية على فِعْله عليه الصلاة والسلام ليس من المؤاخذة على الذنب، كيف وغيرُ مُسَلَّمٍ أنه ذنبٌ.

وعن مقاتلٍ أنه ﷺ أعتقَ رقبةً في تحريم مارية(٥)، وقد نقل مالكٌ في «المدونة»(٦) عن زيد بن أسلم أنه عليه الصلاة والسلام أعطى الكفارةَ في تحريمه أمَّ ولده، حيث حَلَفَ أن لا يقربها، ومثله عن الشعبيِّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠١٢٠)، والبخاري (٦٦٥٦)، ومسلم (٢٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) ٤/ ١٢٥.
(٣) طرف بيت لعبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص١٣٧، وتمامه:
حـلَّا أبـيـتَ الـلـعـنَ حـــ ـلَّا إنَّ فـيـمـا قـلـتَ آمَـهْ
ومعنى: أبيتَ اللعن. أي: أبيت أن تأتي شيئاً تلعن به، وهي تحية الملوك في الجاهلية. والآمة: العيب.
(٤) الكشاف ٤/ ١٢٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٤٤.
(٥) المصدران السابقان.
(٦) المدونة ٣/ ١٦٥.

واختلف العلماء في حُكْمِ قول الرجل لزوجته: أنت عليَّ حرامٌ، أو: الحلالُ عليَّ حرام، ولم يَسْتَثْنِ زوجَتَه؟

فقيل: قال جماعةٌ منهم مسروق وربيعة وأبو سلمة والشعبي وأصبغ: هو كتحريم الماء والطعام، لا يلزمه شيء. وقال أبو بكر وعمر وزيد وابن مسعود وابن عباس وعائشة وابن المسيب وعطاء وطاوس وسليمان بن يسار وابن جبير وقتادة والحسن والأوزاعي وأبو ثور وجماعة: هو يمينٌ يُكفِّرها. وابنُ عباس أيضاً في رواية، والشافعيُّ - في قولٍ - في أحدِ قوليه: فيه تكفيرُ يمينٍ، وليس بيمين. وأبو حنيفةَ يرى تحريمَ الحلال يميناً في كلِّ شيء، ويعتبر الانتفاعَ المقصودَ فيما يُحرِّمه، فإذا حرَّمَ طعاماً فقد حَلَفَ على عدم أكله، أو أمةً فعلى وَطْئها، أو زوجةً فعلى الإيلاء منها إذا لم تكن له نيةٌ، فإن نوى الظهارَ فظهارٌ، وإن نوى الطلاقَ فطلاقٌ بائنٌ، وكذلك إن نوى اثنتين[1]، وإن نوى ثلاثاً فكما نوى، وإن قال: نويتُ الكَذِبَ. دُيِّنَ بينه وبين الله تعالى، ولكن لا يُديَّنُ في قضاء الحاكم بإبطال الإيلاء؛ لأنَّ اللفظ إنشاءٌ في العرف.

وقال جماعة: إن لم يُرِدْ شيئاً فهو يمينٌ.

وفي «التحرير»: قال أبو حنيفة وأصحابه: إن نوى[2] الطلاقَ فواحدةٌ بائنةٌ، أو اثنتين فواحدةٌ، أو ثلاثاً فثلاثٌ، أو لم ينوِ شيئاً فَمُوْلٍ، أو الظهارَ فظهارٌ. وقال ابن القاسم: لا تنفعه نيةُ الظهار، ويكون طلاقاً. وقال يحيى بن عمر: يكون كذلك، فإن ارتجعها فلا يجوزُ له وَطْؤُها حتى يُكفِّرَ كفارةَ الظهار، ويقعُ ما أراد من أعداده، فإن نوى واحدةً فرجعيَّة، وهو قولٌ للشافعي.

وقال الأوزاعيُّ وسفيان وأبو ثور: أيّ شيءٍ نوى به من الطلاق وَقَعَ.

وإن لم ينوِ شيئاً، فقال سفيان: لا شيءَ عليه. وقال الأوزاعيُّ وأبو ثور: تقعُ واحدةً. وقال ابن جبير: عليه عِتْقُ رقبةٍ وإن لم يكن ظهاراً. وقال أبو قلابة وعثمان

---

(١) في هامش الأصل: وقال بعض الحنفية: هذا عند أبي يوسف ومحمد، وعند أبي حنيفة: لا يصح نية الثنتين وتقع واحدة. طيبي.

(٢) في (م): إن النوى.

وأحمد وإسحاق: التحريمُ ظهارٌ، ففيه كفَّارته. وعن الشافعي: إن نوى أنها محرَّمةٌ كظهر أمِّه فظهار أو تحريم عينها بغير طلاق، أو لم ينوِ فكفَّارةُ يمين. وقال مالك: يقعُ ثلاثٌ في المدخول بها، وما أراد: من واحدة، أو ثنتين، أو ثلاثٍ، في غير المدخول بها. وقال ابن أبي ليلى وعبد الملك بن الماجشون: تقع ثلاث في الوجهين. وروى ابن خُويزمَنْداد عن مالك، وقاله زيد وحماد بن أبي سليمان[١]: تقعُ واحدةً بائنةً فيهما. وقال الزهري وعبد العزيز بن الماجشون: واحدةٌ رجعيةٌ. وقال أبو مصعب ومحمد بن عبد الحكم: يقعُ في التي لم يدخلْ بها واحدة، وفي المدخول بها ثلاث.

وفي «الكشاف»[٢]: لا يراه الشافعيُّ يميناً ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهنَّ، وأما الطلاق فرجعيٌّ عنده. وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: ثلاث، وعن زيد: واحدة بائنة، وعن عثمان: ظهار.

وأخرج البخاريُّ ومسلم وابن ماجه والنسائي عن ابن عباس[٣] أنه قال: من حرَّم امرأته فليس بشيء، وقرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وللنسائي أنه أتاه رجلٌ فقال: جعلتُ امرأتي عليَّ حراماً، قال: كذبتَ، ليستْ عليكَ بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ عليك أغلظُ الكفارة عِتْقُ رقبة[٤].

إلى غير ذلك من الأقوال، وهي في هذه المسألة كثيرةٌ جدًّا، وفي نقل الأقوال عن أصحابها اختلافٌ كثيرٌ أيضاً.

واحتَجَّ بما في هذه الآية ـ من فَرْض تحليلها بالكفارة إن لم يستثنِ ـ مَنْ رأى

(١) كذا في الأصل و(م) والبحر ٨/ ٢٨٩، والكلام منه. والذي في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣٥، وتفسير القرطبي ٢١/ ٧٣: حماد بن سلمة.
(٢) ٤/ ١٢٥-١٢٦.
(٣) البخاري (٤٩١١)، ومسلم (١٤٧٣) (١٩)، وابن ماجه (٢٠٧٣)، ولم نقف عليه عند النسائي، وهو عند أحمد (١٩٧٦).
(٤) النسائي في المجتبى ٦/ ١٥١، وفي الكبرى (٥٥٨٣).

التحريمَ مطلقاً، أو تحريمَ المرأة يميناً؛ لأنه لو لم يكن يميناً لم يُوجب الله تعالى فيه كفارةَ اليمين هنا.

وأجيب بأنه لا يلزم من وجوب الكفارة كونه يميناً؛ لجواز اشتراك الأمرين المتغايرين في حُكْم واحدٍ، فيجوز أن تثبتَ الكفارةُ فيه لمعنًى آخر، ولو سُلِّم أنَّ هذه الكفارةَ لا تكونُ إلا مع اليمين، فيجوزُ أن يكونَ ﷺ أقسمَ مع التحريم فقال في مارية: «والله لا أطؤها»، أو في العسل: «والله لا أشربه» وقد رواه بعضُهم[(١)]، فالكفارةُ لذلك اليمين، لا للتحريم وحده، والله تعالى أعلم.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سَيِّدكم ومتولِّي أموركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيعلمُ ما يُصلحكم فيشرعهُ سبحانه لكم ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ﴾ أي: واذكر إذ أَسَرَّ ﴿ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ هي حفصةُ على ما عليه عامةُ المفسِّرين، وزَعَمَ بعضُ الشيعة أنها عائشة، وليس له في ذلك شيعة، نعم رواه ابن مردويه[(٢)] عن ابن عباس، وهو شاذٌّ.

﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام على ما في بعض الروايات: «لكنِّي كنتُ أشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً»[(٣)].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ أي: أخبرت. وقرأ طلحة: «أنبأت»[(٤)]. ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالحديث عائشة؛ لأنهما كانتا متصادقتين، وتضمَّنَ الحديثُ نقصان حَظِّ ضَرَّتهما زينب من حبيبهما رسول الله ﷺ، حيث إنه عليه الصلاة والسلام ـ كما في البخاري[(٥)] وغيره ـ كان يمكثُ عندها لشرب ذلك، وقد اتخذ ذلك عادةً، كما يشعر به لفظ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٢٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤١.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٠.
(٥) برقم (٥٢٦٧) و(٦٦٩١). وسلف ص٢٤٣ من هذا الجزء.

«كان» فاستخفَّها السرورُ فنبَّأت بذلك ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: جعل الله تعالى النبيَّ ﷺ ظاهراً على الحديث، مُطَّلعاً عليه من قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] والكلام على ما قيل: على التجوُّز، أو تقدير مضاف، أي: على إفشائه، وجُوِّزَ كونُ الضمير لمصدر «نبَّأت» وفيه تفكيكُ الضمائر، أو جعلَ الله تعالى الحديثَ ظاهراً على النبيِّ ﷺ، فهو نظيرُ: ظهر لي هذه المسألة، وظهرتْ عليَّ، إذا كان فيه مزيدُ كُلْفةٍ واهتمامٍ بشأن الظاهر، فلا تغفل.

﴿عَرَّفَ﴾ أي: النبيُّ ﷺ حفصةَ ﴿بَعْضَهُۥ﴾ أي: الحديث، أي: أعلمها وأخبرها ببعض الحديث، الذي أفشتهُ. والمراد أنه ﷺ قال لها: قلتِ كذا. لبعض ما أَسَرَّهُ إليها، قيل: هو قوله لها: «كنتُ شربتُ عَسَلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود».

﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ هو ـ على ما قيل ـ قوله عليه الصلاة والسلام: «وقد حلفتُ» فلم يخبرها به تكرُّماً لما فيه من مزيد خجلتها، حيث إنه يفيد مزيد اهتمامه ﷺ بمرضاة أزواجه، وهو لا يُحبُّ شيوعَ ذلك، وهذا من مزيد كرمه ﷺ.

وقد أخرج ابن مردويه[1] عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: ما استقصى كريمٌ قَطُّ.

وقال سفيان: ما زال التغافلُ من فِعْل الكرام. وقال الشاعر:

ليس الغبيُّ بسيِّدٍ في قومه ... لكنَّ سَيِّدَ قومِهِ المتغابي[2]

وجُوِّزَ أن يكون «عرَّف» بمعنى جازى، أي: جازاها على بعضٍ بالعَتَبِ واللوم، أو بتطليقه عليه الصلاة والسلام إياها، وتجاوزَ عن بعض، وأيِّدَ بقراءة السُّلمي والحسن وقتادة وطلحة والكسائي وأبي عمرو في رواية هارون عنه: «عَرَفَ» بالتخفيف[3]؛ لأنه على هذه القراءة لا يحتملُ معنى العلم؛ لأنَّ العلم تعلَّقَ به كلّه بدليل قوله تعالى: «أظهره الله عليه» مع أنَّ الإعراض عن البَاقي يدلُّ على العلم، فتعيَّنَ أن يكونَ بمعنى المجازاة.

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤١، ونسبه القرطبي ٢١/ ٨١، وأبو حيان في البحر ٨/ ٢٩٠ للحسن.

(٢) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٨٧.

(٣) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن الكسائي، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.

قال الأزهريُّ في «التهذيب»[1]: مَنْ قرأ «عَرَفَ» بالتخفيف، أراد معنى غَضِبَ وجازى عليه، كما تقول للرجل يُسيءُ إليك: واللهِ لأعرفنَّ لك ذلك. واستحسنه الفراء[2]، وقول «القاموس»[3]: هو بمعنى الإقرار. لا وجهَ له هاهنا. وجُعِلَ المشدَّدُ من باب إطلاق المسبَّب على السبب، والمخفَّفُ بالعكس، ويجوز أن تكون العلاقةُ بين المجازاة والتعريف اللزوم، وأُيِّدَ المعنى الأول بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ﴾ لتعرف هل فضحتها عائشة أم لا: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، فإنه أوفقُ للإعلام، و«هذا» على ما في «البحر»[4] على معنى «بهذا».

وقرأ ابن المسيب وعكرمة: «عرَّاف بعضه» بألفٍ بعد الراء، وهي إشباعٌ، وقال ابن خالويه: ويقال: إنها لغةٌ يمانية[5].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس، وابنُ أبي حاتم عن مجاهد أنَّ النبيَّ ﷺ أَسَرَّ إلى حفصةَ تحريمَ مارية، وأنَّ أبا بكرٍ وعمرَ يَلِيان الناسَ بعده، فأَسَرَّتْ ذلك إلى عائشةَ، فعرَّفَ بعضَهُ، وهو أمرُ مارية، وأعرضَ عن بعضٍ، وهو أنَّ أبا بكر وعمر يليان بعده، مخافةَ أن يفشو[6].

وقيل: بالعكس، وقد جاء إسرار أمر الخلافة في عِدَّة أخبار؛ فقد أخرج ابن عديٍّ، وأبو نعيم [في «فصائل الصحابة» والعشاوي] في «فضائل الصديق»، وابن مردويه من طُرُقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس قالا: إنَّ إمارةَ أبي بكر وعمرَ لفي كتاب الله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، قال لحفصة: «أبوكِ، وأبو عائشة واليا الناسِ بعدي، فإياكِ أن تخبري أحداً»[7].

---

(١) تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٦٦.

(٣) مادة (عرف).

(٤) ٨/ ٢٩٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٨، والبحر ٨/ ٢٩٠.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٤١.

(٧) الدر المنثور ٦/ ٢٤١، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٧٢.

وأخرج أبو نعيم في «فضائل الصحابة»(١) عن الضحاك أنه قال في الآية: أَسَرَّ ﷺ إلى حفصةَ أنَّ الخليفةَ من بعده أبو بكر، ومن بعد أبي بكر عمر.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عن ميمون بنِ مهران نحوه.

وفي «مجمع البيان» للطبرسي ـ من أَجَلِّ الشيعةِ ـ عن الزجَّاج قال: لما حرَّمَ عليه الصلاة والسلام ماريةَ القبطيةِ، أخبرَ [حفصةَ] أنه يملك من بعده أبو بكر وعمر، فعرَّفها بعضَ ما أفشتْ من الخبر، وأعرضَ عن بعضٍ أنَّ أبا بكر وعمر يملكان من بعدي. وقريبٌ من ذلك ما رواه العياشيُّ بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبي جعفر الباقر رضي الله عنه، إلا أنه زاد في ذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما حَدَّثَتْ أباها بذلك، فعاتبهما في أمرِ ماريةَ وما أفشتا عليه من ذلك، وأعرضَ أن يعاتبهما في الأمر الآخر(٣). انتهى. وإذا سلَّمَ الشيعةُ صحَّةَ هذا، لزمهم أن يقولوا بصحَّةِ خلافة الشيخين؛ لظهوره فيها كما لا يخفى.

ثم إنَّ تفسيرَ الآية على هذه الأخبار أظهرُ من تفسيرها على حديث العسل، لكن حديثه أصحّ، والجمعُ بين الأخبار مما لا يكاد يتأتَّى.

وقُصارى ما يمكن أن يقال: يحتملُ أن يكون النبيُّ ﷺ قد شَرِبَ عسلاً عند زينب كما هو عادته، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت، فحرَّمَ العسل، واتفق له عليه الصلاة والسلام قبيل ذلك أو بعيده أن وَطِئَ جاريتَهُ ماريةَ في بيتها في يومها على فراشها، فوَجَدَتْ، فحرَّم ﷺ مارية، وقال لحفصة ما قال تطييباً لخاطرها، واستكتمها ذلك، فكان منها ما كان، ونزلت الآيةُ بعد القصَّتين، فاقتصرَ بعضُ الرواة على إحداهما، والبعضُ الآخر على نَقْلِ الأخرى، وقال كلٌّ: فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إلخ، وهو كلامٌ صادقٌ؛ إذ ليس فيه دعوى كلٍّ حَصْرَ علَّةِ النزول فيما نقله، فإنْ صحَّ هذا هانَ أمرُ الاختلاف، وإلا فاطلبْ لك غيره، والله تعالى أعلم.

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤١.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في الدر المنثور ٦/ ٢٤١: أخرج ابن عساكر عن ميمون بن مهران. والخبر في تاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٢٢٣.

(٣) مجمع البيان ٢٨/ ١٢٠-١٢١، وما بين حاصرتين استدرك منه.

واستُدِلَّ بالآية على أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَنْ يركنُ إليه من زوجةٍ أو صديق، وأنه يلزمه كَتْمُهُ. وفيها على ما قيل: دلالةٌ على أنه يحسُنُ حُسْنُ العشرة مع الزوجاتِ، والتلطُّف في العتب، والإعراض عن استقصاء الذنب، وقد روي أنَّ عبد الله بن رواحة ـ وكان من النقباء ـ كانت له جاريةٌ، فاتَّهمته زوجته ليلةً، فقال قولاً بالتعريض، فقالت: إن كنتَ لم تقربها فاقرأ القرآن فأنشد:

شَهِدُت فلم أكذبْ بأنَّ محمداً رسولُ الذي فوقَ السماوات من عَلُ
وأنَّ أبا يحيى ويحيى كلاهما له عملٌ في دينه مُتقبَّلُ
وأنَّ التي بالجزع من بطنِ نخلة ومَنْ دانها كلٌّ عن الخير مُعزَلُ

فقالت: زدني، فأنشد:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَهُ كما لاح معروفٌ من الصُّبح ساطعُ
أتى بالهدى بعد العَمى فنفوسنا به مُوقِناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يَبيتُ يُجافي جنبهُ عن فراشه إذا رقدتْ بالكافرين المضاجعُ

فقالت: زدني، فأنشد:

شهدتُ بأنَّ وَعْدَ الله حقٌّ وأنَّ النارَ مثوى الكافرينا
وأنَّ محمداً يدعو بحقٍّ وأنَّ الله مولى المؤمنينا
وأنَّ العرش فوقَ الماء طافٍ وفوقَ العرش ربّ العالمينا
ويحملُهُ ملائكةٌ شِدادٌ ملائكةُ الإله مُسَوَّمينا

فقالت: أما إذ قرأتَ القرآن فقد صَدَّقتك، وفي روايةٍ أنها قالت ـ وقد كانت رأته على ما تكره ـ: إذن صَدَق اللهُ وكذب بَصَري. فأخبر النبيَّ ﷺ فتبسَّم، وقال: «خيركم خيركم لنسائه»[١].

---

(١) ذكره بتمامه الطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٢١-١٢٢، وينظر ما ورد فيه من روايات ـ وجميعها مرسلة ـ في العيال لابن أبي الدنيا ٢/ ٧٧٠-٧٧٣، وسنن الدار قطني (٤٣٢)، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٨-٢٣٩.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصة وعائشة رضي الله عنهما على الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب؛ للمبالغة في المعاتبة، فإنَّ المبالِغَ في العتاب يُصيِّرُ المعاتَبَ أولاً بعيداً عن ساحة الحضور، ثم إذا اشتدَّ غضبُهُ توجَّه إليه وعاتبه بما يريد، وكونُ الخطاب لهما لِمَا أخرج أحمد والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ وابن حبان وغيره عن ابن عباس قال: لم أزلْ حريصاً أن أسألَ عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبيِّ ﷺ اللَّتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ إلخ حتى حَجَّ عمرُ وحَجَجْتُ معه، فلما كان ببعض الطريق، عَدَلَ عمرُ وعَدَلْتُ معه بالإداوة، فنزل، ثم إني صببتُ على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنِ المرأتان من أزواج النبيِّ ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ إلخ؟ فقال: وَاعجباً لك يا ابن عباس! هما عائشة وحفصة. ثم أنشأ يُحدِّثني الحديثَ[1]، الحديث بطوله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: مالتْ عن الواجب من مخالقته[2] ﷺ بحُبِّ ما يُحبُّهُ وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته، والجملةُ قائمةٌ مقامَ جواب الشرط بعد حَذْفه، والتقديرُ: «إن تتوبا» فَلِتَوبتكما موجبٌ وسببٌ، «فقد صغتْ قلوبكما»، أو: فحقّ لكما ذلك، فقد صَدَرَ ما يقتضيها، وهو على معنى: فقد ظهر أنَّ ذلك حقٌّ، كما قيل في قوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ[3]

من أنه بتأويل: تبيَّنَ أني لم تلدني لئيمةٌ. وجَعَلَها ابنُ الحاجب جواباً من حيث الإعلام، كما قيل في: إن تكرمني اليومَ فقد أكرمتُكَ أمس.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ تقديره: يَمْحُ إثمكما، وقوله تعالى: «فقد صغت» إلخ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٢، وأحمد (٢٢٢)، والبخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، والترمذي (٢٤٦١) و(٣٣١٨)، وابن حبان (٤٢٦٨).

(٢) تحرفت في الأصل و(م) إلى: مخالفته، والمثبت من تفسير البيضاوي ٨/ ٢١١، ومعناها كما قال الشهاب: موافقة أخلاقه والتخلق بها. وجاء في الكشاف ٤/ ١٢٧، وتفسير النسفي ٥/ ٢٢٤، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢٦٧: مخالصته.

(٣) سلف في سورة مريم، الآية (٧٩).

بيانٌ لسبب التوبة. وقيل: التقديرُ: فقد أَدَّيتما ما يجبُ عليكما، أو أتيتما بما يحقُّ لكما، وما ذُكِرَ دليلٌ على ذلك.

قيل: وإنما لم يفسروا: «فقد صغت قلوبكما» بـ: مالتْ إلى الواجب، أو الحقِّ، أو الخير، حتى يصحَّ جعلُهُ جواباً من غير احتياجٍ إلى نحو ما تقدَّم؛ لأنَّ صيغةَ الماضي، و«قد»، وقراءةَ ابن مسعود: «فقد زاغتْ قلوبكما»[1]، وتكثيرَ المعنى مع تقليل اللفظ، يقتضي ما سلف.

وتُعقِّبَ بأنه إنما يتمشَّى على ما ذهب إليه ابنُ مالك من أنَّ الجوابَ يكونُ ماضياً وإن لم يكن لفظ «كان»، وفيه نظرٌ.

والجمع في «قلوبكما» دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد، وهو في مثل ذلك أكثرُ استعمالاً من التثنية والإفراد، قال أبو حيان: لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر كقوله:

حمامةَ بطنِ الواديَيْن ترنَّمي[2]

وغلَّطَ رحمه الله تعالى ابنَ مالكٍ في قوله في «التسهيل»: ويختارُ لفظ الإفراد على لفظ التثنية[3].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بحَذْفِ إحدى التاءين وتخفيف الظاء، وهي قراءةُ عاصم ونافع في رواية، وطلحة والحسن وأبو رجاء[4]. وقرأ الجمهور: «تَظَّاهرا» بتشديد الظاء، وأصله: تتظاهرا، فأُدغمتِ التاءُ في الظاء، وبالأصل قرأ عكرمة[5]، وقرأ أبو عمرو في رواية أخرى: «تظَّهَّرا» بتشديد الظاء والهاء دون ألف[6].

والمعنى: فإن تتعاونا عليه ﷺ بما يسوؤه من الإفراط في الغَيْرة وإفشاء سِرِّه.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣١، والكشاف ٤/ ١٢٧.

(٢) صدر بيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٤٨ وعجزه: سقاكِ من الغُرِّ العذابِ مطيرُها.

(٣) التسهيل ص١٩، والبحر ٨/ ٢٩١.

(٤) التيسير ص٧٤، والنشر ٢/ ٢١٨ عن عاصم وحمزة والكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٢٩١.

(٥) الكشاف ٤/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٢٩١.

(٦) القراءات الشاذة ص١٥٨، والكشاف ٤/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٢٩١.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ناصره، والوقف ـ على ما في «البحر»[1] وغيره ـ هنا أحسن، وجعلوا قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ مبتدأ، وقوله سبحانه: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوفاً عليه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد نُصْرة الله تعالى متعلِّقاً بقوله جلَّ شأنه: ﴿ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ وجعلوه الخبر عن الجميع، وهو بمعنى الجمع، أي: مظاهرون، واختير الإفرادُ لجعلهم كشيءٍ واحدٍ، وجُوِّزَ أن يكونَ خبراً عن «جبريل»، وخبر ما بعده مقدَّر، نظير ما قالوا في قوله:

ومَنْ يكُ أمسى بالمدينة رحلُهُ فإني وقيَّار بها لغريبُ[2]

وجُوِّز أن يكون الوقف على «جبريل»، أي: وجبريل مولاه، و«صالح المؤمنين» مبتدأ، وما بعده معطوفٌ عليه، والخبر «ظهير».

وظاهر كلام «الكشاف»[3] اختيار الوقف على «المؤمنين»، فـ «ظهير» خبر «الملائكة»، وعليه غالبُ مختصريه، وظاهرُ كلامهم التقدير لكلٍّ من «جبريل» و«صالح المؤمنين» خبراً، وهو إما لفظ «مولى» مراداً به مع كلٍّ معنًى من معانيه المناسبة، أي: «وجبريل» مولاه، أي: قرينه، «وصالح المؤمنين» مولاه، أي: تابعه، أو لفظٌ آخر بذلك المعنى المناسب، وهو قرينه في الأول، وتابعه في تابعه، ولا مانع من أن يكون المولى في الجميع بمعنى الناصر كما لا يخفى.

وزيادة «هو» على ما في «الكشاف»[4] للإيذان بأنَّ نُصْرته تعالى عزيمةٌ من عزائمه، وأنه عزَّ وجلَّ متولِّي ذلك بذاته تعالى، وهو تصريحٌ بأنَّ الضميرَ ليس من الفصل في شيء، وأنه للتقوِّي لا للحصر، والحصرُ أكثريٌّ في المعرفتين على ما نقله في «الإيضاح» وإن كان كلامُ السَّكاكي موهماً الوجوب[5]؛ هذا والمبالغةُ محقَّقةٌ

---

(١) ٨/ ٢٩١.
(٢) البيت لضابئ بن الحارث البُرجمي، وهو في الكتاب ١/ ٧٥، والكامل ١/ ٤١٦، وأخبار الزجاجي ص٢٦، وخزانة الأدب ٩/ ٣٢٦ و١٠/ ٣١٢. ووقعت الرواية في بعض المصادر: وقياراً، بدل: وقيار. قال المبرِّد في الكامل: ولو رُفع لكان جيداً.
(٣) ٤/ ١٢٧.
(٤) ٤/ ١٢٧.
(٥) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١/ ٨٠-٨١، ومفتاح العلوم للسكاكي ص٢٠٦-٢٠٧.

على ما نصَّ عليه سيبويه وحُقِّقَ في الأصول، وأما الحصرُ فليس من مقتضى اللفظ، فلا يردُ أنَّ الأَولى أن يكون «وجبريل» وما بعده مخبَراً عنه بـ «ظهير»، وإن سُلِّمَ فلا ينافيه؛ لأنَّ نُصْرَتهم نُصْرَتُهُ تعالى، فليس من الممتنع على نحو: زيدٌ المنطلق وعمرو، كذا في «الكشف».

ووجه تخصيص جبريل عليه السلام بالذكر مزيد فضله، بل هو رأسُ الكروبيين[(١)]. والمراد بالصالح عند كثيرٍ: الجنسُ الشاملُ للقليل والكثير، وأُريد به الجمع هنا، ومثله قولك: كنتُ في السَّامر والحاضر، ولذا عمّ بالإضافة، وجُوِّزَ أن يكون اللفظُ جَمْعاً، وكان القياسُ أن يكتب «وصالحوا» بالواو إلا أنها حُذفتْ خَطًّا تبعاً لحذفها لفظاً، وقد جاءت أشياء في المصحف تُبع فيها حكم اللفظ دون وضع الخطِّ نحو: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] و: ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] و: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] و: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] إلى غير ذلك.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ الإضافةَ للعهد، فقيل: المراد به الأنبياء عليهم السلام. وروي عن ابن زيد وقتادة والعلاء بن زياد. ومظاهرتهم له، قيل: تضمُّنُ كلامهم ذمَّ المتظاهرين على نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام. وفيه من الخفاء ما فيه.

وقيل: عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وأخرجه ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس[(٢)].

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وصالح المؤمنين: عليُّ بن أبي طالب»[(٣)].

وروى الإماميَّةُ عن أبي جعفر أنَّ النبيَّ ﷺ حين نزلت أَخَذَ بيد عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فقال: «يا أيها الناس، هذا صالح المؤمنين»[(٤)].

---

(١) الكروبيون: سادة الملائكة، جبرائيل وميكائيل وإسرافيل. الفائق للزمخشري ٣/ ٢٥٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤٤، وتاريخ دمشق ٤٢/ ٣٦١، وفي إسناده الحكم بن ظهير، وهو متروك.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٤٤، وضعف إسناده الحافظ في الفتح ١٠/ ٤٢٢.
(٤) مجمع البيان ٢٨/ ١٢٤.

وأخرج ابن عساكر(١) عن الحسن البصري أنه قال: هو عمر بن الخطاب.

وأخرج هو وجماعة عن سعيد بن جبير قال: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نزل في عمر بن الخطاب خاصة(٢).

وأخرج ابن عساكر(٣) عن مقاتل بن سليمان أنه قال: وصالح المؤمنين: أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم.

وقيل: الخلفاء الأربعة.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس قالا: نزلت ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في أبي بكرٍ وعمرَ(٤). وذهب إلى تفسيره بهما عكرمة وميمون بن مهران وغيرهما.

وأخرج الحاكم عن أبي أمامة(٥)، والطبرانيُّ وابن مردويه وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أبو بكر وعمر»(٦).

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباس قال: كان أبي يقرؤها: «وصالحُ المؤمنين أبو بكر وعمر»(٧). ورجّح إرادة ذلك بأنه اللائقُ بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام، فإنه جمع بين الظهير المعنويِّ والظهير الصُّوري، كيف لا وإن جبريل عليه السلام ظهيرٌ له ﷺ يُؤيِّدُه بالتأييدات

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤٣.
(٢) قال الحافظ في الفتح ١٠/ ٤٢٢: أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير.
(٣) في تاريخ دمشق ٤٤/ ٤٥.
(٤) المعجم الأوسط (٨٢٠)، قال في المجمع ٩/ ٥٢: فيه فرات بن السائب، وهو متروك.
(٥) المستدرك ٣/ ٦٩، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: موسى (وهو ابن عمير، أحد رجال الإسناد) واه.
(٦) المعجم الكبير (١٠٤٧٧). قال في المجمع ٧/ ١٢٧: فيه عبد الرحيم بن زيد العمِّي، وهو متروك.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٢٤٣، والكلبي متهم بالكذب.

الإلهية، وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة، مع أنَّ بيان مظاهرتهما له عليه السلام أشدُّ تأثيراً في قلوب بِنْتَيْهِما وتوهيناً لأمرهما.

وأنا أقول: العموم أولى، وهما ـ وكذا عليٌّ كرم الله تعالى وجهه ـ يدخلان دخولاً أوَّليًا، والتنصيصُ على بعضٍ في الأخبار المرفوعة ـ إذا صحَّتْ ـ لنكتةٍ اقتضت ذلك، لا لإرادة الحصر؛ ويؤيِّد ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنه قال في ذلك: «من صالح المؤمنين أبو بكر وعمر»[(١)].

وفائدةُ «بعد ذلك» التنبيهُ على أنَّ نُصْرةَ الملائكة عليهم السلام أقوى وجوه نُصْرته عزَّ وجلَّ وإن تنوَّعت، ثم لا خفاء في أنَّ نصرةَ جميع الملائكة ـ وفيهم جبريل ـ أقوى من نُصْرة جبريل عليه السلام وحده.

وقيل: الإشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصَّةً، فالتعظيم بالنسبة إليها، وفي التنبيه على هذا دَفْعُ توهُّمِ ما يوهمه الترتيبُ الذكري من أَعْظَميَّة مظاهرة المتقدِّم. وبالجملة: فائدةُ «بعد ذلك» نحو فائدةِ «ثم» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] وهو التفاوت الرُّتْبي، أي: أعظميَّة رتبة ما بعدها بالنسبة إلى ما قبلها، وهذا لا يتسنَّى على ما نقل عن الحبر[(٢)]، بل ذلك للإشارة إلى تبعيَّة المذكورين في النُّصْرة والإعانة لله عزَّ وجلَّ.

وأيًّا ما كان فـ «إنْ» شرطية، و«تظاهرا» فعل الشرط، والجملة المقرونة بالفاء دليلُ الجواب وسببه[(٣)] أقيم مقامه، والأصل: فإن تظاهرا عليه فلن يعدم مَن يظاهره فإنَّ الله مولاه، وجُوِّزَ أن تكونَ هي بنفسها الجواب، على أنها مجازٌ أو كنايةٌ عن ذلك. وأعظمَ جلَّ جلاله شأنَ النُّصْرة لنبيِّه ﷺ على هاتين الضعيفتين، إما للإشارة إلى عِظَمِ مَكْرِ النساء، أو للمبالغة في قَطْعِ حبال طَمَعهما لِعِظَمِ مكانتهما عند

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٣ وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٣٠٤، وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد العمي، وهو متروك.
(٢) في (م): البحر. وجاء في هامش الأصل: ابن عباس.
(٣) في (م): وسبب.

رسول الله عليه الصلاة والسلام وعند المؤمنين؛ لأمومتهما لهم، وكرامة له ﷺ، ورعاية لأبويهما في أنَّ تظاهرهما يجديهما نفعاً.

وقيل: المراد المبالغةُ في توهين أمر تظاهرهما، ودَفْعِ ما عسى أن يتوهَّمه المنافقون من ضرره في أمر النبوَّة والتبليغ، وقهر أعداء الدين، لما أنَّ العادةَ قاضيةٌ باشتغال بالِ الرجل بسبب تظاهُرِ أزواجه عليه، وفيه أيضاً مزيدُ إغاظةٍ للمنافقين، وحَسْمٌ لأطماعهم الفارغة، فكأنه قيل: فإن تظاهرا عليه لا يضرُّ ذلك في أمره، فإنَّ الله تعالى هو مولاه وناصرُهُ في أمر دينه وسائر شؤونه على كلِّ من يتصدَّى لما يكرهه، وجبريلُ وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك مظاهِرون له، ومُعينون إياه كذلك. ويلائم هذا تَرْكُ ذكر المُعان عليه، حيث لم يقل: ظهيرٌ له عليكما، مثلاً، وكذا تَرْكُ ذِكْرِ المُعَان فيه وتخصيص «صالح المؤمنين» بالذكر، وتَقْوَى هذه الملاءمةُ على ما روي عن ابن جبير من تفسير «صالح المؤمنين» بمَنْ بَرِئَ من النفاق. فتأمَّل.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ أي: أن يُعطِيَهُ عليه الصلاة والسلام بدلكنَّ ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ والخطابُ لجميع زوجاته ﷺ أمهاتِ المؤمنين على سبيل الالتفات، وخُوطِبْنَ لأنهنَّ في مهبط الوحي وساحة العِزِّ والحضور، ويُرشِدُ إلى هذا ما أخرجه البخاريُّ[1] عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساءُ النبيِّ ﷺ في الغَيرة عليه، فقلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية.

وليس فيها أنه عليه الصلاة والسلام لم يُطلِّقْ حفصةَ، وأنَّ في النساء خيراً منهنَّ، مع أنَّ المذهبَ على ما قيل: إنه ليس على وجه الأرض خيرٌ منهنَّ؛ لأنَّ تعليقَ طلاق الكلِّ لا ينافي تطليقَ واحدةٍ، والمعلَّقُ بما لم يقعْ لا يجبُ وقوعه.

وجُوِّزَ أن يكونَ الخطابُ للجميع على التغليب، وأصلُ الخطاب لاثنتين منهنَّ، وهما المخاطَبتان أولاً بقوله تعالى: (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) إلخ، فكأنه قيل: عسى رَبُّه إن طلَّقكما وغيركما، أن يُبدِله خيراً منكما ومن غيركما من

(١) في صحيحه (٤٩١٦)، وهو عند أحمد (١٥٧).

الأزواج، والظاهرُ أنَّ عَدَمَ دلالة الآية على أنه عليه الصلاة والسلام لم يُطلِّقْ حفصةَ، وأنَّ في النساء خيراً من أزواجه ﷺ على حاله؛ لأنَّ التعليقَ على طلاق الاثنتين ولم يقع، فلا يجبُ وقوعُ المعلَّق ولا ينافي تطليقَ واحدة.

وقال الخفاجيُّ: التغليبُ في خطاب الكلِّ مع أنَّ المخاطَبَ أولاً اثنتان، وفي لفظة «إن» الشرطيَّة أيضاً الدالة على عدم وقوع الطلاق. وقد روي أنه ﷺ طلَّقَ حفصةَ، فغلَّب ما لم يقع من الطلاق على الواقع، وعلى التعميم لا تغليبَ في الخطاب ولا في «إن»(١). انتهى، وفيه بحثٌ.

ثم إنَّ المشهورَ أنَّ «عسى» في كلامه تعالى للوجوب، وأنَّ الوجوبَ هنا إنما هو بعد تحقُّق الشرط، وقيل: هي كذلك إلا هنا، والشرطُ معترضٌ بين اسم «عسى» وخبرها، والجوابُ محذوفٌ، أي: إن طلَّقكنَّ فعسى.. إلخ.

و«أزواجاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «يبدل»، و«خيراً» صفته، وكذا ما بعد.

وقرأ أبو عمرو في رواية عياش: «طلَّقكنَّ» بإدغام القاف في الكاف(٢).

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: «يُبدِّله» بالتشديد؛ للتكثير(٣).

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مُقرَّاتٍ ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مخلصات؛ لأنه يُعتَبر في الإيمان تصديق القلب، وهو لا يكون إلا مخلصاً. أو: منقاداتٍ - على أنَّ الإسلام بمعناه اللُّغوي - مُصدِّقاتٍ.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلِّياتٍ، أو: مواظباتٍ على الطاعة مطلقاً.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ مقلعاتٍ عن الذنب.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّداتٍ، أو: متذلِّلاتٍ لأمر الرسول ﷺ.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائماتٍ، كما قال ابن عباس وأبو هريرة وقتادة والضحاك والحسن

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢١٢.
(٢) السبعة ص٦٤٠، والنشر ١/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٩١.
(٣) التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤.

وابن جبير وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن، وروي عن النبيِّ ﷺ[(١)]، قال الفرَّاء: وسُمِّيَ الصائمُ سائحاً؛ لأنَّ السائحَ لا زادَ معه، وإنما يأكل من حيثُ يجدُ الطعام[(٢)]. وعن زيد بن أسلم وَيَمان: مهاجرات، وقال ابن زيد: ليس في الإسلام سياحةٌ إلا الهجرة[(٣)]. وقيل: ذاهباتٍ في طاعة الله تعالى أيَّ مذهب.

وقرأ عمرو بن فائد: «سَيِّحات»[(٤)].

﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ جمعُ: ثَيِّبٍ، من ثاب يثوبُ ثَوْباً، وزنه فَيْعِل كَسَيِّدٍ، وهي التي تثوبُ، أي: ترجعُ عن الزوج، أي: بعد زوال عُذْرتها.

﴿وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ جَمْعُ: بِكْرٍ، مِن بَكَّرَ: إذا خرج بُكْرةً، وهي أولُ النهار، وفيها معنى التقدُّم، سُمِّيتْ بها التي لم تفتضَّ اعتباراً بالثيِّب لتقدُّمها عليها فيما يُرادُ له النساء.

وترك العَطْف في الصفات السابقة لأنها صفاتٌ تجتمعُ في شيءٍ واحدٍ، وبينها شِدَّةُ اتصالٍ يقتضي تَرْكَ العطف، وَوُسِّطَ العاطفُ هنا للدلالة على تغاير الصفتين وعدم اجتماعهما في ذاتٍ واحدة، ولم يُؤتَ بـ «أو»، قيل: ليكونَ المعنى: أزواجاً بعضهنَّ ثيِّبات وبعضهنَّ أبكار، وقريبٌ منه ما قيل: وُسِّطَ العاطفُ بين الصفتين لأنهما في حُكْمِ صفةٍ واحدةٍ؛ إذ المعنى: مشتملاتٍ على الثيِّبات والأبكار. فتدبَّر.

وفي «الانتصاف»[(٥)] لابن المنير: ذَكَرَ لي الشيخُ ابن الحاجب أنَّ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب[(٦)] كان يعتقدُ أنَّ الواو في الآية هي الواو التي سمَّاها بعضُ ضَعَفَةِ النحاة: واوَ الثمانية؛ لأنها ذُكِرتْ مع الصفة الثامنة،

---

(١) المروي أنَّه عليه الصلاة والسلام سئل عن السائحين، فقال: «هم الصائمون». وقد سلف ١٠/ ٥٣٤ وثمة تخريجه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٠٢، وابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٨، والبحر ٨/ ٢٩٢.

(٥) ٤/ ١٢٧-١٢٨.

(٦) عبد الرحيم البيساني أبو علي الكاتب، صاحب ديوان الإنشاء الصلاحي. مات سنة (٥٩٦هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٣٨، وطبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٦٦.

وكان الفاضلُ يتبجَّحُ باستخراجها زائدةً على المواضع الثلاثة المشهورة قبله: أحدها في التوبة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: ٢٢]، والثالث: في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] إلى أن ذكر ذلك يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقرئ(١)، فبيَّنَ له أنه واهمٌ في عَدِّها من ذلك القبيل، وأحالَ على المعنى الذي ذكره الزمخشريُّ من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها هاهنا لامتناع اجتماع الصفتين في موصوفٍ واحدٍ، وواو الثمانية ـ إن ثبتتْ ـ فإنما تَرِدُ بحيث لا حاجة إليها إلا الإشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعةُ، فأنصفه الفاضلُ واستحسنَ ذلك منه، وقال: أرشدتنا يا أبا الجود. انتهى.

وذكر الجنسان لأنَّ في أزواجه ﷺ مَنْ تزوَّجها ثيِّباً، وفيهنَّ من تزوَّجها بِكْراً، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوَّج بكراً إلا عائشة ﵂، وكانت تفتخرُ بذلك على صواحباتها، وردَّتْ عليها الزهراء على أبيها وعليها الصلاة والسلام ـ بتعليم النبيِّ ﷺ إياها حين افتخرتْ على أمِّها خديجة ﵂ ـ بقولها: إنَّ أمِّي تزوَّجَ بها رسول الله ﷺ وهو بِكْرٌ لم يرهُ أحدٌ من النساء غيرها، ولا كذلك أنتنَّ. فسكتت(٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي: نوعاً من النار ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ تتَّقدُ بهما اتِّقاد غيرها بالحطب، ووقايةُ النفس عن النار بتَرْكِ المعاصي وفعل الطاعات، ووقايةُ الأهل بحَمْلهم على ذلك بالنُّصْح والتأديب، وروي أنَّ عمر قال حين نزلت: يا رسول الله نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «تَنْهَوْهنَّ عمَّا نهاكم الله عنه، وتأمروهنَّ بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقايةً بينهنَّ وبين النار»(٣).

---

(١) هو غياث بن فارس بن مكي اللَّخمي النحوي، توفي سنة (٦٠٥هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٣.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٢١. وأخرج نحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٠٣، والطبري ٢٣/ ١٠٤-١٠٥ عن قتادة.

(٣) هكذا أورده أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٩٢، ولم نقف عليه مسنداً.

وأخرج ابن المنذرِ والحاكم وصححه وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية: علِّموا أنفسَكم وأهليكم الخير، وأدِّبوهم[١].

والمراد بالأهل على ما قيل: ما يشملُ الزوجة والولد والعبد والأَمَة.

واستدلَّ بها على أنه يجبُ على الرجل تعلُّمُ ما يجبُ من الفرائض وتعليمه لهؤلاء، وأدخل بعضُهم الأولادَ في الأنفس؛ لأنَّ الولد بعضٌ من أبيه، وفي الحديث: «رَحِمَ الله رجلاً قال: يا أهلاه، صلاتكم، صيامكم، زكاتكم، مسكينكم، يتيمكم، جيرانكم، لعلَّ الله يجمعكم معه في الجنة»[٢].

وقيل: إنَّ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة من جَهِلَ أهلَهُ.

وقرئ: «وأهلوكم» بالواو[٣]، وهو عَطْفٌ على الضمير في «قوا»، وحَسُنَ العطفُ للفصل بالمفعول، والتقديرُ عند بعضٍ: وليَقِ أهلوكم أنفسَهم. ولم يرتضه الزمخشريُّ[٤]، وذكر ما حاصله أنَّ الأصلَ: «قُوا» أنتم وأهلوكم «أنفسَكم» وأنفسَهم، بأن يقي ويحفظ كلٌّ منكم ومنهم نفسَهُ عمَّا يُوبقها، فقدَّم «أنفسكم»، وجعلَ الضميرَ المضافَ إليه الأنفسُ مشتملاً على الأهلين تغليباً فشملهم الخطاب، وكذا اعتبر التغليب في «قوا»، وفيه تقليلٌ للحذف، وإيثارُ العَطْفِ المفرد الذي هو الأصلُ، والتغليب الذي نكتته الدلالة على الأصالة والتبعيَّة.

وقرأ الحسن ومجاهد: «وُقودها» بضمِّ الواو[٥]، أي: ذو وقودها.

وتمام الكلام في هذه الآية يُعلَمُ مما مرَّ في سورة البقرة[٦].

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ أي: أنهم موكَّلون عليها، يَلُون أمرها وتعذيبَ أهلها، وهم

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٤، والمستدرك ٢/ ٤٩٤، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٠٣.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٣، والكشاف ٤/ ١٢٨، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٦: لم أجده.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٣.
(٤) في الكشاف ٤/ ١٢٨.
(٥) المحتسب ٢/ ٣٢٤، والكشاف ٤/ ١٢٨.
(٦) عند قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية: (٢٤).

الزبانيةُ التسعة عشر، قيل: وأعوانهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظُ الأقوال، شِدادُ الأفعال، أو غلاظُ الخُلُق شِدادُ الخَلْقِ أقوياء على الأفعال الشديدة، أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أنَّ خَزَنَةَ النار تسعةَ عشر، ما بين منكبي أحدهم مسيرةُ مئة خريف، ليس في قلوبهم رحمةٌ، إنما خُلقوا للعذاب، يضربُ المَلَك منهم الرجلَ من أهل النار الضربةَ فيتركه طِحْناً من لَدُن قَرْنه إلى قدمه[1].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ صفةٌ أخرى لـ «ملائكة»، و«ما» في محلِّ النصب على البدل، أي: لا يعصونَ ما أمر الله، أي: أمره تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣]، أو على إسقاط الجارِّ، أي: لا يعصونه[2] فيما أمرهم به.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ أي: الذي يأمرهم عزَّ وجلَّ به. والجملةُ الأولى لنفي المعاندة والاستكبار عنهم صلوات الله تعالى عليهم، فهي كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، والثانية لإثبات الكياسة لهم ونفي الكسل عنهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ إلى: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وبعبارةٍ أخرى: إنَّ الأُولى لبيان القبول باطناً، فإنَّ العصيان أصلُهُ المنع والإباء، وعصيانُ الأمر صفةُ الباطن بالحقيقة؛ لأنَّ الإتيان بالمأمور إنما يُعدُّ طاعةً إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نُفي العصيان عنهم دلَّ على قبولهم وعدم إبائهم باطناً، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقلٍ وتوانٍ على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من «يفعلون»، فلا تكرار. وفي «المحصول»[3]: «لا يعصون» فيما مضى، على أنَّ المضارع لحكاية الحال الماضية، «ويفعلون ما يؤمرون» في الآتي.

وجُوِّزَ أن يكون ذلك من باب الطَّرْد والعكس، وهو كلُّ كلامين يُقرِّرُ الأول بمنطوقه مفهومَ الثاني، وبالعكس؛ مبالغةً في أنهم لا تأخذهم رأفةٌ في تنفيذ أوامر الله عزَّ وجلَّ والغضب له سبحانه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٤، والزهد ص٣٧٩.

(٢) في (م): لا يعصون.

(٣) للرازي ٢/ ٥٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مقولٌ لقولٍ قد حُذِفَ ثقةً بدلالة الحال عليه، يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النارَ حسبما أُمروا به، فتعريفُ اليوم للعهد، ونهيهُم عن الاعتذار؛ لأنهم لا عُذْرَ لهم، أو لأنَّ العُذْرَ لا ينفعهم.

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نُهيتم عنهما أشدَّ النهي، وأُمرتم بالإيمان والطاعة على أتمِّ وجه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من الذنوب ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: بالغةً في النُّصْح، فهو من أمثلة المبالغة، كـ: ضَروب، وُصِفتِ التوبةُ به على الإسناد المَجَازيِّ، وهو وَصْفُ التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم، فيأتوا بها على طريقها، ولعلَّه ما تضمَّنه ما أخرجه ابن مردويه[(١)] عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله ما التوبة النصوح؟ قال: «أن يندمَ العبدُ على الذنب الذي أصابَ، فيعتذر إلى الله تعالى، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللَّبن إلى الضَّرْع»، وروي تفسيرُها بما ذكر عن عمر وابن مسعود وأُبيّ والحسن ومجاهد وغيرهم.

وقيل: «نصوحاً» من نَصاحة الثوب، أي: خياطته، أي: توبة ترفو خروقَك في دينك وتَرُمُّ خَلَلك. وقيل: خالصة، من قولهم: عَسَلٌ ناصحٌ، إذا خَلُصَ من الشمع.

وجُوِّزَ أن يُرادَ: توبة تنصحُ الناسَ، أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها، واستعمال الجدِّ والعزيمة في العمل بمقتضياتها.

وفي المراد بها أقوالٌ كثيرةٌ أَوْصَلَها بعضُهم إلى نيِّفٍ وعشرين قولاً، منها ما سمعت.

وقرأ زيد بن علي: «توباً» بغير تاء[(٢)]. وقرأ الحسن والأعرج وعيسى وأبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع: «نُصوحاً» بضمِّ النون[(٣)]، وهو مصدرُ: نَصَحَ، فإنَّ

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٦٤٧) ضمن حديث طويل.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٩٣.

(٣) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن أبي بكر، والكلام من البحر ٨/ ٢٩٣.

النُّصْحَ والنُّصوح، كالشُّكر والشُّكور، والكُفْر والكُفُور، أي: ذاتَ نُصْحٍ، أو: تَنصحُ نُصوحاً، أو: توبوا لِنُصْحِ أنفسكم، على أنه مفعولٌ له.

هذا، والكلام في التوبة كثيرٌ، وحيث كانت أهمَّ الأوامر الإسلامية، وأوَّل المقامات الإيمانية، ومبدأ طريق السالكين، ومفتاح باب الواصلين، لا بأس في ذِكرِ شيءٍ مما يتعلَّقُ بها، فنقول:

هي لغةً: الرجوع، وشرعاً وَصْفاً لنا على ما قال السعد: الندمُ على المعصية لكونها معصية؛ لأنَّ الندمَ عليها لإضرارها[1] بالبدن أو إخلالها بالعِرْض أو المال ـ مثلاً ـ لا يكون توبة، وأما الندم لخوف النار أو للطمع في الجنة، ففي كونه توبةً تردُّدٌ، ومبناه على أنَّ ذلك هل يكونُ نَدَماً عليها لِقُبْحها ولكونها معصية، أم لا؟ وكذا الندمُ عليها لقُبْحها مع غَرَضٍ آخر، والحقُّ أنَّ جهةَ القُبْح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقَّقَ الندمُ، فتوبةٌ، وإلا فلا، كما إذا كان الغرضُ مجموعَ الأمرين لا كلَّ واحدٍ منهما، وكذا في التوبة عند مرضٍ مخوفٍ بناءً على أنَّ ذلك الندم هل يكونُ لقُبْحِ المعصية [أم لا] بل للخوف، وظاهرُ الأخبار قبولُ التوبة ما لم تظهر علاماتُ الموت، ويتحقَّقْ أمرُهُ عادةً. ومعنى الندم: تحزُّنٌ وتوجُّعٌ على أنْ فَعَلَ، وتمنِّي كونه لم يفعل. ولا بدَّ من هذا للقطع بأنَّ مجرَّدَ الترك ـ كالماجن إذا ملَّ مُجونَهُ فاستروحَ إلى بعضِ المباحات ـ ليس بتوبة، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»[2].

وقد يُزادُ قيدُ العزم على تَرْك المعاودة. واعتُرض بأنَّ فِعْلَ المعصية في المستقبل قد لا يخطُرُ بالبال؛ لذهولٍ أو جنونٍ أو نحوه، وقد لا يُقْدَرُ عليه لعارضِ آفةٍ كَخَرَسٍ في القَذْفِ مثلاً أو جَبٍّ في الزنى، فلا يُتصوَّرُ العزمُ على الترك؛ لما فيه من الإشعار بالقدرة والاختيار.

وأجيب بأنَّ المرادَ العزمُ على الترك على تقدير الخطور والاقتدار، حتى لو سُلِبَ القدرةَ لم يُشتَرط العزمُ على الترك، وبذلك يُشعِرُ كلامُ إمام الحرمين حيث

---

(١) في (م): بإضرارها، والمثبت من الأصل وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ٥/ ١٦٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٦٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال: إنَّ العزمَ على ترك المعاودة إنما يقارِنُ التوبةَ في بعض الأحوال، ولا يَطَّردُ في كلِّ حالٍ؛ إذ العزمُ إنما يصحُّ ممن يتمكَّنُ من مثل ما قدَّمه، ولا يصحُّ من المجبوب العزمُ على ترك الزنى، ومن الأخرس العزمُ على ترك القذف[(١)].

وقال بعض الأجلَّة: التحقيقُ أنَّ ذِكْرَ العزم إنما هو للبيان والتقرير[(٢)]، لا للتقييد والاحتراز؛ إذ النادمُ على المعصية لقُبْحها لا يخلو عن ذلك العزم ألبتة على تقدير الخطور والاقتدار.

وعلامةُ الندم طولُ الحسرة، والخوفُ، وانسكابُ الدمع. ومن الغريب ما قيل: إنَّ علامةَ صِدْقِ الندم عن ذنبٍ كالزنى، أن لا يرى في المنام أنه يفعله اختياراً؛ إذ يُشعِرُ ذلك ببقاء حُبِّه إياه، وعدم انقلاع أصوله من قلبه بالكلية، وهو ينافي صِدْقَ الندم.

وقال المعتزلة: يكفي في التوبة أن يعتقدَ أنه أساء، وأنه لو أمكنه ردُّ تلك المعصية لردَّها، ولا حاجة إلى الأَسَفِ والحزن؛ لإفضائه إلى التكليف بما لا يُطاق.

وقال الإمام النوويُّ[(٣)]: التوبةُ ما استجمعت ثلاثة أمور: أن يقلعَ عن المعصية، وأن يندمَ على فعلها، وأن يعزمَ عَزْماً جازماً على أن لا يعودَ إلى مثلها أبداً، فإن كانت تتعلَّقُ بآدميٍّ لَزِمَ رَدُّ الظُّلامة إلى صاحبها، أو وارثه، أو تحصيل البراءة منه، وركنُها الأعظمُ الندم.

وفي «شرح المقاصد»: قالوا: إن كانت المعصيةُ في خالص حَقِّ الله تعالى، فقد يكفي الندمُ كما في ارتكاب الفرار من الزحف، وتَرْك الأمر بالمعروف، وقد تفتقرُ إلى أمرٍ زائدٍ، كتسليم النفس للحَدِّ في الشرب، وتسليم ما وَجَبَ في ترك الزكاة[(٤)]، ومثله في تَرْكِ الصلاة، وإن تعلَّقتْ بحقوق العباد لَزِمَ مع الندم والعزم إيصالُ حقِّ العبد أو بدله إليه إن كان الذنبُ ظُلْماً كما في الغصب والقتل العَمْد،

---

(١) الإرشاد لإمام الحرمين ص٣٣٧، والكلام من شرح المقاصد ٥/ ١٦٣-١٦٤.
(٢) في شرح المقاصد: والتقدير.
(٣) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٢٥.
(٤) في هامش الأصل: في عدِّها من هذا القسم نظر. انتهى منه.

ولَزِمَ إرشادُهُ إن كان الذنب إضلالاً له، والاعتذارُ إليه إن كان إيذاءً كما في الغِيبة إذا بلغته، ولا يلزمُ تفصيلُ ما اغتابه به، إلا إذا بَلَغَهُ على وجهٍ أفحش[(١)]، والتحقيقُ أنَّ هذا الزائد واجبٌ آخرُ خارجٌ عن التوبة، على ما قاله إمام الحرمين من أنَّ القاتلَ إذا نَدِمَ من غير تسليم نفسه للقصاص، صحَّتْ توبتُهُ في حقِّ الله تعالى، وكان مَنْعُهُ القصاص من مستحقِّه معصيةً متجدِّدةً تستدعي توبةً، ولا يقدحُ في التوبة عن القتل، ثم قال: وربما لا تصحُّ التوبةُ بدون الخروج من حقِّ العبد كما في الغصب، فَفَرَّقَ بين القتل والغصب[(٢)]. ووجهه لا يخفى على المتأمِّل.

ولم يختلف أهل السنة وغيرُهم في وجوب التوبة على أرباب الكبائر، واختلف في الدليل، فعندنا السمع كهذه الآية وغيرها، وحَمْلُ الأمر فيها على الرخصة، والإيذان بقبولها[(٣)]، ودَفْع القنوط، كما جوَّزه الآمدي احتمالاً، وبنى عليه عدم الإثابة عليها = مما لا يكاد يُقْبَلُ، وعند المعتزلة العقل، وأوجبت الجهميةُ التوبةَ عن الصغائر سمعاً لا عقلاً، وأهلُ السنة على ذلك، ومقتضى كلام النووي والمازري وغيرهما وجوبُها حالَ التلبُّس بالمعصية، وعبارةُ المازري[(٤)]: اتفقوا على أنَّ التوبةَ من جميع المعاصي واجبةٌ، وأنها واجبةٌ على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواءٌ كانت المعصيةُ صغيرةً أو كبيرةً.

وفي «شرح الجوهرة» أنَّ التمادي على الذنب بتأخير التوبة منه معصيةٌ واحدةٌ ما لم يعتقدْ معاودته، وصَرَّحتِ المعتزلةُ بأنها واجبةٌ على الفور، حتى يلزم بتأخيرها ساعةً إثمٌ آخرُ تجبُ التوبةُ عنه، وساعتين إثمان، وهَلُمَّ جرّا، بل ذكروا أنَّ بتأخير التوبة عن الكبيرة ساعةً واحدةً يكون له كبيرتان: المعصية، وتركُ التوبة، وساعتين أربعٌ: الأوليان، وتركُ التوبة على كلٍّ منهما، وثلاثُ ساعاتٍ ثمانٌ وهكذا.

وتصحُّ عن ذنبٍ دون ذنبٍ؛ لتحقُّق الندم والعزم على عدم العَوْد، وخالفَ

---

(١) في هامش الأصل: وعند المالكية لا يجب التفصيل مع الإبراء مطلقاً. انتهى منه.

(٢) شرح المقاصد ٥/ ١٧١.

(٣) في (م): بقولها.

(٤) في كتابه: المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٨٨.

أبو هاشم محتجًا بأنَّ الندمَ على المعصية يجبُ أن يكونَ لقُبْحها، وهو شاملٌ لها كلّها، فلا يتحقَّقُ الندمُ على قبيحٍ مع الإصرار على آخر.

وأجيب بأنَّ الشاملَ للكلِّ هو القُبْح، لا خصوصُ قُبْح تلك المعصية.

وهذا الخلافُ في غير الكافر إذا أسلم وتابَ من كُفْره، مع استدامته بعضَ المعاصي، أما هو فتوبتُهُ صحيحةٌ، وإسلامه كذلك بالإجماع، ولا يُعاقَبُ إلا عقوبةَ تلك المعصية، نعم اختُلِفَ في أنَّ مجرَّدَ إيمانه هل يُعَدُّ توبةً، أم لا بدَّ من الندم على سالف كُفْره؟ فعند الجمهور: مجرَّدُ إيمانه توبة. وقال الإمام والقرطبيُّ(١): لا بدَّ من الندم على سالف الكُفْر. وعدمُ اشتراط العمل الصالح مُجْمَعٌ عليه عند الأئمة خلافاً لابن حزم.

وكذا تصحُّ التوبةُ عن المعاصي إجمالاً من غير تعيين المتوب عنه، ولو لم يشقَّ عليه تعيينه، وخالفَ بعضُ المالكية فقال: إنما تصحُّ إجمالاً مما عُلِمَ إجمالاً، وأما ما عُلِمَ تفصيلاً فلا بدَّ من التوبة منه تفصيلاً،

ولا تنتقضُ التوبةُ الشرعيةُ بالعَوْد، فلا تعودُ عليه ذنوبُهُ التي تاب منها، بل العَوْدُ والنقضُ معصيةٌ أخرى يجبُ عليه أن يتوبَ منها.

وقالت المعتزلة: من شروط صِحَّتها أن لا يُعاودَ الذنبَ، فإن عاوده انتقضتْ توبته وعادت ذنوبه؛ لأنَّ الندمَ المعتبَرَ فيها لا يتحقَّقُ إلا بالاستمرار، ووافقهم القاضي أبو بكر.

والجمهور على أنَّ استدامةَ الندم غيرُ واجبةٍ، بل الشرط أن لا يطرأ عليه ما ينافيه ويدفعه؛ لأنه حينئذٍ دائمٌ حُكْماً كالإيمان حالَ النوم، ويلزمُ من اشتراط الاستدامة مزيدُ الحرج والمشقة، وقال الآمديُّ: يلزمُ أيضاً اختلالُ الصلوات وسائر العبادات، ويلزم أيضاً أن لا يكون بتقدير عدم استدامة الندم وتذكُّره تائباً، وأن يجب عليه إعادةُ التوبة، وهو خلاف الإجماع. نعم اختلف العلماء فيمن تذكَّر المعصيةَ بعد التوبة منها، هل يجبُ عليه أن يُجدِّدَ الندم؟ وإليه ذهب القاضي منا،

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/١١٣، وتفسير القرطبي ٥/٣٢٩.

وأبو عليٍّ من المعتزلة؛ زَعْماً منهما أنه لو لم يندمْ كلَّما ذَكَرَها لكان مشتهياً لها فرحاً بها، وذلك إبطالٌ للندم ورجوعٌ إلى الإصرار. والجواب المنع، إذ ربَّما يضرب عنها صَفْحاً من غير نَدَم عليها، ولا اشتهاءٍ لها وابتهاجٍ بها، ولو كان الأمرُ كما ذكر لَلَزِمَ أن لا تكونَ التوبةُ السابقةُ صحيحةً، وقد قال القاضي نفسه: إنه إذا لم يُجدِّدْ نَدَماً كان ذلك معصية جديدة يجبُ الندمُ عليها، والتوبةُ الأولى مَضَتْ على صِحَّتها؛ إذ العبادةُ الماضيةُ لا ينقضها شيءٌ بعد ثبوتها[1]. انتهى.

وبعدم وجوب التجديد عند ذِكْرِ المعصية صرَّحَ إمام الحرمين[2]. ويُفهَمُ من كلامهم أنَّ محلَّ الخلاف إذا لم يبتهجْ عند ذِكْرِ الذنب به، ويفرح ويتلذَّذ بذِكْره أو سماعه، وإلا وَجَبَ التجديدُ اتفاقاً، وظاهرُ كلامهم أنَّ المعاودةَ غيرُ مبطلةٍ ولو كانت في مجلس التوبة، بل ولو تكرَّرتْ تكراراً يلتحقُ بالتلاعب، وفي هذا الأخير نظرٌ، فقد قال القاضي عياض: إنَّ الواقعَ في حَقِّ الله تعالى بما هو كُفْرٌ تنفعه توبتُهُ مع شديد العقاب، ليكون ذلك زَجْراً له ولمثله، إلا مَنْ تكرَّرَ ذلك منه وعُرِفَ استهانته بما أتى به، فهو دليلٌ على سوء طويَّته وكذب توبته. انتهى.

وينبغي عليه أن يُقيِّد ذلك بأنْ لا تَكْثُرَ كَثْرةً تُشعِرُ بالاستهانة، وتُدخِلُ صاحبَها في دائرة الجنون.

واختلف في صحة التوبة الموقَّتة بلا إصرارٍ، كأن لا يُلابِسَ الذنوبَ ـ أو ذنبٍ ـ كذا سَنَة، فقيل: تصحُّ، وقيل: لا، وفي «شرح الجوهرة»: قياسُ صِحَّتها من بعض الذنوب دون بعضٍ صحَّتها فيما ذكر.

ثم إنَّ للتوبة مراتب، من أعلاها ما روي عن يعسوب المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه سَمِعَ أعرابيًّا يقول: اللهم إني أستغفركُ وأتوبُ إليك. فقال: يا هذا إنَّ سُرْعةَ اللسان بالتوبة توبةُ الكذابين. فقال الأعرابيُّ: وما التوبة؟ قال كرَّم الله تعالى وجهه: يجمعها ستةُ أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة،

---

(١) شرح المقاصد للتفتازاني ٥/١٦٨-١٦٩، والقاضي الآنف الذكر هو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر المعروف بابن الباقلاني (ت ٤٠٣هـ). تاريخ بغداد ٥/٣٧٩.

(٢) في الإرشاد ص٣٤٢.

وردّ المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزمَ على أن لا تعود، وأن تُذيبَ نفسَكَ في طاعة الله كما ربَّيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارةَ الطاعة كما أَذَقتها حلاوةَ المعاصي. وأُريد بإعادة الفرائض أن يقضيَ منها ما وَقَعَ في زمان معصيته، كشارب الخمر يُعيدُ صلاته قبل التوبة؛ لمخامرته للنجاسة غالباً، وهذه توبةُ نحو الخواصِّ، فلا مُستَنَدَ في هذا الأثر لابن حزمٍ وأضرابه كما لا يخفى.

ثم إنه تعالى بيَّن فائدةَ التوبة بقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قيل: المراد أنه عزَّ وجلَّ يفعل ذلك، لكن جيءَ بصيغة الإطماع للجري على عادة الملوك، فإنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا: عسى أن نفعل كذا، والإشعارِ بأنَّ ذلك تفضُّلٌ منه سبحانه، والتوبةُ غيرُ موجبةٍ له، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ بين خوفٍ ورجاء، وإن بالغَ في إقامة وظائف العبادة.

واستُدِلَّ بالآية على عدم وجوب قبول التوبة؛ لأنَّ التكفيرَ أثرُ القبول، وقد جيءَ معه بصيغة الإطماع دون القطع، وهذه المسألةُ خلافيةٌ، فذهب المعتزلة إلى أنه يجبُ على الله تعالى قبولها عقلاً. وأتوا في ذلك بمقدِّماتٍ مزخرفات. وقال إمام الحرمين[1] والقاضي أبو بكر: يجب قبولها سَمْعاً وَوَعْداً، لكن بدليلٍ ظَنِّيٍّ؛ إذ لم يثبتْ في ذلك نصٌّ قاطعٌ لا يحتمل التأويل. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: بل بدليلٍ قطعيٍّ. ومحلُّ النزاع بين الأشعري وتلميذيه ما عدا توبة الكافر، أما هي فالإجماع على قبولها قَطْعاً بالسَّمْع لوجود النص المتواتر بذلك كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] بخلاف ما جاء في توبة غيره فإنه ظاهرٌ، وليس بنصٍّ في غفران ذنوب المسلم بالتوبة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وأما حديث: «التوبةُ تجبُّ ما قبلها»[2] فليس بمتواترٍ، ولأنه إذا قُطِعَ بقبول توبة

---

(١) في الإرشاد ص٣٣٩.

(٢) لم نقف عليه. بهذا اللفظ مسنداً، وإنما الوارد من حديث عمرو بن العاص: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، وهو عند أحمد (١٧٧٧٧)، وتمام تخريجه ثمَّة.

الكافر، كان ذلك فتحاً لباب الإيمان وسَوْقاً إليه، وإذا لم يُقْطَعْ بتوبة المؤمن كان ذلك سَدًّا لباب العصيان ومَنْعاً منه، وهذا ـ وما قبله ـ ذكرهما القاضي لمَّا قيل له: إنَّ الدلائلَ مع الشيخ أبي الحسن.

وقال ابن عطية: إنَّ جمهورَ أهل السنة على قول القاضي، والدليلُ على ذلك دعاءُ كلِّ أحدٍ من التائبين بقبول توبته، ولو كان مقطوعاً به لما كان للدعاء معنى[١]. ومثل ذلك وجوبُ الشكر على القبول، فإنه لو كان واجباً لما وجب الشكر عليه.

وتعقَّب ذلك السعدُ بأنه ربما يدفع بأنَّ المسؤول في الدعاء هو استجماعها لشرائط القبول، فإنَّ الأمرَ فيه خطيرٌ، ووجوبُ القبول لا ينافي وجوبَ الشكر لكونه إحساناً في نفسه كتربية الوالد لولده.

وقال الإمام النووي[٢]: لا يجبُ على الله تعالى قبول التوبة إذا وُجدتْ بشروطها عند أهل السنة، لكنه سبحانه يقبلها كَرَماً منه وتفضُّلاً، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، فلا تغفل.

وقرئ: «يُدْخِلْكُم» بسكون اللام، وخرَّجه أبو حيان على أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيهاً لما هو في كلمتين بالكلمة الواحدة، فإنه يقال في قِمَع: قِمْع، وفي نِطَع: نِطْع، وقال: إنه أولى من كونه للعطف على محلِّ «عسى ربكم أن يُكفِّر»[٣]. واختاره الزمخشريُّ[٤]، كأنه قيل: توبوا يُرْجَ تكفير أو يُوجَبْ تكفيرُ سيئاتكم ويدخلكم.

﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ظرفٌ لـ «يدخلكم»، وتعريفُ «النبي» للعهد، والمراد به سيِّدُ الأنبياء محمدٌ صلى الله تعالى عليه وعليهم وسلم، والمراد بنفي الإخزاء إثباتُ أنواع الكرامة والعِزِّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٣.
(٢) في شرح صحيح مسلم ١٧/ ٥٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٣.
(٤) في الكشاف ٤/ ١٣٠.

وفي «القاموس»[١]: يقال: أخزى الله تعالى فلاناً: فَضَحَه. وقال الراغب[٢]: يقال: خَزِيَ الرجلُ: لَحِقَهُ انكسارٌ إما من نفسه، وهو الحياءُ المفرط، ومصدرُهُ الخَزَاية، وإما من غيره وهو ضَرْبٌ من الاستخفاف، ومصدره الخِزْيُ، و: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ فهو من الخِزي أقربُ، ويجوز أن يكون منهما جميعاً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عَطْفٌ عليه عليه الصلاة والسلام، وفيه تعريضٌ بِمَنْ أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق، واستحمادٌ على المؤمنين على أنْ عَصَمهم من مثل حالهم، والمراد بالإيمان هنا فردُهُ الكاملُ على ما ذكره الخفاجيُّ[٣].

وقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: على الصراط ـ كما قيل ومرَّ الكلامُ فيه ـ جملةٌ مستأنفةٌ، وكذا قوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ، وجُوِّزَ أن تكون الجملتان في موضع الحال من الموصول، وأن تكون الأولى حالاً منه، والثانية حالاً من الضمير في «يسعى»، وأن تكون الأولى مستأنفة، والثانية من الضمير، وأن تكون الأولى حالاً من الموصول، والثانية مستأنفة أو حالاً من الضمير، وجُوِّزَ أن يكون الموصولُ مبتدأً خبرُهُ «معه»، والجملتان خبران آخران، أو مستأنفتان، أو حالان من الموصول، أو الأولى حالٌ منه، والثانية حالٌ من الضمير، أو الأولى مستأنفة، والثانية حالٌ من الضمير، أو الأولى حالٌ، والثانية مستأنفة، أو الأولى خبرٌ بعد خبرٍ، والثانيةُ حالٌ من الضمير أو مستأنفة. وجُوِّزَ أن يكون الموصولُ مبتدأً خبرُهُ قوله تعالى: «نورهم يسعى» إلخ، والجملة الأخرى مستأنفة أو حال، أو خبرٌ بعد خبرٍ، فهذه عِدَّةُ احتمالاتٍ لا يخفى ما هو الأظهر منها.

والقول على ما روي عن ابن عباس والحسن: يكون إذا طُفِئَ نورُ المنافقين، أي: يقولون إذا طُفِئَ نورُ المنافقين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾. وفي رواية أخرى عن الحسن: يدعون تقرُّباً إلى الله تعالى مع تمام نورهم، وقيل: يقول ذلك مَنْ يمرُّ على الصراط زَحْفاً وحَبْواً. وقيل: مَنْ يُعطى من

(١) مادة (خزي).
(٢) في المفردات (خزي).
(٣) في حاشيته ٨/ ٢١٣.

النور بقدر ما يُبصِرُ به موضِعَ قَدَمه، ويُعلَمُ منه عَدَمُ تعيُّنِ حَمْلِ الإيمان على فَرْده الكامل كما سمعتَ عن الخفاجيِّ.

وقرأ سهل بن شعيب السهمي(١) وأبو حيوة: «وبإيمانهم» بكسر الهمزة على أنه مصدرٌ معطوفٌ على الظرف، أي: كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحُجَّة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونةَ على الفريقين فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرِّفْقُ مداه.

وعن الحسن: أكثر ما كان يُصيبُ الحدود في ذلك الزمان المنافقين، فأُمِرَ عليه الصلاة والسلام أن يُغلِظَ عليهم في إقامة الحدود.

وحكى الطبرسيُّ(٢) عن الباقر أنه قرأ: «جاهد الكفَّارَ بالمنافقين» وأظنُّ ذلك من كَذِبِ الإماميَّة عاملهم الله تعالى بعَدْله.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: وسَيَرَوْنَ فيها عذاباً غليظاً ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ أي: جهنمُ، أو مأواهم، والعَطْفُ قيل: من عَطْفِ القصَّة على القصَّة.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضَرْبُ المثل في مِثْلِ هذا الموقع عبارةٌ عن إيراد حالةٍ غريبةٍ لِتُعْرَفَ بها حالةٌ أخرى مشاكِلةٌ لها في الغرابة، أي: جعل الله تعالى مثلاً لحال الكَفَرة حالاً ومآلاً، على أنَّ «مثلاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «ضَرَبَ»، واللامُ متعلِّقةٌ به، وقوله تعالى: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ - واسمها قيل: والعة ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ واسمها قيل: واهلة، وقيل: والهة، وعن مقاتلٍ: اسمُ امرأة نوح: والهة، واسم امرأة لوط: والعة - مفعولُهُ الأول؛ وأُخِّرَ عنه ليتَّصل به ما هو شَرْحٌ وتفسيرٌ لحالهما، ويتَّضحُ بذلك حالُ الكَفَرة، والمراد: ضَرَبَ الله تعالى مثلاً لحال أولئك حالَ امرأة.. إلخ، فقوله تعالى:

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ بيانٌ لحالهما الداعية لهما إلى الخير

(١) كذا في الأصل و(م): السهمي. والصواب: النهمي. ينظر الجرح والتعديل ٤/ ١٩٩. والقراءة في المحتسب ٢/ ٣٢٤، والبحر ٨/ ٢٩٤.

(٢) في مجمع البيان ٢٨/ ١٢٨.

والصلاح، ولم يقلْ: تحتهما؛ للتعظيم، أي: كانتا في عِصْمة نبيَّين عظيمَي الشأن، متمكِّنتين من تحصيل خير الدنيا والآخرة، وحيازة سعادتهما.

وقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيانٌ لما صَدَرَ عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقُّقِ ما ينافيها من مرافقة النبيِّ عليه الصلاة والسلام، أما خيانةُ امرأةِ نوح عليه السلام فكانت تقول للناس: إنه مجنونٌ، وأما خيانة امرأةِ لوط فكانت تدلُّ على الضيف. رواه جَمْعٌ وصحَّحه الحاكم عن ابن عباس[1].

وأخرج ابن عدي والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن عساكر عن الضحاك أنه قال: خيانتهما النميمة[2]. وتمامه في روايةٍ: كانتا إذا أوحى الله تعالى بشيءٍ أفشتاه للمشركين[3].

وأخرج ابن المنذر[4] عن ابن جريج أنه قال: خيانتهما أنهما كانتا كافرتين مخالفتين.

وقيل: كانتا منافقتين. والخيانة والنفاق، قال الراغب: واحدٌ، إلا أنَّ الخيانةَ تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانةُ مخالَفَةُ الحقِّ بنَقْضِ العهد في السِّرِّ، ونقيضُها الأمانة[5]. وحُمِلَ ما في الآية على هذا، ولا تُفسَّرُ هاهنا بالفجور لما أخرج غيرُ واحدٍ عن ابن عباس: ما زنتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ[6]. ورفعه أشرس إلى النبيِّ ﷺ[7]، وفي «الكشاف»[8]: لا يجوز أن يُرادَ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٥، والمستدرك ٢/ ٤٩٦، وتفسير الطبري ٢٣/ ١١١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤٥، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٩٢، والبيهقي في الشعب (١١١٢٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/ ٣١٩.
(٣) أخرجه أبو حاتم الرازي في الزهد (١٠٤).
(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤٥.
(٥) المفردات (خون).
(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٤٠ و٢٣/ ١١٢.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٢٤٥ وعزاه لابن عساكر، وهو في تاريخ مدينة دمشق ٥٠/ ٣١٨ من طريق سفيان الثوري عن أشرس الخراساني عن النبي ﷺ، وليس في الصحابة من اسمه أشرس، فالحديث مرسل.
(٨) ٤/ ١٣١.

بها الفجور؛ لأنه سَمْجٌ[1] في الطبع، نقيصةٌ عند كلِّ أحدٍ، بخلاف الكُفْر، فإنَّ الكفرَ لا يستسمجونه، ويُسمُّونه حقًّا.

ونقل ابن عطية[2] عن بعضٍ تفسيرها بالكفر والزنى وغيره. ولَعَمْري لا يكاد يقول بذلك إلا ابن زنى، فالحقُّ عندي أنَّ عُهْر الزوجات كعُهْر الأمهات من المنفِّرات التي قال السعد: إن الحقَّ منعُها في حَقِّ الأنبياء عليهم السلام، وما يُنسَبُ للشيعة مما يخالفُ ذلك في حَقِّ سيِّد الأنبياء ﷺ كَذِبٌ عليهم، فلا تُعوِّلْ عليه وإن كان شائعاً. وفي هذا على ما قيل: تصويرٌ لحال المرأتين المحاكيةِ لحال الكَفَرة في خيانتهم لرسول الله ﷺ بالكفر والعصيان، مع تمكُّنهم التامّ من الإيمان والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ إلخ، بيانٌ لِمَا أدَّى إليه خيانتهما، أي: فلم يُغْنِ ذانك العبدان الصالحان والنبيَّان العظيمان ﴿عَنْهُمَا﴾ بحقِّ الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه عزَّ وجلَّ ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً من الإغناء، أو شيئاً من العذاب.

﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة، وعبّر بالماضي لتحقُّق الوقوع: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ أي: مع سائر الداخلين من الكَفَرة الذين لا وُصْلَةَ بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

وذَكَر غيرُ واحدٍ أنَّ المقصودَ الإشارةُ إلى أنَّ الكَفَرةَ يُعاقَبون بكُفْرهم، ولا يُراعَوْن بما بينهم وبين النبيِّ ﷺ من الوُصْلة، وفيه تعريضٌ لأمهات المؤمنين، وتخويفٌ لهنَّ بأنه لا يفيدهنَّ - إن أتينَ بما حُظر عليهنَّ - كونُهنَّ تحت نكاح النبيِّ ﷺ، وليس في ذلك ما يدلُّ على أنَّ فيهنَّ كافرةً أو منافقةً كما زعمه يوسف الأوالي من متأخِّري الإماميَّة. سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

وقرأ مبشّر بن عبيد: «تُغْنيا» بالتاء المثناة من فوق، و«عنهما» عليه بتقدير: عن نفسهما، قال أبو حيان[3]: ولا بدَّ من هذا المضاف، إلا أن يجعل «عن» اسماً كهي في:

---

(١) أي: قبيح. القاموس (سمج).

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٤، وينظر القراءات الشاذة ص١٥٩.

دَعْ عـنـك.................(١)

لأنها إن كانت حَرْفاً كان في ذلك تعديةُ الفعل الرافع للضمير المتصل إلى ضميره المجرور، وهو يجري مجرى الضمير المنصوب، وذلك لا يجوز. وفيه بحثٌ.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: جَعَلَ حالها مثلاً لحال المؤمنين في أنَّ وصلة الكَفَرة لا تضرُّهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله عزَّ وجلَّ، وهي في أعلى غُرَفِ الجنة، واسمُها: آسيةُ بنتُ مُزاحم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظَرْفٌ لمحذوفٍ، أي: وضَرَبَ الله مثلاً للذين آمنوا حالَ امرأةِ فرعون إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ﴾ قيل: أي: قريباً من رحمتك؛ لتنزُّهه سبحانه عن المكان. وجُوِّز في «عندك» كونه حالاً من ضمير المتكلِّم، وكونه حالاً من قوله تعالى: ﴿بَيْتًا﴾ لتقدُّمه عليه وكان صفةً لو تأخَّر.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ بدلٌ أو عَطْفُ بيانٍ لقوله تعالى: «عندك» أو متعلِّقٌ بقوله تعالى: «ابْنِ»، وقُدِّم «عندك» لنكتة، وهي كما في «الفصوص» الإشارة إلى قولهم: الجارُ قبل الدار. وجُوِّزَ أن يكون المراد بـ «عندك» أعلى درجات المقرَّبين؛ لأنَّ ما عند الله تعالى خيرٌ، ولأنَّ المرادَ القُرْبُ من العرش، و«عندك» بمعنى: عند عرشك ومَقَرِّ عِزِّك، وهو ـ على ما قيل ـ على الاحتمالات في إعرابه، ولا يلزمُ كونُه ظرفاً للفعل.

﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ أي: من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: وخصوصاً من عمله، وهو الكفرُ وعبادةُ غير الله تعالى، والتعذيبُ بغير جُرْمٍ، إلى غير ذلك من القبائح؛ والكلامُ على أسلوب: ملائكته وجبريل. وجُوِّزَ أن يكون المراد: نَجِّني من عمل فرعونَ، فهو من أسلوب: أعجبني زيدٌ وكَرَمُهُ. والأولُ أبلغُ لدلالته على طلب البعد من نفسه الخبيثة، كأنه بجوهره عذابٌ ودمارٌ يُطْلَبُ الخلاص منه، ثم طلبِ النجاة من عمله ثانياً تنبيهاً على أنه الطامّةُ العظمى.

---

(١) قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٩٤، ولفظه:

دَعْ عنك نهباً صِيحَ في حجراته ... ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرواحل

وخَصَّ بعضُهم عمله بتعذيبه، وعن ابن عباس أنه الجماع، وما تقدم أولى.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ من القِبْط التابعين له في الظلم. قاله مقاتل، وقال الكلبيُّ: من أهل مصر. وكأنه أراد بهم القبط أيضاً، والآيةُ ظاهرةٌ في أنها كانت مؤمنةً مصدِّقةً بالبعث، وذَكَرَ بعضُهم أنها عمةُ موسى عليه السلام، آمنتْ حين سمعتْ بتلقُّف العصا الإفك، فعذَّبها فرعون.

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسندٍ صحيحٍ عن أبي هريرة أنَّ فرعونَ وَتَدَ لامرأته أربعةَ أوتادٍ في يديها ورجليها، فكانت إذا تفرَّقوا عنها أظلَّتها الملائكةُ عليهم السلام، فقالت: رَبِّ ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنة. فكَشَفَ لها عن بيتها في الجنة[1]. وهو على ما قيل: من دُرَّةٍ.

وفي رواية عبد بن حميد[2] عنه أنه وَتَدَ لها أربعةَ أوتاد، وأضجعها على ظهرها، وجعل على صَدْرها رحًى، واستقبل بها عينَ الشمس، فرفعتْ رأسَها إلى السماء فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي﴾ إلى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ ففرَّجَ الله تعالى عن بيتها في الجنة، فَرَأَتهُ.

وقيل: أَمَرَ بأن تُلقى عليها صخرةٌ عظيمةٌ، فَدَعَتِ اللهَ تعالى، فرقى بروحها، فألقيت الصخرةُ على جَسَدٍ لا روحَ فيه.

وعن الحسن: فنجَّاها الله تعالى أكرمَ نجاةٍ، فَرَفَعها إلى الجنة، فهي تأكلُ وتشربُ وتتنعَّمُ فيها. وظاهره أنها رُفعتْ بجسدها، وهو لا يصحُّ.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الاستعاذةَ بالله تعالى والالتجاءَ إليه عزَّ وجلَّ ومسألةَ الخلاص منه تعالى عند المِحَنِ والنوازل من سِيَرِ الصالحين وسَنَنِ الأنبياء، وهو في القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عَطْفٌ على «امرأة فرعون»، أي: وضَرَبَ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٥، ومسند أبي يعلى (٦٤٣١)، وهو في شعب الإيمان للبيهقي (١٦٣٧) لكن من حديث سلمان، و(١٦٣٨) من حديث أبي رافع بنحوه.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٤٥-٢٤٦.

مثلاً للذين آمنوا حالَتَها، وما أُوتيتْ من كرامةِ الدنيا والآخرة والاصطفاء، مع كون أكثر قومها كفَّاراً، وجُمِعَ في التمثيل بين مَنْ لها زوجٌ ومَنْ لا زَوجَ لها؛ تسليةً للأرامل وتطييباً لقلوبهنَّ على ما قيل، وهو من بِدَع التفاسير كما في «الكشاف»[(١)].

وقرأ السختياني: «ابْنَه» بسكون الهاء وَصْلاً، أجراه مجرى الوقف[(٢)].

﴿ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ صانته ومَنَعتهُ من الرجال؛ وقيل: منعتهُ عن دَنَس المعصية.

والفَرْجُ: ما بين الرِّجلَين، وكُني به عن السَّوأة؛ وكَثُرَ حتى صار كالصريح، ومنه ما هنا عند الأكثرين.

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾ النافخُ رسوله تعالى وهو جبريلُ عليه السلام، فالإسنادُ مجازيٌّ، وقيل: الكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: فَنَفَخَ رسولنا، وضمير «فيه» للفرج، واشتُهر أنَّ جبريلَ عليه السلام نَفَخَ في جَيْبها، فَوَصَلَ أَثَرُ ذلك إلى الفرج. وروي ذلك عن قتادة.

وقال الفراء: ذكر المفسِّرون أنَّ الفرجَ جيبُ دِرْعها[(٣)]. وهو محتملٌ؛ لأنَّ الفرجَ معناه في اللغة: كلُّ فُرْجةٍ بين الشيئين، وموضعُ جَيْبِ دِرْع المرأة مشقوقٌ، فهو فَرْجٌ، وهذا أبلغُ في الثناء عليها؛ لأنها إذا مَنَعَتْ جَيْبَ دِرْعها، فهي للنفس أمنع. وفي «مجمع البيان» عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام[(٤)]. وكان ذلك على ما قيل: قولها: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

وأفاد كلامُ البعض أنَّ «أحصنت فرجها» على ما نقل أولاً عن الفراء كناية عن العِفَّة، نحو قولهم: هي نقيُّ الجيب طاهرُ الذيل.

---

(١) ٤/ ١٣٢.
(٢) البحر ٨/ ٢٩٥.
(٣) معاني القرآن ٣/ ١٦٩.
(٤) مجمع البيان ٢٨/ ١٢٩.

وجُوِّزَ في ضمير «فيه» رجوعُهُ إلى الحمل وهو عيسى عليه السلام المشعِر به الكلام، وقرأ عبد الله «فيها»[١] كما في «الأنبياء»، فالضميرُ لمريم. والإضافة في قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ للتشريف، والمراد: من روحٍ خلقناه بلا توسُّطِ أصل، وقيل: لأدنى ملابسةٍ. وليس بذاك.

﴿وَصَدَّقَتْ﴾ آمنت ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصُحُفِهِ عزَّ وجلَّ المنزلة على إدريس عليه السلام وغيره، وسمَّاها سبحانه كلماتٍ لِقِصَرِها ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بجميع كتبه، والمراد بها ما عدا الصُّحف مما فيه طُولٌ، أو التوراة والإنجيل والزبور، وعُدَّ المصحف من ذلك، وإيمانُها به ولم يكن مُنزلاً بعدُ كالإيمان بالنبيِّ الموعود عليه الصلاة والسلام، فقد كان ﷺ مذكوراً بكتابه في الكتب الثلاث.

وتفسيرُ الكلمات والكتب بذلك هو ما اختاره جمعٌ، وجوَّزَ غيرُ واحدٍ أنْ يُرادَ بالكلمات ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام، وبالكتب ما عُرِفَ فيها مما يشمل الصحف وغيرها، وقيل: جميعُ ما كُتِبَ مما يشملُ اللوح وغيره، وأن يُرادَ بالكلمات وَعْدُهُ تعالى ووعيده، أو ذلك وأمره عزَّ وجلَّ ونهيه سبحانه، وبالكتب أحدُ الأوجه السابقة. وإرادةُ كلامه تعالى القديم القائم بذاته سبحانه من الكلمات بعيدٌ جدًّا.

وقرأ يعقوب وأبو مجلز وقتادة وعصمة عن عاصم: «صَدَقَتْ» بالتخفيف[٢]، ويرجع إلى معنى المشدَّد، وفي «البحر»[٣]: أي: كانت صادقةً بما أخبرت به من أمر عيسى، وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات. وفيه قصورٌ لا يخفى.

وقرأ الحسن ومجاهد والجحدري: «بكلمة» على التوحيد[٤]، فاحتمل أن يكون اسمَ جنس، وأن يكون عبارةً عن كلمةِ التوحيد، وأن يكون عبارة عن عيسى عليه السلام، فقد أُطلق عليه عليه السلام أنه كلمةُ الله ألقاها إلى مريم، وقد مرَّ شرحُ ذلك.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٢، والبحر ٨/ ٢٩٥.
(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٥، والبحر ٨/ ٢٩٥.
(٣) ٨/ ٢٩٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر ٨/ ٢٩٥.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «وكتابه» على الإفراد[1]، فاحتمل أن يُرادَ به الجنس، وأن يُراد به الإنجيل، لاسيَّما إن فُسِّرتِ الكلمةُ بعيسى عليه السلام.

وقرأ أبو رجاء: «وكُتْبه» بسكون التاء على ما قال ابن عطية[2]، وبه وبفتح الكاف على أنه مصدرٌ أُقيم مُقام الاسم على ما قال صاحب «اللوامح»[3].

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: من عداد المواظبين على الطاعة، فـ «من» للتبعيض، والتذكيرُ للتغليبِ والإشعارِ بأنَّ طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال، حتى عُدَّتْ من جملتهم، فهو أبلغُ من قولنا: وكانت من القانتات، أو: قانتة. وقيل: «من» لابتداء الغاية، والمراد: كانت من نسل القانتين؛ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام، ومدحها بذلك لما أنَّ الغالبَ أنَّ الفَرْعَ تابعٌ لأصله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وهي على ما في بعض الأخبار سيِّدةُ النساء، ومن أكملهنَّ، روى أحمد في «مسنده»: «سيِّدةُ نساء أهل الجنة مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، ثم عائشة»[4]. وفي الصحيح: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمُلْ من النساء إلا أربع: آسيةُ بنتُ مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وعليها وسلم، وفَضْلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[5]، وخصَّ الثريد ـ وهو خبزٌ يُجعَلُ في مَرَقٍ وعليه لحم ـ كما قيل:

---

(١) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٢٨٩ وهي قراءة الجمهور عدا أبي عمرو وحفص ويعقوب.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٦، وينظر المحتسب ٢/ ٣٢٤، والبحر ٨/ ٢٩٥.
(٣) البحر ٨/ ٢٩٥.
(٤) الدر المنثور ٢/ ٢٣ لكن عزاه لابن عساكر، وهو في تاريخ مدينة دمشق ٧٠/ ١٠٦-١٠٧، ولم نقف عليه في المسند بهذا اللفظ، والذي فيه من رواية ابن عباس: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»، ومن رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (١١٧٥٦): «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران».
(٥) رواه بهذا اللفظ الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٦٧، وأخرجه أحمد (١٩٥٢٣)، والبخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه دون ذكر خديجة وفاطمة.

إذا ما الخبزُ تأدِمُهُ بلحمٍ فذاك أمانةَ اللهِ الثريدُ[1]

لا اللحم فقط كما قيل؛ لأنَّ العربَ لا يُؤثرون عليه شيئاً، حتى سمّوه بحبوحة الجنة، والسِّرُّ فيه على ما قال الطيبيُّ: أنَّ الثريدَ مع اللحم جامعٌ بين الغذاء واللَّذَّة والقوَّة وسهولة التناول وقلَّة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في المريء، فَضَرَبَ به مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله عنها أُعطيتْ مع حُسْنِ الخُلُق حلاوةَ المنطق، وفصاحةَ اللهجة، وجَوْدةَ القريحة، ورَزَانةَ الرأي، ورصانةَ العقل، والتحبُّبَ للبعل، فهي تصلحُ للبَعل والتحدُّثِ والاستئناس بها، والإصغاء إليها، وحَسْبُكَ أنها عقلت من النبي ﷺ ما لم يعقل غيرُها من النساء، وَرَوَتْ ما لم يَروِ مثلُها من الرجال، وعلى مزيد فضلِها في هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبتها حفصة رضي الله عنها ما لا يخفى.

ثم لا يخفى أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها من حيثُ البَضْعية لا يَعْدِلها في الفضل أحد، وتمامُ الكلام في ذلك في محلِّه.

وجاء في بعض الآثار أنَّ مريم وآسية زوجا رسول الله ﷺ في الجنة، أخرج الطبرانيُّ عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوَّجني في الجنة مريمَ بنت عمران وامرأةَ فرعون، وأختَ موسى عليه السلام»[2].

وزَعْمُ نُبوَّتها كَزَعْمِ نُبوَّةِ غيرهما من النساء كهاجر وسارة غيرُ صحيحٍ؛ لاشتراط الذكورة في النبوَّة على الصحيح خلافاً للأشعريِّ، وقد نبَّه على هذا الزعم العلَّامةُ ابن قاسم في «الآيات البينات»، وهو غريبٌ فليُحفظ، والله تعالى أعلم.

---

(١) البيت من شواهد سيبويه، وهو في الكتاب ١/ ٦١ و٤٩٨، وفي الأصول في النحو لابن السراج ١/ ٤٣٣، وفي شرح المفصل ٩/ ٩٢ دون نسبة.

(٢) المعجم الكبير (٥٤٨٥)، قال في المجمع ٩/ ٢١٨: فيه من لم أعرفهم.

(٦٧) سورة الملك مكية وآياتها ثلاثون

● **سورة** المُلْك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهي « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة .. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور » .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده المُلْك والسلطان ، وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنوله الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ﴿ تبارك الذي بيده المُلْك ..﴾ الآيات .

● **ثم تحدثت** عن خلق السموات السبع ، وما زيَّن الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً ..﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب ، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله ، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿ إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ..﴾

● **وبعد** أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ، حذَّرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني اللهُ ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ ؟ الآيات ويا له من وعيد شديد ، ترتعد له الفرائض ! !

فضلها : تسمى هذه السورة « الواقية » و « المنجية » لأنها تقي قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ « هي المانعة وهي المنجية ، تنجي من عذاب القبر » أخرجه الترمذي

سورة الملك

ثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

(سورة الملك) وتسمى (المنجية) لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر، وعن ابن عباس أنه كان يسميها: (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر، وهي ثلاثون آية مكية.

أما قوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فقد فسرناه في أول سورة الفرقان، وأما قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فاعلم أن هذه اللفظة إنما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكًا ومالكًا، كما يقال: بيد فلان الأمر والنهي والحل والعقد ولا مدخل للجارحة في ذلك. قال صاحب (الكشاف): ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ على كل موجود، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ما لم يوجد من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه الآية احتج بها من زعم أن المعدوم شيء، فقال قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقتضي كون مقدوره شيئًا، فذلك الشيء الذي هو مقدور الله تعالى، إما أن يكون موجودًا أو معدومًا، لا جائز أن يكون موجودًا، لأنه لو كان قادرًا على الموجود، لكان إما أن يكون قادرًا على إيجاده وهو محال، لأن إيجاد الموجود محال، وإما أن يكون قادرًا على إعدامه وهو محال، لاستحالة وقوع الإعدام بالفاعل، وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة فلا بد لها من تأثير، والعدم نفي محض، فيستحيل جعل العدم أثر القدرة، فيستحيل وقوع الإعدام بالفاعل فثبت أن الشيء الذي هو مقدور الله ليس بموجود، فوجب أن يكون معدومًا، فلزم أن يكون ذلك المعدوم شيئًا، واحتج أصحابنا النافون لكون المعدوم شيئًا بهذه الآية فقالوا: لا شك أن الجوهر من حيث إنه جوهر شيء والسواد من حيث هو سواد شيء، والله قادر على كل شيء. فبمقتضى هذه الآية يلزم أن يكون قادرًا على الجوهر من حيث إنه جوهر، وعلى السواد من حيث هو سواد، وإذا كان كذلك كان كون الجوهر جوهرًا، والسواد سوادًا واقعًا بالفاعل، والفاعل المختار لا بد وأن يكون متقدمًا على فعله، فإذًا وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهرًا، أو السواد سوادًا، فيلزم أن لا يكون المعدوم شيئًا وهو المطلوب، ثم أجابوا عن شبهة الخصم بأنا لا نسلم أن الإعدام لا يقع بالفاعل، ولئن سلمنا ذلك، لكن لم يجوز أن يقال المقدور الذي هو معدوم سمي شيئًا، لأجل أنه سيصير شيئًا، وهذا وإن كان مجازًا إلا أنه يجب المصير إليه، لقيام سائر الدلائل الدالة على أن المعدوم ليس بشيء.

المسألة الثانية: زعم القاضي أبو بكر في أحد قوليه أن إعدام الأجسام إنما يقع بالفاعل،

وهذا اختيار أبي الحسن الخياط من المعتزلة، ومحمود الخوارزمي، وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة أنه يستحيل وقوع الإعدام بالفاعل، احتج القاضي بأن الموجودات أشياء، والله على كل شيء قدير، فهو إذًا قادر على الموجودات، فإما أن يكون قادرًا على إيجادها وهو محال لأن إيجاد الموجود محال، أو على إعدامها، وذلك يقتضي إمكان وقوع الإعدام بالفاعل.

المسألة الثالثة: زعم الكعبي أنه تعالى غير قادر على مثل مقدور العبد، وزعم أبو علي وأبو هاشم أنه تعالى غير قادر على مقدور العبد، وقال أصحابنا: إنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد وعلى غير مقدوره، واحتجوا عليه بأن عين مقدور العبد ومثل مقدوره شيء، والله على كل شيء قدير، فثبت بهذا صحة وجود مقدور واحد بين قادرين.

المسألة الرابعة: زعم أصحابنا أنه لا مؤثر إلا قدرة الله تعالى، وأبطلوا القول بالطبائع على ما يقوله الفلاسفة، وأبطلوا القول بالمتولدات على ما يقوله المعتزلة، وأبطلوا القول بكون العبد موجدًا لأفعال نفسه، واحتجوا على الكل بأن الآية دالة على أنه تعالى قادر على كل شيء، فلو وقع شيء من الممكنات لا بقدرة الله بل بشيء آخر، لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيما كان مقدورًا له وذلك محال، لأن ما سوى الله ممكن محدث، فيكون أضعف قوة من قدرة الله، والأضعف لا يمكن أن يدفع الأقوى.

المسألة الخامسة: هذه الآية دالة على أن الإله تعالى واحد، لأنا لو قدرنا إلهًا ثانيًا، فإما أن يقدر على إيجاد شيء أو لا يقدر، فإن لم يقدر ألبتة على إيجاد شيء أصلاً لم يكن إلهًا، وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثاني شيئًا، فيلزم كونه مقدورًا للإله الأول لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال، لأنه إذا كان واحد منهما مستقلاً بالإيجاد، يلزم أن يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجًا إليهما، وغنيًا عنهما، وذلك محال.

المسألة السادسة: احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء فقال: لو كان شيئًا لكان قادرًا على نفسه لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لكن كونه قادرًا على نفسه محال، فيمتنع كونه شيئًا، وقال أصحابنا لما دل قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]على أنه تعالى شيء وجب تخصيص هذا العموم، فإذًا هذه الآية قد دلت على أن العام المخصوص وارد في كتاب الله تعالى، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع.

المسألة السابعة: زعم جمهور المعتزلة أن الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل والعبث والظلم، وزعم النظّام أنه غير قادر عليه، واحتج الجمهور بأن الجهل والكذب أشياء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فوجب كونه تعالى قادرًا عليها.

المسألة الثامنة: احتج أهل التوحيد على أنه تعالى منزه عن الحيز والجهة، فإنه تعالى لو حصل في حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذي حكم بحصوله فيه متميزًا عن الحيز الذي حكم

بأنه غير حاصل فيه، إذ لو لم يتميز أحد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حصل فيه ولم يحصل في الآخر ثم إن امتياز أحد الحيزين عن الآخر في نفسه يقتضي كون الحيز أمرًا موجودًا لأن العدم المحض يمتنع أن يكون مشارًا إليه بالحس وأن يكون بعضه متميزًا عن البعض في الحس، وأن يكون مقصدًا للمتحرك، فإذن لو كان الله تعالى حاصلاً في حيز لكان ذلك الحيز موجودًا، ولو كان ذلك الحيز موجودًا لكان شيئًا ولكان مقدورًا لله لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرة الله وبإيجاده، فيلزم أن يكون الله متقدمًا في الوجود على تحقق ذلك الحيز، ومتى كان كذلك كان وجود الله في الأزل محققًا من غير حيز ولا جهة أصلاً والأزلي لا يزول ألبتة، فثبت أنه تعالى منزه عن الحيز والمكان أزلاً وأبدًا.

المسألة التاسعة: أنه تعالى قال أولاً: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا مشعر بأنه إنما يكون بيده الملك لو ثبت أنه على كل شيء قدير، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله، لكان ذلك مشعرًا بالعجز والضعف، وبأن لا يكون مالك الملك على الإطلاق، فدل ذلك، على أنه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادرًا على جميع الأشياء.

المسألة العاشرة: القدير مبالغة في القادر، فلما كان قديرًا على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه ألبتة مانع عن إيجاد شيء من مقدوراته، وهذا يقتضي أن لا يجب لأحد عليه شيء وإلا لكان ذلك الوجوب مانعًا له من الترك وأن لا يقبح منه شيء وإلا لكان ذلك القبح مانعًا له من الفعل، فلا يكون كاملاً في القدرة، فلا يكون قديرًا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾. فيه مسائل:

المسألة الأولى: قالوا: الحياة هي الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر واختلفوا في الموت، فقال قوم: إنه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال أصحابنا: إنه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم بأنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ والعدم لا يكون مخلوقًا هذا هو التحقيق، وروى الكلبي بإسناده عن ابن عباس أن الله تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فارس يلقاه فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيى. واعلم أن هذا لا بد وأن يكون مقولاً على سبيل التمثيل والتصوير، وإلا فالتحقيق هو الذي ذكرناه.

المسألة الثانية: إنما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أن الحياة مقدمة على الموت لوجوه: أحدها: قال مقاتل: يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح، وثانيها:

روى عطاء عن ابن عباس قال: يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة دار الحيوان، وثالثها: أنه روي عن النبي ﷺ: «أَنَّ مُنَادِيًا يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ وَيُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادَى يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلاَ مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلاَ مَوْتٍ فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحٍ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنٍ»(١) واعلم أنا بينا أن الموت عرض من الأعراض كالسكون والحركة فلا يجوز أن يصير كبشًا بل المراد منه التمثيل ليعلم أن في ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت، فظهر بما ذكرناه أن أيام الموت هي أيام الدنيا وهي منقضية، وأما أيام الآخرة فهي أيام الحياة وهي متأخرة فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة لا جرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة، ورابعها إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم.

المسألة الثالثة: اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا وهي الأصل أيضًا في نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم، والموت أيضًا نعمة على ما شرحنا الحال فيه في مواضع من هذا الكتاب، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه، قال عليه الصلاة والسلام: «أَكْثِرُوا مِنْ ذكر هاذم اللذات» وقال لقوم: «لو أكثرتم ذكر هاذم اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى» وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأثنوا عليه، فقال: «كَيْفَ ذِكْرُهُ الْمَوْتَ؟» قالوا: قليل، قال: «فَلَيْسَ كَمَا تقولون».

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي، وذلك في حق من وجب أن يكون عالمًا بجميع المعلومات أزلاً وأبدًا محال، إلا أنا قد حققنا هذه المسألة في تأويل قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه (الابْتِلاَءَ) على المختبر.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ قالوا: هذه اللام للغرض، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وجوابه أن الفعل في نفسه ليس بابتلاء إلا أنه لما أشبه الابتلاء سمي مجازًا، فكذا هاهنا، فإنه يشبه الغرض وإن لم يكن في نفسه غرضًا، فذكر فيه حرف الغرض.

المسألة الثالثة: اعلم أنا فسرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة، والحياة بعد ذلك فَوَجْهُ الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (وأنذرهم يوم الحسرة) (٤/ ١٧٦٠) حديث رقم (٤٤٥٣) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨١/ ٢٨٤٩) كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي سعيد الخدري... به.

الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادرًا على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات ويستوي فيه الفقير والغني والمولى والعبد، وأما إن فسرناهما بالموت في الدنيا وبالحياة في القيامة فالابتلاء فيهما أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة في القيامة، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا.

المسألة الرابعة: في تعلق قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وجهان: الأول: وهو قول الفراء والزجاج: إن المتعلق بأيكم مضمر والتقدير ليبلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عملًا، والثاني: قال صاحب (الكشاف): ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ في معنى ليعلمكم، والتقدير ليعلمكم أيكم أحسن عملًا.

المسألة الخامسة: ارتفعت (أَيُّ) بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام فإنك إذا قلت: لا أعلم أيكم أفضل كان المعنى لا أعلم أزيد أفضل أم عمرو، واعلم أن مالا يعمل فيما بعد الألف فكذلك لا يعمل في (أَيٍّ) لأن المعنى واحد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] وقد تقدم الكلام فيه.

المسألة السادسة: ذكروا في تفسير ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وجوهًا: أحدها: أن يكون أخلص الأعمال وأصوبها لأن العمل إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السنة، وثانيها: قال قتادة: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**يَقُولُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا**» ثم قال: «**أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا**»، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل، فمن كان أتم عقلًا كان أحسن عملًا على ما ذكر في حديث قتادة، وثالثها: روي عن الحسن أيكم أزهد في الدنيا وأشد تركًا لها، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي وهو العزيز الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة.

واعلم أن كونه عزيزًا غفورًا لا يتم إلا بعد كونه قادرًا على كل المقدورات عالمًا بكل المعلومات أما أنه لا بد من القدرة التامة، فلأجل أن يتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتمامه إليه سواء كان عقابًا أو ثوابًا، وأما أنه لا بد من العلم التام فلأجل أن يعلم أن المطيع من هو والعاصي من هو فلا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه، فثبت أن كونه عزيزًا غفورًا لا يمكن ثبوته إلا بعد ثبوت القدرة التامة والعلم التام، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام، ولما كان العلم بكونه تعالى قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا، لا جرم ذكر أولاً دلائل القدرة، وثانيًا دلائل العلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾

أما دليل القدرة فهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر صاحب (الكشاف) في ﴿طِبَاقًاۖ﴾ ثلاثة أوجه: أولها: طباقًا أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقًا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، وثانيها: أن يكون التقدير ذات طباق، وثالثها: أن يكون التقدير طوبقت طباقًا.

المسألة الثانية: دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه: أحدها: من حيث إنها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة، وثانيها: من حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص، وثالثها: أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة، ورابعها: كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها إلى قادر تام القدرة.

وأما دليل العلم فهو قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (مِنْ تَفَوُّتٍ) والباقون ﴿مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾، قال الفراء: وهما بمنزلة واحدة مثل تَظَهُّر وتَظَاهُر، وتَعَهُّد وتَعَاهُد، وقال الأخفش: (تَفاوُتٍ) أجود؛ لأنهم يقولون: تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون: تفوّت، واختار أبو عبيدة: (تَفَوُّتٍ)، وقال: يقال تفوّت الشيء إذا فات، واحتج بما روي في الحديث أن رجلًا تفوّت على أبيه في ماله.

المسألة الثانية: حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ومنه قولهم: (تَعَلَّقَ مُتَعَلِّقٌ مُتَفَاوِتٌ وَنَقِيضُهُ مُتَنَاسِبٌ)، وأما ألفاظ المفسرين فقال السدي: من تفاوت أي من اختلاف عيب، يقول الناظر: لو كان كذا كان أحسن، وقال آخرون: التفاوت الفطور بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ نظيره قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق: ٦] قال القفال: ويحتمل أن يكون المعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وأنه لم يخلقها عبثًا.

المسألة الثالثة: الخطاب في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إما للرسول أو لكل مخاطب وكذا القول في قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا﴾.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿طِبَاقًاۖ﴾ صفة للسموات، وقوله بعد ذلك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقًا ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله: ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تعظيمًا لخلقهن وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب.

المسألة الخامسة: اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل أن هذه السموات السبع، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكمًا متقنًا فإنه لا بد وأن يكون عالمًا، فدل هذه الدلالة على كونه تعالى عالمًا بالمعلومات فقوله: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ إشارة إلى كونها محكمة متقنة.

المسألة السادسة: احتج الكعبي بهذه الآية على أن المعاصي ليست من خلق الله تعالى، قال: لأنه تعالى نفى التفاوت في خلقه، وليس المراد نفي التفاوت في الصغر والكبر والنقص والعيب فوجب حمله على نفي التفاوت في خلقه من حيث الحكمة، فيدل من هذا الوجه على أن أفعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذي بعضه جهل وبعضه كذب وبعضه سفه، الجواب: بل نحن نحمله على أنه لا تَفَوُّت فيه بالنسبة إليه، من حيث إن الكل يصح منه بحسب القدرة والإرادة والداعية، وإنه لا يقبح منه شيء أصلاً، فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذي ذكرتم أولى من حملها على نفي التفاوت من الوجه الذي ذكرناه، ثم إنه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة، وقال: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ والمعنى أنه لما قال: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد، ولا تعتمد عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر واردد النظرة مرة أخرى، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ألبتة. والفطور جمع فطر، وهو الشق يقال: فَطَرَه فانْفَطَر ومنه فطر ناب البعير، كما يقال: شق ومعناه شق اللحم فطلع، قال المفسرون: ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي من فروج وصدوع وشقوق، وفتوق، وخروق، كل هذا ألفاظهم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

أمر بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع، هل يجد فيه عيبًا وخللاً، يعني أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاسئًا أي مبعدًا من قولك خسأت الكلب إذا باعدته، قال المبرد: الخاسئ المبعد المصغر، وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى، وأما الحسير فقال ابن عباس: هو الكليل، قال الليث: الحسر والحسور الإعياء، وذكر الواحدي هاهنا احتمالين أحدهما: أن يكون الحسير مفعولاً من حسر العين بعد المرئي، قال رؤبة:

يَحْسُرُ طرف عيناه فضا (١)

الثاني: قول الفراء: أن يكون فاعلاً من الحسور الذي هو الإعياء، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيبًا ولا فطورًا، بل البصر يرجع خاسئًا من الكلال والإعياء. **وهاهنا سؤالان**:

---

(١) تقدمت ترجمة رؤبة.

السؤال الأول: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيرًا برجعه كرتين اثنتين، الجواب: التثنية للتكرار بكثرة كقولهم: لبيك وسعديك يريد إجابات متوالية.

السؤال الثاني: فما معنى ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ﴾ الجواب: أمره برجع البصر ثم أمره بأن لا يقنع بالرجعة الأولى، بل أن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعيده ويعاوده إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو الدليل الثاني على كونه تعالى قادرًا عالمًا، وذلك لأن هذه الكواكب نظرًا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين، وسير معين، تدل على أن صانعها قادر ونظرًا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببًا لانتفاعهم بها، تدل على أن صانعها عالم، ونظير هذه الآية في سورة الصفات ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧]، **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ السماء القربى، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح أي بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ فاعلم أن الرجوم جمع رجم، وهو مصدر سمي به ما يرجم به، وذكروا في معرض هذه الآية وجهين: الوجه الأول أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع رجموا بها، فإن قيل: جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها واستمرارها وجعلها رجومًا للشياطين ورميهم بها يقتضي زوالها والجمع بينهما متناقض، قلنا: ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها، وتلك الشعل هي الشهب، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار باقية، الوجه الثاني: في تفسير كون الكواكب رجومًا للشياطين أنا جعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم الأحكاميون من المنجمين.

المسألة الثانية: اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح.

واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرات السيارات، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن، فيجب أن تكون كلها

هناك، وإنما قلنا: إن بعضها في الفلك الثامن، وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة، وإنما قلنا: إن هذه الثوابت لما كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك، لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة، فلا بد وأن تكون مركوزة في كرة واحدة.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف، فإنه لا يلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك، لأنه لا يبعد وجود كرة تحت القمر، وتكون في البطء مساوية لكرة الثوابت، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة في هذه الكرة السفلية، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة في السماء الدنيا، فثبت أن مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيف.

المسألة الثالثة: اعلم أن منافع النجوم كثيرة، منها أن الله تعالى زين السماء بها، ومنها أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت الظلمة، وذلك بسبب أن السحاب يحجب أنوارها، ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة، فإنها أجسام عظيمة نورانية، فإذا قارنت الشمس كوكبًا مسخنًا في الصيف، صار الصيف أقوى حرًّا، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى، ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، على ما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] ومنها أنه تعالى جعلها رجومًا للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورصدت الشياطين، فمن جاء منهم مسترقًا للسمع رمي بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره، فهذا هو السبب في انقضاض الشهب، وهو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ ومن الناس من طعن في هذا من وجوه: أحدها: أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة، قالوا: إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس، وإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها، فتلك الشعلة هي الشهاب، وثانيها: أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحدًا وألفًا من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومرارًا وألفًا امتنع أن يعود إليه من غير فائدة، وثالثها: أنه يقال في ثخن السماء فإنه مسيرة خمسمائة عام، فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا اتصاله، فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣] وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء، فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم، ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد

العظيم، فلا يسمعوا كلام الملائكة حال كونهم في الأرض، ورابعها: أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة، إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها من وحي الله تعالى إليهم، وعلى التقديرين فلِمَ لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها، وخامسها: أن الشياطين مخلوقون من النار، والنار لا تحرق النار بل تقويها، فكيف يعقل أن يقال: إن الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب، وسادسها: أنه كان هذا الحذف لأجل النبوة فلِمَ دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسابعها: أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض، بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك، لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب، وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض، فكيف يقال: إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك، وثامنها: أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟ وتاسعها: لِمَ لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب؟.

والجواب عن السؤال الأول: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ لأسباب أخر، إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم. يروى أنه قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها، قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها تُقْدِم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن السؤال الثالث: أن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، فأما ثخن الفلك فلعله لا يكون عظيمًا.

وأما الجواب عن السؤال الرابع: ما روى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَدَثَ مِثْلُ هَذَا ؟»، قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال عليه الصلاة والسلام: «**فَإِنَّهَا لاَ تُرْمَى لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَعَالَى إِذَا قَضَى الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَسَبَّحَ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، وَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَلاَ يَزَالُ ذَلِكَ الْخَبَرُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ**

السَّمَاءِ، وَيَتَخَطَّفُ الْجِنُّ فَيُزَمْزِنَ، فَمَا جَاءُوا بِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِيهِ»[1] .

والجواب عن السؤال الخامس: أن النار قد تكون أقوى من نار أخرى، فالأقوى يبطل الأضعف .

والجواب عن السؤال السادس: أنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة، فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة، وذلك يقدح في خبر الرسول عن بطلان الكهانة .

والجواب عن السؤال السابع: أن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع، فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة .

والجواب عن السؤال الثامن: لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين .

والجواب عن السؤال التاسع: أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهذا ما يتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة المنافع أنها رجوم للشياطين، قال بعد ذلك: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي أعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة، قال المبرد: سعرت النار فهي مسعورة وسعير كقولك: مقبولة وقبيل، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية؛ لأن قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادرًا على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان، وبيَّن أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزًا في حق المصرين على الإساءة غفورًا في حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزًا وغفورًا لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملاً في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة، وحينئذ ثبت كونه قادرًا على تعذيب العصاة فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ بالنصب عطف بيان على قوله: ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٥] ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفاته كثيرة .

قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ .

﴿أُلْقُوا﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به فيها، ومثله قوله: ﴿حَصَبُ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢١٨) حديث رقم (١٨٨٢) عبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٢٢٨) حديث رقم (٦٨٣) كلاهما من طريق الزهري عن علي بن حسين عن ابن عباس . . . به .

﴿جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وفي قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ وجوه: أحدها: قال مقاتل: سمعوا لجهنم شهيقًا، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق، قال الزجاج: سمع الكفار للنار شهيقًا، وهو أقبح الأصوات، وهو كصوت الحمار، وقال المبرد: هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ وثانيها: قال عطاء: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقًا، وثالثها: سمعوا من أنفسهم شهيقًا، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] والقول هو الأول.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الليث: كل شيء جاش فقد فار، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين، قال ابن عباس: تغلي بهم كغلي المرجل، وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب، قال المبرد: يقال تركت فلانًا يفور غضبًا، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يقال: فلان يتميز غيظًا، ويتعصف غيظًا وغضب فطارت منه شعلة في الأرض وشعلة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه. وأقول لعل السبب في هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب والدم عند الغليان يصير أعظم حجمًا ومقدارًا فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات في البدن، فكلما كان الغضب أشد كان الغليان أشد، فكان الازدياد أكثر، وكان تمدد الأوعية وانشقاقها وتميزها أكثر، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب، فإن قيل: النار ليست من الأحياء، فكيف يمكن وصفها بالغيظ قلنا: الجواب من وجوه: أحدها: أن البنية عندنا ليست شرطًا للحياة فلعل الله يخلق فيها وهي نار حياة، وثانيها: أنه شبّه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته، وثالثها: يجوز أن يكون المراد غيظ الزبانية.

قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

الفوج: الجماعة من الناس والأفواج الجماعات في تفرقة، ومنه قوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبا: ١٨] و﴿خَزَنَتُهَآ﴾ مالك وأعوانه من الزبانية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو سؤال توبيخ، قال الزجاج: وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب، **وفي الآية مسألتان:**

المسألة الأولى: احتجت المرجئة على أنه لا يدخل النار أحد إلا الكفار بهذه الآية، قالوا: لأنه تعالى حكى عن كل من ألقي في النار أنهم قالوا: كذبنا النذير، وهذا يقتضي أن من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار، واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصر لا يدخل النار، وأجاب القاضي عنه بأن النذير قد يطلق على ما في العقول من الأدلة المحذرة المخوفة، ولا أحد يدخل النار إلا وهو مخالف للدليل غير متمسك بموجبه.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان إلا بعد ورود السمع بهذه الآية وقالوا: هذه الآية دلت على أنه تعالى إنما عذبهم لأنه أتاهم النذير، وهذا يدل على أنه لو لم يأتهم النذير لما عذبهم.

ثم إنه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ **ففيه مسألتان**:

المسألة الأولى: في الآية وجهان: الوجه الأول: وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين، الوجه الثاني: يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار، والتقدير أن الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من الضلال الكبير ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الهلاك، ويحتمل أن يكون سمى عقاب الضلال باسمه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

هذا هو الكلام الثاني مما حكاه الله تعالى عن الكفار جوابًا للخزنة حين قالوا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] والمعنى لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالبًا للحق أو نعقله عقل من كان متأملاً متفكرًا لما كنا من أصحاب السعير، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل **وفي الآية مسائل**:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة الهدى والإضلال بأن قالوا لفظة (لو) تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره فدلت الآية على أنه ما كان لهم سمع ولا عقل، لكن لا شك أنهم كانوا ذوي أسماع وعقول صحيحة، وأنهم ما كانوا صم الأسماع ولا مجانين، فوجب أن يكون المراد أنه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية.

المسألة الثانية: احتج بهذه الآية من قال: الدين لا يتم إلا بالتعليم فقال: إنه قدم السمع على العقل تنبيهًا على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلم، والجواب: أنه إنما قدم السمع لأن المدعو إذا لقي الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه، فلما كان السمع مقدمًا بهذا السبب على التعقل والتفهم لا جرم قدم عليه في الذكر.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي، ثم قال كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين

المذهبين، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم.

المسألة الرابعة: احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية، وقالوا: دلت الآية على أن للسمع مدخلاً في الخلاص عن النار والفوز بالجنة، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل.

قوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال: ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ قال مقاتل: يعني بتكذيبهم الرسول وهو قولهم: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٩] وقوله: ﴿ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذنب هاهنا في معنى الجمع، لأن فيه معنى الفعل، كما يقال: خرج عطاء الناس، أي عطياتهم هذا قول الفراء، والثاني: يجوز أن يراد بالواحد المضاف الشائع، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم قال: ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال المفسرون: فبعدًا لهم اعترفوا أو جحدوا، فإن ذلك لا ينفعهم، والسحق البعد، وفيه لغتان: التخفيف والتثقيل، كما تقول في العُنُق والطُّنُب، قال الزجاج: سُحْقًا منصوب على المصدر، والمعنى أسحقهم الله سحقًا، أي باعدهم الله من رحمته مباعدة، وقال أبو علي الفارسي: كان القياس سحاقًا، فجاء المصدر على الحذف كقولهم: عمرك الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وفيه وجهان: الوجه الأول: أن المراد: إن الذين يخشون ربهم وهم في دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة إلى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال، الوجه الثاني: أن هذا إشارة إلى كونه متقيًا من جميع المعاصي لأن من يتقي معاصي الله في الخلوة اتقاها حيث يراه الناس لا محالة، واحتج أصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق فقالوا: دلت الآية على أن من كان موصوفًا بهذه الخشية فله الأجر العظيم، فإذا جاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية، فقد حصل الأمران فإما أن يثاب ثم يعاقب وهو بالإجماع باطل أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب.

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعد المؤمنين على سبيل المغايبة رجع بعد ذلك إلى خطاب الكفار فقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. **وفيه وجهان:**

الوجه الأول: قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية.

القول الثاني: أنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالحال واحد في علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصي سرًّا كما تحترزون عنها جهرًا فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى، وكما بيَّن أنه تعالى عالم بالجهر وبالسر بيَّن أنه عالم بخواطر القلوب.

ثم إنه تعالى لما ذكر كونه عالمًا بالجهر وبالسر وبما في الصدور ذكر الدليل على كونه عالمًا بهذه الأشياء فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن معنى الآية أن من خلق شيئًا لا بد وأن يكون عالمًا بمخلوقه، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضًا مقررة بالدلائل العقلية، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالمًا بحقيقة ذلك الشيء فإن الغافل عن الشيء يستحيل أن يكون قاصدًا إليه، وكما أنه ثبت أن الخالق لا بد وأن يكون عالمًا بماهية المخلوق لا بد وأن يكون عالمًا بكميته، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو أنقص لا بد وأن يكون بقصد الفاعل واختياره، والقصد مسبوق بالعلم فلا بد وأن يكون قد علم ذلك المقدار وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولى من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحًا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال، فثبت أن من خلق شيئًا فإنه لا بد وأن يكون عالمًا بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته، وإذا ثبتت هذه المقدمة فنقول: تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن العبد غير موجد لأفعاله من وجهين:

الوجه الأول: قالوا: لو كان العبد موجدًا لأفعال نفسه لكان عالمًا بتفاصيلها، لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجد لها، بيان الملازمة من وجهين: الأول: التمسك بهذه الآية، الثاني: أن وقوع عشرة أجزاء من الحركة مثلاً ممكن ووقوع الأزيد منه والأنقص منه أيضًا ممكن، فاختصاص العشرة بالوقوع دون الأزيد ودون الأنقص، لا بد وأن يكون لأجل أن القادر المختار خصه بالإيقاع، وإلا لكان وقوعه دون الأزيد والأنقص وقوعًا للممكن المحدث من غير مرجح، لأن القادر المختار إذا خص تلك العشرة بالإيقاع فلا بد وأن يكون عالمًا بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا أنقص، فثبت أن العبد لو كان موجدًا لأفعال نفسه لكان عالمًا بتفاصيلها وأما أنه غير عالم بتفاصيلها فلوجوه أحدها: أن المتكلمين اتفقوا على أن التفاوت بين الحركة السريعة والبطيئة لأجل تخلل السكنات، فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل في بعض الأحياز حركة وفي بعضها سكونًا مع أنه لم يخطر ألبتة بباله أنه فعل هاهنا حركة وهاهنا سكونًا، وثانيها: أن فاعل حركة لا يعرف عدد أجزاء تلك الحركات إلا إذا عرف عدد الأحياز التي بين مبدأ المسكنة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردية التي تتسع لها تلك المسافة من أولها إلى آخرها كم هي؟ ومعلوم أن ذلك غير معلوم، وثالثها: أن النائم والمغمى عليه قد يتحرك من جنب إلى جنب مع

أنه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا كميتها، ورابعها: أن عند أبي علي، وأبي هاشم، الفاعل إنما يفعل معنى يقتضي الحصول في الحيز، ثم إن ذلك المعنى الموجب مما لا يخطر ببال أكثر الخلق، فظهر بهذه الدلالة أن العبد غير موجد لأفعاله، الوجه الثاني: في التمسك بهذه الآية على أن العبد غير موجد أن نقول: إنه تعالى لما ذكر أنه عالم بالسر والجهر وبكل ما في الصدور قال بعده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقًا لكل ما يفعلونه في السر والجهر، وفي الصدور والقلوب، فإنه لو لم يكن خالقًا لها لم يكن قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مقتضيًا كونه تعالى عالمًا بتلك الأشياء، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه في السر والجهر من أفعال الجوارح ومن أفعال القلوب، فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد: ألا يعلم من خلق الأجسام والعالم الذي خلق الأجسام هو العالم بهذه الأشياء؟ قلنا: إنه لا يلزم من كونه خالقًا لغير هذه الأشياء كونه عالمًا بها، لأن من يكون فاعلاً لشيء لا يجب أن يكون عالمًا بشيء آخر، نعم يلزم من كونه خالقًا لها كونه عالمًا بها لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالمًا به.

المسألة الثانية: الآية تحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ في محل الرفع والمنصوب يكون مضمرًا، والتقدير ألا يعلم من خلق مخلوقه، وثانيها: أن يكون من خلق في محل النصب ويكون المرفوع مضمرًا، والتقدير ألا يعلم الله من خلق، والاحتمال الأول أولى لأن الاحتمال الثاني يفيد كونه تعالى عالمًا بذات من هو مخلوقه، ولا يقتضي كونه عالمًا بأحوال من هو مخلوقه والمقصود من الآية هذا لا الأول، وثالثها: أن تكون ﴿مَنْ﴾ في تقدير (ما) كما تكون ما في تقدير (من) في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] وعلى هذا التقدير تكون (ما) إشارة إلى ما يسره الخلق وما يجهرونه ويضمرونه في صدورهم وهذا يقتضي أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

أما قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فاعلم أنهم اختلفوا في ﴿اللَّطِيفُ﴾ فقال بعضهم: المراد العالم، وقال آخرون: بل المراد من يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إن لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكرارًا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بيَّن بالدلائل كونه عالمًا بما يسرون وما يعلنون، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد، ونظيره من قال لعبده الذي أساء

إلى مولاه في السر: يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن من تأديبي، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ للآفات التي تتحير فيها ومنبعًا للمحن التي تهلك بسببها، فكذا هاهنا، كأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالم بسركم وجهركم، فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم، أنا الذي ذللتها إليكم وجعلتها سببًا لنفعكم، فامشوا في مناكبها، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها.

المسألة الثانية: الذلول من كل شيء: المنقاد الذي يذل لك، ومصدره الذل، وهو الانقياد واللين، ومنه يقال: دابة ذلول، وفي وصف الأرض بالذلول أقوال: أحدها: أنه تعالى ما جعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها، كما يمتنع المشي على وجوه الصخرة الخشنة، وثانيها: أنه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها، وبناء الأبنية منها كما يراد، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك، وثالثها: أنها لو كانت حجرية، أو كانت مثل الذهب أو الحديد، لكانت تسخن جدًّا في الصيف، وكانت تبرد جدًّا في الشتاء، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة، والغراسة فيها متعذرة، ولما كانت كفاتًا للأموات والأحياء ورابعها: أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها في جو الهواء، ولو كانت متحركة على الاستقامة، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أمر إباحة، وكذا القول في قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾.

المسألة الرابعة: ذكروا في مناكب الأرض وجوهًا: أحدها: قال صاحب (الكشاف): المشي في مناكبها مَثَلٌ لفرط التذليل، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير، وأبعده من إمكان المشي عليه، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه، فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة، فثبت أن قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلولية، وثانيها: قول قتادة والضحاك وابن عباس: إن مناكب الأرض جبالها وآكامها، وسميت الجبال مناكب، لأن مناكب الإنسان شاخصة والجبال أيضًا شاخصة، والمعنى أني سهلت عليكم المشي في مناكبها، وهي أبعد أجزائها عن التذليل، فكيف الحال في سائر أجزائها، وثالثها: أن مناكبها هي الطرق، والفجاج والأطراف والجوانب وهو قول الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل، ورواية عطاء عن ابن عباس، واختيار الفراء، وابن قتيبة قال: مناكبها جوانبها، ومنكبا الرجل جانباه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] أما قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي مما خلقه الله رزقًا لكم في الأرض: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر، ثم إنه تعالى بيَّن أن

بقاءهم مع هذه السلامة في الأرض إنما كان بفضل الله ورحمته، وأنه لو شاء لقلب الأمر عليهم، ولأمطر عليهم من سحاب القهر مطر الآفات. فقال تقريرًا لهذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾

واعلم أن هذه الآيات نظيرها قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾[الأنعام: ٦٥] وقال: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[القصص: ٨١].

واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، والجواب عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين، لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطًا به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش بكثير، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئًا حقيرًا بالنسبة إلى العرش، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال، ولأنه تعالى قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾[الأنعام: ١٢] فلو كان الله في السماء لوجب أن يكون مالكًا لنفسه وهذا محال، فعلمنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل، ثم فيه وجوه: أحدها: لم لا يجوز أن يكون تقدير الآية: أأمنتم من في السماء عذابه، وذلك لأن عادة الله تعالى جارية بأنه إنما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويعصيه من السماء فالسماء موضع عذابه تعالى، كما أنه موضع نزول رحمته ونعمته، وثانيها: قال أبو مسلم: كانت العرب مقرين بوجود الإله، لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة، فكأنه تعالى قال لهم: أتأمنون من قد أقررتم بأنه في السماء، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض، وثالثها: تقدير الآية: من في السماء سلطانه وملكه وقدرته، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام: ٣] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين، فوجب أن يكون المراد من كونه في السموات وفي الأرض نفاذ أمره وقدرته، وجريان مشيئته في السموات وفي الأرض، فكذا هاهنا، ورابعها: لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك الموكل بالعذاب، وهو جبريل عليه السلام، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بأمر الله وإذنه.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ قالوا معناه: إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين، وقد ذكرنا تفسير المور فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾

ثم زاد في التخويف فقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾.

قال ابن عباس: كما أرسل على قوم لوط فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾[القمر: ٣٤] والحاصب:

ريح فيها حجارة وحصباء، كأنها تقلع الحصباء لشدتها، وقيل: هو سحاب فيها حجارة.

ثم هدد وأوعد فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

قيل في النذير هاهنا إنه المنذر، يعني محمدًا عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك، والمعنى فستعملون رسولي وصدقه، لكن حين لا ينفعكم ذلك، وقيل: إنه بمعنى الإنذار، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول، و(كَيْفَ) في قوله: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ينبئ عما ذكرنا من صدق الرسول وعقوبة الإنذار.

واعلم أنه تعالى لما خوَّف الكفار بهذه التخويفات أكد ذلك التخويف بالمثال والبرهان، أما المثال فهو أن الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم فقال:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني عادًا وثمود وكفار الأمم، وفيه وجهان: أحدهما: قال الواحدي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري وتغييري، أليس وجدوا العذاب حقًّا، والثاني: قال أبو مسلم: النكير عقاب المنكر، ثم قال: وإنما سقط الياء من نذيري، ومن نكيري حتى تكون مشابهة لرؤوس الآي المتقدمة عليها، والمتأخرة عنها. وأما البرهان فهو أنه تعالى ذكر ما يدل على كمال قدرته، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادرًا على إيصال جميع أنواع العذاب إليهم؛ وذلك البرهان من وجوه:

البرهان الأول: هو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قيل: لم قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل: وقابضات، قلنا: لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: هل تدل هذه الآية على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله، قلنا: نعم، وذلك لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري للطير.

ثم إنه تعالى قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فدل هذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى.

السؤال الثاني: أنه تعالى قال في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] وقال هاهنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فما الفرق؟ قلنا: ذكر في

النحل أن الطير مسخرات في جو السماء فلا جرم كان إمساكها هناك محض الإلهية، وذكر هاهنا أنها صافات وقابضات، فكان إلهامها إلى كيفية البسط، والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ وفيه وجهان: الوجه الأول: المراد من البصير، كونه عالمًا بالأشياء الدقيقة، كما يقال: فلان بصير في هذا الأمر، أي حذق، والوجه الثاني: أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول: إنه تعالى شيء، والله بكل شيء بصير، فيكون رائيًا لنفسه ولجميع الموجودات، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه تعالى يصح أن يكون مرئيًا وأن كل الموجودات كذلك، فإن قيل: البصير إذا عدي بالباء يكون بمعنى العالم، يقال: فلان بصير بكذا إن كان عالمًا به، قلنا: لا نسلم، فإنه يقال: إن الله سميع بالمسموعات، بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان تعويلهم على شيئين: أحدهما: القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم، والثاني: أنهم كانوا يقولون: هذه الأوثان، توصل إلينا جميع الخيرات، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين، أما الأول فبقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ وهذا نسق على قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧] والمعنى أم من يشار إليه من المجموع، ويقال: هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم، ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

أما الثاني فهو قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ﴾.

والمعنى: من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم، وهذا أيضًا مما لا ينكره ذو عقل، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق، في عتو أي في تمرد وتكبر ونفور، أي تباعد عن الحق وإعراض عنه، فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية، والنفور بسبب جهلهم، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية.

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الواحدي: أكبُّ مطاوع كبَّه، يقال: كَبَبْتُه فأكبَّ ونظيره: قشعت الريح

السحاب فأقشع، قال صاحب (الكشاف): ليس الأمر كذلك، وجاء شيء من بناء أفعل مطاوعًا، بل قولك: أكب معناه دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع، وأنفض أي دخل في النفض، وهو نفض الوعاء فصار عبارة عن الفقر وألام دخل في اللوم، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير قوله: ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وجوهًا: أحدها: معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبًّا فحاله نقيض حال من يمشي سويًّا أي قائمًا سالمًا من العثور والخرور، وثانيها: أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين، وثالثها: أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم، ثم اختلفوا فمنهم من قال: هذا حكاية حال الكافر في الآخرة، قال قتادة: الكافر أكب على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوي يوم القيامة، وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا، واختلفوا أيضًا فمنهم من قال: هذا عام في حق جميع المؤمنين والكفار، ومنهم من قال: بل المراد منه شخص معين، فقال مقاتل: المراد أبو جهل والنبي عليه الصلاة والسلام، وقال عطاء عن ابن عباس: المراد أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

البرهان الثاني: على كمال قدرته قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان أولاً من حال سائر الحيوانات، وهو وقوف الطير في الهواء، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة، واعلم أن في ذكرها هاهنا تنبيهًا على دقيقة لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب، فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وذلك لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته ألبتة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦ ﴾

البرهان الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانات أولاً ثم بصفات الإنسان ثانيًا وهي السمع والبصر والعقل، ثم بحدوث ذاته ثالثًا وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واحتج المتكلمون بهذه الآية على أن الإنسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين؛ لأنه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فبيَّن أنه ذرأ الإنسان في الأرض، وهذا يقتضي كون الإنسان متحيزًا جسمًا، واعلم أن الشروع في هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ثم لأجل إثبات هذا المطلوب، ذكر وجوهًا من الدلائل على قدرته، ثم ختمها بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولما كانت القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الإعادة لا جرم قال بعده: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فبيَّن بهذا أن جميع ما تقدم ذكره من الدلائل إنما كان لإثبات هذا المطلوب.

واعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ بأن يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار شيئين أحدهما: أنهم طالبوه بتعيين الوقت.

وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو مسلم: إنه تعالى قال: يقول بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، ويحتمل الماضي، والتقدير: فكانوا يقولون هذا الوعد.

المسألة الثانية: لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية، ولعلهم كانوا يقولونها إيهامًا للضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له.

المسألة الثالثة: الوعد المسؤول عنه ما هو؟ فيه وجهان: أحدهما: أنه القيامة، والثاني: أنه مطلق العذاب، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله.

ثم أجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول حاصل عندي، وهو كاف في الإنذار والتحذير، أما العلم الثاني فليس إلا لله، ولا حاجة في كوني نذيرًا مبينًا إليه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧ ﴾

ثم إنه تعالى بيَّن حالهم عند نزول ذلك الوعد فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير للوعد، والزلفة: القرب، والتقدير: فلما رأوه قربًا ويحتمل أنه لما اشتد قربه، جعل كأنه في نفس القرب. وقال الحسن: معاينة، وهذا معنى وليس بتفسير، وذلك لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال ابن عباس: اسودت وعلتها الكآبة والقترة، وقال الزجاج: تبين فيها السوء، وأصل السوء القبح، والسيئة ضد الحسنة، يقال: ساء الشيء يسوء فهو سيئ إذا قبح، وسيىء يساء إذا قبح، وهو فعل لازم ومتعد فمعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل.

المسألة الثالثة: اعلم أن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبار عن الماضي، فمن حمل الوعد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥] على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلهذا قال أبو مسلم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ يعني أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذي نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربه منهم، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ معناه فمتى ما رأوه زلفة، وذلك لأن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبار عن الماضي وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية فوجب تفسير اللفظ بما قلناه، قال مقاتل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي لما رأوا العذاب في الآخرة قريبًا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: القائلون هم الزبانية، وقال آخرون: بل يقول بعضهم لبعض ذلك.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وجوه: أحدها: قال الفراء: يريد تدعون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به، وتَدَّعُون وتَدْعُون واحد في اللغة مثل تَذَّكَرُون وتَذْكُرون وتَدَّخِرُون وتَدْخُرُون، وثانيها: أنه من الدعوى معناه: هذا الذي كنتم تبطلونه أي تدعون أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم بسببه ﴿تَدَّعُونَ﴾ أنكم لا تبعثون، وثالثها: أن يكون هذا استفهامًا على سبيل الإنكار، والمعنى أهذا الذي تدعون، لا بل كنتم تدعون عدمه.

المسألة الثالثة: قرأ يعقوب الحضرمي (تَدْعُونَ) خفيفة من الدعاء، وقرأ السبعة ﴿تَدَّعُونَ﴾ مثقلة من الادِّعَاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أن هذا الجواب هو من النوع الثاني مما قاله الكفار لمحمد ﷺ حين خوفهم

بعذاب الله، يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] وقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] ثم إنه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: هو هذه الآية، والمعنى قل لهم: إن الله تعالى سواء أهلكني بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل، فأي راحة لكم في ذلك، وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها، فإذا علمتم أن لا مجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث.

الوجه الثاني: في الجواب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

والمعنى أنه الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا، مع أنا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم، وقرئ (فَسَتَعْلَمُونَ) على المخاطبة، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

واعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره، ذكر الدليل عليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر، أي أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبًا في الأرض فمن يأتيكم بماء معين، فلا بد وأن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكًا له في المعبودية؟ وهو كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩] وقوله: ﴿غَوْرًا﴾ أي غائرًا ذاهبًا في الأرض يقال: غار الماء يغور غورًا، إذا نضب وذهب في الأرض، والغور هاهنا بمعنى الغائر سمي بالمصدر كما يقال: رجل عدل ورضا، والمعين الظاهر الذي تراه العيون فهو من مفعول العين كمبيع، وقيل: المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجري كأنه قيل: ممعن في الجري، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة المُلْك

مكيَّةٌ في قول الجميع. وتُسَمَّى: الواقية والمُنْجِيَة. وهي ثلاثون آية[١] روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: ضَرَب رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ خِباءَه على قبر، وهو لا يحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورةَ المُلْك حتى خَتَمَها، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ضربتُ خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورة المُلْك حتى ختمها! فقال رسولُ الله ﷺ: «هي المانعةُ، هي المُنْجِيةُ؛ تُنْجيه من عذاب القبر». قال: حديثٌ حسن غريب[٢].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْتُ أنَّ «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ» في قلب كلِّ مؤمن». ذكره الثعلبي[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ سورةً من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية، شفعت لرجلٍ حتى أخرجته من النار يوم القيامة، وأدخلته الجنَّة وهي سورة تبارك». خَرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وقال فيه: حديث حسن[٤].

وقال ابن مسعود: إذا وُضع الميِّت في قبره فيؤتَى من قِبلَ رجليه، فيُقال: ليس

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٣ .

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩٠)، وكلامه بتمامه: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي هريرة. اهـ . وفيه يحيى بن عمرو النكري وهو ضعيف. وذكر الحديث الذهبيُّ في ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٩ وعدَّه من مناكير يحيى.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٦١٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٧ : وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٥٦٥ من طريق حفص بن عمر المدني وقال: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: حفص واه.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩١)، وأخرجه أيضاً بمثل لفظ الترمذي: أحمد (٧٩٧٥)، وأبو داود (١٤٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦١٢)، وابن ماجه (٣٧٨٦). وهو بلفظ المصنف عند الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩ .

لكم عليه سبيل، فإنَّه كان يقومُ بسورة الملك على قدميه. ثم يُؤتَى من قِبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنَّه كان يقرأُ بي[١] سورةَ الملك، ثمَّ قال: هي المانعةُ من عذاب القبر[٢]، وهي في التوراة سورةُ الملك؛ من قرأها في ليلةٍ فقد أكثر وأطيب[٣]. ورُوي أنَّ من قرأها كلَّ ليلةٍ لم يضرَّه الفتان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل؛ من البركة. وقد تقدَّم[٤]. وقال الحسن: تقدَّس. وقيل: دام. فهو الدائمُ الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه.

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: ملكُ السماوات والأرض في الدنيا والآخرة[٥]. وقال ابن عباس: بيده الملك؛ يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُفقِر، ويُعطي ويمنع[٦]. وقال محمدُ بن إسحاق: له ملك النبوَّة التي أعزَّ بها من اتبعه، وذلَّ بها من خالفه. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعامٍ وانتقام[٧].

---

(١) في (ف) في، وليست في (د) و(ظ) و(ف). والمثبت من (خ) و(ز) و(م).

(٢) في النسخ عدا (ظ): عذاب الله.

(٣) في (د) والمستدرك وشعب الإيمان: أطنب. والمثبت من بقية النسخ والمصادر الآتية، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٢٥)، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٥١)، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩٨ ، وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وقال: الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٨ : وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة. وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) ٩/ ٢٤٤ و ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٤٩ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٩ مختصراً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٤٩ . وكلام محمد بن إسحاق منه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني: للموت في الدنيا، والحياة في الآخرة(١).

وقدَّم الموتَ على الحياة؛ لأنَّ الموتَ إلى القهر أقرب؛ كما قدَّم البناتِ على البنين فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا﴾ [الشورى: ٤٩].

وقيل: قدَّمه لأنَّه أقدم؛ لأنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت؛ كالنُّطْفَة والتراب ونحوه(٢).

وقال قتادة: كانَ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى أذلَّ بني آدم بالموت، وجعلَ الدنيا دارَ حياةٍ ثمَّ دارَ مَوْت، وجعل الآخرةَ دار جزاءٍ ثم دار بقاء»(٣).

وعن أبي الدَّرْدَاء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لولا ثلاثٌ ما طأطأ ابنُ آدم رأسَه: الفقر، والمرض، والموت، وإنَّه مع ذلك لَوَثَّاب»(٤).

المسألة الثانية: ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قُدِّمَ الموتُ على الحياة، لأنَّ أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نَصَب موتَه بين عينيه؛ فَقُدِّم لأنَّه فيما يرجع إلى الغرضِ المسوق له الآيةُ أهمّ(٥).

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٠ .

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ٦ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥٠ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩١ ، والطبري مختصراً ٢٢/ ٦٣٦ و ٢٣/ ١١٨ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ١٧٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٧ : لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو مرسل.

(٤) لم نقف عليه عن أبي الدرداء، وذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٧٧ من قول سفيان بن عيينة.

(٥) الكشاف ٤/ ١٣٤ .

قال العلماء: الموتُ ليسَ بعدمٍ مَحْضٍ، ولا فَناءٍ صِرْف، وإنَّما هو انقطاعُ تعلُّقِ الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولةٌ بينهما، وتبدُّلُ حالٍ، وانتقالٌ من دار إلى دار. والحياةُ عكس ذلك[١]. وحُكي عن ابن عباس والكَلْبي ومُقاتل: أنَّ الموتَ والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبشٍ لا يمرُّ بشيءٍ ولا يجدُ ريحَه إلا مات، وخَلق الحياة على صورة فرسٍ أنثى بلْقاء - وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها - خطوها[٢] مدُّ البصر، فوقَ الحمار ودون البغل، لا تمرُّ بشيءٍ يجدُ ريحها إلا حَيِيَ، ولا تطأُ على شيء إلا حَيِيَ. وهي التي أخذ السَّامِرِيُّ من أثرها فألقاه على العجل فَحَيِيَ[٣]. حكاه الثعلبيّ والقُشَيري عن ابن عباس[٤]. وحكى المَاوَرْدِي[٥] معناه عن مقاتل والكلبيّ.

قلت: وفي التنزيل ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ثمَّ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، ثمَّ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. فالوسائطُ ملائِكةٌ مكرَّمون صلوات الله عليهم. وهو سبحانه المميت على الحقيقة، وإنَّما يُمَثَّل الموت بالكبش في الآخرة[٦] ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح[٧]. وما ذُكِر عن ابن عباس يحتاجُ إلى خبرٍ صحيح يَقطع العذر. والله أعلم.

وعن مقاتل أيضاً: خلق الموت؛ يعني: النُّطْفَة والعَلَقَة والمُضْغَة، وخلق الحياة؛

(١) ينظر المفهم ٧/ ١٤٥.
(٢) في (ق) و(م) خطوتها.
(٣) سلف الخبر ١٤/ ١٢٧.
(٤) وذكره البغوي ٤/ ٣٦٩.
(٥) في النكت والعيون ٦/ ٥٠، ولفظة: حكى. من (ظ).
(٦) وقعت العبارة في (خ) و(ز) و(ف) و(ق): أما إنه يمثل الموت بالكبش في الآخرة، وفي (ظ): أما إنه جاء بمثل الموت من الآخرة بكبش. والمثبت من (د) و(م).
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٩).

يعني: خَلَق إنساناً ونَفَخ فيه الروح فصار إنساناً[١].

قلت: وهذا قولٌ حسن؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وتقدَّم الكلام فيه في سورة الكهف[٢].

وقال السُّدِّيّ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أكثرُكم للموت ذكراً، وأحسنُ استعداداً، ومنه أشدُّ خوفاً وحذراً[٣].

وقال ابن عمر: تلا النبيُّ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حتى بلغ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: «أَوْرَعُ عن محارم الله، وأسرعُ في طاعة الله»[٤].

وقيل: معنى «لِيَبْلُوَكُمْ»: ليعاملَكم معاملةَ المختبر، أي: ليبلُوَ العبدَ بموت من يَعِزُّ عليه؛ ليُبيِّن صبره، وبالحياة؛ ليُبيِّن[٥] شكره. وقيل: خَلَق الله الموتَ للبعث والجزاء، وخَلَق الحياةَ للابتلاء. فاللام في «لِيَبْلُوَكُمْ» تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت؛ ذكره الزَّجَّاج[٦]. وقال الفَرَّاء والزَّجَّاج أيضاً[٧]: لم تقع البَلْوَى على «أيّ»؛ لأنَّ فيما بين البلوى و«أيّ» إضمارُ فعل؛ كما تقول: بلوتُكم لأنظرَ أيُّكم أطوع. ومثلُه قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي: سَلْهم، ثمَّ انظرْ أيُّهم. فـ«أيُّكم»[٨] رُفِع بالابتداء، و«أَحْسَنُ» خبره[٩]. والمعنى: ليبلوكم فيعلم أو فينظر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٨٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٥ .

(٢) ١٣/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٨٨)، وذكره الماوردي في تفسيره ٦/ ٥٠ .

(٤) هو حديث ضعيف وسلف ١١/ ٧٦ .

(٥) في (ظ): ليتبين. في الموضعين.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ١٩٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٧ .

(٨) في (خ) و(ظ) و(ف) و(ق): فأيهم، وسقطت اللفظة من (د)، والمثبت من (م) .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩ وكلام الفراء السالف منه.

أيُّكم(١) أحسنُ عملاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب إليه(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضُها فوق بعض. والملتزقُ منها أطرافها؛ كذا رُوي عن ابن عباس. و«طِبَاقاً» نعتٌ لـ «سَبْع»؛ فهو وصفٌ بالمصدر. وقيل: مصدرٌ بمعنى المطابقة، أي: خَلَق سبعَ سماواتٍ، وطبَّقها تطبيقاً أو مطابقة. أو على: طُوبقت طِباقاً(٣).

وقال سيبويه: نصب «طباقاً» لأنَّه مفعولٌ ثان.

قلت: فيكون «خَلَقَ» بمعنى جعل وصَيَّر.

وطِباق جمع طَبَق؛ مثل جَمَل وجِمال. وقيل: جمع طبقة. وقال أبَان بن تَغْلِب: سمعتُ بعضَ الأعراب يذمُّ رجلاً فقال: شَرُّهُ طِباق، وخيرُه غير باق(٤).

ويجوز في غير القرآن سبعَ سماوات طباقٍ؛ بالخفض على النعت لسماوات(٥). ونظيره ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قراءةُ حمزةَ والكسائيّ: «مِن تَفَوُّتٍ» بغير ألف مشدَّدة. وهي قراءةُ ابن مسعود وأصحابه(٦). الباقون: «منْ تَفَاوُتٍ» بألف. وهما

---

(١) لفظة: أيكم. من(ظ) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٢) لفظة: إليه. ليست في (د) و(م). والمثبت موافق لتفسير البغوي ٤/ ٣٦٩.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٨.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢.

لغتان[١]؛ مثل التعاهد والتعهُّد، والتحمُّل والتحامل، والتظهُّر والتظاهر، وتصاغر وتصغّر وتضاعف وتضعّف، وتباعد وتبعّد؛ كلُّه بمعنًى.

واختار أبو عبيد «من تَفَوُّت»، واحتجَّ بحديث عبد الرحمن بن أبي بكر: «أَمِثْلِي يُتَفَوَّتُ عليه في بَنَاتِهِ»[٢]!

النَّحَّاس[٣]: وهذا أمرٌ مردودٌ على أبي عبيد؛ لأنَّ يُتفوّت: يُفتات بهم. «وتفاوت» في الآية أشبه. كما يقال: تباين يقال: تفاوتَ الأمرُ: إذا تباين وتباعد، أي: فات بعضُها بعضاً. ألَا ترى أنَّ قبلَه قولَه: تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾. والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاجٍ ولا تناقضٍ ولا تباين - بل هي[٤] مستقيمةٌ مستويةٌ دالَّة على خالقها - وإنْ اختلفت صُوَره وصفاته.

وقيل: المرادُ بذلك السماوات خاصة، أي: ما ترى في خلق السماوات من عَيْب[٥].

وأصله من الفَوْت؛ وهو أنْ يفوتَ شيءٌ شيئاً، فيقع الخلل لقلَّة استوائها[٦]؛ يدلُّ

---

(١) هو قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٧٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨ .

(٢) قطعة من خبر تزويج عائشة رضي الله عنها لحفصة بنت عبد الرحمن من المنذر بن الزبير، وعبد الرحمن غائب بالشام؛ أخرجه مالك ٢/ ٥٥٥ ، وعبد الرزاق (١١٩٤٧)، وسعيد بن منصور (١٦٦٦٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ١٣٤ بلفظ يُفتات. بدل يتفوت. وهما بمعنى. قال ابن الأثير في النهاية (فوت): يقال تفَوّت فلان على فلان في كذا، وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف فيه . اهـ.

غير أن الحديث الذي احتج به أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٢٨ ونقله عنه الرازي في تفسيره ٣٠/ ٥٧ هو حديث عائشة: قالت: تفوت رجل بمال نفسه على أبيه... أخرجه ابن أبي حاتم في العلل ١/ ٤٧٠ ، وابن عدي في الكامل ٢/ ٦١١ .

(٣) لم نقف على كلامه، ولعله في معانيه، وهو بنحوه في إعراب القرآن له ٤/ ٤٦٨، وذكر فيه اختيار أبي عبيد السالف.

(٤) في (ظ): كل شيء من سماء وغيرها. بدل: بل هي.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨ .

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٧٤ .

عليه قول ابن عباس ﷺ: من تَفَرُّق[١]. وقال أبو عبيدة[٢]: يقال: تفوَّت الشيءُ، أي: فات.

ثم أَمَر بأنْ ينظروا في خلقه، ليعتبروا به، فيتفكروا في قدرته فقال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: أُردُد طَرْفَكَ إلى السماء. ويقال: قلِّب البصر في السماء. ويقال: اِجْهَدْ بالنظر إلى السماء. والمعنى متقارب. وإنما قال: «فَارْجِعِ» بالفاء، وليس قبلَه فعلٌ مذكور؛ لأنَّه قال: «ما تَرَى».

والمعنى: انظر ثمَّ ارجع البصر؛ هل ترى من فُطور؟ قاله قتادة[٣].

والفُطور: الشّقوق، عن مجاهد والضحاك. وقال قتادة: من خَلَل. السُّدِّيّ: من خُروق. ابن عباس: من وَهْن[٤]. وأصلُه من التّفطُّر والانفطار، وهو الانشقاق. قال الشاعر:

بَنَى لكُمُ بِلا عَمَدٍ سماءً ... وَزيَّنَها فما فيها فُطورُ[٥]

وقال آخر:

شَقَقْتِ القلبَ ثمَّ ذَرَرْتِ فيه ... هَواكِ فَلِيم فالتَامَ الفُطُورُ

تَغلْغل حيثُ لم يبلُغْ شرابٌ ... ولا سَكَرٌ ولم يبلُغْ سرور[٦]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٢) في (ظ) أبو عبيد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥١ ولفظه فيه: معناه فانظر إلى السماء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٥) هو في البحر ٨/ ٢٩٨ بلفظ: وسواها. بدل: وزينها.

(٦) البيتان لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٥٤ ، والأغاني ٩/ ١٥١ ، باختلاف يسير وتقديم وتأخير. قال الخطيب التبريزي في شرح الحماسة ٣/ ١٦٧ : فليم يحتمل وجهين: أحدهما ـ وهو الأشبه ـ: أن يريد لئم من الالتئام... والآخر: أن يكون ليم من اللأم، أي: لما عوتب كتم ما به فالتأم فطوره.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ «كرتينِ» في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي: مَرَّةً بعد أخرى. وإنَّما أَمَر بالنظر مرتين؛ لأنَّ الإنسان إذا نظر في الشيء مرةً لا يرى عَيْبَه ما لم ينظر إليه مرةً أُخرى. فأخبرَ تعالى أنَّه ـ وإنْ نظر في السماء مرتين ـ لا يرى فيها عيباً، بل يتحيَّر بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: خاشعاً صاغراً متباعداً عن أنْ يَرى شيئاً من ذلك.

يقال: خسأتُ الكلبَ، أي: أبعدته وطردته. وخسأَ الكلبُ بنفسه؛ يتعدَّى ولا يتعدَّى. وانخسأ الكلبُ أيضاً. وخَسَأ بصرُه خَسْأً وخُسوءاً، أي: سَدِر[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾[٢]. وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم يرَ ما يهوى[٣].

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: قد بلغ الغايةَ في الإعياء. فهو فعيل[٤] بمعنى فاعل؛ من الحُسور الذي هو الإعياء. ويجوز أنْ يكون مفعولاً من حسره بُعْدُ الشيء[٥]، وهو معنى قول ابن عباس. ومنه قولُ الشاعر:

مَن مَدَّ طَرْفاً إلى ما فوقَ غايتِهِ ارْتدّ خَسْآنَ منه الطَّرْفُ قد حَسَرا[٦]

يقال: قد حَسَر بَصَرُه يَحْسِر حُسوراً، أي: كَلَّ وانقطعَ نظرُه من طول مَدًى، وما أشبه ذلك، فهو حَسيرٌ ومحسورٌ أيضاً[٧]. قال:

---

(١) أي: لم يكد يبصر. اللسان (سدر).

(٢) الصحاح (خسأ).

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/٥٨ .

(٤) قوله: فعيل، من (ظ).

(٥) ذكر الاحتمالين الأخيرين الرازي في تفسيره ٣٠/٥٩ وعزاهما للواحدي.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٥٢ .

(٧) الصحاح (حسر).

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنًى فعادَ إليَّ الطَّرْفُ وهو حسيرُ[١]

وقال آخر يصف ناقة:

فشَطْرَهَا نَظَرُ العينين محسورُ

نصب «شطرها» على الظرف، أي: نحوَها[٢].

وقال آخر:

والخيلُ شُعْثٌ ما تزال جيادُها حَسْرَى تغادرُ بالطَّريق سِخالَها[٣]

وقيل: إنَّه النادم. ومنه قول الشاعر:

ما أنا اليومَ على شيءٍ خَلَا يا ابنة القين تَوَلَّى بِحَسِرْ[٤]

والمرادُ بـ «كَرَّتَيْنِ» هاهنا التكثير. والدليلُ على ذلك: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وذلك دليلٌ على كثرة النظر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، وهو السراج. وتُسَمَّى الكواكبُ مصابيحَ لإضاءتها[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (حسر)، وشطر البيت المذكور هو لقيس بن خويلد الهذلي، وصدره: إن الحسير بها داءٌ مخامرها. وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٨١ وفيه: بالخيل شعثاً، بدل: والخيل شعث، و: رُجْعا، بدل: حسرى. وهو برواية المصنف عند الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٤) البيت للمَرَّار بن منقذ كما في المفضليات ص٨٢ . وفيه: مضى، بدل: خلا، و: القوم، بدل: القين، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٥) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٣٥ ، ومجمع البيان ٢٩/ ٧ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٠ .

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ أي: جَعَلنا شُهُبَها؛ فحذف المضاف. دليلُه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات: ١٠]. وعلى هذا فالمصابيحُ لا تزول ولا يُرجم بها. وقيل: إنَّ الضميرَ راجعٌ إلى المصابيح على أنَّ الرجم من أنفُس الكواكب، ولا يسقطُ الكوكب نفسُه، إنَّما ينفصلُ منه شيءٌ يُرْجَم به من غير أنْ ينقص ضوءه ولا صورته؛ قاله أبو عليّ[١] جواباً لمن قال: كيف تكون زينةً وهي رجومٌ لا تبقى؟

قال المهدَوِيّ: وهذا على أنْ يكون الاستراقُ من موضع الكواكب، والتقديرُ الأوّل على أنْ يكون الاستراقُ من الهوى[٢] الذي هو دونَ موضع الكواكب.

القُشَيْري: وأمثلُ من قول أبي عليّ أنْ نقول: هي زينةٌ قبل أنْ يُرجَم بها الشياطين. والرُّجوم: جمعُ رَجْم، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يرجم به[٣].

قال قتادة: خَلَق اللَّه تعالى النجومَ لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها في البرِّ والبحر والأوقات. فمن تأوَّل فيها غيرَ ذلك فقد تكلَّف ما لا علم له به، وتعدَّى وظلم[٤].

وقال محمدُ بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنَّهم يتَّخذونَ الكهانةَ سبيلاً[٥]، ويتَّخذون النُّجومَ عِلَّةً[٦].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: أعتدنا للشياطين أشدَّ الحريق؛ يقال: سَعَرْتُ النار؛ فهي مسعورةٌ وسعير؛ مثل: مقتولة وقتيل. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

---

(١) هو الجبائي. وذكر معنى كلامه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧ . وينظر الكشاف ٤/ ١٣٥ .

(٢) كذا في النسخ، ولعلها: الهواء، ويعني به الفراغ.

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٣ ، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩١٣ (١٦٥٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٦) مطولاً.

(٥) لفظة: سبيلاً. من (د) و(م) وليست في باقي النسخ والمصادر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣١ (١٦٠٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٧١٠)، وفيهما وفي الدر المنثور ٣/ ٣٥: يتبعون الكهنة.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ يعني الكفار. ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ أي: صَوْتاً. قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عندَ إلقاء الكفَّار فيها؛ تَشْهَق إليهم شهقةَ البغلة للشعير، ثم تَزفِرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلَّا خاف. وقيل: الشَّهِيقُ من الكفَّار عند إلقائهم في النار(١)؛ قاله عطاء(٢). والشَّهيق في الصَّدر، والزَّفِير في الحَلْق. وقد مضى في سورة هود(٣).

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تَغْلِي، ومنه قولُ حسان(٤):

تركتُم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ

قال مجاهد: تفورُ بهم كما يَفور الحَبُّ القليلُ في الماء الكثير(٥). وقال ابن عباس: تَغْلي بهم غليَ المِرْجَل(٦)؛ وهذا من شدَّة لَهَب النار من شدَّة الغضب؛ كما تقول: فلانٌ يفور غَيْظاً.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ يعني: تتقطَّع ويَنْفصِلُ بعضُها من بعض؛ قاله سعيد بن جُبَير(٧). وقال ابنُ عباس والضَّحَّاك وابنُ زيد: تتفرَّق. «مِنَ الْغَيْظِ»: من شدَّة

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣.

(٢) وقول عطاء ـ كما ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣ ـ: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقاً.

(٣) ١١/ ٢١١ - ٢١٢.

(٤) بل هو من قول جبل بن جوال الثعلبي يخاطب به حسان بن ثابت ﵁. ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣، وديوان حسان ص١١٠، وسلف ١١/ ١١٦.

(٥) ذكره الواحدي ٤/ ٣٢٧، والبغوي ٤/ ٣٧٠.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٥٣.

الغيظ على أعداء الله تعالى. وقيل: «مِنَ الْغيظِ»: من الغليان[١]. وأصل «تميّزُ»: تتميز ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾أي: جماعةٌ من الكفار. ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: رسولٌ في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ أنذرنا وخوَّفنا. ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: على ألسنتكم. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشرَ الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ اعترفوا بتكذيب الرُّسل. ثمَّ اعترفوا بجهلهم[٢]؛ فقالوا وهم في النَّار: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ من النذر ـ يعني الرسل ـ ما جاؤوا به ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ عنهم. قال ابن عباس: لو كنَّا نسمعُ الهدى أو نَعقله[٣]، أو: لو كنَّا نَسمع سماعَ من يَعِي ويفكِّر، أو نعقلُ عقْلَ من يُميِّز وينظر[٤]. ودلَّ هذا على أنَّ الكافر لم يُعْطَ من العقل شيئاً. وقد مضى في «الطُّور» بيانه[٥] والحمد لله.

﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني ما كنَّا من أهل النَّار. وعن أبي سعيدٍ الخُدرِيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد نَدِم الفاجرُ يومَ القيامة قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فقال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾»[٦]. أي: بتكذيبهم الرسل. والذنبُ هاهنا بمعنى الجمع؛ لأنَّ فيه معنى الفعل. يقال: خَرَج عطاءُ النَّاس، أي: أعْطِيَتهم[٧].

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فبُعْداً لهم من رحمة الله. وقال سعيدُ بن جُبَير وأبو

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣. وتفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الوجيز للواحدي (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩ .

(٥) ١٩/ ٥٣٤ .

(٦) أخرجه الحارث في مسنده (زوائد الهيثمي) (٨٤٠) من طريق داود بن المحبر. قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ١٣: [أحاديث] كتاب العقل لداود بن المحبر أودعها الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء.

(٧) في (ظ): أعطياتهم، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٦ .

صالح: هو وادٍ في جهنَّم يُقال له: السُّحْق[(١)]. وقرأ الكسائيُّ وأبو جعفر: «فَسُحُقاً» بضَمِّ الحاء[(٢)]، ورُوِيَت عن عليّ[(٣)]. الباقون بإسكانها، وهما لغتان مثل السُّحْتُ والرُّعْبُ. الزَّجَّاج[(٤)]: وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أسحقَهم الله سُحقاً، أي: باعدَهم بُعْداً. قال امرؤُ القيس:

يجولُ بأطراف البلاد مُغَرِّباً ... وتَسْحَقُه رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ[(٥)]

وقال أبو عليّ[(٦)]: القياسُ: إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف؛ كما قيل:

وإن أهلِك فذلك كان قَدْري[(٧)]

أي: تقديري.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ من قول خزنة جهنَّم لأهلها[(٨)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ نظيره: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٦.

(٢) قراءة الكسائي في السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، وقراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢١٧ من رواية ابن جماز عنه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٩٩.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٧١، وفيه: بآفاق. بدل: بأطراف. قال شارحه: وتسحقه: أي تبعده وتذهب به.

(٦) في الحجة ٦/ ٣٠٧.

(٧) هو عجز بيت صدره: فإن يبرأ فلم أنفث عليه. ذكره صاحب المفضليات ص٧٠، ونسبه لرجل من عبد القيس. وذكره أبو علي في الحجة ٢/ ١٢٩، وابن الشجري في أماليه ٢/ ١١٠ دون نسبة. وفي المصادر: يهلك. بدل: أهلك.

(٨) الكشاف ٤/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٠.

[ق:٣٣]. وقد مضى الكلام فيه. أي: يخافون الله، ويخافون عذابَه الذي هو بالغيب، وهو عذابُ يوم القيامة[١]. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ اللفظُ لفظ الأمر، والمرادُ به الخبر، يعني: إنْ أخفيتُم كلامَكم في أمر محمدٍ ﷺ، أو جهرتم به؛ فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢] يعني بما في القلوب من الخير والشر.

ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبيّ ﷺ، فيخبرُه جبريلُ عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسِرُّوا قولَكم كي لا يسمعَ ربُّ محمد[٣]، فنزلت: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾، يعني: أسِرُّوا قولَكم في أمر محمدٍ ﷺ، وقيل: في سائر الأقوال. أوِ اجْهَرُوا بِهِ: أعلنوه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذاتُ الصدور ما فيها؛ كما يسمَّى ولدُ المرأة وهو جنين: «ذا بطنها».

ثم قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: ألَا يعلمُ السرَّ من خَلَق السرَّ؟! يقول: أنا خلقتُ السرَّ في القلب، أفلا أكونُ عالماً بما في قلوب العباد؟! وقال أهل المعاني: إنْ شئتَ جعلت «مَن» اسماً للخالق جلَّ وعزَّ؛ ويكون المعنى، ألا يعلم الخالقُ خلقَه. وإنْ شئتَ جعلتَه اسماً للمخلوق، والمعنى: ألَا يعلم اللهُ مَن خلق. ولابدَّ أنْ يكون الخالقُ عالماً بما خلقَه وما يخلقه[٤].

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٤/٣٢٨، والمحرر الوجيز ٥/٣٤٠.

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/١٣٧، ومجمع البيان ٢٩/١٣.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٧٠، والوسيط ٤/٣٢٩، والبغوي في تفسيره ٤/٣٧١.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/٦٨.

قال ابن المسيّب: بينما رجلٌ واقفٌ باللّيل في شجرٍ كثير، وقد عَصَفت الريح، فوقعَ في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يَسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغَيْضة بصوتٍ عظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايِيني: مِن أسماء صفات الذّات ما هو للعلم:

منها: «العَلِيمُ»، ومعناه: تعميمُ جميع المعلومات.

ومنها: «الخَبِيرُ»، ويختصُّ بأنْ يَعلم ما يكون قبلَ أنْ يكون.

ومنها: «الحَكِيم»، ويختصُّ بأنْ يعلمَ دقائقَ الأوصاف.

ومنها: «الشهيد»، ويختصُّ بأنْ يَعلم الغائبَ والحاضر، ومعناه أنَّه لا[1] يغيبُ عنه شيءٌ.

ومنها: «الحافظ»، ويختصُّ بأنَّه لا ينسى.

ومنها: «المُحْصِي»، ويختصُّ بأنَّه لا تَشْغله الكثرةُ عن العلم؛ مثل ضوء النُّور، واشتدادِ الريح، وتساقطِ الأوراق؛ فيَعلمُ عند ذلك [عدد] أجزاءِ الحركات في كلِّ ورقة. وكيف لا يَعلم وهو الذي يَخلق؟! وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة تستقرُّون[3] عليها. والذَّلُول: المنقادُ الذي يَذِلُّ لك، والمصدر: الذِّل؛ وهو اللِّينُ والانقياد[4]. أي: لم

(١) في (د): إذ لا. وفي (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): أن لا. والمثبت من (ظ) وشعب الإيمان.

(٢) شعب الإيمان ١/ ١٢١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): يستقر.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٦٨ .

يجعل الأرضَ بحيثُ يمتنع المشيُ فيها بالحزونة والغِلظة[١]. وقيل: أي: ثبَّتها بالجبال لئلَّا تزولَ بأهلها؛ ولو كانت تتكفَّأُ متمايلةً لما كانت منقادةً لنا. وقيل: أشارَ إلى التمكُّن من الزرع والغرس، وشقِّ العيون والأنهار وحفر الآبار.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمرُ إباحة[٢]، وفيه إظهار الامتنان. وقيل: هو خبرٌ بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافِها ونواحيها، وآكامها وجبالها[٣].

وقال ابن عباس وقتادةُ وبُشَير بن كعب[٤]: «في مَنَاكِبِهَا»: في جبالها[٥]. ورُوِيَ أنَّ بُشَير بن كعب كانت له سُرِّيّة فقال لها: إنْ أخبرتِني ما مناكب الأرض فأنت حرَّة. فقالت: مناكبُها جبالُها. فصارت حرَّة، فأرادَ أنْ يتزوَّجها، فسألَ أبا الدرداء فقال: دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك[٦].

مجاهد: في أطرافها. وعنه أيضاً: في طرقها وفِجاجها[٧]. وقاله السُّدِّيُّ والحسن[٨]. وقال الكَلْبي: في جوانبها. ومَنْكِبَا الرجل: جانباه[٩]. وأصلُ المَنْكِب الجانب، ومنه مَنْكِب الرجل، والريح النكباء، وتَنَكَّب فلانٌ عن فلان[١٠]. يقول:

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٦٩.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨.

(٤) هو أبو أيوب الحميري العدوي البصري، العابد، أحد المخضرمين، وثَّقه النسائي وغيره، وكان أحد القراء والزهاد. سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٥٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨، وأخرجه الطبري بنحوه ٢٣/ ١٢٨. وقول أبي الدرداء: «دع ما يريبك إلى ما لايريبك» هو قطعة من حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٣٢٧. عن الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٩.

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٤ عن مجاهد والسدي، وذكره عن الحسن البغويُّ ٤/ ٣٧١.

(٩) وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٧٥، ونقله عنه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٨٨، والبغوي ٤/ ٣٧١، والرازي ٣٠/ ٦٩. وقول الكلبي كما ذكره البغوي ٤/ ٣٧١. مناكبها: أطرافها.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١.

امشوا حيثُ أردتم فقد جعلتُها لكم ذَلولاً لا تمتنع.

وحَكى قتادة عن أبي الجلد: أنَّ الأرضَ أربعةٌ وعشرون ألف فرسخ؛ فللسودان اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانيةُ آلاف، وللفرس ثلاثةُ آلاف، وللعرب ألف[١].

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما أحلَّه لكم؛ قاله الحسن. وقيل: مما أنبتَه[٢] لكم. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: المرجع. وقيل: معناه أنَّ الذي خلق السماء لا تفاوتَ فيها، والأرضَ ذَلولاً قادرٌ على أنْ يُنشِركم[٣].

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: أمِنتم عذابَ من في السماء إنْ عصيتموه[٤]. وقيل: تقديره أمِنتم[٥] من في السماء قدرتُه وسلطانُه وعرشُه ومملكتُه[٦]. وخصَّ السماء ـ وإنْ عَمَّ مُلْكُه ـ تنبيهاً على أنَّ الإله الذي تنفذُ قدرتُه في السماء، لا من يعظِّمونَه في الأرض. وقيل: هو إشارةٌ إلى الملائكة[٧]. وقيل: إلى جبريل، وهو المَلَكُ المُوَكَّل بالعذاب[٨].

قلت: ويَحتمل أنْ يكون المعنى: أمنتم خالقَ مَن في السماء أنْ يخسفَ بكم الأرض كما خسفَها بقارون.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تَذهبُ وتجيء. والمَوْر: الاضطرابُ بالذهاب والمجيء. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٤ .

(٢) في (م) أتيته، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٤/ ٥٥ والكلام منه.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٢٢ .

(٥) في (م) أأمنتم. في الموضعين.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٥ عن ابن بحر.

(٨) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القلوبَ ولن ترى دماً مائراً إلَّا جَرَى في الحَيَازِمِ[١]

جمع حَيْزوم، وهو وسطُ الصدر. وإذا خُسِف بإنسانٍ دارت به الأرض، فهُو المَوْر.

وقال المحققون: أمنتم مَن فوق السماء؛ كقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: فوقَها، لا بالمماسَّة والتحيُّز، لكن بالقهر والتدبير. وقيل: معناه: أمنتم مَنْ على السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها[٢]. ومعناه أنَّه مُدبِّرها ومالكُها؛ كما يقال: فلانٌ على العراق والحجاز، أي: واليها وأميرها. والأخبارُ في هذا الباب كثيرةٌ صحيحةٌ منتشرة، مشيرةٌ إلى العلوّ؛ لا يدفعها إلَّا مُلْحِدٌ أو جاهلٌ معاند؛ والمرادُ بها: توقيرُه وتنزيهُه عن السُّفل والتَّحت. ووصفه بالعلوّ والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنَّها صفات الأجسام. وإنَّما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأنَّ السماءَ مَهْبِطُ الوحي، ومَنزِلُ القطر، ومَحِلُّ القُدس، ومعدنُ المُطهَّرين من الملائكة، وإليها تُرفعُ أعمالُ العباد، وفوقها عرشُه وجنَّته؛ كما جعلَ الله الكعبةَ قِبلةً للصَّلاة[٣]، ولأنَّه خَلقَ الأمكنةَ وهو غير محتاجٍ إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان.

وقرأ قُنْبل عن ابن كَثير: «النُّشور وامنتم» بقلبِ الهمزة الأولى واواً وتخفيف الثانية[٤]. وقرأ الكوفيون والبصريون وأهلُ الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتحقيق[٥]

---

(١) البيت لأبي حية النمري، وهو في الكامل ١/ ١٠٠، والأمالي ٢/ ٢٨١ قال في رغبة الآمل ١/ ٢٣٢: فأقصدن القلوب: أصبنها؛ من قولهم: قصدت الرجل: إذا طعنته أو رميته فلم تخطئ مقاتله. دماً مائراً: سائلاً، من مار الدم يمور: سال.

(٢) ينظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٣٢٤، والمفهم ٢/ ١٤٤.

(٣) في (م): للدعاء والصلاة.

(٤) يعني في الوصل. السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): بالتخفيف وهو خطأ.

في الهمزتين، وخفَّف الباقون[١]. وقد تقدَّم جميعُه[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارةً من السماء كما أرسلَها على قوم لوط وأصحاب الفِيل. وقيل: ريحٌ فيها حجارةٌ وحَصْباء. وقيل: سحابٌ فيه حجارة. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري. وقيل: النذيرُ بمعنى المنذر؛ يعني: محمداً ﷺ، أي: فستعلمون صدقَه وعاقبةَ تكذيبكم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وقومِ لوطٍ، وأصحابِ مَدْيَن، وأصحابِ الرَّسِّ، وقومِ فرعون. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري. وقد تقدَّم[٤].

وأثبتَ وَرْش الياء في «نذيري، ونكيري» في الوصل. وأثبتَها يعقوب في الحالين. وحذفَ الباقون اتِّباعاً للمصحف[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أي: كما ذلَّل الأرضَ للآدميّ،

---

(١) غير أن أبا عمرو البصري وقالون يدخلان ألفاً بينهما. ولهشام التسهيل والتحقيق مع الإدخال فيهما، ولورش وجه آخر: الإبدال مع القصر. ينظر السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، والنشر ١/ ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٧٠.

(٤) ١٤/ ٤١٤.

(٥) التيسير ص٢١٣، والنشر ٢/ ٣٨٩.

ذلَّل الهواءَ للطيور. و«صَافَّات» أي: باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طيرانها؛ لأنَّهنَّ إذا بسطنَها صَفَفْنَ قوادمها[(١)] صَفاً. ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أي: يضربْنَ بها جُنُوبَهُنَّ.

قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صافٌّ، وإذا ضَمَّهما فأصابا جَنْبَه: قابضٌ؛ لأنَّه يقبضُهما. قال أبو خِرَاش:

يبادر جُنْحَ الليل فهو مُوَائل[(٢)] يَحُثّ الجناح بالتَّبَسُّطِ والقَبْضِ[(٣)]

وقيل: ويقبضنَ أجنحتَهُنَّ بعد بسطها: إذا وقفنَ من الطيران. وهو معطوفٌ على «صَافَّاتٍ» عطفَ المضارع على اسم الفاعل؛ كما عطفَ اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

باتَ يُغَشِّيها[(٤)] بعَضْبٍ باترٍ يَقْصِدُ في أسْوُقِها وجائِرِ[(٥)]

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: ما يُمسِكُ الطيرَ في الجوِّ وهي تطير إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: حزبٌ وَمَنَعةٌ لكم[(٦)].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): قوائمها، وفي (ق) قواه، والمثبت من (خ) والكشاف ٤/ ١٣٨، والكلام منه. وقوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشرٌ في كل جناح، الواحدة قادمة. الصحاح (قدم).

(٢) موائل: من واءل فلان مواءلة ووئالاً: لجأ وخلص، ووائل الطائر: لاوذ بشيءٍ خوفاً من الصقر. المعجم الوسيط (وأل). ووقع في المصادر الآتية: مهابذ بدل: موائل. قال أبو علي القالي: المهابذ: المجاهد في العدو والسير، ويقال: أهذب وأهبذ؛ إذا اجتهد في الإسراع.

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٩، والكامل ٢/ ٧١٤، والأمالي ١/ ٢٧١.

(٤) في (م) يعشيها. بالمهملة، وكذا رواية البيت في خزانة الأدب ٥/ ١٤٠. قال البغدادي: يعشيها: أي يطعمها العَشَاء.. قال: ورأيت في أمالي ابن الشجري [٢/ ٤٣٧] في نسخة صحيحة قد صححها أبو اليُمن الكندي، وعليها خطوط العلماء وإجازاتهم: «بات يغشيها» بالغين المعجمة من الغِشاء كالغِطاء، بكسر أولهما وزناً ومعنىً، أي: يشملُها ويَعُمُّها.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٢، والعضب: السيف، ويقصد أي: توسَّط ولم يجاوز الحد، وأسوق: جمع قلة لساق، وهي ما بين الركبة والقدم. خزانة الأدب ٥/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٢.

﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ فيدفع عنكم ما أرادَ بكم إنْ عصيتُموه. ولفظُ الجُنْد يُوَحَّد؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ وهو استفهامُ إنكار، أي: لا جندَ لكم يدفعُ عنكم عذابَ الله ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: مِنْ سوى الرحمن.

﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ من الشياطين؛ تغرُّهم بأنْ لا عذابَ ولا حساب[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ أي: يعطيكم منافعَ الدنيا. وقيل: المطر من آلهتكم. ﴿إِنۡ أَمۡسَكَ﴾ يعني: الله تعالى رزقَه. ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ أي: تمادَوا وأصروا. ﴿فِي عُتُوّٖ﴾: طغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر؛ «مُكِبًّا» أي: مُنَكِّساً رأسَه لا ينظر أمامَه ولا يمينَه ولا شمالَه؛ فهو لا يأمنُ من العثور والانكباب على وجهه؛ كمن يمشي سوِيّاً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله[(٢)]. قال ابن عباس: هذا في الدنيا. ويجوزُ أنْ يريدَ به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسِفُ[(٣)]؛ فلا يزال يَنْكبُّ على وجهه، وأنَّه ليس كالرجل السوِيِّ الصحيح البصر[(٤)] الماشي في الطريق المهتدي له. وقال قتادة: هو الكافر أكبَّ على معاصي الله في الدنيا، فحشَره الله يومَ القيامة على وجهه. وقال ابن عباس والكَلْبيّ: عَنَى بالذي يمشي مُكِبّاً على وجهه أبا جهل، وبالذي يمشي سَوِيّاً رسولَ الله ﷺ.

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ٥٦ .

(٣) العسف والاعتساف: السير بغير هداية والأخذ على غير طريق. اللسان (عسف)

(٤) في (د) و(ق) و(م): البصير، وفي (ز): البصري، وفي (ظ) الباصر والمثبت من (خ) و(ف) وهو الموافق للكشاف ٤/ ١٣٩ . والكلام منه.

وقيل: أبو بكر. وقيل: حمزة[١]. وقيل: عمَّار بن ياسِر؛ قاله عكرمة[٢].

وقيل: هو عامٌّ في الكافر والمؤمن؛ أي: إنَّ الكافرَ لا يدري أعلى حقٍّ هو أم على باطل، أي: أَهذا الكافرُ أهدى، أو المسلمُ الذي يمشي سَوِيّاً معتدلاً يُبصرُ الطريقَ وهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام؟[٣].

ويقال: أكبَّ الرجلُ على وجهه؛ فيما لا يتعدَّى بالألف. فإذا تعدَّى قيل: كبَّه الله لوجهه؛ بغير ألف[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أمر نبيَّه أنْ يُعرِّفَهم قُبح شركهم مع اعترافهم بأنَّ اللهَ خلقهم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: لا تشكرون هذه النِّعم، ولا تُوحِّدون الله تعالى[٥]. تقول: قلَّما أفعلُ كذا، أي: لا أفعله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقَكم في الأرض؛ قاله ابن عباس. وقيل: نشرَكُم فيها وفرَّقكُم على ظهرها؛ قاله ابن شجرة[٦]. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حتى يجازِيَ كُلًّا بعمله.

---

(١) الكشاف ٤/١٣٩، دون قوله: وقيل: أبو بكر.

(٢) النكت والعيون ٦/٥٦.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): وهو على طريق مستقيم وهو الإسلام.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/٣٤٣.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٤/٣٣٠.

(٦) النكت والعيون ٦/٥٦.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ ومتى هذا العذابُ الذي تَعِدوننا به؟ وهذا استهزاءٌ منهم. وقد تقدَّم[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: عِلْمُ وقتِ قيام الساعة عند الله؛ فلا يَعْلمه غيره. نظيرُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧] الآية.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوِّف ومُعلم لكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ مصدرٌ بمعنى مُزْدَلفاً، أي: قريباً؛ قاله مجاهد[2]. الحسن: عِياناً[3]. وأكثر المفسرين على أنَّ المعنى: فلمَّا رأوه يعني العذاب؛ وهو عذابُ الآخرة. وقال مجاهد: يعني عذابَ بدر[4]. وقيل: أي: رأوا ما وُعِدوا من الحشر قريباً منهم. ودلَّ عليه ﴿تُحْشَرُونَ﴾. وقال ابن عباس: لما رأَوا عملَهم السَّيِّىء قريباً.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فُعِلَ بها السوء. وقال الزجاج[5]: تُبُيِّن فيها السوء، أي: ساءَهم ذلك العذاب، وظهر على وجوههم سِمَةٌ تدلُّ على كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦][6].

(١) ١١/٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٦ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٣ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٥٧ .

وقرأ نافعٌ وابن مُحَيْصِن وابنُ عامر والكسائيُّ: «سيئت» بإشمام الضَّمِّ[(١)]. وكَسَر الباقون بغير إشمامٍ طلباً للخِفَّة. ومن ضمَّ لاحظَ الأصل.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قال الفرّاء[(٢)]: «تَدَّعُونَ»: تفتعلون من الدعاء. وهو قولُ أكثر العلماء، أي: تَتمنَّون وتسألون. وقال ابنُ عباس: تَكْذِبون؛ وتأويلُه: هذا الذي كنتم مِن أجله تَدَّعون الأباطيل والأحاديث؛ قاله الزجاج[(٣)].

وقراءةُ العامة: «تدَّعون» بالتشديد، وتأويلُه ما ذكرناه. وقرأ قتادةُ وابنُ أبي إسحاق والضَّحَّاك ويعقوب[(٤)]: «تَدْعون» مخفَّفَةً. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦]. وقال الضَّحَّاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال:٣٢][(٥)].

وقال أبو العباس: «تَدَّعُونَ»: تستعجلون؛ يقال: دعوتُ بكذا: إذا طلبتَه؛ وادَّعيت: افتعلت منه.

النَّحّاس: «تَدَّعُونَ، وتَدْعُون» بمعنىً واحد؛ كما يقال: قَدَر واقتدَر، وعَدَى واعتَدَى؛ إلَّا أنَّ في «افتعل» معنى شيء بعد شيء، و«فَعَل» يقع عل القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل لهم يا محمد ـ يريدُ مشركي مكَّة، وكانوا يَتمنَّوْن موتَ محمدٍ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ

(١) التيسير ص١٢٥ عن نافع وابن عامر والكسائي.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٧١ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ . وفيه: والأكاذيب. بدل: والأحاديث.

(٤) قراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٨٩ ، وقراءة قتادة والضحاك في تفسير الطبري ١٣٧/٢٣ ، والمحتسب ٢/ ٣٢٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٧ .

ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] -: أرأيتُم إنْ مِتْنَا، أو رُحِمْنَا فأُخِّرت آجالُنا، فمن يجيرُكم من عذاب الله؟ فلا حاجةَ بكم إلى التربُّص بنا، ولا إلى استعجال قيام الساعة.

وأسكنَ الياء في «أهلكني»: ابنُ مُحَيْصِن، والْمُسَيَّبِيُّ، وشيبةُ، والأعمشُ، وحمزة[١]. وفتحَها الباقون. وكلُّهم فتحَ الياء في «ومَنْ معيَ» إلَّا أهلَ الكوفة؛ فإنَّهم سكَّنُوها، وفتحَها حَفْص كالجماعة[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرأ الكِسَائيُّ بالياء على الخبر؛ ورواه[٣] عن عليّ. الباقون بالتاء على الخطاب[٤]، وهو تهديدٌ لهم. ويقال: لم أخَّر مفعول «آمَنَّا»، وقدَّم مفعول «تَوَكَّلْنَا»، فيقال: لِوُقوع «آمَنَّا» تعريضاً بالكافرين حينَ ورد عقيب ذكرهم، كأنَّه قيل: آمَنَّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً؛ لم نَتَّكِل على ما أنتم مُّكلون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزَّمَخْشَريّ[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائِراً ذاهباً في الأرض لا تنالُه الدِّلاء. وكان ماؤُهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون[٦].

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٦٥‏٤، والتيسير ص٢١٣، وقراءة المسيبي في السبعة ص٦٥‏٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣.

(٢) السبعة ص٦٥‏٤، والتيسير ص٢١٣.

(٣) في (ظ): وروى، وفي(ق). ورواية.

(٤) السبعة ص٦٥‏٤، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في الكشاف ٤/ ١٤٠.

(٦) ينظر النكت والعيون ٦/ ٥٧، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٣. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٤: ويشبه أن تكون هاتان عُظْم ماء مكة، وإلا فكانت فيها بثار كثيرة كخم والجفر وغيرهما.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جارٍ؛ قاله قتادةُ والضَّحَّاك[١]. فلا بدَّ لهم من أنْ يقولوا: لا يأتينا به إلَّا الله؛ فقل لهم: لِم تُشركون به من لا يَقْدر على أنْ يأتِيَكم؟ يقال: غارَ الماءُ يَغُور غوراً، أي: نَضَب. والغَوْر: الغائر؛ وُصِف بالمصدر للمبالغة؛ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ ورِضاً[٢]. وقد مضى في سورة الكهف[٣]، ومضى القولُ في المعنى في سورة المؤمنون[٤]. والحمد لله.

وعن ابن عباس: ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ تراهُ العيون؛ فهو مفعول، وقيل: هو من: مَعَن الماءُ، أي: كثُر، فهو على هذا فعيل[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ المعنى فمن يأتيكم بماء عَذْب؟[٦]. والله أعلم.

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٣) ١٣/ ٢٨٤ .

(٤) ١٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

سورة الملك

مكيـةٌ، وتُسـمَّى: الواقيةَ والمُنجيـةَ؛ لأنَّها تَقِي وتُنْجِـي قارئَها مِن عـذابِ القبرِ، وآيُهـا ثلاثون.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾: بقبضةِ قُـدرَتِه[1] التَّصرُّفُ في الأمورِ كُلِّها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: على كلِّ ما يشاءُ ﴿قَدِيرٌ﴾.

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾: قدَّرهمـا، أو أوجـدَ الحيـاةَ وأزالَـها حسبَما قـدَّرَه، وقُـدِّمَ الموتُ لقولِـه: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]، ولأنَّه أَدْعى إلـى حُسـنِ العملِ.

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾: ليعامِلَكُم مُعاملةَ المختبِرِ بالتَّكليفِ أيُّها المكلَّفونَ ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾: أصوَبُهُ وأخلَصُهُ، وجاءَ مرفوعًا: «أحسَنُ عقلًا، وأورعُ عن محارمِ اللهِ، وأسرَعُ في طاعَتِه»[2]، جملةٌ واقعةٌ موقِعَ المفعولِ ثانيًا لفعلِ البَلْوى المُتضمِّنِ مَعنى العلمِ، وليس

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بقبضته وقدرته».

(٢) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل»، ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣١ ـ زوائد)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٨٨ ـ ٨٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وداود ساقط، ورواه ابن مردويه من طريق آخر، وإسناده أسقط من الأول. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ٨٦).

هذا مِن بابِ التَّعليقِ لأنَّه يُخِلُّ به وقوعُ الجملةِ خبرًا فلا يعلَّقُ الفعلُ عنها، بخلافِ ما إذا وقعَتْ مَوقِعَ المفعولَيْنِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يعجزُهُ مَن أساءَ العملَ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لِمَن تابَ مِنْهُم.

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾: مُطابَقَةً بعضُها فوقَ بعضٍ، مَصدرُ طابَقْتُ النَّعلَ: إذا خصفتَها طَبَقًا على طَبَقٍ، وُصِفَ به، أو: طوبقَت طباقًا، أو: ذاتَ طباقٍ جمعُ طَبَقٍ كجَبَلٍ وجِبالٍ، أو طَبَقةٍ كرَحَبةٍ ورِحَابٍ.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿من تَفوُّتٍ﴾[(٢)] ومَعناهما واحدٌ كالتَّعاهُدِ والتَّعهُّدِ، وهو الاختلافُ وعدمُ التَّناسُبِ، مِن الفوتِ فإنَّ كُلًّا مِن المُتفاوتَيْنِ فاتَ عنه بعضُ ما في الآخرِ، والجملةُ صِفَةٌ ثانيةٌ للسَّبعِ وضعَ فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّعظيمِ والإشعارِ بأنَّه تعالى يخلقُ مثلَ ذلك بقُدرَتِه الباهرةِ رحمةً وتَفضُّلًا، وأنَّ في إبداعِها نِعَمًا جليلةً لا تُحْصَى، والخطابُ فيها للرَّسولِ أو لكلِّ مُخاطَبٍ، وقوله:

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ مُتعلِّقٌ به على مَعنى التَّسبُّبِ[(٣)]؛ أي: قد نظرتَ إليهَا مرارًا فانظُرْ إليها مرةً أخرى متأمِّلًا فيها لتُعايِنَ ما أُخْبِرْتَ بِهِ من تناسُبِها

---

(١) قوله: «وليس هذا من باب التعليق...» تبع فيه الزمخشري هنا، كما تبعه في خلافه في نظيره في (هود) ـ حيث جعله الزمخشري ثمة من باب التعليق وتابعه عليه المصنف ـ وهو جريٌ على أحد القولين هنا وعلى الآخر ثَمَّ، وهو ما عليه الأكثر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٣) «متعلق به» أي: بقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ على مَعنى التَّسبيبِ، أَخْبَرهُ بأنَّه لا تَفاوُت في خَلْقِهِنَّ ثمَّ قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ حَتَّى يَصِحَّ عندك ما أُخبِرْتَ به بالمعايَنةِ ولا تَبْقَى مَعك شُبْهَةٌ فيه. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٠٤).

واستقامَتِها واستجماعِها ما ينبغي لها، والفُطورُ: الشُّقوقُ، والمرادُ: الخللُ، مِن فَطَرَهُ: إذا شَقَّه.

(٤) ـ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾؛ أي: رَجْعَتَين أُخرَيَين في ارتيادِ الخَلَلِ، والمرادُ بالتَّثنيَةِ: التَّكريرُ والتَّكثيرُ كما في (لبَّيْكَ وسَعْدَيكَ)، ولذلك أجابَ الأمرَ بقولِه:

﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا﴾: بعيدًا عن إصابةِ المطلوبِ كأنَّه طُرِدَ عنه طرْدًا بالصَّغارِ ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾: كليلٌ مِن طولِ المعاودَةِ وكثرةِ المراجعةِ.

(٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾: أقربَ السَّماواتِ إلى الأرضِ ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: بكواكبَ مُضيئةٍ بالليلِ إضاءةَ السُّرُجِ فيها، ولا يمنَعُ ذلك كونُ بعضِ الكَواكبِ مركوزاً في سماواتٍ فوقَها إذ التَّزيينُ بإظهارِها عليها[1]. والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: وجعلنا لها فائدةً أُخرى هي رجمُ أَعدائِكُم بانقضاضِ الشُّهبِ المسبَّبةِ عنها.

وقيل: معناه: وجعلناها رُجومًا وظُنونًا لشَياطينِ الإنسِ وهم المنجِّمُونَ.

والرُّجُومُ: جمع رَجْمٍ بالفتحِ، وهو مَصدَرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرةِ بعد الإحراقِ بالشُّهُبِ في الدُّنيا.

(٦) ـ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ مِن الشَّياطينِ وغيرِهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وقُرِئَ بالنَّصبِ[2] على أنَّ (للذين) عطفٌ على ﴿لَهُمۡ﴾ و(عذابَ) على ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) قوله: «ولا يمنع ذلك...» أي: لا يمنع تزيينَ السماء الدنيا كونُ بعض الكواكب فيما فوقها من السماوات؛ لأن ما هو فوق سماء الدنيا يزينها أيضاً. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ١٨٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠) عن الضحاك والأعرج.

(٧) ـ ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾: صوتًا كصوتِ الحَميرِ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾: تَغْلي بهم غليانَ المرجلِ بما فيه.

(٨) ـ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾: تتفرَّقُ غضبًا عليهم، وهو تمثيلٌ لشدَّةِ اشتعالِها بهم، ويجوزُ أَنْ يُرادَ غيظُ الزَّبانيةِ.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾: جماعةٌ مِن الكفرَةِ ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يخوِّفُكُم هذا العذابَ، وهو توبيخٌ وتبكيتٌ.

(٩) ـ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾؛ أي: فكذَّبْنا الرُّسلَ، وأفرَطْنَا في التَّكذيبِ حتَّى نفَيْنا الإنزالَ والإرسالَ رأسًا، وبالَغْنَا في نِسبَتِهِم إلى الضَّلالِ؛ فـ«النَّذيرُ» إمَّا بمعنى الجمعِ لأنَّه فعيلٌ، أو مَصدرٌ مُقدَّرٌ بمضافٍ؛ أي: أهلُ إنذارٍ[1]، أو مَنعوتٌ به للمبالغةِ، أو الواحدِ[2] والخطابُ له ولأمثالِه على التَّغليبِ، أو إقامةِ تكذيبِ الواحدِ مُقامَ تكذيبِ الكلِّ، أو على أنَّ المعنى: قالت الأفواجُ: قد جاءَ إلى كلِّ فوجٍ مِنَّا رسولٌ فكَذَّبناهُم وضلَّلْناهُم.

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ مِن كلامِ الزَّبانيةِ للكُفَّارِ على إرادةِ القَولِ، فيكونُ الضَّلالُ ما كانوا عليهِ في الدُّنيا، أو عقابَهُ الذي يكونونَ فيه.

(١٠) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ كـلامَ الرُّسُـلِ فنقبلَهُ جملةً مِن غيرِ بحثٍ وتَفتيشٍ اعتمادًا على ما لاحَ مِن صدقِهِم بالمُعجزاتِ.

﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ فنتفكَّرَ[3] في حكمِه ومعانيه تفكُّرَ المُستبصرينَ ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: في عدادِهم ومِن جُملَتِهم.

---

(١) والمعنى: ألم يأتِكُم أَهْلُ إنذار. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٠٨).

(٢) قوله: «أو الواحدِ» عطف على «الجمعِ» في قوله: «بمعنى الجمع».

(٣) في نسخة التفتازاني: «نتفكر».

(١١) ـ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ حينَ لا ينفعُهُم، والاعترافُ: إقرارٌ عَن مَعرفةٍ، والذَّنبُ لم يُجمَع لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، أو المرادُ به الكفرُ.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: فأسحقَهُم اللهُ سحقًا؛ أي: أبعدَهُم مِن رحمتِه، والتَّغليبُ للإيجازِ والمبالغةِ والتَّعليلِ، وقرأَ الكسائيُ بالتَّثقيلِ[١].

(١٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾: يخافونَ عذابَه غائبًا عنهم لم يعاينوهُ بعدُ، أو: غائبين عنه، أو عن أعيُنِ النَّاسِ، أو: بالمخفيِّ مِنْهُم وهو قلوبُهم.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبِهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ يصغرُ دونَه لذائذُ الدُّنيا.

(١٣) ـ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: بالضَّمائرِ قبلَ أن يُعبَّر عنها سرًّا أو جهرًا.

(١٤) ـ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾: أَلَا يعلَمُ السرَّ والجهرَ مَن أوجَدَ الأشياءَ حَسْبَما قدَّرَتْه حِكمَتُه ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ المتوصِّلُ علمُهُ إلى ما ظهرَ مِن خَلقِه وما بطنَ. أو: أَلَا يعلَمُ اللهُ مَن خلَقَه وهو بهذه المثابةِ.

والتَّقييدُ بهذه الحالِ يَستدعي أن يكونَ لـ﴿يَعۡلَمُ﴾ مفعولٌ ليفيدَ[٢].

---

(١) أي: بضم الحاء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ليقيد»، وفي نسخة الفاروقي: «ليتقيد»، والمثبت من باقي النسخ وهامش نسخة الفاروقي، وهو الموافق لما في «حاشية القونوي» و«حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ٢٠١). وقال ابن التمجيد في شرح ذلك: إذ لو لم يقصد تعلقه بمفعول بل جعل من قبيل: «فلان يعطي ويمنع» لا يفيد الكلام؛ إذ يكون التقدير حينئذ: «ألا يعلم وهو عالم» وهو تقييد للشيء بنفسه، وإذا قصد تعلقه بمفعول يكون معناه: «ألا يعلم السر والجهل وهو عالم بكل شيء»، وهذا كلام مفيد ومعناه معنى صحيح.

قلت: وكلام المصنف والشارح كله مأخوذ من كلام الزمخشري حيث قال: فإن قلتَ: قَدَّرْتَ في ﴿ =

رويَ أنَّ المشركين كـانوا يتكلَّمونَ فيما بينَهُم بأشياءَ فيخبرُ اللهُ به رسولَه فيقولون: أَسِرُّوا قولَكُم لئلَّا يسمعَ إله محمَّدٍ! فنبَّه اللهُ على جَهلِهِم[١].

(١٥) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾: ليِّنةً يسهلُ لكـم السُّلوكُ فيها ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: في جوانبِها، أو جِبالها، وهو مثَلٌ لفرطِ التَّذليلِ، فإنَّ مَنكِبَ البَعيرِ ينبو عن أن يطأَهُ الرَّاكِبُ ولا يتذلَّلُ له، فإذا جَعَلَ الأرضَ في الذلِّ بحيثُ يُمشَى في مناكبِها لم يبقَ شيءٌ لم يتذلَّلْ.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾: والتَمِسُوا مِن نعمِ الله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: المرجعُ، فيسألُكم عن شكرِ ما أنعمَ عليكم.

(١٦) ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: الملائكةَ الموكَّلينَ عـلى تدبيرِ هذا العالمِ، أو اللهَ تعالى؛ على تأويلِ: مَن في السَّماءِ أمرهُ وقَضاؤُه، أو على زَعمِ العربِ؛ فإنَّهم زَعَموا أنَّه تعالى في السَّماء[٢].

= ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مَفعُولاً على مَعْنى: أَلَا يَعلم ذلك المَذكُورَ ممَّا أُضمِرَ في القَلْبِ وأُظْهِر باللِّسانِ مَن خَلقَ، فهَلَّا جَعَلْتَهُ مثلَ قَوْلهم: «هُو يُعْطِي ويَمْنعُ» وهَلَّا كان المَعْنى: أَلَا يكُون عالِماً مَن هُو خالِقٌ؛ لأنَّ الخَلْق لا يَصحُّ إلَّا مَع العلم؟

قلتُ: أَبَتْ ذلك الحالُ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لأنك لو قلتَ: «أَلَا يكونُ عالِماً مَن هو خالقٌ وهوَ اللَّطِيْفُ الخَبيرُ» لم يكُنْ مَعْنًى صحيحاً؛ لأنَّ ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مُعتَمِدٌ على الحال، والشَّيءُ لا يُوقَّت بنفْسِهِ، فلا يُقالُ: «أَلَا يَعْلَمُ وهُو عالِمٌ»، ولكِنْ: «ألا يَعْلمُ كذا وهو عالِمٌ بِكُلِّ شَيءٍ». انظر: «الكشاف» (٩/ ٢١٠).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ١٠٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) ومذهب المتقدمين في مثل هذا عدم التأويل، فهو سبحانه وتعالى لا شبيهَ له ولا نظيرَ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وكلُّ ما تُخيـِّل في الذِّهن أو خطَر بالبال فإن الله تعالى بخلافه.

وعن ابن كثيرٍ برواية ورشٍ: ﴿وأمِنْتُم﴾ بقلبِ الهمزةِ الأُولى واوًا لانضمامِ ما قبلَها، و: ﴿آمنْتُم﴾ بقلبِ الثَّانيةِ ألفًا، وهو قراءةُ نافعٍ[١] وأبي عمرٍو ورُوَيسٍ[٢].

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيُغيِّبَكُم فيها كما فعلَ بقارونَ، وهو بدلٌ من ﴿مَّن﴾ بدلَ الاشتمالِ.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: تضطربُ، والمور: التَّردُّدُ في المجيءِ والذَّهابِ.

(١٧) ـ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: أن يُمطِرَ عليكم حصباءَ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾: كيفَ إنذاري إذا شاهَدْتُم المنذَرَ به ولكن لا ينفعُكُم العلمُ حينئذٍ.

(١٨) ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهِمْ بإنزالِ العَذابِ، وهو تسليةٌ للرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ وتهديدٌ لقَومِه.

(١٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طَيرانِها، فإنهنَّ إذا بسطنَها صففْنَ قَوادِمَها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: ويَضْمُمْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهنَّ وقتًا بعدَ وقتٍ للاستظهارِ به على التَّحرُّكِ، ولذلك عدلَ به إلى صيغةِ الفعلِ للفرقِ[٣] بينَ الأصيلِ في الطَّيرانِ والطَّارئ عليه.

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «برواية ورش».

(٢) انظر ما ورد في هذه اللفظة من قراءات مع نسبة كل منها إلى قارئها في «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢)، و«النشر» (١/ ٣٦٤).

(٣) في نسخ الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «وللتفرقة» فهو معطوف على قوله: «ولذلك» على أنه علة ثانية للعدول إلى صيغة الفعل. والمثبت من نسخة الخيالي، ويؤيده ما في «حاشية القونوي» (١٩/ ٢٠٧): «للتفرقة» بلا واو أيضاً، وعليه فهو تعليل لما قبله، وهو الظاهر من كلام الزمخشري وشرح القونوي. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢١٢).

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ على خلافِ الطَّبعِ ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الشَّاملُ رَحمتُه كلَّ شيءٍ بأَنْ خلقهنَّ على أشكالٍ وخَصائِصَ هيَّأَتْهنَّ للجري في الهواءِ.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ كيفَ يخلقُ الغرائبَ ويدبِّرُ العجائبَ.

(٢٠) ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عديلٌ لقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ على مَعنى: أولم تَنْظُروا في أمثالِ هذه الصَّنائعِ فلم تعلَمُوا قُدرتَنا على تَعذيبِكم بنحوِ خَسفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أم لكم جندٌ يَنصرُكُم مِن دونِ اللهِ إن أرسلَ عليكُم عذابَهُ، فهو كقولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] إلَّا أنَّهُ أُخرِجَ مخرجَ الاستفهامِ عَن تَعيينِ مَن يَنصرُهُم إشعارًا بأنَّهم اعتقَدُوا هذا القِسْمَ.

و﴿مَن﴾ مبتدأٌ، و﴿هَٰذَا﴾ خبرُه، و﴿ٱلَّذِى﴾ بصِلَتِه صفَتُه، و﴿يَنصُرُكُم﴾ وصفٌ لـ﴿جُندٌ﴾ محمولٌ على لفظِه.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ لا مُعتمدَ لهم.

(٢١) ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾: أم مَن يشارُ إليه ويقالُ: هذا الذي يرزقُكُم ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساكِ المطرِ وسائرِ الأسبابِ المحصِّلَةِ والموصِلةِ له إليكُم.

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾: تمادَوْا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: في عنادٍ ﴿وَنُفُورٍ﴾: وشِرادٍ عن الحقِّ لتَنَفُّرِ طباعِهم عنه.

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ يقال: كبَبْتُه فأكَبَّ، وهو مِن الغرائبِ(١)؛ كقَشَعَ اللهُ السَّحابَ فأقشَعَ.

---

(١) قولُه: «وهو منَ الغرائبِ» قال الشهاب في «الحاشية»: لأنَّه على عكسِ المعروفِ في اللُّغةِ من تعدِّي الإفعالِ ولزومِ ثُلاثيِّه، وله نظائرُ في أحرفٍ يسيرةٍ كـ«أنسَلَ ريشُ الطّائرِ ونسَلْتُه»، و«أنزَفَتِ البئرُ ونزَفْتُها».

والتَّحقيقُ: أنَّهُما مِن بابِ أَنْفَضَ[1] بمعنى: صارَ ذا كبٍّ وذا قَشعٍ، وليسا مُطاوِعَيْ (كبَّ) و(قَشَعَ) بل المطاوعُ لهما: انكبَّ وانقشَعَ.

ومعنى ﴿مُكِبًّا﴾: أنه يعثرُ كلَّ ساعةٍ ويخرُّ على وَجهِه لوعورةِ طَريقِه واختلافِ أجزائِه، ولذلك قابلَهُ بقولِه:

﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾: قائمًا سالِمًا من العِثَارِ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: مستوي الأجزاءِ والجهَةِ، والمرادُ: تمثيلُ المشركِ والموحِّدِ بالسَّالِكَيْنِ، والدِّينَيْنِ بالمَسلكَيْنِ، ولعلَّ الاكتفاءَ بما في الكبِّ مِن الدَّلالةِ على حالِ المسلكِ للإشعارِ بأنَّ ما عليه المُشرِكُ لا يستأهِلُ أن يُسمَّى طريقًا؛ كمَشيِ المُتعسِّفِ في مكانٍ مُتَعادٍ غيرِ مُستَوٍ.

وقيل: المرادُ بالمكبِّ: الأعمى، فإنَّه يتعسَّفُ فينكبُّ، وبالسَّوِيِّ: البَصيرُ.

وقيل: مَن يمشي مُكِبًّا هو الذي يُحشرُ على وجهِهِ إلى النَّارِ، ومَن يمشي سويًّا الذي يُحشرُ على قدميهِ إلى الجنَّةِ.

(٢٣) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمَعوا المواعظَ، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتَنْظُروا صنائعَهُ ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكَّروا وتعتبِروا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستِعمالِها فيما خلقَتْ لأجلِها.

(٢٤) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجَزاءِ.

(٢٥) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: الحشرُ، أو: ما وُعِدُوا به من الخسفِ والحاصبِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنونَ: النبيَّ والمؤمنينَ.

---

(١) كتب فوقها بين السطور في نسخة الفاروقي: «يعني الهمزة للصيرورة». وقال الشهاب في «الحاشية»: يُقالُ: «أَنْفَضَ القومُ» بالفاءِ والضّادِ المُعجمةِ: إذا فنِيَ زادُهم، وقد يُكنَى به عن الهلاكِ أيضًا، فالهمزةُ فيه للصَّيرورةِ، و«أَنْفَضَ» إذا صارَ نافِضًا لِما في مِزْوَدِه لفنائِه، وليستِ الهمزةُ فيه للمُطاوعةِ.

(٢٦) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: علمُ وَقتِه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطَّلعُ عليه غيرُه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذارُ يكفي له العلمُ، بل الظنُّ بوقوعِ المحذَّرِ منه.

(٢٧) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: الوعدَ؛ فإنَّه بمعنى الموعودِ ﴿زُلْفَةً﴾: ذا زلفةٍ؛ أي: قربٍ مِنهُم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنْ عَلَتْها الكآبةُ وساءَتْها رؤيةُ العذابِ.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: به تَطلُبونَ وتَستعجِلُونَ، (تَفْتَعِلُون) مِن الدُّعاءِ، أو: بسببِهِ تدَّعونَ أَنْ لا بَعْثَ، فهو مِن الدَّعوَى.

(٢٨) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾: أماتَني ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ مِن المؤمنينَ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخيرِ آجالِنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: لا يُنجيهِمْ أحدٌ مِن العذابِ متْنَا أو بقينَا، وهو جوابٌ لقَولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

(٢٩) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكُمْ إليه مُوْلي النِّعَمِ كلِّها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلمِ بذلك، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوقِ عليه والعلمِ بأنَّ غيرَهُ بالذَّاتِ لا يضرُّ ولا ينفعُ، وتقديمُ الصِّلَةِ للتَّخصيصِ والإشعارِ به.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِنْكُم ومنَّا. وقرأ الكِسائيُّ بالياء[1].

(٣٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: غائرًا في الأرضِ بحيثُ لا يُنَالُ بالدِّلاءِ، مَصدرٌ وُصِفَ به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾: جارٍ، أو ظاهرٍ سهلِ المأخذِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الملكِ فكأنَّما أحيا ليلةَ القَدرِ»[2].

***

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٢) رواه الواحدي في «التفسير الوسيط» (٤/ ٣٢٥)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٦٧) سورة الملك مكية وآياتها ثلاثون

ما ورد في فضلها : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك »[١] . وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ : « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك الذي بيده الملك »[٢] . وعن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر ، وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك: تبارك، حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ : « هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر »[٣] . وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: « ﴿ الٓمٓ تنزيل﴾ ، و ﴿ تبارك الذي بيده المُلك﴾ »[٤] . وقال ليث، عن طاووس: يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة، وعن ابن عباس أنه قال لرَجُل: ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال: بلى، قال: اقرأ ﴿ تبارك الذي بيده المُلكُ﴾ وعلّمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية ، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطالب له أن ينجيه من عذاب النار ، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أُمّتي »[٥] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

---

(١) أخرجه أحمد ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : حديث حسن .

(٢) رواه الطبراني والحافظ المقدسي .

(٣) رواه الترمذي ، وقال : غريب من هذا الوجه .

(٤) أخرجه الترمذي .

(٥) أخرجه عبد بن حميد في مسنده .

تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

يُمَجِّد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي هو المتصرف في جميع المخلوقات، بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم، أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً. عن قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»[1]، وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خير عملاً كما قال محمد بن عجلان، ولم يقل أكثر عملا، ثم قال تعالى: ﴿وهو العزيز الغفور﴾ أي هو العزيز العظيم، المنيع الجناب، وهو غفور لمن تاب إليه وأناب، بعد ما عصاه وخالف أمره، فهو مع ذلك يرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي طبقة بعد طبقة، وقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس ومجاهد ﴿هل ترى من فطور﴾ أي شقوق، وقال السدي: أي من خروق، وقال قتادة: أي هل ترى خللاً يا ابن آدم؟ وقوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ مرتين، ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد: صاغراً، ﴿وهو حسير﴾ يعني وهو كليل، وقال مجاهد: الحسير المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿خاسئاً﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿وهو حسير﴾ أي كليل قدانقطع من الإعياء، من كثرة التكرر ولا يرى نقصاً، ولما نفى عنها في خلقها النقص، بيّن كمالها وزينتها فقال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ عاد الضمير في قوله ﴿وجعلناها﴾ على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى كما قال تعالى: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به[2].

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

يقول تعالى ﴿ وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب، ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني الصياح، ﴿ وهي تفور ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبُّ القليل في الماء الكثير، وقوله تعالى: ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ . يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه، من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ . وفي الحديث: « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »[1]، وفي حديث آخر: « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له ﴿ مغفرة وأجر كبير ﴾ أي تكفّر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: « سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ أي ألا يعلم الخالق؟ وقيل معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى لقوله: ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي البختري الطائي .

في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكلوا من رزقه﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما قال رسول الله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1] فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجلّ، وهو المسخر المسير المسبب ﴿وإليه النشور﴾ أي المرجع يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: مناكبها: أطرافها وفجاجها ونواحيها.

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه، أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب، ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدمغكم كما قال تعالى: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾، وهكذا توعدهم ههنا بقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي كيف يكون إنذاري، وعاقبة من تخلف عنه وكذب به، ثم قال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي عظيماً شديداً أليماً، ثم قال تعالى: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿ما يمسكهن﴾ أي في الجو ﴿إلا الرحمن﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون﴾.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمر بن الخطاب مرفوعاً.

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ ؟ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ . ثم قال تعالى: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ ؟ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أي لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿بل لجوا﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ﴿في عتو﴾ أي في معاندة واستكبار ﴿ونفور﴾ على إدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه، ثم قال تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي ﴿مكباً على وجهه﴾ أي يمشي منحنياً لا مستوياً ﴿على وجهه﴾ أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أمن يمشي سوياً﴾ أي منتصب القامة ﴿على صراط مستقيم﴾ ؟ أي على طريق واضح بيّن، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ . عن أنس ابن مالك قال، قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال: « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم »[١] ؟

وقوله تعالى : ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي العقول والإدراك، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قلّما تستعملون هذه القوى، التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره . ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض، مع اختلاف ألسنتكم ولغاتكم وألوانكم، ﴿وإليه تحشرون﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم، ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار، المنكرين للمعاد، المستبعدين وقوعه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ؟ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا عنه، ﴿قل إنما العلم عند الله﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته اليكم، قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفّار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدّعون﴾ أي تستعجلون .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

(١) الحديث أخرجه أحمد وأصله في الصحيحين عن أنس بن مالك .

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذلكم من الله إلا التوبة والإنابة، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنــا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم، ثم قال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا بــه وعليه توكلنا﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، ولهــذا قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ أي منا ومنكم، ولمن تكون العــاقبة في الدنيا والآخرة؟ ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتيكم بمــاء معين﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض، أي لا يقــدر على ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه، وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة

[آخر تفسير سورة المُلك]

* * *

تفسير سورة الملك

وهى مكية .

قال أحمد : حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عباس الجُشَمى ، عن أبى هُرَيرة ، عن رَسُول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شَفَعت لصاحبها حتى غُفر له : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث شعبة ، به (١) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقد روى الطبرانى والحافظ الضياء المقدسى ، من طريق سَلام بن مسكين (٢) ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :« سورة فى القرآن خَاصَمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ » (٣) .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا يحيى بن مالك النُكرى ، عن أبيه ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النَّبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿ **تَبَارَكَ** ﴾ حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر » (٤) . ثم قال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبى هريرة . ثم روى الترمذى أيضاً من طريق ليث بن أبى سليم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ **الم . تَنزِيلُ** ﴾ [سورة السجدة] ، و﴿**تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ .وقال ليث عن طاوس: يفضلان كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان (٦) الأصبهانى ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ:«لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » يعنى : ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ (٧) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٨٦) .

(٢) فى أ : « سليمان » .

(٣) المعجم الصغير للطبرانى (١/ ١٧٦) والمختارة للضياء المقدس برقم (١٧٣٨، ١٧٣٩) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٠) وفى إسناده يحيى النكرى ضعيف وذكر الذهبى هذا الحديث من مناكيره فى الميزان .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٢) .

(٦) فى م ، أ ، هـ: « محمد بن الحسن بن علاف » وهوخطأ والمثبت من المعجم الكبير للطبرانى ومن تاريخ أصبهان .

(٧) المعجم الكبير (١١/ ٢٤٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٥) من طريق حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان به ، وقال الحاكم : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « فيه حفص العدنى وهو واه » .

هذا حديث غريب ، وإبراهيم ضعيف ، وقد تقدم مثله فى سورة « يس » ، وقد روى هذا الحديث عبد بن حُمَيد فى مسنده بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة ، تجادل ـــ أو تخاصم ـــ يوم القيام عند ربها لقارئها، وتطلب له [أن ينجيه] [١] من عذاب النار ، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ؛ قال رسول الله ﷺ : « لوددتُ أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » [٢] .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، فى ترجمة أحمد بن نصر بن زياد ، أبى عبد الله القرشى النيسابورى المقرئ الزاهد الفقيه ، أحد الثقات الذين روى عنهم البخارى ومسلم ، لكن فى غير الصحيحين ، وروى عنه الترمذى وابن ماجة وابن خزيمة ، وعليه تفقه فى مذهب أبى عُبَيد بن حَرْبَويه ، وخلق سواهم ، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رجلا ممن كان قبلكم مات ، وليس معه شىء من كتاب الله إلا ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، فلما وضع فى حفرته أتاه المَلَك فثارت السورة فى وجهه ، فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره مساءتك ، وإنى لا أملك لك ولا له ولا لنفسى ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقى إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعى له . فتنطلق إلى الرب فتقول : يا رب ، إن فلاناً عَمَد إلىَّ من بين كتابك فتَعَلَّمنى وتلانى أفتحرقه [٣] أنت بالنار وتعذبه وأنا فى جوفه ؟ فإن كنت فاعلا ذاك به فامحنى من كتابك . فيقول : ألا أراك غضبت ؟ فتقول : وحُقّ لى أن أغضب . فيقول : اذهبى فقد وهبته لك ، وشَفَّعتك فيه . قال : فتجىء فيخرج الملك ، فيخرج كاسف البال لم يَحْلَ منه بشىء . قال : فتجىء فتضع فاها على فيه ، فتقول : مرحباً بهذا الفم ، فربما تلانى ، ومرحباً بهذا الصدر ، فربما وعانى ، ومرحباً بهاتين القدمين ، فربما قامتا بى . وتؤنسه فى قبره مخافة الوحشة عليه » . قال: فلما حَدّث بهذا رسولُ الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُرّ ولا عَبد ، إلا تعلمها ، وسماها رسول الله ﷺ المنجية [٤].

قلت : وهذا حديث منكر جداً ،وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والبخارى ، وأبو حاتم ، والدارقطنى وغير واحد . وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر ، عن الزهرى، من قوله مختصراً . وروى البيهقى فى كتاب « إثبات عذاب القبر » عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا [٥] وقد كتبناه فى كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى ، ولله الحمد [٦] .

---

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) ذكره البوصيرى فى إتحاف المهرة (ق ٢١٤سليمانية) من مسند عبد بن حميد .

(٣) فى أ : « أفتجزيه » .

(٤) تاريخ دمشق (٢٥٦/٢ « المخطوط») .

(٥) إثبات عذاب القبر للبيهقى برقم (٩٩) وقد فصل الكلام عليه الفاضل محمد طرهونى فى موسوعة فضائل القرآن (١٩٣/٢) .

(٦) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق . ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] . فسمى الحال الأول ــ وهو العدم ــ موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خُلَيْد ، عن قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » .

ورواه مَعْمَر ، عن قتادة [(١)] .

وقوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عَجْلان : ولم يقل أكثر عملا .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٩/ ٢) من طريق معمر ، عن قتادة ،ومن طريق سعيد ، عن قتادة به مرسلاً.

وقوله : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والثورى ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق .

وقال السدى : ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من خُروق . وقال ابن عباس فى رواية : ﴿ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من وُهىّ [(١)] . وقال قتادة : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أى : هل ترى خَلَلاً يا بن آدم ؟ .

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين . ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس: ذليلا ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء .

ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللا ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصاً .

ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا [(٢)] للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصافات : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات:٦ــ١٠] .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

(١) فى هـ ، أ : « من وهاء» والمثبت من تفسير الطبرى . مستفادا من هوامش ط. الشعب .
(٢) فى م : « أى : جعلناها» .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ : قال ابن جرير : يعنى الصياح .

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ : قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرىّ الطائى قال: أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم » [(١)]. وفى حديث آخر: « لا يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » [(٢)].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ .

---

(١) المسند (٤/ ٢٦٠) .

(٢) فى المسند (٢/ ٥٤١) من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لايدخل أحد النار إلا أرى مقعده من الجنة » وهو فى الصحيح .

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا فى السر والعلانية. قال : « ليس ذلكم النفاق » (٢) .

لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عُبَيد فيما نعلمه .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : بما خطر فى القلوب ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد (٣) ولا تضطرب (٤) ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أخبرنى بكر بن عمرو ، أنه سمع عبد الله بن هُبَيْرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجَيشانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَاناً» .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ،من حديث ابن هبيرة (٥) ، وقال الترمذى : حسن صحيح . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ،عز وجل ، وهو المسَخِّر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) مسند البزار برقم(٥٢) « كشف الأستار » وقال الحافظ ابن حجر فى مختصر الزوائد (١/ ٦٧) : « الحارث له مناكير وإن أخرج له فى الصحيح » .

(٣) فى أ : «لا تميد» . (٤) فى م: « لاتضطرب ولا تميد » .

(٥) المسند (١/ ٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٦٤) .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : الجبال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن بشير بن كعب: أنه قرأ هذه الآية: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له: إن علمت ﴿ مَنَاكِبِهَا﴾ فأنت عتيقة . فقالت : هى الجبال . فسأل أبو الدرداء فقال : هى الجبال .

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ .

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر:٤٥] .

وقال هاهنا : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجيء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء:٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ،﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته. وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٧٩] .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ

وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، مُنكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ** ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ **بَل لَّجُّوا** ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ **فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ** ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، [أى] [1] : لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ ؟ : وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مُكبّا على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿ **أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا** ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشى سوياً على صراط مستقيم ، مُفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴾ [الصافات: ٢٢ـ ٢٦] .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا ابن نُمَير ، حدثنا إسماعيل ، عن نُفَيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » [2] .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طريق [يونس بن محمد ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن

(١) زيادة من م .
(٢) المسند (٣/١٦٧) .

أنس ، به نحوه][١] [٢] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : ما أقل تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم ، فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : تُجمَعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: متى [يقع] [٣] هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، لكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [٤] وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر:٤٧ ، ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : خلِّصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكَال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه

(١) زيادة من م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م :« ما عملوا » وهوخطأ .

توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود:١٢٣] . ولهذا قال : ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ .

ثم قال : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا** ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنَال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر : عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** ﴾ ؟ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه [أن] (١) أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

[آخر تفسير سورة « تبارك » ، ولله الحمد] (٢)

---

(١) زيادة من أ .

(٢)زيادة من م ، وفى أ : « آخر تفسير سورة الملك ولله الحمد والثناء الحسن الجميل » .

سورة الملك

مكيّة،[1] وتسمّى الواقيةَ والمُنجية؛

لأنّها تقي وتنجي قارئها مِن عذاب القبر، وهي ثلاثون آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ البركة: النماء والزيادة حسيّةً كانت أو عقلية، وكثرةُ الخير ودوامه أيضًا. ونسبتُها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل، وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله. وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه، إنّما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها؛ وعلى الثاني[3] باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته مِن / فنون الخيرات. [٢٠٧ظ]

والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلّقاتها، ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وإنبائها عن نهاية التعظيم، لم يجُز استعمالها في حقّ غيره سبحانه، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تبارك وتعالى. وإسنادُها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيّز الصلة على تحقّق مضمونها. واليد مجاز مِن القدرة التامّة والاستيلاء الكامل، أي: تعالى وتعاظَم بالذات عن كلّ ما سواهُ ذاتًا وصفةً وفعلًا، الذي بقبضة قُدرته التصرّف الكلّيُّ في كلّ الأمور.

---

١ س + وهي ثلاثون آية.

٢ س - وهي ثلاثون آية.

٣ السياق: على المعنى الأوّل... وعلى الثاني...

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مُبالغٌ في القُدرة عليه، يتصرَّف فيه حسبَما تقتضيه مشيئته المَبنيّة على الحِكَم البالغة. والجملة معطوفة على الصلة، مقرِّرةٌ لمضمونها، مفيدة لجريان أحكام مُلكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام المُلك وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، واستتباعهما لغايات جليلة. والموصول بدل مِن الموصول الأوّل داخل معه في حُكم الشهادة بتعاليه تعالى.

والموت عند أصحابنا صفة وجوديّة مضادّة للحياة، وأمّا ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه تعالى خلَق الموت في صورة كبش أملحَ، لا يمرّ بشيء ولا يجد رائحته شيء إلّا مات، وخلَق الحياة في صورة فرس بلقاء، لا تمرّ بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلّا حيي،[١] فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير. وقيل: هو عدم الحياة، فمعنى خَلْقه حينئذ تقديره أو إزالة الحياة.[٢]

وأيًّا ما كان فالأقرب أنّ المراد به الموت الطارئ، وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مداريّتهما لِما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنّ استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل بما لا ريبَ فيه مع أنّ نفس العمل لا يتحقّق بدون الحياة الدنيويّة.

[٢٠٨و] وتقديمُ الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل، و"اللام" / متعلِّقة بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق موتكم وحياتكم، على أنّ "الألف"[٣] و"اللام"[٤] عِوض عن المضاف إليه، ليعاملكم معاملة مَن يختبركم أيّكم أحسنَ عملًا، فيُجازيكم على مراتبَ متفاوتة حسب تفاوت طبقات[٥] علومكم وأعمالكم. فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أيّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن محارم الله وأسرعُ في طاعة الله».[٦]

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٣٧/٢٢؛ تفسير الرازي، ٥٧٩/٣٠؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٤/١٩.

[٢] القول بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٤/٣؛ وفتوح الغيب للطِّيبي، ٥٢٨/١٥.

[٣] س - الألف.

[٤] س: اللام.

[٥] س - طبقات.

[٦] مضى بتخريجه في تفسير هود، ٧/١١.

فإنّ لكلّ مِن القلب والقالب عملًا خاصًّا به، فكما أنّ الأوّل أشرفُ مِن الثّاني، كذلك الحال في عمله، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفة الله عزّ وجلّ الواجبة على العباد آثر ذي أثير، وإنّما طريقها النظري التفكّر في بدائع صُنع الله تعالى والتدبّرُ في آياته المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وقد رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تفضّلوني على يونسَ بن متّى، فإنّه كان يُرفَع له كلّ يوم مِثلُ عمل أهلِ الأرض».[١] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ، الذي هو عمَل القلب ضرورة أنّ أحدًا لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كلّ يوم مثلَ عمل أهل الأرض.

وتعليق فعلِ البلوى، أي: تعقيبه بحرف الاستفهام، لا التعليقُ المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوب، لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره، ولذلك أُجري مُجراه بطريق التمثيل. وقيل: بطريق الاستعارة التبَعيّة.[٢]

وإيراد صيغة التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسن فقط، للإيذان بأنّ المراد بالذات والمقصدَ الأصلي مِن الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقّق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضًا، لكمال تعاضد الموجِبات له.

وأمّا الإعراض عن ذلك فبمَعزِل مِن الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن الانتظام في سِلك الغاية للأفعال الإلهيّة، وإنّما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره، / مِن غير مصحِّح له ولا تقريب. وفيه مِن الترغيب في [٢٠٨ظ]
الترقّي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات، والزجرِ عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يفوته مَن أساء العمل ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ لمَن تاب منهم.

---

[١] مضى بتخريجه في تفسير هود، ٧/١١.

[٢] القول في فتوح الغيب للطِّيبي، ٥٢٩/١٥.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ قيل: هو نعت لـ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ أو بيان أو بدل.[1] والأوجه أنّه نصب أو رفع على المدح،[2] متعلّق بالموصولين السابقين معنًى وإن كان منقطعًا عنهما إعرابًا، كما مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة، منتظِم معهما في سِلك الشهادة بتعاليه سبحانه، ومع الموصول الثاني في كونه مدارًا للبلوى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود، ٧/١١].

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقٗا﴾ صفة لـ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ أي: مطابقةً على أنّه مصدر "طابقتُ النعل" إذا خصفتَها، وُصف به المفعول، أو مصدر مؤكِّد لمحذوف هو صفتها، أي: طوبِقَت طباقًا.[3]

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ صفة أخرى لـ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾، وُضع فيها ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلّة الحُكم وبأنّه تعالى خلَقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضّلًا، وبأنّ في إبداعها نِعَمًا جليلة، أو استئناف. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، و﴿مِن﴾ لتأكيد النّفي، أي: ما ترى فيه شيئًا مِن تفاوت، أي: اختلاف وعدم تناسب، مِن "الفَوْت"، فإنّ كلًّا مِن المتفاوتَين يفوت منه بعض ما في الآخر. وقُرئ: "مِنْ تَفَوُّتٍ"،[4] ومعناهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ متعلّق به على معنى التسبّب، حيث أُخبِر أوّلًا بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثمّ قيل: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾

---

[1] هذه الوجوه في اللباب لابن عادل، ٢٢٦/١٩.

[2] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٧/١٩.

[3] وفي هامش م: وفي القاموس: المطابقة: الموافقة، و"السماوات طِباق" كـ"كتاب" لمطابقة بعضها لبعض، فيكون مصدرًا وُصف به الفاعل، أو مصدرًا مؤكّدًا لفعل مبنيّ للفاعل، أي: طابقت طباقًا. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «طبق».

[4] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

حتّى يتّضح لك / ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما. والفُطور: الشقوق [٢٠٩و]
والصدوع جمع "فَطْر" وهو الشقّ، يقال: فطَره فانفطر.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أُخريين في ارتياد الخلَل. والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في "لبّيك" و"سعدَيك"، أي: رجعة بعد رجعة وإن كثُرت. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: بعيدًا محرومًا مِن إصابة ما التمسه مِن العيب والخلَل، كأنّه يُطرد عن ذلك طردًا بالصَّغار والقماءة. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كَلِيل لطول المعاودة وكثرةِ المراجعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكون خَلْق السماوات في غاية الحُسن والبهاء، إثر بيان خلوّها عن شائبة القصور. وتصدير الجملة بالقسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله لقد زيّنا أقرب السماوات إلى الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكبَ مضيئةٍ بالليل إضاءة السُّرُج مِن السيّارات والثوابت، تتراءى كأنّ كلّها مركوزة فيها مع أنّ بعضها في سائر السماوات، وما ذاك إلّا لأنّ كلّ واحدة منها مخلوقة على نمط رائق يحار في فهمه الأفكار، وطِراز فائق يهيم في دَرْكه الأنظار.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رَجْم أعدائكم بانقضاض الشُّهُب المقتبَسة مِن نار الكواكب.[١] وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجِّمون.[٢] ولا يساعده المقام. و"الرُّجوم" جَمْع "رَجْم" بالفتح: وهو ما يُرجَم به.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾

---

١ س: الكوكب.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٨.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ مِن الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وقُرئ بالنصب[1] على أنّه عطف على ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[2] ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ على ﴿لَهُمْ﴾.[3] ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ / أي: جهنّم. [٢٠٩ظ]

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي: لجهنّم، وهو متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن قوله تعالى: ﴿شَهِيقًا﴾، لأنّه في الأصل صفته، فلمّا قدّمت صارت حالًا، أي: سمعوا كائنًا لها شهيقًا، أي: صوتًا كصوت الحمير، وهو حسيسها المنكَر الفظيع. قالوا: الشهيق في الصدر والزفير في الحَلْق.[4] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: والحال أنّها تغلي بهم غليان المِرجل بما فيه.

وجعلُ الشهيق لأهلها منهم وممّن طُرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود، ١٠٦/١١]،[5] يردّه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميّز وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: مِن شدّة الغضب عليهم، فإنّه صريح في أنّه مِن آثار الغضب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، فأين هو مِن شهيقهم الناشئ مِن شدّة ما يقاسونه مِن العذاب الأليم. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿تَفُورُ﴾ أو خبر آخر.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ استئناف مَسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها. وقيل:[6] حال مِن ضميرها،[7] أي: كلّما ألقي فيها جماعة مِن الكفرة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والضحّاك وأسيد المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١١.

[2] في الآية السالفة.

[3] في الآية السالفة.

[4] مرويّ عن أبي العالية في جامع البيان للطبري، ٥٧٧/١٢ (هود، ١٠٦/١١)؛ ونقله ابن عادل عن القرطبي في اللباب، ٢٣٨/١٩.

[5] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٤.

[6] س: وهي.

[7] هذا الوجه في اللباب لابن عادل، ٢٣٩/١٩.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذابًا فوق عذاب وحسرةً على حسرة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلو عليكم آيات ربّكم وينذركم لقاءَ يومكم هذا، كما وقَع في سورة الزمر.[١]

ويُعرب عنه جوابهم أيضًا، ﴿قَالُواْ﴾ اعترافًا بأنّه تعالى قد أزاح عِلَلهم بالكلّيّة ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير وتحسّرًا على ما فاتهم مِن السعادة في تصديقهم وتمهيدًا لبيان ما وقَع منهم مِن التفريط تندّمًا واغتمامًا على ذلك، أي: قال كلّ فوج مِن تلك الأفواج: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، أي: واحد حقيقةً أو حُكمًا، كأنبياء بني إسرائيلَ، فإنّهم في حُكم نذير واحد، فأنذرَنا وتلا علينا ما نزّل الله تعالى عليه مِن آياته.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيرًا مِن جهته تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقّ ما تلاه مِن الآيات إفراطًا في التكذيب وتماديًا في النكير ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء فضلًا عن تنزيل الآيات عليكم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في ادّعاء أنّه تعالى نزّل عليكم آياتٍ تنذروننا بما فيها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحقّ والصواب.

وجمعُ ضمير الخطاب مع أنّ مخاطَب كلّ فوج نذيرُه لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب وتماديًا في التضليل، / كما ينبئ عنه تعميم المُنزَّل مع تَرْك [٢١٠و]
ذِكر المنزَّل عليه، فإنّه ملوّح بعمومه حتمًا. وأمّا إقامة تكذيب الواحد مُقام تكذيب الكلّ فأمر تحقيقيّ يُصار إليه لتهويل ما ارتكبوه مِن الجناية، لا مساغَ لاعتباره مِن جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم، كيف لا، وهو منوط بملاحظة إجماع النذُر على ما لا يختلف مِن الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم مِن ذلك وقد «حال الجريض دون القريض».[٢]

---

[١] في الآية التاسعة والخمسين منها.

[٢] مجمع الأمثال للميداني، ١٩١/١. وفيه: «الجريض: الغُصّة... والقريض: الشِّعر... يُضرَب للأمر يُقدَر عليه أخيرًا حين لا ينفع». ومضى في تفسير هود، ٤٢/١١.

هذا إذا جُعل ما ذُكر حكايةً عن كلّ واحد مِن الأفواج، وأمّا إذا جُعل حكايةً عن الكلّ، فالنذير إمّا بمعنى الجمع لأنّه فعيل، أو مصدر مقدَّر بمضاف عامّ، أي: أهل نذير، أو منعوت به فيتّفق كلا طرفَي الخطاب في الجمعيّة.

ومَن اعتبر الجمعيّة بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأوّل ولم يخصّ اعتبارها بالتقدير الأخير، فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون. وقد جُوّز أن يكون الخطاب مِن كلام الخزَنة للكفّار على إرادة القول، على أنّ مرادهم بالضّلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسميةً له باسم سببه، وأن يكون مِن كلام الرسل للكفَرة، وقد حكَوه للخزَنة.[١] فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضًا معترِفين بأنّهم لم يكونوا ممّن يسمع أو يعقل ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامًا ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئًا ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في عِدادهم ومِن أتباعهم، وهم الشياطين، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[٢] كأنّ الخزَنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ: ألم تسمعوا آيات ربّكم ولم تعقلوا معانيَها حتّى لا تكذبوا بها، فأجابوا بذلك.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكون "الحاء"، وقُرئ بضمّها،[٣] مصدر مؤكِّد إمّا لفعل متعدّ مِن المزيد بحذف الزوائد، كما في "قِعْدَكَ اللهَ"، أي: فأسحقهم الله، أي: أبعَدهم مِن رحمته سُحقًا، أي: إسحاقًا، أو لفعل مترتِّب على ذلك الفعل، أي: فأسحقهم الله فسحُقوا، أي: بعدوا سُحقًا، أي: بعدًا، كما في قول مَن قال:

[٢١٠ظ] وعضَّةُ دهرٍ يا بن مروان لم يَدَعْ / مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٤]

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٦/٣.

٢ في الآية الخامسة مِن هذه السورة.

٣ قرأ بها الكسائي وابن جمّاز بخلاف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢١٧/٢.

٤ البيت للفرزدق، ومضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٤٩/٢.

أي: لـم يدعَ فلـم يبقَ إلّا مُسحَت... إلـخ، وعلى هذين الوجهين قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣]. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢] ونحوه، والمراد بهم الشياطين والداخلون في عِدادهم بطريق التغليب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافون عذابه غائبًا عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعين النّاس، أو بما خفيَ منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يُقادر قَدْره.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ بيان لتساوي السرّ والجهر بالنسبة إلى عِلمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد، ١٠/١٣]. قال ابن عبّاس: نزلت في المشركين كانوا ينالون مِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيُوحى إليه عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم كيلا يسمع ربّ محمّد، فقيل لهم: أسرّوا ذلك أو اجهروا به فإنّ الله يعلمه.[١]

وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه مِن أوّل الأمر والمبالغةِ في بيان شمول عِلمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ عِلمه تعالى بما يُسرّونه أقدم منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السويّة، فإنّ عِلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صوَرها؛ بل وجود كلّ شيء في نفسه عِلم بالنسبة إليه تعالى، أو لأنّ مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما مِن شيء يُجهر به إلّا وهو أو مباديه مضمَر في القلب، يتعلّق به الأسرار غالبًا، فتعلُّق عِلمه تعالى بحالته الأولى متقدِّم على تعلّقه بحالته الثانية.

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ١٧٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لِما قبله وتقرير له. وفي صيغة "الفعيل" وتحليةِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بلام الاستغراق ووصفِ الضمائر بصاحبيّتها مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءه. كأنّه قيل: إنّه مبالِغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارِهم الخفيّة المستكِنّة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما تُسرّونه وتجهرون به. ويجوز أن يراد بـ﴿ذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: القلوب التي في الصدور، والمعنى: إنّه عليم بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى / عليه سرّ مِن أسرارها.[1] [٢١١و]

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة عِلمه تعالى بالمضمَر والمظهَر، أي: ألا يعلم السرّ والجهر مَن أوجد بموجَب حِكمته جميع الأشياء التي هما مِن جملتها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ مؤكِّدة للإنكار والنفي، أي: ألا يعلم ذلك والحال أنّه المتوصِّل عِلمه إلى ما ظهر مِن خلقه وما بطن.

ويجوز أن يكون ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ منصوبًا،[2] والمعنى: ألا يعلم الله مَن خلقه، والحال أنّه بهذه المثابة مِن شمول العِلم. ولا مساغ لإخلاء العِلم عن المفعول بإجرائه مُجرَى "يعطي" و"يمنع"، على معنى: ألّا يكون عالمًا مَن خلَق، لأنّ الخَلْق لا يتأتّى بدون العِلم، لخلوّ الحال حينئذ عن الإفادة؛ لأنّ نَظْم الكلام حينئذ ألّا يكون عالمًا وهو مبالغ في العِلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ ليّنة يسهل عليكم السلوك فيها، وتقديم ﴿لَكُمُ﴾ على مفعولَي الجَعْل مع أنّ حقّه التأخر عنهما للاهتمام بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر لا سيّما عند كون المقدَّم

---

[1] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢ (هود، ٥/١١).

[2] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٤-٤٤٠.

ممّا يدلّ على كون المؤخَّر مِن منافع المخاطَبين تبقى النفس مترقبةً لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذِكره فضلَ تمكّن.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجَعْل المذكور، أي: فاسلكوا في جوانبها أو جبالها. وهو مثَل لفرط التذليل، فإنّ مَنكِب البعير أرقّ أعضائه وأنباها عن أن يطأه الراكب بقدمه، فإذا جُعل الأرض في الذلّ بحيث يتأتّى المشيُ في مناكبها لم يبقَ منها شيء لم يتذلّل.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ والتمسوا مِن نِعَم الله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المَرجِع بعد البعث، لا إلى غيره، فبالغوا في شُكر نِعَمه وآلائه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: الملائكةَ الموكَّلين بتدبير هذا العالم، أو الله سبحانه على تأويل: مَن في السماء أمرُه وقضاؤه، أو على زَعْم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء، أي: أأمنتم مَن تزعمون / أنّه في السماء، وهو [٢١١ظ] متعالٍ عن المكان.

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بعد ما جعَلها لكم ذلولًا تمشون في مناكبها وتأكلون مِن رزقه، لكفرانكم تلك النعمة، أي: يقلبها ملتبِسةً بكم، فيُغيِّبكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل اشتمال مِن ﴿مَن﴾. وقيل: هو على حذف الجارّ، أي: مِن أن يخسف.[١] ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب ذهابًا ومجيئًا على خلاف ما كانت عليه مِن الذلّ والاطمئنان.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إضراب عن التهديد بما ذُكر وانتقال إلى التهديد بوجه آخرَ، أي: بل أأمنتم مَن في السّماء. ﴿أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ أي: حجارةً مِن السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل. وقيل: ريحًا فيها حجارة وحصباء، كأنّها تقلع الحصباء لشدّتها وقوّتها. وقيل: هي سحاب فيها حجارة.[٢]

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٤٨.

[٢] القولان في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٤٩.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب البتَّةَ ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري عند مشاهدتكم للمنذَر به، ولكن لا ينفعكم العِلم حينئذ. وقُرِئ: "فَسَيَعْلَمُوْنَ"[1] بالياء.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن قبل كفّار مكّة مِن كفّار الأمم السّالفة، كقوم نوحٍ وعادٍ وأضرابهم. والالتفات إلى الغَيبة لإبراز الإعراض عنهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب، أي: كان على غاية الهَول والفظاعة. وهذا هو مورد التأكيد القَسَمي، لا تكذيبهم فقط. وفيه مِن المبالغة في تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتشديدِ التهديد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أغفَلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها، فإنهنّ إذا بَسطنها صففْنَ قوادمها[2] صفًّا. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضمُمْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهنّ حينًا فحينًا للاستظهار به على التحرُّك. وهو السرّ في إيثار ﴿يَقْبِضْنَ﴾ الدالِّ على تجدُّد القبض تارةً بعد تارة على "قابضات".

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ عند الصفّ والقبض على خلاف مقتضى الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الواسعُ رحمتُه كلَّ شيء، بأن برأهنّ على أشكال وخصائصَ، وهيأهنّ للجري في الهواء. والجملة مستأنَفة أو حال مِن الضمير في ﴿يَقْبِضْنَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيفيّة إبداع المبدَعات وتدبير المصنوعات.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تبكيت لهم / بنفي أن يكون لهم ناصرٌ غير الله تعالى، كما يلوِّح به التعرّض لعنوان الرحمانيّة، [٢١٢و]

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٠.

[2] القوادم: أربع ريشات في مقدَّم الجناح، الواحدة منها قادمة. لسان العرب لابن منظور، «منه».

ويعضده قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾،[١] أو ناصر مِن عذابه تعالى، كما هو الأنسب بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾،[٢] كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء، ٤٣/٢١] في المعنيين معًا، خلا أنّ الاستفهام هناك متوجّه إلى نفس المانع وتحقُّقه، وههنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه.

و"أم" منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" المفيدة للانتقال مِن توبيخهم على ترك التأمّل فيما يشاهدونه مِن أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عزّ وجلّ إلى التبكيت بما ذُكر. والالتفات للتشديد في ذلك، ولا سبيلَ إلى تقدير الهمزة معها، لأنّ ما بعدها "مَن" الاستفهاميّة، وهي مبتدأ وهذا خبره، والموصول مع صلته صفته، كما في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥ﴾ [البقرة، ٢٥٥/٢].

وإيثارُ ﴿هَٰذَا﴾ لتحقير المشار إليه. و﴿يَنصُرُكُم﴾ صفة لـ﴿جُندٌ﴾ باعتبار لفظه. و﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، على الوجه الأوّل، إمّا حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾ أو نعت لمصدره، وعلى الثاني متعلّق بـ﴿يَنصُرُكُم﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٣٠/١١]، فالمعنى: بل مَن هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم، متجاوزًا نصر الرحمن، أو ينصركم نصرًا كائنًا مِن دون نصره تعالى، أو ينصركم مِن عذاب كائن مِن عند الله عزّ وجلّ.

وتوهُّم أنّ "أم" معادِلةٌ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾... إلخ، معَ القول بأنّ "مَن" استفهاميّة،[٣] ممّا لا تقريبَ له أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتراض مقرِّر لِما قبله، ناعٍ عليهم ما هم فيه مِن غاية الضلال، أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون مِن النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، أو أنّ آلهتهم تحفظهم مِن بأس الله إلّا في غُرور عظيم وضلال فاحش مِن جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتدّ به في الجملة. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيانِ قبائحهم لغيرهم. والإظهارُ في موقع الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليلِ غُرورهم به.

---

١ في الآية السالفة.
٢ في الآية التالية.
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٨/٣.

والكلام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائر مباديه، كالذي[1] مرّ تفصيله، خلا أنّ قوله
[٢١٢ظ] تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ / منبئ عن مقدّر يستدعيه المقام، كأنّه قيل إثرَ تمام التبكيت والتعجيز: لم يتأثّروا بذلك ولم يُذعنوا للحقّ؛ بل لجّوا وتمادَوا في عتوّ، أي: عِناد واستكبار وطغيان، ونفور، أي: شِراد عن الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾... إلخ، مَثَل ضُرب للمشرك والموحّد توضيحًا لحالهما وتحقيقًا لشأن مذهبيهما. و"الفاء" لترتيب ذلك على ما ظهَر مِن سوء حالهم وخُرورهم في مهاوي الغرور، وركوبِهم متنَ عشواءِ العتوّ والنفور، وعدمِ اهتدائهم في مَسلك المُحاجّة إلى جهة يتوهَّم فيها رُشد في الجملة، فإنّ تقدّم "الهمزة" عليها صورةً إنّما هو لاقتضائها الصدارة، وأمّا بحسب المعنى فالأمر بالعكس، كما هو المشهور حتّى لو كان مكان "الهمزة" "هل" لقيل: فهل مَن يمشي مكبًّا... إلخ؟ والمُكِبّ الساقط على وجهه، يقال: أكبّ: خرّ على وجهه، وحقيقته صار ذا كبّ ودخل في الكبّ، كـ"أقشع الغمام"، أي: صار ذا قشَع.

والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر في كلّ ساعة ويخرّ على وجهه في كلّ خطوة لتوعُّر طريقه واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمّه ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: قائمًا سالمًا مِن الخبط والعِثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء لا عِوَج فيه ولا انحراف. قيل: خبرُ "مَن" الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه.[2] ولا حاجةَ إلى ذلك، فإنّ الثانية معطوفة على الأولى عطْفَ المفرد على المفرد، كقولك: أزيد أفضلُ أم عمرو؟

وقيل: أريدَ بـ"المُكبّ" الأعمى وبـ"السويّ" البصير. وقيل: مَن يمشي مكبًّا هو الذي يُحشر على وجهه إلى النّار، ومَن يمشي سويًّا الذي يُحشر على قدميه إلى الجنّة.[3]

---

١ السياق: والكلامُ... كالذي...
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٥٥.
٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٢٩.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إنشاءً بديعًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آياتِ الله وتمتثلوا بما فيها مِن الأوامر والنواهي وتتّعظوا بمواعظها. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات/ التكوينيّة الشاهدة بشئون الله عزّ وجلّ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها فيما تسمعونه [٢١٣و] وتشاهدونه مِن الآيات التنزيليّة والتكوينيّة، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: باستعمالها فيما خُلقت لأجله مِن الأمور المذكورة. و﴿قَلِيلًا﴾[١] نعت لمحذوف، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون. وقيل: القلّة عبارة عن العدم.[٢]

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وكثّركم فيها لا غيرُه ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء لا إلى غيره اشتراكًا أو استقلالًا، فابنُوا أموركم على ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط عتوّهم وعنادهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشر الموعود، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.[٣] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُخاطبون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، حيث كانوا مشاركين له عليه السلام في الوعد وتلاوة الآيات المتضمِّنة له. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه مِن مجيء الساعة والحشر فبيِّنوا وقته.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العِلم بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ، لا يطّلع عليه غيره، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذِركم وقوع الموعود لا محالةَ، وأمّا العِلم بوقت وقوعه فليس مِن وظائف الإنذار.

---

١ س ي + إمّا.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٥٦/١٩.

٣ في الآية السالفة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحة معرِبة عن تقدير جملتين وترتيبِ الشرطيّة عليهما، كأنّه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه فلمّا رأوه... إلخ، كما مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]، إلّا أنّ المقدَّر هناك أمر واقع مرتَّب على ما قبله بـ"الفاء"، وههنا أمر منزَّل منزلةَ الواقع وارد على طريقة الاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿زُلْفَةً﴾ حال مِن مفعول ﴿رَأَوْا﴾، إمّا بتقدير المضاف أي: ذا زُلفة وقُرب، أو على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: مزدلفًا، / أو على أنّه مصدر نُعت [٢١٣ظ]
به مبالغةً، أو ظرف، أي: رأوه في مكان ذي زُلفة. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأن غشِيَتها الكآبة ورَهِقَها القَتَر والذِّلّة. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به.

﴿وَقِيلَ﴾ توبيخًا لهم وتشديدًا لعذابهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارًا واستهزاءً، على أنّه "تفتعلون" مِن الدعاء. وقيل: هو مِن الدّعوى،[١] أي: تدّعون ألّا بعثَ ولا حشرَ. وقُرئ: "تَدْعُوْنَ".[٢] هذا وقد رُوي عن مجاهد أنّ الموعود عذاب يوم بدر.[٣] وهو بعيد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني، والتعبيرُ عنه بالإهلاك لِما كانوا يدعون عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى المؤمنين بالهلاك. ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ مِن المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته متربّصون لإحدى الحُسنيين. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لا ينجّيكم منه أحد مُتنا أو بقينا. ووضعُ الكافرين موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليلِ نفي الإنجاء به.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إلى عبادته مُولي النِّعم كلّها، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحدَه لِما علمنا أنّ كلّ ما سواه فإمّا نعمة أو مُنعَم عليه. ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٢.

[٢] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٩/٢٥٧.

لا على غيره أصلًا، لعِلمنا بأنّ ما عداه كائنًا ما كان بمَعزِل مِن النفع والضَرّ. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب البتّةَ ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منّا ومنكم. وقُرئ: "فَسَيَعْلَمُونَ"[١] بالياء التحتانيّة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض بالكلّيّة. وقيل: بحيث لا تناله الدِّلاء.[٢] وهو مصدر وُصف به.[٣] ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ جارٍ،[٤] أو ظاهرٍ سَهْل المأخذ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُلك فكأنّه أحيا ليلة القدر».[٥]

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

٢ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٤ مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٨١.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦٧

سورة الملك

مكية، ثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿تَبارَكَ﴾: تَنزَّهَ عن صِفات المُحدَثين ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾: في تصرّفه ﴿المُلكُ﴾: السلطان والقُدرة، ﴿وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ المَوتَ﴾ في الدنيا ﴿والحَياةَ﴾ في الآخرة، أو هما في الدنيا ـ فالنطفة تَعرِض لها الحياةُ وهي ما به الإحساسُ، والموتُ ضِدُّها أو عَدَمُها، قولانِ. والخلق على الثاني بمعنى التقدير ـ ﴿لِيَبلُوَكُم﴾: ليختبركم...................................

سورة الملك

قولُهُ: (تَنَزَّهَ) الظَّاهِرُ: تعالى وتعظَّمَ، أو كثُرَ خيرُه.

قولُهُ: (فِي تَصَرُّفِه) وقبضَةِ قُدرَته.

قولُهُ: (السُّلطَانُ) أي: سلطَنَةُ الخَلقِ وقُدرَتِهم، بل في جميعِ الأمُورِ.

قولُهُ: (أَو هُمَا فِي الدُّنيَا) أو هي فيهِما.

قولُهُ: (قَولانِ) اختلفَ العلماءُ، هل الموتُ صفةٌ وُجوديَّةٌ مُضادَّةٌ للحياةِ كما دلَّتْ عليهِ الآيَة، أو هو عدمُ الحياةِ؟ فمَن قالَ بالثَّاني ذكَر في تفسيرِهما: قدَّرَهُما، أو أوجدَ الحياةَ وأزالَها حسبما قدَّرَه، والمرادُ منَ (الخلقِ) هاهُنا: الإنشاءُ والإبداعُ الشَّامِلُ لمعناهُ الحقيقيِّ ـ أَعنِي: الإيجادَ ـ، والمجازِيِّ ـ أَعني: الإثباتَ ـ بعدَما لم يَثبُت فهوَ من قَبِيلِ عُمومِ المجازِ، وقدَّمَ الموتَ لقولِهِ: ﴿وكُنتُم أَمواتاً فَأَحيَاكُم﴾ [البقرة: ٢٨]، أو لأَنَّهُ أدعى إلى حُسنِ العَمَلِ.

قولُهُ: (لِيَختَبِرَكُم) أي: ليُعامِلَكُم مُعامَلَةَ المختَبِرِ بالتَّكليفِ أَيُّها المكَلَّفونَ.

في الحياة: ﴿أَيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً﴾: أطوعُ للهِ؟ ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في انتقامه ممّن عصاه ﴿الغفُورُ﴾ لمن تاب إليه.

٣ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا﴾: بعضُها فوقَ بعض من غير مُماسّة، ﴿ما تَرَى في خَلقِ الرَّحمنِ﴾ لهنّ أو لغيرهنّ ﴿مِن تَفاوُتٍ﴾: تباينٍ وعدم تناسُب. ﴿فارجِعِ البَصَرَ﴾: أعِدْه إلى السماء: ﴿هَل تَرَى﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾: صُدوع وشُقوق؟ ٤ ـ ﴿ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ﴾: كرّةً بعد كرّة، ﴿يَنقَلِبْ﴾: يرجعْ ﴿إلَيكَ البَصَرُ خاسِئًا﴾: ذليلاً لعدم إدراك خلل، ﴿وهُوَ حَسِيرٌ﴾ مُنقطع عن رُؤيةِ خللٍ.
٥ ـ ﴿ولَقَد زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا﴾: القُربَى إلى الأرض ﴿بِمَصابِيحَ﴾:........................

قولُهُ: (في الحَيَاةِ) أي: الدُّنيَويَّة.

قولُهُ: (أَطوَعُ) أي: أكثَرُ طاعَةً وانقيادًا، وأصوَبُهُ وأخلَصُهُ، وجاءَ مَرفوعاً: «أَحسَنُ عَقْلاً، وأَورَعُ عن مَحَارِمِ اللهِ، وأَسرَعُ في طَاعَتِهِ»[1] وقيلَ: أزهَدُكُم في الدُّنيا، وقيل: أكثَرُكُم ذِكراً للمَوتِ وأَشَدُّكُم استِعدادًا له.

قولُهُ: (مِن غَيرِ مُمَاسَّةٍ) ومُعالَجَة، وهو إمَّا مَفعولٌ ثانٍ، أو صِفَةٌ لـ﴿سَبعِ سَمَاوَاتٍ﴾؛ أي: ذاتَ طِباقٍ، جمعُ: طَبَقَة.

قولُهُ: (تَبَايُنٍ) أي: تَنافُرٍ وتَناقُضٍ وتَخالُفٍ، و﴿من﴾ زائِدةٌ للتَّأكيدِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (مِن تَفَوُّتٍ)[2]، والخِطابُ لكلِّ مُخاطَبٍ.

قولُهُ: (أَعِدْهُ) أي: انظُر إليها مرَّةً أخرى نظرَةَ[3] تأمُّلٍ.

قولُهُ: (صُدُوعٍ) أو خَللٍ.

قولُهُ: (بَعدَ كَرَّةٍ) أي: التَّثنيَةُ بمَعنى التَّكريرِ والتَّكثيرِ، كما في: لبَّيكَ وسَعديكَ.

قولُهُ: (مُنقَطِعٌ) كَلِيلٌ؛ لطولِ التَّرَدُّد.

قولُهُ: (القُربَى) أي: أقرَبُ السَّماواتِ.

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب العالية» (٢٧٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٧٩٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٧٢٥): هذه الأحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر، كلها موضوعة، ذكرها الحارث في «مسنده».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٤٤)، و«التسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢).

(٣) في (م): «نظر».

بنُجوم، ﴿وجَعَلْناها رُجُومًا﴾: مَراجمَ ﴿لِلشَّياطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع بأن ينفصل شِهاب عن الكوكب كالقبس يُؤخذ من النار، فيَقتل الجِنّيَّ أو يُخبّله لا أنّ الكوكب يزول عن مكانه، ﴿وأعتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعِيرِ﴾: النارِ المُوقدة.

٦ ـ ﴿ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم عَذابُ جَهَنَّمَ، وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي! ٧ ـ ﴿إذا أُلقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقًا﴾: صوتًا مُنكرًا كصوت الحِمار، ﴿وهِيَ تَفُورُ﴾: تغلي، ٨ ـ ﴿تَكادُ تَمَيَّزُ﴾، وقُرئ: «تَتَمَيَّزُ» على الأصل: تتقطّع ﴿مِنَ الغَيظِ﴾ غضبًا على الكافر، ﴿كُلَّما أُلقِيَ فِيها فَوجٌ﴾: جماعة منهم ﴿سأَلَهُم خَزَنَتُها﴾ سُؤالَ توبيخ: ﴿أَلَم يأتِكُم نَذِيرٌ﴾: رسول يُنذركم عذاب الله؟ ٩ ـ ﴿قالُوا: بَلَى قَد جاءَنا نَذِيرٌ، فكَذَّبْنا وقُلْنا: ما نَزَّلَ اللهُ مِن شَيءٍ. إنْ﴾: ما ﴿أنتُم إلاّ في ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾. يحتمل أن يكون من كلام الملائكة للكُفّار حين أُخبروا بالتكذيب، وأن يكون من كلام الكُفّار للنُّذر. ١٠ ـ ﴿وقالُوا: لَو كُنّا نَسمَعُ﴾ أي: سماعَ تفهّم ﴿أو نَعقِلُ﴾ أي: عقلَ تفكّر ﴿ما كُنّا في أصحابِ السَّعِيرِ﴾.

١١ ـ ﴿فاعترَفُوا﴾ حيثُ لا ينفع الاعتراف ﴿بِذَنبِهِم﴾، وهو تكذيب الرسل. ﴿فسُحْقًا﴾.........

قولُهُ: (بنُجُومٍ) مُضيئَةٍ كالمصباحِ، ولا يَمنَعُ ذلك كَونَ بعضِ الكَواكِبِ مَركوزَةً في السَّماواتِ فَوقَها؛ إذِ التَّزيُّنُ بإظهارِها عليها.

قولُهُ: (مَرَاجِمَ) الرُّجُومُ جمعُ: رَجْم ـ بالفتحِ ـ وهو مصدَرٌ، سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به[1].

قولُهُ: (شِهَابٌ) ككِتابٍ، شُعلَةٌ من نارٍ ساطِعَةٍ[2].

قولُهُ: (أَن يُخَبِّلَهُ) التَّخبيلُ: إفسادُ العَقلِ.

قولُهُ: (النَّارِ المُوقَدَةِ) في الآخِرَةِ بعدَ الإحراقِ بالشُّهُبِ في الدُّنيا.

قولُهُ: (تَغلِي) بهم غَلَيانَ المِرجَلِ بما فيه.

قولُهُ: (تَنقَطِعُ) وتَتَفَرَّقُ.

قولُهُ: (لِلنُّذُرِ) وهذا هو الأظهَرُ.

قولُهُ: (سَمَاعَ تَفَهُّمٍ) أي: كلامَ الرُّسُلِ.

قولُهُ: (عَقلَ تَفَكُّرٍ) في حُكمِهِ ومعانيهِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١١١).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣).

ـ بسكون الحاء وضمّها ـ ﴿لِأصحابِ السَّعِيرِ﴾: فبُعدًا لهم عن رحمة الله. ١٢ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم﴾: يخافونه ﴿بِالغَيبِ﴾: في غيبتهم عن أعيُن الناس، فيطيعونه سِرًّا فيكون علانيةً أولى، ﴿لَهُم مَغفِرةٌ وأجرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: الجنة.

١٣ ـ ﴿وأَسِرُّوا﴾ ـ أيها الناس ـ ﴿قَولَكُم أوِ اجهَرُوا بِهِ. إنَّهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما فيها. فكيف بما نطقتم به؟ وسببُ نزول ذلك أنّ المُشركينِ قال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، لا يسمعْكم إلـٰـهُ مُحمّد. ١٤ ـ ﴿ألا يَعلَمُ مَن خَلَقَ﴾ ما تُسرّون، أي: أينتفي عِلمه بذلك، ﴿وهُوَ اللَّطِيفُ﴾ في عِلمه ﴿الخَبِيرُ﴾ فيه؟ لا. ١٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً﴾ سهلة للمشي فيها ـ ﴿فامشُوا في مَناكِبِها﴾: جوانبها، ﴿وكُلُوا مِن رِزقِهِ﴾ المخلوقِ لأجلكم ـ ﴿وإلَيهِ النُّشُورُ﴾ من القُبور للجزاء.

١٦ ـ ﴿أأمِنتُم﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينها وبين الأُخرى وتركِه، وإبدالِها ألفًا ـ ﴿مَن في السَّماءِ﴾ سُلطانُه وقُدرتُه ﴿أن يَخسِفَ﴾: بدلٌ مِن «مَن» ﴿بِكُمُ الأرضَ، فإذا هِيَ تَمُورُ﴾: تتحرّك بكم وترتفع فوقكم؟........................

قولُهُ: (وضَمِّهَا) كسائِي[1].

قولُهُ: (فَبُعداً) مَفعولٌ مُطلَقٌ وَجبَ حَذفُ فعلِهِ؛ أي: سَحقَهُم الله سَحقاً.

قولُهُ: (عَن أَعيُنِ النَّاسِ) أو عن اللهِ (أو يَخَافُونَ) عَذابَهُ غائِباً عَنهُم.

قولُهُ: (أي: الجَنَّةُ) لأنَّها تَصغُرُ دُونَها لذائِذُ الدُّنيا.

قولُهُ: (بِمَا فِيهَا) من الضَّمائِرِ قَبلَ أن يُعَبِّرَ عَنها سِرًّا أو جَهراً.

قولُهُ: (لا) أي: لا يَنتَفِي عِلمُهُ بذلك.

قولُهُ: (لِلمَشيِ) والحَرثِ والغَرسِ والبِناء.

قولُهُ: (بتَحقِيقِ) تقدَّم[2].

قولُهُ: (وَقُدرَتُه) أي: آثارُ قُدرَتِه، خَصَّ السَّماءَ؛ لأنَّها مَساكِنُ مَلائِكَتِهِ وعَرشِهِ وكُرسِيِّهِ، ومنها يَنزِلُ قَضاؤُهُ وكُتُبُهُ وأمرُهُ ونَهيُه.

قولُهُ: (بَدَلٌ) بَدَلُ اشتِمالٍ، كذا قالوا، والأظهَرُ أن يُقدَّرَ «مِن»؛ أي: أَمِنتُموهُ من الخَسفِ أو الإرسالِ، والله أعلمُ بالأحوالِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٤).

(٢) في الآية رقم: (٨) من سورة ص.

١٧ ـ ﴿أم أمِنتُم مَن في السَّماءِ أن يُرسِلَ﴾: بدلٌ مِن «مَن» ﴿عليكُم حاصِبًا﴾: رِيحًا ترميكم بالحصباء؟ ﴿فستعلَمُونَ﴾ عِند مُعاينة العذاب: ﴿كَيفَ نَذِيرِ﴾: إنذاري بالعذابِ؟ أنه حقّ. ١٨ ـ ﴿ولقَد كذَّبَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، ﴿فكَيفَ كانَ نكيرِ﴾: إنكاري عليهم التكذيبَ عِند إهلاكهم؟ أي: إنه حقّ.

١٩ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: ينظروا ﴿إلَى الطَّيرِ فوقَهُم﴾ في الهواء ﴿صافّاتٍ﴾: باسطاتٍ أجنحتَهنّ، ﴿ويَقبِضنَ﴾ أجنحتَهنّ بعد البسط، أي: وقابضاتٍ؟ ﴿ما يُمسِكُهُنَّ﴾ عن الوُقوع في حال البسط والقبض ﴿إلاّ الرَّحمنُ﴾ بقُدرته. ﴿إنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ﴾. المعنى: ألم يستدِلّوا، بثُبوت الطير في الهواء، على قُدرتنا أن نفعل بهم ما تقدّم وغيرَه من العذاب؟

٢٠ ـ ﴿أم مَن﴾: مبتدأٌ ﴿هذا﴾: خبرُه ﴿الَّذِي﴾: بدلٌ من «هذا» ﴿هُو جُندٌ﴾: أعوان ﴿لكُم﴾: صلةُ «الذي»، ﴿يَنصُرُكُم﴾: صفةُ «جُند» ﴿مِن دُونِ الرَّحمنِ﴾ أي: غيرِه، يدفع عنكم عذابه؟ أي: لا ناصر لكم ـ ﴿إنِ﴾: ما ﴿الكافِرُونَ إلاّ في غُرُورٍ﴾ غرَّهم الشيطانُ بأنّ العذاب لا ينزل بهم ـ ٢١ ـ ﴿أم مَن هذا الَّذِي يَرزُقُكُم إن أمسَكَ﴾ الرحمن ﴿رِزقَهُ﴾ أي: المطرَ عنكم؟ وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه ما قبله، أي: فمَن يرزقُكم؟ أي: لا رازق لكم غيرُه ـ ﴿بَل لَجُّوا﴾: تمادَوا ﴿في عُتُوٍّ﴾: تكبّر........................

قولُهُ: (رِيحاً) أو مَطَراً ذا حجارَةٍ.

قولُهُ: (عِندَ مُعَايَنةِ العَذَابِ) لكن لا يَنفعُكُم العِلمُ حينئذٍ.

قولُهُ: (أي: أنَّهُ حَقٌّ) وهو تَسليَةٌ للرَّسُولِ وتَهديدٌ لقومِهِ.

قولُهُ: (في الهَوَاء) عندَ طَيَرانِها.

قولُهُ: (أي: وَقَابِضَات) وفي «الصحاح»[1]: القَبضُ الإسراعُ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿أوَلَم يَرَوا إلى الطَّيرِ فَوقَهُم﴾ الآية [الملك: ١٩].

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو صِفَتُه.

قولُهُ: (صِفَةُ: جُندٍ) مَحمولٌ في الإفرادِ على لفظِهِ.

قولُهُ: (يَدفَعُ) تَفسيرٌ لـ﴿يَنصُرُكُم﴾.

قولُهُ: (أي: المَطَرَ) وسائِرَ الأسبابِ المحَصِّلَةِ والموصِلَةِ للرِّزقِ إليكم.

قولُهُ: (تكَبُّر) أو عِنادٍ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٠٠).

﴿ونُفُورٍ﴾: تباعُد عن الحقّ. ٢٢ ـ ﴿أفمَن يَمشِي مُكِبًّا﴾: واقعًا ﴿علَى وَجهِهِ أهدَى أم مَن يَمشِي سَوِيًّا﴾: مُعتدلاً ﴿علَى صِراطٍ﴾: طريق ﴿مُستَقِيم﴾؟ وخبر «مَن» الثانية محذوف، دلّ عليه خبرُ الأُولى، أي: أهدى. والمَثل في المُؤمن والكافر، أي: أيُّهما على هُدى؟

٢٣ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الَّذِي أنشَأَكُم﴾: خلقكم، ﴿وجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدَةَ﴾: القُلوب، ﴿قَلِيلاً ما تَشكُرُونَ﴾. ما: مزيدة، والجملة: مستأنفة مُخبِرةٌ بقِلّة شُكرهم جِدًّا على هذه النِّعم. ٢٤ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم﴾: خلقكم ﴿في الأرضِ، وإلَيهِ تُحشَرُونَ﴾ للحِساب. ٢٥ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ للمُؤمنين: ﴿مَتَى هذا الوَعدُ﴾: وعد الحشر، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٢٦ ـ ﴿قُلْ: إنَّما العِلمُ﴾ بمجيئه ﴿عِندَ اللهِ، وإنَّما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار.

قولُهُ: (تَبَاعُدٍ) وشرادٍ؛ لتَنَفُّرِ[1] طِباعِهِم عنه.

قولُهُ: (وَاقِعًا) أي: يعثُرُ كُلَّ ساعَةٍ ويخِرُّ على وجهِهِ؛ لوُعورَةِ طريقِهِ واختِلافِ أجزائِه.

قولُهُ: (مُعتَدِلاً) أي: قائِماً سالِماً من السُّقوطِ.

قولُهُ: (طَرِيقٍ) مُستَوِي الأجزاءِ والجِهَة.

قولُهُ: (والمَثَلُ) يعني: المرادُ تمثِيلُ المشرِكِ والموحِّدِ بالسَّالِكينَ، والدِّينَينِ بالمسلَكَينِ، وقيل: المرادُ بالمُكِبِّ الأعمى، وبالسَّوِيِّ البَصيرُ، وقيلَ: من يمشي مُكبًّا هو الذي يُحشَرُ على وَجهِهِ في النَّارِ، ومَن يَمشي سَوِيًّا الذي يُحشرُ على قَدَمَيهِ إلى الجَنَّة.

قولُهُ: (القُلُوبَ) أي: لتسمَعوا المَواعِظَ، وتَنظُروا صنائِعَهُ، وتَتَفكَّروا وتَعتَبروا.

قولُهُ: (﴿مَا﴾ مَزِيدَةٌ) لتَأكيدِ القِلَّةِ؛ أي: تشكُرونَ شُكراً قَليلاً لهذهِ النِّعَمِ باستِعمالِها فيما خُلِقَت لأجلِهِ.

قولُهُ: (خَلَقَكُم) أو بَثَّكُم ونشَرَكُم.

قولُهُ: (للحِسَابِ) عن قَريبٍ.

قولُهُ: (لِلمُؤمِنِينِ) والأظهَرُ: للنَّبيِّ والمؤمِنينَ.

قولُهُ: (وَعدُ الحَشرِ) إنكاراً، وهو الأظهَرُ، أو وَعدُ العَذابِ في الدُّنيا استِهزاءً.

قولُهُ: (بِمَجِيئِهِ) الظَّاهِرُ: علمُ وقتِهِ.

قولُهُ: (بَيِّنُ الإِنذَارِ) ويَكفي له العِلمُ بوقُوعِ المنذَرِ به، ولا يَحتاجُ إلى تَعيينِ وَقتِه.

---

(١) في (م): «تباعد وتكبر لنفر».

٢٧ ـ ﴿فلَمّا رأَوهُ﴾ أي: العذابَ بعد الحشر ﴿زُلفةً﴾: قريبًا ﴿سِيئَتْ﴾: اسودّتْ ﴿وُجوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وقِيلَ﴾ أي: قال الخزنة لهم: ﴿هذا﴾ أي: العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾: بإنذاره ﴿تَدَّعُونَ﴾ أنكم لا تُبعثون. وهذه حِكاية حال تأتي، عُبّر عنها بطريق المُضيّ لتحقّق وقوعها.

٢٨ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم، إن أهلَكَنِيَ اللهُ ومَن مَعِيَ﴾ من المُؤمنين بعذابه كما تقصدون، ﴿أو رَحِمَنا﴾ فلم يُعذّبنا، ﴿فمَن يُجِيرُ الكافِرِينَ مِن عَذابٍ أَلِيمٍ﴾؟ أي: لا مُجيرَ لهم منه. ٢٩ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الرَّحمنُ، آمَنّا بِهِ، وعَلَيهِ تَوَكَّلْنا. فسَتَعلَمُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ عِند مُعاينة العذاب: ﴿مَن هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ؟ أنحن أم أنتم أم هم؟

٣٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم، إن أصبَحَ ماؤُكُم غَورًا﴾ أي: غائرًا في الأرض ﴿فمَن يأتِيكُم بِماءٍ مَعِينٍ﴾: جارٍ تناله الأيدي والدِّلاء كمائكم؟ أي: لا يأتي به إلاّ الله..........................

قولُهُ: (أي: العَذَابَ) أي: الوَعدَ، فإنَّهُ بمَعنى الموعودِ.

قولُهُ: (قَرِيباً) أو ذا زلفَةٍ؛ أي: قرُبَ منهم، وانتصابُهُ على الظَّرفِ أو الحالِ.

قولُهُ: (اسوَدَّتْ) أي: بانَ عليها الكآبَةُ والسَّوادُ، وساءَتها رُؤيَةُ العَذابِ.

قولُهُ: (أي: قَالَ الخَزَنَةُ لَهُم) أو الأنبياءُ والمؤمِنونَ تَقريعاً، أو بلسانِ الحالِ.

قولُهُ: (بإنذَارِهِ) أي: بسَبَبه.

قولُهُ: (لا تُبعَثُونَ) فهو من الدَّعوَى، إذ به تَطلُبونَ وتستَعجِلونَ، تفتَعِلونَ من الدُّعاءِ.

قولُهُ: (بعَذَابِهِ) أو بالإماتَةِ.

قولُهُ: (فَلَم يُعَذِّبْنَا) أو فأخَّرَ آجالَنا.

قولُهُ: (أي: لا مُجِيرَ) ولا مُنجيَ، مُتنا أو بقينا[1].

قولُهُ: (واليَاءُ) الغَيبَة، للكِسائِي[2].

قولُهُ: (أَم أَنتُم) على قِراءَةِ الخِطابِ[3].

قولُهُ: (غَائِراً) بحيثُ لا يَنالُهُ الدِّلاءُ، مصدَرٌ وُصِفَ به.

قولُهُ: (جَارٍ) أو ظاهِرٍ.

---

(١) في (ص) و(م): «ظَنًّا أو يَقِينًا».

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٤).

(٣) أي: لغير الكسائي.

فكيف تُنكرون أن يبعثكم؟ ويُستحبُّ أن يقول القارئ عقب «مَعين»: اللهُ رَبُّ العالَمِينَ، كما ورد في الحديث. وتُليتْ هذه الآية عند بعض المُتجبّرين، فقال: تأتي به الفُؤوس والمَعاول. فذهب ماء عينه وعمِي. نعوذ بالله من الجرأة على الله ـ تعالى ـ وعلى آياته.

قولهُ: (الفُؤُوسُ) جمعُ: فأسٍ.

قولهُ: (والمَعَاوِلُ) جمعُ: مِعوَل، كمِنبَرٍ، الحَديدَةُ يُنقَرُ بها الجِبالُ[1].

وورد في فَضلِ هذه السُّورَةِ: «لَوَدِدتُ أنَّها في قَلبِ كُلِّ إنسَانٍ مِن أُمَّتِي» رواهُ الطَّبَرانيُّ[2] والله أعلم.

* * *

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١٣٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٤١) (١١٦١٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٧٧) وقال الحاكم: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح ولم يخرجاه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٧): فيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف.

سورة الملك

وتُسمَّى: تبارك، والمانعة، والمُنْجية، والمجادلة؛ فقد أخرج الطبرانيُّ[1] عن ابن مسعود قال: كنَّا نُسمِّيها على عهد رسول الله ﷺ: المانعة. وأخرج الترمذيُّ[2] وغيرُه عن ابن عباس قال: ضرب بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ خباءه على قبرٍ، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبرُ إنسان يقرأُ «سورةَ الملك» حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنْجيه من عذاب القبر». وأخرج الطبرانيُّ والحاكم وابنُ مَرْدويه، وعَبْد بنُ حُميد في «مسنده» واللفظ له، عن ابن عباس أنه قال لرجلٍ: ألا أُتحفُك بحديثٍ تفرَحُ به؟ قال: بلى. قال: اِقرأ: «تبارك الذي بيده الملك»، وعَلِّمها أهلَكَ، وجميعَ ولدكَ، وصبيانَ بيتكَ، وجيرانَكَ، فإنها المُنجية، والمجادلةُ يوم القيامة عند ربِّها لقارئها، وتطلب له أن تُنْجيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبُها من عذاب القبر. الخبر[3]. وفي «جمال القرَّاء»: تُسمَّى أيضاً: الواقية المنَّاعة[4].

وهي مكيةٌ على الأصحِّ، وقيل: غيرَ ثلاث آياتٍ منها. وأخرجه جُوَيبر في «تفسيره» عن الضحَّاك، عن ابن عباس[5]. وفي قولٍ غريب: إنها مدنيةٌ.

---

(١) المعجم الكبير (١٠٢٥٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩٠)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١١٦١٦)، والمنتخب من مسند عبد بن حميد (٦٠٣)، ولم نقف عليه في مطبوع الحاكم، وقد عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٦.

(٤) جمال القراء للسخاوي ١/ ٢٠١، وفيه: المانعة، بدل: المناعة.

(٥) في الأصل و(م): ابن جويبر، وهو خطأ، والمثبت من الإتقان ١/ ٥١، وعنه نقل المصنف، ووقع في الدر المنثور ٦/ ٢٤٦: ابن جرير، وهو تحريف.

وآيُها إحدى وثلاثون آيةً في المكيِّ والمدنيِّ الأخير، وثلاثون في الباقي(١)، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يُرجِّحُه.

ووجهُ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ضرب مثلاً للكفَّار بتينك المرأتين المحتومِ لهما بالشقاوة، وإن كانتا تحت نبيَّين عظيمين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتومٌ لهما بالسعادة، وأن أكثرَ قومهما كفَّار، افتتَحَ هذه بما يدلُّ على إحاطته عزَّ وجل وقهرِه، وتصرُّفه في ملكه على ما سبَقَ به قضاؤه.

وقيل: إنَّ أول هذه متَّصلٌ بقوله تعالى آخرَ «الطلاق»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [١٢] لِمَا فيه من مزيد البَسْط لِمَا يتعلَّق بذلك، وفَصَلَ بسورة «التحريم» لأنها كالقطعة من سورة «الطلاق» والتتمَّة لها.

وقد جاء في فضلها أخبارٌ كثيرةٌ، منها ما مرَّ آنفاً، ومنها ما أخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه، وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورةً من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شَفَعت لرجلٍ حتى غُفِر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٢).

ومنها ما جاء في حديثٍ رواه الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ جيِّد عن ابن مسعود، وآخر رواه عنه جماعةٌ وصحَّحه الحاكمُ: «من قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطيَبَ»(٣).

وأخرج ابنُ مردويه عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأُ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلَّ ليلةٍ، لا يدعُهما في سفرٍ ولا حضر(٤).

---

(١) في حاشية الأصل: اختلافها آية واحدة: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ مكي، والمدني الأخير. اهـ منه.
وجاء فيها كذلك ما نصه: أخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي (تحرفت إلى ابن) هريرة، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت عليَّ سورة «تبارك» وهي ثلاثون آية جملة واحدة». الحديث. اهـ منه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤٦، ومسند الإمام أحمد (٧٩٧٥)، وسنن أبي داود (١٤٠٠)، وسنن الترمذي (٢٨٩١)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٥٤٨)، وسنن ابن ماجه (٣٧٨٦)، والمستدرك للحاكم ١/ ٥٦٥.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٤٧، والمعجم الأوسط للطبراني (٦٢١٢)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٩٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٤٧، وله شاهد من حديث جابر عند أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢).

ولهذا ونحوه قيل: يندب قراءتُها كلَّ ليلةٍ. والحمدُ لله الذي وفَّقني لقراءتها كذلك منذ بلغتُ سنَّ التمييز إلى اليوم، وأسألُ الله تعالى التوفيق لما بعدُ، والقَبول.

ورأيتُ في بعض شروح البخاريِّ نَدْبَ قراءتها عند رؤيةِ الهلال رجاءَ الحفظِ من المكاره في ذلك الشهر ببركة آيها الثلاثين. والله تعالى الموفِّقُ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ البركةُ: النماء والزيادة، حسيَّةً كانت أو عقليَّةً، وكثرةُ الخير، ودوامُه، ونسبتُها إلى الله عزَّ وجل على المعنى الأول ـ وهو الأليقُ بالمقام ـ باعتبار تعاليه جلَّ وعلا عمَّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، وصيغةُ التفاعل للمبالغة في ذلك؛ كما في نظائره مما لا يُتصوَّر نسبتُه إليه تعالى من الصِّيغ، كالتكبُّر. وعلى الثاني باعتبار كثرةِ ما يفيضُ منه سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات. والصيغةُ حينئذٍ يجوز أن تكون لإفادة نماءِ تلك الخيرات وازديادِها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً، بحسب حدوثها أو حدوثِ متعلَّقاتها.

قيل: ولاستقلالها بالدلالة على غايةِ الكمال، وإنبائها عن نهاية التعظيم، لم يَجُز استعمالُها في حقِّ غيره سبحانه، ولا استعمالُ غيرِها من الصيغ في حقِّه تبارك وتعالى. وقد مرَّ تمامُ الكلام في هذا المقام.

وإسنادُها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيِّز الصِّلة على تحقُّق مضمونها؛ لأن المرادَ بذلك أنه سبحانه كاملُ الإحاطة والاستيلاء، بناءً على أن «بيده الملك» استعارةٌ تمثيلية لذلك، ولا تجوُّزَ في شيء من مفرداته، أو أن «الملك» على حقيقته، واليد مجازٌ عن الإحاطة والاستيلاء كما قيل، ولاستدعاء ذلك استغناءَ المتَّصِف به مع افتقار الغيرِ إليه في وجوده وكمالاتِ وجودِهِ كان له اختصاصٌ بالموجود، وكذلك في العرف العاميِّ لا يُطلق الملك على ما ليس كذلك، فلذا قيل هنا في بيان معنى الآية: تعالى وتَعاظَمَ بالذات عن كلِّ ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً، الكامل الإحاطة والاستيلاء على كلِّ موجود.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ تكميلٌ لذلك؛ لأن القرينة الأولى تدلُّ على التصرُّف التامِّ في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازعٍ ولا مدافع، لا متصرِّفَ فيها غيرُه عزَّ وجل كما يُؤْذِنُ به تقديمُ الظرف، وهذه تدلُّ على القدرة الكاملة الشاملة، ولو اقتصرَ على الأولى لأوهَمَ أن تصرُّفَه تعالى مقصورٌ على تغييرِ أحوال الملك؛ كما يُشاهَد من تصرُّف الملاك المجازيِّ، فقُرنت بالثانية ليُؤذن بأنه عزَّ سلطانُه قادرٌ على التصرُّف، وعلى إيجاد الأعيان المتصرَّف فيها، وعلى إيجاد عوارضها الذاتية وغيرها، ومن ثَمَّ عقَّبَ ذلك بالوصف المتضمِّنِ للعوارض، وهذا ما اختاره العلامةُ الطِّيبيُّ.

وصاحبُ «الكشاف»(١) اختار في القرينة الأولى ما ذكرناه فيها من التخصيص بالموجود، فقال: أي: تعالى وتعاظَمَ عن صفات المخلوقين الذي بيده الملكُ على كلِّ موجود؛ لما سمعتَ، وفي الثانية التخصيص بالمعدوم، فقال: وهو على كلِّ ما لم يوجد مما يدخُلُ تحت القدرة قديرٌ. ووجهه على ما في «الكشف»: أن الشيءَ وإن كان عامّاً في كلِّ ما يصحُّ أن يُعلم ويُخبَرَ عنه، لكن لمَّا قُرن بالقدرة اختصَّ بالمعدوم؛ لاستغناء الموجود عن الفاعل عند جمهور المتكلِّمين القائلين بأنّ علَّةَ الاحتياجِ الحدوث، وعليه الزمخشريُّ وأصحابُه، وأما عند القائلين بأن علَّةَ الاحتياج الإمكان كالمحقِّقين؛ فلأن الاختيار يستدعي سَبْق العَدَم، وجيء بالقرينة الثانية عليه تكميلاً أيضاً؛ لأن الاختصاص بالموجود فيه إيهامُ نقصٍ.

واختار صاحبُ «التقريب» أن قوله تعالى: (ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) مُطلَق، وقوله سبحانه: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) عامٌّ لما وُضع له الشيء، فيكون قد قصد بيانَ القُدرة أولاً، وعمومَها ثانياً، ولم يرتضِ صنيعَ الزمخشريِّ، ونَظرَ فيه بأنَّ الشيء إمَّا أن يختصَّ بالموجود، أو يشمل الموجودَ والمعدوم، وعلى المذهبين فلا وجهَ لتخصيصه بما لم يُوجد مع انضمام كلٍّ إليه، اللهم إلا أن يقال: خصَّصه به ليُغاير ما قبله إذ خصَّصه بالموجود، وفيه أيضاً نظر؛ إذ لو عمَّم الثاني لتحقّقَ التَّغايُر أيضاً، مع أنَّ اليد مجازٌ عن القدرة، فإن تخصَّصت به كما هو مذهبه تخصَّص

(١) الكشاف ٤/ ١٣٣.

الأول بالمعدوم، وإن لم تَتخصَّص لم يتخصَّص الثاني بالمعدوم. وادَّعى صاحبُ «الكشف» سقوطَه بما نقلناه عنه، واعتُرض عليه، وأُجيب بما لا يخلو عن نظر، فليُتأمَّل.

ومن الناس مَن حمل «المُلك» على الموجودات، وجعل اليد مجازاً عن القُدرة، فيكون المعنى: في قُدرته الموجودات، وتعقَّبه بعضُهم بأن فيه ركاكةً، وأشار إلى أنَّ الخلاص منها إما بجعل اليد مجازاً عن التَّصرُّف، أو بتفسير «المُلك» بالتصرُّف، وقيل: المراد من كون الملك بيده تعالى أنه عز وجل مالِكُه، فمعنى «بيده الملك»: مالكُ الملك.

وفسَّر الرَّاغب[1] المُلك في مثل ذلك بضبط الشيء المتصرَّف فيه بالحكم، وشاع تخصيصُه بعالم الشهادة، ويقابله حينئذ الملَكوت. وليس بمراد هنا كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شُروع في تفصيل بعض أحكام الملك وآثارِ القُدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، واستتباعهما لغاياتٍ جليلة.

والموصول بدلٌ من الموصول الأوَّل، وصلتُه كصلتِه في الشهادة بتعاليه عزَّ وجل، وجوَّز الطبرسيُّ[2] كونَه خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو الذي.. إلخ.

و«الموتُ» على ما ذهب إليه الكثير من أهل السنة صفةٌ وجوديَّة تضادُّ الحياة، واستُدلَّ على وجوديَّته بتعلُّق الخلق به، وهو لا يتعلَّق بالعَدَمي؛ لأزليَّةِ الإعدام، وأما ما رُوي عن ابن عباس من أنَّه تعالى خلق الموت في صورة كَبْش أَمْلَح، لا يمرُّ بشيءٍ إلا مات، وخلَقَ الحياة في صورة فرسٍ بَلْقاء، لا تمرُّ بشيء ولا يجدُ رائحتَها شيء إلا حَيي[3] = فهو أشبهُ شيءٍ بكلام الصوفية، لا يُعقل ظاهرُه. وقيل: هو وارد على منهاج التمثيل والتصوير.

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (ملك).

(٢) في مجمع البيان ٢٩/ ٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩.

وذهب القدريَّة وبعضُ أهل السنة إلى أنه أمرٌ عَدَميٌّ، هو عدمُ الحياة عمَّا هي من شأنه، وهو المتبادر الأقرب.

وأُجيب عن الاستدلال بالآية بأن الخلقَ فيها بمعنى التقدير، وهو يتعلَّق بالعَدَميِّ كما يتعلَّق بالوجوديِّ، أو أن الموت ليس عَدَماً مطلقاً صِرفاً، بل هو عدمُ شيء مخصوص، ومثلُه يتعلَّق به الخلقُ والإيجادُ؛ بناءً على أنه إعطاء الوجود ولو للغير، دون إعطاء الوجود للشيء في نفسه، أو أن الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات دون الإيجاد، وهو بهذا المعنى يجري في العَدَميَّات، أو أن الكلام على تقدير مضاف، أي: خلق أسبابَ الموت، أو أن المراد بخلق الموت والحياة خلقُ زمانٍ ومدَّةٍ معيَّنةٍ لهما لا يعلمها إلا الله تعالى، فإيجادُهما عبارة عن إيجاد زمانهما مجازاً، ولا يخفى الحال في هذه الاحتمالات.

ومن الغريب ما قيل: إنه كنى بـ «الموت» عن الدنيا، إذ هو واقع فيها، وبـ «الحياة» عن الآخرة من حيث لا موتَ فيها، فكأنه قيل: الذي خلق الدنيا والآخرة. والحقُّ أنهما بمعناهما الحقيقي، و«الموت» على ما سمعت.

و«الحياة»: صفة وجوديَّة بلا خلاف، وهي ما يصحُّ بوجوده الإحساس، أو معنى زائدٌ على العلم والقدرة، يوجب للموصوف به حالاً لم يكن قبلَه من صحة العلم والقدرة.

وتقديم «الموت» على تقدير كونه عَدَماً مطلقاً ـ أعني عَدَمَ الحياة عمَّا هي من شأنه ـ ظاهرٌ؛ لسبقه على الوجود، وعلى تقدير كونه العدَم اللاحق كما هو الأنسب بالإرادة هنا ـ أعني: عدم الحياة عما اتَّصف بها فلان ـ فيه مزيدُ عِظَةٍ وتَذْكرة وزجرٍ عن ارتكاب المعاصي، وحثٌّ على حسن العمل، ولذا ورد: «أكثروا من ذِكْر هاذم اللذَّات»[1]، والحياةُ وإن كانت داعيةً لذلك ضرورةَ أن مَنْ عرف أنها نعمةٌ عظيمة وكان ذا بصيرةٍ، عمل شكراً لله تعالى عليها، لكنها ليست بمثابة الموت في ذلك، فمن زعم أنها لا داعيةَ فيها أصلاً، وإنما ذُكرت باعتبار توقُّف العمل عليها، لم يُدقِّق النَّظر.

(١) سلف ٥/ ١٧٨.

و«أل» في الموضعين عوضٌ عن المضاف إليه، أي: الذي خلق موتكم الطَّارئ وحياتَكم أيُّها المكلَّفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليُعاملكم معاملةَ مَن يختبرُكم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أصوبُه وأخلصُه، فيُجازيكم على مراتبَ متفاوتة حَسْبَ تفاوت مراتب أعمالكم.

وأصل البلاء: الاختبارُ، ولأنه يَقتضي عدمَ العلم بما اختبره، وهو غيرُ صحيح في حقِّه عزَّ وجل، حُمِل الكلام على ما ذُكر، ويرجع ذلك إلى الاستعارة التمثيلية، واعتبارُ الاستعارة التبعيَّة فيه دونها دونٌ في البلاغة. والمرادُ بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح، ولذا قال ﷺ في الآية: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارم الله تعالى، وأسرعُ في طاعة الله عز وجل»(١)، أي: أيُّكم أتمُّ فَهماً لما يصدر عن جناب الله تعالى، وأكمل ضبطاً لما يُؤخذ من خطابه سبحانه.

وإيرادُ صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شاملٌ للمكلَّفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً، لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصِدَ الأصليَّ من الابتلاء هو ظهورُ كمال إحسان المحسنين، مع تحقُّق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً؛ لكمال تعاضُدِ الموجبات له. وأما الإعراض عن ذلك فبمعزلٍ من الاندراج تحت الوقوع، فضلاً عن الانتظام في سلك الغاية أو الغرض عند من يراه لأفعال الله عز وجل، وإنما هو عملٌ يصدر عن عامله؛ لسوء اختياره، من غير مصحِّحٍ له ولا تقريب. وفيه من الترغيب في التَّرقِّي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات، والزَّجر عن مباشرة نقائصها ما لا يخفى، وجعلُ ذلك من باب الزيادة المطلقة، أو من باب: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾ [مريم: ٧٣] ليس بذاك.

و«أيكم أحسن» مبتدأ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على أنها مفعولٌ ثانٍ لـ «يبلوكم»، وذلك ـ على ما في «الكشاف»(٢) ـ لتضمُّنه معنى العلم.

وهل يُسمَّى نحو هذا تعليقاً أم لا؟ قيل: فيه خلاف، ففي «البحر»(٣) لأبي حيان

---

(١) سلف ١١/ ٣٦٠.

(٢) ٤/ ١٣٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٧.

نقلاً عن أصحابه أنه يسمَّى بذلك، قال: إذا عُدِّي الفعلُ إلى اثنين ونَصَبَ الأول؛ وجاءت بعده جملةٌ استفهامية، أو مقرونةٌ بلام الابتداء، أو بحرف نفي، كانت الجملةُ معلَّقاً عنها الفعلُ، وكانت في موضع نصب؛ كما لو وقعت في موضع المفعولين وفيها ما يُعلِّق الفعلَ عن العمل.

وفي «الكشاف»(١) هنا: لا يُسمَّى تعليقاً، إنما التعليقُ أن يُوقع بعد الفعل الذي يعلَّق ما يسدُّ مسدَّ المفعولين جميعاً، كقولك: علمتُ أيّهما زيد، وعلمت أزيدٌ منطلقٌ. وأما إذا ذُكر بعده أحدُ المفعولين، نحو: علمتُ القومَ أيُّهم أفضل، فلا يكون تعليقاً، والآية من هذا القبيل.

واعترضه صاحبُ «التقريب» بأن العلم مُضمَرٌ، وهو المعلَّق كما قال الفرَّاء والزجَّاج(٢)، ولا يلزم ذكرُ المفعول معه، بل التقدير: ليبلوكم فيعلم أيُّكم أحسن. وأيضاً لا تقع الجملةُ الاستفهامية مفعولاً ثانياً لعَلِمْتُ، وإنما تقع موقع المفعولين في: علمتُ أيُّهم خرج؛ لأن المعنى: علمتُ جواب هذا الاستفهام، ولا معنى لتقدير مثله في: علمته أيُّهم خرج.

وأُجيب بأن التضمين يُغني عن الإضمار، وكونُ الجملة الاستفهامية لا تقع مفعولاً ثانياً ضعيف؛ لأنها إذا وقعت مفعولاً أولاً في نحو: ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ [مريم:٦٩] على معنى: لننزعنَّ الذين يقال فيهم: أيُّهم أشد، كما قال الخليل، فلم يمتنع وقوعُها مفعولاً ثانياً بتأويل: ليُعْلِمَكم الذين يقال في حقِّهم: أيُّهم أحسن. وإليه ذهب الطِّيبي، ثم قال: وقد أنصف صاحبُ «الانتصاف» حيث قال: التعليقُ عن أحد المفعولين فيه خلاف، والأصح هو الذي اختاره الزمخشريُّ، وهذا النحو عشُّه فيه يَدرج، ويدري كيف يدخل ويخرج(٣). انتهى.

والذي ذكره في سورة «هود»(٤) أن في الآية تعليقاً؛ لما في الاختبار من معنى

(١) ٤/ ١٣٤.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩، وللزجاج ٥/ ١٩٧.
(٣) الانتصاف ٤/ ١٣٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٩ عند تفسير الآية (٧) منها.

العلم؛ لأنه طريقٌ إليه، ومثَّله بقوله: انظر أيُّهم أحسنُ وجهاً. فجعلوا بين كلاميه تنافياً.

وفي «الكشف» أن كلامه هناك صريحٌ بأن التعليق فيه بمعنى تعليقِ فعل القلب على ما فيه استفهام، وهو بهذا المعنى خاصٌّ بفعل القلب من غير تخصيصٍ بالسبعة المتعدِّية إلى مفعولين، وفي الاستفهام خاصَّة دون ما فيه لامُ الابتداء ونحوها، صرَّح به الشيخ ابنُ الحاجب نصّاً، فلا ينافي ما ذُكر في هذه السورة من أنه ليس بتعليق، فإنما نفى التعليقَ بالمعنى المشهور، وأما الحملُ على الإضمار في آية «هود» والتَّضمينِ في آية «الملك» للتفنُّن، فلا وجهَ له بعد تصريحه بأنه استعارةٌ. انتهى.

وكذا على هذا لا وجهَ لكون ما هناك اختياراً لمذهب الفرَّاء والزجَّاج، وما هنا اختيار لمذهبٍ آخر، فتدبَّر وتذكَّر، فإنه كثيراً ما يُسأل عن ذلك قديماً وحديثاً، والله تعالى الموفِّق.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يُعجِزُه عقابُ مَنْ أساء ﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ لمن شاء منهم، أو لمن تاب، على ما اختاره بعضهم؛ لأنه أنسبُ بالمقام.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قيل: هو نعتٌ للعزيز الغفور، أو بيانٌ، أو بدلٌ، واختار شيخُ الإسلام أنه نصبٌ أو رفعٌ على المدح، متعلِّقٌ بالموصولَين السابقين معنًى، وإن كان منقطعاً عنهما إعراباً، منتظمٌ معهما في سِلْك الشهادة بتعاليه سبحانه وتعالى، ومع الموصول الثاني في كونه مداراً للبلاء كما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧][(١)].

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لـ «سبع»، وكونُ الوصف للمضاف إليه العددُ ليس بلازم، بل أكثريٌّ. وهو مصدر طابقتُ النعلَ بالنَّعلِ: إذا خَصَفتَها، وُصف به للمبالغة، أو على حذفِ مضاف، أي: ذاتِ طباق، أو بتأويل اسم المفعول، أي:

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٣.

مطابقة، وجُوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً مؤكِّداً لمحذوف، أي: طُوبقتْ طِباقاً، والجملةُ في موضع الصفة، وأن يكون جمعَ: طَبَقٍ، كجمَلٍ وجمال، أو جمع: طَبَقة، كرَحَبة ـ بفتح الحاء ـ ورِحاب، والكلامُ بتقدير مضاف؛ لأنه اسمٌ جامد لا يُوصف به، أي: ذات طباق، وقيل: يجوز كونُه حالاً من «سبع سماوات»؛ لقُربه من المعرفة بشُموله الكلَّ، وعدم فَردٍ وراء ذلك، وتُعقِّب بأن قُصارى ذلك بعد القيل والقال أن يكون نحو شمس، مما انحصر في فرد، وهو لا تجيء الحال المتأخِّرة منه، فلا يقال: طلعت علينا شمسٌ مشرقة.

وأيَّاما كان، فالمرادُ كما أخرج عَبْد بنُ حُميد: بعضُها فوق بعض[1]. ولا دليل في ذلك على تلاصقها كما زعمه متقدِّمو الفلاسفة ومَن وافقهم من الإسلاميين، مخالفين لما نطقت به الأحاديثُ الصحيحة، وإن لم يُكفَّر مُنكر ذلك فيما أرى.

واختُلف في موادها، فقيل: الأولى من مَوج مكفوف، والثانية من دُرَّةٍ بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من زُمُرُّدة بيضاء، وقيل غير ذلك، ولا أظنك تجد خبراً يُعوَّل عليه ـ فيما قيل ـ ولو طرتَ إلى السماء، وأظنُّك لو وجدتَ لأوَّلتَ؛ مع اعتقاد أنَّ الله عزَّ وجل على كلِّ شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفةٌ أخرى على ما في «الكشاف»[2] لـ «سبع سموات»، وضع فيها «خَلْق الرحمن» موضع الضمير الرابط؛ للتعظيم والإشعار بعلَّة الحكم، بحيث يمكن أن يترتَّب قياسٌ من الشكل الأول ينتج نفيَ رؤيةِ تفاوتٍ فيها، وبأنه عزَّ وجل خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضُّلاً، وبأن في إبداعها نِعَماً جليلة. وما ذكره ابنُ هشام في الباب الرابع من «المغني»[3] من أن الجملة الموصوفَ بها لا يربطُها إلا الضمير إما مذكوراً وإما مقدَّراً، ليس بحجَّة على جار الله، والتوفيقُ بأن ذلك إذا لم يقصد التعظيم ليس بشيء؛ لأنه لا بدَّ له من

---

(١) أخرجه من قول ابن عباس كما في الدر المنثور ٦/٢٤٨.
(٢) ٤/١٣٤.
(٣) مغني اللبيب ص٦٥٣.

نُكتة، سواء كانت التعظيمَ أو غيره. واستظهر أبو حيَّان[١] أنه استئناف، وأن «خلق الرحمن» عامٌّ للسماوات وغيرها، والخطابَ لكلِّ أحدٍ ممن يصلحُ للخطاب، وجوّز أن يكون لسيِّد المخاطبين ﷺ، ولعلَّ الأول أولى.

و«من» لتأكيد النفي، أي: ما ترى شيئاً من تفاوتٍ، أي: اختلافٍ وعدمِ تناسُبٍ كما قال قتادةُ وغيرهُ، من الفَوت، فإن كلًّا من المتفاوتَين يَفوت منه بعضُ ما في الآخر. وفسَّر بعضُهم التفاوتَ بتجاوُزِ الشيء الحدَّ الذي يجب له زيادةً أو نقصاً، وهو المعنيُّ بالاختلاف، وعلى ذلك قولُ بعض الأدباء:

تناسبت الأعضاءُ فيه فلا ترى ... بهنَّ اختلافاً بل أتينَ على قَدْرِ[٢]

وقال السُّدي: أي: من عيبٍ، وإليه يرجع قولُ من قال: أي: من تفاوتٍ يورثُ نقصاً، وقال عطاء بنُ يسار: أي: من عدم استواء. وقيل: أي: من اضطراب. وقيل: أي: من اعوجاجٍ. وقيل: أي: من تناقُض. ومآلُ الكلِّ ما ذكرنا.

ومن الغريب ما قاله شيخُ الطائفة الكشفية في زماننا من أنَّ بين الأشياء جميعها ربطاً؛ وهو نوع من التجاذُب لا يفوتُ بسببه بعضُها عن بعض، وحَمَلَ الآية على ذلك، وإلى نحو هذا ذهب الفلاسفةُ اليوم؛ فزعموا أن بين الأجرام عُلويِّها وسُفليِّها تجاذباً على مقادير مخصوصة، به حُفِظت أوضاعُها، وارتبط بعضُها ببعض، لكن ذهب بعضُهم إلى أن ما به التجاذُبُ والارتباط يَضعف قليلاً قليلاً على وجهٍ لا يظهر به أثرٌ إلا في مُدَدٍ طويلة جدًّا، واستشعروا من ذلك إلى أنه لا بدَّ من خروج هذا العالَم المشاهَدِ عن هذا النظام المحسوس، فيحصل التَّصادُمُ ونحوه بين الأجرام، وقالوا: إن كان قيامةٌ فهو ذاك، ولا يخفى حالُ ما قاله وما قالوه، وأن الآيةَ ـ على ما سمعتَ ـ بمَعْزِلٍ عن ذلك.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والأسود وابنُ جُبير وطَلْحة والأعمش: «من تَفوُّت»، بشدِّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الصافات.

الواو[١]، مصدر تَفَوَّتَ، وحكى أبو زيدٍ عن العرب في تفاوت فتحَ الواو وضَمَّها وكسرَها، والفتح والكسر شاذَّان كما في «البحر»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ متعلّقٌ بما قبله على معنى التَّسبب، أي: عن الإخبار بذلك؛ فإنه سببٌ للأمر بالرجوع؛ دفعاً لما يُتوهَّم من الشُّبهة، فهو في المعنى جوابُ شرط مقدَّر، أي: إن كنتَ في ريبٍ من ذلك فارجع البصر حتى يتَّضح الحالُ، ولا يبقى لك ريبٌ وشُبهة في تحقُّق ما تضمَّنه ذلك المقال من تناسب خلقِ الرحمن واستجماعِه ما ينبغي له.

و«الفُطور»: قال مجاهد: الشُّقوق، جمع فَطْر وهو الشَّقُّ، يقال: فَطَره فانفطَر، والظاهرُ أن المراد الشقُّ مطلقاً، لا الشقُّ طولاً على ما هو أصله كما قال الراغب[٣]، وفي معناه قول أبي عبيدة[٤]: الصُّدوع، وأنشدوا قولَ عبيد الله بن عُتبة بن مسعود:

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه ... هواكِ فَلِيطَ فالتأمَ الفُطورُ[٥]

وقول السدي: الخُروق. وأُريد بكلٍّ ذلك على ما يُفهم من كلام بعض الأجلَّة: الخَلَل، وبه فسَّره قتادة، وفسَّره ابنُ عباس بالوَهْن.

وجملة: «هل ترى» إلخ؛ قال أبو حيَّان: في موضع نصب بفعلٍ معلَّق محذوف، أي: فانظر هل ترى، أو ضُمِّن «فارجع البصر» معنى: فانظُر ببصرك[٦].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتَين أُخريَين في ارتياد الخَلَل، والمرادُ بالتثنية:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٨، وهي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (فطر).

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٢.

(٥) البيت في الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١٣٥٤، والأغاني ٩/ ١٥١. وفيهما: فَلِيْمَ، بدل: فليط. ولاط الشيءُ بقلبي يليط: حُبب وألصق. القاموس: (لوط).

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.

التكريرُ والتكثير، كما قالوا في لبَّيك وسَعْدَيك، أي: رَجعةً بعد رَجعة، أي: رَجعات كثيرة بعضُها في إثْر بعض، وهذا كما أُريد بأصل المثَّى التكثير في قوله:

لـو عُـدَّ قـبـرٌ وقـبـرٌ كـان أكـرمَـهـم بـيـتـاً وأبـعـدَهـم عـن مـنـزلِ الـذَّامِ[١]

فإنه يريد: لو عُدَّت قبورٌ كثيرة. وقيل: هو على ظاهره.

وأُمر برَجع البصر إلى السماء مرَّتين، إذ يمكن غَلَطٌ في الأُولى، فيستدرك بالثانية، أو الأولى ليرَى حُسنها واستواءها، والثانية ليُبصرَ كواكبَها في سيرها وانتهائها، وليس بشيءٍ، ويؤيِّد الأولَ قولُه تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾؛ فإنه جوابُ الأمر، والجوابيَّةُ تقتضي الملازمة، وما تضمَّنه لا يَلزمُ من المرَّتين غالباً. والمعنى: يَعُدْ إليك البصرُ محروماً من إصابة ما التمَسَه من إصابة العَيب والخَلل، كأنه طُرد عنه طَرْداً بالصَّغار، بناءً على ما قيل: إنه مأخوذٌ من خَسَأ الكلبَ، المتعدِّي، أي: طَرَدَه، على أنه استعارةٌ، لكن في «الصحاح»[٢]: يُقال: خَسَأ بصرُه خَسْأً وخُسوءاً؛ أي: سَدِر. والسَّدَر: تحيُّر النَّظر، فكأنَّ تفسير «خاسئاً» بمتحيّراً أخذاً له من ذلك أقرب.

وكأنهم اختاروا ما تقدَّم لأن فيه مبالغةً وبلاغةً ظاهرة، مع كونه أبعدَ عن التكرار مآلاً مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ أي: كَلِيلٌ من طُول المعاودة، وكثرةِ المراجعة، يقال: حسَر بعيرُه يَحْسُر حُسوراً، أي: كَلَّ وانقطع، فهو حَسير ومَحْسُور، وقال الراغب[٣]: الحَسْر: كشفُ الملبس عمَّا عليه، يقال: حَسَرْتُ عن الذِّراع، أي: كشفتُ، والحاسرُ: مَن لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر، وناقةٌ حَسِير: انحَسَر عنها اللحمُ والقُوَّة، ونُوقٌ حَسْرَى، والحاسِرُ أيضاً: المُعْيَا؛ لانكشاف قُواه، ويُقال

(١) نسبه أبو تمام في الحماسة ٣/ ١١٢٢ بشرح المرزوقي إلى عصام بن عبيد الله، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ٣١٦ إلى همَّام الرَّقاشي، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١١٤ إلى عصام بن عبيد الزِّمَّاني اليمامي. وفي المصادر الثلاثة: كنت أكرمهم، والرواية التي ذكرها المصنف أوردها أبو حيان في البحر ٨/ ٢٩٨.

(٢) مادة: (خسأ).

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (حسر).

له أيضاً: مَحْسور، أما الحاسِر فتُصُوِّر أنه قد حَسَر بنفسه قُواه، وأما المَحْسُور فتُصُوِّر أن التَّعب قد حَسَره، و«حَسير» في الآية يصحُّ أن يكون بمعنى حاسِر، وأن يكون بمعنى محسور.

والجملةُ في موضع الحال ـ كالوصف السابق ـ من «البصر»، ويحتمل أن تكون حالاً من الضمير فيه.

وقرأ الخوارزميُّ عن الكسائي: «ينقلبُ» بالرفع، وخُرِّج على أن الجملةَ في موضع حال مقدَّرة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلخ، كلامٌ مَسوق للحثِّ على النظر قدرةً وامتناناً، وفي «الإرشاد»[2]: بيانٌ لكون خَلْق السماوات في غاية الحُسْن والبهاء إثْرَ بيانِ خلُوِّها عن شائبةِ العَيْب والقصور، وتصديرُ الجملة بالقَسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها، أي: وبالله لقد زيَّنا السماء ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ منكم، أي: التي هي أتمُّ دنوًّا منكم من غيرها، فدُنوُّها بالنسبة إلى ما تحت، وأما بالنسبة إلى مَن حول العرش فبالعكس.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: جمع مِصباح: وهو السِّراج، وتُجوِّز به عن الكوكب، ثم جُمع، أو تُجوِّز بالمصابيح ابتداءً عن الكواكب، وفسَّره بعضُ اللغويين بمقرِّ السِّراج، فيكون حينئذٍ تَجوُّزاً على تَجوُّز، ولا حاجة إليه مع تصريحهم بأن المصباح نفسُ السِّراج أيضاً. وتنكيرُها للتعظيم، أي: بمصابيح عظيمةٍ ليست كمصابيحكم التي تعرفونها، وقيل: للتَّنويع، والأول أَولى.

والظاهر أن المراد الكواكبُ المضيئة بالليل إضاءةَ السِّراج من السيارات والثوابت، بناءً على أنها كلَّها في أفلاكٍ ومجارٍ متفاوتةٍ قُرباً وبُعداً في ثخن السماء الدنيا، وكونُ السماء هي الفلك خلافُ المعروف عن السلف، وإنما هو قولٌ قاله

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩، وذكر أبو حيان وجهاً آخر: وهو أنه على حذف الفاء، أي: فينقلب.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٤.

مَن أراد الجمع بين كلام الفلاسفة الأُولى وكلامِ الشريعة، فشاع فيما بين الإسلام، واعتقده مَن اعتقده.

وعن عطاء أن الكواكب في قناديل مُعلَّقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور في أيدي ملائكة. وعليه فـ: زيَّنا السماءَ بمصابيح، كقول القائل: زيَّنتُ السقفَ بالقناديل، وهو ظاهر، لكن الخبرَ لا يكاد يصحُّ.

ومَن اعتقد أن السماءَ الدنيا فَلَكُ القمر، والستَّ الباقية أفلاكُ السيارات الباقية على الترتيب المشهور، وأن للثوابت فلكاً مخصوصاً يُسمَّى بلسان الشرع بالكرسيِّ، أو جَوَّز أن تكون هذه في فَلَك زُحل وهو السماء السابعة، أو يكون بعضُها في فَلَك وبعضُها الآخر في آخر فوقه، أو كلٌّ منها في فَلَك وسماءٍ غيرِ السبع، والاقتصارُ على العدد القليل لا ينفي الكثير = قال: إن تخصيصَ السماء بالتَّزيين بها؛ لأنها إنما تُرى عليها، ولا يُرى جُرم ما فوقها، أو رِعايةً لمقتضى أفهام العامة؛ لتعذُّر التمييز بين سماء وسماء عليهم، فهم يَرون الكواكب كجواهر مُتلألئة على بساط الفَلَك الأزرق الأقرب.

ومَن اعتبر ما عليه أهلُ الهيئة اليوم من أن الكواكب فَلَكُ عجائب القُدرة، مَواخِرُ في بحر جوِّ الفضاء على وجهٍ مخصوص تقتضيه الحكمة، ومَجاريها فيه هي أفلاكُها، وقد تحرَّكت إذ تحرَّكت في خلاء أو ما يُشبهه مع قوى بها تجاذبت وارتبطت، ولها حركات على أنفسها، وحركات غير ذلك، وليست مَركوزةً كما اشتهر في أجرام صُلبة شفَّافة لا ثقيلة ولا خفيفة تُسمَّى أفلاكاً أو سماء، وهي متفاوتة قرباً وبعداً تفاوتاً كلياً؛ وإن رُئيت كلُّها قريبةً لسبب خفيَ إلى الآن عليهم، حتى إن منها ما لا يصل شُعاعُه إلينا إلا في عدَّة سنين، مع أن شعاع الشمس ـ وبيننا وبينها أربعةٌ وثلاثون مليوناً من الفراسخ، والمليونُ ألف ألف ـ يصلُ إلينا في ثمانِ دقائق وثلاث عشرة ثانية، إلى آخر ما زعموا فيها = قال: يجوز أن يُراد بـ «السماء الدنيا» طبقةٌ مخصوصة في هذا الفضاء، وبالمصابيح كواكب فيها نفسها قد زُيِّنت تلك الطبقةُ بها تزيينَ فضاءِ دارٍ بطيور يَطرن حائماتٍ فيه مثلاً، أو جميع ما يُرى من الكواكب وإن كان فوقها، وتزيينُها بذلك بإظهاره فيها كما مرَّ.

وأنت تعلمُ أن مَن تصدَّى لتطبيق الآيات والأخبار على ما قاله الفلاسفةُ مطلقاً فقد تصدَّى لأمرٍ لا يكادُ يتمُّ له، والله تعالى ورسولُه ﷺ أحقُّ بالاتِّباع.

نعم تأويلُ النَّقليِّ إنما ينبغي إذا قام الدليلُ العقليُّ على خلاف ما دلَّ عليه، وأكثرُ أدلة الفلاسفة قاعدة على العجز عن إثباتها إثباتاً صحيحاً ما يخالف أدلَّة أهل الشرع، كما لا يخفى على من استضاء بمصابيحه.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ الضميرُ للمصابيح على ما هو الظاهر، لا للسماء الدنيا، على معنى: جعلنا منها، أي: من جهتها، كما قيل، والرُّجوم: جمع رَجْم بالفتح، وهو مصدر سُمِّي به ما يُرجَم به، أي: يُرمى، فصار له حكمُ الأسماء الجامدة، ولذا جُمع وإن كان الأصلُ في المصادر أنها لا تُجمع. وقيل: إنه هنا مصدرٌ بمعنى الرَّجم أيضاً.

والمراد بالشياطين: مسترِقُو السَّمع، ورجمُهم على ما اشتهر: بانقضاض الشُّهب المسبَّبةِ عن الكواكب، وإليه ذهب غيرُ واحد من المفسِّرين، وهو مبنيٌّ على ما قرَّره الفلاسفةُ المتقدِّمون من أن الكواكب نفسَها غيرُ منقضَّةٍ، وإنما المنقضُّ شعلٌ نارية تحدُثُ من أجزاء متصاعدة لكرة النار، لكنها بواسطة تسخين الكواكب للأرض، فالتجوُّزُ في إسناد الجعل إليها، أو في لفظها، وهو مجازٌ بوسائط.

وقال الشهاب: لا مانع من جعل المنقضِّ نفسه من جنس الكواكب، وإن خالفَ اعتقادَ الفلاسفة وأهلِ الهيئة، ولكن في النصوص الإلهية ما فيه رجومٌ للشياطين[1]. انتهى.

وأقول: لا يخفى أن ذلك المبنيَّ لا يتمُّ أيضاً إلا بثبوتِ كرة النار الذي لا تراهم يستدلُّون عليه إلا بحدوث هذه الشُّهب، وسلفُ الأمة لا يقولون بذلك، وكذا أهلُ الفلسفة الجديدة، وهؤلاء لم يُحقِّقوا إلى الآن أمرَ هذه الشهب، لكن يميلون إلى أنها أجسامٌ انفصلتْ عن الكواكب التي يزعمونها عوالمَ مشتملةً على جبال ونحوِها اشتمالَ الأرض على ذلك، وخرجتْ لبعض الحوادث عن حدِّ القوى الجاذبةِ لها

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢١٨.

إلى ما انفصلتْ عنه، ولم تصل إلى حدِّ جذبِ قوةِ الأرض لها، فبقيت تدورُ عند منتهى كرةِ الأرض وما يُحيطُ بها من الهواء، فإذا عرَضَ لها الدخولُ في هواء الأرض أثناءَ حركتها احترقت كُلًّا أو بعضاً؛ كما تحترقُ بعضُ الأجسام المحفوظة عن الهواء إذا صادَمَها الهواءُ، وربما تصلُ في بعض حركاتها إلى حدِّ جذبِ الأرض، فتقعُ عليها.

وبعضُهم يزعم في الحجارة الساقطة من الجوِّ التي تُسمَّى عندهم بـ: الأَيْرُوليت[1] ـ يعنون حجارةَ الهواء ـ أنها من تلك الأجسام، وكلُّ ذلك حديثُ خرافةٍ، ورجمٌ بظنونٍ فاسدة.

وقُصارى ما يقال في هذه الشُّهب: إنها تحتملُ أن تكون ناشئةً من أجرام من جنس الكواكب فيها قوةُ الإحراق، سواء كان كلُّ مضيء محرقاً أم لا، متكوِّنةً في جوِّ هذا الفضاء المشاهَد، إلا أنها لغاية صِغَرها لا تُشاهَدُ ولو بالنَّظّارات، حتى إذا قربت بانقضاضها شُوهدت، وقد تُصادِفُ في انقضاضها أجساماً متصاعدةً من الأرض، فتُحرقُها، وربما يتَّصل الحريقُ إلى ما يقرُبُ من الأرض جدّاً، وربما تكوَّنت الحجارةُ من ذلك، ثم إن العقل يُجوِّز أن يكون لها دورانٌ على شكلٍ من الأشكال، فترجعُ بعد ما يُشاهَدُ لها من الانقضاض، وأن تتلاشى بعد انقضاضها، ويخلقَ الله تعالى غيرَها من مادَّة لا يعلمُها إلا هو عزَّ وجل.

والضميرُ المنصوب في «جعلناها» وإن عاد على المصابيح، لكن لم يعُدْ عليها إلا باعتبارِ الجنس، دون خصوصيَّةِ كونها مُزَيَّنةً بها السماءُ الدنيا، نظير: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١] و: عندي درهمٌ ونصفُه؛ لما أنَّ التزيينَ باعتبار الظهور، ولا ظهورَ لهذه الأجرام قبل انقضاضها.

وإن اعتبُر في كونها مصابيح، أو كواكب، أو نجوماً، ظهورُها[2] في نفسها ولمن يقرُبُ منها، دون خصوصيَّة ظهورها لنا، وفي كونها زينةً للسماء كونُها زينةً لها في الجملة، فالأمرُ ظاهر جدّاً.

---

(١) لعله يقصد الـ: airo light، وتعني بالانكليزية: الهواء المضيء.
(٢) قوله: ظهورها، نائب فاعل لقوله: اعتُبر.

ويحتملُ أن تكون ناشئةً من المصابيح المشاهَدَة المزيَّنِ بها، بأن ينفصل عنها وهي في محلِّها شعلٌ هي الشُّهب، وما ذاك إلا كقبسٍ يؤخَذُ من نارٍ والنارُ ثابتة، وإليه ذهب الجُبَّائيُّ وكثيرٌ، وهو محتمِلٌ لأنْ يكون لكلٍّ منها قابليةُ أنْ ينفصل عنه ذلك، وأن تكون القابليةُ لبعضها دون بعضٍ، وهذا لعدم الاطّلاع على حقائق الأجرام العلوية وأحوالها في أنفسها، والكلامُ نحو قولك: أسكنَ الأميرُ قبيلةَ كذا في ثَغْر كذا، وجعلها تَرْمي بالبنادق مَنْ يَقْرُبُ منه؛ فإنه لا يلزمُ أن يكون لكلٍّ واحدٍ منها قابليةُ الرمي.

ثم لا يلزمُ أن يكون كلُّ ما يُشاهد من الشُّهب قَبَساً من المصابيح، بل يجوزُ أن يكون بعضُه ـ وهو الذي تُرمى به الشياطينُ ـ منها، وبعضُه من أمورٍ تحدُثُ في الجوِّ من اصطكاكٍ أو نحوه. وتفاوتُ الشهبِ قلَّةً وكثرةً يحتملُ أن يكون لتفاوتِ حوادث الجوِّ، وأن يكون لتفاوت الاستراق.

وليس في الآيات والأخبار ما هو نصٌّ في أن الشُّهب لا تكونُ إلا لرمي الشياطين، فيحتمل أن يكون أكثرُ الشُّهب من الحوادث الجوِّية. وذواتُ الأذناب منها في رأي المتقدِّمين، وهي في أنفسها دون أذنابها نجومٌ كثيرةٌ جدّاً تدور لا كما يدورُ غيرُها من النجوم، فتقرُبُ تارةً، وتبعُدُ أخرى فتخرج عن مدارات السيارات إلى حيثُ لا تشاهَدُ أصلاً عند فلاسفة العصر، ولهم فيها كلامٌ أطول من أذنابها.

وقد أورد الإمامُ الرازيُّ[(١)] في هذا الفصل أسئلةً وشُبَهاً أجاب عنها بما أجاب، ونحنُ فعلنا نحوَ ذلك فيما تقدَّم على وجهٍ أتمَّ، فليُتذكَّر[(٢)]، وقد أطنبنا هناك الكلامَ فيما يتعلَّق بهذا المقام، إلا أنَّ بعضَها مما ذكرناه هناك، فخُذْ من الموضعين ما صفا ودَعْ ما كَدَر، بعد أن تتأمَّل حقَّ التأمُّل وتتدبَّرَ.

وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظُنوناً ورُجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم المنجِّمون المعتقدون تأثيرَ النجوم في السعادة والشقاوة ونحوهما، وقد رددنا عليهم

---

(١) في ٣٠/٥٩ وما بعدها.

(٢) ينظر ما سلف ١٣/٤٢٦ وما بعدها.

أيَّ ردٌّ فيما تقدَّم، فارجع إليه إن أردتَه؛ فإنه نفيسٌ جدّاً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ وهيَّأنا للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ عذابَ النار المُسْعَرة المُشعَلَة في الآخرة، بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب. ولا يمنع من ذلك أنهم خُلقوا من نارٍ؛ لأنهم ليسوا نارٌ فقط، بل هي أغلبُ عناصرهم، فهي منهم كالتُّراب من بني آدم، فيتأثَّرون من ذلك، على أنه قد تكون نارٌ أقوى من نار.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ النار مخلوقةٌ الآن، وعلى أنَّ الشياطين مكلَّفون.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من غير الشياطين، أو منهم ومن غيرِهم، على أنه تعميمٌ بعد التخصيص لدفع إيهامِ اختصاصِ العذاب بهم. والجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والحصرُ إضافيٌّ بقرينةِ النصوص الواردة في تعذيب العُصاة، فلا حجَّة فيه لمن قال من المُرْجئة: لا يُعذَّب غيرُ الكَفَرة.

وقرأ الضحَّاك، والأعرجُ، وأسيد بن أسيد المُزنيُّ، والحسن في رواية هارون عنه: «عذابَ» بالنصب عطفاً على «عذاب السَّعير»(١)، أي: وأعتَدنا للذين كفروا عذابَ جهنَّم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ أي: جهنَّم.

﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: طُرِحوا فيها كما يُطرَحُ الحَطَب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: لجهنَّم نفسِها كما هو الظاهر، ويؤيِّده ما بعدُ. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من قوله تعالى: ﴿شَهِيقًا﴾ لأنه في الأصل صفة، فلما قُدِّمت صارت حالاً، أي: سمعوا كائناً لها شهيقاً، أي: صوتاً كصوت الحمير، وهو حَسِيسُها المنكر الفظيع، ففي ذلك استعارةٌ تصريحية.

وجُوِّز أن يكون الشهيقُ لأهلها ممن تقدَّم طَرْحُهم فيها ومن أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦] والكلامُ على حذف مضافٍ، أو تجوُّز في النسبة.

واعتُرِض بأن ذلك إنما يكونُ لهم بعد القَرار في النَّار، وبعد ما يُقال لهم: اخسؤوا فيها، وهو بعد ستةِ آلاف سنةٍ من دخولهم؛ كما في بعض الآثار.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩.

ورُدَّ بأن ذلك إنما يدلُّ على انحصار حالهم حينئذٍ في الزَّفير والشَّهيق، لا على عدمِ وقوعهما منهم قبل.

﴿وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ أي: والحالُ أنها تَغْلي بهم غليانَ المِرْجَل بما فيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: ينفصلُ بعضُها من بعض ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدَّة الغضب عليهم. قال الراغبُ: الغيظُ: أشدُّ الغضب(١). وقال المرزوقيُّ في «الفصيح»: إنه الغضبُ، أو أسوَؤُه. وقد شَبَّه اشتعالَ النار بهم في قوةِ تأثيرِها فيهم وإيصالِ الضَّرر إليهم باغتياظِ المُغْتاظ على غيرِه، المبالِغ في إيصال الضررِ إليه، على سبيل الاستعارةِ التصريحية.

ويجوزُ أن تكون [المصرِّحة](٢) هنا تخييليَّةً تابعةً للمكنيَّة، بأن تُشبَّه جهنَّمُ في شدَّة غليانها وقوةِ تأثيرِها في أهلها بإنسانٍ شديد الغيظ على غيرِه، مبالغٍ في إيصال الضررِ إليه، فتُوهِّم لها صورةٌ كصورةِ الحالة المحقَّقة الوجدانية، وهي الغضبُ الباعثُ على ذلك، واستُعير لتلك الحالةِ المتوهَّمة الغيظُ.

وجُوز أن يكون الإسنادُ في «تكاد تميَّز» إلى «جهنم» مجازاً، وإنما الإسنادُ الحقيقيُّ إلى الزَّبَانية، وأن يكون الكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: تميَّز زَبانيتُها من الغيظ.

وقيل: إن الله تعالى يخلُقُ فيها إدراكاً فتغتاظ عليهم، فلا مجاز بوجهٍ من الوجوه، وورد في بعض الأخبار ما يؤيِّد ذلك.

وزعم بعضُهم أنه لا حاجةَ لشيء مما ذُكر؛ لمكان «تكاد»، كما في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وفيه ما فيه.

والجملةُ إما حالٌ من فاعل «تفور»، أو خبرٌ آخر.

وقرأ طلحةُ: «تتميَّز» بتاءين، وأبو عَمرو: «تكاد تميز» بإدغام الدال في التاء،

(١) مفردات ألفاظ القرآن (غيظ).

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢١٩، وعنه نقل المصنف.

والضحَّاك «تمايز» على وزن تَفَاعل، وأصلُه تتمايز بتاءين، وزيد بنُ عليٍّ وابنُ أبي عبلة: «تَمِيْزُ» من ماز[1].

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها، وقيل: لبيان حالٍ آخر من أحوال أهلها، وجُوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من ضميرها، أي: كلَّما أُلقي فيها جماعةٌ من الكَفَرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم مالكٌ وأعوانه عليهم السلام، والسائلُ يحتمل أن يكون واحداً، وأن يكون متعدِّداً، وليس السؤالُ سؤالَ استعلام، بل هو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ، وفيه عذابٌ روحانيٌّ لهم منضمٌّ إلى عذابهم الجِسْمانيِّ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يتلو عليكم آياتِ الله، وينذرُكم لقاءَ يومكم هذا؟

﴿قَالُوا۟﴾ اعترافاً بأنه عزَّ وجل قد أزاح عِلَلهم بالكُلِّية: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وجمعوا بين حرف الجواب ونفسِ الجملة المُجاب بها مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسُّراً على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم، وتمهيداً لما وقع منهم من التفريط تندُّماً واغتماماً على ذلك، أي: قال كلُّ فوجٍ من تلك الأفواج: قد جاءنا نذيرٌ، أي: واحدٌ حقيقةً، أو حكماً كنُذُر بني إسرائيل؛ فإنهم في حكم نذيرٍ واحد، فَأَنْذَرنا، وتلا علينا ما أنزل الله تعالى من آياته ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذيرَ في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقِّ ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب، وتمادياً في النَّكير: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من الأشياء، فضلاً عن تنزيل الآيات على بشر مثلكم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في ادِّعاء ما تدَّعونَه ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ بعيدٍ عن الحقِّ والصواب.

وجمع ضمير الخطاب مع أنَّ مخاطبَ كلِّ فوجٍ نذيرُه؛ لتغليبه على أمثاله ولو فرضاً، ليشمَلَ أولَ فوجٍ أنذَرَهم نذيرٌ. والأصلُ: أنت وأمثالُكَ ممَّن ادَّعى، أو يدَّعي دعواك، مبالغةً في التكذيب، وتمادياً في التضليل كما يُنبئ عنه تعميمُ المُنزَل مع ترك ذِكْر المُنزَل عليه؛ فإنه ملوِّحٌ بعمومه حتماً.

---

(١) قراءة أبي عمرو على أصله في الإدغام، والقراءات الأخرى في القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩.

وأما إقامةُ تكذيب الواحد مقامَ تكذيب الكلِّ، فقيل: أمرٌ تحقيقيٌّ يُصار إليه لتهويل ما ارتكبوه من الجِناية، لكن لا مساغَ لاعتباره من جهتهم، ولا لإدراجه تحتَ عبارتهم، كيف لا وهو منوطٌ بملاحظة اجتماع النُّذر[١] على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم من ذلك وقد حال الجَرِيضُ دون القَرِيض[٢]؟

هذا إذا جُعل ما ذُكر حكايةً عن كلٍّ واحد من الأفواج كما هو الظاهر، وأما إذا جُعل حكايةً عن الكلِّ فالنذير إما بمعنى الجمع[٣]؛ لأنه فعيلٌ، وهو يستوي فيه الواحدُ وغيرُه، أو مصدرٌ مقدَّر بمضافٍ عامٍّ، أي: أهلُ نذير، أو منعوتٌ به للمبالغة، فيتَّفق كلا طرفَي الخطاب في الجمعية. ويُستشعَر من بعض العبارات جوازُ اعتبار الجمعية بأحدِ الأوجه المذكورةِ على الوجه الأول أيضاً، وفيه بحثٌ.

وجُوِّز أن يكون الخطابُ من كلام الخَزَنة للكفَّار على إرادة القول، على أنَّ مرادَهم بالضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو هلاكُهم، أو عقابُ ضلالهم تسميةً له باسم سببه. وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى، وكذا ما قيل من جوازِ كونِهِ من كلام النذير للكَفَرة حَكَوه للخَزَنة.

وفي «الكشف»: هذا الوجهُ فيه تكلُّف بَيِّن، فإمَّا أن يكون مقولَ قولٍ محذوفٍ يستدعيه «قد جاءنا نذير»، كأنه قيل: بلى قد جاءنا نذيرٌ قال: إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير، فكذَّبنا وقلنا. وقُدِّم «فكذَّبنا وقلنا» تنبيهاً على أن التكذيبَ لم يكن مقصوراً على قولهم هذا، وإمَّا أن يكون التكذيبُ واقعاً على الجملة، أعني: «إن أنتم»، وقوله سبحانه: «وقلنا ما نزَّل الله من شيء» عطفٌ على «كذَّبنا»، قُدِّم على صِلَته

(١) في الأصل: المنذر، والمثبت من (م).
(٢) الجريض: الغُصَّة، من الجَرَض: وهو الريق يغص به، والقريض: الشِّعر، وهو مثل يضرب للأمر يُقدر عليه أخيراً حين لا ينفع. مجمع الأمثال ١/ ١٩١.
(٣) جاء في حاشية الأصل ما نصه: ولم يجعل جمعاً كالعبيد؛ قيل: لأنه لا يعرف له مفرد يصلح أن يكون هذا جمعاً له، ونظر فيه، فتأمل. اهـ منه.

ليجريَ مجرى الاعتراض، مؤكِّداً لحكم التكذيب، ودالًّا على عدم القصر أيضاً، والأولُ أَولى. انتهى.

واستدلَّ بالآية على أنه لا تكليفَ قبل البعثة، وحَمْلُ النذير على ما في العقول من الأدلَّة ممَّا لا يقبلُه منصفُ ذوي العقول.

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمَعُ أو يعقل، كأنَّ الخَزَنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ: ألم تسمعوا آياتِ ربِّكم، ولم تعقلوا معانيها؟! فأجابوهم بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلاماً ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئاً ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي: في عِدادِهم ومن جملتهم.

والمراد بهم؛ قيل: الشياطينُ؛ لقوله تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ).

وقيل: الكفَّار مطلقاً، واختصاصُ إعداد السَّعير بالشياطين ممنوعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾[1] [الفتح: ١٣] والآيةُ لا تدلُّ على الاختصاص. وفيه دغدغةٌ لعلَّكَ تعرفُها مما يأتي - إن شاء الله تعالى - قريباً، فلا تغفل.

ونفيُهم السماعَ والعقلَ لتنزيلهم ما عندَهم منهما - لعدمِ انتفاعهم به - منزلةَ العدمِ، وفي ذلك مع اعتبار عمومِ المسموع والمعقولِ ما لا يخفى من المبالغة. واعتبرهما بعضُ الأجلَّة خاصَّين، قال: أي: لو كنَّا نسمعُ كلامَ النذير فنقبلُه جملةً من غير بحثٍ وتفتيش، اعتماداً على ما لاح من صدقِهِ بالمعجِز، أو نعقِلُ فنفكِّرُ في حكمه ومعانيه تفكُّرَ المستبصرين، ما كنَّا.. إلخ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السماعَ والعقلَ هنا بمعنى القَبول والتفكُّر. و«أو» للترديد؛ لأنه يكفي انتفاءُ كلٍّ منهما لخلاصهم من السعير، أو للتنويع، فلا ينافي الجمعَ. وقيل: أُشير فيه إلى قسمَي الإيمان التقليديِّ والتحقيقيِّ، أو إلى الأحكام التعبُّدية وغيرِها.

واستَدَلَّ بالآية - كما قال ابنُ السَّمعانيِّ في «القواطع»[2] - مَنْ قال بتحكيم

---

(١) في (م): ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام منه.

(٢) قواطع الأدلة ٢/ ٤٦.

العقل. وأنتَ تعلمُ أن قُصارى ما تشعر به أن العقلَ يُرشد إلى العقائد الصحيحة التي بها النجاةُ من السَّعير، وأمَّا أنها تدلُّ على أن العقلَ حاكمٌ كما يقول المعتزلةُ فلا. واستُدلَّ بها أيضاً ـ كما نقل عن ابن المُنير[1] ـ على أنَّ السمعَ أفضلُ من البصر. ومن العجيب استدلالُ بعضهم بها على أنه لا يُقال للكافر: عاقل.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الذي هو كفرُهم وتكذيبُهم بآياتِ الله تعالى ونُذُرِه عزَّ وجل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي: فبُعداً لهم من رحمته تعالى، وهو دعاءٌ عليهم.

وقرأ أبو جعفر والكسائيُّ: «فسُحُقاً» بضمِّ الحاء[2]. والسُّحقُ مطلقاً: البعد، وانتصابُه على أنه مصدرٌ مؤكد، أي: سَحَقَهم الله تعالى سُحْقاً. قال الشاعر[3]:

يـجـولُ بـأطـرافِ الـبـلاد مـغـرِّبـاً وتـسـحـقُـه ريـح الـصَّـبـا كـلَّ مَـسْـحَـقِ

وقيل: هو مصدرٌ إمَّا لفعلٍ متعدٍّ من المزيد بحذف الزوائد، كما في قوله:

وإن أهـلِـكْ فـذلـك كـان قـدري[4]

أي: تقديري، والتقدير: فأسحقَهم الله سُحْقاً، أي: إسحاقاً، أو بفعلٍ مرتَّب على ذلك الفعل، أي: فأسحقَهم الله تعالى، فسُحِقوا سُحقاً، كما في قوله:

وعـضَّـةُ دهـرٍ يـا ابـنَ مـروان لـم تَـدَعْ من الـمـال إلا مُـسْـحَـتٌ أو مجلَّفُ[5]

(١) الانتصاف ٤/ ١٣٧.

(٢) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٢١٧.

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١٧١.

(٤) عجز بيت ليزيد بن سنان فيما رجحه محققا المفضليات ص٧٠، وصدره:

فـإن يـبـرأ فـلـم أنـفِـثْ عـلـيـه

ونسبه صاحب المفضليات إلى رجل من عبد القيس حليف لبني شيبان، وأورده ابن الشجري في أماليه ٢/ ١١٠ من غير نسبة. وفي المصادر: يهلك، بدل: أهلك.

(٥) البيت للفرزدق، وله روايتان: إحداها التي ذكرها المصنف، والثانية: . . . إلا مسحتاً أو مجلفُ، وفي توجيه إعرابها كلام طويل، انظر: الشعر والشعراء ١/ ٤٨٠، والأغاني ٢١/ ٣٠٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٤٤ وما بعدها وسلف ٣/ ٣٧٠.

والمجلف: الذي ذهب معظمه وبقي منه شيء يسير، والمسحت: المستأصل الذي لم يبق منه بقية. الخزانة ٥/ ١٥٢.

أي: لم تَدَع فلم يبقَ إلا مسحت، وإلى أول الوجهين ذهب أبو عليٍّ الفارسيُّ والزجَّاج[١]، وبعد ثبوت الفعل الثلاثي المتعدِّيَ كما في البيت ـ وبه قال أبو حيان[٢] ـ لا يحتاج إلى ما ذُكر.

واللامُ في «لأصحاب» للتبيين، كما في: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، و: سُقْياً لك.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ تغليبٌ، ولعلَّ وجهَه عند القائل هو[٣] أنَّ السَّوق يقتضي أن يقال: فسُحقاً لهم ولأصحاب السعير؛ فإنه تعالى بيَّن أولاً أحوالَ الشياطين حيث قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم بيَّن أحوالَ الكفَّار حيث قال عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، والأوفقُ بقراءة النصبِ والأبعدُ من شبهة التكرار أن يُراد بالموصول غيرُ الشياطين، ثم قال تعالى شأنُه: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فكان السَّوق يقتضي: فسُحْقاً لهم ولأصحاب السعير، لكن لم يقل كذلك؛ لأجل التغليب؛ حيث أطلق «أصحاب السعير» على الشياطين والكفار جميعاً.

ولا يضرُّ في هذا دلالةُ غير آيةٍ على عدم اختصاصِ أصحابِ السَّعير بالشياطين، بل يُطلقُ على سائر الكَفَرة أيضاً؛ لأنه يكفي في التغليب الاختصاصُ المتبادرُ من السَّوق هنا، ولا توقُّفَ له على عدم جواز إطلاق ذلك على غيرِ الشياطين في شيء من المواضع.

على أنه يمكنُ أن يقال: لا حاجةَ إلى التزام اختصاص أصحاب السَّعير بالشياطين أصلاً ولو بحسب السوق، بل يكفي لصحَّة التوجيه كونُهم أصلاً[٤] في دخول السَّعير، والكفَّار ملحقين بهم؛ كما يُشعر به قولُه تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، بمعنى: في عِدادِهم وجملتهم، فحينئذٍ يكونُ الداخلُ في السعير

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٣٠٧، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.
(٣) في (م): وهو، وهو تصحيف.
(٤) في الأصل و(م): أصيلاً. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام فيه بنحوه.

قسمين، وكان مقتضى الظاهر ذكرُهما معاً في الدعاء عليهم بالسُّحْق؛ كما يشهد به سِياقُ الآية، لكنَّه عدَلَ وغلَّبَ «أصحاب السعير» الدالَّ على الأصالة على غيره من التوابع. وذُكِرَ أن في هذا التغليب إيجازاً، وهو ظاهر، ومبالغةً، أي: في الإبعاد؛ إذ لو أُفرد كلٌّ من الفريقين بالذِّكر لأمكن أن يُتوهَّم تفاوتُ الإبعادَين، بأن يكون إبعاد الكَفَرة دون إبعاد الشياطين، على ما يُشعر به جعلُهم الشياطين أصلاً[1] وأنفسَهم ملحَقةً بهم، فلما ضُمُّوا إليهم في الحكم به دلَّ على أن إبعادَهم لم يقصر عن إبعاد أولئك. وأيضاً لمَّا غلَّب سبحانه وتعالى أصحابَ السَّعير - وهم الشياطين - على الكفار فقد جعل الكفَّار من قَبِيل الشياطين، فكأنَّهم هم بأعيانهم، وفيه من المبالغةِ ما لا يخفى. وتعليلاً، فإنَّ ترتُّبَ الحكم على الوصف، وكذا تعلُّقَه به يُشعر بعِلِّيته له، فيُشعر ذلك بأن الإبعاد حصَلَ لهم لأجل كونهم أصحابَ السعير.

وقيل في توجيه التغليب وما فيه من الأمور الثلاثة غيرُ هذا، وقد عُدَّ ذلك من المشكلات، وغَدَا معترَكاً لعلماء الرُّوم وغيرهم من العلماء الأعلام، ولعلَّ ما ذكرناه أقربُ إلى الأفهام، وأبعدُ عن النزاع والخِصام، فتأمَّل، والله تعالى وليُّ الإفهام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخافون عذابَه غائباً عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعينِ الناس غيرَ مرائين، أو بما خفي منهم، وهو قلوبهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يُقادَرُ قَدْرُه. وتقديمُ المغفرة على الأجر لأنَّ درءَ المضارِّ أهمُّ من جلب المنافع. والجملة المؤكَّدة[2]؛ قيل: استئنافٌ بيانيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ خطابٌ عامٌّ للمكلَّفين كما في قوله تعالى أولاً: «ليبلوكم» عُطِفَ على مقدَّر. قال في «الكشف»: أصلُ الكلام: وللذين كفروا منكم أيُّها المكلَّفون المبتلَون، وللذين يخشون منكم. فقَطَع هذا الثاني جواباً عن السؤال الذي يقطر من بيان حال الكافرين، مع أنَّ ذِكْرَهم بالعَرَض، وهو: ماذا حالُ من أحسَنَ عملاً، ومَنْ خرج ممحَّصاً عند الابتلاء؟ فأُجيب بقوله تعالى: «إن

---

(١) في الأصل و(م): أصيلاً. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام فيه بنحوه.

(٢) يعني جملة: «إن الذين يخشون» إلخ، ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٢١. ووقع في (م): المذكورة.

الذين يخشون» إلخ، فأثبت لهم كمال العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وكمال التقوى؛ لقوله تعالى: «بالغيب». وفي هذا القَطْع ترشيحٌ للمعنى المرموزِ إليه في قوله تعالى: «أيكم أحسن عملاً» أي: ليبلوَكم أيُّكم المتَّقي، تخصيصاً لهم بأنهم المقصودون، ولو عطف لدلَّ على التساوي. ثم قيل: فاتَّقوه في السرِّ والعَلَن، ودُوموا أنتُم أيُّها الخاشعون على خشيتكم، وأَنيبوا إلى الخَشية والتقوى أيُّها المغترُّون، واعتقدوا استواءَ إسرارِكم وجهرِكم في علم ربِّكم، فكونوا على حذرٍ، واخشَوه حقَّ الخَشية، فقوله تعالى ذلك عطفٌ على هذا المضمَر.

وجَوَّز أن يُجعل قولُه تعالى: «إن الذين» إلخ، استطراداً عَقِيب ذِكْر الكفَّار وجزائهم، وقوله سبحانه: «وأسروا» «أو اجهروا» على سبيل الالتفات إلى «أصحاب السَّعير»؛ لبُعْد العهد، وزيادةِ الاختصاص، عطفاً على قوله تعالى: «وللذين كفروا»، كأنه قيل: وللكافرين بربِّهم عذابُ جهنم، ثم قيل: مِنْ صفتها كيتَ وكيت، وإسرارُكم بالقول وجهرُكم به أيُّها الكافرون سيَّان، فلا تَفُوتونَنا، جهرتُم بالكفر والبغضاء أو أبطنتُموهما، فهو من تتمَّة الوعيد.

ثم قال: والأولُ أملأ بالقَبول. انتهى.

ويظهرُ لي بُعْدُ الأول، ويؤيِّد الثاني ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: نزلت ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ إلخ في المشركين، كانوا ينالون من النبيِّ ﷺ، فيُوحَى إليه عليه الصلاةُ والسلام، فقال بعضُهم لبعض: أسرُّوا قولكم كيلاً يسمَعَ ربُّ محمد. فقيل لهم: أسرُّوا ذلك أو اجهروا به؛ فإن الله تعالى يعلمُه.

وتقديمُ السرِّ على الجَهْر للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يَحْذَرونه من أول الأمر، والمبالغةِ في شمولِ علمِه عزَّ وجلَّ المحيطِ بجميع المعلومات، كأن علمَه تعالى بما يُسِرُّونه أقدمُ منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السَّوية، أو لأن مرتبةَ السرِّ متقدِّمة على مرتبة الجَهْر؛ إذ ما من شيءٍ يُجهَرُ به إلا وهو أو مَباديه مضمَرٌ في القلب غالباً، فتعلُّق علمِهِ تعالى بحالته الأولى متقدِّمٌ على تعلُّقه بحالته الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ تعليلٌ لما قبله، وتقريرٌ له، وفي صيغةِ الفعيل، وتحليةِ «الصُّدور» بلام الاستغراق، ووصفِ الضمائر بصاحبتها، من

الجَزَالة ما لا يخفى، كأنه قيل: إنه عزَّ وجلَّ مبالغٌ في الإحاطة بمضمَرَات جميع الناس، وأسرارِهم الخفيةِ المُسْتكِنَّة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقُها أصلاً، فكيف لا يعلم ما تُسرُّونه وتجهرون به؟

ويجوز أن يراد بـ «ذات الصدور»: القلوب التي في الصدور، والمعنى: إنه تعالى عليمٌ بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها.

وقولُه تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنكارٌ ونفي لعدم إحاطة علمِهِ جلَّ شأنُه، و«مَن» فاعلُ «يعلم»، أي: ألا يعلم السرَّ والجهرَ مَن أَوْجَدَ بموجب حكمته جميعَ الأشياء التي هما من جملتها؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ حالٌ من فاعل «يعلم» مؤكِّدةٌ للإنكار والنفي، أي: ألا يعلمُ ذلك والحالُ أنه تعالى المتوصِّلُ علمُه إلى ما ظهَرَ من خلقه وما بطن؟ وقيل: حالٌ من فاعل «خلق». والأول أظهرُ.

وقُدِّر مفعول «يعلم» بما سمعتَ، ولم يُجعل الفعلُ من باب يُعطي ويمنع؛ لمكان هذه الحال على ما قيل؛ إذ لو قلتَ: ألا يكونُ عالماً مَنْ هو خالقٌ وهو اللطيفُ الخبير؟ لم يكن معنًى صحيحاً؛ لاعتماد «ألا يعلمُ» على الحال، والشيءُ لا يوقَّتُ بنفسه، فلا يقال: ألا يعلمُ وهو عالمٌ، ولكن: ألا يعلمُ كذا وهو عالمٌ كلَّ شيء؟

وأُورد عليه أنَّ «اللطيفَ» هو العالمُ بالخفيَّات، فيكونُ المعنى: ألا يكون عالماً وهو عالمٌ بالخفيَّات؟ وهو مستقيمٌ.

وأُجيب بأنَّ «لا يعلم» من ذلك الباب، وهو على ما قرَّره السَّكاكيُّ[1] مستغرقٌ في المقام الخطابيِّ، و«اللطيف الخبير»: مَنْ يُوصِلُ علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطَنَ، فهما سواءٌ في الاستغراق والإطلاق.

وتُعقِّب بأن الاستغراقَ غيرُ لازم كما ذكره الزمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ الآية [القصص: ٢٣] ولو سُلِّم فالوجه مختلفٌ؛ لأن العمومَ المستفادَ

(١) مفتاح العلوم ص٢١٦.

من الثاني ليس العمومَ المستفادَ من الأول؛ فإن اللطفَ للعلم بالخفايا خاصَّة، ويلزمُ العلم بالجلايا من طريق الدلالة، ثم إن الغزاليَّ[1] اعتبر في مفهوم «اللطيف» مع العلم بخفايا الأمور سلوكَ سبيل الرِّفق في إيصال ما يُصلحُها، فلا يتكرَّر مع «الخبير» بناءً على أنه العالمُ بالخفايا أيضاً.

والوجهُ في الحاجة إلى التقدير ـ كما قال بعضُ الأئمة ـ أن قولَه تعالى: «ألا يعلم» تذييلٌ بعد التعليل بقوله سبحانه: «إنه عليم بذات الصدور»، فربطُ المعنى أن يقال: ألا يعلمُ هذا الخفيَّ؟ أعني: قولَكم المُسَرّ به، أو: ألا يعلمُ سرَّكم وجهرَكم مَنْ يعلم دقائقَ الخفايا وجلائلَها، جُمَلَها وتفاصيلَها؟! ولو قيل: ألا يكون عالماً بليغ العلم مَنْ هو كذا، لم يرتبط، ولكان فيه عِيٌّ وقصور.

وجُوِّز كونُ «مَن» مفعولَ «خَلَق»، واستظهره أبو حيَّان[2]، أي: ألا يعلم مخلوقَه وهذه حالُه؟! ورُجِّح الأولُ بأن فيه إقامةَ الظاهر مقام الضمير الراجعِ إلى الربِّ، وهو أدلُّ على المحذوف، أعني: السرَّ والجهر، وتعميم المخلوق المتناول لهما تناولاً أوليّاً، ولهذا قدَّروا: مَنْ خلَقَ الأشياءَ؛ دلالةً على أن حذفَ المفعول للتعميم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ غيرَ صعبةٍ، يسهُلُ جدّاً عليكم السلوكُ فيها، فهو فعولٌ للمبالغة في الذلِّ، من ذُلّ بالضمِّ ويُكسر: ضدُّ الصعوبة، ويُستعمل المضمومُ فيما يقابل العزَّ كما يقتضيه كلامُ «القاموس»[3]، وقال ابنُ عطية[4]: الذَّلول فَعول بمعنى مفعول، أي: مذلولة، كرَكوب وحَلوب. انتهى.

وتُعقب بأن فعلَه قاصرٌ، وإنما يُعدَّى بالهمزة أو التضعيف، فلا يكون بمعنى المفعول، واستُظهر أن مذلولة خطأ.

---

(١) المقصد الأسنى ص١٠١.

(٢) في البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.

(٣) ونص كذلك على أن المكسور يستعمل في هذا المعنى. القاموس: (ذل).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤١.

وقال بعضُهم: يقولون للدَّابة إذا كانت مُنقادَةً غيرَ صعبةٍ: ذلول، من الذِّل بالكسر، وهو سهولةُ الانقياد. وفي الكلام استعارةٌ، وقيل: تشبيهٌ بليغ[(١)].

وتقديمُ «لكم» على مفعولَي الجَعْل مع أن حقَّه التأخُّر عنهما؛ للاهتمام بما قُدِّم، والتشويق إلى ما أُخِّر؛ فإن ما حقَّه التقديمُ إذا أُخِّر، لاسيَّما عند كون المقدَّم مما يدلُّ على كون المُؤخَّر من منافع المخاطبين تبقى النفسُ مترقِّبةً لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذِكْره فَضْلَ تمكُّن.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجَعْل المذكور، وزعم بعضُهم أنها فصيحةٌ. والمراد بـ «مناكبها» ـ على ما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغيرِهما ـ جبالُها، وقال الحسن: طرقُها وفجاجُها.

وأصل المَنْكِب: مجتمَعُ ما بين العَضُد والكتِفِ، واستعمالُه فيما ذُكر على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التحقيقيَّة، وهي قرينةُ المكنيَّة في «الأرض»؛ حيث شُبِّهت بالبعير، كما ذكره الخَفَاجيُّ. ثم قال: فإن قلتَ: كيف تكونُ مكنيَّةً وقد ذُكر طرفُها الآخرُ في قوله تعالى: «ذلولاً»؟ قلتُ: هو بتقدير: أرضاً ذَلولاً، فالمذكورُ جنسُ الأرض المطلَق، والمشبَّهُ هو الفرد الخارجيُّ، وهو غيرُ مذكورٍ، فيجوزُ كونُ «ذلولاً» استعارةً، والمكنيةُ حينئذ هي مدلولُ الضمير، لا المصرَّح بها في النظم الكريم، والمانعُ من الاستعارة ذِكْر المشبَّه بعينه لا بما يصدُقُ عليه[(٢)]، فتأمَّل ولا تغفل.

وفي «الكشاف»[(٣)]: المشيُ في مناكبها مَثَلٌ لفرط التذليل ومجاوزتِهِ الغايةَ؛ لأن المنكبَين وملتقاهُما من الغارب أرقُّ شيء من البعير وأنباهُ عن أن يطأه الراكبُ بقدمِه ويعتمِدَ عليه [فإذا جعلها في الذل بحيث يُمشى في مناكبها] لم يترك بقيَّةً من التذليل.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وزعم بعضهم ـ وكُتب فوق كلمة بعضهم: سلمان بن أحمد الكليسي. اهـ منه ـ أن «ذلولاً» إما مفعول بمعنى فاعل، أي: متذللة، وهو مجاز مرسل عن التحمل وعدم المدافعة بعلاقة اللزوم، أو صفة مشبهة بمعنى: لينة، فهو حقيقةٌ، وأن هذا وجه، وهو كما ترى. اهـ منه.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٢.

(٣) ٤/ ١٣٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

والمراد أنه ليس هنا أمرٌ بالمشي حقيقةً، وإنما القصدُ به إلى جعله مَثَلاً لفرط التذليل، سواءٌ كانت المناكبُ مفسَّرةً بالجبال أو غيرها، وسواءٌ كان ما قبلُ استعارةً أو تشبيهاً.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ انتفعوا بما أنعمَ جلَّ شأنه، وكثيراً ما يعبّر عن وجوه الانتفاع بالأكل؛ لأنه الأهمُّ الأعمُّ. وفي «أنوار التنزيل»[(١)]: أي: التمسوا من نِعَمِ الله سبحانه وتعالى، على أنَّ الأكلَ مجازٌ عن الالتماس، من قَبِيل ذِكْر الملزوم وإرادةِ اللازم. قيل: وهو المناسبُ لقوله تعالى: «امشوا».

وجوَّز بعضٌ إبقاءَه على ظاهره، على أنَّ ذلك من قَبِيل الاكتفاء، وليس بذاك.

واستُدلَّ بالآية على نَدْب التسبُّب والكَسْب، وفي الحديث: «إن الله تعالى يحبُّ العبد المؤمنَ المُحْتَرِفَ»[(٢)]. وهذا لا يُنافي التوكُّل، بل أخرج الحكيمُ الترمذيُّ[(٣)] عن معاويةَ بن قُرَّة قال: مرَّ عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكِّلون. قال: أنتم المتأكِّلون، إنما المتوكِّلُ رجلٌ ألقى حبَّه في بطنِ الأرض، وتوكَّل على ربِّه عزَّ وجل. وتمامُ الكلامِ في هذا الفصل في محلِّه.

والمشهور أنَّ الأمر في الموضعين للإباحة، وجُوِّز كونُه لمطلقِ الطَّلب؛ لأن من المشي وما عُطِف عليه ما هو واجبٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أي: المرجعُ بعد البعث لا إلى غيرِه عزَّ وجلَّ، فبالِغُوا في شكرِ نعَمِه التي منها تذليلُ الأرض، وتمكينُكم منها، وبثُّ الرزقِ فيها.

وممَّا يُقضى منه العجبُ جواز عَوْد ضمير «رزقه» على «الأرض» باعتبار أنها مبدأٌ، أو عنصرٌ من العناصر، أو ذلول، وهو يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، والإضافة لأدنى ملابسةٍ، أي: من الرزق الذي خُلِقَ عليها، وكذا ضميرُ «إليه» أي:

---

(١) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٢٩)، وابن عدي في الكامل ١/ ٣٦٩ وقال ابن الجوزي في العلل ٢/ ٥٨٩: لا يصح.
(٣) نوادر الأصول ص١٢٣.

وإلى الأرض نشورُكم ورجوعُكم، فتَخرجون من بيوتكم وقصورِكم إلى قبوركم.

وجملةُ «إليه النشور»؛ قيل: عطفٌ على الصلة بعد ملاحظةِ ما ترتَّب عليها، وقيل: حال مقدَّرة من ضمير المخاطبين المرفوع، فتدبَّر.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله عزَّ وجل، كما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، فقيل على تأويل: مَنْ في السماء أمرُه سبحانه وقضاؤه، يعني: أنه من التجوُّز في الإسناد، أو أن فيه مضافاً مقدَّراً، وأصلُه: مَنْ في السماء أمرُه، فلما حُذف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مقامَه ارتفَعَ واستتر. وقيل: على تقدير: خالق مَنْ في السماء. وقيل: «في» بمعنى «على»، ويُراد العلوُّ بالقهر والقدرة.

وقيل: هو مبنيٌّ على زعم العرب، حيث كانوا يزعمون أنَّه سبحانه في السماء، فكأنه قيل: أأمنتُم مَن تزعمون أنه في السماء، وهو متعالٍ عن المكان؟ وهذا في غايةِ السَّخافة، فكيف يُناسب بناء الكلام في مثل هذا المقامِ على زَعْم بعض الجَهَلة كما لا يخفى على المُنصِفِ؟

أو هو غيرُه عزَّ شأنُه، وإليه ذهب بعضُهم، فقيل: أُريدَ بالموصول الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ الموكَّلون بتدبير هذا العالَم. وقيل: جبريلُ عليه السلام، وهو المَلَكُ الموكَّل بالخَسْف.

وأئمةُ السَّلف لم يذهبوا إلى غيرِه تعالى، والآيةُ عندهم من المتشابه. وقد قال ﷺ: «آمِنُوا بمتشابهه»[(١)]، ولم يقل: أوِّلوه، فهم مؤمنون بأنه عزَّ وجلَّ في السماء على المعنى الذي أراده سبحانه مع كمال التنزيه، وحديثُ الجارية[(٢)] من أقوى الأدلَّة لهم في هذا الباب، وتأويلُه بما أوَّل به الخَلَفُ خروجٌ عن دائرة الإنصاف عند أُولي الألباب.

وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حَجَر[(٣)]: أسند اللَّالَكائيُّ[(٤)] عن محمد بن

(١) هو قطعة من حديث طويل، سلف ٤/ ٣١.
(٢) سلف ١١/ ١٢١.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٠٧.
(٤) شرح أصول الاعتقاد (٧٤٠).

الحسن الشَّيباني قال: اتَّفَقَ الفقهاءُ كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثِّقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ من غير تشبيهٍ ولا تفسير. وأسند البيهقيُّ[(١)] بسندٍ صحيحٍ عن أحمد بن أبي الحَوارِي، عن سفيان بن عُيينة: كلُّ ما وصَفَ الله تعالى به نفسَه في كتابه فتفسيرُه تلاوتُه والسكوتُ عنه. وهذه طريقةُ الشافعيِّ وأحمدَ بن حنبل.

وقال إمامُ الحرمين في «الرسالة النظامية»: اختلفت[(٢)] مسالكُ العلماء في هذه الظواهر: فرأى بعضُهم تأويلَها، والتزَمَ ذلك في آي الكتاب وما يصحُّ من السُّنن، وذهب أئمَّةُ السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراءِ الظواهر على مواردِها، وتفويضِ معانيها إلى الله عزَّ وجلَّ. والذي نرتضيه رأياً، ونَدينُ اللهَ تعالى به عقيدةً اتِّباعُ سَلَفِ الأمة؛ للدليل القاطع على أنَّ إجماع الأمة حجَّة، فلو كان تأويلُ هذه الظواهر حتمًا لأوشك أن يكون اهتمامُهم به فوقَ اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصَرَمَ عصرُ الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتَّبَع. انتهى كلامُ الإمام.

وقد تقدَّم النقلُ في ذلك عن أهل العصر الثالث، وهم فقهاءُ الأمصار، كالثوريِّ، والأوزاعيِّ، ومالكٍ، والليثِ ومَنْ عاصَرَهم، وكذا مَنْ أخذ عنهم من الأئمَّة، فكيف لا يُوثَقُ بما اتفقَ عليه أهلُ القرون الثلاثة وهم خيرُ القرون بشهادة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام؟ انتهى كلامُ الحافظ على وجهِ الاختصار.

ونقلُ نصوصِ الأئمَّة في إجراء ذلك على الظاهر مع التنزيه من غير تأويل يُفضي إلى مزيدِ بسطٍ وتطويل، وقد أُلِّفت فيه كتبٌ معتبرةٌ مطوَّلة ومختصَرة.

وفي «تنبيه العقول» لشيخ مشايخنا إبراهيم الكُورانيِّ: أن إجماعَ القرون الثلاثة على إجراء المتشابهات على مواردها مع التنزيه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] دليلٌ على أنَّ الشارع صلوات الله تعالى وسلامُه عليه أراد بها

(١) الاعتقاد ص٧٢-٧٣.

(٢) في الأصل و(م): اختلف، والمثبت من فتح الباري.

ظواهرَها، والجزمُ بصدقه ﷺ دليلٌ على عدم المُعارِض العقليّ الدالّ على نقيض ما دلَّ عليه الدليلُ النقليُّ في نفس الأمر، وإن توهَّمه العاقلُ في طَوْر النظر والفكر، فمعرفةُ الله تعالى بهذا النحو مِن الصفات طورٌ وراءَ ذلك. انتهى.

وأنا أقولُ: في التأويل اتِّباعُ الظنِّ، وقولٌ في الله عزَّ وجل بغير علمٍ، وإلا لاتَّحد ما يَذْكُرونه من المعنى فيه، مع أن الأمرَ ليس كذلك؛ حيث يذكرون في تأويل شيء واحد وجوهاً من الاحتمالات، وفيما عليه السلفُ سلامةٌ من ذلك، ويكفي هذا في كونه أحسنَ المسالك:

وما عليَّ إذا ما قلتُ معتقدي دعِ الجَهُول يظنُّ الجهلَ عُدْوانا[1]

وقرأ نافع: «أأمنتم» بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية، وأدخل أبو عَمرٍو وقالونُ بينهما ألفاً، وقرأ قُنْبُل بإبدال الأولى واواً لضمِّ ما قبلَها وهو راء «النشور»، وعنه وعن وَرْش غيرُ ذلك أيضاً[2].

وقوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بدلُ اشتمالٍ من «من»، وجُوِّز أن يكون على حذف الجارِّ، أي: من أن يخسف، ومحلُّه حينئذٍ النصبُ أو الجرُّ، والباءُ للملابسة، و«الأرض» مفعولٌ به لـ «يخسف»، والخسفُ قد يتعدَّى. قال الراغبُ[3]: يقال: خسَفَه الله تعالى، وخسَفَ هو، قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: ٨١] أي: أأمنتُم من أن يُذهب الأرضَ إلى سُفْل ملتبسةً بكم.

وزعم بعضُهم لزومَ لزومِهِ، وأن «الأرض» نصب بنزع الخافض، أي: أن يَخسِفَ بكم في الأرض، وليس كذلك.

﴿فَإِذَا هِيَ﴾ حين الخَسْف ﴿تَمُورُ ۝١٦﴾ ترتجُّ وتهتزُّ اهتزازاً شديداً. وأصلُ المَوْر: التردُّد في المجيء والذهاب.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ إضرابٌ عن الوعيد بما تقدَّم إلى

(١) سلف عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الكهف.

(٢) التيسير ص٢١٢، والنشر ١/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٢.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن: (خسف).

الوعيد بوجهٍ آخر، أي: بل أأمنتُم مَنْ في السماء أن يرسل.. إلخ. وقد تقدَّم الكلامُ في الحاصب.

والوعيدُ بالخسف أولاً لمناسبة ذِكْر الأرض في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، وقد ذَكَر المِنَّة في تسهيل المشي في مناكِبِها، وذَكَر إرسالَ الحاصب ثانياً، وهذا في مقابلة الامتنان بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] قاله في «الكشف».

وفي «غرَّة التنزيل» للراغب في وجهِ تقديمِ الوعيد بالخَسْف على التوعُّد بالحاصِبِ أنه لمَّا كانت الأرضُ التي مهَّدها سبحانه وتعالى لهم لاستقرارهم يعبدون فيها خالقها، فعبدوا الأصنامَ التي هي شجرُها أو حجرُها خُوِّفوا بما هو أقربُ إليهم، والتخويفُ بالحاصب من السماء التي هي مصاعدُ كَلِمِهم الطَّيبة، ومَعَارجُ أعمالهم الصالحة؛ لأجل أنهم بدَّلوهما بسيِّئات كفرِهم، وقبائح أعمالهم. ولعلَّ ما أُشير إليه أولاً أولى.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ أي: إنذاري، فـ «نذير» مصدر، مثله في قول حسَّان:

فأُنذِرُ مثلَها نُصْحاً قريشاً ... من الرحمن إنْ قبلَتْ نذيري[1]

وهو مضافٌ إلى ياء الضمير، والقرَّاء مختلفون فيها؛ فمنهم مَنْ حَذَفها وصلاً وأثبتَها وقفاً، ومنهم مَنْ حَذَفها في الحالين اكتفاءً بالكسرة.

والمعنى: فستعلمون ما حالُ إنذاري وقدرتي على إيقاعِهِ عند مشاهدتكم للمنذَر به[2]، ولكن لا ينفعُكم العلمُ حينئذٍ.

وقُرئ شاذًّا: «فسيعلمون» بالياء التحتانية[3].

---

(١) البيت في ديوانه ص٢٨٠، من أبيات يذكر فيها بني قريظة وما حلَّ بهم، وقبله:

تركناهم وما ظفروا بشيء ... دماؤهمُ عليهم كالعبير

فهم صرعى تحوم الطير فيهم ... كذاك يُدان ذو الفَنَد الفَخور

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: لا حاجة إلى تعيين المنذر به، فلا تغفل. اهـ منه.

(٣) الكشاف ٤/ ١٣٨.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبلِ كفَّار مكة من كفَّار الأمم السالفة، قومِ نوح وعادٍ وأضرابِهم. والالتفاتُ إلى الغَيبة لإبراز الإعراض عنهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزالِ العذاب، أي: كان على غاية الهَول والفَظاعة، وهذا هو موردُ التأكيد القَسَمي، لا تكذيبُهم فقط. والكلامُ في «نكير» كالكلامِ في «نذير».

وفي الكلامِ من المبالغة في تسليةِ رسول الله ﷺ، وتشديدِ التهديد لقومه، ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أغفلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طيرانها؛ فإنهنَّ إذا بسَطْنها صففنَ قوادِمَها[١]، أعني: ما تقدَّم من ريشها صفًّا. ونصب «صافَّات» على الحال من «الطير»، أو من ضميرها في «فوقهم»، وهو في موضعِ الحال، فتكونُ الحال متداخلةً. وجُوِّز أن يكون ظرفاً لـ «صافات»، أو لـ «يروا»، ومفعولُ «صافات» على الاحتمالات محذوفٌ كما أشرنا إليه. وناسَبَ ذِكْرُ الاعتبار بالطَّير ذِكْرَ التوعُّد بالحاصب، لاسيَّما إذا فُسِّر بالحجارة؛ إذ قد أهلك الله تعالى بذلك أصحابَ الفيل حينما رمتهم به الطير، ففي ذلك إذكارُ قريش بتلك القصَّة.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضمُمنَ أجنحتهنَّ إذا ضربنَ بها جنوبهنَّ، والعطفُ على «صافات»؛ لأن المعنى: يصفُفنَ ويقبِضن، أو صافَّات وقابضات، وعطفُ الفعل على الاسم في مثله فصيحٌ شائع، وعكسُه جائز حسن، إلا عند السهيليِّ؛ فإنه عنده قبيح، نحو قوله:

باتَ يُعَشِّيها بعَضْبٍ باترِ ... يقصِدُ في أَسْوُقِها وجائرِ[٢]

فإنه أراد: قاصد وجائر.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: هي عشر، وما دونها من مقدم الجناح خوافي. اهـ منه.

(٢) أورده ابن الشجري في أماليه ٢/ ٤٣٧ و٣/ ٢٠٥، والبغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٤٠ من غير نسبة.
وضمير المؤنث للإبل، والعضب: السيف. والبيت في وصف كريم بادر يعقر إبله لضيوفه. الخزانة ٥/ ١٤١.

ولما كان أصلُ الطيران هو صفّ الأجنحة؛ لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصلُ فيها مدُّ الأطراف وبسطُها، وكان القبضُ طارئاً على البسط[١]؛ للاستظهار به على التحرُّك = جيء بما هو طارٍ غيرُ أصلٍ بلفظ الفعل، وبما هو أصلٌ بلفظ الاسم، على معنى أنهنَّ صافَّات، ويكون منهنَّ القبضُ تارةً بعد تارة، ويتجدَّد حيناً إثرَ حين، كما يكون من السابح.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ عند الصفِّ والقبض، على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ الواسع رحمتُه كلَّ شيء، حيث بَرَأهنَّ عزَّ وجلَّ على أشكالٍ وخصائص، وألهمهنَّ حركات قد تأتَّى منها الجريُ في الهواء. والجملةُ مستأنفة، أو حالٌ من الضمير في «يقبضن».

وقرأ الزهريُّ: «ما يُمَسِّكُهنَّ» بالتشديد[٢].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ۝١٩﴾ دقيقُ العلم، فيعلم سبحانه وتعالى كيفيةَ إبداع المبدَعات، وتدبيرَ المصنوعات، ومِنْ هذا خلقُه عزَّ وجل للطير على وجهٍ تأتَّى به جريُه في الجوِّ مع قدرته تعالى أن يُجْرِيَه فيه بدون ذلك، إلا أنَّ الحكمةَ اقتضت ربطَ المسبَّبات بأسبابها.

وليس فيما ذكرنا نزوعٌ إلى ما يضرُّ من أقوال أهل الطبيعة؛ لأن كونَ طبيعةِ الأجسام الثقيلة ما سمعتَ أمرٌ محسوس، لا يُنكره إلا من كابَرَ حِسَّه، ومثله كونُ الإمساكِ بالسبب السابق، وكونُه سبباً من آثار رحمته تعالى الواسعة، وأبى ذلك أبو حيان[٣] توهُّماً منه أنه نزوعٌ إلى ما يضرُّ من أقوال أهل الطبيعة، وقال: نحن نقول: إن أثقلَ الأشياء إذا أراد الله سبحانه إمساكَه في الهواء، واستعلاءه إلى العرش، كان ذلك، وإذا أراد جلَّ شأنُه إنزال ما هو أخفُّ سُفلاً إلى منتهى ما ينزل كان أيضاً، وليس ذلك لشكلٍ، أو ثقل، أو خفَّة.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: حاصله أن الغالب هو البسط، فكأنه هو الثابت، فجيء بالاسم، والقبضُ متجدِّدٌ، فعبِّر عنه بالفعل. اهـ منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

ونحن لا ننكر أن الله تعالى على كلِّ شيء قدير، وأنه سبحانه فعَّال لما يريد، وأنه لا يتوقَّف فعلُه عزَّ وجل على السبب عقلاً، بيد أنَّا نقول: إنه تعالى اقتضت حكمتُه في هذا العالم ذلك الربطَ، وهو أمرٌ عاديٌّ اختارَه تعالى حكمة وتفضُّلاً، ولو شاء جلَّ وعلا غيرَه لكان كما شاء.

وتقديمُ «بكلِّ شيء» على «بصير» للفاصلة، أو للحصر، ردّاً على مَن يزعمُ عدمَ شمولِ علمه تعالى شأنُه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلِّقٌ عند كثير بقوله سبحانه: (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ) ٠فقال في «الإرشاد»[(١)]: هو تبكيتٌ لهم بنفي أن يكون لهم ناصرٌ غير الله تعالى، كما يلوِّح به التعرُّض لعنوان الرَّحمانية، ويعضُدُه قولُه تعالى: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ)، أو ناصرٌ من عذابه تعالى، كما هو الأنسبُ بقوله تعالى بعدُ: (إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ)، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء:٤٣] في المعنيين معاً، خلا أنَّ الاستفهام هناك متوجِّهٌ إلى نفسِ المانع وتحقُّقه، وهنا متوجِّه إلى تعيين الناصر؛ لتبكيتهم بإظهار عَجْزِهم عن تعيينه.

و«أم» منقطعةٌ مقدَّرة بـ «بل»؛ للانتقال من توبيخهم على تَرْك التأمُّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المُنْبِئة عن تعاجيب آثار قدرةِ الله عزَّ وجل، إلى التبكيت بما ذُكر. والالتفاتُ للتشديد في ذلك، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها؛ لأنَّ بعدها «مَنْ» الاستفهامية، والاستفهامُ لا يدخل على الاستفهام[(٢)] في المعروف عندهم، وهي مبتدأ، و«هذا» خبرُه، وفي الموصول هنا[(٣)] الاحتمالاتُ المشهورة في مثله، وجملة «ينصركم» صفة لـ «جند» باعتبار لفظه، و«من دون الرحمن» على الوجه الأول إمَّا حالٌ من فاعل «ينصركم»، أو نعت لمصدره، وعلى الثاني متعلِّق بـ «ينصركم» كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود:٣٠] فالمعنى: [بل] مَنْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: و: هل مَن يُعير جناحه. «مَنْ» فيه موصولة مبتدأ، والخبر محذوف، أي: موجود. اهـ منه.

(٣) لفظ: هنا، لم يرد في الأصل، وأثبتناه من (م).

هذا الحقيرُ الذي هو في زعمكم جندٌ لكم ينصرُكم متجاوزاً نصرَ الرحمن، أو ينصرُكم نصراً كائناً من دون نصره تعالى، أو ينصرُكم من عذابٍ كائنٍ من عند الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلَه ناعٍ عليهم ما هم فيه من غايةِ الضلال، أي: ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظِ آلهتهم لا بحفظِهِ تعالى فقط، وأنَّ آلهتَهم تحفظُهم من بأس الله تعالى، إلا في غرورٍ عظيم وضلال فاحشٍ من جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يُعتدُّ به في الجملة. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراضَ عنهم، وبيان قبائحهم للغير. والإظهارُ في موضع الإضمار لذمِّهم بالكفر، وتعليل غرورهم به.

والكلامُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائرِ مباديه = كالذي مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ إلخ، منبئٌ عن مقدَّر يستدعيه المقامُ، كأنه قيل إثرَ [تمام] التبكيتِ والتعجيز: لم يتأثَّروا بذلك، ولم يُذعِنوا للحقّ، بل لجُّوا وتمادَوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في عنادٍ واستكبارٍ وطغيان ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ شراد عن الحقِّ؛ لِثقَله عليهم.

وجَعَلَ ناصرُ الدين: «أم مَنْ هذا الذي هو» إلخ عديلاً لقوله تعالى: «أولم يروا» على معنى: ألم ينظروا في أمثالِ هذه الصنائع من القبض، والبَسْط، والإمساك، وما شاكَلَ ذلك مما يدلُّ على كمال القدرة، فلم يعلموا قدرتَنا على تعذيبهم بنحوِ خسفٍ، وإرسال حاصبٍ؟ أم لكم جندٌ ينصرُكم من دون الله إن أرسَلَ عليكم عذابَه؟ وقال: إنه كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] إلا أنه أُخرج مخرجَ الاستفهام عن تعيين مَنْ ينصرُهم؛ إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم. وجعل قوله تعالى: «أم مَنْ هذا الذي يرزقكم» إلخ، على معنى: أم مَنْ يُشار إليه، ويقال: هذا الذي يرزقُكم[1]؟ فقيل: إنه ـ عليه الرحمةُ ـ جعل في الأولى «أم» متصلةً، و«مَن» استفهامية، وجعل في الثانية «أم» منقطعة، و«من» موصولة،

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٤.

و«هذا الذي» مبتدأ وخبرٌ واقعٌ صلةً على تقدير القول، وقُدِّر لاستهجان أن يُقال: الذي هذا الذي يرزقُكم، ويجعل «هذا» قائماً مقامَ الضمير الراجع إلى الموصول الأول، و«مَنْ»: قيل: مبتدأٌ، خبرُه محذوفٌ، أي: رازق لكم، وكأنه أشار بذلك إلى صحَّة كلٍّ من الأمرين في الموضعين.

وحديثُ لزوم اجتماع الاستفهامين في بعض الصُّور، ودخول الاستفهام على الاستفهام؛ قيل عليه: إنه ليس بضائرٍ؛ إذ لا مانعَ من اجتماع الاستفهامين إذا قُصِدَ التأكيدُ، وقد نقل ابنُ الشَّجَريِّ[1] عن جميع البصريين أنَّ «أم» المنقطعة أبداً بمعنى «بل» والهمزة، أي: ولو دخلت على استفهامٍ نحو: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ [الرعد:١٦] و﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النمل:٨٤] ومذهبُ غيرهم أنها قد تأتي بمعنى الاستفهام المجرَّد، ورُوي ذلك عن أبي عُبيدة، وأنها قد تأتي للإضراب المجرَّد، وقد تتضمَّنه والاستفهامَ الإنكاريَّ أو الطَّلَبيَّ.

والزمخشريُّ قال في الموضعين[2]: أم مَنْ يُشار إليه ويُقال: هذا الذي؟ وجَوَّز في «هذا» أن يكونَ إشارةً إلى مفروضٍ، وأن يكون إشارةً إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم أنهم يُحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجندُ والناصر والرازق.

والآيةُ على هذا ليست متعلِّقة بقوله تعالى: «أولم يروا» على ما حقَّقه صاحبُ «الكشف»، قال بعد أن أوضَحَ كلامَه: إذا تقرَّر ذلك فاعلم أنَّ الذي يقتضيه النظمُ على هذا التفسير أن يكون قولُه تعالى: «أم مَنْ هذا الذي هو جند» متعلِّقاً بحديث الخسف، وقولُه سبحانه: «أم مَنْ هذا الذي يرزقُكم» بحديث إرسال الحاصب على سبيل النَّشْر، كأنه لما قيل: أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسف بكم الأرضَ، فتضطربَ نافرةً بعد ما كانت في غاية الذِّلَّة، عقَّبَ بقول: أم آمنَكم الفوج الذي هو في زعمكم هو جندٌ لكم يمنعُكم من عذاب الله تعالى وبأسِهِ؟ على أنَّ «أم» منقطعةً، والاستفهام تهكُّمٌ، وكذلك لمَّا قيل: أأمنتُم مَنْ في السماء أن يُرسل

---

(١) في أماليه ٣/ ١٠٨ ونقله المصنف عنه بواسطة ابن هشام في المغني ص٦٦.

(٢) الكشاف ٤/ ١٣٩.

عليكم حاصباً، بدل ما يُرسل عليكم رحمَته؟ ذنْبَ بقول: أم آمنكم الذي تتوهَّمون أنه يرزقكُم؟!

وأما قوله تعالى: «ولقد كذَّب الذين من قبلهم» فاعتراضٌ يشدُّ من عَضُدِ التحذير، وأن في الأمم الماضين المخسوفَ بهم، والمرسَلَ عليهم الحواصبُ، إلى غير ذلك من أنواع عذابه عزَّ وجلَّ، ما يسلُبُهم الطمأنينة والوقارَ لو اعتبروا.

وكذلك قولُه سبحانه: «أو لم يروا» تصويرٌ لقدرته تعالى الباهرة، وأنَّ مَنْ قدر على ذلك كان الخسفُ وإرسالُ الحاصبِ عليه أهونَ شيء. وفيه: كما أنه بعظيم قدرته وشمولِ رحمته أمسَكَ الطيرَ، كذلك إمساكُه العذابَ، وإلا فهؤلاء يستحقُّون كلَّ نكالٍ.

وفي الإتيان بـ «هذا» من التحقير الدالِّ على تسفيهِ رأيهم، وتقدير القول الدالِّ على الزَّعم، والتأكيد بالموصولين الدالِّ على تأكُّد اعتقادهم في ذلك الباطل، إن كان إشارةً إلى الأصنام، أو كمالِ التهكُّم بهم كأنهم محقَّقون معلومون إن كان إشارةً إلى فوجٍ مفروض؛ لأن حالَهم في الأمن يقتضي ذلك، وهذا أبلغُ، ولذا قدَّمه الزمخشريُّ = ما يقضى منه العجبُ، ويَلُوحُ الإعجاز التنزيليُّ كأنه رأيُ العين.

ثم قال: فهذا ما هُدِيت إليه مع الاعتراف بأنَّ الاغتراف من تيَّار كلامِ الله تعالى له رجالٌ ما أَبْعَدَ مثلي عنهم، ولكن أتسلَّى بقول إمامنا الشافعيِّ: أُحبُّ الصالحين ولستُ منهم. انتهى.

ولَعَمْري لقد أبدع، وتبوَّأ ما قالَه من القَبول عند ذوي العقول المحلَّ الأرفع:

ويُعجبني طرف تدرُّ دموعُه ... على فضله العالي فللّه دَرُّه

وظاهره أن «من» في الموضعين فاعلٌ لفعلٍ محذوف دلَّ عليه السياق، أعني: أَمَّنَكم، لا مبتدأ خبرُه محذوف كما قيل فيما سبق.

وقد جُوِّز في الآية غيرُ ما تقدَّم من أوجه الإعراب، وهو أن يكون «مَن» خبراً مقدَّماً، و«هذا» مبتدأ، ورُجِّح على ما مرَّ من عكسه بأنه سالمٌ عمَّا فيه من الإخبار

بالمعرفة عن النكرة؛ فإنه غيرُ جائزٍ عند الجمهور، وجوازُه مذهبُ سيبويه[١] إذا كان المبتدأ اسمَ استفهامٍ، أو أفعلَ تفضيل.

وقرأ طلحةُ في الأولى: «أَمَن» بتخفيف الميم، وشدَّد في الثانية كالجماعة[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مَثَلٌ ضُرب للمشرك والموحِّد؛ توضيحاً لحالَيهما في الدنيا، وتحقيقاً لشأن مذهبيهما.

والفاءُ لترتيب ذلك على ما ظهر من سوءِ حال الكَفَرة، وخُرورهم في مهاوي الغُرور، وركوبهم متنَ عَشْواء العتوِّ والنفور؛ فإنَّ تقدُّمَ الهمزة عليها صورةً إنما هو لاقتضاء الصَّدارة، وأما بحسب المعنى، فالمعنى بالعكس على ما هو المشهور، حتى لو كان مكانَ الهمزة «هل» لقيل: فهل مَنْ يمشي.. إلخ؟

و«من» موصولةٌ مبتدأ، و«يمشي» صلتُه، و«مكبّاً» حالٌ من الضمير المستتر فيه، و«على وجهه» ظرفٌ لغو متعلِّق بـ «مكبّاً»، أو مستقرٌّ حال، والأولُ أولى، و«أهدى» خبر «مَن»، و«مَن» الثانية عطفٌ على الأولى، وهو من عطفِ المفرد على المفرد، كما في قولك: أزيدٌ أفضل أم عمرو، وقيل: مبتدأ خبرُه محذوفٌ؛ لدلالة خبر الأولى عليه، ولا حاجة إلى ذلك؛ لما سمعتَ.

والمكبُّ: الساقطُ على وجهه، يقال: أكبَّ: خَرَّ على وجهه، وهو من باب الإفعال. والمشهورُ أنه لازمٌ وثلاثيُّه متعدٍّ، فيقال: كبَّه الله تعالى، فأكبّ، وقد جاء ذلك على خلاف القياس، وله نظائرُ يسيرةٌ، كـ : أَمْرَت الناقةُ: درَّت، ومَرَيتُها، وأشنَقَ البعير: رفعَ رأسَه، وشنقتُه، وأقشع الغيم، وقشَعَتْه الريحُ، أي: أزالته وكشَفَته، وأنزفَت البئرُ ونَزَفْتُها: أخرجتُ ماءها، وأنسل ريشُ الطائر ونسلتُه.

وقال بعضُهم: التحقيق أنَّ الهمزة فيه للصَّيرورة، فمعنى أكبَّ: صار ذا كبٍّ ودخل فيه، كما في ألأمَ: إذا صار لئيماً، وأنفض: إذا صار نافضاً لما في مِزْوَدَته،

(١) الكتاب ١/٣٢٨-٣٢٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/٣٠٣.

وليست للمطاوَعَة، ومطاوع كبَّ إنما هو انكبَّ، وقد ذهب إلى ذلك ابنُ سِيْدَه في «المحكم» تبعاً للجوهريِّ[١] وغيره، وتبعه ابنُ الحاجب[٢] وأكثرُ شرَّاح «المفصَّل»، إلا أن كلامَ بعض الأجلَّة ظاهرٌ في التسوية بين المطاوَعة والصيرورة.

وحكى ابنُ الأعرابيِّ: كبَّه الله تعالى وأكبَّه بالتعدية. وفي «القاموس»[٣] ما هو نصٌّ فيه، وعليه لا مخالفة للقياس، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثُرُ في كلِّ ساعةٍ، ويخرُّ على وجهه في كلِّ خطوةٍ؛ لتوعُّر طريقه، واختلاف أجزائه بانخفاضِ بعضٍ وارتفاعِ بعضٍ آخَرَ، أهدى وأرشَدُ إلى المقصدِ الذي يؤمُّه، أم مَنْ يمشي قائماً سالماً من الخَبْط والعِثَار على طريق مستوي الأجزاء لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف؟ ولم يُصرَّح بطريق الكافر بل أُشير إليه بما دلَّ على توعُّره وعدمِ استقامته ـ أعني: «مكبّاً» ـ للإشعار بأنَّ ما عليه لا يليقُ أن يُسمَّى طريقاً.

وفسَّر بعضُهم السويَّ بمستوي الجهة قليلِ الانحراف، على أنَّ المكبَّ: المتعسِّف الذي ينحرفُ هكذا وهكذا، وهو غيرُ مناسبٍ هنا؛ لأن قولَه تعالى: «على صراط مستقيم» يصير كالمكرَّرِ، وأفعل هنا مثلُه ـ على ما في «البحر» ـ في قولك: العسل أحلى من الخلِّ[٤].

والآيةُ ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ نزلت في أبي جهلٍ عليه اللعنةُ، وحمزةَ رضي الله عنه، والمرادُ العموم كما رُوي عن ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحَّاك.

وقال قتادة: نزلت مخبرةً عن حال الكافر والمؤمن في الآخرة، فالكفَّارُ يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامةٍ، ورُوي أنه قيل

---

(١) في صحاح الجوهري (كبب): كبه الله لوجهه، أي: صرعه، فأكب على وجهه، وهذا من النوادر أن يقال: أفعلتُ أنا، وفعلتُ غيري. . . . وأكب فلان على الأمر يفعله، وانكب، بمعنى.

(٢) ينظر شرح الشافية ٢/ ٨٨-٨٩.

(٣) القاموس: (كبب).

(٤) البحر ٨/ ٣٠٣ ومعنى المثل: أن العسل في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة.

للنبيِّ ﷺ: كيف يمشي الكافرُ على وجهه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الذي أمشاهُ في الدنيا على رجليه قادرٌ على أن يُمشيه في الآخرةِ على وجهه»[1]. وعليه فلا تمثيلَ.

وقيل: المرادُ بالمُكِبِّ: الأعمى، وبالسَّويِّ: البصير، وذلك إمَّا من باب الكناية، أو من باب المجاز المرسَل، وهو لا يأبى جعلَه بعدُ تمثيلاً لمن سمعت، كما هو معلومٌ في محلِّه.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تلك النعم، كأنْ تستعملوا السمعَ في سماع الآيات التنزيلية على وجهِ الانتفاع بها، والأبصارَ في النظر بها في الآيات التكوينية الشاهدةِ بشؤون الله عزَّ وجلَّ، والأفئدةَ بالتفكُّر بها فيما تسمعونه وتشاهدونه.

ونصب «قليلاً» على أنه صفةُ مصدرٍ مقدَّرٍ، أي: شكراً قليلاً، و«ما» مزيدةٌ لتأكيد التقليل، والجملةُ حالٌ مقدَّرة، والقلَّة على ظاهرها، أو بمعنى النفي إن كان الخطابُ للكَفَرة. وجُوِّز في الجملة أن تكون مستأنفةً، والأول أولى.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقَكم وكثَّركم فيها، لا غيرُه عزَّ وجلَّ ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء لا إلى غيره سبحانه، اشتراكاً أو استقلالاً، فابنوا أمرَكم على ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِنْ فَرْط عتوِّهم ونفورِهم: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشرُ الموعود، كما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: «وإليه تحشرون».

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يخاطبون به النبيَّ ﷺ والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام في الوعد وتلاوةِ الآيات المتضمِّنة له. وجوابُ الشرط محذوفٌ، أي: إن كنتُم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحَشْر فبيِّنوا وقتَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٩٢)، والبخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العلمُ بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزَّ وجلَّ لا يطَّلع عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ أنذرُكم وقوعَ الموعود لا محالة، وأما العلمُ بوقت وقوعِه فليس من وظائف الإنذار.

والفاءُ في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحةٌ معرِبةٌ عن تقدير جملتين، وترتيب الشرطية عليهما، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعودُ فرأوه: فلمَّا رأوه، إلخ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل:٤٠] إلا أن المقدَّر هناك أمرٌ واقع مرتَّب على ما قبلَه بالفاء، وهاهنا أمرٌ منزَّلٌ منزلةَ الواقع، واردٌ على طريقة الاستئناف.

وقوله تعالى ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول «رأوه» إما بتقدير المضاف، أي: ذا زلفةٍ وقرب، أو على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل، أي: مزدلفاً، أو على أنه مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً، أو ظرفٌ، أي: رأوه في مكانٍ ذي زلفةٍ. وفسَّر بعضُهم الزلفةَ بالقريب، والأمر عليه ظاهرٌ، وكذا على ما رُوي عن ابن زيد من تفسيره بالحاضر.

وقال الراغبُ: الزُّلفة: المَنْزِلةُ والحُظوة. وما في الآية قيل: معناه زلفة المؤمنين، وقيل: زلفةً لهم، واستعمل الزُّلفة في منزلة العذاب كما استُعملت البِشارة ونحوُها من الألفاظ(١). انتهى. ولا زلفةَ في كلا القولين.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ساءتها رؤيتُه، بأن غَشِيَتها بسببها الكآبةُ ورهقَها القَتَرُ والذِّلة، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذَمِّهم بالكفر، وتعليلِ المساءة به.

وأَشَمَّ أبو جعفر، والحسنُ، وأبو رجاء، وشَيْبة، وابن وثَّاب، وطلحة، وابنُ عامر، ونافع، والكسائيُّ كسر سين «سيئت» الضمَّ(٢).

﴿وَقِيلَ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاءً، على أنه تفتعلون من الدعاء. والباءُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (زلف).

(٢) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٠٨. وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة في البحر ٨/ ٣٠٣.

صلةُ الفعل، وقيل: هو من الدعوى، أي: تدَّعون أن لا بعثَ ولا حشرَ، فالباءُ سببيةٌ أو للملابسة باعتبار الذِّكر، وأُيِّد التفسيرُ الأول بقراءة أبي رجاء والضحَّاك والحسن وقتادة وابن يسار وعبد الله بن مسلم، وسلام، ويعقوب: «تَدْعون» بسكون الدال، وهي قراءةُ ابن أبي عَبْلة، وأبي زيد، وعصمة عن أبي بكر، والأصمعيِّ عن نافع[١].

وذكر الزمخشريُّ في «سورة المعارج» أن «يَدْعون» مخفَّفاً من قولهم: دعا بكذا: إذا استدعاه[٢].

وعن الفرَّاء[٣] أنه من دعوت أدعو، والمعنى: هذا الذي كنتُم به تستعجلون وتَدْعون الله تعالى بتعجيله، يعني قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ إلخ [الأنفال: ٣٢].

ورُوي عن مجاهد أن الموعود عذابُ يوم بدر، وهو بعيد.

وأما ما قيل من أن الموعود الخسفُ والحاصبُ، وقد وقعا؛ لأنَّ المراد بالخسف الذلُّ، كما في قوله:

ولا يُقيمُ على خَسْفٍ يُراد به إلا الأذلَّانِ عَيرُ الحيِّ والوتِدُ[٤]

وبالحاصب الحصى، وقد رَمَى ﷺ به في وجوههم، كما في الخبر المشهور[٥]. أو لم يقعا، بناءً على ما عُرف أولاً من المراد بهما، ولا يضرُّ ذلك؛ إذ تخلُّفُ الوعيد لا ضيرَ فيه = فليس بشيء كما لا يخفى.

وكان كفارُ مكةَ يَدْعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فقال سبحانه له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أَروني، كما هو المشهور، وقد

---

(١) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٨٩، والكلام من البحر ٨/ ٣٠٤.
(٢) الكشاف ٤/ ١٥٦ عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾.
(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧١.
(٤) البيت للمتلمس الضبعي، وبعده كما في ديوانه ص٢٠٨-٢١١:
هذا على الخسف مربوطٌ برمَّته وذا يشجُّ فما يرثي له أحدُ
والعَيْر: الحمار. أساس البلاغة: (عير).
(٥) سلف ١٠/ ٦٨.

مرَّ تحقيقُه ﴿إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: من المؤمنين ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ أي: بالنُّصرة عليكم ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: فمن يجيرُكم من عذاب النار. وأُقيم الظاهرُ مقام المضمَرِ المخاطَبِ دلالةً على أن موجِبَ البَوَار محقَّق؛ فأنَّى لهم الإجارة.

والظاهر أن جوابَ الشرط والمعطوفَ عليه شيءٌ واحد. وحاصلُ المعنى: لا مجيرَ لكم من عذاب النار؛ لكفركم الموجِبِ له، انقلبنا إلى رحمة الله تعالى بالهلاكِ كما تمنَّون؛ لأن فيه الفوزَ بنعيم الآخرة، أو [رُحِمْنا][1] بالنُّصرة عليكم والإدالَةِ للإسلام كما نرجو؛ لأن في ذلك الظَّفَرَ بالبُغيتين. ويتضمَّن ذلك حثَّهم على طلب الخَلاص بالإيمان، وأنَّ فيما هم فيه شغلاً شاغلاً عن تمنِّي هلاك النبيِّ عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين. وهذا أوجَهُ أوجهٍ ثلاثةٍ ذكرها الزمخشريُّ[2].

ثانيها: أن المعنى: إن أهلكنا الله تعالى بالموت ونحن هُداتُكم، والآخذون بحُجزِكم، فمن يُجيرُكم من النار؟ وإن رحِمَنا بالغَلَبة عليكم وقتلكم، عكس ما تمنَّون، فمن يُجيرُكم؟ لأن المقتول على أيدينا هالكٌ في الدنيا والآخرة. وعلى هذا الجوابُ متعدِّدٌ؛ لتعدُّد موجبه. ورجّح الأول بأن فيه تسفيهاً لرأيهم؛ لطلبهم ما هو سعادةُ أعدائهم، ثم الحثَّ على ما هو أحرى، وهو الخلاصُ ممَّا هم فيه من موجِبِ الهلاك. وهذا فيه الأول من حيث إنهم يتمنَّون هلاكَ من يُجيرهم من العذاب بإرشاده. والسياقُ أدعى للأول.

وثالثها: أن المعنى: إنْ أهلكَنا الله تعالى في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن يُجيرُ الكافرين، وهم أَولى بالهلاك؛ لكفرهم؟ وإن رحِمَنا بالإيمان فمَنْ يُجير مَنْ لا إيمانَ له؟ وعلى هذا الجوابُ متعدِّد أيضاً، والهلاكُ فيه محمولٌ على المجازِ دون الحقيقة كما في سابقه، والغرضُ الجزمُ بأنهم لا مُجيرَ لهم، وأن حالَهم إذا تردَّدت بين الهلاكِ بالذَّنب والرَّحمة بالإيمان وهم مؤمنون، فماذا يكون حالُ مَنْ لا إيمان له؟ وهذا فيه بعدٌ.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق. ينظر الكشاف ٤/ ١٤٠.
(٢) الكشاف ٤/ ١٤٠.

﴿قُلْ﴾ أي: لهم، جواباً عن تمنِّيهم ما لا يُجديهم، بل يُرْدِيهم، معرِّضاً بسوءِ ما هم عليه: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: الله الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: فيجيرُنا برحمته عزَّ وجلَّ من عذاب الآخرة، ولم نكفُرْ مثلَكم حتى لا نُجارَ ألبتَّةَ.

ولمَّا جعَلَ الكفرَ سببَ الإساءةِ في الآية الأولى جعَلَ الإيمانَ سببَ الإجارةِ في هذه؛ ليتمَّ التقابُلُ، ويقعَ التعريضُ موقعَه. ولم يقدّم مفعول «آمنا» لأنه لو قيل: به آمنَّا، كان ذهاباً إلى التعريض بإيمانهم بالأصنام، وكان خروجاً عمَّا سِيْقَ له الكلامُ.

وحَسُنَ التقديمُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لاقتضاء التعريض بهم في أمرِ التوكُّل ذلك، أي: وعليه توكَّلنا، ونعم الوكيلُ، فنَصْرُنا لا على العَدَد والعُدَد كما أنتم عليه. والحاصلُ أنه لما ذكر فيما قبل الإهلاك والرحمة، وفُسِّر برحمة الدنيا والآخرة، أكَّد هاهنا بحصولها لهم في الدارين؛ لإيمانهم وتوكُّلهم عليه تعالى خاصَّة، وفي ذلك تحقيقُ عدم حصولها للكافرين؛ لانتفاء الموجبين، ثم في الآية خاتمةٌ على منوال السابقة، وتبيينُ أن أحسن العمل الإيمانُ والتوكُّل على الله تعالى وحدَه، وهو حقيقةُ التقوى.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: في الدارين، وعيدٌ بعد تلخيص الموجِبِ، لكنه أُخرج مخرَجَ الكلام المنصِف، أي: مَنْ هو منَّا ومنكم في.. إلخ.

وقرأ الكسائي: «فسيعلمون»(١) بياء الغَيبة نظراً إلى قوله تعالى: (فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً في الأرض بالكُلِّية، وعن الكلبي: لا تنالُه الدِّلاء. وهو مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغة، أو مؤوَّلٌ باسم الفاعل. وأيّاً ما كان، فليس المرادُ بالماء ماءً معيَّناً، وإن كانت الآيةُ ـ كما روى ابنُ المنذر والفاكهيُّ عن ابن الكلبيِّ ـ نازلةً في بئر زمزم وبئر

---

(١) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٩.

ميمون بن الحَضْرمي. ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ أي: جارٍ، أو ظاهر سَهْلِ المأخذ؛ لوصول الأيدي إليه، وهو فَعِيل من مَعَنَ، أو مفعول من عين = وعيدٌ في الدنيا خاصَّة[1]، وأردف الوعيد السابق به تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وأنكم إذا لم تعبدوه عزَّ وجلَّ للحياة الباقية فاعبدوه للفانية.

وتُليت هذه الآيةُ عند بعض المستهزئين، فلمَّا سمع: «فمن يأتيكم» إلخ، قال: تجيءُ به الفؤوسُ والمعاوِلُ، فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله تعالى من الجراءة على الله جلَّ جلالُه وآياتِهِ.

وتفسيرُ الآياتِ على هذا الطَّرْزِ هو ما اختاره بعضُ الأئمَّة، وهو أبعدُ مغزى من غيره، والله تعالى أعلمُ بأسرار كلامه.

---

(١) قوله: وعيد. . .، خبر لقوله قبلُ: وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾. . . إلخ.

(٦٨) سورة القلم مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

● **سورة** القلم من السور المكية التي تعني بأصول العقيدة والإيمان ، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي :

أ ـ **موضوع** الرسالة ، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبدالله ﷺ .

ب ـ **قصة** أصحاب الجنة « البستان » ، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى **الآخرة** وأهوالها وشدائدها ، وما أعدَّ الله للفريقين : المسلمين والمجرمين . ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه ـ وحاشاه ـ بالجنون ، وبينت أخلاقه العظيمة ، ومناقبه السامية ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإنَّ لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾ .. الآيات .

● **ثم تناولت** موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ وما أعدَّ الله لهم من العذاب والنكال ﴿ فلا تطع المكذبين . ودُّوا لو تُدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاَّف مَهين ..﴾ الآيات .

● **ثم ضربت** مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة

خاتم الرسل ﷺ اليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة « الحديقة » ذاتِ الأشجار والزروع والثمار ، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين ، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرةً للمعتبرين ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذْ أقسموا ليصر منها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم﴾ الآيات .

● **ثم قارنت** السورة بين المؤمنين والمجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين .. ﴾ الآيات .

● **وتناولت** السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها ، وموقف المجرمين في ذلك اليوم العصيب ، الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرون ﴿ يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين ، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ الآيات .

سورة ن

[٩٦٤] أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كانوا يقولون للنبي [ﷺ] أنه مجنون ثم شيطان فنزلت: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[1].

[٩٦٥] وأخرج أبو نعيم في الدلائل والواحدي بسند واهٍ[2] عن عائشة قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله [ﷺ] ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: «لبيك» فلذلك أنزل الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[3].

[٩٦٦] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾[4] قال: نزلت في الأخنس بن شريق.. ك.. وأخرج ابن المنذر عن الكلبي مثله.

[٩٦٧] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث.

[٩٦٨] ك.. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النبي [ﷺ]: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾[5] فلم نعرفه حتى نزل عليه بعد ذلك: ﴿زَنِيمٍ﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة.

[٩٦٩] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[6] يقول في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

* * *

---

[٩٦٤] (١) سورة نٓ: الآية (٢).

[٩٦٥] (٢) رواه ابن سعد في الطبقات (١/١/٢٤٤)، وأبو نعيم في الدلائل (١/٥٧)، والواحدي في أسباب النزول من طريق جرير بن يحيى عن حسين بن علوان الكوفي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٣) سورة نٓ: الآية (٤).

[٩٦٦] (٤) سورة نٓ: الآية (١٠).

[٩٦٨] (٥) سورة نٓ: الآية (١٠و١١).

[٩٦٩] (٦) سورة نٓ: الآية (١٧).

سورة القلم

وهي اثنتان وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾

﴿نٓ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الأقوال المذكورة في هذا الجنس قد شرحناها في أول سورة البقرة والوجوه الزائدة التي يختص بها هذا الموضع أولها: أن النون هو السمكة، ومنه في ذكر يونس ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدي ثم القائلون بهذا منهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي على ظهره الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى، ومنهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي احتبس يونس عليه السلام في بطنه، ومنهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي لطخ سهم نمروذ بدمه. **والقول الثاني**: وهو أيضًا مروي عن ابن عباس واختيار الضحاك والحسن وقتادة أن النون هو الدواة، ومنه قول الشاعر:

إِذَا مَا الشَّوْقُ يَرْجِعُ بِي إِلَيْهِمْ ... أَلْقَتِ النُّونُ بِالدَّمْعِ السَّجُومِ

فيكون هذا قسمًا بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتَارَةً يتحرى بالكتابة. **والقول الثالث**: أن النون لوح تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعًا. **والقول الرابع**: أن النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنا إذا جعلناه مقسمًا به وجب إن كان جنسًا أن نجره وننونه، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكرة أو بسمكة منكرة، كأنه قيل: وسمكة والقلم، أو قيل: ودواة والقلم، وإن كان علمًا أن نصرفه ونجره أو لا نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف. **والقول الخامس**: أن نون هاهنا آخر حروف الرحمن فإنه يجتمع من الرحمن ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الاسم، والمقصود القسم بتمام هذا الاسم، وهذا أيضًا ضعيف لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية، بل الحق أنه إما أن يكون اسمًا للسورة أو يكون الغرض منه التحدي أو سائر الوجوه المذكورة في أول سورة البقرة.

المسألة الثانية: القراء مختلفون في إظهار النون وإخفائه من قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ فمن أظهرها فلأنه ينوي بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها، وإذا كانت موقوفة كانت في تقدير الانفصال مما بعدها، وإذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين، لأنها إنما تخفى في حروف الفم

عند الاتصال، ووجه الإخفاء أن همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف في نحو ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١] وقولهم في العدد: واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا أنها في تقدير الوصل وإذا وصلتها أخفيت النون وقد ذكرنا هذا في ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١] وقال الفراء: وإظهارها أعجب إليَّ لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ٣ ـ ٥] فمنّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منَّ بالنطق فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] ووجه الانتفاع به أن يُنَزَّل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب، والثاني: أن المقسم به هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر أن أول ما خلق الله القلم، قال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال، قال: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض، وروى مجاهد عنه قال: أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب القدر فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه. قال القاضي: هذا الخبر يجب حمله على المجاز، لأن القلم الذي هو آلة مخصوصة في الكتابة لا يجوز أن يكون حيًّا عاقلاً فيؤمر وينهى فإن الجمع بين كونه حيوانًا مكلفًا وبين كونه آلة للكتابة محال، بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف، بل هو مجرد نفاذ القدرة في المقدور من غير منازعة ولا مدافعة، ومن الناس من زعم أن القلم المذكور هاهنا هو العقل، وأنه شيء هو كالأصل لجميع المخلوقات، قالوا: والدليل عليه أنه روي في الأخبار أن أول ما خلق الله القلم، وفي خبر آخر: أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض، قالوا: فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد وإلا حصل التناقض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

اعلم أن (مَا) مع ما بعدها في تقدير المصدر، فيحتمل أن يكون المراد وسطرهم، فيكون القسم واقعًا بنفس الكتابة، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب، وعلى التقديرين فإن حملنا القلم على كل قلم في مخلوقات الله كان المعنى ظاهرًا، وكأنه تعالى أقسم بكل قلم، وبكل ما يكتب بكل قلم، وقيل: بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم وسطرهم، أي ومسطوراتهم. وأما إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين، فيحتمل أن يكون المراد بقوله:

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ، ولفظ الجمع في قوله: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ ليس المراد منه الجمع بل التعظيم، أو يكون المراد تلك الأشياء التي سطرت فيه من الأعمال والأعمار، وجميع الأمور الكائنة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

اعلم أن قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: روي عن ابن عباس أنه عليه السلام غاب عن خديجة إلى حراء، فطلبته فلم تجده، فإذا به وجهه متغير بلا غبار، فقالت له مالك؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام وأنه قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فهو أول ما نزل من القرآن، قال: ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ وتوضأت، ثم صلى وصليت معه ركعتين، وقال: هكذا الصلاة يا محمد، فذكر عليه الصلاة والسلام ذلك لخديجة، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد خالف دين قومه، ودخل في النصرانية، فسألته فقال: أرسلي إليَّ محمدًا، فأرسلته فأتاه فقال له: هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو إلى الله أحدًا؟ فقال: لا، فقال: والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصرًا عزيزًا، ثم مات قبل دعاء الرسول، ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش فقالوا: إنه لمجنون، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون، وهو خمس آيات من أول هذه السورة، ثم قال ابن عباس: وأول ما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] وهذه الآية هي الثانية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: ﴿أَنتَ﴾ هو اسم ﴿مَآ﴾ و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ الخبر، وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ كلام وقع في البين والمعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله لست بمجنون، وأنت بنعمة الله فهم، وأنت بنعمة الله لست بفقير، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه، وقال عطاء وابن عباس: يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة، وهو جواب لقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] واعلم أنه تعالى وصفه هاهنا بثلاثة أنواع من الصفات.

الصفة الأولى: نفي الجنون عنه ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها، وذلك لأن قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة

وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وفي الممنون: قولان: أحدهما: وهو قول الأكثرين، أن المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال: منَّه السير أي أضعفه، والمنين: الضعيف ومنَّ الشيء إذا قطعه، ومنه قول لبيد:

غبش كَوَاسِبُ مَا يُمَنُّ طَعَامُهَا(١)

يصف كلابًا ضارية، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

والقول الثاني: وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبي، إنه غير مقدر عليك بسبب المنة، قالت المعتزلة في تقرير هذا الوجه: إنه غير ممنون عليك لأنه ثواب تستوجبه على عملك، وليس بتفضل ابتداء، والقول الأول أشبه لأن وصفه بأنه أجر يفيد أنه لا منة فيه فالحمل على هذا الوجه يكون كالتكرير، ثم اختلفوا في أن هذا الأجر على أي شيء حصل؟ قال قوم: معناه: إن لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرًا عظيمًا دائمًا، وقال آخرون: المراد إن لك في إظهار النبوة والمعجزات، في دعاء الخلق إلى الله، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم، فلا تمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفًا بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أي لست متكلفًا فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع، وقال آخرون: إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمدًا بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكأن كل واحد منهم كان مختصًا بنوع واحد، فلما أُمِرَ محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أُمِرَ بمجموع ما كان متفرقًا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم، وفيه دقيقة أخرى وهي قوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وكلمة على

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مُسْتَعْلٍ على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

المسألة الثانية: الخُلُق: ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة. واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها غير، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات والتحبب إلى الناس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهرًا له وحصل له حق آخر. وروي عن ابن عباس أنه قال معناه: وإنك لعلى دين عظيم، وروي أن الله تعالى قال له: (لَمْ أَخْلُقْ دِينًا أَحَبَّ إِلَيَّ وَلاَ أَرْضَى عِنْدِي مِنْ هَذَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ) يعني الإسلام، واعلم أن هذا القول ضعيف، وذلك لأن الإنسان له قوتان، قوة نظرية وقوة عملية، والدين يرجع إلى كمال القوة النظرية، والخلق يرجع إلى كمال القوة العملية، فلا يمكن حمل أحدهما على الآخر، ويمكن أيضًا أن يجاب عن هذا السؤال من وجهين: الوجه الأول: أن الخُلُق في اللغة هو العادة سواء كان ذلك في إدراك أو في فعل، الوجه الثاني: أنا بينا أن الخلق هو الأمر الذي باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلاً، فلما كانت الروح القدسية التي له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقة وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة، كانت تلك السهولة حاصلة في قبول المعارف الحقة، فلا يبعد تسمية تلك السهول بالخُلُق.

المسألة الثالثة: قال سعيد بن هشام: قلت لعائشة: (أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّه، قَالَتْ ألست تقرأ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى قَالَتْ: فَإِنَّهُ كَانَ خُلُقَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ)[(١)] وسئلت مرة أخرى فقالت: كان خلقه القرآن، ثم قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشرة آيات، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب، وإلى كل ما يتعلق بها، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة، اللهم ارزقنا شيئًا من هذه الحالة. وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلاَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلاَّ قَالَ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (صلاة المسافرين) باب (جامع صلاة الليل) (١/ ١٣٩/ ٥١٢/ ٥١٤) وأبو داود في كتاب (التطوع) باب (في صلاة الليل) (٢/ ٤١/ ٤٢) حديث رقم (١٣٤٢) والترمذي في كتاب (الصلاة) باب (إذا نام عن صلاته بالليل صلى بالنهار) (٢/ ٣٠٦) حديث رقم (٤٤٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (في الوتر ثلاث وخمس وسبع وتسع) (١/ ٣٧٦) حديث رقم (١١٩١) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٥٣/ ٩٤/ ١٠٩/ ١٦٣/ ١٦٨) والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (صفة صلاة رسول الله ﷺ) (١/ ٣٧٤) حديث رقم (١٤٧٥) وابن خزيمة في (صحيحه) (٢) حديث رقم (١٠٧٨/ ١١٢٨) جميعًا من طريق زرارة بن أبي أوفى . . . به.

لَبَّيْكَ)(١) فلهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال أنس: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فما قال لي في شيء فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَ، وَلاَ فِي شَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ هَلاَّ فَعَلْتَ)(٢) وأقول: إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء، فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة.

واعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال:

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: أي فسترى يا محمد ويرون يعني المشركين، وفيه قولان: منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا، يعني فستبصر ويبصرون في الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك وعاقبة أمرهم، فإنك تصير معظمًا في القلوب، ويصيرون ذليلين ملعونين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب، قال مقاتل: هذا وعيد بالعذاب ببدر، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[القمر: ٢٦].

وأما قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: وهو قول الأخفش وأبي عبيدة وابن قتيبة: أن الباء صلة زائدة، والمعنى: أيكم المفتون وهو الذي فتن بالجنون كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[المؤمنين: ٢٠] أي تنبت الدهن وأنشد أبو عبيدة:

نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ(٣)

والفراء طعن في هذا الجواب وقال: إذا أمكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك أولى، وأما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج أو نرجو النصر بالفرج وثانيها: وهو اختيار الفراء والمبرد أن المفتون هاهنا بمعنى الفتون وهو الجنون، والمصادر

---

(١) **صحيح**: أبو الشيخ في (أخلاق النبي ﷺ) (١/ ٣/ ٢) الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٢٩٣) كلاهما من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. . . به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (المناقب) باب (صفة النبي ﷺ) (٦/ ٦٥٤) حديث رقم (٣٥٦١) قال: حدثنا سليمان بن حرب وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٢٧) قال: حدثنا يونس والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (في حُسن النبي ﷺ) (١/ ٣٢) حديث رقم (٦٢) قال: حدثنا أبو النعمان. جميعًا (سلمان، يونس، أبو النعمان) عن حماد بن زيد. . . به.

(٣) أبو عبيدة تقدمت ترجمته.

تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر، يقال: ليس له معقود رأي أي عقد رأي، وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس، وثالثها: أن الباء بمعنى (في) ومعنى الآية: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون، أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفار، ورابعها: المفتون هو الشيطان إذ لا شك أنه مفتون في دينه وهم لما قالوا إنه مجنون فقد قالوا: إن به شيطانًا فقال تعالى: سيعلمون غدًا بأيهم شيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: هو أن يكون المعنى: إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذي ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون.

الثاني: أن يكون المعنى إنهم رموك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل وهم كذبوا في ذلك، ولكنهم موصوفون بالضلال، وأنت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضلال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون، لأن ذاك ثمرته السعادة الأبدية أو الشقاوة، وهذا ثمرته السعادة أو الشقاوة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۞ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني رؤساء أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم.

ثم قال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ۞ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال الليث: الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، قال المبرد: داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر، والمعنى تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى فتلين لهم ويلينون لك، وروى عطاء عن ابن عباس: لو تكفر فيكفرون.

المسألة الثانية: إنما رفع ﴿ فَيُدْهِنُونَ﴾ ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني لأنه قد عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون كقوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا

يَخَافُ﴾[الجن: ١٣] على معنى: ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، قال سيبويه: وزعم هارون وكان من القراء أنها في بعض المصاحف: (ودوا لو تدهن فيدهنوا). واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين، وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفًا بصفات مذمومة وراء الكفر، وتلك الصفات هي هذه:

الصفة الأولى: كونه حلافًا، والحلاف: من كان كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٤].

الصفة الثانية: كونه مهينًا، قال الزجاج: هو فعيل من المهانة، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن المهانة هي القلة والحقارة في الرأي والتمييز، والثاني: أنه إنما كان مهينًا لأن المراد الحلاف في الكذب، والكذاب حقير عند الناس. وأقول: كونه حلافًا يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله، إذ لو عرف ذلك لما أقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته ومن لم يكن عالمًا بعظمة الله وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهينًا، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية.

الصفة الثالثة: كونه همازًا وهو العياب الطعان، قال المبرد: هو الذي يهمز الناس أي يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب، وعن الحسن يلوي شدقيه في أقفية الناس وقد استقصينا القول فيه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١].

الصفة الرابعة: كونه مشاء بنميم أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَّ يَنُمُّ ويَنِمُّ نمًّا ونميمًا ونميمة.

الصفة الخامسة: كونه مناعًا للخير، وفيه قولان: أحدهما: أن المراد أنه بخيل والخير المال والثاني: كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام، وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا فمنعهم الإسلام فهو الخير الذي منعهم، وعن ابن عباس: أنه أبو جهل وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدي: الأخنس بن شريق.

الصفة السادسة: كونه معتديًا، قال مقاتل: معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح.

الصفة السابعة: كونه أثيمًا، وهو مبالغة في الإثم.

الصفة الثامنة: العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة، وهي محصورة في أمرين: أحدهما: أنه ذم في الخَلْق، والثاني: أنه ذم في الخُلُق، وهو مأخوذ من قولك: عَتَلَه إذا قاده بعنف وغلظة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾[الدخان: ٤٧] أما الذين حملوه على ذم الخَلْق فقال ابن عباس في رواية عطاء: يريد قوي ضخم. وقال مقاتل: واسع البطن، وثيق الخلق، وقال الحسن: الفاحش

الخُلُق، اللئيم النفس، وقال عبيدة بن عمير: هو الأكول الشروب، القوي الشديد، وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. أما الذين حملوه على ذم الأخلاق، فقالوا: إنه الشديد الخصومة، الفظ العنيف.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الزنيم أقوال: الأول: قال الفراء: الزنيم هو الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، قال حسان:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ   كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القدح الفرد[1]

والزنمة من كل شيء: الزيادة، وزنمت الشاة أيضًا إذا شقت أذنها فاسترخت ويبست وبقيت كالشيء المعلق، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم، وكان الوليد دعيًا في قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة لَيْلَةً من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية، والقول الثاني: قال الشعبي: هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها، والقول الثالث: روى عن عكرمة عن ابن عباس قال: معنى كونه زنيمًا أنه كانت له زنمة في عنقه يعرف بها، وقال مقاتل: كان في أصل أذنه مثل زنمة الشاة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه أنه بعدما عدَّ له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيمًا أشد معايبه لأنه إذا كان جافيًا غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزِّنَا وَلاَ وَلَدُهُ وَلاَ وَلَدُ وَلَدِهِ**» وقيل: هاهنا ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ نظير ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧] وقرأ الحسن (عُتُلٌ) رفعًا على الذم.

ثم إنه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال:

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿أَن كَانَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بما قبله وأن يكون متعلقًا بما بعده، أما الأول: فتقديره: ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين، أي لا تطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته، وأما الثاني: فتقديره لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين، والمعنى لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التي خولها الله له الكفر بآياته قال أبو علي الفارسي: العامل في قوله: ﴿أَن كَانَ﴾ إما أن يكون هو قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أو قوله ﴿قَالَ﴾. أو شيئًا ثالثًا، والأول باطل لأن ﴿تُتْلَىٰ﴾ قد أضيفت ﴿إِذَا﴾

---

(١) تقدمت ترجمة حسان.

إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله ألا ترى أنك لا تقول: القتال زيدًا حين يأتي تريد حين يأتي زيدًا، ولا يجوز أن يعمل فيه أيضًا ﴿قَالَ﴾ لأن ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وحكم الجواب أن يكون بعدما هو جواب له ولا يتقدم عليه، ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شيء ثالث دل ما في الكلام عليه وذلك هو يجحد أو يكفر أو يمسك عن قبول الحق أو نحو ذلك، وإنما جاز أن يعمل المعنى فيه، وإن كان متقدمًا عليه لشبهه بالظرف، والظرف قد تعمل فيه المعاني وإن تقدم عليها، ويدلك على مشابهته للظرف تقدير اللام معه، فإن تقدير الآية: لأن كان ذا مال وإذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من أن يعمل فيه، كما لم يمتنع من أن يعمل في نحو قوله: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] لما كان ظرفًا، والعامل فيه القسم الدال عليه قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] فكذلك قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تقديره: إنه جحد آياتنا، لأن كان ذا مال وبنين أو كفر بآياتنا، لأن كان ذا مال وبنين.

المسألة الثانية: قرئ: (أَأَنْ كَانَ) على الاستفهام، والتقدير: ألأن كان ذا مال كذب، أو التقدير: أتطيعه لأن كان ذا مال. وروى الزهري عن نافع: إن كان بالكسر، والشرط للمخاطب، أي لا تطع كل حلاف شارطًا يساره، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونظير صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤].

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح أفعاله وأقواله قال متوعدًا له:

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الوسم: أثر الكية وما يشبهها، يقال: وسمتُه فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية، وإما قطع في أذن علامة له.

المسألة الثانية: قال المبرد: الخرطوم هاهنا الأنف، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافًا، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

المسألة الثالثة: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين، فكيف على أكرم موضع من الوجه.

المسألة الرابعة: منهم من قال: هذا الوسم يحصل في الآخرة، ومنهم من قال: يحصل في

الدنيا، أما على القول الأول: ففيه وجوه: أولها: وهو قول مقاتل وأبي العالية واختيار الفراء: أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض، وثانيها: أن الله تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة، إنه كان غاليًا في عداوة الرسول، وفي إنكار الدين الحق، وثالثها: أن في الآية احتمالاً آخر عندي، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، وأما على القول الثاني: وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا: ففيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش. وروي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال، وثانيها: أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهورًا بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم، والمعنى سنلحق به شيئًا لا يفارقه ونبين أمره بيانًا واضحًا حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم، تقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة: قد وسمه ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عارًا لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحي ولا تزول ألبتة، قال جرير:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي ... وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ[(١)]

يريد أنه وسم الفرزدق وَالْبَعِيثَ وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عارًا لا يزول، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالميسم على الخرطوم، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في ﴿زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣] إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، وثالثها: يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد:

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي طَرَبٍ ... وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَّابُ الْخَرَاطِيمِ[(٢)]

فعلى هذا معنى الآية: سنحده على شرب الخمر وهو تعسف، وقيل للخمر الخرطوم كما يقال لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهامًا على سبيل الإنكار بيَّن في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل

---

(١) تقدمت ترجمة جرير.

(٢) النضر بن شميل (١٢٢- ٢٠٣هـ = ٧٤٠- ٨١٩م) وهو: النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمرو (من بلاد خراسان) وانتقل إلى البصرة مع أبيه (سنة ١٢٨) وأصله منها، فأقام زمنًا. وعاد إلى مرو فولي قضاءها واتصل بالمأمون العباسي فأكرمه وقربه. وتوفي بمرو.

الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم، روي أن واحدًا من ثقيف وكان مسلمًا، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبًا وافرًا للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم، وقيل: كانوا من بني إسرائيل، وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ إذ حلفوا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين، أي في وقت الصباح، قال مقاتل: معناه أغدوا سرًّا إلى جنتكم، فاصرموها، ولا تخبروا المساكين، وكان أبوهم يخبر المساكين، فيجتمعون عند صرام جنتهم، يقال: قد صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني ولم يقولوا: إن شاء الله، هذا قول جماعة المفسرين، يقال: حلف فلان يمينًا ليس فيها ثنيا ولا ثنوى، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء وكله واحد، وأصل هذا كله من الثني وهو الكف والرد، وذلك أن الحالف إذا قال: والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره، فقد رد انعقاد ذلك اليمين، واختلفوا في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة، وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إلى المساكين.

قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾

﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي عذاب من ربك، والطائف لا يكون إلا ليلاً أي طرقها طارق من عذاب الله، قال الكلبي: أرسل الله عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون فأصبحت الجنة كالصريم.

واعلم أن الصريم فعيل، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول، وأن يكون بمعنى الفاعل وهاهنا احتمالات أحدها: أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر وإن حصل الاختلاف في أمور أخر، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه، لكن المشابهة في هلاك الثمر حاصلة، وثانيها: قال الحسن: أي صرم عنها الخير فليس فيها شيء، وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم، وثالثها: الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم، وعلى هذا شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال، وهي لا تنبت شيئًا ينتفع به، ورابعها: الصبح يسمى صريمًا لأنه انصرم من الليل، والمعنى أن تلك الجنة

يبست وذهبت خضرتها ولم يبق فيها شيء، من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه، وخامسها: أنها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم، والليل يسمى صريمًا وكذا النهار يسمى أيضًا صريمًا، لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر، وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم، وقال قوم: سمي الليل صريمًا، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل، وقال آخرون: سميت الليلة بالصريم، لأنها تصرم نور البصر وتقطعه.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض: اغدوا على حرثكم ويعني بالحرث الثمار والزروع والأعناب، ولذلك قال: صارمين لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار. فإن قيل: لِمَ لم يقل اغدوا إلى حرثكم، وما معنى على؟ قلنا: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوًّا عليه كما تقول: غدا عليهم العدو، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال، كقولهم: يغدي عليهم بالجفنة ويراح، أي فأقبلوا على حرثكم باكرين.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى كتم ومنه الخفدود للخفاش، قال ابن عباس: غدوا إليها بسدفة يسر بعضهم إلى بعض الكلام لئلا يعلم أحد من الفقراء والمساكين.

ثم قال تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ ﴿أن﴾ مفسرة، وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول أي يتخافتون يقولون لا يَدْخُلَنَّها والنهي للمسكين عن الدخول نهي لهم عن تمكينه منه، أي لا تمكنوه من الدخول، كقولك لا أرينك هاهنا.

ثم قال: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ **وفيه أقوال:**

الأول: الحرد: المنع يقال: حاردت السنة إذا قل مطرها ومنعت ريعها، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها فقل اللبن، والحرد: الغضب، وهما لغتان الحَرْد والحَرَد والتحريك أكثر، وإنما سمي الغضب بالحرد لأنه كالمانع من أن يدخل المغضوب منه في الوجود، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفي ظنهم قادرين على منع المساكين، الثاني: قيل: الحرد القصد والسرعة، يقال: حردت حردك قال الشاعر:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّهْ[1]

وقطًا حرَّاد أي سراع، يعني وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقدر على صرامها، ومنع منفعتها عن المساكين، والثالث: قيل: حرد علم لتلك

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت وتقدمت ترجمته.

الجنة أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء.

وثانيها: يحتمل أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا: إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني أعدلهم وأفضلهم وبينا وجهه في تفسير قوله: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ يعني هلا تسبحون، وفيه وجوه: الأول: قال الأكثرون: معناه هلا تستثنون فتقولون: إن شاء الله، لأن الله تعالى إنما عابهم بأنهم لا يستثنون، وإنما جاز تسمية قول: إن شاء الله بالتسبيح لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء، فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله، لكان ذلك يوجب عودة نقص إلى قدرة الله، فقولك: إن شاء الله، يزيل هذا النقص، فكان ذلك تسبيحًا.

واعلم أن لفظ القرآن يدل على أن القوم كانوا يحلفون ويتركون الاستثناء وكان أوسطهم ينهاهم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله، فلهذا حكى عن ذلك الأوسط أنه قال بعد وقوع الواقعة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. الثاني: أن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم قال الأوسط لهم: توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الأول وقال: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ فلا جرم اشتغل القوم في الحال بالتوبة: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به لكن بعد خراب البصرة، الثالث: قال الحسن: هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون في الصلاة وإلا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت داعية لهم إلى أن يواظبوا على ذكر الله وعلى قول: إن شاء الله، ثم إنه تعالى لما حكى عن ذلك الأوسط أنه أمرهم بالتوبة وبالتسبيح حكى عنهم أشياء أولها: أنهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا في الحال ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن أن يجري في ملكه شيء إلا بإرادته ومشيئته، ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء أفعالهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وثانيها: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول: هذا لهذا أنت أشرت

علينا بهذا الرأي، ويقول: ذاك لهذا أنت خوفتنا بالفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رغبتني في جمع المال فهذا هو التلاوم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾

ثم نادوا على أنفسهم بالويل: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ﴾ والمراد أنهم استعظموا جرمهم. ثم قالوا عند ذلك ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ قرئ (يُبْدِلَنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه، واختلف العلماء هاهنا، فمنهم من قال: إن ذلك كان توبة منهم، وتوقف بعضهم في ذلك قالوا: لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه رغبة منهم في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني كما ذكرنا من إحراقها بالنار، وهاهنا تم الكلام في قصة أصحاب الجنة، واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران: أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥] والمعنى: لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله كلا بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء، فإذا صرفه إلى الكفر دمَّر الله عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر الله جنتهم فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية، والثاني: أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمدًا وأصحابه، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور، فأخلف الله ظنهم فقُتِلُوا وأُسِرُوا كأهل هذه الجنة، ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير.

ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال السعداء فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة ﴿جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي جنات ليس لهم فيها إلا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه، كما يشوب جنات الدنيا، قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا، فلا بد وأن يفضلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصل التفضيل، فلا أقل من المساواة.

قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ثم إنَّ الله تعالى أجاب عن هذا الكلام بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ومعنى الكلام أن التسوية بين المطيع والعاصي غير جائزة، **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال القاضي: فيه دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافي، فالفاسق لما كان مجرمًا وجب أن لا يكون مسلمًا، والجواب: أنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلاً للمجرم، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة في جميع الأمور، فإنهما يتماثلان في الجوهرية والجسمية والحدوث والحيوانية، وغيرها من الأمور الكثيرة، بل المراد إنكار استوائهما في الإسلام والجرم، أو في آثار هذين الأمرين، أو المراد إنكار أن يكون أثر إسلام المسلم مساويًا لأثر جرم المجرم عند الله، وهذا مسلم لا نزاع فيه، فمن أين يدل على أن الشخص الواحد يمتنع أن يجتمع فيه كونه مسلمًا ومجرمًا؟.

المسألة الثانية: قال الجبائي: دلت الآية على أن المجرم لا يكون ألبتة في الجنة؛ لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما، ولو حصلا في الجنة، لحصلت التسوية بينهما في الثواب، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إذا كان المجرم أطول عمرًا من المسلم، وكانت طاعاته غير محبطة، الجواب: هذا ضعيف لأنا بينا أن الآية لا تمنع من حصول التسوية في شيء أصلاً بل تمنع من حصول التسوية في درجة الثواب، ولعلهما يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذي لم يعص أكثر من ثواب من عصى، على أنا نقول: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور في اللغة والعرف.

المسألة الثالثة: أن الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين في الثواب، فدل هذا على أنه يقبح عقلاً ما يحكى عن أهل السنة أنه يجوز أن يدخل الكفار في الجنة والمطيعين في النار، والجواب: أنه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والإحسان، لا أن ذلك بسبب أن أحدًا يستحق عليه شيئًا.

واعلم أنه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قرر هذا الاستبعاد بأن قال على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم المعوج ثم قال ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ [الصافات: ١٥٦] والأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون بفتح أن لأنه مدرس، فلما جاءت اللام كسرت، وتخير الشيء واختاره، أي أخذ خيره ونحوه تنخله وانتخله إذا أخذ منخوله.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال لفلان: عليَّ يمين بكذا إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعني أم

ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد. فإن قيل: إلى في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بم يتعلق؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنها متعلقة بقوله: ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذه الأيمان في قوتها وكمالها بحيث تبلغ إلى يوم القيامة، والثاني: أن يكون التقدير أيمان ثابتة إلى يوم القيامة. ويكون معنى بالغة مؤكدة كما تقول جيدة بالغة، وكل شيء متناه في الصحة والجودة فهو بالغ، وأما قوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ فهو جواب القسم لأن معنى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾ أم أقسمنا لكم.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: (بَالِغَةً) بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير في الظرف، ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ والمعنى أيهم بذلك الحكم زعيم، أي قائم به وبالاستدلال على صحته، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم.

ثم قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ وفي تفسيره وجهان: الأول: المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء لله وهذا كقوله: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٍۚ﴾ [الروم: ٤٠]، الوجه الثاني: في المعنى: أم لهم ناس يشاركونهم في هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول، وذلك يدل على أنه باطل من كل الوجوه.

واعلم أنه تعالى لما أبطل قولهم، وأفسد مقالتهم شرح بعد ذلك عظمة يوم القيامة.

فقال: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يوم منصوب بماذا؟ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه منصوب، بقوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾ في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ [القلم: ٤١] وذلك أن ذلك اليوم يوم شديد، فكأنه تعالى قال: إن كانوا صادقين في أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة، لتنفعهم وتشفع لهم، وثانيها: أنه منصوب بإضمار: اذكر، وثالثها: أن يكون التقدير: يوم يكشف عن ساق، كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ، وأن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته.

المسألة الثانية: هذا اليوم الذي يكشف فيه عن ساق، أهو يوم القيامة أو في الدنيا؟ فيه قولان: الأول: وهو الذي عليه الجمهور، أنه يوم القيامة، ثم في تفسير الساق وجوه: الأول: أنه الشدة، وروي أنه سئل ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

سَنَّ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ الأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

ثم قال: وهو كرب وشدة، وروى مجاهد عنه قال: هو أشد ساعة في القيامة، وأنشد أهل اللغة أبياتًا كثيرة منها:

فَـإِنْ شـمـرت لـك عـن سـاقـهـا فـدنـهـا رَبِـيـعَ وَلاَ تَـسْـأَمِ

ومنها:

كَـشَـفَـتْ لَـكُـمْ عَـنْ سَـاقِـهَـا وَبَـدَا مِـنَ الـشَّـرِّ الـصُّـرَاحْ

وقال جرير:

أَلاَ رُبَّ سَامِ الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

وقال آخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءُ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا

وقال آخر:

قَـدْ شَـمَّـرَتْ عَـنْ سَـاقِـهَـا فَـشُـدُّوا وَجَـدَّتِ الْـحَـرْبُ بِـكُـمْ فَـجِـدُّوا

ثم قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذاوقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه، يشمر عن ساقه، فلا جرم يقال في موضع الشدة: كشف عن ساقه، واعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعمال الساق في الشدة مجاز، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلام إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة، فإذا أقمنا الدلائل القاطعة على أنه تعالى يستحيل أن يكون جسمًا، فحينئذ يجب صرف اللفظ إلى المجاز، واعلم أن صاحب (الكشاف) أورد هذا التأويل في معرض آخر فقال: الكشف عن الساق مَثَلٌ في شدة الأمر، فمعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم، ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل، ثم أخذ يعظم علم البيان ويقول: لولاه لما وقفنا على هذه الأسرار وأقول: إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل، أو يقول: إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة، والأول باطل بإجماع المسلمين، ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب تأويلات الفلاسفة في أمر المعاد فإنهم يقولون في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] ليس هناك لا أنهار ولا أشجار، وإنما هو مثل للذة والسعادة، ويقولون في قوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧] ليس هناك لا سجود ولا ركوع. وإنما هو مثل للتعظيم، ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع وفساد الدين، وأما إن قال: بأنه لا يصار إلى هذا التأويل إلا بعد قيام الدلالة على أنه لا يجوز حمله على ظاهره، فهذا هو الذي لم يزل كل أحد من المتكلمين إلا قال به وعول عليه، فأين هذه الدقائق، التي استبد هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطة علم البيان، فرحم الله امْرَأً عرف قدره، وما تجاوز طوره، القول الثاني: وهو قول أبي سعيد الضرير: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، أي عن أصل الأمر، وساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر، وساق الإنسان، أي يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها، القول الثالث: يوم يكشف عن ساق جهنم، أو عن ساق العرش، أو عن ساق ملك مهيب عظيم، واللفظ لا يدل إلا على ساق، فأما أن ذلك الساق ساق أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه، والقول

الرابع: وهو اختيار المشبهة، أنه ساق الله، تعالى الله عنه روي عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام: «أَنَّهُ تَعَالَى يَتَمَثَّلُ لِلْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَمُرُّ الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُولُ: مَنْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعْبُدُ اللَّهَ فَيُشْهِدُهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ثُمَّ يَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ رَبَّكُمْ، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَهُ إِذَا عَرَّفَنَا نَفْسَهُ عَرَفْنَاهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ، فَلاَ يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلاَّ خَرَّ سَاجِدًا، وَيَبْقَى الْمُنَافِقُونَ ظُهُورُهُمْ كَالطَّبَقِ الْوَاحِدِ كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيدُ»(١) واعلم أن هذا القول باطل لوجوه: أحدها: أن الدلائل دلت على أن كل جسم محدث؛ لأن كل جسم متناهٍ، وكل متناه محدث ولأن كل جسم فإنه لا ينفك عن الحركة والسكون، وكل ما كان كذلك فهو محدث، ولأن كل جسم ممكن، وكل ممكن محدث، وثانيها: أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرَّف، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن، أما لو حملناه على الشدة، ففائدة التنكير الدلالة على التعظيم، كأنه قيل: يوم يكشف عن شدة، وأي شدة، أي شدة لا يمكن وصفها، وثالثها: أن التعريف لا يحصل بالكشف عن الساق، وإنما يحصل بكشف الوجه، القول الثاني: أن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ليس المراد منه يوم القيامة، بل هو في الدنيا، وهذا قول أبي مسلم قال: إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة لأنه تعالى قال في وصف هذا اليوم: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف، بل المراد منه، إما آخر أيام الرجل في دنياه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾[الفرقان: ٢٢] ثم إنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها، وهو لا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذي لا ينفع نفسًا إيمانها، وإما حال الهرم والمرض والعجز وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون إلى السجود وهم سالمون مما بهم الآن، وإما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت أو من العجز والهرم، ونظير هذه الآية قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة: ٨٣] واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم، فأما قوله: إنه لا يمكن حمله على القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل هاهنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة فجوابه أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف، بل على سبيل التقريع والتخجيل، فلم قلتم: إن ذلك غير جائز.

المسألة الثالثة: قرئ: (يَوْمَ نَكْشِفُ) بالنون و(تكشف) بالتاء المنقوطة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعًا والفعل للساعة أو للحال، أي يوم يشتد الحال أو الساعة، كما تقول: كشف الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ (تُكْشِفُ) بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف، ومنه أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا.

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٥٤١) حديث رقم (٨٥١٩) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وحنبل بن إسحاق في (الفتن) (١/ ٤٥/ ٤٤) الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٥٥٥) جميعًا من طريق سلمة بن كهيل قال حدثنا أبو الزهراء عن عبد الله. . . به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝٤٣ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾

اعلم أنا بينا أنهم لا يدعون إلى السجود تعبدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى حال ما يدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود، ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إلى السجود وهم سالمو الأطراف والمفاصل. قال الجبائي: لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على أنهم في الدنيا كانوا يستطيعون، فبطل بهذا قول من قال: الكافر لا قدرة له على الإيمان، وأن القدرة على الإيمان لا تحصل إلا حال وجود الإيمان، والجواب عنه أن علم الله بأنه لا يؤمن مناف لوجود الإيمان والجمع بين المتنافيين محال، فالاستطاعة في الدنيا أيضًا غير حاصلة على قول الجبائي.

أما قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ فهو حال من قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني يلحقهم ذل بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذي أعرض عنه مولاه، فإنه يكون ذليلاً فيما بين الناس، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ يعني حين كانوا يدعون إلى الصلوات بالأذان والإقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يُجِبِ المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته من القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كِلْه إليَّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إليَّ، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك، ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه. وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو روق: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل في الاغتناء الذي لا يشعرون أنه استدراج، وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾

ثم قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي أمهلهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأطيل لهم المدة والملاوة، المدة من الدهر، يقال: أملى الله له أي أطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار، والملا مقصورًا الأرض الواسعة سميت به لامتدادها. وقيل: ﴿وَأُمْلِي

لَهُمۡۚ﴾ أي بالموت فلا أعاجلهم به، ثم إنه إنما سمى إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك، واعلم أن الأصحاب تمسكوا بهذه الآية في مسألة إرادة الكائنات فقالوا: هذا الذي سماه بالاستدراج وذلك الكيد، إما ألاَّ يكون له أثر في ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، أو يكون له فيه أثر، والأول باطل، وإلا لكان هو وسائر الأشياء الأجنبية بمثابة واحدة، فلا يكون استدراجًا ألبتة ولا كيدًا، وأما الثاني فهو يقتضي كونه تعالى مريدًا لذلك الفعل الذي ينساق إليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد، لأنه إذا كان تعالى لا يزال يؤكد هذا الجانب، ويفتر ذلك الجانب الآخر، واعلم أن تأكيد هذا الجانب لا بد وأن ينساق بالآخرة إلى فعله ودخوله في الوجود، فلا بد وأن يكون مريدًا لدخول ذلك الفعل في الوجود وهو المطلوب، أجاب الكعبي عنه فقال: المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمة فإنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصي. وفي ذلك إغراء بالمعاصي، وأجاب الجبائي عنه، فقال: سنستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة، وأملي لهم في الدنيا توكيدًا للحجة عليهم إن كيدي متين فأمهله وأزيح الأعذار عنه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة فهذا هو المراد من الكيد المتين، ثم قال: والذي يدل على أن المراد ما ذكرنا أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ [القلم: ٤٤] ولا شك أن هذا التهديد إنما وقع بعقاب الآخرة، فوجب أن يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقيبه هو عذاب الآخرة، أو العذاب الحاصل عند الموت، واعلم أن أصحابنا قالوا الحرف الذي ذكرناه وهو: أن هذا الإمهال إذا كان متأديًا إلى الطغيان كان الراضي بالإمهال العالم بتأديه إلى الطغيان لا بد وأن يكون راضيًا بذلك الطغيان، واعلم أن قولهم: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ - إلى قوله ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ مفسر في سورة الأعراف [١٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ وهذه الآية مع ما بعدها مفسرة في سورة الطور [٤٠]، وأقول: إنه أعاد الكلام إلى ما تقدم من قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ [القلم: ٤١] والمغرم الغرامة أي لم يطلب منهم على الهداية والتعليم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤٧ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ **وفيه وجهان الأول:** أن عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ما هم عليه من الكفر والشرك، فلذلك أصروا عليه، وهذا استفهام على سبيل

الإنكار، **الثاني**: أن الأشياء الغائبة كأنها حضرت في عقولهم حتى إنهم يكتبون على الله أي يحكمون عليه بما شاءوا وأرادوا.

ثم إنه تعالى لما بالغ في تزييف طريقة الكفار وفي زجرهم عما هم عليه قال لمحمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: فاصبر لحكم ربك في إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم والثاني: فاصبر لحكم ربك في أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: العامل في ﴿إِذْ﴾ معنى قوله: ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظومًا فكأنه قيل: لا تكن مكظومًا.

المسألة الثانية: صاحب الحوت يونس عليه السلام، إذ نادى في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظًا من كظم السقاء إذا ملأه، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبلى ببلائه.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وقرئ (رحمة من ربه).

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لِمَ لم يقل: لولا أن تداركته نعمة من ربه؟ الجواب: إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه، وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته، وقرأ الحسن: تداركه، أي تتداركه على حكاية الحال الماضية، بمعنى لولا أن كان، يقال: فيه تتداركه، كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان، أي كان يقال فيه: سيقوم، والمعنى كان متوقعًا منه القيام.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؟ الجواب: المراد من تلك النعمة، هو أنه تعالى أنعم عليه بالتوفيق للتوبة، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الصالحات والطاعات إلا بتوفيقه وهدايته.

السؤال الثالث: أين جواب لولا؟ الجواب: من وجهين: الأول: تقدير الآية: لولا هذه النعمة لنبذ بالعراء مع وصف المذمومية، فلما حصلت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف، لأنه لما فقد هذا الوصف فقد فقد ذلك المجموع، الثاني: لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذمومًا، ويدل على هذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وهذا كما يقال: عرصة القيامة؛ وعراء القيامة.

السؤال الرابع: هل يدل قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ على كونه فاعلًا للذنب؟ الجواب: من ثلاثة أوجه الأول: أن كلمة ﴿لَّوْلَا﴾ دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل، الثاني: لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، الثالث: لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [القلم: ٥٠] والفاء للتعقيب.

السؤال الخامس: ما سبب نزول هذه الآيات؟ الجواب: يروى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية وجهان: أحدهما: قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه، والثاني: قال قوم: ولعله ما كان رسولاً صاحب وحي قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولاً، وهو المراد من قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا القول الأول. لأن احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصًا ولا كرامة فلا بد وأن يكون معجزة وذلك يقتضي أنه كان رسولاً في تلك الحالة.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالآية تدل على أن ذلك الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه، قال الجبائي: يحتمل أن يكون معنى جعله أنه أخبر بذلك، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني، والجواب: أن هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز، والأصل في الكلام الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: إن مخففة من الثقيلة واللام علمها.

المسألة الثانية: قرئ: (لَيُزْلِقُونَكَ) بضم الياء وفتحها، وزلقه وأزلقه بمعنى ويقال: زلق الرأس وأَزْلَقه: حلقه، وقرئ: (ليزهقونك) من زهقت نفسه وأزهقها، ثم فيه وجوه أحدها: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرًا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يُزِلُّون قدمك من قولهم: نظر إليَّ نظرًا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله، قال الشاعر:

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يزل مَوَاطِئَ الْأَقْدَامِ

وأنشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر إليه:

نَظَرُوا إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ نَظَرَ التُّيُوسِ إِلَى شِفَارِ الْجَازِرِ

وبيَّن الله تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، الثاني: منهم من حمله على الإصابة بالعين، وهاهنا مقامان: أحدهما: الإصابة بالعين، هل لها في الجملة حقيقة أم لا؟ الثاني: أن بتقدير كونها صحيحة، فهل الآية هاهنا مفسرة بها أم لا؟.

المقام الأول: من الناس من أنكر ذلك، وقال: تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة، وهاهنا لا مماسة، فامتنع حصول التأثير.

واعلم أن المقدمة الأولى ضعيفة، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن، فإن كان الأول لم يمتنع اختلاف النفوس في جواهرها وماهياتها، وإذا كان كذلك لم يمتنع أيضًا اختلافها في لوازمها وآثارها، فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، وإن كان الثاني لم يمتنع أيضًا أن يكون مزاج إنسان واقعًا على وجه مخصوص يكون له أثر خاص، وبالجملة فالاحتمال العقلي قائم، وليس في بطلانه شبهة فضلاً عن حجة، والدلائل السمعية ناطقة بذلك، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**الْعَيْنُ حَقٌّ**» وقال: «**الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ**»

والمقام الثاني: من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا: كانت العين في بني أسد، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء، فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عَانَه، فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في رسول الله ﷺ ذلك، فعصمه الله تعالى، وطعن الجبائي في هذا التأويل وقال: الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشيء، والقوم ما كانوا ينظرون إلى الرسول عليه السلام على هذا الوجه، بل كانوا يمقتونه ويبغضونه، والنظر على هذا الوجه لا يقتضي الإصابة بالعين.

واعلم أن هذا السؤال ضعيف، لأنهم وإن كانوا يبغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته، وإيراده للدلائل. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو على ما افتتح به السورة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه تذكير لهم، وبيان لهم، وأدلة لهم، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد، وفيه من الآداب والحكم، وسائر العلوم مالا حد له ولا حصر، فكيف يدعى من يتلوه مجنونًا، ونظيره مما يذكرون، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «نٓ وَالقَلَمِ»

مَكِيَّةٌ في قول الحسن وعكرمةَ وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: من أوّلها إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [الآية:١٦] مكيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية:٣٣] مدنيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ [الآية:٤٧] مكِّيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية:٥٠] مدنِيّ، وما بقي مكيّ. قاله الماورديّ[١].

وهي ثنتان وخمسون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ أدغم النونَ الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضَّلُ وهُبَيرةُ ووَرْشٌ وابن مُحَيْصِن وابنُ عامر والكسائيُّ ويعقوب. والباقون بالإظهار[٢].

وقرأ عيسى بن عمر بفتحها، كأنَّه أضمر فعلاً[٣]. وقرأ ابن عباس ونصر وابنُ أبي إسحاقَ بكسرها على إضمار حرف القسم[٤].

وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْفَع بضمها على البناء[٥].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٩، دون ذكر قتادة.

(٢) السبعة ص٥٣٨، والتيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ١٨. ولورش الوجهان.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦.

(٥) ذكر القراءة ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٢٦ عن الحسن وأبي عمران وأبي نهيك.

واختلِف في تأويله، فَرَوَى معاوية بن قُرّة عن أبيه يرفعه إلى النبيّ ﷺ أنه قال: «ن لَوْحٌ من نور»[(١)]. وروَى ثابت البُنَانيّ أنَّ «نَ» الدواة[(٢)]. وقاله الحسن وقتادة[(٣)].

وروى الوليد بن مسلم قال: حدّثنا مالك بن أنس، عن سُمَيّ مولى أبي بكر، عن أبي صالح السّمان، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أولُ ما خلق الله القلمُ، ثمَّ خلق النُّون ـ وهي الدواة ـ وذلك قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾، ثمَّ قال له: اكتبْ، قال: وما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة من عمل أو أجلٍ أو رزقٍ أو أثَر، فجرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ـ قال ـ ثم خُتم فَمُ القلم، فلم ينطقْ ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل فقال الجبّار: ما خلَقت خلقاً أعجبَ إليّ منك، وعِزّتي وجلالي لأكَمّلنّك فيمن أحببت، ولأنقصنّك فيمن أبغضت» قال: ثم قال رسولُ الله ﷺ: «أكملُ الناس عقلاً أطوعُهم لله وأعملُهم بطاعته»[(٤)].

وعن مجاهد قال: «ن» الحوتُ الذي تحت الأرض السابعة. قال: «وَالْقَلَم» الذي كُتب به الذِّكر. وكذا قال مقاتل ومُرّة الهَمْدانيّ وعطاء الخراساني والسُّدّي والكَلْبي: إنَّ النون هو الحوت الذي عليه الأرضون[(٥)].

وروى أبو ظَبيان عن ابن عباس قال: أوّلُ ما خلق الله القلمُ فجرى بما هو كائنٌ،

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٠ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤ ، وعزاه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية للطبري، ثم قال: وهذا مرسل غريب.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٣ وفيه: عن ثابت الثمالي، عن ابن عباس.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٢ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٣ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٣ ، والأثر أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٢ - ٢٢٧٣ وقال: وهذا بهذا الإسناد باطل منكر، وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦١ : فصدق ابن عدي في أن هذا الحديث باطل. اهـ. والصحيح ما أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) عن عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعاً: «إن أول ما خلق الله القلمُ، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» وسيرد.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ١٤١-١٤٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٤ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات .

ثمَّ رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النُّونَ، فبسط الأرض على ظهره، فمادت الأرضُ فأُثْبِتَت بالجبال، وإنَّ الجبالَ لتَفْخَرُ على الأرض. ثم قرأ ابن عباس: «ن وَالْقَلَمِ» الآية. وقال الكَلْبي ومقاتل: اسمه البَهْمُوت[١]. قال الراجز:

مـالـي أراكُـم كـلّـكـم سـكـوتَـا والـلـه رَبِّـي خـلـق الـبَـهْـمُـوتَـا[٢]

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا[٣]. وقال كعب: لوثوثا. وقال: بلهموثا[٤].

قال كعب: إنَّ إبليسَ تغلغلَ إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون، فوسوس في قلبه وقال: أتدري ما على ظهركَ يا لوثوثا من الدَّوابِّ والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع؛ فهمّ ليوثا أن يفعلَ ذلك، فبعث الله إليه دابَّةً فدخلت مِنْخَرَه ووصلت إلى دماغه، فضجّ[٥] الحوتُ إلى الله عزَّ وجلَّ منها، فأذن الله لها فخرجت. قال كعب: فو الله إنَّه لينظُرُ إليها وتنظر إليه، إن همَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت[٦].

وقال الضحاك عن ابن عباس: إنَّ «ن» آخرُ حرف[٧] من حروف الرحمن. قال: الر، وحم، ون، الرحمن تعالى مقطعة[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٤، وقيّده الآلوسي في روح المعاني ٢٩/ ٢٣ : اليَهْموت؛ بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء. وأثر ابن عباس أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٩٨، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٠، وسلف ١/ ٣٨٥.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧٤ عن الواقدي.

(٤) اضطرب اسمه في النسخ والمصادر.

(٥) كذا في النسخ، والذي في المصادر ـ الآتية ـ (فعجّ). والعج: رفع الصوت بالتلبية. النهاية (عجج).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٨، وهو خبر إسرائيلي باطل، وسلف ١/ ٣٨٥.

(٧) في (م) حروف.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٠، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٧٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٤٢ عن ابن عباس من رواية عكرمة عنه.

وقال ابن زيد: هو قسمٌ أقسم الله تعالى به[١]. وقال ابن كَيْسان: هو فاتحةُ السورة[٢]. وقيل: اسمُ السورة[٣]. وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح اسمه نصير ونور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين؛ وهو حقّ[٤]. بيانه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. وقال جعفر الصادق: هو نهرٌ من أنهار الجنة يقال له نون[٥]. وقيل: هو المعروفُ من حروف المعجم[٦]؛ لأنَّه لو كان غيرَ ذلك لكان مُعْرَباً؛ وهو اختيار القُشَيْريّ أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره. قال: لأنَّ «ن» حرف لم يُعْرَب، فلو كان كلمة تامَّة أعرِب كما أعرب القلم، فهو إذاً حرفُ هجاء كما في سائر مفاتيح السور. وعلى هذا قيل: هو اسم السورة، أي: هذه سورة «ن». ثم قال: «وَالْقَلَمِ» أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقعٌ على كل قلم مما يَكتب به مَن في السماء ومَن في الأرض، ومنه قول أبي الفتح البُسْتيّ:

إذا أقسم اَلأبطالُ يوماً بسيفهم ... وعَدُّوه مما يُكسِبُ المجدَ والكَرَمْ

كَفَى قَلَمُ الكُتَّابِ عِزّاً ورِفعةً ... مَدَى الدهرِ أنَّ الله أقسم بالقَلَمْ[٧]

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة، ما ذكرناه أعلاها. وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: وهو قلم من نورٍ، طولُه كما بين السماء والأرض. ويقال. خلق الله القلم،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ دون نسبة.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٧ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٧) البيتان في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٤٣٢ . وفيه (مجداً) بدل (عزّاً). وأبو الفتح هو علي بن محمد البستي الكاتب، شاعر زمانه، مات سنة إحدى وأربع مائة. السير ١٧/١٤٧ - ١٤٨ .

ثم نظر إليه فانشق نصفين، فقال: اجرِ؛ فقال: يا ربّ، بِمَ أجري؟ قال: بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ[١]. وقال الوليد بن عُبادة بنِ الصامت: أوصاني أبي عند موته فقال: يا بُنَيّ، اتقِ الله، واعلمْ أنَّك لن تتقيَ ولن تبلغ العلمَ حتى تؤمنَ بالله وحدَه، والقدرِ خيره وشرّه، سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتبْ، فقال: يا ربّ وما أكتب، فقال: اكتبْ القدرَ، فجرى القلمُ في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد»[٢]. وقال ابن عباس: أوّلُ ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن، فكتب فيما كتب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[٣] [المسد: ١]. وقال قتادة: القلم نعمةٌ من الله تعالى على عباده[٤].

قال غيره: فخلق الله القلم الأوّل، فكتب ما يكون في الذكر، ووضعه عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض، على ما يأتي بيانه في سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٥] [العلق: ١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون. يريد الملائكة؛ يكتبون أعمال بني آدم قاله ابن عباس[٦]. وقيل: وما يكتبون، [أي:] الناس، وما يتفاهمون به.

وقال ابن عباس: معنى «وَمَا يَسطُرونَ» وما يعلمون[٧].

و«ما» موصولة أو مصدرية؛ أي: ومسطوراتِهم أو: وسطرِهم، ويراد به كلُّ من يسطر، أو الحفظة، على الخلاف[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٢) أخرجه بطوله الطيالسي في مسنده (٥٧٧)، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٧٠٥)، والترمذي (٢١٥٥) وقال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٤/ ٢٠٥ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٢٧ ، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٣ وفيه (ليعلم به من في الأرض) بدل (ليكتب به في الأرض).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٩٨ ، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٨ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٨) الكشاف ٤/ ١٤١ .

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي.

وكان المشركون يقولون للنبيّ ﷺ: إنَّه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦]، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: برحمة ربك. والنعمةُ هاهنا الرحمة. ويحتمل ثانياً: أنَّ النعمةَ هاهنا قَسَم، وتقديره: ما أنت ونعمةِ ربك بمجنون؛ لأنَّ الواو والباء من حروف القسم(١).

وقيل: هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي: والحمد لله(٢). ومنه قول لبِيد:

وأفردْتُ في الدنيا بفقدِ عشيرتي وفارقَني جارٌ بأرْبَدَ نافِعُ(٣)

أي: وهو أربد. وقال النابغة:

لم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذاء وأمُّهم طَفَحتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ(٤)

أي: هو ناتق.

والباء في «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» متعلقة «بمجنون» منفيّاً، كما يتعلق بغافل مثبتاً. كما في قولك: أنت بنعمة ربك غافل. ومحله النصب على الحال؛ كأنَّه قال: ما أنت بمجنون مُنْعَماً عليك بذلك. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أي: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦١.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ وفيه (والحمد لك) بدل (والحمد لله).

(٣) ديوان لبيد ص٨٨ في قصيدة يرثي أخاه أربد، وروايته «وقد كنت في أكنافِ جارِ مَضِنَّة... ففارقني...» والبيت أيضاً في الأغاني ١٧/ ٦٣ وفيه (دار) بدل (جار)...، والمضنة: بكسر الضاد وفتحها؛ أي: نفيس مما يضن به. الصحاح (ضنن).

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ٦١، والبيت أيضاً في المعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٥١٠ وفيه: دحقت بدل: طفحت. قال ابن قتيبة: ويروى: طفحت عليك، أي: اتسعت، أي: غذوا غذاء حسناً فنموا وكثروا، والناتق: الكثيرة الولد، ومذكار: تلد الذكور.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرَ مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننتُ الحبل: إذا قطعتَه[١]. وحبل منين: إذا كان غير متين. قال الشاعر:

غُبْساً كواسِبُ لا يُمَنّ طعامُها[٢]

أي: لا يقطع.

وقال مجاهد: «غَيْرَ مَمْنُونٍ»: غير محسوب[٣]. الحسن: «غَيْرَ مَمْنُونٍ»: غيرَ مكدّر بالمَنّ[٤].

الضحَّاك: أجراً بغير عمل. وقيل: غيرَ مقدّر، وهو التفضُّل؛ لأنَّ الجزاء مقدّر، والتفضُّل غيرُ مقدَّر. ذكره الماوَرْدِيّ، وهو معنى قول مجاهد[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على خُلُقٍ: على دينٍ عظيم من الأديان، ليس دينٌ أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه[٦]. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أنَّ خُلُقه كان القرآن[٧]. وقال عليٌّ ﷺ وعَطِيّة:

(١) تفسير غريب القرآن ص٤٧٧ .

(٢) هذا عجز بيت للبيد، وصوره: لِمُعَفَّر قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَهُ، وهو في ديوانه ص١٧١ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٠٩ ، وفيهما (غبس) بدل(غبساً). وأورد ابن منظور في اللسان (متن) شطر البيت أعلاه كرواية المصنف، ونقد عن ابن بري أنه في نسخة ابن القطاع من الصحاح. ثم قال: وهو غلط. . . إلخ. قال ابن قتيبة: المعفَّر: الولد إذا أرادت أمه أن تفطمه تركته يومين لا تسقيه، ثم ترضعه، ثم تتركه ثلاثة أيام، ثم ترضعه حتى يستمر ويعتاد، والقهد: الغنم الصغار الأذناب، تنازع شلوه؛ أي: تجاذب بقية جسده، غبس: ذئاب في ألوانها لا يمن طعامها من عطاء أحد يمتن به إنّما هو كسبها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦١ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٩ .

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٢٣ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٧) صحيح مسلم (٧٤٦): (١٣٩) مطول، وهو في مسند أحمد (٢٤٢٦٩).

هو أدب القرآن(١). وقيل: هو رِفْقُه بأمّته وإكرامُه إيّاهم.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي(٢) عنه مما نهى الله عنه.

وقيل: أي: إنَّك على طبع كريم. الماورديّ: وهو الظاهر.

وحقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسانُ نفسَه من الأدب يُسَمَّى خُلُقاً؛ لأنَّه يصير كالخِلْقة فيه. وأما ما طُبع عليه من الأدب فهو الخِيم(٣) ـ بالكسر ـ: السَّجِيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخِيم: اسم جبل(٤). فيكون الخُلُقُ الطبعَ المتكلَّف، والخِيمُ الطبعَ الغريزي. وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذُو الـفـضـول ضَـنَّ عـلـى الـمَـوْ لَـى وعـادت لِـخِـيـمـهـا الأخـلاقُ

أي: رجعت الأخلاقُ إلى طبائعها(٥).

قلت: ما ذكرته عن عائشةَ في صحيح مسلم أصحُّ الأقوال. وسئلت أيضاً عن خُلُقه عليه الصلاة والسلام، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات(٦)، وقالت: ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لَبَّيْك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٧). ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبيّ ﷺ منه الحظُّ الأوفر.

---

(١) قول علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦، وقول عطية في النكت والعيون ٦/ ٦١، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٢.

(٢) المثبت من (م) وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ وقول قتادة منه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦١.

(٤) الصحاح (خيم).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦١ - ٦٢، والبيت في ديوان الأعشى ص ٣٢ وروايته فيه: وصارت، بدل: وعادت.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٨١، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٨٧).

(٧) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٧-١٨، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١١٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٧١ وفي إسناده حسين بن علوان؛ قال في المجروحين. ١/ ٢٤٤: كان يضع الحديث، وكذبه أحمد بن حنبل، وذكر ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٧٠ عن يحيى بن معين: حسين بن علوان كذّاب، وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال الجُنَيْد: سُمِّيَ خلقه عظيماً؛ لأنَّه لم تكن له همة سوى الله تعالى[١]. وقيل: سُمِّيَ خُلُقُه عظيماً؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدلّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله بعثني لأتمِّم مكارمَ الأخلاق»[٢]. وقيل: لأنه امتثل تأديبَ الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣] [الأعراف:١٩٩]. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أَدَّبَني رَبِّي تأديباً حسناً إذ قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

الثانية: روى الترمذيّ عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بِخُلُق حَسَن». قال: حديث حسن صحيح[٥].

وعن أبي الدَّرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقلَ في ميزان المؤمن يومَ القيامة من خُلُق حَسَنٍ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِضُ الفاحشَ البذيءَ». قال: حديث حسن صحيح[٦].

وعنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: « ما من شيء يوضع في الميزان أثقلَ من حُسْنِ الخُلُق، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلق ليبلغُ به درجةَ صاحب الصلاة والصوم».

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٤٦ .

(٢) أخرجه البيهقي ١٠/١٩٢ ، بلفظ «إنما بعثت»،وهو من حديث أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه أحمد (٨٩٥٢) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». وسلف ٩/ ٤٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٤) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١ من حديث عبد الله. قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٧٣: أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء بسند منقطع، فيه من لم أعرفه عن عبد الله أظنه ابن مسعود. وقال ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى ص٣٥٣: المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت.

(٥) سنن الترمذي (١٩٨٧)، وهو في مسند أحمد (٢١٣٥٤) .

(٦) سنن الترمذي (٢٠٠٢).

قال: حديثٌ غريب من هذا الوجه[١].

وعن أبي هريرة قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن أكثرِ ما يُدْخِل الناسَ الجنةَ؟ فقال: «تقوى الله وحسنُ الخُلُق». وسئل عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ النارَ؟ فقال: «الفَمُ والفَرْجُ» قال: هذا حديث صحيح غريب[٢].

وعن عبد الله بن المبارك أنَّه وصف حُسْنَ الخُلُق فقال: هو بَسْط الوجه، وبَذْل المعروف، وكَفُّ الأذى[٣].

وعن جابر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكم منّي مجلساً يومَ القيامة أحاسنَكم أخلاقاً ـ قال ـ وإنّ أبغضَكم إليّ وأبعدَكم مني مجلساً يومَ القيامة الثرثارون والمُتَشدِّقون والمُتَفَيْهِقُون». قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنا الثرثارون والمتشدّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». قال: وفي الباب عن أبي هريرةَ، وهذا حديث حسن غريب[٤].

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: فستعلم ويعلمون يومَ القيامة. وقيل: فسترى ويرون يومَ القيامة حين يتبين الحقّ والباطل[٥]. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ الباء زائدة، أي: فستبصر ويبصرون أيّكم المفتون، أي: الذي فُتِن بالجنون،

---

(١) سنن الترمذي (٢٠٠٣)، وأخرجه أحمد (٢٧٥١٧)، وأبو داود (٤٧٩٩) مختصراً.

(٢) سنن الترمذي(٢٠٠٤)، وهو عند أحمد (٩٦٩٦)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٣) أخرجه عنه الترمذي في سننه (٢٠٠٥).

(٤) سنن الترمذي (٢٠١٨) . وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٨٢٢) بنحوه مختصراً، وفي الباب عن أبي ثعلبة الخشني أخرجه أحمد (١٧٧٣٢)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أحمد (٦٥٠٤).

قال الترمذي: الثرثار: هو الكثير الكلام، والمُتَشَدِّق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٢ .

كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] و﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وهذا قول قتادة وأبي عُبيد[١] والأخفش[٢]. وقال الراجز:

نحن بنو جَعْدَةَ أصحاب الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[٣]

وقيل: الباء ليست بزائدة، والمعنى: «بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ» أي: الفتنة. وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه: الفُتُون، كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي: عقل ولا جلادة. وقاله الحسن والضحاك وابن عباس[٤]. وقال الراعي[٥]:

حتى إذا لَمْ يَتْركوا لعظامِهِ لحماً ولا لفؤادِهِ معقولا

أي: عقلاً.

وقيل: في الكلام تقديرُ حذف مضاف، والمعنى: بأيكم فتنة المفتون[٦].

وقال الفرّاء[٧]: الباء بمعنى في، أي: فستبصِر ويبصرون في أيِّ الفريقين المجنون؛ أبالفِرْقة التي أنت فيها من المؤمنين، أم بالفِرقة الأخرى.

والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان[٨].

وقيل: المفتون المعذَّب. من قول العرب: فتنتُ الذهبَ بالنار: إذا حَمّيتَه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذّبون[٩].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٤ -٢٠٥ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ وفيهما (أبي عبيدة) بدل (أبي عبيد) وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٦٤ ، وذكر قول قتادة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٧١٢ .

(٣) الرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وسلف ١٤/ ٣٥٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ .

(٥) ديوانه ص٢٣٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣ ، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ .

(٨) مجمع البيان ٢٩/ ٢٤ .

(٩) النكت والعيون ٦/ ٦٢ .

ومعظم السورة نزلتْ في الوليد بن المغيرة وأبي جهل(١).

وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنَّه مفتون في دينه. وكانوا يقولون: إنَّ به شيطاناً، وعَنَوْا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: فسيعلمون غداً بأيِّهم المجنون، أي: الشيطان الذي يحصل من مسّه الجنونُ واختلاطُ العقل(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: إنَّ الله هو العالم بمن حادَ عن دينه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: الذين هم على الهدى، فيجازِي كُلّاً غداً بعمله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾

نهاه عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكُفّ عنهم ليكفُّوا عنه، فبيّن الله تعالى أنَّ مُمايلتَهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤](٣). وقيل: أي: فلا تطع المكذبين فيما دَعوْك إليه من دينهم الخبيث. نزلت في مشركي قريش حين دَعَوْه إلى دين آبائه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسُّدّيّ: ودّوا لو تكفر فيتمَادَوْن على كفرهم(٥). وعن ابن عباس أيضاً: ودّوا لو تُرَخِّص لهم فَيُرخِّصون لك(٦). وقال الفرّاء(٧) والكَلْبيُّ: لو تلين فيلينون لك. والإدْهان: التَّليين لمن لا ينبغي له التَّليين. قاله الفرّاء.

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ١٤١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٧ ، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٥٧ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ ، والوسيط ٤/ ٣٣٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٢ ، وزاد المسير ٨/ ٣٣١ . وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٦ عن ابن عباس والضحاك.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٢ ، وزاد المسير ٨/ ٣٣٠ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٢ ، وقول الكلبي الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ .

وقال مجاهد: المعنى: ودّوا لو رَكَنْتَ إليهم وتركت الحقَّ فيُمالئونك[١]. وقال الربيع بنُ أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمرِ فيذهبون معك[٢]. الحسن: ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضاً: ودّوا لو ترفض بعضَ أمرك فيرفضون بعضَ أمرهم. زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون[٣]. وقيل: ودّوا لو تضعف فيضعفون. قاله أبو جعفر[٤].

وقيل: ودّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم. قاله القُتَبيُّ. وعنه: طلبوا منه أن يعبدَ آلهتهم مدّة ويعبدوا إلهه مدّة[٥]. فهذه اثنا عشر قولاً.

ابن العربيّ[٦]: ذكر المفسرون فيها نحوَ عشرة أقوال، كلُّها دعاوَى على اللغة والمعنى. أمثلُها قولهم: ودّوا لو تكذب فيكذبون، ودّوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلُّها إن شاء الله تعالى صحيحةٌ على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإنَّ الإدْهان: اللينُ والمصانعة[٧]. وقيل: مجاملة العدُوّ وممايلته[٨]. وقيل: المقاربة في الكلام والتَّليين في القول[٩]. قال الشاعر:

لَبَعضُ الغَشْمِ أحزمُ في أمورٍ ... تنوبُك من مداهنةِ العدوِّ[١٠]

---

(١) الوسيط ٤/ ٣٣٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٧.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٦٢، وأخرج قول قتادة الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٧ بلفظ: «لو أدهنت عن هذا الأمر فأدهنوا معك».

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧، وزاد المسير ٨/ ٣٣٠ - ٣٣١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٦٢.

(٥) تفسير غريب القرآن ص٤٧٨.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٤٣.

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٣.

(٩) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣.

(١٠) في (م) العده، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٦٣ والبيت فيه، ولم نقف على قائله. الغَشْم: الظلم. اللسان (غشم).

وقال المفضَّل: النفاق وتركُ المناصحة، فهي على هذا الوجه مذمومةٌ، وعلى الوجه الأوّل غيرُ مذمومة[(١)]، وكلُّ شيء منها لم يكن.

قال المبرد: يقال: أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر[(٢)].

وقال قومٌ: داهنتُ بمعنى: واريت، وأدهنت بمعنى: غششت. قاله الجوهريُّ[(٣)].

وقال: «فَيُدْهِنُونَ» فساقه على العطف، ولو جاء به جواب التمني[(٤)] لقال: فيدهنوا. وإنما أراد: إنهم[(٥)] تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك، عطفاً لا جزاءً عليه ولا مكافأة، وإنَّما هو تمثيل وتنظير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

يعني الأخنسَ بنَ شَرِيق، في قول الشعبيَ والسُّدِّيّ وابن إسحاق. وقيل: الأسود ابن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود. قاله مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة، عرضَ على النبيّ ﷺ مالاً، وحلف أن يعطيَه إن رجع عن دينه. قاله مقاتل[(٦)]. وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام[(٧)]. والحلّاف: الكثير الحَلِف[(٨)].

والمَهِين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد. ابن عباس: الكذَّاب. والكذَّاب مهين.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣ .

(٣) في الصحاح (دهن).

(٤) في النسخ: النهي، والمثبت من أحكام ابن العربي ٤/ ١٨٤٤ ، والكلام منه، ووقع في بعض نسخه: النهي، كما ذكر في حواشيه.

(٥) في النسخ: إن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٣ ، ٦٥ دون ذكر عبد الرحمن بن الأسود، والشعبي.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٧ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٣ .

وقيل: المِكثار في الشَّر. قاله الحسن وقتادة[١]. وقال الكلبيّ: المَهِين: الفاجر العاجز.

وقيل: معناه الحقير عند الله[٢].

وقال ابن شجرة: إنه الذليل[٣]. الرُّمّاني: المَهين: الوضيع لإكثاره من القبيح.

وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة، وهي هنا القلة في الرأي والتميز[٤]. أو هو فعيل بمعنى مُفْعَل؛ والمعنى مُهان.

﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن زيد: الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم. واللَّمّاز باللسان[٥]. وقال الحسن: هو الذي يهمز بأخيه[٦] في المجلس، كقوله تعالى: ﴿هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وقيل: الهَمّاز: الذي يذكر الناسَ في وجوههم. واللَّمّاز: الذي يذكرهم في مغيبهم. قاله أبو العالية وعطاء ابن أبي رباح والحسن أيضاً[٧].

وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام: إنَّ الهُمَزَة الذي يغتاب بالغيبة، واللُّمَزَة الذي يغتاب في الوجه. وقال مرّة: هما سواء[٨]. وهو القَتّات الطّعّان للمرء إذا غاب. ونحوه عن ابن عباس وقتادة[٩]. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٣ دون ذكر الحسن، وأخرج أثر ابن عباس والحسن وقتادة الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٨.

(٢) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٩٢ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٩.

(٦) في النسخ (ناحية)، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨. وينظر تفسير الرازي ٣٢/ ٩٢.

(٧) زاد المسير ٩/ ٢٢٧.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١.

(٩) أخرجه الطبري عنهما في تفسيره ٢٤/ ٦١٨.

تُدْلي بِوُدٍّ إذا لاقيتني كذباً ... وإنْ أغيَّب[1] فأنت الهامزُ اللُّمَزَهْ

﴿مَشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. يقال: نَمّ يَنُمّ نَمًّا ونَمِيماً ونَمِيمَةً[2]، أي: يمشي ويسعى بالفساد.

وفي صحيح مسلم عن حُذيفة: أنَّه بلغَهُ أنَّ رجلاً ينُمُّ الحديثَ، فقال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنةَ نمّامٌ»[3]. وقال الشاعر[4]:

ومَوْلىً كَبَيْتِ النَّملِ لا خيرَ عنده ... لمولاه إلا سَعْيُه بنميم

قال الفرّاء: هما لغتان. وقيل: النَّميم جمع نَميمة[5].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: للمال أن ينفَق في وجوهه. وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولدَه وعشيرتَه. وقال الحسن: يقول لهم: من دخل منكم في دين محمد، لا أنفعه بشيء أبداً[6].

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: على الناس في الظلم، متجاوز للحدّ، صاحب باطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: ذي إثم، ومعناه أَثُوم، فهو فَعيل بمعنى فَعول.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العُتُلُّ: الجافي الشديد في كفره[7]. وقال الكلبيّ والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: إنه الذي يعتِلُ الناس فيجرّهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العَتْل، وهو الجرّ، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾[8] [الدخان: ٤٧].

---

(١) في (م) أغب، والشاعر هو زياد الأعجم كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٣١١ ، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٤٧٥ وروايتهما (بودِّي) بدل (بودٍّ).

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٤ .

(٣) صحيح مسلم (١٠٥): (١٦٨)، وهو في مسند أحمد (٢٣٣٢٥).

(٤) هو البعيث ـ خِداش بن بشر ـ كما في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٦٣٧ ، والحيوان للجاحظ ٤/ ٣٢ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٤ ، وكلام الفراء بنحوه في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣ .

(٦) ذكر القولين البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦١ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٤ دون ذكر الفراء، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣ .

وفي الصِّحاح[١]: وعتَلْتُ الرجلَ أعْتِلُه وأعْتُلُه: إذا جذبتَه جذباً عنِيفاً. ورجل مِعْتَل؛ بالكسر. وقال[٢] يصف فرساً:

نَـفْـرَعُـهُ فَـرْعـاً ولَـسْـنـا نَـعْـتِـلُـهْ

قال ابن السِّكِّيت: عَتَله وعَتَنه، باللام والنون جميعاً. والعُتُلّ: الغليظ الجافي. والعُتُلّ أيضاً: الرمح الغليظ. ورجل عَتِلٌ؛ بالكسر: بَيِّن العَتَل، أي: سريع إلى الشرّ. ويقال: لا أنْعتِلُ معك، أي: لا أبرح مكاني[٣].

وقال عُبيد بن عمير: العُتُلّ: الأكولُ الشروب القويّ الشديد؛ يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع المَلَكُ من أولئك في جهنم بالدُّفعة الواحدة سبعين ألفاً. وقال عليّ بن أبي طالب والحسن: العُتُلّ الفاحش السيِّء الخلق[٤].

وقال مَعْمَر: هو الفاحش اللئيم[٥]. قال الشاعر:

بِـعُـتُـلّ مِـنَ الـرِّجـالِ زَنِـيـمٍ غـيـرِ ذي نَـجْـدَة وغَـيـرِ كَـرِيـمِ[٦]

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبيّ ﷺ قال: «ألَا أخبرُكم بأهل الجنة؟» قالو: بلى. قال: «كلُّ ضعيفٍ مُتَضَعَّف، لو أقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبرُكم بأهل النار؟» قالوا: بلى. قال: «كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستَكْبِر». في رواية عنه: «كلُّ جوّاظ زَنيمٍ متكبِّر»[٧]. الجَوّاظ: قيل: هو الجَمُوع المنوع. وقيل: الكثير اللحم المختال[٨].

(١) مادة (عتل).

(٢) هو أبو النجم، وسلف البيت ١٦/ ١٥٠ .

(٣) الصحاح (عتل).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ دون ذكر علي بن أبي طالب، وأخرج أثر عبيد بن عمير ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٢ عن القاسم مولى معاوية، مرفوعاً.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٤ . ولم نقف على قائل البيت.

(٧) صحيح مسلم (٢٨٥٣)، وأخرجه أحمد (١٨٧٢٨)، والبخاري (٦٠٧١).

(٨) المفهم ٧/ ١٧٠ .

وذكر الماوردي[١] عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، ورواه ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ، ولا الْعُتُلّ الزَّنيم». فقال رجل: ما الجَوّاظ وما الجَعْظَرِيّ وما العتلُّ الزَّنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجوّاظ: الذي جَمعَ ومنع، والجَعْظَرِيّ: الغليظ، والعُتُلّ الزَّنيم: الشديد الخَلْق، الرّحيب الجوف، المصَحَّح، الأكول الشروب الواجد للطعام، الظلوم للناس».

وذكره الثعلبي عن شدّاد بن أوس: «لا يدخلُ الجنةَ جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا عُتُلٌّ زنيم» سمعتهن من النبيّ ﷺ. قلت: وما الجَوّاظ؟ قال: الجَمَّاع المنّاع. قلت: وما الجَعْظَرِيّ؟ قال: الفَظّ الغليظ. قلت: وما العُتُلّ الزنيم؟ قال: الرّحِيب الجوف، الوَثِير الخَلْق، الأكول الشروب، الغَشوم الظلوم[٢].

قلت: فهذا التفسير من النبيّ ﷺ في العُتُلّ قد أربى على أقوال المفسرين. ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجَوّاظ أنه الفظُّ الغليظ. ذكره من حديث حارثة بن وهب الخُزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ الجَوّاظ ولا الجَعْظَرِيّ». قال: والجَوّاظ: الفظُّ الغليظ[٣]. ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أوّلاً. وقد قيل: إنه الجافي القلب[٤].

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: قال النبيّ ﷺ: «تبكي السماءُ من رجل أصحّ الله جِسْمَه، ورحّب جَوْفَه، وأعطاه من الدنيا بعضاً.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٦٤ - ٦٥، وأخرجه أحمد (١٧٩٩٣) عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم مختصراً. وشهر كثير الإرسال والأوهام، وعبد الرحمن بن غَنْم مختلف في صحبته، كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

وله شواهد؛ منها الحديث السالف.

(٢) أخرجه الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٤٦٧ دون قوله: الوثير الخلق...، والوثارة: كثرة الشحم. الصحاح (وثر).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٠١).

(٤) المفهم ٧/ ١٧٠ عن ابن دريد.

فكان للناس ظَلوماً، فذلك الْعُتُلُّ الزنيم. وتبكي السماءُ من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تُقِلّه»[١].

والزَّنِيم: المُلْصَق بالقوم الدَّعِيّ؛ عن ابن عباس وغيره. قال الشاعر:

زَنِيمٌ تداعاه الرجالُ زيادةً   كما زِيد في عَرْضِ الأدِيم الأكارعُ[٢]

وعن ابن عباس أيضاً: أنه رجل من قريش كانت له زَنَمة كزنمة الشاة[٣]. وروى عنه ابن جُبَير: أنه الذي يُعرف بالشرِّ؛ كما تُعرف الشاة بزنمتها[٤]. وقال عِكرِمة: هو اللئيم الذي يُعرف بلؤمه؛ كما تُعرف الشاة بزنمتها[٥].

وقيل: إنه الذي يعرف بالأُبْنَةِ[٦]. وهو مرويّ عن ابن عباس أيضاً. وعنه أنه الظَّلوم[٧]. فهذه ستة أقوال.

وقال مجاهد: زَنِيم كانت له ستة أصابع في يده، في كل إبهام له إصبع زائدة. وعنه أيضاً وسعيدِ بن المسيّب وعكرمة: هو ولد الزّنى الملحق في النسب بالقوم[٨]. وكان الوَلِيد دَعِيّاً في قريش ليس من سِنْخهم، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده[٩]. قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٨، والطبري ٢٣/ ١٦٣ وفيهما: «وأعطاه من الدنيا مقضماً». والخبر مرسل.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٣، والبيت نسب لحسان بن ثابت، ونسب للخطيم التميمي، وسلف ١/ ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٧)، والزَّنَمة: شيء يكون للمعز في أذنها كالقُرط، أو شيءٌ يقطع من أذن البعير فيترك معلقاً. الصحاح (زنم).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٦ - ١٦٧، والحاكم ٢/ ٤٩٩.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٨.

(٦) الأُبْنة: العيب في الكلام. اللسان (أبن).

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٥، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٧.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٤ - ١٦٥ عن ابن عباس وسعيد وعكرمة.

(٩) الكشاف ٤/ ١٤٢، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٥، وقوله: سنخهم؛ السنخ: الأصل. الصحاح (سنخ).

زنيمٌ ليس يُعرفُ مَن أبوه بغيُّ الأُمِّ ذو حَسَب لئيمِ[١]

وقال حَسَّان:

وأنتَ زَنيمٌ نِيطَ في آل هاشمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ[٢]

قلت: وهذا هو القول الأول بعينه. وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أنَّه الذي لا أصل له، والمعنى واحد.

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ وَلَدُ زنىً، ولا ولدُه، ولا ولدُ ولدِه»[٣]. قال عبد الله بن عمر: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أولادَ الزنى يُحشرون يومَ القيامة في صورة القردةِ والخنازير»[٤].

وقالت ميمونة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا تزالُ أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولدُ الزِّنَى، فإذا فَشَا فيهم ولدُ الزنى، يوشك[٥] أن يعمَّهم الله بعقاب»[٦]. وقال عكرمة: إذا كثر ولدُ الزنى قَحطَ المَطَرُ.

قلت: أما الحديث الأول والثاني، فما أظنُّ لهما سنداً يصح، وأما حديثُ ميمونةَ وما قاله عكرمةُ؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جَحْش زوجِ النبيِّ ﷺ

(١) سلف ١/ ٤٤.

(٢) ديوان حسان ص٢١٦ . وقوله: نيط، أي: عُلق، والمنوط بالقوم، أي: الدخيل فيهم.

(٣) الكشاف ٤/ ١٤٣ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٥ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٠٨ ، ٨/ ٢٤٩ عن مجاهد واضطربت الرواية عنه، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٠٠ ، وقال: ثم أيّ ذنب لولد الزنى حتى يمنعه من دخول الجنة، فهذه الأحاديث تخالف الأصول، وأعظمها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وقال صاحب تنزيه الشريعة ٢/ ٢٢٨ : لا يصح.

(٤) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٧٥ من طريق زيد بن عياض. قال في الفوائد المجموعة ص٢٠٤ : هو موضوع. وقال في لسان الميزان ٢/ ٥١٠ : ذكره العقيلي في الضعفاء وكناه أبا عياض.

(٥) في النسخ عدا (ظ) أوشك.

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٨٣٠) وفيه ضعفاء، وله شاهد من حديث ابن عباس عند الحاكم ٢/ ٣٧ بلفظ: إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله، وحديث زينب الآتي ذكره.

قالت: خرج النبيُّ ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرّاً وَجْهُهُ يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه» وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثُر الخَبَث» خرّجه البخاريّ[١]. وكثرةُ الخبث ظهورُ الزنى وأولادُ الزنى. كذا فسّره العلماء[٢].

وقول عكرمة «قَحَطَ المطر» تبيينٌ لما يكون به الهلاك، وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله.

ومعظم المفسرين على أنَّ هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يُطعم أهلَ مِنىً حَيْساً[٣] ثلاثة أيام، وينادي: ألَا لا يوقدنّ أحد تحت بُرْمَةٍ[٤]، ألا لا يدخنّن أحد بكُراع، ألا ومن أراد الحَيْس فليأت الوليدَ بن المغيرة. وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين[٥] درهماً واحداً؛ فقيل: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ». وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦-٧].

وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأَخْنَس بن شَريق؛ لأنه حليفٌ مُلْحق في بني زُهْرة، فلذلك سُمِّيَ زَنيماً[٦].

وقال ابن عباس: في هذه الآية نُعِت، فلم يعرف حتى قيل[٧]، فعُرِف، وكان له زَنَمة في عنقه معلّقة يُعرف بها. وقال مُرّة الهَمْدانيّ: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة[٨].

---

(١) في صحيحه (٧٠٥٩)، وهو عند مسلم (٢٨٨٠)، وأحمد (٢٧٤١٣).

(٢) ينظر إكمال المعلم ٨/ ٤١٢ ، والمفهم ٧/ ٢٠٨ .

(٣) الحيس: هو تمر يخلط بسمنٍ أو أقِطٍ. الصحاح (حيس).

(٤) البُرْمة: هي القِدر. الصحاح (برم).

(٥) في (ظ) المسلمين.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٥ .

(٧) المثبت من (د)، وفي غيرها: قتل، وفي تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ حتى قيل: زنيم، فعرف...

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ .

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابنُ عامر وأبو حَيْوة والمغيرة والأعرج: «آن كان» بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ المُفَضّل وأبو بكر وحمزةُ: «أأن كان» بهمزتين مُحَقّقتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر[١]، فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين، فهو استفهام والمراد به التوبيخ[٢].

ويحسن له أن يقف على «زنيم»، ويبتدئ: «آنْ كَانَ» على معنى: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين تطيعه؟ ويجوز أن يكون التقدير: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين يقول إِذَا تُتْلَى عليهِ آيَاتُنَا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[٣]!

ويجوز أن يكون التقدير: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر. ودلّ عليه ما تقدم من الكلام، فصار كالمذكور بعد الاستفهام.

ومن قرأ: «أَنْ كَانَ» بغير استفهام، فهو مفعول من أجله، والعاملُ فيه فعل مضمر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين. ودلَّ على هذا الفعل: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ولا يعمل في «أَنْ»: «تُتْلَى» ولا «قَالَ»؛ لأنَّ ما بعد «إِذَا» لا يعمل فيما قبلها؛ لأنَّ «إِذَا» تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف. و«قال» جواب الجزاء، ولا يعمل فيما قبل الجزاء؛ إذ حكم العامل أن يكونَ قبل المعمول فيه، وحكم الجواب أن يكونَ بعد الشرط، فيصير مقدماً مؤخراً في حال[٤]. ويجوز أن يكون المعنى: لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد.

---

(١) السبعة ص٦٤٦، والتيسير ص٢١٣ .والنشر ١/ ٣٦٧ .

(٢) الوسيط ٤/ ٣٣٦ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٣ - ٩٤٤ ووقع في (ز) و(ظ): قال أساطير الأولين.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٤٨ - ٧٤٩ .

قال ابن الأنباري(١): ومن قرأ بلا استفهام، لم يحسن أن يقف على «زَنِيم»؛ لأنَّ المعنى: لأنْ كان وبأنْ كان، فـ«أن» متعلقة بما قبلها.

قال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله: «مَشَّاءٍ بِنَمِيم»، والتقدير: يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين.

وأجاز أبو عليّ أن يتعلق بـ«عُتُلٍّ»(٢). وأساطير الأولين: أباطيلُهم وتُرّهاتُهم وخرافاتُهم. وقد تقدم(٣).

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ قال ابن عباس: معنى «سَنَسِمُهُ»: سَنَخْطِمُه بالسيف. قال: وقد خُطم الذي نزلت فيه يومَ بدر بالسيف، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يومَ القيامة على أنفه سِمةً يُعرف بها(٤). يقال: وسَمْته وَسْماً وسِمَةً: إذا أثّرتَ فيه بِسِمَةٍ وَكَيّ(٥).

وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]. وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية علامة ثالثةً وهي الوسم على الأنف بالنار(٦)، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن:٤١] قاله الكلبي وغيره(٧).

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٤٨ بنحوه.

(٣) ٨/٣٤٦ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٣٠٩ ، والطبري ٢٣/ ١٧٠ .

(٥) الصحاح (وسم).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٥ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٦٦ بنحوه.

وقال أبو العالية ومجاهد: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» أي: على أنفه، ونسوّد وجهَه في الآخرة، فَيُعْرف بسواد وجهه[١].

والخُرطوم: الأنفُ من الإنسانُ، ومن السباع: موضعُ الشَّفَة[٢]. وخراطيم القوم: ساداتُهم[٣].

قال الفراء[٤]: وإن كان الخُرْطُوم قد خُصّ بالسِّمة؛ فإنه في معنى الوجه؛ لأنَّ بعض الشيء يعبّر به عن الكلّ.

وقال الطبري[٥]: نبيّن أمرَه تِبياناً واضحاً حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم.

وقيل: المعنى سَنُلْحِقُ به عاراً وسُبَّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه[٦].

قال القُتَبيّ[٧]: تقول العرب للرجل يُسَبّ سُبّةَ سوء قبيحة باقية: قد وُسِم مِيسَم سوء، أي: أُلْصِق به عارٌ لا يفارقه، كما أنَّ السِّمة لا يُمْحَى أثرها. قال جرير:

لـمّا وضعـتُ عـلى الـفَـرَزْدَق مِيسَمِي وعلى البَعِيث جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ[٨]

أراد به الهجاءَ. قال[٩]: وهذا كلُّه نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أنَّ الله

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٦٦، ونسب الماوردي فيه الكلام للمبرّد.

(٣) أساس البلاغة (خرط).

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٤.

(٥) في تفسيره ٢٣/ ١٧٠ - ١٧١.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ بنحوه.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص١١٨ - ١١٩.

(٨) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٤٠. وروايته فيه: وضعا البَعيث، بدل: وعلى البعيث، ووقع في هامش (خ) و(ي) ما نصُّه: البعيث اسم شاعر من تميم .اهـ. والبعيث هو خداش بن بشر.

(٩) القائل القتبي في تأويل مشكل القرآن ص١٢٠.

تعالى بلغ من ذكر عيوب أحدٍ ما بلغه منه، فألحقه به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوَسْم على الخُرْطوم.

وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذُلّ وصَغار. قاله ابن بحر. واستشهد بقول الأعشى:

فدعها وما يعنيك واعمِدْ لغيرها بشعرك واعْلُب أنفَ من أنت واسمُ[(١)]

وقال النَّضْر بن شُمَيل: المعنى: سنحُدّه على شرب الخمر، والخُرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تَظَلُّ يومك فِي لَهْوٍ وفي طَرَبٍ وأنت بالليل شَرّاب الخراطيمِ[(٢)]

قال الراجز:

صَهْبَاءَ خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفا[(٣)]

وقال آخر:

أبا حاضرٍ من يَزْنِ يُعْرفْ زِناؤُه ومن يشربِ الخُرْطومَ يُصبحْ مُسَكَّرا[(٤)]

الثانية: قال ابن العربي[(٥)]: كان الوَسْم في الوجه لذي المعصية قديماً عند الناس، حتى إنَّه رُوي ـ كما تقدم ـ أنَّ اليهود لما أهملوا رَجْم الزاني، اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه، وهذا وضع باطل. ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٦ ، وبيت الأعشى في ديوانه ص٩، وورد في (م): (يغنيك) بدل: (يعنيك). قوله: اعلُب: يقال علبتُه أعلُبُه: إذا وسمته أو خدشته. الصحاح (علب).

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٧ دون قوله: وجمعه خراطيم.

(٣) هذه كلها من أسماء الخمر، والرجز للعجاج وهو في ديوانه ص٤٢٣ ، وقبله: فغمّها حولين ثم استودفا. قال شارحه: استودف: استقطر.

(٤) البيت للفرزدق كما في جمهرة اللغة ٣/ ٢٥٥ ، والصحاح (زنى)، والبيت أيضاً في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢١ وروايته: يظهر، بدل: يعرف، والصهباء، بدل: الخرطوم. ونسبه للفرزدق، ثم قال: وبعضهم يرويها لزياد الأعجم، وكان أبو حاضر أحد المشهورين بالزنى.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٤٥ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامةً على قُبْح المعصية وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنُّبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته؛ فقد كان عزيزاً بقول الحقّ، وقد صار مَهيناً بالمعصية. وأعظمُ الإهانة [إهانةُ الوجه]. وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لخيرة الأبد والتحريم له على النار؛ فإنَّ الله تعالى قد حرَّم على النار أن تأكلَ من ابن آدم أثَرَ[1] السجود، حسب ما ثبت في الصحيح[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يريد أهلَ مكة. والابتلاء الاختبار. والمعنى: أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليَبْطروا، فلما بَطِرُوا وعادَوْا محمداً ﷺ، ابتليناهم بالجوع والقَحْط، كما بلونا أهلَ الجنة المعروفِ خبرُها عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ـ ويقال بفرسخين ـ وكانت لرجل يؤدّي حقَّ الله تعالى منها، فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرَها، وبَخِلُوا بحقِّ الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها.

قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان، ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم.

وقيل: هي جنةٌ بصَوْران، وصوران[3] على فراسخ[4] من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير ـ وكانوا بخلاء ـ فكانوا يجدُّون التمر ليلاً

---

(١) صحيح البخاري (٨٠٦)، وصحيح مسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ مطولاً.

(٢) في (ظ): موضع أثر.

(٣) في (ق) و(م) بضوران، وضوران . . . إلخ. والمثبت من باقي النسخ، حيث ذكر ياقوت صوران في معجم البلدان ٣/ ٤٣٣ . ووقع في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩: الضروان، وفي النكت والعيون ٦/ ٦٧: ضروان، وفي تفسير أبي الليث: ضيروان.

(٤) في (م) فرسخ.

من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حصادَ زرعها، وقالوا: لا يدخلها اليوم عليكم مسكين، فغَدَوْا عليها؛ فإذا هي قد اقْتُلِعَت من أصلها، فأصبحت كالصَّريم، أي: كالليل. ويقال أيضاً للنهار: صريم. فإن كان أراد الليلَ، فلاسْوداد موضعها. وكأنهم وجدوا مَوْضِعَها حَمْأة[1]. وإن كان أراد بالصَّريم النهارَ؛ فلذهاب الشجرِ والزرعِ ونقاءِ الأرض منه. وكان الطّائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتعلها. فيقال: إنه طاف بها حَوْل البيت ثمَّ وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سُمِّيت الطائف[2]. وليس في أرض الحجاز بلدةٌ فيها الشجر والأعناب والماء غيرها. وقال البكري في المُعْجَم: سُمِّيت الطائف لأنَّ رجلاً من الصَّدِف[3] يقال له: الدَّمُون؛ بنى حائطاً وقال: قد بَنَيْتُ لكم طائفاً حول بلدكم؛ فسُمِّيت الطائف. والله أعلم[4].

الثانية: قال بعض العلماء: على من حصد زَرْعاً أو جَدَّ ثمرةً أن يواسيَ منها مَنْ حضره، وذلك معنى قوله: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وأنه غير الزكاة على ما تقدّم في «الأنعام» بيانه[5]. وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون. وكان بعض العبّاد يتحرّون أقواتَهم من هذا. وروي أنه نُهِيَ عن الحصاد بالليل[6]. فقيل: إنه لِما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق. وتأوّل من قال هذا

(١) الحَمْأة: الطين الأسود المنتن. اللسان (حمأ).

(٢) في هذا الكلام نظر، وليس فيه ما يصح.

(٣) الصَّدِف: مِخلاف (وهي الناحية أو المحافظة في الاصطلاح الحديث) من اليمن منسوب إلى القبيلة. معجم البلدان ٣/ ٣٩٧.

(٤) التعريف والإعلام ص١٧٤ - ١٧٥.

(٥) ٩/ ٥٣.

(٦) أخرجه البزار (٨٨٤) (كشف الأستار) عن عائشة رضي الله عنها، وقال: لا نعلمه عن عائشة إلا من هذا الوجه، وعنبسة حدّث بأحاديث لم يتابع عليها، وهو لين الحديث. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٧٧: فيه عنبسة بن سعيد البصري، وهو ضعيف، وقد وثق.

وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٢٨)، والبيهقي ٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين مرسلاً.

الآيَةَ التي في سورة ن وَالقَلِمِ. وقيل: إنَّما نهى عن ذلك خشيةَ الحيّات وهوامّ الأرض[١].

قلت: الأوّل أصح، والثاني حسن. وإنما قلنا: الأول أصح؛ لأنَّ العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى.

روى أسباط عن السُّدِّيّ قال: كان قوم باليمن، وكان أبوهم رجلاً صالحاً وله جنة[٢]، وكان إذا بلغ ثمارُه أتاه المساكين، فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزوّدوا، فلما مات قال بَنُوه بعضهم لبعض: عَلَامَ نُعطي أموالَنا هؤلاء المساكين! تعالَوْا فلْنُدْلج[٣] فنصْرمنّها قبل أن يعلم المساكين. ولم يستثنوا، فانطلقوا وبعضُهم يقول لبعض خَفْتاً[٤]: لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ يعني حلفوا فيما بينهم: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني ليجذّنّها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكينُ ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني لم يقولوا: إن شاء الله[٥].

وقال ابن عباس: كانت تلك الجنةُ دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجلٌ من أهل الصَّلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كلُّ ما تعدَّاه الْمِنجَل فلم يجذّه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكلُّ شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعَهم فكلُّ شيء تعدّاه المِنجَل فهو للمساكين، فإذا دَرَسُوا[٦] كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأراملُ والمساكينُ، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقالوا:

---

(١) ينظر غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٧.

(٢) قوله: وله جنة، من (ظ).

(٣) أدلج القوم: إذا ساروا من أول الليل الصحاح (دلج).

(٤) الخَفْت: إسرار المنطق. الصحاح (خفت).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٦) درسوا الحنطة دِراساً: أي داسوها. الصحاح (درس).

قلّ المالُ وكثر العيال، فتحالفوا بينهم ليغدُوُنَّ غُدوة قبل خروج الناس، ثم ليَصْرِمنّها ولا تعرف المساكين[١].

وهو قوله: «إذْ أَقْسَمُوا» أي: حلفوا «لَيَصْرِمُنَّها»: ليقطعُنَّ ثمرَ نخيلهم إذا أصبحوا بِسُدْفة[٢] من الليل؛ لئلا ينتبه المساكين لهم. والصرم: القطع. يقال: صرم العِذق عن النخلة. وأصرم النخلُ، أي: حان وقت صِرامه[٣]. مثل: أرْكَبَ المُهرُ، وأحصدَ الزرعُ، أي: حان ركوبه وحَصاده.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: ولم يقولوا إن شاء الله. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾: ينادي بعضُهم بعضاً[٤]. ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: عازمين على الصّرام والجِداد[٥]. قال قتادة: حاصدين زرعَكم. وقال الكلبيّ: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل.

وقال مجاهد: كان حرثُهم عِنَباً ولم يقولوا: إن شاء الله. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم قولهم: سبحان الله ربِّنا. وقيل: معنى «وَلَا يَسْتَثْنُونَ» أي: لا يستثنون حقَّ المساكين. قاله عكرمة[٦]. فجاؤوها ليلاً فرأوا الجنة مسودّةً قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. قيل: الطائف جبريل عليه السلام؛ على ما تقدّم ذكره[٧].

وقال ابن عباس: أمْرٌ من ربك. وقال قتادة: عذاب من ربّك. ابن جريج: عُنُق من نار[٨] خرج من وادي جهنم. والطائف لا يكون إلا بالليل. قاله الفرّاء[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

(٢) السدفة: الظلمة، والضوء. وهو من الأضداد. الصحاح (سدف).

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٧ بنحوه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٧ - ٦٨.

(٧) في المسألة الأولى.

(٨) أي: قطعة من النار. اللسان (عنق).

(٩) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٧ وما قبله منه، ووقع في النكت والعيون (من وادي جنتهم) بدل (من وادي جهنم).

الثالثة: قلت: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنَّهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وفي الصحيح[١] عن النبيّ ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتول في النار»: قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقد مضى مبيَّناً في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [الآية: ١٣٥][٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم؛ عن ابن عباس[٣] والفرّاء[٤] وغيرهما. قال الشاعر:

تطاول لَيْلُك الجَوْنُ الْبَهِيمُ فما ينجابُ عن صبح صريمُ[٥]

أي: احترقت فصارت كالليل الأسود[٦]. وعن ابن عباس أيضاً: كالرَّماد الأسود[٧]. قال: والصَّرِيم: الرماد الأسود بلغة خُزَيمة[٨]. الثوريّ: كالزرع المحصود.

---

(١) صحيح البخاري (٣١)، وصحيح مسلم (٢٨٨٨)، وسلف ٥/ ٣٣١ .
(٢) ٥/ ٣٣١ .
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٧٤ .
(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٨ .
(٥) في النسخ: بهيم، بدل: صريم، والمثبت من تفسير الطبري ٢٣/ ١٧٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٦٨ . الجون: الأسود المشرب حمرة. اللسان (جون).
(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ١٨٥ .
(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٣٦ .
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ .

فالصريم بمعنى المصروم، أي: المقطوع ما فيه. وقال الحسن: صُرِم عنها الخير، أي: قطع، فالصريم مفعول أيضاً[١]. وقال المؤرّج: أي: كالرملة انصرمت من معظم الرمل، يقال: صريمة وصرائم؛ فالرّملة لا تُنبت شيئاً يُنتفع به[٢]. وقال الأخفش: أي: كالصبح انصرم من الليل[٣]. وقال المبرد[٤]: أي: كالنهار؛ فلا شيء فيها.

قال شَمِر: الصَّرِيم: الليل، والصَّرِيم: النهار، أي: ينصرم هذا عن ذاك، وذاك عن هذا[٥].

وقيل: سُمّيَ الليل صَرِيماً؛ لأنَّه يقطع بظلمته عن التصرف، ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل[٦].

قال القُشَيْرِيّ: وفي هذا نظر؛ لأنَّ النهار يسمَّى صَرِيماً، ولا يقطع عن تصرّف.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتسارّون، أي: يُخفون كلامهم ويسرُّونه؛ لئلا يَعلم بهم أحد. قاله عطاء وقتادة[٧]. وهو من خَفَت يَخْفِت: إذا سكن[٨] ولم يبيّن. كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٨.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٨ دون نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

(٤) في الكامل ١/ ٣٠٥.

(٥) تهذيب اللغة ١٢/ ١٨٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٨.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٨) الصحاح (خفت).

وإنّـيَ لـم أهْـلِـكْ سُـلالاً ولـم أَمُـتْ خُـفَـاتـاً وكُـلاًّ ظَـنَّـه بـيَ عُـوَّدِي[١]

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم[٢]. وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصِّرام[٣].

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على قَصْد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال معناه ابن عباس وغيره.

والحَرْد: القصدُ. حَرَد يَحْرِد ـ بالكسر ـ حَرْداً: قَصَد. تقول: حَرَدْتُ حَرْدَك، أي: قصدتُ قصدَك. ومنه قول الراجز:

أقـبـل سَـيْـلٌ جـاء مـن عـنـد الـلـهْ يَـحْـرِدُ حَـرْدَ الـجـنَّـة الـمُـغِـلَّـهْ[٤]

أنشده النحاس:

قـد جـاء سـيـلٌ جـاء مـن أمـر الـلـهْ يَـحْـرِدُ حَـرْدَ الـجـنَّـة الـمُـغِـلَّـهْ

قال المبرِّد: المُغِلّة: ذات الغَلّة. وقال غيره: المُغِلّة: التي يجري الماء في غَلَلها؛ أي: في أصولها. ومنه: تغلّلت بالغالية. ومنه تغلّيت، أبدل من اللام ياء. ومن قال: تَغَلّفْت؛ فمعناه عنده: جعلتها غِلافاً[٥].

وقال قتادة ومجاهد: «عَلَى حَرْدٍ» أي: على جِدّ. الحسن: على حاجة وفاقة[٦].

وقال أبو عبيدة والقُتَيبِيّ: على حَرْد: على منع[٧]؛ من قولهم: حَارَدَتِ الإبلُ

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٤٥ ، وفيه: لم أهلك خفاتاً.
مات خفاتاً: مات فجأة، السُّلال: السّلّ.
(٢) النكت والعيون ٦/٦٨ .
(٣) تفسير الرازي ٣٠/٨٧ .
(٤) الصحاح (حرد)، وسلف ٦/٣٠ .
(٥) من قوله: قال المبرد، إلى هذا الموضع، ليس في (ظ).
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/١٧٦ - ١٧٨ .
(٧) مجاز القرآن ٢/٢٦٥ ، وتفسير غريب القرآن ص٤٧٩ ، ونقله المصنف عنهما بواسطة تفسير البغوي ٤/٣٨٠ .

حِراداً، أي: قلّت ألبانُها. والحَرُود من النُّوق: القليلة الدَّرّ. وحارَدتِ السَّنَةُ: قلّ مطرها وخيرها[١]. وقال السدّي وسفيان: «عَلَى حَرْدٍ»: على غضب[٢].

والحَرْد: الغضب. قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف، وأنشد شعراً:

إذا جيادُ الخيلِ جاءت تَرْدِي مملوءةً من غَضَبٍ وحَرْدِ[٣]

وقال ابن السِّكِّيت: وقد يحرّك، تقول منه: حَرِد ـ بالكسر ـ حَرَداً، فهو حارد وحَرْدان. ومنه قيل: أَسَدٌ حارِدٌ، ولُيُوثٌ حَوارد. وقيل: «عَلَى حَرْدٍ»: على انفراد. يقال: حَرَد يَحْرِد حُرُوداً، أي: تنَحَّى عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطْهم. وقال أبو زيد: رجل حرِيد من قوم حُرَدَاء. وقد حَرَد يَحْرِد حُروداً: إذا ترك قومَه وتحوّل عنهم. وكوكبٌ حَرِيد، أي: معتزلٌ عن الكواكب[٤].

قال الأصمعي: رجل حَرِيد، أي: فريدٌ وحيدٌ. قال: والمُنْحرد: المنفرد في لغة هُذَيل. وأنشد لأبي ذؤيب:

كأنه كوكبٌ في الجَوّ مُنْحَرِدُ[٥]

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسّره: منفردٌ. قال: وهو سُهَيْلٌ[٦].

---

(١) الصحاح (حرد).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٣٨ عن الشعبي وسفيان، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٦٩ عن السدي.

(٣) الرجز لقبيصة بن النصراني كما في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٦٢٤ ، وهو في مجمع الأمثال ١/ ١٤٤ دون نسبة. قال المرزوقي: تردي: الرَّدَيان ضرب من المشي، والمعنى إذا جاءت الخيل العِتاق قد حميت ونشطت فامتلأت عضباً، وصار مشيها رَدَياناً.

(٤) الصحاح (حرد).

(٥) عجز بيت صدره: من وَحْشِ حَوْضَى يُراعي الصيد مبتقلا. وهو في ديوان الهذليين ص١٢٦ وروايته: منجرد، بدل: منحرد. والبيت أيضاً في المعاني الكبير ٢/ ٧٦١ .

(٦) الصحاح (حرد).

وقال الأزهريّ[١]: حَرْد اسم قريتهم.

السُّدي: اسم جنتهم، وفيه لغتان: حَرْدٌ وحَرَد[٢]. وقرأ العامة بالإسكان. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفَع بالفتح، وهما لغتان[٣]. ومعنى «قَادِرِين»: قد قدّروا أمرهم وبَنَوْا عليه. قاله الفرّاء[٤].

وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. وقال الشعبيّ: «قَادِرِينَ» يعني على المساكين. وقيل: معناه من الوجود، أي: مَنعوا وهم واجدون[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: لما رأوها محترقةً لاشيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشَكُّوا فيها. وقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضللنا الطريق إلى جَنَّتِنَا. قاله قتادة[٦]. وقيل: أي: إنا لضالُّون عن الصواب في غدوّنا على نية منع المساكين؛ فلذلك عوقبنا. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حُرِمنا جنتنا بما صنعنا.

روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكُم والمعاصي، إنَّ العبدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ، فيُحْرَم به رزقاً كان هُيِّيءَ له. ثمَّ تلا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيتين[٧].

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/ ٤١٤.

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٣) ذكر القراءة بالتحريك ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ دون نسبة.

(٤) نقله عنه بنحوه الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤١٤.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٣٨.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٩.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وذكره ابن كثير ٨/ ١٩٦ وفي إسناده عمر بن صبح؛ قال ابن حبَّان في المجروحين ٢/ ٨٨: كان ممن يضع الحديث على الثقات. وفي الباب عن ثوبان عند أحمد (٢٢٣٨٦) وإسناده ضعيف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلُهم وأعدلُهم وأعقلُهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: هلّا تستثنون. وكان استثناؤهم تسبيحاً. قاله مجاهد وغيره[١]. وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الأوسطَ كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه[٢].

قال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله. فقال لهم: هَلّا تسبحون الله، أي: تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم[٣].

قال النّحاس: أصل التسبيح التنزيهُ لله عزَّ وجلّ، فجعل مجاهدٌ التسبيح في موضع إن شاء الله؛ لأنَّ المعنى تنزيهُ الله عزَّ وجلَّ أن يكون شيء إلا بمشيئته[٤].

وقيل: هلّا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خُبْث نيّتكم؛ كان[٥] أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكّرهم انتقامَه من المجرمين[٦].

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعترفوا بالمعصية ونزّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل[٧]. قال ابن عباس في قولهم: «سُبْحَانَ رَبِّنَا» أي: نستغفر الله من ذنبنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٩٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٦.

(٥) في (م): فإن.

(٦) في الكشاف ٤/ ١٤٥ والكلام منه: كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين..

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: يلوم هذا هذا في القَسَم ومنعِ المساكين، ويقول: بل أنت أشرتَ علينا بهذا[١]. ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: عاصين بمنع حقِّ الفقراء وترك الاستثناء. وقال ابن كَيْسَان: طَغَيْنا نِعَمَ الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل[٢].

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها؛ لنصنعنّ كما صنعت آباؤنا، فدَعَوا الله وتضرَّعوا؛ فأبدلَهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريلَ أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزُغَر[٣] من أرض الشام، ويأخذَ من الشام جنة فيجعلها مكانها[٤].

وقال ابن مسعود: إنَّ القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقَهم، فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغلُ منها عنقوداً واحداً. وقال اليمانيّ أبو خالد: دخلتُ تلك الجنةَ فرأيت كلَّ عنقود منها كالرجل الأسود القائم[٥].

وقال الحسن: قول أهل الجنة: «إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ» لا أدري إيماناً كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين.

وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنَّة أم من أهل النَّار؟ فقال: لقد كلَّفْتني تعباً[٦]. والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا. حكاه القشيريّ.

---

(١) زاد المسير ٨/٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ .

(٣) زُغر: قرية بمشارف الشام. اللسان (زغر).

(٤) ليس في هذا الكلام ما يصح.

(٥) مجمع البيان ٢٩/ ٣٠ ، وأثر ابن مسعود ذكره أيضاً في الكشاف ٤/ ١٤٥ .

(٦) الكشاف ٤/ ١٤٥ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٩ .

وقراءة العامة: «يُبْدِلَنا» بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد، وهما لغتان[١].

وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعينُ الشيء قائم. والإبدال رفعُ الشيء ووضع آخرَ مكانه[٢]. وقد مضى في سورة النساء القول في هذا[٣].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الدنيا وهلاكُ الأموال. عن ابن زيد. وقيل: إنَّ هذا وَعْظٌ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجَدْب لدعاء النبيّ ﷺ[٤]؛ أي: كفِعْلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا في الدنيا[٥] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لأهل مكةَ حين خرجوا إلى بَدْرٍ وحلفوا ليقتلنَّ محمداً ﷺ وأصحابَه، وليرجعنّ إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضربَ القَيْنات على رؤوسهم؛ فأخلف الله ظنَّهم وأُسِرُوا وقُتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصِّرَام فخابوا[٦].

ثم قيل: إنَّ الحقَّ الذي منعه أهلُ الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعاً، والأول أظهر، والله أعلم.

وقيل: السورة مَكّية؛ فَبَعُدَ حملُ الآية على ما أصاب أهلَ مكة من القَحْط، وعلى قتال بَدْر.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف. السبعة ص ٣٩٧، والتيسير ص ١٤٥ والنشر ٢/ ٣١٤.

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٣٩.

(٣) ٦/ ٤٢٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والكشاف ٤/ ١٤٣، ودعاء النبي ﷺ على قريش سلف ١٩/ ١٠٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٩١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تقدم القول فيه، أي: إنَّ للمتقين في الآخرة جناتٍ ليس فيها إلا التنعّم الخالص، لا يشوبُه ما ينغّصُه كما يشوب جناتِ الدنيا(١).

وكان صناديدُ قريش يَرَوْن وفورَ حظِّهم من الدنيا وقلّةَ حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا: إن صَحَّ أنّا نُبْعث كما يزعم محمدٌ ومن معه، لم يكن حالُنا وحالُهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يَفْضُلونا، وأقصى أمرِهم أن يُساوونا. فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كالكفار(٢).

وقال ابن عباس وغيره: قال كفار مكة: إنا نُعطَى في الآخرة خيراً مما تُعْطَوْن؛ فنزلت: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٣) ثم وبَّخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحُكْمَ الأعوج؛ كأنَّ أمر الجزاء مفوّضٌ إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم(٤) أنَّ لكم من الخير ما للمسلمين! ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾: تختارون وتشتهون(٥). والمعنى: أنَّ لكم ـ بالفتح ـ ولكنه كسر لدخول اللام، تقول: علمت أنك عاقل؛ بالفتح، وعلمت إنَّك لعاقل؛ بالكسر.

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٩١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩ بدون نسبة.

(٤) الكشاف ٤/ ١٤٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩.

فالعامل في «إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ»: «تَدْرُسُونَ» في المعنى، ومنعت اللامُ من فتح«إن»[١].

وقيل: تمَّ الكلامُ عند قوله: «تَدْرُسُونَ»، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إنَّ لكم في هذا الكتاب إذاً ما تخيّرون، أي: ليس لكم ذلك. والكناية في «فيه» الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب.

ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ﴾ أي: عهود ومواثيق[٢]. ﴿عَلَيْنَا بَلِغَةٌ﴾ مؤكّدة. والبالغة المؤكّدة بالله تعالى[٣]. أي: أم لكم عهودٌ على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلَكم الجنة.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كُسرت «إنَّ» لدخول اللام في الخبر[٤]. وهي من صلة «أيمان»، والموضع النصبُ ولكن كسرت لأجل اللام، تقول: حلفت إن لك لكذا.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ إذاً، أي: ليس الأمر كذلك.

وقرأ ابن هُرْمُز: «آئنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تخيّرون»، «آئنّ[٥] لكم لَمَا تحكمون» بالاستفهام فيهما جميعاً[٥].

وقرأ الحسن البصري: «بالغةً» بالنصب على الحال[٦]؛ إما من الضمير في «لكم» لأنَّه خبر عن «أيمان» ففيه ضمير منه، وإما من الضمير في «علينا» إن قدّرت «علينا»

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٤٦: الأصل: تدرسون أنَّ لكم ما تخيَّرون، بفتح أن؛ لأنه مدروس، فلما جاءت اللام كُسرت.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٧٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١.

(٥) المثبت من (خ)، وهو الموافق لما في القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٦٠ حيث قيَّدها بالمد.

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٠، والمحتسب ٢/ ٣٢٥.

وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأيمان؛ لأنَّ فيه ضميراً منه، كما يكون إذا كان خبراً عنه. ويجوز أن يكون حالاً من «أيمان» وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب «حَقّاً» على الحال من «متاع» في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١] [البقرة: ٢٤١].

وقرأ العامة: «بالغةٌ» بالرفع نعت لـ «أيمان»[٢].

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: سلْ يا محمد هؤلاء المتقوّلين عليَّ: أيُّهم كفيلٌ بما تقدم ذكرُه، [وهو أنَّ لهم في الآخرة من الخير][٣] ما للمسلمين؟ والزعيم: الكفِيل والضّمين. قاله ابن عباس وقتادة[٤]. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول[٥].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: ألهم، والميم صلة. «شُرَكَاء» أي: شهداء. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ يشهدون على ما زعموا. ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم. وقيل: أي: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يجوز أن يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١.

(٣) ما بين معكوفين زيادة يقتضيها السياق، وينظر زاد المسير ٨/ ٣٤٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ٣٤٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٨٦، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٠.

أي: فليأتوا بشركائهم يومَ يُكشف عن ساق، ليشفع الشركاءُ لهم. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: اذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على «صَادِقِينَ». ولا يوقف عليه على التقدير الأول.

وقرىء: «يوم نكشف» بالنون(١). «وقرأ» ابن عباس: «يوم تَكْشِف عن ساق»(٢) بتاء مسمَّى الفاعل، أي: تكشف الشدةُ أو القيامةُ عن ساقها، كقولهم: شمّرت الحربُ عن ساقها. قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضّتْ به الحربُ عَضَّها ... وإن شَمّرتْ عن ساقها الحربُ شَمّرا(٣)

وقال الراجز:

قد كشفتْ عن ساقها فشُدُّوا ... وجَدّت الحربُ بكم فَجِدُّوا(٤)

وقال آخر:

عجبتُ من نفسي ومن إشفاقها ... ومن طِرَاد الطيرِ عن أرزاقها

في سَنةٍ قد كَشَفَتْ عن ساقها ... حمراءَ تَبْري اللحمَ عن عُرَاقها(٥)

وقال آخر:

كشفتْ لهم عن ساقِها ... وبدا من الشَّرِّ الصُّرَاح(٦)

---

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ لابن عباس.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٢٦، وأخرجها الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٧٧.

(٣) البيت لحاتم الطائي كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٤٧، وهو في ديوانه ص٤٩ وروايتهما (أخو) بدل (فتى) ونسبه صاحب الحماسة البصرية ١/ ٧٨ لزيد الخيل، وهو في ديوانه ص٦١. ونسبه صاحب العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ لحذيفة بن أنس.

(٤) الرجز في الكامل ٢/ ٤٩٤ دون نسبة.

(٥) الرجز لأعرابي كان يطرد الطير عن زرع في سنة جدْب كما في غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧. وروايته (مِطْرادي) بدل (طراد)، قال ابن قتيبة العُرَاق: العظم.

(٦) البيت لسعد بن مالك كما في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٢.

وعن ابن عباس أيضاً والحسن وأبي العالية: «تُكْشَفُ» بتاء غير مسمّى الفاعل[١]. وهذه القراءة راجعةٌ إلى معنى «يُكْشَف»، وكأنه قال: يوم تَكْشف القيامةُ عن شدَّة.

وقرىء: «يَوْمَ تُكْشِف» بالتاء المضمومة وكَسْر الشين؛ من أكشف: إذا دخل في الكشف، ومنه: أكشف الرجل فهو مُكشف[٢]: إذا انقلبت شَفَتُه العليا[٣].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامةُ بن زيد، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن كرب وشدّة. أخبرنا ابن جُريج عن مجاهد قال: شدّة الأمر وجِدّه. وقال مجاهد: قال ابن عباس: هي أشدُّ ساعةٍ في يوم القيامة[٤]. وقال أبو عبيدة[٥]: إذا اشتد الحربُ والأمرُ قيل: كشف الأمرُ عن ساقه

والأ[صـ]ـل فيه أنَّ من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدّ شَمّر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة[٦].

وقيل: ساقُ الشيء: أصلُه الذي به قِوامه، كساق الشجرة وساق الإنسان، أي: يومَ يُكشف عن أصل الأمر، فتظهر حقائقُ الأمور وأصلُها. وقيل: يُكشف عن ساق جهنم. وقيل: عن ساق العرش[٧]. وقيل: يريد وقتَ اقتراب الأجل وضعف البدن؛ أي: يَكشِفُ المريضُ عن ساقه ليُبْصِرَ ضعفَه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج[٨].

فأما ما رُوِي أنَّ الله يكشف عن ساقه؛ فإنَّه عز وجل يتعالى عن الأعضاء

(١) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٢٦ دون نسبة.
(٢) في (د) مكشوف، وفي (ظ) منكشف.
(٣) الكشاف ٤/ ١٤٧.
(٤) الزهد (٣٦١ - ٣٦٢) زوائد نعيم.
(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٦.
(٦) تأويل مشكل القرآن ص١٠٣.
(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٥.
(٨) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٥ بنحوه.

والتبعيض وأن يكشف ويتغطى. ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره. وقيل: يكشف عن نوره عزَّ وجلَّ[١].

وروى أبو موسى عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَن سَاقٍ﴾ قال: «يُكشفُ عن نورٍ عظيم يخرُّون له سجداً»[٢].

وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره[٣]: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا ابنُ مَنِيع قال: حدّثنا هُدْبة قال: حدّثنا حمَّاد بنُ سَلَمة، عن علي[٤] بنِ زيد، عن عمارةَ القرشي، عن أبي بُردة بن[٥] أبي موسى، قال: حدّثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامة، مُثِّلَ لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون، ويبقى أهلُ التوحيد فيقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: إنَّ لنا ربًّا كنا نعبده في الدنيا ولم نره. قال: وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: إنَّه لا شبيه له. فيُكشفُ لهم الحجابُ، فينظرون إلى الله تعالى، فيخرُّون له سُجَّداً، وتبقى أقوامٌ ظهورُهم مثل صَيَاصِي[٦] البقر، فينظرون إلى الله تعالى، فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيقول الله تعالى: «عبادي ارفعوا رؤوسَكم؛ فقد جعلت بدلَ كلِّ رجلٍ منكم رجلاً من

---

(١) ما ثبت وصح من نصوص الصفات الخبرية لله عز وجل يجب إثباتها له تعالى بلا تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧٢٨٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٥٢) عن روح بن جناح، عن مولى عمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة، عن أبي موسى مرفوعاً. قال البيهقي: تفرد به روح بن جناح، وهو شامي يأتي بأحاديث منكرة لا يتابع عليها والله أعلم، وموالي عمر بن عبد العزيز فيهم كثرة.

(٣) ٣/ ٣٩٥.

(٤) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: عدي، وهو خطأ.

(٥) في النسخ: عن، وهو خطأ.

(٦) صياصي البقر: قرونها. النهاية (صيص).

اليهود والنصارى في النار». قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمرَ بن عبد العزيز فقال: آللهِ الذي لا إله إلا هو، لقد حَدَّثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثةَ أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحبُّ إليَّ من هذا[١].

وقال قيس بن السَّكَن[٢]: حَدّث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة، قام الناس لربِّ العالمين أربعين عاماً شاخصةً أبصارُهم إلى السماء، حُفاةً عُراةً يُلْجمهم العرق، فلا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاماً، ثم ينادي منادٍ: أيها الناس، أليس عدلاً من ربكم الذي خلقكم وصوّركم وأماتكم وأحياكم ثمَّ عبدتم غيره أن يُوَلِّيَ كلَّ قوم ما تولَّوْا؟ قالوا: نعم. قال: فيرفع لكلِّ قوم ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتبعونها حتى تقذفَهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربُّنا، فيقال لهم: أوَ تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عَرَفناه. قال: فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصاً ساجداً، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنّ في ظهورهم السفافيد[٣]، فيُذْهَب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[٤].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلةً متواضعةً، ونصبُها على الحال. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسَهم ووجوهُهم أشدُّ بياضاً من الثلج. وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين[٥] حتى ترجع أشدَّ سواداً من القار.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٥، والوسيط ٤/ ٣٤٠ - ٣٤١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ٤٣/ ٣٣٤، وعلي بن زيد ـ وهو ابن جُدعان ـ وعُمارة القرشي: ضعيفان. ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٧ و١٧٨.

(٢) هو الأسدي الكوفي، أخو بني سُواءة، قال يحيى بن معين: ثقة، قال أبو حاتم: توفي زمن مصعب بن الزبير. تهذيب الكمال ٦/ ١٣٨.

(٣) السفافيد: ـ جمع السَّفُّود ـ الحديدة التي يُشوى بها اللحم. الصحاح (سفد).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٩٠ - ١٩١.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٣.

قلت: معنى حديث أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدريّ وغيره[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا[٢]. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ مُعَافَوْن أصحّاء. قال إبراهيم التَّيْميّ: أي: يُدعون بالأذان والإقامة فيأبَوْنه. وقال سعيد بن جُبَير: كانوا يسمعون: حيَّ على الفلاح، فلا يجيبون. وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآيةُ إلا في الذين يتخلّفون عن الجماعات[٣]. وقيل: أي: بالتكليف المُوَجَّه عليهم في الشرع، والمعنى متقارب. وقد مضى في سورة البقرة الكلام في وجوب صلاة الجماعة[٤].

وكان الربيع بن خَيْثم قد فُلِجَ، وكان يُهَادَى[٥] بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا يزيد، لو صلّيتَ في بيتك لكانت لك رخصة. فقال: من سمع حيّ على الفلاح؛ فلْيُجِبْ ولو حبْواً. وقيل لسعيد بن المسيّب: إنَّ طارقاً يريد قتلك فتغيّب. فقال: أبحيث لا يَقْدِر الله عليّ؟ فقيل له: اجلس في بيتك. فقال: أسمع حيّ على الفلاح، فلا أجيب[٦]!

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي﴾ أي: دَعْنِي. ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ «مَنْ» مفعول معه أو معطوف

---

(١) صحيح مسلم (١٨٣) (٣٠٢)، وهو في صحيح البخاري (٤٥٨١)، ومسند أحمد (١١١٢٧) مطولاً عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٣ .

(٤) ٢/ ٣٠ فما بعدها.

(٥) يهادى بين الرجلين: أي: يمشي بينهما معتمداً عليهما من ضعفه وتمايله. النهاية (هدا).

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٣ .

على ضمير المتكلم[١]. ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ. قاله السدّيّ. وقيل: يوم القيامة[٢]. وهذا تسليةٌ للنبيّ ﷺ، أي: فأنا أجازيهم وأنتقم منهم.

ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، فعُذّبوا يوم بَدْر[٣].

وقال سفيان الثَّوْريّ: نُسبغ عليهم النعمَ ونُنسيهم الشكرَ. وقال الحسن: كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه، وكم مفتونٍ بالثناء عليه، وكم مغرورٍ بالسّتر عليه[٤].

وقال أبو رَوْق: أي: كلّما أحدثوا خطيئةً جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار[٥].

وقال ابن عباس: سنمكر بهم[٦]. وقيل: هو أن نأخذَهم قليلاً ولا نباغتهم[٧].

وفي حديث: «أنَّ رجلاً من بني إسرائيل قال: يا ربِّ، كم أعصيك وأنت لا تعاقبني قال: فأوحى الله إلى نبيّ زمانِهم أن قل له: كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر؛ إنَّ جمود عينيك وقَسَاوَةَ قلبك استدراجٌ منّي وعقوبةٌ لو عقَلْت»[٨].

والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله: النقلُ من حالٍ إلى حالٍ كالتدرّج. ومنه قيل: درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة[٩]. واستدرج فلان فلاناً، أي: استخرج ما عنده قليلاً. ويقال: درّجه إلى كذا واستدرجه بمعنىً: أدناه منه على التدريج، فتدرّج هو.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٧٢ .
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٣ .
(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٦ .
(٦) نسبه البغوي في تفسيره ٢/ ٢١٨ لعطاء في تفسير الآية (١٨٢) من سورة الأعراف.
(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٤٢ .
(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٦٨ عن عبد الله بن خبيق بنحوه.
(٩) النكت والعيون ٦/ ٧٢ .

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلُهم وأطيلُ لهم المدّة[١]. والملاوة: المُدة من الدهر. وأملى الله له، أي: أطال له. والملَوان: الليل والنهار. وقيل: «وأُمْلِي لَهُمْ» أي: لا أعاجلهم بالموت[٢]؛ والمعنى واحد. وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا[٣].

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: إنَّ عذابي لقوِيّ شديد، فلا يفوتني أحد[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

عاد الكلام إلى ما تقدّم من قوله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ». أي: أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامةِ ذلك مُثْقَلون لِما يشقّ عليهم من بذل المال، أي: ليس عليهم كُلْفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويَصِلون إلى جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: علمُ ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقيل: أينزل عليهم الوَحْيُ بهذا الذي يقولون. وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنَّهم أفضلُ منكم، وأنَّهم لا يعاقبون! وقيل: «يَكْتُبُونَ»: يحكمون لأنفسهم بما يريدون!

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربّك[٥]. والحُكْم هنا القضاء. وقيل: فاصبر على ما حَكَم به عليك ربُّك من تبليغ الرسالة[٦]. وقال ابن بحر: فاصبرْ لنصر

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨ في تفسير الآية (١٨٣) من سورة الأعراف .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٧ .

(٣) ٩/ ٣٩٨ .

(٤) بعدها في (ظ) زيادة: ممن عصاني والله هو الحليم.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٨ .

ربك[١]. قال قتادة: أي: لا تعجلْ ولا تغاضبْ؛ فلا بدّ من نصرك[٢]. وقيل إنَّه منسوخ بآية السيف[٣]. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني يونسَ عليه السلام. أي: لا تكنْ مثلَه في الغضب والضَّجَر والعَجَلة[٤].

وقال قتادة: إنَّ الله تعالى يُعَزِّي نبيَّه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجَل كما عَجِل صاحبُ الحُوت[٥]. وقد مضى خبرُه في سورة يونس، والأنبياء، والصافات[٦]، والفرقُ بين إضافة ذي وصاحب في سورة يونس والأنبياء[٧]، فلا معنى للإعادة.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: حين دعا في بطن الحوت فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غَمّاً. وقيل: كرباً. الأوّل قول ابنِ عباس ومجاهد. والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماورديّ[٨]: والفرق بينهما أنَّ الغمَّ في القلب، والكربَ في الأنفاس. وقيل: مكظوم محبوس. والكَظْم الحبس، ومنه قولُهم: فلان كَظَم غيظَه، أي: حبس غضبه. قاله ابن بحر.

(١) النكت والعيون ٦/ ٧٣ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٠٠ .

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٥٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٣ .

(٦) ١١/ ٥٤ - ٥٥ ، ١٤/ ٢٦٦ فما بعدها، ١٨/ ٨٧ .

(٧) لفظة «والأنبياء» من (ظ)، وينظر ما سلف من سورة الأنبياء ١٤/ ٢٦٦ عند قول المصنف: وذا النون وهو لقب يونس بن متّى، و١٤/ ٢٦٧ عند قول المصنف: ولم يحمل أثقال النبوة ولهذا قيل للنبي ﷺ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾.

قال في التعريف والإعلام ص١١٣ - ١١٤: بين اللفظتين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالتين وتنزيل الكلام في الموضعين، فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: ذا النون، ولم يقل: صاحب، والإضافة بذو أشرف من الإضافة بصاحب لأن قولك: ذو يضاف إلى التابع، وصاحب يضاف إلى المتبوع.

(٨) في النكت والعيون ٦/ ٧٣ وما قبله منه.

وقيل: إنَّه المأخوذُ بكظمه، وهو مجرى النفس. قاله المبرّد. وقد مضى هذا وغيرُه في «يوسف»(١).

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قراءة العامة: «تَدَارَكَهُ». وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «تَدَّاركه» بتشديد الدال(٢)؛ وهو مضارع أُدغمتِ التاءُ منه في الدال. وهو على تقدير حكاية الحال، كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة. ابن عباس وابن مسعود: «تداركته» وهو خلاف المرسوم(٣).

و«تَدَارَكَهُ» فعلٌ ماضٍ مذكّر حُمل على معنى النعمة؛ لأنَّ تأنيثَ النعمة غيرُ حقيقي. و«تداركته» على لفظها(٤).

واختلِف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النُّبوة. قاله الضحاك. وقيل: عبادته التي سلفت. قاله ابن جُبير. وقيل: نداؤه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قاله ابن زيد. وقيل: نعمة الله عليه إخراجُه من بطن الحوت. قاله ابن بحر(٥). وقيل: أي: رحمَة من ربه، فَرَحِمه وتاب عليه(٦).

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لَنُبِذ مذموماً ولكنه نُبذ سقيماً غير مذموم(٧). ومعنى

---

(١) ١١/ ٤٣٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، وقراءة ابن هرمز ـ وهو الأعرج ـ والحسن في القراءات الشاذة ص١٦٠، والمحتسب ٢/ ٣٢٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤ بنحوه، وقراءة ابن عباس وابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١٦٠ ووقع في مطبوعه «تداركنه» وهو خطأ.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٥٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وزاد المسير ٨/ ٣٤٣.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٦.

«مَذْمُومٌ» في قول ابن عباس: مُلِيم[١]. قال بكر بن عبد الله: مذنب[٢]. وقيل: «مذموم»: مُبْعَدٌ من كلّ خير.

والعَرَاء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبلٌ ولا شجرٌ يستُر[٣]. وقيل: لولا فضل الله عليه، لبقيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثُمَّ نُبذ بعراء القيامة مذموماً. يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤] [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه واختاره[٥]. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: ردّ الله إليه الوَحْي، وشفّعه في نفسه وفي قومه[٦]، وقبِل توبتَه، وجعله من الصالحين؛ بأن أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «إنْ» هي المخففة من الثقيلة[٧]. ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: يعتانونك. ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أخبر بشدّة عداوتهم النبيَّ ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قومٌ من قريش وقالوا: ما رأينا مثلَه ولا مثلَ حُجَجِه. وقيل: كانت العينُ في بني أسد، حتى إنَّ البقرةَ السمينةَ أو الناقةَ السمينةَ تمرُّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المِكْتَلَ[٨] والدرهمَ فأْتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرحُ حتى تقعَ للموت فتُنْحر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٠١.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٧٤.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، والوجيز للواحدي ـ على هامش مراح لبيد ـ ٢/ ٣٩٦ بنحوه..
(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٩.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤.
(٦) الكشاف ٤/ ١٤٨.
(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٢.
(٨) المِكْتَل: هو الزبيل ـ الوعاء ـ الذي يحمل فيه التمر أو العنب. اللسان (زبل)، (كتل).

وقال الكلبي: كان رجلٌ من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثمَّ يرفع جانبَ الخِباء، فتمرّ به الإبلُ أو الغنمُ فيقول: لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقطَ منها طائفةٌ هالكةً. فسأل الكفار هذا الرجلَ أن يصيبَ لهم النبيَّ ﷺ بالعين فأجابهم[1] فلما مرّ النبيُّ ﷺ أنشد:

قد كان قومُك يحسبونك سيّداً وإخال أنّك سيّدٌ مَعْيُونُ[2]

فعصَم الله نبيَّه ﷺ، ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾[3].

وذكر نحوه الماوردي[4]، وأنَّ العربَ كانت إذا أراد أحدُهم أن يصيب أحداً بعين[5] في نفسه وماله، تجوّع ثلاثة أيام، ثم يتعرَّض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجعَ ولا أكثرَ [مالاً] منه ولا أحسن، فيصيبه بعينه فيهلك هو ومالُه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال القُشَيْرِي: وفي هذا نظر؛ لأنَّ الإصابةَ بالعين إنَّما تكون مع الاستحسان والإعجاب، لا مع الكراهية والبغض، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ينسِبونَك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن[6].

قلت: أقوال المفسرين واللغويّين تدلّ على ما ذكرنا، وأنَّ مرادَهم بالنظر إليه قَتْلُه. ولا يمنع كراهةُ الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد: «ليزهقونك»[7] أي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧١ - ٤٧٢.

(٢) البيت لعباس بن مرداس كما في الحيوان للجاحظ ٢/ ١٤٢، والحماسة البصرية ١/ ١٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٢.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٧٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ عدا (ظ) يعني، والمثبت موافق لما في النكت والعيون والكلام منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٥.

(٧) هي عن ابن عباس وابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٦٠.

ليهلكونك. وهذه قراءة على التفسير؛ من زَهَقَتْ نفسه وأَزْهقَها.

وقرأ أهل المدينة: «لَيَزْلِقُونَكَ» بفتح الياء. وضمها الباقون[١]، وهما لغتان بمعنىً، يقال: زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقاً: إذا نَحّاه وأبعده[٢].

وزَلَق رأسه يَزْلِقه زلقاً: إذا حلقه، وكذلك أزْلَقه وزَلَّقه تزليقاً، ورجل زَلِق وزُمَلِق ـ مثال هُدَبِد[٣] ـ وزَمالق وزُمّلِق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي يُنزِل قبل أن يجامع. حكاه الجوهري[٤] وغيره. فمعنى الكلمة إذاً التنحية والإزالة، وذلك لا يكون في حقِّ النبيِّ ﷺ إلا بهلاكه وموته. قال الهَرَوِيّ: أراد لَيعتانونك بعيونهم، فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه؛ عداوةً لك.

وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارهم، يقال: زَلَق السهمُ وزَهَق: إذا نفذ[٥]. وهو قول مجاهد. أي: يَنْفذونك من شدّة نظرهم[٦]. وقال الكلبي: يَصْرَعونك[٧]. وعنه أيضاً والسُّدِّي وسعيد بن جُبَير: يصرفونك عمّا أنت عليه من تبليغ الرسالة[٨]. وقال العَوْفيّ: يَرْمُونك. وقال المُؤَرِّج: يُزيلونك. وقال النَّضْر بن شُميل والأخفش: يفتنونك.

وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظراً شزراً بتحديق شديد[٩]. وقال ابن

---

(١) السبعة ص٦٤٧ ، والتيسير ص٢١٣ ، والنشر ٢/ ٣٨٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٣) رجل هُدَبِد: ضعيف البصر، وبعينه هُدَبِد؛ أي: عمش. لسان (هدبد).

(٤) في الصحاح (زلق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٧٤ ، وأخرجه الطبري عنهما في تفسيره ٢٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٧٤ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ دون نسبة.

(٩) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٠٠ دون نسبة، ونظر إليه شزراً: هو نظر الغضبان بمؤخر العين. الصحاح (شزر).

زيد: لَيَمَسُّونك(١). وقال جعفر الصادق: ليأكلونك. وقال الحسن وابن كَيْسان: ليقتلونك. وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه. قال الشاعر:

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطَرْفها وتَكِلُّ عنك نصالُ نَبْلِ الرامي(٢)

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقَوْا في مجلسٍ نَظَراً يُزيلُ(٣) مواطئ الأقدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك(٤). وهذا كلُّه راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وما القرآن إلا ذِكْرٌ للعالَمين. وقيل: أي: وما محمدٌ إلا ذِكْرٌ للعالَمين يتذكّرون به. وقيل: معناه شَرَفٌ، أي: القرآن. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(٥) [الزخرف: ٤٤] والنبيّ ﷺ شرف للعالمين أيضاً. شَرُفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

---

(١) نسبه في النكت والعيون ٦/ ٧٤ للسدي.

(٢) لم نقف عليه، وتكلّ عنك: إذا تباعدت. اللسان (لحح).

(٣) المثبت من (د)، وفي غيرها: يزلُّ، والبيت في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، وهو في المعاني الكبير ٢/ ٨٤٥، والكشاف ٤/ ١٤٨، وفيهما: موطن، بدل: مجلس. وذكر عجزه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٤٢.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٢٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٤ .

سورة ﴿نٓ﴾

مكيَّةٌ، وآيُها ثنتانِ وخمسونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿نٓ﴾ مِن أَسماءِ الحُروفِ، وقيل: اسمُ الحوتِ، والمرادُ به الجنسُ، أو اليَهْمُوتُ(١) وهو الذي عليه الأرضُ، أو الدَّواةُ فإنَّ بعضَ الحيتانِ يُستخرَجُ منهُ شيءٌ أشدُّ سَوادًا مِن النِّقْسِ(٢) يُكتبُ به. ويؤيِّدُ الأوَّلَ سُكونُه وكِتْبَتُهُ بصورةِ الحرفِ.

﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ هو الذي خطَّ اللوحَ، أو الذي يُخطُّ بِهِ، أقسَمَ بِهِ تعالى لكثرةِ فَوائدِه.

وأخفى ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ ويعقوبُ النُّونَ إجراءً للواوِ المنفصلِ مُجرَى المُتَّصلِ(٣)، فإنَّ النُّونَ السَّاكنةَ تُخْفى مع حروفِ الفَمِ إذا اتَّصلَتْ بها،

---

(١) «اليَهْمُوتُ»: بفتحِ الياءِ المُثنّاةِ التَّحتيّةِ وسكونِ الهاء، وما اشتُهِرَ من أنَّه بالباءِ المُوحَّدةِ غلطٌ. قاله الشهاب.

(٢) «النِّقْسُ»: بالسِّينِ المُهملةِ كالحِبْرِ لفظًا ومعنًى. قاله الشهاب.

(٣) قال الأنصاري في «الحاشية» (٥/ ٣٦٦): كذا في أكثر النسخ، وفي نسخة: «وأدغم ابن عامر والكسائي ونافع وأبو بكر عن عاصم النون». قلت: قد نبه الشهاب في «الحاشية» على وجود خلل في سياق النُّسخ المثبت أعلاه وبيَّنه. وانظر تفصيل هذه القراءة ومن قرأ بها في «السبعة» (ص: ٦٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٣)، و«النشر» (٢/ ١٨).

وقد رُوِيَ ذلك عن نافعٍ وعاصمٍ(١)، وقُرِئَت بالفتحِ والكسرِ كـ﴿صٓ﴾(٢).

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: وما يكتبونَ، والضَّميرُ لـ﴿القلم﴾ بالمعنى الأوَّلِ على التَّعظيمِ، أو بالمعنى الثَّاني على إرادةِ الجنسِ، وإسنادِ الفعلِ إلى الآلةِ، وإجرائه مُجرى أولي العلمِ لإقامَتِه مُقامَهم(٣)، أو لأصحابِه(٤)، أو للحفظَةِ، و(ما) مَصدريَّةٌ أو موصولةٌ.

(٢) ـ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ جوابُ القسمِ، والمعنى: ما أنتَ بمَجنونٍ مُنعَمًا عليك بالنبوَّةِ وحصافةِ الرَّأيِ، والعاملُ في الحالِ مَعنى النَّفيِ.

وقيل: (مجنونٌ)، والباءُ لا يمنَعُ عملَهُ فيما قبلَه لأنَّها مزيدةٌ. وفيه نظرٌ مِن حيثُ المعنى.

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) الفتح قرأ به سعيد بن جبير وعيسى بخلاف عنه، وبالكسر قرأ ابنُ عباس وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠)، و«البحر» (٢٠/ ٤٣٧).

(٣) في جميع النسخ: «مقامه» والمثبت من نسخة ذكرها الأنصاري في «الحاشية» (٥/ ٣٦٦) ورجحها.
وقول المصنف: «والضمير» يعني: ضمير الواو في ﴿يَسْطُرُونَ﴾، «بالمعنى الأول»؛ أي: على أن القلم هو الذي خطَّ اللوحَ، «على التَّعظيمِ»؛ لأنَّه واحدٌ، فعبَّر عنهُ بضميرِ الجمعِ تعظيمًا له، وأمّا على الثّاني وهو أن المراد بالقلم الذي يخط به فتشكل أمور ثلاثة: رجوع الضمير إلى مفرد، وإسناد الفعل إلى الآلة مع أنه لصاحبها، وجمعه بالواو والنون المخصوص بالعقلاء، فحلُّ الإشكال الأول: حمله على إرادةِ جنسِ ما به الخطُّ فيدل على الكثرة، وحل الثاني: حمله على المجاز بجعل الإسنادِ إليه إسناداً إلى الآلةِ مجازًا، وحل الثالث: أن يكون التَّعبيرُ عنهُ بضميرِ العقلاءِ لقيامِه مقامَ العقلاءِ وجعلِه فاعلاً. مستفاد من كلام الشهاب في «الحاشية»، وابن التمجيد في «حاشيته» (١٩/ ٢٢٣).
قلت: والأولى من هذا كله أن يعاد الضمير على غير مذكور ـ وهو شائع ـ كما فعل الزمخشري حيث صدر تفسير الآية بقوله: «﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: وما يَكتُبُ مَن كتَبَ، وقيل: ما يَسْطُرُهُ الحَفظَةُ». انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٢٢).

(٤) عطف على «للقلم».

(٣) ـ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمالِ أو الإبلاغِ ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: مقطوعٍ، أو ممنونٍ به عليكَ مِن النَّاسِ؛ فإنَّه تعالى يعطيك بلَا توسُّطٍ.

(٤) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إذ تَحتَمِلُ مِن قومِكَ ما لا يحتَمِلُه أمثالُك، وسُئِلَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ تعالى عنها عن خُلُقه فقالَتْ: كان خلقةُ القرآنَ، ألستَ تقرَأُ القُرآنَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١][1]؟

(٥ ـ ٦) ـ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾: أيُّكُم الذي فُتِنَ بالجنونِ، والباءُ مَزيدةٌ.

أو: بأيِّكُم الجنونُ، على أنَّ المفتونَ مصدرٌ كالمعقولِ والمجلودِ.

أو: بأيِّ الفريقينِ مِنْكُم المجنونُ، أبفريقِ المؤمنينَ أو بفريقِ الكافرينَ؟ أي: في أيِّهما يوجدُ مَن يستحقُّ هذا الاسمَ.

(٧) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهُم المجانينُ على الحقيقةِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: الفائزينَ بكمالِ العقلِ.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييجٌ للتَّصميمِ على معاصاتِهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾: تلايِنُهُم بأَنْ تدعَ نَهْيَهُم عن الشِّركِ أو توافِقَهُم فيه أحيانًا ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾: فيُلايِنُونَك[2] بتركِ الطَّعنِ والموافقةِ.

والفاءُ للعَطفِ؛ أي: ودُّوا التداهُنَ وتمنَّوهُ لكنَّهُم أخَّرُوا إدْهانَهُم حتى تُدهِنَ، أو

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٦٠١)، ومسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠١). وليس عندهم قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا قد ورد من طريق آخر عن أم المؤمنين رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٨١).

(٢) في نسخة الفاروقي: «فيماثلونك».

للسَّببيَّةِ؛ أي: ودُّوا لو تُدهِنُ فهُمْ يُدهِنونَ حينئذٍ، أو: وَدُّوا إدْهانَك فهُم الآنَ يُدهِنُونَ طمعًا فيه.

وفي بعضِ المَصاحفِ: (فيُدهنوا)[١] على أنَّه جوابُ التَّمنِّي.

(١٠) ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾: كثيرِ الحلفِ في الحقِّ والباطلِ ﴿مَّهِينٍ﴾: حقيرِ الرَّأيِ؛ مِن المَهانةِ وهي الحقارةُ.

(١١) ـ ﴿هَمَّازٍ﴾: عيَّابٍ ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾: نقَّالٍ للحديثِ على وجهِ السِّعايةِ.

(١٢) ـ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: يمنعُ النَّاسَ عَن الخيرِ: مِن الإيمانِ والإنفاقِ والعملِ الصَّالحِ.

﴿مُعْتَدٍ﴾: مُتجاوزٍ في الظُّلمِ ﴿أَثِيمٍ﴾: كثيرِ الآثامِ.

(١٣) ـ ﴿عُتُلٍّ﴾ جافٍ غليظٍ، مِن عَتَلَه: إذا قادَهُ بعنفٍ وغلظةٍ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعدما عُدَّ مِن مَثالِبِه ﴿زَنِيمٍ﴾: دَعِيٍّ[٢]، مأخوذٌ مِن زَنَمتي الشَّاةِ: وهما المُتدلِّيتانِ مِن أذنِها وحلقِها.

قيل: هو الوَليدُ بن المغيرةِ، ادَّعاهُ أبوهُ بعد ثماني عشرةَ مِن مَولدِه[٣].

وقيل: الأخنَسُ بنُ شَرِيقٍ، أصلهُ في ثَقيفٍ وعِدادُهُ في زُهْرَةَ[٤].

---

(١) ذكره سيبويه في «الكتاب» (٣/ ٣٦)، عن هارون بن موسى الأزدي، وهو نحوي ثقة صاحب قراءة، روى له الشيخان، انظر: «تهذيب الكمال» (٣٠/ ١١٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «أي ملصق بالقوم وليس منهم. صحاح».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ١٧٩)، والواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٨٧)، عن مرة الهمداني.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٨١) عن الكلبي والسدي، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، ورواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٦٤) عن السدي، ورواية عطاء عن ابن عباس واهية، والباقي مرسلات، ولا يصح شيء من ذلك، فإن الأخنس قد أسلم، فلا يصح أن يجعل سبب نزول الآية فيه، والله أعلم.

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قالَ ذلك حينئذٍ لأَنْ كان مُتموِّلًا مُستَظهِرًا بالبنينَ مِن فرطِ غُرورِه، لكنَّ العامِلَ مدلولُ ﴿قَالَ﴾ لا نفسُه؛ لأنَّ ما بعدَ الشَّرطِ لا يعمَلُ فيما قبلَهُ.

ويجوزُ أن يكونَ عِلَّةً لـ﴿وَلَا تُطِعْ﴾؛ أي: لا تُطِعْ مَن هذهِ مَثالِبُه لأَنْ كانَ ذا مالٍ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ ويعقوبُ وأبو بكرٍ: ﴿أَأَنْ كانَ﴾ على الاستفهامِ، غيرَ أنَّ ابنَ عامرٍ جعلَ الهمزةَ الثانيةَ بينَ بينَ[١]، أي: أَلِأن كانَ ذا مالٍ كذبَ، أو: أتطيعُهُ لأَنْ كان ذا مالٍ.

وقُرِئَ: (إن كانَ) بالكسرِ[٢] على أنَّ شرطَ الغِنَى في النَّهيِ عن الطَّاعةِ كالتَّعليلِ بالفقرِ في النَّهيِ عن قتلِ الأولادِ[٣]، أو أنَّ شرطَهُ للمُخاطَبِ؛ أي: لا تُطِع شارطًا يسارَهُ؛ لأنَّه إذا أطاعَ للغنيِّ فكأنَّه شَرَطه في الطَّاعةِ.

(١٦) ـ ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ بالكيِّ ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾: على الأنفِ، وقد أصابَ أنفَ الوَليدِ جراحةٌ يومَ بدرٍ فبَقِيَ أثرُه.

وقيل: هو عبارةٌ عَن أن يُذِلَّه غايةَ الإذلالِ؛ كقولِهم: جُدِعَ أنفُهُ، و: رَغِمَ أنفُه؛ لأنَّ السِّمَةَ على الوجهِ سِيَّما على الأنفِ شَيْنٌ ظاهِرٌ.

أو: نُسَوِّدُ وجهَهُ يوم القيامةِ.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بَلَوْنا أهلَ مكَّةَ بالقحطِ ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريدُ بُستانًا كان دونَ صنعاءَ بفَرسَخينِ، وكان لرجلٍ صالحٍ، وكانَ يُنادي الفقراءَ وقتَ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٣)، و«النشر» (١/ ٣٧٢).

(٢) هي رواية عن نافع. انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٦٠).

(٣) يعني: أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة ليس لتقييد النهي به، كما أن النهي عن الوأد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] غير مقيد بذلك. قاله الشهاب.

الصِّرامِ ويَتركُ لَهُم ما أخطأَهُ المنجلُ، أو ألقَتْهُ الرِّيحُ، أو بَعُدَ مِن البساطِ الذي يُبسطُ تحتَ النَّخلةِ، فيجتمعُ لهم شيءٌ كثيرٌ، فلمَّا ماتَ قالَ بنوه: إن فعَلْنَا ما كان يفعَلُ أبونا ضاقَ علينا الأمر، فحَلَفُوا ليصرمنَّها وقتَ الصَّباحِ خُفْيةً عن المساكينِ كما قال:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾: ليقطعُنَّها داخليـنَ الصَّباحَ ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: ولا يقولونَ: إن شاءَ الله، وإنما سمَّاهُ استثناءً لِمَا فيه مِن الإخراجِ، غيرَ أنَّ المخرجَ به خلافُ المذكورِ والمخرجَ بالاستثناءِ عينُه، أو لأنَّ مَعنى: «لا أخرج إن شاءَ اللهُ»، و«لا أخرجُ إلا أن يشاءَ الله» واحدٌ.

أو: ولا يستثنونَ حصَّةَ المساكينِ كما كان يُخرِجُ أبوهُم.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾: على الجنَّةِ ﴿طَآئِفٌ﴾: بلاءٌ طائِفٌ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مُبتدأٌ منه ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾: كالبُستانِ الذي صُرِمَ ثمارُهُ بحيثُ لم يبقَ فيه شيءٌ[1]، فعيلٌ بمَعنى مفعولٍ، أو: كالليلِ باحتِراقِها واسوِدَادِها، أو: كالنَّهارِ بابيِضَاضِها مِن فَرْطِ اليَبَسِ، سُمِّيا[2] بالصَّريمِ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهُمَا ينصرِمُ عن صاحبِهِ، أو: كالرِّمَالِ[3].

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا﴾: أيِ اخرجُوا، أو: بأَنِ اخرجُوا إليه غدوةً، وتعديةُ الفعلِ بـ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ إمَّا لتَضمُّنِه معنى الإقبالِ، أو لتشبيهِ الغُدوِّ للصِّرامِ بغُدُوِّ العَدوِّ المُتضمِّنِ لِمَعنى الاستيلاءِ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾: قاطعينَ له.

---

(١) بعدها في نسخة التفتازاني: «الصريمة ما انصرم من معظم الرمل».

(٢) أي: الليل والنهار.

(٣) عطف على «كالبستان».

(٢٣) ـ ﴿فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ﴾: يَتشاوَرُونَ فيما بينَهُم، وخَفَى وخَفَتَ وخَفَدَ بمعنى الكتمِ، ومنه: الخُفْدُودُ؛ للخُفَّاشِ.

(٢٤) ـ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ ﴿أَن﴾ مُفسِّرةٌ، وقُرِئَ بطرحِهَا على إضمارِ القولِ[1]، والمرادُ بنَهيِ المسكينِ عن الدُّخولِ المبالغةُ في النَّهيِ عَن تَمكينِه مِن الدُّخولِ؛ كقولك: لا أرينَّكَ هاهنا[2].

(٢٥) ـ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾: وغَدَوا قادرينَ على نكدٍ لا غير، مِن: «حَارَدَتِ السَّنَةُ» إذا لم يَكُن فيها مطرٌ، و: «حَارَدَتِ الإبلُ» إذا مَنَعَتْ دَرَّهَا، والمعنى: أنَّهم عَزَموا أن يتنكَّدُوا على المساكينِ فتَنَكَّدَ عليهِم بحيثُ لا يقدرونَ فيها إلا على النَّكَدِ.

أو: وغَدَوْا حاصلينَ على النَّكَدِ والحرمانِ مكانَ كونِهم قادرينَ على الانتفاعِ.

وقيل: الحرْدُ بمعنَى: الحَرَدِ، وقد قُرِئَ به[3]؛ أي: لم يَقدِرُوا إلَّا على حَنَقِ بعضِهم لبعضٍ كقولِه: ﴿يَتَلَـٰوَمُونَ﴾.

وقيل: (الحَرْد): القَصدُ والسُّرعةُ، قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّه ... يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّهْ[4]

---

(١) وهي قراءة ابن مسعود، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٨)، و«الكشاف» (٩/ ٢٣٢).

(٢) أي من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم فإنه أبلغ من ذكر الملزوم.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠) عن بعضهم.

(٤) البيت بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٦)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٦)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٧٤)، و«لسان العرب» (مادة: حرد وغلل وأله). وعزاه ابن السيد في «شرح الكامل» لقطرب كما ذكر البغدادي في «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٨٦)، وقال البكري في «شرح أمالي القالي» (١/ ٣١): قال أبو حاتم: هذا البيت مصنوع، صنعه مَن لا أحسن الله ذكرَه. يعني: قطرباً. ومعنى: حَرَد حردَ الجنَّة: قصد قصدها، وأغلَّت الضيعة: أعطت الغلة.

أي: غدَوا إلى جنَّتِهم بسرعةٍ قادرينَ عندَ أنفُسِهم على صرامِها.

وقيل: عَلَمٌ للجنَّةِ.

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أوَّلَ ما رأَوْها ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ طريقَ جنَّتِنا وما هيَ بها ﴿بَلْ نَحْنُ﴾؛ أي: بعدَما تأمَّلُوا وعرفوا أنَّها هي ﴿مَحْرُومُونَ﴾: حُرِمْنا خيرَها لجِنايَتِنَا على أنفُسِنَا.

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رأيًا أو سِنًّا ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: لولا تذكرونَهُ وتتوبونَ إليه مِن خبثِ نيَّتِكُم، وقد قالَهُ حينَما عزَمُوا على ذلك، ويدلُّ على هذا المعنى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

أو: لولا تَستثنونَ، فسُمِّيَ الاستثناءُ تَسبيحًا لتشارُكِهما في التَّعظيمِ، أو لأنَّه تنزيهٌ عن أن يجريَ في مُلكِه ما لا يريدُه.

(٣٠) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾: يلومُ بعضُهُم بعضًا، فإنَّ منهم مَن أشارَ بذلك، ومنهم مَن استَصْوبَهُ، ومِنْهُم مَن سكتَ راضيًا، ومنهم مَن أنكرَهُ.

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾: مُتجاوزينَ حدودَ اللهِ ﴿عَسَى ربُّنا أَنْ يُبَدِّلَنا خيرًا منها﴾ ببركةِ التَّوبةِ والاعترافِ بالخطيئةِ، وقد رُوِيَ أنَّهُم بدِّلوا خيرًا مِنها[1].

وقُرِئَ: ﴿يُبْدِلَنَا﴾ بالتَّخفيفِ[2].

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾: راجُون العفوَ طالبونَ الخيرَ، و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاءِ الرَّغبةِ، أو لتَضمُّنِها مَعنى الرُّجوعِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٢٢٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) وهي قراءة أكثر السبعة، والتشديد قراءة نافع وأبي عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٣٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾: مثـلَ ذلـك الـذي بَلَوْنـا بـه أهلَ مكّـةَ وأصحـابَ الجنَّةِ العـذابُ فـي الدُّنيـا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾: أعظَـمُ منـه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لاحتـرَزُوا عمَّـا يُؤدِّيهِـم إلـى العذابِ.

(٣٤) ـ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فـي الآخـرةِ، أو فـي جـوارِ القـدسِ ﴿جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جنّـاتٍ ليـسَ فيهـا إلّا التَّنعُّـمُ الخالِصُ.

(٣٥) ـ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إنكارٌ لقولِ الكفرةِ، فإنَّهُم كانوا يقولونَ: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ كما يزعمُ مُحمَّدٌ ومَن معَهُ لمْ يَفضُلونَا، بل نكونُ أحسنَ حَالًا مِنْهُم كما نحنُ عليه في الدُّنيا.

(٣٦) ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفاتٌ فيهِ تَعجُّبٌ مِن حُكمِهِم واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنَّه صادِرٌ مِن اختلالِ فِكرٍ واعوِجَاجِ رَأيٍ.

(٣٧) ـ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ﴾ من السَّماءِ ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾: تقرَؤُونَ.

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: إنَّ لَكُم ما تختارونَهُ وتَشتَهُونَه، وأصلُه: (أن لكم) بالفَتحِ لأنَّه المَدروسُ، فلَمَّا جِيءَ باللامِ كُسِرَت، ويجوزُ أَنْ يكونَ حِكايةً للمَدروسِ أو استئنافًا، وتَخَيَّرَ الشَّيءَ واختارَهُ: أخذَ خيرَهُ.

(٣٩) ـ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا﴾: عهودٌ مؤكَّدةٌ بالأَيمانِ ﴿بَـٰلِغَةٌ﴾: مُتناهِـيَـةٌ فـي التَّوكيدِ، وقُرِئَت بالنَّصبِ[1] على الحالِ والعامِلُ فيها أحدُ الظَّرفينِ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بالمقدَّرِ في ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: ثابتةٌ لكم علينا إلى يومِ القيامةِ لا نخرجُ عن عُهدَتِها حتى نُحكِّمَكُم[2] في ذلك اليومِ، أو بـ﴿بَـٰلِغَةٌ﴾؛ أي: أيمانٌ تبلغُ ذلك اليومَ.

---

(١) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠).

(٢) أي: حتى نجعلكم حَكَماً فيه، من «حكَّمته في مالي» إذا جعلت له الحكم فيه. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ٢٤٣).

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسمِ؛ لأنَّ مَعنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾: أَمْ أَقسَمْنا لكم.

(٤٠) ـ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ بذلك الحُكمِ قائمٌ يدَّعيهِ ويُصحِّحُه.

(٤١) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يُشارِكُونَهُم في هذا القولِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دَعْواهُم؛ إذ لا أقلَّ مِن التَّقليدِ.

وقد نبَّهَ سُبحانَهُ في هذهِ الآياتِ على نفيِ جَميعِ ما يُمكِنُ أن يَتشبَّثُوا به مِن عقلٍ أو نقلٍ يدلُّ عليه لاستحقاقٍ أو وعدٍ، أو محضِ تَقليدٍ، على التَّرتيبِ[١]؛ تَنْبيهًا على مراتبِ النَّظَرِ وتزييفًا لِمَا لا سندَ له.

وقيل: المَعنى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: الأصنامَ يَجعلُونَهُم مثلَ المؤمنينَ في الآخرةِ؛ كأنَّه لَمَّا نفى أنْ تكونَ التَّسويَةُ مِن اللهِ نَفَى بهذا أن يكونَ ممَّا يُشرِكُونَ اللهَ به.

(٤٢) ـ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: يومَ يشتدُّ الأمرُ ويَصعُبُ الخَطبُ، وكشفُ السَّاقِ مَثَلٌ في ذلك، وأصلُه: تَشميرُ المُخدَّراتِ عن سُوقِهنَّ في الهَرَبِ، قال حاتمٌ:

أَخُو الحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا ... وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا[٢]

---

(١) قولُه: «من عقلٍ» كما نبّهَ عليه بقولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «أو نقلٍ» وهو قولُه: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ «يدلُّ عليه» راجعٌ لكلِّ منهما؛ لأنَّ الدَّليلَ إمّا عقليٌّ أو نقليٌّ، «لاستحقاقٍ» متعلق بـ«يتشبثون» وقولُه: «أو محضِ تقليدٍ» من قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ لأنَّ المُرادَ مَن شارَكَهم في هذه المقالةِ وسبَقَهم لها، وهو معطوفٌ على «عقلٍ» أو على «نقل»، ولو أخر «لاستحقاق أو وعد» عنه لكان أسلم من التعقيد. عن الشهاب والقونوي في «الحاشية» (١٩/ ٢٤٤).

(٢) انظر: «ديوان حاتم الطائي» (٤٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٤٠)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١٤٦). ونسبه في «الحماسة البصرية» (١/ ٧٨) لزيد الخيل، وهو في «ديوانه» (ص: ٦١)، وهو في «ديوان الهذليين» (٣/ ٢١)، و«العقد» لابن عبد ربه (٦/ ٩٦)، لحذيفة بن أنس أحدِ بني عامر بن عمرو بنِ الحارث بنِ تميم بنِ سعد بنِ هُذَيل.

أو: يومَ يُكشَفُ عَن أصلِ الأمرِ وحقيقتِه بحيثُ يَصيرُ عِيانًا، مُستعارٌ مِن ساقِ الشَّجرِ وساقِ الإنسانِ.

وتَنكيرُهُ للتَّهويلِ أو التَّعظيمِ.

وقُرِئَ: (تكشفُ) بالتَّاءِ على بناءِ الفاعلِ والمفعولِ[1]، والفعلُ للسَّاعةِ أو الحالِ.

﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تَوْبيخًا على تَركِهم السُّجودَ إن كانَ اليومُ يومَ القيامةِ، أو يدعونَ إلى الصَّلواتِ لأَوقَاتِها إن كانَ وقتَ النَّزعِ.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ لذهابِ وَقتِه، أو زوالِ القدرةِ عليهِ.

(٤٣) ـ ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾: يلحَقُهم ذُلٌّ ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدُّنيا أو زمانَ الصِّحَّةِ ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾: مُتمكِّنونَ منه مُزاحو العللِ فيه.

(٤٤) ـ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾: كِلْهُ إليَّ فإني أكفيكَهُ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾: سنُدْنيهِمْ مِن العذابِ درجةً درجةً بالإمهالِ وإدامةِ الصِّحَّةِ وازديادِ النِّعمةِ ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه استدراجٌ، وهو الإنعامُ عليهم لأَنَّهُم حَسِبُوه تَفضيلًا لهم على المُؤمنينَ.

(٤٥) ـ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾: وأُمهِلُهُم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ لا يُدفعُ بشيءٍ، وإنَّما سُمِّيَ إنعامُه استدراجًا بالكيدِ لأنَّه في صُورَتِه.

(٤٦) ـ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ على الإرشادِ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ﴾: مِن غرامةٍ ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ بحملِها فيُعرِضونَ عنك.

(٤٧) ـ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾: اللوحُ، أو: المغيَّباتُ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ منه ما يحكمونَ ويَستغنونَ به عَن علمِك.

---

(١) القراءتان في «المحتسب» (٢/ ٣٢٦)، و«البحر» (٢٠/ ٤٦٤) كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٨) ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصرتِك عليهم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يونسَ ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ في بطنِ الحوتِ ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٌ﴾: مملوءٌ غيظًا في الضَّجَر، فتُبْتَلَى ببلائِه.

(٤٩) ـ ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني: توفيقَ التَّوبةِ[١] وقَبُولَها، وحَسُنَ تذكيرُ الفعلِ للفَصلِ.

وقُرِئَ: (تَدارَكَتْهُ)[٢]، و: (تَدَّاركَهُ)[٣]؛ أي: تَتدارَكَه على حكايةِ الحالِ الماضيةِ، بمعنى: لولا أن كانَ يقالُ فيه: تتدارَكُه[٤].

﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾: بالأرضِ الخاليَةِ عَن الأَشجارِ ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٌ﴾: مُليمٌ مطرودٌ عَن الرَّحمةِ والكرامةِ، وهو حالٌ يَعتَمِدُ عليها الجوابُ؛ لأنَّها المَنفِيَّةُ دونَ النَّبذِ.

(٥٠) ـ ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بأَنْ ردَّ الوَحيَ إليه، أو: استنبَأَهُ إن صحَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُن نَبيًّا قبلَ هذه الواقِعَةِ.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: مِن الكاملينَ في الصَّلاحِ بأَنْ عَصَمهُ مِن أَنْ يفعلَ ما تَرْكُه أولى، وفيه دليلٌ على خلقِ الأفعالِ.

والآيةُ نزلَتْ حينَ همَّ رَسولُ اللهِ ﷺ أن يَدعوَ على ثقيفٍ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «التوفيق للتوبة».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠ ـ ١٦١) عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٢٦) عن ابن عباس وابن مسعود وابن هرمز.

(٤) هكذا قدره الزمخشري وزاد: كما يُقال: «كان زَيدٌ سَيقُوم فمَنعَه فُلانٌ»؛ أي: كان يُقالُ فِيه: سَيقُومُ، والمعنى: كان مُتوقَّعاً مِنه القيامُ. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٤٣).

وقيل: بأُحد حينَ حلَّ به ما حلَّ فأرادَ أَنْ يَدعُوَ على المُنهَزِمينَ[١].

(٥١) ـ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ (إنْ) هي المُخفَّفةُ واللامُ دَليلُها، والمعنى: إنَّهُم لشدَّةِ عَداوَتِهم ينظرونَ إليكَ شَزَرًا بحيثُ يَكادونَ يُزِلُّون قدمكَ ويرمونَكَ، مِن قَولِهم: نظرَ إليَّ نظرًا يكادُ يَصرَعُني؛ أي: لو أمكنَهُ بنظرِه الصَّرعُ لفعلَهُ، أو: وإنَّهُم يكادونَ يُصيبُونَكَ بالعينِ، إذ رُوِيَ أنَّه كانَ في بني أسدٍ عَيَّانون، فأُريدَ بعضُهُم على أَنْ يَعِينَ رسولَ اللهِ ﷺ، فنزلَتْ[٢].

وفي الحديثِ: «إنَّ العينَ لتُدخِلُ الرَّجُلَ القبرَ والجَمَلَ القِدرَ»[٣]، ولعلَّهُ يكونُ مِن خصائصِ بعضِ النُّفوسِ.

وقرأَ نافِعٌ: ﴿ليَزلِقُونكَ﴾[٤] مِن: زلَقْتُه فزَلِقَ كحَزَنْتُه فحَزِنَ.

---

(١) ذكرهما الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (٢٧/ ٢٥٩)، و«النكت والعيون» (٦/ ٧٤)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٤٤٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٧)، وقال ابن الجوزي: هذا قول الكلبي، وتابعه قوم من المفسرين تلقفوا ذلك من تفسيره منهم الفراء.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣١٦)، و(٨/ ١٤٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والقضاعي في «الشهاب» (١٠٥٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٣٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وروى البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «العين حق»، وقال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٩٩) بعد أن ذكر حديث جابر رضي الله عنه: رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعاً، وحديث «العين حق» بدون الزيادة متفق عليه عن أبي هريرة، والزيادة ضعيفة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٧)، و«التيسير» (ص: ٢١٣).

وقُرِئَ: (ليُزهِقُونَكَ)[(١)]؛ أي: ليُهلِكُونَكَ.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآنَ؛ أي: ينبعثُ عندَ سَماعِه بُغْضُهم وحَسَدُهم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ حيرةً في أَمرِه وتنفيرًا عنه.

(٥٢) - ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لَمَّا جنَّنوهُ لأَجلِ القُرآنِ بيَّنَ أنَّه ذِكرٌ عامٌّ لا يُدرِكُه ولا يَتعاطاهُ إلَّا مَن كانَ أكمَلَ النَّاسِ عَقْلًا وأمتنَهُمْ رَأْيًا.

عن النبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَنْ قرَأَ سُورةَ القلمِ أَعطاهُ اللهُ ثوابَ الذين حسَّنَ اللهُ أخلاقَهُم»[(٢)].

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٩)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص: ٣١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦١)، عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ١٣٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٦٨) سورة القلم مكية
وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، **وقيل**: المراد بقوله ﴿ ن﴾ حوت عظيم **وقيل**: المراد بقوله ﴿ن﴾ لوح من نور، **وقيل**: المراد بقوله ﴿ ن﴾ الدواة، ﴿والقلم﴾ القلم،روي عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ ن﴾ قالا: هي الدواة، وقوله تعالى: ﴿ والقلم﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله تعالى: ﴿ الذي علَّم بالقلم ۝ علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم، من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿ وما يسطرون﴾ قال ابن عباس: يعني وما يكتبون، وقال أبو الضحى عنه ﴿وما يسطرون﴾ أي وما يعملون، وقال السدي ﴿ وما يسطرون﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد، وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر، حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف عام، روى ابن أبي حاتم عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: أُكتب، قال: يا ربِّ وما أكتب؟ قال أُكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد»[1]. وعن ابن عباس أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلم فأمره فكتب كل شيء»[2]. وقال مجاهد ﴿ والقلم﴾ يعني الذي كتب به الذكر، وقوله تعالى: ﴿ وما يسطرون﴾ أي يكتبون كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ أي لست ولله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) رواه ابن جرير.

المكذبون بما جئتهم به من الهدى حيث نسبوك إلى الجنون، ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، كقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع عنهم، وقال مجاهد ﴿غير ممنون﴾: أي غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه، وقوله تعالى ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قال ابن عباس: وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام، وقال عطية: لعلى أدب عظيم، وقال قتادة: ذكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن[1]، وقال ابن جرير، عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني بخلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2]؟ ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن سجية له وخلقاً، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين عن أنَس، قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلتُه لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله ألاَ فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ[3]، وروى البخاري، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خَلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير[4]، وروى الإمام أحمد، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عزَّ وجل[5].

وقوله تعالى: ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾ أي فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك، من المفتون الضال منك ومنهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة، ﴿بأيكم المفتون﴾ أي المجنون، وقال قتادة: ﴿بأيكم المفتون﴾ أي أولى بالشيطان، ومعنى المفتون ظاهر أي الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بأيكم﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿فستبصر ويبصرون﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أي فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون، والله أعلم، ثم قال تعالى: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه ابن جرير واللفظ له ورواه أبو داود والنسائي بنحوه.

(٣) أخرجه الشيخان عن أنَس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري. (٥) أخرجه الإمام أحمد والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي كتاب سمّاه (الشمائل).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فلا تطع المكذبين ۝ ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون، وقال مجاهد: تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق، ثم قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته، يجترئ على أسماء الله تعالى، باستعمالها في كل وقت في غير محلها، قال ابن عباس: المهين الكاذب، وقال الحسن: ﴿كل حلاف﴾ مكابر ﴿مهين﴾ ضعيف، وقوله تعالى: ﴿هماز﴾ يعني الاغتياب، ﴿مشاء بنميم﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير. أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول. وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(١). وعن همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»(٢). وعن أبي وائل قال: بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث فقال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»(٣)، وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد ابن السكن أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله عزَّ وجلَّ»، ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العَنَت»(٤).

وقوله تعالى: ﴿مناع للخير معتد أثيم﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿معتد﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع، ﴿أثيم﴾ أي يتناول المحرمات، وقوله تعالى: ﴿عُتُل بعد ذلك زنيم﴾ أما العتل فهو الفظ الغليظ، الجموع المنوع. روى الإمام أحمد، عن حارثة بن وهب قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر» وفي رواية: «كل جواظ جعظري مستكبر»(٥). وفي أُخرى لأحمد: «كل جعظري، جواظ(٦)، مستكبر، جمّاع، منّاع» وفي الحديث: «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا هضماً، فكان للناس

(١) رواه الشيخان وبقية الجماعة.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود. والقتات: النمام.

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) أخرجه أحمد وابن ماجة.

(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٦) قال أهل اللغة: الجعظري: الفظ الغليظ، والجواظ: الجموع المنوع.

ظلوماً، فذلك العتل الزنيم »[1] ، فالعتل هو الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك، وأما الزنيم في لغة العرب فهو الدعي في القوم، ومنه قول (حسان بن ثابت) يذم بعض كفّار قريش :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال ابن عباس في قوله ﴿ زنيم ﴾ قال: الدعي الفاحش اللئيم ، وأنشد :

زنيم تداعـاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

والمراد بـه (الأخنس بن شريق) ، وقال مجاهد عن ابن عباس : ﴿ الزنيم ﴾ الملحق النسب، وقال سعيد بن المسيب : هو الملصق بالقوم ليس منهم؛ وسئل عكرمة عن الزنيم فقال: هو ولد الزنا، وقال سعيد بن جبير : الزنيم الذي يعرف بالشر ، كما تعرف الشاة بزنمتها ، والزنيم الملصق، وقال الضحّاك: كانت له زنمة في أصل أذنه، ويقال: هو اللئيم الملصق في النسب، والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين النـاس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره ، وقوله تعالى: ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عزَّ وجلَّ وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ۝ وجعلت له مالاً ممدوداً ۝ وبنين شهوداً ۝ ومهدت له تمهيداً ۝ ثم يطمع أن أزيد۝ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾. ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾، قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفي عليهم السمة على الخراطيم، وقال قتادة ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه، وعنه: سيما على أنفه، وقال ابن عباس: يقاتل يوم بدر فيخطم السيف في القتال، وقال آخرون: ﴿ سنسمه ﴾ سمة أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، ولا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة وفي الحديث: « من مات همازاً لمازاً ملقباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين »[2] .

إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ
عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ
حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ
﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو جزء من حديث .

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفّار قريش، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي حلفوا ليجذن ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿ولا يستثنون﴾ أي فيما حلفوا به، ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي أصابتها آفة سماوية، ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود، وقال السدي: مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً يبساً، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾[1] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم، ﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى (الجذاذ) أي القطع، ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ أي تريدون الصرام، قال مجاهد: كان حرثهم عنباً، ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي يتناجون فيما بينهم، بحيث لا يُسْمِعُون أحداً كلامهم، ثم فسر عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، قال تعالى: ﴿وغدوا على حرد﴾ أي قوة وشدة، وقال مجاهد: على جد، وقال عكرمة: على غيظ، ﴿قادرين﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون، ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله عزّ وجلّ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهوة وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إنا لضالون﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، ثم تيقنوا أنها هي فقالوا ﴿بل نحن محرومون﴾ أي بل هي هذه، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

وقال تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾، أي أعدلهم وخيرهم[2] ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾! قال مجاهد والسدي: أي لولا تستثنون، وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً، وقال ابن جرير: هو قول القائل (إن شاء الله)، **وقيل**: ﴿لولا تسبحون﴾ أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي إعتدينا وبغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ **قيل**: راغبون في بذلها لهم في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة.

الدنيا ، **وقيل**: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ، والله أعلم . ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، **وقيل**: كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكان يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية (رأس المال والربح والصدقة) فلم يبق لهم شيء؛ قال الله تعالى ﴿ كذلك العذاب﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير ، وبدّل نعمة الله كفراً، ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي هذه عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة أشق .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عزَّ وجلَّ، بيّن أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها، ثم قال تعالى: ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ؟ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء، ولهذا قال: ﴿ مالكم كيف تحكمون﴾ ! أي كيف تظنون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون﴾ يقول تعالى أفبأيديكم كتاب منزل من السماء، تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ ﴿إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ؟ إن لكم لما تحكمون﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ؟ ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون؛ ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا ! قال ابن عباس: أيهم بذلك كفيل ﴿ أم لهم شركاء﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ يعني يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، والبلاء والامتحان

والأمور العظام، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»(١). وقال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة. وعن ابن مسعود ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: عن أمر عظيم كقول الشاعر: شالت الحرب عن ساق(٢). وقال ابن جرير عن مجاهد: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: شدة الأمر وجده، وقال ابن عباس قوله: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة، وقال العوفي، عن ابن عباس قوله ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة، وروي عن النبي ﷺ قال: «﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يعني عن نور عظيم يخرون له سجداً»(٣)، وقوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ أي في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عزَّ وجلَّ فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين أو المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه، ثم قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ يعني القرآن، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه أنا أعلم كيف أستدرجه ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ أي أؤخرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن كيدي متين﴾ أي عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾! المعنى أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك ويجعل العاقبة لك

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث مشهور.

(٢) رواه عنهما ابن جرير رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بردة بن أبي موسى مرفوعاً، ورواه أبو يعلى وفيه رجل بهم.

(٤) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني ذا النون وهو (يونس بن متى) عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أن لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، قال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين ۝ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾، وقال ههنا: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهو مغموم، وقال عطاء: مكروب، وقد قدمنا في الحديث أنه لما قال ﴿لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ خرجت الكلمة تحنّ حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال الله تبارك وتعالى: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا، قال هذا يونس، قالوا: يا رب عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة، قال: نعم، قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء، فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[(١)]. وقوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿ليزلقونك﴾ لينفذونك ﴿بأبصارهم﴾ أي يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عزَّ وجلَّ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية، روى أبو داود عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ»[(٢)]. وروى ابن ماجة، عن بريدة بن الحصيب قال، قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة»[(٣)]. وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[(٤)]. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»[(٥)].

وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل، فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين والله يشفيك[(٦)]، وقال رسول الله ﷺ: «إن العين حق»[(٧)]. **حديث أسماء بنت عميس**: قال الإمام أحمد، عن عبيد بن رفاعة الزرقي قال، قالت أسماء: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم. فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»[(٨)]. **حديث عائشة رضي الله**

---

(١) أخرجه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) روه أبو داود.

(٣) أخرجه ابن ماجة ورواه البخاري والترمذي عن عمر بن حصين موقوفاً.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) أخرجه البخاري وأهل السنن.

(٦) أخرجه الإمام أحمد.

(٧) أخرجاه في الصحيحين.

(٨) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

عنها : روى ابن ماجة ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين[١]. وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « استعيذوا بالله فإن النفس حق »[٢] ، وقال أبو داود عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين[٣] . **حديث سهل ابن حنيف** : قال الإمام أحمد ، عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف أن أباه حدّثه : أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة ، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من (الجحفة) اغتسل سهل بن الأحنف ، وكان رجلاً ابيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ، فلبط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقيل له : يا رسول الله هل لك في سهل ؟ والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ، قال : « هل تتهمون فيه من أحد ؟ » قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة ، فدعا رسول الله ﷺ عامرا فتغيظ عليه ، وقال: « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت ؟ - ثم قال - اغتسل له » فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبته وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس[٤] . **حديث عبدالله بن عمرو** : قال الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد والعين حق »[٥] . وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون﴾ أي يزدرونه بأعينهم، ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون ﴿إنه لمجنون﴾ أي لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ .

[آخر تفسير سورة ن ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الشيخان وابن ماجة .
(٢) أخرجه ابن ماجة .
(٣) رواه أبو داود وأحمد .
(٤) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجة بنحوه .
(٥) تفرد به الإمام أحمد .

تفسير سورة « ن »

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول «سورة البقرة» ،وأن قوله: ﴿ ن ﴾ كقوله: ﴿ ص ﴾ ، ﴿ ق ﴾،ونحو ذلك من الحروف المقطعة فى أوائل السور،وتحرير القول فى ذلك بما أغنى عن إعادته.

وقيل : المراد بقوله : ﴿ ن ﴾ : حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط ، وهو حامل [(١)] للأرضين السبع ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان ــ هو الثورى ــ حدثنا سليمان ــ هو الأعمش ــ عن أبى ظَبْيان ، عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال: اكتب القَدَر . فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة . ثم خلق « النون » ورفع بخار الماء، ففُتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض [(٢)] .

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن سنان ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، به . وهكذا رواه شعبة ، ومحمد بن فُضَيل ، ووَكِيع ، عن الأعمش ، به. وزاد شعبة فى روايته : ثم قرأ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . وقد رواه شريك ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ــ أو مجاهد ــ عن ابن عباس، فذكر نحوه . ورواه مَعْمَر ، عن الأعمش : أن ابن عباس قال . . . فذكره ، ثم قرأ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى الضُّحَى ، عن ابن عباس قال : إن أول شىء خلق ربى ، عز وجل ، القلم ، ثم قال له : اكتب . فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة . ثم خلق « النون » فوق الماء ، ثم كبس الأرض عليه [(٣)] .

---

(١) فى أ : « وهو الحامل » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٩) .
(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠) .

وقد روى الطبرانى ذلك مرفوعاً فقال : حدثنا أبو حبيب (١) زيد بن المهتدى المروذى (٢) ، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى ، حدثنا مُؤَمَّل بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صَبِيح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، قال للقلم : اكتب ، قال : ما أكتب ، قال : كل شىء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فالنون : الحوت .والقلم : القلم (٣) .

حديث آخر فى ذلك : رواه ابن عساكر عن أبى عبد الله مولى بنى أمية ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول شىء خلقه الله القلم ، ثم خلق « النون » وهى : الدواة . ثم قال له : اكتب .قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون ــ أو : ما هو كائن ــ من عمل أو رزق أو أثر أو أجل . فكتب ذلك إلى يوم القيامة ، فذلك قوله : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة ، ثم خلقِ العقل وقال : وعزتى لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت » (٤) .

وقال ابن أبى نَجِيح : إن إبراهيم بن أبى بكر أخبره عن مجاهد قال : كان يقال : النون : الحوت [العظيم] (٥) الذى تحت الأرض السابعة .

وذكر البغوى وجماعة من المفسرين : إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض ،وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن،وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن (٦)، فالله أعلم . ومن العجيب (٧) أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس : أن عبد الله بن سلام بَلَغه مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه فسأله عن أشياء ، قال : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى ، قال : ما أول أشراط الساعة ؟وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ والولد ينزع إلى أمه ؟ قال : «أخبرنى بهن جبريل آنفاً » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : « أما أول أشراط الساعة فنار تَحشرهم (٨) من المشرق إلى المغرب . وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادةُ كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نَزَع الولد ،وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت » .

---

(١) فى أ : « أبو صهيب » . (٢) فى أ : « المهدى ».

(٣) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٣) وقال : « لم يرفعه عن حماد بن زيد إلامؤمل بن إسماعيل » .ومؤمل كثير الخطأ، فلعله أخطأ فى رفعه .

(٤) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٩٢ « المخطوط») ورواه الحكيم الترمذى كما فى إتحاف السادة المتقين(١/ ٤٥٤) من طريق يحيى الغسانى ، عن أبى عبد الله ، عن أبى صالح ، به . ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٦٩) من طريق محمد بن وهب ، عن مسلم ، عن مالك ، عن سمى ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه ، وقال : « هذا بهذا الإسناد باطل منكر » وآفته محمد بن وهب . قال الذهبى فى الميزان : « صدق ابن عدى فى أن هذا الحديث باطل » .

(٥) زيادة من م.

(٦) معالم التنزيل (٨/ ١٨٦) وهذا من الإسرائيليات كما ذكر ذلك الشيخ محمد أبو شهبة فى كتابه :« الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » (ص٣٠٥) وقال الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص٧٦) فى ذكر علامات الوضع : « أن يكون الحديث مما تشهد الشواهد الصحيحة على بطلانه ، ومن هذا حديث :« إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة ، فتحركت الأرض، وهى الزلزلة » والعجب من مُسَوِّد كُتُبه بهذه الهذيانات » .أ.هـ .

(٧) فى أ : « ومن العجب » . (٨) فى أ : « تحشر الناس » .

ورواه البخارى من طرق عن حُمَيد ، ورواه مسلم أيضا [١] . وله من حديث ثوبان ــ مولى رسول الله ﷺ ــ نحو هذا . وفى صحيح مسلم من حديث أبى أسماء الرحبى ، عن ثوبان : أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل ، فكان منها أن قال : فما تحفتهم ؟ ــ يعنى أهل الجنة حين يدخلون الجنة ــ قال : « زيادة كبد الحوت » . قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال :« من عين فيها تسمى سلسبيلا » [٢] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ نٓ ﴾ : لوح من نور .

قال ابن جرير : حدثنا الحسين بن شبيب المكتب ، حدثنا محمد بن زياد الجزرى ، عن فرات بن أبى الفرات ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ: « ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: لوح من نور ، وقلم من نور ، يجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » [٣] . وهذا مرسل غريب .

وقال ابن جُرَيج [٤] : أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام .

وقيل : المراد بقوله : ﴿نٓ﴾ : دواة ، والقلم : القلم . قال ابن جرير :

حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن وقتادة فى قوله : ﴿نٓ﴾ قالا : هى الدواة .

وقد روى فى هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا أبو عبد الله مولى بنى أمية، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« خلق الله النون ،وهى الدواة» [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أخى عيسى بن عبد الله ، حدثنا ثابت الثمالى ، عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ــ وهى الدواة ــ وخلق القلم ، فقال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول ، بر أو فجور ، أو رزق مقسوم حلال أو حرام . ثم ألزم كل شىء من ذلك ، شأنه : دخوله فى الدنيا ، ومقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف ؟ ثم جعل على العباد حفظة ، وللكتاب خزاناً ، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فنى الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل ، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فتقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً . فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا . قال : فقال ابن عباس : ألستم قوماً عَرَبا تسمعون الحفظة يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل [٦] .

(١) المسند (٣/١٨٩) وصحيح البخارى برقم (٣٩٣٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم .
(٢) صحيح مسلم برقم (٣١٥) .
(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠) .
(٤) فى أ: « ابن جرير» .
(٥) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١٧/ ٤٩٢ « المخطوط») من طريق الفريابى ، عن هشام ، عن الحسن بن يحيى به مطولاً ،وقد تقدم قريباً فى هذه السورة .
(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠).

وقوله : ﴿وَالْقَلَمِ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣ ــ ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون .

وقال أبو الضُحى ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : وما يعملون .

وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من عمل العباد .

وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالا : حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا عبد الواحد بن سُليم السلمى ، عن عطاء ــ هو ابن أبى رباح ــ حدثنى الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر [ما كان] (١) وما هو كائن إلى الأبد » .

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق ، عن الوليد بن عبادة ، عن أبيه ، به (٢) . وأخرجه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، به (٣) . وقال : حسن صحيح غريب . ورواه أبو داود فى كتاب «السنة» من سننه ، عن جعفر بن مسافر ، عن يحيى بن حسان ، عن ابن رباح ، عن إبراهيم بن أبى عبلة (٤) ، عن أبى حفصة ــ واسمه حُبَيش بن شُريح الحَبَشى الشامى ــ عن عبادة ، فذكره (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله الطوسى ، حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا رباح بن زيد ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبى بَزة (٦) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول شىء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شىء » . غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه (٧) .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿وَالْقَلَمِ﴾ يعنى : الذى كتب به الذكر .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم .

---

(١) زيادة من منحة المعبود . مستفاداً من هامش ط ــ الشعب .

(٢) المسند (٥/٣١٧) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩) .

(٤) فى أ : « عن ابن أبى عبلة » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٠٠) .

(٦) فى أ : « بن أبى مرة » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٩/١١) .

وقوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبيد ، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين[١] عظيم ، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحاك، وابن زيد .

وقال عطية : لعلى أدب عظيم . وقال مَعْمَر ، عن قتادة : سُئلت عائشةُ عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو فى القرآن .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة ، عن قتادة قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : ذكر لنا أن سعد[٢] ابن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : ألست تقرأ القران ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى[٣] ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبرينى يا أم المؤمنين ــ عن خُلُق رسول الله ﷺ. فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلتُ : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن[٤] .

هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، من حديث قتادة بطوله[٥] . وسيأتى فى سورة « المزمل » إن شاء الله تعالى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن[٦] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا شريك ، عن قيس بن وهب ، عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ قال : قلت : حدثينى عن ذاك . قالت : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتى : اذهبى فإن جاءت هى بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحى الطعام ! قالت : فجاءت بالطعام . قالت : فألقت[٧] الجارية ، فوقعت القصعة فانكسرت ــ وكان نِطْعاً[٨] ــ قالت : فجمعه رسول الله

---

(١) فى أ : « لعلى خلق » . (٢) فى أ : « أن سعيد » . (٣) فى أ : « زرارة بن أبى أوفى » .
(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٤٥) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٤٦) .
(٦) المسند (٦/ ٢١٦) .
(٧) فى أ : « فالتفتت » .
(٨) فى هـ ، م ، أ : « نطع » ، والمثبت من المسند .

ﷺ وقال : « اقتضوا ـ أو : اقتضى ـ شك أسود ـ ظَرفاً مكان ظَرفِك ». قالت: فما قال شيئاً [١].

وقال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبى أياس ، حدثنا أبى ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن سعد [٢] بن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبرينى بخُلق النبى [٣] ﷺ . فقالت : كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد روى أبو داود والنسائى ، من حديث الحسن ، نحوه [٤] .

وقال ابن جرير: حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، وأخبرنى معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جُبَير بن نفير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن .

هكذا رواه أحمد ، عن عبد الرحمن بن مهدى . ورواه النسائى فى التفسير ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، به [٥] .

ومعنى هذا أنه ، عليه السلام ، صار امتثالُ القرآن ، أمراً ونهياً ، سجيةٌ له ، وخلقاً تَطَبَّعَه ، وترك طبعه الجِبلِّى ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : « أف » قط ، ولا قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعلَه : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسِسْتُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ [٦] .

وقال البخارى : [حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله] [٧] ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير [٨] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن

---

(١) المسند (٦/ ١١) .

(٢) فى هـ ، أ : « سعيد » ، والمثبت من م وتفسير الطبرى .

(٣) فى م : « رسول الله » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٥٢) وسنن النسائى (٣/ ٢٢٠) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٣) والمسند (٦ / ١٨٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٣٨) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٩) .

(٧) زيادة من م ، أ ، و صحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٥٤٩) .

يجاهد فى سبيل الله . ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شىء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله ، عز وجل (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد بن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسولُ الله ﷺ :« إنما بُعِثتُ لأتمم صالح الأخلاق » . تفرد به (٢) .

وقوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى : فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾ أى : الجنون . وكذا قال مجاهد ، وغيره .

وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾ أى : أولى بالشيطان .

ومعنى المفتون ظاهر ، أى : الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء فى قوله : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون﴾ لتدل على تضمين الفعل فى قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون ، أو : فستُخبَر ويُخبَرون بأيكم المفتون . والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين ﴾ أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِين ﴾ .

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون ﴾ : قال ابن عباس : لو تُرَخِّص لهم فيُرَخِّصون .

وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها .

(١) المسند (٦/ ٢٣٢) .
(٢) المسند (٢/ ٣٨١) .

قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

وقوله : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ : قال ابن عباس وقتادة : يعني الاغتياب .

﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهى الحالقة ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد ،عن طاوس،عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر[1] من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث . وأخرجه بقية الجماعة فى كتبهم ، من طرق عن مجاهد ، به[2] .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن هَمّام ؛أن حُذَيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات » .

رواه الجماعة ــ إلا ابن ماجة ــ من طرق ، عن إبراهيم ، به[3] .

وحدثنا عبد الرزاق ، حدثنا الثورى ،عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات » يعنى : نماما[4] .

وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول ، عن الأعمش ، حدثنى إبراهيم ــ منذ نحو ستين سنة ــ عن همام بن الحرث قال : مر رجل على حذيفة فقيل : إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء . فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ــ أو : قال ــ : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات »[5] .

وقال أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا مهدى ، عن واصل الأحدب ، عن أبى وائل قال : بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ قال: « لا يدخل الجنة نمام »[6] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيم ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن ؛ أن النبى ﷺ قال :« ألا أخبركم بخياركم ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رُؤوا ذُكر الله ، عز وجل » . ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العَنَت » .

ورواه ابن ماجة ، عن سويد بن سعيد ، عن يحيى بن سليم ، عن ابن خُثَيم ، به[7] .

---

(١) فى أ : « لا يستبرئ » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٠) وسنن الترمذى برقم (٧٠) وسنن النسائى (٢٨/١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٤٧) .

(٣) المسند (٣٨٢/٥) وصحيح البخارى برقم (٦٥٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧١) وسنن الترمذى برقم (٢٠٢٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤) .

(٤ ، ٥) المسند (٣٨٩/٥) .

(٦) المسند (٥ / ٣٩١) .

(٧) المسند (٦/ ٤٥٩) وسنن ابن ماجة برقم (٤١١٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٧٣/٣) : « هذا إسناد حسن ، شهر وسويد مختلف فيهما ، وباقى رجال الإسناد ثقات » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى حُسَين ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن ابن غَنْم ـ يبلغ به النبى ﷺ :« خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت »(١) .

وقوله : ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فى متناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أى : يتناول المحرمات .

وقوله : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ : أما العتل : الفظ الغليظ الصحيح ، الجموع المَنُوعُ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن ، عن سفيان ، عن مَعْبَد (٢) بن خالد ، عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ :« ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عُتل جَوّاظ مستكبر » . وقال وكِيع :« كل جَوّاظ جعظرى مستكبر » .

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة ، إلا أبا داود ، من حديث سفيان الثورى وشعبة ،كلاهما عن معبد بن خالد ، به (٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن على قال : سمعت أبى يحدِّث عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ أن النبى ﷺ قال عند ذكر أهل النار :« كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع » . تفرد به أحمد (٤) .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الفَظُّ الغَليظ ، والجَوّاظ : الجَمُوع المَنُوع .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكِيع ، حدثنا عبد الحميد ، عن شَهْر بن حَوْشب ، عن عبد الرحمن ابن غَنْم ، قال : سُئل رسول الله ﷺ عن العُتلِّ الزنيم ، فقال : « هو الشديد الخَلْق المصحح ، الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، رحيب الجوف » (٥) .

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة الجَواظ الجعظرى ، والعتل الزنيم » (٦) وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ : « تبكى السماء من عبد أصح الله جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مِقضَماً ، فكان للناس ظلوماً . قال : فذلك العُتُل (٧) الزنيم » (٨) .

---

(١) المسند (٤/٢٢٧) .

(٢) فى أ : «سعيد ».

(٣) المسند (٤/٣٠٦) وصحيح البخارى برقم (٤٩١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢٦٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١٥) وسنن ابن ماجة برقم (٤١١٦) .

(٤) المسند (٢/١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) المسند (٤/٢٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٣) :« إسناده حسن ، إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبى ﷺ » وقال فى موضع آخر (٧/١٢٨) : « فيه شهر بن حوشب وثقه جماعة وفيه ضعف ، وعبد الرحمن بن غنم ليس له صحبة على الصحيح ».

(٦) المسند (٤/٢٢٧) .

(٧) فى م ،أ : «العبد » .

(٨) تفسير الطبرى (١٩/١٦) وهو مرسل .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريقين مرسلين ، ونص عليه غير واحد من السلف ، منهم مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : أن العتل هو : المُصحَّح الخَلْق ، الشديد القوى فى المأكل والمشرب والمنكح ، وغير ذلك ، وأما الزنيم فقال البخارى :

حدثنا محمود ، حدثنا عُبَيد الله، عن [١] إسرائيل ، عن أبى حَصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال : رجلٌ من قريش له زَنَمة مثل زَنَمَة الشاة .

ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالشر[٢] كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدَّعِىُّ فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة ، قال : ومنه قول حسان ابن ثابت ، يعنى يذم بعض كفار قريش :

وأنــتَ زَنيم نِيطَ فى آل هــاشــم كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرّاكِب القَدَحُ الفَرْدُ [٣]

وقال آخر :

زَنيـمٌ لَـيْسَ يُـعـرَفُ مَـن أبــوهُ بَغــىُّ الأم ذُو حَـسَب لَـئـيــم

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا أسباط ، عن هشام ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : الدعىُّ الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عباس :

زَنيمٌ تَـداعــاه الـــرجالُ زيــادَةً كَما زيدَ فى عَرضِ الأديم الأكَــارعُ [٤]

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زنمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس بن شَرِيق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسودُ بن عبد يغوث الزهرى ، وليس به .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم المُلحَق النسب .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنى يونس،حدثنا ابن وهب،حدثنى سليمان بن بلال ، عن عبد الرحمن ابن حَرملة ، عن سعيد بن المُسيَّب ، أنه سمعه يقول فى هذه الآية : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال سعيد : هو الملصق فى القوم ، ليس منهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عقبة بن خالد ، عن عامر بن قدامة قال : سئل عكرمة عن الزنيم ، قال : هو ولد الزنا .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله تعالى :﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء . والزنماء من الشياه : التى فى عنقها هَنَتان معلقتان فى حلقها .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الحسن ، عن سعيد بن جبير قال : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها . والزنيم : الملصق . رواه ابن جرير .

---

(١) فى أ :« بن » . (٢) فى أ : « بالسوء » .

(٣) تفسير الطبرى (١٩/١٧) .

(٤) البيت فى اللسان ، مادة « زنم » منسوباً إلى الخطيم التميمى .

وروى أيضا من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال فى الزنيم : قال : نُعتَ فلم يعرف حتى قيل : زنيم . قال : وكانت له زَنَمَةٌ فى عنقه يُعرَف بها . وقال آخرون : كان دَعِياً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن إدريس ، عن أبيه ، عن أصحاب التفسير قالوا[1]: هو الذى تكون له زَنَمةٌ مثل زَنَمة الشاة .

وقال الضحاك : كانت له زَنَمَة فى أصل أذنه ، ويقال : هو اللئيم الملصق فى النسب .

وقال أبو إسحاق : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : هو المريب الذى يعرف بالشر .

وقال مجاهد : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة . وقال أبو رَزِين : الزنيم علامة الكفر . وقال عكرمة : الزنيم الذى يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها .

والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد زنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره ، كما جاء فى الحديث : « لا يدخل الجنة ولد زنا » [2] . وفى الحديث الآخر :« ولد الزنا شَرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه » [3] .

وقوله : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كَذِب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:١١ ــ ٢٦] . وقال تعالى هاهنا : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ .

قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم [4] . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه .

---

(١) فى أ :« قال » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٩٢٥،٤٩٢٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٣/١١١) قال : « وفيه مخالفة للأصول وأعظمها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤]» . قال الإمام ابن القيم متعقباً على ابن الجوزى فى المنار المنيف (ص١٣٣) :« ليست معرضة بها إن صحت ،فإنه لم يحرم الجنة بفعل والديه ، بل لأن النطفة الخبيثة لا يتخلق منها طيب فى الغالب ، ولا يدخل الجنة إلا نفس طيبة ، فإن كانت فى هذا الجنس طيبة دخلت الجنة ،وكان الحديث من العام المخصوص، وقد ورد فى ذمه :« أنه شر الثلاثة » وهو حديث حسن ومعناه صحيح بهذا الاعتبار، فإن شر الأبوين عارض ، وهذه نطفة خبيثة فشره فى أصله وشر الأبوين فى فعلهما » . قلت : ويوجه أيضاً بالتقييد الذى فى حديث عائشة الآتى بأنه شر الثلاثة إذا عَمِلَ عَمَلَ أبويه ،وكلام ابن الجوزى منطبق على حديث : « ولد الزنا فى النار إلى سبعة أبناء » . وهو موضوع .

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/١٠٩) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، و(٢/٣١١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « على الخرطوم » .

وفى رواية عنه : سيما [(١)] على أنفه . وكذا قال السدى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيُخطم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿سَنَسِمُهُ﴾ :سمة أهل النار ، يعنى : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متّجه .

وقد [(٢)] قال ابن أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث ، حدثني خالد عن [(٣)] سعيد ، عن عبد الملك بن عبد الله ، عن عيسي بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقابا [(٤)] ثم يموت والله عليه ساخط . وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ، ثم يموت والله عليه [(٥)] راض . ومن مات همَّازاً لـمَّازاً مُلَقِّبا للناس ، كان علامته يوم القيامة أن يسميه الله على الخرطوم ، من كلا الشفتين » [(٦)] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بَعْثُه محمداً ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبرناهم ، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار

(١) فى م :« سنسمه سيما » .
(٢) فى م : « ولهذا ».
(٣) فى م ، أ ، هـ: « بن » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .
(٤) فى أ: «أحيانا ثم أحيانا » .
(٥) فى م : « عنه » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (٦٠) « القطعة المفقودة » والمعجم الأوسط برقم (٣٢٣٤) « مجمع البحرين » عن المطلب الأزدى، عن عبد الله بن صالح به . وقال فى الأوسط : « لا يروى عن عبد الله بن عمرو إلا بهذا الإسناد ، تفرد به الليث » .

والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي :حلفوا فيما بينهم لَيَجُذَّنَّ ثَمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : أصابتها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ : قال ابن عباس : أي كالليل الأسود . وقال الثورى، والسدى : مثل الزرع إذا حُصِد ، أي : هشيماً يبساً .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن أحمد بن الصباح : أنبأنا بشير بن زاذان ، عن عمر بن صبح [(١)]، عن ليث بن أبى سليم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعاصى ، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيِّئ له » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾،قد حرموا خَير جَنّتهم بذنبهم[(٢)] .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجَذَاذ ، ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عِنَباً ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبى : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين . وقال السدى : ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدى فى قوله هذا ! .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويَرومون. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة ، لا يُنتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هذه هى، ولكن نحن لا حَظّ لنا ولا نصيب .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس ،والضحاك ، وقتادة: أي : أعدلهم وخيرهم:﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي : لولا تستثنون . قال السدى : وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحاً .

---

(١) فى أ :« بن صبيح » .

(٢) وفى إسناده عمر بن صبح قال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث . وقال الدارقطنى : متروك . وقال الأزدى : كذاب . وله شاهد من حديث ثوبان ، رضى الله عنه ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٧) .

قال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجَذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أى : اعتدينا وبغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبو فى بدلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ــ قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان [١] ، على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ــ وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى :هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء [٢] وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق . وقد ورد فى حديث رواه الحافظ البيهقى من طريق جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، عن أبيه ، عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجداد [٣] بالليل ، والحصاد بالليل [٤] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾ .

---

(١) فى أ : « جردان » .

(٢) فى أ : « حق المسكين والفقير » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « الجذاذ » بالذال وهو خطأ والمثبت من سنن البيهقى .

(٤) سنن البيهقى الكبرى (٤/ ١٣٣) والجداد ــ بالدال بالفتح والكسر ــ قال ابن الأثير فى النهاية (١/ ٢٤٤) : « هى صرام النخل ، وهو قطع ثمرتها ، يقال : جدّ الثمرة يجدُّها جدّا ، وإنما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى يحضروا فى النهار فيتصدق عليهم منه » .

لما ذكر [الله] (١) تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تَبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها .

ثم قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ .

ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكما مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده (٢) جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وقد قال البخارى هاهنا :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشفُ ربّنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طَبَقاً واحداً » (٣) .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وفى غيرهما من طرق (٤) ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور .

وقد قال عبد الله بن المبارك ، عن أسامة بن زيد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « عند ربهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٩) .
(٤) وهو حديث الشفاعة وقد سبق سياقه بطرقه وألفاظه عند تفسير أول سورة الإسراء .

عَن سَاق ﴾ قال : هو يوم كَرْب وشدة . رواه ابن جرير ثم قال :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود ـ أو : ابن عباس ، الشك من ابن جرير ـ : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : عن أمر عظيم ، كقول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق [١]

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : شدة الأمر [٢] .

وقال ابن عباس : هى أول [٣] ساعة تكون فى يوم القيامة .

وقال بن جُرَيج ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : شدة الأمر وجده .

وقال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ : هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ يقول : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال . وكشفه دخول الآخرة ، وكشف الأمر عنه . وكذا روى الضحاك عن ابن عباس . أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال :

حدثنى أبو زيد عمر بن شبَّة ، حدثنا هارون بن عمر المخزومى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح ، عن مولى لعمر بن عبد العزيز ، عن أبى بردة بن أبى موسى ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : « عن نور عظيم ، يخرون له سجداً » .

ورواه أبو يعلى ، عن القاسم بن يحيى ، عن الوليد بن مسلم ، به [٤] . وفيه رجل مبهم [٥] ، فالله أعلم .

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٩/ ٢٤) .

(٢) فى أ : « الأمر وجده». (٣) فى م : « هى أشد » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٢٧) ومسند أبى يعلى (١٣/ ٢٦٩) .

تنبيه : ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق،وهذا فهم خاطئ ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير فسر هذه الآية بحديث أبى سعيد ،رضى الله عنه ،ثم ذكر ما قيل فى هذه الآية،وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية كلاماً بديعاً قال، رحمه الله ، فى الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢،٢٥٣) : « والصحابة متنازعون فى تفسير هذه الآية : هل المراد الكشف عن الشدة ؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا فى غير هذا الموضوع ، وليس فى ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله ؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه ، وإنما ذكره مجرداً عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن ، وإنما أثبتوه بحديث أبى سعيد الخدرى المتفق على صحته ، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه : « فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً » . ومن حمل الآية على ذلك قال : قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم :٤٢] : مطابق لقوله ﷺ: « فيكشف عن ساقه فيخرون له سجداً » . وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال : يكشف عن ساق عظيمة،جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه ،قالوا :وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه ؛ فإن لغة القوم فى مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لاكشف عنها كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠] ، وقال:﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ [المؤمنون :٧٥] ، فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه ، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد ، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود ، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة» انتهى نقلا عن التحذير من مختصرات الصابونى ، وانظر: عقيدة الحافظ ابن كثير للشيخ عبد الآخر الغنيمى (ص٤٨،٤٩) والتحذير للشيخ بكر أبو زيد (ص٣٥٠ ـ ٣٥٣) .

(٥) فى أ :« رجل متهم » .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمده فى غيه وأنظر [١]، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم [٢] ، وذلك من كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُمْلى للظالم ،حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه ». ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] [٣] .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ . أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» [٤] [٥]. والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ .

---

(١) فى أ : « وأنظره » . (٢) فى أ : « وأمد لهم » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « فى سورة النور » .

(٥) عند تفسير الآيتين : ٤٠، ٤١ .

يقول تعالى : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مُغَاضِباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يُرَدّ ما أنفذَه من التقدير ، فحينئذ نادى فى الظلمات: ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] . قال الله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ ،١٤٤] وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : مغموم . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد قدمنا فى الحديث أنه لما قال : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، خرجت الكلمة تَحُفّ حول العرش ، فقالت الملائكة : يا رب ، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال الله : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا يونس . قالوا : يارب ، عبدك الذى لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة ؟ قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمله فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ،حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى (١) . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ : لَيَنْفُذونك بأبصارهم ، أى : لَيَعينُوك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة :

حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه : قال أبو داود : حدثنا سليمان بن داود العَتَكى ، حدثنا شريك (ح) ، وحدثنا العباس العَنْبَرِىّ ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك ، عن العباس بن ذَرِيح، عن الشعبى ـ قال العباس : عن أنس ـ قال : قال النبى ﷺ: « لا رقية إلا من عين أو حُمة أو دم لا يرقأ » . لم يذكر العباس العين . وهذا لفظ سليمان (٣) .

حديث بُرَيدة بن الحُصَيب ، رضى الله عنه : قال أبو عبد الله بن ماجة :حدثنا محمد بن عبد الله ابن نُمَير ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبى جعفر الرازى ، عن حُصَين ، عن الشعبى ، عن

(١) المسند (١/ ٣٩٠) وصحيح البخارى برقم (٤٦٠٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٦) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٨٩) .

بُرَيدة بن الحصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حُمة » (١) .

هكذا رواه ابن ماجة ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، عن سعيد بن منصور ، عن هشيم ، عن حُصَين بن عبد الرحمن ، عن عامر الشعبى ، عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (٢) . وقد رواه شعبة ، عن حصين ، عن الشعبى ،عن بريدة .قاله الترمذى (٣) . وروى هذا الحديث الإمام البخارى من حديث محمد بن فضيل ، وأبو داود من حديث مالك بن مِغْول ، والترمذى من حديث سفيان ابن عيينة ، ثلاثتهم عن حصين ، عن عامر الشعبى ، عن عمرانَ بن حُصَين موقوفاً (٤) .

حديث أبى جندب بن جنادة : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى ، رحمه الله : حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البِرِند السامى ، حدثنا ديلم بن غَزوان ، حدثنا وهْب بن أبى دبى ، عن أبى حرب ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتولع الرجلَ بإذن الله ، فيتصاعد حالقا، ثم يتردى منه » إسناده غريب ، ولم يخرجوه (٥) .

حديث حابس التميمى : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى بن أبى كثير ، حدثنى حَيَّة بن حابس التميمى : أن أباه أخبره : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا شىء فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطِّيَرَة (٦) الفَألُ » (٧) .

وقد رواه الترمذى عن عمرو بن على ، عن أبى غسان يحيى بن كثير ، عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، به (٨). ثم قال غريب . قال : وروى شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حَيَّة بن حابس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ .

قلت : كذلك رواه الإمام أحمد ، عن حسن بن موسى وحُسَين بن محمد ، عن شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حَيَّة ، حدثه عن أبيه ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل » (٩) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن سفيان ، عن دُوَيد ، حدثنى إسماعيل بن ثوبان ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « العين

---

(١) سنن ابن ماجة برقم(٣٥١٣) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٠) .

(٣) سنن الترمذى (٤/ ٣٤٥) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٧٠٥) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٤) وسنن الترمذى برقم (٢٠٧٥) .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٠٤) من طريق أبى يعلى لكنه وقع فيه : إبراهيم ، عن ديلم ،عن وهب بن أبى دبى ، عن محجن، عن أبى زر به ، فأسقط أبوحرب ،وسيأتى توجيه ذلك من كلام ابن عدى ،ورواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ١٤٦) من طريق يونس بن محمد ، وابن عدى فى الكامل (٣/ ١٠٤) من طريق الصلت بن مسعود كلاهما عن ديلم بن غزوان،عن وهب ، عن أبى حرب ، عن محجن ، عن أبى ذر به، قال ابن عدى : « وهذا الحديث يرويه ديلم عن وهب بن أبى دبى ، وأظن أنه وهم من رواية الصلت حيث قال : عن وهب بن أبى دبى ، عن أبى حرب ، عن محجن ، ولعل أبا حرب هو محجن » .

(٦) فى م : « الطير » ، وفى أ : «الظن » .

(٧) المسند (٥/ ٧٠) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٠٦١) .

(٩) المسند (٥/ ٧٠) .

حق ، العين حق ، تستنزل الحالق »[١] غريب .

طريق أخرى : قال مسلم فى صحيحه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، أخبرنا مسلم ابن إبراهيم ، حدثنا وُهَيب ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شىء سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَت العين ، وإذا اغْتُسلتم فاغسلوا » . انفرد به دون البخارى[٢] .

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهَامَّة ، ومن كل عين لامَّة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » .

أخرجه البخارى وأهل السنن من حديث المنهال ، به[٣] .

حديث أبى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف ، رضى الله عنه : قال ابن ماجة : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل بن حُنَيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنَيف ، وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلدَ مخبأة . فما لبث أن لُبِطَ به ، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلا صريعاً . قال : « من تتهمون به ؟ ». قالوا: عامر بن ربيعة . قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فَلْيَدعُ له بالبركة » . ثُم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، ودَاخِلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه .

قال سفيان : قال مَعْمَر ، عن الزهرى : وأمر أن يكفَأ الإناء من خلفه[٤] .

وقد رواه النسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس ، كلاهما عن الزهرى ، به . ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة : ويكفَأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبى ذئب عن الزهرى ، عن أبى أمامة أسعد بن سهل بن حُنَيف ، عن أبيه ،به . ومن حديث مالك أيضاً ، عن محمد بن أبى أمامة بن سهل ، عن أبيه ، به[٥] .

حديث أبى سعيد الخدرى : قال ابن ماجة : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، عن الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين[٦] الجان وأعين الإنس . فلما نزل[٧] المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك .

---

(١) المسند (١/ ٢٧٤) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٧) وسنن الترمذى برقم (٢٠٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٢٥) .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٩) .

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٦١٧ ـ ٧٦١٩) .

(٦) فى م : « من عين » .

(٧) فى م : « فلما نزلت » .

ورواه الترمذى والنسائى من حديث سعيد بن إياس [١] أبى مسعود الجُرَيرى ، به [٢] . وقال الترمذى : حسن .

حديث آخر عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثنى أبى ، حدثنى عبد العزيز بن صُهيب ، حدثنى أبو نضرة ، عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أرقيك [٣] .

ورواه عن عفان ، عن عبد الوارث ، مثله . ورواه مسلم وأهل السنن ــ إلا أبا داود ــ من حديث عبد الوارث ، به [٤] .

قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود ، عن أبى نَضرة ، عن أبى سعيد ــ أو : عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ اشتكى ، فأتاه جبريل فقال : باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من كل حاسد وعين الله يُشفيك [٥] .

ورواه أيضاً ، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوى ، عن داود ، عن أبى نَضرة ، عن أبى سعيد، به [٦] .

قال أبو زُرْعَة الرازى : روى عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن أبى نَضْرَةَ ، وعن عبد العزيز ، عن أنس ، فى معناه ، وكلاهما صحيح .

حديث أبى هُرَيرة : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق » [٧].

أخرجاه من حديث عبد الرزاق [٨].

وقال ابن ماجة : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن الجُرَيرى ، عن مُضَارب بن حَزن ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » . تفرد به .

ورواه أحمد ، عن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن سعيد الجُرَيْرى ، به [٩].

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور ــ يعنى ابن يزيد ــ عن مكحول ، عن أبى

(١) فى م : « سعيد بن أبى إياس » .
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٣٥١١) وسنن الترمذى برقم (٢٠٥٨) وسنن النسائى (٨/ ٢٧١) .
(٣) المسند (٣/ ٢٨).
(٤) المسند (٣/ ٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٦) وسنن الترمذى برقم (٩٧٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٢٣) .
(٥) المسند (٣/ ٧٥) .
(٦) المسند (٣/ ٥٨) .
(٧) المسند (٢/ ٣١٨) .
(٨) صحيح البخارى برقم (٥٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٧) .
(٩) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٧) والمسند (٢/ ٤٨٧) .

هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ويحضُرها الشيطانُ ، وحسد ابن آدم » [١] .

وقال أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن قيس : سُئل أبو هُرَيرة: هل سمعت رسول الله يقول : الطيرة فى ثلاث : فى المسكن والفرس والمرأة ؟ قال : قلت : إذاً أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ! ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« أصدق الطيرة الفألُ ، والعين حق » [٢] .

حديث أسماء بنت عُمَيس : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ،عن عُروَةَ ابن عامر ، عن عُبيدَ بن رفاعة الزُرقى قال : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القدرَ لسبقته العين » .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ، به[٣] . ورواه الترمذى أيضاً والنسائى ، من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن عمرو بن دينار ، عن عُرْوَة بن عامر ، عن عُبَيد بن رفاعة ، عن أسماء بنت عميس ، به [٤] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

حديث عائشة ، رضى الله عنها : قال ابن ماجة : حدثنا على بن أبى الخَصيب ، حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، ومِسْعَر ، عن معبد بن خالد ، عن عبد الله بن شَدَّاد ، عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين [٥].

ورواه البخارى عن محمد بن كثير ، عن سفيان ، عن معبد بن خالد ، به . وأخرجه مسلم من حديث سُفيانَ ومِسْعَر ، كلاهما عن معبد ، به [٦] . ثم قال ابن ماجة :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا أبو هشام المخزومى ، حدثنا وُهَيب ، عن أبى واقد ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله ، فإن العين حق». تفرد به [٧] .

وقال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المَعين [٨].

حديث سهل بن حُنَيف : قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا أبو أويس [٩]، حدثنا الزهرى ، عن أبى أمامة بن سَهل بن حُنَيف : أن أباه حدثه أن النبى ﷺ خرج وساروا معه

---

(١) المسند (٢/ ٤٣٩) .

(٢) المسند (٢/ ٢٨٩) .

(٣) المسند (٦/ ٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٢٠٥٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥١٠) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٠٥٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٥٣٧) .

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٣٥١٠) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٥) .

(٧) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٣٤) : « هذا إسناد فيه مقال » .

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٨٠) .

(٩) فى م : « أبو إدريس » .

نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخَرّار ـــ من الجحفة ـــ اغتسل سهلُ بن حُنَيف ـــ وكان رجلاً أبيض حَسن الجسم والجلد ـــ فنظر إليه عامر بن ربيعة ، أخو بنى عدى بن كعب ، وهو يغتسل ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّأة . فلُبطَ سهل ، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له : يا رسول الله ، هل لك فى سهل . والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق . قال : « هل تتهمون فيه من أحد ؟ » . قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة . فدعا رسول الله ﷺ عامرا ، فتغيظ عليه ، وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك بَركت ؟ » . ثم قال له : « اغتسل له » ـــ فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ودَاخلَة إزاره فى قَدح ـــ ثم صُب ذلك الماء عليه . يَصُبّه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ[(١)] القدح وراءه . ففعل ذلك ، فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس [(٢)] .

حديث عامر بن ربيعة : قال الإمام أحمد فى مسند عامر: حدثنا وَكِيع ،حدثنا أبى،حدثنا عبد الله ابن عيسى، عن أمَيّة بن هند بن سهل بن حُنَيْف ، عن عبد الله بن عامر قال : انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل ، قال : فانطلقا يلتمسان الخمرَ ـــ قال : فوضع عامر جُبَّة كانت عليه من صوف ، فنظرت إليه فأصبته بعينى فنزل الماء يغتسل . قال : فسمعت له فى الماء فرقعة ، فأتيته فناديته ثلاثا فلم يجبنى . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته . قال : فجاء يمشى فخاض الماء كأنى أنظر إلى بياض ساقيه ، قال : فضرب صدره بيدى ثم قال : « اللهم ، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها » . قال: فقام .فقال رسول الله ﷺ : « إذا رأى أحدكم من أخيه ، أو من نفسه أو من ماله ، ما يعجبه ، فَلْيُبَرِّك ، فإن العين حق » [(٣)] .

حديث جابر : قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن مَعْمَر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصارى ـــ ويقال له :ابن الضَّجِيع ، ضجيع حمزة ، رضى الله عنه ـــ حدثنى عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «أكثر من يموت من أمتى بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس » [(٤)] .

قال البزار : يعنى العين . قال : ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد .

قلت : بل قد روى من وجه آخر عن جابر ؛ قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروى ـــ المعروف بشكَّر ـــ فى كتاب العجائب ، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة : حدثنا الرهاوى ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا على بن أبى على الهاشمى ، حدثنا محمد بن المُنكَدِر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « العين حق ، لتُورِد الرجل القبر ، والجمل القِدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين » [(٥)] .

---

(١) فى أ : « ثم يلقى » .

(٢) المسند (٣/٤٨٦) .

(٣) المسند (٣/٤٤٧) .

(٤) مسند البزار برقم (٣٠٥٢) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٥/١٠٦) : « رجاله رجال الصحيح ، خلا طالب بن حبيب ابن عمرو ،وهو ثقة » .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/١٨٥) من طريق رحيم عن ابن أبى فديك ، عن على بن أبى على اللهبى ، به . وقال : « غير محفوظ » وعلى بن أبى على هو آفته ،قال أحمد : يروى أحاديث مناكير عن جابر .

ثم رواه عن شعيب بن أيوب ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قد تُدخل الرجلَ العينُ فى القبر ، وتدخل الجمل القدر » [١].

حديث عبد الله بن عمرو : قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن الحسن بن ثوبان ، عن هشام بن أبى رُقية ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرةَ ، ولا هَامة ولا حَسَد ، والعين حق » . تفرد به أحمد [٢] .

حديث عن على : روى الحافظ ابن عساكر من طريق خَيْثمة بن سليمان الحافظ : حدثنا عبيد بن محمد الكَشْوَرى ، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصرى ، عن أبى رجاء ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على؛ أن جبريل أتى النبى ﷺ فوافقه مغتما، فقال: يا محمد ، ما هذا الغم الذى أراه فى وجهك ؟ قال : « الحسن والحسين أصابتهما عين ». قال : صَدَق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وما هن يا جبريل ؟ » . قال : قل: اللهم ذا السلطان العظيم ، ذا المن [٣] القديم ، ذا الوجه الكريم ، ولى الكلمات التامات، والدعوات المستجابات ،عاف الحسن والحسين من أنفس الجن ، وأعين الإنس . فقالها النبى ﷺ فقاما يلعبان بين يديه . فقال النبى ﷺ : « عَوِّذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله » .

قال الخطيب البغدادى : تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحَبَطى [٤] من أهل تُسْتَر . ذكره ابن عساكر فى ترجمة « طراد بن الحسين » ، من تاريخه [٥] .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/٤٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طرق عن شعيب بن أيوب به ،وقال أبونعيم : « غريب من حديث الثورى ، تفرد به معاوية » وكذا قال ابن عدى .

(٢) المسند (٢/ ٢٢٢) .

(٣) فى م : « والمن » .

(٤) وقع فى تاريخ دمشق :« محمد بن عبد الله الحنظلى » وفى كنز العمال : « محمد بن عبد الله الخطيبى » ولم يتبين لى الصواب ، والله أعلم .

(٥) تاريخ دمشق (٨/٥٠٣« المخطوط»).

سورة نٓ[1]

مكيّة، وهي ثنتان وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، وقُرئ بالكسر[2] وبالفتح[3] لالتقاء الساكنين. ويجوز أن يكون / الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكُر"،[4] لا فتحًا كما سبَق في فاتحة سورة البقرة.[5] وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنّه عَلَم للسورة. [٢١٤و]

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مسرودًا على نمط التعديد للتحدّي بأحد الطريقين المذكورين في موقعه، أو اسمًا للسورة منصوبًا على الوجه المذكور، أو مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف،[6] فـ"الواو"[7] في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ للقسَم، وإن جُعل مقسَمًا به فهي للعطف عليه.

وأيًّا ما كان فإن أريدَ به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر، وإن أريدَ به الجنس فاستحقاق ما في أيدي الناس لذلك لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزيّة سوى كونه آلةً لتحرير كتبِ الله عزّ قائلًا لكفى به فضلًا موجِبًا لتعظيمه. وقُرئ بإدغام "النون" في "الواو".[8]

---

١ وتُسمّى سورة القلم.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن أبي إسحاق وأبي السّمّال والحسن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٨١٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.

٤ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٦٤.

٥ في تفسير الآية الأولى منها.

٦ مرّت هذه الوجوه مفصّلة في تفسير البقرة، ٢/١.

٧ السياق: ثمّ إن جُعل... فالواو...

٨ قرأ بها الكسائي ويعقوب وخلف وهشام. النشر لابن الجزري، ٢/١٨.

﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذِكره، وقيل: لـ﴿ٱلۡقَلَمِ﴾ على أنّ المراد به أصحابه، كأنّه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة، أو وسَطْرهم على أنّها مصدريّة.[١] وقيل: لـ﴿ٱلۡقَلَمِ﴾ نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مُجرى العقلاء لإقامته مُقامهم.[٢] وقيل المراد بـ﴿ٱلۡقَلَمِ﴾ ما خَطّ اللوح خاصّةً، والجمع للتعظيم.[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ جواب القسَم، و"الباء" متعلِّقة بمضمر هو حال مِن الضمير في خبر ﴿مَا﴾، والعامل فيها معنى النّفي، كأنّه قيل: أنت بريء مِن الجنون ملتبِسًا بنعمة الله التي هي النبوّة والرياسة العامّة.

والتعرّض لوَصْف الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، لتشريفه عليه السلام والإيذانِ بأنّه تعالى يُتمّ نعمته عليه ويُبلّغه مِن العلوّ إلى غاية لا غايةَ وراءها. والمراد تنزيهُه صلّى الله عليه وسلّم عمّا كانوا ينسبونه عليه السلام إليه مِن الجنون حسدًا وعداوةً ومكابرةً، مع جزمهم بأنّه عليه السلام في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية مِن حصانة العقل ورَزانة الرأي.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾

[٢١٤ظ] ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوانَ الشدائد مِن جهتهم / وتحمُّلِك لأعباء الرسالة ﴿لَأَجۡرًا﴾ لثوابًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ مع عِظَمه، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، أو غيرَ ممنون عليك مِن جهة الناس، فإنّه عطاؤه تعالى بلا توسّط.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ لا يُدرِك شَأْوَه أحد مِن الخَلْق، ولذلك تحتمل مِن جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر. وسُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن خُلقه عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان خُلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن:

---

١ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٤.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٢/٣.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٦٦/١٩.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣]».[١] والجملتانِ معطوفتان على جواب القسم.

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبيّن الحقّ مِن الباطل».[٢] وقيل: فستُبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلَبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب، وصيرورتِك مَهيبًا معظَّمًا في قلوب العالمين وكونِهم أذلّة صاغرين. قال مقاتل: هذا وعيد بعذاب يوم بدر.[٣]

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: أيّكم الذي فُتن بالجنون، و"الباء" مزيدة، أو بأيّكم الجنون على أنّ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ مصدر كـ"المعقول" و"المجلود"، أو بأيِّ الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيّهما يوجد مَن يستحقّ هذا الاسم؟ وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما،[٤] كقوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر، ٢٦/٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لِما ينبئ عنه ما قبله مِن ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد، وتأكيدٌ لِما فيه مِن الوعد والوعيد، أي: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله تعالى المؤدّي إلى سعادة الدارين، وهامَ في تِيه الضلال متوجِّهًا إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبديّة. وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضرر؛ بل يحسب الضررَ نفعًا فيُؤثِره والنفعَ ضررًا فيهجُره.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب، الناجين عن كلّ محذور، وهم العقلاء المَراجيح، فيجزي كلًّا مِن الفريقين حسبما يستحقّه مِن العقاب والثواب. وإعادة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ لزيادة التقرير.

---

[١] **مسند أحمد**، ١٤٨/٤١ (٢٤٦٠١)؛ **الأدب المفرد** للبخاري، ص ١١٥ (٣٠٨)؛ **جامع البيان** للطبري، ١٥٠/٢٣-١٥١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٨٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤٤/٤؛

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في **تفسير القرطبي**، ٢٢٩/١٨؛ و**اللباب** لابن عادل، ٢٧١/١٩.

[٣] القول في **اللباب** لابن عادل، ٢٧١/١٩.

[٤] الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤٤/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لترتيب النّهي على ما ينبئ عنه ما قبله مِن اهتدائه عليه السلام وضلالهم، أو على جميع ما فُصّل مِن أوّل السورة، وهذا تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، أي: دُمْ على ما أنت عليه مِن عدم طاعتهم وتصلَّبْ في ذلك، أو نهيٌ عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره عليه السلام، استجلابًا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقةً، كما ينبئ عنه / قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾، فإنّه تعليل للنّهي أو للانتهاء، وإنّما [٢١٥و] عُبّر عنها بالطاعة للمبالغة في الزجر والتنفير، أي: أحبُّوا لو تُلايِنُهم وتُسامِحهم في بعض الأمور.

﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: فهم يُدهنون حينئذ، أو فهم الآن يدهنون طمعًا في إدهانك. وقيل: هو عطفٌ على ﴿تُدْهِنُ﴾ داخلٌ في حيّز ﴿لَوْ﴾، والمعنى: ودّوا لو يُدهِنون عَقيبَ إدهانك.[١] ويأباه ما سيأتي مِن بدئهم بالإدهان، على أنّ إدهانهم أمر محقَّق لا يناسب إدخاله تحت التمنّي.

وأيًّا ما كان فالمعتبَر في جانبهم حقيقة الإدهان الذي هو إظهار المُلاينة وإضمار خلافها، وأمّا في جانبه عليه السلام فالمعتبرُ بالنسبة إلى وَدادتهم هو إظهار المُلاينة فقط، وأمّا إضمار خلافها فليس في حيّز الاعتبار؛ بل هم في غاية الكراهة له، وإنّما اعتباره بالنسبة إليه عليه السلام.

وفي بعض المصاحف "فَيُدْهِنُوا"[٢] على أنّه جواب التمنّي المفهوم مِن ﴿وَدُّواْ﴾، وأنّ ما بعده حكاية لودادتهم. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿تُدْهِنُ﴾ بناءً على أنّ ﴿لَوْ﴾ بمنزلة "أن" الناصبة، فلا يكون لها جواب، وينسَبِكُ منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولًا لـ﴿وَدُّواْ﴾، كأنّه قيل: ودّوا أن تُدهنَ فيُدهنوا. وقيل ﴿لَوْ﴾ على حقيقتها، وجوابها محذوف وكذا مفعول ﴿وَدُّواْ﴾، أي: ودّوا إدهانك لو تُدهن فيُدهنوا لَسُرُّوا بذلك.[٣]

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٤.

[٣] الوجهان بإيجاز في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٧٣.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل. تقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخَلَ في الزجر. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرّأي والتدبير.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب طعّان ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ مُضرِب نقّال للحديث مِن قوم إلى قوم على وجه السِّعاية والإفساد بينهم، فإنّ النميم والنميمة: السِّعاية.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل، أو منّاع للناس مِن الخير الذي هو الإيمان والطاعة والإنفاق. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوِز في الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

﴿عُتُلٍّ﴾ جافٍ غليظ مِن "عتَلَه" إذا قاده بعُنف وغِلظة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عُدّ مِن مَثالبه ﴿زَنِيمٍ﴾ دَعيّ مأخوذ مِن الزَّنَمة: وهي الهَنَة مِن جلد الماعزة تُقطَع فتُخلَّى متدلّيةً في حلقها. وفي قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دلالة على أنّ دِعْوَتَه أشدّ معايبه وأقبح قبائحه. قيل: هو الوليد بن المُغيرة، / فإنّه كان دَعيًّا في [٢١٥ظ]
قريش وليس مِن سِنخهم،[١] ادّعاه[٢] المُغيرة بعد ثماني عشرةَ مِن مَولده.[٣] وقيل: هو الأخنس بن شَريق، أصله مِن ثَقيف وعِداده في زُهْرة.[٤]

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَا تُطِعْ﴾ أي: لا تطع مَن هذه مَثالبه، لأن كان متموّلًا مستظهِرًا بالبنين.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التعليل للنّهي. وقيل: متعلِّق بما دلّ عليه الجملة الشرطيّة مِن معنى الجُحود والتكذيب لا بجواب الشرط؛ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، كأنّه قيل:

---

١ السِّنخ: الأصل مِن كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «سنخ».

٢ س ي: ادّعاء.

٣ القول بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٨/٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

٤ مَرويّ عن الكلبي في جامع البيان للطبري، ١٦٠/٢٣؛ وعن السدّي في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

لكونه مستظهِرًا بالمال والبنين كذّب بآياتنا.[١] وفيه أنّه يدلّ على أنّ مَدار تكذيبه كونُه ذا مال وبنين مِن غير أن يكون لسائر قبائحه دَخْل في ذلك.

وقُرئ: "أَأَنْ كَانَ"[٢] على معنى ألِأن كان ذا مال كذّب بها؟ أو أتُطيعه لأن كان ذا مال؟ وقُرئ: "إِنْ كَانَ"[٣] بالكسر، والشرط للمخاطَب، أي: لا تطع كلّ حلّاف شارطًا يساره؛ لأنّ إطاعة الكافر لغِناه بمنزلة اشتراط غِناه في الطاعة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ بالكيّ على أكرَم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله. قيل: أصاب أنفَ الوليد جِراحةٌ يوم بدر فبقيَت علامتها. وقيل: معناه سنُعلِمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يُعلَم بها عن سائر الكفرة.[٤]

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ أي: أهل مكّة بالقحط بدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قوم مِن أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنّة دون صنعاءَ بفرسخين، فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقي، وكان ينادي الفقراءَ وقت الصِّرام، ويترك لهم ما أخطأه المِنجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف مِن العنب، وما بقيَ على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرمت، فكان يجتمع لهم شيءٌ كثير، فلمّا مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا / الأمر، فحلفوا فيما بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ لَيقطعُنّها داخلين في الصباح. [٢١٦و]

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يقولون: "إن شاء الله". وتسميتُه استثناء مع أنّه شرط مِن حيث إنّ مؤدّاه مؤدّى الاستثناء، فإنّ قولك: "لأخرجنّ إن شاء الله"

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.

[٢] قرأ بها ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والنقّاش عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.

و"لا أخرج إلّا أن يشاء الله" بمعنى واحد. أو لا يستثنون حِصّة المساكين كما كان يفعله أبوهم، والجملة مستأنفة.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الجنّة ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاءٌ طائف، وقُرئ: "طَيْفٌ".[١] ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدئ مِن جهته تعالى ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عمّا جرت به المقادير.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صُرِمت ثماره بحيث لم يبقَ منها شيء، "فعيل" بمعنى "مفعول". وقيل: كالليل، أي: احترقت فاسودّت. وقيل: كالنّهار، أي: يبِست وابيضّت، سُمِّيا بذلك لأنّ كلًّا منهما ينصرِم عن صاحبه. وقيل: الصريم الرِّمال.[٢]

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟﴾ أي: اغدوا على أنّ ﴿أن﴾ مفسِّرة، أو بأن اغدوا، على أنّها مصدريّة، أي: اخرجوا غدوةً. ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ بستانكم وضيعتكم. وتعدية الغدوّ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمينه معنى الإقبال أو الاستيلاء. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ قاصدين للصّرم.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافَتة، و"خفيَ" و"خفتَ" و"خفَد" ثلاثتُها في معنى الكَتم، ومنه "الخُفدُود" للخفّاش.[٣]

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنّة ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ ﴿أن﴾ مفسِّرة لِما في التخافُت مِن معنى القول. وقرئ بطَرْحها[٤] على إضمار القول. والمراد

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيمَ النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

[٣] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١.

بنهي المِسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه مِن الدخول، كقولهم: "لا أُرينَّك ههنا".

[٢١٦ظ] ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾ / أي: على نكَدٍ لا غيرُ، مِن "حاردَت السَّنَة" إذا لم يكن فيها مطر، و"حاردَت الإبل" إذا منعتْ درّها، والمعنى أنّهم أرادوا أن يتنكّدوا على المساكين ويحرِموهم وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلّا على النَّكَد والحِرمان. وذلك أنّهم طلبوا حِرمان المساكين فتعجّلوا الحِرمان والمَسكنَة، أو وغدَوا على محارَدة جنّتهم وذهاب خيرِها قادرين بدلَ كونهم قادرين على إصابة خيرِها ومنافعها، أي: غدوا حاصلين على النَّكَد والحِرمان مكانَ كونهم قادرين على الانتفاع.

● وقيل: الحَرْد: الحَرَد،[١] وقد قُرئ بذلك،[٢] أي: لم يقدروا إلّا على حَنَق بعضهم لبعض لقوله تعالى: ﴿يَتَلَـٰوَمُونَ﴾.[٣] وقيل: الحَرْد: القصد والسرعة، أي: غدوا قاصدين إلى جنّتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صِرامها. وقيل: هو عَلَم للجنّة.[٤]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ﴾ في بديهة رؤيتهم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: طريق جنّتنا، وما هي بها.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قالوه بعد ما تأمّلوا ووقفوا على حقيقة الأمر مُضربين عن قولهم الأوّل، أي: لسنا ضالّين؛ بل نحن محرومون حُرمنا خيرها بجِنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: رأيًا أو سِنًّا ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه مِن خُبث نيّتكم، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة مِن فوركم، وسارعوا إلى حَسْم شرّها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيّرهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧. والحَرَد: الغضب. لسان العرب لابن منظور، «حرد».

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[٣] في الآية الثلاثين مِن هذه السورة.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما في التعظيم، أو لأنّه تنزيه له تعالى عن أن يجري في ملكه ما لا يشاؤه.[١]

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا، فإنّ منهم مَن أشار بذلك، ومنهم مَن استصوبه، ومنهم مَن سكَت راضيًا به، ومنهم مَن أنكره.

/ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوِزين حدودَ الله. [٢١٧و]

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾ وقرئ بالتشديد،[٢] أي: يُعطينا بدلًا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راجون العفوَ طالبون الخيرَ. و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الرغبة، أو لتضمُّنها معنى الرجوع.

عن مجاهد: «تابوا فأُبدلوا خيرًا منها».[٣] ورُوي أنّهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلَنا الله تعالى خيرًا منها لنصنعَنّ كما صنع أبونا، فدعوا الله تعالى وتضرّعوا إليه فأبدلهم الله تعالى مِن ليلتهم ما هو خير منها. قالوا: إنّ الله تعالى أمر جبريلَ عليه السلام أن يقتلع تلك الجنّة المحترِقة فيجعلها بزعر[٤] مِن أرض الشام ويأخذ مِن الشام جنّة فيجعلها مكانها.[٥] وقال ابن مسعود: «إنّ القوم لمّا أخلصوا وعرَف الله منهم الصدقَ أبدلهم جنّة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغلُ منه عنقودًا».[٦]

وقال أبو خالد اليماني:[٧] دخلتُ تلك الجنّة فرأيتُ كلّ عنقود منها كالرجُل الأسود القائم. وسُئل قتادة عن أصحاب الجنّة: أهم مِن أهل الجنّة أم مِن أهل النار؟ فقال: لقد كلّفتني تعبًا. وعن الحسن رحمه الله: قول أصحاب الجنّة:

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٨.
٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٨.
٤ الزَّعَر: قلّة النبات في الأرض. لسان العرب لابن منظور، «زعر». وفي مطبوع اللباب لابن عادل، ١٩/٢٩٣: «زغر».
٥ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٩٣.
٦ معالم التنزيل للبغوي، ٨/١٩٧.
٧ وفي هامش م: ابن عادل.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون مِن المشركين إذا أصابتهم الشدّة، فتوقّف في أمرهم. والأكثرون على أنّهم تابوا وأخلصوا. حكاه القُشيري.[١]

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم لإفادة القصر، و"الألف" و"اللام" للعهد، أي: مثلُ الذي بلونا به أهلَ مكّة وأصحابَ الجنّة عذابُ الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم وأشدّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه أكبر لاحترزوا عمّا يؤدّيهم إليه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: مِن الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة، أو في جوار القدس ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلّا التنعّم الخالص عن شائبة ما يُنغّصه مِن الكدورات وخوف الزوال، كما عليه نعيم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تقرير لِما قبله مِن فوز [٢١٧ظ] المتّقين بجنّات النعيم، وردٌّ لِما يقوله الكفَرة عند سماعهم بحديث الآخرة / وما وعَد الله المسلمين فيها، فإنّهم كانوا يقولون: إن صحّ أنّا نُبعثُ كما يزعم محمّد ومَن معه لم تكن حالنا وحالهم إلّا مثلَ ما هي في الدنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يُساوونا. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أنَحيف في الحُكم فنجعَل المسلمين كالكافرين.

[١] هذه الأقوال كلُّها في اللباب لابن عادل، ٢٩٣/١٩. وانظر كلام القُشيري في لطائف الإشارات، ٦٢٠/٣. | هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، مِن بني قشير بن كعب، أبو القاسم (ت. ٤٦٥هـ/١٠٧٢م). الإمام القدوة الأستاذ الشافعي الصوفي المفسِّر. زين الإسلام وشيخ خراسان في عصره زهدًا وعِلمًا بالدِّين. برع بالفروسيّة والعمل بالسلاح. أقام بنيسابور ومات فيها. مِن كتبه: الرسالة القشيريّة، ولطائف الإشارات. انظر: وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨، ٢٢٧؛ والأعلام للزركلي، ٥٧/٤.

ثمّ قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الردّ وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تعجيبًا مِن حكمهم واستبعادًا له وإيذانًا بأنّه لا يصدر عن عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نازل مِن السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: ما تتخيّرونه وتشتهونه، وأصله "أنّ لكم" بالفتح؛ لأنّه مدروس، فلمّا جيء بـ"اللام" كُسِرت. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات، ٣٧/٧٨-٧٩].[١] وتخيُّر الشيءِ واختِيارُه: أَخْذ خَيره.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ أي: عهود مؤكّدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد. وقُرئت بالنصب[٢] على الحال والعامل فيها أحد الظرفين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلّق بالمقدَّر في ﴿لَكُمْ﴾، أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرُج عن عهدتها حتّى نحكِّمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون، أو بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أي: أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرةً لم تبطل منها يمين. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَم، لأنّ معنى "أم لكم علينا أيمان": أم أقسَمنا لكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

﴿سَلْهُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي: سَلْهم مُبكِّتًا لهم. ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحُكم الخارج عن العقول ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: قائم يتصدّى لتصحيحه.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبَهم ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم؛ إذ لا أقلَّ مِن التقليد، وقد نُبّه في هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم / شيء يُتوهَّم أن يتشبّثوا به حتّى التقليد [٢١٨و]

---

[١] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٨.

الذي لا يفلح مَن تشبَّث بذيله. وقيل: المعنى: أم لهم شركاء يجعلونهم مثلَ المسلمين في الآخرة.[١]

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ أي: يوم يشتدّ الأمر ويصعُب الخَطْب، وكَشْفُ الساق مثَل في ذلك، وأصله تشمير المخدَّرات عن سُوقهنّ في الهرَب. قال حاتم:[٢]

أخو الحربِ إن عضّتْ به الحرب عضّها وإن شمّرتْ عن ساقها الحربُ شمّرا[٣]

وقيل: "ساقُ الشيء" أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، أي: يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عِيانًا.[٤] وتنكيره للتهويل أو التعظيم. وقُرئ: "تَكْشِفُ" بـ"التاء" على البناء للفاعل[٥] والمفعول،[٦] والفعل للساعة أو الحال، وقُرئ: "نَكْشِفُ"[٧] بـ"النون"، و"تُكْشِفُ"[٨] بـ"التاء" المضمومة وكسرِ "الشين" مِن "أكشَف الأمر"، أي: دخَل في الكَشْف.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

٢ هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو عديّ (ت. ٥٧٨م). فارسٌ شاعر جواد جاهلي، يُضرب المَثَل بجوده، مِن أهل نجد، وزار الشام فتزوّج ماويّة بنت حجر الغسانيّة، ومات في عوارض: جبل في طيئ. له شعر كثير ضاع معظمه، وبقي قليل منه، وديوانه مطبوع. وأخباره كثيرة متفرّقة في كتب الأدب والتاريخ. أرّخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٤١/١؛ والأعلام للزركلي، ١٥١/٢.

٣ البيت لحاتم الطائي في زيادات ديوانه، ص ٢٩٧، ممّا نُسب إليه وصحّ له؛ وهو لحاتم في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٩/١٩.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

وناصب الظرفِ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾،[١] أو مضمَر مقدَّم، أي: اذكُر يومَ... إلخ، أو مؤخَّر، أي: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾... إلخ، يكون مِن الأهوال وعظائم الأحوال ما لا يبلغه الوصف.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخًا وتعنيفًا على تَرْكهم إيّاه في الدنيا، وتحسيرًا لهم على تفريطهم في ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه، وفيه دلالة على أنّهم يقصدون السجودَ فلا يتأتّى منهم ذلك. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تُعْقَم أصلابهم،[٢] أي: تُرَدّ عظامًا بلا مفاصلَ لا تنثني عند الرفع والخفض. وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقًا واحدًا،[٣] أي: فَقارة واحدة.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال مِن مرفوع ﴿يُدْعَوْنَ﴾، على أنّ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرتفع به على الفاعليّة. ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تلحَقهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا.

والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو لأنّ المراد به الصلاة، أو ما فيها مِن السجود، والدعوة دعوة التكليف. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكّن، أي: فلا يُجيبون إليه ويأبَونه، وإنّما تُرِك ذِكره ثقةً بظهوره.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: كِلْه إليّ فإنّي أكفيك أمرَه، أي: حسبك في الإيقاع به والانتقام منه أن تكِل أمره إليّ وتُخلّي بيني وبينه، فإنّي عالم بما يستحقّه / مِن العذاب ومُطيق له. و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها مِن أحوالهم المحكيّة، أي: وإذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرني ومَن يكذِّب بالقرآن، وتوكَّل عليّ في الانتقام منه. [٢١٨ظ]

---

١ في الآية السالفة.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢٣؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

٣ بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٠/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة التعذيب المستفاد مِن الأمر السابق إجمالًا، والضمير لـ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبار لفظها، أي: سنستنزلهم إلى العذاب درجةً فدرجةً بالإحسان وإدامة الصحّة وازدياد النعمة. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم؛ بل يزعمون أنّه إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنّه سبب لهلاكهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثمًا وهم يزعمون أنّ ذلك لإرادة الخير بهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يُوقَف عليه ولا يُدفَع بشيء. وتسمية ذلك كيدًا لكونه في صورة الكيد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿أَجْرًا﴾ دُنيويًّا ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِن مَّغْرَمٍ﴾ أي: غرامة ماليّة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مكلَّفون حِملًا ثقيلًا فيُعرِضون عنك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: اللوح أو المغيَّبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون ويستغنون به عن عِلمك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي: يونس عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظًا. والجملة حال مِن ضمير﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدور النهي لا على النداء، فإنّه أمر مُستحسَن، ولذلكَ لم يُذكَر المنادى. و﴿إِذْ﴾ منصوب بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالك كحاله وقتَ ندائه، أي: لا يُوجَد منك ما وُجِد منه مِن الضجر والمُغاضبة فتُبتلى ببلائه.

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقُرئ: "رَحْمَةٌ"،[١] وهو توفيقه للتوبة وقَبولها منه،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥١.

وحَسُن تذكير الفعل للفصل بالضمير. وقرئ: "تَدَارَكَتْهُ"[١] و"تَدَارَكُهُ"،[٢] أي: "تتدارَكُه" على حكاية الحال الماضية، بمعنى لولا أن كان يقال فيه: تتداركه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية مِن الأشجار ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مُليم مَطرود مِن الرحمة والكرامة، وهو حال مِن مرفوع ﴿نُبِذَ﴾، عليها يعتمد جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لأنّها هي المُنتفية لا النَّبذ بالعراء كما مرّ في الحال الأولى. والجملة الشرطيّة / استئناف وارد لبيان كون المنهيّ عنه أمرًا محذورًا مستتبعًا للغائلة. [٢١٩و]

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: فتداركته نعمة مِن ربّه فاجتباه بأن ردّ إليه الوحيَ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون. وقيل: استنبأه إن صحّ أنّه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة.[٣] ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن الكاملين في الصلاح بأن عصَمه مِن أن يفعل فعلًا يكون تَرْكه أَوْلى.

رُوي أنّها نزلت بأُحُد حين همّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو على المنهزمين مِن المؤمنين، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثَقيف.[٤]

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقُرئ: "لَيَزْلِقُوْنَكَ"[٥] بفتح "الياء" مِن "زَلَقه" بمعنى أزلَقه، و"يُزْهِقُوْنَكَ".[٦] و﴿إن﴾ هي المخفَّفة و"اللام" دليلها، والمعنى أنّهم مِن شدّة عداوتهم لك ينظرون إليك شَزْرًا بحيث يكادون يُزِلّون قدمك فيَرمونك، مِن قولهم: "نظَر إليّ نظرًا يكاد يصرعني"، أي: لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنّهم يكادون يُصيبونك بالعين؛ إذ قد رُوي أنّه كان في بني أسدٍ عيّانون فأراد بعضهم أن يَعين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وإبراهيم النخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥١.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٣٧.

٤ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٣٧.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

فنزلت.[١] وفي الحديث: «إنّ العين لتُدخِل الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»،[٢] ولعلّه مِن خصائص بعض النفوس، وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تُقرأ هذه الآية.[٣]

﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: وقتَ سماعهم بالقرآن، على أنّ ﴿لَمَّا﴾ ظرفيّة منصوبة بـ﴿يُزْلِقُونَكَ﴾، وذلك لاشتداد بُغضهم وحسَدهم عند سماعه.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أَمْره عليه السلام، ونهايةِ جهلهم بما في تضاعيف القرآن مِن تعاجيب الحِكَم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمِسة بأحكام الطبائع، ولتنفير النّاس عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

وحيث كان مَدارُ حُكمهم الباطل ما سمعوه منه عليه السلام رُدّ ذلك ببيان علوّ شأنه وسطوع برهانه فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾ مفيدةٌ لغاية بُطلان / قولهم، وتعجيبِ السامعين[٤] مِن جرأتهم [٢١٩ظ]
على تفوّه تلك العظيمة، أي: يقولون ذلك والحال أنّه ذِكر للعالمين، أي: تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه مِن أمور دينهم، فأين مَن أنزل عليه ذلك وهو مطّلع على أسراره طُرًّا ومحيطٌ بجميع حقائقه خُبرًا ممّا قالوا؟

وقيل: معناه: شرف وفضل، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكونُه مذكِّرًا وشرفًا للعالمين لا ريبَ فيه.[٥]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسّن الله أخلاقهم».[٦]

---

١ بمعناه في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٣/٢٧؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٩٠/٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٨/٤ (يوسف، ٦٧/١٢).

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٤ السياق: رُدّ ذلك ببيان... وتعجيبِ...

٥ القولان في اللباب لابن عادل، ٣١١/١٩.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٠/٢٧ (القلم، ١/٦٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٢/٤ (القلم، ١/٦٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٨

سورة ن

مكية، ثنتانِ وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿ن﴾: أحدُ حروف الهجاء، اللهُ أعلم بمُراده به.

﴿والقَلَمِ﴾ الذي كُتب به الكائناتُ في اللوح المحفوظ ﴿وما يَسطُرُونَ﴾، أي: الملائكةُ ....

سورة ن

قولُهُ: (أَحَدُ حُرُوفِ الهِجَاءِ) يعني: أنَّه ليسَ اسماً للحوتِ، أو الدَّواةِ كما قيلَ، لكنَّ النَّفيَ غيرُ مُناسِبٍ، فإنَّ الأوَّلَ مَنقولٌ عن كَثيرٍ من السَّلَفِ منهم ابنُ عبَّاسٍ[١]، والثَّاني عن الحسَنِ وقتادَةَ[٢] وغيرهما، وقيلَ: مفتاحُ اسمِهِ نُورٌ وناصِرٌ، وقيلَ: أقسَمَ بنُصرَتِهِ المؤمِنينَ[٣].

قولُهُ: (في اللَّوحِ المَحفُوظِ) الوارِدِ في الحديثِ: «جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ في عِلمِ الله»[٤] والمرادُ: كُلُّ قَلَمٍ ومَكتوبٍ.

قولُهُ: (أي: المَلائِكَةُ) فالضَّميرُ لأصحابِ القَلَمِ، أو الحَفَظَةِ، و﴿ما﴾ مصدَرِيَّةٌ، أو موصولَةٌ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٧٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٤٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٧٠٣) بنحوه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٧٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٢٥) عن الحسن، وقتادة.

(٣) تعقب أكثر هذه الأقول في «البحر المحيط» (١٠/ ٢٣٤) بقوله: لعله لا يصح شيء من ذلك. ونقله عنه الآلوسي في «روح المعاني» (١٥/ ٢٧) وتوسع في البحث فيها، فانظره.

(٤) رواه الترمذي (٢٦٤٢)، وأحمد في «مسنده» (٦٨٥٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٩) بنحوه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى البخاري (٥٠٧٦) من حديث أبي هريرة وفيه: «جف القلم بما أنت لاق».

من الخير والصلاح، ٢ ـ ﴿ما أنتَ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجنُونٍ﴾ أي: انتفى الجُنونُ عنك بسبب إنعام ربك عليك بالنبوّة وغيرها ـ وهذا ردّ لقولهم: إنه مجنونٌ ـ ٣ ـ ﴿وإنَّ لَكَ لَأجرًا غيرَ مَمنُونٍ﴾: مقطوع، ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ﴾: دِينٍ ﴿عَظِيمٍ. فَسَتُبصِرُ ويُبصِرُونَ: بِأيِّكُمُ المَفتُونُ﴾؟ مصدرٌ كالمَعقول، أي: الفُتونُ بمعنى الجُنون، أي: أبِكَ أم بِهِم؟

٧ ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وهُوَ أعلَمُ بِالمُهتَدِينَ﴾ له. وأعلم بمعنى: عالمٌ. ٨ ـ ٩ ـ ﴿فلا تُطِعِ المُكَذِّبِينَ. وَدُّوا﴾: تمنَّوا ﴿لَو﴾: مصدريّةٌ ﴿تُدهِنُ﴾: تَلينُ لهم ﴿فيُدهِنُونَ﴾: يلينون لك. وهو معطوف على «تُدهِنُ»..........................

قولُهُ: (منَ الخَيرِ والصَّلاحِ) الظَّاهِرُ من الخَيرِ والشَّرِ.

قولُهُ: (يا مُحَمَّدُ) جوابٌ للقَسَم.

قولُهُ: (بسَبَب) أو وحقِّ نعمَةِ ربِّكَ.

قولُهُ: (مَقطُوعٍ) سَواءٌ آمَنوا أو لم يؤمِنوا، فإنَّ الأجرَ على الإبلاغِ، والاحتِمالِ لا يتوقَّف على الامتِثالِ.

قولُهُ: (دِينٍ) أو وَصفٍ، وسُئِلت عائشَةُ عن خُلُقِهِ فقالَت: كانَ خُلُقُه القُرآنَ، ألستَ تَقرَأُ القرآنَ: ﴿قَد أَفلَحَ المؤمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] رواهُ مُسلِم[١]، فأشارَت إلى بعضِ خُلُقِهِ، وأرادَتْ هذا وأمثالَهُ، وقالَ بعضُ العارِفينَ[٢]: لم يُؤثِّرْ فيكَ جَفاءُ الخَلقِ بعدَ مُطالَعَةِ عَطاءِ الحَقِّ.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) والباءُ زائدَةٌ.

قولُهُ: (بمَعنَى: عَالِم) لا أعلمُ له وَجهاً.

قولُهُ: (مَصدَرِيَّةٌ) أي: وَدُّوا التَّداهُنَ؛ لكنَّهم أخَّروا إدهانَهُم حتَّى تُدهِن.

قولُهُ: (وَهوَ مَعطُوفٌ) وفي بعضِ المصاحِفِ: (فيُدْهِنُوا)[٣] على أنَّهُ جوابُ التَّمَنِّي.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨).

والذي رواه مسلم (٧٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ليس فيه ذكر للآية.

ولعل الأنسب هنا ما رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٦٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٨٦٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: أما تقرأ القرآن، قول الله عز وجل: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]. وهو المناسب للموضع، فالله أعلم.

(٢) هو للحسين بن منصور الحلاج كما في «إحياء علوم الدين» (٣/ ٥٣).

(٣) ذكرها سيبويه في «الكتاب» (٣/ ٣٦) وقال: زعم هارون أنها في المصاحف. قلت: هو المقرئ هارون بن موسى الأزدي البصري.

وإن جُعل جوابَ التمنّي المفهومِ من «ودّوا» قُدّرَ قبله، بعد الفاء: «هم».

١٠ ـ ﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾: كثير الحَلْف بالباطل ﴿مَهِينٍ﴾: حقير، ١١ ـ ﴿هَمَّازٍ﴾: عيّاب أو مُغتاب ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾: ساع بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم، ١٢ ـ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾: بَخيلٍ بالمال عن الحُقوق ﴿مُعْتَدٍ﴾: ظالم ﴿أَثِيمٍ﴾: آثم، ١٣ ـ ﴿عُتُلٍّ﴾: غليظ جافٍ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾: دعيٌّ في قريش ـ وهو الوليد بن المُغيرة، ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشْرةَ سنةً. قال ابن عبّاس: لا نعلم أنّ الله وصف أحدًا بما وصفه به من العُيوب، فألحقَ به عارًا لا يُفارقه أبدًا. وتعلّقَ بـ «زنيم» الظرفُ قبله ـ

قولُهُ: (بَعدَ الفَاءِ) للسَّبَبِيَّةِ.

قولُهُ: (هُم) أي: فهم يُدهِنونَ حينَئِذٍ.

قولُهُ: (بالبَاطِلِ) وقالَ القاضِي[1]: في الحَقِّ والباطِلِ، ولعَلَّ الإطلاقَ؛ لأنَّ من يحلف كَثِيراً يَقَعُ في الكَذِبِ، وفي الحديثِ: «كَفَى بالمرءِ إثماً أن يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِع»[2].

قولُهُ: (حَقِيرٍ) عندَ الله، وعِندَ أوليائِهِ.

قولُهُ: (أَو) حقيرِ الرَّأيِ.

قولُهُ: (أي: مُغتَابٍ) فيه أنَّ الأوَّلَ أعمُّ.

قولُهُ: (سَاعٍ) أي: نَقَّالٍ للحَديثِ على وجهِ السِّعايةِ.

قولُهُ: (بَخِيلٍ) الظَّاهِرُ أنَّ مَعناهُ: يمنَعُ النَّاسَ عنِ الخَيرِ من الإيمانِ والإنفاقِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.

قولُهُ: (ظَالِمٍ) أو مُتَجاوِزٍ في الظُّلمِ.

قولُهُ: (آثِمٍ) الظَّاهِرُ: كثيرِ الإثمِ.

قولُهُ: (غَلِيظٍ) من عَتَلَه: إذا قادَهُ بعُنفٍ وغِلْظَة.

قولُهُ: (دَعِيٍّ) مُتَّهمٍ في نَسَبِه.

قولُهُ: (في قُرَيشٍ) أي: مُستَلحَقٍ فيهم ليسَ منهم.

قولُهُ: (سَنَةً) من مَولِدِه.

قولُهُ: (قَبلَه) أي: بعدَ ذلكَ، والمعنَى: بعدَ ما عَدَّ مثالِبَه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم في «مقدمة الصحيح» (١/ ١٠)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مسلم: «كذباً»، بدل: «إثماً».

١٤ ـ ﴿أن كانَ ذا مالٍ وبَنِينَ﴾ أي: لِأنْ، وهو مُتعلّق بما دلّ عليه: ١٥ ـ ﴿إذا تُتلَى علَيهِ آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿قالَ﴾: هي ﴿أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ أي: كذّبَ بها لِإنعامنا عليه بما ذُكر. وفي قراءةٍ: «أأن» بهمزتين مفتوحتين. ١٦ ـ ﴿سَنَسِمُهُ علَى الخُرطُومِ﴾: سنجعل على أنفه علامة يُعيَّرُ بها ما عاش. فخُطم أنفه بالسيف يوم بدر.

١٧ ـ ﴿إنّا بَلَوناهُم﴾: امتحَنّا أهلَ مكّةَ بالقحط والجوع ﴿كَما بَلَونا أصحابَ الجَنّةِ﴾: البُستانِ ـ ﴿إذ أقسَمُوا لَيَصرِمُنَّها﴾: يقطعون ثمرتها ﴿مُصبِحِينَ﴾: وقتَ الصباح كيلا يشعر بهم المساكينُ، فلا يعطوهم منها ما كان أبوهم يتصدّق به عليهم منها، ١٨ ـ ﴿ولا يَستَثنُونَ﴾ في يمينهم بمشيئة الله، تعالى. والجملة: مستأنفة، أي: وشأنهم ذلك ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿فطافَ علَيها طائفٌ مِن رَبِّكَ﴾: نارٌ أحرقتها ليلاً

قولُهُ: (بِمَا دَلَّ) أي: مَدلولِ قالَ، لا نفسِهِ؛ لأنَّ ما بَعدَ الشَّرطِ لا يعمَلُ فيما قبلَهُ[1]، ويُمكِنُ أن يتَوسَّعَ في الظَّرفِ ما لا يُتَوَسَّعُ في غيره؛ أي: قالَ ذلك حينَئذٍ؛ لأنه كانَ مُتمَوِّلاً مُستظهِراً بالبَنِينَ مِن فَرطِ غُرورِهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لشُعبَة وحَمزَة، والشَّاميُّ مُسَهَّلاً[2].

قولُهُ: (عَلامَةً) من الوسمِ.

قولُهُ: (فَخُطِم) أي: فجُرِحَ وبَقِيَ أثرُهُ[3].

قولُهُ: (بالقَحْطِ) أو الأموالِ.

قولُهُ: (البُستَانُ) كانت بضَرَوان قَريَةٌ باليَمَنِ بينها وبينَ صَنعاءَ ستَّةُ أميالٍ، كذا في «المبهمات»[4]، وكان لرَجُلٍ صالِحٍ، وكانَ يُنادي الفُقَراءَ وقتَ الصِّرامِ ويَترُكُ لهم ما أخطَأَهُ المِنجَلُ أو ألقَتهُ الرِّيحُ، أو بعُدَ من البِساطِ الذي يُبسَطُ تحتَ النَّخلَةِ، فيجتَمِعُ لهم شيءٌ كَثيرٌ، فلمَّا ماتَ قالَ بَنوهُ: إن فَعَلنا ما كان يفعَلُ أبونا ضاقَ علينا.

قولُهُ: (وَقتَ الصَّبَاحِ) أي: داخِلِينَ في الصَّباحَ خفيَةً عن المساكينِ.

قولُهُ: (في يَمِينِهِم) أو لا يستَثنونَ حِصَّةَ المساكين، كما كان يخرِجُ أبوهُم.

قولُهُ: (نَارٌ) أي: بلاءٌ طائفٌ مُبتَدأٌ منه.

---

(١) وانظر: «شرح كتاب سيبويه» (١/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٥).

(٣) وانظر: «تاج العروس» (٣٢/ ١١٩).

(٤) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١١) وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٤٥) عنه.

﴿وهُم نائمُونَ، فأصبَحَتْ كالصَّرِيمِ﴾: كالليل الشديد الظُّلمة، أي: سوداءَ. ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿فتَنادَوا مُصبِحِينَ أنِ اغدُوا علَى حَرثِكُم﴾: غلّتكم ـ تفسيرٌ للتنادي، أو أنْ: مصدريّة أي: بأن ـ ﴿إن كُنتُم صارِمِينَ﴾: مُريدين القطع. وجواب الشرط دلّ عليه ما قبله. ٢٣ ـ ﴿فانطَلَقُوا وهُم يَتخافَتُونَ﴾: يتشاورون ٢٤ ـ ﴿أنْ لا يَدخُلَنَّها اليَومَ علَيكُم مِسكِينٌ﴾: تفسيرٌ لما قبله، أو أنْ: مصدريّة أي: بأنْ. ٢٥ ـ ﴿وغَدَوا علَى حَرْدٍ﴾: منع للفُقراء ﴿قادِرِينَ﴾ عليه في ظنّهم.

٢٦ ـ ﴿فلَمّا رأَوها﴾ سوداء مُحترقة ﴿قالُوا: إنّا لَضالُّونَ﴾ عنها، أي: ليست هذه. ثمّ قالوا لمّا علموها: ٢٧ ـ ﴿بَل نَحنُ مَحرُومُونَ﴾ ثمرتَها بمنعنا الفُقراءَ منها. ٢٨ ـ ﴿قالَ أوسَطُهُم﴾: خيرُهم: ﴿ألَم أقُلْ لَكُم: لَولا﴾: هلاّ ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ اللهَ تائبين؟ ٢٩ ـ ﴿قالُوا: سُبحانَ رَبِّنا! إنّا كُنّا ظالِمِينَ﴾ بمنعنا الفُقراءَ حقَّهم. ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿فأقبَلَ بَعضُهُم علَى بَعضٍ يَتَلاوَمُونَ. قالُوا: يا﴾: للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. ﴿إنّا كُنّا طاغِينَ. عَسَى رَبُّنا أن يُبَدِّلَنا﴾ ....

قولُهُ: (غَلَّتِكُم) أي: اخرُجوا، أو بأن اخرُجوا إليه غُدوَةً، وتعدِيَةُ الفِعلِ بـ﴿عَلَى﴾، لتضمُّنِهِ مَعنى الإقبالِ.

قولُهُ: (يتَسارُّونَ) يتشاوَرونَ فيما بينَهُم.

قولُهُ: (تفسِيرٌ) أي: ﴿أنْ﴾ مُفسِّرَةٌ لما في: ﴿يَتَخافَتُونَ﴾ من مَعنى القَولِ، وقُرِئَ بطَرحِها على إضمارِ القَولِ[1].

قولُهُ: (مَنَع) في «القاموسِ»[2]: حرَدَهُ: قصَدَهُ ومَنَعَهُ وغَضِبَ، وقيل: الحردُ بمَعنى: النَّكدِ؛ أي: غدواً قادِرِينَ على نَكدٍ لا غَير، والمعنى: أنَّهُم عَزَموا على أنَّهم يُنكِّدونَ على المساكين فنُكِّدَ عليهِم بحيثُ لا يَقدِرونَ فيها إلا على النَّكدِ، وقيل: علَمٌ للجنَّة.

قولُهُ: (سَودَاءَ) أي: أوَّلَ ما رَأوها.

قولُهُ: (عَنهَا) أو طَريقَها.

قولُهُ: (لمَّا عَلِمُوهَا) بعدَ التَّأمُّلِ فيها.

قولُهُ: (خَيرُهُم) أي: أوسَطُهُم رَأياً، وقيلَ: سِنّاً.

قولُهُ: (تَائِبِينَ) أي: لولا تَذكُرُونَهُ وتَتوبونَ إليه من خُبثِ نيَّتِكُم، وقَد قالها حَيثما عَزَموا على ذلك.

قولُهُ: (للتَّنبِيهِ) والظَّاهِرُ أنَّه: للنِّداءِ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٨١).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٧٦).

ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿خَيرًا مِنها. إنّا إلَى رَبِّنا راغِبُونَ﴾ ليقبل توبتنا ويردّ علينا خيرًا من جنّتنا. رُوي أنهم أُبدِلوا خيرًا منها. ٣٣ ـ ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلُ العذابِ لهؤلاء ﴿العَذابُ﴾ لمن خالف أمرنا من كُفّار مكّة وغيرهم. ﴿ولَعَذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ عذابها ما خالفوا أمرنا.

ونزل لمّا قالوا: «إن بُعثنا [فإنّا] نُعطَى أفضلَ منكم»: ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿إنَّ لِلمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِم جَنّاتِ النَّعِيمِ. أفنَجعَلُ المُسلِمِينَ كالمُجرِمِينَ﴾ أي: تابعين لهم في العطاء؟ ٣٦ ـ ﴿مالَكُم؟ كَيفَ تَحكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد؟ ٣٧ ـ ﴿أم﴾ أي: بل أ ﴿لَكُم كِتابٌ﴾ مُنزَل، ﴿فِيهِ تَدرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون: ٣٨ ـ ﴿إنَّ لَكُم فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾: تختارون؟ ٣٩ ـ ﴿أم لَكُم أيمانٌ﴾: عُهود ﴿عَلَينا بالِغةٌ﴾: وثيقة ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ﴾: مُتعلّق معنًى بـ «علينا». وفي هذا الكلام معنى القسَم، أي: أأقسَمنا لكم؟ وجوابه: ﴿إنَّ لَكُم لَما تَحكُمُونَ﴾ به لأنفسكم.

٤٠ ـ ﴿سَلْهُم: أيُّهُم بِذلِكَ﴾ الحُكمِ الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يُعطَون في الآخرة أفضلَ من المُؤمنين ﴿زَعِيمٌ﴾: كفيل لهم؟ ٤١ ـ ﴿أم لَهُم شُرَكاءُ﴾ مُوافقون لهم في هذا المَقول،.........

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وبَصريٌّ[1].

قولُهُ: (لِمَنْ خالَفَ) أي: في الدُّنيا.

قولُهُ: (نُعطَى أَفضَلَ) كما نحنُ عليه في الدُّنيا.

قولُهُ: (أي: تابِعِينَ) الظّاهِرُ مُساوينَ لهم ﴿لا يَستَوِي أصحابُ النّارِ وأَصحابُ الجَنَّةِ أَصحابَ الجَنَّةِ هُم الفائِزُون﴾ [الحشر: ٢٠].

قولُهُ: (هَذا الحُكمَ) التِفاتٌ فيه تعَجُّبٌ من حُكمِهِم واستِبعادٌ له.

قولُهُ: (بَل) لا بُدَّ من الهَمزَة.

قولُهُ: (تَختارُونَ) استِئنافُ بَيانٍ.

قولُهُ: (عُهُودٌ) مُؤكَّدَةٌ بالأيمانِ.

قولُهُ: (وَاثِقَةٌ) مُتناهيَةٌ في التَّوكيدِ.

قولُهُ: (بـ ﴿عَلَينا﴾) أي: ثابِتَةٌ علينا.

قولُهُ: (كَفِيلٌ لَهُم) قائِمٌ يدَّعيهِ ويُصَحِّحُه.

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٤٣).

يكفُلون لهم به؟ فإن كان كذلك ﴿فليأتوا بِشُرَكائِهِم﴾ الكافلين لهم به، ﴿إن كانُوا صادِقِينَ﴾.

٤٢ ـ اذكرْ ﴿يَومَ يُكشَفُ عَن ساقٍ﴾ ـ عِبارةٌ عن شِدّة الأمر يوم القِيامة للحِساب والجزاء. يقال: كَشفَتِ الحربُ عن ساق، إذا اشتدّ الأمر فيها ـ ﴿ويُدعَونَ إلَى السُّجُودِ﴾ امتحانًا لإيمانهم ﴿فلا يَستَطِيعُونَ﴾، تصير ظهورهم طبَقًا واحدًا، ٤٣ ـ ﴿خاشِعةً﴾: حالٌ من ضمير «يُدعون» أي: ذليلةً ﴿أبصارُهُم﴾ لا يرفعونها، ﴿تَرهَقُهُم﴾: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ، وقَد كانُوا يُدعَونَ﴾ في الدنيا ﴿إلَى السُّجُودِ، وهُم سالِمُونَ﴾، فلا يأتون به بألاّ يُصلّوا.

٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿فذَرْنِي﴾: دَعْني ﴿ومَن يُكَذِّبُ بِهذا الحَدِيثِ﴾: القُرآنِ. ﴿سَنَستَدرِجُهُم﴾: نأخذهم قليلاً قليلاً، ﴿مِن حَيثُ لا يَعلَمُونَ، وأُملِي لَهُم﴾: أُمهِلُهم. ﴿إنَّ كَيدِي مَتِينٌ﴾: شديد لا يُطاق. ٤٦ ـ ﴿أم﴾: بل أ﴿تَسألُهُم﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أجرًا، فهُم مِن مَغرَمٍ﴾: ممّا يُعطونكَهُ ﴿مُثقَلُونَ﴾، فلا يُؤمنون لذلك؟ ٤٧ ـ ﴿أم عِندَهُمُ الغَيبُ﴾ أي: اللوح الذي فيه الغيب، ﴿فهُم يَكتُبُونَ﴾ منه ما يقولون؟

قولُهُ: (الكَافِلِينَ) إذ لا أَقَلَّ من التَّقليدِ.

قولُهُ: (للحِسَابِ) أي: يومَ يشتَدُّ الأمرُ، وكَشفُ السَّاقِ مَثَلٌ في ذلك، وأصلُهُ: تَشمِير المخَدَّراتِ عن سُوقِهِنَّ في الهرب، أو يومَ يُكشَفُ عن أصلِ الأمرِ وحَقيقَتِهِ بحيثُ يصيرُ عَياناً، مُستَعارٌ من ساقِ الشَّجَرِ وساقِ الإنسانِ، وتَنكيرُهُ للتَّهويلِ أو التَّعظِيمِ.

قولُهُ: (تَغشَاهُم) وتَلحَقُهُم.

وقولُهُ تَعَالَى: (﴿وَهُم سَالِمُونَ﴾) أي: وهم مُتَمكِّنونَ منهُ.

قولُهُ: (دَعني) أي: كِلْهُ إليَّ فإنِّي أكفيكَهُ (فَلا يَأتُونَ به).

قولُهُ: (نَأخُذُهُم) أي: سَنُدنيهِم من العَذابِ درَجَةً درَجَةً بالإمهالِ وإدامَةِ الصِّحَّةِ وازدِيادِ النِّعمَةِ، وجَمعِ الضَّميرِ لمعنى: ﴿من﴾.

قولُهُ: (لا يُطَاقُ) ولا يُدفَعُ بشَيءٍ.

قولُهُ: (أي: اللَّوحُ) أو المغَيَّباتُ.

٤٨ ـ ﴿فاصبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ﴾ فيهم بما يشاء، ﴿ولا تَكُنْ كَصاحِبِ الحُوتِ﴾ في الضجر والعجلة ـ وهو يُونسُ عليه السلام ـ ﴿إذ نادَى﴾: دعا ربّه ﴿وهُوَ مَكظُومٌ﴾: مملوء غمًّا في بطن الحوت، ٤٩ ـ ﴿لَولا أن تَدارَكَهُ﴾: أدركه ﴿نِعْمةٌ﴾: رحمة ﴿مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِالعَراءِ﴾: بالأرض الفضاء ﴿وهُوَ مَذمُومٌ﴾. لكنه رُحِم فنُبِذ غير مذموم، ٥٠ ـ ﴿فاجتَباهُ رَبُّهُ﴾ بالنبوّة، ﴿فجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ﴾: الأنبياء.

٥١ ـ ﴿وإن يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزلِقُونَكَ﴾ ـ بضمّ الياء وفتحها ـ ﴿بِأبصارِهِم﴾ أي: ينظرون إليك نظرًا شديدًا، يكاد يصرعُك ويُسقِطك عن مكانك ﴿لَمّا سَمِعُوا الذِّكرَ﴾: القُرآنَ، ﴿ويَقُولُونَ﴾ حسدًا: ﴿إنَّهُ لَمَجنُونٌ﴾ بسبب القُرآن الذي جاء به. ٥٢ ـ ﴿وما هُوَ﴾ أي: القُرآنُ ﴿إلاّ ذِكرٌ﴾: موعظة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: الإنس والجِنّ، لا يَحدث بسببه جُنون.

قولُهُ: (بِمَا يشَاءَ) وهو إمهالُهُم وتَأخيرُ نُصرَتِكَ عليهِم.

قولُهُ: (وهوَ يُونُسُ) فَتُبتَلى ببلائِهِ.

قولُهُ: (رَحمَةٌ) يعني: تَوفيقَ التَّوبَةِ وقَبولها.

قولُهُ: (غَيرَ مَذمُومٍ) يعني: الجُملَةُ حالٌ يَعتَمدُ عليها الجَوابُ؛ لأَنَّها المنفيَّةُ دُونَ النَّبذ.

قولُهُ: (بالنُّبُوَّةِ) بأن رَدَّ إليه الوَحيَ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) نافِعٌ[1].

قولُهُ: (حَسَداً) أو حيرَةً في أمرِهِ وتَنفيراً عنه.

قولُهُ: (جُنُونٌ) بل يرتَفِعُ به، من الجُنونِ فُنونٌ، والله أَعلَم.

* * *

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٦).

سورة « نٓ »

هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ثم هذه، ثم «المزمل»، ثم «المدثر». وفي «البحر» أنها مكية بلا خلافٍ فيها بين أهل التأويل(١). وفي «الإتقان»(٢): استُثني منها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلى ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [١٧-٣٣]، ومن: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ إلى ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [٤٨-٥٠] فإنه مدنيٌّ. حكاه السَّخاويُّ في «جَمال القرَّاء»(٣).

وآيُها ثنتان وخمسون آيةً بالإجماع.

ومناسبتُها لسورة «الملك» ـ على ما قيل ـ من جهة خَتْم تلك بالوعيد، وافتتاح هذه به. وقال الجلال السُّيوطيُّ في ذلك: إنه تعالى لمَّا ذكر في آخر «الملك» التهديدَ بتغويرِ الماء، استظهر عليه في هذه بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلةٍ بطائفٍ طافَ عليهم وهم نائمون، فأصبحوا ولم يجدوا له أثراً، حتى ظنُّوا أنهم ضلُّوا الطريق، وإذا كان هذا في الثمار، وهي أجرامٌ كثيفةٌ، فالماءُ الذي هو لطيفٌ أقربُ إلى الإذهاب، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [١٩-٢٠] وقال جلَّ وعلا هناك: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [٣٠] إشارةً إلى أنه يسري عليه في ليلةٍ كما أُسري على الثمر في ليلة(٤). انتهى. ولا يخلو عن حُسْن.

وقال أبو حيان فيه: إنه ذكر فيما قبلُ أشياء من أحوال السُّعداء والأشقياء، وذكر قدرتَه الباهرةَ وعلمَه تعالى الواسعَ، وأنه عزَّ وجلَّ لو شاء لخَسَفَ بهم

---

(١) البحر ٨/ ٣٠٧، وانتفاء الخلاف نقله أبو حيان عن ابن عطية.

(٢) ١/ ٥١.

(٣) ١/ ١٤٥.

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٧.

الأرض، أو لأرسل عليهم حاصباً، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما أَوحى به إلى رسوله ﷺ، فتلاه عليه الصلاةُ والسلام، وكان الكفَّارُ ينسبونه في ذلك مرَّة إلى الشِّعر، ومرَّة إلى السِّحر، ومرَّة إلى الجنون، فبدأ جلَّ شأنُه هذه السورةَ الكريمةَ ببراءته ﷺ مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون، وتعظيم أجرِهِ على صبرِه على أذاهم، وبالثناء على خُلُقه[1]، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، وقرأ الأكثرون بسكونِ النُّون وإدغامِها في واوِ ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ بغنَّةٍ عند بعضٍ، وبدونها عند آخرين[2]. وقُرِئ بكسر النون، وقرأ ابنُ عباس، وابنُ أبي إسحاق، وعيسى بخلافٍ عنه بفتحها[3]؛ وكلٌّ لالتقاء الساكنين. وجُوِّز أن يكون الفتحُ بإضمار حرفِ القَسَم في موضع الجرِّ، كقولهم: اللهِ لأفعلنَّ، بالجرِّ، وأن يكون ذلك نصباً بإضمار: اذكر ونحوه، لا فتحاً، وامتناعُ الصَّرف للتعريف والتأنيث على أنه عَلَم للسورة، ثم إن جُعل اسماً للحرف مسروداً على نمط التعديد للتحدِّي، على ما اشتهر وبُيِّنَ في موضعه، أو اسماً للسورة منصوباً على الوجه المذكور، أو مرفوعاً على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٌ، فالواو في قوله تعالى: «والقلم» للقَسَم، وإن جُعل مُقْسَماً به فهي للعطف عليه على الشائع.

واختار السَّلفُ أن «ن» من المتشابه، وغيرُ واحد من الخَلَف أنه هنا من أسماء الحروف، وقالوا: يؤيِّدُ ذلك أنه لو كان اسمَ جنسٍ أو علماً لأُعرِب منوَّناً أو ممنوعاً من الصرف، ولكُتب كما يُتلفَّظ به، وكونُ كتابته كما ترى لنيَّةِ الوقف

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ١٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٣) كذا نسب المصنف القراءة، غير أن ما وقفت عليه في المصادر أن قراءة ابن عباس وابن أبي إسحاق بكسر النون لا بفتحها. ونسبت قراءة الفتح لسعيد بن جبير وعيسى بن عمر بخلاف عنه. انظر القراءات الشاذة ص١٥٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

وإجراءِ الوصل مجراه خلافُ الأصل، وكونُ خطِّ المصحف لا يُقاسُ مسلَّم، إلا أنَّ الأصلَ إجراؤه على القياس ما أمكن.

وقيل: هو اسمٌ لحوتٍ عليه الأرضُ، يقال له: اليَهْموت بفتح الياء المثنَّاة التحتية وسكون الهاء، ففي حديثٍ رواه الضياء في «المختارة»، والحاكم وصحَّحه، وجمعٌ عن ابن عباس: خلق الله تعالى النُّونَ، فبُسِطت الأرضُ عليه، فاضطربَ النونُ، فمادَت الأرضُ، فأُثبتت بالجبال، ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ إلخ[1]. ورُوي ذلك عن مجاهد.

ورُوي عن ابن عباس أيضاً، والحسن، وقتادة، والضحَّاك أنه اسمٌ للدَّواة. وأنكر الزمخشريُّ[2] وُرُودَ النُّون بمعنى الدواة في اللغة، أو في الاستعمالِ المُعتدِّ به. وقال ابنُ عطية: يحتمل أن يكون لغةً لبعض العرب، أو لفظةً أعجميةً عربية، وأنشد قولَ الشاعر:

إذا ما الشوقُ برَّح بي إليهم ... أَلَقْتُ النون بالدمع السجوم[3]

والأوَّلون منهم مَن فسَّر «القلم» بالذي خَطَّ في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، ومنهم من فسَّره بقلم الملائكة الكرام الكاتبين. و«أل» فيه على التفسيرين للعهد، والآخِرون منهم من فسَّره بالجنس، على أن التعريف فيه جنسيٌّ، ومنهم ـ وهم قليل ـ مَنْ فسَّره بما تقدَّم أيضاً، لكن الظاهر من كلامهم أن الدَّواة ليست عبارةً عن الدواة المعروفة، بل هي دواةٌ خُلقت يومَ خُلق ذلك القلمُ.

وعن معاوية بن قُرَّة يرفعُه: «إنَّ «ن» لوحٌ من نور، و«القلم» قلمٌ من نور يجري بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[4]. وعن جعفر الصادق أنه نهرٌ من أنهار الجنة.

---

(١) المختارة ١٠/١٨، والمستدرك ٢/٤٩٨، وأخرجه أيضاً ابن جرير في التفسير ٢٣/١٤١.
(٢) في الكشاف ٤/١٤٠-١٤١.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٥، والبيت أورده أيضاً الرازي في تفسيره ٣٠/ ٧٧، وأبو حيان في البحر ٨/ ٣٠٧.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤، قال ابن كثير بعد أن أورده: وهذا مرسل غريب.

وفي «البحر»: لعلَّه لا يصحُّ شيء من ذلك[١]، أي: من جميع ما ذُكر في «ن»، ما عدا كونه اسماً من أسماء الحروف، وكأنه إن كان مطَّلعاً على الروايات التي ذكرناها لم يعتبر تصحيحَ الحاكم فيما رُوي أولاً عن ابن عباس، ولا كونَ أحدِ رواته الضياءُ في «المختارة» التي هي في الاعتبار قريبةٌ من الصِّحاح، ولا كثرةَ راويه عنه، وهو الذي يغلب على الظنِّ؛ لكثرة الاختلاف فيما رُوي عنه في تعيين المراد به، حتى إنه رُوي عنه أنه آخرُ حرفٍ من حروف «الرحمن»، وأن هذا الاسمَ الجليل فُرِّق في «آلر» و«حم» و«ن».

ولا يخفى أنه إن أُريد الحوتُ أو نهرٌ في الجنة يصيرُ الكلام من باب: كُمُّ الخليفةِ وألفُ باذنجانة[٢]، وأما إن أُريد الدواةُ فالتنكيرُ آبٍ عن ذلك أشدَّ الإباء، على أنه ـ كما سمعتَ عن الزمخشريِّ ـ لغةٌ لم تثبت، والردُّ عليه إنما يتأتَّى بإثبات ذلك عن الثقات، وأنَّى به! وذِكْر صاحبِ «القاموس»[٣] لا ينتهض حجَّةً على أنه معنًى لغويٌّ، وفي صحَّة الروايات كلامٌ، والبيتُ الذي أنشده ابنُ عطيةَ لم يثبت عربياً. وكونُه بمعنى الحوت أُطلق على الدّواة مجازاً بعلاقة المشابهة؛ فإنَّ بعض الحيتان يُستخرج منه شيءٌ أشدُّ سواداً من النِّقْس[٤] يُكتب به = لا يخفى ما فيه من السَّماجة؛ فإنَّ ذلك البعضَ لم يشتهر حتى يصحَّ جعلُه مشبَّهاً به، مع أنه لا دلالةَ للمنكِر على ذلك الصِّنف بعينه، وكونُه بمعنى الحرف مجازاً عنها أدهى وأمرُّ. كذا قيل، وللبحث في البعض مجال.

وللقُصَّاص في هذا الفصل روايات لا يعوَّل عليها، ولا ينبغي الإصغاء إليها.

ثم إن استحقاقَ «القلم» للإعظام بالإقسام به إذا أُريد به قلمُ اللوح الذي جاء في الأخبار أنه أولُ شيء خلقَه الله تعالى أو قلمُ الكرام الكاتبين ظاهرٌ،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٢) لعله يريد ـ والله أعلم ـ أنه لا يكون حينئذ بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعة، كما أنه ليس هنالك شيء مشترك بين كمِّ الخليفة وألف باذنجانة.

(٣) مادة (نون).

(٤) النقس: المِداد. القاموس: (نقس).

وأما استحقاقُ ما في أيدي الناس ـ إذا أُريد به الجنسُ ـ لذلك، فلكثرةِ منافعه، ولو لم يكن له مزيةٌ سوى كونه آلةً لتحرير كُتُب الله عزَّ وجل لكفى به فضلاً موجباً لتعظيمه.

والضميرُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ أي: يكتبون، إما لـ «القلم» مُراداً به قلمُ اللوح، وعبَّر عنه بضمير الجمعِ تعظيماً له، أو له مُراداً به جنسُ ما به الخطُّ، فضميرُ الجمع لتعدُّدِهِ، لكنه ليس بكاتبٍ حقيقة، بل هو آلةٌ للكاتب، فالإسنادُ إليه إسنادٌ إلى الآلةِ مجازاً، والتعبيرُ عنه بضمير العقلاء لقيامِهِ مقامَهم، وجعلِهِ فاعلاً.

أو للكَتَبة أو الحَفَظة المفهومين من «القلم»، أو لهم باعتبار أنه أُريد بـ «القلم» أصحابه تجوُّزاً، أو بتقدير مضافٍ معه، ولا يخفى ما هو الأوجهُ من ذلك.

وأما كونُه لـ «ما» وهي بمعنى «مَن» فتكلُّفٌ بارد، والظاهرُ فيها أنها إمَّا موصولةٌ، أي: والذي يسطُرونه، أو مصدريةٌ، أي: وسَطْرِهم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ جوابُ القَسَم، والباءُ الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفي، و«مجنون» خبرُ «ما»، والباءُ الأولى للمُلابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من الضمير في الخبر، والعاملُ فيها معنى النفي، والمعنى: انتفى عنكَ الجنونُ في حال كونك مُلتبساً بنعمة ربِّك، أي: منعماً عليك بما أنعم من حَصَافة الرأي، والنبوَّةِ، والشَّهامةِ، واختاره ناصرُ الدِّين(١).

وقريبٌ منه جعلُ الباء للسببية، والجارَّ والمجرور متعلِّقاً بالنفي كالظرف اللغوِ، كأنه قيل: انتفى عنك الجنونُ بسبب نعمةِ ربِّك عليك.

وجُوِّز أن تكون الباءُ للملابسة في موضع الحال، والعاملُ «مجنون»، وباؤه لا تمنعُ العمل؛ لأنها مزيدةٌ.

وتعقَّبه ناصرُ الدِّين(٢) بأن فيه نظراً من حيث المعنى، ووُجِّه بأنَّ محصِّلَه على هذا التقدير أنه انتفى عنك الجنونُ وقتَ التباسك بنعمة ربِّك، ولا يُفهم منه انتفاءُ

---

(١) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٨/ ٢٢٧.

مطلقِ الجنون عنه ﷺ، وهل المرادُ إلا هذا؟! وقيل عليه: لا يخفى أنه واردٌ على ما اختاره هو أيضاً، أي: وذلك لأنَّ المعنى حينئذٍ: انتفى عنك ملتبساً بنعمةِ ربِّك الجنونُ، ولا يُفهم منه انتفاؤه عنه عليه الصلاة والسلام في جميع الأوقات، وهو المرادُ.

وأُجيب بأن تلك الحالة لازمةٌ له ﷺ، غيرُ منفكَّةٍ عنه، فنفيُه عنه فيها مستلزمٌ لنفيه عنه دائماً، وسائر الحالات.

وتُعقِّب بأن هذا متأتٍّ على كلا التقديرين، لا اختصاصَ له بأحدهما دون الآخر.

وأنت خبيرٌ بأنه فُرِّقَ بينهما؛ إذ يصيرُ المعنى على تقدير كونِ العاملِ «مجنون» كما أُشير إليه: إنه انتفى عنك الجنونُ الواقعُ عليك حالةَ الالتباس المذكور، وهذا يدلُّ على إمكانِ وقوعه في تلك الحالة، بل على تحقُّقه أيضاً، وهو معنًى لاغٍ إذ كيف يُتصوَّر وجودُ الجنون ووقوعُه وقتَ التباسِهِ ﷺ بالنِّعمة، ومن جملتها الحَصَافة.

ولا يَرِدُ هذا على التقديرِ المختارِ؛ إذ الانتفاءُ المفهومُ حينئذٍ لا يكونُ وارداً على الجنون المقيَّد بما ذُكر، وهو وإنْ كان مقيَّداً فيه أيضاً لا ضيرَ به؛ لكون قيدِهِ لازماً لذات المنفيِّ عنه كما عرفت.

هذا، وقيل: إذا حُمِل الباءُ على السببية واعتُبِرَ الظرفُ لغواً، يظهر عدمُ جواز تعلُّقه بما بعدَه من حيث المعنى:

ظُهورَ نار القِرَى ليلاً على علمِ[1]

ولهم في الجملةِ الحاليَّةِ والحال إذا وقعت بعد النفي كلامٌ ذكرَهُ الخفاجيُّ، وحقَّقَ أنه حينئذٍ إنما يلزمُ انتفاءُ مقارنةِ الحال لذي الحال، لا نفيُها نفسَها[2]. فتدبَّر ولا تغفل.

---

(١) قوله: ظهور نار... عجز بيت من بردة البوصيري، وصدره كما في القصائد البصيرية:

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرت

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٧.

وجُوِّز كون «بنعمة ربك» قَسَماً متوسِّطاً في الكلام لتأكيده، من غيرِ تقدير جواب، أو يُقدَّر له جوابٌ يدلُّ عليه الكلامُ المذكور، واستظهرَ هذا الوجهَ أبو حيان[1].

والتعرُّضُ لوصفِ الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى معارجِ الكمال، مع الإضافة إلى ضميرِهِ عليه الصلاةُ والسلام، لتشريفه ﷺ، والإيذانِ بأنه تعالى يُتمُّ نعمتَه عليه، ويبلغه في العلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وراءها، والمرادُ تنزيهُهُ ﷺ عمَّا كانوا ينسبونه إليه ﷺ من الجنون، حَسَداً وعداوةً ومكابرةً، فحاصلُ الكلام: أنتَ منزَّهٌ عمَّا يقولون.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقابلةِ مُقاساتك ألوانَ الشدائدِ من جهتهم، وتحمُّلك أعباءَ الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾ لَثواباً عظيماً لا يُقادَرُ قدرُه. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: مقطوعٍ مع عِظَمِه، أو غيرَ ممنونٍ عليك من جهة الناس؛ فإنه عطاؤه تعالى بلا واسطة، أو من جهته تعالى؛ لأنك حبيبُ الله تعالى، وهو عزَّ وجلَّ أكرمُ الأكرمين، ومن شِيْمة الأكارم أن لا يمنُّوا بإنعامهم، لاسيَّما إذا كان على أحبابهم، كما قال:

سأشكرُ عَمراً إن تراخت مَنيَّتي ... أيادِيَ لم تُمْنَنْ وإن هي جَلَّتِ[2]

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ لا يدرِكُ شأوَه أحدٌ من الخَلْق، ولذلك تحتمِلُ من جهتهم ما لا يحتمِلُه أمثالُك من أُولي العزم.

وفي حديث مسلم، وأبي داود، والإمام أحمد، والدارميِّ، وابن ماجه، والنسائيِّ، عن سَعْد بن هشام قال: قلتُ لعائشة رضي الله عنها: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأُ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله كان القرآن[3]. وأرادت بذلك ـ على ما قيل ـ أن ما فيه من المكارم كلَّه كان

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٢) البيت في الحماسة البصرية ١/ ١٣٥، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٥ منسوب لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي، قال في الحماسة: وتروى لعمرو بن كميل، وانظر كلام الأستاذ عبد السلام هارون في نسبة البيت في تعليقه على رسائل الجاحظ ١/ ٣٨.

(٣) صحيح مسلم (٧٤٦)، وسنن أبي داود (١٣٤٢)، ومسند الإمام أحمد (٢٤٢٦٩)، ومسند الدارمي (١٥١٦)، وسنن ابن ماجه (٢٣٣٣)، والمجتبى للنسائي ٣/ ١٩٩.

فيه ﷺ، وما فيه من الزَّجر عن سَفْساف الأخلاق كان منزجراً به عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المقصودُ بالخطاب بالقَصْد الأول ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وربَّما يرجع إلى هذا قولُها، كما في رواية ابن المنذر وغيرِه عن أبي الدرداء أنه سألَها عن خُلُقه عليه الصلاةُ والسلام، فقالت: كان خلقُه القرآن، يرضى لرضاه، ويَسْخَط لسَخَطه[(١)].

وقال العارفُ بالله تعالى المُرصفي: أرادت بقولها: كان خلُقُه القرآن: تخلُّقَه بأخلاق الله تعالى، لكنها لم تُصرِّح به تأدُّباً منها.

وفي «الكشف» أنه أدمج في هذه الجملة أنه ﷺ متخلِّق بأخلاق الله عزَّ وجل بقوله سبحانه: «عظيم».

وزعم بعضُهم أن في الآية رمزاً إلى أنَّ الأخلاق الحسنةَ مما لا تُجامع الجنونَ، وأنه كلَّما كان الإنسان أحسنَ أخلاقاً كان أبعدَ عن الجنون، ويلزمُ من ذلك أن سوءَ الأخلاق قريبٌ من الجنون.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي: المجنون؛ كما أخرجه ابنُ جرير عن ابن عباس[(٢)]، وابنُ المنذر عن ابن جُبير، وعَبْد بنُ حُميد عن مجاهد[(٣)].

وأُطلق على المجنون لأنه فُتِنَ، أي: مُحِنَ بالجنون، وقيل: لأن العربَ يزعمون أنَّ الجنون من تخييل[(٤)] الجنِّ، وهم الفتَّان للفُتَّاك منهم، والباءُ مزيدةٌ في المبتدأ، وجوَّز ذلك سيبويه[(٥)].

---

(١) سلف ٢/ ٣٣٣.

(٢) كذا نقل المصنف عن السيوطي في الدر ٦/ ٢٥١، والذي في تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٤ عن ابن عباس هو قوله: بأيكم الجنون. وقال الطبري في توجيهه ٢٣/ ١٥٣: وكأن الذين قالوا هذا القول وجَّهوا «المفتون» إلى معنى الفتنة أو الفُتُون، كما قيل: ليس له معقول ولا معقود رأي، بمعنى: ليس له عقل ولا عقد رأي، فكذلك وضع «المفتون» موضع الفتون. وسيرد القول بأن «المفتون» مصدر بمعنى الجنون قريباً.

(٣) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٣.

(٤) في (م): تخبيل.

(٥) الكتاب ١/ ٦٧-٦٨.

أو: الفتنة، فـ «المفتون» مصدرٌ كالمَعْقول والمَجْلود، أي: الجنون؛ كما أخرجه عَبْد بنُ حُميد عن الحسن وأبي الجوزاء[1]، وهو بناء على أنَّ المصدر يكون على وزن المفعول كما جوَّزه بعضُهم، والباءُ عليه للملابسة.

أو: بأيِّ الفريقين منكم الجنونُ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، أي: في أيِّهما يوجد مَنْ يستحقُّ هذا الاسم، وهو تعريضٌ بأبي جهل والوليد بن المُغيرة وأضرابهما. والباءُ على هذا بمعنى «في»، وقُدِّر: بأيِّ الفريقين منكم؛ دفعاً لما قيل من أنَّ الخطابَ لرسول الله ﷺ وجماعةِ قريش، ولا يصحُّ أن يُقال لجماعةٍ وواحدٍ: في أيكم زيدٌ.

وأُيِّد الاعتراضُ بأنَّ قوله تعالى: «فستبصر ويبصرون» خطابٌ له عليه الصلاة والسلام خاصَّة.

وجوابُ التأييد: أنَّ الخطابَ بظاهره خُصَّ برسول الله ﷺ ليجري الكلامُ على نهجِ السَّوابق ولا يتنافر، لكنَّه ليس كالسوابق في الاختصاص حقيقةً؛ لدخول الأمَّة فيه أيضاً، فيصحُّ تقدير: بأيِّ الفريقين. وادَّعى صاحبُ «الكشف» أن هذا أوجهُ الأوجه؛ لإفادته التعريض، وسلامتِهِ عن استعمال النادر، يعني: زيادةَ الباء في المبتدأ، وكون المصدر على زِنَةِ المفعول، وإليه ذهب الفرَّاءُ[2]، ويُؤيِّده قراءةُ ابن أبي عَبْلة: «في أيكم»[3].

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أن «بأيكم المفتون» معمولٌ لما قبلَه على سبيل التنازع، والمراد: فستعلم ويعلمون ذلك يومَ القيامة، حين يتبيَّنُ الحقُّ من الباطل. ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: «فستبصرُ ويبصرون» في الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغَلَبة الإسلام، واستيلائك عليهم بالقتل والنَّهب، وصيرورتِكَ مَهيباً معظَّماً في قلوب العالمين،

---

(١) كذا ذكر المصنف، والذي في الدر المنثور ٦/ ٢٥١ عن عبد بن حميد أن الحسن قال: المجنون، وأبا الجوزاء قال: الشيطان.

(٢) معاني القرآن ٣/ ١٧٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٩.

وكونهم أذلَّةً صاغرين، ويشملُ هذا ما كان يوم بدر. وعن مقاتل: أن ذلك وعيدٌ بعذابِ يوم بدر.

وقال أبو عثمان المازنيُّ: إنَّ الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: «ويبصرون»، ثم استأنَفَ قولَه سبحانه: «بأيكم المفتون» على أنه استفهامٌ يُراد به التَّردادُ بين أمرين معلومٌ نفيُ الحكم عن أحدهما، وتعيُّنُ وجودِهِ للآخر. وهو كما ترى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ استئنافٌ لبيان ما قبلَه، وتأكيدٌ لما تضمَّنه من الوعد والوعيد، أي: هو سبحانه أعلمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله المؤدِّي إلى سعادة الدارين، وهامَ في تيهِ الضلال متوجِّهاً إلى ما يقتضيه من الشقاوة الأبدية، ومَزيد النَّكال، وهذا هو المجنونُ الذي لا يُفرِّقُ بين النفع والضرِّ، بل يحسِبُ الضرر نفعاً فيُؤْثره، والنفعَ ضرراً فيهجُرُه، وهو عزَّ وجلَّ أعلمُ بالمهتدين إلى سبيله، الفائزين بكلِّ مطلوبٍ، الناجين عن كلِّ محذورٍ، وهم العقلاءُ المراجيح، فيَجْزي كُلًّا من الفريقين حسبما يستحقُّه من العقاب والثواب.

وفي «الكشاف»[1]: إنَّ ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلُّوا عن سبيله، وهو أعلمُ بالعقلاء وهم المهتدون، أو يكونُ وعيداً ووعداً، وأنه سبحانه أعلمُ بجزاء الفريقين.

قال في «الكشف»: هو على الأول تذييلٌ مؤكِّد لِمَا رمز إليه في السابق من أنَّ المفتون: مَن قَرَفَك به، جارٍ على أسلوب المؤكد في عدم التصريح، ولكن على وجه أوضح؛ فإن قوله تعالى: «بأيكم المفتون» لا تعيين فيه بوجهٍ، وهذا بدل: هو أعلمُ بالمجنون وبالعاقل، يدلُّ على أن المجنون بهذا الاعتبار، لا بما توهَّموه، فأثبت لهم صرفَ الضلال في عينِ هذا الزَّعم. وعلى الثاني: هو تذييلٌ أيضاً، ولكن على سبيل التصريح؛ لأنَّ «بمن ضل» أُقيم مقامَ بهم، و«بالمهتدين» أُقيم مقامَ بكم.

ولعلَّ ما اعتبرناه أملأُ بالفائدة، وكأنَّ تقديم الوعيدِ ليتَّصلَ بما أشعر به أولاً،

---

(١) ٤/ ١٤٢.

والتعبير في جانب الضلال بالفعل للإيماء بأنه خلافُ ما تقتضيه الفِطْرة، وزيادة «هو أعلم» لزيادة التقرير، مع الإيذان باختلاف الجزاء.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ لترتيب النهي على ما يُنبئُ عنه ما قبلَه من اهتدائه ﷺ وضلالهم، أو على جميع ما فصّل من أول السورة، وهذا تهييجٌ وإلهابٌ للتصميم على معاصاتهم، أي: دُمْ على ما أنتَ عليه من عدم طاعتهم، وتصلَّبْ في ذلك.

وجُوِّز أن يكون نهياً عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلافِ ما في ضميره ﷺ استجلاباً لقلوبهم، لا عن طاعتهم حقيقةً، ويُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ لأنه تعليلٌ للنهي، أو للانتهاء، وإنما عبَّر عنها بالطاعة للمبالغة في التنفير، أي: أَحَبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامحهم في بعض الأمور ﴿فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ أي: فهم يدهنون حينئذٍ، أو: فهم الآن يدهنون طمعاً في إدهانك، فالفاءُ للسببية داخلةٌ على جملة مسبَّبة عمَّا قبلها، وقُدِّر المبتدأ لمكان رفع الفعل.

والفرق بين الوجهين: أنَّ المعنى على [الأول][1] أنهم تمنَّوا لو تُدهن، فتترتَّب مداهنتُهم على مداهنتك، ففيه ترتُّبُ إحدى المُداهنتين على الأخرى في الخارج، و«لو» فيه غيرُ مصدرية، وعلى الثاني هي مصدريةٌ، والترتُّبُ ذهنيٌّ على وَدَادتهم وتمنِّيهم.

وجُوِّز أن تكون الفاءُ لعطف «يدهنون» على «تدهن»، على أنه داخلٌ معه في حيِّز «لو» مُتَمَنًّى مثلُه، والمعنى: ودُّوا لو يدهنون عَقِيب إدهانك. وما تقدَّم أبعدُ عن القيل والقال.

وأيًّاما كان فالمعتَبرُ في جانبهم حقيقةُ الإدهان الذي هو إظهارُ المُلاينة، وإضمارُ خلافها، وأما في جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبرُ بالنسبة إلى وَدَادتهم هو إظهارُ المُلاينة فقط، وأمَّا إضمارُ خلافها فليس في حيِّز الاعتبار، بل هم في غاية الكراهة له، وإنما اعتبارُه بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قوله: الأول، ساقط من (م).

وفي بعض المصاحف ـ كما قال هارون ـ: «فيدهنوا» بدون نون الرفع(١). فقيل: هو منصوبٌ في جواب التمنِّي المفهومِ من «ودُّوا»، وقيل: إنه عطفٌ على «تدهن»، بناءً على أن «لو» بمنزلة «أنْ» الناصبة، فلا يكونُ لها جوابٌ، وينسَبِكُ منها وممَّا بعدها مصدرٌ يقع مفعولاً لـ «ودُّوا»، كأنه قيل: ودُّوا أن تُدهن فيدهنوا، ولعلَّ هذا مرادُ من قال: إنه عطفٌ على توهُّم «أنْ».

وجمهورُ النُّحاة على أنَّ «لو» على حقيقتها، وجوابها محذوفٌ، وكذا مفعولُ «ودُّوا»، أي: ودُّوا إدْهانَكَ، لو تُدْهن فيُدهنون لسُرُّوا بذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثيرِ الحلف في الحقِّ والباطل. وكفى بهذا مزجرةً لمن اعتادَ الحلف؛ لأنه جُعل فاتحة المَثالب، وأساسَ الباقي، وهو يدلُّ على عدم استشعار عظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وهو أُمُّ كلِّ شرٍّ عقداً وعملاً. وذكر بعضُهم أن كثرةَ الحلف مذمومةٌ ولو في الحقِّ؛ لما فيها من الجُرأة على اسمه جلَّ شأنُه.

وهذا النهيُ للتهييج والإلهاب أيضاً، أي: دُمْ على ما أنتَ عليه من عدم طاعة كلِّ حلَّافٍ ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ حقيرِ الرأي والتدبير. وقال الرُّمَّانيُّ: المهينُ: الوضيعُ؛ لإكثاره من القبيح، من المَهانة وهي القلَّة. وأخرج ابنُ المنذر وعَبْد بنُ حُميد عن قتادة أنه قال: هو المِكْثارُ في الشرِّ(٢). وأخرج ابنُ جريرٍ وغيرُه عن ابن عباس أنه الكذَّاب(٣).

﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّاب طعَّان. قال أبو حيان(٤): هو من الهَمْز، وأصلُه في اللغة: الضَّرْب طعناً باليد، أو بالعصا ونحوِها، ثم استُعير للذي يَنال بلسانه. قال مُنْذِر بنُ سعيد: وبعينه وإشارته.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ نقَّال للحديث من قومٍ إلى قوم على وجهِ الإفساد بينهم؛ فإنَّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٩. وهارون: هو ابن موسى الأزدي العتكي، روى عن أبي عمرو بن العلاء، وعنه شعبة، توفي قبل المئتين. طبقات القراء ٢/ ٣٤٨، وتهذيب التهذيب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥١-٢٥٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٥٨.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٠٥.

النميمَ والنميمةَ مصدران بمعنى السّعاية والإفساد. وقيل: النميمُ جمعُ نميمة، يريدون به الجنس، وأصلُ النميمة: الهمسُ والحركةُ الخفيفة، ومنه: أسكَتَ الله تعالى نامَّتَه، أي: ما ينمُّ عليه من حركته.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل مُمْسكٍ، مِن منَعَ معروفه عنه: إذا أمسَكَه، فاللامُ للتقوية، و«الخير» ـ على ما قيل ـ المالُ، أو منّاع الناس الخير: وهو الإسلام، من منعتُ زيداً من الكفر: إذا حملتَه على الكفِّ، فذَكَر الممنوعَ منه، كأنه قيل: منّاع من الخير، دون الممنوع، وهو الناس، عكس الوجه الأول، والتعميمُ هنالك، وعدمُ ذِكْر الممنوع منه أوقعُ.

﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوزٍ في الظلم حدَّه.

﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ كثيرِ الآثام: وهي الأفعالُ المبطئةُ عن الثواب، والمرادُ بها المعاصي والذنوب.

﴿عُتُلٍّ﴾ قال ابنُ عباس: الشديدُ الفاتكُ، وقال الكلبيُّ: الشديد الخُصومة بالباطل، وقال مَعْمَر وقتادة: الفاحشُ اللئيم، وقيل: هو الذي يَعْتُل الناس، أي: يجرُّهم إلى حبسٍ أو عذاب بعنفٍ وغِلْظة. ويقال: عتَنَه بالنون، كما يقال: عتَلَه باللام، كما قال ابنُ السِّكِّيت. وقرأ الحسن: «عتلٌّ» بالرفع على الذمّ[(١)].

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: المذكور من مَثَالبه وقبائحه، و«بعد» هنا كـ «ثمَّ» الدالَّةِ على التفاوت الرُّتبيِّ، فتدلُّ على أنَّ ما بعدُ أعظمُ في القَباحة.

وفي «الكشف»: أشعر كلامُ الزمخشريِّ أنه متعلِّقٌ بـ «عتل» فلزِمَ تبايُنُه من الصفات السابقة، وتبايُنُ ما بعدَه أيضاً، لأنه في سِلْكه[(٢)].

﴿زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ دَعِيٍّ، مُلْحَقٍ بقومٍ ليس منهم كما قال ابنُ عباس، والمراد به ولدُ الزِّنى كما جاء بهذا اللفظ عنه رضي الله عنه، وأنشد لحسان:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣١٠.
(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٤٢-١٤٣.

زنيمٌ تداعَتْه الرجالُ زيادةً كما زِيْدَ في عَرْض الأديمِ الأكارعُ[(١)]

وكذا جاء عن عكرمة، وأنشد:

زنيمٌ ليس يُعرف مَنْ أبوه بَغِيُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيمِ[(٢)]

من الزَّنَمَة بفتحات: وهي ما يتدلَّى من الجلد في حَلْق المعز، والفَلْقةُ من أذنه تُشَقُّ فتُترك معلَّقةً، وإنما كان هذا أشدَّ المَعَايب لأن الغالب أنَّ النطفةَ إذا خبثت خبث الناشئُ منها، ومن ثَمَّ قال ﷺ: «فَرْخُ الزنى ـ أي: ولدُه ـ لا يدخل الجنة»[(٣)]، فهو محمولٌ على الغالب؛ فإنه في الغالب لِخَباثة نطفته يكون خبيثاً لا خيرَ فيه أصلاً، فلا يعمل عملاً يدخل به الجنة. وقال بعض الأجلَّة: هذا خارجٌ مخرَجَ التهديد والتعريض بالزاني، وحُمِلَ على أنه لا يدخل الجنةَ مع السابقين؛ لحديث الدارِميِّ عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «لا يدخل الجنةَ عاقٌّ، ولا ولدُ زَنْيةٍ، ولا منَّانٌ، ولا مدمنُ خمرٍ»[(٤)]؛ فإنه سُلِكَ في قرن العاقِّ والمنَّان ومدمن الخمرِ، ولا ارتيابَ أنهم عند أهل السُّنة ليسوا من زمرةِ مَنْ لا يدخل الجنة أبداً. وقيل: المرادُ أنه لا يدخلُ الجنةَ بعملِ أبويه إذا ماتَ صغيراً، بل يدخُلُها بمحضِ فضلِ الله تعالى ورحمته سبحانه، كأطفال الكفار عند الجمهور.

وروى ابنُ جُبير عن ابن عباس أن الزَّنيم هو الذي يُعرف بالشرِّ كما تُعرف الشاةُ بالزَّنمة. وفي رواية ابن أبي حاتم عنه: هو الرجل يمرُّ على القوم فيقولون: رجل سوْء[(٥)]. والمآلُ واحد. وعنه أيضاً أنه المعروف بالأُبْنَة، ولا يخفى أنَّ المأبون

---

(١) البيت ليس في ديوان حسان، وقد نسبه له المبرد في الكامل ٣/ ١١٤٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٢٤. والخبر أخرجه عن ابن عباس الطستيُّ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٢، والسيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٤، وورد البيت فيهما دون نسبة.

(٢) البيت في تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٥٤.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٨٦، وابن الجوزي في الموضوعات (١٤٣٧) وقال: فيه مَن لا يعرف.

(٤) مسند الدارمي (٢١٣٨)، وأخرجه كذلك أحمد (٦٨٩٢)، وإسناده ضعيف، إلا أن له شواهد تصححه دون قوله: «ولا ولد زينة»، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣.

معدنُ الشرور، بل مَنْ لم يصل في ذلك الأمر الشنيع إلى تلك المرتبة كذلك في الأغلب، ولا حاجة إلى كثرةِ الاستشهاد في هذا الباب، وفي قول الشاعر الاكتفاءُ، وهو:

ولَكَمْ بذلتُ لك المودَّةَ ناصحاً فغدوتَ تسلُكُ في الطريق الأعوجِ
ولكم رجوتُكَ للجميل وفِعْلِهِ يوماً فناداني النُّهى لا تَرْتَجِ

وأخرج ابنُ جرير وابن مَرْدويه عنه أنه قال: نزل على النبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ إلخ، فلم يُعرف حتى نزل عليه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ فعرفناه، له زَنَمةٌ في عنقه كزَنَمة الشاة[(١)].

واستُشكل هذا بأنَّ الزَّنيم عليه ليس صفةَ ذمٍّ، فضلاً عن كونه أعظمَ فيه من الصفات التي قبل ذلك على ما يُفيده «بعد ذلك»، ولا يكاد يَحسُنُ تعليلُ النهي به.

على أنَّ من المعلوم أَنْ ليس المرادُ بالموصوف بهذه الصفات شخصاً بعينه؛ لمكان «كلّ»، ويُحمل ما جاء في الروايات من أنه الوليد بنُ المغيرة المخزوميُّ[(٢)]، وكان دَعِيّاً في قريش، ليس من سِنْخِهم[(٣)]، ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده، أو الحَكَم طريدُ رسولِ الله ﷺ، أو الأخنسُ بنُ شَريق، وكان أصلُه من ثقيف وعِدادُه في زُهْرة، أو الأسود بنُ عبد يغُوث، أو أبو جهل = على بيانِ سبب النزول.

وقيل في ذلك: إن المرادَ ذَمُّه بقبح الخَلْق بعد ذَمِّه بما تقدَّم. وهو كما ترى، فتأمَّل فلعلَّك تظفرُ بما يُريح البال، ويُزيح الإشكال.

وقوله تعالى ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ بتقدير لام التعليل، متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «لا تطع»، أي: لا تطع مَنْ هذه مَثَالبُه؛ لأَنْ كان متموّلاً متقوّياً بالبنين.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٢، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٦٦.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: كان موسراً، له عشرة بنين، وكان يقول: من أسلم منكم منعته رفدي. اهـ منه وعزاه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٤٢ لابن عباس.

(٣) السِّنْخ: الأصل. القاموس: (سنخ). وجاء في هامش الأصل ما نصه: قال مجاهد: كان له في كلِّ يد إبهام زائدة. اهـ منه.

وقولُه سبحانه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل للنهي، وجُوِّز أن يكون لـ «أَنْ» متعلّقاً بنحو: كذَّبَ، ويدلُّ عليه الجملةُ الشرطية، ويُقدَّر مقدَّماً؛ دفعاً لتوهُّم الحصر؛ كأنه قيل: كذَّب لأَنْ كان.. إلخ، والمرادُ أنه بَطِرَ نعمة الله تعالى، ولم يَعْرِفْ حقَّها، ولم يُجَوِّز تعلُّقُه بـ «قال» المذكور بعدُ؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبلَه، ولعلَّ من يقول باطِّراد التوسُّع في الظرف يُجوِّز ذلك، وكذا من يجعل «إذا» هنا ظرفيةً.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: يجوز تعلُّقه بـ «عتلٍّ»، وإن كان قد وُصف. وتعقَّبه أبو حيان[1] بأنه قولٌ كوفي، ولا يجوز ذلك عند البصريين.

وقيل: متعلِّق بـ «زنيم»، ويحسُن ذلك إذا فُسِّر بقبيح الأفعال.

وقرأ الحسن، وابنُ أبي إسحاق، وأبو جعفر، وأبو بكر، وحمزة، وابنُ عامر: «أأن كان» على الاستفهام، وحقَّق الهمزتين حمزةُ، وسهَّل الثانية باقيهم على ما في «البحر»[2]. وقال بعضٌ: قرأ أبو بكر وحمزةُ بهمزتين، وابنُ عامر بهمزة ومدَّة. والمعنى: أكذَّب بها لأَنْ كان ذا مال، أو: أتطيعه لأَنْ كان.. إلخ.

وقرأ نافعٌ في رواية اليزيديِّ عنه: «إن كان» بالكسر[3] على أنَّ شرطَ الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد[4]؛ لأن[5] النهي في غير ذلك يُعلم بالطريق الأَولى، فيثبُتُ بدلالة النصِّ، والشرط والعلَّة في مثله ممَّا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣١٠.

(٢) ٨/ ٣١٠، وكذلك حقَّق الهمزتين أبو بكر ويعقوب في رواية روح، وفصل بينهما بألف مع تسهيل الثانية أبو جعفر وهشام (راوية ابن عامر)، وبالتسهيل من غير فصل قرأ رويس وابن ذكوان. ينظر التيسير ص٢١٣، والنشر ١/ ٣٦٧، والبدور الزاهرة ص٣٢٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٩.

(٤) يعني أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة ليس لتقييد النهي به كما أن النهي عن الوأد في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] غير مقيد بذلك. حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٩، والكلام منه.

(٥) في الأصل و(م): بمعنى، بدل: لأن، والمثبت من حاشية الشهاب.

لا مفهوم له. أو على أنَّ الشرط للمخاطب، وحاصلُ المعنى: لا تطع كلَّ حلافٍ.. إلخ شارطاً يَسَارَه[١]؛ لأنَّ إطاعةَ الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة، وفيه تنزيلُ المخاطب منزلةَ مَنْ شَرَطَ ذلك وحقَّقه؛ زيادةً للإلهاب والثبات، وتعريضاً بمن يحسِبُ الغنى مكرمةً.

والظاهر أن الجملة الشرطيةَ بعدُ استئناف، وقيل: هذا مما اجتمع فيه شرطان، وليسا من الشروط المترتِّبة الوقوع، فالمتأخِّرُ لفظاً هو المتقدِّم، والمتقدِّم لفظاً هو شرطٌ في الثاني، فهو كقوله:

فإن عثرتُ بعدَها إنْ وأَلَتْ نفسي مِنْ هاتا فقولا لا لَعَا[٢]

وقرأ الحسن: «أئذا»[٣] على الاستفهام، وهو استفهامُ تقريعٍ وتوبيخٍ على قوله: أساطير الأولين.

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنجعل له سِمَةً وعلامةً ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي: على الأنف، وهو من بابِ إطلاق مشفر على شفةٍ غليظة لإنسان؛ كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى، وعبَّر بذلك عن غاية الإذلال؛ لأن السِّمة على الوجه شَيْنٌ، حتى إنه ﷺ نهى عنه في الحيوانات، ولعن فاعلَه[٤]، فكيف على أكرمِ موضعٍ منه وهو الأنف؛ لتقدُّمه.

وقد قيل: الجمال في الأنف، وعليه قولُ بعض الأدباء:

وحسنُ الفتى في الأنف والأنفُ عاطل فكيف إذا ما الخالُ كان له حَلْيا[٥]

وجعلوه مكان العزَّة والحميَّة، واشتقوا منه الأَنَفَة، وقالوا: الأنف في الأنف،

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: فلا يرد أن الجملة الشرطية لا تقع حالاً. اهـ منه.

(٢) البيت لابن دريد، وهو في مقصورته بشرح ابن هشام اللخمي ص١٦٧. وقوله: وألت: أي: نجت وخلصت، وهاتا بمعنى هذه، ولعاً كلمة تقال عند العثرة، أو يدعى بها للعاثر، ومعناها الانجبار والارتفاع، و: لا لعاً، نفي للدعاء.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٥٩-١٦٠، والبحر ٨/ ٣١١.

(٤) سلف ٤/ ٣١٤.

(٥) البحر ٨/ ٣١١.

وحمى أنفَه، وفلانٌ شامخُ العِرْنِين[1]، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورَغِم أنفُه، ومنه قولُ جرير:

لمَّا وضعتُ على الفرزدق مِيْسَمي وعلى البَعيثِ جَدَعتُ أنفَ الأخطل[2]

وفي لفظ «الخرطوم» استهانةٌ؛ لأنه لا يُستعمل إلا في الفيل والخنزير، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيحٌ لِمَا دلَّ عليه الوَسْمُ على العضو المخصوص من الإذلال، والمرادُ: سنهينُه في الدنيا ونذلُّه غايةَ الإذلال.

وكونُ الوعيد المذكور في الدنيا هو المرويُّ عن قتادة، وذهب إليه جمعٌ، إلا أنهم قالوا: المعنى: سنفعل به في الدنيا من الذمِّ، والمَقْتِ، والاشتهار بالشرِّ، ما يبقى فيه ولا يخفى، فيكونُ ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيِّناً، كما تقول: سأطوِّقُكَ طوقَ الحمامة، أي: أُثبتُ لك الأمر بيِّناً فيك، وزاد ذلك حُسْناً ذِكْر الخرطوم. انتهى. وبينه وبين ما تقدَّم فرقٌ لا يخفى.

وقال بعضٌ: هو في الآخرة، ومن القائلين بأنَّ هذا وعيدٌ بأمرٍ يكونُ فيها مَنْ قال: هو تعذيبٌ بنار على أنفه في جهنَّم، وحُكي ذلك عن المبرِّد. وقال آخرون منهم: يُوسَمُ يوم القيامة على أنفه بِسِمَة يُعرف بها كفرُه وانحطاطُ قدرِه.

وقال أبو العالية ومُقاتل ـ واختاره الفرَّاء[3] ـ: المراد: يُسوَّد وجهُهُ يوم القيامة قبل دخول النار، وذُكر «الخرطوم» ـ والمرادُ الوجه ـ مجازاً.

ومن القائلين بأنه يكون في الدنيا مَنْ قال: هو وعيدٌ بما أصابَه يومَ بدرٍ؛ فإنه خُطم فيه بالسيف، فبقيت سِمَة على خرطومه، ورُوي هذا عن ابن عباس. والمعروفُ في كتب السِّيَر والأحاديث أنَّ أبا جهلٍ قُتل يوم بدر، والباقين ما عدا

---

(١) العرنين: أول الأنف حيث يكون الشمم، وهو تحت مجتمع الحاجبين. مختار الصحاح: (عرن).

(٢) البيت في ديوان جرير ٢/ ٩٤٠ بشرح ابن حبيب، وروايته: وضغا البعيث. والبعيث: هو خداش بن بشر الشاعر، نشب الهجاء بينه وبين جرير والفرزدق، وسقط البعيث. خزانة الأدب ٢/ ١٨٨ و٢٧٩.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧٤.

الحَكَم ماتوا قبلَه، فلم يُسَم أحدٌ منهم بذلك الوَسْم، وكذا الحَكَم لم يُعلم أنه وُسِمَ بذلك، وإن كان لم يمت قبل.

وعن النضر بن شُمَيل أن الخرطوم الخمر، وأنشد:

تـظـلُّ يـومَـكَ فـي لـهـوٍ وفـي لـعـبٍ وأنـتَ بـالـلـيـل شَـرَّابُ الـخَـراطـيـم[1]

وأن المعنى: سَنَحُدُّه على شُرْبها. وتُعقِّب بأنه تنفيه الرواية بأنَّ أولئك الكَفَرةَ هَلَكوا قبل تحريم الخمر ما عدا الحَكَم، وهو لم يثبت أنه حُدَّ، على أنهم لم يكونوا ملتزمي الأحكام، والدرايةُ أيضاً؛ لتعقيد اللفظ، وفواتِ فخامة المعنى.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: أصبنا أهلَ مكة ببليَّةٍ، وهي القحطُ، بدعوة رسول الله ﷺ، وقولِه: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِني يوسف»[2].

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ أي: مثل ما بلونا، فالكافُ في محلِّ نصبِ صفةِ مصدرٍ مقدَّرٍ، و«ما» مصدريةٌ، وقيل: بمعنى «الذي»، أي: كالبلاء الذي بلوناه ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعروفِ خيرُها عندهم، كانت بأرض اليمن بالقرب منهم، قريباً من صنعاء، لرجلٍ كان يؤدِّي حقَّ الله تعالى منها، فمات، فصارت إلى ولده، فمنعوا الناسَ خيرَها، وبخلوا بحقِّ الله تعالى منها، فكان ما ذَكَره الله تعالى، وكانت ـ على ما أخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن ابن جُبير ـ بأرضٍ في اليمن يقال لها: ضَرَوان[3]، بينها وبين صنعاء ستَّةُ أميال.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس: هم ناسٌ من الحبشة، كانت لأبيهم جنَّةٌ، وكان يُطعم منها المساكين، فمات، فقال بنوه: إنْ كان أبونا لَأحمق حين يُطعم المساكين، فأقسموا على أن لا يُطعموا منها مسكيناً[4].

(١) البيت للأعرج المَعْنيِّ كما في البحر ٨/ ٣٠٥، وأورده القرطبي ٢١/ ١٥٩ من غير نسبة.
(٢) سلف ١٨/ ١٠٨.
(٣) في الأصل و(م): صوران، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٠٩، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٧٥، والخراج ليحيى بن آدم (٤٢٦)، وينظر معجم البلدان ٣/ ٤٥٦، ومعجم ما استعجم ٣/ ٨٥٩.
(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣.

وأخرج عَبْد بنُ حُميد عن قتادة أنه قال: كانت لشيخٍ من بني إسرائيل، وكان يُمسك قوتَ سَنَته ويتصدَّق بالفضل، وكان بنوه ينهونَه عن الصدقة، فلما مات أقسموا على منع المساكين(١).

وفي رواية: أنها كانت لرجلٍ صالحٍ على فَرْسَخَين من صنعاء، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المِنْجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف من العنب، وما بقي على البِساط تحت النخلة إذا صُرِمت، فكان يجتمعُ لهم شيء كثيرٌ، فلما مات قال بنوه: إنْ فعلنا ما كان يفعلُ أبونا ضاقَ علينا الأمر، ونحن أُولو عِيال، فحلفوا لَيَصْرِمُنَّها وقتَ الصباح خفيةً عن المساكين، كما قال عزَّ وجل.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ معمول لـ «بَلَونا»: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعُنَّ من ثمارها بعد استوائها ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ داخلين في الصباح. وهذا حكايةٌ لقَسَمهم لا على منطوقهم، وإلا لقيل: لنصرمُنَّها، بنون المتكلِّمين، وكلا الأمرين جائزٌ في مثله.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ قيل: أي: ولا يقولون: إن شاء الله تعالى، وتسميتُه استثناءً مع أنه شرطٌ من حيث إن مؤدَّاه مؤدَّى الاستثناء؛ فإنَّ قولك: لأخرجنَّ إن شاء الله تعالى، و: لا أخرجُ إلا أَنْ يشاء الله تعالى، بمعنى واحدٍ.

وقال الإمام(٢): أصلُ الاستثناء من الثَّني: وهو الكفُّ والردُّ، وفي التقييد بالشرط ردٌّ لانعقاد ذلك اليمين، فإطلاقُه عليه حقيقة.

وقيل: أي: ولا ينثنون عمَّا همُّوا به من منع المساكين.

والظاهر على القولين عطفُه على «أقسموا»، فمقتضى الظاهر: وما استثنَوا، وكأنه إنمَّا عدَلَ عنه إليه استحضاراً للصورة؛ لما فيها من نوع غرابةٍ؛ لأن اللائقَ في الحلف على ما يلزمُ منه تركُ طاعة الاستثناءُ.

وفي «الكشف»: هو حالٌ، أي: غيرَ مستثنين، وفي العُدول إلى المضارع نوعُ تعبيرٍ وتنبيهٍ على مكان خطئهم، وفيه رمزٌ إلى ما ذكرنا.

---

(١) الدر ٦/ ٢٥٣، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٨.

وقيل: المعنى: ولا يستثنون حصَّة المساكين كما كان يُخرِج أبوهم. وعليه هو معطوفٌ على قوله تعالى: «ليصرمُنَّها»، ومُقْسَمٌ عليه، أو على قوله سبحانه: «مصبحين» الحال، وهو معنًى لا غبارَ عليه.

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا﴾ أي: أحاطَ نازلاً على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ أي: بلاءٌ محيطٌ، فهو صفةٌ لمحذوفٍ، وقولُ قتادة: «طائف» أي: عذابٌ، بيانٌ لحاصل المعنى، ونحوُه قولُ ابن عباس أي: أمرٌ، وعن الفرَّاء[1] تخصيصُ الطائف بالأمر الذي يأتي بالليل، وكان ذلك ـ على ما قال ابن جُرَيج ـ عُنقاً من نار خرج من وادي جنَّتهم[2].

وقيل: الطائفُ هو جبريل عليه السلام، اقتلَعَها وطاف بها حول البلد، ثم وضعَها قربَ مكة حيث مدينة الطائف اليوم، ولذلك سُمِّيت بالطائف، وليس في أرض الحجاز بلدةٌ فيها الماءُ والشجر والأعناب غيرُها. ولا يصحُّ هذا عندي، كالقول بأن الطائف المدينةَ المذكورةَ كانت بالشام، فنقَلَها الله تعالى إلى الحجاز بدعوةِ إبراهيم عليه السلام، وكذا القول بأنها طافت على الماء في الطّوفان. ولو قيل: كلُّ ذلك على ظاهره حديثُ خُرافة، لا يعدُّ حديثَ خُرافة.

وقرأ النخَعيُّ: «طيف»[3].

﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدئٌ من جهته عزَّ وجلَّ ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾ في موضع الحال، والمراد: أتاها ليلاً، كما روي عن قتادة. وقيل: المراد: وهم غافلون غفلةً تامَّة عمَّا جرت به المقاديرُ. والأولُ أظهر من جهة السِّباق واللحاق.

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ كالبستان الذي صُرمت ثمارُه بحيث لم يبقَ فيها شيء، ففعيل بمعنى مفعول. وقال ابنُ عباس: كالرَّماد الأسود، وهو بهذا المعنى لغةُ خُزَيمة. وعنه أيضاً: «الصريم» رَمْلةٌ باليمن معروفةٌ لا تنبت شيئاً. وقال مُؤَرِّج:

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٧٥.

(٢) أورد كلام ابن جريج القرطبي في تفسيره ٢١/ ١٦٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وجاء فيهما: من وادي جهنم. وقوله: عنقاً من نار، أي: قطعة من نار. اللسان: (عنق).

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٢.

كالرملة انصرَمَتْ من معظم الرَّمل وهي لا تنبت شيئاً ينفع(١).

وقال منذرٌ والفرَّاء وجماعةٌ: «الصريم»: الليل، والمراد: أصبحت محترقةً تُشبه الليلَ في السواد. وقال الثوريُّ: كالصبح من حيث ابيضَّت كالزَّرع المحصود. وقال بعضهم: يُسمَّى كلٌّ من الليل والنهار صريماً؛ لانصرام كلٍّ عن صاحبه، وانقطاعه عنه.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعضُهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ لقَسَمهم السابق: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أي: أي اخرجوا، على أنَّ «أنْ» تفسيرية، و«اغدوا» بمعنى اخرجوا، أو: بأن اغدوا، على أنَّ «أنْ» مصدرية، وقبلها حرفُ جرٍّ مقدَّر، وهي يجوز أن تُوصَلَ بالأمر على الأصحِّ.

﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أي: بستانكم ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قاصدين للصَّرْم وقطعِ الثمار فاغدوا. وقيل: يحتمل أن يكون المراد: إن كنتم أهلَ عزمٍ وإقدام على رأيكم، من قولهم: سيفٌ صارمٌ. وليس بذاك.

وظاهرُ كلام جارِ الله(٢) أنَّ غدا بمعنى بكَّر، يتعدَّى بـ «إلى»، وعُدِّي هاهنا بـ «على»؛ لتضمين الغدوِّ معنى الإقبال، كما في قولهم: يُغدى عليه بالجَفْنة ويُراح، أي: فأَقْبِلوا على حرثكم باكرين.

ويجوز أن يكون من غدا عليه: إذا غار، بأن يكون قد شبّه غدوّهم لقطع الثمار بغدوِّ الجيش على شيء؛ لأن معنى الاستعلاء والاستيلاء موجودٌ فيه، وهو الصَّرْمُ والقَطْع، ويكون هناك استعارة تبعية، وجوِّز أن تعتبر الاستعارةُ تمثيلية، وقال أبو حيان(٣): الذي في حفظي أن غدا يتعدَّى بـ «على»، كما في قوله:

وقد أغدو على ثُبَةٍ كرامٍ نَشاوَى واجِدِين لما نَشاءُ(٤)

---

(١) أورده عن مؤرج القرطبي ٢١/ ١٦٥، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣١٢، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري: «الصريم» كل رملة انصرمت من معظم الرمل.

(٢) الكشاف ٤/ ١٤٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣١٢.

(٤) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص٧٢.
والثبة: الجماعة من الناس، ونشاوى، أي: سكارى. اللسان: (ثوب) و(نشا).

وكذا: بَكَرَ، مرادفُه، كما في قوله:

بَكَرتُ عليهم غُدوةً فرأيتُه ... قُعوداً لديه بالصَّريم عَواذِلُه[1]

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم بطريقِ المُخافَتَة، وخَفَى بفتح الفاء، وخَفَتَ، وخَفَدَ، ثلاثتُها في معنى الكتم، ومنه الخُفْدُود للخفاش، والخَفُود للناقة التي تُلقي ولدَها قبل أن يستبين خَلْقُه.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ﴾ أي: الجنة ﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ «أن» مفسِّرةٌ لما في التخافت من معنى القول، أو مصدريةٌ، والتقدير: بأنْ، ويؤيِّد الأولَ قراءةُ عبد الله وابن أبي عَبْلة بإسقاطها، وعليه قيل: هو بتقدير القول، وقيل: العامل فيه «يتخافتون»؛ لتضمُّنه معنى القول، وهو المذهب الكوفي فيه وفي أمثاله.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بنهي المسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه منه، كقولهم: لا أرينَّك هاهنا.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: منع، كما قال أبو عُبيدة[2] وغيره، من قولهم: حارَدَت الإبلُ: إذا قلَّت ألبانُها، وحاردت السَّنَة: قلَّ مطرُها وخيرُها.

والجارُّ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قُدِّم للحصر، ورعاية الفواصل، أي: وغدوا قادرين على منعٍ لا غير. والمعنى: أنهم عزموا على منع المساكين، وطلبوا حرمانَهم ونكدهم وهم قادرون على نفعهم، فَغَدَوا بحالٍ لا يقدرون فيها إلا على المنع والحِرْمان، وذلك أنهم طلبوا حرمانَ المساكين، فتعجَّلوا الحرمان.

أو غدوا على محاردة جنَّتهم وذهاب خيرِها بدَل كونهم قادرين على إصابة خيرِها ومنافعها، أي: غدوا حاصلين على حرمان أنفسهم مكانَ كونهم قادرين على الانتفاع. والحصرُ على الأول حقيقيٌّ، وعلى هذا إضافيٌّ بالنسبة إلى انتفاعهم من جنتهم، والحرمانُ عليه خاصٌّ بهم.

وجُوِّز أن يكون «على حرد» متعلِّقاً بـ «غدوا»، والمراد بالحَرد: حَرد الجنة،

---

(١) البيت لزهير كذلك، وهو في ديوانه ص١٤٠، وفيه: بكرت عليه، وكذلك جاء في البحر.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٥. وانظر رد ابن جرير عليه في تفسيره ٢٣/ ١٧٩.

جيءَ به مشاكلةً للحَرْث، كأنه لما قالوا: اغدوا على حَرْثكم، وقد خبثت نيَّتهم، عاقَبَهم الله تعالى بأن حارَدَت جنَّتهم، وحُرِموا خيرَها، فلم يغدوا على حرث، وإنما غَدَوا على حَرْد، و«قادرين» من عكس الكلام؛ للتهكُّم، أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصِّرام وحرمان المساكين.

وقيل: الحَرْد: الحَرَد بفتح الراء، وقد قُرئ به[1]، وهو بمعنى الغيظ والغضب كما قال أبو نَصْر أحمد بنُ حاتم صاحبُ الأصمعي، وأنشد:

إذا جِيادُ الخيل جاءت تَرْدِي مملوءةً من غضب وحَرْدِ[2]

أي: لم يقدروا إلا على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، ورُوي هذا عن سفيان والسُّدي، والحصرُ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ أو إضافي. وقيل: بمعنى القَصْد والسرعة، وأنشد:

أقبَلَ سَيْلٌ جاء من أمر اللَّهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الجنَّة المُغِلَّهْ[3]

أي: غَدَوا قاصدين إلى جنَّتهم بسرعة، قادرين عند أنفسهم على صِرامها، ورُوي هذا عن ابن عباس، فـ «على حرد» ظرفٌ مستقرٌّ حال من ضمير «غدوا»، و«قادرين» حالٌ أيضاً، إلا أنها حالٌ مقدَّرة على ما قيل، وقيل: حال حقيقيةٌ بناءً على القيد بعند أنفسهم، وإنما قيِّد به لأن ثمارَ جنتهم هالكةٌ، فلا قدرةَ لهم على صِرامها وقد فنيت.

وقال الأزهريُّ: «حرد»: اسمُ قريتهم[4]. وفي رواية عن السُّديِّ: اسمُ جنَّتهم. ولا أظنُّ ذلك مراداً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٠.

(٢) نسب لقبيصة بن النصراني في حماسة أبي تمام ص٦٩، وللأعرج المَعْنيّ، في اللسان والتاج (حرد)، وأورده أبو حيان في البحر ٨/ ٣٠٥ من غير نسبة.

(٣) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٦، والبحر ٨/ ٣٠٥ دون نسبة.
وقال السيوطي في المزهر ١/ ١٨١-١٨٢ بعد أن ذكر نسبته لحنظلة بن مطيح: ويقال: إنه مصنوع، صنعه قطرب بن المستنير.

(٤) أورد الأزهري ٤/ ٤١٤ عدة أقوال في تفسير الآية، ثم قال: وروي في بعض كتب التفسير أن قريتهم كان اسمها: حرد.

وقيل: الحرد: الانفرادُ، يقال: حَرَد عن قومه: إذا تنحَّى عنهم ونزل منفرداً، وكوكبٌ حرود: معتزلٌ عن الكواكب[١].

والمعنى: وغدوا إلى جنَّتهم منفردين عن المساكين، ليس أحدٌ منهم معهم، قادرين على صِرامها. وهو من باب التهكُّم. وقيل: «قادرين» على هذا القول، من التقدير بمعنى التضييق، أي: مضيِّقين على المساكين إذ حَرَموهم ما كان أبوهم يُنيلهم منها، وهو حالٌ مقدَّرة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أولَ ما وقع نظرُهم عليها ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦﴾ طريقَ جنَّتنا، وما هي بها، قاله قتادةُ. وقيل: لضالُّون عن الصواب في غدوِّنا على نيَّة منع المساكين. وليس بذاك.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ قالوه بعدما تأمَّلوا ووقَفُوا على حقيقة الأمر، مُضْرِبين عن قولهم الأول، أي: لسنا ضالِّين، بل نحن محرومون، حُرِمنا خيرَها بجنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أحسنُهم، وأرجَحُهم عقلاً ورأياً، أو أوسطُهم سنّاً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ أي: لولا تذكُرون الله تعالى وتتوبون إليه من خُبْث نيَّتكم، وقد كان قال لهم حين عزَموا على ذلك: اذكروا الله تعالى وتوبوا إليه عن هذه النية الخبيثة من فَوْرِكم، وسارعوا إلى حَسْم شرِّها قبل حلول النِّقمة، فعَصَوه، فعيرَّهم.

ويدلُّ على هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ لأنَّ التسبيح ذِكْرٌ لله تعالى، و«إنا كنَّا» إلخ ندامةٌ واعترافٌ بالذنب، فهو توبةٌ. والظاهر أنهم إنما تكلَّموا بما كان يدعوهم إلى التكلُّم به على أثر مقارَفَة الخطيئة، ولكن بعد خراب البصرة.

وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناءُ؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الاستثناءَ تفويضٌ إليه سبحانه، والتسبيحُ تنزيهٌ له تعالى، وكلٌّ واحدٍ من التفويض والتنزيه تعظيمٌ، فكأنَّه قيل: ألم أقل لكم: لولا تستثنون؟ أي: تقولون:

---

(١) البحر ٨/ ٣٠٥.

إن شاء الله تعالى. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّديِّ، وابنُ المنذر عن ابن جُرَيج[١]، وحكاه في «البحر»[٢] عن مجاهد وأبي صالح أنهما قالا: كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيحَ، كما نقول نحن: إن شاء الله تعالى.

وجعله بعضُ الحنفية استثناءَ اليوم، فعنده لو قال لزوجته: أنت طالقٌ سبحان الله، لا تطلُق، ونُسب إلى الإمام ابن الهُمام، وادُّعي أنه قاله في فتاويه[٣]، ووُجِّه بأنَّ المرادَ بسبحان الله فيما ذُكر: أُنزِّه الله عزَّ وجل من أن يخلق البغيضَ إليه، وهو الطلاقُ، فإنه قد ورد: «أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطلاق»[٤]، وأنكر بعضُ المتأخِّرين نسبته إلى ذلك الإمام المتقدِّم، ونَفَى أن يكون له فتاوى[٥]، واعتَرض التوجيه المذكور بما اعتَرض، وهو لَعمْري أدنى من أن يُعترض عليه.

وأنا أقول: أولى منه قولُ النحَّاس في توجيه جعل التسبيح موضعَ الاستثناء: إنَّ المعنى تنزيه الله تعالى أن يكون شيءٌ إلا بمشيئته.

وقد يقال: لعلَّ مَنْ قال ذلك بنى الأمرَ على صحَّة ما رُوي، وأنَّ شَرْعَ مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا إذا قصَّه الله تعالى ورسولُه ﷺ علينا من غير نكير، وهذا على عِلَّاته أحسنُ مما قيل في توجيهه كما لا يخفى.

وقيل: المعنى: لولا تستغفرون. ووجه التجوُّز يُعلم مما تقدَّم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يلومُ بعضُهم بعضاً، فإن منهم ـ على ما قيل ـ مَنْ أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكَتَ راضياً به، ومنهم من أنكره، ولا يأبى ذلك إسنادُ الأفعال فيما سبَقَ إلى جميعهم؛ لما عُلم في غير موضع.

---

(١) كما في الدر ٦/ ٢٥٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٣.
(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣/ ٣٧١ مع حاشية ابن عابدين.
(٤) سلف ٣/ ٢٩٣.
(٥) ينظر حاشية ابن عابدين ٣/ ٣٧١.

﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ متجاوزين حدودَ الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا﴾ أي: يعطينا بدلاً منها ببركة التوبة والاعترافِ بالخطيئة ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من تلك الجنَّة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ لا إلى غيره سبحانه ﴿رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ راجون العفوَ، طالبون الخيرَ، و«إلى» لانتهاء الرغبةِ، أو لتضمُّنها معنى الرجوع.

وعن مجاهد أنهم تابوا، فأُبدلوا خيراً منها. ورُوي أنهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدَلَنا الله تعالى خيراً منها لنصنعنَّ كما صنع أبونا، فدعوا الله عزَّ وجل وتضرَّعوا إليه سبحانه، فأبدَلَهم الله تعالى مِنْ ليلتهم ما هو خيرٌ منها.

وقال ابنُ مسعود: بلغني أنَّ القومَ دعوا الله تعالى وأخلصوا، وعلمَ الله تعالى منهم الصِّدقَ، فأَبدَلَهم بها جنةً يقال لها: الحَيَوان، فيها عنبٌ يُحمل على البغل منها عنقودٌ.

وقال أبو خالد اليماني: رأيتُ تلك الجنةَ، وكلُّ عنقودٍ منها كالرجل الأسود القائم.

واستظهر أبو حيَّان[(١)] أنهم كانوا مؤمنين أصابوا معصيةً وتابوا، وحَكَى عن بعض أنهم كانوا من أهل الكتاب، وعن القُشَيري أن المعظمَ يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا. وتوقَّف الحسنُ في إيمانهم، فقال: لا أدري أكان قولهم: «إنا إلى ربنا راغبون» إيماناً، أو على حدِّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشِّدةُ؟

وسُئل قتادة عنهم: أَهُم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل: لقد كلَّفتني تعباً.

وقرأ نافعٌ وأبو عَمرٍو: «يبدِّلنا» مشدَّداً[(٢)].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر مقدَّم؛ لإفادة القَصْر، و«أل» للعهد، أي: مِثْلُ ذلك العذابِ الذي بَلَونا به أهلَ مكة من الجَدْب الشديد، وأصحابَ الجنة مما قُصَّ، عذابُ الدنيا.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣١٣.

(٢) التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤ وكذلك قرأ بالتشديد أبو جعفر المدني من العشرة.

والكلام؛ قيل: واردٌ تحذيراً لهم، كأنه لمَّا نهاه سبحانه عن طاعة الكفَّار، وخاصَّة رؤساءهم، ذَكَر عزَّ وجلَّ أن تمرُّدَهم لِمَا أُوتوه من المال والبنين، وعقَّب جلَّ وعلا بأنهما إذا لم يُشكَر[1] المنعِمُ عليهما يؤول حالُ صاحبهما إلى حال أصحاب الجنة مدمجاً فيه أنَّ خُبْثَ النية والزّويَ عن المساكين إذا أفضى بهم إلى ما ذُكر، فمعاندةُ الحقِّ تعالى بعنادِ مَنْ هو على خُلُقه وأشرف الموجودات، وقطعُ رَحِمِه، أَولى بأن يُفضي بأهل مكة إلى البَوار.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وأشدُّ، تحذيرٌ عن العِناد بوجهٍ أبلغ.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ نعْيٌ عليهم بالغفلة، أي: لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبرُ، ولأخذوا منه حِذْرَهم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: من الكفر كما في «البحر»[2]، أو منه ومن المعاصي كما في «الإرشاد»[3] ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة؛ فإنها مختصَّة به عزَّ وجل؛ إذ لا يتصرَّف فيها غيرُه جلَّ جلالُه، أو في جوار قُدْسه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ جناتٍ ليس فيها إلا النعيمُ الخالص عن شائبة ما ينغِّصُه من الكُدورات وخوفِ الزوال. وأُخِذَ الحصرُ من الإضافة إلى النعيم؛ لإفادتها التميُّزَ من جنات الدنيا، والتعريض بأنَّ جنات الدنيا الغالبُ عليها النغص:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صَفْواً من الأقذار والأكدار[4]

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ تقريرٌ لما قبله من فوز المتقين، وردٌّ لما يقولُه الكَفَرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعَدَ الله تعالى: إن صحَّ أنَّا نُبعث كما يزعمُ محمدٌ ومَنْ معه لم يكن حالُنا وحالُهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يَزِيدوا علينا، ولم يَفْضُلونا، وأقصى أمرِهم أن يُساوونا.

---

(١) في (م): يشكرا.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٩/ ١٧.

(٤) البيت للتهامي أبي الحسن علي بن محمد، من قصيدة يرثي بها ابنه؛ كما في الوافي بالوفيات ٢٢/ ١٢١، ونسبه ابن مفلح في الفروع ٣/ ٣٩٩ إلى ابن هانئ.

والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطفِ، والعطفُ على مقدَّر يقتضيه المقال[1]، أي: فيَحِيفُ في الحكم فيجعل[2] المسلمين كالكافرين؟! ثم قيل لهم بطريق الالتفاتِ لتأكيد الردِّ وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ تعجيباً من حكمهم، واستبعاداً له، وإيذاناً بأنه لا يصدُرُ من عاقل؛ إذ معنى «ما لكم»: أيُّ شيء حصل لكم من خَلَل الفكر وفسادِ الرأي؟!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نازلٌ من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي: في الكتاب، والجارُّ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: تقرؤون فيه، والجملةُ صفةُ «كتاب»، وجُوِّز أن يكون «فيه» متعلِّقاً بمتعلّق الخبر، أو هو الصفةُ، والضميرُ للحكم أو الأمر، و«تدرسون» مستأنَفٌ، أو حالٌ من ضمير الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لَلَّذي تختارونه وتشتهونه، يقال: تخيَّر الشيءَ واختاره: أخذ خيرَه، وشاع في أخذ ما يريدُه مطلقاً، مفعول «تدرسون»؛ إذ هو المدروس، فهو واقعٌ موقعَ المفرد، وأصلُه: أنَّ لكم فيه ما تخيَّرون، بفتح همزة «أنَّ» وتركِ اللام في خبرها، فلمَّا جيء باللام كُسرت الهمزةُ، وعُلِّق الفعل عن العمل، ومن هنا قيل: إنه لا بد من تضمين «تدرسون» معنى العلم ليجري فيه العملُ في الجمل والتعليق.

وجُوِّز أن يكون هذا حكايةً للمدروس كما هو عليه، فيكونُ بعينه لفظَ الكتاب من غير تحويلٍ من الفتح للكسر، وضمير «فيه» على الأول للكتاب، وأُعيد للتأكيد، وعلى هذا يعودُ لأمرهم، أو للحكم، فيكونُ محصِّلُ ما خُطَّ في الكتاب أنَّ الحكم أو الأمر مفوَّضٌ لهم، فسقط قولُ صاحب «التقريب»: إن لفظ «فيه» لا يساعدُه؛ للاستغناء بـ «فيه» أولاً، من غير حاجةٍ إلى جعل ضمير «فيه» ليوم القيامة بقرينة المقام، أو للمكان المدلول عليه بقوله تعالى: «عند ربهم». وعلى الاستئناف هو للحكم أيضاً.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٨/ ١٧ (والكلام منه): المقام.

(٢) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود: أَنَحيف في الحكم فنجعل...، وهو الصواب.

وجُوِّز الوقف على «تدرسون»، على أن قوله تعالى: «إن لكم» إلخ استئنافٌ على معنى: إن كان لكم كتابٌ فلكم فيه ما تتخيَّرون، وهو كما ترى.

والظاهرُ أنَّ «أم لكم» إلخ مقابلٌ لما قبله نظراً لحاصل المعنى؛ إذ محصّله: أفَسَد عقلُكم حتى حكمتُم بهذا، أم جاءكم كتابٌ فيه تخييرُكم وتفويضُ الأمر إليكم؟!

وقرأ طلحةُ والضحَّاك: «أنَّ لكم» بفتح الهمزة، واللام في «لَمَا» زائدةٌ، كقراءة من قرأ: «ألا أنهم ليأكلون الطعام» [الفرقان: ٢٠] بفتح همزة «أنهم». وقرأ الأعرجُ: «أئنَّ لكم» بالاستفهام على الاستئناف(١).

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ أي: أقسامٌ، وفُسِّرت بالعهود، وإطلاقُ الأيمان عليها من إطلاق الجزء على الكلِّ، أو اللازمِ على الملزوم.

﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي: أقصى ما يمكنُ، والمراد متناهيةٌ في التوكيد.

وقرأ الحسنُ وزيد بنُ عليٍّ: «بالغةً»(٢) بالنصب على الحال من الضمير المستتر في «علينا»، أو «لكم»، وقال ابنُ عطية: من «أيمان»؛ لتخصيصها بالوصف(٣). وفيه بُعْد.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بالمقدَّر في «لكم» أي: ثابتةٌ لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون. أو متعلِّق بـ «بالغة»، أي: أيمانٌ تبلُغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرةً لم يبطل منها يمينٌ، فـ «إلى» على الأول لغاية الثبوت المقدَّر في الظرف، فهو كأجَل الدَّين، وعلى الثاني لغاية البلوغ، فهي قيد اليمين، أي: يميناً مؤكَّداً لا ينحلُّ إلى ذلك اليوم، وليس من تأجيل المقسَم عليه في شيء؛ إذ لا مدخَلَ لـ «بالغة» في المقسَم عليه، فتأمل.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والبحر ٨/ ٣١٥، والدر المصون ١٠/ ٤١٥، وقراءة الأعرج قيدها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ بالمد، أي: «آئن».

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٣١٥.

(٣) المحرر ٥/ ٣٥٢، وفيه: وهي حال من النكرة ـ يعني قوله: «أيمان» ـ لأنها نكرة مخصصة بقوله: «علينا».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ جوابُ القسم؛ لأنَّ معنى «أم لكم أيمان علينا»: أم أَقْسَمنا لكم؟ وهو جارٍ على تفسير الأيمان بمعنى العهود؛ لأن العهد كاليمين من غير فرقٍ، فيجاب بما يُجاب به القَسَم.

وقرأ الأعرجُ: «أئنَّ لكم» بالاستفهام أيضاً[١].

﴿سَلْهُمْ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله ﷺ بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي: سَلْهم مبكِّتاً لهم: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن دائرة العقول ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ قائمٌ يتصدَّى لتصحيحه. والجملةُ الاستفهامية في موضع المعمول الثاني لـ «سل»، والفعلُ عند أبي حيَّان[٢] وجماعةٍ معلَّقٌ عنها؛ لمكان الاستفهام، وكونُ السؤال منزَّلاً منزلةَ العلم لكونه سبباً لحصوله.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يُشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهَبَهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في دعواهم؛ إذ لا أقلَّ من التقليد.

وقد نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكنُ أن يتعلَّقوا به في تحقيق دعواهم، حيث نبَّه جلَّ شأنُه على نفي الدليل العقليِّ بقوله تعالى: «ما لكم كيف تحكمون» وعلى نفي الدليل النقليِّ بقوله سبحانه: «أم لكم كتاب» إلخ، وعلى نفي أن يكون الله تعالى وعَدَهم بذلك ـ ووعدُ الكريم دَينٌ ـ بقوله سبحانه: «أم لكم أيمان علينا» إلخ، وعلى نفي التقليد الذي هو أوهنُ من حبال القَمَر بقوله عزَّ وجل: «أم لهم شركاء».

وقيل: المعنى: أم لهم آلهةٌ عدُّوها شركاء في الألوهية تجعلُهم كالمسلمين في الآخرة.

وقرأ عبدُ الله وابنُ أبي عَبْلة: «فليأتوا بشِرْكهم»[٣]، والمراد به ما أُريد بـ «شركائهم».

---

(١) انظر التعليق على قراءة الأعرج في الآية السابقة.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٥.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والبحر ٨/ ٣١٥.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: «فليأتوا» على الوجهين، ويجوزُ تعلُّقه بمقدَّر ك: اذكُر، أو: يكون كيتَ وكيتَ. وقيل: بـ «خاشعة». وقيل: بـ «ترهقهم». وأيّاً ما كان فالمرادُ بذلك اليوم عند الجمهور يومُ القيامة.

والساقُ: ما فوق القدم، وكشفُها والتشميرُ عنها مَثَلٌ في شدَّة الأمر وصعوبةِ الخَطْب، حتى إنه يُستعمل بحيث لا يُتصوَّر ساقٌ بوجهٍ، كما في قول حاتم:

أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضَّها وإن شمَّرت عن ساقها الحربُ شمَّرا(١)

وقول الراجز:

عجبتُ من نفسي ومن إشفاقها
ومن طواء الخيل عن أرزاقها
في سَنَةٍ قد كشَفَتْ عن ساقها
حمراءَ تَبْري اللحمَ عن عُرَاقها(٢)

وأصلُه: تشميرُ المخدَّرات عن سُوقهنَّ في الهرب؛ فإنَّهن لا يفعلن ذلك إلا إذا عظُمَ الخَطْبُ، واشتدَّ الأمر، فيذهلن عن السَّتر بذيل الصيانة. وإلى نحو هذا ذهب مجاهدٌ، وإبراهيم النخَعيُّ، وعكرمةُ، وجماعة، وقد رُوي أيضاً عن ابن عباس؛ أخرج عَبْد بنُ حُميد، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» من طريق عكرمة عنه، أنه سُئل عن ذلك، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوانُ العرب، أما سمعتُم قولَ الشاعر:

---

(١) البيت في ديوانه ص٤٩، ونسبه صاحب الحماسة البصرية ١/ ٧٨ لزيد الخيل وهو في ديوانه ص٦١، ونسبه صاحب العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ لحذيفة بن أنس.

(٢) الرجز لأعرابي كان يطرد الطير عن الزرع في سنة جدب، كما في غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧، وورد أيضاً في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣٧١، وأساس البلاغة (سوق)، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٧٥، وجاء في المصادر: ومن طراد الطير، بدل: ومن طواء الخيل. قال ابن قتيبة: العُراق: العظم.

صــبــراً عــنــاق إنــه شــرٌّ بــاقْ
قــد ســنَّ لــي قــومُــك ضــربَ الأعــنــاقْ
وقــامــت الــحــربُ بــنــا عــلــى ســاقْ[1]

والرواياتُ عنه ﷺ بهذا المعنى كثيرةٌ.

وقيل: ساقُ الشيء: أصلُه الذي به قوامُه، كساق الشجر، وساق الإنسان، والمراد: يوم يُكشف عن أصل الأمر، فتظهَرُ حقائقُ الأمور وأصولُها بحيث تصيرُ عِياناً، وإليه يُشير كلامُ الربيع بن أنس؛ فقد أخرج عَبْد بنُ حُميد عنه[2] أنه قال في ذلك: يوم يُكشَفُ الغطاءُ. وكذا ما أخرجه البيهقيُّ عن ابن عباس أيضاً، قال: حين يُكشف الأمرُ وتبدو الأعمال[3]. وفي الساق على هذا المعنى استعارةٌ تصريحيةٌ، وفي الكشف تجوُّزٌ آخر، أو هو ترشيحٌ للاستعارة باقٍ على حقيقته.

وتنكير «ساق»؛ قيل: للتهويل على الأول، وللتعظيم على الثاني، وقيل: لا يُنظر إلى شيء منهما على الأول؛ لأن الكلامَ عليه تمثيلٌ، وهو لا يُنظر فيه للمفردات أصلاً.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد بالساق ساقُه سبحانه وتعالى، وأنَّ الآيةَ من المتشابِه، واستدَلَّ على ذلك بما أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، والنسائيُّ، وابنُ المنذر، وابنُ مردويه عن أبي سعيد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى مَنْ كان يسجُدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجُدَ فيعودُ ظهرُه طَبَقاً واحداً»[4]. وأنكر ذلك سعيد بنُ جُبَير؛ أخرج

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٤، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٩٩-٥٠٠، والأسماء والصفات للبيهقي (٧٤٦)، وأورده أبو حيان في البحر ٨/ ٣١٦، والبيتان الأخيران من الرجز في العقد الفريد ٤/ ٤١٨ وجاء في المصادر: اصبر عناق...

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٥.

(٣) الأسماء والصفات (٧٤٩).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥، وصحيح البخاري (٤٥٨١)، وصحيح مسلم (١٨٣): (٣٠٢)، ولم نقف عليه في سنن النسائي.

عَبْد بنُ حُميد، وابنُ المنذر عنه أنه سُئل عن الآية، فغضب غضباً شديداً، وقال: إن أقواماً يزعمون أنَّ الله سبحانه يَكشِفُ عن ساقه! وإنما يُكشف عن الأمر الشديد[١]. وعليه يُحمل ما في الحديث على الأمر الشديد أيضاً. وإضافتُه إليه عزَّ وجل لتهويل أمره، وأنه أمرٌ لا يقدِرُ عليه سواه عزَّ وجل.

وأربابُ الباطن من الصوفية يقولون بالظاهر، ويدَّعون أنَّ ذلك عند التجلِّي الصوريِّ، وعليه حملوا أيضاً ما أخرجه إسحاق بنُ راهويه في «مسنده»، والطبرانيُّ، والدارقطنيُّ في «الرؤية»، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، وغيرُهم عن ابن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «يجمعُ الله الناسَ يوم القيامة، ويَنزلُ الله في ظُلَلٍ من الغَمام، فينادي منادٍ: يا أيُّها الناس، ألَمْ ترضَوا من ربِّكم الذي خلقَكم وصوَّركم ورزقَكم أن يُولِّي كلَّ إنسانٍ منكم ما كان يعبُدُ في الدنيا ويتولَّى؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى. قال: فلينطلق كلُّ إنسانٍ منكم إلى ما كان يتولَّى في الدنيا. ويتمثَّلُ لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا، ويُمثَّل لمن كان يعبُد عيسى عليه السلام شيطانُ عيسى، وكذا يُمثَّل لمن كان يعبد عُزَيراً، حتى تُمثَّل لهم الشجرةُ، والعود، والحجر، ويبقى أهلُ الإسلام جُثُوماً، فيتمثَّل لهم الربُّ عزَّ وجل، فيقال لهم: مالكم لم تنطلقوا كما انطلَقَ الناس؟ فيقولون: إن لنا ربّاً ما رأيناه بعد، فيقول: فبِمَ تعرفون ربَّكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامةٌ، إن رأيناه عرفناه. قال: وما هي؟ قالوا: يكشف عن ساقٍ، فيكشِفُ عند ذلك». الحديث[٢]. وهو ونظائرُه من المتشابه عند السلف.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وابنُ أبي عَبْلة: «يَكشِفُ» بفتح الياء مبنيّاً للفاعل، وهي روايةٌ عن ابن عباس، وقرأ ابنُ هُرْمز: «نَكشِفُ» بالنون، وقُرئ: «يُكشِفُ» بالياء التحتيَّة مضمومةً، وكسر الشين، من أكشَفَ: إذا دخَلَ في الكشف، ومنه: أكشف الرجلُ فهو مكشف: انقلبت شفتُه العليا. وقُرئ: «تَكشِفُ» بالتاء الفوقيَّة والبناء للفاعل،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥، والمعجم الكبير للطبراني (٩٧٦٣)، والرؤية للدارقطني (١٦٠)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٠٨ وأخرجه أيضاً عبد الله بن أحمد في السنة (١١٣٣).

وهو ضميرُ الساعة المعلومة من ذِكْر يوم القيامة، أو الحال المعلومة من دلالة الحال، وبها والبناء للمفعول(١)، وجُعل الضمير للساعة، أو الحال أيضاً.

وتُعقِّب بأنه يكونُ الأصل حينئذٍ: يكشف الله الساعةَ عن ساقها مثلاً، ولو قيل ذلك لم يستقم؛ لاستدعائه إبداء الساقِ وإذهاب الساعة، كما تقول: كشفَتْ عن وجهها القناعَ، والساعةُ ليست ستراً على الساق حتى تُكشف.

وأُجيب أنها جُعلت ستراً مبالغةً؛ لأن المخدَّرة تُبالغ في الستر جَهْدها، فكأنها نفسُ الستر، فقيل: تكشف الساعةُ، وهذا كما تقول: كشفتُ زيداً عن جهله: إذا بالغتَ في إظهار جهله؛ لأنه كان ستراً على جهله يسترُ معايبَه، فأَبَنْتَه وأظهرتَه إظهاراً لم يَخْفَ على أحد. وقيل عليه: إنَّ الإذهاب حينئذٍ ادِّعائيٌّ، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف، ولا عبرةَ بما ذُكر من المثال المصنوع، وأقلّ تكلُّفاً منه جَعْلُ «عن ساق» بدلَ اشتمالٍ من الضمير المستتر في الفعل بعد نزعِ الخافض منه، والأصلُ: يكشف عنها، أي: عن الساعة، أو الحال، فنُزعَ الخافضُ، واستتر الضميرُ. وتُعقِّب بأن إبدالَ الجارِّ والمجرور من الضمير المرفوع لا يصحُّ بحسب قواعد العربية، فهو ضغث على إبَّالة، وتكلُّف على تكلُّف.

وقيل: إن «عن ساق» نائبُ الفاعل. وتُعقِّب بأن حقَّ الفعل التذكيرُ، كـ: صُرِفَ عن هند، ومرَّ بدَعْد.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إيَّاه في الدنيا، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لزوالِ القدرة عليه. وفيه دلالةٌ على أنهم يقصدونَه فلا يتأتَّى منهم، وعن ابن مسعود: تعقم أصلابُهم، أي: تردُّ عظاماً

---

(١) قوله: وبها، أي: وبالتاء، والقراءات مفرقة في القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٧٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٧٥-١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١١٦.
وقراءة: «نَكشِف» نسبها ابن خالويه إلى ابن عباس، وزاد أبو حيان نسبتها إلى ابن مسعود وابن عباس، وقراءة: «يُكشِف» نسبها ابن خالويه إلى الحسن، وقراءة: «تَكشِف» نسبها القرطبي ٢١/ ١٧٥ إلى ابن عباس، وقراءة: «تُكشَف» نسبها القرطبي ٢١/ ١٧٦ إلى ابن عباس والحسن وأبي العالية.

بلا مفاصل، لا تنثني عند الرفع والخفض. وتقدَّم في حديث البخاريِّ ومَنْ معه ما سمعتَ، وفي حديث: «تصيرُ أصلابُ المنافقين والكفار كصَياصي البقر؛ عظماً واحداً»(١).

والظاهر أن الداعيَ اللهُ تعالى، أو الملك، وقيل: هو ما يرونه من سجود المؤمنين.

واستدلَّ أبو مسلم بهذه الآية على أنَّ يوم الكشف في الدنيا، قال: لأنه تعالى قال: «ويدعون إلى السجود»، ويومُ القيامة ليس فيه تعبُّد ولا تكليف، فيُراد منه إما آخرُ أيام الشخص في دنياه حين يرى الملائكة، وإما وقتُ المرض والهَرَم والمَعْجزة(٢). ويُدفع بما أشرنا إليه.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ حالٌ من مرفوع «يدعون» على أنَّ «أبصارهم» مرتفع به على الفاعلية. ونسبةُ الخشوع إلى الأبصار لظهور أَثَره فيها.

﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ تلحقُهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٞ﴾ شديدةٌ. ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا. والإظهار في موضع الإضمار لزيادةِ التقرير، أو لأنَّ المراد به الصلواتُ المكتوبة، كما قال النَّخَعيُّ والشَّعبي، أو جميعُ الطاعات كما قيل، والدعوةُ دعوة التكليف، وقال ابنُ عباس وابن جُبَير: كانوا يسمعون الأذان والنداءَ للصلاة فلا يُجيبون.

﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكُّن، أي: فلا يُجيبون إليه ويأبونه، وتُرِكَ ذِكْر هذا ثقةً بظهوره.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ أي: إذا كان حالُهم ما سمعتَ فَكِلْ مَنْ يُكذِّب بالقرآن إليَّ، واستكفنيه، فإنَّ فيَّ ما يفرغ بالَكَ، ويُخلِّي همَّكَ. وهو من بليغ

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه (١٠)، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٩٤-١٩٥ من حديث أبي هريرة ﷺ. وأورده ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٦٥-٣٦٦ من حديث ابن مسعود مطولاً، وعزاه لإسحاق، وقال عقبه: هذا إسناد صحيح متصل رجاله ثقات.

(٢) المَعْجزة بفتح الجيم وكسرها، من العجز: عدم القدرة. النهاية: (عجز).

الكلام، يفيد أنَّ المتكلِّم واثقٌ بأنه يتمكَّن من الوفاء بأقصى ما يدور حولَ أمنية المخاطَب وبما يزيد عليه، وقد حقَّقه جارُ الله[1] بما حاصلُه أنَّ من استكفى أحداً تركَ الأمر إليه، وإلا كان استعانةً لا استكفاءً، فأُقيم الرادِفُ ـ أعني التخليةَ، وأن يَذَره وإياه ـ مقامَ الاستكفاء؛ مبالغةً، وإنباءً عن الكفاية البالغة، كيف وهذا الكافي طَلَبَ الاستكفاء بقوله: «ذرني»، وأبرز تركَ الاستكفاء في صورةِ المنع مبالغةً على مبالغة، فلو لم يكن شديدَ الوثوق بتمكُّنه من الوفاء أقصى التمكُّن، وفوقَ ما يحوم حولَ خاطر المستكفي لَمَا كان للطلبِ على هذا الوجه الأبلغ وجهٌ.

و«مَن» في موضع نصبٍ إما عطفاً على المنصوب في «ذرني»، أو على أنه مفعولٌ معه.

وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالاً، والضميرُ لـ «مَن» والجمعُ باعتبار معناها، كما أن الإفراد في «يكذِّب» باعتبار لفظها، أي: سنستنزلُهم إلى العذاب درجةً فدرجة بالإمهال، وإدامةِ الصحةِ، وازدياد النعمة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أنه استدراجٌ، بل يزعمون أن ذلك إيثارٌ لهم وتَفْضيلٌ على المؤمنين، مع أنه سببٌ لهلاكهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأُمهِلُهم ليزدادوا إثماً، وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ لا يُدفَع بشيء. وتسميةُ ذلك كيداً ـ وهو ضربٌ من الاحتيال ـ لكونه في صورته؛ حيث إنه سبحانه يفعل معهم ما هو نفعٌ لهم ظاهراً، ومرادُه عزَّ وجل به الضررُ؛ لِمَا علم من خُبْث جِبِلَّتهم، وتماديهم في الكفر والكفران.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿أَجْرًا﴾ دنيوياً ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: غرامةٍ مالية ﴿مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ مكلَّفون حملاً ثقيلاً فيُعرضون عنك؟ وهذه الجملة ـ على ما قاله ابنُ الشيخ ـ معطوفةٌ على قوله تعالى: «أم لهم شركاء».

---

(١) ينظر الكشاف ٤/١٤٧.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: المغيَّبات، أو: اللوح، وأُطلق الغيبُ عليه مجازاً؛ لأنه محلٌّ لكتابة المغيَّبات، أو لظهورِ صورها بناءً على الخلاف المعروف فيه، والقرينة ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما يَحكمون به، ويَستغنون بذلك عن علمك.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم، وتأخيرُ نصرتِك عليهم، رُوي أنه ﷺ أراد أن يدعوَ على ثقيف لمَّا آذَوْه حين عرض عليه الصلاةُ والسلام نفسَه على القبائل بمكة، فنزلت. وقيل: أراد عليه الصلاةُ والسلام أن يدعوَ على الذين انهزموا بأُحُد حين اشتدَّ بالمسلمين الأمرُ، فنزلت، وعليه تكونُ الآية مدنيةً.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام، كما أنه المراد من ذي النون، إلا أنه فرِّق بين ذي وصاحب بأن ذي أبلغُ من صاحب، قال ابنُ حَجَر: لاقتضائها تعظيمَ المضافِ إليها والموصوفِ بها، بخلافه، ومن ثَمَّ قال سبحانه في معرض مَدْح يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، والنهيِ عن اتِّباعه: (وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ)، إذ النونُ لكونه جُعِلَ فاتحةَ سورةٍ أفخمُ وأشرفُ من لفظ الحوت، ونقل مثلَ ذلك السّرمينيُّ عن العلامة السُّهيلي، وفرَّق بعضُهم بغير ذلك مما هو مذكورٌ في «حواشينا على رسالة ابن عصام في علم البيان».

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مملوءٌ غيظاً على قومه، إذ لم يؤمنوا لمَّا دعاهم إلى الإيمان، وهو من كظَمَ السِّقاء: إذا ملأه، ومن استعماله بهذا المعنى قولُ ذي الرُّمة:

وأنتَ من حبِّ ميٍّ مُضْمِرٌ حُزناً ... عاني الفؤادِ قَريحُ القلب مَكْظومُ(١)

والجملةُ حالٌ من ضمير «نادى»، وعليها يدور النهيُ لا على النداء؛ فإنه أمرٌ مستحسَنٌ، ولذا لم يُذكَر المنادى، و«إذ» منصوبٌ بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالُكَ كحاله وقتَ ندائه، أي: لا يوجَدْ منك ما وُجد منه من الضَّجَر والمُغَاضَبة، فتُبتلى بنحو بلائه عليه السلام.

---

(١) لم نقف على البيت في ديوان ذي الرمة، وهو في البحر ٨/ ٣١٧، والدر المصون ١٠/ ٤١٩.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه. وقُرئ: «رحمةٌ»(١)، وتذكيرُ الفعل على القراءتين؛ لأن الفاعل مؤنَّثٌ مجازيٌّ مع الفصل بالضمير. وقرأ عبدُ الله وابنُ عباس: «تداركَتْه» بتاء التأنيث، وقرأ ابنُ هُرْمُز، والحسن، والأعمش: «تدّاركه» بتشديد الدال، وأصلُه تتداركه، فأبدل التاءَ دالاً، وأُدغمت الدالُ في الدال(٢). والمرادُ حكايةُ الحال الماضية، على معنى: لولا أن كان يُقال فيه: تتداركه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية من الأشجار، أي: في الدنيا.

وقيل: بعراء القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]. ولا يخفى بُعْدُه.

﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ في موضع الحال من مرفوع «نُبذ»، وعليها يعتمد جوابُ «لولا»؛ لأن المقصودَ امتناعُ نَبْذه مذموماً، وإلا فقد حصل النبذُ، فدلَّ على أن حالَه كانت على خلاف الذمِّ، والغرضُ أن حالةَ النبذ والانتهاء كانت مخالفةً لحالةِ الإلامة والابتداء؛ لقوله سبحانه: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] وفي «الإرشاد»(٣) أن الجملة الشرطية استئنافٌ واردٌ لبيان كون المنهيِّ عنه أمراً محذوراً مستتبِعاً للغائلة.

وقولُه سبحانه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: فتداركته نعمةٌ من ربِّه، فاجتباه، أي: اصطفاه بأن ردَّ عزَّ وجل إليه الوحيَ وأرسلَه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون، وقيل: استنبأه، إن صحَّ أنه لم يكن نبيّاً قبل هذه الواقعة وإنما كان رسولاً لبعض المرسلين في أرض الشام.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصَمَه سبحانه من أن يفعل فعلاً يكونُ تركُه أَولى. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ الجَعْل من الصالحين تفسيرٌ للاجتباء. قيل: وفُسِّر «الصالحين» بالأنبياء، وهو مبنيٌّ على أنه لم يكن قبلَ الواقعة نبيّاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٤٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٩/ ١٩.

واستُدلَّ بالآية على خلق الأفعال؛ لأن جَعْلَه صالحاً بجَعْل صلاحه وخلقه فيه، وهو من جملة الأفعال، ولا قائلَ بالفرق، والمعتزلةُ يؤوِّلون ذلك تارةً بالإخبار بصلاحه، وأُخرى باللُّطف به حتى صَلُح، على أنه يحتمل أن يُراد بـ «الصالحين» الأنبياء كما قيل، فلا تفيدُ الآيةُ أكثر من كون النبوَّةِ مجعولةً، وهو مما اتفق عليه الفريقان، فتدبَّر.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ «إنْ» هي المخفَّفةُ، واللامُ دليلُها؛ لأنها لا تدخل بعد النافية، ولذا تُسمَّى الفارقة على عُرفٍ عند النحاة، والمعنى: أنهم لشدَّة عداوتهم ينظرون إليك شَزَراً، بحيث يكادون يُزِلُّون قدمَكَ فيرمونك، من قولهم: نظر إليَّ نظراً يكادُ يصرعُني، أو: يكاد يأكُلني، أي: لو أمكَنَه بنظره الصَّرعُ أو الأكلُ لفعله، وجعل مبالغةً في عداوتهم، حتى كأنَّها سَرَتْ من القلب والجوارح إلى النظر، فعاد يعمَلُ عمَلَ الجوارح، وأنشدوا قولَ الشاعر:

يتقارضون إذا التقَوا في موطنٍ نظراً يُزِلُّ مَواطئَ الأقدام(١)

أو أنهم يكادون يُصيبونَكَ بالعين؛ إذ رُوي أنه كان في بني أسد عيَّانون، فأراد بعضُهم أن يَعين رسولَ الله ﷺ، فنزلت.

وقال الكلبيُّ: كان رجلٌ من العرب يمكُثُ يومين أو ثلاثة لا يأكُلُ، ثم يرفع جانبَ خبائه، فيقول: لم أَرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فتسقُطُ طائفة منها وتهلك، فاقترح الكفار منه أن يُصيب رسولَ الله ﷺ، فأجابهم وأنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيِّدا وإخالُ أنك سيِّد مَعْيونُ(٢)

فعَصَم الله تعالى نبيَّه ﷺ، وأنزل عليه هذه الآية.

وقد قيل: إن قراءَتَها تدفعُ ضرَرَ العين، ورُوي ذلك عن الحسن، وفي كتاب «الأحكام»(٣) أنها أصلٌ في أنَّ العين حقٌّ. والأولى الاستدلالُ على ذلك بما ورد وصحَّ

---

(١) البيت في الكشاف ٤/ ١٤٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٨٧ من غير نسبة.
(٢) البيت لعباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ١/ ١٠، والحيوان للجاحظ ٢/ ١٤٢.
(٣) وهو كتاب الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٧٢.

من عدة طرق أنَّ العين تُدخل الرجل القبر والجمَلَ القِدْر[١]، وبما أخرجه أحمد بسندٍ رجالُه ـ كما قال الهيثميُّ ـ ثقاتٌ، عن أبي ذرٍّ مرفوعاً: «إنَّ العينَ لَتُولَعُ بالرجل بإذن الله تعالى، حتى يصعد حالقاً، ثم يتردَّى منه»[٢]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة. وذلك من خصائص بعضِ النفوس، ولله تعالى أن يخصَّ ما شاء منها بما شاء، وإضافتُه إلى العين باعتبار أنَّ النفسَ تؤثِّر بواسطتها غالباً، وقد يكون التأثيرُ بلا واسطتها، بأن يوصَفَ للعائن شيء فتتوجَّه إليه نفسُه فتُفسده. ومن قال: إنَّ الله تعالى أجرى العادةَ بخَلْق ما شاء عند مقابلة عينِ العائن من غير تأثيرٍ أصلاً، فقد سدَّ على نفسه باب العلل والتأثيرات، والأسبابِ والمسبَّبات، وخالف جميعَ العقلاء. قاله ابنُ القيِّم[٣].

وقال بعضُ أصحاب الطبائع: إنه ينبعث من العين قوَّة سُمِّيَّة تؤثِّر فيما نظره، كما فصّل في «شرح مسلم»[٤]. وهذا لا يتمُّ عندي فيما لم يَرَه، ولا في نحو ما تضمَّنه حديثُ أبي ذرٍّ المتقدِّم آنفاً، ولا في إصابة الإنسان عينَ نفسه كما حكاه المناوي[٥]؛ فإنه لا يقتل الصِلَّ سُمُّه[٦].

ومن ذلك ما حكاه الغسَّانيُّ قال: نظر سليمان بنُ عبد الملك في المرآة فأعجبتْه نفسُه، فقال: كان محمدٌ ﷺ نبيّاً، وكان أبو بكر صدِّيقاً، وكان عمر فاروقاً، وعثمانُ حييّاً[٧]، ومعاوية حليماً، ويزيد صبوراً[٨]، وعبدُ الملك سائساً، والوليد

---

(١) سلف ١٢/٤٠٦.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢١٣٠٢)، وقول الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٦، وقوله: «التولع بالرجل»، قال السندي في شرحه على المسند: يقال: أُولع بالشيء على بناء المفعول، أي: علق به، والمراد: إن العين لتصيب الرجل. اهـ. والحالق: الجبل العالي. النهاية: (حلق).

(٣) زاد المعاد ٤/١٦٦.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/١٧١، وما بعدها.

(٥) قال في فيض القدير ٤/٣٩٦: قال الحكماء: والعائن يبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعان، فيهلك، أو يهلك نفسه.

(٦) الصِّل: الحية التي لا تنفع منها الرُّقى. الصحاح: (صلل).

(٧) جاء في هامش الأصل ما نصه: عدم التعرض لعلي كرم الله تعالى وجهه، بأن يقال: وعلي وصيّاً مثلاً؛ لما أودع في قلوب أكثر بني أمية من ظلمة عداوته، لعن الله تعالى من يعاديه. اهـ منه.

(٨) جاء في هامش الأصل: أي: كالكلب، ثم إنه حريٌّ بأن يقال: كفوراً، بدله. اهـ. وفي هذا الكلام نظر!.

جبَّاراً، وأنا الملكُ الشاب، وأنا الملكُ الشاب. فما دار عليه الشهرُ حتى مات.

ومثل ذلك ما قيل: إنه من باب التأثير في القوة المعروفة اليوم بالقوَّة الكهربائية عند الطباعيين المحدَثين[(١)]، والكلامُ على ما فيها من العجائب مفصَّل في كتبهم، فقد صحَّ أن بعضَ الناس يكرِّر النظرَ إلى بعض الأشخاص من فَرقه إلى قدمه، فيصرعه كالمغشيِّ عليه، وربَّما يقفُ وراءه جاعلاً أصابعه حذاءَ نقرةِ رأسه، ويوجِّه نفسَه إليه حتى يُضعفَ قُواه، فيغشاه نحوُ النوم، ويتكلَّم إذ ذاك بما لا يتكلَّم به في وقتٍ آخر.

وأنا لا أزيدُ على القول بأنه من تأثيرات النفوس، ولا أُكيِّفُ ذلك؛ فالنفسُ الإنسانيةُ من أعجب مخلوقات الله عزَّ وجل، وكم طُوي فيها أسرارٌ وعجائب تتحيَّر فيها العقول، ولا ينكرُها إلا مجنون أو جَهول، ولا يسعُني أن أُنكرَ العين؛ لكثرة الأحاديث الواردة فيها، ومشاهدةِ آثارها على اختلاف الأعصار، ولا أخصُّ ذلك بالنفوس الخبيثة كما قيل، فقد يكون من النفوس الزَّكيَّة، والمشهورُ أنَّ الإصابةَ لا تكونُ مع كراهة الشيء وبُغْضه، وإنما تكون مع استحسانه، وإلى ذلك ذهب القشيريُّ، وكأنه يُشير بذلك إلى الطعن في صحَّة الرواية ها هنا؛ لأن الكفَّار كانوا يُبغضونه عليه الصلاة والسلام، فلا تتأتَّى لهم إصابتُه بالعين، وفيه نظر.

وحكمُ العائن ـ على ما قال القاضي عِياض[(٢)] ـ أن يُجتنَب، وينبغي للإمام حبسُه ومنعُه عن مخالطة الناس؛ كفًّا لضرره ما أمكن، ويرزقُه حينئذٍ من بيت المال.

هذا وقرأ نافع: «ليَزْلِقونك» بفتح الياء[(٣)]، من زلقه بمعنى أزلقه. وقرأ عبدُ الله، وابنُ عباس، والأعمش، وعيسى: «ليزهقونك» بالهاء بدل اللام[(٤)]، أي: ليهلكونك.

---

(١) بعده في الأصل بياض بمقدار نصف سطر، وسقط من (م) من هنا إلى قوله: فقد صح... إلخ.
(٢) إكمال المعلم ٧/ ٨٥.
(٣) التيسير ص٢١٣، والنشر ٢/ ٣٨٩. وكذلك قرأ بها أبو جعفر من العشرة.
(٤) القراءات الشاذة ص١٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: وقتَ سماعهم القرآن، وذلك لاشتداد بُغْضهم وحَسَدهم عند سماعه. و«لما» ـ كما أشرنا إليه ـ ظرفيةٌ متعلِّقة بـ «يزلقونك»، ومن قال: إنها حرفُ وجوبٍ لوجوب ذهب إلى أن جوابَها محذوفٌ؛ لدلالة ما قبلُ عليه، أي: لمَّا سمعوا الذِّكر كادوا يزلقونك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حَيْرتهم في أمرِه عليه الصلاة والسلام، ونهايةِ جَهْلهم بما في تضاعيف القرآن من عجائب الحِكَم وبدائع العلوم، ولتنفير الناس عنه: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

وحيث كان مَدارُ حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ ردَّ ذلك ببيان علوِّ شأنه، وسطوعِ برهانِه، فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ على أنه حالٌ من فاعل «يقولون»، والرابطُ الواو فقط، أو مع عمومِ «العالَمين» كما قيل مفيدٌ لغاية بطلان قولهم، وتعجيبٌ للسامعين من جَراءتهم على التفوُّه بتلك العظيمة، أي: يقولون ذلك والحال أنه ذِكْرٌ للعالمين، أي: تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فأين من أنزل عليه ذلك، وهو مطلَّعٌ على أسراره طرّاً، ومحيطٌ بجميع حقائقه خُبْراً مما قالوه. وقيل: معناه: شرف وفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وعموم «العالمين» لما فيه من الاعتناءِ بما ينفعُهم.

وقيل: الضميرُ لرسول الله ﷺ وكونه مذكِّراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه. ورُجِّح بأن الجملة عليه تكون صريحةً في ردِّ دعواهم الباطلة، وأنتَ تعلمُ أنَّ الأول أولى، والله تعالى أعلم.

(٦٩) سورة الحاقة مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

● **سورة** الحاقة من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان ، وقد تناولت أموراً عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم ، مثل قوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون ، وقوم نوح ، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض ، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء ، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو إثبات صدق القرآن وأنه كلام الحكيم العليم ، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها ، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿ الحاقة ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ؟ كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ . فأمَّا ثمودُ فأُهلكوا بالطاغية . وأمَّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية ..﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور ، من خراب العالم ، واندكاك الجبال ، وانشقاق السموات الخ ﴿ فإذا نُفخ في الصُّور نفخةٌ واحدةٌ . وحُملتْ الأرضُ والجبال فدُكَّتا دكةً واحدة ..﴾ الآيات .

● **ثم ذكرت** حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع ،

حيث يعطي المؤمن كتابه بيمينه ، ويلقي الإكرام والإنعام ، ويعطي الكافر كتابه بشماله ، ويلقي الذل والهوان ﴿ فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ... وأما من أوتي كتابه بشماله ..﴾ الآيات .

● **وبعد هذا** العرض لأحوال الأبرار والفجار ، جاء القسم البليغ بصدق الرسول ، وصـــدق ما جاء به من الله ، وردّ افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم﴾ .

● **ثم ذكرت** البرهان القاطع على صدق القرآن ، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه ، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزاً ، ويثير في النفس الخوف والفزع من هول الموضوع ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين .. وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم﴾ .

سورة الحاقة

[٩٧٠] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي[١] عن بريدة قال: قال رسول الله [ﷺ] لعلي بن أبي طالب: «**إني أمرت أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق لك أن تعي**» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[٢]

لا يصح[٣].

* * *

---

[٩٧٠] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٩) من طريق بشر بن آدم نا عبدالله بن الزبير قال سمعت صلح بن هشيم يقول سمعت بريدة.

(٢) سورة الحاقة: الآية (١٢).

(٣) أي لا يصح إسناده.

سورة الحاقة

خمسون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: أجمعوا على أن الحاقة هي القيامة واختلفوا في معنى الحاقة على وجوه:

أحدها: أن الحق هو الثابت الكائن، فالحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها. **وثانيها**: أنها التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة من قولك: لا أحق هذا أي لا أعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لأهلها. **وثالثها**: أنها ذوات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق، والثواب والعقاب وغيرهما من أحوال القيامة أمور واجبة الوقوع والوجود فهي كلها حواق. **ورابعها**: أن الحاقة بمعنى الحقَّة والحقة أخص من الحق وأوجب تقول: هذه حقتي أي حقي، وعلى هذا الحاقة بمعنى الحق، وهذا الوجه قريب من الوجه الأول. **وخامسها**: قال الليث: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ النازلة التي حقت بالجارية فلا كاذبة لها وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة: ٢]، **وسادسها**: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ الساعة التي يحق فيها الجزاء على كل ضلال وهدى وهي القيامة. **وسابعها**: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ هو الوقت الذي يحق على القوم أن يقع بهم. **وثامنها**: أنها الحق بأن يكون فيها جميع آثار أعمال المكلفين فإن في ذلك اليوم يحصل الثواب والعقاب ويخرج عن حد الانتظار وهو قول الزجاج. **وتاسعها**: قال الأزهري: والذي عندي في الحاقة أنها سميت بذلك لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل أي تخاصم كل مخاصم وتغلبه من قولك: حاققته فحققته أي غالبته فغلبته وفلجت عليه. **وعاشرها**: قال أبو مسلم: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ الفاعلة من حقت كلمة ربك.

المسألة الثانية: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ مرفوعة بالابتداء وخبرها ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ والأصل الحاقة ما هي أي أي شيء هي؟ تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها ومثله قوله: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١، ٢] وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ أي وأي شيء أعلمك ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ يعني إنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها، يعني أنه في العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ﴿ مَا ﴾ في موضع الرفع على الابتداء و﴿ أَدْرَىٰكَ ﴾ معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾: القارعة هي التي تقرع الناس بالإفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار، وإنما قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ ولم يقل: بها، ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة، فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها. ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك بذكر من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرًا لأهل مكة، وتخويفًا لهم من عاقبة تكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

اعلم أن في الطاغية أقوالا: الأول: أن الطاغية هي الواقعة المجاوزة للحد في الشدة والقوة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي جاوز الحد، وقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] فعلى هذا القول: الطاغية نعت محذوف، واختلفوا في ذلك المحذوف، فقال بعضهم: إنها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] وقال بعضهم: إنها الرجفة، وقال آخرون: إنها الصاعقة والقول الثاني: أن الطاغية هاهنا الطغيان، فهي مصدر كالكاذبة والباقية والعاقبة والعافية، أي أهلكوا بطغيانهم على الله إذ كذبوا رسله وكفروا به، وهو منقول عن ابن عباس، والمتأخرون طعنوا فيه من وجهين: الأول: وهو الذي قاله الزجاج: أنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيء الذي وقع به العذاب، وهو قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة، والثاني: وهو الذي قاله القاضي: وهو أنه لو كان المراد ما قالوه، لكان من حق الكلام أن يقال: أهلكوا لها ولأجلها، والقول الثالث: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي بالفرقة التي طغت من جملة ثمود، فتآمروا بعقر الناقة فعقروها، أي أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية، ويجوز أن يكون المراد بالطاغية ذلك الرجل الواحد الذي أقدم على عقر الناقة وأهلك الجميع، لأنهم رضوا بفعله وقيل له طاغية، كما يقول: فلان راوية الشعر، وداهية وعلامة ونسابة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل: الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها، وأما العاتية ففيها أقوال: الأول: قال الكلبي: عتت على خزنتها يومئذ، فلم يحفظوا كم خرج منها، ولم يخرج قبل ذلك، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم، قال عليه الصلاة والسلام: طغى الماء على خزانه يوم نوح، وعتت الريح على خزانها يوم عاد، فلم يكن لها عليها سبيل، فعلى هذا القول: هي عاتية على الخزان، الثاني: قال عطاء عن ابن عباس: يريد الريح عتت على عاد فما قدروا على

ردها بحيلة من استتار ببناء أو اسْتِنَادٍ إِلَى جَبَلٍ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم القول الثالث: أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان، إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ومنه قولهم: عتا النبت، أي بلغ منتهاه وجف، قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة.

قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال مقاتل: سلطها عليهم. وقال الزجاج: أقلعها عليهم، وقال آخرون: أرسلها عليهم، هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين، وعندي أن فيه لطيفة، وذلك لأن من الناس من قال: إن تلك الرياح إنما اشتدت، لأن اتصالاً فلكيًا نجوميًّا اقتضى ذلك، فقوله: ﴿ سَخَّرَهَا﴾ فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب، وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب. وقوله: ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلومًا، فلما قال: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ صار مقدار هذا الزمان معلومًا، ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقًا في هذه المدة أزال هذا الظن بقوله: ﴿ حُسُومًا﴾ أي متتابعة متوالية، واختلفوا في الحسوم على وجوه: **أحدها**:وهو قول الأكثرين حُسُومًا، أي متتابعة، أي هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع، وعلى هذا القول: حُسُوم جمع حاسم. كشُهُود وقُعُود، ومعنى هذا الحسم في اللغة القطع بالاستئصال، وسمي السيف حسامًا، لأنه يحسم العدو عما يريد، من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي، على الداء كرة بعد أخرى، حتى ينحسم. **وثانيها**:أن الرياح حسمت كل خير، واستأصلت كل بركة، فكانت حسومًا أو حسمتهم، فلم يبق منهم أحد، فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم، **وثالثها**:أن يكون الحسوم مصدرًا كالشُّكُور والكُفُور، وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمرًا، والتقدير: يحسم حُسُومًا، يعني استأصل استئصالاً، أو يكون صفة، كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولاً له، أي سخرها عليهم للاستئصال، وقرأ السدي: (حَسُومًا) بالفتح حالاً من الريح، أي سخرها عليهم مستأصلة، وقيل: هي أيام العجوز، وإنما سميت بأيام العجوز، لأن عجوزًا من عاد توارت في سرب، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها، وقيل: هي أيام العجز وهي آخر الشتاء.

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي في مهابها، وقال آخرون: أي في تلك الليالي

والأيام: ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع. قال مقاتل: يعني موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم، فهم مصرعون صرع الموت.

ثم قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها، والنخل يؤنث ويذكر، قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] وقرئ: (أَعْجَازُ نَخِيلٍ)، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعًا ضخامًا كأصول النخل. وأما وصف النخل بالخواء، فيحتمل أن يكون وصفًا للقوم، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية.

ثم قال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الباقية ثلاثة أوجه، أحدها: إنها البقية، وثانيها: المراد من نفس باقية، وثالثها: المراد بالباقية البقاء، كالطاغية بمعنى الطغيان.

المسألة الثانية: ذهب قوم إلى أن المراد أنه لم يبق من نسل أولئك القوم أحد، واستدل بهذه الآية على قوله قال ابن جريج: كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عقاب الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر، فذاك هو قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

القصة الثانية: قصة فرعون

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي ومن كان قبله من الأمم التي كفرت كما كفر هو، و(مَنْ) لفظ عام ومعناه خاص في الكفار دون المؤمنين، قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي، (وَمَنْ قِبَله) بكسر القاف وفتح الباء، قال سيبويه: قِبَل لما ولي الشيء تقول: ذهب قبل السوق، ولي قبلك حق، أي فيما يليك، واتسع فيه حتى صار بمنزلة لي عليك، فمعنى (مِن قِبَلَه) أي من عنده من أتباعه وجنوده والذي يؤكد هذه القراءة ما روي أن ابن مسعود وأبيًّا وأبا موسى قرءوا: (ومَنْ تلقاءه) روى عن أبي وحده أنه قرأ: (وَمَن مَّعَهُۥ) أما قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ فقد تقدم تفسيرها، وهم الذين أهلكوا من قوم لوط، على معنى: والجماعات المؤتفكات، وقوله: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ فيه وجهان: الأول: أن الخاطئة مصدر كالخطأ والثاني: أن يكون المراد بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ العظيم.

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾: الضمير إن كان عائدًا إلى ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾

[الحاقة: ٩]، فرسول ربهم هو موسى عليه السلام، وإن كان عائدًا إلى أهل المؤتفكات فرسول ربهم هو لوط، قال الواحدي: والوجه أن يقال: المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الأمتين بعد ذكرهما بقوله: ﴿فَعَصَوْا﴾ فيكون كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ يقال: رَبَا الشيء يربو إذا زاد ثم فيه وجهان: الأول: أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار، الثاني: أن عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة، لقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[نوح: ٢٥] وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا، فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو.

القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ طغى الماء على خزانه فلم يدروا كم خرج وليس ينزل من السماء قطرة قبل تلك الواقعة ولا بعدها إلا بكيل معلوم، وسائر المفسرين قالوا: ﴿طَغَا الْمَاءُ﴾ أي تجاوز حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه، و﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذا هم أولاد الذين كانوا في السفينة، وقوله: ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ يعني في السفينة التي تجري في الماء، وهي سفينة نوح عليه السلام، والجارية من أسماء السفينة، ومنه قوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾[الرحمن: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان: الأول: قال الزجاج إنه عائد إلى الواقعة التي هي معلومة، وإن كانت هاهنا غير مذكورة، والتقدير لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة، الثاني: قال الفراء: لنجعل السفينة، وهذا ضعيف، والأول هو الصواب، ويدل على صحته قوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ فالضمير في قوله: ﴿وَتَعِيَهَا﴾ عائد إلى ما عاد إليه الضمير الأول، لكن الضمير في قوله: ﴿وَتَعِيَهَا﴾ لا يمكن عوده إلى السفينة فكذا الضمير الأول.

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: يقال: لكل شيء حفظته في نفسك وعيته ووعيت العلم، ووعيت ما قلت ويقال: لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ومنه قول الشاعر:

وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ (١)

واعلم أن وجه التذكير في هذا أن نجاة قوم من الغرق بالسفينة وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم ونفاذ مشيئته، ونهاية حكمته ورحمته وشدة قهره وسطوته، وعن النبي ﷺ عند

(١) هذا الشطر الثاني من البيت للشاعر طرفة بن العبد وقد تقدمت ترجمته أما البيت فهكذا:

الخَيرُ خَيرٌ وَإِن طالَ الزَمانُ بِهِ   وَالشَرُّ أَخبَثُ ما أوعَيتَ من زادِ

نزول هذه الآية: «سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ، قَالَ عَلِيٌّ: فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ لِي أَنْ أَنْسَى» (١) فإن قيل: لم قال ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ على التوحيد والتنكير؟ قلنا: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يلتفت إليهم، وإن امتلأ العالم منهم.

المسألة الثانية: قراءة العامة: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بكسر العين، وروى عن ابن كثير (وتَعْيَها) ساكنة العين كأنه جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة (فَخْذ)، فأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من فَخْذ وكَبْد وكَتْف، وإنما فعل ذلك لأن حرف المضارعة لا ينفصل من الفعل، فأشبه ما هو من نفس الكلمة، وصار كقول من قال: وهو وهي ومثل ذلك قوله: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: ٥٢] في قراءة من سكن القاف.

واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة.

ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة فذكر أولاً مقدماتها. فقال:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرئ (نَفْخَةٌ) بالرفع والنصب، وجه الرفع أسند الفعل إليها، وإنما حسن تذكير الفعل للفصل، ووجه النصب أن الفعلَ مسند إلى الجار والمجرور ثم نصب (نَفْخَةً) على المصدر.

المسألة الثانية: المراد من هذه النفخة الواحدة هي النفخة الأولى لأن عندها يحصل خراب العالم، فإن قيل: لم قال بعد ذلك ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية؟ قلنا: جعل اليوم اسمًا للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان، والصعقة والنشور، والوقوف والحساب، فلذلك قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ كما تقول: جئته عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: رفعت الأرض والجبال، إما بالزلزلة التي تكون في القيامة، وإما بريح بلغت من

---

(١) ضعيف: رواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١/ ٣٧٠) حديث رقم (٣٢٨) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤١/ ٤٥٥) والطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٥٧٩) جميعًا من طريق الوليد بن مسلم عن علي بن حوشب قال سمعت مكحولاً... فذكره وفي إسناده انقطاع بين مكحول وبين علي بن أبي طالب.

قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بملك من الملائكة أو بقدرة الله من غير سبب فدكتا، أي فدكت الجملتان جملة الأرض وجملة الجبال، فضرب بعضها ببعض، حتى تندق وتصير كثيبًا مهيلاً وهباء منبثًا والدك أبلغ من الدق، وقيل: فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا من قولك: اندك السنام إذا انفرش، وبعير أدك وناقة دكاء ومنه الدكان.

المسألة الثانية: قال الفراء: لا يجوز في دكة هاهنا إلا النصب لارتفاع الضمير في دكتا، ولم يقل: فدككن لأنه جعل الجبال كالواحدة والأرض كالواحدة، كما قال: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾[الأنبياء: ٣٠] ولم يقل: كن.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: أي فيومئذ قامت القيامة الكبرى وانشقت السماء لنزول الملائكة: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي مسترخية ساقطة القوة ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[القارعة: ٥] بعدما كانت محكمة شديدة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ لم يرد به ملكًا واحدًا، بل أراد الجنس والجمع.

المسألة الثانية: الأرجاء في اللغة النواحي يقال: رجا ورَجَوان والجمع: الأرجاء، ويقال ذلك لحرف البئر وحرف القبر وما أشبه ذلك، والمعنى أن السماء إذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء، فإن قيل: الملائكة يموتون في الصعقة الأولى، لقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الزمر: ٦٨] فكيف يقال: إنهم يقفون على أرجاء السماء؟ قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أنهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون، الثاني: أن المراد الذين استثناهم الله في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذا العرش هو الذي أراده الله بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾[غافر: ٧] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[الزمر: ٧٥].

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: الأول: وهو الأقرب أن المراد فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش، الثاني: قال مقاتل: يعني أن الحملة يحملون العرش فوق رءوسهم. و(مجيء) الضمير قبل الذكر جائز كقوله: في بيته يؤتي الحكم.

المسألة الثالثة: نقل عن الحسن رحمه الله أنه قال: لا أدري ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف صف. واعلم أن حمله على ثمانية أشخاص أولى لوجوه:

أحدها: ما روى عن رسول الله ﷺ: «هُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَيَّدَهُمُ اللَّهُ بِأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ فَيَكُونُونَ ثَمَانِيَةً» ويروى: «ثَمَانِيَةُ أَمْلَاكٍ أَرْجُلُهُمْ فِي تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤوسهم وَهُمْ مُطْرِقُونَ مُسَبِّحُونَ» وقيل: بعضهم على صورة الإنسان وقيل: بعضهم على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر، وروي ثمانية أملاك في صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عامًا، وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، الوجه الثاني: في بيان أن الحمل على ثمانية أشخاص أولى من الحمل على ثمانية آلاف وذلك لأن الثمانية أشخاص لا بد منهم في صدق اللفظ، ولا حاجة في صدق اللفظ إلى ثمانية آلاف، فحينئذ يكون اللفظ دالاً على ثمانية أشخاص، ولا دلالة فيه على ثمانية آلاف فوجب حمله على الأول، الوجه الثالث: وهو أن الموضع موضع التعظيم والتهويل فلو كان المراد ثمانية آلاف، أو ثمانية صفوف لوجب ذكره ليزداد التعظيم والتهويل، فحيث لم يذكر ذلك علمنا أنه ليس المراد إلا ثمانية أشخاص.

المسألة الرابعة: قالت المشبهة: لو لم يكن الله في العرش لكان حمل العرش عبثًا عديم الفائدة، ولا سيما وقد تأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]والعرض إنما يكون لو كان الإله حاصلاً في العرش، أجاب أهل التوحيد عنه بأنه لا يمكن أن يكون المراد منه أن الله جالس في العرش وذلك لأن كل من كان حاملاً للعرش كان حاملاً لكل ما كان في العرش، فلو كان الإله في العرش للزم الملائكة أن يكونوا حاملين لله تعالى وذلك محال، لأنه يقتضي احتياج الله إليهم، وأن يكونوا أعظم قدرة من الله تعالى وكل ذلك كفر صريح، فعلمنا أنه لا بد فيه من التأويل فنقول: السبب في هذا الكلام هو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه، فخلق لنفسه بيتًا يزورونه، وليس أنه يسكنه، تعالى الله عنه وجعل في ركن البيت حجرًا هو يمينه في الأرض، إذ كان من شأنهم أن يعظموا رؤساءهم بتقبيل أيمانهم، وجعل على العباد حفظة ليس لأن النسيان يجوز عليه سبحانه، لكن هذا هو المتعارف فكذلك لما كان من شأن الملك إذا أراد محاسبة عماله جلس إليهم على سرير ووقف الأعوان حوله أحضر الله يوم القيامة عرشًا وحضرت الملائكة وحفت به، لا لأنه يقعد عليه أو يحتاج إليه بل لمثل ما قلناه في البيت والطواف.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ العرض: عبارة عن المحاسبة والمساءلة، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله، ونظيره قوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] وروى: «أَنَّ

فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَتَانِ فَاعْتِذَارٌ وَاحْتِجَاجٌ وَتَوْبِيخٌ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَفِيهَا تُنْشَرُ الْكُتُبُ فَيَأْخُذُ السعيد كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله».

ثم قال: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية وجهان: الأول: تقرير الآية: تعرضون لا يخفى أمركم فإنه عالم بكل شيء، ولا يخفى عليه منكم خافية، ونظيره قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦] فيكون الغرض منه المبالغة في التهديد، يعني تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً، الوجه الثاني: المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفيًّا منكم في الدنيا، فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم، وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم، وهو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩-١٠] وفي هذا أعظم الزجر والوعيد وهو خوف الفضيحة.

المسألة الثانية: قراءة العامة (لاَ تَخْفى) بالتاء المنقطة من فوقها، واختار أبو عبيدة الياء وهي قراءة حمزة، والكسائي قال: لأن الياء تجوز للذكر والأنثى والتاء لا تجوز إلا للأنثى، وهاهنا يجوز إسناد الفعل إلى المذكر وهو أن يكون المراد بالخافية شيء ذو خفاء. وأيضًا فقد وقع الفصل هاهنا بين الاسم والفعل بقوله: منكم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما ينتهي هذا العرض إليه قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: هاء صوت يصوت به، فيفهم منه معنى خذ كافٍ وحس، وقال أبو القاسم الزجاجي وفيه لغات وأجودها ما حكاه سيبويه عن العرب فقال: ومما يؤمر به من المبنيات قولهم: هاء يا فتى، ومعناه تناول ويفتحون الهمزة ويجعلون فتحها علم المذكر كما قالوا: هاكَ يا فتى، فتجعل فتحة الكاف علامة المذكر ويقال للاثنين: هاؤما، وللجمع هاؤموا وهاؤم والميم في هذا الموضع كالميم في أنتما وأنتم وهذه الضمة التي تولدت في همزة هاؤم إنما هي ضمة ميم الجمع لأن الأصل فيه هاؤموا وأنتموا فأشبعوا الضمة وحكموا للاثنين بحكم الجمع لأن الاثنين عندهم في حكم الجمع في كثير من الأحكام.

المسألة الثانية: إذا اجتمع عاملان على معمول واحد، فإعمال الأقرب جائز بالاتفاق وإعمال الأبعد هل يجوز أم لا؟ ذهب الكوفيون إلى جوازه والبصريون منعوه، واحتج البصريون على قولهم: بهذه الآية، لأن قوله: ﴿هَآؤُمُ﴾ ناصب، وقوله: ﴿ٱقْرَءُوا۟﴾ ناصب أيضًا، فلو كان الناصب هو الأبعد، لكان التقدير: هاؤم كتابيه، فكان يجب أن يقول: اقرأوه، ونظيره ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] واعلم: أن هذه الحجة ضعيفة لأن هذه الآية دلت على أن الواقع هاهنا إعمال الأقرب وذلك لا نزاع فيه إنما النزاع في أنه هل يجوز إعمال الأبعد أم لا، وليس في الآية تعرض لذلك، وأيضًا قد يحذف الضمير لأن ظهوره يغني عن التصريح به كما في قوله:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فلم لا يجوز أن يكون هاهنا كذلك، ثم احتج الكوفيون بأن العامل الأول متقدم في الوجود على العامل الثاني، والعامل الأول حين وجد اقتضى معمولاً لامتناع حصول العلة دون المعمول، فصيرورة المعمول معمولاً للعامل الأول متقدم على وجود العامل الثاني، والعامل الثاني إنما وجد بعد أن صار معمولاً للعامل الأول فيستحيل أن يصير أيضًا معمولاً للعامل الثاني، لامتناع تعليل الحكم الواحد بعلتين، ولامتناع تعليل ما وجد قبل بما يوجد بعد، وهذه المسألة من لطائف النحو.

المسألة الثالثة: الهاء للسكت (في كتابيه) وكذا في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] و﴿مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨] و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩] وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، ولما كانت هذه الهاءات مثبتة في المصحف والمثبتة في المصحف لا بد وأن تكون مثبتة في اللفظ، ولم يحسن إثباتها في اللفظ إلا عند الوقف، لا جرم استحبوا الوقف لهذا السبب. وتجاسر بعضهم فأسقط هذه الهاءات عند الوصل، وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغيرها. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعًا لاتباع المصحف.

المسألة الرابعة: اعلم أنه لما أوتي كتابه بيمينه، ثم إنه يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ دل ذلك على أنه بلغ الغاية في السرور لأنه لما أعطى كتابه بيمينه علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله. وقيل: يقول ذلك لأهل بيته وقرابته.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه يقول: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ **وفيه وجوه**:

الأول: المراد منه اليقين الاستدلالي وكل ما ثبت بالاستدلال فإنه لا ينفك من الخواطر المختلفة، فكان ذلك شبيهًا بالظن.

الثاني: التقدير: إني كنت أظن أني ألاقي حسابي فيؤاخذني الله بسيئاتي، فقد تفضل علي بالعفو ولم يؤاخذني بها فهاؤم اقرءا كتابيه.

وثالثها: روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُؤْتَى كِتَابُهُ فَتَظْهَرُ حَسَنَاتُهُ فِي ظَهْرِ كَفِّهِ وَتُكْتَبُ سَيِّئَاتُهُ فِي بَطْنِ كَفِّهِ فَيَنْظُرُ إِلَى سَيِّئَاتِهِ فَيَحْزَنُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْلِبْ كَفَّكَ فَيَنْظُرُ فِيهِ فَيَرَى حَسَنَاتِهِ فَيَفْرَحُ**» ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ﴾ - عند النظرة الأولى ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ على سبيل الشدة، وأما الآن فقد فرَّج الله عني ذلك الغم، وأما في حق الأشقياء فيكون ذلك على الضد مما ذكرنا، ورابعها: ظننت: أي علمت، وإنما أجرى مجرى العلم. لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، يقال: أظن ظنًا كاليقين أن الأمر كيت وكيت، وخامسها: المراد إني ظننت في الدنيا أن بسبب الأعمال التي كنت أعملها في الدنيا سأصل في القيامة إلى هذه الدرجات وقد حصلت الآن على اليقين فيكون الظن على ظاهره، لأن أهل الدنيا لا يقطعون بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

ثم بيَّن تعالى عاقبة أمره فقال: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: وصف العيشة بأنها راضية فيه وجهان: الأول: المعنى أنها منسوبة إلى الرضا كالدارع والنابل، والنسبة نسبتان نسبة بالحروف ونسبة بالصيغة، والثاني: أنه جعل الرضا للعيشة مجازًا مع أنه صاحب العيشة.

المسألة الثانية: ذكروا في حد الثواب أنه لا بد وأن يكون منفعة، ولا بد وأن تكون خالصة عن الشوائب، ولا بد وأن تكون دائمة ولا بد وأن تكون مقرونة بالتعظيم، فالمعنى إنما يكون مرضيًا به من جميع الجهات لو كان مشتملاً على هذه الصفات فقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ كلمة حاوية لمجموع هذه الشرائط التي ذكرناها.

ثم قال: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ وهو أن من صار في ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي يعيش عيشًا مرضيًا في جنة عالية، والعلو إن أريد به العلو في المكان فهو حاصل، لأن الجنة فوق السموات، فإن قيل: أليس أن منازل البعض فوق منازل الآخرين، فهؤلاء السافلون لا يكونون في الجنة العالية، قلنا: إن كون بعضها دون بعض لا يقدح في كونها عالية وفوق السموات، وإن أريد العلو في الدرجة والشرف فالأمر كذلك، وإن أريد به كون تلك الأبنية عالية مشرفة فالأمر أيضًا كذلك.

ثم قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له، قائمًا كان أو جالسًا أو مضطجعًا. وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت، والقطوف جمع قطف وهو المقطوف.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ والمعنى يقال لهم ذلك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: منهم من قال قوله: ﴿كُلُوا۟﴾ ليس بأمر إيجاب ولا ندب، لأن الآخرة ليست دار تكليف، ومنهم من قال: لا يبعد أن يكون ندبًا، إذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الإنسان وإدخال السرور في قلبه.

المسألة الثانية: إنما جمع الخطاب في قوله: ﴿كُلُوا۟﴾ بعد قوله ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ﴾ لقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ﴾ [الحاقة: ١٩] و(مَنْ) مضمن معنى الجمع.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ أي قدمتم من أعمالكم الصالحة، ومعنى الإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض. ومنه يقال: أسلف في كذا إذا قدم فيه ماله، والمعنى بما عملتم من الأعمال الصالحة: والأيام الخالية، المراد منها أيام الدنيا والخالية الماضية، ومنه قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: ١٧] و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]

وقال الكلبي: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ يعني الصوم، وذلك أنهم لما أمروا بالأكل والشرب، دل ذلك على أنه لمن امتنع في الدنيا عنه بالصوم، طاعة لله تعالى.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بسبب عملهم، وذلك يدل على أن العمل موجب للثواب، وأيضًا لو كانت الطاعات فعلاً لله تعالى لكان قد أعطى الإنسان ثوابًا لا على فعل فعله الإنسان، وذلك محال وجوابه معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾

واعلم أنه تعالى بيَّن أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار، فقال: ليتهم عذبوني بالنار، وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي حتى لا أقع في هذه الخجالة، وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني، وقوله: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ أي ولم أدر أي شيء حسابيه، لأنه حاصل ولا طائل له في ذلك الحساب، وإنما كله عليه.

ثم قال: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ الضمير في ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: الأول: إلى الموتة الأولى، وهي وإن لم تكن مذكورة إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة والقاضية القاطعة عن الحياة. وفيها إشارة إلى الانتهاء والفراغ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ [الجمعة: ١٠] ويقال: قضى على فلان، أي مات فالمعنى يا ليت الموتة التي متها كانت القاطعة لأمري، فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما وصلت إليه، قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت، وشر من الموت ما يطلب له الموت، قال الشاعر:

وَشَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي إِنْ لَقِيتَهُ ... تَمَنَّيتَ مِنْهُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ

والثاني: أنه عائد إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قَضَت علي لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾

﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ نفي أو استفهام على وجه الإنكار أي أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار، ونظيره قوله: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٠] وقوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ في المراد بـ(سُلْطَانيه) وجهان: أحدهما: قال ابن عباس: ضَلَّت عني حجتي التي كنت أحتج بها على محمد في الدنيا، وقال مقاتل: ضلت عني حجتي يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، والثاني: ذهب ملكي

وتسلطي على الناس وبقيت فقيرًا ذليلاً، وقيل معناه: إنني إنما كنت أنازع المحقين بسبب الملك والسلطان، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوبال، واعلم أنه تعالى ذكر سرور السعداء أولاً، ثم ذكر أحوالهم في العيش الطيب وفي الأكل والشرب، كذا هاهنا ذكر غم الأشقياء وحزنهم، ثم ذكر أحوالهم في الغل والقيد وطعام الغسلين، فأولها أن تقول: خزنة جهنم خذوه فيبتدر إليه مائة ألف ملك، وتجمع يده إلى عنقه، فذاك قوله: ﴿ فَغُلُّوهُ﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ قال المبرد: أصليته النار إذا أوردته إياها وصليته أيضًا كما يقال: أكرمته وكرمته، وقوله: ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ معناه لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى لأنه كان سلطانًا يتعظم على الناس، ثم في سلسلة وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل، وقوله: ﴿ ذَرْعُهَا﴾ معنى الذرع في اللغة التقدير بالذراع من اليد، يقال: ذرع الثوب يذرعه ذرعًا إذا قدره بذراعه، وقوله: ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ليس الغرض التقدير بهذا المقدار بل الوصف بالطول، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]يريد مرات كثيرة، والثاني: أنه مقدر بهذا المقدار ثم قالوا: كل ذراع سبعون باعًا وكل باع أبعد مما بين مكة والكوفة، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو، وقوله: ﴿ فَاسْلُكُوهُ﴾ قال المبرد: يقال سلكه في الطريق، وفي القيد وغير ذلك وأسلكته معناه أدخلته ولغة القرآن سلكته قال الله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]وقال: ﴿سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠]قال ابن عباس: تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه، وقال الكلبي: كما يسلك الخيط في اللؤلؤ ثم يجعل في عنقه سائرها، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول:ما الفائدة في تطويل هذه السلسلة؟ الجواب: قال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وإذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسلة الواحدة كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب أشد.

السؤال الثاني:سلك السلسلة فيهم معقول، أما سلكهم في السلسلة فما معناه؟ الجواب: سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أجزاؤها وهو فيما بينها مزهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وقال الفراء: المعنى ثم اسلكوا فيه السلسلة كما يقال: أدخلت رأسي في القلنسوة وأدخلتها في رأسي، ويقال: الخاتم لا يدخل في إصبعي، والإصبع هو الذي يدخل في الخاتم.

السؤال الثالث:لم قال: ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ . . . ﴿ فَاسْلُكُوهُ﴾ ، ولم يقل: فاسلكوه في سلسلة؟ الجواب: المعنى في تقديم السلسلة على السلك هو الذي ذكرناه في تقديم الجحيم على التصلية، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة لأنها أفظع من سائر السلاسل، السؤال الرابع: ذكر الأغلال والتصلية بالفاء وذكر السلك في هذه السلسلة بلفظ ثم، فما الفرق؟ الجواب: ليس المراد من كلمة ثم تراخي المدة بل التفاوت في مراتب العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح هذا العذاب الشديد ذكر سببه فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: فالأول إشارة إلى فساد حال القوة العاقلة. والثاني إشارة إلى فساد حال القوة العملية. وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه قولان: أحدهما: ولا يحض على بذل طعام المسكين، والثاني: أن الطعام هاهنا اسم أقيم مقام الإطعام كما وضع العطاء مقام الإعطاء في قوله:

وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرتاعا(1)

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المساكين: أحدهما: عطفه على الكفر وجعله قرينة له، والثاني: ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بمن يترك الفعل.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة، وهو المراد من قولنا: إنهم مخاطبون بفروع الشرائع، وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الباقي! وقيل: المراد منه منع الكفار وقولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

ثم قال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي ليس له في الآخرة حميم أي قريب يدفع عنه ويحزن عليه، لأنهم يتحامون ويفرون منه كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] وكقوله: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾: فيه مسألتان:

المسألة الأولى: يروى أن ابن عباس سئل عن الغسلين، فقال: لا أدري ما الغسلين. وقال

---

(١) هذا الشطر الثاني من البيت ضمن قصيدة من البحر الوافر للشاعر القطامي التغلبي والبيت هكذا:

أَكُفْرًا بعد رَدِّ المَوتِ عني وبَعدَ عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعا

والشاعر القطامي ؟ - ١٣٠هـ/ ؟ - ٧٤٧م هو عُمير بن شُيَيم بن عمرو بن عبّاد من بني جُشَم بن بكر، أبو سعيد، التغلبي الملقب بالقطامي. شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم. وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وقال: الأخطل أبعد منه ذكرًا وأمتن شعرًا.

الكلبي: وهو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو غسلين فِعْلين من الغسل.

المسألة الثانية: الطعام ما هُيِّئ للأكل، فلما هُيِّئ الصديد ليأكله أهل النار كان طعامًا لهم، ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم لهم مقام الطعام فسمى طعامًا، كما قال:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ (١)

والتحية لا تكون ضربًا إلا أنه لما أقيم مقامه جاز أن يسمى به.

ثم إنه تعالى ذكر أن الغسلين أكل من هو؟ فقال: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الآثمون أصحاب الخطايا وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب وهم المشركون، وقرئ: (الخاطيون) بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها، وعن ابن عباس أنه طعن في هذه القراءة، وقال ما الخاطيون كلنا نخطو إنما هو الخاطئون، ما الصابون، إنما هو الصابئون، ويجوز أن يجاب عنه بأن المراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله.

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة، ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: منهم من قال: المراد أقسم و(لا) صلة، أو يكون رد الكلام سبق، ومنهم من قال: لا هاهنا نافية للقسم، كأنه قال: لا أقسم، على أن هذا القرآن قول رسول كريم يعني أنه لوضوحه يستغني عن القسم، والاستقصاء في هذه المسألة سنذكره في أول سورة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ يعم جميع الأشياء على الشمول، لأنها لا تخرج من قسمين: مبصر وغير مبصر، فشمل الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر في سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] مثل هذا الكلام، والأكثرون هناك على أن المراد منه جبريل عليه السلام، والأكثرون هاهنا على أن المراد منه محمد ﷺ، واحتجوا على الفرق بأن هاهنا لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة، بل كانوا يصفون محمدًا بهذين الوصفين. وأما في سورة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]

---

(١) هذا هو الشطر الثاني من البيت لقصيدة الشاعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي وقد ترجم له قبل هذا والبيت كاملًا هكذا:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بِخَيلٍ تحيَّةُ بَينِهم ضربٌ وَجيعُ

ثم قال بعده: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[التكوير: ٢٥] كان المعنى: إنه قول ملك كريم، لا قول شيطان رجيم، فصح أن المراد من الرسول الكريم هاهنا هو محمد ﷺ، وفي تلك السورة هو جبريل عليه السلام، وعند هذا يتوجه السؤال: أن الأمة مجمعة على أن القرآن كلام الله تعالى، وحينئذ يلزم أن يكون الكلام الواحد كلامًا لله تعالى، ولجبريل ولمحمد، وهذا غير معقول، والجواب: أنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فهو كلام الله تعالى، بمعنى أنه تعالى هو الذي أظهره في اللوح المحفوظ، وهو الذي رتبه ونظمه، وهو كلام جبريل عليه السلام، بمعنى أنه هو الذي أنزله من السموات إلى الأرض، وهو كلام محمد، بمعنى أنه هو الذي أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الجمهور: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء المنقوطة من فوق على الخطاب إلا ابن كثير، فإنه قرأهما بالياء على المغايبة، فمن قرأ على الخطاب، فهو عطف على قوله: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[الحاقة: ٣٨، ٣٩] ومن قرأ على المغايبة سلك فيه مسلك الالتفات.

المسألة الثانية: قالوا: لفظة (ما) في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ . . . ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لغو وهي مؤكدة، وفي قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ وجهان: الأول: قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، والمعنى لا يؤمنون أصلًا، والعرب يقولون: قلما يأتينا يريدون لا يأتينا، الثاني: أنهم قد يؤمنون في قلوبهم، إلا أنهم يرجعون عنه سريعًا ولا يتمون الاستدلال، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[المدثر: ١٨] إلا أنه في آخر الأمر قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدثر: ٢٤].

المسألة الثالثة: ذكر في نفي الشاعرية ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وفي نفي الكاهنية ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والسبب فيه كأنه تعالى قال: ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر، لأن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها إلا أنكم لا تؤمنون، أي لا تقصدون الإيمان، فلذلك تعرضون عن التدبر، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم: إنه شاعر، لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر، ولا أيضًا بقول كاهن، لأنه وارد بسبِّ الشياطين وشتمهم، فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام الشياطين، إلا أنكم لا تتذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فلهذا السبب تقولون: إنه من باب الكهانة.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: اعلم أن نظير هذه الآية قوله في الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤] فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله، وهو قول جبريل لأنه نزل به، وهو قول محمد لأنه أنذر الخلق به، فهاهنا أيضًا لما قال فيما تقدم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة: ٤٠] أتبعه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى يزول الإشكال، وقرأ أبو السمال: (تنزيلًا)، أي نزل تنزيلاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ قرئ: (ولو تُقُوِّلَ) على البناء للمفعول، التقول افتعال القول، لأن فيه تكلفًا من المفتعل، وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحقيرًا لها، كقولك الأعاجيب والأضاحيك، كأنها جمع أفعولة من القول، والمعنى ولو نسب إلينا قولاً لم نقله.

ثم قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الآية وجوه: الأول: معناه لأخذنا بيده، ثم لضربنا رقبته، وهذا ذكره على سبيل التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم، فإنهم لا يمهلونه، بل يضربون رقبته في الحال، وإنما خص اليمين بالذكر، لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحقه بالسيف، وهو أشد على المعمول به ذلك العمل لنظره إلى السيف أخذ بيمينه، ومعناه: لأخذنا بيمينه، كماأن قوله: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه وهذا تفسير بيِّن وهو منقول عن الحسن البصري، القول الثاني: أن اليمين بمعنى القوة والقدرة وهو قول الفراء والمبرد والزجاج، وأنشدوا قول الشماخ:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ [(١)]

والمعنى لأخذ منه اليمين، أي سلبنا عنه القوة، والباء على هذا التقدير صلة زائدة، قال ابن قتيبة: وإنما قام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه، والقول الثالث: قال مقاتل: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ يعني انتقمنا منه بالحق، واليمين على هذا القول بمعنى الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[الصافات: ٢٨] أي من قبل الحق.

واعلم أن حاصل هذه الوجوه أنه لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك إما بواسطة إقامة الحجة فإنا كنا نقيض له من يعارضه فيه، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدمًا لكلامه، وإما بأن نسلب عنده القدرة على التكلم بذلك القول، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب.

المسألة الثانية: الوتين هو العرق المتصل من القلب بالرأس الذي إذا قطع مات الحيوان قال أبو زيد: وجمعه الوتن و(يُقَالُ) ثلاثة أوتنة والمَوْتُون الذي قطع وتينه، قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لأمتناه، فكان كمن قطع وتينه، ونظيره قوله عليه السلام: «**مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي فهذا أوان انْقِطَاعِ أَبْهَرِي**» والأبهر عرق يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال: هذا أوان يقتلني السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره.

---

(١) الشماخ الذبياني تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ : قال مقاتل والكلبي : معناه ليس منكم أحد يحجزنا عن ذلك الفعل، قال الفراء والزجاج : إنما قال حاجزين في صفة أحد لأن أحدًا هنا في معنى الجمع، لأنه اسم يقع في النفي العام مستويًا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] واعلم أن الخطاب في قوله : ﴿فَمَا مِنكُم﴾ للناس .

واعلم أنه تعالى لما بيَّن أن القرآن تنزيل من الله الحق بواسطة جبريل على محمد الذي من صفته أنه ليس بشاعر ولا كاهن، بيَّن بعد ذلك أن القرآن ما هو؟

فقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقد بينا في أول سورة البقرة في قوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ما فيه من البحث .

ثم قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ له بسبب حب الدنيا، فكأنه تعالى قال : أما من اتقى حب الدنيا فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع . وأما من مال إليها فإنه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه .

وأقول: للمعتزلة أن يتمسكوا بهذه الآية على أن الكفر ليس من الله، وذلك لأنه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين، ولم يقل : بأنه إضلال للمكذبين، بل ذلك الضلال نسبه إليهم، فقال : وإنا لنعلم أن منكم مكذبين، ونظيره قوله في سورة النحل : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] واعلم أن الجواب عنه ما تقدم .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : الضمير في قوله : ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان : الأول : أنه عائد إلى القرآن، فكأنه قيل : وإن نزول القرآن لحسرة على الكافرين . إما يوم القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين به، أو في دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين، والثاني : قال مقاتل : وإن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم، ودل عليه قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٩] .

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ معناه أنه حق يقين، أي حق لا بطلان فيه، ويقين لا ريب فيه، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

ثم قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ إما شكرًا على ما جعلك أهلاً لإيحائه إليك، وإما تنزيهًا له عن الرضا بأن ينسب إليه الكاذب من الوحي ما هو بريء عنه . وأما تفسير قوله : ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فمذكور في أول سورة : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وفي تفسير قوله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

سورة الحاقّة

مَكيّةٌ في قول الجميع[1]. وهي إحدى وخمسون آية[2]

روى أبو الزَّاهرية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقَّة أُجير من فتنة الدّجَّال. ومن قرأها كانت له نوراً يوم القيامة من فوق رأسه إلى قدمه»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ . مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ يريد القيامة؛ سُمِّيت بذلك لأن الأمور تُحَقُّ فيها؛ قاله الطبري[4]. كأنه جعلها مِن باب: ليلٌ نائم. وقيل: سُمِّيت حاقَّةً لأنها تكون من غير شكّ. وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها أحقَّت لأقوام الجنةَ، وأحقَّت لأقوام النار. وقيل: سُمِّيَت بذلك لأن فيها يصير كلُّ إنسانٍ حقيقًا بجزاء عمله.

وقال الأزهريّ[5]: يقال: حاققتُه فحَقَقْتُه أَحُقّه، أي: غالبته فغلبته. فالقيامة حاقَّةٌ لأنها تَحُقُّ كلَّ مُحاقٍّ في دين الله بالباطل، أي: كُلَّ مخاصِم.

وفي الصحاح: وحاقَّه، أي: خاصمه وادَّعى كلٌّ واحدٍ منهما الحقَّ؛ فإذا غلبه قيل: حَقَّه. ويقال للرجل إذا خاصم في صِغَار الأشياء: إنه لَنَزِقُ الحِقَاق. ويقال: ماله

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٦، وزاد المسير ٨/ ٣٤٥ .

(٢) الكشاف ٤/ ١٤٩ . وذكر أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٩٧، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٤٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٨٥ أنها اثنتان وخمسون آية.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في تفسيره ٢٣/ ٢٠٥ .

(٥) في تهذيب اللغة ٣/ ٣٧٧ .

فيه حقٌّ ولا حِقاق، أي: خصومة. والتَّحاقُّ: التخاصم. والاحتقاق: الاختصام[١]. والحاقَّة والحَقَّة والحقُّ ثلاثُ لغاتٍ بمعنًى. وقال الكِسائيُّ والمؤرِّج: الحاقَّة: يومُ الحقّ[٢]. وتقول العرب: لمَّا عَرَف الحَقَّةَ منِّي هرب[٣].

والحاقّة الأولى رفع بالابتداء، والخبر المبتدأُ الثاني وخبره، وهو: «مَا الْحَاقَّةُ»، لأن معناها: ما هي. واللفظ استفهام، ومعناه التعظيمُ والتفخيم لشأنها؛ كما تقول: زيدٌ ما زيد! على التعظيم لشأنه[٤].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ استفهامٌ أيضاً، أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما ذلك اليوم. والنبيُّ ﷺ كان عالماً بالقيامة ولكن بالصفة، فقيل تفخيمًا لشأنها: وما أدراك ما هي؛ كأنك لستَ تعلمها إذ لم تعاينْها.

وقال يحيى بن سلام: بلغني أنَّ كلَّ شيءٍ في القرآن «وَمَا أَدْرَاكَ»، فقد أدراه إياه وعلَّمه. وكلَّ شيءٍ قال: «وَمَا يُدْرِيك»، فهو مما لم يعلِّمه[٥]. وقال سفيان بن عُيينة: كلُّ شيء قال فيه: «وَمَا أَدْرَاكَ»، فإنه أُخبر به، وكلُّ شيء قال فيه: «وَمَا يُدْرِيكَ»، فإنه لم يُخبَر به[٦].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾

ذَكَرَ من كذَّب بالقيامة. والقارعة القيامة؛ سُمِّيت بذلك لأنها تَقرَع الناسَ بأهوالها. يقال: أصابتهم قوارعُ الدهر، أي: أهوالُه وشدائده. ونعوذ بالله من قوارع فلانٍ

---

(١) الصحاح (حقق).

(٢) أورد قول الكسائي البغويُّ في تفسيره ٤/ ٣٨٥.

(٣) الصحاح (حقق).

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٢٠٥، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٣، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٣٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٦.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٠٧ عن سفيان. ولعله الثوري، كما في تفسيره.

ولواذِعه وقوارصِ لسانه؛ جمع قارصة، وهي الكلمة المؤذية. وقوارعُ القرآن: الآياتُ التي يقرؤها الإنسان إذا فَزِع من الجِنِّ أو الإنس، نحوُ آيةِ الكرسيّ؛ كأنها تَقرَع الشيطان[١].

وقيل: القارعة مأخوذةٌ من القُرْعة في رفعِ قومٍ وحطِّ آخرين؛ قاله المبرِّد. وقيل: عنى بالقارعة العذابَ الذي نزل بهم في الدنيا؛ وكان نبيُّهم يخوِّفهم بذلك فيكذِّبونه.

وثمودُ قومُ صالح، وكانت منازلهم بالحِجْر فيما بين الشام والحجاز. قال محمد ابن إسحاق: وهو وادي القُرَى، وكانوا عربًا. وأما عادٌ فقوم هود، وكانت منازلهم بالأحقاف. والأحقاف: الرمل بين عُمَان إلى حضرموت واليمن كلّه؛ وكانوا عربًا ذَوِي خَلْق وبَسْطة؛ ذكره محمد بن إسحاق[٢]. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

فيه إضمار، أي: بالفعلة الطاغية. وقال قتادة: أي: بالصيحة الطاغية[٤]، أي: المجاوِزة للحدّ، أي: لحدِّ الصيحات من الهَوْل، كما قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]. والطغيان: مجاوزة الحدّ، ومنه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: جاوز الحدّ. وقال الكلبيّ: بالطاغية: بالصاعقة. وقال مجاهد: بالذنوب. وقال الحسن: بالطُّغيان[٥]، فهي مصدرٌ؛ كالكاذبة والعاقبة والعافية. أي: أُهلكوا بطغيانهم وكفرهم. وقيل: إنَّ الطاغية عاقرُ الناقة؛ قاله ابن زيد[٦]. أي: أُهلكوا بما أقدم عليه طاغيتُهم مِن عَقْر الناقة، وكان واحداً، وإنما هلك

(١) الصحاح (قرع).

(٢) النكت والعيون ٦/ ٧٦، وفيه كلام المبرد.

(٣) ٩/ ٢٦٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٦. وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٠٩.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٦، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٠٨.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٧٦.

الجميع لأنهم رَضُوا بفعله ومالؤوه. وقيل له: طاغية؛ كما يقال: فلان راوية الشعر، وداهيةٌ وعلَّامةٌ ونَسَّابة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: باردةٌ تُحْرِق ببردها كإحراق النار؛ مأخوذةٌ من الصِّرّ، وهو البرد؛ قاله الضحَّاك[١]. وقيل: إنها الشديدةُ الصوت[٢]. وقال مجاهد: الشديدة السَّموم.

﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: عَتت على خُزَّانها فلم تُطِعهم، ولم يطيقوها مِن شدَّة هبوبها؛ غضبت لغضب الله. وقيل: عتت على عادٍ فقهرتهم.

روى سفيان الثوريُّ عن موسى بن المسيّب، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أرسل الله مِن نَسْفَة[٣] مِن ريحٍ إلا بمكيال، ولا قطرةٍ من ماء إلَّا بمكيال، إلا يومَ عادٍ ويوم نوح، فإنَّ الماء يومَ نوحٍ طغى على الخُزَّان، فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ في الْجَارِيَةِ»، والريح لمَّا كان يومُ عادٍ عَتَت على الخُزَّان فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ»[٤].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أرسلها وسَلَّطها عليهم. والتسخير: استعمالُ الشيء

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢١١ .

(٢) ذكره في النكت والعيون ٦/ ٧٧ عن مجاهد .

(٣) في (خ) : هبة ، وفي (ظ): سفّة ، وفي (م) : نسمة ، وفي الكشاف ٤/ ١٥٠ : سفية، والمثبت من (د) و(ز) و(ق) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٣٢) و(٨٠٧) ، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٥ . وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢١٠ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

بالاقتدار[١]. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعة لا تَفْتُر ولا تنقطع؛ عن ابن عباس وابنِ مسعود وغيرهما[٢]. قال الفرَّاء[٣]: الحُسُوم: التِّباع، مِن حَسْمِ الدَّاء: إذا كُوِيَ صاحبُه، لأنه يُكْوَى بالمِكواة ثم يُتابَع ذلك عليه. قال عبد العزيز بن زُرارة الكِلابيّ:

فـفـرَّق بـيـن بـيـنِـهـمُ[٤] زمـانٌ تـتـابـعَ فـيـه أعـوامٌ حـسـومُ[٥]

وقال المبرِّد: هو من قولك: حَسَمْتُ الشيء: إذا قطعتَه وفصلتَه عن غيره. وقيل: الحَسْم: الاستئصال. ويقال للسيف: حُسام؛ لأنه يَحْسِم العدوَّ عما يريده مِن بلوغ عداوته. وقال الشاعر:

حُسـامٍ إذا مـا قـمـتُ مُـعْـتَـضِـدًا بـه كَفى العَودَ منه البَدْءُ ليس بمِعْضَدِ[٦]

والمعنى أنها حسمتهم، أي: قَطَعَتهم وأذهبتهم. فهي القاطعةُ بعذاب الاستئصال.

قال ابن زيد: حسمتهم فلم تُبْقِ منهم أحداً[٧]. وعنه أنها حَسَمت الليالِيَ والأيام حتى استوفتها[٨]؛ لأنها بدأت طلوعَ الشمس من أوَّل يومٍ، وانقطعت غروبَ الشمس من آخِر يوم.

وقال اللَّيث: الحُسوم: الشؤم. ويقال: هذه ليالي الحُسوم، أي: تَحْسِم الخيرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٥٧.

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢٣/٢١٢ - ٢١٣.

(٣) في معاني القرآن ٣/١٨٠.

(٤) البين: الوصل، وهو من الأضداد. الصحاح (بين).

(٥) الكشاف ٤/١٥٠.

(٦) البيت لطرفة، وهو في ديوانه ص ٣٧، وروايته: منتصراً به. بدل: معتضداً به. وقبله:

فـآلـيتُ لا يـنـفـك كَـشْـحي بطـانـةً لِـعضـبٍ رقيـق الـشفـرتـين مـهـنـد

والمِعْضَد: سيف يمتهن في قطع الشجر. القاموس (عضد).

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/٢١٤.

(٨) في (خ) و(م): استوعبتها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/٧٧، ونسبه للضحاك. وينظر زاد المسير ٨/٣٤٦.

عن أهلها[١]، وقاله في الصحاح[٢]. وقال عكرمة والربيع بنُ أنس: مشائيم[٣]، دليلُه قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت:١٦]. عطية العَوْفي: «حُسُومًا» أي: حَسَمت الخير عن أهلها[٤].

واختُلف في أوَّلها، فقيل: غداة يوم الأحد، قاله السُّدِّي. وقيل: غداة يوم الجمعة، قاله الربيع بن أنس. وقيل: غداة يوم الأربعاء، قاله يحيى بن سلام[٥] ووهب بنُ مُنَبِّه. قال وهب: وهذه الأيام هي التي تسمِّيها العرب أيامَ العجوز، ذاتُ بردٍ وريحٍ شديدة، وكان أوَّلُها يومَ الأربعاء وآخِرُها يومَ الأربعاء؛ ونُسبت إلى العجوز، لأن عجوزًا من عادٍ دخلت سَرَبًا، فتبعتها الريحُ فقتلتها في اليوم الثامن. وقيل: سُمِّيت أيامَ العجوز لأنها وقعت في عَجُز الشتاء[٦]. وهي في آذار من أشهر السُّرْيانيِّين. ولها أسامٍ مشهورةٌ، وفيها يقول الشاعر ـ وهو ابن أحمر[٧] ـ:

كُسِعَ الشتاءُ بسبعةٍ غُبْرِ ... أيامِ شَهْلَتِنا من الشَّهْرِ
فإذا انقضت أيامُها ومضت ... صِنٌّ وصِنَّبْرٌ مع الوَبْرِ
وبآمرٍ وأخيه مُؤْتَمِرٍ ... ومُعَلِّلٍ وبمُطْفِئِ الجَمْرِ
ذهب الشتاء مُوَلِّياً عَجِلًا ... وأتتك واقدةٌ من النَّجْرِ[٨]

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٤.

(٢) مادة (حسم).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٧٧، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٦.

(٧) قوله: وهو ابن أحمر ليس في (د) وهو الصواب، فقد نقل صاحب اللسان (عجز) عن ابن بري أنها ليست لابن أحمر، وينظر التعليق التالي.

(٨) نسبت الأبيات في معجم الشعراء ص ١٢٣ لأبي شبل عُصْم بن وهب التميمي البرجمي، وفي اللسان (كسع) لأبي شبل الأعرابي. وفي معجم الأدباء ١١/ ٥٧ لخِرْقة بن نُبَاتة. وهي في الأزمنة والأمكنة =

و«حُسُومًا» نصب على الحال. وقيل: على المصدر. قال الزَّجاج: أي: تَحْسِمهم حسومًا، أي: تُفْنيهم[(١)]، وهو مصدرٌ مؤكّد. ويجوز أن يكونَ مفعولاً له، أي: سَخَّرها عليهم هذه المدَّةَ للاستئصال، أي: لقطعهم واستئصالهم. ويجوز أن يكون جمعَ حاسم. وقرأ السُّدِّي: «حَسُومًا» بالفتح، حالًا من الريح، أي: سخَّرها عليهم مستأصِلةً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليالي والأيام. ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صَرِيع؛ يعني موتى. وقيل: «فيها» أي: في الريح. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أي: أصول. ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: بالية؛ قاله أبو الطفيل[(٣)]. وقيل: خالية الأجوافِ لا شيء فيها. والنخلُ يذكَّر ويؤنَّث[(٤)]. وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] فيحتمل أنهم شُبِّهوا بالنخل التي صُرعت من أصلها، وهو إخبارٌ عن عِظَم أجسامهم. ويحتمل أن يكونَ المرادُ به الأصولَ دون الجذوع، أي: إنَّ الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخلِ خاويةً. أي: الريحُ كانت تدخل أجوافَهم فتصرعُهم كالنخلة الخاويةِ الجوف. وقال ابن شجرة: كانت الريح تدخل في أفواههم فتُخرج ما في أجوافهم من الحَشْوِ من أدبارهم، فصاروا كالنخلِ الخاوية. وقال يحيى ابن سلام: إنما قال: «خاوية»؛ لأن أبدانهم خَوَتْ من أرواحهم مِثْلَ النخل الخاوية[(٥)]. ويحتمل أن يكونَ المعنى: كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية عن أصولها من البقاع؛ كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢] أي: خَرِبةً لا سُكَّان

= ١/ ٢٧١، وثمار القلوب للثعالبي ص ٣١٤ دون نسبة. قوله: كسع الشتاء: الكسع شدة المَرّ، يقال: كسعه بكذا وكذا: إذا جعله تابعاً له ومُذْهَباً به. والشهلة: العجوز. والنجر: الحر. اللسان (كسع) (شهل) (نجر).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٤.

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٧٨. والقول الآتي نسبه لابن كامل.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٨.

فيها. ويحتمل الخاوية بمعنى البالية كما ذكرنا؛ لأنها إذا بَلِيت خلت أجوافها. فشُبِّهوا بعد أن هَلكوا بالنخل الخاوية.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

أي: مِن فِرْقة باقيةٍ أو نَفْس باقية. وقيل: مِن بقيَّة. وقيل: مِن بقاء. فاعلة بمعنى المصدر؛ نحوُ العاقبة والعافية. ويجوز أن يكونَ اسمًا، أي: هل تجد لهم أحدًا باقياً؟ وقال ابنُ جريج: كانوا سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام أحياءً في عذاب الله من الريح، فلمَّا أمسَوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريحُ فألقتهم في البحر، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قرأ أبو عمروٍ والكِسائي: «وَمَن قِبَلَه» بكسر القاف وفتح الباء[١]؛ أي: ومَن معه وتَبِعَه من جنوده. واختاره أبو عبيد[٢] وأبو حاتم اعتبارًا بقراءة عبدِ الله وأُبي: «ومَن مَعَهُ»[٣]. وقرأ أبو موسى الأشعريّ: «ومَن تلقاءه»[٤]. الباقون: «قَبْلَه» بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومَن تقدَّمه من القرون الخالية والأممِ الماضية.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: أهل قرى لوط[٥]. وقراءة العامة بالألف. وقرأ الحسن والجَحْدَريّ: «والمُؤْتَفِكَة» على التوحيد[٦]. قال قتادة: إنما سُمِّيت قُرَى قومِ لوطٍ

(١) السبعة ص ٦٤٨، والتيسير ص ٢١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠.

(٣) الكشاف ٤/ ١٥٠. ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٦١ لأبي موسى وأُبي.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٦١، ونسبها أيضاً لأُبي.

(٥) أخرج هذا القول الطبري ٢٣/ ٢١٦ - ٢١٧ عن قتادة وابن زيد.

(٦) قراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٨.

«مؤتفكات»؛ لأنها ائتفكت بهم، أي: انقلبت[١]. وذكر الطبريُّ[٢] عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: خمسُ قَرْيات: صبعة[٣]، وصعرة[٤]، وعمرة، ودوما، وسدوم؛ وهي القرية العظمى.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفَعلة الخاطئة، وهي المعصية والكفر. وقال مجاهد: بالخطايا التي كانوا يفعلونها[٥]. وقال الجُرجانيّ: أي: بالخطأ العظيم، فالخاطئةُ مصدر.

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ قال الكلبيّ: هو موسى. وقيل: هو لوط[٦]؛ لأنه أقرب. وقيل: عَنى موسى ولوطاً عليهما السلام[٧]؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦]. وقيل: «رسول» بمعنى رسالة. وقد يعبَّر عن الرسالة بالرسول؛ قال الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بُحْت عندهم   بِسِرٍّ ولا أرسلتُهم برسولِ[٨]

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عالية زائدة على الأخَذَات وعلى عذاب الأمم. ومنه الرِّبَا: إذا أَخذ في الذهب والفضة أكثرَ مما أعطى. يقال: ربا الشيءُ يربو، أي: زاد وتضاعف. وقال مجاهد: شديدة[٩]. كأنه أراد: زائدةً في الشدَّة.

---

(١) ذكر قوله بنحوه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٤٠ .

(٢) في تاريخه ١/ ٣٠٦-٣٠٧، ونقله عنه المصنف بواسطة التعريف والإعلام للسهيلي ص ١٧٥ .

(٣) في النسخ الخطية : صنعة . والمثبت من (م).

(٤) في (خ) : ضعرة ، وفي (د) و(ز) و(ظ) و(ق) : صعدة، والمثبت من (م)، وسلف الكلام عليها ١١/ ١٨٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢١٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٨ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٤٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٨٦ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ٧٩ . والبيت لكثير عزة ، وهو في ديوانه ص ٢٧٨ ، والشطر الثاني فيه:

بليلى ولا أرسلتهم برسيل

(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢١٨ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: ارتفع وعلَا. وقال عليٌّ ﷺ: طغى على خُزَّانه من الملائكة غضبًا لربِّه، فلم يقدروا على حبسه. قال قتادة: زاد على كل شيءٍ خمسةَ عشرَ ذِراعًا[١]. وقال ابن عباس: طغى الماء زمنَ نوحٍ على خُزَّانه فكثر عليهم، فلم يَدْرُوا كم خرج. وليس من الماء قطرةٌ تنزل قبله ولا بعده إلَّا بكيل معلوم، غيرَ ذلك اليوم. وقد مضى هذا مرفوعًا أوَّلَ السورة.

والمقصود من قصص هذه الأممِ وذِكْرِ ما حلَّ بهم من العذاب زَجْرُ هذه الأمةِ عن الاقتداء بهم في معصية الرسول. ثم مَنَّ عليهم بأنْ جعلهم ذُرِّيَّةَ مَن نجا من الغرق بقوله: «حَمَلْنَاكُمْ». أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم.

﴿فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: في السفن الجارية. والمحمولُ في الجارية نوحٌ وأولاده، وكلُّ مَن على وجه الأرض مِن نسل أولئك.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ يعني سفينة نوح عليه الصلاة والسلام. جعلها الله تذكرةً وعِظَةً لهذه الأمة حتى أدركها أوائلُهم؛ في قول قتادة. قال ابن جريج: كانت ألواحها على الجُودِيّ[٢]. والمعنى: أبقيتُ لكم تلك الخشباتِ حتى تذكرُوا ما حلَّ بقوم نوح، وإنجاءَ الله آباءكم؛ وكم من سفينة هلكت وصارت ترابًا ولم يبقَ منها شيء. وقيل: لِنجعلَ تلك الفَعلةَ من إغراق قوم نوح وإنجاءِ مَن آمن معه موعظةً لكم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: تحفظها وتسمعها أُذُنٌ حافظةٌ لمَا جاء من عند الله. والسفينة لا توصف بهذا.

قال الزجاج: ويقال: وَعَيْتُ كذا، أي: حَفِظتُه في نفسي، أَعِيه وَعْياً، ووعَيْتُ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٧٩ . وأخرج الطبري القولين ٢٣/ ٢١٠ - ٢١١ ، ٢١٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٨٠ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٢١ .

العلم، ووعَيْتُ ما قلت؛ كلُّه بمعنًى. وأَوعيتُ المتاعَ في الوِعاء. قال الزجاج[١]: يقال لكل ما حَفِظتَه في غير نفسك: «أَوعيتُه» بالألف، ولِمَا حفِظته في نفسك: «وعيتُه» بغير ألف.

وقرأ طلحة وحُميد والأعرج: «وتَعْيَها» بإسكان العين[٢]؛ تشبيهاً بقوله: «أَرْنَا»[٣]. واختُلف فيها عن عاصم وابن كثير. الباقون بكسر العين[٤].

ونظيرُ قولِه تعالى: «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» قولُه تعالى[٥]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]. وقال قتادة: الأذن الواعية أُذُنٌ عَقَلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب اللهِ عزَّ وجلَّ[٦].

وروى مكحولٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «سألت رَبِّي أن يجعلهَا أُذُنَ عليٍّ». قال مكحول: فكان عليٌّ ﷺ يقول: ما سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ فنسيته، إلَّا وحفظته. ذكره الماورديّ[٧]. وعن الحسن نحوُه، ذكره الثعلبي قال: لمَّا نزلت «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»، قال النبيُّ ﷺ: «سألت رَبِّي أن يجعلها أُذُنَك يا عليّ» قال عليّ: فواللهِ ما نسيتُ شيئًا بعدُ، وما كان لي أن أَنسى.

وقال بُريدة[٨] الأَسْلَميّ: قال النبيُّ ﷺ لعليّ: «يا عليّ، إنَّ الله أمرني أن أُدْنِيَكَ ولا أُقصِيَك، وأن أُعلِّمَك، وأن تَعيَ، وحقٌّ على الله أن تَعي»[٩].

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) قراءة طلحة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢١.

(٣) سلفت هذه القراءة ٢/ ٣٩٨.

(٤) روى الحلواني عن ابن كثير وأبو ربيعة عن قنبل: «وتَعْيَها» بإسكان العين. السبعة ص ٦٤٨. وقال في التيسير ص ٢١٣: وجاء عن ابن كثير وعاصم وحمزة في ذلك ما لا يصح.

(٥) عبارة: قوله تعالى من (ظ).

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٢٣.

(٧) في النكت والعيون ٦/ ٨٠. وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣، وهو مرسل.

(٨) في (د) و(ظ): أبو بردة، وفي باقي النسخ: أبو برزة، وكلاهما خطأ.

(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٢٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٩ - ٣٣٧٠ (١٨٩٦٢)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٧٣. وأورده ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢١١ وقال: لا يصح.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾

قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة[١]، فلم يبقَ أحدٌ إلَّا مات. وجاز تذكيرُ «نُفِخَ» لأن تأنيث النفخة غيرُ حقيقي. وقيل: إنَّ هذه النفخةَ هي الأخيرة[٢]. وقال: «نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ» أي: لا تُثنَّى.

قال الأخفش: ووقع الفعل على النفخة إذ لم يكن قبلها اسمٌ مرفوع، فقيل: نفخة. ويجوز «نفخةً» نصبًا على المصدر. وبها قرأ أبو السَّمَّال[٣]. أو يقال: اقتصر على الإخبار عن الفعل، كما تقول: ضُرب ضربًا. وقال الزجَّاج[٤]: «في الصُّورِ» يقوم مَقامَ ما لم يُسمَّ فاعلُه.

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ قراءة العامة بتخفيف الميم، أي: رُفعت من أماكنها.

﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: فُتَّتا وكُسِرتا .﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا يجوز في «دكَّة» إلَّا النصب، لارتفاع الضمير في «دُكَّتا». وقال الفراء[٥]: لم يقل: فَدُكِكْن؛ لأنه جَعَلَ الجبال كلَّها كالجملة الواحدة، والأرضَ كالجملة الواحدة[٦]. ومثلُه: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ولم يقل: كُنَّ. وهذا الدكُّ كالزلزلة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]. وقيل: «دُكَّتَا» أي: بُسِطتَا بسطةً واحدة، ومنه: اندكَّ سَنام

(١) نسبة لابن عباس الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٥١ ، ونسبه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٤٨ لعطاء .

(٢) هو قول الكلبي ومقاتل كما في الوسيط ٤/ ٣٤٥ ، وزاد المسير ٨/ ٣٤٨ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٦١ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢١٦ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٨١ .

(٦) قوله: والأرض كالجملة الواحدة، ليس من كلام الفراء، وغير موجود في (ظ) .

البعير: إذا انفرش في ظهره. وقد مضى في سورة الأعراف القولُ فيه[١].

وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: «وَحُمِّلَت الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» بالتشديد على إسناد الفعل إلى المفعول الثاني. كأنه في الأصل: وَحَمَّلْتُ قُدْرَتَنا أو مَلَكًا من ملائكتنا الأرضَ والجبال؛ ثم أُسنِد الفعل إلى المفعول الثاني فَبُنِيَ له. وَلَوْ جِيء بالمفعول الأول لأسند الفعل إليه؛ فكأنه قال: وَحُمِّلت قُدْرَتُنَا الأرضَ. وقد يجوز بناؤه للثاني على وجه القلب، فيقال: حُمِّلت الأرضُ المَلَك؛ كقولك: أُلْبِس زيدٌ الجُبَّةَ، وأُلْبِست الجبةُ زيدًا[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة. ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انصدعتْ وتفطَّرت. وقيل: تنشقُّ لنزول ما فيها من الملائكة؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وقد تقدَّم[٣].

﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة. يقال: وَهَى البناء يَهِي وَهْيًا فهو واهٍ: إذا ضَعُف جدًّا. ويقال: كلامٌ وَاهٍ، أي: ضعيف. فقيل: إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوَهْي، ويكون ذلك لنزول الملائكة كما ذكرنا. وقيل: لهول يوم القيامة. وقيل: «وَاهِيَةٌ» أي: متخرِّقة؛ قاله ابن شجرة. مأخوذٌ من قولهم: وَهَى السِّقاء: إذا تخرَّق. ومن أمثالهم:

خَلِّ سبيلَ مَن وَهَى سِقاؤهُ ... ومن هُرِيق بالفلاة ماؤهُ

أي: مَن كان ضعيفَ العقل لا يحفظ نفسه[٤].

---

(١) ٩/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٢٨ بنحوه.

(٣) ١٥/ ٣٩٩.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٨١، وكلام ابن شجرة فيه. والرجز في الصحاح (وهى)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤١٤، والمستقصى في أمثال العرب ٢/ ٧٦.

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ يعني الملائكة؛ اسمٌ للجنس. ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: على أطرافها حين تنشقّ؛ لأن السماء مكانُهم؛ عن ابن عباس. الماورديّ[1]: ولعله قولُ مجاهدٍ وقتادة. وحكاه الثعلبيُّ عن الضحَّاك، قال: على أطرافها ممَّا لم ينشقَّ منها[2]. يريد أنَّ السماء مكانُ الملائكة، فإذا انشقَّت صاروا في أطرافها.

وقال سعيد بن جُبَير: المعنى: والمَلَكُ على حافَّات الدنيا، أي: يَنزلون إلى الأرض ويحرُسون أطرافها. وقيل: إذا صارت السماء قِطَعًا؛ تقف الملائكةُ على تلك القطعِ التي ليست مُتَشقِّقة في أنفسها. وقيل: إنَّ الناس إذا رأَوا جهنمَ هالتهم؛ فَيَنِدُّوا كما تَنِدُّ الإبل، فلا يأتون قُطْرًا من أقطار الأرض إلَّا رأَوا ملائكة، فيرجعون من حيث جاؤوا.

وقيل: «على أَرْجَائِهَا» ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النارِ من السَّوق إليها، وفي أهل الجنة من التَّحيَّة والكرامة.

وهذا كلُّه راجعٌ إلى معنى قولِ ابنِ جُبَير. ويَدُلُّ عليه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وقولُه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرحمن: ٣٣] على ما بيَّنَّاه هناك.

والأرجاء: النواحي والأقطارُ؛ بلغة هذيل، واحدها: رَجاً، مقصور، وتثنيته: رَجَوان؛ مِثل عَصاً وعَصَوان. قال الشاعر:

فـلا يُـرْمَـى بِـيَ الـرَّجَـوَانِ إنِّـي أقـلُّ الـقـومِ مَـن يُـغْـنِـي مـكـانـي[3]

ويقال ذلك لحرف البئرِ والقبر.

(١) في النكت والعيون ٦/ ٨١ .

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢٣/ ٢٢٦ ، دون قوله : لأن السماء مكانهم .

(٣) أدب الكاتب ص٢٥٧ ، ومجمع الأمثال ١/ ٢١٣ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ١٤٧ ، واللسان (رجو) دون نسبة . وفي الاقتضاب للبطليوسي ص ٣٦٦ أنه لعبد الرحمن بن الحكم من شعر يقوله في أخيه مروان .

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددَهم إلَّا الله. وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك[١]. وعن الحسن: الله أعلم كم هم، ثمانيةٌ أم ثمانيةُ آلاف[٢]. وعن النبيِّ ﷺ «أنَّ حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يومُ القيامة، أيَّدهم اللهُ تعالى بأربعةٍ آخرين، فكانوا ثمانية». ذكره الثعلبيّ[٣]. وخرَّجه الماورديُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمله اليومَ أربعة، وهم يومَ القيامة ثمانية»[٤].

وقال العباس بن عبد المطلب[٥]: هم ثمانيةُ أملاكٍ على صورة الأوعال[٦]. ورواه عن النبيِّ ﷺ[٧]. وفي الحديث: «إنَّ لكلِّ مَلَكٍ منهم أربعةَ أوجه: وجه رجل، ووجه أسد، ووجه ثَوْر، ووجه نَسْر. وكلُّ وجهٍ منها يسأل اللهَ الرزقَ لذلك الجنس»[٨]. ولما أُنشد بين يدَي النبيِّ ﷺ قولُ أميَّة بنِ أبي الصَّلْت:

رَجُلٌ وثَوْرٌ تحت رِجلِ يمينهِ ... والنَّسرُ للأُخرى ولَيثٌ مُرْصَدُ
والشمس تطلعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ ... حمراءَ يصبح لونُها يَتورَّدُ

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٢ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٢٩ عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ... ثم ذكره ؛ وهو مرسل.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٨٢ دون سند .

(٥) في النسخ : عبد الملك ، وهو خطأ .

(٦) خبر ضعيف أخرجه أبو يعلى (٦٧١٢) ، والحاكم ٢/ ٥٠٠ من طريق شريك بن عبد الله ، عن سماك ابن حرب ، عن عبد الله بن عميرة ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس ﷺ . وشريك صدوق يخطئ كثيراً ، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة ، وسماك تغيّر بأخَرَة، كما في تقريب التهذيب . وعبد الله ابن عميرة مجهول، وقال فيه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ١٥٩ : لا نعلم له سماعاً من الأحنف .

(٧) سيذكره المصنف قريباً ، وهو ضعيف .

(٨) لم نقف عليه مرفوعاً . وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣١٤ عن وهب بن منبه والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٢٩٥ عن أبي مالك مطولاً . وليس فيهما : وكل وجه منها يسأل ... إلخ. قال أبو حيان في البحر ٨/ ٣٢٤: ذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة؛ ضربنا عن ذكرها صفحاً.

ليست بطالعة لهم في رِسْلِها[١] إلَّا مُعذَّبةً وإلَّا تُجلَدُ

قال النبيُّ ﷺ: «صَدَق»[٢].

وفي الخبر: «أنَّ فوق السماء السابعةِ ثمانيةَ أوعال، بين أظلافهنَّ ورُكَبهنَّ مثْلُ ما بين سماءٍ إلى سماء، وفوق ظُهورهنَّ العرشُ». ذكره القشيريّ، وخرَّجه الترمذيُّ[٣] من حديث العباس بنِ عبد المطلب. وقد مضى في سورة البقرةِ بكماله[٤]. وذكر نحوَه الثعلبيُّ ولَفْظَه.

وفي حديثٍ مرفوع: «أنَّ حملة العرش ثمانيةُ أملاكٍ على صورة الأوعال، ما بين أظلافِها إلى رُكَبها مسيرةُ سبعين عاماً للطائر المسرع».

وفي تفسير الكلبيّ: ثمانيةُ أجزاءٍ من تسعةِ أجزاءٍ من الملائكة. وعنه: ثمانيةُ أجزاءٍ من عشْرة أجزاءٍ من الملائكة. ثم ذكر عِدَّة الملائكة بما يطول ذِكْرُه. حكى الأوَّلَ عنه الثعلبيُّ والثانيَ القشيريّ. وقال الماورديُّ عن ابن عباس: ثمانيةُ أجزاءٍ من تسعة، وهم الكَرُوبِيُّون[٥]. والمعنى ينزل بالعرش[٦].

ثم إضافةُ العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت، وليس البيتُ للسُّكنى، فكذلك العرش. ومعنى: «فَوْقَهُمْ»، أي: فوقَ رؤوسِهم[٧]. قال السُّدِّي: العرش تَحمِله

---

(١) في المصادر: تأبى فلا تبدو لنا في رسلها. والرِّسْل: التُّؤَدة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه محمد بن إسحاق، ولم يصرح بالتحديث. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: ولو ثبت تصريح ابن إسحاق؛ فلا يعتدُّ به في مثل هذا المطلب. اهـ. والأبيات في الديوان ص٥٠.

(٣) برقم (٣٣٢٠) وهو ضعيف، إسناده بنحو إسناد حديث العباس السالف عنه موقوفاً.

(٤) ١/ ٣٨٨ - ٣٨٩ وليس فيه ذكر لحملة العرش.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٨٢. وأخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش ص ٦٥ - ٦٦ بنحوه. والكروبيون: الملائكة المقربون. النهاية (كرب).

(٦) ينظر ما سلف ١٥/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٧) أي: رؤوس الحملة كما في النكت والعيون ٦/ ٨٢، والوسيط للواحدي ٤/ ٣٤٥، وتفسير البغوي ٤/ ٦٨٧، وزاد المسير ٨/ ٣٥٠، ونسبه لمقاتل.

الملائكةُ الحَمَلَةُ فوقهم، ولا يَحمِلُ حَمَلَة العرشِ إلَّا الله. وقيل: «فَوْقَهُمْ» أي: إنَّ حملة العرش فوق الملائكةِ الذين في السماء على أرجائها. وقيل: «فَوْقَهُمْ» أي: فوق أهلِ القيامة(١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: على الله؛ دليلُه: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، وليس ذلك عرضًا يَعلَمُ به ما لم يكن عالمًا به، بل معناه الحسابُ وتقريرُ الأعمال عليهم للمجازاة. وروى الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْرَض الناسُ يومَ القيامة ثلاثَ عَرَضات: فأمَّا عَرْضتان، فجدالٌ ومعاذير، وأما الثالثة، فعند ذلك تطير الصُّحُف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بِشِماله». خرَّجه الترمذيُّ وقال: ولا يَصحُّ مِن قِبَلِ أنَّ الحسن لم يسمع من أبي هريرة(٢).

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: هو عالمٌ بكل شيءٍ من أعمالكم. فـ «خَافِيَةٌ» على هذا بمعنى خَفِيَّة، كانوا يُخفونها من أعمالهم؛ قاله ابن شجرة(٣). وقيل: لا يخفى عليه إنسان، أي: لا يبقى إنسانٌ لا يُحاسَب. وقال عبد الله بن عمرو بنِ العاص: لا يخفى المؤمنُ من الكافر ولا البَرُّ من الفاجر. وقيل: لا تَستَتِر منكم عَورةٌ؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «يُحْشَر الناسُ حُفاةً عُراةً»(٤).

وقرأ الكوفيون إلَّا عاصمًا: «لَا يَخْفَى» بالياء؛ لأن تأنيث الخافيةِ غيرُ حقيقي؛

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٨٢ .

(٢) سنن الترمذي (٢٤٢٥) . وقال أيضاً : وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن ، عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ . قال أبو عيسى : ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى . اهـ . وهذه الرواية التي أشار إليها عند أحمد (١٩٧١٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧).

وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٩٥ زيادات نعيم) موقوفاً على أبي موسى ﷺ . قال الدارقطني في العلل ٧/ ٢٥١ : والموقوف هو الصحيح.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٨٢ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٨٢ ، وفيه كلام ابن عمرو رضي الله عنهما . وسلف الحديث ٤/ ١٢ - ١٣ .

نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٦٧] واختاره أبو عبيد؛ لأنه قد حال بين الفعلِ وبين الاسم المؤنَّثِ الجارُّ والمجرور. الباقون بالتاء[1]. واختاره أبو حاتم لتأنيث الخافية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إعطاءُ الكتاب باليمين دليلٌ على النجاة[2]. وقال ابن عباس: أوَّلُ مَن يُعطَى كتابَه بيمينه من هذه الأمةِ عمر بنُ الخطاب، وله شعاعٌ كشعاع الشمس. قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال: هيهات هيهات!! زَفَّته الملائكةُ إلى الجنة. ذكره الثعلبي. وقد ذكرناه مرفوعًا من حديث زيد بنِ ثابتٍ بلفظه ومعناه في كتاب «التذكرة». والحمد لله[3].

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: يقول ذلك ثقةً بالإسلام وسرورًا بنجاته؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح، والشِّمال من دلائل الغَمّ. قال الشاعر:

(١) السبعة ص ٦٤٨، والتيسير ص ٢١٣. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٨٣.

(٣) لم نقف عليه في التذكرة، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ٣٠/ ١٥٤ من طريق عاصم الأحول، عن زيد ابن ثابت ﷺ مرفوعاً. ولم يُذكر لعاصم الأحول رواية عن زيد.

ثم إن في إسناده إسحاق بن إبراهيم بن سُنين الخُتَّلي، وهو ضعيف، وعمر بن إبراهيم بن خالد الكردي؛ قال الدارقطني: كذاب. الميزان ١/ ١٨٠، و٣/ ١٧٩-١٨٠. وفيه أيضاً: مرحوم بن أرطان، ولم نعرفه.

أَبِيني أفي يُمْنَى يَدَيكِ جعلتِني فأفرحَ أم صيَّرتِني في شمالكِ[١]

ومعنى «هَاؤُمُ»: تعالَوا؛ قاله ابن زيد[٢]. وقال مقاتل: هَلُمَّ. وقيل: أي: خذوا؛ ومنه الخبر في الرِّبا: «إلا هَاءَ وهَاءَ»[٣] أي: يقول كلُّ واحدٍ لصاحبه: خذ. قال ابن السِّكِّيت والكِسائي: العرب تقول: هاءَ يا رجلُ اقرأ، وللاثنين: هاؤما يا رجلان، وهاؤم يا رجال، وللمرأة هاءِ - بكسر الهمزة - وهاؤما وهاؤُنَّ[٤]. والأصل: هاكُم، فأُبدلت الهمزةُ من الكاف؛ قاله القُتَبي[٥].

وقيل: إنَّ «هاؤم» كلمةٌ وضعت لإجابة الداعي عند النشاطِ والفرح. روي أنَّ رسول الله ﷺ ناده أعرابيٌّ بصوت عالٍ، فأجابه النبيُّ ﷺ: «هاؤم»؛ يطوِّل صوته[٦].

«وَكِتَابِيَهْ» منصوب بـ«هاؤم» عند الكوفيين. وعند البصريين بـ«اقرؤوا»؛ لأنه أقربُ العاملَيْن[٧]. والأصل: «كتابي»، فأُدخلت الهاءُ لِتَبينَ فَتحةُ الياء، وكانت الهاء للوقف، وكذلك في أخواته: «حِسَابِيَهْ» و«ماليه» و«سلطانيه» وفي القارعة: «ماهيه».

وقراءة العامة بالهاء فيهنَّ في الوقف والوصل معًا؛ لأنهنَّ وقعن في المصحف بالهاء، فلا تترك. واختار أبو عبيد أن يُتعمَّدَ الوقفُ عليها ليوافِقَ اللغةَ في إلحاق الهاء في السَّكْت ويوافقَ الخَطَّ. وقرأ ابن مُحَيْصن ومجاهدٌ وحميدٌ ويعقوب بحذف الهاء في

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٨٣ . والبيت لعبد الله بن دُمَيْنة ، وهو في دلائل الإعجاز ص٩٠ ، ودرة الغوّاص ص٦٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٣١ .

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢) ، والبخاري (٢١٣٤) ، ومسلم (١٥٨٦) من حديث عمر ﷺ .

(٤) في (م) : هاؤمن . وكلام ابن السكيت في الوسيط ٤/ ٣٤٦ ، وكلام الكسائي في النكت والعيون ٦/ ٨٣ . وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٧ .

(٥) في تفسير غريب القرآن ص ٤٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٨٣ . والحديث أخرجه أحمد (١٨٠٩٥)، والترمذي (٣٥٣٥) ، والنسائي في الكبرى (١١١١٤) من حديث صفوان بن عسال ﷺ، ولفظه : هاءُ ، بدل : هاؤم .

(٧) الكشاف ٤/ ١٥٢ .

الوصل وإثباتِها في الوقف فيهنَّ أَجْمَع[١]. ووافقهم حمزة في «ماليه» و«سلطانيه»، و«ماهيه» في القارعة[٢]. وجملة هذه الحروفِ سبعة. واختار أبو حاتم قراءةَ يعقوبَ ومَن معه اتِّباعًا للُّغة[٣]. ومَن قرأهنَّ في الوصل بالهاء فهو على نيَّة الوقف.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي: أيقنت وعلمت، عن ابن عباسٍ وغيرِه[٤]. وقيل: أي: إني ظننت إنْ يؤاخذْني اللهُ بسيئاتي عذَّبني، فقد تفضَّل عليَّ بعفوه ولم يؤاخذني بها. قال الضحَّاك: كلُّ ظَنٍّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شكٌّ. وقال مجاهد: ظَنُّ الآخرة يقين، وظَنُّ الدنيا شكٌّ. وقال الحسن في هذه الآية: إنَّ المؤمن أَحسنَ الظنَّ بربِّه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظنَّ بربِّه فأساء العمل[٥]. ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: في الآخرة ولم أُنكر البعث؛ يعني أنه ما نجا إلَّا بخوفه من يوم الحساب، لأنه تيقَّن أنَّ الله يحاسبه، فعَمِلَ للآخرة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في عَيشٍ يرضاه لا مكروهَ فيه. وقال أبو عبيدة والفرَّاء[٦]: «رَاضِيَةٍ» أي: مرضية؛ كقولك: ماءٌ دافق، أي: مدفوق. وقيل: ذاتُ رِضًا، أي: يرضى بها صاحبُها[٧]. مثل: لابِن وتامِر؛ أي: صاحب اللبن والتمر.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدًا، ويَصِحُّون فلا يَمْرَضون أبدًا، ويَنْعَمون فلا يَرْون بؤسًا أبدًا، ويَشِبُّون فلا يَهْرَمُون أبدًا»[٨].

---

(١) قراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٠، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ١٤٢، وهو من العشرة.

(٢) التيسير ص ٢١٤، ٢٢٥.

(٣) كلام أبي حاتم في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٨٣.

(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٦٨، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٢.

(٧) ذكر هذا المعنى النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٠.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٨٣ - ٨٤، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٢٥٨)، ومسلم (٣٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: عظيمة في النفوس[١]. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجِع، على ما يأتي بيانُه في سورة الإنسان[٢]. والقُطُوف جمع قِطف، بكسر القاف، وهو ما يُقطف من الثمار. والقَطْف، بالفتح: المصدر. والقِطَاف ـ بالفتح والكسر ـ وقت القطف.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا تكديرَ فيه ولا تنغيص. ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾: قدَّمتم من الأعمال الصالحة. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: في الدنيا. وقال: «كُلُوا» بعد قوله: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»؛ لقوله: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ»، و«مَن» يتضمن معنى الجمع.

وذَكَرَ الضحَّاك أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزوميّ؛ وقاله مقاتل[٣]. والآيةُ التي تليها في أخيه الأسودِ بنِ عبد الأسد؛ في قول ابنِ عباسٍ والضحاكِ أيضًا[٤]؛ قاله الثعلبيّ. ويكون هذا الرجلُ وأخوه سببَ نزول هذه الآيات. ويَعُمُّ المعنى جميعَ أهلِ الشقاوة وأهلِ السعادة؛ يدُلُّ عليه قولُه تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا».

وقد قيل: إنَّ المراد بذلك كلُّ مَن كان متبوعًا في الخير والشرّ. فإذا كان الرجل رأسًا في الخير؛ يدعو إليه ويأمر به ويكثر تَبَعُه عليه، دُعي باسمه واسمِ أبيه فيتقدَّم، حتى إذا دنا؛ أُخرج له كتابٌ أبيضُ بخطٍّ أبيض، في باطنه السيئاتُ وفي ظاهره الحسنات؛ فيبدأ بالسيئات فيقرؤها، فيُشْفِق ويصفرُّ وجهه ويتغيَّر لونه؛ فإذا بلغ آخرَ الكتاب وجد فيه: «هذه سيئاتك وقد غفرت لك»، فيفرح عند ذلك فرحًا شديدًا، ثم يَقْلِب كتابَه فيقرأ حسناتِه، فلا يزداد إلا فرحاً؛ حتى إذا بلغ آخرَ الكتاب وجد فيه:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ص٤٧٢ من هذا الجزء.

(٣) كلام الضحاك في النكت والعيون ٦/ ٨٣، وكلام مقاتل في زاد المسير ٨/ ٣٥٢.

(٤) نسبه لابن عباس أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٩٩، وللضحاك الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٨٥.

«هذه حسناتك قد ضُوعفت لك»، فيبيضُّ وجهه، ويُؤْتى بتاج فيوضع على رأسه، ويُكسَى حُلَّتين، ويُحلَّى كلُّ مَفصِلٍ منه، ويطول سِتِّين ذراعاً، وهي قامة آدمَ عليه السلام؛ ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم وبشِّرهم أنَّ لكل إنسانٍ منهم مِثْلَ هذا. فإذا أدبر قال: «هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ». قال الله تعالى: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أي: مرضيَّة قد رضيها. «في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» في السماء. «قُطُوفُهَا»: ثمارها وعناقيدها. «دَانِيَةٌ»: أدنيت منهم. قال: فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمَرتك كرامةُ الله، مَن أنت؟ فيقول: أنا فلان بنُ فلان، أُبشِّر كلَّ رجلٍ منكم بمثل هذا. «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ» أي: قدَّمتم في أيام الدنيا. وإذا كان الرجل رأسًا في الشرّ، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تَبَعُه عليه، نودي باسمه واسمِ أبيه، فيتقدَّم إلى حسابه، فيُخرَج له كتابٌ أسودُ بخطٍّ أسود، في باطنه الحسناتُ وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤُها ويظنُّ أنه سينجو، فإذا بلغ آخرَ الكتاب وجد فيه: «هذه حسناتك وقد رُدَّت عليك» فيسودُّ وجهه ويعلوه الحزنُ ويَقْنَط من الخير، ثم يَقْلِب كتابه فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزنًا، ولا يزداد وجهه إلّا سوادًا، فإذا بلغ آخرَ الكتاب وجد فيه: «هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك. أي: يضاعف عليه العذاب، ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل. قال: فيعظم للنار وتزرقُّ عيناه ويسودُّ وجهه، ويُكسَى سرابيلَ القَطِران ويقال له: انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أنَّ لكل إنسانٍ منهم مثلَ هذا؛ فينطلق وهو يقول: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كانت الْقَاضِيَةَ» يتمنَّى الموت.

«هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ» تفسيرُ ابنِ عباس: هلكتْ عني حُجَّتي. وهو قول مجاهدٍ وعِكرمةَ والسُّدِّيِّ والضحاك. وقال ابن زيد: يعني: «سلطانيه» في الدنيا الذي هو المُلْك[1]. وكان هذا الرجلُ مطاعًا في أصحابه.

قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ قيل: يبتدره مئةُ[2] ألفِ مَلَك، ثم تُجمع يدُه إلى

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ عدا قول السدي، وهو في النكت والعيون ٦/ ٨٥ .

(٢) لفظة : مئة ، ليست في (ظ) .

عنقه، وهو قولُه عزَّ وجلَّ: «فَغُلُّوهُ» أي: شُدُّوه بالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: اجعلوه يَصْلَى الجحيم.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ الله أعلم بأيِّ ذراع، قاله الحسن[1]. وقال ابن عباس: سبعون ذراعًا بذراع المَلَك. وقال نَوْف: كلُّ ذراعٍ سبعون باعًا، وكلُّ باع أبعدُ ما بينك وبين مكة. وكان في رحبة الكوفة[2]. وقال مقاتل: لو أنَّ حَلْقةً منها وُضعت على ذُرْوة جبل، لذاب كما يذوب الرَّصاص[3]. وقال كعب: إنَّ حَلْقة من السلسلة التي قال الله تعالى فيها: ذَرْعُها سبعون ذراعًا؛ إنَّ حلقة منها مِثْلُ جميعِ حديدِ الدنيا[4].

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال سفيان: بلغَنا أنها تدخل في دُبُره حتى تخرجَ من فيه[5]. وقاله مقاتل. والمعنى: ثم اسلُكوا فيه سِلسِلةً. وقيل: تُدخَلُ عنقُه فيها ثم يُجَرُّ بها. وجاء في الخبر: أنها تدخل مِن دُبُره وتخرج من مَنْخِرَيه[6]. وفي خبرٍ آخَر: تدخل مِن فيه وتخرج من دبره، فينادي أصحابَه: هل تعرفوني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الخزي، فمن أنت؟ فينادي أصحابه: أنا فلان بنُ فلان، لكل إنسانٍ منكم مثلُ هذا.

قلت: وهذا التفسير أصحُّ ما قيل في هذه الآية، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]. وفي الباب حديثُ أبي هريرة بمعناه، خَرَّجه الترمذيّ[7]. وقد ذكرناه في سورة سبحان؛ فتأمَّله هناك[8].

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٤٧، وتفسير البغوي ٣٨٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٦١.

(٢) أخرجهما الطبري ٢٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) نسبه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦١ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٨٩ زوائد نعيم).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١٥.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٣٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في سننه (٣١٣٦).

(٨) ١٣/ ١٢٩.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: على الإطعام، كما يوضع العطاءُ موضِعَ الإعطاء. قال الشاعر[١]:

أكُفْرًا بعد رَدِّ الموتِ عنِّي ... وبعد عطائك المئةَ الرِّتَاعا

أراد: بعد إعطائك. فبيَّن أنه عُذِّب على ترك الإطعام، وعلى الأمر بالبخل، كما عُذِّب بسبب الكفر. والحَضُّ: التحريض والحَثّ. وأصل «طعام» أن يكونَ منصوباً بالمصدر المقدَّر[٢]. والطعام عبارةٌ عن العين، وأضيف للمسكين؛ للملابسة التي بينهما. ومَن أعملَ الطعام كما يُعمِلُ الإطعام، فموضع «المسكين» نصب. والتقدير: على إطعام المطْعِمِ المسكينَ؛ فحُذف الفاعل، وأضيف المصدرُ إلى المفعول.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ خبرُ «ليس» قولُه: «له»، ولا يكون الخبرُ قولَه: «هَا هُنَا» لأن المعنى يصير: ليس ها هنا طعامٌ إلَّا من غِسْلِين، ولا يصِحُّ ذلك؛ لأن ثَمَّ طعامًا غيره. و«هَا هُنَا» متعلِّقٌ بما في «له» من معنى الفعل. والحميم ها هنا القريب. أي: ليس له قريبٌ يَرِقُّ له ويدفع عنه. وهو مأخوذٌ من الحمِيم، وهو الماءُ الحارّ؛ كأنه الصَّدِيقُ الذي يَرِقُّ ويحترق قلبُه له.

والغِسْلِين: فِعْلِين، مِن الغَسْل؛ فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صَدِيدُ أهلِ النارِ السائلُ من جروحهم وفروجهم؛ عن ابن عباس[٣]. وقال الضحَّاك والربيع بن أنس: هو شجرٌ يأكله أهلُ النار[٤]. والغِسْل ـ بالكسر ـ: ما يُغسل به الرأسُ من خِطْمِيٍّ وغيره. الأخفش: ومنه الغِسلين، وهو ما انغسل من لحوم أهلِ النار ودمائهم. وزيد

(١) هو القطامي. وقد سلف البيت ٥/ ١٠٥.
(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦١: المراد به: ولا يحضُّ على إطعام طعام المسكين.
(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤٠.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦١.

فيه الياءُ والنونُ كما زيد في عِفرِّين[١]. وقال قتادة: هو شرُّ الطعام وأبشعُه. ابن زيد: لا يُعلم ما هو ولا الزَّقُّوم[٢]. وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦] يجوز أن يكونَ الضَّريعُ من الغِسْلين.وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير؛ والمعنى: فليس له اليوم ها هنا حميمٌ إلَّا من غِسْلِين؛ ويكون الماءَ الحارّ .﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ أي: وليس لهم طعامٌ ينتفعون به.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي: المذنبون. وقال ابن عباس: يعني المشركين.

وقُرئ: «الخاطِيون» بإبدال الهمزة ياءً، و«الخاطُون» بطرحها. وعن ابن عباس: ما الخاطون! كلُّنا نخطو. وروَى عنه أبو الأسود الدُّؤَليّ: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون. ما الصابون! إنما هو الصابئون. ويجوز أن يراد: الذين يتخطَّوْن الحقَّ إلى الباطل، ويتعدَّوْن حدودَ اللهِ عزَّ وجلّ[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ المعنى: أُقسم بالأشياء كلِّها، ما ترَون منها وما لا ترون[٤]. و«لا» صِلَة. وقيل: هو رَدٌّ لكلام سبق، أي: ليس الأمرُ كما يقوله المشركون. وقال مقاتل: سببُ ذلك أنَّ الوليد بنَ المغيرة قال: إنَّ محمدًا ساحر. وقال أبو جهل: شاعر. وقال عقبة: كاهن؛ فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أُقسم[٥].

---

(١) الصحاح (غسل). وعِفِرِّين: مأسدة، ودويبَّة مأواها التراب السهل في أصول الحيطان، أو دابة كالحرباء يتعرض للراكب ويضرب بذنبه، والرجل الكامل الضابط القوي. القاموس (عفر).

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤١، وكلام قتادة في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦١.

(٣) الكشاف ٤/ ١٥٤. وقراءة «الخاطيون» نسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٢٩ للزهري والحسن وموسى ابن طلحة. وقراءة «الخاطون» نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٦١ لابن مسعود وابن عباس ﷺ.

(٤) أخرج هذا القول الطبري ٢٣/ ٢٤١ - ٢٤٢ عن ابن عباس وابن زيد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٨٥ - ٨٦. وعقبة هو ابن أبي مُعيط.

وقيل: «لا» هاهنا نفيٌ للقَسَم[١]، أي: لا يُحتاج في هذا إلى قسم؛ لوضوح الحقِّ في ذلك، وعلى هذا فجوابُه كجواب القسم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يريد جبريل، قاله الحسن والكلبيُّ ومقاتل[٢]. دليلُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]. وقال الكلبيُّ أيضًا والقُتَبيّ: الرسول هنا محمدٌ ﷺ؛ لقوله: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ». وليس القرآن قولَ الرسول ﷺ، إنما هو مِن قول اللهِ عزَّ وجلَّ[٣]؛ ونُسب القولُ إلى الرسول لأنه تاليه ومبلِّغُه والعاملُ به، كقولنا: هذا قولُ مالِكٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ لأنه مباينٌ لصنوف الشعر كلِّها .﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ لأنه ورد بسبِّ الشياطين وشتمِهم؛ فلا يُنْزِلون شيئًا على مَن يسبُّهم[٤].

و«ما» زائدة في قوله: «قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ» و«قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ»؛ والمعنى: قليلًا تؤمنون، وقَليلًا تَذَكَّرُونَ[٥]. وذلك القليلُ من إيمانهم هو أنهم إذا سئلوا: مَن خلقهم قالوا: الله. ولا يجوز أن تكونَ «ما» مع الفعل مصدرًا وتَنصِبَ «قليلًا» بما بعد «ما»؛ لما فيه من تقديم الصِّلَة على الموصول؛ لأن ما عمل فيه المصدرُ مِن صلة المصدر[٦].

وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير وابن عامر ويعقوب: «مَا يُؤْمِنُونَ»، و«يذَّكَّرون»

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/١١٦ .

(٢) كلام الكلبي ومقاتل في النكت والعيون ٦/ ٨٦ ، وزاد المسير ٨/ ٣٥٤ .

(٣) تفسير غريب القرآن ص ٤٨٤ بنحوه .

(٤) تفسير الرازي ٣٠/١١٧ - ١١٨ بنحوه .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٨ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٥ .

بالياء[١]. الباقون بالتاء؛ لأن الخطاب قبله وبعده[٢]. أما قبله فقوله: «تُبْصِرُونَ»، وأما بعده: «فَمَا مِنْكُمْ» الآية.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي: هو تنزيل من ربِّ العالمين[٣]، وهو عطفٌ على قوله: «إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»، أي: إنه لَقولُ رسولٍ كريم، وهو تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ «تقوَّل» أي: تكلَّف وأتى بقول من قِبَل نفسه. وقُرِئ: «وَلَوْ تُقُوِّلَ» على البناء للمفعول[٤].

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوَّة والقدرة[٥]، أي: لأخذناه بالقوَّة. و«مِنْ» صِلَةٌ زائدة. وعبَّر عن القوَّة والقدرة باليمين؛ لأن قوَّةَ كلِّ شيءٍ في ميامنه، قاله القُتَبيّ[٦]. وهو معنى قولِ ابنِ عباس ومجاهد. ومنه قولُ الشَّمَّاخ[٧]:

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لِمَجْدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمينِ

أي: بالقوَّة. عرابة: اسمُ رجلٍ من الأنصار من الأوس، وقال آخر:

ولمَّا رأيتُ الشمسَ أشرق نُورها تناولتُ منها حاجتي بيميني[٨]

(١) السبعة ص ٦٤٨، والتيسير ص ٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩٠. وقراءة ابن عامر هي من رواية ابن ذكوان بخلف عنه.

(٢) وقرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر بتشديد الذال، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٨.

(٤) الكشاف ٤/ ١٥٥، وهي قراءة شاذة.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٩٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) في تأويل مشكل القرآن ص ١١٧.

(٧) ديوانه ص ٣٣٦. وسلف ٦/ ٣٨.

(٨) لم نقف عليه.

وقال السُّدِّيُّ والحَكَم: «باليمين»: بالحقّ. قال:

تـلـقَّـاهـا عَـرَابـةُ بـالـيـمـيـنِ

أي: بالاستحقاق.

وقال الحسن: لَقطعنا يدَه اليمين[١]. وقيل: المعنى: لَقبضنا بيمينه عن التصرُّف؛ قاله نفطويه.

وقال أبو جعفر الطبري[٢]: إنَّ هذا الكلام خَرَجَ مَخرجَ الإذلالِ؛ على عادة الناس في الأخذ بيدِ منَ يعاقَب. كما يقول السلطان لمن يريد هَوَانَه: خذوا بيديه[٣]. أي: لَأمرنا بالأخذ بيده وبَالَغْنَا في عقابه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ يعني: نِيَاط القلب، أي: لأهلكناه. وهو عِرْقٌ يتعلَّق به القلبُ؛ إذا انقطع مات صاحبه[٤]؛ قاله ابن عباس وأكثرُ الناس[٥]. قال:

إذا بَـلَّـغْـتِـنِـي وحَـمَـلْـتِ رَحْـلـي عَـرَابـةَ فـاشْـرَقـي بـدَم الـوتـيـنِ[٦]

وقال مجاهد[٧]: هو حبل القلب الذي في الظَّهر، وهو النخاع؛ فإذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه. والمَوْتون: الذي قُطع وَتِينُه. وقال محمد بن كعب: إنه القلب ومَرَاقُّه وما يليه. قال الكلبيّ: إنه عِرْقٌ بين العِلْباء والحلقوم[٨]. والعِلْباء: عَصَبُ العنق. وهما عِلْباوان، بينهما ينبت العِرْق[٩]. وقال عكرمة: إنَّ الوتين إذا قُطع؛ لا إن

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٨٦.

(٢) في تفسيره ٢٣/ ٢٤٣. ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٨٧.

(٣) المثبت من (ظ) و(ق)، وفي غيرهما: يديه.

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٤٨٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤٣ - ٢٤٥ عن ابن عباس وغيره.

(٦) قائله الشماخ، وهو في ديوانه ص ٣٢٣. وروايته: وحططتِ رحلي. وهو خطاب لناقته كما في الخزانة ٤/ ٣٤٩. وعرابة: هو ممدوحه، وقد سلف قريباً ذكره. وقوله: فاشرقي، أي: فغُصِّي.

(٧) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٢٤٤.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٨٧.

(٩) الصحاح (علب).

جاع عرف[١]، ولا إن شَبع عرف.

قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ «ما» نفي، و«أحدٍ» في معنى الجمع، فلذلك نَعَتَهُ بالجمع، أي: فما منكم قومٌ يَحجُزون عنه، كقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] هذا جمع، لأن «بين» لا تقع إلَّا على اثنين فما زاد[٢]. قال النبيُّ ﷺ: «لم تَحِلَّ الغنائمُ لأحد سُودِ الرؤوس قبلكم»[٣]. لفظه واحدٌ، ومعناه الجمع. و«مِن» زائدة. والحجز: المنع. و«حَاجِزِينَ» يجوز أن يكونَ صفةً لـ«أحدٍ» على المعنى كما ذكرنا؛ فيكونُ في موضع جَرّ، والخبر «مِنْكُمْ». ويجوز أن يكونَ منصوباً على أنه خبر، و«مِنْكُمْ» مُلْغًى، ويكون متعلِّقًا بـ«حَاجِزِينَ». ولا يمنع الفصلُ به مِن انتصاب الخبر في هذا؛ كما لم يمتنع الفصلُ به في: إنَّ فيك زيدًا راغب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن[٤] ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للخائفين الذي يخشَون الله. ونظيرُه: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] على ما بيَّنّاه أوَّلَ سورةِ البقرة[٥]. وقيل: المراد محمدٌ ﷺ[٦]، أي: هو تذكرةٌ ورحمةٌ ونجاة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ قال الربيع: بالقرآن. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ يعني

---

(١) في (ظ): عرق، وقول عكرمة في النكت والعيون ٦/ ٨٧، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٣ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٣.

(٣) سلف ٤/ ٤٩٧.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤٦ عن قتادة.

(٥) ١/ ٢٤٨.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٣.

التكذيب. والحسرة: الندامة. وقيل: أي: وإنَّ القرآن لَحسرةٌ على الكافرين يوم القيامة إذا رأَوا ثوابَ مَن آمن به. وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تَحَدِّيهم أن يأتوا بسورةٍ مثلِه[1]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ يعني أنَّ القرآن العظيم تنزيلٌ من الله عزَّ وجلَّ، فهو لحق[2] اليقين. وقيل: أي: حَقًّا يقينًا لَيكوننَّ ذلك حسرةً عليهم يومَ القيامة[3]. فعلى هذا «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ» أي: لَتَحَسُّر؛ فهو مصدرٌ بمعنى التحسر، فيجوز تذكيرُه. وقال ابن عباس: إنما هو كقولك: لَعيْن اليقين ومحض اليقين. ولو كان اليقين نعتاً لم يجز أن يضافَ إليه؛ كما لا تقول: هذا رجلُ الظَّرِيف. وقيل: أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين[4].

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي فصَلِّ لربِّكَ؛ قاله ابن عباس[5]. وقيل: أي: نزِّه اللهَ عن السُّوء والنقائص[6].

خُتمت السورة والحمدُ لله.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٨٧ . وكلام الربيع فيه .

(٢) في (ظ) : بحق .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٨٨ عن الكلبي .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٩١ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٨٨ .

(٦) المصدر السابق ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٦ بنحوه .

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكيَّةٌ، وآيُها إحدَى وخمسونَ(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ أي: السَّاعةُ أو الحالةُ التي يَحِقُّ وقوعُها، أو التي تُحَقُّ فيها الأمورُ؛ أي: تُعرَفُ حقيقتُها(٢)، أو تقعُ فيها حواقُّ الأمورِ مِن الحسابِ والجَزاءِ على الإسنادِ المَجازيِّ.

وهي مُبتدأٌ خبرُها: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وأصلُه: ما هيَ؛ أي: أيُّ شيءٍ هي؟ على التَّعظيمِ لشَأنِها والتَّهويلِ لها، فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المضمرِ لأنَّه أهوَلُ لها.

(٣) ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾: وأيُّ شيءٍ أعلمَكَ ما هيَ؟ أي: إنَّك لا تعلَمُ كُنْهَها فإنَّها أعظَمُ مِن أَنْ تَبلُغَهَا دِرايَةُ أحدٍ، و(ما) مُبتدأٌ، و﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبرُه.

(٤) ـ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾: بالحالةِ التي تقرعُ النَّاسَ بالإفزاعِ، والأَجرامَ بالانفطارِ والانتثارِ، وإنَّما وُضِعَت مَوضِعَ ضَميرِ الحاقَّةِ زيادةً في وَصفِ شِدَّتِها.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٥٣)، وفيه: وهي إحدى وخمسون آية في البَصْري والشامي واثنتان في عدد الباقين، اختلافها آيتان: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ الأولى عدها الكوفي ولم يَعُدَّها الباقون، ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ عدها المدنيان والمكي ولم يَعُدَّها الباقون.

(٢) فهي مِن قَوْلِك: لا أَحُقُّ هذا؛ أي: لا أَعْرفُ حقيقتَهُ، جُعِل الفِعل لهَا وَهُو لِأَهْلِها. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٤٩).

(٥) ـ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: بالواقعةِ المجاوِزةِ للحدِّ في الشدَّةِ، وهي الصَّيحةُ أو الرَّجفةُ لتكذيبِهم بالقارعةِ.

أو بسببِ طُغيانِهم بالتَّكذيبِ وغيرِه على أنَّها مصدرٌ كالعافيةِ، وهو لا يطابقُ قولَه:

(٦) ـ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾؛ أي: شديدةِ الصَّوتِ أو البردِ، مِن الصَّرِّ أو الصِّرِّ[١].

﴿عَاتِيَةٍ﴾: شديدةِ العصفِ كأنَّها عتَتْ على خُزَّانِها فلَمْ يَستَطِيعُوا ضبطَها، أو على عادٍ فلَمْ يقدِرُوا رَدَّهَا.

(٧) ـ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾: سلَّطَها عليهم بقُدرَتِه، وهو استئنافٌ أو صِفَةٌ جيءَ بهِ لنَفيِ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّها كانَتْ مِن اتِّصالاتٍ فَلكيَّةٍ، إذ لو كانَتْ لكانَ هو المقدِّرَ لها والمُسبِّبَ.

﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾: مُتَتابِعاتٍ: جمعُ حاسِمٍ، مِن حَسَمْتُ الدَّابَّةَ: إذا تابَعْتَ بينَ كيِّها، أو: نحساتٍ حَسَمَتْ كلَّ خيرٍ واستَأْصَلَتْهُ، أو: قاطِعَاتٍ قَطَعَتْ دابِرَهُم.

ويجوزُ أَنْ يكونَ مَصْدَرًا مُنتَصِبًا على العِلَّةِ[٢] بمَعنى: قطعًا، أو المصدرِ لفعلِه المقدَّرِ حالًا؛ أي: تَحسِمُهمْ حُسومًا، ويؤيِّدُه القِراءةُ بالفتحِ[٣].

وهي كانَتْ أَيَّامَ العَجوزِ مِن صَبيحَةِ الأربعاءِ إلى غُروبِ الأَربِعَاءِ الآخر، وإنَّما

---

(١) قوله: «من الصَّر» بالفتح: هو الصوت الشديد «أو الصِّر» بالكسر: هو بردٌ يُضِر بالنبات والحَرْث. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٧٨).

(٢) أي: «حَسوماً» بفتح الحاء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦١) عن السدي.

(٣) أي: مفعول له؛ أي: سخَّرهَا علَيهم للاستئصال. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٥٢).

سُمِّيَتْ عَجُوزًا؛ لأنَّها عَجُزُ الشِّتاء، أو لأنَّ عجوزًا مِن عادٍ توارَتْ في سربٍ فانتزَعَتْها الرِّيحُ في الثَّامنِ فأهلكَتْها.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ إن كنتَ حاضِرَهُم ﴿فِيهَا﴾ في مَهابِّها، أو في الليالي والأيَّامِ ﴿صَرْعَىٰ﴾: مَوْتَى، جمعُ صَريعٍ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾: أصولُ نخلٍ ﴿خَاوِيَةٍ﴾: مُتآكلةِ الأَجوافِ.

(٨) ـ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾: مِن بقيَّةٍ، أو: نفسٍ باقيةٍ، أو: بقاءٍ.

(٩) ـ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: ومَن تَقدَّمَه، وقرأَ البَصريَّانِ والكِسائيُّ: ﴿ومَن قِبَلَه﴾[١]؛ أي: ومَن عندَهُ مِن أَتباعِه، ويدلُّ عليهِ أنَّه قُرِئَ: (ومَنْ معَهُ)[٢].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: قرى قومِ لوطٍ، والمرادُ أهلُها ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: بالخطأِ، أو: بالفَعْلةِ أو الأفعالِ ذاتِ الخطأ.

(١٠) ـ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فعَصى كلُّ أمَّةٍ رَسولَها ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾: زائدةً في الشِّدَّةِ زيادةَ أَعمالِهم في القُبحِ.

(١١) ـ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾: جاوزَ حَدَّهُ المعتادَ، أو: طَغَى على خُزَّانِه، وذلك في الطُّوفانِ[٣]، وهو يؤيِّدُ ﴿مَن قبلَهُ﴾[٤].

﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: آباءَكُم وأنتُمْ في أَصلابِهم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾: في سَفينَةِ نُوحٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٣)، و«النشر» (٢/ ٣٨٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦١)، و«الكشاف» (٩/ ٢٥٣)، عن عبد الله بن مسعود وأبي رضي الله عنهما.

(٣) قولُه: (وذلكَ...) هو على الوجهَينِ.

(٤) أي: يؤيد القراءة بفتحِ القافِ وسكونِ الباءِ؛ لأنَّ الطُّوفانَ قبلَ فرعونَ، وهذه جُملةٌ مُستأنَفةٌ لبيانِ أحوالِ مَن ذُكِرَ أوَّلًا. قاله الشهاب في «الحاشية».

(١٢) ـ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾: لنجعلَ الفعلةَ وهي إنجاءُ المؤمنينَ وإغراقُ الكافرينَ ﴿تَذْكِرَةً﴾: عِبرةً ودلالةً على قُدرَةِ الصَّانعِ وحِكمَتِه وكمالِ قُدرَتِه ورَحمَتِه.

﴿وَتَعِيَهَآ﴾: وتَحْفَظَها، وعن ابن كثير في شواذٍّ[1]: (وتَعْيَهَا) بسُكونِ العَيْنِ[2] تشبيهًا بـ(كَتْفٍ)[3]، والوعيُ: أن تحفظَ الشَّيءَ في نفسِكَ، والإيعاءُ: أن تحفظَهُ في غيرِكَ.

﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾: مِن شأنِها أن تحفظَ ما يجِبُ حِفظُه بتذكُّرِه وإشاعَتِه، والتَّفكُّرِ فيه والعمل بموجبِه، والتَّنكيرُ للدَّلالةِ على قِلَّتِها، وأنَّ مَن هذا شأنهُ مع قِلَّتِه تَسَبَّبَ لإنجاءِ الجمِّ الغفيرِ وإدامةِ نَسلِهِم.

وقرأَ نافعٌ: ﴿أُذْنٌ﴾ بالتَّخفيفِ[4].

(١٣) ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لَمَّا بالغَ في تهويلِ القيامةِ وذكرَ مآلَ المكذِّبينَ بها تفخيمًا لشأنِها وتنبيهًا على إمكانِها عادَ إلى شرحِها، وإنَّما حَسُنَ إسنادُ الفعلِ إلى المصدرِ لتَقَيُّدِه[5]، وحَسُنَ تَذكيرُه للفَصلِ، وقُرِئَ: (نفخةً)[6] بالنَّصبِ على إسنادِ الفعلِ إلى الجارِّ والمَجرورِ.

---

(١) «في شواذ» من نسخة التفتازاني.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦١). وفي «التيسير» للداني (ص: ٢١٣): وكلُّهم قرؤوا ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بكسر العين وفتح الياء وتخفيفها، وجاء عن ابن كثير وعاصم وحمزة في ذلك ما لا يصح.

(٣) يعني أن (تعي) تشبه (كتف) و(فخذ)، والعرب تخفف مثلهما بإسكان الوسط، فلذلك أسكن في (تَعْيها). انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٤٤٠).

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ٩٩).

(٥) قولُه: «وإنَّما حسُنَ إسنادُ الفعلِ لتقيده»: لـمّا كانَ الفعلُ دالاًّ على المصدرِ لـم يكُنْ في الإسنادِ إليه فائدةٌ، وقد منَعَه السُّبكيُّ، وكلامُ المُصنِّفِ يُشيرُ إلى جوازِه، لكنْ مع قُبحٍ إنْ لـم يُقيَّدْ بأمرٍ زائدٍ، فإنْ قُيِّدَ به حسُنَ، وقد قُيِّدَ هنا بتاءِ الوحدةِ، وهي وصفٌ معنًى، وبصريحِ الوصفِ فأفادَ فائدةً تامّةً. قاله الشهاب في «الحاشية».

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦١) عن أبي السمال.

والمُرادُ بها: النَّفخةُ الأولى التي عندَهَا خرابُ العالمِ.

(١٤) ـ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: رُفِعَت عن أماكنِهَا بمُجرَّدِ القُدرَةِ الكامِلَةِ، أو بتوسُّطِ زلزلةٍ أو ريحٍ عاصِفَةٍ.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾: فضُرِبَت الجُملتانِ بعضُها ببَعْضٍ ضربةً واحِدةً، فيصيرُ الكلُّ هباءً.

أو: فبُسِطَتا بسطةً واحدةً فصارَتا أرضًا لا عِوَجَ فيها ولا أَمْتًا؛ لأنَّ الدَّكَّ سَبَبٌ للتَّسويَةِ، ولذلك قيل: ناقَةٌ دَكَّاءُ، للَّتي لا سنامَ لها، و: أرضٌ دكَّاءُ، للمُتَّسِعَةِ المُستَوِيَةِ.

(١٥) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: فحينئذٍ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾: قامَتِ القِيامَةُ.

(١٦) ـ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنُزولِ الملائكةِ ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: ضعيفَةٌ مُسترخيَةٌ.

(١٧) ـ ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: والجنسُ المُتعارفُ بالملَكِ ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾: جوانبِها، جمعُ رَجًا بالقصرِ.

ولعلَّه تمثيلٌ لخرابِ السَّماءِ بخرابِ البُنيانِ وانضواءِ أهلِها إلى أطرافِها وحوالَيْها[1]، وإن كانَ على ظاهرِه فلعلَّ هلاكَ الملائكةِ إثرَ ذلك.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾: فوقَ الملائكةِ الذينَ هم على الأرجاءِ، أو فوقَ الثَّمانيةِ؛ لأنَّها في نيَّةِ التَّقديمِ ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾: ثمانيةُ أملاكٍ؛ لِمَا رُوِيَ مَرفوعًا: «أنَّهم اليومَ أربعةٌ فإذا كان يومُ القيامةِ أيَّدهُم اللهُ بأربعةٍ أُخرى»[2].

---

(١) قولُه: «انضِواءِ أهلِها» بالضَّادِ المُعجمةِ، بمعنَى التِجائِهم وذهابِهم للأطرافِ، وضميرُ «أهلِها» للبُنيانِ، وأنَّثَه لتأويلِه بالأبنيةِ؛ لأنَّه مصدرٌ، و«حوالَيها» بفتحِ اللَّامِ بمعنَى الجوانبِ. قاله الشهاب في «الحاشية».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٢٩) عن ابن إسحاق عن النبي ﷺ بلاغاً، ورواه أيضا عن ابن زيد عن النبي ﷺ، وكلاهما معضل. =

وقيل: ثمانيةُ صُفوفٍ مِن الملائكةِ لا يَعلَمُ عِدَّتَهُم إلا اللهُ، ولعلَّه أيضًا تمثيلٌ لعَظَمَتِه بما يُشاهَدُ مِن أَحوالِ السَّلاطينِ يومَ خُروجِهِم على النَّاسِ للقَضاءِ العامِّ، وعلى هذا قال:

(١٨) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تَشبيهًا للمحاسَبةِ بعرضِ السُّلطانِ العَسكرَ لتعرُّفِ أحوالِهم، وهذا وإن كانَ بعدَ النَّفخةِ الثَّانيةِ لكنْ لَمَّا كانَ اليومُ اسمًا لزمانٍ مُتَّسعٍ تقعُ فيه النَّفختانِ والصَّعقةُ والنُّشورُ والحسابُ وإدخالُ أَهلِ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلِ النَّارِ النَّارَ صحَّ جعلُه ظرفًا للكلِّ.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾: سَريرةٌ على اللهِ حتَّى يكونَ العرضُ للاطِّلاعِ عليها، وإنَّما المُرادُ منه إفشاءُ الحالِ والمُبالغَةُ في العَدلِ، أو على النَّاسِ كما قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ باليَاءِ للفَصلِ[١].

= وجاء في حديث الصور الطويل: «والملائكة تحمل عرشه يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة»، رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٠)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٧٣)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن كثير: هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة...وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة. وأما سياقه، فغريب جدا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٣).

(١٩) ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيلٌ للعَرْضِ ﴿فَيَقُولُ﴾ تَبجُّحًا[1]: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ (هاءَ) اسمٌ لـ(خُذْ) وفيهِ لُغاتٌ أجوَدُها: «هاءَ يا رجلُ» و«هاءِ يا امرأةُ»، و«هاؤُمَا يا رَجُلانِ، أو امرأتانِ»، و«هاؤُمْ يا رِجالُ» و«هاؤُنَّ يا نِسوَةُ»، ومفعولُه مَحذوفٌ.

و﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعولُ ﴿ٱقْرَءُواْ﴾؛ لأنَّه أقرَبُ العامِلينَ، ولأنَّه لو كان مفعولَ ﴿هَآؤُمُ﴾ لقيل: اقرؤُوهُ؛ إذ الأَوْلَى إضمارُه حيثُ أَمكنَ.

والهاءُ فيه وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ للسَّكتِ، تَثبُتُ في الوَقفِ وتَسقُطُ في الوَصلِ، واستُحِبَّ الوُقفُ لثَباتِها في الإمامِ، ولذلك قُرِئَ بإثباتِها في الوَصلِ[2].

(٢٠) ـ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾؛ أي: عَلِمتُ، ولعلَّهُ عبَّرَ عنه بالظَّنِّ إشعارًا بأنَّه لا يقدَحُ في الاعتقادِ ما يَهْجِسُ في النَّفسِ مِن الخَطَراتِ التي لا تنفَكُّ عنها العلومُ النَّظرِيَّةُ غالبًا.

(٢١) ـ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: ذاتِ رِضًا، على النِّسبةِ بالصِّيغَةِ[3]، أو جعلِ الفعلِ لها مجازًا، وذلك لكَوْنِها صافيَةً عن الشَّوائبِ دائمةً مَقرونَةً بالتَّعظيمِ.

---

(١) «تبجُّحًا» بتقديمِ الجيمِ؛ أي: افتِخاراً على وجهِ المسرّةِ بما افتخَرَ به. قاله الشهاب.

(٢) قرأ يعقوب بحذف الهاء في الأربعة في الوصل، وحمزة بحذفها في الوصل في ﴿مالي﴾ و﴿سلطاني﴾، والباقون بإثباتها في الحالين، انظر: «السبعة» (ص: ١٨٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٤)، و«النشر» (٢/ ١٤٢).

(٣) قولُه: «ذاتِ رِضًا على النِّسبةِ بالصِّيغةِ»؛ يعني: أنَّ النِّسبةَ على قسمَينِ: نسبةٌ بالصِّيغة، كلابنٍ وتامرٍ، وبالحرفِ كروميٍّ وزِنْجيٍّ، والمُرادُ هنا النِّسبةُ بالصِّيغةِ، فهي بمعنَى: ذاتِ رِضًا؛ أي: مُلتبِسةٍ بالرِّضا، فيكونُ بمعنَى «مَرضِيَّة»، وهو المُرادُ، وقيل: التّاءُ فيه على هذا للمُبالغةِ كعلّامةٍ. عن الشهاب.

(٢٢) ـ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: مُرتفِعَةِ المكانِ لأنَّها في السَّماءِ، أو الدَّرجاتِ، أو الأبنيَةِ، أو الأشجارِ.

(٢٣) ـ ﴿قُطُوفُهَا﴾: جمعُ قِطْفٍ، وهو ما يُجْتَنى بسُرْعَةٍ، والقَطفُ بالفتحِ: المَصدَرُ. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناوَلُها القاعِدُ.

(٢٤) ـ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمارِ القَولِ، وجمعُ الضَّميرِ للمَعنى ﴿هَنِيئًا﴾ أَكْلًا وشُرْبًا هنيئًا، أو: هَنِئْتُم هنيئًا ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾: بما قدَّمْتُم مِن الأَعمالِ الصَّالحةِ ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: الماضيَةِ مِن أيَّامِ الدُّنيا.

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ يقولُ لِمَا يَرى مِن قُبحِ العَملِ وسُوءِ العاقِبةِ[1]: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾.

(٢٧) ـ ﴿يَا لَيْتَهَا﴾: يا ليتَ الموتةَ التي متُّها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾: القاطعةَ لأَمرِي فلَمْ أُبعَثْ بعدَها.

أو: يا ليتَ هذه الحالةَ كانَت الموتةَ التي قَضَتْ عليَّ، كأنَّه صادفَها أمرٌ مِن المَوتِ فتمنَّاهُ عِندَها.

أو: يا ليتَ حياةَ الدُّنيَا كانَتِ الموتةَ، ولم أُخلَقْ حيًّا.

(٢٨) ـ ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾: ما لي مِن المالِ والتَّبعِ، و﴿مَا﴾ نفيٌ، والمفعولُ مَحذوفٌ[2]، أو استفهامُ إنكارٍ مَفعولٌ لـ﴿أَغْنَى﴾.

(٢٩) ـ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾: مُلكي وتَسلُّطِي على النَّاسِ، أو: حُجَّتي التي كنتُ أَحُجُّ بها في الدُّنيَا.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الخاتمة» وفي هامش كل منهما كالمثبت نسخة.

(٢) قوله: «والمفعول محذوف»؛ تقديره: شيئاً، و«ما» الموصولةُ فاعلُه.

وقـرأ حمـزَةُ: ﴿عنِّي مالـي﴾ و﴿عنِّي سـلطاني﴾ بحـذفِ الهاءينِ فـي الوَصلِ والباقـونَ بإثباتِها فـي الحالينِ[١].

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿خُذُوهُ﴾ يقولُه اللهُ لخزنةِ النَّارِ ﴿فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾: ثمَّ لا تصلُّوهُ إلا الجحيمَ وهي النَّارُ العُظْمَى؛ لأنَّه كان يَتعظَّمُ على النَّاسِ.

(٣٢) ـ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾؛ أي: طويلةٍ ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾: فأدخِلوهُ فيها بأن تَلُفُّوهَا على جسدِه وهو فيما بينَها مرهَقٌ لا يقدرُ على حركةٍ، وتقديمُ السلسلة كتَقديمِ الجَحيمِ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ والاهتمامِ بذكرِ أنواعِ ما يعذَّبُ به، و﴿ثُمَّ﴾ لتَفاوُتِ ما بينَها في الشدَّةِ.

(٣٣) ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليلٌ عـلى طـريقةِ الاستئنـافِ للمُبالغَةِ[٢]، وذكرُ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ للإشعارِ بأنَّه هو المستحِقُّ للعظمةِ، فمَن تعظَّمَ فيها[٣] استوجبَ ذلك.

(٣٤) ـ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: ولا يحثُّ على بذلِ طَعامِه، أو على إطعامِه، فضلًا[٤] أن يبذلَ مِن مالِه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ذكرُ الحضِّ للإشعارِ بأنَّ تاركَ الحضِّ بهذه المنزلةِ فكيفَ بتاركِ الفعلِ؟ وفيه دليلٌ على تكليفِ الكُفَّارِ بالفُروعِ، ولعلَّ تخصيصَ الأَمرينِ بالذِّكرِ لأنَّ أقبحَ العَقائدِ الكفرُ باللهِ، وأشنَعَ الرَّذائلِ البخلُ وقَسْوَةُ القَلبِ.

---

(١) تقدمت قريباً.

(٢) قولُه: (فضلاً... إلخ»؛ أي: على الوجهَين. عن الشهاب.

(٣) «فيها»: ليس في نسخة الفاروقي، وفي نسخة الطبلاوي: «فمن لا يعظمه فيها».

(٤) قولُه: «على طريقةِ الاستئنافِ» فإنَّه يُفيدُ التَّعليلَ لوُقوعِه في جوابِ: لِـمَ استَحقَّ هذا؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُۥ...﴾، وقولُه: «للمُبالغةِ»؛ لأنَّ السُّؤالَ المُقدَّرَ فيه تكثيرٌ للمعنَى مع تقليلٍ لفظِه. عن الشهاب.

(٣٥ ـ ٣٧) ـ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾: قريبٌ يَحميه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾: غسالةِ أهلِ النَّارِ وصَديدِهم، فِعْلِينَ مِن الغَسلِ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أصحابُ الخَطايا، مِن خَطِئَ الرَّجُلُ: إذا تعمَّدَ الذَّنْبَ، لا مِن الخطأِ المضادِّ للصَّوابِ.

وقُرِئَ: (الخَاطِيُونَ) بقلبِ الهمزةِ ياءً[1]، و: ﴿الخاطونَ﴾ بطرحِها[2].

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لظُهورِ الأَمرِ واستغنائِه عَن التَّحقيقِ بالقَسَمِ، أو: فأقسم، و(لا) مَزيدةٌ، أو: ﴿فَلَا﴾ ردٌّ لإنكارِهِم البعثَ و﴿أُقْسِمُ﴾ مستأنفٌ.

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: بالمُشاهَداتِ والمُغيَّباتِ وذلك يتناوَلُ الخالقَ والمخلوقاتِ بأسرِها.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّهُ﴾: إنَّ القُرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يُبَلِّغُه عنِ اللهِ؛ فإنَّ الرَّسولَ لا يقولُ عَن نفسِه ﴿كَرِيمٍ﴾ على اللهِ، وهو محمَّدٌ أو جبرئيلُ عليهِمَا السَّلامُ.

(٤١) ـ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تَزعمونَ تارةً ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾: تُصدِّقُونَ لَمَّا ظهرَ لَكُم صِدقُه تَصديقًا قليلًا لفرطِ عِنادِكُم.

(٤٢) ـ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدَّعُونَ أُخرَى ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكَّرُونَ تذكُّرًا قليلًا فلذلك يَلتَبِسُ الأمرُ عليكُم.

وذكرُ الإيمانِ مع نفيِ الشَّاعريةِ والتَّذكُّرِ مع نفيِ الكاهِنيَّةِ؛ لأنَّ عدمَ مُشابهةِ القُرآنِ للشِّعرِ أَمْرٌ بيِّنٌ لا يُنكِرُه إلا معانِدٌ، بخلافِ مُباينَتِه للكَهانةِ، فإنَّها تتوقَّفُ على تذكُّرِ أحوالِ الرَّسُولِ ومَعاني القرآنِ المنافيةِ لطَريقَةِ الكهنةِ ومَعاني أقوالِهِم.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٢٩) عن الزهري والحسن وموسى بن طلحة.

(٢) قرأ بها أبو جعفر، ووقفاً حمزة، ووقف ايضاً بالتسهيل بين بين فهما وجهان له. انظر: «النشر» (١/ ٤٤٣).

وقرأ ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ وابن عامر بالياءِ فيهما[١].

(٤٣) ـ ﴿تَنزِيلٌ﴾: بل هو تنزيلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نزَّله على لسانِ جبرئيلَ.

(٤٤) ـ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ سُـمِّيَ الافتـراءُ تَقَـوُّلًا لأنَّـهُ قـولٌ مُتكلَّـفٌ، والأقوالُ

المُفتراةُ أقاويلَ تحقيرًا بها؛ كأنَّها جمعُ أُفْعُولَةٍ مِن القولِ كالأَضَاحيكِ.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: بيمينِه ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾؛ أي: نياطَ قلبِهِ بضربِ عنقِهِ، وهو تَصويرٌ لإهلاكِه بأفظعِ ما يفعَلُه الملوكُ بمَنْ يغضبونَ عليه، وهو أن يأخذَ القتَّالُ بيَمينِه ويكفحَه بالسَّيفِ ويضربَ جيدَه، وقيل: اليمينُ بمعنى القوَّةِ[٢].

(٤٧) ـ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾: عَـن القتلِ أو المَقتولِ ﴿حَٰجِزِينَ﴾: دافعينَ، وصفٌ لـ﴿أَحَدٍ﴾ فإنَّه عامٌّ والخِطابُ للنَّاسِ.

(٤٨) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإنَّ القرآنَ ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنَّهُم المنتفعونَ به.

(٤٩) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فنُجازيهِمْ على تكذيبِهِم.

(٥٠) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إذا رَأَوا ثوابَ المؤمنينَ به.

(٥١) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: اليقينُ الذي لا ريبَ فيه.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٠).

(٢) قولُـه: «يكفَحَـه» بالفـاءِ والحـاءِ المُهملـةِ، يعنـي: يُواجهَـه بالسَّـيفِ؛ لأنَّ الآخـذَ باليميـنِ يقتلُه بعد مُواجهتِـه بالسَّـيفِ، ونظـرُه له أشـدُّ عقوبـة، ومَن يَضـربُ عنقَه من غيـرِ مُواجهـةٍ يأخذُه من يسـارِه، فلـذا قـالَ: (بيمينِـه)؛ لبيانِ أنَّـه يُعاقَبُ بأشـدِّ العقوبـةِ، أو اليميـنُ بمعنَى القـوّةِ، فالمُرادُ أخـذُه بعُنفٍ وشـدّةٍ، ومرَّضَـه لأنَّه يفـوتُ فيه التَّصويـرُ والتَّفصيلُ والإجمـالُ، ويصيرُ قولُه: ﴿مِنْهُ﴾ زائـدًا من غيرِ فائـدةٍ، ويُرتكَـبُ المجـازُ مـن غيرِ فائـدةٍ أيضًا. عن الشـهاب.

(٥٢) ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: فسَبِّح للهِ بذكرِ اسمِه العَظيمِ تنزيهًا له عَن الرِّضَا بالتَّقوُّلِ عليه، وشُكرًا على ما أوحَى إليك.

عن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرَأَ سُورَةَ الحاقَّةِ حاسبَهُ اللهُ حِسابًا يَسيرًا»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٤٣)، قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٩) سُورة الحاقة مكيّة
وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟
بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ
بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

﴿ **الحاقَّةُ** ﴾ **من أسماء يوم القيامة**، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظَّم الله أمرها فقال: ﴿ وما أدراك ما الحاقَّة ﴾، ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة ﴿ الطاغية ﴾: الصيحة، وهو اختيار ابن جرير، وقال مجاهد: ﴿ الطاغية ﴾ الذنوب، وكذا قال ابن زيد إنها الطغيان، وقرأ: ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾، ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي باردة، قال قتادة والسدي: ﴿ عاتية ﴾ أي شديدة الهبوب، عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحّاك: ﴿ صرصر ﴾ باردة ﴿ عاتية ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب، ﴿ سخرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم، قال ابن مسعود: ﴿ حسوماً ﴾ متتابعات، وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم كقوله تعالى: ﴿ في أيام نحسات ﴾ **ويقال**: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾. **وقيل**: لأنها تكون في عجز الشتاء، قال ابن عباس: ﴿ خاوية ﴾ خربة، وقال غيره: بالية، أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرّ ميتاً على أمِّ رأْسه، فينشدخ رأسه، وتبقى جثته هامدة، كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نصرت بالصَّبا وأهلكت

عاد بالدَّبور »[١]. وعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: « ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عادٍ، الريحَ وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة »[٢] ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾؟ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً، ثم قال تعالى: ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أي ومن قبله من الأمم المشبهين له، وقوله تعالى: ﴿ والمؤتفكات ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل، ﴿ بالخاطئة ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله، قال الربيع ﴿ بالخاطئة ﴾ أي بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ أي كل كذب رسول الله إليهم كما قال تعالى: ﴿ إن كلٌ إلا كذب الرسل فحق وعيد ﴾، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع، كما قال تعالى: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾، ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ وإنما جاء إلى كل أمّة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد ﴿ رابية ﴾: شديدة، وقال السدي: مهلكة.

ثم قال تعالى: ﴿ إنا لمّا طغى الماء ﴾ أي ازداد على الحد، وقال ابن عباس: ﴿ طغى الماء ﴾ كثر، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام، فاستجاب الله له، وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته، قال علي بن أبي طالب: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان، فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿ إنا لمّا طغى الماء ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله، ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله تعالى: ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾[٣]، ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ۞ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة، والأول أظهر، ولهذا قال تعالى: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: ﴿ أذن واعية ﴾ عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله. وقال الضحّاك: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ سمعتها أذن ووعت، أي من له سمع صحيح وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعي.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ

(١) اخرجاه في الصحيحين.
(٢) رواه ابن أبي حاتم
(٣) رواه ابن جرير

﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك (نفخة الفزع)، ثم يعقبها (نفخة الصعق) حين يصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها (نفخة القيام) لرب العالمين، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، قال الربيع: هي النفخة الأخيرة، والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ههنا: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي فمدت مد الأديم، وتبدلت الأرض غير الأرض، ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ أي قامت القيامة، ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾. عن علي قال: تنشق السماء من المجرة، وقال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾، ﴿والملك على أرجائها﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة. على أرجاء السماء: أي حافاتها، وقال الضحّاك: أطرافها، وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنَس في قوله: ﴿والملك على أرجائها﴾ يقول: على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض، وقوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[1]. وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[2]، وروى الإمام أحمد، عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[3].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ أي خذوا اقرأوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات، وعن عبدالله بن عبدالله بن حنظلة (غسيل الملائكة) قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا فيقول: نعم أي رب، فيقول له: إني لم

(١) رواه أبو داود.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ثابت بن الحجّاج.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي.

أفضحك به وإني قد غفرت لك، فيقول عند ذلك: ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾، ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة[١]، وقد تقدم في الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدني الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »، وقوله تعالى: ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي قد كنت موقناً في الدنيا، أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾، قال تعالى: ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية، ﴿ في جنة عالية ﴾ أي رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دُورها، دائم حبورها، روى ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: « هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال: « نعم. إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى فيحيونهم ويسلمون عليهم ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين تقصر بهم أعمالهم »[٢]، وقد ثبت في الصحيح: « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ». وقوله تعالى: ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال البراء بن عازب: أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غير واحد، روى الطبراني، عن سلمان الفارسي قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية »[٣]؛ وفي رواية: « يعطى المؤمن جوازاً على الصراط: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية »[٤]، وقوله تعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً، وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ».

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم، ﴿ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية ﴾ قال الضحاك: يعني موتة لا حياة بعدها،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) أخرجه الضياء في صفة الجنة.

وقال قتادة: تمنّى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه، ﴿ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير فعندها يقول الله عزّ وجلّ: ﴿خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلّوه﴾ أي يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله، أي تضع الأغلال في عنقه، ثم توررده إلى جهنم فتصليه إيّاها، أي تغمره فيها. عن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى: خذوه، ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول: هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار[1]، وقال الفضيل ابن عياض إذا قال الرب عزّ وجلّ ﴿خذوه فغلوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه، ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي أغمروه فيها، وقوله تعالى: ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وقال ابن عباس: بذراع الملك، وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه، روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه - وأشار إلى جمجمة - أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»[2]. وقوله تعالى: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، وقوله تعالى: ﴿فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى، لا ﴿حميم﴾ وهو القريب، ولا ﴿شفيع﴾ يطاع، ولا طعام له ههنا ﴿إلا من غسلين﴾ قال قتادة: هو شر طعام أهل النار، وقال الضحّاك: هو شجرة في جهنم، وقال ابن عباس: ما أدري ما الغسلين؟ ولكني أظنه الزقوم[3]، وقال عكرمة عنه: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم، وعنه: الغسلين صديد أهل النار.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه، بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته، الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم، إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم﴾ يعني محمداً ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ، ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

ما تذكرون﴾ فأضافه الله تارة إلى (جبريل) الرسول الملكي، وتارة إلى (محمد) الرسول البشري، لأن كلا منهما مبلغ عن الله، ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال فقرأ: ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ قال، فقلت: كاهن، قال: فقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾ إلى آخر السورة، قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾ أي محمد ﷺ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده، فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ **قيل**: معناه لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، **وقيل**: **لأخذنا** بيمينه، ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه؛ وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه، وقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه، إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد، لأن الله عزّ وجلّ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات، ثم قال تعالى: ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾. كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾، ثم قال تعالى: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن، ثم قال تعالى: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة، ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به﴾، وقال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي الخبر الصدق الحق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، ثم قال تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

[آخر تفسير سورة الحاقة، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

تفسير سورة الحاقة

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ .

الحاقةُ من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يَتحقّقُ الوَعدُ والوَعيد ؛ ولهذا عَظّم تعالى أمرَها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ؟

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أسكنتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية الصيحة . وهو اختيار ابن جرير (١) .

وقال مجاهد : الطاغية الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس: ١١].

وقال السُّدِّى : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعنى : عاقر الناقة .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أى : باردة . قال قتادة ، والربيع ، والسدى ، والثورى : ﴿عَاتِيَةٍ ﴾ أى : شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم .

وقال الضحاك :﴿ صَرْصَرٍ ﴾ : باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال على وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى : كوامل متتابعات مشائيم .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٣١) .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والثورى ، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات .

وعن عكرمة والربيع : مشائيم عليهم ، كقوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت:١٦] قال الربيع: وكان أولها الجمعة . وقال غيره الأربعاء . ويقال : إنها التى تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .وقيل : لأنها تكون فى عجر الشتاء ، ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سَربًا فقتلها الريح فى اليوم الثامن . حكاه البغوى [(١)] . والله أعلم .

قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة . وقال غيره : بالية ، أى : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان .

وقد ثبت فى الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأهلكَت عادٌ بالدَّبور» [(٢)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضُّريس العبدى ، حدثنا ابن فُضَيل، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فَمرّت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم، فجعلتهم بين السماء والأرض . فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح [(٣)] وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا .فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة » [(٤)] .

وقال الثورى عن ليث ، عن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب .

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه [(٥)] ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خَلَفًا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ : قُرِئَ بكسر القاف ، أى : ومن عنده فى زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له .

وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ وهم المكذبون بالرسل . ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالفعلة الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله .

قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا .

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٢٠٨) .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٣٥) وصحيح مسلم برقم (٩٠٠) .

(٣) فى م : « فلما رأى أهل الحاضر من عاد الريح » .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٤٢١) وأبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٠٦) من طريق محمد بن فضيل عن مسلم ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٣) :« فيه مسلم الملائى وهو ضعيف » .

(٥) فى م : « أو » .

ولهذا قال : ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ :وهذا جنس ، أى: كُلٌ كذَّبَ رسول الله إليهم. كما قال: ﴿ كُلٌّ (١) كذَّب الرُّسُلَ فحقَّ وعيد ﴾ [ق:١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع ، كما قال : ﴿ كذَّبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء:١٠٥] ، ﴿ كذَّبت عادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، ﴿كذَّبت ثمود المرسلين ﴾ [الشعراء:١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى : عظيمة شديدة أليمة .

قال مجاهد : ﴿ رابية ﴾ : شديدة . وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغا الماء ﴾ أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طغا الماء ﴾ : كثر ــ وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعَمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْرَان ، عن أبى سِنان سعيد بن سنان ،عن غير واحد، عن على بن أبى طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدى ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان ، فطغى الماء على الخزان فخرج ، فذلك قول الله : ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية ﴾ ولم ينزل شىء من الريح إلا بكيل على يدى ملك ،إلا يوم عاد ،فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ عتت على الخزان (٢) .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية ﴾ ، وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ [الزخرف:١٢،١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ [يس:٤١، ٤٢] .

وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿وتعيها أذن واعية ﴾ أى : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية .

قال ابن عباس : حافظة سامعة (٣) . وقال قتادة : ﴿ أذن واعية ﴾ : عقلت (٤) عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ، ووعى .

(١) فى م ، أ ، هـ :« إن كل إلا » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٣٢) .
(٣) فى م: «سامعة حافظة » .
(٤) فى م :« تحفظت » ، وفى أ : « حفظت » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة الدمشقى ،حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقى، حدثنا زيد بن يحيى ، حدثنا على بن حوشب ، سمعت مكحولا يقول : لما نزل [(١)] على رسول الله ﷺ: ﴿ وتَعِيهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾ قال رسول الله ﷺ:«سألت ربى أن يجعلها أذُنَ عَلِىّ».[قال مكحول] [(٢)]: فكان عَلِىّ يقول : ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئا قط فنسيته .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن على بن سهل ، عن الوليد بن مسلم ، عن على بن حوشب ، عن مكحول [(٣)] ، به . وهو حديث مرسل .

وقال ابن أبى حاتم أيضا:حدثنا جعفر بن محمد بن عامر ،حدثنا بشر[(٤)] بن آدم ، حدثنا عبد الله ابن الزبير أبو محمد ـ يعنى والد أبى أحمد الزبيرى ـ حدثنى صالح بن الهيثم ، سمعت بريدة الأسلمى يقول : قال رسول الله ﷺ لعلى : « إنى أمرت أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك وأن تعى ، وحُقّ لك أن تعى » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾ .

ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف ، عن بشر بن آدم ، به[(٥)]. ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن أبى داود الأعمى ، عن بُرَيدة ، به . ولا يصح أيضا .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ،ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد .

وقال الربيع : هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى :فمدت مَدّ الأديم العُكَاظى ، وتَبَدّلت الأرض غير الأرض ، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى : قامت القيامة . ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ . قال سِماك ، عن شيخ من بنى أسد ، عن على قال : تنشق السماء من المجرة . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبأ:١٩] .

---

(١) فى م ، أ : « لما نزلت » .
(٢) زيادة من م، أ .
(٣) تفسير الطبرى (٢٩/٣٥) .
(٤) فى أ :« حدثنا بشير » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٩/٣٦) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى الكنز برقم (٣٦٤٢٦) وقال ابن عساكر : « هذا إسناد لا يعرف والحديث شاذ » .

وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ : الملك : اسم جنس ، أى : الملائكة على أرجاء السماء .

قال ابن عباس : على ما لم يَه منها ، أى : حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى : أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفى حديث عبد الله بن عَميرة ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، فى ذكر حَمَلَة العرش أنهم ثمانية أو عال [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوسعيد يحيى بن سعيد [٢] ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى أبو السمح البصرى ، حدثنا أبو قَبيل حُيَيَ بن هانئ : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : حملة العرش ثمانية ، ما بين مُوق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : كتب إلىّ أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابورى : حدثنى أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « أذنَ لى أن أحدثكم عن ملك من حَمَلَة العرش : بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » .

وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود فى كتاب « السنة » من سننه : حدثنا أحمد ابن حفص بن عبد الله ، حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله؛أن رسول الله ﷺ قال:« أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش:أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» . هذا لفظ أبى داود [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ . قال : ثمانية صفوف من الملائكة . قال : ورُوى عن الشعبى [وعكرمة] [٤] ، والضحاك . وابن جُرَيْج ، مثل ذلك . وكذا روى السُّدِّى عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ثمانية صفوف . وكذا روى العوفى ، عنه .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : الكَرُوبيّون ثمانية أجزاء ، كل جنس [٥] منهم بقدر [٦] الإنس والجن والشياطين والملائكة .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى

---

(١) حديث الأوعال رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٢٣) وتقدم عند تفسير الآية : ٧ من سورة غافر .

(٢) فى م : « حدثنا أبو سعيد عن ابن سعيد » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٧) .

(٤) زيادة من م، أ .　(٥) فى م :« كل جزء » .　(٦) فى أ :« بعدة » .

لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

وقد قال ابن أبى الدنيا : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، عن جعفر بن بُرْقان ، عن ثابت بن الحجاج قال : قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا ، فإنه أخف عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزيَّنُوا للعرض الأكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكِيع ، حدثنا على بن على بن رفاعة ، عن الحسن ، عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدالٌ ومعاذيرُ ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ».

ورواه ابن ماجة ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع ، به (٢). وقد رواه الترمذى عن أبى كُرَيْب ، عن وكيع ، عن على بن على ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ،به (٣) .

وقد روى ابنُ جرير عن مجاهد بن موسى ، عن يزيد ، عن سليمان بن حيان ، عن مروان الأصغر ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : عرضتان ، معاذير وخصومات ، والعرضة الثالثة تطير الصحف فى الأيدى . ورواه سعيد بن أبى عَروبة ، عن قتادة مرسلا ،مثله (٤) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أى : خذوا اقرؤوا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بَدل الله سيئاته حسنات .

قال عبد الرحمن بن زيد : معنى: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أى: ها اقرؤوا كتابيه، و «ؤم» زائدة . كذا قال ، الظاهر أنها بمعنى : هاكم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا بشر بن مطر (٥) الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا

(١) محاسبة النفس لابن أبى الدنيا برقم (٢) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/٦١٨) وقال : « أثر مشهور وفيه انقطاع ، وثابت بن الحجاج هذا جزرى تابعى صغير لم يدرك ،ولم يرو عنه سوى جعفر بن برقان ،وله عند أبى داود فى السنن حديثان » .

(٢) المسند (٤/ ٤١٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٧٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣١٥) : « هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع ، الحسن لم يسمح من أبى موسى . قاله على بن المدينى وأبو حاتم و أبو زرعة» .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٤٢٥) .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٣٨) .

(٥) فى أ :« بشر بن مطير » .

عاصم الأحول ، عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه [بيمينه] (١) فى ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئةً تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها ، فيرجع إليه لونه . ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات ، قال : فعند ذلك يقول : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ .

وحدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سلمة، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا موسى بن عبيدة (٢)، أخبرنى عبد الله بن عبد الله بن حنظلة ــ غسيل الملائكة ــ قال : إن الله يَقِفُ عبده يوم القيامة فيبدى سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم ، أى رب . فيقول له إنى لم أفضحك به ، وإنى قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ ، حين نجا من فَضْحه يوم القيامة .

وقد تقدم فى الصحيح حديثُ ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : سمعت النبى ﷺ يقول: « يُدْنِى اللهُ العبدَ يوم القيامة ، فيُقَرِّره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله : إنى سترتها عليكَ فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعطَى كتابَ حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:١٨] (٣) .

وقوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى: قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة:٤٦] .

قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أى : مرضية ، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُتْبَةَ الحسن بن على بن مسلم السَّكُونى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام الأسود قال : سمعتُ أبا أمامة قال : سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ : هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال : « نعم ، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى ، فيحيونهم ويسلمون عليهم ، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين ، تقصر بهم أعمالهم » (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح: « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» (٥).

وقوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد .

قال الطبرانى : [حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبرى] (٦) ، عن عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى،

---

(١) زيادة من م . (٢) فى أ : « موسى بن أبى عبيدة » .

(٣) انظر : تفسير الآية : ١٨ من سورة هود وتخريجه هناك .

(٤) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٤٢١) من طريق جعفر بن الزبير وبشر بن نمير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعاً بنحوه ، وجعفر بن الزبير وبشر بن نمير متروكان واتهما بالوضع .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى (٦/ ٢٧٢) .

عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عطاء بن يسار ، عن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز : (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » (١) .

وكذا رواه الضياء فى صفة الجنة من طريق سعدان بن سعيد ، عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان النهدى ، عن سلمان، عن رسول الله ﷺ قال: يعطى المؤمن جوَازا على الصراط: (بسم الله الرحمن الرحيم) ،هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » (٢) .

وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم، وامتنانا وإنعاما وإحسانا .وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اعملوا وَسَدِّدوا وقَارِبُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخلَه عملُه الجنةَ » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدنى الله برحمة منه وفضل » (٣) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العَرَصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ، فيقول : ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ .

قال الضحاك : يعنى موتة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ،والربيع ،والسدى .

وقال قتادة : تمنى(٤) الموت ، ولم يكن شىء فى الدنيا أكره إليه منه .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَه ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذابَ الله وبَأسه، بل خَلَص الأمر إلىَّ وحدى ، فلا معين لى ولا مجير. فعندها يقول الله ،عز وجل : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى (٦/ ٢٧٢) وعبد الرحمن بن زياد ضعيف ، ورواه ابن عدى فى الكامل (١/ ٣٤٤) من طريق إسحاق الدبرى ، به. وقال : « حدث عن عبد الرزاق بحديث منكر » ثم ذكر هذا الحديث .

(٢) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٤٦) من طريق أبى بكر ــ محمد بن خشام ــ عن العباس البلخى ، عن سعدان بن سعيد الحكمى ، عن سليمان التيمى ، به . وقال ابن الجوزى : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ أما الطريق الأول ــ أى طريق عبد الرزاق ــ ففيه عبد الرحمن بن زياد قال أحمد بن حنبل : نحن لا نروى عن عبد الرحمن . وقال ابن حبان : يروى الموضوعات عن الثقات ويدلس . وأما الطريق الثانى ، فقال الدارقطنى : تفرد به سعدان عن التيمى . قال ابن الجوزى : سعدان مجهول ، وكذلك محمد بن خشام » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « يعنى » .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر، فَتَغُله ، أى : تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أى : تغمره فيها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن عمرو بن قيس ، عن المِنْهَال ابن عمرو قال : إذا قال الله ، عز وجل : ﴿ خُذُوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقى سبعين ألفا فى النار .

وروى ابن أبى الدنيا فى « الأهوال » : إنه يبتدره أربعمائة ألف ، ولا يبقى شيء إلا دَقَه ، فيقول : ما لى ولك ؟ فيقول : إن الرب عليك غضبان ، فكل شيء غضبان عليك .

وقال الفضيل ــ هو ابن عياض ــ : إذا قال الرب ، عز وجل : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك ، أيهم يجعل الغل فى عنقه .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى : اغمروه فيها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ : قال كعب الأحبار : كل حلقة منها قدر حديد الدنيا .

وقال العَوفى عن ابن عباس ، وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن جريج ، قال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى .

وقال العوفى،عن ابن عباس: يسلك فى دبره حتى يخرج من منخريه ،حتى لا يقوم على رجليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبى السمح ، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رَصَاصة مثل هذه ــ وأشار إلى [مثل] [١] جُمْجُمة ــ أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها ».

وأخرجه الترمذى ، عن سُوَيْد بن نصر [٢] ، عن عبد الله بن المبارك ، به [٣] . قال : هذا حديث حسن .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبى ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » [٤] .

---

(١) زيادة من المسند والترمذى .

(٢) فى أ : « سويد بن سعيد » .

(٣) المسند (٢/١٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٨) .

(٤) جاء من حديث أنس ، وعلى وأم سلمة ، وسفينة ، رضى الله عنهم ، وحديث على ، رضى الله عنه :« كان آخر كلام النبى ﷺ. . .» فذكره ، رواه الإمام أحمد فى المسند (١/٧٨) وأبو داود فى السنن برقم (٥١٥٤) .

وقوله : ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ . لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُون** ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ،لا حميم ـ وهو القريب ـ ولا شفيع يطاع ،ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين .

قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا أبو سعيد المؤدب ، عن خُصَيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : ما أدرى ما الغسلين ، ولكنى أظنه الزقوم .

وقال شَبِيب بن بشر ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس قال : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين : صديد أهل النار .

﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين (٤٣)** ﴾ .

يقول تعالى مُقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله ، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ يعنى : محمداً ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول المكى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ وهذا جبريل ،عليه السلام .

ثم قال : ﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ**﴾ يعنى : محمداً ﷺ ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ** ﴾ أى : بمتهم ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** ﴾ [التكوير:١٩ـ ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ ، فأضافه تارة إلى قوله الرسول المكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال: ﴿**تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنا شُرَيح بن عبيد الله قال : قال عمر ابن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن . قال : فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال : فقرأ : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُون** ﴾ . قال : فقلت: كاهن .قال : فقرأ : ﴿ **وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين . وَلَوْ**

تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع [(١)] .

فهذا من جملة الأسباب التى جعلها الله مؤثرة فى هداية عمر بن الخطاب ، كما أوردنا كيفية إسلامه فى سيرته المفردة ، ولله الحمد [(٢)] .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا** ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد فى الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال : ﴿ **لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ** ﴾ قيل : معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد فى البطش . وقيل : لأخذنا بيمينه .

﴿ **ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** ﴾ : قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العِرْقُ الذى القلب معلق فيه . وكذا قال عكرمة ،وسعيد بن جبير ، والحكم ،وقتادة ،والضحاك ، ومسلم البَطِين ، وأبو صخر حُميد بن زياد.

وقال محمد بن كعب : هو القلب ومَرَاقّه وما يليه .

وقوله : ﴿ **فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا [(٣)] : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات [(٤)] والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ يعنى : القرآن كما قال :﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ [فصلت:٤٤] .

ثم قال [(٥)] : ﴿ **وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ** ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن .

ثم قال : ﴿ **وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله .

---

(١) المسند (١/١٧) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » . (٣) فى م : « فى ذلك » . (٤) فى م : « القاهرات » .

(٥) فى م : « كما قال » .

وروى ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن أبى مالك: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول: لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب .

ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

[آخر تفسير سورة « الحاقة » ، ولله الحمد (١)] (٢)

---

(١) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء والحمد الجميل » .

(٢) زيادة من م ،أ .

سورة الحاقّة

مكيّةً، وهي[1] إحدى[2] وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: السّاعة، أو الحالة الثابتةُ الوقوعِ الواجبةُ المجيءِ لا محالةَ، أو التي تحقّ فيها الأمور الحقّة مِن الحساب والثواب والعقاب، أو التي تُحَقّ فيها الأمور، أي: تُعرف على الحقيقة مِن "حَقَّه يَحُقّه" إذا عرَف حقيقته.

جُعل الفعل لها مجازًا، وهو لِما فيها مِن الأمور، أو لمَن فيها مِن أولي العِلم. وأيًّا ما كان فحَذْف الموصوف للإيذان بكمال ظهور اتّصافه بهذه الصفة وجريانها مَجرى الاسم. وارتفاعها على الابتداء، خبرُها ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ خبره، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأوّل. والأصل "ما هي"، أي: أيُّ شيء هي في حالها وصفتها؟ فإنّ "ما" قد يُطلب بها الصفة والحال، فوُضع الظاهر موضعَ المضمر تأكيدًا لهَولِها.

هذا ما ذكروه في إعراب هذه الجملة ونظائرها، وقد سبَق في سورة الواقعة[3] أنّ مقتضى التحقيق أن يكون ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبرًا لِما بعدها، فإنّ مَناط الإفادة بيانُ أنّ الحاقّة أمر بديع وخطب فظيع، كما يُفيده كون ﴿مَا﴾ خبرًا، لا بيانُ أنّ أمرًا بديعًا ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، كما يُفيده كونها مبتدأ وكون ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ خبرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي: وأيّ شيء أعلَمك ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ تأكيد لهَولِها وفظاعتِها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أنّ عِظَم شأنها

---

[1] ي - وهي.

[2] ي: اثنتان.

[3] في تفسير الآية الثامنة منها. لكنّه ذكَر ثمّة أنّ الاستفهاميّة مبتدأ ثانٍ، فليُتأمّل.

ومَدَى هَولها وشدّتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قُدِّرت حالها فهي أعظم مِن ذلك وأعظم فلا يتسنّى الإعلام.

و﴿مَا﴾ في حيّز الرفع على الابتداء، و﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبره. ولا مَساغَ ههنا للعكس. و﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر على الوجه الذي عرفتَه، محلُّها النصب على إسقاط الخافض؛ لأنّ "أدرى" يتعدّى إلى المفعول الثّاني بـ"الباء"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٦]، فلمّا وقعت جملة الاستفهام / معلِّقةً [٢٢٠و]
له كانت في موضع المفعول الثاني، والجملةُ الكبيرة معطوفة على ما قبلها مِن الجملة الواقعة خبرًا لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مؤكِّدةٌ لهَولِها، كما مرّ.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ أي: بالحالة التي تقرع الناس بفنون الأفزاع والأهوال والسماءَ بالانشقاق والانفطار والأرضَ والجبالَ بالدكّ والنَّسف والنجومَ بالطمس والانكدارِ. ووضعُها موضعَ ضمير ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾[١] للدلالة على معنى القَرْع فيها تشديدًا لهَولِها.

والجملة استئناف مَسوق لإعلام بعض أحوال الحاقّة له عليه السلام إثرَ تقرير أنّه ما أدراه عليه السلام بها أحدٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة، ١٠١/١٠-١١] ونظائرِه، خلا أنّ المبيَّن هناك نفسُ المسئول عنها وههنا حال مِن أحوالها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر، ٩٧/٢-٣]، فكما أنّ المبيَّن هناك ليس نفس ليلة القدر؛ بل فضلُها وشرفها، كذلك المبيَّن ههنا هَول الحاقّة وعِظم شأنها وكونها بحيث يَحِقُّ إهلاكُ مَن يكذِّب بها، كأنّه قيل: وما أدراك ما الحاقّة، كذّبت بها ثمودُ وعادٌ فأهلكوا.

---

[١] في الآية السالفة.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالواقعة المُجاوِزة للحدّ، وهي الصيحة أو الرجفة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدة الصوت لها صرصرة، أو شديدة البَرْد تحرق ببَرْدها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف، كأنّها عتَت على خُزّانها فلم يتمكّنوا مِن ضَبْطها، أو على عاد فلم يقدروا على ردّها.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾... إلخ، استئناف جيء به بيانًا لكيفيّة إهلاكهم بالريح، أي: سلّطها الله تعالى عليهم بقدرته القاهرة. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعاتٍ، جمع حاسم كـ"شهود" جمع "شاهد" مِن "حسمتُ الدابة" إذا تابعتَ بين كيّها، أو نحِساتٍ حسمَتْ كلّ خير واستأصلَته، أو قاطعاتٍ قطعَتْ دابرهم. ويجوز أن يكون مصدرًا منتصبًا على العِلّة بمعنى قطعًا، أو على المصدر لفعله المقدَّر حالًا، أي: تحسِمهم حُسومًا، ويُؤيِّده القراءة بالفتح.[1]

وهي كانت أيّام العجوز مِن صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنّما سُمّيت عجوزًا لأنّ عجوزًا مِن عادٍ توارت / في سَرب فانتزعَتْها الريح في [٢٢٠ظ]
اليوم الثامن فأهلكَتْها. وقيل: هي أيّام العَجُز وهي آخر الشتاء وأسماؤها: الصِّنُّ والصِّنَبْرُ والوَبْرُ والآمِر والمؤتمِر والمُعلِّل ومطفئ الجمر. وقيل: مكفئ الظَّعن.[2]

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضرًا حينئذ ﴿فِيهَا﴾ في مهابّها أو في تلك الليالي والأيّام ﴿صَرْعَىٰ﴾ مَوتى جمعُ صريع ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخل ﴿خَاوِيَةٍ﴾ متآكلة الأجواف.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: بقيّة، أو نفس باقية، أو بقاء على أنّها مصدر كـ"الكاذبة" و"الطاغية".

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٠. وقراءة الفتح قراءة شاذّة، مرويّة عن السدّي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

٢ الكلام في الأيّام كلّه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٣.

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ أي: ومَن تقدّمه. وقُرئ: "وَمَنْ قِبَلَهُ"،[١] أي: ومَن عنده مِن أتباعه، ويُؤيّده أنّه قرئ: "وَمَنْ مَعَهُ".[٢] ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ أي: قُرى قوم لوطٍ، أي: أهلها. ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ التي مِن جملتها تكذيب البعث والقيامة.

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: فعصى كلّ أمّة رسولها حين نَهَوهم عمّا كانوا يتعاطَونه مِن القبائح ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ أي: الله عزّ وجلّ ﴿أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: زائدة في الشِّدّة كما زادت قبائحهم في القبح، مِن "ربا الشيء" إذا زاد.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ بسبب إصرار قوم نوحٍ على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام فيما أُوحيَ إليه مِن الأحكام التي مِن جملتها أحوال القيامة. ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ أي: في أصلاب آبائكم ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوحٍ عليه السلام.

والمراد بحَمْلهم فيها رفعُهم فوق الماء إلى انقضاء أيّام الطوفان، لا مجرَّدُ رفعِهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة ﴿فِي﴾، فإنّها ليست بصلة للحمل؛ بل متعلِّقة بمحذوف هو حال مِن مفعوله، أي: رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا. وفيه تنبيه على أنّ مَدار نجاتهم مَحض عِصمته تعالى، وإنّما[٣] السفينة سبب صوري.

﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ أي: لنجعل الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين. ﴿لَكُمۡ تَذۡكِرَةً﴾ عبرةً ودلالةً على كمال قدرة الصانع وحِكمته وقوّة قهره وسَعَة رحمته.

﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي: تحفظَها، والوعي أن تحفظ الشيء في نفسك، والإيعاء أن تحفظه في غير نفسك مِن وعاء. وقرئ: "تَعْيَهَا"[٤] بسكون "العين" تشبيهًا له بـ"كَتْف".

---

[١] قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٣.

[٣] س ي: إنّما.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٣.

﴿أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ أي: أذُن مِن شأنها أن تحفظ ما يجب حِفْظه بتذكّره وإشاعته والتفكّر فيه ولا تضيّعَه بتَرْك العمل به. / والتنكير للدلالة على قلّتها وأنّ مَن هذا شأنه مع [٢٢١و]
قلّته يتسبَّب لنجاة الجمّ الغفير وإدامة نسلهم. وقرئ: "أُذْنٌ"[١] بالتخفيف.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ شروع في بيان نفس الحاقّة وكيفيّة وقوعها إثر بيان عِظم شأنها بإهلاك مكذِّبيها. وإنّما حَسُن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيّده وحَسُن تذكيره للفصل. وقرئ: "نَفْخَةً وَاحِدَةً"[٢] بالنصب على إسناد الفعل إلى الجارّ والمجرور. والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خرابُ العالم.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ أي: قُلعت ورُفعت مِن أماكنها بمجرَّد القدرة الإلهيّة أو بتوسّط الزلزلة أو الريح العاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: فضُربت الجملتان إثرَ رفعهما بعضها ببعض ضربةً واحدةً حتّى تندقّ وترجع كثيبًا مَهيلًا وهَباءً مُنبثًّا. وقيل: فبُسِطَتا بسطةً واحدةً فصارتا قاعًا صَفصَفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، مِن قولهم: "اندكّ السَّنام" إذا تفرَّش، و"بعير أدكُّ وناقة دكّاءُ" ومنه "الدُّكّان".[٣]

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي: السماء ﴿يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ ضعيفة مسترخية بعدما كانت مُحكَمة.

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: الخَلْق المعروف بالمَلَك ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ أي: جوانبها جمع "رجًا" بالقصر، أي: تنشقّ السماء التي هي مساكنهم فيلجأون إلى أكنافها وحافّاتها.

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٤.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ مِن الملائكة. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله تعالى بأربعة آخرين فيكونون ثمانية».[1]

[٢٢١ظ] ورُوي: ثمانية أملاك، أرجلُهم في / تُخُوم الأرض السابعة، والعرشُ فوق رءوسهم وهم مطرِقون مسبِّحون.[2] وقيل: بعضُهم على صورة الإنسان، وبعضُهم على صورة الأسد، وبعضُهم على صورة الثور، وبعضُهم على صورة النسر.[3]

ورُوي: ثمانيةُ أملاك في خَلْق الأوعال ما بين أظلافها إلى رُكَبِها مسيرةُ سبعين عامًا.[4] وعن شَهْر بن حَوشب: «أربعة منهم يقولون: سبحانَك اللّٰهمّ وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك لك الحمد على حِلمك بعد عِلمك».[5] وعن الحسن: الله أعلم أثمانية أم ثمانية آلاف؟[6] وعن الضحّاك: ثمانية صفوف لا يعلَم عددهم إلّا الله تعالى.[7] ويجوز أن يكون الثمانية مِن الرُّوح أو مِن خَلْق آخر.[8]

وقيل: هو تمثيل لعظَمته تعالى بما يشاهَد مِن أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العامّ،[9] لكونها أقصى ما يُتصوَّر مِن العظَمة والجلال، وإلّا فشئونه سبحانه أجلّ مِن كلّ ما يُحيط به فَلَك العبارة والإشارة.

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٣/٢٢٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٠٩-٢١٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٤.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٣/٢٣٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٤.

٣ حديث بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢١٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٤.

٤ بعضه مرويّ عن الضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/٢٢٨؛ وبلفظ قريب عن العبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢١٠؛ واللباب لابن عادل، ١٩/٣٢٨.

٥ معالم التنزيل للبغوي، ٧/١٤١ (غافر، ٤٠/٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٤-٤٥٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٥؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٣٢٨.

٧ مرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/٢٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢١٠-٢١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٥.

٨ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٥.

٩ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤١.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: تُسألون وتُحاسبون، عُبّر عنه بذلك تشبيهًا له بعَرْض السلطان العسكرَ لتَعرُّف أحوالهم. رُوي: أنّ في يوم القيامة ثلاثَ عرضات، فأمّا عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، وأمّا الثالثة ففيها تُنشَر الكتب، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله.[١] وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لمّا كان اليوم اسمًا لزمان متّسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنّةِ الجنّةَ وأهل النارِ النارَ. صحّ جعله ظرفًا للكلّ.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ حال مِن مرفوع ﴿تُعْرَضُونَ﴾، أي: تُعرَضون غيرَ خافٍ عليه تعالى سِرّ مِن أسراركم قبل ذلك أيضًا، وإنّما العَرْض لإفشاء الحال والمبالغة في العدل، أو غيرَ خافٍ يومئذ على الناس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق، ٩/٨٦]. وقرئ: "يَخْفَى"[٢] بالياء التحتانيّة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيل لأحكام العَرْض ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجّحًا وابتهاجًا ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ﴿هَا﴾ اسمٌ لـ"خُذْ"، وفيه ثلاث لغات أجودُهنّ "هاءَ يا رجلُ" و"هاءِ يا امرأة" و"هاؤما يا رجلان أو امرأتان" و"هاؤم يا رجال" و"هاؤنّ يا نِسوة"، ومفعوله محذوف.

و﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعول ﴿ٱقْرَءُواْ﴾؛ لأنّه أقرب العاملَين ولأنّه لو كان مفعولَ ﴿هَآؤُمُ﴾ لقيل: اقرؤه؛ إذ الأَوْلى إضماره حيث أمكن. والهاء فيه وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾[٣] و﴿مَالِيَهْ﴾[٤] و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾[٥] للسَّكْت تثبُت في الوقف وتسقُط في الوصل، واستُحِبّ إثباتها لثباتها في الإمام.[٦]

---

١ مرويّ بمعناه عن أبي موسى الأشعري وابن مسعود وقتادة في جامع البيان للطبري، ٢٣٠/٢٣-٢٣١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٨؛ وبلفظه مِن غير عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٤.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

٣ في الآية التالية.

٤ في الآية الثامنة والعشرين مِن هذه السورة.

٥ في الآية التاسعة والعشرين مِن هذه السورة.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٤.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: علِمت، ولعلّ التعبيرَ عنه بـ"الظنّ" للإشعار بأنّه لا يقدح في الاعتقاد ما يَهْجِس في النفس مِن الخطَرات التي لا تنفكّ عنها العلوم النظريّة غالبًا.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضًا على النِّسبة بالصيغة، كما يقال: "دارع" في النسبة بالحِرَف، أو جُعل الفعل لها مجازًا وهو لصاحبها، وذلك لكونها صافيةً عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكانِ؛ لأنّها في السماء أو الدرجات أو الأبنية والأشجار.

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ "قِطْف" وهو ما يُجتنى بسرعة، و"القَطْف" بالفتح مصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناولها القاعد.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القول، والجمع باعتبار المعنى. ﴿هَنِيئًا﴾ أكلًا وشربًا هنيئًا أو هنئتم هنيئًا ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدّمتم مِن الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: الماضية في الدنيا، وعن مجاهدٍ: أيّام الصيام.[1]

ورُوي: يقول الله تعالى: «يا أوليائي طالما نظرتُ إليكم في الدنيا وقد قلّصت شفاهكم عن الأشربة وغارَت أعينكم وخمِصَت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية».[2]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

[٢٢٢ظ] / ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ ورأى ما فيه مِن قبائح الأعمال ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لِما شاهد مِن سوء العاقبة.

﴿يَا لَيْتَهَا﴾ يا ليت المَوتةَ التي مُتُّها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعةَ لأمري ولم أُبعث بعدها، ولم ألقَ ما ألقى، فضمير ﴿لَيْتَهَا﴾ للمَوتة، ويجوز أن يكون لِما شاهده مِن الحالة، أي: يا ليت هذه الحالةَ كانت المَوتة التي قضت عليّ،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.

لِما أنّه وجدها أمرّ مِن الموت فتمنّاه عندها. وقد جُوّز أن يكون للحياة الدنيا، أي: يا ليت الحياة الدنيا كانت الموتةَ ولم أُخلق حيًّا.[١]

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ ما ليَ مِن المال والأتباع، على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، والمفعول محذوف، أو استفهاميّة للإنكار، أي: أيّ شيء أغنى عنّيْ ما كان لي مِن اليسار.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: مُلكي وتسلُّطي على الناس، أو حجّتي التي كنت أحتجّ بها في الدنيا، أو تسلّطي على القوى والآلات فعجَزت عن استعمالها في العبادات.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾

﴿خُذُوهُ﴾ حكاية لِما يقوله الله عزّ وجلّ يومئذ لخزَنة النار ﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: شدُّوه بالأغلال.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: لا تُصلّوه إلّا الجحيمَ، وهي النار العظيمة، ليكون الجزاء على وَفق المعصية، حيث كان يتعظّم على الناس.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ أي: طولهَا ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأَدْخِلوه فيها بأن تلفُّوها على جسده، فهو فيما بينها مُرهَق لا يستطيع حَراكًا ما، وتقديمُ "السلسلة" كتقديم ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾[٢] للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذِكر ألوان ما يعذَّب به. و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الغلّ والتصلية وما بينها وبين السَّلك في السلسلة في الشدّة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي، ووصفُه تعالى بالعِظم للإيذان بأنّه المستحقّ للعَظمة فحسب، فمَن نسبها إلى نفسه استحقّ أعظمَ العقوبات.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٢/٣.

٢ في الآية السالفة.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يحثّ على بذل طعامه أو على إطعامه فضلًا عن أن يبذل مِن ماله. وقيل: ذُكر الحضّ للتنبيه على / أنّ تارك الحضّ [٢٢٣و] بهذه المنزلة، فما ظنّك بتارك الفعل؟[1] وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة. قالوا: تخصيص الأمرين بالذِّكر لِما أنّ أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.[2]

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: قريب يحميه ويدفَع عنه ويحزَن عليه؛ لأنّ أولياءه يتحامَونه ويفِرّون منه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: مِن غُسالة أهل النار وصديدهم "فِعْلِين" مِن "الغَسْل".

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أصحاب الخطايا، مِن "خطئ الرجل" إذا تعمّد الذنب مِن الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعَمْد، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّهم المشركون.[3] وقُرئ: "الخَاطِيُوْنَ"[4] بإبدال "الهمزة" "ياء"، وقُرئ بطرحها.[5] وقد جُوّز أن يُراد بهم الذين يتخطّون الحقّ إلى الباطل ويتعدّون حدود الله.[6]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: فأقسم، على أنّ ﴿لَا﴾ مزيدة للتأكيد. وأمّا حملُه على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق،[7] فيردّه تعيين المُقسَم به

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس وأبي جعفر وشيبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٤.
٦ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٧ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.

بقوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، كما مرّ في سورة الواقعة،[١] أي: أقسِم بالمشاهَدات والمغيّبات. وقيل: بالدنيا والآخرة. وقيل: بالأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنِّعم الظاهرة والباطنة.[٢] والأوّل منتظِم[٣] للكلّ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلِّغه عن الله تعالى، فإنّ الرسول لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو النبيّ أو جبريلُ عليهما السلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارةً ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ إيمانًا قليلًا تؤمنون.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدّعون ذلك تارةً أخرى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكُّرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تتذكّرون على أنّ القِلّة بمعنى النفي، أي: لا تؤمنون ولا تتذكّرون أصلًا. قيل: ذِكر الإيمان مع نفي الشاعريّة والتذكُّرِ مع نفي الكاهنيّة؛ لِما أنّ عدم مشابهة القرآن الشعرَ أمر بيّن لا يُنكره إلّا معانِد، بخلاف مُباينته / للكِهانة، فإنّها تتوقّف على تذكّر أحواله صلّى الله عليه وسلّم ومعاني [٢٢٣ظ] القرآن المنافية لطريقة الكَهَنة ومعاني أقوالهم.[٤] وأنت خبير بأنّ ذلك أيضًا ممّا لا يتوقّف على تأمّل قطعًا. وقُرئ بـ"الياء" فيهما.[٥]

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نزّله على لسان جبريلَ عليه السلام.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ سُمّي الافتراء تقوُّلًا لأنّه قَول متكلَّف، والأقوالُ المفتراة أقاويلَ تحقيرًا لها، كأنّها جَمْع "أُفْعُولة" مِن "القول" كـ"الأضاحيك".[٦]

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بيمينه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي: نِياط[٧] قلبه، بضرب عُنقه، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمَن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القتّال بيمينه ويكفَحه

---

١ في الآية الخامسة والسبعين منها.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.

٣ س: المنتظم.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.

٥ قرأ بها ابن كثير ويعقوب وهشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٠.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.

٧ النِّياط: عِرق عُلِّق به القلب مِن الوتين، فإذا قُطع مات صاحبه. لسان العرب لابن منظور، «نيط».

بالسيف ويضرب عُنقه. وقيل: اليمين بمعنى القوّة،[١] قال قائلهم:

إذا ما راية رُفعتْ لمَجدٍ   تلقّاها عَرابة باليمينِ[٢]

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيّها الناس ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتل أو المقتول ﴿حَٰجِزِينَ﴾ دافعين، وَصْف لـ﴿أَحَدٍ﴾ فإنّه عامّ.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّهم المُنتفِعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فنُجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين به.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا يحوم حوله ريب ما.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فسبّح بذِكر اسمه العظيم تنزيهًا له عن الرضا بالتقوّل عليه وشكرًا على ما أُوحيَ إليك.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحاقّة حاسبه الله تعالى حسابًا يسيرًا».[٣]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٤.

٢ البيت للشمّاخ في ديوانه، ص ٣٣٦؛ وهو له في التفسير البسيط للواحدي، ٢٢/١١٨٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢١٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧/٢٧٢ (الحاقة، ٦٩/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٤٣ (الحاقة، ٦٩/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٨. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦٩

سورة الحاقة

مكية، إحدى أو اثنتان وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿**الحاقّةُ**﴾ أيِ: القِيامةُ التي يَحِقّ فيها ما أُنكِر من البعث والحِساب والجزاء أو المُظهِرةُ لذلك، ٢ ـ ﴿**ما الحاقّةُ**﴾؟ تعظيمٌ لشأنها ـ وهما مُبتدأ وخبرٌ، خبرُ: الحاقة ـ ٣ ـ ﴿**وما أدراكَ**﴾: أعلَمَكَ: ﴿**ما الحاقّةُ**﴾؟ زيادةُ تعظيم لشأنها. فـ «ما» الأُولى: مُبتدأ وما بعدها خبره، و«ما» الثانية وخبرها: في محلّ المفعول الثاني لـ «أدرى».

سورة الحاقة

قولُهُ: (القِيَامَةُ) أو السَّاعَةُ، أو الحاقَّةُ التي يَحِقُّ وُقوعُها.

قولُهُ: (فِيهَا) أي: التي تحِقُّ فيها الأمُور؛ أي: تُعرَفُ حَقيقَتُها، أو يَقعُ فيها حَواقُّ الأمُورِ، على الإسنادِ المجازيِّ، أو يَحقُّ لكُلِّ قوم عملُهُم.

قولُهُ: (أو المُظْهِرَةُ) لم يَظهَر وجهُهُ.

قولُهُ: (تَعظِيمٌ لشَأنِهَا) أصلهُ: ما هي؟ أي: أيُّ شيءٍ هي؟ على التَّعظيمِ لشأنِها والتَّهويلِ لها، فوَضعَ الظَّاهرَ موضعَ الضَّميرِ؛ لأنَّه أهلٌ لها.

قولُهُ: (أُعَلِّمُكَ) أي: أيُّ شيءٍ أعلَمُك؟ أي: أيُّ شيءٍ هيَ؟ أي: إنَّك لا تعلَمُ كُنهَها، فإنَّها أعظمُ من أن يبلُغَها درايَةُ أحَدٍ.

قولُهُ: (ومَا بَعدَهَا) أي: ﴿أدراك﴾.

قولُهُ: (فِي مَحَلِّ المَفعُولِ الثَّانِي) الصَّوابُ: أنَّه في محلِّ النَّصبِ على أنَّه المفعولُ الثَّاني.

٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بِالقارِعةِ﴾: القِيامةِ لأنها تقرع القُلوب بأهوالها. ٥ ـ ﴿فأمّا ثَمُودُ فأُهلِكُوا بِالطّاغِيةِ﴾: بالصيحة المُجاوزة للحدّ في الشِّدّة، ٦ ـ ﴿وأمّا عادٌ فأُهلِكُوا بِرِيحٍ صَرصَرٍ﴾: شديدة الصوت ﴿عاتِيةٍ﴾: قويّة شديدة على عادٍ مع قوّتهم وشِدّتهم، ٧ ـ ﴿سَخَّرَها﴾: أرسلها بالقهر ﴿علَيهِم سَبعَ لَيالٍ وثَمانِيةَ أيّامٍ﴾ ـ أوّلُها من صُبح يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من شوّال، وكانت في عَجُز الشتاء ـ ﴿حُسُومًا﴾: مُتتابعاتٍ، شُبّهتْ بتتابع فِعل الحاسم في إعادة الكيّ على الداء كرّة بعد أُخرى حتّى ينحسم، ﴿فتَرَى القَومَ فِيها صَرعَى﴾: مطروحِينَ هالكينَ، ﴿كأنَّهُم أعجازُ﴾: أصولُ ﴿نَخلٍ خاوِيةٍ﴾: ساقطة فارغة. ٨ ـ ﴿فهَل تَرَى لَهُم مِن باقِيةٍ﴾: صفةُ «نفس» مُقدّرة، أو التاءُ للمبالغة، أي: باقٍ؟ لا.

قولُهُ: (القِيَامَةِ) وضِعَت مَوضِعَ الحاقَّة زيادَةً في وَصفِ شدَّتِها.

قولُهُ: (بالصَّيحَةِ) لتكذيبِهِم بالقارِعَةِ.

قولُهُ: (شَدِيدَةِ الصَّوتِ) أو البَردِ.

قولُهُ: (قَوِيَّةٍ) مُتجاوِزَةٍ عن الحدِّ في العادَةِ؛ لعُتوِّهِم عن الأمورِ الحاقَّةِ، أو شديدَةِ العَصفِ كأنَّها عتَتْ على خُزَّانِها فلم يَستَطيعوا صَدَّها، أو على عادٍ فلم يقدِروا رَدَّها.

قولُهُ: (﴿سَخَّرَهَا﴾) سَلَّطَها عليهم بقُدرَتِهِ، استئنافٌ أو صفَةٌ.

قولُهُ: (يَومَ الأربِعَاءِ) وقالَ الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: كان أوَّلَها الجمعَةُ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ، كذا في «المبهمات»[1].

قولُهُ: (مِن شَوَّالٍ) إلى غرُوبِ الأربعاءِ الآخَرِ.

قولُهُ: (وكَانَتْ في عَجُزِ الشِّتَاءِ) كأنَّه يُهرَمُ فيها، ولذا سُمِّيت: أيَّامَ العَجُوزِ.

قولُهُ: (مُتَتَابِعَاتٍ) جمعُ: حاسِم.

قولُهُ: (حتَّى تَنحَسِم) أي: تنقَطِعَ، أو نحِساتٍ حَسَمَت كُلَّ خَيرٍ وقطعَتهُ واستأصَلَتهُ، أو قاطِعاتٍ قَطَعَت دابرَهُم.

قولُهُ تعالى: (﴿فَتَرَى﴾) أيُّها الرَّائي لو كنتَ حاضرَهُم فيها؛ أي: في مهابِّها، أو في اللَّيالي والأيَّامِ.

قولُهُ: (هَالِكِينَ) أي: مَوتى، جمعُ: صَريعٍ.

قولُهُ: (فَارِغَةٍ) أي: مُتآكلَةِ الأجوافِ، أو خاليَةٍ من الأرواحِ؛ أي: في هذا الوَصفِ، وإلا فهم كانوا أطوَلَ من النَّخيلِ.

قولُهُ: (أي: بَاقٍ) أو بقيَّةٍ، أو بقاءٍ.

قولُهُ: (لا) أي: استفهاميَّةٌ للإنكارِ؛ أي: لا تَرى ولا تعلَمُ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٢).

٩ ـ ﴿وجاءَ فِرعَونُ ومَن قِبَلَهُ﴾: أتباعُه ـ وفي قِراءة بفتح القاف وسكون الباء، أي: مَن تقدّمه من الأُمم الكافرة ـ ﴿والمُؤتَفِكاتُ﴾ أي: أهلها وهي قُرى قوم لُوط ﴿بِالخاطِئةِ﴾: بالفَعَلات ذات الخطإ، ١٠ ـ ﴿فعَصَوا رَسُولَ رَبِّهِم﴾ أي: لوطًا وغيره، ﴿فأخَذَهُم أخذةً رابِيةً﴾: زائدةً في الشِّدّة على غيرها.

١١ ـ ﴿إنّا لَمّا طَغَى الماءُ﴾: علا فوق كُلّ شيء من الجِبال وغيرها زمن الطوفان ﴿حَمَلْناكُم﴾ يعني آباءكم، إذ أنتم في أصلابهم، ﴿في الجارِيةِ﴾: السفينة التي عملها نُوح، ونجا هو ومَن كان معه فيها وغرِق الباقون، ١٢ ـ ﴿لِنَجعَلَها﴾ أي: هذه الفَعلةَ ـ وهي إنجاء المُؤمنين وإهلاك الكافرين ـ ﴿لَكُم تَذكِرةً﴾: عظة، ﴿وتَعِيَها﴾: ولتحفظها ....

قولُهُ: (أَتبَاعُهُ) أي: ومن عندَهُ من أتباعِهِ، ويدُلُّ عليهِ أنّه قُرِئَ: (ومَن مَعَه)[1].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ والكَسائيِّ[2].

قولُهُ: (وَهيَ قُرَى قَومِ لُوطٍ) أي: المنقَلِباتِ.

قولُهُ: (بالفَعلاتِ) أي: بالخَطأ، أو بالفَعلَةِ.

قولُهُ: (أي: لُوطاً وغَيرَهُ) إن كانَ ضَميرُ: ﴿عَصوا﴾ راجعاً إلى فرعَونَ، والمؤتَفِكاتِ؛ كانَ حقُّهُ أن يقولَ: أي مُوسى ولوطاً؛ لتقَدُّمِ مُوسى ذِكراً ورُتبَةً، أو لُوطاً ومُوسَى؛ لتقَدُّمِ لُوطٍ زَماناً، وإن كان راجِعاً إلى جميعِ المكَذِّبينَ المذكُورينَ في أوَّلِ هذه السُّورَةِ، فالأولى أن يقولَ: صالِحاً وغَيرَهُ، وحينئذٍ فالمرادُ بـ﴿رَسُولِ رَبِّهِم﴾: الجِنس، أو التَّقديرُ: فعَصى كلُّ أمَّةٍ رسولَها.

قولُه: (عَلى غَيرِهَا) من جِنسِها؛ زيادَةَ أعمالِهم في القُبحِ.

قولُهُ: (يَعني: آبَاءَكُم) وهُم أبناءُ نُوحٍ.

قولُهُ: (الفَعلَةَ) أو السَّفينَةَ.

قولُهُ: (عِظَةً) وعبرَةً، ودَلالَةً على قُدرَةِ الصَّانِعِ وحكمَتِهِ، وكَمالِ قُدرَتِهِ ورَحمَتِهِ.

قولُهُ: (ولِيَحفَظَهَا) عَطفٌ على: (نَجعَلَهَا) وما ذكرَ القاضي[3] عن ابنِ كَثيرٍ: (وتَعْيَهَا) بسُكونِ العَينِ،

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٨٣).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٧).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٠).

﴿أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾: حافظة لِما تسمع.

١٣ ـ ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخةٌ واحِدةٌ﴾ للفصل بين الخلائق ـ وهي الثانية ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ﴿وحُمِلَتِ﴾: رُفِعَتِ ﴿الأرضُ والجِبالُ، فدُكَّتا﴾: دُقَّتا ﴿دَكَّةً واحِدةً، فيَومَئذٍ وَقَعَتِ الواقِعةُ﴾: قامتِ القِيامة، ١٦ ـ ﴿وانشَقَّتِ السَّماءُ، فهْيَ يَومَئذٍ واهِيةٌ﴾: ضعيفة، ١٧ ـ ﴿والمَلَكُ﴾ ـ يعني الملائكةَ ـ ﴿على أرجائها﴾: جوانب السماء، ﴿ويَحمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهُم﴾ أي: الملائكةِ المذكورين ﴿يَومَئذٍ ثَمانيةٌ﴾ من الملائكة أو من صُفوفهم، ....

لعلَّهُ شاذٌّ[1]، والوَعي: أن تحفَظَ الشَّيءَ في نَفسِكَ، والإيعاءُ: أن تحفَظهُ في غَيرِك[2].

قولُهُ: (حَافِظَةٌ) أي: من شأنِها أن تحفَظَ ما يجبُ حفظُه بتذكُّرِه وإشاعَتِه، والتَّفكُّرِ فيه والعملِ بموجِبِه، وقيل: الواعيَةُ لِذِكرِ الله، الخاليَةُ عمَّا سِواهُ.

قولُهُ: (وهِيَ الثَّانِيَةُ) وقيل: الأولى، وجزَمَ بها القاضِي[3] وهو غيرُ ظاهِرٍ.

قولُهُ: (رُفِعَت) من أماكِنِها بمُجرَّدِ القُدرَةِ الكامِلَةِ، أو بتوسُّطِ زلزَلةٍ، أو ريحٍ عاصِفَةٍ.

قولُهُ: (دُقَّتا) أي: ضُرِبَت الجُملتانِ بعضُها ببعضٍ ضربَةً واحدَةً، فيَصيرُ الكُلُّ هَباءً[4].

قولُهُ: (ضَعِيفَةٌ) مُستَرخيَةٌ، وانشِقاقُها لنُزولِ الملائِكَة.

قولُهُ: (يَعنِي: المَلائِكَةَ) أي: الجِنسَ المتَعارَفَ بالمَلكِ.

قولُهُ: (جَوَانِبِ السَّمَاءِ) جمعُ: رَجا، بالقَصرِ.

قولُهُ: (منَ المَلائِكَةِ) لما رويَ مَرفوعاً: «إنَّهُم اليَومَ أَربَعَةٌ، فإذا كانَ يَومُ القِيامَةِ أيَّدَهُمُ اللهُ بِأَربَعَةٍ أُخرَى»[5].

قولُهُ: (أو مِن صُفُوفِهِم) لا يعلَمُ عدَّتَهُم إلا اللهُ، أخرَجَ ابنُ أبي حاتِمٍ عن أبي زَيدٍ قالَ: لم يُسمَّ من حمَلَةِ العَرشِ إلا إسرافيلَ، قال: وميكائيلُ ليسَ من حَمَلَةِ العَرشِ[6].

---

(١) قال ابن مهران في «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٤٤٤): قرأ ابن كثير في رواية القواس ساكنة العين، هكذا في الترجمة بسكون العين. وذكرها صاحب «شواذ القراءات» (ص: ٤٨٣) مع نسبتها لطلحة.

(٢) انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص: ٩٤٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٠).

(٤) في (م): زيادة «منثورا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٨٤) عن ابن إسحاق بلاغاً.

(٦) كذا في «الدر المنثور» (٨/ ٢٧٠)، و«مفحمات الأقران» (ص: ١١٢).

١٨ ـ ﴿يَومَئِذٍ تُعرَضُونَ﴾ للحِساب، ﴿لا تَخفَى﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿مِنكُم خافِيةٌ﴾ من السرائر.

١٩ ـ ﴿فأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فيَقُولُ﴾ خِطابًا لجماعته لِما سُرَّ به: ﴿هاؤُمُ﴾: خُذوا ﴿اقرَؤُوا كِتابِيَهْ﴾: تنازعَ فيه «هاؤم» و«اقرؤوا». ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿إنِّي ظَنَنْتُ﴾: تيقّنتُ ﴿أنّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ. فهُوَ في عِيشةٍ راضِيةٍ﴾: مَرْضية، ٢٢ ـ ٢٣ ـ ﴿في جَنّةٍ عالِيةٍ، قُطُوفُها﴾: ثِمارها ﴿دانِيةٌ﴾: قريبةٌ يتناولها القائم والقاعد والمُضطجع، فيقال لهم: ٢٤ ـ ﴿كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا﴾: حالٌ أي: مُتهنّئين ﴿بِما أسلَفتُم في الأيّامِ الخالِيةِ﴾: الماضية في الدنيا.

قولُهُ: (للحِسَابِ) تَشبيهاً للمُحاسَبَةِ بعَرضِ السُّلطانِ العسكَرَ ليتعرَّفَ أحوالَهُم.

قولُهُ: (والياءُ) للتَّذكيرِ، حمزَةُ والكَسائي[1].

قولُهُ: (مِنَ السَّرَائرِ) أي: سَرِيرَةٌ على الله حتَّى يكونَ العَرضُ للاطِّلاعِ عليها، وإنَّما المرادُ منه: إفشاءُ الحالِ، والمبالَغَةُ في العَدلِ، أو على النَّاسِ كما قالَ: ﴿يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ﴾.

قولُهُ: (لِمَا) تعليليَّةٌ، أو ظَرفيَّةٌ.

قولُهُ: (خُذُوا) اسمُ فِعلٍ.

قولُهُ: (واقْرَؤُوا) والصَّحيحُ أنَّ مَفعولَ ﴿هَاؤُمُ﴾ مَحذوفٌ، و﴿كِتَابِيَه﴾ مَفعُول: ﴿اقرَؤُوا﴾؛ لأنَّه أقرَبُ العامِلَينِ.

قولُهُ: (تَيَقَّنْتُ) قال القاضِي[2]: ولعلَّهُ عبَّرَ عن العِلمِ بالظَّنِّ؛ إشعاراً بأنَّه لا يقدَحُ في الاعتقادِ ما يهجُسُ في النَّفسِ من الخَطَراتِ التي لا تنفَكُّ عنها العُلومُ النَّظَريَّة غالِباً. انتهى.

لكن فيه بَحثٌ إذ هذه المسألَةُ من القَطعيَّاتِ؛ للنُّصوصِ من الآياتِ والأخبارِ وإجماعِ الأمَّةِ بحيثُ إنَّها صارَت من جُملَةِ المعلوماتِ بالضَّرورَةِ من الشَّرعِ.

قولُهُ: (مَرضِيَّةٍ) فاعِلَةٍ بمَعنى: مَفعولَةٍ، أو ذاتِ رِضا على النِّسبَةِ بالصِّيغَة.

قولُهُ: (فَيُقَالُ لَهُم) ولو بلسانِ الحالِ، وجُمِعَ الضَّميرُ لمَعنى: ﴿من﴾.

قولُهُ: (حَالٌ) أو مصدَرٌ؛ أي: أكلاً وشُرباً هَنيئًا، أو هَنِئتُم هَنِيًّا، أو بحَذفِ مُضافٍ، أو مُبالَغَةً.

قولُهُ: (المَاضِيَةِ) من أيَّامِ الدُّنيا بما قدَّمتُم من الأعمالِ الصَّالحَة، أو الخاليَةِ عن الأكلِ والشُّربِ كأيَّامِ رمضانَ، أو أوقاتِ الفقرِ فحينئذٍ المعنى: بما قَدَّمتُم من الصَّبرِ والصَّوم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤١).

٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿وأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فيَقُولُ: يا﴾ ـ للتنبيه ـ ﴿لَيتَني لَم أُوتَ كِتابِيَهْ، ولَم أدرِ: ما حِسابِيَهْ؟ يا لَيتَها﴾ أي: الموتةَ في الدنيا ﴿كانَتِ القاضِيَةَ﴾: القاطعة لحياتي بألاّ أُبعث. ٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿ما أغنَى عَنِّي مالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلطانِيَهْ﴾: قوّتي وحُجّتي. وهاء «كتابيه وحسابيه، وماليه وسلطانيه» للسكْت، تَثبُتُ وقفًا ووصلاً اتّباعًا للمُصحفِ الإمام والنقلِ. ومنهم من حذفها وصلاً.

٣٠ ـ ﴿خُذُوهُ﴾ ـ خِطابٌ لخَزَنة جهنّم ـ ﴿فغُلُّوهُ﴾: اجمعوا يديه إلى عُنقه في الغُلّ، ٣١ ـ ﴿ثُمَّ الجَحِيمَ﴾: النارَ المُحرقة ﴿صَلُّوهُ﴾: أدخِلوه، ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ في سِلسِلةٍ ذَرعُها سَبعُونَ ذِراعًا﴾ بذراع الملَك ﴿فاسلُكُوهُ﴾ أي: أدخِلوه فيها بعد إدخاله النارَ. ولم تمنع الفاءُ من تعلّق الفعل بالظرف المُتقدّم. ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿إنَّهُ كانَ لا يُؤمِنُ باللهِ العَظِيمِ، ولا يَحُضُّ علَى طَعامِ المِسكِينِ. فلَيسَ لَهُ اليَومَ هٰهُنا حَمِيمٌ﴾: قريب ينتفع به، ٣٦ ـ ﴿ولا طَعامٌ إلاّ مِن غِسلِينٍ﴾: صديدِ أهل النار أو شجرٍ فيها، ٣٧ ـ ﴿لا يأكُلُهُ إلاّ الخاطِئُونَ﴾: الكافرون.

قولُهُ: (للتَّنبِيهِ) أو مُناداةِ مَحذوفٍ؛ أي: يا قَومُ.

قولُهُ تعالَى: (﴿مَا أَغنَى عَنِّي مَالِيَه﴾) أي: ما لي من المالِ والتَّبَعِ، و﴿ما﴾ نفيٌ، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: شيئاً، أو استفهامُ إنكارٍ مفعُولٌ لـ﴿أَغنَى﴾.

قولُهُ: (قُوَّتِي) ومُلكي وتَسَلُّطي على النَّاس.

قولُهُ: (وحُجَّتِي) الواو بمَعنى: أو؛ أي: حُجَّتي التي أَحُجُّ بها في الدُّنيا.

قولُهُ: (ومِنهُم) وهو حمزَة في ﴿ماليَه﴾ و﴿سُلطَانِيَه﴾، ويعقوبُ من العشَرَة في الأربعَةِ[1].

قولُهُ: (خِطَابٌ) منَ اللهِ.

قولُهُ تعَالَى: (﴿ولا يَحُضُّ﴾) أي: ولا يحُثُّ على بذلِ طعامِهِ، أو على إطعامِهِ فَضلاً أن يبذُلَ من مالِهِ.

قولُهُ: (﴿غِسلِين﴾ وصَدِيدِ) فعلينِ من الغَسلِ.

قولُهُ: (الكَافِرُونَ) أي: أصحابُ الخَطايا، مِن (خَطِئَ الرَّجلُ): إذا تعمَّدَ الذَّنبَ، لا من الخَطأ المضادِّ للصَّوابِ، فإنَّه يقالُ فيه: أخطَأَ، وقَولُ القاضِي[2] وقُرِئَ: ﴿الخَاطِيون﴾ بقَلبِ الهمزَةِ ياءً، و﴿الخَاطون﴾ بطَرحِها، فقد قرَأ بهما حَمزَةُ وَقفاً[3].

---

(١) انظر: «الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٩١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٤٢).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٢).

(٣) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٠٠) وقال: وفيه لحمزة إن وقف ثلاثة تسهيل الهمزة بينها وبين الواو وإبدالها ياءً ونقل حركتها إلى الطاء وحذفها ويجوز مع كل من الثلاثة المد والتوسط والقصر.

٣٨ ـ ﴿فلا﴾ لا: زائدة ﴿أُقسِمُ بِما تُبصِرُونَ﴾ من المخلوقات، ٣٩ ـ ﴿وما لا تُبصِرُونَ﴾ منها، أي: بكل مخلوق. ٤٠ ـ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: قاله رسالةً عن الله تعالى ٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿وما هُوَ بِقَولِ شاعِرٍ، قَلِيلاً ما تُؤمِنُونَ، ولا بِقَولِ كاهِنٍ ـ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾، بالتاء والياء في الفعلين. وما: زائدة مُؤكِّدة، والمعنى أنهم آمنوا بأشياء يسيرة وتذكّروها مما أتى به النبيّ ﷺ من الخير والصلة والعفاف، فلم تُغنِ عنهم شيئًا ـ ٤٣ ـ بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾.

٤٤ ـ ﴿ولَو تَقَوَّلَ﴾ أي: النبيُّ ﴿عَلَينا بَعضَ الأقاوِيلِ﴾ بأن قال عنّا ما لم نقُله ٤٥ ـ ﴿لَأخَذْنا﴾: لَنِلنا ﴿مِنهُ﴾ عِقابًا ﴿بِاليَمِينِ﴾: بالقُوّة والقُدرة، ٤٦ ـ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الوَتِينَ﴾: نِياطَ القلب ـ وهو عِرق مُتّصل به إذا انقطع مات صاحبه ـ ٤٧ ـ ﴿فما مِنكُم مِن أحَدٍ﴾ هو اسم «ما» ومِن: زائدة لتأكيد النفي، ومنكم: حال من: أحد، ﴿عَنهُ حاجِزِينَ﴾: مانعين، خبرُ «ما». وجُمِعَ لأنّ «أحدًا» في سياق النفي بمعنى الجمع. وضمير «عنه» للنبيّ، أي: لا مانعَ لنا عنه من حيثُ العِقابُ.

٤٨ ـ ٤٩ ـ ﴿وإِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَتَذكِرَةٌ لِلمُتَّقِينَ، وإنّا لَنَعلَمُ أنَّ مِنكُم﴾......................

قولُهُ: (﴿لا﴾ زَائِدَةٌ) ﴿لا﴾ رَدٌّ لإنكارِهِم البَعثَ، و﴿أُقسِمُ﴾ مُستَأنفٌ، أو ﴿فَلا أُقسِمُ﴾ لظُهورِ الأمرِ، واستِغنائِهِ بالتَّحقيقِ بالقَسَم.

قولُهُ: (بِكُلِّ مَخلُوقٍ) أو بالمشاهَداتِ، أو المغيَّباتِ، وذلك يَتَناولُ الخالِقَ والمخلوقاتِ بأسرِها.

وقَولُهُ: (﴿كَرِيم﴾) أي: على اللهِ تعالى، وهو محمَّدٌ، أو جبريلُ.

قولُهُ: (رِسَالَةً) فإنَّ الرَّسولَ لا يَقولُ عن نَفسِهِ.

قولُهُ: (والياءِ) للغيبةِ، مكّيٌّ وشاميٌّ بخُلْفٍ عن ابنِ ذَكوان[1].

قولُهُ: (نِيَاط القَلبِ) بضَربِ عُنُقِه.

قولُهُ: (و﴿مِنكُم﴾ حَالٌ) والخِطابُ للنَّاس.

قولُهُ: (خَبَرَ ﴿ما﴾) وهو وصفٌ لـ﴿أَحَد﴾.

قولُهُ: (للنَّبِيِّ) الأحسَنُ من حيثُ الأدبُ في العبارَةِ أن يُقالَ: للمُتقَوِّلِ، أو المقتولِ[2]، وقيل: عن القتلِ.

قولُهُ: (أي: القُرآنَ) عَطفٌ على ما سبَقَ، وما بينَهُما اعتراضٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٤).

(٢) في (م): «للمقتول».

ـ أيها الناس ـ ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن ومُصدّقين، ٥٠ ـ ﴿وإِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَحَسْرةٌ علَى الكافِرِينَ﴾ إذا رأَوا ثوابَ المُصدّقين وعِقابَ المُكذّبين به، ٥١ ـ ﴿وإِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَحَقُّ اليَقِينِ﴾ أي: لَليقينُ الحقُّ. ٥٢ ـ ﴿فَسَبِّحْ﴾: نزِّهْ ﴿بِاسمِ﴾ ـ الباء: زائدةٌ ـ ﴿رَبِّكَ العَظِيمِ﴾.

قولُهُ: (بالقُرآنِ) فيُجازيهِم على تكذيبِهِم.

قولُهُ: (ومُصَدِّقِينَ) يَعني: أنَّه من بابِ الاكتِفاءِ، أو هـذا فُهِمَ من قوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَتَذكِرَةٌ لِلمُتَّقِين﴾ [الحاقة: ٤٨]، فإِنَّهُم المنتَفِعونَ به، المصَدِّقونَ بحقيقَتِهِ.

قولُهُ: (الحَقُّ اليَقِينِ) إشارَةٌ إلى أنَّه من بابِ إضافَةِ الموصوفِ إلى الصِّفَةِ، وهو مذهَبٌ كوفيٌّ، والبصريُّون يُقَدِّرونَ مُضافاً إليه.

قولُهُ: (أي: لَلْيقينُ) أو في نفسِهِ، أو للكُلِّ لو تأمَّلوا فيه ونَظَروا في مَعانيهِ.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) يعني: الباءُ زائِدَةٌ، والاسمُ يُرادُ به الذَّاتُ والصِّفَة، ويحتمِلُ أنَّه أرادَ أنَّ الاسمَ زائدٌ، وتأنيثُهُ باعتِبارِ الكلمَةِ، ويلزَمُ مِن زيادَتِها زيادَتُها، أو يُقال: كُلُّ واحدَةٍ من الباءِ ومَدخولِها زائدَةٌ، وقالَ القاضِي[1]: فسبِّح الله تعالى بذكرِ اسمِهِ العَظيمِ، والله أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٣).

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكيةٌ، وآيُها إحدى وخمسون آيةً بلا خلافٍ فيهما، ويدلُّ للأول ما أخرجَ الإمامُ أحمد عن عمر بنِ الخطاب ﷺ قال: خرجتُ أتعرَّضُ لرسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدتُه قد سبقني إلى المسجد، فوقفتُ خلفَه، فاستفتَحَ «سورة الحاقة»، فجعلتُ أعجبُ من تأليف القرآن: هذا والله شاعر، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] قلت: كاهن، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [٤٢] إلى آخر السورة، فوقع الإسلامُ في قلبي كلَّ موقع[(١)].

ولمَّا وقع في «نون» ذِكْرُ يوم القيامة مجملاً شرَحَ سبحانه في هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنَه العظيم، وضمَّنه عزَّ وجل ذِكْر أحوال أممٍ كذَّبوا الرسلَ عليهم السلام، وما جرى عليهم؛ ليزدجِرَ المكذِّبون المعاصرون له عليه الصلاة والسلام، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أي: الساعة، أو الحالة التي يحقُّ ويجب وقوعُها، أو التي تحقَّق وتثبتُ فيها الأمورُ الحقَّة من الحساب، والثواب، والعقاب، أو التي تحقُّ فيها الأمور، أي: تُعرف على الحقيقة، من حقَّه يحقُّه: إذا عرف حقيقتَه، ورُوي هذا عن ابن عباس وغيرِه.

وإسنادُ الفعل لها على الوجهين الأخيرين مجازٌ، وهو حقيقة لما فيها من

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٠٧)، وإسناده ضعيف؛ لانقطاعه؛ إذ هو من طريق شريح بن عبيد عن عمر ﷺ، ولم يدركه.

الأمور، أو لمن فيها من أولي العلم. وفي «الكشف»: كونُ الإسناد مجازيّاً إنما هو على الوجه الأخير، وأما على الوجه الثاني فيحتمل الإسناد المجازي أيضاً؛ لأن الثبوت والوجوب لِمَا فيها، ويحتمل أن يُراد: ذو الحاقة، من باب تسمية الشيء باسم ما يلابسُه، وهذا أرجح؛ لأن الساعة وما فيها سواءٌ في وجوب الثبوت، فيضعف قرينة الإسناد المجازيّ، والتجوُّز فيه تصويرٌ ومبالغة. انتهى. وبَحَثَ فيه الجلبيُّ بما فيه بَحْثٌ، فارجع إليه وتدبَّر.

وقال الأزهريُّ(١): «الحاقة»: القيامة، من حاقَقْتُه فحقَقْتُه، أي: غالبتُه فغلبتُه، فهي حاقَّة؛ لأنها تَحُقُّ كلّ مُحاقٍّ في دين الله تعالى بالباطل، أي: كلَّ مخاصم، فتغلبُه.

وظاهرُ كلامهم أنها على جميع ذلك وصفٌ حُذِف موصوفُه؛ للإيذان بكمال ظهور اتِّصافه بهذه الصفة، وجريانه مجرى الاسم.

وقيل: إنها ـ على ما رُوي عن ابن عباس من كونها من أسماء يوم القيامة ـ اسمٌ جامد لا يُعتَبر معه موصوفٌ محذوف. وقيل: هي مصدرٌ، كالعاقبة والعافية.

وأيًّاما كان فهي مبتدأ خبرُها جملةُ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ على أن «ما» مبتدأ، و«الحاقة» خبر، أو بالعكس، ورُجِّح معنى، والأولُ هو المشهور، والرابطُ إعادةُ المبتدأ بلفظه، والأصل: ما هي؟ أي: أيّ شيءٍ هي في حالها وصفتها؟ فإن «ما» قد يُطلب بها الصفةُ والحال، فوُضع الظاهر موضع المضمر تعظيماً لشأنها، وتهويلاً لأمرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ أي: أيّ شيءٍ أعلمَكَ ما هي؟ تأكيدٌ لهولها وفظاعتها ببيانِ خروجها عن دائرةِ علوم المخلوقات، على معنى أن عِظَمَ شأنها ومدى هولها وشدَّتها بحيث لا يكادُ تبلُغُه درايةُ أحدٍ ولا وهمُه، وكيفما قدَّرتَ حالَها فهي وراءَ ذلك وأعظم، فلا يتسنَّى الإعلام، ومنه يُعلم أن الاستفهامَ كُني به عن لازِمِه من أنها لا تُعلم، ولا يصلُ إليها درايةُ دارٍ، ولا تبلُغها الأوهامُ والأفكار.

---

(١) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧٧.

و«ما» في موضع الرفع على الابتداء، و«أدراك» خبرُه، ولا مساغَ للعكس، و«ما الحاقة» جملةٌ محلُّها النصبُ على إسقاط الخافض؛ لأن أدرى يتعدَّى إلى المفعول الثاني بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ [يونس: ١٦] فلمَّا وقعت جملةُ الاستفهام معلَّقةً له كانت في موضع المفعول الثاني، وتعليقُ هذا الفعل - على ما قيل - لما فيه من معنى العلم، والجملةُ - أعني «ما أدراك» إلخ - معطوفةٌ على ما قبلَها من الجملة الصغرى.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ بالقيامة التي تقرَعُ الناسَ بالإفزاع والأهوال، والسماءَ بالانشقاقِ والانفطار، والأرضَ والجبالَ بالدكِّ والنَّسْف، والنجومَ بالطَّمْس والانكدار. ووضعُها موضعَ ضمير «الحاقة»؛ للدّلالة على معنى القَرْع - وهو ضربُ شيء بشيء - فيها؛ تشديداً لهولها. والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان بعضِ أحوال «الحاقَّة» له عليه الصلاة والسلام إثر تقريرِ أنَّه ما أدراه ﷺ بها أحدٌ، والمبيّن كونها بحيث يحقُّ إهلاكُ من يُكذِّب بها، كأنه قيل: وما أدراك ما الحاقة، كذَّبت بها ثمودُ وعادٌ فأُهلكوا.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ﴾ أي: أهلكهم الله تعالى. وقرأ زيد بنُ عليٍّ: «فَهَلَكوا» بالبناء للفاعل[1]. ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ أي: الواقعة المجاوزةِ للحدِّ، وهي الصَّيحة؛ لقوله تعالى في «هود»: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [٦٧] وبها فُسِّرت «الصاعقة» في «حم» السجدة، أو الرَّجفة؛ لقوله سبحانه في «الأعراف»: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [٧٨] وهي الزلزلة المُسَبَّبة عن الصيحة، فلا تعارضَ بين الآيات؛ لأن الإسنادَ في بعضٍ إلى السبب القريب، وفي بعضٍ آخر إلى البعيد، والأولُ مرويٌّ عن قتادة، قال: أي: بالصيحة التي خرجَتْ عن حدِّ كلِّ صيحة.

وقال ابن عباس وأبو عُبَيدة[2] وابنُ زيد ما معناه: «الطاغية» مصدرٌ، فكأنه قيل: بطغيانهم، وأُيِّد بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١].

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٢١.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٧.

والمعوَّل عليه الأول؛ لمكان قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ وإيضاح ذلك أن الآيةَ فيها جمعٌ وتفريق، فلو قيل: أُهِلكَ هؤلاء بالطغيان، على أن ذلك سببٌ جالب، وهؤلاء بالريح، على أنه سببٌ آليٌّ، لم يكن طِباق؛ إذ جاز أن يكون هؤلاء أيضاً هلكوا بسبب الطُّغيان، وهذا معنى قولِ الزَّمخشري في تضعيف الثاني لعدم الطِّباق بينها وبين «بريح»[(١)]، لا أنَّ ذلك لأن أحدَهما عينٌ والآخر حَدَثٌ، وما ذُكر من التأييد لا يخفى حالُه.

وكذا يرجح الأولُ على قول مجاهدٍ وابن زيد أيضاً، أي: بسبب الفعلةِ الطاغية التي فَعَلوها، وهي عَقْرُ الناقة. وعلى ما قيل: «الطاغية»: عاقرُ الناقة، والهاءُ فيها للمبالغة، كما في: رجل راوية، وأُهلِكوا كلُّهم بسببه؛ لرضاهم بفعله. وما قيل أيضاً: بسبب الفئة الطاغية. ووجهُ الرُّجحان يُعلم مما ذُكر.

ومرَّ الكلامُ في الصَّرْصَر، فتذكَّر[(٢)]، وهو صفةُ «ريح»، وكذا قولُه تعالى: ﴿عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ أي: شديدة العَصْف، أو عَتَتْ على عادٍ فما قدروا على ردِّها والخلاص منها بحيلة، مِن استتارٍ ببناءٍ، أو لياذٍ بجبل، أو اختفاءٍ في حفرة؛ فإنها كانت تنزعُهم من مكامِنِهم وتُهلكُهم.

والعتوُّ عليهما استعارةٌ، وأصلُه تجاوزُ الحدِّ، وهو قد يكون بالنسبة إلى الغير، وقد لا يكون، ومنه يُعلم الفرقُ بين الوجهين، وأخرج ابنُ جرير[(٣)] عن عليِّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهَه أنه قال: لم تنزل قطرةٌ إلا بمكيالٍ على يدي مَلَك، إلا يوم نوح؛ فإنه أذِنَ للماء دون الخزَّان، فطغى الماءُ على الخزَّان، فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] ولم ينزل شيء من الريح إلا بمكيالٍ على يدي مَلَك، إلا يوم عاد؛ فإنه أذِنَ لها دون الخزَّان، فخرجت، فذلك قوله تعالى: (بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) عَتَت على الخزَّان.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤٩.

(٢) سلف ٢٤/ ١١٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٢١٠-٢١١.

وفي «صحيحي» البخاري ومسلم وغيرهما ما يوافقُه[١]، فهو تفسيرٌ مأثورٌ، وقد حكى ذلك في «الكشَّاف»، ثم قال: ولعلَّها عبارة عن الشدَّة والإفراط فيها[٢].
وخرَّج ذلك في «الكشف» على الاستعارة التمثيلية، ثم قال: إن المَثَل إذا صار بحيثُ يُفهم منه المقصودُ من دون نظرٍ إلى أصل القصَّة جاز أن يقال: إنه كنايةٌ عنه، كما فيما نحن فيه، وجوّز أن يكون هناك تشبيهٌ بليغٌ من العتوِّ: وهو الخروجُ عن الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ إلخ، استئنافٌ جيءَ به بياناً لكيفية إهلاكهم بالريح، وجُوِّز أن يكون صفةً أخرى، وأنه جيء به لنفي ما يُتوهَّم من أنها كانت من اقترانات بعض الكواكب ببعض، ونزولها في بعض المنازل؛ إذ لو وُجدت الاقتراناتُ المقتضيةُ لبعض الحوادث كان ذلك بتقديره تعالى وتسبيبه عزَّ وجل، لا من ذاتها استقلالاً.

والسببُ الذي يذكرُه الطبائعيُّون للريح: تكاثُفُ الهواء في الجهة التي يتوجَّه إليها، وتراكمُ بعضه على بعض بانخفاضِ درجةِ حرارته، فيقلُّ تمدُّدُه، ويتكاثفُ، ويتركُ أكثرَ المحلِّ الذي كان مشغولاً به خالياً، أو بتجمُّعٍ فجائيٍّ يحصل في الأبخرة المنتشرةِ في الهواء، فتخلو محالُّها، وعلى التقديرين يجري إلى ذلك المحلِّ الهواءُ المجاورُ بقوَّةٍ ليشغَلَه، فيحدث، ويستمرُّ حتى يمتلئ ذلك الفضاءُ، ويتعادَلَ فيه الهواء، فيسكن عند ذلك، ويتفاوتُ سيرُها سرعةً وبطئاً، فتقطعُ الريحُ المعتدلةُ ـ على ما قيل ـ في الساعة الواحدة نحوَ فَرْسَخ، والمتوسِّط فيها نحوَ أربعة فراسخ، والقويَّةُ نحوَ ثمانيةِ فراسخ، وما هي أقوى منها نحوَ ستَّة عشر فرسخاً، وما هي أقوى ـ ويُسمَّى: العاصف ـ نحو سبعة عشر فرسخاً، وما هي أقوى ـ وتُسمَّى: المُؤْتفكة ـ نحوَ تسعةً وعشرين فرسخاً، وقد تقطع في ساعةٍ نحو

---

(١) أورد نحوه البخاري معلقاً بصيغة التضعيف، فقال في كتاب التفسير، في تفسير سورة الحاقة بعد حديث (٤٩١٩): ويقال: «بالطاغية»: بطغيانهم، ويقال: طغت على الخزان كما طغى الماء على قوم نوح. ولم نقف على ما أشار إليه المصنف في صحيح مسلم.
(٢) الكشاف ٤/ ١٥٠.

ستَّةٍ وثلاثين فرسخاً، وهذا أكثرُ ما قيل في سرعة الريح. وقد عملوا آلةً يزعمون أنها مقياسٌ يُستعلَمُ بها قوَّةُ هبوب الريح وضعفُه، وهذا غيرُ بعيدٍ من النوع الإنساني. ويقال فيما ذكروه من السَّبب نحو ما سمعتَ آنفاً.

ومعنى «سخرها عليهم»: سلَّطها عزَّ وجل بقدرته عليهم.

﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعات كما قال ابنُ عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وأبو عُبَيدة[١]، جمع: حاسم، كشهود جمع شاهد، من حسمتُ الدابةَ: إذا تابعتَ كيَّها على الداء كرَّةً بعد أخرى حتى ينحسم[٢]، فهي مجازٌ مرسلٌ من استعمال المقيَّد ـ وهو الحسمُ الذي هو تتابعُ الكيِّ ـ في مطلق التتابع.

وفي «الكشف»: هو مستعارٌ من الحسم بمعنى الكيِّ، شبَّه الأيامَ بالحاسم، والريحَ ـ لملابستها بها، وهبوبها فيها، واستمرار وصفها بوصفها في قولهم: يوم باردٌ وحارٌّ، إلى غير ذلك ـ بفعل الأيام، كلُّ هبَّةٍ منها كيَّة، وتَتَابُعها بتتابع الكيَّات حتى يحصل الانحسام، أي: استئصال الداء الذي هو المقصودُ.

والمعنى بعد التلخيص: متابعةُ هبوب الرياح حتى أتَتْ عليهم واستأصَلَتهم.

أو: نَحِسات مشؤومات، كما قال الخليل[٣]. قيل: والمعنى: قاطعات الخير بنُحُوسَتها وشُؤْمها، فمعمولُ «حسوماً» محذوفٌ. أو قاطعات قطعت دابرَهم، وأهلكتهم عن آخرهم، كما قال ابنُ زيد.

وقال الراغبُ[٤]: الحسمُ: إزالةُ أَثرِ الشيء، يقال: قطَعَه فحسَمَه، أي: أزال مادَّته، وبه سُمِّي السيف حُساماً، وحسمُ الداءِ: إزالةُ أثره بالكيِّ. وقيل للشؤم المُزيل لأثر ما نالَه: حسوم. و«حسوماً» في الآية: قيل: حاسماً أثرَهم، وقيل:

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٧.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: في الكشاف [٤/ ١٥٠] رمز إلى أن الكي هو الفعل، وإنما الحسم بالحقيقة الكي المعاد مرة بعد أخرى؛ إذ لا يطلق إلا عند الاستئصال، ولا يحصل غالباً إلا بتتابع (تحرفت إلى: بتتاع) الفعل، فافهم. اهـ منه.

(٣) العين ٣/ ١٤٤.

(٤) في مفردات ألفاظ القرآن (حسم).

حاسماً خبرَهم[(١)]، وقيل: قاطعاً لعمرهم، وكلٌّ ذلك داخلٌ في عمومه، فلا تغفل.

وجُوِّز أن يكون «حسوماً» مصدراً لا جمع حاسم، وانتصابُه إما بفعله المقدَّر حالاً، أي: تحسمهم حسوماً بمعنى تستأصلُهم استئصالاً، أو على العِلَّة، أي: سخَّرَها عليهم لأجل الاستئصال، أو على أنه صفةٌ، أي: ذات حسوم. وأُيِّدت المصدريةُ بقراءة السُّدي: «حَسُوماً» بفتح الحاء[(٢)] على أنه حالٌ من الريح، أي: سخَّرها مستأصلَةً، لتعيُّن كونه مفرداً على ذلك، وهي كانتِ أيامَ العجوز، من صبح الأربعاء لثمانٍ بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنما سُمِّيت أيام العَجُوز لأن عجوزاً من عادٍ توارت في سَرَبٍ، فانتزعتها الريحُ في اليوم الثامن وأهلكتها، أو لأنها عَجُزُ الشتاء، فالعجوز بمعنى العَجُز، وأسماؤها: الصِّنُّ، والصِّنَّبْر، والوَبْر، والآمِرُ، والمُؤْتَمِرُ، والمُعَلِّل، ومُطْفِئُ الجَمْر، ومُكْفِئُ الظَّعْن، ولم يَذْكر هذا الثامنَ مَنْ قال: إنها سبعةٌ لا ثمانية كما هو المختار[(٣)].

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ أي: إن كنتَ حاضراً حينئذٍ، فالخطابُ فيه فرضيٌّ ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأيام والليالي، وقيل: في مهابِّ الريح، وقيل: في ديارهم، والأولُ أظهر ﴿صَرْعَىٰ﴾ أي: هَلْكى، جمع صَرِيع.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخيل. وقرأ أبو نهيك: «أعجُزُ» على وزن أفعل كضَبُع وأَضْبُع، وحكى الأخفشُ أنه قُرِئ: «نخيل» بالياء[(٤)].

﴿خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ خلت أجوافُها بِلًى وفساداً، وقال ابنُ شَجَرة: كانت تدخُلُ من أفواههم، فتُخرج ما في أجوافهم من الحَشْوِ من أدبارهم، فصاروا كأعجاز النخل الخاوية. وقال يحيى بنُ سلام: خلَتْ أبدانُهم من أرواحهم، فكانوا كذلك.

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جُرَيج قال: كانوا في سبعةِ أيام في عذاب، ثم في

---

(١) في الأصل: خيرهم، والمثبت من (م).

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٠، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٩٤.

(٣) في هامش الأصل مانصه: وقيل: هي خمسة. اهـ منه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦١، والبحر المحيط ٨/ ٣٢١.

الثامن ماتوا وألقتهم الريحُ في البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[١]، أي: بقيَّة، على أنَّ الباقية اسم كالبقيَّة لا وصف، والتاءُ للنقل إلى الاسمية. أو: نفس باقية، على أنَّ الموصوف مقدَّر، والتاءُ للتأنيث.

وقال ابنُ الأنباري: أي: باقٍ، والهاءُ للمبالغة. وجُوِّز أن يكون مصدراً كالطاغية والكاذبة، أي: بقاء، والتاءُ للوحدة.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ ومَنْ تقدَّمَه من الأمم الكافرة، كقوم نوح عليه السلام، وفيه تعميمٌ بعد التخصيص؛ فإن منهم عاداً وثموداً.

وقرأ أبو رجاء، وطلحةُ، والجَحْدريُّ، والحسن بخلاف عنه، وعاصمٌ في رواية أبان، والنَّحويان، وأبان: «ومَنْ قِبَلَه» بكسر القاف وفتح الباء[٢]، أي: ومَنْ في جهته وجانبه، والمرادُ: ومَنْ عنده من أتباعه وأهلِ طاعته، ويؤيِّدُه قراءةُ أُبيٍّ وابنِ مسعود: «ومَنْ معه»[٣].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: قرى قومِ لوط عليه السلام، والمراد أهلها مجازاً بإطلاق المحلِّ على الحال، أو بتقدير مضاف، أو على الإسناد المجازي، والقرينةُ العطف على من يتَّصفُ بالمجيء.

وقرأ الحسنُ هنا: «والمؤتفكة» على الإفراد[٤].

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ أي: بالخطأ[٥]، على أنه مصدرٌ على زِنَةِ فاعلة، أو بالفعلة[٦] أو الأفعال ذات الخطأ العظيم، على أنَّ الإسناد مجازيٌّ وهو حقيقةٌ لأصحابها،

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٩.

(٢) النحويان هما أبو عمرو بن العلاء والكسائي، وقراءتهما في التيسير ص٢١٣، وزاد في النشر ٢/ ٣٨٩ نسبتها ليعقوب من العشرة، والقراءات التي ذكرها المصنف ـ عدا قراءة أبان ـ أوردها أبو حيان في البحر ٨/ ٣٢١.

(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ١٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٢١، وقرن في القراءات الشاذة ص١٦١ بأُبَيٍّ أبا موسى، بدل: ابن مسعود.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٢١، وزاد القرطبي ٢١/ ١٩٥ نسبتها إلى الجحدري.

(٥) في هامش الأصل: قاله مجاهد. اهـ منه.

(٦) في هامش الأصل: قاله الجرجاني. اهـ منه.

واعتبارُ العِظَم لأنه لا يُجعل الفعلُ خاطئاً إلا إذا كان صاحبُه بليغَ الخطأ، ويجوز أن تكون الصيغةُ للنسبة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعصى كلُّ أمةٍ رسولَها حين نهاها عمَّا كانت تتعاطاه من القبائح، فإفرادُ الرسول على ظاهره، وجُوِّز أن يكون جمعاً، أو مما يستوي فيه الواحدُ وغيرُه؛ لأنه مصدرٌ في الأصل، وأُريد منه التكثير؛ لاقتضاء السياق له، فهو من مقابلة الجمعِ المقتضي لانقسام الآحاد، أو أُطلق الفردُ عليهم لاتِّحادهم معنى فيما أُرسلوا به، والظاهرُ أنَّ هذا بيانٌ لمجيئهم بالخاطئة.

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ أي: زائدةً في الشدَّة كما زادت قبائحُهم في القُبْح، من ربا الشيءُ: إذا زاد.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ جاوز حدَّه المعتادَ، حتى إنه علا على أعلى جبلٍ خمس عشرةَ ذراعاً، أو طغى على خزَّانه، على ما سمعتَ قُبَيل هذا، وذلك بسبب إصرارِ قوم نوح عليه السلام على فُنُون الكفر والمعاصي، ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام فيما أُوحي إليه من الأحكام التي من جملتها أحوالُ القيامة.

﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: في أصلاب آبائكم، أو: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، على أنه بتقدير مضافٍ، وقيل: على التجوُّز في المخاطَبِين بإرادة آبائهم المحمولين بعلاقة الحُلول، وهو بعيد.

﴿فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ في سفينة نوح عليه السلام، والمرادُ بحملهم فيها رفعُهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان، لا مجرَّدُ رفعهم إلى السفينة كما يُعرب عنه كلمة «في»؛ فإنها ليست بصلةٍ للحمل، بل متعلِّقة بمحذوفٍ هو حالٌ من مفعوله، أي: رفعناكم فوقَ الماء، وحفظناكم حالَ كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحِفْظِنا، وفيه تنبيهٌ على أن مدارَ نجاتهم محضُ عصمته عزَّ وجلَّ، وإنما السفينةُ سببٌ صوريٌّ. وكثُر استعمالُ الجارية في السفينة، وعليه:

تِسعون جاريةً في بطن جاريةٍ[1]

---

(١) أورده في البحر ٨/ ٣٢٢ من غير نسبة.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفعلةَ التي هي عبارةٌ عن إنجاء المؤمنين وإغراقِ الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرةً ودلالةً على كمال قدرةِ الصانع وحكمته، وقوةِ قهره وسَعَة رحمته. ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي: تحفظها، والوعيُ: أن تحفَظَ الشيءَ في نفسك، والإيعاءُ: أن تحفَظَه في غيرِ نفسك من وعاء. ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: من شأنها أن تحفَظَ ما يجب حِفْظُه، بتذكُّره وإشاعته والتفكُّر فيه، ولا تُضيِّعَه بتركِ العمل به. وعن قتادة: الواعيةُ: هي التي عقَلَت عن الله تعالى، وانتفعَتْ بما سمعَتْ من كتاب الله تعالى.

وفي الخبر: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعليٍّ كرم الله تعالى وجهَه: «إني دعوتُ الله تعالى أن يجعلَها أذنَكَ يا عليّ» قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: فما سمعتُ شيئاً فنسيتُه، وما كان لي أن أنسى(١).

وفي جَعْلِ الأذنِ واعيةً ـ وكذا جَعْلِها حافظةً ومتذكِّرةً ونحوَ ذلك ـ تجوُّزٌ، والفاعلُ لذلك إنما هو صاحبُها، ولا يُنسَبُ لها حقيقةً إلا السمعُ. والتنكيرُ للدَّلالة على قلَّتها، وأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع قلَّته يتسبَّب لنجاة الجمِّ الغفير، وإدامة نَسْلهم.

وقيل: ضميرُ «نجعلها» للجارية، وجعلها تذكرةً لما أنه ـ على ما قال قتادة ـ أدرَكَها أوائلُ هذه الأمة، أي: أدركوا ألواحَها على الجُوديِّ، كما قال ابنُ جُرَيج، بل قيل: إن بعضَ الناس وجَدَ شيئاً من أجزائها بعد الإسلام بكثير، والله تعالى أعلم بصحَّته. ولا يخفى أن المعوَّل عليه ما قدَّمناه.

وقرأ ابنُ مُصَرِّف، وأبو عَمرو في رواية هارون وخارجةَ عنه، وقُنْبُل بخلافٍ عنه: «وتَعْيها» بإسكان العين على التشبيه بكَتْف وكبد كما قيل، وقرأ حمزةُ بإخفاء الكسرة، ورُوي عن عاصم أنه قرأ بتشديد الياء(٢)، قال في

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٢٢-٢٢٣، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٤٥٥، من طريق مكحول عن النبي ﷺ مرسلاً وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦١، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٢، وما ذكره المصنف من الروايات عن أبي عمرو وحمزة وعاصم إنما هو من الشواذ، والقراءة المشهورة عنهم كقراءة الجماعة.
=

«البحر»[(١)]: قيل: هو خطأ، وينبغي أن يُتأوَّل على أنه أُريد به شدَّة بيان الياء احترازاً ممن سكَّنها، لا إدغامُ حرفٍ في حرف، ولا ينبغي أن يُجعل ذلك من التضعيف في الوقف، ثم أجري الوصل مجرى الوقف، وإن كان قد ذهب إليه بعضُهم.

ورُوي عن حمزة وموسى بن عبد الله العَبْسي: «وتَعِيْها» بإسكان الياء[(٢)]، فاحتمل الاستئناف، وهو الظاهرُ، واحتمل أن يكون مثل قراءة: «من أوسط ما تُطعمون أهاليكم» بسكون الياء[(٣)]، وقرأ نافعٌ: «أُذْن» بإسكان الذال للتخفيف[(٤)].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ شروعٌ في بيان نفسِ الحاقَّة وكيفية وقوعها، إثرَ بيانِ عظَم شأنها بإهلاك مكذِّبيها، والمرادُ بالنفخة الواحدة: النفخةُ الأولى التي عندها خرابُ العالم كما قال ابنُ عباس. وقال ابنُ المسيّب ومقاتل: هي النفخةُ الآخرة. والأولُ أولى؛ لأنه المناسبُ لِمَا بَعْدُ، وإن كانت الواو لا تدلُّ على الترتيب، لكنَّ مخالفةَ الظاهر من غير داعٍ مما لا حاجةَ إليه.

والنفخة: قال جارُ الله في حواشي «كشَّافه»: المرَّة، ودلالتُها على النفخ اتفاقيةٌ غيرُ مقصودة، وحدوثُ الأمر العظيم بها وعلى عقبها إنما استُعظِم من حيث وقوعُ النفخ مرَّةً واحدةً، لا من حيث إنه نَفْخٌ، فنبَّه على ذلك بقوله سبحانه: «واحدة».

وعن ابن الحاجب أنَّ «نفخة» لم يُوضع للدلالة على الوحدة على حيالها، وإنما وُضع للدلالة على النفخ، والدلالةُ على الوحدة اتفاقيةٌ غيرُ مقصودة. وتُعقِّب بأنَّ هذا ـ بعد التسليم ـ لا يضرُّ؛ لأن الكلامَ في مقتضى المقام، لا أصلِ الوضع،

= قال في التيسير ص٢١٣: وجاء عن ابن كثير وعاصم وحمزة في ذلك ما لا يصح. اهـ. ولم يذكر خلافاً في قراءتها، وكذلك ابن الجزري في النشر.

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٢٢، وهي من الشواذِّ، وورد في مطبوعه: العنسي، بدل: العبسي، ولم نقف له على ترجمة، وإنما ترجم الذهبي في معرفة القراء الكبار ١/ ٣٤٧ لعبيد الله بن موسى العبسي الكوفي المقرئ شيخ البخاري.

(٣) والقراءة المتواترة: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، والقراءة التي ذكرها المصنف شاذة قرأ بها جعفر بن محمد الصادق، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٢٣٠.

(٤) التيسير ص٩٩، والنشر ٢/ ٢١٦.

وقد تقرَّر أن الذي سِيْق له الكلامُ يُجعل معتمداً، حتى كأنَّ غيرَه مطروحٌ، فالمرَّةُ هي المعتمدةُ؛ نظراً للمقام، دون النفخ نفسه، وإن كان النظرُ إلى ظاهر اللفظ يقتضي العكسَ، فافهم.

وأيَّاما كان فإسنادُ الفعل إلى «نفخة» ليس من إسناد الفعل إلى المصدر المؤكِّد، كضُرِبَ ضَرْبٌ، وإن لم يُلاحَظ ما بعده من قوله سبحانه: «واحدة». وحَسُنَ تذكيرُ الفعل للفصل، وكونِ المرفوع غيرَ حقيقيِّ التأنيث، وكونه مصدراً؛ فقد ذكر الجاربردي[١] في «شرح الشافية» أن تأنيثَه غيرُ معتبرٍ، لتأويله بـ «أنْ» والفعل، والمشهورُ أنَّ «واحدة» صفةٌ مؤكِّدة، وأطلق عليها بعضُهم التوكيد، وبعضُهم البيان، وذكر الطِّيبيُّ أن التوابع ـ كالبدل، وعطفِ البيان، والصفة ـ بيانٌ من وجهٍ للمتبوع عند أرباب المعاني، وتمامُ الكلام في ذلك في «المطوَّل».

وقرأ أبو السمَّال: «نفخةً واحدةً» بنصبهما[٢] على إقامةِ الجارِّ والمجرور مقامَ الفاعل.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رُفعتا من أَحْيازِهما[٣] بمجرَّد القدرة الإلهية من غير واسطةِ مخلوق، أو بتوسُّط نحو ريحٍ أو مَلَك، قيل: أو بتوسُّط الزَّلزلة، أي: بأنْ يكون لها مدخلٌ في الرفع، لا أنَّها رافعةٌ لهما، حاملةٌ إيَّاهما، ليقال: إنها ليس فيها حملٌ، وإنما هي اضطرابٌ.

وقيل: يجوز أن يخلق الله تعالى من الأجرام العلويَّة ما فيه قوَّةُ جَذْبِ الجبالِ ورفعِها عن أماكنها، أو أن يكون في الأجرام الموجودةِ اليوم ما فيه قوَّةُ ذلك، إلا أن في البين مانعاً من الجذب والرفع، وأنه يزولُ بعدُ فيحصل الرفعُ، وكذا يجوز أن يُعتبر مثلُ ذلك بالنسبة إلى الأرض، وأن تكون قوَّتا الجاذبَين مختلفتين، فإذا حصل رفعُ كلٍّ إلى غايةٍ يريدُها الله تعالى حدَثَ في ذلك الجاذب ما لم يبقَ معه

---

(١) في الأصل: الجابردي، والمثبت من (م).

(٢) الكشاف ٤/ ١٥١، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٣.

(٣) الأحياز جمع حَيِّز: وهو الناحية. الصحاح (حيز).

ذلك الجذبُ من زوال مُسامِتِه[1] ونحوه، وحصَلَ بين الجبال والأرض ما يوجب التصادمَ، ويجوزُ أيضاً أن يحدث في الأرض من القوى ما يُوجب قذفَها للجبال، ويحدث للأرض نفسها ما يوجب رفعَها عن حيِّزها، وكونُ القوى منها ما هو متنافرٌ ومنها ما هو متحابٌّ مما لا يكاد يُنكَر.

وقيل: يمكن أن يكون رفعُهما بمصادمة بعض الأجرام ـ كذوات الأذناب، على ما قيل فيها جديداً ـ للأرض، فتنفصلُ الجبالُ، وترتفع من شدَّة المصادمة، ورفع الأرض من حيِّزها.

ولا يخفى أن كلَّ هذا على ما فيه لا يُحتاج إليه، ويكفينا القولُ بأن الرفعَ بالقدرة الإلهية التي لا يتعاصاها شيء.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلة، وابنُ مِقْسَم، والأعمش، وابنُ عامر في رواية يحيى: «وحُمِّلت» بتشديد الميم[2]، وحُمِلَ على التكثير، وجوِّز أن يكون تضعيفاً للنقل، فيكون «الأرض والجبال» المفعولَ الأول أُقيم مقامَ الفاعل، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: قدرة، أو ريحاً، أو ملائكة، أو يكون المفعول الثاني أُقيم مقامَ الفاعل، والأول محذوفٌ، وهو أحدُ المذكورات.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ فضُربت الجملتان إثر رفعهما بعضُها ببعضٍ ضربةً واحدةً حتى تُفَتَّتَ وتَرْجِعَ كما قال سبحانه: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]. وقيل: تتفرَّق أجزاؤها، كما قال سبحانه: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفرَّقوا بين الدكِّ والدقِّ بأن في الأول تفرُّقَ الأجزاء، وفي الثاني اختلافها. وقال بعض الأجلَّة: أصلُ الدكِّ: الضربُ على ما ارتفَعَ لينخفض، ويلزمه التسويةُ غالباً، فلذا شاع فيها حتى صار حقيقةً، ومنه أرضٌ دكَّاء: للمتسعة المستوية، وبعيرٌ

---

(١) قال الفيومي في المصباح المنير (سمت): سامَتَه مسامَتَةً، بمعنى وازاه وقابله.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦١، والمحتسب ٢/ ٣٢٨، والبحر ٨/ ٣٢٣، وعنه نقل المصنف.
ويحيى: هو ابن الحارث الغساني الذماري، أبو عمرو، شيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر، قال عنه أبو حاتم: ثقة، كان عالماً بالقراءة في دهره بدمشق. توفي سنة (١٤٥هـ). غاية النهاية ٢/ ٣٦٧-٣٦٨.

أدكُّ وناقة دكَّاء: إذا ضَعُفا فلم يرتفع سَناماهما، واستوت خدجتهما[١] مع ظهريهما، فالمراد هاهنا: فبُسِطتا بسطةً واحدة، وسُوِّيتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً. ولعلَّ التفتُّت مقدِّمةٌ للتسوية أيضاً.

وقال الراغب: الدكُّ: الأرض اللَّينةُ السهلةُ، وقوله تعالى: «فدكتا» أي: جُعِلتا بمنزلة الأرض اللَّينة[٢]. وهذا أيضاً يرجع إلى التسوية كما لا يخفى.

وحكى في «مجمع البيان»[٣] أنهما إذا دُكَّتا تتفتَّتُ الجبال، وتنسفُها الريحُ، وتبقى الأرضُ مستويةً. وثنَّى الضمير لإرادة الجملتين كما أشرنا إليه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فحينئذٍ، على أن المرادَ باليوم مطلقُ الوقت، وهو هاهنا متَّسِعٌ يقع فيه ما يقَعُ، والتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه، أي: فيومَ إذ نُفِخَ في الصور، وكان كَيْتَ وكيت.

﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي: قامت القيامةُ، وتفسيرُ «الواقعة» بصخرةِ بيت المقدس واقعٌ عن درجة القَبول.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ تفطَّرت، وتميَّز بعضُها عن بعض، ولعلَّه إشارةٌ إلى ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥] وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جُرَيج أنه قال: ذلك قولُه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[٤] [النبأ:١٩]. ولا منافاة بينهما، وكذا لا منافاةَ بين كونِ الانشقاقِ لنزول الملائكة وكونِهِ لهول يوم القيامة؛ لأن الأمرَ قد يكون له عِلَلٌ شتَّى مثل هذه العلل.

والمراد بـ «السماء» جنسُها، وقيل: السماواتُ السَّبع، وأيُّما كان فلا يُشترط

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولم نقف على معناه، ولعله: حَجَبتهما، والحَجَبة: رأس الورك، وهما حجبتان تشرفان على الخاصرتين. الصحاح (حجب).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (دكّ).
(٣) ٢٩/ ٤٣.
(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٠، وزاد نسبته لابن جرير، ولم نقف عليه في تفسيره.

لصحَّة الانشقاقِ كونُها أجساماً صلبةً؛ إذ يتَّصفُ بنحو ذلك ما ليس بصلبٍ أيضاً، فقد وُصِفَ البحرُ بالانفلاق.

﴿فَهِيَ﴾ أي: السماءُ ﴿يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾ ضعيفةٌ، من وَهَى الشيءُ: ضَعُفَ وتَداعى للسقوط. وقال ابنُ شَجَرة: من قولهم: وَهَى السِّقاءُ: إذا انخرَقَ، ومن أمثالهم قولُ الراجز:

خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سقاؤه
ومَنْ هُريقَ بالفلاةِ ماؤه(١)

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: الجنسُ المتعارفُ بالمَلَك، وهو أعمُّ من الملائكة عند الزمخشريِّ(٢) وجماعة، وقد ذكره الجوهريُّ(٣) أيضاً، وقال أبو حيان(٤): المَلَك اسمُ جنس يراد به الملائكة، ولا يظهر أنه أعمُّ من الملائكة. وتحقيقُ هذا المقام بما لا مزيد عليه في «شرح التلخيص» للعلَّامة الثاني و«حواشيه»، فارجع إن أردتَ إليه.

﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: جوانبها، جمع: رجا، بالقصر، وهو من ذواتِ الواو، ولذا برزت في التثنية، قال الشاعر:

كأنْ لم تَرَيْ قبلي أسيراً مقيَّدا ولا رجلاً يُرمى به الرَّجَوانِ(٥)

---

(١) الرجز في جمهرة الأمثال ١/ ٤١٤، ونقل قول الأصمعي بأن المراد به: من لم يستقم أمره فلا تُعانِه.

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٢.

(٣) الصحاح (ملك).

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٢٣.

(٥) نسبه صاحب الأغاني ١٢/ ١٧١ لرجل من لصوص بني تميم يعرف بأبي النشناش، ونسبه الزمخشري في المستقصى ٢/ ٢٦٩-٢٧٠ لطهمان الأعور، ونسبه صاحب الحماسة البصرية ١/ ١٠٧ لعطارد بن قُرَّان الحنظلي. ومن أمثالهم: لا يُرمى به الرجوان، لمن لا يخدع فيزال عن وجهٍ إلى وجه، والرجوان: الناحيتان، وأصله أن الدلو إذا استقي بها فتارة يُرمى بها هذا الرجا، وأخرى هذا، فشبه بها الرجل المستذل المزال من وجه إلى وجه. ينظر المستقصى ٢/ ٢٧٠، وأساس البلاغة (رجو).

والضميرُ للسماء، والمرادُ بجوانبها أطرافُها التي لم تنشقَّ؛ أخرج ابنُ المنذر عن ابن جُبَير والضحَّاك قال: إنهما قالا: «والملكُ على أرجائها»، أي: على ما لم ينشقَّ منها[1]. ولعلَّ ذلك التجاء منهم للأطراف ممَّا داخَلَهم من ملاحظة عظمة الله عزَّ وجل، أو اجتماع هناك للنزول.

وأخرج ابنُ المنذر وعَبْد بن حميد عن الرَّبيع بن أنس قال: «والملك على أرجائها»، أي: الملائكة على شِقِّها ينظرون إلى شقِّ الأرض وما أتاهم من الفزع[2].

والأولُ أظهر، ولعلَّ هذا الانشقاقَ بعد موت الملائكة عند النفخة الأولى وإحيائهم، وهم يحيون قبل الناس كما تقتضيه الأخبار، ويجوز أن يكون ذلك بعد النفخة الثانية والناسُ في المحشر؛ ففي بعض الآثار ما يُشعر بانشقاق كلِّ سماء يومئذٍ ونزولِ ملائكتها، واليومُ متَّسِع كما أشرنا إليه.

وقال الإمامُ: يحتمل أنهم يقفون على الأرجاء لحظةً، ثم يموتون، ويحتمل أن يكون المرادُ بهم الذين استثناهم الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل:٨٧] وعلى الوجهين ينحلُّ ما يقال: الملائكةُ يموتون في الصَّعْقة الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكيف يقال: إنهم يقفون على أرجاء السماء[3]؟

وفي «أنوار التنزيل»[4]: لعلَّ قوله تعالى: «وانشقت السماء» إلخ تمثيلٌ لخراب العالم بخراب المبنيَّات، وانضواءِ أهلها إلى أطرافها، وإن كان على ظاهره فلعلَّ موتَ الملائكة إثرَ ذلك. انتهى. وأنا لا أقولُ باحتمال التمثيل.

وفي «البحر»[5] عن ابن جُبير والضحَّاك أن ضمير «أرجائها» للأرض وإن بعُد

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٠.
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٠، وفيه: ينظرون إلى أهل الأرض.
(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ١٠٨.
(٤) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٨/ ٢٣٧.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٢٣.

ذِكْرُها، قالا: إنهم ينزلون إليها يحفظون أطرافَها، كما رُوي أنَّ الله تعالى يأمر ملائكةَ السماء الدنيا فيقفون صفًّا على حافَّات الأرض، ثم ملائكةَ الثانية فيصفُّون حولَهم، ثم ملائكة كلِّ سماء، فكلَّما ندَّ أحدٌ من الجنِّ والإنس وجد الأرضَ أُحيط بها. ولعلَّ ما نقلناه عنهما أَولى بالاعتماد.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: فوق الملائكة الذين على الأرجاء المدلولِ عليهم بـ «المَلَك»، وقيل: فوق العالم كلِّهم، وقيل: الضميرُ يعود على الملائكة الحاملين، أي: يحمل عرشَ ربِّك فوق ظهورهم أو رؤوسهم ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ والمرجعُ وإن تأخَّر لفظاً لكنَّه متقدِّم رتبةً، وفائدةُ «فوقهم» الدلالةُ على أنه ليس محمولاً بأيديهم، كالمعلَّق مثلاً، وأُيِّد هذا، واعتبارُ الظُّهور، بما أخرج الترمذيُّ، وأبو داود، وابن ماجه عن العبَّاس بن عبد المطلب في حديث: «وفوق ذلك ثمانية أَوْعال، بين أظلافهنَّ ووركهنَّ ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهنَّ العرشُ، بين أسفله وأعلاه مثلُ ما بين السماء إلى السماء»[(١)]. والمراد بالأوعال فيه: ملائكةٌ على صورة الأوعال، كما قال ابنُ الأثير[(٢)] وغيرُه، وهي جمعُ: وَعِل، بكسر العين: تيسُ الجبل.

واستُدِلَّ به على أنَّ المراد ثمانيةُ أشخاص، والأخبارُ الدالَّةُ على ذلك كثيرةٌ، إلا أنَّ فيها تدافعاً من حيث دلالةُ بعضها على أن بعضَهم على صورة الإنسان، وبعضَهم على صورة الأسد، وبعضهم على صورة الثور، وبعضهم على صورة النسر، ودلالةُ بعضٍ آخر على أنَّ لكلِّ واحد منهم أربعةُ أوجه: وجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، ووجه إنسان، وفيه لكلِّ واحدٍ منهم أربعةُ أجنحة؛ أما جناحان فعلى وجهه مخافةً من أن ينظر إلى العرش فيُصعق، وأما جناحان فيطيرُ بهما.

وأبو حيان[(٣)] لم يقل بصحَّة شيء من ذلك، حيث قال: ذكروا في صفاتِ هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبةً ضربنا عن ذِكْرها صَفْحاً.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٢٠)، وسنن أبي داود (٤٧٢٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٣) وجاء في المصادر: وركبهن، بدل: ووركهن.

(٢) في النهاية في غريب الحديث (وعل).

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٢٤.

وأخرج عَبْد بنُ حُمَيد عن ابن زيد، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يحملُه اليومَ أربعةٌ، ويوم القيامة ثمانية»[١].

وأخرج عنه ابنُ أبي حاتم أنه لم يُسَمَّ من حملة العرش إلا إسرافيل عليه السلام، قال: وميكائيل عليه السلام ليس من حَمَلة العرش[٢]. وعليه فمن زعم أنهما وجبرائيل وعزرائيل عليهم السلام من جملة حَمَلته يلزمه إثباتُ ذلك بخبرٍ يعوَّل عليه.

وعن شَهْر بن حَوْشَب: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، لك الحمدُ على عفوكَ بعد قدرتك، وأربعةٌ يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، لك الحمدُ على حِلْمك بعد علمك.

وفي خبرٍ عن وَهْب بن مُنَبِّه: ليس لهم كلامٌ إلا قولهم: قدّسوا الله القويّ الذي ملأت عظمتُه السماواتِ. وأكثرُ الأخبار في هذا الباب لا يعوَّل عليه.

وأخرج عَبْد بن حُمَيد عن الضحَّاك أنه قال: يقال: ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلم عِدَّتهم إلا الله عزَّ وجلَّ. وأخرج هذا القولَ ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم من طرقٍ عن ابن عباس[٣].

وقال الحسن: الله تعالى أعلمُ كم هم، أثمانيةُ أصنافٍ أم ثمانيةُ أشخاص.

وأنتَ تعلم أن الظاهرَ المؤيَّد ببعض الأخبار المصحَّحة أنهم ثمانيةُ أشخاصٍ.

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أن هناك حملاً على الحقيقة، وإليه ذهب محيي الدين قُدِّس سرُّه، قال: إن لله تعالى ملائكةً يحملون العرشَ الذي هو السرير على

---

(١) أورده السيوطي في الدر ٦/ ٢٦١، وعزا إخراجه إلى ابن جرير، وهو في تفسيره ٢٣/ ٢٢٩، وكذلك أخرج الطبري نحوه ٢٣/ ٢٢٩ من طريق ابن إسحاق بلاغاً عن النبي ﷺ، وأورد نحوه الماوردي في تفسيره ٦/ ٨٢ من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦١.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٢٨، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦١، وأورد كذلك قول الضحاك.

كواهلهم، هم اليوم أربعةٌ وغداً يكونون ثمانيةً؛ لأجل الحَمْل إلى أرض المحشر. وله قُدِّس سرُّه في الباب الثالث عشر من «فتوحاته»[1] كلامٌ واسعٌ في حَمَلة العرش، لا سيَّما على تفسيره بالملك، فليَرجع إليه من اتَّسع كرسيُّ ذهنِهِ لفهم كلامه.

وجُوِّز أن يكون ذلك تمثيلاً لعظمته عزَّ وجل بما يُشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العامِّ، فالمرادُ تجلِّيه عزَّ وجل بصفة العَظَمة.

وجُعل العَرْضُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مجازاً عن الحساب، والمراد: يومئذٍ تُحاسَبون، لكنه شبَّه ذلك بعَرْضِ السلطانِ العسكرَ ليعرفَ أحوالهم، فعبَّر عنه به.

وأخرج الإمام أحمدُ، وعَبْد بن حُمَيد، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعرض الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عرضات، فأمَّا عرضتان فجدالٌ ومَعَاذير، وأما الثالثةُ فعند ذلك تَطايَرُ الصُّحفُ في الأيدي، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله»[2].

والجملةُ المعوَّضُ عنها التنوينُ على ما يدلُّ عليه كلامُهم: نُفِخَ في الصور، وجعل «يومئذ تعرضون» بدلاً من «فيومئذ» إلخ، وقد سمعتَ أن الزمانَ متَّسِعٌ لجميع ما ذُكر وغيرِه.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ حالٌ من مرفوع «تعرضون»، أي: تُعرضون غيرَ خافٍ عليه عزَّ وجلَّ سرٌّ من أسراركم قبل ذلك أيضاً، وإنما العرضُ لإفشاء الحال، وإقامةِ الحجَّة، والمبالغةِ في العدل. أو: غير خافٍ يومئذٍ على الناس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ١٤٧-١٤٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦١، ومسند الإمام أحمد (١٩٧١٥)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٧). ولم يخرجه الترمذي من حديث أبي موسى، إنما أخرجه (٢٤٢٥) من حديث أبي هريرة، وأشار عقبه إلى حديث أبي موسى، وضعَّف الحديثين للانقطاع بين الحسن البصري وبين أبي هريرة وأبي موسى.

وقرأ حمزةُ، والكسائيُّ، وابنُ وثَّاب، وطلحة، والأعمش، وابنُ مِقسم عن عاصم، وغيرُهم: «لا يخفى» بالياء التحتانية[١].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيلٌ لأحكام العَرْض، والمرادُ بـ «كتابه» ما كتبت الملائكةُ فيه ما فعله في الدنيا. وقد ذكروا أنَّ أعمالَ كلِّ يومٍ وليلةٍ تُكتَب في صحيفة، فتتعدَّدُ صحفُ العبد الواحد، فقيل: تُوصَلُ له فيُؤْتاها موصولةً. وقيل: ينسخ ما في جميعها في صحيفةٍ واحدة، وهذا ما جزم به الغزاليُّ عليه الرحمة، وعلى القولين يصدُقُ على ما يُؤْتاه العبدُ كتاب.

وقيل: إن العبدَ يكتُبُ في قبره أعمالَه في كتاب، وهو الذي يُؤْتاه يوم القيامة. وهذا قولٌ ضعيف لا يعوَّل عليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيانُ كيف يُؤْتى العبدُ ذلك.

﴿فَيَقُولُ﴾ تبجُّحاً وافتخاراً: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ قال الرضيُّ[٢]: «ها» اسمٌ لـ: خذ، وفيه ثمان لغات:

الأولى: بالألف مفردةً ساكنةً، للواحد والاثنين والجمع، مذكَّراً كان أو مؤنَّثاً.

الثانية: أن تلحَقَ هذه الألف المفردة كافُ الخطاب الحرفية، كما في «ذلك»، وتصرُّفها نحو: هاكَ، هاكُما، [هاكِ]، هاكُم، هاكنَّ.

الثالثة: أن تلحَقَ الألف همزةٌ مكانَ الكاف، وتصريفُها تصريفُ الكاف، نحو: هاءَ، هاؤما، هاؤم، هاءِ، هاؤما، هاؤنَّ.

الرابعةُ: أن تلحَقَ الألف همزةٌ مفتوحة قبل كاف الخطاب، وتُصرَّف الكاف.

الخامسة: هَأْ، بهمزة ساكنةٍ بعد الهاء للكلِّ.

السادسة: أن تصرّف هذه الجملة[٣] تصريفَ: دَعْ.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص٢١٣، وزاد ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٨٩ نسبتها لخلف من العشرة، والكلام من البحر ٨/ ٣٢٤.

(٢) في شرحه على الكافية ٣/ ٩٢، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في شرح الرضي: الخامسة، بدل: الجملة.

السابعة: أن تصرفها تصريف: خف، ومن ذلك ما حكى الكسائيُّ من قول مَنْ قيل له: هاءَ بالفتح [فقال]: إلامَ أهاء؟ وأهاء بفتح همزة المتكلِّم وكسرها.

الثامنة: أن تلحق الألف همزةٌ وتصرّفها تصريف: نادِ.

والثلاثةُ الأخيرةُ أفعالٌ غير متصرِّفة؛ لا مضيَّ لها ولا مضارع، وليست بأسماء أفعال.

قال الجوهريُّ[1]: هاءِ بكسرة الهمزة بمعنى: هاتِ، وبفتحها بمعنى: خذ، وإذا قيل لك هاءَ بالفتح قلتَ: ما أهاءُ؟ أي: ما آخُذُ، وما أُهاء؟ على ما لم يُسمَّ فاعلُه، أي: ما أُعطي؟ وهذا الذي قال مبنيٌّ على السابعة نحو: ما أخاف؟ وما أخاف؟ انتهى.

وقال أبو القاسم[2]: فيها لغاتٌ أجودُها ما حكاه سيبويه في «كتابه»، فقال: العرب تقول: هاءَ يا رجل، بفتح الهمزة، وهاءِ يا امرأة، بكسرها، وهاؤما يا رجلان، أو امرأتان، وهاؤم يا رجال، وهاؤنَّ يا نسوة، فالميمُ في هاؤم كالميم في أنتم، وضمُّها كضمِّها في بعض الأحيان.

وفسّرها هنا بـ: خذوا، وهو متعدٍّ بنفسه إلى المفعول تعديتَه، والمفعولُ محذوفٌ دلَّ عليه المذكور، أعني «كتابيه» وهو مفعولُ «اقرؤوا»، واختِير هذا دون العكس؛ لأنه لو كان مفعولَ «هاؤم» لقيل: اقرؤوه؛ إذ الأولى إضمارُ الضمير إذا أمكنَ كما هنا، وإنما لم يظهر في الأول لئلَّا يعود على متأخِّرٍ لفظاً ورتبةً، وهو منصوبٌ، مع أنَّ العامل على اللغة الجيِّدة اسمُ فعلٍ، فلا يتَّصل به الضمير.

وقيل: «هاؤم» بمعنى: تعالوا، فيتعدَّى بـ «إلى». وزعمَ القُتَبيُّ[3] أن الهمزةَ بدلٌ من الكاف، قيل: وهو ضعيفٌ، إلا إن كان قد عنى أنها تحلُّ محلَّها في لغةٍ كما سمعت، فيمكن، لا أنه بدلٌ صناعيٌّ؛ لأن الكاف لا تُبدل من الهمزة، ولا الهمزةُ منها.

---

(١) في الصحاح (هوأ)، والكلام من شرح الرضي.
(٢) هو الزجَّاجي، وكلامه، وما سيرد من كلام سيبويه ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١١٠.
(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٨٤.

وقيل: «هاؤم» كلمةٌ وُضِعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ناداه أعرابيٌّ بصوتٍ عالٍ، فجاوبه ﷺ: «هاؤم» بصولة صوته[١]. وجُوِّز إرادةُ هذا المعنى هنا؛ فإنه يحتمل أن ينادي ذلك المؤتَى كتابَه بيمينه أقرباؤه وأصحابُه مثلاً ليقرؤوا كتابَه، فيُجيبُهم لمزيدِ فرحه ونشاطه بقوله: هاؤم.

وزعم قومٌ أنها مركَّبةٌ في الأصل: ها أَمّوا، أي: اقصدوا، ثم نقله التخفيفُ والاستعمالُ إلى ما ذُكر. وزعم آخرون أن الميم ضميرُ جماعةِ الذكور.

والهاءُ في «كتابيه»، وكذا في «حسابيه»، و«ماليه»، و«سلطانيه»، وكذا ﴿مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ في «القارعة» للسَّكت، لا ضمير غيبة، فحقُّها أن تُحذف وصلاً، وتثبت وقفاً؛ لتصان حركةُ الموقوف عليه، فإذا وُصل استغني عنها، ومنهم من أثبتَها في الوصل؛ لإجرائه مجرى الوقف، أو لأنه وصل بنيَّة الوقف، والقراءاتُ مختلفة، فقرأ الجمهور بإثباتها وصلاً ووقفاً. قال الزمخشريُّ[٢]: اتِّباعاً للمصحف الإمام. وتعقَّبه ابنُ المنير[٣] فقال: تعليلُ القراءة باتِّباع المصحف عجيبٌ، مع أن المعتقَدَ الحقَّ أنَّ القراءات بتفاصيلها منقولةٌ عن النبيِّ ﷺ. وأطال في التشنيع عليه، وهو كما قال.

وقرأ ابنُ مُحَيصن بحذفها وصلاً ووقفاً، وإسكان الياء فيما ذُكر، ولم يُنقل ذلك في «ماهيه» فيما وقفتُ عليه. وابنُ أبي إسحاق والأعمش بطرح الهاء فيهنَّ في الوصل لا في الوقف[٤]، وطرَحَها حمزةُ في «مالي» و«سلطاني» و«ما هي» في الوصل لا في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥) من حديث صفوان بن عسال المرادي، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد (١٨٠٩٥) بلفظ: «هاءُ». وقوله: بصولة صوته، فسره الرواية التي أوردها القرطبي ٢٠٦/٢١، وفيها: يُطَوِّلُ صوتَه. وعند الترمذي: فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم».

(٢) في الكشاف ١٥٣/٤.

(٣) في الانتصاف ١٥٢/٤.

(٤) قراءة ابن محيصن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١، وذكر القراءات كلها أبو حيان في البحر ٣٢٥/٨.

الوقف، وفَتح الياء فيهنَّ[١]. وما قاله الزهراويُّ من أن إثباتَ الهاءِ في الوصل لحنٌ لا يجوز عند أحدٍ علمتُه. ليس بشيء؛ فإن ذلك متواترٌ، فوجب قَبولُه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي: علمتُ ذلك، كما قاله الأكثرون بناءً على أن الظاهر من حال المؤمن تيقُّنُ أمور الآخرة، كالحساب، فالمنقولُ عنه ينبغي أن يكون كذلك، لكن الأمورَ النظريةَ لكون تفاصيلها لا تخلو عن تردُّدٍ مّا في بعضها مما لا يفوت اليقين فيه، كسهولة الحساب وشدَّته مثلاً = عبَّر عن العلم بالظنِّ مجازاً؛ للإشعار بذلك. وقيل: لمَّا كان الاعتقادُ بأمور الآخرة مطلقاً مما لا ينفكُّ عن الهواجس والخَطَرات النفسية، كسائر العلوم النظرية، نزِّل منزلةَ الظنِّ، فعبِّر عنه به لذلك. وفيه إشارةٌ إلى أن ذلك غيرُ قادح في الإيمان.

وجُوِّز أن يكون الظنُّ على حقيقته، على أن يكون المرادُ من حسابه: ما حصل له من الحساب اليسير[٢]؛ فإنَّ ذلك مما لا يقين له به، وإنما ظنَّه ورجَّحه لمزيد وثوقه برحمة الله عزَّ وجل. ولعلَّ ذلك عند الموت؛ فقد دلَّت الأخبارُ على أنَّ اللائق بحال المؤمن حينئذٍ غلبةُ الرجاء وحسنُ الظنِّ، وأما قبلَه، فاستواءُ الرجاء والخوف، وعليه يظهرُ جدّاً وقوعُ هذه الجملة موقعَ التعليل؛ لما تُشعر به الجملةُ الأولى من حسن الحال، فكأنه قيل: إني على ما يحسُنُ من الأحوال، أو إني فَرِحٌ مسرور؛ لأني ظننتُ بربِّي أنه سبحانه يُحاسبني حساباً يسيراً، وقد حاسبني كذلك، فالله تعالى عند ظنِّ عبده به. وهذا أولى مما قيل: يجوز أن يكون المرادُ: إني ظننتُ أني ملاقٍ حسابي على الشدَّة والمناقشة لما سلف منِّي من الهفوات، والآن أزال الله تعالى عنِّي ذلك، وفرَّج همِّي.

وقيل: يطلقُ الظنُّ على العلم حقيقةً، وهو ظاهرُ كلام الرضيِّ[٣] في أفعال القلوب، وفيه نظر.

---

(١) وكذلك قرأ يعقوب من العشرة، وحذف الهاء كذلك من «كتابيه» و«حسابيه» وصلاً، وأثبتها وقفاً. النشر ٢/ ١٤٢، وقراءة حمزة في التيسير كذلك ص٢١٤، ٢٢٥.

(٢) في هامش الأصل ما نصه: فالإضافة للعهد. اهـ منه.

(٣) شرح الرضي على الكافية ٤/ ١٥٠.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ قال أبو عُبيدة والفرَّاء: أي: مَرْضِيَّة[١]. وقال غيرُ واحد: أي: ذاتِ رضًى، على أنه من باب النسبة بالصيغة، كلابنٍ وتامرٍ، ومعنى ذات رضى: ملتبسة بالرِّضا، فيكون بمعنى مرضيَّة أيضاً. وأُورد عليه أنَّ ما أُريد به النسبةُ لا يؤنَّث كما صرَّح به الرضيُّ[٢] وغيرُه، وهو هنا مؤنَّث، فلا يصحُّ هذا التأويل، إلا أن يُقال: التاءُ فيه للمبالغة، وفيه بحث.

وقال بعضُ المحقِّقين: الحقُّ أنَّ مرادَهم أن ما قُصد به النسبةُ لا يلزم تأنيثُه، وإن جاء فيه على خلاف الأصل الغالب أحياناً.

والمشهور حَمْلُ ما ذُكر على أنه مجازٌ في الإسناد، والأصل: في عيشةٍ راضٍ صاحبُها، فأسند الرضا إليها؛ لجعلها ـ لخلوصها دائماً عن الشوائب ـ كأنها نفسَها راضية. وجُوِّز أن يكون فيه استعارةٌ مكنيَّة وتخييليَّة، كما فُصِّل في مطوَّل كتب المعاني.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ مرتفعةِ المكان؛ لأنها في السماء، فنسبةُ العلوِّ إليها حقيقةٌ، ويجوز أن تكون مجازاً، وهي حقيقة لدرجاتها وما فيها من بناء ونحوه، أو يكون هناك مضافٌ محذوفٌ، أي: عالية درجاتُها، أو بناؤها، أو أشجارها، وفي «البحر»[٣]: «عالية» مكاناً وقدراً. ولا يخفى ما في استعمال العلوِّ فيهما من الكلام.

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ: قِطف، بكسر القاف، وهو ما يُجتنى من الثمر، زاد بعضهم: بسرعة، وكأن ذلك لأنها من شأن القَطف بفتح القاف، وهو مصدرُ قطف، ولم يجعلوا «قطوفها» جمعاً له؛ لأن المصدر لا يطَّرِدُ جمعُه، ولقوله تعالى: ﴿دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: قريبةٌ يتناول الرجل منها وهو قائم، كما قال البراء بنُ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٦٨، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٢. وعبارة الفراء: فيها الرضاء، والعرب تقول: هذا ليل نائم، وسر كاتم، وماء دافق، فيجعلونه فاعلاً وهو مفعول في الأصل، وذلك أنهم يريدون وجه المدح.

(٢) شرح الرضي على الكافية ٣/ ٣٣١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٢٥.

عازب رضي الله عنه، وقال بعضهم: يدركُها القائمُ والقاعد والمضطجع بِفِيْه من شجرتها، وعليه: يجوز أن يكون مرادُ البراء التمثيلَ.

وأخرج عَبْد بنُ حُمَيد عن قتادة أنه قال: دَنَتْ فلا يَرُدُّ أيديَهم عنها بُعْدٌ ولا شوكٌ(١). وفُسِّر الدنوُّ عليه بسهولة التناول.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القول، أي: يقال فيها ذلك. وجمع الضمير رعايةً للمعنى. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفةٌ لمحذوفٍ وقع مفعولاً به، والأصل: أكلاً وشرباً هنيئاً، أي: غير منغّصين، فحُذِف المفعول به، وأُقيمت صفتُه مقامه، وصحَّ جعلُه صفةً لذلك مع تعدُّده؛ لأنَّ فعيلاً يستوي فيه الواحدُ فما فوقَه. وجعل بعضهم المحذوف مصدراً، وكذا صفته، أعني «هنيئاً»، ووجّه عدم تثنيته بأنَّ المصدر يتناول المثنَّى أيضاً، فلا تغفل. وجُوِّز أن يكون نصباً على المصدرية لفعلٍ من لفظه، وفَعِيل من صيغ المصادر، كما أنه من صيغ الصفات، أي: هنئتُم هنيئاً، والجملةُ في موضع الحال، والكلامُ في مثلها مشهور.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدَّمتُم من الأعمال الصالحة ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: الماضية، وهي أيامُ الدنيا، وقيل: أي: الخالية من اللذائذ، أي: الحقيقية، وهي أيامُ الدنيا أيضاً، وقيل: أي: التي أخليتُموها من الشهوات النفسانية، وحُمِلَ عليه ما رُوي عن مجاهد وابن جُبَير ووكيع من تفسير هذه الأيام بأيام الصيام.

وأخرج ابنُ المنذر عن يعقوب الحنفي قال: بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: يا أوليائي، طالما نظرتُ إليكم في الدنيا، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيام الخالية(٢).

والظاهر أن «ما» على تفسير «الأيام الخالية» بأيام الصيام غيرُ محمولةٍ على العموم، والعمومُ في الآية هو الظاهر.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٢، وأخرجه كذلك الطبري ٢٣/ ٢٣٤.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٢، غير أنه جاء اسم القائل فيه: يوسف بن يعقوب الحنفي. وقلص الشيء: ارتفع. مختار الصحاح (قلص).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ لِمَا يرى من قُبْح العمل، وانجِلاء الحساب عمَّا يسوءه ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ أي: الموتةَ التي متُّها في الدنيا ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: القاطعة لأمري، ولم أُبعث بعدها، ولم ألقَ ما ألقى. فالضميرُ للموتة الدالّ عليها المقام، وإن لم يسبِقْ لها ذِكْر، ويجوز أن يكون لِمَا شاهده من الحالة، أي: ليتَ هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليَّ؛ لما أنه وجدها أمرَّ من الموت، فتمنَّاه عندها، وقد قيل: أشدُّ من الموت ما يُتمنَّى الموتُ عنده. وقد جُوِّز أن يكون للحياة الدنيا المفهومة من السياق أيضاً، والمراد بـ «القاضية» الموتة، فقد اشتهرت في ذلك، أي: يا ليت الحياةَ الدنيا كانت الموتةَ ولم أُخلق حيًّا. وبتفسير «القاضية» بما ذُكر اندفع ما قيل: إنها تقتضي تجدُّد أمرٍ، ولا تجدُّد في الاستمرار على العدم، نعم هذا الوجهُ لا يخلو عن بُعْدٍ.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ أي: ما أغنى عنِّي شيئاً الذي كان لي في الدنيا من المال ونحوه، كالأتباع، على أنَّ «ما» في «ما أغنى» نافيةٌ، و«ما» في «ما ليه» موصولةٌ فاعلُ «أغنى»، ومفعوله محذوفٌ، و«لِيَه» جارٌّ ومجرور في موضع الصِّلة. ويجوز أن يُجعل «ماليه» عبارة عن «مال» مضافٍ إلى ياء المتكلم، والأولُ أظهر شمولاً للأتباع ونحوها؛ إذ لا يتأتَّى اعتبارُ ذلك على الثاني إلا باعتبار اللزوم. ويجوز أن تكون «ما» في «ما أغنى» استفهاميةً للإنكار، و«ما ليه» على احتماليه، أي: أيُّ شيء أغنى عنِّي مالي؟

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بطلت حُجَّتي التي كنتُ أحتجُّ بها في الدنيا، وبه فسَّره ابنُ عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وعكرمة، والسُّدِّي، وأكثرُ السلف. أو: مُلكي وتسلُّطي على الناس، وبقيتُ فقيراً ذليلاً، أو: تسلُّطي على القوى والآلات التي خُلِقت لي، فعجزتُ عن استعمالها في الطاعات، يقول ذلك تحسُّراً وتأسُّفاً. وإلى هذا ذهب قتادةُ مشيراً إلى وجه اختياره دون الثاني؛ أخرج عَبْد بنُ حُمَيد عنه أنه قال: أَمَا والله ما كلُّ من دخل النار كان أميرَ قرية، ولكنَّ الله تعالى خلقَهم

وسلَّطهم على أبدانهم، وأمرَهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته[١]. وبما أشار إليه رُجِّح الأول على الثاني أيضاً، لكن قيل: ما بَعْدُ أشدُّ مناسبةً له، وستطَّلع إن شاء الله تعالى على ذلك.

وعن ابن عباس أنها نزلت في الأسود بن عبد الأسد[٢].

ويُحكى عن فنّاخسرةَ[٣] الملقَّب بعَضُد الدولة ابن بُوَيْه أنه لمَّا أنشد قوله:

ليس شربُ الكاس إلا في المطرْ ... وغناءٌ من جَوارٍ في سَحَرْ
غانياتٌ سالباتٌ للنُّهى ... ناعماتٌ في تضاعيفِ الوترْ
مبرزاتُ الكاسِ من مطلعها ... ساقياتُ الراح مَنْ فاق البشرْ
عضدَ الدولة وابنَ ركنها ... ملكَ الأملاك غلابَ القدرْ

لم يُفلح بعده، وجُنَّ، وكان لا ينطلق لسانُه إلا بهذه الآية. وفي «يتيمة»[٤] الثعالبي أنه لما احتُضِرَ لم ينطلق لسانُه إلا بتلاوة: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ نسأل الله تعالى العفوَ والعافية.

ورُوي عن أبي عمرو أنه أدغم هاءَ السكت من «ما ليه» في هاء «هلك»[٥]،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٢، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٣٦، وجاء عنده: وسلّطهم على أقرانهم.

(٢) في الأصل و(م): الأشد، وضبط في الأصل بتشديد الدال، والأسود قتل كافراً يوم بدر، وهو أخو أبي سلمة زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ، انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٤٤.

(٣) كذا ضبط اسمه في الأصل، وجاء في الوافي بالوفيات ٢٤/ ٨٧: فناخسرو.
وهو أبو شجاع بن الحسن بن بويه كان محباً للعلم، مشتغلاً به مقرباً لأهله، كثير المجالسة لهم، مبالغاً في تعظيمهم، محباً للفضائل، تاركاً للرذائل، حسن السياسة، شيعي المذهب، وهو أول من خوطب في الإسلام بالملك شاهنشاه، توفي ببغداد بعلة الصرع سنة (٣٧٢هـ). الوافي بالوفيات، وفيه الأبيات الآتية بعدُ.

(٤) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٢/ ٢٥٩، والأبيات السابقة فيه كذلك.

(٥) لم نقف على من نسب الإدغام هنا لأبي عمرو، وانظر تفصيل المسألة في التبصرة لمكي ص٨٨، والنشر ٢/ ٢١، وإتحاف فضلاء البشر ص٥٥٥.

وهو ضعيفٌ قياساً؛ لأن هاء السكت لا تُدغم؛ لكون الوقف عليها محقَّقاً أو مقدَّراً كما في «شرح التوضيح»، وفيه روايةُ الإدغام فيما ذكر عن وَرْش، وتُعقِّب بأن المرويَّ عنه إنما هو النقلُ في «كتابيه انِّي»[1]. والله تعالى أعلم.

﴿خُذُوهُ﴾ بتقدير القول، أي: فيقولُ الله تعالى للزَّبانية: خذوه ﴿فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ أي: شدُّوه بالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ أي: لا تصلوه إلا الجحيم ـ وهي النارُ العظيمةُ، الشديدةُ التأجُّج ـ لعِظَم ما أتى به من المعصية، وهي الكفرُ بالله تعالى العظيم.

وقيل: حيث كان يتعظَّم على الناس، وهو مبنيٌّ على اختصاص ما قبلُ بالسلاطين، بقرينةِ تعظيم أمره، وتنصيص الله تعالى على تعذيبه.

وأُجيب عمَّا يخدِشُه مما يُفهم من كلام قتادة بأنه لا ضيرَ في كونه بياناً لحال بعض مَنْ أُوتي كتابه بشماله، ومثلُه ما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ إلخ [الآية: ٣٤]، فكم من أهل الشمال مَنْ لا يكونُ كذلك.

وأيضاً قد ذكروا أنَّ «الجحيم» اسمٌ لطبقةٍ من النار، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ أي: قياسُها ومقدارُ طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ يجوزُ أن يُراد ظاهرُه من العدد المعروف، والله تعالى أعلم بحكمةِ كونها على هذا العدد، ويجوز أن يُراد به التكثيرُ؛ فقد كثر السبعة والسبعون في التكثير والمبالغة، ورُجِّح بأنه أبلغُ من إبقائه على ظاهره.

والذراعُ مؤنَّث، قال ابنُ الشِّحنة: وقد ذكره بعضُ عُكْل، فيقال: الثوبُ خمس أذرع، وخمسة أذرع.

والمرادُ بها المعروفة عند العرب، وهي ذراعُ اليد؛ لأنَّ الله سبحانه إنما خاطَبَهم بما يعرفون. وقال ابنُ عباس، وابن جُرَيج، ومحمد بن المُنْكَدر: ذراع المَلَك.

---

(١) أورد ابن الجزري في النشر ١/٤٠٩ الاختلاف على ورش في النقل والتحقيق، وذكر أن رواية الجمهور عنه بإسكان الهاء وتحقيق الهمزة، وذكر أن الشاطبي أشار إلى ضعف النقل عنه، وكذلك نَقَل ترجيح تركِ النَّقْل عن مكيّ، ثم قال: وتركُ النقلِ فيه هو المختار عندنا، والأصح لدينا، والأقوى في العربية... إلخ.

وأخرج ابنُ المبارك وجماعةٌ عن نَوْف البِكاليِّ أنه قال وهو يومئذٍ بالكوفة: الذراعُ سبعون باعاً، والباع ما بينكَ وبين مكة[1]. ويحتاج إلى نقلٍ صحيح.

وقال الحسن: الله تعالى أعلم بأيِّ ذراع هي.

والسلسلة حَلَقٌ تدخل في حَلَق على سبيل الطول، كأنها من تسلسَلَ الشيءُ: اضطربَ، وتنوينُها للتفخيم. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: لو وُضع منها حَلْقةٌ على جبل لذاب كالرَّصاص.

﴿فَٱسْلُكُوهُ ۝﴾ أي: فأدخلوه، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] وإدخالُه فيها بأن تُلَفَّ على جسده، وتُلوى عليه من جميع جهاته، فيبقى مرهَقاً فيما بينها لا يستطيع حَراكاً ما. وعن ابن عباس أنَّ أهل النار يكونون فيها كالثعلب في الجُبَّة، والثعلبُ: طرفُ خشبة الرُّمح، والجُبَّة: الزجّ.

وأخرج ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن جُرَيج قال: قال ابن عباس: إنَّ السلسلةَ تدخُلُ في اسْتِهِ، ثم تخرج من فِيْهِ، ثم يُنظَمون فيها كما يُنظَم الجَراد في العود، ثم يُشوى[2]. وفي رواية أخرى عنه[3] أنها تُسْلَكُ في دُبُره حتى تخرجَ من منخريه. ومن هنا قيل: إنَّ في الآية قلباً، والأصلُ: فاسلكوها فيه، والجمهور على الظاهر.

والفاءُ جزائيَّةٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] والتقديرُ: مهما يكُنْ من شيءٍ فاسلكوه في سلسلة.. إلخ، فقدّم الظرف وما معه عوضاً عن المحذوف، ولتتوسَّط الفاءُ كما هو حقُّها، وليدلَّ على التخصيص، كأنه قيل: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، كأنها أفظعُ من سائر مواضع الإرهاق من الجحيم. ويجوز أن يكون

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٢، والزهد لابن المبارك (٢٨٨ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (٢٦٩).

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٢.

(٣) تحرفت في (م) إلى: أخرج عنهم.
وأخرج هذه الرواية ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث والنشور، كما قال السيوطي في الدر ٦/ ٢٦٢.

التقدير هكذا: ثم مهما يكن من شيء ففي سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً اسلكوه، ففيه تقديمان: تقديمُ الظرف على الفعل؛ للدّلالة على التخصيص، وتقديمُه على الفاء بعد حذفِ حرف الشَّرط؛ للتعويض وتوسيطِ الفاء.

و«ثم» في الموضعين لتفاوتِ ما بين أنواع ما يُعذَّبون به من الغَلِّ، والتَّصْلية، والسَّلْك، على ما اختاره جمعٌ. وجوَّز بعضُهم كونَها على ظاهرها من الدلالة على المُهْلة، ورُجِّح الأولُ بأنه أنسبُ بمقام التهديد.

وزعم بعضٌ أن «ثم» الثانية لعطف قولٍ مضمَرٍ على ما أُضمر قبل «خذوه»؛ إشعاراً بتفاوت ما بين الأمرين، وفاء «فاسلكوه» لعطفِ المقول على المقول؛ لئلا يتوارَدَ حرفا عطفٍ على معطوف واحد، ويلزمُه أن يكون تقديمُ السلسلة على الفاء بعد حذف القول؛ لئلا يلزَمَ التواردُ المذكور، ومبنى هذا التكلُّف البارد الغفلةُ عمَّا ذكرناه، فلا تغفل.

ويُعلم منه وَهْنُ ما قيل: إنه ليس في الآية ما يفيدُ التخصيصَ، لأنَّ «في سلسلة» ليس معمولاً لـ «اسلكوه»؛ لئلا يلزمَ الجمعُ بين حرفَي عطفٍ، بل هو معمولٌ لمحذوف، فيقدَّر مقدَّماً على الأصل، على أن تقديمَ «الجحيم» كالقرينة على كون «في سلسلة» مقدَّماً على عامله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ تعليلٌ على طريقة الاستئناف للمبالغة، كأنه قيل: لم استحقَّ هذا؟ فقيل: لأنه كان في الدنيا مستمرّاً على الكفر بالله تعالى العظيم. وقيل: أي: كان في علم الله تعالى المتعلِّقِ بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر أنه لا يتَّصفُ بالإيمان به عزَّ وجل، والأولُ هو الظاهر.

وذكر «العظيم» للإشارة إلى وجهِ عِظَمِ عذابه، وقيل: للإشعار بأنه عزَّ وجل المستحقُّ للعَظَمة فحسب، فمن نسَبَها إلى نفسه استحقَّ أعظمَ العقوبات.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ولا يحثُّ على بذلِ طعامه الذي يستحقُّه في مال الموسِر، ففيه مضافٌ مقدَّر؛ لأن الحثَّ إنما يكون على الفعل، والطعامُ ليس به، ويجوز أن يكون الطعامُ بمعنى الإطعام بوضعِ الاسم موضعَ المصدر،

كالعطاء بمعنى الإعطاء، أي: ولا يحثُّ على إطعام المسكين، فضلاً عن أن يبذلَ مالَه، فليس هناك مضافٌ محذوف.

وقيل: ذكر الحضّ للإشعار بأن تاركَ الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل؟ وما أحسن قولَ زينب [بنت] الطَّثَرية ترثي أخاها يزيد:

إذا نـزل الأضيـافُ كـان عَـذَوَّراً   على الحيِّ حتى تستقلَّ مراجِلُهْ[(١)]

تريد: حضَّهم على القِرى، واستعجَلَهم، وتشاكَسَ عليهم، وفيه أوجه من المدح.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحضُّ امرأتَه على تكثير المَرَق لأجل المساكين، ويقول: خَلَعْنا نصفَ السلسلة بالإيمان، أفلا نخلَعُ نصفَها [الآخر][(٢)]؟ اقتبسَ ذلك من الآية؛ فإنه جعَلَ استحقاقَ السلسلة معلَّلاً بعدم الإيمان وعدمِ الحضِّ.

وتخصيصُ الأمرين بالذِّكر؛ قيل: لِمَا أنَّ أقبح العقائد الكفرُ، وأشنع الرذائل البخلُ وقسوةُ القلب.

وفي الآية دلالةٌ على أن الكفَّار مخاطبون بالفروع كالأصول، وإلا لم يُعاقبوا على ترك الحضِّ على طعام المسكين.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ قريبٌ مشفِقٌ يحميه ويدفع عنه؛ لأن أولياءه يتحامَوْنه ويفرُّون منه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ قال اللغويون: هو ما يجري من الجِراح إذا غُسلت، فِعْلين من الغَسْل. وقال ابنُ عباس في رواية ابنِ أبي حاتم وابنِ المنذر من طريق عِكْرمة عنه: إنه الدمُ والماء الذي يسيلُ من لحوم أهل النار. وفي معناه قوله

---

(١) البيت في شرح الحماسة للمرزوقي ٣/١٠٤٧، وللتبريزي ٣/٤٦، والأغاني ٨/١٨٣، وأمالي القالي ٢/٨٥، وما بين حاصرتين من المصادر. قال التبريزي: العذوَّر: السيء الخلق، القليل الصبر فيما يريده ويهم به، وَصَفَتْه بسوء الخلق والتشدد في الأمر والنهي حتى تُنصب المراجل وتُهيأ المطاعم للضيفان، ثم يعود إلى خلقه الأول.

(٢) الكشاف ٤/١٥٤، والبحر ٨/٣٢٦، وما بين حاصرتين منهما.

في روايتهما من طريق عليٍّ بن أبي طلحة عنه: هو صديدُ أهل النار. وأخرج ابنُ أبي حاتم من طريق مجاهدٍ عنه أنه قال: ما أدري ما الغِسْلين، ولكني أظنُّه الزَّقُّوم(١). والأكثرون على الأول.

وأخرج الحاكمُ وصحَّحه(٢) عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّ دلواً من غِسْلين يُهراق في الدنيا لأنتنَ بأهل الدنيا».

وجعله بعضُهم متَّحداً مع الضَّريع، وقال بعضُهم: هما متباينان، وسيأتي الكلامُ في ذلك إن شاء الله تعالى.

و«له» خبرُ «ليس»، قال المَهْدويُّ: ولا يصحُّ أن يكون «ها هنا». ولم يُبيِّن ما المانعُ من ذلك، وتبعَه القرطبيُّ في ذلك(٣)، وقال: لأن المعنى يصيرُ: ليس ها هنا طعام إلا من غِسْلين، ولا يصحُّ ذلك؛ لأنَّ ثمَّ طعاماً غيره و«هاهنا» متعلِّق بما في «له» من معنى الفعل. انتهى.

وتعقب ذلك أبو حيان(٤) فقال: إذا كان ثمَّ غيرُه من الطعام، وكان الأكل أكلاً آخر صحَّ الحصرُ بالنسبة إلى اختلافِ الأكلين، وأما إن كان الضريعُ هو الغِسْلين كما قال بعضُهم، فلا تناقضَ بين هذا الحصرِ والحصر في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦] إذ المحصورُ في الآيتين هو من شيء واحد، وإنما يمتنع ذلك من وجهٍ غير ما ذكره، وهو أنه إذا جعلنا «هاهنا» الخبر كان «له» و«اليوم» متعلِّقين بما تعلَّق به الخبرُ، وهو العاملُ في «هاهنا»، وهو عاملٌ معنويٌّ، فلا يتقدَّم معمولُه عليه، فلو كان العاملُ لفظيّاً جاز، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فـ «له» متعلِّق بـ «كفواً»، وهو خبرٌ لـ «يكن». اهـ. وفي إطلاقِ العاملِ المعنويِّ على متعلّق الجارِّ والمجرور المحذوفِ بحثٌ.

---

(١) أورد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٣ الروايات السالفة التي ذكرها المصنف.
(٢) المستدرك ٢/ ٥٠١.
(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ٢١١.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٢٧.

﴿لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ أصحابُ الخطايا، من خطئ الرجلُ: إذا تعمَّد الذنبَ، من الخطأ المقابلِ للصواب دون المقابل للعمد، والمراد بهم ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ المشركون.

وقرأ الحسنُ، والزهريُّ، والعَتَكي، وطلحةُ في رواية: «الخاطِيُون» بياء مضمومةٍ بدلاً من الهمزة، وقرأ أبو جعفرٍ، وشيبةُ، وطلحةُ في رواية أخرى، ونافع بخلاف عنه: «الخاطون» بطرح الهمزة بعد إبدالها تخفيفاً على أنه من خطئ، كقراءة مَن هَمَز[١]. وعن ابن عباس ما يُشعر بإنكار ذلك، أخرج الحاكم وصحَّحه[٢] من طريق أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يَعْمَر عنه أنه قال: ما الخاطون؟! إنما هو «الخاطئون»، ما الصابون؟! إنما هو «الصابئون». وفي رواية: ما الخاطون؟! كلنا نخطو. كأنه يريد أنَّ التخفيفَ هكذا ليس قياساً، وهو ملبِسٌ مع ذلك، فلا يُرتكب.

وقيل: هو من خطا يخطو، فالمرادُ بهم الذين يتخطَّون من الطاعة إلى العصيان، ومن الحقِّ إلى الباطل، ويتعدَّون حدودَ الله عزَّ وجلَّ، فيكونُ كنايةً عن المذنبين أيضاً.

هذا، وظواهرُ هذه الآيات أنَّ المؤمن الطائعَ يُؤتَى كتابَه بيمينه، والكافر يُؤتَى كتابَه بشماله، ولم يُعلم منها حالُ الفاسق الذي مات على فِسقِه من غير توبةٍ، بل قيل: ليس في القرآن بيانُ حاله صريحاً، وقد اختُلف في أمره، فجزم الماورديُّ بأنَّ المشهور أنه يُؤتى كتابَه بيمينه، ثم حكى قولاً بالوقف، وقال: لا قائل بأنه يُؤْتاه بشماله[٣]. وقال يوسف بنُ عمر: اختُلف في عصاة المؤمنين: فقيل: يأخذون كتبَهم بأيمانهم، وقيل: بشمائلهم. واختلف الأوَّلون: فقيل: يأخذونها قبل الدخول في النار، ويكون ذلك علامةً على عدم خلودهم فيها، وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها.

---

(١) البحر المحيط ٨/٣٢٧، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١ قراءة «الخاطون» لابن مسعود وابن عباس.

(٢) المستدرك ٢/٥٠١.

(٣) في هامش الأصل: حكاه اللقاني. اهـ منه.

ومن أهل العلم مَن توقَّف؛ لتعارض النصوص، ومَنْ حفظ حجَّةٌ على مَنْ لم يحفظ، والمثبِتُ مقدَّم على النافي، ثم إنه ليس في هذه الآيات تصريحٌ بقراءة العبد كتابَه، والواردُ في ذلك مختلِف، والذي يجمعُ الآيات والأحاديث ـ على ما قال اللَّقاني ـ أنَّ من الآخذين مَنْ لم يقرأ كتابَه؛ لاشتماله على المخازي والقبائح، والجرائم والفضائح، فيأخذه بسبب ذلك الدَّهش والرُّعب، حتى لا يميِّز شيئاً كالكافر، ومنهم مَنْ يقرؤه بنفسه، ومنهم من يدعو أهلَ حاضرِه لقراءته إعجاباً بما فيه.

وظواهرُ النصوص أنَّ القراءة حقيقيةٌ، وقيل: مجازيةٌ عبَّر بها عن العلم، وليس بشيء. ولفظُ الحسن: يقرأُ كلُّ إنسان كتابَه أُمياً كان أو غير أميٍّ.

وظواهرُ الآثار أنَّ الحسنات تُكتب متميِّزةً من السيئات، فقيل: إن سيِّئات المؤمن أولُ كتابه، وآخرُه: هذه ذنوبُك قد سترتُها وغفرتُها، وإنَّ حسنات الكافر أولُ كتابه، وآخرُه: هذه حسناتُك قد رَدَدْتُها عليكَ وما قبلتُها.

وقيل: يقرأُ المؤمنُ سيئات نفسه، ويقرأُ الناسُ حسناته حتى يقولوا: ما لهذا العبد سيئةٌ، ويقول: مالي حسنةٌ.

وقيل: كلٌّ يقرأ حسناته وسيئاته، وأولُ سطرٍ من كتاب المؤمن أبيضُ، فإذا قرأه ابيضَّ وجهُه، والكافرُ على ضدِّ ذلك.

وظواهرُ الآيات والأحاديثِ عدمُ اختصاص إيتاءِ الكتب بهذه الأمة، وإن تردَّد فيه بعضُ العلماء؛ لِمَا في بعضها مما يُشعر بالاختصاص؛ ففي حديثٍ رواه أحمدُ عن أبي الدرداء أنه عليه الصلاة والسلام قال ـ وقد قال له رجل: كيف تعرفُ أُمَّتَكَ من بين الأمم فيما بين نوحٍ عليه السلام إلى أُمَّتك يا رسول الله؟ ـ: «هم غرٌّ محجَّلون من أثر الوضوء، ليس أحدٌ كذلك غيرُهم، وأعرفُهم أنهم يُؤْتَون كتبَهم بأيمانهم» الحديث[1]. وقد تقدَّم فتذكَّر.

---

(١) المسند (٢١٧٣٧)، وموضع الشاهد منه ضعيف، وانظر تمام الكلام عنه في حاشية المسند.

والحقُّ أن الجنَّ في هذه الأمور حكمُهم حكمُ الإنس على ما بحثَه القرطبيُّ[(١)] وصرَّح به غيرُه. نعم الأنبياءُ والملائكةُ عليهم الصلاة والسلام لا يأخذون كتاباً، بل إنَّ السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ـ ومنهم أبو بكر رضي الله عنه ـ لا يأخذون أيضاً كتاباً، وأولُ مَنْ يُؤتى كتابَه بيمينه وله شعاعٌ كشعاع الشمس عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه، كما في الحديث[(٢)]، وبعدَه أبو سَلَمة بنُ عبد الأسد، وأولُ من يأخذ كتابَه بشماله أخوه الأسودُ بنُ عبد الأسد[(٣)] الذي مرَّ ذِكْره غيرَ بعيد.

والآثارُ في كيفية وصول الكتب إلى أيدي أصحابها مختلفةٌ؛ فقد ورَدَ أنَّ الريح تُطَيِّرُها من خزانةٍ تحت العرش، فلا تُخطئُ صحيفةٌ عنقَ صاحبها، ووَرَدَ أنَّ كلَّ أحدٍ يُدْعى فيُعطى كتابَه، وجُمِعَ بأَخْذِ الملائكة عليهم السلام إيَّاها من أعناقهم، ووضعِهِم لها في أيديهم، والله تعالى أعلم، وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلب من محلِّه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قد تقدَّم الكلامُ في ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

و«ما تبصرون وما لا تبصرون» المشاهداتُ والمغيَّباتُ، وإليه يرجع قولُ قتادة: هو عامٌّ في جميع مخلوقاته عزَّ وجل. وقال عطاءٌ: ما تبصرون من آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسرار القدرة. وقيل: الأجسامُ والأرواح. وقيل: الدنيا والآخرة. وقيل: الإنسُ والجنُّ والملائكة. وقيل: الخَلْق والخالق. وقيل: النِّعَم الظاهرةُ والباطنة. والأولُ شاملٌ لجميع ما ذُكر.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٣٠، والتذكرة ١/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٢٠٢، وفيه عمر بن إبراهيم الكردي، قال عنه الخطيب: يروي المناكير عن الأثبات.

(٣) أخرج ذلك الطبراني في الأوائل (٨٢)، وابن أبي عاصم في الأوائل (٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، غير أنه من طريق حبيب بن زريق كاتب مالك، عن ابن أخي الزهري، وقد قال عنه أبو حاتم ـ كما في الجرح والتعديل ٣/ ١٠٠ـ: متروك الحديث، روى عن ابن أخي الزهري أحاديث موضوعة.
وقد تحرف: عبد الأسد، في الأصل و(م) إلى: عبد الأشد.

وسببُ النزول ـ على ما قال مقاتل ـ أنَّ الوليد قال: إنَّ محمداً ـ ﷺ ـ ساحرٌ، وقال أبو جهل: شاعرٌ، وقال عتبةُ: كاهن، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ إلخ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٍ﴾ يُبَلِّغه عن الله تعالى؛ فإن الرسول لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ على الله عزَّ وجل، وهو النبيُّ ﷺ في قول الأكثرين، وقال ابنُ السائب ومقاتل وابنُ قتيبة[1]: هو جبريلُ عليه السلام.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ﴾ إلخ، قيل: دليلٌ لما قاله الأكثرون؛ لأن المعنى على إثبات أنه عليه الصلاة والسلام رسولٌ، لا شاعرٌ ولاكاهن، كما يُشعر بذلك سببُ النزول، وتوضيحُ ذلك أنهم ما كانوا يقولون في جبريل عليه السلام: إنه كذا وكذا، وإنما كانوا يقولونه في النبيِّ ﷺ، فلو أُريد بـ «رسول كريم» جبريلُ عليه السلام لفاتَ التقابُلُ، ولم يَحسُنِ العطفُ، كما تقول: إنه لقولُ عالم، وما هو بقول جاهل. ولو قلت: وما هو بقول شجاع، نُسبتَ إلى ما تكره.

وتعقَّبه بعضُ الأئمَّة بأن هذا صحيحٌ إن سلِّم أنَّ المعنى على إثبات رسولٍ لا شاعر، ويكون قولُه تعالى: «إنه لقولُ رسولٍ» لا قول شاعر إثباتاً للرسالة على طريق الكناية، أما إذا جُعل المقصودُ من السياق إثباتُ حقِّيَّة المنزل، وأنه من الله عزَّ وجل، فإنه تذكرةٌ لهؤلاء، وحسرةٌ لمقابليهم، وهو في نفسه صدقٌ ويقين لا يحومُ حولَه شكٌّ، كما يدلُّ عليه ما بعدُ، فللقول الثاني أيضاً موقعٌ حسنٌ، وكأنَّه قيل: إن هذا القرآن لَقَولُ جبريل الرسول الكريم، وما هو من تلقاء محمدٍ ﷺ كما تزعمون وتدَّعون أنه شاعرٌ وكاهن، ويكون قد نفى عنه ﷺ الشعرَ والكَهانة على سبيل الإدماج. انتهى. وهو تحقيقٌ حسن.

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: تُصدِّقون تصديقاً قليلاً، على أن «قليلاً» صفةٌ للمفعول المطلق لـ «تؤمنون»، و«ما» مزيدةٌ للتأكيد، والقلَّة بمعناها الظاهر؛ لأنهم لظهور صِدْقه ﷺ لزِمَ تصديقُهم له عليه الصلاة والسلام في الجملة، وإن أظهروا

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٨٤.

خلافَه عناداً، وأبَوه تمرُّداً بألسنتهم، وحمَلَ الزمخشريُّ[(١)] القلَّةَ على العدم والنفي، أي: لاتؤمنون ألبتَّةَ، ولا كلامَ فيه سوى أنه دون الأول في الظهور.

وقال أبو حيَّان[(٢)] لا يُراد بـ «قليلاً» هنا النفيُ المحضُ كما زعم، فذلك لا يكون إلا في أقلَّ، نحو: أقلّ رجل يقول كذا إلا زيد، وفي قلَّ، نحو: قلَّ رجلٌ يقول كذا إلا زيد، وقد يكون في قليل وقليلة إذا كانا مرفوعين، نحو ما جَوَّزوا في قوله:

أُنيخَتْ فألقَتْ بلدةً فوق بلدةٍ ... قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغَامُها[(٣)]

أما إذا كان منصوباً، نحو: قليلاً ضربت، أو: قليلاً ما ضربت، على أن تكون «ما» مصدرية، فإن ذلك لا يجوز؛ لأنه في قليلاً ضربت، منصوبٌ بضربت، ولم تستعمل العربُ قليلاً إذا انتصَبَ بالفعل نفياً، بل مقابلاً للكثير، وأمَّا في قليلاً ما ضربت، على أن تكون «ما» مصدرية، فيحتاج إلى رفع قليل؛ لأنَّ «ما» المصدرية في موضع رفعٍ على الابتداء. اهـ.

وأنتَ تعلمُ أنَّ مثل ذلك لا يُسمع على مثل الزمخشري بغير دليل؛ فإنَّ الظاهر أنه ما قال ما قال إلا عن وقوف، وهو فارسُ ميدان العربية.

وجُوِّز كونُه صفةً لزمانٍ محذوف، أي: زماناً قليلاً تؤمنون، وذلك ـ على ما قيل ـ إذا سُئلوا: مَنْ خَلَقَهم؟ أو: مَنْ خلَقَ السماوات والأرض؟ فإنهم يقولون حينئذٍ: الله تعالى.

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٥٤.

(٢) في البحر المحيط ٨/٣٢٨.

(٣) البيت لذي الرمَّة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٠٤.
وقوله: أُنيخت، أي: أُبركت، والبلدة الأولى: الصدر، والثانية: الأرض، وبغام الناقة: صوت لا تفصح به. والمعنى أن الناقة أُبركت، فألقت صدرها على الأرض في بلدة قليل بها الأصوات غير صوت الناقة، أما صوتها فكثير.
وقليل، بالجرِّ: صفة سببية للبلدة الثانية، ويجوز رفعه على أنه خبر الأصوات، والجملة صفة. خزانة الأدب ٣/ ٤١٩-٤٢٠.

وقال ابنُ عطية[1]: نصب «قليلاً» بفعلٍ مضمرٍ يدلُّ عليه «تؤمنون»، ويحتمِلُ أن تكون «ما» نافيةً، فينتفي إيمانهم ألبتَّة، ويحتمِلُ أن تكون مصدريةً، وما يتَّصفُ بالقلَّة هو الإيمانُ اللغويُّ، وقد صدَّقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً، ككون الصِّلة والعفاف اللذين كانا يأمُرُ بهما عليه الصلاة والسلام حقّاً وصواباً. اهـ.

وتُعقِّب بأنه لا يصحُّ نصبُ «قليلاً» بفعل مضمرٍ دالٍّ عليه «تؤمنون»؛ لأنه إما أن تكون «ما» المقدَّرةُ معه نافيةً، فالفعلُ المنفيُّ بـ «ما» لا يجوز حذفُه، وكذا حذفُ «ما»، فلا يجوز: زيداً ما أضربُه، على تقدير: ما أضربُ زيداً ما أضربُه، وإن كانت مصدريةً كانت إما في موضع رفع على الفاعلية بـ «قليلاً»، أي: قليلاً إيمانُكم، ويَرِدُ عليه لزومُ عملِهِ من غير تقدُّم ما يعتمد عليه، ونصبُه ولا ناصب له، وإمَّا في موضع رفعٍ على الابتداء، ويَرِدُ عليه لزومُ كونه مبتدأ بلا خبرٍ؛ لأن ما قبلَه منصوبٌ لا مرفوع، فتأمل.

وقرأ ابنُ كثير، وابنُ عامر وأبو عَمرو بخلافٍ عنهما، والحسنُ، والجَحْدريُّ: «يؤمنون» بالياء التحتية على الالتفات[2].

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾ كما تدَّعون مرَّةً أخرى.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: تذكَّرون تذكُّراً قليلاً، فلذلك يلتبسُ الأمر عليكم. وتمامُ الكلام فيه إعراباً كالكلام فيما قبلَه، وكذا القراءةُ.

وذكر الإيمانَ مع نفي الشاعريَّة، والتذكُّرَ مع نفي الكاهنيَّة؛ قيل: لِمَا أنَّ عدمَ مشابهة القرآن الشعرَ أمرٌ بيِّنٌ لا ينكرُه إلا معاندٌ، فلا عذر لمدَّعيها في ترك الإيمان، وهو أكفرُ من حمار[3]، بخلاف مُبايَنَته للكَهانة؛ فإنها تتوقَّفُ على تذكُّر

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٢.

(٢) الاختلاف على ابن عامر إنما هو من رواية ابن ذكوان عنه، فقد روي عن ابن ذكوان القراءة بالوجهين، وأما أبو عمرو فالصحيح المشهور عنه كالجماعة. وانظر التفصيل في التيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩٠.
وقراءة أبي عمرو والحسن والجحدري ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٣٢٩.

(٣) حمار: رجل من عاد يقال له: حمار بن مويلع، كان مسلماً، وكان له واد طويل لم يكن =

أحواله ﷺ، ومعاني القرآن المنافية لطريق الكهانة، ومعاني أقوالهم.

وتُعقِّب بأن ذلك أيضاً مما يتوقَّف على تأمُّل قطعاً.

وأُجيب بأنه يكفي في الغرض الفرقُ بينهما أنَّ توقُّف الأول دون توقُّف الثاني.

﴿تَنزِيلٌ﴾ أي: هو تنزيلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ نزَّله سبحانه على لسان جبريل عليه السلام.

وقرأ أبو السَّمَّال: «تنزيلاً» بالنصب[1]، بتقدير: نزَّله تنزيلاً.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ التقوُّل: الافتراءُ، وسُمِّي تقوُّلاً لأنه قولٌ متكلَّف، والأقاويلُ: الأقوالُ المفتراة، وهي جمعُ قولٍ على غير القياس، أو جمعُ أقوالٍ، فهو جمع الجمع، كالأناعيم جمع أنعام، وأبابيت جمع أبيات.

وفي «الكشاف»[2]: سمَّى الأقوال المتقوَّلةَ «أقاويل» تصغيراً لها وتحقيراً، كقولك: الأعاجيب والأضاحيك، كأنها جمعُ أفعولة من القول.

وتعقَّبه ابنُ المنيِّر[3] بأن أفعولة من القول غريبٌ عن القياس التصريفيِّ.

وأُجيب بأنه غيرُ واردٍ؛ لأن مرادَه أنه جمعٌ لمفردٍ غيرِ مستعمل؛ لأنه لا وجهَ لاختصاصه بالافتراء غيرَ ما ذُكر.

والأحسنُ أن يُقال بمنع اختصاصه وضعاً، وأنه جمعٌ على ما سمعتَ، والتحقيرُ جاء من السِّياق، والمرادُ: لو ادَّعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ أي: لأمسكناه. وقولُه تعالى: ﴿بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ - أي: بيمينه - بيانٌ بعد الإبهام، كما في قوله سبحانه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

= بلاد العرب أخصب منه، فخرج بنوه يتصيَّدون، فأصابتهم صاعقة، فهلكوا، فكفر وقال: لا أعبد من فعل هذا ببنيَّ، ودعا قومه إلى الكفر، فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى، وأخرب واديه، فضربت به العربُ المثلَ في الكفر. مجمع الأمثال ٢/ ١٦٨.

(١) الكشاف ٤/ ١٥٤، والبحر ٨/ ٣٢٩.

(٢) ٤/ ١٥٥.

(٣) الانتصاف ٤/ ١٥٥.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وَتِينَه، وهو - كما قال ابنُ عباس - نِيَاطُ القلب الذي إذا انقطَعَ مات صاحبُه. وعن مجاهد أنه الحبلُ الذي في الظَّهر، وهو النّخاع. وقال الكلبيُّ: هو عِرْقٌ بين العِلْباء - وهي عصبُ العنق - والحُلقوم.

وقيل: عِرْقٌ غليظٌ تصادفُه شفرةُ الناحر، ومنه قولُ الشمَّاخ بن ضرار:

إذا بلَّغتِني وحملتِ رَحْلي عَرَابةَ فاشرَقي بدمِ الوَتِينِ[1]

وهذا تصويرٌ للإهلاك بأفظع ما يفعلُه الملوكُ بمن يغضبون عليه، وهو أنْ يأخذ القتَّالُ بيمينه، ويَكْفَحَه بالسيف[2]، ويضرب عنقَه.

وعن الحسن أن المعنى: لقطعنا يمينَه، ثم لقطعنا وَتِينَه عبرةً ونكالاً. والباءُ عليه زائدةٌ. وعن ابن عباس أن «اليمين» بمعنى القوَّة، والمرادُ أَخْذُه بعنفٍ وشدَّة. وضُعِّف بأن فيه ارتكابَ مجازٍ من غير فائدة، وأنه يفوتُ فيه التصويرُ والتفصيل والإجمال، ويصيرُ «منه» زائداً لا فائدةَ فيه.

وقرأ ذكوانُ، وابنُه محمد: «ولو يقولُ» مضارع قال، وقُرئ: «ولو تُقُوِّل» مبنيّاً للمفعول[3]، فنائبُ الفاعل «بعض» إن كان قد قُرئ مرفوعاً، وإن كان قد قُرئ منصوباً فهو «علينا».

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيُّها الناس ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الفعل، وهو القتل ﴿حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مانعين، يعني فما يمنع أحدٌ عن قتله. واستُظهر عودُ ضمير «عنه» لمن عاد عليه ضميرُ «تقوَّل»، والمعنى: فما يحول أحدٌ بيننا وبينه.

والظاهر في «حاجزين» أن يكون خبراً لـ «ما» على لغة الحجازيِّين؛ لأنه هو

---

(١) الكامل للمبرد ١/١٦٧، وعرابةُ هو ابن أوس بن قَيْظي الأنصاري، والمعنى: أنه إذا أوصلته الناقة إلى عرابة فلا يحتاج أن يرحل إلى غيره، لأنه سيغنيه بالعطاء. ينظر خزانة الأدب ٣/٣٨-٣٩.

(٢) يعني يواجهه بالسيف، والقتَّال هو المباشر للقتل، وكون هذا فيه تصوير فظيع للإهلاك؛ لأن الآخذ باليمين يقتله بعد مواجهته بالسيف، ونظرُه له أشدُّ عقوبة، ومَن يَضْرِب عنقَه من غير مواجهةٍ يأخذه من يساره. حاشية الشهاب ٨/٢٤١.

(٣) البحر المحيط ٨/٣٢٩.

محطُّ الفائدة، و«من» زائدةٌ، و«أحد» اسمُها، و«منكم»؛ قيل: في موضعِ الحال منه؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً له، فلما تقدَّم أُعرب حالاً كما هو الشائع في نعتِ النكرة إذا تقدَّم عليها، ونُظر في ذلك، وقيل: للبيان، أو متعلِّقٌ بـ «حاجزين»، كما تقول: ما فيك زيدٌ راغباً. ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر «ما».

وقال الحوفيُّ وغيرُه: إن «حاجزين» نعتٌ لـ «أحد»، وجُمع على المعنى لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العامِّ للواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، ومنه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] و﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فـ «أحد» مبتدأ، والخبر «منكم». وضُعِّف هذا القولُ بأن النفيَ يتسلَّط على الخبر، وهو كينونتُه منكم، فلا يتسلَّط على الحَجْز مع أنه الحقيقُ بتسلُّطه عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لأنهم المنتفعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فنجازيهم على تكذيبهم. وقيل: الخطابُ للمسلمين، والمعنى: إن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين به.

وقال مقاتل: وإن تكذيبَهم بالقرآن لحسرةٌ عليهم، فأعاد الضميرَ للمصدر المفهوم من قوله تعالى: «مكذبين»، والأولُ أظهرُ.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي: لليقين حقّ اليقين، والمعنى: لعينُ اليقين، فهو على نحو: عينُ الشيء ونفسُه، والإضافةُ بمعنى اللام على ما صرَّح به في «الكشف»، وجُوِّز أن تكون الإضافةُ فيه على معنى «مِن» أي: الحقّ الثابت من اليقين، وقد تقدم في «الواقعة» ما ينفعكُ هنا، فتذكَّره.

وذكر بعضُ الصوفية ـ قُدِّست أسرارُهم ـ أن أعلى مراتب العلم حقُّ اليقين، ودونه عينُ اليقين، ودونَه علمُ اليقين، فالأولُ كعلم العاقل بالموت إذا ذاقَه، والثاني كعلمه به عند معاينة ملائكته عليهم السلام، والثالثُ كعلمه به في سائر أوقاته. وتمامُ الكلام في ذلك يُطلب من كتبهم.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ أي: فسبِّح الله تعالى بِذكْر اسمِهِ العظيم تنزيهاً له عن الرِّضا بالتقوُّل عليه، وشكراً على ما أوحى إليك من هذا القرآن الجليل الشأن. وقد مرَّ نحوُ هذا في «الواقعة» أيضاً، فارجع إليه إن أردت، والله تعالى الموفق.

(٧٠) سورة المعارج مكية
وآياتها أربع وأربعون

● **سورة** المعارج من السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة ، وراحةٍ ونصب ، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين ، في دارِ الجزاء والخلود ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور ، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة ، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به ، وذكرت مثلاً لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو « النضر بن الحارث » حين دعا أن يُنزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك مكابرةً في الجحود والعناد ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج ..﴾ الآيات

● **ثم تناولت** الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات ، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملوَّن ألواناً غريبة ﴿يوم تكون السماءُ كالمُهْل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميمٌ حميماً . يبصَّرونهم يودُّ المجرم لو يفتدي من عذابِ يومئذٍ ببنيه .

وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ .

● **ثم استطردت** السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان ، فإنه يجزع عند الشدة ، ويبطر عند النعمة ، فيمنع حقَّ الفقير والمسكين ﴿إنَّ الإنسان خُلق هلوعاً . إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً . وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾ .

● **ثم تحدثت** عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات ، وفضائل الأخلاق ، وبينت ما أعدَّ الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إلاَّ المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** الكفرة المستهزئين بالرسول ، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فما للذين كفروا قِبَلَكَ مهطعين . عن اليمين وعن الشمال عزين . أيطمع كل امرئٍ منهم أن يُدخل جنة نعيم . كلاَّ إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ .

● **وختمت السورة** الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حقٌ لا ريب فيه ، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيراً منهم « فلا أُقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدِّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين .. إلى قوله خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » .

سورة المعارج

[٩٧١] أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾(١) قال هو للنضر بن الحارث قال: **«اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء»**. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾(٢) قال نزلت بمكة في النضر بن الحارث وقد قال: **«اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك»** الآية وكان عذابه يوم بدر.

[٩٧٢] ك.. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال نزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾(٣) فقال الناس: على من يقع العذاب فأنزل الله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾(٤).

* * *

---

[٩٧١] (١) سورة المعارج: الآية (١).

(٢) سورة المعارج: الآية (١).

[٩٧٢] (٣) سورة المعارج: الآية (١).

(٤) سورة المعارج: الآية (٢).

سورة المعارج

اربعون واربع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ﴾ فيه قراءتان منهم من قرأه بالهمزة، ومنهم من قرأه بغير همزة، أما الأولون وهم الجمهور فهذه القراءة تحتمل وجوهًا من التفسير: الأول: أن النضر بن الحارث لما قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعنى قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ أي دعا داع بعذاب واقع من قولك دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] قال ابن الأنباري: وعلى هذا القول تقدير الباء الإسقاط، وتأويل الآية: سأل سائل عذابًا واقعًا، فأكد بالباء كقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] وقال صاحب الكشاف لما كان ﴿سَأَلَ﴾ معناه هاهنا دعا لا جرم عدى تعديته كأنه قال دعا داع بعذاب من الله الثاني: قال الحسن وقتادة لما بعث الله محمدًا ﷺ وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض: سلوا محمدًا لمن هذا العذاب وبمن يقع فأخبره الله عنه بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال ابن الأنباري: والتأويل على هذا القول: سأل سائل عن عذاب والباء بمعنى عن، كقوله:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ(١)

وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال صاحب (الكشاف): ﴿سَأَلَ﴾ على هذا الوجه في تقدير عنى واهتم كأنه قيل: اهتم مهتم بعذاب واقع، الثالث: قال بعضهم: هذا السائل هو رسول الله استعجل بعذاب الكافرين، فبيَّن الله أن هذا العذاب واقع بهم، فلا دافع له قالوا: والذي يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذي أمره بالصبر الجميل، أما القراءة الثانية وهي (سَالَ) بغير همز

---

(١) هذا البيت لعلقمة الفحل وهو: علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس من بني تميم؟ - ٢٠ق. هـ/ ؟ - ٦٠٣م. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرئ القيس وله معه مساجلات. وأسر الحارث ابن أبي شمر الغساني أخًا له اسمه شأس، فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات فأطلقه.

فلها وجهان: أحدهما: أنه أراد ﴿سَأَلَ﴾ بالهمزة فخفف وقلب قال:

سَالَتْ هُذَيلُ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ (١)

والوجه الثاني:أن يكون ذلك من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل) والسيل مصدر في معنى السائل، كالغَوْر بمعنى الغائر، والمعنى اندفع عليهم واد بعذاب، وهذا قول زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد قالا: سال واد من أودية جهنم بعذاب واقع. أما ﴿سَآئِلٌ﴾، فقد اتفقوا على أنه لا يجوز فيه غير الهمز لأنه إن كان من سأل المهموز فهو بالهمز، وإن لم يكن من المهموز كان بالهمز أيضًا نحو قائل وخائف إلا أنك إن شئت خففت الهمزة فجعلتها بين بين، وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: ١-٢]فيه وجهان، وذلك لأنا إن فسرنا قوله: ﴿سَأَلَ﴾ بما ذكرنا من أن النضر طلب العذاب، كان المعنى أنه طلب طالب عذابًا هو واقع لا محالة سواء طلب أو لم يطلب، وذلك لأن ذلك العذاب نازل للكافرين في الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد، وقد وقع بالنضر في الدنيا لأنه قتل يوم بدر، وهو المراد من قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ وأما إذا فسرناه بالوجه الثاني وهو أنهم سألوا الرسول عليه السلام، أن هذا العذاب بمن ينزل فأجاب الله تعالى عنه بأنه واقع للكافرين، والقول الأول هو السديد، وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه وجهان الأول: أن يكون تقدير الآية بعذاب واقع من الله للكافرين، الثاني: أن يكون التقدير ليس له دافع من الله، أي ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته، فإنه إذا أوجبت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله الله وقوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ المعارج جمع معرج وهو المصعد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قال ابن عباس في رواية الكلبي: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي ذي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها، وثانيها: قال قتادة: ذي الفواضل والنعم وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة، وثالثها: أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة، وعندي فيه وجه رابع: وهو أن هذه السموات كما أنها متفاوتة في الارتفاع والانخفاض والكبر والصغر، فكذا الأرواح الملكية مختلفة في القوة والضعف والكمال والنقص وكثرة المعارف الإلهية وقوتها وشدة القوة على تدبير هذا العالم وضعف تلك القوة، ولعل نور إنعام الله وأثر فيض رحمته لا يصل إلى هذا العالم إلا بواسطة تلك الأرواح، إما على سبيل العادة أولا كذلك على ما قال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. فالمراد بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ الإشارة إلى تلك الأرواح المختلفة التي هي كالمصاعد لارتفاع مراتب الحاجات من هذا العالم إليها وكالمنازل لنزول أثر الرحمة من ذلك العالم إلى ما هاهنا.

---

(١)هذا البيت لحسان بن ثابت وتقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض التهويل والتخويف أفرد الروح بعدهم بالذكر، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] وهذا يقتضي أن الروح أعظم مِنَ الملائكة قدرًا، ثم هاهنا دقيقة وهي أنه تعالى ذكر عند العروج الملائكة أولاً والروح ثانيًا، كما في هذه الآية، وذكر عند القيام الروح أولاً والملائكة ثانيًا، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ وهذا يقتضي كون الروح أولاً في درجة النزول وآخرًا في درجة الصعود، وعند هذا قال بعض المكاشفين: إن الروح نور عظيم هو أقرب الأنوار إلى جلال الله، ومنه تتشعب أرواح سائر الملائكة والبشر في آخر درجات منازل الأرواح، وبين الطرفين معارج مراتب الأرواح الملكية ومدارج منازل الأنوار القدسية، ولا يعلم كميتها إلا الله، وأما ظاهر قول المتكلمين وهو أن الروح هو جبريل عليه السلام فقد قررنا هذه المسألة في تفسير قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨].

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن الله في مكان، إما في العرش أو فوقه بهذه الآية من وجهين: الأول: أن الآية دلت على أن الله تعالى موصوف بأنه ذو المعارج وهو إنما يكون كذلك لو كان في جهة فوق، والثاني: قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ فبيّن أن عروج الملائكة وصعودهم إليه، وذلك يقتضي كونه تعالى في جهة فوق، والجواب: لما دلت الدلائل على امتناع كونه في المكان والجهة ثبت أنه لا بد من التأويل، فأما وصف الله بأنه ذو المعارج فقد ذكرنا الوجوه فيه، وأما حرف (إِلَى) في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ فليس المراد منه المكان بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده كقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]المراد الانتهاء إلى موضع العز والكرامة كقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]ويكون هذا إشارة إلى أن دار الثواب أعلى الأمكنة وأرفعها.

المسألة الثالثة: الأكثرون على أن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من صلة قوله ﴿تَعْرُجُ﴾، أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم، وقال مقاتل: بل هذا من صلة قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وعلى التقدير الأول، فذلك اليوم، إما أن يكون في الآخرة أو في الدنيا، وعلى تقدير أن يكون في الآخرة، فذلك الطول إما أن يكون واقعًا، وإما أن يكون مقدرًا فهذه هي الوجوه التي تحملها هذه الآية، ونحن نذكر تفصيلها القول الأول: هو أن معنى الآية أن ذلك العروج يقع في يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنة، وهو يوم القيامة، وهذا قول

الحسن: قال وليس يعني أن مقدار طوله هذا فقط، إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار عند تلك الغاية وهذا غير جائز، بل المراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا.

ثم بعد ذلك يستقر أهل النار في دركات النيران نعوذ بالله منها. واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] واتفقوا على (أن) ذلك (المقيل والمستقر) هو الجنة وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ ما طول هذا اليوم؟ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَنِ الْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَيْهِ أَخَفَّ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»(١) ومن الناس من قال: إن ذلك الموقف وإن طال فهو يكون سببًا لمزيد السرور والراحة لأهل الجنة، ويكون سببًا لمزيد الحزن والغم لأهل النار، الجواب عنه أن الآخرة دار جزاء فلا بد من أن يعجل للمثابين ثوابهم، ودار الثواب هي الجنة لا الموقف، فإذن لا بد من تخصيص طول الموقف بالكفار، القول الثاني: هو أن هذه المدة واقعة في الآخرة، لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، وأيضًا الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة قليلة، وهذا قول وهب وجماعة من المفسرين، القول الثالث: وهو قول أبي مسلم: إن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء، فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة، ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلومًا، لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي، القول الرابع: تقدير الآية: سأل سائل بعذاب واقع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار، ويحتمل أن يكون المراد تقدير مدته، وعلى هذا فليس المراد تقدير العذاب بهذا المقدار، بل المراد التنبيه على طول مدة العذاب، ويحتمل أيضًا أن العذاب الذي سأله ذلك السائل يكون مقدرًا بهذه المدة، ثم إنه تعالى ينقله إلى نوع آخر من العذاب بعد ذلك، فإن قيل: روى ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال: أيام سماها الله تعالى هو أعلم بها كيف تكون، وأكره أن أقول فيها مالا أعلم، فإن قيل: فما قولكم في التوفيق بين هاتين الآيتين؟ قلنا: قال وهب في الجواب عن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) رقم (١١٧٣٥)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧) رقم (١٣٩٠) قال الهيثمي (١٠/ ٣٣٧): إسناده حسن على ضعف في روايته. وابن حبان (١٦/ ٣٢٩) رقم (٧٣٣٤) وأخرجه أيضًا: البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٤) من حديث أبي سعيد.

هذا ما بين أسفل العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة، لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى، فقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ يريد من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا، ومقدار ألف سنة لو صعدوا إلى أعالي العرش.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا متعلق بسأل سائل، لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله والتكذيب بالوحي، وكان ذلك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه، وكذلك من يسأل عن العذاب لمن هو فإنما يسأل على طريق التعنت من كفار مكة، ومن قرأ: (سَالَ سائِلٌ) فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد جاء وقت الانتقام.

المسألة الثانية: قال الكلبي: هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر الرسول بالقتال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾: الضمير في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: الأول: أنه عائد إلى العذاب الواقع، والثاني: أنه عائد إلى: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي يستبعدونه على جهة الإحالة ونحن نراه قريبًا هينًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر. فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان، وبالقريب القريب منه

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾ منصوب بماذا؟ فيه وجوه: أحدها: بقريبًا، والتقدير: ونراه قريبًا، يوم تكون السماء كالمهل، أي يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم، وثانيها: التقدير: سأل سائل بعذاب واقع يوم تكون السماء كالمهل، والثالث: التقدير يوم تكون السماء كالمهل كان كذا وكذا، والرابع: أن يكون بدلاً من ﴿يَوْمٍ﴾، والتقدير سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يوم تكون السماء كالمهل.

المسألة الثانية: أنه ذكر لذلك اليوم صفات:

الصفة الأولى: أن السماء تكون فيه كالمهل وذكرنا تفسير المهل عند قوله: ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] قال ابن عباس: كدردى الزيت، وروى عنه عطاء: كعكر القطران، وقال الحسن: مثل الفضة إذا أذيبت، وهو قول ابن مسعود.

الصفة الثانية: أن تكون الجبال فيه كالعهن، ومعنى العهن في اللغة: الصوف المصبوغ ألوانًا،

وإنما وقع التشبيه به، لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال ابن عباس: الحميم القريب الذي يعصب له، وعدم السؤال إنما كان لاشتغال كل أحد بنفسه، وهو كقوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[الحج: ٢] وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى قوله ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤- ٣٧] ثم في الآية وجوه أحدها: أن يكون التقدير: لا يسأل حميم عن حميمه فحذف الجار وأوصل الفعل، الثاني: لا يسأل حميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه، لأن لكل أحد ما يشغله عن هذا الكلام، الثالث: لا يسأل حميم حميمًا شفاعة، ولا يسأل حميم حميمًا إحسانًا إليه ولا رفقًا به.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير: (ولا يُسْئل) بضم الياء، والمعنى لا يسأل حميم عن حميمه ليتعرف شأنه من جهته، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه، وهذا أيضًا على حذف الجار قال الفراء: أي لا يقال لحميم أين حميمك ولست أحب هذه القراءة لأنها مخالفة لما أجمع عليه القراء.

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يقال: بصرت به أبصر، قال تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾[طه: ٩٦] ويقال: بصرت زيد بكذا فإذا حذفت الجار قلت: بصرني زيد كذا فإذا أثبت الفعل للمفعول به وقد حذفت الجار قلت: بصرني زيدًا، فهذا هو معنى يبصرونهم، وإنما جمع فقيل: يبصرونهم لأن الحميم وإن كان مفردًا في اللفظ فالمراد به الكثرة والجميع والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾[الشعراء: ١٠٠] ومعنى يبصرونهم: يعرفونهم، أي يعرف الحميم الحميم حتى يعرفه، وهو مع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه، فإن قيل: ما موضع يبصرونهم؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه متعلق بما قبله كأنه لما قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[المعارج: ١٠] قيل: لعله لا يبصره فقيل يبصرونهم ولكنهم لاشتغالهم بأنفسهم لا يتمكنون من تساؤلهم، الثاني: أنه متعلق بما بعده، والمعنى أن المجرمين يبصرون المؤمنين حال ما يود أحدهم أن يفدي نفسه لكل ما يملكه، فإن الإنسان إذا كان في البلاء الشديد ثم رآه عدوه على تلك الحالة كان ذلك في نهاية الشدة عليه.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المجرم هو الكافر، وقيل: يتناول كل مذنب.

المسألة الثانية: قرئ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ بالجر والفتح على البناء لسبب الإضافة إلى غير متمكن،

وقرئ أيضًا: (من عَذَابٍ يَومَئذٍ) بتنوين (عَذَابٍ) ونصب (يَومَئذ) وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فصيلة الرجل، أقاربه الأقربون الذين فصل عنهم وينتهي إليهم، لأن المراد من الفصيلة المفصولة، لأن الولد يكون منفصلاً من الأبوين. قال عليه السلام: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي» فلما كان هو مفصولاً منهما، كانا أيضًا مفصولين منه، فسميا فصيلة لهذا السبب، وكان يقال للعباس: فصيلة النبي ﷺ، لأن العم قائم مقام الأب، وأما قوله: ﴿تُـٔوِيهِ﴾ فالمعنى تضمه انتماء إليها في النسب أو تمسكًا بها في النوائب.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه معطوف على ﴿يَفْتَدِي﴾ والمعنى: يود المجرم لو يفتدي بهذه الأشياء ثم ينجيه، والثاني: أنه متعلق بقوله: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والتقدير: يود لو يفتدي بمن في الأرض ثم ينجيه، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن كونه بحيث يود الافتداء ببنيه، وعلى أنه لا ينفعه ذلك الافتداء، ولا ينجيه من العذاب، ثم قال: ﴿إِنَّهَا﴾ وفيه وجهان: الأول: أن هذا الضمير للنار، ولم يجر لها ذكر إلا أن ذكر العذاب دل عليها والثاني: يجوز أن يكون ضمير القصة، ولظى من أسماء النار. قال الليث: اللظى: اللهب الخالص، يقال: لظت النار تلظّى لظى، وتلظت تلظيًا، ومنه قوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[الليل: ١٤] ولظى عَلَم للنار منقول من اللظى، وهو معرفة لا ينصرف، فلذلك لم ينون، وقوله: (نَزَّاعَةٌ) مرفوعة، وفي سبب هذا الارتفاع وجوه: **الأول:** أن تجعل الهاء في أنها عماد، أو تجعل لظى اسم إن، ونزاعة خبر إن، كأنه قيل: إن لظى نزاعة. **والثاني:** أن تجعل الهاء ضمير القصة، ولظى مبتدأ، ونزاعة خبرًا، وتجعل الجملة خبرًا عن ضمير القصة، والتقدير: إن القصة لظى نزاعة للشوى. **والثالث:** أن ترتفع على الذم، والتقدير: إنها لظى وهي نزاعة للشوى، وهذا قول الأخفش والفراء والزجاج. وأما قراءة النصب ففيها ثلاثة أوجه أحدها: قال الزجاج: إنها حال مؤكدة، كما قال: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[فاطر: ٣١] وكما يقول: أنا زيد معروفًا، اعترض أبو علي الفارسي على هذا وقال: حمله على الحال بعيد، لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، فإن قلت في قوله: ﴿لَظَىٰ﴾ معنى التلظي والتلهب، فهذا لا يستقيم، لأن لظى اسم علم لماهية مخصوصة، والماهية لا يمكن تقييدها بالأحوال، إنما الذي يمكن تقييده بالأحوال هو الأفعال، فلا يمكن أن يقال: رجلاً حال كونه عالمًا، ويمكن أن يقال: رأيت رجلاً حال كونه عالمًا، وثانيها: أن تكون لظى اسمًا لنار تتلظى تلظيًا شديدًا، فيكون هذا الفعل ناصبًا لقوله: ﴿نَزَّاعَةً﴾ وثالثها: أن تكون منصوبة على الاختصاص، والتقدير: إنها لظى أعنيها نزاعة للشوى، ولم تمنع.

المسألة الثالثة: ﴿لِلشَّوَىٰ﴾ الأطراف، وهي اليدان والرجلان، ويقال للرامي: إذا لم يصب المقتل أشوى، أي أصاب الشَّوى، والشوى أيضًا جلد الرأس، واحدتها شواة ومنه قول الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَالَهُ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ[1]

هذا قول أهل اللغة، قال مقاتل: تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته، وقال سعيد بن جبير: العصب والعقب ولحم الساقين واليدين، وقال ثابت البناني: لمكارم وجه بني آدم. واعلم أن النار إذا أفنت هذه الأعضاء، فالله تعالى يعيدها مرة أخرى، كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾: فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن لظى كيف تدعو الكافر، فذكروا وجوهًا: أحدها: أنها تدعوهم بلسان الحال كما قيل: سل الأرض من أشق أنهارك، وغرس أشجارك؟ فإن لم تجبك جؤارًا، أجابتك اعتبارًا فهاهنا لما كان مرجع كل واحد من الكفار إلى زاوية من زوايا جهنم، كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم، وثانيها: أن الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحًا: إلي يا كافر، إلي يا منافق، ثم تلتقطهم التقاط الحب، وثالثها: المراد أن زبانية النار يدعون فأضيف ذلك الدعاء إلى النار بحذف المضاف، ورابعها: تدعو: تهلك من قول العرب دعاك الله أي أهلكك.

وقوله: ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني من أدبر عن الطاعة وتولى عن الإيمان ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ أي جعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيها فقوله: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إشارة إلى الإعراض عن معرفة الله وطاعته.

وقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ إشارة إلى حب الدنيا، فجمع إشارة إلى الحرص، وأوعى إشارة إلى الأمل، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: المراد بالإنسان هاهنا الكافر، وقال آخرون: بل هو على عمومه، بدليل أنه استثنى منه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢].

المسألة الثانية: يقال: هلع الرجل يَهْلَع هَلَعًا وهَلاَعًا فهو هالع وهلوع، وهو شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاع فهلع، وقال الفراء: الهَلُوع الضجور، وقال المبرد: الهلع الضجر، يقال: نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الأقران، وعن أحمد بن يحيى، قال لي محمد بن

---

(١) تقدمت ترجمة الأعشي.

عبدالله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله، ولا تفسير أبين من تفسيره، هو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس.

المسألة الثالثة: قال القاضي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ نظير لقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف، والدليل عليه أن الله تعالى ذمه عليه والله تعالى لا يذم فعله، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها. واعلم أن الهلع لفظ واقع على أمرين: أحدهما: الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم الإنسان على إظهار الجزع والتضرع، والثاني: تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى، لأن من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه، ومن خلق شجاعًا بطلاً لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها فهي أمور اختيارية، أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار.

قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

المراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة، فالمعنى أنه إذا صار فقيرًا أو مريضًا أخذ في الجزع والشكاية، وإذا صار غنيًّا أو صحيحًا أخذ في منع المعروف وشح بماله ولم يلتفت إلى الناس، فإن قيل: حاصل هذا الكلام أنه نفور عن المضار طالب للراحة، وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله عليه؟ قلنا: إنما ذمه عليه لأنه قاصر النظر على الأحوال الجسمانية العاجلة، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل الله تعالى كان راضيًا به، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية، واعلم أنه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفًا بثمانية أشياء:

أولها قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فإن قيل: قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] قلنا: معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها، وتارة بأمور متراخية عنها، أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها، ومتعلق بالوضوء، وستر العورة وطلب القبلة، ووجدان الثوب والمكان الطاهرين، والإتيان بالصلاة في الجماعة،

وفي المساجد المباركة، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات إلى ما سوى الله تعالى، وأن يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة، وأما الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة، فاهمًا للأذكار، مطلعًا على حكم الصلاة، وأما الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب، وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾

وثانيها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ اختلفوا في الحق المعلوم: فقال ابن عباس والحسن وابن سيرين: إنه الزكاة المفروضة، قال ابن عباس: من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق قالوا: والدليل على أن المراد به الزكاة المفروضة وجهان: الأول: أن الحق المعلوم المقدر هو الزكاة، أما الصدقة فهي غير مقدرة، الثاني: وهو أنه تعالى ذكر هذا على سبيل الاستثناء ممن ذمه، فدل على أن الذي لا يعطى هذا الحق يكون مذمومًا، ولا حق على هذه الصفة إلا الزكاة، وقال آخرون: هذا الحق سوى الزكاة، وهو يكون على طريق الندب والاستحباب، وهذا قول مجاهد وعطاء والنخعي. وقوله: ﴿لِلسَّائِلِ﴾ يعني الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيًا فيحرم.

وثالثها قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يؤمنون بالبعث والحشر.

ورابعها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ والإشفاق يكون من أمرين، إما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام على المحظورات، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وكقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] ومن يدوم به الخوف والإشفاق فيما كلف يكون حذرًا من التقصير حريصًا على القيام بما كلف به من علم وعمل، ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ والمراد أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي، واحترز عن المحظورات بالكلية، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك، فلا جرم يكون خائفًا أبدًا. وقد مر تفسيره في سورة المؤمنين.

وخامسها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وسادسها قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وقد تقدم تفسيره أيضًا.

وسابعها قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ قرئ بشهادتهم و﴿بِشَهَادَاتِهِمْ﴾، قال الواحدي: والإفراد أولى لأنه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وإن أضيف لجمع كقوله ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات، وكثرت ضروبها فحسن الجمع من جهة الاختلاف، وأكثر المفسرين قالوا: يعني الشهادات عند الحكام يقومون بها بالحق، ولا يكتمونها وهذه الشهادات من جملة الأمانات إلا أنه تعالى خصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وفي تركها إبطالها وتضييعها، وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد الشهادة بأن الله واحد لا شريك له.

وثامنها قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وقد تقدم تفسيره.

ثم وعد هؤلاء وقال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

ثم ذكر بعده ما يتعلق بالكفار فقال: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ المهطع: المسرع وقيل: الماد عنقه، وأنشدوا فيه:

بِمَكَّةَ أَهْلُهَا وَلَقَدْ أَرَاهُمْ   بِمَكَّةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ(١)

والوجهان متقاربان، روى أن المشركين كانوا يحتفون حول النبي ﷺ حلقًا وفرقًا فرقًا يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إذا دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد: فلندخلنها قبلهم، فنزلت هذه الآية فقوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين نحوك مادين أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك، وقال أبو مسلم: ظاهر الآية يدل على أنهم هم المنافقون، فهم الذين كانوا عنده وإسراعهم المذكور هو الإسراع في الكفر كقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

ثم قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ وذلك لأنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين، ومعنى: عزين: جماعات في تفرقة، واحدها عِزَة، وهي العصبة من الناس، قال الأزهري: وأصلها من

---

(١) هذا البيت للشاعر يزيد بن مفرغ الحميري وهو: يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري؟ - ٦٩ هـ/ ؟ - ٦٨٩م من أصل يمني من قبيلة يحصب، كانت أسرته في حلف مع قريش ولد في البصرة، ونشأ بها، كان يعرف العربية والفارسية، بدأ اتصاله بالبلاط نديمًا لسعيد بن عثمان بن عفان، وأصبح بعد ذلك من شعراء البلاط اشتهر بشعره الساخر من عبّاد وعبيد الله بن زياد بن أبيه. وله شعر في المدح والغزل.

قولهم: عزا فلان نفسه إلى بني فلان يعزوها عزوًا إذا انتهى إليهم، والاسم العزوة وكان العزة كل جماعة اعتزوها إلى أمر واحد، واعلم أن هذا من المنقوص الذي جاز جمعه بالواو والنون عوضًا من المحذوف وأصلها عزوة، والكلام في هذه كالكلام في ﴿عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] وقد تقدم، وقيل: كان المستهزئون خمسة أرهط.

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم قال: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾: والنعيم ضد البؤس، والمعنى أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون.

ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع لهم عن ذلك الطمع الفاسد.

ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الغرض من هذا الاستدلال على صحة البعث، كأنه قال: لما قدرت على أن أخلقكم من النطفة، وجب أن أكون قادرًا على بعثكم.

المسألة الثانية: ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهًا: أحدها: أنه لما احتج على صحة البعث دل على أنهم كانوا منكرين للبعث، فكأنه قيل لهم كلا إنكم منكرون للبعث، فمن أين تطمعون في دخول الجنة، وثانيها: أن المستهزئين كانوا يستحقرون المؤمنين، فقال تعالى: هؤلاء المستهزئون مخلوقون مما خلقوا، فكيف يليق بهم هذا الاحتقار، وثالثها: أنهم مخلوقون من هذه الأشياء المستقذرة، فلو لم يتصفوا بالإيمان والمعرفة، فكيف يليق بالحكيم إدخالهم الجنة.

ثم قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾:

يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه أو مشرق كل كوكب ومغربه، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبي وبالمغرب موته أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وهو مفسر في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١] وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ مفسر في آخر سورة والطور، واختلفوا في أن ما وصف الله نفسه بالقدرة عليه من ذلك هل خرج إلى الفعل أم لا؟ فقال بعضهم: بدل الله بهم الأنصار والمهاجرين فإن حالتهم في نصرة الرسول مشهورة، وقال آخرون: بل بدل الله كفر بعضهم بالإيمان، وقال بعضهم: لم يقع هذا التبديل، فإنهم أو أكثرهم بقوا على جملة كفرهم إلى أن ماتوا، وإنما كان يصح وقوع التبديل بهم لو أهلكوا، لأن مراده تعالى بقوله: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾

بطريق الإهلاك، فإذا لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع، وإنما هدد تعالى القوم بذلك لكي يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم ذكر تعالى ذلك اليوم الذي تقدم ذكره فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ وهو كقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

اعلم أن في ﴿نُصُبٍ﴾ ثلاث قراءات أحدها: وهي قراءة الجمهور (نَصْبٍ) بفتح النون والنَّصْب كل شيء نُصِب والمعنى كأنهم إلى علم لهم يستبقون، والقراءة الثانية: (نُصْب) بضم النون وسكون الصاد وفيه وجهان أحدهما: النَّصْب والنُّصْب لغتان مثل الضَّعْف والضُّعْف، وثانيهما: أن يكون جمع نَصْب كشقف جمع شقف والقراءة الثالثة: (نُصُب) بضم النون والصاد، وفيه وجهان أحدهما: أن يكون النصب والنصب كلاهما يكونان جمع نصب كأُسُد وأُسْد جمع أَسَد، وثانيهما: أن يكون المراد من النصب الأنصاب وهي الأشياء التي تنصب فتعبد من دون الله كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون، ومعنى الآية على هذا الوجه أنهم يوم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصارهم، وبقية السورة معلومة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة المعارج

وهي مَكِّيةٌ باتفاق[(١)]، وهي أربعٌ وأربعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «سال سائل» بغير همزة. الباقون بالهمز[(٢)]. فَمَن هَمَزَ فهو من السؤال. والباءُ يجوز أنْ تكونَ زائدة، ويجوز أنْ تكون بمعنى عن. والسؤال بمعنى الدعاء، أي: دعا داعٍ بعذاب؛ عن ابن عباس[(٣)] وغيره. يقال: دعا على فلان بالويل، ودعا عليه بالعذاب. ويقال: دعوتُ زيدًا، أي: التمست إحضارَه. أي: التَمَسَ مُلتمِسٌ عذاباً للكافرين؛ وهو واقعٌ بهم لا محالةَ يوم القيامة. وعلى هذا فالباء زائدة؛ كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] فهي تأكيد. أي: سأل سائلٌ عذابًا واقعًا[(٤)].

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: على الكافرين. وهو النضرُ بن الحارث حيث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فنزل سؤالُه، وقُتل يومَ بدرٍ صبرًا هو وعقبةُ بن أبي مُعَيط؛ لم يُقْتل صَبْرًا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٤، وزاد المسير ٨/ ٣٥٧.

(٢) السبعة ص٦٥٠، والتيسير ص٢١٤.

(٣) أخرج قول ابن عباس بنحوه الطبريُّ ٢٣/ ٢٤٨.

(٤) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ٣٥٠.

غيرُهما؛ قاله ابن عباس ومجاهد[١].

وقيل: إنَّ السائلَ هنا هو الحارثُ بن النعمان الفِهريّ.وذلك أنَّه لمَّا بلغَه قول النبيِّ ﷺ في عليٍّ ﷺ: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» ركبَ ناقته، فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح[٢]، ثم قال: يا محمد، أَمرتنا عن الله أنْ نشهد أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّك رسولُ الله، فقبلناه منك، وأنْ نصلِّي خمساً، فقبلناه منك، ونُزكِّي أموالنا، فقبلناه منك، وأنْ نصومَ شهر رمضان في كلِّ عام، فقبلناه منك، وأنْ نَحُجَّ، فقبلناه منك، ثمَّ لم ترضَ بهذا حتى فَضَّلْتَ ابنَ عمِّك علينا! أفهذا شيءٌ منك أم من الله؟! فقال النبيُّ ﷺ: «والله الذي لا إله إلَّا هو، ما هو إلَّا من الله» فولَّى الحارثُ وهو يقول: اللهم إنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا، فأمطرْ علينا حجارةً من السماء، أو ائتنا بعذابٍ أليم. فوالله ما وصلَ إلى ناقته حتى رماه الله بحجر، فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتلَه؛ فنزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ الآية[٣].

وقيل: إنَّ السائلَ هنا أبو جهل، وهو القائلُ لذلك، قاله الربيع. وقيل: إنَّه قولُ جماعةٍ من كفار قريش[٤]. وقيل: هو نوحٌ عليه السلام سأل العذابَ على الكافرين. وقيل: هو رسولُ الله ﷺ أي: دعا عليه الصلاة والسلام بالعقاب، وطلب أنْ

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٢ دون نسبة ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٠٢ عن سعيد بن جبير . ونسبه لابن عباس ومجاهد الماورديُّ في النكت والعيون ٦/ ٨٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٥٧ .

(٢) الأبطح : يضاف إلى مكة وإلى منى ، لأن المسافة بينه وبينهما واحدة ، وربما كان إلى منىً أقرب . وهو المحصب ، وهو خيفُ بني كنانة . معجم البلدان ١/ ٧٤ .

(٣) النكارة في الخبر ظاهرة، و أخرجه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٥٣ - ٥٤ ، وفي إسناده انقطاع، ومن لم نعرفهم،وذكره المناوي في فيض القدير ٦/ ٣١٨ وعزاه للثعلبي؛ قال ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ٧٦: الثعلبي في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. اهـ. وقال الآلوسي في روح المعاني ٢٩/ ٥٥ : وأنت تعلم أن ذلك القول منه عليه الصلاة والسلام في أمير المؤمنين كرم الله وجهه كان في غدير خم وذلك في أواخر سني الهجرة فلا يكون ما نزل مكياً على المشهور في تفسيره ، وقد سمعت ما قيل في مكية هذه السورة. اهـ.

وقوله ﷺ : «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» سلف ١/ ٣٩٨ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٩٠ .

يُوْقِعه اللهُ بالكفَّار[١]؛ وهو واقعٌ بهم لا محالة. وامتدَّ الكلامُ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ أي: لا تستعجل فإنَّه قريب.

وإذا كانت الباء بمعنى عن ـ وهو قول قتادة[٢] ـ فكأنَّ سائلًا سألَ عن العذاب بمن يقع، أو متى يقع. قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٩] أي: سلْ عنه. وقال علقمة[٣]:

فإنْ تسألوني بالنِّساء فإنَّني بصيرٌ بأدواء النِّساء طبيبُ

أي: عن النساء. ويقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. فالمعنى: سألوا بمن يقع العذاب ولمن يكون، فقال الله: «لِلْكَافِرِينَ»[٤].

قال أبو علي وغيره: وإذا كان من السؤال، فأصلُه أنْ يتعدَّى إلى مفعولين، ويجوز الاقتصارُ على أحدهما. وإذا اقتصر على أحدهما جاز أنْ يتعدَّى إليه بحرف جَرٍّ؛ فيكونُ التقديرُ: سأل سائلٌ النبيَّ ﷺ أو المسلمينَ بعذابٍ أو عن عذاب[٥].

ومن قرأ بغير همزٍ فله وجهان: أحدهما: أنَّه لغةٌ في السؤال، وهي لغةُ قريش؛ تقول العرب: سال يسال؛ مثل نال ينال وخاف يخاف. والثاني: أنْ يكون من السيلان؛ ويؤيده قراءةُ ابن عباس «سال سَيْل»[٦]. قال عبد الرحمن بن زيد: سال وادٍ من أودية جهنم يقال له: سائل[٧]؛ وهو قول زيد بن ثابت[٨]. قال الثعلبي: والأوَّل

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٥٦ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤٩.

(٣) في ديوانه ص٣٥، وسلف ٢/ ٢٦١.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٢١.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٦.

(٦) الكشاف ٤/ ١٥٦، وزاد المسير ٨/ ٣٥٨. وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٤٩ - ٢٥٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٢٠، وقال: وهذا القول ضعيف، بعيد عن المراد.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٤، وزاد المسير ٨/ ٣٥٨.

أحسن؛ كقول الأعشى في تخفيف الهمزة:

سَالَتَانِي الطَّلاقَ إذ رأتَانِي قَلَّ مالي قد جئتماني بنُكْرِ[١]

وفي الصحاح: قال الأخفش: يقال خرجنا نسألُ عن فلانٍ وبفلان. وقد تُخفَّفُ همزته فيقال: سال يَسالُ. وقال:

ومُرْهَقٍ سالَ إمتاعًا بأُصْدَتِه لم يَسْتَعِنْ[٢] وحَوامي الموتِ تغشاهُ[٣]

المُرْهَق: الذي أُدرِكَ ليُقتل. والأُصْدَةُ بالضمِّ: قميصٌ صغيرٌ يَلبسُ تحت الثوب[٤].

المهدويُّ: من قرأ: «سال»؛ جاز أنْ يكون خفَّف الهمزة بإبدالها ألفًا، وهو البدل على غير قياس. وجاز أنْ تكونَ الألفُ منقلبةً عن واوٍ على لغة من قال: سِلتُ أسال؛ كخفت أخاف[٥]. النحاس[٦]: حكى سيبويه: سِلت أسال؛ مثل: خِفتُ أخاف؛ بمعنى سألت. وأنشد[٧]:

سالَتْ هُذَيلٌ رسولَ اللهِ فاحشةً ضَلَّتْ هذيلٌ بما سالتْ ولم تُصِبِ[٨]

ويقال: هما يتساولان. المهدويُّ: وجاز أن تكونَ مبدلةً من ياء، من سال يسيل. ويكون سايل واديًا في جهنم[٩]؛ فهمزةُ سايل على القول الأوّل أصليةٌ، وعلى الثاني

---

(١) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وقد سلف ١٦/ ٣٢٦.

(٢) أي: يحلق عانته. الصحاح (عون).

(٣) الصحاح (سال). وذكره في اللسان (رهق) وقال: قال ابن بري: أنشده أبو علي الباهلي غيث بن عبد الكريم لبعض العرب يصف رجلاً شريفاً ارتُثَّ في بعض المعارك، فسألهم أن يمتعوه بأُصْدته.

(٤) الصحاح (رهق) (أصد).

(٥) وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٦.

(٦) في إعراب القرآن ٥/ ٢٧ بنحوه مختصراً.

(٧) في الكتاب ٣/ ٤٦٨.

(٨) البيت لحسان بن ثابت ﷺ، وهو في ديوانه ص٣٤، وفيه وفي الكتاب: بماجاءت. بدل: بما سالت.

(٩) سلف قريباً أن هذا القول ضعيف.

بدلٌ من واو، وعلى الثالث بدلٌ من ياء.

القشيريُّ: وسائلٌ مهموز؛ لأنَّه إنْ كان من سأل بالهمز، فهو مهموز، وإنْ كان من غير الهمز، كان مهموزًا أيضاً؛ نحو قائلٌ وخائف؛ لأنَّ العينَ اعتلَّ في الفعل واعتلَّ في اسم الفاعل أيضًا. ولم يكن الاعتلالُ بالحذفِ لخوف الالتباس، فكان بالقلب إلى الهمزة، ولك تخفيفُ الهمزة حتى تكون بين بين.

﴿وَاقِعٍ﴾ أي: يقع بالكفَّار، بيَّن أنَّه من الله ذي المعارج. وقال الحسن: أنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فقال: لمن هو؟ فقال: للكافرين؛ فاللام في الكافرين متعلقةٌ بـ«واقع»[1].

وقال الفراء: التقدير بعذابٍ للكافرين واقع؛ فالواقع من نعتِ العذاب، واللَّام دخلت للعذاب لا للواقع[2]. أي: هذا العذابُ للكافرين في الآخرة لا يدفعه عنهم أحد. وقيل: إنَّ اللامَ بمعنى على، والمعنى: واقعٌ على الكافرين. ورُوِي أنها في قراءة أُبَيٍّ كذلك[3]. وقيل: بمعنى عن، أي: ليس له دافعٌ عن الكافرين من الله، أي: ذلك العذابُ من الله.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: ذي العلوّ والدرجات الفواضل والنِّعم؛ قاله ابن عباس وقتادة[4]. فالمعارجُ مراتبُ إنعامه على الخلق. وقيل: ذي العظمة والعلاء. وقال مجاهد: هي معارجُ السماء. وقيل: هي معارجُ الملائكة؛ لأنَّ الملائكةَ تعرجُ إلى السماء، فوصفَ نفسه بذلك[5].

وقيل: المعارج الغرف، أي: إنَّه ذو الغُرَف، أي: جعل لأوليائه في الجنة غرفًا.

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥.

(٤) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٢٥٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩٠.

وقرأ عبدُ الله: «ذي المعاريج» بالياء[١]. يقال: مَعْرَج ومِعْراج، ومعارج ومعاريج؛ مثل: مفاتح[٢] ومفاتيح[٣]. والمعارج: الدرجات؛ ومنه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تَصْعَد في المعارج التي جعلها الله لهم. وقرأ ابنُ مسعود وأصحابه، والسُّلَمِيُّ، والكسائي: «يَعْرُجُ» بالياء على إرادة الجمع[٤]؛ ولقوله: ذكِّروا الملائكة ولا تُؤنِّثوهم[٥]. وقرأ الباقون بالتاء على إرادة الجماعة.

«وَالرُّوحُ»: جبريلُ عليه السلام؛ قاله ابن عباس[٦]. دليله قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[٧] [الشعراء: ١٩٣]. وقيل: هو مَلَكٌ آخرُ عظيمُ الخِلقة.

وقال أبو صالح: إنَّه خَلْقٌ من خَلْق الله، كهيئة النَّاس، وليس بالناس. وقال قَبِيصة بن ذُؤَيْب: إنَّه روحُ الميت حين يُقبض[٨].

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المكان هو محلُّهم، وهو في السماء؛ لأنَّها محلُّ بِرِّه وكرامته. وقيل: هو كقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]. أي: إلى الموضع الذي أمرني به[٩]. وقيل: «إِلَيْهِ» أي: إلى عرشه[١٠].

---

(١) لم نقف عليها.

(٢) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: مفتاح.

(٣) الصحاح (عرج) وفيه: معارج ومعاريج جمع مِعْراج، وفيه أيضاً عن الأخفش قوله: إن شئت جعلت الواحد: مِعْرَج ومَعْرَج، مثل مِرْقاة ومَرْقاة.

(٤) قراءة الكسائي في السبعة ص٦٥٠، والتيسير ص٢١٤، وأخرجها عن ابن مسعود الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٨٤. وينظر تفسير الطبري ٢٣/ ٢٥٤.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢١ من قول ابن مسعود، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه.

(٦) قوله: قاله ابن عباس. ليس في (ظ).

(٧) النكت والعيون ٦/ ٩٠ دون نسبة.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٩٠.

(٩) الوسيط ٤/ ٣٥١.

(١٠) الكشاف ٤/ ١٥٧.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال وَهْبٌ والكلبيُّ ومحمدُ بن إسحاق: أي: عروجُ الملائكة إلى المكان الذي هو محلُّهم، في وقتٍ كان مقداره على غيرهم لو صَعِد، خمسين ألف سنة[1]. وقال وهبٌ أيضاً: ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرةُ خمسين ألف سنة؛ وهو قول مجاهد[2]. وجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في سورة السجدة [الآية: ٥]، فقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى مُنتهى أمره من فوق السماوات خمسونَ ألف سنة. وقوله تعالى في «الم تنزيل»: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] يعني: بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقدارُ ألف سنة؛ لأنَّ ما بين السماء إلى الأرض مسيرةُ خمس مئة عام[3]. وعن مجاهد أيضاً والحَكَم وعِكْرمة: هو مدَّةُ عمر الدنيا من أوَّل ما خُلقت إلى آخر ما بقي، خمسونَ ألف سنة، لا يدري أحدٌ كم مضى، ولا كم بقي، إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[4].

وقيل: المرادُ يوم القيامة، أي: مقدار الحُكْم فيه لو تولَّاه مخلوقٌ، خمسون ألف سنة، قاله عكرمة أيضاً والكلبيُّ ومحمد بن كعب[5]. يقول سبحانه وتعالى: وأنا أفرغُ منه في ساعة.

وقال الحسن: هو يوم القيامة، ولكنَّ يومَ القيامة لا نفاد له. فالمراد ذِكرُ موقفهم

(١) ذكره عن محمد بن إسحاق البغوي ٤/ ٣٩٢ - ٣٩٣، وذكره عن وهب الرازي ٣٠/ ١٢٤.

(٢) ذكره عن وهب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥، وذكره عن مجاهد ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٠.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٢.

(٤) قول الحكم وعكرمة في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥.

(٥) أخرجه الطبري عن عكرمة ٢٣/ ٢٥٢، وذكره البغوي عن الكلبي ٤/ ٣٩٣، وعن محمد بن كعب ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩٠.

للحساب، فهو في خمسينَ ألف سنة من سِني الدنيا، ثم حينئذٍ يستقرُّ أهلُ الدارين في الدارين.

وقال يَمَان: هو يوم القيامة، فيه خمسون موطنًا كلُّ مَوطِن ألف سنة[(١)].

وقال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدارَ خمسينَ ألف سنة، ثم يدخلون النَّار للاستقرار[(٢)].

قلت: وهذا القولُ أحسن ما قيل في الآية إنْ شاء الله، بدليل ما رواه قاسم بن أَصْبَغٍ من حديث أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «في يومٍ كان مقدارُهُ خمسين ألفَ سنة». فقلت: ما أطولَ هذا! فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليُخَفَّفُ عن المؤمن، حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصلِّيها في الدنيا»[(٣)].

واستدلَّ النحاس على صحة هذا القول بما رواه سُهيلٌ عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال[(٤)]: «ما من رجلٍ لم يؤدِّ زكاةَ ماله، إلا جُعِلَ [يوم القيامة] شجاعًا من نار، تكوى به جبهته وظهره وجَنْباه، في يومٍ كان مقداره خمسين ألفَ سنة، حتى يقضيَ اللهُ بين الناس»[(٥)].

قال: فهذا يدلُّ على أنَّه يومُ القيامة.

---

(١) قولا الحسن ويمان في تفسير البغوي ٤/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٣، وأخرجه أيضاً أحمد (١١٧١٧) وفي إسناده ابن لهيعة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٧: رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. اهـ. وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح ١١/ ٤٤٨.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في مطبوع إعراب القرآن ٥/ ٢٨ للنحاس حديث أبي سعيد الخدري السالف ولعل النحاس استدل بحديث أبي هريرة المذكور أعلاه في كتاب آخَر له. أو أن ثمة سقطاً في كتاب الإعراب، والله أعلم.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٥٧) وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضًا أحمد (٧٧٢٠) وفيه: صفائح من نار. بدل: شجاعًا من نار.

وقال إبراهيم التيميّ: ما قَدْرُ ذلك اليوم على المؤمن، إلا قدرُ ما بين الظهر والعصر[١].

وروي هذا المعنى مرفوعًا من حديث معاذٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين، ولذلك سَمَّى نفسَه سريعَ الحساب، وأسرع الحاسبين». ذكره الماورديُّ[٢].

وقيل: بل يكون الفراغ لنصف يوم[٣]. كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وهذا على قدر فَهم الخلائق، وإلَّا فلا يشغلُه شأنٌ عن شأن. وكما يرزقهم في ساعةٍ، كذا يحاسبُهم في لحظة، قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وعن ابن عباس أيضاً أنَّه سُئل عن هذه الآية وعن قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال: أيامٌ سَمَّاها الله عزَّ وجلَّ، هو أعلمُ بها كيف تكون، وأكره أنْ أقولَ فيها ما لا أعلم[٤].

وقيل: معنى ذكر خمسين ألف سنة تمثيلٌ، وهو تعريفُ طول مدَّة القيامة في الموقف، وما يَلقى الناسُ فيه من الشدائد. والعربُ تَصِف أيَّامَ الشدَّة بالطول، وأيامَ الفرح بالقِصر؛ قال الشاعر:

ويومٍ كظِلِّ الرُّمْح قَصَّرَ طولَه ... دَمُ الزِّق عنَّا واصطفاقُ المزاهرِ[٥]

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ؛ والمعنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ للكافرين ليس له من الله دافع، في يومٍ كان مقداره خمسينَ ألف سنةٍ، تعرجُ الملائكة والروح

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١٦.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٩١، وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥١٥٠) بنحوه.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٥١، والبغوي ٤/ ٣٩٣ من قول عطاء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٤.

(٥) سلف ١٧/ ١١.

إليه[١]. وهذا القول هو معنى ما اخترناه، والموفق الإله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: على أذى قومك. والصبرُ الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شَكْوَى لغير الله[٣]. وقيل: هو أنْ يكون صاحبُ المصيبة في القوم لا يُدْرَى من هو. والمعنى متقارب. وقال ابن زيد: هي منسوخةٌ بآية السيف[٤].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يريد أهلَ مكة، يرون العذاب بالنار بعيدًا، أي: غير كائن.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ لأنَّ ما هو آتٍ فهو قريب[٥]. وقال الأعمش: يرون البعثَ بعيدًا[٦]؛ لأنَّهم لا يؤمنون به؛ كأنَّهم يستبعدونه على جهة الإحالة. كما تقول لمن تناظره: هذا بعيدٌ لا يكون[٧]! وقيل: أي: يرون هذا اليوم بعيدًا «وَنَرَاهُ» أي: نعلمه؛ لأنَّ الرؤيةَ إنما تتعلَّق بالموجود. وهو كقولك: الشافعيُّ يرى في هذه المسألة كذا وكذا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «واقع»؛ تقديره يقع بهم العذاب يوم[٨]. وقيل: «نَرَاهُ»، أو «يُبَصَّرونهم»، أو يكونُ بدلًا من قريب[٩]. والْمُهْلُ:

---

(١) الكلام بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣٦٠ .

(٢) في (ظ) : والموافق له .

(٣) هو قول مجاهد كما في النكت والعيون ٦/ ٩١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٥ ، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢٥ ، وردَّه هو والطبري .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩١ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ وعزاه لعبد بن حميد .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢٠ .

(٨) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٩ .

(٩) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٧ .

دُرْديُّ الزيت وعَكَرُه[١]؛ في قول ابن عباس وغيره. وقال ابن مسعود: ما أُذيب من الرَّصاص والنُّحاس والفضَّة. وقال مجاهد: «كَالْمُهْلِ»: كقيحٍ من دمٍ وصديد[٢]. وقد مضى في سورة الدخان والكهف القولُ فيه[٣].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: كالصُّوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عِهْنٌ إلَّا أنْ يكون مصبوغًا[٤]. وقال الحسن: «تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ» وهو الصوفُ الأحمر. وهو أضعفُ الصُّوف[٥]. ومنه قولُ زهير:

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ في كلِّ منزلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ[٦]

الفُتاتُ: القِطَع. والعِهْنُ: الصوفُ الأحمر؛ واحده عِهْنة. وقيل: العِهْنُ الصوف ذو الألوان؛ فشبَّه الجبال به في تَلَوُّنها ألوانًا[٧]. والمعنى: أنها تلين بعد الشدَّة، وتتفرَّق بعد الاجتماع. وقيل: أوَّلُ ما تتغيَّرُ الجبال تصير رَمْلًا مَهيلًا، ثم عِهْنًا منفوشًا، ثم هَباءً مُنْبثًّا[٨].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: عن شأنه لشغل كلِّ إنسانٍ بنفسه، قاله قتادة[٩]. كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. وقيل: لا يَسألُ حميمٌ عن حميم، فَحذفَ الجارَّ ووصل الفعل[١٠]. وقراءةُ العامة: «يَسأل» بفتح الياء. وقرأ شيبةُ

(١) دردي الزيت: هو ما يبقى في أسفله. الصحاح (درد).
(٢) النكت والعيون ٦/ ٩٢.
(٣) ١٩/ ١٣٣، ١٣/ ٢٦٢.
(٤) ياقوتة الصراط ص٣٥٠، وينظر ما سلف ١٤/ ١٣٧.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٦.
(٦) ديوان زهير ص١٢. قال شارحه ثعلب: أراد أن حَبَّ الفنا صحيح؛ لأنه إذا كسر، ظهر له لون غير الحمرة. وقال أبو عبيدة: وحَبُّ الفنا: شجر له حب تتخذ منه القراريط يوزن بها، وهو شديد الحمرة.
(٧) القول بنحوه في الكشاف ٤/ ١٥٧. وتفسير الرازي ٣٠/ ١٢٥.
(٨) ينظر مجمع البيان ٢٩/ ٥٥.
(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٧.
(١٠) تفسير الرازي ٣٠/ ١٢٦.

والبَزِّيُّ عن عاصم: «ولا يُسأل» بالضم على ما لم يُسمَّ فاعله[١]، أي: لا يُسأل حميمٌ عن حميمه، ولا ذو قرابةٍ عن قرابته، بل كلُّ إنسانٍ يُسأل عن عمله. نظيره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرونهم. وليس في القيامة مخلوقٌ إلَّا وهو نُصْبَ[٢] عينِ صاحبِه من الجنِّ والإنس. فيُبصِرُ الرجلُ أباه وأخاه وقرابته وعشيرته، ولا يَسأله ولا يكلِّمه، لاشتغالهم بأنفسهم. وقال ابن عباس: يتعارفون ساعةً ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة[٣]. وفي بعض الأخبار: إنَّ أهلَ القيامة يَفِرُّون من المعارفِ مخافةَ المظالم.

وقال ابن عباس أيضًا: «يُبَصَّرُونَهُمْ»: يبصر بعضهم بعضًا، فيتعارفون، ثم يفرُّ بعضُهم من بعض. فالضمير في «يُبَصَّرُونَهُمْ» على هذا للكفار، والهاء[٤] والميم للأقرباء.

وقال مجاهد: المعنى يُبصِّر اللهُ المؤمنينَ الكفارَ في يوم القيامة؛ فالضمير في «يبصَّرونَهم» للمؤمنين، والهاء والميم للكفار.

ابن زيد: المعنى يُبصِّر الله الكفارَ في النار الذين أضلُّوهم في الدنيا؛ فالضمير في «يُبَصَّرُونَهُمْ» للتابعين، والهاء والميم للمتبوعين.[٥] وقيل: إنَّه يبصِّرالمظلومَ ظالمَه

---

(١) كذا ذكر المصنف رواية البزي عن عاصم، والذي ذكره أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٥٤ هو رواية البرجمي عن أبي بكر عن عاصم، والبزي عن ابن كثير باختلاف فيه.

وأما القراءة عن شيبة فقد ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٦٥٠ وقال: وهو غلط.

(٢) في (ظ): يبصر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٣.

(٤) لفظة: والهاء. ليست في (م).

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبريُّ ٢٣/ ٢٥٧-٢٥٨، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٧.

والمقتولَ قاتلَه[١]. وقيل: «يُبَصَّرُونَهُمْ» يرجع إلى الملائكة، أي: يعرفون أحوالَ الناسِ، فيسوقون كلَّ فريقٍ إلى ما يليق بهم[٢]. وتم الكلام عند قوله: «يُبَصَّرُونَهُمْ».

ثم قال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنَّى الكافر. ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني: من عذاب جهنمَ بأعزِّ من كان عليه في الدنيا من أقاربه فلا يقدر.

ثم ذَكَرَهم فقال: ﴿بِبَنِيهِ . وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: زوجته. ﴿وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته. ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾: تنصره؛ قاله مجاهد وابن زيد. وقال مالك: أمُّه التي تُرَبِّيه. حكاه الماورديُّ[٣] ورواه عنه أشهب[٤]. وقال أبو عبيدة[٥]: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم آباؤه الأدْنَوْن. وقال المبرِّد: الفصيلةُ: القطعة من أعضاء الجسد، وهي دون القبيلة. وسُمِّيت عِتْرة الرجل فصيلَته تشبيهاً بالبعض منه. وقد مضى في سورة الحجرات القولُ في القبيلة وغيرها[٦].

وهنا مسألة، وهي: إذا حَبَسَ على فصيلته، أو أوصى لها؛ فمن ادَّعى العمومَ حملَهُ على العشيرة، ومن ادَّعى الخصوصَ حملَهُ على الآباء؛ الأدنى فالأدنى. والأوَّل أكثر في النطق. والله أعلم[٧].

ومعنى: «تُؤْوِيه»: تضمُّه وتؤمِّنه من خوف إن كان به.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: ويَوَدُّ لو فُدِيَ بهم لافتدى ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: يخلِّصه ذلك الفداء. فلا بدَّ من هذا الإضمار، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٩٢.

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ٥٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٩٢. والأقوال السالفة منه عدا قول مجاهد، وقد أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٦٠.

(٤) أي عن مالك. أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٦.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٩ ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٩٢.

(٦) ١٩/ ٤١٤ - ٤١٦.

(٧) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٦.

أي: وإنَّ أَكْلَهُ لَفِسق. وقيل: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ» يقتضي جوابًا بالفاء؛ كقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]. والجواب في هذه الآية: «ثُمَّ يُنْجِيهِ» لأنّها من حروف العطف؛ أي: يَوَدُّ المجرمُ لو يفتدي فينجيَه الافتداء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ تقدَّم القول في «كَلَّا» وأنها تكون بمعنى حَقًّا، وبمعنى لا[1]. وهي هنا تحتمل الأمرين؛ فإذا كانت بمعنى حقًّا، كان تمامُ الكلام «يُنْجِيهِ». وإذا كانت بمعنى لا، كان تمامُ الكلام عليها، أي: ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء. ثم قال: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: هي جهنم، أي: تتلظَّى نيرانها؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] واشتقاقُ لظى من التلظِّي. والتِظَاءُ النَّارِ: التهابُها، وتلظِّيها: تلهُّبُها[2]. وقيل: كان أصلها: «لظظ»، أي: دامت[3] لدوام عذابها؛ فقُلبتْ إحدى الظائين ألفًا، فبقيت لظى.

وقيل: هي الدَّرَكَةُ الثانية من طبقات جهنم[4]. وهي اسمٌ مؤنثٌ معرفةٌ، فلا ينصرف.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه، والأعمش وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ «نَزَّاعَةٌ» بالرفع[5]. وروى أبو عمر عن عاصم[6] «نزاعةً» بالنصب.

---

(١) ١١/ ١٤٧ .

(٢) الصحاح (لظى)، وقال الزمخشري ٤/ ١٥٨ : لظى عَلَم للنار، منقول من اللظى، بمعنى اللهب .

(٣) في (م) : ما دامت .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٤ .

(٥) النشر ٢/ ٣٩٠ ، والسبعة ص٦٥١ ، والتيسير ص٢١٤ .

(٦) في (د) و(خ) و(م) : أبو عمرو عن عاصم ، وفي (ظ) أبو عمرو وعاصم . والمثبت من (ق) . وهو الموافق لإيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٨ . والكلام منه . وأبو عمر هو حفص بن سليمان راوية عاصم .

فمن رفع فله خمسةُ أوجه: أحدها: أنْ تجعلَ «لظى» خبرَ «إنَّ»، وترفعَ «نزاعةٌ» بإضمار هي؛ فمن هذا الوجه يحسنُ الوقف على «لظى»[(١)].

والوجه الثاني: أنْ تكون «لظى» و«نزاعةٌ» خبران لإنَّ؛ كما تقول: إنَّه حلوٌ حامض[(٢)].

والوجه الثالث: أنْ تكونَ «نزاعةٌ» بدلاً من «لظى»، و«لظى» خبر «إنَّ».

والوجه الرابع: أنْ تكون «لظى» بدلاً من اسم «إنَّ»، و«نزاعةٌ» خبرُ «إنَّ».

والوجه الخامس: أنْ يكون الضمير في «إنَّها» للقصَّة، و«لظى» مبتدأ، و«نزاعة» خبرُ الابتداء، والجملة خبر «إنَّ»[(٣)]. والمعنى: أنَّ القصةَ والخبرَ لظى نزاعةٌ للشَّوَى.

ومن نصب «نزاعة» حَسُنَ له أن يقف على «لظى» وينصب «نزاعة» على القطع من «لظى» إذ كانت نكرةً متصلةً بمعرفة[(٤)].

ويجوز نصبُها على الحال المؤكِّدة؛ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]. ويجوز أنْ تُنصبَ على معنى: إنَّها تتلظى نزاعةً[(٥)]، أي: في حال نزعها للشَّوَى. والعاملُ فيها ما دلَّ عليه الكلام من معنى التلظِّي[(٦)].

ويجوز أنْ يكونَ حالًا؛ على أنه حالٌ للمكذِّبين بخبرها.

ويجوز نصبها على المدح[(٧)]؛ كما تقول: مررتُ بزيدٍ العاقلَ الفاضلَ. فهذه

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٨.

(٢) في النسخ: خلق مخاصم. وهو خطأ. والمثبت من الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٣٦ والكلام منه.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٣٦.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢١.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٣٥.

(٧) في (ق) و(خ): المنع. وفي (ظ) و(م): القطع. والمثبت من (د) وهو الموافق لإيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٨. والكلام منه.

خمسةُ أوجهٍ للنصب أيضًا .

والشَّوَى: جمعُ شواةٍ، وهي جلدةُ الرأس. قال الأعشى:

قالت قُتَيلَةُ مالَهُ قد جُلِّلَتْ شَيبًا شَوَاتُهْ[١]

وقال آخر:

لأصبحتَ هدَّتك الحوادثُ هَدَّةً لها فَشَواةُ الرأس بادٍ قَتِيرُها[٢]

القتير: الشَّيب[٣]. وفي الصحاح: والشَّوى: جمع شَواة، وهي جلدةُ الرأس. والشَّوَى: اليدان والرِّجلان والرأس من الآدميِّين، وكلُّ ما ليس مَقْتَلًا. يقال: رماه فأَشواه، إذا لم يُصِبِ المقتل. قال الهُذَلِيُّ[٤]:

فإنَّ من القول التي لا شَوَى لها إذا زَلَّ عن ظهرِ اللِّسان انفلاتُها

يقول: إنَّ من القول كلمةً لا تُشْوِي، ولكنْ تقتل. قال الأعشى:

قالت قُتَيْلَةُ مَالَهُ قد جُلِّلت شَيْبًا شَوَاتُهْ[٥]

قال أبو عبيدة[٦]: أنشدها أبو الخطاب الأخفشُ أبا عمرو بنَ العلاء، فقال له: صَحَّفت، إنَّما هو سَرَاتُه[٧]؛ فسكت أبو الخطَّاب، ثمَّ قال لنا: بل هو صَحَّف، إنَّما هو شَواته. وشَوَى الفرسِ: قوائمُهُ؛ لأنَّه يقال: عَبْلُ الشَّوى[٨]، ولا يكونُ هذا

(١) معاني القرآن للزجَّاج ٢/ ٢٢١ . ولم نقف على البيت في ديوان الأعشى ، وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٩ ، والطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٦١ .

(٢) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص١٦١ . وفيه : نعم . بدل : لها .

(٣) الصحاح (قتر) .

(٤) هو أبو ذؤيب الهذلي؛ كما في ديوان الهذليين ١/ ١٦٣ .

(٥) سلف قريباً .

(٦) في (ظ) و(م) : أبو عبيد . والمثبت من (د) و(خ) و(ق)، وهو الموافق للصحاح والكلام منه. وكلامُ أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٦٩-٢٧٠ .

(٧) بعدها في الصحاح (شوى) والكلام منه: سراته : أي : نواحيه .

(٨) أي: ضخم القوائم .

للرأس؛ لأنَّهم وصفوا الخيلَ بأسالة الخدَّين، وعِتْقِ الوجه؛ وهو رِقَّته. والشَّوَى: رُذال المال. والشَّوى: هو الشيء الهيِّن اليسير.

وقال ثابت البُنَانِيُّ والحسن: «نَزَّاعَةً لِلشَّوَى» أي: لمكارم وجهه[١]. أبو العالية: لمحاسن وجهه[٢]. قتادة: لمكارم خلقته وأطرافه. وقال الضَّحَّاك: تَبْرِي[٣] اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً. وقال الكسائيُّ: هي المفاصل. وقال بعضُ الأئمة: هي القوائم والجلود. قال امرؤ القيس:

سَلِيمِ الشَّظى عَبْلِ الشَّوى شَنِجِ النَّسا ... له حَجَباتٌ مُشْرِفاتٌ على الفالِ[٤]

وقال أبو صالح: أطراف اليدين والرِّجلين. قال الشاعر:

إذا نظرتْ عَرَفْتَ الفخرَ منها ... وعينيها ولم تعرف شَواها[٥]

يعني: أطرافها. وقال الحسن أيضاً: الشَّوَى: الهام[٦].

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تدعو لَظَى من أدبرَ في الدنيا عن طاعة الله، وتولَّى عن الإيمان. ودعاؤها أنْ تقول: إليَّ يا مشرك، إليَّ يا كافر.

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٩٣ عن الحسن، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ عن ثابت وعزاه لابن المنذر.

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٦٢.

(٣) في (د) و(م): تفري، وفي (ظ): تجري. والمثبت من (خ) و(ق) وهو الموافق لتفسير الطبري ٢٣/ ٢٦٣ وقد أخرجه عنه.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٣٦. قال شارحه: قوله: سليم الشظى: هو عظم صغير في يد الفرس، فإذا تحرك قيل: شِظَى الفرس. والشوى: القوائم. والنَّسا: عرق، ووصفه بالشَّنِج لأنه أصلب له. والحجبات: رؤوس الأوراك. وقوله: على الفال: يريد على الفائل؛ وهو عرق عن يمين عَجْب الذنب ويساره.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩٣. والبيت في ديوان مجنون ليلى ص٣٠٠ وفيه: الجيد. بدل: الفخر. وهو أيضاً في ديوان ابن الدمينة ص١٩١. وفيه: النحر، بدل: الفخر. وجاء في الديوانين بلفظ: سواها؛ بالمهملة. بدل: شَواها.

(٦) لفظ قول الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٧: الشوى: جلد الرأس والهامة.

وقال ابن عباس: تدعو الكافرينَ والمنافقين بأسمائهم، بلسانٍ فصيح: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق؛ ثم تلتقطهُم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ(١).

وقال ثعلب: «تَدْعُو» أي: تُهلك. تقول العرب: دعاك الله، أي: أهلكك الله(٢).

وقال الخليل(٣): إنَّه ليس كالدُّعاء: تعالوا، ولكن دَعْوَتُها إياهم، تَمَكُّنها من تعذيبهم.

وقيل: الداعي خَزَنَةُ جهنم؛ أُضيف دعاؤهم إليها. وقيل: هو ضربُ مَثَل، أي: إنَّ مصيرَ من أَدبر وتولَّى إليها، فكأنَّها الداعية لهم. ومثله قول الشاعر(٤):

ولقد هبطنا الوادِيَيْن فواديًا يدعو الأنيسَ به العضيضُ الأبكمُ

العضيض الأبكم: الذباب. وهو لا يدعو، وإنما طنينه نبَّه عليه، فدعا إليه(٥).

قلت: القولُ الأوَّل هو الحقيقة؛ حَسَب ما تقدَّم بيانه بآي القرآن والأخبار الصحيحة.

القشيريُّ: ودعاءُ لَظى بخلق الحياة فيها حين تدعو، وخوارق العادة غدًا كثيرة.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي: جمع المالَ فجعله في وعائه، ومنعَ منه حقَّ الله تعالى؛ فكان جَموعًا مَنوعًا(٦). قال الحَكَم: كان عبد الله بن عُكَيم لا يربط كيسه، ويقول: سمعتُ الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾(٧).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٧.

(٣) في العين ٢/ ٢٢١.

(٤) ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٦٠٣ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩٣ - ٩٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٤.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٦٥.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يعني: الكافر؛ عن الضحاك[١]. والهَلَع في اللغة: أشدُّ الحرص وأسوأُ الجزع وأفحشُه. وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما. وقد هَلِع ـ بالكسر ـ يَهْلَع، فهو هَلِعٌ وهَلُوع[٢]؛ على التكثير. والمعنى: إنَّه لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي. عِكرمة: هو الضَّجور[٣]. الضَّحَّاك: هو الذي لا يشبع[٤]. والمَنُوع: هو الذي إذا أصابَ المالَ منعَ منه حقَّ الله تعالى[٥]. وقال ابنُ كَيسان: خلق اللَّهُ الإنسانَ يحبُّ ما يَسرُّه ويُرضيه، ويهربُ مما يَكرهه ويسخطُ، ثم تَعَبَّده الله بإنفاق ما يحبُّ، والصبرِ على ما يكره[٦].

وقال أبو عبيدة: الهَلُوعُ: هو الذي إذا مسَّه الخيرُ لم يَشكر، وإذا مسَّه الضُّرُّ لم يَصبر؛ قاله ثعلب.

وقال ثعلب أيضاً: قد فسَّر الله الهَلُوع، وهو الذي إذا ناله الشرُّ أظهرَ شدَّة الجَزَع، وإذا ناله الخيرُ بَخِل به ومنعه الناس[٧].

وقال النبيُّ ﷺ: «شَرُّ ما أُعطي العبدُ: شُحٌّ هالع، وجُبْنٌ خالع»[٨]. والعربُ تقول: ناقةٌ هِلْواعة وهِلْواع؛ إذا كانت سريعةَ السَّير خفيفة[٩]. قال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٦٦ .

(٢) الصحاح (هلع) .

(٣) زاد المسير ٨/ ٣٦٣ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٦ وعزاه لابن المنذر .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٠٤ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٤ .

(٧) ينظر الدر المصون ١٠/ ٤٥٩ .

(٨) أخرجه أحمد (٨٠١٠)، وأبو داود (٢٥١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٩) ينظر الصحاح (هلع) .

صكَّاءَ ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتَها حَرَجٍ إذا استقبلتَها هِلْواعِ[١]

الذِّعْلِب والذِّعْلِبة: الناقة السريعة[٢].

و«جَزُوعًا» و«مَنُوعًا» نعتان لِهَلُوع. على أنْ ينويَ بهما التقديمَ قبل «إذا». وقيل: هو خبر «كان» مضمرة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ دلَّ على أنَّ ما قَبْلَه في الكفار؛ فالإنسانُ اسمُ جنس؛ بدليل الاستثناء الذي يعقبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٢-٣].

قال النَّخَعيُّ: المراد بالمصلِّين الذين يؤدُّون الصلاةَ المكتوبة[٣]. ابن مسعود: الذين يصلُّونها لوقتها، فأمَّا تركُها فكفر[٤]. وقيل: هم الصحابة. وقيل: هم المؤمنون عامَّة، فإنَّهم يَغْلبون فَرْطَ الجزع بثقتهم بربِّهم ويقينهم.

---

(١) البيت للمسيَّبِ بن عَلَس، وهو في المفضليات ص٦١، وكتاب الحيوان للجاحظ ٣٩٩/٤، وتهذيب اللغة ١٤٤/١. قوله: صكاء؛ من الصكك، وهو تقارب العُرقوبين، يقول: كأنها نعامة في تقارب عُرْقُوبَيْها، ويُحمد من النجائب تقاربُ العُرْقُوبَيْن. (والعُرْقُوب من الدابة: ما يكون في رِجلها بمنزلة الركبة في يدها). وقوله: الحَرَج هو سرير عمل عليه الموتى؛ شبهها به لطولها. والهِلْواع: الحديدة السريعة. شرح اختيارات المفضل ٣٠٩/١-٣١٠.

(٢) الصحاح (ذعلب).

(٣) أخرجه الطبري ٢٦٨/٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٦٨/٥.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي: على مواقيتها. وقال عقبةُ بن عامر: هم الذين إذا صلَّوْا لم يلتفتوا يمينًا ولا شمالًا[١]. والدائم الساكن، ومنه: نهى عن البول في الماء الدائم[٢]، أي: الساكن. وقال ابن جُريج والحسن: هم الذين يُكثرون فعلَ التطوّع منها[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يريد الزكاة المفروضة؛ قاله قتادة وابن سيرين[٤]. وقال مجاهد: سِوى الزكاة. وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: صلة رَحِم وحَمْلُ كَلٍّ[٥]. والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّه وَصَفَ الحقَّ بأنَّه معلوم، وسِوى الزكاة ليس بمعلوم، إنَّما هو على قدر الحاجة، وذلك يَقِلُّ ويكثر[٦].

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ تقدَّم في «الذاريات»[٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء، وهو يوم القيامة. وقد مضى في سورة الفاتحة القولُ فيه[٨].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ قال ابن عباس: لمن أشرك أو كَذَّب أنبياءه.

وقيل: لا يأمنُه أحدٌ، بل الواجب على كلِّ أحدٍ أنْ يخافه ويُشفقَ منه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٦٩.

(٢) في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا يَبُلْ أحدكم في الماء الدائم، ولا يغتسل فيه من الجنابة». أخرجه أحمد (٩٥٩٦).

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٩٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٦٤ عن ابن جريج.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٣٢ عن قتادة.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٦) غير أن ابن عطية صحح قول مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٨. قال: وهذا هو الأصح في هذه الآية لأنَّ السورة مكية، وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة.

(٧) ١٩/ ٤٨٢.

(٨) ١/ ٢٢١.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في سورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[١].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ تقدَّم أيضاً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ على من كانت [عليه][٢] من قريبٍ أو بعيد، يقومون بها عند الحكام[٣] ولا يكتمونها ولا يغيِّرونها. وقد مضى القول في الشهادة وأحكامها في سورة البقرة[٤]. وقال ابن عباس: «بِشَهَادَاتِهِمْ» أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله[٥]. وقُرئ «لِأَمَانَتِهِمْ» على التوحيد. وهي قراءة ابن كثير وابن مُحَيْصن[٦]. فالأمانة: اسمُ جنس، فيدخل فيها أمانات الدِّين، فإنَّ الشرائع أماناتٌ ائتمنَ الله عليها عبادَه. ويدخل فيها أماناتُ الناس من الودائع. وقد مضى هذا كلُّه مستوفًى في سورة النساء[٧].

وقرأ عباس الدُّورِي[٨] عن أبي عمرو ويعقوب: «بِشَهَادَاتِهِمْ» جمعًا[٩]. الباقون:

---

(١) ١٥/١١ - ١٥ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق . ينظر اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٣٧١ ، وفتح القدير ٥/ ٢٩٣ .

(٣) في (د) و(م) : الحاكم .

(٤) ٤/ ٤٧٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٣١ .

(٦) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦٥١ ، والتيسير ص١٥٨ . وقراءة ابن محيصن في إتحاف فضلاء البشر ص٥٥٦ .

(٧) ٦/ ٤٢٣ .

(٨) كذا قال المصنف، وهو وهم منه رحمه الله، إنما هو عباس بن الفضل بن عمرو، أبو الفضل الأنصاري الواقفي. معرفة القراء الكبار ١/ ٣٧٧ . أما عباس الدوري، فهو ابن محمد أبو الفضل البغدادي، روى عنه أصحاب السنن.

(٩) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية حفص. السبعة ص ٦٥١، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٩١، ولم يذكر أبو عمرو الداني رواية عباس بن الفضل عن أبي عمرو في التيسير، وذكرها في جامع البيان ٢/ ٤٥٥ .

«بِشَهَادَتِهِمْ» على التوحيد؛ لأنَّها تؤدِّي عن الجمع. والمصدر قد يُفرد وإن أُضيف إلى جمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. وقال الفراء: ويدلُّ على أنَّها «بِشَهَادَتِهِمْ» توحيدًا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جُرَيج[1]: التطوع. وقد مضى في سورة المؤمنين[2]. فالدوام خلاف المحافظة. فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخِلُّون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغَ الوضوء لها ومواقيتَها، ويقيموا أركانها، ويكمِّلوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف[3] المآثم. فالدوامُ يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظةُ إلى أحوالها[4].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قال الأخفش: مسرعين. قال:

بمكَّةَ أهلُها ولقد أراهم … إليه مهطعين إلى السماع[5]

والمعنى: ما بالهم يُسرعون إليك، ويجلسون حواليك، ولا يعملون بما تأمرُهم؟ وقيل: أي: ما بالُهم مسرعين في التكذيب لك؟ وقيل: أي: ما بالُ الذين كفروا

---

(١) ذكر قوله ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٠.

(٢) ١٥/ ١٥.

(٣) في (م) باقتراب.

(٤) الكشاف ٤/ ١٥٩.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩٦. والبيت ليزيد بن مفرِّغ الحميري وهو في ديوانه ص١١٠، وروايته فيه:

بدجلة أهلها ولقد أراهم … بدجلة مهطعين إلى السماع

يُسْرِعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزئوا بك[١]؟ وقال عطيَّة: مهطعين: معرضين. الكلبيُّ: ناظرين إليك تعجُّبًا[٢]. وقال قتادة: عامدين[٣]. والمعنى متقارب، أي: ما بالهم مسرعين عليك، مادِّين أعناقَهم، مدمني النظر إليك[٤]؟ وذلك من نظر العدوِّ. وهو منصوبٌ على الحال. نزلت في جمعٍ من المنافقين المستهزئين، كانوا يَحضرونه عليه الصلاة والسلام ولا يؤمنون به[٥]. و«قِبَلَكَ» أي: نحوك.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: عن يمين النبيِّ ﷺ وشماله، حِلَقاً حِلَقاً وجماعات. والعِزِين: جماعاتٍ في تَفرِقة، قاله أبو عبيدة[٦]. ومنه حديثُ النبيِّ ﷺ، أنَّه خرج على أصحابه فرآهم حِلقًا، فقال: «ما لي أراكم عِزِين، أَلَا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟»، قالوا: وكيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ في الصَّفِّ» خرَّجه مسلمٌ وغيره[٧]. وقال الشاعر:

تَرانا عِنده واللَّيلُ داجٍ ... على أبوابه حِلَقاً عِزِينا[٨]

وقال الراعي:

أخليفةَ الرحمنِ إنَّ عشيرتي ... أمسى سَرَاتُهُمُ إليك عِزِينا[٩]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٧٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٥.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٢١.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٠.

(٧) صحيح مسلم (٤٣٠)، ومسند أحمد (٢٠٩٦٤)، عن جابر بن سمرة ﷺ.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٩٧. وجاء بعد البيت في (د) و(م): أي متفرقين.

(٩) ديوان الراعي النميري ص٢٢٨ وروايته فيه:

أوليَّ أمرِ الله إنَّ عشيرتي ... أمسى سَوَامُهُمُ عِزِينَ فُلُولا

وسَراة الشيء أي: خياره. لسان العرب (سرا).

أي: متفرقين. وقال آخر:

كأنَّ الجماجمَ من وقعها خناطيل[١] يهوينَ شَتَّى عِزِينا[٢]

وقال آخر:

فلمَّا أنْ أتَيْنَ على أُضاخٍ ضَرَحْنَ حَصَاهُ أشْتَاتًا عِزِينا[٣]

وقال الكُمَيْت[٤]:

ونحنُ وجَنْدَلٌ باغٍ تَرَكْنَا كَتَائبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عِزِينا

وقال عنترة[٥]:

وقِرْنٍ قد تركتُ لِذِي وَلِيٍّ عليه الطير كالعُصَبِ العِزِين

وواحدُ عِزِينَ: عِزَة، جُمع بالواو والنون؛ ليكون ذلك عِوَضاً مما حُذِف منها. وأصلها: عِزْهة، فاعتلَّت كما اعتلَّت سَنَة، فيمن جعل أصلها سَنْهة[٦]. وقيل: أصلها: عِزْوة، من عزاه يعزوه: إذا أضافه إلى غيره. فكلُّ واحدٍ[٧] من الجماعات مضافةٌ إلى الأخرى، والمحذوف منها الواو.

وفي الصحاح: والعِزَة: الفِرْقةُ من الناس، والهاء عوضٌ من الياء، والجمع عِزًى ـ على فِعَل ـ وعِزُون وعُزُون أيضاً بالضم، ولم يقولوا عِزات، كما قالوا ثُبات. قال

---

(١) الخناطيل: جماعاتٌ من الوحش والطير في تفرقةٍ، ولا واحد لها من جنسها. اللسان (خنطل).

(٢) لم نقف عليه. وجاء بعده في (د) و(م): أي متفرقين.

(٣) لم نقف على قائله. وهو في الصحاح (عزا). قوله: أُضاخ: اسم جبل أو موضع. اللسان (أضخ)، وضرحه: دفعه ونحَّاه. القاموس (ضرح).

(٤) في ديوانه ص٤٤٨.

(٥) في (د) و(ظ): وقال غيره. والبيت في ديوان عنترة (مصورة دار الكتب العلمية. تحقيق: عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي) ص١٧٩ برواية:

وقِرنٍ قد تركت لدى مَكَرٍّ عليه سبائباً كالأرجوان

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/٧٥٩.

(٧) في (د) أحد، وفي مجمع البيان ٢٩/ ٦١ ـ والكلام منه ـ: جماعة.

الأصمعيُّ: يقال في الدار: عِزونَ، أي: أصنافٌ من الناس(١).

و﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ متعلِّقٌ بـ«مُهْطِعِينَ» ويجوز أنْ يتعلَّق بـ«عِزِين» على حدِّ قولك: أخذته عن زيد(٢).

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبيِّ ﷺ، ويستمعون كلامه، فيكذِّبونه، ويَكْذِبون عليه، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون: لئنْ دخلَ هؤلاء الجنَّةَ لندخلنَّها قبلَهم، ولئن أُعطوا منها شيئاً لَنُعطَيَنَّ أكثرَ منه، فنزلت: «أَيَطْمَعُ» الآية(٣).

وقيل: كان المستهزئون خمسة أرهُط(٤). وقرأ الحسنُ وطلحةُ بن مُصَرِّفٍ والأعرجُ: «أَنْ يَدْخُلَ» بفتح الياء وضم الخاء؛ مُسمَّى الفاعل. ورواه المفضَّل عن عاصم(٥). الباقون: «أَنْ يُدْخَلَ» على الفعل المجهول.

﴿كَلَّآ﴾ لا يدخلونها. ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّهم يعلمون أنَّهم مخلوقون من نطفة، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ؛ كما خُلِقَ سائرُ جنسهم، فليس لهم فضلٌ يستوجبون به الجنة، وإنما تُستوجَب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى(٦). وقيل: كانوا يستهزؤون بفقراء المسلمين، ويتكبَّرون(٧) عليهم. فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من القَذَر، فلا يليق بهم هذا التكبر.

وقال قتادة في هذه الآية: إنما خُلِقْتَ يا ابن آدم من قذرٍ، فاتَّق الله(٨).

---

(١) الصحاح (عزا).

(٢) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٢.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٤.

(٤) الكشاف ٤/ ١٦٠.

(٥) قراءة الحسن وطلحة والمفضل عن عاصم في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٠، وزاد المسير ٨/ ٣٦٤.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٥.

(٧) في (د): وينكرون.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٨٢.

وروي أنَّ مُطَرِّفَ بنَ عبد الله بن الشِّخِّير رأى المُهَلَّب بنَ أبي صُفْرة يتبختر في مُطْرَفِ[١] خزٍّ وجُبَّة خزٍّ، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المِشْية التي يُبغضها الله؟! فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أوَّلُكَ نطفةٌ مَذِرة، وآخِرُكَ جيفةٌ قَذِرة، وأنت تحمل العَذِرة. فمضى المهلَّب وترك مشيته[٢].

ونظم الكلامَ محمود الورَّاق فقال:

عَجِبْتُ من مُعْجَبٍ بصورتهِ ... وكان في الأصل نُطفةً مَذِرهْ
وهو غَدًا بعد حُسْن صورتهِ ... يصيرُ في اللَّحد جيفةً قَذِرهْ
وهو على تِيهه ونَخْوتهِ ... ما بين ثوبيه يحمل العذرهْ[٣]

وقال آخر:

هل في ابن آدم غيرُ الرأس مَكْرُمةٌ ... وهو بخمسٍ من الأوساخ مضروبُ
أنفٌ يسيل وأُذْنٌ ريحُها سَهِكٌ[٤] ... والعين مُرْمَصَةٌ[٥] والثغْر ملعوبُ[٦]
يا ابن التراب ومأكولَ التراب غدًا ... قصِّرْ فإنَّك مأكولٌ ومشروبُ[٧]

وقيل: معناه من أجل ما يعلمون، وهو الأمر والنهي، والثواب والعقاب. كقول

---

(١) المطرف: بضم الميم وكسرها واحد المطارف، وهي أرديةٌ من خزٍّ مربعةٌ لها أعلام. مختار الصحاح (طرف).

(٢) ذكر هذه القصة الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٠٥.

(٣) الأبيات ذكرها الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص٦٨ دون نسبة. ونسبها السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣١٨ لأبي محمد البافي.

(٤) السهك: هي ريحٌ كريهة تجدها من الإنسان إذا عرق. اللسان (سهك).

(٥) الرَّمص: وسخ أبيض يجتمع في الموق. القاموس (رمص).

(٦) في (د) و(ق) و(م): ملهوب. والمثبت من (خ) و(ظ)، وغرر الخصائص الواضحة. وثغر ملعوب، أي: ذو لعاب، الصحاح (لعب).

(٧) الأبيات في غرر الخصائص الواضحة ص٦٨. دون نسبة.

الشاعر وهو الأعشى[١]:

أَأَزْمَعْتَ من آل لَيْلى ابْتِكَارَا وشَطَّتْ على ذِي هَوًى أن تُزَارَا

أي: من أجل ليلى[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أقسم. و«لا» صلة. ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ هي مشارقُ الشمس ومغاربُها. وقد مضى الكلام فيها[٣]. وقرأ أبو حَيْوَة وابن مُحَيْصِن وحُميد: «بِربِّ المشرِقِ والمغرِب» على التوحيد[٤].

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ يقول: نقدرُ على إهلاكهم والذهاب بهم، والمجيء بخيرٍ منهم في الفضل والطوع والمال[٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا يفوتنا شيءٌ ولا يعجزنا أمرٌ نريده.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم؛ على جهة الوعيد. واشتغِلْ أنت بما أُمِرت به، ولا يَعظُمنَّ عليك شِركُهم؛ فإنَّ لهم يوماً يَلقَون فيه ما وُعِدوا. وقرأ ابنُ مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد: «حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوْعَدُونَ»[٦]. وهذه الآية

---

(١) في ديوانه ص٩٥ .

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ٦٣ .

(٣) ٢/ ٣٢٤ .

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١ عن ابن محيصن .

(٥) في (د): المثال .

(٦) وهي قراءة أبي جعفر – من العشرة – كما في النشر ٢/ ٣٩١ . وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٦٦ .

منسوخة بآية السيف[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾

«يَوْمَ» بدل من «يَوْمَهُمُ» الذي قبله، وقراءةُ العامة: «يَخْرُجُونَ» بفتح الياء، وضمِّ الراء على أنَّه مسمَّى الفاعل. وقرأ السُّلَمِيُّ والمغيرةُ والأعشى عن عاصم: «يُخْرَجون» بضمِّ الياء، وفتح الراء على الفعل المجهول[٢].

والأجداث: القبور، واحدها جَدَث[٣]. وقد مضى في سورة يس[٤].

﴿سِرَاعًا﴾ حين يسمعون الصيحةَ الآخرة إلى إجابة الداعي، وهو نصبٌ على الحال.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قراءة العامة بفتح النون وجزم الصاد. وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد[٥]. وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهما بضم النون وإسكان الصاد[٦]. والنَّصْب والنُّصْب لغتان، مثل الضَّعْف والضُّعْف[٧]. الجوهريُّ[٨]: والنَّصْب ما نُصِب فعُبِد من دون الله، وكذلك النُّصْب بالضمِّ؛ وقد يُحرَّك. قال الأعشى:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٦٦ ، وقال ابن الجوزي: وإذا قلنا إنه وعيدٌ بلقاء يوم القيامة ، فلا وجه للنسخ .

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١ ، ونسبها لعلي ﷺ . وهي برواية الأعشى عن عاصم في جامع البيان لأبي عمرو الداني ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢٤ .

(٤) ١٧/ ٤٦٢ .

(٥) السبعة ص٦٥١ ، والتيسير ص٢١٤ .

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦١ لأبي العالية ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١ للحسن وقتادة .

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ١٣٣ .

(٨) في الصحاح (نصب) .

وذَا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه لِعافيةٍ[١] واللهَ ربَّك فاعْبُدا[٢]

أراد «فَاعْبُدَنْ» فوقف بالألف؛ كما تقول: رأيتُ زيداً. والجمع الأنصاب. وقوله: «وذا النُّصُبَ» بمعنى إيَّاك وذا النُّصُبَ. والنُّصْب: الشرُّ والبلاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وقال الأخفش والفرَّاء: النُّصُب جمع النَّصْب مثل رَهْن ورُهُن، والأنصاب جمع نُصُب؛ فهو جمع الجمع[٣]. وقيل: النُّصُب والأنصاب واحد. وقيل: النُّصُب جمع نِصاب، وهو حجرٌ أو صنمٌ يُذبَح عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]. وقد قيل: نَصْب ونُصْب ونُصُب؛ بمعنًى واحد؛ كما قيل: عَمْر وعُمْر وعُمُر؛ ذكره النحاس[٤].

قال ابن عباس: «إلى نصب» إلى غاية، وهي التي تَنْصِب إليها بصرك.

وقال الكلبيُّ: إلى شيءٍ منصوبٍ؛ عَلَمٍ أو رَايةٍ[٥]. وقال الحسن: كانوا يَبْتَدرون إذا طَلعت الشمس إلى نُصُبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، لا يلوي أوَّلهم على آخرهم[٦].

﴿يُوفِضُونَ﴾: يُسرعون. والإيفاض: الإسراع. قال الشاعر:

فوارسُ ذُبْيانَ تحت الحديـ ـدِ كالجِنِّ يُوفِضْنَ من عَبْقَرِ[٧]

---

(١) قوله: لعافية، من (م)، ووقع في مطبوع الصحاح: لعاقبة، وفي اللسان (نصب): لعافية، وأشار محقق اللسان إلى أنها وردت في نسخة خطية للصحاح: لعافية.

(٢) ديوان الأعشى ص١٨٧، ورواية الشطر الثاني فيه: ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا.

(٣) قول الأخفش ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٣٦، وقول الفراء ذكره ابن زنجلة في حجة القراءات ص٧٢٥.

(٤) وهو معنى قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٦٨، وينظر الصحاح واللسان (نصب).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٩٦.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٨٧، وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٥٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٩٦ بنحوه.

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٤٦٥، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٩٥.

عبْقَرٌ: موضعٌ تزعُم العرب أنَّه من أرض الجنّ . قال لبِيد:

كـهـولٌ وشُـبَّـانٌ كـجِـنَّـةِ عـبـقـرِ[١]

وقال الليث: وَفَضتِ الإبلُ تَفِض وَفْضًا؛ وأَوفضَها صاحبُها[٢]. فالإيفاض متعدٍّ، والذي في الآية لازم. يقال: وَفَضَ وأَوفَضَ واستوفض، بمعنى أسرع[٣].

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي: ذليلةً خاضعة، لا يرفعونها لِمَا يتوقعونَه من عذاب الله.

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ أي: يغشاهم الهوان. قال قتادة: هو سوادُ الوجوه. والرَّهَق: الغشيان، ومنه غلامٌ مراهقٌ: إذا غشي الاحتلام. رَهِقَه ـ بالكسر ـ يَرْهَقُه رَهَقًا، أي: غَشِيَه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ [يونس:٢٦][٤].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: يوعدونَه في الدنيا أنَّ لهم فيه العذاب. وأخرجَ الخبرَ بلفظ الماضي؛ لأنَّ ما وعدَ اللهُ به يكونُ ولا محالة .

والحمد لله.

---

(١) ديوانه ص٥٤ . وصدره : ومن فَادَ من إخوانهم وبنيهمِ، والكلام في الصحاح (عبقر).

(٢) تهذيب اللغة ١٢/ ٨٢ .

(٣) الصحاح (وفض) .

(٤) الصحاح (رهق) .

سُورَةُ المَعَارِج

مَكِّيَّةٌ، وآيُها أربعٌ وأربعونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ أي: دَعا داعٍ به بمَعنى: استدعاهُ، ولذلك عُدِّيَ الفعلُ بالباءِ، والسَّائلُ: نضرُ بنُ الحارثِ، فإنَّه قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] [١].

أو: أبو جهلٍ فإنَّه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧] سألَهُ استهزاءً[٢].

أو: الرَّسولُ عليه السَّلامُ استعجلَ بعَذابِهم[٣].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿سالَ﴾[٤]، وهو إمَّا مِن السُّوالِ على لغةِ قُريشٍ[٥]، قال:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٥) عن عطاء والسدي، ورواه البزار في «مسنده» (٥٠٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٥٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، دون ذكر ما قاله النضر.

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٩٠)، لكنه ذكر أنه قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾.

(٣) ذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٢٤٩) وعده من الغرائب.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٤).

(٥) قولُه: «منَ السّوالِ» بالواوِ الصَّريحةِ بكسرِ السِّينِ وضمِّها. قاله الشهاب، وزاد: وكونُ الواوِ فيه =

سَالَتْ هُذَيلٌ رَسُولَ اللهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ[1]

أو مِن السَّيَلانِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (سالَ سيلٌ)[2] على أنَّ السَّيلَ مصدرٌ بمعنى السَّائلِ كالغورِ، والمَعنى: سالَ وادٍ بعذابٍ. ومضيُّ الفعلُ لتحقُّقِ وُقوعِه[3]: إمَّا في الدُّنيا وهو قتل بدر، أو في الآخرةِ وهو عذابُ النَّارِ.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفةٌ أخرى لـ(عذابٍ) أو صلةٌ لـ﴿وَاقِعٍ﴾ وإن صحَّ أن السُّؤالَ كان عمَّنْ يقعُ به العذابُ كان جوابًا، والباءُ على هذا لتَضمُّنِ ﴿سَأَلَ﴾ مَعنى: اهتمَّ.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ يردُّه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مِن جِهتِه لتَعلُّقِ إرادَتِه به ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: ذي المصاعدِ وهي الدَّرجاتُ التي يَصعدُ فيها الكلمُ الطَّيبُ والعملُ الصَّالحُ، أو يترقَّى فيها المؤمنونَ في سُلوكِهم أو في دارِ ثَوابِهم، أو مراتبُ الملائكةِ، أو السَّماواتُ فإنَّ الملائكةَ يَعرجونَ فيها.

(٤) ـ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئنافٌ

= أصليَّةً وهو لغةُ قُريشٍ فيه نظرٌ؛ لأنَّ المُصرَّحَ به في كتب اللُّغةِ والعربيَّةِ خلافُه، وفي «كتابِ سيبويهِ»: أنَّ لغةَ أهلِ الحجازِ همزُه وتحقيقُ الهمزةِ فيه، حتَّى قالَ: إنَّ الألفَ مُبدلةٌ منَ الهمزةِ، وإنَّه على خلافِ القياسِ المقصورِ على السَّماعِ، وكيفَ لا والقرآنُ ورَدَ بخلافِهِ، وهو قد نزَلَ على لغةِ قُريشٍ إلَّا ما ندَرَ؟ وانظر: «الكتاب» (٣/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤).

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (١/ ٤٤٣)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٨٠)، و«الكتاب» (٣/ ٥٥٤).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٢)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قولُه: «ومُضِيُّ الفعلِ...» هو على الأوَّلِ حقيقةٌ، والتَّجوُّزُ في قولِه: ﴿وَاقِعٍ﴾، وعلى الأخيرِ مجازٌ لأنَّ العذابَ لم يحلَّ بهم. قاله الشهاب.

لبيانِ ارتفاعِ تلك المعارجِ وبُعدِ مَداها وقَدْرِها على التَّمثيلِ والتَّخييلِ، والمعنى: أنَّها بحيثُ لو قُدِّرَ قَطعُها في زمانٍ لكانَ في زمانٍ يقدَّرُ بخمسينَ ألفَ سنةٍ مِن سِنِي الدُّنيا.

وقيل: مَعناه: تعرجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلى عرشِه في يومٍ كانَ مِقدارُهُ كمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِن حيثُ إنَّهُم يقطعونَ فيه ما يَقطعُه الإنسانُ فيها لو فُرِضَ، لا أنَّ ما بين أسفَلِ العالمِ وأعلى شرفاتِ العرشِ مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ؛ لأنَّ ما بينَ مركزِ الأرضِ ومقعَّرِ السَّماءِ الدُّنيا ـ على ما قيل ـ مَسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ، وثخنُ كلِّ واحدٍ مِن السَّماواتِ السَّبعِ والكرسيِّ والعرشِ كذلك، وحيثُ قال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يريدُ به زمانَ عُروجِهِم مِن الأرضِ إلى محدَّبِ السَّماءِ الدُّنيا.

وقيل: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، أو ﴿سال﴾ إذا جُعِلَ من السَّيلانِ، والمرادُ به يومُ القيامةِ[١]، واستطالَتُه إمَّا لشِدَّتِه على الكفَّارِ، أو لكثرةِ ما فيه مِن الحالاتِ والمحاسباتِ، أو لأنَّه على الحقيقةِ كذلك.

والرُّوحُ جبرئيلُ، وإفرادُه لفَضلِه، أو خلقٌ أعظَمُ مِن الملائكةِ.

وقرأ الكسائي: ﴿يَعْرُجُ﴾ بالياء[٢].

(٥) ـ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يَشوبُه استعجالٌ واضطرابُ قلبٍ، وهو متعلِّقٌ بـ﴿سَأَلَ﴾ لأنَّ السُّؤالَ كان عن استهزاءٍ وتعنُّتٍ وذلك مما يُضجرهُ، أو عن تضجُّرٍ واستبطاءٍ للنَّصرِ، أو بـ﴿سال﴾[٣] لأنَّ المعنى: قَرُبَ وقوعُ العذابِ فاصبِرْ فقد شارفْتَ الانتقامَ.

---

(١) قولُه: «والمُرادُ به يومُ القيامةِ» يعني: على هذا التَّفسيرِ. قاله الشهاب.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٤).

(٣) أي: بالألف على قراءة نافع وابن عامر: ﴿سال سائل﴾، أو على قراءة: (سال سيل)، في الوجهَينِ؛ =

(٦ ـ ٧) ـ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ الضَّميرُ للعذابِ أو ليومِ القيامةِ ﴿بَعِيدًا﴾ مِن الإمكانِ ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ منه، أو: من الوقوعِ.

(٨) ـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ظرفٌ لـ﴿قَرِيبًا﴾؛ أي: يمكنُ يومَ تكون، أو لِمُضمرٍ دلَّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾، أو بدلٌ عَن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ إن عُلِّقَ به.

والمُهلُ: المذابُ في مَهَلٍ[١] كالفلزات، أو دُرْدِيُّ[٢] الزيت.

(٩) ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾: كالصُّوفِ المصبوغِ ألوانًا؛ لأنَّ الجبالَ مُختلفَةُ الألوانِ فإذا بُسَّتْ وطيرَتْ في الجوِّ أشبهَتِ العهنَ المنفوشَ إذا طيَّرَتْهُ الرِّيحُ.

(١٠) ـ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾: ولا يسألُ قريبٌ قريبًا عن حالِه[٣].

وعن ابنِ كثيرٍ: ﴿ولا يُسأَلُ﴾ على بناءِ المفعولِ[٤]؛ أي: لا يُطلَبُ مِن حميمٍ حميمٌ، أو: لا يُسأَلُ مِنه حالُه.

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ تدلُّ على أنَّ المانعَ عَن السُّؤالِ هو التَّشاغلُ دونَ الخفاءِ، أو ما يغني عنه مِن مُشاهدةِ الحالِ كبَياضِ الوَجهِ وسَوادِه، وجمعُ الضَّميرينِ لعُمومِ الحَميمِ.

= لأنَّ معناهُ حينَئِذٍ: قرُبَ وقوعُ العذابِ، فيظهرُ تفريعُ الأمرِ بالصَّبرِ عليه، والحاصلُ أنَّه مُتعلِّقٌ به على القراءاتِ كلِّها. قاله الشهاب.

(١) قولُه: «المُذابُ في مَهَلٍ»؛ أي: ما تقعُ إذابتُه في زمانٍ مُمتَدٍّ، لا ما يُذابُ بسرعةٍ كالسَّمنِ. قاله الشهاب.

(٢) قوله: «أو دُرديُّ الزيت» عطف على «المذابُ». قال الشهاب: والدُّرْدِيُّ: بضمِّ الدّالِ وتشديدِ الياءِ: ما يتجَمَّدُ في قَعرِه.

(٣) قوله: «ولا يسأل قريب قريبًا عن حاله» وقع بدلًا منه في نسخة التفتازاني: «استئناف أو حال».

(٤) وهي قراءة البزي عن ابن كثير بخلف عنه، وأبي جعفر، انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٠)، و«النشر» (٢/ ٣٩٠).

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حالٌ مِن أحدِ الضَّميرينِ، أو استئنافٌ يدلُّ على أنَّ اشتغالَ كلِّ مجرمٍ بنفسِه بحيثُ يَتمنَّى أن يفتديَ بأقربِ النَّاسِ وأعلَقِهم بقلبِه فَضْلًا أن يهتمَّ بحالِه ويسألَ عنها.

وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم ﴿يومَئِذٍ﴾[1].

وقُرِئَ بتنوين (عذابٍ) ونصبِ (يومَئذ)[2] به لأنَّه بمَعنى تَعذيبٍ.

(١٣) ـ ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: وعشيرَتِه الذين فُصِلَ عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾: تضمُّهُ في النَّسَبِ وعندَ الشَّدائدِ.

(١٤) ـ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مـن الثَّقليـنِ أو الخلائـقِ ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطـفٌ على ﴿يَفْتَدِى﴾؛ أي: ثـمَّ لـو يُنْجيـهِ الافتداءُ و﴿ثُمَّ﴾ للاسـتبعادِ.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ للمُجرمِ عن الودادةِ ودلالةٌ على أنَّ الافتداءَ لا ينجيهِ.

﴿إِنَّهَا﴾ الضَّميرُ للنَّارِ، أو مبهمٌ يفسِّرُه ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبرٌ أو بدلٌ.

أو للقصَّةِ[3]، و﴿لَظَىٰ﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿نَزَّاعةٌ للشَّوَى﴾ وهو اللهبُ الخالصُ، وقيل: عَلَمٌ للنَّارِ منقولٌ عَن اللَّظى بمَعنى اللهبِ.

وقـرأَ حفـصٌ عَن عاصـمٍ: ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصـبِ[4] على الاختِصـاصِ، أو الحالِ المؤكِّـدةِ أو المنتقلةِ علـى أنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ بمعنـى: مُتلظِّيَةٍ[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٢) عن أبي حيوة.

(٣) في نسخة التفتازاني: «للشأن». وقال الشهاب: قولُه: (للقِصّةِ) معطوفٌ على قولِه: «للنّارِ».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٤).

(٥) قولُه: «على الاختصاصِ»؛ يعني به تقديرَ «أعني» أو «أخُصُّ» لا مُصطلَحَ النُّحاةِ، والمُصنِّفُ كالزَّمخشريِّ يَستعمِلُه بهذا المعنَى كثيرًا، وقولُه: «المُؤكِّدةِ»؛ لأنّه لا ينفَكُّ عنها التَّلَظِّي، وقولُه: «أو =

والشَّوَى الأطرافُ، أو جمعُ شواةٍ وهي جلدةُ الرَّأسِ.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿تَدْعُواْ﴾: تجذبُ وتحضرُ كقولِ ذي الرُّمَّةِ:

تَدْعُـو أَنْفَـهُ الرِّبَـبُ[1]

مجازٌ مِن جَذبِها وإحضارِها لِمَن فرَّ عنها.

وقيل: تَدْعُو زَبانيتَها.

وقيل: ﴿تَدْعُواْ﴾: تُهلِكُ، مِن قولِهم: دعاهُ اللهُ: إذا أهلكَهُ.

﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عـن الحـقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عـن الطَّاعةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾: وجمـعَ المالَ فجعلَهُ في وعـاءٍ، وكنَزَهُ حِرصًـا وتأميلًا.

= المُنتقِلةِ» لانفِكاكِه بالزَّمْهَريرِ ومُخالطةِ الدُّخانِ، وقولُه: «على أنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ بمعنَى مُتلظِّيةٍ» فالحالُ منَ الضَّميرِ المُستترِ فيها لا من ﴿لَظَىٰ﴾؛ لأنَّها نكرةٌ أو خبرٌ. قاله الشهاب.

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (١/ ٧٧)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٧٦٢)، و«الصحاح» (مادة: ربب). وتمامه:

أَمْسَى بِوَهْبِينَ مجتـازاً لِمَرْتَـعِـهِ ... مِنْ ذي الفوارِسِ تَدْعُـو أَنْفَهُ الرِّبَبُ

قال الباهلي شارح الديوان: أي: أمسى الثور مجتازاً لمرتعه، أي: اجتاز ليطلب مرتعه. وقوله: «يدعو أنفه الربب» كأن الربب تدعو الثور إليها، والربب لا تدعوه، وإنما هذا مثلٌ، يقول: لما شم الثور الربب أتاها، وكأنها دعته إلى نفسها.

وقال الشهاب في «الحاشية»: وهبين وذو الفوارس علمان لموضعين، و«مجتازاً لمرتعه»؛ أي: مارًّا بمحلٍّ يرتع فيه، و«الربب» بالراء المهملة والباءين الموحدتين بزنة عنب: جمع رِبَّة بالكسر والتشديد، وهو النبت الذي يرعى بالصيف وليس نبتاً معيناً، و«تدعو» فيه بمعنى: تجذب وتحضر في الأصل، وتُجُوِّز به عن كونه نبتاً حسناً لا تفارقه البقر إذا رأته، فجعل ذلك كأنه يدعوها على أنه استعارة تمثيلية أو تبعية.

(١٩ ـ ٢١) ـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: شديدَ الحرصِ قليلَ الصَّبرِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: الضرُّ ﴿جَزُوعًا﴾: يكثرُ الجزعَ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾: السَّعةُ ﴿مَنُوعًا﴾: يبالِغُ في الإمساكِ، والأوصافُ الثَّلاثةُ أحوالٌ مقدَّرةٌ أو محقَّقةٌ؛ لأنَّها طبائعُ جُبِلَ الإنسانُ عليها[١]، و(إذا) الأولى ظرفٌ لـ﴿جَزُوعًا﴾ والأخرى لـ﴿مَنُوعًا﴾.

(٢٢) ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناءٌ للمَوصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بعدُ مِن المطبوعينَ على الأحوالِ المذكورةِ قبلُ؛ لِمُضادَّةِ تلك الصِّفاتِ لها مِن حيثُ إنَّها دالَّةٌ على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ[٢]، والإشفاقِ على الخلقِ، والإيمانِ بالجزاءِ، والخوفِ مِن العُقوبَةِ، وكسرِ الشَّهوةِ، وإيثارِ الآجلِ على العاجلِ، وتلك ناشئةٌ مِن الانهماكِ في حُبِّ العاجلِ وقُصورِ النَّظَرِ عليه.

(٢٣ ـ ٢٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾: لا يشغلُهُم عنها شاغِلٌ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ كالزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ الموظَّفَةِ ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: للَّذي يَسأَلُ ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: والذي لا يَسأَلُ فيُحسَبُ غَنيًّا فيُحرَمُ.

(٢٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تصديقًا بأَعمالِهم، وهو أن يُتعبَ نفسَهُ ويصرِفَ مالَهُ طمعًا في المثوبةِ الأُخرَوِيَّةِ، ولذلك ذُكِرَ الدِّينُ.

---

(١) قولُه: «أحوالٌ مُقدَّرةٌ...»؛ لأنَّه في حالِ الخلقِ لم يكُنْ كذلكَ، وإنَّما حصلَ له ذلك بعد تمامِ عقلِه ودخولِه تحتَ التَّكليفِ، إنْ أُريدَ اتِّصافُه بذلكَ بالفعلِ، فإن أُريدَ مَبدَأُ هذه الأمورِ منَ الأمورِ الجبلِّيةِ والطَّبائعِ الكلِّيَّةِ المُندَرجةِ فيها تلكَ الصِّفاتُ بالقوّةِ كانَت الحالُ غيرَ مُقدَّرةٍ، بل مُحقّقةٌ. قاله الشهاب في «الحاشية». وفي كلام المصنف ردٌّ لِكلام الزمخشري في «الكشّافِ» منَ الانتصارِ لمذهبِه لـمّا رأى الآيةَ مُخالفةً له، وقد بيَّنه الشهاب أحسن بيان فلينظر ثمة.

(٢) في نسخة الفاروقي: «الطاعة للحق».

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾: خائفونَ على أنفُسِهم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراضٌ يدلُّ على أنَّه لا ينبَغِي لأحدٍ أنْ يأمنَ عذابَ اللهِ وإن بالغَ في طاعَتِه.

(٢٩ ـ ٣١) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ سبقَ تفسيرُه في سُورةِ المُؤمنينَ.

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾: حافظونَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿لأمانتهم﴾[1] يعني: لا ينكرونَ ولا يُخفونَ ما علِموهُ مِن حُقوقِ اللهِ وحقوقِ العبادِ.

وقرأ يعقوبُ وحفصٌ: ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ﴾[2] لاختلافِ الأنواعِ.

(٣٤) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فيراعونَ شَرائِطَها ويكملونَ فرائضَها وسُنَنَها.

وتكريرُ ذكرِ الصَّلاةِ ووَصفُهُم بها أوَّلًا وآخِرًا باعتبارينِ للدَّلالةِ على فضلِها وإنافَتِها[3] على غيرِها، وفي نظمِ هذه الصَّلاةِ مُبالغاتٌ لا تَخفَى[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥١)، و«التيسير» (ص: ٢١٤)، و«النشر» (٢/ ٣٩١).

(٣) «وإنافَتِها» بمعنَى: شرفِها وعُلوِّ قَدرِها؛ وجاء في هامش نسخة التفتازاني: «أي: إعلاء قدرها، يقال: أناف على كذا، إذا أشرف عليه».

(٤) ومُبالغاتُ هذه الصَّلاةِ هي: من جهةِ ما يُفيدُه الموصولُ من أنَّ صلتَه أمرٌ مُحقَّقٌ معلومٌ، وتقديمِ «هم» المُقوِّي للحكمِ، وتقديمِ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ الدّالِّ على أنَّ مُحافظَتَهم لأمورِ الآخرةِ لا يتجاوَزُها لأمورِ الدُّنيا، وصيغةِ المُفاعلةِ مع ما يُعرَفُ من تعظيمِ الموصوفِ لمَن له ذوقٌ سليمٌ. قاله الشهاب.

(٣٥) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ بثوابِ اللهِ.

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ حـولَك ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مُسرعينَ ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ فرقًا شتَّى: جمعُ عِزَةٍ، وأصلُها: عِزوَةٌ، مِن العَزْو، كأنَّ كلَّ فرقةٍ تعتَزِي إلى غيرِ مَن تعتَزِي إليه الأُخرى.

كان المشركونَ يحلِّقونَ حولَ رسولِ اللهِ حَلَقًا حَلَقًا ويَستهزِئُونَ بكَلامِه[١].

(٣٨) ـ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ بلا إيمانٍ، وهو إنكارٌ لقولهم: لو صحَّ ما يقولُه لَنكونُ فيها أفضلَ حظًّا منهم كما في الدُّنيا.

(٣٩) ـ ﴿كَلَّآۖ﴾ ردعٌ لهم عـن هـذا الطَّمعِ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ تعليلٌ له، والمعنى: إنَّكُم مَخلوقونَ مِن نُطفَةٍ قَذِرةٍ لا تناسِبُ عالمَ[٢] القُدسِ، فمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلِ بالإيمانِ والطَّاعةِ ولـم يتخلَّقْ بالأخلاقِ الملكيَّةِ لم يستعدَّ دُخولَها[٣].

أو: إنَّكُم مَخلوقونَ مِن أجلِ ما تعلمونَ، وهو تكميلُ النَّفسِ بالعلمِ والعملِ[٤]، فمَنْ لم يَستكْمِلْها لم يُبَوَّأْ في مَنازلِ الكاملينَ.

أو استدلالٌ بالنَّشأةِ الأولـى على إمكانِ النَّشأةِ الثَّانيةِ التي بنوا الطَّمعَ على فَرْضِها فَرْضًا مستحيلًا عندَهُم بعد رَدعِهِم عنه[٥].

---

(١) دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الثعلبي» (٢٧/ ٣٦٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٤٤٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «جوار».

(٣) قولُه: «لـم يستَعِدَّ دُخولَـها» ضمَّنَه معنى «يستَحِقُّ» فعدَّاهُ بنفسِه، ولولاه كان الظّاهرُ أن يقولَ: «لدُخولِـها»؛ فإنَّه يتعدَّى باللّامِ، فالمُرادُ على هذا بـ«ما يعلَمونَ» النُّطفةُ، و«مِن» ابتدائيَّةٌ، وضميرُ «دُخولِـها» للجنّةِ. قاله الخفاجي.

(٤) قولُه: «أو إنَّكم مخلوقُونَ من أجلِ ما تعلَمُونَ» فـ«مِن» تعليليَّةٌ، و«ما» الموصولةُ عبارةٌ عن العلمِ والعملِ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. قاله الخفاجي.

(٥) قولُه: «أو استِدلالٌ» معطوفٌ على قولِه: «تعليلٌ»، وقولُه: (بعدَ رَدْعِهم) يتعلَّقُ بقولِه: «استِدلالٌ»، =

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: أن نهلكَهُم ونأتيَ بخلقٍ أمثَلَ مِنْهُم، أو نُعطيَ محمدًا بدلَهُم مَن هو خيرٌ مِنْهُم وهم الأنصارُ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾: بمغلوبينَ إن أرَدْنا.

(٤٢) ـ ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ مرَّ في آخرِ الطُّورِ.

(٤٣) ـ ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾: مُسرعينَ إلى الداعي جمعُ سَريعٍ ﴿كأنهم إلى نُصْبٍ﴾ منصوبٍ للعبادةِ أو عَلَمٍ ﴿يُوفِضُونَ﴾: يُسرِعُونَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحَفصٌ: ﴿نُصُبٍ﴾ بضمِّ النُّونِ والصَّادِ، والباقونَ مِن السَّبعةِ: ﴿نَصْبٍ﴾ بفتحِ النُّونِ وسُكونِ الصَّادِ[١]، وقُرِئَ بالضمِّ[٢] على أنَّه تخفيفُ ﴿نُصُبٍ﴾ أو جمع ﴿نَصْبٍ﴾.

(٤٤) ـ ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ مرَّ تَفسيرُه ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا.

عن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أعطاهُ اللهُ ثوابَ الذينَ هم لأماناتِهِم وعهدِهِم راعونَ»[٣].

***

= وضميرُ «عنه» للطَّمعِ. قاله الخفاجي.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥١)، و«التيسير» (ص: ٢١٤).

(٢) أي: مع سكون الصاد، وهي رواية عن ابن عامر في غير المشهور عنه. انظر: «جامع البيان» للداني (٤/ ١٦٥٩).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٥٠)، قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٠) سورة المعارج مكية
وآياتها أربع وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ أي استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾. قال النسائي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾، قال (النضر ابن الحارث) وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قال: ذلك سؤال الكفّار عن عذاب الله وهو واقع بهم، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ سأل سائل ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال وهو قولهم: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ للكافرين ﴾ أي مرصد معد للكافرين، ﴿ ليس له دافع ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال تعالى: ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ قال ابن عباس: ذو الدرجات، وعنه: ذو العلو والفواضل، وقال مجاهد ﴿ ذي المعارج ﴾ معارج السماء، وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، وقوله تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ قال قتادة ﴿ تعرج ﴾: تصعد، وأما الروح فيحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء، في قبض الروح الطيبة وفيه: « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ».

وقوله تعالى: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فيه أربعة أقوال: **أحدها**: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين، إلى منتهى أمره

من فوق السماوات خمسين ألف سنة[1]. **القول الثاني**: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله عزَّ وجلَّ يوماً. وعن عكرمة: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلا الله عزَّ وجلَّ[2]. **القول الثالث**: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جداً، روي عن محمد بن كعب قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة[3]. **القول الرابع**: أن المراد بذلك يوم القيامة، وبه قال الضحّاك وابن زيد وعكرمة، وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال، قيل لرسول الله ﷺ: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[4]. وقال الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمي عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[5].

وقوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه كقوله تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾، ولهذا قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ أي وقوع العذاب، وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ونراه قريباً﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾، قال ابن عباس ومجاهد: أي كدردي الزيت، ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وتكون

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة.
(٣) رواه ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه أحمد وابن جرير.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

الجبال كالعهن المنفوش﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصّرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، وكقوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه ۞ وأمه وأبيه ۞ وصاحبته وبنيه ۞ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، وقوله تعالى: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ۞ وصاحبته وأخيه ۞ وفصيلته التي تؤويه ۞ ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ۞ كلا﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، قال مجاهد والسدي: ﴿فصيلته﴾ قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم، وقوله: تعالى: ﴿إنها لظى﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نزاعة للشوى﴾، قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس: ﴿نزاعة للشوى﴾ الجلود والهام، وقال أبو صالح ﴿نزاعة للشوى﴾ يعني أطراف اليدين والرجلين، وقال الحسن البصري: تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح، وقال الضحّاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً، وقوله تعالى: ﴿تدعوا من أدبر وتولى ۞ وجمع فأوعى﴾ أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كانوا ممن أدبر وتولى، أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿وجمع فأوعى﴾ أي جمع المال بعضه على بعض، فأوعاه أي أوكاه ومنع حق الله منه، من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد في الحديث: «ولا توعي فيوعي الله عليك»، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً، يقول، سمعت الله يقول: ﴿وجمع فأوعى﴾، وقال الحسن البصري: يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا، وقال قتادة في قوله ﴿وجمع فأوعى﴾ قال: كان جموعاً قموماً للخبيث.

* إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾، ثم فسره بقوله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصله

له بعد ذلك خير ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها. وفي الحديث: «شر ما في الرجُل: شح هالع وجُبن خالع»[1]. ثم قال تعالى: ﴿إلا المصلين﴾ أي إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير، ويسر له أسبابه وهم المصلون ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ **قيل**: معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود، **وقيل**: المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع كقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قاله عقبة بن عامر، ومنه الماء الدائم وهو الساكن الراكد، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته، **وقيل**: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه، وأثبتوه كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وقوله تعالى: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم ۝ للسائل والمحروم﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات، ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي خائفون وجلون، ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي لا يأمنه أحد إلا بأمان من الله تبارك وتعالى، وقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ أي يكفونها عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي من الإماء، ﴿فإنهم غير ملومين ۝ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ وقد تقدم تفسير هذا بما أغنى عن إعادته ههنا[2]، وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾، ثم قال تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة، واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى منكراً على الكفّار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، وهم مشاهدون لما أيده الله به من المعجزات

(١) رواه أبو داود.

(٢) تقدم تفسيره في أول سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾.

الباهرات، ثم هم شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً ، ﴿ كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة﴾ ، قال تعالى : ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي فما لهؤلاء الكفّار الذين عندك يا محمد ﴿ مهطعين﴾ أي مسرعين نافرين منك ، قال الحسن البصري ﴿ مهطعين﴾ أي منطلقين، ﴿ عن اليَمين وعن الشمال عزين﴾ واحدها عزة أي متفرقين، وقال ابن عباس: ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ العزين: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به، وعن الحسن في قوله: ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل؟ وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق فقال: « مالي أراكم عزين؟ »[1]. وقوله تعالى: ﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم * كلا﴾ أي أيطمع هؤلاء، والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ، ونفارهم عن الحق، أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا ، بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم مستدلاً عليهم بالبداءة: ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، وقال: ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ أي الذي خلق السماوات والأرض، وسخّر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هـذه فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿ وما نحن بمسبوقين﴾ أي بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾، وقال تعالى: ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾، واختار ابن جرير ﴿ على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها كقوله: ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم . ثم قال تعالى: ﴿ فذرهم﴾ أي يا محمد ﴿ يخوضوا ويلعبوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله، ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ أي يقومون من القبور ، إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال ابن عباس: إلى علَم يسعون، وقال أبو العالية: إلى غاية يسعون إليها. ﴿ نُصُب﴾ بضم النون والصاد وهو الصنم، أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، ﴿ يوفضون﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول، وهـذا مروي عن مجاهد وقتادة والضحّاك وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿ خاشعة أبصارهم﴾ أي خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ .

[آخر تفسير سورة سأل سائل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ، ورواه أحمد ومسلم والنسائي بنحوه .

تفسير سورة سأل سائل

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ .

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مُقَدر : يستعجل سائل بعذاب واقع . كقوله : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج:٤٧] ، أى : وعذابه واقع لا محالة .

قال النسائى : حدثنا بشر بن خالد ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كَلَدَة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] .

وقال ابن زيد وغيره : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أى : واد فى جنهم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه .

وقوله : ﴿ وَاقِعٍ . لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى : مُرصد مُعَدّ للكافرين .

وقال ابن عباس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال الثورى ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال : ذو الدرجات .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعنى : العلو والفواضل .

وقال مجاهد: ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة: ﴿ تَعْرُجُ﴾ : تصعد .

وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء ، كما دل عليه حديث البراء . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث المِنْهَال ، عن زاذان ، عن البراء مرفوعاً ــ الحديث بطوله فى قبض الروح الطيبة ــ قال فيه : « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء [١] السابعة » . والله أعلم بصحته ، فقد تُكلم فى بعض رواته ، ولكنه مشهور ، وله شاهد فى حديث أبى هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ، من طريق ابن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد ابن يسار ، عنه . وهذا إسناد رجاله على شرط الجماعة ، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وأنه من ياقوتة حمراء ، كما ذكره ابن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش . وقد قال ابن أبى حاتم عند هذه الآية :

حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا حكَّام ، عن عُمَر بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة ويوم كان مقداره ألف سنة . يعنى بذلك : تَنَزُّلَ الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة .

وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن حكَّام بن سلم ، عن عُمَر بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد قوله ، لم يذكر ابن عباس [٢] .

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطُّنافسىّ ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا نوح المؤدب ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، وذلك سبعة آلاف عام . وغلظ كل سماء

(١) فى م : « السماء التى فيها الله » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩ / ٤٤) .

خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، وذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ .

القول الثانى : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زُرْعَة ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ سَنَةٍ** ﴾ قال : الدنيا عمرها خمسون ألف سنة . وذلك عمرها يوم سماها الله تعالى يوم ، ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ** ﴾ قال: اليوم: الدنيا.

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ــ وعن الحكم بن أبان ، عن عكرمة : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة ، لا يدرى أحدٌ كم مضى ، ولا كم بقى إلا الله، عز وجل [(١)] .

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا بُهلول بن المورق [(٢)] ، حدثنا موسى ابن عبيدة ، أخبرنى محمد بن كعب : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن سِنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن سِماك ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال : يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح . ورواه الثورى عن سِمَاك بن حرب ، عن عكرمة ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ : يوم القيامة . وكذا قال الضحاك ، وابن زيد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال :فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

وقد وردت أحاديث فى معنى ذلك ، قال الإمام أحمد :

حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا دَرّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال: قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ : ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٢٥٣) .

(٢) فى أ :« بهلول بن المعروف » .

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به [١] . إلا أن درّاجا وشيخه ضعيفان ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبى عمر الغُدانى قال : كنت عند أبى هُرَيرة فمر رجل من بنى عامر بن صعصعة ، فقيل له : هذا أكثر عامرى مالا . فقال أبو هريرة : ردوه [٢] . فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامرى : إى والله ، إن لى لمائة حُمْراً ومائة أدماً ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلافَ النعم [٣] ـ يُرَدّد ذلك عليه ، حتى جعل لونُ العامرى يتغير ـ فقال : ما ذاك يا أبا هُرَيرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطى حقها فى نجدتها ورِسْلها ـ قلنا يا رسول الله : ما نجدتُها ورِسْلُها ؟ قال : « فى عُسرها ويسرها ـ » فإنها تأتى يوم القِيامة كأغذّ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، وإذا كانت له بقر لا يعطى حقها فى نجدتها ورسلها ، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ثم يبطح لها بقاع قَرقَر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله . وإذا كانت له غنم لا يعطى حقها فى نجدتها ورسلها ، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عَقصاء ولا عضباء ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس ، فيرى سبيله » . فقال العامرى : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة ، وتمنح الغَزيرَة ، وتفقر الظهر ، وتَسقىَ اللبن[٤]، وتُطرقَ الفحل .

وقد رواه أبو داود من حديث شعبة ، والنسائى من حديث سعيد بن أبى عَرُوبة ، كلاهما عن قتادة ، به [٥] .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، عن سُهَيل [٦] بن أبى صالح، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يودى حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها بجهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » . وذكر بقية الحديث فى الغنم والإبل كما تقدم ، وفيه : « الخيل لثلاثة ؛ لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى

---

(١) المسند (٣/ ٧٥) وتفسير الطبرى (٢٩/ ٤٥) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٢) فى أ :«ردوه إلىّ » . (٣) فى م : « الغنم » . (٤) فى م :« وتسقى الإبل » .

(٥) المسند (٢/ ٤٨٩) وسنن أبى داود برقم (١٦٦٠) وسنن النسائى (٥/ ١٢) .

(٦) فى أ :« عن سهل » .

رجل وزر » إلى آخره [١] .

ورواه مسلم فى صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخارى ، من حديث سُهَيل [٢] ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرة [٣] ، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه فى كتاب الزكاة فى « الأحكام » ، والغرض من إيراده هاهنا قوله : « حتى يحكم الله بين عباده ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقد روى ابن جرير عن يعقوب [٤] عن ابن عُلَيَّة وعبد الوهاب ، عن أيوب ، عن ابن أبى مُلَيْكَة قال : سأل رجل ابن عباس عن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : فاتهمه ، فقيل له فيه ، فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتحدثنى . قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول فى كتاب الله بما لا أعلم [٥] .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ أى : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى:١٨] قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أى : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ، ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى : المؤمنون يعتقدون كونه قريبا ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله، عز وجل ،لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) ﴾ .

يقول تعالى : العذابُ واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدى ، وغير واحد ، كدْرديّ الزيت ، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أى : كالصوف المنفوش ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥] .

وقوله : ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يسأل القريب عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره .

قال العوفى عن ابن عباس : يعرف بعضهم بعضا ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض

(١) المسند (٢/ ٢٦٢) .
(٢) فى أ : « سهل » .
(٣) صحيح مسلم برقم (٩٨٧) .
(٤) فى أ : « عن منصور » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ٤٥) .

بعد ذلك ، يقول : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان:٣٣] . وكقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر:١٨] . وكقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] . وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] .

وقوله : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ . كَلاَّ ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حُشَاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به ، ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدى : ﴿ فَصِيلَتِهِ﴾ : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة: فَخذه الذى هو منهم . وقال أشهب ، عن مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ﴾: أمه .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد : جلدة الرأس . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ : الجلود والهام . وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ يعنى : أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البنانى : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا : تحرق كل شىء فيه ، ويبقى فؤاده يصيح . وقال قتادة : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ أى : نزاعة لهامته ومكارم وَجهه وخَلْقَه وأطرافه . وقال الضحاك : تبرى اللحم والجلد عن العظم ، حتى لا تترك منه شيئاً . وقال ابن زيد : الشوى : الآراب العظام . فقوله : نزاعة ، قال : تقطع عظامهم ، ثم يُجَدد خلقهم وتبدل جلودهم .

وقوله : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ . وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أى : تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلَق ذَلَق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم ـ كما قال الله ،عز وجل ـ كانوا ممن ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أى : كذب بقلبه ،وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد فى الحديث : « ولا تُوعى فَيُوعى الله عليك » (١) وكان عبد الله بن عُكيم لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ .

وقال الحسن البصرى : يا بن آدم ، سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ قال : كان جَمُوعاً قَمُوماً للخَبيث .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٣٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٢٩) من حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما.

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، ثم فسره بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي : إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أي : إذا حصلت له [(١)] نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن عُلَيّ بنُ رَبَاح : سمعت أبي يحدث عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال : سمعت أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « شر ما في رجل شُحٌ هالع ، وجبن خالع » .

ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح ، عن أبي عبد الرحمن المقرى ، به [(٢)]. وليس لعبد العزيز عنده سواه .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ أي : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه ، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل: معناه يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم . قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم النخعي .

وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] . قاله عتبة بن عامر . ومنه الماء الدائم ، أي: الساكن الراكد .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء في الصحيح عن عائشة، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلّ » . وفي لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه. وفي لفظ : أثبته [(٣)] .

(١) في م : « عنده » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) وسنن أبي داود برقم (٢٥١١) .
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٣، ٦٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٥) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .

وقال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ : ذُكر لنا أن دانيال ، عليه السلام ، نعت أمة محمد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة . فعليكم بالصلاة فإنها خُلُق للمؤمنين حسن .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي : في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات . وقد تقدم الكلام على ذلك في « سورة الذاريات » .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي : خائفون وجلون ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أي : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله [فيه] (١) . ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي : من الإماء ، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك في أول سورة (٢) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد في (٣) الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . وفي رواية : « إذا حَدَّث كذب ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فَجَر » (٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أي : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ (٥) يُحَافِظُونَ ﴾ أي : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم في أول سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠ ، ١١] ، وقال هاهنا : ﴿ أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ

(١) زيادة من م . (٢) في م: « سورة المؤمنون » . (٣) في م: « كما ورد به» .
(٤) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٨ من سورة المؤمنون .
(٥) في أ :« على صلاتهم ».

الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا فى زمن [1] النبى ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً ، فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، كما قال تعالى : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾ الآية [المدثر:٤٩ ــ ٥١] وهذه مثلها ؛ فإنه قال تعالى : ﴿**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ أى: مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصرى: ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ أى : منطلقين ، ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ واحدها عزةٌ ، أى : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أى : فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس: ﴿ **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** ﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ قال : العزين : العُصَب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا قرة ، عن الحسن [2] فى قوله : ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالا يقولون : ما قال هذا الرجل ؟

وقال قتادة : ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ : عامدين ، ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ أى : فرقاً حول النبى ﷺ لا يرغبون فى كتاب الله ، ولا فى نبيه ﷺ .

وقال الثورى ، وشعبة ، وعيسى بن يونس وعَبْثَر بن القاسم [3] ، ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وأبو معاوية ، كلهم عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم بن طرفة ، عن جابر بن سمرة ؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم [4] وهم حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزين ؟ »

رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، من حديث الأعمش ، به [5] .

---

(١) فى أ :« فى زمان » .
(٢) فى م : « عن الحسين » .
(٣) فى م : « وعبثر بن القاسم وعيسى بن يونس » .
(٤) فى م : «خرج على أصحابه » .
(٥) المسند (٥/ ٩٣) وصحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٤٨٢٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٢٢) وتفسير الطبرى (٢٩/ ٥٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلق ، فقال : « ما لى أراكم عزين ؟ » (١) .

وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أى : أيطمع هؤلاء ــ والحالة هذه ــ من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق ــ أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم .

ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلا عليهم بالبداءة التى الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من المني الضعيف ، كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] . وقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ ــ ١٠] .

ثم قال : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهومضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى :﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ (٢) الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ ، ٨٢] . وقال هاهنا : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : بعاجزين . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ ، ٤] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١] .

واختار ابن جرير ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها ، كقوله : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] . والمعنى الأول أظهر لدلالة

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٥٤) .

(٢) فى أ : « أو ليس » .

الآيات الأخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ، ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُون ﴾ أى : فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله ، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ، تبارك وتعالى ، لموقف الحساب ، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى عَلَم يسعون . وقال أبو العالية ، ويحيى بن أبى كثير : إلى غاية يسعون إليها .

وقد قرأ الجمهور : « نَصْب » بفتح النون وإسكان الصاد ، وهو مصدر بمعنى المنصوب . وقرأ الحسن البصرى : ﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسراعهم إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون ، أيهم يستلمه أول . وهذا مروى عن مجاهد ، ويحيى بن أبى كثير ، ومسلم البَطين [١] ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع ابن أنس ، وأبى صالح ، وعاصم بن بَهْدَلة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى : خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ، ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « سأل سائل » ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « وأبو مسلم البطين » .

سورة المعارج

مكيّة، وهي أربع وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أي: دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: استدعاه وطلبه وهو النَّضْر بن الحارث حيث قال إنكارًا واستهزاءً: ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨].[١] / وقيل: أبو جهل، [٢٢٤و] حيث قال: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء، ١٨٧/٢٦]. وقيل: هو الحارث بن النُّعمان الفِهري، وذلك أنّه لمّا بلغه قول النبيّ[٢] صلّى الله عليه وسلّم في عليّ رضي الله عنه: «مَن كنت مولاه فعليّ مَولاه»،[٣] قال: «اللّٰهمّ إن كان ما يقول محمّد حقًّا فأمطر علينا حجارةً مِن السماء»، فما لبث حتّى رماه الله تعالى بحَجر فوقَع على دِماغه فخرج مِن أسفله، فهلك مِن ساعته. وقيل: هو الرسول صلّى الله عليه وسلّم استعجل عذابهم.[٤]

وقُرئ: "سَالَ"،[٥] وهو إمّا مِن السؤال على لغة قريش فالمعنى ما مرّ، أو مِن السَّيلان، ويؤيّده أنّه قُرئ: "سَالَ سَيْلٌ"،[٦] أي: اندفع وادٍ بعذاب واقع.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس ومجاهد في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٥٠/١٩.

٢ س ي: رسول الله.

٣ مسند أحمد، ٧١/٢ (٦٤١)؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٥٦٩/٢ (٩٥٩)؛ سنن الترمذي، ٦٣٣/٥ (٣٧١٣).

٤ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٥٠/١٩-٣٥١.

٥ قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وزيد بن ثابت. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٢٨.

وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه إمّا في الدنيا وهو عذاب يوم بدر، فإنّ النَّضْر قُتل يومئذ صَبْرًا،[١] وقد مرّ حال الفِهري،[٢] وإمّا في الآخرة فهو عذاب النار.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة أخرى لـ﴿عَذَابٍ﴾ أي: كائن للكافرين، أو صلة لـ﴿وَاقِعٍ﴾ أو متعلِّق بـ﴿سَأَلَ﴾،[٣] أي: دعا للكافرين بعذاب واقع. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ صفة أخرى لـ﴿عَذَابٍ﴾، أو حال منه لتخصّصه بالصفة أو بالعمل، أو مِن الضمير في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على تقدير كونه صفةً لـ﴿عَذَابٍ﴾، أو استئناف.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿وَاقِعٍ﴾ أو بـ﴿دَافِعٌ﴾، أي: ليس له دافع مِن جهته تعالى. ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعِد التي تصعَد فيها الملائكة بالأوامر والنّواهي، أو هي عبارة عن السماوات المترتِّبة بعضُها فوق بعض.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام، أُفرِد بالذِّكر لتميّزه وفَضْله. وقيل: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ خَلْق هم حفَظة على الملائكة كما أنّ الملائكة حفَظة على الناس.[٤] ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه تعالى وإلى حيث تهبط منه أوامره تعالى. وقيل: هو مِن قبيل قول إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات، ٣٧/٩٩]، أي: إلى حيث أمرني به.[٥]

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ممّا يعدّه الناس. وهو بيان لغاية
[٢٢٤ظ] ارتفاع تلك المعارج وبُعد مداها على مِنهاج التمثيل والتخييل، / والمعنى أنّها مِن الارتفاع بحيث لو قُدِّر قَطْعها في زمان لَكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنةٍ مِن سِني الدنيا. وقيل: معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى في يوم كان مقداره مقدارَ خمسين ألف سنةٍ، أي: يقطعون في يومٍ ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنةٍ لو فُرض ذلك.[٦]

---

[١] الصَّبْر: نصب الإنسان للقتل، وأصل الصَّبْر: الحبس. لسان العرب لابن منظور، «نيط».
[٢] يعني: مرّ آنفًا.
[٣] وفي هامش م: على الوجه الأخير. «منه».
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩. وسيأتي تفصيل وجوه تأويل "الروح" في تفسير النبأ، ٧٨/٣٨.
[٥] القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٣٥٤.
[٦] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٦.

وقيل: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلِّق بـ﴿وَاقِعٍ﴾. وقيل: بـ"سالَ" على تقدير كونه مِن السَّيلان، فالمراد به يوم القيامة، واستطالته إمّا لأنّه كذلك في الحقيقة، أو لشدَّته على الكفّار، أو لكثرة ما فيه مِن الحالات والمحاسَبات.[١]

وأيًّا ما كان فذلك في حقّ الكافر، وأمّا في حقّ المؤمن فلا، لِما روى أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أطولَ هذا اليوم! فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى إنّه يكون أخفّ مِن صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ متعلِّق بـ﴿سَأَلَ﴾؛ لأنّ السؤال كان عن استهزاء وتعنُّت وتكذيب بالوحي، وذلك ممّا يُضجره عليه السلام أو كان عن تضجّر واستبطاء للنصر، أو بـ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾، أو "سَالَ سَيْلٌ" فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعِه فقد شارفتَ الانتقام.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذابَ الواقع أو يوم القيامة على تقدير تعلُّق ﴿فِي يَوْمٍ﴾[٣] بـ﴿وَاقِعٍ﴾.[٤] ﴿بَعِيدًا﴾ أي: يستبعدونه بطريق الإحالة فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ هيِّنًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذِّر، على أنّ البُعد والقرب معتبران بالنسبة إلى الإمكان، والجملة تعليل للأمر بالصبر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ متعلِّق بـ﴿قَرِيبًا﴾، أي: يمكن ولا يتعذَّر في ذلك اليوم، أو بمضمَر دلّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾، أو بمضمَر مؤخَّر، أي:

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٠.

٢ مسند أحمد، ٢٤٦/١٨ (١١٧١٧)؛ صحيح ابن حبّان، ٣٢٩/١٦ (٧٣٣٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٦ (الفرقان، ٢٥/٢٦).

٣ في الآية الرابعة مِن هذه السورة.

٤ في الآية الأولى مِن هذه السورة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾... إلخ، يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يُوصَف، أو بدل مِن ﴿فِى يَوْمٍ﴾ على تقدير تعلُّقه بـ﴿وَاقِعٍ﴾.

هذا ما قالوا، ولعلّ الأقربَ أنّ قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ حكاية لسؤالهم [٢٢٥و] / المعهود على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، ونحوِهما؛ إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا ما دعا به النَّضْر أو أبو جهل أو الفهري، فالسؤال بمعناه و"الباء" بمعنى "عن"، كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان، ٥٩/٢٥]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾... إلخ،[١] استئناف مَسوق لبيان وقوع المسئول عنه لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾[٢] مترتِّب عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ تعليل للأمر بالصبر كما ذُكر. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾... إلخ، متعلِّق بـ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾،[٣] أو بما يدلّ هو عليه، أي: يقع يوم تكون السماء كالمُهل، وهو ما أُذيب على مهَل مِن الفِلِزّات. وقيل: دُرديّ الزيت.[٤]

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألوانًا لاختلاف ألوان الجبال، منها ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا[٥] وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥]، فإذا بُسّت وطُيّرت في الجوّ أشبَهت العِهن المنفوش إذا طيَّرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبًا مِن[٦] أحواله ولا يُكلِّمه، لابتلاء كلّ منهم بما يشغله عن ذلك. وقُرئ على البناء للمفعول،[٧] أي: لا يطلب مِن حميم حميمُه أو لا يُسأل منه حالُه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يبصَّر الأحِمّاء الأحِمّاءَ فلا يَخفَون عليهم، وما يمنعهم مِن التساؤل إلّا تشاغلهم بحال أنفسهم. وقيل: ما يغني عنه مِن مشاهدة الحال

---

[١] في الآية الثانية مِن هذه السورة.
[٢] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
[٣] في الآية الثانية مِن هذه السورة.
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٤.
[٥] م س - ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾.
[٦] س: عن.
[٧] قرأ بها أبو جعفر والبزيّ بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

كبياض الوجه وسواده.[١] والأوّل أدخَلُ في التهويل. وجَمْع الضميرين لعموم الحميم. وقُرئ: "يُبْصِرُونَهُمْ".[٢] والجملة استئناف.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى الكافر. وقيل: كلّ مُذنِب.[٣] وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: العذاب الذي ابتلُوا به يومئذ ﴿بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حكاية لودادتهم.

و﴿لَوْ﴾ في معنى التمنّي. وقيل: هي بمنزلة "أنْ" الناصبة،[٤] فلا يكون لها جواب، وينسبِك منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولًا لـ﴿يَوَدُّ﴾، والتقدير يودّ افتداءه ببنيه... إلخ، والجملة استئناف لبيان أنّ اشتغال كلّ مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنّى أن / يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقِهم بقلبه فضلًا أن يهتمّ [٢٢٥ظ] بحاله ويسأل منها. وقُرئ: "يَوْمَئِذٍ"[٥] بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكّن، وبتنوين ﴿عَذَابِ﴾ ونصب ﴿يَوْمِئِذٍ﴾،[٦] وانتصابه بـ﴿عَذَابِ﴾ لأنّه في معنى تعذيب.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته التي فُصل عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تضمُّه في النسب أو عند الشدائد.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِن الثقلين والخلائق، و﴿مَن﴾ للتغليب. ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿يَفْتَدِى﴾، أي: يودّ لو يفتدي ثمّ لو ينجيه الافتداء، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، يعني يتمنّى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثمّ ينجيه ذلك وهيهات.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء. وضمير ﴿إِنَّهَا﴾ إمّا للنار المدلول عليها بذِكر العذاب، أو هو مبهَم تُرجِم عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿لَظَىٰ﴾ وهي عَلَم للنار منقول مِن اللظى بمعنى اللهب.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٦/٣-٤٤٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٣٦١/١٩.

٤ ذكره العكبري في التبيان، ١٢٤٠/٢، ونقله ابن عادل في اللباب، ٣٦٤/١٩.

٥ قرأ بها أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة واليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٥.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ نصب على الاختصاص، أو حال مؤكِّدة، والشَّوى: الأطراف، أو جمع شَواة وهي جلد الرأس. وقُرئ: "نَزَّاعَةٌ"[١] بالرفع على أنّه خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو هو الخبر و﴿لَظَىٰ﴾ بدل مِن الضمير، أو الضمير للقصّة و﴿لَظَىٰ﴾ مبتدأ و﴿نَزَّاعَةً﴾ خبره.

﴿تَدْعُواْ﴾ أي: تجذب وتُحضِرُ. وقيل: تدعو وتقول لهم: إليّ إليّ يا كافرُ يا منافقُ. وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثمّ تلتقِطهم التقاطَ الحبّ. وقيل: تدعو: تُهلِك. وقيل: تدعو زبانيتها.[٢] ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي: عن الحقّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرَض عن الطاعة.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي: جَمَع المال فجعله في وعاء وكَنَزه، ولم يؤدِّ زكاته وحقوقه، وتشاغل به عن الدِّين، وزُهيَ باقتنائه حرصًا وتأميلًا.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الهَلَع: سرعة الجَزَع عند مسّ المكروه وسرعة المَنْع عند مسّ الخير، وقد فسّره أحسنَ تفسير قولُه تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الفقر والمرض ونحوهما ﴿جَزُوعًا﴾ أي: مُبالِغًا / في الجَزَع مكثِرًا منه. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ [٢٢٦و]
أي: السَّعة والصحّة ﴿مَنُوعًا﴾ مُبالِغًا في المنع والإمساك. والأوصافُ الثلاثة أحوال مقدَّرة أو محقَّقة؛ لأنّها طبائعُ جُبل الإنسان عليها. و﴿إِذَا﴾ الأولى ظرف لـ﴿جَزُوعًا﴾ والثانية لـ﴿مَنُوعًا﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء للمتَّصفين بالنعوت الجليلة الآتية مِن المطبوعين على القبائح الماضية؛ لأنباء نعوتهم عن الاستغراق في طاعة الحقّ، والإشفاقِ

---

١ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

٢ الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٤.

على الخلق، والإيمانِ بالجزاء، والخوف مِن العقوبة وكَسْر الشَّهوة، وإيثار الآجِل على العاجل، على خلاف القبائح المذكورة الناشئة مِن الانهماك في حبّ العاجل وقَصْر النظر عليه.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغَلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: نصيب معيَّن يستوجبونه على أنفسهم تقرُّبًا إلى الله تعالى وإشفاقًا على النّاس مِن الزكاة المفروضة والصدقات المُوظَّفة.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ للذي يسأله ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأله، فيُظنّ أنّه غَنيّ فيُحرَم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بأعمالهم حيث يُتعبون أنفسهم في الطاعات البدنيّة والماليّة طمعًا في المثوبة الأخرويّة بحيث يُستدلّ بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم مِن الأعمال الفاضلة استقصارًا لها واستعظامًا لجنابه عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٠/٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراضٌ مؤذِن بأنّه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى وإن بالغ في الطاعة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ سلَف تفسيره في سورة المؤمنين.[1]

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي: طلَب لنفسه ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ وراء ما ذُكر مِن الأزواج والمملوكات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتعدُّون لحدود الله تعالى.

---

[1] في تفسير الآيتين الخامسة والسادسة منها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ لا يُخلّون بشيء مِن حقوقها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي: مقيمون لها بالعدل إحياءً لحقوق الناس. وتخصيصُها بالذِّكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة / فضلها. وقُرِئ: "لِأَمَانَتِهِمْ"[١] [٢٢٦ظ] و"بِشَهَادَتِهِمْ"[٢] على إرادة الجنس.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يُراعون شرائطها ويكمِّلون فرائضها وسُننها ومستحَبّاتِها وآدابَها. وتكريرُ ذِكر الصّلاة ووَصْفهم بها أوّلًا وآخرًا باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها على سائر الطاعات. وتكريرُ الموصولات لتنزيل اختلاف الصفاتِ منزلةَ اختلاف الذوات، كما في قول مَن قال:

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمامِ   وليثِ الكتائب في المُزدَحَمْ[٣]

إيذانًا بأنّ كلّ واحد مِن الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله، له شأن خطير مُستتبع لأحكام جمّة، حقيق بأن يفرَد له موصوف مستقلّ ولا يُجعَل شيء منها تتمّةً للآخر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذُكر مِن الصفات، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليهم للإيذان بعلوّ شأنهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: مستقِرُّون في جنّات لا يُقادَر قَدْرها ولا يُدرَك كُنهها.

وقوله تعالى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ خبر آخرُ، أو هو الخبر و﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متعلِّق به، قدّم عليه لمراعاة الفواصل، أو بمضمَر هو حال مِن الضمير في الخبر، أي: مكرَمون كائنين في جنّات.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٤١﴾

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.
٢ قرأ بها العشرة إلّا يعقوبَ وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.
٣ مضى بتخريجه وشرحه في تفسير البقرة، ٢٣١/٢.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ حولك ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مُسرِعين نحوَك مادّي أعناقهم إليك مقبِلين بأبصارهم عليك.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا شتّى، جمع "عِزَةٍ"، وأصلها "عِزْوَة" مِن "العِزْو"، كأنّ كلّ فِرقة تعتزي إلى غير مَن تعتزي إليه الأخرى. كان المشركون يُحلِّقون حول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حَلَقًا حَلَقًا وفِرَقًا فِرَقًا ويستهزئون بكلامه عليه السلام، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمّد صلّى الله عليه وسلّم فلَندخلنّها قبلهم، فنزلت.[1]

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْع لهم مِن ذلك الطمع الفارغ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ قيل: هو / تعليل الرَّدع،[2] والمعنى: إنّا خلقناهم مِن أجل ما يعلمون، كما في قول الأعشى: [٢٢٧و]

أأزمَـعْـتَ مِـن آل ليلى ابتِكـارا وشـطّـتْ على ذي هـوًى أن تُـزارا[3]

وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة، فمَن لم يستكملها بذلك فهو بمَعزِل مِن أن يُبوَّأ مُبَوَّأ الكاملين فمِن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنّة، وهم مكبُّون على الكفر والفُسوق وإنكار البعث. وقيل: معناه إنّا خلقناهم ممّا يعلمون مِن نُطْفة مَذِرة، فمِن أين يتشرَّفون ويدَّعون التقدّم، ويقولون لَندخُلنّ الجنّة قبلهم.[4] وقيل: إنّهم مخلوقون مِن نُطْفة قَذِرة لا تُناسب عالم القدس، فمتى لم تستكمِل الإيمانَ والطاعة ولم تتخلّق بالأخلاق المَلَكيّة لم تستعدّ دخولَها.[5] ولا يخفى ما في الكلّ مِن التمحّل.

والأقرب أنّه كلام مستأنَف قد سِيق تمهيدًا لِما بعده مِن بيان قدرته تعالى على أن يُهلِكهم لكفرهم بالبعث والجزاء، واستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما نزل عليه مِن الوحي، وادّعائهم دخولَ الجنّة بطريق السُّخريَة،

---

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٧/٢٧؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٦؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٤.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤.

٣ في ديوانه ٤٥؛ وهو له في الصحاح للجوهري، (زمع)؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٥/١٩؛ وبلا عزو في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٢/٢٧.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤.

٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٩/٣.

وينشئَ[١] بدلهم قومًا آخرين، فإنّ قدرته تعالى على ما يعلمون مِن النشأة الأولى حجّة بيّنة على قُدرته تعالى على ذلك، كما يُفصِح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكر مِن أنّا خلقناهم ممّا يعلمون فأقسِم بربّ المشارق والمغارب ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: نُهلِكَهم بالمرّة حسبما يقتضيه جناياتهم، ونأتي بدلَهم بخَلْق آخرين ليسوا على صفتهم. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك، لكنّ مشيئتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة اقتضت تأخيرَ عقوباتهم.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ فخلّهم وشأنَهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم الذي مِن جملته ما حُكي عنهم ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية، لا يوم النفخة الأولى كما تُوهِّم، فإنّ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ بدل مِن ﴿يَوۡمَهُمُ﴾. وقُرئ: "يُخْرَجُوْنَ"[٢] على البناء للمفعول مِن الإخراج. ﴿سِرَاعٗا﴾ حال مِن مرفوع / ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، أي: مسرِعين ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ وهو كلّ ما نُصِب فعُبد مِن دون الله تعالى. وقُرئ بسكون "الصاد"،[٣] وبفتح "النون" وسكون "الصاد" أيضًا.[٤] ﴿يُوفِضُونَ﴾ يُسرِعون. [٢٢٧ظ]

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وُصفت أبصارهم بالخشوع مع أنّه وَصْف الكلّ لغاية ظهور آثاره فيها. ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ تغشاهم ذِلّة شديدة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ما سيقع فيه

١ السياق: أن يُهلِكهم... وينشئَ...

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والأعشى والبُرجُمي وأبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٣١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية والحسن وقتادة وعمرو بن فائد وابن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٥؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٣١.

٤ قرأ بها العشرة إلّا ابن عامر وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١.

مِن الأحوال الهائلة ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».[1]

[1] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٢٧ (المعارج، ١/٧٠)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٥٠/٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٠

سُورَةُ المَعَارِج

مكية، أربعٌ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿سأَلَ سائلٌ﴾: دعا داعٍ ﴿بِعَذابٍ واقِعٍ لِلكافِرِينَ لَيسَ لَهُ دافِعٌ﴾ ـ هو النضرُ بنُ الحارثِ، قال: «اللَّهمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحَقَّ» الآيَةَ ـ ٣ ـ ﴿مِنَ اللهِ﴾: مُتصلٌ بـ «واقع» ﴿ذِي المَعارِجِ﴾: مَصاعِدِ الملائكة وهي السماوات، ٤ ـ ﴿تَعرُجُ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿المَلائكةُ والرُّوحُ﴾: جِبريلُ ﴿إليهِ﴾: إلى مَهبِط أمره من السماء ﴿في يَومٍ﴾: متعلّقٌ بمحذوف، ....

سُورَةُ المَعَارِج

قولُهُ: (دَعَا دَاعٍ) أي: استَدعاهُ، ولذلك عُدِّيَ الفِعلُ بالباء، وقرأَ نافِعٌ وشاميٌّ[1] بألفٍ من الهَمزِ أو من واوٍ أو ياءٍ أُبدِلا.

قولُهُ: (هو) أي: السَّائِلُ.

قولُهُ: (النَّضرُ) أو أبو جَهلٍ، أو نوحٌ، أو مُحمَّدٌ عليهما السَّلام.

قولُهُ: (﴿دافِعٌ﴾) أي: ليسَ له دافِعٌ يَردُّهُ من جهَتِهِ؛ لتعَلُّقِ إرادَتِهِ به، فلا يكونُ من غيرِهِ.

قولُهُ: (مصَاعِدِ) أو الدَّرجاتِ في دارِ المثوباتِ.

قولُهُ: (والياء) التَّذكيرُ للكِسائِي[2].

قولُهُ: (بمَحذُوفٍ) أو بـ﴿وَاقِعٍ﴾، وقيل: مُتعَلِّقٌ بـ﴿يَعرج﴾، وهو استِئنافٌ لبَيانِ ارتِفاعِ تلك المعارِجِ،

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٤)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٠٠).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٦).

أي: يقع العذاب بهم في يوم القِيامة، ﴿كانَ مِقدارُهُ خَمسِينَ ألفَ سَنَةٍ﴾ بالنسبة إلى الكافر لِما يَلقى فيه من الشدائد. وأمّا المُؤمن فيكون عليه أخفّ من صلاة مكتوبة، يُصلّيها في الدنيا كما جاء في الحديث. ٥ ـ ﴿فاصبِرْ﴾ ـ وهذا قبل أن يُؤمر بالقِتال ـ ﴿صَبرًا جَمِيلاً﴾ أي: لا جزعَ فيه.

٦ ـ ﴿إنَّهُم يَرَونَهُ﴾ أي: العذابَ ﴿بَعِيدًا﴾: غيرَ واقع، ٧ ـ ﴿ونَراهُ قَرِيبًا﴾: واقعًا لا محالة، ٨ ـ ﴿يَومَ تَكُونُ السَّماءُ﴾ ـ مُتعلّقٌ بمحذوف، أي: يقعُ ـ ﴿كالمُهلِ﴾: كذائب الفِضّة، ٩ ـ ﴿وتَكُونُ الجِبالُ كالعِهنِ﴾: كالصّوف في الخِفّة والطيران بالريح، ١٠ ـ ﴿ولا يَسألُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾: قريبٌ قريبَه لِاشتغال كُلٍّ بحاله.

والمعنى: إنَّها بحيثُ لو قُدِّرَ قطعُها في زمانٍ لكانَ في زمانٍ يُقدَّرُ بخمسِينَ ألفَ سَنةٍ من سنيِّ الدُّنيا.

قولُهُ: (بالنِّسبَةِ) أو لأنَّهُ على الحقيقَةِ كذلك.

قولُهُ: (هَذا) هذا إن كان معناهُ الصَّبرَ على أذى الكُفَّارِ وتَركِ مُقاتَلَتِهم، وأمَّا إذا كان الأمرُ بالصَّبرِ على الطَّاعَةِ وفي المصيبَةِ، ومِن تحمُّلِ عبءِ الرِّسالةِ فلا نسخَ، وهو الظَّاهِر.

قولُهُ: (لا جَزَعَ فِيهِ) ولا شَكوى إلى مَخلوقٍ.

قولُهُ: (أي: العَذَابَ) أو يومَ القيامَةِ.

قولُهُ: (بمَحذُوفٍ) دَلَّ عليهِ: ﴿وَاقِعٍ﴾.

قولُهُ: (كَذَائِبِ الفِضَّةِ) أي: المذابِ في مَهَلٍ وتَدريجٍ، كالفلِزَّاتِ[١].

قولُهُ: (كالصُّوفِ) المصبُوغِ ألواناً.

قولُهُ: (والطَّيَرَانِ) عَطفٌ على: (الخِفَّةِ).

قولُهُ: (بالرِّيحِ) أي: بسَبَبِها، مُتعَلِّقٌ بـ﴿تكَونُ﴾؛ لأنَّ الجبالَ مُختَلفةُ الألوانِ فإذا بُسَّت وطُيِّرَت في الجوِّ أشبَهَت العِهنَ المنفوشَ: إذا طَيَّرَتهُ الرِّيحُ.

قولُهُ: (قَرِيب) وما ذكَرَ البَيضاوِيُّ[٢] عن ابنِ كَثيرٍ: (ولا يسأل)، مَجهولاً غيرُ مَعروفٍ عندَ القُرَّاءِ[٣].

---

(١) الفلز: نحاس أبيض يجعل منه قدور عظام مفرغة، «العين» للخليل (٧/ ٣٦٨).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٥).

(٣) قلت: قرأ بذلك البزي بخلف عنه، وابن مجاهد في «السبعة في القراءات» غلط ذلك، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٥٠)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٥٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٦).

١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿يُبَصَّرُونَهُم﴾ أي: يُبصَّر الأحِمّاءُ بعضُهم بعضًا، ويتعارفون ولا يتكلّمون ـ والجملة: مُستأنفة ـ ﴿يَوَدُّ المُجرِمُ﴾: يتمنّى الكافر ﴿لَو﴾ بمعنى: أن ﴿يَفتَدِي مِن عَذابِ يَومِئِذٍ﴾ ـ بكسر الميم وفتحها ـ ﴿بِبَنِيهِ، وصاحِبَتِهِ﴾: زوجته ﴿وأخِيهِ، وفَصِيلَتِهِ﴾: عشيرته لفصله منها ﴿الَّتِي تُؤوِيهِ﴾: تضمُّه، ١٤ ـ ﴿ومَن في الأرضِ جَمِيعًا، ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك الافتداءُ: عطفٌ على «يفتدي». ١٥ ـ ﴿كَلاّ﴾: ردٌّ لِما يودّه، ﴿إنَّها﴾ أي: النارَ ﴿لَظَى﴾: اسم لجهنّمَ لأنها تتلظّى، أي: تتلهّب على الكُفّار، ١٦ ـ ﴿نَزّاعةٌ لِلشَّوَى﴾: جمعُ شَواة ـ وهي جِلدة الرأس ـ ١٧ ـ ﴿تَدعُو مَن أدبَرَ وتَوَلَّى﴾ عن الإيمان بأن تقول: «إليّ إليّ»، ١٨ ـ ﴿وجَمَعَ﴾ المال ﴿فأوعَى﴾: أمسكَه في وِعائه ولم يُؤدِّ حقّ الله منه.

١٩ ـ ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: حالٌ مُقدّرة، وتفسيرُه: ٢٠ ـ ﴿إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وقتَ مسّ الشرّ، ٢١ ـ ﴿وإذا مَسَّهُ الخَيرُ مَنُوعًا﴾ وقتَ مسّ الخيرِ أي: المالِ لحقِّ الله منه، ٢٢ ـ ﴿إلاّ المُصَلِّينَ﴾ أي: المُؤمنين، ٢٣ ـ ﴿الَّذِينَ هُم عَلَى صَلاتِهِم دائِمُونَ﴾: مُواظبون، ....

قولُهُ: (مُستَأنَفَةٌ) تدُلُّ على أنَّ المانِعَ عن السُّؤالِ هو الشّاغِلُ دُونَ الخفاءِ، وجمعُ الضَّميرِ لعُمومِ الحَميمِ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) نافِعٌ والكَسائِي[1].

قولُهُ: (تَضُمُّهُ) في النَّسَبِ وعندَ الشَّدائِدِ.

قولُهُ: (رَدٌّ) أي: رَدعٌ للمُجرِمِ عن الوَدادَةِ، ودَلالَةٌ على أنَّ الافتداءَ لا يُنجيهِ.

قولُهُ: (أي: النّارَ) أو مُبهَمٌ تفسيرُهُ ﴿لظى﴾، وهو خبرٌ أو بدَلٌ.

قولُهُ: (جِلدَةُ الرَّأسِ) أو الشَّوَى: الأطرافُ، وحفصٌ بنَصْبِ ﴿نَزّاعَة﴾ على الاختِصاصِ[2].

قولُهُ: (بأَن تَقُول) أو تجذِبَ، أو تدعو زَبانيتُها.

قولُهُ: (أَمسَكَهُ) أي: جعَلَهُ في وعاءٍ وكنَزَهُ حِرصاً وتأميلاً.

قولُهُ: (حَالٌ مُقَدَّرَةٌ) أو مُحَقَّقةٌ؛ لأنَّها طبيعَةٌ جُبِلَ الإنسانُ عليها، وكذا الحالُ في الحالَينِ المتأخِّرَين.

قولُهُ: (وتَفسِيرُهُ) أي: ما بعدَهُ، وقيل معناهُ: شَديدَ الحِرصِ قَليلَ الصَّبرِ.

قولُهُ: (وَقتَ مَسِّ الشَّرِّ) أي: الضُّرِّ والفَقرِ، أشارَ إلى أنَّ: ﴿إذا﴾ ظَرفٌ لـ﴿جَزُوعَا﴾.

قولُهُ: (لِحَقِّ اللهِ) مُتعلِّقٌ بـ﴿مَنُوعاً﴾.

قولُهُ: (مُوَاظِبُونَ) لا يَشغَلُ عنها شاغِلٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٤).

(٢) انظر المصدر السابق.

٢٤ ـ ﴿والَّذِينَ في أموالِهِم حَقٌّ مَعلُومٌ﴾ هو الزكاة ٢٥ ـ ﴿لِلسّائلِ والمَحرُومِ﴾: المُتعفّف عن السّؤال فيُحرَم، ٢٦ ـ ﴿والَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَومِ الدِّينِ﴾: الجزاء، ٢٧ ـ ﴿والَّذِينَ هُم مِن عَذابِ رَبِّهِم مُشفِقُونَ﴾: خائفون ـ ٢٨ ـ ﴿إنَّ عَذابَ رَبِّهِم غَيرُ مأمُونٍ﴾ نزوله ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ﴿والَّذِينَ هُم لِفُرُوجِهِم حافِظُونَ، إلاّ علَى أزواجِهِم أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُم﴾ من الإماء ـ ﴿فإنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ. فمَنِ ابتَغَى وَراءَ ذلِكَ فأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾: المُتجاوزون الحلالَ إلى الحرام ـ ٣٢ ـ ﴿والَّذِينَ هُم لِأماناتِهِم﴾، وفي قراءة بالإفراد: ما اؤْتُمِنوا عليه من أمر الدين والدنيا، ﴿وعَهدِهِم﴾ المأخوذِ عليهم في ذلك، ﴿راعُونَ﴾: حافظون، ٣٣ ـ ﴿والَّذِينَ هُم بِشَهاداتِهِم﴾ ـ وفي قراءة بالجمع ـ ﴿قائمُونَ﴾: يُقيمونها ولا يكتمونها، ٣٤ ـ ﴿والَّذِينَ هُم علَى صَلاتِهِم يُحافِظُونَ﴾ بأدائها في أوقاتها. ٣٥ ـ ﴿أُولئِكَ في جَنّاتٍ مُكرَمُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿فما لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾: نحوَك ﴿مُهطِعِينَ﴾: حالٌ،.......................

قولُهُ: (هُوَ الزَّكَاةُ) وسائرُ الواجباتِ الماليّة.

قولُهُ: (فَيُحرَمُ) غالباً بحِسبانِهِ غَنيًّا.

قولُهُ: (خَائِفُونَ) على أنفُسِهِم.

قولُهُ: (نُزُولُهُ) اعتِراضٌ يدُلُّ على أنّه لا ينبَغي لأحَدٍ أن يأمَنَ من عَذابِ الله وإن بالَغَ في طاعَتِه.

قولُهُ: (مِنَ الإمَاءِ) من بَيانيَّةٌ.

قولُهُ: (المُتَجَاوِزُونَ)كالاستِمناءِ لغَيرِ ضَرورَةٍ، والمتعَةِ، ووَطءِ العَبدِ والحَيوانِ والميتَةِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ[1].

قولُهُ: (فِي ذَلِكَ) أي: في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَة) لِحَفص[2].

قولُهُ: (بالجَمعِ) لاختلافِ الأنواعِ.

قولُهُ: (في أَوقَاتِهَا) ورِعايَةِ بقيَّةِ شُروطِها وأركانِها وواجِباتِها، وفي تكريرِ ذِكرِ الصَّلاةِ ووصفِهِم بها أوّلاً وآخِراً باعتِبارَين ـ أعني: المداوَمَةَ والمحافَظَة ـ دلالَةٌ على فَضلِها على غَيرِها.

قولُهُ: (نَحوَكَ) أو حَولَك.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٠٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

أي: مُديمِي النظر، ٣٧ ـ ﴿عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ﴾ منك ﴿عِزِينَ﴾: حالٌ أيضًا، أي: جماعاتٍ حِلَقًا حِلَقًا، يقولون استهزاء بالمؤمنين: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلَنّها قَبلَهم؟ ٣٨ ـ ٣٩ ـ قال تعالى: ﴿أيَطمَعُ كُلُّ امرِئٍ مِنهُم أن يُدخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ؟ كَلّا﴾: ردعٌ لهم عن طمعهم في الجنّة. ﴿إنّا خَلَقْناهُم﴾ كغيرهم ﴿مِمّا يَعلَمُونَ﴾: من نُطَف. فلا يُطمع بذلك في الجنّة، وإنما يُطمع فيها بالتقوى.

٤٠ ـ ٤١ ـ ﴿فلا﴾ ـ لا: زائدةٌ ـ ﴿أُقسِمُ بِرَبِّ المَشارِقِ والمَغارِبِ﴾ للشمس والقمر وسائر الكواكب. ﴿إنّا لَقادِرُونَ علَى أن نُبَدِّلَ﴾: نأتيَ بدَلَهم ﴿خَيرًا مِنهُم، وما نَحنُ بِمَسبُوقِينَ﴾: بعاجزين عن ذلك. ٤٢ ـ ﴿فذَرْهُم﴾: اتركْهم، ﴿يَخُوضُوا﴾ في باطلهم، ﴿ويَلعَبُوا﴾ في دُنياهم ﴿حَتَّى يُلاقُوا﴾: يلقَوا ﴿يَومَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فيه العذابَ، ٤٣ ـ ﴿يَومَ يَخرُجُونَ مِنَ الأجداثِ﴾: القُبور ﴿سِراعًا﴾ إلى المحشر، ﴿كأنَّهُم إلَى نَصْبٍ﴾، وفي قراءة بضمّ الحرفين، شيء منصوب كعَلَم أو راية ﴿يُوفِضُونَ﴾ يُسرِعون، ٤٤ ـ ﴿خاشِعةً﴾: ذليلة ﴿أبصارُهُم، تَرهَقُهُم﴾: تغشاهم ﴿ذِلّةٌ. ذلِكَ اليَومُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾. ذلك: مُبتدأ وما بعده الخبر، ومعناه يومُ القيامة.

قولُهُ: (مُدِيمِي النَّظَرِ) أو مُسرِعين.

قولُهُ: (أي: جَمَاعَاتٍ) يعني: فِرَقاً شَتَّى، جمعُ: عِزَة.

قولُهُ: (وسَائِرِ الكَوَاكِبِ) يعني: جَمَعَها باعتِبارِ ضَمِّ الكَواكِبِ، والتَّحقيقُ أنَّ لهما كُلَّ يَومٍ ولَيلةٍ مَشرِقًا ومَغرِبًا، وحيثُ ثَنَّى اعتُبِرَ مَشرِقَي الشِّتاءِ والصَّيفِ ومَغرِبيهِما، وحيثُ أفرَدَ اعتُبِرَ الجِنس.

قولُهُ: (نَأتِي بَدَلَهُم) بأن نُهلِكَهُم ونَأتي بخَلقٍ أمثَلَ منهم.

قولُهُ: (بعَاجِزِينَ) أو مغلوبينَ إن أَرَدنا.

قولُهُ: (اترُكْهُم) أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ.

قولُهُ: (إلى المحشَرِ) أي: مُسرِعينَ، جمعُ: سَريعٍ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لشاميٍّ وحَفصٍ[1]، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٤).

سورة المعارج

وتسمَّى: سورة الواقع[1]، وسورة سأل.

وهي مكية بالاتفاق على ما قال القرطبيُّ[2]. وفي «مجمع البيان»[3]: عند الحسن إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ [الآية: ٢٤].

وآيُها ثلاث وأربعون في الشامي، واثنتان وأربعون في غيره[4].

وهي كالتتمة لسورة «الحاقة» في بقيَّة وصف القيامة والنار، وقد قال ابن عباس: إنَّها نزلت عقيب سورة «الحاقة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ أي: دعا داعٍ به، فالسؤال بمعنى الدعاء، ولذا عدِّي بالباء تعديته بها في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥] والمراد: استدعاء العذاب وطلبه، وليس من التضمين في شيء. وقيل: الفعل

---

(١) في الأصل و(م): المواقع، والمثبت من السبعة في القراءات ص٦٥٠، والإتقان ١/ ١٧٦.

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢١٨.

(٣) ٢٩/ ٥٠.

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: والمختلف فيه آية: «ألف سنة». انتهى منه. وقد جاء في البيان في عدّ أي القرآن للداني ص٢٥٤، ومجمع البيان ٢٩/ ٥٠، والإتقان ١/ ٢١٦، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٤١ أن عدد آياتها ثلاث وأربعون أو أربع وأربعون. وذكر أبو الليث السمرقندي والواحدي والبغوي والزمخشري والقرطبي والإمام الرازي والبيضاوي وأبو حيان وأبو السعود في تفاسيرهم أنها أربع وأربعون، فقول المصنف اثنان وأربعون، لعله وهم منه رحمه الله.

مضمَّن معنى الاهتمام والاعتناء، أو هو مجازٌ عن ذلك، فلذا عدِّي بالباء. وقيل: إنَّ الباء زائدة. وقيل: إنَّها بمعنى: «عن»، كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

والسائل هو النضر بن الحارث كما روى النسائيُّ وجماعةٌ وصحَّحه الحاكم عن ابن عباس[١]، ورُوي ذلك عن ابن جُريج والسُّدي والجمهور، حيثُ قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: هو أبو جهل، حيثُ قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وقيل: هو الحارث بن النعمان الفِهْري، وذلك أنَّه لمَّا بلغه قولُ رسول الله ﷺ في عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»، قال: اللهمَّ إن كان ما يقول محمد ﷺ حقّاً، فأمطر علينا حجارةً من السماء. فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجرٍ، فوقعَ على دماغه فخرج من أسفله فهلك من ساعته[٢]. وأنت تعلم أنَّ ذلك القولَ منه عليه الصلاة والسلام في أمير المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه كان في غدير خُمّ، وذلك في أواخر سنيِّ الهجرة، فلا يكون ما نزل مكيّاً على المشهور في تفسيره، وقد سمعتَ ما قيل في مكية هذه السورة.

وقيل: هو الرسولُ ﷺ استعجلَ عذابَهم. وقيل: هو نوح عليه السلام سأل عذابَ قومه.

وقرأ نافع وابن عامر: «سال» ـ بألف، كقال ـ «سايل» بياء بعد الألف[٣]،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٣، والنسائي في الكبرى (١١٥٥٦)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٠٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط البخاري. وجاء في مطبوع المستدرك موقوفاً على سعيد بن جبير، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٣ وعزاه لهما ولغيرهما من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٥٣-٥٤ وفي إسناده انقطاع، وانظر كلام المصنف الآتي. وقول النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» سلف ٧/ ٣٦.

(٣) قراء «سال» بالألف في السبعة ص٦٥٠، والتيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩٠. قال في السبعة: وكلهم قرأ: «سائل» بالهمزة بلا خلاف. اهـ. وقال ابن الجزري في النشر: وانفرد

فقيل: يجوز أن يكون قد أُبدلت همزةُ الفعل ألفاً؛ وهو بدلٌ على غير قياس، وإنَّما قياس هذا بين بين، ويجوز أن يكون على لغة مَنْ قال: سِلْتُ أَسَالُ. حكاها سيبويه[١]. وفي «الكشاف»[٢]: هو من السؤال، وهو لغة قريش يقولون: سِلْتَ تسَال، وهما يتسايلان. وأراد أنَّه من السؤال المهموز معنًى لا اشتقاقاً بدليل: وهما يتسايلان. وفيه دلالةٌ على أنَّه أجوف يائيٌّ، وليس من تخفيف الهمزة في شيء. وقيل: السُّوال: بالواو الصريحة مع ضمِّ السين وكسرها، وقولُه: يتسايلان. صوابُه: يتساولان، فتكون ألفُه منقلبةً عن واو كما في: قال وخاف، وهو الذي ذهب إليه أبو علي في «الحجة»[٣] وذكر فيها أنَّ أبا عثمان حكى عن أبي زيد أنَّه سمع من العرب من يقول: هما يتساولان. ثمَّ إنَّ في دعوى كون: سِلْت تسال لغةَ قريش تردُّداً، والظاهر خلاف ذلك، وأنشدوا لورود: سال، قولَ حسان يهجو هُذَيلاً لمَّا سألوا النبيَّ ﷺ أن يبيح لهم الزنى:

سالَتْ هذيلٌ رسولَ الله فاحشةً ... ضلَّتْ هذيلٌ بما قالت ولم تُصِبِ[٤]

وقولَ آخر:

سالتاني الطَّلاقَ أن رأتاني ... قلَّ مالي قد جئتماني بنُكْرِ[٥]

وجوِّز أن يكون سال من السيلان، وأُيِّد بقراءة ابن عباس: «سَال سَيْل»[٦] فقد

= النهرواني عن الأصبهاني عن ورش بتسهيل «سائل» بين بين هذا الموضع خاصة، وكذا رواه الخزاعي عن ابن فليح عن ابن كثير وسائر الرواة عن الأصبهاني وعن ورش خلافه.

(١) في الكتاب ٣/ ٥٥٥.

(٢) ٤/ ١٥٦.

(٣) ٦/ ٣١٧.

(٤) ديوان حسان ص١٢٣، والكتاب ٣/ ٤٦٨، وفيهما: بما جاءت، بدل: بما قالت، وذكره المبرد في الكامل ٢/ ٦٢٦ برواية: بما سالت.

(٥) يروى البيت ـ في عدة أبيات ـ لزيد بن عمرو بن نُفيل، ولابنه سعيد بن زيد، ولنُبيه بن الحجاج، ينظر الخزانة ٦/ ٤١٥. والبيت في الكتاب ٣/ ٥٥٥، والبيان والتبيين ١/ ٢٣٥، والخزانة ٦/ ٤١٠، ورواية البيان، والخزانة:

سالتاني الطلاق أن رأتا ما ... لي قليلاً........

(٦) القراءات الشاذة ص١٦١، والمحتسب ٢/ ٣٣٠.

قال ابن جني[1]: السيل هاهنا: الماء السائل، وأصلُه المصدر من قولك: سال الماء سيلاً، إلَّا أنَّه أُوقع على الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] أي: غائراً. وقد تسومح في التعبير عن ذلك بالوادي فقيل: المعنى: اندفَع وادٍ بعذاب واقع.

والتعبيرُ بالماضي قيل: للدلالة على تحقُّق وقوع العذاب، إمَّا في الدنيا وهو عذاب يوم بدر وقد قُتل يومئذٍ النضرُ وأبو جهل، وإمَّا في الآخرة وهو عذابُ النار.

وعن زيد بن ثابت أنَّ سائلاً اسمُ وادٍ في جهنم. وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن ابن عباس[2] ما يحتمله.

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ صفةٌ أخرى لـ «عذاب»، أي: كائن للكافرين، أو صلةٌ لـ «واقع» واللَّام للتعليل، أو بمعنى: «على»، ويؤيّده قراءةُ أُبيٍّ: «على الكافرين»[3]. وإن صحَّ ما رُوي عن الحسن وقتادة: أنَّ أهلَ مكة لمَّا خوَّفهم النبيُّ ﷺ بعذابٍ، سألوا عنه: على مَنْ ينزل وبمن يقع؟ فنزلت، كان هذا ابتداءَ كلامٍ جواباً للسائل، أي: هو للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ صفةٌ أخرى لـ «عذاب»، أو حالٌ منه؛ لتخصيصه بالصفة أو بالعمل، أو من الضمير في «للكافرين» على تقدير كونه صفةً لعذاب، على ما قيل، أو استئناف، أو جملة مؤكِّدةٌ لـ: هو للكافرين، على ما سمعت آنفاً، فلا تَغْفُل.

وقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ «دافع»، و«من» ابتدائية، أي: ليس له دافعٌ يردُّه من جهته عز وجل؛ لتعلُّق إرادته سبحانه به.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «واقع»، فقيل: إنَّما يصحُّ على غير قول الحسن وقتادة، وعليه يلزم الفصلُ بالأجنبي؛ لأنَّ «للكافرين» على ذلك جوابُ سؤال، ثمَّ إنَّ التعلُّقَ

---

(١) في المحتسب ٢/ ٣٣٠.
(٢) عزاه لهما السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٤.
(٣) البحر ٨/ ٣٣٢.

بـ «واقع» ـ على ما عدا قولهما ـ إن جُعل «للكافرين» من صلته أيضاً كان أظهرَ، وإلَّا لزم الفصلُ بين المعمول وعامله بما ليس من تتمَّته، لكن ليس أجنبياً من كلِّ وجهٍ.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ هي لغةً: الدرجات، والمراد بها على ما رُوي عن ابن عباس: السماوات تعرجُ فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماء. ولم يعيِّنها بعضُهم فقال: أي: ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة بالأوامر والنواهي.

وقيل: هي مقاماتٌ معنوية تكون فيها الأعمال والأذكار. أو: مراتبُ في السلوك كذلك يترقَّى فيها المؤمنون السالكون. أو: مراتبُ الملائكة عليهم السلام.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة تفسيرها بالفضائل والنِّعم. وروى نحوَه ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[1].

وقيل: هي الغُرف التي جعلها الله تعالى لأوليائه في الجنة. والأنسب بما يقتضيه المقام من التهويل ما هو أدلُّ على عِزِّه عز وجل وعِظَم ملكوته تعالى شأنه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام كما ذهب إليه الجمهور، أُفرد بالذكر لتميُّزه وفضله، بناءً على المشهور من أنَّه عليه السلام أفضلُ الملائكة. وقيل: لمجرَّد التشريف، وإن لم يكن عليه السلام أفضلَهم بناءً على ما قيل من أنَّ إسرافيل عليه السلام أفضلُ منه.

وقال مجاهد: «الروح» ملائكةٌ حَفَظةٌ للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الحَفَظةُ كما لا نرى نحن حَفَظتنا. وقيل: خَلْق هم حفظة الملائكة مطلقاً كما أنَّ الملائكة حَفَظةُ الناس. وقيل: مَلَكٌ عظيم الخِلْقة، يقوم وحدَه يوم القيامة صفًّا ويقوم الملائكة كلُّهم صفًّا. وقال أبو صالح: خَلْقٌ كهيئة الناس وليسوا بالناس.

وقال قبيصة بن ذؤيب: روح الميت حين تُقبض. ولعلَّه أراد: الميت المؤمن.

وقرأ عبد الله والكسائيُّ وابن مِقْسم وزائدة عن الأعمش: «يعرج» بالياء التحتية[2].

---

(١) ينظر الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٦٤.

(٢) التيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩٠ عن الكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٣٣٣.

﴿إِلَيْهِ﴾ قيل: أي: إلى عرشه تعالى وحيث يهبط منه أوامرُه سبحانه. وقيل: هو من قبيل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات:٩٩] أي: إلى حيثُ أمرني عز وجل به. وقيل: المراد إلى محلِّ برِّه وكرامته جلَّ وعلا، على أنَّ الكلام على حذف مضافٍ. وقيل: إلى المكان المنتهى إليه، الدالِّ عليه السياق. وفُسِّر بمحلِّ الملائكة عليهم السلام من السماء.

ومعظم السلف يعدُّون ذلك من المتشابه مع تنزيهه عزَّ وجل عن المكان والجسميَّة واللوازم التي لا تليق بشأن الألوهية.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ أي: من سنينكم، الظاهرُ تعلُّقه بـ «تعرج»، واليوم بمعنى الوقت، والمراد به: مقدار ما يقوم الناس فيه لربِّ العالمين إلى أن يستقرَّ أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار من اليوم الآخر والذي لا نهايةَ له. ويشيرُ إلى هذا ما أخرج الإمام أحمد وابنُ حبان وأبو يعلى وابن جرير والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنة، ما أطولَ هذا اليوم! فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنَّه لَيُخفَّفُ على المؤمن حتى يكونَ أهونَ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يصلِّيها في الدنيا»(١).

واختُلف في المراد بهذا التقدير على هذا الوجه:

فقيل: الإشارةُ إلى استطالة ذلك اليوم لشدَّته، لا أنَّه بهذا المقدار من العدد حقيقةً. وُروي هذا عن ابن عباس. والعرب تصفُ أوقاتَ الشدَّة والحزن بالطول، وأوقاتَ الرخاء والفرح بالقِصَر، ومن ذلك قول الشاعر:

أشكو وتَشْكِين من الطُّولِ ... مِن قِصَرِ اللَّيلِ إذا زُرْتِني(٢)

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٤-٢٦٥، وأحمد (١١٧١٧)، وابن حبان (٧٣٣٤)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن جرير ٢٩/ ٢٥٣-٢٥٤، والبيهقي (١٢٦) (الاستدراكات). وهو من طريق درَّاج عن أبي الهيثم، ودراج قال عنه أحمد: أحاديثه مناكير. ولينه، كما ذكر الذهبي في الميزان ٢/ ٢٤، وذكر له هذا الحديث، غير أن الحافظ حسَّن إسناده في الفتح ١١/ ٤٤٨.

(٢) البيت دون نسبة في نفحة الريحانة ٤/ ١٧٧.

وقوله:

ليلي وليلَى نفَى نومي اختلافُهما بالطُّول والطَّوْل يا طوبى لو اعتدلا
يجودُ بالطُّول ليلي كلَّما بخلتْ بالطَّوْل ليلَى وإن جادَتْ به بخلَا(١)

وقوله:

ويومٍ كظلِّ الرمح قصَّر طولَه دمُ الزِّقِّ عنَّا واصطفاقُ المزاهرِ(٢)

إلى ما لا يكاد يحصى. وفي قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر السابق: «إنَّه لَيُخفَّف على المؤمن حتى يكونَ أهونَ عليه من صلاة مكتوبةٍ» إشارةٌ إلى هذا. وكذا ما رُوي عن عبد الله بن عمرو من قوله: يُوضع للمؤمنين يومئذٍ كراسيُّ من ذهب، ويظلَّل عليهم الغمام ويقصر عليهم ذلك اليوم ويهون حتى يكون كيوم من أيامكم هذه(٣). ولينظر على هذا القول ما حكمة التنصيص على العدد المذكور.

وقيل: هو على ظاهره وحقيقته وأنَّ في ذلك اليوم خمسين موطناً، كلُّ موطن ألفُ سنة من سني الدنيا، أي: حقيقةً.

وقيل: الخمسون على حقيقتها إلَّا أنَّ المعنى: مقدارُ ما يُقضى فيه من الحساب قَدْرُ ما يقضى بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا، وهو مرويٌّ عن عكرمة.

وأشار بعضهم إلى أنَّ المقدارَ المذكور عليه مجازٌ عمَّا يلزمه من كثرة ما يقع فيه

---

(١) البيتان دون نسبة في معاهد التنصيص ١/ ٢٦٦، والكشكول ٢/ ٣٨٤، ورواية الشطر الثاني في البيت الأول في معاهد التنصيص: حتى لقد صيّراني في الهوى مثلاً.

(٢) نسبه في الشعر والشعراء ١/ ٢٨٤ لبعض الضَّبِّيين، ونسبه صاحب الحماسة كما شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٦٩ لشُبرمة بن الطفيل، ونسبه في الحيوان ٦/ ١٧٩، والصحاح (صفق)، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٩ ليزيد بن الطَّثْرية. قال في اللسان (صفق) بعد أن ذكر البيت: قال ابن بري: نسب الجوهريُّ هذا البيتَ ليزيد بن الطَّثْرية، وصوابه: لشُبرمة بن الطفيل. اهـ. وأراد بدم الزق: الخمر. ورواية الحماسة:

ويومٍ شديد الحرِّ قَصَّرَ طولَه دمُ الزِّقِّ عنا واصطكاكُ المزاهرِ

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥.

من المحاسبات، أو كناية، فكأنَّه قيل: في يوم يكثر فيه الحساب ويطول بحيثُ لو وقع من غير أسرع الحاسبين وفي الدنيا طالَ إلى خمسين ألف سنة.

وتخصيصُ عروج الملائكة والروح بذلك اليوم مع أنَّ عروجَهم متحقِّقٌ في غيره أيضاً للإشارة إلى عِظَم هولِه وانقطاع الخَلْق فيه إلى الله عز وجل وانتظارِهم أمرَه سبحانه فيهم، أو للإشارة إلى عِظَم الهول على وجه آخر.

وأيًّاما كان فالجملة استئنافٌ مؤكِّدٌ لما سيق له الكلام.

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «واقع». وقيل: بـ «دافع». وقيل: بـ «سال»، إذا جُعل من السيلان، لا به من السؤال؛ لأنَّه لم يقع فيه. والمراد باليوم على هذه الأقوال: ما أُريد به فيما سبق. و«تعرج الملائكة والروح إليه» مستطرد عند وصفه عز وجل بـ «ذي المعارج».

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «تعرج» كما هو الظاهر، إلَّا أنَّ العروج في الدنيا، والمعنى: تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى ويقطعون في يوم من أيامكم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة لو فُرض سيرُه فيه. ورُوي عن ابن إسحاق ومنذر بن سعيد ومجاهد وجماعة، وهو روايةٌ عن ابن عباس أيضاً.

واختلف في تحديد المسافة فقيل: هي من وجه الأرض إلى منتهى العرش. وقيل: من قعر الأرض السابعة السفلى إلى العرش. وفصّل بأنَّ ثخن كلِّ أرض خمس مئة عام، وبين كلِّ أرضَيْن خمسُ مئة عام، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمس مئة عام، وثخنُ كلِّ سماءٍ كذلك، وما بين كل سماءين كذلك، وما بين السماء العليا ومقعر الكرسيِّ كذلك، ومجموعُ ذلك أربعةَ عشرَ ألف عام، ومن مقعر الكرسيِّ إلى العرش مسيرةُ ستٍّ وثلاثين ألف عام، فالمجموع: خمسون ألف سنة. وفي خبرٍ أخرجه ابن أبي حاتم(١) عن ابن عباس نحوُه، ولعلَّه لا يصحُّ، وإن لم تبعُد هذه السرعة من الملائكة عليهم السلام عند مَنْ وقفَ على سرعة حركة الأضواء، وعلم أنَّ الله عز وجل على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

---

(١) عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٤.

ومن الناس من اعتبر هذه المدَّة من الأرض إلى العرش عُروجاً وهبوطاً، واعتبرها كذلك من الأرض إلى مقعر السماء الدنيا في قوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] ومَنْ يعتبر أحدَ الأمرين يعتبر هنا محدَّب السماء الدنيا والأرض. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للمتصوِّفة في ذلك.

وقيل: الكلام بيانٌ لغاية ارتفاع تلك المعارج وبُعدِ مداها على سبيل التمثيل والتخييل، والمراد: أنَّها في غاية البعد والارتفاعِ المعنوي على بعض الأوجه في المعارج، أو الحسّي كما في بعضٍ آخرَ، وليس المراد التحديدَ.

وعن عكرمة أنَّ تلك المدَّة هي مدةُ الدنيا منذ خُلقت إلى أن تقوم الساعة إلَّا أنَّه لا يدري أحدٌ ما مضى منها وما بقي، أي: تعرج الملائكة إليه في مدة الدنيا، وبقاء هذه البنية. وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. ثم الظاهر أنَّه أراد بالدنيا ما يقابل الأخرى، ويشمل العرش ونحوه. ويَرِدُ عليه أنَّ ما ورد عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه جواباً لمن سأله: متى خلق الله تعالى العرش؟ يكذِّبه، فإنَّه يدلُّ على أنَّ ما مضى من أول زمنِ خَلْقِه إلى اليوم يزيد على خمسين ألف سنة بألوفِ ألوفِ سنينَ لا يحصيها إلَّا اللهُ عز وجل. ولعلَّه أولى بالقبول ممَّا قاله عكرمة.

والحقُّ أنَّه لا يعلم مبدأ الخلق ولا مدَّة بقاء هذه البنية إلَّا الله عز وجل، بَيْد أنَّا نعلم بتوفيق الله تعالى أنَّ هذا العالم حادثٌ حدوثاً زمانياً، وأنَّه ستبدَّلُ الأرض غيرَ الأرض والسماوات، وتبرز الخلائق لله تعالى الواحد القهّار.

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ متفرِّعٌ على قوله تعالى: (سَأَلَ سَآئِلُۢ) ومتعلِّقٌ به تعلُّقاً معنوياً؛ لأنَّ السؤال كان عن استهزاءٍ وتعنُّتٍ وتكذيب بناءً على أنَّ السائل النضرُ وأضرابُه وذلك مما يُضْجِره عليه الصلاة والسلام، أو كان عن تضجُّرٍ واستبطاءٍ للنصر؛ بناءً على أنَّه ﷺ هو السائل، فكأنَّه قيل: فاصبر ولا تستعجل فإنَّ الموعود كائنٌ لا محالةَ، والمعنى على هذا أيضاً على قراءة من قرأ «سال سايل» من السيلان كقراءة «سال سَيْل»، ولا يظهر تفرُّعه على «سأل» من السؤال إن كان السائل نوحاً عليه السلام.

والصبرُ الجميل على ما أخرجه الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عن ابن عباس: ما لا شكوى فيه إلى أحدٍ غير الله تعالى. وأخرج عن عبد الأعلى بن الحجّاج أنَّه ما يكون معه صاحبُ المصيبة في القوم بحيث لا يُدرى من هو[1].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذابَ الواقع. أو: اليومَ المذكور في قوله تعالى: (فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ) إلخ بناءً على أنَّ المراد به يوم الحساب متعلقاً بـ «تعرج» على ما سمعتَ أولاً، أو بـ «دافع»، أو بـ «واقع»، أو بـ «سال» من السيلان. أو يوم القيامة المدلول عليه بـ «واقع» على وجهٍ، فما يدلُّ عليه كلام «الكشاف»[2] من تخصيص عود الضمير إلى يوم القيامة بما إذا كان «في يوم» متعلقاً بـ «واقع»، فيه بحثٌ.

ومعنى «يرونه»: يعتقدونه ﴿بَعِيدًا ۝٦﴾ أي: من الإمكان، والمراد أنَّهم يعتقدون أنه محالٌ. أو من الوقوع، والمراد: أنَّهم يعتقدون أنه لا يقع أصلاً وإن كان ممكناً ذاتاً. وكلامُ كفار أهل مكة بالنسبة إلى يوم القيامة والحساب محتملٌ للأمرين، بل ربَّما تسمعهم يتكلَّمون بما يكاد يشعر بوقوعه حيثُ يزعمون أنَّ آلهتهم تشفع لهم، فهم متلوِّنون في أمره تلوُّنَ الحرباء.

والعذابُ إن أُريد به عذابُ يوم القيامة فهو كيوم القيامة عندهم، أو أنَّه لا يقع بالنسبة إليهم مطلقاً لزعمهم دفعَ آلهتهم إيَّاه عنهم، وإن أُريد به عذابُ الدنيا فالظاهرُ أنَّهم لا ينفون إمكانه، وإنَّما ينفون وقوعَه، ولا تكاد تتمُّ دعوى أنهم ينفون إمكانه الذاتيَّ.

﴿وَنَرَنٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ أي: من الإمكان. والتعبيرُ به للمشاكلة كما قيل بها في «نراه» إذ هو ممكنٌ، ولا معنى لوصف الممكن بالقرب من الإمكان؛ لدخوله في حيِّزه، والمرادُ وصفه بالإمكان، أي: ونراه ممكناً، وهذا على التقدير الأول في «يرونه بعيداً»، أو: نراه قريباً من الوقوع، وهذا على التقدير الثاني فيه، وقد يقال كذلك

---

(١) عزاهما له السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥، ولم نجدهما في مطبوع نوادر الأصول.
(٢) ٤/ ١٥٧.

على الأول أيضاً على معنى: إنَّهم يرونه بعيداً من الإمكان ونحن نراه قريباً من الوقوع فضلاً عن الإمكان. ولعلَّه أولى من تقدير الإمكان في الجملتين.

وجملةُ «إنهم» إلخ تعليلٌ للأمر بالصبر. وقيل: إن كان المستعجلُ هو النضرَ وأضرابَه فهي مستأنفةٌ بياناً لشبهة استهزائهم وجواباً عنه، وإن كان النبيَّ ﷺ فهي تعليلٌ لِمَا ضمِّن الأمر بالصبر من ترك الاستعجال بأنَّ رؤيتنا ذلك قريباً توجب الوثوقَ وترك الاستعجال.

وقولُه سبحانه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ قيل: متعلقٌ بـ «قريباً» أو بمضمَرٍ يدلُّ عليه «واقعٌ»، وهو: يقع، أو بدل عن «في يوم» إن عُلِّل به دون «تعرج». والنصبُ باعتبار أنَّ محلَّ الجارِّ والمجرور ذلك، إذ ليس بدلاً عن المجرور وحدَه، فاشتراطُ أبي حيان[1] لمراعاة المحلِّ كونَ الجارِّ زائداً أو شبهه كـ: رُبَّ، غيرُ صحيح، ولا يحتاج تصحيح البدلية إلى التزام كون حركة «يوم» بنائيةً؛ بناءً على مذهب الكوفيين المجوِّزين لذلك وإن أضيف لمُعْرَبٍ.

وذكر أنَّه على هذه التقادير الثلاث المرادُ بالعذاب عذابُ القيامة، وأمَّا إذا أُريد عذابُ الدنيا فيتعيَّنُ أن يكون التقدير: يوم تكون السماء يكون كَيْتَ وكَيْتَ. وكأنَّهم لمَّا استعجلوا العذابَ أُجيبوا بأزَفِ الوقوع، ثم قيل: لِيَهُن ذلك في جنب ما أُعدَّ لكم يوم تكون السماء كالمهل، فحينئذٍ يكون العذاب الذي هو العذاب.

ثم لا يخفى أنَّ البدلية ممكنةٌ على تقدير تعلُّق «في يوم» بـ «تعرج» أيضاً، بناءً على أنَّ المراد به يوم القيامة أيضاً كما قدَّمنا، وأنَّ الأولى عند تعلُّقه بـ «قريباً» أن لا يراد من القرب من الإمكان الإمكانُ الذاتي، لما في تقييده باليوم نوعُ إيهام، وأنَّ ضميرَيْ «يرونه» و«نراه» إذا كانا ليوم القيامة يلزم وقوع الزمان في الزمان في قولنا: يقعُ يومُ القيامة يومَ تكون كالمهل. ويجاب بما لا يخفى.

وجوَّز في «البحر»[2] كونَه بدلاً من ضمير «نراه» إذا كان عائداً على يوم القيامة،

(١) في البحر ٨/ ٣٣٤.
(٢) ٨/ ٣٣٤.

وفي «الإرشاد»[١] كونَه متعلّقاً بـ «ليس له دافع». وبعضُهم كونَه مفعولاً به لـ : اذكر، محذوفاً. وتعلُّقُه بـ «نراه» كما قاله مكّي[٢] لا نراه. وكذا تعلُّقه بـ «يبصرونهم» كما حكاه. ومثلُه ما عسى أن يقال من تعلّقه[٣] بـ «يود» الآتي بعدُ، فتأمَّل.

والمُهْل: أخرج أحمد والضياء في «المختارة»[٤] وغيرُهما عن ابن عباس أنَّه: دُرْديُّ الزيت. وهو ما يكون في قعره. وقال غيرُ واحد: المُهْل: ما أُذيب على مَهْلٍ من الفِلِزَّات، والمراد: يوم تكون السماء واهيةً. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية أنَّ السماء الآن خضراءُ، وأنَّها تحوَّل يومَ القيامة لوناً آخر إلى الحمرة[٥].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ كالصوف دون تقييد، أو الأحمر، أو المصبوغ ألواناً، أقوالٌ، واختار جمعٌ الأخيرَ، وذلك لاختلاف ألوان الجبال، فمنها جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ وغرابيبُ سود، فإذا بُسَّت وطيِّرت في الجوِّ أشبهت العهنَ أي: المنفوش - كما في «القارعة»[٦] - إذا طيَّرته الريحُ.

وعن الحسن: تسير الجبال مع الرياح ثم تنهدُّ ثم تصير كالعهن ثم تُنسف فتصير هباءً.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ أي: لا يسأل قريبٌ مشفِقٌ قريباً مشفقاً عن حاله، ولا يكلِّمُه؛ لابتلاء كلٍّ منهم بما يشغله عن ذلك، أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد عن قتادة[٧]. وفي رواية أخرى عنه: لا يسأله عن حاله؛ لأنَّها ظاهرةٌ. وقيل: لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك. وقيل: لا يسأله شفاعةً. وفي «البحر»[٨]: لا يسأله نصره ولا منفعته؛ لعلمه أنَّه لا يجد ذلك عنده. ولعلَّ الأول أبلغُ في التهويل.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٣٠.
(٢) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٦.
(٣) في (م): متعلقه، بدل: من تعلقه.
(٤) مسند أحمد (١٩٤٦)، والمختارة ١٠/ ١٩-٢٠.
(٥) ينظر الدر المنثور ٦/ ٢٦٥.
(٦) في قوله تعالى: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [الآية: ٥].
(٧) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥.
(٨) ٨/ ٣٣٤.

وأيًّا ما كان فمفعول «يسأل» الثاني محذوفٌ. وقيل: «حميماً» منصوبٌ بنزع الخافض أي: لا يسأل حميمٌ عن حميمٍ.

وقرأ أبو حيوة وشيبة وأبو جعفر والبزي بخلاف عن ثلاثتهم «ولا يُسأل» مبنيًّا للمفعول(١)، أي: لا يُطلب من حميم حميمٌ، ولا يُكلَّفُ إحضاره، أو لا يُسأل منه حاله. وقيل: لا يُسأل ذنوب حميمه ليؤخذ بها.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يبصَّر الأحمَّاءُ الأحمَّاءَ، فلا يخفَوْن عليهم، وما يمنعهم من التساؤل إلَّا اشتغالُهم بحال أنفسهم، وقيل: ما يغني عنه من مشاهدة الحال، كبياض الوجه وسواده. ولا يخفى حالُه.

و«يُبصَّرونهم» قيل: من بَصّرتُه بالشيءِ: إذا أوضحتَه له حتى يُبْصره، ثم ضُمِّن معنى التعريف أو حذف الصلة إيصالاً. وجمع الضميرين لعموم الحميم.

والجملةُ استئنافٌ، كأنَّه لما قيل: «لا يسأل» إلخ قيل: لعلّه لا يبصره. فقيل: يبصَّرونهم. وجوّز أن تكون صفةً، أي: حميماً مبصَّرين معرَّفين إياهم. وأن تكون حالاً إمَّا من الفاعل أو من المفعول أو من كليهما، ولا يضرُّ التنكير لمكان العموم وهو مسوِّغٌ للحالية. ورُجِّحت على الوصفية بأن التقييد بالوصف في مقام الإطلاق والتعميمِ غيرُ مناسب، وليس فيها ذلك فلا تغفل.

وقرأ قتادة: «يبصِرونهم» مخفّفاً مع كسر الصاد(٢)، أي: يشاهدونهم.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنى الكافر. وقيل: كلُّ مذنبٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: العذاب الذي ابتُلي به يومئذ ﴿بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ حكايةً لودادتهم. و«لو» في معنى التمنيّ. وقيل: هي بمنزلة: «أنْ» الناصبة، فلا يكون لها جوابٌ، وينسبك منها وممَّا بعدها مصدرٌ يقع مفعولاً لـ «يودُّ»، والتقدير: يودُّ افتداءَه ببنيه.. إلخ.

---

(١) البحر ٨/ ٣٣٤، والنشر ٢/ ٣٩٠، وينظر السبعة لابن مجاهد ص٦٥٠، والحجة للفارسي ٦/ ٣٢٠-٣٢١.

(٢) البحر ٨/ ٣٣٤، وضُبطت في القراءات الشاذة ص١٦١: «يُبْصَرونهم».

والجملة استئنافٌ لبيان أنَّ اشتغالَ كلِّ مجرم بنفسه بلغ إلى حيثُ يتمنَّى أن يَفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه، فضلاً أن يهتمَّ بحاله ويسأل عنها. وجوِّز أن تكون حالاً من ضمير الفاعل على فرض أن يكون هو السائل، فإن فُرض أنَّ السائلَ المفعولُ فهي حالٌ من ضميره. وقيل: الظاهر جعلها حالاً من ضمير الفاعل؛ لأنَّه المتمنِّي. وأيّاً ما كان فالمراد: يودُّ المجرم منهم.

وقرأ نافع والكسائي ـ كما في «أنوار التنزيل» ـ والأعرج: «يومَئِذٍ»[١] بالفتح على البناء؛ للإضافة إلى غير متمكِّنٍ، وقرأ أبو حيوة كذلك وبتنوين «عذاب»[٢]، ف «يومئذ» حينئذٍ منصوب ب «عذاب» لأنَّه في معنى: تعذيب.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم. كما ذكره غيرُ واحد. ولعلَّه أَولى من قول الراغب[٣]: عشيرته المنفصلة عنه. وقال ثعلب: فصيلته: آباؤه الأَدْنَوْن.

وفسر أبو عبيدة الفصيلة بالفخذ[٤] ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ أي: تضمُّه انتماءً إليها، أو لِياذاً بها في النوائب.

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين الإنس والجنِّ، أو الخلائق الشاملة لهم ولغيرهم، و«مَنْ» للتغليب.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ عطفٌ على «يفتدي»، والضمير المرفوع للمصدر الذي في ضمن الفعل، أي: يودُّ لو يفتدي ثم لو ينجيه الافتداءُ. وجوَّز أبو حيان[٥] عودَ الضمير إلى المذكور. والزمخشريُّ[٦] عودَه إلى «من في الأرض». و«ثم» لاستبعاد

---

(١) أنوار التنزيل (تفسير البيضاوي) ٨/ ٢٤٤، وهي في التيسير ٢١٤، والنشر ٢/ ٢٨٩ عن نافع والكسائي، وقرأ بها أبو جعفر أيضا، ولم نعثر على من نسبها إلى الأعرج.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦١.

(٣) في المفردات (فصل).

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٩، ونقل المصنف قوله وقول ثعلب عن البحر ٨/ ٣٣٠.

(٥) في البحر ٨/ ٣٣٤.

(٦) في الكشاف ٤/ ١٥٨.

الإنجاء، يعني يتمنَّى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبَذَلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات.

وقرأ الزهريُّ: «تؤويهُ» و«ينجيهُ» بضمِّ الهاءَين[1].

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ للمجرم عن الودادة، وتصريحٌ بامتناع الإنجاء.

وضميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ للنار المدلول عليها بذكر العذاب. وقوله تعالى ﴿لَظَىٰ ١٥﴾ خبر «إنَّ» وهي عَلَمٌ لجهنم، أو للدَرَكة الثانية من دَرَكاتها، منقولٌ من اللَّظى بمعنى اللَّهب الخالص، ومُنع الصرفَ للعلميَّة والتأنيث. وجُوِّز أن يراد اللَّهبُ على المبالغة، كأنَّ كلَّها لهبٌ خالص، وحذف التنوين إمَّا لإجراء الوصل مجرى الوقف، أو لأنَّه عَلَمُ جنسٍ معدولٌ عمَّا فيه اللَّامُ، كـ: سَحَر، إذا أردتَ سَحَراً بعينه.

وقوله تعالى ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ أي: الأطراف، كاليد والرجل، كما أخرجه ابن المنذر وابن حميد عن مجاهد وأبي صالح[2]، وقاله الراغب[3] وغيرُه.

وقيل: الأعضاء التي ليست بمقتل، ولذا يقال: رمى فأشوى، إذا لم يقتل.

أو جمعُ: شواةٍ، وهي: جلدة الرأس. وأنشدوا قول الأعشى:

قالت قُتيلةُ ما لَهُ ... قد جُلِّلتْ شَيْباً شَواتُه[4]

ورُوي هذا عن ابن عباس وقتادة وقرَّة بن خالد وابن جبير، وأخرجه ابن

---

(١) البحر ٨/ ٣٣٤.

(٢) الذي أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد عن مجاهد ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ـ: الشوى: جلود الرأس، وعن أبي صالح: الشوى: لحم الساقين. أمَّا تفسيرها بالأطراف، فعن مجاهد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ١٦٨، وعزاه له السيوطي في الدر ٦/ ٢٦٥، وعن أبي صالح وقد أخرجه ابن المنذر كما ذكر ذلك السيوطي في الدر ٦/ ٢٦٥.

(٣) في المفردات (شوى).

(٤) لم نقف عليه في ديوانه، ونسبه له أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٩، والطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٦١، وهو دون نسبة في تهذيب اللغة ولسان العرب (شوى).

أبي شيبة عن مجاهد(١)، وأخرج عن أبي صالح والسدّي تفسيرَها بلحم الساقين(٢). وعن ابن جبير: العَصَب والعَقِب. وعن أبي العالية: محاسن الوجه.

وفُسّر نزعُها لذلك بأكلها له فتأكله ثم يعود وهكذا.

نصب(٣) بتقدير: أعني أو أخصُّ، وهو مرادُ مَن قال: نُصب على الاختصاص للتهويل. وجُوِّز أن يكون حالاً، والعامل فيها «لظى» وإن كان عَلَماً؛ لمَا فيه من معنى التلظِّي كما عمل العَلَم في الظرف في قوله:

أنا أبو المِنْهال بعضَ الأحيان(٤)

أي: المشهورُ بعضَ الأحيان، قاله أبو حيان(٥)، وإليه يشير كلام «الكشف»(٦). وقال الخفاجي(٧): لظى بمعنى متلظِّية، والحال من الضمير المستتر فيها لا منها بالمعنى السابق؛ لأنَّها نكرةٌ أو خبرٌ، وفي مجيء الحال من مثله ما فيه.

وقيل: هو حالٌ مؤكِّدةٌ كما في قوله:

---

(١) الذي في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٨، عن مجاهد: الشوى: الأطراف، وتفسيرها بجلدة الرأس عن مجاهد عزاه السيوطي في الدر ٦/ ٢٦٥ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) المصنف ١٣/ ١٦٨ عن أبي صالح فقط.

(٣) قوله: نصب، خبر لقوله: وقوله تعالى: «نزاعة للشوى».

(٤) وبعده: ليس عليَّ حَسَبي بضُؤْلان. وهو في: الشعر لأبي علي الفارسي ١/ ٢٥٠، والخصائص ٣/ ٢٧٠ ـ وعقد له فصلاً ـ وتهذيب اللغة ١٢/ ٦٥ ونسبه لبعض بني أسد، ولسان العرب (ضأل)، والمغني ص٥٦٨، وشرح شواهد المغني للبغدادي ٦/ ٣١٨. قال البغدادي بعد نقله كلام أبي علي الفارسي وابن جني في تعليقهما على الشاهد: ومقتضى كلامهما أن أبا المنهال ليس صاحب الرجز، وليس كذلك، بل هو صاحب الرجز.... ورأيت في شرح «ديوان الفرزدق» أن أبا المنهال هو أبو عيينة بن المهلب. اهـ. والمنهال: الرجل الكثير الإنهال، والضؤلان: الضعيف الحقير كالضئيل. وقد تكلّم عليه البغدادي كلاماً جيداً فانظره.

(٥) في البحر ٨/ ٣٣٤-٣٣٥.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٣٥.

(٧) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٨/ ٢٤٤.

أنا ابنُ دَارةَ معروفاً بها نَسَبي وهل بدارةَ يالَلنَّاس من عارِ[1]

والعامل: أحقُّه[2]، أو الخبر؛ لتأويله بمسمًّى، أو المبتدأ؛ لتضمُّنه معنى التنبيه، أو معنى الجملة. وارتضاه الرضي. وقيل: حال من ضمير «تدعو» قُدِّم عليه.

وجوَّز الزمخشريُّ[3] أن يكون ضمير «إنَّها» مبهماً ترجم عنه الخبر، أعني: «لظى». وبحث فيه بما ردَّه المحقِّقون.

وقرأ الأكثرون: «نزاعةٌ» بالرفع[4]، على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، أو صفةٌ لـ «لظى»، وهو ظاهرٌ على اعتبار كونها نكرةً، وكذا على كونها عَلَم جنسٍ؛ لأنَّه كالمعرَّف بلام الجنس في إجرائه مجرى النكرة، أو هو الخبر، و«لظى» بدلٌ من الضمير وإن اعتُبرت نكرةً؛ بناءً على أنَّ إبدال النكرة غيرَ منعوتةٍ من المعرفة قد أجازه أبو عليٍّ وغيرُه من النحاة إذا تضمَّن فائدةً كما هنا، وجوِّز على هذه القراءة أن يكون ضميرُ «إنَّها» للقصة، و«لظى» مبتدأ بناءً على أنَّه معرفةٌ، و«نزاعةٌ» خبره.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُوا﴾ خبر مبتدأ مقدَّر، أو: حالٌ متداخلة أو مترادفة أو مفردة، أو خبرٌ بعد خبر على قراءة الرفع، فلا تغفل.

والدعاء على حقيقته وذلك كما رُوي عن ابن عباس وغيره: يخلقُ الله تعالى فيها القدرةَ على الكلام كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم، فتناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. ورُوي أنَّها تقول لهم: إليَّ إليَّ يا كافرُ يا منافقُ.

---

(١) البيت لابن دارة، وهو سالم بن مسافع بن يربوع، ودارةُ أمُّه؛ سُمّيت بذلك لجمالها، تشبيهاً بدارة القمر. الشعر والشعراء ١/ ٤٠١-٤٠٣. والبيت في الكتاب ٢/ ٧٩، والخصائص ٢/ ٢٦٨ و٣/ ٦٠، وأمالي ابن الشجري ٣/ ٢٢، ولسان العرب (دبر)، وشرح ابن عقيل ١/ ٦٥٤، والخزانة ٣/ ٢٦٥ وفيه: مشهوراً.

(٢) يعني مضمراً، كما في حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٤، وينظر باب الحال في شرح الرضي على الكافية.

(٣) في الكشاف ٤/ ١٥٨.

(٤) هي قراءة العشرة ما عدا عاصم في رواية حفص عنه. السبعة ص٦٥٠-٦٥١، والتيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩٠.

وجوَّز أن يراد به الجذبُ والإحضار، كما في قول ذي الرُّمَّة يصف الثور الوحشيَّ:

أمسى بِوَهْبَينِ مُجتازاً لمرتَعِه من ذي الفوارسِ تدعو أنفَهُ الرِّبَبُ[1]

ونحوه قوله أيضاً:

ليالِيَ اللَّهوُ يَطْبيني فأتبعه كأنَّني ضاربٌ في غَمْرة لَعِبُ[2]

ولا يبعد أن يقال: شبَّه لياقتها لهم أو استحقاقهم لها ـ على ما قيل ـ بدعائها لهم، فعبَّر عن ذلك بالدعاء على سبيل الاستعارة.

وقال ثعلب: «تدعو»: تُهلِك، من قول العرب: دعاك الله تعالى، أي: أهلكك. وحكاه الخليل عنهم[3]. وفي «الأساس»[4]: دعاه الله تعالى بما يكره: أنزله به. وأصابتهم دواعي الدهر: صروفُه. ومن ذلك قوله:

دعاكَ اللهُ من[5] رجلٍ بأفعى إذا نام العيونُ سَرَتْ عليكا[6]

واستُظهر أنَّه معنًى حقيقيٌّ للدعاء، لكنَّه غيرُ مشهور. وفيه تردُّدٌ.

---

(١) البيت في ديوانه ١/ ٧٧، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٩٥٤، ولسان العرب (ربب)، وهو أحد أبيات قصيدته البائية المشهورة. ووهبين، وذو الفوارس: موضعين، الرِّبب: جمع رِبَّة: ضرب من الشجر أو النبت. قال شارح الديوان: لمّا شمَّ الثورُ الرِّبَبَ أتاها، وكأنها دعته إلى نفسها. اهـ. وجاء في هامش الأصل شرح لبعض الكلمات.

(٢) هو أيضاً أحد أبيات قصيدته البائية، وهو في ديوانه ١/ ٣٨، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٩٤٦، وفيه: ليالي الدهر، ولسان العرب (ضرب). قال شارح الديوان: يطبيني: يدعوني، وضارب: سابح، والغمرة: الماء الكثير. والمعنى: كأنني في غفلة وبُلهنيةٍ أسبحُ في الماء.

(٣) ينظر العين ٢/ ٢٢١، مادة (دعو).

(٤) مادة (دعو).

(٥) جاء في هامش الأصل: «مِنْ» تجريدية على ما قال الطيبي. منه.

(٦) البيت دون نسبة في العين (دعو)، وأساس البلاغة، ولسان العرب (دعا)، ورواية العين واللسان: من قيس، بدل: من رجل. والقيس هنا اسم من أسماء الذكر. وجاء في تهذيب اللغة ٣/ ١٢٣: قال أبو النجم:

رماك الله من عيش نافعي إذا نام العيون سرت عليكا

وجوِّز أن يكون الدعاء لزبانيتها، وأُسند إليها مجازاً، أو الكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: تدعو زبانيتُها.

﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ في الدنيا عن الحقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ أعرض عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: جمع المال فجعله في وعاءٍ وكَنَزه، ولم يؤدِّ حقوقه، وتشاغل به عن الدِّين وزُهِيَ باقتنائه حرصاً وتأميلاً. وهذا إشارةٌ إلى كفارٍ أغنياء، وما أخوفَ عبدَ الله بن عُكَيم[1]، فقد أخرج ابن سعد[2] عن الحكم أنَّه قال: كان عبد الله بن عُكَيم لا يربطُ كيسَه، ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ الهَلَع: سرعةُ الجزع عند مسِّ المكروه، وسرعةُ المنع عند مسِّ الخير، من قولهم: ناقة هَلُوع: سريعةُ السير.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير[3] وغيرُهما عن عكرمة قال: سُئل ابن عباس عن الهَلُوع، فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ إلخ.

وأخرج ابن المنذر[4] عن الحسن أنَّه سُئل عن ذلك أيضاً فقرأ الآية.

وحُكي نحوه عن ثعلب قال: قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر[5]: ما الهَلَعُ؟ فقلت: قد فسَّره الله تعالى، ولا يكون تفسيرٌ أبينَ من تفسيره سبحانه. يعني قولَه تعالى: (إِذَا مَسَّهُ) الآية.

ونظيرُ ذلك قولُه:

---

(١) عبد الله بن عُكيم الجهني، يُكنى أبا معبد، قيل: له صحبة. وأسلم بلا ريب في حياة النبي ﷺ (ت٨٨هـ). طبقات ابن سعد ٦/ ١١٣، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٥١٠.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: سعيد، والخبر أخرجه في الطبقات ٦/ ١١٤، وأخرجه أيضاً ابن جرير ٢٣/ ٢٦٥.

(٣) ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ٢٦٦، وعزاه لهما السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٦٦.

(٥) هو أبو العباس، الخزاعي، الأمير، كان شيخاً فاضلاً أديباً، ولي إمارة بغداد أيام المتوكل، توفي سنة (٢٥٣هـ). تاريخ بغداد ٥/ ٤١٨.

الألمعيُّ الذي يظنُّ بكَ الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا[١]

والجملةُ المؤكَّدةُ في موضع التعليل لِمَا قبلها.

والإنسان: الجنس، أو الكافر، قولان، أُيِّد ثانيهما بما روى الطستيُّ عن ابن عباس أنَّ الآية في أبي جهل بن هشام[٢]. ولا يأبى ذلك إرادةَ الجنس.

والشرُّ: الفقرُ والمرض ونحوهما. و«أل» للجنس، أي: إذا مسَّه جنس الشرِّ.

﴿جَزُوعًا ۝٢٠﴾ أي: مبالغاً في الجَزَع، مكثراً منه.

والجزعُ؛ قال الراغب[٣]: أبلغُ من الحزن، فإنَّ الحزن عامٌّ، والجزعُ حزنٌ يصرف الإنسان عمَّا هو بصدده[٤] ويقطعه عنه. وأصلُه: قَطْعُ الحبل من نصفه، يقال: جزعْتُه فانجزَعَ، ولِتصوُّر الانقطاع فيه قيل: جَزْعُ الوادي: لمُنقطَعِه. ولانقطاع اللَّون بتغيُّره قيل للخرز المتلوّن: جَزْعٌ. وعنه استُعير قولُهم: لحم مُجزَّعٌ: إذا كان ذا لونين. وقيل للبسرة إذا بلغ الإرطابُ نصفَها: مجزَّعةٌ.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ المالُ والغنى، أو الصحة ﴿مَنُوعًا ۝٢١﴾ مبالغاً في المنع والإمساك. و«إذا» الأولى ظرفٌ لـ «جزوعاً»، والثانية ظرفٌ لـ «منوعاً».

والوصفان ـ على ما اختاره بعض الأجلَّة ـ صفتان كاشفتان لـ «هلوعاً» الواقعِ حالاً كما هو الأنسبُ بما سمعتَ عن ابن عباس وغيره.

وقال غيرُ واحدٍ: الأوصافُ الثلاثةُ أحوالٌ، فقيل: مقدَّرة إن أُريد اتِّصافُ الإنسان بذلك بالفعل، فإنَّه في حال الخَلْق لم يكن كذلك وإنَّما حصل له ذلك بعد تمام عقله ودخوله تحت التكليف. ومحقَّقة إن أُريد اتِّصافه بمبدأ هذه الأمور من

---

(١) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٥٣، والكامل ٤/ ١٤٠٠. قال المبرد: الألمعيّ: الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله: الذي يظن... إلخ.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٦.

(٣) في المفردات (جزع).

(٤) في الأصل و(م): بصدره، والمثبت موافق للمفردات، والكليات (جزع).

الأمور الجبلِّيَّة والطبائع الكليَّة المندرجة فيها تلك الصفاتُ بالقوة[١]. ولا مانع عند أهل الحقِّ من خلقِه تعالى الإنسانَ وطبعِه سبحانه إيَّاه على ذلك.

وفي زوالها بعدُ خلاف، فقيل: إنَّها تزول بالمعالجة، ولولاه لم يكن للمنع منها والنهي عنها فائدةٌ، وهي ليست من لوازم الماهيَة، فالله تعالى كما خلقها يزيلها. وقيل: إنَّها لا تزول، وإنَّما تُستَر ويُمنَعُ المرءُ عن آثارها الظاهرة كما قيل:

والطبع في الإنسان لا يتغيَّر[٢]

وهذا الخلافُ جارٍ في جميع الأمور الطبيعية.

وقال بعضهم: الأمورُ التابعةُ منها لأصل المزاج لا تتغيَّر، والتابعة لعَرَضه قد تتغيَّر.

وذهب الزمخشريُّ[٣] إلى أنَّ في الكلام استعارةً، فقال: المعنى أنَّ الإنسان لإيثاره الجزعَ والمنعَ وتمكُّنهما منه ورسوخهما فيه كأنَّه مجبولٌ عليهما مطبوع، وكأنه أمرٌ خَلْقيٌّ وضروريٌّ غيرُ اختياريٍّ كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء:٣٧] لأنَّه في البطن والمهد لم يكن به هَلَعٌ ولأنَّه ذمٌّ، واللهُ تعالى لا يذمُّ فعله سبحانه، والدليل عليه استثناءُ المؤمنين الذين جاهدوا أنفسَهم وحملوها على المكاره وظَلَفوها[٤] عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين.

وتُعقِّب بأنَّه في المهد أهلعُ وأهلعُ، فيسرع إلى الثدي ويحرص على الرَّضاع، وإنْ مسَّه ألمٌ جَزِعَ وبكى، وإن تمسَّك بشيءٍ فزُوحم عليه مَنَع بما في قدرته من اضطراب وبكاء، وفي البطن لا يُعلم حالُه، وأيضاً الاسم يقع عليه بعد الوضع، فما بعده هو المعتبر، وأنَّ الذمَّ من حيثُ القيام بالعبد كما حُقِّق في موضعه، وأنَّ الاستثناء: إمَّا منقطعٌ؛ لأنَّه لـمَّا وصف سبحانه: «من أدبر وتولى» معلِّلاً بهلعه

---

(١) القوة: هي التهيُّؤ الموجود في الشيء، معجم متن اللغة (قوي).
(٢) عجز بيت صدره: حبّي لكم طبعٌ بغير تكلُّفٍ. وهو في زهر الأكم ٣/ ٨٠ بلا نسبة.
(٣) في الكشاف ٤/١٥٨-١٥٩.
(٤) أي: منعوها، ووقع في (م): طلقوها.

وجزعه قال تعالى: لكنَّ المصلين في مقابلتهم أولئك في جناتٍ، ثم كرَّ على السابق وقال: «فمال الذين كفروا» بالفاء تخصيصاً بعدَ تعميمٍ، ورجعاً إلى بدءٍ؛ لأنَّهم من المستهزئين الذين افتتح السورة بذكر سؤالهم. أو: متصل على أنَّهم لم يستمرَّ خلقُهم على الهَلَع. فإنَّ الأول لمّا كان تعليلاً كان معناه: خلقاً مستمراً على الهَلَع والجزع إلَّا المصلِّين، فإنَّهم لم يستمرَّ خلقُهم على ذلك، فلا يرد أنَّ الهَلَع الذي في المهد لو كان مراداً لما صحَّ استثناءُ المصلين؛ لأنَّهم كغيرهم في حال الطفولية. انتهى.

وهذا الاستثناء هو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ إلخ، وقد وصفهم سبحانه بما ينبئ عن كمال تنزُّههم عن الهَلَع: من الاستغراق في طاعة الحقِّ عز وجل، والإشفاقِ على الخَلْق، والإيمانِ بالجزاء، والخوفِ من العقوبة، وكَسْرِ الشهوة، وإيثارِ الآجل على العاجل، فقال عزَّ من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مواظبون على أدائها، لا يخلُّون بها، ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل.

وفيه إشارةٌ إلى فضل المداومة على العبادة، وقد أخرج ابن حبان[1] عن أبي سَلَمة قال: حدثتني عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُذوا من العمل ما تطيقون، فإنَّ الله تعالى لا يملُّ حتى تملُّوا». قالت: فكان أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما دام عليه، وإن قلَّ، وكان إذا صلَّى صلاةً دام عليها، وقرأ أبو سلمة: (ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ).

وأخرج أحمد في «مسنده»[2] عنها أنَّها قالت: كان عملُه ﷺ ديمةً. قال جار الله: أي: ما فعل من أفعال الخير إلَّا وقد اعتاد ذلك، ويفعله كلَّما جاء وقته. ووُجِّه بأنَّ الفعلة للحالة التي يستمرُّ عليها الشخص. ثم في جعلِه نفسَ الحالة ما لا يخفى من المبالغة والدلالةِ على أنَّه كان مَلَكةً له عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في صحيحه (٣٥٣)، وأخرجه البخاري (١٩٧٠)، ومسلم في كتاب الصيام (٧٨٢): (١٧٧).
(٢) برقم (٢٤١٦٢)، وأخرجه أيضاً البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣).

وقيل: دائمون، أي: لا يلتفتون فيها، ومنه: الماء الدائم. وروي ذلك عن عمران بن حصين، وكذا عن عقبة بن عامر، أخرج ابن المنذر(١) عن أبي الخير أنَّ عقبةَ قال لهم: مَن الذين هم على صلاتهم دائمون؟ قال: قلنا: الذين لا يزالون يصلُّون. فقال: لا، ولكن الذين إذا صلُّوا لم يلتفتوا عَن يمينٍ ولا شمال. وإليه ذهب الزجاج(٢). فتُشعر الآيةُ بذمِّ الالتفات في الصلاة، وقد نطقت الأخبار بذلك. واستدلَّ بعضُهم بها على أنَّه كبيرةٌ، وتحقيقُه في «الزواجر»(٣).

وعن ابن مسعود ومسروق أنَّ دوامها أداؤُها في مواقيتها. وهو كما ترى، ولعلَّ تركَ الالتفات والأداءَ في الوقت يتضمنه ما يأتي من المحافظة إن شاء الله تعالى.

والمراد بالصلاة على ما أخرج عبد بن حميد(٤) عن إبراهيم التيميِّ: الصلاةُ المكتوبة. وعن الإمام أبي جعفر رضي الله عنه أنَّ المراد بها النافلة. وقيل: ما أُمروا به مطلقاً منها.

وقرأ الحسن: «صلواتهم» بالجمع(٥).

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: نصيبٌ معيَّن يستوجبونه على أنفسهم؛ تقرُّباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على الناس. وهو على ما رُوي عن الإمام أبي عبد الله رضي الله عنه ما يوظِّفه الرجل على نفسه يؤدِّيه في كلِّ جمعةٍ أو كلِّ شهر مثلاً.

وقيل: هو الزكاة؛ لأنَّها مقدَّرةٌ معلومة. وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ، والزكاةُ إنما فُرضت وعُيِّن مقدارُها في المدينة، وقبل ذلك كانت مفروضةً من غير تعيين.

﴿لِّلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ الذي لا يسأل، فيُظنُّ أنَّه غنيٌّ فيُحرَم. واستعمالُه في ذلك على سبيل الكناية، ولا يصحُّ أن يراد به مَن يحرمونه بأنفسهم؛ للُزوم التناقض كما لا يخفى.

---

(١) عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٦.
(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٢٢.
(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٣٦-١٣٧.
(٤) عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٦.
(٥) البحر ٨/ ٣٣٥.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾ المراد: التصديقُ به بالأعمال حيثُ يُتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية طمعاً في المثوبة الأُخروية؛ لأنَّ التصديق القلبيَّ عامٌّ لجميع المسلمين لا امتياز فيه لأحدٍ منهم، وفي التعبير بالمضارع دلالةٌ على أنَّ التصديق والأعمال تتجدَّدُ منهم آناً فآناً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٢٧﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة؛ استقصاراً لها واستعظاماً لجنابه عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ۝٢٨﴾ اعتراضٌ مؤذِنٌ بأنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يأمنَ عذابَه عز وجل وإن بالغ في الطاعة كهؤلاء، ولذا كان السلف الصالح ـ وهم هم ـ خائفين وَجِلين، حتى قال بعضُهم: يا ليتني كنت شجرةً تُعضَد. وآخرُ: ليت أمِّي لم تلدني. إلى غير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١﴾ سبق تفسيرُه في سورة المؤمنين[1] على وجهٍ مستوفًى، فتذكَّره.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾ لا يُخلُّون بشيءٍ من حقوقها، وكأنَّه لكثرة الأمانة جُمعت، ولم يجمع العهد، قيل: إيذاناً بأنَّه ليس كالأمانة كثرةً. وقيل: لأنَّه مصدرٌ. ويدلُّ على كثرة الأمانة ما روى الكلبيُّ: كلُّ أحدٍ مؤتمَنٌ على ما افتُرض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال، ومن الحقوق في الأموال، وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والمملوكين والجار وسائر المسلمين. وقال السديُّ: إنَّ حقوق الشرع كلَّها أماناتٌ قد قبلها المؤمن، وضمن أداءها بقبول الإيمان.

وقيل: كلُّ ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله، وأذن سبحانه له به، فقد خان الأمانة.

---

(١) ١٨/١٥.

والخيانةُ فيها وكذا الغدر بالعهد من الكبائر على ما نصَّ غيرُ واحدٍ، وقد روى البخاريُّ ومسلم[١] عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان»[٢] عن أنس قال: ما خطبَنَا رسولُ الله ﷺ إلَّا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

وقرأ ابن كثير: «لأمانتهم» بالإفراد[٣] على إرادة الجنس.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ مقيمون لها بالعدل غيرُ منكرين لها أو لشيءٍ منها، ولا مخفين؛ إحياءً لحقوق الناس فيما يتعلَّق بها، وتعظيماً لأمر الله عز وجل فيما يتعلَّق بحقوقه سبحانه.

وخصَّ بعضُهم الشهادةَ بما يتعلَّق بحقوق العباد، وذكر أنَّها مندرجة في الأمانات إلَّا أنَّها خُصَّت بالذكر لإبانة فضلها، وجَمعها لاختلاف الأنواع، ولو لم يعتبر ذلك أفْردَ على ما قيل؛ لأنَّها مصدر شامل للقليل والكثير.

وقرأ الجمهور بالإفراد[٤] على ما سمعتَ آنفاً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها وسننها ومستحبَّاتها، باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل، وهذا غيرُ الدوام فإنَّه يرجع إلى أنفُس الصلوات، وهذا يرجع إلى أحوالها، فلا يتكرَّر مع ما سبق من قوله تعالى: (الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ)، وكأنَّه لمَّا كان ما يراعى في إتمام الصلاة وتكميلها ممَّا يتفاوت بحسب الأوقات جيء بالمضارع الدالّ على التجدُّد، كذا قيل. وقيل: إنَّ الإتيان به مع تقديم «هم» لمزيد الاعتناء بهذا الحكم،

---

(١) صحيح البخاري (٣٤)، وصحيح مسلم (١٠٦).
(٢) برقم (٤٣٥٤).
(٣) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٨.
(٤) التيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩١ وقرأ بالجمع عاصم في رواية حفص، ويعقوب.

لِمَا أنَّ أمر التقوى في مثل ذلك أقوى منه في مثل: هم محافظون، واعتبر هذا هنا دون ما في الصدر؛ لأنَّ المراعاة المذكورة كثيراً ما يُغفَل عنها.

وفي افتتاح الأوصاف بما يتعلَّق بالصلاة واختتامها به دلالةٌ على شرفها وعلوِّ قَدْرِها؛ لأنَّها معراج المؤمنين ومناجاة ربِّ العالمين، ولذا جُعلت قُرَّة عين سيِّد المرسلين صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين(١).

وتكريرُ الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلةَ اختلاف الذوات؛ إيذاناً بأنَّ كلَّ واحد من الأوصاف المذكورة نعتٌ جليل على حياله، له شأنٌ خطير مستتبعٌ لأحكامٍ جمَّةٍ حقيقٌ بأن يفردَ له موصوفٌ مستقلٌّ ولا يجعل شيء منها تتمَّةً للآخر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصوفين بما ذُكر من الصفات، وما فيه من معنى البعد لبعد المشار إليهم، إمَّا في الفضل أو في الذكر باعتبار مبدأ الأوصاف المذكورة. وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: مستقرُّون في جناتٍ لا يُقادَر قدرُها ولا يُدرَك كُنهها.

وقوله تعالى ﴿مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ خبرٌ آخر، أو هو الخبر، و«في جنات» متعلِّقٌ به قُدِّم عليه للاهتمام مع مراعاة الفواصل، أو بمضمَرٍ هو حال من الضمير في الخبر، أي: مكرمون كائنين في جنات.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ أي: في الجهة التي تليك ﴿مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾ مسرعين نحوك، مادِّي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؛ ليظفروا بما يجعلونه هُزُؤاً.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾ جماعاتٍ في تفرقة، كما قال أبو عبيدة(٢)، وأنشدوا قولَ عبيد بن الأبرص:

فجاؤوا يُهرَعُون إليه حتى ... يكونوا حولَ منبره عِزينا(٣)

وخصَّ بعضُهم كلَّ جماعة بنحو ثلاثة أشخاص أو أربعة.

---

(١) أخرج النسائي ٧/ ٦١-٦٢، وأحمد (١٢٢٩٣) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ النساء والطيبُ، وجُعل قُرَّة عيني في الصلاة».

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٠.

(٣) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٣٨٣.

جمع: عِزَة، وأصلها عزوة من العزِّ، ولأنَّ كلَّ فرقة تعتزي وتنتسب إلى غيرِ مَن تعتزي إليه الأخرى، فلامُها واوٌ. وقيل: لامُها هاءٌ، والأصل: عِزْهة، وجُمعت بالواو والنون كما جُمعت سَنَة وأخواتها، وتُكسر العين في الجمع وتضمُّ. وقالوا: عِزًى، على فِعَل، ولم يقولوا: عِزَات.

ونصب «عزين» على أنَّه حال من «الذين كفروا»، أو من الضمير في «مهطعين» على التداخل، و«عن اليمين» إمَّا متعلِّقٌ به لأنَّه بمعنى متفرِّقين، أو «بمهطعين» أي: مسرعين عن الجهتين، أو هو حالٌ أي: كائنين عن اليمين.

رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يصلِّي عند الكعبة ويقرأ القرآن، فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً[١]، وفرقاً فرقاً[٢]، يستمعون ويستهزئون بكلامه عليه الصلاة والسلام، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنةَ كما يقول محمد ـ ﷺ ـ فلَنَدْخُلنَّها قبلهم، فنزلت[٣].

وفي بعض الآثار ما يشعر بأنَّ الأَوْلَى أن لا يجلسَ المؤمنون عِزين؛ لأنَّه من عادة الجاهلية.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: بلا إيمان، وهو إنكارٌ لقولهم: إنْ دخل هؤلاء الجنةَ.. إلخ.

وقرأ ابن يعمر والحسن وأبو رجاء وزيد بن عليٍّ وطلحة والمفضّل عن عاصم: «يَدخل» بالبناء للفاعل[٤].

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ لهم عن ذلك الطمع الفارغ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قيل: هو تعليل للردع، و«من» أَجْليَّة، والمعنى: إنَّا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو تكميلُ النفس بالإيمان والطاعة، فمَن لم يستكملها بذلك فهو بمعزلٍ من أن يتبوّأ

---

(١) ضبطها في الأصل بفتح الحاء وكسرها.
(٢) لفظ: فرقاً، ليست في (م)، وفي الأصل فوقها: صح.
(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٤.
(٤) البحر ٨/ ٣٣٦، وذكر قراءةَ المفضل عن عاصم ابنُ مجاهد في السبعة ص٦٥١.

مُتبوَّأ الكاملين، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة وهم مكبُّون على الكفر والفسوق وإنكار البعث؟! وكونُ ذلك معلوماً لهم باعتبار سماعهم إيَّاه من النبيِّ ﷺ.

وقيل: «مِن» ابتدائية، والمعنى: إنَّهم مخلوقون من نطفةٍ قذرةٍ لا تناسب عالَم القدس، فمتى لم تُستكمل بالإيمان والطاعة، ولم تتخلَّق بأخلاق الملائكة عليهم السلام، لم تستعدَّ لدخولها. وكلا القولين كما ترى.

وقال مفتي الديار الرومية[1]: إنَّ الأقرب كونُه كلاماً مستأنفاً، قد سيق تمهيداً لِمَا بعده من بيان قدرته عز وجل على أن يهلكَهم لكفرهم بالبعث والجزاء، واستهزائهم برسول الله ﷺ وبما نزل عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الوحي، وادِّعائهم دخولَ الجنة بطريق السخرية، وينشئَ بدلهم قوماً آخرين، فإنَّ قدرتَه سبحانه على ما يعلمون من النشأة الأولى حجَّةٌ بيِّنةٌ على قدرته عز وجل على ذلك، كما يفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنَّ خلقَهم مما يعلمون، وهو النطفةُ القذرة، فلا[2] أقسم بربِّ المشارق والمغارب: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: نهلكهم بالمرَّة، حسبما تقتضيه جناياتهم، ونأتي بَدَلهم بخلقٍ آخرين ليسوا على صفتهم. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك، لكنَّ مشيئتَنا المبنية على الحِكَم البالغة اقتضت تأخيرَ عقوباتهم.

وفيه نوعُ بعدٍ. ولعلَّ الأقربَ كونُه في معنى التعليل، لكن على وجه قرَّر به صاحب «الكشف» كلام «الكشاف»[3]، فقال: أراد أنَّه رَدْعٌ عن الطمع، معلَّلٌ بإنكارهم البعثَ من حيثُ إنَّ ذكرَ دليله إنَّما يكون مع المنكِر، فأقيم علَّةُ العلَّة مقام العلَّة مبالغةً لما حُكي عنهم طمعُ دخول الجنة، ومن البديهي أنَّه ينافي حالَ مَنْ لا يثبتها، فكأنَّه قيل: إنَّه ينكر البعثَ فأنَّى يتَّجه طمعُه؟ واحتجَّ عليهم بخلقهم أولاً، وبقدرته سبحانه على خَلْق مثلهم ثانياً. وفيه تهكُّمٌ بهم وتنبيهٌ على مكان مناقضتهم،

---

(١) هو أبو السعود، والكلام من تفسيره ٨/ ٣٤.

(٢) في تفسير أبي السعود ٨/ ٣٥: فأقسم.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٦٠.

فإنَّ الاستهزاءَ بالساعة والطمعَ في دخول الجنة ممَّا يتنافيان.

ووجهُ أقربيَّته قوَّةُ الارتباط بما سبق عليه، وهو في الحقيقة أبعدُ مغزًى، ومنه يُعلم أنَّ ما قيل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ إلخ، أنَّ معناه: إنَّا لقادرون على أنْ نعطيَ محمداً ﷺ مَنْ هو خيرٌ منهم، وهم الأنصارُ = ليس بذاك.

وفي التعبير عن مادة خَلْقهم بما يعلمون مما يكسر سَوْرة المتكبِّرين ما لا يخفى.

والمراد بالمشارق والمغارب: مشارقُ الشمس المئة والثمانون، ومغاربُها كذلك. أو مشارقُ ومغاربُ الشمس والقمر على ما رُوي عن عكرمة. أو مشارقُ الكواكب ومغاربُها مطلقاً كما قيل.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد: ربُّ المخلوقات بأسرها.

والكلامُ في «فلا أقسم» قد تقدم(١). وقرأ قومٌ: «فلأقسم»(٢) بلام دون ألف. وعبدُ الله بن مسلم وابن محيصن والجحدريُّ: «المشرق والمغرب» مفردَيْن(٣).

﴿فَذَرْهُمْ﴾ فخلِّهم غيرَ مكترثٍ بهم ﴿يَخُوضُوا﴾ في باطلهم الذي من جملته ما حُكي عنهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾ هو يومُ البعث عند النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، فإنَّه بدلٌ من «يومهم»، وهو مفعول به لـ «يلاقوا». وتفسيرُه بيوم موتهم أو يوم بدر أو يوم النفخة الأولى، وجعلُ «يوم» مفعولاً به لمحذوف كـ: اذكر، أو متعلّقاً بـ «ترهقهم ذلة» = مما لا ينبغي أن يُذهب إليه. وما في الآية من معنى المهادنة منسوخٌ بآية السيف.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: «يَلْقَوْا»(٤) مضارع: لقي، وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ: «يُخرَجون»(٥) على البناء للمفعول، من الإخراج.

---

(١) ٢٧/ ١٥٢.
(٢) البحر ٨/ ٣٣٦، وهي قراءة الحسن وعيسى، ينظر ٢٧/ ١٥٢.
(٣) البحر ٨/ ٣٣٦.
(٤) البحر ٨/ ٣٣٦، وقراءة أبي جعفر ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٩١.
(٥) البحر ٨/ ٣٣٦، ونسبها ابن خالويه في الشواذ ص١٦١ لعليٍّ رضي الله عنه.

﴿سِرَاعًا﴾ أي: مسرعين، وهو حالٌ من مرفوع «يخرجون»، وهو جمعُ: سريع، كظريف وظِراف.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وهو ما نُصِبَ فعُبدَ من دون الله عز وجل، وعدَّه غيرُ واحد مفرداً، وأنشد قولَ الأعشى:

وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه ... لعاقبة واللهَ ربَّك فاعْبُدا[١]

وقال بعضهم: هو جمعُ: نِصاب، ككتاب وكُتب. وقال الأخفش: جمعُ: نَصْب، كَرَهْن ورُهْن، والأنصابُ جمعُ الجمع[٢].

وقرأ الجمهور: «نَصْب» بفتح النون وسكون الصاد[٣]، وهو اسمٌ مفرد، فقيل: الصنم المنصوب للعبادة، أو العَلَم المنصوب على الطريق ليهتدي به السالكُ. وقال أبو عمرو: هو شبكة يقع فيها الصيد، فيسارع إليها صاحبُها مخافةَ أن يتفلَّت الصيدُ. وقيل: ما يُنصب علامةً لنزول الملك وسَيْره.

وقرأ أبو عمران الجوني ومجاهد: «نَصَب» بفتح النون والصاد[٤]، فَعَل بمعنى مفعول.

وقرأ الحسن وقتادة: «نُصْب» بضمِّ النون وسكون الصاد[٥]، على أنه تخفيف نُصُب بضمَّتين، أو جمع: نَصَب بفتحتين كوَلَد ووُلْد.

﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يسرعون، وأصلُ الإيفاض كما قال الراغب[٦]: أن يعدو مَنْ عليه الوَفْضَة ـ وهي الكنانة ـ فتَخَشْخَش عليه، ثم استُعمل في الإسراع.

---

(١) ديوان الأعشى ص١٨٧، والصحاح واللسان وتاج العروس (نصب). ورواية اللسان: لعافية. وعجزه في الديوان: ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا. قال في اللسان: وقوله: وذا النُّصُبَ، بمعنى: إياك وذا النُّصُبَ. وفاعبدا: أراد: فاعبدنْ، فوقف بالألف.

(٢) وذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٣٣٦.

(٣) هي قراءة العشرة ما عدا ابن عامر، وعاصم في رواية حفص، التيسير ص٢١٤، والنشر ٢/ ٣٩١.

(٤) البحر ٨/ ٣٣٦، وتحرف الجوني في الأصل و(م) إلى: الحوفي.

(٥) البحر ٨/ ٣٣٦، ونسبها ابن خالويه في الشواذ ص١٦١ لأبي العالية.

(٦) في المفردات (وفض).

وقيل: هو مطلق الانطلاق. ورُوي عن الضحاك. والأكثرون على الأول.

والمراد أنَّهم يخرجون مسارعين إلى الداعي، يسبق بعضُهم بعضاً.

والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادةً للمشركين، وقد رأينا كثيراً من إخوانهم الذين يعبدون توابيتَ الأئمَّة ونحوهم ﷺ كذلك، وكذا عادةُ من ضلَّ الطريق أن يسرع إلى أعلامها، وعادةُ الجند أن يسرعوا نحو منزل المَلِك.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ لِعِظَم ما تحقَّقوه، ووُصفت أبصارُهم بالخشوع مع أنَّه وصف الكلِّ؛ لغاية ظهور آثاره فيها ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٞۚ﴾ شديدةٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة ﴿ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: في الدنيا. واسمُ الإشارة مبتدأ، و«اليوم» خبرٌ، والموصولُ صفته، والجملةُ بعدَه صلته، والعائدُ محذوفٌ، أي: يوعدونه.

وقرأ عبد الرحمن بن خلَّاد، عن داود بن سالم، عن يعقوب والحسن بن عبد الرحمن، عن التمَّار: «ذلَّةُ» بغير تنوين مضافاً إلى «ذلك اليوم» بالجرِّ(١).

هذا، واعلم أنَّ بعض المتصوِّفة في هذا الزمان ذكر في شأن هذا اليوم الذي أخبر الله تعالى أنَّ مقداره خمسون ألف سنة أنَّ المراتب أربعٌ: الملك، والملكوت، والجبروت، واللَّاهوت، وكلُّ مرتبة عليا محيطةٌ بالسفلى، وأعلى منها بعشر درجات؛ لأنَّها تمامُ المرتبة؛ لأنَّ الله تعالى خَلَق الأشياء من عشر قَبَضات، يعني من سرِّ عشر مراتب الأفلاك التسعة، والعناصرُ في كلِّ عالم بحسبه، ولذا ترتَّبت مراتب الأعداد على الأربع، والألفُ منتهى المراتب وأقصى الغايات، ولمَّا كانت النسبة إلى الربِّ ـ أي: إلى وِجْهَة الحقِّ ـ هي الغايةَ القصوى بالنسبة إلى ما عداها ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] كان اليومُ الواحد المنسوب إليه ألفاً، ولذا كان اليوم الربوبيُّ ألفَ سنة كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] فإذا ترقَّى الكون، واقتضت الحكمة ظهورَ النشأة الأخرى، وبرز آثارُ الاسم الأعظم في مقام الألوهية في رتبة الجامع، ظهر الكون

---

(١) البحر ٨/ ٣٣٦.

والأكوان والمكنونات في محشرٍ واحدٍ على مراتبها في الأعيان، فظهر سرُّ النون من كلمة ﴿كُن﴾ لظهور ﴿فَيَكُونُ﴾ فظهر الخمسون في العَوْد كما نزل في البدء، وهو قوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩] فكان اليوم الواحد عند ظهور الاسم الأعظم في الجهة الجامعة خمسين ألف سنة، فالألف لترقِّي الواحد، ولمَّا كانت المراتب خمسين كان خمسين ألفاً، والخمسون: تفاصيلُ ظهور اسم الربِّ عند ظهور اسم الله في عالم الأمر الذي هو أول مراتب التفصيل في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ وكان أول ظهور التفصيل خمسين؛ لأنَّ التوحيد الظاهر في النقطة والألف والحروف والكلمة التامَّة والدلالة التي هي تمام الخمسة إنَّما كانت في عَشرةِ عوالم المراتب التعيّنات، أو لأنَّ الطبائع الأربع مع حصول المزاج بظهور طبيعة خامسة وبها تمام الخمسة إنَّما كانت في عشرة عوالم بحسبها، فكان المجموع خمسين. والعوالمُ العشرة هي: عالم الإمكان، وعالم الفؤاد، وعالم القلب، وعالم العقل، وعالم الروح، وعالم النفس، وعالم الطبيعة، وعالم المادة، وعالم المثال، وعالم الأجسام. والخمسون في وجه الربِّ، ووجهة الحقِّ في العالم الأول الذي هو الآخر تكون خمسين ألف سنة. انتهى.

فإن فهمتَ منه معنًى صحيحاً تقبلُه ذوو العقول، ولا يأباه المنقول، فذاك، وإلَّا فاحمد الله تعالى على العافية، واسأله عزَّ وجلَّ التوفيق للوصول إلى معالم التحقيق.

وللشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه أيضاً كلامٌ في هذا المقام، فمن أراده فليتتبَّع كتبه، وليسأل الله تعالى الفتوحات، وهو سبحانه وليُّ الهبات.

(٧١) سورة نوح مكية وآياتها ثمان وعشرون

● **سورة** نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان ، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت « سورة نوح » ، وفي السورة بيانٌ لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتّى العصور والأزمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوحٍ عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أَنْ أَنْذِرْ قومك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم﴾ .

● **ثم ذكرت** السورة جهاد نوحٍ ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، فلم يزدهم ذلك إلا إمعاناً في الضلال والعصيان ﴿قال ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾ .

● **ثم تتابعت** السورة تذكّرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدّوا في طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سمواتٍ طباقاً ؟ وجعل القمر

فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ! واللهُ أنبتكم من الأرض نباتاً ! ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ ! !

● **ومع كل هذا** التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿ قال نوحٌ ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده مالُه وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كُبَّاراً . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرنَّ وداً ولا سُواعاً ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمأة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ .

سورة نوح

عشرون وثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ﴾ وجهان: أحدهما: أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل، والمعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار، الثاني قال الزجاج: يجوز أن تكون مفسرة والتقدير: إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أي أنذر قومك وقرأ ابن مسعود، ﴿أَنذِرْ﴾ بغير (أن) على إرادة القول.

ثم قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مقاتل: يعني الغرق بالطوفان.

واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امتثل ذلك الأمر ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ هو نظير ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ [نوح: ١] في الوجهين، ثم إنه أمر القوم بثلاثة أشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، وقوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات، وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه، إلا أنه خصه بالذكر تأكيدًا في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره، ثم إنه تعالى لما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين: أحدهما: أن يزيل مضار الآخرة عنهم، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. الثاني: يزيل عنهم مضار الدنيا بقدر الإمكان، وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما فائدة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟ والجواب من وجوه أحدها: أنها صلة زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، والثاني: أن غفران الذنب هو أن لا يؤاخذ به، فلو قال: يغفر لكم ذنوبكم، لكان معناه أن لا يؤاخذكم بمجموع ذنوبكم، وعدم المؤاخذة

بالمجموع لا يوجب عدم المؤاخذة بكل واحد من آحاد المجموع، فله أن يقول: لا أطالبك بمجموع ذنوبك، ولكني أطالبك بهذا الذنب الواحد فقط، أما لما قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم، وهذا يقتضي عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة أيضًا على كل فرد من أفراد المجموع، الثالث: أن قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفورًا، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفورًا، فثبت أنه لا بد هاهنا من حرف التبعيض.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ الجواب: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر، وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول، لا بد من الموت.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجواب: الغرض الزجر عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

اعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وذلك لأنا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سببًا لحصول الهداية، والميل والرغبة، وفي حق الثاني سببًا لمزيد العتو والتكبر، ونهاية النفرة، وليس لأحد أن يقول: إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف، فإن هذا مكابرة في المحسوس، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقيبه التمرد والإعراض، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقيبه الانقياد والطاعة، فعلمنا أن إفضاء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره، فإن قيل: هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره، لكن حصول العصيان عند النفرة يكون باختياره، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع، قلنا: إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل، وذلك لأنه عندما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل ألبتة، فعند حصول النفرة انضم إلى عدم المقتضي وجود المانع، فبأن يصير الفعل ممتنعًا أولى، فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

اعلم أن نوحًا عليه السلام إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة لأجل أن يغفر لهم، فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ واعلم أنه عليه السلام لما دعاهم عاملوه بأشياء:

أولها: قوله: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة. **وثانيها:** قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه. وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى. **وثالثها:** قوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق. **ورابعها:** قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده، فإن قيل: بم انتصب ﴿جِهَارًا﴾؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** أنه منصوب بدعوتهم نصب المصدر، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود. **وثانيها:** أنه أريد بدَعوتُهُمْ جاهرتُهُم. **وثالثها:** أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهارًا، أي مجاهرًا به. **ورابعها:** أن يكون مصدرًا في موضع الحال أي مجاهرً.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾

قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه.

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه: أحدها: أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١] فلما كان الكفر سببًا لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سببًا لعمارة العالم، وثانيها: الآيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية، ورابعها: أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء. المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة، ونوءه يكون عزيزًا شبه عمر (الاستغفار) بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، وعن بكر بن عبدالله: أن أكثر الناس ذنوبًا أقلهم استغفارًا، وأكثرهم استغفارًا أقلهم ذنوبًا، وعن الحسن: أن رجلًا شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعًا من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية، **وهاهنا سؤالات:**

الأول: أن نوحًا عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى والطاعة، فأي فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار؟ الجواب: أنه لما أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين القديم الذي كنا عليه حقًا فلم تأمرنا بتركه، وإن كان باطلًا فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح عليه السلام: إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب، فإنه سبحانه كان غفارًا.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ولم يقل: إنه غفار؟ قلنا المراد: إنه كان غفارًا في حق كل من استغفروه كأنه يقول: لا تظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن، بل هو أبدًا هكذا كان، فكأن هذا هو حرفته وصنعته.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝﴾

واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] فلا جرم أعلمهم الله تعالى هاهنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.

والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآية خمسة: أولها: قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ

﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ وفي السماء وجوه: أحدها: (أن) المطر منها ينزل إلى السحاب، وثانيها: أن يراد بالسماء السحاب، وثالثها: أن يراد بالسماء المطر من قوله:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا[1]

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومثفال وثانيها: قوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ﴾ وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل، وثالثها: قوله: ﴿وَبَنِينَ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه. ورابعها: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين، وخامسها: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

ثم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ **وفيه قولان:**

الأول أن الرجاء هاهنا بمعنى الخوف ومنه قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا[2]

والوقار العظمة والتوقير: التعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] بمعنى ما بالكم لا تخافون لله عظمة. وهذا القول عندي غير جائز، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة، فلو قلنا: إن لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحًا للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر وهذا يفضي إلى القدح في القرآن، فإنه لا لفظ فيه إلا ويمكن جعل نفيه إثباتًا وإثباته نفيًا بهذا الطريق، الوجه الثاني: ما ذكره صاحب (الكشاف) وهو أن المعنى: مالكم لا تأملون لله توقيرًا أي تعظيمًا، والمعنى مالكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر، ولو تأخر لكان صلة للوقار.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] في موضع الحال كأنه قال: مالكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي تارات خلقكم أولاً ترابًا، ثم خلقكم نطفًا، ثم خلقكم علقًا، ثم خلقكم مضغًا، ثم خلقكم عظامًا ولحمًا، ثم أنشأكم خلقًا آخر، وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به، فكأنه قال لهم: إنكم إذا وقرتم نوحًا وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لأجل الله، فما لكم لا ترجون وقارًا وتأتون به لأجل الله ولأجل أمره

---

(١) هذا البيت لمعود الحكماء وهو: معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري. شاعر من أشراف العرب في الجاهلية، هو أخو (ملاعب الأسنة) عامر بن مالك وعم (لبيد بن ربيعة المتوفى سنة ٤١هـ ٦٦١م) الشاعر. لقب بمعود الحكماء لقوله:

أعوِّد مثلها الحكماء بعدي إذا ما الأمر في الحدثان نابا

وهو من أبيات يقول فيها:

إذا نزل الغمام بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(٢) تقدمت ترجمة الهذلي.

وطاعته، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله، فإنه لا بد وأن يرجو منه خيرًا، ووجه رابع: وهو أن الوقار هو الثبات من وقر إذا ثبت واستقر، فكأنه قال: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ وعند هذا تم الكلام، ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا ترجون لله ثباتًا وبقاء، فإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لخفتموه، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: ﴿تَرْجُونَ﴾ أي تعتقدون لأن الراجي للشيء معتقد له.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ⑯﴾

واعلم أنه لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الأول: قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وفيه وجهان: الأول: قال الليث: الطورة التارة يعني حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علقة إلى آخر التارات. **الثاني:** قال ابن الأنباري: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافًا مختلفين لا يشبه بعضكم بعضًا، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن.

الدليل الثاني على التوحيد: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، فلا جرم بدأ بالأقرب، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب، أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق، لأن الشبه فيها أكثر، فلا جرم تقع البداية بها، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يقتضي كون بعضها منطبقًا على البعض، وهذا يقتضي أن لا يكون بينها فرج، فالملائكة كيف يسكنون فيها؟ **الجواب:** الملائكة أرواح فلعل المراد من كونها طباقًا كونها متوازية لا أنها متماسة.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ والقمر ليس فيها بأسرها بل في السماء الدنيا؟ **والجواب:** هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيز من جملة أحياز العراق فكذا هاهنا.

السؤال الثالث: السراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به. **الجواب:** الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سببًا لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج، وأيضًا فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ ﴾

الدليل الثالث على التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾.

واعلم أنه تعالى رجع هاهنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فإنه بيَّن أنه تعالى خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى، أما قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾، **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في هذه الآية وجهان: أحدهما: معنى قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أنبت أباكم من الأرض كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والثاني: أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

المسألة الثانية: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم إنباتًا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال: أنبتكم نباتًا، والتقدير: أنبتكم فنبتم نباتًا، وفيه دقيقة لطيفة: وهي أنه لو قال: أنبتكم إنباتًا كان المعنى أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولما قال: أنبتكم نباتًا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا، وهذا الثاني أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع، أما لما قال: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ . . . ﴿نَبَاتٗا﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا كاملاً كان ذلك وصفًا للنبات بكونه عجيبًا كاملاً، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقًا لهذا المقام فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف، أما قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادرًا على الابتداء كان قادرًا على الإعادة، وقوله: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ أكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًّا لا محالة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ۝٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ ﴾

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ أي طرقًا واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم.

واعلم أن نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم.

فالأول: قوله: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣] فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني.

الثاني: قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سببًا للخسارة في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت المنافع الدنيوية أسبابًا للخسارة في الآخرة صار ذلك جاريًا مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت، واستدل بهذه الآية من قال: إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

المسألة الثانية: قرئ (ووُلْدُهُ) بضم الواو واعلم أن الوُلْد بالضم لغة في الولد، ويجوز أن يكون جمعًا إما جمع ولد كالفلك، وهاهنا يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾

النوع الثالث: من قبائح أفعالهم قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ معطوف على ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ﴾ [نوح: ٢١] لأن المتبوعين هم الذين مكروا وقالوا للأتباع: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾، وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَن﴾، لأنه في معنى الجمع.

المسألة الثانية: قرئ ﴿كُبَّارٗا﴾ و(كُبَارًا) بالتخفيف والتثقيل، وهو مبالغة في الكبير، فأول المراتب الكبير، والأوسط الكُبَار بالتخفيف، والنهاية الكُبَّار بالتثقيل، ونظيره: جَمِيل وجُمَال وجُمَّال، وعَظِيم وعُظَام وعُظَّام، وطَوِيل وطُوَال وطُوَّال.

المسألة الثالثة: المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبارًا في الخير والدين.

المسألة الرابعة: أنه تعالى إنما سماه مكرًا لوجهين: الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى

آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرًا، الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣].

المسألة الخامسة: ذكر أبو زيد البلخي في كتابه في الرد على عبدة الأصنام أن العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة في هذه الساعة ليست خالقة للسموات والأرض، والنبات والحيوان علم ضروري، والعلوم الضرورية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء، وعبادة الأوثان دين كان موجودًا قبل مجيء نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية، وقد استمر ذلك الدين إلى هذا الزمان، وأكثر سكان أطراف المعمورة على هذا الدين، فوجب حمل هذا الدين على وجه لا يعرف فساده بضرورة العقل، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم، فإذًا لا بد وأن يكون للذاهبين إلى ذلك المذهب تأويلات: أحدها: قال أبو معشر جعفر بن محمد المنجم: هذه المقالة إنما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفي مكان، وذلك لأنهم قالوا: إن الله نور هو أعظم الأنوار، والملائكة الذين هم حافون حول العرش الذي هو مكانه، هم أنوار صغيرة بالنسبة إلى ذلك النور الأعظم، فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنمًا هو أعظم الأصنام على صورة إلههم الذي اعتقدوه، واتخذوا أصنامًا متفاوتة، بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين، واشتغلوا بعبادة تلك الأصنام على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة، فدين عبادة الأوثان إنما ظهر من اعتقاد التجسيم، الوجه الثاني: وهو أن جماعة الصابئة كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها، فالبشر عبيد هذه الكواكب، والكواكب عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب، ثم إن هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب أخرى، فاتخذوا أصنامًا على صورها واشتغلوا بعبادتها، وغرضهم عبادة الكواكب، الوجه الثالث: أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر، كانوا منجمين على مذهب أصحاب الأحكام، في إضافات سعادات هذا العالم ونحوساتها إلى الكواكب، فإذا اتفق في الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب، فكانوا يتخذون ذلك الطلسم، وكان يظهر منه أحوال عجيبة وآثار عظيمة، وكانوا يعظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتغلون بعبادته، وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل موافق لكوكب خاص ولبرج خاص، فقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد،

ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، الوجه الرابع: أنه كان يموت أقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتغلون بتعظيمها، وغرضهم تعظيم أولئك الأقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] الوجه الخامس: أنه ربما مات ملك عظيم، أو شخص عظيم، فكانوا يتخذون تمثالاً على صورته وينظرون إليه، فالذين جاءوا بعد ذلك ظنوا أن آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء، أو لعل هذه الأسماء الخمسة وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، أسماء خمسة من أولاد آدم، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم، فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام عن زيارة القبور أولاً، ثم أذن فيها على ما يروى أنه عليه السلام قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة، السادس: الذين يقولون إنه تعالى جسم، وإنه يجوز عليه الانتقال والحلول، لا يستبعدون أن يحل تعالى في شخص إنسان، أو في شخص صنم، فإذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة، خطر ببالهم أن الإله حصل في ذلك الصنم ولذلك فإن جمعًا من قدماء الروافض لما رأوا أن عليًّا عليه السلام قلع باب خيبر، وكان ذلك على خلاف المعتاد قالوا: إن الإله حل في بدنه وإنه هو الإله، الوجه السابع: لعلهم اتخذوا تلك الأصنام كالمحراب ومقصودهم بالعبادة هو الله، فهذا جملة ما في هذا الباب، وبعضها باطلة بدليل العقل، فإنه لما ثبت أنه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الإله، وبطل القول أيضًا بالحلول والنزول، ولما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات، بطل القول بالوسايط والطلسمات، ولما جاء الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم، بطل القول باتخاذها محاريب وشفعاء.

المسألة السادسة: هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود، وعبد يغوث، هكذا قيل في الكتب، وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام، وكيف انتقلت إلى العرب، ولا يمكن أن يقال: إن نوحًا عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال: إنه وضعها في السفينة سعيًا منه في حفظها.

المسألة السابعة: قرئ: (لا تذرن ودا) بفتح الواو وبضم الواو، قال الليث: ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح، ووُد بالضم صنم لقريش، وبه سمي عمرو بن عبد ود، وأقول: على قول الليث وجب أن لا يجوز هاهنا قراءة ود بالضم لأن هذه الآيات في قصة نوح لا في أحوال قريش وقرأ الأعمش: (ولا يَغُوثًا ولاَ يعوقًا) بالصرف وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة، فلعله

صرفهما لأجل أنه وجد أخواتهما منصرفة ودًا وسواعًا ونسرًا.

واعلم أن نوحًا لما حكى عنهم أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فيه وجهان: الأول: أولئك الرؤساء قد أضلوا كثيرًا قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال، الثاني: يجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾. ففيه سؤالان:

الأول: كيف موقع قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾؟ الجواب: كأن نوحًا عليه السلام لما أطنب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة امتلأ قلبه غيظًا وغضبًا عليهم فختم كلامه بأن دعا عليهم.

السؤال الثاني: إنما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم؟ الجواب: من وجهين: الأول: لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم، الثاني: الضلال العذاب لقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

ثم إنه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام قال بعده: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (مَا) صلة كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ [النساء: ١٥٩] والمعنى من خطاياهم أي من أجلها وبسببها، وقرأ ابن مسعود: (من خطيآتهم ما أغرقوا) فأخر كلمة (ما)، وعلى هذه القراءة لا تكون (ما) صلة زائدة لأن (ما) مع ما بعده في تقرير المصدر.

واعلم أن تقديم قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان إلا من أجل خطيآتهم، فمن قال من المنجمين: إن ذلك إنما كان بسبب أنه انقضى في ذلك الوقت نصف الدور الأعظم، وما يجري مجرى هذه الكلمات كان مكذبًا لصريح هذه الآية فيجب تكفيره.

المسألة الثانية: قرئ (خَطِيئَاتِهِمْ) بالهمزة و(خَطِيَّاتِهِمْ) بقلبها ياء وإدغامها و(وَخَطَايَاهُمْ) و(وَخَطِيئَتِهِمْ) بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد به الكفر. واعلم أن الخطايا والخطيئات كلاهما جمع خطيئة، إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة، وقد تقدم الكلام فيها في [البقرة: ٥٨] عند قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وفي [الأعراف: ١٦١] عند قوله: ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾.

المسألة الثالثة: تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ وذلك من وجهين: الأول: أن الفاء في قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء، الثاني: أنه قال:

﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي. وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك، قال مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة نارًا ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] واعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل. فإن قيل: إنما تركنا هذا الظاهر لدليل، وهو أن من مات في الماء فإنا نشاهده هناك فكيف يمكن أن يقال: إنهم في تلك الساعة أدخلوا نارًا؟ والجواب: هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ لما بينا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجودًا من أول عمره، مع أنه كان صغير الجثة في أول عمره، ثم إن أجزاءه دائمًا في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن، فلم لا يجوز أن يقال: إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم، وهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ قال المبرد: ﴿دَيَّارًا﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار ولا تستعمل في جانب الإثبات، قال أهل العربية: هو فيعال من الدور، وأصله ديوار فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى، قال الفراء والزجاج: وقال ابن قتيبة: ما بها ديار أي نازل دار.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فإن قيل: كيف عرف نوح عليه السلام ذلك؟ قلنا: للنص والاستقراء، أما النص فقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب،

وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنهم يكونون في علمك كذلك، والثاني: أنهم سيصيرون كذلك.

واعلم أنه عليه السلام لما دعا على الكفار قال بعده: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي فيما صدر عني من ترك الأفضل، ويحتمل أنه حين دعا على الكفار إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك لما فيه من طلب حظ النفس.

ثم قال: ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين، وقال عطاء: لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر، وكان بينه وبين آدم عشرة آباء. وقرأ الحسن بن علي (وَلِوَلَدَيَّ) يريد ساما وحاما.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: مسجدي، وقيل: سفينتي، وقيل: لمن دخل في ديني، فإن قيل: فعلى هذا التفسير يصير قوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ مكررًا، قلنا: إن من دخل في دينه ظاهرًا قد يكون مؤمنًا بقلبه وقد لا يكون، والمعنى: ولمن دخل في ديني دخولاً مع تصديق القلب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إنما خص نفسه أولاً بالدعاء ثم المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات.

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكًا ودمارًا وكل شيء أهلك فقد تبر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٧] فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية، فإن قيل: ما جُرْمُ الصبيان حين أغرقوا؟ والجواب من وجوه: الأول: أن الله تعالى أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو تسعين فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا، ويدل عليه قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[نوح: ١٠، ١٢] وهذا يدل بحسب المفهوم على أنهم إذا لم يستغفروا فإنه تعالى لا يمددهم بالبنين، الثاني: قال الحسن: علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب، الثالث: غرقوا معهم لا على وجه العقاب بل كما يموتون بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون، والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة نوح

مَكّيَّةٌ، وهي ثمان وعشرون آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾

قد مضى القول في «الأعراف» أن نُوحاً عليه السلام أوَّلُ رسولٍ أُرسِل[2]. ورواه قتادة عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «أوَّلُ رسولٍ أُرسل نوح، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض»[3]. فلذلك لمَّا كَفَروا أَغْرَق اللهُ أهلَ الأرض جميعاً.

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ[4]، وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام[5]. قال وهب: كلهم مؤمنون. أُرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شدَّاد: بُعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة[6]. وقد مضى في سورة العنكبوت القولُ فيه[7]. والحمد لله.

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٤٠٦ ، والبغوي ٤/ ٣٩٧ . ووقع في (ق) سبع وعشرون ، وفي (د) و(ظ) : تسع وعشرون . وفي الكشاف ٤/ ١٦١ : تسع أو ثمان وعشرون آية .

(٢) ٩/ ٢٥٨ .

(٣) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وجاء في حديث الشفاعة المطول الذي رواه أنس ﷺ: «إنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض». وهو عند أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٤).

(٤) في (د) و(ق) : خنوخ .

(٥) سلف مختصراً ٧/ ٢٢١ إلى أخنوخ ،وفيه : لمك ، بدل : لامك . وسلف ١٣/ ٣٣٣ ، ووقع فيه: مهلايل بن قينان بن أنوش .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٨ ، وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) ١٦/ ٣٤٥ .

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك؛ فموضع «أن» نصب بإسقاط الخافض. وقيل: موضعها جَرٌّ لقوّة خِدْمتها مع «أن». ويجوز «أن» بمعنى المفسِّرة، فلا يكون لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة إلى إضمار الباء. وقراءة عبد الله: «أَنْذِر قَوْمَكَ» بغير «أن» بمعنى قلنا له: أنذر قومك[١]. وقد تقدَّم معنى الإنذار في أوّل «البقرة»[٢].

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يعني عذاب النار في الآخرة. وقال الكلبيُّ: هو ما نزَل عليهم من الطوفان. وقيل: أي أنذرهم العذابَ الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا. فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يَرى منهم مجيباً؛ وكانوا يَضربونه حتى يُغشى عليه فيقول: ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[٣]. وقد مضى هذا مستوفًى في سورة العنكبوت[٤] والحمد لله وحده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: مخوِّف. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهرٌ لكم بلسانكم الذي تعرفونه. ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ و«أن» المفسِّرة على ما تقدم في «أَنْ أَنْذِرْ». «اعْبُدُوا» أي: وحِّدوا. واتقوا: خافوا. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: فيما آمرُكم به، فإني رسول الله إليكم. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ جُزم «يغفِر» بجواب الأمر[٥]. و«مِن» صلةٌ زائدة. ومعنى الكلام: يغفر لكم ذنوبَكم، قاله السدِّيُّ[٦]. وقيل: لا يصح كونها

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢، وذكر القراءة أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦١.

(٢) ١/ ٢٨١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٩٨ - ٩٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٩ عن مجاهد.

(٤) ١٦/ ٣٤٥، وفي سورة التوبة ١٠/ ٣٩٩، وسورة هود ١١/ ١٢٩-١٣٠.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٧.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

زائدة؛ لأن «مِن» لا تُزاد في الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي لبيان الجنس. وفيه بُعْدٌ؛ إذ لم يتقدَّم جنسٌ يليق به(١). وقال زيد بن أسلم: المعنى: يخرجكم من ذنوبكم. ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها(٢).

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس: أي: ينسئ في أعماركم. ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عُوجلوا بالعذاب. وقال مقاتل: يؤخِّركم إلى منتهى آجالكم في عافية؛ فلا يعاقبكم بالقحط وغيره. فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم. وقال الزجاج(٣): أي يؤخِّركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصَلين بالعذاب. وعلى هذا قيل: «أَجَلٍ مُسَمًّى» عندكم تعرفونه، لا يميتكم غَرَقاً ولا حَرَقاً ولا قَتْلاً؛ ذكره الفرَّاء(٤). وعلى القول الأوّل «أَجَلٍ مُسَمًّى» عند الله.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: إذا جاء الموت لا يؤخَّر بعذاب كان أو بغير عذاب. وأضاف الأَجَلَ إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته. وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] لأنه مضروب لهم. و«لَوْ» بمعنى «إن» أي: إن كنتم تعلمون. وقال الحسن: معناه: لو كنتم تعلمون لَعَلِمْتُم أن أجَلَ اللهِ إذا جاء لا يؤخَّر(٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: سِرًّا وجهراً. وقيل: أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٨٧.

(٥) جاءت العبارة في (د) و(م): إذا جاءكم لم يؤخر. والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٩٩ وقول الحسن فيه.

واصلت الدعاء. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان، وقراءة العامة بفتح الياء من «دعائي» وأسكنها الكوفيون ويعقوب والدُّوري عن أبي عمرو[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى سبب المغفرة، وهي الإيمانُ بك والطاعةُ لك. ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلّا يَسمعوا دعائي ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطَّوا بها وجوهَهم لئلّا يَرَوْني[2]. وقال ابن عباس: جعلوا ثيابَهم على رؤوسهم لئلا يَسمعوا كلامَه. فاستِغشاءُ الثياب إذاً زيادة في سدِّ الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسَهم حتى يَسكت، أو ليعرِّفوه إعراضَهم عنه. وقيل: هو كناية عن العَداوة. يقال: لبِس لي فلان ثيابَ العداوة. ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: على الكفر فلم يتوبوا. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبول الحقِّ؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ تفخيم[3].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: مُظْهِراً لهم الدعوة. وهو منصوب بـ«دعوتُهم» نصبَ المصدر؛ لأن الدعاء أحدُ نوعيه الجِهار، فنصب به نصبَ القُرفُصاء

---

(١) كذا ذكر المصنف عن أبي عمرو، وهو وهم منه رحمه الله، فالذي روى إسكان الياء في هذا الحرف عن أبي عمرو هو عباس؛ كما ذكر ابن مجاهد في السبعة ص٦٥٢، وعباس هذا: هو ابن الفضل بن عمر، أبو الفضل الواقفي، فلعل وهم المصنف ذهب إلى عباس الدوري الذي روى عنه أصحاب السنن، فقال: الدوري عن أبي عمرو. ووُلد عباس الدوري سنة (١٨٥)، أي بعد وفاة أبي عمرو بن العلاء بحوالي ثلاثين عاماً. أما الدُّوري راوي أبي عمرو؛ فهو حفص بن عمر، أبو عمر، وقد روى عنه ـ هو والسوسي ـ فتح الياء في هذا الحرف. وقد وقع للمصنف رحمه الله مثل هذا الوهم في سورة المعارج الآية (٣٣).

(٢) في (د) و(ق) و(م) يروه. والمثبت من (خ)و(ظ) وهو الموافق لما في الوسيط ٣٥٧/٤ ، وزاد المسير ٣٧٠/٨ .

(٣) النكت والعيون ١٠٠/٦ .

بقَعَد؛ لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بـ «دَعَوْتُهم»: جاهرتُهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا؛ أي: دعاءً جهاراً؛ أي: مجاهِراً به. أو يكون[1] مصدراً في موضع الحال، أي: دَعَوْتُهم مجاهِراً لهم بالدعوة.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾. أي: لم أُبْقِ مجهوداً. وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحتُ[2]، «وأسررت لهم إسراراً». بالدعاء عن بعضهم من بعض. وقيل: «أَسْرَرْتُ لَهُمْ» أي: أتيتهم في منازلهم. وكلٌّ هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم، وتلطُّفٌ في الاستدعاء[3].

وفتح الياءَ من «إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ» الحِرْمِيَّان[4] وأبو عمرو، وأسكن الباقون[5].

قوله تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: سَلُوه المغفرةَ من ذنوبكم السالفةِ بإخلاص الإيمان. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾. وهذا منه ترغيبٌ في التوبة. وقد روى حُذَيفة بنُ اليمان عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الاستغفارُ مِمْحاة للذنوب». وقال الفُضيل: يقول العبد: أستغفرُ اللهَ، وتفسيرها: أَقِلْني[6].

---

(١) في (م): ويكون، والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦٢ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٣.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

(٤) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الحرميون. والحِرْميَّان هما: نافع المدني، وابن كثير المكي، والحِرْميّ ـ بكسر الحاء وسكون الراء ـ نسبة إلى الحَرَمَ على غير قياس في الناس، والنسبة في غير الناس: حَرَميّ، بفتح الحاء والراء. اللسان (حرم).

(٥) التيسير ص٢١٥، ولم يذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٠١، والحديث ذكره الديلمي في الفردوس ١/ ١٢٤ (٤٢٨)، وقال المناوي في فيض القدير ٣/ ١٧٧: فيه عبيد بن كثير التمار، قال الذهبي: قال الأزدي: متروك وعبيد الله بن خراش، ضعفه الدارقطني وغيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يُرسل ماءَ السماء، ففيه إضمارٌ. وقيل: السماء المطر؛ أي: يُرسل المطرَ. قال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ رَعيناه وإن كانوا غِضابا[١]

و«مِدْرَارًا»: ذَا غَيْثٍ كثير. وجزم «يُرْسِل» جواباً للأمر. وقال مقاتل: لمَّا كذَّبوا نوحاً زماناً طويلاً حبَس اللهُ عنهم المطرَ، وأعقَم أرحامَ نسائِهم أربعين سنةً؛ فهَلَكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا[٢] إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به. فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[٣] أي: لم يَزَل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيباً في الإيمان: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾. قال قتادة: عَلِم نبيُّ الله ﷺ أنهم أهل حرصٍ على الدنيا فقال: هَلُمّوا إلى طاعة الله، فإن في طاعة الله دَرْكَ[٤] الدنيا والآخرة[٥].

الثالثة: في هذه الآية والتي في «هود»[٦] دليلٌ على أن الاستغفار يُستنزل به الرزقُ والأمطار. قال الشعبيُّ: خَرَج عمر يستسقي؛ فلم يَزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: لقد طلبتُ المطرَ بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[٧].

---

(١) البيت لمعاوية بن مالك، وسلف ١/ ٣٢٧.

(٢) في (ظ) فساروا.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٥٧، والرازي ٣٠/ ١٣٧ بنحوه.

(٤) في (ظ): عزّ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠١، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٤.

(٦) ١١/ ١٤١ - ١٤٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٤، والطبري ٢٣/ ٢٩٣ - ٢٩٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٤٥ (١٠٩٦٠) قال الحافظ في الكافي الشاف ص ١٧٧. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع.

وقوله: بمجاديح. جمع مِجْدَح، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالَّة على المطر، فجعل الاستغفارَ مشبَّهاً بالأنواء؛ مخاطبةً لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء التي يزعمون أن من شأنها المطر. ينظر النهاية (جدح).

وقال الأوزاعيُّ: خَرَج الناس يستسقون؛ فقام فيهم بلال بنُ سعد، فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: اللهمَّ إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفرْ لنا وارحمنا واسقِنا! فرفع يديه ورَفعوا أيديَهم، فسُقُوا[(١)].

وقال ابن صَبِيح[(٢)]: شكا رَجلٌ، إلى الحسن الجُدوبةَ، فقال له: استغفرِ اللهَ. وشكا آخر إليه الفقرَ، فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادعُ اللهَ أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفافَ بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً؛ إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[(٣)].

وقد مضى في سورة آل عمران[(٤)] كيفيةُ الاستغفار، وأن ذلك يكون عن إخلاص وإقلاعٍ من الذنوب، وهو الأصل في الإجابة.

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

قيل: الرجاءُ هنا بمعنى الخوف[(٥)]؛ أي: ما لَكم لا تخافون لله عظمةً وقدرة على أحدكم بالعقوبة. أيْ: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الخوف من الله. وقال سعيد بن جُبَير وأبو العالية وعطاء بن أبي رَبَاح: ما لَكم لا تَرجون لله ثواباً ولا تخافون له[(٦)] عقاباً. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشَون لله عقاباً وترجون منه ثواباً[(٧)]. وقال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٦٢ (١٠٢٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٢٦.

(٢) هو الربيع بن صَبيح البصري، من رجال التهذيب.

(٣) الكشاف ٤/ ١٦٢، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٧ - ٦٨، وذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤، والرازي ٣٠/ ١٣٧.

(٤) ٥/ ٦٠.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٤/ ٣٩٨.

(٦) في (ظ): منه.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

الوالبيُّ والعَوْفي عنه: ما لكم لا تعلَمون لله عظمةً. وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: ما لكم لا تَرَوْن لله عظمة[١] وعن مجاهد والضحاك: مالكم لا تبالون لله عظمة[٢]. قال قُطْرُب: هذه لغة حجازية. وهُذيل وخزاعة ومُضَر يقولون: لم أرجُ: لم أُبالِ. والوَقار: العظمة. والتوقير: التعظيم[٣]. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبةً[٤]؛ كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبةَ الإيمان. وقال ابن كَيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً[٥]. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدُّون لله طاعةً. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرون له نعمةً. وقيل: ما لكم لا توحِّدون اللهَ؛ لأن من عَظَّمه فقد وحَّده. وقيل: إن الوَقار الثباتُ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣] أي: اثبتن. ومعناه: ما لكم لا تُثبتون وحدانيةَ اللهِ تعالى وأنه إلهكم لا إله لكم سواه؛ قاله ابنُ بحر.

ثم دَلَّهم على ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٦] أي: جَعَل لكم في أنفسكم آيةً تدل على توحيده[٧]. قال ابن عباس: «أَطْوَارًا» يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة[٨]؛ أي: طَوْراً بعد طور إلى تمام الخَلْق، كما ذكر في سورة المؤمنون[٩]. والطَّوْرُ في اللغة: المَرَّةُ، أي: مَن فَعَل هذا وقَدَرَ عليه فهو أحقُّ أن تُعَظِّموه. وقيل: «أَطْوَارًا»: صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطواراً أي: أنواعاً: صحيحاً

(١) تفسير البغوي ٤/٣٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٢٩٥، وعن ابن عباس البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٨).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٢٩٥.

(٣) الوسيط ٤/٣٥٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣١٩، والطبري ٢٣/ ٢٩٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/٣٩٨.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٠١ - ١٠٢.

(٧) الوسيط ٤/٣٥٨.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٧.

(٩) ١٥/ ١٩.

وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنيًّا وفقيراً[١]. وقيل: إن «أطواراً»: اختلافُهم في الأخلاق والأفعال[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ ذكَر لهم دليلاً آخر، أي: ألم تعلموا أن الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يُعْبَد؟! ومعنى «طِبَاقًا»: بعضها فوق بعض[٣]، كل سماء مُطبقة على الأخرى كالقباب؛ قاله ابن عباس والسدّيُّ. وقال الحسن: خَلق اللهُ سبعَ سماوات طباقاً على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض وسماءٍ وسماء خَلْقٌ وأمرٌ[٤].

وقوله: «أَلَمْ تَرَوْا» على جهة الإخبار لا المعاينة؛ كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا. و«طِبَاقاً» نصب على أنه مصدر، أي: مطابقة طباقاً. أو حال بمعنى ذات طباق؛ فحذف ذات وأقام طِباقاً مقامه[٥].

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في سماء الدنيا؛ كما يقال: أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم، والمراد بعضهم؛ قاله الأخفش[٦]. قال ابن كَيْسان: إذا كان في إحداهن فهو فيهنَّ. وقال قُطْرُب: «فِيهِنّ» بمعنى معهنَّ[٧]؛ وقاله الكلبيُّ. أي: خلق الشمسَ والقمر مع خلق السماوات والأرض. وقال جِلَّةُ أهل اللغة في قول امرئ القيس:

---

(١) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٨.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ بنحوه.

(٥) ينظر معاني للزجاج ٥/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٧١٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧١.

(٧) مجمع البيان ٢٩/ ٧٠ دون نسبة.

وهل ينعمن مَنْ كانَ آخِرُ عهدِهِ ثلاثين شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[(١)]

: «في» بمعنى مع. النحاس: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية فقال: جواب النحْويين أنه إذا جعله في إحداهنَّ فقد جعلَه فيهنَّ، كما تقول: أعطني الثياب المُعْلَمة وإن كنتَ إنما أعلمت أحدَها. وجوابٌ آخر: أنه يروى أن وجه القمر إلى السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسماوات[(٢)].

ومعنى: «نُورًا» أي: لأهل الأرض؛ قاله السدّيُّ[(٣)]. وقال عطاء: نوراً لأهل السماء والأرض. وقال ابن عباس وابن عمر: وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يعني مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم. وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأوّلان؛ حكاه الماورديُّ[(٤)]. وحكى القشيريُّ عن ابن عباس أن الشمسَ وجهها في السماوات وقفاها في الأرض[(٥)]. وقيل: على العكس. وقيل لعبد الله بن عمر[(٦)]: ما بالُ الشمس تَقْلِينا أحياناً وتَبْرُد علينا أحياناً؟ فقال: إنها في الصيف في السماء الرابعة، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن؛ ولو كانت في السماء الدنيا لَمَا قام لها شيء.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلِّها؛ قاله ابن جريج[(٧)]. وقد مضى

---

(١) ديوانه ص٢٧، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثُ عهده، وسلف ١٣/ ١٦٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٩ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٠٢، وقول ابن عباس وابن عمر ذكره عن ابن عباس فقط.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥.

(٦) في (ظ) و(ق): عمرو.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

في سورة الأنعام والبقرة بيان ذلك[١]. وقال خالد بن مَعْدان: خلق الإنسانَ من طين، فإنما تلين القلوب في الشتاء[٢]. و«نَبَاتاً» مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتاً، فجعل الاسم الذي هو النَّبات في موضع المصدر. وقد مضى بيانه في سورة آل عمران[٣] وغيرها. وقيل: هو مصدر محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى: «أَنْبَتَكُمْ» جعلكم تنبتون نباتاً؛ قاله الخليل والزجاج[٤]. وقيل: أي أنبت لكم من الأرض النبات. فـ«نَبَاتاً» على هذا نصب على المصدر[٥] الصريح. والأوّل أظهرُ.

وقال ابن بحر[٦]: أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصِّغَر، وبالطول بعد القِصَر.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: عند موتكم بالدفن. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة. ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السُّبُل: الطُّرق. والفِجاج جمع فَجٍّ، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: الفَجُّ: المسلَك بين الجبلين. وقد مضى في سورة الأنبياء والحج[٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾

شكَاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصَوْه ولم يتَّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان. وقال

---

(١) ٨/ ٣٢٠ و١/ ٤١٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٣) ٥/ ١٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٠ . وزاد المسير ٨/ ٣٧٢ .

(٥) في (ظ) و(ق) : المفعول .

(٦) في (م) ابن جريج . والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٧) ١٤/ ١٩٨ - ١٩٩ و٣٦٤ - ٣٦٥ .

أهل التفسير: لبث فيهم ما أخبر الله تعالى: ألفَ سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوحٌ عليه السلام الأبناءَ بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفَشَوْا. قال الحسن: كان قوم نوح يَزرعون في الشهر مرتين؛ حكاه الماورديُّ[١].

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرُهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالًا في الدنيا وهلاكاً في الآخرة.

وقرَأ أهل المدينة والشام وعاصم: «وَوَلَدُه» بفتح الواو واللام. الباقون: «وُلْده» بضم الواو وسكون اللام[٢] وهي لغة في الولد. ويجوز أن يكون جمعًا للولد، كالفُلْك، فإنه واحد وجمع. وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: كبيراً عظيماً. يقال: كَبير وكُبَار وكُبَّار، مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنًى، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال. يقال: رجل حَسن وحُسَّان، وجميل وجُمَّال[٤]، وقُرَّاء للقارئ[٥]، ووُضَّاء للوضيء. وأنشد ابنُ السِّكِّيت:

بَيْضاء تَصْطادُ القلوب وتَسْتَبي ... بالحسن قَلْبَ المُسْلِم القُرَّاءِ

وقال آخر:

والمَرْءُ يُلْحِقُه بِفِتْيَانِ النَّدَى ... خُلُقُ الكريم وليس بالوُضَّاءِ[٦]

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٣ .
(٢) السبعة ص ٦٥٢ - ٦٥٣ ، والتيسير ص ٢١٥ .
(٣) ٢/ ٤٩٤ .
(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٩٩ ، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٧٠ .
(٥) والقُرَّاء أيضاً: الناسك المتعبِّد. القاموس (قرأ).
(٦) هذا البيت والذي قبله من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٢٤ ، وذكره الجوهري في الصحاح (وضأ) (قرأ)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، وذكر الزَّبيدي البيت الأول في تاج العروس، ونسبه لزيد بن تُرك الدُّبيري .

وقال المبرِّد: «كُبَّارًا» ـ بالتشديد ـ للمبالغة. وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد: «كُبارًا» بالتخفيف[١].

واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل: هو تحريشُهم سَفِلَتَهم على قتل نوح[٢]. وقيل: هو تعزيزُهم الناس بما أُوتوا من الدنيا والولد؛ حتى قالت الضَّعَفةُ: لولا أنهم على الحقّ لَمَا أوتوا هذه النعم. وقال الكلبيُّ: هو ما جعلوه لِله من الصاحبة والولد. وقيل: مكرهم كفرُهم. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصُوَر، كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب[٤] وهذا قول الجمهور.

وقيل: إنها للعرب لم يعبدها غيرُهم[٥]، وكانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم؛ فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ». ويكون معنى الكلام: كما قال قومُ نوح لأتباعهم: «لا تَذَرُنَّ آلهتكم»؛ قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً؛ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام. وعلى القول الأوّل؛ الكلام كلُّه منسوق في قوم نوح.

وقال عُروة بن الزبير وغيره: اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويغوثُ، ويعوقُ، ونَسرٌ. وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٦٢، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ بضم الكاف وكسرها.

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٦٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٢٠).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠٤.

(٦) المصدر السابق.

قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسر؛ وكانوا عُبَّاداً، فمات واحدٌ[١] منهم، فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصوِّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصوَّره في المسجد من صُفْر ورصاص، ثم مات آخر، فصوَّره حتى ماتوا كلُّهم فصوَّرهم. وتنقَّصَت الأشياء كما تَتنقَّص اليوم إلى أن تركوا عبادَة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترونها[٢] في مُصَلَّاكم؟ فعبدوها من دون الله؛ حتى بعث الله نوحاً فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية.

وقال محمد بن كعب أيضاً ومحمد بن قيس: بل كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تَبَع يَقتدون بهم، فلما ماتوا زَيَّن لهم إبليس أن يصوِّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسَلَّوا بالنظر إليها؛ فصوَّرهم. فلما ماتوا هُم وجاء آخرون قالوا: لَيْتَ شِعْرَنا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها!؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها، فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت[٣].

قلت: وبهذا المعنى فسِّر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة: أن أمَّ حبِيبة وأمَّ سَلَمة ذكرتا كَنيسةً رأَيْنَها بالحبشة تسمَّى مارية، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئِك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؛ بَنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصّوَر، أولئك شِرارُ الخلق عند الله يوم القيامة»[٤].

---

(١) في (د) و(ظ): رجل.

(٢) في (د) و(م) ألا ترون. والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في زاد المسير ٨/ ٣٧٣ والكلام بنحوه منه، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٥٩، والبغوي ٤/ ٣٩٩ عن محمد بن كعب، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٣ عن محمد بن قيس بنحوه.

(٤) صحيح مسلم (٥٢٨)، وسلف ٢/ ٢٩٤.

وذكر الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم تذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم؛ عُبدت من دون الله(١).

وذُكِر أيضاً عن ابن عباس: أن نوحاً عليه السلام، كان يحرس جسدَ آدم عليه السلام على جبل بالهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره؛ فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوِّر لكم مثله تطوفون به؛ فصوَّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها. فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونةً حتى أخرجها الشيطانُ لمشركي العرب(٢).

قال الماوَرْدِيُّ(٣): فأما وَدٌّ؛ فهو أوّل صنمٍ معبود، سُمِّي وَدًّا لودِّهم له؛ وكان بعدَ قومِ نوح لكَلْب بدومة الجَنْدَل؛ في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل. وفيه يقول شاعرُهم:

حَـيَّـاك وَدٌّ فـإنَّـا لا يـحـلُّ لـنـا لَـهْـوُ الـنـسـاءِ وإن الـدِّيـن قـد عَـزَمَـا(٤)

وأما سُواعٌ؛ فكان لهذيل بساحل البحر؛ في قولهم.

وأما يَغُوثُ؛ فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف(٥) من سبأ؛ في قول قتادة.

وقال المهدَوِيُّ: لمُراد ثم لغَطَفان. الثعلبيُّ: وأخذت أعلى وأنعُم ـ وهما من

(١) وأخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧٢ دون نسبة، ومن قوله: فلما كان أيام الطوفان... إلى هنا، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٠ عن ابن عباس.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ١٠١، وهو في كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وروايته في الديوان: حيَّاك ربي، بدل: حياك ودٌّ.

(٥) في (ظ): بالجرف. وهي في بعض نسخ البخاري كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

طيِّئ ـ وأهل جُرَش من مَذْحج يَغُوث، فذهبوا به إلى مُرَاد، فعبدوه زماناً. ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من أنعُم، ففرُّوا به إلى الحُصَين أخي بني الحارث بن كعب من خُزاعة.

وقال أبو عثمان النَّهْدِي: رأيت يغوث وكان من رَصاص، وكانوا يحملونه على جمل أَجْرَد، ويسيرون معه لا يَهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذا بَرَك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل؛ فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله[(١)].

وأما يَعُوق؛ فكان لهَمْدان ببَلْخَع؛ في قول عكرمة وقتادة وعطاء. ذكره الماورديُّ. وقال الثعلبيُّ: وأما يَعُوق؛ فكان لكَهْلان من سَبَأ، ثم توارثه بنوه؛ الأكبر [فالأكبر] حتى صار إلى هَمْدان. وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يَـريـشُ الـلـهُ فـي الـدنـيـا ويَـبْـري ... ولا يَـبْـرِي يـعــوقُ ولا يَـريــشُ[(٢)]

وأما نَسرٌ فكان لذي الكَلَاعِ من حِمْير؛ في قول قتادة، ونحوه عن مقاتل[(٣)]. وقال الواقديّ: كان وَدٌّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرس، ونسرٌ على صورة نَسْر من الطير؛ فالله أعلم[(٤)].

وقرأ نافع: «وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا» بضم الواو. وفتحها الباقون[(٥)].

قال الليث: وَدٌّ ـ بفتح الواو ـ صنمٌ كان لقوم نوح، ووُدٌّ ـ بالضم ـ صنمٌ لقريش؛ وبه سُمِّي عمرو بن وُدّ[(٦)]. وفي الصحاح: والوَدّ ـ بالفتح ـ الوَتِدُ في لغة أهل نجد؛

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٤. وقوله: أجرد، أي: سبَّاق.

(٢) ذكر البيت مع قول الثعلبي أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ - ٣٤٢ وابن عادل في اللباب ١٩/ ٣٩٧، وما بين حاصرتين من اللباب.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٤، وقاله ابن عباس في حديث البخاري (٤٩٢٠).

(٤) زاد المسير ٨/ ٣٧٤.

(٥) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

كأنهم سكَّنوا التاءَ وأدغموها في الدال. والوَدُّ في قول امرئ القيس:

تُـظـهِـرُ الـوَدَّ إذا مـا أشْـجَـذَتْ وتُـواريـهِ إذا مـا تـعْـتَـكِـرْ

قال ابن دُريد: هو اسم جبل: ووَدٌّ صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار لكلب وكان بدُومة الجَنْدَل؛ ومنه سمّوه عبد وَدٍّ[1].

وقال: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» ثم قال: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا» الآية، خصَّها بالذِّكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ هذا من قول نوح، أي: أضلَّ كبراؤهم كثيرًا من أتباعهم؛ فهو عطف على قوله: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا». وقيل: إن الأصنام «أَضَلُّوا كَثِيرًا»، أي: ضلَّ بسببها كثير؛ نظيره قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] فأجرى عليهم وصف ما[2] يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: عذابًا؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧]. وقيل: إلا خسراناً. وقيل: إلا فتنةً بالمال والولد. وهو محتمل[3].

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خطاياهم أُغْرِقُوا﴾ «ما» صلة مؤكِّدة، والمعنى: من خطاياهم. وقال الفرَّاء: المعنى من أجل خطاياهم، فأدَّت «ما» هذا المعنى. قال: و«ما» تدل على المجازاة[4].

---

(١) الصحاح (ودد)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص ١٤٤، وروايته فيه: تخرج الود، بدل: تظهر الود، وتشتكر، بدل: تعتكر وقوله: أشجذت أي: أقلعت وسكنت، يعني الغيمة.

(٢) في (ظ): من. والكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٩ - ١٩٠ بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٤٢.

وقراءة أبي عمرو: «خَطَايَاهُمْ» على جمع التكسير؛ الواحدة خطيَّة. وكان الأصل في الجمع خطائئ على فعائل[١]؛ فلما اجتمعت الهمزتان قُلِبت الثانية ياءً؛ لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمع ثقيل، وهو معتلٌّ مع ذلك؛ فقلبت الياء ألفاً، ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين. الباقون «خَطِيئَاتِهِمْ» على جمع السلامة[٢].

قال أبو عمرو: قوم كفروا ألف سنة، فلم يكن لهم إلا خطيئات! يريد أن الخطايا أكثر من الخطيئات. وقال قوم: خطايا وخطيئات واحد، جمعان مستعملان في الكثرة والقلَّة؛ واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] وقال الشاعر:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بِالضّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَمَا[٣]

وقرئ: «خطيئاتهم» و«خطِيّاتِهم»[٤] بقلب الهمزة ياء وإدغامها. وعن الجَحْدَرِيِّ وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حَيْوة وأشهب العقيلي: «خطيئتِهِم» على التوحيد[٥]، والمراد: الشرك .﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: بعد إغراقهم.

قال القشيريُّ: وهذا يدلُّ على عذاب القبر. ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخولَ النار، أو عُرض عليهم أماكنهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

وقيل: أشاروا إلى ما في الخبر من قوله: «البحر نار في نار»[٦].

---

(١) في (ق) فعائيل.

(٢) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥، وسلف كلام الخليل وسيبويه في أصل «خطايا» ٢/ ١٣٠-١٣١.

(٣) البيت لحسان بن ثابت وهو في ديوانه ص ٤٢٧.

(٤) في (د): خطاياهم، وخطيئاتهم

(٥) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٦٢ خطيَّاتهم من قراءة أبي رجاء، وخطيئتهم من قراءة الجحدري وعبيد عن أبي عمرو.

(٦) أخرج الحاكم ٤/ ٥٩٦ عن يعلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن البحر هو جهنم».

وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ عن عبد الله بن عمرو قال: «... إن تحت البحر ناراً ثم ماء ثم نار». وقد ذكر الحاكم هذا الحديث مرفوعاً إثر الحديث السالف.

وروى أبو رَوْق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ قال: يعني عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة؛ كانوا يَغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب[1]. ذكره الثعلبيُّ قال[2]: أنشدنا أبو القاسم الحبيبي، قال: أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رُمَيح قال: أنشدني أبو بكر بن الأنباريّ:

الخلق مجتمِع طَوْرًا ومفْترِقٌ والحادِثَات فُنُونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تعجبنَّ لِأضدادٍ إنِ اجتمعتْ فاللهُ يجمع بين الماءِ والنارِ[3]

﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ أي: مَن يَدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝٢٧﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: دعا عليهم حين يَئس من اتّباعهم إيَّاه. وقال قتادة: دعا عليهم بعد أن أَوحى اللهُ إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[4] [هود:٣٦]. فأجاب اللهُ دعوته وأغرَق أُمَّته. وهذا كقول النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ منزل الكتاب، [سريعَ الحساب]، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزِهم»[5].

وقيل: سببُ دعائه أن رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه، فمرَّ بنوحٍ فقال: احذر هذا فإنه يضلك. فقال: يا أبتِ أنزلني؛ فأنزله فرماه فشجَّه؛ فحينئذٍ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٠، والكشاف ٤/ ١٦٥، وزاد المسير ٨/ ٣٧٤. دون قوله: ويحترقون في الماء.

(٢) لفظة: قال، من (ظ).

(٣) اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٤٠٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٥ وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٨.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى، وسلفت قطعة منه ١٤/ ٣١١، وما بين حاصرتين من المصادر.

غَضِبَ ودعا عليهم[١].

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: إنَّما قال هذا حينما أخرَج اللهُ كلَّ مؤمن من أصلابهم وأرحامِ نسائهم. وأعقمَ أرْحَام النساء وأصلابَ الرجال قبل العذاب بسبعين سنة[٢]. وقيل: بأربعين[٣]. قال قتادة: ولم يكن فيهم صبيٌّ وقت العذاب.

وقال الحسن وأبو العالية: لو أَهْلَكَ اللهُ أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم؛ ولكنَّ الله أهلكَ أطفالَهم وذرِّيتهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[٤] [الفرقان: ٣٧].

الثانية: قال ابن العربيّ[٥]: دعا نوحٌ على الكافرين أجمعين، ودعا النبيُّ ﷺ على من تحزَّب على المؤمنين وألَّب عليهم. وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافرٌ معيَّن لم تُعْلَم خاتمتُه فلا يدعَى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهولٌ، وربما كان عندَ الله معلومَ الخاتمة بالسعادة. وإنما خصَّ النبيُّ ﷺ بالدعاء عُتبةَ وشَيْبَةَ وأصحابَهما[٦]؛ لعلمه بمآلهم، وما كُشِف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم.

قلت: قد مضت هذه المسألة مجوَّدة في سورة البقرة[٧] والحمد لله.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: إن قيل: لِمَ جَعَل نوحٌ دعوتَه على قومه سبباً لتوَقُّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا: قال الناس: في ذلك وجهان:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣١٩، والطبري ٢٣/ ٢٩١ عن قتادة.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ من قول محمد بن كعب والربيع وابن زيد.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٥، والرازي ٣٠/ ١٣٧ من قول مقاتل.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦٦، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٧ عن الحسن بنحوه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٨ - ١٨٤٩.

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٧) ٢/ ٤٨٥ وما بعد.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٩.

أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضبٍ وقسوة، والشفاعةُ تكون عن رِضاً ورِقَّة، فخاف أن يُعاتَب بها ويقال: دعوتَ على الكفار بالأمس وتشفعُ لهم اليوم!

الثاني: أنه دعا غضباً بغير نصٍّ ولا إذنٍ صريح في ذلك؛ فخاف الدَّرْكَ[١] فيه يوم القيامة؛ كما قال موسى عليه السلام: إنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لم أُومر بقتلها. قال: وبهذا أقول.

قلت: وإن كان لم يؤمر بالدعاء نَصًّا فقد قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾. فأُعلم عواقبهم، فدعا عليهم بالهلاك؛ كما دعا نبيُّنا ﷺ على شَيْبة وعتبة[٢] ونظرائهم فقال: «اللهم عليك بهم»[٣]؛ لمَّا أُعلم عواقبهم؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: من يسكن الديار؛ قاله السدّيُّ[٤]. وأصله: دَيوار على فَيْعال من دار يَدور؛ فقلبت الواو ياءً وأدغمت إحداهما في الأخرى. مثل القيَّام؛ أصله: قَيْوام. ولو كان فعَّالاً لكان دوَّاراً. وقال القُتَبيُّ[٥]: أصله من الدار، أي: نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديَّار، أي: أحد. وقيل: الديّار صاحبُ الدار.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمِنَيْنِ. وهما:

---

(١) الدرْك: التبعة. القاموس (درك).

(٢) في (ظ) وعقبة.

(٣) سلف تخريجه في الصفحة السالفة، ولفظه في الصحيح: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عقبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط».

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٥ .

(٥) في تفسير غريب القرآن ص٤٨٨ ، وذكره عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧٥ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ .

لمك[١] بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيُّ. وحكى الماورديُّ[٣] في اسم أمّه: منجل. وقال سعيد بن جُبَير: أراد بوالديه أباه وجدَّه[٤].

وقرأ سعيد بن جُبَير «لِوَالِدِي» بكسر الدال على الواحد[٥]. قال الكلبيُّ: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون[٦]. وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح والدٌ فيما بينه وبين آدم عليهما السلام[٧].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ أي: مسجدي ومُصلَّاي مصلِّياً مصدِّقاً بالله[٨]. وكان إنما يَدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم، فجعل المسجد سبباً للدعاء بالمغفرة. وقد قال النبيُّ ﷺ: «الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلَّى فيه ما لم يُحْدِث فيه تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه» الحديث. وقد تقدَّم[٩]. وهذا قول ابن عباس: «بيتي»: مسجدي[١٠]؛ حكاه الثعلبيُّ وقاله الضحاك[١١].

وعن ابن عباس أيضاً: أي: ولمن دخَل دِيني، فالبيت بمعنى الدِّين[١٢]؛ حكاه القشيريُّ وقاله جُوَيْبِر. وعن ابن عباس أيضاً: يعني صديقي الداخل إلى منزلي؛ حكاه

(١) في (د) و(ظ) و(ق): لامك.
(٢) الوسيط ٤/ ٣٦٠، والكشاف ٤/ ١٦٥.
(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦.
(٤) المصدر السابق.
(٥) القراءات الشاذة ص١٦٢.
(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ من قول عطاء بنحوه.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧.
(٨) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٨.
(٩) ٢/ ٣٤، من حديث أبي هريرة ﷺ.
(١٠) زاد المسير ٨/ ٣٧٥.
(١١) النكت والعيون ٦/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٨.
(١٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧.

الماورديُّ[١]. وقيل: أراد داري. وقيل: سفينتي[٢].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عامَّةً إلى يوم القيامة؛ قاله الضحاك[٣]. وقال الكلبيُّ: من أمّة محمد ﷺ. وقيل: من قومه؛ والأوّل أظهر.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين. ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾: إلا هلاكاً، فهي عامَّة في كلِّ كافر ومشرك. وقيل: أراد مشركي قومه، والتَّبار: الهلاك. وقيل: الخسران؛ حكاهما السُّدّيُّ[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وقيل: التَّبار: الدَّمار، والمعنى واحد[٥]، والله أعلم بذلك. وهو الموفِّق للصواب.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦ وقول جويبر فيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٧ بنحوه.

سُورَةُ نُوحٍ

مَكيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ أو ثمانٍ وعِشرونٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾: بأَنْ أنذِرْ، أي: بالإنذارِ، أو: بأَنْ قُلنا له: ﴿أَنذِرْ﴾، ويجوزُ أَنْ تكونَ مُفسِّرَةً لتَضمُّنِ الإرسالِ مَعنى القولِ.

وقُرِئَ بغيرِها على إرادةِ القولِ[1].

﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: عذابُ الآخرةِ، أو الطُّوفان.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ مرَّ في الشُّعراءِ نَظيرُه، وفي ﴿أَنِ﴾ يُحتَمَلُ الوَجهانِ.

(٤) ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: بعضَ ذُنوبِكُم وهو ما سبَقَ؛ فإنَّ الإسلامَ يجُبُّه[2] فلا يؤاخِذُكُم به في الآخرةِ.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قُدِّرَ لكم بشرطِ الإيمانِ والطَّاعةِ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٩/ ٢٨٧)، عن ابن مسعود.

(٢) في نسخة الخيالي: «يجب ما قبله».

(٣) قولُه: «هو أقصَى ما قُدِّرَ لكم...» يعني: أنَّه أجلٌ معلَّقٌ بالإيمانِ، بأن يُكتَبَ في اللَّوحِ المحفوظِ أنَّهم إنْ آمنُوا يمتدُّ عمرُهم إلى مدّةِ كذا، وإلّا استؤصِلُوا وأُهلِكُوا قبلَه، وقد علِمَ الله مَن يُؤمنُ فيمتدُّ عمرُه، ومَن لم يُؤمِنْ فيُهلِكُه، وما علِمَه لا يتغيَّرُ، وهو قولُه بعده: «إنَّ الأجلَ الَّذي قدَّرَه... إلخ». قاله الشهاب.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: إن الأجلَ الذي قدَّره ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجهِ المقدَّرِ به آجلًا[١].

وقيل: إذا جاءَ الأجلُ الأطوَلُ.

﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا في أوقاتِ الإمهالِ والتَّأخيرِ ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لو كُنتُمْ مِن أَهلِ العلمِ والنَّظَرِ لعَلِمْتُم ذلك، وفيه: أنَّهُم لانهِمَاكِهم في حبِّ الحياةِ كأنَّهُم شاكُّونَ في الموتِ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: دائمًا ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ، وإسنادُ الزِّيادَةِ إلى الدُّعاءِ على السَّببيَّةِ كقولِه: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

(٧) ـ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمانِ ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببِه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: سدُّوا مسامِعَهُم عن استماعِ الدَّعوةِ ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾: تغطَّوْا بها لئلَّا يَرَوني كراهةَ النَّظرِ إليَّ مِن فَرْطِ كراهةِ دَعوَتِي، أو: لئلَّا أعرِفَهُم فأَدعُوَهم، والتَّعبيرُ بصيغَةِ الطَّلبِ للمُبالغَةِ.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾: وأكبُّوا على الكُفرِ والمَعاصي، مُستعارٌ مِن أصرَّ الحِمارُ على العانةِ ـ جماعةٌ من الحمير[٢] ـ: إذا صرَّ أذنيهِ وأقبَلَ عليها.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتِّباعِي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ عَظيمًا.

---

(١) قولُه: «على الوجهِ المقدَّرِ به آجلاً» وهو الأجل المبرم، وذلك أنه قال أوَّلاً: ﴿يؤخركم﴾ فدلَّ على أنَّ الأجلَ قد يُؤخَّرُ، ثمَّ قالَ بعدَه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فدلَّ على خلافِه، وبينَهما تناقُضٌ بحسبِ الظَّاهرِ، دُفِعَ بأنَّ الأجلَ أجلانِ، قريبٌ غيرُ مُبرَمٍ، وبعيدٌ مُبرَمٌ، وهو الأجلُ المُسمَّى، والمحكومُ عليه بالتَّأخيرِ على تقديرِ العبادةِ هو الأوَّلُ، والمحكومُ عليه بامتناعِ التَّأخيرِ هو الثَّاني؛ لأنَّ أجلَ الله حكمُه المعهودُ، والمعهودُ هو الأجلُ المُسمَّى، فلا تناقُضَ. قاله الشهاب.

(٢) «جماعة من الحمير» من نسخة التفتازاني.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: دعوتُهم مرَّةً بعدَ أخرى وكرَّةً بعدَ أُولى على أيِّ وجهٍ أمكنَني.

و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوُتِ الوُجوهِ؛ فإنَّ الجهارَ أغلَظُ مِن الإسرارِ، والجمعُ بينَهُما أغلَظُ مِن الإفرادِ، أو لتراخي بَعضِها عَن بعضٍ.

و﴿جِهَارًا﴾ نصبٌ على المصدَرِ لأنَّهُ أحدُ نَوْعَي الدُّعاءِ، أو صِفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ بمَعنى: دعاءً جهارًا؛ أي: مُجَاهَرًا به، أو الحالِ فيكونُ بمعنى: مُجاهِرًا.

(١٠) ـ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالتَّوبَةِ عَن الكُفرِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتَّائبينَ، وكأنَّهُم لَمَّا أمرَهُم بالعِبادةِ قالوا: إن كنَّا على حقٍّ فلا نتركُه، وإن كنَّا على باطلٍ فكيفَ يقبَلُنا ويَلْطُفُ بنا مَن عَصَيْنَاهُ؟! فأمرَهُمْ بما يَجُبُّ معاصيَهُم ويَجلبُ إليهِمُ المنحَ، ولذلك وعدَ لَهُم عليه ما هو أوقَعُ في قُلوبِهم.

وقيل: لَمَّا طالَتْ دَعْوَتُهم وتمادَى إصرارُهُم حبسَ اللهُ عنهم القَطْرَ أربعينَ سنَةً، وأعقَمَ أرحامَ نِسائِهِم[1]، فوعدَهُم بذلك على الاستغفارِ عمَّا كانوا عليه بقولِه:

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ ولذلك شُرِعَ الاستغفارُ في الاستسقاءِ.

و﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ تحتمِلُ المُظِلَّةَ والسَّحابَ.

والمدرارُ: كثيرُ الدُّرُورِ، يَستوي في هذا البناءِ المُذكَّرُ والمُؤنَّثُ.

والمرادُ بالجنَّاتِ: البَساتينُ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥). واعترضه أبو حيان في «البحر» (٢٠/ ٥٤٢) بقوله: وهذا لا يظهر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ الآية، فقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم.

(١٣) ـ ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾: لا تأمُلونَ له توقيرًا؛ أي: تعظيمًا لِمَن عبدَهُ وأطاعَه فتكونوا على حالٍ تأمُلونَ فيها تعظيمَهُ إيَّاكُم، و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقِّرِ، ولو تأخَّرَ لكانَ صِلَةً للوقارِ[١].

أو: لا تعتقدونَ له عظمةً فتخافوا عصيانَه، وإنَّما عبَّرَ عن الاعتقادِ بالرَّجاءِ التَّابعِ لأدنى الظنِّ مُبالغَةً.

(١٤) ـ ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ حالٌ مقرِّرةٌ للإنكارِ مِن حيثُ إنَّها موجبةٌ للرَّجاءِ، فإنَّه خلقَهُم أطوارًا؛ أي: تاراتٍ؛ إذ خلقَهُم أولًا عناصرَ، ثمَّ مركَّباتٍ تغذِّي الإنسانَ، ثمَّ أخلاطًا، ثمَّ نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثمَّ مُضغًا، ثمَّ عظامًا ولحومًا، ثمَّ أنشأَهُم خلقًا آخرَ، فإنَّه يدلُّ على أنَّه يمكنُ أن يعيدَهُم تارةً أخرى فيُعْظِمَهم بالثَّوابِ[٢]، وعلى أنَّه تعالى عظيمُ القدرةِ تامُّ الحكمةِ، ثمَّ أتبعَ ذلك ما يؤيِّدُه من آياتِ الآفاقِ فقال:

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي: في السَّماواتِ وهو في السَّماءِ الدُّنيا، وإنَّما نُسِبَ إليهنَّ لِمَا بينهنَّ مِن الملابسةِ.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ مثَّلها به لأنَّها تُزيلُ ظلمةَ الليلِ عَن وجهِ الأرضِ كما يُزيلُهَا السِّراجُ عمَّا حولَه.

(١٧) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾: أنشأَكُم منها، فاستُعيرَ الإنباتُ للإنشاءِ لأنَّه أدَلُّ على الحدوثِ والتَّكوُّنِ مِن الأرضِ، وأَصلُهُ: أنبتكُم مِن الأَرضِ إنباتًا فنبتُّمْ نباتًا، فاختُصرَ اكتفاءً بالدلالةِ الالتزاميَّةِ[٣].

---

(١) قوله: «بيان للموقر» هو بكسر القاف، كأنه لما قيل: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾، فقيل: لمن الوقار؟ فأجيب: لله، أي: لله الوقار فيوقِّركم، «ولو تأخر كان صلة للوقار»؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه. انظر: «فتوح الغيب» (١٦/ ٣٥).

(٢) في «حاشية الخفاجي»: «فيُعظمَهم درجاتٍ».

(٣) قولُه: «فاختُصِرَ اكتِفاءً بالدَّلالةِ الالتِزاميّةِ» الدَّلالةُ الالتِزاميّةُ: هي دلالةُ ﴿نَبَاتٗا﴾ على «إنباتًا» =

(١٨) ـ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مَقبورينَ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالحشرِ، وأكَّدَه بالمصدَرِ كما أكَّدَ به الأولَ دلالةً على أنَّ الإعادةَ محقَّقَةٌ كالبدءِ، وأنَّها تكونُ لا محالةَ.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلَّبونَ عليها ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسِعَةً: جمعُ فَجٍّ، و(مِن) لتضمُّنَ الفعلِ معنى الاتِّخاذِ.

(٢١) ـ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فيما أَمَرْتُهم به ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾: واتَّبَعُوا رُؤَسَاءَهُم البَطِرينَ بأموالِهم، المغترِّينَ بأولادِهِم، بحيثُ صارَ ذلك سببًا لزيادةِ خَسارِهِم في الآخرةِ، وفيه: أنَّهُم إنَّما اتَّبعوهُم لوَجاهةٍ حصلَتْ لهم بأموالٍ وأولادٍ أدَّتْ بهم إلى الخَسارِ.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ والبَصرِيَّانِ: ﴿ووُلْدُه﴾ بالضَّمِّ والسُّكونِ[1] على أنه لغةٌ كالحُزْنِ، أو جمعٌ كالأُسْدِ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَكَرُواْ﴾ عطفٌ على ﴿لَّمْ يَزِدْهُ﴾، والضَّميرُ لِـ﴿مَن﴾ وجمعُه للمَعنى ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾: كبيرًا في الغايةِ، فإنَّه أبلَغُ مِن كُبَارٍ، وهو مِن كبيرٍ، وذلك احتيالُهُم في الدِّينِ وتحريشُ النَّاسِ على أذى نوحٍ.

(٢٣) ـ ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: عبادَتِها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: ولا تذرنَّ هؤلاءِ خصوصًا.

قيل: هي أسماءُ رجالٍ صالحينَ كانوا بين آدمَ ونوحٍ فلَمَّا ماتوا صُوِّرُوا تبرُّكًا

= و«نبَتُّم»؛ لأنَّ النَّباتَ يدُلُّ على الإنباتِ ونبَتُّم التزامًا، فضاهَى قولَه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهو من بديعِ البلاغةِ؛ حيثُ بُنِيَ على غيرِ فعلِه للتَّنبيهِ على تحتُّمِ القدرةِ وسرعةِ نَفاذِ حُكمِها، حتَّى كانَ إنباتُ الله نفسَ النَّباتِ، فقُرِنَ أحدُهما بالآخرِ للدَّلالةِ على ما ذُكِرَ مع الإيجازِ اللَّطيفِ. عن الخفاجي.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٢)، و«التيسير» (ص: ٢١٥)، و«النشر» (٢/ ٣٩١).

بهم، فلمَّا طالَ الزَّمانُ عُبِدُوا، وقد انتقلَتْ إلى العربِ، فكان وَدٌّ لكلبٍ، وسُواعٌ لهَمْدانَ، ويَغوثُ لمَذْحِجٍ، ويَعُوقُ لمرادٍ، ونسرٌ لحِمْيَرَ(١).

وقرأ نافعٌ: ﴿وُدًّا﴾ بالضَّمِّ(٢)، وقُرِئَ: (يغوثًا ويعوقًا)(٣) للتَّناسُبِ، ومنعُ صَرفِهما للعَلَميَّةِ والعُجمَةِ.

(٢٤) ـ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضَّميرُ للرُّؤساءِ أو للأصنامِ، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطفٌ على ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ولعلَّ المطلوبَ هو الضَّلالُ في ترويجِ مَكرِهِم ومَصالحِ دُنياهُم لا في أمرِ دينِهِم، أو الضَّياعُ والهلاكُ، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

(٢٥) ـ ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ مِن أَجلِ خَطيئاتِهم، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والتَّفخيمِ.

وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿ممَّا خَطاياهُم﴾(٤).

﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطُّوفانِ ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ المرادُ: عذابُ القبرِ أو عذابُ الآخرةِ،

---

(١) كذا قال الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٢٩٦) في نسبة هذه الأصنام لقبائل العرب، وما رواه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه خلاف ما ذكراه، وهو قوله رضي الله عنه: صارت الأوثانُ التي كانت في قومِ نوحٍ في العرب بعدُ، أما وَدٌّ كانت لكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُوَاعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ، ثُم لبني غُطَيْفٍ بالجَوف، عند سبأ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرَ لآل ذي الكَلاعِ، أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هَلَكوا أَوْحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عُبدت.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٢) عن الأعمش.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

والتَّعقيبُ لعَدمِ الاعتدادِ بما بينَ الإغراقِ والإدخالِ، أو لأنَّ المسبَّبَ كالمعتقِبِ للسَّببِ وإن تراخى عنه لفَقدِ شرطٍ أو وُجودِ مانعٍ.

وتنكيرُ النَّارِ للتَّعظيمِ، أو لأنَّ المرادَ: نوعٌ مِن النِّيرانِ.

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريضٌ لهم باتخاذِ آلهةٍ مِن دُونِ اللهِ لا تقدرُ على نَصرِهِم.

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ أي: أحدًا، وهو ممَّا يستعملُ في النَّفيِ العامِّ، فَيْعَالٌ مِن الدَّارِ أو الدَّورِ، وأصلُه: دَيْوارٌ، ففُعِلَ به ما فعلَ بأصلِ سيِّدٍ، لا فعَّالٌ وإلَّا لكانَ دوَّارًا.

(٢٧) ـ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قالَ ذلك لَمَّا جرَّبَهُم واستقرأَ أحوالَهُم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا فعرفَ شِيَمَهُم وطِبَاعَهُم.

(٢٨) ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ لَمَكِ بنُ مَتُّوشَلَخَ، وشَمْخَا بِنْتُ أَنُوشَ، وكانا مؤمنينِ ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: منزلي، أو مَسجدِي، أو سَفينتي ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يومِ القيامَةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: هلاكًا.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ نُوحٍ كانَ مِن المؤمنينَ الذين تُدرِكُهُم دَعوَةُ نوحٍ»(١).

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٣٨٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٥٦)، من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٧١) سورة نوح مكية
وآياتها ثمان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ۞ قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ أي بيّن النذارة، ظاهر الأمر واضحه ﴿ان اعبدوا الله واتقوه﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، ﴿وأطيعونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر»، وقوله تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنَّ أمره تعالى لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا
(٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

﴿فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (نوح) عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عزَّ وجلَّ، ما لقي من قومه في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بيّن لقومه ووضّح لهم فقال: ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، وامتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فروا منه وحادوا عنه، ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ قال ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم، وقال السدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول، ﴿وأصروا﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك، والكفر العظيم الفظيع، ﴿واستكبروا استكباراً﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي جهرة بين الناس، ﴿ثم إني أعلنت لهم﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾ أي فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم، ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب الله عليه ، ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي متواصلة الأمطار، قال ابن عباس : يتبع بعضه بعضاً، وقوله تعالى: ﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ أي إذا تبتم إلى الله وأطعتموه، كثّر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأمدّكم ﴿بأموال وبنين﴾ أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ ؟ أي عظمة قال ابن عباس : لم لا تعظمون الله حق عظمته، أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ **قيل**: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة قاله ابن عباس وقتادة .

وقوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾ أي واحدة فوق واحدة، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق، وكل يقطع فلكه بحسبه فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرّة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿خلق سبع سماوات طباقاً ۔ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدّر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ أي إذا متم ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي بسطها ومهدها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات، ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ أي

خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها، ينبههم نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: مخبراً عن نوح عليه السلام، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا من غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج لا إكرام، ولهذا قال: ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ قال مجاهد: ﴿ كباراً﴾ أي عظيماً، وقال ابن زيد: ﴿ كباراً﴾ أي كبيراً، والعرب تقول: أمر عجيب وعجاب وعجّاب، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي باتباعهم لهم وهم على الضلال، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿ بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ﴿ ود﴾ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحِمْيَر لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[1]. وقال ابن جرير، عن محمد بن قيس ﴿ ويغوث ويعوق ونسراً﴾ قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[2]، وقوله تعالى: ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها إلى زماننا هذا، في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾. وقوله تعالى: ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس، وكذا روي عن عكرمة وقتادة والضحّاك.

(٢) رواه ابن جرير عن محمد بن قيس.

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم، وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم، ﴿أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ أي نقلوا من البحار إلى حرارة النار، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مجير، ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾. ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً، ولا ﴿دياراً﴾ وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحّاك ﴿دياراً﴾ واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه. وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»[1]، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه، وقوله تعالى: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم قال: ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ قال الضحّاك يعني مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن. وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2]، وقوله تعالى: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة، وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً، وقال مجاهد: إلا خساراً أي في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة نوح عليه السلام، ولله الحمد]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث غريب ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

تفسير سورة نوح

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بَيّن النّذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

و « من » هاهنا قيل : إنها زائدة . ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل . ومنه قول بعض العرب : « قد كان من مطر » . وقيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير [(١)] . وقيل : إنها للتبعيض ، أي: يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم [(٢)] .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها في العمر حقيقة ؛ كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر » .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر [الله] [(٣)] تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ⑥ وَإِنِّي

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/٥٧) .

(٢) في أ : « أو يعذبكم » .

(٣) زيادة من أ .

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ،أنه اشتكى إلى ربه، عز وجل ،ما لقى من قومه، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة التى هى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ﴾ أى: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ : قال ابن جريج ، عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد ابن جبير ، والسدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه (١) من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : فيما بينى وبينهم، فَنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه (٢) مهما كانت فى الكفر والشرك ؛ ولهذا قال: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أى : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها

---

(١) فى م:« ما هم عليه » .

(٢) فى أ: « ولو كان ذنبه » .

هذه الآية :﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء (١) التى ستنزل بها المطر .

وقال ابن عباس وغيره :يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ،كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ،وأَدَرَّ لكم الضّرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى : عظمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته ، أى : لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ، ثم من علقة ،ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ،وقتادة ، ويحيى بن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هى من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزُحل فى السابعة . وأما بقية الكواكب ــ وهى الثوابت ــ ففى فَلَك ثامن يسمونه فَلَكَ الثوابت . والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسى ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس . والأثير عندهم الذى حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهى من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائرالكواكب تبعا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق . وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه فى كل شهر مرة ، والشمس فى كل سنة مرة ، وزحل فى كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ،وإن كانت حركة الجمع فى السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه فى هذا المقام ، على اختلاف بينهم فى مواضع كثيرة ،لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه :﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا .وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ،فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ،فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) فى م :« بمجادح » ، وفى أ : « بمخارج » .

يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى : إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها [١] أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع [٢] على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل[٣] له ، ولا ندّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ : قُرئ ﴿وَوُلْده ﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ ، قال مجاهد: ﴿ كُبَّارًا ﴾ أى : عظيماً .وقال ابن زيد: ﴿ كُبَّارًا﴾ أى : كبيرا. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب . ورجل حُسَان . وحُسَّان : وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد ، بمعنى واحد .

والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أى : بأتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ:٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

قال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن ابن جريج ، وقال عطاء ، عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما وَد: فكانت لكلب بدَومة الجندل ؛ وأما

(١) فى م : « منها » . (٢) فى م :« ووسع » . (٣) فى م ، أ : « ولا عدل » .

سواع: فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطَيف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ: فكانت لهَمْدان ، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى كَلاع،وهى (١) أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم .ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ (٢) العلم عُبِدت (٣) .

وكذا رُوى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هذه أصنام كانت(٤) تعبد فى زمن نوح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس ﴿ [ويغُوثَ] (٥)وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَون المطر ، فعبدوهم (٦) .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شيث، عليه السلام ، من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرنى جُويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم ،عليه السلام ، أربعون ولدا،عشرون غلاما وعشرون جارية،فكان ممن عاش منهم:هابيل،وقابيل ،وصالح ،وعبد الرحمن ـ والذى كان سماه عبد الحارث ــ ووَدّ ، وكان وَدّ يقال له « شيث » ويقال له : « هبة الله » وكان إخوته قد سَوّدوه ، وولد له سَوَاع ويغوث ويعوق ونسر (٧).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُمَر الدّورىُّ ، حدثنى أبو إسماعيل المؤدّب ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمز عن أبى حزْرَة ، عن عروة بن الزُّبير قال : اشتكى آدم، عليه السلام ، وعنده بنوه : ود ، ويغوث ،[ويعوق] (٨) ،وسواع، ونسر ـ وكان وَدّ أكبرَهم وأبرّهم به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب ، عن أبى المطهر قال :ذكروا عند أبى جعفر ـ وهو قائم يصلى ـ يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيدَ بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عُبد فيها غيرُ الله . قال : ثم ذكر وداً ـ قال : وكان وَدٌّ رجلا مسلما وكان محببا فى قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزَعهم عليه ، تشبه فى صورة إنسان ، ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكونَ فى ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا :

---

(١) فى أ : « ونسرا وهى » . (٢) فى م : « ونسخ » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٠) .
(٤) فى م : « كانت هذه أصنام » .
(٥) زيادة من م .
(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ٦٢) .
(٧) تاريخ دمشق (٨/ ١٦٥ « المخطوط») .
(٨) زيادة من م ، أ .

نعم. فصُوِّر لهم مثله ، قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه .فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، فيكون (١) له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم. قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، وتناسلوا ودَرَس أمر ذكرهم إياه ، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ،فكان أول ما عبد غير الله : الصنم الذى سموه ودّا .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعنى: الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل، عليه السلام، فى دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] .وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَايَاهُمْ ﴾ وقرئ : ﴿ خَطِيئَاتِهِمْ﴾ ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار (٢) إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على [وجه] (٣) الأرض منهم أحداً ولا تُومُريًّا (٤) وهذه من صيغ تأكيد النفى .

قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السُّدِّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

---

(١) فى م : « ليكون » .
(٢) فى م :« البحر ».
(٣) زيادة من م ،أ .
(٤) فى م : « ولاد ومريا » .

وقال ابن أبي حاتم : قرئ [١] على يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني شَبيب ابن سعد ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا ، لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت [٢] به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها . فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة » [٣] .

هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أي : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي : فاجراً في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ : قال الضحاك : يعني : مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أنبأنا سالم بن غَيْلان : أن الوليد بن قيس التُّجِيبيّ أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدري ـ أو : عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد : ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا تصحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

ورواه أبو داود والترمذي ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، به [٤] . ثم قال الترمذي : إنما نعرفه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ،عليه السلام ، وبما جاء في الآثار ، والأدعية [المشهورة] [٥] المشروعة .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ : قال السدي : إلا هلاكا . وقال مجاهد : إلا خسارا ، أي : في الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة « نوح » [عليه السلام ولله الحمد والمنة] [٦]

---

(١) في هـ : « لما قرئ » والمثبت من م ،أ .   (٢) في م: « فلما بلغ الماء رأسها صعدت » .

(٣) وله شاهد من حديث عائشة رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٥٩١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) من طريق سعيد بن أبي مريم ، عن موسى بن يعقوب ، عن فائد مولى عبيد الله بن علي بن أبي رافع :أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » وذكره نحوه ، وقال الحاكم :« صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله : « إسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب المذكور في إسناده ليس بذاك » .

(٤) المسند (٣/ ٣٨) وسنن أبي داود برقم (٤٨٣٢) وسنن الترمذي برقم (٢٣٩٥) .

(٥) زيادة من م .   (٦) زيادة من أ .

سورة نوح عليه السلام

مكيّة،[1] وهي تسع أو ثمان وعشرون آيةً.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذرهم، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف منها الجارّ وأوصِل إليها الفعل، فإنّ حذفه مع "أنْ" و"أنّ" مُطّرِد، وجُعِلت صلتُها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠٥/١٠]، لأنّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريّة في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحّة الوصل بهما، فيتجرّد عند ذلك كلّ منهما عن المعنى الخاصّ بصيغته، فيبقى الحدث المجرّد عن معنى الأمر والنّهي والمُضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار.

وقيل: المعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذِر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لِما في الإرسال مِن معنى القول،[3] فلا يكون للجملة محلّ مِن الإعراب، وعلى الأوّل محلّها النصب عند سيبويهِ والفرّاء،

---

[1] س - مكّيّة.

[2] س - وهي تسع أو ثمان وعشرون آية؛ س + وآيها تسع وعشرون أو ثمان وعشرون.

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٤.

والجرُّ عند الخليل والكسائي كما هو المعروف.[١] وقُرئ: "أَنْذِرْ"[٢] بغير "أَنْ" على إرادة القول.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل لئلّا يبقى لهم عُذر ما أصلًا.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام بالوجه
[٢٢٨و] المذكور، / كأنّه قيل: فما فعل عليه السلام؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُنذِر موضِّح لحقيقة الأمر.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿نَذِيرٌ﴾ على الوجهين المذكورين.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلَف في الجاهليّة، فإنّ الإسلام يجبّه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنّ وَصْف الأجل بالمسمّى وتعليقَ تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريحٌ في أنّ لهم أجلًا آخرَ لا يُجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قُدِّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه مِن الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتّى لا يتحقَّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر فلا يجيءَ، ويتحقَّقَ شَرْط التأخير إلى الأجل المسمّى فتُؤخَّروا إليه.

ويجوز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنّه أَجَل موقَّت له حتمًا، وحَمْله على الأجل الأطول[٣] ممّا لا يساعده المقام؛ كيف لا، والجملةُ تعليل للأمر بالعبادة المُستتبِعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمّى، فلا بدّ أن يكون المنفيّ عند مجيء

---

١ انظر مذاهبهم وتفصيلها في شرح الرضيّ على الكافية، ١٣٧/٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٠/٣.

الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يُتصوَّر أن يكون ما فُرض مجيئه هو الأجل المسمّى.

﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون شيئًا لسارعتم إلى ما أمرتكم به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝﴾

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجيًا ربّه وحاكيًا له تعالى -وهو أعلم بحاله- ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المُدَد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاوز في الإنذار كلّ حدّ معهود وضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلَل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾ إلى الإيمان والطّاعة ﴿لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ أي: دائمًا مِن غير فتور ولا توانٍ، ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ ممّا دعوتهم إليه. وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء لسببيّته لها، كما في قوله تعالى: ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال، ٨/٢].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ / فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي: سدّوا مسامعهم مِن استماع الدعوة ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: [٢٢٤و]
بالغوا في التغطّي بها، كأنّهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تُغشّيَهم لئلّا يُبصروه كراهة النظر إليه، أو لئلّا يعرفهم فيدعوهم. ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: أكبّوا على الكفر والمعاصي، مستعار مِن "أصرّ الحمار على العانة"[1] إذا صَرّ أُذُنيه وأقبل عليها. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن اتّباعي وطاعتي ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ شديدًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝﴾

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ أي: دعوتهم تارةً بعد تارة ومرّةً غِبّ مرّة على وجوه متخالِفة وأساليبَ متفاوتة. و﴿ثُمَّ﴾

[1] العانة: الأتان، والقطيع مِن حُمُر الوحش. لسان العرب لابن منظور، «عنن».

لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهار أشدّ مِن الإسرار، والجمع بينهما أغلظ مِن الإفراد، أو لتراخي بعضها مِن بعض، و﴿جِهَارًا﴾ منصوب بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ على المصدر؛ لأنّه أحد نوعَي الدعاء، أو أريدَ بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ جاهَرتُهم، أو هو صفة لمصدر، أي: دعوتهم دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به، أو مصدر في موقع الحال، أي: مجاهرًا.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتّائبين، كأنّهم تعلّلوا وقالوا: إن كنّا على الحقّ فكيف نتركه، وإن كنّا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرًا طويلًا، فأمَرهم بما يمحَق ما سلَف منهم مِن المعاصي ويجلِب إليهم المنافع، ولذلك وعَدهم بما هو أوقَع في قلوبهم وأحبّ إليهم مِن الفوائد العاجلة. وقيل: لمّا[1] كذّبوه بعد تكرير الدعوة حبَس الله تعالى عنهم القطر وأعقَم أرحام نسائهم أربعين سنةً. وقيل: سبعين سنةً فوعَدهم أنّهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخِصبَ ويدفع عنهم ما كانوا فيه.[2]

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور، والمراد بالسماء المُظلّة أو السحاب.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها
﴿أَنْهَٰرًا﴾ / جاريةً. [٢٢٩و]

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقارًا، على أنّ الرجاء بمعنى الاعتقاد، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، على أنّ الإنكار متوجّه إلى السبب فقط مع تحقّق مضمون الجملة الحاليّة، لا إليهما معًا كما في قوله تعالى:

---

[1] س: كما.

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٥.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس، ٢٢/٣٦]. و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر وقَع حالًا مِن ﴿وَقَارًا﴾، ولو تأخَّر لكان صفةً له، أي: أيّ سبب حصَل لكم حالَ كونكم غيرَ معتقدين لله تعالى عظمةً موجِبةً لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي: والحال أنّكم على حال منافية لِما أنتم عليه بالكلّيّة، وهي أنّكم تعلمون أنّه تعالى خلَقكم تاراتٍ عناصرَ ثمّ أغذيةً ثمّ أخلاطًا ثمّ نُطفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا ثمّ عِظامًا ولُحومًا ثمّ أنشأكم خَلْقًا آخرَ، فإنّ التقصير في توقير مَن هذه شئونه في القُدرة القاهرة والإحسان التامّ مع العِلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

هذا وقد قيل: الرجاء بمعنى الأمل، أي: ما لكم لا تأملون له تعالى توقيرًا، أي: تعظيمًا لمَن عبده وأطاعه، ولا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى إيّاكم في دار الثواب، و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقَّر، ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار.[1]

والأوّل هو الذي يستدعيه الجَزالة التنزيليّة، فإنّ اللائق بحال الكفَرة استبعادُ ألّا يعتقدوا وقارًا لله وعظمَته مع مشاهدتهم لآثارها وأحكامها الموجِبة للاعتقاد حتمًا، وأمّا عدم رجائهم لتعظيم الله إيّاهم في دار الثواب فليس في حيِّز الاستبعاد والإنكار مع أنّ في جَعْل الوقار بمعنى التوقير مِن التعسّف. وفي قوله:[2] «و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقَّر ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار»[3] مِن التناقض ما لا يخفى، فإنّ كونه بيانًا للموقَّر يقتضي أن يكون التوقير صادرًا عنه تعالى والوقارُ وصفًا للمخاطَبين، وكونُه صلةً للوقار يوجِب كونَ الوقار وصفًا له تعالى.

وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظَمةً وقُدرةً على أَخْذكم بالعقوبة، أي: أيُّ عُذر لكم في تَرْك الخوف منه تعالى.[4] وعن سعيد بن جُبير / عن ابن [٢٢٩ظ] عبّاس رضي الله عنهما: «ما لكم لا تخشَون لله عقابًا ولا ترجُون منه ثوابًا»،

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.

٢ س + تعالى.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٢/٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.

وعن مجاهدٍ والضحّاك: «ما لكم لا تُبالون لله عظمةً»،[١] قال قُطْرُب: «هي لغة حِجازيّة، يقولون: لم أرجُ، أي: لم أبالِ».[٢]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: متطابقةً بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: منوِّرًا لوجه الأرض في ظلمة الليل، ونسبتُه إلى الكلّ مع أنّه في السماء الدنيا لِما أنّها محاطَة بسائر السماوات، فما فيها يكون في الكلّ، ولأنّ كلّ واحدة منها شفّافة لا تحجب ما وراءها، فيُرى الكلّ كأنّها سماء واحدة، ومِن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدةٍ منها كأنّه في الكلّ.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يُزيل ظلمة الليل، ويُبصر أهل الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض، ويشاهدون الآفاق كما يبصِر أهلُ البيت في ضوء السِّراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة، إنّما هو نور في الجملة.[٣]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنشأكم منها فاستُعير الإنبات للإنشاء لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوّن مِن الأرض، و﴿نَبَاتًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمّى اسمَ مصدر، أو لِما يترتّب عليه مِن فعله، أي: أنبتَكم مِن الأرض فنبتّم نباتًا. ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم مِن الأرض إنباتًا فنبتُّم نباتًا، فيُحذف مِن الجملة الأولى المصدر ومِن الثانية الفعل اكتفاءً في كلّ منهما بما ذُكر في الأخرى، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ [البقرة، ٢/١٠٨]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٠٧].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالدَّفن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقّقًا لا ريبَ فيه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلّبون عليها تقلُّبكم على بُسُطكم في بيوتكم. وتوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بين الجَعْل ومفعوليه مع أنّ حقّه التأخّر لِما مرّ مرارًا

---

[١] كلاهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٣١؛ واللباب لابن عادل، ١٩/٣٨٧.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٣٨٧.

[٣] س – في الجملة.

مِن الاهتمام ببيان كون المجعول مِن منافعهم والتشويقِ إلى المؤخَّر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم لا سيّما عند كون المقدَّم مُلوِّحًا بكونه مِن المنافع تبقى[1] مترقِّبةً له فيتمكّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن.

﴿لِتَسْلُكُوا/ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طُرقًا واسعةً جَمْع "فجّ"، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المَسلَك بين الجبلين.[2] و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بما قبلها لِما فيه مِن معنى الاتِّخاذ، أو بمضمر هو حال مِن ﴿سُبُلًا﴾، أي: كائنةً مِن الأرض، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها. [٢٣٠و]

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيدَ لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربّه، أي: قال مناجيًا له تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: تمّوا على عصياني فيما أمرتُهم به مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعِظة والتذكير.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واستمرّوا على اتّباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرّتهم أولادهم، وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوةً لهم في الخَسار، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنّهم إنّما اتّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لِما شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحة للاتّباع في الجملة. وقُرئ: "وَوُلْدُهُ"[3] بالضمّ والسكون على أنّه لغة كـ"الحُزْن" أو جمع كـ"الأُسد".

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطفٌ على صلة ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُول باعتبار لفظها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا في الغاية.

---

١ السياق: فإنّ النفس... تبقى...

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٩.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

وقُرئ بالتخفيف،[١] والأوّل أبلغ منه، وهو أبلغ مِن "الكبير"، وذلك احتيالهم في الدِّين وصدّهم للناس عنه وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربّ نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي: ولا تذَرُنّ عبادة هؤلاء، خصّوها بالذِّكر مع اندراجها فيما سبق لأنّها كانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم، وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان وَدّ لكلب وسُواعٌ لهَمْدان ويغوثُ لمَذْحِج ويعوقُ لمُراد ونَسْر لحِمْيَر.

[٢٣٠ظ] وقيل: هي أسماء رجال / صالحين كانوا بين آدمَ ونوح. وقيل: مِن أولاد آدمَ عليه السلام، ماتوا فقال إبليسُ لمَن بعدهم: لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبرّكون بهم ففعلوا، فلمّا مات أولئك قال لمَن بعدهم: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان وَدّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرَس، ونَسْر على صورة نسر.[٢]

وقُرئ: "وُدًّا"[٣] بضمّ "الواو" و"يَغُوثًا ويَعُوقًا"[٤] للتناسب، ومَنْعُ صرفهما للعُجمة والعَلَميّة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خلقًا كثيرًا، أو الأصنام كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ على حكاية كلام نوح بعد ﴿قَالَ﴾، وبعد "الواو" النائبة عنه، أي: قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقال: ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾. ووَضْعُ الظّاهر موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المُفرط، وتعليلُ الدعاء عليهم به. والمطلوبُ هو الضّلال

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.
٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش والأشهب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

في تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر، ٥٤/٤٧]، ويؤيّده ما سيأتي مِن دعائه عليه السلام.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: مِن أجل خطيئاتهم، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد والتفخيم، ومَن لم يرَ زيادتها جَعَلها نكرةً وجَعَل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلًا منها. وقُرئ: "مِمَّا خَطَايَاهُمْ"[١] و"مِنْ خَطِيَّاتِهِمْ"،[٢] أي: بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها مِن خطاياهم. ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان لا بسبب آخر ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المراد إمّا عذابُ القبر فهو عَقيب الإغراق، وإن كانوا في الماء. عن الضحّاك أنّهم كانوا يُغْرَقون مِن جانب ويُحْرَقون مِن جانب،[٣] أو عذابُ جهنّم،[٤] والتعقيب لتنزيله منزلةَ المتعقّب لإغراقهم لاقترابه وتحقُّقه لا محالةَ. وتنكير "النار" إمّا لتعظيمها وتهويلها، أو لأنّه تعالى أعدّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعًا مِن النّار.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يجد أحد منهم واحدًا مِن الأنصار. وفيه تعريضٌ باتّخاذهم آلهة مِن دون الله تعالى وبأنّها غير قادرة على نصرهم، وتهكّمٌ بهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطفٌ على نظيره السابق. وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾... إلخ، اعتراضٌ وُسِّط بين دُعائَيه عليه السلام للإيذان مِن أوّل الأمر، بأنّ ما أصابهم / مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلّا [٢٣١و] لأجل خطيئاتهم التي عدَّدها نوح وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها، لا أنّها حكاية لنفس الإغراق والإحراق، على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن الأحوال والأقوال وإلّا لأخّر عن حكاية دعائه هذا. و﴿ديّارًا﴾

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٣/٨، وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.

٤ السياق: إمّا عذاب القبر... أو عذاب جهنّم...

مِن الأسماء المستعمَلة في النفي العامّ، يقال: "ما بالدار ديّار أو ديّور" كـ"قيّام" و"قيّوم"، أي: أحدٌ، وهو "فَيْعال" مِن "الدَّور" أو مِن "الدَّار"، أصله "دَيْوَار" قد فُعل به ما فُعل بأصل "سيِّد"، لا "فعّال" وإلّا لكان "دوّارًا".[١]

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عليها كلًّا أو بعضًا ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقّ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: إلّا مَن سيفجُر ويكفر، فوَصَفهم بما يصيرون إليه،[٢] وكأنّه اعتذار ممّا عسى يرِد عليه مِن أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافهم مَن يؤمن مُنكَر، وإنّما قاله لاستحكام عِلمه بما يكون منهم ومِن أعقابهم بعدما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريبًا مِن ألف سنةٍ.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه مُتَوَشْلِخُ وأمّه شمخا بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[٣] وقُرئ: "وَلِوَلَدَيَّ"[٤] يريد سامًا وحامًا. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي.[٥] ﴿مُؤْمِنًا﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان، ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلّا بعد ما قيل له: إنّه ليس مِن أهلك، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[٦] ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّهم بالدّعاء إثرَ ما خصّ به مَن يتّصل به نسبًا ودينًا.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا. قيل: غرق معهم صبيانهم أيضًا، لكنّ لا على وجه العقاب لهم؛ بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعزّ عليهم مِن أنفسهم.[٧]

قال عليه السلام: «يهلِكون مَهلِكًا واحدًا ويصدرون مصادرَ شتّى»،[٨] وعن الحسن أنّه سئل عن ذلك فقال: «عَلِم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب»،[٩]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عليّ والزُّهري وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.
٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٦ في الآية السادسة والأربعين منها.
٧ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤-٤٦٩.
٨ مسند أحمد، ٢٥٧/٤١ (٢٤٧٣٨)؛ وصحيح مسلم، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٤.
٩ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٤.

وقيل: / أعقَم الله تعالى أرحامَ نسائهم وأيبَس أصلاب آبائهم قبل الطّوفان [٢٣١ظ] بأربعين أو سبعين سنةً فلم يكن معهم صبيّ حين غرقوا.[١]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة نوح كان مِن المؤمنين الذين تُدرِكهم دعوة نوح عليه السلام».[٢]

---

١ **القول في الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٩/٤.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٨٤/٢٧ (نوح، ١/٧١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٦/٤ (نوح، ١/٧١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧١

سورة نوح

مكية، ثمانٍ أو تسعٌ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إِنَّا أَرسَلْنا نُوحًا إِلَى قَومِهِ أن أنذِرْ﴾ أي: بإنذارِ ﴿قَومَكَ مِن قَبلِ أن يأتِيَهُم﴾، إن لم يُؤمنوا، ﴿عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم في الدنيا والآخرة. ٢ ـ ﴿قالَ: يا قَومِ، إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار ٣ ـ ٤ ـ ﴿أَنِ﴾ أي: بأن أقول لكم: ﴿اعبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ وأَطِيعُونِ، يَغفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُم﴾ ـ مِن: زائدةٌ. فإن الإسلام يُغفَر به ما قبله، أو تبعيضيةٌ لإخراجِ حقوق العباد ـ ....

سورة نوح

قولُهُ: (أي: بِإِنذَارِ) أشارَ إلى أنَّ ﴿أن﴾ مصدَريَّةٌ، لكن لا يَصِحُّ مَعنًى؛ لأنَّه يَصيرُ التَّقديرُ: أرسَلنا نُوحاً إلى قومِهِ بإنذارِ قومِكَ، والعَجَبُ من البَيضاوِيِّ[1] أنَّهُ اختارَ هذا القَولَ ثمَّ قالَ: أو بأن قُلنا له: أنذِر، ثمَّ قالَ: ويجوزُ أن تكونَ مُفسِّرةً؛ لتضمُّنِ الإرسالِ مَعنى القَولِ، ولا يخفَى أنَّ إعرابَهُ الثَّاني أيضاً لا يَخلو عن تكلُّفٍ، فالمفسِّرَةُ هي المتعيِّنَةُ للتَّفسيرِ، والله أعلم.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) الطُّوفانُ.

قولُهُ: (أي: بِأَنْ أَقُولَ) قدَّرَ القولَ لصحَّةِ المعنى؛ إذ لا مَعنى لقولِهِ: ﴿نَذِير﴾ لعبادَةِ الله، والأظهَرُ هنا أيضاً أنَّها تفسيرِيَّةٌ؛ لأنَّ الإنذارَ يتضَمَّنُ مَعنى القَولِ.

قولُهُ: (لِإِخرَاجِ) أو لأنَّ المغفورَ ما سبَقَ، وهو بعضُ الذُّنوبِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٨).

﴿وَيُؤَخِّرْكُم﴾ بلا عذاب ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: أجلِ الموت. ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ﴾ بعذابكم، إن لم تؤمنوا، ﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ. لَو كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ ذلك لآمنتم.

٥ ـ ﴿قَالَ: رَبِّ، إِنِّي دَعَوتُ قَومِي لَيلاً ونَهارًا﴾ أي: دائمًا مُتّصلاً، ٦ ـ ﴿فَلَم يَزِدْهُم دُعائيَ إلاّ فِرارًا﴾ عن الإيمان، ٧ ـ ٨ ـ ﴿وإِنِّي كُلَّما دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أصابِعَهُم في آذانِهِم﴾ لئلاّ يسمعوا كلامي، ﴿واستَغشَوا ثِيابَهُم﴾: غطَّوا رُؤوسهم بها لئلاّ يُبصروني، ﴿وأَصَرُّوا﴾ على كُفرهم، ﴿واستكبَرُوا﴾ تكبّروا عن الإيمان ﴿استِكبارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوتُهُم جِهارًا﴾ أي: بأعلى صوتي، ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّيَ أعلَنتُ لَهُم﴾ صوتي، ﴿وأَسرَرتُ لَهُم﴾ الكلامَ ﴿إسرارًا، فقُلتُ: استَغفِرُوا رَبَّكُم﴾ من الشِّرك ـ ﴿إِنَّهُ كانَ غَفّارًا ـ يُرسِلِ السَّماءَ﴾ المطرَ، وكانوا قد مُنِعوه، ﴿عَلَيكُم مِدرارًا﴾: كثير الدُّرور، ١٢ ـ ﴿ويُمدِدْكُم بِأَموالٍ وبَنِينَ، ويَجعَلْ لَكُم جَنّاتٍ﴾: بساتينَ، ﴿ويَجعَلْ لَكُم أنهارًا﴾ جارية. ....

قولُهُ: (أَجَلِ المَوتِ) أو هو أقصى ما قَدَّرَ لكم بشَرطِ الإيمانِ والطَّاعةِ، (بِعَذَابِكُم) أو الأجلِ الذي قَدَّرَهُ ﴿إذا جَاءَ﴾ على الوَجهِ المقدَّرِ به أجلاً، وقيل: إذا جاءَ الأجلُ الأطوَلُ ﴿لا يُؤَخَّر﴾، فبادِروا في أوقاتِ الإمهالِ والتَّأخيرِ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) وفيه أَنَّهُم لانهماكِهِم في حُبِّ الحَياةِ كأنَّهم شاكُّونَ في الموتِ، ولذا قالَ الغَزاليُّ[1]: ما يَقينٌ أشبَهُ بالشَّكِّ من الموتِ.

قولُهُ: (عنِ الإِيمَانِ) وإسنادُ الزِّيادةِ إلى الدُّعاءِ على السَّببيَّةِ.

قولُهُ: (لِئَلا ينْظرُوني) كَراهَةَ النَّظَرِ إليَّ من فَرطِ كراهَتِهِم دَعوَتي.

قولُهُ: (عنِ الإِيمَانِ) أو عن اتِّباعي.

قولُهُ: (أي: بِأَعلَى صَوتِي) ونصَبُهُ على المصدَرِ؛ لأنَّه أحَدُ نَوعي الدُّعاءِ، أو على الحال؛ أي: مُجاهِراً.

قولُهُ: (الكَلامَ) أي: دَعوتُهُم مَرَّةً بعد أُخرى، على أيِّ وَجهٍ أمكَنَني، و﴿ثُمَّ﴾ لتَراخي بَعضِها عن بَعضٍ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) بالتَّوبَةِ.

قولُهُ: (المَطَرَ) أو السَّحاب، أو المظَلَّة.

قولُهُ: (مُنِعُوهُ) أربَعينَ سنَةً، وأعقَمَ أرحامَ نسائِهِم.

قولُهُ: (كَثِيرَ الدُّرُورِ) أي: السَّيلانِ.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٣) فذكره بلفظ: قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

١٣ ـ ﴿ما لَكُم، لا تَرجُونَ لِلهِ وَقارًا﴾ أي: تؤمّلون وقارَ الله إياكم بأن تُؤمنوا، ١٤ ـ ﴿وقَد خَلَقَكُم أطوارًا﴾: جمعُ طَور. وهو الحال ـ فطورًا نطفةً وطورًا علقةً إلى تمام خلق الإنسان ـ والنظر في خلقه يُوجب الإيمانَ بخالقه؟

١٥ ـ ﴿ألَم تَرَوا﴾: تنظروا: ﴿كَيفَ خَلَقَ اللهُ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا﴾ بعضُها فوق بعض، ١٦ ـ ﴿وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في مجموعهنّ الصادقِ بالسماء الدنيا ﴿نُورًا، وجَعَلَ الشَّمسَ سِراجًا﴾: مِصباحًا مُضيئًا، وهو أقوى من نور القمر؟ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿واللهُ أنبَتَكُم﴾: خلقَكم ﴿مِنَ الأرضِ﴾ إذ خلق أباكم آدمَ منها ﴿نَباتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيها﴾ مقبورِينَ، ﴿ويُخرِجُكُم﴾ للبعث ﴿إخراجًا، واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ بِساطًا﴾: مبسوطة ﴿لِتَسلُكُوا مِنها سُبُلاً﴾: طُرقًا ﴿فِجاجًا﴾: واسعة.

٢١ ـ ﴿قالَ نُوحٌ: رَبِّ، إنَّهُم عَصَونِي، واتَّبَعُوا﴾ أي: السَّفَلَةُ والفُقراءُ ﴿مَن لَم يَزِدهُ مالُهُ ووُلْدُهُ﴾ ـ وهم الرُّؤساءُ المُنعَمُ عليهم بذلك. وولد بضمّ الواو وسكون اللام وبفتحهما.........

قولُهُ: (﴿وَقَاراً﴾) توقيراً؛ أي: تَعظيماً لمن عبدَهُ وأطاعَهُ، فتكونونَ على حالٍ تَأمُلونَ فيها تَعظيمَهُ إيَّاكُم، و﴿لله﴾ بَيانٌ للموقَّرِ بكَسرِ القافِ، ولو تَأخَّرَ لكانَ صلَةً للوَقارِ، وبهذا يَتبَيَّنُ ما في كَلامِ الشَّيخِ.

قولُهُ: (جَمعُ: طَورٍ) أي: تاراتٍ.

قولُهُ: (وَهوَ) الظَّاهِرُ أنَّه راجِعٌ إلى السِّراجِ، ولا يَصِحُّ معنًى، ولذا قالَ البَيضاويُّ[1]: مَثَّلَها به؛ لأنَّها تُزيلُ ظُلُماتِ اللَّيلِ عن وَجهِ الأرضِ كما يُزيلُها السِّراجُ عمَّا حولَهُ؛ يعني: التَّشبيهُ لا يلزَمُ أن يكونَ من جميعِ الوجوهِ، ولا يَبعُدُ أن يرجِعَ إلى الضِّياءِ المستَفادِ من مصدَرِ قولِهِ: (مُضِيئاً) واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (خَلَقَكُم) أي: أنشَأكُم منها، فاستُعِيرَ الإنباتُ للإنشاءِ؛ لأنَّه أدَلُّ على الحُدوثِ والتَّكَوُّنِ من الأرضِ، فأصلُهُ: أنبَتَكُم إنباتاً فنَبَتُّم نَباتاً، فاختُصِرَ اكتِفاءً بالدَّلالَةِ الالتِزاميَّةِ.

قولُهُ: (للبَعثِ) أو للحَشرِ.

قولُهُ: (مَبسُوطَةً) أو بساطاً يَتقلَّبونَ عليها.

قولُهُ: (طُرُقاً) و﴿من﴾ لتضَمُّنِ الفِعلِ مَعنى الاتِّخاذِ.

قولُهُ: (بذَلِكَ) أي: البَطِرينَ بأموالِهِم المغتَرِّينَ بأولادِهِم بحيثُ صارَ ذلك سَبَباً لزيادَةِ خَسارِهِم في الآخِرَة.

قولُهُ: (وبِفَتحِهِما) نافِعٌ وشاميٌّ وحَفصٌ[2].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

والأول قيل: جمع وَلَد بفتحهما كخُشْب وخَشَب. وقيل: بمعناه كبُخْل وبَخَل ـ ﴿إلاّ خسارًا﴾: طُغيانًا وكُفرًا، ٢٢ ـ ﴿ومَكَرُوا﴾ أي: الرؤساءُ ﴿مَكْرًا كُبّارًا﴾: عظيمًا جِدًّا بأن كذّبوا نُوحًا وآذَوه ومن اتّبعه، ٢٣ ـ ﴿وقالُوا﴾ للسَّفلة: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهتكُم، ولا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ ـ بفتح الواو وضمّها ـ ﴿ولا سُواعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسرًا﴾ هي أسماء أصنامهم. ٢٤ ـ ﴿وقَد أضَلُّوا﴾ بها ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، بأن أمروهم بعبادتها، ﴿ولا تَزِدِ الظّالِمِينَ إلاّ ضَلالاً﴾: عطفٌ على «قد أضلّوا». دعا عليهم لمّا أُوحي إليه «أنّه لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلاّ مَن قَد آمَنَ».

٢٥ ـ ﴿مِمّا﴾ ـ ما: صلة ـ ﴿خَطاياهُم﴾، وفي قِراءةٍ: «خَطِيئتِهِم» بالهمز، ﴿أُغرِقُوا﴾ بالطوفان، ﴿فأُدخِلُوا نارًا﴾ عُوقبوا بها عَقِبَ الإغراق تحت الماء، ....

قولُهُ: (أي: الرُّؤَسَاءُ) عطفٌ على: ﴿لَم يَزِده﴾، والضَّميرُ لـ﴿مَنْ﴾ وجمعُهُ للمَعنى.

قولُهُ: (جِدًّا) فإنَّهُ أبلَغُ من كُبار، وهو من كَبِيرٍ.

قولُهُ: (بأَن كَذَّبُوا) أو احتالوا في الدِّين وحَرَّشوا النَّاسَ على أذى نُوحٍ.

قولُهُ: (للسَّفَلَةِ) أو بَعضُهُم لبَعضٍ.

قولهُ: (وضَمِّهَا) نافعٌ[1]؛ أي: عبادَتَها.

قولُهُ: (هي) الظَّاهِر: هي أو هُنَّ.

قولُهُ: (عطفٌ) الظَّاهرُ عُطِف على: ﴿رَبِّ إنَّهُم عَصُونِي﴾، وهو الملائِمُ لقَولِ الشَّيخِ: دَعا عليهم، قَالَ القاضِي[2]: ولعَلَّ المطلوبَ هو الضَّلالُ في تَرويجِ مكرِهِم ومصالِحِ دنياهُم، لا في أمرِ دينِهم أو الضَّياعُ والهَلاكُ[3].

قولُهُ: (﴿ما﴾ صِلَةٌ) للتَّأكيدِ؛ أي: من أجلِ خَطاياهُم.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) لغَيرِ البَصريِّ[4]، صَنيعُهُ هذا يُشيرُ إلى أنَّ قراءَتَهُ الخاصَّة كانت بَصريَّةً، وإلا فالأنسَبُ جَعلُ قراءَةِ الجُمهورِ أصلاً.

قولُهُ: (عُوقِبُوا بِهَا) يعني: في البَرزَخ.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥٠).

(٣) في (م): «الهلاك».

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

﴿فلَم يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ﴾ أي: غيرَ ﴿اللهِ أنصارًا﴾ يمنعون عنهم العذاب.

٢٦ ـ ﴿وقالَ نُوحٌ: رَبِّ، لا تَذَرْ علَى الأرضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّارًا﴾ أي: نازلَ دار ـ والمعنى: أحدًا. ٢٧ ـ ﴿إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبادَكَ، ولا يَلِدُوا إلاّ فاجِرًا كَفّارًا﴾ مَن يفجُر ويكفر. قال ذلك لِما تقدّم من الإيحاء إليه ـ ٢٨ ـ ﴿رَبِّ، اغفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ﴾، وكانا مُؤمنَين، ﴿ولِمَن دَخَلَ بَيتِي﴾: منزلي أو مَسجدي ﴿مُؤمِنًا ولِلمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾ إلى يوم القيامة، ﴿ولا تَزِدِ الظّالِمِينَ إلاّ تَبارًا﴾: هلاكًا. فأُهلكوا.

قولُهُ: (العَذَابَ) لا عَذابَ الإغراقِ، ولا عَذابَ الإحراقِ، تَعرِيضٌ لهم باتِّخاذِ آلِهَةٍ من دُونِ الله لا تَقدِرُ على نَفعِهِم.

قولُهُ: (نَازِلَ دَارٍ) أو دائِراً، فيُقال: من الدَّارِ أو الدُّورِ.

قولُهُ: (مَن يَفجُرُ) مَجازٌ باعتِبارِ الصَّيرورَةِ والمآلِ.

قولُهُ: (لِمَا تَقَدَّم) ولمَّا جرَّبَهُم وتتَبَّعَ أحوالَهُم ألفَ سَنَةٍ إلا خَمسينَ عاماً، فعرَفَ شيَمَهُم وطِباعَهُم.

قولُهُ: (وكَانَا مُؤمِنَينِ) وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَير: والِدِهُ وجدِّهِ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ[1].

قولُهُ: (أو مَسجِدِي) أو سَفينَتي، والله أعلمُ.

* * *

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٩٥).

سُورَةُ نُوحٍ
عليه السلام

مكيَّة بالاتفاق، وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي، وتسع في البصري والشامي، وثلاثون فيما عدا ذلك.

ووجه اتِّصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطيُّ(١) - وأشار إليه غيره - أنه سبحانه لمَّا قال في سورة المعارج: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عقَّبه تعالى بقصة قوم نوح عليه السلام المشتملةِ على إغراقهم عن آخرهم بحيث لم يَبْقَ منهم في الأرض ديَّار، وبدَّل خيراً منهم، فوقعت موقعَ الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى، كما وقعت قصة أصحاب الجنَّة في سورة «ن» موقعَ الاستظهار لما ختم به تبارك هذا، مع تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرون.

ووجه الاتصال على قول مَن زعم أنَّ السائل هو نوح عليه السلام ظاهر، وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ يقرؤها على قوم نوح عليه السلام يوم القيامة، أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إنَّ الله تعالى يدعو نوحاً وقومَه يوم القيامة أوَّلَ الناس، فيقول: ماذا أجبتم نوحاً؟ فيقولون: ما دعانا وما بلَّغنا ولا نصحنا ولا أمرنا ولا نهانا. فيقول نوح عليه السلام: دعوتهم يا ربِّ دعاء فاشياً في الأوَّلين والآخِرين أمة بعد أمة، حتى انتهى إلى خاتم النبيين أحمدَ ﷺ، فانْتَسَخه وقرأه وآمنَ به وصدَّقه. فيقول الله عزَّ وجلَّ للملائكة عليهم السلام: ادعوا أحمد وأمَّته. فيَدْعونهم، فيأتي رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه يسعى نورهم بين أيديهم،

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٨.

فيقول نوح عليه السلام لمحمَّد ﷺ وأمَّتِه: هل تعلمون أنِّي بلَّغتُ قومي الرسالة، واجتهدتُ لهم بالنصيحة، وجهدت أن أستنقذهم من النار سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. فيقول رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه: فإنَّا نشهد بما أَنشدتنا أنَّك في جميع ما قلت من الصادقين. فيقول قومُ نوح عليه السلام: وأنَّى علمتَ هذا أنت وأمّتُك ونحن أوَّل الأمم وأنتُم آخِرُ الأمم؟! فيقول رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ حتى يختم السورة، فإذا ختمها، قالت أمَّتُه: نشهد أنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ، وما مِن إله إلا الله، وأنَّ الله لهو العزيز الحكيم. فيقول الله عزَّ وجلَّ عند ذلك: امتازوا اليومَ أيُّها المجرمون»[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ هو اسم أعجميٌّ، زاد الجواليقيُّ: معرَّب[٢]. والكرمانيُّ: معناه بالسريانية: الساكن[٣]، وصُرفَ؛ لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه، وليس بعربيٍّ أصلاً، وقول الحاكم في «المستدرك»[٤]: إنما سُمِّيَ نوحاً؛ لكثرة نَوْحِه وبكائه على نفسه، واسمه: عبد الغفَّار. لا أظنُّه يصحُّ، وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قذراً، فبصق عليه فأنطقه الله تعالى، فقال: أتعيبني أم تعيب خالقي؟! فندم وناح لذلك.

والمشهور أنه عليه السلام: ابن لَمْك[٥] ـ بفتح اللام وسكون الميم بعدها

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٧، والمستدرك ٢/ ٥٤٧-٥٤٨.

(٢) المعرَّب ص٣٧٨.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٨.

(٤) لم نقف عليه في مطبوعه، والقول ذكره العيني في عمدة القاري ١٥/ ٢١٧ دون عزوه للحاكم.

(٥) جاء في هامش الأصل: ويقال: لامك، بفتح الميم وكسرها، وكان تقياً صالحاً، وفي زمانه كثرت الجبابرة من ولد قابيل، عاش ثمان مئة سنة. منه.
وورد أيضاً: يقال: استخلفه إدريس بأمر الله تعالى قبل رَفْعِه، وهو فيما قيل: أول من ركب الخيل وجاهد، عاش تسع مئة واثنتين وثمانين سنة، وتوفي في أيلول. منه.

كاف - ابن مَتُّوشَلَخ - بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة - ابن خَنُوخ - بفتح الخاء المعجمة[1] وضمِّ النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع: أخنوخ بهمزةٍ أوَّله، وهو إدريس[2] عليه السلام - بن يَرْد - بمثناة من تحت مفتوحة ثم راء ساكنة مهملة - ابن مهلائيل[3] بن قينان[4] بن أنوش[5] - بالنون والشين المعجمة - ابن شِيت[6] - بالتاء المثناة آخِرَه[7] - بن آدم عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنه عليه السلام بعد إدريس عليه السلام.

وفي «المستدرك» أنَّ أكثر الصحابة ﷺ على أنَّه قبل إدريس[8]، وفيه عن ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون[9]. وفيه أيضاً مرفوعاً: «بعث الله تعالى نوحاً لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستِّين سنة حتى كثر الناس وفشوا»[10].

وذكر ابنُ جرير[11] أنَّ مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بمئة وستَّة وعشرين عاماً، وفي «التهذيب» للنووي[12] رحمه الله تعالى أنه أطول الأنبياء عليهم السلام عُمُراً. وقيل: إنَّه أطول الناس مطلقاً عمراً، فقد عاش - على ما قال شدَّاد - ألفاً

---

(١) جاء في هامش الأصل: وقيل: بالحاء المهملة.
(٢) جاء في هامش الأصل: رفعه الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة. منه.
(٣) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وخمسة وستين. منه.
(٤) جاء في هامش الأصل: عاش سبع مئة وسبعين سنة.
(٥) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة.
(٦) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة. اهـ. ووقع في (م): شيث. بالثاء، وكذا في أكثر مصادر ترجمته.
(٧) قوله: بالتاء المثناة آخره. ليس في (م).
(٨) المستدرك ٢/ ٥٤٦.
(٩) المستدرك ٢/ ٥٤٦، وأخرجه أيضاً الطبري في التاريخ ١/ ١٧٨.
(١٠) المستدرك ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.
(١١) في تاريخه ١/ ١٧٤.
(١٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٣٤.

وأربع مئة وثمانين سنة. ولم يُسمع عن أحد أنه عاش كذلك. يعني بالاتفاق؛ لئلا يَرد الخَضِرُ عليه السلام، وقد يجاب بغير ذلك.

وهو على ما قيل: أوَّل مَن شُرعت له الشرائع وسُنَّت له السنن، وأوَّل رسول أنذر على الشرك وأُهلكت أمَّته. والحقُّ أنَّ آدم عليه السلام كان رسولاً قبله أُرسل إلى زوجته حوَّاء ثم إلى بَنِيْه، وكان في شريعته ما نسخ بشريعة نوح في قولٍ، وفي آخر: لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان.

ويقال لنوح عليه السلام: شيخ المرسَلِين، وآدم الثاني. وكان دقيقَ الوجه في رأسه طولٌ، عظيم العينين، غليظ العَضُدين، كثير لحم الفخذين، ضخم السُّرَّة، طويل اللِّحية والقامة، جسيماً. واختلف في مكان قبره؛ فقيل: بمسجد الكوفة. وقيل: بالجبل الأحمر، وقيل: بذيلِ جبلِ لبنان بمدينة الكرك.

وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يَخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ قيل: هم سكان جزيرة العرب ومَن قَرُبَ منهم، لا أهل الأرض كافَّة؛ لاختصاص نبيِّنا ﷺ بعموم البعثة مِن بين المرسَلِين عليهم السلام، وما كان لنوح بعد قصَّة الغَرَق على القول بعمومه أمْرٌ اتفاقي، واشتهر أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يسكن أرضَ الكوفة وهناك أُرسل.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: أي أنذر قومك، على أنَّ «أنْ» تفسيريَّة؛ لِمَا في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محلَّ للجملة من الإعراب، أو: بأنْ أنذرهم، أي: بإنذارهم، أو: لإنذارهم، على أنَّ «أنْ» مصدريَّة وقبلها حرف جرٍّ مقدَّرٌ وهو الباء أو اللام، وفي المحلِّ بعد الحذف من الجرِّ والنصب قولان مشهوران، ونصَّ أبو حيَّان على جواز هذا الوجه في بحره هنا، ومنعه في موضع آخر[1].

وحَكَى المنعَ عنه ابنُ هشام في «المغني»[2]، وقال: زعم أبو حيَّان أنَّها لا توصل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٨ و١/ ٣٨١ على الترتيب.
(٢) مغني اللبيب ص٤٤-٤٥.

بالأمر، وأنَّ كلَّ شيء سمع من ذلك فـ «أنْ» فيه تفسيريَّة، واستدلَّ بدليلين:

أحدهما: أنَّهما إذا قُدِّرا بالمصدر فات معنى الأمر.

الثاني: أنهما لم يقعا فاعلاً ولا مفعولاً، لا يصحُّ: أعجبني أنْ قُمْ، ولا: كرهت أنْ قُمْ، كما يصحُّ ذلك مع الماضي والمضارع.

والجواب عن الأوَّل: أنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات معنى المُضِيِّ والاستقبال في الموصولة بالمضارع والماضي عند التقدير المذكور، ثم إنه يُسلِّم مصدريَّة المخفَّفة مع لزوم نحو ذلك فيها في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنْ غَضِبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾(١) [النور: ٩] إذ لا يفهم الدعاء من المصدر إلا إذا كان مفعولاً مطلقاً نحو: سقياً ورعياً.

وعن الثاني: أنه إنَّما منع ما ذكره لأنَّه لا معنى لتعليق الإعجاب والكراهية بالإنشاء، لا لِمَا ذكره، ثم ينبغي له أنْ لا يُسلِّم مصدريَّة «كي»؛ لأنها لا تقع فاعلاً ولا مفعولاً، وإنَّما تقع مخفوضة بلام التعليل، ثم ممَّا يُقْطَعُ به على قوله بالبطلان حكاية سيبويه: كتبت إليه بأن قم. واحتمال زيادة الباء ـ كما يقول ـ وهمٌ فاحشٌ؛ لأنَّ حروف الجرِّ مطلقاً لا تدخل إلا على الاسم أو ما في تأويله. انتهى.

وأجاب بعضهم عن الأول أيضاً بأنَّه عند التقدير يقدَّر الأمر، فيقال فيما نحن فيه مثلاً: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه بالأمر بإنذارهم. وتعقِّب بأنَّه ليس هناك فِعْلٌ يكون الأمرُ مصدرَه كـ : أَمَرْنا أو نأمُر، ثم إنه يكون المعنى في نحو: أمرته بأن قم: أمرته بالأمر بالقيام، وأشار الزمخشريُّ إلى جواب ذلك وهو أنَّه إذا لم يَسبق لفظ الأمر أو ما في معناه من نحو: رسمت، فلا بدَّ من تقدير القول، لئلا يبطل الطلب، فيقال هنا: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر، أي: بالأمر بالإنذار(٢)، وإذا سبقه ذلك لا يحتاج إلى(٣) تقديره؛ لأن مآل العبارات ـ أعني: أمرته بالقيام، و: أمرته بأن قم، و: أن قم، بدون الباء، على أنَّها مفسِّرة ـ إلى واحد.

---

(١) وهي قراءة نافع كما سلف عند تفسير الآية، وينظر شرح الدماميني للمغني ١/ ٦٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦١.
(٣) في (م): إلا.

وفي «الكشف»: لو قيل: إنَّ التقدير: وأرسلناه بالأمر بالإنذار، من دون إضمار القول؛ لأنَّ الأمريَّة ليست مدلولَ جوهر الكلمة بل من متعلَّق الأداة، فيقدَّر بالمصدر تبعاً، وفي أمر المخاطب اكتفي بالصيغة تحقيقاً، لكان حسناً، وهذا كما أنَّ التقدير في: أن لا يزنيَ خيرٌ له: عدم الزنى، فيقدَّر النفي بالمصدر على سبيل التبعيَّة، وأمَّا إذا صرِّح بالأمر، فلا يحتاج إلى تقدير مصدر للطلب أيضاً، هذا ولو قدر: أمرته، بالأمر بالقيام، أي: بأنْ يأمر نفسَه به مبالغة في الطلب، لم يبعد عن الصواب، ولمَّا فُهم منه ما فُهم من الأوَّل وأبلغ، استُعمل استعماله من غير ملاحظة الأصل، وادَّعى بعضهم أنَّ تقديرَ القول هنا ليس لئلا يفوتَ معنى الطلب، بل لأنَّ الباء المحذوفة للملابسة، وإرسالُ نوح عليه السلام لم يكن ملتبساً بإنذاره لتأخُّره عنه، وإنما هو ملتبس بقول الله تعالى له عليه السلام: «أنذر»، ولمَّا كان هذا القول منه تعالى لطلب الإنذار، قيل: المعنى: أرسلناه بالأمر بالإنذار، وكأنَّ هذا القائل لا يبالي بفوات معنى الطلب كما يقتضيه كلام ابنِ هشام المتقدِّم آنفاً.

وبحث الخفاجيُّ[1] فيما ذكروه من الفوات، فقال: كيف يفوت معنى الطلب وهو مذكور صريحاً في «أنذر» ونحوه؟ وتأويله بالمصدر المسبوك تأويل لا ينافيه؛ لأنَّه مفهوم[2] أخذوه من موارد استعماله، فكيف يبطل صريح منطوقه، فما ذكروه ممَّا لا وجهَ له وإن اتفقوا عليه، فاعرفه. انتهى.

وأقول: لعلَّهم أرادوا بفواتِ معنى الطلب فواتَه عند ذِكْر المصدر الحاصل من التأويل بالفعل، على معنى أنَّه إذا ذكر بالفعل لا يتحقَّق معنى الطلب، ولا يتَّحد الكلامان، ولم يريدوا أنَّه يفوت مطلقاً، كيف وتحقُّقه في المنطوق الصريح كنارٍ على عَلَم، ويؤيِّد هذا منعُهم بطلانَ اللازم المشار إليه بقول ابنِ هشام: إنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات المضيِّ والاستقبال.. إلخ، فكأنَّه قيل: لا نُسلِّم أنَّ هذا الفوات باطل، لم لا يجوز أن يكون كفوات معنى المضيِّ والاستقبال، وفوات معنى الدعاء في نحو: «أنْ غَضِبَ»، وقد أجمعوا أنَّ ذلك ليس

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٨.

(٢) في الحاشية: لأنه مفهوم منه.

باطل؛ لأنَّه فواتٌ عند الذكر بالفعل وليس بلازم، وليس بفواتٍ مطلقاً؛ لظهور أنَّ المنطوق الصريح متكفِّل به، فتدبَّر.

وقرأ ابن مسعود: «أنذر» بغير «أن»(١) على إرادة القول، أي: قائلين: أنذر.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ عاجل، وهو ما حلَّ بهم من الطوفان، كما قال الكلبيُّ، أو: آجل، وهو عذاب النار، كما قال ابن عباس، والمراد: أنذرهم مِن قَبْل ذلك؛ لئلا يبقى لهم عذرٌ ما أصلاً.

﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فما فَعَلَ عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ منذِر موضِح لحقيقة الأمر، واللام في «لكم» للتقوية أو للتعليل، أي: لأجل نفعكم من غير أن أسألكم أجراً.

وقوله تعالى ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ متعلِّق بـ «نذير» على مصدريَّة «أنْ» وتفسيريتها، ومرَّ نظيره في «الشعراء»(٢).

وقوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر، واختُلف في «من» فقيل: ابتدائيَّة، وإن لم تصلح هنا لمقارنة «إلى»، وابتداءُ الفعل من جانبه تعالى على معنى أنَّه سبحانه يبتدئهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم إحساناً منه عزَّ وجلَّ وتفضُّلاً، وجوِّز أن يكون مِن جانبهم على معنى: أوَّل ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرةُ ذنوبهم، وليس بذاك.

وقيل: بيانيَّة، ورجوعها إلى معنى الابتدائيَّة استبعده الرضيُّ، ويقدَّر قبلها مبهم يفسَّر بمدخولها، أي: يغفر لكم أفعالكم التي هي الذنوب.

وقيل: زائدة على رأي الأخفش المجوِّز لزيادتها مطلقاً، وجزم بذلك هنا.

وقيل: تبعيضيَّة، أي: يغفر لكم بعضَ ذنوبكم. واختاره بعض.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٨، والكشاف ٤/ ١٦١.
(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الآية: ١٠٨].

واختُلف في البعض المغفور؛ فذهب قوم إلى أنَّه حقوق الله تعالى فقط السابقة على الإيمان، وآخرون إلى أنَّه ما اقترفوه قَبْلَ الإيمان مطلقاً؛ لظاهر ما ورد مِن أنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قَبْلَه، واستشكل ذلك العزُّ بنُ عبد السلام في «الفوائد المنتشرة» وأجاب عنه. فقال: كيف يصحُّ هذا على رأي سيبويه الذي لا يرى كالأخفش زيادتها في الموجب، بل يقول: إنَّها للتبعيض، مع أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه بحيث لا يبقى منه شيء؟ والجواب: إنَّ إضافة الذنوب إليهم إنَّما تصدق حقيقةً فيما وقع، إذ ما لم يقع لا يكون ذنباً لهم، وإضافة ما لم يقع على طريق التجوُّز كما في: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] إذ المراد بها الأيمان المستقبَلَة، وإذا كانت الإضافة، تارة تكون حقيقة، وتارة تكون مجازاً، فسيبويه يجمع بين الحقيقة والمجاز فيها، وهو جائز، يعني عند أصحابه الشافعيَّة، ويكون المراد مِن بعض ذنوبكم البعضَ الذي وقع. انتهى.

ولا يَحتاج إلى حديث الجمع مَن خَصَّ الذنوبَ المغفورة بحقوق الله عزَّ وجلَّ، وهاهنا بحث وهو أن الحمل على التبعيض يأباه ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقد نصَّ البعليُّ[1] في «شرح الجمل» على أنَّ ذلك هو الذي دعا الأخفش للجزم بالزيادة هنا، وجعله ابنُ الحاجب حجَّة له، وردَّه بعض الأجلَّة بأنَّ الموجبة الجزئيَّة من لوازم الموجبة الكليَّة، ولا تناقضَ بين اللازم والملزوم، ومبناه الغفلةُ عن كون مدلول «مِن» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة عن الكليَّة المنافية لها لا الشاملة لِمَا في ضمنها المجتمعة معها، وإلَّا لَمَا تحقَّق الفرق بينها وبين «مِن» البيانيَّة من جهة الحكم، ولَمَا تيسَّر تمشية الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه فيما إذا قال: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. بناءً على أنَّ «من» للتبعيض عنده، وللبيان عندهما، قال في «الهداية»: وإن قال لها: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. فلها أن تطلِّق نفسَها واحدة أو ثنتين، ولا تَطلُق ثلاثاً

---

(١) شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي الفتح الحنبلي، شارح كتاب «الجمل في النحو» لعبد القاهر الجرجاني، وصاحب «المطلع على أبواب المقنع»، توفي سنة (٧٠٩هـ). كشف الظنون ١/ ٥٩٩، والأعلام ٣٢٦.

عند أبي حنيفة، وقالا: تَطلُق ثلاثاً إن شاءت؛ لأنَّ كلمة «ما» محكمةٌ في التعميم، وكلمة «من» قد تستعمل للتمييز، فتحمل على تمييز الجنس، ولأبي حنيفة أنَّ كلمة «من» حقيقة في التبعيض و«ما» للتعميم، فيُعمل بهما[1]. انتهى. ولا خفاءَ في أنَّ بناء الجواب المذكور على كون «من» للتبعيض إنَّما يصحُّ إذا كان مدلولها حينئذٍ البعضيَّةَ المجردة المنافية للكليَّة، ومن هنا تعجب مِن صاحب «التوضيح» في تقرير الخلاف المذكور حيث استدلَّ على أولويَّة التبعيض بتيقُّنه، ولم يَدْرِ أنَّ البعض المراد قطعاً على تقدير البيان البعضُ العامُّ الشاملُ لِمَا في ضمن الكُلِّ، لا البعضُ المجرَّد المراد هاهنا، فبالتعليل على الوجه المذكور لا يتمُّ التقريب، بل لا انطباقَ بين التعليل والمعلّل على ما قيل، وصوّب العلَّامة التفتازانيّ حيث قال فيما علَّقه على «التلويح» مستدلًّا على أن البعضيَّة التي تدلُّ عليها «من» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة المنافية للكليَّة لا البعضيَّة التي هي أعمُّ من أن تكون في ضمن الكُلِّ أو بدونه: لاتِّفاق النحاة على ذلك حيث احتاجوا إلى التوفيق بين قوله تعالى: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فقالوا: لا يبعد أن يغفر سبحانه الذنوبَ لقومٍ وبعضَها لآخرين، أو خطاب البعض لقومِ نوح عليه السلام، وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة، ولم يذهب أحد إلى أنَّ التبعيضَ لا ينافي الكليَّة. ولم يصوّب الشريف في ردِّه عليه قائلاً: وفيه بحثٌ؛ إذ الرضيُّ صرَّح بعدم المنافاة بينهما حيث قال: ولو كان أيضاً خطاباً لأمَّة واحدة، فغفرانُ بعضِ الذنوب لا يناقض غفرانَ كلِّها بل عدم غفران بعضها يناقض غفرانَ كلِّها = لأنَّ قول الرضيِّ غيرُ مرتضًى؛ لِمَا عرفْتَ مِن أنَّ مدلول التبعيضيَّة البعضيَّةُ المجرَّدة.

واعترض قول النحاة: أو خطاب البعض لقوم نوح عليه السلام وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة = بأنَّ الإخبار عن مغفرة البعض ورد في مواضع، منها قوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ١٠] ومنها في سورة «الأحقاف»: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ٣١] ومنها ما هنا وهو الذي ورد في قوم نوح عليه السلام، وأما ما ذكر في «الأحقاف»

(١) الهداية (مع فتح القدير) ٣/ ١٢٤-١٢٥.

فقد ورد في الجِنّ، وما ورد في «إبراهيم» فقد ورد في قوم نوح وعاد وثمود على ما أفصح به السياق، فكيف يصحُّ ما ذكروه؟

وقيل: جيء بـ «من» في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقةً بين الخطابين. ووجِّه بأنَّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفَّار مرتَّبةٌ على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّب عن المعاصي ونحو ذلك، فتتناول الخروج عن المظالم.

واعترض بأنَّ التفرقةَ المذكورة إنَّما تتمُّ لو لم يجئ الخطاب للكفرة على العموم، وقد جاءت كذلك كما في سورة الأنفال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية: ٣٨]. وقد أسلفنا ما يتعلَّق بهذا المقام أيضاً، فتذكَّر وتأمَّل.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدَّره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة، وراءَ ما قدَّره عزَّ وجلَّ لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنَّ وصف الأجل بالمسمَّى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أنَّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّره عزَّ وجلَّ لكم على تقدير بقائكم على ما أنتم عليه ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقَّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر والعصيان، فلا يجيء ويتحقَّق شرط التأخير إلى الأجل المسمَّى فتؤخَّروا إليه. وجوِّز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله سبحانه: (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنَّه أجل مؤقَّت له حتماً. وأيَّاما كان لا تناقضَ بين «يؤخركم» و«إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر» كما يتوهَّم.

وقال الزمخشري[1] في ذلك ما حاصله: إنَّ الأجل أجلان، و«أجل الله» حُكْمُه حكمُ المعهود، والمراد منه الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال، والجملة عنده

(١) ينظر الكشاف ٤/ ١٦١، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٤٩.

تعليلٌ لِمَا فُهم من تعليقه سبحانه التأخير بالأجل المسمَّى وهو عدم تجاوز التأخير عنه. والأول هو المعوَّل عليه، فإنَّ الظاهر أنَّ الجملة تعليلٌ للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخيرِ إلى الأجل المسمَّى، فلا بُدَّ أن يكون المنفي عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يتصوَّر أن يكون ما فرِض مجيئه هو الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال؟

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به، لكنَّكم لستم مِن أهله في شيء، فلذا لم تُسارعوا، فجواب «لو» مما يتعلَّق بأوَّل الكلام، ويجوز أن يكون مما يتعلَّق بآخِره، أي: لو كنتم مِن أهل العلم لعلمتم ذلك، أي: عدم تأخير الأجل إذا جاء وقتُه المقدَّر له، والفعل في الوجهين منزَّل منزلةَ اللازم، ويجوز أن يكون محذوفاً؛ لقصد التعميم، أي: لو كنتم تعلمون شيئاً، ورجِّح الأوَّل بعدم احتياجه للتقدير. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على استمرار النفي المفهوم مِن «لو»، وجعل العِلْم المنفي هو العلم النظري لا الضروري ولا ما يعمّه فإنَّه مما لا ينفى، اللَّهمَّ إلا على سبيل المبالغةِ.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجياً ربَّه عزَّ وجلَّ وحاكياً له سبحانه بقصد الشكوى ـ وهو سبحانه أعلم بحاله ـ ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غايةَ المجهود، وجاز في الإنذار كلَّ حدٍّ معهود، وضاقت عليه الحيل وعيَّت به العلل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ أي: دائماً من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ مما دعوتهم إليه، وإسناد الزيادة إلى الدعاء مِن باب الإسناد إلى السبب على حدِّ الإسناد في: سرَّتني رؤيتُك.

و«فراراً»، قيل: تمييز، وقيل: مفعول ثانٍ، بناءً على تعدِّي الزيادة والنقص إلى مفعولين، وقد قيل: إنَّه لم يثبت وإن ذكره بعضهم.

وفي الآية مبالغات بليغة، وكان الأصل: فلم يجيبوني، ونحوه، فعبَّر عن ذلك بزيادة الفرار المستندة للدعاء، وأوقعت عليهم مع الإتيان بالنفي والإثبات.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان، فمتعلَّق الفعل محذوف، وجوّز جعله منزَّلاً منزلة اللازم، والجملة عطف على ما قبلها، وليس ذلك من عطف المفصَّل على المجمل كما توهّم حتى يقال: إنَّ الواو من الحكاية لا من المحكي.

﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سَدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة، فهو كناية عمَّا ذكر، ولا منعَ من الحمل على الحقيقة، وفي نسبة الجعل إلى الأصابع وهو منسوبٌ إلى بعضها وإيثارِ الجعل على الإدخال ما لا يخفى ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: بالغوا في التغطّي بها كأنَّهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم؛ لئلَّا يَرَوْه، كراهةَ النظر إليه مِن فَرط كراهة الدعوة، ففي التعبير بصيغة الاستفعال ما لا يخفى مِن المبالغة، وكذا في تعميم آلة الإبصار وغيرها مِن البدن بالستر مبالغة في إظهار الكراهة، ففي الآية مبالغة بحسب الكيف والكمِّ.

وقيل: بالَغُوا في ذلك؛ لئلا يعرفَهم عليه السلام فيدعوهم. وفيه ضعف؛ فإنَّه قيل عليه: إنَّه يأباه ترتُّبه على قوله: «كلما دعوتهم»، اللهم إلا أن يجعل مجازاً عن إرادة الدعوة، وهو تعكيس للأمر وتخريب للنظم.

﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: أكبُّوا على الكفر والمعاصي وانهمكوا وجَدُّوا فيها، مستعار من: أصرَّ الحمارُ على العانة[1]: إذا صرَّ أذنيه ـ أي: رفعهما ونصبهما مستويَيْن ـ وأقبل عليها يكدمها[2] ويطردها، وفي ذلك غاية الذمِّ لهم، وعن جارِ الله: لو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار لكفى به مزجرة، كيف والتشبيه في أسوأ أحواله وهو حال الكَدْم والسِّفاد.

وما ذكر من الاستعارة قيل: في أصل اللغة، وقد صار الإصرار حقيقة عرفيَّة في الملازمة والانهماك في الأمر. وقال الراغب: الإصرار: التعقُّد في الذَّنْب والتشدُّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله مِن: الصَّرِّ، أي: الشَّدِّ[3]. ولعلَّه لا يأبى ما تقدَّم بناء على أنَّ الأصل الأوَّل الشَّدُّ، والأصل الثاني ما سمعت أوَّلاً.

---

(١) العانة: جماعة الحمير الوحشية. فقه اللغة للثعالبي ص٢٠٤.
(٢) الكَدْم: العضُّ بأدنى الفم. «مختار الصحاح» (كدم).
(٣) المفردات (صر).

﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ من اتِّباعي وطاعتي ﴿ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ عظيماً، وقيل: نوعاً من الاستكبار غير معهود، والاستكبار: طلب الكِبْر مِن غير استحقاق له.

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ أي: دعوتهم مرَّة بعد مرَّة، وكرَّة غبَّ كرَّة، على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم الأوقات، وقوله: «ثم إني دعوتهم جهاراً» يشعر بمسبوقيَّة الجهر بالسِّرِّ وهو الأليق بمَن همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللطف بالمدعوِّ، فـ «ثم» لتفاوت الوجوه، وإن الجهار أشدُّ من الإسرار، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد.

وقال بعض الأجلَّة: ليس في النظم الجليل ما يقتضي أنَّ الدعوة الأولى كانت سرًّا فقط، فكأنه أُخِذَ ذلك من المقابلة ومِن تقديم قوله: «ليلاً»، وذكرِهم بعنوان قومه، وقولِه: «فراراً» فإنَّ القرب ملائم له.

وجوّز كون «ثم» على معناها الحقيقي، وهو التراخي الزماني، لكنه باعتبار مبدأ كلٍّ من الإسرار والجِهار ومنتهاه، وباعتبار منتهى الجمع بينهما؛ لئلا ينافي عموم الأوقات السابق، ويحسن اعتبار ذلك، وإن اعتبر عمومها عرفيًّا كما في: لا يضع العصا عن عاتقه.

و«جهاراً» منصوب بـ «دَعَوْتُهم» على المصدريَّة؛ لأنَّه أحد نوعي الدعاء، كما نصب القرفصاء في: قعدتُ القرفصاءَ عليها؛ لأنَّها أحدُ أنواع القعود، أو أريد بـ «دعوتهم»: جاهرتهم. أو: صفة لمصدر محذوف، أي: دعوتهم دعاءً جِهاراً، أي: مجاهَراً ـ بفتح الهاء ـ به، أو: مصدر في موقع الحال، أي: مجاهِراً، بزنة اسم الفاعل.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي، فإنَّه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، وقال: «ربّكم»، تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ دائم المغفرة، كثيرها للتائبين، كأنهم تعلَّلوا وقالوا: إنْ كنَّا على الحقِّ فكيف نتركه، وإن كنَّا على الباطل فكيف يَقْبلنا ويلطف بنا جلَّ وعلا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟! فأمرهم بما يَمحقُ ما سلف منهم مِن المعاصي ويجلب إليهم المنافع، ولذلك

وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحبُّ إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية، أعني ما تضمَّنه: «يرسل السماء» إلخ، وأَحبِّيتُهم لذلك؛ لِمَا جبلوا عليه من محبَّة الأمور الدنيويَّة:

والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ(١)

قال قتادة: كانوا أهلَ حبٍّ للدنيا، فاستدعاهم إلى الآخرة مِن الطريق التي يحبُّونها. وقيل: لمَّا كذَّبوه عليه الصلاة والسلام بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القَطْر، وأعقمَ أرحام نسائهم أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخِصْبَ، ويدفع عنهم ما هم فيه، وهو قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ أي: كثير الدُّرُور، أي: السيلان، و«السماء»: السحاب أو المطر، ومن إطلاقها على المطر وكذا على النبات أيضاً قولُه:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضاباً(٢)

وجوِّز أن يراد بها المُظِلَّة على ما سمعت غيرَ مرَّة، وهي تذكَّر وتؤنَّث، ولا يأبى تأنيثها وصفها بـ «مدراراً»، وأنَّ صيغ المبالغة كلَّها ـ كما صرَّح به سيبويه ـ يشترك فيها المذكَّر والمؤنَّث. وفي «البحر»(٣): إنَّ مفعالاً لا تلحقه التاء إلا نادراً.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها أو مطلقاً ﴿أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ جارية، وأعاد فِعْلَ الجعل دون أن يقول: يجعل لكم جنات وأنهاراً؛ لتغايرهما، فإنَّ الأوَّل ممَّا لفعلهم مدخل فيه بخلاف الثاني، ولذا قال: «يمددكم بأموال وبنين» ولم يُعِدِ العامل، كذا قيل، وهو كما ترى.

ولعلَّ الأولى أن يقال: إنَّ الإعادة للاعتناء بأمر الأنهار، لِمَا أنَّ لها مدخلاً عاديّاً أكثريّاً في وجود الجنَّات وفي بقائها مع منافعَ أُخَرَ لا تخفى، ورعاية لمدخليتها في بقائها الذي هو أهمُّ مِن أصل وجودها مع قوَّة هذه المدخليَّة أخِّرت

---

(١) عجز بيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٧، وصدره:

إنـي لآمـل مـنـك خـيـراً عـاجـلاً

(٢) سلف ١١/ ٥٠٨.

(٣) ٨/ ٣٣٩.

عنها، وأن ترك إعادة العامل مع البنين؛ لأنَّه الأصل، أو لأنه لمَّا كان الإمداد أكثرَ ما جاء في المحبوب، ولا تكمل محبوبيَّة كلٍّ من الأموال والبنين بدون الآخر، ترك إعادة العامل بينهما؛ للإشارة إلى أنَّ التفضُّل بكلٍّ غير منغِّص بفقد الآخر، وتأخير البنين، قيل: لأنَّ بقاء الأموال غالباً بهم لا سيما عند أهل البادية، مع رمز إلى أنَّ الأموال تصل إليهم آخِرَ الأمر، وهو مما يسرُّ المتموِّل كما لا يخفى، فتأمَّل.

وقال البقاعيُّ: المراد بالجنَّات والأنهار ما في الآخرة[١]. والجمهور على الأوَّل.

وروي عن الربيع بنِ صبيح أنَّ رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجَدْبَ، فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه الفقرَ، فقال له: استغفرِ الله تعالى. وأتاه آخر، فقال: ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً. فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه جفافَ بساتينه، فقال له: استغفر الله تعالى. فقلنا: أتاك رجال يشكونَ ألواناً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار؟ فقال: ما قلتُ مِن نفسي شيئاً إنَّما اعتبرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن نبيِّه نوح عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ إنكار لأن يكون لهم سببٌ مّا في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً، على أنَّ الرجاء بمعنى الخوف، كما أخرجه الطستي عن ابنِ عباس مجيباً به سؤالَ نافع بنِ الأزرق منشداً قولَ أبي ذؤيب:

إذا لَسَعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وحالفها في بيتِ نُوْب عواسِلِ[٢]

أو على أنَّه بمعنى الاعتقاد، كما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وجماعة[٣]، وعبَّر به بالرجاء التابع لأدنى الظَّنِّ مبالغةً، و«لا ترجون» حال من ضمير المخاطبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في «لكم» على أنَّ الإنكار متوجِّه

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، وفي نظم الدرر للبقاعي ٢٠/ ٤٣٨. «ويجعل لكم» أي: في الدارين.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والبيت سلف ١١/ ٣٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والعظمة لأبي الشيخ (٧٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٣/ ٢٩٥.

إلى السبب فقط مع تحقُّق مضمون الجملة الحاليَّة، لا إليهما معاً، و«لله» متعلِّق بمضمر وقع حالاً من «وقاراً»، ولو تأخَّر لكان صفة له.

والوقار كما رواه جماعة عن الحبر بمعنى العظمة؛ لأنَّه على ما نقل الخفاجيُّ عن «الانتصاف»[1] وَرَدَ في صفاته تعالى بهذا المعنى ابتداءً، أو لأنَّه بمعنى التؤدة، لكنها غيرُ مناسبة له سبحانه فأطلقت باعتبار غايتها وما يتسبَّب عنها من العظمة في نفس الأمر، أو في نفوس الناس، أي: أيّ سبب حصل لكم حالَ كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عظمةً موجبة لتعظيمه سبحانه بالإيمان به جلَّ شأنه والطاعة له تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي: والحال أنَّكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكليَّة وهو أنَّكم تعلمون أنَّه عزَّ وجلَّ خلقكم مدرجاً لكم في حالات: عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نُطَفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خَلْقاً آخَر، فإنَّ التقصير في توقير مَن هذا شأنه في القدرة القاهرة والإحسان التامِّ مع العلم بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل، فالجملة حال من فاعل «لا ترجون» مقرِّرة للإنكار، والأطوار: الأحوال المختلفة، وأنشدوا قوله:

فإن أفاقَ فقد طارت عَمايَتُه والمرء يُخْلَقُ طوراً بعد أطوار[2]

وحَمْلُها على ما سمعت من الأحوال مما ذهب إليه جمع، وعن ابنِ عباس ومجاهد ما يقتضيه، وإن اقتصرا على ذكر النطفة والعَلَقة والمضغة، وقيل: المراد بها الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من الصِّبا والشباب والكهولة والشيوخة والقوَّة والضعف. وقيل: من الألوان والهيئات والأخلاق والمِلل المختلفة. وقيل: من الصِّحَّة والسقم، وكمال الأعضاء ونقصانها، والغنى والفقر، ونحوها.

هذا، وقيل: الرجاء بمعنى الأمل كما هو الأصل المعروف فيه، والوقار بمعنى التوقير كالسلام بمعنى التسليم، وأريد به التعظيم، و«لله» بيان للموقَّر المعظَّم، فهو خبر مبتدأ محذوف، أي: إرادتي لله، أو متعلِّق بمحذوف يفسِّره المذكور، أي:

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، والانتصاف ٤/ ١٦٣.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٩، والعَماية: الضلالة.

وقاراً لله، ولم يعلّق بالمذكور بناء على ما صحّح ـ على ما فيه ـ من أنَّ معمولَ المصدر مطلقاً لا يتقدَّم عليه، ولو تأخَّر لكان صلة له، على ما في «الكشاف»[(١)] وفيه: أنَّ المعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيمَ الله تعالى إياكم في دار الثواب. وحاصله: ما لكم لا ترجون أن تُوقَّروا وتُعظَّموا، على البناء للمفعول، فكأنه قيل: لِمَن التوقير؟ أي: مَن الذي يعظِّمنا ويختصّ به إعظامه إيَّانا؟ فقيل: لله، وفسَّره بقوله: على حال.. إلخ، إشارة إلى أنَّه ينعي عليهم اغترارَهم، كأنَّه قيل: ما لكم مغترِّين غير راجين. وجعل الحثّ على الرجاء كناية عن الحثِّ على الإيمان والعمل الصالح؛ لاقتضائه انعقاد الأسباب، بخلاف الغرور، وهي كناية إيمائيَّة إذ لا واسطة، ولو جعلت رمزيَّة ـ لخفاء الفَرْق بين الرجاء والغرور على الأكثر ـ لكان وجهاً، قاله في «الكشف».

وتعقَّب ذلك مفتي الديار الروميَّة ـ عليه الرحمة ـ بأنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى إياهم في دار الثواب ليس في حيِّز الاستبعاد والإنكار، مع أنَّ في جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسُّف، وفي جعل «لله» بياناً للموقّر ودعوى أنَّه لو تأخَّر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى، فإنَّ كونه بياناً للموقّر يقتضي أن يكون التوقير صادراً عنه تعالى، والوقار وصفاً للمخاطبين، وكونه صلة للوقار يوجب كون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له عزَّ وجلَّ[(٢)]. انتهى.

وأجيب عن أمر التناقض بأنَّك إذا قلت: ضَرْبٌ لزيد، جاز أن يكون زيد فاعلاً وأن يكون مفعولاً، وكفى شاهداً صحَّة الإضافتين، فعند التأخُّر يحتمل أن يكون الوقار بمعنى التوقير صادراً منه تعالى، فيكون الوقار وصفاً للمخاطبين، ويحتمل أن يكون متعلِّقاً به فيكون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له تعالى، غاية ما في الباب أنَّه لما قدَّم «لله» وامتنع تعلُّقه بالمصدر المتأخِّر صار بياناً، وعيَّنت القرينة إرادة صدور التوقير عنه عزَّ وجلَّ، وأين هذا من التناقض؟ نعم يبقى الكلام في القرينة، ولعلَّها السياق بناء على أنَّ القوم استبعدوا أن يُقبلوا ويَلطف الله تعالى بهم

---

(١) ٤/١٦٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/٣٨-٣٩.

إن هم تركوا باطلهم، فيكون هذا من تتمَّة إزالة الشبهة فيما سمعت مِن قولهم: كيف يَقبلُنا ويلطف بنا.. إلخ، ويعلم مِن هذا الجوابُ عن قوله: إنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى ليس في حَيِّز الاستبعاد، كما لا يخفى، وعليه قيل: يكون قوله تعالى: «وقد خلقكم» إلى قوله سبحانه: «فجاجاً» للدلالة على أنَّه جلَّ شانه لا يزال ينعم عليكم مع كفركم فكيف لا يلطف بكم ويوقِّركم إذا آمنتم، وتفسَّر الأطوار بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة كالصبا والشباب والكهولة وغيرها مما يكون بعضه في حال الكفر ويصلح لأن يمتنّ به، ويُلتزم كون الإعادة في الأرض من النِّعَم عندهم بناء على أنَّ فيها سترَ فظاعة الأبدان على أسهل وجه بعد حلول الموت الضروري في هذه النشأة.

والإنصاف بعد هذا كلِّه ـ تمَّ أم لم يتمَّ ـ أنَّ الوجه المذكور متكلَّف بعيدٌ عن الظاهر بمراحل.

وقيل: المعنى: ما لكم لا تخافون لله تعالى حِلْماً وتَرْكَ معاجَلةٍ بالعقاب فتؤمنوا، فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار بمعنى الحلم، حقيقةٌ كما هو ظاهر كلام الراغب[1]، أو استعارة له؛ لاشتراكهما في التأنِّي، أو مجاز إذ لا يتخلَّف الحلم عن الوقار عادةً، وفي رواية عن ابن عباس تفسيره بالعاقبة حيث قال: أي: لا تخافون لله عاقبة، وهو من الكناية حينئذٍ أخذاً من الوقار بمعنى الثبات، وعن مجاهد والضحَّاك أنَّ المعنى: ما لكم لا تبالون لله تعالى عظمة. قال قطرب: هذه لغة أهل الحجاز وهذيل وخزاعة ومضر، يقولون: لم أَرْج، أي: لم أُبالِ. وأَظْهَرُ المعاني ما ذكرناه أوَّلاً.

ولمَّا ذكر من آيات الأنفس ما ذكر أتبعه بشيء من آيات الآفاق، ولبُعد أحد الأمرين عن الآخر رتبةً لم يأتِ بالعطف، بل قطع فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ أي: متطابقةً بعضُها فوق بعض، وتفسير التطابق بالتوافق في الحسن والاشتمال على الحِكَم وجودة الصنع ما تَرى في خَلْق الرحمن مِن تفاوتٍ عدولٌ عن الظاهر الذي تطابقت عليه الأخبار مِن غير داعٍ إليه.

---

(١) المفردات (وقر).

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله فيهنَّ مع أنَّه في إحداهنَّ وهي السماء الدنيا، كما يقال: زيد في بغداد، وهو في بقعة منها، والمرجّح له الإيجاز والملابسة بالكليَّة والجزئيَّة، وكونها طباقاً شفافةً.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ يزيل ظلمةَ الليل، ويبصر أهلُ الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهلُ البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وتنوينُه للتعظيم، وفي الكلام تشبيه بليغ، ولكون السراج أعرف وأقرب جعل مشبَّهاً به، ولاعتبار التعدِّي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور كان أبلغَ منه، ولعلَّ في تشبيهها بالسراج القائم ضياؤه به[(١)] لا بطريق الانعكاس رمزاً إلى أنَّ ضياءَها ليس منعكساً إليها مِن كوكب آخر، كما أنَّ نور القمر منعكس عليه من الشمس؛ لاختلاف تشكُّلاته بالقُرب والبُعد منها، مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها، وجزم أهل الهيئة القديمة بذلك، وفي رواية ـ لا أظنُّها تصحُّ ـ أنَّ ضياء الشمس مفاضٌ عليها من العرش، وأظنُّ أنَّ مَن يقول: إنَّها تدور على كوكب آخر ـ مِن أهل الهيئة الجديدة ـ يقول باستفادتها النورَ مِن غيرها.

ثم الظاهر أنَّ المراد: وجَعَل الشمس فيهنَّ، فقيل: هي في السماء الدنيا في فلك في ثخنها، وقيل: في السماء الرابعة، وهو المشهور عند متقدِّمي أهل الهيئة، واستدلُّوا عليه بما هو مذكور في كتبهم، وفي «البحر»[(٢)] حكاية قول: إنَّها في الخامسة، ولا يكادُ يصحُّ. ومما يُضحِك الصبيان فضلاً عن فحول ذوي العرفان ما حكي فيه أيضاً أنَّها في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وذهب متأخِّرو أهل الهيئة إلى أنَّها مركز للسيارات وعدُّوا الأرضَ منها، ولم يعدُّوا القمرَ؛ لدورانه على الأرض، وهو بينها وبين الشمس عندهم، وسنعمل إن شاء الله تعالى رسالةً في تحقيق الحقِّ، والحقُّ عند ذَوِيْه أظهر من الشمس.

---

(١) قوله: به، ساقط من (م).
(٢) ٨/ ٣٤٠.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي: أنشأكم منها، فاستُعير الإنبات للإنشاء؛ لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوُّن مِن الأرض، لكونه محسوساً وقد تكرَّر إحساسه، وهم وإن لم ينكروا الحدوثَ جُعلوا بإنكار البعث كمَن أنكره، ففي الكلام استعارة مصرّحة تبعيَّة.

و«من» ابتدائيَّة داخلة على المبدأ البعيد، و«نباتاً» قال أبو حيان[1] وجماعة: مصدر مؤكِّد لـ «أنبتكم» بحذف الزوائد، والأصل إنباتاً، أو نصب بإضمار فعل، أي: فنبتُّم نباتاً، وفي «الكشف»: إنَّ الإنبات والنبات من الفعل والانفعال، وهما واحد في الحقيقة، والاختلاف بالنسبة إلى القيام بالفاعل والقابل، فلا حاجةَ إلى تضمين فعل آخر ولا تقديره، ثم إنَّ الإنبات إنْ حُمل على معناه الوضعي فلا احتياج إلى التقدير، إذ هو في نفسه متضمِّن للنبات، كما أشرنا إليه، فيكون «نباتاً» نصباً بـ «أنبتكم» لهذا التضمُّن، وإن حُمل على المتعارف مِن إطلاقه على مقدِّمة الإنبات من إخفاء الحَبِّ في الأرض مثلاً، فالوجه الحمل على أنَّ المراد: أنبتكم فنبتم نباتاً؛ ليكون فيه إشعار بنحو النكتة التي جرت في قوله تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] من الدلالة على القدرة وسرعة نفاذِ حكمها.

وجوّز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتُّم نباتاً، فحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل؛ اكتفاءً بما ذكر في الأخرى، على أنَّه مِن الاحتباك، وقال القاضي: اختُصِرَ اكتفاءً بالدلالة الالتزامية. وفيه على ما قال الخفاجيُّ الإشعار المذكور[2]، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض بالدَّفْن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ محقَّقاً لا ريبَ فيه، وعطف «يعيدكم» بـ «ثم» لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المتراخي الواقع فيه التكليف الذي به استحقُّوا الجزاءَ بعد الإعادة، وعطف «يخرجكم» بالواو دون «ثم» مع أنَّ الإخراج كذلك؛ لأنَّ أحوال البرزخ والآخرة في حكم شيء واحد، فكأنه قضية واحدة ولا يجوز أن

(١) البحر ٨/ ٣٤٠.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٢، وبهامشه تفسير القاضي البيضاوي.

يكون بعضها محقَّقَ الوقوع دون بعض، بل لا بُدَّ أن تقع الجملة لا محالةَ وإن تأخَّرت عن الإبداء.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ تتقلَّبون عليها كالبساط، وليس فيه دلالة على أنَّ الأرضَ مبسوطةٌ غيرُ كريَّة كما في «البحر»(١) وغيره؛ لأنَّ الكرة العظيمةَ يَرى كلُّ مَن عليها ما يليه مسطَّحاً. ثم إنَّ اعتقاد الكريَّة أو عدمها ليس بأمر لازم في الشريعة، لكنَّ كريتها كالأمر اليقيني وإن لم تكن حقيقية، ووجه توسيط «لكم» بين الجعل ومفعوله الصريح يُعلم ممَّا مرَّ غيرَ مرَّة.

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ واسعات، جمع: فجٍّ، فهو صفة مشبَّهة نعت لـ «سبلاً»، وقال غير واحد: هو اسم للطريق الواسعة. وقيل: اسم للمسلَك بين الجبلين، فيكون بدلاً أو عطفَ بيان. و«من» متعلِّقة بما قبلها لتضمُّنه معنى الاتِّخاذ، وإلا فهو يتعدَّى بـ «في»، أو بمضمر هو حال من سبلاً، أي: سبلاً كائنة مِن الأرض، ولو تأخَّر لكان صفة لها.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربِّه عزَّ وجلَّ، أي: قال عليه السلام مناجياً له تعالى شاكياً إليه عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: داموا على عصياني فيما أَمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ أي: واستمرُّوا على اتِّباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرَّتهم أولادهم، وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، فصاروا أُسوةً لهم في الخسار، والظاهر أنَّ اتِّباع عامَّتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك إشعار بأنَّهم اتَّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لا لِمَا شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحَة للاتِّباع في الجملة.

وقرأ ابن الزبير والحسن والنخعي والأعرج ومجاهد والأخوان وابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية خارجة عنه: «وَوُلْدُهُ» بضمِّ الواو وسكون اللام(٢)،

---

(١) ٨/ ٣٤٠.

(٢) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن الأخوين وابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٣٤١، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥.

فقيل: هو مفردٌ لغةٌ في وَلَد ـ بفتحهما ـ كالحَزَن والحُزْن، وقيل: جمع له كالأَسَد والأُسْد. وفي «القاموس»(١): الوَلَد محرَّكة، وبالضمِّ والكسر والفتح: واحدٌ وجمعٌ، وقد يُجمَع على أولاد ووِلْدَة وإِلْدَة ـ بكسرها ـ ووُلْد بالضمِّ. انتهى.

وقرأ بالكسر والسكون الحسن أيضاً والجحدري وقتادة وذرٌّ وطلحة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو في رواية(٢).

﴿وَمَكَرُواْ﴾ عطف على صلةِ «مَن»، والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار لفظها، وكأنَّ فيه إشارة إلى اجتماعهم في المكر ليكون أشدَّ وأعظم. وقيل: عطف على «عَصَوْني»، والأوَّل أنسب؛ لدلالته على أنَّ المتبوعين ضَمُّوا إلى الضلال الإضلالَ، وهو الأوفق بالسياق، فإنَّ المتبادر أنَّ ما بعده من صفة الرؤساء أيضاً، واعتبارُ ذلك العطف على أنَّ المعنى: مكر بعضهم ببعض، وقال بعضهم لبعض، خلافُ المتبادر.

﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: كبيراً في الغاية، فهو من صيغ المبالغة، قال عيسى بنُ عمر: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

بيضاء تصطادُ القلوبَ وتَستبي ... بالحُسْن قَلْبَ المسلم القُرَّاءِ

وقوله:

والمرءُ يُلْحِقُه بفِتْيانِ النَّدى ... خُلُقُ الكريمِ وليس بالوُضَّاءِ(٣)

---

(١) مادة (ولد).

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والكشاف ٤/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤١، والبيتان من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٢٣-١٢٤، وكذا عزاه لأبي صدقة الجوهريُّ في الصحاح (قرأ) و(وضأ)، والتوحيدي في البصائر والذخائر ٨/ ٦٣-٦٤ (وعبارته فيه: قال الفراء في النوادر: وأنشدني أبو صدقة الزهري لفلان)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، والزبيدي في تاج العروس (قرأ) و(وضأ).
في حين نسبها السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٧٨ ليزيد بن تركي، وسماه في اللسان (قرأ): زيد بن تركي الزبيدي، وفي تاج العروس (قرأ): زيد بن ترك الدُّبَيْري، وقال: هو الصحيح. اهـ. وسماه الصغاني في العباب الزاخر (قرأ): زيد بن تركي أخو يزيد.

وقد سمع بعضُ الأعراب الجفاة رسولَ الله ﷺ يقرأ هذه الآية، فقال: ما أفصح ربَّك يا محمَّد[١]!

وإذا اعتبر التنوين في «مكراً» للتفخيم زاد أمر المبالغةِ في مكرهم، أي: كبيراً في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين وصدُّهم للناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذيَّة نوح عليه السلام.

وقرأ عيسى وابن محيصن وأبو السَّمَّال: «كُبَاراً» بتخفيف الباء[٢]، وهو بناءُ مبالغةٍ أيضاً إلا أنَّها دون المبالغة في المشدَّد، ومثل كُبَّار في ذلك[٣] حُسَّان وطُوَّال وعُجَّاب وجُمَّال، إلى ألفاظ كثيرة.

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن محيصن فيما روى عنه وهب بن واضح: «كِباراً» بكسر الكاف وفتح الباء[٤]، قال ابن الأنباري: هو جمعُ كبير، كأنَّه جعل «مكراً» مكان ذنوب أو أفاعيل، يعني فلذلك وصف بالجمع.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربِّ نوح عليه السلام ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولا تتركوا عبادة هؤلاء، خصُّوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق؛ لأنَّها كانت أكبرَ أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة وأعظمَها عندهم، وإن كانت متفاوتةً في العِظَم فيما بينها بزعمهم، كما يُومئ إليه إعادة «لا» مع بعضٍ وتَرْكُها مع آخر.

وقيل: أفرد يَعُوق ونَسْر عن النفي؛ لكثرة تكرار «لا» وعدم اللبس.

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب؛ أخرج البخاريُّ وابنُ المنذر وابنُ مردويه عن ابنِ عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح عليه السلام في العرب بَعْدُ: أمَّا وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجَنْدل، وأمَّا سُوَاع فكانت لهذيل[٥]، وأمَّا يَغُوث

---

(١) لم نقف عليه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.
(٣) أي: في مجيئه بالتخفيف والتشديد.
(٤) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر ٨/ ٣٤١، والكلام وما بعده منه.
(٥) في هامش الأصل: وقيل: لهمذان. انتهى منه.

فكانت لمراد[1]، ثم لبني غُطَيْف عند سبأ، وأمَّا يَعُوق فكانت لهَمْدان[2]، وأما نَسْر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكَلاع، وكانت هذه الأسماءُ أسماءَ رجال صالحين مِن قوم نوح، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشيطانُ إليهم أنِ انْصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ودَرَس العِلْم عُبِدَت[3].

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: كان لآدمَ عليه السلام خمسة بنين: وَدٌّ، وسُواع.. إلخ، فكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطانُ فقال: حزنتم على صاحبكم هذا؟ قالوا: نعم. قال: هل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه في قِبْلَتِكم، إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: [لا]، نكره أن تجعل لنا في قِبْلَتنا شيئاً نُصلِّي إليه[4]. قال: فأجعله في مؤخَّر المسجد؟ قالوا: نعم. فصوَّره لهم حتى مات خمستُهم، فصوَّر صورهم في مؤخَّر المسجد، فنقَصت الأشياء حتى تركوا عبادةَ الله تعالى وعبدوا هؤلاء، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وتَرْكِ عبادتها، فقالوا ما قالوا[5].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن عروة بنِ الزبير أنَّ وَدّاً كان أكبرَهم وأبرَّهم، وكانوا كلُّهم أبناءَ آدمَ عليه السلام[6].

وروي أنَّ وَدّاً أوَّلُ معبود مِن دون الله سبحانه وتعالى؛ أخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر ﷺ يزيد بنَ المهلَّب، فقال: أمَا إنَّه قُتلَ في أوَّل أرض عُبد فيها غيرُ الله تعالى، ثم ذكر ودّاً وقال: كان رجلاً مسلماً وكان محبَّباً

---

(١) في هامش الأصل: وقيل: مراده. انتهى منه.
(٢) في هامش الأصل: وقيل: لمذحج. انتهى منه.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩، والبخاري (٤٩٢٠).
(٤) في الأصل و(م): عليه. والمثبت من مصدر التخريج.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦٩، والعظمة (١٠٦٩)، وما بين حاصرتين منهما.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩بنحوه.

في قومه، فلمَّا مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجَزِعوا عليه، فلما رأى إبليسُ جزعَهم تَشَبَّه في صورة إنسان ثم قال: أرى جزعَكم على هذا، فهل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم. فصوَّر لهم مِثْلَه، فوضعوه في ناديهم فجعلوا يذكرونه به، فلما رأى ما بهم مِن ذِكْره قال: هل لكم أن أجعلَ لكم في منزلِ كلِّ رجل منكم تمثالاً مثله فيكون في بيته فيذكر به؟ فقالوا: نعم، ففعل فأقبلوا يذكرونه به، وأدرك أبناءهم فجعلوا يَرَون ما يصنعون به وتناسلوا، ودَرَسَ أَمْرُ ذِكْرهم إياه حتى اتَّخذوه إلهاً يعبدونه مِن دون الله تعالى، فكان أوَّلُ مَن عبد غير الله تعالى في الأرض وَدّاً[١].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال: رأيت يغوثَ وكان مِن رصاص يُحمَل على جمل أَجْرَد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذ بَرَكَ نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم المنزلَ. فينزلون حوله ويضربون عليه بناءً[٢].

وقيل: يبعد بقاءُ أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى العرب[٣]، فالظاهر أنَّه لم يَبْقَ إلا الأسماء، فاتَّخذت العربُ أصناماً وسمَّوها بها. وقالوا أيضاً: عبد وَدّ وعبد يَغوث، يعنون أصنامَهم، وما رآه أبو عثمان منها مسمًّى باسم ما سلف.

ويحكى أنَّ وَدّاً كان على صورة رجل، وسُواعاً كان على صورة امرأة، ويَغوث كان على صورة أسد، ويَعوق كان على صورة فرس، ونَسْراً كان على صورة نسر، وهو منافٍ لما تقدَّم أنَّهم كانوا على صور أناس صالحين، وهو الأصحُّ.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم: «وُدّاً» بضمِّ الواو[٤]، وقرأ الأشهب العقيلي: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بتنوينهما[٥]، قال صاحب اللوامح: جعلهما فعولاً؛

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قد أخرج الإفرنج في حدود الألف والمئتين والستين أصناماً وتماثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة، فلا تغفل. انتهى منه.

(٤) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن نافع وأبي جعفر، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٢.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٢ عن الأعمش.

فلذلك صرفهما، وهما في قراءة الجمهور صفتان من الغَوْث والعَوْق يفعل منهما، وهما معرفتان، فلذلك منعا الصرفَ؛ لاجتماع الثِّقَلين اللَّذيْن هما التعريف ومشابهة الفعل المستقبل.

وتعقَّبه أبو حيان[1] فقال: هذا تخبيط؛ أمَّا أوّلاً فلا يمكن أن يكونا فعولاً؛ لأنَّ مادة يغث مفقودةٌ، وكذلك يعق، وأمَّا ثانياً فليستا بصفتين؛ لأنَّ يفعلا لم يَجِئ اسماً ولا صفةً، وإنَّما امتنعا من الصرف؛ للعلميَّة ووزن[2] الفعل إن كانا عربيين، وللعلميَّة والعجمة إن كانا عجميين.

وقال ابنُ عطية[3]: قرأ الأعمش: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بالصرف، وهو وهم؛ لأنَّ التعريف لازم، وكذا وزن الفعل. وأنت تعلم أنَّ الأعمش لم ينفرد بذلك، وليس بوهم، فقد خرَّجوه على أحد وجهين.

أحدهما: أنَّ الصَّرْفَ؛ للتناسب، كما قالوا في: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا﴾[4] [الإنسان: ٤] وهو نوع من المشاكلة، ومعدود من المحسِّنات.

وثانيهما: أنَّه جاء على لغة مَن يصرف جميعَ ما لا ينصرف عند عامَّة العرب، وذلك لغة حكاها الكسائيُّ وغيره، لكن يَرِدُ على هذا أنَّها لغةٌ غيرُ فصيحة لا ينبغي التخريج عليها.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خَلْقاً كثيراً، أي: قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسَّكوا بعبادة الأصنام، فهم ليسوا بأوّل مَن أضلُّوهم، ويشعر بذلك المُضِيُّ والاقتران بـ «قد» حيث أشعر ذلك بأنَّ الإضلال استمرَّ منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة، وجوّز أن يراد بالكثير هؤلاء الموصين، وكان الظاهر: وقد أضلَّ الرؤساء إيَّاهم، أي: الموصين المخاطبين بقوله: «لا تذرنَّ آلهتكم» فوضع «كثيراً» موضعَ ذلك على سبيل التجريد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢.
(٢) جاء في هامش الأصل: وهو المناسب لصرف سواع. انتهى منه.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.
(٤) قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام بتنوين «سلاسلا». التيسير ص٢١٧، وستأتي.

وقال الحسن: «وقد أضلوا» أي: الأصنام. فهو كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وضمير العقلاء لتنزيلها منزلتهم عندهم وعلى زعمهم، ويحسِّنه على ما في «البحر»[١] عودُ الضمير على أقرب مذكور، ولا يخفى أنَّ عودَه على الرؤساء أظهرُ؛ إذ هم المحدَّث عنهم، والمعنى فيهم أمكن.

والجملة قيل: حاليَّة، أو معطوفة على ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ قيل: عطف على: «ربِّ إنهم عصوني» على حكاية كلامِ نوح عليه السلام بَعْدَ «قال» والواوِ النائبةِ عنه، ومعناه: قال: ربِّ إنَّهم عصوني، وقال: لا تزد.. إلخ، أي: قال هذين القولين على أنَّ الواو مِن كلام الله تعالى؛ لأنَّها داخلة في الحكاية وما بعدها هو المحكيُّ، وإليه ذهب الزمخشريُّ[٢]، وإنَّما ارتكب ذلك؛ فراراً من عطف الإنشاء على الخبر. وقيل: عطف عليه، والواو من المحكي، والتناسب إنشائيَّةً وخبريَّةً غيرُ لازم في العطف، كما قاله أبو حيان[٣] وغيره، وفيه خلاف.

وفي «الكشف»: لك أن تجعله من باب: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: فاخذلهم ولا تزدهم، وفي العدول إلى الظالمين إشعارٌ باستحقاقهم الدعاء عليهم، وإبداء لعذره عليه السلام، وتحذير ولطف لغيرهم، وفيه أنَّه بعضُ ما يتسبَّب من مساويهم، وهو معنًى حَسَنٌ، فعنده العطف على محذوف إنشائي، ولعلَّ الأَوْلى أن يقال: إنَّ العطف على «ربِّ إنَّهم عصوني»، والواو من المحكي، والتناسب حاصل.

وقال الخفاجيُّ[٤]: الظاهر أنَّ الغرضَ من قوله: «ربِّ إنَّهم» إلخ، الشكاية وإبداء العَجْز واليأس منهم، فهو طلب للنصرة عليهم، كقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ولو لم يقصد ذلك تكرَّر مع ما مرَّ منه عليه السلام،

---

(١) ٨/ ٣٤٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦٤.
(٣) البحر ٨/ ٣٤٢.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣.

فحينئذ يكون كنايةً عن قوله: اخذلهم، أو انصرني، أو أظهر دينك، أو نحوه، فهو من عطف الإنشاء على الإنشاء من غير تقدير، ويشهد له أنَّ الله تعالى سمَّى مِثْلَه دعاءً حيث قال سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، فتدبَّر.

وهو حسن خالٍ عن التكلُّف وارتكاب المختلف فيه إلا أنَّ في الشهادة دغدغةً.

والمراد بالضلال المدعوِّ بزيادته؛ إمَّا الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، فيكون ذلك دعاءً عليهم بعدم تيسير أمورهم، وإمَّا الضلال بمعنى الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر: ٤٧] وهو مأخوذ من الضلال في الطريق؛ لأنَّ مَن ضلَّ فيها هلك، فيكون المعنى: أهلكهم. وفسَّره ابنُ بحر بالعذاب، وهو قريب مما ذكر. وقيل: هو على ظاهره، أعني الضلال في الدين والدعاء بزيادته إنَّما كان بعد ما أوحي إليه عليه السلام أنَّه لن يُؤمنَ مِن قومك إلا من قد آمن، ومآله الدعاء عليهم بزيادة عذابهم. ويحتاج إلى دليل. وبما سمعتَ[١] ينحلُّ ما يُقال: إنَّ طلب الضلال ونحوه إمَّا غيرُ جائز مطلقاً، أو [غير جائز] إذا دُعيَ به على وجه الاستحسان، وبدونه وإن كان جائزاً لكنَّه غيرُ ممدوح ولا مرضي، فكيف دعا بذلك نوح عليه السلام عليهم؟

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ أي: من أجل خطيئاتهم ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ بالطوفان لا مِن أجل أمرٍ آخرَ، فـ «من» تعليليَّة، و«ما» زائدة بين الجارِّ والمجرور؛ لتعظيم الخطايا في كونها مِن كبائر ما يُنهى عنه، ومن لم يَرَ زيادتها جعلها نكرةً وجعل «خطيئاتهم» بدلاً منها، وزعم ابنُ عطيَّة[٢] أنَّ «مِن» لابتداء الغاية، وهو كما ترى.

وقرأ أبو رجاء: «خِطيَّاتِهم» بإبدال الهمزة ياءً وإدغامها في الياء. وقرأ الجحدري وعبيد عن أبي عمرو: «خَطِيئَتِهم» على الإفراد مهموزاً[٣].

---

(١) من كون الضلال المدعوِّ بزيادته إما الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، وإما الضلال بمعنى الهلاك. حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.

(٣) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

وقرأ الحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم وأبو عمرو: «خَطَايَاهُم» جمع تكسير[١].

وقرأ عبد الله: «من خطيئاتهم ما أغرقوا» بزيادة «ما» بين «خطيئاتهم» و«أغرقوا»[٢]، وخرّج على أنَّها مصدريَّة، أي: بسبب خطيئاتهم إغراقهم.

وقرأ زيد بن علي: «غُرِّقوا» بالتشديد بدل الهمزة[٣]، وكلاهما للنقل.

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هي نار البرزخ، والمراد عذاب القبر، ومَن مات في ماء أو نار أو أكلته السِّباعُ أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبورَ مِن العذاب. وقال الضَّحَّاك: كانوا يُغرَقون من جانب ويُحرَقون بالنار مِن جانب. وأنشد ابنُ الأنباري[٤]:

الخَلْق مجتمعٌ طَوراً ومفترِقٌ والحادثات فنونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تَعجبنَّ لأضدادٍ إذا اجتمعت فالله يجمع بين الماءِ والنارِ

ويجوز أن يراد بها نار الآخرة، والتعقيب على الأوَّل ظاهر، وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنَّه شبَّه تخلُّل ما لا يعتدُّ به بعدم تخلُّل شيء أصلاً، وجوِّز أن تكون فاءُ التعقيب مستعارةً للسببيَّة؛ لأنَّ المسبَّب كالمتعقِّب للسبب، وإن تراخى عنه لفَقْد شرط أو وجود مانع.

وتنكير النار؛ إما لتعظيمها وتهويلها، أو لأنَّه عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسب خطيآتهم نوعاً من النار. ولا يخفى ما في «أغرقوا فأدخلوا ناراً» من الحُسن الذي لا يجارى، ولله تعالى درُّ التنزيل.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلم يجد أحدهم واحداً من الأنصار، وفيه تعريضٌ لاتِّخاذهم آلهة مِن دونه سبحانه وتعالى وبأنَّها غيرُ قادرة على نصرهم، وتهكُّمٌ بهم.

---

(١) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن أبي عمرو، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣ والكلام منه.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والقراءة ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٨٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والدر المصون ١٠/ ٤٧٧.
(٤) هو أبو بكر ابن الأنباري كما في تفسير الثعلبي ١٠/ ٤٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٧.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ عطف على نظيره السابق، وقولُهُ تعالى: «مما خطيآتهم» إلخ، اعتراضٌ وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان مِن أوَّل الأمر بأنَّ ما أصابهم مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيآتهم التي عدَّها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للهلاك لأجلها، لا أنَّه حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأحوال والأقوال، وإلَّا لأُخِّر عن حكاية دعائه هذا. قاله مفتي الديار الروميَّة عليه الرحمة[1].

وما قيل: إنَّه عطف على «لم يجدوا»، أو على جملة «مما خطيآتهم» إلخ، وليس المرادُ حقيقةَ الدعاء، بل التشفِّي وإظهار الرضا بما كان مِن هلاكهم = بعيدٌ غاية البُعْد، والمعروف أنَّ هذا الدعاء كان قبل هلاكهم.

والديَّار: مِن الأسماء التي لا تُستعمل إلا في النفي العامِّ، يقال: ما بالدارِ ديَّار، أو: ديُّور، كقَيَّام وقَيُّوم، أي: ما بها أحد، وهو فَيْعال مِن الدار، أو: من الدُّور، كأنَّه قيل: لا تذر على الأرض مِن الكافرين مَن يسكن داراً، أو: لا تَذَر عليها منهم مَن يدور ويتحرَّك، وأصله: دَيْوار، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وليس بفعَّال، وإلا لكان دوَّاراً، إذ لا داعي للقلب حينئذٍ، و«من الكافرين» حال منه، ولو أُخِّر كان صفةً له.

والمراد بالكافرين قومُه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا، فإن كان الناسُ منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها نحو انتشارهم اليوم وكانت بعثته لبعضٍ منهم كسكان جزيرة العرب ومَن يَقرُب منهم فذاك، وإن كانوا غيرَ منتشرين كذلك، بل كانوا في الجزيرة وقريباً منها، فإن كانت البعثة لبعضهم أيضاً فكذلك، وإن كانت لكلِّهم، فقد استشكل بأنَّه يلزم عموم البعثة، وقد قالوا بأنَّه مخصوصٌ بنبيِّنا ﷺ؟

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٤١.

وأجيب: بأنَّ ذلك العموم ليس كعموم بعثتِه ﷺ، بل لانحصار أهل الأرض في قطعة منها، فهو انحصار ضروريٌّ وليس عموماً من كلِّ وجه، وهذا نحو ما يقال في بعثة آدمَ عليه السلام إلى زوجته وأولادِه، فإنَّهم حينئذٍ ليسوا إلا كأَهل بيت واحد.

على أنَّه قيل: لا إشكال، ولو قلنا بانتشار الناس إذ ذاك كانتشارِهم اليوم وإرسالهِ إليهم جميعاً؛ لأنَّ العموم المخصوص بنبيِّنا عليه الصلاة والسلام هو العموم المندرجُ فيه الإنس والجِنُّ إلى يوم القيامة، بل الملائكة عليهم السلام، بل وبل، والمشهور أنَّه عليه السلام كان مبعوثاً لجميع أهلِ الأرض وأنه ما آمن منهم إلا قليل، واستدلَّ عليه بهذا الدعاء وعموم الطوفان.

وتُعقِّب بأنَّ الأرض كثيراً ما تُطلَق على قطعة منها، فيحتمل أن تكون هنا كذلك، سلَّمنا إرادة الجميع لكن الدعاء على الكافرين وهم مَن بُعث إليهم فدعاهم ولم يجيبوه، وكونهم مَن عدا أهل السفينة أوَّل المسألة، والطوفان لا نسلِّم عمومه، وإن سلِّم لا يقتضي أن يكون كلُّ مَن غرق به مكلَّفاً بالإيمان به عليه السلام عاصياً بتركه، فالبلاء قد يعمُّ الصالحَ والطالحَ، لكن يَصدرون مصادرَ شتَّى كما ورد في حديث خسف البيداء، ويرشد إلى هذا أنَّ أولادَهم قد أُغرقوا ـ على ما قيل ـ معهم، وقد سُئلَ الحسن عن ذلك، فقال: عَلِمَ اللهُ تعالى براءَتهم فأهلكهم بغير عذاب، نعم الحكمة في إهلاك هؤلاء زيادة عذاب في آبائهم وأمهاتهم إذا أبصروا أطفالَهم يغرقون، وزعم بعضهم أنَّ الله تعالى أعقم أرحامَ نسائهم وأَيبسَ أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين ـ أو: سبعين ـ سنة، فلم يكن معهم صبيٌّ حين أُغرقوا، ويحتاج إلى نقل صحيح، وحِكَم الله عزَّ وجلَّ لا تُحصى، فافهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي: على الأرض، كلًّا أو بعضاً ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقِّ، ولعلَّ المراد بهم مَن آمن به عليه السلام، وبإضلالهم إيَّاهم ردُّهم إلى الكفر بنوع مِن المكر، أو المراد بهم مَن ولد منهم ولم يَبلغ زمن التكليف، أو مَن يولد مِن أولئك المؤمنين ويُدعَى إلى الإيمان، وبإضلالهم إيَّاهم صدُّهم عن الإيمان، وفي بعض الأخبار: أنَّ الرجل منهم كان يأتي بابنه إليه عليه السلام، ويقول: احذر هذا؛ فإنَّه كذَّاب، وإنَّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصيَّة. فيموت الكبير

وينشأ الصغير على ذلك، قيل: ومِن هنا قال عليه السلام: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَن سيَفجُر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه لاستحكام عِلْمه بذلك بما حصل له من التجربة ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومثله قوله عليه السلام: «إن تذرهم يضلوا عبادك»، وقيل: أراد مَن جُبل على الفجور والكفر، وقد عَلمَ كلَّ ذلك بوحي، كقوله سبحانه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن قتادة ومحمد بنِ كعب والربيع وابن زيد أنَّه عليه السلام ما دعا عليهم إلا بعد أن أَخرج اللهُ تعالى كلَّ مؤمن مِن الأصلاب وأعقم أرحامَ نسائهم، وأيّاً ما كان فقوله: «إنك» إلخ اعتذار ممَّا عسى أن يقال مِن أنَّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافِهم مَن يؤمن، ممَّا لا يليق بشأنِ الأنبياء عليهم السلام.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أراد أباه: لمك بن مَتُّوشَلَخ، وقد تقدَّم ضَبْطُ ذلك[(١)]، وأمه: شمخى ـ بالشين والخاء المعجمتين بوزن سَكْرى ـ بنت أُنُوش ـ بالإعجام بوزن أصول ـ وكانا مؤمنين، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة.

وقيل: أراد بهما آدم وحواء.

وقرأ ابن جبير والجحدري: «ولوالِدِيْ» بكسر الدال وإسكان الياء[(٢)]، فإمَّا أن يكون قد خصَّ أباه الأقربَ، أو أراد جميع من وَلَدَوه إلى آدم عليه السلام، ولم يكفر ـ كما قال ابن عباس ـ لنوحٍ أبٌ ما بينه وبين آدمَ عليه السلام.

وقرأ الحسين بن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجههما ورضي عنهما وزيد بنُ عليٍّ بنِ الحسين رضي الله عنهم ويحيى بن يعمر والنخعيُّ والزهريُّ: «وَلِوَلَدَيَّ»[(٣)] تثنية: وَلَد، يعني ساماً وحاماً على ما قيل، وفي رواية: إنَّ ساماً كان نبيّاً.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لكن قيل في لمك: إنه بفتحتين، ويقال فيه: لامك، كهاجر، ومتوشلخ على ما في جامع الأصول: بضم الميم وفتح الفوقية وفتح الواو وبسكون الشين المعجمة وكسر اللام وبالخاء المعجمة. انتهى منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والكلام وما بعده منه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ قيل: أراد منزله، وقيل: سفينته. وقال الجمهور وابنُ عباس: أراد مسجدَه. وفي رواية عن الحبر: أنَّه أراد شريعته، استعار لها اسم البيت، كما قالوا: قبَّة الإسلام، وفسطاط الدين.

والمتبادر المنزل، وتخرج امرأته وابنه كنعان بقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ وقيل: يمكن أنَّه لم يجزم بخروج كنعان إلا بعد ما قيل له: إنَّه ليس من أهلك.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: من كلِّ أمة إلى يوم القيامة، وهو تعميم بعد التخصيص، واستغفر ربَّه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم مِن والديه والمؤمنين.

وقيل: إنَّه استغفر لمَّا دعا على الكافرين؛ لأنَّه انتقام منهم. ولا يخفى أنَّ السياق يأباه، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: هلاكاً، وقال مجاهد: خساراً. والأوَّل أظهر.

وقد دعا عليه السلام دعوتين؛ دعوة على الكافرين ودعوة للمؤمنين، وحيث استُجيبت له الأولى، فلا يبعد أن تُستجاب له الثانية، والله تعالى أكرم الأكرمين.

ومعظم آيات هذه السورة الكريمة وغيرها نصٌّ في أنَّ القوم كفرةٌ هالكون يوم القيامة، فالحكم بنجاتهم كما يقتضيه كلام الشيخ الأكبر ـ قدِّس سرُّه ـ في فصوصه مما يُبرأ إلى الله تعالى منه، كزعم أنَّ نوحاً عليه السلام لم يَدعهم على وجه يقتضي إيمانهم مع قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقصارى ما أقولُ: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات.

(٧٢) سُورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون

● **سورة** الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة يدور حول الجنِّ ، وما يتعلق بهم من أمور خاصة ، بدءاً من استماعهم للقرآن ، إلى دخولهم في الإيمان ، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم ، كاستراقهم للسمع ، ورميهم بالشهب المحرقة ، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية ، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن ، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان ، حتى آمنوا به فور استماعه ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً .. ﴾

● **ثم انتقلت** للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا ، وإفرادهم له بالعبادة ، وتسفيههم لمن جعل لله ولداً ﴿ وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً .. ﴾ الآيات .

● **ثم تحدثت** السورة عن استراق الجن للسمع ، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة ، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب ﴿ وأنّا لمسنا السماء فوجدناها

ملئت حَرَساً شديداً وشُهُباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجدْله شهاباً رصداً ..﴾ الآات .

● **ثم تحدثت** السورة عن انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين ، وكافرين ومآل كلٍ من الفريقين ﴿وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تَحَرَّوْا رَشَداً . وأَمَّا القَاسِطُونَ فكانوا لجهنم حطباً﴾

● **ثم انتقلت** للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً . قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ .

● **ثم أمرت** الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله ، ويفرده جلَّ وعلا بإخلاص العمل ، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . قل إني لن يجيرني من الله أحدٌ ، ولن أجد من دونه ملتحداً﴾

● **وختمت السورة** ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب ، وإحاطته بعلم جميع ما في الكائنات ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خَلفه رَصداً ..﴾ الآيات .

سورة الجن

[٩٧٣] ك.. أخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله [ﷺ] على الجن ولا رآهم ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ما هذا إلا لشيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله [ﷺ] وهو بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾(١) وإنما أوحى إليه قول الجن.

[٩٧٤] وأخرج ابن الجوزي في كتاب صفوة الصفوة بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية ديار عاد إذ رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من حجارة تأويه الجن فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي نحو الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: يا سهل إن الأبدان لا تخلق الثياب وإنما تخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت وإن هذه الجبة عليّ منذ سبعمائة سنة لقيت فيها عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام فآمنت بهما فقلت له: ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢).

[٩٧٥] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن كرزم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله [ﷺ] فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال عامر: الوادي جارك جارك فنادى

---

[٩٧٣] (١) سورة الجن: الآية (١).

[٩٧٤] (٢) سورة الجن: الآية (١).

منادٍ لا نراه يا سرحان، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(١) الآية.

[٩٧٦] وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي من بني تميم قال: بُعث رسول الله [ﷺ] وقد رعيت على أهلي وكفيت مهنتهم فلما بعث النبي [ﷺ] خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة فقلنا ذاك فقيل لنا إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من أقربها أمن على دمه وماله فرجعنا فدخلنا في الإسلام قال أبو رجاء: أني لأرى هذه الآية نزلت فيّ وفي أصحابي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾(٢).

[٩٧٧] وأخرج الخرائطي في كتاب هواتف الجان حدثنا عبدالله بن محمد البلوي حدثنا عمارة بن زيد حدثني عبدالله بن العلاء حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير حدث عن بدء إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت عن راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت في منامي رجلاً بيده حربة يريد أن يضعها في نحر ناقتي فانتبهت فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً فقلت: هذا حلم ثم عدت فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت وإذا برجل شاب كالذي رأيته في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يدفعه عنها فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أنوار من الوحش فقال الشيخ للفتى: قم فخذ أيتها شئت فداء لناقة جاري الإنسي فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف ثم التفت إلي الشيخ وقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ برب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها قال فقلت له: ومن محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الاثنين قلت: فأن مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل فركبت راحلتي حين ترقى لي الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة فرآني رسول الله [ﷺ] فحدثني بحديثي قبل أن أذكر منه شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت قال

---

[٩٧٥] (١) سورة الجن: الآية (٦).

[٩٧٦] (٢) سورة الجن: الآية (٦).

سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾[1] الآية.

[٩٧٨] وأخرج عن مقاتل في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[2] الآية قال نزلت في كفار قريش حين منع المطر سبع سنين.

[٩٧٩] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت الجن يا رسول الله إئذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فأنزل الله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[3] الآية.

[٩٨٠] وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت الجن للنبي [ﷺ]: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤن عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤن عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[4] الآية.

[٩٨١] وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر له أن جنياً من الجن من أشرافهم ذا تبع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيره فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾[5] الآية.

* * *

---

[٩٧٧] (١) سورة الجن: الآية (٦).
[٩٧٨] (٢) سورة الجن: الآية (١٦).
[٩٧٩] (٣) سورة الجن: الآية (١٨).
[٩٨٠] (٤) سورة الجن: الآية (١٨).
[٩٨١] (٥) سورة الجن: الآية (٢٢).

سورة الجن

وهي عشرون وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اختلف الناس قديمًا وحديثًا في ثبوت الجن ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء الجن: حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة، ثم قال: (وهذا شرح للاسم). فقوله: (وهذا شرح للاسم) يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج، وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السفلية، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى. واختلف المثبتون على قولين: فمنهم من زعم أنها ليست أجسامًا ولا حالة في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها، قالوا: ولا يلزم من هذا أن يقال: إنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجسامًا ولا جسمانية سلوب والمشاركة في السلوب لا تقتضي المساواة في الماهية، قالوا: ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها كريمة محبة للخيرات، وبعضها دنيئة خسيسة محبة للشرور والآفات، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله، قالوا: وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخبريات قادرة على الأفعال، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتفعل الأفعال المخصوصة، ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر، ولا يبعد أيضًا أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي، هي الأرواح وهي أجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسري فيها

هذه الأرواح، لم يبعد أيضًا أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء، فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة، ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال: هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية فإذا اتفق أن حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن، فبسبب تلك المشاكلة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما لهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن الجنسية علة الضم، فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكًا وتلك الإعانة إلهامًا، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطانًا وتلك الإعانة وسوسة.

والقول الثاني: في الجن أنهم أجسام ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين: منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها، إنما المشترك بينها صفة واحدة، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق، وهذه كلها إشارة إلى الصفات، والاشتراك في الصفات لا يقتضي الاشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد. قالوا: وليس لأحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال: الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد، وحقيقة واحدة، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك، وأيضًا فلأنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف، والعلوي والسفلي، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية، والتفاوت إنما يحصل بهذه الصفات، وهي اللطافة والكثافة، وكونها علوية وسفلية قالوا: وهاتان الحجتان ضعيفتان.

أما الحجة الأولى: فلأنا نقول: كما أن الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد، وحقيقة واحدة، فكذا العرض من حيث إنه عرض له حد واحد، وحقيقة واحدة فيلزم منه أن تكون الأعراض كلها متساوية في تمام الماهية، وهذا مما لا يقوله عاقل، بل الحق عند الفلاسفة أنه ليس للأعراض ألبتة قدر مشترك بينها من الذاتيات، إذ لو حصل بينها قدر مشترك لكان ذلك المشترك جنسًا لها، ولو كان كذلك لما كانت التسعة أجناسًا عالية بل كانت أنواع جنس واحد إذا ثبت هذا فنقول: الأعراض من حيث إنها أعراض لها حقيقة واحدة، ولم يلزم من ذلك أن يكون بينها ذاتي مشترك أصلاً، فضلاً عن أن تكون متساوية في تمام الماهية، فلم لا يجوز أن يكون الحال في الجسم كذلك، فإنه كما أن الأعراض مختلفة في تمام الماهية، ثم إن تلك المختلفات متساوية في وصف عارض وهو كونها عارضة لموضوعاتها، فكذا من الجائز أن تكون ماهيات الأجسام مختلفة في تمام ماهياتها ثم إنها تكون متساوية في وصف عارض، وهو كونها مشارًا إليها

بالحس وحاصلة في الحيز والمكان، وموصوفة بالأبعاد الثلاثة، فهذا الاحتمال لا دافع له أصلاً.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: إنه يمكن تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف فهي أيضًا منقوضة بالعرض فإنه يمكن تقسيم العرض إلى الكيف والكم ولم يلزم أن يكون هناك قدر مشترك من الذاتي فضلاً عن التساوي في كل الذاتيات فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا أيضًا كذلك إذا ثبت أنه لا امتناع في كون الأجسام مختلفة ولم يدل دليل على بطلان هذا الاحتمال، فحينئذ قالوا: لا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الهواء في الماهية ثم تكون تلك الماهية تقتضي لذاتها علمًا مخصوصًا وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة، وعلى هذا التقدير يكون القول بالجن ظاهر الاحتمال وتكون قدرتها على التشكل بالأشكال المختلفة ظاهرة الاحتمال.

القول الثاني: قول من قال: الأجسام متساوية في تمام الماهية، والقائلون بهذا المذهب أيضًا فرقتان:

الفرقة الأولى: زعموا أن البنية ليست شرطًا للحياة، وهذا قول الأشعري وجمهور أتباعه وأدلتهم في هذا الباب ظاهرة قوية قالوا: ولو كانت البنية شرطًا للحياة لكان إما أن يقال: إن الحياة الواحدة قامت بمجموع الأجزاء أو يقال: قام بكل واحد من الأجزاء حياة على حدة، والأول محال لأن حلول العَرَض الواحد في المحال الكثيرة دفعة واحدة غير معقول، والثاني أيضًا باطل لأن الأجزاء التي منها تألف الجسم متساوية والحياة القائمة بكل واحد منها مساوية للحياة القائمة بالجزء الآخر وحكم الشيء حكم مثله، فلو افتقر قيام الحياة بهذا الجزء إلى قيام تلك الحياة بذلك الجزء لحصل هذا الافتقار من الجانب الآخر فيلزم وقوع الدور وهو محال، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ ثبت أن قيام الحياة بهذا الجزء لا يتوقف على قيام الحياة الثانية بذلك الجزء الثاني، وإذا بطل هذا التوقف ثبت أنه يصح كون الجزء الواحد موصوفًا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة وبطل القول بأن البنية شرط، قالوا: وأما دليل المعتزلة وهو أنه لا بد من البنية فليس إلا الاستقراء وهو أنا رأينا أنه متى فسدت البنية بطلت الحياة ومتى لم تفسد بقيت الحياة فوجب توقف الحياة على حصول البنية، إلا أن هذا ركيك، فإن الاستقراء لا يفيد القطع بالوجوب، فما الدليل على أن حال من لم يشاهد كحال ما شوهد، وأيضًا فلأن هذا الكلام إنما يستقيم على قول من ينكر خرق العادات، أما من يجوزها فهذا لا يتمشى على مذهبه والفرق بينهما في جعل بعضها على سبيل العادة وجعل بعضها على سبيل الوجوب تحكم محض لا سبيل إليه، فثبت أن البنية ليست شرطًا في الحياة، وإذا ثبت هذا لم يبعد أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علمًا بأمور كثيرة وقدرة على أشياء شاقة شديدة، وعند هذا ظهر القول بإمكان وجود الجن، سواء كانت أجسامهم لطيفة أو كثيفة، وسواء كانت أجزاؤهم كبيرة أو صغيرة.

القول الثاني: أن البنية شرط الحياة، وأنه لا بد من صلابة في البنية حتى يكون قادرًا على الأفعال الشاقة فهاهنا مسألة أخرى، وهي أنه هل يمكن أن يكون المرئي حاضرًا والموانع مرتفعة والشرائط من القرب والبعد حاصلة، وتكون الحاسة سليمة، ثم مع هذا لا يحصل الإدراك أو يكون هذا ممتنعًا عقلاً؟ أما الأشعري وأتباعه فقد جوزوه، وأما المعتزلة فقد حكموا بامتناعه عقلاً، والأشعري احتج على قوله بوجوه عقلية ونقلية، أما العقلية فأمران: الأول: أنا نرى الكبير من البعد صغيرًا وما ذاك إلا أنا نرى بعض أجزاء ذلك البعيد دون البعض مع أن نسبة الحاسة وجميع الشرائط إلى تلك الأجزاء المرئية كهي بالنسبة إلى الأجزاء التي هي غير مرئية فعلمنا أن مع حصول سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول الشرائط وانتفاء الموانع لا يكون الإدراك واجبًا، الثاني: أن الجسم الكبير لا معنى له إلا مجموع تلك الأجزاء المتألفة، فإذا رأينا ذلك الجسم الكبير على مقدار من البعد فقد رأينا تلك الأجزاء، فإما أن تكون رؤية هذا الجزء مشروطة برؤية ذلك الجزء الآخر أو لا تكون، فإن كان الأول يلزم الدور لأن الأجزاء متساوية فلو افتقرت رؤية هذا الجزء إلى رؤية ذلك الجزء لافتقرت أيضًا رؤية ذلك الجزء إلى رؤية هذا الجزء فيقع الدور، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ رؤية الجوهر الفرد على ذلك القدر من المسافة تكون ممكنة، ثم من المعلوم أن ذلك الجوهر الفرد لو حصل وحده من غير أن ينضم إليه سائر الجواهر فإنه لا يرى، فعلمنا أن حصول الرؤية عند اجتماع الشرائط لا يكون واجبًا بل جائزًا، وأما المعتزلة فقد عولوا على أنا لو جوزنا ذلك لجوزنا أن يكون بخضرتنا طبلات وبوقات ولا نراها ولا نسمعها فإذا عارضناهم بسائر الأمور العادية وقلنا لهم: فجوزوا أن يقال انقلبت مياه البحار ذهب وفضة، والجبال ياقوتًا وزبرجدًا، أو حصلت في السماء حال ما غمضت العين ألف شمس وقمر، ثم لمَّا فتحت العين أعدمها الله؛ عجزوا عن الفرق، والسبب في هذا التشوش أن هؤلاء المعتزلة نظروا إلى هذه الأمور المطردة في مناهج العادات، فوهموا أن بعضها واجبة، وبعضها غير واجبة، ولم يجدوا قانونًا مستقيمًا، ومأخذًا سليمًا في الفرق بين البابين، فتشوش الأمر عليهم، بل الواجب أن يسوى بين الكل، فيحكم على الكل بالوجوب، كما هو قول الفلاسفة، أو على الكل بعدم الوجوب كما هو قول الأشعري.

فأما التحكم في الفرق فهو بعيد، إذا ثبت هذا ظهر جواز القول بالجن، فإن أجسامهم وإن كانت كثيفة قوية إلا أنه لا يمتنع أن لا نراها، وإن كانوا حاضرين هذا على قول الأشعري فهذا هو تفصيل هذه الوجوه، وأنا متعجب من هؤلاء المعتزلة أنهم كيف يصدقون ما جاء في القرآن من إثبات الملك والجن مع استمرارهم على مذاهبهم، وذلك لأن القرآن دل على أن للملائكة قوة عظيمة على الأفعال الشاقة، والجن أيضًا كذلك، وهذه القدرة لا تثبت إلا في الأعضاء الكثيفة الصلبة، فإذًا يجب في الملك والجن أن يكونا كذلك، ثم إن هؤلاء الملائكة حاضرون عندنا أبدًا، وهم الكرام الكاتبون والحفظة، ويحضرون أيضًا عند قبض الأرواح، وقد كانوا يحضرون

عند الرسول ﷺ، وأن أحدًا من القوم ما كان يراهم، وكذلك الناس الجالسون عند من يكون في النزع لا يرون أحدًا، فإن وجبت رؤية الكثيف عند الحضور فلم لا نراها وإن لم تجب الرؤية فقد بطل مذهبهم، وإن كانوا موصوفون بالقوة والشدة مع عدم الكثافة والصلابة فقد بطل قولهم: إن البنية شرط الحياة، وإن قالوا: إنها أجسام لطيفة وحية، ولكنها للطافتها لا تقدر على الأعمال الشاقة، فهذا إنكار لصريح القرآن، وبالجملة فحالهم في الإقرار بالملك والجن مع هذه المذاهب عجيب، وليتهم ذكروا على صحة مذاهبهم شبهة مخيلة فضلاً عن حجة مبينة، فهذا هو التنبيه على ما في هذا الباب من الدقائق والمشكلات، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: اختلفت الروايات في أنه عليه الصلاة والسلام هل رأى الجن أم لا؟.

فالقول الأول: وهو مذهب ابن عباس أنه عليه السلام ما رآهم، قال: إن الجن كانوا يقصدون السماء في الفترة بين عيسى ومحمد فيستمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة فلما بعث الله محمدًا عليه السلام خرست السماء، وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس وأخبروه بالقصة فقال: لا بد لهذا من سبب فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها واطلبوا السبب فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله ﷺ في سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا والله هو الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾(١) فأخبر الله تعالى محمدًا عليه السلام عن ذلك الغيب وقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ كذا وكذا، قال وفي هذا دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحي، فإن قيل: الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن فكيف وجه الجمع؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن الجن كانوا مع الشياطين فلما رمي الشياطين أخذ الجن الذين كانوا معهم في تجسس الخبر، الثاني: أن الذين رموا بالشهب كانوا من الجن إلا أنه قيل لهم: شياطين كما قيل: شياطين الجن والإنس فإن الشيطان كل متمرد بعيد عن طاعة الله، واختلفوا في أن أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم؟ فروى عاصم عن أبي ذر قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه مكة على النبي ﷺ فسمعوا قراءة النبي ﷺ ثم انصرفوا فذلك قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩](٢)

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (صفة الصلاة) باب (الجهر بالقراءة) (١/ ٢٦٧) حديث رقم (٧٣٩) ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٣٥/ ١٠٣٤) كلاهما من طريق أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما... به.

(٢) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٦٤٨) من طريق مهران عن سفيان عن عاصم عن ورقاء... به وأخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٢٦) حديث رقم (١٢٤٤٩) والبيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ١٩٤) حديث رقم (٢٨٩٠) وابن منده في (الإيمان) (٢/ ٧٠٤) حديث رقم (٧٠٢) جميعا من طريق أبي بشر جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٦٤٧). من طريق أبي هشام المخزومي حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر=

وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عددًا وعامة جنود إبليس منهم.

القول الثاني: وهو مذهب ابن مسعود أنه أمر النبي ﷺ بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام، قال ابن مسعود قال عليه الصلاة والسلام: «أُمِرْتُ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ عَلَى الْجِنِّ فَمَنْ يَذْهَبُ مَعِي؟» فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةَ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ قُلْتُ أَنَا أَذْهَبُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْحَجُونَ عِنْدَ شِعْبِ ابْنِ أَبِي دُبٍّ، خَطَّ عَلَيَّ خَطًّا فَقَالَ: «لاَ تُجَاوِزْهُ»، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْحَجُونِ فَانْحَدَرُوا عَلَيْهِ أَمْثَالَ الْحَجَلِ كَأَنَّهُمْ رِجَالُ الزُّطِّ يَقْرَعُونَ فِي دُفُوفِهِمْ كَمَا تَقْرَعُ النِّسْوَةُ فِي دُفُوفِهَا حَتَّى غَشَوْهُ، فَغَابَ عَنْ بَصَرِي فَقُمْتُ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنِ اجْلِسْ، ثُمَّ تَلاَ الْقُرْآنَ، فَلَمْ يَزَلْ صَوْتُهُ يَرْتَفِعُ، وَلَصِقُوا بِالأَرْضِ حَتَّى صِرْتُ أَسْمَعُ صَوْتَهُمْ وَلاَ أَرَاهُمْ [1]. وفي رواية أخرى فَقَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيُّ اللَّهِ»، قَالُوا: فَمَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ، تَعَالِي يَا شَجَرَةُ»، فَجَاءَتْ تَجُرُّ عُرُوقَهَا لَهَا قَعَاقِعُ حَتَّى انْصَبَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «عَلَى مَاذَا تَشْهَدِينَ لِي؟» قَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «اذْهَبِي»، فَرَجَعَتْ كَمَا جَاءَتْ حَتَّى صَارَتْ كَمَا كَانَتْ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَلَمَّا عَادَ إِلَيَّ، قَالَ: «أَرَدْتَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَا كَانَ ذَلِكَ لَكَ، هَؤُلاَءِ الْجِنُّ أَتَوْا يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ فَزَوَّدْتُهُمُ الْعَظْمَ وَالْبَعْرَ، فَلاَ يَسْتَطِيبَنَّ أَحَدٌ بِعَظْمٍ وَلاَ بَعْرٍ» [2].

واعلم أنه لا سبيل إلى تكذيب الروايات، وطريق التوفيق بين مذهب ابن عباس، ومذهب ابن مسعود من وجوه أحدها: لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولاً، فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود، وثانيها: أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة، إلا أنه عليه السلام أمر بالذهاب إليهم، وقراءة القرآن عليهم، إلا أنه عليه السلام ما عرف أنهم ماذا قالوا، وأي شيء فعلوا، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وقالوا كذا وثالثها: أن الواقعة كانت مرة واحدة، وهو عليه السلام رآهم وسمع كلامهم، وهم آمنوا به، ثم لما رجعوا إلى قومهم قالوا لقومهم على سبيل الحكاية: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وكان كذا وكذا، فأوحى الله إلى محمد ﷺ ما قالوه لأقوامهم، وإذا كانت هذه الوجوه محتملة فلا سبيل إلى التكذيب.

=عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به والطحاوي في (مشكل الآثار) (٥/ ٣٠٨) حديث رقم (١٩٣٣) من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به وأبو عوانة في (مستخرجه) (٤/ ٤٢٩) حديث رقم (٣٠٧٧).

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الفاكهي في (أخبار مكة) (٦/ ٨٦) حديث رقم (٢٢٥١) من طريق ابن ثور عن ابن جريج قال أخبرني مخبر عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن عبد الله بن مسعود... به والطبري في (تفسيره) (٢٢/ ١٣٦) من طريق يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة... به وفي إسناده مجهول وأيضا منقطع بين أبي عبيدة وأبيه فإنه لم يسمع منه.

(٢) انظر سابقه.

المسألة الثالثة: اعلم أن قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن، وفيه فوائد: إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس، فقد بعث إلى الجن، وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول، وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس، ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا، وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.

المسألة الرابعة: الإيحاء إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء كالإلهام وإنزال الملك ويكون ذلك في سرعة من قولهم: الوحي الوحي، والقراءة المشهورة، ﴿أُوحِىَ﴾ بالألف، وفي رواية يونس وهارون، عن أبي عمرو (وَحِى) بضم الواو بغير ألف وهما لغتان يقال: وُحِيَ إليه وأوحى إليه وقرئ (أُحِيَ) بالهمز من غير واو، وأصله وحي، فقلبت الواو همزة كما يقال: أُعِد وأُزِن و﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ [المرسلات: ١١].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾: فيه مسائل:

المسألة الأولى: أجمعوا على أن قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾ بالفتح وذلك لأنه نائب فاعل أوحي فهو كقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [الأنعام: ١٩] وأجمعوا على كسر إنا في قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ لأنه مبتدأ محكي بعد القول، ثم هاهنا قراءتان إحداهما: أن نحمل البواقي على الموضعين اللذين بينا أنهم أجمعوا عليهما فما كان من الوحي فتح، وما كان من قول الجن كسر، وكلها من قول الجن إلا الآخرين وهما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ [الجن: ١٩]، وثانيهما: فتح الكل والتقدير: فآمنا به وآمنا بأنه تعالى جد ربنا وبأنه كان يقول سفيهنا وكذا البواقي، فإن قيل: هاهنا إشكال من وجهين: أحدهما: أنه يقبح إضافة الإيمان إلى بعض هذه السورة فإنه يقبح أن يقال: وآمنا بأنه كان يقول: سفيهنا على الله شططًا، والثاني: وهو أنه لا يعطف على الهاء المخفوضة إلا بإظهار الخافض لا يقال: آمنا به وزيد، بل يقال: آمنا به وبزيد، والجواب: عن الإشكالين أنا إذا حملنا قوله: آمنا على معنى صدقنا وشهدنا زال الإشكالان.

المسألة الثانية: ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة روي أن ذلك النفر كانوا يهودًا، وذكر الحسن أن فيهم يهودًا ونصارى ومجوسًا ومشركين، ثم اعلم أن الجن حكوا أشياء:

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا يَهۡدِىٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

النوع الأول: مما حكوه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهۡدِىٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾ أي خارجًا عن حد أشكاله ونظائره، و(عجبًا) مصدر يوضع موضع

العجيب ولا شك أنه أبلغ من العجيب، ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي إلى الصواب، وقيل: إلى التوحيد ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ويمكن أن يكون المراد فآمنا بالرشد الذي في القرآن وهو التوحيد ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا من المشركين.

النوع الثاني: مما ذكره الجن أنهم كما نفوا عن أنفسهم الشرك نزهوا ربهم عن الصاحبة والولد. فقالوا: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الجد: قولان: الأول: الجد في اللغة: العظمة يقال: جد فلان أي عظم ومنه الحديث: «**كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ جَدَّ فِينَا**» أي جد قدره وعظم، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكثر به والاستئناس، وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزه عن كل نقص.

القول الثاني: الجد: الغنى ومنه الحديث: «**لاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»[1] قال أبو عبيدة: أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وكذلك الحديث الآخر: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ يَدْخُلُهَا الْفُقَرَاءُ وَإِذَا أَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ**» يعني أصحاب الغنى في الدنيا، فيكون المعنى وأنه تعالى غني عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد.

وعندي فيه قول ثالث: وهو أن جد الإنسان أصله الذي منه وجوده فجعل الجد مجازًا عن الأصل، فقوله تعالى: ﴿ جَدُّ رَبِّنَا﴾ معناه تعالى أصل ربنا وأصله حقيقته المخصوصة التي لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هي تكون واجبة الوجود فيصير المعنى أن حقيقته المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد.

المسألة الثانية: قرئ (جَدًّا ربُّنَا) بالنصب على التمييز و(جِد ربنا) بالكسر أي صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد، وكأن هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفرة الجن فرجعوا أولاً عن الشرك، وثانيًا عن دين النصارى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) (١/ ٢٠٥/ ٣٤٧) من طريق مروان بن محمد الدمشقي... به وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) (١/ ٢٢٤) حديث رقم (٨٤٧) من طريق الوليد وأبو مسهر وبشر بن بكر وعبد الله بن يوسف... به والنسائي في كتاب (التطبيق) باب (ما يقول في قيامه ذلك) (٢/ ٥٤٤) حديث رقم (١٠٦٧) من طريق مخلد... به وأحمد في (مسنده) (٣/ ٨٧) قال: حدثنا الحكم بن نافع والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (القول بعد رفع الرأس من الركوع) (١/ ٣١٤) حديث رقم (١٣١٣) من طريق مروان بن محمد عن سعيد بن عبد العزيز... به وابن خزيمة في (صحيحه) (١) حديث رقم (٦١٣) من طريق عبد الله بن يوسف وأبو مسهر وبشر بن بكر... به جميعًا (مروان، الوليد، أبو مسهر، بشر، ابن يوسف، مخلد، الحكم) عن سعيد بن عبد العزيز... به.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

النوع الثالث: مما ذكره الجن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في الصوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الأمرين شطط ومذموم.

النوع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: معنى الآية: أنا إنما أخذنا قول الغير لأنا ظننا أنه لا يقال: الكذب على الله، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد يكذبون، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَذِبًا﴾ بم نصب؟ فيه وجوه: أحدها: أنه وصف مصدر محذوف والتقدير أن لن تقول الإنس والجن على الله قولاً كذبًا، وثانيها: أنه نصب نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول، وثالثها: أن من قرأ: (أن لن تَقَوَّل) وضع كذبًا موضع تقوُّلاً، ولم يجعله صفة، لأن التقوّل لا يكون إلا كذبًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

النوع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ **فيه قولان:**

الأول: وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعوذ بسيد هذا الوادي أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح، وقال آخرون: كان أهل الجاهلية إذا قحطوا بعثوا رائدهم، فإذا وجد مكانًا فيه كلأ وماء رجع إلى أهله فيناديهم، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادي من أن يصيبنا آفة يعنون الجن، فإن لم يفزعهم أحد نزلوا، وربما تفزعهم الجن فيهربون، القول الثاني: المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضًا، لكن من شر الجن، مثل أن يقول الرجل: أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادي، وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه، لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن، وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا

يسمى رجلاً، أما قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسرون: معناه زادوهم إثمًا وجرأة وطغيانًا وخطيئة وغيًّا وشرًّا، كل هذا من ألفاظهم، قال الواحدي: الرهق: غشيان الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١] ورجل مرهق أي يغشاه السائلون. ويقال رهقتنا الشمس إذا قربت، والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفًا من أن يغشاهم الجن، ثم إنهم زادوا في ذلك الغشيان، فإنهم لما تعوذوا بهم، ولم يتعوذوا بالله استذلوهم واجترؤوا عليهم فزادوهم ظلمًا، وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم، وعلى هذا القول زادوا من فعل الجن وفي الآية قول آخر وهو أن زادوا من فعل الإنس وذلك لأن الإنس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغيانًا فيقولون: سدنا الجن والإنس، والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها.

النوع السادس: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

اعلم أن هذه الآية والتي قبلها يحتمل أن يكونا من كلام الجن، ويحتمل أن يكونا من جملة الوحي فإن كانا من كلام الجن وهو الذي قاله بعضهم مع بعض، كان التقدير: وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن، وإن كانا من الوحي كان التقدير: وأن الجن ظنوا كما ظننتم يا كفار قريش وعلى التقديرين فالآية دلت على أن الجن كما أنهم كان فيهم مشرك ويهودي ونصراني ففيهم من ينكر البعث، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يبعث أحدًا للرسالة على ما هو مذهب البراهمة، واعلم أن حمله على كلام الجن أولى لأن ما قبله وما بعده كلام الجن فإلقاء كلام أجنبي عن كلام الجن في البين غير لائق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾

النوع السابع: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ اللمس: المس فاستعير للطلب، لأن الماس طالب متعرف يقال: لمسه والتمسه، ومثله الجس يقال: جسوه بأعينهم وتجسسوه، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها، والحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخَدَم في معنى الخُدَّام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شدادًا.

النوع الثامن: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب، وفي قوله: ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ وجوه أحدها: قال مقاتل: يعني رميًا من الشهب ورصدًا من الملائكة، وعلى هذا يجب أن يكون التقدير: شهابًا ورصدًا لأن الرصد غير الشهاب وهو جمع راصد، وثانيها: قال الفراء: أي شهابًا قد أرصد له ليرجم به، وعلى هذا الرصد نعت للشهاب، وهو فَعَل بمعنى مفعول، وثالثها: يجوز أن يكون رَصَدًا أي راصدًا، وذلك لأن الشهاب لما كان معدًا له، فكأن الشهاب راصد له

ومترصد له واعلم أنا قد استقصينا في هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فإن قيل: هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، ويدل عليه أمور: أحدها: أن جميع الفلاسفة المتقدمين تكلموا في أسباب انقضاض هذه الشهب، وذلك يدل على أنها كانت موجودة قبل المبعث، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ ذكر في خلق الكواكب فائدتين، التزيين ورجم الشياطين، وثالثها: أن وصف هذا الانقضاض جاء في شعر أهل الجاهلية، قال أوس بن حجر:

فانقض كالدريّ يتبعه ... نقع يثور تخاله طُنُبَا[1]

وقال عوف بن الخرع:

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعِيرَ مِنْ دُونِ إِلْفِهِ ... أَوِ الثَّوْرَ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ الدَّمُ[2]

وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما: - بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال: ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟ فقالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم - الحديث إلى آخره ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ قالوا: فثبت بهذه الوجوه أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، فما معنى تخصيصها بمحمد عليه الصلاة والسلام؟ والجواب: مبني على مقامين:

المقام الأول: أن هذه الشهب ما كانت موجودة قبل المبعث، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وأبي بن كعب، روي عن ابن عباس أنه قال: كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، أما الكلمة فإنها تكون حقة، وأما الزيادات فتكون باطلة فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، ولم تكن النجوم يرى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يصلي، الحديث إلى آخره، وقال أبي بن كعب: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى بعث رسول الله فرمي بها، فرأت قريش أمرًا ما رأوه قبل ذلك فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون رقابهم، يظنون أنه الفناء، فبلغ ذلك بعض أكابرهم، فقال: لم فعلتم ما أرى؟ قالوا: رمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء، فقال: اصبروا فإن تكن نجومًا معروفة فهو وقت فناء الناس، وإن كانت نجومًا لا تعرف فهو أمر قد حدث فنظروا، فإذا هي لا تعرف، فأخبروه فقال: في الأمر مهلة، وهذا عند ظهور نبي فما مكثوا إلا يسيرًا حتى قدم أبو سفيان على أمواله وأخبر أولئك الأقوام بأنه ظهر

---

(١) تقدمت ترجمة أوس.

(٢) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لعوف بن عطية بن الخرع وهو عوف بن عطية بن الخرع وهو: عوف بن عطية بن عمرو الملقب بالخرع بن عيسى بن وديعة التيمي المضري. شاعر جاهلي فحل من تيم الرباب من مضر، أدرك الإسلام، وعدّه ابن سلام من الطبقة الثامنة من الإسلاميين ونعته الزبيدي بالفارسي، فلعله كان قد نزل بفارس.

محمد بن عبدالله ويدعي أنه نبي مرسل، وهؤلاء زعموا أن كتب الأوائل قد توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين ألحقوا هذه المسألة بها طعنًا منهم في هذه المعجزة، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلفة عليهم ومنحولة.

المقام الثاني: وهو الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث وجعلت أكمل وأقوى، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾ وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾ أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن ملئت المقاعد كلها، فعلى هذا الذي حمل الجن على الضرب في البلاد وطلب السبب، إنما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

النوع التاسع: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ **وفيه قولان:**

أحدهما: أنا لا ندري أن المقصود من المنع من الاستراق هو أشر أريد بأهل الأرض أم صلاح وخير، والثاني: لا ندري أن المقصود من إرسال محمد الذي عنده منع من الاستراق هو أن يكذبوه فيهلكوا كما هلك من كذب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا.

النوع العاشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾.

أي منا الصالحون المتقون أي ومنا قوم دون ذلك فحذف الموصوف كقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] ثم المراد بالذين هم دون الصالحين من؟ فيه قولان: الأول: أنهم المقتصدون الذين يكونون في الصلاح غير كاملين، والثاني: أن المراد من لا يكون كاملاً في الصلاح، فيدخل فيه المقتصدون والكافرون، والقدة من قدد، كالقطعة من قطع. ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق، وفي تفسير الآية وجوه: أحدها: المراد كنا ذوي ﴿طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي ذوي مذاهب مختلفة. قال السدي: الجن أمثالكم، فيهم مرجئة وقدرية وروافض وخوارج، وثانيها: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة، وثالثها: كانت طرائقنا طرائق قددًا على حذف المضاف الذي هو الطرائق، وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه.

النوع الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ الظن بمعنى اليقين، و﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿هَرَبًا﴾ فيه وجهان: الأول: أنهما حالان، أي لن نعجزه كائنين

في الأرض أينما كنا فيها، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء، والثاني: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرًا، ولن نعجزه هربًا إن طلبنا.

النوع الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ ﴿لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا بالقرآن ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف أي فهو غير خائف، وعلى هذا يكون الكلام في تقدير جملة من المبتدأ والخبر، أدخل الفاء عليها لتصير جزاء للشرط الذي تقدمها، ولولا ذاك لقيل: لا يخف، فإن قيل: أي فائدة في رفع الفعل، وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرًا له ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟ قلنا: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك، فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص لذلك دون غيره، لأن قوله: فهو لا يخاف معناه أن غيره يكون خائفًا، وقرأ الأعمش: (فلا يَخَفْ)، وقوله تعالى: ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الظلم، ثم فيه وجهان الأول: لا يخاف جزاء بخس ولا رهق، لأنه لم يبخس أحدًا حقًا، ولا ظلم أحدًا، فلا يخاف جزاءهما، الثاني: لا يخاف أن يبخس، بل يقطع بأنه يجزى الجزاء الأوفى، ولا يخاف أن ترهقه ذلة من قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

النوع الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ القاسط الجائر، والمقسط العادل، وذكرنا معنى قسط وأقسط في أول سورة النساء، فالقاسطون الكافرون الجائرون عن طريق الحق، وعن سعيد بن جبير: أن الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول في؟ قال: قاسط عادل، فقال القوم: ما أحسن ما قال، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة إنه سماني ظالمًا مشركًا، وتلا لهم قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي قصدوا طريق الحق، قال أبو عبيدة: تحروا توخوا، قال المبرد: أصل التحري من قولهم: ذلك أحرى، أي أحق وأقرب، وبالحري أن تفعل كذا، أي يجب عليك.

ثم إن الجن ذموا الكافرين فقالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ **وفيه سؤالان:**

الأول: لمَ ذكر عقاب القاسطين ولمْ يذكر ثواب المسلمين؟ الجواب: بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى: ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي توخوا رشدًا عظيمًا لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب.

السؤال الثاني: الجن مخلوقون من النار، فكيف يكونون حطبًا للنار؟ الجواب: أنهم وإن خلقوا من النار، لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا لحمًا ودمًا هكذا، قيل: وهاهنا آخر كلام الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ هذا من جملة الموحى إليه والتقدير: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الجن: ١] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فيكون هذا هو النوع الثاني مما أوحي إليه. **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: (أن) مخففة من الثقيلة والمعنى: وأوحي إليَّ أن الشأن والحديث لو استقاموا لكان كذا وكذا. قال الواحدي: وفصل (لو) بينها وبين الفعل كفصل لا والسين في قوله: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩] و﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾ [المزمل: ٢٠].

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إلى من يرجع؟ فيه قولان: قال بعضهم: إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم، أي هؤلاء القاسطون لو آمنا لفعلنا بهم كذا وكذا. وقال آخرون: بل المراد الإنس، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أن الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن، والثاني: أن هذه الآية إنما نزلت بعدما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس، ولكنه لما كان ذلك معلومًا جرى مجرى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقال القاضي: الأقرب أن الكل يدخلون فيه. وأقول: يمكن أن يحتج لصحة قول القاضي بأنه تعالى لما أثبت حكمًا معللاً بعلة وهو الاستقامة، وجب أن يعم الحكم بعموم العلة.

المسألة الثالثة: الغدق بفتح الدال وكسرها: الماء الكثير، وقرئ بهما يقال: غَدِقت العين بالكسر فهي غدقة، وروضة مغدقة أي كثيرة الماء، ومطر مَغْدوقٌ وغيداقٌ وغَيدَقٌ إذا كان كثير الماء، وفي المراد بالماء الغدق في هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغيث والمطر، والثاني: وهو قول أبي مسلم: أنه إشارة إلى الجنة كما قال: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البروج: ١١] وثالثها: أنه المنافع والخيرات جعل الماء كناية عنها، لأن الماء أصل الخيرات كلها في الدنيا.

المسألة الرابعة: إن قلنا: الضمير في قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ راجع إلى الجن كان في الآية قولان: أحدهما: لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ [المائدة: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ﴾ [المائدة: ٦٦] وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠- ١٢] وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع، فإن اللائق بالجن هو هذا الماء المشروب والثاني: أن يكون المعنى وأن لو استقام الجن الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها

قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] واختار الزجاج الوجه الأول قال: لأنه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالألف واللام فتكون راجعة إلى الطريقة المعروفة المشهورة وهي طريقة الهدى، والذاهبون إلى التأويل الثاني استدلوا عليه بقوله بعد هذه الآية ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ويمكن الجواب عنه أن من آمن فأنعم الله عليه كان ذلك الإنعام أيضًا ابتلاء واختبارًا حتى يظهر أنه هل يشتغل بالشكر أم لا، وهل يتفقه في طلب مراضي الله أو في مراضي الشهوة والشيطان، وأما الذين قالوا: الضمير عائد إلى الإنس، فالوجهان عائدان فيه بعينه وهاهنا يكون إجراء قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ على ظاهره أولى لأن انتفاع الإنس بذلك أتم وأكمل.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا بقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ على أنه تعالى يضل عباده، والمعتزلة أجابوا بأن الفتنة هي الاختبار كما يقال: فتنت الذهب بالنار لا خلق الضلال، واستدلت المعتزلة باللام في قوله ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ على أنه تعالى إنما يفعل لغرض، وأصحابنا أجابوا أن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلت هذه الآية على أن اللام ليست للغرض في حق الله. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي عن عبادته أو عن موعظته، أو عن وحيه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾، وقرئ بالنون مفتوحة ومضمومة أي ندخله عذابًا، والأصل نسلكه في عذاب كقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] إلا أن هذه العبارة أيضًا مستقيمة لوجهين: الأول: أن يكون التقدير: نسلكه في عذاب، ثم حذف الجار وأوصل الفعل، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] والثاني: أن يكون معنى نسلكه أي ندخله، يقال: سلكه وأسلكه، والصَّعَد مصدر صعد، يقال: صَعَد صَعَدًا وصُعُودًا، فوصف به العذاب لأنه (يَصْعَدُ فَوْقَ طَاقَةِ) المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه، ومنه قول عمر: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح، يريد ما شق علي ولا غلبني، وفيه قول آخر وهو ما روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿صَعَدًا﴾ جبل في جهنم، وهو صخرة ملساء، فيكلف الكافر صعودها ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة، فإذا بلغ أعلاها جذب إلى أسفلها، ثم يكلف الصعود مرة أخرى، فهذا دأبه أبدًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

النوع الثالث: من جملة الموحى:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التقدير: قل أوحي إلي أن المساجد لله، ومذهب الخليل أن التقدير: ولأن المساجد لله فلا تدعوا، فعلى هذا اللام متعلقة، (بلا تدعوا، أي) فلا تدعوا مع الله أحدًا في

المساجد لأنها لله خاصة، ونظيره قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٥٢] على معنى، ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، أي لأجل هذا المعنى فاعبدون.

المسألة الثانية: اختلفوا في المساجد على وجوه: أحدها: وهو قول الأكثرين: أنها المواضع التي بنيت للصلاة وذكر الله ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين، وذلك أن أهل الكتاب يشركون في صلاتهم في البيع والكنائس، فأمر الله المسلمين بالإخلاص والتوحيد وثانيها: قال الحسن: أراد بالمساجد البقاع كلها قال عليه الصلاة والسلام: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا» كأنه تعالى قال: الأرض كلها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها لغير خالقها، وثالثها: روي عن الحسن أيضًا أنه قال: المساجد هي الصلوات فالمساجد على هذا القول جمع مسجد بفتح الجيم والمَسجَد على هذا القول مصدر بمعنى السجود، ورابعها: قال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يسجد العبد عليها وهي سبعة: القدمان والركبتان واليدان والوجه، وهذا القول اختيار ابن الأنباري، قال: لأن هذه الأعضاء هي التي يقع السجود عليها وهي مخلوقة لله تعالى، فلا ينبغي أن يسجد العاقل عليها لغير الله تعالى، وعلى هذا القول معنى المساجد مواضع السجود من الجسد واحدها مَسجَد بفتح الجيم، وخامسها: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد بالمساجد مكة بجميع ما فيها من المساجد، وذلك لأن مكة قبلة الدنيا وكل أحد يسجد إليها، قال الواحدي: وواحد المساجد على الأقوال كلها مسجد بفتح الجيم إلا على قول من يقول: إنها المواضع التي بنيت للصلاة فإن واحدها بكسر الجيم لأن المواضع والمصادر كلها من هذا الباب بفتح العين إلا في أحرف معدودة وهي: المَسجِد والمَطْلِع والمَنْسِك والمَسْكِن والمَنْبِت والمَفْرِق والمَسْقِط والمَجْزِر والمَحْشِر والمَشْرِق والمَغْرِب، وقد جاء في بعضها الفتح وهو المَنسَك والمَسْكَن والمَفْرَق والمَطْلَع، وهو جائز في كلها وإن لم يسمع.

المسألة الثالثة: قال الحسن: من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول لا إله إلا الله لأن قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في ضمنه أمر بذكر الله وبدعائه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾

النوع الرابع: من جملة الموحى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

اعلم أن عبدالله هو النبي ﷺ في قول الجميع، ثم قال الواحدي: إن هذا من كلام الجن لا من جملة الموحى، لأن الرسول لا يليق أن يحكي عن نفسه بلفظ المغايبة وهذا غير بعيد، كما في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] والأكثرون على أنه من جملة الموحى، إذ لو كان من كلام الجن لكان ما ليس من كلام الجن. وفي خلل ما هو كلام الجن مختلاً بعيدًا عن سلامة النظم وفائدة هذا الاختلاف أن من جعله من جملة الموحى فتح الهمزة في أن، ومن جعله

من كلام الجن كسرها، ونحن نفسر الآية على القولين: أما على قول من قال: إنه من جملة الموحى فالضمير في قوله: ﴿كَادُواْ﴾ إلى من يعود؟ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: إلى الجن، ومعنى (قام . . . يدعوه) أي قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر حين أتاه الجن، فاستمعوا القراءة ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي يزدحمون عليه متراكمين تعجبًا مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به قائمًا وراكعًا، وساجدًا وإعجابًا بما تلا من القرآن، لأنهم رأوا مالم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله، والثاني: لما قدم رسول الله يعبد الله وحده مخالفًا للمشركين في عبادتهم الأوثان، كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه، والثالث: وهو قول قتادة: لما قام عبدالله تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به ويطفئوا نور الله، فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من عاداه، وأما على قول من قال: إنه من كلام الجن، فالوجهان أيضًا عائدان فيه، وقوله: ﴿لِبَدًا﴾ فهو جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض وارتكم بعضه على بعض، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقًا شديدًا فقد لبدته، ومنه اشتقاق هذه اللبود التي تفرش ويقال: لبدة الأسد لما يتلبد من الشعر بين كتفيه، ومنه قول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ [(١)]

وقرئ: (لُبَدًا) بضم اللام واللُّبدة في معنى اللِّبدة، وقرئ (لُبَّدًا) جمع لَابِد كسُجَّد وساجد. وقرئ أيضًا: (لُبُدا) بضم اللام والباء جمع لبود كصُبُر جمع صَبُور، فإن قيل: لم سمي محمدًا بعبدالله، وما ذكره برسول الله أو نبي الله؟ قلنا: لأنه إن كان هذا الكلام من جملة الموحى، فاللائق بتواضع الرسول أن يذكر نفسه بالعبودية، وإن كان من كلام الجن كان المعنى أن عبدالله لما اشتغل بعبودية الله، فهؤلاء الكفار لم اجتمعوا ولم حاولوا منعه منه، مع أن ذلك هو الموافق لقانون العقل؟.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قرأ العامة (قال) على الغيبة وقرأ عاصم وحمزة: ﴿قُلْ﴾ حتى يكون نظيرًا لما بعده، وهو قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ قال مقاتل: إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: «**إِنَّكَ جِئْتَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَقَدْ عَادَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَارْجِعْ عَنْ هذا**»[(٢)] فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ وهذا حجة لعاصم وحمزة، ومن قرأ ﴿قَالَ﴾ حمل ذلك على أن القوم لما قالوا ذلك، أجابهم النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ فحكى الله ذلك عنه بقوله ﴿قَالَ﴾ أو يكون ذاك من بقية حكاية الجن أحوال الرسول لقومهم.

---

(١) تقدمت ترجمة زهير.

(٢) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إما أن يفسر الرشد بالنفع حتى يكون تقدير الكلام: لا أملك لكم غيًّا ولا رشدًا، ويدل عليه قراءة أبي (غَيًّا وَلاَ رَشَدًا)، ومعنى الكلام أن النافع والضار، والمرشد والمغوي هو الله، وإن أحدًا من الخلق لا قدرة له عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: إنهم قالوا: اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك، فقال الله له: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجأ وحرزًا، قال المبرد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ مثل قولك منعرجًا، والتحد معناه في اللغة مال، فالملتحد المدخل من الأرض مثل السرب الذاهب في الأرض.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ ذكروا في هذا الاستثناء وجوهًا: أحدها: أنه استثناء من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ [الجن: ٢١] أي لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا إلا بلاغًا من الله، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ [الجن: ٢٢] جملة معترضة وقعت في البين لتأكيد نفي الاستطاعة عنه وبيان عجزه على معنى: إنه تعالى إن أراد به سوءًا لم يقدر أحد أن يجيره منه، وهذا قول الفراء. وثانيها: وهو قول الزجاج: أنه نصب على البدل من قوله: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢] والمعنى: ولن أجد من دونه ملجأ إلا بلاغًا، أي لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، وأقول هذا الاستثناء منقطع لأنه تعالى لما لم يقل ولن أجد ملتحدًا بل قال: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢]، والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ لأن البلاغ من الله لا يكون من دون الله، بل يكون من الله وبإعانته وتوفيقه، ثالثها: قال بعضهم: ﴿إِلَّا﴾ معناه إن لا ومعناه: إن لا أبلغ بلاغًا كقولك: (إلاَّ) قيامًا فقعودًا، والمعنى: إن لا أبلغ لم أجد ملتحدًا، فإن قيل: المشهور أنه يقال بلغ عنه قال عليه السلام: «بَلِّغُوا عَنِّي، بَلِّغُوا عَنِّي» فَلِمَ قال هاهنا: ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ قلنا: (من) ليست (بصفة للتبليغ) إنما هي بمنزلة (مِنْ) في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١] بمعنى بلاغًا كائنًا من الله. أما قوله تعالى: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فهو عطف على ﴿بَلَٰغًا﴾ كأنه قال: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات، والمعنى إلا أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله كذا ناسبًا القول إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قال الواحدي: إن مكسورة الهمزة لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ولذلك حمل سيبويه قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ [الجن: ١٣] على أن المبتدأ فيها مضمر وقال صاحب -الكشاف- وقرئ: (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) على تقدير فجزاؤه أن له نار جهنم،

كقولك: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] أي فحكمه أن لله خمسه.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ حملاً على معنى الجمع في (من)، **وفي الآية مسألتان:**

المسألة الأولى: استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة مخلدون في النار وأن هذا العموم يشملهم كشموله الكفار، قالوا: وهذا الوعيد مشروط بشرط أن لا يكون هناك توبة ولا طاعة أعظم منها، قالوا: وهذا العموم أقوى في الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات لأن سائر العمومات ما جاء فيها قوله: ﴿أَبَدًا﴾ فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل، أما هاهنا فَقَدْ جاء لفظ الأبد فيكون ذلك صريحًا في إسقاط الاحتمال الذي ذكره المخالف والجواب: أنا بيَّنا في سورة البقرة وجوه الأجوبة على التمسك بهذه العمومات، ونزيد هاهنا وجوهًا: أحدها: أن تخصيص العموم بالواقعة التي لأجلها ورد ذلك العموم عرف مشهور، فإن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار ساعة فقال الزوج إن خرجت فأنت طالق يفيد ذلك اليمين بتلك الساعة المعينة حتى إنها لو خرجت في يوم آخر لم تطلق، فهاهنا أجرى الحديث في التبليغ عن الله تعالى، ثم قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني جبريل: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي من يعص الله في تبليغ رسالاته وأداء وحيه فإن له نار جهنم، وإذا كان ما ذكرنا محتملاً سقط وجه الاستدلال، الوجه الثاني: وهو أن هذا الوعيد لا بد وأن يتناول هذه الصورة لأن من القبيح أن يذكر عقيب هذه الواقعة حكمًا لا تعلق له بها، فيكون هذا الوعيد وعيدًا على ترك التبليغ من الله، ولا شك أن ترك التبليغ من الله أعظم الذنوب، والعقوبة المترتبة على أعظم الذنوب، لا يجوز أن تكون مرتبة على جميع الذنوب، لأن الذنوب المتفاوتة في الصغر والكبر لا يجوز أن تكون متساوية في العقوبة، وإذا ثبت أن هذه العقوبة على هذا الذنب، وثبت أن ما كان عقوبة على هذا الذنب لا يجوز أن يكون عقوبة على سائر الذنوب، علمنا أن هذا الحكم مختص بهذا الذنب وغير متعد إلى سائر الذنوب، الوجه الثالث: وهو أنه تعالى ذكر عمومات الوعيد في سائر آيات القرآن غير مقيدة بقيد الأبد، وذكرها هاهنا مقيدة بقيد الأبد، فلا بد في هذا التخصيص من سبب، ولا سبب إلا أن هذا الذنب أعظم الذنوب، وإذا كان السبب في هذا التخصيص هذا المعنى، علمنا أن هذا الوعيد مختص بهذا الذنب وغير متعد إلى جميع الذنوب، وإذا ثبت أن هذا الوعيد مختص بفاعل هذا الذنب، صارت الآية دالة على أن حال سائر المذنبين بخلاف ذلك، لأن قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ معناه أن هذه الحالة له لا لغيره، وهذا كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: ٦] أي لكم لا لغيركم. وإذا ثبت أن لهم هذه الحالة لا لغيرهم، وجب في سائر المذنبين أن لا يكون لهم نار جهنم على سبيل التأبيد، فظهر أن هذه الآية حجة لنا عليهم. وعلى تمسكهم بالآية سؤال آخر، وهو أن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إنما يتناول من عصى الله ورسوله بجميع أنواع المعاصي، وذلك هو الكافر ونحن نقول: بأن الكافر يبقى في النار مؤبدًا، وإنما قلنا إن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إنما يتناول من

عصى الله بجميع أنواع المعاصي لأن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ يصح استثناء جميع أنواع المعاصي عنه، مثل أن يقال ومن يعص الله إلا في الكفر وإلا في الزنا، وإلا في شرب الخمر، ومن مذهب القائلين بالوعيد أن حكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلاً تحت اللفظ وإذا كان كذلك، وجب أن يكون قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ متناولاً لمن أتى بكل المعاصي، والذي يكون كذلك هو الكافر، فالآية مختصة بالكافر على هذا التقدير، فسقط وجه الاستدلال بها. فإن قيل: كون الإنسان الواحد آتيًا لجميع أنواع المعاصي محال، لأن من المحال أن يكون قائلاً بالتجسيم، وأن يكون مع ذلك قائلاً بالتعطيل، وإذا كان ذلك محالاً فحمل الآية عليه غير جائز قلنا: تخصيص العام بدليل العقل جائز، فقولنا: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ يفيد كونه آتيًا بجميع أنواع المعاصي، ترك العمل به في القدر الذي امتنع عقلاً حصوله فيبقى متناولاً للآتي بجميع الأشياء التي يمكن الجمع بينها، ومن المعلوم أن الجمع بين الكفر وغيره ممكن فتكون الآية مختصة به.

المسألة الثانية: تمسك القائلون بأن الأمر للوجوب بهذه الآية فقالوا: تارك المأمور به عاص لقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٣]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] والعاصي مستحق للعقاب لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

فإن قيل: ما الشيء الذي جعل ما بعد حتى غاية له؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه متعلق بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] والتقدير أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عَدَدَهُ حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة، فسيعلمون أيهم أضعف ناصرًا وأقل عددًا، الثاني: أنه متعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده كأنه قيل: هؤلاء لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا كان كذا كان كذا، واعلم أن نظير هذه الآية قوله في مريم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم: ٧٥] واعلم أن الكافر لا ناصر له ولا شفيع يوم القيامة على ما قال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ويفر كل أحد منهم من صاحبه على ما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] إلى آخره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] وأما المؤمنون فلهم العزة والكرامة والكثرة قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] والملك القدوس يسلم عليهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فهناك يظهر أن القوة والعدد في جانب المؤمنين أو في جانب الكفار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ قال مقاتل: لما سمعوا قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا الذي توعدنا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إلى آخره والمعنى أن وقوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم، وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي غاية وبعدًا وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] فإن قيل: أليس أنه قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(١)] فكان عالمًا بقرب وقوع القيامة، فكيف قال هاهنا: لا أدري أقريب أم بعيد؟ قلنا: المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما معنى معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ لفظة (مِنْ) في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ تبيين لمن ارتضى يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي يكون رسولاً، قال صاحب (الكشاف)، وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف الكرامات إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، وفيها أيضًا إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط، قال الواحدي: وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بما في القرآن.

واعلم أن الواحدي يجوز الكرامات وأن يلهم الله أولياءه وقوع بعض الوقائع في المستقبل ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله صاحب -الكشاف-، وإن زعم أنها لا تدل على المنع من الإلهامات الحاصلة للأولياء فينبغي أن لا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية، فأما التحكم بدلالتها على المنع من الأحكام النجومية وعدم دلالتها على الإلهامات الحاصلة للأولياء فمجرد التشهي، وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه والذي تدل عليه أن قوله: ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئًا من الغيوب لأحد، والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله: ﴿إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة النازعات) (٤/ ١٨٨١) حديث رقم (٤٦٥٢) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠) كلاهما من طريق أبي حازم حدثنا سهل بن سعد... به.

أَمَدًا﴾ [الجن: ٢٥] يعني لا أدري وقت وقوع القيامة، ثم قال بعده: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد، وبالجملة فقوله: ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ لفظ مفرد مضاف، فيكفي في العمل به حمله على غيب واحد، فأما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه، فإن قيل: فإذا حملتم ذلك على القيامة فكيف قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله؟ قلنا: بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة، وكيف لا وقد قال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة، وأيضًا يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعًا، كأنه قال: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحدًا، ثم قال بعده: لكن من ارتضى من رسول: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جوابًا لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به، والاستحقار لدينه ومقالته.

واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية أن لا يطلع أحدًا على شيء من المغيبات إلا الرسل، **والذي يدل عليه وجوه:**

أحدها: أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقًّا وسطيحًا كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد ﷺ قبل زمان ظهوره، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا محمد ﷺ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب.

وثانيها: أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم التعبير، وأن المعبر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية في المستقبل، ويكون صادقًا فيه.

وثالثها: أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان، وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل فذكرت أشياء، ثم إنها وقعت على وفق كلامها.

قال مصنف الكتاب ختم الله له بالحسنى: وأنا قد رأيت أناسًا محققين في علوم الكلام والحكمة، حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخبارًا على سبيل التفصيل، وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها، وبالغ أبو البركات في كتاب المعتبر في شرح حالها، وقال: لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارًا مطابقًا.

ورابعها: أنا نشاهد (ذَٰلِكَ) في أصحاب الإلهامات الصادقة، وليس هذا مختصًا بالأولياء بل قد يوجد في السحرة أيضًا من يكون كذلك نرى الإنسان الذي يكون سهم الغيب على درجة طالعه يكون كذلك في كثير من أخباره وإن كان قد يكذب أيضًا في أكثر تلك الأخبار، ونرى الأحكام النجومية قد تكون مطابقة وموافقة للأمور، وإن كانوا قد يكذبون في كثير منها، وإذا كان ذلك مشاهدًا محسوسًا، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن، وذلك باطل فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فالمعنى أنه يسلك من بين يدي من ارتضى للرسالة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم، حتى يبلغ ما أوحى به إليه، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ولا يضرونه وعن الضحاك: ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين (الذين) يتشبهون بصورة الملك.

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: وحّد الرسول في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الجن: ٢٧] ثم جمع في قوله: ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ونظيره ما تقدم من قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ [الجن: ٢٣].

المسألة الثانية: احتج من قال بحدوث علم الله تعالى بهذه الآية لأن معنى الآية ليعلم الله أن قد أبلغوا الرسالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] والجواب من وجهين الأول: قال قتادة ومقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، وعلى هذا، اللام في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل: أخبرناه بحفظ الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ الحق، ويجوز أن يكون المعنى ليعلم الرسول أن قد أبلغوا أي جبريل والملائكة الذين يبعثون إلى الرسل رسالات ربهم، فلا يشك فيها ويعلم أنها حق من الله، الثاني: وهو اختيار أكثر المحققين أن المعنى ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم، والعلم هاهنا مثله في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم فيعلم ذلك منهم.

المسألة الثالثة: قرئ (لِيُعْلَمَ) على البناء للمفعول.

اما قوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ فهو يدل على كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، وأما قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ فهو يدل على كونه عالمًا بجميع الموجودات، فإن قيل: إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي، وقوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ يدل على كونه غير متناه، فلزم وقوع التناقض في الآية، قلنا: لا شك أن إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي، فأما لفظة ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ فإنها لا تدل على كونه غير متناه، لأن الشيء عندنا هو الموجودات، والموجودات متناهية في العدد، وهذه الآية أحد ما يحتج به على أن المعدوم ليس بشيء، وذلك لأن المعدوم لو كان شيئًا، لكانت الأشياء غير متناهية، وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ يقتضي كون تلك المحصيات متناهية، فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية وذلك محال، فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشيء حتى يندفع هذا التناقض.

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجن

مكِّيَّةٌ في قول الجميع(١). وهي ثمانٍ وعشرون آية

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: قل يا محمد لأمتك: أَوْحَى اللهُ إليَّ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ إليّ ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وما كان عليه الصلاة والسلام عالماً به قبل أنْ أُوحي إليه. هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي.

وقرأ ابن أبي عَبْلة: «وُحِيَ» على الأصل، يقال: أَوحى إليه ووَحى، [وقُرئ: أُحِيَ] فقُلبت الواوُ همزة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات:١١]. وهو من القلب المطلق جوازُه في كل واوٍ مضمومة. وقد أطلقه المازنيُّ في المكسورة أيضاً، كإشاح وإسادة و«إِعَاءِ أَخِيهِ» [يوسف:٧٦] ونحوه(٢).

الثانية: واختُلِف هل رآهم النبيُّ ﷺ أم لا؟ فظاهر القرآن يدلُّ على أنه لم يرهم، لقوله تعالى: «اسْتَمَعَ»، وقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٧٨، وزاد المسير٨/ ٣٧٦.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦٦بتقديم وتأخير، وما بين حاصرتين لضرورة السياق، ومستفاد منه، وذكرَ قراءة: وُحي، عن ابن أبي عبلة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٢. وقرأ ابن أبي عبلة أيضاً: أُحيَ: كما في المحرر الوجيز ٥/٣٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٦، والقراءتان شاذتان. وقراءة: «إعاء أخيه» شاذة أيضاً، وهي في المحتسب ١/ ٣٤٨، والقراءات الشاذة ص٦٥.

[الأحقاف:٢٩]. وفي صحيح مسلم والتِّرمذيِّ عن ابن عباس قال: ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجنِّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ قالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهُب! قالوا: ما ذاك إلَّا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ماهذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارقَ الأرض ومغاربَها، فمرَّ النَّفرُ الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عُكَاظ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(١). رواه الترمذي(٢) عن ابن عباس قال: قولُ الجنِّ لقومهم: ﴿لَّمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الآية:١٩] قال: لمَّا رأوه يصلِّي، وأصحابُه يصلُّون بصلاته، فيسجدون بسجوده، قال: تعجَّبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿لَّمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾قال: هذا حديث حسن صحيح.

ففي هذا الحديثِ دليلٌ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يرَ الجنَّ، ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليلٌ على أنَّ الجنَّ كانوا مع الشياطين حين تجسَّسوا الخبر بسبب الشياطين لمَّا رُمُوا بالشُّهُب. وكان المرميُّون بالشُّهُب من الجنِّ أيضاً. وقيل لهم: شياطين كما قال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فإنَّ الشيطان كلُّ متمرِّدٍ وخارجٍ عن طاعة الله.

---

(١) صحيح مسلم (٤٤٩)، وسنن الترمذي (٣٣٢٣)، وأخرجه أحمد (٢٢٧١). وهو عند البخاري (٧٧٣) و(٤٩٢١) دون قوله: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم.

(٢) هو بعض حديثه السالف.

وفي الترمذي[١] عن ابن عباس قال: كان الجنُّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوَحْي، فإذا سمعوا الكلمةَ زادوا فيها تسعاً، فأمَّا الكلمةُ فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيكون باطلاً. فلما بُعث رسولُ الله ﷺ، مُنِعوا مقاعدَهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمرُ إلَّا مِن أمرٍ قد حدث في الأرض! فبعث جنوده، فوجدوا رسولَ الله ﷺ قائماً يصلِّي بين جبلين ـ أُراه قال: بمكة ـ فأتَوه فأخبروه، فقال: هذا الحَدث الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح.

فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ الجنَّ رُموا كما رُميت الشياطين.

وفي رواية السُّدِّيّ: أنهم لمَّا رُموا أتَوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم، فقال: إيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أَشَمُّها، فأتَوه، فشمَّ فقال: صاحبكم بمكة؛ فبعث نفراً من الجنِّ[٢]. قيل: كانوا سبعة. وقيل: تسعة، منهم زَوْبعة.

وروى عاصمٌ عن زِرٍّ قال: قَدِمَ رهط زوبعة وأصحابُه على النبيِّ ﷺ. وقال الثُّمالي: بلغني أنهم من بني الشَّيْصَبَان، وهم أكثر الجنِّ عدداً، وأقواهم شوكة، وهم عامَّةُ جنودِ إبليس. وروى أيضاً عاصمٌ عن زِرٍّ: أنهم كانوا سبعةَ نفر؛ ثلاثة من أهل حَرَّان، وأربعة من أهل نَصِيبين. وحكى جُويبر عن الضحَّاك: أنهم كانوا تسعة من أهل نَصِيبين، قرية باليمن غير التي بالعراق. وقيل: إنَّ الجنَّ الذين أتَوا مكة جنُّ نصيبين، والذين أتوه بنخلة جنُّ نِيْنَوَى. وقد مضى بيانُ هذا في سورة الأحقاف[٣].

قال عِكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسولُ الله ﷺ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١][٤]. وقد مضى في سورة الأحقاف التعريفُ باسم النفرِ من الجنّ، فلا معنى لإعادة ذلك.

---

(١) برقم (٣٣٢٤)، وهو في مسند أحمد (٢٤٨٢) بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/١٠٨ .

(٣) ١٩/ ٢٢٤ . وينظر تفسير الطبري ٢٣/ ٣١١ ، والنكت والعيون ٦/١٠٨-١٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٦/١٠٨ .

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ رأى الجنَّ ليلةَ الجنّ، وهو أثبت؛ روى عامر الشَّعبيُّ قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ؟ فقال علقمة: أنا سألت ابنَ مسعود فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ؟ قال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطير أو اغتيل، قال: فبتنا بِشرِّ ليلةٍ بات بها قوم، فلما أصبحنا[1] إذا هو جاءٍ من قِبَل حِرَاء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجنّ، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن». فانطلَقَ بنا فأرانا آثارَهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد ـ وكانوا من جنِّ الجزيرة ـ فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكر اسمُ الله عليه، يقع في أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرة عَلَفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجُوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»[2].

قال ابن العربي[3]: وابن مسعود أعرف من ابن عباس؛ لأنه شاهده، وابن عباس سمعه؛ وليس الخبر كالمعاينة.

وقد قيل: إنَّ الجنَّ أتَوا رسول الله ﷺ دفعتين: إحداهما بمكة، وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة، وهي التي ذكرها ابن عباس. قال البيهقي: الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أوَّل ما سمعت الجنُّ قراءةَ النبيِّ ﷺ وعَلِمت بحاله، وفي ذلك الوقتِ لم يقرأ عليهم ولم يرهم، كما حكاه، ثم أتاه داعي الجنِّ مرَّةً أخرى، فذهب معه وقرأ عليهم القرآن، كما حكاه عبد الله بن مسعود. قال البيهقي: والأحاديث الصِّحاح تدلُّ على أنَّ ابن مسعود لم يكن مع النبي ﷺ ليلةَ الجنّ، وإنما كان معه حين انطلق به وبغيره يريه آثارَ الجنِّ وآثارَ نيرانهم. قال: وقد رُوي من غير

---

(١) في النسخ: أصبح، والمثبت من صحيح مسلم.

(٢) أخرجه أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠) واللفظ له. وسلف قطعة منه ١/ ٤٦٩. قوله: استطير، أي: ذُهب به بسرعة كأن الطير حملته، أو اغتاله أحد. النهاية (طير).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٢.

وجه أنه كان معه ليلتئذ[١]. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأحقاف، والحمد لله[٢].

روي عن ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُمرت أنْ أتلوَ القرآن على الجنِّ، فمن يذهب معي؟» فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحَجُون عند شِعْب أبي دُبّ، فخطَّ عليَّ خطّاً، فقال: «لا تجاوزه» ثم مضى إلى الحَجُون فانحدر عليه أمثالُ الحَجَل يَحدُرون الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون في دُفوفهم كما تَقْرع النُّسور[٣] في دُفوفها، حتى غَشوه فلا أراه، فقمت، فأوْمَى إليَّ بيده أن اجلس، فتلا القرآن، فلم يزل صوته يرتفع، ولَصِقوا بالأرض حتى ما أراهم، فلما انفتل إليّ قال: «أردتَ أن تأتيَني؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «ما كان ذلك لك، هؤلاء الجنُّ أتَوا يستمعون القرآن، ثم ولَّوا إلى قومهم منذرين، فسألوني الزاد فزوَّدتهم العظم والبعر؛ فلا يَستطيبَنَّ أحدُكم بعظم ولا بعر».

قال عكرمة: وكانوا اثني عشرَ ألفاً من جزيرة الموصل.

وفي رواية[٤]: انطلق بي عليه الصلاة والسلام، حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف؛ خَطَّ لي خطًّا، فأتاه نفر منهم، فقال أصحابنا: كأنهم رجال الزُّطّ، وكأنَّ وجوههم المَكَاكيّ[٥]، فقالوا: ما أنت؟ قال: «أنا نبيُّ الله» قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: «هذه الشجرة، تعالي[٦] يا شجرة» فجاءت تجرُّ عروقها، لها قعاقع، حتى انتصبت بين يديه، فقال: «على ماذا تشهدين» قالت: أشهد أنك رسول الله.

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٢٢٧، ٢٣٠.

(٢) ١٩/ ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٣) في النسخ: النسوة، والمثبت من المصادر. وسلف الخبر ١٩/ ٢٢٢ بنحوه.

(٤) أخرج هذه الرواية والتي قبلها الفاكهي في أخبار مكة (٢٣١٩). وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦ (١٨٥٧٨).

(٥) جمع مكُّوك: وهو مكيال.

(٦) في (م): فقال.

فرجعت كما جاءت تجرُّ بعروقها الحجارة لها قعاقع، حتى عادت كما كانت.

ثم روي أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا فرغ، وضع رأسه على حِجْر ابن مسعود، فرقد، ثم استيقظ فقال: «هل مِن وضوء؟» قال: لا، إلَّا أنَّ معي إداوةٌ فيها نبيذ. فقال: «هل هو إلَّا تمر وماء» فتوضأ منه(١).

الثالثة: قد مضى الكلام في الماء في سورة الحِجْر(٢)، وما يستنجى به في سورة براءة(٣)، فلا معنى للإعادة.

الرابعة: واختلف أهل العلم في أصل الجنّ؛ فروى إسماعيل عن الحسن البصريّ: أنَّ الجنَّ ولدُ إبليس، والإنسَ ولد آدم، ومِن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمَن كان مِن هؤلاء وهؤلاء مؤمناً، فهو وليُّ الله، ومَن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً، فهو شيطان. وروى الضحَّاك عن ابن عباس: أنَّ الجنَّ هم ولد الجانّ، وليسوا بشياطين، وهم يموتون(٤)؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس.

واختلفوا في دخول مؤمني الجنِّ الجنة، على حسب الاختلاف في أصلهم. فمَن زعم أنهم من الجانِّ لا من ذرِّيَّة إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم. ومَن قال: إنهم من ذرِّيَّة إبليس، فلهم فيه قولان: أحدهما، وهو قول الحسن: يدخلونها. الثاني، وهو رواية مجاهد: لا يدخلونها وإن صُرِفوا عن النار. حكاه الماوردي(٥). وقد مضى في سورة الرحمن عند قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الآية:٥٦]. بيان أنهم يدخلونها(٦).

---

(١) سلف ١٦/ ٢١٢-٢١٣، وسلفت هذه القطعة ـ أيضاً ـ ١٥/ ٤٤١.

(٢) ١٢/ ١٩٩.

(٣) ١٠/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) في النسخ عدا (ظ): يؤمنون، والمثبت موافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٠٩.

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٠٩.

(٦) ٢٠/ ١٥٥.

الخامسة: قال البيهقيُّ[١] في روايته: وسألوه الزاد، وكانوا من جنِّ الجزيرة، فقال: «لكم كلُّ عظم» دليلٌ على أنهم يأكلون ويَطعَمون. وقد أنكر جماعةٌ من كَفَرة الأطباءِ والفلاسفةِ الجنَّ، وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصحُّ طعامهم؛ اجتراءً على الله وافتراءً عليه، والقرآن والسنة تردُّ عليهم، وليس في المخلوقات بسيط، [بل الكلُّ] مركَّبٌ مزدوج، إنما الواحد الواحد سبحانه، وغيره مركَّبٌ ليس بواحد كيفما تصرَّف حاله. وليس يمتنع أن يراهم النبيُّ ﷺ في صورهم كما يرى الملائكة. وأكثر ما يَتصوَّرون لنا في صور الحيات؛ ففي الموطأ[٢]: أن رجلاً حديثَ عهدٍ بعُرس استأذن رسولَ الله ﷺ بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله... الحديث، وفيه: فإذا حيَّةٌ عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها. وذكر الحديث. وفي الصحيح[٣] أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنَّ لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئاً، فحرِّجوا عليها ثلاثاً، فإنْ ذهب وإلَّا فاقتلوه؛ فإنه كافر». وقال: «اذهبوا فادفنوا صاحبكم»[٤] وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة وبيانُ التحريج عليهن[٥].

وقد ذهب قومٌ إلى أنَّ ذلك مخصوصٌ بالمدينة؛ لقوله في الصحيح[٦]: «إنَّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا». وهذا لفظ مختصٌّ بها، فيختصُّ بحكمها. قلنا: هذا يدلُّ على أنَّ غيرها من البيوت مثلُها؛ لأنه لم يُعلَّل بحرمة المدينة، فيكون ذلك الحكمُ مخصوصاً بها، وإنما عُلِّل بالإسلام، وذلك عامٌّ في غيرها، ألا ترى قولَه في الحديث مخبِراً عن الجنِّ الذين لقي: «وكانوا من جنِّ الجزيرة»؛ وهذا بيِّنٌ، يَعضُده قولُه:

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٢: قال الشعبي. وهو عند البيهقي في الدلائل ٢/ ٢٢٩ من طريق الشعبي، وسلف في المسألة الثانية.

(٢) ٢/ ٩٧٦، وسلف الحديث ١/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٣٦): (١٤٠)، وسلف ١/ ٤٧٠.

(٤) أي الرجل الحديث العهد بعرس الذي قتلته الحية، وهو من حديث الموطأ المذكور.

(٥) ١/ ٤٦٨ فما بعد.

(٦) هو بعض الحديث السالف.

«ونَهى عن عوامر البيوت»[١]، وهذا عامٌّ[٢]. وقد مضى في سورة البقرة القولُ في هذا، فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي: في فصاحة كلامه. وقيل: عَجَباً في بلاغة مواعظه. وقيل: عجباً في عِظَم بركته[٣]. وقيل: قرآناً عزيزاً لا يوجد مثله[٤]. وقيل: يعنون عظيماً. ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ أي: إلى مراشد الأمور. وقيل: إلى معرفة الله تعالى[٥]؛ و«يَهْدي» في موضع الصفة، أي: هادياً. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: فاهتدينا به وصدَّقنا أنه من عند الله ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ أي: لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر لما[٦] رُميَ الجنُّ بالشُّهب. وقيل: لا نتَّخذ مع الله إلهاً آخر، لأنه المتفرِّد بالرُّبُوبية. وفي هذا تعجيبُ المؤمنين بذهاب مشركي قريش عمَّا أدركته الجنُّ بتدبُّرها القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: استمعوا إلى النبيِّ ﷺ، فعلموا أنَّ ما يقرؤه كلامُ الله. ولم يذكر المستمَع إليه لدلالة الحال عليه. والنَّفَر: الرهط، قال الخليل: ما بين ثلاثة إلى عشرة. وقرأ عيسى الثَّقفي: «يَهْدي إلى الرَّشَد» بفتح الراء والشين[٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كان عَلْقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكِسائيُّ وابن عامر وخَلَفٌ وحفص والسُّلَميُّ ينصبون «أنَّ» في جميع السورة في اثني عشر

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٦٢) من حديث أبي أمامة ﷺ. وفي الباب عن أبي لبابة أو زيد بن الخطاب رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٤٥٥٧)، ومسلم (٢٢٣٣).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٢-٧٨٥٣ ، ١٨٥٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٩-١١٠ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١١٠ .

(٦) في (د): لِمَ، وفي(م): ثم.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩ .

موضعاً[١]، وهو: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، ﴿وأَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ لا يجوز فيه إلَّا الفتح، لأنها في موضع اسم فاعل«أُوحِيَ»، فما بعده معطوفٌ عليه. وقيل: هو محمول على الهاء في «آمَنَّا بِهِ»، أي: وبـ«أنَّه تعالى جَدُّ ربِّنا»، وجاز ذلك وهو مضمَر مجرور، لكثرة حذف الجارّ[٢] مع «أنَّ». وقيل: المعنى: أي: وصدَّقنا أنه جَدُّ ربِّنا.

وقرأ الباقون كلَّها بالكسر، وهو الصواب، واختاره أبو عبيد[٣] وأبو حاتم عطفاً على قوله: «فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا»لأنه كله من كلام الجنِّ.

وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثةَ مواضع، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾[٤]، قالا: لأنه من الوحي، وكسرا مابقي، لأنه من كلام الجنِّ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فكلُّهم فتحوا إلَّا نافعاً وشيبةَ وزِرَّ بن حُبيش وأبا بكر والمفضَّل عن عاصم، فإنهم كسروا لا غير[٥].

ولا خلاف في فتح همزة﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿وأَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾.

وكذلك لاخلاف في كسر مابعد القول، نحوُ قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا﴾

---

(١) السبعة ص٦٥٦، والتيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١. وعن علقمة أخرجها الفراء ٣/ ١٩١، ونسبها له وليحيى والأعمش النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٤٦.

(٢) في النسخ: حرف الجارّ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٣.

(٣) في(د) و(م): أبو عبيدة.

(٤) النشر ٢/ ٣٩١ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٥) قراءة نافع وأبي بكر عن عاصم في السبعة ص٦٥٦، والتيسير ص٢١٥.

و﴿قَالَ[١] إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ و﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾و﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾.

وكذلك لاخلاف في كسر ماكان بعد فاء الجزاء، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾و﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ لأنه موضع ابتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجَدُّ في اللغة: العظَمة والجلال، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حَفِظَ«البقرة» و«آل عمران» جَدَّ في عيوننا[٢]، أي: عَظُم وجَلَّ. فمعنى: « جدُّ رَبِّنَا» أي: عظمته وجلاله، قاله عكرمة ومجاهدٌ وقتادة. وعن مجاهد أيضاً: ذِكْرُه. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً: غناه. ومنه قيل للحظِّ: جَدٌّ، ورجل مجدود، أي: محظوظ، وفي الحديث: «ولا ينفع ذا الجَدِّ، منك الجَدّ»[٣] قال أبو عبيد[٤] والخليل: أي: ذا الغنى منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة. وقال ابن عباس: قدرته. وقال الضحاك: فِعْله. وقال القُرَظيُّ والضحَّاك أيضاً: آلاؤه ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة[٥] والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السديّ: أمره. وقال سعيد ابن جُبير: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾أي: تعالى ربُّنا. وقيل: إنهم عَنَوا بذلك الجَدَّ الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجن[٦] .

وقال محمد بن عليّ بن الحسين وابنهُ جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جَدّ، وإنما قالته الجنُّ للجهالة، فلم يؤاخذوا به[٧].

وقال القشيريّ: ويجوز إطلاق لفظ الجدِّ في حقِّ الله تعالى، إذ لو لم يجز لَمَا

---

(١) قرأ عاصم وحمزة «قل» بغير ألف. السبعة ص٦٥٧ ، والتيسير ص ٢١٥ .

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢١٥) مطولاً.

(٣) سلف ١٩/ ٤٦٣ .

(٤) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٥) مجاز القرآن٢/ ٢٧٢ .

(٦) ينظر لهذه الأقوال تفسير الطبري ٢٣/ ٣١٢-٣١٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١١٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠١ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣١٥ عن محمد أبي جعفر الباقر. قال ابن عطية: قال كثير من المفسرين: هذا قول ضعيف.

ذُكِر في القرآن، غير أنه لفظ مُوهم ، فتجنُّبه أولى.

وقرأ عِكرمة: «جِدّ» بكسر الجيم؛ على ضد الهَزْل. وكذلك قرأ أبو حَيْوة ومحمد ابنُ السَّمَيفع.

ويروى عن ابن السَّمَيفع أيضاً وأبي الأشهب: «جَدَا رَبِّنا» وهو الجَدْوى، والمنفعة.

وقرأ عكرمة أيضاً: «جَدًّا» بالتنوين؛ «رَبُّنَا» بالرفع على أنه مرفوع بـ «تعالى»، و«جَدًّا» منصوب على التمييز.

وعن عكرمة أيضاً: «جَدٌّ» بالتنوين والرفع، «رَبُّنَا» بالرفع، على تقدير: تعالى جَدٌّ جَدُّ ربِّنا، فـ «جَدّ» الثاني بدلٌ من الأول، وحذف وأقيم المضافُ إليه مُقامه[١]

ومعنى الآية: وأنه تعالى جلالُ ربِّنا أن يتَّخذ صاحبةً وولداً للاستئناس بهما والحاجةِ إليهما، والربُّ يتعالى عن الأنداد والنظراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ الهاء في «أنَّهُ» للأمر أو الحديث، وفي «كان» اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون «كان» زائدة[٢].

والسفيه هنا إبليس في قول مجاهدٍ وابن جريح وقتادة. ورواه أبو بُرْدة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ[٣]. وقيل: المشركون من الجنّ. قال قتادة: عصاه سفيه الجنِّ كما عصاه سفيه الإنس[٤] .

(١) المحتسب ٢/ ٣٣٢ ، وفيه القراءتان عن عكرمة.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١١٠ دون ذكر ابن جريح، وقول مجاهد وقتادة أخرجه الطبري٢٣/ ٣٢٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢١ .

والشطط والاشتطاط: الغلوُّ في الكفر. وقال أبو مالك: هو الَجْور. وقال الكلبيّ: هو الكذب. وأصله البعد، فيعبَّر به عن الَجْور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق[١]، قال الشاعر:

بـأيَّـة حـالٍ حـكَّـمـوا فـيـك فـاشـتـطُّـوا وماذاكَ إلا حيـثُ يَـمَّـمـك الـوَخْـطُ[٢]

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: حَسِبنا ﴿أَن لَّن نَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فلذلك صدَّقناهم في أنَّ لله صاحبةً وولداً، حتى سمعنا القرآنَ وتبيَّنَّا به الحقّ.

وقرأ يعقوب والجحدريُّ وابن أبي إسحاق: «أَنْ لَنْ تَقَوَّل»[٣].

وقيل: انقطع الإخبار عن الجنّ هاهنا، فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فَمن فَتَحَ وجعله من قول الجنّ، ردَّها إلى قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ»، ومن كسر جعلها مبتدأً من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيِّد هذا الوادي مِن شرِّ سفهاء قومه، فَيبيت في جِواره حتى يُصبح، قاله الحسن وابن زيد وغيرهما[٤]. قال مقاتل: كان أَوَّل مَن تعوَّذ بالجنّ قومٌ من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب[٥]، فلمَّا جاء الإسلام، عاذوا بالله وتركوهم.

وقال كَرْدَم بن أبي السائب[٦]: خرجت مع أبي إلى المدينة أَوَّلَ ما ذُكر النبيُّ ﷺ،

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١١٠.

(٢) لم نقف عليه. والوخط: الشيب.

(٣) قراءة يعقوب في النشر٢/ ٣٩٢، وهي من العشرة، وقراءة الجحدري في القراءات الشاذة ص١٦٢ والمحتسب ٢/ ٣٣٣.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٢٣/ ٣٢٢-٣٢٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٠.

(٦) الأنصاري. قال البخاري وابن السكن: له صحبة. وقال ابن حبان: يقال: له صحبة، ثم أعاده في التابعين، فقال: يروي المراسيل. وقال أبو عمر: يقال: له صحبة، سكن المدينة، ومخرج حديثه عن أهل الكوفة. الإصابة ٨/ ٢٧٦.

فآوانا المبيتُ إلى راعي غنم، فلمَّا انتصف الليل، جاء الذئب فأخذ حَمَلاً من الغنم، فقال الراعي: ياعامرَ الوادي، جارُك. فنادى منادٍ لا نراه: ياسِرْحان أرسله، فأتى الحَمَلُ يَشْتدّ، وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1] أي: زاد الجنُّ الإنسَ رَهَقاً، أي: خطيئة وإثماً، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة[2].

والرَّهَق: الإثم في كلام العرب وغِشْيانُ المحارم[3]، ورجلٌ رَهِقٌ: إذا كان كذلك، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس:٢٧]، وقال الأعشى[4]:

لاشيءَ ينفعُني مِن دونِ رؤيتِها   هل يَشتفي عاشقٌ[5] مالم يُصِب رَهَقا

يعني إثماً. وأضيف الزيادة إلى الجنِّ إذ كانوا سبباً لها. وقال مجاهدٌ أيضاً: «فزادوهم» أي: إنَّ الإنس زادوا الجنَّ طغياناً بهذا التعوُّذ، حتى قالت الجنّ: سُدنا الإنسَ والجنَّ[6]. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فَرَقَاً وخوفاً من الجنّ[7]. وقال سعيد بن جُبير: كفراً[8]. ولا خفاءَ أنَّ الاستعاذة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢٤٠ـ والطبراني في الكبير ١٩/ ١٩١-١٩٢ (٤٣٠)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٦٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٢. قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٢٩: فيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي نحوه. قال ابن كثير: وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل ـ وهو ولد الشاة ـ كان جنيًّا حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجاربه، ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه، والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢٤-٣٢٥ عن ابن عباس وقتادة وإبراهيم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٢.

(٤) ديوانه ص٤١٥.

(٥) في (م): وامق، أي: محبّ.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢٥ مختصراً. وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٣٦٤.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢٥-٣٢٦ عن الربيع وابن زيد، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١١١ عن أبي العالية.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١١١.

بالجنِّ دون الاستعاذةِ بالله كفرٌ وشرك.

وقيل: لا يطلق لفظُ الرجال على الجنِّ، فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنِّ برجالٍ من الإنس، وكان الرجلُ من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بنِ بدر من جنِّ هذا الوادي.

قال القشيريّ: وفي هذا تحكُّم، إذ لا يَبْعُدُ إطلاقُ لفظ الرجال على الجنّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ هذا مِن قول اللهِ تعالى للإنس، أي: وأنَّ الجنَّ ظنُّوا أنْ لن يبعثَ اللهُ الخلقَ كما ظننتم. قال الكلبيّ: المعنى: ظنَّت الجنُّ كما ظنَّت الإنس أنْ لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيمُ به الحجَّةَ عليهم[1]. وكلُّ هذا توكيدٌ للحجَّة على قريش، أي: إذا آمن هؤلاء الجنُّ بمحمد، فأنتم أحقُّ بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ هذا من قول الجنّ، أي: طلبنا خبرَها كما جرت عادتنا، فوجدناها قد مُلِئت حَرَساً شديداً، أي: حَفَظة، يعني الملائكة. والحَرَس: جمع حارس «وشُهُباً» جمع شهاب، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع[2]. وقد مضى القولُ فيه في سورة الحِجْر والصافَّات[3].

و«وجَدَ» يجوز أن يقدَّر متعدِّياً إلى مفعولين، فالأوَّل الهاء والألف، و« مُلِئت» في موضع المفعول الثاني، ويجوز أن يتعدَّى إلى مفعول واحد، ويكون «مُلئت» في

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٣/ ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١١٢.

(٣) ١٢/ ١٨٦ فما بعد، ١٨/ ١٠ فما بعد.

موضع الحال على إضمار «قد»[١]. و«حَرَساً» نصب على المفعول الثاني بـ«مُلِئت»[٢]. و«شديداً» من نعت الحَرس، أي: ملئت ملائكةً شِداداً.

ووحّد الشَّديد على لفظ الحرَس، وهو كما يقال: السَّلَف الصالح، بمعنى الصالحين، وجمع السَّلَف: أسلاف، وجمع الحرس: أحراس، قال:

تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ مَعْشَرٍ[٣]

ويجوز أن يكون «حَرَساً» مصدراً على معنى: حُرِستْ حراسةً شديدةً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ «مِنْهَا» أي: من السماء، و«مَقَاعِدَ»: مواضع يُقْعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، يعني أنَّ مَرَدة الجنِّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبارَ السماء حتى يُلقوها إلى الكهنة، على ما تقدَّم بيانه[٤]، فَحَرسها اللهُ تعالى حين بعث رسولَه بالشُّهب المحرِقة، فقالت الجنُّ حينئذ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ يعني بالشهاب الكوكبَ المُحرِق[٥]، وقد تقدَّم بيانُ ذلك[٦].

ويقال: لم يكن انقضاضُ الكواكب إلَّا بعد مبعث النبيِّ ﷺ، وهو آيةٌ من آياته[٧].

واختلف السَّلف: هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبيِّ ﷺ؟ فقال الكلبيُّ وقال قوم: لم تكن تُحرس السماء في الفترة بين

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٤٨، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٤ قال النحاس: والأول أولى، وبنحوه قال مكي.

(٢) والأظهر أنه تمييز كما في البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٦٦، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٤.

(٣) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: عليَّ حِرَاصٌ لو يُشِرُّون مقتلي، وهو في ديوانه ص١٣، وسلف ١٤/ ٣٠٣.

(٤) في المسألة الثانية، وينظر ١٥/ ٦٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١١٢.

(٦) ١٨/ ١٢ - ١٣.

(٧) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٤.

عيسى ومحمدٍ صلوات الله عليهما وسلامه، خمس مئة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبيِّ ﷺ، فلما بُعث محمدٌ ﷺ منعوا من السماوات كلِّها، وحُرست بالملائكة والشُّهب.

قلت: ورواه عطية العوفيُّ عن ابن عباس، ذكره البيهقي[١].

وقال عبد الله بن عمر[٢]: لمَّا كان اليومُ الذي نُبِّئ رسولُ الله ﷺ، مُنعت الشياطين ورُمُوا بالشُّهب. وقال عبد الملك بن سابور[٣]: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، فلما بُعث محمدٌ ﷺ حُرست السماء، ورُميت الشياطين بالشُّهب، ومُنعت من الدُّنوّ من السماء. وقال نافع ابن جُبير: كانت الشياطين في الفترة تَسمع فلا تُرمَى، فلما بعث رسولُ الله ﷺ رُميت بالشُّهب. ونحوهُ عن أُبيٍّ بن كعب قال: لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبِّئ رسولُ الله ﷺ فرُمي بها[٤].

وقيل: كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسولِ الله ﷺ إنذاراً بحاله[٥]؛ وهو معنى قولهِ تعالى: ﴿مُلِئَتْ﴾ أي: زيد في حَرَسها؛ وقال أَوْس بن حَجَر، وهو جاهلي:

فانقضَّ كالدُّرِّيِّ يَتْبعُهُ نَقْعٌ يثورُ تخالُهُ طُنُباً

وهذا قول الأكثرين[٦]. وقد أنكر الجاحظُ هذا البيتَ وقال: كلُّ شعر رُوي فيه فهو مصنوع[٧]، وأنَّ الرمي لم يكن قبل المبعث.

---

(١) في دلائل النبوة ٢/ ٢٤٢.

(٢) في(ظ): عبد الله بن المبارك، والأثر أخرجه أبو نعيم في الدلائل (١٧٩) عن عبد الله بن عمرو.

(٣) لم نقف على ترجمته.

(٤) أخرجه الواقدي وأبو نعيم كما في الدر المنثور ٦/ ٢٧٣.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١١٢.

(٦) المصدر السابق. والبيت في ديوان أوس ص٣. الطُّنب: حبل الخِباء. الصحاح (طنب).

(٧) النكت والعيون ٦/ ١١٢.

والقولُ بالرمي أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾. وهذا إخبارٌ عن الجنّ، أنه زِيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم؛ ولِمَا رُوي عن ابن عباس قال: بينما النبيُّ ﷺ جالسٌ في نفر من أصحابه إذ رُمي بنجم، فقال: «ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية»؟ قالوا: كنَّا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبيُّ ﷺ: «إنها لا تُرْمَى لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّ ربَّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً في السماء؛ سبَّح حَمَلةُ العرش، ثم سبَّح أهل كلِّ سماء، حتى ينتهيَ التسبيح إلى هذه السماء، ويستخبرُ أهلُ السماء حَمَلةَ العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهلُ كلِّ سماءٍ حتى ينتهيَ الخبرُ إلى هذه السماء، فتتخَطَّف الجنُّ، فيُرْمَون، فما جاؤوا به فهو حقّ، ولكنهم يزيدون فيه»[(١)]. وهذا يدلُّ على أنَّ الرجم كان قبل المبعث.

ورَوى الزُّهريُّ نحوَه عن عليِّ بن الحسين بن[(٢)] عليِّ بن أبي طالب، عن ابن عباس، وفي آخره: قيل للزهريِّ: أكان يُرمَى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيتَ قولَه سبحانه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ قال: غُلِّظت وشُدِّد أمرُها حين بُعث النبيُّ ﷺ[(٣)]. ونحوَه قال القُتبي. قال ابن قتيبة: كان، ولكن اشتدَّت الحراسة بعد المبعث؛ وكانوا من قبلُ يسترِقُون ويُرمَون في بعض الأحوال، فلما بُعث محمدٌ ﷺ مُنعت من ذلك أصلاً[(٤)].

وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة الصافات عند قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[(٥)] [الآية:٨-٩] قال الحافظ: فلو قال قائل: كيف تتعرَّض الجنُّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٣)، ومسلم (٢٢٢٩) من طريق الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس بنحوه.

(٢) في (د) و(م): عن، وهو خطأ.

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٢٣٧، وهذه الرواية عند أحمد (١٨٨٢) في أثناء الحديث.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٣٣.

(٥) ١٨/ ١٢ - ١٣.

لإحراقِ نفسِها بسبب استماعِ خبر، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تَعْظُمَ المِحْنة، كما ينسَى إبليس في كلِّ وقتٍ أنه لا يسلم، وأنَّ الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] ولولا هذا لَمَا تحقَّقَ التكليف.

والرَّصَد؛ قيل: من الملائكة، أي: ورَصَداً من الملائكة. والرَّصَدُ: الحافظ للشيء، والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضعِ يجوز أن يكون جمعاً كالحرس، والواحد: راصد. وقيل: الرَّصَد هو الشِّهاب، أي: شهاباً قد أُرصد له، ليُرجَمَ به؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول، كالخَبَط والنَّفَض[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بهذا[2] الحرسِ الذي حُرست بهم السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: خيراً.

قال ابن زيد: قال إبليس: لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولاً؟[3]

وقيل: هو من قول الجنِّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءةَ النبيِّ ﷺ. أي: لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمَن في الأرض بإرسال محمدٍ إليهم، فإنهم يكذِّبونه ويَهلكون بتكذيبه كما هلك مَن كذَّب مِن الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا. فالشرُّ والرَّشَد على هذا الكفرُ والإيمان؛ وعلى هذا كان عندهم علمٌ بمبعث النبيِّ ﷺ، ولمَّا سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسةً للوحي.

وقيل: لا؛ بل هذا قولٌ قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين، أي: لمَّا آمنوا أشفقوا ألَّا يؤمنَ كثير من أهل الأرض، فقالوا: إنا لا ندري أيكفر أهلُ الأرض بما آمنَّا به أم يؤمنون؟

---

(١) الخَبَط: ما سقط من ورق الشجر بالخَبْط، ونحوه النَّفَض.

(٢) في (د) و(م): هذا.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٢٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ هذا من قول الجنِّ، قال بعضهم لبعض لمَّا دَعَوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وإنَّا كنَّا قبل استماع القرآنِ منَّا الصالحون ومنَّا الكافرون.

وقيل: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: دون الصالحين في الصلاح، وهو أشبه مِن حَمْله على الإيمان والشرك[١].

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: فِرَقاً شتَّى؛ قاله السُّدِّيّ. الضَّحاك: أدياناً مختلفة[٢]. قتادة: أهواءً متباينة[٣]؛ ومنه قول الشاعر:

القابضُ الباسطُ الهادي لطاعتِهِ في فتنةِ الناسِ إذ أهواؤهمْ قِدَدُ[٤]

والمعنى: أي: لم يكن كلُّ الجنِّ كفاراً، بل كانوا مختلفين؛ منهم كفَّار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيّب[٥]: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال: في الجنّ مِثْلُكم: قَدَريَّة، ومُرْجِئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسُنِّية[٦]. وقال قوم: أي: وإنَّا بعد استماع القرآن مختلفون: منَّا المؤمنون ومنَّا الكافرون. أي: ومنَّا الصالحون، ومنَّا مؤمنون لم يتناهَوا في الصلاح. والأوَّل أحسن؛ لأنه كان في الجنّ مَن آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١١٣ . .

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٣٠ .

(٤) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٦٣ ، والكلام في النكت والعيون ٦/ ١١٣ .

(٥) في فتح القدير٥/ ٣٠٦ :سعيد بن المسيب.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٨٠ عن الحسن والسدي.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وهذا يدلُّ على إيمان قومٍ منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغةً منهم في دعاء مَن دَعَوهم إلى الإيمان. وأيضاً لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر.

والطرائق: جمع الطريقة، وهي مذهب الرجل، أي: كنَّا فِرَقاً مختلفة. ويقال: القوم طرائق، أي: على مذاهبَ شتّى. والقِدَد: نحوٌ من الطرائق، وهو توكيدٌ لها، واحدها: قِدَّة. يقال: لكل طريق قِدَّة، وأصلها مِن قَدِّ السُّيور، وهو قَطْعُها؛ قال لبيد يرثي أخاه أَرْبَد[1]:

لم تَبْلُغِ العينُ كلَّ نَهْمَتِها ... ليلةَ تُمْسي الجِيادُ كالقِدَدِ

وقال آخر:

ولقد قلتُ وزَيدٌ حاسرٌ ... يومَ وَلَّتْ خَيلُ عَمْرٍو قِدَدا[2]

والقِدّ ـ بالكسر ـ سَيْر يُقَدُّ من جلد غير مدبوغ؛ ويقال: ماله قِدٌّ ولا قِحْف؛ فالقِدُّ: إناء من جلد، والقِحف: من خشب[3].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الظنُّ هنا بمعنى العلمِ واليقين، وهو خلاف الظنِّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾ أي: عَلِمْنا بالاستدلال والتفكُّر في آيات الله أنَّا في قبضته وسلطانه، لن نفوتَه بهرب ولا غيرِه. و﴿هَرَبًا﴾ مصدرٌ في موضع الحال[4]، أي: هاربين.

---

(١) في النسخ: زيداً، والتصويب من المصادر، والبيت في ديوان لبيد ص٥٠ .

(٢) نسبه الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٣٠٦ للبيد، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٧٣ فقال: وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله... قال ابن عباس: أما سمعت الشاعر وهو يقول... ثم ذكره .

(٣) الصحاح (قدد).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وبالله، وصدَّقنا محمداً ﷺ على رسالته. وكان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس والجنِّ. قال الحسن: بعث اللهُ محمداً ﷺ إلى الإنس والجنِّ، ولم يبعث الله تعالى قطُّ رسولاً من الجنِّ، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩][١] وقد تقدَّم هذا المعنى[٢]. وفي الصحيح[٣]: «وبُعثتُ إلى الأحمر والأسود» أي: الإنس والجنّ.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف أن يُنْقَص من حسناته ولا أن يزادَ في سيئاته؛ لأن البخس النقصان، والرَّهَق العدوان[٤] وغشيان المحارم، قال الأعشى[٥]:

لا شيء ينفعني من دونِ رؤيتِها   هل يَشتفي وامِقٌ مالم يُصِبْ رَهَقاً

الوامق: المحبّ؛ وقد وَمِقَه يمِقُه ـ بالكسر ـ أي: أحبَّه، فهو وامق[٦].

وهذا قولٌ حكاه الله تعالى عن الجِنِّ؛ لقُوَّة إيمانهم وصِحَّةِ إسلامهم[٧].

وقراءة العامة: «فَلَا يَخَافُ» رفعاً، على تقدير: فإنه لا يخاف. وقرأ الأعمش

(١) النكت والعيون ٦/ ١١٣ .

(٢) ١١/ ٤٦٩-٤٧٠

(٣) صحيح البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١). وسلف ٤/ ٢٥٨ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١١٣-١١٤ . وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٣٢ .

(٥) ديوانه ص٤١٥ ، وسلف ص٢٨٤ من هذا الجزء.

(٦) الصحاح (ومق).

(٧) النكت والعيون ٦/ ١١٤ .

ويحيى وإبراهيم: «فَلَا يَخَفْ» جزماً على جواب الشرط وإلغاء الفاء(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنَّا مَن أسلم ومنَّا مَن كفر. والقاسط: الجائر، لأنه عادلٌ عن الحقّ، والمُقْسِط: العادل؛ لأنه عادل إلى الحق؛ قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل؛ قال الشاعر(٢):

قومٌ هُمُ قتلوا ابنَ هندٍ عَنوةً عَمْراً وهمْ قَسَطُوا على النُّعْمانِ

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: قصدوا طريق الحقِّ وتوخَّوه(٣). ومنه تحرِّي القِبلة. ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون عن طريق الحقِّ والإيمان ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وَقوداً. وقوله: ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي: في علم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هذا مِن قول الله تعالى. أي: لو آمن هؤلاء الكفار، لوسَّعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق. وهذا محمولٌ على الوحي، أي: أُوحي إليَّ: أنْ لو استقاموا.

ذكر ابن بحر: كلُّ ما في السورة مِن «إنَّ» المكسورة المثقَّلة فهي حكايةٌ لقول الجِنِّ الذين استمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكلُّ ما فيها مِن «أنْ» المفتوحة المخففة(٤) فهي وحيٌ إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) نسب القراءة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٤٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢ للأعمش ويحيي بن وثاب، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٣ ليحيى بن وثاب.

(٢) هو الفرزدق، والبيت في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٥ ، والمحرر ٥/ ٣٨٢ ، والأغاني ١١/ ٥٤ ، والخزانة ٦/ ٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٣ .

(٤) بعدها في النكت والعيون ٦/ ١١٦ ـ والكلام منه ـ: أو المثقلة .اهـ. وفي هذا الكلام خلاف، وينظر ما سلف ص٢٧٩-٢٨٠ من هذا الجزء.

وقال ابن الأنباريّ[١]: ومَن كسر الحروف وفتح «وأَنْ لو استقاموا» أضمر يميناً تامًّاً[٢]، تأويلها: واللهِ أنْ لو استقاموا على الطريقة؛ كما يقال في الكلام: والله أنْ [لو] قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ قمتُ؛ قال الشاعر:

أمَا واللهِ أنْ لو كُنتَ حُرًّا وما بِالحُرِّ أنتَ ولا العتِيقِ[٣]

ومَن فتح ما قبل المخفَّفة نسَقها ـ أعني الخفيفة ـ على: «أوحيَ إليَّ أنَّه»، «وأنْ لو استقاموا»، أو على[٤]: «آمنَّا به» وبأن لو استقاموا. ويجوز لمن كسر الحروف كلَّها إلى «أن» المخففة، أن يعطف المخفَّفةَ على: «أُوحيَ إليَّ» أو على: «آمنَّا به»، ويستغني عن إضمار اليمين.

وقراءة العامة بكسر الواوِ مِن «لو»؛ لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثَّاب والأعمش بضمِّ الواو[٥].

﴿مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: واسعاً كثيراً، وكانوا قد حُبِس عنهم المطرُ سبعَ سنين[٦]؛ يقال: غَدِقت العينُ تَغدَق فهي غَدِقة: إذا كَثُر ماؤها. وقيل: المراد الخلق كلُّهم، أي: «لو استقاموا على الطَّريقة» طريقةِ الحقِّ والإيمان والهدى، وكانوا مؤمنين مطيعين، «لَأَسقيناهُمْ ماءً غَدَقاً» أي كثيراً: «لِنَفتِنَهُمْ فيه» أي: لنختبرهم كيف شكرُهم فيه على تلك النِّعَم.

وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماءُ كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة[٧]. فمعنى «لَأَسقيناهُمْ»: لوسَّعنا عليهم في الدنيا؛ وضَرَب الماءَ الغَدَقَ الكثيرَ

---

(١) في الوقف والابتداء ٢/ ٩٥١-٩٥٢ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) قوله: تامًّاً، ليس في الوقف والابتداء.

(٣) سلف ١١/ ٣٣٦ .

(٤) في النسخ الخطية والمصدر: وعلى، والمثبت من (م).

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣ ، والمحتسب ٢/ ٣٣٣ .

(٦) قاله مقاتل كما في الوسيط للواحدي ٤/ ٣٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٣ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٣٧ .

لذلك مثلاً؛ لأنَّ الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأُقيم مقامه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦][1] أي: بالمطر. والله أعلم.

وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبي رَبَاح والضحَّاك وقتادة ومقاتل وعطية وعُبيد بنُ عمير والحسن: كان ـ واللهُ ـ أصحابُ النبيِّ ﷺ سامعين مطيعين، ففُتحت عليهم كنوزُ كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشيِّ ففُتنوا بها، فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بنَ عفَّان[2].

وقال الكلبيُّ وغيره: «وأنْ لو استقاموا على الطَّريقة» التي هم عليها من الكفر فكانوا كلُّهم كفاراً، لوَّسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً لهم، حتى يَفتتنوا بها، فنعذِّبهم بها في الدنيا والآخرة. وهذا قولٌ قاله الربيع بنُ أنس وزيد بن أسلم وابنه والكلبيُّ والثُّماليُّ وَيَمان بنُ رِئاب وابن كيسان وأبو مِجْلَز؛ واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤][3] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣].

والأوَّل أشبه؛ لأنَّ الطريقة معرَّفةٌ بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقةَ الهدى[4]؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلَّا مع الهدى. وفي صحيح مسلم[5] عن

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٦٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٣.

(٢) ذكره عن الحسن وسعيد بن المسيب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣.

(٣) قول الربيع وزيد والكلبي وابن كيسان في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٤، وعن أبي مجلز أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٦.

(٥) برقم (١٠٥٢): (١٢٢)، وسلف ١٣/ ٢٠٨.

أبي سعيد الخُدريِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أخوفُ ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم مِن زَهْرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض. . » وذَكَر الحديث. وقال عليه الصلاة والسلام: «فواللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا [كما بُسطت على مَن قبلكم] فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلِكَكم كما أهلكتهم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ يعني القرآن؛ قاله ابن زيد. وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما عن القَبول؛ إن قيل: إنها في أهل الكفر. الثاني عن العمل؛ إن قيل: إنها في المؤمنين[(٢)]. وقيل: «ومَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْر ربِّه» أي: لم يشكر نعمه.

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ الكوفيُّون وعبّاسٌ[(٣)] عن أبي عمرو: «يَسْلُكْهُ» بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لِذِكر اسمِ اللهِ أوّلاً فقال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾. الباقون: «نَسْلُكْهُ» بالنون[(٤)]. وروي عن مسلم بن جُندب ضمُّ النون وكسرُ اللام[(٥)]. وكذلك قرأ طلحة والأعرج، وهما لغتان، سلكه وأسلكه بمعنىً؛ أي: ندخله.

﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: شاقّاً شديداً. قال ابن عباس: هو جبل في جهنم[(٦)]. الخدريّ[(٧)]: كلّما جعلوا أيديهم عليه ذابت. وعن ابن عباس: أنَّ المعنى: مشقّة من العذاب[(٨)]. وذلك معلوم في اللغة أنَّ الصَّعَد: المشقة، تقول: تَصعَّدتني الأمر: إذا شقَّ عليك؛ ومنه قول عمر: ما تَصعَّدني شيءٌ ما تَصعَّدتني خُطبة النكاح، أي: ما شقَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٣٤)، والبخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف ﷺ. وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) النكت والعيون ٦/١١٨ .

(٣) في (د) و(ظ) و(م): عياش. ولم نقف على هذه الرواية.

(٤) السبعة ص٦٥٦ ، والتيسير ٢١٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/٥١ وهي قراءة شاذة .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/٣٣٩ .

(٧) قوله: الخدري، ليس في (ظ).

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/٣٣٩ .

عليّ[1]. وعذاب صَعَد ، أي شديد. والصَّعَد: مصدر صَعِد؛ يقال: صَعِدَ صَعَداً وصُعوداً، فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعَّد المعذَّب، أي: يعلوه ويغلبه، فلا يطيقه[2]. وقال أبو عبيدة[3]: الصَّعَد مصدر، أي: عذاباً ذا صَعَدٍ، والمشي في الصَّعود يشقّ. والصَّعود: العقبة الكؤود[4]. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودَها؛ فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم[5].

وقال الكلبيّ: يكلَّف الوليد بنُ المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرة ملساء، يُجذب من أمامه بسلاسل، ويُضرب مِن خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها، ولا يبلغُ إلّا[6] في أربعين سنة. فإذا بلغ أعلاها أُحْدِر إلى أسفلها، ثم يكلَّف أيضاً صعودَها، فذلك دأبُه أبداً، وهو قولهُ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ «أَنَّ» بالفتح، قيل: هو مردودٌ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: قل أُوحي إليَّ أنَّ المساجد لله. وقال الخليل: أي: ولأنَّ المساجد لله[7]. والمراد البيوت التي تبنيها أهلُ المِللِ للعبادة. وقال سعيد بن جبير: قالت الجِنّ: كيف لنا أن نأتيَ المساجدَ ونشهدَ معك الصلاةَ ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[8] أي: بُنيت لِذِكر الله وطاعته.

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٤٩١ ، والكشاف ٤/ ١٧٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣ .

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٠ .

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٣، ووقع في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

(٤) الصحاح (صعد).

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٩٤ دون نسبة.

(٦) لفظة: إلا، من (ظ). وهذا القول ذكره الفراء مختصراً دون نسبة.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٤١ .

وقال الحسن: أراد بها كلَّ البقاع؛ لأن الأرض كلَّها مسجد للنبيِّ ﷺ[(١)]، يقول: أينما كنتم فصلُّوا، فأينما صلَّيتم فهو مسجد[(٢)] وفي الصحيح[(٣)]: «وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً».

وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق بنُ حبيب: أراد بالمساجد الأعضاءَ التي يَسجد عليها العبد[(٤)] وهي: القدمان، والركبتان، واليدان، والوجه؛ يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجدْ لغيره بها، فتجحدَ نعمةَ الله. قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أُمرت أن تسجد عليها لا تذلِّلها لغير خالقِها.

وفي الصحيح[(٥)] عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعظُم: الجبهةِ ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين». وقال العباس: قال النبيُّ ﷺ «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب»[(٦)].

وقيل: المساجد: هي الصلوات، أي: لأن السجود لله. قاله الحسن أيضاً[(٧)].

فإن جعلت المساجدَ المواضع، فواحدُها مَسجِد، بكسر الجيم، ويقال بالفتح، حكاه الفرَّاء. وإن جعلتها الأعضاء، فواحدها مَسجَد، بفتح الجيم[(٨)].

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٦٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٤ .

(٢) أخرج أحمد (٢١٣٣٣)، والبخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠) عن أبي ذر ﷺ مرفوعاً ضمن حديث: «أينما أدركتك الصلاة فصلّ، فهو مسجد».

(٣) صحيح البخاري (٣٣٥)، وصحيح مسلم (٥٢١)، وسلف ٢/ ٢٨٣ .

(٤) نسب هذا القول الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٦٧ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٨٢ لسعيد بن جبير، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١١٩ للربيع، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣ لابن عطاء.

(٥) صحيح البخاري (٨١٢)، وصحيح مسلم (٤٩٠): (٢٣٠). وسلف ٢/ ٢٨ .

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٤) ، ومسلم (٤٩١) قوله: آراب، أي: أعضاء، واحدها إِرْبٌ، بالكسر والسكون، والمراد بها الأعضاء السبعة المذكورة قبل .

(٧) ذكر قوله أبو الليث في تفسيره٣/ ٤١٣ ، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١١٩ لابن شجرة.

(٨) تفسير البغوي٤/ ٤٠٤ ، وكلام الفراء في الصحاح(سجد).

وقيل: هو جمع مَسجَد، وهو السجود، يقال: سجدت سجوداً ومَسجَداً، كما تقول: ضربت في الأرض ضَرْباً ومَضرَباً، بالفتح: إذا سرتَ في ابتغاء الرِّزق(١).

وقال ابن عباس: المساجد هنا مكةُ التي هي القِبلة، وسمِّيت مكة المساجد، لأنَّ كلَّ أحدٍ يسجد إليها.

والقول الأوَّل أظهر هذه الأقوالِ إن شاء الله، وهو مرويٌّ عن ابن عباس رحمه الله(٢).

الثانية: قوله تعالى: «لِلَّهِ» إضافةُ تشريفٍ وتكريم، ثم خصَّ بالذِّكر منها البيت العتيق، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لاتُعمَل المَطِيُّ إلَّا إلى ثلاثة مساجد»(٣) الحديث خرَّجه الأئمة. وقد مضى الكلامُ فيه. وقال عليه الصلاة والسلام: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجدَ الحرام».

قال ابن العربي: وقد روي من طريق لابأس بها أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجدَ الحرام، فإنَّ صلاة فيه خيرٌ من مئة صلاة في مسجدي هذا» ولوصحَّ هذا لكان نَصًّا(٤).

قلت: هو صحيحٌ بنقل العدل عن العدل حَسب ما بيَّنَّاه في سورة إبراهيم(٥).

الثالثة: المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً، فإنها قد تُنسب إلى غيره تعريفاً، فيقال: مسجد فلان. وفي صحيح الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ سابقَ بين الخيل التي أُضمرت

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٤٩١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١١٩ .

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٢٣٨٤٨)، والنسائي ٣/ ١١٣-١١٤ . وسلف ٧/ ٧٢ بلفظ: لاتشد الرحال...

(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٧ ، والحديث أخرجه أحمد(١٦١١٧)، وسلف ١٢/ ١٥١ .

(٥) ١٢/ ١٥١ .

من الحفياء، وأمدُها ثَنِيَّةُ الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثنيَّة إلى مسجد بني زُريق. وتكون هذه الإضافة بحكم المحلِّية كأنها في قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، و لا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر و إن اختلفوا في تحبيس غير ذلك(١).

الرابعة: مع أنَّ المساجد لله لا يُذكر فيها إلَّا الله، فإنه تجوز القِسمةُ فيها للأموال. ويجوز وضع الصَّدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين، وكلُّ مَنْ جاء أكل. ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير، والنومُ فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عَرِيَ عن الباطل(٢). وقد مضى هذا كلُّه مبيَّناً في سورة براءة والنور وغيرِهما(٣).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا توبيخٌ للمشركين في دعائهم مع الله غيرَه في المسجد الحرام(٤). وقال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيَّه والمؤمنين أن يُخلِصوا لله الدعوةَ إذا دخلوا المساجد كلَّها(٥). يقول: فلا تشركوا فيها صنماً وغيرَه مما يُعبد.

وقيل: المعنى: أَفرِدوا المساجدَ لذكر الله، ولا تتَّخذوها هُزُواً وَمتْجَراً ومجلساً، ولا طرقاً، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً(٦). وفي الصحيح(٧): « مَن نَشَد ضالَّةً في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٧ ، والحديث أخرجه البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم(١٨٧٠)، وسلف ١١/ ٢٨٢

(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٨ .

(٣) ١٠/ ١٥٢ فما بعد، ١٥/ ٢٧٠ فما بعد.

(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٨ .

(٥) أخرج هذا القول عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٢٣ عن قتادة. ونسبه له أيضاً أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤١٣ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٦٧ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٤ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٨٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣ بنحوه.

(٧) صحيح مسلم (٥٦٨)، وسلف ١٥/ ٢٨١ .

المسجد فقولوا: لا ردَّها الله عليك، فإنَّ المساجد لم تُبْنَ لهذا».

وقد مضى في سورة النور ما فيه كفايةٌ من أحكام المساجد، والحمدُ لله.

السادسة: روى الضحَّاك عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا دخل المسجد قدَّم رِجلَه اليمنى، وقال: «وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تَدْعُوا مع الله أَحَداً» اللهمَّ أنا عبدك وزائرك، وعلى كل مزور حقّ، وأنت خيرُ مزور، فأسألك برحمتك أن تَفُكَّ رقبتي من النار» فإذا خرج من المسجد قدَّم رجله اليسرى، وقال: « اللهم صُبَّ عليَّ الخيرَ صبًّا، ولا تَنزِع عني صالحَ ما أعطيتني أبداً، ولا تجعل معيشتي كَدًّا، واجعل لي في الأرض جَدًّا»[1] أي: غنىً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾يجوز الفتح، أي: أَوحى اللهُ أنه.

ويجوز الكسر على الاستئناف. و«عبد الله» هنا محمدٌ ﷺ حين كان يصلِّي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، حسب ما تقدَّم أوَّلَ السورة﴿يَدۡعُوهُ﴾ أي: يعبده. وقال ابن جُريج: « يَدْعُوهُ» أي: قام إليهم داعياً لهم إلى الله تعالى[2].

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ قال الزبير بن العوَّام: هم الجنُّ حين استمعوا القرآن من النبيِّ ﷺ[3]. أي: كاد يركب بعضُهم بعضاً ازدحاماً ويسقطون حرصاً على سماع القرآن. وقيل: كادوا يركبونه حرصاً، قاله الضحَّاك[4]. ابن عباس: رغبةً في سماع الذِّكر. وروى بُردْ عن مكحول[5]: أنَّ الجنَّ بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة،

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢٠ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٢٠ بنحوه .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٤٣ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٢١ : روى مكحول عن ابن مسعود، ثم ذكر الخبر.

وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ هذا من قول الجنِّ، لمَّا رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبيِّ ﷺ وائتمامِهم به في الركوع والسجود[(١)].

وقيل: المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حَرَدًا[(٢)] على النبيِّ ﷺ. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني «لمَّا قام عبد الله» محمدٌ بالدعوة، تَلبَّدت الإنس والجنُّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبَى اللهُ إلَّا أن ينصره ويُتمَّ نوره.

واختار الطبريُّ[(٣)] أن يكون المعنى: كادت العرب يجتمعون على النبيِّ ﷺ، ويتظاهرون على إطفاء النورِ الذي جاء به. وقال مجاهد[(٤)]: قوله: «لِبَداً»: جماعات، وهو مِن: تَلَبَّد الشيءُ على الشيء، أي: تجمَّع، ومنه اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه. وكلُّ شيءٍ ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبَّدته[(٥)]، وجمع اللِّبدة: لِبَد، مثل: قِرْبة وقِرَب. ويقال للشَّعر الذي على ظهر الأسد: لِبْدة، وجمعها لِبَد[(٦)]، قال زهير:

لدى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ   له لِبَدٌ أَظفارُه لم تُقَلَّمِ[(٧)]

ويقال للجراد الكثير: لِبَد.

وفيه أربع لغات وقراءات: فتح الباء وكسر اللام، وهي قراءة العامَّة. وضمُّ اللام وفتح الباء، وهي قراءة مجاهدٍ وابنِ مُحَيْصن وهشام عن أهل الشام[(٨)]، واحدتها لُبْدة. وبضمِّ اللام والباء، وهي قراءة أبي حَيْوة ومحمد بنِ السَّمَيْفَع وأبي الأشهب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٣) وقال: حديث حسن صحيح، والطبري ٢٣/ ٣٤٤ .

(٢) الحَرَد: الغضب. الصحاح(حرد).

(٣) في تفسيره ٢٣/ ٣٤٥ ، وفيه قول الحسن وقتادة وابن زيد.

(٤) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٥٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٢٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٧ .

(٦) الصحاح(لبد) بنحوه.

(٧) شرح ديوان زهير ص٢٣ . شاكي السلاح: أي: سلاحه ذو شوكة. المقذف: الغليظ اللحم.

(٨) السبعة ص٦٥٦ ، والتيسيرص٢١٥ ، وعن مجاهد وابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٦٣ .

العُقَيلي والجَحْدري[١]. واحدها لَبْد، مثل: سَقْف وسُقُف، ورَهْن ورُهُن. وبضَّم اللام وشدِّ الباء وفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجَحْدريِّ أيضاً[٢]. واحدها لابِد، مثل: راكع ورُكَّع، وساجِد وسُجَّد.

وقيل: اللُّبَد، بضم اللام وفتح الباء: الشيء الدائم، ومنه قيل لنَسر لقمان: لُبَد، لدوامه وبقائه، قال النابغة:

أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ[٣]

القشيريّ: وقُرئ: «لُبُداً» بضم اللام والباء، وهو جمع لَبِيد، وهو الجُوالِق[٤] الصغير.

وفي الصحاح: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦] أي: جمًّا. ويقال أيضاً: الناس لُبَد، أي: مجتمعون، واللُّبَد أيضاً: الذي لايسافر ولايبرح [منزله] قال الشاعر[٥]:

مِن امرئٍ ذي سَماحٍ لا تزال له بَزْلاءُ يعيا بها الجَثَّامة اللُّبَدُ

ويروى: اللَّبِد. قال أبو عُبيد: وهو أشبه[٦].

ولُبَد: آخر نسور لقمان، وهو ينصرف، لأنه ليس بمعدول. وتزعم العرب أنَّ لقمان هو الذي بعثته عاد في وَفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أُهلكوا، خُيِّر لقمان

---

(١) قراءة الجحدري في المحتسب ٢/ ٣٣٤ .

(٢) نسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٣٤ للحسن والجحدري، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٣ للجحدري.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص٣١ ، وسلف ٢٠/ ١٠٤ ، وسيأتي قريباً بتمامه.

(٤) الجوالق: الوعاء. الصحاح (جلق).

(٥) هو الراعي النميري، والبيت في ديوانه ص٦٠ برواية: مِن أمرِ ذي بدوات...

(٦) الصحاح (لبد)، وماسلف بين حاصرتين منه. ووقع بعدها في (م): والبزلاء: الرأي الجيد. وفلان نهاض ببزلاء: إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام، قال الشاعر:

إني إذا شَغَلتْ قوماً فروجُهمُ رحبُ المسالك نهَّاضٌ ببزلاءِ

بين بقاء سبع بعرات[١] سُمْر، مِن أظْبِ عفر، في جبل وعَرْ، لا يَمسُّها القَطْر، أو بقاءِ سبعة أنسر، كلَّما هلك نَسر، خلف بعده نَسر، فاختار النُّسور، وكان آخر نُسوره يُسمَّى لُبَداً، وقد ذكرته الشعراء، قال النابغة:

أضحت خَلاءً وأمسى أهلُها احتملوا ... أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ

واللَّبِيد: الجُوَالق الصغير، يقال: ألبدت القِرْبة، جعلتها في لَبِيد. ولبِيد: اسم شاعر من بني عامر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي قال ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء: «قَالَ»؛ على الخبر. وقرأ حمزة وعاصم: «قُلْ»؛ على الأمر[٢].

وسبب نزولها أنَّ كفار قريش قالوا له: إنكَ جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلَّهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك، فنزلت[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ أي: لاأقدر أن أدفع عنكم ضَرًّا ولا أسوق لكم خيراً[٤].

وقيل: «لا أملِك لكم ضَرًّا» أي: كفراً، «ولا رَشَداً» أي: هدًى، أي: إنما عليَّ التبليغ. وقيل: الضَّرّ: العذاب، والرَّشَد: النعيم. وهو الأوَّل بعينه. وقيل: الضَّرّ: الموت، والرَّشَد: الحياة[٥].

---

(١) في النسخ الخطية: بقرات، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الصحاح (لبد)، والكلام منه. قال شارح القاموس (لبد): هكذا في نسختنا بالعين، ويوجد في بعض نسخ الصحاح: بقرات، بالقاف. قال شيخنا: والذي في نسخ القاموس هو الأشبه، إذ لاتتولد البقر من الظباء، ولا تكون منها.

(٢) السبعة ص٦٥٧ ، والتيسيرص٢١٥.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٦٨ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٥ عن مقاتل.

(٤) الوسيط ٤/ ٣٦٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٠-١٢١ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لايدفع عذابَه عني أحدٌ إن استحققتُه[١]، وهذا لأنهم قالوا: اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك.

وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال: انطلقت مع النبي ﷺ ليلةَ الجنِّ، حتى أتى الحَجُون فخطَّ عليَّ خطًّا، ثم تقدَّم إليهم، فازدحموا عليه، فقال سيِّدٌ لهم يقال له وَرْدان: أنا أَزْجُلهم عنك، فقال: «إنِّي لن يجيرني من الله أحد» ذكره الماوردي[٢]، قال: ويحتمل معنيين: أحدهما: لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد. الثاني: لن يجيرني ممَّا قدَّره اللهُ تعالى عليَّ أحد.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأً ألجأ إليه، قاله قتادة[٣]. وعنه: نصيراً ومولىً. السُّدِّيّ: حِرزاً. الكلبي: مَدْخلاً في الأرض مثل السَّرَب[٤]. وقيل: وليًّا ولا مولىً. وقيل: مذهباً ولا مسلكاً. حكاه ابن شجرة[٥]، والمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

يالَهْفَ نفسي ولَهْفي غيرُ مجدِيةٍ عنِّي وما مِن قضاء اللهِ مُلْتَحدُ[٦]

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فإنَّ فيه الأمان والنَّجاة، قاله الحسن. وقال قتادة:

---

(١) في(د)و(ز) و(م): استحفظته، والمثبت من(ظ).

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٢١. قوله: أزجلهم، أي: أدفعهم. القاموس(زجل).

(٣) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٣٤٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢١.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٢١ دون نسبة، وهو في الدر المنثور ٤/ ٢١٨ منسوباً لخصيب الضمري.

«إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللهِ» فذلك الذي أملكه بتوفيق الله[١]، فأما الكفرُ والإيمان فلا أملكهما. فعلى هذا يكون مردوداً إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: لا أملك لكم إلَّا أن أُبلِّغكم.

وقيل: هو استثناء منقطع من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إلَّا[٢] أن أبلغكم، أي: لكنْ أبلِّغُكم ما أُرسلتُ به، قاله الفرَّاء[٣].

وقال الزجَّاج[٤]: هو منصوب على البدل من قوله: «مُلْتَحداً»، أي: «ولن أجِدَ مِن دونه مُلْتحداً» إلَّا أن أُبلِّغَ ما يأتيني من الله ورسالاته، أي: ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها. أو: إلَّا أن أبلغ عن الله وأعملَ برسالته، فآخذ نفسي بما آمرُ به غيري.

وقيل: هو مصدر، و«لا» بمعنى لم، و«إنْ» للشرط. والمعنى: لن أجد من دونه ملتحداً[٥] إنْ لم أبلِّغ رسالاتِ ربِّي بلاغاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في التوحيد والعبادة. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ كُسِرت «إنَّ» لأن ما بعد فاء الجزاء موضعُ ابتداء، وقد تقدَّم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ نصب على الحال، وجَمَعَ «خَالِدِينَ»؛ لأنَّ المعنى: لكلِّ مَن فعل ذلك، فوحَّد أوَّلاً للفظ «مَن»، ثم جَمَعَ للمعنى[٦].

وقوله ﴿أَبَدًا﴾ دليلٌ على أنَّ العصيان هنا هو الشِّرك[٧]. وقيل: هو المعاصي غيرَ الشرك، ويكون معنى «خالدين فيها أبداً» إلَّا أن أعفوَ أو تلحَقهم شفاعة، ولا محالة

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٥، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٠، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤.

(٢) في (ظ) و(م): أي إلا.

(٣) معاني القرآن له ٣/ ٢٥ بنحوه، وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٥، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٣٧.

(٥) بعدها في(د) و(ز) و(م): أي. والكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٦٥.

(٦) الكشاف ٤/ ١٧٢ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥ بنحوه.

إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو. وقد مضى هذا المعنى مبيَّناً في سورة النساءِ وغيرها[١].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ «حتَّى» هنا مبتدأ، أي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من عذاب الآخرة، أو ما يوعدون[٢] من عذاب الدنيا، وهو القتل ببدر[٣] ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ أهم أم المؤمنون. ﴿وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ معطوف.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا، أي: لا أدري، فـ«إنْ» بمعنى «ما» أو «لا»؛ أي: لا يَعرف وقتَ نزول العذاب ووقتَ قيام الساعة إلَّا الله؛ فهو غيبٌ لا أعلم منه إلَّا ما يعرِّفنيه الله. و«ما» في قوله: «ما يوعدون» يجوز أن يكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن يكون بمعنى الذي، ويقدَّر حرفُ[٤] العائد.

﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: غايةً وأجلاً. وقرأ العامَّة بإسكان الياء مِن «ربِّي» وقرأ الحِرْمِيَّان وأبو عمرو بالفتح[٥].

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ «عَالِمُ» رفعاً؛ نعتاً لقوله: «رَبِّي». وقيل: أي: هو «عالِمُ الغيب»[٦]. والغيب: ما غاب عن العباد. وقد تقدَّم بيانُه في أوَّل سورة البقرة[٧].

---

(١) ٧/ ٣٩ فما بعد.
(٢) في (ظ): وما يوعدون.
(٣) الكشاف ٤/ ١٧٢.
(٤) في النسخ الخطية: حذف. والكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن٢/ ٧٦٥-٧٦٦ .
(٥) السبعة ص٦٥٧ ، والتيسير ص٢١٥ ، والحِرْمِيَّان: نافع المدني، وابن كثير المكي .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٥-٤٠٦ .
(٧) ١/ ٢٥١-٢٥٢ .

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يُظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأنَّ الرسل مؤيَّدون بالمعجزات، ومنها الإخبارُ عن بعض الغائبات؛ وفي التنزيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال ابن جبيرُ: «إلَّا مَن ارتضى مِن رسول»: هو جبريل عليه السلام[(١)]. وفيه بُعد، والأَوْلَى أن يكون المعنى: أي: لا يُظهر على غيبه إلَّا مَن ارتضى، أي: اصطفى للنبوَّة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه؛ ليكون ذلك دالًّا على نبوَّته[(٢)].

الثانية: قال العلماء رحمة الله عليهم: لمَّا تمدَّح سبحانه بعلم الغيبِ واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليلٌ على أنه لا يعلم الغيبَ أحدٌ سواه، ثم استثنى مَن ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوَّتهم. وليس المنجِّم ومَن ضاهاه ـ ممن يضرِب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير ـ ممَّن ارتضاه من رسول فيطلعَه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافرٌ بالله مفترٍ عليه؛ بحدسه وتخمينه وكذبه.

قال بعض العلماء: وليت شِعري ما يقول المنجِّم في سفينة ركب فيها ألفُ إنسان، على اختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملِك والسُّوقة، والعالم والجاهل، والغنيُّ والفقير، والكبير والصغير، مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم؛ فعمَّهم حكمُ الغَرَق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجِّم قبَّحه الله: إنما أغرقهم الطالعُ الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أنَّ هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلِّها ـ على اختلافها ـ عند ولادة كلِّ واحدٍ منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوصُ به، فلا فائدة إذاً[(٣)] في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقيٍّ ولا سعيد، ولم يبقَ إلَّا معاندةُ القرآن العظيم. وفيه استحلالُ دمه على هذا التنجيم. ولقد أحسن الشاعرُ حيث قال:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢٢ .

(٢) الكلام بنحوه في الوسيط للواحدي ٤/ ٣٦٩ .

(٣) في (د) و(م): أبداً.

حَكَمَ المنجِّمُ أنَّ طالعَ مولدي ... يقضي عليَّ بِميتة الغَرَقِ
قل للمُنجِّم صُبْحَةَ الطُّوفانِ هل ... وُلد الجميعُ بكوكب الغَرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ﷺ لمَّا أراد لقاءَ الخوارج: أتلقاهم والقمرُ في العقرب؟ فقال ﷺ: فأين قمرُهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فانظر إلى هذه الكلمةِ التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الردِّ على مَن يقول بالتنجيم، والإفحامِ لكل جاهلٍ يحقِّق أحكامَ النجوم.

وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تَسر في هذه الساعة، وسِرْ في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له عليٌّ ﷺ: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة؛ أصابك وأصاب أصحابَك بلاءٌ وضرٌّ شديد، وإن سرت في الساعة التي آمُرُك بها؛ ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت. فقال عليٌّ ﷺ: ما كان لمحمد ﷺ مُنَجِّم، ولا لنا من بعده ـ في كلام طويل يَحتجُّ فيه بآيات من التنزيل ـ فمَن صدَّقك في هذا القول، لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضدًّا، اللهم لا طير إلَّا طيرُك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك[(١)]. ثم قال للمتكلِّم: نكذِّبك ونخالفك، ونسير في الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس، إياكم وتعلُّمَ النجوم، إلَّا ما تهتدون به في ظلمات البرّ والبحر؛ إنما المنجِّم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها، لَأُخلدنَّك في الحبس ما بقيتُ وبقيتَ، ولأحرمنَّك العطاء ما كان لي سلطان. ثم سار[(٢)] في الساعة التي نهاه عنها، فلقي القومَ فقتلهم، وهي وقعة النَّهْرَوَان الثابتةُ في الصحيح لمسلم[(٣)]. ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا، لقال

(١) قوله: ولا إله غيرك، من (ظ) ومصدر التخريج.

(٢) في (د) و(ز) و(م): سافر.

(٣) برقم (١٠٦٤): (١٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، و(١٠٦٦): (١٥٦) من حديث زيد بن وهب الجهني ﷺ. وهو عند أحمد (٧٠٦).

قائل: سار في الساعة التي أمر بها المنجِّم، ما كان لمحمد ﷺ منجِّم، ولا لنا مِن بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائرَ البلدان. ثم قال: يا أيها الناس! توكَّلوا على الله وثِقوا به، فإنه يكفي ممَّن سواه[(١)].

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يَقْرُبَ منه شيطان؛ فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. قال الضحَّاك: ما بعث الله نبيًّا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبَّهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان في صورة المَلَك، قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه المَلَك، قالوا: هذا رسول ربِّك[(٢)].

وقال ابن عباس وابن زيد: «رَصَداً» أي: حَفَظة يحفظون النبيَّ ﷺ من أمامه ووراءه من الجنِّ والشياطين[(٣)]. قال قتادة وسعيد بن المسيّب: هم أربعةٌ من الملائكة حفظة[(٤)].

وقال الفراء[(٥)]: المراد جبريل؛ كان إذا نزل بالرسالة، نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنُّ الوحي، فيلقوه إلى كهنتهم فيسبقوا به الرسول.

وقال السُّدِّي: «رَصَداً» أي: حفظة يحفظون الوحي، فما جاء من عند الله قالوا: إنه من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنه من الشيطان[(٦)].

و«رَصَداً» نصب على المفعول. وفي الصحاح: والرَّصَد القوم يرصُدون كالحرس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر[(٧)] والمؤنث، وربما قالوا: أرصاد.

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٥٦٤ ـ بغية الباحث).

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٣ مختصراً، وينظر النكت والعيون ٦/ ١٢٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٦ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٢ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٤ .

(٤) قول قتادة في النكت والعيون ٦/ ١٢٢ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠ .

(٧) قوله: والمذكر، من (د) و(م).

والراصد للشيء: الراقب[١] له؛ يقال: رَصَده يَرْصُده رَصْداً ورَصَداً. والتَّرصُّد: التَّرقُّب، والمَرْصَد: موضع الرصد.

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ قال قتادة ومقاتل: أي: ليعلم محمدٌ أنَّ الرسل قبله قد بلَّغوا الرسالة كما بلَّغ هو الرسالة[٢]. وفيه حذفٌ يتعلَّق به اللام؛ أي: أخبرناه بحفظنا الوحي، ليعلم أنَّ الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقِّ والصدق.

وقيل: ليعلم محمدٌ أن قد أبلغ جبريل ومَن معه إليه رسالةَ ربِّه؛ قاله ابن جبير. قال: ولم ينزل الوحي إلَّا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام[٣].

وقيل: ليعلم الرسل أنَّ الملائكة بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم.

وقيل: ليعلم الرسول ـ أيّ رسول كان ـ أنَّ الرسل سواه بلَّغوا.

وقيل: أي: ليعلم إبليس أنَّ الرسل قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم سليمةً من تخليطه واستراقِ أصحابه.

وقال ابن قتيبة: أي: ليعلم الجِنُّ أنَّ الرسل قد بلَّغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلِّغين باستراق السمع عليهم[٤].

وقال مجاهد: ليعلم من كذَّب الرسل أنَّ المرسلين قد بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم[٥].

وقراءة الجماعة: «لِيَعْلَمَ» بفتح الياء، وتأويله ما ذكرناه. وقرأ ابن عباس ومجاهد

---

(١) في الصحاح (رصد): المراقب.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٤-٣٥٥ عن قتادة.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٥-٣٥٦ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٢٣ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٥ .

وحُميد ويعقوب بضمِّ الياء[١]، أي: ليُعْلَم الناس أنَّ الرسل قد أبلغوا.

وقال الزجَّاج[٢]: أي: ليَعلم اللهُ أنَّ رسله قد أبلغوا رسالاته، بفتح الياء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [التوبة:١٦]. المعنى: ليعلم اللهُ ذلك علمَ مشاهدةٍ كما علمه غيباً.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط علمُه بما عندهم، أي: بما عند الرسل وما عند الملائكة. وقال ابن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أنَّ ربَّهم قد أحاط علمُه بما لديهم، فيبلِّغوا رسالاتِه[٣].

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: أحاط بعدد كلِّ شيءٍ، وعرفَه وعلمَه، فلم يخفَ عليه منه شيء. و«عَدَداً» نصب على الحال، أي: أحصى كلَّ شيءٍ في حال العدد، وإن شئتَ على المصدر، أي: أحصى[٤] وعدَّ كلَّ شيءٍ عدداً، فيكون مصدرَ الفعل المحذوف، فهو سبحانه المحصي المحيط؛ العالم الحافظ لكل شيء وقد بيَّنَّا جميعَه في «الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى»[٥]. والحمد لله وحدَه.

---

(١) قراءة يعقوب من رواية رويس عنه. النشر ٢/ ٣٩٢ . وذكرها عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥ .

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٣٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٦ .

(٤) بعدها في (ظ): كل شيء.

(٥) ص٢٥٥ ، ٢٦٧ .

سُورَةُ الجِنِّ

مَكيَّةٌ، وآيُها ثمانٍ وعِشرونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقُرِئَ: (أُحِيَ)[1]، وأصلُه: وُحِيَ، من وَحَى إليه، فقُلِبَت الواوُ همزةً لضَمَّتِها، و: (وُحِي) على الأَصلِ[2].

وفاعلُه: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ والنَّفرُ: ما بينَ الثَّلاثةِ والعشرةِ.

والجنُّ: أجسامٌ عاقلَةٌ خَفِيَّةٌ تغلبُ عليهم النَّاريَّةُ أو الهوائيَّةُ.

وقيل: نوعٌ مِن الأَرواحِ المُجرَّدةِ.

وقيل: نفوسٌ بشريَّةٌ مفارِقةٌ عَن أبدانِها.

وفيه دلالةٌ على أنَّه عليهِ السَّلامُ ما رآهم ولم يقرَأْ عليهِم، وإنَّما اتَّفقَ حُضُورُهم في بعضِ أَوقاتِ قراءَتِه فسَمِعُوها فأخبرَ اللهُ بِهِ رسولَه.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا﴾: كتابًا ﴿عَجَبٗا﴾: بديعًا مُبايِنًا لكلامِ النَّاسِ في حُسْنِ نَظمِهِ ودِقَّةِ مَعناهُ، وهو مَصدَرٌ وُصِفَ بِهِ للمُبالغَةِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣١)، عن جؤية بن عائذ.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣) عن ابن أبي عبلة.

(٢) ـ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: إلى الحقِّ والصَّوابِ ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾: بالقرآنِ ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ على ما نطقَ بهِ الدلائلُ القاطعةُ على التَّوحيدِ.

(٣) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأَهُ ابنُ كثيرٍ والبَصريَّانِ بالكَسرِ على أنَّه مِن جُملَةِ المَحكيِّ بعدَ القَولِ، وكذا ما بعدَهُ إلَّا قولَه: ﴿أن لو استقاموا﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ فإنَّها مِن جُملَةِ الموحَى بهِ، ووافقَهُم نافعٌ وأبو بكرٍ إلَّا في قولِه: ﴿وإنَّه لَمَّا قام﴾ على أنه استئنافٌ أو مقولٌ، وفتَحَ الباقونَ الكلَّ إلا ما صُدِّرَ بالفاءِ[1] على أنَّ ما كانَ مِن قولِهم فمَعطوفٌ على محلِّ الجارِّ والمجرورِ في ﴿بِهِۦ﴾، كأنه قيل: صَدَّقْناهُ وصَدَّقْنَا أنَّه تعالى جَدُّ ربِّنا؛ أي: عَظَمَتُه، مِن جَدَّ فَلانٌ في عيني: إذا عَظُم ملكُه، أو سُلطانُه، أو غِناهُ، مُستعارٌ مِن الجَدِّ الذي هو البَخْتُ.

والمعنى: وصفُهُ بالاستغناء[2] عن الصَّاحبةِ والولَدِ لعَظَمتِهِ، أو لسُلطانِه، أو لغِنَاهُ، وقولُه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيانٌ لذلك.

وقُرِئَ: (جدًّا) بالتَّمييزِ[3]، (جِدُّ) بالكسرِ[4]؛ أي: صِدْقُ ربوبيَّتِه، كأنَّهُم سَمِعُوا مِن القُرآنِ ما نبَّهَهُم على خطأ ما اعتقَدُوهُ مِن الشِّركِ واتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولدِ.

(٤) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليسُ أو مردَةُ الجنِّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾: قولًا ذا شطَطٍ، وهو البعدُ ومُجاوزَةُ الحدِّ، أو هو شططٌ لفَرْطِ ما أُشِطَّ فيه وهو نسبةُ الصَّاحبةِ والولدِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٥)، و«النشر» (٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٢) «بالاستغناء» من نسخة الطبلاوي، وفي باقي النسخ: «بالتعالي».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٢)، عن عكرمة.

(٤) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٢٣) عن عكرمة.

(٥) ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذارٌ عَن اتِّباعِهِمْ للسَّفيهِ في ذلك بظنِّهِم(١) أنَّ أحدًا لا يَكذِبُ على اللهِ، و﴿كَذِبًا﴾ نصبٌ على المصدرِ لأنَّه نوعٌ مِن القولِ، أو الوصفِ لِمَحذوفٍ؛ أي: قولًا مكذوبًا فيه، ومَن قرأ: ﴿لن تَقَوَّلَ﴾ كيعقوبَ(٢) جعلَهُ مَصْدرًا؛ لأنَّ التَّقوُّلَ لا يكونُ إلَّا كذبًا.

(٦) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنَّ الرَّجُلَ كان إذا أمسى بقَفْرٍ قال: أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي مِن شرِّ سُفهاءِ قومِه.

﴿فَزَادُوهُمْ﴾: فزادوا الجنَّ باستعاذَتِهِم بهم ﴿رَهَقًا﴾: كِبْرًا وعُتُوًّا، أو فزادَ الجنُّ الإنسَ غَيًّا بأَنْ أَضلُّوهُمْ حتَّى استعاذوا بهم، والرَّهَقُ في الأصلِ: غِشْيانُ الشَّيءِ(٣).

(٧) ـ ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: وأنَّ الإنسَ ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيُّها الجنُّ، أو بالعكسِ.

والآيتانِ مِن كلامِ الجنِّ بعضِهِمْ لبَعضٍ(٤)، أو استئنافُ كلامٍ مِن اللهِ، ومَن فتحَ (أنَّ) فيهما جعلَهُما مِن الموحَى بهِ.

﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ سادٌّ مسدَّ مَفعولَيْ ﴿ظَنُّوا۟﴾.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «لظنهم». قال الشهاب: (بظنِّهم) مُتعلِّقٌ بالاعتذارِ؛ لأنَّه المُعتَذَرُ به.

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٢).

(٣) قولُه: «والرَّهَقُ في الأصلِ غِشيانُ الشَّيءِ» كما في قولِه: ترهَقُ وجوهَهم قَتَرةٌ؛ فإنَّ المعنى: يعرِضُ لها ويغشاها، فخُصَّ بما يعرِضُ منَ الكِبرِ والضَّلالِ والعُتُوِّ ونحوِه، ولذا فسَّرَهُ الزَّمخشريُّ بغِشيانِ المحارِمِ، فلا مُخالفةَ فيه لِـما ذُكِرَ. قاله الشهاب.

(٤) قولُه: «والآيتانِ» يعني: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ من كلامِ الجنِّ، والخطابُ لهم، وإذا كانَ استئنافًا فالخطابُ للإنسِ، وكذا فيما بعدَه، والبعثُ في الآيةِ بعثُ الرُّسلِ، وهو الظّاهرُ، ويحتملُ بعثَ الموتَى. قاله الشهاب.

(٨) ـ ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: طلَبْنا بلوغَ السَّماءِ أو خبرَها، واللمسُ مُستعارٌ مِن المسِّ للطَّلَبِ كالجَسِّ، يقال: لمسَهُ والتمسَهُ وتلمَّسَهُ؛ كطَلَبَهُ واطَّلَبَهُ وتَطَلَّبَه.

﴿فَوَجَدۡنَـٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا﴾: حُرَّاسًا، اسمُ جمعٍ كالخَدَمِ.

﴿شَدِيدًا﴾: قويًّا، وهُم الملائكةُ الذين يمنعونَهُم عنها.

﴿وَشُهُبًا﴾: جمعُ شهابٍ وهو المضيءُ المُتولِّدُ مِن النَّارِ.

(٩) ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾: مقاعدَ خاليةً عن الحَرَسِ والشُّهبِ، أو صالحةً للتَّرصُّدِ والاستماعِ. و﴿لِلسَّمۡعِ﴾ صِلَةٌ لـ﴿نَقۡعُدُ﴾، أو صِفَةٌ لـ﴿مَقَـٰعِدَ﴾.

﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: شِهابًا راصِدًا له ولأجلِه يمنَعُهُ عَن الاستماعِ بالرَّجمِ، أو: ذوي شهابٍ راصِدينَ، على أنَّه اسمُ جمعٍ للرَّاصدِ، وقد مرَّ بيانُ ذلك في «الصافات».

(١٠) ـ ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحراسةِ السَّماءِ ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا﴾: خيرًا.

(١١) ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾: المؤمنونَ الأَبرارُ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قومٌ دونَ ذلك، فحُذِفَ المَوصوفُ وهم المقتصِدُونَ.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾: ذوي طرائِقَ؛ أي: مَذاهِبَ، أو: مثلَ طرائِقَ في اختلافِ الأَحوالِ، أو: كانت طرائِقُنَا طرائِقَ ﴿قِدَدًا﴾ مُتفرِّقةً مُختلِفَةً جمعُ قِدَّةٍ، مِن قَدَّ: إذا قطعَ.

(١٢) ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: عَلِمْنا ﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: كائنِينَ في الأرضِ أينَما كنَّا فيها ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾: هاربينَ مِنْها إلى السَّماءِ.

أو: لن نُعجِزَهُ في الأرضِ إن أرادَ بنا أمرًا ولن نُعجِزَهُ هَرَبًا إن طلَبْنا.

(١٣) ـ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يَخافُ.

وقُرِئَ: (فلا يَخَفْ)[1]، والأوَّلُ أدلُّ على تحقيقِ نجاةِ المؤمنينَ واختِصاصِها بهم.

﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: نقصًا في الجزاءِ، ولا أن تَرهَقَهُ ذلَّةٌ، أو: جزاءَ نقصٍ لأنَّه لم يَبْخَسْ حقًّا ولم يَرْهَقْ ظُلمًا؛ لأنَّ مِن حقِّ الإيمانِ بالقُرآنِ أن يَجتَنِبَ[2] ذلك.

(١٤) ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: الجائرونَ عَن طَريقِ الحَقِّ وهو الإيمانُ والطَّاعةُ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾: توَخَّوْا رَشَدًا عظيمًا يبلِّغُهُم إلى دارِ الثَّوابِ.

(١٥) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَدُ بهم كما تُوقَدُ بكفَّارِ الإنسِ.

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾؛ أي: أنَّ الشَّأنَ لو استقامَ الجنُّ أو الإنسُ أو كِلاهُما ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: على الطَّريقَةِ المثلى ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾: لوسَّعْنا عليهم الرِّزقَ.

وتخصيصُ الماءِ الغدقِ ـ وهو الكثيرُ ـ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُ المعاشِ والسَّعةِ، ولعزَّةِ وجودِه بين العربِ.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنَختَبِرَهُم كيفَ يَشكرُونَه.

وقيل: معناهُ: أَنْ لو استقامَ الجنُّ على طَريقَتِهِم القَديمةِ ولم يُسلِمُوا باستماعِ القرآنِ لوَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ مُستدرِجينَ لَهُم لنُوْقِعَهُم في الفتنةِ ونُعذِّبَهُم في كفرانِه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣) عن يحيى بن وثاب، و«الكشاف» (٩/ ٣١٤) عن الأعمش.

(٢) في نسخة الفاروقي: «بالقرآن تجنُّب»، وفي نسخة عند الخفاجي: «لأنَّ من حقِّ المُؤمِن بالقرآنِ أن يجتَنِبَ ذلك».

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾: عَن عبادَتِه، أو مَوعِظَتِه، أو وَحيِه ﴿يَسْلُكْهُ﴾: يُدخلْهُ، وقرأ غيرُ الكوفيِّينَ بالنُّونِ[1].

﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾: شاقًّا يعلو المعذَّبَ ويغلبهُ، مصدرٌ وُصِفَ به.

(١٨) ـ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾: مُختَصَّةٌ بِهِ ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: فلا تَعبُدُوا فيهَا غيرَهُ، ومَن جعلَ (أنَّ) مُقدَّرةً باللامِ علةً للنَّهيِ ألغى فائدةَ الفاءِ.

وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلْمَسَـٰجِدَ﴾: الأرضُ كلُّها؛ لأنَّها جُعلَتْ للنَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَسجِدًا[2].

وفُسِّرت بالمسجِدِ الحرامِ لأنَّه قبلةُ المَساجِدِ، وبمواضِعِ السُّجودِ على أنَّ المُرادَ النَّهيُ عَن السُّجودِ لغيرِ اللهِ، وبآرابِه السَّبعةِ، وبالسَّجدات على أنه جمعُ مَسجَدٍ.

(١٩) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: النبيُّ، وإنَّما ذُكِرَ بلفظِ العبدِ للتَّواضُعِ ـ فإنَّه واقِعٌ مَوقِعَ كلامِه عن نفسِه ـ والإشعارِ بما هو المقتضِي لقيامِهِ.

﴿يَدْعُوهُ﴾: يعبدُهُ ﴿كَادُوا۟﴾: كادَ الجنُّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: متراكمينَ مِن ازدِحَامِهِم عليه تَعجُّبًا ممَّا رَأَوْا مِن عبادَتِه وسَمِعُوا مِن قِراءَتِه.

أو: كادَ الإنسُ والجنُّ يكونونَ عليه مجتمعينَ لإبطالِ أمرِهِ.

وهو جمعُ لِبْدَةٍ: وهيَ ما تلبَّدَ بعضُهُ على بعضٍ كلِبْدَةِ الأسدِ.

وعن ابنِ عامرٍ برواية هشام: ﴿لُبَدا﴾[3] بضمِّ اللامِ جمعُ لُبْدَةٍ وهي لُغَةٌ.

---

(١) سوى يعقوب فقد وافق الكوفيين. انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٥)، و«النشر» (٢/ ٣٩٢).

(٢) وهو قول الحسن، ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٤٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

وقُرِئَ: (لُبَّدا) كسُجَّدٍ[1] جمعُ لابِدٍ، و: (لُبُدًا) بضمتين[2] ـ كصُبُرٍ ـ جمعُ لَبُودٍ.

(٢٠) ـ ﴿قال إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فليسَ ذلك ببِدْعٍ ولا مُنْكَرٍ يُوجِبُ تَعجُّبَكُم أو إطباقَكُم على مَقْتِي.

وقرأ عاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿قل﴾[3] على الأمرِ للنَّبيِّ ليُوافِقَ ما بعدَهُ.

(٢١) ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: ولا نَفْعًا، أو: غَيًّا ولا رَشَدًا، عبَّرَ عن أَحدِهِما باسمِهِ وعن الآخرِ باسمِ سَبَبِه أو مُسبَّبِه إشعارًا بالمَعْنَيَينِ.

(٢٢) ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إنْ أرادَ بي سوءًا ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: مُنحَرَفًا ومُلْتَجأً.

(٢٣) ـ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ مِن قَولِه: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ فإنَّ التَّبليغَ إرشادٌ وإنفاعٌ، وما بينَهُمَا اعتراضٌ مُؤَكِّدٌ لنَفيِ الاستِطاعَةِ، أو مِن ﴿مُلْتَحَدًا﴾، أو معناهُ: إنْ لا أبلِّغْ بلاغًا، وما قبلَه دليلُ الجوابِ.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿بَلَٰغًا﴾ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُه فإنَّ صِلَتَهُ (عَن)[4]، كقوله: «بَلِّغُوا عنِّي ولو آيةً»[5].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣) عن الجحدري، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٤) عنه وعن الحسن بخلاف.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣) عن مجاهد، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٤) عن الجحدري.

(٣) انظر: «السبعة» (٦٥٧)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

(٤) أي: صفةُ ﴿بَلَٰغًا﴾ لا صلتُه «فإن صلتَه»؛ أي: صلة البلاغ؛ وهو حرف الجر المستعمل مع فعل البلاغ «عن» لا (من).

(٥) رواه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمرِ بالتَّوحيدِ إذ الكلامُ فيه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقُرِئَ: (فأنَّ)[1] على: فجزاؤُه أنَّ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جمعَه للمَعنى.

(٢٤) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا كوقعةِ بدرٍ، أو في الآخرةِ، والغايةُ لقولِه: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ بالمعنى الثَّاني، أو لِمَحذوفٍ دلَّ عليه الحالُ مِن استضعافِ الكُفَّارِ له وعصيانِهم له.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هو أو هُم.

(٢٥) ـ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ﴾: ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾: غايةً تطولُ مُدَّتُها؛ كأنَّه لَمَّا سمعَ المُشركونَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا: متى يكونُ؟ إنكارًا، فقيل: قل: إنَّه كائنٌ لا محالةَ ولكِنْ لا أدري وقتَه.

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ هو عالمُ الغَيبِ ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾: فلا يُطْلِعُ ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ أي: على الغيبِ المَخصوصِ بهِ علمُه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ لعِلْمِ بَعضِهِ حتَّى يكونَ لهُ مُعجزةً ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ بيانٌ لـ﴿مَنِ﴾.

واستُدلَّ به على إبطالِ الكراماتِ.

وجوابُه: تخصيصُ الرَّسُولِ بالملَكِ، والإظهارِ بما يكونُ بغيرِ وسطٍ، وكراماتُ الأولِيَاءِ على المُغيَّباتِ إنَّما تكونُ تَلقِّيًا عن الملائكةِ كاطِّلاعِنا على أحوالِ الآخرةِ بتَوسُّطِ الأنبياءِ.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: مِن بين يَدَي المُرتَضَى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾: حرسًا مِن الملائكةِ يَحرسُونَه مِن اختطافِ الشَّياطينِ وتَخاليطِهم.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٣) عن طلحة وهو ابن مصرف.

(٢٨) ـ ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾؛ أي: ليعلمَ النَّبيُّ الموحَى إليهِ أَنْ قد أبلغَ جبرئيلُ والملائكةُ النَّازلونَ بالوَحيِ.

أو: ليعلمَ اللهُ تَعالى أنْ أبلغَ الأنبياءُ، بمعنى: ليتعلَّقَ علمُه بهِ مَوْجُودًا.

﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي محروسةً مِن التَّغييرِ ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: بما عندَ الرُّسُلِ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ حتَّى القطرَ والرَّملَ.

عن النبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأ سورةَ الجنِّ كانَ له بعددِ كلِّ جنيٍّ صدَّقَ محمَّدًا أو كذَّبَ بهِ عتقُ رقبةٍ»(١).

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٦١)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٢) سورة الجن مكية
وآياتها ثمان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى: ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ كقوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ قال ابن عباس ﴿جد ربنا﴾ آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وقال مجاهد: جلال ربنا، وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره، وقال السدي: تعالى أمر ربنا، وقال سعيد بن جبير: ﴿تعالى جد ربنا﴾ أي تعالى ربنا، وقوله تعالى: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جلَّ جلاله عن اتخاذ الصاحبة والولد، ثم قالوا: ﴿وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً﴾، قال مجاهد ﴿سفيهنا﴾ يعنون إبليس، ﴿شططاً﴾ أي جوراً، وقال ابن زيد: أي ظلماً كبيراً، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: سفيهنا اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً، ولهذا قالوا: ﴿وإنه كان يقول سفيهنا﴾ أي قبل إسلامه، ﴿على الله شططاً﴾ أي باطلاً وزوراً، ولهذا قالوا: ﴿وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن، يتمالأون على الكذب على الله تعالى، في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾، كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون

بهم من خوفهم منهم ﴿زادوهم رهقاً﴾ أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة، وقال الثوري ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي ازدادت الجن عليهم جرأة، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه ومالي أو ولدي أو ماشيتي، قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك، وعن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس، فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً[1]، وقال أبو العالية ﴿رهقاً﴾ أي خوفاً، وقال ابن عباس: أي إثماً، وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً. روى ابن أبي حاتم، عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتهى صف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً.

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها لئلا يسترقون شيئاً من القرآن، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ۝ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه، ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك» وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

وتمرد في طغيانه من بني، كما تقدم حديث ابن عباس عند قوله في سورة الأحقاف: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ الآية. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له، وظنوا أن ذلك لخراب العالم، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه، فشم فقال: صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام، يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ(١)

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي غير ذلك، ﴿كنا طرائق قدداً﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد ﴿كنا طرائق قدداً﴾ أي منا المؤمن ومنا الكافر، وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال، سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد:

قلوب براها الحب حتى تعلقت ... مذاهبها في كل غرب وشارق
تهيم بحب الله والله ربها ... معلقة بالله دون الخلائق

وقوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا. ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع، وصفة حسنة، وقولهم: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس وقتادة: فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط، فإنه العادل، ، ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ أي وقوداً تسعر بهم، ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: (**أحدهما**): وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، واستمروا عليها ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات

(١) هذه بعض رواية ذكرها السدي.

من السماء والأرض﴾، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي لنختبرهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية. قال ابن عباس: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يعني بالاستقامة الطاعة، وقال مجاهد: يعني الإسلام[1]. وقال قتادة: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. قال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين، (**والقول الثاني**): ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ الضلال ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ وهذا قول أبي مجلز، وحكاه البغوي عن الربيع، وزيد بن أسلم، والكلبي، وله اتجاه ويتأيد بقوله ﴿لنفتنهم فيه﴾، وقوله: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ أي عذاباً مشقاً موجعاً مؤلماً، قال ابن عباس ومجاهد ﴿عذاباً صعداً﴾ أي مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم.

وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يوحّده وحده، وقال ابن عباس: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا بيت المقدس[2]، وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبير قال، قالت الجن لنبي الله ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون؟ أي بعيدون عنك، وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾[3]. وقال عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقوله تعالى: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ قال ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن، كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ يستمعون القرآن، وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً، وقال قتادة: تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه[4]، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه، وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به

(١) وكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والسدي وابن المسيب ومحمد بن كعب القرظي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير.

(٤) هذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير.

من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إنما أدعوا ربي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ ولا أشرك به أحداً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي إنما أنا عبد من عباد الله، ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عزَّ وجلَّ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي لو عصيته، فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ قال مجاهد: لا ملجأ، وقال قتادة: أي لا نصير ولا ملجأ، وفي رواية: لا ولي ولا موئل، وقوله تعالى: ﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ مستثنى من قوله: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿ لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ أي أنا رسول الله أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء ﴿ نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ ﴿ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؛ أي بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عزَّ وجلَّ .

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي مدة طويلة، ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ۝ إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ثم قال تعالى: ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ ، وقد اختلف المفسرون في الضمير في قوله ﴿ ليعلم ﴾ إلى من يعود ؟ فقيل: إنه عائد إلى النبي ﷺ ، روى ابن جرير ، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ ليعلم ﴾ محمد ﷺ ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾[1] ، وقال قتادة: ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد

(١) حكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

بلغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها[1]، وقيل المراد: ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم، قال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وفي هذا نظر، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عزَّ وجلَّ[2]، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾، وكقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾.

[آخر تفسير سورة الجن، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، واختاره ابن جرير.

(٢) حكاه ابن الجوزي في (زاد المسير).

تفسير سورة الجن

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاح ، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف:٢٩] . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أى : فعلُه وأمره وقدرته .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه .

وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ، ومجاهد أيضا وابن جريج : تعالى ذكره . وقال سعيد ابن جبير : ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا .

فأما ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ [(١)] ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : الجد: أب. ولو علمت الجن أن فى الإنس جدا ما قالوا : تعالى جَدَ ربنا .

فهذا إسناد جيد ، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام ؛ ولعله قد سقط شىء ، والله أعلم.

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أى : قالت

(١) فى م : « عبد الله بن سويد الكوفى » .

الجن : تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾، قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسُّدِّى: ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ يعنون : إبليس، ﴿ شَطَطًا ﴾، قال السُّدِّى ، عن أبى مالك : ﴿ شَطَطًا ﴾ أى : جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا .

ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا. ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى: باطلا وزورا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى :ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها . يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون [١] بهم من خوفهم منهم ،﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا وإرهابا وذعرا ، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم ، كما قال قتادة : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة .

وقال الثورى ، عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : ازدادت الجن عليهم جراءة .

وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضَرّ أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهقَتهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان ،حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى، حدثنا الزبير بن الخرِّيت ، عن عِكْرِمة قال : كان الجن يَفْرَقُون من الإنس كما يفَرق الإنس منهم أو أشد ، وكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن ، فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادى . فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم . فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخَبَل والجنون ، فذلك قول الله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

---

(١) فى م : « سيعوذون » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم بن مالك ــ يعنى المزنى ــ عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن أبيه ، عن كَردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حَمَلا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سرْحان ، أرسله . فأتى الحملَ يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾ .

ثم قال : ورُوى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النَّخَعى ، نحوه .

وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل ــ وهو ولد الشاة ــ كان جنّيا حتى يُرهب الإنسى ويخاف منه ، ثم ردَّه عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا** ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا. قاله الكلبى ، وابن جرير .

﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)** ﴾ .

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرسا شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لئلا يسرقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق . وهذا [١] من لطف الله بخلقه[٢] ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه ، ﴿ **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ أى : ما ندرى هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان ، كما فى حديث ابن عباس [٣] : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ،فقال : « ما كنتم تقولون

(١) فى م : « فكان هذا » . (٢) فى م : « عليه » . (٣) فى م : « كما فى حديث العباس » .

فى هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ،وذكر تمام الحديث ، وقد أوردناه فى سورة « سبأ » بتمامه [١]. وهذا هو السبب الذى حَمَلهم على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم ، وتمرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك، عند قوله فى سورة «الأحقاف » : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية[الأحقاف:٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ،وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ــ كما قال السدى: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر . فلما بعث الله محمداً نبيا ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويُسَيِّبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو ابن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ،فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة ــ يعنى: محمداً ﷺ ــ وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فرأوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها. فأتوه فَشَم فقال : صاحبكم بمكة .فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله [٢] ﷺ قائما يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كَلاكِلَهم تصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ ،وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى فى أول البعث من (كتاب السيرة) المطول ، والله أعلم ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ .

يقول مخبرا عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : غير ذلك، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة .

---

(١) عند تفسير الآية :٢٣ .

(٢) فى م : « نبى الله » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى : منا المؤمن ،ومنا الكافر .

وقال أحمد بن سليمان النَّجاد فى أماليه ، حدثنا أسلم بن سَهل بَحْشَلُ ، حدثنا على بن الحسن ابن سليمان ــ وهو أبو الشعثاء الحضرمى ، شيخ مسلم ــ حدثنا أبو معاوية [١] قال : سمعتُ الأعمش يقول : تروح إلينا جنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال الأرز . قال : فأتيناهم به ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا .فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال : نعم. قلت : فما الرافضة فيكم [٢] ؟ قال [٣] : شرنا .عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المِزِّى فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال[٤] : سمعتُ بعض الجنّ وأنا فى منزلى بالليل ينشد :

قُلوبٌ بَرَاها الحبّ حَتى تعلَّقت ... مَذَاهبُها فى كُلّ غَرب وشَارِقِ
تَهيم بحب الله ، واللهُ ربُّها ... مُعلَّقَةٌ بالله دُونَ الخَلائقِ [٥]

وقوله : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أى : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه فى الأرض ،ولو أمعنا فى الهرب، فإنه علينا قادر [٦] ، لا يعجزه أحد منا .

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾: يفتخرون بذلك ،وهو مفخر [٧]لهم،وشرف رفيع،وصفة حسنة.

وقولهم : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ ، قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢] .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى : منا المسلم ومنا القاسط ، وهو : الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أى : وقوداً تُسعر بهم .

وقوله : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى : كثيراً . والمراد بذلك سَعَة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦] ، وكقوله :

---

(١) فى أ : « أبو عوانة » . (٢) فى أ :« منكم » . (٣) فى م :« قالوا » .
(٤) فى م : « أنه قال » .
(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٨٨٧ « المخطوط ») .
(٦) فى م :« فإنه قادر علينا » . (٧) فى أ : « وهو مفتخر » .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] . وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾: لنبتليهم ، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يعنى بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، والسدى ، ومحمد بن كعب القرظى .

وقال قتادة : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

وقال مجاهد : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : فنزلت فى كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين .

والقول الثانى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : الضلالة ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى : لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] ، وكقوله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٥ ، ٥٦] ،وهذا قول أبى مجلز لاحق بن حُمَيد؛ فإنه فى قوله : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وحكاه البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ،ويتأيد بقوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله :﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلما .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا راحة معها .

وعن ابن عباس : جبل فى جهنم . وعن سعيد بن جبير : بئر فيها .

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده أن يُوَحِّدوه فى مجال عبادته ، ولا يُدْعى معه أحد ولا يشرك به [١] ، كما قال قتادة فى قوله : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ . قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعِهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين : حدثنا إسماعيل ابن بنت السدى ، أخبرنا رجل سماه ، عن السدى ، عن أبى مالك ــ أو أبى صالح ــ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس .

وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات فى مسجدك . فأنزل الله : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن محمود ، عن سعيد بن جبير ، : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** ﴾ قال : قالت الجن لنبى الله [٢] ﷺ : كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناؤون [عنك] [٣] ؟ ، وكيف نشهد الصلاة نحن ناؤون عنك ؟ فنزلت: ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ [٤] .

وقال سفيان ، عن خُصَيْف ، عن عكرمة : نزلت فى المساجد كلها .

وقال سعيد بن جبير . نزلت فى أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح ، من رواية عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :« أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ــ أشار [٥] بيديه إلى أنفه ــ واليدين والركبتين وأطراف القدمين » [٦] .

وقوله : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً** ﴾ ، قال العَوفى ، عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبى ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ ، يستمعون القرآن .

هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام ، رضى الله عنه .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن مَعْمَر ، حدثنا أبو مسلم ، عن أبى عَوَانة ، عن أبى بشر ،

---

(١) فى م : « ولا يشرك به أحداً » . (٢) فى م: « قالت الجن للنبى » . (٣) زيادة من م .
(٤) تفسير الطبرى (٢٩/٧٣) .
(٥) فى م :« وأشار » .
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٨١٢) ، صحيح مسلم برقم (٤٩٠) .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ .

وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا .

وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تَلبُد عليه جميعاً .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال :تَلَبَّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيه (١) ويظهره على من ناوأه .

وهذا قول ثالث ، وهو مَروىّ عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول ــ لما آذوه (٢) وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربى وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شىء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل .

ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذى من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى : لا نصير ولا ملجأ . وفى رواية : لا ولىّ ولا مَوئلَ .

وقوله تعالى : ﴿ إِلا بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾ : قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلا بَلاغًا﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله :﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى: لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن (٣) لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧] .

وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج

(١) فى م :« ويعينه » . (٢) فى م : « لما نادوه » . (٣) فى م :« فإن » وهو خطأ .

لهم منها .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقريب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة .

وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه السلام ، لا يؤلف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره فى شىء من الكتب . وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تَبَدَّى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١). ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جَهُورىّ فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير (٢) صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : «فأنت مع من أحببت » . قال أنس : فَمَا فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن مُصَفَّى ، حدثنا محمد بن حمير (٤) ، حدثنى أبو بكر بن أبى مريم ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن أبى سعيد الخُدرى ، عن النبى ﷺ قال: « يا بنى آدم ، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ، إنما توعدون لآت » (٥) .

وقد قال أبو داود فى آخر « كتاب الملاحم » : حدثنا موسى بن سهيل ، حدثنا حجاج بن إبراهيم، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جُبَير ، عن أبيه ، عن أبى ثَعلبة الخُشنى قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم » (٦) .

---

(١) هو جزء من حديث جبريل الطويل ، رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) فى م : « كبير » .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس ، رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « محمد بن جبير » .

(٥) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٥٦٤) من طريق الحسن بن سفيان ، عن محمد بن المصفى ، به.

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٣٤٩) ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/٤٢٤) من طريق ابن وهب ، به . وقال الحاكم :« صحيح على شرطهما ولم يخرجاه » .

انفرد به أبو داود ، ثم قال أبو داود :

حدثنا عمرو بن عثمان . حدثنا أبو المغيرة ، حدثنى صفوان ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ أنه قال : « إنى لأرجو ألا تعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام . انفرد به أبو داود (١) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ،هذه كقوله تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يَخْتَصّه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبى ﷺ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القُمّى (٢)، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى (٣) ، به . وهكذا رواه الضحاك ، والسدى ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . وكذا رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة . واختاره ابن جرير .

وقيل غير ذلك ، كما رواه العَوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ ، قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى من الشيطان ، حتى يتبين الذى أرسل به إليهم ، وذلك حين يقول ، ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وكذا قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وفى هذا نظر .

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠) ، وشريح بن عبيد لم يدرك سعد بن أبى وقاص ، فهو منقطع .

(٢، ٣) فى أ : « العمى » .

وقال البغوى : قرأ يعقوب : « ليُعلَم » بالضم ، أى : ليعلم الناس أن الرسل بُلّغوا .

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاه ابن الجوزى فى « زاد المسير» [1] . ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بيِّن إليهم من الوحى ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وكقوله : ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ [العنكبوت:١١]، إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ؛ولهذا قال بعد هذا :﴿ **وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ .

---

(١) زاد المسير (٨/ ٣٨٦) .

سورة الجنّ

مكّيّة، وهي ثمان وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقُرئ: "أُحِيَ"[١] أصله وُحِيَ، وقد قُرئ كذلك،[٢] مِن "وَحَى إليه"، فقُلبت "الواو" المضمومة همزة كـ"أَعِد" و"أَزِن" في "وُعِد" و"وُزِن". ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح لأنّه فاعل ﴿أُوحِيَ﴾، والضمير للشأن. ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ أي: القرآن كما ذُكر في "الأحقاف"[٣] وقد حُذف لدلالة ما بعده عليه. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ النفرُ ما بين الثلاثة والعشرة، والجنّ: أجسام عاقلة خفيّة يغلب عليهم الناريّة أو الهوائيّة. وقيل: نوع مِن الأرواح المجرّدة. وقيل: هي النفوس البشريّة المفارقة عن أبدانها.[٤] وفيه دلالة على أنّه عليه السلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم، وإنّما اتّفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك، وقد مرّ ما فيه مِن التفصيل في "الأحقاف".[٥]

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كتابًا مقروًا ﴿عَجَبًا﴾ بديعًا مُباينًا لكلام الناس في حُسن النظم ودِقّة المعنى، وهو مصدر وُصف به للمبالغة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وجُؤيّة بن عائذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والعتكي عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

٣ في الآية التاسعة والعشرين منها.

٤ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٥٤.

٥ في تفسير الآية التاسعة والعشرين منها.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحقّ والصواب ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بذلك القرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ حسبما نطق به ما فيه مِن دلائل التوحيد.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ بالفتح، قالوا: هو وما بعده مِن الجُمل المصدّرة بأنّ في أحدَ عشرَ موضعًا عطفٌ على محلّ الجارّ والمجرور في ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، كأنّه قيل: فصدّقناه وصدّقنا أنّه تعالى جَدُّ ربّنا، أي: ارتفع عظمته، مِن "جَدّ فلان في عيني"، أي: عظُم تمكُّنه أو سلطانه أو غِناه، على أنّه مستعار مِن الجَدّ الذي هو البَخْت، والمعنى وَصْفُه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغِناه. وقُرئ بالكسر،[١] وكذا الجمل المذكورة عطفًا على المحكيّ بعد القول.[٢] وهو الأظهرُ لوضوح اندراج كلّها تحت القول، وأمّا اندراج الجُمل الآتية تحت الإيمان والتصديق كما يقتضيه العطف على محلّ الجارّ والمجرور، ففيه إشكال، كما ستُحيط به خُبرًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيان لحُكم تعالِي جدِّه. وقُرئ: "جَدًّا رَبُّنَا"[٣] على التمييز و"جِدُّ رَبِّنَا"[٤] / بالكسر، أي: صِدق ربوبيّته وحقّ إلهيّته [٢٣٢و] عن اتّخاذ الصاحبة والولد، وذلك أنّهم لمّا سمعوا القرآن ووُفِّقوا للتوحيد والإيمان تنبّهوا للخطأ فيما اعتقده كفَرة الجنّ مِن تشبيه الله تعالى بخَلْقه في اتّخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزّهوه تعالى عنه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: إبليسُ أو مَرَدة الجنّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شَطَط، أي: بُعدٍ عن القَصْد ومُجاوزةٍ للحدّ، أو هو شطَط في نفسه لفَرْط بُعده عن الحقّ، وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى، وتعلُّق الإيمان والتصديق بهذا القول ليس باعتبار نفسه، فإنّهم كانوا عالمين بقول سفهائهم مِن قبلُ أيضًا؛ بل باعتبار كونه شطَطًا كأنّه قيل: وصدّقنا أنّ ما كان يقوله سفيهنا في حقّه تعالى كان شطَطًا.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١.

٢ انظر تفصيله في النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١-٣٩٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

وأمّا تعلّقهما بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فغيرُ ظاهر، وهو اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم، أي: كنّا نظنّ أنّه لن يكذب على الله تعالى أحد أبدًا، ولذلك اتّبعنا قوله. و﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد لـ﴿تَقُولَ﴾ لأنّه نوع مِن القول أو وصفٌ لمصدره المحذوف، أي: قولًا كذبًا، أي: مكذوبًا فيه. وقُرئ: "لَنْ تَقَوَّلَ"[1] بحذف إحدى التاءين فـ﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد له؛ لأنّ الكذب هو التقوّل.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟
كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩
وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كان الرجل مِن العرب إذا أمسى في وادٍ قَفْر وخاف على نفسه يقول: أعوذ بسيّد هذا الوادي مِن سفهاء قومه، يريد الجنّ وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدنا الإنسَ والجنّ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الرجال العائذون الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾ أي: تكبّرًا وعُتوًّا، أو فزاد الجنُّ العائذين غيًّا بأن أضلّوهم حتّى استعاذوا بهم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ أي: الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجنّ على أنّه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾. وقيل: المعنى أنّ الجنّ ظنّوا كما ظننتُم أيّها الكفرة... إلخ، فيكون هذه الآية وما قبلها مِن جملة الكلام المُوحى به.[2] والأقربُ أنّهما كذلك على كلّ تقدير عطفًا على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ إذ لا معنى لإدراجهما تحت ما ذُكر مِن الإيمان والتصديق.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ وما بعده مِن الجمل المصدّرة بـ﴿أَنَّا﴾ ينبغي أن تكون معطوفةً على ذلك، على أنّ المُوحى عين عبارة الجنّ بطريق الحكاية، كأنّه قيل: قل أوحيَ إليّ كيت وكيت وهذه العبارات، أي:

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٢. [2] الكلام بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧١.

[٢٣٢ظ] طلبنا بلوغ السماء أو خبرها. واللَّمس مستعار مِن المَسّ / للطلب كـ"الجَسّ". يقال: "لمسَه والتمسه وتلمَّسه" كـ"طلَبه واطّلبه وتطلّبه".

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ أي: حرّاسًا اسم جَمْع كـ"خَدَم"، مفرد اللفظ، ولذلك قيل: ﴿شَدِيدًا﴾ قويًا، وهم الملائكة يمنعونهم عنها، ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع "شِهاب"، وهي الشُّعلة المقتبَسة مِن نار الكواكب.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾ مِن السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ خاليةً عن الحرَس والشُّهب، أو صالحةً للترصّد والاستماع، و﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلِّق بـ﴿نَقْعُدُ﴾، أي: لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لـ﴿مَقَٰعِدَ﴾، أي: مقاعدَ كائنةً للسمع. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ في مقعَد مِن المقاعد ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: شِهابًا راصدًا له ولأجله يصدّه عن الاستماع بالرَّجم، أو ذوي شِهاب راصدين له، على أنّه اسم مفرد في معنى الجمع كـ"الحَرَس".

قيل: حدَث هذا عند مَبعَث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والصحيحُ أنّه كان قبل البعث أيضًا، لكنّه كثُر الرجم بعد البعثة وزاد زيادةً حتّى تنبّه لها الإنس والجنّ، ومُنع الاستراق أصلًا، فقالوا: ما هذا إلّا لأمر أرادَه الله تعالى بأهل الأرض، وذلك قولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: خيرًا، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشرّ مِن الآداب الشريفة القرآنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٨٠/٢٦] ونظائرِه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم المائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة،

لا إلى الشرّ والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قوم دون ذلك، فحُذف الموصوف وهم المقتصِدون في صلاح الحال على الوجه المذكور، لا في الإيمان والتقوى كما تُوهِّم،[١] فإنّ هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وأمّا حالهم بعد استماعه فسيُحكى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾،[٢] أي: كنّا قبل هذا ذوي طرائق، أي: مذاهبَ، أو مثلَ طرائق في اختلاف الأحوال، أو كانت طرائقنا طرائقَ قِدَدًا، أي: متفرِّقةً مختلفةً جمع "قِدّة" مِن "قَدَّ" كـ"القِطعة" مِن "قَطَع".

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي: علِمنا الآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي: أنّ الشأن لن نعجز الله كائنين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أينما كنّا مِن أقطارها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ هاربين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرًا ولن نعجزه هربًا / إن طلبَنا. [٢٣٣و]

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن الذي هو الهدى بعينه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مِن غير تلعثُم وتردُّد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ أي: نقصًا في الجزاء ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ولا أن ترهَقه ذِلّة، أو جزاءَ بخسٍ ولا رَهَقٍ؛ إذ لم يبخس أحدًا حقًّا ولا رَهِق ظلم أحد، فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أنّ مِن حقّ مَن آمن بالله تعالى أن يجتنب المظالم. وقُرئ: "فَلَا يَخَفْ"،[٣] والأوّل أدلّ على تحقيق نجاة المؤمن واختصاصها به.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحقّ الذي هو الإيمان والطاعة، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَن أسلَم، والجمع باعتبار المعنى، ﴿تَحَرَّوْا۟﴾ توخَّوا ﴿رَشَدًا﴾ عظيمًا يبلِّغهم إلى دار الثواب.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن سنَن الإسلام ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَد بهم كما تُوقَد بكفَرة الإنس.

---

[١] ما وقفت عليه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٢] في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣.

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ "أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، والجملة معطوفة قطعًا على ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾،[١] والمعنى وأُوحيَ إليّ أنّ الشأن لو استقام الجنّ والإنس أو كلاهما ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ التي هي مِلّة الإسلام ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: لوسّعنا عليهم الرزق، وتخصيصُ الماء الغَدَق -وهو الكثير- بالذِّكر، لأنّه أصل المعاش والسَّعة، ولعِزّة وجوده بين العرب. وقيل: لو استقام الجنّ على الطريقة المُثلى، أي: لو ثبت أبوهم الجانّ على ما كان عليه مِن عبادة الله تعالى وطاعته ولم يتكبّر عن السجود لآدمَ عليه السلام ولم يكفرِ وتبِعه ولده في الإسلام لأنعمنا عليهم ووسَّعنا رزقهم.[٢]

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه. وقيل: معناه أنّه لو استقام الجنّ على طريقتهم القديمة ولم يُسلِموا باستماع القرآن لوسَّعنا عليهم الرزق استدراجًا لنُوقعهم في الفتنة ونعذِّبهم في كفران النعمة.[٣] ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو وحيه ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ يُدخله ﴿عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ أي: شاقًّا صعبًا يعلو المعذَّب ويغلِبه، على أنّه مصدر وُصف به مبالغةً.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾

[٢٣٣ظ] / ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾،[٤] أي: وأوحيَ إليّ أنّ المساجد مختصّة بالله تعالى. وقيل: معناه ولأنّ المساجد لله[٥] ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ أي: لا تعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ غيره. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾ المسجد الحرام، والجَمْعُ لأنّ كلّ ناحية منه مسجِد، له قبلة مخصوصة، أو لأنّه قبلة المساجد.[٦] وقيل: الأرضُ كلّها؛ لأنّها جُعلت مسجدًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٧] وقيل:

---

١ في الآية الأولى مِن هذه السورة.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٤ في الآية الأولى مِن هذه السورة.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٥٧.
٧ مرويّ عن الحسن في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٤٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤-٤٧٥.

مواضعُ السجود، على أنّ المراد نهي السجود لغير الله تعالى.[١] وقيل: أعضاءُ السجود السبعة. وقيل: السجدات، على أنّه جَمْع المصدر الميمي.[٢]

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ مِن جملة المُوحى، أي: وأوحيَ إليّ أنّ الشأن ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي: النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإيراده بلفظ العبد للإشعار بما هو المقتضي لقيامه وعبادته وللتواضع؛ لأنّه واقع موقع كلامه عن نفسه. ﴿يَدۡعُوهُ﴾ حال مِن فاعل ﴿قَامَ﴾، أي: يعبده، وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة، كما مرّ تفصيله في "الأحقاف".[٣]

﴿كَادُواْ﴾ أي: الجنّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ متراكِمين مِن ازدحامهم عليه تعجُّبًا ممّا شاهدوا مِن عبادته وسمعوا مِن قراءته واقتداءِ أصحابه به قِيامًا وركوعًا وسجودًا؛ لأنّهم رأوا ما لم يروا مِثلَه وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره. وقيل: معناه لمّا قام عليه السلام يعبد الله وحدَه مخالِفًا للمشركين كاد المشركون يزدحمون عليه متراكمين. واللِّبد جمع لِبْدة: وهي ما تلبَّد بعضه على بعض، ومنها لِبْدة الأسَد. وقُرئ: "لُبَدًا"[٤] جمع "لُبْدة" وهي بمعنى اللِّبدة، و"لُبَّدًا"[٥] جمع "لابِد" كـ"ساجد" و"سُجَّد"، و"لُبُدًا"[٦] بضمّتين جمع "لَبُود" كـ"صَبور" و"صُبُر"، وعن قتادة: تلبَّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلّا أن يُظهره على مَن ناوأه.[٧]

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ﴾ أي: أعبد ﴿رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ﴾[٨] بربّي في العبادة ﴿أَحَدٗا﴾ فليس ذلك ببِدع ولا مستنكَر يوجِب التعجّب أو الإطباق على عداوتي. وقُرئ:

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٧/٣.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/٤.

٣ في تفسير الآية التاسعة والعشرين منها.

٤ قرأ بها هشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدريّ والحسن وابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٤٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩.

٧ مَرويّ عن الحسن وقتادة وابن زيد في جامع البيان للطبري، ٣٤٤/٢٣-٣٤٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٤٣/٨؛ وعن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/٤.

٨ م س - به

"قَالَ"،[١] على أنّه حكاية لقوله عليه السلام للمتراكِمين عليه.[٢] والأوّل هو الأظهر والأوفَق لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ كأنّه أريدَ: لا أملِك ضرًّا ولا نفعًا ولا غَيًّا ولا رَشدًا، فتُرك مِن كلا المتقابلَين ما ذُكر في الآخر.

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ إن أرادني بسوء ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ مُلتجأ ومَعدِلًا، هذا بيان لعجزه عليه السلام / عن شئون نفسه بعد بيان عجزه [٢٣٤و] عليه السلام عن شئون غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء مِن قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ فإنّ التبليغ إرشاد ونفع وما بينهما اعتراضٌ مؤكِّد لنفي الاستطاعة أو مِن ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ أي: لن أجد مِن دونه مَنجًى إلّا أن أبلِّغ عنه ما أرسلني به، وقيل: ﴿إِلَّا﴾ مركَّبة مِن "إن" الشرطيّة و"لا" النافية، ومعناه: "إنْ لا أبلِّغ بلاغًا مِن الله"، والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه.[٣] ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿بَلَٰغٗا﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفته لا صلته، أي: لا أملك لكم إلّا تبليغًا كائنًا منه تعالى ورسالاتِه التي أرسلني بها.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد، إذ الكلام فيه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقُرئ بفتح "الهمزة"[٤] على "فحقُّه" أو "فجزاؤه أنّ له نار جهنّم". ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في النار أو في جهنّم، والجمع باعتبار المعنى. ﴿أَبَدًا﴾ بلا نهاية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٢/٢.

[٢] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٤.

[٣] القول بإيجاز في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٤؛ وهو مع ذِكر تقدير الجواب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٧/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وزيد بن عليّ وعيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية لمحذوف يدلّ عليه الحال مِن استضعاف الكفّار لأنصاره عليه السلام واستقلالهم لعدده، كأنّه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتّى إذا رأوا ما يوعدون مِن فنون العذاب في الآخرة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾.[١] وحَمْلُ ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ على ما رأوه يوم بدر،[٢] يأباه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؛ فإنّه ردّ لِما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعود إنكارًا له واستهزاءً به، فقيل: قل إنّه كائن لا محالةَ، وأمّا وقته فما أدري متى يكون.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بالرفع، قيل: هو بدل مِن ﴿رَبِّيٓ﴾، أو بيان له،[٣] ويأباه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ إذ يكون النظم حينئذ: أم يجعل له عالمُ الغيب أمدًا فلا يُظهِر عليه أحدًا. وفيه مِن الاختلال ما لا يخفى. فهو خبر مبتدأ محذوف، / أي: هو عالم الغيب.[٤] والجملة استئناف مقرّر لِما قبله مِن عدم الدِّراية، و"الفاء" لترتيب عدم الإظهار على تفرُّده تعالى بعِلم الغيب على الإطلاق، أي: فلا يُطلِع على غَيبه إطلاعًا كاملًا ينكشف به جليّةُ الحال انكشافًا تامًّا موجِبًا لعين اليقين أحدًا مِن خَلْقه. [٢٣٤ظ]

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أي: إلّا رسولًا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلِّقة برسالته كما يُعرِب عنه بيانُ مَن ارتضى بالرسول تعلُّقًا ما، إمّا لكونه مِن مبادي رسالته بأن يكون معجزةً دالّةً على صحّتها، وإمّا لكونه مِن أركانها وأحكامها، كعامّة التكاليف الشرعيّة التي أُمِر بها المكلَّفون، وكيفيّاتِ أعمالهم وأجزِيتها المترتِّبة عليها في الآخرة، وما تتوقَّف هي عليه مِن أحوال الآخرة التي مِن جملتها قيامُ الساعة والبعث وغيرُ ذلك مِن الأمور الغيبيّة التي بيانها مِن وظائف الرسالة. وأمّا ما لا يتعلّق بها على أحد الوجهين مِن الغيوب

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٦-٤٧٧.

٢ حمله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٤/٤٧٦.

٣ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٩/٤٤٢.

٤ وهو ثالث الوجوه المذكورة في اللباب لابن عادل، ١٩/٤٤٢.

التي مِن جملتها وقتُ قيام الساعة، فلا يُظهِر عليه أحدًا أبدًا، على أنّ بيان وقتِه مُخِلّ بالحكمة التشريعيّة التي عليها يدور فلَك الرسالة.

وليس فيه ما يدلّ على نفي كراماتِ الأولياء المتعلِّقة بالكشف،[1] فإنّ اختصاص الغاية القاصية مِن مراتب الكشفِ بالرسل لا يستلزم عدمَ حصول مرتبةٍ ما مِن تلك المراتب لغيرهم أصلًا، ولا يدّعي أحد لأحد مِن الأولياء ما في رُتبة الرسل عليهم السلام مِن الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد مِن الاستثناء وبيانٌ لكيفيّته، أي: فإنّه تعالى يسلك مِن جميع جوانب الرسول عند إظهاره على غيبه حرَسًا مِن الملائكة يُحرسونه مِن تعرُّض الشياطين لِما أظهره عليه مِن الغيوب المتعلِّقة برسالته.

[٢٣٥و] وقوله تعالى: / ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ متعلِّق بـ﴿يَسۡلُكُ﴾، غايةٌ له مِن حيث إنّه مترتِّب على الإبلاغ المترتِّب عليه؛ إذ المراد به العِلم المتعلِّق بالإبلاغ الموجود بالفعل. و"أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرها. و﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ عبارة عن الغيب الذي أُريدَ إظهار المرتضى عليه، والجمع باعتبار تعدُّد أفراده.

وضمير ﴿أَبۡلَغُواْ﴾ إمّا لـ"الرصَد" فالمعنى أنّه تعالى يسلُكهم مِن جميع جوانب المرتضى ليعلم أنّ الشأن قد أبلغوه رسالات ربّهم سالمةً عن الاختطاف والتخليط عِلمًا مستتبعًا للجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلًا بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد، ٣١/٤٧]. والغايةُ في الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد، وإيرادُ عِلمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمرهما والإشعار بترتيب الجزاء عليهما والمبالغة في الحثّ عليهما والتحذير عن التفريط فيهما. وإمّا لـ﴿مَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾،[2] والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ الإفراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظهما

---

[1] على ما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف، ٤٧٧/٤؛ وردُّه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٨/٣، بأنّ كراماتِ الأولياء عن المغيّبات تكون بتوسّط الأنبياء.

[2] السياق: إمّا لـ"الرصَد"... وإمّا لـ﴿مَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾...

فالمعنى ليعلم أنّه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربّهم إلى أممهم كما هي مِن غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصَد إليهم كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عند الرصَد أو الرسل عليهم السّلام، حالٌ مِن فاعل ﴿يَسْلُكُ﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخِلاف المشهور،[١] جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العِلم بالإبلاغ عمّا ذُكر مِن سَلْك الرَّصَد على الوجه المذكور، أي: يسلكهم بين يديه ومِن خلفه ليترتَّب عليه عِلمه تعالى بما ذُكر، والحال أنّه تعالى قد أحاط بما لديهم مِن الأحوال جميعًا.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ممّا كان وما سيكون ﴿عَدَدًا﴾ أي: فردًا فردًا، وهو تمييز منقول مِن المفعول به، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر، ١٢/٥٤]. والأصل أحصى عدد كلّ شيء. وقيل: هو حال، أي: معدودًا محصورًا، أو مصدر بمعنى "إحصاءً".[٢]

وأيًا ما كان ففائدته بيان أنّ عِلمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلّي إجمالي؛ بل على وجه جزئي تفصيلي، فإنّ الإحصاء قد يُراد به الإحاطة الإجماليّة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم، ٣٤/١٤] / أي: لا تقدروا على حصرها إجمالًا فضلًا عن التفصيل، وذلك لأنّ أصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عَقدًا معيَّنًا مِن عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضَع حصاةً ليحفظ بها كمّيّةَ ذلك العقد، فيبني على ذلك حسابه هذا. [٢٣٥ظ]

وأمّا ما قيل: مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾... إلى آخره، معطوفٌ على مقدَّر يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾، كأنّه قيل: قد عَلِم ذلك و﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾... إلخ،[٣] فبمَعزِل مِن السَّداد.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الجنّ كان له بعدد كلّ جنّيّ صدّق محمّدًا وكذّب به عِتقُ رقبة».[٤]

---

١ انظر تفصيل المسألة في **الإنصاف في مسائل الخلاف** للأنباري، ٢٥٢/١-٢٥٨.

٢ الوجهان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٤.

٣ أوردَ هذا الوجه ابن عادل في **اللباب**، ٤٤٨/١٩.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤١٦/٢٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٨/١٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٢

سُورَةُ الجِنِّ

مكية، ثمانٍ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ للناس: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: أُخبِرتُ بالوحي من الله ﴿أَنَّهُ﴾ ـ الضمير للشأن ـ ﴿اسْتَمَعَ﴾ لِقراءتي ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ جِنُّ نَصِيبِينَ ـ وذلك في صلاة الصبح ببطن نخلةَ موضع بين مكة والطائف، وهم الذين ذُكروا في قوله تعالى: «وإِذْ صَرَفْنا إِلَيكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ» الآيَةَ ـ ﴿فَقالُوا﴾ لقومهم لمّا رجَعوا إليهم:

﴿إِنّا سَمِعْنا قُرآنًا عَجَبًا﴾ يُتعجّب منه في فصاحته وغزارة معانيه وغير ذلك، ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ﴿يَهدِي إِلَى الرُّشدِ﴾: الإيمان والصواب، ﴿فَآمَنّا بِهِ، ولَن نُشرِكَ﴾ بعد اليوم ﴿بِرَبِّنا أَحَدًا، وإِنَّهُ﴾ ـ الضميرُ للشأن فيه وفي الموضعين بعده ـ ﴿تَعالَى جَدُّ رَبِّنا﴾: تنزّهَ جلاله........................

سُورَةُ الجِنِّ

قولُهُ: (للنَّاسِ) التَّخصيصُ لحكايَةِ الجِنِّ، ويمكِنُ عمُومُ الخطابِ؛ لأنَّه أحوالُ بعضِهِم.

قولُهُ: (نَصِيبِينَ) بلَدٌ، قاعدَةُ ديارِ ربيعَةَ[1].

قولُهُ: (بَينَ مَكَّةَ) على ليلَةٍ.

قولُهُ: (يُتَعَجَّبُ) أي: كِتاباً أو مَقروءاً يتعَجَّبُ منه، مصدَرٌ وُصِفَ به للمُبالَغَة.

قولُهُ: (بَعدَ اليَومِ) على ما نَطَقَ به الأدلَّةُ القاطِعَةُ على التَّوحيدِ.

قولُهُ: (الضَّمِيرُ) على القِراءَتَين الآتِيَتَينِ.

---

(١) في «معجم البلدان» (٥/ ٢٨٨): مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام.

وعظمته عمّا نُسب إليه، ﴿ما اتَّخَذَ صاحِبةً﴾: زوجة ﴿ولا وَلَدًا، وإنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا﴾: جاهلُنا ﴿علَى اللهِ شَطَطًا﴾: غُلوًّا في الكذب بوصفه بالصاحبة والولد، ٥ ـ ﴿وإنّا ظَنَنّا أنْ﴾: مُخففةٌ، أي: أنّه ﴿لَن تَقُولَ الإنسُ والجِنُّ علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بوصفه بذلك، حتّى تبيّنّا كذبهم بذلك.

٦ ـ قال تعالى: ﴿وإنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ﴾: يستعيذون ﴿بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ﴾ حين ينزلون في سفرهم بمَخوف، فيقول كُلّ رجل: «أعوذُ بسيّد هذا المكان مِن شرّ سُفهائه»، ﴿فزادُوهُم﴾ بعَوذهم بهم ﴿رَهَقًا﴾: طغيانًا، فقالوا: «سُدنا الجِنَّ والإنس»، ٧ ـ ﴿وإنَّهُم﴾ أي: الجِنَّ ﴿ظَنُّوا كَما ظَنَنتُم﴾ ـ يا إنسُ ـ ﴿أنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: أنّه ﴿لَن يَبعَثَ اللهُ أحَدًا﴾ بعد موته.

٨ ـ قال الجِنّ: ﴿وإنّا لَمَسْنا السَّماءَ﴾: رُمنا استراقَ السمعِ منها، ﴿فوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ من الملائكة ﴿شَدِيدًا، وشُهُبًا﴾:......................................

قولُهُ: (وعَظَمَتُهُ) أو سُلطانُهُ، أو غِناهُ.

قولُهُ: (ممَّا نُسِبَ إليهِ) من الشَّريكِ وغيرِهِ، أو تفسيرُهُ ما بعدَهُ.

قولُهُ: (جَاهِلُنَا) إبليسُ، أو مَرَدَةُ الجنِّ.

قولُهُ: (غُلوًّا) أي: قَولاً ذا شَطَطٍ، وهو البُعدُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ.

قولُهُ: (بذَلِكَ) أي: باتِّخاذِ الصَّاحبَةِ والوَلَدِ.

قولُهُ: (تبيَّنَّا) أي: عَلِمنا.

قولُهُ: (بذَلِكِ) أي: بالقُرآنِ، وهذا اعتِذارٌ عن اتباعِهِم للسَّفِيهِ في ذلك بظنِّهِم أنَّ أحَداً لا يكذِبُ على الله، و(﴿كذباً﴾) نُصِبَ على المصدَرِ؛ لأنَّهُ نَوعٌ من القَولِ أو الوَصفِ لمَحذوفٍ؛ أي: قَولاً مَكذوباً فيه.

قولُهُ: (يَنْزِلُونَ) أي: حين يَنزِلون؛ يعني: الرِّجالَ من الإنسِ.

قولُهُ: (طُغيَاناً) وكِبراً.

قولُهُ: (يَا إِنسُ) أو بالعكسِ، والآيَتانِ من كَلامِ الجنِّ بعضِهِم لبَعضٍ، أو استئنافُ كلامٍ من الله، ومن فَتحَ ﴿أن﴾ فيهما جعَلَهُما منَ الموحى به.

قولُهُ: (مُخَفَّفَةٌ) سادٌّ مَسَدَّ مَفعُولَي: ﴿ظَنُّوا﴾.

قولُهُ: (رُمْنَا) أي: طَلَبنا.

قولُهُ: (استِرَاقَ السَّمعِ) أي: خَبَرَ السَّماءِ، أو بُلوغَ السَّماءِ.

قولُهُ: (مِنَ المَلائِكَةِ) الذينَ يمنَعونَهُم عنها، اسمُ جَمعٍ كالخَدَم.

نُجومًا مُحرِقة ـ وذلك لمّا بُعث النبي ﷺ ـ ٩ ـ ﴿وإنّا كُنّا﴾ أي: قبلَ مَبعثه ﴿نَقعُدُ مِنها مَقاعِدَ لِلسَّمعِ﴾ أي: نستمع، ﴿فمَن يَستَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا﴾ أُرصِد له ليُرمى به.

١٠ ـ ﴿وإنّا لا نَدرِي: أشَرٌّ أُرِيدَ﴾ بعدم استراق السمع ﴿بِمَن في الأرضِ؟ أم أرادَ بِهِم رَبُّهُم رَشَدًا﴾ خيرًا؟ ١١ ـ ﴿وإنّا مِنّا الصّالِحُونَ﴾ بعد استماع القُرآن، ﴿ومِنّا دُونَ ذلِكَ﴾ أي: قومٌ غير صالحين، ﴿كُنّا طَرائقَ قِدَدًا﴾: فِرَقًا مُختلفة مُسلمين وكافرين.

١٢ ـ ﴿وإنّا ظَنَنّا أنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: أنّه ﴿لَن نُعجزَ اللهَ في الأرضِ، ولَن نُعجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي: لا نفوته كائنين في الأرض أو هاربين منها إلى السماء، ١٣ ـ ﴿وإنّا لَمّا سَمِعْنا الهُدَى﴾: القُرآن ﴿آمَنّا بِهِ ـ فمَن يُؤمِنْ بِرَبِّهِ فلا يَخافُ﴾، بتقدير «هو» بعد الفاء، ....

قولُهُ: (أي: نَستَمِعُ) يعني: مقاعِدَ خاليَةً عن الحَرسِ والشُّهُب.

قولُهُ: (أُرْصِدَ) أو راصِداً لأجلِهِ يمنَعهُ عن الاستِماعِ بالرَّجمِ.

قولُهُ: (بعَدَمِ) أو بحراسَةِ السَّماءِ.

قولُهُ: (بَعدَ استِمَاعِ القُرْآنِ) أي: المؤمِنونَ الأبرارُ.

قولُهُ: (أي: قَومٌ) فحَذَفَ الموصوفَ، وهم المقتَصِدونَ.

قولُهُ: (فِرَقاً) أي: ذَوي طرائِقَ؛ أي: مَذاهِب.

قولُهُ: (مُختَلِفَةً) مُتفرِّقَةً، جمعُ: قِدَّة، من قَدَّ إذا قَطَعَ.

قولُهُ: (مُسلِمِينَ وكَافِرِينَ) هو قولُ مُجاهِدٍ[1]، وقالَ الحسنُ والسُّدِّي: الجنُّ أمثالُكم، فمِنهُم قدَريَّةٌ، ومُرجئَةٌ، ورافضَةٌ[2].

قولُهُ: (أي: أنَّهُ) يعني: عَلِمْنا.

قولُهُ: (في الأَرضِ) أينَ ما كُنَّا فيها.

قولُهُ: (أو هَارِبِينَ) أشارَ إلى أنَّ الواو بمعنى: أو؛ للتَّنويعِ أو للتَّخييرِ.

قولُهُ: (بِتَقدِيرِ هُو) وقُرِئَ: (فَلا يَخَفْ)[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٦٥٩).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٨٩)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٧/ ٤٣٣) (٣٢٥٢) عن السدي.

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن وثاب، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٨٨).

﴿بَخْسًا﴾: نقصًا من حسناته ﴿ولا رَهَقًا﴾: ظُلمًا بالزيادة في سيّئاته ـ ١٤ ـ ﴿وإنّا مِنّا المُسلِمُونَ ومِنّا القاسِطُونَ﴾: الجائرون بكُفرهم. ﴿فمَن أسلَمَ فأُولئِكَ تَحَرَّوا رَشَدًا﴾: قصدوا هِداية، ١٥ ـ ﴿وأمّا القاسِطُونَ فكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: وَقودًا.

وانا وانهم وانه: في اثني عشر موضعًا ـ هي «وإنه تعالى» و«إنا منّا المسلمون» وما بينهما ـ بكسر الهمزة استئنافًا، وبفتحها بما يُوجّه به. قال تعالى في كُفّار مكّة:

١٦ ـ ﴿وأنْ﴾ ـ مُخففةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: وأنّهم، وهو معطوف على «أنّه استمع» ـ ﴿لَوِ استَقامُوا علَى الطَّرِيقةِ﴾ أي: طريقة الإسلام ﴿لَأسقَيناهُم ماءً غَدَقًا﴾: كثيرًا من السماء ـ وذلك بعد ما رُفع المطرُ عنهم سبعَ سنين ـ ١٧ ـ ﴿لِنَفتِنَهُم﴾: لنختبرهم ﴿فِيهِ﴾ فنعلمَ: كيف شُكرُهم عِلمَ ظهور؟ ﴿ومَن يُعرِضْ عَن ذِكرِ رَبِّهِ﴾: القُرآنِ ﴿نَسلُكْهُ﴾، بالنون والياء، ....

قولُهُ: (الجَائِرُونَ) عن طَرِيقِ العَدلِ، وهو الإيمانُ والطَّاعَةُ.

قولُهُ: (هِدَايَةً) عظيمَةً تُرشِدُهُم إلى الصَّوابِ في الدُّنيا، وتهدِيهِم إلى دارِ الثَّوابِ في العُقبى.

قولُهُ: (وَقُوداً) يوقَدُ بهم، كما يوقَدُ بكفَّارِ الإنسِ.

قولُهُ: (بكَسرِ الهَمزَةِ) نافعٌ ومكّيٌّ وبصريٌّ وشُعبَةُ[1].

قولُهُ: (استِئنَافاً) أو من جُملةِ المحكيِّ بعد القَولِ.

قولُهُ: (بمَا يُوجَّهُ بِهِ) بأن ما لم يكُن من مقُولِهِم فمَعطوفٌ على محَلِّ الجار والمجرُور في ﴿بِهِ﴾، كأنَّهُ قيل: صدَّقناهُ وصَدَّقنا أنّه تعالى جَدُّ ربِّنا[2].

قولُهُ: (أي: طَرِيقَةِ الإسلامِ) والضَّميرُ للجِنِّ، أو الإنسِ، أو كِليهِما.

(كَثِيراً) أي: لوَسَّعنا عليهِمِ الرِّزقَ، وتَخصيصُ الماءِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُ المعاشِ والسَّعَةِ، ولعِزَّةِ وجودِهِ بين العَرَب.

قولُهُ: (القُرآنِ) أو عبادَتِهِ، أو موعِظَتِه.

قولُهُ: (والياء) كُوفيٌّ[3].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٥١).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥).

نُدخلْه ﴿عَذابًا صَعَدًا﴾: شاقًّا، ١٨ ـ ﴿وأنَّ المَساجِدَ﴾: مواضعَ الصلاة ﴿لِلهِ. فلا تَدْعُوا﴾ فيها ﴿مَعَ اللهِ أحَدًا﴾ بأن تُشركوا كما كانت اليهود والنصارى، إذا دخلوا كنائسَهم وبِيَعَهم أشركوا.

١٩ ـ ﴿وأنَّهُ﴾ بالفتح، وبالكسر استئنافًا، والضمير للشأن ﴿لَمّا قامَ عَبدُ اللهِ﴾ مُحمّد النبيّ ﷺ ﴿يَدعُوهُ﴾: يعبده ببطن نخلةَ ﴿كادُوا﴾ أي: الجِنُّ المُستمعون لقِراءته ﴿يَكُونُونَ علَيهِ لِبَدًا﴾، بكسر اللام وضمّها، جمعُ لِبْدة، كاللِّبَد في رُكوب بعضهم بعضًا، ازدحامًا حِرصًا على سماع القُرآن.........

قولُهُ: (شَاقًّا[١]) يَعلو المعَذَّبَ ويَغلِبهُ، مصدرٌ وُصفَ به.

قولُهُ: (مَوَاضِعَ الصَّلاةِ) تختَصُّ به تعالى، أو الأرضَ كُلَّها، لأنَّها جُعِلت للنَّبيِّ مَسجِداً، وقيل: المسجِدَ الحَرامَ؛ لأنَّه قِبلَةُ المساجِدِ، أو مواضِعَ السُّجودِ على أنَّ المراد: النَّهيُ عن السُّجودِ لغَيرِ الله، أو عن الخُضوعِ والتَّذلُّلِ لغَيرِ خالِقِها، كما قالَهُ الواسِطيُّ[٢].

قولُهُ: (بِأَن تُشرِكُوا) قالَ القاضِي[٣]: فلا تَعبُدوا فيها غيرَهُ، ولعَلَّ المعنى: معَ وُجودِ الله.

قولُهُ: (والكَسرِ) نافِعٌ وشُعبَةُ[٤].

قولُهُ: (استِئنَافاً) من اللهِ، وأمَّا الفَتحُ فعلى أنَّه من جُملَةِ الموحى به.

قولُهُ: (مُحَمَّدٌ) وإنَّما ذُكِرَ لفظُ العَبدِ للتَّواضُعِ، كذا قالَهُ القاضِي[٥]، وعندِي أنَّه للتَّشريفِ ولله دَرُّ القائِلِ[٦]:

لا تَدْعُنِي إلا بِيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

وقيلَ: للإشعارِ بما هو المقتَضِي لقيامِهِ، ويمكِنُ أن يَكونَ لتَصحِيحِ الإضافَةِ، ولذا قيل: سمَّاهُ عَبدَ الله؛ لأنَّه هو المظهِرُ لاسمِ الله لا غيرُهُ بالأصالَةِ، وغيرُه إنَّما هو بالتَّبعيَّةِ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) هشامٌ بخُلْفٍ عنه[٧].

قولُهُ: (جَمعُ: لِبدَةٍ) وهو ما تلبَّدَ بعضُهُ على بَعضٍ.

---

(١) في الأصول: «مشاقاً»، وما أثبته من «الجلالين».

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٥٤) ونقله عن ابن عطاء.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥٣).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥٣).

(٦) ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٩٦) من قول أبي عبد الله المغربي.

(٧) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٨).

٢٠ ـ ﴿قالَ﴾ مُجيبًا للكُفّار في قولهم: «ارجِع عمّا أنتَ فيه» ـ وفي قِراءةٍ: «قُلْ» ـ ﴿إنَّما أدعُو رَبِّي﴾ إلـهًا، ﴿ولا أُشرِكُ بِهِ أحَدًا﴾.

٢١ ـ ﴿قُلْ: إنِّي لا أملِكُ لَكُم ضَرًّا﴾: غيًّا ﴿ولا رَشَدًا﴾: خيرًا ـ ٢٢ ـ ﴿قُلْ: إنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ﴾: من عذابه إن عصيتُه ﴿أحَدٌ، ولَن أجِدَ مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ﴿مُلتَحَدًا﴾: مُلتجأ ـ ٢٣ ـ ﴿إلاّ بَلاغًا﴾: استثناءٌ من مفعول «أملِكُ» أي: لا أملك لكم إلاّ البلاغَ إليكم ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: عنه، ﴿ورِسالاتِهِ﴾: عطفٌ على «بلاغًا». وما بين المُستثنى منه والاستثناء اعتراضٌ لتأكيد نفي الاستطاعة، ﴿ومَن يَعصِ اللهَ ورَسُولَهُ﴾ في التوحيد فلم يُؤمن ﴿فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ﴾: حالٌ من ضمير «مَن» في «له» رِعايةً لمعناها، وهي حال مُقدّرة، والمعنى: يدخلونها مُقدَّرًا خلُودُهم ﴿فِيها أبدًا﴾.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِمٍ وحمزَةَ[١].

قولُهُ: (خَيراً) مُقتَضى حُسنِ المقابَلَةِ: هدايَةً، أو تفسيرُ (ضَرًّا) بشَرٍّ، ولذا قالَ القاضِي[٢]: (ضَرًّا ولا رَشَداً): ولا نَفعاً أو غَيًّا ولا رَشداً، عَبَّرَ عن أحدِهما باسمِهِ، وعن الآخَرِ باسمِ سَبَبِهِ، أو مُسبَّبِهِ إشعاراً بالمعنَيَينِ، انتهى.

أقولُ: وهذا من ألطَفِ أنواعِ البَديعِ وأبدَعِها ويُسمَّى: بالاحتِباك، وهو أن يحذِفَ من الأوَّلِ ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الثَّاني، ومن الثَّاني ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الأوَّلِ، على ما ذكرَهُ في «الإتقان»[٣].

قولُهُ: (إن عَصَيتُهُ) أو إن أرادَ بي سُوءاً.

قولُهُ: (مُلتَجَأ) ومُنْحَرَفاً.

قولُهُ: (مِن مَفعُولِ: ﴿أملِك﴾) فإنَّ التَّبليغَ إرشادٌ ونَفعٌ.

قولُهُ: (أي: لا أَملِكُ لَكُم) يعني: شَيئاً من الضَّرِّ والرَّشَدِ.

قولُهُ: (أي: عَنهُ) و﴿من﴾ بمعنى: عن، أو صِفَةُ ﴿بَلاغاً﴾ فإنَّ صلتَهُ عن؛ كقولِهِ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي ولَو آيَة»[٤].

قولُهُ: (في التَّوحُّدِ) إذ الكَلامُ فيه.

قولُهُ: (لمَعنَاهَا) في الحالِ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥٣).

(٣) انظر: «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٢٠٤).

(٤) رواه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

٢٤ ـ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا﴾ حتى: ابتدائيّة فيها معنى الغاية لمُقدّر قبلها، أي: لا يزالون على كُفرهم إلى أن يروا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عِند حُلوله بهم يوم بدر أو يوم القيامة: ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: أعوانًا؟ أهم أم المُؤمنون، على القول الأوّل؟ أو أنا أم هم، على الثاني؟ فقال بعضهم: متى هذا الوعد؟ فنزل:

٢٥ ـ ﴿قُلْ: إِنْ﴾ أي: ما ﴿أَدْرِي: أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾: غاية وأجلاً لا يعلمه إلاّ هو؟ ٢٦ ـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾: ما غاب به عن العِباد، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾: يُطلِع ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الناس، ٢٧ ـ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ. فَإِنَّهُ﴾ مع إطلاعه على ما شاء منه مُعجزةً له ﴿يَسْلُكُ﴾: يجعل ويُسيّر ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: الرسولِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾: ملائكة يحفظونه حتّى يُبلّغه في جُملة الوحي، ٢٨ ـ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله عِلمَ ظُهور ﴿أَنْ﴾: مُخففةٌ من الثقيلة أي: أنّه ﴿قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: الرسلُ ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ـ رُوعي بجمع الضمير معنى «مَن» ـ ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: عطفٌ على مُقدّر، أي: فعلم ذلك، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾: تمييز. وهو مُحوّل عن المفعول، والأصل: أحصى عددَ كُلّ شيء.

قولُهُ: (عَلى القَولِ الأوّلِ) لكن يُشكِلُ بقولِهِ: ﴿أَقَلُّ عَدَداً﴾.

قولُهُ: (أَو أَنَا) أو هو، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (غَايَةً) تَطولُ مُدَّتُها.

قولُهُ: (وأَجَلاً) أي: بَعيداً.

قولُهُ: (لا يَعلَمُهُ) استِئنافٌ، والضَّميرُ راجِعٌ إلى ما ذُكِر من القُربِ والبُعدِ.

قولُهُ: (مِنَ النَّاسِ) ولعَلَّ المرادَ من: ﴿غَيْبِهِ﴾ وَحيُهِ الخاصُّ، فلا يُنافي الكَراماتِ.

قولُهُ: (مِنه) أي: من غَيبِهِ.

قولُهُ: (أي: الرَّسُولِ) أو المرتَضى، فإنَّ ﴿مِن﴾ بَيانٌ لـ﴿مَن﴾.

قولُهُ: (يَحفَظُونَهُ) من اختِطافِ الشَّياطينِ وتخاليطِهِم.

قولُهُ: (عَلِمَ ظُهُورِ) أي: ليتعَلَّقَ علمُهُ به مَوجوداً، كما تعَلَّقَ به مَعدوماً.

قولُهُ: (مَعنَى) كما رُوعيَ لفظُها في: ﴿مَنِ ارتَضَى﴾.

قولُهُ: (أي: فَعَلِمَ ذَلِكَ) وأحاطَ بما عِندَ الرُّسلِ.

قولُهُ: (أحصَى) أي: ضَبطَ وحَفِظَ.

قولُهُ: (عَدَدَ كُلِّ شَيءٍ) حتَّى القَطرَ والرَّملَ، والله تعالى أعلمُ.

سُورَةُ الجِنّ

وتُسمَّى: «قل أوحِيَ إليَّ». وهي مكِّيَّة بالاتِّفاق، وآيها بلا خلاف ثمان وعشرون آيةً، ووجه اتِّصالها قال الجلال السيوطي[1]: فكَّرت فيه مدَّة، فلم يظهر لي سوى أنَّه سبحانه قال في سورة «نوح»: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ وقال عزَّ وجلَّ في هذه السورة لكفَّار مكَّة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ وهذا وجهٌ بيِّنٌ في الارتباط. انتهى. وفي قوله: لكفَّار مكَّة، شيءٌ ستعلمه إن شاء الله تعالى.

ويجوز أن يضمَّ إلى ذلك اشتمالُ هذه السورة على شيء ممَّا يتعلَّق بالسماء كالسورة السابقة، وذكر العذاب لمن يَعصي الله عزَّ وجلَّ في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣] فإنَّه يناسب قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [الآية: ٢٥] على وجه.

وقال أبو حيان[2] في ذلك: إنَّه تعالى لمَّا حكى تَمَاديَ قوم نوح في الكفر والعكوف على عبادة الأصنام، وكان أوَّلَ رسول إلى أهل الأرض كما أنَّ محمداً ﷺ آخرُ رسول إلى أهل الأرض، والعربُ الذين هو منهم ﷺ كانوا عبَّادَ أصنام كقوم نوح حتى إنَّهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء ـ أي: أو: عينها ـ وكان ما جاء به عليه الصلاة والسلام هادياً إلى الرشد وقد سمعته العربُ، وتوقَّف عن الإيمان به أكثرُهم، أنزل الله تعالى سورةَ «الجِنِّ» وجعلها إِثْر سورةِ «نوح»؛ تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان، وكانت الجن خيراً

---

(١) في تناسق الدرر ص٨٩.

(٢) في البحر المحيط ٨/ ٣٤٦.

منهم إذ أقبل للإيمان مَن أقبل منهم، وهم مِن غير جنس الرسول عليه الصلاة والسلام حتى كادوا يكونون عليه لبداً، ومع ذلك التباطؤ فهم مكذِّبون له ولِمَا جاء به؛ حسداً وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فقال عزَّ مِن قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة والعَتَكي عن أبي عمرو وجويَّة[1] بن عائذ الأسدي: «وُحِيَ» بلا همزة[2]، وهو بمعنى «أوحي» بالهمز، ومنه قول العجَّاج:

وَحَى لها القرارَ فاستقرَّت[3]

وقرأ زيد بنُ عليٍّ وجوية[4] - فيما روى عنه الكسائي - وابن أبي عبلة في رواية: «أُحِيَ» بإبدال واو «وُحِيَ» همزة[5]، كما قالوا في وُعِد أُعِد، قال الزمخشريُّ[6]: وهو من القلب المطلق جوازه في كلِّ واو مضمومة، وقد أطلقه المازنيُّ في المكسورة أيضاً كإشاح و«إعاء»[7] وإسادة. وهذا أحد قولين للمازني، والقول الآخر قَصْرُ ذلك على السماع، وما ذكره من إطلاق الجواز في المضمومة تُعقِّب بأنَّ المضمومة قد تكون أوَّلاً وحشواً وآخِراً، ولكلٍّ منها أحكام، وفي بعضها خلافٌ وتفصيلٌ مذكور في كتب النحو فليراجع.

وزاد بعض الأجلَّة: قَلْبَ الواو المضموم ما قبلها، فقال: إنَّه أيضاً مقيس مطَّرد، وأنَّه قد يَرِدُ ذلك في المفتوحة ك : [وَحَد و][8] أَحد.

---

(١) في الأصل و(م): جؤبة. والمثبت هو الصواب. ينظر توضيح المشتبه ٢/ ٥٠٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٢ عن ابن أبي عبلة.
(٣) ديوان العجاج ص٢٦١.
(٤) في الأصل و(م): جؤبة. والمثبت هو الصواب.
(٥) المحتسب ٢/ ٣٣١، والبحر ٨/ ٣٤٦.
(٦) الكشاف ٤/ ١٦٦.
(٧) وهي قراءة سعيد بن جبير كما في القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٤٨ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦].
(٨) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٤.

وعلى جميع القراآت الجارُّ متعلِّق بما عنده، ونائب الفاعل ﴿أَنَّهُ﴾ إلخ، على أنَّه في تأويل المصدر، والضمير للشأن.

﴿اسْتَمَعَ﴾ أي: القرآن، كما ذكر في «الأحقاف»[1]، وقد حُذف؛ لدلالة ما بعده عليه.

﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ النفر في المشهور: ما بين الثلاثة والعشرة. وقال الحريريُّ في «دُرَّته»[2]: إنَّ النَّفَرَ إنَّما يقع على الثلاثة من الرجال إلى العشرة. وقد وهم في ذلك فقد يُطلَق على ما فوق العشرة في الفصيح، وقد ذكره غيرُ واحد من أهل اللغة، وفي كلام الشعبي: حدَّثني بضعة عشر نفراً. ولا يختصُّ بالرجال بل ولا بالناس؛ لإطلاقه على الجنِّ هنا.

وفي «المجمل»: الرهط والنفر يستعمل إلى الأربعين[3]. والفرق بينهما أنَّ الرهطَ يرجعون إلى أبٍ واحد، بخلاف النفَر، وقد يُطلَق على القوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] وقول امرئ القيس:

فهو لا تَنْمي[4] رَمِيَّتُه ... ما لَه لا عُدَّ مِن نَفَرِه[5]

وقال الإمام الكرماني[6]: للنفر معنى آخَرُ في العُرف وهو الرجل. وأراد بالعُرف عرف اللغة؛ لأنَّه فسّر به الحديث الصحيح[7]، فليحفظ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الآية: ٢٩ وما بعدها].

(٢) درة الغواص ص٦٩.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٤، وفي مجمل اللغة للفارسي ٢/ ٤٠٢ أن الرهط يستعمل إلى الأربعين، ولم يذكر النفر.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): يقال: أنمى. أي: توارى. انتهى منه.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٢٥، والرميَّة: الصيد الذي ترميه فتصرعه، وقوله: لا تنمي رميته: أي: لا ترتفع من مكانها الذي أصابها فيه السهم؛ لحذق الرامي. وقوله: لا عُدَّ من نفره: دعاء عليه على وجه التعجب منه.

(٦) في شرحه على صحيح البخاري ٢/ ٢٥.

(٧) وهو ما أخرجه البخاري (٦٦) عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر...، الحديث. وهو عند مسلم (٢٦٩٩).

والجِنُّ: واحده: جِنِّيّ، كـ : روم ورومي، وهم أجسام عاقلة تغلب عليها النارِيَّة، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] وقيل: الهوائية، قابلةٌ جميعها أو صِنْف منها للتشكُّل بالأشكال المختلفة، من شأنها الخفاء، وقد تُرى بصور غيرِ صورها الأصليَّة، بل وبصورها الأصليَّة التي خُلقت عليها كالملائكة عليهم السلام، وهذا للأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليه ومَن شاء الله تعالى من خواصِّ عباده عزَّ وجلَّ، ولها قوَّة على الأعمال الشاقَّة، ولا مانع عقلاً من أن تكون بعضُ الأجسام اللطيفة الناريَّة مخالفةً لسائر أنواع الجسم اللطيف في الماهية، ولها قبول لإفاضة الحياة والقدرة على أفعال عجيبة مثلاً، وقد قال أهل الحكمة الجديدة بأجسام لطيفة أثبتوا لها من الخواصِّ ما يُبهر العقول، فلتكن أجسامُ الجِنِّ على ذلك النحو من الأجسام، وعالَمُ الطبيعة أوسعُ مِن أن تحيط بحصر ما أُودع فيه الأفهامُ.

وأكثر الفلاسفة على إنكار الجِنِّ، وفي رسالة «الحدود» لابن سينا: الجِنِّيُّ حيوان هوائي متشكِّل بأشكال مختلفة.

وهذا شرح الاسم، وظاهره نفي أن يكون لهذه الحقيقة وجودٌ في الخارج، ونفيُ ذلك كفرٌ صريح كما لا يخفى. واعترف جمع عظيم مِن قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيَّات بوجودهم ويسمُّونهم بالأرواح السفليَّة، والمشهور أنَّهم زعموا أنَّها جواهرُ قائمةٌ بأنفسها ليست أجساماً ولا جسمانيَّة، وهي أنواع مختلفة بالماهية، كاختلاف ماهيات الأعراض، فبعضها خيِّرة وبعضها شريرة، ولا يَعرِف عدد أنواعها وأصنافها إلا الله عزَّ وجلَّ، ولا يبعد على هذا أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقَّة عظيمة يَعجِزُ عنها البشر، بل لا يبعد أيضاً على ما قيل أن يكون لكلِّ نوع منها تعلُّق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم، ومن الناس مَن زعم أنَّ الأرواح البشريَّة والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها ازدادت قوَّة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانيَّة، فإذا اتفق حدوث بَدَن آخرَ مشابهٍ لِمَا كان لتلك النفس المفارقة مِن البدن، تعلَّقت تلك النفس به تعلُّقاً ما، وتصير كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن،

فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيِّرة سُمِّي ذلك المُعين مَلَكاً وتلك الإعانة إلهاماً، وإنِ اتفقت في النفوس الشريرة سُمِّي ذلك المُعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة. والكُلُّ مخالف لأقوال السلف وظاهرِ الآيات والأحاديث، وجمهورُ أرباب الملل معترفون بوجودهم كالمسلمين وإن اختلفوا في حقيقتهم، وتمام الكلام في هذا المقام يُطلَب من «آكام المرجان»، وفي «التفسير الكبير»[1] طَرَف ممَّا يتعلَّق بذلك فارجع إليه إن أردته.

واختلف في عدد المستمعين، فقيل: سبعة، فعن زِرّ: ثلاثة من أهل حرَّان، وأربعة من أهل نَصِيبين. قرية باليمن غير القرية التي بالعراق. وعن عكرمة أنَّهم كانوا اثني عشر ألفاً مِن جزيرة الموصل. وأين سبعة أو تسعة من اثني عشر ألفاً؟! ولعلَّ النَّفَرَ عِليَةُ القوم. وفي «الكشاف»[2]: كانوا مِن الشَّيْصَبَان، وهم أكثر الجِنِّ عدداً، وعامَّة جنود إبليس منهم.

والآية ظاهرة في أنَّه ﷺ عَلِمَ استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة، وقد وقع في الأحاديث أنَّه عليه الصلاة والسلام رآهم، وجُمع ذلك بتعدُّد القصَّة، قال في «آكام المرجان» ما محصله: في الصحيحين[3] في حديث ابن عباس: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجِنِّ ولا رآهم، وإنَّما انطلق بطائفة من الصحابة لسوق عُكَاظ، وقد حيل بين الجِنِّ والسماء بالشُّهب، فقالوا: ما ذاك إلا لشيء حدث، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربها، فمرَّ من ذهب لتهامة منهم به عليه الصلاة والسلام وهو يصلِّي الفجر بأصحابه بنخلة، فلما استمعوا له، قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين السماء، ورجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا.. إلخ، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ إلخ. ثم قال: ونفيُ ابنِ عباس إنَّما هو في هذه القصَّة، واستماعُهم تلاوته ﷺ في الفجر في هذه القصَّة لا مطلقاً، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلخ فإنَّها تدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام كلَّمهم ودعاهم وجعلهم رسلاً لمَن عَدَاهم، كما قاله البيهقيُّ.

---

(١) ٣٠/١٤٨ وما بعدها.

(٢) ٤/١٦٧.

(٣) صحيح البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩)، وسلف ٢٦/٣٠.

وروى أبو داود عن علقمة عن ابنِ مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «أتاني داعي الجِنِّ، فذهبتُ معه وقرأتُ عليهم القرآن»، قال: وانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. . إلخ[1]. وقد دلَّت الأحاديث على أنَّ وفادة الجِنِّ كانت ستَّ مرَّات. وقال ابنُ تيمية: إنَّ ابن عباس عَلِمَ ما دلَّ عليه القرآن ولم يَعلم ما علمه ابن مسعود وأبو هريرة من إتيان الجِنِّ له ﷺ ومكالمتهم إيّاه عليه الصلاة والسلام، وقصَّة الجِنِّ كانت قبل الهجرة بثلاث سنين. وقال الواقديُّ: كانت سنة إحدى عشرة من النبوَّة. وابن عباس نَاهزَ الحُلُم في حجَّة الوداع، فقد علمتَ أنَّ قصَّة الجِنِّ وقعت ستَّ مرات.

وفي «شرح البيهقي» من طرق شتّى عن ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى العشاء ثم انصرف، فأخذ بيدي حتى أتينا مكان كذا، فأجلسني وخطَّ عليَّ خطًّا، ثم قال: «لا تبرحنَّ خطَّك» فبينما أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنَّهم الزُّطُّ[2]، فذكر حديثاً طويلاً وأنَّه ﷺ ما جاءه إلى السَّحَر، قال: وجعلتُ أسمع الأصوات، ثم جاء عليه الصلاة والسلام، فقلت: أين كنتَ يا رسولَ الله؟ فقال: «أرسلتُ إلى الجِنِّ». فقلت: ما هذه الأصوات التي سمعتُ؟ قال: «هي أصواتهم حين ودَّعوني وسلَّموا عليَّ»[3]، وقد يجمع الاختلاف في القلَّة والكثرة؛ بأنَّ ذلك لتعدُّد القصَّة أيضاً، والله تعالى أعلم.

واختلف فيما استمعوه، فقال عكرمة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وقيل: سورة «الرحمن».

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي: لقومهم عند رجوعهم إليهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ أي: كتاباً مقروءاً، على ما فسَّره به بعض الأجلَّة، وفسّر بذلك للإشارة إلى أنَّ ما ذكروه في

---

(١) سنن أبي داود (٨٥) مختصراً، وهو بتمامه لكن عند أبي داود الطيالسي (٢٨١)، وسلف ٢٦/ ٣١.

(٢) الزُّطُّ: جيل من الهند، معرَّب: جَتّ، والقياس فتح معربه. القاموس (الزط).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي كما في نصب الراية ١/ ١٤٣، وأخرجه بنحوه ابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٩٦)، وهو عند الترمذي (٢٨٦١) في حديث طويل، لكن مقتصراً على طرفه الأول، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. اهـ. تنظر روايات الخبر في نصب الراية والكلام منقول من حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٤-٢٥٥.

وصفه ممَّا يأتي وصفٌ له كلِّه دون المقروء منه فقط، والمراد أنَّه مِن الكتب السماويَّة، والتنوين للتفخيم، أي: قرآناً جليلَ الشأن.

﴿عَجَبًا ۝١﴾ بديعاً مبايناً لكلام الناس في حُسْن النظم ودقَّة المعنى، وهو مصدر وصف به للمبالغة.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحقِّ والصواب، وقيل: إلى التوحيد والإيمان. وقرأ عيسى: «الرُّشُد» بضمتين، وعنه أيضاً فتحهما[1].

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بذلك القرآن مِن غير ريث.

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ حسبما نطق به ما فيه مِن دلائل التوحيد، أو حسبما نطق به الدلائل العقليَّة على التوحيد. ولم تعطف هذه الجملة بالفاء، قال الخفاجيُّ: لأنَّ نفيهم للإشراك إمَّا لِمَا قام عندهم من الدليل العقليِّ، فحينئذٍ لا يترتَّب على الإيمان بالقرآن، وإمَّا لِمَا سمعوه من القرآن فحينئذٍ يكفي في ترتُّبها عليه عطفُ الأوَّل بالفاء، خصوصاً والباء في «به» تحتمل السببيَّة فيعمُّ الإيمانُ به الإيمانَ بما فيه، فإنَّك إذا قلت: ضربته فتأدَّب وانقاد لي، فُهم ترتُّب الانقياد على الضَّرْب، ولو قلت: فانقادَ، لم يترتَّب على الأوَّل، بل على ما قبله. وقيل: عطفت بالواو لتفويض الترتُّب إلى ذهن السامع. وقد يقال: إنَّ مجموع «فآمنا به ولن نشرك» مسبّب عن مجموع: «إنا سمعنا» إلخ، فكونه قرآناً معجزاً يوجب الإيمانَ به، وكونه يهدي إلى الرشد يوجب قَلْع الشرك من أصله[2]. والأوَّل أولى، وجوّز أن يكون ضمير «به» لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ قوله سبحانه: «بربنا» يفسِّره، فلا تغفل.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اختلفوا قراءةً في «أنَّ» هذه وما بعدها إلى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ١٤] وتلك اثنتا عشرة: فقرأها ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وخَلَف وحفص بفتح الهمزة[3] فيهنَّ ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة: ما هنا، و«أنه كان

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٧.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٥.
(٣) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١.

يقول»، و«أنه كان رجال»، وقرأ الباقون بكسرها في الجميع، واتَّفقوا على الفتح في «أنَّه استمعَ»، و«أنَّ المساجدَ» لأنَّ ذلك لا يصحُّ أن يكون مِن قول الجِنِّ، بل هو ممَّا أُوحيَ، بخلاف الباقي فإنَّه يصحُّ أن يكون مِن قولهم وممَّا أُوحي[١]، واختلفوا في «أنه لمَّا قام» فقرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة والباقون بفتحها[٢]، كذا فصَّله بعضُ الأجلَّة، وهو المعوَّل عليه.

ووجه الكسر في «إنَّ» هذه وما بعدها إلى: «وإنَّا منَّا المسلمون» ظاهرٌ كالكسر في «إنَّا سمعنا قرآناً» لظهور عطف الجمل على المحكي بعد القول ووضوح اندراجها تحته، وأمَّا وجه الفتح ففيه خفاءٌ، ولذا اختُلف فيه، فقال الفرَّاء والزجَّاج والزَمَخْشَريُّ: هو العطف على محلِّ الجارِّ والمجرور في «آمنَّا به» كأنَّه قيل: صدَّقناه وصدَّقنا أنَّه تعالى جَدُّ ربِّنا وأنَّه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي[٣]، ويكفي في إظهار المحلِّ إظهارُه مع المرادف، وليس من العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارِّ ـ الممنوع عند البصريين ـ في شيء، وإن قيل به هنا بناءً على مذهب الكوفيين المجوِّزين له، ولو قيل: إنَّه بتقدير الجارِّ لاطِّراد حذفه قبل «أنَّ» و«أنْ» لكان سديداً، كما في «الكشف».

وضعَّف مكِّيّ العطفَ على ما في حيِّز «آمنا» فقال: فيه بُعْدٌ في المعنى؛ لأنَّهم لم يخبروا أنَّهم آمنوا بأنَّهم لمَّا سمعوا الهدى آمنوا به، ولا أنَّهم آمنوا بأنه كان رجالٌ، إنَّما حكى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم قالوا ذلك مخبرين عن أنفسِهم لأصحابهم[٤].

وأجيب عن الذاهبين إليه بأنَّ الإيمان والتصديق يَحسُن في بعض تلك المعطوفات بلا شبهة، فيمضي في البواقي ويُحمَل على المعنى، على حدِّ قوله:

وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعيونا[٥]

(١) النشر ٢/ ٣٩١.
(٢) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٥٥ والكلام منه.
(٣) الكشاف ٤/ ١٦٦ والكلام منه، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٩١، وللزجاج ٥/ ٢٣٤.
(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٦٣.
(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٦، والبيت سلف ٧/ ٧١.

فيُخرَّج على ما خرِّج عليه أمثاله، فيؤوَّل: صدَّقنا، بما يشمل الجميع، أو يقدَّر مع كلٍّ ما يناسبه.

وقال أبو حاتم: هو العطف على نائب فاعل: «أوحي» أعني «أنَّه استمع»، كما في «أنَّ المساجد» على أنَّ الموحى عينُ عبارة الجِنِّ بطريق الحكاية، كأنَّه قيل: قل أوحي إليَّ كيتَ وكيتَ وهذه العبارات. وتُعقِّب بأنَّ حكاية عباراتهم تقتضي أن تكون «أنَّ» في كلامهم مفتوحةَ الهمزة، ولا يظهر ذلك إلا أن يكون في كلامهم ما يقتضي الفتح كـ: اسمعوا، أو: اعلموا، أو: نخبركم، لكنَّه أسقط وقتَ الحكاية، ولا يظهر لإسقاطه وجه، وعلى تقدير الظهور فالفتح ليس لأجل العطف، فإنَّ النائبَ عن الفاعل عليه مجموعُ كلِّ جملة على إرادة اللفظ دون المنسبك مِن «أنَّ» وما بعدها، وإلَّا لما صحَّ أن يقال: الموحى كيت وكيت وهذه العبارات، فإنْ كانت «إنَّ» في كلامهم مكسورةَ الهمزة وصحَّت دعوى أنَّ الحكاية اقتضت فتحَها مع صحَّة إرادة هذه العبارات معه، فذاك، وإلا فالأمر كما ترى، فافهم وتأمَّل.

والجَدُّ: العظمة والجلال، يقال: جَدَّ في عيني، أي: عَظُمَ وَجَلَّ، أي: وصدَّقنا أنَّ الشأنَ ارتفع عظمةُ وجلال ربِّنا، أي: عظمت عظمته عزَّ وجلَّ، وفيه من المبالغة ما لا يَخفى. وقال أبو عبيدة والأخفش: المُلك والسلطان. وقيل: الغنى، وهو مرويٌّ عن أنس والحسن في الآية، والأوَّل مرويٌّ عن الجمهور.

والجَدُّ على جميع هذه الأوجه مستعارٌ من الجَدِّ الذي هو البَخْتُ، وقوله عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ عليها تفسيرٌ للجملة وبيانٌ لحكمها، ولذا لم يعطف عليها، فالمراد وصفه عزَّ وجلَّ بالتعالي عن الصاحبة والولد؛ لعظمته أو لسلطانه أو لغناه سبحانه وتعالى، وكأنَّهم سمعوا مِن القرآن ما نبَّههم على خطأ ما اعتقده كَفَرةُ الجِنِّ من تشبيهه سبحانه بخَلْقه في اتِّخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه ونزَّهوه تعالى عنه.

وقرأ حميد بن قيس: «جُدُّ» بضمِّ الجيم، قال في «البحر»: ومعناه: العظيم،

حكاه سيبويه، وإضافته إلى «ربِّنا» من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: تعالى ربُّنا العظيم[١].

وقرأ عكرمة: «جَدٌّ» منوَّناً مرفوعاً، «ربُّنا» بالرفع[٢]، وخُرِّج على أنَّ الجدَّ بمعنى العظيم أيضاً، و«ربُّنا» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّنا، أو بدل مِن «جدّ».

وقرأ أيضاً «جَدًّا» منوَّناً منصوباً على أنَّه تمييزٌ محوَّل عن الفاعل[٣].

وقرأ هو أيضاً وقتادة: «جِدّاً» بكسر الجيم والتنوين والنصب، «ربُّنا» بالرفع[٤]، قال ابنُ عطية[٥]: نصب «جدّاً» على الحال، والمعنى: تعالى ربُّنا حقيقةً ومتمكِّناً. وقال غيره: هو صفةٌ لمصدر محذوف، أي: تعالياً جدًّا.

وقرأ ابنُ السَّمَيْفَع: «جَدَى ربِّنا»[٦] أي: جَدواهُ ونفعه سبحانه، وكأنَّ المراد بذلك الغنى، فلا تغفل.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ هو إبليس عند الجمهور، وقيل: مَرَدةُ الجِنِّ، والإضافة للجنس، والمراد: سفهاؤنا.

﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بُعْد عن القصد ومجاوزة الحدِّ، أو هو في نفسه شطط؛ لفَرْط بُعده عن الحقِّ، وهو نسبة الصاحبة والولد إليه عزَّ وجلَّ، وتعلُّقُ الإيمان والتصديق بهذا القول ـ بناء على ما يقتضيه العطف على ما في حيِّز «فآمنا» ـ ليس باعتبار نفسه، فإنَّهم كانوا عالمين بقول سفيههم مِن قبل، بل باعتبار كونه شططاً، كأنَّه قيل: وصدَّقنا أنَّ ما كان يقول سفيهُنا في حقِّه سبحانه كان شططاً.

---

(١) البحر ٨/ ٣٤٧.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٧.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٧.
(٤) الكشاف ٤/ ١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٨
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩.
(٦) تفسير القرطبي ٢١/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٨.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم، أي: كنَّا نظنُّ أن لن يَكذبَ على الله تعالى أحدٌ فينسبَ إليه سبحانه الصاحبة والولد، ولذلك اعتقدنا صحَّة قول السفيه، ولعلَّ الإيمان متعلِّق بما يُشعر به كلامهم هذا وينساق إليه من خطئهم في ظنِّهم، كأنَّه قيل: وصدَّقنا بخطئنا في ظنِّنا الذي لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا.

و«كذباً» مصدر مؤكِّد لـ «تقول»؛ لأنَّه نوع من القول كما في: قعدت القرفصاء، أو: وصف لمصدر محذوف، أي: قولاً كذباً، أي: مكذوباً فيه؛ لأنَّه لا يتصوَّر صدور الكذب منه، وإن اشتهر توصيفه به كالقائل، وجوّز أن يكون من الوصف بالمصدر مبالغة، وهي راجعة للنفي دون المنفيِّ.

وقرأ الحسن والجحدري وعبد الرحمن بن أبي بكرة ويعقوب وابن مقسم: «تَقوَّلَ»[(١)] مضارع «تَقوَّلَ»، وأصله: تَتَقوَّلَ، بتاءين، فحذفت إحداهما، فـ «كذباً» مصدرٌ مؤكِّد، لأنَّ الكذب هو التقوُّل.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كان الرجل مِن العرب إذا أمسى في وادٍ قَفْر وخاف على نفسه، نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي أعوذ بكَ مِن السفهاء الذين في طاعتك. يريد الجِنَّ وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سِدْنا الجِنَّ والإنسَ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الرجال العائذون الجِنَّ ﴿رَهَقًا ۝٦﴾ أي: تكبُّراً وعُتُوّاً، فالضمير المرفوع لرجال الإنس، إذ هم المحدَّث عنهم، والمنصوب لرجال الجِنِّ، وهو قول مجاهد والنخعيِّ وعبيد بنِ عمير وجماعة. إلا أنَّ من فسَّر الرَّهَقَ بالإثم، وأنشد الطبريُّ لذلك قولَ الأعشى:

لا شيءَ ينفعني مِن دونِ رؤيتها ... لا يشتفي وامقٌ ما لم يُصِبْ رَهَقاً[(٢)]

فإنَّه أراد: ما لم يَغْشَ محرَّماً، فالمعنى هنا: فزادت الإنسُ الجِنَّ مأثماً؛ لأنَّهم عظَّموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى، أو: فزاد الجِنُّ العائذينَ غيّاً، بأن

(١) النشر ٢/ ٣٩٢ عن يعقوب، والقراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر ٨/ ٣٤٨ والكلام منه.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢٦، والبيت في ديوان الأعشى ص٤١٥، والوامق: المحبّ.

أضلُّوهم حتى استعاذوا بهم، فالضميران على عكس ما تقدَّم، وهو قول قتادة وأبي العالية والربيع وابنِ زيد. والفاء على الأوَّل للتعقيب، وعلى هذا؛ قيل: للترتيب الإخباري، وذهب الفرَّاء إلى أنَّ ما بعد الفاء قد يتقدَّم؛ إذا دلَّ عليه الدليل، كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] وجمهور النحاة على خلافه[١]. وقيل: في الكلام حذف، أي: فاتَّبعوهم فزادوهم.

والآية ظاهرة في أنَّ لفظ الرجال يُطلَق على ذكور الجِنِّ كما يطلق على ذكور الإنس. وقيل: لا يطلق على ذكور الجِنِّ، و«مِن الجن» في الآية متعلِّق بـ «يعوذون»، ومعناها: أنَّه كان رجال من الإنس يعوذون من شَرِّ الجِنِّ برجال من الإنس، وكان الرجل يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بنِ بدر مِن جِنِّ هذا الوادي. وهو قولٌ غريبٌ مخالفٌ لِمَا عليه الجمهورُ المؤيَّدِ بالآثار، ولعلَّ تعلُّق الإيمان بهذا باعتبار ما يُشعر به مِن كون ذلك ضلالاً موجباً لزيادة الرهق.

وقد جاء في بعض الأخبار ما يقال بدل هذه الاستعاذة، ففي حديث طويل أخرجه أبو نصر السجزيُّ في «الإبانة» من طريق مجاهد عن ابنِ عباس ـ وقال: غريبٌ جدّاً ـ أنَّه ﷺ قال: «إذا أصاب أحداً منكم وحشةٌ، أو نزل بأرض مجنَّة، فليقل: أعوذ بكلمات الله التامَّات التي لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجِر مِن شرِّ ما يَلِجُ في الأرض وما يَخرجُ منها، وما ينزل مِن السماء وما يَعرُج فيها، ومن فِتَن النهار، ومن طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير»[٢].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ أي: الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيُّها الجِنُّ، على أنَّه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ أي: من الرسل على أحد من العباد. وقيل: أن لن يبعثَ سبحانه أحداً بعد الموت. وأيّاً ما كان فالمراد: وقد أخطؤوا وأخطأتم، ولعلَّه متعلّق الإيمان. وقيل: المعنى: أنَّ الجِنَّ ظنُّوا كما ظننتم أيُّها الكفرة أن لن.. إلخ، فتكون هذه الآية من جملة الكلام الموحى به، معطوفة على قوله تعالى: «أنَّه استمع»، وعلى قراءة الكسر تكون استئنافاً من كلامه تعالى، وكذا

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٦.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧١-٢٧٢.

ما قبلها على ما قيل. وفي «الكشاف»[(١)]: قيل: الآيتان ـ يعني هذه وقوله تعالى: «وأنَّه كان رجال» إلخ ـ من جملة الموحى. وتَعقَّب ذلك في «الكشف» بأنَّ فيه ضعفاً؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلخ من كلام الجنِّ، أو ممَّا صدَّقوه، على القراءتين؛ لا[(٢)] مِن الموحى إليه فتخلَّل ما تخلَّل، وليس اعتراضاً غير جائز إلا أن يؤوَّل بأنَّه يجري مجراه؛ لكونه يؤكِّد ما حدَّث عنهم في تماديهم في الكفر أوَّلاً، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف. انتهى.

وأبو السعود[(٣)] اختار في جميع الجمل المصدَّرة بـ «أنَّا» العطفَ على «أنَّه استمع» على نحو ما سمعتَ عن أبي حاتم، وقد سمعتَ ما فيه آنفاً.

و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، اسمها ضميرُ الشأن، والجملة بعدها خبر، وجملة «أن لن يبعث» إلخ، قيل: سادَّة مسدَّ مفعولَي «ظنُّوا»، وجوّز أن تكون سادَّة مسدَّ مفعولَي «ظننتم»، ويكون السادُّ مسدَّ مفعولَي الأوَّل محذوفاً كما هو المختار في أمثال ذلك، ورجّح الأوَّل في الآية بأنَّ «ظنُّوا» هو المقصود فيها، فجعل المعمول المذكور له أحسن، وأمَّا «كما ظننتم» فمذكور بالتَّبع، ومنه يُعلَم أنَّ كون المختار إعمال الثاني في باب التنازع ليس على إطلاقه.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: طلبنا بلوغَها لاستماع كلام أهلها، أو: طلبنا خبرها.

واللمس قيل: مستعار من المَسِّ للطلب كالجَسِّ، يقول: لمَسَهُ والتمسَهُ وتلمَّسه، كطلبه واطَّلبه وتطلَّبه، والظاهر أنَّ الاستعارة هنا لغويَّة؛ لأنَّه مجاز مرسل لاستعماله في لازم معناه، و«السماء»[(٤)] على ظاهرها.

﴿فَوَجَدْنَـٰهَا﴾ أي: صادفناها وأصبناها، فـ «وجد» متعدٍّ لواحد، وقوله تعالى: ﴿مُلِئَتْ﴾ في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه، وإن كانت «وجد» من أفعال

(١) ٤/ ١٦٧.
(٢) في (م): لأن، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٥٧.
(٣) في تفسيره ٩/ ٤٤.
(٤) في (م): والسماع.

القلوب، فهذه الجملة في موضع المفعول الثاني. وقرأ الأعرج: «مُلِيَتْ» بالياء دون همز[(١)].

﴿حَرَسًا﴾ أي: حرَّاساً، اسم جمع كخَدَم، كما ذهب إليه جمع؛ لأنَّه على وزنٍ يغلبُ في المفردات كبَصَر وقَمَر، ولذا نسب إليه، فقيل: حَرَسِيّ. وذهب بعضٌ إلى أنَّه جمعٌ، والصحيح الأوَّل؛ ولذا وُصفَ بالمفرد فقيل: ﴿شَدِيدًا﴾ أي: قويّاً، ونحوُه قوله:

بَـنَـيْـتُـه بِـعُـصْـبـة مِـن مـالـيـا
أخـشـى رُجـيـلاً ورُكَـيْـبـاً عـاديـاً[(٢)]

ولو روعي معناه جُمع، بأن يقال: شِدَاداً، إلا أن يُنظَر لظاهر وزن فَعِيْل، فإنَّه يستوي فيه الواحد والجمع.

والمراد بالحَرَس: الملائكة عليهم السلام الذين يمنعونهم عن قُرْب السماء.

﴿وَشُهُبًا ۝٨﴾ جمع: شهاب، وقد مرَّ الكلام فيه. وجوَّز بعضهم أن يكون المراد بالحَرَس الشهبَ، والعطفُ مِثْلُه في قوله:

وهـنـدٌ أتـى مِـن دونـهـا الـنَّـأْيُ والـبُـعْـدُ[(٣)]

وهو خلافُ الظاهر.

ودخول «أنَّا لمسنا» إلخ في حيِّز الإيمان ـ وكذا أكثر الجمل الآتية ـ في غاية الخفاء، والظاهر تقدير نحو: نخبركم، فيما لا يظهر دخوله في ذلك، أو تأويل «آمنَّا» من أوَّل الأمر بما ينسحب على الجميع.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٩ وهي قراءة أبي جعفر كما في النشر ١/ ٣٩٦.
(٢) الرجز لأحيحة بن الجلاح، وهو في المنصف لابن جني ٢/ ١٠١، وشرح شواهد الإيضاح لابن بري ص٥٦٣، وشرح الشافية للأستراباذي ٢/ ٢٠٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٥/ ٧٧، وخزانة الأدب ٣/ ٣٥٩.
(٣) عجز بيت للحطيئة وهو في شرح ديوانه ص١٤٠، وصدره:
ألا حـبَّـذا هـنـد وأرض بـهـا هـنـد

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: مقاعد كائنة للسمع خالية عن الحَرَس والشُّهُب، أو: صالحة للترصُّد والاستماع، و«للسمع» متعلِّق بـ «نقعد» أي: لأجل السمع، أو بمضمرٍ هو صفةٌ لـ «مقاعد». وكيفيَّةُ قعودهم على ما قيل: ركوبُ بعضِهم فوق بعض، وروي في ذلك خبر مرفوع[(١)]، وقيل: لا مانع من أن يكون بعروج مَن شاء منهم بنفسه إلى حيث يسمع منه الكلام.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ قال في «شرح التسهيل»: «الآن» معناه هنا: القُرب مجازاً، فيصحُّ مع الماضي والمستقبل[(٢)]. وفي «البحر»[(٣)]: إنَّه ظرف زمان للحال، و«يستمع» مستقبل، فاتُّسع في الظرف واستعمل للاستقبال كما قال:

سأسعى الآن إذ بلغت أناها[(٤)]

فالمعنى: فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله يصدُّه عن الاستماع بالرَّجْم، فـ «رصدًا» صفة «شهاباً»، فإن كان مفرداً فالأمر ظاهر، وإن كان اسمَ جمع للراصد كحرس، فوَصْفُ المفرد به لأنَّ الشهاب لشدَّة مَنْعِه وإحراقه جُعل كأنَّه شهب، ونظير ذلك وصف المِعَى ـ وهو واحد الأمعاء ـ بجياع في قول القتامي:

كأنَّ قيود رجلي حين ضَمَّتْ ... حَوالب غُرَّزاً ومعًى جياعاً[(٥)]

---

(١) أخرج البخاري (٤٨٠٠) عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: إن نبيَّ الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، . . . فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفِّه فحرفها، وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة. . .» الحديث.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٧.

(٣) ٨/ ٣٤٩.

(٤) عجز بيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٧٧، وصدره:

فإني لست خاذلكم ولكن

وأناها: منتهاها.

(٥) سلف ١٦/ ٤٠٠.

وجوِّز كونُه مفعولاً به، أي: لأجل الرصد، وقيل: يجوز أن يكون اسمَ جمع صفة لما قبله، بتقدير: ذوي شهاب، فكأنَّه قيل: يجد له ذوي شهاب راصدين بالرجم، وهم الملائكة عليهم السلام الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع، وفيه بُعْدٌ.

وفي الآية ردٌّ على من زعم أنَّ الرجم حدث بعد مبعثِ رسولِ الله ﷺ وهو إحدى آياته عليه الصلاة والسلام حيث قيل فيها: «ملئت» وهو ـ كما قال الجاحظ[١] ـ ظاهرٌ في أنَّ الحادث هو الملْءُ والكثرة. وكذا قوله سبحانه: (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ) على ما في «الكشاف»[٢]، فكأنَّه قيل: كنَّا نجد فيها بعضَ المقاعد خاليةً من الحرس والشهب، والآن مُلِئَت المقاعد كلُّها، فمن يستمع.. إلخ، ويدلُّ على وجود الشهب قَبْلُ ذِكْرُها في شعر الجاهلية، قال بشر بنُ أبي خازم:

والعَيْرُ يُرهِقها الغبارُ وجَحْشُها ... يَنقضُّ خَلْفهما انقضاضَ الكوكبِ[٣]

وقال أوس بن حجر:

وانقضَّ كالدُّرِّيِّ يَتْبعه ... نَقْعٌ يثور تَخاله طُنُباً[٤]

وقال عوف بن الخَرع[٥] يصف فرساً:

يردُّ علينا العَيْرَ من دون إلفِهِ ... أو الثورَ كالدُّرِّيِّ يَتْبعه الدَّمُ[٦]

فإنَّ هؤلاء الشعراء كلَّهم كما قال التبريزيُّ: جاهليون ليس فيهم مخضرم[٧].

---

(١) ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤٩، وكلام الجاحظ في الحيوان ٦/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) ٤/ ١٦٨.

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم ص٨١، والكشاف ٤/ ١٦٨، وفيهما: الخَبَار، بدل: الغبار. والخَبَار: أرض لينة رخوة تسوخ فيها القوائم. شبَّه الجحش بالكوكب المنقضّ في سرعته وبياضه.

(٤) سلف ١٣/ ٤٢٦.

(٥) جاء في هامش الأصل: بالخاء معجمة، وراء يروى مفتوحة ومكسورة. انتهى منه.

(٦) الحيوان للجاحظ ٦/ ٢٧٥، والمعاني الكبير للدينوري ٢/ ٧٣٩، وورد في الحيوان: أنفه، بدل: إلفه.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٣٤٩.

وما رواه الزهريُّ، عن عليِّ بنِ الحسين ﵄، عن ابنِ عباس: بينما رسولُ الله ﷺ جالس في نَفَرٍ من الأنصار إذ رمي بنجم، فاستنار فقال: «ما كنتم تقولون في مثلِ هذا في الجاهلية». قالوا: كنَّا نقول: يموت عظيم، أو: يولد عظيم[1]. وروي عن معمر: قلت للزهريِّ: أكان يُرمَى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أرأيتَ قولَه تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾؟ فقال: غُلِّظت، وشُدِّد أمرُها حين بُعثَ النبيُّ ﷺ[2]. وكأنَّه أخذ ذلك من الآية أيضاً.

وقال بعضهم: إنَّ الرميَ لم يكن أوَّلاً، ثم حدث للمنع عن بعض السماوات، ثم كَثُرَ ومنع به الشياطين عن جميعها يوم تنبّأَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

وجوّز أن تكون الشهب مِن قَبْلُ لحوادث كونيَّة لا لمنع الشياطين أصلاً، والحادث بعد البعثة رميُ الشياطين بها على معنى أنَّهم إذا عَرجوا للاستماع رُمُوا بها، فلا يلزم أيضاً أن يكون كلّ ما يحدث من الشهب اليوم للرمي، بل يجوز أن يكون لأمور أُخَرَ بأسباب يعلمها الله تعالى، ويجاب بهذا عن حدوث الشهب في شهر رمضان مع ما جاء من أنَّه تُصفَّد مردةُ الشياطين فيه[3]، ولمن يقول: إنَّ الشهب لا تكون إلا للرمي، جواب آخر مذكور في موضعه.

وذِكْرُ وجدانهم المقاعد مملوءةً من الحراس ومنعِ الاستراقِ بالكليَّة، قيل: بيانٌ لِمَا حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسولِ الله ﷺ واستمعوا قراءَته عليه الصلاة والسلام، وقولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ أي: خيراً، كالتَّتمَّة لذلك، فالحامل في الحقيقة تغيُّر الحال عمَّا كانوا أَلِفوه، والاستشعارُ أنَّه لأمرٍ خطير، والتشوُّقُ إلى الإحاطة به خبراً.

ولا يخفى ما في قولهم: «أشرٌّ أُريدَ» إلخ من الأدب حيث لم يُصرِّحوا بنسبة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، وأحمد (١٨٨٢).

(٢) أورده البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) أخرج البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين».

الشَّرِّ إلى الله عزَّ وجلَّ كما صرَّحوا به في الخير، وإن كان فاعل الكُلِّ هو الله تعالى، ولقد جمعوا بين الأدب وحُسْن الاعتقاد.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم، المائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرةُ السليمة، لا إلى الشَّرِّ والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: قوم دون ذلك المذكور، ويطَّرد حذف الموصوف إذا كان بعضَ اسم مجرور بـ «من» مقدَّم عليه، والصفة ظرف ـ كما هنا ـ أو جملة، كما في قوله: منَّا أقام ومنَّا ظعن. وأرادوا بهؤلاء القوم: المقتصدين في صلاح الحال على الوجه السابق، لا في الإيمان والتقوى كما قيل، فإنَّ هذا بيانٌ لحالِهم قبل استماع القرآن كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ وأمَّا حالهم بعد استماعه فستُحكى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ إلخ [الآيتان: ١٣-١٤]. وجوَّز بعضهم كون «دون» بمعنى «غير»، فيكون «دون ذلك» شاملاً للشرير المحض. وأيّاً ما كان فجملة «كنَّا» إلخ تفسيرٌ للقسمة المتقدِّمة، لكن قيل: الأنسب عليه كون «دون» بمعنى «غير».

والكلام على حذف مضاف، أي: كنَّا ذوي طرائق، أي: مذاهب، أو: مثل طرائق في اختلاف الأحوال، أو: كانت طرائقنا طرائقَ قدداً، وكون هذا مِن تلقِّي الركبان لا يُلتفت إليه، وعدم اعتبار التشبيه البليغ ليستغنى عن تقدير مثل، قيل: لأنَّ المحلَّ ليس محلَّ المبالغة. وجوَّز الزمخشريُّ[1] كون «طرائق» منصوباً على الظرفيَّة بتقدير «في»، أي: كنَّا في طرائق، وتعقِّب بأنَّ الطريق اسمٌ خاصٌّ لموضع يُستَطرق فيه، فلا يقال للبيت أو المسجد: طريق، على الإطلاق، وإنَّما يقال: جعلت المسجد طريقاً، فلا ينتصب مثله على الظرفيَّة إلا في الضرورة، وقد نصَّ سيبويه على أنَّ قولَه:

...كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٦٩.

شاذٌّ(١)، فلا يُخرَّج القرآنُ الكريم على ذلك. وقال بعض النحاة: هو ظرف عامٌّ؛ لأنَّ كلَّ موضع يُستَطرَق: طريقٌ.

والقِدَد: المتفرِّقة المختلفةُ، قال الشاعر:

القابضُ الباسطُ الهادي بطاعتِه ... في فتنة الناس إذ أهواؤهم قِدَدُ(٢)

جمع: قِدَّة، مِن قَدَّ إذا قطع، كأنَّ كلَّ طريق لامتيازها مقطوعةٌ مِن غيرها.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: علمنا الآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي: أنَّ الشأنَ لن نُعجِز الله تعالى كائنين ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أينما كنَّا مِن أقطارها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ أي: هاربين منها إلى السماء، فالأرض محمولة على الجملة، ولمَّا كان «ولن» إلخ في مقابلة ما قَبلُ، لزم أن يكون الهربُ إلى السماء، وفيه تَرَقٍّ ومبالغة، كأنَّه قيل: لن نُعجِزَه سبحانه في الأرض ولا في السماء.

وجوّز أن لا ينظر إلى عموم ولا خصوص كما في: أرسلها العراك، ويجعل الفوت على قسمين أخذاً من لفظ الهرب، والمعنى: لن نُعجِزه سبحانه في الأرض إن أراد بنا أمراً، ولن نُعجِزه عزَّ وجلَّ هرباً إن طلبنا، وحاصله: إن طلبنا لم نَفُتْه، وإن هربنا لم نخلص منه سبحانه، وفائدة ذِكْر الأرض تصوير أنَّها مع هذه البسطة والعراضة ليس فيها مَنْجًى منه تعالى ولا مهرب؛ لشدَّة قدرته سبحانه، وزيادةِ تمكُّنه جلَّ وعلا، ونحوه قول القائل:

وإنَّكَ كالليل الذي هو مُدرِكي ... وإنْ خِلْتُ أنَّ المنتأى عنكَ واسِعُ(٣)

وقيل: فائدة ذِكْر الأرض تصوير تمكُّنهم عليها، وغاية بعدها عن محلِّ استوائه سبحانه وتعالى. وليس بذاك.

---

(١) الكتاب ١/ ٣٥-٣٦، وتمام البيت:

لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يعسل متنه ... فيه كما عسل الطريقَ الثعلب

وسلف ٩/ ٥١.

(٢) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٦٣.

(٣) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٨١.

وكون «في الأرض» و«هرباً» حالين كما أشرنا إليه هو الذي عليه الجمهور، وجوّز في «هرباً» كونه تمييزاً محوَّلاً عن الفاعل، أي: لن يُعجزه سبحانه هَربُنا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن الذي هو الهدى بعينه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مِن غير تَلَعْثم وتردُّد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله عزَّ وجلَّ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ جواب الشرط، ومِثْلُه من المنفي بـ «لا» يصحُّ فيه دخول الفاء وتَركُها، كما صرَّح به في «شرح التسهيل» إلا أنَّ الأحسن تَرْكُها، ولذا قدّر هاهنا مبتدأ لتكون الجملة اسميَّة، ولزومُ اقترانها بالفاء إذا وقعت جواباً، إلا فيما شذَّ من نحو:

مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشكرُها[(١)]

معلوم. وبعضهم أوجب التقدير؛ لزعمه عدم صحَّة دخول الفاء في ذلك، أي: فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ أي: نقصاً في الجزاء، وقال الراغب: البَخْس: نَقْصُ الشيءِ على سبيل الظلم[(٢)]. ﴿وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ أي: غشيان ذلَّة مِن قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] وأصله: مُطلَق الغشيان، وقال الراغب: رَهِقَه الأمرُ، أي: غَشِيَه بقَهْر[(٣)]. وفي «الأساس»: رهقه: دنا منه، وصبيٌّ مُراهق: مُدانٍ للحُلُم[(٤)]. وفي «النهاية»: يقال: رجل فيه رَهَق: إذا كان يَخِفُّ إلى الشَّرِّ ويغشاه[(٥)].

وحاصل المعنى: فلا يخاف أن يبخسَ حقّه ولا أن ترهقه ذلَّة، فالمصدر ـ أعني «بخساً» ـ مقدَّر باعتبار المفعول، وليس المعنى على أنَّ غيرَ المؤمن يُبْخَسُ حقّه، بل النظر إلى تأكيد ما ثبت له من الجزاء وتوفيره كملاً، وأما غيره فلا نصيبَ له فضلاً عن الكمال، وفيه أنَّ ما يُجزَى به غير المؤمن مبخوسٌ في نفسه، وبالنسبة إلى هذا الحقِّ فيه كلُّ البخس وإن لم يكن هناك بخس حقٍّ. كذا في «الكشف».

---

(١) وتمامه: والشَّرُّ بالشَّرِّ عند الله مِثْلان. وسلف ٦/ ١٥٢.
(٢) المفردات (بخس).
(٣) المفردات (رهق).
(٤) أساس البلاغة (رهق).
(٥) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (رهق).

أو: فلا يخاف بخساً ولا رهقاً؛ لأنَّه لم يبخس أحداً حقًّا ولا رهقه ظلماً، فلا يخاف جزاءهما، وليس من إضمار مضاف ـ أعني الجزاء ـ بل ذلك بيان لحاصل المعنى وأنَّ ما ذكر في نفسه مخوف، فإنَّه يصحُّ أن يقال: خفتُ الذنب، و: خفتُ جزاءَه؛ لأنَّ ما يتولَّد منه المحذورُ محذورٌ، وفيه دلالة على أنَّ المؤمن لاجتنابه البخس والرهق لا يخافهما، فإنَّ عدمَ الخوف من المحذور، إنَّما يكون لانتفاء المحذور، وجاز أن يُحمَل على الإضمار، وأصل الكلام: فمن لا يبخسُ أحداً ولا يرهق ظلمه، فلا يخاف جزاءهما، فوضع ما في النظم الجليل موضعه؛ تنبيهاً بالسبب على المسبّب. والأوَّل كما قيل أظهر وأقرب مأخذاً.

وأخرج ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابنِ عباس أنَّه قال في الآية: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادةً في سيئاته[1]. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال: «فلا يخاف بخساً»: ظلماً، بأن يُظلَمَ من حسناته فينتقصَ منها شيء، «ولا رهقاً»: ولا أن يُحمَل عليه ذنبُ غيره. وأخرج نحوه عن الحسن. ولعلَّ المعنى الأوَّل أنسبُ بالترغيب بالإيمان وبلفظ الرهق أيضاً، نظراً إلى ما سمعت مِن قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

وقرأ ابنُ وثاب والأعمش: «فلا يَخَفْ» بالجزم[2] على أن «لا» ناهية لا نافية؛ لأنَّ الجوابَ المقترن بالفاء لا يصحُّ جزمه. وقيل: الفاء زائدة، و«لا» للنفي، وليس بشيء، وأيًّا ما كان فالقراءة الأولى أدلُّ على تحقُّق أنَّ المؤمن ناجٍ لا محالةَ، وأنَّه هو المختصُّ بذلك دون غيره، وذلك لتقدير «هو» عليها، وبناء الفعل عليه نحو: هو عرف، ويجتمع فيه التقوّي والاختصاص إذا اقتضاهما المقام.

وقرأ ابن وثاب: «بَخَساً» بفتح الخاء المعجمة[3].

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحقِّ الذي هو الإيمان والطاعة، يقال: قَسَطَ الرجلُ: إذا جار، وأنشدوا:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٤، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٣٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٠.

قـومٌ هـمُ قـتـلـوا ابـنَ هـنـدٍ عَـنْـوةً عَـمْراً وهـم قَسَطُوا على النعمانِ[١]

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ﴾ الإشارة إلى مَن أسلم، والجمع باعتبار المعنى ﴿تَحَرَّوْا﴾ توخَّوا وقصدوا ﴿رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ عظيماً بلَّغهم إلى الدار للثواب، وقرأ الأعرج: «رُشْداً» بضمِّ الراء وسكون الشين[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن سَنَن الإسلام ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ تُوقَد بهم كما تُوقَد بكفرة الإنس، واستُظْهِر أنَّ «فمن أسلم» إلخ مِن كلام الجِنِّ. وقال ابنُ عطيَّة: الوجه أن يكون مخاطبةً من الله تعالى لنبيِّه ﷺ، ويؤيِّده ما بعد مِن الآيات[٣]. وفي «الكشاف»: زعم مَن لا يرى للجِنِّ ثواباً أنَّ الله تعالى أَوعدَ قاسطيهم وما وعد مسلميهم، وكفى به وعداً أنْ قال سبحانه: (فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) فذكر سببَ الثواب، والله عزَّ وجلَّ أعدل مِن أن يعاقب القاسطَ ولا يثيبَ الراشد[٤]. وهو ظاهر في أنَّه مِن كلامه عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ إلخ معطوف قطعاً على قوله سبحانه: «أنَّه استمعَ» ولا يضرُّ تقدُّم المعطوف على غيره على القول به؛ لظهور الحال وعدم الالتباس، و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقرأ الأعمش وابن وثاب بضمِّ واو «لو»[٥].

والمعنى: وأوحيَ إليَّ أنَّ الشأن لو استقام الإنس والجِنُّ أو كلاهما ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ التي هي ملَّة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي: كثيراً، وقرأ عاصم في رواية الأعمش بكسر الدال[٦]، والمراد: لوسَّعنا عليهم الرزقَ، وتخصيص الماء

(١) البيت للفرزدق، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٥، والأغاني ١١/ ٥٤، والخزانة ٦/ ٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٠.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢.
(٤) الكشاف ٤/ ١٦٩.
(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣، والمحتسب ٢/ ٣٣٣.
(٦) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٢، وورد في مطبوعهما: الأعشى، بدل: الأعمش.

الغَدَق بالذِّكْر؛ لأنَّه أصلُ المعاش، وكثرته أصل السعة، فقد قيل: المالُ حيث الماء، ولعزَّة وجوده بين العرب.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي: لنختبرهم كيف يشكرونه، أي: لنعاملهم معاملةَ المختبر، وقيل: لو استقام الجِنُّ على الطريقة المثلى، أي: لو ثبت أبوهم الجانُّ على ما كان عليه مِن عبادة الله تعالى وطاعته سبحانه ولم يتكبَّر عن السجود لآدمَ ولم يَكفُر وتَبعَه ولدُه على الإسلام، لأنعمنا عليهم ووسَّعنا رزقهم لنختبرهم، ويجوز على هذا رجوع الضمير إلى «القاسطين» وهو المرويُّ عن ابنِ عباس وقتادة ومجاهد وابن جبير، واعتبار المثلى، قيل: لأنَّ التعريف للعهد، والمعهود طريقة الجِنِّ المفضلة على غيرها، وقيل: لأنَّ جعلها طريقةً وما عداها ليس بطريقة يُفهَم منه كونها مفضَّلة.

وقيل: المعنى أنَّه لو استقام الجِنُّ على طريقتهم - وهي الكفر - ولم يُسلِموا باستماع القرآن لوسَّعنا عليهم الرزق استدراجاً لنوقعهم في الفتنة ونعذِّبهم في كفران النعمة. وروي نحو هذا عن الضَّحَّاك والربيع بنِ أنس وزيد بنِ أسلم وأبي مجلز، بَيْدَ أنَّهم أعادوا الضمير على مَن أسلم، وقالوا: أي: لو كفر مَن أسلم من الناس لأسقيناهم.. إلخ، وهو مخالف للظاهر؛ لاستعمال الاستقامة على الطريقة في الاستقامةِ على الكفر وكون النعمة المذكورة استدراجاً مِن غير قرينة عليه مع أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ﴾ [الأعراف:٩٦] إلخ يؤيِّد الأوَّل. وزعم الطيبي أنَّ التذييل بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ إلخ ينصر ما قيل، قال: لأنَّه توكيد لمضمون السابق مِن الوعيد، أي: لنستدرجهم فيتَّبعوا الشهواتِ التي هي موجبة للبَطَر والإعراض عن ذِكْر الله تعالى، وفيه نظر.

والذِّكْر مصدر مضاف لمفعوله تُجُوِّز به عن العبادة، أو هو بمعنى التذكير مضاف لفاعله، ويفسَّر بالموعظة. وقال بعضهم: المراد بالذِّكْر الوحي، أي: ومَن يُعرِض عن عبادة ربِّه تعالى، أو: عن موعظته سبحانه، أو: عن وحيه عزَّ وجلَّ.

﴿يَسْلُكْهُ﴾ مضمَّن معنى: ندخله، ولذا تعدَّى إلى المفعول الثاني، أعني: قوله تعالى: ﴿عَذَابًا صَعَدًا ١٧﴾ بنفسه دون «في»، أو هو من باب الحذف

والإيصال. والصَّعَد مصدر وصف به مبالغة أو تأويلاً، أي: ندخله عذاباً يَعلو المعذَّب ويغلبه، وفسِّر بشَاقٍّ، يقال: فلان في صَعَد مِن أمره، أي: في مشقَّة، ومنه قول عمر رضي الله عنه: ما تَصعَّدني شيءٌ كما تَصعَّدني خطبةُ النكاح. أي: ما يشقُّ عليَّ[١]، وكأنَّه إنَّما قال ذلك؛ لأنَّه كان مِن عادتهم أن يذكروا جميعَ ما كان في الخاطب من الأوصاف الموروثة والمكتسبة، فكان يشقُّ عليه ارتجالاً، أو كان يشقُّ أن يقول الصدقَ في وجه الخاطب وعشيرتِه، وقيل: إنَّما شَقَّ مِن الوجوه ونَظَرِ بعضهم إلى بعض.

وقال أبو سعيد الخدري وابن عباس: صَعَد: جبلٌ في النار. قال الخدريُّ: كلَّما وضعوا أيديهم عليه ذابت. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدرَ[٢] إلى جهنم. فعلى هذا قال أبو حيَّان: يجوز أن يكون بدلاً مِن عذاب، على حذف مضاف، أي: عذاب صعد، ويجوز أن يكون مفعولَ «نسلكه»، و«عذاباً» مفعول من أجله[٣].

وقرأ الكوفيون: «يسلكه» بالياء وباقي السبعة بالنون[٤]، وابن جندب بالنون مِن أَسْلَكَ[٥]، وبعض التابعين بالياء كذلك[٦]، وهما لغتان: سَلَكَ وأَسْلَكَ، قال الشاعر يصف جيشاً مهزومين:

حتى إذا أَسلكُوهم في قُتَائِدةٍ[٧] شَلًّا كما تَطْرُدُ الجمَّالةُ الشُّرُدا[٨]

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢، وورد فيه هكذا: ما يتصعد بي شيء كما يتصعد في خطبة النكاح.
(٢) في(م): جدر.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.
(٤) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢.
(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢ وما بعده منه أيضاً.
(٧) جاء في هامش الأصل و(م): قتائدة: ثنيَّة معروفة. انتهى منه.
(٨) البيت في ديوان الهذليين ٢/ ٤٢، وأدب الكاتب ص٤٣٤، وخزانة الأدب ٣/ ١٧٠، ١٧٤ (دار صادر) منسوب لعبد مناف بن ربع الهذلي. والشَّل: الطرد. والشُّرُد: الإبل التي تفرُّ من الشيء إذا رأته.

وقرأ قوم: «صُعُداً» بضمَّتين[1]، وابن عباس والحسن: بضمِّ الصاد وفتح العين[2]. قال الحسن: معناه: لا راحةَ فيه.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطف على «أنَّه استمع» فهو من جملة الموحى، والظاهر أنَّ المراد بالمساجد المواضعُ المعدَّة للصلاة والعبادة، أي: وأوحيَ إليَّ أنَّ المساجد مختصَّة بالله تعالى شأنه ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ أي: فلا تعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ غيره سبحانه. وقال الحسن: المراد كلُّ موضع سُجدَ فيه مِن الأرض، سواء أُعدَّ لذلك أم لا، إذ الأرض كلُّها مسجدٌ لهذه الأمَّة. وكأنَّه أخذ ذلك ممَّا في الحديث الصحيح: «جُعلت ليَ الأرض مسجداً وطهوراً»[3]، واشتهر أنَّ هذا من خصائص نبيِّنا ﷺ، أي: شريعته، فيكون له ولأمته عليه الصلاة والسلام، وكان مِن قَبْلُ إنَّما تباح لهم الصلاة في البِيَع والكنائس. واستُشكل بأنَّ عيسى عليه السلام كان يُكثِر السياحةَ، وغيره من الأنبياء عليهم السلام يسافرون، فإذا لم تَجز لهم الصلاةُ في غيرِ ما ذُكر، لزم تَرْكُ الصلاة في كثير مِن الأوقات، وهو بعيدٌ لا سيما في الخَضِر عليه السلام، ولذا قيل: المخصوص كونها مسجداً وطهوراً، أي: المجموع، ويكفي في اختصاصه اختصاص التيمُّم. وأُجيب بأنَّ المرادَ الاختصاصُ بالنسبة إلى الأمم السالفة دون أنبيائها عليهم السلام، والخَضِر إن كان حيًّا اليوم فهو من هذه الأمَّة سواء كان نبيًّا أم لا؛ لخبر: «لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتِّباعي»[4]، وحكمه قَبْلَه نَبِيًّا ظاهر، والأمر فيه غير نبيٍّ سهل.

وقيل: المراد بها المسجد الحرام، أي: الكعبة نفسُها، أو الحرم كلُّه على ما قيل، والجمع لأنَّ كلَّ ناحية منه مسجدٌ له قِبْلة مخصوصة، أو لأنَّه لمَّا كان قِبْلةَ المساجد ـ فإنَّ كلَّ قِبلة متوجِّهة نحوه ـ جُعل كأنَّه جميعُ المساجد مجازاً.

وقيل: المراد هو وبيتُ المقدس، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ عباس: لم

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.

(٢) جاء في هامش الأصل: أي: طرداً. انتهى منه. والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.

(٣) سلف ٢/ ٤٠٣.

(٤) سلف ٢/ ١٤٢.

يكن يوم نزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ إلخ في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس[١]. وأَمْرُ الجمع عليه أظهرُ منه على الأوَّل، إلا أنَّه كالأوَّل خلافُ الظاهر، وما ذكر لا يتمُّ دليلاً له.

وقال ابن عطاء وابن جبير والزجَّاج والفرَّاء[٢]: المراد بها الأعضاء السبعة التي يُسجَد عليها، واحدها: مَسْجَد ـ بفتح الجيم ـ وهي القدمان والرُّكبتان والكفَّان والوجه، أي: الجبهة والأنف، وروي أنَّ المعتصم سأل أبا جعفر محمد بنَ عليِّ بنِ موسى الكاظم ﵃ عن ذلك، فأجاب بما ذكر[٣].

وقيل: السجدات، على أنَّ المسجَد ـ بفتح الجيم ـ مصدر ميميٌّ.

ونقل عن الخليل بنِ أحمد أنَّ قولَه تعالى: «وأنَّ المساجدَ» بتقدير لام التعليل، وهو متعلِّق بما بَعْدُ، و«المساجد» بمعناها المعروف، أي: لأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، ولمَّا لم تكن الفاء في جواب شرط محقَّق كانت في الحقيقة زائدة، فلا يمتنع تقديمُ معمولِ ما بعدها عليها، نعم قال غير واحد: جِيءَ بها لتضمُّن الكلام معنى الشرط، والمعنى: إنَّ الله تعالى يُحبُّ أن يُوحَّد ولا يُشرِكَ به أحدٌ، فإن لم توحِّدوه في سائر المواضع، فلا تدعوا معه أحداً في المساجد؛ لأنَّ المساجد له سبحانه مختصَّة به عزَّ وجلَّ، فالإشراك فيها أقبحُ وأقبح، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ [قريش: ١-٣] على وجهٍ، ولا يُعدُّ ذلك من الشرط المحقَّق، ويندفع بما ذكر لزوم جعل الفاء لغواً؛ لأنَّها للسببيَّة، ومعناها مستفاد من اللام المقدَّرة، وقيل في دفعه أيضاً: إنها تأكيدٌ للَّام أو زائدة جِيءَ بها للإشعار بمعناها، وأنَّها مقدَّرة.

والخطاب في «تدعوا» قيل: للجنِّ، وأُيِّد بما روي عن ابنِ جبير قال: إنَّ الجنَّ قالوا: يا رسول الله، كيف نشهدُ الصلاةَ معك على نَأْينا عنك؟ فنزلت الآية ليخاطبهم، على معنى: إنَّ عبادتكم حيث كانت مقبولةٌ إذا لم تُشركوا فيها.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٦، وللفراء ٣/ ١٩٤.

(٣) مجمع البيان ٢٩/ ٨٥.

وقيل: هو خطاب عامٌّ، وعن قتادة: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله عزَّ وجلَّ، فأُمرنا أن نُخلِص لله تعالى الدعوةَ إذا دخلنا المساجد. يعني بهذه الآية. وعن ابنِ جريج بدل: فأُمرنا.. إلخ: فأمرهم أن يُوحِّدوه. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بذلك أيضاً.

وقرأ ـ كما في «البحر»(١) ـ ابنُ هرمز وطلحة: «وإِنَّ المساجدَ» بكسر همزة «إنَّ»، وحمل ذلك على الاستئناف.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة عند الجمهور على أنَّه عطف على «أنَّه استمع» كالذي قبله، فهو من كلامه تعالى، أي: وأوحيَ إليَّ أنَّ الشان ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: النبيُّ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من «عبد»، أي: لما قام عابداً له عزَّ وجلَّ، وذلك قيامه عليه الصلاة والسلام لصلاة الفجر بنخلة كما مرَّ.

﴿كَادُواْ﴾ أي: الجِنُّ، كما قال ابن عباس والضَّحَّاك ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ متراكمين مِن ازدحامهم عليه تعجُّباً ممَّا شاهدوا مِن عبادته وسمعوا مِن قراءته، واقتداءِ أصحابه به، قياماً وركوعاً وسجوداً؛ لأنَّهم رَأَوا ما لم يَرَوا مِثْلَه، وسمعوا ما لم يسمعوا نظيره، وهذا كالظاهر في أنَّهم كانوا كثيرين لا تسعةً ونحوها.

وإيراده عليه الصلاة والسلام بلفظ العبد دون لفظ النبيِّ أو الرسول أو الضمير؛ إمَّا لأنَّه مقول على لسانه ﷺ، لأنَّه أُمِرَ أن يقولَ: أُوحي كذا، فجيء به على ما يقتضيه مقامُ العبودية والتواضع، أو لأنَّه تعالى عدل عن ذلك تنبيهاً على أنَّ العبادة مِن العبد لا تستبعد، ونقل عليه الصلاة والسلام كلامَه سبحانه كما هو رفعاً لنفسه عن البَيْن، فلا وجود للأثر بعد العين، وحيث كان هذا العدول منه جلَّ وعلا إمَّا لكذا أو لكذا، لا أنَّه تصرُّف مِن رسول الله ﷺ، لم يمتنع كما قال بعض الأجلَّة الجمع بين الحُسْنَيين.

وقال الحسن وقتادة: ضمير «كادوا» لكفَّار قريش والعرب، فيراد بالقيام القيام بالرسالة، وبالتلبُّد التلبُّد للعداوة، والمعنى: وأنَّه لما قام عبدُ الله بالرسالة يَدعو الله

---

(١) ٨/ ٣٥٢، وينظر إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٤٢٢.

تعالى وحدَه ويَذَرُ ما كانوا يدعون مِن دونه كادوا لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمونَ عليه متراكمين. وجوّز أن يكون الضمير على هذا للجِنّ والإنس، وعن قتادة أيضاً ما يقتضيه، قال: تلبَّدت الإنس والجِنُّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله تعالى إلا أن ينصرَه ويُظهِره على مَن نَاوَأه.

وفي «البحر»(١) أَبْعَدَ مَن قال: عبد الله هنا نوحٌ عليه السلام، كاد قومُه يقتلونه حتى استنقذَه اللهُ تعالى منهم. قاله الحسن، وأبعدُ منه قولُ مَن قال: إنَّه عبد الله بنُ سلام. اهـ.

ولعمري إنَّه لا ينبغي القول بذلك، ولا أظنُّ له صحَّة بوجهٍ من الوجوه. وقرأ نافع وأبو بكر ـ كما قدَّمنا ـ وابنُ هرمز وطلحة كما في «البحر»: «وإنَّه» بكسر الهمزة(٢)، وحُملَ على أنَّ الجملة استئنافية مِن كلامه عزَّ وجلَّ، وجوّز أن تكون من كلام الجِنِّ معطوفة على جملة: «إنَّا سمعنا» حكوا فيها لقومهم لمَّا رجعوا إليهم ما رَأوا مِن صلاته ﷺ وازدحامِ أصحابه عليه في ائْتِمامهم به، وحكي ذلك عن ابنِ جبير، وجوّز نحو هذا على قراءة الفتح بناءً على ما سمعتَ عن أبي حاتم، أو بتقدير: ونخبركم بأنَّه، أو نحوه.

هذا وفي «الكشف»: الوجه على تقدير أن يكون «وأنَّ المساجدَ» من جملة الموحى، أن يكون «فلا تدعوا» خطاباً للجِنِّ محكيًّا، إن جعل قوله تعالى: «وإنَّه لما قام» على قراءة الكسر من مقول الجِنِّ؛ لئلا ينفكَّ النظم لو جُعل ابتداءَ قصَّةٍ ووحياً آخَر منقطعاً عن حكاية الجِنِّ، وكذلك لو جعل ضمير «كادوا» للجِنِّ على قراءة الفتح أيضاً، والأصل: أنَّ المساجدَ لله فلا تدعوا أيُّها الجِنُّ مع الله أحداً، فقيل: قل يا محمد لمشركي مكَّة: أُوحيَ إليَّ كذا. وإذا كان كذلك فيجيءُ في ضمن الحكاية إثبات هذا الحكم بالنسبة إلى المخاطبين أيضاً لاتِّحاد العلَّة، وأما لو جعل خطاباً عامًّا فالوجه أن يكون ضمير «كادوا» راجعاً إلى المشركين أو إلى الجِنِّ والإنس، وأن يكون على قراءة الكسر جملةً استئنافيَّة ابتداءَ قصَّةٍ منه جلَّ شأنه في

---

(١) ٨/ ٣٥٣.
(٢) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٢، والكلام منه.

الإخبار عن حالِ رسول الله ﷺ، وهو تمهيد لما يأتي مِن بَعْدُ وتوكيدٌ لما ذكر مِن قبل، فكأنَّه قيل: قل لمشركي مكَّة ما كان من حديث الجِنِّ وإيمانِ بعضهم وكفرِ آخرين منهم؛ ليكون حكايةُ ذلك لطفاً لهم في الانتهاء عمَّا كانوا فيه، وحثًّا على الإيمان، ثم قيل: وأنَّه لما قام عبدُ الله يَدعوه ويوحِّده كاد الفريقان من كفرة الجِنِّ والإنس يكونون عليه لِبَداً دلالة على عدم ارتداعهم مع هذه الدلائل الباهرة والآيات النيِّرة، وما أحسن التقابل بين قوله تعالى: «وأنَّ المساجدَ» وبين هذا القول، كأنَّهم نُهُوا كلُّهم عن الإشراك ودُعُوا إلى التوحيد، فقابلوا ذلك بعداوة مَن يوحِّد الله سبحانه ويَدعوه، ولم يَرضَوا بالإباء وحده. وهذا من خواصِّ الكتاب الكريم وبديعِ أسلوبه إذا أخَذَ في قصَّة غبَّ قصَّة جعلهما متناصفتين فيما سِيق له الكلام، وزاد عليه التآخي بينهما في تناسب خاتمة الأولى وفاتحةِ الثانية، ولعلَّ هذا الوجه مِن الوجاهة بمكان.

وأمَّا لو فسِّر بما حكي عن الخليل: ولأنَّ المساجدَ لله فلا تدعوا.. إلخ، فالوجه أن يكون استطراداً ذكر عقيب وعيد المُعرِض، والحمل على هذا على الأعضاء السبعة أظهرُ؛ لأنَّ فيه تذكيراً لكونه تعالى المنعِم[1] بها عليهم، وتنبيهاً على أنَّ الحكمة في خَلْقها خدمةُ المعبود من حيث العدولُ عن لفظ الأعضاء وأسمائها الخاصَّة إلى «المساجد»، ودلالةً على أنَّ ذلك ينافي الإشراك، وحينئذٍ لا يبقى إشكال في ارتباط ما بعده بما قبله على القراءتين والأوجه، والله تعالى أعلم. اهـ. فتأمَّل.

واللِّبَد بكسر اللام وفتح الباء ـ كما قرأ الجمهور ـ جمع: لِبْدَة ـ بالكسر ـ نحو كِسْرة وكِسَر: وهي الجماعات شُبِّهت بالشيء المتلبِّد بعضه فوق بعض، ويقال للجراد، ومنه ـ كما قال الجبائيُّ ـ قولُ عبد مناف بن رِبْع الهُذَليِّ:

صافوا بستَّةِ أبياتٍ وأربعةٍ حتَّى كأنَّ عليهم جابياً لبداً[2]

---

(١) تحرفت في (م) إلى: المنع.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٤٠ بلفظ: صابوا، بدل: صافوا، ومعنى صابوا: وقعوا. والجابي: الجراد. اللِّبَد: المتراكب بعضه على بعض.

وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر ـ بخلاف عنه ـ: «لُبَداً» بضمِّ اللام(١)، جمع لُبْدة، كزُبْرَة وزُبَر. وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضمُّ اللام(٢).

وقرأ الحسن والجحدريُّ وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو: بضمَّتين(٣)، جمع لَبْد كرَهْن ورُهُن، أو جمع لَبُود كصَبُور وصُبُر.

وقرأ الحسن والجحدري أيضاً بخلاف عنهما: «لُبَّداً» بضمِّ اللام وتشديد الباء(٤)، جمع: لابِد، وأبو رجاء: بكسرها وشدِّ الباء المفتوحة(٥).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾ أعبد ﴿رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ في العبادة ﴿أَحَدًا ۝٢٠﴾ فليس ذلك بِبِدْعٍ ولا مُستنكَر يوجب التعجُّب أو الإطباق على عداوتي.

وقرأ الأكثرون: «قال»(٦) على أنَّه حكاية منه تعالى لقوله ﷺ للمتراكمين عليه، أو حكاية من الجِنِّ له عند رجوعهم إلى قومهم، فلا تغفل.

وقراءة الأَمْرِ ـ وهي قراءة عاصم وحمزة وأبي عمرو بخلاف عنه(٧) ـ أظهرُ وأوفق لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾ أي: ولا نفعاً، تعبيراً باسم السبب عن المسبَّب، والمعنى: لا أستطيع أن أضرَّكم ولا أنفعكم، إنَّما الضارُّ والنافع هو الله عزَّ وجلَّ. أو: لا أَملكُ لكم غَيًّا ولا رَشَداً، على أنَّ الضَّرَّ مرادٌ به الغَيُّ تعبير باسم المسبَّب(٨) عن السبب، ويدلُّ عليه قراءةُ أُبَيٍّ:

---

(١) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢ عن هشام، والكلام من البحر ٨/ ٣٥٣.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والكلام منه، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٣ عن مجاهد.
(٤) القراءات الشاذة ص١٦٣، والمحتسب ٢/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤، والدر المصون ١٠/ ٤٩٩ وقال: وهي غريبة جدًّا.
(٦) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢ عن أبي عمرو وابن عامر ونافع وابن كثير والكسائي وخلف ويعقوب.
(٧) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩٢ عن أبي جعفر وعاصم وحمزة، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣ والكلام منه.
(٨) في (م): السبب.

«غيًّا» بدل «ضرًّا»[(١)]، والمعنى: لا أستطيع أن أقسركم على الغَيِّ والرّشد، إنَّما القادرُ على ذلك هو الله سبحانه وتعالى. وجوّز أن يكون في الآية الاحتباك، والأصل: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ولا غيًّا ولا رَشَداً، فتُرك مِن كلا المتقابلين ما ذُكرَ في الآخر.

وقرأ الأعرج: «رُشُداً» بضمَّتين[(٢)].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أرادني سبحانه بسوء ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: معدلاً ومنحرفاً. وقال الكلبيُّ: مدخلاً في الأرض. وقال السُّدِّيُّ: حِرْزاً. وأصله المدخلُ مِن اللَّحد، والمراد ملجأ يركنُ إليه، وأنشدوا:

يا لهف نفسي ونفسي غيرُ مجديةٍ   عنِّي وما مِن قضاء الله مُلْتَحدُ[(٣)]

وجوَّز فيه الراغب[(٤)] كونه اسمَ مكان وكونه مصدراً.

وهذا على ما قيل: بيانٌ لعَجْزه عليه الصلاة والسلام عن شؤون نفسه بعد بيانِ عَجْزه ﷺ عن شؤون غيره.

وقيل: في الكلام حذف، وهو: قالوا: اترُك ما تَدعو إليه ونحن نُجيرُك. فقيل له: قل: «إنِّي لن يجيرني» إلخ. وقيل: هو جواب لقول وَرْدان سيِّد الجِنِّ وقد ازدحموا عليه: أنا أَزْجُلهم[(٥)] عنك. فقال: «إنِّي لن يجيرني» إلخ، ذكره الماورديُّ، والقولان ليسا بشيء.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والبيت في النكت والعيون ٦/ ١٢١، وتفسير القرطبي ٢١/ ٣٠٥، وفتح القدير ٥/ ٣١٠، دون نسبة، ونسبه في الدر المنثور ٢١٨/٤ لخصيب الضمري، وورد في المصادر كلها عدا «البحر»: ولهفا، بدل: ونفسي.

(٤) المفردات (لحد).

(٥) في الأصل و(م): أرحلهم. وكذا وردت في مطبوع البحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والنقل منه، والمثبت من النكت والعيون للماوردي ٦/ ١٢١، وتفسير القرطبي ٢١/ ٣٠٥: ومعنى أزجلهم: أدفعهم. القاموس (زجل).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء من مفعول «لا أملك» كما يشير إليه كلام قتادة، وما بينهما اعتراض مؤكِّد لنفي الاستطاعة، فلا اعتراضَ بكثرة الفصل المبعِدة لذلك، فإنْ كان المعنى: لا أملك أن أضرَّكم ولا أنفعكم، كان استثناء متَّصلاً، كأنَّه قيل: لا أملك شيئاً إلا بلاغاً، وإن كان المعنى: لا أملك أن أقسركم على الغَيِّ والرشد، كان منقطعاً، أو من باب:

لا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم[1]

كما في «الكشف»، وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة أنَّه إمَّا استثناء متصل من «رشداً» فإنَّ الإبلاغ إرشاد ونفع، والاستثناء من المعطوف دون المعطوف عليه جائز، وإمَّا استثناء منقطع من «ملتحداً»، قال الرازيُّ: لأنَّ البلاغ من الله تعالى لا يكون داخلاً تحت قوله سبحانه: (مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا) لأنَّه لا يكون مِن دون الله سبحانه، بل منه جلَّ وعلا وبإعانته وتوفيقه[2].

وفي «البحر»: قال الحسن: هو استثناء منقطع، أي: لن يجيرني أحدٌ، لكن إنْ بَلَّغتُ رحمني[3] بذلك، والإجارة مستعارة للبلاغ إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته سبحانه، وقيل: هو على هذا المعنى استثناء متصل، والمعنى: لن أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلَّا أن أبلِّغ وأطيعَ فيجيرَني، فيجوز نصبه على الاستثناء مِن «ملتحداً» أو على البدل وهو الوجه؛ لأنَّ قبله نفياً، وعلى البدل خرَّجه الزجَّاج[4]. انتهى. والأظهر ما تقدَّم.

وقيل: إنَّ «إلَّا» مركَّبة مِن «إنْ» الشرطيَّة و«لا» النافية، والمعنى: إن لا أُبَلِّغْ بلاغاً، وما قبله دليل الجواب، فهو كقولك: إلَّا قياماً فقعوداً. وظاهره: أنَّ المصدر سدَّ مسدَّ الشرط كمعمول «كان»، ولهم في حذف جملة الشرط مع بقاء الأداة كلام، والظاهر أنَّ اطِّراد حذفه مشروطٌ ببقاء «لا»، كما في قوله:

---

(١) صدر بيت للنابغة، وسلف ٥/ ٤٠٧.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٦٥.

(٣) في (م): رحمتي.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٣٧.

فطلِّقها فلستَ لها بكُفءٍ   وإلَّا يَعْلُ مَفرِقَكَ الحسامُ[١]

ما لم يسدَّ مسدَّه شيء مِن معمول أو مفسِّر كـ : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:٦] و: الناس مجْزيُّون بأعمالهم إنْ خيراً فخير. وهذا الوجه خلاف المتبادر كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطف على «بلاغاً»، و«من الله» متعلِّق بمحذوف وقع صفة له، أي: بلاغاً كائناً مِن الله، وليس بصلة له؛ لأنَّه يستعمل بـ «عن» كما في قوله ﷺ: «بلِّغوا عنِّي ولو آية»[٢] والمعنى على ما علمتَ أوَّلاً في الاستثناء: لا أملكُ لكم إلَّا تبليغاً كائناً منه تعالى ورسالاته التي أرسلني عزَّ وجلَّ بها.

وفي «الكشف»: في الكلام إضمار، أي: بلاغ رسالاته، وأصل الكلام: إلَّا بلاغ رسالات الله، فعدلَ إلى المنزَّل ليدلَّ على التبليغين مبالغة، وأنَّ كلًّا من المعنيين، أعني: كونه مِن الله تعالى وكونه بلاغ رسالاته، يقتضي التشمُّر لذلك. انتهى.

وفي عبارة «الكشَّاف»[٣] رمزٌ مّا إليه، لكن قيل عليه: لا ينبغي تقدير المضاف فيه، أعني: بلاغ، فإنَّه يكون العطف حينئذٍ من عطف الشيء على نفسه، إلا أن يوجَّه بأنَّ البلاغ مِن الله تعالى فيما أخذه عنه سبحانه بغير واسطة، والبلاغ للرسالات فيما هو بها، وهو بعيد غايةَ البعد، فافهم.

واستظهر أبو حيَّان عطفَه على الاسم الجليل، فقال: الظاهر عطف «رسالاته» على «الله»، أي: إلَّا أنْ أُبلِّغ عن الله وعن رسالاته[٤]. وظاهره جعل «من» بمعنى «عن» وقد تقدَّم منه أنَّها لابتداء الغاية. وقرئ: «قال لا أملك» أي: قال عبدُ الله للمشركين أو للجِنِّ[٥]. وجوّز أن يكون مِن حكاية الجِنِّ لقومهم.

---

(١) سلف ١٤/ ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٨٦)، والبخاري (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ٤/ ١٧١-١٧٢.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥٤.

(٥) الكشاف ٤/ ١٧١.

هذا ووَجْهُ ارتباط الآية بما قبلها قيل بناءً على أنَّ التلبُّد للعداوة: إنَّهم لما تلبَّدوا عليه ﷺ متظاهرين للعداوة، قيل له عليه الصلاة والسلام: «قل إنِّي لا أملكُ لكم ضرًّا ولا رشداً» أي: ما أردتُ إلَّا نفعكم وقابلتموني بالإساءة، وليس في استطاعتي النفع الذي أردتُ ولا الضَّرُّ الذي أكافئكم به، إنَّما ذانِ إلى الله تعالى، وفيه تهديد عظيم وتوكيل إلى الله جلَّ وعلا، وأنَّه سبحانه هو الذي يجزيه بحُسن صنيعه وسوءِ صنيعهم، ثم فيه مبالغة من حيث إنَّه لا يَدَعُ التبليغَ لتظاهرهم هذا، فإنَّ الذي يستطيعه عليه الصلاة والسلام هو التبليغ ولا يَدَعُ المستطاع، ولهذا قال: «إلا بلاغاً» وجعله بدلاً من «ملتحداً» شديد الطباق على هذا، والشرط قريب منه، وأمَّا إن كان الخطاب للجِنِّ والتلبُّد للتعجُّب، فالوجه أنهم لما تلبَّدوا لذلك قيل له عليه الصلاة والسلام: قل لهم: ما لكم ازدحمتم عليَّ متعجِّبين منِّي ومِن تطامن أصحابي على العبادة، إنِّي ليس إليَّ النفع والضَّرُّ، إنَّما أنا مبلِّغ عن الضارِّ النافع، فأقبلوا أنتم مثلنا على العبادة، ولا تُقبلوا على التعجُّب، فإنَّ العَجَب ممَّن يُعرِض عن المنعم المنتقم الضارِّ النافع، ولعلَّ اعتبار قوَّة الارتباط يقتضي أولويَّة كون التلبُّد كان للعداوة ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: في الأمر بالتوحيد، إذ الكلام فيه، فلا يصحُّ استدلال المعتزلة ونحوهم بالآية على تخليد العصاة في النار.

وجوّز أن يراد بالرسول رسولُ الملائكة عليهم السلام دون رسولِ البشر، فالمراد بعصيانه أن لا يبلِّغ المرسَل إليه ما وصل إليه كما وصل، وهو خلاف الظاهر.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النار، أو: في جهنَّم، وجمع «خالدين» باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ الإفراد قَبْلُ باعتبار لفظها، ولو روعي هنا أيضاً لقيل: خالداً. ﴿أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ بلا نهاية.

وقرأ طلحة: «فأنَّ» بفتح الهمزة[1]، على أنَّ التقدير، كما قال ابنُ الأنباري وغيره: فجزاؤه أنَّ له.. إلخ، وقد نصَّ النحاة على أنَّ «أنَّ» بعد فاء الشرط يجوز

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٤.

فيها الفتح والكسر، فقول ابنِ مجاهد: ما قرأ به أحد، وهو لحن؛ لأنَّه بعد فاء الشرط[1] = ناشئٌ مِن قلَّة تتبُّعه وضعفِه في النحو.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ جملة شرطيَّة مقرونة بـ «حتى» الابتدائية، وهي ـ وإن لم تكن جارَّة ـ فيها معنى الغاية، فمدخولها غايةٌ لمحذوف دلَّت عليه الحال مِن استضعاف الكفَّار لأنصاره عليه الصلاة والسلام واستقلالِهم لعدده، كأنَّه قيل: لا يزالون يَستضعِفون ويَستهزِؤون حتى إذا رأوا ما يُوعَدون من فنون العذاب في الآخرة تبيَّن لهم أنَّ المستضعَفَ مَن هو، ويدلُّ على ذلك أيضاً جواب الشرط، وكذا ما قيل على ما قيل؛ لأنَّ قوله سبحانه: «قل إنَّما أدعو ربِّي» تعريضٌ بالمشركين كيفما قدِّر، بل السورةُ الكريمة من مفتتحها مسوقةٌ للتعريض بحال مشركي مكَّة، وتسلية لرسولِ الله ﷺ، وتسرية عنه عليه الصلاة والسلام، وتعيير لهم بقصُور نظرهم عن الجِنِّ مع ادِّعائهم الفطانة، وقلَّة إنصافهم ومبادهتهم بالتكذيب والاستهزاء، بدل مبادهة الجِنِّ بالتصديق والاستهداء.

ويجوز جعل ذلك غايةً لقوله تعالى: «يكونون عليه لِبَداً» إن فسِّر بالتلبُّد على العداوة، ولا مانعَ من تخلُّل أمور غيرِ أجنبيَّة بين الغاية والمغيَّا، فقول أبي حيان: إنَّه بعيد جدًّا؛ لطول الفصل بينهما بالجمل الكثيرة[2]، ليس بشيء، كجَعْلِه إيَّاه غايةً لِمَا تضمَّنته الجملة قَبْلُ ـ يعني فإنَّ له نارَ جهنَّم ـ من الحُكْم بكينونة النار له، ومثل ذلك ما قيل مِن أنَّه غاية لمحذوف، والتقدير: دعهم حتى إذا رَأَوا. . إلخ.

والظاهر أنَّ «مَن» استفهاميَّة كما أشرنا إليه، وهي مبتدأ، و«أضعف» خبر، والجملة في موضع نصب بما قبلها، وقد علِّق عن العمل؛ لمكان الاستفهام. وجوِّز كونها موصولة في موضع نصب بـ «يعلمون»، و«أضعف» خبر مبتدأ محذوف، والجملة صلة لـ «من»، والتقدير: فسيعرفون الذي هو أضعف. وحَسَّنَ حَذْفَ صدرِ الصلة طولُها بالتمييز.

---

(١) نقله عن ابن مجاهد تلميذه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٥.

وجوّز تفسير «ما يوعدون» بيوم بدر، ورجّح الأوّل بأنَّ الظاهر أنَّ قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي: مـــا أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ ردٌّ لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك، ومقتضى حالهم أنَّهم قالوا إنكاراً واستهزاء: متى يكون ذلك الموعود؟ بل روي عن مقاتل أنَّ النضر بن الحارث قال ذلك، فقيل: قل: إنَّه كائنٌ لا محالةَ، وأمَّا وقته فما أدري متى يكون. والأحرى بسؤالهم وهذا الجوابِ إرادةُ ما في يوم القيامة، المنكرين له أشدَّ الإنكار، والخفيِّ وقتُه عن الخلائق غايةَ الخفاء، والمراد بالأمد الزمان البعيد؛ بقرينة المقابلة بالقريب، وإلَّا فهو وضعاً شاملٌ لهما، ولذا وصف ببعيداً في قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقيل: إنَّ معنى القرب يُنبئُ عن مشارفة النهاية، فكأنَّه قيل: لا أدري أهو حال متوقَّع في كلِّ ساعة أم هو مؤجَّل ضُرب له غاية، والأوَّل أَولى وأقرب.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع، على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه عالم الغيب، وجوَّز أبو حيَّان[1] كونَه بدلاً من «ربِّي»، وغيرُه أيضاً كونَه بياناً له، ويأبى الوجهين الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ إذ يكون النظم حينئذٍ: أم يجعل له عالم الغيب أمداً، فلا يظهر على غيبه أحداً، وفيه من الإخلال ما لا يَخفى.

وإضافة «عالم» إلى «الغيب» محضة؛ لقصد الثبات فيه، فيفيد تعريفُ الطرفين التخصيصَ، وتعريفُ «الغيب» للاستغراق، وفي الرضي: إنَّ اسم الجنس، أعني: الذي يقع على القليل والكثير بلفظ الواحد، إذا استعمل ولم تقم قرينة تخصِّصه ببعض ما يَصدُق عليه، فهو في الظاهر لاستغراقِ الجنس أخذاً من استقراء كلامهم، فمعنى: التراب يابس والماء بارد، أن كلّ ما فيه هاتان الماهيتان حاله كذا، فلو قلت في قولهم: النومُ ينقض الطهارةَ: النوم مع الجلوس لا ينقضها، لكان مناقضاً لذلك اللفظ. انتهى. وهو يؤيِّد إرادة ذلك هنا؛ لأنَّ الغيب كالماء يقع على القليل والكثير بلفظ واحد، ولا يضرُّ في ذلك جمعه على غيوب كما لا يضرُّ فيه جمع

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥٥.

الماء على مياه. وكذا المراد بـ «غيبه» جميعُ غيبه، وقد نصَّ عليه عزمي زاده معلِّلاً له بكون اسم الجنس المضاف بمنزلة المعرَّف باللام سيَّما إذا كان في الأصل مصدراً، وعزي إلى «شرح المقاصد» ما يقتضيه.

وربَّما يقال: يفهم ذلك أيضاً من اعتبار كون الإضافة للعهد وأنَّ المعهود هو الغيبُ المستغرق، أو مِن اعتبارها للاختصاص وأنَّ الغيب المختصّ به تعالى بمعنى المختصّ علمه سبحانه به هو كلُّ غيب، واعتناءً بشأن الاختصاص جيء بالمظهَر موضع المضمَر.

والجملة استئناف لدفع توهُّم نقصٍ مِن نَفْي الدرايةِ، والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرُّده تعالى بعلم الغيب، والمراد بالإظهار المنفيِّ الاطِّلاعُ الكامل الذي تنكشف به جليَّة الحال على أتمِّ وجه، كما يرشد إليه حرف الاستعلاء، فكأنَّه قيل: ما عليَّ إذا قلت: ما أدري قُرْبَ ذلك الموعد ـ الغيب ـ ولا بُعْدَه، فالله سبحانه وتعالى عالم كلِّ غيب وحده، فلا يُطلِعُ على ذلك المختصِّ عِلْمُه به تعالى إطْلاعاً كاملاً أحداً مِن خلقه ليكون أليقَ بالتفرُّد وأبعدَ عن توهُّم مساواة عِلْم خِلْقه لعلمه سبحانه، وإنَّما يُطلِع جلَّ وعلا ـ إذا أطلع ـ مَن شاء على بعضه ممَّا تقتضيه الحكمة التي هي مدار سائر أفعاله عزَّ وجلَّ، وما نفيت عنِّي العلم به ممَّا لم يطلعني اللهُ تعالى عليه؛ لِمَا أنَّ الاطِّلاع عليه ممَّا لا تقتضيه الحكمة التشريعيَّة التي يدور عليها فَلَك الرسالة، بل هو مخلٌّ بها. وإن شئتَ فاعتبر الجملة واقعة موقعَ التعليل لنفي الدراية السابقة.

ولمَّا كان مساقُ الكلام ممَّا قد يتوهَّمون منه أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يَطَّلع على شيء من الغيب عقَّب عزَّ وجلَّ الكلام بالاستثناء المنقطع ـ كما روي في «البحر»[١] عن ابنِ عباس ـ الذي هو بمعنى الاستدراك؛ لدَفْع ذلك على أبلغ وجه، حيث عمَّم الأمر في الرسل المرتَضَيْنَ، وأقام كيفيَّة الإظهار مقامَ الإظهار مع الإشارة إلى البعض الذي اطَّلَعوا عليه المناسب لمقام الدعوة، فقال عزَّ مِن قائل:

---

(١) ٨/ ٣٥٥.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: لكن الرسول المرتَضَى يُظهِره جلَّ وعلا على بعضِ الغيوب المتعلِّقة برسالته ـ كما يُعرِب عنه بيان «من ارتضى» بالرسول ـ تعلُّقاً ما؛ إمَّا لكونه من مباديها بأن يكون معجزةً، وإمَّا لكونه مِن أركانها وأحكامها كعامَّة التكاليف الشرعيَّة، وكيفيات الأعمال وأجزيتها، ونحو ذلك من الأمور الغيبيَّة التي بيانها مِن وظائف الرسالة، بأن يَسلُكَ مِن جميع جوانبه عند إطْلاعه على ذلك حرساً من الملائكة عليهم السلام يَحرُسونه مِن تعرُّض الشياطين لِمَا أُريد إطْلاعه عليه اختطافاً أو تخليطاً.

﴿لِّيَعْلَمَ﴾ متعلِّق بـ «يسلك» وعلَّة له، والضمير لـ «مَن» أي: لأجل أن يَعلم ذلك المرتَضَى الرسولَ ويُصدِّقَ تصديقاً جازماً ثابتاً مطابقاً للواقع ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي: الشأن قد أَبْلَغَ إليه الرَّصَدُ، وهو من قبيل: بنو تميم قتلوا زيداً، فإن المبلِّغ في الحقيقة واحد معهم وهو جبريل عليه السلام كما هو المشهور مِن أنَّه المبلِّغ مِن بين الملائكة عليهم السلام إلى الانبياء ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهي الغيوب المظهَر عليها كما هي مِن غير اختطاف ولا تخليط، وعلى هذا فليكن «مَن» مبتدأ، وجملة «إنَّه يسلك» خبره، وجيءَ بالفاء لكونه اسمَ موصول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عند الرصد ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: ممَّا كان وممَّا سيكون ﴿عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ أي: فرداً فرداً = حالٌ مِن فاعل: «يسلك» بتقدير «قد» أو بدونه، جيء به لمزيد الاعتناء بأَمْرِ عِلْمه تعالى بجميع الأشياء وتفرُّده سبحانه بذلك على أتمِّ وجه بحيث لا يشاركه سبحانه في ذلك الملائكة الذين هم وسائطُ العلم، فكأنَّه قيل: لكن المرتضى الرسول يُعلِّمه اللهُ تعالى بواسطة الملائكة بعضَ الغيوب ممَّا له تعلُّقٌ مّا برسالته، والحالُ أنَّه تعالى قد أحاط علماً بجميع أحوال أولئك الوسائط، وعلم جلَّ وعلا جميعَ الأشياء بوجه جزئي تفصيلي، فأين الوسائط منه تعالى؟!

أو حال مِن فاعل «أبلغوا» جيءَ به للإشارة إلى أنَّ الرصدَ أنفسهم لم يزيدوا ولم يَنقصوا فيما بلَّغوا، كأنَّه قيل: ليَعلم الرسولُ أن قد أبلغ الرصدُ إليه رسالاتِ ربِّه في حال أنَّ الله تعالى قد علم جميعَ أحوالهم وعَلِمَ كلَّ شيء، فلو أنَّهم زادوا أو نَقصوا عند الإبلاغ لعَلِمَه سبحانه، فما كان يختارهم للرصديَّة والحفظ.

هذا ما سنح لذهني القاصر في تفسير هذه الآيات الكريمة ولستُ على يقين مِن أمره، بيدَ أنَّ الاستدلالَ بقوله سبحانه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ إلخ على نفي كرامة الأولياء بالاطِّلاع على بعضِ الغيوب لا يتمُّ عليه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في قوَّة قضيةٍ سالبةٍ جزئيَّة؛ لدخول ما يفيد العمومَ في حيِّز السَّلْب، وأكثر استعمالاته لسَلْب العموم - وصرَّح به فيما هنا في «شرح المقاصد»[1] - لا لعموم السلب، وهو سلب جزئيٌّ فلا ينافي الإيجابَ الجزئيَّ، كأن يُظهِر بعضَ الغيب على وليٍّ على نحو ما قال بعضُ أهل السنة في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولا يَردُ أنَّ الاستثناء يقتضي أن يكون المرتضَى الرسولُ مُظهَراً على جميع غيبه تعالى بناءً على أنَّ الاستثناء مِن النفي يقتضي إيجابَ نقيضه للمستثنى ونقيضُ السالبة الجزئيَّة الموجبةُ الكليَّة مع أنَّه سبحانه لا يُظهِر أحداً كائناً مَن كان على جميع ما يَعلمُه عزَّ وجلَّ مِن الغيب؛ وذلك لانقطاع الاستثناء المصرَّح به ابن عباس.

وكذا لا يَردُ أنَّ الله تعالى نفى إظهارَ شيء مِن غيبه على أحد إلا على الرسول فيلزم أن لا يُظهِر سبحانه أحداً من الملائكة على شيء منه؛ لأنَّ الرسول هنا ظاهر في الرسول البَشَري، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ إلخ، وذلك ليس إلا فيه، كما لا يخفى على مَن علم حكمةَ ذلك. ويلزم أن لا يُظهِر أيضاً أحداً من الأنبياء الذين ليسوا برسل بناءً على إرادة المعنى الخاصِّ مِن الرسول هنا؛ وذلك لِمَا ذكرنا أوَّلاً.

وكذا لا يَردُ أنَّه يلزم أنْ لا يُظهِر المرتضى الرسولَ على شيء مِن الغيوب التي لا تتعلَّق برسالته ولا يُخِلُّ الإظهارُ عليها بالحكمة التشريعيَّة؛ إذ لا حَصْر للبعض المظهَر فيما يتعلَّق بالرسالة، وإنَّما أُشير إلى المتعلِّق بها لاقتضاء المقام لذلك، وكونُ كلّ غيب يظهر عليه الرسول لا يكون إلا متعلِّقاً برسالته محلُّ توقُّف.

وللمفسِّرين هاهنا كلام لا بأس بذِكْره بما له وما عليه حسَب الإمكان، ثم الأمر بعد ذلك إليك، فنقول: لـمَّا كان مذهبُ أكثر أهل السنة القولَ بكرامة الولي

(١) ٥/ ٧٦-٧٧.

بالاطّلاع على الغيب، وكان ظاهرُ قوله تعالى: (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ) إلخ دالًّا على نفيها ـ ولذا قال الزمخشريُّ: إنَّ في هذا إبطال الكرامات، أي: في الجملة، وهي ما كان من الإظهار على الغيب؛ لأنَّ الذين تُضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خصَّ اللهُ تعالى الرسلَ من بين المرتضين بالاطّلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم؛ لأنَّ أصحابَهما أبعد شيء مِن الارتضاء وأدخله في السخط[1]. انتهى ـ أنجدوا وأتهموا وأيمنوا وأشأموا في تفسير الآية على وجهٍ لا ينافي مذهبهم ولا يتمُّ عليه استدلال المعتزلي على مذهبه، فقال الإمام: ليس في قوله تعالى: «على غيبه» صيغة عموم، فيكفي في العمل بمقتضاه أنْ لا يُظْهِرَ تعالى خَلْقَه على غيبٍ واحدٍ مِن غيوبه، فنحمله على وقتِ وقوعِ القيامة، فيكون المراد مِن الآية أنَّه تعالى لا يُظهِر هذا الغيب لأحد، فلا يبقى في الآية دلالة على أنَّه سبحانه لا يُظهِر شيئاً مِن الغيوب لأحد، ويؤكِّد ذلك وقوع الآية بعد قوله تعالى: (قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ)، والمراد به وقوع يوم القيامة.

ثم قال: فإن قيل: إذا حَملتم ذلك على القيامة فكيف قال سبحانه: (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) مع أنَّه لا يُظهِر هذا الغيب لأحد مِن رسله، قلنا: بل يُظهِره عند القُرب من إقامة القيامة، وكيف لا وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ولا شكَّ أنَّ الملائكة يعلمون في ذلك الوقت، وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً، كأنَّه قيل: عالمُ الغيب فلا يُظهِر على غيبِهِ المخصوص ـ وهو قيامُ القيامة ـ أحداً، ثم قيل: إلَّا مَن ارتضى مِن رسول فإنَّه يسلك مِن بين يديه ومِن خلفه حفظةً يحفظونه من شرِّ مَرَدةِ الإنس والجِنِّ[2]. انتهى.

وتُعقّب بأنَّ في «غيبه» ما يدلُّ على العموم كما سمعتَ أوَّلاً، والسياق لا يأباه، اللَّهمَّ إلا أن يطعن في ذلك، وأيضاً ظاهر جوابه الأوَّل عن القيل كونُ المراد بالرسول في الآية الرسولَ المَلَكي، ويَأباه ما بَعْدُ مِن قوله تعالى: (فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ) إلخ،

(١) الكشاف ٤/ ١٧٢-١٧٣.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٦٨.

على أنَّ عِلْم الملائكة بوقت الساعة يوم تشقَّق السماء ليس من الإظهار على الغيب، بل هو من إظهار الغيب وإبرازه للشهادة، كإظهار المطر عند نزوله، وما في الأرحام عند وضعه، إلى غير ذلك. وأيضاً الانقطاع على الوجه الذي ذكره بعيدٌ جدًّا إذ فيه قَطْع المناسبة بين السابق واللاحق بالكليَّة، اللَّهمَّ إلا أن يقال: مثله لا يضرُّ في المنقطع.

وقيل: إنَّ الإظهار على الغيب بمعنى الإطْلاع عليه على أتمِّ وجه بحيث يحصل به أعلى مراتب العلم، والمراد عموم السلب، ولا يضرُّ في ذلك دخول ما يفيد العموم في حيِّز النفي؛ لأنَّ القاعدة أكثريَّة لا مطَّردة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:٢٧٦] وقد نصَّ على ذلك العلامة التفتازانيُّ[(١)]، فيكون المعنى: فلا يُظهِر على شيء مِن غيبه أحداً، إلا مَن ارتضى مِن رسول فإنَّه سبحانه يُظهرِه على شيء مِن غيبه بأن يَسلك. . إلخ. ولا يرد كرامة الولي، إذ ليست مِن الإظهار المذكور، إذ لا يحصل له أعلى مراتب العلم بالغيب الذي يُخبر به، وإنَّما يحصل له ظنون صادقة أو نحوها، وكذا شأن غيره مِن أرباب الرياضات مِن الكفرة وغيرهم.

وتُعقِّب بأنَّ من الصوفيَّة مَن قال كالشيخ محيي الدين ـ قدِّس سرُّه[(٢)] ـ بنزول المَلَك على الوليِّ، وإخباره إيَّاه ببعض المغيَّبات أحياناً، ويرشد إلى نزوله عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية [٣٠ من سورة فصلت] وكون ما يحصل له إذ ذاك ظنٌّ أو نحوه لا عِلْمٌ كالعلم الحاصل للرسول بواسطة المَلَك = لا يخلو عن بحث، بل قد يحصل له بواسطة الإلهام والنَّفث في الرُّوع نحو ما يحصل للرسول. وأيضاً يلزم أنْ لا يُظهَر المَلَكُ على الغيب، إذ الرسول المستثنى رسولُ البشر على ما هو الظاهر، والتزام أنَّه لا يُظهَر بالمعنى السابق ويُظهر بواسطته، ممَّا لا وجهَ له أصلاً. وأيضاً يلزم أنَّ ما يحصل للنبيِّ غير الرسول بالمعنى الأخصِّ المتبادر هنا ليس بعِلْمٍ بالمعنى المذكور، وهو كما ترى.

---

(١) شرح المقاصد ٥/ ٧٦-٧٧.

(٢) الفتوحات المكية ٣/ ٣١٦، الباب الرابع والستون وثلاث مئة.

وقيل: المراد بالغيب في الموضعين الجنس، والإظهارُ عليه على ما سمعت، وكذا عدم ورودِ الكرامة، والبحث فيه كالبحث في سابقه وزيادة.

وقال صاحب «الكشف» في الردِّ على الزمخشريِّ: الغيب إن كان مفسَّراً بما فسَّره في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] فالآية حجَّة عليه؛ لأنَّه جوَّز هنالك أن يَعلم بإعلامه تعالى أو بنصبه الدليل، وهذا الثاني ـ أعني القسم العقليَّ ـ تنفيه الآية وتُرشِد إلى أنَّ تهذيبَ طرق الأدلَّة أيضاً بواسطة الأنبياء عليهم السلام، والعقل غيرُ مستقلٍّ، وأهل السنة عن آخِرهم على أنَّ الغيب بذلك المعنى لا يطَّلع عليه إلا رسول أو آخِذٌ منهم، وليس فيه نفي الكرامة أصلاً وإن أراد الغائب عن الحسِّ في الحال مطلقاً، فلا بُدَّ من التخصيص بالاتفاق، فليس فيه ما ينفيها أيضاً، وإن فسّر بالمعدوم كما ذكره في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام:٧٣] فلا بُدَّ أيضاً من التخصيص، وكذلك لو فسّر بما غاب عن العباد أو بالسِّرِّ، على أنَّ ظاهر الآية أنَّه تعالى عالمُ كلِّ غيب وحده لا يُظهِر على غيبه المختصِّ به ـ وهو ما يتعلَّق بذاته تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ بدلالة الإضافة ـ إلا رسولاً، وهو كذلك فإنَّ غيبَه تعالى لا يُطَّلع عليه إلا بالإعلام من رسول مَلَكيٍّ أو بشريٍّ ولا كلُّ غيبه تعالى الخاصِّ مُطَّلَع عليه بل بعضه وأقلُّ القليل منه، فدلَّ المفهوم على أنَّ غيرَ هذا النوع الخاصِّ مِن الغيب لا منع من إطْلاع الله تعالى غيرَ الرسول عليه، فهذا ظاهر الآية دون تعسُّف. ثم لو سُلِّم فالثاني إمَّا مستغرق، وإذا قال سبحانه: لا يُطلِع على جميعه أحداً إلا مَن ارتضى مِن رسول، لم يدلَّ على أنَّه لا يجوز إطْلاع غيرِ الرسول على البعض، وإمَّا مُطلَق ينزل على الكامل منه، فيرجع إلى ما اخترناه وتتعاضد[1] دلالتا تشريف الإضافة والإطلاق، فلا وجه لتعليقه بهذه الآية، ومنه يظهر أنَّ الاستدلال من الآية على إبطال الكهانة والتنجيم غيرُ ناهض، وإن كان إبطالهما حقًّا لا ننكره، فضلاً عن تكفير مَن قال بدلالته على حياة أو موت؛ لأنَّه كفر بهذه الآية، كما نقله شيخنا الطيبي عن الواحديِّ[2]، والزجَّاج[3]، وصاحب «المطلع». انتهى.

---

(١) في (م): وتعاضد.

(٢) الوسيط ٤/ ٣٦٩.

(٣) معاني القرآن ٥/ ٢٣٧.

ويُبحث فيه بأنَّ حمل «غيبه» على الغيب الخاصِّ بمعنى ما يتعلَّق بذاته تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ ممَّا لا يناسبُ السياق، وبأنَّ ظاهر ما قرَّره على احتمال الاستغراق يقتضي على تقدير اتصال الاستثناء وإيجاب ضدِّ ما نفي للمستثنى أن يُظهِر الرسولَ على جميع غيبه تعالى إلى ما يظهر بالتأمُّل.

وذكر العلَّامة البيضاوي[1] أوَّلاً ما يفهم منه ـ على ما قيل ـ حَمْل «غيبِه» على العموم مع الاختصاص، أي: عموم الغيب المخصوص به علمه تعالى، وحَمْل: «فلا يظهر»، على سَلْب العموم، وحَمْل الرسول، على الرسول البشري، واعتبار الاستثناء منقطعاً على أنَّ المعنى: فلا يُظهِر على جميع غيبِه المختصِّ به عِلْمُه تعالى أحداً إلا مَن ارتضى مِن رسول فيظهره على بعضِ غيبه حتى يكون إخباره به معجزةً، فلا يتمُّ الاستدلال بالآية على نفي الكرامة، وفسّر الاختصاص بأنَّه لا يعلمه بالذات والكُنْه علماً حقيقيًّا يقينيًّا بغير سبب ـ كإطْلاع الغير ـ إلا هو سبحانه، وأمَّا عِلْم غيره سبحانه لبعضه فليس علماً للغيب إلا بحسب الظاهر وبالنسبة لبعض البشر، وقيل: أراد بالغيب المخصوص به تعالى ما لم يُنصَب عليه دليل، ولا يَقدَح في الاختصاص عِلْمُ الغير به بإعلامه تعالى، إذ هو إضافيٌّ بالنسبة إلى مَن لم يعلم.

وقال ثانياً في الجواب عن الاستدلال ـ ولعلَّه أراد الجوابَ عند القوم ـ ما نصُّه: وجوابُه تخصيصُ الرسول بالمَلَك، والإظهار بما يكون بغير توسُّط، وكرامات الأولياء على المغيَّبات إنَّما تكون تلقِّياً مِن الملائكة[2]، أي: بالنفث في الرُّوع ونحوه. وحاصله أنَّ الاستدلالَ إنَّما يتمُّ أنْ لو تحقَّق كونُ المراد بالرسول رسول البشر والمَلَك جميعاً، أو رسول البشر فقط، وبالإظهار الإظهار بواسطةٍ أوْ لا، والكُلُّ ممنوع؛ إذ يجوز أن يخصَّ الرسول برسول المَلَك، وأن يُراد بالإظهار الإظهار بلا واسطة، ويكون المعنى: فلا يُظهِر بلا واسطة على غيبه إلَّا رسل الملائكة، ولا ينافي ذلك إظهار الأولياء على غيبه؛ لأنَّه لا يكون إلا بالواسطة،

---

(١) تفسير البيضاوي ٨/ ٢٦١ مع حاشية الشهاب.
(٢) تفسير البيضاوي ٨/ ٢٦١ مع حاشية الشهاب.

وهو جواب بمنع المقدِّمتين، وإن كان يكفي فيه منع إحداهما كما فعل الإمام والتفتازانيُّ في «شرح المقاصد»(١).

وتعقّب بأنَّ رسلَ البشر قد يطَّلعون بغير واسطة أيضاً، وفي قصَّة المعراج وتكليم موسى عليه السلام ما يكفي في ذلك، على أنَّه قد قيل عليه بَعْدُ ما قيل.

وأغربُ ما قيل في هذا المقام كون «إلا» في قوله تعالى: «إلا مَن ارتضى» للعطف، والمعنى: فلا يُظهِر على غيبه أحداً ولا مَن ارتضى مِن رسول. وحاله لا يخفى.

ثم إنَّ تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ إلخ بما سمعت، هو الذي عليه جمهور المفسِّرين، وكانت الحفَظَةُ الذين ينزلون مع جبريل عليه السلام على نبيِّنا ﷺ ـ على ما أخرج ابنُ المنذر وجماعة عن ابن جبير ـ أربعةً(٢)، وأخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس قال: ما أنزل الله تعالى على نبيِّه ﷺ آيةً مِن القرآن إلَّا ومعها أربعة مِن الملائكة يحفظونها حتى يؤدُّونها إلى النبيِّ ﷺ، ثم قرأ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية(٣).

وقد يكون مع الوحي أكثر مِن ذلك، ففي بعض الأخبار أنَّه نزل مع سورة الأنعام سبعون ألفَ مَلَك(٤)، وجاء في شأن آية الكرسيِّ ما جاء(٥).

وقال ابن كمال: لاحت دقيقة بخاطري الفاتِر، قلَّما يوجد مثلها في بطون الدفاتر، وهي أنَّ المراد مِن «بين يديه» في الآية القِوَى الظاهرة، و«من خلفه» القوى الباطنة، ولذلك قال سبحانه: «يسلك» إلخ، أي: يدخل حفظةً مِن الملائكة يحفظون قِواه الظاهرة والباطنة مِن الشياطين ويعصمونه مِن وساوسهم من تَيْنك الجهتين، ولو كان المراد حفظةً مِن الجوانب كي لا يَقْربه الشياطين عند إنزال الوحي فتُلقي غيرَ الوحي، أو تسمعه فتلقيه إلى الكَهَنة فتخبر به قبل إخبار الرسول ـ كما ذهب إليه

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ١٦٨، وشرح المقاصد للتفتازاني ٥/ ٧٦-٧٧.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٥، وتفسير الطبري ٢٣/ ٣٥٥-٣٥٦، والعظمة (٣٥٩).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٧٥.

(٤) تنظر هذه الأخبار في بداية تفسير سورة الأنعام.

(٥) تنظر في سورة البقرة، الآية (٢٥٥).

صاحب «التيسير» وغيره ـ لَمَا كان نظم الكلام على الوجه المذكور، فإنَّ عبارة «يسلك» وتخصيص الجهتين المذكورتين إنَّما يناسب ما ذكرناه لا ما ذكروه. انتهى.

ولا يخفى أنَّه نحوٌ من الإشارة، ولعلَّ التعبير بـ «يسلك» على تفسير الجمهور لتصوير الجهات التي تأتي منها الشياطين بالثغور الضيِّقة والمسالك الدقيقة، وفي ذلك مِن الحُسن ما فيه.

وذهب كثير إلى أنَّ ضمير «ليعلم» لله تعالى، وضمير «أبلغوا» إمَّا للرصد، أو «لمن ارتضى»، والجمع باعتبار معنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في الضميرين قَبْلُ باعتبار لفظها، والمعنى: أنَّه تعالى يسلكهم ليعلمَ أنَّ الشأنَ قد أَبلغوا رسالاتِ ربِّهم عِلْماً مستتبعاً للجزاء، وهو أن يعلمه تعالى موجوداً حاصلاً بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد:٣١] فالغاية في الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد، وإيراد علمه تعالى لإبرازِ اعتنائه تعالى بأمرِهما، والإشعارِ بترتُّب الجزاء عليهما، والمبالغةِ في الحثِّ عليهما، والتحذيرِ عن التفريط فيهما.

وقوله تعالى: «وأحاط» إلخ، إمَّا عطف على «لا يظهر»، أو حال مِن فاعل «يسلك» جِيْءَ به لدفع التوهُّم وتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عمَّا ذكر مِن سلك الرصد على الوجه المذكور، أو عطف ـ كما زعم بعضٌ ـ على مُضمَر؛ لأنَّ «ليعلم» متضمِّن معنى علم، فصار المعنى: قد علم ذلك وأحاط.. إلخ.

وجوَّز أن يكون ضمير «يعلم» للرسول الموحى إليه، وضمير «أبلغوا» للرصد النازلين إليه بالوحي، وروي عن ابن جبير ما يؤيِّده، أو للرسل سواه، «وأحاط» إلخ عطف على «أبلغوا»، أو على «لا يظهر».

وعن مجاهد: ليعلم مَن كذَّبَ وأَشْرَكَ أنَّ الرسل قد أَبلغوا. وفيه من البُعْد ما فيه، وعليه لا يقع هذا العلم ـ على ما في «البحر»[1] ـ إلا في الآخرة.

وقيل: ليعلم إبليس أنَّ الرسل قد أَبلغوا. وقيل: ليعلم الجِنُّ أنَّ الرسلَ قد أَبلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المتلقِّين باستراق السمع. وكلا القولين كما ترى.

---

(١) ٨/ ٣٥٧.

ونصب «عدداً» عند جمع على أنَّه تمييز محوَّلٌ عن المفعول به، والأصل: أحصى عددَ كلِّ شيءٍ، إلا أنَّه قال أبو حيان: في كونه ثابتاً مِن لسان العرب خلافٌ[(١)]. وأنتَ تعلم أنَّ التحويل في مثله تقديري.

وجوِّز أن يكون حالاً، أي: معدوداً محصوراً، ولا يضرُّ تنكيرُ صاحبها؛ للعموم. وأن يكون نصباً على المصدر، بمعنى إحصاء.

فتأمَّل جميعَ ذلك، والله تعالى الموفِّق لسلوك أحسنِ المسالك.

وقرئ: «عالمَ» بالنصب[(٢)] على المدح. و: «عَلِمَ» فعلاً ماضياً «الغيبَ» بالنصب[(٣)].

وقرأ ابنُ عباس وزيد بنُ عليٍّ: «ليُعْلَم» بالبناء للمفعول[(٤)]، والزهري وابن أبي عبلة: «ليُعْلِم» بضمِّ الياء وكسر اللام[(٥)]، من الإعلام، أي: ليُعْلِم اللهُ تعالى مَن شاء أن يُعلمه أنْ قد أَبلغوا.. إلخ.

وقرأ أبو حيوة: «رسالة» بالإفراد[(٦)].

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «وأُحِيطَ» و«أُحصِيَ» كلٌّ بالبناء للمفعول في الفعلين، ورفع «كلّ» على النيابة[(٧)]، والفاعل هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو سبحانه المحيط بالأحوال عِلْماً والمحصي لكلِّ شيء عدداً.

انتهى بعون الله تعالى الجزء السابع والعشرون من روح المعاني
ويليه إن شاء الله الجزء الثامن والعشرون ويبدأ
بسورة المزمل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٥.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٥.
(٤) النشر ٢/ ٣٩٣ عن رويس، والبحر ٨/ ٣٥٧ والكلام منه.
(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر ٨/ ٣٥٧.
(٦) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر ٨/ ٣٥٧.
(٧) القراءات الشاذة ص١٦٣، والبحر ٨/ ٣٥٧.

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ
وآياتها عشرون

● **سورة المزمل** مكية ، وهي تتناول جانباً من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، في تبتله ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا سميت « سورة المزَّمّل » .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيفاً لطيفاً ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يا أيها المزّمّلُ قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾ .

● **ثم تناولت** السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . إنَّ ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾

● **وأمرت** السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجراً جميلاً إلى أن ينتقم الله منهم ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً . وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾ .

● **ثم توَّعد** الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفزع ما يشيب له رءوس الولدان ﴿إنَّ لدينا

أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذاغصةٍ وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذين معك ...﴾ إلى قوله ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ .

سورة المزمل

[٩٨٢] أخرج البزار والطبراني بسند واهٍ عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل إسماً يصدر عنه الناس قالوا: كاهن قالوا: ليس بكاهن قالوا: مجنون قالوا: ليس بمجنون قالوا: ساحر قالوا: ليس بساحر فبلغ ذلك النبي [ﷺ] فتزمل في ثيابه فتدثر فيها فأتاه جبريل فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾(١).

[٩٨٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾(٢) قال: نزلت وهو في قطيفة.

[٩٨٤] ك.. وأخرج الحاكم عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾(٣) قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم فأنزلت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾(٤) وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره.

* * *

---

[٩٨٢] (١) سورة المزمل: الآية (١). وسورة المدثر: الآية (١).

[٩٨٣] (٢) سورة المزمل: الآية (١).

[٩٨٤] (٣) سورة المزمل: الآية (١و٢).

(٤) سورة المزمل: الآية (٢٠).

سورة المزمل

وهي عشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام، وأصله المتزمل بالتاء وهو الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها، فأدغم التاء في الزاي، ونخوه المدثر في المتدثر، واختلفوا لم تزمل بثوبه؟ على وجوه: أحدها: قال ابن عباس: أول ما جاءه جبريل عليه السلام خافه وظن أن به مسًّا من الجن، فرجع من الجبل مرتعدًا وقال: زملوني، فبينا هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال: يا أيها المزمل، وثانيها: قال الكلبي: إنما تزمل النبي عليه السلام بثيابه للتهيء للصلاة وهو اختيار الفراء، وثالثها: أنه عليه السلام كان نائمًا بالليل متزملاً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة، وقيل: يا أيها النائم المزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية، ورابعها: أنه كان متزملاً في مرط لخديجة مستأنسًا بها فقيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ﴾ كأنه قيل: اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية، وخامسها: قال عكرمة: يا أيها الذي زمل أمرًا عظيمًا أي حمله والزمل الحمل، وازدمله احتمله.

المسألة الثانية: قرأ عكرمة (الْمُزَّمِّلُ) (والْمُدَثِّرُ) بتخفيف الزاي والدال وتشديد الميم والثاء على أنه اسم فاعل أو مفعول، فإن كان على اسم الفاعل كان المفعول محذوفًا والتقدير يا أيها المزمل نفسه والمدثر نفسه وحذف المفعول في مثل هذا المقام فصيح قال تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي أوتيت من كل شيء شيئًا، وإن كان على أنه اسم المفعول كان ذلك لأنه زمل نفسه أو زمله غيره، وقرئ (يا أيها المتزمل) على الأصل.

قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله لقوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وظاهر الأمر للوجوب ثم نسخ، واختلفوا في سبب النسخ على وجوه: أولها: أنه كان فرضًا قبل

أن تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بها، وثانيها: أنه تعالى لما قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ فكان الرجل لا يدري كم صلى وكم بقي من الليل فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وشق عليهم ذلك حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠] وذلك في صدر الإسلام، ثم قال ابن عباس: وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة، وقال في رواية أخرى: إن إيجاب هذا كان بمكة ونسخه كان بالمدينة، ثم نسخ هذا القدر أيضًا بالصلوات الخمس، والفرق بين هذا القول وبين القول الأول أن في هذا القول نسخ وجوب التهجد بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠] ثم نسخ هذا بإيجاب الصلوات، وفي القول الأول نسخ إيجاب التهجد بإيجاب الصلوات الخمس ابتداء، وقال بعض العلماء: التهجد ما كان واجبًا قط، والدليل عليه وجوه: أولها: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] فبين أن التهجد نافلة له لا فرض، وأجاب ابن عباس عنه بأن المعنى زيادة وجوب عليك، وثانيها: أن التهجد لو كان واجبًا على الرسول لوجب على أمته لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وورود النسخ على خلاف الأصل، وثالثها: استدل بعضهم على عدم الوجوب بأنه تعالى قال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ ففوض ذلك إلى رأي المكلف وما كان كذلك لا يكون واجبًا وهذا ضعيف لأنه لا يبعد في العقل أن يقول: أوجبت عليك قيام الليل فأما تقديره بالقلة والكثرة فذاك مفوض إلى رأيك، ثم إن القائلين بعدم الوجوب أجابوا عن التمسك بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ وقالوا ظاهر الأمر يفيد الندب، لأنا رأينا أوامر الله تعالى تارة تفيد الندب وتارة تفيد الإيجاب، فلا بد من جعلها مفيدة للقدر المشترك بين الصورتين دفعًا للاشتراك والمجاز، وما ذاك إلا ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، وأما جواز الترك فإنه ثابت بمقتضى الأصل، فلما حصل الرجحان بمقتضى الأمر وحصل جواز الترك بمقتضى الأصل كان ذلك هو المندوب، والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ أبو السمال (قُمَ الليل) بفتح الميم وغيره بضم الميم، قال أبو الفتح بن جني: الغرض من هذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين، فأي الحركات تحرك فقد حصل الغرض وحكى قطرب عنهم: (قُمُ اللَّيلَ)، (وقُلُ الْحَقُّ) [الكهف: ٢٩] برفع الميم واللام وبعُ الثوب ثم قال: من كسر فعلى أصل الباب ومن ضم أتبع ومن فتح فقد مال إلى خفة الفتح.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

اعلم أن الناس قد أكثروا في تفسير هذه الآية وعندي فيه وجهان ملخصان: الأول: أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الثلث، والدليل عليه قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] فهذه الآية دلت على أن أكثر المقادير الواجبة الثلثان، فهذا يدل على أن نوم الثلث جائز، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

هو الثلث، فإذًا قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معناه قم ثلثي الليل ثم قال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ والمعنى أو قم نصفه، كما تقول: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس ذا أو ذا أيهما شئت، فتحذف واو العطف فتقدير الآية: قم الثلثين أو قم النصف أو انقص من النصف أو زد عليه، فعلى هذا يكون الثلثان أقصى الزيادة، ويكون الثلث أقصى النقصان، فيكون الواجب هو الثلث، والزائد عليه يكون مندوبًا، فإن قيل: فعلى هذا التأويل يلزمكم أن يكون النبي ﷺ قد ترك الواجب، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] فمن قرأ نصفه وثلثه بالخفض كان المعنى أنك تقوم أقل من الثلثين، وأقل من النصف، وأقل من الثلث، فإذا كان الثلث واجبًا كان عليه السلام تاركًا للواجب، قلنا: إنهم كانوا يقدرون الثلث بالاجتهاد، فربما أخطأوا في ذلك الاجتهاد ونقصوا منه شيئًا قليلاً فيكون ذلك أدنى من ثلث الليل المعلوم بتحديد الأجزاء عند الله، ولذلك قال تعالى لهم: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ تفسيرًا لقوله: ﴿قَلِيلٗا﴾ وهذا التفسير جائز لوجهين: الأول: أن نصف الشيء قليل بالنسبة إلى كله والثاني: أن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن عهدة ذلك التكليف بيقين إلا بزيادة شيء قليل عليه فيصير في الحقيقة نصفًا وشيئًا، فيكون الباقي بعد ذلك أقل منه، وإذا ثبت هذا فنقول: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معناه قم الليل إلا نصفه، فيكون الحاصل: قم نصف الليل، ثم قال: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ يعني أو انقص من هذا النصف نصفه حتى يبقى الربع، ثم قال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ يعني أو زد على هذا النصف نصفه حتى يصير المجموع ثلاثة أرباع، وحينئذ يرجع حاصل الآية إلى أنه تعالى خيره بين أن يقوم تمام النصف، وبين أن يقوم ربع الليل، وبين أن يقوم ثلاثة أرباعه، وعلى هذا التقدير يكون الواجب الذي لا بد منه هو قيام الربع، والزائد عليه يكون من المندوبات والنوافل، وعلى هذا التأويل يزول الإشكال الذي ذكرتم بالكلية لأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقم ثلثي الليل، ولا نصفه ولا ثلثه لأن الواجب لما كان هو الربع فقط لم يلزم من ترك قيام الثلث ترك شيء من الواجبات، فزال السؤال المذكور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ قال الزجاج: رتل القرآن ترتيلاً، بينه تبيينًا، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن، إنما يتم بأن يتبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، قال المبرد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير، وقال الليث: الترتيل تنسيق الشيء، وثغر رتل، حسن التنضيد، ورتلت الكلام ترتيلاً، إذا تمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وقوله تعالى: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه مما لا بد منه للقارئ.

واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله،

والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾

ذكروا في تفسير الثقيل وجوهًا: أحدها: وهو المختار عندي أن المراد من كونه ثقيلاً عظم قدره وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره، فهو ثَقَلٌ وثَقِيل وثَاقِل، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً عظيمًا، فلا بد وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى، وتمام هذا المعنى ما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وثانيها: قالوا: المراد بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة، وعلى رسول الله خاصة، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته، وحاصله أن ثقله راجع إلى ثقل العمل به، فإنه لا معنى للتكليف إلا إلزام ما في فعله كلفة ومشقة، وثالثها: روى عن الحسن: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة، وهو إشارة إلى كثرة منافعه وكثرة الثواب في العمل به، ورابعها: المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحي إليه، روي أن الوحي نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها، حتى وضعت جرانها، فلم تستطع أن تتحرك، وعن ابن عباس: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد وجهه، وعن عائشة رضي الله عنها: «رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَرْفُضُ عَرَقًا»، وخامسها: قال الفراء: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف، لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى، وسادسها: قال الزجاج: معناه أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رزين وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان، وسابعها: قال أبو علي الفارسي: إنه ثقيل على المنافقين، من حيث إنه يهتك أسرارهم، ومن حيث إنه يبطل أديانهم وأقوالهم وثامنها: أن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتاسعها: أنه ثقيل بمعنى

أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله، وعاشرها: أنه ثقيل لكونه مشتملاً على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ يقال: نَشَأَتْ تنشأُ نشأً فهي ناشئة، والإنشاء الإحداث، فكل ما حدث (فَهُوَ نَاشِئٌ) فإنه يقال للذكر ناشئ وللمؤنث ناشئة، إذا عرفت هذا فنقول في الناشئة قولان: أحدهما: أنها عبارة عن ساعات الليل، والثاني: أنها عبارة عن الأمور التي تحدث في ساعات الليل، أما القول الأول، فقال أبو عبيدة: ناشئة الليل ساعاته وأجزاؤه المتتالية المتعاقبة فإنها تحدث واحدة بعد أخرى، فهي ناشئة بعد ناشئة، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا، فمنهم من قال الليل كله ناشئة، روى ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل، فقال الليل كله ناشئة. وقال زين العابدين رضي الله عنه: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي قالوا: لأن ناشئة الليل هي الساعة التي منها يبتدئ سواد الليل، القول الثاني: هو تفسير الناشئة بأمور تحدث في الليل، وذكروا على هذا القول وجوهًا: أحدها: قالوا: ناشئة الليل هي النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت، وثانيها: ناشئة الليل عبارة عن قيام الليل بعد النوم، قال ابن الأعرابي إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل، وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم في البيت المظلم في موضع لا تصير حواسه مشغولة بشيء من المحسوسات ألبتة، فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والأفكار الإلهية، وأما النهار فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات، فلا تتفرغ للأحوال الروحانية، فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية والخواطر النورانية، التي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس، وسماها ناشئة الليل لأنها لا تحدث إلا في الليل بسبب أن الحواس الشاغلة للنفس معطلة في الليل ومشغولة في النهار، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأملات، وتارة أنوار ومكاشفات، وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس أو الخوف منه، أو تخيلات أحوال عجيبة، فلما كانت تلك الأمور الناشئة أجناسًا كثيرة لا يجمعها جامع إلا

أنها أمور ناشئة حادثة لا جرم لم يصفها إلا بأنها ناشئة الليل.

أما قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي مواطأة وملاءمة وموافقة، وهو مصدر يقال: واطأت فلانًا على كذا مواطأة ووطأة ومنه ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي ليوافقوا، فإن فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى أنها أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص، وإن فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان، وإن فسرناها بقيام الليل كان المعنى مايراد من الخشوع والإخلاص، وإن فسرناها بما ذكرت كان المعنى أن إفضاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشد منه في النهار، وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق.

المسألة الثانية: قرئ: (أشد وَطْئا) بالفتح والكسر وفيه وجهان: الأول: قال الفراء: أشد ثبات قدم، لأن النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للمعاش، والثاني: أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار، وهو من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم إذا ثقل عليهم معاملتهم معه، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ**» فأعلم الله نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَحْمَزُهَا**»[١] أي أشقها. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، قال: لأنه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية، فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، وأيضًا الخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية أتم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال ابن عباس: أحسن لفظًا، قال ابن قتيبة: لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل.

المسألة الثانية: قرأ أنس (وَأَصْوَبُ قِيلاً)، فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فقال أنس: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد، قال ابن جني، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني، فإذا وجدوها لم يلتفتوا إلى الألفاظ ونظيره ما روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ: (فَحَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)[٢] بالحاء غير المعجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا، فقال: حاسوا وجاسوا واحد وأنا أقول: يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيرًا للفظ القرآن لا على أنه جعله نفس القرآن، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جني لارتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن، ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقًا لذلك المعنى، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد، وربما أخطأ وهذا يجر إلى الطعن في القرآن، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه.

---

(١) تقدم.

(٢) رواه أبو علي القالي في (الأمالي) (١/ ١٦٩) من طريق أبي عبد الله محمد بن الحسين قال حدثنا المازني قال سمعت أبا سوار الغنوي... فذكره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال المبرد: سبحًا أي تقلبًا فيما يجب، ولهذا سمي السابح سابحًا لتقلبه بيديه ورجليه، ثم في كيفية المعنى وجهان: الأول: إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا في مهماتك فلا تتفرغ لخدمة الله إلا بالليل، فلهذا السبب أمرتك بالصلاة في الليل، الثاني: قال الزجاج: أي إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة فلك في النهار فراغه فاصرفه إليه.

المسألة الثانية: قرئ (سبخًا) بالخاء المنقطة من فوق، وهو استعارة من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، فإن القلب في النهار يتفرغ بسبب الشواغل، وتختلف همومه بسبب الموجبات المختلفة، واعلم أنه تعالى أمر رسوله أولاً بقيام الليل، ثم ذكر السبب في أنه لم خص الليل بذلك دون النهار، ثم بين أن أشرف الأعمال المأمور بها عند قيام الليل ما هو.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ وهذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بشيئين أحدهما: الذكر، والثاني: التبتل، أما الذكر فاعلم أنه إنما قال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ هاهنا وقال في آية أخرى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾[الأعراف: ٢٠٥] لأنه لا بد في أول الأمر من ذكر الاسم باللسان مدة ثم يزول الاسم ويبقى المسمى، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله هاهنا: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ وإنما تكون مشتغلاً بذكر الرب، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته، وربوبيته عبارة عن أنواع تربيته لك وإحسانه إليك، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه فلا تكون مستغرق القلب به، وحينئذ يزداد الترقي فتصير مشتغلاً بذكر إلهيته، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾[البقرة: ٢٠٠] وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية، لأن الإلهية إشارة إلى القهارية والعزة والعلو والصمدية، ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام مترددًا في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهوية الأحدية، التي كلت العبارات عن شرحها، وتقاصرت الإشارات عن الانتهاء إليها، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحق، ثم يقف لأنه ليس هناك نظير في الصفات، حتى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة، ولا تكون الهوية مركبة حتى ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء، ولا مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة، فهي الظاهرة لأنها مبدأ ظهور كل ظاهر، وهي الباطنة لأنها فوق عقول كل المخلوقات، فسبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره، وأما قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اعلم أن جميع المفسرين فسروا التبتل بالإخلاص، وأصل التبتل في اللغة

القطع، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها. وقال الليث: التبتيل تمييز الشيء عن الشيء، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال، لا رغبة لها فيهم. إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات، قال الفراء: يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته، وقال زيد بن أسلم التبتل: رفض الدنيا مع كل ما فيها والتماس ما عند الله، واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون لأن قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي انقطع عن كل ما سواه إليه والمشغول بطلب الآخرة غير متبتل إلى الله تعالى، بل التبتل إلى الآخرة والمشغول بعبادة الله متبتل إلى العبادة لا إلى الله، والطالب لمعرفة الله متبتل إلى معرفة الله لا إلى الله فمن آثر العبادة لنفس العبادة أو لطلب الثواب أو ليصير متعبدًا كاملاً بتلك العبودية للعبودية فهو متبتل إلى غير الله، ومن آثر العرفان للعرفان فهو متبتل إلى العرفان، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول، وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر ولا يجد الإنسان لهذا مثالاً إلا عند العشق الشديد إذا مرض البدن بسببه وانحبست القوى وعميت العينان وزالت الأغراض بالكلية وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية، فهناك يظهر الفرق بين التبتل إلى المعشوق وبين التبتل إلى رؤية المعشوق.

المسألة الثانية: الواجب أن يقال: وتبتل إليه تبتلاً أو يقال: بتل نفسك إليه تبتيلاً، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل، فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعًا إلى الله، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فذكر التبتل أولاً إشعارًا بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانيًا إشعارًا بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض.

واعلم أنه تعالى لما أمره بالذكر أولاً ثم بالتبتل ثانيًا ذكر السبب فيه:

فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن التبتل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبة، والمحبة لا تليق إلا بالله تعالى، وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال وإما التكميل، أما الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته إذ من المعلوم أنه يمتنع أن يكون كل شيء إنما كان محبوبًا لأجل شيء آخر، وإلا لزم التسلسل، فإذًا لا بد من الانتهاء إلى ما يكون محبوبًا لذاته، والكمال محبوب لذاته، فإن من اعتقد أن فلانًا الذي كان قبل هذا بألف سنة كان موصوفًا بعلم أزيد من علم سائر الناس مال طبعه

إليه وأحبه شاء أم أبى، ومن اعتقد في رستم أنه كان موصوفًا بشجاعة زائدة على شجاعة سائر الناس أحبه شاء أم أبى، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته وكمال الكمال لله تعالى، فالله تعالى محبوب لذاته، فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله، وأما التكميل فهو أن الجواد محبوب والجواد المطلق هو الله تعالى فالمحبوب المطلق هو الله تعالى، والتبتل المطلق لا يمكن أن يحصل إلا إلى الله تعالى، لأن الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلا إليه، واعلم أن التبتل الحاصل إليه بسبب كونه مبدأ للتكميل مقدم على التبتل الحاصل إليه بسبب كونه كاملاً في ذاته، لأن الإنسان في مبدأ السير يكون طالبًا للحصة فيكون تبتله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل والإحسان، ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصة كما بينا من أنه يصير طالبًا للمعروف لا للعرفان، فيكون تبتله في هذه الحالة بسبب كونه كاملاً فقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى التي هي أول درجات المتبتلين وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات المتبتلين ومنتهى أقدام الصديقين، فسبحان من له تحت كل كلمة سر مخفي، ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر، وهو مقام التفويض، وهو أن يرفع الاختيار من البين، ويفوض الأمر بالكلية إليه، فإن أراد الحق به أن يجعله متبتلاً رضي بالتبتل لا من حيث إنه هو، بل من حيث إنه مراد الحق، وإن أراد به عدم التبتل رضي بعدم التبتل لا من حيث إنه عدم التبتل، بل من حيث إنه مراد الحق، وهاهنا آخر الدرجات، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ إشارة إلى هذه الحالة، فهذا ما جرى به القلم في تفسير في هذه الآية، وفي الزوايا خبايا، ومن أسرار هذه الآية بقايا ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

المسألة الثانية: ﴿رَبُّ﴾ فيه قراءتان إحداهما: الرفع، وفيه وجهان: أحدهما: على المدح، والتقدير هو رب المشرق، فيكون خبر مبتدأ محذوف، كقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧] أي تقلبهم متاع قليل، والثاني: أن ترفعه بالابتداء، وخبره الجملة التي هي لا إله إلا هو، والعائد إليه الضمير المنفصل، والقراءة الثانية: الخفض، وفيها وجهان: الأول: على البدل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، والثاني: قال ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلن وجوابه: لا إله إلا هو كما تقول والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن عباس (رب المشارق والمغارب).

اما قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فالمعنى أنه لما ثبت أنه لا إله إلا هو لزمك أن تتخذه وكيلاً وأن تفوض كل أمورك إليه، وهاهنا مقام عظيم، فإنه لما كانت معرفة أنه لا إله إلا هو توجب تفويض كل الأمور إليه دل هذا على أن من لا يفوض كل الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو، وتقريره أن كل ما سواه ممكن ومحدث، وكل ممكن ومحدث، فإنه مالم ينته إلى الواجب لذاته لم يجب، ولما كان الواجب لذاته واحدًا كان جميع الممكنات مستندة إليه، منتهية إليه وهذا هو

المراد من قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ وقال بعضهم: ﴿وَكِيلًا﴾ أي كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: المعنى إنك لما اتخذتني وكيلاً فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلاً لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبتٌ أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين، والهجر الجميل أنْ يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣] ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] قال المفسرون: هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال، وقال آخرون: بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح.

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.

اعلم أنه إذا اهتم إنسان بمهم وكان غيره قادرًا على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال قال له: ذرني أنا وذاك أي لا حاجة مع اهتمامي بذاك إلى شيء آخر وهو كقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ [القلم: ٤٤] وقوله: ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة يقال: أَنْعَمَ بك ونَعِمَك عينًا أي أسرَّ عينك وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفه ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فيه وجهان أحدهما: المراد من القليل الحياة الدنيا، والثاني: المراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر، فإن الله أهلكهم في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾

ثم ذكر كيفية عذابهم عند الله فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي إن لدينا في الآخرة ما يضاد تنعمهم في الدنيا، وذكر أمورًا أربعة: أولها: قوله: ﴿أَنكَالًا﴾ واحدها نَكَلٌ ونِكْل، قال الواحدي: النِّكْل: القيد، وقال صاحب الكشاف: النكل القيد الثقيل وثانيها: قوله: ﴿وَجَحِيمًا﴾ ولا حاجة به إلى التفسير، وثالثها: قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ الغصة ما يغص به الإنسان، وذلك الطعام هو الزقوم والضريع كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] قالوا: إنه شوك كالعوسج يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج، ورابعها: قوله: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ والمراد منه سائر أنواع العذاب، واعلم أنه يمكن حمل هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانية، أما الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية، فإنها في الدنيا لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة، فبعد البدن يشتد الحنين، مع أن آلات الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له من التخلص إلى عالم الروح والصفاء، ثم يتولد من تلك القيود الروحانية نيران روحانية، فإن شدة ميلها إلى الأحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول إليها، يوجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته في وجدان شيء، ثم إنه لا يجده فإنه يحترق قلبه عليه، فذاك هو الجحيم، ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق، فذاك هو المراد من قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ثم إنه بسبب هذه الأحوال بقي محرومًا عن تجلي نور الله والانخراط في سلك المقدسين، وذلك هو المراد من قوله: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ والتنكير في قوله: ﴿وَعَذَابًا﴾ يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل، واعلم أني لا أقول المراد بهذه الآيات هو ما ذكرته فقط، بل أقول إنها تفيد حصول المراتب الأربعة الجسمانية، وحصول المراتب الأربعة الروحانية، ولا يمتنع حمله عليهما، وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانية حقيقة، وبالنسبة إلى المراتب الروحانية مجازًا متعارفًا مشهورًا.

ثم إنه تعالى لما وصف العذاب، أخبر أنه متى يكون ذلك فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الزجاج: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقول: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] أي ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم ترجف الأرض.

المسألة الثانية: الرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة، والكثيب: القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة وجمعه الكثبان، وفي كيفية الاشتقاق قولان: أحدهما: أنه من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول، والثاني: قال الليث: الكثيب نثر التراب أو الشيء يرمى به، والفعل اللازم انكثب ينكثب انكثابًا، وسمي الكثيب كثيبًا، لأن ترابه دقاق، كأنه مكثوب منثور بعضه على بعض لرخاوته، وقوله: ﴿مَّهِيلًا﴾ أي سائلًا قد أسيل، يقال: تراب مهيل ومهيول أي مصبوب ومسيل. الأكثر في اللغة مهيل، وهو مثل قولك مكيل ومكيول، ومدين ومديون، وذلك أن الياء تحذف منه الضمة فتسكن، والواو أيضًا ساكنة، فتحذف الواو لالتقاء الساكنين ذكره الفراء والزجاج، وإذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى يفرق تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفًا

ويجعلها كالعهن المنفوش، فعند ذلك تصير كالكثيب، ثم إنه تعالى يحركها على ما قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]وقال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠] فعند ذلك تصير مهيلاً، فإن قيل لم لم يقل: وكانت الجبال كثبانًا مهيلة؟ قلنا: لأنها بأسرها تجتمع فتصير كثيبًا واحدًا مهيلاً.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما خوف المكذبين ﴿أُولِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]بأهوال القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا.

فقال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ واعلم أن الخطاب لأهل مكة والمقصود تهديدهم بالأخذ الوبيل، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول:لِمَ نكر الرسول ثم عُرِّف؟ الجواب: التقدير أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه فأخذناه أخذًا وبيلاً، فأرسلنا إليكم أيضًا رسولاً فعصيتم ذلك الرسول، فلا بد وأن نأخذكم أخذًا وبيلاً.

السؤال الثاني:هل يمكن التمسك بهذه الآية في إثبات أن القياس حجة؟ والجواب: نعم لأن الكلام إنما ينتظم لو قسنا إحدى الصورتين على الأخرى، فإن قيل: هب أن القياس في هذه الصورة حجة، فلم قلتم: إنه في سائر الصور حجة، وحينئذ يحتاج إلى قياس سائر القياسات على هذا القياس، فيكون ذلك إثباتًا للقياس بالقياس، وإنه غير جائز؟ قلنا: لا نثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة، وإلا لزم المحذور الذي ذكرتم، بل وجه التمسك هو أن نقول: لولا أنه تمهد عندهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظنًّا يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم هاهنا فإن لقائل أن يقول: لعلهم إنما استوجبوا الأخذ الوبيل بخصوصية حالة العصيان في تلك الصورة وتلك الخصوصية غير موجودة هاهنا، فلا يلزم حصول الأخذ الوبيل هاهنا، ثم إنه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم بالتسوية في الحكم فهذا الجزم لا بد وأن يقال: إنه كان مسبوقًا بتقرير أنه متى وقع الاشتراك في المناط الظاهر وجب الجزم بالاشتراك في الحكم، وإن مجرد احتمال الفرق بالأشياء التي لا يعلم كونها مناسبة للحكم لا يكون قادحًا في تلك التسوية، فلا معنى لقولنا القياس حجة إلا هذا.

السؤال الثالث:لم ذكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم؟ الجواب: لأن أهل مكة ازدروا محمدًا عليه الصلاة والسلام، واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم وهو قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]

السؤال الرابع: ما معنى كون الرسول شاهدًا عليهم؟ الجواب: من وجهين: الأول: أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم، الثاني: المراد كونه مبينًا للحق في الدنيا، ومبينًا لبطلان ما هم عليه من الكفر، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق، ولذلك وصفت بأنها بينة، فلا يمتنع أن يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث إنه بيَّن الحق، وهذا بعيد لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدولاً خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] فبيَّن أنه يكون شاهدًا عليهم في المستقبل، ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة، وحمله على البيان مجاز والحقيقة أولى.

السؤال الخامس: ما معنى الوبيل؟ الجواب: فيه وجهان: الأول: الوبيل: الثقيل الغليظ، ومنه قولهم: صار هذا وبالاً عليهم، أي أفضى به إلى غاية المكروه، ومن هذا قيل للمطر العظيم: وابل، والوبيل: العصا الضخمة، الثاني: قال أبو زيد: الوبيل الذي لا يستمرأ، وماء وبيل وخيم إذا كان غير مريء وكلأ مستوبل، إذا أدت عاقبته إلى مكروه، إذا عرفت هذا فنقول قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ يعني الغرق، قاله الكلبي ومقاتل وقتادة.

ثم إنه تعالى عاد إلى تخويفهم بالقيامة مرة أخرى

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: في الآية تقديم وتأخير، أي فكيف تتقون يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم.

المسألة الثانية: ذكر صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿يَوْمًا﴾ وجوهًا: الأول: أنه مفعول به، أي فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر، والثاني: أن يكون ظرفًا أي وكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، والثالث: أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة، والجزاء لأن تقوى الله لا معنى لها إلا خوف عقابه.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر من هول ذلك اليوم أمرين: الأول: قوله: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان، أسرع فيه الشيب، لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب، وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها، يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط، وذلك يوجب ابيضاض الشعر، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة

الهموم، جعلوا الشيب كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيبًا حقيقة، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان غير جائز يوم القيامة، الثاني: يجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب، ولقد سألني بعض الأدباء عن قول المعري:

وَظُلْمٌ يَمْلأُ الْفَوْدَيْنِ شَيْبًا[1]

وقال: كيف يفضل هذا التشبيه الذي في القرآن على بيت المعري؟ فقلت: من وجوه الأول: أن امتلاء الفودين من الشيب ليس بعجب، أما صيرورة الولدان شيبًا فهو عجيب كأن شدة ذلك اليوم تنقلهم من سن الطفولية إلى سن الشيخوخة، من غير أن يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب، وهذا هو المبالغة العظيمة في وصف اليوم بالشدة، وثانيها: أن امتلاء الفودين من الشيب معناه ابيضاض الشعر، وقد يبيض الشعر لعلة مع أن قوة الشباب تكون باقية فهذا ليس فيه مبالغة، وأما الآية فإنها تدل على صيرورة الولدان شيوخًا في الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه، وذلك نهاية في شدة ذلك اليوم، وثالثها: أن امتلاء الفودين من الشيب، ليس فيه مبالغة لأن جانبي الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية، ولهذا السبب، فإن الشيب إنما يحدث أولاً في الصدغين، وبعده في سائر جوانب الرأس، فحصول الشيب في الفودين ليس بمبالغة إنما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس بل على جميع أجزاء البدن كما هو مذكور في الآية، والله أعلم.

النوع الثاني: من أهوال يوم القيامة قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وهذا وصف لليوم بالشدة أيضًا، وأن السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق، ونظيره قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ لم يقل: منفطرة؟ الجواب من وجوه: أولها: روى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء، إنما قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ﴾ ولم يقل: منفطرة لأن مجازها مجاز السقف، تقول: هذا سماء البيت، وثانيها: قال الفراء: السماء تؤنث وتذكر، وهي هاهنا في وجوه التذكير وأنشد شعرًا:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا   لَحِقْنَا بِالنُّجُومِ مَعَ السَّحَابِ

وثالثها: أن تأنيث السماء ليس بحقيقي، وما كان كذلك جاز تذكيره.

قال الشاعر:

وَالْعَيْنُ بِالإِثْمِدِ الْحَيْرِيِّ مَكْحُولُ

(١) هذا البيت لأبي العلاء المعري وأوله (وجنح) بدلاً من (وظلم).

وقال الأعشى:

فَـلاَ مُـزْنَـةَ وَدَقَـتْ وَدْقَـهَـا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْـقَـلَ إِبْـقَـالَـهَـا

ورابعها: أن يكون السماء ذات انفطار فيكون من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، وأعجاز نخل منقعر، وكقولهم امرأة مرضع، أي ذات رضاع.

السؤال الثاني: ما معنى: ﴿مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾؟ الجواب من وجوه: أحدها: قال الفراء: المعنى منفطر فيه، وثانيها: أن الباء في (به) مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعني أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله، كما ينفطر الشيء بما ينفطر به، وثالثها: يجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظم تلك الواقعة عليها وخشيتها منها كقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

أما قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ فاعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى المفعول وأن يكون عائدًا إلى الفاعل، أما الأول: فأن يكون المعنى وعد ذلك اليوم مفعول أي الوعد المضاف إلى ذلك اليوم واجب الوقوع، لأن حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه، وأما الثاني: فأن يكون المعنى وعد الله واقع لا محالة لأنه تعالى منزه عن الكذب وهاهنا وإن لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير إليه لكونه معلومًا، واعلم أنه تعالى بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء، ومعلوم أن أحوالهم قسمان: أحدهما: ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك والثاني: ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١] ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الوبيل في الدنيا، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة، فعند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

أي هذه الآيات تذكرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾، **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المراد من قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أقل منهما، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك.

المسألة الثانية: قرئ ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب، والمعنى أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف (والثلث) وقرئ (ونِصْفِهِ وثُلُثِهِ) بالجر أي تقوم أقل من الثلثين والنصف والثلث، لكنا بينا في تفسير قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] أنه لا يلزم من هذا أن يقال: إنه عليه الصلاة والسلام كان تاركًا للواجب وقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ وهم أصحابك يقومون من الليل هذا المقدار المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يعني أن العالم بمقادير أجزاء الليل والنهار ليس إلا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الضمير في ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ عائد إلى مصدر مقدر أي علم أنه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم أيضًا تحصيل تلك المقادير على سبيل الطعن والاحتياط إلا مع المشقة التامة، قال مقاتل: كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر به من قيام ما فرض عليه.

المسألة الثانية: احتج بعضهم على تكليف مالا يطاق بأنه تعالى قال: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، ثم إنه كان قد كلفهم به، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد صعوبته لا أنهم لا يقدرون عليه كقول القائل: ما أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾ هو عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] والمعنى أنه رفع التبعة عنكم في ترك هذا العمل كما رفع التبعة عن التائب.

قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المراد من هذه القراءة الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي فصلوا ما تيسر عليكم، ثم هاهنا قولان: الأول: قال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء، وقال آخرون: بل نسخ وجوب ذلك التهجد واكتفى بما تيسر منه، ثم نسخ ذلك أيضًا بالصلوات الخمس، القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن ليحصل الأمن من النسيان قيل: يقرأ مائة آية، وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين،

وقيل: خمسين آية ومنهم من قال: بل السورة القصيرة كافية، لأن إسقاط التهجد إنما كان دفعًا للحرج، وفي القراءة الكثيرة حرج فلا يمكن اعتبارها. وهاهنا بحث آخر وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: سقط عن أصحاب رسول الله ﷺ قيام الليل وصارت تطوعًا وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ.

ثم إنه تعالى ذكر الحكمة في هذا النسخ فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

واعلم أن تقدير هذه الآية كأنه قيل: لم نسخ الله ذلك؟ فقال: لأنه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله، أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، وهذا السبب ما كان موجودًا في حق النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] فلا جرم ما صار وجوب التهجد منسوخًا في حقه. ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال وعن ابن مسعود: (أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشهداء)[1] ثم أعاد مرة أخرى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وذلك للتأكيد ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضة ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي الواجبة وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يريد سائر الصدقات، وثانيها: يريد أداء الزكاة على أحسن وجه، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعًا للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق، وثالثها: يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال.

ثم ذكر تعالى الحكمة في إعطاء المال فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال ابن عباس: تجدوه عند الله خيرًا وأعظم أجرًا من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت، وقال الزجاج: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا لكم من متاع الدنيا، والقول ما قاله ابن عباس.

المسألة الثانية: معنى الآية: وما تقدموا لأنفسكم من خير فإنكم تجدوه عند الله خيرًا

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ٤١٠) من طريق أبي نصر بشر بن الحارث قال حدثنا المعافي بن عمران وعيسى بن يونس عن فرقد السنجي عن إبراهيم عن ابن مسعود... به وفي إسناده فرقد السنجي لين الحديث كثير الخطأ.

وأعظم أجرًا إلا أنه قال: هو خيرًا للتأكيد والمبالغة، وقرأ أبو السمال (هو خَيرٌ وأعظمُ أَجْرًا) بالرفع على الابتداء والخبر، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، وفي الغفور قولان: أحدهما: أنه غفور لجميع الذنوب، وهو قول مقاتل، والثاني: أنه غفور لمن يصر على الذنب، احتج مقاتل على قوله بوجهين: الأول: أن قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتناول التائب والمصر، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل، والثاني: أن غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقًا للمدح، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة المُزَّمِّل

مَكِّيَّةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها، ذكره الماورديُّ[1]. وقال الثعلبيُّ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ﴾ إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة[2]، وهي عشرون آية[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قال الأخفش سعيد: «الْمُزَّمِّلُ» أصله: المتزمِّل، فأدغمت التاء في الزاي، وكذلك «المدَّثر»[4]. وقرأ أُبيٌّ بن كعب على الأصل: «الْمُتَزَمِّل» و«المتدثِّر»[5]، وسعيد: «الْمُزَمِّلُ»[6].

وفي أصل: «المزَّمِّل» قولان: أحدهما أنه المتحمِّل، يقال: زَمَل الشيء: إذا حمله، ومنه الزَّاملة، لأنها تحمِلُ القُمَاش[7].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٢٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٦ دون نسبة.

(٣) في النسخ: سبع وعشرون آية، وهو خطأ. ووقعت هذه العبارة في (م) أول الكلام. وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٦ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧١٦ ، ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٢٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٦ ، وزاد المسير ٨/ ٣٨٨ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠ .

(٦) بتخفيف الزاي، وسيذكرها المصنف عن عكرمة.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٢٤. وقوله: الزاملة: هي التي يُحمل عليها من الإبل وغيرها. القاموس (زمل). والمراد بالقماش هنا: متاع البيت. الصحاح (قمش).

الثاني: أن المزَّمِّل هو المتلفِّف، يقال: تزمَّل وتدثَّر بثوبهِ إذا تغطى. وزمَّل غيره إذا غطَّاه، وكلُّ شيء لُفِّف فقد زُمِّل ودُثِّر، قال امرؤ القيس:

كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[1]

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ هذا خطابٌ للنبيِّ ﷺ[2]، وفيه ثلاثة أقوال:

الأوَّل: قول عكرمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بالنبوَّة والملتزم للرسالة[3]. وعنه أيضاً: ياأيها الذي زُمِّل هذا الأمر، أي: حُمِّلَه ثم فتر[4]، وكان يقرأ: «يا أيها المزَمَّل» بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك: «المُدَثَّر»[5]. والمعنى: المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه، أو الذي زَمَّله غيره.

الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بالقرآن، قاله ابن عباس.

الثالث: المزَّمِّل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النَّخَعيُّ: كان متزمِّلاً بقَطِيفةٍ[6]. عائشة: بمِرطٍ طوله أربعة عشرة ذراعاً، نصفه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيِّ ﷺ وهو يصلي، واللهِ ما كان خَزًّا ولا قَزًّا ولا مِرعِزاءَ ولا إبرِيسماً ولا صُوفاً، كان سَداه شَعراً، ولُحْمَتُه وَبَراً[7]، ذكره الثعلبيُّ.

قلت: وهذا القول من عائشة يدلُّ على أن السورة مَدَنِيَّة، فإن النبيَّ ﷺ لم يَبْنِ بها إلَّا في المدينة، وماذُكر من أنها مكية لايصحُّ. والله أعلم.

---

(١) عجز بيت له، وصدره: كأن أبانا في أفانين وَدْقِه، وهو في ديوانه ص٢٥ ،وسلف ٧/ ٣٤٧ -٣٤٨ ، قوله: بجاد، أي: كساء مخطط. والكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ١٢٤-١٢٥ .

(٢) الوسيط ٤/ ٣٧١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٨ .

(٤) بنحوه في الكشاف ٤/ ١٧٤-١٧٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣-١٦٤ ، والمحتسب ٢/ ٣٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٢٤ ، والطبري ٢٣/ ٣٥٧ .

(٧) الكشاف ٤/ ١٧٤ ، والمِرْعِزاء: الزَّغَبُ الذي تحت شعر العنز، والإبريسَمُ: الحرير. القاموس (رعز- برسم) والسَّدَى من الثوب: ما يُمَدُّ طولاً في النسيج، واللُّحمة منه: ما يلحمُ به السَّدَى.

وقال الضحاك: تزمَّلَ بثيابه لمنامه[١]. وقيل: بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه، فاشتدَّ عليه فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه[٢]، فإنه لَمَّا سمع قول[٣] الملَك ونظر إليه؛ أخذته الرِّعدة، فأتى أهلَه فقال: «زمِّلوني دثروني» روي معناه عن ابن عباس[٤].

وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزَّمل والمدَّثر في أوَّل الأمر، لأنه لم يكن بعدُ ادّثر شيئاً من تبليغ الرسالة[٥].

قال ابن العربي[٦]: واختلف في تأويل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فمنهم من حملَه على حقيقته، قيل له: يامن تلفَّف في ثيابه، أو في قطيفته؛ قُمْ، قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له: يامن تزمَّل بالنبوَّة، قاله عكرمة[٧]. وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدَّدة بصيغة المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

قلت: وقد بيَّنَّا أنها على حذف المفعول، وقد قرئ بها، فهي صحيحة المعنى.

قال[٨]: وأما من قال: إنه زُمِّل القرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه كما قد قدَّمنا أنه لايُحتاج إليه.

الثالثة: قال السُّهَيلي[٩]: ليس المُزَّمِّل باسم من أسماء النبيِّ ﷺ، ولم يُعرف به

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٨٨ من قول السدي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في (ظ)و(ي): صوت.

(٤) الكشاف ٤/ ١٧٤، وأخرج نحوه الإمام أحمد(١٤٢٨٧)، والبخاري (٤)، ومسلم(١٦١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفيه نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٦ بنحوه.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٩.

(٧) سلفت أقوالهم آنفاً.

(٨) يعني: ابن العربي.

(٩) في التعريف والإعلام ص١٧٧-١٧٨.

كما ذهب إليه بعضُ الناس وعدُّوه في أسمائه عليه الصلاة والسلام، وإنما المُزَّمِّل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المُدَّثِّر.

وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفةُ، فإنَّ العرب إذا قصدت ملاطفةَ المخاطَب وترك المعاتبة سمَّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبيِّ ﷺ لعليٍّ حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه الترابُ، فقال له: «قُمْ يا أبا تُراب»[١] إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له. وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة: «قم يانَوْمَان»[٢]، وكان نائماً؛ ملاطفةً له، وإشعاراً لِتركِ العَتْب والتأنيب. فقولُ اللهِ تعالى لمحمدٍ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ، ليستشعر أنه غيرُ عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ لكلِّ متزمِّل راقدٍ ليلَه؛ ليتنبه إلى قيام الليل وذكرِ الله تعالى فيه، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلُّ من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف[٣]. وحُكي الفتح لخفته. قال عثمان بن جنيّ[٤]: الغرضُ بهذه الحركة التبلُّغ بها هرباً من التقاء الساكنين، فبأي حركة تحرَّكت فقد وقع الغرضُ. وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدِّية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغٌ فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدَّى إليه إلا بواسطة، لا تقول: قمت الدار؛ حتى تقول: قمت وسط الدار وخارجَ الدار.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد.

(٢) صحيح مسلم (١٧٨٨)، وسلف ١٧/ ٨٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٥.

(٤) في المحتسب ٢/٣٣٦، ونقله عنه المصنف بواسطة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧٥.

وقد قيل: إن «قم» هنا معناه: صَلِّ، عبَّر به عنه، واستعير له حتى صار عُرْفاً بكثرة الاستعمال[١].

الخامسة: «اللَّيْلَ» حدُّ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدَّم بيانه في سورة البقرة[٢].

واختلف: هل كان قيامه فرضاً وحتماً، أو كان ندباً وحضًّا؟

والدلائل تقوِّي أن قيامه كان حتماً وفرضاً، وذلك أن الندب والحضَّ لايقع على بعض الليل دون بعض، لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وأيضاً فقد جاء التوقيف[٣] بذلك عن عائشة وغيرها على مايأتي.

واختلف أيضاً: هل كان فرضاً على النبيِّ ﷺ وحدَه، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال:

الأوَّل: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة.

الثاني: قول ابن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبيِّ ﷺ وعلى الأنبياء قبله.

الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضاً[٤] وهو الصحيح، كما في صحيح مسلم عن زُرارة بن أوْفَى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزوَ في سبيل الله...الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: ألست تقرأ: «يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّل»؟ قلت: بلى! قالت: فإن الله عزَّ وجلَّ افترض قيامَ الليل في أوَّل هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابُه حَوْلاً، وأمسك اللهُ عزَّ وجلَّ خاتمتَها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ في آخر هذه السورة التخفيفَ، فصار قيام الليل

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٩-١٨٦٠ .

(٢) ٢/ ٤٩٣ .

(٣) في(م) التوقيت. والكلام في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٢٦ -١٢٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ دون قول ابن عباس: قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبله.

تطوُّعاً بعد فريضة. وذكر الحديث[١].

وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدَّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول: لمَّا أنزل أوّل﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؛ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أوَّلها وآخرها نحو من سنة[٢].

وقال سعيد بن جبير: مكث النبيُّ ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فخفَّف اللهُ عنهم[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ استثناء من الليل، أي: صلِّ الليل كلَّه إلا يسيراً منه[٤]، لأن قيام جميعه على الدوام غيرُ ممكن، فاستثنى منه القليلَ لراحة الجسد. والقليلُ من الشيء مادون النصف، فحكي عن وهب بن منبِّه أنه قال: القليل مادون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث.

ثم قال تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ فكان ذلك تَخْفيفاً إذ لم يكن زمان القيام محدوداً، فقام الناس حتى ورمت أقدامُهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾[٥].

وقال الأخفش[٦]: «نِصْفَهُ» أي: أو نصفَه، يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثةً. يريد: أو درهمين، أو ثلاثة.

وقال الزجاج[٧]: «نِصفَه» بدل من الليل و«إِلَّا قَلِيلاً» استثناء من النصف. والضمير

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦)، وهو عند الإمام أحمد(٢٤٢٦٩)

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٩٠٧).

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ .

(٤) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٢ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٦ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٧١٦-٧١٧ .

(٧) في معاني القرآن له ٥/ ٢٣٩ بنحوه.

في «منه» و«عليه» للنصف. المعنى: قمْ نصفَ الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين[١]، فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن «نِصْفَهُ» بدل من قوله «قَلِيلاً»، وكان مخيراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، كأن تقدير الكلام: قم الليلَ إلا نصفه، أو أقلَّ من نصفه، أو أكثر من نصفه[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «يَنزل اللهُ عزَّ وجلَّ إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حين يمضي ثلثُ الليل الأوّل، فيقول: أنا الملِك أنا الملِك، مَن ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له، من ذا الذي يَسألني فأعطيَه، من ذا الذي يَستغفرني فأغفرَ له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»[٣].

ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعاً. وهو يدلُّ على ترغيب قيام ثلثي الليل.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطرُ الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله»...الحديث. رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك[٤].

وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجل يُمهل حتى يمضيَ شَطْرُ الليل الأوَّل، ثم يأمر منادياً يقول: هل من داعٍ يُستجابُ له؟ هل من مستغفر يُغفر له؟ هل من سائل يُعطَى»؟ صحَّحه أبو محمد عبد الحقِّ، فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل[٥].

وخرَّج ابنُ ماجه من حديث ابن شهاب، عن أبي سَلَمة وأبي عبد الله الأغرّ، عن

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/١٩٦، وإملاء مامنَّ به الرحمن ٤/٤٢٤-٤٢٥ على هامش الفتوحات.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٦٣، والكشاف ٤/١٧٥.

(٣) صحيح مسلم (٧٥٨): (١٦٩). وسلف ٥/٦٠.

(٤) صحيح مسلم (٧٥٨): (١٧٠و١٧١).

(٥) السنن الكبرى للنسائي (١٠٢٤٣)، والأحكام الصغرى ١/٢٧٨، وسلف ٥/٦٠.

أبي هريرة: أن رسولَ الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ حين يبقى ثلثُ الليل الآخِر كلَّ ليلة، فيقول: من يَسألني فأعطيَه؟ من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأغفرَله؟ حتى يطلُعَ الفجرُ». فكانوا يَستحبُّون الصلاة آخِرَ الليل على أوَّله(١).

قال علماؤنا: وبهذا الترتيب انتظم الحديثُ والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة(٢).

وفي الموطأ وغيره من حديث ابن عباس: بِتُّ عند خالتي ميمونة؛ حتى إذا انتصف الليلُ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسولُ الله ﷺ، فقام إلى شَنٍّ معلَّق، فتوضأ وضوءاً خفيفاً. وذكر الحديث(٣).

السابعة: اختلف العلماءُ في الناسخ للأمر بقيام الليل، فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخر السورة(٤).

وقيل: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن ابن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن عائشة أيضاً والشافعيِّ ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس(٥).

وقيل: الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، قال أبو

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٦٦)، وهو عند الإمام أحمد (٧٥٩٢)، والبخاري(١١٤٥)، ومسلم(٧٥٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٢ .

(٣) الموطأ ١/ ١٢١ بنحوه، وهو عند البخاري (١٣٨) ومسلم (٧٦٣) (١٨٦) .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٥٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٢٥ عن ابن عباس.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٢٥ من قول عائشة، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٧ من قول مقاتل وابن كيسان.

عبد الرحمن السُّلَمي: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قاموا حتى وَرِمَت أقدامُهم وسُوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾(١).

قال بعض العلماء: وهو فرض نُسخ به فرض، كان على النبيِّ ﷺ خاصة لفضله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾(٢)

قلت: القول الأوَّل يعمُّ جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فدخل فيها قول من قال: إن الناسخ الصلواتُ الخمس.

وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حَلْب شاةٍ(٣).

وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية: الحمد لله؛ تطوّع بعد الفريضة(٤). وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لِما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبيِّ ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم(٥) كرِهَ ذلك، وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيتَ كالمُغْضَب، فجعلوا يَتنحنحون ويَتفلون، فخرج إليهم فقال: «أيها الناس اكْلَفوا من الأعمال ما تُطيقون، فإن الله لايَمَلُّ من الثواب، حتى تَمَلُّوا من العمل، وإن خيرَ العمل أدومُه وإن قَلَّ». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾. فكُتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدُهم ليَربطُ الحبلَ فيتعلقُ به، فمكثوا ثمانيةَ أشهر، فرحمهم اللهُ وأنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ فردَّهم اللهُ إلى

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٢.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧، وزاد المسير ٨/ ٣٨٩، والناسخ المنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠-٣٩١، وورد هذا القول النووي رحمه الله بالإجماع والنصوص الصحيحة أنه لا واجب إلا الصلوات الخمس. شرح صحيح مسلم ٦/ ٢٧.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٢.

(٥) في (ظ): جماعاتهم.

الفريضة، ووضع عنهم قيامَ الليل إلا ما تطوَّعوا[١].

قلت: حديث عائشة هذا ذكره الثعلبيُّ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله: «وإن قلَّ»[٢]، وباقيه يدل على أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نَزَل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون. وقد تقدَّم عنها في صحيح مسلم: حولاً[٣]. وحكى الماورديُّ عنها قولاً ثالثاً، وهو ستة عشر شهراً، لم يذكر غيره عنها. وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوَّل المزمِّل وآخرها سنة؛ قال: فأمَّا رسولُ الله ﷺ فقد كان فرضاً عليه.

وفي نسخه عنه قولان: أحدهما: أنه كان فرضَه عليه إلى أن قبضَه اللهُ تعالى.

الثاني: أنه نُسخ عنه كما نُسخ عن أمته.

وفي مدَّة فرضه إلى أن نُسخ قولان: أحدهما: المدَّةُ المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ابن عباس حولاً، وقول عائشة ستة عشر شهراً.

الثاني: أنها عشر سنين إلى أن خفَّف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف، ليميزه بفعل الرسالة؛ قاله ابن جبير[٤].

قلت: هذا خلاف ما ذكره الثعلبيُّ عن سعيد بن جبير[٥] حَسْب ما تقدَّم فتأمله.

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٩-٣٦٠ بنحوه.

(٢) هو عند الإمام أحمد (٢٤١٢٤)، والبخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢) يعني دون قوله: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ .....الخ.

(٣) صحيح مسلم (٧٤٦)، وسلف ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وينظر زاد المسير ٨/ ٣٨٩ ، وأخرج قول سعيد الطبري ٢٣/ ٣٦١ دون قوله: زيادة في التكليف.

(٥) لعل صواب العبارة: ما ذكره الثعلبي عن عائشة.

أحبُّ الناس في القِراءة إلى الله أعقلُهم عنه[١].

والترتيل: التنضيدُ والتنسيق وحسن النظام؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسنَ التنضيد[٢]. وتقدَّم بيانه في مقدِّمة الكتاب[٣].

وروى الحسن أن النبيَّ ﷺ مرَّ برجل يقرأ آيةً ويبكي، فقال: «ألم تسمعوا إلى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؟ هذا الترتيل»[٤]. وسمع عَلْقَمةُ رجلاً يقرأ قراءةً حسنة فقال: لقد رتَّل القرآن، فِداه أبي وأمّي[٥].

وقال أبو بكر بن طاهر: تدبَّرْ في لطائف خطابه، وطالبْ نفسَك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفهم معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه[٦].

وروى عبدُ الله بن عمرو قال: قال النبيُّ ﷺ: «يؤتَى بقارئ القرآن يومَ القيامة، فيُوقف في أوَّل درجِ الجنة، ويقال له: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت ترتلُ في الدنيا، فإن منزلكَ عند آخر آية تقرؤها» خَرَّجه أبو داود وقد تقدَّم في أوّل الكتاب[٧].

وروى أنس أن النبيَّ ﷺ كان يمدُّ صوته بالقراءة مدًّا»[٨].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٦.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ١٢٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٧٥.

(٣) ١/ ٣٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٩٩)، وابن أبي شيبة ١٤/ ١١ بلفظ: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ . . . .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٣.

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ٧/ ١٨٩، وأبو بكر بن طاهر، لعله الأبهري واسمه عبد الله بن طاهر، كان عالماً ورعاً، وهو من أقران الشبلي، مات قرب ٣٣٠هـ. طبقات الصوفية للسلمي ص٣٩١، والتدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢٢٨.

(٧) سنن أبي داود (١٤٦٤)، وهو عند الإمام أحمد (٦٧٩٩)، وسلف ١/ ١٦، ولفظه: «يقال لصاحب القرآن ...» بدل: يؤتى بقارئ القرآن ...

(٨) صحيح البخاري (٥٠٤٥)، وسلف ١/ ١٨-١٩.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو متصل بما فُرض من قيام الليل، أي: سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حملهُ؛ لأن الليل للمنام، فمن أُمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بِحَمْلٍ شديد على النفس ومجاهدةٍ للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيلٌ واللهِ فرائضه وحدوده[1]. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به[2]. أبو العالية: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلاً على المنافقين. وقيل: على الكفار[3]؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان بضلالتهم وسبِّ آلهتهم، والكشف عما حرَّفه أهل الكتاب. السُّديُّ: ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليَّ، أي: كريم عليّ[4]. الفرَّاء: «ثقيلاً»: رزيناً ليس بالخفيف السَّفْساف؛ لأنه كلام ربِّنا[5]. وقال الحسين بن الفضل: ثَقيلاً لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّد بالتوفيق، ونفس مزيَّنة بالتوحيد.

وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة[6]. وقيل «ثَقِيلاً» أي: ثابتاً كثبوت الثقيل في محلِّه، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبداً[7]. وقيل: هو القرآن نفسُه؛ كما جاء في الخبر: أن النبيَّ ﷺ كان إذا أوحيَ إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها - يعني صدرَها - على

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٦، والوسيط ٤/ ٣٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٥، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٣.

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧.

(٤) في (م) و(ي): يكرم، وفي (ظ) نكرم. والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٢٧، وقول السدي منه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٩٧، ونقله عنه الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٧٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٦.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٢٧.

الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه(١).

وفي الموطأ وغيره أنه عليه الصلاة والسلام سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فَيَفصِم عنّي وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرْد، فَيَفصِم عنه، وإن جبينَه ليَتفصَّد عرقاً(٢).

قال ابن العربيّ(٣): وهذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ بالحنيفية السَّمْحة»(٤). وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا اللهُ؛ إذ في الخبر: «لا إله إلا الله خفيفةٌ على اللسان، ثقيلة في الميزان»(٥)؛ ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل، أي: أوقاته وساعاته؛ لان أوقاته تنشأ أوّلاً فأولاً؛ يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه اللهُ فنشأ، ومنه: نشأت السحابةُ: إذا بَدَتْ(٦)،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٤، والطبري ٢٣/ ٣٦٥ عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبي ﷺ..، وأخرجه الإمام أحمد (٢٤٨٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٢) الموطأ ١/ ٢٠٢-٢٠٣، وهو عند الإمام أحمد (٢٥٢٥٢)، والبخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣): (٨٧). قوله: فيَفْصِمُ، أي: يُقلعُ وينجلي ما يغشاني. فتح الباري ١/ ٢٠.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٤.

(٤) سلف ٨/ ١١٧-١١٨ من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٥) ذكره الذهبي في الميزان ٤/ ٥١٣ في ترجمة أبي حرب مولى الزُّهري، ونقل عن ابن حبان قوله فيه: يروي عن مولاه المقلوبات والأوابد لا تحلُّ عنه الرواية بحال إلا على سبيل الاعتبار... وذكر الحديث.

(٦) في (ظ) و(م): بدأت.

وأنشأها اللهُ؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ، فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]. والمراد: إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم(١)، فالتأنيث للفظ ساعة؛ لأن كلَّ ساعة تحدث.

وقيل: الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل](٢) كالخاطئة والكاذبة، أي: إن نشأة(٣) الليل هي أشدُّ وطئاً.

وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ابن مسعود: الحبَشَة يقولون: نشأ، أي: قام(٤). فلعله أراد أن الكلمة عربية(٥)، ولكنها شائعة في كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب. وقد تقدَّم بيان هذا في مقدمة الكتاب مستوفى(٦).

الثانية: بيَّن تعالى في هذه الآية فضلَ صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظمُ للأجر، وأجلبُ للثواب.

واختلف العلماء في المراد بناشئة الليل؛ فقال ابن عُمر وأنس بن مالك: هو ما بين المغرب والعشاء(٧)، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء، فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر:

ولولا أنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ ... لَقلتُ بِنفسِيَ النَّشَأ الصِّغارُ(٨)

---

(١) بعدها في (ظ): الموصوف. والكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن ٢٨٣-٢٨٤ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة تقتضيها العبارة، ينظر تفسير البغوي ٤/ ٤٠٨ ، والكشاف ٤/ ١٧٦ .

(٣) في (د): ناشئة.

(٤) الوسيط ٤/ ٣٧٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٠ ، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٠٥ .

(٥) في (د): غريبة.

(٦) ١/ ١١٠ وما بعد.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ .

(٨) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٨٨ .

وكان عليُّ بن الحسين يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل[١]. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل[٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كلُّه؛ لأنه ينشأ بعد النهار[٣]، وهو الذي اختاره مالك بن أنس.

قال ابن العربيّ[٤]: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة.

وقالت عائشة وابن عباس أيضاً ومجاهد: إنما الناشئة القيامُ بالليل بعد النوم. ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة[٥]. وقال يَمان وابن كَيْسان: هو القيام من آخر الليل[٦]. وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ[٧].

وفي الصحاح[٨]: وناشئة الليل: أولُ ساعاته. وقال القُتَبيُّ: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح[٩]. وعن الحسن أيضاً: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة[١٠]. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهري[١١].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٨ ، والكشاف ٤/ ١٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩١ .

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٩٠ عن ابن عباس، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٩٩-٧٠٠ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٥ ، وما قبله منه.

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ عن عائشة رضي الله عنها ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٧ عن مجاهد.

(٦) زاد المسير ٨/ ٣٩١ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ .

(٨) مادة (نشأ).

(٩) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ .

(١١) في الصحاح (نشا).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحاق ومجاهد وحُميد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حَيْوة: «وِطَاءً» بكسر الواو وفتح الطاء والمدِّ، واختاره أبو عبيد. الباقون: «وَطْئاً» بفتح الواو وسكون الطاء مقصورةً[(١)]، واختاره أبو حاتم؛ من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم، أي: ثقل عليهم ما حمَّلهم من المُؤَن[(٢)]، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر»[(٣)]، فالمعنى أنها أثقل على المصلّي من ساعات النهار، وذلك أن الليل وقتُ منامٍ وتودُّع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة.

ومن مدَّ فهو مصدر: واطأت وِطاءً ومواطأةً، أي: وافقته. أبو زيد: واطأتُه على الأمر مواطأة: إذا وافقتَه من الوِفاق، وفلان يواطئ اسمُه اسمي، وتواطؤوا عليه، أي: توافقوا[(٤)]؛ فالمعنى أشدُّ موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لانقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وابن أبي مُلَيكة وغيرهما. وقال ابن عباس بمعناه[(٥)]، أي: يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي: ليوافقوا. وقيل: المعنى: أشد مِهاداً للتصرف في التفكّر والتدبّر. والوِطاء خلاف الغِطاء[(٦)]. وقيل: «أَشَدُّ وَطْئاً» بسكون الطاء وفتح الواو، أي: أشدّ ثباتاً[(٧)] من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل

---

(١) السبعة ص٦٥٨، والتيسير ص٢١٦ عن أبي عمرو وابن عامر. وعن مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨، وعن ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٦٤.

(٢) الكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤، وزاد المسير ٨/ ٣٩١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٤/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٤) الصحاح (وطأ).

(٥) ينظر الوسيط ٤/ ٣٧٤، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٧٢ عن مجاهد بنحوه.

(٦) الصحاح (وطأ).

(٧) في (د): بياناً، وفي (ي): شأناً.

وأتقى[١] لما يُلهي ويشغل القلب. والوطء الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدَمي. وقال الأخفش: أشد قياماً. الفراء: أثبت قراءةً وقياماً[٢]. وعنه: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثارَ من العبادة، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبيُّ: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: أشد نشاطاً للمصلي؛ لأنه في زمان راحته. وقال عبادة: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: نشاطاً للمصلّي وأخفُّ، وأثبت للقراءة[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءة بالليل أقوم منها بالنهار، أي: أشد استقامة واستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي: أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم[٤]. وقال أبو علي[٥]: «أَقْوَمُ قِيلاً» أي: أشد استقامة لفراغ البال بالليل. وقيل: أي: أعجل إجابة للدعاء. حكاه ابن شجرة[٦]. وقال عكرمة: عبادة الليل أتم نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة[٧]. وعن زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقَّه في القرآن. وعن الأعمش قال: قرأ أنس بن مالك: «إِنَ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَصْوَبُ قِيلاً». فقيل له: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فقال: أقوم وأصوب وأهيأ: سواء[٨]. قال أبو بكر الأنباريّ: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنىً ولم يأتِ بغير ما أراد اللهُ وقصَد له، واحتجوا بقول أنس هذا. وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يُلتفت إلى قائله؛

---

(١) في (د) و(ي) وأبقى.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ بنحوه.

(٤) المصدر السابق.

(٥) بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٣٥.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٩ دون نسبة.

(٨) المحتسب ٢/ ٣٣٦ ، وأخرجه أبو يعلى (٤٠٢٢)، والطبري ٢٣/ ٣٧٣ منقطعاً.

لأنه لو قرأ بألفاظ تخالفُ ألفاظَ القرآن إذا قاربت معانيها واشتَملت على عامتها، لجاز أن يقرأ في موضع ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: الشكرُ للباري ملكِ المخلوقين، ويتسع الأمرُ في هذا حتى يبطل لفظُ جميع القرآن، ويكون التالي له مفترياً على الله عز وجل، كاذباً على رسولِهِ ﷺ، ولا حجة لهم في قول ابن مسعود: نزل القرآنُ على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدِكم: هَلُمَّ وتعالَ وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورةَ المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبيِّ ﷺ إذا اختلفت ألفاظُها، واتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في «هلمَّ وتعال، وأقبل». فأما ما لم يقرأ به النبيُّ ﷺ وأصحابه وتابِعوهم ﷺ، فإنه مَن أورد حرفاً منه في القرآن بَهت ومال[(١)] وخَرَج من مذهب الصواب. قال أبو بكر: والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديثٌ لا يصح عن أحدٍ من أهل العلم[(٢)]؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة، أي: تصرُّفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً[(٣)]. والسَّبْح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديدُ الجري[(٤)]؛ قال امرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُباراً[(٥)] بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[(٦)]

---

(١) بدلها في (ظ): فقد كذبه وخانه.

(٢) في (د) و(ظ): لا يصحح مذهب أهل العلم. وفي (ي): لا يصحح مذهبَه أهل العلم.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤ .

(٤) الكلام بنحوه في الصحاح (سبح)، والوسيط للواحدي ٤/ ٣٧٤ .

(٥) في (م): الغبار. والمثبت من (د) و(ي) والديوان.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٢٠ ، قال شارحه: قوله: مِسَحٍّ، أي: يسح العدوَ سحًّا مثل سحِّ المطر، وهو انصبابه. والسابحات: التي تبسط يديها إذا عَدَت فكأنها تسبح. والونى: الفتور. والكديد: ما غلظ من =

وقيل: السَّبْحُ الفراغ، أي: إن لك فراغاً للحاجات بالنهار[١]. وقيل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا﴾ أي: نوماً، والتسبّح التمدُّد؛ ذكره الخليل. وعن ابن عباس وعطاء: ﴿سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك[٢]. وقال الزجاج[٣]: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل: «سَبْخاً» بالخاء المعجمة[٤]. قال المهدويُّ: ومعناه النوم؛ روي ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسَّعة والاستراحة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ لعائشة وقد دعت على سارق ردائها: «لاتُسبِّخِي [عنه] بدعائك عليه»[٥] أي: لاتخفِّفي عليه إثمَه، قال الشاعر:

فَسَبِّخْ عليك الْهَمَّ واعلم بِأَنَّهُ ... إذا قَدَّرَ الرحمنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيُّ: يقال: سَبَّخ اللهُ عنك الحُمَّى، أي: خفَّفها. وسَبَخ الحَرُّ: فتر وخَفَّ. والتَّسبِيخ: النومُ الشديد[٦]. والتَّسبيخ أيضاً: توسيع القطن والكَتَّان والصوف وتنفيشها، يقال للمرأة: سبِّخي قطنَك[٧] والسَّبيخُ من القطن: ما يسبَّخ بعد النَّدْف، أي: يُلفُّ لتغزله المرأة، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر. ويقال لقطع القطن: سبائخ، قال الأخطل[٨] يصف القُنَّاص والكلاب:

= الأرض. والمركَّل: الذي ركلته الخيل بحوافرها، فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها. والمعنى: أن هذا المسحّ بمنزلة السابحات.

(١) بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٠ ، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٧٧ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٤ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٤١٨٣)، وأبو داود (١٤٩٧)، بلفظ: «لا تُسَبِّخي عنه» وسلف ٧/ ٢٠١ واللفظ أعلاه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩ ، والفائق للزمخشري والنهاية لابن الأثير (سبخ). وما بين حاصرتين منها.

(٦) الصحاح (سبخ).

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٧ .

(٨) في ديوانه ص١١٥ .

فأرسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ التّرابَ كما يُذْرِي سَبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ

وقال ثعلب: السَّبْخ ـ بالخاء ـ الترَدّدُ والاضطراب، والسَّبْخ أيضاً السكون، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «الحُمّى من فيح جهنم، فسبِّخوها بالماء» أي: سكِّنوها[١]. وقال أبو عمرو: السَّبْخ: النوم والفراغ[٢].

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السبح، بالحاء غير المعجمة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: أُدعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمودُ العاقبة. وقيل: أي اقصد بعملك وجهَ ربِّك[٣]. وقال سهل[٤]: اقرأ بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركةُ قراءتها إلى ربك، وتقطعك عمَّا سواه[٥].

وقيل: اذكر اسم ربِّك في وعده ووعيده، لتَوَفَّر على طاعته وتعدل عن معصيته[٦].

وقال الكلبيُّ: صلِّ لربِّك أي: بالنهار.

قلت: وهذا حسن، فإنه لمَّا ذكر الليل ذكَر النهار، إذ هو قَسيمُه، وقد قال

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو عند أحمد (٢٦٤٩)، والبخاري (٣٢٦١)، ومسلم (٢٢١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فأبردوها، بدل: فسبِّخوها. وفي الباب عن ابن عمر ورافع بن خديج وأبي بشير وأبي أمامة وعائشة وأسماء، رضي الله عنهم.

(٢) الصحاح (سبخ).

(٣) النكت والعيون ٦/١٢٨.

(٤) في(د) و(ظ) سهيل. والمثبت من (م) و(ي) والمحرر الوجيز ٥/٣٨٨، وذكر هذا القول الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/٩٦ دون نسبة.

(٥) في(د) و(ظ) و(ي): تهواه

(٦) النكت والعيون ٦/١٢٨.

الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] على ما تقدَّم[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التَّبتُّل: الانقطاع إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، أي: انقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيرَه. يقال: بتلت الشيء، أي: قطعته، ومنه قولهم: طلقها بَتَّةً بتلة، وهذه صدقة بتة بتلة، أي: بائنة منقطعة عن صاحبها، أي: قُطِع مِلكُه عنها بالكلية، ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى[٢]، ويقال للراهب: متبتّل، لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال:

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأنَّها ... مَنارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ[٣]

وفي الحديث النهي عن التبتُّل[٤]، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات[٥]. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد، قاله ابن عرفة. والأوَّل أقوى[٦] لِما ذكرنا. ويقال: كيف قال: تَبْتِيلاً، ولم يقل: تَبَتُّلاً؟ قيل له: لأن معنى تَبَتَّل: بَتَّل نفسَه، فجيء به على معناه مراعاة لحقِّ الفواصل[٧].

الثالثة: قد مضى في «المائدة» في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية: ٨٧] كراهةٌ لمن تبتَّل وانقطع وسلكَ سبيلَ الرهبانية بما فيه كفاية. قال ابن العربيّ[٨] وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس، وخفَّت أماناتهم،

---

(١) ١٥/ ٤٦١ .

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٢ .

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٧ ، قال شارحه: قوله: مُمْسَى راهب، أي: المنارة التي تضيء في وقت إمساء الراهب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٠١٩٢) عن سمرة بن جندب ﷺ. وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص عند أحمد (١٥٢٥)، والبخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٨ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٧ .

(٧) الكشاف ٤/ ١٧٧ .

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٧-١٨٦٨ ، وما قبله منه.

واستولى الحرام على الحُطام، فالعُزْلة خير من الخِلْطة، والعُزْبة أفضل من التأهُّل، ولكن معنى الآية: انقطِع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله. وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلِص له العبادة. ولم يرد التبتُّلَ، فصار التبتل مأموراً به في القرآن، منهيًّا عنه في السنة، ومتعلَّق الأمر غير متعلَّق النهي، فلا يتناقضان، وإنما بُعث ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، فالتبتُّل المأمور به: الانقطاعُ إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. والتبتُّل المنهيُّ عنه: هو سلوك مسلَك النصارى في ترك النكاح والترهُّب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مالِ المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر، يفرُّ بدينه من الفتن.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قرأ أهلُ الحرمين وابن مُحَيْصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص: «رَبُّ» بالرفع على الابتداء، والخبر: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[١]. وقيل: على إضمار «هو». الباقون: «رَبِّ» بالخفض[٢] على نعت الربِّ تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾«رَبِّ الْمَشرقِ». ومن علم أنه ربُّ المشارق والمغارب انقطع بعمله وأملِه إليه.

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: قائماً بأمورك[٣]. وقيل: كفيلاً بما وعدَك[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من الأذى والسبِّ والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم .﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك تركَ الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ .

(٢) السبعة ص٦٥٨ ، والتيسير ص٢١٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٤/ ١٧٧ .

بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من التَّرْك، قاله قتادة[١] وغيره. وقال أبو الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ في وجوه [أقوام] ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتَقْليهم أو لتلعنهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اِرض بي لعقابهم. نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين. وقال مقاتل: نزلت في المُطْعِمِين يوم بدر[٣] وهم عشرة. وقد تقدَّم ذكرهم في «الأنفال»[٤]. وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة. وقال سعيد ابن جُبير: أُخبرت أنهم اثنا عشر رجلاً[٥]. ﴿أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: أولي الغنى والترفُّه واللذة في الدنيا. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ يعني إلى مدَّة آجالهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعةُ بدر[٦]. وقيل: «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً» يعني إلى مدة الدنيا[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الأنكال: القيودُ. عن الحسن ومجاهد وغيرهما[٨]. واحدها نِكْل، وهو ما منع الإنسان من الحركة. وقيل: سمِّي نِكلاً، لأنه

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٣٠-١٣١، وبنحوه الطبري ٢٣/ ٣٨٠.

(٢) علقه عنه البخاري بصيغة التضعيف قبل الحديث (٦١٣١)، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٢، والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٠٣). وما بين حاصرتين من المصادر. قوله: نَكْشِرُ، أي: نتبسَّم. وتَقْليهم، أي: تُبغضهم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤١٠، وزاد المسير ٨/ ٣٩٢.

(٤) ١٠/ ٨١ وما بعد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٩.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨١، وأبو يعلى (٤٥٧٨).

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٠.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٣.

يُنَكَّل به[١]. قال الشعبيُّ: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشيةَ أن يهربوا؟ لا واللهِ! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا اسْتَفَلت بهم[٢]. وقال الكلبيُّ: الأنكال: الأغلالُ، والأوّل أعرف في اللغة، ومنه قول الخنساء:

دَعــاكَ فَــقَــطَّــعْــتَ أَنْــكَــالَــهُ وقَــدْ كُــنَّ قَــبْــلَــكَ لا تُــقْــطَــعُ[٣]

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد، قاله مقاتل. وقد جاء أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الله يحبُّ النَّكَل على النَّكل» بالتحريك، قاله الجوهريُّ[٤]. قيل: وما النَّكَل؟ قال: «الرجل القويُّ المجرَّب، على الفرس القويِّ المجرَّب» ذكره الماورديُّ[٥]، قال: ومن ذلك سمي القيد نِكْلاً؛ لقوته، وكذلك الغُلُّ، وكل عذاب قوي فاشتد. والجحيم: النار المؤجَّجة.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: غير سائغ، يأخذ بالحَلْق، لا هو نازل ولاهو خارج، وهو الغِسلِين والزَّقُّوم والضَّريع، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: أنه شوك يدخل الحَلْق، فلا ينزل ولايخرج[٦].

وقال الزجاج[٧]: أي: طعامهم الضَّريع، كما قال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦]، وهو شوك كالعَوْسَج. وقال مجاهد: هو الزَّقُّوم[٨]، كما قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤]. والمعنى واحد.

---

(١) ينظر الصحاح (نكل).

(٢) ذكره عنه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧٧ مختصراً.

(٣) ديوان الخنساء ص٩٢، وروايته فيه: فهتكت أغلاله، بدل: فقطعت أنكاله.

(٤) في الصحاح (نكل)، وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٤٥ بنحوه.

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٣٠، والكلام منه.

(٦) المصدر السابق، وأخرجه الطبري٢٣/ ٢٨٤.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٢.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٤.

وقال حُمْران بن أَعْيَن: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فصعق[١].

وقال خُلَيد بن حسان: أمسى الحسنُ عندنا صائماً، فأتيته بطعامٍ، فعرضْتُ له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا﴾ فقال: ارفع طعامَك. فلمَّا كانت الثانية أتيته بطعام، فعرضَتْ له هذه الآيةُ، فقال: ارفعوه. ومثله في الثالثة، فانطلق ابنه إلى ثابت البُنَاني ويزيدَ الضَّبِّيّ ويحيى البكَّاء، فحدَّثهم، فجاؤوه، فلم يزالوا به حتى شرب شَرْبة من سَوِيق[٢].

والغُصَّة: الشَّجا ـ وهو مايَنْشَب في الحلق من عَظْم أو غيره ـ وجمعها: غُصَصٌ. والغَصَصُ بالفتح مصدر قولك: غَصِصْتَ يا رجل تَغَصُّ، فأنت غاصٌّ بالطعام وغصَّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصٌّ بالقوم، أي: ممتلئ بهم[٣].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تتحرَّك وتضطرب بمن عليها.

وانتصب «يوم» على الظرف، أي: يُنَكَّل بهم ويعذَّبون «يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ». وقيل: بنزع الحافض، يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال. وقيل: العامل «ذَرني» أي: وذرني والمكذبين يومَ ترجُف الأرض والجبال.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: وتكون، والكثيب: الرملُ المجتمع قال حسان:

عَرَفْتُ دِيار زَيْنَبَ بالْكَثِيبِ ... كَخَطِّ الْوَحْي في الْوَرَقِ الْقشِيبِ[٤]

والمَهِيل: الذي يمرُّ تحتَ الأرجل. قال الضحاك والكلبيُّ: المَهِيل: هو الذي

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص٦٤ ، وهناد في الزهد(٢٦٧)، والطبري ٢٣/ ٣٨٥ عن حُمران مرسلاً، والذي عند أبي عبيد: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ... فصعق رسول الله ﷺ وحمران ابن أَعْين ضعيف رمي بالرفض، كما ذكر ابن حجر في التقريب .

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٧ ، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٦ مطولاً.

(٣) الصحاح(غصص)، وينظر القاموس المحيط (شجي).

(٤) ديوان حسان ص١٢ ، وسلف ٩/ ٤٦٣ .

إذا وطئتَه بالقدم زلَّ من تحتها، وإذا أخذتَ أسفله انهال. وقال ابن عباس: «مَهِيلاً» أي: رملاً سائلاً[١] متناثراً. وأصله: مهْيول[٢]، وهو مَفْعول؛ من قولك: هِلْت عليه التراب أَهِيله هيلاً: إذا صببتَه. يقال: مَهِيل ومَهْيول، ومَكِيل ومَكْيول، ومَدِين ومَدْيون[٣]، ومَعِين ومَعْيون، قال الشاعر:

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَكَ سَيِّداً ... وإخالُ أنَّك سَيِّدٌ مَعْيُونُ[٤]

وفي حديث النبيِّ ﷺ أنهم شَكَوْا إليه الجُدُوبةَ، فقال: «أتكِيلون أم تَهِيلون» قالوا: نَهيل. قال: «كِيلوا طعامَكم يُبَارَكْ لكم فيه»[٥]. وأَهَلْت الدقيق لغة في هِلتْ، فهو مُهال ومَهِيل[٦]. وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يريد النبيَّ ﷺ؛ أرسله إلى قريش ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ

(١) النكت والعيون ٦/ ١٣٠ .
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ .
(٣) زاد المسير ٨/ ٣٩٣ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٨٢ .
(٤) سلف ١٨/ ٢٥٥ .
(٥) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤١٦ ، وابن الأثير في النهاية (هيل) ، ولفظه: أن قوماً شكوا إليه سرعة فناء طعامهم، فقال: «أتكيلون أم تهيلون»؟ قالوا: نهيل. قال «فكيلوا ولا تهيلوا». وقوله: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه» أخرجه الإمام أحمد (١٧١٧٧)، والبخاري(٢١٢٨) من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الإمام أحمد (٢٣٥٠٨)، وابن ماجه (٢٢٣٢) من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ.
(٦) الصحاح(هيل).
(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٢ .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: كذَّب به ولم يؤمن. قال مقاتل: ذكَر موسى وفرعون، لأن أهل مكة ازدرَوا محمداً ﷺ واستخفوابه، لأنه وُلِد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى، لأنَّه ربَّاه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى إخباراً عنه[١]: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[٢] [الشعراء:١٨]. قال المهدويُّ: ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدُّم ذكره[٣]، ولذلك اختير في أوّل الكتب: سلام عليكم، وفي آخرها: السلام عليكم[٤].

﴿وَبِيلًا﴾ أي: ثقيلاً شديداً. وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل، أي: شديد، قاله ابن عباس ومجاهد[٥]. ومنه مطر وابل، أي: شديد، قاله الأخفش[٦]. وقال الزجاج[٧]: أي: ثقيلاً غليظاً. ومنه قيل للمطر: وابل. وقيل: مُهلكاً قال:

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى ... وجَدْتِ مَرَارة الْكَلأ الْوَبِيلِ[٨]

واستوبل فلان كذا، أي: لم يَحمَد عاقبته. وماء وبيل، أي: وخيم غير مريء، وكَلأٌ مستَوْبَل وطعام وبيل ومُستَوبَلٌ: إذا لم يُمْرِئ ولم يُسْتَمْرأ[٩]، قال زهير:

فَقَضَّوْا منايا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا ... إِلَى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ[١٠]

وقالت الخنساء:

---

(١) قوله: إخباراً عنه، من(ظ).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٣٨٦، والرازي ٣٠/ ١٨٣ دون نسبة.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ بنحوه دون نسبة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٧.

(٦) الصحاح (وبل).

(٧) في معاني القرآن له ٥/ ٢٤٢، ونقله عنه الماوردي في النكت ٦/ ١٣٠.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٣٠.

(٩) الكلام بنحوه في تفسير للطبري ٢٣/ ٣٨٦، وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٨٦.

(١٠) شرح ديوان زهيرص٢٤-٢٥، قال شارحه: فقضَّوا مناياهم، أي: أنفذوها، أي: قَتَلوا من قتلوا ثم أصدروا بعد صلحهم، فصار آخر أمرهم إلى وخامةٍ وفساد.

لَقَدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لاقَتْ فَوَارِسَ مَالك أَكْلاً وبِيلاً[١]

والوبيل أيضاً: العصا الضخمةُ، قال:

لَو اصْبَحَ في يُمْنى يَدَيَّ زِمامُها وفي كَفِّيَ الأخرى وَبيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء، والمَوْبل[٢] أيضاً: الحُزْمة من الحطب، وكذلك الوَبيل، قال طَرفة:

عَقِيلَةُ شَيْخ كالوبيل يَلَنْدَد[٣]

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ هو توبيخ وتقريع، أي: كيف تتقونَ العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي: كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم[٤]. وكذا قراءة عبد الله [٥] وعطية. قال الحسن: أي: بأيِّ صلاة تتقون العذاب؟ بأيِّ صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي: كيف تتقون عذاب يومٍ.

وقال قتادة: واللهِ ما يتقي مَن كفَر بالله ذلك اليوم بشيءٍ[٦]. و«يَوْماً» مفعول بـ«تَتَّقُونَ» على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدِّر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول «كَفَرْتُمْ»[٧]. وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله: «كَفَرْتُمْ»، والابتداء «يَوْماً»، يذهب إلى أن اليوم مفعول «يجعل» والفعل لله عزَّ و جلَّ، وكأنه

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب ١٩/ ٤٧٤-٤٧٥ .

(٢) في(د) و(م): الموبلة. والمثبت من (خ) و(ي) وهو الموافق لما في الصحاح (وبل) وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٨٧ .

(٣) ديوان طرفة ص٣٨ ،وصدره: فمرت كهاةٌ ذاتُ خَيف جُلالةٌ وسلف ٨/ ٢٠٧ ، والكلام في الصحاح (وبل)، وفيه: أَلَنْدَدِ، بدل: يَلَنْدَدِ، وهوموافق لنسخة (د) .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣/ ١٨٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٨ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٥ ، والطبري ٢٣/ ٣٨٨ .

(٧) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ .

قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم. قال ابن الأنباري(١): وهذا لا يصلح، لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدَّة هوله.

المهدويُّ: والضمير في «يجعل» يجوز أن يكون لله عزَّ وجلَّ ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عزَّ وجلَّ إلا مع تقدير حذف، كأنه قال: يوماً يجعل الله الوالدان فيه شيباً(٢). ابن الأنباري(٣): ومنهم من نصب اليوم بـ «كفرتم» وهذا قبيح، لأن اليوم إذا عُلِّق بـ«كفرتم» احتاج إلى صفة «كفرتم» لـ «يوم»(٤). فإن احتجَّ محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، احتججنا عليه بقراءة عبد الله: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمَاً».

قلت: هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ«يوماً» مفعول صريح من غير صفة ولاحذفها، أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يومَ القيامة والجزاء.

وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب: «فكيف تتقونِ» بكسر النون على الإضافة(٥). و«الْوِلْدَانَ»: الصبيانُ. وقال السُّديُّ: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصحُّ، أي: يشيب فيه الصغير من غير كِبَر. وذلك حين يقال لآدم: «يا آدم قم فابعث بَعْث النار». على ما تقدَّم في أول سورة الحج(٦).

قال القُشيريُّ: ثم إن أهل الجنة يغيِّر اللهُ أحوالهم و أوصافهم على ما يريد. وقيل: هذا ضربُ مَثَل لشدَّة ذلك اليوم، وهو مجاز، لأن يوم القيامة لا يكون فيه

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٣ ، وما قبله منه.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٣-٩٥٤ .

(٤) جاءت العبارة في (م) : احتاج إلى صفة، أي كفرتم بيوم. والمثبت من (د)و(ي)، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء، والكلام منه.

(٥) ذكرها عنه ابن عادل الحنبلي في اللباب ١٩/ ٤٧٨ .

(٦) ١٤/ ٣٠٩ من حديث أنس ﷺ.

وِلدان، ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحالٍ لو كان فيه هناك صبي لَشابَ رأسُه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنْفَخ في الصور نفخة الصعْق، فالله أعلم.

الزمخشريّ[١]: وقد مرَّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحِمَ الشعر كحنك الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثَّغامة[٢]، فقال: أرِيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمِن هول ذلك أصبحتُ كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطُّول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوانَ الشيخوخة والشيَّب.

قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾أي: متشقِّقة لشدَّته. ومعنى«بِهِ»، أي: فيه، أي: في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مُثْقَلة به إثقالاً يؤدِّي إلى انفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] [الأعراف:١٨٧].

وقيل: «بِهِ» أي: له، أي: لذلك اليوم[٤]، يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي: في يوم القيامة. وقيل: «بِهِ» أي: بالأمر، أي: السماء مُنْفطر بما يجعل الولدان شيباً.

وقيل: منفطر بالله، أي: بأمره. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل: منفطرة، لأن مجازها السقف، تقول: هذا سماء البيت[٥]، قال الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إلَيْهِ قوماً   لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ[٦]

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٧٨ .

(٢) في (د) و(ظ): كالنعامة. وفي القاموس (ثغم) : أثغم الرأس، أي: صار كالثَّغامة بياضاً. والثغامة: نبت.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٤ ، والكلام بنحوه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٤ .

(٦) البيت للفرزدق، وروايته في ديوانه ص٣٣ : ولو رفع الإله، بدل: فلو رفع السماء.

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث(١). وقال أبو علي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. وقال أبو عليّ أيضاً: أي: السماء ذات انفطار، كقولهم: امرأة مرضع، أي: ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب(٢). ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: بالقيامة والحساب والجزاء ﴿مَفْعُولًا﴾: كائناً لاشك فيه ولا خُلْف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدِّين كلِّه(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يريد هذه السورة ـ أو الآيات ـ عِظَة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة(٤). ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب(٥)، فقد أمكن له، لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٢] قال الثعلبيُّ: والأشبه أنه غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٥ دون نسبة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٣ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤١٨ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣١ .

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠ .

(٥) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٩ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ كما تقدَّم[١]، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدَّم[٢].

«تَقُومُ» معناه: تصلِّي و﴿أَدْنَىٰ﴾ أي: أقل[٣].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام: «ثُلْثَي» بإسكان اللام. « ونصفِه وثلثِه» بالخفض قراءة العامة عطفاً على ﴿ثُلُثَيِ﴾، المعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونهُ؟[٤]. وقرأ ابن كثير والكوفيون: «وَنِصْفَهُ وَثُلُثَه» بالنصب عطفاً على «أَدْنَى»[٥] التقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه وثلثَه[٦]. قال الفراء[٧]: وهو أشبه بالصواب، لأنه قال أقلَّ من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلَّةِ لا أقلَّ من القلة. قال القُشَيْري: وعلى هذه القراءة يَحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف، لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه. ويحتمل أنهم أُمروا بقيام نصف الليل، ورُخِّص لهم في الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى الثلث. ويحتمل أنهم قدِّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٦٨ .

(٢) ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٧٧ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦٢ .

(٥) السبعة ص٦٥٨ ، والتيسير ص٢١٦ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٣٤٥ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٩٩ .

وقال قوم: إنما افترض اللهُ عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع. وهذا القول تحكُّم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتَّحرِّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ.﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به. وقيل: لن تطيقوا قيام الليل[1]. والأوَّل أصح، فإنَّ قيام الليل ما فُرض كلُّه قطُّ. قال مقاتل وغيره: لمَّانزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ شقَّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافةَ أن يخطئ، فانتفخت أقدامُهم، وانْتُقِعت ألوانهم، فرحمهم اللهُ وخفَّف عنهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[2] و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي: علم أنكم لن تحصوه، لأنكم إن زدتم ثقُل عليكم، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شقَّ ذلك عليكم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفو[3]، وهذا يدلُّ على أنه كان فيهم من[4] ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي: فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدَّم[5]، فالمعنى: رجع لكم من تثقيلٍ إلى تخفيف، ومن عُسْرٍ إلى يُسْر.

وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرِّي، فخفَّف عنهم ذلك التحري.

وقيل: معنى﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يخلقهما مقدَّرين، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٣٢ من قول الحسن.

(٢) ذكره عنه البغوي ٤/ ٤١١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٩٧ عن قتادة.

(٣) البغوي ٤/ ٤١١ ، والوسيط ٤/ ٣٧٧ .

(٤) في (م): في.

(٥) ١/ ٤٨٢ .

﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]. ابن العربي[١]: تقدير الخلقة لا يتعلَّق به حكم، وإنما يربط اللهُ به ما يشاء من وظائف التكليف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المراد نفس القراءة[٢]، أي: فاقرؤوا فيما تصلُّونه بالليل ما خفَّ عليكم. قال السُّديُّ: مئة آية.

الحسن: من قرَأ مئة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مئة آية كُتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية[٣].

قلت: قول كعب أصحّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقَنْطِرين» خرَّجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ذكرناه في مقدِّمة الكتاب[٤] والحمد لله.

القول الثاني: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر عليكم[٥]، والصلاة تسمى قرآناً؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] أي: صلاة الفجر. ابن العربي[٦]: وهو الأصح؛ لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

قلت: الأوّل أصحُّ حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٩ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٣/ ٣٩٦ .

(٤) ١/ ١٨ ، والحديث لم نقف عليه في مسند أبي داود الطيالسي، و إنما هو في سنن أبي داود السجستاني (١٣٩٨).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١٢ .

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٩ وما قبله منه.

الخامسة: قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ نَسخَ قيامَ الليل ونصفه، والنقصانَ من النصف والزيادة عليه. ثم احتمل قول الله عز وجل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معنيين: أحدهما: أن يكون فرضاً ثابتاً[١]؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره. والآخر أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فاحتمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أن[٢] يتهجد بغير الذي فُرض عليه مما تيسَّر منه. قال الشافعيُّ[٣]: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنةَ رسول الله ﷺ تدلُّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

السادسة: قال القُشيريُّ أبو نصر: والمشهورُ أن نسخ قيام الليل كان في حقِّ الأمة، وبقيت الفريضة في حقِّ النبيِّ ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فالهَدْيُ لابدَّ منه، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل، ولكن فُوِّض قدره إلى اختيار المصلّي، وعلى هذا فقد قال قوم: فَرْضُ قيامِ الليل بالقليل باقٍ؛ وهو مذهب الحسن[٤]. وقال قوم: نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً؛ وهو مذهب الشافعي. ولعل الفريضة التي بقيت في حقِّ النبيِّ ﷺ هي هذا، وهو قيامه، ومقداره مفوَّض إلى خِيرتِه.

وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً فقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معناه: اقرؤوا إن تيسَّر عليكم ذلك، وصلُّوا إن شئتم. وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرَّر في حقِّ النبيِّ ﷺ أيضاً، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه. وقوله: «نَافِلَةً لَكَ» محمول على

---

(١) في (د) و(خ) و(ي) و(م): ثانياً. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن للشافعي ١/ ٥٥، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠، والكلام منهما.

(٢) في النسخ: أي والمثبت من أحكام القرآن والناسخ.

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٥٦، وهو في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠.

(٤) سلف قوله ص٣٢١ من هذا الجزء.

حقيقة النفل. ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]، وما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع(١).

وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، والخطاب للنبيِّ ﷺ وللأمة، كما أنَّ فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ كانت عامة له ولغيره.

وقد قيل: إن فريضة الله امتدت إلى ما بعد الهجرة، ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعالى ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإنما فرض القتال بالمدينة؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]. وقال ابن عباس: لمَّا قدم رسول الله ﷺ نَسَخَ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ وجوبَ صلاة الليل(٢).

السابعة: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ الآية؛ بيَّن سبحانه علةَ تخفيف قيام الليل، فإن الخَلْق منهم المريض، ويشقُّ عليهم قيام الليل، ويشقُّ عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفَّف الله عن الكل لأجل هؤلاء(٣).

---

(١) أخرج البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١١) عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس، فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا فرض اللهُ عليَّ من الصلاة، فقال: «الصلوات الخمس إلا أن تَطَوَّع شيئاً».

(٢) أخرجه أبو عبيد الهروي في الناسخ والمنسوخ (٤٦٧)، والنحاس في ناسخه (٩٠٨) عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس كما في مراسيل ابن أبي حاتم ص١٣٠.

وأخرجه أبو داود (١٣٠٤)، والبيهقي ٢/ ٥٠٠ بنحوه. وسلف نحوه ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٠ .

و«أَنْ» في «أَنْ سَيَكُونُ» مخففة من الثقيلة، أي: علم أنه سيكون[١].

الثامنة: سَوَّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المالَ الحلال[٢] للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله[٣].

وروى إبراهيمُ عن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جالبٍ يجلب طعاماً من بلد إلى بلد، فيبيعه بسعر يومه، إلا كانت منزلته عند الله منزلةَ الشهداء» ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقال ابن مسعود: أيُّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعرِ يومه كان له عند الله منزلة الشهداء، وقرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية[٥].

وقال ابن عمر: ما خلق اللهُ موتةً أموتُها بعد الموت في سبيل الله أحبَّ إليَّ من الموت بين شعبتي رَحْلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض[٦].

وقال طاوس: السَّاعي على الأَرْمَلةِ والمسْكين كالمجاهِدِ في سبيل الله[٧].

وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهّز سفينَةَ حِنطة إلى البصرة، وكتب إلى

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٩.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٩.

(٤) أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وهو مرسل.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١١-٤١٢، والكشاف ٤/ ١٧٩، وأخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٢٥٠)، وفي إسناده فرقد السبخي، وهو ضعيف.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩١، والكشاف ٤/ ١٧٩. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧٩: رواه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع، عن ابن عمر به، وإسناده ضعيف.

(٧) لم نقف عليه من قول طاوس، وأخرجه الإمام أحمد (٨٧٣٢)، والبخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وتمامه: «كالمجاهد في سبيل الله، أوكالذي يقوم الليل ويصوم النهار».

وَكيله: بعِ الطعامَ يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غدٍ؛ فوافق سعةً في السعر، فقال التجار للوكيل: إن أخَّرته جمعةً ربحت فيه أضعافَه، فأخره جمعة، فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحبُ الطعام: يا هذا، إنا كنَّا قنعنا بربح يسيرٍ مع سلامة ديننا، وقد جنيتَ علينا جِناية، فإذا أتاك كتابي هذا؛ فخذ المالَ وتصدَّق به على فقراء البصرة، ولَيتني أنجو من الاحتكار كَفافاً؛ لا عليَّ ولا لي.

ويروى أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد، فافتقده ابن عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام له يبيعه؛ فلقيه فقال له: يا بنيَّ، مالك وللطعام؟ فهلَّا إبلاً، فهلَّا بقراً، فهلَّا غنماً! إن صاحب الطعام يحب المَحْل، وصاحبَ الماشية يحب الغيث.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ أي: صلُّوا ما أمكن؛ فأوجب اللهُ من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدَّم(١). قال ابن العربي(٢): وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية؛ قاله البخاريُّ وغيره، وعقد باباً ذكر فيه حديث: «يَعقِد الشيطانُ على قافية رأس أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ، يضرب على كل عُقْدة مكانها: عليك ليلٌ طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر اللهَ انحلت عُقْدة، فإن توضأ انحلت عُقْدة، فإن صلَّى انحلت عُقَده كلُّها، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النفس، وإلا أصبح خبيثَ النفس كسلان»(٣) وذكر حديثَ سَمُرة ابن جُنْدُب عن النبيِّ ﷺ في الرؤيا قال: «أما الذي يُثْلَغ رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»(٤)، وحديثَ عبد الله بن مسعود قال: ذُكر عند

---

(١) ص٣٢٠-٣٢١ من هذا الجزء.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٠.

(٣) صحيح البخاري (١١٤٢)، وهو عند الإمام أحمد (٧٣٠٨)، ومسلم (٧٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٢/ ٢٤٣.

(٤) صحيح البخاري (١١٤٣)، وأخرجه الإمام أحمد (٢٠٠٩٤) مطولاً، ومسلم (٢٢٧٥) مختصراً. قوله في الحديث: «يثلغ رأسه، الثلغ: الشدخ، وقيل: هو ضربك الشيء الرطبَ بالشيء اليابس حتى ينشدخ. النهاية: (ثلغ).

النبيِّ ﷺ رجلٌ ينام الليل كلَّه، فقال: «ذلكَ رَجُلٌ بالَ الشيطانُ في أذنيه»[١] فقال ابن العربيّ[٢]: فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلقِ الصلاة على المكتوبة؛ فيحمل المطلق على المقيَّد لاحتماله له، وتسقط الدعوى ممَّن عيَّنه لقيام الليل.

وفي الصحيح واللفظُ للبخاري[٣]: قال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبدَ الله، لا تكنْ مثلَ فلان، كان يقوم الليلَ، فترك قيام الليلِ». ولو كان فرضاً ما أقرَّه النبيُّ ﷺ عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذمِّ.

وفي الصحيح[٤] عن عبد الله بن عمر قال: كان الرجل في حياة النبيِّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على النبيِّ ﷺ، وكنت غلاماً شاباً عَزَباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملَكين أخذاني فذهبَا بي إلى النار، فإذا هي مطويّة كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. قال: ولقيَنا مَلَكٌ آخر، فقال لي: لم تُرَعْ. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال: «نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل»، فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً؛ فلو كان تَرْك القيام معصية لمَا قال له المَلك: لم تُرَعْ. والله أعلم.

العاشرة: إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرضٍ، وأن قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾؛ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ محمولٌ على ظاهره من القراءة في الصلاة، فاختلف العلماء في قدْرِ ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة؛ فقال مالكٌ والشافعيُّ: فاتحة الكتاب، لا يجزئ العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها، وقدَّره أبو حنيفة بآية واحدة، من أيِّ القرآن كانت. وعنه ثلاث آيات، لأنها أقلُّ سورة. ذكر القول الأوَّل الماورديُّ[٥]

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٠)، وهو عند الإمام أحمد (٣٥٥٧)، ومسلم (٧٧٤).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٠-١٨٧١ .

(٣) صحيح البخاري (١١٥٢)، وصحيح مسلم (١١٥٩) (١٨٥).

(٤) صحيح لبخاري (١١٢١)، وصحيح مسلم (٢٤٧٩)، وهو عند الإمام أحمد(٦٣٣٠).

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٣٣ .

والثاني ابنُ العربيّ [١]. والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعيُّ ، على ما بيَّناه في سورة الفاتحة[٢] أوَّلَ الكتاب والحمد لله.

وقيل: إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة، قال الماوردي[٣]: فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثر ين، لأنه لو وجب عليه أن يقرأه[٤] لوجب عليه أن يحفظه.

الثاني: أنه محمول على الوجوب، ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائلَ التوحيد منه أن يحفظه، لأن حِفظ القرآن من القُرب المستحبة دون الواجبة.

وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال:

أحدها: جميع القرآن، لأن الله تعالى يسَّره على عبادِه، قاله الضحاك.

الثاني: ثلث القرآن، حكاه جويبر.

الثالث: مئتا آية، قاله السدّيُّ.

الرابع: مئة آية، قاله ابن عباس.

الخامس: ثلاث آيات كأقصر سورة، قاله أبو خالد الكناني.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضة ـ وهي الخمس ـ لوقتها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم، قاله عكرمة وقتادة. وقال الحارث العُكْلي: صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك. وقيل: صدقة التطوع. وقيل: كل أفعال الخير. وقال ابن عباس: طاعة الله والإخلاص له[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧١ .

(٢) ١/ ١٩٠-١٩١ .

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٣٣ ، والقول الذي قبله منه.

(٤) في (م) يقرأ.

(٥) المصدر السابق بنحوه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ القَرْضُ الحسن: ما قُصد به وجهُ الله تعالى خالصاً من المال الطَّيِّب. وقد مضى في سورة الحديد[١] بيانه. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن: النفقةُ على الأهل. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله[٢].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم في سورة البقرة[٣].

وروي عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حَيْساً ـ يعني تمراً بلبن ـ فجاءه مسكين، فأخذه ودفعه إليه. فقال بعضهم: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن ربُّ المسكين، يدري ما هو. فكأنه تأوّلَ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾[٤] أي: مما تركتم وخلّفتم، ومن الشحِّ والتقصير.

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ قال أبو هريرة: الجنة[٥]، ويحتمل أن يكون أعظم أجراً، لإعطائه بالحسنة عشراً. ونصب ﴿خَيْرًا وَأَعْظَمَ﴾ على المفعول الثاني لـ «تَجدوه» و«هو»: فصلٌ عند البصريين، وعمادٌ في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب[٦]. و«أَجْراً» تمييز.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي: سلوه المغفرةَ لذنوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان قبْلَ التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم[٧] بعدها، قاله سعيد بن جبير.

ختمت السورة.

---

(١) عند تفسير الآية ١٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣٤ .

(٣) ٢/ ٣١٦ وما بعد.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٤ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٢ .

(٧) في النسخ: لكم. والمثبت من النكت والعيون ١٦/ ١٣٤ ، والكلام منه.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مَكِّيَّةٌ[1]، وآيُها تسعَ عشرةَ أو عشرونَ[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أصلُهُ: المُتَزَمِّلُ، مِن تزمَّل بثِيابِهِ إذا تلفَّفَ بها، فأُدغمَ التَّاءُ في الزَّايِ، وقد قُرِئَ به[3]، وبـ(المُزَمِّل) مفتوحةَ الميمِ ومَكسورَتَها[4]؛ أي: الذي زمَّله غيرُه أو زمَّلَ نفسَهُ[5]، سُمِّيَ به النبيُّ عليهِ السَّلامُ تهجينًا لِمَا

---

(١) واستثني منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى آخر السُّورة فإنَّها مدنيَّة. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (٢٧/ ٤٦٧).

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٥٧)، وفيه: وهي ثماني عشرة آية في المدني الأخير، وتسع عشرة في المكي بخلاف عنه وفي البصري، وعشرون في عدد الباقي، وفي المكي من روايتنا.

(٣) كلاهما مع تخفيف الزاي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٦) عن أبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٥)، عن عكرمة بكسر الميم، وبفتح الميم نسبت في «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٦)، و«البحر» (٢١/ ٧٢)، لبعض السلف.

(٥) قولُه: «الَّذي زمَّلَه غيرُه» هو بيانٌ له على قراءةِ الفتحِ «أو زمَّلَ نفسَه» على قراءةِ الكسر؛ لأنَّ ذكرَ الفاعلِ دونَ المفعولِ يدلُّ على أنَّه حُذِفَ مفعولُه للعلمِ به، أو نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، فلذا لم يُبنَ للمفعولِ. قاله الشهاب.

كانَ عليـه[1]؛ لأنَّـه كانَ نائمًـا أو مُرتَعِـدًا لمَّـا دَهِشَـهُ بَدْءُ الوحـيِ مُتزَمِّلًا فـي قطيفةٍ.

أو تحسينًا له، إذ رُوِيَ أنَّه كان يُصلِّي مُتلفِّفًا بمِرْطٍ مَفروشٍ على عائشةَ فنزلَ[2].

أو تشبيهًا له في تَثاقُلِه بالمُتزمِّلِ[3]؛ لأنَّه لم يَتمرَّنْ بعدُ في قيامِ الليلِ.

أو مِن تزمَّلَ الزِّمْلَ: إذا تحمَّلَ الحِمْلَ؛ أي: الذي تحمَّلَ أعباءَ النبوَّةِ.

(٢) ـ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: قُمْ إلى الصَّلاةِ، أو: داوِمْ عليها، وقُرِئَ بضمِّ الميمِ وفتحِها[4] للإتباعِ أو التَّخفيفِ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

---

(١) قولُـه: «تهجينًـا لِـما كانَ عليـه...» قـال الشـهاب: «التَّهجيـنُ: التَّقبيـحُ، وقد تبـعَ في هـذه العبارةِ الزَّمخشـريَّ، وشـنَّعَ عليـه صاحـبُ «الانتِصـافِ» فيهـا، وقـالَ: إنَّ فيه سـوءَ أدبٍ، وهو كمـا قالَ». قلـت: بـل إن العلمـاء جعلـوا نـداءَه بالمزَّمِّل وغيرَ ذلـك من صفاته تشـريفاً له ﷺ. وقال الشـهاب أيضـاً: «والحـقُّ مـا قالَـه السُّـهَيليُّ: أنَّـه تأنيـسٌ لـه ومُلاطَفـةٌ، على عـادةِ العربِ في اشـتقاقِ اسـمٍ للمُخاطـبِ مـن صفتِـه الَّتـي هـو عليهـا، كقولِـه عليـه السَّـلامُ لعليٍّ: «قُـمْ يـا أبـا تُـرابٍ»؛ قصـدًا لرفـعِ الحجـابِ، وطـيِّ بسـاطِ العتابِ، وتنشـيطًا لـه، ليتلَقَّى ما يـرِدُ عليه بـلا كسَـلٍ، وكلُّ ما يفعلُ المحبـوبُ محبوبٌ».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠) عن عائشة رضي الله عنها. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ١٠٧): «غريب». وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٧٨): «لم أره هكذا». ورده عدد من المفسرين بأن السورة مكية، وأن ذلك كان في بيت خديجة رضي الله عنها كما هو مشهور ومعلوم. وانظر: «الانتصاف» لابن المنير (٤/ ٦٣٤).

(٣) قولُه: «أو تشبيهًا له في تثاقُلِه...» قال الشهاب: يعني: أنَّه استعارةٌ، فشُبِّه عدَمُ التَّمرُّنِ فيما ذكرَ بالنَّومِ على فراشٍ مُغطًّى، ووجهُ الشَّبه تعطُّلُ الأمورِ أو التَّثاقُلُ فيها...، والأحسَنُ تركُه لِـمَا فيه من سوءِ الأدبِ كالوجهِ الأوَّلِ مع مُخالفتِه للقواعدِ أيضًا.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦)، بضم الميم عن أبي السمال، وبفتحها دون نسبة.

(٣ ـ ٤) ـ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ الاستثناءُ مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، و﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ من ﴿قَلِيلًا﴾، وقلَّتُه بالنِّسبَةِ إلى الكلِّ، والتَّخييرُ: بين قيامِ النِّصفِ والزَّائدِ عليه كالثُّلثَيْنِ، والنَّاقصِ عنه كالثُّلُثِ.

أو ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ والاستثناءُ منه، والضَّميرُ في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ للأقلِّ مِن النِّصفِ كالثُّلُثِ، فيكونُ التَّخييرُ بينَهُ وبينَ الأقَلِّ منه كالرُّبعِ، والأكثرِ منه كالنِّصفِ. أو للنِّصفِ[1] والتَّخييرُ بينَ أَنْ يقومَ أقلَّ منه على البَتِّ، وأن يختارَ أحدَ الأمرينِ مِن الأقلِّ والأكثرِ.

أو الاستثناءُ مِن أعدادِ الليلِ فإنَّه عامٌّ، والتَّخييرُ: بينَ قيامِ النِّصفِ والنَّاقصِ عنه والزَّائدِ عليه.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾: اقرَأْهُ على تُؤَدَةٍ وتبيينِ حروفٍ بحيثُ يتمكَّنُ السَّامعُ مِن عدِّها، مِن قولِهم: ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتْلٌ: إذا كانَ مفلَّجًا.

(٥) ـ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا﴾ يعني: القرآنَ؛ فإنَّه لِمَا فيهِ مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ ثَقيلٌ على المكلَّفينَ سِيَّمَا على الرَّسولِ؛ إذ كانَ عليه أن يتحمَّلَها ويُحَمِّلَها أمَّتَه، والجملةُ اعتراضٌ بتسهيل التكليفِ عليه بالتَّهجُّدِ، دالٌّ على أنَّه مُشِقٌّ مُضادٌّ للطَّبعِ مُخالفٌ للنَّفسِ.

أو: رصينٌ[2]؛ لرَزانةِ لفظِهِ ومَتانةِ مَعناه.

أو: ثقيلٌ على المتأمِّلِ فيه لافتقارِه إلى مزيدِ تَصفيةٍ للسرِّ وتجريدٍ للنَّظرِ.

أو: ثقيلٌ في الميزانِ.

---

(١) قوله: «أو للنصف» عطف على (للأقل).

(٢) قوله: «أو رصين» هو مع ما بعده عطف على «ثقيل على المكلفين».

أو: ثقيلٌ على الكفَّارِ والفُجَّارِ.

أو: ثقيـلٌ تَلقِّيـهِ؛ لقـولِ عائشـةَ رضـي الله عنهـا: رأيتُـهُ ينـزِلُ عليـه الوَحيُ في اليَـومِ الشَّـديدِ البَـردِ فيَفْصِمُ عنـه وإنَّ جبينَـهُ ليَرْفَضُّ عرقًـا(١). وعلى هـذا يجوزُ أن يكـونَ صفـةً للمَصدرِ.

والجملةُ على هذه الأوجُهِ(٢) للتَّعليلِ مُستأنَفةٌ(٣)، فإنَّ التَّهجُّدَ يُعِدُّ للنَّفسِ ما به تُعالَجُ ثقلَهُ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: إنَّ النَّفسَ التي تنشَأُ مِـن مَضجَعِها إلى العبادَةِ، مِن نَشَأَ مِن مَكانِه: إذا نهضَ، قال:

نَشَأْنَا إلى خُوْصٍ بَرَى نَيَّـهَا السُّـرَى وَأَلْصَـقَ مِنْـهَا مُـشْـرِفَاتِ القَمَاحِدِ(٤)

أو: قيامَ الليلِ، على أنَّ الـ﴿نَاشِئَةَ﴾ له.

أو: العبادةَ التي تنشَأُ بالليلِ؛ أي: تحدثُ.

---

(١) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣). قوله: «فَيَفصِم»؛ أي: يُقلع، ومعناهُ: يُفارِقُه. و«ارفضَّ عرقاً»؛ أي: جرى عرقه وسال.

(٢) عدا الوجه الأول فإن الجملة عليه اعتراض كما ذكر المصنف نفسه.

(٣) «مستأنفة» من نسخة الخيالي، وفي باقي النسخ: «مستأنف». وهكذا وقعت في نسخ الشهاب لذلك قال: وكانَ الظّاهرُ أن يقولَ: «مُستأنَفةٌ».

(٤) ذكره في «الكشاف» (٩/ ٣٣٨)، ثم متابعوه المصنف وأبو حيان والسمين والآلوسي عند هذه الآية من تفاسيرهم.

قال الشهاب: لا أعرف صاحبه، وقوله: «نشأنا» بمعنى: قمنا ونهضنا، و«خوص»: جمع خوصاء وهي الناقة الغائرة العينين من الهزال. و«برى» بمعنى: أذهب، مستعار من بري العود والقلم. و«ألصق» بمعنى: نكس وخفض، و«نَيَّها» بفتح النون بمعنى: شحمها، والمشرفات: العالية، و«القماحد»: جمع قمَحْدُوة وهي ما خلف الرأس، يقول: قمنا إلى نياق هزلت من كثرة السير.

أو: ساعاتِ الليلِ؛ لأنَّها تحدثُ واحدةً بعد أخرى.

أو: ساعاتِها الأُوَلَ، مِن نشَأَتْ إذا ابتدأَتْ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾؛ أي: كلفةً، أو ثباتَ قدمٍ.

وقرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿وِطَاءً﴾[1]؛ أي: مُواطأةَ القلبِ اللسانَ لها أو فيها[2]، أو موافَقةً لِمَا يرادُ مِن الخضوعِ والإخلاصِ.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: وأسَدُّ مَقالًا، أو: وأثبتُ قراءةً لحُضورِ القلبِ وهدوءِ الأَصواتِ.

(٧) ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾: تَقلُّبًا في مهامِّكَ واشتِغالًا بها، فعليكَ بالتَّهجُّدِ فإنَّ مُناجاةَ الحقِّ تَستَدعِي فراغًا.

وقُرِئَ: (سبخًا)[3]؛ أي: تفرُّقَ قلبٍ بالشَّواغلِ، مستعارٌ مِن سَبْخِ الصُّوفِ وهو نَفْشُهُ ونشرُ أجزائِه.

(٨) ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: ودُمْ على ذكرِه ليلًا ونهارًا، وذكرُ اللهِ يَتناوَلُ كلَّ ما يذكرُهُ مِن تَسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصَلاةٍ وقراءةِ قُرآنٍ ودِراسَةِ علمٍ.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: وانقطِعْ إليه بالعبادةِ، وجَرِّدْ نفسكَ عمَّا سِواهُ، ولهذه الرَّمْزةِ ومراعاةِ الفواصلِ وضعَهُ موضِعَ: تبتُّلًا.

(٩) ـ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) قولُه: «لها أو فيها» قال الشهاب: الأوَّلُ على أنَّ المُرادَ بالنّاشئةِ النَّفسُ؛ أي: أشدُّ وَطأً لمُواطأةِ القلبِ اللِّسانَ، وقولُه: «فيها» على أنَّ المُرادَ بالنّاشئةِ القيامُ أو العبادةُ أو السّاعاتُ؛ أي: أشدُّ وطأً لمُواطأةِ قلبِ القائمِ فيها لسانَه، والإسنادُ على هذا مجازيٌّ.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥) عن يحيى بن يعمر.

وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ ويعقوبَ بالجرِّ[1] على البدلِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾، وقيل: بإضمارِ حرفِ القَسَمِ، وجوابُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مُسبَّبٌ عَنِ التَّهليلِ، فإنَّ توحُّدَه بالألوهيَّةِ يَقتَضِي أن تُوْكَلَ إليه الأمورَ.

(١٠) ـ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن الخُرافاتِ ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأَنْ تُجانِبَهُم وتُدارِيَهُم[2] ولا تكافِئَهُم، وتَكِلَ أمرَهُم إلى اللهِ كما قال:

(١١) ـ ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: دَعْني وإيَّاهُم وكِلْ إليَّ أمرَهُم، فإنَّ فيَّ غُنيةً عنكَ في مُجازاتِهِم.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾: أربابَ التَّنعُّمِ، يريدُ صناديدَ قريشٍ.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾: زمانًا ـ أو: إمهالًا ـ قليلا.

(١٢) ـ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ تعليلٌ للأمرِ، والنِّكْلُ: القيدُ الثَّقيلُ.

(١٣) ـ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: طعامًا يَنْشبُ[3] في الحلقِ كالضَّريعِ والزَّقُّومِ.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾: ونوعًا آخرَ مِن العذابِ مُؤلِمًا لا يَعرفُ كُنْهَهُ إلا اللهُ.

ولَمَّا كانت العُقوباتُ الأربَعُ ممَّا تَشتَرِكُ فيها الأشباحُ والأرواحُ، فإنَّ النُّفوسَ العاصِيَةَ المُنهمِكَةَ في الشَّهواتِ تبقَى مُقيَّدَةً بحبِّها والتَّعلُّقِ بها عن التَّخلُّصِ إلى عالَمِ المجرَّداتِ، متحرِّقةً بحُرقةِ الفُرقةِ، متجرعةً غصَّةَ الهجرانِ، معذَّبةً بالحرمانِ عَن تجلِّي أنوارِ القدسِ= فسَّرَ العذابَ بالحرمانِ عن لقاءِ اللهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٢) في نسخة الخيالي: «وتدارئهم».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «يتشبث».

(١٤) ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: تضطربُ وتَتزلزَلُ، ظَرفٌ لِمَا في ﴿لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ مِن معنى الفعلِ ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾: رَمْلًا مجتمعًا؛ كأنَّه فعيلٌ بمَعنى مفعولٍ مِن كَثَبْتُ الشَّيءَ: إذا جَمَعْتَه.

﴿مَّهِيلًا﴾: منثورًا، من هِيلَ هَيْلًا: إذا نُثِرَ.

(١٥) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: يشهدُ عليكم يومَ القِيامَةِ بالإجابةِ والامتناعِ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى، ولم يعيِّنْه لأنَّ المقصودَ لَمْ يَتعلَّقْ به.

(١٦) ـ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ عرَّفَهُ لسَبْقِ ذكرِهِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: ثقيلًا، مِن قولِهم: طَعامٌ وَبيلٌ: لا يُستَمرَأُ لثقلِه، ومنه: الوابلُ، للمطرِ العظيمِ.

(١٧) ـ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكُم[1] ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾: بقيتُمْ على الكفرِ ﴿يَوْمًا﴾: عذابَ يومٍ ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ مِن شدَّةِ هولِه، وهذا على الفَرْضِ أو التَّمثيلِ، وأصلهُ: أنَّ الهُمومَ تُضعِفُ القُوَى وتُسرِعُ بالشَّيبِ.

ويجوزُ أن يكونَ وَصْفَ اليومِ بالطُّولِ.

(١٨) ـ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾: منشقٌّ، والتَّذكيرُ على تأويلِ السَّقفِ أو إضمارِ: شيءٌ.

﴿بِهِۦ﴾: بشدَّةِ ذلك اليومِ على عظمِها وإحكامِها فضلًا عن غيرِها، والباءُ للآلةِ.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضَّميرُ للهِ عزَّ وجلَّ، أو لليومِ على إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ.

---

(١) «﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم» بيانٌ للمعنى، لا للإعراب من أن (أنفسكم) مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأن مفعوله مذكور، وهو قوله: ﴿يَوْمًا﴾، و﴿تَتَّقُونَ﴾ لا يتعدَّى إلى مفعولين، بخلاف (وقى)، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[الدخان: ٥٦]. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤١٠).

(١٩) ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: الآياتِ المُوْعِدةَ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: عِظَةٌ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتَّعِظَ ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: تقرَّبَ إليه بسُلوكِ التَّقوَى.

(٢٠) ـ ﴿إنَّ ربَّكَ يعلَمُ أنَّكَ تقومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَي اللَّيلِ ونِصْفِهِ وثُلُثِه﴾ استعارَ الأدنى للأقَلِّ؛ لأنَّ الأقربَ إلى الشَّيءِ أقلُّ بعدًا منه.

وقرأَ هشام: ﴿ثُلْثَي الليل﴾، وابنُ كثيرٍ والكوفِيُّونَ: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[(١)] بالنَّصبِ عطفًا على أَدْنى.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾: ويقومُ ذلك جماعةٌ مِن أَصحابِكَ.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لا يعلَمُ مَقاديرَ ساعاتِهِما كمَا هيَ إلَّا اللهُ، فإنَّ تقديمَ اسمِهِ مُبتدأً مبنيًّا عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾ يُشعِرُ بالاختصاصِ، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تُحْصُوا تقديرَ الأَوقاتِ، ولن تَستَطِيعُوا ضبطَ السَّاعاتِ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقدَّرِ ورفعِ التَّبِعَةِ فيه.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: فصلُّوا ما تيسَّرَ علَيْكُم مِن صَلاةِ الليلِ، عبَّرَ عَن الصَّلاة بالقراءةِ كما عبَّرَ عنها بسائرِ أَركانِها؛ قيل: كانَ التَّهجُّدُ واجِبًا على التَّخييرِ المذكورِ فعَسُرَ عليهِم القيامُ به فنُسِخَ بهِ ثمَّ نُسِخَ هذا بالصَّلواتِ الخَمْسِ.

أو: فاقرَؤُوا القرآنَ بعينِه كيفَما تيسَّرَ عليكُم.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئنافٌ يبيِّنُ حكمةً أخرى مُقتضيةً للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ، ولذلك كرَّرَ الحكمَ مُرتَّبًا عليه، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ والضَّربُ في الأرضِ ابتغاءَ للفَضلِ: المسافرةُ للتِّجارةِ وتَحصيلِ[(٢)] العلمِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) في نسخة الخيالي: «أو تحصيل».

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبةَ ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ يريدُ به: الأمرَ بسائرِ الإنفاقاتِ في سُبلِ الخيرِ، أو بأداءِ الزَّكاةِ على أحسَنِ وَجهٍ، والتَّرغيبَ فيه بوعدِ العِوَضِ كما صرَّحَ به في قولِه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: من أجرٍ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ مِن الذي تُؤخِّرُونَه إلى الوصيَّةِ عندَ الموتِ، أو: مِن مَتاعِ الدُّنيا، و﴿خَيۡرٗا﴾ ثاني مَفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾ و﴿هُوَ﴾ تأكيدٌ أَوْ فَصلٌ؛ لأنَّ (أَفْعَلَ مِن) كالمعرِفَةِ، ولذلك يَمتنِعُ مِن حرفِ التَّعريفِ.

وقُرِئَ: (هو خيرٌ)[1] على الابتداءِ والخبرِ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في مجامعِ أَحوالِكُم فإنَّ الإنسانَ لا يخلو مِن تَفريطٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ المُزَّمِّلِ رفعَ اللهُ عنهُ العُسرَ في الدُّنيَا والآخرةِ»[2].

***

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤) عن أبي السمال.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٧١)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٣) سورة المزمل مكية وآياتها عشرون

عن جابر رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿ يا أيها المزمل ﴾، ﴿ يا أيها المدثر ﴾[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ
سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي، وينهض إلى القيام لربه عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾، فقال تعالى: ﴿ يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً ﴾، قال ابن عباس ﴿ يا أيها المزمل ﴾ يعني يا أيها النائم، وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة، وقوله تعالى: ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها، وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن

---

(١) أخرجه الحافظ البزار .

قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[١]، وعن أُمّ سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين﴾[٢]، وفي الحديث: «يقال لقارئ القرآن: اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٣]. وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل، وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» و «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وقال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[٤]، وقوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٥]. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها[٦].

وقوله تعالى: ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطـأ وأقوم قيلاً﴾ قال عمر: الليل كله ناشئة، وقال مجاهد: نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عنه: بعد العشاء، والغرض أن ﴿ ناشئة الليل﴾ هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطـأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ هي أشد وطـأ وأقوم قيلاً﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ، ولهذا قال تعالى: ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾، قال أبو العالية ومجاهد: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقلباً، وقال السدي: ﴿سبحاً طويلاً﴾ تطوعاً كثيراً، وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿سبحاً طويلاً﴾ قال: لحوائجك فأفرغ لدينك الليل، وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى منّ على عباده فخففها، ووضعها. روى الإمام أحمد، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام قال، قلت: يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ ؟ قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ يا أيها المزمل﴾ ؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٣) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي .

(٤) رواه البغوي عن ابن مسعود موقوفاً .

(٥) أخرجه البخاري في أول صحيحه .

(٦) الجران : باطن العنق .

قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هـذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة[1].

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيماً فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل فقال: «أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه» ونزل القرآن: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل.

وقال ابن جرير: لما نزلت ﴿يا أيها المزمل﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ قال: فاستراح الناس. وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، كما قال تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ إي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته، وعبادته لتكون فارغ البال، ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أخلص له العبادة، وقال الحسن: اجتهد وابتل إليه نفسك، وقال ابن جرير: يقال للعـابد متبتل، ومنه الحديث المروي (نهى عن التبتل) يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج، وقوله تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وكقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على ما يقوله سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه، ثم قال له متهدداً لكفار قومه: ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾ أي والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي رويداً، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إن لدينا أنكالاً﴾ وهي القيود، قاله ابن عباس وعكرمة والسدي وغير واحد، ﴿وجحيماً﴾ وهي السعير المضطرمة، ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض

(١) أخرجه الإمام أحمد، وهو جزء من حديث طويل، وقد رواه مسلم في صحيحه بنحوه.

والجبال﴾ أي تزلزل، ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي تصير ككثبان الرمال بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض ﴿قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً﴾ أي وادياً ﴿ولا أمتاً﴾ أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع، ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ أي بأعمالكم، ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلًا﴾، قال ابن عباس ﴿أخذًا وبيلًا﴾ أي شديداً، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾، وقوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ وكيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟ ومعنى قوله: ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: من كم؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، وقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله، وقوله تعالى: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿إنَّ هذِهِ﴾ أي السورة ﴿تذكرة﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته، ثم قال تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم بـه من قيـام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قـال: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾، وقـد استدل أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية وهي قوله: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة، واعتضد

بحديث المسيء صلاته : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن »[1]، وقد أجاب الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[2]. وعن أبي هريرة مرفوعاً: « لا تجزيء صلاة من لم يقرأ بأُمّ القرآن »[3]. وقوله تعالى: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار، من مرضى لا يستطيعون القيام ومسافرين يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بالغزو في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه، روى ابن جرير، عن أبي رجاء قال، قلت للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾، ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾، قلت: يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾، قال: نعم، ولو خمس آيات، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري، أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح؟ فقال: « ذاك رجُل بال الشيطان في أُذنه » فقيل معناه نام عن المكتوبة، وقيل عن قيام الليل.

وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: « خمس صلوات في اليوم والليلة »، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: « لا، إلا أن تطوّع »، وقوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يعني من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، وقوله تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ » قالوا: يا رسول الله، مامنا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: « اعلموا ما تقولون »، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يارسول الله، قال: « إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخر »[4]، ثم قال تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها، فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

[آخر سورة المزمل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) جزء من حديث مشهور رواه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه.

(٤) أخرجه الحافظ الموصلي، ورواه البخاري والنسائي بنحوه.

تفسير سورة المـزمل

وهى مكية .

قال الحافظ أبو بكر [أحمد] (١) بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطى ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن ، حدثنا شريك ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً تصدر (٢) الناس عنه . فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها. فأتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن : قد حدث عنه جماعة من أهل العلم ، واحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦] . وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النَّخعىّ : نَزَلت وهو مُتَزَمِّل بقطيفة .

وقال شبيب بن بِشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال : يا محمد ،

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) فى أ : « فصدوا » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٧٦) « كشف الأستار » ، ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠٨) من طريق محمد بن موسى القطان به مثله ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٠) : « وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطى وهو كذاب » .

زُمِّلتَ القرآن .

وقوله : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ : بدل من الليل ، ﴿ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أى: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ أى: اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى، عن أنس: أنه سُئِل عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال: كانت مداً ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ،ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١).

وقال ابن جُرَيج ، عن ابن أبى مُلَيكة عن أم سلمة : أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطّع قراءته آية آية، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب (٣) القرآن : اقرأ وارْقَ ، ورتِّل كما كنت تُرتِّل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

ورواه أبو داود ، والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان الثورى ، به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ، كما جاء فى الحديث : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم » ، و « ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن » ، و « لقد أوتى هذا مزمار من مزامير آل داود » يعنى : أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبَّرْته لك تحبيرا (٥) .

وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل (٦) ، ولا تهذّوه هَذَّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة . رواه البغوى (٧) .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة : سمعت أبا وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل (٨) الليلة فى ركعة . فقال : هذّا كهذّ الشعر . لقد عرفت

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٦/ ٣٠٢) ، وسنن أبى داود برقم (٤٠٠١) ، والشمائل للترمذى برقم (٢٩٩) .

(٣) فى م : « لقارئ » .

(٤) المسند (٢/ ١٩٢) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٤) ، وسنن الترمذى برقم (٢٩١٤) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٥٦) .

(٥) انظر هذه الأحاديث فى : فضائل القرآن فى المقدمة .

(٦) فى أ :« الدقل » .

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٢١٥) .

(٨) فى أ : « المعضل » .

النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن . فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين فى ركعة [١] .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أى العمل به .

وقيل : ثقيلٌ وقت نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله ﷺ وفَخذُه على فخذى ، فكادت تُرض فَخذى [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حَبيب ، عن عَمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو قال : سألتُ النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمعُ صَلاصِيلَ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد [٣] .

وفى أول صحيح البخارى عن عبد الله بن يوسف ، عن مالك ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عَلَىّ ، فَيَفْصِمُ عنى وقد وَعَيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، أخبرنا عبد الرحمن ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه، عن عائشة قالت : إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته ، فتضرب بِجرَانها [٥].

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسَرّى عنه [٦] .

وهذا مرسل . الجران : هو باطن العنق .

واختار ابن جرير أنه ثقيل [٧] من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ، قال أبو إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشة .

وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٧٥) .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٩٢) .
(٣) المسند (٢/ ٢٢٢) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢) .
(٥) المسند (٦/ ١١٨) .
(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ٨٢) .
(٧) فى أ : « أنه يقبل » .

يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مِجْلَز ، وقتادة، وسالم وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر .

والغرض أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو (١) أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه وقتُ انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش .

و [قد] (٢) قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش ، أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا » فقال له رجل : إنما نقرؤها ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد (٣) .

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ . قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مُسلم : الفراغ والنوم .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وسفيان الثورى : فراغاً طويلا .

وقال قتادة : فراغا وبغية ومُنْقَلبا .

وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ : تطوعا كثيراً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ [إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ] (٤) سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ قال : لحوائجك ، فَأَفْرِغ لدينك الليل . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ على العباد فخففها ووضعها ، وقرأ : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾، حتى بلغ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [الليل نصفه أو ثلثه . ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته] (٥) فقال : وقال : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] . وهذا الذى قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال: حدثنا يحيى ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله فى الكُرَاع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت. فلقى رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم فىّ أسوة(٦) ؟»

(١) فى م : « هى » . (٢) زيادة من م .

(٣) مسند أبى يعلى (٧/ ٨٨) ونقل المحقق فى الحاشية عن أبى بكر بن الأنبارى أنه قال : « حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم ، لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس ، فهو مقطوع ليس بمتصل ، فيؤخذ من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) زيادة من تفسير الطبرى .

(٦) فى أ : « أسوة حسنة » .

فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رَجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم. قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إليّ فأخبرني بردّها عليك . قال : فأتيت على حكيم بن أفلحَ فاستلحقتُه إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشّيعَتَين شيئا ، فأبت فيهما إلا مُضياً . فأقسمتُ عليه ، فجاء معي ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد ابن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر. قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى [١] . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمَمتُ أن أقوم ، ثم بدا لي قيامُ رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسولُ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهَممت[٢] أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطَهُوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو [ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم . ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو] [٣] ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشر ركعة يا بني . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بني . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان [٤] إذا شغَله عن قيام الليل نوم أو وَجَع أو مرض ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان .

فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة .

هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه .وقد أخرجه مسلم في صحيحه ،من حديث قتادة ، بنحوه [٥] .

طريق أخرى عن عائشة في هذا المعنى : قال ابن جرير : حدثنا وَكيع ، حدثنا زيد بن الحُبَاب ـ وحدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران قالا جميعا ، واللفظ لابن وكيع : عن موسى بن عُبيدة ، حدثني محمد بن طَحْلاء ، عن أبي سلمة ، عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرا يُصَلي عليه من الليل ، فتسامع الناس به فاجتمعوا ، فخرج كالمُغضب ـ وكان بهم رحيما ، فخشي أن يكتب

---

(١) في أ : « نعم » . (٢) في م :« ثم هممت » .

(٣) زيادة من المسند .

(٤) في أ : « وكان رسول الله ﷺ » .

(٥) المسند (٦/ ٥٤) ، وصحيح مسلم برقم (٧٤٦) .

عليهم قيام الليل ــ فقال : « أيها الناس ، اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه » . ونزل القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه ، فرحمهم فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل [١] .

ورواه ابن أبى حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف . والحديث فى الصحيح[٢] بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يُوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك، وإنما هى مكية . وقوله فى هذا السياق : إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر ــ غريب ؛ فقد تقدم فى رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مِسْعَر ، عن سِماك الحنفى ، سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل: أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة .

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن أبى أسامة ، به [٣] .

وقال الثورى ومحمد بن بشر العَبدى ، كلاهما عن مسعر ، عن سماك ، عن ابن عباس : كان بينهما سنة . وروى ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن قيس بن وهب ، عن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، قاموا حولا حتى وَرِمت أقدامهم وسُوقُهم ، حتى نزلت : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ،قال : فاستراح الناس [٤] .

وكذا قال الحسن البصرى .

وقال ابن أبى حاتم : [حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عُبَيد الله بن عمر القواريرى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى] [٥] ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : فقلت ــ يعنى لعائشة ــ : أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ :﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى. قالت : فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى انتفخت أقدامهم ، وحُبس آخرها فى السماء ستة عشر شهراً ، ثم نزل .

وقال مَعْمَر ، عن قتادة :﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ : قاموا حولا أو حولين ، حتى انتفخت سُوقهم

---

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٥) ،وصحيح مسلم برقم (٧٨٢) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٨) .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُميد ، حدثنا يعقوب القمى [١]، عن جعفر ، عن سعيد ـ هو ابن جبير ـ قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال : مكث النبى ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل ، كما أمره ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾، إلى قوله : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ،فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين [٢] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن عمرو بن رافع ، عن يعقوب القمى [٣] ، به .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا [أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا] [٤] ،فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ،فوسع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيق .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ،كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] أى : إذا فرغت من مهامك فانصب فى طاعته وعبادَته ، لتكون فارغَ البال . قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه .

قال ابن عباس ومجاهد ، وأبو صالح ، وعطية ، والضحاك ، والسدى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أخلص له العبادة .

وقال الحسن : اجتهد وبتّل إليه نفسك .

وقال ابن جرير : يقال للعابد : متبتل ، ومنه الحديث المروى : أنه نهى عن التَّبَتُّل ، يعنى : الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج [٥] .

وقوله : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب الذى لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] ، وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وآيات [٦] كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

---

(١) فى أ :« العمى » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) وهو مرسل .
(٣) فى أ :« العمى » .
(٤) زيادة من م ، أ .
(٥) فى م:« التزويج » .
(٦) فى م :« فى آيات » .

﴿ وَاصبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلا ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً ـ وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شيء ـ: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم أقدر على الطاعة من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أى : رويدا ، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وطاوس ، ومحمد بن كعب ، وعبد الله بن بُرَيدة ، وأبو عمران الجونى ، وأبو مجلَز ، والضحاك ، وحماد بن أبى سلمان، وقتادة والسدى ، وابن المبارك والثورى ، وغير واحد ،﴿ وَجَحِيمًا ﴾: وهى السعير المضطرمة . ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ، قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عوجاً ، أى :واديا ، ولا أمتا ، أى: رابية ، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى: بأعمالكم، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة ،والسدى ، والثورى : ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ أى : شديدا ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصاب فرعونَ ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٥] ،وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويُروَى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ، يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولا لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولا لكفرتم ، فعلى الأول : كيفَ

يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثانى : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم .

ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعثَ النار . فيقول : مِن كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار . قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وينجو واحد » . فاشتد ذلك على المسلمين ، وعرف ذلك رسول الله ﷺ ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم : « إن بنى آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وإنه لا يموت منهم رجل حتى يرثه لصلبه ألف رجل . ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » [(١)] .

هذا حديث غريب ، وقد تقدم فى أول سورة الحج ذكر هذه الأحاديث .

وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله . ومنهم من يعيد الضمير على الله عز وجل .وروى عن ابن عباس ومجاهد،وليس بقوى؛لأنه لم يجر له ذكر هاهنا .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ .

يقول تعالي : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : ممن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخري : ﴿ وَمَا

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٣٦٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٠) : « وفيه عثمان بن عطاء الخراسانى وهو ضعيف » .

تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

ثم قال : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ** ﴾ أى : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ أى : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا ، ﴿ **عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ** ﴾ أى : الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾ أى : من غير تحديد بوقت ، أى : ولكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان : ﴿ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ** ﴾ أى : بقراءتك ، ﴿ **وَلا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ .

وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة ، رحمه الله ، بهذه الآية ، وهى قوله : ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ؛ واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (١) . وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خِدَاج ، فهى خِدَاج ، فهى خِدَاج ،غير تمام » (٢) . وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً :« لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن » (٣) .

وقوله : ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين (٤) فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين (٥) بما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله. وهذه الآية ــ بل السورة كلها ــ مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعدُ ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة . ولهذا قال : ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** (٦) ﴾ أى: قوموا بما تيسر عليكم منه .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبي رجاء محمد ،قال :قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به ، إنما يصلي المكتوبة؟ قال : يتوسَّدُ القرآن ، لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا**

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) ، وصحيح مسلم برقم (٣٤٩) .
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) .
(٣) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) .
(٤) فى أ : «ومسافرون» . (٥) فى أ : « وآخرون مشغولون » . (٦) فى م : «من القرآن» .

عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف:٦٨] ، ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الأنعام:٩١] . قلت : يا أبا سعيد، قال الله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ؟ قال : نعم ، ولو خمس آيات .

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى : أنه كان يرى حقاً واجباً على حَمَلَة القرآن أن يقوموا ولو بشىء منه فى الليل ؛ ولهذا جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ سُئل عن رجل نام حتى أصبح ، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه » (١). فقيل: معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفى السنن : « أوتِرُوا يا أهل القرآن » (٢). وفى الحديث الآخر : « من لم يوتر فليس منا » (٣) .

وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر عبد العزيز ، من الحنابلة ، من إيجابه قيام شهر رمضان ، فالله أعلم .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجُدّى ، حدثنا أبو [حمة] (٤) محمد بن يوسف الزبيدى ، حدثنا عبد الرحمن،[عن محمد بن عبد الله] (٥) بن طاوس ــ من ولد طاوس ــ عن أبيه ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ قال : « مائة آية » (٦) .

وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا فى معجم الطبرانى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة . وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النّصب والمَخْرَج لم تُبَين إلا بالمدينة . والله أعلم .

وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نَسَخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : «خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تَطوّع » (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة:٢٤٥] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١١٤٤) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) جاء من حديث على وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهما ،أما حديث على ، فقد رواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٦) ، والترمذى فى السنن برقم (٤٥٣)، والنسائى فى السنن (٣/ ٢٢٨) ،وابن ماجة فى السنن برقم (١١٦٩) ، وقال الترمذى :« حديث على حديث حسن » ، وأما حديث ابن مسعود ، فرواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٧) ، وابن ماجة برقم (١١٧٠) .

(٣) جاء من حديث بريدة وأبى هريرة ،رضى الله عنهما ، أما حديث بريدة ، فرواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٥٧)، وأبو داود فى السنن برقم (١٤١٩) ، وأما حديث أبى هريرة ، فرواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٤٣) .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٢٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦)، وصحيح مسلم برقم (١١) من حديث طلحة رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو [خير] [١] لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خَيْثَمة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيد [٢] قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ :« أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : «اعلموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » .

ورواه البخارى من حديث حفص بن غياث ، والنسائى من حديث [٣] أبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به [٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر تفسير سورة « المزمل » ولله الحمد

---

(١) زيادة من م . (٢) فى أ :« الحارث بن يزيد » . (٣) فى م ، أ : « من طريق» .
(٤) مسند أبى يعلى (٩/٩٧) ، وصحيح البخارى برقم (٦٤٤٢) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٤٣٩) .

سورة المزّمّل

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ أو عشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المُتزمّل، مِن "تزمّل بثيابه" إذا تلفّف بها، فأُدغم "التاء" في "الزاء". وقد قُرئ على الأصل،[1] وقُرئ: "المُزَمَّلُ" مِن زمّله مبنيًّا للمفعول[2] ومبنيًّا للفاعل.[3] قيل: خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تهجينًا لِما كان عليه مِن الحالة، حيث كان عليه السلام متلفِّفًا بقطيفة مستعدًّا للنوم، كما يفعله مَن لا يهمّه أمر ولا يعنيه شأن، فأُمر بأن يترك التزمّل إلى التشمّر للعبادة والهُجودَ إلى التهجّد.[4]

وقيل: دخل عليه السلام على خديجة وقد جُئثَ[5] فرَقًا[6] أوّلَ ما أتاه جبريلُ عليهما السّلام وبَوادرُه[7] تَرعد، فقال: زمّلوني، فحُسِب أنّه عُرِض له، فبَيْنَا هو على ذلك إذ ناداه جبريلُ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.[8] فيكون تخصيص وَصْف التزمّل بالخطاب للمُلاطَفة والتأنيس، كما في قوله عليه السلام لعليّ رضي الله عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٨.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩.

٥ جُئثَ: فزِع. لسان العرب لابن منظور، «جأث».

٦ الفرَق: الخوف والذُّعر. لسان العرب لابن منظور، «فرق».

٧ البوادر جمع البادرة: وهي مِن الإنسان اللحمة بين المَنكِب والعنق. لسان العرب لابن منظور، «بدر».

٨ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩.

حين غاضَب فاطمةَ رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب: «قُمْ يا أبا تراب»[١] ملاطفةً له وإشعارًا بأنّه غير عاتب عليه.

وقيل: المعنى: يا أيّها الذي زُمِّل أمرًا عظيمًا هو أمر النبوّة،[٢] أي: حُمِّله، والزِمْل: الحِمل، وازدملَه، أي: احتمله، فالتعرّض للوصف حينئذ للإشعار بعلّيّته للقيام أو للأمر به، فإنّ تحميله عليه السلام لأعباء النبوّة ممّا يُوجب الاجتهاد في العبادة.

[٢٣٦و] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي: قُمْ إلى الصلاة. وانتصابُ / ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على الظرفيّة. وقيل: القيام مستعار للصلاة، ومعنى ﴿قُمِ﴾: صلِّ.[٣] وقُرِئ بضمّ "الميم"[٤] وبفتحها.[٥] ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ الباقي بعد الثُّنيا[٦] بدلَ الكلّ، أي: قُم نصفَه. والتعبير عن النصف المُخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارِن للقيام، والإيذانِ بفضله، وكونِ القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب، واعتبارِ قلّته بالنسبة إلى الكلّ مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر. ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي: أنقِص القيام مِن النصف المقارن له في الصورة الأولى ﴿قَلِيلًا﴾ أي: نقصًا قليلًا، أو مقدارًا قليلًا بحيث لا ينحطّ إلى نصف النصف.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: زِد القيام على النصف المقارن له، فالمعنى تخييره عليه السلام بين أن يقوم نصفَه أو أقلّ منه أو أكثرَ.

وقيل: قوله تعالى ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾، والتخيير بحاله.[٧] وليس بسديد، أمّا أوّلًا فلأنّ الحقيق بالاعتناء الذي يُنبئ عنه الإبدال هو الجزء الباقي

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٢٠٢/٦ (٦٠١٠).

٢ مرويّ عن عكرمة في جامع البيان للطبري، ٣٥٨/٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤.

٣ هو مِن أمثلة المجاز المرسل الذي سُمّي فيه الشيء باسم جزئه عند البلاغيّين. انظر: الإيضاح للقزويني، ص ٣٩٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٦ الثُّنيا: الاستثناء. لسان العرب لابن منظور، «ثني».

٧ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤؛ والتبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

بعد الثُّنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرَجُ العاري عنه، وأمّا ثانيًا فلأنّ نقص القيام وزيادته إنّما يعتبران بالقياس إلى مِعياره الذي هو النصف المقارن له، فلو جعل ﴿نِصۡفَهُۥ﴾ بدلًا مِن ﴿قَلِيلًا﴾ لزم اعتبارُ نقصِ القيام وزيادتِه بالقياس إلى ما هو عارٍ عنه بالكلّيّة، والاعتذارُ بتساوي النصفين مع كونه تمحُّلًا ظاهرًا اعترافٌ بأنّ الحقّ هو الأوّل.

وقيل: ﴿نِصۡفَهُۥ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء مِن النصف، والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ للنصف، والمعنى التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقلّ مِن نصف الليل على البتات، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان مِن النصف والزيادة عليه. وقيل: الضميران للأقلّ مِن النصف، كأنّه قيل: قم أقلّ مِن نصفه أو قم أنقص مِن ذلك الأقلّ أو أزيدَ منه قليلًا.[١] وقيل وقيل.[٢]

والذي يليق بجزالة التنزيل هو الأوّل.[٣] والله أعلم بما في كتابه الجليل.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في أثناء ما ذُكر مِن القيام، أي: اقرأه على تَؤدة وتبيين حروف ﴿تَرۡتِيلًا﴾ بليغًا بحيث يتمكّن السامع مِن عدّها، مِن قولهم: "ثَغر رَتْل وَرَتِل" إذا كان / مفلّجًا. [٢٣٦ظ]

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾ أي: سنُوحي إليك، وإيثارُ "الإلقاء" عليه لقوله تعالى: ﴿قَوۡلًا ثَقِيلًا﴾، وهو القرآن العظيم المُنطوي على تكاليفَ شاقّة ثقيلة على المكلَّفين لا سيّما على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه عليه السلام مأمور بتحمُّلها وتحميلها للأمّة. والجملة اعتراضٌ بين الأمر وتعليله لتسهيل ما كُلِّفه عليه السلام مِن القيام.

وقيل: معنى كونه ثقيلًا أنّه رصين لرَزانة لفظه ومتانة معناه، أو ثقيلٌ على المتأمِّل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسرّ وتجريدٍ للنظر،[٤] أو ثقيلٌ في الميزان،[٥]

---

[١] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩؛ والتبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٢] س - وقيل.

[٣] كما في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢.

[٤] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٥] مرويّ عن الحسين بن الفضل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٢/٨؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٤.

أو على الكفّار والفُجّار، أو ثقيل تلقّيه.[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا نزل عليه الوحيُ ثقُل عليه وتربّد له جِلده».[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: «رأيتُه ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيُفصِم[٣] عنه وإنّ جبينه ليَرْفَضّ[٤] عَرَقًا».[٥]

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: إنّ النفس التي تنشأ مِن مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض، مِن "نشأ مِن مكانه" إذا نهض، أو إنّ قيام الليل، على أنّ الناشئة مصدر مِن "نشأ" كـ"العافية"، أو إنّ العبادة التي تنشأ بالليل، أي: تحدُث أوان ساعات الليل، فإنّها تحدُث واحدةً بعد واحدة، أو ساعاتها الأوَل مِن "نشأ" إذا ابتدأ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: هي خاصّةً أشدّ ثباتَ قدمٍ أو كلفةً، فلا بدّ مِن الاعتناء بالقيام. وقُرئ: "وِطَاءً"،[٦] أي: أشدّ مواطأة يواطئ قلبُها لسانَها إن أريد بها النفس، أو يواطئ فيها قلبُ القائم لسانَه إن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات، أو أشدّ مُوافقةً لِما يُراد مِن الخشوع والإخلاص.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسدّ مقالًا وأثبَت قراءةً لحضور القلب وهدوء الأصوات.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تقلّبًا وتصرّفًا في مهمّاتك واشتغالًا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرّغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي

---

[١] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٠.

[٢] مسند أحمد، ٤/٣٤ (٢١٣١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٠.

[٣] يُفصِم عنه، أي: يقلع عنه. لسان العرب لابن منظور، «فصم».

[٤] ارفضّ العَرَقُ: جرى وسال. لسان العرب لابن منظور، «رفض».

[٥] صحيح البخاري، ١/٦ (٢)؛ صحيح مسلم، ٤/١٨١٦ (٢٣٣٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٠.

[٦] قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

الخارجي إلى / قيام الليل بعد بيان ما في نفسه مِن الداعي. وقُرئ: "سَبْخًا"،[١] [٢٣٧و] أي: تفرُّق قلب بالشواغل، مستعار مِن "سَبْخ الصوفِ"، وهو نفشُه ونَشْر أجزائه.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودُمْ على ذِكره تعالى ليلًا ونهارًا على أيّ وجه كان مِن تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءةِ قرآن ودِراسة عِلم.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطِعْ إليه بمَجامع الهمّة واستغراق العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلّا بتجريد نفسه عليه السلام عن العوائق الصادّة عن مراقبة الله تعالى وقطعِ العلائق عمّا سواه قيل: ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان "تبتُّلًا"، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مرفوع على المدح. وقيل: على الابتداء، خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٢] وقُرئ بالجرّ[٣] على أنّه بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾. وقيل: على إضمار حرف القسم، جوابه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٤] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لترتيب الأمر ومُوجَبه على اختصاص الألوهيّة والربوبيّة به تعالى.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ممّا لا خير فيه مِن الخرافات ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تُجانبهم وتُدارئَهم ولا تكافئهم وتَكِلَ أمورهم إلى ربّهم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني وإيّاهم وكِلْ أمرَهم إليّ فإنّي أكفيكَهم. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أربابَ التنعّم وهم صناديد قريش ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زمانًا قليلًا.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع "نِكْل" وهو القيد الثقيل، والجملة تعليل للأمر، أي: إنّ لدينا أمورًا مضادّة لتنعّمهم ﴿وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلوق ولا يكاد يُساغ كالضّريع والزقّوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعًا آخر مِن العذاب مؤلِمًا لا يُقادَر قَدْره ولا يُدرك كُنهه، كلّ ذلك مُعدّ لهم ومُرصَد.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٢ هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦١/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٩.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٤ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٨١/٤-٤٨٢.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتتزلزل، ظرف للاستقرار / الذي تعلَّق به ﴿لَدَيْنَا﴾. وقيل: متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، [٢٣٧ظ] أي: عذابًا واقعًا يوم ترجف.[١] ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾ رملًا مجتمِعًا مِن "كَثَب الشيءَ" إذا جَمَعه، كأنّه فعيل بمعنى مفعول. ﴿مَّهِيلًا﴾ منثورًا مِن "هِيل هَيْلًا" إذا نُثِر وأُسِيل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدَر عنكم مِن الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام. وعدمُ تعيينه لعدم دَخْله في التشبيه.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسلناه إليه، ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، أي: إنّا أرسلنا إليكم رسولًا فعصيتموه، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، إرسالًا كائنًا كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصاه، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ خارج مِن التشبيه جيء به للتنبيه على أنّه سيَحيق بهؤلاء ما حاقَ بأولئك لا محالةَ. والوبيل: الثقيل الغليظ مِن قولهم: "كلأٌ وبيلٌ"، أي: وخيم لا يُستمرَأ لثِقله، والوبيل: العصا الضخمة.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تقُون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: بقيتُم على الكفر ﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ مِن شدّة هَوْله وفظاعةِ ما فيه مِن الدّواهي ﴿شِيبًا﴾ شُيوخًا جمع "أشيَب" إمّا حقيقةً أو تمثيلًا، وأصله أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعُفت قواه وأسرعَ فيه الشيب. وقد جُوِّز أن يكون ذلك وصفًا لليوم بالطُّول.[٢] وليس بذاك.

---

[١] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٧١/١٩.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٤.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ أي: منشق. وقُرئ: "مُتَفَطِّرٌ"،[١] أي: متشقِّق، والتذكير لإجرائه على موصوف مذكَّر، أي: شيءٌ منفطِر، عُبّر عنها بذلك للتنبيه على أنّه تبدّلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلّا ما يُعبَّر عنه بالشيء. وقيل: لتأويل السماء بالسَّقف. / وقيل: هو مِن باب النسَب، أي: ذات انفطار.[٢] [٢٣٨و]

و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ مثلُها في "فطرْتُ العودَ بالقَدوم" ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عزّ وجلّ، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو لـ"اليوم" وهو مضاف إلى مفعوله.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتقرّب إليه بالإيمان والطاعة، فإنّه المنهاج المُوصِل إلى مرضاته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أقلّ منهما، استُعير له الأدنى لِما أنّ المسافة بين الشيئين إذا دنَت قلّ ما بينهما مِن الأحياز. ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿أَدْنَىٰ﴾. وقُرئا بالجرّ[٣] عطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم معك طائفة مِن أصحابك.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٣.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٣.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وحدَه لا يقدِر على تقديرهما أحد أصلًا، فإنّ تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناءً يقدّر عليه موجِبٌ للاختصاص قطعًا، كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: علم أنّ الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبدًا. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالترخيص في ترك القيام المقدور ورفع التبِعة عنكم في تَرْكه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فصلّوا ما تيسّر لكم مِن صلاة الليل، عُبّر عن الصلاة بالقراءة، كما عُبّر عنها بسائر أركانها. قيل: كان التهجّد واجبًا على التخيير المذكور فعسُر عليهم القيام به فنُسخ به، ثمّ نُسخ هذا بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها، قالوا: مَن قرأ مائة آية مِن القرآن في ليلة لم يحاجّه. وقيل: مَن قرأ مائة آية كُتب مِن القانتين. وقيل: خمسين آيةً.[١]

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ استئناف مبيّن لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُسافرون فيها للتجارة
[٢٣٨ظ] ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الربح، / وقد عُمّم ابتغاءُ الفضل لتحصيل العِلم. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإذا كان الأمر كما ذُكر وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ مِن غير تحمُّل المشاقّ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة. وقيل: هي زكاة الفطر؛ إذ لم يكن بمكّة زكاة، ومَن فسّرها بالزكاة المفروضة جَعَل آخرَ السورة مدنيًا.[٢] ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ أريدَ به الإنفاقات في سبيل الخيرات أو أداءُ الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعِها للفقراء.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٍ﴾ أيّ خير كان ممّا ذُكر وما لم يُذكَر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًا﴾ مِن الذي تُؤخِّرونه إلى الوصيّة عند الموت، و﴿خَيۡرًا﴾ ثاني مفعولَي ﴿تَجِدُوا﴾، وهو تأكيد أو فَصل وإن لم يقع بين معرفتين،

---

١ هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٥.

فإنّ "أَفْعَلَ مِنْ" في حُكم المعرفة، ولذلك يمتنع مِن حرف التعريف. وقُرئ: "هُوَ خَيْرٌ"[١] على الابتداء والخبر.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كافّة أحوالكم، فإنّ الإنسان قلّما يخلو مِن تفريط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُزَّمِّل رفع الله عنه العُسر في الدنيا والآخرة».[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال والبصري والعَنبري والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٥٠.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٨/٢٧ (المزمل، ٧٣/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧١/٤ (المزمل، ٧٣/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٣

سورة المزمل

مكية، أو إلاّ قوله «إنّ ربك يعلم» إلى آخرها فمدني، تسعَ عشْرةَ أو عشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها المُزَّمِّلُ﴾: النبيُّ ـ وأصله «المُتَزَمِّل»، أُدغمَتِ التاءُ في الزاي ـ أي: المُتلفّف بِثِيابه حِين مجيء الوحي له خوفًا منه لهَيبته، ٢ ـ ٣ ـ ﴿قُمِ اللَّيلَ﴾: صَلِّ ﴿إلاّ قَلِيلاً، نِصفَهُ﴾: بدلٌ من «قليلاً»، وقِلّته بالنظر إلى الكُلّ، ﴿أوِ انقُصْ مِنهُ﴾: من النصف ﴿قَلِيلاً﴾ إلى الثُّلث، ٤ ـ ٥ ـ ﴿أو زِدْ علَيهِ﴾ إلى الثُّلثين ـ وأو: للتخيير ـ ﴿ورَتِّلِ القُرآنَ﴾: تثبّتْ في تِلاوته ﴿ترتِيلاً. إنّا سَنُلقِي علَيكَ قَولاً﴾ أي: قُرآنًا ﴿ثَقِيلاً﴾: ....

سورة المزمل

قولُهُ: (المُتَزَمِّلُ) وقُرِئَ به(١).

قولُهُ: (أي: المتَلَفِّفُ) أو المتحَمِّلُ أعباءَ النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (صَلِّ) أي: قُم إلى الصَّلاةِ، أو داوِم عليها فيه.

قولُهُ: (من ﴿قَلِيلاً﴾) وهو استِثناءٌ من: ﴿اللَّيل﴾.

قولُهُ: (إلى الكُلِّ) وهذا النِّصفُ الخالي عن الطَّاعَة، وإن ساوى النِّصفَ المعهودَ بذكرِ الله في الكمِّيَّةِ لا يُساويهِ في التَّحقيقِ والكَيفيَّةِ، بل هو القَليلُ، وذلك النِّصفُ بمنزِلَةِ الكُلِّ.

قولُهُ: (تَثَبَّتْ) بأن تقرَأهُ على تُؤدَة؛ فإنَّه تجويدُ الحُروفِ ومعرفَةُ الوقوفِ.

قولُهُ: (﴿قَولاً﴾) لا يحمِلُهُ إلَّا قَلبٌ مُؤيَّدٌ بالتَّوفيقِ، ونفسٌ مُزيَّنةٌ بالتَّوحيدِ والتَّحقيقِ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٠).

مَهيبًا أو شديدًا لِما فيه من التكاليف. ٦ ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيلِ﴾: القيامَ بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً﴾: مُوافقة السمع للقلب على تفهّم القرآن ﴿وأقوَمُ قِيلاً﴾: أبيَنُ قولاً. ٧ ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبحًا طَوِيلاً﴾: تصرُّفًا في أشغالك، لا تفرُّغ فيه لتلاوة القرآن.

٨ ـ ﴿واذكُرِ اسمَ رَبِّكَ﴾ أي: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم» في ابتداء قِراءتك، ﴿وتَبَتَّلْ﴾: انقطع ﴿إِلَيهِ﴾ في العبادة ﴿تَبتِيلاً﴾: مصدرُ: بَتّلَ. جيء به رِعاية للفواصل، وهو ملزوم التبتّل..........

قولُهُ: (أو شَدِيداً) أو ثَقيلاً في الميزانِ، أو على الكُفَّارِ والفُجَّارِ.

قولُهُ: (القِيَامَ) أي: قيامَ اللَّيلِ على أنَّ النَّاشئَةَ مصدرٌ للقيامِ أو العبادَةِ التي تنشأ باللَّيلِ؛ أي: تحدُثُ.

قولُهُ: (مُوَافَقَة) هذا تَفسيرٌ لقراءَةِ بصريٍّ وشاميٍّ: (وِطَاءً) بكسرِ الواو والمدِّ[1]؛ أي: مواطأَةَ القلبِ اللِّسانَ للنَّاشئَةِ، أو فيها، أو مُوافقَةً لما يرادُ من الخضوعِ والإخلاصِ.

(والبَاقُونَ) (وَطْأً) كنصراً؛ أي: كُلفةً أو ثباتَ قدمٍ.

قولُهُ: (أَبْيَنُ) أو أسدُّ مَقالاً، وأثبتُ قراءَةً لحضورِ القلبِ وهدوءِ الأصواتِ، وأبعَدُ من الرِّياءِ والسُّمعةِ.

قولُهُ: (تَصَرُّفاً) وتقلُّباً في مهمَّاتكَ فعليكَ بالتَّهجُّدِ، فإنَّ مناجاةَ الرَّبِّ تستدعي فراغَ القلبِ.

قولُهُ: (فِي ابتِدَاءِ قِرَاءَتِك) هذا يلائِمُ مذهَبَنا[2] أنَّ البسملَةَ ليست داخلَةً في القراءَةِ نفسها حتَّى يكونَ مأموراً بأن يبدأ بها كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأتَ القُرآنَ فَاستَعِذ باللهِ﴾ [النحل: ٩٨]، فإنَّ الاستعاذَةَ ليست من القُرآنِ إجماعاً، هذا وتفسيرُ الشَّيخِ[3] غريبٌ، والمشهورُ في معناهُ: دُم على ذكرِهِ ليلاً ونَهاراً، وذكرُ الله يتناوَلُ كلَّ ما يذكَرُ به من تَسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصلاةٍ وقراءَةِ قُرآنٍ ودراسَةِ علمٍ.

قولُهُ: (في العِبَادَةِ) أو بها.

(وجَرِّد) نفسَك عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (هُو) يعني: أنَّ المبتدأ مُقدَّرٌ، وقيلَ: لا تقدير، وخبرُهُ: ﴿لا إله إلا هُوَ﴾، وقرأ الشَّاميُّ والكوفيُّ غير حفصٍ بالجرِّ[4] على البدلِ من: ﴿رَبِّكَ﴾.

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٩).

(٢) انظر: «البناية» (٢/ ١٩٢).

(٣) الشيخ المحلي رحمه الله.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٦).

٩ ـ هو ﴿رَبُّ المَشرِقِ والمَغرِبِ، لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾: موكولاً له أمُورُك، ١٠ ـ ﴿واصبِرْ علَى ما يَقولُونَ﴾، أي: كُفّارُ مكّة من أذاهم، ﴿واهجُرْهُم هَجرًا جَمِيلاً﴾: لا جزعَ فيه ـ وهذا قبل الأمر بقِتالهم ـ ١١ ـ ﴿وذَرْنِي﴾: اتركني ﴿والمُكَذِّبِينَ﴾: عطفٌ على المفعول، أو مفعولٌ معه ـ والمعنى: أنا كافيكَهُم، وهم صناديد قُريش ـ ﴿أُولِي النَّعْمةِ﴾: التنعّم ﴿ومَهِّلْهُم قَلِيلاً﴾ من الزمن. فقُتلوا بعد يسير منه ببدر.

١٢ ـ ﴿إنَّ لَدَينا أنكالاً﴾: قُيودًا ثِقالاً، جمعُ نِكْل بكسر النون ﴿وجَحِيمًا﴾: نارًا مُحرقة، ١٣ ـ ﴿وطَعامًا ذا غُصّةٍ﴾: يُغَصّ به في الحلق ـ وهو الزقّوم أو الضريع، أو الغِسلينُ أو شوك من نار ـ لا يخرج ولا ينزل ﴿وعَذابًا أَلِيمًا﴾: مُؤلمًا زيادة على ما ذُكر لمن كذّب النبيّ، ١٤ ـ ﴿يَومَ تَرجُفُ﴾: تَزَلزلُ ﴿الأرضُ والجِبالُ، وكانَتِ الجِبالُ كَثِيبًا﴾: رملاً مُجتمِعًا ﴿مَهِيلاً﴾: سائلاً بعد اجتماعه. وهو مِن: هالَ يَهِيلُ. ....

قولُهُ: (من أَذَاهُم) أي: على ما يقولونَ فينا، أو فيكَ، أو في القُرآنِ.

قولُهُ: (لا جَزَعَ) أو بأن تجانبَهُم وتُداريَهُم.

قولُهُ: (عَلَى المَفعُولِ) أي: دعني وإيَّاهُم وكِلْ إليَّ أمرَهُم.

قولُهُ: (مِنَ الزَّمَنِ) أو الإمهالِ.

قولُهُ: (يَغُصُّ) ويعتَرِضُ وينشَبُ.

قولُـهُ: (مُؤلِمـاً) أي: نَوعـاً آخرَ من العـذابِ مؤلماً لا يعـرِفُ كنهَهُ إلا الله، وفسَّـرَ العـذابَ بالحرمانِ عن لقـاءِ الله تعالـى، ولذا قيـلَ: الحجابُ أشـدُّ العذابِ.

قولُهُ: (تُزَلزَلُ) بحذفِ إحدى التَّاءينِ؛ أي: تضْطَرِبُ.

قولُهُ: (رَملاً) إنَّما أعيدَ لفظُ: ﴿الجِبَالِ﴾ والقياسُ الإضمارُ؛ لتقدُّمِ ذكرها؛ لأنَّ الآيَةَ سيقَت للتَّخويفِ والتَّنبيهِ على عِظمِ الأمرِ، فإعادَةُ الضَّميرِ[1] أبلغُ، وأيضاً لو لم يذكرِ الجبالَ لكان الضَّميرُ مُحتمِلاً أن يعُودَ إلى ﴿الأَرضِ﴾، فذكرَ ﴿الجبَالَ﴾ بظاهرِها دفعاً لهذا الاحتِمالِ.

قولُهُ: (سَائِلاً) مَنثوراً.

قولُهُ: (من هَالَ) إذا نُثِرَ وسالَ.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: الظاهر، ليناسب السياق.

وأصله «مَهْيُول» استُثقلت الضمّةُ على الياء فنقلت إلى الهاء، وحُذفَتِ الواو ثاني الساكنين لزيادتها، وقُلبت الضمّة كسرة لمجانسة الياء.

١٥ ـ ﴿إنّا أرسَلْنا إلَيكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿رَسُولاً﴾ هو مُحمّد ﷺ ﴿شاهِدًا علَيكُم﴾ يوم القيامة بما يصدر منكم من العِصيان ﴿كَما أرسَلْنا إلَى فِرعَونَ رَسُولاً﴾ هو مُوسَى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ١٦ ـ ﴿فعَصَى فِرعَونُ الرَّسُولَ، فأخَذْناهُ أخذًا وَبِيلاً﴾: شديدًا.

١٧ ـ ﴿فكَيفَ تَتَّقُونَ، إن كَفَرتُم﴾ في الدنيا، ﴿يَومًا﴾: مفعول «تتّقون» أي: عذابه، أي: بأيِّ حِصن تتحصّنون من عذاب يومٍ، ﴿يَجعَلُ الوِلدانَ شِيبًا﴾: جمع أشيَبَ لشِدّة هوله، وهو يوم القيامة ـ والأصل في شين «شيب» الضمّ، وكُسرت لمجانسة الياء. ويقال في اليوم الشديد: يومٌ يُشِيب نواصيَ الأطفال. وهو مجاز. ويجوز أن يكون المُراد في الآية الحقيقةَ ـ ١٨ ـ ﴿السَّماءُ مُنفَطِرٌ﴾: ذاتُ انفطارٍ أي: انشقاقٍ ﴿بِهِ﴾: ....

قولُهُ: (ثَانِي السَّاكِنَينِ) عندَ سيبَويه[1] وأوّلُهما عندَ الأخفَشِ[2]، وقُلِبت الواو ياءً.

قولُهُ: (منَ العِصيَانِ) والطَّاعَةِ.

قولُهُ: (هُوَ مُوسَى) ولم يُعيِّنْهُ؛ لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّقْ به.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿الرَّسُول﴾) عرَّفَهُ لسبقِ ذكرِهِ.

قولُهُ: (شَدِيداً) ثَقيلاً غليظاً بالإغراقِ في الدُّنيا، وبالإحراقِ في العُقبى.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) أي: إن بَقيتُم على الكفرِ.

قولُهُ: (وكُسِرَتْ) كبِيْض، جمعُ: أبيَض.

قولُهُ: (وَهوَ مَجَازٌ) أي: تَمثيلٌ للشِّدَّةِ، وأصلُهُ: أنَّ الهُمومَ تضعِفُ القوى وتُسرِعُ بالشَّيبِ، وقيل: هذا على الفَرَضِ؛ أي: لو وجِدَ وِلْدانٌ.

قولُهُ: (الحَقِيقَةُ) بأن يكونَ وَصفَ اليومَ بالطُّولِ.

قولُهُ: (ذَاتُ انْفِطَارٍ وانشِقَاقٍ) يعني: على النَّسَبِ والتَّذكيرِ على تأويلِ الشَّقِّ، وإضمارِ شيءٍ، وقيل: السَّماءُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» (١/ ٥٠).

بذلك اليوم لشِدّته؟ ﴿كَانَ وَعدُهُ﴾ ـ تعالى ـ بمجيء ذلك اليوم ﴿مَفعُولاً﴾، أي: هو كائن لا محالة.
١٩ ـ ﴿إِنَّ هذِهِ﴾ الآياتِ المُخوِّفةَ ﴿تَذكِرةٌ﴾: عِظة للخلق. ﴿فَمَن شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾: طريقًا بالإيمان والطاعة.

٢٠ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنَى﴾: أقلَّ ﴿مِن ثُلُثَي اللَّيلِ ونِصفِهِ وثُلُثِهِ﴾ ـ بالجرّ: عطفٌ على «ثُلثي»، وبالنصب: عطفٌ على «أدنى». وقِيامُه كذلك نحوُ ما أُمر به أوّلَ السورة ـ ﴿وطائفةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾: عطفٌ على ضمير «تقوم»، وجاز من غير تأكيد للفصل ـ وقِيامُ طائفة من أصحابه كذلك للتأسّي به. ومنهم من كان لا يدري: كم صلّى من الليل؟ وكم بقي منه؟ فكان يقوم الليل كُلّه احتياطًا، فقاموا حتّى انتفخت أقدامهم سَنة أو أكثر، فخُفّف عنهم ـ قال تعالى: ﴿واللهُ يُقَدِّرُ﴾: يُحصي ﴿اللَّيلَ والنَّهارَ، عَلِمَ أَن﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: أنّه ﴿لَن تُحصُوهُ﴾ أي: الليلَ لتقوموا فيما يجب القِيام فيه، إلاّ بقِيام جميعه، وذلك يشُقّ عليكم، ﴿فتابَ عليكُم﴾: رجَعَ بكم إلى التخفيف. ﴿فاقرَؤُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ﴾ في الصلاة بأن تُصلّوا ما تيسّر.

قولُهُ: (بِذَلكَ اليَومِ) أو بشدَّةِ ذلكَ اليَومِ مع عظَمِها وإحكامِها فضلاً عن غيرِها، والباءُ للآلَةِ، وقيلَ: للسَّببيَّةِ، وقيلَ: للظَّرفيَّةِ.

قولُهُ: (تَعَالَى) يعني: الضَّميرُ للّه، وقيلَ: لليَومِ على إضافَتِهِ إلى المفعولِ.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿فَمَن شَاءَ﴾) أي: أن يتَّعظَ.

قولُهُ: (أَقَلَّ) استَعارَ الأدنى للأقَلِّ؛ لأنَّ الأقربَ إلى الشَّيءِ أقَلُّ بُعداً منه.

قولُهُ: (وبِالنَّصبِ) مكِّيٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُهُ: (للفَصلِ) أي: ويَقولُ ذلك جَماعَةٌ من أصحابِكَ، و﴿من﴾ بَيانيَّةٌ أو تبعيضيَّةٌ.

قولُهُ: (يُحصِي) أي: لا يعلَمُ مقاديرَ ساعاتِهِما كما هي إلا اللهُ.

قولُهُ: (أي: اللَّيلَ) أي: لن تُحصُوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تُطيقوا ضبطَ السَّاعاتِ.

قولُهُ: (إلى التَّخفِيفِ) بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقدَّرِ، ورفعِ التَّبِعَةِ فيه.

قولُهُ: (مَا تَيَسَّرَ) عليكُم من صلاةِ اللَّيلِ، عبَّر عن الصَّلاةِ بالقراءَةِ كما عبَّرَ عنها بسائرِ الأركانِ، أو المرادُ بـ﴿القُرآنِ﴾: القراءاتُ السَّبعُ على ما في البُخاري[2]، قيل: كانَ التَّهجُّدُ واجباً على التَّخييرِ المذكورِ، فعَسُرَ

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

(٢) روى البخاري (٧٥٥٠)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولفظه قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه».

﴿عَلِمَ أنْ﴾: مُخففة من الثقيلة، أي: أنّه ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَرضَى، وآخَرُونَ يَضرِبُونَ في الأرضِ﴾: يُسافرون، ﴿يَبتَغُونَ مِن فَضلِ اللهِ﴾: يطلبون من رزقه بالتجارة وغيرها، ﴿وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ﴾. وكُلّ من الفِرَق الثلاث يشُقّ عليهم ما ذُكر في قيام الليل، فخُفّف عنهم بقيام ما تيّسر منه، ثمّ نُسخ ذلك بالصلوات الخمس. ﴿فاقرَؤُوا ما تَيَسَّرَ مِنهُ﴾ كما تقدم ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ المفروضة، ﴿وآتُوا الزَّكاةَ، وأقرِضُوا اللهَ﴾ بأن تُنفقوا ما سوى المفروض من المال في سبيل الخير ﴿قَرضًا حَسَنًا﴾ عن طِيب قلب. ﴿وما تُقَدِّمُوا لِأنفُسِكُم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيرًا﴾ ممّا خلّفتم، وهو: فصلٌ وما بعده، وإن لم يكن معرفة، يُشبهها لامتناعه من التعريف، ﴿وأعظَمَ أجرًا ـ واستَغفِرُوا اللهَ. إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمُؤمنين.

عليهم القيامُ به فنسَخَ به، ثمَّ نسخَ هذا بالصَّلواتِ الخمسِ، ومذهَبُ الحسنِ البصريِّ[1] وبعضٌ آخرُ أنَّ الواجِبَ على حمَلَةِ القُرآنِ أن يقوموا من اللَّيلِ ولو بشَيءٍ منه، وفي الأحاديثِ ما يدُلُّ على ذلك[2].

قولُهُ: (وغَيرِهَا) كالحَجِّ وطلَبِ العِلمِ.

قولُهُ: (كَمَا تَقَدَّمَ) أو اكتَفوا بالقراءَةِ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (بأَن تُنفِقُوا) وهذا يدُلُّ على قولِ من قالَ: إنَّ فرضَ الزَّكاةِ بمكَّةَ، لكنَّ المقاديرَ والمصارِفَ لم تتبَيَّنْ إلا بالمدينَةِ.

قولُهُ: (مَا سِوَى المفرُوضِ) أو المرادُ به: الأمرُ بأداءِ الزَّكاةِ على أحسَنِ وجهٍ، والتَّرغيبُ فيه بوَعدِ العِوَضِ.

قولُهُ: (عَن طِيبِ قَلبٍ) ووجهٍ حلالٍ، وبأن يكونَ مقروناً بإخلاصٍ.

قولُهُ: (مِمَّا خَلَّفتُم) من مَتاعِ الدُّنيا، أو من الذي تؤخِّرونَهُ إلى الوصيَّةِ عند الموتِ، وهو ثاني مفعولَي: ﴿تَجِدُوه﴾.

قولُهُ: (وَهُوَ فَصْلٌ) أو تأكيدٌ.

قولُهُ: (يُشبِهُهَا) لأنَّ أفعَلَ مِنْ كالمعرفَةِ.

قولُهُ: (مِنَ التَّعرِيفِ) أي: حَرفِه، والله أعلمُ.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٦٩٨) عن أبي رجاء محمد، قال. قلت للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، فلا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة، قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك؛ قال الله للعبد الصالح: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ قلت: يا أبا سعيد قال الله: ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ قال: نعم، ولو خمسين آية.

(٢) روى أبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي (١٦٧٥)، وابن ماجه (١١٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٧٧) عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، أوتروا، فإن الله وتر، يحب الوتر». قال الترمذي: حديث حسن.

سورة المزمل

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة ـ كما ذكر الماورديُّ[1] ـ إلَّا آيتين منها: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الآية: ١٠] والتي تليها. وحكى في «البحر»[2] عن الجمهور أنَّها مكِّيَّة إلَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ [الآية: ٢٠] إلى آخرها، وتعقَّبه الجلال السيوطيُّ بعد أنْ نقل الاستثناء عن حكاية ابنِ الفرس بقوله: ويردُّه ما أخرجه الحاكم عن عائشةَ أنَّ ذلك نزل بعد نزول صدر السورة بسَنَة، وذلك حين فُرِضَ قيامُ الليل في أوَّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس[3]. وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يتعلَّق بذلك.

وآيُها ثماني عشرة آية في المدني الأخير، وتسع عشرة في البصري، وعشرون فيما عداهما.

ولمَّا ختم سبحانه سورة الجِنِّ بذِكْر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عزَّ وجلَّ هذه بما يتعلَّق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام وهو وجهٌ في المناسبة.

وفي «تناسق الدرر»: لا يخفى اتِّصال أوَّلها: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ إلخ بقوله تعالى في آخر تلك: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الآية: ١٩] وبقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الآية ١٨][4].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢٤.

(٢) ٨/ ٣٦٠.

(٣) الإتقان ١/ ٥٢.

(٤) تناسق الدرر للسيوطي ص٨٩.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ أي: المُتَزَمِّل، مِن تَزَمَّل بثيابه: إذا تلفَّف بها، فأدغم التاء في الزاي، وقد قرأ أُبَيٌّ على الأصل[(١)]، وعكرمة: «المُزَمِّل» بتخفيف الزاي وكسر الميم[(٢)]، أي: المُزَمِّل جسمَه أو نفسَه، وبعض السلف: «المُزَمَّل» بالتخفيف وفتح الميم[(٣)] اسم مفعول، ولا تَدافُع بين القراءات؛ فإنَّه عليه الصلاة والسلام هو زمَّل نفسَه الكريمة مِن غير شبهة، لكن إذا نظر إلى أنَّ كلَّ أفعاله مِن الله تعالى فقد زمَّله غيرُه، ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنَّه ﷺ زمَّل نفسه أوَّلاً، ثم نام فزمَّله غيره، أو: إنَّه زمَّله غيرُه أوَّلاً، ثم سقط عنه ما زُمِّل به فزمَّل هو نفسه.

والجمهور على أنَّه ﷺ لما جاءه الملَك في غار حراء وحاوره بما حاوره، رجع إلى خديجة رضي الله عنها فقال: زمِّلوني زمِّلوني. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وعلى إثرها نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾.

وأخرج البزار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر رضي الله عنه، قال: لما اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سَمُّوا هذا الرجل اسماً تَصْدُر الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يُفرِّق بين الحبيبِ وحبيبه. فتفرَّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[(٤)].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٣، والمحتسب ٢/ ٣٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٧٦، والبزار (٢٢٧٦ - كشف الأستار)، والأوسط للطبراني (٢٠٩٦)، ولم نقف عليه بهذا اللفظ في مطبوع الدلائل.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٠ : فيه: معلى بن عبد الرحمن الواسطي، وهو كذاب.

ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيسٌ له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسمٍ للمخاطب مِن صفته التي هو عليها، كقوله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه حين غاضَبَ فاطمةَ رضي الله عنها، فأتاه وهو نائم وقد لصقَ بجِنْبه التراب: «قُمْ أبا تُراب»[(١)] قصداً لرَفْع الحجاب وطَيِّ بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقَّى ما يَردُ عليه بلا كسل:

وكلُّ ما يفعل المحبوبُ محبوبُ[(٢)]

وزعم الزمخشري أنَّه عليه الصلاة والسلام نُوديَ بذلك؛ تهجيناً للحالة التي عليها من التزمُّل في قطيفةٍ واستعدادِه للاستثقال في النوم، كما يفعل مَن لا يهمه أمر ولا يَعْنيه شأنٌ[(٣)]. إلى آخر ما قال ممَّا ينادى عليه ـ كما قال الأكثرون ـ بسوء الأدب، ووافقه في بعضه مَن وافقه. وقال صاحب «الكشف»: أراد أنَّه عليه الصلاة والسلام وُصفَ بما هو متلبِّس به يُذكِّره تقاعده، فهو من لطيف العتاب الممزوج بمحضِ الرأفة، ولينشطه ويجعله مستعدًّا لما وعده تعالى بقوله سبحانه: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) ولا يربأ برسول الله ﷺ عن مثلِ هذا النداء، فقد خوطب بما هو أشدُّ في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] ومثل هذا من خطاب الإدلال والترؤُّف لا يتقاعد ما في ضمنه من البرِّ والتقريب عمَّا في ضمن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ من التعظيم والترحيب. انتهى.

ولا يخفى أنَّه لا يندفع به سوءُ أدب الزمخشريِّ في تعبيرِه، فإنه تعالى وإن كان له أن يخاطبَ حبيبَه بما شاء، لكنَّا نحن لا نَجرؤ على ما عامله سبحانه به، بل يَلزمنا الأدب والتعظيم لجنابه الكريم، ولو خاطب بعضُ الرعايا الوزيرَ بما خاطبه به السلطانُ، طردَه الحجَّاب، وربَّما كان العقابُ هو الجوابَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٢) عجز بيت للمهيار الديلمي، وهو في المدهش لابن الجوزي ص٢٧٦، وصدره:
أرضى وأسخط أو أرضى تلوُّنه
(٣) الكشاف ٤/ ١٧٤.

وقيل: كان ﷺ متزمِّلاً بمِرْطٍ لعائشة ﵂ يُصلِّي، فنوديَ بذلك ثناءً عليه وتحسيناً لحاله التي كان عليها. ولا يأباه الأمرُ بالقيام بَعْدُ، إمَّا لأنَّه أمرٌ بالمداومة على ذلك والمواظبة عليه، أو تعليم له عليه الصلاة والسلام وبيان لمقدارِ ما يقوم على ما قيل. نعم أورد عليه أنَّ السورةَ مِن أوائل ما نزل بمكَّة، ورسول الله ﷺ إنَّما بَنَى على عائشة ﵂ بالمدينة، مع أنَّ الأخبار الصحيحة متضافرةٌ بأنَّ النداء المذكور كان وهو عليه الصلاة والسلام في بيت خديجة ﵂، ويعلم منه حالِ ما روي عن عائشة أنَّها سُئلت: ما كان تزميله ﷺ؟ قالت: كان مِرْطاً طوله أربع عشرة ذراعاً، نصفه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه عليه وهو يُصلِّي، وكان سَدَاه شَعَراً، ولُحْمَتُه وَبَراً.

وتكلَّف صاحب «الكشف» فقال: الجواب أنَّه عليه الصلاة والسلام عَقَد في مكَّة(١)، فلعلَّ المِرْطَ بعد العقد صار إليه ﷺ، نعم دلَّ على أنَّه بعد وفاة خديجة، إنَّما الإشكال في قول عائشة: نصفه عليَّ.. إلخ، وجوابه: أنَّه يمكن أن يكون قد باتَ ﷺ في بيت الصِّدِّيق ﵁ ذاتَ ليلة، وكان المِرْطُ على عائشة وهي طفلة، والباقي لطوله على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فحَكَت ذلك أمُّ المؤمنين، إذ لا دلالةَ على أنَّها حكاية ما بعد البناء، فهذا ما يتكلَّف لصحَّة هذا القول. انتهى.

وأنتَ تعلم أنَّ هذا الحديث لم يقع في الكتب الصحيحة، كما قاله ابنُ حجر(٢)، بل هو مخالف لها، ومثل هذه الاحتمالات لا يكتفى بها، بل قال أبو حيَّان: إنَّه كذب صريحٌ(٣).

وعن قتادة: كان ﷺ قد تزمَّل في ثيابه للصلاة واستعدَّ لها، فنودي بـ «يا أيُّها المزمِّل» على معنى: يا أيُّها المستعدُّ للعبادة. وقال عكرمة: المعنى: يا أيُّها المزمِّل للنبوَّة وأعبائِها.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قبل الهجرة بثلاث سنين، فلا تغفل. انتهى منه.
(٢) في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٦٠.

والزِّمْل كالحِمْل لفظاً ومعنًى، ويقال: ازدَمَله، أي: احتمله. وفيه تشبيهُ إجراءِ مراسم النبوَّة بتحمُّل الحِمْل الثقيل؛ لما فيهما من المشقَّة. وجوّز أن يكون كنايةً عن المتثاقِل؛ لعدم التمرُّن، وأورد عليه نحو ما أُورد على وجه الزمخشريِّ، ومع صحَّة المعنى الحقيقي واعتضاده بالأحاديث الصحيحة لا حاجةَ إلى غيره، كما قيل.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي: قم إلى الصلاة، وقيل: داوم عليها. وأيًّا ما كان فمعمول «قم» مقدَّر، و«الليلَ» منصوبٌ على الظرفيَّة، وجوّز أن يكون منصوباً على التوسُّع والإسناد المجازيّ، ونسب هذا إلى الكوفيين، وما قَبْلُ[1] إلى البصريين، وقيل: القيام مستعارٌ للصلاة، ومعنى «قم»: صَلِّ، فلا تقدير.

وقرأ أبو السمَّال بضمِّ الميم؛ إتْباعاً لحركة القاف، وقرئ بفتحها[2]؛ طلباً للتخفيف، والكسر في قراءة الجمهور على أصل التقاء الساكنين.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ استثناء من «الليل»، وقوله تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدلٌ من «قليلاً» بدل الكُلِّ، والضمير للَّيل، وفي هذا الإبدال رَفْعُ الإبهام، وفي الإتيان بقليل ما يدلُّ على أنَّ النصفَ المغمورَ بذِكْر الله تعالى بمنزلة الكُلِّ، والنصف الفارغ وإن ساواه في الكميَّة لا يُساويه في التحقيق.

﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ عطف على الأمر السابق، والضمير المجرور للَّيل أيضاً مقيَّداً بالاستثناء؛ لأنَّه الذي سيق له الكلام، وقيل: للنصف[3]؛ لقُربه ﴿قَلِيلًا ۝٣﴾ أي: نقصاً قليلاً، أو: مقداراً قليلاً، بحيث لا ينحطُّ عن نصفِ النصف.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ عطف كما سبق، وكذا الكلام في الضمير، ولا يختلف المعنى على القولين فيه، وهو تخييره ﷺ بين أن يقومَ نصفَ الليل، أو أقلَّ مِن النصف، أو أكثر[4]، بيد أنَّه رجّح الأوَّل بأنَّ فيه جَعْلَ معيارِ النقص والزيادةِ النصفَ المقارنَ للقيام، وهو أَولى مِن جعله النصف العاري منه بالكليَّة وإن تساويا كميَّةً، وجعل

---

(١) في (م): وما قيل.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٤) جاء في هامش الأصل: بمقدار ما تنبسط به النفس وتنشط للتهجد. انتهى منه.

بعضهم[١] الإبدال من الليل الباقي بعد الثنيا، والضميرين له، وقال في الإبدال مِن «قليل» ليس بسديد. لهذا، ولأنَّ الحقيقَ بالاعتناء الذي يُنبئُ عنه الإبدال هو الجزء الباقي بعد الثنيا المقارنُ للقيام، لا الجزءُ المخرج العاري عنه. ولا يخفى أنَّه على طرف الثمام.

وكذا اعترض أبو حيَّان[٢] ذلك الإبدال بقوله: إنَّ ضمير «نصفه» حينئذٍ إمَّا أن يعود على المبدَل منه، أو على المستثنى منه وهو «الليل»، لا جائزٌ أن يعودَ على المبدَل منه؛ لأنَّه يكون استثناءَ مجهول من مجهول، إذ التقدير: إلا قليلاً نصف القليل، وهذا لا يصحُّ له معنًى البتة، ولا جائز أن يعودَ على المستثنى منه؛ لأنَّه يلغو فيه الاستثناء، إذ لو قيل: قم الليل نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، أفاد معناه على وجهٍ أَخْصَرَ وأوضح، وأبعد عن الإلباس.

وفيه: أنَّا نختار الثاني، وما زعمه مِن اللَّغْويَّة قد أشرنا إلى دفعه، وأوضحه بعضُ الأجلَّة بقوله: إنَّ فيه تنبيهاً على تخفيف القيام وتسهيله؛ لأنَّ قلَّة أحد النصفين تلازمُ قلَّة الآخَر، وتنبيهاً على تفاوت ما شغل بالطاعة وما خلا منها لإشعاره[٣] بأنَّ البعضَ المشغول بمنزلة الكُلِّ، مع ما في ذلك مِن البيان بعد الإبهام، الداعي للتمكُّن في الذهن وزيادة التشويق.

وتعقَّب السمينُ الشِّقَّ الأوَّل أيضاً بأنَّ قوله: استثناء مجهولٍ من مجهول، غيرُ صحيح؛ لأنَّ الليل معلوم، وكذا بعضُه مِن النصف وما دونَه وما فوقه، ولا ضيرَ في استثناء المجهول مِن المعلوم، نحو: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٤٩] بل لا ضيرَ في إبدال مجهولٍ من مجهول كـ: جاءني جماعةٌ بعضهم مشاة[٤]. ومع هذا المعوَّلُ عليه ما سلف.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ٥٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦١.

(٣) في الأصل: لإشعار، وفي (م): الإشعار، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٣، والكلام منه.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٣، وينظر الدر المصون ١٠/ ٥١٣-٥١٤.

وجوّز أن يكون «نصفه» بدلاً مِن «الليل» بدل بعضٍ مِن كُلٍّ، والاستثناء منه، والكلام على نيَّة التقديم والتأخير، والأصل: قُم نصفَ الليل إلا قليلاً، وضمير «منه» و«عليه» للأقلِّ من النصف المفهوم مِن مجموع المستثنى والمستثنى[١] منه، فكأنَّه قيل: قُم أقلَّ مِن نصفِ الليل، بأنْ تقوم ثلثَ الليل، أو انقص مِن ذلك الأقلِّ قليلاً، بأنْ تقومَ ربعَ الليل، أو زد على ذلك الأقلِّ بأنْ تقومَ النصفَ، فالتخيير على هذا بين الأقلِّ مِن النصف والأقلِّ مِن الأقلِّ والأزيد منه وهو النصف بعينه، ومآله إلى التخيير بين النصف والثلث والربع، فالفرق بين هذا الوجه وما ذُكر قَبْلُ مثلُ الصبح ظاهر.

وفي «الكشاف» ما يفهم منه ـ على ما قيل ـ أنَّ التخيير فيما وراء النصف[٢]. أي: فيما يقلُّ عن النصف ويزيد على الثلث، فلا يبلغ بالزيادة النصف ولا بالنقصان الثلث.

قال في «الكشف»: وإنَّما جعل الزيادة دون النصفِ، والنقصانَ فوقَ الثلث؛ لأنَّهما لو بلغا إلى الكسر الصحيح لكان الأشبه أن يُذكَرا بصريح اسمَيْهما، وأيضاً إيثار القلَّة ثانياً دليل على التقريب مِن ذلك الأقلِّ، وما انتهى إلى كسر صحيح فليس بناقص قليل في ذوق هذا المقام، وكذا القول في جانب الزيادة، كيف وقد بنى الأمرَ على كونه أقلَّ مِن النصف. انتهى. وهو وجه متكلَّف، ونحوُه ـ فيما أرى ـ ما سمعتَ قبيله. وظاهر كلام بعضهم أنَّ ذِكْر الثلث والربع والنصف فيه على سبيل التمثيل، لا أنَّ الأقلَّ والأنقص والأزيد محصورات فيما ذكر.

وجوّز أيضاً كون الكلام على نيَّة التقديم والتأخير كما مرَّ آنفاً، لكن مع جعل الضميرين للنصف لا للأقلِّ منه كما في ذلك، والمعنى: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم عليه الصلاة والسلام أقلَّ مِن نصف الليل على البتِّ، وبين أن يختارَ أحدَ الأمرَيْن وهما النقصان مِن النصف والزيادةُ عليه، فكأنَّه قيل: قُم أقلَّ مِن نصف

---

(١) قوله: والمستثنى، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٦٤.
(٢) الكشاف ٤/ ١٧٥.

الليل على البتِّ، أو انقص مِن النصف، أو زد عليه تخييراً، قيل: وللاعتناء بشأن الأقلِّ ـ لأنَّه الأصلُ الواجب ـ كُرِّر، على نحو: أكرم إمَّا زيداً وإمَّا زيداً أو عَمْراً.

وتعقِّب بأنَّ فيه تكلُّفاً؛ لأنَّ تقديم الاستثناء على البدل ظاهر في أنَّ البدل مِن الحاصل بعد الاستثناء؛ لأنَّ في تقدير تأخير الاستثناء عدولاً عن الأصل من غير دليل، ولأنَّ الظاهر على هذا رجوعُ الضميرين إلى النصف بعد الاستثناء ـ لأنَّه السابق ـ لا النصفِ المطلق، وأيضاً الظاهر أنَّ النقصانَ رخصةٌ؛ لأنَّ[1] الزيادة نفل، والاعتناء بشأن العزيمة أولى. ثم فيه أنَّه لا يجوز قيامُ النصف، ويردُّه القراءةُ الثابتة في السبعة: «إنَّ ربَّك يَعلم أنَّك تقومُ أدنى مِن ثلثي الليل ونصفِه وثلثِه» بالجرِّ[2]، فإن استدل مِن جواز الأقلِّ على جوازه لمفهوم الموافقة، لزم أن يلغو التعرُّض للزيادة على النصف لذلك أيضاً، ولا يخفى أن بعضَ هذا يَرِدُ على الوجه المارِّ آنفاً.

واعتُرض قوله: الظاهر أنَّ النقصانَ رخصةٌ. بأنَّه محلُّ نظر، إذ الظاهر أنَّه مِن قبيل: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧] فالتخيير ليس على حقيقته. وفيه بحث.

وجوّز أيضاً كون الإبدال مِن «قليلاً» كما قدَّمنا أوَّلاً لكن مع جَعْلِ «قليلاً» الثاني بمعنى نصفِ النصف وهو الربع، وضمير «عليه» لهذا القليل، وجَعْلِ المزيد على هذا القليل ـ أعني: الربع ـ نصفَ الربع، كأنَّه قيل: قم نصفَ الليل، أو انقص مِن النصف قليلاً نصفَه، أو زد على هذا القليل قليلاً نصفَه، ومآله: قم نصفَ الليل، أو نصفَ نصفه، أو زد على نصف النصف نصفَ نصفِ النصف، فيكون التخييرُ فيما إذا كان الليلُ ستَّ عشرة ساعة مثلاً بين قيام ثماني ساعات وأربعٍ وستٍّ. ولا يخفى أنَّ الإطلاقَ في: «أو زد عليه» ظاهر الإشعار بأنَّه غيرُ مقيَّد بـ «قليلاً»، إذ لو كان للاستغناء لاكتفي في: «أوِ انْقُص» إلخ بالأوَّل أيضاً، ومِن هنا قيل: يجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمَّة للثلث، فيكون التخيير بين النصف

(١) كذا في الأصل و(م): لأن، وفي حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٤: لا أن.
(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣. ونصب الفاء والثاء قراءة الكوفيين وابن كثير.

والثلث والربع، وفيه أنَّ جعلها تتمَّة الثلث لا دليلَ عليه سوى موافقة القراءة بالجرِّ في «نصفِه وثلثه» بَعْدُ.

وجوَّز الإمام أن يُراد بـ «قليلاً» في قوله تعالى: «إلا قليلاً» الثلث، وقال: إنَّ «نصفه» على حذف حرف العطف، فكأنه قيل: [قم] ثلثي الليل، أو: قم نصفه أو انقص مِن النصف، أو زد عليه[1]. وأطال في بيان ذلك، والذبِّ عنه، ومع ذلك لا يَخفى حاله. وذَكَر أيضاً وجهاً ثانياً لا يَخفى أمره على مَن أحاط بما تقدَّم خبراً، نعم تفسيره القليل بالثلث مرويٌّ عن الكلبي ومقاتل، وعن وهب بنِ منبه تفسيره بما دون المِعْشار والسدس، وهو على ما قدَّمنا نصف، واستدلَّ به من قال بجواز استثناء النصف وما فوقَه على ما فصِّل في الأصول.

وقال التبريزيُّ: الأَمْرُ بالقيام والتخييرُ في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين مِن آخِر الليل؛ لأنَّ الثلث الأوَّل وقتُ العَتَمَة، والاستثناءُ واردٌ على المأمور به، فكأنَّه قيل: قُم ثلثي الليل إلا قليلاً، ثم جعل «نصفه» بدلاً من «قليلاً»، فصار القليل مفسَّراً بالنصف من الثلثين، وهو قليلٌ على ما تقدَّم، أو انقص منه، أي: من المأمور به، وهو قيام الثلثين قليلاً، أي: ما دون نصفه، أو زد عليه، فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين. انتهى. وهو كما ترى!

وقيل: الاستثناء من أعداد الليل لا مِن أجزائه، فإنَّ تعريفه للاستغراق، إذ لا عهدَ فيه، والضمير راجع إليه باعتبار الأجزاء على أنَّ هناك استخداماً أو شبهه، والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه والزائد عليه. وهو بمكان مِن البُعْد.

وبالجملة قد أكثر المفسِّرون الكلامَ في هذه الآية حتى ذكروا ما لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى العزيز عليه، وأظهر الوجوه عندي، وأَبعدُها عن التكلُّف، وأليقُها بجزالة التنزيل، هو ما ذكرناه أوَّلاً، والله تعالى أعلم بما في كتابه الجليل الجزيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بالأمر في قوله سبحانه: (قُمِ ٱلَّيۡلَ) إلخ.

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٧٢-١٧٣، وما سلف بين حاصرتين منه، واستدل الإمام لهذا القول بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: في أثناء ما ذُكرَ من القيام، أي: اقرأْهُ على تُؤَدةٍ وتمهُّل وتبيينِ حروف ﴿تَرْتِيلًا ۝٤﴾ بليغاً بحيث يتمكَّن السامع مِن عدِّها، مِن قولهم: ثَغْرٌ رَتْلٌ بسكون التاء، ورَتِلٌ بكسرها: إذا كان مفلَّجاً لم تتَّصل أسنانه بعضها ببعض. وأخرج العسكريُّ في «المواعظ» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئلَ عن هذه الآية، فقال: «بيِّنه تبييناً، ولا تَنْثره نَثر الدَّقَل، ولا تَهذّه هذَّ الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن هَمّ أحدكم آخِر السورة»[(١)].

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ أي: سنوحي إليك، وإيثار الإلقاء عليه؛ لقوله تعالى ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ وهو القرآن العظيم، فإنَّه لِمَا فيه من التكاليف الشاقَّة ثقيلٌ على المكلَّفين سيَّما على الرسول ﷺ فإنَّه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحمُّلها وتحميلها للأمَّة. وهذه الجملة المؤكَّدة معترضةٌ بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي؛ لتسهيل ما كُلِّفه عليه الصلاة والسلام مِن القيام، كأنَّه قيل: إنَّه سيردُ عليك في الوحي المنزل عليك[(٢)] تكاليف شاقَّة، هذا بالنسبة إليها سهلٌ، فلا تُبالِ بهذه المشقَّة وتمرَّن بها لما بعدها، وأدخل بعضهم في الاعتراض جملة «ورتِّل» إلخ، وتعقِّب بأنَّه لا وجهَ له.

وقيل: معنى كونه «ثقيلاً» أنَّه رصينٌ؛ لإحكام مبانيه ومتانة معانيه، والمراد أنَّه راجحٌ على ما عداه لفظاً ومعنًى، لكن تجوّز بالثقيل عن الراجح؛ لأنَّ الراجح مِن شأنه أن يكون كذلك. وفي معناه ما قيل: المراد كلامٌ له وزنٌ ورجحانٌ ليس بالسَّفْساف. وقيل: معناه أنَّه ثقيل على المتأمِّل فيه؛ لافتقاره إلى مزيد تصفيةٍ للسِّرِّ وتجريد للنظر، فالثقيل مجازٌ عن الشاقِّ.

وقيل: ثقيلٌ في الميزان، والثِّقَل إمَّا حقيقة أو مجاز عن كثرةِ ثوابِ قارئه.

وقال أبو العالية والقرطبيُّ: ثقله على الكفَّار والمنافقين بإعجازه ووعيده[(٣)].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٧، ولم نقف عليه عند غيره، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥٢١، والآجري في أخلاق حملة القرآن وأهله (١) عن ابن مسعود موقوفاً. والهذ: سرعة القراءة بغير تأمُّل. وقوله: نثر الدقل، أي: كما يتساقط الرطب الرديء اليابس من العِذْق إذا هُزَّ.

(٢) ليست في (م).

(٣) البحر ٨/ ٦٢، وقوله: القرطبي، كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، ومطبوع المحرر =

وقيل: ثقيلٌ تلقِّيه، يعني يثقل عليه ﷺ [نزوله][(١)] والوحي به بواسطة المَلَك، فإنَّه كان يُوحى إليه عليه الصلاة والسلام على أنحاء، منها: أن لا يتمثَّل له المَلَك ويخاطبه، بل يَعرِض له عليه الصلاة والسلام [حالٌ][(٢)] كالغشي؛ لشدَّة انجذاب روحه الشريفة للمَلأ الأعلى، بحيث يَسمع ما يُوحى به إليه ويشاهده ويحسُّه هو عليه الصلاة والسلام دون مَن معه، وفي هذه الحالة كان يحسُّ في بدنه ثِقَلاً حتى كادت فَخِذُه ﷺ أن ترضَّ فخذَ زيد بنِ ثابت وقد كانت عليها، وهو يُوحى إليه[(٣)].

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابنُ جرير وابنُ نصر والحاكم وصحَّحه عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها فما تستطيع أن تتحرَّك حتى يُسرَّى عنه، وتَلَتْ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾[(٤)].

وروى الشيخان ومالك والترمذيُّ والنسائيُّ عنها أنَّها قالت: ولقد رأيتُه يَنزلُ عليه الوحي في اليوم الشديد البَرْد فيُفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه ليَتفصَّد عَرَقاً[(٥)].

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون «ثقيلاً» صفةً لمصدرٍ حُذف، فأُقيم مقامه، وانتصب انتصابه، أي: إلقاءً ثقيلاً، وليس صفة «قولاً».

وقيل: ذلك كناية عن بقائه على وجه الدهر؛ لأنَّ الثقيلَ مِن شأنه أن يبقى في مكانه.

= الوجيز ٥/ ٣٨٧، ولعل الصواب: القرظي. وجاء في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٨، والقرطبي ٢١/ ٣٢٤: قال أبو العالية: ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين.

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٩٢) عن زيد بن ثابت ﷺ ضمن حديث طويل.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٧٨، وهو عند أحمد (٢٤٨٦٨)، والحاكم ٢/ ٥٠٥ عن عائشة ﷺ، وعند الطبري في التفسير ٢٣/ ٣٦٥ عن هشام بن عروة، عن أبيه، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. اهـ. والجِران: الصدر.

(٥) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣)، ومالك ١/ ٢٠٢-٢٠٣، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٤٧-١٤٩.

وقيل: ثِقَله باعتبار ثِقَل حروفِه حقيقةً في اللوح المحفوظ، فعن بعضهم أنَّ كلَّ حرف مِن القرآن في اللوح أعظمُ مِن جبل قاف، وأنَّ الملائكةَ لو اجتمعت على الحرف أن يُقِلُّوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام ـ وهو مَلَك اللَّوح ـ فيرفعه ويقلّه بإذن الله تعالى لا بقوَّته، ولكن اللهَ عزَّ وجلَّ طوَّقه ذلك. وهذا ممَّا يحتاج إلى نقل صحيح عن الصادق عليه الصلاة والسلام، ولا أظنُّ وجودَه.

والجملة ـ قيل على معظم هذه الأوجه ـ مستأنفةٌ للتعليل؛ فإنَّ التهجُّد يُعِدُّ النَّفسَ لأنْ تُعالجَ ثِقَله، فتأمَّل.

واستدلَّ بالآية على أنَّه لا ينبغي أن يقال: سورة خفيفة؛ لما أنَّ الله تعالى سمَّى فيها القرآنَ كلَّه قولاً ثقيلاً، وهذا من باب الاحتياط كما لا يخفى.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: إنَّ النَّفس التي تنشأ مِن مضجِعها إلى العبادة، أي: تنهض، مِن نَشَأ مِن مكانه ونَشَر: إذا نهض، وأنشد قوله:

نَشَأْنا إلى خُوصٍ بَرَى نَيَّها السُّرَى وأَشْرف منها مُشْرِفاتِ القَماحِدِ[(١)]

وظاهرُ كلام اللغويين أنَّ نَشَأ بهذا المعنى لغةٌ عربيَّة، وقال الكرمانيُّ في «شرح البخاريِّ»: هي لغة حبشيَّة عرَّبوها[(٢)]. وأخرج جماعة نحوه عن ابن عباس وابن مسعود[(٣)]، وحكاه أبو حيَّان عن ابن جبير وابن زيد، وجعل «ناشئة» جمع: ناشئ، فكأنَّه أراد النفوس الناشئة، أي: القائمة، ووجه الإفراد ظاهر، والإضافة إمَّا بمعنى «في»، أو على نحو: سِيْدُ غضاً. وهذا أبلغ.

---

(١) البيت في الكشاف ٤/ ١٧٦، وتفسير البيضاوي ٦/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥ وقال: البيت لا أعرف صاحبه، وقوله: نشأنا: بمعنى قمنا ونهضنا. وخوص: جمع خوصاء وهي الناقة الغائرة العينين من الهزال. وبرى: بمعنى أذهب، ونيّها: شحمها، والقماحد: جمع قَمَحْدُوة، وهي ما خلف الرأس. يقول: قمنا إلى نياق هزلت من كثرة السير. اهـ. والبيت ذكره أبو البقاء الكفوي في الكليات ص٥٠٥ بلفظ:

نشأنا على حرف برى متنها السُّرى والصق منها لابتيها القماحد

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥، وكلام الكرماني في شرح البخاري ٦/ ١٩٥.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٧٨.

أو: إنَّ قيام الليل، على أنَّ الناشئة مصدر نشأ بمعنى قام كالعاقبة، وإسنادها إلى الليل مجاز، كما يقال: قام ليله وصام نهاره. وخصَّ مجاهد هذا القيام بالقيام مِن النوم، وكذا عائشة، ومنعت أن يُراد مُطلَقُ القيام، وكأنَّ ذلك بسبب أنَّ الإضافة إلى الليل في قولهم: قيام الليل، تُفهِم القيام مِن النوم فيه، أو القيام وقت النوم، لمن قال: الليل كلّه.

أو: إنَّ العبادة التي تنشأ ـ أي: تَحدُث ـ بالليل، على أنَّ الإضافة اختصاصيَّة، أو بمعنى «في»، أو على نحو: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال ابن جبير وابن زيد وجماعة: ناشئةُ الليلِ: ساعاتُه؛ لأنَّها تَنشأ، أي: تَحدُث واحدةً بعد واحدة، أي: متعاقبةً، والإضافة عليه اختصاصيَّة. أو: ساعاته الأُوَل، من نَشَأ: إذا ابتدأ. وقال الكسائيُّ: ناشئتُه: أوَّلُه. وقريب منه ما روي عن ابنِ عمر وأنس بنِ مالك وعليِّ بنِ الحسين ﷺ: هي ما بين المغرب والعشاء.

﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: هي خاصَّة دون ناشئة النهار أشدُّ مواطأة، يُواطئُ قلبُها لسانَها إن أُريد بالناشئة النفسُ المتهجِّدة، أو: يواطئُ فيها قلبُ القائم لسانَه إن أُريد بها القيام أو العبادة أو الساعات، والإسناد على الأوَّل حقيقيٌّ، وعلى هذا مجازيٌّ، واعتبار الاستعارة المكنيَّة ليس بذاك، أو أشدُّ موافقة لما يُراد من الإخلاص، فلا مجاز على جميع المعاني.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد والعربيَّان: «وِطَاءً» بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً[١]، على أنَّه مصدر وَاطأ وِطَاءً كقاتل قِتالاً.

وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكَّة بكسر الواو وسكون الطاء والهمز مقصوراً[٢]، وقرأ ابن محيصن بفتح الواو ممدوداً[٣].

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٢.
(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: وأسدُّ[1] مقالاً، أو: أثبتُ قراءةً لحضور القلب وهدوء الأصوات، و«قيلاً» عليهما مصدر، لكنَّه على الأوَّل عامٌّ للأذكار والأدعية، وعلى الثاني مخصوص بالقراءة، ونصبه ونصب «وطأ» على التميز.

وأخرج ابنُ جرير وغيره عن أنس بنِ مالك أنَّه قرأ: «وأَصْوبُ قيلاً»، فقال له رجل: إنَّا نقرؤها: «وأقوم قيلاً»؟ فقال: إنَّ أصْوب وأَقْوم وأهْيأ وأشباه هذا واحد[2].

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: تقلُّباً وتصرُّفاً في مهماتك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرَّغ للعبادة فعليك بها في الليل.

وأصل السَّبْحِ: المَرُّ السريع في الماء، فاستعير للذهاب مطلقاً كما قاله الراغب[3]، وأنشدوا قول الشاعر:

أباحوا لكم شَرْقَ البلاد وغربَها ففيها لكم يا صاحِ سَبْحٌ مِن السَّبْحِ[4]

وهذا بيانٌ للداعي الخارجي إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه مِن الداعي.

وقيل: أي: إنَّ لك في النهار فراغاً وسَعَةً لنومك وتصرُّفك في حوائجك.

وقيل: إنْ فاتك مِن الليل شيء فَلَكَ في النهار فراغ تَقدِر على تداركه فيه، فالسَّبْح الفراغُ، وهو مستعمل في ذلك لغة أيضاً، لكنَّ الأوَّل أوفق لمعنى قولهم: سبح في الماء، وأنسب للمقام، ثم إنَّ الكلام على هذا إمَّا تتميم للعلَّة يهوّن عليه أنَّ النهار يصلح للاستراحة فليغتنم الليلَ للعبادة وليشكر أنْ لم يُكلَّف استيعابهما بالعبادة، أو تأكيد للاحتفاظ به، بأنَّه إن فات لا بُدَّ مِن تداركه بالنهار، ففيه متَّسع لذلك، وفيه تلويح إلى معنى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٧٣، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٠٢٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ٣٣٦، والكشاف ٤/ ١٧٦.
(٣) المفردات (سبح).
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة: «سَبْخاً» بالخاء المعجمة[١]، أي: تفرُّقَ قلب بالشواغل، مستعارٌ مِن سبخ الصوفِ: وهو نفشه[٢] ونَشْر أجزائه. وقال غير واحد: خفَّة من التكاليف. قال الأصمعيُّ: يقال: سبَّخ اللهُ تعالى عنك الحمَّى: خفَّفها. وفي الحديث: «لا تُسبِّخي بدعائك»[٣]، أي: لا تخفِّفي، ومنه قوله:

فَسَبِّخْ عليكَ الهَمَّ واعْلَم بأنَّه ... إذا قدَّر الرحمنُ شيئاً فكائنُ[٤]

وقيل: السبخ: المَدُّ، يقال: سبِّخي قطنك، أي: مُدِّيْه، ويقال لقِطَع القطن: سبائخ، الواحدة: سَبخة، ومنه قول الأخطل يصف قُنَّاصاً وكِلاباً:

فَأَرْسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ الترابَ كما ... يُذْرِي سبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوتار[٥]

وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ ابنَ يعمر وعكرمةَ فسَّرا «سبخاً» بالمعجمة بعد أن قرأا به فقالا: معناه: نوماً، أي: ينام بالنهار ليستعينَ به على قيام الليل، وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى، لكنَّهما فسَّراها فلا نتجاوز عنه[٦]. اهـ. ولعلَّ ذلك تفسير باللازم.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: وَدُمْ على ذِكْره تعالى ليلاً ونهاراً على أيِّ وجه كان مِن تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك، وفسّر الأمر بالدوام؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لم ينسه تعالى حتى يُؤمَر بذِكْره سبحانه، والمراد الدوام

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٢) في (م): نقشه.
(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٧)، وأحمد (٢٤١٨٣) عن عائشة ﵂، بلفظ: «لا تُسبِّخي عنه»، وفي إسناده حبيب بن أبي ثابت، قال عنه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٦٣: له أحاديث لا يتابع عليها. وذكر منها هذا الحديث.
وهو عند ابن سلام في غريب الحديث ١/ ٣٣، وابن الأثير في النهاية (سبخ) بلفظ: «لا تُسبِّخي عنه بدعائك عليه».
(٤) البيت ذكره الجوهري في الصحاح، وابن منظور في اللسان (سبخ).
(٥) ديوان الأخطل ص١١٥.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

العرفيُّ لا الحقيقيُّ، لعدم إمكانه، ولأنَّ مقتضى السياق أنَّ هذا تعميم بعد التخصيص، كان المعنى على ما سمعت مِن اعتبار ليلاً ونهاراً.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطع إليه تعالى بالعبادة، وجرِّد نفسك عمَّا سواه عزَّ وجلَّ، واستغرق في مراقبته سبحانه، وكأنَّ هذا أمر بما يتعلَّق بالباطن بعد الأمر بما يتعلَّق بالظاهر، ولتأكيد ذلك قال سبحانه: ﴿تَبْتِيلًا ۝﴾ ونصبه بـ «تبتَّل» لتضمُّنه معنى بَتل، على ما قيل، وقد تقدَّم الكلام في تحقيق ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فتذكَّر فما في العهد مِن قدم، وكيفما كان الأمر ففيه مراعاة الفواصل.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مرفوع على المدح. وقيل: على الابتداء، خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «رَبَّ» بالنصب[١] على الاختصاص والمدح، وهو يؤيِّد الأوَّل، وقرأ الأخوان وابنُ عامر وأبو بكر ويعقوب: «رَبِّ» بالجرِّ[٢] على أنَّه بدل من «ربِّك»، وقيل: على إضمار حرف القَسَم، وجوابه: «لا إله إلا هو»، وفيه حذف حرف القَسَم مِن غير ما يسدُّ مسدَّه وإبقاءُ عمله، وهو ضعيف جدًّا كما بيِّن في العربية، وقد نقل هذا عن ابن عباس، وتعقَّبه أبو حيَّان بقوله: لعلَّه لا يصحُّ عنه؛ إذ فيه إضمار الجارِّ في القَسَم، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الجلالة الكريمة نحو: اللهِ لأفعلنَّ كذا، ولا قياسَ عليه، ولأنَّ الجملة المنفيَّة في جواب القَسَم إذا كانت اسميَّة تُنفى بـ «ما» لا غير، ولا تنفى بـ «لا» إلا الجملة المصدَّرة بمضارع كثيراً وبماضٍ في معناه قليلاً[٣]. انتهى. وظاهر كلام ابن مالك في «التسهيل»[٤] إطلاق وقوع الجملة المنفيَّة جواباً للقَسَم. وقال في «شرح الكافية»: إنَّ الجملة الاسميَّة تقع جواباً للقَسَم مصدَّرة بـ «لا» النافية، لكن يجب تكرارها إذا تقدَّم خبرها أو كان المبتدأ معرفة، نحو: واللهِ لا في الدارِ رجلٌ ولا امرأةٌ،

---

(١) الإملاء ٤/ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٦٤.

(٤) ص١٥٢.

و: واللهِ لا زيدٌ في الدار ولا عمرٌو، ومنه يُعلَم أنَّ المسألة خلافيَّة بين هذين الإمامين.

وقرأ ابن عباس وعبد الله وأصحابه: «ربُّ المشارق والمغارب» بجمعهما(١)، وقد تقدَّم الكلام في وجه الإفراد والجمع.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ لترتيب الأمر وموجبه على اختصاص الألوهيَّة والربوبيَّة به عزَّ وجلَّ، و«وكيل» فعيل بمعنى مفعول، أي: موكول إليه، والمراد مِن اتِّخاذه سبحانه وكيلاً أن يعتمدَ عليه سبحانه ويُفوِّض كلَّ أمر إليه عزَّ وجلَّ، وذُكر أنَّ مقام التوكُّل فوق مقام التبتُّل؛ لِمَا فيه من رفع الاختيار، وفيه دلالة على غاية الحبِّ له تعالى، وأنشدوا:

هواي له فرضٌ تعطَّفَ أم جفا ... ومنهله عَذْبٌ تَكَدَّرَ أم صفا
وكَلْتُ إلى المعشوق أمريَ كلَّه ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتْلَفا(٢)

ومِن كلام بعض السادة: مَن رضيَ بالله تعالى وكيلاً وجد إلى كلِّ خير سبيلاً.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ممَّا يؤلمك مِن الخرافات، كقولهم: يُفرِّق بين الحبيب وحبيبه. على ما سمعت في بعض روايات أسباب النزول.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ بأن تُجانبهم وتُداريهم ولا تكافئهم(٣)، وتَكِلَ أمورهم إلى ربِّهم كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: خَلِّ بيني وبينهم وكِلْ أمرَهم إليَّ فإنَّ فيَّ ما يفرغُ بالك ويجلي همَّك، ومرَّ في ﴿نٓ﴾ تمام الكلام في ذلك.

وجوَّز في «المكذِّبين» هنا أن يكونوا هم القائلين، ففيه وضع الظاهر موضعَ المضمر، وسماً لهم بميسم الذَّمِّ مع الإشارة إلى علَّة الوعيد، وجوَّز أن يكونوا بعضَ القائلين، فهو على معنى: ذرني والمكذِّبين منهم.

والآية قيل: نزلت في صناديد قريش المستهزئين، وقيل في المطعمين يوم بدر.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٢) لم نقف عليها.
(٣) المكافأة: المجازاة على فعلهم وكفرهم. حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٦.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أرباب التنعُّم وغَضارة العيش وكثرة المال والولد، فالنَّعمة ـ بالفتح ـ التنعُّم، وأما بالكسر فهي الإنعام وما يُنعَم به، وأما بالضَّمِّ فهي المسرَّة.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ أي: زماناً قليلاً وهو مدَّة الحياة الدنيا، وقيل: المدَّة الباقية إلى يوم بدر. وأيًّا ما كان فـ «قليلاً» نصب على الظرفيَّة، وجوّز أن يكون نصباً على المصدريَّة، أي: إمهالاً قليلاً، والتفعيل؛ لتكثير المفعول.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع: نكل بكسر النون وفتحها، وهو القيدُ الثقيل، وقيل: الشديد. وقال الكلبيُّ: الأنكال: الأغلال. والأوَّل أعرف في اللغة. وعن الشعبيِّ: لم تجعل الأنكال في أرجلهم خوفاً مِن هربهم، ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم.

والجملة تعليل لقوله تعالى: «ذرني» وما عطف عليه، فكأنَّه قيل: كِلْ أمرَهم إليَّ ومَهِّلهم قليلاً؛ لأنَّ عندي ما أنتقم به منهم أشدَّ الانتقام أنكالاً ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ ناراً شديدة الإيقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلوق، ولا يكاد يُساغ، كالضريع والزَّقُّوم، وعن ابنِ عباس: شوكٌ مِن نار يَعترضُ في حلوقهم لا يَخرج ولا ينزل.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ ونوعاً آخَر من العذاب مؤلماً لا يُقادر قَدْره ولا يَعرف كُنهه إلا الله عزَّ وجلَّ، كما يشعر بذلك المقابلة والتنكير.

وما أعظم هذه الآية! فقد أخرج الإمام أحمد في «الزهد»، وابن أبي داود في «الشريعة»، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «الشعب» من طريق حُمْران بنِ أَعْيَن، عن أبي حرب بنِ الأسود أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ إلخ، فصعق[١]، وفي رواية: أنَّه عليه الصلاة والسلام نفسَه قرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ فلما بلغ: «أليماً» صعق[٢]. وقال خالد بنُ حسان: أمسى عندنا الحسن

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩، والكامل لابن عدي ٢/ ٨٤٢، وشعب الإيمان للبيهقي (٩١٧)، ولم نقف عليه بهذا السياق في مطبوع الزهد، وهو مرسل، وحمران بن أعين ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٦، وهناد في الزهد أيضاً (٢٦٧)، والطبري في التفسير ٢٣/ ٣٨٥. والعلة فيه كسابقه.

وهو صائم، فأتيته بطعام فعَرَضَتْ له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ إلخ، فقال: ارفعه، فلما كانت الليلة الثانية أتيته بطعام فعَرَضت له أيضاً، فقال: ارفعه. وكذلك الليلة الثالثة، فانطلق ابنُه إلى ثابت البناني ويزيد الضبيِّ ويحيى البكّاء فحدَّثهم بحديثه، فجاؤوا معه فلم يزالوا به حتى شرب شربةً مِن سَوِيق(١).

وفي الحديث السابق - إذا صحَّ - ما يقيم العذرَ للصوفيَّة ونحوِهم الذين يُصعَقُون عند سماع بعض الآيات، ويُقْعِدُ(٢) إنكار عائشة رضي الله عنها - ومن وافقها - عليهم، اللَّهمَّ إلا أن يقال: إنَّ الإنكار ليس إلا على مَن يَصدرُ منه ذلك اختياراً، وهو أهلٌ لأن يُنكر عليه كما لا يخفى، أو يقال: صَعِقَ مِن الصَّعْق بسكون العين، وقد يحرَّك: غُشِيَ عليه، لا مِن الصَّعَق بالتحريك: شدَّة الصوت، وذلك ممَّا لم تنكره عائشة رضي الله عنها ولا غيرها.

وللإمام في الآية كلام على نحوِ كلام الصوفيَّة، قال: اعْلَم أنَّه يُمكن حَمْلُ هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانيَّة، أمَّا الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلُّقات الجسمانيَّة واللَّذَّات البدنيَّة، فإنها في الدنيا لمَّا اكتسبت مَلَكَةَ تلك المحبَّة والرغبة، فبعد البَدَن يشتدُّ الحنين، مع أنَّ آلاتِ الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له مِن التخلُّص إلى عالم الروح والصفاء، ثم يتولَّد من تلك القيود الروحانيَّة نيرانٌ روحانيَّة، فإنَّ شدَّة ميلها إلى الأحوال البدنيَّة وعدم تمكُّنها مِن الوصول إليها تُوجِب حُرْقة شديدة روحانيَّة كمن تشتدُّ رغبته في وجدان شيءٍ ثم إنَّه لا يجده، فإنَّه يَحترق قلبه عليه، فذاك هو الجحيم، ثم إنَّه يتجرَّع غصَّة الحرمان وألم الفراق، فذاك هو المراد من قوله سبحانه: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ثم إنَّه بسبب هذه الأحوال بقي محروماً عن تجلِّي نور الله تعالى والانخراط في سلك القُدْسيين، وذلك هو المراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، وتنكير «عذاباً»

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٤٦ من طريق صالح، عن خليد، عن صالح بن حسان، قال: أمسى الحسن صائماً. . . الخبر. وأخرجه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/٣٧٦ من طريق صالح المري عن خليد بن حسان قال: أمسى الحسن صائماً. . . . الخبر.

(٢) في الأصل: ويقصد.

يدلُّ على أنَّه أشدُّ ممَّا تقدَّم وأكمل، واعْلَم أنِّي لا أقول: المراد بالآية ما ذكرتُه فقط، بل أقول: إنَّها تُفيد حصولَ المراتب الأربعة الجسمانيَّة وحصولَ المراتب الأربعة الروحانيَّة، ولا يمتنع الحَمْل عليهما وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانيَّة حقيقةً، وبالنسبة إلى المراتب الروحانيَّة مجازاً، لكنَّه مجاز متعارَف مشهور(١). انتهى.

وتُعقِّب بأنَّه بالحمل عليهما يلزم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز أو عموم المجاز مِن غير قرينة، وليس في الكلام ما يدلُّ عليه بوجهٍ من الوجوه، وأنتَ تعلم أنَّ أكثرَ باب الإشارة عند الصوفيَّة مِن هذا القبيل.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ قيل: متعلِّق بـ «ذرني»، وقيل: صفة «عذاباً»، وقيل: متعلِّق بـ «أليماً»، واختار جمعٌ أنَّه متعلِّق بالاستقرار الذي تعلَّق به «لدينا»، أي: استقرَّ ذلك العذاب لدينا وظهر يوم تَضْطرب الأرض والجبال وتتزلزل.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تُرْجَفُ» مبنيًّا للمفعول(٢).

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾ رَمْلاً مجتمعاً، مِن كَثَب الشيءَ: إذا جمعه، فكأنَّه في الأصل فعيل بمعنى مفعول، ثم غَلب حتى صار له حكم الجوامد، والكلام على التشبيه البليغ، وقيل: لا مانعَ مِن أن تكون رملاً حقيقةً.

﴿مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ قيل: أي: رخواً ليِّناً إذا وَطِئَتْه القَدَمُ زلَّ مِن تحتها، وقيل: منثوراً، مِن هِيْلَ هَيْلاً: إذا نُثرَ وأُسيل، وكونه «كثيباً» باعتبار ما كان عليه قبل النثر، فلا تنافيَ بين كونه مجتمِعاً ومنثوراً، وليس المراد أنَّه في قوَّة ذلك وصدده كما قيل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ خطاب للمكذِّبين أُولي النَّعمة، سواء جعلوا القائلين أو بعضَهم، ففيه التفاتٌ مِن الغيبة، وهو التفات جليلُ الموقع، أي: إنَّا أرسلنا إليكم أيُّها المكذِّبون مِن أهل مكة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَشهد يوم القيامة بما صَدَرَ عنكم

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ١٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٤.

مِن الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾ هو موسى عليه السلام، وعدم تعيينه؛ لعدم دخله في التشبيه، أو لأنَّه معلوم غنيٌّ عن البيان.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ المذكورَ الذي أرسلناه إليه، فالتعريف للعهد الذكري، والكاف في محلِّ النصب على أنَّها صفةٌ لمصدر محذوف على تقدير اسمِيَّتها، أي: إرسالاً مثل إرسالنا، أو الجارُّ والمجرور في موضع الصفة على تقدير حرفيتها، أي: إرسالاً كائناً كما، والمعنى: أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه. وفي إعادة «فرعون» و«الرسول» مُظْهَرَيْن تفظيع لشأنِ عصيانه، وأنَّ ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى، وفيه أنَّ عصيان المخاطبين أفظعُ وأدخل في الذَّمِّ إذ زاد جلَّ وعلا لهذا الرسول وصفاً آخرَ، أعني: «شاهداً عليكم»، وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ - أي: ثقيلاً رديء العُقْبى، مِن قولهم: كَلأٌ وَبِيْلٌ: وَخِيمٌ لا يُسْتَمْرأ لثقله، والوَبِيْل أيضاً: العصا الضخمة، ومنه: الوابل: للمطر العظيم قَطْره - خارجٌ عن التشبيه جِيءَ به لإيذان المخاطبين بأنَّهم مأخوذون بمثل ذلك وأشدّ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ مرتَّب[1] على الإرسال فالعصيان، و«يوماً» مفعول به لـ «تتقون»، إمَّا بتقدير مضاف، أي: عذابَ - أو: هولَ - يوم، أو بدونه، إلا أنَّ المعنى عليه، وضمير «يجعل» لليوم، والجملة صفته، والإسناد مجازيٌّ، وقال بعضٌ: الضمير تعالى، والإسناد حقيقيٌّ، والجملة صفةٌ محذوفةُ الرابط، أي: يجعل فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وكان ظاهر الترتيب أن يقدَّم على قوله تعالى: «كما أرسلنا» إلا أنَّما أُخِّر إلى هنا زيادةً على زيادة في التهويل، فكأنَّه قيل: هَبُوا أنَّكم لا تُؤخَذون في الدنيا أَخْذَةَ فرعون وأضْرابِه، فكيف تَقُونَ أنفسَكم هولَ القيامة وما أُعِدَّ لكم مِن الأنكال إن دمتُم على ما أنتم عليه ومُتُّم في الكفر.

---

(١) في (م): مراتب.

وفي قوله سبحانه: «إن كَفَرتُم» وتقديره تقديرَ مشكوكٍ في وجوده ما يُنبّه على أنَّه لا ينبغي أن يَبقى مع إرسال هذا الرسول لأحدٍ شبهةٌ تُبقيه في الكفر، فهو النور المبين.

وجوّز أن يكون «يوماً» ظرفاً لـ «تتَّقون»، على معنى: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، والكلام حينئذٍ للحثِّ على الإقلاع مِن الكفر، والتحذير عن مِثْلِ عاقبة آلِ فرعون قَبْلَ أن لا ينفعَ الندم.

وجوّز أيضاً أن ينتصب بـ «كفرتم» على تأويل: جحدتم، والمعنى: فكيف يُرجى إقلاعكم عن الكفر واتِّقاء اللهِ تعالى وخشيتُه وأنتم جاحدونَ يومَ الجزاء، كأنَّه لما قيل: «يوم ترجف» عقَّب بقوله تعالى: «فكيف تتقون» الله «إن كفرتم» به، فأعيد ذِكْر اليوم بصفة أُخرى زيادةً في التهويل، والوجه الأوَّل أولى، قاله في «الكشف».

وقال العلامة الطيبيُّ في الوجه الأخير ـ أعني: انتصاب «يوماً» بـ «كفرتم» ـ: إنَّه أوفقُ للتأليف، يعني: خوَّفناكم بالأنكال والجحيم، وأرسلنا إليكم رسولاً شاهداً يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم، وأنذرناكم بما فعلنا بفرعونَ مِن العذاب الوبيل والأَخْذِ الثقيل، فما نَجَعَ فيكم ذلك كلُّه ولا اتَّقيتم اللهَ تعالى، فكيف تتَّقونه وتخْشَونه إن جحدتم يومَ القيامة والجزاء، وفيه أنَّ مِلاكَ التقوى والخشية الإيمانُ بيومِ القيامة. انتهى. ولا يخفى أنَّ جزالة المعنى ترجِّح الأوَّل.

وذهب جمع إلى أنَّ الخطاب في: «إنَّا أرسلنا إليكم» عامٌّ للأسود والأحمر، فالظاهر أنَّه ليس مِن الالتفات في شيء.

وأيَّاما كان فجعل الولدان شيباً ـ أي: شيوخاً جمع: أشيب ـ قيل: حقيقة، فتشيب الصبيان وتبيضُّ شُعورهم مِن شدَّة يوم القيامة، وذلك على ما أخرج ابنُ المنذر عن ابنِ مسعود حين يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: قُمْ فأَخْرِج من ذُرِّيَّتك بَعْثَ النار. فيقول: يا ربِّ، لا عِلْمَ لي إلَّا ما علَّمتني؟ فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: أَخرِج بَعْثَ النارِ مِن كلِّ ألف تسْعَ مئة وتسعةً وتسعين، فيُخرجون ويُساقون إلى النار سَوقاً

مقرَّنين زُرْقاً كالِحِين، قال ابنُ مسعود: فإذا خرج بَعْثُ النار شابَ كلُّ وليد[١]. وفي حديث الطبراني وابنِ مردويه عن ابنِ عباس نحو ذلك[٢].

وقيل: مَثَلٌ في شدَّة الهول مِن غير أن يكون هناك شَيْب بالفعل، فإنَّهم يقولون في اليوم الشديد: يومٌ يُشيِّب نواصي الأطفال. والأصل في ذلك أنَّ الهموم إذا تفاقمت على المرء أَضْعَفَتْ قواه وأَسرعتْ فيه الشيب، ومن هنا قيل: الشيب نوار الهموم، وحديث البعث لا يأبى هذا.

وجوّز الزمخشريُّ[٣] أن يكون ذلك وصفاً لليوم بالطُّول، وأنَّ الأطفالَ يبلغون فيه أوانَ الشيخوخةِ والشيب. وليس المراد به التقدير الحقيقيّ، بل وُصفَ بالطول فقط على ما تَعارفوه، وإلا فهو أطولُ مِن ذاك وأطول، فلا اعتراضَ، لكنَّه مع هذا ليس بذاك.

والظاهر عموم الولدان، وقال السُّدِّيُّ: هم هنا أولادُ الزنى. وقيل: هم أولاد المشركين.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ «يَوْمَ» بغير تنوين، «نَجْعَلُ» بالنون[٤]، فالظرف مضافٌ إلى جملة نجعل.. إلخ.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ أي: منشقٌّ، وقُرِئَ: «مُتَفَطِّر»[٥]، أي: مُتَشقِّق ﴿بِهِۦ﴾ أي: بذلك اليوم، والباء للآلة، مِثْلُها في قولك: فطرتُ العودَ بالقَدُوم فانفطر به، يعني أنَّ السماء على عِظَمِها وإحكامها تَنفطِرُ بشدَّة ذلك اليوم وهولِه كما ينفطر الشيءُ مما يُفطَر به، فما ظنُّك بغيرها مِن الخلائق؟ وجوّز أن يُراد: السماءُ مُثقَلة به الآن إثقالاً يؤدِّي إلى انفطارها؛ لعِظَمِه عليها وخشيتها مِن وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩، والمعجم الكبير (١٢٠٣٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧٠، ١٣٠: فيه عثمان بن عطاء الخراساني، وهو ضعيف.

(٣) الكشاف ٤/ ١٧٨.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٥.

(٥) الكشاف ٤/ ١٧٨.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالكلام من باب التخييل، والانفطار كناية عن المبالغة في ثِقَلِ ذلك اليوم، والمراد إفادة أنَّه الآن على هذا الوصف. والأوَّل أظهر وأوفق لأكثر الآيات.

وكان الظاهر: السماء منفطرةٌ، بتأنيث الخبر؛ لأنَّ المشهور أنَّ السماء مؤنَّثة، لكن اعتبر إجراء ذلك على موصوف مذكَّر فذُكِّر، أي: شيء منفطر به، والنكتةُ فيه التنبيهُ على أنَّه تبدلَّت حقيقتُها وزال عنها اسمُها ورَسْمُها، ولم يَبْقَ منها إلا ما يُعبَّر عنه بالشيء. وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي، وتبعهم منذر بنُ سعيد: التذكير؛ لتأويل السماء بالسَّقف[1]، وكأنَّ النكتةَ فيه تذكيرُ معنى السقيفة والإظلال ليكون أمرُ الانفطار أدهشَ وأهولَ.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: التقدير: ذات انفطار، كقولهم: امرأة مرضع، أي: ذات رضاع، فجرى على طريق التسبُّب[2]، وحكي عنه أيضاً أنَّ هذا مِن باب: الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، وأعجاز نَخْل مُنْقَعِر، يعني أنَّ السماء مِن باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاءُ التأنيث، وأنَّ مفرده: سماءة، واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث، فجاء «منفطر» على التذكير.

وقال الفرَّاء: «السماء» ـ يعني المظلَّة ـ تذكَّر وتؤنَّث، فجاء «منفطر» على التذكير، ومنه قول الشاعر:

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قوماً ... لَحِقْنا بالسماءِ وبالسَّحابِ[3]

وعليه لا حاجةَ إلى التأويل، وإنَّما تطلب نكتة اعتبار التذكير مع أنَّ الأكثر في الاستعمال اعتبار التأنيث، ولعلَّها ظاهرة لمَن له أدنى فهم، وحَمْل الباء في «به» على الآلة هو الأوفق لتهويل أمر ذلك اليوم، وجوّز حَمْلها على الظرفيَّة، أي: السماءُ منفطرٌ فيه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.
(٣) معاني القرآن ٣/ ١٩٩، والمذكَّر والمؤنَّث ص٣١، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٣٣، وفيه: الإله، بدل: السماء. و: مع السحاب، بدل: وبالسحاب.

وعَودُ الضمير المجرور على اليوم هو الظاهر الذي عليه الجمهور، وقال مجاهد: يعود على الله تعالى، أي: بأمره سبحانه وسلطانه عزَّ وجلَّ. فهو عنده كالضمير في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ فإنَّه له تعالى لعِلْمه مِن السياق، والمصدر مضاف إلى فاعله، ويجوز أن يكون لليوم كضمير «به» عند الجمهور، والمصدر مضاف إلى مفعوله.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ بالتقرُّب إليه تعالى بالإيمان والطاعة، فإنَّه المنهاجُ الموصِل إلى مرضاته عزَّ وجلَّ، ومفعول «شاء» محذوف، والمعروف في مثله أن يقدَّر مِن جنس الجواب، أي: فمن شاء اتِّخاذ سبيل إلى ربِّه تعالى اتَّخذ... إلخ، وبعضٌ قدَّره: الاتِّعاظ؛ لمناسبة ما قَبْلُ، أي: فمن شاء الاتِّعاظ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، والمراد: مَن نَوى أن يَحصُل له الاتِّعاظُ تقرَّب إليه تعالى، لكن ذكر السبب وأُريد مسببه فهو الجزاء في الحقيقة، واختار في «البحر»(١) ما هو المعروف، وقال: إنَّ الكلام على معنى الوعد والوعيد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: زماناً أقلَّ منهما، استعمل فيه الأدنى ـ وهو اسم تفضيل مِن دنا إذا قَرُب ـ لما أنَّ المسافة بين الشيئين إذا دَنَتْ قَلَّ ما بينهما مِن الأحياز، فهو فيه مجاز مرسَل؛ لأنَّ القُرْبَ يقتضي قلَّة الأحياز بين الشيئين، فاستعمل في لازمه أو في مُطلَق القلَّة، وجوّز اعتبار التشبيه بين القُرب والقلَّة ليكون هناك استعارة، والإرسال أقرب.

وقرأ الحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام، وابن مجاهد عن قنبل ـ فيما ذكر صاحب «الكامل» ـ «ثُلْثَي» بإسكان اللام(٢)، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب «اللوامح».

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على «أدنى»، كأنَّه قيل: يعلم أنَّكَ تقوم مِن الليل أقلَّ مِن ثلثيه وتقوم نصفه وتقوم ثلثه.

---

(١) ٨/ ٣٦٦.

(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٢١٧ عن هشام، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

وقرأ العربيَّان ونافع: «ونِصْفِه وثُلُثِه» بالجرِّ[1] عطفاً على «ثلثي الليل»، أي: تقوم أقلَّ من الثلثين وأقلَّ من النصف وأقلَّ من الثلث، والأوَّل مطابق لكون التخيير فيما مرَّ بين قيام النصف بتمامِه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى مِن الثلثين، والثاني مطابق لكون التخيير بين النصف وهو أدنى مِن الثلثين، وبين الثلث وهو أدنى من النصف، وبين الربع وهو أدنى من الثلث، كذا قال غير واحد، فلا تغفل، واستشكل الأمر بأنَّ التفاوت بين القراءتين ظاهر، فكيف وجه صحَّة عِلْم الله تعالى لمدلولهما وهما لا يجتمعان؟

وأجيب بأنَّ ذلك بحسب الأوقات، فوقع كلٌّ في وقت، فكانا معلومين له تعالى.

واستشكل أيضاً هذا المقام على تقدير كون الأمر وارداً بالأكثر، بأنَّه يلزم: إمَّا مخالفة النبيِّ ﷺ لِمَا أُمرَ به، أو اجتهاده والخطأ في موافقة الأمر. وكلاهما غير صحيح؛ أمَّا الأوَّل فظاهر لا سيَّما على كون الأمر للوجوب، وأمَّا الثاني فلأنَّ مَن جوَّز اجتهادَه عليه الصلاة والسلام والخطأ فيه، يقول: إنَّه لا يُقَرُّ عليه الصلاة والسلام على الخطأ؟

وأجيب بالتزام أنَّ الأمر وارد بالأقلّ، لكنَّهم زادوا حذراً مِن الوقوع في المخالفة وكان يشقُّ عليهم، وعِلْم الله سبحانه أنَّهم لو لم يأخذوا بالأشقِّ وقعوا في المخالفة فنسخ سبحانه الأمر، كذا قيل، فتأمَّل فالمقام بَعْدُ محتاج إليه.

وقرأ ابن كثير في رواية شبل: «وثُلْثه» بإسكان اللام[2].

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ عطف على الضمير المستتر في «تقوم»، وحسَّنه الفصلُ بينهما، أي: وتقوم معك طائفةٌ من أصحابك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ لا يَعلَمُ مقاديرَ ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى، فإنَّ تقديمَ اسمِه تعالى مبتدأً مبنيًّا عليه «يُقدِّر» دالٌّ على الاختصاص على

(١) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٦ والكلام منه.
(٢) السبعة لابن مجاهد ص٦٥٨، والقراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

ما ذهب إليه جارُ الله[١]، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فإنَّ الضمير لمصدر «يُقدِّر» لا للقيام المفهوم مِن الكلام، والمعنى: عَلِمَ أنَّ الشأنَ لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضَبْطَ الساعات، ولا يتأتَّى لكم حسابها بالتعديل والتسوية، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط، وذلك شاقٌّ عليكم بالغ منكم[٢].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالترخيص في تَرْكِ القيام المقدَّر، ورفع التَّبِعةِ عنكم في تَرْكه، فالكلام على الاستعارة حيث شبَّه الترخيصَ بقبول التوبة في رَفْعِ التبعة، واستعمل اللفظ الشائع في المشبَّه به في المشبَّه، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] وزعم بعضهم أنَّه على ما يتبادر منه، فقال: فيه دليلٌ على أنَّه كان فيهم مَن تَرَك بعضَ ما أُمر به، وليس بشيء.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر لكم مِن صلاة الليل، عبَّر عن الصلاة بالقراءة كما عبَّر عنها بسائر أركانها. وقيل: الكلام على حقيقته مِن طَلَب قراءة القرآن بعينِها. وفيه بُعْدٌ عن مقتضى السياق.

ومن ذهب إلى الأوَّل قال: إنَّ الله تعالى افترض قيامَ مقدارٍ معيَّن مِن الليل في قوله سبحانه: (قُمِ الَّيْلَ) إلخ، ثم نُسخَ بقيام مقدارٍ مّا منه في قوله سبحانه: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا) الآية، فالأمر في الموضعين للوجوب، إلا أنَّ الواجب أوَّلاً كان معيَّناً مِن معيَّنات، وثانياً كان بعضاً مطلقاً ثم نُسخَ وجوبُ القيام على الأمَّة مطلقاً بالصلوات الخمس. ومَن ذهب إلى الثاني قال: إنَّ الله تعالى رخَّص لهم في ترك جميع القيام وأَمَرَ بقراءة شيء مِن القرآن ليلاً، فكأنَّه قيل: فتاب عليكم ورخَّص في التَّرْك فاقرؤوا ما تيسَّر مِن القرآن إن شَقَّ عليكم القيامُ، فإنَّ هذا لا يشقُّ وتنالونَ بهذه القراءة ثوابَ القيام، وصرَّح جمع أنَّ «فاقرؤوا» على هذا أمرُ ندبٍ بخلافه على الأوَّل.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧٨-١٧٩.

(٢) جاء في هامش الأصل: لا يخفى أن يستفاد من هذا التفسير الاستدلال على صحة التكليف بما لا يطاق، ليس بشيء. انتهى منه.

هذا، واعلم أنَّهم اختلفوا في أَمْرِ التهجُّد؛ فعن مقاتل وابنِ كيسان أنَّه كان فرضاً بمكَّة قَبْلَ أن تُفرَض الصلوات الخمس ثم نُسخَ بهنَّ إلا ما تطوَّعوا به، ورواه البخاريُّ ومسلم في حديث جابر[(١)].

وروى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والدارمي وابنُ ماجه والنسائيُّ عن سعد بنِ هشام قال: قلت لعائشةَ: يا أمَّ المؤمنين أَنْبِئيني عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تَقرأُ القرآنَ؟ قلت: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ تعالى القرآنُ. قال: فَهَمَمْتُ أن أقومَ ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموتَ، ثم بدا لي فقلت: أنْبِئيني عن قيام رسولِ الله ﷺ؟ فقالت: ألستَ تَقرأُ: «يا أيُّها المزمِّل»؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنَّ اللهَ تعالى افترَض قيامَ الليل في أوَّل هذه السورة، فقام نبيُّ الله وأصحابه حَوْلاً، وأمسك اللهُ تعالى خاتمتها اثني عَشَر شهراً في السماء حتى أنزلَ اللهُ تعالى في آخِرِ السورة التخفيفَ، وصار قيامُ الليل تطوُّعاً[(٢)]. وفي رواية عنها: إنَّه دام ذلك ثمانية أشهر[(٣)]. وعن قتادة: دام عاماً أو عامين.

وعن بعضهم أنَّه كان واجباً وإنما وقع التخيير في المقدار، ثم نُسخَ بعد عشر

---

(١) لم نقف عليه في الصحيحين من حديث جابر، بل أورده المقريزي في مختصر قيام الليل ص٧ عن جابر بلفظ: أن النبيَّ ﷺ بعثهم في جيش وأمَّر عليهم أبا عبيدة، وقد كان كُتب عليهم قيامُ الليل، فكانوا يقومون حتى انتفخت أقدامهم، فأصابهم في ذلك الوجه جوع شديد، قال: ووضع الله عنهم قيام الليل. وأصل الخبر عند البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٩٣٥) دون ذكر قيام الليل، ونقل المقريزي في مختصر قيام الليل ص٩-١٠ عن المروزي قوله: كيف يجوز أن تكون الصلوات الخمس نَسخت قيامَ الليل، والصلوات الخمس مفروضات في أول الإسلام والنبيُّ ﷺ بمكة فرضت عليه ليلة أسري به، والأخبار التي ذكرناها تدل على أن قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسر من القرآن» إنما نزل بالمدينة... وفي حديث جابر أن النبي ﷺ بعثهم في الجيش، وقد كان كُتب عليهم قيامُ الليل، وبعثة الجيوش لم يكن إلا بعد قدوم النبي ﷺ المدينة؟! إلى آخر كلامه. وينظر حديث جابر في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥١.

(٢) أحمد (٢٤٢٦٩)، ومسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والدارمي (١٤٧٥)، وابن ماجه (١١٩١) و(١٣٣٥)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٢١٨.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٣/ ٣٥٩-٣٦٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٧٦ وزاد نسبته لابن أبي حاتم أيضاً.

سنين، وكان الرجل ـ كما قال الكلبيُّ ـ يقوم حتى يصبحَ مخافةَ أن لا يحفظَ ما بين النصف والثلث والثلثين.

وقيل: كان نفلاً، بدليل التخيير في المقدار، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] حكاه غير واحد وبحثوا فيه، لكنْ قال الإمام صاحب «الكشف»: لم يُرِد هذا القائل أنَّ التخييرَ ينافي الوجوبَ، بل استدلَّ بالاستقراء وأنَّ الفرائضَ لها أوقات محدودة متَّسعةً كانت أو ضيِّقةً، لم يُفوَّض التحديد إلى رأي الفاعل، وهو دليل حسن، وأمَّا القائل بالفَرْضيَّة فقد نظر إلى اللفظ دون الدليل الخارجي، ولكلٍّ وجه، وأمَّا قوله: ولقوله تعالى: (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) إلخ فالاستدلال بأنَّه فسَّر (نَافِلَةً لَّكَ) بأنَّ معناه: زائدة على الفرائض لك خاصَّة دون غيرك؛ لأنَّها تطوُّع لهم، وهذا القائل لا يمنع الوجوبَ في حقِّه عليه الصلاة والسلام وإنَّما يمنعه في حقِّ غيرِه ﷺ، والآية تدلُّ عليه، فلا نظر فيه. ثم إنَّه لمَّا ذكر سبحانه في تلك السورة: (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) أي: خصَّ بعضَ الليل دون توقيت، وهاهنا وقَّت ـ جلَّ وعلا ـ ودلَّ على مشاركةِ الأمَّة له عليه الصلاة والسلام قولُه تعالى: (وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ) نزَّل ما ثَمَّ على الوجوب عليه ﷺ خاصَّة، وهاهنا على التنفُّل في حقِّه وحقِّ الأمَّة، وهذا قول سديد إلا أنَّ قولَه تعالى: (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) يؤيِّد الأوَّل. انتهى.

وعنى بالأوَّل القولَ بالفَرْضيَّة عليه عليه الصلاة والسلام وعلى الأمَّة، وظواهر الآثار الكثيرة تَشهدُ له، لكن في «البحر» أنَّ قولَه تعالى: (وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ) دليل على أنَّه لم يكن فرضاً على الجميع، إذ لو كان فرضاً عليهم لكان التركيب: والذين معك، إلا إن اعتقد أنَّه كان منهم من يقوم في بيته، ومنهم من يقوم معه، فيمكن إذ ذاك الفَرْضيَّة في حقِّ الجميع(١). انتهى.

وأنت تَعلمُ أنَّه لا يتعيَّن كون «من» تبعيضيَّة، بل تحتمل أن تكون بيانيَّة، ومن يقول بالفَرْضيَّة على الكُلِّ صدرَ الإسلام يَحملها على ذلك دون البعضيَّة باعتبار المعيَّة، فإنَّها ليست بذاك، والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

وأفادت الآية على القول الأخير في قوله سبحانه: «فاقرؤوا» إلخ نَدْبَ قراءةِ شيءٍ مِن القرآن ليلاً، وفي بعض الآثار: من قرأ مئة آية في ليلة لم يحاجَّه القرآن. وفي بعضها: من قرأ مئة آية كتب من القانتين. وفي بعض: خمسين آية[١].

والمعوَّل عليه مِن القولين فيه القولُ الأوَّل، وقد سمعتَ أنَّ الأمرَ عليه للإيجاب، وأنَّه كان يجب قيام شيءٍ مِن الليل ثم نُسخَ وجوبه عن الأمَّة بوجوب الصلوات الخمس، فهو اليوم في حقِّ الأمَّة سُنَّة. وفي «البحر» بعد تفسير فاقرؤوا» بـ: صلُّوا، وحكاية ما قيل مِن النَّسْخ: وهذا الأمر عند الجمهور أَمْر إباحة، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرضٌ ولو قَدْرَ حَلْبِ شاة. وقال ابن جبير وجماعة: هو فرض لا بُدَّ منه ولو بمقدار خمسين آية[٢]. انتهى.

وظاهر سياقه أنَّ هؤلاء قائلون بوجوبه اليوم وأنَّه لم يُنسَخ الوجوبُ مُطلَقاً، وإنَّما نُسخَ وجوبٌ معيَّن، وهذا خلافُ المعروف، فعن ابنِ عباس: سَقَطَ قيامُ الليل عن أصحاب رسولِ الله ﷺ وصار تطوُّعاً وبقي ذلك فرضاً على رسول الله عليه الصلاة والسلام. وأظنُّ الأمر غنيًّا عن الاستدلال، فَلْنَطْوِ بساطَ القِيل والقال، نعم كان السلف الصالح يُثابرون على القيام مُثابرتهم على فرائضِ الاسلام؛ لما في ذلك من الخَلْوة بالحبيب والأُنس به، وهو القريب مِن غير رقيب، نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا كما وفَّقهم، ويَمُنَّ علينا كما مَنَّ عليهم.

بقي ها هنا بحث وهو أنَّ الإمامَ أبا حنيفة رضي الله عنه استدلَّ بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على أنَّ الفَرْضَ في الصلاة مُطلَق القراءة لا الفاتحة بخصوصِها، وهو ظاهرٌ على القول بأنَّه عبَّر فيه عن الصلاة بركنها وهو القراءة، كما عبَّر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضعَ، وقدّر ما تيسَّر بآية على ما حكاه عنه الماورديُّ[٣]، وبثلث على ما حكاه عنه ابن العربي[٤]، والمسألة مقرَّرة في الفروع.

---

(١) تنظر هذه الروايات في عمل اليوم والليلة لابن السني (٦٧١) و(٦٧٢)، والأذكار ص٩٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧.
(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣٣.
(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨٧١.

وخَصَّ الشافعيّ ومالك «ما تيسَّر» بالفاتحة، واحتجُّوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة:

منها ما نقل أبو حامد الإسفراييني عن ابنِ المنذر بإسناده عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تجزئ صلاة لا يُقرَأ فيها بفاتحة الكتاب»(١).

ومنها ما روي أيضاً عن أبي هريرة عنه ﷺ: «كلُّ صلاةٍ لم يُقرَأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج»(٢) أي: نقصان؛ للمبالغة، أو: ذو نقصان. واعتُرض بأنَّ النقصانَ لا يدلُّ على عدم الجواز. وأُجيب بأنَّه يدلُّ؛ لأنَّ التكليفَ بالصلاة قائمٌ، والأصل في الثابت البقاءُ، خالفناه عند الإتيان بها على صفة الكمال، فعند النقصان وجب أن يَبقى على الأصل، ولا يَخرُجَ عن العهدة، وأكّد بقول أبي حنيفة بعدم جواز صومِ يومِ العيد قضاءً عن رمضان مع صحَّة الصوم فيه عنده، مستدلًّا عليه بأنَّ الواجب عليه الصومُ الكامل، والصوم في هذا اليوم ناقصٌ فلا يُفيد الخروجَ عن العهدة.

ومنها قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»(٣) وهو ظاهر في المقصود، إذ التقدير: لا صلاةَ صحيحةٌ إلَّا بها، واعتُرض بجواز أن يكون التقدير: لا صلاةَ كاملةٌ، فإنَّه لمَّا امتنع نفي مسمَّى الصلاة لثبوته دون الفاتحة لم يكن بُدٌّ مِن صَرْفه إلى حُكْمٍ مِن أحكامها، وليس الصَّرْف إلى الصحة أَولى مِن الصرف إلى الكمال.

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّم امتناع دخول النفي على مسمَّاها؛ لأنَّ الفاتحةَ إذا كانت جزءاً من ماهية الصلاة، تنتفي الماهية عند عدم قراءتها، فيصحُّ دخوله على مسمَّاها، وإنَّما يمتنع لو ثبت أنَّها ليست جزءاً منها، وهو أَوَّل المسألة، سلَّمناه لكن لا نُسلِّم أنَّ صَرْفه إلى الصِّحَّة ليس أَولى مِن صرفه إلى الكمال، بل هو أَولى، لأنَّ الحمل على المجاز الأقرب عند تعذُّر الحمل على الحقيقة أَولى، بل واجب

---

(١) الأوسط لابن المنذر (١٢٩٩)، وهو بهذا اللفظ عند ابن خزيمة في صحيحه (٤٩٠)، وابن حبان في صحيحه (١٧٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) (٤١)، وهو عند أحمد (٧٢٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٣٩٤)، وهو عند أحمد (٢٢٦٧٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

بالإجماع، ولا شَكَّ أنَّ الموجود الذي لا يكون صحيحاً أقربُ إلى المعدوم مِن الموجود الذي لا يكون كاملاً، ولأنَّ الأصل بقاءُ ما كان ـ وهو التكليف ـ على ما كان، ولأنَّ جانبَ الحرمة أرجحُ؛ لأنَّه أحوط.

ومنها أنَّ الصلاةَ بدون الفاتحة تُوجِب فواتَ الفضيلة الزائدة مِن غير ضرورة؛ للإجماع على أنَّ الصلاةَ معها أفضلُ، فلا يجوز المصير إليه؛ لأنَّه قبيح عرفاً، فيكون قبيحاً شرعاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما رآه المسلمونَ حسناً فهو عند الله حَسَن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[(١)].

ومنها أنَّ قراءتها تُوجِب الخروجَ عن العهدة بيقين فتكون أحوطَ، فوجب القول بوجوبها لنصٍّ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)]، وللمعقول؛ وهو دَفْع ضرر الخوف عن النفس، فإنَّه واجب، وكونُ اعتقاد الوجوب يُورِث الخوفَ لجواز كوننا مخطئين معارَضٌ باعتقاد عَدَمه، فيتقابلان، وأمَّا في العمل فالقراءة لا تُوجِب الخوفَ وتَرْكُها يُوجبه، فالأحوط القراءةُ. إلى غير ذلك.

وأجاب ساداتنا الحنفيَّة بما أجابوا واستدلُّوا على أنَّ الواجبَ ما تيسَّر مِن القرآن لا الفاتحة بخصوصها بأمور:

منها ما روى أبو عثمان النهدي عن أبي هريرة أنَّه قال: أَمَرني رسولُ الله ﷺ أَنْ أَخرُجَ وأنادي: «لا صلاةَ إلا بقراءة ولو بفاتحة الكتاب»[(٣)]. ودُفع بأنَّه معارَض بما نُقل عن أبي هريرة أنَّه قال: أَمَرني رسولُ الله ﷺ أن أَخرج وأنادي: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[(٤)]، وبأنَّه يجوز أن يكون المراد مِن قوله: «ولو بفاتحة

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ١٦٥، وفي إسناده سليمان بن عمرو النخعي، وهو متروك كما قال البخاري. الميزان ٢/ ٢١٦. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٥٢) وقال: هذا الحديث إنما يعرف من كلام ابن مسعود. اهـ. وأخرجه موقوفاً على ابن مسعود أحمد (٣٦٠٠)، والبزار (١٣٠ - كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٧-١٧٨: رجاله موثوقون.

(٢) أخرجه سيف بن عمر في كتاب «وفاة النبيِّ ﷺ» من حديث ابن مسعود ﷺ، كما ذكر ابن كثير في تحفة الطالب (٣٤٤) و(٣٤٥) وقال: إسناده غريب جدًا، وهو مأثور عن عبد الله بن مسعود بسند جيِّد. اهـ. والموقوف عند أحمد (٣٦٠٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٨١٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٨٢٠)، وهو عند أحمد (٩٥٢٩).

الكتاب». هو أنَّه لو اقتصر على الفاتحة لكفى، ويجب الحمل عليه جمعاً بين الأدلَّة، وفيه تعسُّف، ولعلَّ الأولى في الجواب جواز كون المراد: ولو بفاتحة الكتاب. ما هو السابق إلى الفهم مِن قول القائل: لا حياة إلا بقوت ولو الخبز كلَّ يوم أوقيَّة. وهو أنَّ هذا القدر لا بُدَّ منه، وعليه يصير الحديث مِن أدلَّة الوجوب.

ومنها أنَّه لو وجبت الفاتحة لصدق قولنا: كلَّما وجبت القراءة وجبت الفاتحة، ومعناه: مقدِّمة صادقة وهي أنَّه لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة؛ لوجوب مُطلَق القراءة بالإجماع، فتنتج المقدِّمتان: لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة، وهو باطل.

وأجيب بمنع الصغرى، أي: لا نُسلِّم صِدْقَ قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة، لأنَّ عدمَ وجوب الفاتحة محالٌ، والمحال جاز أن يستلزم المحالَ وهو رفع وجوب مُطلَق القراءة الثابت بالإجماع، سلَّمناها، لكن لا نُسلِّم استحالة قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة، لما ذُكرَ آنفاً، وجعل بعض القياس حجَّة على الحنفيَّة؛ لأنَّ كلَّ ما استلزم عدمُه وجودَه، ثبت وجودُه ضرورةً، ورُدَّ بأنَّ هذا إنَّما يلزم لو كانت الملازمةُ ـ وهي قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت ـ ثابتةً في نفس الأمر، وليس كذلك، بل هي ثابتة على تقدير وجوب قراءة الفاتحة، فلهذا لا يصير حجَّة عليهم، وتمام الكلام على ذلك في موضعه.

وأنتَ تعلم أنَّه على القول الثاني في الآية لا يظهر الاستدلالُ بها على فَرْضيَّة مُطلَق القراءة في الصلاة، إذ ليس فيها عليه أكثر مِن الأَمْر بقراءة شيء مِن القرآن ـ قلَّ أو كثر ـ بدل ما افترض عليهم مِن صلاة الليل، فليتنبه.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئناف مبيِّن لحكمةٍ أخرى غيرِ ما تقدَّم مِن عسرة إحصاء تقدير الأوقات، مقتضيةٍ للترخيص والتخفيف، أي: عَلِمَ أنَّ الشأن سيكون منكم مرضى ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون فيها للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الرِّبْح، وقد عمَّم ابتغاءَ الفَضْل لتحصيل العلم، والجملة في موضع الحال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني المجاهدين، وفي قَرْنِ المسافرين لابتغاء فَضْل الله تعالى بهم إشارةٌ إلى أنَّهم نحوهم في الأجر، أخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وغيرهما عن عمر رضي الله عنه قال: ما مِن حال يأتيني عليه

الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحبّ إليّ مِن أن يأتيني وأنا بين شعبتي جَبَل ألتمس مِن فضل الله تعالى، وتلا هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ﴾ إلخ(١).

وأخرج ابن مردويه عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِن جالبٍ يَجلِبُ طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسِعْرِ يومِه إلَّا كانت منزلته عند الله، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»(٢).

والمراد أنَّه عزَّ وجلَّ عَلِمَ أن سيكون مِن المؤمنين من يشقُّ عليه القيام، كما عَلِمَ سبحانه عُسْرَ إحصاء تقدير الأوقات، وإذا كان الأمرُ كما ذكرَ وتعاضدت مقتضيات الترخيص: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: من القرآن مِن غير تحمُّل المشاقِّ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كذلك، وعلى هذا أكثر المفسِّرين، والظاهر أنَّهم عَنَوا بالصلاة المفروضة الصلوات الخمس، وبالزكاة المفروضة أختها المعروفة، واستُشكل بأنَّ السورة مِن أوائل ما نَزَلَ بمكَّة ولم تُفرَض الصلوات الخمس إلا بعد الإسراء، والزكاة إنَّما فُرضَت بالمدينة؟ وأُجيبَ بأنَّ الذاهبَ إلى ذلك يجعل هذه الآيات مدنيَّة.

وقيل: إنَّ الزكاةَ فُرضَت بمكَّة مِن غير تعيين للأنصباء، والذي فُرضَ بالمدينة تعيين الأنصباء، فيمكن أن يراد بالزكاة الزكاة المفروضة في الجملة، فلا مانعَ عن كون الآيات مكِّيَّة، لكنْ يُلتزم كونُها نزلت بعد الإسراء، وحملها على صلاة الليل السابقة ـ حيث كانت مفروضة ـ ينافي الترخيصَ.

وقيل: يجوز أن تكون الآية مما تأخَّر حكمه عن نزوله. وليس بذاك.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أريد به الإنفاقات في سُبُل الخيرات، أو أداءُ الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعها للفقراء.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وهو في الشعب (١٢٥٦)، وأورد له ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٩ ثلاثة أسانيد، وعزا الأول للثعلبي وضعَّفه، والثاني لابن معبد في الطاعة والمعصية، والثالث للبيهقي في الشعب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وضعَّفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٧٣ (بهامش الإحياء).

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أيِّ خيرٍ كان ممَّا ذُكر وممَّا لم يذكر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: مِن الذي تؤخِّرونه إلى الوصية عند الموت، و«خيراً» ثاني مفعولَي «تجدوه»، و«هو» تأكيد لضمير «تجدوه» وإن كان بصورة المرفوع والمؤكَّد منصوب؛ لأنَّ «هو» يستعار لتأكيد المجرور والمنصوب، كما ذكره الرضيُّ، أو ضمير فصل وإن لم يقع بين معرفتَيْن، فإنَّ: أفعل مِن، في حكم المعرفة، ولذا يمتنع من حرف التعريف كالعَلَم، وجوَّز أبو البقاء البدليَّة مِن ضمير «تجدوه»[1]، ووهَّمه أبو حيَّان[2] بأنَّ الواجب عليها: إيَّاه.

وقرأ أبو السَّمَّال - باللام - العدوي، وأبو السماك - بالكاف - الغنوي، وأبو السميفع: «هو خيرٌ وأعظمُ» برفعهما[3] على الابتداء والخبر، وجعل الجملة في موضع المفعول الثاني، قال أبو زيد: هي لغة بني تميم يرفعونَ ما بعد الفاصلة، يقولون: كان زيدٌ هو العاقلُ، بالرفع، وعليه قول قيس بنِ ذريح:

تَحِنُّ إلى لُبنى وأنتَ تركتَها وكنتَ عليها بالمَلَا أنتَ أقدرُ[4]

فقد قال أبو عمرو الجرميُّ: أنشده سيبويه شاهداً للرفع والقوافي مرفوعة، ويروى: أقدرا.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في كافَّة أحوالكم، فإنَّ الإنسان قلَّما يخلو مما يعدُّ تفريطاً بالنسبة إليه، وَعَدَّ مِن ذلك الصوفيَّةُ رؤيةَ العابد عبادته، قيل: ولهذه الإشارة أمر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحَسَن.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ فيغفرُ سبحانه ذنبَ مَن استغفره ويرحمه عزَّ وجلَّ، وفي حذف المعمول دلالةٌ على العموم، وتفصيل الكلام فيه معلوم.

نسأل الله تعالى عظيمَ مغفرته ورحمته لنا ولوالدينا ولكافَّة مؤمني بَرِيَّته بحرمة سيِّد خليقته وسَنَد أهل صفوته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وشيعته.

---

(١) الإملاء ٤/ ٤٢٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٧ دون ذكر أبي السماك الغنوي.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧، والبيت سلف عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الزخرف.

(٧٤) سورة المدثر مكية
وآياتها ست وخمسون

● **سورة** المدثر مكية ، شأنها كسابقتها – سورة المزمل – **تتحدث** عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولهذا سميت سورة المدَّثر .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة ، والقيام بمهمة التبليغ بجدٍ ونشاط ، وإنذار الكفار ، والصبر على أذى الفجار ، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿ يا أيها المدَّثِّر . قم فأنذرْ . وربَّك فكبِّر . وثيابك فطهرّ . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصْبر﴾ .

● **ثم توالت** السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين ، بيومٍ عصيب شديد لا راحة لهم فيه ، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿ فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير﴾ .

● **وبعد ذلك** البيان الذي يرتعد له الإنسان ، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر « الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله ، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ ذَرْني وَمَنْ خلقت وحيداً . وجعلتُ له مالاً ممدوداً . وبنينَ شهوداً . ومَهَّدْتُ له تَمهْيداً . ثم يَطْمَعُ أنْ أزيدَ .. كَلاَّ إنه كانَ لآياتِنَا عنيداً . سأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إنَّه فكَّرو قدَّر .

فَقُتِلَ كَيْفَ قدَّر .. إلى قوله تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

● **ثم تحدثت** السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار ، وعن خزنتها الأشداء ، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها ، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقي ولا تذر . لَوَّاحة للبشر . عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنةً للذين كفروا ..﴾ الآيات .

● **وأقسمت** السورة بالقمر وضيائه ، والصبح وبهائه على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كلا والقمر . والليل إذْ أدبْر . والصبح إذا أسفر . إنها لأحدى الكُبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ .

● **ثم تحدثت** السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن سبب دخولهم الجحيم ﴿إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين﴾ الآيات .

● **وختمت السورة** ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة . كل إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ .

سورة المدثر

[٩٨٥] أخرج الشيخان[١] عن جابر قال: قال رسول الله [ﷺ] **«جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنوديت فلم أر أحداً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء فرجعت فقلت دثروني دثروني»** فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[٢].

[٩٨٦] ك.. وأخرج الطبراني بسند ضعيف[٣] عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر وقال بعضهم: ليس بساحر وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر. وقال بعضهم: ليس بشاعر. وقال بعضهم: سحر يؤثر فبلغ ذلك النبي [ﷺ] فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[٤].

[٩٨٧] وأخرج الحاكم وصححه[٥] عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي [ﷺ] فقرأ علية القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له وإنك كاره له قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله وإنه ليعلو وما

---

[٩٨٥] (١) صحيح البخاري ٦/٢٠١، وصحيح مسلم كتاب الإيمان (٢٥٧)، ومسند أحمد ٣/ ٣٠٦، ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٠).
(٢) سورة المدثر: الآية (١و٢).
[٩٨٦] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٠) من طريق أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس.
(٤) سورة المدثر: الآية (١١).
[٩٨٧] (٥) راجع تعليق (٩٨٧).

يعلى وإنه ليحطم ما تحته قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر أثره عن غيره فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾[1] إسناده صحيح على شرط البخاري وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق أخرى نحوه.

[٩٨٨] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي [ﷺ] عن خزنة جهنم فجاء فأخبر النبي [ﷺ] فنزل عليه ساعتئذ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾[2]. ك.. وأخرج عن ابن إسحاق قال: قال أبو جهل يوماً يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عدداً أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[3] الآية. ك.. وأخرج نحوه عن قتادة قال ذكر لنا فذكره.

[٩٨٩] ك.. وأخرج عن السدي قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾[4] قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[5].

[٩٩٠] ك.. وأخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار فنزلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ۝٥٢﴾[6].

* * *

---

(١) سورة المدثر: الآية (١و٧).
[٩٨٨] (٢) سورة المدثر: الآية (٣٠).
(٣) سورة المدثر: الآية (٣١).
[٩٨٩] (٤) سورة المدثر: الآية (٣٠).
(٥) سورة المدثر: الآية (٣١).
[٩٩٠] (٦) سورة المدثر: الآية (٥٢).

سورة المدثر

خمسون وست آيات مكية، وعند بعضهم انها اول ما نزل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: المدثر، أصله المتدثر، وهو الذي يتدثر بثيابه لينام، أو ليستدفئ، يقال: تدثر بثوبه، والدثار: اسم لما يتدثر به، ثم أدغمت التاء في الدال لتقارب مخرجهما.

المسألة الثانية: أجمعوا على أن المدثر هو رسول الله ﷺ، واختلفوا في أنه عليه الصلاة والسلام لم سمي مدثرًا، فمنهم من أجراه على ظاهره وهو أنه كان متدثرًا بثوبه، ومنهم من ترك هذا الظاهر، أما على الوجه الأول فاختلفوا في أنه لأي سبب تدثر بثوبه على وجوه: أحدها: أن هذا من أوائل ما نزل من القرآن، روى جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كُنْتُ عَلَى جَبَلِ حِرَاءٍ، فَنُودِيتُ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَيَسَارِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَنَظَرْتُ فَوْقِي، فَرَأَيْتُ الْمَلَكَ قَاعِدًا عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَخِفْتُ وَرَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾»[1] وثانيها: أن النفر الذين آذوا رسول الله ﷺ، وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا: إن وفود العرب يجتمعون في أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد، فكل واحد منا يجيب بجواب آخر، فواحد يقول: مجنون، وآخر يقول: كاهن، وآخر يقول: شاعر، فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد، فقال واحد: إنه شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام عبيد بن الأبرص، وكلام أمية بن أبي الصلت، وكلامه ما يشبه كلامهما، وقال آخرون كاهن، قال الوليد: ومن الكاهن؟ قالوا: الذي يصدق تارة ويكذب أخرى، قال الوليد: ما كذب محمد قط، فقال آخر: إنه مجنون فقال الوليد: ومن يكون المجنون؟ قالوا: مخيف الناس، فقال الوليد: ما أخيف بمحمد أحد قط، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته، فقال الناس: صبأ الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل، وقال: مالك يا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة المزمل) (٤/ ١٨٧٤) حديث رقم (٤٦٣٨) ومسلم في (صحيحه) (١/ ١٤٤/ ١٦١) كلاهما من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن... به.

أبا عبد شمس؟ هذه قريش تجمع لك شيئًا، زعموا أنك احتججت وصبأت، فقال: الوليد مالي إليه حاجة، ولكني فكرت في محمد. فقلت: إنه ساحر، لأن الساحر هو الذي يفرق بين الأب وابنه وبين الأخوين، وبين المرأة وزوجها، ثم إنهم أجمعوا على تلقيب محمد عليه الصلاة والسلام بهذا اللقب، ثم إنهم خرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون، فقالوا: إن محمدًا لساحر، فوقعت الضجة في الناس أن محمدًا ساحر، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك اشتد عليه، ورجع إلى بيته محزونًا فتدثر بثوبه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ وثالثها: أنه عليه الصلاة والسلام كان نائمًا متدثرًا بثيابه، فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ كأنه قال: له اترك التدثر بالثياب والنوم، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له.

القول الثاني: أنه ليس المراد من المدثر، المتدثر بالثياب، وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه أحدها: أن المراد كونه متدثرًا بدثار النبوة والرسالة من قولهم: ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم، ويقال: تلبَّس فلان بأمر كذا، فالمراد يأيها المدثر بدثار النبوة قم فأنذر، وثانيها: أن المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه، وأنه عليه الصلاة والسلام في جبل حراء كان كالمختفي من الناس، فكأنه قيل: يا أيها المتدثر بدثار الخمول والاختفاء، قم بهذا الأمر واخرج من زاوية الخمول، واشتغل بإنذار الخلق، والدعوة إلى معرفة الحق، وثالثها: أنه تعالى جعله رحمة للعالمين، فكأنه قيل له: يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم، والخلق الكريم، والرحمة الكاملة قم فأنذر عذاب ربك.

المسألة الثالثة: عن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول من دثره، كأنه قيل له: دثرت هذا الأمر وعصيت به، وقد سبق نظيره في المزمل.

قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾

فيه قوله: ﴿قُمۡ﴾ وجهان أحدهما: قم من مضجعك، والثاني: قم قيام عزم وتصميم، وفي قوله: ﴿فَأَنذِرۡ﴾ وجهان:

أحدهما: حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. وقال ابن عباس: قم نذيرًا للبشر، احتج القائلون بالقول الأول بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ﴾ [الأنعام: ٥١] واحتج القائلون بالقول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. وهاهنا قول ثالث: وهو أن المراد فاشتغل بفعل الإنذار، كأنه تعالى يقول له تهيأ لهذه الحرفة، فإنه فرق بين أن يقال تعلم صنعة المناظرة، وبين أن يقال: ناظر زيدًا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير التكبير وجوهًا أحدها: قال الكلبي: عظم ربك مما يقوله عبدة الأوثان، وثانيها: قال مقاتل: هو أن يقول: الله أكبر، روى أنه «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَامَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، فَكَبَّرَتْ خَدِيجَةُ وَفَرِحَتْ، وَعَلِمَتْ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ»(١) وثالثها: المراد منه التكبير في الصلوات، فإن قيل: هذه السورة نزلت في أول البعث وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت؟ قلنا: لا يبعد أنه كانت له عليه السلام صلوات تطوعية، فأمر أن يكبر ربه فيها، ورابعها: يحتمل عندي أن يكون المراد أنه لما قيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قيل بعد ذلك: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عن اللغو والعبث، واعلم أنه ما أمرك بهذا الإنذار إلا لحكمة بالغة، ومهمات عظيمة، لا يجوز لك الإخلال بها، فقوله: ﴿وَرَبَّكَ﴾ كالتأكيد في تقرير قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ وخامسها: عندي فيه وجه آخر وهو أنه لما أمره بالإنذار، فكأن سائلاً سأل وقال: بماذا ينذر؟ فقال: أن يكبر ربه عن الشركاء والأضداد والأنداد ومشابهة الممكنات والمحدثات، ونظير قوله في سورة النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات.

المسألة الثانية: الفاء في قوله: ﴿فَكَبِّرْ﴾ ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قال أبو الفتح الموصلي: يقال: زيدًا فاضرب، وعمرًا فاشكر، وتقديره زيدًا اضرب وعمرًا اشكر، فعنده أن الفاء زائدة وثانيها: قال الزجاج: دخلت الفاء لإفادة معنى الجزائية، والمعنى: قم فكبر ربك وكذلك ما بعده على هذا التأويل، وثالثها: قال صاحب (الكشاف): الفاء لإفادة معنى الشرط، والتقدير: وأي شيء كان فلا تدع تكبيره.

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾

واعلم أن تفسير هذه الآية يقع على أربعة أوجه: أحدها: أن يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره، والثاني: أن يترك لفظ الثياب على حقيقته، ويحمل لفظ التطهير على مجازه، الثالث: أن يحمل لفظ الثياب على مجازه، ويترك لفظ التطهير على حقيقته، والرابع: أن يحمل اللفظان على المجاز أما الاحتمال الأول: وهو أن يترك لفظ الثياب، ولفظ التطهير على حقيقته، فهو أن نقول: المراد منه أنه عليه الصلاة والسلام، أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار، وعلى هذا التقدير يظهر في الآية ثلاثة احتمالات: أحدها: قال الشافعي: المقصود منه الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس، وثانيها: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان المشركون ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات، فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عن النجاسات، وثالثها: روي أنهم ألقوا على رسول الله ﷺ سلى شاة، فشق عليه ورجع إلى بيته حزينًا وتدثر بثيابه(٢)، فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] ولا تمنعك تلك السفاهة عن

---

(١) ذكره أهل التفاسير بدون إسناد.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ولكن الحديث أصله في الصحيحين أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٩٤) حديث رقم (٢٣٧) ومسلم في (صحيحه) (٥/ ١٧٩/ ٤٧٥٠) كلاهما من طريق أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود... به.

الإنذار وربك فكبر عن أن لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات، الاحتمال الثاني: أن يبقى لفظ الثياب على حقيقته، ويجعل لفظ التطهير على مجازه، فهنا قولان: الأول: أن المراد من قوله: ﴿فَطَهِّرْ﴾ أي فقصر، وذلك لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم فكانت ثيابهم تتنجس، ولأن تطويل الذيل إنما يفعل للخيلاء والكبر، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك، القول الثاني: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي ينبغي أن تكون الثياب التي تلبسها مطهرة عن أن تكون مغصوبة أو محرمة، بل تكون مكتسبة من وجه حلال، الاحتمال الثالث: أن يبقى لفظ التطهير على حقيقته، ويحمل لفظ الثياب على مجازه، وذلك أن يحمل لفظ الثياب على الجسم وذلك لأن العرب ما كانوا يتنظفون وقت الاستنجاء، فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك التنظيف وقد يجعل لفظ الثياب كناية عن النفس.

قال عنترة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ (أَيْ نَفْسَهُ)(١)

ولهذا قال:

لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

الاحتمال الرابع: وهو أن يحمل لفظ الثياب، ولفظ التطهير على المجاز، وذكروا على هذا الاحتمال وجوهًا، الأول: وهو قول أكثر المفسرين: وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة وعن الحسن: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: وخلقك فحسن، قال القفال: وهذا يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الكفار لما لقبوه بالساحر شق ذلك عليه جدًا، حتى رجع إلى بيته وتدثر بثيابه، وكان ذلك إظهار جزع وقلة صبر يقتضيه سوء الخلق، فقيل له: قم فأنذر ولا تحملنك سفاهتهم على ترك إنذارهم بل حسن خلقك، والثاني: أنه زجر عن التخلق بأخلاقهم، فقيل له: طهر ثيابك أي قلبك عن أخلاقهم، في الافتراء والتقول والكذب وقطع الرحم، والثالث: فطهر نفسك وقلبك عن أن تعزم على الانتقام منهم والإساءة إليهم، ثم إذا فسرنا الآية بهذا الوجه، ففي كيفية اتصالها بما قبلها وجهان: الأول: أن يقال: إن الله تعالى لما ناداه في أول السورة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: ١] وكان التدثر لباسًا، والدثار من الثياب، قيل طهر ثيابك التي أنت متدثر بها عن أن تلبسها على هذا التفكر والجزع والضجر من افتراء المشركين، الوجه الثاني: أن يفسر المدثر بكونه متدثرًا بالنبوة، كأنه قيل: يا أيها المتدثر بالنبوة طهر ما تدثرت به عن الجزع وقلة الصبر، والغضب والحقد، فإن ذلك لا يليق بهذا الدثار، ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر: ٧] واعلم أن حمل المدثر على المتصف ببعض الصفات جائز، يقال: فلان طاهر الجيب نقي الذيل، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، ويقال: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة، قال الشاعر:

---

(١) تقدمت ترجمته.

فَلَا أَبَ وَابْنًا مِثْلُ مَرْوَانَ وَابْنِهِ إِذَا هُوَ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا (١)

والسبب في حسن هذه الكناية وجهان: الأول: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، يقال: المجد في ثوبه والعفة في إزاره، والثاني: أن الغالب أن من طهر باطنه، فإنه يطهر ظاهره الوجه الثاني: في تأويل الآية أن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أمر له بالاحتراز عن الآثام والأوزار التي كان يقدم عليها قبل النبوة، وهذا على تأويل من حمل قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣]على أيام الجاهلية، الوجه الثاني: في تأويل الآية قال محمد بن عرفة النحوي معناه: نساءك طهرهن، وقد يكنى عن النساء بالثياب، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]وهذا التأويل بعيد، لأن على هذا الوجه لا يحسن اتصال الآية بما قبلها.

قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في الرِّجز وجوهًا: الأول: قال العتبي: الرِّجز العذاب قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]أي العذاب ثم سمي كيد الشيطان رجزًا لأنه سبب للعذاب، وسميت الأصنام رجزًا لهذا المعنى أيضًا، فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي، ثم على هذا القول احتمالان: أحدهما: أن قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يعني كل ما يؤدي إلى الرجز فاهجره، والتقدير وذا الرجز فاهجر أي ذا العذاب فيكون المضاف محذوفًا، والثاني: أنه سمى ما يؤدي إلى العذاب عذابًا تسمية للشيء، باسم ما يجاوره ويتصل به، القول الثاني: أن الرِّجز اسم للقبيح المستقذر وهو معنى الرِّجس، فقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل له: اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز، وهذا يشاكل تأويل من فسر قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصي والقبائح.

المسألة الثانية: احتج من جوز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية، قال لولا أنه كان مشتغلاً بها وإلا لما زجر عنها بقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ والجواب المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما أن المسلم إذا قال: اهدنا فليس معناه أنا لسنا على الهداية فاهدنا، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية، فكذا هاهنا.

---

(١)البيت للشاعر الكميت وهو الكميت بن معروف بن الكميت الأكبر بن ثعلبة بن نوفل الأسدي، أبو أيوب؟ - ٦٠هـ/ ؟ - ٦٧٩م شاعر مخضرم، من بني جحوان بن فقعس، عاش أكثر حياته في الإسلام عرّفه الجمحي بالكميت الأوسط لتوسطه في الزمن بين جدّه الكميت بن ثعلبة والكميت بن زيد وقال هو أشعرهم قريحةً وقال الميداني: الكميت ثلاثة: الكميت بن ثعلبة ثم الكميت بن معروف ثم الكميت بن زيد، وكلهم من بني أسد.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم في رواية حفص ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء في هذه السورة وفي سائر القرآن بكسر الراء، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر وقرأ يعقوب بالضم، ثم قال الفراء: هما لغتان والمعنى واحد، وفي كتاب الخليل الرجز بضم الراء عبادة الأوثان وبكسر الراء العذاب، ووسواس الشيطان أيضًا رجز، وقال أبو عبيدة: أفشى اللغتين وأكثرهما الكسر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ **فيه مسائل**

المسألة الأولى: القراءة المشهورة ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ برفع الراء وفيه ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون التقدير: ولا تمنن لتستكثر فتنزع اللام فيرتفع، وثانيها: أن يكون التقدير لا تمنن أن تستكثر ثم تحذف أن الناصبة فتسلم الكلمة من الناصب والجازم فترتفع ويكون مجاز الكلام لا تعط لأن تستكثر، وثالثها: أنه حال متوقعة أي لا تمنن مقدرًا أن تستكثر قال أبو علي الفارسي: هو مثل قولك: مررت برجل معه صقر صائدًا به غدًا أي مقدرًا للصيد فكذا هاهنا المعنى مقدرًا الاستكثار، قال: ويجوز أن يحكى به حالاً آتية، إذا عرفت هذا فنقول، ذكروا في تفسير الآية وجوهًا أحدها: أنه تعالى أمره قبل هذه الآية بأربعة أشياء: إنذار القوم، وتكبير الرب، وتطهير الثياب، وهجر الرجز، ثم قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة، كالمستكثر لما تفعله، بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقربًا بذلك إليه غير ممتن به عليه. قال الحسن: لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها، وثانيها: لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين، والوحي كالمستكثر لذلك الإنعام، فإنك إنما فعلت ذلك بأمر الله، فلا منة لك عليهم، ولهذا قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر: ٧]، وثالثها: لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر، أي لتأخذ منهم على ذلك أجرًا تستكثر به مالك، ورابعها: لا تمنن أي لا تضعف من قولهم: حبل منين أي ضعيف، يقال: منَّهُ السير أي أضعفه. والتقدير فلا تضعف أن تستكثر من هذه الطاعات الأربعة التي أمرت بها قبل هذه الآية، ومن ذهب إلى هذا قال: هو مثل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾[الزمر: ٦٤] أي أن أعبد فحذفت أن وذكر الفراء أن في قراءة عبد الله (وَلاَ تَمْنُنْ أَنْ تستكثر) وهذا يشهد لهذا التأويل، وهذا القول اختيار مجاهد، وخامسها: وهو قول أكثر المفسرين أن معنى قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ أي لا تعط يقال: مننت فلانًا كذا أي أعطيته، قال: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾[ص: ٣٩] أي فأعط، أو أمسك وأصله أن من أعطى فقد منَّ، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة، فالمعنى ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه.

وعلى هذا التأويل سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في أن الله تعالى منعه من هذا العمل؟ الجواب: الحكمة فيه من وجوه: الأول: لأجل أن تكون عطاياه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا، فإنه نهى عن طلب الدنيا في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[الحجر: ٨٨] وذلك لأن طلب الدنيا لا بد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة، ومن كان كذلك لم يصلح لأداء الرسالة، الثاني: أن من أعطى غيره القليل من الدنيا

ليأخذ الكثير لا بد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرع له، وذلك لا يليق بمنصب النبوة، لأنه يوجب دناءة الآخذ، ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه، وتنفير المأخوذ منه، ولهذا قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

السؤال الثاني: هذا النهي مختص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أم يتناول الأمة؟ الجواب: ظاهر اللفظ لا يفيد العموم وقرينة الحال لا تقتضي العموم لأنه عليه الصلاة والسلام إنما نهى عن ذلك تنزيهًا لمنصب النبوة، وهذا المعنى غير موجود في الأمة، ومن الناس من قال هذا المعنى في حق الأمة هو الرياء، والله تعالى منع الكل من ذلك.

السؤال الثالث: بتقدير أن يكون هذا النهي مختصًا بالنبي ﷺ فهو نهي تحريم أو نهي تنزيه؟ والجواب: ظاهر النهي للتحريم، الوجه السادس في تأويل الآية قال القفال: يحتمل أن يكون المقصد من الآية أن يحرم على النبي ﷺ أن يعطي لأحد شيئًا لطلب عوض سواء كان ذلك العوض زائدًا أو ناقصًا أو مساويًا، ويكون معنى قوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ أي طالبًا للكثرة كارهًا أن ينقص المال بسبب العطاء، فيكون الاستكثار هاهنا عبارة عن طلب العوض كيف كان، وإنما حسنت هذه الاستعارة لأن الغالب أن الثواب يكون زائدًا على العطاء، فسمي طلب الثواب استكثارًا حملاً للشيء على أغلب أحواله، وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ولها ولد للحاجة إلى من يربي ولدها فسمي الولد ربيبًا، ثم اتسع الأمر فسمي ربيبًا وإن كان حين تتزوج أمه كبيرًا، ومن ذهب إلى هذا القول قال: السبب فيه أن يصير عطاء النبي ﷺ خاليًا عن انتظار العوض والتفات الناس إليه، فيكون ذلك خالصًا مخلصًا لوجه الله تعالى، الوجه السابع: أن يكون المعنى: ولا تمنن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثارًا منك لتلك العطية، بل ينبغي أن تستقلها وتستحقرها وتكون كالمعتذر من ذلك المنعم عليه في ذلك الإنعام، فإن الدنيا بأسرها قليلة، فكيف ذلك القدر الذي هو قليل في غاية القلة بالنسبة إلى الدنيا، وهذه الوجوه الثلاثة الأخيرة كالمرتبة فالوجه الأول: معناه كونه عليه الصلاة والسلام ممنوعًا من طلب الزيادة في العوض، والوجه الثاني: معناه كونه ممنوعًا عن طلب مطلق العوض زائدًا كان أو مساويًا أو ناقصًا، والوجه الثالث: معناه أن يعطي وينسب نفسه إلى التقصير ويجعل نفسه تحت منة المنعم عليه حيث قبل منه ذلك الإنعام، الوجه الثامن: معناه إذا أعطيت شيئًا فلا ينبغي أن تمنن عليه بسبب أنك تستكثر تلك العطية، فإن المن محبط لثواب العمل، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

المسألة الثانية: قرأ الحسن: (تَسْتَكْثِرْ) بالجزم وأكثر المحققين أبوا هذه القراءة، ومنهم من قبلها وذكروا في صحتها ثلاثة أوجه: أحدها: كأنه قيل: لا تمنن لا تستكثر وثانيها: أن يكون أراد تستكثر فأسكن الراء لثقل الضمة مع كثرة الحركات، كما حكاه أبو زيد في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] بإسكان اللام وثالثها: أن يعتبر حال الوقف، وقرأ الأعمش:

(تَسْتَكْثِرَ) بالنصب بإضمار أن كقوله:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرَ الْوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي [1]

ويؤيده قراءة ابن مسعود: ولا تمنن أن تستكثر.

قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾

فيه وجوه: أحدها: إذا أعطيت المال فاصبر على ترك المن والاستكثار أي اترك هذا الأمر لأجل مرضاة ربك، وثانيها: إذا أعطيت المال فلا تطلب العوض، وليكن هذا الترك لأجل ربك، وثالثها: أنا أمرناك في أول هذه السورة بأشياء ونهيناك عن أشياء فاشتغل بتلك الأفعال والتروك لأجل أمر ربك، فكأن ما قبل هذه الآية تكاليف بالأفعال والتروك، وفي هذه الآية بيَّن ما لأجله يجب أن يؤتى بتلك الأفعال والتروك وهو طلب رضا الرب، ورابعها: أنا ذكرنا أن الكفار لما اجتمعوا وبحثوا عن حال محمد ﷺ قام الوليد ودخل داره فقال القوم: إن الوليد قد صبأ فدخل عليه أبو جهل، وقال: إن قريشًا جمعوا لك مالاً حتى لا تترك دين آبائك، فهو لأجل ذلك المال بقي على كفره، فقيل لمحمد: إنه بقي على دينه الباطل لأجل المال، وأما أنت فاصبر على دينك الحق لأجل رضا الحق لا لشيء غيره، وخامسها: أن هذا تعريض بالمشركين كأنه قيل له: وربك فكبر لا الأوثان وثيابك فطهر ولا تكن كالمشركين نجس البدن والثياب والرجز فاهجر ولا تقربه كما تقربه الكفار ولا تمنن تستكثر كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قدرًا من المال وكانوا يستكثرون ذلك القليل ولربك فاصبر على هذه الطاعات لا للأغراض العاجلة من المال والجاه.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ ﴾

اعلم أنه تعالى لما تمم ما يتعلق بإرشاد قدوة الأنبياء وهو محمد ﷺ، عدل عنه إلى شرح وعيد الأشقياء وهو هذه الآية، **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ للسبب كأنه قال: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى أنت عاقبة صبرك عليه.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الوقت الذي ينقر في الناقور، أهو النفخة الأولى أم النفخة الثانية؟ فالقول الأول: أنه هو النفخة الأولى، قال الحليمي في كتاب - المنهاج -: أنه تعالى سمى الصور باسمين أحدهما الصور والآخر الناقور، وقول المفسرين: إن الناقور هو الصور، ثم لا شك أن الصور وإن كان هو الذي ينفخ فيه النفختان معًا، فإن نفخة الإصعاق تخالف نفخة الإحياء، وجاء في الأخبار أن في الصور ثقبًا بعدد الأرواح كلها، وأنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية، فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزع منه فيعود الجسد حيًّا بإذن الله تعالى، فيحتمل أن يكون الصور محتويًا على آلتين ينقر في إحداهما وينفخ في الأخرى

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لطرفة بن العبد وتقدمت ترجمته.

فإذا نفخ فيه للإصعاق، جمع بين النقر والنفخ، لتكون الصيحة أهد وأعظم، وإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه، واقتصر على النفخ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيرها من أجسادها، والنفخة الأولى للتنقير، وهو نظير صوت الرعد، فإنه إذا اشتد فربما مات سامعه، والصيحة الشديدة التي يصيحها رجل بصبي فيفزع منه فيموت، هذا آخر كلام الحليمي رحمه الله ولي فيه إشكال، وهو أن هذا يقتضي أن يكون النقر إنما يحصل عند صيحة الإصعاق، وذلك اليوم غير شديد على الكافرين، لأنهم يموتون في تلك الساعة إنما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء، ولذلك يقولون: يا ليتها كانت القاضية، أي يا ليتنا بقينا على الموتة الأولى، والقول الثاني: إنه النفخة الثانية، وذلك لأن الناقور هو الذي ينقر فيه، أي ينكت، فيجوز أنه إذا أريد أن ينفخ في المرة الثانية، نقر أولاً، فسمي ناقورًا لهذا المعنى، وأقول في هذا اللفظ بحث وهو أن الناقور فاعول من النقر، كالهاضوم ما يهضم به، والحاطوم ما يحطم به، فكان ينبغي أن يكون الناقور ما ينقر به لا ما ينقر فيه.

المسألة الثالثة: العامل في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ هو المعنى الذي دل عليه قوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩] والتقدير إذا نقر في الناقور عسر الأمر وصعب.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله فذلك إشارة إلى اليوم الذي ينقر فيه في الناقور، والتقدير فذلك اليوم يوم عسير، وأما ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ففيه وجوه: الأول: أن يكون تفسيرًا لقوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ لأن قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النقر، وأن يكون إشارة إلى اليوم المضاف إلى النقر، فكأنه قال: فذلك أعني اليوم المضاف إلى النقر يوم عسير فيكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في محل النصب، والثاني: أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مرفوع المحل بدلاً من ذلك ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير فعلى هذا يومئذ في محل الرفع لكونه بدلاً من ذلك إلا أنه لما أضيف اليوم إلى إذ وهو غير متمكن بني على الفتح، الثالث: أن تقدير الآية فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير على أن يكون العامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو النقر.

المسألة الثانية: عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناقشون في الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقًا وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لأنهم لا يناقشون في الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين، ويحتمل أن يكون إنما وصفه الله تعالى بالعسر لأنه في نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روى أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد، فعلى القول الأول لا يحسن الوقف على قوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فإن المعنى أنه

على الكافرين عسير وغير يسير، وعلى القول الثاني يحسن الوقف لأن المعنى أنه في نفسه عسير على الكل ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة وهو أنه عليه غير يسير، فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وعسير مغن عنه؟ الجواب: أما على القول الأول: فالتكرير للتأكيد كما تقول أنا لك محب غير مبغض وولي غير عدو، وأما على القول الثاني: فقوله: ﴿عَسِيرٌ﴾ يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين وقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر لأن العسر قد يكون عسرًا، قليلاً يسيرًا، وقد يكون عسرًا كثيرًا فأثبت أصل العسر للكل وأثبت العسر بصفة الكثرة والقوة للكافرين.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: لما قال: إنه غير يسير على الكافرين، كان يسيرًا على المؤمنين فبعض من قال بدليل الخطاب قال لولا أن دليل الخطاب حجة وإلا لما فهم ابن عباس من كونه غير يسير على الكافر كونه يسيرًا على المؤمن.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾: أجمعوا على أن المراد هاهنا الوليد بن المغيرة، وفي نصب قوله ﴿وَحِيدًا﴾ وجوه الأول: أنه نصب على الحال، ثم يحتمل أن يكون حالاً من الخالق وأن يكون حالاً من المخلوق، وكونه حالاً من الخالق على وجهين الأول: ذرني وحدي معه فإني كاف في الانتقام منه، والثاني: خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، وأما كونه حالاً من المخلوق، فعلى معنى أني خلقته حال ما كان وحيدًا فريدًا لا مال له ولا ولد كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام: ٩٤]، القول الثاني: أنه نصب على الذم، وذلك لأن الآية نزلت في الوليد وكان يلقب بالوحيد، وكان يقول أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي نظير. فالمراد ذرني ومن خلقت أعني وحيدًا. وطعن كثير من المتأخرين في هذا الوجه، وقالوا: لا يجوز أن يصدقه الله في دعواه أنه وحيد لا نظير له، وهذا السؤال ذكره الواحدي وصاحب الكشاف، وهو ضعيف من وجوه: الأول: أنا لما جعلنا الوحيد اسم علم فقد زال السؤال لأن اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الإشارة، الثاني: لم لا يجوز أن يحمل على كونه وحيدًا في ظنه واعتقاده؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩]، الثالث: أن لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف، بل هو كان يدعي لنفسه أنه وحيد في هذه الأمور. فيمكن أن يقال: أنت وحيد لكن في الكفر والخبث والدناءة، القول الثالث: أن وحيدًا مفعول ثان لخلق، قال أبو سعيد الضرير: الوحيد الذي لا أب له، وهو إشارة إلى الطعن في نسبه كما في قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ في تفسير المال الممدود وجوه: الأول: المال الذي يكون له مدد يأتي من الجزء بعد الجزء على الدوام، فلذلك فسره عمر بن الخطاب بغلة شهر شهر، وثانيها: أنه المال الذي يمد بالزيادة، كالضرع والزرع وأنواع التجارات، وثالثها: أنه

المال الذي امتد مكانه، قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة إلى الطائف (مِنَ) الإبل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة بالطائف والأشجار والأنهار والنقد الكثير، وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا، فالممدود هنا كما في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] أي لا ينقطع ورابعها: أنه المال الكثير وذلك لأن المال الكثير إذا عدد فإنه يمتد تعديده، ومن المفسرين من قدر المال الممدود فقال بعضهم: ألف دينار، وقال آخرون: أربعة آلاف وقال آخرون: ألف ألف، وهذه التحكمات مما لا يميل إليها الطبع السليم.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾: **فيه وجهان:**

الأول: بنين حضورًا معه بمكة لا يفارقونه ألبتة لأنهم كانوا أغنياء فما كانوا محتاجين إلى مفارقته لطلب كسب ومعيشة وكان هو مستأنسًا بهم طيب القلب بسبب حضورهم.

والثاني: يجوز أن يكون المراد من كونهم شهودًا أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل، وعن مجاهد: كانوا عشرة، وقيل: سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام.

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ولهذا المعنى يدعى بهذا فيقال أدام الله تمهيده أي بسطته وتصرفه في الأمور، ومن المفسرين من جعل هذا التمهيد البسطة في العيش وطول العمر، وكان الوليد من أكابر قريش ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ لفظ ثم هاهنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] فمعنى (ثم) هاهنا للإنكار والتعجب ثم تلك الزيادة التي كان يطمع فيها هل هي زيادة في الدنيا أو في الآخرة؟ فيه قولان الأول: قال الكلبي ومقاتل: ثم يرجو أن أزيد في ماله وولده وقد كفر بي، الثاني: أن تلك الزيادة في الآخرة، قيل: إنه كان يقول إن كان محمد صادقًا فما خلقت الجنة إلا لي، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ وهو ردع له عن ذلك الطمع الفاسد قال المفسرون ولم يزل الوليد في نقصان بعد قوله: ﴿كَلَّآ﴾ حتى افتقر ومات فقيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ إنه تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال: لم لا يزاد؟ فقيل: لأنه كان لآياتنا عنيدًا، والعنيد في معنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير، وفي

هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته: أحدها: أنه كان معاندًا في جميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة وصحة النبوة وصحة البعث، وكان هو منازعًا في الكل منكرًا للكل، وثانيها: أن كفره كان كفر عناد كان يعرف هذه الأشياء بقلبه إلا أنه كان ينكرها بلسانه وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر، وثالثها: أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة، ورابعها: أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته، فإن تقديره: إنه كان لآياتنا عنيدًا لا لآيات غيرنا، فتخصيصه هذا العناد بآيات الله مع كونه تاركًا للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران.

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه صعودًا، وفي الصعود قولان: الأول: أنه مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق مثل قوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] وصعود من قولهم: عقبة صعود وكدود: شاقة المصعد، والثاني: أن صعودًا اسم لعقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت، وعنه عليه الصلاة والسلام: «الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يُصَعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا» (١).

ثم إنه تعالى حكى كيفية عناده فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يقال: فكر في الأمر وتفكر إذا نظر فيه وتدبر، ثم لما تفكر رتب في قلبه كلامًا وهيأه وهو المراد من قوله: ﴿وَقَدَّرَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وهذا إنما يذكر عند التعجب والاستعظام، ومثله قولهم: قتله الله ما أشجعه، وأخزاه الله ما أشعره، ومعناه. أنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك، وإذا عرفت ذلك فنقول إنه يحتمل هاهنا وجهين أحدهما: أنه تعجيب من قوة خاطره، يعني أنه لا يمكن القدح في أمر محمد عليه السلام بشبهة أعظم ولا أقوى مما ذكره هذا القائل، والثاني: الثناء عليه على طريقة الاستهزاء، يعني أن هذا الذي ذكره في غاية الركاكة والسقوط.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ والمقصود من كلمة، ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا الدلالة على أن الدعاء عليه في الكرة الثانية أبلغ من الأولى.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) رقم (١١٧٣٠)، وهناد في الزهد (١/ ١٨٤) رقم (٢٨١)، وعبد بن حميد (ص ٢٨٩) رقم (٩٢٤)، والترمذي (٤/ ٧٠٣) رقم (٢٥٧٦) وقال: قال: هذا حديث غريب إنما نعرفه مرفوعًا من حديث ابن لهيعة وقد روي شيء من هذا عن عطية عن أبي سعيد قوله موقوف قال الشيخ الألباني: ضعيف كذا في ضعيف الترمذي وأبو يعلى (٢/ ٥٢٣) رقم (١٣٨٣)، والحاكم (٢/ ٥٥١) رقم (٣٨٧٣). وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٢٣) جميعًا من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري. . . به.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ والمعنى أنه أولاً: فكر، وثانيًا: قدر، وثالثًا: نظر في ذلك المقدر، فالنظر السابق للاستخراج، والنظر اللاحق للتقدير، وهذا هو الاحتياط. فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾

ثم إنه تعالى وصف بعد ذلك أحوال وجهه: فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ يدل على أنه كان عارفًا في قلبه صدق محمد ﷺ إلا أنه كان يكفر به عنادًا، ويدل عليه وجوه: الأول: أنه بعد أن تفكر وتأمل قدر في نفسه كلامًا عزم علي أنه يظهره فظهرت العبوسة في وجهه ولو كان معتقدًا صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة، إلا أنه لشدة عناده ما كان يجد شبهة أجود من تلك الشبهة، فلهذا السبب ظهرت العبوسة في وجهه، الثاني: ما روي أن الوليد مر برسول الله ﷺ وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت[١]، وهذا يدل على أنه كان يعلم أنه مقبول الدعاء صادق اللهجة، ولما رجع الوليد قال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، فقالت قريش: صبأ الوليد ولو صبأ لتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، ثم دخل عليه محزونًا فقال مالك يا ابن الأخ؟ فقال: إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه وهذه قريش تجمع لك مالاً ليكون ذلك عوضًا مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد، فقال: والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالاً، ولكني تفكرت في أمره كثيرًا فلم أجد شيئًا يليق به إلا أنه ساحر، فأقول استعظامه للقرآن واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والإنس يدل على أنه كان في ادعاء السحر معاندًا لأن السحر يتعلق بالجن، والثالث: أنه كان يعلم أن أمر السحر مبني على الكفر بالله، والأفعال المنكرة، وكان من الظاهر أن محمدًا لا يدعو إلا إلى الله، فكيف يليق به السحر؟ فثبت بمجموع هذه الوجوه أنه إنما ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ لأنه كان يعلم أن الذي يقوله كذب وبهتان.

المسألة الثانية: قال الليث: عبس يعبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل: بسر، فإن غضب مع ذلك قيل: بسل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أدبر عن سائر الناس إلى أهله واستكبر أي تعظم عن الإيمان فقال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وإنما ذكره بفاء التعقيب ليعلم أنه لما ولى واستكبر ذكر هذه الشبهة، وفي قوله: ﴿يُؤْثَرُ﴾ وجهان: الأول: أنه من قولهم أَثَرْتُ الحديث آثره

---

(١) لم أجده.

أثرًا إذا حدثت به عن قوم في آثارهم، أي بعدما ماتوا هذا هو الأصل، ثم صار بمعنى الرواية عمن كان، والثاني: يؤثر على جميع السحر، وعلى هذا يكون هو من الإيثار.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ثم قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ والمعنى أن هذا قول البشر، ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره، ولو كان الأمر كما قال لتمكنوا من معارضته إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عنادًا منه، لأنه روي عنه أنه لما سمع من رسول الله ﷺ (حم السَّجْدَة) وخرج من عند الرسول عليه السلام قال: سمعت من محمد كلامًا ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه[1]، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله هاهنا من أنه قول البشر، إنما ذكره على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد.

ثم قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ قال ابن عباس: ﴿سَقَرَ﴾ اسم للطبقة السادسة من جهنم، ولذلك لا ينصرف للتعريف والتأنيث.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ والغرض التهويل.

ثم قال: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ واختلفوا فمنهم من قال: هما لفظان مترادفان معناهما واحد، والغرض من التكرير التأكيد والمبالغة كما يقال: صدَّ عني وأعرض عني. ومنهم من قال: لا بد من الفرق، ثم ذكروا وجوهًا أحدها: أنها لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئًا فإذا أعيدوا خلقًا جديدًا فلا تذر أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبدًا، وهذا رواية عطاء عن ابن عباس وثانيها: لا تبقي أحدًا من المستحقين للعذاب إلا عذبتهم، ثم لا تذر من أبدان أولئك المعذبين شيئًا إلا أحرقته، وثالثها: لا تبقي من أبدان المعذبين شيئًا، ثم إن تلك النيران لا تذر من قوتها وشدتها شيئًا إلا وتستعمل تلك القوة والشدة في تعذيبهم.

ثم قال: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في اللواحة قولان: الأول: قال الليث: لاحه العطش ولوحه إذا غيره، فاللواحة هي المغيرة. قال الفراء: تسود البشرة بإحراقها، والقول الثاني: وهو قول الحسن والأصم: أن معنى اللواحة أنها تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام، وهو كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] ولواحة على هذا القول: من لاح الشيء يلوح إذا لمع نحو البرق،

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٥٠) حديث رقم (٣٨٧٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٥٦) حديث رقم (١٣٤) والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ١٤٣) حديث رقم (٥١٥) جميعًا من طريق أبي عبد الله محمد بن علي الصنعاني بمكة... به.

وطعن القائلون بهذا الوجه في الوجه الأول، وقالوا: إنه لا يجوز أن يصفها بتسويد البشرة مع قوله إنها: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

المسألة الثانية: قرئ: (لواحة) نصبًا على الاختصاص للتهويل.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى أنه يلي أمر تلك النار، ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكًا، وقيل: تسعة عشر صنفًا، وقيل: تسعة عشر صفًا. وحكى الواحدي عن المفسرين: أن خزنة النار تسعة عشر مالك، ومعه ثمانية عشر أعينهم كالبرق، وأنيابهم كالصياصي، وأشعارهم تمس أقدامهم، يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر، نزعت منهم الرأفة والرحمة، يأخذ أحدهم سبعين ألفًا في كفه ويرميهم حيث أراد من جهنم.

المسألة الثانية: ذكر أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهًا أحدها: وهو الوجه الذي تقوله أرباب الحكمة: أن سبب فساد النفس الإنسانية في قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية.

أما القوى الحيوانية فهي: الخمسة الظاهرة، والخمسة الباطنة، والشهوة والغضب، ومجموعهما اثنتا عشرة.

وأما القوى الطبيعة فهي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة، وهذه سبعة، فالمجموع تسعة عشر، فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسعة عشر، لا جرم كان عدد الزبانية هكذا، وثانيها: أن أبواب جهنم سبعة، فستة منها للكفار، وواحد للفساق، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة: ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة والمجموع ثمانية عشر، وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول، بل ليس إلا بسبب ترك العمل، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة فالمجموع تسعة عشر، وثالثها: أن الساعات أربعة وعشرون خمسة منها مشغولة بالصلوات الخمس فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة، فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر.

المسألة الثالثة: قراءة أبي جعفر ويزيد وطلحة بن سليمان (عَلَيهَا تِسْعَةَ عْشَر) على تقطيع

فاعلان، قال ابن جني في المحتسب: والسبب أن الاسمين كاسم واحد، فكثرت الحركات، فأسكن أول الثاني للتخفيف، وجعل ذلك أمارة القوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه، وقرأ أنس بن مالك (تِسْعَةَ أعشُر) قال أبو حاتم: هذه القراءة لا تعرف لها وجهًا، إلا أن يعني: تسعة أَعشُر جمع عَشِير مثل يَمين وأَيمُن، وعلى هذا يكون المجموع تسعين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: لقريش ثكلتكم أمهاتكم، قال ابن أبي كبشة: إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم! فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك، قال المسلمون ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين! فجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا يسوى بينهما، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين، والحداد: السجان الذي يحبس النار، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ واعلم أنه تعالى إنما جعلهم ملائكة لوجوه: أحدها: ليكونوا بخلاف جنس المعذبين، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة، ولذلك بعث الرسول المبعوث إلينا من جنسنا ليكون له رأفة ورحمة بنا، وثانيها: أنهم أبعد الخلق عن معصية الله تعالى وأقواهم على الطاعات الشاقة، وثالثها: أن قوتهم أعظم من قوة الجن والإنس، فإن قيل: ثبت في الأخبار أن الملائكة مخلوقون من النور، والمخلوق من النور كيف يطيق المكث في النار؟ قلنا: مدار القول في إثبات القيامة على كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، فكما أنه لا استبعاد في أن يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت، فكذا لا استبعاد في بقاء الملائكة هناك من غير ألم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: هذا العدد إنما صار سببًا لفتنة الكفار من وجهين: الأول: أن الكفار يستهزئون، يقولون: لِمَ لم يكونوا عشرين، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود؟ الثاني: أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله إلى قيام القيامة؟ وأما أهل الإيمان فلا يلتفتون إلى هذين السؤالين.

أما السؤال الأول: فلأن جملة العالم متناهية، فلا بد وأن يكون للجواهر الفردة التي منها تألفت جملة هذا العالم عدد معين، وعند ذلك يجيء ذلك السؤال، وهو أنه لم خصص ذلك العدد بالإيجاد، ولم يزد على ذلك العدد جوهر آخر ولم ينقص، وكذا القول في إيجاد العالم، فإنه لما كان العالم محدثًا والإله قديمًا، فقد تأخر العالم عن الصانع بتقدير مدة غير متناهية، فلِمَ لم يحدث

العالم قبل أن حدث بتقدير لحظة أو بعد أن وجد بتقدير لحظة؟ وكذا القول في تقدير كل واحد من المحدثات بزمانه المعين، وكل واحد من الأجسام بأجزائه المحدودة المعدودة، ولا جواب عن شيء من ذلك إلا بأنه قادر مختار، والمختار له أن يرجح الشيء على مثله من غير علة، وإذا كان هذا الجواب هو المعتمد في خلق جملة العالم، فكذا في تخصيص زبانية النار بهذا العدد.

وأما السؤال الثاني: فضعيف أيضًا، لأنه لا يبعد في قدرة الله تعالى أن يعطي هذا العدد من القدرة والقوة ما يصيرون به قادرين على تعذيب جملة الخلق، ومتمكنين من ذلك من غير خلل، وبالجملة فمدار هذين السؤالين على القدح في كمال قدرة الله، فأما من اعترف بكونه تعالى قادرًا على مالا نهاية له من المقدورات، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذه الاستبعادات بالكلية.

المسألة الثانية: احتج من قال: إنه تعالى قد يريد الإضلال بهذه الآية، قال لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أن المقصود الأصلي إنما هو فتنة الكافرين، أجابت المعتزلة عنه من وجوه أحدها: قال الجبائي: المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوي هؤلاء التسعة عشر على مالا يقوى عليه مائة ألف مَلَك أقوياء، وثانيها: قال الكعبي: المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه، وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به، وثالثها: أن المراد من الفتنة ما وقعوا فيه من الكفر بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة، والمعنى إلا فتنة على الذين كفروا ليكذبوا به، وليقولوا ما قالوا، وذلك عقوبة لهم على كفرهم، وحاصله راجع إلى ترك الألطاف والجواب: أنه لا نزاع في شيء مما ذكرتم، إلا أنا نقول: هل لإنزال هذه المتشابهات أثر في تقوية داعية الكفر، أم لا؟ فإذا لم يكن له أثر في تقوية داعية الكفر، كان إنزالها كسائر الأمور الأجنبية، فلم يكن للقول بأن إنزال هذه المتشابهات فتنة للذين كفروا وجه ألبتة، وإن كان له أثر في تقوية داعية الكفر، فقد حصل المقصود، لأنه إذا ترجحت داعية الفعل، صارت داعية الترك مرجوحة، والمرجوح يمتنع أن يؤثر، فالترك يكون ممتنع الوقوع، فيصير الفعل واجب الوقوع، والله أعلم، واعلم أنه تعالى بيَّن أن المقصود من إنزال هذا المتشابه أمور أربعة: أولها: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وثانيها: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، وثالثها: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، ورابعها: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ واعلم أن المقصود من تفسير هذه الآيات لا يتلخص إلا بسؤالات وجوابات:

السؤال الأول: لفظ القرآن يدل على أنه تعالى جعل افتتان الكفار بعدد الزبانية سببًا لهذه الأمور الأربعة، فما الوجه في ذلك؟ **والجواب:** أنه ما جعل افتتانهم بالعدد سببًا لهذه الأشياء وبيانه من وجهين: الأول: التقدير: وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا، وإلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، كما يقال: فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك، قالوا: والعاطفة قد تذكر في هذا

الموضع تارة. وقد تحذف أخرى، الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو أنه وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر إلا أنه وضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر كأنه عبر عن المؤثر باللفظ الدال على الأثر، تنبيهًا على أن هذا الأثر من لوازم ذلك المؤثر.

السؤال الثاني: ما وجه تأثير إنزال هذا المتشابه في استيقان أهل الكتاب؟ **الجواب:** من وجوه أحدها: أن هذا العدد لما كان موجودًا في كتابهم، ثم إنه عليه السلام أخبر على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم، فظهر أن ذلك إنما حصل بسبب الوحي من السماء فالذين آمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب يزدادون به إيمانًا، وثانيها: أن التوراة والإنجيل كانا محرفين، فأهل الكتاب كانوا يقرأون فيهما أن عدد الزبانية هو هذا القدر، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ قوي إيمانهم بذلك واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق، وثالثها: أن رسول الله ﷺ كان يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب، فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، لأنهم كانوا يستهزئون به في إثبات التوحيد والقدرة والعلم، مع أن تلك المسائل أوضح وأظهر فكيف في ذكر هذا العدد العجيب؟ ثم إن استهزاءهم برسول الله وشدة سخريتهم به ما منعه من إظهار هذا الحق، فعند هذا يعلم كل أحد أنه لو كان غرض محمد ﷺ طلب الدنيا والرياسة لاحترز عن ذكر هذا العدد العجيب، فلما ذكره مع علمه بأنهم لا بد وأن يستهزئوا به علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو تبليغ الوحي، وأنه ما كان يبالي في ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين.

السؤال الثالث: ما تأثير هذه الواقعة في ازدياد إيمان المؤمنين؟ **الجواب:** أن المكلف مالم يستحضر كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن جميع الحادثات منزهًا عن الكذب والخلف لا يمكنه أن ينقاد لهذه العدة ويعترف بحقيقتها، فإذا اشتغل باستحضار تلك الدلائل ثم جعل العلم الإجمالي بأنه صادق لا يكذب حكيم لا يجهل دافعًا للتعجب الحاصل في الطبع من هذا العدد العجيب فحينئذ يمكنه أن يؤمن بحقيقة هذا العدد، ولا شك أن المؤمن يصير عند اعتبار هذه المقامات أشد استحضارًا للدلائل وأكثر انقيادًا للدين، فالمراد بازدياد الإيمان هذا.

السؤال الرابع: حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية؟ **الجواب:** نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه.

السؤال الخامس: لما أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين فما الفائدة في قوله بعد ذلك: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؟ **الجواب:** أن المطلوب إذا كان غامضًا دقيق الحجة كثير الشبهة، فإذا اجتهد الإنسان فيه وحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق، فيعود الشك والشبهة، فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل عقيبه ألبتة شك ولا ريب.

السؤال السادس: جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إنهم الكافرون وذكر الحسين بن الفضل البجلي أن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية ليس بمعنى النفاق، **والجواب:** قول المفسرين حق وذلك لأنه كان في معلوم الله تعالى أن النفاق سيحدث فأخبر عما سيكون، وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة، لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر فيكون معجزًا، ويجوز أيضًا أن يراد بالمرض الشك لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب.

السؤال السابع: هب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا مقصودين من إنزال هذا المتشابه، فكيف صح أن يكون قول الكافرين والمنافقين مقصودًا؟ **الجواب:** أما على أصلنا فلا إشكال لأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وسيأتي مزيد تقرير لهذا في الآية الآتية، وأما عند المعتزلة فإن هذه الحالة لما وقعت أشبهت الغرض في كونه واقعًا، فأدخل عليه حرف اللام وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

السؤال الثامن: لم سموه مثلاً؟ **الجواب:** أنه لما كان هذا العدد عددًا عجيبًا ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلاً لشيء آخر وتنبيهًا على مقصود آخر، لا جرم سموه مثلاً.

السؤال التاسع: القوم كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله، فكيف قالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ **الجواب:** أما الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون فكانوا في الظاهر معترفين بأن القرآن من عند الله فلا جرم قالوا ذلك باللسان، وأما الكفار فقالوه على سبيل التهكم أو على سبيل الاستدلال بأن القرآن لو كان من عند الله لما قال مثل هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وجه الاستدلال بالآية للأصحاب ظاهر لأنه تعالى ذكر في أول الآية قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم ذكر في آخر الآية: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أما المعتزلة فقد ذكروا الوجوه المشهورة التي لهم: أحدها: أن المراد من الإضلال منع الألطاف وثانيها: أنه لما اهتدى قوم باختيارهم عند نزول هذه الآيات وضل قوم باختيارهم عند نزولها أشبه ذلك أن المؤثر في ذلك الاهتداء وذلك الإضلال هو هذه الآيات، وهو كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وكقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] وثالثها: أن المراد من قوله: ﴿يُضِلُّ﴾ ومن قوله: ﴿يَهْدِى﴾ حكم الله بكونه ضالاً وبكونه مهتديًا، ورابعها: أنه تعالى يضلهم يوم القيامة عن دار الثواب، وهذه الكلمات مع أجوبتها تقدمت في سورة البقرة في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه وجوه: أحدها: وهو الأولى أن القوم استقبلوا ذلك العدد، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فهب أن هؤلاء تسعة عشر إلا أن لكل

واحد منهم من الأعوان والجنود مالا يعلم عددهم إلا الله، وثانيها: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد حكمة لا يعلمها الخلق وهو جل جلاله يعلمها، وثالثها: أنه لا حاجة بالله سبحانه في تعذيب الكفار والفساق إلى هؤلاء الخزنة، فإنه هو الذي يعذبهم في الحقيقة، وهو الذي يخلق الآلام فيهم، ولو أنه تعالى قلب شعرة في عين ابن آدم أو سلط الألم على عرق واحد من عروق بدنه لكفاه ذلك بلاء ومحنة، فلا يلزم من تقليل عدد الخزنة قلة العذاب، فجنود الله غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ الضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى سقر، والمعنى وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر، والثاني: أنه عائد إلى هذه الآيات المشتملة على هذه المتشابهات، وهي ذكرى لجميع العالمين، وإن كان المنتفع بها ليس إلا أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ كَلَّا﴾ وفيه وجوه: أحدها: أنه إنكار بعد أن جعلها ذكرى، أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون، وثانيها: أنه ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيرًا، وثالثها: أنه ردع لقول أبي جهل وأصحابه: إنهم يقدرون على مقاومة خزنة النار، ورابعها: أنه ردع لهم عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وفيه قولان:

الأول: قال الفراء والزجاج: دَبَر وأَدْبر بمعنى واحد كقَبَل وأَقْبل ويدل على هذا قراءة من قرأ (إذا دَبَر)، وروى أن مجاهدًا سأل ابن عباس عن قوله: (دَبَر) فسكت حتى إذا أدبر الليل قال: يا مجاهد هذا حين دبر الليل، وروى أبو الضحى أن ابن عباس كان يعيب هذه القراءة ويقول: إنما يدبر ظهر البعير، قال الواحدي: والقراءتان عند أهل اللغة سواء على ما ذكرنا، وأنشد أبو علي:

وَأَبِى الَّذِي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمْعَهُمْ ... بِصِهَابِ هَامِدَةٍ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

القول الثاني: قال أبو عبيدة وابن قتيبة: دَبَر أي جاء بعد النهار، يقال: دَبَرني أي جاء خلفي ودَبَر الليل أي جاء بعد النهار، قال قطرب: فعلى هذا معنى إذا دَبَر إذا أقبل بعد مضي النهار.

قوله تعالى: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ ﴾

قال تعالى: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي أضاء، وفي الحديث: «أَسْفِرُوا بِالْفَجْرِ» ومنه قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨] أي مضيئة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا الكلام هو جواب القسم أو تعليل لكلام والقسم معترض للتوكيد.

المسألة الثانية: قال الواحدي: ألف إحدى مقطوع ولا تذهب في الوصل. وروي عن ابن كثير أنه قرأ إنها: (لَحْدَى الكُبَر) بحذف الهمزة كما يقال: ويلمه، وليس هذا الحذف بقياس والقياس التخفيف وهو أن يجعل بين بين.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): الكُبَر جمع الكُبْرى جعلت ألف التأنيث كتاء التأنيث فكما جمعت فُعْلة على فُعَل جمعت فُعْلى عليها ونظير ذلك السوافي جمع السافياء وهو التراب الذي سفته الريح، والقواصع في جمع القاصعاء كأنهما جمع فاعلة.

المسألة الرابعة: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ يعني أن سقر التي جرى ذكرها لإحدى الكبر والمراد من الكبر دركات جهنم، وهي سبعة: جهنم، ولظى، والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم والهاوية، أعاذنا الله منها.

قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ نذيرًا تمييز من إحدى على معنى أنها لإحدى الدواهي إنذارًا كما تقول هي إحدى النساء عفافًا، وقيل: هو حال، وفي قراءة أبي (نَذِيرٌ) بالرفع خبر أو بحذف المبتدأ.

ثم قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ : وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الآية وجهان: الأول: أن ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ في موضع الرفع بالابتداء ولمن شاء خبر مقدم عليه كقولك: لمن توضأ أن يصلي، ومعناه التقدم والتأخر مطلقان لمن شاءهما منكم، والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه، وهو في معنى قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الثاني: لمن شاء بدل من قوله للبشر، والتقدير: إنها نذير لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، نظيره ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ [آل عمران: ٩٧]

المسألة الثانية: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد متمكنًا من الفعل غير مجبور عليه وجوابه: أن هذه الآية دلت على أن فعل العبد معلق على مشيئته، لكن مشيئة العبد معلقة على مشيئة الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وحينئذ تصير هذه الآية حجة لنا عليهم، وذكر الأصحاب عن وجه الاستدلال بهذه الآية جوابين آخرين الأول: أن معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الثاني: أن هذه المشيئة لله تعالى على معنى لمن شاء الله منكم أن يتقدم أو يتأخر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾

قال صاحب (الكشاف): رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]

لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصيغة لقيل: رهين، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن، ومنه بيت الحماسة:

أَبَعْدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفِ كَوَاكِبِ رَهِينَةَ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلِ

كأنه قال: رهن رمس، والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقاب أنفسهم بسبب أعمالهم الحسنة، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق، ثم ذكروا وجوهًا في أن أصحاب اليمين من هم؟ أحدها: قال ابن عباس: هم المؤمنون، وثانيها: قال الكلبي: هم الذين قال (فِيهِمُ) الله تعالى: «هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي» وهم الذين كانوا على يمين آدم، وثالثها: قال مقاتل: هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار، ورابعها: قال علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمر: هم أطفال المسلمين، قال الفراء: وهو أشبه بالصواب لوجهين: الأول: لأن الولدان لم يكتسبوا إثمًا يرتهنون به، والثاني: أنه تعالى ذكر في وصفهم، فقال: ﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ وهذا إنما يليق بالولدان، لأنهم لم يعرفوا الذنوب، فسألوا ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ وخامسها: عن ابن عباس: هم الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي هم في جنات لا يكتنه وصفها.

ثم قال تعالى: ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وفيه وجهان الأول: أن تكون كلمة عن صلة زائدة، والتقدير: يتساءلون المجرمين فيقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ فإنه يقال سألته كذا، ويقال: سألته عن كذا، الثاني: أن يكون المعنى أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضًا عن أحوال المجرمين، فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان يجب أن يقولوا: ما سلكهم في سقر؟ قلنا: أجاب صاحب (الكشاف) عنه فقال: المراد من هذا أن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، فيقولون قلنا لهم: ما سلككم في سقر وفيه وجه آخر: وهو أن يكون المراد أن أصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين أين هم؟ فلما رأوهم قالوا لهم: ما سلككم فى سقر والإضمارات كثيرة في القرآن.

قوله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾

المقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل، والمعنى ما حبسكم في هذه الدركة من النار؟ فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعة: أولها: ﴿ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ وثانيها: لم نك نطعم المسكين، وهذان يجب أن يكونا محمولين على الصلاة الواجبة، والزكاة الواجبة لأن ما ليس

بواجب، لا يجوز أن يعذبوا على تركه، وثالثها: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ والمراد منه الأباطيل ورابعها: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بيوم القيامة حتى أتانا اليقين، أي الموت قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] والمعنى أنا بقينا على إنكار القيامة إلى وقت الموت، وظاهر اللفظ يدل على أن كل أحد من أولئك الأقوام كان موصوفًا بهذه الخصال الأربعة، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار يعذبون بترك فروع الشرائع، والاستقصاء فيه قد ذكرناه في (المحصول من أصول الفقه)، فإن قيل: لم أخر التكذيب، وهو أفحش تلك الخصال الأربعة، قلنا أريد أنهم بعد اتصافهم بتلك الأمور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين، والغرض تعظيم هذا الذنب، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ واحتج أصحابنا على ثبوت الشفاعة للفساق بمفهوم هذه الآية، وقالوا: إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي عن الذكر وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ، ومعرضين نصب على الحال كقولهم مالك قائمًا.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بحمر نافرة فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

قال ابن عباس: يريد الحمر الوحشية، ومستنفرة أي نافرة. يقال: نفر واستنفر مثل سخر، واستسخر، وعجب واستعجب، وقرئ بالفتح، وهي المنفرة المحمولة على النفار، قال أبو علي الفارسي: الكسر في مستنفرة أولى ألا ترى أنه قال: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ وهذا يدل على أنها هي استنفرت، ويدل على صحة ما قال أبو علي أن محمد بن سلام. قال: سألت أبا سوار الغنوي، وكان أعرابيًا فصيحًا، فقلت: كأنهم حمر ماذا؟ فقال: مستنفرة طردها قسورة، قلت: إنما هو فرت من قسورة، قال أفرت؟ قلت: نعم، قال فَمُسْتَنْفِرَة إذًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَرَّتْ﴾ يعني الحمر ﴿مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ . وذكروا في القسورة وجوهًا: أحدها: أنها الأسد يقال: ليوث قساور، وهي فَعْولة من القسر وهو القهر والغلبة سمي بذلك لأنه يقهر السباع، قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت كذلك هؤلاء المشركين إذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد، ثم قال ابن عباس: القسورة، هي الأسد بلسان الحبشة، وخالف عكرمة فقال: الأسد بلسان الحبشة، عنبسة، وثانيها: القسورة، جماعة الرماة الذين يتصيدونها، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه، وثالثها: القسورة: ركز الناس وأصواتهم ورابعها: أنها ظلمة الليل. قال صاحب (الكشاف): وفي

تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش، وإطرادها في العدو إذا خافت من شيء.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لا نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك، ونظيره ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧] وقيل: إن كان محمد صادقًا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة من النار، وقيل: كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوبًا على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك، وهذا من الصحف المنشرة بمعزل، إلا أن يراد بالصحف المنشرة، الكتابات الظاهرة المكشوفة، وقرأ سعيد بن جبير (صُحُفًا مُنْشَرَةً) بتخفيفهما على أن أَنْشَر الصحف ونَشَّرها واحد، كأَنْزله ونزَّله.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع لهم عن تلك الإرادة، وزجر عن اقتراح الآيات.

ثم قال تعالى: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التأمل، فإنه لما حصلت المعجزات الكثيرة، كفت في الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة يكون من باب التعنت.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني تذكرة بليغة كافية ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي جعله نصب عينه، فإن نفع ذلك راجع إليه، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وذكَّره للتذكرة في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] وإنما ذكرت لأنها في معنى الذكر أو القرآن.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. قالت المعتزلة: يعني إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه والجواب: أنه تعالى نفى الذكر مطلقًا، واستثنى عنه حال المشيئة المطلقة، فيلزم أنه متى حصلت المشيئة أن يحصل الذكر فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه لم تحصل المشيئة، وتخصيص المشيئة بالمشيئة القهرية ترك للظاهر، وقرئ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ وتذكرون بالياء والتاء مخففًا ومشددًا.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا وحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا، والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة المُدَّثِّر

مكِّيَّةٌ في قول الجميع. وهي ستٌّ وخمسون آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: ياذا الذي قد تَدَثَّرَ بثيابه، أي: تغشَّى بها ونام، وأصلهُ: المتدثر، فأُدغمت التاء في الدَّال لتجانُسهما[2]. وقرأ أُبيّ: «الْمُتدثِّر»على الأصل[3].

ونزل[4] معظمُ هذه السورة في الوليد بن المغيرة. وفي صحيح مسلم[5] عن جابر ابن عبدالله ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ كان يُحدِّث ـ قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدّث عن فَترة الوحي؛ قال في حديثه: «فبينا[6] أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراءٍ جالساً على كرسيٍّ بين السماء والأرض». قال رسول الله ﷺ: «فجُئِثْتُ[7] منه فَرَقاً، فرجعتُ فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فدثّروني، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٢، وزاد المسير ٨/ ٣٩٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس٥/ ٦٥ ، وتفسير الرازي٣٠/ ١٨٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٢ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): وقال، وفي(م): وقال مقاتل، والمثبت من (خ)

(٥) برقم (١٦١): (٢٥٥)، وهو عند البخاري (٤)، (٤٩٥٤) .

(٦) في(م): فبينما.

(٧) أي: ذعرت وخفت. النهاية (جأث).

. ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ـ في روايةٍ: قبل أنْ تُفرض الصلاة[١] ـ وهي الأوثان. قال: «ثم تتابع الوحي». خرجه الترمذيُّ أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[٢].

قال مسلم: وحدّثنا زهيرُ بن حرب قال: حدَّثنا الوليدُ بن مسلم قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: سمعتُ يحيى يقول: سألتُ أبا سلمة: أيُّ القرآن أُنزِل قبلُ؟ قال: «ياأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ». فقلتُ: أو«اقرأ». فقال: سألتُ جابرَ بن عبدالله: أيُّ القرآن أُنزِل قبلُ؟ قال: «يا أَيُّهَا الْمُدثِّرُ» فقلتُ: أو«اقرأ»؟ فقال جابر: أُحَدِّثكم ما حَدَّثنا رسولُ الله ﷺ، قال: «جاورتُ بِحِراءٍ شهراً، فلما قضيتُ جواري نَزَلْتُ، فاستبطنتُ بطن الوادي، فنوديتُ، فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، فلم أَرَ أحداً، ثمَّ نُوديتُ، فنظرتُ، فلم أرَ أحداً، ثمَّ نُوديتُ، فرفعتُ رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء ـ يعني جبريل ﷺ ـ فأخذتني رَجْفة شديدةٌ، فأتيتُ خديجةَ فقلتُ: دثِّروني، فدثروني، فَصَبُّو عليَّ ماءً، فأنزلَ الله عزَّوجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٣] خرَّجه البخاريُّ، وقال فيه: «فأتيتُ خديجةَ فقلتُ: دثِّروني، وَصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فدثَّروني وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[٤].

ابن العربيّ: وقد قال بعض المفسرين: إنَّه جرى على النبيّ ﷺ من عُقْبة [بن ربيعة] أمرٌ، فرجعَ إلى منزله مغموماً، فقَلِق واضطجع، فنزلت: «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ». وهذا باطل[٥].

(١) هي في صحيح مسلم (١٦١): (٢٥٦)، وصحيح البخاري(٤٩٢٥)، ومسند أحمد (١٥٠٣٥).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٢٥).

(٣) صحيح مسلم (١٦١): (٢٥٧)

(٤) صحيح البخاري(٤٩٢٢)، وهو عند أحمد (١٤٢٨٧) .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي٤/ ١٨٧٣ . وما سلف بين حاصرتين منه.

وقال القشيريُّ أبو نصر: وقيل: بلغَه قولُ كفار مكّة: أنت ساحر. فوجَدَ من ذلك غمًّا وحُمَّ، فتدثَّر بثيابه، فقال الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: لاتفكّر في قولهم، وبلِّغهم الرسالة.

وقيل: اجتمع أبو لهب، وأبو سفيان، والوليدُ بن المغيرة، والنَّضْر بن الحارث، وأميَّةُ بن خَلَف، والعاص بنُ وائل، ومُطعِم بن عديّ، وقالوا: قد اجتمعت وفودُ العرب في أيَّام الحجّ، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد اختلفتُم في الإخبار عنه، فمِنْ قائلٍ يقول: مجنون، وآخرَ يقول: كاهن، وآخر يقول: شاعر[(١)]، وتَعلمُ العرب أنَّ هذا كلَّه لايجتمعُ في رجلٍ واحد، فسمُّوا محمداً باسمٍ واحدٍ تجتمعون[(٢)] عليه، وتُسمِّيه العربُ به، فقام منهم رجلٌ فقال: شاعر، فقال الوليد: سمعتُ كلامَ ابن الأبرص، وأميةَ بن أبي الصَّلْت، وما يشبهُ كلامُ محمدٍ كلامَ واحدٍ منهما، فقالوا: كاهن. فقال: الكاهنُ يَصدُق ويكذب، وما كَذَب محمدٌ قطّ. فقام آخر فقال: مجنون، فقال الوليد: الجنون[(٣)] يَخنُق الناسَ، وما خُنِقَ محمدٌ قطّ. وانصرفَ الوليدُ إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليدُ بن المغيرة، فدخلَ عليه أبو جهل وقال: مالكَ يا أبا عبد شمس! هذه قريشٌ تجمعُ لك شيئاً يعطونكَه، زعموا أنَّك قد احتجتَ وصبأت. فقال الوليد: مالي إلى ذلك حاجةٌ، ولكني فكَّرتُ في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرِّقُ بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ: إنَّه ساحر. فشاعَ هذا في الناس وصاحوا يقولون: إنَّ محمداً ساحرٌ. ورجعَ رسولُ الله ﷺ إلى بيته محزوناً، فتدثَّر بقطيفة، ونزلت: «يا أَيُّهَا الْمُدثِّرُ»[(٤)] .

وقال عِكرمة: معنى «يَأَيُّهَا الْمُدثِّرُ» أي: المدَّثِّر بالنبوة وأثقالها[(٥)]. ابن

(١) بعدها في (ظ): وآخر يقول ساحر.
(٢) في النسخ عدا (خ): يجتمعون.
(٣) في (م): المجنون.
(٤) ذكر هذه الرواية بنحوها الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٩١ .
(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٣/ ٤٠٤ .

العربيّ[١]: وهذا مجازٌ بعيد؛ لأنَّه لم يكن تَنَبَّأَ بعد، على[٢] أنها أوّل القرآن، [و] لم يكن تمكَّن منها بعد إنْ كانت ثاني مانزل.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾: ملاطفةٌ في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذْ ناداه بحاله، وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللِّين والملاطفةَ من ربِّه كما تقدَّم في سورة المزمل[٣]. ومثلُه قولُ النبيِّ ﷺ لعليٍّ إذْ نام في المسجد: ـ «قم أبا تراب» ـ وكان خرجَ مغاضِباً لفاطمة رضي الله عنها، فسقطَ رداؤه، وأصابه ترابه؛ خرَّجه مسلم[٤]. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفةَ ليلة الخندق: ـ «قُمْ يانَوْمان» ـ وقد تقدَّم[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: خوِّف أهلَ مكَّة، وحذِّرهم العذابَ إنْ لم يُسلِموا. وقيل: الإنذارُ هنا إعلامُهم بنبوَّته؛ لأنَّه مقدمةُ الرسالة. وقيل: هو دعاؤُهم إلى التوحيد؛ لأنَّه المقصود بها[٦].

وقال الفرَّاء[٧]: قم فصلِّ، وأْمُرْ بالصلاة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: سيِّدَكَ ومالكَكَ ومصلحَ أمرِك فعظِّم، وَصِفْهُ بأنَّه أكبرُ من أنْ يكونَ له صاحبةٌ أو ولد.

وفي حديث أنَّهم قالوا: بِم تُفتتح الصَّلاة؟ فنزلت: «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»[٨]. أي: صِفْهُ بأنَّه أكبر.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٣ .

(٢) في النسخ: وعلى. والمثبت من أحكام القرآن، وما سيأتي بين حاصرتين منه .

(٣) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٤) برقم(٢٤٠٩)، وأخرجه أيضاً البخاري(٤٤١). وسلف ص٣١٦ من هذا الجزء .

(٥) ١٧/ ٨٢ و ص٣١٦ من هذا الجزء. والكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٣ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٣٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٢٠٠ .

(٨) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز٥/ ٣٩٢ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨١ عن أبي هريرة ﷺ، ونسبه لابن مردويه، ولم نقف على إسناده.

قال ابن العربيّ: وهذا القولُ وإنْ كان يقتضي بعمومه تكبيرَ الصلاة، فإنّه مرادٌ فيه تكبير التقديس[١] والتنزيه؛ بخلع[٢] الأنداد والأصنام دونه، ولاتتخذ وليًّا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلاً إلّا له، ولانعمةً إلّا منه.

وقد روي أنَّ أبا سفيان قال يومَ أُحُد: أُعْلُ هُبَل؛ فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ»[٣]. وقد صار هذا اللفظُ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلِّها أذاناً وصلاةً وذكراً بقوله: «الله أكبر»، وحُمِل عليه لفظُ النبيّ ﷺ الواردُ على الإطلاق في مواردها[٤]، منها قوله: «تحريمُها التكبير، وتحليلُها التسليم»[٥]، والشرعُ يقتضي بعرفه ما يَقْتضي بعمومه، ومن موارده أوقاتُ الإهلال بالذبائح لله تخليصاً له من الشِّرك، وإعلاناً[٦] باسمه في النُّسُك، وإفراداً لِمَا شرع[٧] لأمره بالسَّفْك[٨].

قلت: قد تقدَّم في أوّل سورة البقرة[٩] أنَّ هذا اللفظَ: ـ «اللهُ أكبر» ـ هو المتعبَّدُ به في الصلاة، المنقولُ عن النبيِّ ﷺ.

وفي التفسير: أنَّه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قام رسولُ الله ﷺ وقال: «اللهُ أكبر»، فكبَّرت خديجة، وعلمتْ أنَّه الوحي من الله تعالى؛ ذكره القشيريّ[١٠].

---

(١) في (م)، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٤ : التكبير والتقديس، والمثبت من النسخ الخطية وهو موافق لنسخة من أحكام القرآن كما ذُكر في حواشيه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): لخلع، والمثبت موافق لأحكام القرآن.

(٣) قطعة من حديث البراء بن عازب ﷺ؛ أخرجه أحمد (١٨٥٩٣) والبخاري (٤٠٤٣)، وسلف ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) في (م): موارد.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٠٦)، وأبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥) عن علي بن أبي طالب ﷺ، وسلف ١/ ٢٦٩.

(٦) في (د): وإعلاماً.

(٧) بعدها في (م) و(ي): منه.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٤ .

(٩) ١/ ٢٦٩ .

(١٠) وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٠ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٩١ .

الخامسة: الفاء في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء، كما دخلت في «فَأَنْذِرْ» أي: قم فأنذر، وقم فكبِّر ربَّك؛ قاله الزَّجَّاج[١]. وقال ابن جني: هو كقولك زيداً فاضربْ، أي: زيداً اضربْ، فالفاء زائدة[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فيه ثمانية أقاويل:

أحدها: أنَّ المرادَ بالثياب العمل. الثاني: القلب. الثالث: النفس. الرابع: الجسم. الخامس: الأهل. السادس: الخُلُق. السابع: الدين. الثامن: الثيابُ الملبوسات على الظاهر.

فمن ذهب إلى القول الأوّل قال: تأويل الآية: وعملَك فأصلح؛ قاله مجاهد وابن زيد[٣].

وروى منصورٌ عن أبي رَزِين قال: يقول: وعملَك فأصلح؛ قال: وإذا كان الرجلُ خبيثَ العمل؛ قالوا: إنَّ فلاناً خبيثُ الثياب، وإذا كان حسنَ العمل؛ قالوا: إنَّ فلاناً طاهرُ الثياب[٤]؛ ونحوه عن السُّديّ[٥].

ومنه قول الشاعر:

لا هُمَّ إنَّ عامرَ بنَ جَهْمِ ... أَوْذَمَ حَجّاً في ثِيابٍ دُسْمِ[٦]

ومنه ما رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يُحشَرُ المرءُ في ثوبيه اللَّذين ماتَ فيهما[٧]».

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٥ .

(٢) ينظر سرُّ صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٢٦٠ .

(٣) أخرج قول مجاهد الطبري ٢٣/ ٦٣ .

(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٠٩ .

(٥) ذكره الواحديُّ في الوسيط ٤/ ٤١٣ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٨٠ .

(٦) ذكره ابن قتيبة في كتاب المعاني الكبير ١/ ٤٨١ وابن منظور في اللسان (دسم) دون نسبة، وقال: يعني أنه حجَّ، وهو متدنّسٌ بالذنوب، وأوذم الحج: أوجبه، وتدسيم الشيء: جعل الدسم عليه، وثياب دُسْمٌ: وسخة.

(٧) في (م): عليهما.

يعني عمله الصالح والطالح؛ ذكره الماورديّ[١]. ومن ذهب إلى القول الثاني قال: إنَّ تأويلَ الآية: وقلبَكَ فطهِّر؛ قاله ابنُ عباس وسعيد بن جُبير[٢]؛ دليله قول امرئ القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[٣]

أي قلبي من قلبك. قال الماوردي[٤]: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما: معناه: وقلبَك فطهِّر مِن الإثم والمعاصي؛ قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني: وقلبَك فطهِّر من الغدر، أي: لا تغدر فتكونَ دنس الثياب. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، واستشهدَ بقول غيلانَ بن سلمة الثقفيّ:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجِرٍ لبِستُ ولا من غَدْرَةٍ أتَقنَّعُ[٥]

ومن ذهب إلى القول الثالث قال: تأويل الآية: ونفسَك فطهِّر، أي: من الذنوب. والعربُ تَكني عن النفس بالثياب؛ قاله ابن عباس[٦]. ومنه قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الطَّويلِ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنا بمُحَرَّمِ[٧]

وقال امرؤ القيس:

فَسُلِّي ثيابِي من ثيابِك تَنْسُلِ[٨]

وقال:

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٣٦، وأخرج نحوه أبو داود (٣١١٤)، وابن حبان في صحيحه (٧٣١٦) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها».

(٢) قول ابن عباس في النكت والعيون ٦/ ١٣٦، وقول سعيد بن جبير في زاد المسير ٨/ ٤٠١.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٣، وسلف ٣/ ٣٨٦

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٣٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٠٥، والبيت نسبه صاحب الأغاني ١٦/ ٢٣٥-٢٣٦ لبرذع بن عديّ في قصيدة له. وسلف ١/ ٤٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٠٦ بنحوه.

(٧) ديوان عنترة ص٢٦، وفيه: الأصم. بدل: الطويل.

(٨) من قوله: وقال امرؤ القيس إلى قوله: تنسل. ساقط من (ظ). وسلف قريباً.

ثِيـابُ بَنـي عـوفٍ طَـهـارَى نَـقِـيَّـةٌ　　　وأَوْجُـهُـهُـمْ عند الـمشاهـد[١] غُرَّانُ[٢]

أي: أنفس بني عوف.

ومن ذهب إلى القول الرابع قال: تأويلُ الآية: وجسمَك فطهِّر؛ أي: عن المعاصي الظَّاهرة. وممَّا جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قولُ ليلى وذَكَرت إبلًا:

رمـوهـا بـأَثْـيـابٍ خِـفـافٍ فـلا تَـرَى　　　لـهـا شَـبَـهًـا إِلَّا الـنَّـعـامَ الـمـنُـفَّـرا

أي: ركبوها فرمَوها بأنفسهم[٣]

ومن ذهب إلى القول الخامس قال: تأويلُ الآية: وأهلكَ فطهِّرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب؛ والعربُ تُسمِّي الأهلَ ثوباً ولباساً وإزاراً، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

الماورديُّ[٤]: ولهم في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: معناهُ: ونساءك فطهِّر، باختيار المؤمنات العفائف.

الثاني: الاستمتاعُ بهنَّ في القُبُل دون الدُّبر، في الطهر لا في الحيض. حكاه[٥] ابن بحر.

ومن ذهب إلى القول السادس قال: تأويل الآية: وخُلُقَك فحسِّن. قاله الحسنُ والقُرَظيّ[٦]؛ لأنَّ خُلُق الإنسان مشتملٌ على أحواله، اشتمالَ ثيابه على نفسه. وقال الشاعر:

---

(١) في (م): بيض المسافر.

(٢) ديون امرئ القيس ص٨٣، وسلف الشطر الأول منه ١٥/ ٣٤٢.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص١٠٧، ولفظ البيت فيه: رموها بأثواب. بدل: رموها بأثياب.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٣٧.

(٥) في النكت والعيون: حكاهما.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٣

ويَــحْـيَــى لا يُــلامُ بِــســوءِ خُـلْــقٍ ويَــحْــيــى طَــاهِــرُ الأثــوابِ حُــرُّ

أي: حسن الأخلاق.

ومن ذهب إلى القول السابع قال: تأويلُ الآية: ودينَك فطهِّر.

وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ورأيتُ الناس وعليهم ثياب، منها مايبلغ الثُّدِيّ، ومنها ما دون ذلك، ورأيتُ عمر بن الخطاب وعليه إزار يجرُّه». قالوا: يا رسول الله، فما أَوَّلتَ ذلك؟ قال: «الدِّين»[١].

وروى ابنُ وهبٍ عن مالك أنّه قال: ما يعجبني أنْ أقرأ القرآن إلَّا في الصلاة والمساجد لا في الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، يريد مالك أنَّه كَنَى عن الدين بالثياب[٢]. وقد رَوى عبدُ الله بن نافع عن أبي بكر بنِ عبد العزيز بنِ عبد الله بن عمرَ بن الخطاب، عن مالك بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: لا تَلْبسها على غَدْرة، ومنه قول أبي كَبْشة[٣]:

ثِـيـابُ بـنـي عَـوْفٍ طَـهـارَى نَـقِـيَّـةٌ وَأَوْجُـهُـهُـمْ عـنـدَ الْـمَـشَـاهـدِ[٤] غُـرَّانُ

يعني بطهارة ثيابهم: سلامَتَهم من الدناءات، ويعني بغرة وجوههم: تنزيهَهم عن المحرَّمات، أو جمالهم في الخِلْقة، أو كليهما؛ قاله ابن العربي[٥].

وقال سفيانُ بن عيينة: لا تلبس ثيابَك على كذبٍ ولا جَوْرٍ، ولا غَدْرٍ، ولا إثمٍ[٦]، وقاله عِكرمة[٧]. ومنه قولُ الشاعر:

---

(١) صحيح البخاري (٢٣)، وصحيح مسلم (٢٣٩٠)، ومسند أحمد (١١٨١٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في النسخ: عن الثياب بالدين، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي٤/ ١٨٧٥ . والكلام منه.

(٣) سلف البيت منسوباً لامرئ القيس قريباً. ونسبه المصنف هنا لأبي كبشة تبعاً لابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٥ .

(٤) في (م) بيضُ المسافر، وفي أحكام القرآن: عند المشاعر. والمثبت من النسخ الخطية.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٥ .

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٩٥ .

(٧) أخرجه بنحوه الطبريُّ ٢٣/ ٤٠٥-٤٠٦ .

أَوْذَمَ حَجّاً في ثيابٍ دُسْمِ(١)

أي: قد دنَّسها بالمعاصي.

وقال النابغة:

رِقَاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ(٢)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال: إنَّ المرادَ بها الثيابُ الملبوسات، فلهم في تأويله أربعة أوجه:

أحدهما: معناه: وثيابَك فأَنْقِ؛ ومنه قول امرئ القيس:

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ(٣)

الثاني: وثيابَك فشمِّرْ وقصِّرْ، فإنَّ تقصيرَ الثياب أبعدُ من النجاسة، فإذا انجرَّت على الأرض لم يُؤمَن أنْ يصيبَها ما يُنجِّسها؛ قاله الزَّجّاج وطاوس(٤).

الثالث: «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» من النجاسة بالماء؛ قاله محمدُ بن سيرين وابن زيد والفقهاء.

الرابع: لا تلبس ثيابك إلَّا من كسبٍ حلال لتكون مطهرةً من الحرام(٥). وعن ابن عباس: لا تكن ثيابك التي تَلبس من مكسبٍ غير طاهر.

ابنُ العربي(٦) ـ وذكر بعض ما ذكرناه ـ: ليس بممتنعٍ أنْ تُحمَل الآيةُ على عموم

(١) سلف ص٣٥٩ من هذا الجزء.

(٢) ديوان النابغة ص١٢، قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٩٠: أراد أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم، إنما يخصفها من يمشي، والحُجْزة: الوسط. أراد أنهم يشدون أُزُرَهُم على عفَّة، والسباسب: يوم الشعانين. اهـ. وقال ابن الأثير في النهاية (نعل): العرب تمدح برقة النِّعال، وتجعلها من لباس الملوك.

(٣) ديون امرئ القيس ص٨٣، وسلف قريباً.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٥، وقول طاوس في النكت والعيون ٦/ ١٣٧.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٧.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٥.

المراد فيها بالحقيقة والمجاز، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الظاهرة[١]؛ فهي تتناولُ معنيين:

أحدُهما: تقصيرُ الأذيال؛ فإنَّها[٢] إذا أُرسلت تدنَّست، ولهذا قال عمرُ بن الخطاب ﷺ لغلامٍ من الأنصار ـ وقد رأى ذيلَه مُسترخياً ـ: ارفعْ إزارك، فإنَّه أتقى وأنقى وأبقى[٣].

وقد قال النبيُّ ﷺ: «إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفلَ من ذلك ففي النَّار»[٤]. فقد جعل النبيُّ ﷺ الغايةَ في لباس الإزار الكعبَ، وتوعَّد ما تحتَه بالنَّار، فما بال رجالٍ يُرسلون أذيالهم، ويُطيلون ثيابَهم، ثمَّ يتكلَّفون رفعها بأيديهم، وهذه حالةُ الكِبْر، وقائدةُ العُجْب، [وأشدُّ ما في الأمر أنَّهم يَعصُون ويحتجُّون، ويُلْحِقون أنفسَهم] بمن لم يجعل الله معه غيره، ولا أَلحق به سواه. قال النبيُّ ﷺ: «لا يَنْظر اللهُ إلى من جرَّ ثوبه خُيَلاء»[٥]، ولفظُ الصحيح: «من جرَّ إزارَه خُيَلاءَ، لم ينظر اللهُ إليه يومَ القيامة». قال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ أحدَ شِقَّيْ إزاري يسترخي إلَّا أنْ أتعاهدَ ذلك منه؟ قال رسول الله ﷺ: «لستَ ممن يصنعُه خُيَلاءَ»[٦]. فعمَّ رسول الله ﷺ بالنهي. واستثنى الصدِّيق، فأرادَ الأدنياءُ إلحاق أنفسهم بالرفعاء[٧]، و ليس ذلك لهم.

والمعنى الثاني: غسلُها من النجاسة، وهو ظاهرٌ منها، صحيحٌ فيها[٨].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): الطاهرة.

(٢) في (د) و(م): لأنها.

(٣) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة في المصنف ٨/ ٣٨٧-٣٨٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١١٠١٠)، (١١٠٢٨)، وأبو داود (٤٠٩٣)، والنسائي في الكبرى (٩٦٣٢)، وابن ماجه (٣٥٧٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٦٥)، وهو عند أحمد (٥٣٥١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) في أحكام القرآن لابن العربي: بالأقصياء.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٥-١٨٧٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

المهدويُّ: وبه استدلَّ بعضُ العلماء على وجوب طهارة الثوب. قال ابنُ سيرين وابن زيد: لا تصلِّ إلَّا في ثوبٍ طاهر(١). واحتجَّ بها الشافعيُّ على وجوب طهارة الثوب. وليست عند مالكٍ وأهلِ المدينة بفرض، وكذلك طهارةُ البدن، ويدلُّ على ذلك الإجماع على جوازِ الصلاة بالاستجمار من غير غسل. وقد مضى هذا القول في سورة براءة مستوفىً(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال مجاهدٌ وعكرمة: يعني الأوثان؛ دليلُه قولُهُ تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقاله ابنُ عباس وابنُ زيد. وعن ابن عباس أيضاً: والمأثم فاهجر، أي: فاترك. وكذا رَوى مُغيرةُ عن إبراهيم النَّخَعيِّ قال: الرُّجز: الإثم. وقال قتادة: الرُّجز: إسافٌ ونائلة، صنمان كانا عند البيت(٣). وقيل: الرُّجزُ: العذاب، على تقدير حذف المضاف؛ المعنى: وعَمَلَ الرجز فاهجر، أو العمل المؤدِّي إلى العذاب، وأصلُ الرِّجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢] فسُمِّيت الأوثانُ رِجزاً؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العذاب(٤).

وقراءةُ العامة: «الرِّجْزَ» بكسر الراء. وقرأ الحسنُ، وعكرمةُ، ومجاهد، وابن محيصن، وحفص عن عاصم: «والرُّجْزَ» بضمِّ الراء(٥).

---

(١) أخرج قولهما بنحوه الطبري ٢٣/ ٤٠٩ .

(٢) ١٠/ ٣٨٢-٣٨٣ .

(٣) أخرج الأقوال السابقة الطبري ٢٣/ ٤١١-٤١٢ ، عدا قول ابن عباس الثاني فذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤١٣ .

(٤) الكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن ص٣٦١ ، والكشاف ٤/ ١٨١ .

(٥) رواية حفص عن عاصم في السبعة ص٦٥٩ ، والتيسير ص٢١٦ ، وهي عن الحسن ومجاهد وابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٩ ، وزاد المسير ٨/ ٤٠١ .

وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائيّ: الرُّجز بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية[١]. وقال الكسائيُّ أيضاً: بالضمِّ: الوثن، وبالكسر: العذاب[٢]. وقال السّديّ: الرَّجْز بنصب الراء: الوعيد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ فيه أحد عشر تأويلاً[٤]؛

الأوّل: لا تمنن على ربّك بما تتحمَّلُه من أثقال النبوَّة، كالذي يستكثرُ ما يتحمَّله بسبب الغير.

الثاني: لا تعطِ عطيةً تلتمسُ بها أفضلَ منها؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمة وقتادة. قال الضَّحَّاك: هذا حرَّمه الله على رسول الله ﷺ؛ لأنَّه مأمورٌ بأشرف الآداب، وأجلِّ الأخلاق، وأباحَه لأمَّته؛ وقاله مجاهد[٥].

الثالثُ؛ عن مجاهدٍ أيضاً: لا تَضْعُفْ أنْ تستكثرَ من الخير؛ من قولك: حبلٌ منين إذا كان ضعيفاً؛ ودليلُه قراءة ابن مسعود: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرِ مِنَ الْخَيْرِ»[٦].

الرابع: عن مجاهد أيضاً والربيع: لا يعظم[٧] عملك في عينك أنْ تستَكثرَ من الخير، فإنَّه ممَّا أنعمَ الله عليك[٨]. قال ابنُ كَيْسان: لا تستكثر عملَك فتراه من

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤١٣ عن أبي العالية والربيع.

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ١٠٦.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣٧.

(٤) في النسخ الخطية: عشر تأويلات، والمثبت من (م).

(٥) النكت والعيون ٧/ ١٣٨، وتفسير البغوي ٤/ ٦٧، وينظر الكشاف ٤/ ١٨٠، وزاد المسير ٨/ ٤٠٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٤، ولفظ قراءة ابن مسعود فيه: ولا تمنن أن تستكثر من الخير. وسيذكرها المصنف عنه بلفظ: ولا تمنن أن تستكثر.

(٧) في (د) و(ظ) و(م): لا تعظم.

(٨) أخرجه الطبري عن الربيع ٢٣/ ٤١٥-٤١٦.

نفسك، إنَّما عملُك مِنَّةٌ من الله عليك؛ إذْ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته.

الخامس: قال الحسن: لا تمننْ على الله بعملك؛ فتستكثره[١].

السادس: لا تمنن بالنبوَّةِ والقرآن على الناس؛ فتأخذَ منهم أجراً تستكثرُ به.

السابع: قال القُرَظيّ: لا تعطِ مالَك مصانعةً.

الثامن[٢]: قال زيدُ بن أسلم: إذا أعطيتَ عطيةً فأعطها لربِّك.

التاسع: لا تقلْ: دعوت فلم يُستَجب لي.

العاشر: لا تعملْ طاعةً وتطلب ثوابها، ولكن اصبر حتى يكونَ الله هو الذي يثيبُك عليها.

الحادي عشر: لا تفعلْ الخيرَ لترائي به النَّاس[٣].

الثانية: هذه الأقوالُ وإنْ كانت مرادةً فأظهرُها قولُ ابن عباس: لا تعطِ لتأخذَ أكثرَ ممَّا أُعطيتَ من المال؛ يقال: مننتُ فلاناً كذا، أي: أعطيتُه. ويقال للعطية المِنّة؛ فكأنَّه أمر بأنْ تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثوابٍ من الخلق عليها؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام ما كان يجمع الدنيا؛ ولهذا قال: «مالي ممَّا أفاءَ الله عليكم إلَّا الخُمس، والخُمس مردودٌ عليكم»[٤]. وكان ما يَفْضُل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين؛ ولهذا لم يورث؛ لأنَّه كان لا يملكُ لنفسه الادِّخار والاقتناء، وقد عصمَه اللهُ تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا؛ ولهذا[٥] حرمت عليه الصدقةُ، وأُبيحت له الهديَّة، فكان يقبلُها، ويثيبُ عليها. وقال: «لو دعيت إلى كُرَاع[٦]

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤١٥ .

(٢) لفظة: الثامن. من (م) .

(٣) القول الأخير في النكت والعيون ٦/ ١٣٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٦٧٢٩) مطولاً، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وسلف ٩/ ٤٤٤ .

(٥) في (م): ولذلك.

(٦) في (ظ) و(ي): ذراع.

لأجبت، ولو أُهدي إليَّ كُراع[١] لقبلت»[٢].

ابن العربيّ: وكانَ يَقبلُها سُنةً ولا يستكثرها شِرعة، وإذا كان لا يُعطي عطيةً يستكثر بها، فالأغنياءُ أولى بالاجتناب؛ لأنَّها بابٌ من أبواب المذلَّة، وذلك[٣] قول من قال: إنَّ معناه[٤]: لا تعطِ[٥] عطيةً تنتظرُ ثوابَها، فإنَّ الانتظار تعلُّق بالأطماع، وذلك في حيِّزه بحكم الامتناع، وقد قال الله تعالى[٦]: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وذلك جائزٌ لسائر الخلق؛ لأنَّه من متاع الدنيا، وطلب الكسب [فيها]، والتكاثر بها. وأمَّا من قال: أراد به العمل، أي: لا تمننْ بعملك على الله فتستكثرَه؛ فهو صحيح؛ فإنَّ ابنَ آدم لو أطاعَ الله عمرَه من غير فتور، لَمَا بلغَ لنعم الله بعضَ الشكر[٧].

الثالثة: قوله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ» قراءةُ العامَّة بإظهار التضعيف. وقرأ أبو السَّمَّال العدوي، وأشهب العُقيليّ، والحسن: «وَلَا تَمُنَّ»؛ مدغمةً مفتوحة[٨].

«تَسْتَكْثِرُ»: قراءةُ العامة بالرفع، وهو[٩] في معنى الحال، تقول: جاء زيدٌ يركض، أي: راكضاً، أي: لا تعطِ شيئاً مقدِّراً أنْ تأخذ بدلَه ما هو أكثرُ منه[١٠].

---

(١) في (م): ذراع.

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٨٥)، و(١٠٦٥١)، والبخاري (٥١٧٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) في (م): وكذلك.

(٤) في (د) و(م): معناها. والمثبت من (ز) و(ظ) و(ي) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في النسخ: لا تعطي. والمثبت من أحكام القرآن.

(٦) بعدها في (م): له.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

(٨) قراءة أبي السمَّال والحسن في القراءات الشاذة ص١٦٤ . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٣ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٧١-٣٧٢ .

(٩) بعدها في (ظ): صحيح.

(١٠) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧١ .

وقرأ الحسنُ[(١)] بالجزم على جواب النهي، وهو رديء؛ لأنَّه ليس بجواب. ويجوز أنْ يكونَ بدلاً من «تَمْنُنْ» كأنَّه قال: لا تستكثر. وأنكره أبو حاتم وقال: لأنَّ المنَّ ليس بالاستكثَار فيُبْدَل منه. ويَحتملُ أنْ يكونَ سُكِّن تخفيفاً كعَضْد[(٢)]. أو أنْ يعتبر حال الوقف.

وقرأ الأعمشُ ويحيى: «تَسْتَكْثِرَ» بالنصب[(٣)]، تَوَهَّمَ لام كي، كأنَّه قال: ولا تَمننْ لتستكثر. وقيل: هو بإضمار «أنْ» كقوله:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضُرَ الوَغَى[(٤)]

ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعود: «ولَا تَمْنُنْ أن تَسْتَكْثِر»[(٥)]. قال الكسائيّ: فإذا حذف «أنْ» رفع، وكان المعنى واحداً.

وقد يكون المَنُّ بمعنى التعداد على المُنْعَم عليه بالنِّعم، فيرجع إلى القول [الثاني][(٦)]، ويَعضُده قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقد يكون مراداً في هذه الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: ولسيِّدك ومالكك فاصبرْ على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أُوذيت. وقال ابنُ زيد: حُمِّلت أمراً عظيماً؛ محاربةَ العرب والعجم، فاصبر عليه لله[(٧)]. وقيل: فاصبر تحتَ موارد القضاء لأجل

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٧.

(٢) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٣٧-٣٣٨.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٣٧، والكشاف ٤/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٩٣.

(٤) هو لطَرَفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٢٣، وسلف ٢/ ٢٢٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠١، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤١٧، والقراءات الشاذة ص١٦٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٩٣، والكشاف ٤/ ١٨١.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وهو موافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٧.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ٤١٧.

الله تعالى[١]. وقيل: فاصبر على البلوى؛ لأنَّه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾: إذا نُفِخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر؛ كأنَّه الذي من شأنه أنْ يُنْقَر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت؛ ومنه قول امرئ القيس:

أُخَفِّضُه بالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ ... وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ جَافٍ[٢] غَضِيضِ[٣]

وهم يقولون: نَقَّر باسم الرجل: إذا دَعاه مختصّاً له بدعائه. قال مجاهدٌ وغيره: هو كهيئة البُوق[٤]. ويعني به: النفخة الثانية. وقيل: الأولى؛ لأنَّها أَوَّلُ الشدَّةِ الهائلة العامَّة. وقد مضى الكلام في هذا مستوفىً في «النمل» و«الأنعام»[٥]، وفي كتاب «التذكرة»[٦]، والحمد لله.

وعن أبي جَنَاب[٧] قال: أَمَّنَا زُرَارةُ بن أوفى، فلما بلغ: «فَإِذَا نُقِرَ في النَّاقُورِ»، خَرَّ ميتاً[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤١٤.

(٢) في (م): خافٍ.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٧٥. قال شارحه: يقول: لما نزلت إليه فركبته أبدى شدَّة الحركة والنشاط، فجعلت أُخفّضه بالنقر، أي: أسكّنه، والنقر: صوت يسكَّن به الفرس. وقوله: ويرفع طرفاً غير جافٍ غضيض، أي: لا يجفو نظره عن شخص، ولا يغضه عنه.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤١٩.

(٥) عند تفسير الآية ٨٧ من سورة النمل، و٨/ ٤٣٠-٤٣٢.

(٦) ص١٧٧-١٧٨.

(٧) في (د) و(ظ): أبي خباب، وفي (ز) و(ي): أبي حباب، وفي (م): أبي حبان، والصواب ما أثبتناه. وهو أبو جناب القصاب، واسمه عون بن ذكوان، وهو بالكنية أعرف. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٥: وُثّق، وقال ابن طاهر المقدسي: قال الدارقطني: متروك.

(٨) الثقات لابن حبان ٤/ ٢٦٦، وحلية الأولياء ٢/ ٢٥٨، وتهذيب الكمال ٩/ ٣٤١.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: فذلك اليومُ يومٌ شديد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل ولا هيِّن؛ وذلك أنَّ عُقَدَهم لا تَنحلُّ إلَّا إلى عُقدةٍ أشدَّ منها، بخلاف المؤمنين الموحِّدين المذنبين، فإنَّها تنحلُّ إلى ما هو أخفُّ منها حتى يدخلوا الجنَّة برحمة الله تعالى.

و«يَوْمَئِذٍ» نصب على تقدير: فذلك يومٌ عسيرٌ يومئذ. وقيل: بتقدير جر، مجازه[١]: فذلك في يومئذ. وقيل: يجوز أنْ يكون رفعاً، إلَّا أنَّه بُني على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن[٢].

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ «ذَرْنِي» أي: دعني؛ وهي كلمةُ وعيدٍ وتهديد. «وَمَنْ خَلَقْتُ» أي: دعني والذي خلقتُه وحيداً[٣]؛ فـ«وحيداً» على هذا حالٌ من ضمير المفعول المحذوف، أي: خلقتُه وحدَه، لا مالَ له ولا ولد، ثمَّ أعطيتُه بعد ذلك ما أعطيته.

والمفسرون على أنَّه الوليدُ بن المغيرة المخزوميّ، وإنْ كان الناسُ خُلِقُوا مثلَ خَلْقه، وإنما خُصَّ بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاءِ الرسول عليه الصلاة والسلام[٤]، وكان يسمَّى الوحيد في قومه.

قال ابنُ عباس: كان الوليدُ يقول: أنا الوحيدُ بن الوحيد، ليس لي في العرب

---

(١) في (م): وقيل: جُرَّ بتقدير حرف جر، مجازه، وفي (ي): وقيل: جر بتقدير مجازه، وفي (ظ): وقيل بتقدير في مجازه. والمثبت من (د) و(ز).

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٦ .

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج٥/ ٢٤٦ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٣٩ .

نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ» بزعمه «وَحِيداً» لا أنَّ الله تعالى صدَّقه بأنَّه وحيد[١]. وقال قوم: إنَّ قوله تعالى: «وَحِيْداً» يرجعُ إلى الرَّب تعالى على معنيين:

أحدُهما: ذرني وحدي معه، فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كلِّ منتقم.

والثاني: أنِّي انفردتُ بخلقه ولم يشركني فيه أحدٌ[٢]، فأنا أُهلِكه، ولا أحتاجُ إلى ناصرٍ في إهلاكه؛ فـ «وحِيداً» على هذا حالٌ من ضمير الفاعل، وهو[٣] التاء في «خَلَقْتُ»، والأوَّل قولُ مجاهد[٤]، أي: خلقته وحيداً في بطن أمِّه؛ لا مالَ له ولا ولد، فأنعمتُ عليه فكفر؛ فقوله: «وحِيداً» على هذا يرجع إلى الوليد، أي: لم يكن له شيءٌ فملَّكْتُه.

وقيل: أرادَ بذلك ليدلَّه على أنَّه يُبعَثُ وحيداً كما خُلق وحيداً[٥].

وقيل: الوحيدُ الذي لا يُعرَف أبوه، وكان الوليدُ معروفاً بأنَّه دَعِيٌّ؛ كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣]؛ وهو في صفة الوليد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: خَوَّلتُه وأعطيتُه مالاً ممدوداً، وهو ما كان للوليد بين مكَّة والطائف من الإبل والحُجُور[٦]، والنَّعَم والجِنان، والعبيد والجواري، كذا كان ابنُ عباس يقول[٧]. وقال مجاهد: غلَّة ألف دينار؛ قاله سعيد بنُ

(١) ينظر تفسير الرازي ٣٠/١٩٨ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨١ .

(٣) في النسخ الخطية: وهي.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٣٩ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢١ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٩ .

(٦) جمع حِجْر؛ وهي الفرس الأنثى، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لايشركها فيه المذكر. اللسان (حجر).

(٧) ذكره بنحوه البغوي في تفسيره ٤/ ٤١٤ .

جبير وابنُ عباس أيضاً[١]. وقال قتادة: ستة آلاف دينار[٢]. وقال سفيانُ الثوري وقتادة: أربعةُ آلاف دينار[٣]. الثوريُّ أيضاً: ألف ألف دينار. مقاتل: كان له بستانٌ لا ينقطعُ خيره شتاءً ولا صيفاً[٤]. وقال عمر ﷺ: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً»: غلَّة شهرٍ بشهر. النعمانُ بن سالم: أرضاً يزرع فيها[٥]. القشيري: والأظهرُ أنَّه إشارةٌ إلى مالا ينقطع رزقُه، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي: حضوراً لا يغيبون عنه في تصرُّف. قال مجاهد وقتادة: كانوا عشرة[٦]. وقيل: اثنا عشر؛ قاله السديّ[٧] والضَّحّاك. قال الضحَّاك: سبعةٌ ولدوا بمكَّة، وخمسةٌ ولدوا بالطَّائف[٨]. وقال سعيدُ بن جبير: كانوا ثلاثةَ عشر ولدًا[٩].

مقاتل: كانوا سبعةً كلُّهم رجال، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام والوليد بن الوليد[١٠]. قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نُقصانٍ من ماله وولده حتى هلك.

---

(١) أخرجه عن مجاهد وسعيد بن جبير الطبريُّ ٢٣/ ٤٢٢ ، وذكره عن ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٠٤ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٤ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤١٤ .

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٢٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٩٤ .

(٧) زاد المسير ٨/ ٤٠٥ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٤٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٤ .

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٤١٤ ، وفيه: عُمارة. بدل: الوليد. وذكر الخبر أيضاً الحافظ ابن حجر في الإصابة في القسم الرابع ٨/ ٢٤ ، في ترجمة عمارة بن الوليد، ثم قال: والصواب: خالدٌ، وهشام، والوليد، فأمَّا عمارة فإنَّه مات كافراً.

وقيل: شهوداً، أي: إذا ذُكر ذُكروا معه؛ قاله ابنُ عباس. وقيل: شهوداً، أي: قد صاروا مِثله في شهود ما كان يَشهده، والقيامِ بما كان يباشره. والأوَّل قولُ السُّدِّيّ[١]، أي: حاضرين مكَّة لا يظعنون عنه في تجارةٍ ولا يغيبون.

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي: بسطتُ له في العيش بسطاً، حتى أقامَ ببلدته مطمئناً مترفهاً يُرجَع إلى رأيه. والتمهيدُ عند العرب: التوطِئة والتهيئة؛ ومنه مَهْدُ الصبيّ.

وقال ابن عباس: «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً» أي: وسَّعتُ له بين اليمن والشام؛ وقاله مجاهد[٢].

وعن مجاهدٍ أيضاً في«وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً»: أنَّه المالُ بعضُه فوقَ بعض كما يُمهَّد الفراش.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي: ثم إنَّ الوليدَ يطمعُ بعد هذا كلِّه أنْ أزيده في المال والولد.

﴿كَلَّآۖ﴾ أي: ليس يكونُ ذلك مع كفره بالنعم. وقال الحسن وغيره: أي: ثم يطمعُ أنْ أدخِله الجنَّة[٣] وكان الوليدُ يقول: إنْ كان محمدٌ صادقاً، فما خُلِقت الجنَّة إلا لي؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيباً له: «كَلَّا» أي: لستُ أزيدهُ، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك[٤].

و«ثُمَّ» في قوله تعالى: «ثُمَّ يَطْمَعُ» ليست بثم التي للنَّسق، ولكنَّها تعجيب؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] وذلك كما تقول: أعطيتُك ثمَّ أنت تجفوني؛ كالمتعجِّب من ذلك[٥]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٤٠ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤١٤ عن الكلبي.

(٣) زاد المسير ٨/ ٤٠٥ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٢ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٩٩ .

وقيل: يطمعُ أنْ أترك ذلك في عقبه؛ وذلك أنَّه كان يقول: إنَّ محمداً مبتور، أي: أبتر؛ وينقطعُ ذِكره بموته، وكان يظنُّ أنَّ ما رُزِق لا ينقطع بموته. وقيل: أي: ثمَّ يَطمع أنْ أنصرَه على كفره.

و«كَلَّا» قطعٌ للرجاء عما كان يطمعُ فيه من الزيادة؛ فيكونُ متصلاً بالكلام الأوّل.

وقيل: «كَلَّا» بمعنى حقًّا؛ ويكون ابتداءً. ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الوليد﴿كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: معانداً للنبيِّ ﷺ وما جاء به ـ يقال: عَاند فهو عنِيد، مثل: جالِس فهو جلِيس ـ قاله مجاهد(١). وعَنَدَ يَعْنِد بالكسر، أي: خالف وردَّ الحقَّ وهو يعرفه، فهو عنِيد وعانِد. والعانِد: البعير الذي يجورُ عن الطريق، ويَعدِل عن القصد، والجمع عُنَّدٌ، مثل: راكِع ورُكَّع، وأنشد أبو عبيدة قول الحارثيّ(٢):

إذا رَكِـبـتُ فـاجْـعَـلَانـي وَسَـطَـا إنِّـي كَـبـيـرٌ لاأطـيـقُ الْـعُـنَّـدَا(٣)

وقال أبو صالح: «عَنِيداً» معناه: مُباعداً؛ قال الشاعر:

أَرَانـا عـلـى حـالٍ تُـفَـرِّقُ بَـيْـنَـنَـا نَـوىً غَـرْبَـةٌ(٤) إنَّ الـفِـراقَ عَـنُـودُ

قتادة: جاحداً. مقاتل: معرضاً(٥). ابن عباس: جَحوداً(٦). وقيل: إنَّه المُجَاهر بعدوانه(٧).

وعن مجاهد أيضاً قال: مجانباً للحقِّ، معانداً له معرضاً عنه(٨). والمعنى كلُّه متقارب. والعرب تقول: عَنَد الرجل: إذا عَتا وجاوز قدره. والعَنُود من الإبل: الذي

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢٦ بنحوه.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٥ ، وفيه: الحادي. بدل: الحارثي.

(٣) الصحاح (عند)، والرجز سلف ١١/ ١٤٧ ، ١٢/ ١١٨ .

(٤) نوىً غربة، أي: بعيدة. الصحاح (غرب).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٤١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢٥ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٤١ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢٦ .

لا يخالطُ الإبل، إنَّما هو في ناحية [أبداً]. ورجلٌ عَنُود: إذا كان يَحُلُّ وحده لا يخالط الناس. والعنيد من التَجبُّر. وعِرق عاند: إذا لم يَرقأ دمه، كل هذا قياس واحد. وقد مضى في سورة إبراهيم[١]. وجمع العنيد عُنُد، مثل: رَغِيف ورغُفُ[٢].

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي: سأكلِّفه. وكان ابنُ عباس يقول: سأُلجِئُه؛ والإرهاق في كلام العرب: أنْ يُحمل الإنسانُ على الشيء.

﴿صَعُودًا﴾ «الصَّعُودُ: جبلٌ من نار يتصعَّد فيه [الكافر] سَبْعين خَريفاً، ثمَّ يَهْوي كذلك فيه أبداً». رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ، خَرَّجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ غريب[٣].

ورَوى عطيةُ عن أبي سعيد قال: صخرةٌ في جهنم إذا وَضعوا عليها أيديهم ذابت، فإذا رفعوها عادت[٤].

قال: فيبلُغ أعلاها في أربعين سنةً؛ يُجذب من أمامه بسلاسل، ويُضْرب من خلفه بمقامع، حتى إذا بَلغ أعلاها، رُمي به إلى أسفلها، فذلك دأبُه أبداً. وقد مضى هذا المعنى في سورة «قُلْ أوحِيَ»[٥]

وفي التفسير: أنّه صخرةٌ ملساء يكلّف صعودَها، فإذا صار في أعلاها حُدِر في جهنم، فيقوم يهوِي ألف عام من قبل أنْ يبلُغ قرار جهنَّمِ، يحترقُ في كل يومٍ سبعينَ مرَّةً، ثُمَّ يُعاد خلقاً جديداً.

وقال ابن عباس: المعنى: سأكلِّفه مشقّةً من العذاب لا راحةَ له فيه. ونحوه عن

---

(١) ١٢/ ١١٨ ، وينظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الصحاح (عند).

(٣) سنن الترمذي (٢٥٧٦)، (٣٣٢٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١١٧١٢).

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢٦-٤٢٧ .

(٥) هو قول الكلبي كما سلف ص٢٩٧ من هذا الجزء، والذي ينزل به هذا العذاب هو المغيرة. وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٣٨٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٥ .

الحسن وقتادة[١]. وقيل: إنَّه تصاعدُ نفسه للنَّزع وإنْ لم يتعقبه موتٌ؛ ليُعذَّب من داخل جسده كما يعذَّبُ من خارجه[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يعني الوليدَ؛ فكَّر في شأنِ النبيِّ ﷺ والقرآن، و«قَدَّرَ» أي: هيَّأ الكلام في نفسه، والعربُ تقول: قدَّرتُ الشيءَ: إذا هيأته، وذلك أنَّه لما نزل: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣] سمعَه الوليدُ يقرؤها فقال: والله لقد سمعتُ منه كلاماً ما هو من كلامِ الإنس، ولا من كلام الجنِّ، وإنَّ له لَحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمُثمِر، وإنَّ أسفلَه لمُغدق، وإنَّه لَيعلو ولا يُعْلَى عليه، وما يقولُ هذا بشر. فقالت قريش: صَبأ الوليدُ لتَصْبوَنَّ قريشٌ كلُّها. وكان يقال للوليد: ريحانةَ قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكُموه. فانطلق[٣] إليه حزيناً؟ فقال له: مالي أراكَ حزيناً. فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يَجمعونَ لك نفقةً، يعينونك بها على كِبَر سنِّك، ويزعُمون أنَّك زَيَّنْتَ كلام محمد، وتدخلُ على ابن أبي كبشة، وابن أبي قُحافة، لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليدُ وتكبَّر، وقال: أنا أحتاجُ إلى كِسَر محمدٍ وصاحبه! فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّاتِ والعُزَّى مابي حاجةٌ إلى ذلك، وإنَّما أنتم تزعمون أنَّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه قطُّ يُخْنَقُ؟ قالوا: لا واللهِ. قال: فتزعُمون أنَّه كاهنٌ، فهل رأيتموه تكهَّن قطُّ؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالُجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنَّه شاعرٌ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا. قال: فتزعمون أنَّه

---

(١) أخرجه عن قتادة الطبريُّ ١٩/ ٤٢٧، وذكره عن الحسن الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٤١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٤١.

(٣) في (م): فمضى.

كذَّاب، فهل جرَّبتُم عليهِ كذباً قط؟ قالوا: لا[١] ـ وكان النبيُّ ﷺ يُسَمَّى الصادقَ الأمين من كثرة صدقه ـ فقالت قريشٌ للوليد: فما هو؟ ففكَّر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلَّا ساحر! أمَا رأيتموه يفرِّقُ بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في أمرِ محمدٍ والقرآن، «وَقَدَّرَ» في نفسه ماذا يمكنُه أنْ يقولَ فيهما. ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعِن[٢]

وكان بعضُ أهل التاويل يقول: معناها: فقُهِر وغُلِب، وكلُّ مُذَلَّلٍ مُقتَّل؛ قال الشاعر:

ومَا ذَرَفَتْ عينـاكِ إلَّا لِتَقْدَحِي بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[٣]

وقال الزهريّ: عُذِّب؛ وهو من باب الدعاء[٤].

﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قال ناسٌ: «كَيْفَ» تعجيب؛ كما يقال للرجل تتعجَّبُ من صنيعه: كيف فعلت هذا؟ وذلك كقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨].

﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي: لُعن لعناً بعد لعن. وقيل: فقُتِل بضربٍ من العقوبة، ثمَّ قُتِلَ بضربٍ آخر من العقوبة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: على أيِّ حالٍ قَدَّر.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأي شيءٍ يردُّ الحقَّ ويدفعه. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قَطَّب بين عينيه في وجوه المؤمنين؛ وذلك أنَّه لمَّا حَمَل قريشاً على ما حَمَلَهم عليه من القول في محمد ﷺ بأنَّه ساحر، مرَّ على جماعةٍ من المسلمين، فدعوه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم. وقيل: عَبَسَ وبَسَر على النبيِّ ﷺ حين دعاه[٥].

---

(١) في (م): لا والله في الموضعين الأخيرين. ووقع في النسخ تقديم وتأخير بين العبارات.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤١٦ .

(٣) البيت من معلقة امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣ . قال شارحه: وأراد بالسهمين: العينين. والأعشار: القطع والكسور، يقول: ما بكيتِ إلَّا لتجرحي قلباً معشَّراً، أي: مكسّراً، ولم تبكي لأنك مظلومة.

(٤) تفسير البغوي ٤/٤١٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/١٤٢ .

والعَبْسُ مخفَّفاً: مصدرُ عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً: إذا قطَّبَ. والعَبَسُ: ما يتعلَّق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها؛ وقال أبو النَّجْم:

كأنَّ في أذْنابِهِنَّ الشُّوَّلِ من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيَّلِ(١)

﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَحَ وجهُه، وتغيَّر لونُه؛ قاله قتادةُ والسُّدِّيّ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم:

صَبَحْنا تَميماً غَداةَ الجِفارِ بِشَهْباءَ مَلْمُومَةٍ باسِرَهْ(٢)

وقال آخر(٣)

وقَدْ رَابَني مِنْها صُدودٌ رَأَيْتُهُ وإعْراضُها عَنْ حاجتي وبُسُورُها

وقيل: إنَّ ظهورَ العُبوسِ في الوجه [يكون] بعد المحاورة، وظهورَ البُسورِ في الوجه قبل المحاورة(٤).

وقال قوم: «بَسَرَ»: وَقَفَ لا يتقدَّمُ ولا يتأخر، قالوا: وكذلك يقولُ أهلُ اليمن إذا وقف المركب فلم يجيء ولم يذهب: قد بَسَر المركبُ وأَبْسَر، أي: وقف، وقد أبسرنا. والعربُ تقول: وجهٌ باسرٌ بيِّن البُسُور: إذا تغيَّر واسوَدَّ.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: ولَّى وأعرضَ ذاهباً إلى أهله. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظَّم عن أنْ يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان، واستكبرَ حين دُعيَ إليه(٥).

---

(١) ديوان أبي النجم العجلي ص١٩١ . شالت الناقة بذنبها تشوله شولاً، أي: رفعته. والأُيَّل: الذكر من الأوعال، وكذلك الإيَّل، بكسر الهمزة. اللسان (شول)، (أول) والكلام في إصلاح المنطق ص٩٥-٩٦.

(٢) جاء في حواشي بعض النسخ كما في (م) ما نصه: قوله: بشهباء، أراد بكتيبةٍ شهباءَ؛ ومنه قول عنترة [في ديوانه ص٧٤]:

وكتيبةٍ لَبَّستُها بكتيبةٍ شهباءَ باسلةٍ يُخافُ رَدَاها

ويقال: كتيبة ململمة وملمومة أيضاً، أي: مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض. وصخرة ملمومة وململمة، أي: مستديرة صلبة؛ قاله الجوهري [الصحاح (لمم)].

(٣) هو توبة بن الحُمَير. والبيت في ديوانه ص٣٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٤٢ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١٦ .

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي أتى به محمدٌ ﷺ ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يأثُره عن غيره.

والسِّحر: الخديعة. وقد تقدَّم بيانُه في سورة البقرة[١]. وقال قوم: السحر: إظهارُ الباطل في صورة الحق.

والأثْرُ[٢]: مصدرُ قولك: أثرت الحديثَ آثُرهُ: إذا ذكرتَه عن غيرك؛ ومنه قيل: حديثٌ مأثور، أي: ينقله خلفٌ عن سلف[٣]؛ قال امرؤ القيس:

ولو عَنْ نَثَا غَيرِهِ جاءَني ... وجُرْحُ اللِّسانِ كَجُرْحِ اليدِ

لَقُلْتُ مِن القول ما لا يزا ... لُ يُؤثَرُ عنِّي يَدَ الْمُسْنَدِ[٤]

يريد: آخر الدهر.

وقال الأعشى[٥]

إنَّ الذي فيه تماريْتُما ... بُيِّنَ لِلسَّامِعِ والآثِرِ

ويروى: بَيَّنَ[٦].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: ما هذا إلَّا كلام المخلوقين، يَختدع به القلوبَ كما تُختدع بالسحر. قال السُّدِّيّ: يعنون أنَّه من قول سيارٍ[٧] عبدٍ لبني الحضرميّ، كان

(١) ٢/ ٢٧٢-٢٧٣ .

(٢) في (م): والأثره.

(٣) الصحاح (أثر).

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٨٥-١٨٦ . والنَّثا: ما أخبرتَ به عن الرجل من حسن أو سيئ. والمسند: الدهر. القاموس (نثا، سند).

(٥) ديوانه ص١٩١ ، بلفظ: والناظر. بدل: والآثر، وسلف ١٩/ ١٨١ .

(٦) الصحاح (أثر).

(٧) في (د): بشار، وفي (ظ): يسار، وفي النكت والعيون: أبي اليسر، وفي نسخة كما في حاشية (م): أبي اليسر سيار.

يجالسُ النبيَّ ﷺ، فنسبوه إلى أنَّه تعلم منه ذلك[١]. وقيل: أراد أنَّه تلقَّنه من أهل بابل. وقيل: عن مُسَيلِمة[٢]. وقيل: عن عديّ الحضرميّ الكاهن. وقيل: إنَّما تلقَّنه ممن ادَّعى النبوةَ من قبل، فنسجَ على منوالهم. قال أبو سعيد الضرير: إنْ هذا إلا أمرُ سحرٍ يؤثر، أي: يورث.

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأدخلُه سقر كي يَصْلَى حرَّها. وإنَّما سُمِّيت سقر؛ من سَقَرَتْه الشمسُ: إذا أذابته ولوَّحته، وأحرقتْ جِلْدَة وجهه. ولا ينصرفُ للتعريف والتأنيث. قال ابن عباس: هي الطبق السادسُ من جهنم[٣]. ورَوى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «سألَ موسى ربَّه فقال: أيْ ربِّ، أيُّ عِبادك أفقر؟ قال صاحبُ سَقَر». ذكره الثعلبيّ[٤].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ هذه مبالغة في وصفها، أي: وما أعلمَك أيُّ شيءٍ هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثمَّ فسَّر حالَها فقال: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تتركُ لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلَّا أحرقته. وكَرَّر اللفظَ تأكيداً. وقيل: لا تُبقي منهم شيئاً، ثمَّ يعادون خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبداً[٥]. وقال مجاهد: لا تُبْقي مَنْ فيها حيًّا، ولا تَذرُه ميتاً، تُحرقُهم كلما جُدِّدُوا. وقال السُّدِّيّ: لا تُبقي لهم لحماً ولا تَذَرُ لهم عظماً[٦]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٤٣.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٢.

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٠٢.

(٤) وأخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦١/ ١٣٥-١٣٦ مطولاً، وأخرجه ابن حبان أيضاً في صحيحه (٦٢١٧) بإسناد ابن عساكر، ولفظه عنده: صاحب منقوص بدل: صاحب سقر. ولعلَّ لفظة سقر مُحرَّفة عن لفظة منقوص. والله أعلم. وفي إسناده دراج؛ أبو السمح المصري قال أحمد: أحاديثه مناكير، وليَّنه، وقال أبو حاتم: ضعيف. ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤.

(٥) الكلام بنحوه في الوسيط للواحدي ٤/ ٣٨٤، وزاد المسير ٨/ ٤٠٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٦.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: مُغَيِّرة، من لاحه: إذا غيَّره[١].

وقراءةُ العامَّة: «لَوَّاحَةٌ» بالرفع نعتٌ لـ «سَقَرَ» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. وقرأ عطيةُ العوفيّ ونصرُ بن عاصم وعيسى بن عمر: «لَوَّاحَةً» بالنصب على الاختصاص، للتهويل[٢]. وقال أبو رَزِين: تلفحُ وجوهَهم لَفْحةً؛ تدعُها أشدَّ سواداً من الليل[٣]؛ وقاله مجاهد[٤].

والعربُ تقول: لاحَه البردُ والحرُّ، والسُّقم والحُزْن: إذا غيَّره؛ ومنه قول الشاعر:

تَقُولُ مَالَاحَكَ يَا مُسَافِرُ ... يَا ابْنَةَ عَمِّي لاحَنِي الهَوَاجِرُ[٥]

وقال آخر:

وتَعجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِباً ... تقولُ لِشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائمُ[٦]

وقال رُؤبةُ بن العجَّاج:

لَوَّحَ منه بعدَ بُدْنٍ وسَنَقْ ... تَلْوِيحَكَ الضَّامِرَ يُطْوَى للسَّبَقْ[٧]

وقيل: إنَّ اللوح شدَّةُ العطش؛ يقال: لاحَهُ العطشُ ولوَّحه، أي: غيَّره. والمعنى: أنَّها معطِّشةٌ للبشر، أي: لأهلها؛ قاله الأخفش، وأنشد:

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٩٦ .

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٤ ، وقال: حكاه أبو معاذ. ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٠٧ لابن مسعود وابن السميفع وابن أبي عبلة، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ٣٧٥ للعوفي وزيد بن علي والحسن وابن أبي عبلة. وينظر الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٩٦ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤١٦ .

(٥) الرجز في الكشاف ٤/ ١٨٣ ، وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٥ البيت الثاني منه.

(٦) لم نقف عليه .

(٧) ديوان رؤبة ص١٠٤ ، قوله: لوح منه: يقال: لاحه السفر ولوَّحه: غيره وأضمره، والسَّنَق؛ بفتحتين: البشم، يقال: شرب الفصيل حتى سَنِق يسنَق، وهو كالتخمة، قال الأصمعي: والسنق: كراهة الطعام من كثرته على الإنسان حتى لا يشتهيه، وقوله: يُطوى: أي: يجوَّع ويُضمَّر. خزانة الأدب ١/ ٨٧ .

سَقتني على لَوْحٍ من الماء شَرْبَةً   سقاها بها اللهُ الرِّهامَ الغواديا

يعني باللَّوح شدَّةَ العطش[١] والْتاحَ أي: عَطِش[٢]. والرِّهامَ جمع رِهمة؛ بالكسر وهي: المطرةُ الضعيفةُ [الدائمة]، وأرهمت السحابة: أتت بالرِّهام[٣].

وقال ابنُ عباس: «لَوَّاحَةٌ» أي: تلوح للبشر من مسيرة خمس مئة عام.

الحسنُ وابنُ كيسان: تَلوحُ لهم جهنَّم حتى يروها عِياناً. نظيره: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[٤] [الشعراء: ٩١].

وفي البَشَر وجهان:

أحدُهما: أنَّه الإنس من أهل النار؛ قالَه الأخفشُ والأكثرون.

الثاني: أنَّه جمعُ بَشرة، وهي جلدةُ الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة[٥].

وجمع البشَر أبشار، وهذا على التفسير الأوَّل، وأمَّا على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلَّا الناس لا الجلود؛ لأنَّه من لاح الشيءُ يَلُوح: إذا لمع.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: على سَقَر تسعةَ عشر من الملائكة يَلْقَون فيها

(١) النكت والعيون ٦/ ١٤٣.
(٢) الصحاح (لوح).
(٣) الصحاح (رهم).
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤١٦.
(٥) النكت والعيون ٦/ ١٤٣.

أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعةَ عشر من الملائكة هم خَزَنتها؛ مالكٌ وثمانية عشر ملَكاً[١].

ويَحتمل أنْ تكون التسعة عشر نقيباً، ويَحتمل أنْ يكون تسعةَ عشر ملَكاً بأعيانهم وعلى هذا أكثرُ المفسرين.

الثعلبيّ: ولا يُنكَر هذا، فإذا كان مَلَكٌ واحدٌ يَقبِض أرواح جميع الخلائق؛ كان أحرى أنْ يكونَ تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق.

وقال ابنُ جريج: نعتَ النبيُّ ﷺ خَزَنة جهنَّم فقال: «كأنَّ أعينَهم البَرْق، وكأنَّ أفواههم الصياصي، يجرُّون أشعارَهم، لأحدهم من القوَّة مثلُ قوةِ الثقلين، يسوقُ أحدهم الأُمَّةَ وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل»[٢].

قلت: وذكر ابنُ المبارك قال: حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجلٍ من بني تميم قال: كنَّا عندَ أبي العوَّام، فقرأ هذه الآية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. فقال: ما تسعةَ عَشَر؟ تسعةَ عشرَ ألفِ مَلَك، أو تسعةَ عشر مَلكاً؟ قال: قلت: لا، بل تسعة عَشَرَ مَلكاً. قال: وأنَّى تعلمُ ذلك؟ فقلت: لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: صدقتَ، هم تسعة عشر مَلَكاً، بِيَدِ كلِّ مَلَكٍ منهم مِرْزَبَةٌ لها شُعْبتان، فيضربُ الضربةَ فيُهوى بها في النار سبعين ألفاً[٣].

وعن عمرو بن دينار: كلُّ واحدٍ منهم يدفع بالدَّفعة الواحدة في جهنم أكثرَ من ربيعة ومُضَر[٤].

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٤١٧ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٤٦ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٤ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٥ وعزاه لابن مردويه، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٨٠ : لم أجده.

(٣) الزهد لابن المبارك (٣٤٠- زوائد نعيم). وسلفت قطعة منه ١٤/ ٣٤٤ . و المرزبة: هي المطرقة الكبيرة التي تكون للحداد. النهاية (رزب).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤١٧ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٤ .

وخرَّج الترمذيُّ عن جابر بن عبد الله[١] قال: قال ناسٌ من اليهود لأُناسٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ: هل يعلم نبيُّكم عددَ خَزَنة جهنَّم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا[٢]. فجاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد غُلِب أصحابُك اليوم؛ فقال: «وماذا[٣] غُلِبوا»؟ قال: سألَهم يهود: هل يعلمُ نبيُّكم عددَ خَزَنَة جهنم؟ قال: «فماذا قالوا»؟ قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا. قال: «أفغُلِب[٤] قومٌ سُئِلوا عمَّا لا يعلمون، فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبيَّنا؟ لكنهم قد سألوا نبيَّهم، فقالوا: أرنا الله جَهْرةً! عليَّ بأعداء الله؛ إني سائِلهم عن تُرْبة الجنَّة وهي الدَّرْمَك». فلمَّا جاؤوا قالوا: يا أبا القاسم، كم عدد خَزَنة جهنَّم؟ قال: «هكذا وهكذا». في مرةٍ عشرة، وفي مرة تسع[٥]. قالوا: نعم. قال لهم النبيُّ ﷺ: «ما تُرْبَةُ الجنَّة» قال: فسكتوا هنيهةً، ثمَّ قالوا: أَخُبْزَةٌ يا أبا القاسم؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «الخبزُ من الدَّرْمَك».

قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريب، إنَّما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد، عن الشَّعْبيّ، عن جابر[٦].

وذكر ابنُ وهب قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنَّم: «مابين مَنكِبَيْ أحدِهم، كما بين المشرق والمغرب»[٧].

وقال ابنُ عباس: مابين مَنكِبي الواحد منهم مسيرةُ سنة، وقوةُ الواحد منهم أنْ يضربَ بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعينَ ألفَ إنسانٍ في قعر جهنَّم[٨].

---

(١) في النسخ الخطية: عن عبد الله. والمثبت من (م) وسنن الترمذي.

(٢) في النسخ الخطية: نسأله.

(٣) في (ظ) و(ي): وبماذا، وفي نسخة كما في حاشية (م) وسنن الترمذي: وبم.

(٤) في سنن الترمذي: أيغلب.

(٥). في(د) و(م) و(ي): تسعة.

(٦) سنن الترمذي (٣٣٢٧)، وهو عند أحمد مختصرا (١٤٨٨٣). قال السندي ـ كما في حاشيته على المسند ـ: الدرمك: هو الدقيق الخالص، والخبزة: هي العجين.

(٧) سلف ص٩٥ من هذا الجزء.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٣ ، وسلف ص٩٥ من هذا الجزء.

قلت: والصحيح إنْ شاء الله أنَّ هؤلاءِ التسعةَ عَشَرَ، هم الرؤساء والنقباء، وأمَّا جملتُهم فالعبارة[١] عنها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زِمام، مع كل زِمام سبعون ألفَ مَلَك يجرُّونها»[٢]. وقال ابنُ عباس وقتادة والضَّحَّاك: لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهلٍ لقريش: ثَكِلتكُم أمهاتُكم! أسْمعُ ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خَزَنَةَ جهنَّم تسعةَ عشر، وأنتم الدَّهْم[٣] ـ أي: العَدد ـ والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أنْ يبطشوا بواحد منهم![٤] قال السُّدِّيّ: فقال أبو الأشد[٥] بن كَلَدة الجُمحيّ: لايهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنَّة. يقولها مستهزئاً.

في رواية: أنَّ الحارث بن كَلَدة قال: أنا أكفيكُم سبعةَ عشر، واكفوني أنتم اثنين[٦].

وقيل: إنَّ أبا جهل قال: أفيعجز كلُّ مئةٍ منكم أنْ يبطشوا بواحدٍ منهم، ثمَّ

(١) بعدها في (م): تعجز.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٤٢).

(٣) في النسخ الخطية: الدهماء، والمثبت من (م).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤١٧ ، وأخرجه عن ابن عباس وقتادة الطبريُّ ٢٣/ ٤٣٦ .

(٥) في النسخ ما عدا (ي): الأسود. والمثبت من (ي)، وهو موافق للنكت والعيون ٦/ ١٤٥ ـ وعنه نقل المصنف ـ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٧ . وذكر الخبر الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٨٤ ووقع فيه: أبو الأشدين، وكذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٠٨ وقال: قال مقاتل اسمه: أسيد بن كلدة، وقال غيره: كلدة بن خلف الجمحي.

(٦) لم نقف عليها من قول الحارث بن كلدة، والرواية في تفسير البغوي ٤/ ٤١٧ ، والقائل فيه: أبو الأشد أسيد بن كلدة، وذكر الرواية الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٤ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٠٤ ، وعندهما: أبو الأشد ابن أسيد بن كلدة الجمحي، وذكر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٣-٢٠٤ أن القائل رجل من بني جمح. كان يكنى: أبا الأشدين.

تخرجون من النار[١]؟ فنزل قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكةً؛ لأنَّهم خلافُ جنس المعذَّبين من الجنّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذُ المجانِس من الرأفة والرقَّة، ولا يسترِوحون إليهم، ولأنَّهم أقوم خلق الله بحقِّ الله وبالغضب له، فتُؤمَن هوادتهم، ولأنَّهم أشدُّ خلق الله بأساً، وأقواهم بطشاً[٢].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: بليَّة. ورُوي عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلَّا عذاباً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٣-١٤]. أي: جعلنا ذلك سببَ كفرهم، وسببَ العذاب.

وفي «تِسْعَةَ عَشَرْ» سبعُ قراءات: قراءة العامة: «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وطلحة بن سليمان: «تِسْعَةَ عْشَرَ» بإسكان العين. وعن ابن عباس: «تِسْعَةُ عَشَر» بضم الهاء[٣]. وعن أنس بن مالك: «تِسْعَةُ وعَشَرْ»[٤]. وعنه أيضاً: «تِسْعَةُ وعْشُر». وعنه أيضاً: «تِسْعَةَ أَعْشُرَ»[٥]. ذكرها المهدويُّ وقال: من قرأ: «تِسْعَةَ عْشَر» أسكنَ العين لتوالي الحركات. ومن قرأ: «تِسْعَةُ وعَشَرْ» جاء به على الأصل قبل التركيب، وعطفَ عشراً على تسعة، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وأسكنَ الراء من عشر على نيَّة السكوت عليها.

ومن قرأ: «تِسْعَةُ عَشَر» فكأنَّه من التداخل؛ كأنَّه أراد العطفَ، وترك التركيب، فرفع هاءَ التأنيث، ثمَّ راجعَ البناء وأسكن.

وأما «تِسعةُ أَعْشُر»: فغير معروف، وقد أنكرها أبو حاتم. وكذلك «تِسْعَةُ وَعْشُر»

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٨٤ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٣٦ عن ابن عباس، وفيه: أفيعجز كل عشرة.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٤ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٣٩ ، وقراءة أبي جعفر ـ وهي من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٧٩ .

(٤) ذكرها السمين في الدر المصون ١٠/ ٥٤٨ نقلاً عن المهدوي دون نسبة، وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٣٩ عن أنس أنه روي عنه: «تسعةُ وَعْشَرَ»، برفع الهاء، وبعدها واو مفتوحة، وعين مجزومة.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٣٨-٣٣٩ .

لأنَّها محمولةٌ على «تِسعَةُ أَعْشَر»، والواو بدلٌ من الهمزة، وليس لذلك وجه عند النحويين[١].

الزمخشريّ: وقرِئ: «تِسْعَةُ أَعْشُر» جمع عَشِير، مثْل يَمين وأَيْمُن[٢].

قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ليوقن الذين أُعطوا التوارةَ والإنجيل أنَّ عِدَّة[٣] خَزَنة جهنم موافقة لما عندهم؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم[٤].

ثم يَحتمل أنَّه يريدُ الذين آمنوا منهم، كعبدالله بن سلَام. ويَحتمل أنَّه يريد الكلّ.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بذلك؛ لأنَّهم كلَّما صدَّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيماناً لتصديقهم بعدد خَزَنة جهنَّم.

﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي: ولا يشكّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾أي: أُعطوا الكتاب ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المصدِّقون من أصحاب محمدٍ ﷺ في أنَّ عدد[٥] خزنة جهنَّم تسعةَ عشر.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾أي: في صدورهم شكٌّ ونفاق من منافقي أهلِ المدينة، الذين ينجُمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة، ولم يكنْ بمكَّة نفاقٌ، وإنَّما نَجم بالمدينة.

وقيل: المعنى، أي: وليقولَ المنافقون الذين يَنْجُمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة[٦]. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: اليهود والنصارى[٧].

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ يعني بعدد خزنة جهنَّم.

---

(١) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٣٩.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٤، وينظر الدر المصون ١٠/ ٥٤٨.

(٣) في النسخ الخطية: عدد.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٢٣/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) في (م): عدة.

(٦) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٥.

(٧) زاد المسير ٨/ ٤٠٩.

وقال الحسين بن الفضل: السورةُ مكِّيَّةٌ، ولم يكن بمكَّة نفاق؛ فالمرض في هذه الآية الخلاف، و«الكَافِرُونَ» أي: مشركو العرب. وعلى القول الأوَّل أكثر المفسرين.

ويجوز أنْ يُراد بالمرض: الشكُّ والارتياب؛ لأنَّ أهل مكَّةَ كان أكثرهم شاكِّين، وبعضُهم قاطعين بالكذب[١].

وقوله تعالى إخباراً عنهم: «مَاذَا أَرَادَ اللهُ» أي: ما أراد «بِهَذَا» العدد الذي ذكره حديثاً، أي ما هذا من الحديث[٢]. قال الليث: المَثَل الحديث؛ ومنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] أي: حديثُها والخبر عنها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كإضلال الله أبا جهلٍ وأصحابَه المنكرين لخَزَنة جهنم؛ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي: يخزي ويعمي من يَشَاءُ ﴿وَيَهْدِى﴾ أي: ويُرْشِد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ كإرشادِ أصحاب محمدٍ ﷺ.

وقيل: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ عن الجنَّة من يَشَاءُ، ويَهْدي إليها من يَشَاء.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يدري عددَ ملائكة ربِّك الذين خلقَهم لتعذيب أهل النار «إِلَّا هُوَ»، أي: إِلَّا الله جلَّ ثناؤه. وهذا جوابٌ لأبي جهلٍ حين قال: أمَا لمحمدٍ من الجنود إِلَّا تسعةَ عشر[٣]!

وعن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقْسِم غنائم حُنين، فأتاه جبريلُ فجلس عنده، فأتى مَلَكٌ فقال: إنَّ ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشيَ النبيُّ ﷺ أنْ يكون شيطاناً، فقال: «يا جبريل أتعرفه»؟ فقال: هو مَلَك، وما كلُّ ملائكةِ ربِّك أعرف[٤].

وقال الأوزاعيُّ: قال موسى: يا ربّ! من في السماء؟ قال: ملائكتي. قال: كم

(١) الكشاف ٤/ ١٨٥.

(٢) زاد المسير ٨/ ٤٠٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤١٧. ونسبه لمقاتل.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩: وفيه حسين بن الحسن الأشقر، وهو منكر الحديث، ورمي بالكذب، ووثقه ابن حبان. اهـ. وقال ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٧٢: وهذا حديث منكر بهذا الإسناد، وما أعلم رواه غير حسين الأشقر، عن حسين أبو محذورة الوراق. والبلاء عندي من الحسين الأشقر؛ لأن أبا محذورة لا بأس به.

عدَّتهم يا ربّ؟ قال: اثنا[(١)] عشر سِبْطاً. قال: كم عدَّةُ كلِّ سِبط؟ قال: عدد التراب[(٢)]. ذكرهما الثعلبيّ.

وفي الترمذيّ عن النبيّ ﷺ: «أَطَّت السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه لله ساجداً»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يعني الدلائلَ والحججَ والقرآن. وقيل: «وَمَا هِيَ» أي: وما هذه النارُ التي هي سقر «إِلَّا ذِكْرَى» أي: عِظَةٌ «لِلْبَشَرِ» أي: للخلق[(٤)].

وقيل: نارُ الدنيا تذكرةٌ لنار الآخرة. قاله الزجاج[(٥)].

وقيل: أي: ما هذه العِدَّةُ «إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ»، أي: ليتذكَّروا ويعلموا كمالَ قدرة الله تعالى، وأنَّه لا يحتاجُ إلى أعوانٍ وأنصارٍ؛ فالكنايةُ على هذا في قوله تعالى: «وَمَا هِيَ» ترجعُ إلى الجنودِ؛ لأنَّه أقربُ مذكور.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ قال الفرَّاء: «كَلَّا» صلةٌ للقسم، التقدير: إي والقمر.

---

(١) في (خ) و(د) و(م): اثني.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٢٥)، وذكره الآلوسي في روح المعاني ١٢٨/٢٩ ، واللفظ فيهما: «يا رب: من معك في السماء». قال الآلوسي: وفي صحة هذا نظر، وإن صح فصدره من المتشابه.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف بتمامه ٤٢٨/٥-٤٢٩ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٤٢٣/٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢٤٨/٥ .

وقيل: المعنى حقّاً والقمر فلا يوقَفُ على هذين التقديرين على «كَلَّا»، وأجاز الطَّبريُّ الوقف عليها، وجعلها ردًّا للذين زَعموا أنَّهم يُقاومون خَزَنة جهنم، أي: ليس الأمرُ كما يقول من زعم أنَّه يُقاوم خزنَة النَّار. ثم أقسمَ على ذلك جلَّ وعزَّ بالقمر وبما بعده، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ أي: وَلَّى[1]، و كذلك «دَبَرَ».

وقرأ نافعٌ وحمزةُ وحفص: «إِذْ أَدْبَرَ»، الباقون: «إِذَا» بألف، و«دَبَرَ» بغير ألف[2]، وهما لغتان بمعنىً؛ يقال: دَبَرَ وأدبر، وكذلك قَبِل الليل وأقبل. وقد قالوا: أمسِ الدابرِ والمدبرِ؛ قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَميّ:

وَلَقَدْ قَتَلْتُكُمُ[3] ثُنَاءَ وَمَوْحَداً ... وتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويُروَى: المدبِر[4]. وهذا قولُ الفرَّاء والأخفش[5].

وقال بعض أهل اللغة: دَبَر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار.

وقال مجاهد: سألتُ ابنَ عباس عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا دَبَرَ﴾ فسكت حتى إذا دَبَرَ قال: يا مجاهد، هذا حينُ دبر الليل[6].

وقرأ محمد بن السميفع: «وَالْلَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ» بألفين، وكذلك في مصحف عبد الله وَأُبَيّ بألفين[7].

وقال قُطرب: من قرأ: «دَبَرَ»، فيعني: أَقْبَلَ، من قول العرب: دَبَرَ فلانٌ: إذا جاء

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٣/ ٤٤١-٤٤٢، وينظر ما سلف حول الوقوف على كلا عند تفسير قوله تعالى ﴿كلَّا سنكتب ما يقول...﴾ [مريم: ٧٩] ١٣/ ٥٠٨.

(٢) السبعة ص٦٥٩، والتيسير ص٢١٦.

(٣) في (ظ) و(م): قتلناكم، وفي (ز) قبلتكم، والمثبت من (خ) و(د) و(ي). وهو الموافق للمصادر.

(٤) الصحاح (دبر)، والبيت في أدب الكاتب ص٥٦٧ بلفظ الدابر، وفي الأغاني ٥/ ١٠٠، وخزانة الأدب ٥/ ٤٤٨ بلفظ: المدبر.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٤، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٧١٩.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٣. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٧.

(٧) قراءة ابن مسعود وأُبيّ في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٤.

من خلفي. قال أبو عمرو: وهي لغةُ قريش[١].

وقال ابنُ عباس في روايةٍ عنه: الصواب: «أَدْبَرَ»، إنَّما يَدْبَرُ ظهر البعير[٢]. واختار أبو عُبيد: «إذا دَبَرَ[٣]»، قال: لأنَّها أكثرُ موافقةً للحروف التي تليه؛ ألَا تراه يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، فكيف يكون أحدهما: «إذ»، والآخر: «إذا»، وليس في القرآن قَسَمٌ تعقبُه «إذ»، وإنَّما يتعقبه «إذا»[٤].

ومعنى «أَسْفَرَ»: ضاء. وقراءةُ العامَّة: «أَسْفَرَ» بالألف. وقرأ ابنُ السَّمَيْفَع: «سَفَرَ»[٥]. وهما لغتان. يقال: سَفَر وجهُ فلان وأسفر: إذا أضاء. وفي الحديث: «أسْفِرُوا بالفجر، فإنه أعظمُ للأجر»[٦] أي: صَلُّوا صلاةَ الصبح مُسْفِرين، ويقال: طَوِّلُوها إلى الإسفار، والإسفارُ: الإنارة، وأسفر وجهُه حسناً، أي: أشرق، وَسَفَرَتِ المرأةُ: كشفتْ عن وجهها، فهي سافِر. ويجوز أنْ يكون: سَفَر الظلامَ، أي: كنسَه، كما يُسفَر البيت؛ أي: يُكنَس، ومنه السَّفير: لِمَا سقطَ من ورق الشجر وتَحاتَّ؛ يقال: إنَّما سُمِّي سفيراً؛ لأنَّ الريح تَسفِره، أي: تكنُسه. والمِسْفَرَةُ: المِكْنَسة[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جوابُ القسم، أي: إنَّ هذه النار «لَإِحْدَى الكُبَرِ»، أي: لإحدى الدواهي.

وفي تفسير مقاتل: «الكُبَر»: اسمٌ من أسماء النار.

---

(١) تفسير البغوي ٤/٤١٨ . وينظر تفسير الطبري ٢٣/٤٤٢ .

(٢) ذكرها الرازي في تفسيره ٣٠/٢٠٨ . ودَبِرَ البعيرُ يَدْبَرُ (كفرح): جُرِحَ وتقرَّح ظهرُه. معجم متن اللغة (دبر).

(٣) في (ظ) و(م): أدبر. وهو خطأ.

(٤) ذكر نحو قول أبي عبيد النحاسُ في إعراب القرآن ٥/٧١ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/٣٩٧ ، والبحر المحيط ٨/٣٧٧ .

(٦) أخرجه الترمذي (١٥٤)، والنسائي في المجتبى ١/٢٧٢ عن رافع بن خَديج، وهو بنحوه عند أحمد برقم (١٥٨١٩).

(٧) الصحاح (سفر).

وروي عن ابن عباس: «إِنَّهَا» أي: إنَّ تكذيبَهم بمحمدٍ ﷺ «لَإِحْدَى الكُبَرِ»، أي: لَكبيرةٌ من الكبائر.

وقيل: أي: إنَّ قيامَ الساعة لإحدى الكُبَر. والكُبَر: هي العظائمُ من العقوبات؛ قال الراجز:

يـاابنَ الـمُـعَـلَّـى نَـزلـتْ إحدى الـكُـبَـرْ داهـيـةُ الـدهْـر وصَـمَّـاءُ الـغَـبَـرْ[1]

وواحدة «الكُبَر»: كُبرى، مثل: الصُّغْرَى والصُّغَر، والعُظْمى والعُظَم[2].

وقرأ العامة «لَإِحْدَى»، وهو اسمٌ بني ابتداءً للتأنيث، وليس مبنياً على المذكَّر؛ نحو: عُقْبَى وأخرى، وألفُه ألفُ قطع، لا تذهب في الوصل.

ورَوى جرير بن حازم عن ابن كثير: «إِنَّهَا لَحْدَى الكُبَر» بحذف الهمزة[3].

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ يريد النَّار، أي: إنَّ هذه النار الموصوفة «نَذِيْراً لِلْبَشَرِ»، فهو نصبٌ على الحال من المضمر في «إِنَّهَا» قاله الزَّجَّاج[4]. وذُكِّر؛ لأنَّ معناه معنى العذاب، أو أراد: ذاتَ إنذارٍ؛ على معنى النَّسب؛ كقولهم: امرأةٌ طالقٌ وطاهر.

وقال الخليل: النذير: مصدرٌ كالنكير، ولذلك يُوصف به المؤنث[5].

وقال الحسن: والله ما أُنذر الخلائق بشيءٍ أدهى منها. وقيل: المرادُ بالنذير

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٤٥-١٤٦ ، ووقع في (خ) و(د) و(ز) و(ي): العبر، وفي (ظ): العرب، وفي (م) والنكت والعيون: الغير. والمثبت من المصادر الآتية. والرجز لعبد الله بن الأعور الكذاب الحرمازي كما في كتاب الحيوان للجاحظ ٤/ ١٤٦ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٦٧١ ، والمستقصى للزمخشري ١/ ٤٢١ . وداهية الدهر: الحية لأنها ربما سكنت بقرب ماء، فتحمي ذلك الموضع، وربما غبر [أي: بقي] ذلك الماء في المنقع حيناً وقد حمته، وفي القاموس (غبر): داهية الغَبَر: داهية لا يُهتدى لمثلها.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٩٧ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٥ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ٢٤٩ ، وما بعده منه.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١٨ .

محمدٌ ﷺ(١)، أي: قم نذيراً للبشر، أي: مُخَوِّفاً لهم، فـ «نَذيراً» حالٌ من «قُمْ» في أوّل السورة حين قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قاله(٢) أبو علي الفارسيّ وابنُ زيد(٣)، ورُوي عن ابن عباس(٤) وأنكره الفرَّاء(٥).

ابن الأنْباري: وقال بعضُ المفسرين: معناه: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر، قُمْ نَذِيراً لِلْبَشَر. وهذا قبيح؛ لأنَّ الكلامَ قد طال فيما بينهما(٦).

وقيل: هو من صفة الله تعالى. رَوى أبو معاوية الضرير: حدَّثنا إسماعيلُ بن سميع، عن أبي رَزين: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ» قال: يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا لكم منها نذيرٌ فاتقوها(٧). و«نَذِيراً» على هذا نصب على الحال، أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ مُنْذِراً بذلك البشر(٨).

وقيل: هو حالٌ من «هو» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. وقيل: هو في موضع المصدر، كأنَّه قال: إنذاراً للبشر(٩). قال الفرَّاء: يجوزُ أنْ يكون النذير بمعنى الإنذار، أي: أنذر إنذاراً، فهو كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [تبارك:١٧] أي: إنذاري(١٠). فعلى هذا يكون راجعاً إلى أوّل السورة، أي: «قُمْ فَأَنْذِرْ»، أي: إنذاراً.

وقيل: هو منصوبٌ بإضمار فعل(١١). وقرأ ابن أبي عبْلة: «نَذِيرٌ» بالرفع، على

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٤٧ .

(٢) في (م): قال.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٤٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٨ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٨٦ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٢٠٥ .

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٥ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٤٦ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤١٨ .

(٩) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٤ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٥ .

(١١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٧٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٥ .

إضمار هو[١] وقيل: أي: إنَّ القرآنَ نذيرٌ للبشر، لِمَا تضمَّنه من الوعد والوعيد[٢].

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ اللام متعلقةٌ بـ «نذيراً»، أي: نذيراً لمن شاءَ منكم أنْ يتقدَّم إلى الخير والطاعة، أو يتأخَّر إلى الشرِّ والمعصية؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾، أي: في الخير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ عنه.

قال الحسن: هذا وعيدٌ وتهديدٌ وإنْ خرج مخرجَ الخبر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣] [الكهف: ٢٩].

وقال بعضُ أهل التأويل: معناه لمنْ شاء اللهُ أنْ يتقدَّم أو يتأخَّر؛ فالمشيئةُ متَّصلةٌ بالله جلَّ ثناؤه، والتقديمُ الإيمان، والتأخير الكفر.

وكان ابنُ عباس يقول: هذا تهديدٌ وإعلامٌ أنَّ من تقدَّم إلى الطاعة والإيمان بمحمدٍ ﷺ؛ جُوزيَ بثوابٍ لا ينقطع، ومن تأخَّر عن الطاعة وكذَّب محمداً ﷺ؛ عُوقِب عقاباً لا ينقطع.

وقال السُّديُّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى النَّار المتقدِّم ذكرها، «أَوْ يَتَأَخَّرَ» عنها إلى الجنة[٤].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مرتهنةٌ بكسبها، مأخوذةٌ بعملها، إمَّا خلَّصها، وإمَّا أَوْبَقَها. وليست «رَهِيْنَةٌ» تأنيثَ رهين في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنَّه لو قُصدت الصِّفةُ لقيل: رهين؛ لأنَّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكَّر والمؤنث. وإنَّما هو اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنَّه قيل: كلُّ نفسٍ بما كسبت رهن[٥]؛ ومنه بيتُ الحماسة:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٨، ونسبها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٥، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٦ لأُبيّ.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٤٧.

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٨.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٤٧، وزاد المسير ٨/ ٤١٠.

(٥) في (ز) و(ظ) و(ي): رهين، وسقطت العبارة من (د)، والمثبت من (خ) والكشاف ٤/ ١٨٦ والكلام منه.

أَبَعْدَ الذي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ ... رهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرابٍ وجَنْدَلِ[(١)]

كأنَّه قال: رَهْن رَمْسٍ. والمعنى: كلُّ نفسٍ رهنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك[(٢)] ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنَّهم لا يُرْتَهنون بذنوبهم. واختُلِفَ في تعيينهم؛ فقال ابن عباس: الملائكة[(٣)].

علي بن أبي طالب: أولادُ المسلمين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم[(٤)].

الضَّحَّاك: الذين سبقت لهم من الله الحسنى[(٥)]، ونحوه عن ابن جريج؛ قال: كلُّ نفسٍ بعملِها محاسبة إلَّا أصحابَ اليمين؛ وهم أهلُ الجنة، فإنَّهم لا يحاسبون[(٦)]. وكذا قال مقاتلٌ أيضاً: هم أصحابُ الجنَّة الذين كانوا عن يمين آدمَ يوم الميثاق، حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنَّة ولا أُبالي[(٧)].

وقال الحسن وابنُ كَيْسان: هم المسلمونَ المخلصون ليسوا بمرتَهنين[(٨)]؛ لأنَّهم أدَّوا ما كان عليهم.

وعن أبي ظَبْيان عن ابن عباس قال: هم المسلمون[(٩)].

وقيل: إلَّا أصحاب الحقِّ وأهل الإيمان. وقيل: هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانِهم.

---

(١) البيت لعبد الرحمن بن زيد العدوي، وهو في الحماسة البصرية ١/ ٢١٧، والبيان والتبيين ٣/ ٢٥٨، والأغاني ٥/ ١٠٤ والنَّعْفُ: ما انحدر من حزونة الجبل، وارتفع من منحدر الوادي. القاموس (نعف). والرَّمْس: القبر، والجندل: الحجارة.

(٢) الكشاف ٤/ ١٨٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٤٩-٤٥٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٥.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٨.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٤٨.

(٧) تفسيرالبغوي ٤/ ٤١٨.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٨.

(٩) ذكره عن ابن عباس السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٥ وعزاه لابن المنذر.

وقال أبو جعفر الباقر: نحن وشيعتُنا أصحابُ اليمين، وكلُّ من أبغَضنا أهلَ البيت، فهم المرتهنون(١).

وقال الحكم: هم الذين اختارَهم الله لخدمته، فلم يَدخلوا في الرهن، لأنَّهم خُدَّام الله وصفوتُه، وكسبُهم لم يضرَّهم.

وقال القاسم: كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بكسبِها من خيرٍ أو شر، إلَّا من اعتمدَ على الفضل والرحمة، دون الكسب والخدمة، فكلُّ من اعتمدَ على الكسب؛ فهو مرهونٌ، وكلُّ من اعتمدَ على الفضل، فهو غيرُ مأخوذٍ به(٢).

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: في بساتين ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسألون ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي: أدخَلكم ﴿فِى سَقَرَ﴾ كما تقول: سلكتُ الخيط في كذا، أي: أدخلته فيه.

قال الكلبي: فيَسألُ الرجلُ مِنْ أهل الجنَّة الرجلَ مِنْ أهل النَّار باسمه، فيقول له: يا فلان.

وفي قراءة عبد الله بن الزُّبير: «يا فلانُ ما سَلَكَك في سَقَرَ»؟ وعنه قال: قرأ عمرُ ابن الخطاب: «يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ»(٣)، وهي قراءةٌ على التفسير، لا أنَّها قرآنٌ كما زعم من طعن في القرآن؛ قاله أبو بكر بن الأنباري.

وقيل: إنَّ المؤمنين يَسألون الملائكةَ عن أقربائهم، فتسألُ الملائكةُ المشركين فيقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾. قال الفرَّاء: في هذا ما يُقوِّي أنّ أصحاب اليمِين

---

(١) ذكره مختصراً الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ١١٨ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤١٨ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٣١ ، وفيه أن قراءة ابن الزبير ﷺ: «يا فلان ما سلككم في سقر»، بالجمع كقراءة عمر ﷺ، وكذا في الدر المنثور ٦/ ٢٨٥ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٥ بالإفراد عن الصحابيين رضي الله عنهما. وذكرها النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٧٣ عن الزبير فقط بالإفراد.

الوِلدان؛ لأنَّهم لا يعرفون الذنوب(١).

﴿قَالُوا۟﴾ يعني أهلَ النار: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: المؤمنين الذين يُصلُّون.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: لم نكُ نتصدَّق.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾أي: كنَّا نخالطُ أهلَ الباطل في باطلهم. وقال ابنُ زيد: نخوضُ مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم ـ لعنَهم الله ـ كاهنٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، ساحر.

وقال السُّدِّيُّ: أي: وكنَّا نُكَّذب مع المكذّبين. وقال قتادة: كلما غَوَى غاوٍ غَوَينا معه. وقيل معناه: وكنَّا أتباعاً ولم نكنْ متبوعين(٢).

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: لم نك نصدّق بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: جاءَنا وَنزَل بنا الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ هذا دليلٌ على صحَّة الشفاعة للمذنبين؛ وذلك أنَّ قوماً من أهل التوحيد عُذِّبوا بذنوبهم، ثم شُفِعَ فيهم، فرحمَهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأُخرجوا من النَّار(٣)، وليس للكفار شفيعٌ يَشفع فيهم.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: يشفعُ نبيُّكُمُ ﷺ رابعَ أربعة: جبريل، ثمَّ إبراهيم، ثمَّ موسى أو عيسى، ثمَّ نبيُّكم ﷺ، ثمَّ الملائكة، ثمّ النبيُّون، ثمَّ الصدِّيقون، ثمَّ الشهداء، ويبقى قومٌ في جهنم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ قال عبدُ الله بن مسعود: فهؤلاء هم الذين يبقَون في جهنم. وقد ذكرنا إسنادَه في كتاب «التذكرة»(٤).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٥ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٤٨ .

(٣) ينظر حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٤) ص٣٤٣ ، والحديث أخرجه مطولاً الطبراني في المعجم الكبير (٩٧٦١)، والحاكم في المستدرك =

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما لأهل مكّة قد أعرضوا، وولّوا عما جئتهم به[(١)]. وفي تفسير مقاتل: الإعراضُ عن القرآن من وجهين: أحدُهما: الجحودُ والإنكار، والوجه الآخر: ترك العمل بما فيه.

و«مُعْرِضِينَ» نصب على الحال من الهاء والميم في «لَهُمْ»، وفي اللام معنى الفعل؛ فانتصابُ الحال على معنى الفعل[(٢)].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: كأنَّ هؤلاء الكفار في فرارهم من محمدٍ ﷺ ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية[(٣)].

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر بفتح الفاء[(٤)]، أي: مُنَفَّرةٌ مذعورة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. الباقون بالكسر، أي: نافرة. يقال: نَفَرت واسْتَنفرت بمعنىً؛ مثل عَجِبت واسْتَعجبت، وسَخِرت واسْتَسخرت[(٥)]، وأنشد الفرَّاء:

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ ... فِي إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ[(٦)]

= ٤/ ٤٩٨ ، ٦٠٠ . وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: ما احتجا بأبي الزعراء. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٠ : وهو موقوف مخالف للحديث الصحيح، وقول النبي ﷺ: أنا أول شافع.

(١) في (د) و(م) : جئتم به.

(٢) قال الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ١٦٦ : والتقدير: أيُّ شيء ثبت لهم معرضين عن التذكرة.

(٣) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٨٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٧ .

(٤) السبعة ص٦٦١ ، والتيسير ص٢١٦ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٤٨ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٦ ، وهو أيضاً في كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٩٣ ونسبه لنافع بن لقيط الفقعسي. وفيه: اربط بدل: أمسك قال ابن قتيبة: يروى: أزجر حمارك. اهـ. وغرَّب: اسم جبل دون الشام في ديار بين كلب. معجم البلدان ٤/ ١٩٢ .

قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ﴾ أي: نفرتْ وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من رُماة يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: إنَّ القَسْوَرَ الرامي، وجمعه القَسْوَرَة[١]. وكذا قال سعيدُ بن جبير وعكرمة ومجاهدٌ وقتادة والضَّحَّاك وابنُ كَيْسان: القَسْوَرة: هم الرُّماةُ والصيَّادون[٢]، ورواه عطاءٌ عن ابن عباس وأبو ظَبيان[٣] عن أبي موسى الأشعري.

وقيل: إنَّه الأسد؛ قاله أبو هريرة وابن عباس أيضاً[٤].

ابن عرفة: من القَسْر[٥]؛ بمعنى: القَهْر، أي: إنه يَقْهَرُ السِّباع، والحُمُر الوحشيَّة تهربُ من السباع.

وروى أبو حمزة[٦] عن ابن عباس قال: ما أعلم القسورةَ الأسَد في لغة أحدٍ من العرب، ولكنها عُصَب الرجال: قال: فالقسورةُ جمعُ الرجال، وأنشد:

يا بنتُ كُوني خَيْرةً لِخَيِّرهْ ... أخوالُها الجنُّ وأهلُ القَسْوَرَهْ

وعنه: رِكْزُ الناس، أي: حِسُّهم وأصواتهم[٧].

وعنه أيضاً: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من حبال الصيادين[٨].

وعنه أيضاً: القسورةُ بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: الرماة[٩]، وبلسان

---

(١) في النسخ: القسورة الرامي، وجمعه: قسورة. وفي اللباب لابن عادل ٩/ ٥٣٧ : القسورة الرامي، وجمعه قساوره. والمثبت من فتح القدير ٥/ ٣٣٣، وهو قول الليث كما ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ٣٩٨ وخطَّأه، وينظر تاج العروس (قسر).

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٥٧-٤٥٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٩ ، وزاد المسير ٨/ ٤١٣ .

(٣) في (د) و(ظ): حبان، وفي (خ) و(ز) و(ي): هبان. والمثبت من تفسير الطبري ٢٣/ ٤٥٥ . وقولهما مخرج فيه.

(٤) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٤٥٩-٤٦٠ .

(٥) تاج العروس (قسر).

(٦) في (م) و(ي): جمرة، والمثبت من (خ) و(د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لتفسير الطبري ٢٣/ ٤٥٨ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٥٨-٤٥٩ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤١٩ .

(٩) في تفسير الطبري ٢٣/ ٤٦٠ : بلسان الحبشة: القسورة. وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٦ مختصراً وعزاه لابن أبي حاتم.

فارس: شير، وبلسان النَّبَط: أريا.

وقال ابن الأعرابي: القَسْوَرَةُ: أوَّلُ الليل، أي: فرَّتْ من ظُلمة الليل(١). وقاله عِكرمةُ أيضاً. وقيل: هو أوَّلُ سواد الليل، ولا يُقال لآخر سواد الليل: قَسْورة.

وقال زيد بن أسلم: مِنْ رجالٍ أقوياء، وكلُّ شديدٍ عند العرب فهو قَسْوَرَة وقَسْوَر(٢). وقال لبيد بن ربيعة(٣):

إذا ما هَتَفْنا هَتفةً في نَدِيِّنا أتانا الرجالُ العابدونَ(٤) القَساوِرُ

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي: يُعطى كُتباً مفتوحة؛ وذلك أنَّ أبا جهل وجماعةً من قريش قالوا: يا محمد! ايتنا بكتبٍ من ربِّ العالمين مكتوبٍ فيها: إنِّي قد أرسلتُ إليكم محمداً، ﷺ. نظيره: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقال ابن عباس: كانوا يقولونَ: إنْ كان محمدٌ صادقاً فليصبحْ عند كلِّ رجلٍ منَّا صحيفةٌ فيها براءته وأمنهُ من النار(٥).

قال مطر الورَّاق: أرادوا أنْ يُعطَوا بغير عمل.

وقال الكلبيّ: قال المشركون: بلغنا أنَّ الرجلَ من بني إسرائيل كان يُصبِح عند رأسه مكتوباً ذنْبُه وكفارتُه، فأْتِنا بمثل ذلك(٦).

---

(١) ذكره بنحوه الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ٣٩٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤١٩ .

(٣) ديوانه ص٣٥١ .

(٤) في (م): العائدون، وكذا في تفسير ابن عادل ١٩/ ٥٣٧ ، ووقع في الديوان بلفظ: الصائدون، وفي المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٩ ، والدر المصون ١٠/ ٥٥٨ : العاندون، والمثبت من النسخ الخطية وفتح القدير ٥/ ٣٣٣ .

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٨ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٠ . وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٨ دون نسبة، وقال: وهذا من الصحف المنشَّرة بمعزل، إلَّا أن يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة.

وقال مجاهد: أرادوا أن يَنزل على كلٍّ واحدٍ منهم كتاب فيه: من الله عزَّ وجلَّ إلى فلان ابن فلان[١].

وقيل: المعنى أنْ يُذكرَ بِذكرٍ جميل، فجُعِلَت الصحف موضعَ الذكرِ مجازاً. وقالوا: إذا كانت ذنوبُ الإنسان تكتبُ عليه، فما بالُنا لا نرى ذلك؟

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس يكون ذلك. وقيل: حقًّا. والأوَّل أجود؛ لأنَّه ردٌّ لقولهم.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: لا أُعطِيهم ما يتمنَّون؛ لأنَّهم لا يخافون الآخرة، اغتراراً بالدنيا.

وقرأ سعيدُ بن جبير: «صُحْفاً مُنْشَرَةً» بسكون الحاء والنون[٢]، فأمَّا تسكين الحاء فتخفيفٌ، وأمَّا تسكينُ[٣] النون فشاذ. إنما يُقَال: نشرتُ الثوبَ وشبهه، ولا يقال أنشَرت. ويجوزُ أنْ يكون شبَّه الصحيفةَ بالميت، كأنَّها ميتةٌ بطيِّها، فإذا نُشِرت حَييت، فجاء على أنشر اللهُ الميت؛ كما شبَّه إِحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه: نشر الله الميت. فهي لغةٌ فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقًّا إنَّ القرآنَ عظةٌ. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اِتَّعَظَ به. ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ أي: وما يتَّعِظون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكُّر إلَّا بمشيئةِ اللهِ ذلك لهم.

وقراءة العامة: «يَذْكُرُونَ» بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٦١ مختصراً.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٥، والمحتسب ٢/ ٣٤٠.

(٣) لفظة: تسكين. ليست في (م)

(٤) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٤٠.

يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾. وقرأ نافعٌ ويعقوب بالتاء[١]، واختارَه أبو حاتم لأنَّه أعمّ، واتَّفقوا على تخفيفها.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في الترمذيّ وسنن ابن ماجه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أهلٌ أنْ أُتَّقى، فمن اتقاني[٢] فلم يجعلْ معي إلهًا؛ فأنا أهلٌ أنْ أغفر له». لفظُ الترمذيّ، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ غريب[٣].

وفي بعض التفسير: هو أهلُ المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهلُ المغفرة أيضًا للذنوب الصغار، باجتنابِ الذنوب الكبار. وقال محمدُ بن نصر: أنا أهلٌ أنْ يتَّقيَني عبدي، فإنْ لم يفعلْ، كنتُ أهلاً أنْ أغفرَ له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم[٤].

ختمت السورة والحمد لله وحده

---

(١) قراءة نافع في السبعة ص٦٦٠ ، والتيسير ص٢١٦ ، وقراءة يعقوب في تفسير البغوي ٤/ ٤٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٨١ ، وهي غير القراءة المشهورة عنه.

(٢) في النسخ الخطية: اتقى. والمثبت من (م) وسنن الترمذي.

(٣) سنن الترمذي (٣٣٢٨)، دون لفظة حسن، والعبارة في تحفة الأشراف ١/ ١٣٩ موافقةٌ لعبارة المصنف. وتتمة كلام الترمذي: وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت. اهـ. وأخرجه ابن ماجه (٤٢٩٩)، وهو أيضاً عند أحمد (١٢٤٤٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٦).

(٤) قوله: وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم، من (م).

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكيَّةٌ[1]، وآيُها سِتٌّ وخمسونَ[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؛ أي: المُتدثِّرُ، وهو لابسُ الدِّثارِ.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ قال: «كنتُ بحِرَاء فنُودِيتُ، فنظَرْتُ عَن يميني وشمالي فلَمْ أَرَ شَيْئًا، فنظرتُ فَوْقي فإذا هو على عرشٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ ـ يعني: الملكَ الذي ناداهُ ـ فرُعبتُ ورجعتُ إلى خديجةَ فقلت: دَثِّروني، فنزلَ جبرئيلُ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[3].

---

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٥٨) عن مقاتل: أن سورة المدثر مكية إلا قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية فإنها مدنية، ولعله مقاتل بن حيان فإن الذي في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٤/ ٤٨٧) أنها مكية ولم يستثن.

(٢) انظر: «البيان» للداني (ص: ٢٥٨)، وفيه: وهي خمسون وخمس آيات في المدني الأخير والمكي والشافعي، وست في عدد الباقين.

(٣) رواه البخاري (٤٩٢٤) و(٤٩٢٦)،، ومسلم (١٦١)، من حديث جابر رضي الله عنه. وقول المؤلف: «يَعني: الملكَ الَّذي نَاداهُ» جاء في الصحيحين بدلاً منه: «..فإذا الملك الذي جاءني بحراء..» فهذا هو المتفق عليه عند الشيخين، قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»،

ولذلك قيل: هي أَوَّلُ سُورةٍ نزلَتْ(١).

وقيل: تأذَّى مِن قُرَيشٍ فتَغطَّى بثَوبِه مُفكِّرًا، أو كانَ نائمًا مُتدثِّرًا، فنزلَتْ(٢).

وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾: المُتَدثِّرُ بالنبوَّةِ والكَمالاتِ النفسانيَّةِ، أو: المُختَفِي ـ فإنَّه كانَ بحراءٍ كالمُختَفِي فيه ـ على سبيلِ الاستعارةِ.

وقُرِئَ: (المُدَثَّر)(٣)؛ أي: الذي دُثِّر هذا الأمرَ وعُصِبَ به.

(٢) ـ ﴿قُمْ﴾ مِن مَضجعكَ، أو: قُمْ قيامَ عزمٍ وجدٍّ ﴿فَأَنذِرْ﴾ مطلقٌ للتَّعميمِ، أو مُقدَّرٌ بمَفعولٍ دلَّ عليهِ قولُه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] أو قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا.

قال: ووجه الجمع: أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة.

وكذا قال النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٨): الصواب أن أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١/ ٢٥٧)، من حديث جابر رضي الله عنه. وقد ذكره المصنف بصيغة التمريض، وقال الشهاب: «ووجهُ تمريضِه ظاهرٌ». وانظر التعليق السابق يظهر لك وجه ذلك.

(٢) روى معناه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٠٩٦)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢٢٧٦)، من حديث جابر رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٠): وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب.

وروى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٢٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١): رواه الطبراني، وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي وهو متروك.

(٣) أي: بتخفيف الدال وفتح الثاء المشددة، انظر: «الكشاف» (٩/ ٣٥٧)، و«البحر» (٢١/ ٦٧)، عن عكرمة.

(٣) ـ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: وخصِّصْ ربَّكَ بالتَّكبيرِ، وهو وَصفُهُ بالكِبرياءِ عقدًا وقَوْلًا.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا نزلَت كبَّرَ رسولُ اللهِ وأيقنَ أنَّه الوَحْيُ[1]، وذلك لأنَّ الشَّيطانَ لا يأمرُ بذلك.

والفاءُ فيه وفيمَا بعدَهُ لإفادةِ معنى الشَّرطِ، وكأنَّه قال: وما كان من شيءٍ فكبِّرْ ربَّكَ، أو الدلالةِ على أنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمرِ بالقيامِ أن يكبِّرَ ربَّهُ عَن الشِّركِ والتَّشبيهِ، فإنَّ أوَّلَ ما يجبُ معرفةُ الصَّانعِ، وأولَ ما يجبُ بعدَ العلمِ بوجودِه تنزيهُهُ، والقومُ كانوا مُقرِّينَ بهِ.

(٤) ـ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ مِن النَّجاساتِ؛ فإنَّ التَّطهيرَ واجبٌ في الصَّلاةِ محبوبٌ في غيرِها، وذلك بغَسْلِها وتحفُّظِها عن النَّجاسةِ كتَقصيرِها مخافةَ جرِّ الذُّيولِ فيها، وهو أوَّلُ ما أُمِرَ بهِ مِن رفضِ العاداتِ المذمومةِ.

أو: طهِّرْ نفسكَ مِن الأخلاقِ الذَّميمةِ والأفعالِ الدَّنيئةِ[2]، فيكونُ أمرًا باستكمالِ القوَّةِ العمليَّةِ بعدَ أمرِه باستكمالِ القوَّةِ النَّظريَّةِ والدُّعاءِ إليه.

أو: فطهِّرْ دثارَ النبوَّةِ عمَّا يُدنِّسُه مِن الحقدِ والضَّجرِ وقلَّةِ الصَّبرِ.

(٥) ـ ﴿والرِّجْزَ فاهجُرْ﴾: واهجُر العذابَ بالثَّباتِ على هجرِ ما يؤدِّي إليه مِن الشِّركِ وغيرِه مِن القبائحِ.

وقرأ يعقوبُ وحَفصٌ: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بالضمِّ[3] وهو لغةٌ كالذُّكر.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠). وفي رواية الصحيحين ما يدفعه، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «..فإذا الملك الذي جاءني بحراء..»، وقد تقدم في أول السورة.

(٢) في نسخة الفاروقي: «الدميمة»، وفي نسخة التفتازاني: «الذميمة».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ٢١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٦) ـ ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾: لا تعطِ مُستكثِرًا، نهيٌ عن الاستغزارِ ـ وهو أن يهبَ شيئًا طامعًا في عوضٍ أكثرَ ـ نهيَ تنزيهٍ، أو نهيًا خاصًّا به؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «المُستغزِرُ يثابُ مِن هِبَتِه»[١]. والموجِبُ له[٢]: ما فيه مِن الحرصِ والضِّنَّةِ.

أو: لا تمنُنْ على اللهِ بعِبادَتِكَ مُستكْثِرًا إيَّاها، أو على النَّاسِ بالتَّبليغِ مُستكثرًا به الأجرَ مِنْهُم، أو مُستكثرًا إيَّاهُ.

وقُرِئَ: (تَستكثِرْ) بالسُّكونِ[٣] للوَقفِ، أو الإبدالِ مِن ﴿تَمۡنُن﴾ على أنَّه مِن مَنَّ بكذا، و(تَستكثِرْ) بمعنى: تَجِدْه كثيرًا.

وبالنَّصبِ على إضمارِ (أنْ)[٤]، وقد قُرِئَ بها[٥]، وعلى هـذا يجوزُ أن يكونَ الرَّفعُ بحَذفِها وإبطالِ عملِها كما رُوِيَ:

أحْضُرُ الوَغى[٦]

بالرَّفعِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٦٥٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢١٧٠٦)، من قول شريح، وتتمته: أو ترد عليه. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٥٨): لم أجده إلا من قول شريح.

(٢) قولُه: «والمُوجِبُ له»؛ أي: المُقتَضي للنَّهيِ عن الاستِغزارِ. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٧)، عن الحسن.

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٣٧) عن الأعمش.

(٥) أي: (ولا تمنن أن تستكثر)، ذكرها الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤١٦)، وابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، وهذا محمول على التفسير لمخالفته سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة وفي مقدمتها ابن مسعود وقراء الصحابة.

(٦) قطعة من بيت لطرفة. وهو في «ديوانه» (ص: ٢٥)، وتقدم غير مرة في هذا الكتاب.

(٧) ـ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾: ولوَجْهِهِ أَوْ أَمْرِه ﴿فَاصْبِرْ﴾: فاستَعمِلِ الصَّبرَ، أو: فاصبِرْ على مشاقِّ التَّكاليفِ وأذى المشركينَ.

(٨) ـ ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾: نُفِخَ ﴿فِي النَّاقُورِ﴾: في الصُّورِ، فاعُولٌ مِن النَّقرِ بمَعنى التَّصويتِ، وأصلهُ: القَرعُ الذي هو سَببُ الصَّوتِ، والفاءُ للسَّببيَّةِ كأنَّه قال: اصبِرْ على أذاهم فبينَ أيديهم زمانٌ صَعْبٌ تَلْقَى فيه عاقبةَ صبرِكَ، وأعداؤُكَ عاقبةَ ضرِّهِم.

و(إذا) ظرفٌ لِمَا دلَّ عليهِ قوله:

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإنَّ معناهُ: عَسُرَ الأمرُ على الكافرينَ، و(ذلك) إشارةٌ إلى وقتِ النَّقرِ، وهو مبتدأٌ خبرهُ: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلُهُ أو ظرفٌ لخبرِه؛ إذ التَّقديرُ: وذلك الوَقت[1] وقوعُ يومٍ عسيرٍ.

﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيدٌ يمنعُ أن يكونَ عسيرًا عليهم مِن وجهٍ دونَ وجهٍ، ويُشعِرُ بيُسرهِ على المؤمنينَ.

(١١) ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلَ في الوليدِ بنِ المغيرةِ[2]، و﴿وَحِيدًا﴾ حالٌ مِن الياءِ؛ أي: ذَرْنِي وَحدي معَهُ فإنِّي أكفيكَهُ، أو مِن التَّاءِ؛ أي: ومَن خلقتُه وَحدِي لم يَشْرَكْنِي في خلقهِ أحدٌ، أو مِن العائدِ المَحذوفِ؛ أي: مَن خلَقْتُه فريدًا لا مالَ لهُ ولا ولدَ، أو ذمٌّ فإنَّه كانَ مُلَقَّبًا بهِ[3]، فسَمَّاه اللهُ به تهكُّمًا، أو إرادةَ أنَّه وحيدٌ ولكنْ في الشرارةِ، أو عن أبيهِ لأنَّه كانَ زنيمًا.

---

(١) قوله: «الوقت» يحتمل الرفع والنصب كما ذكر الشهاب، وعنده: «وذلك الوقت وقت وقوع...». وضبط «الوقت» في نسخة الفاروقي بالنصب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك وقتادة.

(٣) أي: بالوحيد. ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٢) ـ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾: مَبسوطًا كثيرًا، أو: مُمَدًّا بالنَّماءِ، وكان له الزَّرعُ والضَّرعُ والتِّجارةُ.

(١٣) ـ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾: حضورًا معه بمكَّةَ يتمتَّعُ بلقائِهم، لا يحتاجونَ إلى سفرٍ لطلبِ المعاشِ استغناءً بنِعمَتِه، ولا يحتاجُ أن يرسِلَهُم في مصالحِه لكثرةِ خدمِه.

أو: في المحافلِ والأنديةِ لوَجاهَتِهم واعتبارِهم، قيل: كانَ له عشرةُ بنينَ أو أكثرُ كلُّهم رجالٌ، فأسلمَ مِنْهُم ثلاثةٌ: خالدٌ وعُمَارةُ وهِشامٌ[1].

(١٤) ـ ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾: وبَسَطْتُ له الرِّياسةَ والجاهَ العريضَ حتى لُقِّبَ «ريحانةَ قُرَيشٍ»، و«الوحيدَ»؛ أي: باستحقاقِ الرِّياسةِ والتَّقدُّمِ.

(١٥) ـ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيَه[2]، وهو استبعادٌ لطمَعِه: إمَّا لأنَّه لا مزيدَ على ما أُوتِيَ، أو لأنَّه لا يناسِبُ ما هو عليهِ مِن كُفرانِ النِّعَمِ ومُعانَدَةِ المنعِمِ، ولذلك قال:

(١٦) ـ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ فإنَّه رَدعٌ له عن الطَّمعِ، وتعليلٌ للرَّدعِ على سبيلِ الاستئنافِ بمُعانَدَةِ آياتِ المنعِمِ المناسِبَةِ لإزالةِ النِّعمَةِ المانعَةِ عَن الزِّيادَةِ.

قيل: ما زالَ بعدَ نزولِ الآيةِ في نقصانِ ماله حتى هلكَ.

---

(١) قولُه: «أسلَمَ منهم ثلاثةٌ: خالدٌ وعُمارةُ وهشامٌ» قال الشهاب: تبعَ فيه الزَّمخشريَّ، وهو غلطٌ سبقَهم إليه كثيرٌ منَ المُحدِّثينَ والمُفسِّرينَ، قالَ ابنُ حجرٍ في «الإصابة» (٥/ ٢١٦): والصواب خالد وهشام والوليد، فأما عمارة فإنه مات كافراً، لأن قريشاً بعثوه إلى النجاشي، فجرت له معه قصة، فأصيب بعقله، وهام مع الوحش. وهو ممن دعا النبي صلّى اللَّه عليه وآله وسلم عليهم من قريش لما وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره وهو يصلي.

(٢) في نسخة الخيالي: «آتيته».

(١٧) ـ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: سأُغشيه عقبةً شاقَّةَ المصعدِ، وهو مَثَلٌ لِمَا يَلْقَى من الشدائد، وعنه عليه السَّلامُ: «الصَّعودُ جبلٌ من النارِ يَصْعدُ فيه سبعينَ خريفًا ثم يَهْوي فيه كذلك أبدًا»(١).

(١٨) ـ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليلٌ للوعيدِ، أو بيانٌ للعِنادِ، والمعنى: فكَّرَ فيما يخيِّلُ طعنًا في القرآنِ، وقدَّرَ في نفسِه ما يقولُ فيه.

(١٩) ـ ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجُّبٌ مِن تَقديرِهِ استهزاءً به، أو لأنَّه أصابَ أقصَى ما يمكنُ أن يقالَ عليه، مِن قَولِهم: «قتلَهُ اللهُ ما أشجعَهُ!»؛ أي: بلغَ في الشَّجاعةِ مَبلغًا يحقُّ بأن يُحسدَ ويدعوَ عليه حاسدُهُ بذلك.

رُوِيَ أنَّه مرَّ بالنَّبيِّ ﷺ وهو يقرَأُ (حم) السَّجدة، فأتى قومَه وقال: لقد سَمِعْتُ مِن محمَّدٍ آنِفًا كلامًا ما هو مِن كلامِ الإنسِ والجنِّ، إنَّ له لحَلاوةً وإنَّ عليه لطَلاوةً، وإنَّ أعلاهُ لَمُثمِرٌ وإنَّ أسفلَهُ لَمُغدِقٌ، وإنه ليَعْلُو ولا يُعْلَى، فقال قريشٌ: صبأَ الوَليدُ، فقالَ ابنُ أخيه أبو جهلٍ: أنا أكفيكُمُوهُ، فقعدَ إليه حزينًا وكلَّمَه بما أحماهُ، فقامَ فناداهُم(٢) فقال: تزعمونَ أنَّ مُحمَّدًا مجنونٌ، فهل رأيتموهُ يُخنَقُ؟! وتقولونَ: إنَّه كاهنٌ، فهَلْ رأيتموهُ يَتكهَّنُ؟! وتزعمونَ أنَّه شاعرٌ فهل رأيتموهُ يتعاطى شِعرًا؟

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١١٧١٢)، والترمذي (٣٣٢٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٣)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١٠٦٥)، قال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه مرفوعاً من حديث ابن لهيعة، وقد روي شيء من هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفاً.

وقول الترمذي: إنما نعرفه مرفوعاً عن حديث ابن لهيعة تعقبه ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية بأن الطبري [في تفسيره (٢٣/ ٤٢٧)] رواه من طريق عمرو بن الحارث عن دراج به، لكنه قال: فيه غرابة ونكارة.

(٢) في نسخة الخيالي: «وناداهم» وفي نسخة الفاروقي: «فأتاهم».

وتَزعمُونَ أَنَّه كذَّابٌ، فهلْ جَرَّبْتُم عليه شيئاً من الكذِب؟! فقالوا: لا، فقال: ما هو إلا ساحِرٌ، أمَا رأيتُموهُ يُفرِّقُ بينَ الرَّجُلِ وأهلِهِ وولدِهِ ومَواليهِ، ففَرِحُوا بقولِه وتفرَّقُوا مُتعجِّبينَ منه(١).

(٢٠) ـ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكريرٌ للمُبالغةِ، و﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الثَّانيةَ أبلَغُ مِن الأولى، وفيما بعدُ على أصلِها(٢).

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾؛ أي: في أمرِ القُرآنِ مرَّةً بعدَ أُخرَى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾: قطَّبَ(٣) وجهَهُ لَمَّا لم يَجِدْ فيهِ طَعْنًا ولم يَدْرِ ما يقولُ، أو نظرَ إلى رَسُولِ اللهِ وقطَّبَ في وَجهِه.

﴿وَبَسَرَ﴾ إتْباعٌ لِـ﴿عَبَسَ﴾

(٢٣) ـ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عَن الحقِّ، أو الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عَن اتِّباعِه.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ مع زيادة الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٥٢)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩)، ورواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٣٨٣) عن معمر عن رجل عن عكرمة.
ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٢) وصححه، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٨)، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجود إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٢٣).
ورواه بنحوه أيضاً البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٠)، من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٠).

(٢) قولُه: «على أنَّ الثّانيةَ أبلَغُ منَ الأولى»؛ أي: الجملةُ الثّانيةُ أبلَغُ في التَّعجُّبِ من الأولى؛ للعطفِ بـ«ثمَّ» الدّالّةِ على تفاوُتِ الرُّتبةِ، فكأنَّه قيلَ: قُتِلَ بنوعٍ مّا منَ القتلِ، لا بل قُتِلَ بأشدِّه وأبلَغِه، ولذا ساغَ العطفُ فيه مع أنَّه تأكيدٌ، وقولُه: «على أصلِها»؛ أي: مُستعملةٌ في معناها الوضعيِّ، وهو التَّراخي الزَّمانِّي مع مُهلةٍ. قاله الخفاجي.

(٣) في نسخة الخيالي: «قبض».

(٢٤) ـ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾: يُرْوَى ويُتعلَّمُ، والفاءُ للدَّلالةِ على أنَّه لَمَّا خطرَتْ هذه الكلمةُ بباله تفوَّهَ بها مِن غيرِ تَلبُّثٍ وتَفكُّرٍ.

(٢٥) ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ كالتَّأكيدِ للجُملَةِ الأُولَى، ولذلك لم يُعْطَف عليها.

(٢٦ ـ ٢٨) ـ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدلٌ مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾[١] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تفخيمٌ لشَأنِها، وقوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ بيانٌ لذلك، أو حالٌ مِن ﴿سَقَرُ﴾، والعاملُ فيها مَعنى التَّعظيمِ[٢]، والمَعنى: لا تُبقي على شَيءٍ يُلقَى فيها ولا تدعُهُ حتى تُهلكَهُ.

(٢٩) ـ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾؛ أي: مُسوِّدَةٌ لأعالي الجلدِ، أو: لائحةٌ للناسِ. وقُرِئَت بالنَّصبِ[٣] على الاختصاصِ.

(٣٠) ـ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مَلَكًا، أو صِنْفًا مِن الملائكةِ يَلُونَ أمرَها، والمخصِّصُ لهذا العددِ: أنَّ اختلالَ النُّفوسِ البَشَريَّةِ في النَّظرِ والعملِ بسببِ القُوَى الحيوانيَّةِ الاثنتي عشرةَ، والطبيعيَّةِ السَّبعِ، أو أن جهنَّمَ سبعُ دَرَكات: سِتٌّ منها لأصنافِ الكُفَّارِ، وكلُّ صنفٍ يعذَّبُ بتركِ الاعتقادِ والإقرارِ والعملِ أنواعًا مِن العَذابِ تُناسِبُها، وعلى كلِّ نوعٍ مَلَكٌ أو صنفٌ يتولَّاهُ، وواحدةٌ لعُصَاةِ الأُمَّةِ يُعذَّبونَ فيها بتركِ العملِ نوعًا يُناسِبُه ويتولَّاهُ مَلَكٌ أو صِنفٌ.

---

(١) قولُه: «بدلٌ من ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾...» على المعنيَينِ، وهو بدلُ اشتمالٍ؛ لاشتمالِ «سقَر» على الشَّدائدِ، وعلى الجبلِ منَ النَّارِ. قاله الخفاجي.

(٢) قولُه: «والعاملُ فيها معنَى التَّعظيم»؛ أي: أُعظِّمُ سقَرَ وأُهوِّلُ أمرَها حالةَ كونِها مُفنيةً لكلِّ ما يُلقَى فيها، وإنَّما جَعلَ العاملَ معنويًّا مأخوذًا من الكلامِ كما ذهبَ إليه أبو البقاءِ؛ لأنَّ سقَرَ مبتدأٌ أو خبرٌ، ولا تجيءُ الحالُ منه؛ لأنَّ الابتداءَ عاملٌ ضعيفٌ لا ينصِبُ الحالَ. قاله الخفاجي.

(٣) حكاها أبو معاذ كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥).

أو أنَّ السَّاعاتِ أربعةٌ وعشرونَ: خمسٌ منها مصروفةٌ في الصَّلاةِ، فيبقى تسعةَ عشرَ قد تُصرَفُ فيما يؤاخَذُ به بأَنواعٍ مِن العذابِ يَتولَّاها الزَّبانيَةُ.

وقُرِئَ: ﴿تِسْعَةَ عْشَرَ﴾ بسكونِ العينِ(١) كراهةَ تَوالي الحَركاتِ فيما هو كاسمٍ واحدٍ.

و: (تِسعةَ أَعْشُرٍ)(٢): جمعُ عشيرٍ كيَمينٍ وأَيْمُنٍ؛ أي: تسعةٌ كلٌّ عشيرُ جمعٍ(٣)، يعني: نقيبَهُم، أو جمعُ عشرٍ فيكونُ تِسعينَ.

(٣١) ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليُخالِفُوا جنسَ المعذَّبينَ فلا يَرِقُّوا لهم ولا يستروِحُوا إليهِم، ولأنَّهُم أقوى الخلقِ بأسًا وأشدُّهُم غضبًا للهِ.

رُوِيَ أنَّ أبا جهلٍ لَمَّا سَمِعَ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال لقُريشٍ: أيعجزُ كلُّ عشرةٍ مِنْكُم أن يبطشُوا برجلٍ مِنْهُم، فنزلَتْ(٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: وما جَعَلْنا عددَهُم إلَّا العددَ الذي اقتضى فتنتَهُم، وهو التِّسعةَ(٥) عشرَ، فعبَّرَ بالأثرِ عن المؤثِّرِ تَنبيهًا على أنَّه لا ينفَكُّ منه.

وافتِتانُهُم به: استقلالُهُم له، واستهزَاؤُهُم بهِ، واستِبعادُهُم أن يتولَّى هذا العددُ القَليلُ تَعذيبَ أكثَرِ الثَّقلينِ، ولعلَّ المرادَ الجعلُ بالقـولِ ليَحْسُنَ تَعليلُهُ بقولِه:

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٣٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) قولُه: «كلٌّ» بالتَّنوينِ، و«عشيرُ جمعٍ» بالإضافةِ؛ أي: نقيبُ جماعةٍ منَ الملائكةِ. قاله الخفاجي.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٦٠) عن ابن عباس وقتادة والضحاك، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٣٦) عن ابن عباس بإسناد ضعيف، وعن قتادة، وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٨٤) عن السدي، وهو في «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٤).

(٥) في نسخة الخيالي: «تسعة».

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: ليكتَسِبُوا اليقينَ بنبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وصدقِ القرآنِ لمَّا رأَوْا ذلك مُوافِقًا لِمَا في كِتابِهم[1].

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ بالإيمانِ بهِ، أو بتَصديقِ أهلِ الكتابِ له.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في ذلك، وهو تأكيدٌ للاستيقانِ وزيادةِ الإيمانِ، ونفيٌ لِمَا يَعْرِضُ للمتيقِّن حيثُما عراهُ شبهَةٌ.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شكٌّ، أو: نفاقٌ، فيكونُ إخبارًا بمكَّةَ عمَّا سيكونُ في المدينةِ بعد الهجرةِ ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: الجازمونَ في التَّكذيبِ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾: أيَّ شيءٍ أرادَ بهذا العددِ المستغرَبِ استغرابَ المثلِ؟

وقيل: لَمَّا استبعَدُوهُ حَسِبُوا أنَّه مَثَلٌ مَضروبٌ.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: مثلَ ذلك المذكورِ مِن الإضلالِ والهدى يضلُّ الكافرينَ ويهدي المُؤمنينَ.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾: جموعَ خَلقِه على ما هُـمْ عليهِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحَدٍ إلى حصرِ المُمكِنَاتِ والاطِّلاعِ على حقائقِها وصِفاتِها، وما يوجِبُ اختِصاصَ كلٍّ مِنها بما يخصُّهُ مِن كمٍّ وكيفٍ واعتبارٍ ونسبَةٍ

---

(١) قوله: «ولعلَّ المرادَ الجعلُ بالقولِ» فالمعنى: ما قلنا: إن عدتهم تسعة عشر إلا ليسمعوه ويكتسبوا به اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق القرآن حين يرون ذلك موافقاً لما في كتابهم، وإنما صرف المعنى إلى الجعل بالقول لأن الجعل بمعنى الفعل ما لم يخبروا به ويسمعوه لا يكون سبباً لاكتسابهم اليقين فإن أحد أسباب العلم سماع القول، والفرق بين الجعل بالقول والجعل بالفعل مثل الفرق بين قولك: «جعلتُ وصفَ زيدٍ أحمرَ» وقولك: «جعلتُ وصفَه الحمرة»، فإن الأول جعلٌ بالقول معناه: وصفتُه بالحمرة، والوصف يكون بالقول؛ أي: قلت: «زيد أحمر»، والثاني جعلٌ بالفعل معناه: صيرته وكونته أحمر. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ٤٢٧).

﴿وَمَا هِيَ﴾: وما سَقرُ، أو عدةُ الخزنةِ، أو السُّورةُ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرةٌ لهم.

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لِمَن أنكرَهَا، أو إنكارٌ لأَنْ يتذكَّرُوا بها ﴿والقَمَرِ واللَّيلِ إذا دَبَرَ﴾؛ أي: أدبرَ؛ كقَبَلَ بمعنى: أقبلَ.

وقرأ نافعٌ وحمزَةُ ويعقوبُ وحفصٌ: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾[1] على المُضِيِّ.

(٣٤) ـ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾: أضاءَ.

(٣٥) ـ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾: لإحدَى البَلايا الكُبَرِ؛ أي: البَلايا الكُبَرُ كثيرةٌ وسَقَرُ واحدةٌ منها، وإنَّما جمعَ كُبْرَى على كُبَرٍ إلحاقًا لها بفُعْلَةٍ تَنزيلًا للألفِ مَنزِلَةَ التَّاءِ[2] كما أُلْحِقَت «قاصِعَاءُ» بقاصِعَةٍ فجُمِعَتْ على: قَوَاصِعَ.

والجملةُ جوابُ القَسَمِ، أو تَعليلٌ لـ﴿كَلَّا﴾ والقسَمُ معترِضٌ للتَّأكيدِ.

(٣٦) ـ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ تمييزٌ لـ(إحدى الكُبَرِ)؛ أي: لإحـدى الكُبرِ إنذارًا، أو حالٌ عمَّا دلَّتْ عليه الجملةُ؛ أي: كَبُرتْ مُنذِرةً، وقُرِئَ بالرفع[3] خبرًا ثانيًا أو خبرًا لمحذوف.

(٣٧) ـ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدلٌ من ﴿لِّلْبَشَرِ﴾؛ أي: نذيرًا للمُمَكَّنين[4] من السَّبْقِ إلى الخير والتخلُّفِ عنه، أو ﴿لِمَن شَآءَ﴾ خبرٌ لـ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ فيكونُ في معنى قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٩)، و«التيسير» (ص: ٢١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٢) قولُه: «إلحاقًا لها بفُعْلَةٍ» لأنَّ المُطَّرِدَ جمعُه على «فُعَلٍ»: «فُعْلةٌ»، دونَ «فُعْلَى»، فنُزِّلتِ الألفُ منزلةَ التّاءِ. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٣) عن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه.

(٤) في نسخة التفتازاني: «للمتمكنين».

(٣٨) ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾: مرهونةٌ عندَ اللهِ، مصدَرٌ كالشَّتيمةِ أُطلِقَتْ للمَفعولِ كالرَّهنِ، ولو كانت صِفَةً لقيلَ: رهينٌ.

(٣٩) ـ ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنَّهُم فكُّوا رِقابَهُم بما أحسَنُوا مِن أَعمالِهم، وقيل: هم الملائكةُ أو الأطـفالُ.

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ لا يُكتَنَهُ وَصفُها، وهي حالٌ مِن ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أو ضميرِهِم في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: يسأَلُ بَعضُهُم بَعضًا، أو يسألونَ غيرَهُم عن حالِهم؛ كقولك: تَداعيناهُ؛ أي: دَعَوْناه، وقولُه:

(٤٢) ـ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ بجوابِهِ حكايةٌ لِمَا جرى بينَ المسؤولينَ والمجرمينَ أجابُوا بها.

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الصَّلاةَ الـواجـبةَ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ مـا يَـجِـبُ إعطاؤُهُم، وفيه دليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بالفُروعِ.

(٤٥) ـ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾: نَشْرَعُ في الباطلِ مع الشَّارعينَ فيه.

(٤٦) ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أخَّره لتَعظيمِه؛ أي: وكنَّا بعد ذلك كلِّهِ مُكذِّبينَ بالقيامةِ.

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾: الموتُ ومُقدِّماتُه ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لو شفَعُوا لهم جميعًا.

(٤٩) ـ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: مُعرِضِينَ عَن التَّذكيرِ، يعني: القرآنَ أو مـا يعمُّهُ، و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حالٌ.

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شبَّهَهُم في إعراضِهِم ونِفارِهِم عن استماعِ الذِّكرِ بحُمُرٍ نافرَةٍ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾؛ أي: أَسَدٍ، فَعْوَلَةٌ مِن القَسرِ وهو القهرُ. وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء[1].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٥٢) ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾: قراطيسَ تُنشرُ وتُقرأُ، وذلك أنَّهُم قالوا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: لن نتَّبعكَ حتَّى تأتيَ كُلًّا منَّا بكتابٍ مِن السَّماءِ فيها: مِن اللهِ إلى فلانٍ اتَّبِعْ محمَّدًا.

(٥٣) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن اقتراحِهِم الآياتِ ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضُوا عَن التَّذكرَةِ، لا لامتناعِ إيتاءِ الصُّحُفِ.

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن إعراضِهِم ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ وأيُّ تذكرةٍ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: فمَنْ شاءَ أن يذكرَهُ.

(٥٦) ـ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذكرَهُم، أو مشيئَتَهُم كقولِه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وهو تصريحٌ بأنَّ فِعْلَ العبدِ بمَشيئَةِ اللهِ.

وقرأ نافعٌ: ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بالتَّاءِ[١]، وقُرِئَ بهما مُشدَّدًا[٢].

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى عِقابُه ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيقٌ بأن يَغفِرَ عبادَهُ[٣] سيَّمَا المتَّقينَ مِنْهُم.

عن النبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ المدَّثِرِ أعطاهُ اللهُ عشرَ حَسَناتٍ بعددِ مَن صدَّقَ بمُحمَّدٍ وكذَّبَ به بمكَّةَ».

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) بالتاء مع التشديد قراءة أبي جعفر في غير المشهور عنه، وبالياء مشدداً قراءة أبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥).

(٣) قوله: «يغفر عباده» ضمَّن «يغفر» معنى (يكرم)، فعداه بنفسه.

(٧٤) سورة المدثر مكية
وآياتها ست وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

روى البخاري، عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري، هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً-قال- فدثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً، قال، فنزلت: ﴿يا أيها المدثر * قُمْ فأنذر * وربك فكبّر﴾»[1]. وعن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني. زملوني، فزملوني، فأنزل: ﴿يا أيها المدثر * قُمْ فأنذر - إلى - فاهجر﴾، قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان، «ثم حمي الوحي وتتابع»[2]. وهذا السياق يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله: «فإذا الملك الذي كان بحراء،» وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اِقْرَأْ باسْمِ ربّك الذي خلق﴾، ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا، كما قال الإمام أحمد، عن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم: زملوني. زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر *

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

قُمْ فأنذر * وربك فكبّر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر﴾ ثم حمي الوحي وتتابع »[1]. وروى الطبراني، عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل ساحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحزن وقنّع رأسه وتدثر، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ وقوله تعالى ﴿قم فأنذر﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ﴿وربك فكبر﴾ أي عظّم ﴿وثيابك فطهِّر﴾ سئل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿وثيابك فطهر﴾ فقال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وفي رواية عنه: فطهر من الذنوب، وقال مجاهد: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: نفسك ليس ثيابه، وفي رواية عنه: أي عملك فأصلح، وقال قتادة: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي طهرها من المعاصي، وقال محمد بن سيرين: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه. وقال سعيد بن جبير ﴿وثيابك فطهر﴾ وقلبك ونيتك فطهر.

وقوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾ قال ابن عباس: والرجز وهو الأصنام فاهجر[2]، وقال الضحّاك ﴿والرجز فاهجر﴾: أي اترك المعصية، وعلى كل تقدير، فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾، قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا، فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولربك فاصبر﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عزَّ وجلَّ، قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عزَّ وجلَّ. وقوله تعالى: ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿الناقور﴾ الصور، قال مجاهد: وهو كهيئة القرن، وفي الحديث: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا »[3]، وقوله تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ أي شديد، ﴿على الكافرين غير يسير﴾ أي غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، وقد روينا عن (زرارة بن أوفى)

(١) خرجه أحمد والشيخان.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد أن الرجز يراد به الأوثان.

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم.

قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقة، ثم خرّ ميتاً رحمه الله تعالى.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث، الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وقد عدّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى: ﴿ مالاً ممدوداً ﴾ أي واسعاً كثيراً، قيل: ألف دينار، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل أرضاً يستغلها، وقيل غير ذلك، وجعل له ﴿ بنين شهوداً ﴾ قال مجاهد: لا يغيبون، أي حضوراً عنده لا يسافرون، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم، وكانوا فيما ذكره السدي ثلاثة عشر، وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة، وهذا أبلغ في النعمة، وهو إقامتهم عنده، ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله تعالى: ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾. روى ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت»[1]، وقال ابن عباس ﴿ صعوداً ﴾ صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه، وقال السدي: ﴿ صعوداً ﴾: صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها، وقال مجاهد: ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان لأنه فكّر ﴿ وقدّر ﴾ أي تروّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكّر ماذا يختلق من المقال ﴿ وقدّر ﴾ أي تروّى ﴿ فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدّر ﴾ دعاء عليه ﴿ ثم نظر ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثم عبس ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وكره، ومنه قول توبة بن حمير:

وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبُسُورها

وقوله تعالى: ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي صرف عن الحق، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿ إن هذا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم والبزار وابن جرير.

إلا قول البشر﴾ أي ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو (الوليد بن المغيرة) المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، قال ابن عباس: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر، فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال الوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ إلى قوله ﴿لا تبقي ولا تذر﴾[1] وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر فأنزل الله: ﴿فقتل كيف قدّر﴾ الآية، ﴿ثم عبس وبسر﴾ قبض ما بين عينيه وكلح، وروى ابن جرير عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أتفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ حتى بلغ ﴿تسعة عشر﴾[2]. وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه، فقال قائلون: شاعر، وقال آخرون: ساحر، وقال آخرون: كاهن، وقال آخرون: مجنون، كما قال تعالى: ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه، ففكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، فقال: (إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر) قال الله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿وما أدراك ما سقر﴾؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون.

وقوله تعالى: ﴿لواحة للبشر﴾ قال مجاهد: أي للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل، وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان، وقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي من مقدمي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خُلُقهم، روى ابن أبي حاتم، عن البراء في قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال: إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء رجل فأخبر

---

(١) أخرجه العوفي عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير.

النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ فأخبر أصحابه[1]. وروى الحافظ البزار عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غلب أصحابك اليوم ، فقال : « بأي شيء » ؟ قال: سألتهم يهود : هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ ، قال رسول الله ﷺ: « أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا: لا نعلم، حتى نسأل نبينا ﷺ ؟ عليَّ بأعداء الله ، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » ، فأرسل إليهم فدعاهم، قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال: « هكذا » وطبّق كفيه، ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة، وقال لأصحابه: « إن سئلتم عن تربة الجنة فهي الدرمك » فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله ﷺ: « ما تربة الجنة » فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال: « الخبز من الدرمك »[2] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أي خزانها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أي زبانية غلاظاً شداداً ، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل: إن (أبا الأشدين) قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن[3] ، وقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس، ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى: ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ ، ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي من المنافقين، ﴿ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ؟

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) رواه البزار وأحمد والترمذي .
(٣) نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ، قال ابن كثير : ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم .

أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى: ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وقوله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، وقد ثبت في حديث الإسراء في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة : « فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم[١]

وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ: « إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » فقال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد[٢] ، وعن جابر بن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: « ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »[٣] . وعن ابن مسعود أنه قال: إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم، ثم قرأ: ﴿ وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون﴾[٤] . وروى محمد ابن نصر ، عن عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك »[٥] . وقوله تعالى: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي النار التي وصفت ﴿إلا ذكرى للبشر﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كلا والقمر * والليل إذ أدبر﴾ أي ولّى ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أشرق ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ أي العظائم يعني النار ، قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿ نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .
(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن غريب .
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني .
(٤) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة . (٥) أخرجه محمد بن نصر ، قال ابن كثير : إسناده لا بأس به.

ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً أن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي معتقلة بعملها يوم القيامة ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾ أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات، وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ ما سَلَكَكُمْ في سقر ، قالوا لم نَكُ من المصلّين ، ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا، ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه، ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت كقوله تعالى: ﴿ وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « أما هو – يعني عثمان بن مظعون – فقد جاءه اليقين من ربه » قال تعالى: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً، فإن له النار لا محالة خالداً فيها . ثم قال تعالى: ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد[1] ، وقوله تعالى: ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ، قال مجاهد وغيره كقوله تعالى: ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى يؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل، فقوله تعالى: ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها، ثم قال تعالى: ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة، ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾، وقوله تعالى: ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . عن أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ وقال : « قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له »[2]

[آخر تفسير سورة المدثر ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) قاله أبو هريرة وابن عباس وزيد بن أسلم ، وهو قول الجمهور .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث زيد بن الحباب .

تفسير سورة المدثر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾ .

ثبت فى صحيح البخارى [من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة][١] ، عن جابر أنه كان يقول : أول شىء نزل من القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وخالفه[٢] الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾، كم سيأتى [بيان] [٣] ذلك هنالك .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا وَكِيع ،عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلتُ له مثل ما قلتَ لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطتُ فنُوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً . فرفعت رأسى فرأيت شيئاً،فأتيت خديجة فقلت : دثرونى . وصبُّوا على ماء باردا . قال : فدثَّرونى وصبُّوا على ماء باردا قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ » [٤].

هكذا ساقه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم [٥] من طريق عُقَيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة قال : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى : « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قِبَلَ السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجَئِثْتُ [٦] منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ ـ

---

(١) زيادة من م . (٢) فى م:« وخالف » . (٣) زيادة من م .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٢) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٦١) .

(٦) فى م:« فجثيت » .

قال أبو سلمة : والرجز: الأوثان ــ ثم حَمِىَ الوحىُ وتَتَابع » .

هذا لفظ البخارى [١] . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى [٢] بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا حجاج ، حدثنا لَيْث ، حدثنا عُقَيل ، عن ابن شهاب[٣] قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثم فتر الوحى عنى فترة ، فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قِبَل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى [بحراء الآن] [٤]قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجُئثت [٥] منه فَرَقاً ، حتى هَوَيت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ . ثم حمى الوحى [بعدُ] [٦] وتتابع » . أخرجاه من حديث الزهرى ، به [٧] .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن على بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر [٨] البَجَلى ، حدثنا المعافى بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبى مُلَيْكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا . قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم ليس بشاعر . وقال بعضهم : [بل] [٩] سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يُؤثر . فبلغ ذلك النبى ﷺ فحزَن وقَنع رأسه ، وتَدثَّر ، فأنزل الله ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾[١٠] .

فقوله : ﴿ **قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة . ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ أى : عظم . وقوله : ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾، قال الأجلح الكندى، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٦) .

(٢) فى م : « الذى كان » .

(٣) فى أ : « ابن هشام » .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

(٥) فى م :« فجئيت » .

(٦) زيادة من المسند .

(٧) المسند (٣/ ٣٢٥) ، وصحيح البخارى برقم (٤٩٢٦) ، وصحيح مسلم برقم (١٦١) .

(٨) فى أ : الحسن بن بشير » .

(٩) زيادة من م .

(١٠) المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٢٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣١) :« وفيه إبراهيم بن يزيد الخورى وهو ضعيف » .

قال: لا تلبسها [١] على معصية ولا على غَدْرَة . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فَإنى بحمد الله لا ثَوبَ فَاجر لبستُ ، ولا من غَدْرَة أَتقَنَّعُ [٢]

وقال ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس [فى هذه الآية] [٣] : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نَقِى الثياب . وفى رواية بهذا الإسناد : فطهر من الذنوب . وكذا قال إبراهيم ، والشعبى ، وعطاء .

وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخَعى .

وقال[٤] مجاهد : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : عملك فأصلح، وكذا قال أبو رَزِين . وقال فى رواية أخرى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا.

وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يَفِ بعهد الله إنه لَمُدَنس [٥] الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب .

وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية .

وقال الشاعر [٦] :

إذا المرءُ لم يَدْنَس منَ اللؤم عرْضُه فَكُلّ رِداء يَرتَديه جَميلُ

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [يعنى] [٧] : لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية .

وقال محمد بن سيرين : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : اغسلها بالماء .

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ،وأن يطهر ثيابه .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه ، كما قال امرؤ القيس :

أفاطمَ مَهلاً بعض هَـذا التدَلُّـل وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْرى فأجْملى

وَإن تَكُ قَد سَـاءتك منى خَليقَةٌ فَسُلّى ثِيَابى مِـن ثيابـك تَنسُلِ [٨]

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : وقلبك ونيتك فطهر .

---

(١) فى أ : « لا تسلبها » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٩/ ٩١) .

(٣) زيادة من م . (٤) فى م :« وعن» . (٥) فى م :« لدنس » .

(٦) هو دكين بن رجاء ، وانظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦١٢) مستفاداً من حاشية الشعب .

(٧) زيادة من م.

(٨) ديوان امرئ القيس (ص٣٧) مستفاداً من حاشية الشعب .

وقال محمد بن كعب القرظى ، والحسن البصرى : وخُلقك فَحسّن .

وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿وَالرُّجْز ﴾ ،وهو الأصنام ، فاهجر .وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى ، وابن زيد : إنها الأوثان .

وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى : اترك المعصية .

وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب:١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٢] .

وقوله : ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ : قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد، وعطاء ، وطاوس ، وأبو الأحوص ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى، وغيرهم .

وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « ولا تمنن أن تستكثر » .

وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير .وقال خُصَيف ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب : تضعف .

وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا .

فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ،قاله مجاهد .

وقال إبراهيم النخعى : اصبر على عطيتك لله تعالى [(١)] .

وقوله :﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، قال ابن عباس، ومجاهد ، والشعبى ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسدى ، وابن زيد : ﴿ النَّاقُورِ ﴾ : الصور .قال مجاهد : وهو كهيئة القرن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن مُطَرِّف ، عن عطية العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط ، به [(٢)] . ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن ابن فضيل

---

(١) فى أ :« لله عز وجل » .

(٢) المسند (١/ ٣٢٦) ، وقال الحافظ عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران :« حديث جيد » .

وأسباط ، كلاهما عن مطرف ، به. ورواه من طريق أخرى ، عن العوفى ، عن ابن عباس، به[١] .

وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أى : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى : غير سهل عليهم . كما قال تعالى : ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر:٨] .

وقد روينا عن زُرَارة بن أوفى ــ قاضى البصرة ــ : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شَهِقَ شهقة ، ثم خر ميتا ، رحمه الله[٢] .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله، ﴿ مَالاً مَّمْدُودًا ﴾ أى : واسعا كثيراً . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل: أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَنِينَ شُهُودًا ﴾ ، قال مجاهد : لا يغيبون ، أى: حضورا عنده لا يسافرون فى التجارات ، بل مَواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتَمَلَّى بهم.وكانوا ــ فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة ــ ثلاثة عشر . وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة . وهذا أبلغ فى النعمة [وهو إقامتهم عنده][٣] .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله :﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٩٥) .
(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٢٥٨، ٢٥٩) .
(٣) زيادة من م، أ.

ﷺ قال : « ويل : واد فى جهنم ، يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره ، والصَّعُود: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ، ثم يهوى به كذلك فيه أبدا » .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حُمَيد ، عن الحسن بن موسى الأشيب ، به(١) . ثم قال : غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن لَهِيعة عن دراج . كذا قال . وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دَرّاج (٢) . وفيه غرابة ونكارة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة وعلى بن عبد الرحمن ــ المعروف بعلان المصرى (٣) ــ قال: حدثنا مِنْجاب ، أخبرنا شريك ، عن عمار الدُّهَنِىّ ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ ، قال : « هو جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، وإذا رفعها عادت » .

ورواه البزار وابن جرير ، من حديث شريك ، به(٤) .

وقال قتادة ، عن(٥) ابن عباس : صعود : صخرة [فى جهنم] (٦) عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه .

وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدها .

وقال مجاهد : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تَرَوَّى ماذا يقول فى القرآن حين سُئل عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة (٧) والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى : قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى: كلح وكره ، ومنه قول توبة بن الحُمَير الشاعر :

وَقَدْ رَابَنِى مِنها صُدُودٌ رَأَيتُه وَإِعراَضُها عَن حاجَتِى وبُسُورُها (٨)

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرِف عن الحق ،ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

---

(١) المسند (٣/ ٧٥) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٦٤) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٩٧) .

(٣) فى م :« البصرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٩٧) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠٩) « مجمع البحرين » من طريق منجاب بن الحارث به مرفوعاً . وقال الطبرانى :« لم يرفع هذا الحديث عن عمار الدهنى إلا شريك، ورواه سفيان بن عيينة عن عمار الدهنى فوافقه » .

(٥) فى م :« وقال » . (٦) زيادة من م . (٧) فى م :« النظر » .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٢٩/ ٩٨) .

وهذا المذكور في هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش ــ لعنه الله ــ وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله [١] عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْيٍ من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبُوَنَّ قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدَقة ؟ فقال : ألستُ أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد [٢] تحدث به عشيرتي ؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ إلى قوله : ﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ .

وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، أخبرنا محمد بن ثور ، عن مَعْمَر ، عن عَبَّاد بن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أي عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تَتَعَرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا. قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك [٣] منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من ذلك . والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره .فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ ، [قال قتادة : خرج من بطن أمه وحيدا] [٤] حتى بلغ : ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [٥] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوا من هذا . وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدّوهُم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي : سأغمره فيها من جميع جهاته . ثم

(١) في م ، أ : « يسأله » . (٢) في أ : « أوقد » . (٣) في م :« أنه » .
(٤) زيادة من تفسير الطبري .
(٥) تفسير الطبري (٢٩/٩٨) .

قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر ﴾ ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون ، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما .

وقوله : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ ، قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رَزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أى : حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان .

وقوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَر ﴾ أى : من مُقَدّمى الزبانية ، عَظيم خَلْقهم ، غليظ خُلُقهم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن أبى زائدة ، أخبرنى حريث ، عن عامر ، عن البراء فى قوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَر ﴾ ، قال : إن رهطا من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم . فجاء رجل فأخبر النبى ﷺ فنزل عليه ساعتئذ : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَر ﴾ ، فأخبر أصحابه وقال : « ادعهم ، أما إنى سائلهم عن تُربَة الجنة إن أتونى، أما إنها [١] دَرْمَكة بيضاء » . فجاؤوه فسألوه عن خزنة جهنم ، فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية ، ثم قال : « أخبرونى عن تربة الجنة » . فقالوا: أخبرهم يا ابن سلام . فقال : كأنها خُبزَة بيضاء . فقال رسول الله ﷺ : « أما إن الخبز إنما يكون من الدّرمَك »[٢] .

هكذا وقع عند ابن أبى حاتم عن البراء ، والمشهور عن جابر بن عبد الله ، كما قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا منده ، حدثنا أحمد بن عَبدَة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم ، حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، غلبَ أصحابك اليوم . فقال : « بأى شىء ؟ » قال : سألتهم يَهُود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا : لا ندرى [٣] حتى نسأل نبينا ؟ علىَّ بأعداء الله ، لكن سألوا [٤] نبيهم أن يريهم الله جهرة». فأرسل إليهم فدعاهم . قالوا : يا أبا القاسم ، كم عدد خزنة أهل النار ؟ قال : « هكذا» ، وطبق كفيه، ثم طبق كفيه ،مرتين ، وعقد واحدة ، وقال لأصحابه : « إن سُئلتم عن تُربة الجنة فهى الدَّرمك » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله ﷺ : « ما تربة الجنة؟» فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم . فقال : « الخبز من الدَّرمَك » .

وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبى عمر ، عن سفيان ، به[٥]. وقال هو والبزار :

---

(١) فى م :« إنها كأنها ».

(٢) ورواه البيهقى فى البعث برقم (٥٠٩) من طريق مسروق بن المرزبان، عن ابن أبى زائدة به ، وقال : « حديث ابن أبى مطر ــ أى حريث ــ ليس بالقوى ، وحديث جابر أصح » وهو الآتى بعده .

(٣) فى م : « قالوا لا نعلم » .

(٤) فى م ، أ : « لكنهم قد سألوا » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٧) .

لا نعرفه [١] إلا من حديث مجالد . وقد رواه الإمام أحمد ، عن على بن المدينى ، عن سفيان ، فقص الدرمك فقط [٢] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خُزَّانها ، ﴿ إِلاَّ مَلائِكَةً ﴾ أى : [زبانية][٣] غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم [٤] ؟ فقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ﴾ أى : شديدى الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين ــ واسمه : كَلَدَة بن أسيد ابن خلف ــ قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلى : وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مرارا، فلم يؤمن . قال : وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب [٥].

قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه ، والله أعلم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختباراً منَّا للناس، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم . أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى : من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ ؟ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكر هذا هاهنا ؟ قال الله

---

(١) فى م:« لا يعرف » .

(٢) المسند (٣/ ٣٦١) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى أ : « فتغلبوهم » .

(٥) الروض الأنف للسهيلى (١/ ٢٠٠) .

تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة.

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنما هم تسعة عشر فقط ،كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن تابعهم [١] من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا [٢] صدر الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما . عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا إسرائيل ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن مورق ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت السماء وحُقَّ لها أن تَئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولا تَلَذّذتم بالنساء على [٤] الفُرُشات ، ولخرجتم إلى الصُّعُدَات تجأرون إلى الله عز وجل » . فقال أبو ذر : والله لوددتُ أنى شجرة تُعضَد .

ورواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث إسرائيل [٥] ، وقال الترمذى : حسن غريب ، ويروى عن أبى ذر موقوفاً .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا خير[٦] بن عرفة المصرى ، حدثنا عُرْوَة بن مروان الرقى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم بن مالك ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ! ما عبدناك حَقَّ عبادتك ، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » [٧] .

وقال محمد بن نصر المروزى فى « كتاب الصلاة » : حدثنا عمرو بن زرارة ، أخبرنا عبد الوهاب ابن عطاء ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن مُحْرِز ، عن حكيم بن حزام قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شىء . فقال

(١) فى م :« ومن شايعهم » . (٢) فى أ : « فما فهموا » .

(٣) هذا جزء من حديث أنس الطويل فى الإسراء ، وهو فى صحيح البخارى برقم (٧٥١٧) ، وصحيح مسلم برقم (١٦٢) . وهذا القدر قد وقع لمسلم من هذا الوجه ، وانظر أحاديث الإسراء عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٤) فى أ :« فى » .

(٥) المسند (٥/١٧٣) ، وسنن الترمذى برقم (٢٣١٢) ، وسنن ابن ماجة برقم (٤١٩٠) .

(٦) فى م :« حدثنا حسين » .

(٧) المعجم الكبير (٢/١٨٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/٥٢) : « وفيه عروة بن مروان » . قلت : قال الدارقطنى : ليس بالقوى .

رسول الله ﷺ : « أسمع أطيط السماء وما تلام أن تَئطّ ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد »[(١)] .

وقال أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ [(٢)]، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى ، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلى ، سمعت الضحاك بن مزاحم ، يحدث عن مسروق بن الأجدع ، عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ » [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦] [(٣)] .

وهذا مرفوع[(٤)] غريب جدا رواه [(٥)] عن محمود بن آدم ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى الضُحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماءً ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائما ، ثم قرأ : ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ [(٦)] .

ثم قال : حدثنا أحمد بن سيار : حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه ، حدثنا المغيرة بن عثمان [(٧)] بن عطية من بنى عمرو بن عوف ، حدثنى سليمان بن أيوب [من بنى] [(٨)] سالم بن عوف . حدثنى عطاء بن زيد بن مسعود من بنى الحبلى ، حدثنى سليمان بن عمرو بن الربيع، من بنى سالم ،حدثنى عبد الرحمن بن العلاء ، من بنى ساعدة ، عن أبيه العلاء بن سعد ــ وقد شهد الفتح وما بعده ــ أن النبى ﷺ قال يوما لجلسائه : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : وما تسمع يا رسول الله ؟ قال : « أطّت السماء وحقّ لها أن تَئط ، إنه ليس فيها موضع قَدَم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد ، وقالَ الملائكة : ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ »[(٩)] وهذا إسناد غريب جداً .

ثم قال : حدثنا [محمد بن يحيى ، حدثنا] [(١٠)] إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفَروى ، حدثنا عبد الملك بن قدامة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : أن عمر جاء والصلاة قائمة ، ونفر ثلاثة جلوس ، أحدهم أبو جحش الليثى ، فقال : قوموا فصلوا مع رسول الله . فقام اثنان وأبَى أبو جحش أن يقوم ، وقال : لا أقوم حتى يأتى رجل هو أقوى منى ذراعين ، وأشد منى بطشاً فيصرعنى ، ثم يَدس وَجهى فى التراب . قال عمر : فصرعتهُ ودسستُ وجهه فى التراب ، فأتى عثمان بن عفان فحجزنى عنه ، فخرج عمر مغضبا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : « ما رأيكَ يا أبا حفص ؟ » . فذكر له ما كان منه ، فقال رسول الله ﷺ :« إن رضى

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٢٤٨) .

(٢) فى م :« مهزاذ » .

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) .

(٤) فى أ :« وهذا مرفوعا » وهو خطأ .

(٥) فى م :« ثم رواه » .

(٦) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٤) .

(٧) فى هـ :« عمر » .

(٨) زيادة من م .

(٩) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٥) .

(١٠) زيادة من تعظيم قدر الصلاة (٢٥٦) .

عمر رحمةٌ ، والله لوددْتُ أنك جئتنى برأس الخبيث» ، فقام عمر يُوجِّهُ نحوه ، فلما أبعد ناداه فقال: « اجلس حتى أخبرك بغنى الرب عز وجل عن صلاة أبى جحش ، إن لله فى السماء الدنيا ملائكة خشوعاً [(١)] لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة . فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا : ربنا ، ما عبدناك حق عبادتك ، وإن لله فى السماء الثانية ملائكة سجوداً لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم ، وقالوا : سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر : وما يقولون يا رسول الله ؟ فقال : « أما أهل السماء الدنيا فيقولون : سبحان ذى الملك والملكوت. وأما أهل السماء الثانية فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت . وأما أهل السماء الثالثة فيقولون : سبحان الحى الذى لا يموت . فقلها يا عمر فى صلاتك » . فقال عمر : يا رسول الله ، فكيف بالذى كنت علمتنى وأمرتنى أن أقوله فى صلاتى ؟ فقال : « قل هذا مرة وهذا مرة » . وكان الذى أمره به أن يقول : « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخَطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك»[(٢)]. وهذا حديث غريب جداً ، بل منكر نكارة شديدة ، وإسحاق الفروى روى عنه البخارى، وذكره ابن حبان فى الثقات ،وضعفه أبو داود والنسائى والعقيلى والدارقطنى . وقال أبو حاتم الرازى : كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فرُبما لقن،وكتبه صحيحة. وقال مرة : هو مضطرب، وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتادة الجمحى: تكلم فيه أيضا . والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ، ولا عرَّف بحاله ،ولا تعرض لضعف بعض رجاله ؟! غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلا بنحوه . ومن طريق أخرى عن الحسن البصرى مرسلا،قريباً منه، ثم قال محمد بن نصر :

حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ ، أخبرنا النضر ، أخبرنا عباد بن منصور قال : سمعت عدى ابن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلا من أصحاب النبى ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تعالى ملائكة تُرعَد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل ، قالوا : سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك » [(٣)] .

وهذا إسناد لا بأس به .

وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى : النار التى وصفت ، ﴿ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ .

---

(١) فى م ،أ :«خشوع» .

(٢) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٦) ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٨٧) من طريق إسحاق الفروى به ،وقال :« حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه » ، وتعقبه الذهبى . قلت : « منكر غريب ، وما هو على شرط البخارى ، وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ضعيف ، تفرد به » .

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٦٠) .

ثم قال : ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أى : ولى ، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أى : أشرق ، ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أى : العظائم ، يعنى : النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف : ﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أى : لمن شاء أن يقبل النّذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً أن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى : معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره : ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى : يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أى: ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ، ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعنى : الموت . كقوله : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩]، وقال رسول الله ﷺ : « أما هو ـــ يعنى عثمان بن مظعون ـــ فقد جاءه اليقين من ربه » (١).

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أى : من كان متصفاً بهذه (٢) الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أى : كأنهم فى نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عنه حُمُر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس ـــ فى رواية عنه ـــ وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن . أو : رام ، وهو رواية (٣) عن

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٢٤٣) من حديث أم العلاء رضى الله عنها .
(٢) فى م : « بمثل هذه » . (٣) فى م : « وهما روايتان » .

ابن عباس ، وهو قول الجمهور .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران [١] ، عن ابن عباس : الأسد، بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير [٢] ، وبالنبطية : أويا .

وقوله : ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً** ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبى . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل .

فقوله : ﴿ **كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ** ﴾ أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ **فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

وقوله : ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ أى : هو أهل أن يُخاف منه ، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد [٣] بن الحباب ، أخبرنى سهيل ــ أخو حزم[٤] ــ حدثنا ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى أن يجعل معى إلها كان أهلا أن أغفر له » .

ورواه الترمذى ، وابن ماجة من حديث زيد بن الحباب ، والنسائى من حديث المعافى بن عمران كلاهما عن سُهَيل بن عبد الله القُطَعى ، به[٥] . وقال الترمذى : حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوى. ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن هُدْبَة بن خالد، عن سُهَيل ، به. وهكذا رواه أبو يعلى ، والبَزار ، والبَغَوى ، وغيرهم ، من حديث سُهَيل القُطَعى ، به [٦] .

آخر تفسير سورة « المدثر » ولله الحمد والمنة

[وحسبنا الله ونعم الوكيل][٧]

---

(١) فى أ : « يوسف بن ماهك» .
(٢) فى أ : « بتار » .
(٣) فى أ : « حدثنا يزيد » .
(٤) فى م: « أخو حمزة » .
(٥) المسند (٣/ ١٤٢) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) ، وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٩٩) ، وتفسير النسائى (٢/ ٤٧٥) .
(٦) مسند أبى يعلى (٦/ ٦٦) ، ومعالم التنزيل للبغوى (٨/ ٢٧٦) .
(٧) زيادة من م .

سورة المُدَّثِّر

مكيّة، وهي ستّ وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ④ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ⑤ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ⑦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: المُتدثِّر، وهو لابسُ الدِّثار وهو ما يلبس فوق الشِّعار الذي يلي الجسد. قيل: هي أوّل سورة نزلت.[1] رُوي عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «كنتُ على جبل حِراءٍ فنُوديت: يا محمّد إنّك رسول الله، فنظرتُ عن يميني ويساري فلم أرَ شيئًا، فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض، يعني المَلَكَ الذي ناداه، فرُعبت ورجعتُ إلى خديجةَ، فقلت: دثِّروني دثِّروني، فنزل جبريلُ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾».[2]

وعن الزُّهري: إنّ أوّل ما نزل سورة اقرأ إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق، ٩٦/٥]، فحزن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريلُ عليه السلام، وقال: «إنّك نبيّ الله»، فرجع إلى / خديجة، [٢٣٩و]
فقال: «دثِّروني وصبّوا عليّ ماءً باردًا»، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.[3]

وقيل: سَمِع مِن قريش ما كرِهه فاغتمّ، فتغطّى بثوبه متفكِّرًا كما يفعل المغموم، فأُمر ألّا يدَع إنذارهم وإن أسمعوه وآذَوه.[4] وقيل: كان نائمًا متدثِّرًا.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٠١-٤٠٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٦.

[2] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/١٦١ (٤٩٢٢)؛ وصحيح مسلم، ١/١٤٤ (٢٥٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٣/٤٠٠-٤٠١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٦.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٠٢-٤٠٣. وبمعناه في مسند أحمد، ٢٣/٣٨٤ (١٥٢١٤)؛ وصحيح البخاري، ٦/١٦١ (٤٩٢٢)؛ وصحيح مسلم، ١/١٤٤ (٢٥٧).

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٦.

وقيل: المراد المتدثِّر بلباس النبوّة والمعارف الإلهيّة.[١] وقُرِئَ: "المُدَثَّرُ"[٢] على صيغة اسم المفعول مِن "دثَّره"، أي: الذي دُثِّر هذا الأمرَ العظيم وعُصِب به. وفي حرف أبي المنذر: "يَا أَيُّهَا المُتَدَثِّرُ"[٣] على الأصل.

﴿قُمْ﴾ أي: مِن مضجعك أو قمْ قيامَ عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي: افعل الإنذار وأحدِثه. وقيل: أنذر قومك، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦]، أو جميع الناس، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ، ٢٨/٣٤].[٤]

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختصّ ربَّك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقادًا وقولًا. ويروى أنّه لمّا قال رسول الله: «الله أكبر»، فكبَّرت خديجةُ وفرحتْ وأيقنتْ أنّه الوحيُ.[٥] وقد يُحمَل على تكبير الصّلاة، و"الفاء" لمعنى الشَّرط، كأنّه قيل: ما كان، أي: أيّ شيء حدثَ فلا تدَع تكبيره،[٦] أو للدلالة على أنّ المقصود الأَوّلي مِن الأمر بالقيام أن يكبِّر ربّه وينزِّهه مِن الشِّرك، فإنّ أوّل ما يجب معرفةُ الصانع جلّ جلاله، ثمّ تنزيهه عمّا لا يليق بجنابه.[٧]

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ممّا ليس بطاهر فإنّه واجب في الصلاة وأَولى وأحبّ في غيرها، وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغَسْلها بعد تلطُّخها، وبتقصيرها أيضًا فإنّ طُولها يؤدِّي إلى جرّ الذُّيول على القاذورات، وهو أوَّل ما أُمر به عليه السلام مِن رَفْض العادات المذمومة. وقيل: هو أمر بتطهير النفس ممّا يُستقذر
[٢٣٩ظ] مِن الأفعال ويُستهجن مِن الأحوال، يقال: "فلان طاهرُ الذيل والأردان"[٨] / إذا وصفوه بالنقاء مِن المعائب ومدانسِ الأخلاق.[٩]

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٤/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٥١.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٤/٣.

٥ بلفظ قريب في التفسير البسيط للواحدي، ٣٩٥/٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٩٤/١٩.

٦ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤.

٧ هذا الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٥/٣.

٨ الأردان جمع رُدْن: وهو مقدَّم كمّ القميص. لسان العرب لابن منظور، «ردن».

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٧/٤.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: واهجر العذاب بالثبات على هَجْر ما يؤدِّي إليه مِن المآثم. وقُرئ بكسر "الراء"،[١] وهما لغتان كالذُّكر والذِّكر.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ولا تُعطِ مُستكثِرًا، أي: رائيًا لِما تعطيه كثيرًا، أو طالبًا للكثير، على أنّه نهيٌ عن الاستغزار، وهو أن يهَب شيئًا وهو يطمع أن يتعوَّض مِن الموهوب له أكثر ممّا أعطاه، وهو جائز، ومنه الحديث: «المُستغزِر يُثاب مِن هِبته».[٢] فالنهي إمّا للتحريم وهو خاصّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ الله تعالى اختار له أشرفَ الأخلاق وأحسنَ الآداب، أو للتنزيه للكلّ.

وقرئ: "تَسْتَكْثِرْ"[٣] بالسكون اعتبارًا بحال الوقف، أو إبدالًا مِن ﴿تَمْنُن﴾، كأنّه قيل: ولا تمننْ ولا تستكثرْ، على أنّه مِن "المَنّ" الّذي في قوله تعالى: ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة، ٢/٢٦٢]؛ لأنَّ "مَنَّ يَمُنّ بما يعطي": يستكثره ويعتدّ به. وقُرئ بالنصب[٤] بإضمار "أن" مع إبقاء عملها، كقول مَن قال:

ألَا أيُّهذا الزَّاجري أحضُرَ الوغى[٥]

وقد قُرئ بإثباتها.[٦] ويجوز في قراءة الرفع أن تُحذف "أن" ويُبطَل عملها، كما يروى "أحضرُ الوغى" بالرفع.[٧]

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ أي: لوجهه تعالى أو لأمره ﴿فَٱصْبِرْ﴾ فاستعمل الصبر. وقيل: على أذِيّة المشركين. وقيل: على أداء الفرائض.[٨]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وحمزة وخلف وأبو بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

٢ **المصنَّف** لابن أبي شيبة، ١٢/١٤٦ (٢٢١٢٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٨٧. وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلَعي، ٣/٥٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩١.

٥ وفي هامش م: تمامه:

وأن أشهد اللذّاتِ هل أنتَ مُخلدي

والبيت مِن معلَّقة طرفة بن العبد، وهو في **ديوانه**، ص ٤٥؛ وهو له في **كتاب سيبويه**، ٣/٩٩، ١٠٠؛ و**جامع البيان** للطبري، ٢٤/٤٢٣ (البلد، ٩٠/١٤)؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٨٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٤.

٧ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٨٧؛ وانظر الكلام على وجهي النصب والرفع في بيت طرفة في **شرح القصائد السبع** لابن الأنباري، ص ١٩٣.

٨ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٨٧.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: نُفخ في الصُّور، وهو فاعول مِن النَّقْر بمعنى التصويت، وأصله القَرْع الذي هو سبب الصَّوت، و"الفاء" للسببيّة، كأنّه قيل: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقَون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه، والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ معناه عَسُر الأمر على الكافرين، / وذلك إشارة إلى وقت [٢٤٠و] النَّقْر، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العَهْد بالمُشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الهَول والفظاعة، ومحلُّه الرفع على الابتداء، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه مبنيّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن، والخبر ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

وقيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف للخبر، إذ التقدير: فذلك الوقت وقوع يوم عسير، و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ﴿عَسِيرٌ﴾.[١] وقيل: بمحذوف هو صفة لـ﴿عَسِيرٌ﴾ أو حال مِن المستكِنّ فيه،[٢] وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعُسره عليهم مُشعِر بيُسره على المؤمنين.

واختُلف في أنّ المراد به يوم النفخة الأولى أو الثانية، والحقّ أنّها الثانية؛ إذ هي التي يختصّ عُسرها بالكافرين، وأمّا النفخة الأولى فحُكمها الذي هو الإصعاق يعمّ البَرّ والفاجر، على أنّها مختصّة بمَن كان حيًّا عند وقوعها، وقد جاء في الأخبار أنّ في الصُّور ثُقَبًا بعدد الأرواح كلّها، وأنّها تُجمع في تلك الثُّقَب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ مِن كلّ ثقبة روح إلى الجسد الذي نُزعت منه فيعود الجسد حيًّا بإذن الله عزّ وجلّ.[٣]

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٨٨.
٢ القول في التبيان للعكبري، ٢/١٢٥٠.
٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٩/٥٠٥.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ حال إمّا مِن "الياء"، أي: ذرني وحدي معه، فإنّي أكفيكه في الانتقام منه، أو مِن "التاء"، أي: خلقتُه وحدي لم يشرَكني في خَلْقه أحد، أو مِن العائد المحذوف، أي: ومَن خلقتُه وحيدًا فريدًا لا مالَ له ولا ولد. وقيل: نزلت في الوليد بن المُغيرة المخزومي، وكان يلقَّب في قومه بالوحيد، فهو تهكُّم به وبلقبه، وصَرْف له عن الغرض الذي يؤمُّونه مِن مدحه إلى جهة ذمِّه بكونه وحيدًا مِن المال والولد،[١] أو وحيدًا مِن أبيه؛ لأنّه كان زنيمًا كما مرّ، أو وحيدًا في الشَّرارة.[٢]

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطًا كثيرًا أو مُمَدًّا بالنماء مِن "مدّ النهر ومدّه نهر آخر". قيل: كان له الضَّرع والزَّرع والتجارة.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / هو ما كان له بين مكّة والطائف مِن صنوف الأموال.[٤] وقيل: كان له بالطائف بستان لا تنقطع ثماره صيفًا وشتاءً.[٥] وقال ابن عبّاس ومجاهدٌ وسعيد بن جبير: كان له ألف دينار.[٦] وقال قتادةُ: ستّة آلاف دينار.[٧] وقال سفيان الثوري: أربعة آلاف دينار.[٨] وقال الثوري أيضًا: ألفُ ألفِ دينار.[٩] [٢٤٠ظ]

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضورًا معه بمكّة يتمتّع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة لكونهم مَكفيّين لوُفور نِعَمهم وكثرةِ خَدَمهم، أو حضورًا في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم. قيل: كان له عشرة بنين.[١٠] وقيل: ثلاثةَ عشرَ. وقيل: سبعة، كلّهم رجال: الوليد بن الوليد[١١] وخالد

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[٢] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٦/٣.
[٣] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[٤] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[٦] جامع البيان للطبري، ٤٢٢/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[٧] اللباب لابن عادل، ٥٠٨/١٩، وعن قتادة أنّه أربعة آلاف دينار في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٨.
[٨] جامع البيان للطبري، ٤٢٣/٢٣؛
[٩] معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٨.
[١٠] مَرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٤٢٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٤.
[١١] هو الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (ت. نحو ٧هـ/ نحو ٦٢٩م). ›

وعمارةُ[١] وهشام[٢] والعاص والقيس وعبد شمس، أسلمَ منهم ثلاثة: خالدٌ وهشامٌ وعمارةُ.[٣]

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ وبسطتُ له الرّياسة والجاه العريض حتّى لُقِّب ريحانةَ قريش.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيَه، وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، إمّا لأنّه لا مَزيد على ما أوتيَ سَعةً وكثرةً، أو لأنّه منافٍ لِما هو عليه مِن كفران النِّعم ومعاندة المنعِم. وقيل: إنّه كان يقول: إن كان محمّد صادقًا فما خُلقت الجنّة إلّا لي.[٤]

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْر له عن طمعه الفارغ وقطعٌ لرجائه الخائب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيقي، فإنّ معاندة آياتِ المنعِم مع وضوحها وكفرانَ نعمتِه مع سُبوغها ممّا يوجِب حرمانه بالكلّيّة، وإنّما أوتيَ ما أوتيَ استدراجًا. قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان مِن ماله حتّى هَلَك.[٥]

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ سأُغشّيه بدلَ ما يطمعه مِن الزيادة أو الجنّة عقبةً شاقّةَ المصعَد، وهو مَثَل لِما يُلقّى مِن العذاب الصعب الذي لا يُطاق. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يُكلَّف أن يصعَد عقبةً في النار، كلّما وَضَع يده عليها ذابت،

---

[١] هو عمارة بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قيل: إنّه أسلم مع إخوته خالد وهشام، وقيل: مات كافرًا؛ لأنّ قريشًا أرسلوه إلى النجاشي وجرت معه قصّة فأُصيب بعقله وهام مع الوحش، وهو ممّن دعا عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قريش لمّا وضعوا على ظهره الجزور وهو يصلّي. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٨٣/٥.

[٢] هو هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أخو خالد رضي الله عنه، وهو مِن المؤلّفة قلوبهم، انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٥٤١/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٤٤/٦.

[٣] القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٨/٤.

[٤] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٩/٤.

[٥] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٦٦/٣.

« مِن أشراف قريش في الجاهليّة ومِن أجوادهم. وهو أخو خالد بن الوليد رضي الله عنه، أدرك الإسلام وثبت على وثنية قومه إلى أن أُسر في وقعة بدر ففداه أخواه هشام وخالد وانصرفا به فأسلم. فحبسه إخوته بمكّة، فأفلت ولحق بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وشهد عمرة القضيّة، ومات بالمدينة. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٥٥٨/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٣٤٦؛ **والأعلام** للزركلي، ١٢٢/٨.

فإذا رفعها عادت، وإذا وَضَع رجله ذابت، / فإذا رفعها عادت».[١] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «الصَّعود: جبل مِن نار يُصعَد فيه سبعين خريفًا، ثمّ يُهوى فيه كذلك أبدًا».[٢] [٢٤١و]

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل للوعيد واستحقاقه له، أو بيان لعناده لآياته تعالى، أي: فكّر ماذا يقول في شأن القرآن وقدّر في نفسه ما يقوله.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب مِن تقديره وإصابتِه فيه الغرضَ الذي كان ينتحيه قريشٌ قاتلهم الله، أو ثناءٌ عليه بطريق الاستهزاء به، أو حكايةٌ لِما كرّروه مِن قولهم: "قُتل كيف قدَّر" تهكّمًا بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله، ومعنى قولهم: "قتله الله ما أشجَعَه!" و"أخزاه الله ما أشعَرَه!" الإشعارُ بأنّه قد بلغ مِن الشجاعة والشِّعر مبلغًا حقيقًا بأن يدعوَ عليه حاسده بذلك.

رُوي أنّ الوليد قال لبني مخزوم: واللهِ لقد سمعتُ مِن محمّد آنفًا كلامًا ما هو مِن كلام الإنس ولا مِن كلام الجنّ، إنّ له لَحلاوةً وإنّ عليه لَطُلاوةً، وإنّ أعلاه لمُثمِر، وإنّ أسفله لمُغدِق، وإنّه يعلو وما يُعلى. فقالت قريشٌ: صبأ واللهِ الوليدُ، واللهِ لَتصبأنّ قريشٌ كلّهم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فقعد عنده حزينًا، وكلّمه بما أَحْماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أنّ محمّدًا مجنون! فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنّه كاهن! فهل رأيتموه يتكهّن؟ وتزعمون أنّه شاعر! فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا قطّ؟ وتزعمون أنّه كذّاب! فهل جرّبتُم عليه شيئًا مِن الكذب؟ فقالوا في كلّ ذلك: اللّهمّ لا، ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلّا سِحر يأثُره عن أهل بابِل، فارتجّ النادي فرحًا وتفرّقوا معجَبين بقوله متعجِّبين منه.[٣]

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٢٧/٢٣؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٣٦٦/٥ (٥٥٧٣)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٨-٢٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤.

[٢] مسند أحمد، ٢٤٠/١٨ (١١٧١٢)؛ سنن الترمذي، ٧٠٣/٤ (٢٥٧٦)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤.

[٣] الخبر بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤-٤٩٠.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للمبالغة، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الثانية أبلغُ مِن [٢٤١ظ] الأولى، / وفيما بعدُ على أصلها مِن التراخي الزماني.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: في القرآن، مرّةً بعد مرّة.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطّب وجهه لِما لم يجد فيه مطعنًا، ولم يدرِ ماذا يقول، وقيل: نظَر في وجوه الناس ثمّ قطّب وجهه. وقيل: نظَر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ قطّب في وجهه.[١] ﴿وَبَسَرَ﴾ إتباع لـ﴿عَبَسَ﴾.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ أو عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتّباعه ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يُروى ويتعلّم، و"الفاء" للدلالة على أنّ هذه الكلمة لمّا خطرت بباله تفوّه بها مِن غير تَلَعْثُم وتلبُّث.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تأكيد لِما قبله، ولذلك أُخليَ عن العاطف.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدل مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.[٢]

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ أي: أيّ شيء أعلمَك ما سقر، على أنّ ﴿مَا﴾ الأولى مبتدأ و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره و﴿مَا﴾ الثانية خبر؛ لأنّها المُفيدة لِما قُصد إفادته مِن التهويل والتفظيع، و﴿سَقَرُ﴾ مبتدأ، أي: أيّ شيء هي في وصفها؟ لِما مرّ مرارًا مِن أنّ ﴿مَا﴾[٣] قد يُطلب بها الوصف، وإن كان الغالب أن يُطلب بها الاسم والحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بيان لوصفها وحالها وإنجازٌ للوعد الضمني الذي يُلوِّح به ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. وقيل: حالٌ مِن ﴿سَقَرُ﴾.[٤] وليس بذاك، أي: لا تُبقي شيئًا يُلقى فيها إلّا أهلكَتْه، وإذا هلَك لم تذره هالكًا حتّى يُعاد، أو لا تُبقي على شيء ولا تدَعه مِن الهلاك؛ بل كلّ ما يُطرَح فيها هالك لا محالةَ.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ مُغيِّرة لأعالي الجِلد مُسَوِّدة لها. قيل: تلفَح الجِلد لفحةً فتدعه أشدّ سوادًا مِن الليل.[٥] وقيل: تلوح للناس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٠.
٢ في الآية السابعة عشرة مِن هذه السورة.
٣ وفي هامش م: أي لفظها.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٧.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٠.

عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر، ٧/١٠٢].[١] وقُرئ: "لَوَّاحَةً"[٢] بالنصب على الاختصاص للتهويل.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: مَلَكًا أو صِنفًا أو صَفًّا أو نَقيبًا مِن الملائكة يَلُون أمرها ويتسلّطون على أهلها. وقُرئ بسكون عين "عَشْرَ"[٣] حذرًا مِن توالي الحركات فيما هو في حُكم اسم واحد، وقُرئ: "تَسْعَةَ أَعْشُرٍ"[٤] / جَمْع "عَشير" [٢٤٢و] مثل "يمين" و"أيمُن".

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي: المدبّرين لأمرها القائمين بتعذيب أهلها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليُخالفوا جنس المعذّبين فلا يرِقّوا لهم ولا يستَرْوِحوا إليهم، ولأنّهم أقوى الخَلْق وأقوَمُهم بحقّ الله عزّ وجلّ وبالغضب له تعالى وأشدُّهم[٥] بأسًا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لأحدهم مثلُ قوّة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل، فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم».[٦] ورُوي أنّه لمّا نزل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: أبو جهل لقريشٍ أيعجِز كلّ عشرة منكم أن يبطِشوا برجل منهم، فقال أبو الأشَدّ بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعةَ عشرَ فاكفوني أنتم اثنين، فنزلت.[٧] أي: ما جعلناهم رجالًا مِن جنسكم.

---

١ مرويّ عن الحسن وأبي رزين في جامع البيان للطبري، ٤٣٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ وابن أبي عبلة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٣.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٩/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٤.

٥ س: وأشدُّ.

٦ لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٦٠/٢٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩١/٤.

٧ بلفظ قريب في تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٩٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩١/٤.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ما جعلنا عددهم إلّا العددَ الذي تسبَّب لافتتانهم وهو التسعةَ عشرَ، فعُبِّر بالأثر عن المؤثِّر تنبيهًا على التلازم بينهما، وليس المراد مجرَّد جَعْلِ عددهم ذلك العددَ المُعيَّنَ في نفس الأمر؛ بل جَعْلِه في القرآن أيضًا كذلك، وهو الحكم بأنّ عليها تسعةَ عشرَ؛ إذ بذلك يتحقَّق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادِهم لتولّي هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذُكر، وعليه يدور ما سيأتي مِن استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيمانًا.

قالوا: المخصِّص لهذا العدد أنّ اختلاف النفوس البشريّة في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانيّة الاثنتي عشرةَ والطبيعيّة السبع، أو أن جهنّم سبع درَكاتٍ ستٌّ منها لأصناف الكفَرة، كلّ صِنف يعذَّب بترك الاعتقاد والإقرار والعمل أنواعًا مِن العذاب يُناسبها، وعلى كلّ نوع مَلَك أو صِنف أو صفّ يتولّاه، وواحدة لعُصاة الأمّة يُعذَّبون فيها بترك العمل نوعًا يُناسبه ويتولّاه واحد، أو أنّ الساعات أربع وعشرون، خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس، فيبقى تسعةَ عشرَ قد تُصرَف إلى ما يؤاخَذ به بأنواع مِن العذاب يتولّاها الزبانية.[1]

[٢٤٢ظ] / ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ متعلِّق بالجَعْل على المعنى المذكور، أي: ليكتسبوا اليقينَ بنبوّته صلّى الله عليه وسلّم وصِدق القرآن لِما شاهدوا ما فيه موافقًا لِما في كتابهم. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ أي: يزداد إيمانهم كيفيّةً بما رأوا مِن تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنّه كذلك، أو كمّيّةً بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أُنزِل.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لِما قبله مِن الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفيٌ لِما قد يعتري المستيقِن مِن شبهة ما، وإنّما لم يُنظَم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في سِلك أهل الكتاب في نفي الارتياب، حيث لم يقل: "ولا يرتابوا" للتنبيه على تبايُن النفيين حالًا، فإنّ انتفاء الارتياب مِن أهل الكتاب مقارِن لِما يُنافيه مِن الجحود، ومِن المؤمنين مقارِن لِما يقتضيه مِن الإيمان، وكم بينهما!

---

[1] الكلام بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٢١/١٩.

والتعبيرُ عنهم باسم الفاعل بعد ذِكرهم بالموصول والصلة الفعليّة المنبِئة عن الحدوث للإيذان[١] بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخِهم في ذلك.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكّ أو نِفاق فيكون إخبارًا بما سيكون في المدينة بعد الهجرة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المصرُّون على التكذيب: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المَثَل. وقيل: لمّا استبعدوه حسِبوا أنّه مَثَل مضروب.[٢] وإفرادُ قولهم هذا بالتعليل مع كونه مِن باب فتنتهم للإشعار باستقلاله في الشّناعة.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قبله مِن معنى الإضلال والهداية، ومحلّ "الكاف" في الأصل النصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، وأصل التقدير: يضلّ الله مَن يشاء. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ إضلالًا وهدايةً كائنَين مِثلَ ما ذُكر مِن الإضلال والهداية، فحُذف المصدر وأقيم وصفه مُقامه، ثمّ قُدِّم على الفعل لإفادة القصر، / فصار النظم: مِثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضلّ [٢٤٣و]
الله مَن يشاء إضلاله لصَرْف اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحقّ، ويهدي مَن يشاء هدايته لصَرْف اختياره عن مشاهدة تلك الآيات إلى جانب[٣] الهدى لا إضلالًا وهدايةً أدنى منها.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي: جُموع خَلْقه التي مِن جملتها الملائكة المذكورون ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحد إلى حصر الممكِنات والوقوفِ على حقائقها وصفاتها ولو إجمالًا، فضلًا عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها مِن كمٍّ وكيفٍ ونسبةٍ.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: سَقر أو عدّة خَزَنتها أو الآيات الناطقة بأحوالها. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلّا تذكرةً لهم.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لمَن أنكرها، أو إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون لهم تذكُّر.

---

١ السياق: والتعبيرُ... للإيذان...

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٨/٣.

٣ س: جناب.

﴿وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وقُرئ: "إِذَا دَبَرَ"[1] بمعنى "أدبر"، كـ"قَبَل" بمعنى "أقبَل"، ومنه قولهم: "صاروا كأمسِ الدابرِ"، قيل: هو مِن "دَبَر الليلُ النهارَ" إذا خلَفه.[2]

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: أضاء وانكشف.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جواب للقسم، أو تعليل لـ﴿كَلَّا﴾ والقسمُ معترِض للتوكيد، و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جَمْع "الكُبرى" جُعلت ألف التأنيث كتائها فكما جُمعت "فُعْلَة" على "فُعَل" جُمعت "فُعْلى" عليها، ونظيرُها "القواصع" في جَمْع "القاصِعاء" كأنّها جَمْع "قاصِعة"، أي: لَإحدى البلايا أو لَإحدى الدّواهي الكُبَر، على معنى أنّ البلايا الكُبَر أو الدواهي الكُبَر كثيرة، وهذه واحدة في العِظَم لا نظيرةَ لها.[3]

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ تمييز، أي: لَإحدى الكُبَر إنذارًا، أو حالٌ ممّا دلّت عليه الجملة، أي: كبُرت مُنذِرةً. وقُرئ: "نَذِيْرٌ"[4] بالرفع على أنّه خبر بعد خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أو لمبتدأ محذوف.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل مِن ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: نذيرًا لمَن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضلّه. وقيل: ﴿لِمَن شَآءَ﴾ خبرٌ، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مبتدأ، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف، ١٨/٢٩].[5]

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

---

[1] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

[2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٤.

[3] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٤-٤٩٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٣.

[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٤.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونة عند الله تعالى / بكَسْبها، والرهينة: [٢٤٣ظ]
اسم بمعنى "الرَّهْن"، كـ"الشَّتيمة" بمعنى "الشَّتم"، لا صفة، وإلّا لقيل: "رهين"؛ لأنّ فعيلًا بمعنى مفعول لا يدخله "التاء".

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ فإنّهم فاكُّون رِقابهم بما أحسَنوا مِن أعمالهم، كما يَفكّ الراهن رهنَه بأداء الدَّين. وقيل: هم الملائكة.[١] وقيل: الأطفال.[٢] وقيل: هم الذين سبقت لهم مِن الله تعالى الحسنى.[٣] وقيل: الذين كانوا عن يمين آدمَ عليه السلام يوم الميثاق. وقيل: الذين يعطون كتبهم بأيمانهم.[٤] ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ لا يُكتنه كُنهها ولا يُدرَك وصفها. وهو خبر لمبتدأ محذوف، والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله مِن استثناء ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾، كأنّه قيل: ما بالهم فقيل: هم في جنات. وقيل: حال مِن ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾. وقيل: مِن ضميرهم في قوله تعالى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.[٥] وقيل: ظرف للتساؤل.[٦]

وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضًا على أن يكون كلّ واحد منهم سائلًا ومسئولًا معًا؛ بل صدور السؤال عنهم مجرّدًا عن وقوعه عليهم، فإنّ صيغة "التفاعل" وإن وُضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعه عليه معًا بحيث يصير كلّ واحد مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، كما في قولك: "تراءى القوم"، أي: رأى كلّ واحد منهم الآخر، لكنّها قد تُجرّد عن المعنى الثاني، ويُقصَد بها الدلالة على الأوّل فقط، فيُذكر للفعل حينئذ مفعول، كما في قولك: "تراءوا الهلالَ"، فمعنى: يتساءلون ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: يسألونهم عن أحوالهم، وقد حُذف المسئول لكونه عينَ المسئول عنه.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٥٠/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٤.

٢ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب في جامع البيان للطبري، ٤٤٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٤.

٣ مرويّ عن الضحّاك في اللباب لابن عادل، ٥٣٣/١٩.

٤ كلاهما عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٨.

٥ الوجهان في التبيان للعكبري، ١٢٥١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٩/٣.

٦ هذا الوجه مذكور مع ما قبله في اللباب لابن عادل، ٥٣٣/١٩.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ مقدَّر بقول هو حال مِن فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: يسألونهم قائلين: أيُّ شيء أدخلَكم فيها؟ فتأمَّلْ ودعْ عنك ما تكلَّف فيه المتكلِّفون.[١]

﴿قَالُواْ﴾ أي: المُجرمون مُجيبين للسائلين ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ للصلوات الواجبة.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ على معنى استمرار نفي الإطعام، لا على نفي استمرار الإطعام، كما مرّ مرارًا، وفيه دلالةٌ على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: نشرع في الباطل مع الشارعين فيه.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء، أضافوه إلى الجزاء مع أنّ فيه مِن الدواهي والأهوال ما لا غاية له؛ / لأنّه أدهاها وأهوَلُها وأنّهم مُلابِسوه، وقد مضَت بقيّة الدواهي. وتأخيرُ جنايتهم هذه مع كونها أعظمَ مِن الكلّ لتفخيمها، كأنّهم قالوا: وكنّا بعد ذلك كلّه مكذِّبين بيوم الدِّين، ولبيان كونِ تكذيبهم به مقارِنًا لسائر جناياتهم المعدودة مستمرًا إلى آخر عمرهم حسبما نطَق به قولهم. [٢٤٤و]

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت ومقدِّماته.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لو شفعوا لهم جميعًا.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها مِن موجِبات الإقبال عليه والاتّعاظ به مِن سوء حال المكذِّبين. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال مِن الضمير في الجارّ الواقع خبرًا

---

[١] الظاهر أنّه يُعرِّض بالوجه الذي جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٤٩٣؛ واختاره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٤٦٩؛ وهو أنّ هذا الكلام جواب المشركين للمؤمنين عمّا جرى للمجرمين.

لِـ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة و﴿عَنِ﴾ متعلِّقة به، أي: فإذا كان حال المكذِّبين به على ما ذُكر فأيّ شيء حصل لهم معرِضين عن القرآن مع تعاضُد موجِبات الإقبال عليه وتآخُذ الدواعي إلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ بطريق التداخُل، أي: مشبَّهين بحُمر نافرة. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: مِن أسد، "فَعْوَلَة" مِن "القَسْر"، وهو القهر والغَلَبة. وقيل: هي جماعةُ الرُّماة الذين يتصيَّدونها شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن واستماعِ ما فيه مِن المواعظ وشِرادهم عنه بحُمر جدّت في نِفارها ممّا أفزعها. وفيه مِن ذمّهم وتهجين حالِهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ عطفٌ على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضَون بها؛ بل يريد كلّ واحد منهم أن يؤتى قراطيسَ تُنشَر وتُقرأ، وذلك أنّهم قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لن نتّبعك حتّى تأتي كلَّ واحد منّا بكتبٍ مِن السماء، عنوانُها "مِن ربّ العالمين إلى فلان بن فلان"، نُؤمر فيها باتّباعك، كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء، ٩٣/١٧]. وقُرئ: "صُحْفًا مُنْشَرَةً"[١] بسكون "الحاء" و"النون".

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن تلك الجرأة ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ / فلذلك يُعرِضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصُّحف. [٢٣٤ظ]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن إعراضهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وأيُّ تذكرةٍ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يذكُره ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ وحاز بسببه سعادةَ الدارين ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بمجرَّد مشيئتهم للذِّكر، كما هو المفهوم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلَل أو مِن أعمّ الأحوال، أي: وما يذكُرون بعلّة مِن العِلَل أو في حال مِن الأحوال إلّا بأن يشاء الله،

---

١ قراءة شاذّة، مروية عن سعيد بن جبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥.

أو حالَ أن يشاء الله ذلك، وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "تَذْكُرُوْنَ"[١] على الخطاب التفاتًا، وقُرئ بهما مشدَّدًا.[٢]

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: حقيق بأن يُتقى عقابُه ويؤمَن به ويُطاع. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيقٌ بأن يُغفَر لمَن آمن به وأطاعَه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُدَّثّر أعطاه الله عشرَ حسنات بعدد مِن صدّق بمحمّد عليه السلام وكذّب به».[٣]

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

٢ قراءتان شاذّتان، بالياء مع التشديد مرويّة عن أبي حَيْوَة، وبالتاء مع التشديد مرويّة عن أبي البَرَهسم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٧.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٢٨ (المدثر، ١/٧٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٥. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٧٤

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكية، خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها المُدَّثِّرُ﴾: النبيُّ ـ وأصله «المُتَدَثِّر» أُدغمت التاء في الدال ـ أي: المُتلفّف بثيابه عند نُزول الوحي عليه، ٢ ـ ﴿قُمْ فأنذِرْ﴾: خوِّفْ أهلَ مكّة النارَ إن لم يُؤمنوا، ٣ ـ ﴿وربَّكَ فكبِّرْ﴾: عظِّم عن إشراك المُشركين، ٤ ـ ﴿وثِيابَكَ فطَهِّرْ﴾..

سُورَةُ المُدَّثِّر

قولُهُ: (المُتَدَثِّر) وقُرئَ به[1]، وهو لابِسُ الدِّثارِ، رويَ أنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام قال: «كُنتُ بحِراءَ فَنُودِيتُ فنظَرتُ عن يمِيني وشِمالي فلم أرَ شيئاً، فنظَرتُ فَوقِي فإذا هو على عَرشٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ ـ يَعني: الملَكَ الذي ناداهُ ـ فرُعِبتُ ورَجعتُ إلى خَدِيجَة فقُلتُ: دَثِّروني، فنزَلَ جبرِيلُ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِرُ﴾» رواهُ الشَّيخانِ[2]، ولذلك قيل: هي أوَّلُ سورَةٍ نزلَتْ؛ أي: كاملَةً.

قولُهُ تَعالَى: (﴿قُم﴾) أي: من مضجَعِكَ، أو قُم قيامَ عزمٍ وجِدٍّ.

قولُهُ: (أَهْلَ مَكَّةَ) أو عشيرَتَكَ، والأظهَرُ أنّه مطلَقٌ لإفادَةِ التَّعميمِ.

قولُهُ: (أي عَظِّم) يعني: وخَصِّص ربَّكَ بالتَّكبيرِ، وهو وصفُهُ بالكبرياءِ والعظمَةِ اعتِقاداً وقَولاً وفِعلاً، رويَ أنّه لمَّا نزلَ كبَّرَ رسولُ الله ﷺ وأيقنَ أنّه الوحيُ[3]؛ لأنَّ الشَّيطانَ لا يأمُرُ بذلك.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١) بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) ذكر مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٤/ ٤٩٠) بنحوه.

عن النجاسة، أو قصِّرْها خِلاف جرّ العرب ثيابَهم خُيَلاءَ فربّما أصابتها نجاسة، ٥ ـ ﴿والرِّجزَ﴾ ـ فسّرَه النبيُّ ﷺ بالأوثان ـ ﴿فاهجُرْ﴾ أي: دُم على هجره، ٦ ـ ﴿ولا تَمنُنْ تَستكثِرُ﴾ ـ بالرفع حال ـ أي: لا تُعطِ شيئًا لتطلب أكثر منه، وهذا خاصّ به ﷺ لأنه مأمور بأجلّ الأخلاق وأشرف الآداب، ٧ ـ ﴿ولِرَبِّكَ فاصبِرْ﴾ على الأوامر والنواهي.

٨ ـ ﴿فإذا نُقِرَ في النّاقُورِ﴾: نُفخ في الصُّور ـ وهو القَرن ـ النفخةُ الثانية ٩ ـ ﴿فذلِكَ﴾ أي: وقتُ النقر ﴿يَومَئِذٍ﴾: بدل ممّا قبله المُبتدأِ، وبُني لإضافته إلى غير مُتمكّن، وخبر المبتدأ: ﴿يَومٌ عَسِيرٌ﴾ ـ والعامل في «إذا» ما دلّت عليه الجملة، أي: اشتدّ الأمر ـ ١٠ ـ ﴿علَى الكافِرِينَ غَيرُ يَسِيرٍ﴾. فيه دلالة على أنه يسير على المُؤمنين، أي: في عُسره.

١١ ـ ﴿ذَرْني﴾: اتركْني ﴿ومَن خَلَقتُ﴾: عطفٌ على المفعول أو مفعول معه، ﴿وَحِيدًا﴾: حالٌ من «مَن» أو من ضميره المحذوف مِن «خلقتُ»، أي: منفردًا بلا أهل ولا مال ـ وهو الوليد بن المُغيرة ـ ١٢ ـ ﴿وجَعَلتُ لَهُ مالاً مَمدُودًا﴾:..........................

قولُهُ: (عَن النَّجَاسَةِ) فإنَّ التَّطهيرَ واجبٌ في الصَّلاةِ ومحبوبٌ في غيرها، وذلك بغسلِها وبحِفظِها عن النَّجاسَة كتقصيرِها مخافَةَ جرِّ الذُّيولِ فيها، وهو أوَّلُ ما أمَرَ به من تركِ العاداتِ المذمومَةِ.

قولُهُ: (أو قَصِّرْهَا) فإنَّه «أبقَى وأتقى وأنقَى»، كما في حَديثٍ[1].

قولُهُ: (بالأَوثَانِ) أي: فاهجُرِ العذابَ بالثَّباتِ على هجرِ ما يؤدِّي إليه من الشِّركِ وغيره من القبائِحِ، وقرأَ حفصٌ بالضَّمِّ[2]، وهو لُغَةٌ كالذِّكرِ.

قولُهُ: (وهَذا خَاصٌّ) أو نهيُ تنزيهٍ، وقيل: لا تمتَنَّ على الله بعبادتِكَ مُستكثِراً إيَّاها.

قولُهُ: (عَلى الأَوَامِرِ) أو على أذى المشرِكِينَ لِوَجْهِه تَعالى، أو لأمرِهِ.

قولُهُ: (أي: فِي عُسْرِهِ عَلَى الكَافِرِينَ) يعني: أنَّه تأكيدٌ يمنَعُ أن يكونَ عسيراً على الكافرينَ من وَجهٍ دونَ وجهٍ.

قولُهُ: (مِن مَن) أو من الياءِ؛ أي: ذَرني وَحدي معه فإنِّي أكفيكَهُ، أو من التَّاءِ؛ أي: ومن خَلَقْتُهُ وحدي لم يَشرَكني في خلقِهِ أحَدٌ.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٦٠٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٠٨٦)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٢٨٦)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (١٢١)، والحارث في «مسنده» (٥٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٣٧) من حديث عن أشعث، عن عمته، عن عمها، ووقع عند بعضهم: «أتقى وأبقى»، وبعضهم: «أبقى وأنقى»، وبعضهم: «أتقى وأنقى».

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

واسعًا مُتّصلاً من الزروع والضروع والتجارة ١٣ ـ ﴿وبَنِينَ﴾ عشرة أو أكثر ﴿شُهُودًا﴾: يشهدون المَحافل وتُسمع شهادتهم، ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ﴿ومَهَّدتُ﴾: بسطت ﴿لَهُ﴾ في العيش والعُمر والولد ﴿تمهِيدًا، ثُمَّ يَطمَعُ أن أزِيدَ. كَلاّ﴾ لا أزيدُه على ذلك ـ ﴿إنَّهُ كانَ لِآياتِنا﴾: القُرآن ﴿عَنِيدًا﴾: مُعاندًا ـ ١٧ ـ ﴿سأُرهِقُهُ﴾: أُكلّفه ﴿صَعُودًا﴾: مشقّة من العذاب أو جبلاً من نار يَصعد فيه ثمّ يهوي أبدًا.

١٨ ـ ﴿إنَّـهُ فَكَّـرَ﴾ فيمـا يقـول فـي القُرآن الذي سـمعه مـن النبي ﷺ ﴿وقَـدَّرَ﴾ في نفسـه ذلك ـ ١٩ ـ ﴿فقُتِلَ﴾:..

قولُهُ: (وَاسِعاً) أي: مَبسوطاً كثيراً، أو ممدوداً بالنَّماءِ.

قولُهُ: (أو أكثَرَ) قيلَ: ثلاثَةَ عشر كلُّهُم رجالٌ[١]، قيل: أسلَمَ منهم ثلاثَةٌ: خالِدٌ والوليدُ وهشامٌ[٢].

قولُهُ: (المَحَافِلَ) لوجاهَتِهِم واعتبارِهِم من الشُّهودِ؛ بمعنى: الحُضورِ.

قولُهُ: (في العَيشِ) والرِّئاسَةِ والجاهِ العريضِ.

قولُهُ: (لا أَزِيدُهُ) لأنَّه لا يُناسِبُ ما هو عليه من كُفرانِ النِّعمِ ومُعاندَةِ المنعِمِ، قيل: ما زالَ بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ في نُقصانٍ حتَّى هلكَ.

قولُهُ: (أُكَلِّفُه) وأُغشِّيه.

قولُهُ: (مَشَقَّةً) أي: عقبَةً شاقَّةَ المصعَدِ، وهو مَثَلٌ لما يلقى من الشَّدائد.

قولُهُ: (أو جَبَلاً) على ما رواهُ التِّرمذيُّ وغيره[٣].

قولُهُ: (يَصعَدُ) سبعينَ خريفاً، ثمَّ يهوي فيه كذلك أبداً.

قولُهُ: (فِيمَا يَقُولُ) أي: فيما تخيَّلَ طَعناً.

قولُهُ: (ذَلِكَ) أي: ما يقولُ فيه.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٣٢٩) عن سعيد بن جبير، قال: وكان له ثلاثة عشر ولدا كلهم رب بيت... إلخ، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ١٧٥) من قول مقاتل.

والذي نقله الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ٤٣) عن مقاتل، أنه أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة. وغلط ذلك ابن حجر في «الإصابة» (٥/ ٢١٦) ثم قال: والصواب خالد وهشام والوليد، فأما عمارة فإنه مات كافراً.

(٣) رواه الترمذي (٢٥٧٦)، وأحمد في «مسنده» (١١٧١٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث ابن لهيعة.

قلت: تابعه عمرو بن الحارث فيما رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٧٦٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

لُعِنَ وعُذِّبَ ﴿كَيفَ قَدَّرَ﴾: على أيِّ حال كان تقديره؟ ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ ـ ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وُجوه قومه أو فيما يَقدَحُ به فيه، ٢٢ ـ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾: قبَض وجهه وكلّحه ضِيقًا بما يقول، ﴿وبَسَرَ﴾: زاد في القبض والكلوح، ٢٣ ـ ﴿ثُمَّ أدبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿واستكبَرَ﴾: تكبّر عن اتّباع النبيّ ﷺ، ٢٤ ـ ﴿فقالَ﴾ فيما جاء به: ﴿إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ سِحرٌ يُؤثَرُ﴾: يُنقل عن السَّحرة. ٢٥ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ قَولُ البَشَرِ﴾ كما قالوا: «إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ». ٢٦ ـ ﴿سأُصلِيهِ﴾: أُدخِلُه ﴿سَقَرَ﴾: جهنَّمَ.

قولُهُ: (لُعِنَ) تعجيبٌ من تقديرِهِ استِهزاءً به، رويَ أنّه مرَّ بالنَّبيِّ ﷺ وهو يقرَأُ: ﴿حم﴾ السَّجدَة [فصلت: ١]، فأتَى قومَهُ وقال: لقد سمعتُ من مُحمَّدٍ آنِفاً كَلاماً ما هو من كَلامِ الإنسِ والجنِّ، إنَّ له لحلاوَةً وإنَّ عليه لطلاوَةً ـ أي: رَونَقاً ـ وإن أعلاهُ ـ أي: مَعناهُ ـ لمثمِرٌ، وإنَّ أسفلَهُ ـ أي: لفظَهُ ـ لمُغدِق ـ أي: واسِعٌ ـ، وإنَّه ليَعلو ولا يُعلى، فقالَ قريشٌ: صَبأَ الوليدُ، فقالَ ابنُ أخيهِ أبو جَهلٍ: أنا أكفيكُمُوهُ، فقعَدَ إليهِ حزيناً وكلَّمَهُ بما أحماه ـ أي: أغضَبَهُ ـ فقامَ فأتاهُم فقال: تزعُمونَ أنَّ مُحمَّداً مجنونٌ، فهل رأيتموهُ يخنق؟ وتقولونَ: إنَّهُ كاهنٌ فهل رأيتموهُ يتكهَّنُ؟ وتزعمونَ أنَّه شاعرٌ، فهل رأيتُموهُ يَتعاطى شِعراً؟ فقالوا: لا، فقال: ما هو إلا ساحِرٌ، أما رأيتُموهُ يُفرِّقُ بين الرَّجُلِ وأهلِهِ ووَلدِهِ ومواليِهِ، ففَرِحوا بقولِهِ، وتَفرَّقوا مُتعجِّبينَ منه[1].

قولُهُ تعالَى: (﴿ثمَّ قُتِلَ﴾) تكريرٌ للمُبالغَةِ، و﴿ثمَّ﴾ للدَّلالَةِ على أنَّ الثَّانيةَ أبلغُ من الأولى، وفيما بَعدُ على أصلِها.

قولُهُ: (أو فِيمَا يَقْدَحُ) أي: في أمرِ القُرآنِ مرَّةً بعد أخرى.

قولُهُ: (قَبَضَ) وقطَّبَ.

قولُهُ: (ضِيقاً) أي: لمَّا لم يجدْ فيه طَعناً ولم يَدرِ ما يقولُ، أو نَظَرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقطَّبَ في وجهِهِ.

قولُهُ: (زَادَ) موافقٌ لما في «المدارِكِ»[2]، وهو الصَّحيحُ، وخالَفَ البَيضاويُّ وقال[3]: إتباعٌ لـ﴿عبَس﴾، ورُدَّ بأنَّ عَطْفَ الإتباعِ على المتبوعِ غير معروفٍ.

قولُهُ: (عَنِ الإيمَانِ) أو الرَّسولِ.

قولُهُ: (النَّبيِّ) أو الحَقِّ.

قولُهُ: (يُنقَلُ) ويُروى ويُتعلَّمُ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٧) بنحوه عن ابن عباس، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري. ووافقه الذهبي.

وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٣٢٤): رواه البيهقي في «الشعب» من حديث ابن عباس بسند جيد.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٥٦٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٦١).

٢٧ ـ ﴿وما أدراكَ: ما سَقَرُ﴾؟ تعظيمٌ لشأنها. ٢٨ ـ ﴿لا تُبقِي ولا تَذَرُ﴾ شيئًا من لحم ولا عصب إلاّ أهلكته ثمّ يعود كما كان، ٢٩ ـ ﴿لَوّاحةٌ لِلبَشَرِ﴾: مُحرقة لظاهر الجلد، ٣٠ ـ ﴿علَيها تِسْعةَ عَشَرَ﴾ ملَكًا خزنتُها؟ قال بعض الكُفّار، وكان قويًّا شديد البأس: أنا أكفيكم سبعةَ عشَرَ، واكفوني أنتم اثنين. قال تعالى:

٣١ ـ ﴿وما جَعَلْنا أصحابَ النّارِ إلاّ مَلائكةً﴾، أي: فلا يُطاقون كما يَتوهّمون، ﴿وما جَعَلْنا عِدّتَهُم﴾ ذلك ﴿إلاّ فِتْنةً﴾: ضلالاً ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن يقولوا: لمَ كانوا تسعةَ عشَرَ؟ ﴿لِيَستَيقِنَ﴾: ليستَبينَ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ أي: اليهودُ صِدقَ النبيّ في كونِهم تسعةَ عشَرَ المُوافقِ لِما في كِتابهم، ﴿ويَزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿إيمانًا﴾ تصديقًا لمُوافقة ما أتى به النبيّ ﷺ لِما في كِتابهم، ﴿ولا يَرتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ والمُؤمِنُونَ﴾ من غيرهم في عدد الملائكة،.........................

قولُهُ: (مُحْرِقَةٌ) أو مُسوِّدَةٌ، أو لائحَةٌ ظاهرَةٌ للنَّاسِ.

قولُهُ: (مَلَكاً) أو صِنفاً، أو صَفًّا من الملائِكةِ.

قولُهُ: (خَزَنَتُهَا) يَلونُ أمرَها، قيل: في سَقَر تسعةَ عَشَرَ دَركاً، وقد سُلِّطَ على كُلِّ دركٍ مَلكٌ، وقيل: يُعذَّبُ فيها تسعَةَ عشَرَ لَوناً من العَذابِ، على كُلِّ لونٍ مَلكٌ مُوكَّلٌ.

قولُهُ: (كمَا يَتوهَّمُون) إذ جاءَ في الخبَرِ: أعيُنُهُم كالبَرقِ الخاطِفِ، وأنيابُهُم كالصَّياصِي[1] يخرُجُ لهَبُ النَّارِ من أفواهِهِم ما بينَ منكِبَي أحدِهِم مسيرَةُ سنةٍ، نُزعَت منهُمُ الرَّحمَةُ، يدفَعُ أحدُهُم سبعينَ ألفاً فيرميهِم حيثُ أرادَ من جهنَّمَ[2].

قولُهُ: (ضَلالاً) وافتِتاناً.

قولُهُ: (بأَن يَقُولُوا) أو يَستقِلُّوا، ويَستهزِؤوا ويَستبعِدوا أن يَتولَّى هذا العدَدُ القليلُ تعذيبَ أكثرِ الثَّقَلينِ.

قولُهُ: (أي: اليَهُودُ) يعني: ليكتَسِبوا اليقينَ بنبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وصِدقِ القُرآنِ.

قولُهُ: (مِن أَهلِ الكِتَابِ) الظَّاهرُ أنَّه أعمُّ.

قولُهُ: (تَصدِيقاً) أو إيماناً بالإيمانِ به، أو بتَصديقِ أهلِ الكِتابِ له.

قولُهُ: (مِن غَيرِهِم) وهو تأكيدٌ للاستيقانِ، وزيادَةِ الإيمانِ.

---

(١) الصيصة: شوكة الحائك يسوي بها السدى واللحمة. «القاموس المحيط» (ص: ٦٢٣).

(٢) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ٥٩) (٣٢١٨) بنحوه عن ابن جريج مرسلا.

﴿وليقولَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: شكٌّ بالمدينة ﴿والكافِرُونَ﴾ بمكّة: ﴿ماذا أرادَ اللهُ بِهذا﴾ العدد ﴿مَثَلاً﴾؟ سمَّوه لغرابته بذلك، وأُعرِب حالاً ـ ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلالِ مُنكِرِ هذا العدد وهَدْيِ مُصدّقِه ﴿يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ وما يَعلَمُ جُنودَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكةَ في قوّتهم وأعوانهم، ﴿إلاّ هُوَ، وما هِيَ﴾ أي: سقرُ ﴿إلاّ ذِكرَى﴾: عِظةٌ ﴿لِلبَشَرِ﴾.

٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿كَلاّ﴾: استفتاحٌ بمعنى: ألا ﴿والقَمَرِ، واللَّيلِ إذا﴾، بفتح الذال، ﴿دَبَرَ﴾: جاء بعد النهار ـ وفي قِراءة: «إذْ أدبَرَ» بسكون الذال بعدها همزة، أي: مضى ـ ٣٤ ـ ﴿والصُّبحِ إذا أسفَرَ﴾: ظهر، ٣٥ ـ ﴿إنَّها﴾ أي: سقرَ ﴿لَإحدَى الكُبَرِ﴾: البلايا العِظام،.............................

قولُهُ: (شَكٌّ بالمَدِينَةِ) الصَّواب: شَكٌّ أو نفاقٌ، فيكونُ إخباراً بمكَّةَ عمَّا سيكونُ في المدينَةِ بعدَ الهجرَةِ.

قولُهُ: (بِمَكَّةَ) الجازمونَ في التَّكذيبِ.

قولُهُ: (العَدَدِ) أي: أيُّ شيءٍ أرادَ بهذا العَدَدِ المستغرَبِ استِغرابَ المثلِ.

قولُهُ: (أي: المَلائِكَةَ) يعني: جُموعَ خلقِهِ على ما هم عليه.

قولُهُ: (أي: سَقَر) أو عدَّةُ الخزنَةِ، أو السورَةُ.

قولُهُ: (استِفتَاحٌ) هذا قولُ أبي حاتِمٍ ومتابعيهِ، وقالَ الكسائيُّ: معناهُ: حقًّا[1]، والجمهورُ على أنَّه رَدعٌ لمن أنكَر[2].

قولُهُ: (بفَتحِ الذَّالِ) وألِفٌ بعدها.

قولُهُ: (جَاءَ) أو دَبَرَ بمعنى أَدْبَرَ، كقَبَلَ بمعنى: أقبلَ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وحفصٍ وحمزَةَ[3].

قولُهُ: (بِسُكُونِ الذَّالِ) أي: المعجمَةِ.

قولُهُ: (بَعدَهَا هَمزَةٌ) أي: في أوَّلِ الكلِمةِ الآتيةِ؛ يعني: ﴿أَدبَرَ﴾ على وزنِ: أكرَمَ.

قولُهُ: (ظَهَرَ) وأضاءَ.

قولُهُ: (العِظَام) أي: البلايا الكُبر كثيرَةٌ، وسقَرُ واحدَةٌ منها.

---

(١) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٢٥٠).

(٢) انظر: «شرح قواعد الإعراب» (١/ ١٠٦).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿نَذِيرًا﴾: حالٌ من «إحدى الكبر»، وذُكّر لأنها بمعنى العذاب ﴿لِلْبَشَرِ، لِمَن شاءَ مِنكُم﴾: بدلٌ من «للبشر» ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير أو الجنّة بالإيمان ﴿أَو يَتأَخَّرَ﴾ إلى الشرّ أو النار بالكُفر.

٣٨ ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾: مرهونة مأخوذة بعملها في النار، ٣٩ ـ ﴿إلاّ أصحابَ اليَمِينِ﴾ وهم المُؤمنون فناجون منها، كائنون ٤٠ ـ ﴿في جَنّاتٍ يَتَساءَلُونَ﴾ بينهم ٤١ ـ ﴿عَنِ المُجرِمِينَ﴾ وحالهم، ويقولون لهم بعد إخراج المُوحّدين من النار: ٤٢ ـ ﴿ما سَلَكَكُم﴾: أدخلكم ﴿في سَقَرَ﴾؟

٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ﴿قالُوا: لَم نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ، ولَم نَكُ نُطعِمُ المِسكِينَ، وكُنّا نَخُوضُ﴾ في الباطل ﴿مَعَ الخائضِينَ، وكُنّا نكَذِّبُ بيَومِ الدِّينِ﴾: البعث والجزاء ٤٧ ـ ﴿حَتَّى أتانا اليَقِينُ﴾: الموت. ٤٨ ـ ﴿فما تَنفَعُهُم شَفاعةُ الشّافِعِينَ﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين. والمعنى: لا شفاعةَ لهم.

٤٩ ـ ﴿فما﴾: مبتدأ ﴿لَهُم﴾: خبره مُتعلّق بمحذوف انتقل ضميره إليه ﴿عَنِ التَّذكِرةِ مُعرِضِينَ﴾؟ حال من الضمير، والمعنى: أيُّ شيء حصل لهم في إعراضهم عن الاتعاظ؟

قولُهُ: (حَالٌ مِن: ﴿إحدى﴾) أي: نفسِها، أو من ضَميرِها، والتَّقديرُ: كبُرَت مُقدَّرةً، وهو المختارُ، وقيل: إنَّه تَمييزٌ؛ أي لأحدى ﴿الكُبَرِ﴾ إنذاراً.

قولُهُ: (إلى الخَيرِ) أو إلى ما أُمِرَ به.

قولُهُ: (إلى الشَّرِّ) أي: عن الخَيرِ إلى الشَّرِّ، أو عمَّا نُهي عنه؛ أي: نذيراً للمُمَكَّنينَ من السَّبقِ إلى الخَيرِ والتَّخلُّفِ عنه.

قولُهُ: (مَرهُونَةٌ) عند الله، مصدَرٌ كالشَّتيمَةِ بمعنى الشَّتم، أُطلقَت للمفعولِ كالرَّهنِ، ولو كانت صفَةً لقيلَ: رهينٌ؛ لأنَّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ.

قولُهُ: (فَنَاجُونَ مِنهَا) لأنَّهم فكُّوا رقابَهُم بما أحسَنوا من أعمالِهِم.

قولُهُ: (كَائِنُونَ) صوابُهُ: كائِنِين؛ لأنَّه حالٌ من أصحابِ اليمينِ، أو من الضَّميرِ في: ﴿يَتَسَاءَلُون﴾.

قولُهُ: (بَينَهُم) أي: يسأَلُ بعضُهُم بعضاً.

قولُهُ: (البَعثِ) أخَّرهُ لتعظيمِهِ؛ أي: وكنَّا بعد ذلك كلِّهِ مكذِّبينَ بالقيامَةِ.

قولُهُ: (المَوتُ) ومُقدِّماتِ اليقينِ.

قولُهُ: (لا شَفَاعَةَ) أو المعنى: لا تنفعُهُم شفاعَةُ الشَّافِعينَ لو شَفَعوا لهم جميعاً.

قولُهُ: (مِنَ الضَّمِيرِ) في الجارِ.

قولُهُ: (في إعرَاضِهِم) أي: حالَ إعراضِهِم.

قولُهُ: (عَنِ الاتِّعَاظِ) أو القُرآنِ، أو ما يعمُّهُ.

٥٠ ـ ﴿كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُّستَنفِرَةٌ﴾: وحشيّة، ٥١ ـ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾: أسدٍ، أي هربتْ منه أشدّ الهرب؟ ٥٢ ـ ﴿بَل يُرِيدُ كُلُّ امرِئٍ مِنهُم أن يُؤتَى صُحُفًا مُنَشَّرةً﴾ أي: من الله ـ تعالى ـ باتّباع النبيّ كما قالوا: «لَن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ، حَتَّى تُنَزِّلَ علَينا كِتابًا نَقرَؤُهُ». ٥٣ ـ ﴿كَلاَّ﴾: ردعٌ عمّا أرادوه، ﴿بَل لا يَخافُونَ الآخِرَةَ﴾ أي: عذابها.

٥٤ ـ ﴿كَلاّ﴾: استفتاح ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿تَذكِرةٌ﴾: عِظة، ٥٥ ـ ﴿فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ﴾: قرأه فاتّعظ به، ٥٦ ـ ﴿وما يَذكُرُونَ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿إلاّ أن يَشاءَ اللهُ. هُوَ أهلُ التَّقوَى﴾ بأن يُتّقى ﴿وأهلُ المَغفِرةِ﴾ بأن يَغفر لمن اتّقاه.

قولُهُ: (وَحشِيَّةٌ) نافِرَةٌ، وقرأ نافعٌ وشاميٌّ بفتحِ الفاءِ[1].

قولُهُ: (أَسَد) فَعْوَلَةٌ من القَسرِ، وهو القَهرُ.

قولُهُ: (باتِّبَاعِ النَّبيِّ) وذلك أنّهم قالوا: لن نَتَّبعكَ حتَّى تأتي كلًّا منّا بكتابٍ من السَّماءِ فيه: من الله تعالى إلى فُلانٍ اتَّبع مُحمَّداً[2].

قولُهُ: (لَن نُؤمِنَ لَكَ) لفظُ التَّنزيلِ: ﴿لَن نُّؤمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: ٩٣].

قولُهُ: (أي: عَذَابَهَا) لاستِهلاكِهم في محبَّةِ الدُّنيا وشَهواتِها، وإعراضِهم عن التَّذكِرَة.

قولُهُ: (استِفْتَاح) أو رَدعٌ لهم عن إعراضِهم.

قولُهُ: (عِظَةٌ) وأيُّ عظَةٍ.

قولُهُ: (والتَّاءُ) الخطاب نافِعٌ[3].

قولُهُ تعالَى: (﴿إِلَّا أن يَشَاءَ اللهُ﴾) أي: ذِكْرَهُم أو مشيئَتَهُم؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلا أن يَشَاءَ اللهُ﴾ وهو تصريحٌ بأنَّ فعلَ العَبدِ بمشيئَةِ الله.

قولُهُ: (بأَن يُتَّقى) أي: حقيقٌ بأن يُتَّقى عقابُهُ، أو هو أهلُ من يُتَّقى به عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (لِمَنِ اتَّقَاهُ) أو لعبادِهِ سيما المتَّقينَ منهم، والله سُبحانَهُ وتعالى أعلم.

* * *

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٣) عن قتادة.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

سورة المدثر

مكّيَّة، قال ابنُ عطيَّة: بإجماع[1]. وفي «التحرير»: قال مقاتل: إلَّا آيةً وهي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ إلخ [الآية: ٣١][2]، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يُشعِر بأنَّ قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [الآية: ٣٠] مدنيٌّ بما فيه.

وآيُها ستٌّ وخمسون في العراقيِّ والمدنيِّ الأوَّل، وخمس وخمسون في الشاميِّ والمدنيِّ الأخير على ما فصّل في محلِّه.

وهي متواخية مع السورة قبلها في الافتتاح بنداء النبيِّ ﷺ، وصَدْرُ كليهما نازل ـ على المشهور ـ في قصَّة واحدة، وبُدئت تلك بالأمر بقيام الليل وهو عبادة خاصَّة، وهذه بالأمر بالإنذار، وفيه مِن تكميل الغير ما فيه.

وروى أمية الأزديُّ عن جابر بنِ زيد ـ وهو من علماء التابعين بالقرآن ـ أنَّ «المُدَّثِّر» نزلت عَقِبَ «المُزَّمِّل». وأخرجه ابنُ الضُّرَيْس عن ابنِ عباس[3]، وجعلوا ذلك مِن أسباب وَضْعِها بعدها. والظاهر ضعف هذا القول؛ فقد أخرج أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وجماعة عن يحيى بنِ أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بنَ عبد الرحمن عن أوَّل ما نزل مِن القرآن؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بنَ عبد الله عن ذلك وقلتُ له مِثْلَ ما قلتَ، فقال جابر: لا أحدِّثك إلا ما حدَّثنا رسولُ الله ﷺ، قال: «جاورتُ بِحِراء، فلما قضيتُ جواري هبطتُ، فنُوديت فنظرتُ عن يميني فلم أَرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٧٠.

(٣) فضائل القرآن (٣).

شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أَرَ شيئاً، ونظرت خَلْفي فلم أَرَ شيئاً، فرفعتُ رأسي فإذا المَلَك الذي جاءني بِحِراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض فَجُئِثْتُ[١] منه رُعْباً، فرجعتُ فقلتُ: دثّروني. فدثَّروني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[٢]. وفي رواية: «فجئتُ أهلي، فقلتُ: زمِّلوني،زمِّلوني زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱهْجُرْ﴾[٣] = فإنَّ القصَّة واحدة، ولو كانت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ هي النازلةَ قَبْلُ فيها لذُكرت، نعم ظاهر هذا الخبر يقتضي أنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزل قبل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ والمروي في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنَّ ذاك أوَّلُ ما نزل مِن القرآن[٤]، وهو الذي ذهب إليه أكثر الأمَّة حتى قال بعضهم: هو الصحيح.

ولصحَّة الخبرين احتاجوا للجواب، فنقل في «الإتقان» خمسةَ أجوبة:

الأوَّل: أنَّ السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملةٍ، فبيَّن أنَّ سورة «المدَّثِّر» نزلت بكمالها قبل تمام سورة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فإنَّ أوَّل ما نزل منها صدرها.

الثاني: أنَّ مرادَ جابر بالأوَّليَّة أوَّليَّةٌ مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أوَّليَّة مطلقة.

الثالث: أنَّ المراد أوَّليَّة مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبَّر بعضهم عن هذا بقوله: أوَّل ما نزل للنبوَّة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وأوَّل ما نزل للرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

الرابع: أنَّ المراد أوَّل ما نزل بسبب متقدِّم، وهو ما وقع مِن التدثُّر الناشِئ عن الرُّعب، وأمَّا: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فنزلت ابتداءً بغير سبب متقدِّم.

---

(١) جاء في هامش الأصل: أي: ذعرت. انتهى منه.

(٢) أحمد (١٤٢٨٧)، والبخاري (٤٩٢٢) و(٤٩٢٣) و(٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١): (٢٥٧)، وهو عند الترمذي (٣٣٢٥) لكن من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله مختصراً.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (١٦١): (٢٥٦)، وهو عند أحمد (١٤٤٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩).

الخامس: أنَّ جابراً استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو مِن روايته، فيقدَّم عليه ما روت عائشة رضي الله عنها.

ثم قال: وأحسنُ هذه الأجوبة الأوَّلُ والأخيرُ[1]. انتهى، وفيه نَظَر، فتأمَّل ولا تغفل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ أصله: المُتَدَثِّر، فأدغم، وهو على الأصل في حرف أُبَيٍّ[2]، مِن تدثَّر: لَبِسَ الدِّثار ـ بكسر الدال ـ وهو ما فوق القميص الذي يلي البدنَ ويُسمَّى شِعاراً؛ لاتِّصاله بالبشرة والشَّعَر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ»[3]. والتركيب على ما قيل دائر مع معنى السَّتْر على سبيل الشمول، كأنَّ الدثارَ سترٌ بالغ مكشوف، نودي ﷺ باسم مشتقٍّ مِن صفته التي كان عليها؛ تأنيساً له وملاطفةً كما سمعتَ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

وتدثُّره عليه الصلاة والسلام لما سمعتَ آنفاً، وأخرج الطبراني وابن مردويه بسندٍ ضعيف عن ابنِ عباس: أنَّ الوليد بنَ المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلمَّا أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فاختلفوا، ثم اجتمع رَأْيُهم على أنَّه سِحْر يُؤْثَر، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثَّر ـ أي: كما يفعل المغموم ـ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[4].

وقيل: المراد بالمدَّثِّر: المتدثِّر بالنبوَّة والكمالات النفسانية، على معنى: المتحلِّي بها والمتزيِّن بآثارها. وقيل: أطلق المدَّثِّر وأُريد به الغائب عن النظر، على

(١) الإتقان ١/٧٨-٧٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/٦٥، وتفسير الرازي ٣٠/١٨٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٧٠)، والبخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٤) الدر المنثور ٦/٢٨١، والطبراني في الكبير (١١٢٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٣١: وفيه: إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك.

الاستعارة والتشبيه، فهو نداء له بما كان عليه في غار حِراء.

وقيل: الظاهر أن يُراد بالمدَّثِّر ـ وكذا بالمزَّمِّل ـ الكناية عن المستريح الفارغ؛ لأنَّه في أوَّل البعثة، فكأنَّه قيل له عليه الصلاة والسلام: قد مضى زمنُ الراحة وجاءتك المتاعبُ مِن التكاليف وهداية الناس، وأنتَ تَعلمُ أنَّه لا ينافي إرادةَ الحقيقة، وأمرُ التلطيف على حاله.

وقال بعض السادة: أي: يا أيُّها الساتر للحقيقة المحمديَّة بدِثار الصورة الآدميَّة، أو: يا أيُّها الغائب عن أنظار الخليقة فلا يَعرِفك سوى الله تعالى على الحقيقة، إلى غير ذلك من العبارات، والكلُّ إشارة إلى ما قالوا في الحقيقة المحمديَّة مِن أنَّها حقيقةُ الحقائق التي لا يقف على كُنْهها أحدٌ مِن الخلائق، وعلى لسانها قال مَن قال:

وإنِّي وإن كنت ابنَ آدمَ صورةً ... فلي فيه معنًى شاهدٌ بأُبُوَّتي[1]

وأنَّها التعيُّن الأوَّل، وخازن السِّرِّ المقفل، وأنَّها وأنَّها، إلى أمور هيهات أن يكون للعقل إليها منتهى:

أعيى الورى فَهْمُ معناه فليس يُرَى ... في القُرْب والبُعْد منه غير مُنْفحمِ
كالشمس تَظهر للعينين مِن بُعد ... صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ
وكيف يُدْرِك في الدنيا حقيقته ... قوم نيامٌ تَسلَّوا عنه بالحُلُمِ
فَمَبْلغُ العِلْم فيه أنَّه بشرٌ ... وأنَّه خيرُ خَلْقِ اللهِ كلِّهمِ[2]

وقرأ عكرمة: «المُدَثِّر» بتخفيف الدال وتشديد الثاء المكسورة على زِنَة الفاعل[3]، وعنه أيضاً «المُدَثَّر» بالتخفيف والتشديد على زِنَة المفعول[4]، مِن دثَّره، وقال: دثَّرتَ هذا الأمر، وعُصبَ بكَ، أي: شُدَّ، والمعنى أنَّه المعوَّل عليه،

---

(١) سلف ٢/ ٨٥.
(٢) الأبيات للبوصيري من قصيدته المشهورة البردة ص٣٨-٣٩.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٣٥، والبحر ٨/ ٣٧٠.
(٤) تفسير القرطبي ٢١/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٠.

فالعظائم به منوطة، وأمورُ حلِّها وعَقْدِها به مربوطة، فكأنَّه قيل: يا من تُوقف أمورُ الناس عليه؛ لأنَّه وسيلتهم عند الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُمْ﴾ من مضجعك، أو: قم قيامَ عزمٍ وتصميم، وجعله أبو حيَّان(١) على هذا المعنى مِن أفعال الشروع، كقولهم: قام زيدٌ يفعل كذا، وقوله:

علـى مـا قـامَ يَـشْـتِـمُـنـي لـئـيـمٌ(٢)

و«قام» بهذا المعنى من أخوات «كاد».

وتعقِّب بأنَّه لا يَخفى بُعْدُه هنا؛ لأنَّه استعمالٌ غيرُ مألوف، وورودُ الأمرِ منه غيرُ معروف، مع احتياجه إلى تقدير الخبر فيه، وكلُّه تعسُّف.

﴿فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: فافعل الإنذار، أو: أَحْدِثْهُ، فلا يُقصَد منذرٌ مخصوص، وقيل: يُقدَّر المفعولُ خاصًّا ـ أي: فأنذر عشيرتك الأقربين ـ لمناسبته لابتداء الدعوة في الواقع. وقيل: يُقدَّر عامًّا، أي: فأنذر جميعَ الناس لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ولم يقل هنا: «وبشِّر»؛ لأنَّه كان في ابتداء النبوَّة، والإنذار هو الغالب إذ ذاك، أو هو اكتفاء؛ لأنَّ الإنذار يلزمه التبشير.

وفي هذا الأمر بعد ذلك النداء إشارة عند بعض السادة إلى مقام الجَلْوة بعد الخَلْوة، قالوا: وإليهما الإشارة أيضاً في حديث: «كنتُ كنزاً مخفيًّا، فأحببتُ أن أُعرفَ» إلخ(٣).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ واخصص ربَّك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة اعتقاداً وقولاً، ويروى أنَّه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبَّرت خديجةُ وفرحت وأيقنت أنَّه الوحيُ(٤)، وذلك لأنَّ الشيطانَ لا يَأمر بذلك، والأمر بالنسبة إليه ﷺ غنيٌّ عن الاستدلال.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٠.

(٢) صدر بيت لحسان، وهو في ديوانه ص٧٩، وعجزه:

كـخـنـزيـرٍ تـمـرَّغ فـي رمـادِ

(٣) سلف ١/ ١٩٩ و٢٦/ ٥١.

(٤) أورده الزمخشري ٤/ ١٨٠، والرازي ٣٠/ ١٩١، والقرطبي ٢١/ ٣٥٨.

وجوّز أن يُحمل على تكبير الصلاةِ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسول الله، كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة؟ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نفتتحَ الصلاة بالتكبير(١). وأنتَ تعلم أنَّ نزول هذه الآية كان حيث لا صلاة أصلاً، فهذا الخبر - إن صحَّ - مؤوَّل.

والفاء هنا وفيما بعدُ لإفادة معنى الشرط، فكأنَّه قيل: وما كان - أي: أيُّ شيء حَدَث - فلا تَدَع تكبيرَه عزَّ وجلَّ، فالفاء جزائيَّة، وهي لكونها - على ما قيل - مزحلقةٌ لا يضرُّ عملُ ما بعدَها فيما قَبْلَها. وقيل: إنَّها دخلت في كلامهم على توهُّم شرط، فلمَّا لم تكن في جواب شرط محقَّق، كانت في الحقيقة زائدةً، فلم يمتنع تقديمُ معمول ما بعدَها عليها لذلك.

ثم إنَّ في ذكر هذه الجملة بعد الأمر السابق مقدَّمةً على سائر الجمل إشارةٌ إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير، وإيماءٌ - على ما قيل - إلى أنَّ المقصود الأوليَّ مِن الأمر بالقيام أن يكبِّر ربَّه عزَّ وجلَّ وينزِّهه مِن الشرك، فإنَّ أوَّل ما يجب معرفةُ الله تعالى، ثم تنزيهه عمَّا لا يَليق بجنابه، والكلام عليه مِن باب: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

وقد يقال: لعلَّ ذِكْر هذه الجملة كذلك مسارعةٌ لتشجيعه عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه عزَّ وجلَّ، حيث تضمَّنت الإشارة إلى أنَّ نواصي الخلائق بيده تعالى، وكلّ ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته، فلا ينبغي أن يرهب إلا منه ولا يرغب إلا فيه، فكأنَّه قيل: قم فأَنذر واخصص ربَّك بالتكبير، فلا يصدنَّك شيء عن الإنذار، فتدبَّر.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ تطهير الثياب كنايةٌ عن تطهير النفس عمَّا تُذمُّ به من الأفعال، وتهذيبِها عمَّا يُستهجَنُ مِن الأحوال؛ لأنَّ مَن لا يرضى بنجاسة ما يماسّه، كيف يرضى بنجاسة نفسه، يقال: فلانٌ طاهر الثياب نقيُّ الذيل والأردان: إذا وصف بالنقاء مِن المعايب ومدانس الأخلاق، ويقال: فلان دَنِسُ الثياب، وكذا: دَسِم الثياب: للغادر، ولمن قَبُحَ فعله، ومن الأوَّل قول الشاعر:

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨١، وهو عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٢.

وَيَحْيَى ما يُلامُ بِسوءِ خُلْقٍ   وَيَحْيى طاهِرُ الأثوابِ حُرٌّ[(١)]

ومن الثاني قوله:

لاهُمَّ إنَّ عامِرَ بنَ جَهْمِ   أَوْذَمَ حَجًّا في ثِيابٍ دُسْمِ[(٢)]

وكلمات جمهورِ السلف دائرةٌ على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة، أخرج ابنُ جرير وغيره عن قتادة أنَّه قال فيها: يقول: طهِّرها من المعاصي، وهي كلمةٌ عربيَّة كانت العرب إذا نَكَثَ الرجلُ ولم يَفِ بعهدٍ قالوا: إنَّ فلاناً لدَنِسُ الثياب، وإذا وَفَى وأَصلح قالوا: إنَّ فلاناً لطاهِرُ الثياب[(٣)].

وأخرج ابنُ المنذر عن أبي مالك أنَّه قال فيها: عَنَى نفسَه[(٤)]. وأخرج هو وجماعة عن مجاهد أنَّه قال: أي: وعَمَلك فأصلح[(٥)]. ونحوه عن أبي رزين والسُّدِّيِّ، وأخرج هو أيضاً وجماعة منهم الحاكم وصحَّحه عن ابنِ عباس أنَّه قال: «وثيابك فطهِّر» أي: من الإثم[(٦)]. وفي رواية: من الغَدْر[(٧)]. أي: لا تكن غدَّاراً.

وفي رواية جماعة عن عكرمة: أنَّ ابنَ عباس سُئِلَ عن قوله تعالى: «وثيابك فطهِّر» فقال: لا تَلبسها على غَدْرة ولا فَجْرة، ثم قال: أَلَا تسمعونَ قولَ غيلان بنِ سَلَمة:

---

(١) هكذا أورده القرطبي في التفسير ٢١/ ٣٦٢، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٧١، ولم ينسباه، وأورده المبرِّد في الكامل ١/ ٦١ بلفظ:

ومابي أن أكون أعيبُ يحيى   ويحيى طاهرُ الأثواب بَرُّ

ونسبه لكُثيِّر.

(٢) ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٤٨١، وابن منظور في اللسان (دسم) ولم ينسباه، قال ابن منظور: يعني أنه حجَّ وهو متدنِّس بالذنوب. وأَوْذَمَ الحجَّ: أوجبه.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٠٧، والدر المنثور ٦/ ٢٨١ وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٨١.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٨١، وهو عند الطبري ٢٣/ ٤٠٨.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٨١، والمستدرك ٢/ ٥٠٦، وهو عند الطبري ٢٣/ ٤٠٧.

(٧) الدر المنثور ٦/ ٢٨١، وعزاه لابن مردويه.

فـإنّـي بـحَـمْـدِ اللهِ لا ثـوبَ فـاجـرٍ لَـبِـسْـتُ ولا مِـن غَـدْرة أتـقـنَّـعُ(١)

ونحوه عن الضحاك وابن جبير. وعن الحسن والقُرَظيِّ(٢): أي: وخُلُقك فحسِّن. وأنشدوا للكناية عن النَّفْس بالثياب قولَ عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْح الطويلِ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنا بمُحَرَّمِ(٣)

وفي رواية عن الحبر وابنِ جبير: أنَّه كنى بالثياب عن القلب، كما في قول امرئِ القيس:

فإنْ تَكُ قد ساءَتْكِ منِّي خَلِيقةٌ فَسُلِّي ثيابي مِن ثيابِك تَنْسُلِ(٤)

وقيل: كنَّى بها عن الجسم، كما في قول ليلى وقد ذَكَرتْ إبلاً ركبها قومٌ وذهبوا بها:

رَمَوْها بأثواب خِفاف فلا تَرَى لها شَبَهاً إلا النَّعام المنفَّرا(٥)

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدَّم.

ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة ممَّا لا غبارَ عليه، وقيل على كون تطهيرِ الثياب كنايةً عمَّا مرَّ: يكون ذلك أمراً باستكمال القوَّة العمليَّة(٦) بعد الأمر باستكمال القوَّة النظريَّة، والدعاء إليه.

وقيل: إنَّه أَمْرٌ له ﷺ بالتخلُّق بالأخلاق الحسنة الموجبة لقَبول الإنذار بعد أمرِه

---

(١) سلف ١٤/ ٥٥٠.

(٢) في (م): والقرطبي. وهي غير واضحة في الأصل. والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٤١٣، وتفسير القرطبي ٢١/ ٣٦١.

(٣) ديوان عنترة ص٢٦، وفيه: الأصم، بدل: الطويل، وهي نسخة بهامش الأصل.

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٣.

(٥) البيت ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٤٨٦، والعسكري في الصناعتين ص٣٦٥، وأبو حيان في البحر ٨/ ٣٧١، والكلام منه. وقال في شرح هذا البيت: أي: ركبوها فرموها بأنفسهم.

(٦) في (م): العلمية، وهو تصحيف، والمثبت موافق لما في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٢.

عليه الصلاة والسلام بتخصيصه ربَّه عزَّ وجلَّ بالتكبير الذي ربَّما يوهم إباءَه خفض الجناح لما سواه عزَّ وجلَّ واقتضاءه عدمَ المبالاة والاكتراث بمن كان، فضلاً عن أعداء الله جلَّ وعلا، فكأنَّ ذِكْره لدَفْع ذلك التوهُّم.

وقيل على تفسير «المدَّثِّر» بالمتدثِّر بالنبوَّة والكمالات النفسانيَّة: المعنى: طهِّر دثارات النبوَّة وآثارها وأنوارها الساطعة مِن مشكاة ذاتك عمَّا يُدنِّسها من الحقد والضجر وقلَّة الصبر.

وقيل: الثيابُ كنايةٌ عن النساء، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وتطهيرهنَّ من الخطايا والمعايب بالوعظ والتأديب، كما قال سبحانه: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وقيل: تطهيرهنَّ اختيارُ المؤمنات العفائف منهنَّ. وقيل: وطؤهنَّ في القُبُل لا في الدُّبُر، وفي الطهر لا في الحيض. حكاه ابنُ بحر، وأصل القول فيما أرى بعيدٌ عن السياق، ثم رأيتُ الفخرَ صرَّح بذلك[(١)].

وذهب جمع إلى أنَّ الثياب على حقيقتها، فقال محمد بن سيرين: أي: اغسلها بالماء إن كانت متنجِّسة. وروي نحوه عن ابنِ زيد، وهو قول الشافعيِّ رضي الله عنه، ومِن هنا ذهب غيرُ واحد إلى وجوب غسل النجاسة مِن ثياب المصلِّي، [(٢]وقاسوا على ذلك تطهير البدن منها، وكذا المكانِ بجامع المماسَّة على ما قرِّر في موضعه[٢)]، وأُمرَ ﷺ بذلك على ما روي عن ابنِ زيد مخالفة للمشركين؛ لأنَّهم ما كانوا يصونون ثيابَهم عن النجاسات.

وقيل: أُلقيَ عليه ﷺ سَلَا شاةٍ، فشقَّ عليه، فرجع إلى بيته حزيناً فتدثَّر، فقيل له: «يا أيُّها المدَّثِّر قم فأنذر» ولا تمنعنك تلك السفاهة عن الإنذار، «وربَّك فكبِّر» عن أن لا ينتقمَ منهم، «وثيابك فطهِّر» عن تلك النجاسات والقاذورات.

وإرادةُ التطهير مِن النجاسة للصلاة بدون ملاحظة قصَّة، قيل: خلافُ الظاهر، ولا تُناسِب الجملةُ عليها ما قَبلها إلا على تقدير أن يرادَ بالتكبير التكبير للصلاة.

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٩٣.
(٢-٢) ليست في (م).

وبعضُ من فسَّر الثيابَ بالجسم جوَّز إبقاء التطهير على حقيقته، وقال: أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بالتنظيف وقتَ الاستنجاء؛ لأنَّ العربَ ما كانوا ينظِّفون أجسامهم أيضاً عن النجاسة، وكان كثيرٌ منهم يَبول على عقبه.

(١وقال بعضٌ: الأمْرُ لمطلق الطَّلَب، فإنَّ تطهيرَ ما ليس بطاهر من الثياب واجبٌ في الصلاة ومحبوبٌ في غيرها١).

وقيل: تطهيرها: تقصيرها، وهو أيضاً أمْرٌ له عليه الصلاة والسلام برفضِ عادات العرب المذمومة، فقد كانت عادتهم تطويلَ الثياب وجرَّهم الذيول على سبيل الفَخْر والتكبُّر، قال الشاعر:

ثُمَّ رَاحوا عَبَقُ المِسْكِ بهم ... يُلحِفونَ الأرضَ هُدَّابَ الأُزُرْ[٢]

وفي الحديث: «إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصافِ ساقَيْه، ولا جُناحَ عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفلَ مِن ذلك ففي النار»[٣].

واستعمال التطهير في التقصير مجازٌ؛ للزومه له، فكثيراً ما يُفضي تطويلها إلى جرِّ ذيولها على القاذورات. ومِن الناس مَن جعل التقصيرَ بعد إرادته مِن التطهير كنايةً عن عدم التكبُّر والخُيَلاء، ويكون ذلك أمراً له ﷺ بالتواضع والمداومة على تَرْكِ جرِّ ذيول التكبُّر والخيلاء بعد أَمْره بتخصيص الكبرياء والعظمة به تعالى قولاً واعتقاداً، فكأنَّه قيل: وربَّك فكبِّر، وأنتَ لا تتكبَّر؛ ليتسنَّى لك أَمْرُ الإنذار.

وبعضُ مَن يرى جوازَ الجمع بين الحقيقة والمجاز حَمَلَ التطهير على حقيقته ومجازِه أعني التقصير، والتوصُّلُ إلى إرادة مثل ذلك عند مَن لا يرى جوازَ الجمع سهْلٌ.

(١-١) جاءت هذه العبارة في الأصل بعد قوله السابق: على ما قرِّر في موضعه.

(٢) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٥٥، ويلحفون الأرض: يُغطُّون الأرض بجرِّ ذيولهم عليها كِبْراً، والهُدَّاب: الخيوط التي تبقى في طرفي الثوب من عرضيه دون حاشيتيه.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠١٠) و(١١٠٢٨)، وأبو داود (٤٠٩٣)، والنسائي في الكبرى (٩٦٣٢)، وابن ماجه (٣٥٧٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وجوِّز أن يُراد بالتطهير إزالة ما يُستَقذر مطلقاً سواء النجس أو غيره مِن المستقذَر الطاهر، ومنه الأوساخ، فيكون ذلك أمراً له ﷺ بتنظيف ثيابه وإزالة ما يكون فيها مِن وَسَخ وغيره مِن كُلِّ ما يُستقذَر فإنَّه منفِّر لا يَليقُ بمقام البعثة، ويَستلزم هذا بالأولى تنظيفَ البَدَن مِن ذلك، ولذا كان ﷺ أنظفَ الناس ثوباً وبَدَناً، وربَّما يقال باستلزام ذلك بالأولى أيضاً الأمرَ بالتنزُّه عن المنفِّر القوليِّ والفعليِّ كالفُحْش والفَظَاظة والغِلْظة، إلى غير ذلك، فلا تغفل.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال القتبيُّ: «الرُّجْز»: العذاب[1]، وأصله الاضْطِراب، وقد أُقيم مقامَ سببه المؤدِّي إليه مِن المآثم، فكأنَّه قيل: اهجر المآثمَ والمعاصيَ المؤدِّية إلى العذاب، أو الكلام بتقدير مضاف، أي: أسبابَ الرجز، أو التجوُّز في النسبة على ما قيل. ونحو هذا قول ابن عباس: الرُّجْز: السُّخْط. وفسَّر الحسن الرُّجْزَ بالمعصية، والنخعيُّ بالإثم، وهو بيانٌ للمراد.

ولمَّا كان المخاطب بهذا الأمر هو النبيَّ ﷺ وهو البَرِيْءُ عن ذلك، كان مِن باب: إياكِ أعني واسمعي. أو: المراد الدوام والثبات على هَجْر ذلك.

وقيل: «الرُّجْز» اسمٌ لصنمين إساف ونائلة، وقيل: للأصنام عموماً، وروي ذلك عن مجاهد وعكرمة والزهريِّ، والكلام على ما سمعتَ آنفاً.

وقيل: «الرُّجْز» اسم للقبيح المستقذَر، و«الرُّجْزَ فاهجُر» كلامٌ جامع في مكارم الاخلاق، كأنَّه قيل: اهجر الجفاء والسَّفَه وكلَّ شيءٍ يقبح، ولا تَتخلَّق بأخلاق هؤلاء المشركين. وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

وقرأ الأكثرون «الرِّجْزَ» بكسر الراء[2]، وهي لغة قريش، ومعنى المكسور والمضموم واحد عند جمع، وعن مجاهد: أنَّ المضمومَ بمعنى الصَّنَم، والمكسورَ بمعنى العذاب. وقيل: المكسور: النقائص والفجور، والمضموم:

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٩٥.

(٢) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٣، وقرأ حفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الراء.

إساف ونائلة. وفي كتاب الخليل: «الرُّجْز» بضمِّ الراء: عبادةُ الأوثان، وبكسرها: العذابُ[١].

ومِن كلام السادة: أي: الدنيا فاتْرُك. وهو مبنيٌّ على أنَّه أُريد بالرّجز الصنم، والدنيا مِن أعظم الأصنام التي حَالَ حبُّها بين العبد وبين مولاهُ، وعَبَدتُها أكثرُ مَن عبدتِها، فإنَّها تُعبَد في البِيَعِ والكنائس والصوامع والمساجد وغير ذلك، أو: أُريد بالرّجز القبيحُ المستقذَر، والدنيا عند العارف في غاية القُبْح والقَذَارة، فعن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: الدنيا أحقرُ مِن ذراعِ خنزير ميِّتٍ بالَ عليها كلبٌ في يدِ مجذومٍ. وقال الشافعيُّ:

وما هِيَ إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ همُّهنَّ اجتذابها
فإنْ تَجْتنبها كنتَ سلماً لأهلها وإنْ تَجتذبها حاربَتْكَ[٢] كلابها

ويقال: كلُّ ما أَلهى عن الله عزَّ وجلَّ فهو رجزٌ يجب على طالب الله تعالى هجرُه، إذ بهذا الهجر ينال الوصال، وبذلك القطع يَحصل الاتصال، ومِن أعظمِ لاهٍ عن الله تعالى النفسُ، ومن هنا قيل: أي: نفسَك فخالفها، والكلام في كلٍّ ذلك من باب: إيَّاكِ أعني. أو القصد فيه إلى الدوام والثبات كما تقدَّم.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي: ولا تُعْطِ مستكثراً، أي: طالباً للكثير ممَّن تعطيه. قاله ابن عباس، فهو نهي عن الاستغزار، وهو: أن يَهبَ شيئاً وهو يطمع أن يتعوَّض مِن الموهوب له أكثرَ مِن الموهوب، وهذا جائز، ومنه الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة موقوفاً على شريح: المستغزر يُثاب مِن هبته[٣]. والأصحُّ عند الشافعية أنَّ النهيَ للتحريم، وأنَّه مِن خواصِّه عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الله تعالى اختار له عليه الصلاة والسلام أكملَ الصفات وأشرفَ الأخلاق، فامتنع عليه أن يَهبَ لعوضٍ أكثر. وقيل: هو نهيُ تنزيه للكلِّ.

---

(١) العين ٦/ ٦٦ (رجز).
(٢) في (م): نازعتك. وهي نسخة بهامش الأصل.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٤٧٤-٤٧٥، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (١٦٥٢٣)، ووكيع في أخبار القضاة ٢/ ٣٥٧، ووقع في مطبوع ابن أبي شيبة: المستعذب، بدل: المستغزر.

أو: ولا تُعْطِ مستكثراً، أي: رائياً لِمَا تعطيه كثيراً، فالسين للوجدان لا للطلب كما في الوجه الأوَّل الظاهر، والنهي عن ذلك؛ لأنَّه نوعُ إعجاب، وفيه بخلٌ خفيٌّ.

وعن الحسن والربيع: لا تمنن بحسناتك على الله تعالى مستكثراً لها ـ أي: رائياً إيَّاها كثيرة ـ فتنقص عند الله عزَّ وجلَّ. وعَدَّ مِن استكثار الحسنات بعضُ السادة رؤيةَ أنَّها حسنات، وعدمَ خشية الرَّدِّ، والغفلةَ عن كونها منه تعالى حقيقةً.

وعن ابن زيد: لا تمنن بما أعطاكَ اللهُ تعالى مِن النبوَّة والقرآن مستكثراً به، أي: طالباً كثيرَ الأجر مِن الناس.

وعن مجاهد: لا تَضعُف عن عملك مستكثراً لطاعتك فتمنن، من قولهم: حَبْلٌ مَنينٌ، أي: ضعيف. ويتضمَّن هذا المعنى ما أخرجه ابنُ مردويه عن ابن عباس أنَّه قال: أي: لا تَقُلْ: قد دعوتُهم فلم يُقبَل منِّي! عُدْ فادْعُهم.

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: «تَسْتَكْثِرْ» بسكون الراء[1]، وخرِّج على أنَّه جزم، والفعل بدلٌ من «تمنن» المجزوم بـ «لا» الناهية، كأنَّه قيل: ولا تمنن لا تستكثر؛ لأنَّ مِن شأن المانِّ بما يُعطي أن يَستكثره، أي: يراه كثيراً ويعتدَّ به، وهو بدلُ اشتمال، وقيل: بدل كلٍّ مِن كلٍّ على ادِّعاء[2] الاتِّحاد، وفي «الكشف»: الإبدال مِن «تمنن» على أنَّ المنَّ هو الاعتداد بما أَعطى لا الإعطاء نفسه فيه لطيفة؛ لأنَّ الاستكثار مقدِّمة المنِّ، فكأنَّه قيل: لا تستكثر فضلاً عن المَنِّ. وجوّز أن يكون سكونَ وقفٍ حقيقةً، أو بإجراء الوصل مجراه، أو سكونَ تخفيف، على أنْ شبَّه «ثِرْوَ»[3] بـ «عَضد»، فسكَّن الراء الواقعة بين الثاء وواو «ولربِّك»، كما سكِّنت الضاد، وليس بذاك، والجملة عليه في موضع الحال.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٧، والبحر ٨/ ٣٧٢.

(٢) تصحفت في (م) إلى: دعاء، والمثبت موافق لما في حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٢.

(٣) أي: تأخذ بعضَ «تستكثر» وهو الثاء والراء، وحرف العطف من قوله تعالى: «ولربِّك فاصبر»، فتكون «ثِرْوَ» شبيهة بـ «عضد». الدر المصون ١٠/ ٥٣٧.

وقرأ الحسن أيضاً والأعمش: «تستكثرَ» بالنصب[(١)] على إضمار «أنْ» كقولهم: مُرْهُ يَحْفِرَها، أي: أن يحفرها، وقوله:

أَلَا أيُّهذا الزاجري أَحْضُرَ الوغى وأن أَشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخْلِدي[(٢)]

في روايةِ نَصْبِ: أَحْضُرَ.

وقرأ ابن مسعود: «أن تَسْتَكْثِرَ»[(٣)] بإظهار «أنْ»، فالمنُّ بمعنى الإعطاء، والكلام على إرادة التعليل، أي: ولا تُعْطِ لأجلِ أن تستَكثرَ، أي: تطلبَ الكثير ممَّن تُعطيه، وأُيِّد به إرادةُ المعنى الأوَّل في قراءة الرفع، وجوَّز الزمخشريُّ في تلك القراءة أن يكون الرفعُ لحذف «أن» وإبطالِ عملها[(٤)]، كما روي: أَحْضُرُ الوغى. بالرفع. فالجملة حينئذ ليست حاليَّة. وتعقَّبه أبو حيَّان[(٥)] بأنَّه لا يجوز حَمْلُ القرآن على ذلك، إذ لا يجوز ما ذكر إلا في الشعر، ولنا مندوحة عنه مع صحَّة معنى الحال. ورُدَّ بأنَّ المخالف للقياس بقاءُ عملها بعد حذفها، وأمَّا الحذف والرفع فلا محذورَ فيه، وقد أجازه النحاة، ومنه: تَسمعُ بالمعيدي خيرٌ مِن أن تراه.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ قيل: على أذى المشركين، وقيل: على أداء الفرائض. وقال ابن زيد: على حرب الأحمر والأسود. وفيه بُعْدٌ؛ إذ لم يكن جهادٌ يومَ نزولها. وعن النخعي: على عطيَّتك، كأنَّه وصله بما قبله، وجعله صبراً على العطاء مِن غير استكثار.

والوجه كما قال جارُ الله: أن يكون أمراً بنفس الفعل[(٦)]. والمعنى: لقَصْدِ جهته تعالى وجانبه عزَّ وجلَّ فاستعمل الصبر، فيتناول ـ لعدم تقدير المتعلّق المفيد للعموم ـ كلّ مصبور عليه مصبور عنه، ويراد الصبر على أذى المشركين؛ لأنَّه فرد

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٣٧، والبحر ٨/ ٣٧٢.
(٢) البيت لطرفة، وسلف ٢/ ٢٧٧.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر ٨/ ٣٧٢.
(٤) الكشاف ٤/ ١٨١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٧٢.
(٦) الكشاف ٤/ ١٨١.

من أفراد العامِّ لا لأنَّه وحده هو المراد، وعن ابنِ عباس: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء الفرائض، وله ثلاثُ مئة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى وله ستُّ مئة درجة، وصبر على المصائب عند الصدمة الأولى وله تسعُ مئة درجة. وذلك لشدَّته على النفس وعدم التمكُّن منه إلا بمزيد اليقين، ولذلك قال ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهوِّن به عليَّ مصائبَ الدنيا»(١).

وذكروا أنَّ للصبر باعتبار حِكَمه أربعةَ أقسام: فَرْض كالصبر عن المحظورات وعلى أداء الواجبات، ونَفْل كالصبر عن المكروهات والصبر على المسنونات، ومكروه كالصبر عن أداء المسنونات والصبر على فعل المكروهات، وحرام كالصبر على من يقصد حريمَه بمحرَّم وترك التعرُّض له مع القدرة، إلى غير ذلك، وتمام الكلام عليه في محلِّه، وفضائل الصبر الشرعيِّ المحمود مما لا تُحصى، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقوله ﷺ: قال الله تعالى: «إذا وجَّهت إلى عبدٍ مِن عبيدي مصيبةً في بَدَنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبرٍ جميل، استحييت يومَ القيامة أن أنصبَ له ميزاناً، أو أَنشُر له ديواناً»(٢).

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ أي: نُفِخَ ﴿فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ في الصُّور، وهو فاعول مِن النَّقْر بمعنى التصويت، وأصله: القَرْع الذي هو سببه، ومنه مِنْقَار الطائر؛ لأنَّه يَقرَعُ به، ولهذه السببيَّة تجوّز به عنه، وشاع ذلك وأُريد به النَّفْخ؛ لأنَّه نوعٌ منه، والفاء للسببيَّة، كأنَّه قيل: اصبر على أذاهم، فبينَ أيديهم يومٌ هائل يَلقَون فيه عاقبةَ أذاهم، وتَلقى عاقبة صبرك عليه، والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالمعنى: إذا نُقرَ في الناقور عَسُرَ الأمر على الكافرين، والفاء في هذا للجزاء، و«ذلك» إشارة إلى وقت النَّقْر المفهوم مِن «فإذا نُقرَ» وما فيه من معنى البُعْد مع قُرْب العهد لفظاً بالمشار إليه؛ للإيذان ببُعْد منزلته في الهول والفظاعة، ومحلُّه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في الكبرى (١٠١٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصيبات الدنيا». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٠٧-٢٦٠٨، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٦٢) عن أنس رضي الله عنه. قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٧٠: رواه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف.

الرفع على الابتداء، و«يومئذ» قيل: بدل منه، مبنيٌّ على الفتح؛ لإضافته إلى غير متمكّن، والخبر «يومٌ عسير» فكأنَّه قيل: فيومُ النَّقْر يومٌ عسير.

وجوِّز أن يكون «يومئذٍ» ظرفاً مستقرًّا لـ «يوم عسير»، أي: صفة له، فلمَّا تقدَّم عليه صار حالاً منه، والذي أجاز ذلك على ما في «الكشاف» أنَّ المعنى: فذلك وَقْتَ النَّقْرِ وقوعُ يومٍ عسير؛ لأنَّ يوم القيامة يأتي ويقع حين يُنقَر في الناقور[1]. فهو على منوال: زمنَ الربيع العيدُ فيه، أي: وقوعُ العيد فيه، ومآله: فذلك الوقوعُ وقوع يوم.. إلخ، وممَّا ذكر يُعلَم اندفاع ما يتوهَّم مِن تقديم معمول المصدر أو معمول ما في صلته على المصدر، إن جعل ظرفَ الوقوع المقدَّر، أو ظرفَ «عسير»، والتصريح بلفظ وقوع إبراز للمعنى وتفصٍّ عن جعل الزمان مظروفَ الزمان برجوعه إلى الحدث، فتدبَّر. وظاهر صنيع «الكشاف» اختيار هذا الوجه، وكذا كلام صاحب «الكشف»؛ إذ قرَّره على أتمِّ وجه، وادَّعى فيما سبق تعسُّفاً، نعم جوّز ـ عليه الرحمة ـ أن يكون «يومئذٍ» معمولَ ما دلَّ عليه الجزاء أيضاً، كأنَّه قيل: فإذا نُقرَ في الناقور عَسُرَ الأمر على الكافرين يومئذٍ.

وأيًّاما كان فـ «على الكافرين» متعلِّق بـ «عسير»، وقيل: بمحذوف هو صفة لـ «عسير»، أو حال مِن المستكن فيه، وأجاز أبو البقاء تعلُّقه بـ «يسير» في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾[2]، وهو الذي يقتضيه كلامُ قتادة، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه ينبغي أن لا يجوز؛ لأنَّ فيه تقديمَ معمولِ المضاف إليه على المضاف، وهو ممنوع على الصحيح، وقد أجازه بعضهم في «غير» حملاً لها على «لا» فيقول: أنا بزيد غيرُ راضٍ[3].

وزعم الحوفيُّ أنَّ «إذا» متعلِّقة بـ «أنذر»، والفاء زائدة، وأراد أنَّها مفعول به لـ «أنذر»، كأنَّه قيل: قم فأنذرهم وقتَ النَّقْر في الناقور. وقوله تعالى: «فذلك» إلخ جملة مستأنفة في موضع التعليل وهو كما ترى.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨١.
(٢) الإملاء ٤/ ٤٢٨.
(٣) البحر ٨/ ٣٧٢.

وجوّز أبو البقاء تخريجَ الآية على قول الأخفش بأن تكون «إذا» مبتدأ، والخبر «فذلك»، والفاء زائدة، وجعل «يومئذ» ظرفاً لـ «ذلك»، ولا أظنُّك في مِرْيةٍ من أنَّه كلام الأخفش.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ «ذلك» مبتدأ وهو إشارة إلى المصدر، أي: فذلك النَّقْرُ، وهو العامل في «يومئذ»، و«يوم عسير» خبرُ المبتدأ، أو المضافُ مقدَّرٌ، أي: فذلك النَّقْرُ في ذلك اليوم نقرُ يوم، وفيه تكلُّفٌ وعدولٌ عن الظاهر، مع أنَّ عسرَ اليوم غيرُ مقصود بالإفادة عليه، وظاهر السياق قصده بالإفادة.

وجعل العلَّامة الطيبيُّ هذه الآية مِن قبيل ما اتَّحد فيه الشرط والجزاء، نحو: «مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله»[1] إذ جعل الإشارةَ إلى وقت النَّقْر، وقال: إنَّ في ذلك مع ضمِّ التكرير دلالةً على التنبيه على الخَطْب الجليل والأمر العظيم. وفيه نظر.

وفائدةُ قوله سبحانه: «غيرُ يسير» - أي: سهل - بعد قوله تعالى: «عسير» تأكيدُ عسره على الكافرين، فهو يمنع أن يكون عسيراً عليهم مِن وجه دون وجه، ويُشعِر بتيسُّره على المؤمنين، كأنَّه قيل: عسيرٌ على الكافرين غيرُ يسير عليهم كما هو يسيرٌ على أضدادهم المؤمنين، ففيه جَمْعٌ بين وعيد الكافرين وزيادةِ غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم، ولا يتوقَّف هذا على تعلُّق «على الكافرين» بـ «يسير»، نعم الأمر عليه أظهرُ كما لا يخفى. ثم مع هذا لا يخلو قلبُ المؤمن مِن الخوف؛ أخرج ابنُ سعد والحاكم عن بهز بنِ حكيم قال: أَمَّنا زرارة بنُ أوفى فقرأ «المدَّثِّر»، فلمَّا بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ خرَّ ميتاً، فكنتُ فيمن حَمَله[2]. وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه عن ابنِ عبَّاس، قال: لمَّا نزلت: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾، قال رسولُ الله ﷺ: «كيف أَنْعَم وصاحبُ الصُّوْرِ قد التَقَمَ القَرْنَ وحَنَى جبهتَه يستمع متى يُؤمرَ». قالوا: كيف نقول يا رسولَ الله؟ قال: «قولوا: حسبنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل، وعلى الله توكَّلنا»[3].

---

(١) سلف ٢/ ٤١٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٢، وطبقات ابن سعد ٧/ ١٥٠، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٠٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٢، وسلف ١٥/ ٥٧٤.

واختُلف في أنَّ المراد بذلك الوقت يومُ النفخة الأولى، أو يومُ النفخة الثانية، ورجِّح أنَّه يوم الثانية؛ لأنَّه الذي يختصُّ عسرُه بالكافرين، وأمَّا وقتُ النفخة الأولى فحُكْمُه الذي هو الإصعاق يعمُّ البَرَّ والفاجر، وهو على المشهور مختصٌّ بمن كان حيًّا عند وقوع النفخة.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة المخزوميِّ كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، بل قيل: كونها فيه متَّفق عليه، وهو يقتضي أنَّ هذه السورة لم تنزل جملةً إذ لم يكن أمرُ الوليد وما اقتضى نزولَ الآية فيه في بدء البعثة، فلا تغفل.

و«وحيداً» حال إمَّا مِن الياء في «ذرني» وهو المرويُّ عن مجاهد، أي: ذرني وحدي معه فأنا أغنيك في الانتقام عن كلِّ منتقم، أو مِن التاء في «خلقت»، أي: خلقته وحدي لم يشركني في خَلْقه أحدٌ، فأنا أُهلكه لا أحتاجُ إلى ناصر في إهلاكه، أو من الضمير المحذوف العائد على «مَن» على ما استظهره أبو حيَّان(١)، أي: ومَن خَلقْته وحيداً فريداً لا مالَ له ولا ولدَ.

وجوّز أن يكون منصوباً بـ: أذمّ ونحوه، فقد كان الوليد يلقَّب في قومه بالوحيد، فتهكَّم الله تعالى به وبلَقَبه، أو صرفه عن الغَرَض الذي كانوا يؤمُّونه مِن مدحه والثناء عليه إلى جهة ذمِّه وعيبه، فأراد سبحانه: وحيداً في الخُبث والشرارة، أو: وحيداً عن أبيه؛ لأنَّه كان دَعِيًّا لم يُعرف نسبُه للمغيرة حقيقةً كما مرَّ في سورة «نون»(٢).

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ مبسوطاً كثيراً، أو: ممدوداً بالنماء، مِن مدّ النهر، ومدَّه نهرٌ آخَرُ، وقيل: كان له الضرع والزرع والتجارة. وعن ابنِ عباس: هو ما كان بين مكَّة والطائف من الإبل والنَّعم والجِنان والعبيد. وقيل: كان له بستان بالطائف لا تنقطعُ ثماره صيفاً وشتاءً. وقال النعمان بنُ بشير: المال الممدود: هو الأرض؛ لأنَّها مدَّت. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّه المُستَغلُّ الذي يُجبَى شهراً

---

(١) في البحر المحيط ٨/ ٣٧٣.
(٢) عند تفسير الآية (١٣).

بعد شهر، فهو ممدود لا ينقطع. وعن ابن عباس ومجاهد وابن جبير: كان له ألف دينار. وعن قتادة: ستَّة آلاف دينار. وقيل: تسعة آلاف دينار. وعن سفيان الثوري روايتان: أربعة آلاف دينار، وألف ألف دينار. وهذه الأقوال إن صحَّت ليس المراد بها تعيينَ المال الممدود، وأنَّه متى أُطلق يراد به ذلك، بل بيان أنَّه كان بالنسبة إلى المحدَّث عنه كذا.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ حضوراً معه بمكَّة يتمتَّع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرُّف في عمل أو تجارة، لكونهم مَكْفيين لوفور نِعمهم وكثرة خَدَمهم. أو: حضوراً في الأندية والمحافل لوجَاهتهم واعتبارهم. أو: تُسمَع شهاداتهم فيما يُتحاكم فيه.

واختلف في عددهم؛ فعن مجاهد أنَّهم عشرة، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة كلُّهم رجال: الوليد بن الوليد وخالد وهشام ـ وقد أسلم هؤلاء الثلاثة ـ والعاص وقيس وعَبد شمس وعُمارة، واختلفت الرواية فيه أنَّه قُتل يوم بدر أو قتله النجاشيُّ؛ لجناية نُسبت إليه في حَرَم المَلِكِ، والروايتان متَّفقتان على أنَّه قُتلَ كافراً، ورواية الثعلبيِّ عن مقاتل إسلامَه لا تصحُّ، ونصَّ ابنُ حجر على أنَّ ذلك غَلَط[1]، وقد وقع في هذا الغَلَط صاحبُ «الكشَّاف» وتبعه فيه مَن تبعه، والعَجَب أيضاً أنَّهم لم يَذكروا الوليد بنَ الوليد فيمَن أسلم، مع أنَّ المحدِّثين عن آخِرهم أطبقوا على إسلامه.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤﴾ بسطتُ له الرياسةَ والجاه العريض، فأتممتُ عليه نعمَتَي الجاه والمال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، وأصل التمهيد التسويةُ والتهيئة، وتجوِّز به عن بسطة المال والجاه، وكان لكثرةِ غناه ونضارة حاله الرائقة في الأعين منظراً ومَخبراً يلقَّب بريحانة قريش، وكذا كانوا يلقِّبونه بالوحيد بمعنى المنفرد باستحقاقِ الرياسة. وعن ابن عباس: وسَّعت له ما بين اليمن إلى الشام. وعن مجاهد: مهَّدْت له المالَ بعضه فوق بعض، كما يُمهد الفراش.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾ على ما أدَّيته، وهو استبعاد واستنكار لطَمَعه وحِرْصه، إمَّا لأنَّه في غنًى تامٍّ لا مزيدَ على ما أوتي سعةً وكثرة، أو لأنَّه منافٍ لما هو عليه

---

(١) الإصابة ٨/ ٢٤، القسم الرابع من حرف العين.

مِن كفران النِّعم ومعاندة المُنعِم، وعن الحسن وغيره: أنَّه كان يقول: إن كان محمد صادقاً، فما خُلِقَت الجنَّة إلا لي. واستعمال «ثم» للاستبعاد كثير، قيل: وهو غير التفاوت الرتبي، بل عدّ الشيء بعيداً غير مناسب لما عطف عليه، كما تقول: تُسيء إليَّ ثم ترجو إحساني. وكأن ذلك لتنزيل البُعد المعنويِّ منزلةَ البُعد الزمانيِّ.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْر له عن طَمَعه الفارغ، وقَطْع لرجائه الخائب.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ جملة مستأنفة استئنافاً بيانيًّا لتعليل ما قَبْل، كأنَّه قيل: لم زُجرَ عن طلب المزيد، وما وجهُ عدم لياقته، فقيل: إنَّه كان معانداً لآيات المُنعِم، وهي دلائل توحيده أو الآيات القرآنيَّة، حيث قال فيها ما قال، والمعاندة تناسب الإزالة وتمنع مِن الزيادة، قال مقاتل: ما زال الوليدُ بعد نزولِ هذه الآية في نَقْصٍ من مالِه وولده حتى هَلَك.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ سأُغشيه عَقَبةً شاقَّةَ المَصْعد، وهو مَثَلٌ لمَا يلقى من العذاب الشاقِّ الصعب الذي لا يُطاق، شبَّه ما يسوقه الله تعالى له مِن المصائب وأنواع المشاقِّ بتكليف الصُّعود في الجبال الوَعِرة الشاقَّة، وأطلق لفظه عليه على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، وروى أحمد والترمذيُّ والحاكم وصحَّحه وجماعة عن أبي سعيد الخدريِّ مرفوعاً: «الصَّعُود جبلٌ مِن نار يَصَّعَّد فيه سبعينَ خريفاً، ثم يَهوي فيه كذلك أبداً»(١). وعنه ﷺ: «يُكلَّف أن يَصْعَدَ عقبةً في النار كلَّما وَضَع عليها يدَه ذابت، وإذا رفعها عادت، وإذا وضع رِجْله ذابت فإذا رفعها عادت»(٢).

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ تعليلٌ للوعيد واستحقاقه له، أو بيان لعنادِهِ لآياته عزَّ وجلَّ، فيكون جملة مفسِّرة لذلك لا محلَّ لها من الإعراب، وما بينهما اعتراض. وقيل: الجملة عليه بَدَل مِن قوله تعالى: (إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا) أي: إنَّه فكَّر ماذا يقول في شأنِ القرآن، وقدَّر في نفسه ما يقول.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٣، وأحمد (١١٧١٢)، والترمذي (٢٥٧٦)، والحاكم ٢/ ٥٠٧ و٤/ ٥٩٦.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٧٣)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٣٩) وغيرهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣١: فيه عطية العوفي، وهو ضعيف.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ تعجيبٌ مِن تقديره وإصابته فيه المحزَّ، ورميه الغَرَض الذي كان ينتحيه قريش، فهو نظير: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] أو ثناءٌ عليه تهكُّماً على نحو: قاتله اللهُ ما أشجعه، أو حكايةٌ لِمَا كرَّروه على سبيل الدعاء عند سماع كلمته الحمقاء، فالعرب تقول: قتله اللهُ ما أشجعه، وأخزاه اللهُ ما أَشعره، يريدون أنَّه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يُحسَد ويَدعو عليه حاسدُه بذلك، ومآله ـ على ما قيل ـ إلى الأوَّل وإن اختلف الوجه.

روي أنَّ الوليد بنَ المغيرة جاء إلى النبيِّ ﷺ، فقرأ عليه القرآنَ، فكأنَّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: يا عمّ إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لكَ مالاً فيعطوكه، فإنَّك أتيتَ محمداً لتصيبَ ممَّا عنده؟ قال: قد علمتْ قريش أنِّي مِن أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يَبلُغ قومَك أنَّك مُنكِر له وأنَّك كارهٌ له. قال: وماذا أقول، فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمَ بالشعر منِّي لا بِرَجَزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجِنِّ، واللهِ ما يشبه الذي يقول شيئاً مِن هذا، وواللهِ إنَّ لقوله الذي يقوله حلاوة، وإنَّ عليه لَطلاوة، وإنَّه لمُثمِرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلو ولا يُعلى، وإنَّه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومُك حتى تقولَ فيه. قال: دعني حتى أفكِّر. فلمَّا فكَّر قال: ما هو إلا سحرٌ يُؤْثَر. فعجبوا بذلك(١).

وقال محيي السُّنَّة: لما نزل على النبيِّ ﷺ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ١-٢] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الآية: ٤] قام النبيُّ ﷺ في المسجد والوليد قريبٌ منه يَسمع قراءتَه، فلمَّا فطنَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام لاستماعه، أعاد القراءةَ، فانطلق الوليدُ إلى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: واللهِ لقد سمعتُ من محمَّد آنفاً كلاماً ما هو مِن كلام الإنس ولا مِن كلام الجِنِّ، إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لَطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه ليعلو وما يُعلى. فقالت قريش: صَبَأَ واللهِ الوليد، واللهِ لتَصْبأنَّ قريش كلُّهم. فقال أبو جهل: أنا أَكفيكموه. فقعد إليه حزيناً وكلَّمه بما أَحماه، فقام فأتاهم، فقال:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٥٠٦-٥٠٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/١٩٨-١٩٩. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه.

تزعمون أنَّ محمداً مجنونٌ، فهل رأيتموه يُخنَق، وتقولون: إنَّه كاهن. فهل رأيتموه قطُّ يتكهَّن، وتزعمون أنَّه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً، وتزعمون أنَّه كذَّاب، فهل جرَّبتم عليه شيئاً مِن الكذب. فقالوا في كلٍّ ذلك: اللَّهمَّ لا. ثمَّ قالوا: فما هو؟ ففكَّر، فقال: ما هو إلا ساحر، أَمَا رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحرٌ يأثره عن مسيلمة. وعن أهل بابل: فَارْتَجَّ النادي فرحاً، وتفرَّقوا معجبينَ بقوله، متعجِّبين منه[١].

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ تكريرٌ للمبالغة كما هو معتادُ مَن[٢] أُعجب غايةَ الإعجاب، والعطف بـ «ثم» للدلالة على تفاوت الرُّتبة، وأنَّ الثانية أبلغُ مِن الأولى، فكأنَّه قيل: قُتلَ بنوعٍ مّا من القتل، لا بل قُتلَ بأشدِّه وأشدِّه، ولذا ساغ العطف فيه مع أنَّه تأكيد، ونحوُه ما في قوله:

ومـالـيَ مِـن ذَنْـبٍ إليـهـم عَـلـمْـتُـه سوى أنَّني قد قلتُ يا سَرْحَةُ اسْلَمي
أَلَا يا اسلمي ثم اسْلَمي ثُمَّتَ اسْلَمي ثـلاثُ تـحـيَّـاتٍ وإن لـم تـكـلَّـمـي[٣]

والإطراء في الإعجاب بتقديره يدلُّ على غاية التهكُّم به وبمَن فرح بمحصول تفكيرِه.

وقال الراغب في «غرَّة التنزيل»: كأنَّ الوليد بنَ المغيرة لما سُئلَ عن النبيِّ ﷺ قدَّر ما أتى به مِن القرآن، فقال: إن قلنا: شاعر. كذَّبتنا العرب إذا عَرَضْتُ ما أتى به على الشعر، وكان يَقصدُ بهذا التقدير تكذيبَ الرسول ﷺ بضَرْب من الاحتيال، فلذلك كان كلُّ تقدير مستحقًّا لعقوبة مِن الله تعالى هي كالقتل إهلاكاً له، فالأوَّل لتقديره على الشعر، أي: أُهلك إهلاكَ المقتول كيف قدَّر، وقوله تعالى: (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) لتقديره الآخَر، فإنَّه قدَّر أيضاً وقال: فإنِ ادَّعينا أنَّ ما أتى به مِن كلام الكَهَنة، كذَّبتنا العربُ إذا رَأَوْا هذا الكلام مخالفاً لكلام الكُهَّان، فهو في تقديره له

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤١٥-٤١٦.
(٢) في حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٥: ممن.
(٣) البيتان لحميد بن ثور الهلالي، وهما في ديوانه ص١٣٣، وورد فيه: بلى فاسلمي، بدل: ألا يا اسلمي. والسرحة: أصلها شجرة من العضاه لا شوك لها، وهي هنا كناية عن المرأة.

على كلام الكَهَنة مستحقٌّ مِن العقوبة لِمَا هو كالقتل إهلاكاً له، فجاء ذلك لهذا، فلم يكن في الإعادة تكرار. والأوَّل هو ما ذهب إليه جارُ اللهِ، وجعل الدعاء اعتراضاً[1]، وقال عليه الطيبيُّ: إنَّه ليس مِن الاعتراض المتعارَف الذي يُنحَل لتزيين الكلام وتقريره؛ لأنَّ الفاء مانعةٌ من ذلك، بل هو مِن كلام الغير، ووقع الفاء في تضاعيف كلامِه، فأدخل بين الكلامين المتَّصلين على سبيل الحكاية، ثم قال: وهو متعسّف، وإنَّما سَلَكه؛ لأنَّه جعل الدعاءين مِن كلام الغير، وأمَّا إذا جعلا مِن كلام الله تعالى استهزاءً كما ذكر هو، أو دعاء عليه كما ذهب إليه الراغبُ، وعليه تفسير الواحديِّ ـ على ما قال ونَقَلَ عن صاحب النظم: «فقُتِلَ كيف» أي: عُذِّب ولُعِنَ كيف قدّر، كما يقال: لأَضربنَّه كيف صنع، أي: على أيِّ حال كانت منه[2] ـ لتكون الأفعال كلُّها متناسقةً مرتَّبةً على التفاوت في التعقيب والتراخي زماناً ورُتبةً كما يقتضيه المقام = كان أحسنَ، وجاء النظم على السَّنن المألوف مِن التنزيل. إلى آخر ما قال، وما تقدَّم أبعد مغزًى، والاعتراض مِن المتعارف، وهو يؤكِّد ما سيقَ له الكلام أحسنَ تأكيد، والفاء غيرُ مانعة على ما نصَّ عليه جارُ الله[3] وغيره، وجعل مِن الاعتراض المقرون بها ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] ومنه قوله:

واعْلَم فعِلْمُ المرءِ ينفعُه أن سوفَ يأتي كلُّ ما قُدِرا[4]

وقد حقّق أنَّه بالحقيقة نتيجةٌ وقعت بين أجزاء الكلام اهتماماً بشأنها فأفادت فائدَة الاعتراض وعدَّت منه، والاعتراض بين قولِه تعالى: «إنَّه فكَّر وقدَّر» وقولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ للعطف، و«ثمَّ» فيه وفيما بعد على معناها الوضعيِّ وهو التراخي الزمانيُّ مع مُهلة، أي: ثمَّ فكَّر في أمرِ القرآن مرَّة بعد أُخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطَّب وجهَه لمَّا لم يجد فيه مطعناً وضاقت عليه الحِيَلُ ولم يَدْرِ ماذا يقول.

وقيل: ثم نظر في وجوه القوم، ثم قطَّب وجهه.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٣.
(٢) الوسيط ٤/ ٣٨٣.
(٣) الكشاف ٤/ ١٨٣.
(٤) سلف ١/ ٤٢٨.

وقيل: نظر إلى رسول الله ﷺ، ثم قطَّب في وجهه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أظهَر العبوسَ قَبْلَ أوانه، وفي غير وقته، فالبَسْر: الاستعجال بالشيء، نحو: بَسَرَ الرجلُ الحاجةَ: طَلَبها في غير أوانها، وبَسَر الفحلُ الناقةَ: ضَرَبَها قبل أن تُطلَب، وماءٌ بَسْرٌ: متناوَل مِن غديره قبل سكونه، وقيل للجُبْن[1] الذي يُنكَأ قبل النُّضج: بُسْرٌ، ومنه قيل لِمَا لم يُدرَك من الثمر: بُسْر، وبهذا فسَّره الراغب هنا. وفسَّره بعضهم بأشدِّ العبوس، مِن بَسَر: إذا قبض ما بين عينيه كراهةً للشيءِ، واسودَّ وجهُه منه، ويستعمل بمعنى العبوس، ومنه قول توبة:

قد رابني منها صدودٌ رَأيته وإعراضُها عن حاجتي وبُسُورُها[2]

وقولُ سعد: لمَّا أسلمتُ راغمتني أمِّي فكانت تلقاني مرَّة بالبشر ومرَّة بالبَسْر. فحينئذٍ يكون ذكر «بَسَر» كالتأكيد لـ «عَبَس»، ولعلَّه مرادُ مَن قال: إتْباعٌ له.

وأهل اليمن[3] يقولون: بَسَر المركبُ وأبسر: إذا وقف. ولم أَرَ مَن جوَّز إرادة ذلك هنا ولو على بُعْد، وفي النفس مِن ثبوت ذلك لغةً صحيحةً توقُّفٌ.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ، أو عن رسولِ الله ﷺ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ عن اتِّباعه ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يُروى ويُتعلَّم مِن سَحَرة بابل ونحوهم. وقيل: أي: يختار ويرجَّح على غيره مِن السحر. وليس بمختار.

والفاء للدلالة على أنَّ هذه الكلمة الحمقاء لما خطرت بباله تفوَّه بها من غير تلعثم وتلبُّث، فهي للتعقيب مِن غير مهلة، ولا مخالفةَ فيه لِمَا مرَّ من الرواية كما لا يخفى.

وقوله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتأكيد للجملة الأولى؛ لأنَّ المقصودَ منهما نفي كونه قرآناً ومِن كلام الله تعالى، وإن اختلفا معنًى، ولاعتبار الاتِّحاد في المقصود لم يعطف عليها، وأطلق بعضُهم عليه التأكيد مِن غير تشبيه، والأمر

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي المفردات (بسر): للقرح. والكلام منه، ولعلَّه هو الصواب.

(٢) ديوان توبة بن الحميِّر ص٣٤.

(٣) في (م): اليمين.

سهل. وفي وصف أشكاله التي تَشَكَّل بها حتى استنبطَ هذا القولَ السخيف استهزاءٌ به، وإشارةٌ إلى أنَّه عن الحقِّ الأبلج بمعزل، ثم إنَّ الذي يظهر مِن تتبُّع أحوالِ الوليد أنَّه إنما قال ذلك عناداً وحَمِيَّةً جاهليةً لا جهلاً بحقيقة الحال.

وقوله تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ بدل مِن «سأرهقه» إلخ بدلَ اشتمالٍ؛ لاشتمال السَّقَر على الشدائد وعلى الجبل من النار، والوصف الآتي لا ينافي الإبدال على إرادة الجبل بناءً على أنَّ المراد به نحو ما في الحديث.

وقال أبو حيَّان: يظهر أنَّهما جملتان اعتقبت كلّ واحدة منهما على سبيل توعُّد العصيان الذي قبل كلٍّ واحدة منهما، فتُوعِّد على كونه عنيداً لآيات الله تعالى بإرهاق صعود، وعلى قوله: إنَّ القرآنَ سحرٌ يُؤْثَر. بإصلاء سَقَر[1]. وفيه بحث لا يخفى على مِن أحاط خبراً بما تقدَّم.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما سَقَر؟ على أنَّ «ما» الأولى مبتدأ، و«أدراك» خبره، و«ما» الثانية خبر، لأنَّها المفيدةُ لِمَا قُصِدَ إفادتُه مِن التهويل والتفظيع، و«سقر» مبتدأ، أي: أيُّ شيءٍ هي في وصفها، فإنَّ «ما» قد يطلب بها الوصف، وإن كان الغالب أن يطلب بها الاسم والحقيقة.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ بيانٌ لوصفها وحالها، فالجملةُ مفسِّرة أو مستأنفة مِن غير حاجة إلى جعلها خبرَ مبتدإٍ محذوف. وقيل: حال من «سَقَر» والعامل فيها معنى التعظيم، أي: أعظِّمُ سَقَر وأهوِّلُ أمرها حالَ كونها لا تُبقي.. إلخ. وليس بذاك.

أي: لا تبقي شيئاً يُلقَى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تَذَرْه هالكاً حتى يعادَ. وقال ابن عباس: «لا تبقي»: إذا أَخَذَتْ فيهم لم تُبْقِ منهم شيئاً، وإذا بُدِّلوا خلقاً جديداً لم تَذَر أن تعاودهم سبيلَ العذاب الأوَّل. وروي نحوه عن الضحاك بزيادة: ولكلِّ شيء فترةٌ وملالةٌ إلَّا جهنَّم. وقيل: لا تُبقي على شيءٍ ولا تَدَعه مِن الهلاك، بل كلُّ ما يُطرَح فيها هالك لا محالةَ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٥.

وقال السُّدِّيُّ: لا تُبقي لهم لحماً ولا تَذَرُ عظماً. وهو دون ما تقدَّم.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور: أي: مغيِّرة للبَشَرات مسوِّدة للجلود. وفي بعض الروايات عن بعض بزيادة: محرقة لها[1]. والمراد في الجملة، فـ «لواحة»: مِن لوَّحته الشمسُ: إذا سوَّدت ظاهره وأطرافه، قال:

تــقــولُ مــا لاحــك يــا مــســافِــرُ يــا ابــنــةَ عــمِّــي لاحــنــي الــهــواجِــرُ[2]

والبَشَر: جمع بَشَرة، وهي: ظاهر الجِلْد. وفي بعض الآثار: أنَّها تَلفحُ الجِلْد لفحةً فتدعه أشدَّ سواداً من الليل. واعترض بأنَّه لا يصحُّ وصفها بتسويدها لظاهر الجلود مع قوله سبحانه: (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ) الصريحِ في الإحراق؟

وأُجيب بأنَّها في أوَّل الملاقاة تسوِّده ثم تحرقه وتهلكه، أو الأوَّل حالها مع مِن دخلها، وهذا حالها مع مَن يَقرُب منها. وأنتَ تعلم أنَّه إذا قيل: لا يحسن وصفها بتسويد ظاهر الجلود بعد وصفها بأنَّها لا تُبقي ولا تَذَر، لم يحسن هذا الجواب، وقد يُجاب حينئذٍ بأنَّ المراد ذِكْر أوصافها المهولة الفظيعة مِن غير قَصْدٍ إلى تَرَقٍّ من فظيعٍ إلى أفظع، وكونُها «لوَّاحة» وصفٌ مِن أوصافها، ولعلَّه باعتبار أوَّل الملاقاة، وقبلَ الإهلاك، وفي ذِكْره من التفظيع ما فيه؛ لِمَا أنَّ في تسويد الجلود ـ مع قَطْع النظر عمَّا فيه مِن الإيلام ـ تشويهاً للخَلْق ومُثْلَةً للشخص، فهو من قَبيل التتميم، وفي استلزام الإهلاك تسويدَ الجلود تردُّد، وإن قيل به، فتدبَّر.

وجوِّز على تفسير «لوَّاحة» بما ذكر كون «البَشَر» اسم جنس بمعنى الناس، ويرجع المعنى إلى ما تقدَّم.

وقال الحسن وابن كيسان والأصمُّ: «لوَّاحة» بناءُ مبالغةٍ مِن لاح إذا ظهر، و«البَشَر» بمعنى الناس، أي: تَظهر للناس لعِظَمها وهولها، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ

(١) ليست في (م).
(٢) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٥، والكشاف ٤/ ١٨٣، والقرطبي ٢١/ ٣٨٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٨، والهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحرِّ في منتصف النهار.

﴿ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] وقد جاء أنَّها تظهر لهم مِن مسيرة خمس مئة عام.

ورفع «لوَّاحة» على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي لوَّاحة.

وقرأ عطية العوفي وزيد بنُ عليٍّ والحسن وابن أبي عبلة: «لوَّاحةً» بالنصب[1] على الاختصاص للتهويل، أي أخصُّ، أو: أعني، وجوّز أن يكون حالاً مؤكِّدة مِن ضمير «تبقي» أو «تَذَر» بناءً على زَعْم الاستلزام، وأن يكون حالاً مِن «سقر»، والعامل ما مرَّ.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ الظاهرُ: مَلَكاً، أَلَا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك، فقد روي عن ابن عباس أنَّها لما نزلت: «عليها تسعة عشر» قال أبو جهل لقريش: ثَكَلَتْكم أمَّهاتُكم! أَسمعُ أنَّ ابنَ أبي كبشة يُخبِركم أنَّ خَزَنَةَ النار تسعةَ عَشَر، وأنتم الدَّهْم، أَيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكم أن يَبطشوا برجل منهم؟! فقال له أبو الأشد بنُ أسيد بنِ كلدة الجمحي، وكان شديدَ البطش: أنا أَكفيكم سبعةَ عَشَر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يُطاقون، وأنزل سبحانه في أبي جهل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥].

والظاهر أنَّ المراد بأصحاب النار هم التسعة عشر، ففيه وَضْعُ الظاهر موضعَ الضمير، وكأنَّ ذلك لِمَا في هذا الظاهر مِن الإشارة إلى أنَّهم المدبِّرون لأمرها القائمون بتعذيب أهلها، ما ليس في الضمير، وفي ذلك إيذان بأنَّ المراد بـ «سَقَر» النارُ مطلقاً لا طبقةٌ خاصَّةٌ منها، والجمهور على أنَّ المرادَ بهم النُّقَباء، فمعنى كونهم عليها أنَّهم يتولَّون أمرَها وإليهم جماع زبانيتها، وإلا فقد جاء: «يُؤتَى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَك يجرُّونها»[2].

وذهب بعضهم إلى أنَّ التمييز المحذوفَ: صنفٌ، وقيل: صفٌّ، والأصل: عليها تسعة عشر صنفاً، أو: عليها تسعة عشر صفًّا، ويُبعده ما تقدَّم في رواية

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤ عن أبي معاذ، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٢ والكلام منه.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٩١) من سورة الشعراء.

الحبر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنَّ المتبادر أنَّ افتتانهم باستقلالهم لهم واستبعادهم تولِّي تسعةَ عَشَر لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم بذلك، ومع تقدير الصنف أو الصَّفِّ لا يتسنَّى ذلك.

وقال غير واحد في تعليل جعلهم ملائكةً: ليخالفوا جنس المعذَّبين، فلا يَرِقُّوا لهم ولا يستروحوا إليهم، ولأنَّهم أقوى الخَلْق وأَقْوَمُهم بحقِّ الله تعالى وبالغضب له سبحانه، وأشدُّهم بأساً، وفي الحديث: «كأنَّ أعينَهم البرقُ، وكأنَّ أفواهَهم الصياصي، يجرُّون أشعارهم، لهم مِثْلُ قوَّة الثَّقَلين، يُقبِلُ أحدُهم بالأمَّة من الناس يَسوقهم، على رقبته جبلٌ حتى يَرمي بهم في النار، فيرمي بالجبل عليهم»(١)، ولا يَبعد أن يكون في التنوين إشعار إلى عِظَمِ أمرهم.

ومعنى قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ) إلى آخره على ما اختاره بعض الأجلَّة: وما جعلنا عددَ أصحاب النار إلا العددَ الذي اقتضى فتنةَ الذين كفروا بالاستقلال والاستهزاء وهو التسعة عَشَر، فكأنَّ الأصل: وما جعلنا عدَّتهم إلا تسعةَ عَشَر، فعبَّر بالأثر وهو فتنة الذين كفروا، عن المؤثِّر وهو خصوص التسعة عَشَر؛ لأنَّه ـ كما عُلِمَ ـ السببُ في افتتانهم، وقيل: «إلَّا فتنة للذين» بدل: إلا تسعة عَشَر، تنبيهاً على أنَّ الأثر هنا لعدم انفكاكه عن مؤثِّره لتلازمهما كانا كشيءٍ واحد يُعبَّر باسم أحدهما عن الآخَر، ومعنى جَعْلِ عدَّتِهم المطلقةِ العدَّةَ المخصوصةَ أن يخبر عن عددِهم بأنَّه كذا، إذ الجعل لا يتعلَّق بالعدة، إنَّما يتعلَّق بالمعدود، فالمعنى: أَخْبَرْنا أنَّ عدَّتهم تسعةَ عَشَر دون غيرها ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: ليكتسبوا اليقينَ بنبوَّته ﷺ وصِدْقِ القرآن، لأجل موافقة الذِّكرين(٢): ذكرهم في القرآن بهذا العدد وفي الكتابَيْن كذلك، وهذا غيرُ جعلِ الملائكة على العدد المخصوص؛ لأنَّه إيجاد ولا يصحُّ ـ على ما قال بعض المحقِّقين ـ أن يجعل إيجادهم على الوصف علَّةً للاستيقان المذكور؛ لأنَّه ليس إلا للموافقة، وتكلَّف بعضهم لتصحيحه بأنَّ

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٥، وعزاه لابن مردويه، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٠: لم أجده.

(٢) في (م): المذكورين.

الإيجاد سببٌ للإخبار، والإخبار سبب للاستيقان، فهو سبب بَعيد له، والشيء كما يُسنَد لسببه البعيد يُسنَد لسببه القريب، لكنَّه كما قال: لا يَحسُن ذلك. وإنما احتيج إلى التأويل بالتعبير بالأثَر عن المؤثِّر، ولم يَبقَ الكلام على ظاهره؛ لأنَّ الجعلَ من دواخل المبتدأ والخبر، فما يترتَّب عليه يترتَّب باعتبار نسبة أحد المفعولين إلى الآخر، كقولك: جعلت الفضَّةَ خاتماً لتزيُّن به، وكذلك: ما جعلتُ الفضة إلَّا خاتماً لكذا، ولا معنى لترتُّب الاستيقان وما بعده على جعل عدَّتهم فتنةً للكفَّار، ولا مدخلَ لافتتانهم بالعدد المخصوص في ذلك، وإنَّما الذي له مدخل العدة بنفسها، أي: العدةُ باعتبار أنَّها العدة المخصوصة، والإخبار بها كما سمعت، وليس ذلك تحريفاً لكتاب الله تعالى ولا مبنيًّا على رعاية مذهب باطل، كما توهَّم (١من توهَّم١). ومنهم مَن تكلَّف لأمر السببيَّة على الظاهر بما تمجُّه الأسماع، فلا نسوِّد به الرقاع.

وفي «البحر»: «ليستيقن» مفعول من أجله، وهو متعلِّق بـ «جعلنا» لا بـ «فتنة»، فليست الفتنة معلولةً للاستيقان، بل المعلولُ جَعْلُ العدَّةِ سببَ الفتنة[٢].

وفي «الانتصاف»: يجوز أن يرجع قوله تعالى: «ليستيقن» إلى ما قبل الاستثناء، أي: جعلنا عدَّتهم سبباً لفتنة الكفَّار ويقينِ المؤمنين[٣].

وذكر الإمام في ذلك وجهين، الثاني: ما قدَّمناه ممَّا اختاره بعضُ الأجلَّة، والأوَّل: أنَّ التقدير: وما جعلنا عدَّتهم إلا فتنة للكافرين وإلا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب، قال: وهذا كما يقال: فعلت كذا لتعظيمكَ ولتحقير عدوِّك، فالواو العاطفة قد تُذكَر في هذا الموضع تارةً، وقد تحذف أُخرى[٤].

وقال بعض: إنَّه متعلِّق بمحذوف، أي: فعلنا ذلك ليستيقنَ.. إلخ. والكلُّ كما ترى.

(١-١) ليست في (م).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٧٦.

(٣) الانتصاف ٤/ ١٨٤.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٠٥-٢٠٦.

وحَمْلُ «الذين أوتوا الكتاب» على أهل الكتابين ممَّا ذهب إليه جمع، وقيل: المراد بهم اليهود، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقي في «البعث» عن البَراء: أنَّ رهطاً مِن اليهود سألوا رجلاً مِن أصحاب النبيِّ ﷺ عن خَزَنة جهنَّم، فقال: اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ أعلم، فجاء فأخبرَ النبيَّ ﷺ فنزل عليه ساعتئذٍ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1]. وأخرج الترمذي وابن مردويه عن جابر قال: قال ناسٌ مِن اليهود لأناس مِن أصحاب النبيِّ ﷺ: هل يَعلَم نبيُّكم عددَ خَزَنة جهنَّم؟ فأخبروا رسولَ الله ﷺ فقال: هكذا وهكذا، في مرَّة: عشرة، وفي مرَّة: تسعة[2]. واستُشْعِرَ مِن هذا أنَّ الآيةَ مدنيَّة؛ لأنَّ اليهودَ إنَّما كانوا فيها، وهو استشعار ضعيف؛ لأنَّ السؤالَ لصحابيٍّ، فلعلَّه كان مسافراً، فاجتمع بيهوديٍّ حيث كان، وأيضاً لا مانع إذ ذاك مِن إتيان بعض اليهود نحو مكَّة المكرَّمة.

ثم إنَّ الخبرين لا يُعيِّنان حَمْلَ الموصول على اليهود كما لا يخفى، فالأولى إبقاء التعريف على الجنس وشمول الموصول للفريقين، أي: ليستيقنَ أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: يزداد إيمانهم كيفيَّةً بما رَأَوْا مِن تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنَّه كذلك، أو كميَّة بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أُنزل.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا قبله مِن الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفيٌ لِمَا قد يعتري المستيقنَ مِن شبهةٍ مّا للغفلة عن بعض المقدِّمات أو طريان ما يتوهَّم كونه معارضاً في أوَّل وهلة، ولِمَا فيه مِن هذه الزيادة جاز عطفُه على المؤكَّد بالواو؛ لتغايرهما في الجملة، وإنَّما لم يُنْظَم المؤمنون في سلْكِ أهل الكتاب في نفي الارتياب حيث لم يُقَلْ: ولا يرتابوا؛ للتنبيه على تباين النفيَيْن حالاً، فإنَّ انتقاءَ الارتياب مِن أهل الكتاب مقارِنٌ لِمَا ينافيه مِن الجحود، ومن المؤمنين مقارِنٌ لِمَا يقتضيه مِن الإيمان، وكم بينهما!

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٣-٢٨٤، والبعث والنشور (٥٠٩).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٤، والترمذي (٣٣٢٧) وقال: هذا حديث غريب.

وقيل: إنَّما لم يُقَل: ولا يرتابوا، بل قيل: «ولا يرتاب» إلخ؛ للتنصيص على تأكيد الأمرين؛ لاحتمالِ عود الضمير في ذلك على المؤمنين فقط.

والتعبيرُ عن المؤمنين باسم الفاعل بعد ذِكْرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازديادهم ورسوخهم في ذلك.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ أو نفاق، فيكون ـ بناء على أنَّ السورة بتمامها مكِّية، والنفاق إنَّما حدث بالمدينة ـ إخباراً عمَّا سيحدث مِن المغيَّبات بعد الهجرة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المصرُّون على التكذيب ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: أيَّ شيءٍ أراد الله تعالى، أو: ما الذي أراده الله تعالى بهذا العدد المستغرَب استغرابَ المَثَل، وعلى الأوَّل «ماذا» منزَّلة منزلةَ اسم واحد للاستفهام في موضع نصب بـ: أراد، وعلى الثاني: هي مؤلَّفة من كلمة «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول خبره، والجملة بعدُ صلةٌ، والعائد فيها محذوف. و«مثلاً» نصب على التمييز، أو على الحال، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

والظاهر أنَّ ألفاظ هذه الجملة مِن المحكيِّ، وعَنَوا بالإشارة التحقير، وغرضُهم نفيُ أن يكون ذلك مِن عند الله عزَّ وجلَّ على أبلغ وجه، لا الاستفهامُ حقيقةً عن الحكمة، ولا القدحُ في اشتماله عليها، مع اعترافهم بصدور الإخبار بذلك عنه تعالى، وجوّز أن يكون «أرادَ الله» مِن الحكاية، وهم قالوا: ماذا أريد؟ ونحوَه. وقيل: يجوز أن يكون المَثَل بمعناه الآخَر، وهو ما شبّه مَضْرِبُه بِمَوْرِدِه، بأن يكونوا قد عدُّوه لاستغرابه مَثَلاً مضروباً، ونسبوه إليه عزَّ وجلَّ استهزاء وتهكُّماً.

وإفراد قوله بهذا التعليل[1] مع كونه مِن باب فتنتهم، قيل: للإشعار باستقلاله في الشناعة. وفي «الحواشي الشهابيَّة»: إنَّما أُعيدَ اللام فيه للفَرْق بين العلَّتين، إذ

(١) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، والذي في تفسير أبي السعود ٩/ ٦٠: وإفراد قولهم هذا بالتعليل. وهو الصواب.

مرجع الأولى الهداية المقصودة بالذات، ومرجع هذه الضلال المقصود بالعَرَض الناشئ مِن سوء صنيع الضالِّين، وتعليلُ أفعاله تعالى بالحِكَم والمصالح جائز عند المحقِّقين، وجوِّز في هذه اللام ـ وكذا الأولى ـ كونها للعاقبة[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ «ذلك» إشارة إلى ما قبله مِن معنى الإضلال والهداية، ومحلُّ الكاف في الأصل النصب على أنَّها صفةٌ لمصدر محذوف، وأصل التقدير: يُضلُّ اللهُ مَن يشاء ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إضلالاً وهدايةً كائنين مِثْلَ ما ذكر مِن الإضلال والهداية، فحذف المصدر وأقيم وصفُه مقامَه، ثم قدِّم على الفعل لإفادة القَصْر، فصار النظم: مِثْلَ ذلك الإضلال وتلك الهداية يضلُّ الله تعالى مَن يشاء إضلاله لصَرْف اختياره حسَب استعداده السَّيِّئ إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله تعالى الناطقة بالهدى، ويهدي مَن يشاء هدايته لصَرْفِ اختياره حسَب استعداده الحسَن عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى، لا إضلالاً وهداية أدنى منهما، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما بعدُ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] على ما حقِّق في موضعه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جمع: جند، اشتهر في العسكر اعتباراً بالغلظة مِن الجَنَد، أي: الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ويقال لكلّ جَمْع، أي: وما يَعلمُ جموعَ خَلْقه تعالى التي مِن جملتها الملائكة المذكورون على ما هم عليه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ عزَّ وجلَّ، إذ لا سبيلَ لأحد إلى حَصْر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالاً، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ وكيفٍ ونسبةٍ، وهو ردٌّ لاستهزائهم بكون الخَزَنة تسعةَ عَشَر؛ لجهلهم وجهَ الحكمة في ذلك.

وقال مقاتل: هو جوابٌ لقول أبي جهل: أمَا لربِّ محمَّد أعوان إلا تسعةَ عَشَر؟! وحاصله أنَّه لما قلَّل الأعوان، أُجيب بأنَّهم لا يُحصَون كثرةً، إنَّما الموكَّلون على النار هؤلاء المخصوصون، لا أنَّ المعنى: ما يَعلمُ بقوَّة بَطْشِ الملائكة إلَّا هو، خلافاً للطيبيِّ فإنَّ اللفظ غيرُ ظاهر الدلالة على هذا المعنى.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٧.

واختلف في أكثر جنود اللهِ عَزَّ وجلَّ، فقيل: الملائكة، لخبر: «أَطَّتِ السماءِ وحقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضع قَدَم إلا وفيه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد»(١).

وفي بعض الأخبار: أنَّ مخلوقاتِ البَرِّ عُشْرُ مخلوقات البحر، والمجموع عُشْرُ مخلوقات الجوِّ، والمجموع عُشْر ملائكة السماء الدنيا، والمجموع عُشْرُ ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، والمجموع عُشر ملائكة الكرسيِّ، والمجموع عُشْرُ الملائكة الحافِّين بالعرش، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمه إلا الله، وقيل: المجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى الملائكة المهيمين الذين لا يعلم أحدَهم أنَّ الله تعالى خَلَق أحداً سواه، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما يعلمه سبحانه مِن مخلوقاته(٢).

وعن الأوزاعيِّ قال: قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، مَن معكَ في السماء؟ قال: ملائكتي. قال: كم عدَّتهم؟ قال: اثنا عشر سِبْطاً. قال: كم عدَّة كلِّ سبط؟ قال: عدد التراب. وفي صحَّة هذا نظر، وإن صحَّ فصدره مِن المتشابه.

وأنا لا أجزمُ بأكثريَّة صنف، فما يَعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو، ولم يصحَّ عندي نصٌّ في ذلك، بَيْدَ أنَّه يغلب على الظَّنِّ أنَّ الأكثر الملائكةُ عليهم السلام، وهذه الآية وأمثالها مِن الآيات والأخبار تُشجِّع على القول باحتمال أن يكون في الأجرام العلويَّة جنودٌ مِن جنود الله تعالى لا يَعلمُ حقائقها وأحوالها إلا هو عزَّ وجلَّ، ودائرةُ مِلْكِ الله جلَّ جلاله أعظم مِن أن يُحيط بها نطاق الحَصْر، أو يصل إلى مركزها طائر الفِكْر، فأنَّى وهيهات، ولو استغرقت القوى والأوقات.

هذا، واختلف في المخصِّص لهذا العدد ـ أعني «تسعة عشر» ـ فقيل: إنَّ اختلاف النفوس البشريَّة في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانيَّة الاثنتي عشرة، يعني الحواسّ الخمسة الباطنة، والحواسّ الخمسة الظاهرة، والقوّة الباعثة كالغَضَبية والشهويَّة، والقوَّة المحرِّكة، فهذه اثنتا عَشْرة، والطبيعيَّة السبع التي ثلاث منها

(١) سلف ٢/ ٨٧.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

مخدومة، وهي القوَّة النامية والغادية والمولِّدة، وأربع منها خادمة: وهي الهاضمة والجاذبة والدافعة والماسكة. وهذا مع ابتنائه على الفلسفة لا يَكاد يتمُّ كما لا يَخفى على مَن وقف على كتبها.

وقيل: إنَّ لجهنَّم سبعَ دَرَكات، ستٌّ منها لأصناف الكفَّار، وكلُّ صنف يُعذَّب بتَرْك الاعتقاد والإقرار والعمل أنواعاً مِن العذاب تناسبها، فبضرب السِّتِّ في الثلاثة يحصل ثمانيةَ عَشَر، وعلى كلِّ نوع مَلَكٌ أو صنفٌ يتولَّاه، وواحدةٌ لعُصاة الأمَّة يعذَّبون فيها بتَرْك العمل نوعاً يناسبه، ويتولَّاه مَلَك أو صنفٌ، وبذلك تتمُّ التسعةَ عَشَر. وخصَّت ستٌّ منها بأصناف الكفار وواحدةٌ بأصناف الأُمَّة، ولم يجعل تعذيب الكفَّار في خمس منها، فيبقَ للمؤمنين اثنتان إحداهما لأهل الكبائر والأخرى لأهل الصغائر، أو إحداهما للعصاة منهم والأخرى للعاصيات؛ لأنَّه حيث أُعدَّت النار للكافرين أوَّلاً وبالذات ناسبَ أن يستغرقوها كليَّةً ويوزَّعوا على جميع أماكنها بقَدْر ما يُمكن، لكن لمَّا تعلَّقت إرادته سبحانه بتعذيب عصاةِ الأمَّة بها أفرزت واحدة منها لهم.

وقيل: إنَّ الساعاتِ أربعٌ وعشرون، خمسة منها مصروفةٌ للصلاة، فلم يخلق في مقابلتها زَبانية؛ لبركة الصلاة الشاملة لمن لم يصلِّ، فيبقى تسعة عشر.

وقيل: إنَّ لجهنَّم سَبْعَ دَرَكات، ستٌّ منها لأصناف الكفَّار، وللاعتناء بأمر عذابهم واستمراره ناسب أن يقومَ عليه ثلاثةٌ، واحدٌ في الوسط واثنان في الطرفين، فهذه ثمانيةَ عَشَر، وواحدة منها لعصاة المؤمنين، ناسب أَمْرُ عذابهم أن يقوم عليه واحد، وبه تتمُّ التسعة عَشَر.

وقيل: إنَّ العدد على وجهين: قليل وهو مِن الواحد إلى التسعة، وكثير وهو من العشرة إلى ما لَا نهاية له، فجمع بين نهايةِ القليل وبدايةِ الكثير. وقيل غير ذلك.

والذي مال إليه أكثر العلماء أنَّ ذلك ممَّا لا يعلم حكمته على التحقيق إلا الله عزَّ وجلَّ، وهو كالمتشابه يُؤمَن به ويُفوَّض عِلْمه إلى الله تعالى، وكلُّ ما ذكر ممَّا لا يعوَّل عليه، كما لا يخفى على مَن وجَّه أدنى نَظَره إليه، والله تعالى الهادي لصوب الصواب، والمتفضِّل على مَن شاء بعلمٍ لا شكَّ معه ولا ارتياب.

وقرأ أبو جعفر وطلحة بنُ سليمان: «تسْعَةَ عْشَرَ» بإسكان العين[1]، وهو لغة فيه كراهةَ توالي الحركات فيما هو كاسمٍ واحد.

وقرأ أنس بنُ مالك وابنُ عباس وابنُ قطيب وإبراهيم بن قَتَّة: «تِسْعَةُ» بضمِّ التاء[2]، وهي حركة بناء عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات، ولا يتوهَّم أنَّها حركة إعراب، وإلا لأعرب «عَشَرَ».

وقرأ أنس أيضاً: «تِسْعَةُ» بالضمِّ «أَعْشُرَ» بالفتح[3]، قال صاحب «اللوامح»: فيجوز أنَّه جمع العَشَرة على «أَعْشُر»، ثم أجراه مجرى «تسعة عشر».

وعنه أيضاً: «تسْعَةُ وعْشُرَ» بالضمِّ وقلب الهمزة واواً خالصة[4]؛ تخفيفاً، والتاء فيهما مضمومة ضمةَ بناء لِمَا سمعت آنفاً.

وعن سليمان بن قَتَّة ـ وهو أخو إبراهيم ـ أنَّه قرأ: «تِسْعَةُ أَعْشُرٍ» بضمِّ التاء ضمةَ إعراب، والإضافة إلى «أَعْشُرٍ» وجرِّه منوَّناً[5]، وهو على ما قال صاحب «اللوامح»: جمع عشرة، وقد صرَّح بأنَّ الملائكة على القراءة بهذا الجمع ـ معرباً أو مبنيًّا ـ تسعون مَلَكاً. وقال الزمخشريُّ: جمع: عشير، مثل يمين وأَيْمُن[6]. وروي عنه أنَّه قال: أي: تسعة مِن الملائكة، كلُّ واحد منهم عشير، فهم مع أشياعهم تسعون، والعشير بمعنى العشر، فدلَّ على أنَّ النقباءَ تسعة. وتعقِّب بأنَّ دلالته على هذا المعنى غيرُ واضحة. ولهذا قال ابنُ جنِّي: لا وجهَ لتلك القراءة إلا أن يعني «تِسْعَةَ أَعْشُرٍ» جمع العشير[7]، وهم الأصدقاء، فليراجع.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٣٨، والبحر ٨/ ٣٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٩، والبحر ٨/ ٣٧٥، قال ابن خالويه: قال ابن أبي حاتم: الصواب: تسعةُ اعْشَرَ.

(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ٣٨٧، والبحر ٨/ ٣٧٥.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٣٩، والبحر ٨/ ٣٧٥.

(٥) الكشاف ٤/ ١٨٤، والقرطبي ٢١/ ٣٨٨، والبحر ٨/ ٣٧٦.

(٦) الكشاف ٤/ ١٨٤.

(٧) المحتسب ٢/ ٣٣٩.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: سَقَرُ، كما يقتضيه كلام مجاهد ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ إلا تذكرةٌ لهم، والعطف قيل على قوله تعالى: «سأصليه سَقَر»، و«ما جعلنا أصحاب النار» إلى هنا اعتراض. ووَجْهُه أنَّه لمَّا قيل: «عليها تسعة عشر» زيادةً في تهويل أمْرِ جهنَّم عقَّب بما يؤكِّد قوَّتهم وتسلُّطهم وتباينهم بالشِّدَّة عن سائر المخلوقات، ثم بما يؤكِّد الكميَّة، وما أكَّد المؤكَّد فهو مؤكَّد أيضاً.

وقيل: الضمير للآيات الناطقة بأحوال سَقَر.

وقيل: لعدَّة خَزَنتها، والتذكير والعظة فيها مِن جهة أنَّ في خَلْقه تعالى ما هو في غاية العظمة حتى يكون القليل منهم معذِّباً ومُهْلِكاً لِمَا لا يُحصى دلالةً على أنَّه عزَّ وجلَّ لا يُقدَر حقَّ قَدْره، ولا تُوصف عظمته، ولا تصل الأفكار إلى حرم جلاله.

وقيل: الضمير للجنود. وقيل: لنار الدنيا، وهذا أضعف الأقوال، وأقواها ـ على ما قيل ـ ما تقدَّم.

وبين البشر هاهنا والبشر فيما سبق ـ أعني قوله تعالى: «لوَّاحة للبشر» على تفسير الجمهور ـ تجنيسٌ تامٌّ لفظيٌّ وخطِّيٌّ، وقلَّ مَن تذكَّر له.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لِمَن أنكرها، وقيل: زجرٌ عن قول أبي جهل وأصحابِه أنَّهم يقدرون على مقاومة خَزَنة جهنَّم. وقيل: ردعٌ عن الاستهزاء بالعدَّة المخصوصة. وقال الفرَّاء: هي صلة للقَسَم. وقدَّرها بعضهم بـ: حقًّا، وبعضهم بـ «ألا» الاستفتاحيَّة، وقال الزمخشري: إنكارٌ ـ بعد أن جعلها سبحانه ذكرى ـ أن يكون لهم ذكرى[1]. وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه لا يسوغ في حقِّه تعالى أن يخبر أنَّها ذكرى للبشر، ثم يُنكِر أن يكون لهم ذكرى[2].

وأجيب بأنَّه لا تناقضَ؛ لأنَّ معنى كونها ذكرى أن شأنها أن تكون مذكِّرةً لكلِّ أحد، ومن لم يتذكَّر ـ لغلبة الشقاء عليه ـ لا يُعَدُّ من البشر ولا يُلتفَت لعدم تذكُّره،

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٧٨.

كما أنَّ حلاوة العسل لا يضرُّها كونها مُرَّةً في فمِ منحرفِ المزاج المحتاج إلى العلاج.

وحالُ حُسْنِ الوقف على «كلَّا» وعدمِ حسنه هنا يُعلَم مِن النظر إلى المراد بها، وصرَّح بعضهم بذلك، فقال: إن كانت متعلِّقة بالكلام السابق يحسن الوقف عليها، وإن كانت متعلِّقة بالكلام اللاحق لا يَحسُن ذلك، أي: كما إذا كانت بمعنى «أَلَا» الاستفتاحيَّة، فالوقف حينئذ تامٌّ على «للبشر»، ويستأنف «كلَّا».

﴿وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: ولَّى، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابنُ يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزناد وقتادة وعمر بنُ عبد العزيز والحسن وطلحة والنحويَّان والابنان وأبو بكر: «إذا» ظرف زمان مستقبل، «دَبَرَ» بفتح الدال[1]، وهو بمعنى أدبر المزيد، كـ : قبل وأقبل، والمعروف المزيد، وحسَّن الثلاثيَّ هنا مشاكلةُ أكثر الفواصل، وقيل: «دَبَرَ» مِن دَبَرَ الليلُ النهار: إذا خَلَفَه، والتعبير بالماضي مع «إذا» التي للمستقبل للتحقيق، ويجوز أن يقال: إنَّها تقلبه مستقبلاً.

وقرأ أبو رزين وأبو رجاء والأعمش ومطر ويونس بنُ عبيد، وهي رواية عن الحسن وابن يعمر والسلمي وطلحة: «إذا» بالألف «أدبر» بالهمز[2]، وكذا هو في مصحف عبد الله وأُبَيٍّ، وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: أضاء وانكشف على قراءة الجمهور، وقرأ ابن السميفع وعيسى بن الفضل: «سَفَرَ» ثلاثيًّا[3]، وفسِّر بطَرْح الظلمة عن وجهه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ جواب للقَسَم، وجوّز أن يكون «كلَّا» ردعاً لمن يُنكِر أن تكون إحدى الكبرى؛ لِمَا عُلمَ مِن أنَّ «إنَّ» واللام مِن الكلام الإنكاري في جواب منكِر مصرٍّ، وهذا تعليل لـ «كلَّا»، والقَسَم معترِضٌ للتأكيد لا جواب له، أو جوابه مقدَّر يدلُّ عليه «كلَّا»، وفي التعليل نوعُ خفاء، فتأمَّل.

---

(١) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، والبحر ٨/ ٣٧٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٣٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٧.

وضمير «إنَّها» لـ «سقر»، و«الكُبَر» جمع: الكُبرى، جعلت ألف التأنيث كتائها، فكما جمعت فُعْلَة على فُعَل جمعت فُعْلَى عليها، ونظيرها: السوافي في جمع السافِياء[(١)]، والقواصع في جمع القاصِعَاء[(٢)]، فإنَّ فاعلة تُجمَع على فواعل باطِّرادٍ، لا فاعلاء، لكن حُمل فاعلاء على فاعلة؛ لاشتراك الألف والتاء في الدلالة على التأنيث وضعاً، فجمع فيهما على فواعل، وقول ابن عطية: «الكُبَر» جمع: كبيرة[(٣)]. وهمٌ كما لا يخفى.

أي: إنَّ سَقَر لإحدى الدواهي الكُبَر، على معنى إنَّ البلايا الكبيرة كثيرةٌ، و«سَقَر» واحدة منها، قيل: فيكون في ذلك إشارة إلى أنَّ بلاءَهم غيرُ محصور فيها، بل تحلُّ بهم بلايا غيرُ متناهية. أو: إنَّ البلايا الكبيرةَ كثيرةٌ، و«سَقَر» مِن بينهنَّ واحدة في العِظَم لا نظيرَ لها، وهذا كما يقال: فلانٌ أَحَدُ الأحدين، وهو واحد الفضلاء، وهي إحدى النساء، وعلى هذا اقتصر الزمخشريُّ[(٤)]، ورجِّح الأوَّل بأنَّه أنسب بالمقام، ولعلَّه لِمَا تضمَّن مِن الإشارة.

وقيل: المعنى: إنَّها لإحدى دَرَكات النار الكُبَر السبع؛ لأنَّها جهنَّم ولَظَى والحُطَمَة وسَقَر والسعير والجحيم والهاوية. ونقل عن صاحب «التيسير»، وليس بذاك أيضاً.

وقيل: ضمير «إنَّها» يحتمل أن يكون للنذارة وأمر الآخرة؛ قال في «البحر»: فهو للحال والقصَّة[(٥)]. وقيل: هو للساعة، فيعود على غير مذكور.

وقرأ نصر بنُ عاصم وابنُ محيصن ووهب بنُ جرير عن ابن كثير: لـ «إحْدَى الكُبَر» بحذف همزة إحدى[(٦)]، وهو حذف لا ينقاس، وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تُجعَلَ بَيْنَ بَيْنَ.

---

(١) وهي: الغبار، أو ريح تحمل تراباً. القاموس (سفي).
(٢) وهو: جُحْر لليربوع يدخله. القاموس (قصع).
(٣) المحرر الوجيز ٥/٣٩٧.
(٤) الكشاف ٤/١٨٦.
(٥) البحر المحيط ٨/٣٧٨.
(٦) القراءات الشاذة ص١٦٥، والبحر المحيط ٨/٣٧٨.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ قيل: تمييز لـ «إحدى الكُبَر» على أنَّ «نذيراً» مصدر بمعنى إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، أي: إنَّها لإحدى الكبر إنذاراً، والمعنى على ما سمعت عن الزمخشريِّ: إنَّها لأعظم الدواهي إنذاراً، وهو كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً. وقال الفرَّاء: هو مصدر نُصبَ بإضمار فعل، أي: أنذر إنذاراً[1].

وذهب غير واحد إلى أنَّه اسم فاعل بمعنى مُنذِرةً، فقال الزجَّاج: حال من الضمير في «إنَّها»[2]، وفيه مجيءُ الحال مِن اسم «إنَّ»، وقيل: حال مِن الضمير في «لإحدى». واختار أبو البقاء كونه حالاً ممَّا دلَّت عليه الجملة، والتقدير: عظمت أو كَبُرَتْ نذيراً[3]، وهو على ما قال أبو حيَّان: قولٌ لابأس به[4]. وجوّزت هذه الأوجه على مصدريَّته أيضاً بتأويله بالوصف، وقال النحَّاس: حذفت الهاء من «نذيراً» وإن كان للنار على معنى النسب، يعني ذات إنذار. وقد يقال في عدم إلحاق الهاء فيه غيرُ ذلك ممَّا قيل في عدم إلحاقها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال أبو رزين: المراد بالنذير هنا هو الله تعالى، فهو منصوب بإضمار فعل، أي: ادْعُ نذيراً أو نحوه.

وقال ابن زيد: المراد به النبيُّ ﷺ، قيل: فهو منصوب بإضمار فعل أيضاً، أي: نادِ، أو: بَلِّغ، أو: أَعلِن، وهو كما ترى، ولو جعل عليه حالاً مِن الضمير المستتر في الفعل لكان أَولى، وكذا لو جعل منادى، والكلام نظير قولك: إنَّ الأمر كذا يا فلان، وقيل: إنَّه على هذا حال من ضمير «قم» أوَّل السورة، وفيه خَرْم النظم الجليل، ولذا قيل: هو مِن بِدَع التفاسير.

وقرأ أُبَيٌّ وابنُ أبي عبلة: «نذيرٌ» بالرفع، على أنَّه خبر بعد خبر لـ «إنَّ»، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هي نذير على ما هو المعوَّل عليه مِن أنَّه وصف النار، وأمَّا

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٠٥بنحوه، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٣٧٩.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٤٩.
(٣) الإملاء ٤/ ٤٢٩.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٧٩.

على القول بأنَّه وصف الله تعالى أو الرسول ﷺ فهو خبرٌ لمحذوف لا غير، أي: هو نذير.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ الجارُّ والمجرور بدل من الجارِّ والمجرور فيما سبق، أعني: «للبشر»، وضمير «شاءَ» للموصول، أي: نذيراً للمتمكِّنين منكم مِن السبق إلى الخير والتخلُّف عنه. وقال السُّدِّيُّ: أَنْ يتقدَّم إلى النار المتقدِّم ذِكْرُها أو يتأخَّر عنها إلى الجنَّة. وقال الزجَّاج: أنْ يتقدَّم إلى المأمورات، أو يتأخَّر عن المنهيَّات[1]. وفسَّر بعضُهم التقدُّم بالإيمان والتأخُّر بالكفر. وقيل: ضمير «شاء» تعالى، أي: نذيراً لمن شاء الله تعالى منكم تقدُّمه أو تأخُّره.

وجوّز أن يكون «لمن» خبراً مقدّماً، و«أن يتقدَّم أو يتأخَّر» مبتدأ، كقولك لِمَنْ توضّأ أن يصلِّي. ومعناه: مطلَق لمَنْ شاء التقدُّم - أي: السبق إلى الخير - أو التأخُّر، أي: التخلُّف عنه، أن يتقدَّم أو يتأخَّر، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ولا يخفى أنَّ اللفظ يحتمله، لكنَّه بعيد جدًّا.

﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ مرهونة عند الله تعالى بكَسْبها، والرهينة مصدرٌ بمعنى الرَّهْن، كالشتيمة بمعنى الشَّتْم، لا صفة، وإلا لقيل: رهين؛ لأنَّ فعيلاً بمعنى مفعول لا يَدخله التاء، ويستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، ومنه قول عبد الرحمن بنِ زيد، وقد قُتلَ أبوه وعُرضَ عليه سَبْع دِيَاتٍ، فأبى أن يأخذها:

أبعدَ الذي بالنَّعْفِ[2] نَعْفِ كُوَيْكِبٍ رهينة رَمْسٍ ذي تراب وجَندلِ
أُذكَّر بالبُقْيا على مَن أصابني وبُقيَاي أنِّي جاهدٌ غير مؤتَلِ[3]

واختير على رهين مع موازنته لليمين وعدمِ احتياجه للتأويل؛ لأنَّ المصدر هنا أبلغ، فهو أنسب بالمقام، فلا يلتفت للمناسبة اللفظيَّة فيه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٤٩.

(٢) جاء في هامش الأصل: النعف: ما استقبلك من الوادي. انتهى منه.

(٣) جاء في هامش الأصل: هو من باب عتابه السيف. انتهى منه. والبيتان في الحماسة البصرية ١/ ٢١٧، والبيان والتبيين ٣/ ٢٥٨، والأغاني ٥/ ١٠٤، والرمس: القبر، والجندل: الحجارة.

وقيل: الهاء في «رهينة» للمبالغة. واختار أبو حيَّان[1] أنَّها ممَّا غلب عليه الاسميَّة كالنطيحة، وإن كانت في الأصل فعيلاً بمعنى مفعول، وهو وجه أيضاً، وادَّعى أنَّ التأنيثَ في البيت على معنى النفس.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾ وهم المسلمون المخلصون، كما قال الحسن وابنُ كيسان والضَّحَّاك، ورواه ابنُ المنذر عن ابنِ عبَّاس، فإنَّهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا مِن أعمالهم، كما يَفُكُّ الراهنُ رهنَه بأداء الدين.

وأخرج ابنُ المنذر وابنُ جرير وجماعة عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّهم أطفال المسلمين[2]، وأخرجوه أيضاً عن ابنِ عمر رضي الله عنهما[3].

ونقل بعضهم عن ابن عباس أنَّهم الملائكة فإنَّهم غيرُ مرهونين بديون التكاليف كالأطفال. وتعقَّب بأن إطلاق النفس على المَلَك غيرُ معروف، وبأنَّهم لا يُوصفون بالكسب أيضاً، على أنَّ الظاهر سباقاً وسياقاً أن يُراد بهم طائفةٌ من البشر المكلَّفين، والكثير على تفسيرهم بما سمعتَ. وقيل: هم الذين سَبَقت لهم من الله الحُسنى. وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يومَ الميثاقِ، وقيل: الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم. ولا تَدافُع بين هذه الأقوال كما لا يخفى، والاستثناء على ما تقدَّم ـ وكذا هذه الأقوال ـ متَّصل، وأمَّا على قول الأمير كرَّم الله تعالى وجهه، وما نقل عن ابنِ عمِّه، فقال أبو حيَّان: هو استثناء منقطع[4]. وقيل: يجوز الاتصال والانقطاع بناءً على أنَّ الكسبَ مُطلَق العمل، أو ما هو تكليف، فلا تغفل.

﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتنوين للتعظيم، والجملة استئناف وقعَ جواباً عن سؤال نشأ ممَّا قبله مِن استثناء «أصحاب اليمين»، كأنَّه قيل: ما بالهم؟ فقيل: هم في جنَّات لا يُكتَنَهُ كُنْهها ولا يُدرَك وصفُها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٥، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٤٩-٤٥٠، وهو عند ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٨٥، والحاكم ٢/ ٥٠٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٥، ونسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة [١٣/ ٣٢٥]، وابن المنذر.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٧٩.

وجوّز أن يكون الظرفُ في موضع الحال مِن أصحاب اليمين، أو مِن ضميرهم في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾ قدِّم للاعتناء مع رعاية الفاصلة، وقيل: ظرف للتساؤل، وليس المراد بتساؤلهم أن يَسأَلَ بعضُهم بعضاً على أن يكون كلُّ واحد منهم سائلاً ومسؤولاً معاً، بل وقوع السؤال منهم مجرَّداً عن وقوعه عليهم، فإنَّ صيغةَ التفاعل وإن وضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدِّد[(١)] ووقوعه عليه معاً بحيث يصير كلُّ واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، كما في قولك: تشاتمَ القومُ، أي: شتم كلُّ واحد منهم الآخَر. لكنها قد تجرَّد عن المعنى الثاني ويُقصَد بها الدلالة على الأوَّل فقط ويكون الواقع عليه شيئاً آخَر، كما في قولك: تَرَاءوا الهلالَ. قال جار الله[(٢)]: إذا كان المتكلِّم مفرَداً يقول: دعوته. وإذا كان جماعةً يقول: تداعيناه. ونظيره: رميته وترامیناه، ورأيتُ الهلال وتَرَاءيناهُ، ولا يكون هذا التفاعل مِن الجانبين، وعلى هذا فالمسؤول محذوف، أعني: المجرمين، والتقدير: يتساءلون المجرمينَ عنهم، أي: يسألون المجرمينَ عن أحوالهم، فغيِّر إلى ما في النظم الجليل، وقيل: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾ والمعنى على ذلك، وحذف المسؤول لكونه غيرَ المسؤول عنه.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾ بيانٌ للتساؤل مِن غير حاجة إلى إضمار قول، أو هو مقدَّر بقول وقع حالاً مِن فاعل «يتساءلون»، أي: يسألونهم قائلين: أيُّ شيءٍ أَدخلكم في سَقَر.

وقيل: المسؤول غيرُ المجرمين كجماعة مِن الملائكة عليهم السلام، و«ما سلككم» إلخ حكاية قول المسؤولين عنهم، أي: لمَّا سأل أصحابُ اليمين الملائكةَ عن حال المجرمين، قالوا لهم: نحن سألنا المجرمين عن ذلك، وقلنا لهم: «ما سلككم في سقر» إلى الآخِر، وكان يكفيهم أن يقولوا: حالهم كيتَ وكيتَ، لكن أتى بالجواب مفصَّلاً حسبما سألوه ليكون أثبتَ للصدق وأدلَّ على حقيقة الأمر، ففي الكلام حذف واختصار.

---

(١) في (م): المتعدي، والمثبت موافق لمَا في تفسير أبي السعود ٩/ ٦١، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٤/ ١٨٧بنحوه.

وجوّز أن تكون صيغةُ التفاعل على حقيقتها، أي: يسأل بعضُهم بعضاً عن المجرمين، و«ما سلككم» حكاية قول المسؤول عنهم أيضاً، ولا يخفى ما في اعتبار الحكاية من التكلّف، فليس ذاك بالوجه وإن كان الإيجاز نهج التنزيل والحذف كثيراً في كلامه تعالى الجليل.

والظاهر أنَّ السؤال سؤالُ توبيخ وتحسير، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النارَ، ولو كانوا الأطفالَ فيما أظنُّ؛ لانكشاف الأمر ذلك اليوم.

وروى عبد الله بنُ أحمد وجماعة عن ابنِ الزبير أنَّه يقرأ: «يتساءلون عن المجرمين يا فلانُ ما سَلَكَكم»، ورويت عن عمر أيضاً[1]، وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن مسعود أنَّه قرأ: «يا أيُّها الكفَّار ما سَلَكَكم في سَقَر»[2].

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المجرمون مجيبينَ للسائلين: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ للصلاة الواجبة ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نعطيه ما يجب إعطاؤه، والمعنى على استمرار النفي لا نفي الاستمرار.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الكفَّار مخاطبون بفروع العبادات؛ لأنَّهم جعلوا عذابَهم لترك الصلاة، فلو لم يُخاطَبوا بها لم يُؤاخَذوا، وتفصيل المسألة في الأصول. وتعقّب هذا الاستدلال بأنَّه لا خلافَ في المؤاخذة في الآخِرة على تَرْكِ الاعتقاد، فيجوز أن يكون المعنى: من المعتقدين للصلاة ووجوبِها، فيكون العذاب على تَرْك الاعتقاد. وأيضاً «المصلِّين» يجوز أن يكون كنايةً عن المؤمنين. وأيضاً ذاك مِن كلام الكفرة، فيجوز كذبهم أو خطؤهم فيه؟ وأُجيبَ بأنَّ ذلك عدولٌ عن الظاهر يأباه قولُه تعالى: «ولم نَكُ نُطعِم» إلخ، والمقصود مِن حكاية السؤالِ والجوابِ التحذيرُ، فلو كان الجوابُ كذباً أو خطأً، لم يكن في ذِكْره فائدة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٥، ونسبه لعبد الرزاق [في التفسير ٢/ ٣٣١]، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي داود في المصاحف [١/ ٢٨٩ و٣٦٢]، وابن المنذر وابن أبي حاتم. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٥ بلفظ: «يا أيها المرء ما سلكك»، والنحاس في إعراب القرآن ٥/ ٧٣ بلفظ: «ما سلكك» بالإفراد، وقال: وهذه القراءة على التفسير، والإسناد بها صحيح.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٥، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٧.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥﴾ أي: نشرع في الباطل مع الشارعين فيه، والخوض في الأصل ابتداءُ الدخول في الماء والمرور فيه، واستعماله في الشروع في الباطل مِن المجاز المُرسَل أو الاستعارة، على ما قرَّروه في المِشْفَر[١] ونحوه، وعن بعضهم أنَّه اسمٌ غالب في الشَّرِّ، وأكثر ما استعمل في القرآن بما يُذَمُّ الشروع فيه. وأُريد بالباطل ما لا ينبغي من القول والفعل، وعُدَّ من ذلك حكاية ما يَجري بين الزوجين في الخلوة مثلاً، وحكاية أحوال الفَسَقة بأقسامهم على وجه الالتذاذ والاستئناس بها، ونَقْل الحروب التي جرت بين الصحابة ﷺ لغير غرض شرعيٍّ بل لمجرَّد أن يتوصَّل به إلى طعنٍ وتنقيص، والتكلُّم بالكلمة يُضحِكُ بها الرجلُ جلساءَه، سواء كانت مباحةً في نفسها أم لا، نعم التكلُّم بالكلمة المحرَّمة لذلك باطل على باطل. إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصَى، وكأنَّ ذكر «مع الخائضين» إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل ومبالاتهم به، فكأنَّهم قالوا: وكنا لا نبالي بباطل.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ أي: بيوم الجزاء، أضافوه إلى الجزاء مع أنَّ فيه مِن الدواهي والأهوال ما لا غايةَ له؛ لأنَّه أدهاها وأهولها، وأنَّهم ملابسوه، وقد مضت بقيَّة الدواهي، وتأخيرُ جنايتهم هذه مع كونها أعظمَ من الكُلِّ؛ لتفخيمها، كأنَّهم قالوا: وكنَّا بعد ذلك كلِّه مكذِّبين بيوم القيامة، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة مستمرًّا إلى آخِر عمرهم حسبما نطق به قولهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ أي: الموت ومقدِّماته، كما ذهب إليه جلُّ المفسِّرين، وقال ابن عطيَّة: اليقين عندي صحَّة ما كانوا يكذِّبون به مِن الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة، وقول المفسِّرين: هو الموت، متعقَّب عندي؛ لأنَّ نفسَ الموت يقينٌ عند الكافر وهو حيٌّ، فلم يريدوا باليقين إلا الشيء الذي كانوا يكذِّبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقَّنوه بَعْدَ الموت[٢]. انتهى. وفيه نظر!

ثم الظاهر أنَّ مجموع ما ذكروه سببٌ لدخولِ مجموعهم النار، فلا يضرُّ في ذلك أنَّ مِن أهل النار مَن لم يكن وجب عليه إطعام مسكين، كفقراء الكَفَرة

(١) المِشْفَر للبعير كالشفة لكَ، وقد يستعمل في الناس. القاموس (شفر).
(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٩٩.

المعدَمين، وفي «الكشاف»[(١)]: يحتمل الكلام أن يكون دخولُ كلٍّ منهم النارَ لمجموع الأربعة، ويحتمل أن يكون دخولُ بعضهم لبعضها كأن يكون ذلك لمجرَّد تَرْكِ الصلاة أو تَرْك الإطعام. وفيه دسيسةُ اعتزال، وهو تخليدُ مرتكبِ الكبيرة من المؤمنين ـ كتارك الصلاة ـ في النار وأنتَ تعلم أنَّ الآيةَ في الكفَّار لا في أعمَّ منهم.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لو شفعوا لهم جميعاً، فالكلام على الفَرَض، واشتُهر أنَّه من باب:

ولا تـرى الـضَّـبَّ بـهـا يـنـجـحـر[(٢)]

وحَمْلُ التعريف على الاستغراق أبلغُ وأنسب بالمقام.

والفاء في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قَبلها مِن موجبات الإقبال عليه والاتِّعاظ به مِن سوء حال المكذِّبين، و«معرضين» حال لازمة من الضمير في الجارِّ الواقع خبراً لـ «ما» الاستفهاميَّة، أعني: «لهم»، وهي المقصودة مِن الكلام، و«عن» متعلِّقة بها، والتقديم للعناية مع رعاية الفاصلة، أي: فإذا كان حال المكذِّبين به على ما ذكر، فأيُّ شيءٍ حصل لهم معرضينَ عن القرآن، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه، وتآخُذِ الدواعي إلى الإيمان به. وجوّز أن يراد بالتذكرة ما يعمُّ القرآن، وما بعدُ يرجِّح الأوَّلَ، وهو مصدر بمعنى التذكير أُطلق على ما ذكر مبالغة.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ حال من المستكن في «معرضين» بطريق التداخل، والحُمر جمع حمار، والمراد به كما قال ابن عباس: حمار الوَحْش؛ لأنَّه بينهم مَثَلٌ بالنفار وشدَّة الفرار، و«مستنفرة» مِن استنفر بمعنى نَفَر، كعَجِب واسْتَعْجَب، كما قيل، والأحسن أن استَفْعَلَ للمبالغة؛ كأنَّ الحُمُرَ لشدَّة العَدْوِ تَطلُب النفارَ مِن نفسها، والمعنى: مشبَّهين بحُمُر نافرة جدًّا.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ أي: أسدٍ، وهي فعولة من القَسْر وهو القهر والغَلَبة،

---

(١) ٤/ ١٨٧.

(٢) أي: لا ضبَّ بها حتى ينجحر، وينظر ما سلف ٣/ ٢٣٧.

وأخرج ذلك ابنُ جرير وعبد بن حميد وغيرهما عن أبي هريرة[١]، وأخرجه ابن المنذر عن ابن عباس أيضاً، بيدَ أنَّه قال: هو بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: قَسْورة[٢]. وفي رواية أخرى عنه: إنها الرجال الرماة القُنَّص. ورُوي نحوه عن مجاهد وعكرمة وابنِ جبير وعطاء بنِ أبي رباح. وفي رواية أخرى عنه أخرجها ابنُ عيينة في تفسيره أنَّه رِكْزُ الناسِ، أي: أصواتهم[٣]. وعنه أيضاً: حبال الصيادين. وعن قتادة: النَّبْل. وقال ابنُ الأعرابي وثعلب: القسورة: أوَّل الليل. أي: فرَّت مِن ظلمة الليل. وجمهور اللغويين على أنَّه الأسد.

وأيَّاما كان فقد شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه مِن المواعظ وشرادهم عنه بحُمُرٍ وحشيَّة جدَّت في نِفارها ممَّا أفزعها، وفي تشبيههم بالحُمُر مذمَّةٌ ظاهرةٌ وتهجينٌ لحالهم بيِّنٌ، كما في قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، أو شهادة عليهم بالبَلَه وقلَّة العقل.

وقرأ الأعمش: «حُمْر» بإسكان الميم[٤].

وقرأ نافع وابن عامر والمفضَّل عن عاصم: «مُسْتَنْفَرة» بفتح الفاء[٥]، أي: استنفرها فَزَعُها مِن القسورة، و«فرَّت» يناسب الكسر، فعن محمد بنِ سَلام، قال: سألتُ أبا سوَّار[٦] الغنويَّ وكان أعرابياً فصيحاً، فقلت: «كأنَّهم حُمُر» ماذا؟ فقال: مُسْتَنْفَرة طَرَدها قَسْورة. ففتح الفاء، فقلت: إنَّما هو «فرَّت مِن قَسْورة»؟ قال: أفرَّت؟ قلت: نعم. قال: فمستنفِرة إذن. فكسر الفاء.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٦، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٥٩. وزاد السيوطي نسبته إلى ابن المنذر أيضاً.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٦ لكن عزاه لابن أبي حاتم. وهو عند الطبري في التفسير ٢٣/ ٤٦٠.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٦، وزاد نسبتها لعبد الرزاق [في التفسير ٢/ ٣٣٢]، وابن المنذر. وهو عند الطبري في التفسير ٢٣/ ٤٥٨-٤٥٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٨٠.

(٥) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٠.

(٦) تحرفت في الأصل و(م) ومطبوع البحر (والكلام منه) ٨/ ٣٨٠ إلى: سرار.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ عطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنَّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يَرْضَون بها، بل يريد كلُّ واحد منهم أن يُؤتَى قراطيسَ تُنشَر وتُقْرَأ، كالكتب التي يتكاتب بها. وجوّز أن يراد: كتباً كتبت في السماء ونزلت بها الملائكةُ ساعةَ كُتبت منشَّرة على أيديها غضَّة رطبة لم تُطْوَ بَعْدُ، وفيه بُعْدٌ.

وذلك على الوجهين أنَّهم قالوا لرسول الله ﷺ: إن سرَّك أن نتابعك، فَأْتِ كلَّ واحد منَّا بكُتب من السماء عنوانها من ربِّ العالمين إلى فلان بنِ فلان، نُؤمَر فيها باتِّباعك، فنزلت، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾(1) [الإسراء: ٩٣] وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٧].

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر عن السُّدِّيِّ عن أبي صالح قال: قالوا: إن كان محمَّد صادقاً فليُصبح تحتَ رأسِ كلِّ رجلٍ منَّا صحيفة فيها براءةٌ وأمنة مِن النار(2).

وقيل: كانوا يقولون: بَلَغنا أنَّ الرجل مِن بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذَنْبه وكفَّارته، فَأْتنا بِمِثْلِ ذلك. وهذا مِن الصحف المنشَّرة بمعزل إلا أن يُراد بالصُّحُف المنشرة الكتاباتُ الظاهرة المكشوفة، ونحوُه ما روي عن أبي صالح، فمآلهما إلى واحد، لاشتراكهما في أنَّ المنشرَ لم يَبْقَ على أصله وأنَّ لكلٍّ صحيفة مخصوصة به؛ إمَّا لخلاصه مِن الذنب، وإمَّا لوجه خلاصِه، فالمعوَّل عليه ما تقدَّم، وهو مروي عن الحسن وقتادة وابنِ زيد.

وقرأ سعيد بن جبير: «صُحْفاً» بإسكان الحاء، «مُنْشَرة» بالتخفيف(3)، على أنَّ أَنْشَر الصحف ونشرها واحد، كأَنزله ونَزَله، وفي «البحر»: المحفوظ في الصحيفة والثوب: نَشَرَ، مخفَّفاً ثلاثياً، ويُقال في الميتِ: أَنْشَره اللهُ تعالى ونشره، ويقال:

---

(1) البحر المحيط ٨/ ٣٨١، والأثر أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٦ عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر، وهو عند الطبري في التفسير ٢٣/ ٤٦١.
(2) الدر المنثور ٦/ ٢٨٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد، ولم نقف عليه عند ابن جرير في التفسير.
(3) القراءات الشاذة ص١٦٥، والمحتسب ٢/ ٣٤٠، والبحر ٨/ ٣٨١، والكلام منه.

أنشره اللهُ تعالى فنشر هو، أي: أحياه فحَيِيَ[١].

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن إرادتهم تلك، وزَجْرٌ لهم عن اقتراح الآيات ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ فلذلك يُعرِضون عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف وحصول مقترحهم كما يزعمون.

وقرأ أبو حيوة: «تخافون» بتاء الخطاب[٢]؛ التفاتاً.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن إعراضهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، أو التذكرة السابقة في قوله تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)، وكذا الضمير الآتي، وذُكِّرَ لأنَّه بمعنى القرآن أو الذِّكْر ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ وأيُّ تذكرة ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يَذْكُره ﴿ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ وحاز بسببه سعادةَ الدارين، والوقف على «كلَّا» على ما سمعت في الموضعين، وعلى «منشَّرة» و«الآخرة» إن جُعلت ـ كما في الحواشي ـ بمعنى «إلا».

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ أي: بمجرَّد مشيئتهم للذِّكْر كما هو المفهوم مِن ظاهر قوله تعالى: (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) إذ لا تأثيرَ لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله، وهو قوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمِّ العلل أو مِن أعمِّ الأحوال، أي: وما يذكرون بعلَّة مِن العلل أو في حال مِن الأحوال إلا بأن يشاء اللهُ تعالى، أو حالَ أن يشاء اللهُ ذلك، وهذا تصريح بأنَّ أفعال العباد بمشيئة الله عزَّ وجل بالذات أو بالواسطة، ففيه ردٌّ على المعتزلة، وحَمْلُهم المشيئةَ على مشيئة القَسْر والإلجاء خروجٌ عن الظاهر مِن غير قسرٍ وإلجاء.

وقرأ نافع وسلَّام ويعقوب: «تَذْكُرون» بتاء الخطاب التفاتاً، مع إسكان الذال[٣]. وروي عن أبي حيوة: «يَذَّكَّرون» بياء الغيبة وشدِّ الذال[٤]. وعن أبي جعفر: «تَذَّكَّرون» بالتاء الفوقيَّة وإدغامها في الذال[٥].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣١٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٨١.

(٣) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣ عن نافع، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٣٨١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٨١.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٨١.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يُتَّقى عذابُه ويُؤمَن به ويُطاع، فالتقوى مصدر المبنيّ للمفعول ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ حقيقٌ بأن يَغفر جلَّ وعلَّا لمن آمنَ به وأطاعه، فالمغفرة مصدر المبني للفاعل.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، والنسائي وابن ماجه وخَلْق آخرون عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾، فقال: «قد قال ربُّكم: أنا أهلٌ أن أُتَّقى، فلا يُجعل معي إله، فمَن اتَّقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر، فأنا أهلٌ أن أغفر له»[1]. وأخرج ابنُ مردويه عن عبد الله بنِ دينار عن أبي هريرة وابنِ عمر وابنِ عباس مرفوعاً ما يَقرُب مِن ذلك[2].

وفي حديث أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنِّي لأجدني أستحي مِن عبدي يَرفعُ يديه إليَّ، ثم يردُّهما مِن غير مغفرة. قالت الملائكة: إلهنا ليس لذلك بأهل. قال الله تعالى: لكنِّي أهلُ التقوى وأهل المغفرة، أشهدكم أنِّي قد غفرتُ له»[3]. وكأنَّ الجملة لتحقيق الترهيب والترغيب اللذين أشعر بهما الكلام السابق كما لا يخفى على المتذكِّر.

وعن بعضهم أنَّه لما سمع قولَه تعالى: (هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ)، قال: اللهمَّ اجعلني مِن أهل التقوى وأهل المغفرة. على أنَّ أوَّل الثاني كثاني الأوَّل مبنيًّا للفاعل، وثاني الثاني كأوَّل الأوَّل مبنيًّا للمفعول، وإلا فلا يحسن الدعاء وإن تكلّف لتصحيحه، فافهم والله تعالى أعلم.

---

(١) أحمد (١٢٤٤٢)، والترمذي (٣٣٢٨)، والحاكم ٢/٥٠٨، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٦)، وابن ماجه (٤٢٩٩). قال الترمذي: هذا حديث غريب، وسهيل (ابن أبي حزم أحد رجال الإسناد) ليس بالقوي في الحديث، قد تفرَّد بهذا الحديث عن ثابت. اهـ. ولم ترد في مطبوعه لفظة: حسن. ووردت في تحفة الأشراف ١/١٣٩، وتحفة الأحوذي ٩/٢٤٨، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٢) الدر المنثور ٦/٢٨٧.

(٣) الدر المنثور ٦/٢٨٧، وهو في نوادر الأصول ص١٣٨ و٢٣٣ دون أن ينسبه للحسن.

٨

(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

● **سورة** القيامة مكية ، وهي تعالج موضوع « البعث والجزاء » الذي هو احد اركان الإيمان ، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها . وعن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ، ولذلك سميت سورة القيامة .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ، على أن البعث حقٌ لا ريب فيه ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ .

● **ثم ذكرت** طرفاً من علامات ذلك اليوم المهول ، الذي يُخسف فيه القمر ، ويتحير البصر ، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿ فإذا برق البصرُ . وخَسَفَ القمرُ . وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ . يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ ؟ كلا لا وَزَرَ . إلى ربكِ يومئذٍ المستقرُّ ﴾

● **وتحدثت** السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه ، فقد كان السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل ، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه ؛ فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿ لا تُحركْ به لِسَانَكَ لتعجلَ بهِ . إن علينا جمعه .

وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾

● **وذكرت** السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار ، ينظرون إلى الربّ جل وعلا ، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوهٌ يومئذٍ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ .

● **ثم تحدثت** السورة عن حال المرء وقت الاحتضار ، حيث تكون الأهوال والشدائد ، ويلقي الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كلا إذا بلغتِ التراقي . وقيل من راق ؟ وظنَّ أنه الفراق . والتفت الساقُ بالساق . إلى ربك يومئذٍ المساق . فلا صدَّق ولا صلَّى . ولكنْ كذَّب وتولَّى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى ..﴾

● **وختمت** السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سُدَى ؟ ألم يك نطفةً من منيٍ يُمنى ؟ ثم كان علقةً فخلق فسوَّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى ؟﴾ .

سورة القيامة

[٩٩١] ك. . وأخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان رسول الله [ﷺ] إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾(١) الآية.

[٩٩٢] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾(٢) قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾(٣).

[٩٩٣] ك. . وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾(٤) أشيء قاله رسول الله [ﷺ] من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله.

* * *

---

[٩٩١] (١) سورة القيامة: الآية (١٦).

[٩٢٢] (٢) سورة المدثر: الآية (٣٠).

(٣) سورة القيامة: الآية (٣٤و٣٥).

[٩٩٣] (٤) سورة القيامة: الآية (٣٤).

سورة القيامة

اربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: المفسرون ذكروا في لفظة (لاَ) في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ثلاثة أوجه: الأول: أنها صلة زائدة والمعنى: أقسم بيوم القيامة ونظيره ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[الحديد: ٢٩] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾[الأعراف: ١٢] ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩] وهذا القول عندي ضعيف من وجوه: أولها: أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه، وثانيها: أن هذا الحرف إنما يزاد في وسط الكلام لا في أوله، فإن قيل: فالكلام عليه من وجهين: الأول: لا نسلم أنها إنما تزاد في وسط الكلام، ألا ترى إلى أمرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته وهي قوله:

لاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لاَ يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرّْ[1]

الثاني: هب أن هذا الحرف لا يزاد في أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض، والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾[الحجر: ٦] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾[القلم: ٢] وإذا كان كذلك، كان أول هذه السورة جاريًا مجرى وسط الكلام، والجواب عن الأول: أن قوله لا وأبيك قسم عن النفي، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ نفي للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز، وإنما قلنا: إن قوله لا أقسم نفي للقسم، لأنه على وزان قولنا لا أقتل لا أضرب، لا أنصر، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي. والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم، والحنث بفعل القسم، فظهر أن البيت المذكور، ليس من هذا الباب وعن الثاني: أن القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض، فإما في أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز، لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفي في سائر الآيات، وذلك يقتضي انقلاب كل إثبات نفيًا وانقلاب كل نفي إثباتًا، وإنه لا يجوز، وثالثها: أن

(١) هذا البيت لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

المراد من قولنا: لا صلة أنه لغو باطل، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام، ومعلوم أن وصف كلام الله تعالى بذلك لا يجوز، القول الثاني للمفسرين في هذه الآية، ما نقل عن الحسن أنه قرأ (لَأُقْسِمُ) على أن اللام للابتداء، وأقسم خبر مبتدأ محذوف، معناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله، ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ على لا أقسم، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها، ولا أقسم بالنفس اللوامة لخساستها، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال: لأقسمن لأن العرب لا تقول: لأفعل كذا، وإنما يقولون: لأفعلن كذا، إلاأن الواحدي حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء، واعلم أن هذا الوجه أيضًا ضعيف، لأن هذه القراءة شاذة، فهب أن هذا الشاذ استمر، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحًا فيما ثبت بالتواتر، وأيضًا فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جوابًا عنه، فيصير التقدير: والله لأقسم بيوم القيامة، فيكون ذلك قسمًا على قسم، وإنه ركيك ولأنه يفضي إلى التسلسل، القول الثالث: أن لفظة لا وردت للنفي، ثم هاهنا احتمالان الأول: أنها وردت نفيًا لكلام ذكر قبل القسم، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر على ما ذكرتم، ثم قيل أقسم بيوم القيامة، وهذا أيضًا فيه إشكال، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ مع أن المراد ما ذكروه تقدح في فصاحة الكلام.

الاحتمال الثاني: أن لا هاهنا لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخر، أحدها: كأنه تعالى يقول: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه، وثانيها: كأنه تعالى يقول: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم، ثم قال بعده: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]أي كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده، وثالثها: أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم بيوم القيامة. ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق.

المسألة الثانية: ذكروا في النفس اللوامة وجوهًا: أحدها: قال ابن عباس: إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة، أما البرة فلأجل أنها لِمَ لم تزد على طاعتها، وأما الفاجرة فلأجل أنها لِمَ لم تشتغل بالتقوى، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه:

الأول: أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه.

الثاني: أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه، فلو كان ذلك موجبًا للوم لامتنع الانفكاك عنه وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول، ولا يلام على ترك تحصيله، والجواب عن الكل أن يحمل اللوم على تمني الزيادة، وحينئذ تسقط هذه الأسئلة، وثانيها: أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى.

ثالثها: أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائمًا نفسه، وأما الجاهل فإنه يكون راضيًا بما هو فيه من الأحوال الخسيسة.

ورابعها: أنها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة.

وخامسها: المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [الزمر: ٥٦].

وسادسها: أن الإنسان خلق ملولاً، فأي شيء طلبه إذا وجده مله، فحينئذ يلوم نفسه على أني لم طلبته، فلكثرة هذا العمل سمي بالنفس اللوامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩- ٢١] واعلم أن قوله لوامة، ينبئ عن التكرار والإعادة، وكذا القول في لوَّام وعذَّاب وضرَّار.

المسألة الثالثة: اعلم أن في الآية إشكالات أحدها: ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة، حتى جمع الله بينهما في القسم؟ وثانيها: المقسم عليه، هو وقوع القيامة فيصير حاصله أنه تعالى أقسم بوقوع القيامة، وثالثها: لِمَ قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقل: والقيامة، كما قال في سائر السور: والطور والذاريات والضحى؟ والجواب: عن الأول من وجوه: أحدها: أن أحوال القيامة عجيبة جدًا، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة. أعني سعادتها وشقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة، وثانيها: أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» ومن أحوالها العجيبة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ إلى قوله ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقال قائلون: القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبدًا تستحقر فعلها وجدها واجتهادها في طاعة الله، وقال آخرون: إنه تعالى أقسم بالقيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، وهذا على القراءة الشاذة التي رويناها عن الحسن، فكأنه تعالى قال: أقسم بيوم القيامة تعظيمًا لها، ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيرًا لها، لأن النفس اللوامة إما أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها، وإما أن تكون فاسقة مقصرة في العمل، وعلى التقديرين فإنها تكون مستحقرة.

وأما السؤال الثاني: فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة.

وأما السؤال الثالث: فجوابه أنه حيث أقسم قال: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ [الذاريات: ١] وأما هاهنا فإنه نفى كونه تعالى مقسمًا بهذه الأشياء، فزال السؤال، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في جواب القسم وجوهًا: أحدها: وهو قول الجمهور أنه محذوف على تقدير: ليبعثن ويدل عليه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وثانيها: قال الحسن: وقع القسم على قوله: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾، وثالثها: وهو أقرب أن هذا ليس بقسم بل هو نفي للقسم فلا يحتاج إلى الجواب، فكأنه تعالى يقول: لا أقسم بكذا وكذا على شيء، ولكني أسألك أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه.

المسألة الثانية: المشهور أن المراد من الإنسان إنسان معين، روي أن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي شَرَّ جَارَيِ السُّوءِ»[1] قال لرسول الله ﷺ: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: يريد بالإنسان هاهنا أبا جهل، وقال جمع من الأصوليين: بل المراد بالإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق.

المسألة الثالثة: قرأ قتادة: (أَلَّن تُجْمَعَ عِظَامُه) على البناء للمفعول، والمعنى أن الكافر ظن أن العظام بعد تفرقها وصيرورتها ترابًا واختلاط تلك الأجزاء بغيرها وبعدما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى في جوابه: ﴿بَلَىٰ﴾ فهذه الكلمة أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع، فكأنه قيل: بل يجمعها، وفي قوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ وجهان: الأول: وهو المشهور أنه حال من الضمير في نجمع أي نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول وهذا الوجه عندي فيه إشكال وهو أن الحال إنما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر لا على تلك الحالة تقول: رأيت زيدًا راكبًا لأنه يمكن أن ترى زيدًا غير راكب، وهاهنا كونه تعالى جامعًا للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادرًا، فكان جعله حالاً جاريًا مجرى بيان الواضحات، وإنه غير جائز، والثاني: أن تقدير الآية كنا قادرين على أن نسوي بنانه في الابتداء فوجب أن نبقي قادرين على تلك التسوية في الانتهاء، وقرئ: (قادرون) أي

(١) لم أجده.

ونحن قادرون، وفي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ وجوه: أحدها: أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء، أي نقدر على أن نسوي بنانه بعد صيرورته ترابًا كما كان، وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضًا عليه في الإعادة وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه، فكأنه قيل: نقدر على ضم سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت، فكيف القول في كبار العظام، وثانيها: بلى قادرين على أن نسوي بنانه أي نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كخف البعير، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللطيفة التي يستعان عليها بالأصابع، والقول الأول أقرب إلى الصواب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

اعلم أن قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ [القيامة: ٣] فيجوز فيه أن يكون أيضًا استفهامًا كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر، ويجوز أن يكون إيجابًا كأنه استفهم أولاً ثم أتى بهذا الإخبار ثانيًا. وقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ فيه قولان: الأول: أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وعن سعيد بن جبير: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، يقول: سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله، القول الثاني: ليفجر أمامه، أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب، لأن من كذب حقًّا كان كاذبًا وفاجرًا، والدليل عليه قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالمعنى يريد الإنسان ليفجر أمامه، أي ليكذب بيوم القيامة وهو أمامه، فهو يسأل أيان يوم القيامة، متى يكون ذلك تكذيبًا له.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يسأل سؤال مستنعت مستبعد لقيام الساعة، في قوله: أيان يوم القيامة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨] واعلم أن إنكار البعث تارة يتولد من الشبهة وأخرى من الشهوة، أما من الشبهة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] وتقريره أن الإنسان هو هذا البدن فإذا مات تفرقت أجزاء البدن واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء التراب وتفرقت في مشارق الأرض ومغاربها فكان تمييزها بعد ذلك عن غيرها محالاً فكان البعث محالاً، واعلم أن هذه الشبهة ساقطة من وجهين: الأول: لا نسلم أن الإنسان هو هذا البدن فلم لا يجوز أن يقال: إنه شيء مدبر لهذا البدن فإذا فسد هذا البدن بقي هو حيًّا كما كان. وحينئذ يكون الله تعالى قادرًا على أن يرده إلى أي بدن شاء وأراد، وعلى هذا القول يسقط السؤال، وفي الآية إشارة إلى هذا لأنه أقسم بالنفس اللوامة، ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن، والثاني: إن سلمنا أن الإنسان هو هذا البدن فلم قلتم: إنه بعد تفريق أجزائه لا يمكن جمعه مرة أخرى وذلك لأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالمًا بالجزء الذي هو بدن عمرو، وهو تعالى قادر على كل الممكنات

وذلك التركيب من الممكنات وإلا لما وجد أولاً، فيلزم أن يكون قادرًا على تركيبها. ومتى ثبت كونه تعالى عالمًا بجميع الجزئيات قادرًا على جميع الممكنات لا يبقى في المسألة إشكال.

وأما القسم الثاني: وهو إنكار من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية فيكون أبدًا منكرًا لذلك قائلاً على سبيل الهزؤ والسخرية أيان يوم القيامة.

ثم إنه تعالى ذكر علامات القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة في هذا الموضع أمورًا ثلاثة أولها: قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرئ بكسر الراء وفتحها، قال الأخفش: المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضًا، قال الزجاج: بَرِق بصره بكسر الراء يَبْرُق برقًا إذا تحير، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، كما قالوا: قَمِر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر، ثم استعير في الحيرة، وكذلك بَعِل الرجل في أمره، أي تحير ودهش، وأصله من قولهم: بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها، فنظرت إليه وتحيرت، وأما بَرَق بفتح الراء، فهو من البريق، أي لمع من شدة شخوصه، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح، يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذه الحالة متى تحصل؟ فقيل: عند الموت، وقيل: عند البعث وقيل: عند رؤية جهنم، فمن قال: إن هذا يكون عند الموت، قال: إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت والملائكة، كما يوجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته، ومن مال إلى هذا التأويل، قال: إنهم إنما سألوه عن يوم القيامة، لكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت، والسبب فيه من وجهين: الأول: أن المنكر لما قال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦] على سبيل الاستهزاء فقيل له: إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك، وتيقن حينئذ أن الذي كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ، الثاني: أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلاً، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة، قال: لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه وآثاره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[إبراهيم: ٤١]، وثانيها: قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله إذا

خسف في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]

المسألة الثانية: قرئ: (وَخُسِفَ الْقَمَرُ) على البناء للمفعول، وثالثها: قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في كيفية الجمع وجوهًا أحدها: أنه تعالى قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] فإذا جاء وقت القيامة أدرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا، وثانيها: جمعا في ذهاب الضوء، فهو كما يقال: الشافعي يجمع ما بين كذا وكذا في حكم كذا، وثالثها: يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار، وقيل: يجمعان ثم يقذفان في البحر، فهناك نار الله الكبرى، واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها في قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ إنما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة، فأما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوء البصر عند الموت، يقال عين خاسفة، إذا فقئت حتى غابت حدقتها في الرأس، وأصلها من خسفت الأرض إذا ساخت بما عليها، وقوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كناية عن ذهاب الروح إلى عالم الآخرة، كأن الآخرة كالشمس، فإنه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات، والروح كالقمر فإنه كما أن القمر يقبل النور من الشمس، فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة، ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها.

المسألة الثانية: قال الفراء: إنما قال جمع، ولم يقل: جمعت لأن المراد أنه جمع بينهما في زوال النور وذهاب الضوء، وقال الكسائي: المعنى جمع النوران أو الضياءان، وقال أبو عبيدة: القمر شارك الشمس في الجمع، وهو مذكر، فلا جرم غلب جانب التذكير في اللفظ، قال الفراء: قلت: لمن نصر هذا القول: كيف تقولون: الشمس جمع والقمر؟ فقالوا: جمعت، فقلت ما الفرق بين الموضعين؟ فرجع عن هذا القول.

المسألة الثالثة: طعنت الملاحدة في الآية، وقالوا: خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر والجواب: الله تعالى قادر على أن يجعل القمر منخسفًا، سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس، أو لم تكن، والدليل عليه أن الأجسام متماثلة، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر، والله قادر على كل الممكنات، فوجب أن يقدر على إزالة الضوء عن القمر في جميع الأحوال.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقول هذا الإنسان المنكر للقيامة إذا عاين هذه الأحوال أين المفر، والقراءة المشهورة بفتح الفاء، وقرئ أيضًا بكسر الفاء، والمَفَر بفتح الفاء هو الفرار، قال الأخفش والزجاج: المصدر من فَعِل يَفْعَل مفتوح العين. وهو قول جمهور أهل اللغة، والمعنى أين الفرار، وقول القائل: أين الفرار يحتمل معنيين: أحدهما: أنه لا يرى

علامات مكنة الفرار فيقول حينئذ: أين الفرار، كما إذا أيس من وجدان زيد يقول: أين زيد والثاني: أن يكون المعنى إلى أين الفرار، وأما المَفِر بكسر الفاء فهو الموضع، فزعم بعض أهل اللغة أن المفر بفتح الفاء كما يكون اسمًا للمصدر، فقد يكون أيضًا اسمًا للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسمًا للموضع، فقد يكون مصدرًا ونظيره المَرجِع.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع عن طلب المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ قال المبرد والزجاج: أصل الوزر الجبل المنيع، ثم يقال: لكل ما التجأت إليه وتحصنت به وزر، وأنشد المبرد قول كعب بن مالك:

النَّاسُ آلَتْ عَلَيْنَا فِيكَ لَيْسَ لَنَا ... إِلاَّ السُّيُوفَ وَأَطْرَافَ الْقَنَا وَزَرُ(١)

ومعنى الآية أنه لا شيء يعتصم به من أمر الله.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار، بمعنى أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره، وينصبوا إلى غيره، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] الثاني: أن يكون المعنى إلى ربك مستقرهم، أي موضع قرارهم من جنة أو نار، أي مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمل عمله، وبما أخر من عمل لم يعمله، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة، فعمل بها بعده، وعن مجاهد أنه مفسر بأول العمل وآخره، ونظيره قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] واعلم أن الأظهر أن هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند العرض، والمحاسبة ووزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت وذلك أنه إذا مات بين له مقعده من الجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ اعلم أنه تعالى لما قال: ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله، قال: بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غيره، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلاً لتلك الأفعال، مقدمًا عليها، ثم في قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وجهان: الأول: قال الأخفش جعله في نفسه بصيرة كما يقال: فلان جود وكرم، فهاهنا أيضًا كذلك، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله

---

(١) كعب بن مالك وهوكعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي. ؟- ٥٠هـ/ ؟ ٦٧٠م صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة واشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع.

ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، لكنه بعقله السليم يعلم أن الذي هو عليه في ظاهره جيد أو رديء، والثاني: أن المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[النور: ٢٤] وقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾[يس: ٦٥] وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾[فصلت: ٢٠] فأما تأنيث البصيرة، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح كأنه قيل: بل جوارح الإنسان، كأنه قيل بل جوارح الإنسان على نفس الإنسان بصيرة، وقال أبو عبيدة: هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله: رجل راوية وطاغية وعلامة.

واعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الإنسان يخبر يوم القيامة بأعماله. ثم ذكر في هذه الآية أنه شاهد على نفسه بما عمل، فقال الواحدي: هذا يكون من الكفار فإنهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾

للمفسرين فيه أقوال: الأول: قال الواحدي: المعاذير: جمع معذرة يقال: معذرة ومعاذر ومعاذير: قال صاحب (الكشاف) جمع المعذرة مَعَاذر والمعاذير ليس جمع معذرة، وإنما هو اسم جمع لها، ونحوه المناكير في المنكر، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه، القول الثاني: قال الضحاك والسدي والفراء والمبرد والزجاج: المعاذير الستور واحدها معذار، قال المبرد: هي لغة يمانية، قال صاحب (الكشاف): إن صحت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث إن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب، والمعنى على هذا القول: أنه وإن أسبل الستر ليخفي ما يعمل، فإن نفسه شاهدة عليه.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غُيِّر وبُدِّل وزيد فيه ونقص عنه، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك.

واعلم أن في بيان المناسبة وجوهًا: أولها: يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه، إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه، فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: لا تحرك به لسانك لتعجل به وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئًا، فأخذ التلميذ يلتفت يمينًا وشمالاً، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يمينًا

وشمالاً ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب، وثانيها: أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة، وذلك هو قوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥]ثم بيَّن أن التعجيل مذموم مطلقًا حتى التعجيل في أمور الدين فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وقال في آخر الآية: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فهاهنا كان الرسول ﷺ يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان، فكأنه قيل له: إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ورابعها: كأنه تعالى قال: يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا فإن الإنسان على نفسه بصيرة وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان، وإنكار البعث منكر باطل، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة، فلا جرم قال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، وخامسها: أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول: أين المفر، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢]فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره، فقيل لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن، تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله، فاترك هذه الطريقة، واستعن في هذا الأمر بالله فكأنه قيل: إن الكافر يفر من الله إلى غيره، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين في كل الأمور بالله، حتى يحصل لك المقصود على ما قال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]وقال في سورة أخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]أي لا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى، وسادسها: ما ذكره القفال وهو أن قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ليس خطابًا مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له: لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل، وفيه أشد الوعيد في الدنيا وأشد التهويل في الآخرة، ثم قال القفال: فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به.

المسألة الثانية: احتج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية، فقال: إن ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وإن كان لا بإذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه، الجواب: لعل ذلك الاستعجال كان مأذونًا فيه إلى وقت النهي عنه، ولا يبعد أن يكون الشيء مأذونًا فيه في وقت ثم يصير منهيًّا عنه في وقت آخر، ولهذا السبب قلنا: يجوز النسخ.

المسألة الثالثة: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ، فأنزل تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ أي بالوحي والتنزيل والقرآن، وإنما جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ونظير قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وقوله: ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لتعجل بأخذه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾

ففيه مسائل

المسألة الأولى: كلمة على للوجوب فقوله: إن علينا يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى، أما على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد، وأما على قول المعتزلة: فلأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحي محفوظًا مبرأ عن النسيان، فكان ذلك واجبًا نظرًا إلى الحكمة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ معناه علينا جمعه في صدرك وحفظك، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن المراد من القرآن القراءة، وعلى هذا التقدير ففيه احتمالان أحدهما: أن يكون المراد جبريل عليه السلام، سيعيده عليك حتى تحفظه، والثاني: أن يكون المراد إنا سنقرئك يا محمد إلى أن تصير بحيث لا تنساه، وهو المراد من قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] فعلى هذا الوجه الأول القارئ جبريل عليه السلام، وعلى الوجه الثاني القارئ محمد ﷺ، والوجه الثاني: أن يكون المراد من القرآن الجمع والتأليف، من قولهم: ما قرأت الناقة سلًا قط، أي ما جمعت، وبنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنينًا، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء، فإن قيل: فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحدًا فيلزم التكرار، قلنا: يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه في نفسه ووجوده الخارجي، ومن القرآن جمعه في ذهنه وحفظه، وحينئذ يندفع التكرار.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام، ونظيره في حق محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: معناه فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه، وفيه وجهان: الأول: قال قتادة: فاتبع حلاله وحرامه، والثاني: فاتبع قراءته، أي لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل، لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة، فإذا سكت جبريل فخذ أنت في القراءة، وهذا الوجه أولى لأنه عليه السلام أمر أن يدع القراءة ويستمع من جبريل عليه السلام، حتى إذا فرغ جبريل قرأه، وليس هذا موضع الأمر باتباع ما فيه من الحلال والحرام. قال ابن عباس: فكان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع فإذا ذهب قرأه[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: الآية تدل على أنه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام وكان يسأل في أثناء قراءته مشكلاته ومعانيه لغاية حرصه على العلم، فنهى النبي عليه السلام عن الأمرين جميعًا، أما عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] وأما عن إلقاء الأسئلة في البيان فبقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

المسألة الثانية: احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية. وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين: الأول: أن ظاهر الآية يقتضي وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وأنتم لا تقولون به، الثاني: أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعارًا بأنه ليس المراد من اللفظ ما يقتضيه ظاهره، فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي، وذكر القفال وجهًا ثالثًا وهو أن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٣ - ١٧] والجواب عن الأول: أن اللفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان، وعندنا الأمر كذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة، وعن الثاني: أن كلمة (ثم) دخلت مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل، وأما سؤال القفال فضعيف أيضًا لأنه ترك للظاهر من غير دليل.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى، أما عندنا فبالوعد والتفضل. وأما عند المعتزلة فبالحكمة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿كَلَّا﴾ ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة وحث على الأناة والتؤدة، وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا

(١) لم أجده.

بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الأخرة، وقال سائر المفسرين: ﴿كَلَّا﴾ معناه حقًّا أي حقًّا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها ويتركون الآخرة ويعرضون عنها.

المسألة الثانية: قرئ: تحبون وتذرون بالتاء والياء، وفيه وجهان: الأول: قال الفراء: القرآن إذا نزل تعريفًا لحال قوم، فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم. وتارة ينزل على سبيل المغايبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]الثاني: قال أبو علي الفارسي: الياء على ما تقدم من ذكر الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣]والمراد منه الكثرة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]والمعنى أنهم يحبون ويذرون، والتاء على قل لهم، بل تحبون وتذرون.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال الليث: نَضُر اللون والشجر والورق يَنضُرُ نَضْرةً، والنَّضْرَة النعمة، والناضر الناعم، والنَّضِر الحسن من كل شيء، ومنه يقال للون إذا كان مشرقًا: ناضر، فيقال: أخضر ناضر، وكذلك في جميع الألوان، ومعناه الذي يكون له برق، وكذلك يقال: شجر ناضر، وروض ناضر. ومنه قوله عليه السلام: «نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها» الحديث. أكثر الرواة رواه بالتخفيف، وروى عكرمة عن الأصمعي فيه التشديد، وألفاظ المفسرين مختلفة في تفسير الناضر، ومعناها واحد قالوا: مسرورة، ناعمة، مضيئة، مسفرة، مشرقة بهجة. وقال الزجاج: نضرت بنعيم الجنة، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فلهم هاهنا مقامان أحدهما: بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى، والثاني: بيان التأويل.

أما المقام الأول: فقالوا: النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرؤية، بل لمقدمة الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة، والإصغاء مقدمة للسماع، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية، قالوا: والذي يدل على أن النظر ليس اسمًا للرؤية وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية، والثاني: أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه نظرًا شزرًا، ونظر غضبان، ونظر راضٍ، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيءمن ذلك، فلا يقال: رآه شزرًا، ورآه رؤية غضبان،

أو رؤية راضٍ الثالث: يقال: انظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية، الرابع: يقال: دُورُ فلان متناظرة، أي متقابلة، فمسمى النظر حاصل هاهنا، ومسمى الرؤية غير حاصل الخامس: قوله الشاعر:

وُجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَدْرٍ ... إِلَى الرَّحْمَنِ تَنْتَظِرُ الْخَلَاصَا

أثبت النظر المقرون بحرف (إلى) مع أن الرؤية ما كانت حاصلة، السادس: احتج أبو علي الفارسي على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية، التي هي إدراك البصر، بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته، لقول الشاعر:

فَيَا مَيُّ هَلْ يُجْزِي بكائي بمثله ... مرارًا وأنفاسي إليك الزوافر(١)

وَإِنِّي مَتَّى أُشْرِفْ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي ... بِهِ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ الْجَوَانِبِ نَاظِرَا

قال: فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب، فإن ذلك من أعظم مطالبه، قال: ويدل على ذلك أيضًا قول الآخر:

وَنَظْرَةُ ذِي شَجَنٍ وَامِقٍ ... إِذَا مَا الرَّكَائِبُ جَاوَزْنَ مِيلًا(٢)

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب، فعلمنا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرؤية، السابع: أن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ معناه أنها تنظر إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٢]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[القيامة: ٣٠]، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى: ٥٣]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف: ٨٥]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران: ٢٨]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى: ١٠]، كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية، الثامن: قال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران: ٧٧] ولو قال: لا يراهم كفى، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجوه، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية.

المقام الثاني: في بيان التأويل المفصل، وهو من وجهين: الأول: أن يكون الناظر بمعنى

---

(١) هذا البيت لذي الرمة وتقدمت ترجمته.

(٢) هذا البيت للشاعر بشامة بن الغدير العُذري أبو بشامة بن عمرو بن معاوية بن الغدير بن هلال المري. ? - ١٤ ق. هـ/ ? -٦٠٨ م من شعراء المفضليات أورد الخطيب التبريزي نسبته هذين الوجهين، والأول عن أبي عكرمة وسماه الجمحي بشامة ابن الغدير المري. وعده من الإسلاميين، مع أن المشهور كما في السمط أنه خال زهير أو أبي زهير وفيه النص على أنه جاهلي (نهشلي) وكان كثير المال حتى فقأ عين بعير ومن عادتهم إذا ملك الرجل ألف بعير فقأ عين فحلها.

المنتظر، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله، وهو كقول القائل: إنما أنظر إلى فلان في حاجتي والمراد أنتظر نجاحها من جهته، وقال تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[النمل: ٣٥] وقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة: ٢٨٠] لا يقال: النظر المقرون بحرف إلى غير مستعمل في معنى الانتظار، ولأن الانتظار غم وألم، وهو لا يليق بأهل السعادة يوم القيامة، لأنا نقول: الجواب: عن الأول من وجهين: الأول: النظر المقرون بحرف (إلى) قد يستعمل بمعنى الانتظار، والتوقع والدليل عليه أنه يقال: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، والمراد منه التوقع والرجاء، وقال الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا

وتحقيق الكلام فيه أن قولهم في الانتظار نظرت بغير صلة، فإنما ذلك في الانتظار لمجيء الإنسان بنفسه، فأما إذا كان منتظرًا لرفده ومعونته، فقد يقال فيه: نظرت إليه كقول الرجل، وإنما نظري إلى الله ثم إليك، وقد يقول ذلك من لا يبصر، ويقول الأعمى في مثل هذا المعنى: عيني شاخصة إليك، ثم إن سلمنا ذلك لكن لا نسلم أن المراد من ﴿إِلَىٰ﴾ هاهنا حرف التعدي. بل هو واحد الآلاء، والمعنى: وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة.

وأما السؤال الثاني: وهو أن الانتظار غم وألم، فجوابه أن المنتظر إذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول إليه، فإنه يكون في أعظم اللذات.

التأويل الثاني: أن يضمر المضاف، والمعنى إلى ثواب ربها ناظرة، قالوا: وإنما صرنا إلى هذا التأويل، لأنه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على أنه تعالى تمتنع رؤيته وجب المصير إلى التأويل، ولقائل أن يقول: فهذه الآية تدل أيضًا على أن النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة، لأنه تعالى قال: لا ينظر إليهم وليس المراد أنه تعالى يقلب الحدقة إلى جهنم فإن قلتم: المراد أنه لا ينظر إليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه.

التأويل الثالث: أن يكون معنى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه، الجواب: قوله: ليس النظر عبارة عن الرؤية، قلنا: هاهنا مقامان: **الأول:** أن تقيم الدلالة على أن النظر هو الرؤية من وجهين: **الأول:** ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكانًا وذلك محال. **الثاني:** أنه جعل النظر أمرًا مرتبًا على الإرادة فيكون النظر متأخرًا عن الإرادة، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي.

المقام الثاني: وهو الأقرب إلى الصواب، سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي

التماسًا لرؤيته، لكنا نقول: لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية، إطلاقًا لاسم السبب على المسبب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار.

أما قوله: النظر جاء بمعنى الانتظار، قلنا: لنا في الجواب مقامان:

الأول: أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن، ولكنه لم يقرن ألبتة بحرف (إلى) كقوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف (إلى) المعدى إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعًا للاشتراك.

وأما قول الشاعر:

وُجُـوهٌ نَـاظِـرَاتٌ يَـوْمَ بَـدْرٍ ... إِلَـى الرَّحْـمَـنِ تَـنْـتَـظِـرُ الْـخَـلَاصَـا

قلنا: هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة:

وُجُـوهٌ نَـاظِـرَاتٌ يَـوْمَ بَـكْـرٍ ... إِلَـى الرَّحْـمَـنِ تَـنْـتَـظِـرُ الْـخَـلَاصَـا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء، وأما قول الشاعر:

وَإِذَا نَـظَـرْتُ إِلَـيْـكَ مِـنْ مَـلِـكٍ

فالجواب: أن قوله: وإذا نظرت إليك، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطية بل المراد من قوله: وإذا نظرت إليك، وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به، وقوله: كلمة (إلى) هاهنا ليس المراد منه حرف التعدي بل واحد الآلاء، قلنا: إن إلى على هذا القول تكون اسمًا للماهية التي يصدق عليه أنها نعمة، فعلى هذا يكفي في تحقق مسمى هذه اللفظة أي جزء فرض من أجزاء النعمة، وإن كان في غاية القلة والحقارة، وأهل الثواب يكونون في جميع مواقف القيامة في النعم العظيمة المتكاملة، ومن كان حاله كذلك كيف يمكن أن يبشر بأنه يكون في توقع الشيء الذي ينطلق عليه اسم النعمة، ومثال هذا أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حالك في العظمة والقوة بعد سنة، بحيث تكون متوقعًا لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء، وكما أن ذلك فاسد من القول: فكذا هذا.

المقام الثاني: هب أن النظر المعدى بحرف (إلى) المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا، فلا بد وأن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معرض الترغيب في

الآخرة، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من التأويل.

وأما التأويل الثاني: وهو أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة، فهذا ترك للظاهر، وقوله: إنما صرنا إليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على أن الله لا يرى، قلنا: بينا في الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه، فلا حاجة هاهنا إلى ذكرها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

الباسر: الشديد العبوس والباسل أشد منه، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه، والمعنى أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار، وقد تقدم تفسير البسور عند قوله: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ٢٢] وإنما كانت بهذه الصفة، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل، وهو قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ والظن هاهنا بمعنى اليقين، هكذا قاله المفسرون، وعندي أن الظن إنما ذكر هاهنا على سبيل التهكم كأنه قيل: إذا شاهدوا تلك الأحوال، حصل فيهم ظن أن القيامة حق، وأما الفاقرة، فقال أبو عبيدة: الفاقرة الداهية، وهو اسم للوسم الذي يفقر به على الأنف، قال الأصمعي: الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم، أو قريب منه، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها، ومنه قيل: عملت به الفاقرة، قال المبرد: الفاقرة داهية تكسر الظهر، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر، وقال ابن قتيبة: يقال فقرت الرجل، كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور، واعلم أن من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب في النار، وفسرها الكلبي فقال: الفاقرة هي أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ قال الزجاج: كلا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة، وعلمتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين، وقال آخرون: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقًّا إذا بلغت التراقي كان كذا وكذا، والمقصود أنه لما بين تعظيم أحوال الآخرة بين أن الدنيا لا بد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول إلى تجرع مرارة الموت. وقال مقاتل: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا يؤمن الكافر بما ذكر من أمر القيامة، ولكنه لا يمكنه أن يدفع أنه لا بد من الموت، ومن تجرع آلامها، وتحمل آفاتها.

ثم إنه تعالى وصف تلك الحالة التي تفارق الروح فيها الجسد فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد إذا بلغت النفس أو الروح، أخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب

بذلك، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] والتراقي جمع ترقوة. وهي عظم وصل بين ثغرة النحر، والعاتق من الجانبين.

واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول دريد بن الصمة:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهَا ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي(١)

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

المسألة الثانية: قال بعض الطاعنين: إن النفس إنما تصل إلى التراقي بعد مفارقتها عن القلب ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لا محالة، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقي، تبقى الحياة حتى يقال فيه: من راق، وحتى تلتف الساق بالساق والجواب: المراد من قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي إذا حصل القرب من تلك الحالة.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾: وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في راق وجهان: الأول: أن يكون من الرقية يقال: رقاه يرقيه رقية إذا عوذه بما يشفيه، كما يقال: بسم الله أرقيك، وقائل هذا القول على هذا الوجه، هم الذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت، ثم هذا الاستفهام، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيبًا يشفيه، وراقيًا يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، كما يقول القائل عند اليأس: من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت، الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ من رَقَى يرقى رقيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: ٩٣] وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة. قال ابن عباس: إن الملائكة يكرهون القرب من الكافر، فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر، وقال الكلبي: يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض، أيهم يرقى بروحه إلى السماء فهو ﴿مَنْ رَاقٍ﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: إن إظهار النون عند حروف الفم لحسن، فلا يجوز إظهار نون من في قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ وروى حفص عن عاصم إظهار النون في قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ و﴿بَلْ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال أبو علي الفارسي، ولا أعرف وجه ذلك، قال الواحدي، والوجه أن يقال: قصد الوقف على (من) و(بل)، فأظهرها ثم ابتدأ بما بعدهما، وهذا غير مرضي من القراءة.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ قال المفسرون: المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا، ولعله إنما سمي

---

(١) هذا البيت لعمرة بنت دريد بن العمة وهو من البحر الوافر وعمرة هي عمرة بنت دريد بن الصمة شاعرة مخضرمة. لها شعر في رثاء والدها دريد بن الصمة، قتل أبوها في غزوة حنين وهو على الكفر في السنة الثامنة للهجرة.

اليقين هاهنا بالظن، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقًا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم.

واعلم أن الآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموت فراقًا، والفرق إنما يكون لو كانت الروح باقية، فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الالتفاف هو الاجتماع، كقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وفي الساق قولان: القول الأول: أنه الأمر الشديد، قال أهل المعاني: لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه، فقيل للأمر الشديد: ساق، وتقول العرب: قامت الحرب على ساق، أي اشتدت، قال الجعدي:

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

ثم قال: والمراد بقوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب، أو التفت شدة ترك الأهل، وترك الولد، وترك المال، وترك الجاه، وشدة شماتة الأعداء، وغم الأولياء، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله، أو التفت شدة ترك الأحباب والأولياء، وشدة الذهاب إلى دار الغربة، والقول الثاني: أن المراد من الساق هذا العضو المخصوص، ثم ذكروا على هذا القول وجوهًا أحدها: قال الشعبي وقتادة: هما ساقاه عند الموت أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى، والثاني: قال الحسن وسعيد بن المسيب: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن، والثالث: أنه إذا مات يبست ساقاه، والتصقت إحداهما بالأخرى.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣﴾

المساق مصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول، ثم فيه وجهان أحدهما: أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب، والثاني: أن يكون المراد أن السائق في ذلك اليوم هو الرب، أي سوق هؤلاء مفوض إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾.

وفيه مسائل

المسألة الأولى: أنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه، وفيما يتعلق بدنياه. أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين، ولكنه كذب به، وأما ما يتعلق بفروع

الدين، فهو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض، وأما ما يتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى، ويتبختر، ويختال في مشيته، واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ حكاية عمن؟ فيه قولان: الأول: أنه كناية عن الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]ألا ترى إلى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]وهو معطوف على قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]والقول الثاني: أن الآية نزلت في أبي جهل.

المسألة الثالثة: في ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ قولان: أحدهما: أن أصله يتمطط أي يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، فقلبت الطاء فيه ياء، كما قيل: في تقصى أصله تقصص، والثاني: من المطا وهو الظهر لأنه يلويه، وفي الحديث: «**إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَى**» أي مشية المتبختر.

المسألة الرابعة: قال أهل العربية: ﴿لَا﴾ هاهنا في موضع (لم) فقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدق ولم يصل، وهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]أي لم يقتحم، وكذلك ما روي في الحديث: «**أرأيت من لا أكل ولا شرب، ولا استهل**» قال الكسائي: لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحًا أو مقدرًا، أما المصرح فلا يقولون: لا عبدالله خارج حتى يقولون، ولا فلان، ولا يقولون: مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا، ولا يَجْمُل، وأما المقدر فهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ ثم اعترض الكلام، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ [البلد: ١٢-١٤]وكان التقدير لا فك رقبة، ولا أطعم مسكينًا، فاكتفى به مرة واحدة، ومنهم من قال التقدير في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي أفلا اقتحم، وهلا اقتحم.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾:

قال قتادة والكلبي ومقاتل: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل. ثم قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ توعده، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، وإني لأعز أهل هذا الوادي، ثم انسل ذاهبًا، فأنزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعنى قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى ويل لك، وهو دعاء عليه، بأن يليه ما يكرهه، قال القاضي: المعنى بعد ذلك، فبعدًا (لك) في أمر دنياك، وبعدًا لك، في أمر أخراك، وقال آخرون: المعنى الويل لك مرة بعد ذلك، وقال القفال: هذا يحتمل وجوهًا أحدها: أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين والثاني: أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه، فأنزل الله تعالى مثل ذلك، والثالث: أن يكون ذلك أمرًا من الله لنبيه، بأن يقولها لعدو الله، فيكون المعنى ﴿ثُمَّ

﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣] فقل له: يا محمد: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي احذر، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة، والسدى في اللغة المهمل يقال: أسديت إبلي إسداء أهملتها.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] أعاد في آخر السورة ذلك، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين: الأول: قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] ونظيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

الدليل الثاني: على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: النطفة هي الماء القليل وجمعها نطاف ونطف، يقول: ألم يك ماء قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة؟ وقوله: ﴿مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي يصب في الرحم، وذكرنا الكلام في يمنى عند قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] فإن قيل: ما الفائدة في يمنى في قوله: ﴿مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾؟ قلنا: فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى، على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجة.

المسألة الثانية: في يمنى في هذه السورة قراءتان التاء والياء، فالتاء للنطفة، على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المني، والياء للمني من مني يمنى، أي يقدر خلق الإنسان منه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي الإنسان كان علقة بعد النطفة.

أما قوله تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ففيه وجهان: الأول: فخلق فقدر فسوى فعدَّل، الثاني: فخلق، أي فنفخ فيه الروح، فسوى فكمل أعضاءه، وهو قول ابن عباس ومقاتل.

ثم قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان ﴿ ٱلزَّوْجَيْنِ ﴾ يعني الصنفين.

ثم فسرهما فقال: ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ والمعنى أليس ذلك الذي أنشأ هذه الأشياء بقادر على الإعادة، روي أنه ﷺ كان إذا قرأها قال: «سُبْحَانَكَ بَلَى» [1] والحمد لله رب العالمين. وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (مقدار الركوع والسجود) (١/ ٣٩٢) حديث رقم (٨٨٧) والترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة التين) (٥/ ٤١٣) حديث رقم (٣٣٤٧) وقال الترمذي فيه (هذا حديث حسن) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٩) جميعا من طريق سفيان... به وضعفه الألباني وقال في (المشكاة) إسناده ضعيف لم يسم (١/ ٢٧٢) ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٧٧) حديث رقم (٢١٠٠).

سورة القيامة

مَكِّيَّةٌ، وهي تسع وثلاثون آية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: إن «لا» صلة، وجاز وقوعها في أوَّل السورة؛ لأن القرآن متصلٌ بعضُه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يُذكَر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وجوابُه في سورة أخرى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[2] [القلم: ٢]. ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة. قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة[3]. ومثلُه قول الشاعر:

تذكَّرتُ ليلَى فاعترتني صَبابةٌ ... فكاد صميمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ[4]

وحكى أبو الليث السَّمرقنديُّ[5]: أجمع المفسرون أن معنى «لَا أُقْسِمُ»: أقسم. واختلفوا في تفسير «لا» قال بعضهم: «لا» زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٩ ، وذكر غيره أنها أربعون آية.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧ ، وأخرج قول ابن جبير الطبري ٢٣/ ٤٦٦ ، وأورد قول ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٠ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٥٠ ، وفيه: ضمير، بدل: صميم - وقوله: صبابة، أي: شوق. القاموس (صبب).

(٥) في تفسيره ٣/ ٤٢٥ .

العرب زيادةُ «لا»، كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني أن تسجد. وقال بعضهم: «لا» ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفرَّاء؛ قال الفرَّاء[١]: وكثير من النَّحْويين يقولون: «لا» صِلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يُعرف خبرٌ فيه جحدٌ مِن خبر لا جحدَ فيه، ولكنَّ القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردِّ عليهم، وذلك كقولهم: لا والله لا أفعل، فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحقٌّ، كأنك أكذبت قومًا أنكروه.
وأنشد غير الفرَّاء لامرئ القيس:

فـلا وأبـيـكِ ابـنـةَ الـعـامِـريِّ لا يَـدَّعـي الـقـومُ أنّـي أفِـرّ[٢]

وقال غُوَيَّة بن سُلْميّ:

ألا نـادتْ أمـامـةُ بـاحـتـمـال لِـتَـحـزُنَـنـي فـلا بِـكِ مـا أبـالـي[٣]

وفائدتها توكيد القسم في الردّ. قال الفرّاء: وكانَ من لا يعرف هذه الجهة يقرأ: «لَأقسِمُ» بغير ألف، كأنها لامُ تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لَأقسم بالله[٤] وهي قراءة الحسن وابنِ كثير والزُّهريِّ وابن هُرْمز[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٧.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٥٤.

(٣) أورده المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ١٠٠١، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٩. ومعنى البيت كما في شرح ديوان الحماسة: يقول الشاعر: أظهرت هذه المرأة من نفسها ارتحالاً عني لتجلب عليَّ حزناً وغماً، ونادت بالفراق وكثرته على ألسنة الناس. ثم انصرف عن الإخبار عنها وأقبل عليها يخاطبها فقال: لا بِكِ ما أبالي. اهـ. وغُوَيَّة - ويقال: عُويَّة، بالعين - هو ابن سُلْميّ بن ربيعة بن ذَبَّان ابن عامر بن ثعلبة الضبي، من بني ثعلبة بن ذؤيب، جاهلي. معجم الشعراء للمرزباني ص ١٧٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٧.

(٥) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٦٦١، والتيسير ص ٢١٦، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٣٤١، وقراءة ابن هرمز وهو الأعرج في تفسير الطبري ٢٣/ ٤٦٥، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٧٧.

﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: بيوم يقوم الناس فيه لربِّهم، ولله عز وجل أن يُقسم بما شاء.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيمًا لشأنه. وعلى قراءة ابن كثير أقسم بالأولى ولم يُقسم بالثانية. وقيل: «ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ» ردٌّ آخرُ، وابتداءُ قسمٍ بالنفس اللوَّامة، قال الثعلبيُّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعًا[١].

ومعنى: «بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ» أي: بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفسُ المؤمن، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه[٢]. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر: لِمَ فعلته؟ وعلى الخير: لِمَ لا تستكثر منه[٣]؟ وقيل: إنها ذاتُ اللَّوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرَها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللَّوَّامة بمعنى اللائمة، وهو صفةُ مدح، وعلى هذا يجيء القسم بها سائغًا حسنًا[٤]. وفي بعض التفسير: إنه آدمُ عليه السلام لم يَزَل لائمًا لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة[٥].

وقيل: اللَّوَّامة بمعنى المَلُومة المذمومة، عن ابن عباس أيضاً[٦]. فهي صفة ذمٍّ وهو قولُ مَن نفى أن يكون قسمًا، إذ ليس للعاصي خَطَرٌ يُقْسَم به، فهي كثيرةُ اللَّوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسَّر في الآخرة على ما فرَّطَ في جنب

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ دون نسبة، واختاره ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٣/ ٤٦٨ .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٧ لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥١ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٥١ ، وزاد المسير ٨/ ٤١٦ .

الله[١]. وقال الفراء[٢]: ليس مِن نفسٍ محسنةٍ أو مسيئةٍ إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسنُ يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانًا، والمسيءُ يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فنعيدها خلقًا جديداً بعد أن صارت رُفاتًا؟[٣] قال الزجاج[٤]: أقسمَ بيوم القيامة وبالنفس اللَّوَّامة: لَيَجمعنَّ العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف، أي: لتُبْعثُنَّ، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لِلإحياء والبعث؟ والإنسانُ هنا الكافر المكذِّب بالبعث[٥].

والآيةُ نزلت في عديٍّ بن ربيعة قال للنبيِّ ﷺ: حدِّثْني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرُها وحالُها؟ فأخبره النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لَمْ أُصَدِّقك يا محمدُ ولم أؤمن بك، أوَيجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «اللهمَّ اكفني جارَيِ السُّوءِ عديَّ بنَ ربيعة، والأخنسَ بنَ شَرِيق»[٦]. وقيل: نزلت في عدوِّ الله أبي جهلٍ حين أنكر البعث بعد الموت[٧]. وذَكَر العظام والمراد نفسُه كلُّها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥١.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٥١.

(٥) في (م): للبعث.

(٦) أسباب النزول ص ٤٧٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠، وأخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٠.

(٧) نسب هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٦، والرازي في تفسيره ٣٠/ ٢١٧ لابن عباس.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١.

﴿بَلَىٰ﴾ وقفٌ حَسَنٌ ثم تبتدئ: ﴿قَٰدِرِينَ﴾[١]. قال سيبويه: على معنى: [بلى] نجمعها قادرين[٢]، فـ«قادرين» حال من الفاعل المضمَر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير. وقيل: المعنى: بلى نقِدر قادرين. قال الفراء: «قادرين» نصب على الخروج من «نَجْمَع»، أي: نقِدر ونَقْوى «قادرين» على أكثرَ من ذلك[٣]. وقال أيضاً: يصلُح نصبه على التكرير، أي: «بَلَى» فَلْيحسبْنا قادرين[٤]. وقيل: المضمر (كنا)، أي: كنا قادرين في الابتداء، وقد اعترف به المشركون. وقرأ ابن أبي عَبْلة وابنُ السَّمَيْفَع: «بَلَى قَادِرُونَ»[٥] بتأويل: نحن قادرون.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدُها بَنانة، قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِن اللَّطافة يُعْقَدُ[٦]

وقال عنترة:

وأنَّ الموتَ طَوْعُ يدي إذا ما وَصَلْتُ بَنانَها بِالْهِنْدُواني[٧]

فنبَّه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضاً فإنها أصغرُ العظام، فخصَّها بالذكر لذلك. قال القتبيُّ والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدِر على جمع العظام، فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاميَّات على صغرها، ونؤلِّفَ بينها حتى تستوي، ومَن قَدَر على هذا، فهو على جمع الكبار أقدر[٨].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٧ .

(٢) الكتاب ١/ ٣٤٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٨ .

(٤) ذكر هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٧ ولم ينسبه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٢ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٥ .

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص ٤٠ ، والعَنَم: شجر لين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان. اللسان (عنم).

(٧) ديوان عنترة ص٧٢ ، وسلف ٣/ ٩٢ .

(٨) تأويل مشكل القرآن للقتبي ص ٢٦٩ ، وذكر قول الزجاج الواحديُّ في الوسيط ٤/ ٣٩١ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٢١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٨ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥١ .

وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى «عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ»، أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحداً كَخُفِّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظِلْف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئًا، ولكنَّا فرَّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء(١).

وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تَبْسُطهنَّ، وتَقْبِضُهن(٢)، ولو شاء الله لجمعهنَّ؛ فلم تَتَّقِ الأرض إلا بكفيك(٣).

وقيل: أي: نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١].

قلت: والتأويل الأوَّل أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال ابن عباس: يعني الكافرَ يكذِّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد(٤)؛ ودليله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يسأل متى يكون؟! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم(٥) لِمَا بين يديه. ومما يدلُّ على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبيُّ وغيرُه: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب ﷺ وشكا إليه نَقْب إبله ودَبَرها(٦)، وسَأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله، فقال الأعرابيّ:

أَقْسَمَ باللهِ أبو حفصٍ عُمَرْ   ما مَسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَرْ
فاغفِر له اللَّهمَّ إن كان فَجَرْ

---

(١) أخرج قول ابن عباس عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٣، والطبري ٢٣/ ٤٧١، وينظر النكت والعيون ٦/ ١٥٢، والوسيط ٤/ ٣٩١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠، وزاد المسير ٨/ ٤١٧.

(٢) في (ظ): وتقبض بهن، وفي (م): وتقبضهن بهن.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٢، وفيه: فأنقيت الأرض بفيك، بدل: فلم تتق الأرض إلا بكفيك.

(٤) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٤٧٧.

(٥) في (د): يأتمر.

(٦) النَّقْب: قرحةٌ تخرج في الجنب، والجربُ. والدَّبَر: قرحة الدابة. القاموس (نقب) و(دبر).

يعني إن كان كذَّبني فيما ذكرت[١]. وعن ابن عباس أيضًا: يعجِّل المعصية ويسوِّف التوبة[٢]. وفي بعض الحديث قال: يقول: سوف أتوب ولا يتوب، فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسنِ وعِكرِمَة والسُّدِّيِّ وسعيدِ بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيَه الموت على أشرِّ أحواله[٣]. وقال الضحاك: هو الأمل يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت[٤]. وقيل: أي يعزِم على المعصية أبدًا وإن كان لا يعيش إلا مدَّة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان.

وقيل: الهاء ليوم القيامة، والمعنى: بل يريد الإنسان ليكفر بالحقِّ بين يدي يوم القيامة[٥]. والفجورُ: أصلُه الميلُ عن الحقِّ.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يومُ القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم: «بَرَقَ» بفتح الراء[٦]، معناه: لَمَعَ بصره من شدَّة شخوصه، فتراه لا يَطْرِف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة[٧]. وقال: فيه معنى الجواب عما سأل عنه

---

(١) تأويل مشكل القرآن للقتبي ص ٢٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ - ٤٢٢، وأخرج قول سعيد بن جبير الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨، والطبري ٢٣/ ٤٧٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٦.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٧٧.

(٦) قراءة نافع في السبعة ص ٦٦١، والتيسير ص ٢١٦، ورواية أبان عن عاصم في السبعة. وقراءة عاصم المشهورة عنه: بَرِقَ، بكسر الراء.

(٧) أخرج قول مجاهد والحسن الطبري ٢٣/ ٤٨٠.

الإنسان كأنه قال[١]: يوم القيامة «إِذَا بَرقَ البَصَرُ وخَسَفَ القَمَرُ» .

والباقون بالكسر: «بَرِقَ»، ومعناه: تحيَّر فلم يَطرِف. قاله أبو عمرو والزجاج[٢] وغيرهما. قال ذو الرُّمَّة:

ولو أنَّ لُقْمَانَ الحكيمَ تَعَرَّضتْ ... لِعينيه مَيٌّ سافِرًا كاد يَبْرَقُ[٣]

الفرّاء والخليل: «بَرِقَ» بالكسر: فَزِع وبُهِت وتَحيَّر[٤]. والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد بَرِق فهو بَرِقٌ، وأنشد الفرَّاء:

فنَفْسَكَ فانْعَ ولا تَنْعَني ... ودَاوِ الكُلُومَ ولا تَبْرِقِ[٥]

أي: لا تَفزَع من كثرة الكُلُوم التي بك. وقيل: بَرِقَ يَبرَق بالفتح: شقَّ عينيه وفتَحهما. قاله أبو عبيدة[٦]، وأنشد قول الكلابيّ:

لـمَّا أتاني ابنُ عُمَيرٍ راغِبًا ... أعطيتُه عِيسًا صِهابًا فبَرَقْ[٧]

أي: فتح عينيه. وقيل: إنَّ كَسْرَ الراء وفتحَها لغتان بمعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه[٨]. والخسوفُ في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوؤه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه

---

(١) لفظة: قال، ليست في (م).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٢ ، وأخرج قول أبي عمرو الطبري ٢٣/ ٤٧٨ - ٤٧٩ بلفظ: (بَرِق) بالكسر، بمعنى: حار.

(٣) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٤٦١ ، وقوله: سافراً، قال شارح الديوان: يعني بارزة الوجه مسفرته.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩ ، وكتاب العين للخليل ٥/ ١٥٦ .

(٥) البيت لطَرَفَة وهو في ديوانه ص ٧٠ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩ .

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧ .

(٧) أورده غير أبي عبيدة ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٥٢ ولم ينسبه، والطبري ٢٣/ ٤٧٩ ونسبه للكلابي . ووقع عند أبي عبيدة والطبري: ابن صبيح، بدل: ابن عمير. ووقع أيضاً عند ابن السكيت والطبري: عيساء منها، بدل: عيساً صهاباً. والعيس الصهاب: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. القاموس (عيس)، وينظر (صهب).

(٨) الوسيط ٤/ ٣٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٢ .

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: «وَخُسِفَ القَمَرُ» بضمِّ الخاء وكسر السين؛ يدل عليه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1]. وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كلُّه فهو الخسوف.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: جُمِع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوءَ للشمس كما لا ضوءَ للقمر بعد خسوفه. قاله الفراء والزجاج[2]. قال الفراء[3]: ولم يقل: جُمِعتْ؛ لأن المعنى: جُمِع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر[4]. وقال الكسائيُّ: هو محمول على المعنى، كأنه قال: الضوءان. المبرد: التأنيث غيرُ حقيقي[5].

وقال ابن عباس وابن مسعود: جُمِع بينهما، أي: قُرِن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلِمين مُقْرَنَيْن، كأنهما ثوران عَقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة الأنعام[6]. وفي قراءة عبد الله: «وجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ»[7]. وقال عطاء بن يسار: يُجمَعُ بينهما يوم القيامة ثم يُقذفان في البحر، فيكونان نارَ الله الكبرى[8].

وقال علي وابن عباس: يُجعلان في [نور] الحُجُب[9].

---

(١) ذكر هذه القراءة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩١ ولم ينسبها، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣ ونسبها لأبي حيوة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٢.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٩.

(٤) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٧.

(٥) ينظر قول الكسائي والمبرد في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٨١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٧-٧٧٨.

(٦) ٩/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، والطبري ٢٣/ ٤٨١.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٨٢.

(٩) أورده أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٢٦ عن علي ﷺ وما بين حاصرتين منه.

وقد يُجمعان في نار جهنم[(١)]؛ لأنهما قد عُبِدا من دون الله، ولا تكون النار عذابًا لهما لأنهما جماد، وإنما يُفعَل ذلك بهما زيادةً في تبكيت الكافرين وحسرَتِهم. وفي مسند أبي داود الطيالسيِّ، عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار»[(٢)].

وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويُقرَّبان من الناس، فيلحقُهم العرق لشدَّة الحر؛ فكأن المعنى: يجمع حَرُّهما عليهم. وقيل: يُجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمَّ تعاقُب ليل ولا نهار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: يقول ابن آدم ـ ويقال: أبو جهل ـ أي: أين المهرب؟ قال الشاعر:

أيـن الـمـفـرُّ والـكِـبـاشُ تَـنـتـطِـحْ وأيُّ كَـبْـشٍ حـاد عـنـهـا يَـفْـتَـضِـحْ[(٣)]

الماورديُّ[(٤)]: ويحتمل وجهين: أحدهما: أَيْنَ المَفَرُّ من الله استحياءً منه. الثاني: أَيْنَ المَفَرُّ من جهنم حذرًا منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: أحدهما: أن يكون من الكافر خاصَّةً في عَرْصة[(٥)] القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. الثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها.

وقراءة العامة: «المَفَرُّ» بفتح الفاء واختاره أبو عبيد[(٦)] وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم[(٧)]؛ قال الكسائي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٢ .

(٢) مسند أبي داود الطيالسي (٢١٠٣) وقد رواه عن درست بن زياد، عن يزيد بن أبان الرقاشي، به. ودرست ويزيد ضعيفان، كما في تقريب التهذيب.

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٣ وفيه: أفرّ، بدل: المفرّ.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٥٣ .

(٥) في (خ) و(م): عرضة.

(٦) في (م): أبو عبيدة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٦٥ ، وفيه أن الحسن هو ابن يزيد، والمحتسب ٢/ ٣٤١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣ .

هما لغتان؛ مثل: مَدَبّ ومَدِبّ، ومَصَحّ ومَصِحّ. وعن الزُّهريِّ بكسر الميم وفتح الفاء[١]؛ المهدويّ: مَن فتح الميم والفاء من «المفرّ»؛ فهو مصدر بمعنى الفِرار، ومَن فتح الميم وكسر الفاء، فهو الموضع الذي يفرُّ إليه، ومَن كسر الميم وفتح الفاء؛ فهو الإنسان الجيِّد الفرار؛ فالمعنى: أين الإنسان الجيِّد الفِرار؟! ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول امرئ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا[٢]

يريد أنه حَسَن الكرِّ والفرِّ جَيِّدُه.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا مفرَّ، فـ «كَلَّا» ردٌّ، وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردَّ فقال: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النار. وكان ابن مسعود يقول: لا حِصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وابن عباس يقول: لا ملجأ. وابن جُبير: لا محيصَ ولا منعة[٣]. والمعنى في ذلك كلِّه واحد. والوَزَر في اللغة: ما يُلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لَعَمْرِيَ ما لِلفتى مِن وَزَرْ ... مِنَ الموتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ[٤]

قال السُّدِّيُّ: كانوا في الدنيا إذا فزِعوا، تحصَّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لَا وَزَرَ يعصمكم يومئذ منِّي[٥]، قال طَرَفة:

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنا ... فاضِلُوا الرَّأْيِ وفي الرَّوْعِ وَزَرْ[٦]

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤١، وجاء في القراءات الشاذة ص ١٦٥ أن الزهري قرأ: المَفِرّ، بكسر الفاء وفتح الميم.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٩، وهو صدر بيت، وعجزه: كجلمود صخر حطه السيل من علِ.

(٣) أخرج الأقوال السالفة عدا قول ابن جبير الطبري ٢٣/ ٤٨٤ - ٤٨٧، وقول ابن جبير في النكت والعيون ٦/ ١٥٤.

(٤) أورده أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٥٧٠، والألوسي في روح المعاني ٢٩/ ١٤٠ ولم ينسبوه، وجاء فيها: لعمرك، بدل: لعمري.

(٥) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٢.

(٦) ديوان طرفة ص٥٦، وفيه: وُقُر، بدل: وَزَرْ.

أي: ملجأ للخائف. ويُروى: وُقُرٌ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المنتهى. قاله قتادة[١]. نظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع[٢]. وقيل: أي: المستقرُّ في الآخرة حيث يُقرُّه الله تعالى، إذ هو الحاكم بينهم. وقيل: إن «كَلَّا» مِن قول الإنسان لنفسه، إذا علم أنه ليس له مفرٌّ قال لنفسه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُخبَر ابن آدم بَرًّا كان أو فاجرًا ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بما أسلف من عمل سَيِّئ أو صالح، أو أخَّر من سنَّة سيِّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده. قاله ابن عباس وابن مسعود[٣]. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبَّأُ بأوَّل عمله وآخره. وقاله النَّخعيّ. وقال ابن عباس أيضاً: أي: بما قدَّم من المعصية، وأخَّر من الطاعة[٤]. وهو قول قتادة[٥]. وقال ابن زيد: «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه، «وَأَخَّرَ»: خلَّف للورثة[٦]. وقال الضحاك: ينبَّأُ بما قدَّم من فرضٍ، وأخَّر من فرض[٧].

قال القشيريُّ: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأوَّل أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه[٨] من حديث الزُّهريِّ، حدثني أبو عبد الله الأغرّ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما يَلْحق

---

(١) أخرجه عنه الطبري ٢٣/ ٤٨٨ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٢ .

(٣) المصدر السابق، وأخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٤٨٩ .

(٤) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٣/ ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٤ .

(٦) الوسيط ٤/ ٣٩٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤ ، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠ ونسبوه لزيد بن أسلم.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٥٤ ، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠ .

(٨) برقم (٢٤٢).

المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته علماً علَّمه ونَشَره، وولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته[١] تلحقه من بعد موته».

وخرَّجه أبو نُعيم الحافظ بمعناه[٢] من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجري أجرُهنَّ للعبد بعد موته وهو في قبره: مَن علَّم علماً، أو أجرى[٣] نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنى مسجدًا، أو وَرَّثَ مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته». فقوله: «بعد موته وهو في قبره» نصٌّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يُخبَر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يُبشَّر بذلك في قبره. ودلَّ على هذا أيضاً قولُه الحقُّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنةً؛ كان له أجرُها وأجرُ من عمل بها بعده مِن غير أن يَنقُص من أجورهم شيء. ومَن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً؛ كان عليه وزرُها ووزرُ مَن عمل بها بعده، مِن غير أن يَنقُص من أوزارهم شيء»[٤].

قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قال الأخفش: جَعَلَه هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجَّةٌ على نفسك[٥]. وقال ابن عباس: «بصيرَةٌ» أي: شاهد، وهو شهودُ جوارحِه عليه: يداه بما بَطَش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر

(١) لفظة: وحياته، من (م) وسنن ابن ماجه.

(٢) في حلية الأولياء ٢/ ٣٤٤.

(٣) في النسخ الخطية: أو أكرى، والمثبت من (م) وحلية الأولياء.

(٤) قطعة من حديث جرير بن عبد الله ﷺ أخرجه مسلم (١٠١٧): (٦٩)، وسلف ٢/ ٣٣٦.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢١.

بهما[١]. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفرَّاء:

كأنَّ على ذي العقلِ عَيْنًا بصيرةً بِمَقْعَدِهِ أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهْ
يُحاذِرُ حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرائِرُهْ[٢]

ودليلُ هذا التأويل من التنزيل قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارحُ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان، فكأنه قال: بل الجوارحُ على نفس الإنسان بصيرة. قال معناه القتبيُّ[٣] وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: «بَصِيرَةٌ» هي التي يسمِّيها أهل الإعراب هاءَ المبالغة، كالهاء في قولهم: داهِية، وعلَّامة، وراوية. وهو قول أبي عُبيدة[٤].

وقيل: المراد بالبصيرة: الكاتبان اللَّذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شرٍّ، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور. وهو قول السُّدِّيِّ والضحاك[٥].

وقال بعض أهل التفسير: المعنى: بل على الإنسان من نفسه بصيرةٌ، أي: شاهد، فحذف حرف الجر[٦].

ويجوز أن يكون «بصيرة» نعتًا لاسم مؤنث، فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عينٌ بصيرة[٧]، وأنشد الفراء:

---

(١) أخرجه عنه الطبري ٢٣/ ٤٩١ - ٤٩٢ مختصراً.

(٢) البيتان للفرزدق وهما في ديوانه ص ٢٠٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١، ووقع في الديوان: الطِّنْء، بدل العقل. وفي معاني القرآن: الظَّن. والطِّنْء هو الريبة. القاموس (طنأ).

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص ١٤٨.

(٤) في (د) و(م) و(ي): أبي عبيد، والمثبت من (خ) و(ظ) والكلام في مجاز القرآن له ٢/ ٢٧٧.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٣، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٣.

كأنَّ على ذي العقل عينًا بصيرةً

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصيرٌ بعيوب غيره، جاهلٌ بعيوب نفسه(١).

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو أَرْخَى سُتوره. والسِّتر بلغة أهل اليمن: مِعذار. قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنها ضَنَّتْ بِمَنزلِ ساعةٍ ... علينا وأَطَّتْ فَوْقَها بالمَعَاذِرِ(٢)

قال الزَّجَّاج: المعاذِر: السُّتور، والواحد مِعذار(٣)، أي: وإن أرخى ستره يريد أن يخفيَ عمله، فنفسُه شاهدة عليه.

وقيل: أي: ولو اعتذر فقال: لم أفعل شيئاً، لكان عليه من نفسه مَن يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهدٌ يكذِّب عذره. قاله مجاهد، وقتادة، وسعيدُ بن جُبير، وعبدُ الرحمن بن زيد، وأبو العالية، وعطاء(٤)، والفرَّاء(٥) والسُّدِّيُّ أيضًا ومقاتل. قال مقاتل: أي: لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيرُه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقولُه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]، فالمعاذيرُ على هذا مأخوذٌ من العذر، قال الشاعر:

وإياكَ والأمرَ الذي إنْ توسَّعَتْ ... مَوَارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ ... وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذرُ(٦)

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٦ ، وسلف الشعر قريباً.
(٢) النكت والعيون ٦/ ١٥٥ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٣ .
(٤) أخرج قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد الطبري ٢٣/ ٤٩٤ - ٤٩٦ ، وأورد قول عطاء البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٣ .
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢١١ .
(٦) البيتان في شرح ديوان الحماسة ٣/ ٨٩ ، والبيت الأول في دُرَّة الغوَّاص ص٢٩ .

واعتذر رجل إلى إبراهيمَ النَّخَعيِّ فقال له: قد عذرتك غير مُعتذِر، إن المعاذير يَشُوبها الكذب(١). وقال ابن عباس: «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» أي: لو تجرَّد من ثيابه. حكاه الماورديُّ(٢).

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذارُ من الذَّنب، ومنه قول النابغة:

هــا إنَّ ذِي عِــذْرَةٌ إلَّا تــكُــنْ نَــفَــعــتْ   فــإنَّ صــاحِــبَــهــا مُــشَــارِكُ الــنَّــكَــدِ(٣)

والدليل على هذا قولُه تعالى في الكفار: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقــولُــه تــعــالــى فــي الــمــنــافــقــيــن: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. وفي الصحيح أنه يقول: «يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصلَّيت وصمتُ وتصدَّقتُ، ويُثني بخيرٍ ما استطاع» الحديث، وقد تقدَّم في «حم السجدة» وغيرِها(٤). والمعاذيرُ والمعاذِر: جمع مَعْذِرة، ويقال: عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْرًا وعُذُرًا، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى، قال الشاعر:

إنِّــي حُــدِدْتُ ولا عُــذْرِي لِــمَــحْــدُودِ(٥)

---

(١) الصحاح (عذر)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٢٤ عن ابن عون.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٥٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٣٧.

(٤) هو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه مسلم (٢٩٦٨)، وسلف ٨/ ٣٤١، وليس في سورة حم السجدة.

(٥) الصحاح (عذر)، وأورده أيضاً أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٠، دون نسبة، والبغدادي في الخزانة ١/ ٤٦٤ ونسبه للجموح الظَّفَري، ووقع عندهما: لولا، بدل: إني. قال ابن منظور في اللسان (عذر): وصواب إنشاده: لولا حددت، هو على إرادة أن تقديره: لولا أن حددت؛ لأن لولا التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء، وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أنْ. اهـ. وهذا عجز البيت وصدره: لا درَّ درُّك إني قد رميتهمُ. وقوله: حُدِدت، أي: حرمت ومنعت، والمعنى؛ يقول: قد رميتُ واجتهدت في قتالهم، ولكني حرمت النصر عليهم، ولا يقبل عذر المحروم. خزانة الأدب.

وكذلك العِذْرة وهي مثلُ الرِّكْبة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

ها إنَّ تا عِـذْرَةٌ إلَّا تَـكُـنْ نَـفَـعَـتْ فإنّ صاحِبَـها قَـدْ تاه فـي الْـبَـلَـدِ[1]

وتضمَّنت هذه الآيةُ خمسَ مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بنُ العربيّ[2]: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: فيها دليلٌ على قَبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها شهادةٌ[3] منه عليها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. ولا خلافَ فيه؛ لأنه إخبارٌ على وجهٍ تنتفي التُّهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذِب على نفسه، وهي المسألة:

الثانية: وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وهو في الآثار كثير، قال النبيُّ ﷺ: «واغْدُ يا أُنَيْس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»[4].

فأمّا إقرارُ الغير على الغير بوارث أو دَين فقال مالك: الأمرُ المجتمعُ عليه عندنا في الرجل يَهْلِك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقرَّ أنَّ فلانًا ابنُه، أنَّ ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرارُ الذي أقرَّ إلا على نفسه في

---

(١) الصحاح (عذر)، وأورده أيضاً ابن يعيش في شرح المفصل ٨/ ١١٣، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٤٥٩ وفيهما: إن لم تكن، بدل: إلَّا تكن. وسلف قريباً بغير هذه الرواية.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٨.

(٣) في (م): بشهادة.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨) عن زيد بن خالد الجهني وأبي هريرة رضي الله عنهما، وسلف ٦/ ١٤٤، الكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٨.

حصته من مال أبيه، يعطي الذي شَهِد له قَدْرَ[١] الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسيرُ ذلك: أن يَهْلِك الرجل ويترك ابنين ويترك ستَّ مئةِ دينار، [فيأخذُ كلُّ واحد منهما ثلاثَ مئةِ دينار]، ثم يشهدُ أحدهما بأنَّ أباه الهالكَ أقرَّ أن فلانًا ابنُه، فيكونُ على الذي شَهِد للذي استُلْحِق[٢] مئةُ دينار، وذلك نصفُ ميراث المستلحَق لو لَحِقَ، وإن أقرَّ له الآخر أخذ المئة الأخرى، فاستكمل حقَّه وثَبَتَ نسبُه[٣].

وهو أيضًا بمنزلة المرأة تُقِرُّ بالدَّين على أبيها أو على زوجها، وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرَّت له قَدْرَ الذي يُصيبها من ذلك الدَّين لو ثبت على الورثة كلِّهم، إن كانت امرأةً فورِثت الثُّمن؛ دفعت إلى الغريم ثُمُن دَينه، وإن كانت ابنةً ورثت[٤] النصف؛ دفعت إلى الغريم نصف دَينه، على حسابِ هذا يدفع إليه مَن أقرَّ له من النساء.

الثالثة: لا يصح الإقرار إلا مِن مكلَّف، لكن بشرط ألا يكون محجورًا عليه؛ لأن الحجر يُسْقِط قولَه إن كان لحقِّ نفسه، فإن كان لحقِّ غيره، كالمريض، كان منه ساقط ومنه جائز. وبيانُه في مسائل الفقه[٥].

وللعبد حالتان في الإقرار: إحداهما في ابتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدِّم. والثانية في انتهائه، وذلك مثلُ إبهام الإقرار، وله صورٌ كثيرة، وأمهاتُها ستٌّ:

الصورة الأولى: أن يقول: له عندي شيء، قال الشافعي: لو فَسَّره بتمرة أو كِسْرة قُبِل منه. والذي تقتضيه أصولُنا أنه لا يُقبَل إلا فيما له قَدْر، فإذا فسَّره به قُبِل منه وحَلَف عليه.

---

(١) بعدها في (د) و(م): الدَّين.

(٢) في (م): استحقَّ.

(٣) الاستذكار ٢٢/١٩٦ وما بين حاصرتين وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

(٤) في (ظ): فورثت.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٧٨ - ١٨٨٠، وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

الصورة الثانية: أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير، أو ما لا يكون مالًا في الشريعة، لم يُقْبل باتفاق ولو ساعده عليه المُقَرُّ له.

الصورة الثالثة: أن يفسِّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين[١] أو كلب، فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردٍّ وإمضاء، فإن ردَّه لم يَحكم عليه حاكم آخرُ غيره بشيء، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله. وقال بعض أصحاب الشافعيّ: يلزم الخمر والخنزير، وهو قول باطل. وقال أبو حنيفة: إذا قال: له عليَّ شيءٌ، لم يُقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون، لأنه لا يَثْبُت في الذِّمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإنَّ غيرَهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعًا.

الصورة الرابعة: إذا قال: له عندي مالٌ، قُبِل تفسيره بما يكون مالًا[٢] في العادة، كالدِّرهم والدِّرهمين، ما لم يَجِئ من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه.

الصورة الخامسة: أن يقول: له عندي مالٌ كثير أو عظيم، فقال الشافعيُّ: يُقبل في الحبَّة. وقال أبو حنيفة: لا يُقبَل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة، منها نصابُ السَّرقة والزكاة والدِّية، وأقلُّه عندي نصابُ السَّرقة، لأنه لا يُبان عُضوُ المسلم إلا في مال عظيم، وبه قال أكثر الحنفية. ومَن تعجب فليتعجَّب[٣] لقول اللَّيث بن سعد: إنه لا يُقبل في أقلَّ من اثنين وسبعين درهمًا. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ[٤]﴾ [التوبة: ٢٥]، وغزواتُه وسراياه كانت اثنتين وسبعين. وهذا لا يصحّ؛ لأنه أخرج حُنَيناً منها، وكان حقُّه أن يقول: يُقَبل في أَحَدٍ وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾

(١) السِّرقين هو الزِّبل، معرب سَركين. القاموس (سرقن).

(٢) في النسخ: بما لا يكون مالاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٩، والكلام منه، وينظر البناية في شرح الهداية ٧/ ٥٤١، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٧٠١، والمجموع ١٨/ ٥٤٦، والمغني ٧/ ٣٠٥.

(٣) في النسخ عدا (ظ): ومن تعجب فيتعجب، والمثبت من (ظ).

(٤) بعدها في (د) و(م): ويوم حنين.

[النساء: ١١٤]، وقال: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

الصورة السادسة: إذا قال: له عندي عشرةٌ، أو مئةٌ، أو ألف، فإنه يُفَسِّرها بما شاء ويُقْبل منه، فإن قال: ألفُ درهم، أو مئةٌ وعبد، أو مئةٌ وخمسون درهمًا، فإنه يُفسِّر المبهَم ويُقبل منه، وبه قال الشافعيّ. وقال أبو حنيفة: إنْ عَطَفَ على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً، كان تفسيرًا؛ كقوله: مئةٌ وخمسون درهمًا؛ لأن الدِّرهم تفسيرٌ للخمسين، والخمسينَ تفسيرٌ للمئة. وقال ابن خَيران الإصْطَخْري من أصحاب الشافعي[١]: الدرهم لا يكون تفسيرًا في المئة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المئة بما شاء.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ومعناه: لو اعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه. وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرَّ في الحدود التي هي خالصُ حقِّ الله، فقال أكثرهم منهم الشافعيُّ وأبو حنيفة: يُقبلُ رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهًا صحيحًا. والصحيحُ جوازُ الرجوع مطلقًا؛ لِمَا روى الأئمة منهم البخاريُّ ومسلمٌ أن النبيَّ ﷺ ردَّ المُقرَّ بالزنى مرارًا أربعاً كلَّ مرَّة يُعرِض عنه، ولَمَّا شهد على نفسه أربع مرات، دعاه النبيُّ ﷺ وقال: «أبكَ جنون؟». قال: لا. قال: «أُحْصِنْت؟». قال: نعم[٢].

وفي حديث البخاريِّ: «لعلَّكَ قَبَّلت، أو غمزت، أو نظرتَ»[٣].

وفي النَّسائيِّ وأبي داود[٤]: حتى قال له في الخامسة: «أنِكتَها؟»[٥]. قال: نعم. قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها؟». قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرود في

---

(١) هو أبو علي الحسين بن صالح بن خَيْران، البغدادي الشافعي، شيخ الشافعية، توفي سنة عشرين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٥/٥٨ .

(٢) صحيح البخاري (٦٨٢٠)، و(٦٨٢٥)، وصحيح مسلم (١٦٩١): (١٦) من حديث جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما. وأخرجه عنهما أيضاً أحمد (٩٨٤٥) و(١٤٤٦٢).

(٣) صحيح البخاري (٦٨٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٢٤٣٣).

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧١٢٦)، وسنن أبي داود واللفظ له (٤٤٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) في (م): أجامعتها، وفي سنن النسائي: أنكحتها.

المُكْحُلة والرِّشاء في البئر؟». قال: نعم. ثم قال: «هل تدري ما الزنى؟» قال: نعم، أتيت منها حرامًا مثلَ ما يأتي الرجل من أهله حلالًا. قال: «فما تريد مني بهذا القول؟[1]» قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فَرُجم.

قال الترمذيُّ وأبو داود: فلمَّا وجد مَسَّ الحجارة، فَرَّ يشتدُّ، فضربه رجل بلَحْي جَمَل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبيُّ ﷺ: «هَلَّا تركتموه»[2].

وقال أبو داود والنَّسائيُّ: ليتثبَّت رسول الله ﷺ، فأمَّا لترك حَدٍّ فلا[3]. وهذا كلُّه طريقٌ للرجوع وتصريحٌ بقَبوله. وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «لعلك قَبَّلْتَ أو غمزتَ» إشارةٌ إلى قول مالك: إنه يُقبل رجوعه إذا ذكر وجهًا[4].

الخامسة: وهذا في الحرِّ المالكِ لأمر نفسه، فأمَّا العبدُ، فإنَّ إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إمَّا أن يُقِرَّ على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقرَّ على بدنه[5] فيما فيه عقوبةٌ من القتل فما دونه، نَفَذَ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرَقٌ لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه، ودليلُنا قوله ﷺ: «مَن أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليستتر بستر الله، فإنَّ مَن يُبْد لنا صفحته، نُقِم عليه الحدّ»[6]. المعنى: أن محلَّ العقوبة أصلُ الخِلقة، وهي الدُّمْية[7] في الآدمية، ولا حقَّ للسيِّد فيها، وإنما حقُّه في الوصف والتَّبَع، وهي

(١) قوله: بهذا القول، ليست في (م)، وجاءت في (د) و(ظ): هذا القول.

(٢) أخرجه الترمذي واللفظ له (١٤٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو داود (٤٤١٩) من حديث نُعَيم بن هزَّال ﷺ. وقوله: فرَّ يشتد، أي: يسعى.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٢٠)، والنسائي في الكبرى (٧١٦٩) واللفظ له من حديث جابر ﷺ.

(٤) المسألة بتمامها في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٠ - ١٨٨١ .

(٥) في (د) و(م): فإن أقر على ما في بدنه.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٨٢٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً. وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٧) في (د): الزينة، وفي (ظ) و(م) و(ي): الذِّمة، والمثبت من (ز) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨١ - ١٨٨٢ والمسألة بتمامها منه.

المالية الطارئةُ عليه، ألا ترى أنه لو أقرَّ بمال لم يُقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال: سرقت هذه السلعة إنه[١] تقطع يده ويأخذها المُقرُّ له. وقال علماؤنا: السِّلْعة للسيِّد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق؛ لأن مال العبد للسيِّد إجماعًا، فلا يُقبل قولُه فيه ولا إقرارهُ عليه، لا سيما وأبو حنيفةَ يقول: إنَّ العبد لا مِلك له. ولا يصحُّ أن يَمْلِك ولا يُمَلَّك، ونحن وإن قلنا: إنه يصحُّ تملُّكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرِّكُ به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: فكان يحرِّك به شفتيه. وحرَّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[٢].

ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ يعالج من التنزيل شدَّة، كان يحرِّك شفتيه، فقال لي ابن عباس: أنا أحرِّكهما كما كان رسول الله ﷺ يحرِّكهما، فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحرِّكهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جَمْعَهُ في صدرك ثم تقرؤه .﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاسْتَمِع له وأنصت. ثم إنَّ علينا أن نقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ[٣] إذا أتاه جبريلُ عليهما السلام استمع، وإذا انطلق

(١) بعدها في (د) و(م): لم. ينظر بدائع الصنائع ٩/٣٢٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٢٩) وسفيان هو ابن عيينة أحد رجال الإسناد، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩١٠)، والبخاري (٤٩٢٧) مختصراً.

(٣) بعدها في (م): بعد ذلك.

جبريل عليه السلام قرأه النبيُّ ﷺ كما أقرأه. خرَّجه البخاريُّ أيضًا[(١)].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، وقد تقدَّم[(٢)].

وقال عامرٌ الشَّعْبي: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبِّه له، وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض[(٣)].

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي، حرَّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، ونزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. قاله ابن عباس[(٤)].

«وقرآنه» أي: وقراءتَه عليك. والقراءةُ والقرآن في قول الفراء[(٥)] مصدران. وقال قتادة: «فَاتَّبِعْ قُرْآنه» أي: فاتبع شرائعه وأحكامه[(٦)].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسيرَ ما فيه من الحدود والحلال والحرام. قاله قتادة[(٧)]. وقيل: ثم إنَّ علينا بيانَ ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقَهما. وقيل: أي: إن علينا أن نبيِّنه بلسانك[(٨)].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال ابن عباس: أي: إنَّ أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه[(٩)]. وقيل: أي: «كَلّا» لا يُصلُّون ولا يزكُّون، يريد كفَّارَ مكة.

---

(١) صحيح مسلم (٤٤٨): (١٤٨)، وصحيح البخاري (٥)، وهو عند أحمد أيضاً (٣١٩١).

(٢) ١٤/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥٥ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٨ مختصراً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٩ مختصراً.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٢١١ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٤ ، والطبري ٢٣/ ٥٠٣ بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٤ بنحوه.

(٨) أخرج هذا القول الطبري ٢٣/ ٥٠٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩) نسب هذا القول الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٢٢ لعطاء.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي: بل تحبُّون يا كفارَ أهل مكة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدارَ الدنيا والحياةَ فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: تَدَعُون ﴿الْآخِرَةَ﴾ والعملَ لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة: الجنة.

وقرأ أهل المدينة والكوفيون: «بَلْ تُحِبُّونَ»، «وَتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب[١]، واختاره أبو عبيد، قال: ولولا الكراهةُ لِخلاف هؤلاء القراء، لقرأتُها بالياء، لِذِكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو اختيار أبي حاتم. فَمَن قرأ بالياء فردًّا على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ﴾ وهو بمعنى الناس. ومَن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في المقصود؛ نظيره: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الأوّلُ من النَّضْرة التي هي الحُسْن والنَّعمة، والثاني من النظر، أي: وجوهُ المؤمنين مشرقةٌ حسنة ناعمة، يقال: نَضَرهم اللهُ يَنضُرُهم نَضْرة ونَضَارة، وهو الإشراق والعيش والغنى، ومنه الحديث: «نَضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها»[٢].

«إِلَى رَبِّهَا»: إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ»، أي: تنظر إلى ربها، على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرَّجه مسلم[٣] وقد مضى في «يونس»[٤] عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [الآية: ٢٦]. وكان ابن عمر يقول: أكرمُ أهل

(١) السبعة ص ٦٦١، والتيسير ص ٢١٧.

(٢) سلف ٢/ ١٢٨.

(٣) برقم (١٨١) وهو قوله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟... إلى أن قال: فيكشف الحجاب، فما أُعْطُوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل.

(٤) ١٠/ ٤٨٣.

الجنة على الله مَن ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١]. وروى يزيدُ النَّحْوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظرًا[٢]. وكان الحسن يقول: نَضَرت وجوههم ونظروا إلى ربِّهم[٣].

وقيل: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. ورُوي عن ابن عمر ومجاهد[٤]. وقال عكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماورديُّ عن ابن عمر وعِكرمة أيضًا[٥]. وليس معروفًا إلا عن مجاهد وحده. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وهذا القول ضعيف جدًّا، خارجٌ عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار.

وفي الترمذيِّ[٦] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرةَ ألفِ سنة، وأكرمُهم على الله مَن ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيَّة». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: هذا حديث غريب. وقد رُويَ عن ابن عمر ولم يرفعه.

وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «جنتانِ من فضة، آنيتُهما وما فيهما، وجنتانِ من ذهب، آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلَّ وعزَّ إلا رِداءُ الكِبْرياء على وجهه في جَنَّة عدن»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص ٥٣، والطبري ٢٣/ ٥٠٧، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٠٣).

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٧ بنحوه.

(٤) أخرجه عن مجاهد الطبري ٢٣/ ٥٠٨.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٦ عن عكرمة فقط، وحكى عن ابن عمر ومجاهد: إلى ربها ناظرة: إلى ثواب ربها.

(٦) برقم (٣٣٣٠).

(٧) صحيح مسلم (١٨٠): (٢٩٦)، وهو عند أحمد (١٩٦٨٢)، والبخاري (٧٤٤٤)، وقوله: وما بين =

وروى جرير بن عبد الله قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ جلوسًا، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عِيانًا كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته؛ فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] متَّفق عليه. وخرَّجه أيضًا أبو داود والترمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح[١].

وخرَّج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليِّ قال: قلت: يا رسول الله، أكلُّنا يرى ربه[٢] مُخْلِيًا به يوم القيامة؟ قال: «نعم يا أبا رَزِين» قال: وما آيةُ ذلك في خَلْقه؟ قال «يا أبا رَزِين، أليس كلُّكم يَرَى القمر[٣] ليلة البدر مُخْلِيًا به؟». قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم[٤]، إنما[٥] هو خلق من خلق الله، يعني القمر، فالله أجلُّ وأعظم[٦]».

وفي كتاب النَّسائيِّ[٧] عن صُهَيب قال: «فيكشِفُ الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر، ولا أقرَّ لأعينهم».

وفي التفسير لأبي إسحاق الثَّعلبيِّ عن أبي الزُّبير[٨] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يتجلَّى ربُّنا عزَّ وجلَّ حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرُّون له سُجَّدًا، فيقول: ارفعوا

= القوم وبين أن ينظروا... قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٣/ ١٦: قال العلماء: كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما يفهمونه، ويقرب الكلام إلى أفهامهم، ويستعمل الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ليقرب متناولها، فعبر ﷺ عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بإزالة الرداء.

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣)، وسنن أبي داود (٤٧٢٩)، وسنن الترمذي (٢٥٥١)، وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) بعدها في (م) وسنن أبي داود: قال ابن معاذ. قلنا: وهو عبيد الله بن معاذ أحد رجال الإسناد.

(٣) بعدها في (م) وسنن أبي داود: قال ابن معاذ.

(٤) بعدها في سنن أبي داود: قال ابن معاذ، قال.

(٥) في (م): فإنما.

(٦) سنن أبي داود (٤٧٣١)، وهو عند أحمد (١٦١٨٦)، وابن ماجه (١٨٠).

(٧) في السنن الكبرى (١١١٧٠)، وسلف ١٠/ ٤٨٣ .

(٨) في (م): عن الزبير.

رؤوسكم، فليس هذا بيوم عبادة»[١]. قال الثعلبيُّ: وقولُ مجاهد إنها بمعنى: تنتظر الثواب من ربِّها ولا يراه شيء من خَلقه، فتأويلٌ مدخول؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار، قالوا: نَظْرتُه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزخرف:٦٦]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، و﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس:٤٩]، وإذا أرادتْ به التفكُّر والتدبُّر قالوا: نظرتُ فيه. فأمَّا إذا كان النظر مقرونًا بذكر إلى، وذكرِ الوجه، فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان.

وقال الأزهريُّ: إنَّ قول مجاهد: تنتظر ثواب رَبِّها، خطأٌ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا، بمعنى الانتظار، وإنَّ قول القائل: نظرت إلى فلان، ليس إلا رؤيةَ عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون: نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار، قالوا: نَظَرْتُه[٢]، قال:

فـإنَّـكُـمـا إنْ تَـنْـظُـرانـيَ سـاعـةً ... مِن الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ[٣]

لمَّا أراد الانتظار قال: تنظراني، ولم يقل: تنظران إليَّ، وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، قال:

نـظـرتُ إلـيـهـا والـنُّـجـومُ كـأنَّـهـا ... مَـصـابـيـحُ رُهْـبـانٍ تُـشَـبُّ لِـقُـفَّـالِ[٤]

وقال آخر:

نظرتُ إليها بالمُحصَّبِ مِنْ مِنًى ... ولـيْ نَـظَـرٌ[٥] لـولا الـتَّـحَـرُّجُ عـارِمُ

(١) أخرجه الدارقطني في كتاب الرؤية (٥٢) وفيه أحمد بن محمد بن عمر بن يونس اليمامي، كذبه أبو حاتم وابن صاعد. وقال الدارقطني: ضعيف، وقال مرة: متروك. وقال ابن عدي: حدث عن الثقات بمناكير وكان ينسخ عجائب. ميزان الاعتدال ١/ ١٤٣ .

(٢) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ٣٧١ .

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤١ ، وسلف ٢/ ٢٩٨ .

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣١ ، وقوله: تُشَبُّ، أي: توقد. والقُفَّال جمع قافل، وهو الراجع من السفر. ينظر اللسان (شبب) و(قفل).

(٥) في النسخ عدا (ظ): نظرة، وسقط هذا الموضع من (ظ)، والمثبت من ديوان عمر بن أبي ربيعة ص١٨٢ .

وقال آخر:

إِنِّـي إِلـيـكِ لِـمَـا وَعَـدتِ لـنَـاظـرٌ نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ[(١)]

أي: إني أنظر إليك بِذُلٍّ، لأنَّ نظر الذُّلِّ والخضوع أرقُّ لقلب المسؤول.

فأمَّا ما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] فإنما ذلك في الدنيا. وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفًى[(٢)].

وقال عطية العَوْفي: ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظرُه يحيط بهم[(٣)]، يدل عليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾[(٤)] [الأنعام:١٠٣].

قال القشيريُّ أبو نصر: وقيل: «إلى» واحد الآلاء، أي: نِعَمهُ منتظرة، وهذا أيضاً باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نِعَمُه الدُّفَّع، وهم في الجنة لا ينتظرون دفعَ نِعمة[(٥)] عنهم، والمنتظرُ للشيء مُتنغِّصُ العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك.

وقيل: أضاف النظر إلى الوجه، لأن العين في الوجه[(٦)]، وهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة:٢٥] والماءُ يجري في النهر لا النهر. ثم قد يُذكر الوجه بمعنى العين، قال الله تعالى[(٧)]: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣]، أي: على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غدًا، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه، وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك:٢٢]، فقيل: يا رسول الله!

(١) البيت لجميل، وهو في ديوانه ص ١٠٩ ، وفيه: بما، بدل: لما. والمكثر، بدل: الموسر.

(٢) ٨/ ٤٨٢ وما بعدها.

(٣) في (م): بها.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٧ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): نقمه، والمثبت من (ظ) و(ي).

(٦) قوله: لأن العين في الوجه، ليس في (د) و(م).

(٧) بعدها في (ظ): حكاية عن يوسف.

كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على[١] أن يُمشيَهم على وجوههم»[٢].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: وجوه الكفار يوم القيامة كالحةٌ كاسفةٌ عابسة. وفي الصحاح: وبَسَر الفحلُ الناقةَ وابتسرها: إذا ضربها من غير ضَبَعَة[٣]. وبَسَر الرجلُ وجهَه بُسورًا، أي: كَلَح، يقال: عَبَسَ وبَسَر[٤]. وقال السُّديّ: «بَاسِرَةٌ» أي: متغيرة[٥]، والمعنى واحد.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تُوقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فَقَرَتْه الفاقرة، أي: كسرت فَقَار ظهره[٦]. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة: الشَّرّ[٧]. السُّدِّيّ: الهلاك[٨]. ابن عباس وابن زيد: دخول النار[٩]. والمعنى متقارب. وأصلُها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يَخْلص إلى العظم. قاله الأصمعي[١٠]. يقال: فَقَرتُ أنفَ البعير: إذا حززتَه بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزِّ الجَرِيرَ[١١]. وعليه وَتَرٌ مَلْويٌّ؛ لِتُذلِّلَه بذلك وتَرُوضَه، ومنه قولهم: قد عَمِل به الفاقرة[١٢]. وقال النابغة:

---

(١) لفظة: على، من (د) و(ظ).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٥٥)، والترمذي واللفظ له (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٧٠٨)، والبخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس ﷺ.

(٣) الضَبَعَة: هو شدة شهوة الناقة للفحل. الصحاح (ضبع).

(٤) الصحاح (بسر).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٥٧ .

(٦) الصحاح (فقر).

(٧) أخرج قوله وقول مجاهد الطبري ٢٣/ ٥١١ - ٥١٢ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٥٧ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٢ عن ابن زيد .

(١٠) تهذيب اللغة ٩/ ١١٦ .

(١١) هو حبل من أَدَم يخطم به البعير. اللسان (جرر).

(١٢) الصحاح (فقر).

أَبَـى لـيَ قَـبْـرٌ لا يَـزالُ مُـقَـابِـلِـي وضَـرْبَـةُ فَـأْسٍ فـوق رأسِـيَ فَـاقِـرَهْ[(١)]

أي: كاسرة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجْر، أي: بعيدٌ أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم استأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، فأخبر عمَّا لم يجر له ذكر؛ لعلم المخاطب به[(٢)]، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وقد تقدَّم[(٣)].

وقيل: «كَلَّا» معناه حقًّا[(٤)]، أي: حقًّا أنَّ المَساق إلى الله إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، أي: إذا ارتقت النفس إلى التراقي. وكان ابن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمعُ تَرْقُوة: وهي العظامُ المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدَّم الحَلْق من أعلى الصدر، موضعِ الحَشْرجة، قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

ورُبَّ عَـظِـيـمـةٍ دافَـعْـتَ عَـنْـهُـم وقَـدْ بَـلَـغَـتْ نُـفُـوسُـهُـمُ الـتَّـرَاقـي[(٥)]

وقد يُكْنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي[(٦)]، والمقصودُ تذكيرُهم

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٧٠.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

(٣) ١٨/ ١٩٣، ٢٠/ ٢٢٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٢، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٧.

(٥) كذا نسبه المصنف لدريد بن الصمَّة، ونسبه إليه أيضاً الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٣٠، ونسبه ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤٥٤، وياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٥٨، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٤/ ١٢ لعمرة بنت دريد بن الصمة؛ قالته في قصيدة لها ترثي بها أباها.

(٦) زاد المسير ٨/ ٤٢٤.

شدَّةَ الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ اختُلف فيه، فقيل: هو من الرُّقية؛ عن ابن عباس وعكرمةَ وغيرهما[١]. روى سِمَاك عن عكرمة قال: مَن راقٍ يَرْقي؟ أي: يَشْفي[٢]. وروى ميمون بن مِهران عن ابن عباس: أي: هل من طبيب يَشْفِيه. وقاله أبو قِلابة وقتادة[٣]. وقال الشاعر:

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاق[٤]

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي: مَن يَقدِر أن يَرْقي من الموت.

وعن ابن عباس أيضًا وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى: إذا صَعِد، والمعنى: مَن يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكةُ الرَّحمة أم ملائكةُ العذاب[٥]؟

وقيل: إن مَلَك الموت يقول: مَن راقٍ؟ أي: مَن يَرْقَى بهذه النفس، وذلك أنَّ نفس الكافر تكره الملائكةُ قربها، فيقول مَلَك الموت: يا فلان اصعد بها[٦].

وأظهر عاصم وقومٌ النون في قوله تعالى: «مَنْ رَاقٍ»، واللَّامَ في قوله: «بَلْ رَانَ»[٧] لئلا يُشبِه مَرَّاق وهو بائع المَرَقة، وبَرَّان في تثنية البَرّ. والصحيحُ ترك الإظهار، وكسرةُ القاف في: «مَنْ رَاق»، وفتحةُ النون في: «بَلْ رَانَ» تكفي في زوال اللَّبس. وأمثل ممَّا ذُكِر: قصدَ الوقف على «مَنْ» و«بَلْ»، فأَظْهَرَهما. قاله القشيريّ[٨].

---

(١) أورده بنحوه عن ابن عباس الماورديُّ في النكت والعيون ٦/ ١٥٧، وعن عكرمة ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٢٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٣.

(٣) أخرج قول أبي قلابة الطبري ٢٣/ ٥١٣، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٥.

(٤) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٨، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٤، وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٥٩ ونسبوه ليزيد بن خَذَّاق.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٥١٤ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٣١.

(٧) السبعة ص٦٦١، ٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.

(٨) أورد الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٣١ نحو هذا القول عن الواحدي، قال: والوجه أن يقال: قَصدَ ـ يعني عاصماً ـ الوقف على (مَن) و(بل)، فأظهرهما ثم ابتدأ بما بعدهما.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي: أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: فراقُ الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فــرَاقٌ لــيــس يُــشــبِــهُــهُ فِــرَاقُ قــد انــقــطــع الــرجــاءُ عــن الــتَّــلَاقِ

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: فاتصلت الشدَّة بالشدَّة؛ شدَّةُ آخر الدنيا بشدة أوَّل الآخرة. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما[1]. وقال الشعبي وغيره: المعنى: التفَّت ساقا الإنسان عند الموت من شدَّة الكرب[2]. وقال قتادة: أمَا رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى[3]. وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفَّتا في الكفن[4]. وقال زيد بن أسلم: التفَّتْ ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوَّالاً[5].

قال النحاس: القولُ الأوّل أحسنُها. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» قال: آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدَّة بالشدَّة إلَّا من رحمه الله[6]، أي: شدَّةُ كرب الموت بشدَّة هول المَطْلع، والدليل على هذا قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. وقال مجاهد: بلاء ببلاء[7]. يقول: تتابعت عليه الشدائد[8]. وقال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناسُ يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحه[9]، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/٥١٦ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/٥١٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٢ .

(٤) المصدر السابق، وأخرج قول الحسن الطبري ٢٣/ ٥١٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/١٥٨ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٦ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢١ .

(٨) نسب هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٤ لسعيد بن جبير.

(٩) أورده عن الضحاك البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٥ ، وعن ابن زيد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٨ .

والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. قال الشاعر:

وقـامـتِ الـحـربُ بـنـا عـلـى سـاق[١]

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «ن وَالْقَلَم»[٢].

وقال قوم: الكافر تُعَذَّب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدها[٣] ساقُ البعث وشدائده. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمَسَاق: المصدر مِن ساق يسوق، كالمَقالِ مِن قال يقول[٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: لم يصدِّق أبو جهل ولم يصلِّ[٥]. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أوَّل السورة، وهو اسم جنس[٦]. والأوَّل قولُ ابن عباس. أي: لم يصدِّق بالرسالة، «وَلَا صلَّى»: دعا لربِّه[٧]، وصلَّى على رسوله. وقال قتادة: فلا صدَّق بكتاب الله، ولا صلَّى لله[٨]. وقيل: ولا صدَّق بمال له ذُخرًا له عند

(١) سلف ١/ ٢٥٣.

(٢) ص١٧٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) في النسخ: بعدهما.

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٢.

(٥) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٦.

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ١٩٣.

(٧) في (م): ودعا لربه.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٣.

الله[١]، ولا صلَّى الصلواتِ التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه[٢].

قال الكسائي: «لَا» بمعنى لم، ولكنه يُقرن بغيره، تقول العرب: لا عبدُ الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا مُحْسِن، حتى يقال: ولا مُجْمِل، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه: أفلا اقتحم، أي: فهلَّا اقتحم، فحذف ألف الاستفهام[٣].

وقال الأخفش: «فَلَا صَدَّق» أي: لم يصدِّق[٤]، كقوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ [البلد: ١١] أي: لم يقتحم، ولم يشترط أن يُعْقِبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذَهَبَ، أي: لم يذهب، فحرفُ النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل، ومنه قول زهير:

فَـلَا هُــوَ أَبْـدَاهَـا وَلَـمْ يَـتَـقَـدَّمِ[٥]

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذَّب بالقرآن وتولَّى عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر افتخارًا بذلك. قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به أبو جهل[٦]. وقيل: «يَتَمَطَّى» مِن المَطَا وهو الظَّهْر، والمعنى: يَلْوي مَطَاه. وقيل: أصلُه يتمطَّط، وهو التمدُّد من التكسُّل والتثاقل[٧]، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحقّ، فأُبدل من الطاء ياءً كراهة التضعيف[٨]، والتمطي يدلُّ على قلَّة الاكتراث، وهو التمدُّد، كأنه يمدُّ ظهره ويلويه من التبختر.

---

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧ أن القول الذي قبله أصوب.

(٢) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٨.

(٣) ينظر قول الكسائي في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٣.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢١.

(٥) ديوان زهير ص٢٢، وهذا عجز البيت، وصدره: وكان طوى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّة.

(٦) أخرج قولي مجاهد الطبري ٢٣/ ٥٢٤.

(٧) الكشاف ٤/ ١٩٣.

(٨) ينظر تفسير غريب القرآن ص٥٠١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٩.

والمَطِيطة: الماء الخاثر في أسفل الحوض[١]؛ لأنه يتمطى، أي: يتمدَّد، وفي الخبر: «إذا مشت أمَّتي المُطَيْطاءَ، وخَدَمَتْهُم فارس والروم، كان بأسُهم بينهم»[٢]. والمُطَيْطاء: التبختُر ومدُّ اليدين في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾: تهديدٌ بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي: فهو وعيد أربعة لأربعة، كما رُويَ أنها نزلت في أبي جهلٍ الجاهلِ بربِّه فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: لا صدَّق رسولَ الله، ولا وقف بين يديَّ فصلَّى، ولكنْ كذَّب رسولي، وتولَّى عن التصلية[٣] بين يديّ. فتَرْكُ التصديق خَصْلةٌ، والتكذيبُ خَصْلة، وتركُ الصلاة خَصْلة، والتولي عن الله تعالى خَصْلة، فجاء الوعيد أربعةً مقابِلةً لترك الخصال الأربعة. والله أعلم. لا يقال: فإن قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ خَصْلةٌ خامسة، فإنَّا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولِّي، فأخبر عنها. وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره.

وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم[٤]، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، ممَّا يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزَّه مرَّةً أو مرتين، ثم قال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فقال له أبو جهل: أتهدِّدُني؟ فوالله إني لَأَعَزُّ أهل الوادي وأَكْرَمُه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل[٥]. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (مطط).

(٢) صححه ابن حبان (٦٧١٦) من حديث خولة بنت قيس، وأخرجه الترمذي (٢٢٦١)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٣٥ ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٦٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث غريب. وينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣٨، وفيض القدير ١/ ٤٤٥.

(٣) كذا. وفي القاموس: صلى صلاةً، لا تصلية.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ي): ذات ليلة.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٩٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٥، والنكت والعيون للماوردي ٦/ ١٥٩، وسلف نحوه ١٩/ ١٣٥ - ١٣٦ .

فَـأَوْلَـى ثـم أَوْلَـى ثـم أَوْلَـى وهَـلْ لِـلـدَّرِّ يُـحْـلَـبُ مـن مَـرَدٌّ[١]

قال قتادة: أقبل أبو جهل بنُ هشام يتبختر، فأخذ النبيُّ ﷺ بيده فقال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى». فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئًا، إني لأعزُّ مَنْ بينَ جبليها. فلمَّا كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال: لا يُعْبَد الله بعد هذا اليوم أبدًا، فضرب الله عنقه، وقتله شرَّ قِتْلة[٢].

وقيل: معناه: الويل لك، ومنه قول الخنساء:

هَـمَـمْـتُ بـنـفـسـيَ كُـلَّ الـهُـمُـوم فَـأَوْلَـى لِـنَـفْـسـيَ أَوْلَـى لَـهَـا
سَـأَحْـمِـلُ نـفـسـي عـلـى آلـةٍ فـإِمَّـا عـلـيـهـا وإِمَّـا لَـهَـا[٣]

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضًا الذي يُحمل عليه الميت[٤]، وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب، كأنه قيل: أَوْيَل، ثم أُخِّر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتًا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار، وهذا التكرير كما قال:

لَـكَ الْـوَيْـلَاتُ إِنَّـكَ مُـرْجِـلِـي[٥]

أي: لك الويلُ، ثم الويلُ، ثم الويلُ، وضُعِّف هذا القول.

وقيل: معناه الذمُّ لك أَوْلى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذِف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدرُ بهذا العذاب[٦].

---

(١) البيت لعبد الله بن الزبير، وهو في الأغاني ١٤/ ٢٣٧، وسلف ١٩/ ٢٧٠ .
(٢) أخرجه عن الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٤-٣٣٥، الطبري ٢٣/ ٥٢٥ .
(٣) ديوان الخنساء ص١٢١ .
(٤) النكت والعيون ٦/ ١٥٩ .
(٥) قطعة من بيت لامرئ القيس، وتمامه:

ويـومَ دخـلـتُ الـخِـدْرَ خِـدْرَ عُـنـيـزةٍ فـقـالـت لـك الـويـلاتُ إنـك مُـرْجِـلـي

وهو في ديوانه ص١١، وسلف ٢/ ٢٢١ .
(٦) ذكر هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٥ .

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي: «أَوْلَى» في كلام العرب معناه: مُقَارَبة الهلاك[١]، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاك، قد دَانَيْتَ الهلاكَ، وأصلُه من الوَلْي، وهو القُرْب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[٢] [التوبة: ١٢٣]، أي: يَقرُبُون منكم، وأنشد الأصمعي:

وَأَوْلَى أن يكون له الولاءُ[٣]

أي: قارب أن يكون له، وأنشد أيضًا:

أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا[٤]

أي: قد دنا صاحبها [من][٥] الكمد. وكان أبو العباس ثعلبٌ يستحسن قول الأصمعيِّ ويقول: ليس أحد يفسِّر كتفسير الأصمعي.

النحاس: العرب تقول: أَوْلى لكَ: كِدتَ تَهلِك ثم أَفْلَتَّ، وكأنَّ تقديره: أولى لك وأولى بك الهلكة[٦].

المهدويُّ: قال: ولا تكون أَوْلى: أَفْعَل منك، وتكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى له من غيره؛ لأن أبا زيد قد حكى[٧]: أَوْلَاةُ الآن: إذا أَوْعَدوا. فدخولُ علامة التأنيث دليلٌ على أنه ليس كذلك. و«لَكَ» خبرٌ عن «أَوْلَى». ولم ينصرف «أَوْلَى»؛ لأنه صار علمًا للوعيد، فصار كرجل اسمه أحمد[٨].

---

(١) أورد قول الأصمعي الجوهري في الصحاح (ولي).

(٢) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٤٢٥ .

(٣) لم نقف عليه، وأورده الألوسي في روح المعاني ٢٩/ ١٤٩ .

(٤) قائله ذو الرُّمة، وهو في ديوانه ١/ ٢٩١ ، وهو صدر بيت، وعجزه: أَوْلى وإن كانت خلاءً بُيَّدا.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) بنحوه في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٠ .

(٧) في النوادر في اللغة ص٢٦٠ .

(٨) ينظر الإملاء للعكبري بهامش الفتوحات الإلهية ٤/ ٤٣٥ .

وقيل: التكرير فيه على معنى: الذَّمُّ[1] لك على عملك السَّيِّئ الأوّل، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يظنُّ ابن آدم ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أن يُخلَّى مُهمَلًا، فلا يُؤمَرُ ولا يُنهَى. قاله ابن زيد ومجاهد[2]، ومنه: إبلٌ سُدًى: ترعى بلا راعٍ. وقيل: أيحسب أن يُترك في قبره كذلك أبدًا لا يُبعَث. وقال الشاعر:

فأُقسِمُ باللَّهِ جهدَ اليَمِيـ ـنِ ما تَرَكَ اللهُ شيئًا سُدَى[3]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: من قطرةِ ماء تُمنَى في الرَّحِم، أي: تُراق فيه؛ ولذلك سُمِّيت «مِنًى» لإراقة الدماء. وقد تقدَّم[4]. والنطفة: الماء القليل، يقال: نَطَف الماء: إذا قطر. أي: ألم يكُ ماءً قليلًا في صُلْب الرجل وترائب المرأة.

وقرأ حفص: «مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى» بالياء، وهي قراءة ابن محيصن ومجاهدٍ ويعقوبَ[5] وعبَّاس عن أبي عمرو[6]، واختاره أبو عبيد لأجل المنيّ. الباقون بالتاء لأجل النطفة، واختاره أبو حاتم.

---

(١) في (د) و(م): الزم.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٥٢٦ .

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٠ ولم ينسبه.

(٤) ٢٠/ ٦٠ ، و٢٠٧ .

(٥) السبعة ص٦٦٢ ، والتيسير ص٢١٧ ، والنشر ٢/ ٣٩٤ . وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

(٦) كذا ذكر المصنف، وفي السبعة لابن مجاهد ص٦٦٢ عن عباس ـ وهو ابن الفضل الواقفي ـ عن أبي عمرو أنه قرأ بالتاء، وذكر عن أبي زيد عنه أنه قرأ بالتاء والياء، وذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٦٥ القراءة بالياء لأبي عمرو من رواية عبد الوارث وشجاع عنه، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو بالتاء، ووقع في (د) و(م): عياش، بدل: عباس، وهو خطأ.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً بعد النطفة، أي: قد نبَّه[١] تعالى بهذا كلِّه على خِسَّة قدره. ثم قال: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسوَّاه تسويةً، وعدَّله تعديلًا، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: من الإنسان. وقيل: من المنيّ. ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي: الرجل والمرأة. وقد احتجَّ بهذا مَن رأى إسقاط الخُنثى. وقد مضى في سورة الشورى[٢] أنَّ هذه الآية وقرينتَها إنما خرجتا مخرج الغالب[٣]. وقد مضى في أول سورة النساء أيضًا القولُ فيه، وذكرنا في آية المواريث حكْمَه[٤]، فلا معنى لإعادته.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ أي: أليس الذي قَدَرَ على خلق هذه النَّسَمة من قطرة من ماء ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى. ورُويَ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللَّهم، بَلَى»[٥].

وقال ابن عباس: مَن قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] إمامًا كان أو غيرَه، فليقل: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى. ومَن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] إلى آخرها، إمامًا كان أو غيرَه، فليقل: سبحانك اللَّهُمَّ، بَلَى. ذكره الثعلبيُّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيِّ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس[٦].

ختمت السورة والحمدُ لله.

---

(١) في (ز): قدر، وفي (د) و(م) و(ي): رتبه. والمثبت من (ظ).

(٢) ١٨/ ٥٠٥ وما بعدها.

(٣) ٦/ ٧، ١٠٩ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٨ عن قتادة مرسلاً.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٤٠٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٠٠). وأخرج الشطر الأول منه أبو داود (٨٨٣) من طريق وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً. قال أبو داود: خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.

سُورَةُ القِيَامَةِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ وثلاثونَ[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إدخالُ ﴿لَآ﴾ النَّافيَةِ على فعلِ القَسَمِ للتَّأكيدِ شائعٌ في كَلامِهم، قال امرؤُ القَيسِ:

لَا وَأَبِيـكِ ابْـنَـةَ الـعَـامِـرِيْـ ... ـيِ لَا يَدَّعِـي القَـوْمُ أَنِّـي أَفِـرْ[2]

وقد مرَّ الكَلامُ فيهِ في قولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

وقرَأَ قُنبُلٌ: ﴿لَأُقۡسِمُ﴾ بغيرِ ألفٍ بعدَ اللامِ، وكذا رُوِيَ عَن البَزِّيِّ[3].

(٢) ـ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: بالنَّفسِ المُتَّقِيَةِ التي تلومُ النُّفوسَ المُقصِّرَةَ في التَّقوَى يومَ القيامةِ على تَقصيرِها، أو التي تَلُومُ نَفْسَها أبدًا وإن اجتَهَدَتْ في الطَّاعةِ. أو النَّفسِ المُطمَئِنَّةِ اللائِمَةِ للنَّفسِ الأمَّارَةِ.

أو بالجنسِ[4]؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «ليسَ مِن نفسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٥٩)، وفيه: أربعون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في عدد الباقين.

(٢) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص: ١٠٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦١)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٤) قولُه: «أو بالجنسِ»؛ أي: القسَمُ بجنسِ النَّفسِ الشّاملِ للتَّقيّةِ والفاجرةِ، والقسَمُ بها حينَئذٍ بقطعِ =

إِلَّا وتلومُ نَفْسَها يومَ القيامَةِ، إن عَمِلَت خيرًا قالت: كيفَ لم أَزدَدْ؟ وإن عَمِلَتْ شَرًّا قالت: ليتَنِي كنتُ قصَّرتُ»[1].

أو نفسِ آدمَ فإنَّها لم تَزَلْ تَتلوَّمُ على ما خرجَتْ بهِ مِن الجنَّةِ، وضمُّها إلى القيامةِ لأنَّ المقصودَ مِن إقامَتِها مُجازاتُها.

(٣) ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: الجنسَ، وإسنادُ الفعلِ إليه[2] لأنَّ فيهِمْ مَن يَحسَبُ.

أو: الذي نزلَ فيه، وهو عَدِيُّ بنُ ربيعةَ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عن أَمرِ القيامَةِ فأخبرَهُ بهِ، فقال: لو عايَنْتُ ذلك اليومَ لَمْ أُصَدِّقْكَ، أوَيجمعُ اللهُ هذهِ العِظَامَ[3].

﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعدَ تَفرُّقِها، وقُرِئَ: (أَنْ لَنْ تُجْمَعَ) على البناءِ للمَفعولِ[4].

= النَّظرِ عن صفاتِها؛ بل من حيثُ هي شريفةٌ؛ لأنَّها بمعنَى الرُّوحِ، وهي من عظيمِ أمرِ الله، فلا يرِدُ عليه ما قيلَ من أنَّ الإقسام يقتَضي الإعظامَ، وهو لا يُناسبُ إدخالَ النَّفسِ الفاجرةِ في المُقسَمِ به. عن الشهاب.

(١) ذكره بهذا اللفظ الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠٨) من كلامه هو، وقد نسبه إليه كثير من المفسرين، منهم الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ١١٤)، والواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٤٧٦)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٦٩). وأورده السمرقندي في «تفسيره» من قول عمر رضي الله عنه، وذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٤٧٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، والنسفي «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن الكلبي.

(٢) في نسخة الخيالي: «إليهم».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١١٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٠)، ولم يذكروا له سنداً ولا راوياً.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«الكشاف» (٩/ ٣٨٨)، و«البحر» (٢١/ ١٠٧)، عن قتادة.

(٤) ـ ﴿بَلَىٰ﴾ نجمَعُها ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ بجمعِ سُلَامَيَاتِه وضمِّ بعضِها إلى بَعضٍ كما كانَتْ مع صغرِهَا ولطافَتِها، فكيفَ بكبارِ العظامِ؟

أو: على أَنْ نسويَ بنانَهُ الذي هو أطرافُه فكيفَ بغيرِها؟ وهو حالٌ مِن فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ بعدَ ﴿بَلَىٰ﴾.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[1]، أي: نحنُ قادرونَ.

(٥) ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوزُ أن يكونَ استِفْهَامًا وأن يكونَ إيجابًا؛ لجوازِ أن يكونَ الإضرابُ عن المستفهَمِ وعن الاستفهامِ[2].

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: ليدومَ على فُجورِه فيما يستقبلهُ مِن الزَّمانِ.

---

(١) أي: (قادرون)، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١١٧) عن ابن أبي عبلة.

(٢) قوله: «فيجوزُ أن يكونَ استِفْهَامًا، وأن يكونَ إيجابًا» يعني في هذا العطف يجوز أمران:

الأول: أن يكون المعطوف كالمعطوف عليه استفهاما إنكاريًّا التقدير: «بل أيريد» استفهم عن شيء أولاً ثم أضرب عن الاستفهام عنه إلى الاستفهام عن أمر آخر؛ كأنه قيل: منشأ إنكار البعث: هل هو حسبان عجزنا عن البعث وجمع الأجزاء، أو إرادةُ أن يدوم على ما اعتاده من المعاصي وأنواع الفجور ـ ﴿أَمَامَهُۥ﴾؛ أي: فيما يستقبله من الزمان ـ وهو قول المصنف: «لجوازِ أن يكونَ الإضرابُ عن المستفهَمِ»؛ أي: مع بقاء أصل الاستفهام على حاله.

والأمر الثاني: أن يكون المعطوف إيجاباً، استفهم أولاً على سبيل الإنكار على حسبانه، ثم أضرب عن أصل الاستفهام إلى الإخبار عن حاله بما هو أدخل في اللوم عليه من الأول؛ كأنه قيل: دع الإنكار على حسبانه أمراً باطلا في حقنا فإن فيه ما هو أقبح من ذلك وهو أنه يحب اللذات العاجلة والحياة الفانية، وانهماكُه في قضاء شهواته يصرفه عن النظر في الدلائل المؤدية إلى تعيين الحق من الباطل وتمييز الخطأ من الصواب، فإن إنكار البعث قد ينشأ من الشبهة وقد ينشأ من متابعة الهوى وحب العاجل. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٤١٣). ولم أجد أحداً شرح كلام المصنف بمثل ما قاله هذا العلامة.

(٦) ـ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متى يكونُ؟ استبعادًا أو استهزاءً.

(٧) ـ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: تحيَّرَ فزَعًا، مِن بَرِقَ الرَّجلُ: إذا نظرَ إلى البرقِ فدُهِشَ بصرُهُ، وقرأَ نافعٌ بالفتحِ[١] وهو لغةٌ، أو مِن البَرِيقِ بمَعنى: لَمَعَ مِنْ شدَّةِ شُخوصِهِ.

وقُرِئَ: (بَلِق)[٢] مِن بَلِقَ البابُ: إذا انفتحَ.

(٨) ـ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾: وذهبَ ضَوْؤُه، وقُرِئَ على بناءِ المَفعولِ[٣].

(٩) ـ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في ذهابِ الضَّوءِ، أو الطُّلوعِ مِن المغربِ، ولا ينافيهِ الخسوفُ فإنَّه مُستعارٌ للمُحَاقِ.

ولمَن حملَ ذلك على أماراتِ الموتِ أَنْ يُفسِّرَ الخُسوفَ بذَهابِ ضوءِ البَصَرِ[٤]، والجمعَ باستتباعِ الرُّوحِ الحاسَّةَ في الذَّهابِ، أو بوُصولِه إلى مَن كانَ يَقتبسُ منه نورَ العقلِ مِن سُكَّانِ القدسِ.

وتذكير الفعلِ لتقدُّمِه وتغليبِ المَعطوفِ.

(١٠) ـ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؛ أي: الفِرارُ، يقولُه قولَ الآيسِ مِن وجدانِه المتمنَّى[٥]. وقُرِئَ بالكسرِ وهو المكانُ[٦].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦١)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«الكشاف» (٩/ ٣٩١)، و«البحر» (٢١/ ١١١)، عن أبي السمال.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١٢٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٥٤)، و«الكشاف» (٩/ ٣٩٠) و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٢١/ ٤١٢)، و«البحر» (٢١/ ١٠٧)، عن ابن أبي عبلة وأبي حيوة وزيد بن علي وغيرهم.

(٤) في نسخة الخيالي: «بذهاب الضوء عن البصر».

(٥) «المُتمنَّى» مفعولٌ به لـ«وُجدانِه»؛ أي: من أن يجد ما يتمناه وهو المفر.

(٦) قرأ بها جمع منهم الحسين بن علي وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني والزهري، انظر: =

(١١) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عَن طلبِ المفرِّ ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا ملجأَ، مُستعارٌ مِن الجبلِ، واشتقاقُهُ مِن الوِزْرِ وهو الثِّقلُ.

(١٢) ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾: إليه وحدَهُ استقرارُ العبادِ، أو: إلى حكمِهِ استقرارُ أمرِهِم، أو: إلى مشيئَتِه موضعُ قرارِهِم، يُدخِلُ مَن يشاءُ الجنَّةَ ومَن يَشاءُ النَّارَ.

(١٣) ـ ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بما قَدَّمَ مِن عملٍ عَمِلَهُ وبما أَخَّرَ منه لم يعمَلْه، أو: بما قدَّمَ مِن عملٍ عَمِلَه وبما أَخَّرَ مِن سُنَّةٍ حسنَةٍ أو سيِّئَةٍ عُملَ بها بعدَهُ، أو: بما قدَّمَ مِن مال تصدَّقَ به وبما أَخَّرَ فخلَّفَهُ، أو: بأوَّلِ عَمَلِهِ وآخرِهِ.

(١٤) ـ ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾: حجةٌ بيِّنةٌ على أعمالِها؛ لأنَّه شاهدٌ بها[١]، وصَفَها بالبَصَارةِ على المجازِ، أو: عينٌ بَصيرَةٌ فلا يحتاجُ إلى الإنباءِ.

(١٥) ـ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾: ولو جاءَ بكلِّ ما يمكنُ أن يُعتذَرَ به، جمعُ معذارٍ وهو العذرُ، أو جمعُ مَعْذِرةٍ على غيرِ قياسٍ كالمناكيرِ في المُنكَرِ، فإنَّ قياسَهُ: معاذرُ، وذلك أولى وفيهِ نَظرٌ[٢].

(١٦) ـ ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمَّدُ ﴿بِهِ﴾: بالقرآنِ ﴿لِسَانَكَ﴾ قَبلَ أن يَتمَّ وحيُه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾: لتأخذَهُ على عجلةٍ مخافةَ أَنْ يَتفلَّتَ منك.

= «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤١)، و«البحر» (٢١/ ١١٢).

(١) قولُه: «لأنَّه شاهدٌ بها»؛ أي: بالأعمالِ على نفسه في يومِ القيامةِ، حيثُ تنطقُ أعضاؤُه بما عمِلَ فيكون شاهدا على نفسه بشهادة جوارحه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٤١٧).

(٢) قولُه: «وذلكَ أولى»؛ أي: كونُه جمعَ «مِعذارٍ» لـجَريِه على القياسِ، إلاّ أنَّ في ثبوتِ المِعذارِ بمعنى العُذرِ نظرًا؛ لأنَّه لـم يُسمَعْ منَ الثِّقاتِ، أو سُمِعَ بمعنى السِّترِ، كما رُوِيَ عن الضَّحّاكِ، والجمعُ يحتملُ أن يكونَ لـ«معذِرةٍ» وأُشبِعَتْ حركتُه فمُدَّ لذلكَ، والمعذِرةُ ـ مُثلَّثَ الذّالِ ـ العُذرُ. قاله الخفاجي.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: وإثباتَ قراءَتِه في لِسانِكَ، وهو تعليلٌ للنَّهيِ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ بلسانِ جبرئيلَ عليكَ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: قراءتَهُ وتكرَّرْ فيه حتى يرسخَ في ذهنِكَ.

(١٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: بيانَ ما أشكلَ عليكَ مِن مَعانيهِ، وهو دليلٌ على جوازِ تَأخيرِ البَيانِ عَن وقتِ الخطابِ، وهو اعتراضٌ بما يؤكِّدُ التَّوبيخَ على حبِّ العجلةِ؛ لأنَّ العجلةَ إذا كانَتْ مذمومةً فيما هو أهَمُّ الأمورِ وأصلُ الدِّينِ، فكيفَ بها في غيرِه؟

أو بذكرِ[١] ما اتَّفقَ في أثناءِ نزولِ هذه الآياتِ.

وقيل: الخطابُ مع الإنسانِ المذكورِ، والمعنى: أنَّه يُؤتَى كِتابَه فيتلجلَجُ لسانهُ مِن سُرعَةِ قِراءتِه خوفًا، فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بمُقْتَضى الوَعدِ جمْعَ ما فيه مِن أَعمالِكَ وقراءتَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ﴾ قراءَتَهُ بالإقرارِ أو التَّأمُّلِ[٢] فيه، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بيانَ أمرِهِ بالجَزاءِ عليه.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للرَّسولِ عن عادةِ العجلةِ[٣]، أو للإنسانِ عَن الاغترارِ بالعاجلِ.

---

(١) قوله: «أو بذكر» عطف على «بيان ما أشكل».

(٢) في نسخة الخيالي: «فاتبع قرآنه بالإقرار والتأمل».

(٣) قوله: «﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لرسُول الله عن عادة العَجَلَةِ» هذا الكلام من المؤلف تابع فيه الزمخشري في «الكشاف» وفيه ما لا يجوز استعمالُه في حق الأنبياء، ثم إن الزمخشري لم يكتف بذلك بل صرف النص عن ظاهره بجعل الخطاب لرسول الله في مسألة العجلة بتحريك لسانه في تلقي القرآن من جبريل، وليس المعنى عليه كما سيأتي، كما أنه ليس في عمل النبي ﷺ ما يستدعي هذا الردع والزجر، بل كل ما في الأمر هو حرصه على حفظ كتاب الله واستيعابه، وهذا مما يمدح عليه ﷺ، فكيف لرب العزة أن يخاطب رسوله بخطاب الردع بسبب خوفه على دين الله وحرصه على كتابه؟! وإنما كان الكلام الماضي إرشاداً لنبي الله ﷺ بأن يهون على نفسه، وطمأنة له بتكفل الله سبحانه =

= بحفظ كتابه أن ينساه رسوله أو يتفلت منه شيء منه، وقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ المراد منه حب الدنيا والعمل لها مع ترك الآخرة والإعراض عن العمل لها والتدبر فيها، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فإن ذاك ملوح إلى معنى ﴿بَلْ تُحِبُّونَ...﴾ وقوله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ متوسط بين حبي العاجلة: حبها الذي تضمنه ﴿بَلْ يُرِيدُ...﴾ تلويحاً، وحبها الذي آذن به ﴿بَلْ تُحِبُّونَ...﴾ تصريحاً، ولعل الحكمة في هذا الاعتراض هو بيان الفرق بين الحريص على دين الله الخائف لأن ينسى منه ولو حرفا، وبين الحريص على الدنيء والملذات العاجلة الناسي لأمر الآخرة، وفيه من المديح لنبي الله ما فيه، وليس ردعاً كما قال المؤلف، بل لم يكتف بذلك حتى سماه توبيخاً كما سيأتي في جوابه عن السؤال الآتي، فإن أراد بالتوبيخ النبي ﷺ كما أراد هنا الردع فهو الطامة الكبرى، وإن أراد توبيخ الناسي على حب الدنيا وترك الآخرة فقد ناقض نفسه في تفسير الآية.

ويؤيد ما قلناه قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، فلو كان الخطاب في ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ للنبي ردعاً عن العجلة فما علاقة ترك الآخرة بذلك، ولا شك أن النبي ﷺ ليس ممن يدع الآخرة ويحب العاجلة.

وقد أشار الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٧٢٩) إلى مخالفة الزمخشري للمفسرين فيما ذهب إليه، فقال: قال صَاحِبُ «الكشاف»: «﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة... »، وقال سائرُ المفسرين: ﴿كَلَّا﴾ معناه: حقًّا؛ أي: حَقًّا ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، والمعنى: أنَّهم يُحبُّون الدنيا ويعملون لها ويَتركون الآخرة ويُعرِضون عنها.

كما أشار الطيبي إلى التوسط الذي ذكرناه مع تعليل ذلك بقوله: أقول قولاً إن أصاب فمن لطف الله تعالى وفيض كرمه، وإلا فأنا أستغفر الله من ذلك: إن قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، متصل بقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أي: يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كلا، إن أعذارك غير مسموعة، لأنك فجرت وفسقت، وظننت أنك تدوم على فجورك، وأن لا حشر ولا عقاب، وذلك من حبك العاجلة والإعراض عن الآخرة، وكان من عادته صلوات الله عليه، إذا لُقّن الوحي، أن ينازع جبريل القراءة ويتعجل فيها، وقد اتفق عند التلقين بالآيات السابقة، ما جرت به عادته من العجلة، فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام، بتأديبه في أخذ القراءة، وألقى إليه تلك الكلمات، ثم عاد إلى إتمام ما بُدئ به بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾. مثاله الشيخ إذا لقن درساً =

﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميمٌ للخِطابِ إشعارًا بأنَّ بني آدم مَطبوعونَ على الاستعجالِ، وإن كانَ الخِطابُ للإنسانِ والمرادُ به الجنسُ فجَمعُ الضَّميرِ للمَعنى، ويؤيِّدُه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ والبَصريَّينَ باليَاءِ فيهِمَا[1].

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾: بهيَّةٌ مُتهلِّلَةٌ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تراهُ مُستغرِقَةً في مُطالعَةِ جَمالِهِ بحيثُ تغفلُ عمَّا سِوَاهُ، ولذلك قدَّمَ المفعولَ، وليس هذا في كلِّ الأحوالِ حتى ينافيَهُ نظرُهَا إلى غيرِه.

وقيل: منتظرةٌ إنعامَهُ، ورُدَّ بأنَّ الانتظارَ لا يُسنَدُ إلى الوجهِ، وتَفسيرُهُ[2] بالجملةِ خِلافُ الظَّاهرِ، وأنَّ المستعملَ بمعناه لا يُعَدَّى بـ(إلى)، وقولُ الشَّاعرِ:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ ... وَالبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا[3]

بمَعنى السُّؤالِ فإنَّ الانتظارَ لا يَستَعْقِبُ العَطاءَ.

(٢٤) ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾: شديدةُ العُبوسِ، والباسِلُ أبلَغُ من الباسِرِ، لكنَّهُ غلَبَ في الشُّجَاعِ إذا اشتدَّ كُلوحُهُ.

= تلميذه وألقى فصلاً، ويراه في أثناء ذلك يستعجل ويضطرب، فيقول له: لا تعجل، فإني إذا فرغت إن كان لك إشكال أزيله، أو تخاف فوتاً فإني أكرر لك حتى أحفظكه، ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتمه. وقراءة (يحبون) بالياء صريح في أن الكلام مع الإنسان، ولا يتعدى إلى غيره.

ولقد أحسن أبو حيان إذ أضرب عن نقل كلام الزمخشري، فقال في «البحر» (٢١/ ١٢٢): وقال الزمخشري: ﴿كَلَّا﴾ ردع. وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٢) في هامش نسخة الخيالي: «أي تفسير الوجه».

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٣٩٦).

(٢٥) ـ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: يَتوقَّعُ أربابُها أن يُفعل بها فاقرةٌ: داهيةٌ تكسِرُ الفَقَارَ.

(٢٦) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾: إذا بلغَتِ النَّفسُ أَعاليَ الصَّدرِ، وإضمارُهَا مِن غيرِ ذكرٍ لدَلالةِ الكَلامِ عليها.

(٢٧) ـ ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ وقال حاضرو صاحبِها: مَن يرقيهِ ممَّا به، مِن الرُّقْيَةِ، أو قال ملائكةُ الموتِ: أَيُّكُم يَرْقَى بروحهِ: ملائكةُ الرَّحمةِ أو مَلائكَةُ العَذابِ، مِن الرُّقيِّ.

(٢٨) ـ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾: وظنَّ المحتضَرُ أنَّ الذي نزلَ به فراقُ الدُّنيا ومحابِّها.

(٢٩) ـ ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾: والتوَتْ ساقُهُ بسَاقِه فلا يقدرُ تحريكَها، أو: شِدَّةُ فراقِ الدُّنيَا بشِدَّةِ خوفِ الآخرةِ.

(٣٠) ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾: سَوقه إلى اللهِ وحُكمِه.

(٣١) ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجبُ تَصديقُهُ، أو: فلا صدَّقَ مالَه؛ أي: فلا زكَّاهُ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرِضَ عليه، والضَّميرُ فيهما للإنسانِ المذكورِ في ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطَّاعةِ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبخترُ افتِخارًا بذلك، مِن المطِّ؛ فإنَّ المُتبختِرَ يمدُّ خطاهُ، فيكونُ أصلُهُ: يَتمطَّطُ.

أو مِن المطا وهو الظَّهرُ فإنَّه يُلَوِّيه.

(٣٤) ـ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: ويلٌ لكَ، مِن الوَلْيِ، وأصلُه: أولاكَ اللهُ ما تكرَهُه، واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، أو: أَولَى لكَ الهَلَاكُ.

وقيل: أفعَلُ مِن الويلِ بعدَ القلبِ؛ كأَدْنَى مِن «دون»، أو: فَعْلى مِن «آلَ يؤولُ» بمَعنى: عقباكَ النَّارُ.

(٣٥) ـ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾؛ أي: يتكرَّرُ ذلك عليه مرَّةً بعدَ أُخرَى.

(٣٦) ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: مُهمَلًا لا يكلَّفُ ولا يجازَى، وهو يتضمَّنُ تكريرَ إنكارِه للحشرِ، والدلالةُ عليه مِن حيثُ إنَّ الحكمةَ تَقتَضِي الأمرَ بالمَحاسنِ والنَّهيَ عَن القبائحِ، والتَّكليفُ لا يتحقَّقُ إلَّا بمُجازاةٍ، وهي قد لا تَكونُ في الدُّنيا فتكونُ في الآخرةِ.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: فقدَّرَهُ فعدَّلهُ، وقرأ حفصٌ: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالتاء[1].

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾: الصِّنفينِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وهو استدلالٌ آخَرُ بالإبداءِ على الإعادةِ على ما مرَّ تَقريرُهُ مرارًا، ولذلك رتَّبَ عليهِ قولَه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وعَن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: أنَّه كانَ إذا قرأَهَا قال: «سبحانكَ بلى»[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٢)، و«التيسير» (ص: ٢١٧).

(٢) رواه أبو داود (٨٨٤)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (٦٢٤)، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال: «سبحانك فبلى». فسألوه عن ذلك، قال: «سمعته من رسول الله ﷺ». ورجاله ثقات إلا أن موسى بن أبي عائشة لم يرو عن أحد من الصحابة، وروايته إنما هي عن التابعين، وقد ذكروا أنه كثير الإرسال. ويؤيد هذا رواية أبي عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٥١) عن موسى بن أبي عائشةَ، عن رجلٍ، عن آخرَ، عن آخرَ: أنه كان يَقرأ فوق بيتٍ له... الحديث.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مقتصراً على كلمة: «بلى»، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي هريرة. ورواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٧٠)، وابن المنذر وابن مردويه من حديث جابر رضي اللّه عنه، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٣٦٤). =

وعنه عليهِ السَّلامُ: «مَن قرَأَ سورةَ القيامَةِ شَهِدْتُ له أنا وجبرئيلُ يومَ القيامةِ أنَّه كانَ مُؤمِنًا بِهِ»(١).

***

= ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٢٨) عن قتادة قال: ذُكِرَ لنا أنَّ نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى».

ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٥١)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣١٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً بلفظ: «سبحانك اللهم وبلى». وهكذا رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٠٥١) لكن دون واو قبل «بلى».

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ١٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٩٠)، من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه. قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٥) سُورَةُ القِيَامَةِ مَكِّيَّة
وآياتها أربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

قد تقدم أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللَّوَّامة﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، والصحيح أنه أقسم بهما معاً وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير، فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال الحسن البصري: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعاتب نفسه، وعن سماك أنه سأل عكرمة عن قوله ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا، وعن سعيد بن جبير قال: تلوم على الخير والشر، وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن عباس: اللوامة المذمومة، وقال قتادة: ﴿اللوامة﴾ الفاجرة، قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾؟ أي يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ قال ابن عباس:

أن نجعله خفاً أو حافراً[1] ، والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿ قادرين ﴾ حال من قوله تعالى ﴿ نجمع ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية ، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج ، وقوله: ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ قال ابن عباس: يعني يمضي قدماً ، وعنه: يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة ، وقال مجاهد ﴿ ليفجر أمامه ﴾ : ليمضي أمامه راكباً رأسه ، وقال الحسن: لا يلفى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى ، وروي عن غير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويسوّف التوبة ، وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب ، وهذا هو الأظهر من المراد ، ولهذا قال بعده: ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ ؟ أي يقول متى يكون يوم القيامة ، وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ ، وقال تعالى ههنا: ﴿ فإذا برق البصر ﴾ بكسر الراء أي حار كقوله تعالى: ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله تعالى : ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوؤه ، ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ قال مجاهد: كوّرا ، كقوله ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿ أين المفر ﴾ ؟ أي هل من ملجأ أو موئل ، قال الله تعالى: ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: أي لا نجاة ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾ أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال ههنا: ﴿ لا وزر ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه ، ولهذا قال: ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي المرجع والمصير ، ثم قال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها كما قال تعالى: ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ، وهكذا قال ههنا: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، كما قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقال ابن عباس ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ يقول: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه ، وقال قتادة: شاهد على نفسه ، وفي رواية قال: إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم ، غافلاً عن ذنوبه وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الجذع في عينك لا تبصره ، وقال مجاهد: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها ، وقال قتادة: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه ، وقال السدي: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ حجته ، واختاره ابن جرير ، وقال الضحّاك: ولو ألقى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار ، والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحّاك ، قال ابن جرير : أي في الدنيا لو شاء لجعل ذلك .

لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾، وقال ابن عباس: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ هي الاعتذار ألم تسمع أنه قال: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ ؟

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

هذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿إن علينا جمعه﴾ أي في صدرك، ﴿وقرآنه﴾ أي أن تقرأه، ﴿فإذا قرأناه﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له وأنصت، ﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه»[1]. وفي رواية للبخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزَّ وجلَّ، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه، خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾[2]. وقال ابن عباس: كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه﴾ أن نجمعه لك ﴿وقرآنه﴾ أن نقرئك فلا تنسى، وقال ابن عباس ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة.

وقوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي تراه عياناً، كما رواه البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً» وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟»

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

قالوا: لا ، قال: « إنكم ترون ربكم كذلك »[1]. وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر ، فقال: « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا »[2] ، وفي الصحيحين عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عزَّ وجلَّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[3]. وفي مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ! قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة »، ثم تلا هذه الآية: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[4] ، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عزَّ وجلَّ في العرصات وفي روضات الجنات ، وروى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين »[5] ، قال الحسن ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال: حسنة، ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق، وقوله تعالى: ﴿ ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد ﴿ باسرة ﴾ أي عابسة ﴿ تظن ﴾ أي تستيقن ﴿ أن يفعل بها فاقرة ﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة ﴾، وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية ﴾ وأشباه ذلك من الآيات الكريمة .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

---

(١) أخرجه الشيخان .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه مسلم .
(٥) أخرجه أحمد والترمذي .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار، وما عنده من الأهوال، ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت، فقال تعالى: ﴿ كلا إذا بلغت التراقي﴾ إن جعلنا (كلا) رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر أي حقاً إذا بلغت التراقي أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي جمع (ترقوة) وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق كقوله تعالى: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾، ﴿وقيل من راق﴾ ؟ قال ابن عباس: أي من راق يرقي ؟ وقال أبو قلابة ؟ أي من طبيب شاف[1]. وعن ابن عباس: ﴿ وقيل من راق﴾ قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب[2] ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ والتفت الساق بالساق﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة، وعنه ﴿والتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، وقال عكرمة: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء، وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا، وكذا قال السدي عن الحسن: هو لفهما في الكفن، وقال الضحّاك: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله تعالى: ﴿ إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذَّب وتولى﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي جذلان أشراً بطراً، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور﴾ أي يرجع، وقال ابن عباس: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي يختال، وقال قتادة: يتبختر، قال الله تعالى: ﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾ وهذا تهديد ووعيد من الله تعالى للكافر، المتبختر في مشيه، أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، وذلك على سبيل التهكم والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، وكقوله تعالى: ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ وكقوله جلَّ جلاله: ﴿ اعملوا ما شئتم﴾ إلى غير ذلك، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾ ؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عزَّ وجلَّ[3]. وقال قتادة في قوله: ﴿ أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى﴾ وعيد على أثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبيُّ الله ﷺ بمجامع ثيابه ثم قال: « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى »، فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدني يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها[4].

---

(١) وكذا قال قتادة والضحّاك وابن زيد.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه النسائي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ؟ قال السدي: يعني لا يبعث ، وقال مجاهد: يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يمنى ﴾ أي يراق من الأصلاب في الأرحام ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوّى ﴾ أي فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سوياً، سليم الأعضاء ذكراً أو أُنثى بإذن الله وتقديره: ولهذا قال تعالى: ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة، بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، روى أبو داوود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين؛ ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى قوله ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله »[1]. وعن قتادة قوله تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: « سبحانك وبلى »[2]. وكان ابن عباس إذا مر بهذه الآية: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ قال: سبحانك فبلى[3].

[آخر تفسير سورة القيامة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه أبو داود وأحمد ، ورواه الترمذي بنحوه .
(٢) أخرجه ابن جرير .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة القيامة

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفى . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . هكذا [١] حكاه ابن أبى حاتم . وقد حكى ابن جرير ، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ : « لأقسم [بيوم القيامة][٢] » ، وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال قرة بن خالد ، عن الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن ـ والله ـ ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قُدُما ما يعاتب نفسه .

وقال جُوَيْبر : بلغنا عن الحسن أنه قال فى قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح بن[٣] مسلم ، عن إسرائيل ، عن سماك : أنه سأل عِكْرِمة عن قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ قال : يلوم [٤] على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا .

(١) فى م : « كذا » .
(٢) زيادة من م .
(٣) فى م : « عن» .
(٤) فى م : « تلوم » .

ورواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن وكِيع عن إسرائيل [(١)] .

وقال ابن جرير :حدثنا محمد بن بشار ،حدثنا مؤمل ،حدثنا سفيان،عن ابن جُرَيج ،عن الحسن ابن مسلم، عن سعيد بن جبير فى : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : تلوم على الخير والشر .

ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك : فقال : هى النفس اللؤوم[(٢)] .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة .

وقال قتادة : ﴿ اللَّوَّامَةِ ﴾ : الفاجرة .

قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ،وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ ، قال سعيد بن جُبَير والعَوفى، عن ابن عباس : أن نجعله [(٣)]خُفّا أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجَّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك فى الدنيا .

والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ ،حال من قوله :﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أى : أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه ــ وهى أطراف أصابعه ــ مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ، قال سعيد ، عن ابن عباس : يعنى يمضى قدما .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يعنى : الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدى القيامة .

وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قُدُما ، إلا من عصمه الله .

ورُوى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعجَل الذنوبَ ويُسوِّف التوبة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم

(١ ، ٢) تفسير الطبرى (٢٩/١٠٩) .

(٣) فى أ:« أن نحوله» .

القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ،قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرِق ﴾ بكسر الراء ،أى : حار . وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى : ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء ؛ من شدة الرعب .

وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ، قال مجاهد : كُوِّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١، ٢] وروُى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وجُمع بين الشمس والقمر » .

وقوله : ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة .

وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا :﴿ لا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ،عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول : سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه .

وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت ــ والله ــ رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تُبصر القَذَاة فى عين أخيك ، وتترك الجِذْل (١) فى عينك لا تبصره .

---

(١) فى م:« وتترك الجذع » .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال السدى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

وقال قتادة ، عن زرارة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ، يقول : لو ألقى ثيابه .

وقال الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر : المعذار .

والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ هى الاعتذار[١] ، ألم تسمع أنه قال : ﴿ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر:٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ [النحل:٨٧] ، ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ [النحل:٢٨] ، وقولهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾ .

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابقُ المَلَكَ فى قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه فى صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة [٢] الأولى جمعُه فى صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى : فى صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أى : أن تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ،﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أى :فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن أبى عَوَانة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه ــ قال : فقال لى ابن عباس : أنا أحرك شفتى[٣] كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال

(١) فى أ : « هى الأعذار » . (٢) فى م : « فالحال » . (٣) فى أ : « أنا أحركهما ».

لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ـ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه [١] .

وقد رواه البخارى ومسلم ، من غير وجه ، عن موسى بن أبى عائشة ، به[٢] . ولفظ البخارى: فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى التيمى ، حدثنا موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يلقى منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عُرف فى تحريكه شفتيه ،يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره ، فأنزل الله : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

وهكذا قال الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْآنَهُ ﴾ : أن نقرئك فلا تنسى.

وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : تبيين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة.

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ، من النضارة ، أى حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، رحمه الله ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيَانا » [٤] . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة ـ وما فى الصحيحين ـ : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا. قال : « فإنكم تَرَونَ ربكم كذلك»[٥] .وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَون ربكم كما تَرَون هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل

---

(١) المسند (١/٣٤٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٧،٤٩٢٨) ، وصحيح مسلم برقم (٤٤٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٩) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥) من حديث جرير رضى الله عنه .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٧،٧٤٣٨) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٢) .

غروبها فافعلوا » (١) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « جَنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضَّة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رِدَاء الكبرياء على وجهه فى جنة َعدن » (٢) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تُبَيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ،وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] (٣).

وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يَتَجلَّى للمؤمنين يضحك »(٤) ــ يعنى فى عرصات القيامة ــ ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون(٥) إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عبد الملك بن أبجر ، حدثنا ثُوَير(٦) بن أبى فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه . وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » (٧) .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن شَبَابة ، عن إسرائيل،عن ثُوَير قال : « سمعت ابن عمر . . ». فذكره ، قال :« ورواه عبد الملك بن أبجر ، عن ثُوَير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قوله » . وكذلك رواه الثورى ، عن ثُوَير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، ولم يرفعه (٨). ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا فى مواضعَ من هذا التفسير ، وبالله التوفيق(٩) . وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ،كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُدَاة الأنام .

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ ﴿ إِلَى ﴾ مفرد الآلاء ، وهى النعم ،كما قال الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، فقال تنتظر الثواب من ربها . رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد . وكذا قال أبو صالح أيضا ــ فقد أبعد هذا القائل (١٠) النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ؟ [المطففين:١٥]، قال الشافعى ، رحمه الله: ما حَجَب الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه عز وجل . ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة ،وهى قوله:﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. قال ابن جرير :

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ، وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٠) .
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨١) .
(٤) صحيح مسلم برقم (١٩١) .
(٥) فى م :« ينظروا » .
(٦) فى م ، أ : « حدثنا يزيد » .
(٧) المسند (٢/١٣) .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) .
(٩) وانظر : كتاب النهاية فى الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير (٢/ ٣٠٠) فقد أطال فى ذكر أحاديث الرؤية.
(١٠) فى م :« الناظر » .

حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا آدم ، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ قال: حسنة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، قال: تنظر إلى الخالق ، وحُقّ لها أن تَنضُر وهى تنظر إلى الخالق [(١)] .

وقوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة . قال قتادة : كالحة . وقال السدى : تغير ألوانها . وقال ابن زيد : ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ أى : عابسة .

﴿ تَظُنُّ ﴾ أى : تستيقن ، ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة : شر . وقال السدى : تستيقن أنها هالكة . وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار .

وهذا المقام كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦] ، وكقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨ــ ٤٢]، وكقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية:٢ ــ ١٠] ، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات .

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ــ ثبتنا الله هناك بالقول الثابت ــ فقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، إن جعلنا ﴿ كَلَّا ﴾ رادعة فمعناها : لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانا . وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر ، أى : حقا إذا بلغت التراقى ، أى : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك ، والتراقى : جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، كقوله : ﴿ فَلَوْلَا [(٢)] إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الواقعة:٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، ويذكر هاهنا حديث بُسْر بن جِحَاش الذى تقدم فى سورة « يس » [(٣)]. والتراقى : جمع ترقوة ، وهى قريبة من الحلقوم .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ١١٩) .

(٢) فى أ :« كلا » وهو خطأ .

(٣) حديث بسر بن جحاش ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٣١٠) من طريق جبير بن نفير ، عن بسر بن جحاش : أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت ،حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟!» وقد سبق عند تفسير الآية : ٧٧من سورة يس .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : عكرمة ، عن ابن عباس : أى من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : قيل : من يرقى بروحه : ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة .

وبهذا الإسناد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة . وكذا قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، يقول : آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله .

وقال عكرمة : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء ببلاء . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، هما ساقاك إذا التفتا [(١)] . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان عليهما جوالا. وكذا قال السدى ، عن أبى مالك .

وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن .

وقال الضحاك : ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أى : جَذلا[(٢)] أشرا بَطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أى: يرجع ، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾[الانشقاق: ١٣ـ ١٥].

وقال الضحاك : عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ [أى][(٣)] : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر .

قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ،وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر فى مشيته ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال

(١) فى أ : « إذا التقيا » . (٢) فى م: « أى جزلان » . (٣) زيادة من م .

فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] ، وكقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات:٤٦] ، وكقوله : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] . إلى غير ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن سنان الواسطى، حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى ابن مهدى ـ عن إسرائيل ، عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت سعيد بن جبير قلت : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ؟ قال : قال النبى ﷺ لأبى جهل ، ثم نزل به القرآن .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى : حدثنا إبراهيم بن يعقوب (١) ، حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عوَانة ـ (ح) وحدثنا أبو داود : حدثنا محمد بن سليمان (٢) ، حدثنا أبو عوانة ـ عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ؟ قال: قاله رسول الله ﷺ (٣) ثم أنزله الله عز وجل (٤).

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا شعيب بن إسحاق ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ : وعيد على أثر وعيد ، كما تسمعون ، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نَبىّ الله بمجامع ثيابه ، ثم قال : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . فقال عدو الله أبو جهل : أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإنى لأعز من مشى بين جبليها .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث .

وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى .

والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد (٥)، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سَوياً سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ

(١) فى م ، أ ، هـ :« يعقوب بن إبراهيم » والمثبت من سنن النسائى الكبرى (١١٦٣٨) .
(٢) فى م :« عن ابن سليمان ». (٣) فى م : « قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل » .
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٣٨) .
(٥) فى أ :« والفساد » .

عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . والأول أشهر كما تقدم فى سورة « الروم » بيانه وتقريره ، والله أعلم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ،حدثنا شبابة ، عن شعبة ، عن موسى ابن أبى عائشة ، عن آخر : أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن ، فإذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ قال : سبحانك اللهم فبلى .فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .وقال أبو داود ، رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن موسى بن أبى عائشة قال : كان رجل يصلى فوق بيته ، فكان إذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ قال[1] : سبحانك ، فبلى ، فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ .

تفرد به أبو داود [2]، ولم يسم هذا الصحابى ، ولا يضر ذلك .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إسماعيل بن أمية : سمعت أعرابيا يقول : سمعت أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فانتهى إلى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ فليقل : بلى . ومن قرأ : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ فبلغ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله» .

ورواه أحمد ، عن سفيان بن عيينة . ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، عن سفيان بن عيينة[3]. وقد رواه شعبة ، عن إسماعيل بن أمية قال : قلت له : من حدثك ؟ قال رجل صدق ، عن أبى هريرة[4] .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ،حدثنا يزيد ،حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ذُكرَ لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سبحانك وبلى »[5] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ،حدثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ ، قال : سبحانك ؛ فبلى .

آخر تفسير سورة « القيامة » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى م :« فقال » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٨٨٤) ، ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٣١٠) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٨٨٧) ، والمسند (٢/ ٢٤٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٧) . وقد جاء تسمية هذا الأعرابى فى رواية الحاكم ، فرواه فى المستدرك (٢/ ٥١٠) من طريق يزيد بن عياض ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبى اليسع ، عن أبى هريرة بنحوه وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . قلت : يزيد بن عياض كذاب .

(٤) انظر : تحفة الأشراف للمزى(١١/ ١٠٥) ، وقد ذكر له متابعات أخرى .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٢٥) .

سورة القيامة

مكّيّة، وهي تسع وثلاثون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إدخال ﴿لَآ﴾ النافية على فعل القسَم شائع، وفائدتها توكيد القسَم. قالوا: إنّها صِلة مِثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]. وقيل: هي للنفي، لكنّ لا لنفي نفس الإقسام؛ بل لنفي ما يُنبئ هو عنه مِن إعظام المقسَم به وتفخيمه، كأنّ معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بكذا: "لا أعظِمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فإنّه حقيق بأكثرَ مِن ذلك وأكثرَ".[1]

وأمّا ما قيل: مِن أنّ المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر فقد عرفتَ ما فيه في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة، ٧٥/٥٦]. وقيل: إنّ ﴿لَآ﴾ نفيٌ وردٌّ لكلام معهود قبل القسَم، كأنّهم أنكروا البعث، فقيل: لا، أي: ليس الأمر كذلك، ثمّ قيل: أقسمُ بيوم القيامة، كقولك: لا والله إنّ البعث حقّ.[2]

وأيًّا ما كان ففي الإقسام على تحقُّق البعث بيوم القيامة مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه، وقد مرّ / تفصيله في سورة يس[3] وسورة الزخرف.[4] [٢٤٥و]

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: بالنّفس المتّقية التي تلوم النفوسَ يومئذ على تقصيرهنّ في التقوى، ففيه طَرَف مِن البراعة التي في القَسَم السابق،

---

[1] الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

[2] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

[3] في تفسير الآية الثالثة منها.

[4] في تفسير الآية الرابعة منها.

أو بالنفس التي لا تزال تلوم نفسَها وإن اجتهدت في الطاعات، أو بالنفس المطمئنّة اللائمة للنفس الأمّارة.

وقيل: بالجنس، لِما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «ليس مِن نفس برّة ولا فاجرة إلّا وتلوم نفسَها يوم القيامة، إن عملتْ خيرًا قالت: كيف لم أزدَد؟ وإن عملتْ شرًّا قالت: ليتني كنت قصرتُ».[١] ولا يخفى ضعفُه، فإنّ هذا القَدْر مِن اللوم لا يكون مَدارًا للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المُسيئة، فكيف مِن الكافرة المندرِجة تحت الجنس. وقيل: بنفس آدمَ عليه السلام؛ فإنّها لا تزال تتلوَّم على فعلها الذّي خرجتْ به مِن الجنّة.[٢]

وجواب القسَم ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو "لَيُبعثنّ"، والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الجنس و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"أنْ" مخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: أيحسَب أنّ الشأن لن نجمَع عظامه، فإنّ ذلك حسبان باطل، فإنّا نجمعها بعد تشتُّتها ورجوعها رميمًا ورفاتًا مختلطًا بالتراب، وبعدما سفَتها الرياح وطيَّرتها في أقطار الأرض وألقتها في البحار.

وقيل: إنّ عديّ بن أبي ربيعة خَتَنَ الأخنسِ بن شَريق[٣] وهما اللذان كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول فيهما: «اللّٰهمّ اكفني جارَي السَّوء»، قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمّد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أَمره؟» فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدِّقك، أوَيجمعُ الله هذه العظامَ».[٤]

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نجمعها حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: نجمع سُلَامَيَاتِه ونضمّ بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها، فكيف بكِبار العِظام؟

---

١ القول مع الحديث في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧١/٣. وما وقفت على الحديث في مظانّه.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

٣ كأنّها ضُبطت في م بضمّ الشين.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٥/٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

أو على أن نُسوِّي أصابعه التي هي أطرافه وآخِرُ ما يتمّ به خلقه. وقُرِئ: "قَادِرُونَ"[١]
/ أي: نحن قادرون. [٢٤٥ظ]

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾، إمّا على أنّه استفهام مثله أُضرِب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنّه إيجاب انتُقِل إليه عن الاستفهام، أي: بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه مِن الأوقات وما يستقبله مِن الزمان لا يُرعوى عنه.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يكون استبعادًا أو استهزاءً.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: تحيَّر فزَعًا مِن "بَرِقَ الرجلُ" إذا نظر إلى البَرْق فدهش بصره. وقُرِئ بفتح "الراء"،[٢] وهي لغة، أو مِن البريق بمعنى لمَع مِن شدّة شخوصه، وقُرِئ: "بَلِقَ"[٣] أي: انفتح وانفرج.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوءه. وقُرِئ على البناء للمفعول.[٤]

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ بأن يُطلِعهما الله تعالى مِن المغرِب. وقيل: جُمعا في ذهاب الضوء. وقيل: يُجمعان أسودين مُكوَّرين كأنّهما ثوران عَقيران في النار.[٥] وتذكيرُ الفعل لتقدُّمه وتغليب المعطوف.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ تقع هذه الأمور ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: الفرار

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والصّرصري والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٧.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة وابن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٩.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٤.

يأسًا منه. وقُرئ بالكسر،[١] أي: موضع الفرار. وقد جُوّز أن يكون هو أيضًا مصدرًا كـ"المَرجِع".[٢]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ مِن طلب المفرّ وتمنّيه ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا مَلجأ، مُستعار مِن الجبل. وقيل: كلّ ما التجأتَ إليه وتخلّصت به فهو وَزَرك.[٣]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إليه وحدَه استقرارُ العباد، أو إلى حكمه استقرارُ أمرهم، أو إلى مشيئته موضعُ قرارهم، يُدخِل مَن يشاء الجنّة ومَن يشاء النار.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يُخبَر كلّ امرئ برًّا كان أو فاجرًا عند وزن الأعمال ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: عمِل مِن عَمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُثاب بالأوّل ويُعاقَب بالثاني، ﴿وَأَخَّرَ﴾ أي: لم يعمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُعاقَب بالأوّل ويُثاب بالثاني، أو بما قدّم مِن حسنة أو سيّئة وبما أخّر مِن سُنّة حسَنة أو سيّئة فعُمل بها بعده، أو بما قدّم / مِن مال تصدّق به في حياته وبما أخّر فخلّفه أو وَقَفه أو أوصى به، [٢٤٦و] أو بأوّل عمله وآخره.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي: حجّة بيّنة على نفسه شاهدة بما صدَر عنه مِن الأعمال السيّئة، كما يُعرِب عنه كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ وما سيأتي مِن الجملة الحاليّة، وُصفت بالبَصارة مجازًا، كما وُصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل، ١٣/٢٧]؛ أو عين بصيرة، أو "التاء" للمبالغة، ومعنى ﴿بَلْ﴾ الترقّي، أي: ينبّأ الإنسان بأعماله؛ بل هو يومئذ عالمٌ بتفاصيل أحواله شاهِدٌ على نفسه؛ لأنّ جوارحه تنطِق بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو جاء بكلّ مَعذِرة يمكن أن يُعتذَر بها عن نفسه، حالٌ مِن المُستكِنّ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو مِن مرفوع ﴿يُنَبَّؤُا﴾، أي: هو بصيرة على نفسه تشهَد عليه جوارحه وتُقبل شهادتها، ولو اعتذَر بكلّ معذِرة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين بن عليّ والحسن بن يزيد وابن عبّاس والزُّهري وعكرمة وأيّوب السختياني وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٥٩.

٢ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٤٩٨/٤.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٤.

أو يُنبَأ بأعماله ولو اعتذر... إلخ. والمعاذير اسم جمع للمَعذِرة، كـ"المَناكير" اسم جمع لـ"المُنكَر". وقيل: هو جمع "مِعذار" وهو الستر، أي: ولو أرخى سُتوره.[1]

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا لُقِّن الوحيَ نازع جبريلَ عليه السلام القراءةَ ولم يصبر إلى أن يُتمَّها مُسارعةً إلى الحفظ وخوفًا مِن أن يتفلّت منه، فأُمِر عليه السلام بأن يستنصت له مُلقيًا إليه قلبه وسمعه حتّى يُقضى إليه الوحي ثمّ يقفِّيه بالدراسة إلى أن يرسَخ فيه.[2] فقيل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ عند إلقاء الوحي ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: لتأخُذه على عجَلة مخافةَ أن يتفلّت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء مِن معانيه ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريلَ عليه السلام. وإسنادُ القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التأنّي. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فكن مقفِّيًا له ولا تُراسله.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بيان ما أشكَل عليك مِن معانيه وأحكامه.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له صلّى الله عليه وسلّم عن عادة العجَلة، وترغيبٌ له في الأناة، وأكِّد ذلك / بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ على تعميم الخطاب للكلّ، أي: بل أنتم يا بني آدمَ لِما خُلِقتم مِن عَجَل وجُبِلتم عليه تعجَلون في كلّ شيء، ولذلك تُحبُّون العاجلة وتذرون الآخرة. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عن الاغترار بالعاجل،[3] فيكون جَمْع الضمير في الفعلين باعتبار معنى الجنس، ويُؤيِّده قراءة الفعلين على صيغة الغَيبة.[4] [٢٤٦ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨. وهو مرويّ بمعناه عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٥.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٦-٤٩٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٨٣-٢٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٧٣.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ
بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ
بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ
ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: وجوه كثيرة، وهي وجوه المؤمنين المخلِصين يوم إذ تقوم القيامة بَهيّة متهلِّلة يُشاهَد عليها نضرة النعيم، على أنّ ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ و﴿نَاضِرَةٌ﴾ خبره و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ﴿نَاضِرَةٌ﴾. و﴿نَاظِرَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو نعت لـ﴿نَاضِرَةٌ﴾، و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلِّق بـ﴿نَاظِرَةٌ﴾. وصحّة وقوع النكرة مبتدأ؛ لأنّ المقام مقامُ تفصيل، لا على أنّ ﴿نَاضِرَةٌ﴾ صفة لـ﴿وُجُوهٌ﴾ والخبر ﴿نَاظِرَةٌ﴾ كما قيل،[1] لِما هو المشهور مِن أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، وحيث لم يكن ثبوت النُّضرة للوجوه كذلك فحقُّه أن يُخبَر به.

ومعنى كونِها ناظرةً إلى ربّها أنّها تراه تعالى مُستغرقةً في مُطالعة جماله بحيث تغفل عمّا سواه، وتُشاهِده تعالى بلا كيفٍ ولا على جهة، وليس هذا في جميع الأحوال حتّى ينافيَه نظرُها إلى غيره. وقيل: مُنتظِرة إنعامَه.[2] ورُدّ بأنّ الانتظار لا يُسنَد إلى "الوجه". وتفسيره بالجملة خلافُ الظاهر، وأنّ المُستعمَل بمعناه لا يعدّى بـ"إلى".[3]

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العُبوس وهي وجوه الكفَرة.

﴿تَظُنُّ﴾ يتوقّع أربابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تقصِم فَقار الظهر.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار العاجلة على الآخرة، أي: ارتدِعوا عن ذلك وتنبَّهوا لِما بين أيديكم مِن الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة مِن العلاقة. ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي: بلغت النفسُ أعاليَ الصدر وهي العِظام المُكتنِفة لثُغرة النَّحر عن يمين وشمال.

---

١ الوجه في اللباب لابن عادل، ٥٦٢/١٩.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٤.
٣ القول وردُه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٣/٣-٤٧٤.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: قال مَن حضَر صاحبَها: "مَن يرقيه ويُنجيه ممّا هو فيه" مِن الرُّقية. وقيل: هو مِن كلام ملائكة الموت: أيُّكم يَرْقى بروحه، ملائكةُ الرحمة أو ملائكةُ العذاب؟ مِن الرُّقيّ.[١]

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ وأيقَنَ المُحتضَر أنّ ما نزَل به الفراق مِن الدنيا ونعيمها.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والتفّتْ ساقُه بساقه والتوَت عليها عند قلق الموت. وقيل: هما شدّة فِراق الدنيا وشدّة / إقبال الآخرة.[٢] وقيل: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه.[٣] [٢٤٧و]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: إلى الله وإلى حُكمه يُساق لا إلى غيره.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقه مِن الرسول عليه السلام والقرآنِ الذي نزَل عليه، أو فلا صدّق ماله ولا زكّاه. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرض عليه. والضمير فيهما لـ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾.[٤] وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخَذة كما مرّ.

﴿وَلَـٰكِن كَذَّبَ﴾ ما ذُكر مِن الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر افتخارًا بذلك مِن المطّ، فإنّ المتبختر يمدّ خُطاه، فيكون أصله يتمطّط أو مِن المطا وهو الظهر، فإنّه يلويه.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي: ويلٌ لك، وأصله أولاك الله ما تكرهه، و"اللام" مَزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل، ٧٢/٢٧]، أو أولى لك الهلاك. وقيل: هو "أفعل" مِن "الويل" بعد القلب، كـ"أدنى" مِن "دون"، أو "فَعْلَى" مِن "آل يئول" بمعنى عُقباك النار.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي: يتكرّر عليه ذلك مرّةً بعد أخرى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٣ مرويّ عن الحسن وسعيد بن المسيّب في جامع البيان للطبري، ٥١٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٤ في الآية الثالثة مِن هذه السورة.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أي: يُخلّى مُهمَلًا فلا يكلَّف ولا يُجزى. وقيل: أن يُترك في قبره فلا يُبعث.[١]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾... إلى آخره، استئنافٌ واردٌ لإبطال الحسبان المذكور، فإنّ مداره لمّا كان استبعادَهم للإعادة استُدلّ على تحقُّقها ببدء الخلق.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ﴾ أي: بقدرة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا[٢] ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]. ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر بأن جَعَلها مُضغةً مخلَّقةً ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فعدّل وكمّل نشأته.

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ﴾ مِن الإنسان ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ بدل مِن الزوجين.

﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وهو أهون مِن البدء في قياس العقل.

[٢٤٧ظ] روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأها / قال: «سبحانك بلى».[٣] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة القيامة شهدتُ له أنا وجبريلُ يوم القيامة أنّه كان مؤمنًا بيوم القيامة».[٤]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧٧/١٩.

٢ م س: جعلنا.

٣ سنن أبي داود، ١٦١/٢ (٨٨٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٤٠/٣ (١٩٢٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٢٨ (القيامة، ١/٧٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٠/٤ (القيامة، ١/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٥

سُورَةُ القِيَامَةِ

مكية، وهي أربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿لا﴾ زائدةٌ في الموضعين ﴿أُقسِمُ بِيَومِ القِيامةِ، ولا أُقسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوّامةِ﴾ التي تلوم نفسها، وإن اجتهدت في الإحسان. وجوابُ القسم محذوف، أي: لَتُبعَثُنَّ. دلّ عليه: ٣ ـ ﴿أيَحسِبُ الإنسانُ﴾ أي: الكافر ﴿أن لَن نَجمَعَ عِظامَهُ﴾ للبعث والإحياء؟ ٤ ـ ﴿بَلَى﴾ نجمعُها ﴿قادِرِينَ﴾......

سُورَةُ القِيَامَةِ

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) إدخالُ النَّافيَةِ على فعلِ القسمِ للتأكيدِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وقرأ المكِّيُّ بخُلْفٍ عن البزيِّ بغيرِ ألِفٍ بعد اللامِ في الأوَّل[١]؛ أي: لَأَنا أقسِم، فاللامُ لامُ الابتِداءِ.

قولُهُ: (الَّتِي تَلُومُ نَفسَهَا) أو الجِنسِ؛ لما رويَ أنَّه ﷺ قال: «ليسَ مِن نَفسٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ إلا وتَلُومُ نَفسَها يومَ القِيامَةِ، إن عَمِلَت خَيراً قالت: كيفَ لم أَزِد! وإن عَمِلتْ شَرًّا قالت: لَيتَنِي كُنتُ قَصَّرتُ»[٢].

قولُـهُ: (أي: الكَافِـر) يعنـي: الجِنـس، وإسنادُ الفعـلِ إليـهِ؛ لأنَّ فيهم مـن يحسَـبُ، أو الذي نـزَلَ فيه وهو عُـديُّ بـن ربيعَةَ سـأَلَ رسـولَ اللهِ ﷺ عـن أمرِ القيامَـةِ، فأخبرَهُ بـه فقالَ: لـو عايَنتُ ذلـك اليومَ لـم أُصدِّقكَ[٣]، أو يجمـعَ الله هـذه العِظامَ.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٠٩).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠٨) دون نسبته حديثاً.

(٣) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ١١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٨).

مع جمعها ﴿عَلَى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ ـ وهو الأصابع ـ أي: نُعيدَ عِظامها كما كانت مع صِغرها. فكيف بالكبيرة؟ ٥ ـ ﴿بَل يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفجُرَ﴾ ـ اللام: زائدة. ونصبه بـ«أنْ» مُقدّرةً ـ أي: أن يُكذِّب ﴿أمامَهُ﴾ أي: يومَ القيامة. دلّ عليه: ٦ ـ ﴿يَسأَلُ: أيَّانَ﴾: متى ﴿يَومُ القِيامةِ﴾ سُؤالَ استهزاء وتكذيب؟

٧ ـ ﴿فإذا بَرِقَ البَصَرُ﴾، بكسر الراء وفتحها: دَهِشَ وتَحيّرَ لِما رأى ممّا كان يُكذّب به، ٨ ـ ﴿وخَسَفَ القَمَرُ﴾: أظلم وذهب ضوءُه، ٩ ـ ﴿وجُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ﴾ فطلعا من المغرب، أو ذهب ضوءُهما ـ وذلك في يوم القيامة ـ ١٠ ـ ﴿يَقُولُ الإنسانُ يَومَئذٍ: أينَ المَفَرُّ﴾ الفِرار؟ ١١ ـ ﴿كَلّا﴾: ردعٌ عن طلب الفِرار، ﴿لا وَزَرَ﴾: لا ملجأ يُتحصّن به. ١٢ ـ ﴿إلَى رَبِّكَ يَومَئذٍ المُستَقَرُّ﴾: مُستقرّ الخلائق فيُحاسَبون ويُجازَون. ١٣ ـ ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يَومَئذٍ بِما قَدَّمَ وأَخَّرَ﴾: بأوّل عمله وآخره. ١٤ ـ ﴿بَلِ الإنسانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرةٌ﴾: شاهدٌ تنطِق جوارحُه بعمله ـ والهاء: للمبالغة ـ فلا بُدّ من جزائه، ١٥ ـ ﴿ولَو أَلقَى مَعاذِيرَهُ﴾: جمعُ مَعذِرة على غير قياس، ....

قولُهُ: (مَعَ جَمعِهَا) حالٌ من فاعِلِ الفعلِ المقدَّرِ بعد: ﴿بَلَى﴾.

قولُهُ: (وَهُوَ الأَصَابِعُ) أو أطرافُها، جمعُ: بنانَةٍ[1].

قولُهُ: (أَن يُكَذِّبَ) أو يَدومَ على فُجورِهِ فيما يستَقبلُهُ من الزَّمانِ.

قولُهُ: (مَتَى) أصلُهُ: أيُّ آنٍ.

قولُهُ: (استِهزَاءٍ) أو استِبعادٍ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) نافعٌ[2].

قولُهُ: (الفِرَارُ) وقرئَ بالكَسرِ[3] وهو المكانُ، قالَ بعضُ الحُكماءِ: الأرضُ نقطَةٌ، والإنسانُ هدفٌ والأفلاكُ قِسيٌّ، والحوادِثُ سهامٌ، والرَّامي هو اللهُ تعالى، فأينَ المفَرُّ.

قولُهُ: (مُستَقَرُّ الخَلائِقِ) أي: إليه وحدَهُ استِقرارُ العِبادِ، أو إلى حُكمِهِ استِقرارُ أمرِهِم، أو إلى مشيئتِهِ موضِعُ قرارِهِم يُدخِلُ من يشاءُ الجنَّةَ، ومن يشاءُ النَّارَ.

قولُهُ: (بأوَّلِ عَمَلِهِ) أو بما قدَّمَ من عمَلٍ عَمِلَهُ، وبما أَخَّرَ منه لم يعمله.

قولُهُ: (عَلى غَيرِ قِيَاسٍ) فإنَّ قياسَهُ مُعاذِر.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٥/ ٢٠٨١).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٩).

(٣) قرأ ابن عباس وعكرمة وأيوب السختياني بكسر الفاء، وعن الزهري بكسر الميم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٤).

أي: لو جاء بكُلِّ معذرة ما قُبلت منه.

قال تعالى لنبيّه: ١٦ ـ ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ﴾: بالقرآن قبل فراغ جِبريلَ منه ﴿لِسانَكَ، لِتَعجَلَ بِهِ﴾ خوفَ أن ينفلت منك. ١٧ ـ ﴿إنَّ علَينا جَمعَهُ﴾ في صدرك ﴿وقُرآنَهُ﴾: قِراءتك إياه، أي: جَرَيانَه على لسانك ـ ١٨ ـ ﴿فإذا قَرأْناهُ﴾ عليك بِقراءة جِبريلَ ﴿فاتَّبِعْ قُرآنَهُ﴾: استمع قِراءته. فكان ﷺ يستمع، ثمّ يقرؤه ـ ١٩ ـ ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَينا بَيانَهُ﴾ بالتفهيم لك. والمُناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنّ تلك تضمّنت الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمّنت المُبادرة إليها بحفظها.

٢٠ ـ ﴿كَلاّ﴾: استفتاحٌ بمعنى: ألا ﴿بَل يُحِبُّونَ العاجِلةَ﴾: الدنيا ـ بالياء والتاء، في الفعلين ـ ٢١ ـ ﴿ويَذَرُونَ الآخِرةَ﴾ فلا يعملون لها، ....

قولُهُ: (بِكُلِّ مَعذِرَةٍ) أو بكُلِّ ما يمكِنُ أن يتعذَّرَ به، جمعُ: مِعذارٍ، وهو العُذرُ، كمفتاحٍ ومفاتيحَ قياساً، وهذا هو الأصَحُّ.

قولُهُ: (خَوفَ) أي: لتأخُذَه على عجَلَةٍ مخافَةَ.

قولُهُ: (أي: جَرَيَانَهُ) وإثباتَ قراءَتِه.

قولُهُ: (بِقِرَاءَةِ جِبرِيلَ) أي: بلسانِه.

قولُهُ: (بالتَّفهِيمِ لَكَ) أي: بيانَ ما أشكَلَ عليكَ من معانيه، والمرادُ: بيانُ التَّفسيرِ إجماعاً، كذا «التَّلويحِ»[1]، وذكرَ السلميُّ في «تفسيرِهِ»[2]: قيل للنَّبيِّ ﷺ: لا تستَعِنْ بنفسِكَ على شيءٍ من أسبابِكَ، فإنَّا لا نَكِلُكَ إلى نفسِكَ، بل نتولَّاكَ في جميعِ أمورِكَ.

قولُهُ: (استِفتَاح) أو رَدعٌ للإنسانِ على الاغتِرارِ بالعاجِلِ.

قولُهُ: (باليَاءِ) الغيبَة، مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[3].

قولُهُ: (فَلا يَعمَلُونَ لَهَا) قيل: من أحبَّ الدُّنيا وأقبَلَ عليها وطلبَها فليتيقَّن بفَوتِ حظِّهِ من الآخِرَةِ، وقالَ ﷺ: «مَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بدُنيَاهُ، ومَن أَحَبَّ دُنيَاهُ أَضَرَّ بآخِرَتِهِ، فَآثِرُوا ما يَبقَى على مَا يَفنَى»[4].

---

(١) انظر: «شرح التلويح على التوضيح» (٢/ ٣٥).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٦١).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٦٩٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٥٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وتعقبه الذهبي فقال: فيه انقطاع.

٢٢ ـ ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ﴾ أي: في يوم القيامة ﴿ناضِرةٌ﴾: حسنةٌ مُضيئة، ٢٣ ـ ﴿إلَى رَبِّها ناظِرةٌ﴾ أي: يرون اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ في الآخرة، ٢٤ ـ ﴿ووُجُوهٌ يَومَئِذٍ باسِرةٌ﴾: كالحةٌ شديدة العُبوس، ٢٥ ـ ﴿تَظُنُّ﴾: تُوقِن ﴿أن يُفعَلَ بِها فاقِرةٌ﴾: داهية عظيمة تكسر فَقارَ الظهر.

٢٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى: ألا ﴿إذا بَلَغَتِ﴾ النفسُ ﴿التَّراقِيَ﴾: عِظامَ الحلق، ٢٧ ـ ﴿وقِيلَ﴾ قال مَن حولَه: ﴿مَن راقٍ﴾ يَرقِيه ليُشفى؟ ٢٨ ـ ﴿وظَنَّ﴾: أيقنَ مَن بلغتْ نفسه ذلك ﴿أنَّهُ الفِراقُ﴾ فراق الدنيا، ٢٩ ـ ﴿والتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاقِ﴾ أي: إحدى ساقَيه بالأُخرى عِند الموت، أو التفّتْ شِدّة فِراق الدنيا بشِدّة إقبال الآخرة، ....

قولُهُ: (حَسَنَةٌ) عبَّر بالوجوهِ عن الذَّواتِ.

قولُهُ تَعالَى: (﴿نَاظِرَة﴾) تراهُ مُستغرقةً في مُطالعَةِ جمالِهِ بحيثُ تغفُلُ عمَّا سواهُ، ولذلك قدَّمَ المفعولَ، وليس هذا في كلِّ الأحوالِ حتَّى يُنافيهِ نظرُها إلى غيره.

قولُهُ: (تُوقِنُ) ويتوقَّعُ أربابُها.

قولُهُ: (فَقَارَ الظَّهرِ) جمعُ: الفَقارَةِ ـ بالفتحِ ـ: ما انتضَدَ من عظامِ الصُّلبِ من لَدنِ الكاهِلِ إلى العَجبِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: أَلَا) أو رَدعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على العُقبى.

قولُهُ: (النَّفسُ) وإضمارُها من غيرِ ذكرٍ لدلالَةِ الكَلامِ عليها.

قولُهُ: (عِظَامَ الحَلْقِ) أو أعاليَ الصُّدورِ.

قولُهُ: (مَن حَولَهُ) أي: حاضِروا صاحِبِها.

قولُهُ: (يَرقِيهِ) بكسرِ القافِ، ممَّا به، من الرُّقيةِ ـ بالضمِّ ـ العَوذَةُ، أو قال ملائكةُ الموتِ: أيُّكُم يَرقى بروحِهِ؟ ملائكةُ الرَّحمَةِ أو ملائكَةُ العذابِ؟ من الرُّقيِّ من بابِ عَلِمَ.

قولُهُ: (مَن بَلَغَت نَفسُهُ) أي: المحتَضَر.

قولُهُ: (فِرَاقُ الدُّنيَا) أي: الذي نزَلَ به فِراقُ الدُّنيا ومَحابِّها.

قولُهُ: (بالأُخرَى) أي: القُوت[1].

قولُهُ: (التَفَّت) أي: اتَّصَلت.

قولُهُ: (إقبَالِ الآخِرَةِ) وهولِها.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: الْتَوَتْ، كما في بعض التفاسير.

٣٠ ـ ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي: السَّوقُ. وهذا يدلّ على العامل في «إذا». المعنى: إذا بلغتِ النفس الحُلقومَ تُساق إلى حُكم ربّها.

٣١ ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الإنسانُ ﴿وَلَا صَلَّى﴾ أي: لم يُصدّق ولم يصلِّ، ٣٢ ـ ﴿وَلَكِن كَذَّبَ﴾ بالقُرآن ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان، ٣٣ ـ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾: يتبختر في مِشيته إعجابًا. ٣٤ ـ ﴿أَوْلَى لَكَ﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة. والكلمة اسمُ فعلٍ. واللام: للتبيين ـ أي: وَلِيَكَ ما تكره! ﴿فَأَوْلَى﴾ أي: فهو أولى بك من غيرك، ٣٥ ـ ﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾: تأكيدٌ!

٣٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُ﴾: يظنّ ﴿الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: هَمَلاً، لا يُكلّف بالشرائع؟ أي: لا يَحسِبْ ذلك. ٣٧ ـ ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أي: كان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَى﴾، بالتاء والياء: تُصبّ في الرحم،............

قولُهُ: (أي: السَّوقُ) أي: سوقُهُ إلى الله تعالى وحُكمِه.

قولُهُ: (الإنسانُ) المذكورُ في: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ﴾ قالَ مُجاهِد وغيرُهُ: نزلَت في أبي جَهلٍ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ، كذا في «المبهمات»(١).

قولُهُ: (أي: لَم يُصَدِّق) ما يجِبُ تصديقُهُ، أو لم يتصَدَّق بمالِهِ فيما يجبُ عليه.

قولُهُ: (إعجَاباً) أو افتِخاراً بذلك، من المطِّ بمعنى: المدِّ؛ فإنَّ المتَبَختِرَ يمُدُّ خُطاهُ فيكونُ أصلُهُ: يتمطَّطُ، أو منَ المطا، وهو الظَّهرُ فإنَّه يُلَوِّيهِ.

قولُهُ: (واللَّامُ لِلتَّبيِينِ) وقيل أصلُهُ: أولاكَ اللهُ ما تكرَهُهُ؛ أي: قرَّبَكَ، واللامُ مزيدَةٌ، أو أولى لك الهَلاكَ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أي: يتكرَّرُ ذلك عليه مرَّةً بعدَ أخرى.

قولُهُ: (هَملاً) أي: مُهمَلاً.

قولُهُ: (لا يُكَلَّفُ) ولا يُجازِي.

قولُهُ: (أي: كانَ) يعني: الاستفهامُ للإنكارِ، ونفيُ النَّفيِ إثباتٌ.

قولُهُ: (واليَاء) التَّذكيرُ، حفصٌ(٢).

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٣). وانظر «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨١).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

٣٨ ـ ﴿ثُمَّ كانَ﴾ المنيُّ ﴿عَلَقةً، فخَلَقَ﴾ الله منها الإنسانَ ﴿فسَوَّى﴾: عدّل أعضاءه، ٣٩ ـ ﴿فجَعَلَ مِنهُ﴾: من المنيّ الذي صار علقة: قِطعة دم، ثمّ مُضغة أي: قِطعة لحم ﴿الزَّوجَينِ﴾: النوعين ﴿الذَّكَرَ والأُنثَى﴾ يجتمعان تارة، وينفرد كُلّ منهما عن الآخر تارة؟ ٤٠ ـ ﴿أَلَيسَ ذلِكَ﴾ الفعّالُ لهذه الأشياءِ ﴿بِقادِرٍ علَى أن يُحيِيَ المَوتَى﴾؟ قال ﷺ: بَلَى.

قولُهُ: (يَجتَمِعَانِ) أي: النَّوعانِ في بَطنٍ واحدٍ.

قولُهُ: (بَلَى) وفي روايَةٍ: «سُبحانَكَ بَلى»[1]، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

***

---

(١) رواه أبو داود (٨٨٤)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٤١٩)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٦٩٢) عن موسى بن أبي عائشة عن رجل من الصحابة.

قال ابن كثير: لم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك.

سُورَةُ القِيَامَةِ

ويقال لها: سورة «لا أقسم» وهي مكِّيَّة من غير حكاية خلاف ولا استثناء.

واختلف في عدد آيها؛ ففي الكوفيِّ أربعون، وفي غيره تسع وثلاثون، والخلاف في ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [الآية: ١٦].

ولمَّا قال سبحانه وتعالى في آخِر المدَّثِّر: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٥٣﴾ بعد ذكر الجنَّة والنار، وكان عدم خوفهم إيَّاها لإنكارهم البعثَ، ذَكَرَ جلَّ وعلا في هذه السورة الدليلَ عليه بأتمِّ وجه، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، ثم ذَكَر ما قَبْل ذلك مِن خروج الرُّوح مِن البَدَن، ثم ما قَبْلُ مِن مبدأ الخَلْق، على عكس الترتيب الواقعيّ، فقال عزَّ مِن قائل عظيم:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ إدخال «لا» النافية صورةً على فِعْل القَسَم مستفيضٌ في كلامهم وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

لا وأبيكِ ابنةَ العامريْ ... ي لا يدَّعي القومُ أنِّي أَفِرُّ[1]

وقول غُوَيَّة بنِ سُلْمِيٍّ يرثي:

ألا نادتْ أمامةُ باحتمالِ ... لِتَحْزُنَني فلا بِكِ ما أُبالي[2]

---

(١) سلف ٦/١١٧.

(٢) سلف ٦/١١٧.

وملخَّص ما ذهب إليه جارُ الله[١] في ذلك أنَّ «لا» هذه إذا وقعت في خِلال الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] فهي صلة تزاد لتأكيد القَسَم، مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] لتأكيد العلم، وأنَّها إذا وقعت ابتداءً كما في هذه السورة وسورة البلد[٢] فهي للنفي؛ لأنَّ الصلة إنَّما تكون في وسط الكلام. ووَجْهُه أن إنشاء القَسَم يتضمَّن الإخبار عن تعظيم المقسَم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية، والمراد أنَّه لا يَعظم بالقَسَم؛ لأنَّه في نفسه عظيم أَقسمَ به أوْ لا، ويترقَّى مِن هذا التعظيم إلى تأكيد المقسَم عليه، إذ المبالغة في تعظيم المقسَم به تتضمَّن المبالغة فيه، فما يختلج في بعض الخواطر مِن أنَّه يلزم أن يكون على هذا إخباراً لا إنشاء فلا يستحقُّ جواباً، وأنَّ المعنى على تعظيم المقسَم عليه لا المقسَم به، مدفوع.

ووراء ذلك أقوال، فقيل: إنَّها لنفي الإقسام لوضوح الأمر.

وقال الفرَّاء: لنفي كلام معهود قبل القَسَم وردِّه، فكأنَّهم هنا أنكروا البعث، فقيل: لا، أي: الأمر كذلك، ثم قيل: «أقسم بيوم القيامة». وقدح الإمامُ فيه بإعادة حرف النفي بَعْدُ[٣].

وقيل: إنَّها ليست «لا»، وإنَّما اللام أشبعت فتحتها فظهر مِن ذلك الألف، والأصل: لأُقْسِمُ، كما قرأ به قنبل، وروي عن البزيِّ والحسنِ[٤]، وهي لام الابتداء عند بعضٍ، والأصل: لأَنَا أقسم، وحذف المبتدأ للعلم به، ولام التأكيد دخلت على الفعل المضارع، كما في: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤] والأصل: إنِّي لأُقْسِم، عند بعض، ولام القَسَم ولم يصحبها نون التوكيد ـ لعدم

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٩.
(٢) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [الآية: ١].
(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١٥.
(٤) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٢٨٢ بخلفٍ عن البزي، والمحتسب ٢/ ٣٤١، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٠.

لزوم ذلك، وإنَّما هو أغلبيٌّ على ما حكي عن سيبويه[١]، مع الاعتماد على المعنى ـ عند آخرين.

وقال الجمهور: إنَّها صلة، واختاره جار الله في «المفصَّل»[٢]، وما ذكر من الاختصاص غيرُ مسلَّم؛ لأنَّ الزيادة إذا ثبتت في القَسَم فلا فرقَ بين أوَّل الكلام أو وسطه، لا أنَّه مسلَّم لكنَّ القرآنَ في حكم سورة واحدة متَّصل بعضه ببعض؛ لأنَّ كونه كذلك بالنسبة إلى التناقض ونحوه، لا بالنسبة إلى مِثْل هذا الحكم، ثم فَهْمُ ما ذَكَره في توجيه النفي مِن اللفظ بعيدٌ، وحال سائر الأقوال غيرُ خفيٍّ، وقد مرَّ بعض الكلام في ذلك، فتذكَّر.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ على ذلك النمط، بيدَ أنَّه قيل على قراءة: «لأُقْسِم» فيما قَبْل أنَّ المراد هنا النفي، على معنى: إنِّي لأقسم بيوم القيامة لشرفِه، ولا أُقسم بالنفس اللوامة لخسَّتها. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ما يقتضيه[٣]، وحكاه في «البحر»[٤] عن الحسن.

وقال قتادة في هذه النفس: هي الفاجرة الجَشِعَة اللوَّامة لصاحبها على ما فاته مِن سعي الدنيا وأغراضها. وجاء نحوُه في رواية عن ابنِ عباس، والحقُّ أنَّه تفسيرٌ لا يناسب هذا المقام، ولذلك قيل: هي النفس المتَّقية التي تلوم النفوسَ يومَ القيامة على تقصيرهنَّ في التقوى، والمبالغة بكثرة المفعول. وقال مجاهد: هي التي تَلُوم نفسها على ما فات، وتَندم على الشَّرِّ لِمَ فَعَلَتْه، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه، فهي لم تزل لائمة وإن اجتهدت في الطاعات، فالمبالغة في الكيف باعتبار الدوام.

وقيل: المراد بالنفس اللوَّامة جنسُ النفسِ الشاملة للتقيَّة والفاجرة؛ لما روي أنَّه ﷺ قال: «ليس مِن نفس برَّة ولا فاجرة إلا وتلومُ نفسَها يومَ القيامة، إن عملت

---

(١) ينظر الكتاب ٣/ ٥١٨.
(٢) ٨/ ١٣٦ مع شرحه لابن يعيش.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٦٧-٤٦٨.
(٤) ٨/ ٣٨٥.

خيراً قالت: كيف لَم أَزِدْ منه؟ وإن عملت شرًّا، قالت: ليتني قصرْتُ»[١]، وضمُّها إلى يوم القيامة؛ لأنَّ المقصودَ مِن إقامتها مُجَازاتُها وبَعْثُها فيه. وضعِّف بأنَّ هذا القَدْر مِن اللوم لا يكون مداراً للإعظام بالإقسام، وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة، فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس؟ وأجيبَ بأنَّ القَسَم بها حينئذٍ بقَطْع النظر عن الصفة، والنفسُ مِن حيث هي شريفةٌ؛ لأنَّها الروح التي هي مِن عظيم أمر الله عزَّ وجلَّ. وفيه أنَّه لا يَظهر لِذِكْر الوصف حينئذٍ فائدة. والإمام[٢] أوقف الخبرَ على ابنِ عباس، واعترضه بثلاثة أوجه[٣]، وأجاب عنها بحَمْل اللومِ على تمنِّي الزيادة وتمنِّي أن لم يكن ما وَقَع من المعصية واقعاً، وما ذكر مِن توجيه الضَّمِّ لا يخصُّ هذا الوجه كما لا يخفى.

وقيل: المراد بها نفسُ آدم عليه السلام، فإنَّها لم تَزَل تلوم نفسَها على فعلها الذي خرجت به مِن الجنَّة.

وأكثر الصوفيَّة على أنَّ النفسَ اللوَّامة فوقَ الأمَّارة وتحت المُطْمَئِنَّة، وعرَّفوا الأمارة: بأنَّها هي التي تميل إلى الطبيعة البدنيَّة، وتأمُر باللَّذات والشهوات الحسيَّة، وتجذب القلبَ إلى الجهة السفليَّة، وقالوا: هي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

وعرَّفوا اللوَّامة: بأنَّها هي التي تنوَّرت بنور القلب قَدْر ما تنبَّهت عن سِنَة الغفلة، فكلَّما صدر عنها سيئة بحكم جبلَّتها الظلمانيَّة، أخذت تلوم نفسَها ونفرت عنها.

وعرَّفوا المُطْمَئِنَّة: بأنَّها التي تمَّ تنوُّرها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلَّقت بالأخلاق الحميدة، وسكنت عن منازعة الطبيعة.

---

(١) لم نقف عليه مسنداً، بل ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٠ ولم ينسبه لأحد. وذكره الرازي ٣٠/ ٢١٥بنحوه موقوفاً على ابن عباس كما سيرد.

(٢) في التفسير الكبير ٣٠/ ٢١٥.

(٣) وهو: السير والسلوك إلى ملك الملوك في التصوف للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي الصوفي المتوفى سنة (١١٠٩هـ). إيضاح المكنون ٢/ ٣٤.

ومنهم مَن قال في اللوَّامة: هي المطمئنَّة اللائمة للنفس الأمَّارة. ومنهم مَن قال: هي فوق المطمئنة، وهي التي ترشَّحت لتأديب غيرها. إلى غير ذلك.

والمشهور عنهم تقسيم مراتِب النَّفْس إلى سبعٍ، منها هذه الثلاثة، وفي «سير السلوك إلى مَلِكِ الملوك»[1] كلام نفيس في ذلك فليراجعه مَن شاء.

وجواب القَسَم ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ وهو: ليُبْعثنَّ. وقيل: هو «أيحسب» إلخ، وقيل: «بلى قادرين»، وكلاهما ليسا بشيء أصلاً، كَزَعْمِ عدم الاحتياج إلى جواب؛ لأنَّ المرادَ نفيُ الإقسام.

والمراد بالإنسان الجنس، والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه، و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: أيحسب أنَّ الشأنَ لن نجمع بعد التفرُّق عظامَه، وحاصله: لِمَ يكون هذا الحسبانُ الفارغ عن الأمارة المنافي لحقِّ اليقين وصريحِه، والنسبة إلى الجنس؛ لأنَّ فيه مَن يحسب ذلك، بل لعلَّه الأكثرون.

وجوِّز أن يكون التعريف للعهد، والمراد بالإنسان عديُّ بنُ أبي ربيعة خَتَنُ الأخنس بنِ شَرِيق، وهما اللَّذان كان النبيُّ ﷺ يقول فيهما: «اللَّهمَّ اكفني جارَي السوء»، فقد روي أنَّه جاء إليه عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمَّد حدِّثني عن يوم القيامة متى يكون، وكيف يكون أمره؟ فأَخبره رسولُ الله ﷺ، فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أُصدِّقْك يا محمَّد، ولم أومِن به، أوَ يجمع اللهُ تعالى هذه العظام، فنزلت. وقيل: أبو جهل، فقد روي أنَّه كان يقول: أَيزعم محمَّد أن يجمعَ اللهُ تعالى هذه العظام بعد بلائِها وتفرُّقها فيعيدها خَلْقاً جديداً، فنزلت[2]. وليس كإرادة الجنس، وسببُ النزول لا يُعينه، وذِكْر العظام ـ وإن المعنى على إعادة الإنسان وجَمْع أجزائه المتفرِّقة ـ لما أنَّها قالب الخَلْق.

---

(١) تفسير الثعلبي ١٠/ ٨٢، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٧، والكشاف ٤/ ١٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، وجاء في المصادر عدا تفسير الثعلبي: ولم أومن بك...

(٢) زاد المسير ٨/ ٤١٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢١٧ عن ابن عباس ﵄، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٥.

وقرأ قتادة: «تُجْمَعَ» بالتاء الفوقيَّة مبنيّاً للمفعول، «عِظَامُهُ» بالرفع على النيابة[١].

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نجمعها بعد تفرُّقها ورجوعها رميماً ورفاتاً في بطون البحار وفسيحات القِفَار وحيثما كانت، حال كوننا ﴿قَادِرِينَ﴾ فـ «قادرين» حال مِن فاعل الفعل المقدَّر بعد «بلى»، وهو قول سيبويه[٢]. وقيل: منصوب على أنَّه خبر «كان»، أي: بلى كنَّا قادرين في البَدْء أَفَلا نقدر في الإعادة. وهو كما ترى.

وقيل: انتصب لأنَّه وقع في موضع نقدر، إذ التقدير: بلى نقدر، فلما وُضعَ موضع الفعل نُصبَ، حكاه مكِّيّ[٣]، وقال: إنَّه بعيد مِن الصواب يَلزم عليه نصبُ قائم في قولك: مررتُ برجلٍ قائم؛ لأنَّه في موضع: يقوم. فتأمَّل.

وقرأ ابنُ أبي عبلة وابنُ السَّمَيْفع: «قادرون»[٤] أي: نحن قادرون.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ هي اسمُ جنس جمعي، واحده: بَنَانة، وفسَّرها الراغب بالأصابع، ثم قال: قيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ بها صلاحَ الأحوال التي يمكن للإنسان أن يُبِنَّ بها ما يريد، أي: يقيم[٥]. وغيره: بما صَغُرَ من عظام الأطراف كاليدين والرجلين، وفي «القاموس»: البَنَان: الأصابع، أو أطرافها[٦].

فالمعنى: نجمع العظامَ قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأوَّل، وإلى[٧] «أن نسوِّي» أصابعه التي هي أطرافه وآخِر ما يتمُّ به خَلْقه. أو على «أن نسوِّي» ونَضُمَّ سُلَامَيَاته على صِغَرها ولطافتها بعضها إلى بعض، كما كانت أوَّلاً مِن غير نقصان ولا تفاوت، فكيف[٨] بكبار العظام وما ليس في الأطراف منها.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٥.
(٢) الكتاب ١/ ٣٤٦.
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٦.
(٤) الكشاف ٤/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٥.
(٥) المفردات (برَّ).
(٦) القاموس (بنن).
(٧) في الكشاف ٤/ ١٩٠ (والكلام منه): إلى، بدل: وإلى.
(٨) في الأصل و(م): بكيف. والمثبت من الكشاف.

وفي الحال المذكورة، أعني: «قادرين على» إلخ بعد الدلالة على التقييد تأكيدٌ لمعنى الفعل، لأنَّ الجمعَ مِن الأفعال التي لا بُدَّ فيها مِن القدرة، فإذا قيِّد بالقدرة البالغة فقد أكّد، والوجه الأوّل مِن المعنى يدلُّ على تصوير الجمع، وأنَّه لا تفاوتَ بين الإعادة والبدْءِ في الاشتمال على جميع الأجزاء التي كان بها قوام البَدَن أو كمالُه، والثاني يدلُّ على تحقيق الجمع التامِّ، فإنَّه إذا قَدَر على جَمْع الألطفِ الأبعدِ عادةً عن الإعادة، فعلى جَمْعِ غيرِه أقدرُ، ولعلَّه الأوفق بالمقام، ويُعلَم منهما نكتةُ تخصيصِ البَنَان بالذِّكْر.

وقيل: المعنى: بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوِّي أصابعَ يديه ورجليه بأن نجعلها مستويةً شيئاً واحداً كخفِّ البعير وحافرِ الحمار، ولا نفرِّق بينها فلا يمكنه أن يعملَ بها شيئاً ممَّا يعمل بأصابعه المفرَّقة ذات المفاصل والأنامل مِن فنون الأعمال والبَسْط والقَبْض والتأتِّي لما يريد مِن الحوائج، وروي هذا عنِ ابنِ عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك، ولعلَّ المرادَ: نجمعها ونحن قادرون على التسوية وقتَ الجَمْع، فالكلام يفيد المبالغة السابقة لكن مِن وجه آخَر، وهو أنَّه سبحانه إذا قَدَر على إعادته على وجه يتضمَّن تبديلَ بعضِ الأجزاء، فعلى الاحتذاء بالمثال الأوَّل في جميعه أقدر.

وأبو حيَّان حكى هذا المعنى عن الجمهور، لكن قيَّد التسويةَ فيه بكونها في الدنيا، وقال: إنَّ في الكلام عليه توعُّداً، ثم تعقَّب ذلك بأنَّه خلافُ الظاهر المقصود مِن سوق الكلام(١)، والأمر كما قال لو كان كما فعل، فلا تغفل.

ولا يَخفى أنَّ في الإتيان بـ «لا» أوَّلاً، وحذفِ جوابِ القَسَم، والإتيان بقوله سبحانه: «أيحسب»، ورعاية أسلوب:

وثـنـايـاكِ إنَّـهـا إغـريـضُ(٢)

في القَسَم بيوم البعث والمبعوث فيه، ثم إيثارِ لفظ الحسبان، والإتيانِ بهمزة

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٥.

(٢) البيت لأبي تمام، وسلف عند تفسير الآية (٣) من سورة الزخرف.

الإنكار مسنداً إلى الجنس وبحرف الإيجاب والحال بعدها = من المبالغات في تحقيق المطلوب وتفخيمِه وتهجينِ المُعرِض عن الاستعداد له ما تُبهر عجائبه.

ثم الحُسْنُ كلُّ الحُسْنِ في ضمن حرفِ الإضراب في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ وهو عطف على «أيحسب» جيءَ به[1] للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أَدْخَلُ في اللوم والتوبيخ مِن الأوَّل، كأنَّه قيل: دَعْ تعنيفه فإنَّه أشطُّ مِن ذلك، وأنَّى يَرتدِعُ وهو يريد ليدومَ على فجوره فيما بين يديه مِن الأوقات وفيما يستقبله مِن الزمان لا ينزع عنه، أو هو عطف على «يحسب» منسحباً عليه الاستفهام، أو على «أيحسب» مقدَّراً فيه ذلك، أي: بل أيُريد[2]، جيءَ به زيادةَ إنكار في إرادته هذه، وتنبيهاً على أنَّها أفظع مِن الأوَّل؛ للدلالة على أنَّ ذلك الحسبان بمجرَّده إرادة الفجور، كما تقول في تهديد جَمْعٍ عَاثُوا في البلد: أَيحسبونَ أنْ لا يدخل الأمير، بل يريدون أن يتملَّكوا فيه! لم تقل هذا إلا وأنت مترقٍّ في الإنكار مُنْزِلٌ عَيْثهم منزلةَ إرادة التملُّك وعدم العِبْءِ بمكان الأمير.

وإلى هذين الوجهين أشار جار الله[3] على ما قرّر في «الكشف»، والوجه الأوَّل أبلغ؛ لأنَّ هذا على الترقِّي، والأول إضراب عن الإنكار وإيهام أنَّ الأمر أطمُّ مِن ذلك وأطمُّ، وفيهما إيماء إلى أنَّ ذلك الإنسان عالمٌ بوقوع الحشر، ولكنَّه مُتَغابٍ، واعتبر الدوام في «ليفجر»؛ لأنَّه خبر عن حال الفاجر بأنَّه يريدُ ليفجرَ في المستقبَل، على أنَّ حسبانه وإرادته هما عينُ الفجور، وقيل: لأنَّ «أمامه» ظرفُ مكان استُعير هنا للزمان المستقبَل فيفيد الاستمرارَ.

وفي إعادة المُظْهَرِ ثانياً ما لا يَخفى مِن التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأنَّ الإنسانيَّةَ تأبى هذا الحسبان والإرادة، وعودُ ضمير «أمامه» على هذا المظهَرِ هو الأظهر، وعن ابن عباس ما يقتضي عودَه على «يوم القيامة»، والأوَّل هو الذي

---

(١) قوله: به، ساقط من (م).

(٢) قوله: أيريد، تحرف في (م) إلى: أريد.

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٠.

يقتضيه كلامُ كثير من السلف لكنَّه ظاهر في عموم الفجور، قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسُّدِّيُّ في الآية: إنَّ الإنسان إنَّما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قُدُماً راكباً رأسه ومطيعاً أَمَله ومسوِّفاً لتوبته. وهو حَسَن لا يأبى ذلك الإضراب، وفيه إشارة إلى أنَّ مفعول «يريد» محذوف دلَّ عليه «ليفجر»، وقال بعضهم: هو منزَّل منزلة اللازم[١]، ومصدره مقدَّر بلام الاستغراق، أي: يُوقع جميع إرادته ليفجر.

وعن الخليل وسيبويه ومَن تبعهما في مثله: إنَّ الفعل مقدَّر بمصدر مرفوع بالابتداء، وليفعل خبر، فالتقدير هنا: بل إرادةُ الإنسان كائنةٌ ليفجر[٢].

﴿يَسْئَلُ﴾ سؤالَ استهزاء ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ أي: متى يكون، والجملة قيل: حال، وقيل: تفسير «ليفجر»، وقيل: بدل منه. واختار المحقِّقون أنَّه استئناف بيانيٌّ جِيْءَ به تعليلاً لإرادة الدوام على الفجور، إذ هو في معنى: لأنَّه أنكر البعثَ واستهزأ به، وفيه أنَّ مَن أنكر البعثَ لا محالةَ يرتكب أشدَّ الفجور، وطرف مِن قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٦-٣٧].

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾ تحيَّر فَزَعاً، وأصله مِن بَرِقَ الرجلُ: إذا نَظر إلى البرق فدُهشَ بصرُه، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

ولو أنَّ لقمانَ الحكيمَ تَعرَّضتْ لعينَيْه ميٌّ سافراً كادَ يَبْرقُ[٣]

ونظيره: قَمِرَ الرجل: إذا نَظَر إلى القمر فدُهشَ بصرُه، وكذلك ذَهِبَ وبَقِرَ للدَّهش مِن النظر إلى الذَّهَب والبَقَر، فهو استعارة أو مجاز مُرسَل؛ لاستعماله في لازمه أو في المطلق.

وقرأ نافع وزيد بن ثابت وزيد بن عليٍّ وأبان عن عاصم وهارون ومحبوب

---

(١) في (م): اللام.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨١.
(٣) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٤٦١، وسافراً: يعني بارزة الوجه مسفرته.

كلاهما عن أبي عمرو وخَلْق آخرون: «بَرَقَ» بفتح الراء[١]، فقيل: هي لغة في «بَرِق» بالكسر، وقيل: هو مِن البَرِيق بمعنى: لَمَعَ من شدَّة شُخوصه.

وقرأ أبو السَّمَّال: «بَلَقَ» باللام عوض الراء[٢]، أي: انفتح وانفرج، يقال: بَلِقَ البابُ وأَبْلَقته وبَلَقته: فتحته، هذا قول أهل اللغة إلا الفرَّاء فإنَّه يقول: بَلَقه وأَبْلَقه: إذا أغلقه. وخطَّأه ثعلب، وزعم بعضهم أنَّه مِن الأضداد. والظاهر أنَّ اللامَ فيه أصليَّة، وجوّز أن تكون بدلاً مِن الراء، فهما يتعاقبان في بعض الكَلِم نحو: نَثَر ونَثَل، و: وَجِرَ ووَجِلَ.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ ذَهَبَ ضوءُه، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن عليٍّ ويزيد بن قطيب: «خُسِفَ القمرُ» على البناء للمفعول[٣].

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ حيث يُطلعهما اللهُ تعالى مِن المغرب على ما روي عن ابنِ مسعود، ولا ينافيه الخسوف إذ ليس المرادُ به مصطلحَ أهل الهيئة، وهو ذهابُ نورِ القمر لتقابل النَّيِّرين وحيلولةِ الأرض بينهما، بل ذهاب نورِه لتجلٍّ خاصٍّ في ذلك اليوم، أو لاجتماعه مع الشمسِ وهو المحاقُ. وجوّز أن يكون الخسوف بالمعنى الاصطلاحيِّ ويعتبر في وَسَط الشهر مثلاً، ويعتبر الجمع في آخِره، إذ لا دلالة على اتحاد وقتَيْهما في النظم الجليل، وأنتَ تعلم أنَّ هذا خسوفٌ يزري بحال أهل الهيئة، ولا يكاد يخطر لهم ببال، كالجمع المذكور.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر عن عطاء بنِ يسار قال: يُجمعان ثم يُقذفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[٤]. وتوسعةُ البحر أو تصغيرُهما ممَّا لا يُعجِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعيِّ، وحوادثه أمورٌ وراءَ الطبيعة، فلا يقال: أين البحر مِن جِرْم القمر فضلاً عن جِرْم الشمس الذي هو بالنسبة إليها كالبعوضة بالنسبة إلى الفيل؟! ولا: كيف يُجمعان ويُقذَفان؟!

---

(١) التيسير ص ٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣ عن نافع وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٦٥، والبحر ٨/ ٣٨٥ والكلام وما بعده منه.
(٣) الكشاف ٤/ ١٩١، والبحر ٨/ ٣٨٦.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٨٢.

وقيل: يُجمعان أسودَيْن مكوَّرين كأنَّهما ثوران عقيران في النار.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وابنِ عباس: يُجمعان ويُجعلان في نورِ الحجب.

وقيل: يُجمعان ويقرَّبان من الناس فيلحقهم العَرَقُ لشدَّة الحرِّ.

وقيل: جُمعا في ذهاب الضوء، وروي عن مجاهد، وهو اختيار الفرَّاء والزجَّاج[١]، فالجمع مجازٌ عن التساوي صفةً، وفيه بُعْدٌ؛ إذ كان الظاهر عند إرادة ذلك أن يُقال من أوَّل الأمر: وخسفَ الشمس والقمر، ولا غبارَ في نسبة الخسوف إليهما لغةً، وكذا الكسوف.

ولم يَلحق الفعلَ علامةُ التأنيث؛ لتقدُّمه وكون الشمس مؤنَّثاً مجازيًّا، وفي مثله يجوز الأمران، وكأنَّ اختيارَ تَرْكِ الإلحاق؛ لرعاية حال القمر المعطوف، وقال الكسائيُّ: إنَّ التذكيرَ حُملَ على المعنى، والتقدير: جُمع النوران، أو: الضياءان، وليس بذاك.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تقع هذه الأمور: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ أي: الفِرار، يأساً منه، وجوِّز إبقاؤه على حقيقة الاستفهام لدهشته وتحيُّره.

وقرأ الحسن ريحانةُ رسولِ الله ﷺ والحسن بنُ زيد وابنُ عبَّاس ومجاهد وعكرمة وجماعة كثيرة: «المَفِرُّ» بفتح الميم وكسر الفاء[٢]، اسم مكان قياسي مِن يَفِرُّ بالكسر، أي: أين موضع الفِرار، وجوّز أن يكون مصدراً أيضاً كالمرجع.

وقرأ الحسن البَصْري: بكسر الميم وفتح الفاء[٣]، ونسبها ابنُ عطيَّة[٤] للزهريِّ، أي: الجيِّد الفِرار، وأكثر ما يُستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل، ومنه قوله:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، وللزجاج ٥/ ٢٥٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٥، والمحتسب ٢/ ٣٤١، والبحر ٨/ ٣٨٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٤١، والبحر ٨/ ٣٨٦.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣.

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كَجُلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ مِن عَلِ[(١)]

واختلف في هذا اليوم، فالأكثرون على أنَّه يوم القيامة، وهو المنصور. وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن مجاهد أنَّه قال: «فإذا بَرِقَ البصر» عند الموت والاحتضار، «وخَسَفَ القمرُ وجُمعَ الشمسُ والقمرُ»، أي: كُوِّرا يوم القيامة[(٢)].

وجوّز أن يكونَ الأخيرانِ عند الموت أيضاً، ويفسَّر الخسوفُ بذهاب ضوء البَصَر منه، وجَمعُ الشمس والقمر باستتباع الروحِ حاسَّة البَصَر في الذهاب، والتعبير بالشمس عن الروح، وبالقمر عن حاسَّة البَصَر، على نهج الاستعارة، فإنَّ نورَ البَصَر بسبب الروح، كما أنَّ نورَ القمر بسبب الشمس، أو يفسَّر الخسوفُ بما سمعتَ، وجَمْعُ الشمس والقمر بوصول الروحِ الإنسانيَّة إلى مَن كانت تقتبس منه نورَ العقل، وهم الأرواح القدسيَّة المنزَّهة عن النقائص، فالقمر مستعار للروح، والشمس لسكان حظيرة القُدُس والملأ الأعلى، لأنَّ الروحَ تقتبسُ منهم الأنوار اقتباسَ القَمَرِ مِن الشمس، ووجه الاتِّصال بما قَبْلُ على جَعْلِ الكُلِّ عند الموت أنَّه إذ ذاك ينكشفُ الأمر للإنسان، فيَعلمَ على أتمِّ وجه حقِّيَّةَ ما أُخبر به، وأنتَ تَعلم أنَّ هذا على عِلَّاته أقربُ إلى باب الإشارة على منزع الصوفيَّة، وإذا فُتِحَ هذا الباب فلا حَصْر فيما ذكر مِن الاحتمال عند ذوي الألباب.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرِّ وتمنِّيه ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ لا مَلْجأ، وأصله الجَبَل المنيع، وقد كان مفرًّا في الغالب لِفرار العرب، واشتقاقه مِن الوِزْرِ وهو الثِّقْل، ثم شاع وصار حقيقةً لكلِّ مَلْجأ مِن جبل أو حِصْنٍ أو سلاح أو رجل أو غير ذلك، ومنه قوله:

لَعَمْرُكَ مَا للفتى مِن وَزَرْ مِن الموتِ يُدْرِكه والكِبَرْ[(٣)]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: إليه جلَّ وعلا وحدَه استقرارُ العباد، أي:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وسلف عند تفسير الآية (٤٢) من سورة إبراهيم.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨ وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير [في التفسير ٢٣/ ٤٨٢].

(٣) البيت أورده القرطبي في التفسير ٢١/ ٤١٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٥٧٠، ولم ينسبوه.

لا مَلْجأ ولا مَنْجى لهم غيره عزَّ وجلَّ، أو: إلى حكمه تعالى استقرارُ أمرهم لا يَحكُم فيه غيره سبحانه، أو: إلى مشيئته تعالى موضعُ قرارهم مِن جنَّة أو نار، فمَن شاء سبحانه أدخله الجنَّة، ومَن شاء أدخله النار، فتقديمُ الخبر لإفادة الاختصاص، وإن اختلف وجهه حسَب اختلاف المراد بمستقر.

و«كلا لا وَزَر» يحتمل أن يكون مِن كلامه تعالى، يقال للقائل: أين المفرُّ؟ يومَ يقوله، أو: هو مقولُ اليومَ على معنى: ليرتدع عن طَلَب الفرارِ وتمنِّيه ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون مِن تمام قولِ الإنسان، كأنَّه بعد أن يقول: أين المفرُّ؟ يعود على نفسِه فيستدرك، ويقول: «كلا لا وَزَر». وأيًّا ما كان، فالظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ استئنافٌ كالتعليل للجملة قَبْله، أو تحقيقٌ وكشفٌ لحقيقة الحالِ، والخطاب فيه لسيِّد المخاطَبين ﷺ، ولا يَحسُن أن يكون مِن جملة ما يُخاطَب به القائل ذلك اليوم، ولا ممَّا يقوله لنفسه فيه، لمكان «يومئذٍ»، وفي «البحر»: الظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مِن تمام قول الإنسان، وقيل: هو مِن كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان[(١)]. انتهى. وفيه بحث.

وجوّز أن تكون «كلَّا» بمعنى «ألَا» الاستفتاحيَّة، أو بمعنى: حقًّا، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وذلك ـ على ما عليه الأكثر ـ عند وَزْنِ الأعمال ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: بما عمل مِن عملٍ، خيراً كان أو شرًّا، فيثاب بالأوَّل ويُعاقب على الثاني ﴿وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ أي: تَرَك ولم يَعمل، خيراً كان أو شرًّا، فيعاقبُ بالأوَّل ويُثاب بالثاني. أو: بما قدَّم مِن حسنة أو سيئة[(٢)]، وبما أخَّر: ما سَنَّه مِن حسنة أو سيئة يُعمل بها بَعْدَه، أخرج ذلك ابنُ المنذر وعبد بنُ حميد وغيرُهما عن ابنِ مسعود، وهو رواية عن ابنِ عباس[(٣)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي الكشاف ٤/ ١٩١، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٢، وتفسير أبي السعود ٩/ ٦٦: وبما أخَّر من سنَّةٍ حسنة أو سيئة...

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٤، والطبري ٢٣/ ٤٨٩.

وقال زيد بن أسلم: بما قدَّم مِن ماله لنفسه فتصدَّق به في حياته، وبما أَخَّر منه للوارثِ وزَيْدٍ، أو وَقَفه، أو أوصى به. وقال مجاهد والنخعيُّ: بأوَّل عمله وآخِره.

وأخرج ابنُ جرير عنِ ابنِ عباس: بما قدَّم من المعصية وأخَّر من الطاعة. وأخرج نحوه عن قتادة[١]، وعبد بنُ حميد نحوَه أيضاً عن عكرمة[٢]، وعليه فالظاهر أنَّه عنى بالإنسان الفاجرَ.

وفَصل هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لاستقلال كلٍّ منها ومن قولِه تعالى: «يقول» إلخ في الكشف عن شدَّة الأمر أو عن سوء حال الإنسان.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: حجَّة بيِّنة واضحة على نفسه شاهدة بما صَدَرَ عنه مِن الأعمال السيِّئة كما يُؤذِن به كلمةُ «على» والجملة الحاليَّة بَعْدُ، فـ «الإنسان» مبتدأ، و«على نفسه» متعلِّق بـ «بصيرة» بتقدير الأعمال، أو المعنى عليه من غير تقدير، و«بصيرة» خبر، وهي مجاز عن الحجَّة البيِّنة الواضحة، أو بمعنى بيِّنة، وهي صفة لحجَّة مقدَّرة هي الخبر، وجعل الحجَّة بصيرة؛ لأنَّ صاحبها بصيرٌ بها، فالإسناد مجازيٌّ، أو هي بمعنى دالَّة مجازاً، وجوّز أن يكون هناك استعارة مكنيَّة وتخييليَّة. والتأنيث للمبالغة أو لتأنيث الموصوف، أعني: حجَّة. وقيل: ذلك لإرادة الجوارح، أي: جوارحه على نفسه بصيرة، أي: شاهدة، ونُسِبَ إلى القُتَبيِّ[٣]. وجوّز أن يكون التقدير: عينٌ بصيرةٌ، وإليه ذهب الفرَّاء وأنشد:

كأنَّ على ذي العقل عيناً بَصيرةً ... بمَجْلِسه أو مَنْظَرٍ هو ناظرُهْ
يُحاذِرُ حتى يحسبَ الناسَ كلَّهُمُ ... من الخوف لا يَخْفَى عليهم سرائِرُهْ[٤]

وعليه، قيل: «الإنسان» مبتدأ أوَّل، و«بصيرة» بتقدير: عينٌ بصيرةٌ مبتدأ ثانٍ،

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٩٠.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨.
(٣) غريب القرآن ص٥٠٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١، والبيتان للفرزدق وهما في ديوانه ١/ ٢٠٩، وورد في الديوان: الطِّنْء، بدل: العقل. وفي معاني القرآن: الظَّن. والطِّنْء: الريبة. القاموس (الطِّنْءُ).

و«على نفسه» خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأوَّل، واختار أبو حيَّان[1] أن تكون «بصيرة» فاعلاً بالجارِّ والمجرور وهو الخبر عن «الإنسان»، وعَمِلَ بالفاعل لاعتماده على ذلك، وأمر التأنيث ظاهر. و«بل» للترقِّي على الوجهين: إرادة حجَّة بصيرة، وإرادة عين بصيرة، والمعنى عليهما: يُنبَّأ الإنسان بأعماله، بل فيه ما يجزي عن الإنباء؛ لأنَّه عالم بتفاصيل أحواله، شاهدٌ على نفسه بما عملت، لأنَّ جوارحه تَنطقُ بذلك: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وفي كلا الوجهين ـ كما قيل ـ شائبة التجريد، وهي في الثاني أظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ ـ أي: ولو جاء بكلِّ معذرة يُمكن أن يعتذر بها عن نفسه ـ حالٌ مِن المستكنِّ في «بصيرة»، أو مِن مرفوعِ «ينبَّأُ» أي: هو على نفسه حجَّة، وهو شاهد عليها ولو أتى بكلِّ عذر في الذَّبِّ عنها، ففيه تنبيه على أنَّ الذَّبَّ لا رواجَ له. أو: ينبَّأ بأعماله ويُجازَى ويُعاقَب لا محالةَ، ولو أتى بكلِّ عذر، فهو تأكيد لما يُفهَم مِن مجموع قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ﴾ إلخ.

والمعاذير: جمع معذرة بمعنى العُذْر، على خلاف القياس، والقياس: مَعَاذِر، بغير ياء، وأطلق عليه الزمخشريُّ[2]: اسمَ الجمع، كعادته في إطلاق ذلك على الجموع المخالفة للقياس، وإلا فهو ليس مِن أبنية اسمِ الجمع. وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يُقال: الأصل فيه معاذر، فحصلت الياء مِن إشباع الكسرة. وهو كما ترى.

أو: جمع مِعْذار على القياس، وهو بمعنى العذر. وتعقّب بأنَّه بهذا المعنى لم يُسمع مِن الثقات، نعم قال السُّدِّيُّ والضَّحَّاك: المعاذير: الستور بلغة اليَمَن، واحدها: معذار. وحكي ذلك عن الزجَّاج[3]، أي: ولو أرخى ستورَه، والمعنى أنَّ احتجابه في الدنيا واستتاره لا يُغني عنه شيئاً؛ لأنَّ عليه مِن نفسه بصيرة، وفيه تلويح إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٢]، وقيل:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٥٣.

البصيرة عليه الكاتبان يَكتبان ما يكون مِن خير أو شرٍّ، فالمعنى: بل الإنسان عليه كاتبان يَكتبان أعماله ولو تَستَّر بالستور، ولا يكون في الكلام على هذا شائبة تجريد كما تقدَّم.

والإلقاء على إرادة الستور ظاهر، وأمَّا على إرادة الأعذار، فقيل: شبَّه المجيءَ بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به، فيكون فيه تشبيهُ ما يراد بذلك بالماء المُرْوي للعَطَش، ويشير إلى هذا قول السُّدِّيِّ في ذلك: ولو أدلى بحجَّة وعُذر. وقيل: المعنى: ولو رمى بأعذاره وطَرَحها واستسلم. وقيل: ولو أحال بعضُهم على بعضٍ، كما يقول بعضهم لبعض: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

و«لو» على جميع هذه الأقوال إمَّا أن يكون معنى الشرطيَّةِ منسلخاً عنها ـ كما قيل ـ فلا جوابَ لها، وإمَّا أن يكون باقياً فيها، فالجواب محذوف يدلُّ عليه ما قَبْلُ، واستظهر الخفاجيُّ الأوَّل[١].

وفي الآية على بعض وجوهها دليلٌ ـ كما قال ابنُ العربي[٢] ـ على قَبول إقرار المرء على نفسه، وعدم قبول الرجوع عنه، والله تعالى أعلم.

أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وعبد بن حميد والطبرانيُّ وأبو نُعيم والبهيقيُّ معاً في «الدلائل» وجماعةٌ عن ابنِ عباس قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعالج مِن التنزيل شدَّة، فكان يُحرِّك به لسانه وشفتَيْه مخافةَ أن ينفلت منه يريد أن يَحفظه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ إلخ، فكان رسولُ الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أَطْرَقَ ـ وفي لفظ: استَمَع ـ فإذا ذهب قَرأه كما وعد اللهُ عزَّ وجلَّ[٣]. فالخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ للنبيِّ ﷺ، والضمير للقرآن؛ لدلالة سياق الآية نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨٣.
(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٧٨.
(٣) أحمد (٣١٩١)، والبخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨)، والترمذي (٣٣٢٩)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٤٩، والطبراني في الكبير (١٢٢٩٧)، والبهيقي في الدلائل ٧/ ٥٦، ولم نقف عليه في الدلائل لأبي نعيم.

﴿ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي: لا تُحرِّك بالقرآن لسانَك عند إلقاء الوحي مِن قبل أن يُقْضَى إليك وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أي: لتأخذه على عجلة مخافةَ أن ينفلتَ منكَ على ما يقتضيه كلام الحبر، وقيل: لمزيد حبِّك له وحرصك على أداء الرسالة، وروي عن الشعبي، ولا ينافي ما ذكر، والباء عليهما للتعدية.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء مِن معانيه ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك، بحيث تقرأه متى شئت، فالقرآن هنا وكذا فيما بعدُ مصدرٌ ـ كالرُّجْحان ـ بمعنى القراءة، كما في قوله:

ضَحَّوْا بأشمَطَ عُنوانُ السجودِ به يُقطِّع الليلَ تسبيحاً وقُرآنا[(١)]

مضاف إلى المفعول، وثَمَّ مضاف مقدَّر.

وقيل: «قرآنه» أي: تأليفه، والمعنى: إنَّ علينا جمعه ـ أي: حِفْظَه في حياتك ـ وتأليفه على لسانِك. وقيل: «قرآنه»: تأليفه وجمعه على أنَّه مصدر قَرَأت، أي: جمعت، ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد: ما قَرَأت سَلًى قطُّ، وقول عمرو بنِ كلثوم:

ذِرَاعَيْ بَكْرةٍ أدماءَ بِكْرٍ هجانِ اللونِ لم تَقْرأ جَنينا[(٢)]

ويُراد مِن جمعه الأوَّل جمعه في نفسه ووجوده الخارجي، ومِن «قرآنه» بهذا المعنى جمعُه في ذهنه ﷺ، وكلا القولين لا يَخفى حالُهما وإن نسب الأوَّل إلى مجاهد.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتممنا قِرَاءته عليك بلسان جبريلَ عليه السلام المبلِّغ عنَّا، فالإسناد مجازيٌّ، وفي ذلك مع اختيار نون العظمة مبالغةٌ في إيجاب التأنِّي.

---

(١) البيت لحسان بن ثابت يصف عثمان ﷺ، وهو في ديوانه ص٤٦٩. وقوله: الأشمط، يعني المختلط سواد شعره ببياض.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٨، والبحر ٨/ ٣٨٧ والكلام منه، وهذه رواية أبي عبيدة للبيت كما ذكر النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٩٣، والتبريزي في شرح المعلقات ص٢٥٩، وذكراه برواية:

ذراعي عَيْطلٍ أدماء بكر تربَّعت الأجارع والمتونا

والأدماء: البيضاء من الإبل. والبكرة من الإبل: التي وضعت بطناً واحداً.

﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ فكن مقفياً له لا مبارياً. وقيل: أي: فإذا قرأناه فاتَّبع بذهنِك وفِكْرك قرآنه، أي: فاستمع وأنصِت، وصحَّ هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابنِ عباس(١). وعنه أيضاً وعن قتادة والضَّحَّاك: أي: فاتَّبع في الأوامر والنواهي قرآنَه. وقيل: اتبَّع قرآنه بالدَّرْس، على معنى: كرِّره حتى يرسخَ في ذهنك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: بيان ما أَشكل عليكَ مِن معانيه وأحكامه، على ما قيل، واستدلَّ به القاضي أبو الطَّيِّب ومَن تابعه على جواز تأخير البيانِ عن وقت الخطابِ؛ لمكان «ثم»، وتعقَّب بأنَّه يجوز أن يُراد بالبيان الإظهار لا بيان المجمَل، وقد صحَّ من رواية الشيخين وجماعةٍ عن الحبر أنَّه قال في ذلك: ثم إنَّ علينا أن نبيِّنه بلسانك(٢)، وفي لفظ: علينا أن تقرأه(٣)، ويؤيِّد ذلك أنَّ المرادَ بيانُ جميع القرآن، والمجمَلُ بعضُه.

﴿كَلَّا﴾ إرشادٌ لرسوله ﷺ وأَخْذٌ به عن عادة العَجَلة وترغيبٌ له عليه الصلاة والسلام في الأَناة، وبالغ سبحانه في ذلك ـ لمزيدِ حبِّه إيَّاه ـ باتْباعه ـ بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ على تعميم الخطاب للكلِّ، كأنَّه قيل: بل أنتم يا بني آدمَ لمَّا خُلقتم مِن عَجَل وجُبلتم عليه، تَعجلون في كلِّ شيء، ولذا تحبُّون العاجلة وتذرونَ الآخرةَ، ويتضمَّن استعجالَك؛ لأنَّ عادةَ بني آدمَ الاستعجال ومحبَّة العاجلة، وفيه أيضاً أنَّ الإنسان وإن كان مجبولاً على ذلك إلا أنَّ مَثَله عليه الصلاة والسلام ممَّن هو في أعلى منصب النبوَّة لا ينبغي أن يستفزَّه مقتضى الطباع البشريَّة، وأنَّه إذا نُهيَ ﷺ عن العَجَلة في طلب العلم والهدى، فهؤلاء ـ ودينهم حبُّ العاجلة وطَلَب الرَّدَى ـ كأنَّهم نُزِّلوا منزلةَ مَن لا ينجعُ فيهم النهي، فإنَّما يعاتب الأديم ذو البشرة، ومنه يُعلَم أنَّ هذا متَّصل بقوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ فإنَّه ملوِّح إلى معنى: «بل تحبون» إلخ، وقوله عزَّ وجلَّ: «لا تُحرِّك» إلخ متوسِّط بين حُبَّي العاجلة، حبّها الذي تضمَّنه «بل

(١) صحيح البخاري (٥)، وصحيح مسلم (٤٤٨).
(٢) البخاري (٤٩٢٨)، ومسلم (٤٤٨): (١٤٧).
(٣) البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨): (١٤٨).

يريد» تلويحاً، وحبّها الذي أذن به «بل تحبُّون» تصريحاً، لحُسْن التخلُّص منه إلى المفاجأة والتصريح، ففي ذلك تدرُّج ومبالغة في التقريع، والتدرُّج وإن كان يحصل لو لم يُؤتَ بقوله سبحانه: «لا تُحرِّك» إلخ، في البين أيضاً، إلا أنَّه يلزم حينئذٍ فوات المبالغة في التقريع، وأنَّه إذا لم تَجُزِ العَجَلة في القرآن وهو شفاء ورحمة، فكيف فيما هو فجور وثُبور؟! ويزول ما أشير إليه من الفوائد، فهو استطراد يؤدِّي مؤدَّى الاعتراض وأبلغ، وأَطْلَق بعضُهم عليه الاعتراض.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد والحسن وقتادة والجحدريُّ: «يحبُّون» و«يذرون» بياء الغيبة فيهما[1]، وأمرُ الربط عليها كما تقدَّم، وهي أبلغ من حيث إنَّ فيها التفاتاً وإخراجاً له عليه الصلاة والسلام مِن صريح الخطاب بحبِّ العاجلة مضمَّناً طرفاً مِن التوبيخ على سبيل الرَّمْزِ لطفاً منه تعالى شأنه في شأنِه ﷺ، وأمَّا القراءةُ بالتاء ففيها تغليبُ المخاطَب والالتفات، وهو عكس الأوَّل.

هذا خلاصةُ ما رمز إليه جارُ الله[2] على ما أفيد، وقد اندفعَ به قولُ بعضِ الزنادقة وشِرْذِمةٍ مِن قدماء الرافضة أنَّه لا وجهَ لوقوع: «لاتُحرِّك به لسانك» إلخ في أثناء أمور الآخرة، ولا رَبْطَ في ذلك بوجهٍ من الوجوه، وجعلوا ذلك دليلاً لما زعموه مِن أنَّ القرآن قد غيِّر وبُدِّل، وزِيْدَ فيه ونقص منه، وللعلماء حماةِ المسلمين وشُهُب سماء الدين في دَفْعِ كلامِ ذلك كثيرٌ، منه ما تقدَّم، وللإمام[3] أوجه فيه، منها الحسن، ومنها ما ليس كذلك بالمرَّة. وقال الطيبيُّ: إنَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ متَّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ أي: يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كلَّا، إنَّ أعذاركَ غيرُ مسموعة، فإنَّك فجرتَ وفسقتَ وظننتَ أنَّك تدوم على فجورك، وأن لا حشرَ ولا حسابَ ولا عقابَ، وذلك مِن حبِّك العاجلةَ والإعراض عن الآخِرة، وكان من عادة الرسول ﷺ أنَّه إذا لُقِّنَ القرآنَ أن

(١) التيسير ص ٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٣ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٨.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٢ وما بعدها.

ينازع جبريلَ عليه السلام القراءةَ، وقد اتَّفق عند التلقين للآيات السابقة ما جرت به عادتُه من العَجَلة، فلمَّا وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أوحي إلى جبريل عليه السلام بأنْ يُلقي إليه عليه الصلاة والسلام ما يُرشِده إلى أَخْذِ القرآن على أكمل وجه، فألقى تلك الجملَ على سبيل الاستطراد، ثم عاد إلى تمام ما كان فيه بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ﴾ إلخ، مثاله الشيخ إذا كان يُلقِّن تلميذَه درساً، أو يُلقي إليه فصلاً، ورآه في أثناء ذلك يَعجَل ويَضْطَرب، يقول له: لا تَعجَل ولا تَضْطَرب، فإنِّي إذ فرغت إن كان لك إشكال أُزيله، أو كنت تَخاف فوتاً فأنا أحفِّظكه، ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتمِّمه. انتهى. فما في البينِ مناسبٌ لِمَا وقع في الخارج دون المعنى الموحى به، وخصَّه بعضهم لهذا بالاستطراد، وأطلق آخَر عليه الاعتراض بالمعنى اللغويِّ. وهذا عندي بعيدٌ لم يتَّفق مِثْله في النظم الجليل، ولا دَليلَ لمن يَراه على وقوع العجلة في أثناء هذه الآيات سوى خفاءِ المناسبة.

وقال أبو حيَّان: يظهر أنَّ المناسبةَ بين هذه الآية وما قبلها أنَّه سبحانه لمَّا ذَكَر مُنكِر القيامةِ والبعثِ مُعرِضاً عن آياتِ الله تعالى ومعجزاتِه، وأنَّه قاصرٌ شهواته على الفجور غير مُكترِث بما يصدر منه، ذَكَر حالَ مَن يُثابر على تعلُّم آياتِ الله تعالى وحِفْظِها وتلقُّفها[1] والنظرِ فيها وعَرْضها على مَن يُنكِرها رجاءَ قبوله إيَّاها، ليظهرَ بذلك تباين مَن يرغب في تحصيل آياتِ الله تعالى ومَن يرغب عنها:

وبِضدِّها تتبيَّن الأشياءُ[2]

انتهى. وفيه أنَّ هذا إنَّما يَحسُن بعد تمام ما يتعلَّق بذلك المُنكر، والظاهر أنَّ «لا تُحرِّك» إلخ وقع في البين.

وقال القَفَّال: قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلخ خطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وذلك حالَ إنبائه بقبائح أفعالِه، يُعرَضُ عليه كتابُه، فيقال له:

---

(١) في (م): وتلقنها.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٨٨، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٩، وصدره:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله.

وذامه كذمَّه، والمعنى: ونحن نذمُّ اللئام ولولاهم ما عرفنا فضله... إلخ.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] فإذا أخذ في القراءة تَلَجْلَج لسانُه مِن شدَّة الخوف وسرعةِ القراءة، فقيل له: «لا تُحرِّك به لسانَك لتعجلَ به» فإنَّه يجب علينا بحكم الوَعْد أو بحكم الحِكمة أن نجمعَ أعمالَك وأن نَقرأَها عليك، فإذا قَرَأْناه عليك فاتَّبع قراءَته بالإقرار بأنَّك فعلتَ تلك الأفعال، أو التأمُّلِ فيه، «ثم إنَّ علينا بيانه» أي: بيان أمرِه وشرح عقوبته. والحاصل على هذا أنَّه تعالى يُوقِفُ الكافرَ على جميع أعماله على التفصيل، وفيه أشدُّ الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخِرة. انتهى.

فضمير «به» وكذا الضمائر بَعْدَه للكتاب المشعِر به قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ على قول مَن يُفسِّرُ البصيرة بالكاتبين[(١)]، ولعلَّ الجملة على هذا الوجه في موضع الحال مِن مرفوع «ينبَّأ» بتقدير القول، كأنَّه قيل: «ينبَّأ الإنسان يومئذٍ» عند أَخْذِ كتابه «بما قدَّم وأخَّر» مقولاً له: «لا تُحرِّك به لسانَك» إلخ، فالربط عليه ظاهر جدّاً، ومِن هنا اختاره البلخيُّ ومَن تبعه، لكنَّه مخالف للصحيح المأثور الذي عليه الجمهور مِن أنَّ ذلك خطابٌ له ﷺ.

والظاهر أنَّ التحريكَ قبل النهي إنَّما صدر منه عليه الصلاة والسلام بحُكم الإباحة الأصليَّة فلا يتمُّ احتجاجُ مَن جوَّز الذنبَ على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية.

وقال الإمام: لعلَّ ذلك الاستعجال إن كان مأذوناً فيه عليه الصلاة والسلام إلى وقت النهي[(٢)]. وكأنَّه أراد بالإذن الإذنَ الصريح المخصوص، وفيه بُعدٌ مّا.

وعن الضَّحَّاك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآنَ فكان يَدرسه حتى غلبَ ذلك وشقَّ عليه، فنزل: «لا تُحرِّك به» إلخ[(٣)]. وليس بالثبت، ولعلَّ ظاهرَ الآية لا يُساعده.

---

(١) تحرفت العبارة في (م) إلى: على قول من تفسير البصيرة بالكتابين.

(٢) في التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٤: لعل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي عنه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٧.

ثم إنَّه ربَّما يُتخيَّل في الآية وجهٌ غيرُ ما ذكر عن القفَّال الربطُ عليه ظاهر أيضاً، وهو أنَّه يكون الخطابُ في «لا تُحرِّك» إلخ لسيِّد المخاطَبِيْن حقيقةً، أو مِن باب: إيَّاكِ أعني واسْمَعي، أو لكلِّ مَن يَصلُح له، وضمير «به» ونظائره ليوم القيامة، والجملة اعتراضٌ جِيْءَ به لتأكيد تهويله وتفظيعه مع تقاضي السباق له، فكأنَّه لمَّا ذَكَر سبحانه ممَّا يتعلَّق بذلك اليوم الذي افتتحت السورة بإعظامه ما يتعلَّق، قوَّى داعي السؤال عن توقيته، وأنَّه متى يكون، وفي أيِّ وقت يبين، لا سيَّما وقد استشعر أنَّ السؤالَ عن ذلك إذا لم يكن استهزاء ممَّا لا بأس به، فقيل: «لا تُحرِّك به» أي: بطلب توقيته «لسانَك»، وهو نهي عن السؤال على أتمِّ وجه، كما يقال: لا تَفْتَح فمَك في أمر فلانٍ، «لتعجل به» لتحصِّل علمه على عجلة «إنَّ علينا جمعه» ما يكون فيه مِن الجمع «وقرآنه» ما يتضمَّن شرحَ أحواله وأهواله مِن القرآن، «فإذا قرأناه» قرأنا ما يتعلَّق به «فاتَّبع قرآنه» بالعمل بما يقتضيه مِن الاستعداد له، ثم «إنَّ علينا بيانه» إظهاره وقوعاً بالنَّفْخ في الصُّور وهو الطامَّةُ الكُبْرى.

وحاصله: لا تسأل عن توقيت ذلك اليوم العظيم مستعجلاً معرفةَ ذلك، فإنَّ الواجبَ علينا حكمةً حَشْرُ الجمع فيه، وإنزالُ قرآنٍ يتضمَّن بيانَ أحواله ليُستعدَّ له، وإظهاره بالوقوع الذي هو الداهية العظمى، وما عدا ذلك مِن تعيين وقته فلا يجبُ علينا حكمةً، بل هو منافٍ للحكمة، فإذا سألت فقد سألت ما ينافيها، فلا تجاب. انتهى. وفيه ما فيه، وما كنتُ أذكُره لولا هذا التنبيه.

واللائق بجزالة التنزيل ولطيفِ إشارته ما أَشار إليه ذو اليد الطولى جارُ الله ـ تجاوز الله تعالى عن تقصيراته ـ فتأمَّل، فلا حَجْر على فَضْل اللهِ عزَّ وجلَّ.

ولمَّا ردع سبحانه عن حبِّ العاجلة وتَرْك الآخِرة، عقَّب ذلك بما يتضمَّن تأكيدَ هذا الردع ممَّا يشيرُ إلى حُسْن عاقبة حبِّ الآخِرة وسوء مغبَّة العاجلة، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وجوه كثيرة ـ وهي وجوه المؤمنين المُخلصين يومَ إذ تقوم القيامة بهيَّةٌ متهلِّلةٌ مِن عظيم المسرَّة يُشاهَدُ عليها نضرةُ النعيم، على أنَّ

«وجوه» مبتدأ، و«ناضرة» خبره، و«يومئذٍ» منصوب بـ «ناضرة»، و«ناظرة» في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، أو نعت لـ «ناضرة»، و«إلى ربِّها» متعلِّق بـ «ناظرة».

وصحَّ وقوعُ النكرة مبتدأ؛ لأنَّ الموضعَ موضع تفصيل، كما في قوله:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُسَاء ويومٌ نُسَرّ[(١)]

لا على أنَّ النكرةَ تخصَّصت بـ «يومئذ» كما زعم ابنُ عطيَّة[(٢)]؛ لأنَّ ظرف الزمان لا يكون صفةً للجثث، ولا على أنَّ «ناضرة» صفة لها والخبر «ناظرة» كما قيل، لِمَا أنَّ المشهورَ الغالب كونُ الصفة معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع، وثبوتُ النَّضْرة للوجوه ليس كذلك، فحقُّه أن يُخبر به، نعم ذَكَر هذا غير واحد احتمالاً في الآية، وقال فيه أبو حيَّان: هو قولٌ سائغ[(٣)].

ومعنى كونها ناظرة إلى ربها أنَّها تَراه تعالى مستغرقةً في مطالعة جماله بحيث تَغفُل عمَّا سواه، وتشاهده تعالى على ما يليقُ بذاته سبحانه، ولا حَجْرَ على الله عزَّ وجلَّ، وله جلَّ وعلا التنزُّه الذاتيُّ التامُّ في جميع تجلِّياته.

واعتُرضَ بأنَّ تقديمَ المعمول - يعني «إلى ربِّها» - يفيد الاختصاص، كما في نظائره في هذه السورة وغيرها، وهو لا يتأتَّى لو حمل ذلك على النظر بالمعنى المذكور؛ ضرورةَ أنَّهم ينظرون إلى غيره تعالى، وحيث كان الاختصاص ثابتاً كان الحمل على ذلك باطلاً. وفيه أنَّ التقديمَ لا يتمحَّض للاختصاص، كيف والموجب مِن رعاية الفاصلة والاهتمام قائمٌ، ثم لو سُلِّم فهو باقٍ بمعنى أنَّ النظر إلى غيره تعالى في جَنْب النظر إليه سبحانه لا يُعَدُّ نظراً، كما قيل في نحو: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] على أنَّ ذلك ليس في جميع الأحوال، بل في بعضها، وفي ذلك لا التفاتَ إلى ما سواه جلَّ جلاله، فقد أخرج مسلم والترمذيُّ عن صهيبٍ عن

(١) وقع في الأصل و(م): فيوم لنا ويوم علينا، وهو خطأ رواية ووزناً، والبيت أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٨٦، والثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٥٦ ونسباه للنمر بن تولب.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٨٩.

النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة، يقول الله تعالى: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا، ألم تُدخلنا الجنَّة وتنجِّنا من النار. قال: فيكشف اللهُ تعالى الحجابَ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم مِن النظر إلى ربِّهم»(١).

وفي حديث جابر ـ وقد رواه ابن ماجه ـ: «فيَنظرُ إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ مِن النعيم ما داموا ينظرونَ إليه حتى يحتجب عنهم»(٢)، ومن هنا قيل:

فيَنْسَون النعيمَ إذا رَأَوْه فيا خُسْرانَ أهلِ الاعتزال(٣)

وكثيراً ما يحصل نحو ذلك للعارفين في هذه النشأة، فيستغرقونَ في بحار الحبِّ وتستولي على قلوبهم أنوارُ الكشف، فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ مِن جميع الكون:

فلما استبانَ الصبحُ أدرج ضوءُه بإسفاره أنوارَ ضوءِ الكواكب(٤)

وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: إلى مِلْك أو رحمةٍ أو ثواب ربِّها ناظرة، والنظر على معناه المعروف، أو على حذف مضاف، والنظر بمعنى الانتظار، فقد جاء لغة بهذا المعنى، أي: إلى إنعام ربِّها منتظرة، وتعقّب بأنَّ الحذفَ خلافُ الظاهر، وما زعموا من الداعي مردودٌ في محلِّه، وبأنَّ النظر بمعنى الانتظار لا يتعدَّى بـ «إلى» بل بنفسه، وبأنَّه لا يُسنَد إلى الوجه، فلا يقال: وجهُ زيدٍ منتظر. والمتبادر مِن الإسناد إسنادُ النظر إلى الوجوه الحقيقيَّة، وهو يأبى إرادة الذات مِن الوجه. وتَفصَّى الشريف المرتضى في «الدرر» عن بعض هذا بأنَّ «إلى» اسم بمعنى النعمة، واحد الآلاء، وهو مفعول به لـ «ناظرة» بمعنى منتظِرة، فيكون الانتظار قد تعدَّى بنفسه، وفيه من البُعْد ما فيه.

---

(١) مسلم (١٨١)، والترمذي (٣١٠٥).

(٢) ابن ماجه (١٨٤)، وفي إسناده أبو عاصم عبد الله بن عبيد الله العباداني، وهو منكر الحديث.

(٣) البيت لسراج الدين علي بن عثمان الأُوشي من منظومته المسماة: بدء الأمالي في أصول الدين، وهو البيت الحادي والعشرون، ينظر ضوء المعالي شرح منظومة بدء الأمالي ص٧٢.

(٤) البيت أورده السلمي في طبقات الصوفية ص ٤٤٧، وابن الملقن في طبقات الأولياء ص٣٦٧ في ترجمة أبي العباس القاسم بن القاسم السياري.

والزمخشري[١] إذا تحقَّقت كلامه رأيتَه لم يَدَّعِ أنَّ النظرَ بمعنى الانتظار ليتعقَّب عليه بما تعقَّب، بل أراد أنَّ النظرَ بالمعنى المتعارَف كنايةٌ عن التوقُّع والرجاء، فالمعنى عنده أنَّهم لا يتوقَّعون النعمةَ والكرامة إلا مِن ربِّهم، كما كانوا في الدنيا لا يَخْشون ولا يَرجُون إلا إيَّاه سبحانه وتعالى. ويَرِدُ عليه أنَّه يَرجع إلى إرادة الانتظار لكن كناية، والانتظار لا يساعده المقام إذ لا نعمةَ فيه، وفي مثله قيل: الانتظارُ موتٌ أحمر.

والذي يقطع الشَّغَب ويدقُّ في فروة مَن أخسَّ الطلب ما أخرجه الإمام أحمد والترمذيُّ والدارقطنيُّ وابن جرير وابنُ المنذر والطبرانيُّ والبيهقيُّ وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أدنى أهلِ الجنَّة منزلةً لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخَدَمه وسُرُره مسيرةَ ألف سنة، وأكرمهم على الله مَن يَنظُر إلى وجهه غُدْوةً وعشيَّةً» ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٢]. فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام، ومِن المعلوم أنَّه أَعلمُ الأوَّلين والآخِرين لا سيَّما بما أُنزل عليه مِن كلام ربِّ العالمين.

ومِثْلُ هذا فيما ذكر ما أخرجه الدارقطنيُّ والخطيب في «تاريخه» عن أنسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ أقرأَهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فقال: «والله ما نَسَخها منذ أنزلها، يَزورونَ ربَّهم تبارك وتعالى فيُطعَمون ويُسقَون ويُطيَّبون ويُحَلَّون ويُرفَع الحجابُ بينه وبينهم فينظرون إليه وينظر إليهم عزَّ وجلَّ»[٣]. وهذا الحجاب على ما قال السادة مِن قِبَلِهم لا مِن قِبَلِه عزَّ وجلَّ، وأنشدوا:

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٠، وأحمد (٥٣١٧)، والترمذي (٢٥٥٣) و(٣٣٣٠)، والرؤية للدارقطني (١٧١) و(١٧٢)، وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٠٩، وعبد بن حميد (٨١٩)، والبعث والنشور (٤٧٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١١١. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩٢، والدارقطني في الرؤية (٥٥)، وتاريخ بغداد ٣/ ٢٠٠، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٧١٩) من طريق الدارقطني، وقال: هذا حديث لا يصح.

وَكُنَّا حَسِبْنَا أنَّ ليلى تَبَرْقَعَتْ ... وأنَّ حجاباً دُونها يَمنع اللَّثْما
فَلاحَتْ فلا واللهِ ما ثَمَّ حاجبٌ ... سوى أنَّ طَرْفي كان عن حُسْنها أعمى[1]

ثُمَّ إنَّ أجهلَ الخَلْق عندهم المعتزلة وأشدّهم عمًى وأدناهم منزلةً، حيث أنكروا صحَّة رؤيةِ مَن لا ظاهرَ سواه، بل لا موجودَ على الحقيقة إلا إيَّاه، وأدلَّة إنكارهم صحَّةَ رؤيته تعالى مذكورةٌ مع ردودها في كتب الكلام، وكذا أدلَّة القوم على الصِّحَّة. وكأنِّي بكَ بعد الإحاطة وتدقيقِ النظر تميلُ إلى أنَّه سبحانه وتعالى يُرَى لكن لا مِن حيث ذاته سبحانه البحت، ولا مِن حيث كلُّ تجلٍّ حتى تجلِّيه بنوره الشعشعاني الذي لا يُطاق.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «وجوهٌ يومئذٍ نَضِرَة» بغير ألف[2].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: شديدة العُبُوس، وباسل أبلغ مِن باسر فيما ذكر، لكنَّه غلب في الشجاع إذا اشتدَّت كُلُوحَتُه، فعدل عنه لإيهامه غيرَ المراد، وعنى بهذه الوجوه وجوه الكفرة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: داهيةٌ عظيمة تَقصِمُ فَقَار الظَّهْر، مِن فَقَره: أصابَ فَقَاره. وقال أبو عبيدة: «فاقرة» مِن فَقَرتُ البعيرَ إذا وسمتَ أنفَه بالنار[3].

وفاعل «تظن» ضمير الوجوه بتقدير مضاف، أي: تظنُّ أربابُها، وجوّز أن يكون الضمير راجعاً إليها على أنَّ الوجهَ بمعنى الذات استخداماً، وفيه بُعْدٌ.

والظَّنُّ قيل أُريدَ به اليقينُ، واختاره الطيبيُّ، و«أنْ» المصدريَّة لا تَقعُ بعد فعل التحقيقِ الصرف دون فعل الظَّنِّ أو ما يؤدِّي معنى العلم، فتقع بعده كالمشدَّدة والمخفَّفة، على ما نصَّ عليه الرضي. وقيل: هو على معناه الحقيقي المشهور، والمراد: تتوقَّع ذلك، واختاره مَن اختاره، ولا دلالةَ فيه بواسطة التقابل على أن يكون النظرُ ثَمَّ بالمعنى المذكور، كما زعمه مَن زعمه، وتحقيق ذلك أنَّ ما يُفعَل

---

(١) أوردهما ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢/ ٨١ ونسبهما لعفيف الدين التلمساني، والبيتان سلفا ١/ ٥٨، لكن ورد فيهما: توهَّمت قِدْماً، بدل: وكنا حسبنا. وهما كما وردا في مجموع الفتاوى.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٨ بنحوه.

بهم في مقابلة النَّظَر إلى الربِّ سبحانه لكون ذلك غاية النعمة، وهذا غاية النقمة، وجِيْءَ بفعل الظَّنِّ هاهنا دلالةً على أنَّ ما هم فيه وإن كان غاية الشَّرِّ يتوقَّع بعده أشدّ منه، وهكذا أبداً، وذلك لأنَّ المرادَ بالفاقرة ما لا يُكْتَنَه مِن العذاب، فكلّما يُفعَل به مِن أشدِّه، استدلَّ منه على آخَر وتوقَّع أشدَّ منه، وإذا كان ظانًّا كان أشدَّ عليه ممَّا إذا كان عالماً موطِّناً نفسَه على الأمر، على أنَّ العلم بالكائن واقعٌ لا بما يتجدَّد آناً فآناً، فهذا وجه الإتيان بفعل الظَّنِّ، ولم يؤت في المقابل بفعل ظنَّ أو عَلِمَ؛ لأنَّهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه وذاقوه، ثم بعد ذلك التفاوت في ذلك النظر قوَّةً وضعفاً بالنسبة إلى الرائي على ما قرَّروه، فلعلَّ هذا حجَّة على الزاعم لا له، أسبغ اللهُ تعالى علينا برؤيته فَضْلَه.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار العاجلة على الآخِرة، كأنَّه قيل: ارْتَدِعوا عن ذلك وتنبَّهوا لِمَا بين أيديكم مِن الموت الذي تنقطعُ عنده ما بينكم وبين العاجلة مِن العلاقة.

﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: النفسُ أو الروح الدالُّ عليها سياق الكلام كما في قول حاتم:

أَماوِيُّ[1] ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدرُ[2]

ونحو قول العرب: أَرْسَلت، يريدون جاءَ المطر، ولا تكاد تسمعهم يقولون: أَرسلت السماءُ، نعم قد يصرَّح فيما هنا بالفاعل، فيقال: بَلَغت النَّفْسُ.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أعالي الصدر، وهي العظام المكتنفة ثغرةَ النَّحْر عن يمينٍ وشمالٍ، جمع: تَرْقُوة، وأنشدوا لدريد بنِ الصُّمَّة:

وربَّ عظيمةٍ دافعْتَ[3] عَنهُم وقد بَلَغت نُفوسُهُمُ التراقي[4]

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: قال مَن حضر صاحبَها: مَن يَرقيه وينجيه ممَّا هو فيه،

---

(١) في هامش الأصل: لعمرك. نسخة.

(٢) ديوان حاتم ص٣٩، والحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردُّد النَّفَس. الصحاح (حشرج).

(٣) في (م): رافعت.

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٠، وأورده أيضاً ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤٥٤، والحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٥٨، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٤/ ١٢ ونسبوه لعمرة بنت دريد بن الصمة قالته في قصيدة لها ترثي بها أباها.

مِن الرُّقْيَة وهي ما يستشفي به الملسوع والمريض من الكلام المعدِّ لذلك، ومنه آيات الشفاء، ولعلَّه أُريدَ به مُطلَقُ الطبيب أعمَّ من أن يطبّ بالقول أو بالفعل، وروي عن ابنِ عباس والضَّحَّاك وأبو قِلابة وقتادة ما هو ظاهر فيه. والاستفهام عند بعضٍ حقيقيٌّ، وقيل: هو استفهامُ استبعادٍ وإنكار، أي: قد بلغ مبلغاً لا أحدَ يَرقيه، كما يقال عند اليأس: مَن ذا الذي يقدر أن يرقي هذا المُشْرِف على الموت، وروي ذلك عن عكرمة وابنِ زيد.

وقيل: هو مِن كلام ملائكة الموت، أي: أيُّكم يَرقَى بروحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من الرُّقي وهو العُرُوج، وروي هذا عن ابنِ عباس أيضاً وسليمان التيمي، والاستفهام عليه حقيقيٌّ، وتعقّب بأنَّ اعتبارَ ملائكة الرحمة لا[1] يناسب قولَه تعالى بَعْدُ: «فلا صدَّق» إلخ، ودُفعَ بأنَّ الضميرَ للإنسان، والمراد به الجنس، والاقتصار بعد ذلك على أحوال بعضِ الفريقين لا ينافي العموم فيما قَبْلُ.

ووقف حفص رواية عن عاصم على «من» وابتدأ «راق»، وأدغم الجمهور[2]، قال أبو عليٍّ: لا أدري ما وجه قراءتِهِ[3]. وكذلك قرأ: «بل ران»[4]، وقال بعضهم: كأنَّه قَصَدَ أنْ لا يُتوهَّم أنَّها كلمة واحدة، فسكت سكتةً لطيفة ليُشعِرَ أنهما كلمتان، وإلا فكان ينبغي أن يُدغم في «من راق»، فقد قال سيبويه: إنَّ النونَ تدغم في الراء وذلك نحو: من راشد، والإدغام بغنَّة وبغير غنَّة[5]. ولم يَذكر الإظهار، ويُمكن أن يقال: لعلَّ الإظهار رأي كوفي، فعاصمٌ شيخُ حفص يذكر أنَّه كان عالماً بالنحو، وأمَّا «بل ران» فقد ذكر سيبويه في ذلك أيضاً أنَّ إظهارَ اللام وإدغامَها مع الراء حسنان[6]، فلعلَّ حفصاً لمَّا أفرَطَ في إظهار الإظهار فيه صار كالوقف القليل.

---

(١) قوله: لا، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٨٤، والكلام منه.
(٢) السبعة ص٦٦١ و٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.
(٣) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٤٦.
(٤) السبعة ص٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.
(٥) الكتاب ٤/ ٤٥٢.
(٦) الكتاب ٤/ ٤٥٢، وعبارته فيه: والإدغام أحسن. والكلام من البحر ٨/ ٣٩٠.

واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ على أنَّ النفسَ جسمٌ لا جوهرٌ مجرَّد، إذ لا يتَّصف بالحركة والتحيُّز، وأجاب بعضٌ بأنَّ هذه النفسَ المسندَ إليها بلوغُ التراقي هي النفسُ الحيوانيَّة لا الروح الأمريَّة وهي الجوهر المجرَّد دون الحيوانيَّة، وآخَرُ بأنَّ المرادَ ببلوغها التراقي قُرْبُ انقطاع التعلُّق، وهو ممَّا يتَّصف به المجرَّد، إذ لا يستدعي حركة ولا تحيُّزاً ولا نحوهما ممَّا يستحيل عليه، وزعم أنَّه لا يمكن إرادةُ الحقيقة ولو كانت النفس جسماً ضرورةَ أنَّ بلوغها التراقي لا يتحقَّق إلا بعد مفارقتها القلب، وحينئذٍ يَحصل الموت، ولا يقال: «مَن رَاق» كما هو ظاهر على الوجه الأوَّل فيه، ولا يتأتَّى أيضاً ما يُذكَر بَعْدُ على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى فيه.

والذي عليه جمهور الأمَّة سلفاً وخَلَفاً أنَّ النَّفْسَ - وهي الروح الأمريَّة - جسمٌ لطيف جدًّا ألطف مِن الضوء عند القائل بجسميَّته، والنفس الحيوانيَّة مَرْكَبٌ لها، وهي سارية في البَدَن نحو سريان ماءِ الورد في الورد، والنار في الفحم، وسريانِ السيال الكهربائيِّ، عند القائل به في الأجسام، والأدلَّة على جسميَّتها كثيرةٌ، وقد استوفاها الشيخ ابنُ القيم في كتاب «الروح»[1] وأتى فيه بالعَجَب العجاب.

ثم الظاهر أنَّ المرادَ ببلوغ التراقي مشارفة الموت وقُرْب خروجِ الروح من البَدَن، سَلِمَت الضرورة التي في كلام ذلك الزاعم أم لم تَسْلَم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وظنَّ الإنسانُ المُحتَضر أنَّ ما نزل به الفِراق مِن حبيبته الدنيا ونعيمِها، وقيل: فراق الروحِ الجسدَ. والظَّنُّ هنا عند أبي حيَّان[2] على بابه، وأكثر المفسِّرين على تفسيره باليقين، قال الإمام: ولعلَّه إنَّما سمِّي اليقين هاهنا بالظَّنِّ؛ لأنَّ الإنسان ما دامت روحُه متعلِّقة ببدنه يَطمع في الحياة لشدَّة حبِّه لهذه الحياة العاجلة، ولا يَنقطع رجاؤه عنها، فلا يحصل له يقينُ الموت بل الظَّنُّ الغالب مع رجاء الحياة، أو لعلَّه سمَّاه بالظَّنِّ على سبيل التَّهكُّم[3].

---

(١) تنظر المسألة الخامسة من كتابه المذكور أعلاه.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٠.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣١.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: التفَّتْ ساقُه بساقه والْتَوَتْ عليها عند هَلَع الموت وقلقه[1]، كما روي عن الشعبيِّ وقتادة وأبي مالك. وقال الحسن وابنُ المسيب: هما ساقا الميت عندما لُفَّا في الكفن. وقيل: المراد بالتفافهما انتهاءُ أمرهما وما يُراد فيهما، يعني موتهما. وقيل: يَبَسُهما بالموت وعدم تَحرُّك إحداهما عن الأخرى حتى كأنَّهما ملتفَّتان، فهما أوَّل ما يَخرج الروحُ منه فتبردان قبل سائرِ الأعضاء وتَيبسان، فالساق بمعناهما الحقيقيِّ، و«أل» فيها عهديَّة أو عِوَض عن المضاف إليه.

وقال ابنُ عباس والربيع بنُ أنس وإسماعيل بن أبي خالد وهو روايةٌ عن الحسن أيضاً: التفَّت شدَّة فراقِ الدنيا بشدَّة إقبال الآخِرة واختلطتا. ونحوُه قولُ عطاء: اجتمع عليه شدَّةُ مفارقة المألوف مِن الوطن والأهل والولد والصديق وشدَّةُ القُدوم على ربِّه جلَّ شأنه لا يدري بماذا يَقدمُ عليه، فالساق عبارة عن الشِّدَّة، وهو مَثَل في ذلك، والتعريف للعهد، وأخرج عبد بنُ حميد وابنُ جرير عن الضَّحَّاك: التفَّت أَسْوُقُ حاضريه مِن الإنس والملائكة، هؤلاء يجهِّزون بَدَنه إلى القبر، وهؤلاء يجهِّزون روحه إلى السماء[2]. فكأنَّهم للاختلاف في الذهاب والإياب والتردُّد في الأعمال قد التفَّت أسوقُهم، وهذا الالتفاف على حدِّ اشتباك الأَسِنَّة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إلى الله تعالى وحُكمه سَوْقُه لا إلى غيره، على أنَّ «المساقَ» مصدرٌ ميمي كالمقال، وتقديمُ الخبر للحَصْر، والكلام على تقدير مضاف هو: حكم، وقيل: هو موعد، والمراد به الجنة أو النار، وقيل: ليس هناك مضاف مقدَّر على أنَّ الرَّبَّ جلَّ شأنه هو السائق، أي: سَوْقُ هؤلاء مفوَّض إلى ربِّك لا إلى غيره، والظاهر ما تقدَّم. ثم إن كان هذا في شأن الفاجر أو فيما يعمُّه والبَرَّ، يُراد بالسوق السوقُ المناسب للمسوق، وهذه الآية لعَمْري بشارةٌ لمن حسَّن ظنَّه بربِّه، وعَلِمَ أنَّه الرَّبُّ الذي سبقت رحمتُه على غضبه:

قالوا غداً نأتي ديارَ الحِمَى ... ويَنزلُ الركبُ بمَغْناهُمُ

---

(١) في (م): وقلبه.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٥١٧، وينظر الدر المنثور ٦/ ٢٩٦.

فقلتُ لي ذَنْبٌ فما حيلتي   بأيِّ وَجْهٍ أتلقَّاهُمُ
قالوا أليسَ العفوُ مِن شأنِهم   لا سيَّما عمَّن ترجاهُمُ(١)

ثم إنَّ جواب «إذا» محذوف دلَّ عليه ما ذكر، أي: كان ما كان، أو: انكشفت للمرء حقيقةُ الأمر، أو: وَجَدَ الإنسانُ ما عملَه مِن خير أو شرٍّ.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: ما يجب تصديقه مِن الله عزَّ وجلَّ والرسولِ ﷺ والقرآنِ الذي أُنزل عليه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ ما فُرضَ عليه، أي: لم يُصدِّق ولم يُصلِّ، فـ «لا» داخلة على الماضي كما في قوله:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمَّا   وأيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا(٢)

والضمير في الفعلين للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة عطف على قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ على ما ذهب إليه الزمخشريُّ(٣)، فالمعنى بناءً على ما علمتَ مِن أنَّ السؤالَ سؤالُ استهزاء واستبعادٍ: استَبْعَدَ البعثَ وأنكره، فلم يأتِ بأصل الدين وهو التصديق بما يَجبُ تصديقُه به، ولا بأهمِّ فروعه وهو الصلاة، ثم أكَّد ذلك بذكر ما يُضادّه بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ نفياً لتوهُّم السكوت أو الشَّكِّ، أي: ومع ذلك أظهرَ الجحودَ والتولِّي عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ يتبختر افتخاراً بذلك، ومَن صَدَرَ عنه مِثْلُ ذلك ينبغي أن يَخافَ مِن حلولِ غضبِ الله تعالى به، فيمشي خائفاً متطامناً لا فَرِحاً متبختراً، فـ «ثمَّ» للاستبعاد، و«يتمطَّى» مِن المَطِّ، فإنَّ المتبختر يمدُّ خطاه، فيكون أصله: يَتَمَطَّط، قُلبت الطاء فيه حرفَ علَّة؛ كراهة اجتماع الأمثال، كما قالوا:

---

(١) الأبيات لعَلَم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي المقرئ النحوي الشافعي، قالها لما حضرته الوفاة، وهي في وفيات الأعيان لابن خلِّكان ٣/ ٣٤١، ومعرفة القراء الكبار للذهبي ٣/ ١٢٤٨-١٢٤٩، وشذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٣٨٦ عند ترجمته.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٣.

تَظَنَّى، مِن الظَّنِّ، وأصله: تَظَنَّن، أو مِن المَطا وهو الظَّهْرُ، فإنَّ المتبخترَ يلوي مَطاه تبختراً فيكون معتلًّا بحسب الأصل، وفي الحديث: «إذا مشت أمَّتي المُطَيْطاء، وخَدَمَتْهم فارس والروم، فقد جُعلَ بأسُهم بينهم، وسُلِّط شرارُهم على خيارهم»(١).

وجعل الطيبيُّ عطفَ هذه الجملة للتعجُّب على معنى: يَسألُ أيَّان يومُ القيامة وما استعدَّ له إلا ما يُوجب دمارَه وهلاكَه؟! وقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ إلخ جوابٌ عن السؤال أُقحم بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لشدَّة الاهتمام، وإنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلخ استطرادٌ على ما سمعتَ، وجَعْلُ «صدَّق» من التصديق هو المرويُّ عن قتادة.

وقال قوم: هو مِن التصدُّق أي: فلا صدَّق مالَه ولا زكَّاه.

قال أبو حيَّان(٢): وهذا الذي يظهر؛ نَفَى عنه الزكاةَ والصلاةَ وأثبتَ له التكذيبَ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦] وحَمْله على نفي التصديق يقتضي أن يكون «ولكنْ كذَّب» تكراراً، ولزم أن يكون استدراكاً بَعْدَ «ولا صلَّى» لا بَعْدَ «فلا صدَّق» لأنَّهما متوافقان. وفيه نظر يُعلم ممَّا قرَّرناه.

ثم إنَّه استبعدَ العطفَ على قوله تعالى: «يسأل» إلخ، وذكر أنَّ الآيَة نزلت في أبي جهل وكادت تُصرِّح به في قوله تعالى: «يتمطَّى» فإنَّها كانت مشيته ومشيةَ قومه بني مخزوم، وكان يُكثِر منها. ولم يبيِّن حالَ العطف على هذا، وأنتَ تعلم أنَّ العطف لا يَأبى حديثَ النزول في أبي جهل، وقد قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ نازلٌ فيه أيضاً، والحكم على الجنس بأحكام لا يضرُّ فيه تعيُّن بعضِ أفراده في حُكمٍ منها، نعم لا شَكَّ في بُعْدِ هذا العطف لفظاً، لكن في بُعْدِه معنًى مقالٌ، ولعلَّ فيما بَعْدُ ما يقوِّي جانبَ العطف على ذاك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حديث غريب. اهـ. وأخرجه أيضاً ابن حبان (٦٧١٦) من حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها. وينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣٨، وفيض القدير ١/ ٤٤٥، والمُطَيْطاء: مشية فيها تبختر ومدُّ يدين. النهاية (مطط).

(٢) في البحر ٨/ ٣٩٠.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ من الوَلْيِ بمعنى القُرْب، فهو للتفضيل في الأصل غُلِّب في قُرْب الهلاك ودعاءِ السوء، كأنَّه قيل: هلاكاً أولى لكَ، بمعنى: أهلكك اللهُ تعالى هلاكاً أقرب لكَ مِن كلِّ شرٍّ وهلاكٍ، وهذا كما غُلِّب بُعْداً وسُحْقاً في الهلاك، وفي «الصحاح» عن الأصمعي: قَارَبَه ما يُهْلِكُه، أي: نَزَلَ به، وأنشد:

فَعَادَى بين هادِيَتَيْنِ منها ... وأَوْلَى أنْ يَزِيدَ على الثَّلاثِ

أي: قارَبَ، ثم قال: قال ثعلب: ولم يَقُلْ أحدٌ في أولى أحسنَ ممَّا قاله الأصمعيُّ[1]. وعلى هذا «أَولى» فعلٌ مستترٌ فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق، واللام مزيدةٌ على ما قيل، وقيل: هو فعلٌ ماضٍ دعائيٌّ مِن الوَلْيِ أيضاً، إلا أنَّ الفاعلَ ضميره تعالى، واللام مزيدةٌ، أي: أولاك الله تعالى ما تكرهه، أو غير مزيدة، أي: أدنى اللهُ تعالى الهلاكَ لَكَ، وهو قريب ممَّا ذكر عن الأصمعيِّ.

وعن أبي عليٍّ: أنَّ «أَولى لَكَ» عَلَم للويل مبنيٌّ على زِنَةِ أَفْعَل مِن لفظ الويل على القلب، وأصله: أَوْيَل، وهو غيرُ منصرف؛ للعلميَّة والوزن، فهو مبتدأ، و«لك» خبره. وفيه أنَّ الويلَ غيرُ مُتَصَرِّفٍ فيه، ومثل: يوم أَيْوَم - مع أنَّه غيرُ منقاسٍ - لا يُفرَد عن الموصوف ألبتة، وأنَّ القلبَ على خلاف الأصل لا يرتكب إلا بدليل، وأنَّ عَلَم الجنس شيءٌ خارج عن القياس مُشْكِلُ التعقُّل، خاصَّة فيما نحن فيه.

وقيل: اسمُ فعل مبنيٌّ، ومعناه: وَلِيَكَ شرٌّ بعد شَرٍّ. واختار جمع أنَّه أفعل تفضيل بمعنى الأحسن والأحرى، خبرٌ لمبتدأ محذوف يُقدَّر كما يليق بمقامه، فالتقدير هنا: النارُ أَولى لَكَ - أي: أنتَ أحقُّ بها وأهلٌ لها - فأولى.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ تكريرٌ للتأكيد، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّر.

والظاهر أنَّ الجملةَ تذييلٌ للدعاء لا محلَّ لها من الإعراب، وجوِّز أن تكون في موضع الحال بتقدير القول، كأنَّه قيل: ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى، مقولاً له: «أَولى لَكَ» إلخ، ويؤيِّده ما أخرج النسائيُّ والحاكم - وصحَّحه - وعبد بنُ حميد وابنُ جرير

---

(١) الصحاح (ولي)، والبيت سلف عند تفسير الآية (٢٠) من سورة محمد ﷺ.

وابنُ المنذر وغيرهم عن سعيد بنِ جبير قال: سألتُ ابنَ عباس عن قولِ الله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: أَشَيءٌ قاله رسولُ الله ﷺ مِن نفسه، أم أَمَرَه اللهُ تعالى به؟ قال: بل قاله مِن قِبَلِ نفسه، ثم أنزله اللهُ تعالى(١).

واستدلَّ بقوله سبحانه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ إلخ على أنَّ الكفَّار مخاطبونَ بالفروع، فلا تغفل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي: مُهمَلاً، فلا يُكلَّف ولا يُجزَى، وقيل: أن يُترَكَ في قبره، فلا يبعثَ. ويقال: إبلٌ سدًى، أي: مُهمَلةٌ، ترعى حيث شاءت بلا راعٍ، وأَسديتُ الشيءَ، أي: أهملته، وأسديت حاجتي: ضيَّعتها ولم أعتنِ بها، قال الشاعر:

فأُقْسِمُ بالله جهدَ اليَمِيْـ ... ـنِ ما خَلَقَ اللهُ شيئاً سُدَى(٢)

ونصب «سُدًى» على الحال مِن ضمير «يُترَك»، و«أن يُتْرَك» في موضع المفعولين لـ «يحسب»، والاستفهام إنكاريٌّ، وكأنَّ تكريرَه بعد قولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لتكرير إنكار الحَشْر، قيل: مع تضمُّن الكلام الدلالة على وقوعه حيث إنَّ الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهيَ عن القبائح والرذائل، والتكليفُ لا يتحقَّق إلا بمجازاة، وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخِرة، وجعل بعضُهم هذا استدلالاً عقليًّا على وقوع الحشر، وفيه بحث لا يَخفى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ، استئنافٌ وارد لإبطال الحسبان المذكور، فإنَّ مدارَه لمَّا كان استبعادَهم للإعادة دفع ذلك ببدء الخَلْق.

وقرأ الحسن: «ألم تَكُ» بتاء الخطاب(٣) على سبيل الالتفات، وقرأ الأكثر: «تُمنَى» بالتاء الفوقيَّة، فالضمير للنطفة، أي: يُمْنِيها الرجلُ ويصبُّها في الرَّحِم،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٦، والنسائي في الكبرى (١١٥٧٤)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥١٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٢٥، ولم يذكر: ابن عباس في إسناد الطبري، بل أخرجه عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٠، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٤١، ولم ينسباه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.

وعلى قراءة الياء ـ وهي قراءة حفص وأبي عمرٍو بخلاف عنه ويعقوب وسلَّام والجحدريِّ وابنِ محيصن ـ للمَنِيِّ[1].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: بقُدرة اللهِ تعالى كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر اللهُ عزَّ وجلَّ بأن جعلها سبحانه مخلَّقة ﴿فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ فعدَّل وكمَّل ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: مِن الإنسان، وقيل: مِن المَنيِّ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ بدل مِن «الزوجين»، والخنثى لا يَعدُوهما.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «الزوجان» بالألف[2] على لغة بني الحارث بنِ كعب ومَن وافقهم مِن العرب، مِن كون المثنى بالألف في جميع حالاته.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ أي: قادراً. وقرأ زيد: «يَقْدِرُ» مضارعاً[3] ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ وهو أهونُ مِن البدء في قياس العقل.

وقرأ طلحة بنُ سليمان والفياض بنُ غزوان: «على أن يُحْيِيْ» بسكون الياء[4]، وأنتَ تَعلم أنَّ حركتها حركةُ إعراب لا تَنحذفُ إلا في الوقف، وقد جاء في الشعر حذفُها بدونه، وعن بعضهم: «يُحِيَّ» بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء، قال ابن خالويه: لا يُجيز أهلُ البصرة سيبويه وأصحابُه إدغامَ «يُحْيِي»، قالوا: لسكون الياء الثانية، ولا يعتدُّون بالفتحة فيها؛ لأنَّها حركةُ إعراب غير لازمة، والفرَّاء أجاز ذلك واحتج بقوله:

تمشي بسُدَّة فَتُعِيُّ

يريد: فتُعْيا[5]. وبالجملة القراءةُ شاذَّة.

---

(١) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٤ عن حفص ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.
(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٢، والبحر ٨/ ٣٩١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩١، وكلام ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٦، وكلام سيبويه في الكتاب ٤/ ٤٠٣، وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢١٣، والبيت للحطيئة كما في تاج العروس (عيي)، وتمامه:
=

وجاء في عدَّة أخبار أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية، قال: «سبحانَكَ اللَّهمَّ وبَلَى»[1]. وفي بعضها: «سبحانَكَ فبَلَى»[2].

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيُّ وابن المنذر وابنُ مردويه والبيهقيُّ والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأَ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلكم مِن الشاهدين، ومن قَرَأَ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾ فانتهى إلى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فليقل: بلى، ومن قَرَأَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فليقل: آمنا بالله»[3].

= وكأنها بين النساء سبيكة ... تمشي بسدَّة بيتها فَتُعِيُّ

وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ٣/٢٥٨، وابن جني في المحتسب ٢/٢٦٩، قال أبو إسحاق النحوي كما في تهذيب اللغة: هذا غير جائز عند حذَّاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفرَّاء ليس بمعروف. وعقَّب عليه الأزهري بقوله: والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه.

(١) الدر المنثور ٦/٢٩٦، ونسبه لابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٨٤)، والبيهقي في سننه ٢/٣١٠، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ قال: سبحانك، فبلى. فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. وموسى هذا لم يروِ عن الصحابة، وإنما روايته عن التابعين.

(٣) الدر المنثور ٦/٢٩٦، وأحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والبيهقي ٢/٣١٠-٣١١، والحاكم ٢/٥١٠.

(٧٦) سُورَةُ الإنسَانِ مَدَنيّة وآياتها إحدى وثلاثون

● **سورة** الدهر من السور المدنية ، وهي تعالج أموراً تتعلق بالآخرة ، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار ، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم ، ويكاد يكون جوُّ السورة هو جو السور المكية لإيحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار ، وتهيئته ليقوم بما كُلِّف به من أنواع العبادة ، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سَميعاً بصيراً﴾

● **ثم تحدثت** عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إنَّ الأبرارَ يشربون مِنْ كأسٍ كان مزاجها كافوراً . عيناً يشربُ بها عبادُ اللهِ يُفجِّرونَها تفجيراً﴾ .

● **ثم ذكرت** أوصاف هؤلاء السعداء بشيءٍ من الإسهاب ، فوصفتهم بالوفاء بالنذر ، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله ، والخوف من عذاب الله ، وذكرت أنَّ الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس الذي تكلح فيه الوجوه ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه

الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ..﴾ الآيات .

● **وأشادت** – بعد ذكر أوصافهم – بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة ، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانيةً عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً﴾ .

● **وتتابعت** السورة في سرد نعيم أهل الجنة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضةٍ وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضةٍ قدّروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً . ويطوف عليهم ولدانٌ مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾

وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلبٌ يعي ، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾ .

سورة الإنسان

[٩٩٤] ك.. أخرج ابن المنذر عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾[2] قال: لم يكن النبي [ﷺ] يأسر أهل الإسلام ولكنها نزلت في أساري أهل الشرك كانوا يأسرونهم في العذاب فنزلت فيهم فكان النبي [ﷺ] يأمر بالإصلاح إليهم.

[٩٩٥] ك.. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي [ﷺ] وهو راقد على حصير من جريد وقد أثر في جنبه فبكى عمر فقال له: **«ما يبكيك»** قال: ذكرت كسرى وملكه وهرمز وملكه وصاحب الحبشة وملكه وأنت رسول الله [ﷺ] على حصير من جريد؟! فقال رسول الله [ﷺ] **«أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة»** فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[3].

[٩٩٦] ك.. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه فأنزل الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[4].

* * *

---

[٩٩٤] (١) بالأصل (ابن جرير).

(٢) سورة الإنسان: الآية (٨).

[٩٩٥] (٣) سورة الإنسان: الآية (٢٠).

[٩٩٦] (٤) سورة الإنسان: الآية (٢٤).

سورة الإنسان

إحدى وثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾

اتفقوا على أن ﴿ هَلْ ﴾ هاهنا، وفي قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١] بمعنى قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل وعظتك هل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد، تقول: وهل يقدر أحد على مثل هذا، وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام فظاهر، والدليل على أنها هاهنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان: الأول: ما روي أن الصديق رضي الله عنه لما سمع هذه الآية قال: يا ليتها كانت تمت فلا نبتلي، ولو كان ذلك استفهامًا لما قال: ليتها تمت، لأن الاستفهام، إنما يجاب بلا أو بنعم، فإذا كان المراد هو الخبر، فحينئذ يحسن ذلك الجواب، الثاني: أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر.

المسألة الأولى: اختلفوا في الإنسان المذكور هاهنا فقال جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام، ومن ذهب إلى هذا قال: إن الله تعالى ذكر خلق آدم في هذه الآية ثم عقب بذكر ولده في قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان: ٢] والقول الثاني: أن المراد بالإنسان بنو آدم بدليل قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فالإنسان في الموضعين واحد، وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية أحسن.

المسألة الثانية: ﴿ حِينٌ ﴾ فيه قولان: الأول: أنه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر في نفسه، والثاني: أنه مقدر بالأربعين، فمن قال: المراد بالإنسان هو آدم قال المعنى: أنه مكث آدم عليه السلام أربعين سنة طينًا إلى أن نفخ فيه الروح، وروى عن ابن عباس أنه بقي طينًا أربعين سنة وأربعين من صلصال وأربعين من حمأ مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، فهو في هذه المدة ما كان شيئًا مذكورًا، وقال الحسن: خلق الله تعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ فإن قيل: إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنسانًا، والآية تقتضي أنه قد مضى على الإنسان حال كونه إنسانًا حين من الدهر مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئًا مذكورًا، قلنا: إن الطين والصلصال إذا كان مصورًا بصورة الإنسان ويكون محكومًا عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنسانًا صح تسميته بأنه إنسان،

والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة، وإنها موجودة قبل وجود الأبدان، فالإشكال عنهم زائل واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، ومتى كان كذلك فلا بد من محدث قادر.

المسألة الثالثة: لم يكن شيئًا مذكورًا محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين، تقديره: هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: المشج: في اللغة الخلط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، والأمشاج الأخلاط، قال ابن الأعرابي: واحدها مشج ومشيج، ويقال للشيء إذا خلط: مشيج كقولك: خليط وممشوج، كقولك مخلوط. قال الهذلي:

كَأَنَّ الرِّيشَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهُ ... خِلَافُ النَّصْلِ شَطَّ بِهِ مَشِيجُ[1]

يصف السهم بأنه قد بعد في الرمية فالتطخ ريشه وفرقاه بدم يسير، قال صاحب (الكشاف): الأمشاج لفظ مفرد، وليس يجمع بدليل أنه صفة للمفرد وهو قوله: ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ويقال أيضًا: نطفة مشيج، ولا يصح أن يكون أمشاجًا جمعًا للمشج بل هما مثلان في الإفراد ونظيره برمة أعشار أي قطع مكسرة، وثوب أخلاق وأرض سباسب، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة فالأكثرون على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] قال ابن عباس: هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما، فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة، قال مجاهد: هي ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء، وقال عبد الله: أمشاجها: عروقها، وقال الحسن: يعني من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم، وقال قتادة: الأمشاج هو أنه يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة، وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة، ومن حال إلى حال. وقال قوم: إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطًا من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والتقدير من نطفة ذات أمشاج فحذف المضاف وتم الكلام، قال بعض العلماء: الأولى هو أن المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج،

(١) تقدمت ترجمة الهذلي.

وهي إذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف أنها نطفة، ولكن هذا الدليل لا يقدح في أن المراد كونها أمشاجًا من الأرض والماء والهواء والحار.

أما قوله تعالى: ﴿ نَّبۡتَلِيهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: نبتليه معناه لنبتليه، وهو كقول الرجل: جئتك أقضي حقك، أي لأقضي حقك، وأتيتك أستمنحك، أي لأستمنحك، كذا قوله: ﴿ نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي لنبتليه، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦]أي لتستكثر.

المسألة الثانية: نبتليه في موضع الحال، أي خلقناه مبتلين له، يعني مريدين ابتلاءه.

المسألة الثالثة: في الآية قولان: أحدهما: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه، والقول الثاني: أنه لا حاجة إلى هذا التغيير، والمعنى إنا خلقناه من هذه الأمشاج لا للبعث، بل للابتلاء والامتحان.

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، فقال: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]وأيضًا قد يراد بالسميع المطيع، كقوله سمعًا وطاعة، وبالبصير العالم يقال: فلان بصير في هذا الأمر، ومنهم من قال: بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان. والله تعالى خصهما بالذكر، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركَّبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل والأمر كذلك لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خاليًا عن معرفة الأشياء، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، فإذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها ومباينات، ينتزع منها عقائد صادقة أولية، كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأن الكل أعظم من الجزء، وهذه العلوم الأولية هي آلة العقل لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية، فثبت أن الحس مقدم في الوجود على العقل، ولذلك قيل: من فقد حسًّا فقد علمًا، ومن قال: المراد من كونه سميعًا بصيرًا هو العقل، قال: إنه لما بين في الآية الأولى أنه أعطاه العقل بين في هذه الآية، أنه إنما أعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له أن الذي يجب فعله ما هو. والذي لا يجوز ما هو.

المسألة الثانية: السبيل هو الذي يسلك من الطريق، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل هاهنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى هديناه، أي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له، كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]ويكون السبيل اسمًا للجنس، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢]ويجوز أن يكون المراد بالسبيل، هو سبيل الهدى

لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وإنما أضلوهم سبيل الهدى، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿هَدَيۡنَٰهُ﴾ أي أرشدناه، وإذا أرشد لسبيل الحق، فقد نبه على تجنب ما سواها، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه.

المسألة الثالثة: المراد من هداية السبيل خلق الدلائل، وخلق العقل الهادي وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب، كأنه تعالى قال: خلقتك للابتلاء ثم أعطيتك كل ما تحتاج إليه ليهلك من هلك عن بينة وليس معناه خلقنا الهداية، ألا ترى أنه ذكر السبيل، فقال: ﴿هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي أريناه ذلك.

المسألة الرابعة: قال الفراء: هديناه السبيل، وإلى السبيل وللسبيل، كل ذلك جائز في اللغة.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الآية أقوال:

الأول: أن شاكرًا أو كفورًا حالان من الهاء، في هديناه السبيل، أي هديناه السبيل كونه شاكرًا وكفورًا، والمعنى أن كل ما يتعلق بهداية الله وإرشاده، فقد تم حالتي الكفر والإيمان.

والقول الثاني: أنه انتصب قوله شاكرًا وكفورًا بإضمار كان، والتقدير سواء كان شاكرًا أو كان كفورًا.

والقول الثالث: معناه إنا هديناه السبيل، ليكون إما شاكرًا وإما كفورًا أي ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧] وقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت: ٣] وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: ٣١] قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قد نصحت لك إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي فإن شئت فتحذف الفاء فكذا المعنى: إنا هديناه السبيل فإما شاكرًا وإما كفورًا، فتحذف الفاء وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد أي إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر، فإنا قد أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا، كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

القول الرابع: أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل، أي إما سبيلاً شاكرًا، وإما سبيلاً كفورًا، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

واعلم أن هذه الأقوال كلها لائقة بمذهب المعتزلة.

والقول الخامس: وهو المطابق لمذهب أهل السنة، واختيار الفراء أن تكون إما هذه الآية كإما في قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٦] والتقدير: إنا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة

شاكرًا أو تارة كفورًا، ويتأكد هذا التأويل بما روي أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة في ﴿أَمَّا﴾، والمعنى أما شاكرًا فبتوفيقنا وأما كفورًا فبخذلاننا، قالت المعتزلة: هذا التأويل باطل، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤] ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول وهو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر، وبطل بهذا قول المجبرة أنه تعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان، أجاب أصحابنا بأنه تعالى لما علم من الكافر أنه لا يؤمن ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بأن يجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين، فإن لم يصر هذا عذرًا في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضًا أن يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذرًا في سقوط الوعيد وإذا ثبت هذا ظهر أن هذا التأويل هو الحق، وأن التأويل اللائق بقول المعتزلة: ليس بحق، وبطل به قول المعتزلة.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر نعمه على الإنسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية، ثم ذكر بعده النعم الدينية، ثم ذكر هذه القسمة.

واعلم أنه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلاً بفعل الشكر وفعل الكفران وإلا لم يتحقق الحصر، بل المراد من الشاكر الذي يكون مقرًّا معترفًا بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه، إما لأنه ينكر الخالق أو لأنه وإن كان يثبته لكنه ينكر وجوب الشكر عليه، وحينئذ يتحقق الحصر وهو أن المكلف، إما أن يكون شاكرًا وإما أن يكون كفورًا، واعلم أن الخوارج احتجوا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين المطيع والكافر، قالوا: لأن الشاكر هو المطيع، والكفور هو الكافر، والله تعالى نفى الواسطة وذلك يقتضي أن يكون كل ذنب كفرًا، وأن يكون كل مذنب كافرًا، واعلم أن البيان الذي لخصناه يدفع هذا الإشكال، فإنه ليس المراد من الشاكر الذي يكون مشتغلاً بفعل الشكر فإن ذلك باطل طردًا وعكسًا، أما الطرد فلأن اليهودي قد يكون شاكرًا لربه مع أنه لا يكون مطيعًا لربه، والفاسق قد يكون شاكرًا لربه، مع أنه لا يكون مطيعًا لربه، وأما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلاً بالشكر ولا بالكفران، بل يكون ساكتًا غافلاً عنهما، فثبت أنه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك، بل لا بد وأن يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك، وحينئذ يثبت الحصر، ويسقط سؤالهم بالكلية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الاعتداد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيدًا حاضرًا متى احتيج إليه، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] وأما السلاسل فتشد بها أرجلهم، وأما الأغلال فتشد بها

أيديهم إلى رقابهم، وأما السعير فهو النار التي تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطبًا لها، وهذا من أغلظ أنواع الترهيب والتخويف.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة، لأن قوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي، قال القاضي: إنه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود، قلنا: هذا الذي ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا لضرورة.

المسألة الثالثة: قرئ (سلاسلًا) بالتنوين، وكذلك ﴿قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]ومنهم من يصل بغير تنوين، ويقف بالألف فلمن نون وصرف وجهان أحدهما: أن الأخفش قال: قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف، قال: وهذا لغة الشعراء لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه، فجرت ألسنتهم على ذلك، الثاني: أن هذه الجموع أشبهت الآحاد، لأنهم قالوا صواحبات يوسف، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها في حكمها فصرفوها، وأما من ترك الصرف فإنه جعله كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]وأما إلحاق الألف في الوقف فهو كإلحاقها في قوله: ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]و﴿الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]فيشبه ذلك بالإطلاق في القوافي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾

ثم إنه تعالى ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الأبرار جمع بر، كالأرباب جمع رب، والقول في حقيقة البر قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]ثم ذكر من أنواع نعيمهم صفة مشروبهم، فقال: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ يعني من إناء فيه الشراب، ولهذا قال ابن عباس ومقاتل: يريد الخمر، وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذًا، فما السبب في ذكره هاهنا؟ الجواب: من وجوه أحدها: أن الكافور اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته، فالمعنى أن ذلك الشراب يكون ممزوجًا بماء هذه العين، وثانيها: أن رائحة الكافور عرض فلا يكون إلا في جسم، فإذا خلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب سمي ذلك الجسم كافورًا، وإن كان طعمه طيبًا، وثالثها: أي بأس في أن يخلق الله تعالى الكافور في الجنة لكن من طعم طيب لذيذ، ويسلب عنه ما فيه من المضرة؟ ثم إنه تعالى يمزجه بذلك المشروب، كما أنه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار.

السؤال الثاني: ما فائدة كان في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾؟ الجواب: منهم من قال: إنها زائدة، والتقدير من كأس مزاجها كافورًا، وقيل: بل المعنى كان مزاجها في علم الله، وحكمه كافورًا.

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: إن قلنا: الكافور اسم النهر كان عينًا بدلاً منه، وإن شئت نصبت على المدح، والتقدير أعني عينًا، أما إن قلنا: إن الكافور اسم لهذا الشيء المسمى بالكافور كان عينًا بدلاً من محل من كأس على تقدير حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرًا خمر عين، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

المسألة الثانية: قال في الآية الأولى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ [الإنسان: ٥] وقال هاهنا: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، فذكر هناك من وهاهنا الباء، والفرق أن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته. وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ عام فيفيد أن كل عباد الله يشربون منها، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها، فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان، إذا ثبت هذا فقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] لا يتناول الكفار بل يكون مختصًا بالمؤمنين، فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، فلا تدل الآية على أنه تعالى لا يريد كفر الكافر.

قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ معناه يفجرونها حيث شاءوا من منازلهم تفجيرًا سهلاً لا يمتنع عليهم واعلم أنه سبحانه لما وصف ثواب الأبرار في الآخرة شرح أعمالهم التي بها استوجبوا ذلك الثواب.

فالأول قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإيفاء بالشيء هو الإتيان به وافيًا، أما النذر فقال أبو مسلم: النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله تعالى فهو وعد، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول لله عليَّ كذا وكذا من الصدقة، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي، أو رد غائبي فعليَّ كذا كذا، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر، كما إذا قال: إن دخل فلان الدار فعليَّ كذا، فمن الناس من جعله كاليمين، ومنهم من جعله من باب النذر، إذا عرفت هذا، فنقول للمفسرين في تفسير الآية أقوال: أولها: أن المراد من النذر هو النذر فقط، ثم قال الأصم: هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات. لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى، وهذا التفسير في غاية الحسن، وثانيها: المراد بالنذر هاهنا كل ما وجب عليه سواء وجب بإيجاب الله تعالى ابتداء أو بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات، وذلك لأن النذر معناه الإيجاب، وثالثها: قال الكلبي: المراد من النذر العهد والعقد، ونظيره قوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]فسمى فرائضه عهدًا، وقال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] سماها عقودًا لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر، لأنه تعالى عقبه بيخافون يومًا وهذا يقتضي أنهم إنما وفوا بالنذر خوفًا من شر ذلك اليوم، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجبًا، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وبقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]فيحتمل ليوفوا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم.

المسألة الثالثة: قال الفراء: وجماعة من أرباب المعاني. (كان) في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]زائدة وأما هاهنا فكان محذوفة، والتقدير كانوا يوفون بالنذر. ولقائل أن يقول: إنا بينا أن كان في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان: ٥]ليست بزائدة، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها، وذلك لأنه تعالى ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أي سيشربون، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال، ثم قال: السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن يوفون بالنذر.

النوع الثاني: من أعمال الأبرار التي حكاها الله تعالى عنهم قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله: ﴿يُوفُونَ﴾ حكى عنهم النية وهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وتحقيقه قوله عليه السلام: «**إنما الأعمال بالنيات**» وبمجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أحوال القيامة وأهوالها كلها فعل الله، وكل ما كان فعلاً لله فهو يكون حكمة وصوابًا، وما كان كذلك لا يكون شرًّا، فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر؟ الجواب: أنها إنما سميت شرًّا لكونها مضرة بمن تنزل عليه وصعبة عليه، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شرورًا.

السؤال الثاني: ما معنى المستطير؟ الجواب: فيه وجهان أحدهما: الذي يكون فاشيًا منتشرًا بالغًا أقصى المبالغ، وهو من قولهم: استطار الحريق، واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر، فإن قيل: كيف يمكن أن يقال: شر ذلك اليوم مستطير منتشر، مع أنه تعالى قال في صفة أوليائه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] قلنا: الجواب من وجهين الأول: أن هول القيامة شديد، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل، وتتناثر الكواكب، وتتكور الشمس والقمر، وتفزع الملائكة، وتبدل الأرض غير الأرض، وتنسف الجبال، وتسجر البحار وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: ٢] وقال: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أولياءه من ذلك الفزع، والجواب الثاني: أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيرًا في العصاة والفجار. وأما المؤمنون فهم آمنون، كما قال: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] إلا أن أهل العقاب في غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب، فأجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز.

القول الثاني: في تفسير المستطير أنه الذي يكون سريع الوصول إلى أهله، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾، ولم يقل: وسيكون شره مستطيرًا؟ الجواب: اللفظ وإن كان للماضي، إلا أنه بمعنى المستقبل، وهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب: ١٥] ويحتمل أن يكون المراد أنه كان شره مستطيرًا في علم الله وفي حكمته، كأنه تعالى يعتذر ويقول: إيصال هذا الضرر إنما كان لأن الحكمة تقتضيه، وذلك لأن نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد، وهما يوجبان الوفاء به، لاستحالة الكذب في كلامي، فكأنه تعالى يقول: كان ذلك في الحكمة لازمًا، فلهذا السبب فعلته.

النوع الثالث: من أعمال الأبرار:

قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠﴾

اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقول: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧] والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة، كأبي بكر الأصم وأبي علي الجبائي وأبي القاسم الكعبي، وأبي مسلم الأصفهاني، والقاضي عبد الجبار بن أحمد في تفسيرهم أن هذه الآيات نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، والواحدي من أصحابنا ذكر في كتاب (البسيط) أنها نزلت في حق علي عليه السلام، وصاحب (الكشاف) من المعتزلة ذكر هذه القصة، فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَرِضَا فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِكَ، فَنَذَرَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَفِضَّةُ جَارِيَةٌ لَهُمَا، إِنْ شَفَاهُمَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّام فَشُفِيَا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ فَاسْتَقْرَضَ عَلِيٌّ مِنْ شَمْعُونَ الْخَيْبَرِيِّ الْيَهُودِيِّ ثَلَاثَةَ أَصْوُعٍ مِنْ شَعِيرٍ فَطَحَنَتْ فَاطِمَةُ صَاعًا وَاخْتَبَزَتْ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ عَلَى عَدَدِهِمْ وَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُفْطِرُوا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ

سَائِلٌ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا وَلَمْ يَذُوقُوا إِلاَّ الْمَاءَ وَأَصْبَحُوا صَائِمِينَ، فَلَمَّا أَمْسَوْا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ يَتِيمٌ فَآثَرُوهُ وَجَاءَهُمْ أَسِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَخَذَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَدَخَلُوا عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما أبصرهم وَهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَالْفِرَاخِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ قَالَ: مَا أَشَدَّ مَا يَسُوءُنِي مَا أَرَى بِكُمْ وَقَامَ فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ فَرَأَى فَاطِمَةَ فِي مِحْرَابِهَا قَدِ الْتَصَقَ بَطْنُهَا بِظَهْرِهَا وَغَارَتْ عَيْنَاهَا فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: خُذْهَا يَا مُحَمَّدُ هَنَّاكَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ فَأَقْرَأَهَا السُّورَةَ(١) والأولون يقولون: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان، ثم بيَّن أنه هدى الكل وأزاح عللهم ثم بيَّن أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ [الإنسان: ٥] وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بيانًا لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين، فلو جعلناه مختصًّا بشخص واحد لفسد نظم السورة، والثاني: أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ . . . و﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾ . . . ﴿وَيُطْعِمُونَ﴾ [الإنسان: ٥، ٧، ٨] وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معينين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، ولكنه أيضًا داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة، اللهم إلا أن يقال: السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه، ولكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الثانية: الذين يقولون: هذه الآية مختصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام، قالوا: المراد من قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ هو ما رويناه أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير، وأما الذين يقولون الآية عامة في حق جميع الأبرار (فَإِنَّهُمْ) قالوا: إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان بالطعام ولا حياة إلا به، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه، فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذي يقوي ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه المنافع، فيقال: أكل فلان ماله إذا أتلفه في سائر وجوه الإتلاف، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

(١) أورده ابن كثير في (البداية والنهاية) (٥/ ٢٥١) وقال: فقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة أنها كانت مولاة لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم أورد بإسناد مظلم عن محبوب بن حميد البصري، عن القاسم بن بهرام، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس . . . فذكره.

﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨] إذا ثبت هذا فنقول: إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة، وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ففيه وجهان أحدهما: أن يكون الضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه ونظيره ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[البقرة: ١٧٧] ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩] والثاني: قال الفضيل بن عياض على حب الله أي لحبهم لله: واللام قد تقام مقام على، وكذلك تقام على مقام اللام، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم، وهم ثلاثة أحدهم: المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه والثاني: اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزًا عن الكسب لصغره مع أنه مات كاسبه والثالث: الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذي لا يملك لنفسه نصرًا ولا حيلة، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا هم الذين ذكرهم في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ⑪ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ⑫ فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[البلد: ١١-١٦] وقد ذكرنا اختلاف الناس في المسكين قبل هذا، أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال: أحدها: قال ابن عباس والحسن وقتادة: إنه الأسير من المشركين، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو مَنٍّ أو فداء أو استرقاق، ولا يمتنع أيضًا أن يكون المراد هو الأسير كافرًا كان أو مسلمًا، لأنه إذا كان مع الكفر يجب إطعامه فمع الإسلام أولى، فإن قيل: لما وجب قتله فكيف يجب إطعامه؟ قلنا: القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل ثم هذا الإطعام على من يجب؟ فنقول: الإمام يطعمه فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين، وثانيها: قال السدي: الأسير هو المملوك، وثالثها: الأسير هو الغريم قال عليه السلام: «غَرِيمُكَ أَسِيرُكَ فَأَحْسِنْ إِلَى أَسِيرِكَ»[١] ورابعها: الأسير هو المسجون من أهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير، وروى ذلك مرفوعًا من طريق الخدري أنه عليه السلام قال: ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرًا ﴿وَيَتِيمًا﴾ لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: المملوك المسجون، وخامسها: الأسير هو الزوجة لأنهن أسراء عند الأزواج، قال عليه الصلاة والسلام: «**اتَّقُوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان**»[٢] قال القفال: واللفظ يحتمل كل ذلك لأن الأصل في الأسر هو الشد بالقيد،

(١) لم أجده في كتب التفسير بدون إسناد والله أعلم.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج) باب (حجة النبي ﷺ) (٢/ ١٤٧/ ٨٨٦) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم... به وأبو داود في كتاب (المناسك) باب (صفة حج النبي ﷺ) (٢/ ١٨٩) حديث رقم (١٩٠٥) من طريق عبد الله بن محمد النفيلي وعثمان ابن أبي شيبة... به وابن ماجه في كتاب (المناسك) باب (حجة=

وكان الأسير يفعل به ذلك حبسًا له، ثم سمي بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم فيه غرضين أحدهما: تحصيل رضا الله. وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ والثاني: الاحتراز من خوف يوم القيامة وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون هؤلاء الأبرار قد قالوا: هذه الأشياء باللسان، إما لأجل أن يكون ذلك القول منعًا لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو بالشكر، لأن إحسانهم مفعول لأجل الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق، وإما أن يكون لأجل أن يصير ذلك القول تفقيهًا وتنبيهًا على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة، وثانيها: أن يكونوا أرادوا أن يكون ذلك، وثالثها: أن يكون ذلك بيانًا وكشفًا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئًا. وعن مجاهد أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى عليهم.

المسألة الثانية: اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لأجل الله تعالى، وتارة يكون لغير الله تعالى إما طلبًا لمكافأة أو طلبًا لحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والأول هو المقبول عند الله تعالى، وأما القسمان الباقيان فمردودان قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى. إذا عرفت هذا فنقول: القوم لما قالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

المسألة الثالثة: الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر، وهو على وزن الدخول والخروج، هذا قول جماعة أهل اللغة، وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقول: ﴿فَأَبَىٰ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩] مثل بُرْد وبُرُود وإن شئت مصدرًا واحدًا في معنى جمع مثل قَعَد قُعُودًا وخرَج خُرُوجًا.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم، والثاني: أنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله

=النبي ﷺ) (٢/ ١٠٢٢) حديث رقم (٣٠٧٤) من طريق هشام بن عمار... به والدارمي في كتاب (المناسك) باب (في سنة الحج) (١/ ٥٠٠) حديث رقم (٣٠٧٤) وابن خزيمة في (صحيحه) (٢٦٨٧/ ٢٨٠٢/ ٢٨١٢) من طريق عبد الله بن محمد النفيلي... به جميعًا عن حاتم بن إسماعيل... به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٧٢) من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه... به.

على طلب المكافأة بالصدقة، فإن قيل: إنه تعالى حكى عنهم الإيفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضاء الله وبالخوف عن القيامة فما السبب فيه؟ قلنا: الإيفاء بالنذر دخل في حقيقة طلب رضاء الله تعالى، وذلك لأن النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط، أما الإطعام، فإنه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة.

المسألة الخامسة: وصف اليوم بالعبوس مجازًا على طريقتين: أحدهما: أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم، روي أن الكافر يحبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، والثاني: أن يشبه في شدته وضراوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل.

المسألة السادسة: قال الزجاج: جاء في التفسير أن قمطريرًا معناه تعبيس الوجه، فيجتمع ما بين العينين، قال: وهذا سائغ في اللغة يقال: اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها يعني أن معنى قمطر في اللغة جمع، وقال الكلبي: قمطريرًا يعني شديدًا وهو قول الفراء وأبي عبيدة والمبرد وابن قتيبة، قالوا: يوم قمطرير، وقماطر إذا كان صعبًا شديدًا أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، قال الواحدي: هذا معنى والتفسير هو الأول.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين في هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين، أما الحفظ من هول القيامة، فهو المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ وسمى شدائدها شرًّا توسعًا على ما علمت، واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب، وأما طلب رضاء الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة في الوجه وسرورًا في القلب، وقد مر تفسير ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾[الفرقان: ٧٥] وتفسير النضرة في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٣] والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم والتفخيم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ والمعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري، بستانًا فيه مأكل هنيء وحريرًا فيه ملبس بهي، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[الحج: ٢٣] أقول: وهذا يدل على أن المراد من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾[الإنسان: ٩] ليس هو الإطعام فقط بل جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة، ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم، وصف مساكنهم، ثم إن المعتبر في المساكن أمور:

أحدها: الموضع الذي يجلس فيه فوصفه بقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر في

الحجال، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعت، وفي نصب ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ وجهان الأول: قال الأخفش: إنه نصب على الحال، والمعنى وجزاهم جنة في حال اتكائهم كما تقول: جزاهم ذلك قيامًا، والثاني: قال الأخفش: وقد يكون على المدح.

والثاني: هو المسكن فوصفه بقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن هواءها معتدل في الحر والبرد، والثاني: أن الزمهرير هو القمر في لغة طيء هكذا رواه ثعلب وأنشد:

وَلَيـلَـةٍ ظَـلامُـهَـا قَـدِ اعْـتَـكَـرْ قَـطَـعْـتُـهَـا وَالـزَّمْـهَـرِيـرُ مَـا زَهَـرْ

والمعنى أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

والثالث: كونه بستانًا نزهًا، فوصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ وفي الآية سؤالان الأول: ما السبب في نصب ﴿وَدَانِيَةً﴾؟ الجواب: ذكر الأخفش والكسائي والفراء والزجاج فيه وجهين أحدهما: الحال بالعطف على قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾[الإنسان: ١٣] كما تقول في الدار: عبدالله متكئًا ومرسلة عليه الحجال، لأنه حيث قال: عليهم رجع إلى ذكرهم، والثاني: الحال بالعطف على محل: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٣] والتقدير غير رائين فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد، ودنو الظلال عليهم، والثالث: أن يكون دانية نعتًا للجنة، والمعنى: وجزاهم جنة دانية، وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف، كأنه قيل: وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها، وذلك لأنهم وعدوا جنتين، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾[الإنسان: ١٠] وكل من خاف فله جنتان، بدليل قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] وقرئ: (وَدانِيَةٌ) بالرفع على أن ﴿ظِلَالُهَا﴾ مبتدأ و(دَانِيَةٌ) خبر، والجملة في موضع الحال، والمعنى: لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا والحال أن ظلالها دانية عليهم.

السؤال الثاني: الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس، فإن كان لا شمس في الجنة فكيف يحصل الظل هناك؟ والجواب: أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظللة منها.

قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ذكروا في ذللت وجهين الأول: قال ابن قتيبة: ذللت أدنيت منهم من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصير السمك، والثاني: ظللت أي جعلت منقادة ولا تمتنع على قطافها كيف شاءوا. قال البراء بن عازب: ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا، فمن أكل قائمًا لم يؤذه ومن أكل جالسًا لم يؤذه ومن أكل مضطجعًا لم يؤذه.

واعلم أنه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه وصف تلك الأواني التي فيها يشربون فقال:

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝﴾

في الآية سؤالات:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] والصحاف هي القصاع، والغالب فيها الأكل فإذا كان ما يأكلون فيه ذهبًا فما يشربون فيه أولى أن يكون ذهبًا لأن العادة أن يتنوق في إناء الشرب مالا يتنوق في إناء الأكل وإذا دلت هذه الآية على أن إناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكر هاهنا أنه من الفضة والجواب: أنه لا منافاة بين الأمرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذاك.

السؤال الثاني: ما الفرق بين الآنية والأكواب؟ الجواب: قال أهل اللغة: الأكواب الكيزان التي لا عرى لها، فيحتمل أن يكون على معنى أن الإناء يقع فيه الشرب كالقدح، والكوب ما صب منه في الإناء كالإبريق.

السؤال الثالث: ما معنى ﴿كَانَتْ﴾؟ **الجواب:** هو من يكون في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] أي تكونت قوارير بتكوين الله تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين.

السؤال الرابع: كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير؟ **الجواب:** عنه من وجوه أحدها: أن أصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة، فالغرض من ذكر هذه الآية، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين، فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة وثانيها: قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء وإذا كان كذلك فكمال الفضة في بقائها ونقائها وشرفها إلا أنه كثيف الجوهر، وكمال القارورة في شفافيتها وصفائها إلا أنه سريع الانكسار، فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها، وشرف جوهرها، ومن القارورة، صفاؤها وشفافيتها، وثالثها: أنها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة، ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين، ورابعها: أن المراد بالقوارير في الآية ليس هو الزجاج، فإن العرب تسمي ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة ورقّ وصَفَا قارورة، فمعنى الآية وأكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة.

السؤال الخامس: كيف القراءة في ﴿قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا﴾؟ **الجواب:** قرئا غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما، وهذا التنوين بدل عن ألف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لإتباعه الأول لأن الثاني

بدل من الأول فيتبع البدل المبدل، وقرئ: (قَواريرُ من فِضَّةٍ) بالرفع على هي قوارير، وقدروها صفة لقوارير من فضة.

أما قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال المفسرون: معناه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ على قدر ريهم لا يزيد ولا ينقص من الري ليكون ألذ لشربهم، وقال الربيع بن أنس: إن تلك الأواني تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها.

المسألة الثانية: أن منتهى مراد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل. أما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ وأما النقاء فقد ذكره بقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، وأما الشكل فقد ذكره بقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

المسألة الثالثة: المقدر لهذا التقدير من هو؟ فيه قولان: الأول: أنهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ وذلك أنهم قدروا شرابها على قدر ري الشارب، والثاني: أنهم هم الشاربون وذلك لأنهم إذا اشتهوا مقدارًا من المشروب جاءهم على ذلك القدر.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما وصف أواني مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

العرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل في المشروب، لأنه يحدث فيه ضربًا من اللذع، فلما كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك، ولا بد وأن تكون في الطيب على أقصى الوجوه. قال ابن عباس: وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن مما في الجنة، فليس منه في الدنيا إلا الاسم، وتمام القول هاهنا مثل ما ذكرناه في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق، وقال الأكثرون: يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أي عذب سهل المساغ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، ودلت على غاية السلاسة، قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة، والفائدة في ذكر السلسبيل هو أن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، وليس فيه لذعة لأن نقيض اللذع هو السلاسة، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه: سل سبيلًا إليها، وهو بعيد إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سلسبيلا جعلت علمًا للعين، كما قيل: تأبط شرًا، وسميت بذلك، لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلًا بالعمل الصالح.

المسألة الثانية: في نصب ﴿عَيْنًا﴾ وجهان: أحدهما: أنه بدل من زنجبيلًا، وثانيهما: أنه

نصب على الاختصاص.

المسألة الثالثة: سلسبيلاً صرف لأنه رأس آية، فصار كقوله ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقد تقدم في هذه السورة بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾

واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادمًا في تلك المجالس. فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة، قال الفراء: يقال مخلدون مسورون ويقال: مُقَرَّطون. وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلدون مُحلَّون.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه: أحدها: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور، ولو كان صفًا لشبهوا باللؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين، وثانيها: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء، وثالثها: قال القاضي: هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفًا للمجتمع منه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أمورًا أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿رَأَيْتَ﴾ هل له مفعول؟ فيه قولان: الأول: قال الفراء: المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] يريد ما بينكم، قال الزجاج: لا يجوز إضمار ما لأن ثَّم صلة وما موصولها، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، الثاني: أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشيع ويعم، كأنه قيل: وإذا وجدت الرؤية ثم، ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير، و﴿ثَمَّ﴾ في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة.

المسألة الثانية: اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله هاهنا لا بد وأن يكون مغايرًا لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منتقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضًا أنه الثواب والمنفعة

المقرونة بالتعظيم فبيَّن تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبيَّن في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس: لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه. ويقال: إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أرادوا شيئًا حصل، ومنهم من حمله على التعظيم. فقال الكلبي: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.

المسألة الثالثة: قال بعضهم قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك؟ فقال نعم، فبكى حتى مات [١]، وقال آخرون: بل هو خطاب لكل أحد.

قوله تعالى: ﴿ عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة: (عَالِيهِمْ) بإسكان الياء، والباقون بفتح الياء أما القراءة الأولى: فالوجه فيها أن يكون عاليهم مبتدأ، وثياب سندس خبره، والمعنى ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس، فإن قيل: عاليهم مفرد، وثياب سندس جماعة، والمبتدأ إذا كان مفردًا لا يكون خبره جمعًا، قلنا: المبتدأ، وهو قوله: ﴿عَلِيَهُمْ﴾ وإن كان مفردًا في اللفظ، فهو جمع في المعنى، نظيره قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٧، ٦٨] كأنه أفرد من حيث جعل بمنزلة المصدر، أما القراءة الثانية: وهي فتح الياء، فذكروا في هذا النصب ثلاثة أوجه الأول: أنه نصب على الظرف، لأنه لما كان عالي بمعنى فوق أجرى مجراه في هذا الإعراب، كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك وهو قول أبي علي

---

(١) إسناده ضعيف: أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٣/ ٦٦) حديث رقم (٨٦٢) والطبراني في (الكبير) (١٢/ ٤٣٦) حديث رقم (١٣٥٩٥) وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٣/ ٣١٩) والطبراني في (الأوسط) حديث رقم (٤٧٧٤) وقال: لا يروي عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد تفرد به عفيف جميعًا من طريق عفيف بن سالم عن أيوب بن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال... فذكره وأورده السيوطي في (اللآلئ المصنوعة) (١/ ٤٠٩) وقال: قال ابن حبان: باطل لا أصل له وأيوب فاحش الخطأ (قلت) لم يتهم بكذب بل ثقة أحمد في رواية قال العجلي يكتب حديثه والحديث أخرجه الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عفيف بن سالم به وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن الطبراني وقال غريب من حديث عطاء تفرد به عفيف عن أيوب وكان عفيف أحد العباد والزهاد عن أهل الموصل وكان الثوري يسميه الياقوتة وأيوب بن عتبة ضعيف وقاله ابن حجر في تقريب التهذيب.

الفارسي، والثاني: أنه نصب على الحال، ثم هذا أيضًا يحتمل وجوهًا أحدها: قال أبو علي الفارسي: التقدير: ولقاهم نضرة وسرورًا حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، وثانيها: التقدير: وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، وثالثها: أن يكون التقدير: ويطوف على الأبرار ولدان، حال ما يكون الأبرار عاليهم ثياب سندس، ورابعها: حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، فعلى الاحتمالات الثلاثة الأول: تكون الثياب ثياب الأبرار، وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان، الوجه الثالث: في سبب هذا النصب، أن يكون التقدير: رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس.

المسألة الثانية: قرأ نافع وعاصم: (خُضْرٌ وإِسْتبرقٌ)، كلاهما بالرفع، وقرأ الكسائي وحمزة: كلاهما بالخفض، وقرأ ابن كثير: خضرٍ بالخفض، وإستبرقٌ بالرفع، وقرأ أبو عمرو وعبدالله بن عامر: خُضرٌ بالرفع، واستبرقٍ بالخفض، وحاصل الكلام فيه أن خضرًا يجوز فيه الخفض والرفع، أما الرفع فإذا جعلتها صفة لثياب، وذلك ظاهر لأنها صفة مجموعة لموصوف مجموع، وأما الخفض فإذا جعلتها صفة سندس، لأن سندس أريد به الجنس، فكان في معنى الجمع، وأجاز الأخفش وصف اللفظ الذي يراد به الجنس بالجمع، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض إلا أنه قال: إنه قبيح، والدليل على قبحه أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد وذلك قولهم: حصى أبيض وفي التنزيل ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾[يس: ٨٠] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[القمر: ٢٠] إذ كانوا قد أفردوا صفات هذا الضرب من الجمع، فالواحد الذي في معنى الجمع أولى أن تفرد صفته، وأما إستبرق فيجوز فيه الرفع والخفض أيضًا معًا، أما الرفع فإذا أريد به العطف على الثياب، كأنه قيل: ثياب سُندسٍ وإستبرقٌ وأما الخفض فإذا أريد إضافة الثياب إليه كأنه قيل: ثِيابُ سُنْدسٍ وإستبرقٍ، والمعنى ثيابهما فأضاف الثياب إلى الجنسين كما يقال: ثيابُ خزٍّ وكِتانٍ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[الكهف: ٣١] واعلم أن حقائق هذه الآية قد تقدمت في سورة الكهف.

المسألة الثالثة: السندس ما رق من الديباج، والاستبرق ما غلظ منه، وكل ذلك داخل في اسم الحرير قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[الحج: ٢٣] ثم قيل: إن الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون، وقيل: بل هذا لباس الأبرار، وكأنهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذي يعلوها أفضلها، ولهذا قال: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وقيل هذا من تمام قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾[الإنسان: ١٣] ومعنى ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس، والمعنى أن حجالهم من الحرير والديباج.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾: **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[الكهف: ٣١] فكيف جعل تلك الأساور هاهنا من فضة؟ **والجواب:** من ثلاثة أوجه

أحدها: أنه لا منافاة بين الأمرين فلعلهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء في الدنيا، وثانيها: أن الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب، فالله تعالى يعطي كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم، وميله إليه أشد، وثالثها: أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للولدان الذين هم الخدم وأسورة الذهب للناس.

السؤال الثاني: السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال، فكيف ذكر الله تعالى ذلك في معرض الترغيب؟ الجواب: أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحلوا ذهبًا وفضة وإن كانوا رجالاً، وقيل: هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون لنساء أهل الجنة وللصبيان فقط، ثم غلب في اللفظ جانب التذكير، وفي الآية وجه آخر، وهو أن آلة أكثر الأعمال هي اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية، فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التي يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة، وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وبالجملة فقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فهذا احتمال خطر بالبال، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الطهور فيه قولان: الأول: المبالغة في كونه طاهرًا، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات أحدها: أنه لا يكون نجسًا كخمر الدنيا، وثانيها: المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة يعني ما مسته الأيدي الوضرة، وما داسته الأقدام الدنسة، وثالثها: أنها لا تؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقًا من أبدانهم له ريح كريح المسك، القول الثاني: في الطهور أنه المطهر، وعلى هذا التفسير أيضًا في الآية احتمالان: أحدهما: قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد، وما كان في جوفه من قذر وأذى، وثانيهما: قال أبو قلابة: يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرًا لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة، والأشياء المؤذية، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور، والزنجبيل، والسلسبيل أو هذا نوع آخر؟ قلنا: بل هذا نوع آخر، ويدل عليه وجوه أحدها: دفع التكرار، وثانيها: أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره، وثالثها: ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون، فيطهر

ذلك بطونهم، ويفيض عرقًا من جلودهم مثل ريح المسك، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقًا يفوح منه ريح كريح المسك، وكل ذلك يدل على المغايرة، ورابعها: وهو أن الروح من عالم الملائكة، والأنوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة، وعظمائهم على هذه الأرواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوي البدن، وكما أن العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة، فكذا ينابيع الأنوار العلوية مختلفة، فبعضها تكون كافورية على طبع البرد واليبس، ويكون صاحبها في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والانقباض، وبعضها تكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس، فيكون صاحب هذه الحالة قليل الالتفات إلى ما سوى الله تعالى قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات، ثم لا تزال الروح البشرية منتقلة من ينبوع إلى ينبوع، ومن نور إلى نور، ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة، بل فنيت، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته، وذلك هو آخر سير الصديقين، ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما تمم شرح أحوال السعداء، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

اعلم أن في الآية وجهين الأول: قال ابن عباس: المعنى أنه يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها، ومشاهدتهم لنعيمها: إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله تعالى لكم إلى هذا الوقت، فهو كله لكم بأعمالكم على قلة أعمالكم، كما قال حاكيًا عن الملائكة: إنهم يقولون لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤] وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورهم، فإنه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرديء فيزداد غمه وألم قلبه، ويقال للمثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمرًا، أي ويقال لهم: هذا الكلام، الوجه الثاني: أن يكون ذلك إخبارًا من الله تعالى لعباده في الدنيا، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة، أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبادي، لكم خلقتها، ولأجلكم أعددتها، وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: إذا كان فعل العبد خلقًا لله، فكيف يعقل أن يكون فعل الله جزاء على فعل الله؟ الجواب: الجزء هو الكافي، وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله تعالى.

السؤال الثاني: كون سعي العبد مشكورًا لله يقتضي كون الله شاكرًا له، والجواب: كون الله تعالى شاكرًا للعبد محال إلا على وجه المجاز، وهو من ثلاثة أوجه الأول: قال القاضي: إن الثواب مقابل لعملهم، كما أن الشكر مقابل للنعم، الثاني: قال القفال: إنه مشهور في كلام الناس، أن يقولوا: للراضي بالقليل والمثني به إنه شكور، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات، وإعطاؤه إياهم عليه ثوابًا كثيرًا، الوجه الثالث: أن منتهى درجة العبد أن يكون راضيًا من ربه مرضيًا لربه على ما قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر: ٢٧-٢٨] وكونها راضية من ربه، أقل درجة من كونها مرضية لربه، فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ إشارة إلى الأمر الذي به تصير النفس راضية من ربه وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ إشارة إلى كونها مرضية لربه، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣﴾

اعلم أنه سبحانه بيَّن في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان: ١] ثم بيَّن أنه سبحانه خلقه من أمشاج، والمراد منه إما كونه مخلوقًا من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا، وعلى أي هذه الوجوه تحمل هذه الآية، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه. ثم بيَّن بعد ذلك أني ما خلقته ضائعًا عاطلاً باطلاً، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾[الإنسان: ٢] وهاهنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر، ثم ذكر تعالى أني أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان، وهو السمع والبصر والعقل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢] ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها في هذا الباب أفرده عن السمع والبصر، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[الإنسان: ٣] ثم بيَّن أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين: منهم شاكر، ومنهم كفور، وهذا الانقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء، وهو إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ٢٢] واعلم أن الاختصار في ذكر العقاب مع الإطناب في شرح الثواب يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى، فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين. أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب. واعلم أن الخطاب إما النهي وإما

الأمر، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهي والأمر، قدم مقدمة في تقوية قلب الرسول ﷺ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره، وإنما فعل ذلك، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الأشياء، ثم بعد الفراغ عن النهي، ذكر أمره ببعض الأشياء، وإنما قدم النهي على الأمر، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع، وإزالة مالا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار، وله الشكر عليه أبد الآباد.

ولنرجع إلى التفسير، فنقول: أما تلك المقدمة فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر الله تعالى أن ذلك وحي من الله، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسمًا، لأن تأكيدًا على تأكيد أبلغ، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفار يقولون: إن ذلك كهانة، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة إن ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي.

وهذا فيه فائدتان:

إحداهما: إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه.

والثانية: تقويته على تحمل التكليف المستقبل، وذلك لأن الكفار كانوا يبالغون في إيذائه، وهو كان يريد مقاتلتهم فلما أمره الله تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة، وكان ذلك شاقًا عليه، فقال له: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ فكأنه قال له: إني ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقًا منجمًا إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل.

ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهي فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾

فإما أن يكون المعنى: فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال ونظيره ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] أو يكون المعنى عامًا في جميع التكاليف، أي فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًا بك من العبادات والطاعات أو متعلقًا بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك، **ثم في الآية سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دخل فيه أن ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فكأن ذكره بعد هذا تكريرًا. الجواب: الأول أمر بالمأمورات، والثاني نهى عن المنهيات ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيدًا.

السؤال الثاني: أنه عليه السلام ما كان يطيع أحدًا منهم، فما الفائدة في هذا النهي؟ الجواب: المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد، وأن أحدًا لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده، لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم، أنه لا بد له من الرغبة إلى الله والتضرع إليه في أن يصونه عن الشبهات والشهوات.

السؤال الثالث: ما الفرق بين الآثم والكفور؟ الجواب: الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفورًا، وإنما قلنا: إن الآثم عام في المعاصي كلها لأنه تعالى قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨] فسمى الشرك إثمًا، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣] وقال ﴿وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[الأنعام: ١٢٠] وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢١٩] فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي، واعلم أن كل من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان، لأنه لما عبد غيره، فقد عصاه وجحد إنعامه، إذا عرفت هذا فنقول في الآية قولان: الأول: أن المراد شخص معين، ثم منهم من قال: الآثم، والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل، ومنهم من قال: الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة، قال القفال: ويدل عليه أنه تعالى سمى الوليد أثيمًا في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[القلم: ١٠- ١٢] وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة. والكفور هو الوليد لأن عتبة كان ركابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق والوليد كان غاليًا في الكفر، والقول الأول أولى لأنه متأيد بالقرآن، يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدي فإني من أجمل قريش ولدًا، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول حم السجدة إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[فصلت: ١٣] فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع علي(١). القول الثاني: أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخصين معينين، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر، ثم قال الحسن: الآثم هو المنافق والكفور مشركوا العرب، وهذا ضعيف بل الحق ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص.

السؤال الرابع: كانوا كلهم كفرة، فما معنى القسمة في قوله: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟ الجواب:

---

(١) لم أجده.

﴿ ٱلۡكَفُورَ﴾ أخبث أنواع الآثم، فخصه بالذكر تنبيهًا على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله.

السؤال الخامس:كلمة (أو) تقتضي النهي عن طاعة أحدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهيًا عن طاعتهما جميعًا؟ الجواب: ذكروا فيه وجهين: الأول: وهو الذي ذكره الزجاج واختاره أكثر المحققين أنه لو قيل: ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما لأن النهي عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضي النهي عن طاعة كل واحد منهما وحده، أما النهي عن طاعة أحدهما فيكون نهيًا عن طاعة مجموعهما لأن الواحد داخل في المجموع، ولقائل أن يقول: هذا ضعيف، لأن قوله: لا تطع هذا وهذا معناه كن مخالفًا لأحدهما، ولا يلزم من إيجاب مخالفة أحدهما إيجاب مخالفتهما معًا، فإنه لا يبعد أن يقول السيد لعبده: إذا أمرك أحد هذين الرجلين فخالفه، أما إذا توافقا فلا تخالفهما. والثاني: قال الفراء: تقدير الآية لا تطع منهم أحدًا سواء كان آثمًا أو كفورًا كقول الرجل لمن يسأله شيئًا: لا أعطيك سواء سألت أو سكت.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا النهي عقبه بالأمر، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾، **وفي هذه الآية قولان:**

الأول:أن المراد هو الصلاة قالوا: لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ الصلوات. ثم قالوا: البكرة هي صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ المغرب والعشاء، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس وقوله: ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ المراد منه التهجد، ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم: كان ذلك من الواجبات على الرسول عليه السلام، ثم نسخ كما ذكرنا في سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله: ﴿ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾ أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة، وقال آخرون: بل المراد التطوع وحكمه ثابت.

القول الثاني:أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذي هو القول والاعتقاد، والمقصود أن يكون ذاكرًا لله في جميع الأوقات ليلاً ونهارًا بقلبه ولسانه، وهو المراد من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

واعلم أن في الآية لطيفة أخرى وهي أنه تعالى قال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٣]أي هديناك إلى هذه الأسرار، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقادًا مطيعًا لأمرنا، وإياك وأن تكون منقادًا مطيعًا لغيرنا، ثم لما أمره بطاعته، ونهاه عن طاعة غيره قال: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة

الأسماء والصفات، أما معرفة الحقيقة فلا، فتارة يقال له: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ وهو إشارة إلى معرفة الأسماء، وتارة يقال له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وهو إشارة إلى مقام الصفات، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨﴾

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ والمراد أن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في أول هذه السورة، بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدينية، **وفي الآية سؤالان:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: قدامهم؟ الجواب: من وجوه أحدها: لما لم يلتفتوا إليه، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم، وثانيها: المراد: ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف، وثالثها: أن وراء تستعمل بمعنى قدام كقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩].

السؤال الثاني: ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ الجواب: استعير الثقل لشدته وهوله، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعي لهم إلى هذا الكفر حب العاجل، قال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والإعراض، وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على أن يميتهم، وعلى أن يسلب النعمة عنهم، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبلية، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله، وأن يتركوا هذا التمرد، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والانقياد له، فلو أنكم توسلتم به إلى الكفر بالله، والإعراض عن حكمه، لكنتم قد

تمردتم، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب، وطريقة لطيفة. **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: الأسر: الربط والتوثيق، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقيد. وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم بعضًا ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب.

المسألة الثانية: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي إذا شئنا أهلكناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم، وهو كقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦١]والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام، فإنا قادرون على إفنائهم، وعلى إيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]ثم قيل: ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي في الخلقة، وإن كانوا أضدادهم في العمل، وقيل: أمثالهم في الكفر.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف في قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إن حقه أن يجيء بـ(إن) لا بـ(إذا) كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣]واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط، إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع، تقول: آتيك إذا طلعت الشمس، فهاهنا لما كان الله تعالى عالمًا بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة، لا جرم حسن استعمال حرف إذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمعنى أن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين، فمن شاء الخيرة لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلاً. واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر، فالقدري يتمسك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ويقول: إنه صريح مذهبي ونظيره: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]والجبري يقول: متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر، وذلك لأن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يقتضي أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة

للفعل، وقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقتضي أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم، فإذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد، وذلك هو الجبر، وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لأن هذه الآية أيضًا تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم.

واعلم أن الاستدلال على هذا الوجه الذي لخصناه لا يتوجه عليه كلام القاضي إلا أنا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف، قال القاضي: المذكور في هذه الآية اتخاذ السبيل إلى الله، ونحن نسلم أن الله قد شاءه لأنه تعالى قد أمر به، فلا بد وأن يكون قد شاءه. وهذا لا يقتضي أن يقال العبد: لا يشاء إلا ما قد شاءه الله على الإطلاق، إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أنه تعالى قد أراده وشاءه.

واعلم أن هذا الكلام الذي ذكره القاضي لا تعلق له بالاستدلال على الوجه الذي ذكرناه، وأيضًا فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص هذا العام بالصورة التي مر ذكرها فيما قبل هذه الآية، وذلك ضعيف، لأن خصوص ما قبل هذه الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام به. لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية واردًا بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور، وبقي في الآية سؤال يتعلق بالإعراب، وهو أن يقال: ما محل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؟ وجوابه النصب على الظرف، وأصله إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: -إلا ما شاء الله- لأن (ما) مع الفعل كـ(أن) معه، وقرئ أيضًا يشاءون بالياء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوالهم وما يكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم.

ثم ختم السورة فقال:

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

اعلم أن خاتمة هذه السورة عجيبة، وذلك لأن قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] يدل على أن جميع ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ يدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله، فخرج من آخر هذه السورة إلا الله وما هو من الله، وذلك هو التوحيد المطلق الذي هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم في أفلاك المعارف الإلهية، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ إن فسرنا الرحمة الإيمان، فالآية صريحة في أن الإيمان من الله، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق، وذلك لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل والحاجة المحالين على الله، والمفضي إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلًا وعدمه ممتنع

عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقًا على المشيئة ألبتة، وأيضًا فلأن من كان مديونًا من إنسان فأدى ذلك الدين إلى مستحقه لا يقال بأنه إنما دفع ذلك القدر إليه على سبيل الرحمة والتفضل.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أنه جف القلم بما هو كائن، لأن معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به، وأخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ، ومعلوم أن التغيير على هذه الأشياء محال، فكان الأمر على ما بيناه وقلناه.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوبًا، والمعنى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين وقوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ كالتفسير لذلك المضمر، وقرأ عبدالله بن الزبير: والظالمون، وهذا ليس باختيار لأنه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية غير حسن، وأما قوله في حم عسق: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإنما ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه في المعنى، فلم يجز أن يعطف على المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء، وهاهنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على ذلك الناصب المضمر، فظهر الفرق والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الإنسان

مَكِّيَّةٌ في قول ابنِ عباس ومقاتل والكلبي[1]. وقال الجمهور: مدنيَّة[2]. وقيل: فيها مكيّ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الآية:٢٣] إلى آخر السورة، وما تقدَّمه مدنيّ[3].

وهي إحدى وثلاثون آية

وذكر ابنُ وَهْب قال: وحدَّثنا ابن زيد قال: إنَّ رسول الله ﷺ ليقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه، وعنده رجل أسود كان يسأل النبيَّ ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: لا تُثْقِل على النبيِّ ﷺ، قال: «دَعْه يا ابن الخطاب» قال: فنزلت عليه هذه السورةُ وهو عنده، فلمَّا قرأها عليه وبلغ صفة الجِنان، زَفَر زَفْرَةً فخرجت نَفْسُه. فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَج نَفْسَ صاحبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة» وروي عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي[4].

وقال القُشَيريّ: إنَّ هذه السورةَ نزلت في عليِّ بن أبي طالب ﷺ. والمقصود من السورة عامّ. وهكذا القولُ في كلِّ ما يقال: إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ «هَلْ» بمعنى:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦١ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٤٢٧ .

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ص٤٨٦ من هذا الجزء.

قد؛ قاله الكسائيُّ والفرَّاء وأبو عبيدة[١]. وقد حُكي عن سيبويه: «هَلْ» بمعنى قد[٢]. قال الفراء[٣]: «هل» تكون جَحْدًا، وتكون خبرًا، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرِّره بأنك أعطيتَه. والجحد أن تقول: هل يَقْدر أحدٌ على مِثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى[٤].

والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثَّوريُّ وعِكرمة والسُّدِّي[٥]. وروي عن ابن عباس.

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنةً مرَّت به قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقًى بين مكة والطائف. وعن ابن عباس ـ أيضاً ـ في رواية الضحاك: أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حَمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صَلْصال أربعين سنة، فتَمَّ خلقُه بعد مئة وعشرين سنة. وزاد ابن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتمَّ خلقه بعد مئة وستين سنة. ثم نُفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور هاهنا لا يُعْرف مقدارُه؛ عن ابن عباس أيضًا، حكاه الماورديّ[٦].

﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ قال الضحَّاك عن ابن عباس: لا في السماء ولا في الأرض[٧]. وقيل: أي: كان جسدًا مصوَّرًا ترابًا وطينًا، لا يُذكَر ولا يعرف، ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يراد به، ثم نُفخ فيه الرُّوح، فصار مذكورًا؛ قاله الفرَّاء وقُطرب

---

(١) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣ ، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٧٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦١ عن ابن عيسى.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٦١ دون ذكر الثوري، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٩ - ٥٣٠ عن قتادة وسفيان.

(٦) في النكت والعيون ٦/ ١٦٢ .

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٨ دون نسبة.

وثعلب. وقال يحيى بن سلَّام: لم يكن شيئًا مذكورًا في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكورًا[١].

وقيل: ليس هذا الذِّكرُ بمعنى الإخبار، فإنَّ إخبار الربِّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقَدْر؛ تقول: فلان مذكور، أي: له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة. ثم لمَّا عَرَّف اللهُ الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمَّله الأمانةَ التي عَجزَ عنها السماواتُ والأرض والجبال، ظهر فضله على الكلّ، فصار مذكورًا. قال القُشيريّ: وعلى الجملة؛ ما كان مذكورًا للخلق، وإن كان مذكورًا لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفرَّاء[٢]: «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا» قال: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا.

وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء، أي: قد مضى مُدَدٌ من الدهر وآدمُ لم يكن شيئًا يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتيَ عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنةٌ وما كان آدم شيئًا، ولا مخلوقًا، ولا مذكورًا لأحد من الخليقة. وهذا معنى قولِ قتادة ومقاتل؛ قال قتادة: إنما خُلق الإنسان حديثًا، ما يُعلم من خليقة الله جلَّ ثناؤه خليقةٌ كانت بعد الإنسان[٣].

وقال مقاتل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: هل أتى حينٌ من الدهر لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كلِّه، ولم يخلق بعده حيوانًا[٤].

وقد قيل: «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ﴾ عُنيَ به الجنسُ من ذرِّيَّة آدم[٥]، وأنَّ الحين تسعة أشهر، مدَّة حمل الإنسانِ في بطن أمه «لم يكنْ شيئًا

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٢ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣ بنحوه.

(٢) الكلام في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٩ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٦٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٥ ، والكشاف ٤/ ١٩٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨ .

مذكورًا»؛ إذ كان علقةً ومضغة؛ لأنه في هذه الحالة جمادٌ لا خطر له.

وقال أبو بكر ﷺ لمَّا قرأ هذه الآية: ليتها تمَّت فلا نُبتلى[١]. أي: ليت المدَّةَ التي أتت على آدم لم تكن شيئًا مَذْكُورًا تَمَّت على ذلك، فلا يلد ولا يُبْتلى أولاده.

وسمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمَّت[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ابن آدم، من غير خلاف[٣] ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء يقطُر، وهو المَنِيّ، وكلُّ ماءٍ قليل في وعاء فهو نطفة[٤]؛ كقول عبد الله ابنِ رواحة يعاتب نفسه:

مـالـي أراكِ تَـكـرهـيـن الـجَـنَّـهْ هـل أنـتِ إلَّا نـطـفـةٌ فـي شَـنَّـهْ[٥]

وجمعها: نُطَف ونِطاف.

﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط. واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل: خِدْن وخَدِين[٦]؛ قال رؤبة:

يَـطْـرحْـنَ كـلَّ مُـعْـجَـلٍ نَـشَّـاجِ لـم يُـكْـسَ جِـلْـداً فـي دمٍ أمـشـاجِ[٧]

ويقال: مَشَجْتُ هذا بهذا، أي خلطتُه، فهو مَمْشوج ومَشِيج؛ مثل: مَخْلوط وخَلِيط.

وقال المبرِّد: واحد الأمشاج: مَشِيج؛ يقال: مَشَجَ يَمْشِجُ: إذا خلط، وهو هنا

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩، وينظر الكشاف ٤/ ١٩٤.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٩٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٦.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٥.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٦. وقال الفيروز أبادي في القاموس (مشج): شيء مشيج، كقتيل، وسَبَب، وكَتِف... ج: أمشاج.

(٧) ديوان رؤبة ص٣٢، وقوله: نشّاج؛ قال في القاموس (نشج): نَشَجَ الباكي يَنْشِجُ نشيجاً: غُصَّ بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

اختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمَّاخ:

طوت أحشاءَ مُرْتِجَةً لِوقتٍ　　　على مَشِجٍ سُلالتُه مَهِينِ[١]

وقال الفرَّاء[٢]: أمشاج: أخلاط ماءِ الرجل وماءِ المرأة، والدم والعَلَقة. ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مَشِيج، كقولك خَلِيط، ومَمْشوج، كقولك: مَخْلوط.

وروي عن ابن عباس ﷺ قال: الأمشاج: الحُمرة في البياض، والبياض في الحُمرة. وهذا قولٌ يختاره كثيرٌ من أهل اللغة؛ قال الهُذَليّ:

كأنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ منه　　　خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ[٣]

وعن ابن عباس أيضًا قال: يختلط ماءُ الرجل ـ وهو أبيض غليظ ـ بماء المرأة ـ وهو أصفر رقيق ـ فيُخلق منهما الولد، فما كان من عَصَب وعظم وقوَّة، فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فهو من ماء المرأة[٤]. وقد روي هذا مرفوعًا؛ ذكره البزَّار[٥].

وروي عن ابن مسعود: أمشاجها: عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة، وهما لونان. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء

---

(١) الديوان ص٣٢٨، والكامل للمبرد ٢/ ١٠١٧، والخزانة ٤/ ٣٤٩. قال البغدادي: أي: هذه الأتان ضمت أحشاء مرتجة، أراد رحمها، أي: أغلقت رحمها على ماء الفحل. والمشج، بفتح الميم وكسر الشين: ماء الفحل مع الدم، وقيل: ماء الفحل والأتان جميعاً يختلطان. وسلالته، أي: ماؤه، وهو فاعل مشج، ويقال: السلالة الولد، وهو الرقيق. ومهين ضعيف، وهو صفة مشج.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٤.

(٣) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٤، والكامل ٢/ ١٠١٦، وفيه: الشرخين، بدل: الفُوقين. الفُوْق: موضع الوتر من السهم. منه، أي: من السهم. خلافَ النصل: بعدَ النصل. سيط: خُلط.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٥) في مسنده (٢٣٧٥ كشف الأستار) بنحوه، وقال: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه، وقد روي نحوه عن غيره من وجوه. اهـ. وأخرجه (٢٣٧٦)، (٢٣٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود. والحديثان عند أحمد (٢٥١٤)، (٤٤٣٨).

وصفراء. وقال ابن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفَرْج والرَّحِم، وهي نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظم، ثم لحم.

ونحوَه قال قتادة: هي أطوار الخلق: طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، وطوراً عظام، ثم يكسو العظام لحمًا[١]؛ كما قال في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية [١٢].

وقال ابن السِّكِّيت: الأمشاج: الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع، فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: بُرْمَةٌ أَعشَار، وثوبٌ أخلاقٌ[٢].

وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: جاء حبر من اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة. فقال: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فإذا عَلَا ماءُ المرأة آنثَتْ، وإذا عَلَا ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ» فقال الحبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسولُ الله[٣]. وقد مضى هذا القولُ مستوفًى في سورة البقرة[٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره. وقيل: نقدِّر فيه الابتلاء، وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: أحدهما: نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي. الثاني: نختبر شكره في السرَّاء وصبرَه في الضَّرَّاء؛ قاله الحسن.

وقيل: «نَبْتَلِيهِ»: نُكلِّفه. وفيه أيضًا وجهان: أحدهما: بالعمل بعد الخلق؛ قاله

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٣/ ٥٣٣ - ٥٣٥.

(٢) البُرْمَة: قِدْرٌ، من حجارة. وقِدْرٌ أعشار: مكسَّرة على عشر قطع. وثوبٌ أخلاق: إذا كانت الخُلُوقة (أي: البِلَى) فيه كلِّه. القاموس (برم، قدر، خلق).

(٣) لم نقف عليه عن أبي أيوب الأنصاري، وأخرج نحوه البخاري (٣٣٢٩) عن أنس، ومسلم (٣١٥) عن ثوبان. وسلف حديث ثوبان ٥/ ١٤.

(٤) استوفاه المؤلف في سورة الشورى ١٨/ ٥٠٢ وما بعدها.

مقاتل. الثاني: بالدِّين؛ ليكون مأمورًا بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي[(١)].

وروي عن ابن عباس: «نَبْتَلِيهِ»: نصرِّفه خلقًا بعد خلق؛ لنبتليَه بالخير والشرّ[(٢)].

وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم: «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» لنبتليَه، وهي مُقدَّمةٌ معناها التأخير[(٣)].

قلت[(٤)]: لأن الابتلاء لا يقع إلَّا بعد تمام الخِلْقة.

وقيل: «جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»: يعني: جعلنا له سمعًا يسمع به الهدى، وبصرًا يُبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنَّا له وعرَّفناه طريقَ الهدى والضلال، والخيرِ والشرِّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقال مجاهد: أي: بيَّنَّا له السبيلَ إلى الشَّقاء والسَّعادة. وقال الضحَّاك وأبو صالح والسُّدِّيّ: السبيل هنا خروجُه من الرَّحِم. وقيل: منافعه ومضارُّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمالِ عقله[(٥)].

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: أيّهما فعل فقد بيَّنَّا له. قال الكوفيون: «إنْ» ها هنا تكون جزاءً، و«ما» زائدة. أي: بيَّنَّا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر. واختاره الفرَّاء[(٦)]، ولم يُجِزْه البصريُّون؛ إذ لا تدخل «إنْ» للجزاء على الأسماء، إلَّا أن يُضمَرَ بعدها فعل[(٧)].

وقيل: أي: هديناه الرُّشد، أي: بيَّنَّا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إنْ

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٣.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤. وقد رده النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٩٥ - ٩٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٥.

(٤) لفظة: قلت، ليست في (ز) و(ظ) و(ي).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢١٤.

(٧) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٢، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٦.

خلقنا له الهدايةَ اهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر. وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي: فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا «إِمَّا شاكرًا»، والله أعلم.

ويقال: هديته السبيلَ وللسبيل وإلى السبيل[١]. وقد تقدَّم في «الفاتحة» وغيرها[٢].

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفيًا للمبالغة في الشكر، وإثباتًا لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره لكثرة النِّعم عليه، وكَثرة كفره[٣] وإن قَلَّ مع الإحسان إليه. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ بيَّن حال الفريقين، وأنه تَعبَّد العقلاءَ وكَلَّفهم ومَكّنهم مما أمرهم، فمن كَفَر فله العقاب، ومن وَحَّد وشكرَ فله الثواب. والسلاسل: القيود في جهنم، طول كلِّ سلسلةٍ سبعون ذراعًا، كما مضى في «الحاقة»[٤].

وقرأ نافع والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم وهشامٌ عن ابن عامر: «سَلَاسِلًا» منوَّنًا. الباقون بغير تنوين. ووقف قُنْبُل عن ابن كثير[٥] وحمزةُ بغير ألف. الباقون بالألف. فأما «قوارير» الأوَّل، فنوَّنه نافع وابن كثير والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوِّن الباقون. ووقف يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما «قَوَارِير» الثانية، فنوَّنه أيضًا نافع والكسائيُّ وأبو بكر، ولم ينوِّن الباقون. فمَن نوَّن قرأها بالألف، ومن

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤ .

(٢) ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٢٤٧ فما بعد.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٦٤ (والكلام منه): وكثر كفره .

(٤) ص٢١٠ من هذا الجزء.

(٥) في (د) و(م): وابن كثير. وهو خطأ.

لم ينوِّن أسقط منها الألف[١]، واختار أبو عُبيد التنوينَ في الثلاثة، والوقفَ بالألف اتِّباعًا لخطِّ المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان «سَلَاسِلَا» بالألف، و«قَوَارِيرًا» الأوَّل بالألف، وكان الثاني مكتوبًا بالألف، فَحُكَّت، فرأيت أثَرها هناك بَيِّنًا.

فمن صَرَفَ فله أربع حُجج:

أحدها: أنَّ الجموع أشبهت الآحاد، فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد، فصرفت.

الثانية: أنَّ الأخفش حكى عن العرب صَرْفَ جميع ما لا ينصرف، إلَّا: أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائيُّ والفرَّاء: هو على لغة من يُجرِي الأسماءَ كلَّها، إلَّا قولهم: هو أظرف منك، فإنهم لا يُجْرُونه؛ وأنشد ابن الأنباريِّ[٢] في ذلك قولَ عمرو بنِ كُلْثوم:

كأنَّ سيوفنا فينا وفيهمْ مَخاريقٌ بأيدي لاعبينا[٣]

وقال لَبِيد:

وجَزُورِ أَيْسارٍ دَعوتُ لِحَتْفها بِمَغالِقٍ مُتشابهٍ أَجسامُها[٤]

---

(١) الكلام بنحوه في الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٦٨، والمقنع للداني ص١٥، وينظر النشر ٢/ ٣٩٥.

(٢) في الوقف والابتداء ١/ ٣٦٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧، والحجة لأبي علي ٦/ ٣٤٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٣، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٥٢ ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤، وللزجاج ٥/ ٢٦٠. قوله: لا يُجرونه، أي: يمنعونه من الصرف، والإجراء يعني الصرف. ينظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على تفسير الطبري ٦/ ٣٤٧.

(٣) شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص١٠٤. المخاريق: ما مُثِّل بالشيء وليس به، نحو ما يلعب به الصبيان، يشبهونه بالحديد وليس به.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣١٨. الأيسار: المضاربون بالقداح. لحتفها: لنحرها. المغالق: القِداح؛ لأنه يغلق بها الرهن. متشابه أجسامها: يشبه بعضها بعضاً؛ لأنها على نسق واحد.

وقال لبيد أيضاً:

فَضلًا وذو كرم يُعِينُ على النَّدَى سَمْحٌ كَسُوبُ رغائبٍ غَنَّامُها[١]

فصَرَفَ مَخاريق ومَغَالق ورَغَائب، وسبيلُها ألَّا تُصرَف.

والحجَّة الثالثة: أن يقول: نوّنت «قوارِير» الأوَّل؛ لأنه رأس آية، ورؤوس الآي جاءت بالنون، كقوله جلَّ وعزَّ: «مَذْكُورًا» «سَمِيعًا بَصِيرًا» فنوَّنَّا الأوَّل ليوافِقَ[٢] بين رؤوس الآي، ونوَّنَّا الثاني على الجِوار للأوَّل.

والحجة الرابعة: اتِّباع المصاحف، وذلك أنهما جميعًا في مصاحف مكة والمدينةِ والكوفةِ بالألف.

وقد احتجَّ مَن لم يصرفهنَّ بأن قال: إنَّ كلَّ جمع بعد الألف منه ثلاثةُ أحرف أو حرفان أو حرف مشدَّد؛ لا يُصرَف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولُك: قناديل، ودنانير، ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج: ٤٠] لأنَّ بعد الألف حرفين، وكذلك قوله: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] والذي بعد الألف منه حرف مُشَدَّد: شَوَابّ ودَوَابّ.

وقال خلف: سمعت يحيى بنَ آدم يحدِّث عن ابن إدريس قال: في المصاحف الأُوَل الحرفُ الأوَّل[٣] والثاني بغير ألف؛ فهذا حُجَّةٌ لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحفٍ ينسب إلى قراءة ابنِ مسعود الأولَ بالألف، والثانيَ بغير ألف.

وأما أَفْعَل مِنْك، فلا يقول أحدٌ من العرب في شِعره ولا في غيره: هو أفعل منك، منوَّنًا؛ لأنَّ «مِن» تقوم مَقامَ الإضافة، فلا يُجمعُ بين تنوين وإضافةٍ في حرف؛

(١) شرح ديوان لبيد ص٣٢٠ . فضلاً: رغبة في الفضل. وذو كرم: أي: ومنا ذو كرم.

(٢) في (د): لتوقف، وفي (م): ليوقف، وفي (ي): ليوفق، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المطبوع من الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٦٩ ، والكلام منه.

(٣) بعدها في (د) و(م): بالألف، وهو خطأ.

لأنهما دليلان من دلائل الأسماء، ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفرَّاء وغيره[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ، تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جُبَير بن نُفَير، عن أبي الدرداء كان يقول: اِرفعوا هذه الأيديَ إلى الله جلَّ ثناؤه قبل أن تُغلَّ بالأغلال. قال الحسن: إنَّ الأغلال لم تُجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الربَّ سبحانه، ولكن إذا طغى [بهم اللهب، أرسبتهم في النار][(٢)]. ﴿وَسَعِيرًا﴾ تقدَّم القولُ فيه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الأبرار: أهل الصِّدق، واحدهم بَرٌّ، وهو مَن امتثل أمرَ الله تعالى. وقيل: البَرّ: الموحِّد، والأبرار: جمع بارّ، مثل: شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بَرّ، مثل: نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح[(٤)]: وجمع البَرّ: الأبرار، وجمع البارّ: البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه وَيَتَبرَّره، أي يُطِيعه، والأمُ بَرَّةٌ بولدها.

وروى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمَّاهم اللهُ جلَّ ثناؤه الأبرار؛ لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء، كما أنَّ لوالدك عليك حقًّا، كذلك لولدك عليك حقًّا»[(٥)].

---

(١) نقله المصنف عن الوقف والابتداء ١/ ٣٧٠ . والكلام بتمامه فيه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٧٠ ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٤ ، وما بين حاصرتين منهما. ووقع في (ظ) و(م): ... ولكن إذلالاً.

(٣) ١٣/ ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) مادة (برر)، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٧ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٦٣٠ من طريق عبيد الله بن الوليد الوصَّافي وقال: لا يتابع عليه. وأخرجه من هذا الطريق البخاري في الأدب المفرد (٩٤)، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٦ (٤٦٨٠) موقوفاً. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١٩٨) من سورة آل عمران: والموقوف أشبه، والله أعلم. وقال السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١١٣ : والموقوف أصح.

وقال الحسن: البَرّ: الذي لا يؤذي الذَّرّ[١]. وقال قتادة: الأبرار: الذين يؤدُّون حقَّ الله ويوفون بالنَّذْر[٢]. وفي الحديث: «الأبرار الذين لا يؤذون أحدًا»[٣].

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: من إناء فيه الشراب. قال ابن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة: الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يُسمَّ كأسًا[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

صَبَنْتِ[٥] الكأسَ عنَّا أُمَّ عَمرٍو ... وكان الكأسُ مَجْراها اليمينا

وقال الأصمعيّ: يقال: صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصْبِنُ صَبْنًا: بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: شَوْبُها وخِلْطُها؛ قال حسّان:

كأنَّ سَبيئةً من بيتِ رأسٍ ... يكون مِزاجُها عسلٌ وماءُ[٦]

ومنه مِزاج البدن، وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء، والحرارة والبرودة.

﴿كَافُورًا﴾ قال ابن عباس: هو اسم عينِ ماءٍ في الجنة، يقال له: عين الكافور. أي: يمازجه ماءُ هذه العينِ التي تسمَّى كافورًا. وقال سعيد عن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك. وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: مِزَاجها طعمها[٧]. وقيل: إنما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٦ (٤٦٨١).

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٦٥ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٨ .

(٥) في (ظ): صددت، وهو موافق لما في شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص٩١ ، وشرح التبريزي ص٢٥٦ . والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في شرح الزوزني ١١٩ ، والصحاح (صبن).

(٦) الديوان ص٨ ، والخزانة ٩/ ٢٢٤ . قال البغدادي: السبيئة: الخمر التي تُسبأ، أي: تشترى. وبيت رأس: موضع. وقيل: بيت: موضع الخمر، ورأس: اسم للخمّار. وقيل: الرأس هنا بمعنى الرئيس، أي: من بيت رئيس. قال اللخمي: وهذا أحسن الأقوال.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٧ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٣٩ .

الكافور في ريحها لا في طعمها[١]. وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيبِ رائحته وبَرْده؛ لأن الكافور لا يشرب؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف:٩٦] أي: كنارٍ. وقال ابن كَيْسان: طُيِّب بالمسك والكافور والزَّنجبيل[٢]. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمَّى اللهُ ما عنده بما عندكم حتى تهتديَ لها القلوب[٣]. وقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ «كان» زائدة، أي: مِن كأسٍ مِزاجُها كافورٌ.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: إنَّ الكافور اسمٌ لعين ماءٍ في الجنة؛ فـ«عَيْنًا» بدل من «كافور» على هذا. وقيل: بدل من «كأس» على الموضع. وقيل: هي حال من المضمَر في «مِزاجها». وقيل: نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرَّجلُ فتقول: العاقلَ اللبيبَ، أي: ذكرتم العاقلَ اللبيبَ؛ فهو نصب بإضمار: أعني. وقيل: يشربون عينًا[٥]. وقال الزجَّاج[٦]: المعنى: مِن عين.

ويقال: كافور وقافور. والكافور أيضًا: وعاء طلع النخل، وكذلك الكُفُرَّى؛ قاله الأصمعيّ.

وأما قولُ الراعي:

تَكسو المفارِقَ واللَّبَّاتِ ذا أَرَجٍ ... مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنَّ الظَّبي الذي يكون منه المسك إنما يرعى سُنبل الطِّيب، فجعله كافورًا[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٧ .

(٣) ذكر قوله مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٠٠ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٠ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢١٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٩ .

(٥) هذه الأقوال في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧ - ٩٨ ، والكشاف ٤/ ١٩٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٨ .

(٧) الصحاح (كفر)، وبيت الراعي في ديوانه ص٣٢ . اللَّبَّات: جمع لَبَّة: وهو المنحر. القُصْب: المِعَى. الأَرَج: الطيّب الرائحة. دَرَّاج: يذهب ويجيء. قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤١٧: أراد المسك، فجعله من قُصب ظبي المسك.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفرَّاء[١]: يشرب بها ويشربها سواءٌ في المعنى، وكأنَّ «يشرب بها» يَرْوَى بها ويَنْقَع[٢]؛ وأنشد:

شَرِبْنَ بماء البحرِ ثم ترفَّعتْ ... متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهُنَّ نئيجُ[٣]

قال: ومثله: فلان يتكلَّم بكلام حسن، ويتكلَّم كلامًا حسنًا. وقيل: المعنى: يشربها، والباء زائدة[٤]. وقيل: الباء بدل «مِن»، تقديره: يشرب منها؛ قاله القُتَبيّ[٥].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيقال: إنَّ الرجل منهم ليَمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيبٌ يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يُشقِّقونها شَقًّا، كما يفجِّر الرجلُ النهرَ هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد.

وعن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد[٦]: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيرًا»: يقودونها حيث شاؤوا، وتتبعهم؛ حيثما مالوا مالت معهم.

وروى أبو مقاتل عن صالح بن سعيد، عن أبي سهل، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة: عينان تجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذكر اللهُ: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيرًا»، والأخرى [الزنجبيل]، والأخريان نَضَّاختان من فوق العرش، إحداهما التي ذَكَرَ الله: «سَلْسَبِيلًا»، والأخرى التَّسْنيم». ذكره الترمذيُّ

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢١٥.

(٢) في مختار الصحاح: نقع بالماء: رَوِيَ، وشَرِبَ حتى نقع، أي: شفى غليله.

(٣) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٥٢، والخزانة ٣/ ١٩٣ (دار صادر). قال البغدادي: متى لجج، أي: من لجج، أو في لجج، أو وسط لجج. ونئيج: مرٌّ سريع.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٠.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٣٠.

(٦) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٥٤٠ بنحوه.

الحكيم في «نوادر الأصول»[(١)]؛ وقال: فالتسنيم للمقرَّبين خاصَّةً شربًا لهم، والكافور للأبرار شرباً لهم؛ يُمزج للأبرار من التسنيم شرابُهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج. هكذا ذكره في التنزيل، وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شِرْب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقرَّبين صِرف، وما كان للأبرار صِرف، فهو لسائر أهل الجنة مِزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقرَّبون هم الصِّدِّيقون.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: لا يُخلِفون إذا نَذَروا. وقال مَعْمَر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحجِّ والعُمْرة وغيره من الواجبات[(٢)]. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حقِّ الله جلَّ ثناؤه[(٣)]. وقال الفرَّاء[(٤)] والجرجاني: وفي الكلام إضمار، أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى.

والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلَّف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حَدِّه: النذر: هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يَلْزمه.

وقال الكَلْبيّ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» أي: يتمِّمون العهود[(٥)]. والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] أي: أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسَهم بإحرامهم بالحجّ. وهذا يقوِّي قولَ قتادة، وأنَّ النذر يندرج فيه ما

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه، وقد ذكره المصنف في التذكرة ص٥٠٧ ونسبه أيضاً للحكيم الترمذي في نوادر الأصول في الأصل التاسع والثمانين، ونقل كلامه الآتي. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣٠١/٦ وعزاه لنوادر الأصول أيضاً، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الطبري ٥٤١/٢٣ - ٥٤٢، وذكره البغوي ٤٢٨/٤.

(٣) تفسير البغوي ٤٢٨/٤.

(٤) في معاني القرآن ٢١٦/٣.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١٦٦/٦ بنحوه.

التزمه المرءُ بإيمانه مِن امتثال أمر الله؛ قاله القُشيري.

وروى أشهب عن مالك أنه قال: «يوفُون بالنَّذْرِ»: هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال: قال مالك: «يوفُون بالنَّذْر» قال: النذر هو اليمين[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ أي: يحذرون ﴿يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: عاليًا داهيًا فاشيًا، وهو في اللغة: ممتدًّا، والعرب تقول: استطار الصَّدع في القارورة والزُّجاجة واستطال: إذا امتدَّ[٢]؛ قال الأعشى:

وبانتْ وقد أسأرتْ[٣] في الفؤا ... د صَدْعًا على نأيها مستطيرا

ويقال: استطار الحريق: إذا انتشر. واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء[٤].

وقال حسان:

وهانَ على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيرة مستطيرُ[٥]

وكان قتادة يقول: استطار واللهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماواتِ والأرض[٦].

وقال مقاتل: كان شرُّه فاشيًا في السماوات فانشقَّت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياه[٧].

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على قِلَّته وحبِّهم

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٥.

(٢) الكلام في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٦ بنحوه.

(٣) في (د) وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٤٣: أثارت، وفي الديوان ص١٤٣: أورثت، والمثبت من (ظ) و(م) وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠، وأَسْأَرَتْ، أي: أَبْقَتْ.

(٤) تفسير غريب القرآن ص٥٠٢، وينظر الصحاح (طير).

(٥) الديوان ص١١٠. وسلف ٢٠/ ٣٤١.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٢.

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٨.

إيَّاه وشهوتِهم له. وقال الداراني: على حبِّ الله[١]. وقال الفُضَيل بن عِياض: على حبِّ إطعام الطعام. وكان الربيع بن خُثَيم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سُكَّرًا، فإنَّ الربيع يحبُّ السُّكَّر[٢].

﴿مِسْكِينًا﴾ أي: ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو الطوَّاف يسألك مالَك.

﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أنَّ يتيمًا كان يحضر طعامَ ابن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيمَ فلم يجده، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه، فلم يجد الطعام، فدعا له بسَوِيق وعسل؛ فقال: دونَك هذا، فوالله ما غُبِنتَ؛ قال الحسن وابن عمر: والله ما غُبِن.

﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: الأسير من أهل الشِّرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: الأسيرُ هو المحبوس[٣]. وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء: هو المسلم يُحبس بحقّ[٤]. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابنِ عباس. قال قتادة: لقد أَمَرَ الله بالأسرى أن يُحسَنَ إليهم، وإنَّ أسراهم يومئذ لَأهلُ الشِّرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه[٥]. وقال عِكرمة: الأسير العبد[٦]. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: الأسير المرأة، يدلُّ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهنَّ عَوَانٍ عندكم»[٧] أي: أسيرات.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٠١ - ٤٠٢، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ١١٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٦٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤١١، والحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٨٥١) من حديث عمرو بن الأحوص ﷺ. وقوله منه: «استوصوا بالنساء خيراً» أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ٣/ ٩٤.

وقال أبو سعيد الخُدري: قرأ رسول الله ﷺ: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» فقال: «المسكين: الفقير، واليتيم: الذي لا أب له، والأسير: المملوك والمسجون» ذكره الثعلبي.

وقيل: نَسَخَ إطعامَ المسكين آيةُ الصَّدقات؛ وإطعامَ الأسير السيفُ؛ قاله سعيد بن جُبير[1]. وقال غيره: بل هو ثابتُ الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوُّع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه، إلَّا أن يتخيَّرَ فيه الإمام.

الماورديُّ[2]: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقصَ العقل؛ لأنه في أَسْر خَبْله وجنونه، وأسرُ المشرك انتقام يقف على رأي الإمام؛ وهذا بِرٌّ وإحسان.

وعن عطاء قال: الأسير من أهل القِبلة وغيرهم[3].

قلت: وكأنَّ هذا القولَ عامٌّ يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قُربةً إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضةُ فلا. والله أعلم. ومضى القولُ في المسكين واليتيم والأسير واشتقاقِ ذلك من اللغة في «البقرة» مستوفًى، والحمد لله[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير: «إِنَّمَا نُطْعمكم» في الله جلَّ ثناؤه فزعًا من عذابه وطمعًا في ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي: مكافأة ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا أن تُثْنُوا علينا بذلك؛ قال ابن عباس: كذلك كانت نيَّاتهم في الدنيا حين أَطعموا. وعن سالم، عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلَّموا به، ولكن عَلِمه الله جلَّ ثناؤه منهم، فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جُبير[5]، حكاه عنه القُشيريّ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٦ ، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠ .

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٥ .

(٤) ٢/ ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٥٤٦ .

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في مُطْعِم بن ورقاء الأنصاريّ؛ نذرَ نذرًا فوفَّى به(١).

وقيل: نزلت فيمن تكفَّل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعليّ، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد(٢)، وأبو عبيدة ﷺ؛ ذكره الماورديّ.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار؛ أطعم في يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا(٣).

وقال أبو حمزة الثُّمَالي: بلغني أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، أطعمني فإني واللهِ مجهود؛ فقال: «والذي نفسي بيده ما عندي ما أُطعمك، ولكن اطلب». فأتى رجلًا من الأنصار وهو يتعشَّى مع امرأته، فسأله، وأخبره بقول النبيِّ ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه واسقِه. ثم أتى النبيَّ ﷺ يتيمٌ فقال: يا رسول الله، أطعمني فإني مجهود. فقال: «ما عندي ما أطعمك، ولكن اطلب» فاستطعم ذلك الأنصاريَّ، فقالت المرأة: اطعمه واسقِه، فأطعمه. ثم أتى النبيَّ ﷺ أسير فقال: يا رسول الله أطعمني فإني مجهود. فقال: «والله ما معي ما أطعمك، ولكن اطلب» فجاء الأنصاريَّ فطلب، فقالت المرأة: أطعمه واسقِه. فنزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ذكره الثعلبيّ. وقال أهل التفسير: نزلت في عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما وجاريةٍ لهما اسمُها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَن فعل فعلًا حسنًا؛ فهي عامَّة. وقد ذكر النقَّاش والثَّعلبيُّ والقشيريُّ وغير واحدٍ من المفسِّرين في قصة عليٍّ وفاطمة وجاريتهما حديثًا لا يصحُّ ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله

(١) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٨ لجابر.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٦٧ : وسعيد، وهي غير واضحة في (ي).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨، وأورده أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٣٢، وذكر أن الأنصاريَّ هو أبو الدحداح.

عـزَّ وجـلَّ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قال: مرض الحسن والحسين فعادهما رسولُ الله ﷺ، وعادهما عمومة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجُعْفيُّ عن قَنْبَر مولى عليٍّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر ﷺ: يا أبا الحسن. رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سُليم ـ لو نذرتَ عن ولدك نذرًا[١]، وكلُّ نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال ﷺ: إنْ بَرأ ولدي[٢]، صمت لله ثلاثةَ أيام شكرًا. وقالت جارية لهم نوبيَّة: إن بَرأ سيِّداي، صمت لله ثلاثة أيام شكرًا. وقالت فاطمة مثلَ ذلك. وفي حديث الجُعْفي: فقال الحسن والحسين: علينا مثلُ ذلك. فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليلٌ ولا كثير، فانطلق عليٌّ إلى شمعون بن حاريا[٣] الخيبريّ، وكان يهوديًّا، فاستقرض منه ثلاثة أَصْوُع[٤] من شعير، فجاء به، فوضعه ناحيةَ البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوُضع الطعامُ بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحدٍ منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوَّل، وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد. في حديث الجُعْفي: أنا مسكين من مساكين أمة محمدٍ ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة. فسمعه عليٌّ ﷺ، فأنشأ يقول:

فـاطـمَ[٥] ذاتَ الـفـضـل[٦] والـيـقـيـنْ   يـا بـنـتَ خـيـر الـنـاس أجـمـعـيـنْ

---

(١) في (م): ولديك شيئاً، وفي نوادر الأصول ص٦٤: ولديك نذراً.

(٢) في (م): ولداي.

(٣) في (د): جبار، وفي (ظ): جابر، وفي (ز) و(ي): جار. والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: آصع.

(٥) في (د) و(ز) و(ي): أفاطم، وفي (ظ): أفاطمة.

(٦) في النسخ الخطية: السداد.

أما تَرَينَ البائسَ المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا[١] جائعٌ حزين
كلُّ امرئٍ بكسبه رهين وفاعلُ الخيرات يستبين[٢]
موعدُنا جنةُ علِّيين حرَّمها اللهُ على الضَّنين
وللبخيل موقفٌ مهين تَهوي به النار إلى سجِّين
شرابه الحميم والغِسْلين من يفعلِ الخيرَ يقم سمين
ويدخلِ الجنة أيَّ حِين

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمرُكَ عندي يا ابنَ عمٍّ طاعهْ ما بيَ من لؤم ولا وَضاعهْ
عَدَلتُ[٣] في الخبز له صناعه أُطعِمه ولا أُبالي السَّاعه
أرجو إذا أَشبعتُ ذا المجاعه أنْ أَلحقَ الأخيارَ والجماعه
وأدخلَ الجنةَ لي شفاعه

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماءَ القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الثاني، قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهلَ بيتِ محمد، يتيمٌ من أولاد المهاجرين، استشهد والدي يومَ العَقَبة. أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة. فسمعه عليٌّ فأنشأ يقول:

فاطمَ بنتَ السَّيدِ الكريمْ بنتَ نبيٍّ ليس بالزَّنيمْ[٤]

---

(١) في (د) و(ي): إليها، وفي (ز) و(ظ): إلى الله.

(٢) في النسخ الخطية: وفاعل الخير سيستبين.

(٣) في (د) و(ز) و(ي): عديت، وفي (م): غديت.

(٤) الزنيم: المستلحقَ في قوم ليس منهم، والدَّعي، واللئيم المعروف بلؤمه أو شره. القاموس (زنم).

لـقـد أتـى الـلـهُ بـذي الـيـتـيـم مَـن يَـرحـم الـيـومَ يـكـن رحـيـم
ويـدخـل الـجـنـة أي سـلـيـم قـد حـرَّم الـجـنـةَ لـلَّـئـيـم[١]
ألَّا يـجـوزَ الـصـراطَ الـمـسـتـقـيـم يـزلُّ فـي الـنـار إلـى الـجـحـيـم
شـرابُـه الـصـديـدُ والـحـمـيـم

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أُطـعِـمـه الـيـوم ولا أبـالـي وأوثـر الـلـه عـلـى عـيـالـي
أمـسَـوا جـيـاعًـا وهُـم أَشْـبـالـي أصـغـرهـم يُـقـتَـلُ فـي الـقـتـال
بِـكَـرْبَـلَا يُـقـتَـلُ بـاغـتـيـال يـا ويـل لِـلـقـاتـل مـعْ وبـال
تَـهـوي بـه الـنـارُ إلـى سَـفَـال وفـي يـديـه الـغُـلُّ والأغـلال
كُـبُـولـةٌ زادت عـلـى الأكـبـال

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماء القَرَاح[٢]؛ فلمَّا كانت في اليوم الثالث، قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسيرٌ، فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد، تأسِروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطْعِموننا! أطعموني فإنِّي أسيرُ محمد. فسمعه عليٌّ فأنشأ يقول:

فـاطـمُ[٣] يـا بـنـتَ الـنـبـيِّ أحـمـدْ بـنـت نـبـيٍّ سـيِّـدٍ مُـسـوَّدْ
سـمَّـاه[٤] الـلـه فـهـو مـحـمـد قـد زانـه الـلـه بـحُـسْـنٍ أغـيـد
هـذا أسِـيـرٌ لـلـنـبـي الـمـهـتـد مُـثـقَّـلٌ فـي غُـلِّـه مُـقـيَّـد

(١) في (م): قد حرم الخلد على اللئيم. وليس بشيء.

(٢) أي: الذي لا يشوبه شيء. الصحاح (قرح).

(٣) في (د) و(ز) و(ي): أفاطم.

(٤) في (م): وسماه.

يشكو إلينا الجوعَ قد تمدَّد ... من يُطعمِ اليومَ يجِده في غد
عند العليِّ الواحد الموحَّد ... ما يزرع الزارعُ سوف يَحصُد
أعطيه لا لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:

لم يَبْقَ ممَّا جاء غيرُ صاعْ ... قد ذهبت كفِّي مع الذِّراعْ
ابناي والله هُما جِياع ... يا ربِّ لا تتركهما ضِياع
أبوهما للخير ذو اصطناع[١] ... يَصطنع المعروفَ بابتداع
عَبْلُ[٢] الذِّراعين شديدُ الباع ... وما على رأسيَ مِن قِناع
إلَّا قناعًا نَسْجُه أنْساع[٣]

فأعطوه الطعام، ومكثوا ثلاثة أيام ولياليَها لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى اللهُ النذر، أخذ عليٌّ بيده اليمنى الحسنَ، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدَّة الجوع؛ فلمَّا أبصرهم رسولُ الله ﷺ قال: «يا أبا الحسن! ما أشدَّ ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة». فانطلقوا إليها وهي في محرابها قد لَصِقَ بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما أن رآها رسولُ الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها، بكى وقال: «واغوثاه يا الله، أهلُ بيت محمدٍ يموتون جوعًا». فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربُّك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئًا في أهل بيتك. قال: «وما آخذ يا جبريل؟» فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): هو صناع، والبيت ساقط من (ي).

(٢) أي: ضخمهما. الصحاح (عبل).

(٣) في (د): بساع، وفي (ظ): سباع، وفي (ز) و(ي): نساع، والمثبت من (م)، والأنساع: جمع نِسْع: سَيْر ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال. القاموس (نسع).

قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

قال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»(١): فهذا حديثٌ مُزوَّق مُزيَّف، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهُّفًا ألَّا يكونَ بهذه الصفة، ولا يعلمُ أنَّ صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وهو الفضل الذي يَفْضُل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأنَّ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى»(٢) «وابدأ بنفسك ثم بمن تعول»(٣) وافترض الله على الأزواج نفقةَ أهاليهم وأولادِهم. وقال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يَقُوت»(٤)، أفيحسب عاقلٌ أنَّ عليًّا جهل هذا الأمرَ، حتى أجهد صبيانًا صغارًا من أبناء خمسٍ أو ستٍّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهنّ، حتى تَضوَّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخَلاء أجوافهم، حتى أبكى رسولَ الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائلَ، فهل كان يجوز له أن يَحْمِلَ أهله على ذلك؟! وهَبْ أنَّ أهله سمحت بذلك لعليّ، فهل جاز له أن يحمل على أطفاله جوعَ ثلاثةِ أيامٍ بلياليهنّ؟! ما يروج مثلُ هذا إلَّا على حَمْقى جهَّال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظنَّ بعليٍّ مثلَ هذا. وليت شعري! مَن حفظ هذه الأبياتَ كلَّ ليلة عن عليٍّ

(١) ص٦٥.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٧٤١)، والبخاري (١٤٢٦). وسلف ٣/ ٤٤٧.

(٣) قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٨٤: لم أره هكذا، بل في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «... وابدأ بمن تعول» ولمسلم عن جابر في قصة المدبر في بعض الطرق: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك». اهـ.
وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٧١٥٥)، والبخاري (١٤٢٦)، ومسلم (١٠٤٢)، وسلف ٦/ ٤٠.
وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٩٧٠)، ومسلم (٩٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وسلف ٥/ ٢٢٥.

وفاطمة، وإجابةَ كلٍّ واحدٍ منهما صاحبَه، حتى أدَّاه إلى هؤلاء الرُّواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السُّجونِ فيما أرى. بلغني أنَّ قوماً يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديثَ في السَّمَر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديثِ مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيَّفوها، وما من شيء إلَّا وله آفةٌ ومكيدة، وآفة الدِّين وكَيْده أكثر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ «عَبُوسًا» من صفة اليوم، أي: يومًا تَعْبِس فيه الوجوه مِن هوله وشدَّته، فالمعنى: نخاف يومًا ذا عُبوس. وقال ابن عباس: يَعْبِس الكافر يومئذ حتى يسيلَ منه عرَقٌ كالقَطِران. وعن ابن عباس: العَبُوس: الضَّيِّق، والقَمْطَرِير: الطويل[1]؛ قال الشاعر:

شـديـدًا عـبـوسًـا قَـمْـطَـريـرًا[2]

وقيل: القَمطرير: الشديد؛ تقول العرب: يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى؛ وأنشد الفرَّاء[3]:

بـنـي عَـمِّـنـا هـل تَـذْكُـرون بـلاءَنـا ... عـلـيـكـم إذا مـا كـان يـومٌ قُـمَـاطِـرُ

بضمِّ القاف. واقْمَطَرّ: إذا اشتدّ.

وقال الأخفش: القَمْطرير: أشدُّ ما يكون من الأيام وأطولُه في البلاء[4]؛ قال الشاعر:

(١) أخرجهما الطبري ٢٣/٥٤٧، ٥٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/١٦٧ دون نسبة. وتمامه:

شـديـداً عـبـوسـاً قـمـطـريـراً تـخـالـه ... تـزول الـضحى فيه قرون الـمـناكب

(٣) في معاني القرآن ٣/٢١٦، وهو في تفسير الطبري ٢٣/٥٤٧، والصحاح (قمطر).

(٤) تفسير البغوي ٤/٤٢٩، وقاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/٢٧٩.

فـفِـرُّوا إذا مـا الـحـربُ ثـار غـبـارهـا ولـجَّ بـهـا الـيـومُ الـعَـبُـوسُ الـقُـمـاطِـرُ[١]

وقال الكسائي: يقال: اقْمَطَرَّ اليومُ وازْمَهَرَّ اقمطرارًا وازمِهرارًا، وهو القَمْطرير والزَّمْهرير، ويوم مُقْمَطِرّ: إذا كان صعبًا شديدًا؛ قال الهذليّ:

بـنـو الـحـربِ أُرْضِـعـنـا لـهـم مُـقْـمَـطِـرَّةً ومَـن يُـلـقَ مِـنَّـا ذلـك الـيـومَ يَـهـربُ[٢]

وقال مجاهد: إنَّ العُبوس بالشفتين، والقَمْطَرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغيِّر من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ابن الأعرابيّ:

يَـغْـدو عـلـى الـصَّـيـد يـعـودُ مُـنـكـسِـرْ ويَـقْـمَـطِـرُّ سـاعـةً ويَـكـفَـهِـرّ[٣]

وقال أبو عبيد[٤]: يقال: رجل قَمْطرير، أي: منقبض[٥] ما بين العينين.

وقال الزجَّاج[٦]: يقال: اقْمَطَرَّت الناقة: إذا رَفَعت ذَنَبها وجَمَعت قُطْرَيها، وزَمَّت بأنفها. فاشتقَّه من القُطْر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعِصة[٧]:

واصـطـلـيـتُ الـحـروبَ فـي كـلِّ يـومٍ بـاسـلِ الـشَّـر قَـمْـطَـريـرِ الـصَّـبـاحِ

قوله تعالى: ﴿فَوَقَنٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ أي: بأسه وشدَّته وعذابه ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أي: آتاهم وأعطاهم حين لَقُوه، أي: رأوه ﴿نَضۡرَةً﴾ أي: حسناً ﴿وَسُرُورٗا﴾ أي: حُبُوراً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١١ .

(٢) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٢٥ ، وروايته: فمَن يُلقَ منا يُلقَ سِيْدٌ مدرَّبُ. قال شارحه: المُقْمَطِرَّة: الكالحة الشنيعة، يقول: أُرضعنا بها وقد تهيأت للشر. السِّيْد في كلام هذيل: الأسد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦٧ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): أبو عبيدة، والمثبت من (ز) و(ي)، وهو الموافق لما في تهذيب اللغة ٩/ ٤٠٨ .

(٥) في (م): متقبض، وفي (ي): مقتبض، وفي تهذيب اللغة: مقبض.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٩ ، ونقل كلامه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٧ .

(٧) التنوخي. شاعر جاهلي قديم. له في أشعاره ألفاظ غريبة وحشية. وكان هو وأهل بيته نصارى. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٩ . والبيت في الكشاف.

قال الحسن ومجاهد: «نَضْرَةً» في وجوههم «وَسُرُورًا» في قلوبهم.

وفي النضرة ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنها البياض والنَّقاء؛ قاله الضحَّاك. الثاني: الحُسْن والبهاء؛ قاله ابن جبير. الثالث: أنها أثر النعمة؛ قاله ابن زيد(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ على الفقر(٢). وقال القُرَظيّ: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع(٣) ثلاثة أيام، وهي أيام النذْر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله(٤)، وصبرِهم عن معصية الله ومحارمه(٥). و«ما»: مصدرية، وهذا على أنَّ الآية نزلت في جميع الأبرار ومَن فعل فعلًا حسنًا.

وروى ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أوَّلها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب»(٦).

﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: أدخلهم الجنةَ وألبسهم الحرير. أي: يسمَّى بحرير الدنيا(٧). وكذلك الذي في الآخرة ما شاء الله عزَّ وجلَّ من الفضل. وقد تقدَّم(٨) أنَّ مَن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه مَن أُلبسه في الجنة عوضًا عن

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٨ - ١٦٨، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٠.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٩ عن الضحاك.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٩.
(٤) النكت والعيون ٦/ ١٦٨.
(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ١٠٠ عن قتادة.
(٦) لم نقف عليه، وقوله منه: «الصبر عند الصدمة الأولى» أحمد (١٢٤٥٨)، والبخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس ﷺ. وسلف ٢/ ٤٦٣.
(٧) في (ظ): أي بدل حرير الدنيا.
(٨) ١٤/ ٣٤٧.

حبسهم أنفسَهم في الدنيا عن الملابس التي حرَّم الله فيها.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة؛ ونصب «مُتَّكِئِينَ» على الحال من الهاء والميم في «جَزَاهُمْ»، والعامل فيها «جزى» ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا، والاتِّكاء في الآخرة[١]. وقال الفرَّاء[٢]: وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعًا، كأنه قال: جزاهم جنةً «مُتَّكئين فيها».

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر في الحِجَال[٣]، وقد تقدَّم[٤]. وجاءت عن العرب أسماءٌ تحتوي على صفات: أحدها الأريكة، لا تكون إلَّا في حَجَلة على سرير، ومنها السَّجْل، وهو الدَّلْو الممتلئ ماءً، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلًا، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوبًا حتى تُملأ، والكأس لا تسمى كأسًا حتى تُتْرَع من الخمر. وكذلك الطَّبق الذي تُهدى عليه الهدية: مِهْدَى، فإذا كان فارغًا قيل: طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة:

خُدُوداً جَفَتْ في السَّير حتى كأنَّما ... يُباشِرْنَ بالمَعْزاء مَسَّ الأرائكِ[٥]

أي: الفرش على السرر.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: لا يرون في الجنة شدَّةَ حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٠ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٩ . والحِجال جمع: حَجَلة، وهي بيت يزين بالثياب والأَسرَّة والستور. الصحاح (حجل).

(٤) ١٣/ ٢٦٨ .

(٥) في النسخ: خدودٌ جفت. . .، والمثبت من ديوان ذي الرمة، وشرحه ٣/ ١٧٢٩ ، وقبله:

إذا وقَّعوا وهْناً كسَوْا حيث موَّتت ... من الجهد أنفاس الرياح الحواشك

قال شارحه: وهناً: بعد هُدُوٌّ من الليل. الحشك: أن تمر الرياح مختلفة مندفعة مجتهدة. جفت في السير، أي: لم تطمئن. وقوله: كأنما يباشرن، يعني الخدود. المَعْزاء: أرض غليظة ذات حصى. يقول: كأنهن إذا وقَعن على المَعْزَاء وجدن بها مسَّ الأرائك من التعب. أي: ألقَوا أنفسهم بالموضع الذي ماتت الريح فيه، أي: سكنت من الجهد. أي: ألقوا أنفسهم فكانوا كسوة للمكان. وأراد: كسوا خدودهم، أي: صيروا المكان [الذي] ناموا فيه كسوة للخدود.

أي: ولا بردًا مُفْرِطًا؛ قال الأعشى:

مُـنَـعَّـمـةٍ طَـفْـلـةٍ كـالْـمَـهَـا ةِ لـم تَـرَ شـمـسًـا ولا زَمْـهـريـرا(١)

وعن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النارُ إلى ربِّها عزَّ وجلّ، قالت: يا ربّ! أكَلَ بعضي بعضًا، فجَعَلَ لها نَفَسَين: نَفَسًا في الشتاء، ونَفَسًا في الصّيف، فشدَّةُ ما تجدون من البرد مِن زمهريرها، وشدَّة ما تجدون من الحرِّ في الصيف من سَمُومها»(٢).

وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ هواء الجنة سَجْسَج؛ لا حرٌّ ولا بردٌ»(٣) والسَّجْسَج: الظِّلُّ الممتدُّ كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وقال مُرَّة الهمداني: الزمهرير: البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيَّان: هو شيءٌ مثل رؤوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لونٌ من العذاب(٤)، وهو البرد الشديد، حتى إنَّ أهل النار إذا أُلْقوا فيه سألوا الله أن يعذِّبهم بالنار ألفَ سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يومًا واحدًا. قال أبو النَّجْم:

أو كـنـت ريـحًـا كـنـت زَمْـهـريـرا(٥)

وقال ثعلب: الزَّمْهرير: القمر بلغة طيِّئ؛ قال شاعرهم:

ولـيـلـةٍ ظـلامُـهـا قـد اعـتَـكَـرْ قَـطَـعْـتُـهـا والـزَّمْـهـريـرُ مـا زَهَـرْ(٦)

---

(١) ديوانه ص١٤٥، وفيه: مبتَّلةِ الخَلْق، مثل المهاة. . .، وقبله:

فَـبـانَ بـحـسـنـاءَ بـرَّاقـةٍ علـى أنَّ فـي الـطـرف مـنـهـا فـتـورا

طفلة: رَخْصة ناعمة. مبتلة الخلق: متناسقة الأعضاء بالغة الحسن. المهاة: بقرة الوحش.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (٤٣١٩) واللفظ له. وأخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ. وسلف الحديث ١٧/ ٣٧٠.

(٣) لم نقف عليه مرفوعاً، وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٢٥)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٠ عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٢.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٦٩، والكشاف ٤/ ١٩٧، ووقع في (د)، والنكت والعيون: ما ظهر.

ويروى: ما ظهر، أي: لم يطلع القمر. فالمعنى: لا يرون فيها شمسًا كشمس الدنيا ولا قمرًا كقمر الدنيا، أي: إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأنَّ ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجوَّدًا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [الآية: ٦٢].

وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنُّوه شمسًا، قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكنَّ هذه فاطمة وعليٌّ ضحكا، فأشرقت الجِنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ وأنشد:

أنا مولًى لفتى ... أُنْزِلَ فيه هل أتى
ذاك عليٌّ المرتضى ... وابنُ عمِّ المصطفى(١)

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: ظِلُّ الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلَّة عليهم زيادةً في نعيمهم، وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهبُ والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شَعَث ثَمَّ. ويقال: إنَّ ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مئة عام، فإذا اشتهى وليُّ الله ثمرتَها تدانت منه حتى يتناولَها.

وانتصب «دانيةً» على الحال عطفًا على «مُتَّكئين» كما تقول: في الدار عبدُ الله متكئًا ومرسَلةً عليه الحِجَال. وقيل: انتصب نعتًا للجنة، أي: وجزاهم جنةً دانيةً، فهي صفةٌ لموصوف محذوف. وقيل: على موضع «لا يرَوْنَ فيها شمسًا ولا زَمْهريرًا» ويرون دانيةً. وقيل: على المدح، أي: دنت دانيةً. قاله الفراء(٢). «ظِلَالُهَا» الظلال مرفوعة بدانية، ولو قُرئ برفع «دانية» على أن تكون الظلال مبتدأً و«دانية» الخبر

(١) خبر واضح البطلان.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٤ - ٧٨٥.

لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في «وجزاهُمْ». وقد قرئ بذلك[١]. وفي قراءة عبد الله: «وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ»[٢]؛ لتقدُّم الفعل. وفي حرف أُبيّ: «وَدَانٍ»[٣] رفع على الاستئناف.

﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي: سُخِّرت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي: ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: تسخيرًا، فيتناولها القائمُ والقاعد والمضطجع، لا يَرُدُّ أيديَهم عنها بُعدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ارتفعت له، وإن جلس تدلَّت عليه، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها[٤]. وعنه أيضًا: أرض الجنة من وَرِق، وترابها الزعفران، وطيبها مِسْكٌ أذفر، وأصول شجرها ذهبٌ ووَرِق، وأفنانها اللؤلؤ والزَّبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كلِّه؛ فمَن أكل منها قائماً لم تؤذِه، ومَن أكل منها قاعدًا لم تؤذِه، ومَن أكل منها مضطجعًا لم تؤذِه[٥]. وقال ابن عباس: إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها، تدلَّت إليه حتى يتناولَ منها ما يريد[٦].

وتذليل القطوف: تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد: قِطْف، بكسر القاف، سمِّي به لأنه يُقطَف، كما سمِّي الجَنَى لأنه يُجنى. «تَذلِيلًا» تأكيد لما وُصف به من الذِّلّ؛ كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الماورديُّ[٧]: ويحتمل أن يكون تذليلُ قطوفها أن تَبرُزَ لهم من أكمامها، وتَخْلُصَ لهم مِن نواها.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٧، والقرءاة شاذة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦، وإعراب القرآن ٥/ ١٠١.

(٤) أخرجهما الطبري ٢٣/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٩٥.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٣.

(٧) في النكت والعيون ٦/ ١٧٠.

قلت: وفي هذا بُعد؛ فقد روى ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زُمُرُّد أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وَسَعفها كُسْوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلَال والدِّلاء، أشدُّ بياضًا من اللَّبَن، وأحلى من العسل، وألينُ من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم[1].

قال أبو جعفر النحَّاس: ويقال: المذلَّل: الذي قد ذلَّله الماءُ، أي: أرواه. ويقال: المذلَّل: الذي يُفَيِّئُه أدنى ريح؛ لنَعْمته، ويقال: المذلَّل: المُسَوَّى؛ لأنَّ أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نَخْلكَ، أي: سَوِّه، ويقال: المُذَلَّل: القريب المتناوَل؛ من قولهم: حائط ذَليلٌ، أي: قصير. قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول امرئ القيس:

وساقٍ كأُنبوب السَّقيِّ المُذَلَّلِ[2]

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يدور على هؤلاء الأبرارِ الخَدَمُ إذا أرادوا الشراب «بآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ». قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيءٌ ممَّا

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤٣٨٤) من طريق ابن المبارك بهذا الإسناد. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٩٧/٢ ، وهناد في الزهد (٩٩)، وابن أبي حاتم ٣٣٢٨/١٠ (١٨٧٥٨)، والحاكم ٤٧٥/٢ - ٤٧٦ من طرق عن سفيان، به. وأخرجه المروزي في زيادات الزهد (١٤٨٨) عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير قال.. ولم يذكر ابن عباس. قال محققه: زاد في (ك): عن ابن عباس. اهـ. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٧٠) عن معمر، عن قتادة أو غيره، عن سعيد بن جبير قال.. ولم يذكر ابن عباس رضي الله عنهما. الكَرَب، بالتحريك: أصل السَّعَف. وقيل: ما يبقى من أصوله في النخلة بعد القطع. العَجَم، بالتحريك: النوى. النهاية (كرب) (عجم).

(٢) شرح الديوان ص١٧ . وصدره: وكشحٍ لطيف كالجديل مخصَّرٍ. قال شارحه: الكشح: الخصر. الجديل: زمام يتخذ من سيور، وهو ليِّن. السقي: النخل المسقي.

في الجنة إلَّا الأسماء، أي: ما في الجنة أشرفُ وأعلى وأنقى. ثم لم تُنْفَ الأواني الذهبية، بل المعنى: يُسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقيل: نَبَّه بذِكْر الفضَّة على الذهب؛ كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد؛ فنبَّه بذكر أحدهما على الثاني.

والأكواب: الكِيزان العِظَام التي لا آذان لها ولا عُرَى، الواحد منها كوب؛ وقال عَدِيّ:

مُتَّكِئًا تُقْرَعُ أبوابُهُ يَسعى عليه العبدُ بالكوبِ

وقد مضى في «الزخرف»[١].

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ أي: في صفاء القوارير وبياضِ الفِضَّة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة. وقيل: أرض الجنة من فضّة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ابن عباس، وقال: ليس في الجنة شيءٌ إلَّا قد أُعطيتم في الدنيا شِبْهَه، إلَّا القواريرَ من فضة[٢]. وقال: لو أخذتَ فضَّةً من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب، لم تَرَ مِن ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة في صفاء القوارير[٣].

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي: قَدَّرها لهم السُّقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أُتوا بها على قَدْر رِيِّهم بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي[٤]: وذلك ألذُّ وأشهى؛ والمعنى: قدَّرتها الملائكة التي

---

(١) ١٩/ ٨١ - ٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠١.

(٣) بعدها في النسخ الخطية: المكاعب. والأثر ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٣١، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٨، والبيهقي في البعث والنشور (٣٤٨).

(٤) ذكر قوله وقول مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٧٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٨.

تطوف عليهم. وعن ابن عباس أيضًا: قدَّروها على مِلء الكفِّ لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيَهم بثقل أو بإفراطِ صِغَر. وقيل: إنَّ الشاربين قَدَّروا لها مقادير في أنفسهم، على ما اشتهوا وقدَّروا.

وقرأ عبيد بن عمير[١] والشَّعْبيُّ وابن سيرين: «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال؛ أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءةَ المهدويُّ عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما[٢]؛ وقال: ومَن قرأ: «قُدِّروها» فهو راجعٌ إلى معنى القراءة الأخرى، وكأنّ الأصل: قُدِّروا عليها، فحذف حرف الجر؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه:

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهرَ آكُلُهُ   والحَبُّ يأكله في القرية السُّوسُ[٣]

وذهب إلى أنَّ المعنى: على حَبِّ العراق.

وقيل: هذا التقدير هو أنَّ الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: لا يَفْضُلُ عن الرِّيِّ ولا ينقص منه، فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيِّ المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القولَ الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ وهي الخمر في الإناء. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ «كَانَ» صِلَة؛ أي: مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلًا. وكانت العرب تستلذُّ من الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحتهِ؛ لأنه يَحْذُو اللسان، ويَهضِم المأكول[٥]،

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٥/١٠١ - ١٠٢ : عبد الله بن عبيد بن عمير، وينظر القراءات الشاذة ص١٦٦ .

(٢) وذكرها عنهما وعن الشعبي ابن خالويه في القراءات الشاذة.

(٣) قائله المتلمس، وهو في ديوانه ص٩٥ ، وسلف ٤/٣١٩ .

(٤) ص٣٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٧٠ ، وقوله: يحذو، أي: يقرص .

فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهايةَ النعمة والطيب.

وقال المسيَّب بن عَلَس[١] يصف ثَغْرَ المرأة:

وكأن طَعْمَ الزنجبيل به إذْ ذُقْتَهُ وسُلَافَةَ الخمرِ[٢]

ويروى: الكَرْم. وقال آخر:

كأنَّ جَنِيًّا مِن الزَّنْجَبِيـ ـل باتَ بِفِيها وأرْيًا مَشُورا[٣]

ونحُوه قولُ الأعشى:

كأنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ ـلَ باتا بِفيها وأريًا مَشُورا[٤]

وقال مجاهد: الزنجبيل: اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: الزَّنجبيل: اسم للعين التي يشرب بها المقرَّبون صِرفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة[٥]. وقيل: هي عينٌ في الجنة يوجد فيها طعمُ الزنجبيل[٦]. وقيل: إنَّ فيه معنى الشراب الممزوجِ بالزنجبيل. والمعنى: كأنَّ فيها زنجبيلًا.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: يُسقون عينًا[٧]. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض، أي: مِن عين، على ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الآية:٦]. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.

﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ السَّلْسبيل: الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلَاسة[٨]؛ تقول

(١) هو من شعراء بكر بن وائل المعدودين، وخال الأعشى، يكنى أبا الفضة، واسمه زهير بن علس، وإنما لقب «المسيَّب» ببيت قاله. وهو جاهلي لم يدرك الإسلام. الشعر والشعراء ١/ ١٧٤ .

(٢) الشعر والشعراء، والنكت والعيون ٦/ ١٧١ ، والكشاف ٤/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٢ .

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٤٣ ، وفيه: خالط فاها، بدل: بات بفيها. الأري: عسل النحل. شار العسل واشتاره: جمعه.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨، وينظر ما قبله .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦١ ، وقول مجاهد في النكت والعيون ٦/ ١٧٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٧) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٥ .

(٨) في (د) و(م): السلالة، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٢ . والكشاف ٤/ ١٩٩ .

العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى؛ أي: طَيِّبُ الطعم لذيذُه. وفي الصحاح[١]: وتسلسل الماء في الحلق: جرى، وسَلْسَلْتُه أنا: صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق؛ لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضمِّ مثلُه. وقال الزجَّاج[٢]: السَّلْسَبيل في اللغة: اسمٌ لما كان في غاية السَّلَاسة؛ فكأنَّ العين سمِّيت بصفتها.

وعن مجاهد قال[٣]: سَلْسَبيلاً: حديدة الجَرْية، تسيل في حلوقهم انسلالًا. ونحوه عن ابن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماورديّ[٤]؛ ومنه قول حسان بنِ ثابت ﷺ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ ... بَرَدى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[٥]

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سمِّيت سَلْسَبِيلًا؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عَدْنٍ إلى أهل الجنة[٦]. وقال قتادة: سَلِسةٌ منقادٌ ماؤها حيث شاؤوا[٧]. ونحوه عن عِكرمة. وقال القَفَّال: أي: تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلًا إليها. وروي هذا عن عليٍّ ﷺ[٨].

وقوله: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ أي: إنها مذكورةٌ عند الملائكة وعند الأبرار وأهلِ الجنة بهذا

---

(١) مادة (سلل).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٦١ .

(٣) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٥٦٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٧١ عن مجاهد.

(٥) ديوانه ص١٨٠ . البريص: موضع بدمشق كما في القاموس (برص). وفي التاج: يقال: البريص اسم للغوطة بأجمعها.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦١ .

(٨) الكشاف ٤/١٩٨ ، والنكت والعيون ٦/ ١٧١ . قال الزمخشري: وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلًا، جعلت علماً للعين كما قيل: تأبط شراً... وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل علي ﷺ أبدع.

الاسم. وصرف «سلسبيل»؛ لأنه رأس آية؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠، ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بيَّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي: ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفُّ في الخدمة. ثم قال: «مُخَلَّدُونَ» أي: باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيَّرون، ويكونون على سِنٍّ واحدة على مَرِّ الأزمنة. وقيل: مُخلَّدون لا يموتون. وقيل: مُسوَّرون مُقرَّطون، أي: مُحلَّون، والتخليد: التحلية. وقد تقدَّم هذا[(١)].

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤًا مفرَّقًا في عَرْصة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط كان أحسنَ منه منظومًا[(٢)].

وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بنِ سهل، وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نَثرَت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ، فنظر إليه منثورًا على ذلك البساط، فاستحسن المنظر وقال: للهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغرى وكُبرى مِن فَوَاقِعِها[(٣)] ... حَصْباءُ درٍّ على أرضٍ مِن الذَّهبِ

وقيل: إنما شبَّههم بالمنثور؛ لأنهم سراعٌ في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبَّههنَّ باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهنَّ لا يُمتَهنَّ بالخدمة.

---

(١) ٢٠/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٣) في (ز) و(م): فقاقعها، وكذا في العقد الفريد ٦/ ٧٧ ، والخزانة ٨/ ٢٧٧ . والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الديوان ص٤٠ ، وثمار القلوب للثعالبي ص١٦٦ ، ودرة الغواص ص٥٩ ، ومجمع الأمثال ١/ ٣٤ ، والكشاف ٤/ ١٩٩ ، والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ «ثَمَّ»: ظرف مكان، أي: هناك في الجنة، والعامل في «ثَمَّ» معنى «رَأَيْتَ» أي: وإذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». وقال الفرَّاء[1]: في الكلام «ما» مضمرة؛ أي: وإذا رأيت ما ثَمّ؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: ما بينكم. وقال الزجَّاج[2]: «ما» موصولة بـ «ثم» على ما ذكره الفرَّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصِّلة، ولكن «رَأَيْتَ» يتعدَّى في المعنى إلى «ثَمَّ»، والمعنى: إذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». ويعني بـ «ثَمَّ» الجنة، وقد ذكر الفرَّاء[3] هذا أيضًا.

والنعيم: سائر ما يُتنعَّم به. والمُلْك الكبير: استئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّدِّيُّ وغيره. قال الكلبيّ: هو أن يأتيَ الرسولُ من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليِّ الله وهو في منزله، فيستأذن عليه؛ فذلك المُلْك العظيم. وقاله[4] مقاتل بن سليمان.

وقيل[5]: المُلْك الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبًا، حاجبًا دون حاجب؛ فبينما وليُّ الله فيما هو فيه من اللَّذَّة والسرور، إذ يستأذن عليه مَلَكٌ من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربِّ العالمين، لم يرها ذلك الوليُّ في الجنة قطّ، فيقول للحاجب الخارج: استأذن على وليِّ الله، فإنَّ معي كتابًا وهديةً من ربِّ العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسولٌ من ربِّ العالمين، معه كتاب وهديَّة يستأذن على وليِّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليَّ الله، فيقول له: يا وليَّ الله! هذا رسولٌ من ربِّ العالمين يستأذن عليك،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨ .

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٦١ ، ومثله في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٣ ، والكشاف ٤/ ١٩٩ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨ .

(٤) في (ظ): وقال. وقول مقاتل والكلبي في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ بمعناه.

(٥) قوله: وقيل، من (م).

معه كتاب وتُحْفة من ربِّ العالمين، أفيؤذن له؟ فيقول: نعم! فأذنوا له. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نَعَم فأذنوا له. فيقول الذي يليه للآخر كذلك، حتى يبلغ الحاجب الآخر، فيقول له: نَعَم أيها المَلَك؛ قد أذن لك، فيدخل، فيسلِّم عليه ويقول: السَّلامُ يُقرئك السَّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من ربِّ العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليه: من الحيّ الذي لا يموت، إلى الحيِّ الذي لا يموت(١). فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليّي ورحمتي وبركاتي. يا وليّي، أمَا آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربِّك؟ فيستخفُّه الشوق، فيركب البُرَاق، فيطير به البُرَاق شوقًا إلى زيارة علَّام الغيوب، فيعطيه ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقال سفيان الثوريّ: بلغَنا أنَّ المُلْك الكبير تسليمُ الملائكة عليهم(٢)؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وقيل: المُلْك الكبير: كون التِّيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس مَلِك من الملوك(٣).

وقال الترمذيُّ الحكيم: يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئًا قالوا له: كن. وقال أبو بكر الورَّاق: مُلْك لا يتعقَّبه هُلْك. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ المُلك الكبير هو: أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه» قال: «وإنَّ أفضلهم منزلةً مَن ينظر في وجه ربِّه تعالى كلَّ يومٍ مرتين»(٤).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن:

---

(١) كذا في النسخ، ولعل المراد أنه خالدٌ فيها لا يموت.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٢ .

(٤) بعدها في (م): سبحان المنعم. والخبر لم نقف عليه، وأخرجه الترمذي (٣٣٣٠) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

«عَالِيْهِمِ» ساكنةَ الياء[١]، واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود وابن وثّاب وغيرهما: «عالِيَتُهُم»[٢] وبتفسير ابن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضلُ منها.

الفرَّاء: وهو مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «ثِيَابُ سُنْدُسٍ» واسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون إفراده على أنه اسم فاعل متقدِّم، و«ثِيابُ» مرتفعة به وسَدَّت مسدَّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال؛ لأنه لم يمضِ[٣]، وابتدئ به لأنه اختصَّ بالإضافة.

وقرأ الباقون: «عَالِيَهُمْ» بالنصب. وقال الفرَّاء[٤]: هو كقولك: فَوْقَهم، والعرب تقول: قومُك داخلَ الدار، فينصبون «داخل» على الظرف، لأنه مَحلّ. وأنكر الزجَّاج هذا وقال[٥]: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفًا لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما: الهاء والميم في قوله: «يطُوفُ عَلَيْهِمْ» أي: على الأبرار «وِلْدانٌ» عالياً الأبرارَ ثيابُ سندس؛ أي: يطوف عليهم في هذه الحال، والثاني: أن يكون حالًا من الوِلدان، أي: «إِذا رأَيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤًا منثورًا» في حال علوِّ الثيابِ أبدانَهم.

وقال أبو عليّ[٦]: العامل في الحال إمَّا «لقَّاهم نَضْرةً وسرورًا» وإمَّا «جزاهم بما صبروا» قال: ويجوز أن يكون ظرفًا فصُرِف.

المهدوي: ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفًا؛ كقولك: هو ناحيةً من الدار،

---

(١) السبعة ص٦٦٤، والتيسير ص٢١٨. وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٣.

(٢) قراءة ابن مسعود في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤.

(٣) في (م): يخصّ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الحجة لأبي علي ٦/ ٣٥٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٢.

(٦) في الحجة ٦/ ٣٥٤.

وعلى أنَّ «عاليًا» لمَّا كان بمعنى «فوق» أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفًا.

وقرأ ابن محيصن وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «خُضْرٍ» بالجرِّ على نعت السُّنْدس، «وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع نَسْقًا على الثياب، ومعناه: عاليهم[1] سندسٌ وإستبرقٌ.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «خُضْرٌ» رفعًا نعتًا للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتًا للسُّنْدس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأنَّ الخضر أحسنُ ما كانت نعتًا للثياب، فهي مرفوعة، وأحسن ما عطف الإستبرق على السُّنْدس عطفَ جنسٍ على جنس، والمعنى: عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندسٍ وإستبرقٍ، أي: من هذين النوعين.

وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع، ويكون «خُضْرٌ» نعتًا للثياب؛ لأنهما جميعًا بلفظ الجمع «وإِسْتَبْرَقٌ» عطفًا على الثياب.

وقرأ الأعمش وابن وَثَّاب وحمزة والكسائيُّ كلاهما بالخفض[2]، ويكون قوله: «خُضْرٍ» نعتًا للسُّندس، والسُّندس اسم جنس، وأجاز الأخفش[3] وصفَ اسم الجنس بالجمع على استقباح له؛ وتقول: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعَدٌ في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عالِيهم ثِيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ.

وكلُّهم صرف الاستبرق إلا ابنَ محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه، فقرأ: «وإستبرقَ» نصبًا في موضع الجرّ، على منع الصرف[4]، لأنه أعجميّ، وهو غلط، لأنه نكرة يدخله حرفُ التعريف؛ تقول: الإستبرق؛ إلَّا أن يزعم ابن محيصن أنه قد

---

(١) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٢) السبعة ص٦٦٥، والتيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩. وقراءة الأعمش في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، وقراءة ابن وثاب في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩.

(٣) كلامه في الحجة للفارسي ٦/ ٣٥٧.

(٤) نسب هذه القراءة لابن محيصن الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٦٢، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٩ - والكلام منه - دون نسبة.

يجعل علمًا لهذا الضرب من الثياب. وقرئ: «وَاسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمًّى باستفعل من البريق[١]، وليس بصحيح أيضًا؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه، وأنَّ أصله: اسْتَبْرَه[٢].

والسُّندس: ما رَقَّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظ منه. وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا﴾ عطف على «ويطوف»[٤] ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورة فاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الآية: ٣٣] وفي سورة الحج: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الآية: ٢٣]، فقيل: حُليُّ الرجل الفضة، وحُليُّ المرأة الذهب. وقيل: تارةً يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضَّة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضَّة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسنُ الجنة؛ قاله سعيد ابن المسيّب. وقيل: أي: لكل قومٍ ما تميل إليه نفوسُهم.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال عليٌّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال: إذا توجَّه أهلُ الجنة إلى الجنة، مرُّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعَّث أشعارهم أبدًا، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة، فيقولون لهم: «سَلَامٌ عليكم طِبتُم فادخلوها خالدين» [الزمر: ٧٣].

وقال النَّخعيُّ وأبو قِلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم، وصار ما أكلوه وما

---

(١) هي قراءة ابن محيصن كما في القراءات الشاذة ص١٦٦، والمحتسب ٢/ ٣٤٤، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤.

(٢) في النسخ: استبرق، والمثبت من الكشاف ٤/ ١٩٩ والكلام منه، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٢. وفي القاموس (برق): استروه، وينظر التاج (برق).

(٣) ١٣/ ٢٦٦.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٩.

شربوه رَشْحَ مِسْك، وضَمَرت بطونهم[١].

وقال مقاتل: هو من عينِ ماءٍ على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، مَن شرب منها نزع اللهُ ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذًى وقَذَر[٢].

وهذا معنى ما روي عن عليّ، إلَّا أنه في قول مقاتل عينٌ واحدة، وعليه فيكون فَعولًا للمبالغة، ولا يكون فيه حُجَّةٌ للحنفيِّ أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة الفرقان، والحمد لله[٣].

وقال طيِّب[٤] الجمَّال: صَلَّيْتُ خَلْف سهل بنِ عبد الله العَتَمة، فقرأ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه، كأنه يَمَصُّ شيئًا، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال: واللهِ لو لم أجد لذَّته عند قراءته كلذَّته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: يقال لهم: إنما هذا جزاءٌ لكم، أي: ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابتُه إياه.

وروى سعيد عن قتادة قال: غَفَرَ لهم الذَّنْب، وشَكَرَ لهم الحَسَن[٥]. وقال مجاهد: «مَشْكُورًا» أي: مقبولًا، والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم.

روي عن ابن عمر: أنَّ رجلًا حَبَشِيًّا قال: يا رسول الله! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/٥٦٩ - ٥٧٠ عن إبراهيم التيمي وأبي قلابة بنحوه. ونسبه للنخعي وأبي قلابة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٠.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) ١٥/ ٤٢٢ فما بعد.

(٤) في النسخ الخطية: طبيب، ولم نقف عليه.

(٥) في (م): الحسنى. والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في تفسير الطبري ٢٣/ ٥٧١.

والألوان والنبوَّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ بما عملت، أكائنٌ أنا معك في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه ليُرَى بياضُ الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألفِ عام» ثم قال النبيُّ ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله، كان له بها عند الله عَهْد، ومَن قال: سبحان الله والحمد لله، كان له بها عند الله مئة ألفِ حسنةٍ وأربعةٌ وعشرون ألفَ حسنة»، فقال الرجل: كيف نَهلِك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال: «إنَّ الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وُضع على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نِعم الله، فتكاد أن تستنفد ذلك كلَّه، إلَّا أن يلطف اللهُ برحمته». قال: ثم نزلت: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ قال الحبشيّ: يا رسول الله! وإنَّ عينيَّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم» فبكى الحبشيُّ حتى فاضت نَفْسُه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدْليه في حفرته[1] ويقول: «إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكُم مشكوراً» قلنا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال: أي عبدي! لأبيضنَّ وجهك، ولأُبوِّئَنَّك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۝٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ۝٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ ما افتريتَه ولا جئتَ به مِن عندك، ولا من تلقاء نفسك كما يدَّعيه المشركون. ووجه اتصال هذه الآيةِ بما قبلُ أنه سبحانه لمَّا ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيَّن أنَّ هذا الكتابَ يتضمن ما بالناس حاجةٌ إليه، فليس بسِحر ولا كَهانة، ولا شِعر، وأنه حقّ. وقال ابن عباس: أُنزل القرآن متفرِّقًا،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦٠٤)، والكبير (١٣٥٩٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣١٩ دون الزيادة الآتية. بعده. قال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث عطاء، تفرد به عفيف عن أيوب بن عتبة اليمامي. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٤٢٠ : فيه أيوب بن عتبة، وهو ضعيف.

آية بعد آيةً، ولم ينزل جملةً واحدة[١]؛ فلذلك قال: «نَزَّلْنَا». وقد مضى القولُ في هذا مبيَّنًا، والحمد لله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربِّك. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال[٣]. وقيل: أي: اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وَعَدَك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائنٌ لا محالة.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي: ذا إثم ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكفار. فروى مَعْمَر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إنْ رأيتُ محمدًا يُصلِّي لأطأنَّ على عنقه. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٤].

ويقال: نزلت في عتبة بنِ ربيعة والوليد بنِ المغيرة، وكانا أتيا رسولَ الله ﷺ يَعْرِضان عليه الأموالَ والتزويج، على أن يترك ذكر النبوَّة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عُتبة بنُ ربيعة؛ قال: إنَّ بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوِّجك ابنتي بغير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنتَ صنعت ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر. فنزلت[٥].

ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أوْكَد من الواو؛ لأنَّ الواو إذا قلت: لا تطع زيدًا وعَمرًا، فأطاع أحدهما كان غيرَ عاص؛ لأنه أمرَه ألَّا يطيع الاثنين، فإذا قال: ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فـ «أو» قد دلَّت على أنَّ كلَّ واحد

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ .

(٢) ١٥/ ٤٠٦ فما بعد.

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٠ : والمفسرون يقولون: هذا منسوخ بآية السيف، ولا يصح.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٢ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

منهما أهلٌ أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابنَ سيرين، أو اتَّبع الحسن أو ابن سَيرين، فقد قلت: هذان أهلٌ أن يُتَّبعا، وكلُّ واحد منهما أهلٌ لأن يُتَّبع؛ قاله الزجَّاج[1].

وقال الفرَّاء: «أو» هنا بمنزلة «لا»، كأنه قال: ولا كفورًا؛ قال الشاعر:

لا وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجِدْتُ ولا وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّها رُبَعُ

أَو وَجْدُ شيخٍ أَضلَّ ناقَتَه يومَ تَوافَى الحَجيجُ فاندفعوا

أراد: ولا وجدُ شيخ[2].

وقيل: الآثم: المنافق، والكفور: الكافر الذي يُظهر الكفر، أي: لا تطع منهم آثمًا ولا كفورًا. وهو قريبٌ من قول الفرَّاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: صلِّ لربِّك أولَ النهار وآخرَه، ففي أوَّله صلاةُ الصبح، وفي آخره صلاةُ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني التطوُّع في الليل؛ قاله ابن حبيب.

وقال ابن عباس وسفيان: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[3]. وقيل: هو الذِّكر المطلَق، سواءٌ كان في الصلاة أو في غيرها.

وقال ابن زيد وغيره: إنَّ قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ منسوخٌ بالصلوات

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٣.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠، والبيتان في أمالي أبي علي ٢/ ١٢٣ منسوبين لمالك بن حريم، والبيت الثاني في الكامل ٢/ ٦٠٩ غير منسوب، وذكر محققه: أنه جاء في زيادات إحدى النسخ: لرجل من قضاعة يقال له: مالك بن عمرو. قوله: العجول: الثَّكلى، والواله من النساء والإبل؛ لعجلتها في حركاتها جزعاً. رُبَع: الفصيل يُنتج في الربيع، وهو أول النِّتاج. القاموس (عجل) (ربع).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٧٢ - ١٧٣، وليس فيه: قاله ابن حبيب.

الخمس. وقيل: هو ندب. وقيل: هو مخصوصٌ بالنبيِّ ﷺ[(١)]. وقد تقدَّم القولُ في مثله في سورة المزَّمِّل[(٢)]. وقول ابن حبيب حسن.

وجمع الأصيل: الأصائل والأُصُل؛ كقولك: سَفَائن وسُفُن؛ قال:

ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ[(٣)]

وقال في الأصائل، وهو جمع الجمع:

لَعَمْري لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَه ... وأقعدُ في أفْيائه بالأصائلِ[(٤)]

وقد مضى هذا في آخر «الأعراف» مستوفًى. ودخلت «مِن» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[(٥)] [نوح: ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: توبيخٌ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعاجلة: الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: ويَدَعون ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ أي: بين أيديهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي: عسيرًا شديدًا[(٦)]، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: يتركون الإيمان بيوم القيامة.

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن ٥/ ١٠٨، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٧، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٣. ورجح ابن العربي أنه للندب.

(٢) ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧، وصدره: يوماً بأطيب منها نشر رائحة، وسلف ٩/ ٤٣٥.

(٤) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤١، وسلف ٩/ ٤٣٥.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٠٠.

(٦) الكلام بنحوه في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١، وينظر الكشاف ٤/ ٢٠٠ - ٢٠١.

وقيل: «وَرَاءَهُمْ» أي: خلفهم[١]، أي: ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها.

وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحةِ نبوَّته. وحبُّهم العاجلة: أخذُهم الرُّشا على ما كتموه.

وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفرَ وطلب الدنيا. والآية تعمّ. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمِّي ثقيلًا لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده[٢].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي: من طين. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: خَلْقهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم[٣]. والأَسْر: الخَلْق؛ قال أبو عُبيد: يقال: فرس شديد الأَسْر، أي: الخَلْق. ويقال: أسره الله جلَّ ثناؤه: إذا شَدَّد خَلْقه؛ قال لبيد:

سـاهِـمُ الـوجـهِ شـديـدٌ أَسْـرُهُ   مُشْرِفُ الحارِكِ مَحبوكُ الكَتَدْ[٤]

وقال الأخطل:

مِـن كـلِّ مُـجـتَـنِـبٍ شـديـدٍ أَسْـرُهُ   سَلِسِ القِيادِ تَخالُه مُختالا[٥]

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضَها إلى بعض بالعروق والعصب[٦].

وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشَّرْج، أي: إذا خرج الغائط والبول

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٣٣ عن مجاهد.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧٣ .

(٣) أخرج قولهم الطبري ٢٣/ ٥٧٥ - ٥٧٦ عدا قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ .

(٤) شرح ديوانه ص١٨٧ برواية: مُغْبَط الحارك محبوك الكَفَل. الحارك: فروع الكتفين، وهو أيضًا الكاهل. الغبيط: قتب الهودج، فقوله: مغبط الحارك، أي: كأن ظهره غبيط. محبوك الكفل: مدمج فيه استواء مع ارتفاع. الكتد: موصل العنق في الظهر.

(٥) ديوانه ص٤٦ .

(٦) قول أبي هريرة ﷺ أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٦ ، وقول الحسن في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١ ، وقول الربيع في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٥ .

تقبَّضَ الموضعُ[١].

وقال ابن زيد: الأسر: القوّة[٢]. وقال ابن أحمر يصف فرسًا:

يَـمـشـي بِـأَوظِـفَـةٍ شِـدادٍ أَسْـرُهـا صُـمٍّ[٣] السَّـنابكِ لا تقي بـالـجَدْجَدِ

واشتقاقه من الإسار، وهو القِدُّ الذي يشدُّ به الأقتاب؛ يقال: أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْرًا، أي: شددتُه وربطتُه؛ ويقال: ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه، أي: شدَّه ورَبْطَه[٤]؛ ومنه قولهم: خذه بِأَسْرِهِ: إذا أرادوا أن يقولوا: هو لك كلُّه؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه[٥] وشدّه لم يُفتَح ولم يُنقَص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يُكَتَّف بالإسار. والكلام خرج مَخرجَ الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية. أي: سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمتُه بالقوى ثم أنت تكفر بي!

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ قال ابن عباس: يقول: لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوعَ للّه منهم. وعنه أيضاً: لغيَّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّورَ وأقبحها. كذلك روى الضحَّاك عنه. والأوَّل رواه عنه أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١.
(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٦.
(٣) في النسخ الخطية: شم، وهو موافق لما في كتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ٥٢٣، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٧٣. الأوظفة: جمع وظيف: وهو مستدق الذراع والساق من الخيل ومن الإبل وغيرها. السنابك: جمع سُنْبُك: وهو طرف الحافر. الجدجد: الأرض الصلبة المستوية. القاموس (وظف) (سنبك) (جدد).
(٤) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٥٠٤.
(٥) عكم المتاع: شدّه. الصحاح (عكم).

﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طَريقًا موصلًا إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: «سَبِيلًا» أي: وسيلة. وقيل: وِجْهةً وطريقًا إلى الجنة. والمعنى واحد.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الطاعة والاستقامة واتخاذَ السبيل إلى الله ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أنَّ الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تَنْفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدَّم. إلَّا أن تتقدَّم مشيئته.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وَمَا يَشَاؤونَ» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه(١). وقيل: إنَّ الآية الأولى منسوخةٌ بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أنَّ ذلك لا يكون إلا بمشيئته.

قال الفرَّاء(٢): «وَما تشاؤون إِلَّا أَنْ يشاءَ الله» جوابٌ لقوله: «فمَن شاء اتَّخذ إِلى ربِّه سبيلًا» ثم أخبرهم أنَّ الأمر ليس إليهم فقال: «وَمَا تَشَاؤونَ» ذلك السبيلَ «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ» لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم ﴿حَكِيمًا﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يدخله الجنة راحمًا له ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ويعذِّب الظالمين، فنصبه بإضمار: يعذِّب. قال الزجَّاج(٣): نصب الظالمين لأن قبله منصوب، أي: يُدخل من يشاء في رحمته ويعذِّب الظالمين، أي: المشركين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمَر؛ كما قال الشاعر:

أصبحتُ لَا أَحمِلُ السِّلاحَ ولا ... أَمْلِكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا
والذِّئبَ أَخشاهُ إنْ مررتُ به ... وحدي وأَخشى الرِّياحَ والمَطَرا(٤)

---

(١) التيسير ص٢١٨، وينظر السبعة ص٦٦٥، وقرأ: يشاؤون، بالياء، أيضاً: ابن عامر الشامي.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٠.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٤.

(٤) البيتان للربيع بن ضبع الفزاري، وهما في الأمالي لأبي علي ٢/ ١٨٥، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٣٧، ومجمع الأمثال ٢/ ١٨٠.

أي: أخشى الذئب أخشاه.

قال الزجّاج[١]: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيدًا وعَمرًا أعددت له بِرًّا، فيختار النصب، أي: وبَرَرْت عَمرًا أو أَبَرُّ عَمراً. وقوله: في «حم عسق»: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢] ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبَ في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء، وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على: ويعذِّب، فجاز النصب.

وقرأ أبان بن عثمان: «وَالظَّالِمونَ» رفعًا بالابتداء[٣]، والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: مُؤلمًا مُوجِعًا. وقد تقدَّم هذا في سورة البقرة وغيرِها[٤]، والحمدُ لله. ختمت السورة.

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٤.

(٢) تمامها: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦، والمحتسب ٢/ ٣٤٤.

(٤) ١/ ٣٠١.

سُورَةُ الإِنسَانِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها إحدى وثلاثونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ استفهامُ تَقريرٍ وتَقريبٍ، ولذلك فُسِّرَ بـ(قد) وأصلُه: أَهَلْ؛ كقولِه:

أَهَلْ رَأَوْنَا بسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكَمِ[1]

﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾: طائفةٌ مَحدودةٌ مِن الزَّمانِ الممتدِّ الغيرِ المحدودِ.

﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كانَ شيئًا مَنسيًّا غيرَ مَذكورٍ بالإنسانيَّةِ كالعنصرِ والنُّطفَةِ، والجملَةُ حالٌ مِن ﴿الْإِنسَانِ﴾ أو وصفٌ لـ﴿حِينٌ﴾ بحذفِ الرَّاجعِ[2].

---

(١) عجز بيت لزيد الخيل الطائي، وهو في «ديوانه» (ص: ١٠٠)، و«المقتضب» (١/ ٤٤)، و«الخصائص» (٢/ ٤٦٥)، و«أمالي ابن الشجري» (١/ ١٦٣)، و«الكشاف» (٩/ ٤٠٥)، و«مغني اللبيب» (ص: ٤٦٠)، و«خزانة الأدب» (١١/ ٢٦١)، وتقدم مع شرحه عند تفسير الآية (٢٢١) من سورة الشعراء، وصدره:

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشَدَّتِنا

يربوع: أبو حي من تميم، والباء بمعنى «عن»، وسفح الجبل: أسفله، والقاع: المستوي من الأرض، والأَكَم واحدها أَكَمة: وهي ما ارتفع عن الأرض ولا يبلغ أن يكون جبلاً. انظر: «شرح أبيات المغني» للبغدادي (٦/ ٧٢). وقال الزمخشري: فالمعنى: أقد أتى.

(٢) قولُه: «بحذفِ الرّاجعِ»؛ أي: العائدِ، وتقديرُه: (فيه) كما في قولِه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. قاله الشهاب.

والمرادُ بالإنسانِ: الجنسُ؛ لقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

أو: آدمُ، بيَّنَ أوَّلًا خلقَهُ ثمَّ ذكرَ خَلْقَ بنيهِ.

﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاطٍ، جمعُ مَشَجٍ[١] أو مَشيجٍ، مِن مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه، ووصفُ[٢] النطفةِ به لأنَّ المرادَ بها مجموعُ منيِّ الرَّجلِ والمرأةِ، وكلٌّ منهما مختلفةُ الأجزاءِ في الرقَّةِ والقَوامِ والخواصِّ[٣]، ولذلك يصيرُ كلُّ جزءٍ مِنْها مادَّةَ عضوٍ.

وقيل: مفردٌ كأعشارٍ وأَكياشٍ[٤].

وقيل: ألوانٍ؛ فإنَّ ماءَ الرَّجُلِ أبيضُ وماءَ المرأةِ أصفَرُ، فإذا اختلَطَا اخضرَّا.

أو: أطوارٍ، فإنَّ النُّطفةَ تَصيرُ علقةً ثمَّ مُضغةً إلى تمامِ الخلقةِ.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ في مَوقعِ الحالِ؛ أي: مُبْتلِينَ له، بمعنى: مريدينَ اختبارَهُ، أو ناقلينَ له مِن حالٍ إلى حالٍ فاستعارَ له الابتلاءَ.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكَّنَ مِن مشاهدةِ الدَّلائلِ واستماعِ الآياتِ، فهو

---

(١) بفتحتَينِ كسبَبٍ وأسبابٍ، أو بفتحٍ فكسرٍ ككتِفٍ وأكتافٍ. قاله الشهاب.

(٢) «ووصف» من نسخة الخيالي وهامش نسخة الطبلاوي ومثله في حواشي الشهاب والقونوي وابن التمجيد، وفي باقي النسخ: «وجمع». وانظر التعليق الآتي.

(٣) قال الشهاب: قوله: «ووصَفَ النُّطفةَ» وهي مُفرَدةٌ «بها»؛ أي: بأمشاجٍ، وهو جمعٌ «لأنَّ المُرادَ بها مجموعُ ماءِ الرَّجلِ والمرأةِ»، والجمعُ قد يُقالُ على ما فوقَ الواحدِ، أو باعتبارِ الأجزاءِ المُختلفةِ فيهما رقَّةً وغلظًا، وصُفرةً وبياضًا، وطبيعةً وقوّةً وضعفًا.

(٤) قولُه: «وقيلَ: مُفرَد»؛ أي: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ هنا مُفرَدٌ بناءً على أنَّ «أفعالاً» يكونُ في المُفرَداتِ نادِرًا، وقد عدُّوا منه ألفاظًا مذكورةً في كتبِ اللُّغةِ، وإليه ذهبَ سيبويهِ في لفظِ «أنعامٍ» وقولِـهم: بُرْمَةٌ أعشارٌ؛ أي: مُتكسِّرةٌ كأنَّها صارَت عشرَ قطعٍ، والبُرمةُ: القِدْرُ. والأكياشُ بالياءِ التحتية والشينِ مُعجمةٍ: ثوبٌ غُزِلَ غَزلُه مرَّتينِ. وقيلَ: الثَّوبُ الأكياشُ من ملابسِ الأكياسِ. قاله الشهاب.

كالمسبَّبِ مِن الابتلاءِ، ولذلك عُطفَ بالفاءِ على الفعلِ المقيَّدِ بهِ[1]، ورتِّبَ عليهِ قولُه:

(٣) ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بنصبِ الدَّلائلِ وإنزالِ الآياتِ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالانِ مِن الهاءِ، و﴿إِمَّا﴾ للتَّفصيلِ أو التَّقسيمِ؛ أي: هَدَيناه في حاليهِ جميعًا، أو مقسومًا إليهِمَا: بعضُهُم شاكرٌ بالاهتداءِ والأَخذِ فيه، وبَعضُهُم كَفورٌ بالإعراضِ عنه.

أو مِن ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ ووصفهُ بالشُّكرِ والكُفرِ مَجازٌ.

وقُرِئَ: (أمَّا)[2] بالفَتحِ على حذفِ الجوابِ.

ولعلَّه لَمْ يَقُل: كافرًا؛ ليطابقَ قَسيمَهُ محافظةً على الفواصلِ وإشعارًا بأنَّ الإنسانَ لا يخلو عن كُفرانٍ غالبًا، وإنَّما المأخوذُ بِهِ التَّوغُّلُ فيه.

(٤) ـ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَفِرِينَ سَلَسِلَا﴾ بها يُقادونَ ﴿وَأَغْلَلًا﴾ بها يُقيَّدونَ ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يُحرَّقونَ، وتقديمُ وعيدِهِم وقَد تأخَّرَ ذِكرُهُم لأنَّ الإنذارَ أَهَمُّ وأنفَعُ، وتَصديرُ الكلامِ وختمُه بذكرِ المؤمنينَ أحسَنُ.

وقرأَ نافعٌ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ: ﴿سَلَاسِلًا﴾ للمُناسبةِ[3].

(٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمعُ بَرٍّ كأَربابٍ، أو بارٍّ كأَشْهَادٍ.

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾: مِن خمرٍ، وهي في الأصلِ لقَدَحٍ تكونُ فيه.

---

(١) أي: ولأجل أنه كالمسبَّب عطف بالفاء الدالة على السببية، والمراد بالفعل المقيد: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ وقيَّده قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ لكونه حالاً. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ٤٧٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٦) عن أبي السمال.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٧).

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾: ما يُمزجُ بها ﴿كَافُورًا﴾ لبردِه وعُذوبَتِه وطِيْبِ عَرْفِه[١].

وقيل: اسمُ ماءٍ في الجنَّةِ يشبهُ الكافورَ في رائحَتِه وبياضِه.

وقيل: يَخلقُ فيها كيفيَّاتِ الكافورِ فتكونُ كالمَمْزوجةِ بهِ.

(٦) ـ ﴿عَيْنًا﴾ بدلٌ مِن ﴿كَافُورًا﴾ إنْ جعلَ اسمَ ماءٍ، ومِن محلِّ ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: ماءَ عينٍ أو خمرَها، أو نصبٌ على الاختصاصِ، أو بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَه.

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: مُلْتَذًّا أو ممزوجًا بها، وقيل: الباءُ مَزيدةٌ أو بمَعنى (مِن) لأنَّ الشُّربَ مبتدأٌ منها كما هو.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: يُجْرُونَها حيثُ شاؤُوا إجراءً سَهْلًا.

(٧) ـ ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما رُزقوهُ لأجلِهِ؛ كأنَّه سُئِلَ عنه فأُجِيبَ بذلك، وهو أبلَغُ في وصفِهِم بالتَّوفُّرِ على أداءِ الواجِباتِ؛ لأنَّ مَن وفَّى بما أوجبَهُ على نفسِهِ للهِ كان أَوْفَى بما أوجبَهُ اللهُ عليه.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾: شدائدُه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾: فاشِيًا مُنتَشِرًا غايةَ الانتشارِ، مِن استطارَ الحريقُ والفَجْرُ، وهو أبلَغُ مِن طارَ، وفيه إشعارٌ بحُسنِ عَقيدَتِهم واجتِنَابِهم عَن المَعاصِي.

(٨) ـ ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: حبِّ اللهِ، أو الطَّعامِ، أو الإطعامِ.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يعني: أُسارَى الكُفَّارِ؛ فإنَّه عليهِ السَّلامُ كان يُؤْتَى بالأسيرِ فيدفعُه إلى بعضِ المسلمينَ فيقول: «أحسِنْ إليهِ»[٢].

---

(١) بفتح العين: رائحته.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٤١١) عن الحسن مرسلًا، ولم أجده مسنداً، وذكره الزيلعي =

أو: الأسيرَ المؤمنَ، ويدخل فيه المملوكُ والمسجونُ.

وفي الحديث: «غريمُكَ أَسِيرُكَ فأحسِنْ إلى أَسيرِكَ»[1].

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ على إرادةِ القَولِ بلسانِ الحالِ أو المقالِ؛ إزاحةً لتَوهُّمِ المنِّ وتوقُّعِ المكافأةِ المُنقِصَةِ للأجرِ، وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عَنْها: أنَّها تبعَثُ بالصَّدقةِ إلى أهلِ بيتٍ ثمَّ تسألُ المبعوثَ: ما قالوا؟ فإنْ ذكرَ دُعاءً دَعَتْ لَهُم بمثلِه ليبقَى ثوابُ الصَّدَقةِ لها خالصًا عندَ اللهِ[2].

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي: شكرًا ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ فلذلك نحسنُ إليكُمْ، أو: لا نطلبُ المكافأةَ مِنْكُم.

﴿يَوْمًا﴾: عذابَ يوم ﴿عَبُوسًا﴾ تَعْبِسُ فيه الوجوهُ، أو يشبهُ الأسدَ العَبُوسَ في ضَرَاوتِه ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: شديدَ العُبوسِ كالذي يَجمعُ ما بينَ عينيهِ، مِن اقمطرَّتِ النَّاقَةُ: إذا رفعَتْ ذنبَها وجمعَتْ قُطْريها، مُشتَقٌّ مِن القُطرِ، والميمُ مَزيدةٌ.

(١١) ـ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسببِ خَوفِهِم وتَحفُّظِهم عنه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾: وأعطاهم ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بدلَ عُبوسِ الفُجَّارِ وحُزنِهِم.

(١٢) ـ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بصَبرِهِم على أداءِ الواجِبَاتِ واجتنابِ المُحرَّماتِ وإيثارِ الأَموالِ ﴿جَنَّةً﴾: بستانًا يأكلونَ مِنه ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونَه.

= وابن حجر في تخريجيهما وسكتا عنه. وقال الشَّيخُ وَلِيُّ الدينِ: لَمْ أَقِف عليه. انظر: «حاشية السيوطي» (١٢/ ١٣٢).

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٤١٢)، وقال الشَّيخُ وَلِيُّ الدينِ: لَمْ أَقِف عليه. انظر: «حاشية السيوطي» (١٢/ ١٣٢).

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٦٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٧٨).

وعـن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الحسنَ والحُسَينَ رضيَ اللهُ عَنْهُما مَـرِضَـا، فعادَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ في ناسٍ فقالوا: يا أبا الحسنِ! لو نذرتَ على ولدِكَ، فنذرَ عليٌّ وفاطمَةُ رضيَ اللهُ تعَالى عنهما وفضَّةُ جاريةٌ لهما صومَ ثلاثٍ إنْ بَرِئَا، فشُفِيَا وما مَعَهُم شيءٌ، فاستقرضَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ مِن شَمْعُونَ الخَيبريِّ ثلاثَ أَصْوُعٍ مِن شَعيرٍ، فطحَنَتْ فاطِمَةُ صاعًا واختبزَتْ خمسَةَ أقراصٍ، فوضعوا بين أيديهِم ليُفطِرُوا، فوقفَ عليهم مسكينٌ فآثَرُوهُ وباتوا لم يذوقُوا إلَّا الماءَ، وأصبَحُوا صِيَامًا، فلَمَّا أَمْسَوْا ووَضَعُوا الطَّعامَ وقفَ عليهِمْ يَتيمٌ فآثَرُوهُ، ثمَّ وقفَ عليهم في الثَّالثَةِ أَسِيرٌ ففعَلُوا مثلَ ذلك، فنزلَ جبرئيلُ بهذه السُّورَةِ، وقال: خُذْهَا يا مُحمَّدُ هنأكَ اللهُ في أهلِ بيتِكَ[١].

(١٣) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حالٌ مِن (هم) في (جزاهم)، أو صِفَةٌ لـ﴿جَنَّةً﴾ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يحتَمِلُهُما[٢]، وأن يكونَ حالًا من المستكنِّ في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والمَعنى: أنَّه يمرُّ عليهم فيها هواءٌ مُعتَدِلٌ لا حارٌّ مُحْمِي ولا باردٌ مُؤذِي.

وقيل: الزَّمهريرُ: القمرُ في لغةِ طيءٍ قال:

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٢٢٣ ـ ٢٣٢) وفيه زيادات وأشعار على لسان علي وفاطمة رضي الله عنهما.

وهو حديث باطل باتفاق العلماء، وقد أفاض صاحب «منهاج السنة النبوية» (٧/ ١٧٥ ـ ١٨٧) في بيان وجوه بطلانه.

وقال المناوي في «إتحاف السائل» (ص: ١٠٧): «هذا حديث كذب موضوع، وممن جزم بوضعه الذهبي، وزين الدين العراقي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وغيرهم ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يحل لهم نسبة ذلك للمصطفى، ولا إلى فاطمة، ولا إلى علي، وحاشا بلاغتهم من هذه الألفاظ الركيكة، والعبارات المنحطة الوضيعة، والله أعلم».

(٢) أي: الحاليةَ من ضمير ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ وكونه صفة ﴿جَنَّةً﴾. انظر: «حاشية الخفاجي».

وَلَيْلَـةٍ ظَلَامُهَا قَـدِ اعْـتَـكَـرْ قَطَعْتُهَا وَالـزَّمْهَـرِيرُ مَا زَهَرْ(١)

والمعنى: أنَّ هواءَها مُضِيءٌ بذَاتِه لا يحتاجُ إلى شمسٍ وَقَمرٍ.

(١٤) ـ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ حالٌ أو صِفَةٌ أُخرَى مَعطوفَةٌ على ما قبلَها، أو عطفٌ على ﴿جَنَّةً﴾؛ أي: وجنةً أخرى دانيةً، على أنهم وُعِدُوا جنَّتينِ كقولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقُرِئَت بالرَّفعِ(٢) على أنَّها خبرُ ﴿ظِلَالُهَا﴾، والجملةُ حالٌ أو صِفَةٌ(٣).

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، أو حالٌ مِن ﴿دانيةً﴾، وتـذليـلُ القُطوفِ: أَنْ تُجعَلَ سهلَ التَّناولِ لا تمتنعُ على قُطَّافِها كيفَ شاؤُوا.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾: وأباريـقَ بـلا عُـرًى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: تكوَّنَـتْ جامعـةً بيـنَ صَفـاءِ الزُّجاجـةِ وشَـفيفِها وبيـاضِ

(١) دون نسبة في «الجليس الصالح» (ص: ٧٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٢٨/ ٢٢١)، و«النكت والعيون» (٦/ ١٦٩)، و«الكشاف» (٩/ ٤١٦)، و«المجموع المغيث» لأبي موسى المديني (مادة: زمهر)، وفيه: أي: لم يطلع القمر.

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٥٤) عن أبي حية.

(٣) قوله: «والجملةُ حالٌ»، فالواوُ إمّا عاطفةٌ أو حاليّةٌ «أو صفة» فالجملةُ أيضًا معطوفةٌ على الصِّفةِ، أو صفةٌ والواوُ للإلصاقِ على مذهبِ الزَّمخشريِّ. قاله الشهاب. قلت: ومذهب الزمخشري في جعل الواو للإلصاق ذكره في «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] أن ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ جملة واقعة صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، ووُسِّطت الواو بينهما كواو الحال في قولك: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب. وتوسيط الواو بين الصفة والموصوف لتوكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرٌّ، وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري ذكر ابن مالك أنه فاسد من خمسة أوجه تنظر في «شرح التسهيل» له (٢/ ٣٠٢).

الفضَّـةِ ولِينِهـا، وقـد نـوَّنَ (قواريـراً) مَـن نـوَّنَ (سلاسـلاً)، وابـنُ كثيـرٍ الأولـى[١] لأنَّهـا رأسُ الآيةِ.

وقُرِئَ: (قواريرُ مِن فضَّةٍ) على: هي قَواريرُ[٢].

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قدَّرُوها في أنفُسِهِم فجاءَتْ مَقاديرُهَا وأشكالُها كما تمنَّوْهُ، أو: قدَّرُوهَا بأعمالِهم الصَّالحةِ فجاءَتْ على حَسَبِها، أو: قدَّرَ الطَّائفونَ بها ـ المدلولُ عليهم بقولِه: (يطافُ) ـ شَرابَها على قَدْرِ اشتِهائِهِم.

وقُرِئَ: (قُدِّرُوها)[٣]؛ أي: جُعِلُوا قادرينَ لها كما شاؤُوا، مِـن قدَّرَ مَنْقُولًا مِن قَدَرْتُ الشَّيءَ، وقَدَّرنيهِ فلانٌ: إذا جعلكَ قادرًا لهُ[٤].

(١٧) ـ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾: ما يشبهُ الزَّنجبيلَ في الطَّعمِ، وكانت العربُ يستلذُّونَ الشَّرابَ الممزوجَ بهِ.

(١٨) ـ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسَةِ انحدارِهَا في الحلقِ وسُهولَةِ مَساغِها؛ يقال: شرابٌ سلسَلٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَبِيلٌ، ولذلك حُكِمَ بزيادَةِ الباءِ[٥]، والمرادُ به: أن ينفيَ عنها لذعَ الزَّنجبيلِ ويصفَها بنَقيضِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٧).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٦) عن الأعمش.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٦) عن علي وابن عباس رضي الله عنهم والسلمي والشعبي.

(٤) ومعناه: جُعِلُوا قادِرِيْنَ لهَا كما شاؤُوا، وأُطلِقَ لهُم أَنْ يَقْدِرُوا على حسَبِ ما اشتَهَوا. انظر: «الكشاف» (٩/ ٤١٨).

(٥) تبع الزمخشري في قوله: «يُقال: شرابٌ سَلْسَلٌ وسَلْسَالٌ وسَلسَبِيْلٌ، وقد زِيْدَتِ الباء في التَّركِيْبِ حَتَّى صَارتِ الكلمةُ خُماسيَّةً، ودلَّت على غايَةِ السَّلاسة». انظر: «الكشاف» (٩/ ٤١٩).

وقيل: أصلُهُ: (سَلْ سَبِيلًا) فسُمِّيَت به كـ«تأَبَّطَ شَرًّا» لأنَّه لا يَشرَبُ منها إلا مَن سأَلَ إليها سبيلًا بالعملِ الصَّالحِ.

(١٩) ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: دائمونَ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ مِن صَفاءِ أَلوانِهم وانبِثَاثِهم في مَجالسِهم وانعكاسِ شُعاعِ بعضِهم إلى بعضٍ.

(٢٠) ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليسَ له مفعولٌ ملفوظٌ[١] ولا مقدَّرٌ لأنَّه عامٌّ معناه: أنَّ بصركَ أينَما وقعَ ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: واسعًا.

وفي الحديثِ: «أدنَى أهلِ الجنَّةِ مَنزلةً يَنظرُ في ملكِهِ مَسيرةَ ألفِ عامٍ يَرَى أقصاهُ كمَا يَرَى أدناهُ»[٢].

هذا وللعارفِ أكثرُ من ذلك، وهو أن تنتقِشَ نفسُهُ بجلايا المُلكِ وخفايَا الملكوتِ فيستضيءَ بأنوارِ قدسِ الجَبَروتِ.

(٢١) ـ ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: يَعلُوهم ثيابُ الحريرِ الخضرُ ما رقَّ مِنْها وما غلظَ، ونصبُهُ على الحالِ مِن (هم) في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أو ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، أو (مُلكًا) على تقديرِ مضافٍ؛ أي: وأهلَ ملكٍ كبيرٍ عاليَهُم.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ بالرفعِ[٣] على أنه خبرُ ﴿ثِيَابُ﴾، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ: ﴿خُضْرٍ﴾ بالجرِّ حملاً على ﴿سُندُسٍ﴾ بالمعنى[٤]، فإنه اسمٌ ﴿وإستبرقٌ﴾ بالرفع

---

(١) في نسخة الخيالي: «صريح» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤٦٢٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وفي إسناده ثوير بن أبي فاختة وهو مجمع على ضعفه.

(٣) أي: (عاليْهم) مرفوعا بالضمة المقدرة على الياء.

(٤) قولُه: «بالمعنَى»؛ لأنَّ المعطوف عليه وإنْ كانَ مُفرَدًا لفظًا فهو جمعٌ معنًى، وأمَّا جعلُ جرِّه للجِوارِ لتتوافَقَ القراءتانِ معنًى فلا يُلتَفَتُ إليه؛ لأنَّه شاذٌّ لا يُخرَّجُ عليه من غيرِ ضرورةٍ. قاله الشهاب.

عطفاً علـى ﴿ثِيَابُ﴾، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بالعكس، وقرأهما نافع وحفصٌ بالرفع، وحمزة والكسائي بالجرِّ[1].

وقُرِئَ: (واستَبْرَقَ) بوصلِ الهمزةِ والفتحِ[2] على أنَّهُ «استفعلَ» مِن البريقِ جُعل عَلَمًا لهذا النَّوعِ من الثِّيابِ.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ولا يخالفُهُ قولُه: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] لإمكانِ الجمعِ والمعاقبةِ والتَّبعيضِ[3]؛ فإنَّ حُليَّ أهلِ الجنَّةِ تختَلِفُ اختلافَ أعمالِهم، فلعلَّهُ تعالى يُفِيضُ عليهِمْ جزاءً لِمَا عَمِلُوهُ بأيديهِم حُليًّا وأنوارًا تتفاوَتُ تفاوُتَ الذَّهَبِ والفضَّةِ.

أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بإضمارِ (قد)، وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ هذا للخدمِ وذاك للمَخدومينَ.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريدُ بِهِ نوعًا آخرَ يفوقُ على النَّوعينِ المُتقدِّمَيْنِ، ولذلك أسندَ سقيَهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ووصفَهُ بالطُّهوريَّةِ، فإنه يُطهِّرُ شاربَهُ عن الميلِ إلى اللذَّاتِ الحسِّيَّةِ والرُّكونِ إلى ما سوى الحقِّ، فيتجرَّد لِمُطالعةِ جَمالِهِ مُلْتَذًّا بلقائِه باقيًا ببقائِه، وهي مُنْتَهى درجاتِ الصِّدِّيقينَ، ولذلك خُتِمَ به ثوابُ الأبرارِ.

(٢٢) - ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ علـى إضمارِ القَوْلِ، والإشارةُ إلى ما عُدَّ مِن ثَوابِهم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾: مُجازًى عليه غيرَ مضيعٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٤ - ٦٦٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٦)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٤)، عن ابن محيصن.

(٣) قوله: «لإمكانِ الجمعِ والمعاقبةِ والتَّبعيضِ» الجمع بتعدُّدِ الأساوِرِ لكلٍّ، والمُعاقبة بلُبسِ الذَّهبِ تارةً والفِضَّةِ أُخرى، والتَّبعيض بأن تكونَ أساورُ بعضٍ فضّةً وبعضٍ ذهبًا. قاله الشهاب.

(٢٣) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾: مُفرَّقًا مُنجَّمًا لحكمةٍ اقتضَتْهُ، وتكريرُ الضَّميرِ مع (إنَّ) مزيدٌ لاختصاصِ التَّنزيلِ بهِ.

(٢٤) ـ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخيرِ نَصرِكَ علـى كُفَّارِ مَكَّةَ وغَيرِهِم ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؛ أي: كلَّ واحدٍ: مِن مرتكبِ الإثمِ الدَّاعي لكَ إليه، ومِـن الغالي في الكفرِ الدَّاعي إليهِ، و﴿أَوْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهما سِيَّانِ[1] في استحقاقِ العصيانِ والاستقلالِ بهِ، والتَّقسيمُ باعتبارِ ما يَدْعونَهُ إليه، فإنَّ تَرتُّبَ النَّهيِ على الوَصْفَينِ مشعِرٌ بأنَّه لهما، وذلك يَستَدعِي أن تكونَ المطاوعَةُ في الإثمِ والكُفرِ فإنَّ مُطاوعتَهُمَا فيما ليسَ بإثمٍ ولا كفرٍ غيرُ مَحظورٍ.

(٢٥) ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: وداوِمْ على ذكرِهِ، أو: دُمْ على صلاتي الفَجرِ والظُّهرِ والعَصرِ، فإنَّ الأصيلَ يَتناوَلُ وَقْتَيهِمَا[2].

(٢٦) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾: وبعضَ الليلِ فصَلِّ له، ولعلَّ المُرادَ بهِ صلاةُ المغربِ والعِشاءِ، وتقديمُ الظَّرفِ لِمَا في صَلاةِ الليلِ مِن مَزيدِ الكُلفَةِ والخُلوصِ.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾: وتهجَّدْ له طائفةً طَويلةً مِن اللَّيلِ.

(٢٧) ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾: أمامَهُـم، أو: خلـفَ ظُهورِهـم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: شـديدًا، مُسـتعارٌ مِن الثقـلِ الباهظِ للحاملِ، وهـو كالتَّعليلِ لِمَـا أَمَرَ بـه ونَهَـى عنهُ.

(٢٨) ـ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾: وأحكَمْنَا ربطَ مَفاصِلِهم بالأَعصابِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «مستويان».

(٢) قولُه: «فإنَّ الأصيلَ...» أمّا تناولُه للعصرِ فظاهرٌ، وأمّا تناولُه للظُّهرِ فباعتبارِ أواخرِه؛ إذ الزَّوالُ وما يقرُبُ منه لا يُسمَّى أصيلًا. قاله الشهاب.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: وإذا شِئْنَا أَهْلَكناهُم وبَدَّلْنا أَمْثالَهُم في الخِلْقةِ وشِدَّةِ الأَسْرِ، يعني: النَّشأةَ الثَّانيةَ، ولذلك جيءَ بـ(إذا).

أو: بدَّلْنَا غيرَهُم ممَّنْ يُطِيعُ، و(إذا) لتَحقُّقِ القُدرَةِ وقوَّةِ الدَّاعيَةِ.

(٢٩) ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارةُ إلى السُّورةِ أو الآياتِ القريبةِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: تقرَّبَ إليه بالطَّاعةِ.

(٣٠) ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: وما تشاؤونَ ذلك إلَّا وقتَ أَنْ يشاءَ اللهُ مَشيئتَكُم. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿يشاؤون﴾ باليَاءِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَستأهِلُ كُلُّ أَحَدٍ ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاءُ إلَّا ما تَقتَضيهِ حِكمتُهُ.

(٣١) ـ ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بالهدايةِ والتَّوفيقِ للطَّاعةِ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نصبَ (الظالمين) بفعلٍ يُفسِّرُه ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ مثلَ: أوعدَ أو كافأ؛ ليطابقَ الجملَ المعطوفَ عليها. وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ[٢].

عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كانَ جَزاؤُهُ على اللهِ جنَّةً وحَريرًا»[٣].

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٤) عن ابن الزبير وأبان بن عثمان.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ١٩٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٩٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك.

(٧٦) سورة الإنسان مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هل أتى على الإنسان﴾[1] ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه، فقال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟﴾ ثم بيّن ذلك فقال جلَّ جلاله: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أي أخلاط، والمشج والمشيج، الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس: يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، وقال عكرمة ومجاهد: الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، وقوله تعالى: ﴿نبتليه﴾ أي نختبره كقوله جلَّ جلاله: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية، وقوله جلّ وعلا: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به كقوله جلَّ وعلا: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة ومجاهد والجمهور، وروي عن الضحّاك والسدي ﴿إنا هديناه السبيل﴾ يعني خروجه من الرحم، وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول، وقوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الصحيح: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها»[2]، وقد تقدم من رواية جابر بن عبد الله رضي الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري.

تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً»[١]، وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته»[٢]

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه، من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب، والحريق في نار جهنم كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون﴾، ولما ذكر ما أعد لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة، قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقوله تعالى: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، والتفجير هو الانباع، كما قال تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، وقال: ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾ وقال مجاهد: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ يقودونها حيث شاءوا، وقال الثوري: يصرفونها حيث شاءوا، وقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[٣]، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذي يكون ﴿شره مستطيراً﴾ أي منتشراً عاماً على

---

(١) أخرجه أحمد، وقد تقدم في سورة الروم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه البخاري من حديث مالك.

الناس إلا من رحم الله ، قال ابن عباس : فاشياً، وقال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قيل : على حب الله تعالى لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ومقاتل ، واختاره ابن جرير كقوله تعالى: ﴿وآتى المال على حبه﴾، وكقوله تعالى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وروى البيهقي عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية يعني امرأته فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به قال السائل: السائل، فقال ابن عمر : أعطوه إياه فأعطوه إياه(١) ، وفي الصحيح : « أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير فقال الحسن والضحّاك: الأسير من أهل القبلة، وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، يشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وقال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء حتى كان آخر ما أوصى بـه أن جعل يقول: « الصلاة وما ملكت أيمانكم » قال مجاهد: هو المحبوس، أي يطعمون الطعام لهؤلاء، وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس، قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير ، قال ابن عباس ﴿ عبوساً﴾ ضيقاً ﴿ قمطريراً﴾ طويلاً، وقال عكرمة : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، وقال مجاهد: ﴿ عبوساً﴾ العابس الشفتين، ﴿ قمطريراً﴾ قال: يقبض الوجه بالبسور ، وقال سعيد بن جبير وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول ﴿ قمطريراً﴾ تقلص الجبين وما بين العينين من الهول، وقال ابن زيد: العبوس الشر ، والقمطرير الشديد، وقال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد، يقال: هو يوم قمطرير ويوم قماطر ، ويوم عصيب وعصبصب .

قال الله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ أي آمنهم مما خافوا منه، ﴿ولقاهم نضرة﴾ أي في وجوههم، ﴿ وسروراً﴾ أي في قلوبهم وهذه كقوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾ وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه . قال كعب ابن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر ، وقالت عائشة رضي الله عنها: « دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه » الحديث . وقوله تعالى: ﴿ وجزاهم بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم ﴿ جنة وحريراً﴾ أي منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً .

---

(١) أخرجه البيهقي عن نافع وفيه أنها أرسلت بدرهم آخر فاشترت به فأعطاه للسائل ثم بدرهم ثالث .

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى: ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال، وقوله تعالى: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ أي ليس عندهم حرّ مزعج، ولا برد مؤلم، ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ أي قريبة إليهم أغصانها، ﴿وذلّلت قطوفها تذليلاً﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه، تتدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع، كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾ قال مجاهد: إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد تذلّلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذلّلت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى: ﴿تذليلاً﴾، وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد، وقوله جلّت عظمته: ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي التي لا عرى لها ولا خراطيم، وقوله: ﴿قوارير من فضة﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أي كانت قوارير، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز، قال ابن عباس: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. قال ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة، وقوله تعالى: ﴿قدروها تقديراً﴾ أي على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة، وقال ابن عباس: ﴿قدروها تقديراً﴾ قدرت للكف، وقال الضحّاك: على قدر كف الخادم، وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والري.

وقوله تعالى: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ أي ويسقون - يعني الأبرار أيضاً - في هذه الأكواب ﴿كأساً﴾ أي خمراً، ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم قوله جل وعلا: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾، وقال ههنا: ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها، وقوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون * إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿مخلدون﴾ أي على حالة

واحدة، مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، وقوله تعالى: ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي إذا رأيتهم في صباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ﴿حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن، قال قتادة: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه، وقوله جل وعلا: ﴿وإذا رأيت﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ثمَّ﴾ أي هناك يعني في الجنة ونعيمها، وسعتها وارتفاعها، وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ أي مملكة لله هناك عظيمة، وسلطاناً باهراً، وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها»، وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه» فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟

وقوله جلّ جلاله: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير (**السندس**) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، و (**الاستبرق**) وهو ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد، والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذ انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن، وقوله تعالى: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾، وكقوله تعالى: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم، ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره، وأعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾

أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله والكفور هو الكافر قلبه، ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾، كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً﴾، ثم قال تعالى منكراً على الكفّار ومن أشبههم حب الدنيا والإقبال عليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم، ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ يعني يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يعني خلقهم ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلنا هم فأعدناهم خلقاً جديداً، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة، وقال ابن جرير: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن هذه تذكرة﴾ يعني هذه السورة تذكرة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً، أي من شاء اهتدى بالقرآن، ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾، ثم قال: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

[آخر تفسير سورة الإنسان، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الإنسان

وهى مكية .

قد تقدم فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ . تَنزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ (١) .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنا ابن زيد : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود ، فلما بلغ صفة الجنان ، زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله ﷺ : « أخرج نفس (٢) صاحبكم ـ أو قال : أخيكم ـ الشوقُ إلى الجنة » . مرسل غريب (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر (٤) ، لحقارته وضعفه ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى : أخلاط . والمشج والمشيج : الشىء الخَليط (٥) ، بعضه فى بعض .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور ، وحال إلى حال ،ولون إلى لون . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

---

(١) تقدم حديث أبى هريرة عند تفسير أول سورة السجدة وخرجناه هناك ، أما حديث ابن عباس فلم يتقدم،وهو فى صحيح مسلم برقم (٨٧٩) .

(٢) فى أ :« روح » .

(٣) وقد جاء موصولاً ،فرواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » من طريق عفيف بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ،عن عطاء ، عن ابن عمر : أن رجلاً من الحبشة ، فذكر قصة طويلة وفيها : أن نزلت هذه السورة وهو عند الرسول فقال : يا رسول الله ، هل ترى عينى فى الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبى : «نعم » فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . وقال الطبرانى: «لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ،تفرد به عفيف » . وسيأتى الحديث عند آخر السورة من رواية الطبرانى .

(٤) فى أ : « مذكوراً » .

(٥) فى م :« المختلط » .

وقوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أى : نختبره ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢] . ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى : جعلنا له سمعا وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، وكقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠] ، أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد ــ فى المشهور عنه ــ والجمهور .

ورُوى عن مجاهد ، وأبى صالح ، والضحاك ، والسدى أنهم قالوا فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ : يعنى خروجه من الرحم . وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول .

وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ : منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: « كل الناس يَغْدو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتقها»[(١)] . وتقدم فى سورة « الروم » عند قوله : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠] ، من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعربَ عنه لسانه ، فإذا أعرب عنه لسانه ، فإما شاكراً وإما كفوراً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن عثمان بن محمد ، عن المقبرى ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شَيطان ، فإن خرج لما يُحبّ اللهُ اتبعَه المَلَك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » [(٢)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله : أن النبى ﷺ قال لكعب بن عُجرَة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستَنّونَ بسنتى، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يَردُون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجرَة ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة،والصلاة قربان ــ أو قال: برهان . يا كعبَ بنَ عجرَة ، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت ، النار أولى به . يا كعب ، الناس غَاديان ، فمبتاعُ نفسَه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » .

ورواه عن عَفّان ، عن وُهَيب [(٣)] ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، به [(٤)] .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٣) .

(٢) المسند (٢ / ٣٢٣) .

(٣) فى أ :« عن وهب » .

(٤) المسند (٣/ ٣٢١) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ﴾ .

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهيب والحريق فى نار جهنم ، كما قال : ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعده [(١)] لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة .

قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها ؛ ولهذا ضمن يشرَب « يروى » حتى عداه بالباء ، ونصب ﴿ عَيْنًا ﴾ على التمييز .

قال بعضهم : هذا الشراب [(٢)] فى طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور . وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿ يَشْرَبُ ﴾ . حكى هذه الأقوال الثلاثة ابنُ جرير .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أى : يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] .

قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة . وقال الثورى : يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى : يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من [فعل] [(٣)] الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .

---

(١) فى أ: « أعده الله » . (٢) فى م : « الطعام » . (٣) زيادة من م، أ .

قال الإمام مالك ، عن طلحة بن عبد الملك الأيلى ، عن القاسم بن مالك ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يَعصى الله فلا يَعصِه » ، رواه البخارى من حديث مالك (١) .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله .

قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار ــ والله ــ شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السموات والأرض .

قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاجة واستطال . ومنه قول الأعشى :

فَبَانَتْ وَقَد أسْأرت فى الفُـؤا ... د صَدْعاً ، على نَأيها ،مُستَطيراً (٢)

يعنى : ممتدا فاشيا .

وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ : قيل: على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وكقولـه تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وروى البيهقى ، من طريق الأعمش ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبا ــ أول ما جاء العنب ــ فأرسلت صفية ــ يعنى امرأته ــ فاشترت عنقوداً بدرهم ، فاتبع الرسولَ السائل ، فلما دخل به قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . فأعطوه إياه . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسولَ السائلُ ، فلما دخل قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه. فأعطوه إياه . فأرسلت صفية إلى السائل فقالت : والله إن عُدتَ لا تصيبُ منه خيراً أبداً . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به (٣) .

وفى الصحيح : « أفضل الصدقة أن تَصَدّقَ وأنـت صحيح ، شحيح ، تـأمل الغنى ، وتخشى الفقر » (٤) ،أى :فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ . أما المسكين واليتيم،فقد تقدم بيانهما وصفتهما.وأما الأسير : فقال سعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك : الأسير : من أهل القبلة . وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن، وقتادة .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩/١٢٩) .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٤/ ١٨٥) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٣٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » (١) .

وقال عكرمة : هم العبيد ــ واختاره ابن جرير ــ لعموم الآية للمسلم والمشرك .

وقال مجاهد : هو المحبوس ، أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ** ﴾ أى : رجاءَ ثواب الله ورضاه ، ﴿ **لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ أى : لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، فى اليوم العبوس القمطرير .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **عَبُوسًا** ﴾ : ضيقا ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ : طويلا .

وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله : ﴿ **يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ أى : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرَق مثل القَطرَان .

وقال مجاهد : ﴿ **عَبُوسًا** ﴾ : العابس الشفتين ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ قال : تقبيض الوَجه بالبُسُور .

وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ : تقليص الجبين وما بين العينين ، من الهول .

وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطرير : الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ،وأعلاها وأولاها ــ قولُ ابن عباس ، رضى الله عنه .

قال ابن جرير : والقمطرير هو : الشديد ؛ يقال : هو يوم قمطرير ويوم قُماطِر ، ويوم عَصِيب وعَصَبْصَب ، وقد اقمطرّ اليومُ يقمطرّ اقمطرارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة ، ومنه قول بعضهم :

بَنى عَمّنا ، هل تَذكُرونَ بَلاءنَا ؟ عَلَيكم إذَا ما كَانَ يَومُ قُمَاطِرُ (٢)

قال الله تعالى : ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** ﴾ ، وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ** ﴾ أى : آمنهم مما خافوا منه ، ﴿ **وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً** ﴾ أى : فى وجوههم ، ﴿ **وَسُرُورًا** ﴾ أى : فى قلوبهم . قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع ابن أنس . وهذه كقوله تعالى :﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ [عبس:٣٨ ، ٣٩] . وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٨/١) من حديث على رضى الله عنه .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٣١/٢٩) غير منسوب .

إذا سُرّ ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة [(١)] قَمَر [(٢)] . وقالت عائشةُ : دخل عَلَيّ رسول الله ﷺ مسرورا تَبرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِه [(٣)] . الحديث .

وقوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : بسبب صبرهم أعطاهم ونَوّلهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أى : منزلا رحبا ، وعيشا رَغَداً [(٤)] ، ولباساً حَسَناً .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة هشام بن سليمان الدّارَانى قال : قرئ على أبى سليمان الداراني سورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ ، فلما بلغ القارئ إلى قوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، قال بما صبروا على ترك الشهوات فى الدنيا ، ثم أنشد :

كَم قَتيل بشَهوةٍ وأسير ... أفّ مِنْ مُشْتَهى خِلاف الجَميل

شَهوَاتُ الإنْسان تورثه الذُّل ... وتُلْقيه فى البَلاء الطَّويل [(٥)]

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ . وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « الصافات » ، وذكر الخلاف فى الاتكاء : هل هو الاضطجاع ، أو التمرفق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السُّرر تحت الحجال .

وقوله : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى : ليس عندهم حَرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدِيّ ، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف:١٠٨] .

---

(١) فى م : « كأنه فلقة » .

(٢) حديث توبة كعب بن مالك فى صحيح البخارى برقم (٣٩٥١،٤٦٧٣) ، وفى صحيح مسلم برقم (٢٧٦٩) ، وتقدم عند تفسير الآية: ١١٨ من سورة « التوبة » .

(٣) حديث عائشة فى لحاق أسامة بأبيه زيد . رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٥٥) ، ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٥٩) .

(٤) فى م : « رغيدا » .

(٥) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٨٦) ووقع صدره فيه :

كم قتيل لشهوةٍ وأسير

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أى : قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] . وقال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:٢٣] .

قال [١] مجاهد : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ : إن قام ارتفعت بقَدْره ، وإن قعد تَدَلَّتْ [٢] له حتى ينالها ، وإن اضطجع تَدَلَّت [٣] له حتى ينالها ، فذلك قوله : ﴿ تَذْلِيلا ﴾ .

وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ .

وقال مجاهد : أرض الجنة من وَرِق ، وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت ، والوَرَقُ والتمر بين ذلك . فمن أكل منها قائما لم يؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى : يطوف عليهم الخَدَم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .

وقوله [٤] : ﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ، فالأول منصوب بخبر « كان » أى : كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية [٥] ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال ابن المبارك ، عن إسماعيل ، عن رجل ، عن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ أى : على قدر ريّهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب ريّ صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، وقتادة ، وابن أبزى ، وعبد الله بن عُبَيد بن عمير ، وقتادة ، والشعبى ، وابن زيد . وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ : قدرت للكف . وهكذا قال الربيع بن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكُفّ الخُدّام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القَدْر والرّى .

وقوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا [٦] زَنجَبِيلاً ﴾ أى : ويسقون ــ يعنى الأبرار أيضا ــ فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى : خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ ، فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور

---

(١) فى م:« وقال» . (٢ ، ٣) فى أ :« تذللت » . (٤) فى م ،أ : « وهذه » .
(٥) فى أ:« على البداية » . (٦) فى أ : «كان مزاجه » وهوخطأ .

وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرْفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم فى قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ أى : الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا .

قال عكرمة : اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها .

وقال قتادة : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ : عين سَلِسَة مُستَقِيد [١] ماؤها .

وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحَلْق . واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى : على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُونَ فى آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبيرْ .

وقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا ، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثَمَّ ﴾ أى : هناك [٢] ، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتَها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : إن لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها .

وقد قَدّمنا [٣] فى الحديث المَروىّ من طريق ثُوَير بن أبى فاختة ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى [٤] سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقد روى الطبرانى هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن

---

(١) فى أ: « مستعذب » . (٢) فى أ : « أى هنالك » .
(٣) عند تفسير الآية :٢٣ من سورة « القيامة ».
(٤) فى أ : « مسيرة ألف ».

عمار الموصلى ، حدثنا عفيف [(١)] بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء ، عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ : فقال له رسول الله : « سل واستفهم » . فقال: يا رسول الله ، فُضِّلْتُم علينا بالصور والألوان والنبوة ، أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بمثل ما عملتَ به ، إنى لكائن معكَ فى الجنة ؟ قال : « نعم ، والذى نفسى بيده ، إنه لَيُرَى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » . ثم قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، كان له بها عَهدٌ عند الله ، ومن قال : سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة ، وأربعة وعشرون ألف حسنة » . فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة ـ أو : نعَم الله ـ فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يَتَغَمّده الله برحمته » . ونزلت هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُلْكًا كَبِيرًا ﴾ . فقال الحبشى : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ قال: « نعم » . فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه فى حُفرَته بيده [(٢)] .

وقوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس[(٣)] ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال [(٤)] بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة ، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وَجَدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما [فأذهب الله] [(٥)] ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فَجَرت عليهم نضرةُ النعيم .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وكقوله : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا

---

(١) فى م ، أ ، هـ: « حدثنا عقبة » و المثبت من المعجم الأوسط للطبرانى.

(٢) المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » ، وقال : « لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عفيف » .

(٣) فى أ : « فى الملبس » . (٤) فى أ : « فقال » . (٥) مكانها فى هـ ، كلمة غير واضحة ، والمثبت من م ، أ .

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ .

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نَزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى : كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك ، فاصبر على قضائه وقَدَره ، واعلم أنه سيُدَبرك بحسن تدبيره ، ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أى: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك [(١)] ، بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر بقلبه .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : أولَ النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ ،كقوله :﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] ، وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ١ ــ ٤] .

ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم فى حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ يعنى : يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خَلْقَهم . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبَدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا . وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة .

وقال ابن زيد ، وابن جرير : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [أى] [(٢)] : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ [(٣)] قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣٣] ، وكقوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠ ، وفاطر ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : طريقا ومسلكا ، أى: من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

---

(١) فى أ :« عليك » . (٢) زيادة من م. (٣) فى أ : « وكان الله على كل شىء » وهو خطأ .

وأَنفقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩] .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يَهدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان [1] ولا يجر لنفسه نفعاً ، ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسِّرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ومن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

[آخر سورة « الإنسان »] [2] [والله أعلم] [3]

---

(١) فى م : « فى إيمان » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) زيادة من أ .

سورة الإنسان

مكّيّة، وهي إحدى وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ استفهامُ تقرير وتقريب، فإنّ "هل" بمعنى "قد"، والأصل "أهَلْ أتى" ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: طائفة محدودة كائنةٌ مِن الزمن الممتدّ ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئًا منسيًّا غير مذكور بالإنسانيّة أصلًا، كالعُنصر والنُّطفة وغير ذلك. والجملة المنفيّة حالٌ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، أي: غيرَ مذكور، أو صفة أخرى لـ﴿حِينٌ﴾ على حذف العائد إلى الموصوف، أي: لم يكن فيه شيئًا مذكورًا.

والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، فالإظهار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لزيادة التقرير، أو آدم عليه السلام، وهو المروي عن ابن عبّاسٍ وقتادةَ والثوري وعكرمةَ والشعبي.[1] قال ابن عبّاس في رواية أبي صالح عنه: «مرّت به أربعون سنةً قبل أن يُنفخ فيه الروح وهو ملقًى بين مكّة والطائف». وفي رواية الضحّاك عنه أنّه خُلق مِن طين فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن حمأ مسنون فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن صلصال فأقام أربعين سنةً، فتمّ خَلْقه بعد مائة وعشرين سنةً، ثمّ نُفخ فيه الروح. وحكى الماوردي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ "الحِين" المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتدّ الذي لا يُعرَف مقداره فيكون الأوّل إشارةً إلى خَلْقه عليه السلام وهذا بيانًا لخلق بنيه.[2]

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/٥٢٩-٥٣٠، واللباب لابن عادل، ٢٠/٥.

[2] هذه الروايات كلّها في اللباب لابن عادل، ٢٠/٥.

﴿أَمۡشَاجٍ﴾ أخلاطٍ، جمع مَشَج أو مَشيج، مِن "مَشجتُ الشيءَ" إذا خلطتَه. وُصِف النطفة به لِما أنّ المراد بها مجموع الماءين، ولكلّ منهما أوصاف مختلفة مِن اللون والرِّقة والغِلَظ، وخواصّ متباينة، فإنّ ماء الرجل أبيضُ غليظ فيه قوّة
[٢٤٨و] العَقد وماءَ المرأة أصفرُ رقيق فيه قوّة / الانعقاد، يُخلَق منهما الولد، فما كان مِن عصَب وعَظْم وقوّة فمِن ماء الرجل، وما كان مِن لحم ودمٍ وشَعْر فمِن ماء المرأة. قال القرطبي: وقد رُوي هذا مرفوعًا.[١] وقيل: مفرد كـ"أعشار" و"أكياش".[٢] وقيل: ﴿أَمۡشَاجٍ﴾ ألوان وأطوار،[٣] فإنّ النطفة تصير علقةً، ثمّ مضغةً، إلى تمام الخِلقة.

وقوله تعالى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿خَلَقۡنَا﴾، أي: مُريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتي أو ناقلين له مِن حال إلى حال على طريقة الاستعارة، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نُصرِّفه في بطن أمّه نطفةً ثمّ علقةً إلى آخره.[٤]

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكّن مِن استماع الآيات التنزيليّة ومشاهدةِ الآيات التكوينيّة، فهو كالمسبَّب مِن الابتلاء، فلذلك عُطف على الخَلْق المقيَّد به بـ"الفاء"، ورُتّب عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بإنزال الآياتِ ونَصْبِ الدلائل. ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان مِن مفعول ﴿هَدَيۡنَا﴾، أي: مكّناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصِل إلى البغية في حالتيه جميعًا. أو للتفصيل أو التقسيم، أي: هديناه إلى ما يُوصِل إليها في حالَيه جميعًا أو مقسومًا إليهما، بعضُهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه وبعضُهم كفور بالإعراض عنه.

وقيل: مِن السبيل،[٥] أي: عرّفناه السبيل إمّا سبيلًا شاكرًا أو كفورًا، على وصف السبيل بوصف سالكه مجازًا. وقُرِئ: "أمّا"[٦] بالفتح على حذف الجواب،

---

١ الكلام كلُّه مع قول القرطبي مذكور بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٨/٢٠. وانظر: تفسير القرطبي، ١٢١/١٩.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣-٥٣٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٩/٢٠.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٧/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود أبي السَّمّال ورؤبة بن العجّاج والرّبيع بن خُثيم وأبي زيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٣.

أي: أمّا شاكرًا فبِتوفيقنا، وأمّا كفورًا فبِسوء اختياره لا بمجرّد إجبارنا مِن غير اختيار مِن قِبَله. وإيرادُ "الكفور" لمراعاة الفواصل والإشعار بأنّ الإنسان قلّما يخلو مِن كفران ما وإنّما المُؤاخَذ عليه الكفر المُفرِط.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مِن أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ بها يقادون ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يقيّدون ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقون. وتقديمُ وعيدهم مع تأخّرهم للجَمْع بينهما في الذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية [آل عمران، ١٠٦/٣]، ولأنّ الإنذار أهمّ وأنفع، وتصديرُ الكلام وخَتْمه بذِكر المؤمنين / أحسنُ، على أنّ في [٢٤٨ظ] وصفهم تفصيلًا ربّما يُخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم. وقُرئ: "سَلَاسِلًا"[١] للتناسب.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حُسن حال الشاكرين إثرَ بيان سوء حال الكافرين. وإيرادُهم بعنوان البرّ للإشعار بما استحقّوا به ما نالوه مِن الكرامة السنيّة. و﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع "بَرّ" أو "بارّ" كـ"ربّ" و"أرباب" و"شاهد" و"أشهاد". قيل: هو مَن يَبرّ خالقه، أي: يطيعه. وقيل: مَن يمتثل بأمره تعالى. وقيل: مَن يؤدّي حقّ الله تعالى ويُوفي بالنَّذْر.[٢] وعن الحسن: البَرّ مَن لا يؤذي الذرّ.[٣]

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ هي الزجاجة إذا كانت فيها خَمْر، وتُطلق على نفس الخمر أيضًا، فـ﴿مِن﴾ على الأوّل ابتدائيّة وعلى الثاني تبعيضيّة أو بيانيّة. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما تُمزَج به ﴿كَافُورًا﴾ أي: ماءَ كافور، وهو اسم عين في الجنّة ماؤها في بياض الكافور ورائحتِه وبَرْدِه. والجملة صفة ﴿كَأْسٍ﴾.

---

١ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر وأبو بكر ورُويس بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٤/٢.

٢ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠-١٦.

٣ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن ﴿كَافُورًا﴾، وعن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم لهم بالمِسك.[1] وقيل: تُخلَق فيها رائحة الكافور وبياضه وبَرْده، فكأنّها مُزِجت بالكافور،[2] فـ﴿عَيْنًا﴾ على هذين القولين بدل مِن محلّ ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على تقدير مضاف، أي: يشربون خمرًا خمرَ عين، أو نصب على الاختصاص.

وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ صفة ﴿عَيْنًا﴾، أي: يشربون بها الخمر لكونها ممزوجةً بها. وقيل: ضُمّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى يلتذّ. وقيل: "الباء" بمعنى "مِن". وقيل: زائدة، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: "يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللهِ".[3] وقيل: الضمير للكأس، والمعنى يشربون العين بتلك الكأس.[4]

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يُجرونها حيثما شاءوا مِن منازلهم إجراءً سهلًا لا يمتنع عليهم؛ بل يجري جريًا بقوّة واندفاع، والجملة صفة أخرى لـ﴿عَيْنًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذُكر مِن النعيم مشتمِل على نوع تفصيل لِما ينبئ عنه اسم الأبرار / إجمالًا، كأنّه [٢٤٩و] قيل: ماذا يفعلون حتّى ينالوا تلك الرُّتبة العالية؟ فقيل: يُوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ عذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشيًا منتشِرًا في الأقطار غاية الانتشار، مِن "استطار الحريقُ والفجرُ"، وهو أبلغ مِن "طار" بمنزلة استنفر مِن نفَر.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حبّ الطّعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران، ٩٢/٣]، أو على حبّ الإطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس، أو كائنين على حبّ الله تعالى، أو إطعامًا كائنًا على حبّه تعالى، وهو الأنسب لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أيّ أسيرٍ كان، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم يُؤتى بالأسير

---

[1] جامع البيان للطبري، ٥٣٩/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٤.

[4] هذه الوجوه الثلاثة مع الاستدلال بالقراءة في اللباب لابن عادل، ١٨/٢٠. وأصل الكلام في التبيان للعكبري، ١٢٥٨/٢.

فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسِنْ إليه»،[١] أو أسيرًا مؤمِنًا، فيدخُل فيه المملوك والمسجون، وقد سمّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغريمَ أسيرًا فقال: «غريمُك أسيرُك، فأحسِن إلى أسيرك».[٢]

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ على إرادة قولٍ هو في موقع الحال مِن فاعل ﴿يُطْعِمُونَ﴾ أي: قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال إزاحةً لتوهُّم المنّ المُبطِل للصدقة وتوقُّع المكافأة المُنقِصة للأجر. وعن الصِّدِّيقة رضي الله تعالى عنها: أنّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمّ تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذا ذكَر دعاءهم دعتْ لهم بمِثله؛[٣] ليبقى ثواب الصدقة لها خالصًا عند الله تعالى.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: شكرًا، وهو تقرير وتأكيد لِما قبله.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يوم ﴿عَبُوسًا﴾ يعبس فيه الوجوه، أو يُشبه الأسدَ العبوسَ في الشدّة والضراوة. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديدَ العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاءَ أن يَقيَنا ربُّنا بذلك شرَّه. وقيل: هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور،[٤] أي: / إنّا نخاف عِقابَ الله تعالى أن أردناهما. [٢٤٩ظ]

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجّار وحُزنهم نَضرةً في الوجوه وسُرورًا في القلوب.

---

١ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٤٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٤/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

٢ لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

٣ لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على مشاقّ الطاعات ومُهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرَّمات وإيثار الأموال ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا يأكلون منه ما شاءوا ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما مرِضا فعادهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ناس معه فقالوا لِعليّ رضي الله تعالى عنه: «لو نذَرت على ولدك»، فنذر عليٌّ وفاطمةُ رضي الله عنهما وفِضَّةُ جارية لهما إن برئا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشُفيا وما معهما شيء، فاستقرض عليٌّ رضي الله عنه مِن شمعون الخَيبري ثلاث[1] أصوُع مِن شعير فطحنت فاطمةُ رضي الله عنها صاعًا واختبزت خمسةَ أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليُفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: «السّلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكين مِن مساكين المسلمين، أطعِموني أطعَمكم الله تعالى مِن موائد الجنّة»، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صيامًا، فلمّا أمسَوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ثمّ وقف عليهم في الثالثة أسيرٌ ففعلوا مثل ذلك، فلمّا أصبحوا أخذ عليٌّ بيد الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم فأقبلوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا أبصرهم وهم يرتعِشون كالفِراخ مِن شدّة الجوع قال عليه السلام: «ما أشدَّ ما يسوءني ما أرى بكم»، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمةَ في مِحرابها قد
[٢٥٠و] التصق ظهرُها ببطنها / وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: «خُذها يا محمّد هنأك الله تعالى في أهل بيتك»، فأقرأه السورة.[2]

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾

---

[1] كذا في م س.

[2] لم أقف عليه في مظانّه. وهو بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٢٢٣-٢٣٢، وفصّل محقِّقوه الكلام على وضع هذا الحديث؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٥.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ حال مِن ﴿هُم﴾ في ﴿جَزَىٰهُم﴾ والعامل فيها ﴿جَزَىٰ﴾. وقيل: صفة لـ﴿جَنَّةً﴾ مِن غير إبراز الضمير.[١] و"الأرائك" هي السُّرر في الحِجال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا﴾ إمّا حال ثانية مِن الضمير أو المستكنّ في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والمعنى أنّه يمرّ عليهم هواء معتدِل لا حارّ مُحمٍ ولا بارد مُؤذٍ. وقيل: الزَّمْهرير: القمر في لغة طيّئ،[٢] والمعنى أنّ هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس ولا قمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ عطفٌ على ما قبلها حال مثلَها، أو صفة لمحذوف معطوف على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالها، على أنّهم وُعدوا جنّتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٦].

وقُرئ: "دَانِيَةٌ"[٣] بالرفع على أنّه خبر لـ﴿ظِلَٰلُهَا﴾، والجملة في حيّز الحال، والمعنى لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، والحال أنّ ظلالها دانية. قالوا: معناه أنّ ظلال أشجار الجنّة قريبة مِن الأبرار مَظلَّة عليهم زيادةً في نعيمهم، على معنى أنّه لو كان هناك شمس مؤذِية لكانت أشجارها مظلّةً عليهم مع أنّه لا شمسَ ثمّة ولا قمر.

﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا﴾ أي: سُخِرت ثمارها لمتناوليها وسُهِّل أَخذها، مِن "الذلّ" وهو ضدّ الصعوبة. والجملة حال مِن ﴿دَانِيَةً﴾، أي: تدنو ظلالها عليهم مذلَّلة لهم قطوفها، أو معطوفة على ﴿دَانِيَةً﴾، أي: دانيةً عليهم ظلالها ومذلَّلةً قطوفها، وعلى تقدير رفع ﴿دَانِيَةً﴾، فهي جملة فعليّة معطوفة على جملة اسميّة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ﴾ الكوبُ: الكوز العظيم الذي لا أُذنَ له ولا عروةَ.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٦.

٢ نقله الزمخشري عن ثعلب في الكشّاف، ٤/٥٠٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۟ ۝ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: تكوّنت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولِين الفضّة وبياضها، والجملة صفة الأكواب. وقُرئ بتنوين ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ الثاني أيضًا،[١] وقُرئا بغير تنوين،[٢] وقُرئ الثّاني بالرفع،[٣] على "هي قواريرُ".

[٢٥٠ظ] / ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ ومعنى تقديرهم لها أنّهم قدّروها في أنفسهم وأرادوا أن تكون على مقاديرَ وأشكال معيَّنة موافقةً لشهواتهم، فجاءت حسبما قدّروها، أو قدّروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها. وقيل: الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾، فالمعنى قدّروا شرابها على قدر اشتهائهم.[٤] وقُرئ: "قُدِّرُوهَا"[٥] على البناء للمفعول، أي: جُعلوا قادرين لها كما شاءوا مِن "قدَّر" منقولًا مِن "قدَرت الشيءَ".

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي: ما يُشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيبَ ما تستطيبه العرب وألذَّ ما تستلذّ به.

﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾. وقيل: تُمزج كأسهم بالزَّنجبيل بعينه، أو يخلُق الله تعالى طعمَه فيها،[٦] فـ﴿عَيْنًا﴾ حينئذ بدل مِن ﴿كَأْسًا﴾، كأنّه قيل: ويُسقَون فيها كأسًا كأس عين، أو نصب على الاختصاص. ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحَلْق وسهولة مَساغها، يقال: شراب سَلسَل وسلسال وسلسبيل، ولذلك حُكم بزيادة "الباء"، والمراد بيانُ أنّها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة؛ بل نقيض اللذع الذي هو السَّلاسة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه مِن الطراوة والبهاء ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحُسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعّة بعضهم إلى بعض.

---

١ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٥/٢.
٢ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحفص ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٩٥/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس والضحّاك وقتادة، والجَحدري وأبان وشيبان وحمّاد بن زيد وحمّاد بن عمرو، كلّهم عن عاصم، والواقدي عن حفص بن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٦.
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾[1] ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدَّر ولا مَنويّ؛ بل معناه أنّ بصرَك أينما وقع في الجنّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: هنيئًا واسعًا. وفي الحديث: «أدنى أهلِ الجنّة منزلةً ينظر في مُلكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه».[2] وقيل: لا زوالَ له.[3] وقيل: إذا أرادوا شيئًا كان.[4] وقيل: يُسلِّم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم.[5]

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قيل: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ظرف على أنّه خبر مقدَّم و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة صفة أخرى لـ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، كأنّه قيل: يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب... إلخ، وقيل: حال مِن ضمير ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ أو ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا / للمَطوف عليهم ثياب... إلخ، أو حسبتَهم لؤلؤًا [٢٥١و]
منثورًا عاليًا لهم ثياب... إلخ.[6]

وقُرئ: "عَالِيهِمْ"[7] بالرفع على أنّه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ﴾، أي: ما يعلوهم مِن لباسهم ثياب سندس. وقُرئ: "خُضْرٍ"[8] بالجرّ حملًا على ﴿سُندُسٍ﴾ بالمعنى، لكونه اسم جنس. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾. وقُرئ برفع الأوّل وجرّ الثاني،[9] وقُرئ بالعكس،[10] وقُرئ بجرّهما،[11] وقُرئ: "وَاسْتَبْرَقَ"[12] بوصل "الهمزة"

---

[1] م س: ثمّة.

[2] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٦٦/٢٣؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٤/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

[3] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

[5] مرويّ عن سفيان في جامع البيان للطبري، ٥٦٧/٢٣.

[6] الوجهان في اللباب لابن عادل، ٤٤/٢٠؛ وثانيهما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٠/٣.

[7] قرأ بها نافع وحمزة وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢. | ضُبطت في س: "عاليُهم".

[8] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[9] قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[10] قرأ بها ابن كثير وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[11] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[12] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦-١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.

والفتح على أنّه "استفعل" مِن البريق، جُعل عَلَمًا لهذا النوع مِن الثياب.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف، ٣١/١٨]، لإمكان الجمع والمُعاقبة والتبعيض، فإنّ حليّ أهل الجنّة تختلف حسب اختلاف أعمالهم، فلعلّه تعالى يُفيض عليهم جزاءً لِما عملوه بأيديهم حُلِيًا وأنوارًا تتفاوت تفاوتَ الذهب والفضّة، أو حالٌ مِن ضمير ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بإضمار "قد"، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدَم وذاك للمخدومين.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع آخرُ يفوق النوعين السالفين، كما يُرشد إليه إسنادُ سقيِه إلى ربّ العالمين ووصفُه بالطهوريّة، فإنّه يُطهِّر شاربه عن دنَس المَيل إلى الملاذّ الحسّيّة والركون إلى ما سوى الحقّ، فيتجرّد لمطالعة جماله مُلتذًّا بلقائه باقيًا ببقائه. وهي الغاية القاصية مِن منازل الصدّيقين، ولذلك خُتم بها مقالة ثواب الأبرار.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم: إنّ هذا الذي ذُكر مِن فنون الكرامات ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الحسَنة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مَرضيًا مقبولًا مقابِلًا بالثواب.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ٢٣ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٤ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي: مفرّقًا منجّمًا لحِكَم بالغة مقتضية له لا غيرُنا، كما يعرِب عنه تكرير الضمير مع "إنّ".

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على الكفّار فإنّ له عاقبةً حميدةً. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: كلّ واحد مِن مرتكب / الإثم الداعي لك إليه، [٢٥١ظ]
ومِن الغالي في الكفر الداعي إليه. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّهما سِيّان في استحقاق العصيان والاستقلال به، والتقسيمُ باعتبار ما يدعُونه إليه، فإنّ ترتّب النهي على الوصفين مُشعِر بعلّيّتهما له، فلا بدّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر،

لا فيما ليس بإثم ولا كفر. وقيل: الآثم عُتْبَةُ، فإنّه كان ركّابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفُسوق، والكَفور الوليدُ، فإنه كان غاليًا في الكفر شديدَ الشكيمة في العتوّ.[١]

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ وداوِمْ على ذِكره في جميع الأوقات، أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنّ الأصيل ينتظِمهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ وبعضَ الليل فصلِّ له، ولعلّه صلاة المغرب والعشاء. وتقديم الظرف لِما في صلاة الليل مِن مزيد كُلفةٍ وخُلوص. ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ وتهجَّد له قِطعًا مِن الليل طويلًا.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وينهمِكون في لذّاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ أي: أمامهم لا يستعدُّون أو ينبِذون وراء ظهورهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ لا يعبئون به، ووَصْفُه بالثقل لتشبيه شدّته وهَوله بثِقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة، وهو كالتعليل لِما أُمِر به ونُهِي عنه.

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ لا غيرُنا ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ أي: أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب، ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ بعد إهلاكهم ﴿تَبۡدِيلًا﴾ بديعًا لا ريبَ فيه هو البعث، كما ينبئ عنه كلمة ﴿إِذَا﴾، أو بدّلنا غيرَهم ممّن يُطيع، كقوله تعالى: ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [التوبة، ٣٩/٩]، و﴿إِذَا﴾ للدلالة على تحقّق القدرة وقوّة الداعية.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي: فمَن شاء أن يتّخذ إليه تعالى سبيلًا، أي: وسيلةً تُوصله إلى ثوابه اتّخذه، أي: تقرّب إليه بالعمل بما في تضاعيفها.

---

[١] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيق للحقّ ببيان أنّ مجرّد مشيئتهم غيرُ كافية في اتّخاذ السبيل، كما هو المفهوم مِن ظاهر الشرطيّة، / أي: [٢٥٢و] وما تشاءون اتّخاذ السبيل، ولا تقدِرون على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ مشيئته[١] تعالى تحصيلَه لكم؛ إذ لا دَخْلَ لمشيئة العبد إلّا في الكسب، وإنّما التأثير والخلقُ لمشيئة الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "يَشَاءُوْنَ"[٢] بـ"الياء"، وقُرئ: "إِلَّا مَا يَشَاءُ اللهُ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنيّةً على أساس العِلم والحكمة، والمعنى أنّه تعالى مبالغ في العِلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كلّ أحد فلا يشاء لهم إلّا ما يستدعيه عِلمه ويقتضيه حكمته.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ بيان لأحكام مشيئته المترتّبة على عِلمه وحكمته، أي: يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتّخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفِّقه لِما يؤدّي إلى دخول الجنّة مِن الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خِلاف ما ذُكر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي: متناهيًا في الإيلام. قال الزجّاج نصب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنّ ما قبله منصوب، أي: يُدخل مَن يشاء في رحمته ويعذِّب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمر.[٤] وقُرئ بالرفع[٥] على الابتداء.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كان جزاؤه على الله تعالى جنّةً وحريرًا».[٦]

---

[١] س: مشيئة الله.

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

[٤] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٦٤/٥؛ ونقله ابن عادل في اللباب، ٥٧/٢٠.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزُّبير وأبان بن عثمان وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٠/٢٨ (الإنسان، ١/٧٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٨/٤ (الإنسان، ١/٧٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٦

سُورَةُ الإِنسَانِ

مكية أو مدنية، إحدى وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿هَلْ﴾: قد ﴿أَتَى عَلَى الإنسانِ﴾ آدمَ ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهرِ﴾ أربعون سنة، ﴿لَم يَكُنْ﴾ فيه ﴿شَيئًا مَذكُورًا﴾؟ كان فيه مُصوَّرًا من طِين لا يُذكر. أو المراد بالإنسانِ الجِنسُ وبالحِينِ مُدّةُ الحَمل.

٢ ـ ٣ ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسانَ﴾ الجنس ﴿مِن نُطْفَةٍ أَمشَاجٍ﴾: أخلاط، أي: من ماء الرجل وماء المرأة المُختلطينِ المُمتزجينِ،..

سورَةُ الدَّهرِ

قولُهُ: (قَد) استِفهامُ تقريرٍ وتقريبٍ، ولذلك فُسِّر بـ(قَد).

قولُهُ: (أربَعُونَ) أي: طائفَةٌ محدودَةٌ من الزَّمانِ الممتَدِّ الغَيرِ المحدودِ.

قولُهُ: (فِيهِ) أشارَ إلى أنَّ الجُملَةَ وصفٌ لـ﴿حين﴾ بحَذفِ الرَّاجِعِ، وقيل: حالٌ من الإنسانِ.

قولُهُ: (لا يُذْكَرُ) أي: بل كانَ شَيئاً مَنسيًّا غير مذكورٍ بالإنسانيَّةِ، كالعنصُرِ والنُّطفَةِ.

قولُهُ: (الجِنسَ) أو آدَم عليهِ السَّلام، بيَّنَ أوَّلاً خَلقَهُ، ثمَّ ذكرَ خَلْقَ بنيه.

قولُهُ: (أَخلاطٍ) أي: مُختلِطَةٍ بماءِ المرأةِ ودمِها، جَمع: مَشَج كسَبَب، أو مَشِج ككَتِف، من مشَجت الشَّيءَ: إذا خَلطتَه[١].

قولُهُ: (المُمتَزِجَينِ) فالجمعُ باعتبارِ الجِنسِ، أو على أنَّ التَّثنيَةَ أقلُّ الجَمعِ، أو لأنَّ المرادَ بها: مجموعُ مَنيِّ الرَّجُلِ والمرأةِ، وكُلٌّ منهما مختلِفَةُ الأجزاءِ في الرِّقَّةِ والقَوامِ والخَواصِّ، ولذلك يصيرُ كلُّ جُزءٍ منها مادَّةَ عُضوٍ.

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٣٢٦).

﴿نَبتَلِيهِ﴾: نختبرُه بالتكليف ـ والجملة: مُستأنفة أو حال مُقدّرة ـ أي: مُريدين ابتلاءه حِين تأهّله، ﴿فجعَلْناهُ﴾ بسبب ذلك ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا. إنّا هَدَيناهُ السَّبِيلَ﴾: بيّنّا له طريق الهُدى ببعث الرسل، ﴿إمّا شاكِرًا﴾ أي: مُؤمنًا ﴿وإمّا كَفُورًا﴾: حالان من المفعول، أي: بيّنّا له في حال شُكره أو كُفره المُقدّرة. وإمّا: لتفصيل الأحوال.

٤ ـ ﴿إنّا أعتَدْنا﴾: هيّأنا ﴿لِلكافِرِينَ سَلاسِلَ﴾، يُسحَبون بها في النار ﴿وأغلالاً﴾ في أعناقهم تُشدّ فيها السلال ﴿وسَعِيرًا﴾: نارًا مُسعَّرة، أي: مُهيَّجة يُعذّبون بها. ٥ ـ ٦ ـ ﴿إنَّ الأبرارَ﴾: جمع بَرٍّ، أو بارٍّ ـ وهم المُطيعون ـ ﴿يَشرَبُونَ مِن كأسٍ﴾، هو إناء شُربِ الخمرِ وهي فيه ـ والمراد: من خمرٍ، تسميةٌ للحالّ باسم المحَلّ. ومِن: للتبعيض ـ ﴿كانَ مِزاجُها﴾: ما تُمزج به ﴿كافُورًا، عَينًا﴾: بدلٌ من «كافورًا» فيها رائحتُه،

قولُهُ: (أو حَالٌ) أي: في موضِعِ الحالِ؛ أي: مُبتلينَ له.

قولُهُ: (بِسَبَبِ ذَلِكَ) الابتلاءِ، عَطفٌ على: ﴿خَلَقنا﴾.

وقولُهُ تَعَالَى: (﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾) ليتَمَكَّنَ من مُشاهَدَةِ الدَّلائِلِ واستِماعِ الآياتِ.

قولُهُ: (بِبَعثِ الرُّسُلِ) ونصبِ الدَّلائلِ وإنزالِ الآياتِ.

قولُهُ: (مِنَ المَفْعُولِ) أي: من الهاءِ في: ﴿هَدَيناه﴾.

قولُهُ: (لتَفصِيلِ الأَحوَالِ) أي: هَدَيناهُ في حالَتَيهِ جميعاً.

قولُهُ: (يُسحَبُونَ) وقرأ نافِعٌ والكسائيُّ وأبو بَكرٍ وهشامٌ: ﴿سَلاسِلاً﴾ للمُناسَبَة[1].

قولُهُ: (جَمعُ: بَرٍّ) كأربابٍ.

قولُهُ: (أو بَارٍّ) كأشهادٍ.

قولُهُ: (والمُرَادُ) الظَّاهرُ: أو المرادُ.

قولُهُ: (ومِن لِلتَّبعِيضِ) على الثَّاني.

قولُهُ: (مَا تُمزَجُ) بالتَّأنيثِ.

قولُهُ: (﴿عَينًا﴾) هوَ عَينٌ يُشبِهُ الكَافُورَ في رائحتِهِ وبياضِهِ، أو المرادُ: نفسُ الكافورِ لبردِهِ وعذوبَتِهِ وطِيبِ عرفِهِ، وقيلَ: يخلُقُ في الخمرِ كيفيَّاتِ الكافورِ فتكونُ كالممزوجَةِ به.

قولُهُ: (بَدَلٌ) إن جُعِلَ اسمُ ماء للمُقرَّبينَ، أو نصبٌ على الاختصاصِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

﴿يَشرَبُ بِها﴾: منها ﴿عِبادُ اللهِ﴾: أولياؤه، ﴿يُفَجِّرُونَها تَفجِيرًا﴾: يقودونها حيثُ شاؤوا من منازلهم.

٧ ـ ﴿يُوفُونَ بِالنَّذرِ﴾ في طاعة الله، ﴿ويَخافُونَ يَومًا كانَ شَرُّهُ مُستَطِيرًا﴾: مُنتشرًا، ٨ ـ ﴿ويُطعِمُونَ الطَّعامَ علَى حُبِّهِ﴾ وشهوتهم له ﴿مِسكِينًا﴾: فقيرًا ﴿ويَتِيمًا﴾ لا أبَ له ﴿وأسِيرًا﴾ ـ يعني المحبوس بحقّ ـ ٩ ـ ﴿إنَّما نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللهِ﴾: لطلب ثوابه، ﴿لا نُرِيدُ مِنكُم جَزاءً ولا شُكُورًا﴾: شُكرًا. فيه عِلّة الإطعام. وهل تكلّموا بذلك، أو عَلِمه الله منهم فأثنى عليهم به؟ قولانِ. ١٠ ـ ﴿إنّا نَخافُ مِن رَبِّنا يَومًا عَبُوسًا﴾ تكلح الوجوه فيه، أي: كريهَ المنظر لشِدّته، ﴿قَمطَرِيرًا﴾: شديدًا في ذلك.

١١ ـ ١٢ ـ ﴿فوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ اليَومِ، ولَقّاهُم﴾: أعطاهم ﴿نَضرَةً﴾: حُسنًا وإضاءة في وُجوههم ﴿وسُرُورًا، وجَزاهُم بِما صَبَرُوا﴾: بصبرهم عن المعصية ﴿جَنَّةً﴾ أُدخِلوها ﴿وحَرِيرًا﴾ أُلبِسوه، ١٣ ـ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: حالٌ من مرفوع «أُدخِلوها» المُقدّر،........................

قولُهُ: (مِنهَا) فالباءُ بمعنى: (مِن)؛ لأنَّ الشُّربَ مبتَدأٌ منها كما هوَ، وقيل: الباءُ زائدَةٌ، أو التَّقديرُ: مُلتَذًّا، أو ممزوجاً.

قولُهُ: (يَقُودُونَهَا) أي: يجرونَها إجراءً سَهلاً.

قولُهُ: (طَاعَةِ اللهِ) استئنافٌ ببَيانِ ما رزِقوهُ لأجلِهِ، وهو أبلَغُ في وصفِهِم بالتَّوفرِ على أداءِ الواجِباتِ؛ لأنَّ من وفَّى بما أوجَبهُ على نفسِهِ لله كان أوفى بما أوجَبهُ الله تعالى عليه.

قولُهُ: (مُنتَشِراً) غايَةَ الانتِشارِ، وشَرُّهُ شدائدُهُ.

قولُهُ: (وشَهوَتِهِم لَهُ) أو حُبِّ اللهِ، أو الإطعامِ.

قولُهُ: (المَحبُوسَ) قالَ القاضِي[1]: يعني: أُسارَى الكفَّارِ؛ فإنَّه ﷺ كان يُؤتى بالأسيرِ فيدفَعهُ إلى بعضِ المسلمينَ فيقولُ: «أَحْسِن إِلَيهِ»[2]، أو الأسيرَ المؤمِنَ، ويدخُلُ فيه المملوكُ والمسجونُ.

قولُهُ: (تَكَلَّمُوا) إزاحَةً لتوهُّمِ المنِّ وتوَقُّعِ المكافَأةِ المنقِصَةِ للأجرِ.

قولُهُ: (أَو عَلِمَهُ اللهُ) فكأنَّهُم قالوا بلِسانِ الحالِ.

قولُهُ: (عَنِ المَعصِيَةِ) وعلى الطَّاعَةِ وفي البَلِيَّةِ.

قولُهُ: (أُدخِلُوهَا) وأكَلوا منها.

قولُهُ: (مِن مَرفُوعِ) الظَّاهرُ: من «هُم» في: ﴿جَزاهُم﴾، أو صفَةٌ (لجنةٌ).

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٧٠).

(٢) لم أقف عليه، وسكت عنه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ١٣٣).

﴿فِيها علَى الأرائكِ﴾: السُّرر في الحِجال، ﴿لا يَرَونَ﴾: لا يجدون: حالٌ ثانية ﴿فِيها شَمسًا ولا زَمهَريرًا﴾ أي: لا حرًّا ولا بردًا ـ وقيل: الزمهرير: القمر. فهي مُضيئة من غير شمس ولا قمر ـ ١٤ ـ ﴿ودانِيةً﴾: قريبة، عطفٌ على محلّ «لا يرون»، أي: غيرَ رائين، ﴿علَيهِم﴾: منهم ﴿ظِلالُها﴾: شجرِها، ﴿وذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذلِيلاً﴾: أُدنِيَتْ ثِمارها، فينالها القائم والقاعد والمضطجع.

١٥ ـ ١٦ ـ ﴿ويُطافُ علَيهِم﴾ فيها ﴿بِآنِيةٍ مِن فِضّةٍ وأكْوابٍ﴾: أقداح بلا عُرى، ﴿كانَتْ قَوارِيرَ، قَوارِيرَ مِن فِضّةٍ﴾ أي: أنها من فِضّة، يُرى باطنها من ظاهرها كالزجاج، ﴿قَدَّرُوها﴾ أي: الطائفون ﴿تَقدِيرًا﴾ على قدر رِيّ الشاربين من غير زيادة ولا نقص ـ وذلك ألذُّ الشراب ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿ويُسقَونَ فِيها كأسًا﴾ أي: خمرًا ﴿كانَ مِزاجُها﴾: ما تُمزج به ﴿زَنجَبِيلاً، عَينًا﴾: بدلٌ من «زنجبيلاً» ﴿فِيها تُسَمَّى سَلسَبِيلاً﴾، يعني أنّ ماءها كالزنجبيل الذي تستلذّ به العرب سهلُ المساغ في الحلق.

قولُهُ: (حَالٌ) أو صفَةٌ.

قولُهُ: (مُضِيئَةٌ) بذاتِها.

قولُهُ: (عَطفٌ) أو حالٌ، أو صفَةٌ أخرى.

قولُهُ: (شَجَرِهَا) بالجرِّ على تقديرِ مُضافٍ.

قولُهُ: (أَقدَاحٍ) الظَّاهرُ: أباريقَ.

قولُهُ: (كالزُّجَاجِ) يعني: تكونُ جامِعةً بينَ صَفاءِ الزُّجاجَةِ وشفيفِها، وبَياضِ الفضَّةِ ولينِها، وقد نوَّنَ ﴿قَوارِيرًا﴾ من نوَّنَ ﴿سَلاسِلا﴾ إلا هِشاماً، ونوَّنَ ابنُ كثيرٍ الأولى؛ لأنَّها رأسُ الآيِ[1].

قولُهُ: (أي: الطَّائِفُونَ) المدلولُ عليهم بقولِهِ: ﴿يُطَافُ﴾ شَرابُها.

قولُهُ: (رِيِّ الشَّارِبِينَ) أي: اشتِهائِهِم، أو قَدَّروها في أنفُسِهِم فجاءَت مَقادِيرُها وأشكالُها كما تمنَّوهُ.

قولُهُ: (كالزَّنجَبِيلِ) أي: في الطَّعمِ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: بالشَّرابِ الممزُوجِ به.

قولُهُ: (سَهلُ المَسَاغِ) تفسيرٌ لـ﴿سَلسَبِيلا﴾ يُقال: شَرابٌ سلسَلٌ وسَلسالٌ وسَلسَبيل، ولذلك حَكَمَ بزيادَةِ الباء، والمرادُ به: أن يَنفيَ عنه لَذعَ الزَّنجَبيلِ ويصِفَها بنقيضِهِ، وقيل: أصلُهُ سَلْ سبيلاً، فسُمِّيَت به كتأَبَّطَ شَرًّا؛ لأنَّه لا يشرَبُ منها إلا من سَأَلَ إليها سَبيلاً بالعمَلِ الصَّالِحِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

١٩ ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيهِم وِلدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾: بصفة الوِلدان لا يَشيبون، ﴿إذا رأيتَهُم حَسِبتَهُم﴾ لحُسنهم وانتشارهم في الخِدمة ﴿لُؤلُؤًا مَنثُورًا﴾ من سِلكه، أو من صدفه، وهو أحسن منه في غير ذلك ـ ٢٠ ـ ﴿وإذا رأيتَ ثَمَّ﴾ أي: وُجِدَتِ الرؤيةُ منك في الجنّة ﴿رأيتَ﴾: جوابُ «إذا» ﴿نَعِيمًا﴾ لا يُوصف ﴿ومُلكًا كَبيرًا﴾: واسعًا لا غاية له ـ ٢١ ـ ﴿عالِيَهُم﴾: فوقَهم، فنصبُه على الظرفيّة، وهو خبر المُبتدأ بعده، وفي قراءة بسكون الياء مبتدأ وما بعده خبره والضمير المُتّصل به للمَطوف عليهم، ﴿ثِيابُ سُندُسٍ﴾: حريرٍ ﴿خُضرٌ﴾، بالرفع، ﴿وإستبرَقٍ﴾ بالجرّ: ما غلُظ من الدِّيباج فهو البطائن، والسندس الظهائر، وفي قراءة عكسُ ما ذُكر فيهما،..........

قولُهُ: (لحُسنِهِم) وصَفاءِ ألوانِهِم، وانعِكاسِ شُعاعِ بعضِهِم إلى بَعض.

قولُهُ: (أي: وَجَدْتَ) يعني: لَيسَ له مفعولٌ مَلفوظٌ ولا مُقدَّرٌ؛ لأنَّه عامٌّ معناهُ: أنَّ بصَرَكَ أينما وقعَ، فنُزِّلَ منزلَةَ اللَّازِم.

قولُهُ: (وَاسِعاً) وفي الحديثِ: «أدنى أهلِ الجَنَّة مَنزِلَةً يَنظُرُ في مُلكِهِ مَسِيرَةَ ألفِ عامٍ يَرَى أقصاهُ كَما يَرَى أدناه»[1].

قولُهُ: (على الظَّرفِيَّةِ) أو على الحاليَّةِ من «هم» في ﴿عَلَيهِم﴾ أو ﴿حَسِبتَهُم﴾؛ أي: يَعلوهُم ثِيابٌ، ولم يتعرَّفْ بالإضافَةِ؛ لأنَّه ليسَ بمعنى المضِيِّ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافِعٍ وحمزَةَ[2].

قولُهُ: (بالرَّفعِ) صفَةُ: ﴿ثِيَاب﴾.

قولُهُ: (بالجَرِّ) عطفٌ على: ﴿سُندُس﴾.

قولهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمَكِّيٍّ وشعبَة[3].

قولُهُ: (فيهِمَا) أي: ﴿خُضرٍ﴾ بالجرِّ حملاً على: ﴿سُندُس﴾ بالمعنى؛ فإنَّهُ اسمُ جِنسٍ، و﴿استَبرَق﴾ بالرَّفعِ عَطفاً على: ﴿ثِيَاب﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٥٣١٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٧١٢) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٠١): فيه ثوير بن أبي فاختة، وهو مجمع على ضعفه.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

(٣) انظر المصدر السابقة.

وفي أُخرى برفعهما، وأُخرى بجرّهما، ﴿وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضّةٍ﴾ ـ وفي مواضع أُخرَى: «مِن ذَهَبٍ»، للإيذان أنهم يُحلَّون من النوعين معًا ومُفرّقًا ـ ﴿وسَقاهُم رَبُّهُم شَرابًا طَهُورًا﴾ مُبالغةٌ في طهارته ونظافته، بخِلاف خمر الدنيا: ٢٢ ـ ﴿إنَّ هذا﴾ النعيمَ ﴿كانَ لَكُم جَزاءً، وكانَ سَعيُكُم مَشكُورًا﴾.

٢٣ ـ ﴿إنّا نَحنُ﴾ ـ تأكيد لاسم «إنْ» أو فصلٌ ـ ﴿نَزَّلْنا عليكَ القُرآنَ تَنزِيلاً﴾: خبرُ «إنْ» أي: فصّلناه، ولم نُنزِله جُملة واحدة. ٢٤ ـ ﴿فاصبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ رسالته، ﴿ولا تُطِعْ مِنهُم﴾ أي: الكُفّارِ ﴿آثِمًا أو كَفُورًا﴾ أي: عُتبةَ بنَ ربيعة والوليدَ بنَ المُغيرة ـ قالا للنبي: ارجِعْ عن هذا الأمر. ويجوز أن يُراد كُلُّ آثم وكافر، أي: لا تطع أحدَهما أيًّا كان، فيما دعاك إليه من إثم أو كفر ـ ٢٥ ـ ﴿واذكُرِ اسمَ رَبِّكَ﴾ في الصلاة ﴿بُكرَةً وأصِيلاً﴾ يعني الفجرَ والظهر والعصر، ....

قولُهُ: (وفِي أُخرَى) لنافِعٍ وحفصٍ(١).

قولُهُ: (وأُخرَى) لحمزَةَ والكسائِيِّ(٢).

قولُهُ: (مُبَالَغَةٌ) يريدُ به نوعاً آخرَ من الخَمرِ لا الماءَ، كما قيلَ، يفوقُ على النَّوعَينِ المتَقدِّمينِ، ولذلك أسنَدَ سقيَهُ إلى الله تعالى ووصفَهُ بالطُّهوريَّةِ، فإنَّه يُطهِّرُ شاربَهُ عن الميلِ إلى اللَّذّاتِ الحسِّيَّةِ والرُّكونِ إلى ما سِوى الحقِّ فيتجَرَّدُ لمُطالعَةِ جمالِهِ مُلتَذًّا بلقائِهِ باقياً ببقائِهِ، وهي مُنتَهى دَرجاتِ الصِّدِّيقينَ، ولذلك ختمَ به ثوابَ الأبرارِ.

قولُهُ: (النَّعِيم) على إضمارِ القَولِ.

قولهُ تَعالَى: (﴿مَشكُوراً﴾) أي: مُجازىً عليه غيرَ مَضيعٍ.

قولُهُ: (جُملَةً) لحكمَةٍ اقتضَتهُ.

قولُهُ: (بِتَبلِيغِ) أو بتأخِيرِ نصرِكَ.

قولُهُ: (والوَلِيد) اختيرَ ﴿أو﴾ على الواو لقَصدِ المبالَغَة في النَّفعِ مع دَفعِ التَّوهُّمِ من أوَّلِ الأمرِ.

قولُهُ: (أحَدَهُمَا) المقَرَّرُ في كُتُبِ الأصولِ أنَّ ﴿أو﴾ إذا وقَعَت في سياقِ النَّفيِ يكونُ لنفيِ أحدِ الأمرين لا على التَّعيينِ فيفيدُ العمومَ؛ لأنَّ نفيهُ كنفيِ النَّكرَةِ.

قولُهُ: (في الصَّلاةِ) أي: دُم عليها.

قولُهُ: (والظُّهرَ والعَصرَ) فإنَّ الأصيلَ يتناوَلُ وقتَيهما، وقيل: المعنى: داوِمْ على ذكرِهِ تعالى.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

٢٦ ـ ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فاسجُدْ لَهُ﴾ يعني المغربَ والعِشاء، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيلاً طَوِيلاً﴾: صلِّ التطوّعَ فيه كما تقدّم من ثُلثيه أو نِصفِه أو ثُلثِه.

٢٧ ـ ﴿إنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلةَ﴾ الدنيا، ﴿وَيَذَرُونَ وَراءَهُم يَومًا ثَقِيلاً﴾: شديدًا، أي: يومَ القيامة لا يعملون له. ٢٨ ـ ﴿نَحنُ خَلَقْناهُم، وشَدَدْنا﴾: قوّينا ﴿أَسْرَهُم﴾ أعضاءهم ومفاصلهم، ﴿وإذا شِئْنا بَدَّلْنا﴾: جعلنا ﴿أمثالَهُم﴾ في الخِلقة بدلاً منهم بأن نُهلكهم ﴿تَبدِيلاً﴾: تأكيد. ووقعت «إذا» موقع «إن» نحو: «إنْ يَشَأْ يُذهِبْكُم» لأنه ـ تعالى ـ لم يشأ ذلك، وإذا: لِما يقعُ.

٢٩ ـ ﴿إنَّ هذِهِ﴾ السورةَ ﴿تَذكِرةٌ﴾: عِظة للخلق. ﴿فمَن شاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾: طريقًا بالطاعة. ٣٠ ـ ﴿وما يَشاؤُونَ﴾، بالياء والتاء، اتخاذَ السبيل بالطاعة ﴿إلاّ أن يَشاءَ اللهُ﴾ ذلك. ﴿إنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في فِعله، ٣١ ـ ﴿يُدخِلُ مَن يَشاءُ في رَحْمتِهِ﴾: جنّته ـ وهم المُؤمنون ـ ﴿والظّالِمِينَ﴾ ناصبُه فِعل مُقدّر، أي: أوعدَ، يفسّره: ﴿أعَدَّ لَهُم عَذابًا أَلِيمًا﴾: مُؤلمًا. وهم الكافرون.

قولُهُ: (صَلِّ) أي: وتهجَّدْ له طائفةً طويلَةً من اللَّيلِ.

قولُه: (مِن ثُلُثَيه) أو غيرَ مُقيَّدٍ بمقدارٍ مُعيَّنٍ كما تقدَّمَ.

قولُهُ: (شَدِيداً) و﴿وَرَاءَهُم﴾ أمامَهُم، أو خَلفَ ظُهورِهِم.

قولُهُ: (قَوَّينا) وأحكَمنا.

قولُهُ: (ومَفَاصِلَهُم) أي: ربَطَ مفاصِلَهُم بالأعصابِ.

قولُهُ: (و﴿إِذَا﴾ لِمَا يَقَعُ) أو ﴿إذا﴾ لتحقُّقِ القُدرةِ وقُوَّةِ الدَّاعيةِ، أو إذا على أصلِها، والمعنى: إذا شِئنا أهلكناهُم وبدَّلنا أمثالَهُم في الخلقَةِ وشدِّ الأسرِ؛ يعني: النَّشأةَ الثَّانيَةَ.

قولُهُ: (السُّورَةَ) أو الآياتِ القريبَةِ.

قولُهُ: (طَرِيقاً) تُقرِّبُ إليهِ.

قولُهُ: (باليَاءِ) الغيبةُ، مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (ذَلِكَ) أي: ما تشاؤُونَ ذلك إلا وقتَ أن يَشاءَ الله مشيئَتَكُم.

قولُهُ: (جَنَّتِهِ) بالهدايَةِ والتَّوفيقِ للطَّاعَةِ.

قولُهُ: (نَاصِبُهُ) وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتِداءِ[2]، والله تعالى أعلَمُ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن الزبير وأبان بن عثمان وإبراهيم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٧).

سُورَةُ الإِنسَانِ

وتسمَّى سورة الدهر، والأبرار، والأمشاج، و«هل أتى».

وهي مكِّيَّة عند الجمهور على ما في «البحر»[1]، وقال مجاهد وقتادة: مدنيَّة كلُّها. وقال الحسن وعكرمة والكلبيُّ: مدنيَّة إلا آيةً واحدةً فمكِّيَّة وهي: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الآية: ٢٤]. وقيل: مدنيَّة إلا مِن قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٢٤] إلى آخرها، فإنَّه مكِّيٌّ، وعن ابنِ عادل حكاية مدنيَّتها على الإطلاق عن الجمهور[2]، وعليه الشيعة.

وآيها إحدى وثلاثون آيةً بلا خلاف، والمناسبة بينها وبين ما قبلها في غاية الوضوح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ①﴾ أصله على ما قيل: أَهَلْ، على أنَّ الاستفهامَ للتقرير، أي: الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرَّر به مَن ينكر البعث، وقد عُلِمَ أنَّهم يقولون: نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك، فيقال: فالذي أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته؟! و«هل» بمعنى «قد»، وهي للتقريب، أي: تقريب الماضي مِن الحال، فلما سدَّت «هل» مسدَّ الهمزة دلَّت على معناها ومعنى الهمزة معاً، ثم صارت

---

(١) ٨/ ٣٩٣.

(٢) اللباب ٢٠/ ٣.

حقيقة في ذلك، فهي للتقرير والتقريب، واستدلَّ على ذلك الأصل بقول زيد الخيل:

سائل فوارسَ يَرْبُوعٍ بشدَّتنا أَهَلْ رَأَونا بسَفْحِ القاعِ ذي الأَكَمِ[١]

وقيل: هي للاستفهام ولا تقريبَ، وجمعها مع الهمزة في البيت للتأكيد كما في قوله:

ولا لِلِما بهم أبداً دواء[٢]

بل التأكيد هنا أقربُ؛ لعدم الاتحاد لفظاً، على أنَّ السيرافيَّ قال: الرواية الصحيحة: أم هل رَأَونا، على أنَّ «أم» منقطعة بمعنى «بل». وقال السيوطيُّ في «شرح شواهد المغني»: الذي رأيته في نسخة قديمة مِن ديوان زيد: فهل رَأَونا، بالفاء[٣].

وعن ابنِ عباس وقتادة: هي هنا بمعنى «قد»، وفسَّرها بها جماعة مِن النحاة كالكسائيِّ وسيبويه[٤] والمبرِّد[٥] والفرَّاء[٦]، وحُملت على معنى التقريب، ومن الناس مَن حَمَلها على معنى التحقيق، وقال أبو عبيدة: مجازها: قد أتى على الإنسان، وليس باستفهام[٧]. وكأنَّه أراد ليس باستفهام حقيقةً، وإنَّما هي للاستفهام التقريري، ويرجع بالآخرة إلى «قد أتى»، ولعلَّ مرادَ مَن فسَّرها بذلك كابن عباس وغيره ما ذُكرَ، لا أنَّها بمعنى «قد» حقيقةً، وفي «المغني»[٨] ما تفيدك مراجعتُه بصيرةً، فراجعه.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٢٢١) من سورة الشعراء.

(٢) عجز بيت لمسلم بن معبد الوالبي، وسلف ٢/ ٦، وصدره:

فلا والله لا يُلفى لما بي

(٣) شرح شواهد المغني ٢/ ٧٧٣.

(٤) الكتاب ١/ ١٠٠.

(٥) المقتضب ١/ ٤٣-٤٤ و٣/ ٢٨٩.

(٦) معاني القرآن ٣/ ٢١٣.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩.

(٨) ص٤٦٠ وما بعدها.

والمراد بـ «الإنسان» الجنس على ما أخرجه ابنُ المنذر عن ابنِ عباس(١)، والحين: طائفةٌ محدودة مِن الزمان شاملةٌ للكثير والقليل، والدهر: الزمان الممتدُّ الغيرُ المحدود، ويقع على مدَّة العالَم جميعِها، وعلى كلِّ زمانٍ طويل غيرِ معيَّن، والزمان عامٌّ للكلِّ. والدهر وعاءُ الزمان، كلام فلسفيٌّ.

وتوقَّف الإمام أبو حنيفة في معنى الدهر منكَّراً ـ أي: في المراد به عرفاً ـ في الأيمان، حتى يقال: بماذا يَحنثُ إذا قال: واللهِ لا أُكلِّمه دهراً، والمعرَّفُ عنده مدَّةُ حياةِ الحالف عند عدم النيَّة، وكذا عند صاحبيه، والمنكَّر عندهما كالحين، وهو معرَّفاً ومنكَّراً كالزمان ستَّةُ أشهر إن لم تكن نيَّة أيضاً، وبها ما نوى على الصحيح، وما اشتهر مِن حكاية اختلاف فتاوى الخلفاء الأربعة في ذلك على عهدِه عليه الصلاة والسلام مستدلًّا كلٌّ بدليل، وقوله ﷺ بعد الرَّفْع إليه: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم»(٢) إلَّا أنَّه اختار فتوى الأمير كرَّم الله تعالى وجهه بأنَّ الحينَ يومٌ وليلةٌ، لما فيه مِن التيسير، لا يصحُّ، كما لا يخفى على الناقد البصير، ولو صحَّ لم يعدل عن فتوى الأمير معدنِ البسالة والفتوَّة بعد أن اختارها مدينةُ العلم ومفخرُ الرسالة والنبوَّة.

والمعنى هنا: قد أتى ـ أو: هل أتى ـ على جنس الإنسان قَبْلَ زمانٍ قريب طائفةٌ محدودةٌ مقدَّرة كائنة مِن الزمان الممتدِّ لم يكن شيئاً مذكوراً، بل كان شيئاً غيرَ مذكور بالإنسانيَّة أصلاً، أي: غيرَ معروف بها، على أنَّ النفيَ راجع إلى القيد، والمراد أنَّه معدومٌ لم يُوجَد بنفسِه، بل كان الموجودُ أصلَه ممَّا لا يُسمَّى إنساناً، ولا يُعرَف بعنوان الإنسانيَّة وهو مادته البعيدة ـ أعني العناصر ـ أو المتوسِّطة وهي الأغذية، أو القريبة وهي النُّطفة المتولِّدة من الأغذية المخلوقة مِن العناصر. وجملة «لم يكن» إلخ حال مِن «الإنسان» أي: غير مذكور، وجوّز أن تكون صفة لـ «حين» بحذف العائدِ عليه، أي: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، كما في قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ١٢٣] وإطلاق الإنسان على مادته مجازٌ بجَعْل ما هو بالقوَّة منزَّلاً منزلةَ ما هو بالفعل، أو هو مِن مجاز الأوْل.

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧.
(٢) سلف عند تفير الآية (٢٢) من سورة الشورى.

وقيل: المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام. وأيِّد الأوَّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنَّ الإنسان فيه معرفة معادَة، فلا يفترقان، كيف وفي إقامة الظاهر مقامَ المُضمر فَضْل التقرير والتمكين في النفس، فإذا اختلفا عموماً وخصوصاً فاتت الملاءمة، ولا شَكَّ أنَّ الحَمْلَ على آدمَ عليه السلام في هذا لا وَجْهَ له ولا نقض به على إرادة الجنس بناء على أنَّه لا عمومَ فيه ولا خصوصَ، نعم دلَّ قولُه سبحانه: «من نطفة» على أنَّ المراد غيرُه، أو هو تغليب، وقيل: يُجعَل ما للأكثر للكلِّ مجازاً في الإسناد، أو الطرف، ورُويت إرادته عن قتادة والثوريِّ وعكرمة والشعبيِّ وابنِ عباس أيضاً. وقال في رواية أبي صالح عنه: مرَّت به أربعون سنةً قَبْلَ أن ينفخَ فيه الروح وهو ملقًى بين مكَّة والطائف.

وفي رواية الضحاك عنه: أنَّه خُلقَ مِن طين فأقام أربعين سنة، ثم مِن حَمَأ مسنونٍ فأقام أربعين سنة، ثم مِن صلصال فأقام أربعين سنة، فتمَّ خَلْقُه بعد مئة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح.

وحكى الماورديُّ عنه أنَّ الحينَ المذكور هاهنا هو الزمنُ الطويل الممتدُّ الذي لا يُعرَف مقدارُه[١]. وروي نحوه عن عكرمة، فقد أخرج عبد بنُ حميد وابنُ المنذر عنه أنَّه قال: إنَّ مِن الحين حيناً لا يُدرَك. وتلا الآيَةَ، فقال: واللهِ ما يُدرَى كم أتى عليه حتى خَلَقَه اللهُ تعالى[٢].

ورأيتُ لبعض المتصوّفة أنَّ «هل» للاستفهام الإنكاري، فهو في معنى النفي، أي: ما أَتى على الإنسان حينٌ مِن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وظاهره القولُ بقِدَم الإنسان في الزمان على معنى أنَّه لم يكن زمان إلا وفيه إنسان وهو القِدَم النوعيُّ، كما قال به مَن قال مِن الفلاسفة، وهو كُفْرٌ بالإجماع، ووجِّه بأنَّهم عَنَوا شيئيَّة الثبوت لقِدَم الإنسان عندهم بذلك الاعتبار، دون شيئيَّة الوجود ضرورةَ أنَّه بالنسبة إليها حادثٌ زماناً، ويرشد إلى هذا قول الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والخمسين وثلاث مئة من «الفتوحات المكّيَّة»: لو لم يكن في العالَم مَن هو على صورة الحقِّ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ ولم ينسبه لابن المنذر.

ما حصل المقصود مِن العلم بالحقِّ، أعني: العِلْم الحادثَ في قوله سبحانه: «كنتُ كنزاً لم أُعرَف، فأحببتُ أن أُعرَف فخلقتُ الخَلْقَ وتعرَّفت إليهم فعرفوني» فجعل نفسه كنزاً، والكنز لا يكون إلا مُكتَنَزاً في شيءٍ، فلم يكن كنز الحقِّ نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئيَّة ثبوتِه هناك، كان الحقُّ مكنوزاً فلما ألبسَ الحقُّ الإنسانَ ثوبَ شيئيَّة الوجود، ظهر الكنز بظهوره، فعرفه الإنسان الكامل بوجوده، وعَلِمَ أنَّه كان مكنوزاً فيه في شيئيَّة ثبوته، وهو لا يَشعُر به(١). انتهى.

ولا يخفى أنَّ الأشياء كلَّها في شيئيَّة الثبوت قديمةٌ لا الإنسان وحدَه، ولعلَّهم يقولون: الإنسان هو كلُّ شيءٍ؛ لأنَّه الإمام المبين، وقد قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

والكلام في هذا المقام طويل، ولا يَسَعنا أن نطيل، بَيْدَ أنَّا نقول: كون «هل» هنا للإنكار مُنكَر، وأنَّ دعوى صحَّة ذلك لإحدى الكُبَر، والذي فهمه أجلَّةٌ من الصحابة ﷺ من الآية الإخبارَ الإيجابيَّ، أخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه سمع رجلاً يقرأ: «هل أتى على الإنسان شيء مِن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» فقال: ليتها تمَّت(٢).

وعن ابن مسعود ﷺ أنَّه سمع رجلاً يتلو ذلك، فقال: يا ليتها تمَّت. فعُوتبَ في قوله هذا، فأخذ عموداً مِن الأرض، فقال: يا ليتني كنتُ مثلَ هذا(٣).

﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمع: مَشَج، بفتحتين، كسبب وأسباب، أو: مَشِج، بفتح فكسر ككتِف وأكتاف، أو مَشِيج(٤) كشهيد وأشهاد، ونصير وأنصار. أي: أخلاط، جمع:

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٦٧ والحديث المذكور سلف الكلام عليه ١/ ١٩٩ و٢٦/ ٥١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ وعزاه أيضاً لابن المبارك في الزهد ص٧٩، وأبي عبيد في فضائل القرآن (١٦)، وابن المنذر، وورد في المصادر كلها: حين، بدل: شيء. في الآية.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٢٩٨، وعبد بن حميد وابن المنذر، وورد فيهما: حين، بدل: شيء.
(٤) جاء في هامش الأصل: وفعيل يجمع على أفعال، وإن قال في «التسهيل»: إنه غير مقيس. انتهى منه.

خِلْط، بمعنى مختلط ممتزج، يقال: مشجتُ الشيءَ: إذا خلطته ومزجته، فهو مشيج وممشوج، وهو صفة لـ «نطفة»، ووُصفَ بالجمع وهي مفرَدة؛ لأنَّ المرادَ بها مجموعُ ماء الرجل والمرأة، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما رقَّة وغِلَظاً، وصُفْرة وبياضاً، وطبيعة وقوَّة وضعفاً، حتى اختصَّ بعضُها ببعض الأعضاء على ما أراده اللهُ تعالى بحكمته، فخلقه بقدرته، وفي بعض الآثار: أنَّ ما كان مِن عَصَب وعَظْم وقوَّة فمِن ماء الرجل، وما كان مِن لحم ودمٍ فمِن ماء المرأة.

والحاصل أنَّه نُزِّل الموصوفُ منزلةَ الجمع، ووصف بصفة أجزائه.

وقيل: هو مفرَد جاء على أَفْعَال كأعشار وأكياش في قولهم: بُرْمَة أعشار، أي: متكسِّرة، وبُرْد أكياش، أي: مغزولٌ غَزْله مرَّتين. واختاره الزمخشريُّ[(١)]، والمشهور عن نصِّ سيبويه وجمهور النحاة أنَّ أفعالاً لا يكون [إلَّا] جمعاً[(٢)]، وحكي عنه أنَّه ذهب إلى ذلك في أنعام[(٣)].

ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين: نطفةٌ اختلطَ وامتزج فيها الماءان، وقيل: اختلط فيها الدمُ والبَلْغم والصفراء والسوداء، وقيل: الأمشاج نفسُ الأخلاط التي هي عبارة عن هذه الأربعة، فكأنَّه قيل: «مِن نطفة» هي عبارة عن أخلاط أربعة.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنَّه قال: «أمشاج» أي: ألوان، أي: ذات ألوان، فإنَّ ماءَ الرجل أبيضُ وماءَ المرأة أصفرُ، فإذا اختلطا ومَكَثا في قَعْر الرَّحِم اخْضَرَّا كما يخضرُّ الماءُ بالمكثِ[(٤)]. وروي عن الكلبي.

وأخرج عن زيد بنِ أسلم أنَّه قال: الأمشاج: العروق التي في النطفة. وروي ذلك عن ابنِ مسعود، أي: ذات عروق.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٤.

(٢) ما بين معقوفين لم يرد في الأصل و(م)، وهي زيادة يقتضيها السياق، ولأن سيبويه صرَّح في الكتاب ٣/ ٤٩٦ بأن أفعالاً لا يكون إلا جمعاً، وكذا ذكر في البحر المحيط ٨/ ٣٩٤ بأن أفعالاً لا يكون مفرداً، وينظر الدر المصون ١٠/ ٥٩١-٥٩٣، وينظر كذلك ما سلف ١٤/ ١٨٢.

(٣) الكتاب ٣/ ٢٢٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٩٨بنحوه، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد.

وروي عن عكرمة، وكذا ابن عباس أنَّه قال: «أمشاج»: أطوار، أي: ذات أطوار، فإنَّ النطفةَ تصير علقةً ثم مضغةً، وهكذا إلى تمام الخِلْقة ونَفْخِ الروح.

وقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حالٌ مِن فاعل «خلقنا»، والمراد: مريدينَ ابتلاءَه واختبارَه بالتكليف فيما بَعْدُ، على أنَّ الحالَ مقدَّرة، أو ناقلين له مِن حالٍ إلى حال ومِن طورٍ إلى طور، على طريقة الاستعارة؛ لأنَّ المنقولَ يَظهرُ في كلِّ طورٍ ظهوراً آخرَ كظهور نتيجة الابتلاءِ والامتحان بَعْدَه، وروي نحوه عن ابنِ عباس. وعلى الوجهين ينحلُّ ما قيل: إنَّ الابتلاءَ بالتكليف، وهو يكون بعد جَعْله سميعاً بصيراً لا قَبْلُ، فكيف يترتَّب عليه قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾. (١وقيل: الكلام على التقديم والتأخير١)، والجملة استئناف تعليليٌّ، أي: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، وحكي ذلك عن الفرَّاء(٢)، وعُسِّفَ، لأنَّ التقديمَ لا يقع في حاقِّ موقعه لا لفظاً لأجل الفاء، ولا معنىً؛ لأنَّه لا يتَّجه السؤال قبل الجعل، والأَوْجه الأَوَّل، وهذا الجعل كالمسبَّب عن الابتلاء؛ لأنَّ المقصود مِن جعله كذلك أن يَنظُر الآياتِ الآفاقيَّة والأنفسيَّة ويَسمعَ الأدلَّة السمعيَّة، فلذلك عطف على الخَلْق المقيَّد به بالفاء، ورتّب عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لأنَّه جملة مستأنفةٌ تعليليَّة في معنى: لأنَّا هديناه، أي: دَلَلناه على ما يُوصِله من الدلائل السمعيَّة كالآيات التنزيليَّة، والعقليَّةِ كالآيات الآفاقيَّة والأنفسيَّة، وهو إنَّما يكون بعد التكليف والابتلاء.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ حالان مِن مفعول «هدينا»، و«إمَّا» للتفصيل باعتبار تعدُّد الأحوال مع اتِّحاد الذات، أي: هديناه ودَلَلناه على ما يُوصِل إلى البُغْية في حالتَيْه جميعاً مِن الشكر والكفر، أو للتقسيم للمُهْدى باختلاف الذوات والصفات، أي: هديناه السبيل مقسوماً إليها، بعضهم شاكر بالاهتداء للحقِّ وطريقِه بالأخذ فيه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، وحاصله: دَلَلناه على الهداية والإسلام، فمنهم مهتدٍ مسلم، ومنهم ضالٌّ كافر.

(١-١) ليست في الأصل.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢١٤.

وقيل: حالان مِن «السبيل»، أي: عرَّفناه السبيلَ إمَّا سبيلاً شاكراً، وإمَّا سبيلاً كفوراً، على وصف السبيل بوصف سَالِكِه مجازاً، والمراد به لا يَخفى.

وعن السُّدِّيِّ: أنَّ السبيلَ هنا سبيلُ الخروج مِن الرحم. وليس بشيءٍ أصلاً.

وقرأ أبو السَّمَّال وأبو العاج[1]: «أَمَّا» بفتح الهمزة في الموضعين[2]، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب، وهي التي عدَّها بعض الناس ـ على ما قال أبو حيَّان[3] ـ في حروف العطف، وأنشدوا:

تُلَقِّحُها أَمَّا شَمالٌ عَرِيَّةٌ وأَمَّا صَباً جِنْحَ العَشِيِّ هَبوبُ[4]

وجعلها الزمخشريُّ «أمّا» التفصيليَّة المتضمِّنة معنى الشرط، على معنى: أمَّا شاكراً فبتوفيقنا، وأمَّا كفوراً فبسُوءِ اختيارِه[5]. وهذا التقدير إبراز منه للمَذْهب، قيل: ولا عليه أن يجعله مِن باب: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦] كأنَّه قيل: أمَّا شاكراً فبهدايتنا، أي: دعائنا أو أقدارنا، على ما فسّر به الهداية، وأمَّا كفوراً فبها أيضاً، لاختلاف وجه الدعاء، لأنَّ الهدايةَ هاهنا ليست في مقابلة الضلال، وهذا جارٍ على المذهبين وسالم عن حذف ما لا دليلَ عليه.

وجوَّز في «الانتصاف» أن يكون التقديرُ: أمَّا شاكراً فمثاب، وأمَّا كفوراً فمعاقب.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: وأبو العاج، وهو: كثير بن عبد الله السلمي، شامي، وَلِيَ البصرة لهشام بن عبد الملك. انتهى منه. وهو منقول من البحر ٨/ ٣٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٤) البيت في المقرّب لابن عصفور ١/ ٢٣١، ورصف المباني للمالقي ص١٠١، والدر المصون ١٠/ ٥٩٥، وخزانة الأدب ١١/ ٨٧، ونسبه لأبي القمقام ـ ولم ينسب عند غيره ـ والدرر اللوامع ٦/ ١٢٠، وورد في بعض المصادر: تنفحها، وفي بعضها الآخر: يلفحها، بدل: تلقحها. وورد في بعضها: الظلام، بدل: العشي. ونقل البغدادي في خزانة الأدب رواية الفرَّاء بالياء وفتح الهمزة: أيما، بدل: أمَّا.

(٥) الكشاف ٥/ ١٩٤.

وإيراد الكفور بصيغة المبالغة؛ لمراعاة الفواصل، والإشعارِ بأنَّ الإنسان قلَّما يخلو مِن كُفرانٍ ما، وإنَّما المؤاخَذ عليه الكفرُ المفرط.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مِن أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ بها يُقادونَ ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يُقيَّدون ﴿وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ بها يُحرَقون، وتقديمُ وعيدهم مع تأخُّرهم؛ للجمع بينهما في الذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] ولأنَّ الإنذارَ أنسبُ بالمقام وحقيقٌ بالاهتمام، ولأنَّ تصديرَ الكلام وخَتْمَه بذِكْر المؤمنين أحسن، على أنَّ وصفَهم تفصيلاً ربَّما يخلُّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر والأعمش: «سلاسلا» بالتنوين وصلاً، وبالألف المبدلة منه وقفاً[(١)]، وقال الزمخشريُّ: وفيه وجهان، أحدهما: أن تكون هذه النونُ بدلاً عن حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرَى الوقف. والثاني: أن يكون صاحبُ القراءة ممن ضَرِيَ برواية الشعر[(٢)] ومَرَنَ لسانُه على صرفِ غيرِ المنصرف[(٣)]. وفي الأوَّل أنَّ الإبدال من حروف الإطلاق في غيرِ الشعر قليلٌ، كيف وضمَّ إليه إجراء الوصل مجرى الوقف، وفي الثاني تجويزُ القراءة بالتشهِّي دون سداد وجهها في العربيَّة. والوجهُ أنَّه لقصد الازدواج والمشاكلة، فقد جوّزوا لذلك صَرْفَ ما لا ينصرف، لا سيَّما الجمع فإنَّه سببٌ ضعيف لشَبَهه بالمفرَد في جمعه كـ : صواحبات يوسف، ونواكسي الأبصار[(٤)]، ولهذا جوّز بعضهم صَرْفَه مطلقاً، كما قيل:

---

(١) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٤، والبحر ٨/ ٣٩٤.

(٢) ضَرِيَ بكذا وعلى كذا: لهجَ به. أساس البلاغة (ضري).

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٥.

(٤) ومنه قول الفرزدق:

وإذا الرجال رَأَوْا يزيدَ رأيتَهم ... خُضُعَ الرقاب نواكِسي الأبصار

قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٥٩٨: بكسر السين من نواكس، وبعدها ياء تظهر خطًّا لا لفظاً، لذهابها لالتقاء الساكنين، والأصل: نواكسين، فحذفت النونُ للإضافة، والياءُ لالتقاء الساكنين.

والـصَّـرْفُ فـي الـجـمـع أتـى كَـثِـيـرا حـتَّـى ادَّعـى قـومٌ بـه الـتـخـيـيـرا[١]

وحكى الأخفش عن قوم مِن العرب أنَّ لغتهم صَرْفُ كلٍّ ما لا ينصرف إلا: أَفعل مِن. وصَرْفُ «سلاسلا» ثابت في مصاحف المدينة ومكَّة والكوفة والبصرة، وفي مصحف أُبَيٍّ وعبد الله بنِ مسعود، وروى هشام عن ابن عامر: «سلاسل» في الوصل، و«سلاسلا» بألف دون تنوين في الوقف[٢].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حُسْنِ حالِ الشاكرين إثر بيان سوء حالِ الكافرين، وإيرادهم بعنوان البرِّ للإشعار بما استحقُّوا به ما نالوه مِن الكرامة السَّنِيَّة مع تجديد صفة مَدْح لهم.

والأبرار جمع: بَرٍّ، كرَبٍّ وأرباب، أو: بَارٍّ كشاهد وأشهاد، بناء على أنَّ فاعلاً يُجمَع على أفعال، والبَرُّ: المطيعُ المتوسِّع في فعل الخير، وقيل: مَن يؤدِّي حقَّ الله تعالى ويوفي بالنذر. وعن الحسن: هو الذي لا يؤذي الذَّرَّ ولا يرضى الشَّرَّ.

﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ هي كما قال الزجَّاج: الإناء إذا كان فيه الشراب، فإذا لم يكن لم يسمَّ كأساً[٣]. وقال الراغب: الكأس: الإناءُ بما فيه من الشَّراب، ويُسمَّى كلُّ واحد منهما بانفراده كأساً[٤]. والمشهور أنَّها تُطلَق حقيقةً على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة.

والمراد بها هاهنا قيل: الخمر، فـ«من» تبعيضيَّة أو بيانيَّة. وقيل: الزجاجة التي فيها الخمر، فـ«من» ابتدائيَّة.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ أظهر ملاءَمةً للأوَّل. والظاهر أنَّ هذا على منوال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] والمجيء بالفعل للتحقيق

---

(١) سلف ١٧/ ٣٢٧.
(٢) السبعة ص٦٦٣، والنشر ٢/ ٣٩٤-٣٩٥، والبحر ٨/ ٣٩٤ والكلام منه.
(٣) معاني القرآن ٥/ ٢٥٨.
(٤) المفردات (كأس).

والدوام. وقيل: «كان» تامَّة مِن قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. والمزاج: ما يُمزَج به، كالحِزام لما يُحزَم به، فهو اسم آلة.

و«كافور» على ما قال الكلبيُّ: عَلَمُ عينٍ في الجنَّة ماؤها في بياض الكافور وعَرْفِه وبَرْدِه. وصُرِفَ لتَوَافُقِ الآي، والكلام على حذف مضاف، أي: ماء كافور، والجملة صفة «كأس»، وهذا القول خلافُ الظاهر، ولعلَّه ـ إن لم يصحَّ فيه خَبرٌ ـ لا يُقبَل.

وقرأ عبد الله: «قافوراً» بالقاف بدل الكاف(١)، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة، كقولهم: عربيٌّ قُحٌّ، وكُحٌّ.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن كافور.

وقال قتادة: يُمزَج لهم بالكافور ويُختَم لهم بالمِسْك، وذلك لبرودة الكافور وبياضِه وطِيْبِ رائحته. فالكافور بمعناه المعروف. وقيل: إنَّ خمرَ الجنَّة قد أودعها الله تعالى ـ إذ خَلَقها ـ أوصافَ الكافور الممدوحة، فكونه مزاجاً مجازٌ في الاتِّصاف بذلك. فـ «عيناً» على هذين القولين بدلٌ مِن محلِّ «كأس» على تقدير مضاف، أي: يشربون خمراً خمر عينٍ، أو نصب على الاختصاص بإضمار: أعني، أو: أخصُّ، كما قال المبرِّد. وقيل: على الحال مِن ضمير «مزاجها». وقيل: مِن «كأس» وساغ لوصفه، وأُريدَ بذلك وصفها بالكثرة والصفاء.

وقيل: منصوب بفعل يفسِّره ما بَعْدُ، أعني قولَه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ على تقدير مضاف أيضاً، أي: يشربون ماءَ عينٍ يشرب بها.. إلخ. وتعقّب بأنَّ الجملةَ صفةُ «عيناً» فلا يَعمل فعلها بها، وما لا يَعمل لا يفسِّر عاملاً، وأُجيب بمنع كونها صفة على هذا الوجه، والتركيب عليه نحوُ: رجلاً ضربته. نعم هي صفة «عين» على غير هذا الوجه.

والباء للإلصاق وليست للتعدية، وهي متعلِّقة معنىً بمحذوف، أي: يَشربُ الخمرَ ممزوجةً بها ـ أي: بالعين ـ عبادُ الله، وهو كما تقول: شربتُ الماءَ بالعسل،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

هذا إذا جُعلَ «كافور» عَلَم عينٍ في الجنَّة، وأمَّا على القولين الآخَرين، فقيل: وجه الباء أنْ يُجعَل الكلامُ مِن باب:

يَـجـرَحُ فـي عَـرَاقـيـبـهـا نَـصْـلِـي[١]

لإفادة المبالغة. وقيل: الباء للتعدية، وضمّن «يشرب» معنى يَرْوَى، فعدِّي بها. وقيل: هي بمعنى «من». وقيل: هي زائدة، والمعنى: يشربها، كما في قول الهذلي:

شَـرِبْـنَ بـمـاءِ الـبـحـرِ ثـم تَـرَفَّـعَـتْ   مـتـى لُـجَـجٍ خُـضْـرٍ لـهـنَّ نَـئِـيْـجُ[٢]

ويعضد هذا قراءةُ ابنِ أبي عَبْلَة: «يَشربها»[٣].

وقيل: ضمير «بها» لـ «الكأس»، والمعنى: يشربون العينَ بتلك الكأسِ، وعليه يجوز أن يكون «عيناً» مفعولاً لـ «يشرب» مقدَّماً عليه. و«عباد الله» المؤمنون أهل الجنَّة.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ صفة أخرى لـ «عيناً»، أي: يُجرونها حيث شاؤوا مِن منازلهم إجراءً سهلاً لا يَمتنعُ عليهم، على أنَّ التنكيرَ للتنويع، أخرج عبد الله بنُ أحمد في «زوائد الزهد» عن ابن شوذب أنَّه قال: معهم قضبان ذهب يُفجِّرون بها، فيتبع الماءُ قضبانَهم[٤]. وفي بعض الآثار أنَّ هذه العين في دارِ رسول الله ﷺ تفجَّر إلى دور الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين[٥].

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ ما لأجله يرزقونَ هذا النعيمَ، مشتملٌ على نوعِ تفصيلٍ لِمَا يُنبئُ عنه اسمُ الأبرار إجمالاً، كأنَّه قيل: ماذا يفعلونَ حتى ينالوا تلك المرتبةَ العاليةَ؟ فقيل: «يوفون» إلخ، وأُفيد أنَّه استئنافٌ للبيان، ومع ذلك عدل عن أَوْفَوا إلى المضارع؛ للاستحضار والدلالة على الاستمرار.

---

(١) سلف عند تفير الآية (٥٧) من سورة الأنفال.
(٢) سلف ٧/ ٥٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥، والدر المصون ١٠/ ٦٠٠.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٩٨.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠ وعزاه للثعلبي.

والوفاء بالنذر كنايةٌ عن أداء الواجبات كلِّها لعلم ما عداه بالطريق الأولى وإشارةِ النَّصِّ، فإنَّ مَن أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاءُ ما أوجبه اللهُ تعالى عليه أهمَّ له وأحرى، وجَعْلُ ذلك كنايةً هو الذي يقتضيه ما روي عن قتادة. وعن عكرمة ومجاهد إبقاءه على الظاهر، قالا: أي: إذا نذروا طاعةً فَعَلوها.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ عذابُه ﴿مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ فاشياً منتشراً في الأقطار غايةَ الانتشار، مِن استَطار الحريقُ والفَجْرُ، وهو أبلغ مِن طار؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وللطلب أيضاً دلالة على ذلك؛ لأنَّ ما يُطلَب مِن شأنه أن يُبالغ فيه، وفي وَصْفهم بذلك إشعارٌ بحُسْنِ عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حبِّ الطعام، أي: مع اشتهائه والحاجة إليه، فهو مِن باب التتميم، ويجاوبه مِن القرآن قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وروي عن ابنِ عباس ومجاهد.

أو: على حبِّ الإطعام، بأنْ يكون ذلك بطِيْب نَفْسٍ وعدم تكلُّف، وإليه ذهب الحسين بنُ الفضل، وهو حسن.

أو: كائنين على حبِّ الله تعالى. أو: إطعاماً كائناً على حبِّه تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاءِ مرضاته عزَّ وجلَّ، وإليه ذهب الفضيل بنُ عياض وأبو سليمان الدارانيُّ، فـ «على حبِّه» مِن باب التكميل، وزيَّفه بعضُهم، وقال: الأول هو الوجه، ويجاوبه القرآن، على أنَّ في قوله تعالى: «لوجه الله» بَعْدُ غنية عن قوله سبحانه: «لوجه الله»[1]، وفيه نَظَر، بل لعلَّه الأنسب لذاك.

وذِكْر الطعام مع أنَّ الإطعام يُغني عنه، لتعيين مرجع الضمير على الأوَّل، ولأنَّ الطعامَ كالعلم فيما فيه قوامُ البَدَن واستقامةُ البُنْية وبقاءُ النفس، ففي التصريح به تأكيدٌ لفخامة فِعْلهم على الأخيرين، ويجوز أن يُعتبر على الأوَّل أيضاً.

ثم الظاهر أنَّ المرادَ بإطعام الطعام حقيقته، وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: «على حبه»، بدل: «لوجه الله».

المحتاجين والمواساة معهم بأيٍّ وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعَيْنه، فكأنَّه ينفعونَ بوجوه المنافع.

﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ قيل: أيَّ أسير كان، فعن الحسن أنَّه ﷺ كان يُؤتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: «أَحْسِنْ إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيُؤْثره على نفسه. وقال قتادة: كان أسيرُهم يومئذٍ المشرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تُطعِمه[(١)]. وأخرج ابن عساكر[(٢)] عن مجاهد أنه قال: لما صدر النبيُّ ﷺ بالأَسارى مِن بدر أنفق سبعةٌ من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعليٌّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركي بدر، فقالت الأنصار: قتلناهم في الله وفي رسوله ﷺ وتعينونهم بالنفقة؟! فأنزل اللهُ تعالى فيهم تسع عشرة آية: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ۝١٨﴾. ففيه دليل على أنَّ إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حَسَنٌ ويُرجَى ثوابه.

والخبر الأوَّل قال ابن حجر: لم يذكره مَن يُعتمَد عليه من أهل الحديث. وقال ابن العراقي: لم أقف عليه. والخبر الثاني لم أَرَهُ لفردٍ غير ابن عساكر، ولا وثوقَ لي بصحَّته، وهو يقتضي مدنيَّة هذه الآيات، وقد عَلِمْتَ الخلاف في ذلك، نعم عند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تُصرَف إليهم الواجبات.

وقال ابن جبير وعطاء: هو الأسير من أهل القِبْلة. قال الطيبيُّ: هذا إنما يستقيم إذا اتفق الإطعام في دار الحرب من المسلم لأسير في أيديهم.

وقيل: هو الأسير المسلم تُرِكَ في بلاد الكفار رهينة، وخرج لطلب الفداء.

وروى محيي السُّنَّة[(٣)] عن مجاهد وابنِ جبير وعطاء أنَّهم قالوا: هو المسجون من أهل القِبْلة. وفيه دليل على أنَّ إطعام أهل الحبوس المسلمين حَسَنٌ، وقد يقال:

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨٨، وقد أورده ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٠ ولم يذكر فيه شيئاً.
(٢) في تاريخ مدينة دمشق ٣٥/ ٢٨٦.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨.

لا يحسن إطعام المحبوس لوفاءِ دَيْنٍ يَقدِر على وفائه، إنما امتنع عنه تعنُّتاً ولغرض من الأغراض النفسانية.

وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون. وتسمية المسجون أسيراً مجازٌ؛ لمنعه عن الخروج، وأما تسمية المملوك فمجاز أيضاً لكن قيل: باعتبار ما كان، وقيل: باعتبار شَبَهه به في تقيُّده بإسار الأمر وعدم تمكُّنه مِن فِعْل ما يهوى، وعُدَّ الغريمُ أسيراً؛ لقوله ﷺ: «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك»[(١)]، وهو على التشبيه البليغ إلا أنَّه قيل في هذا الخبر ما قيل في الخبر الأوَّل.

وقال أبو حمزة الثمالي[(٢)]: هي الزوجة، وضعفه ها هنا ظاهر.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إرادة قول هو في موضع الحالِ من فاعل «يطعمون»، أي: قائلين ذلك بلسان الحال؛ لِمَا يظهر عليهم من أمارات الإخلاص. وعن مجاهد: أما إنَّهم ما تكلَّموا به ولكن علمه الله تعالى منهم، فأثنى سبحانه به عليهم ليرغب فيه راغب. أو بلسان المقال إزاحةً لتوهُّم المَنِّ المُبطِل للصدقة وتوقُّع المكافأة المُنقِصة للأجر. وعن الصِّدِّيقة رضي الله عنها أنَّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسولَ: ما قالوا؟ فإذا ذَكَر دعاءً دَعَتْ لهم بمثله ليبقى لها ثوابُ الصدقة خالصاً عند الله عزَّ وجلَّ. وجوِّز أن يكون قولهم هذا لهم؛ لطفاً وتفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه مَن أخلص تعالى، وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ بالأفعال ﴿وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ ولا شكراً وثناءً بالأقوال، تقرير وتأكيد لما قَبْلَه.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يومٍ، فهو على تقدير مضاف، أو أنَّ خوفه كنايةٌ عن خوف ما فيه.

﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه، على أنه مِن الإسناد المجازي كما في: نهاره

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٦، وتفسير الرازي ٣/ ٢١٦، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

(٢) في الأصل و(م): اليماني. والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤١١.

صائم، فقد روي عن ابن عباس: أنَّ الكافر يعبس يومئذٍ حتى يسيلَ من بين عينيه عَرَقٌ مثل القَطِران. أو يشبه الأَسَدَ العبوس، على أنَّه من الاستعارة المكنيَّة التخييلية، لكن لا يخفى أنَّ العبوسَ ليس من لوازم الأسد، وإنَّما اشتهر وصفه به، ففي التخييلية ضعفٌ ما، وقيل: إنَّه مِن التشبيه البليغ.

﴿قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠﴾ شديد العبوس، ويقال: شديداً صعباً، كأنَّه التَفَّ شرُّه بعضه ببعض. وقيل: طويلاً، وهو رواية عن ابن عباس، وجاء: قُماطر، وأنشدوا لأسد بن ناعصة[1]:

واصطليتُ الحروبَ في كلِّ يومٍ   باسلِ الشَّرِّ قَمْطَريرِ الصَّباحِ

وقول آخر:

بني عمِّنا هل تَذكرونَ بلاءَنا   عليكم إذا ما كان يومٌ قُماطِرُ[2]

وإلى الأوَّل ذهب الزجَّاج، فقال: القمطرير: الذي يَعْبسُ حتى يجتمعَ ما بين عينيه، ويقال: اقمَطرَّت الناقةُ: إذا رفعت ذَنَبها وزمَّت بأنفها، وجمعت قطريها[3]، أي: جانبيها، كأنَّها تفعل ذلك إذا لقحت[4] كبراً، وقيل: لتضع حَمْلها، فاشتقاقه عنده ـ على ما قيل ـ مِن قطر بالاشتقاق الكبير، والميم زائدة، وهذا لا يلزم الزجَّاج فيجوز أن يكون مشتقًّا كذلك من القَمْطِ، ويقال: قَمَطه: إذا شدَّه وجَمَعَ أطرافه.

وفي «البحر»: يقال: اقمطرَّ فهو مُقَمْطر وقَمْطَرير وقُماطر إذا صَعُبَ واشتدَّ، واختلف في هذا الوزن وأكثر النحاة لا يثبتون افمعلَّ في أوزان الأفعال[5].

---

(١) في الأصل و(م): ناغصة. والمثبت من ترجمته في المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٩، وهو أسد بن ناعصة بن عمرو شاعر جاهلي قديم، له في أشعاره ألفاظ غريبة وحشية. والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٧، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٦٨.

(٢) البيت ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢١٦، والطبري في التفسير ٢٣/ ٥٤٧، والجوهري في الصحاح (قمطر)، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٦٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٩، والكشاف ٤/ ١٩٧.

(٤) في (م): لحقت.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٢.

وهذه الجملة جوّز أن تكون علّة لإحسانهم وفِعْلِهم المذكور، كأنّه قيل: نَفْعَلُ بكم ما نَفْعَلُ؛ لأنّا نخاف يوماً صفته كيت وكيت، فنحن نرجو بذلك أن يَقِيَنا ربُّنا جلَّ وعلا شرَّه. وأن تكون علّة لعدم إرادة الجزاء والشكور، أي: إنّا لا نريد منكم المكافأة؛ لخوفِ عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة.

وإلى الوجهين أشار في «الكشاف»[1]، وقال في «الكشف»: الثاني أَوْجَهُ؛ ليبقى قولُه: «لوجه الله» خالصاً غيرَ مشوب بحظّ النفس مِن جَلْب نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولو جعل علّة للإطعام المعلَّل على معنى: إنّما خَصَصْنا الإحسان لوجهه تعالى؛ لأنّا نخاف يوم جزائه، ومَن خافه لازَمَ الإخلاص، لكان وجهاً.

﴿فَوَقَنٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه. وقرأ أبو جعفر: «فوقّاهم» بشدِّ القاف[2]، وهو أوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنِهم نضرةً في الوجوه وسروراً في القلوب.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على مشاقِّ الطاعات، ومهاجرةِ هوى النفس في اجتناب المحرَّمات وإيثارِ الأموال مأكلاً وملبساً ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاؤوا ﴿وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به.

ومن رواية عطاء عن ابنِ عباس: أنَّ الحسن والحسين مرضا، فعادَهما جدُّهما محمد ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعادَهما مَن عادَهما مِن الصحابة، فقالوا لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: يا أبا الحسن لو نَذَرت على ولدَيْك، فنذر عليٌّ وفاطمة وفضّة ـ جارية لهما ـ إن بَرِآ مما بهما أن يصوموا ثلاثةَ أيام شكراً، فألبس اللهُ تعالى الغلامين ثوب العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه إلى شمعون اليهودي الخيبري فاستقرضَ منه ثلاثة أَصْوُع من شعير، فجاء بها، فقامت فاطمة رضي الله عنها إلى صاع فطحنته وخبزت منه خمسةَ أقراص على عددهم، وصلّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغربَ، ثم

---

(١) ٤/١٩٦-١٩٧.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٩٦.

أتى المنزلَ فوضع الطعام بين يديه، فوقف بالباب سائلٌ، فقال: السلام عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، أنا مسكين مِن مساكين المسلمين أطعموني أَطْعَمَكم اللهُ تعالى مِن موائد الجنة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا شيئاً إلا الماء، وأصبحوا صياماً، ثم قامت فاطمة رضي الله عنها إلى صاع آخر فطحنته وخبزته، وصلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغرب، ثم أتى المنزلَ فوضع الطعام بين يديه، فوقف يتيم بالباب، وقال: السلام عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، يتيم مِن أولاد المهاجرين، أَطعموني أَطْعَمكم اللهُ تعالى من مِوائد الجنة. فآثروه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَراح، وأصبحوا صياماً، فلما كان يوم الثالث قامت فاطمة رضي الله عنها إلى الصاع الثالث وطحنته وخبزته، وصلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغربَ فأتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فوقف أسير بالباب، فقال: السلامُ عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، أنا أسيرُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أَطْعِموني أَطْعَمَكم اللهُ. فَآثَروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء القَراح، فلما أصبحوا أخذ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ ورآهم يرتعشون كالفراخِ من شدَّة الجوع، قال: «يا أبا الحسن ما أشدَّ ما يَسُوءُني ما أرى بكم» وقام فانطلق معهم إلى فاطمة رضي الله عنها فرآها في محرابها قد التصقَ بطنُها بظهرها وغارت عيناها من شدَّة الجوع، فرقَّ لذلك ﷺ وساءَه ذلك، فهبط جبريل عليه السلام، فقال: خذها يا محمد هنَّأك الله تعالى في أهلِ بيتك. قال: وما آخُذُ يا جبريل؟ فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ السورة. وفي رواية ابن مهران: فوثب النبيُّ ﷺ حتى دخل على فاطمة فأكبَّ عليها يبكي، فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ إلى آخره. وفي رواية عن عطاء: أنَّ الشعيرَ كان عن أجرة سَقْي نخل، وأنَّه جعل في كلِّ يوم ثلث منه عصيدة فآثروا بها(١).

---

(١) ينظر هذا الخبر ورواياته في: نوادر الأصول ص٦٤-٦٥، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٨، وتفسير البغوي ٤/٤٢٨، ومجمع البيان ٢٩/١٣٨-١٣٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٦١-٤٦٦ مطولاً، وعزا بعضها القرطبي إلى النقاش والثعلبي والقشيري، وقال: لا يصح ولا يثبت.. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٥٠٣-٥٠٥ عن الأصبغ بن نباتة، وقال: هذا حديث لا يُشَكُّ في وضعه.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنَّه قال في قوله سبحانه: «ويطعمون» إلخ نزلت في عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلَّى الله تعالى عليه وعليهما وسلَّم[1]، ولم يذكر القصة، والخبر مشهور بين الناس، وذكره الواحدي في كتاب «البسيط»، وعليه قول بعض الشيعة:

إلام ألامُ وحتى متى ... أُعاتَب في حبِّ هذا الفتى
وهل زوّجت غيره فاطِم ... وفي غيره هل أتى هل أتى

وتعقّب بأنَّه خبر موضوع مفتعل كما ذكره الترمذيُّ[2] وابن الجوزي[3]، وآثار الوضع ظاهرة عليه لفظاً ومعنىً، ثم إنَّه يقتضي أن تكون السورة مدنيَّة؛ لأنَّ بناءَ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه على فاطمة رضي الله عنها كان بالمدينة، وهي عند ابن عباس ـ المروي هو عنه ـ على ما أخرج النَّحَّاس مكِّيَّة، وكذا عند الجمهور في قول.

وأقول: أَمْرُ مكِّيَّتها ومدنيَّتها مختلف فيه جدًّا كما سمعت، فلا جزم فيه بشيء، وابن الجوزي نقل الخبر في «تبصرته»[4] ولم يتعقَّبه، على أنَّه ممَّن يتساهل في أمر الوضع، حتى قالوا: إنَّه لا يعوَّل عليه في هذا الباب، فاحتمال أصل النزول في الأمير كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمة رضي الله عنها قائم، ولا جزمَ بنفي ولا إثبات، لتعارض الأخبار، ولا يكاد يَسلَمُ المرجّح عن قيل وقال، نعم لعلَّه يترجَّح عدم وقوع الكيفية التي تضمَّنتها الرواية الأولى.

ثم إنَّه على القول بنزولها فيهما لا يتخصَّص حكمها بهما، بل يشمل كلَّ مَن فَعَلَ مثل ذلك، كما ذكره الطبرسي من الشيعة في «مجمع البيان»[5] راوياً له عن

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٩.
(٢) لعله يقصد الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول ص٦٥ حيث قال: هذا حديث مزوَّق، وقد تطرَّف فيه صاحبه حتى يشبِّه على المستمعين. . . . إلى آخر كلامه.
(٣) كما ذُكر قريباً في كتابه الموضوعات ٢/ ٥٠٥.
(٤) التبصرة ١/ ٤٤٩.
(٥) ٢٩/ ١٣٩.

عبد الله بنِ ميمون عن أبي عبد الله رضي الله عنه، وعلى القول بعدم النزول فيهما لا يتطامن(١) مقامهما ولا ينقص قَدْرهما، إذ دخولهما في الأبرار أمر جليٌّ، بل هو دخول أوَّليٌّ، فهما هما، وماذا عسى يقول امرؤٌ فيهما سوى أنَّ عليًّا مولى المؤمنين وَوَصيُّ النبيِّ، وفاطمة البضعة الأحمديَّة والجزء المحمدي، وأما الحَسَنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجِنان، وليس هذا من الرفض بشيء، بل ما سواه عندي هو الغَيُّ:

أَنـا عـبـدُ الـحـقِّ لا عـبـدُ الـهـوى ... لـعـنَ اللهُ الـهـوى فـيـمَـن لـعـن(٢)

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنَّه سبحانه لم يَذكُر فيها الحُورَ العِيْن وإنَّما صرَّح عزَّ وجلَّ بولدان مخلدين؛ رعايةً لحرمة البَتُول وقرَّة عينِ الرسول؛ لئلَّا تثورَ غيرتها الطبيعية إذا أحسَّت بضَرَّة، وهي في أفواه تخيُّلات الطباع البشرية ـ ولو في الجنَّة ـ مرَّة. ولا يخفى عليك أنَّ هذه زهرة ربيع لا تتحمَّل الفرك، ثم التذكير على ذلك أيضاً من باب التغليب.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: «جازاهم» على وزن فاعَلَ(٣).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال من هم في «جزاهم» والعامل جزى، وخصّ الجزاء بهذه الحالة؛ لأنَّها أتمُّ حالات المتنعّم، ولا يضرُّ في ذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ لأنَّ الصبر في الدنيا وما تسبَّب عليه في الآخرة. وقيل: صفة الجنة، ولم يبرز الضمير مع أنَّ الصفة جارية على غير مَن هي عليه، فلم يقل: متكئين هم فيها؛ لعدم الإلباس، كما في قوله:

قومي ذُرَا المجدِ بانوها وقد عَلِمَتْ ... بـكُـنْـهِ ذلـك عـدنـانٌ وقَـحْـطـانُ(٤)

---

(١) أي: لا ينخفض. المعجم الوسيط (طمن).

(٢) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ٦/ ٢٥٣٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٦.

(٤) البيت في شرح ابن عقيل ١/ ٢٠٨، وأوضح المسالك ص١٠٠، وشرح الأشموني مع حاشية الصبان ١/ ١٩٣ دون نسبة. وجاء في هامش الأصل: وهو أن يكون (ذرا) مفعول بانون محذوفاً، أي: قومي بانون ذرا المجد بانوها. تدبر. انتهى منه.

وأنت تعلم أنَّ هذا رأي الكوفيَّة، ومذهب البصريَّة وجوبُ إبراز الضمير في ذلك مطلقاً، وفي البيت كلام.

وقيل: يجوز كونه حالاً مقدَّرة من ضمير «صبروا». وليس بذاك.

و«الأرائك» جمع: أريكة، وهي السرير في الحَجَلة[1] مِن دونه ستر، ولا يُسمَّى مفرداً: أريكة، وقيل: هو كلُّ ما اتُّكِئَ عليه من سرير أو فراش أو مِنَصَّة، وكأنَّ تسميته بذلك لكونه مكاناً للإقامة أخذاً من قولهم: أَرِكَ بالمكان أروكاً: أقام، وأصل الأروك: الإقامة على رعي الأَرَاك الشجر المعروف، ثم استعمل في غيره من الإقامات.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ إما حالٌ ثانية مِن الضمير، أو حالٌ من المستكنِّ في «متَّكئين»، وجوّز فيه كونه صفة لـ «جنة» أيضاً، والمراد من ذلك أنَّ هواءَها معتدلٌ لا حرُّ شمس يُحْمي، ولا شدّة برد يؤذي، وفي الحديث: «هواءُ الجنَّة سَجْسَج لا حرٌّ ولا قرٌّ»[2] فقصد بنفي الشمس نفيها ونفي لازمها معاً؛ لقوله سبحانه: «ولا زمهريراً»، فكأنَّه قيل: لا يرون فيها حرًّا ولا قرًّا، وقيل: الزمهرير: القمر، وعن ثعلب أنَّه في لغة طيِّئ، وأنشد:

وليلةٍ ظلامُها قد اعتَكَرْ ... قَطَعْتُها والزَّمْهَريرُ ما زَهَرْ[3]

وليس هذا لأنَّ طبيعته باردة ـ كما قيل ـ لأنَّه في حيِّز المنع، بل قيل: إنَّه بُرهن على أنَّ الأنوار كلَّها حارَّةٌ، فيحتمل أنَّ ذلك لِلَمَعانه أخذاً له مِن ازمهرَّ الكوكب: لمع، والمعنى على هذا القول: إنَّ هواءَها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس

---

(١) قال الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٣٨: الحجلة بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير، يسمى بديارنا ناموسية.

(٢) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٢٥)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٠ عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.

(٣) الرجز في النكت والعيون ٦/ ١٦٩، والكشاف ٤/ ١٩٧، ونهاية الأرب للنويري فصل في أسماء القمر اللغوية، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٢.

ولا قمر، وفي الحديث: «إنَّ الجنَّة لا خَطَر لها، هي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وقَصْر مشيد» الحديث[١]. ثم إنَّها مع هذا قد يظهر فيها نور أقوى مِن نورها، كما تشهد به الأخبار الصحيحة، وفي بعض الآثار عن ابنِ عباس: بينا أهل الجنة في الجنة، إذ رَأَوْا ضوءاً كضوء الشمس وقد أَشرقت الجنانُ به، فيقول أهل الجنَّة: يا رضوان ما هذا، وقد قال ربُّنا: «لا يَرَوْنَ فيها شمساً ولا زمهريراً»! فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس ولا قمر، ولكن عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما ضَحِكا، فأشرقت الجنانُ مِن نور ثغريهما[٢].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ عطف على الجملة وحالها حالها، أو صفة لمحذوف معطوف على «جنَّة» فيما سبق، أي: وجنَّة أخرى دانية عليهم ظلالها، على أنَّهم وُعِدوا جنَّتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقرأ أبو حيوة: «دانيةٌ» بالرفع[٣]، وخرِّج على أنَّ «دانية» خبرٌ مقدَّم لـ «ظلالها»، والجملة في حيِّز الحال على أنَّ الواو عاطفة أو حاليَّة، أو في حيِّز الصفة على أنَّ الواو عاطفة أيضاً، أو للإلصاق على ما يراه الزمخشري[٤]، وقال الأخفش: «ظلالها» مرفوع بـ «دانية» على الفاعليَّة، واستدلَّ بذلك على جواز عملِ اسم الفاعل مِن غير اعتماد، نحو: قائمٌ الزيدون، وقد علمت أنَّه لا يَصلُح للاستدلال؛ لقيام ذلك الاحتمال، على أنَّه يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ مقدَّر فيعتمد، أي: وهي دانية عليهم ظلالُها.

وقرأ أبيٌّ: «وَدَانٍ»[٥] كقاضٍ، ولا يتمُّ الاستدلال به للأخفش أيضاً وإن كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن حبان (٧٣٨١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد فيه مقال، الضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي في طبقات التهذيب: مجهول، وسليمان بن موسى الأموي مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. اهـ. وقوله ﷺ: «لا خَطَر لها» أي: لا مِثْلَ لها.

(٢) تفسير الثعلبي ١٠/ ١٠٢، وهو خبر واضح البطلان.

(٣) الإملاء للكعبري ٤/ ٤٣٨، والكشاف ٤/ ١٩٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٧٢، والبحر ٨/ ٣٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر ٨/ ٣٩٦.

بينه وبين ما تقدَّم فرق ما. وقرأ الأعمش: «ودانياً عليهم»[(١)] نحو: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾[(٢)] [القمر: ٧].

والمراد أنَّ ظلالَ أشجار الجنة قريبةٌ مِن الأبرار مُظِلَّةٌ عليهم؛ زيادة في نعيمهم.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي: سخِّرت ثمارها لمتناولِها وسَهُلَ أَخْذُها، مِن الذُّلِّ وهو ضدُّ الصعوبة، قال قتادة ومجاهد وسفيان: إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة، وإن كان قاعداً أو مُضْطَجعاً فكذلك، فهذا تذليلها لا يَرُدُّ اليدَ عنها بُعْدٌ ولا شَوكٌ. والجملة حال من ضمير «دانية»، أي: تدنو ظلالُها عليهم مذلّلةً لهم قطوفها، أو معطوفة على ما قبلها، وهي فعلية معطوفة على اسميَّة في قراءة «دانية» بالرفع، ونكتة التخالف أنَّ استدامةَ الظِّلِّ مطلوبة هنالك، والتجدُّدُ في تذليل القطوف على حسب الحاجة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ﴾ جمع إناء، ككساء وأكسية، وهو ما يوضع فيه الشيء، والأواني جمع الجمع. ﴿مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع: كوب: وهو قَدَحٌ لا عُرْوةَ له، كما قال الراغب[(٣)]، وفي «القاموس»: كوزٌ لا عروةَ له، أو لا خرطومَ له[(٤)]. وقيل: الكوز العظيم الذي لا أُذُن له ولا عروةَ.

﴿كَانَتْ﴾ أي: تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾ جمع: قارورة، وهي إناء رقيق من الزجاج يُوضَع فيه الأشربة، ونصبه على الحال، فإنَّ «كان» تامَّة، وهو كما تقول: خُلِقَتْ قواريرَ.

وقوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ بدل، والكلام على التشبيه البليغ، فالمراد

---

(١) البحر ٨/٣٩٦، وهي معاني القرآن للفراء ٣/٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/١٠١ عن مسعود ﷺ.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف، في حين قرأ الباقون: ﴿خُشَّعًا﴾ بضمِّ الخاء وفتح الشين مشدَّدة. التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٨٠.

(٣) المفردات (كوب).

(٤) القاموس (كوب).

تكوَّنت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها، ولِيْنِ الفضة وبياضها، وأخرج عبد الرازق وسعيد بن منصور والبيهقيُّ عن ابنِ عباس قال: لو أخذْتَ فضةً من فضة الدنيا فضربتَها حتى جعلتَها مثل جناح الذُّباب لم يُرَ الماءُ مِن ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة مع صفاء القوارير[1].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عنه أنه قال: ليس في الجنة شيء إلا قد أُعطيتم في الدنيا شَبَهه إلا قوارير مِن فضة[2].

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر: بتنوين «قواريراً» في الموضعين وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً، وابن كثير يمنع صَرْفَ الثاني ويَصْرفُ الأوَّل[3] لوقوعه في الفاصلة، وآخِر الآية وقف عليه بالألف مشاكلة لغيره مِن كلمات الفواصل، والتنوين عند الزمخشري[4] في الأوَّل بدلٌ مِن ألف الإطلاق، كما في قوله:

يا صاحِ ما هاجَ العيونَ الذُّرَّفَنْ[5]

وفي الثاني للإتْباع، فتذكَّر. والقراءة بمنع صَرْفِهما لحفص وابن عامر وحمزة وأبي عمرو، وقرأ الأعمش الثاني «قوارير» بالرفع، أي: هي قوارير[6].

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي: قدَّروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ما قدَّروا لا مزيدَ على ذلك، ولا يمكن أن يقع زيادة عليه، وفي معناه قول الطائيِّ:

ولو صوَّرتَ نفسَكَ لم تَزِدْها   على ما فيكَ مِن كَرَمِ الطِّباعِ[7]

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠٠-٣٠١، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٣٨، والبعث والنشور (٣٤٨).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٠١.

(٣) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٥-٣٩٦، والبحر ٨/ ٣٩٧.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٥) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٤٢١، والكتاب ٤/ ٢٠٧، والبحر ٨/ ٣٩٧، ووقع في الديوان: الذرَّفا وبعده:

مِن طَلَلٍ أمسى تخالُ المصحفا

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

(٧) سلف ١١/ ١٣.

فإنَّه يُنبئ عن كون نفسه خُلقت على أتمِّ ما ينبغي مِن مكارم الصفات بحيث لا مزيدَ على ذلك، فضمير «قدَّروها» لـ «أبرار» المطاف عليهم.

أو: قدّروا شرابها على قَدْر الرّيِّ وهو ألذُّ للشارب، قال ابن عباس: أُتُوا بها على الحاجة لا يُفضِّلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً.

وعن مجاهد: تقديرها أنَّها ليست بالملأى التي تفيض ولا بالناقصة التي تغيض. فالضمير ـ على ما هو الظاهر ـ للسقاة الطائفين بها، المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾، وقد روى عبد بن حميد وابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّه قال: قدَّرتها السقاة[(١)].

وقيل: المعنى: قدَّروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها، والضمير على هذا، قيل: للملائكة، وقيل: للسقاة.

وقرأ عليٌّ كرّم الله تعالى وجهه وابن عباس والسُّلَمي والشعبي وقتادة وزيد بن عليٍّ والجحدري والأصمعي عن أبي عمرو، وابن عبد الخالق عن يعقوب وغيرهم: «قُدِّرُوها» على البناء للمفعول[(٢)]، واختلف في تخريجها، فقال أبو عليٍّ: كأنَّ اللفظ: قُدِّروا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأنَّ حقيقته أن يقال: قُدِّرت عليهم، فهو نحو قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] وقولِ العرب: إذا طَلَعتِ الجَوْزاء ارتقى العودُ على الحرباء[(٣)].

وقال الزمخشريُّ: وجه ذلك أن يكون من قَدَرْتُ الشيءَ ـ بالتخفيف ـ أي: بيَّنت مقدارَه، فنقل إلى التفعيل، فتعدَّى لاثنين: أحدهما: الضمير النائب عن الفاعل، والثاني: «ها»، والمعنى: جُعلوا قادرين لها كما شاؤوا، وأُطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٧، والكشاف ٤/ ١٩٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧-٣٩٨، والكلام وما بعده منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٣٥٣-٣٥٤.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

وقال أبو حاتم: قُدِّرت الأواني على قَدْر رِيِّهم. ففسَّر بعضهم هذا بأنَّ في الكلام حذفاً، وهو أنَّه كان: قُدِّر على قَدْر رِيِّهم إيَّاها، فحذف «على» فصار «قَدْر» نائب الفاعل، ثم حذف فصار «ريّهم» نائب فاعل، ثم حذف وصار واو الجمع نائبَ الفاعل، واتصل المفعول الثاني بـ «قدِّر»، فصار: قُدِّروها.

وقال أبو حيان: الأقرب أن يكون الأصل: قُدِّر رِيُّهم منها تقديراً، فحذف المضاف وهو الرِّيُّ وأُقيمَ الضمير مقامه، فصار: قُدِّروا منها، ثم اتُّسِع في الفعل فحذفت «من» ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه فصار: قُدِّروها، فلم يكن فيه إلا حذفُ مضاف واتِّساعٌ في المجرور[1].

ولا يخفى أنَّ القلبَ زَيْفٌ، وما قرَّره البعض تكلُّف جدًّا، وفي كون ما اختاره أبو حيَّان أقرب ممَّا اختاره جارُ الله، نَظَرٌ، ولعلَّه أكثرُ تكلُّفاً منه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ يجري فيه معظم ما جرى في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ إلخ من الأوجه.

والزنجبيل: قال الدينوري[2]: نبتٌ في أرض عُمَان، وهو عروق تسري في الأرض وليس بشجرة، ومنه ما يُحمَل من بلاد الزنج والصين، وهو الأجود، وكانت العرب تُحبُّه؛ لأنَّه يوجب لَذْعاً في اللسان إذا مُزِجَ بالشراب فيلتذُّون به، ولذا يذكرونه في وصف رُضاب النساءِ، قال الأعشى:

كأنَّ القُرُنْفلَ والزَّنْجَبيـ ... ـلَ باتا بِفيها وأَرْياً مَشُورا[3]

وقال عمرو المسيَّب بن عَلَس[4]:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٨.

(٢) في كتابه النبات ص٢١٤.

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٨، وسمط اللآلي للبكري ١/ ١٧٦، وهو في ديوان الأعشى ص١٤٣ برواية:

كأنَّ جَنيّاً من الزنجبيـ ... ـل خالط فاها وأَرْياً مشورا

والأَرْي: عسل النحل. وشار العسل واشتاره: جَمَعه.

(٤) كذا في الأصل و(م). ونُسبَ في طبقات فحول الشعراء ١/ ١٥٦ هكذا: المسيب بن عَلَس بنِ

وكـأنَّ طَـعْـمَ الـزَّنْـجـبـيـلِ بـه إذ ذُقْـتَـه وسُـلافـةَ الـخـمـرِ[1]

وعدَّه بعضهم في المعرَّبات. وكون الزنجبيل اسماً لعين في الجنَّة مرويٌّ عن قتادة، قال: يَشربُ منها المقرَّبون صِرْفاً، وتُمزَج لسائر أهل الجنة.

والظاهر أنَّهم تارةً يشربون مِن كأس مزاجها كافور، وتارة يسقون من كأس مزاجها زنجبيل، ولعلَّ ذكر «يُسقَوْن» هنا دون: يشربون؛ لأنَّه الأنسب بما تقدَّمه مِن قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إلخ، ويمكن أن يكون فيه رمزٌ إلى أنَّ هذه الكأس أعلى شأناً مِن الكأس الأولى، وعن الكلبي: يُسقَى بجامين؛ الأول مزاجه الكافور، والثاني مزاجه الزنجبيل.

والسلسبيل: كالسَّلْسَل والسَّلْسَال، قال الزجَّاج[2]: ما كان مِن الشراب غايةً في السلاسة وسهولة الانحدار في الحَلْق. وقال ابن الأعرابيِّ: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن. وكأنَّ العين إنَّما سُمِّيت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها. قال عكرمة: عينٌ سَلْسَلٌ ماؤها. وقال مجاهد: حديدة الجَرْي[3]، سَلِسَة، سهلة المساغ. وقال مقاتل: عين يَتَسَلْسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤوا.

وهي على ما روي عن قتادة عينٌ تنبع من تحت العرش من جنَّة عَدن، تتسَلْسَل إلى الجِنان.

وفي «البحر»: الظاهر أنَّ هذه العين تُسمَّى «سلسبيلاً» بمعنى تُوصَف بأنَّها سلسة في الانسياغ، سهلة في المذاق، ولا يُحمَل سلسبيل على أنَّه اسمٌ حقيقة؛ لأنَّه إذ

= عمرو بن قمامة، وفي خزانة الأدب ٣/ ٢٤٠: المسيب بن عَلَس بن مالك بن عمرو بن قمامة. وقال ابن دريد في الاشتقاق ص ٣١٦: المسيب بن عَلَس، واسمه: زهير.

(١) الكشاف ٤/ ١٩٨، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٧٥، وسلافة الخمر: أول ما يخرج من عصرها، والشاعر يصف رُضاب محبوبته.

(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٦١.

(٣) ذكره البخاري عن مجاهد بلفظ، حديدة الجرية، وقال الحافظ في الفتح ٦/ ٣٢١: وحديدة بفتح المهملة وبدالين مهملتين أيضاً، أي: قوية الجرية، وذكر عياض [مشارق الأنوار (حدو)] أن القابسي رواها: حريدة، براء بدل الدال الأولى وفسَّرها بـ :ليِّنة، قال (يعني عياض): والذي قاله لا يُعرف، وإنما فسروا السلسبيل بالسهولة اللينة الجرية.

ذاك كان ممنوعَ الصرف؛ للتأنيث والعلميَّة، وقد روي عن طلحة أنَّه قرأه بغير ألف[1]، جعله عَلَماً لها، فإن كان عَلَماً فوجه قراءةِ الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل، كما قيل في «سلاسلا» و«قواريرا»، وزعم الزمخشريُّ[2] أنَّ الباءَ زيدت فيه حتى صارت الكلمة خماسيَّة، فإن عنى أنَّها زِيدَتْ حقيقةً فليس بجيِّد؛ لأنَّ الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة، وإن عنى أنَّها حرف جاء في سِنْخِ[3] الكلمة وليس في سَلْسَل ولا في سِلْسَال، صحَّ، ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة. انتهى. وفي «الكشف»: لا يريد الزيادة المصطلحة، ألا ترى إلى قوله: حتى صارت خماسيَّة، وهو أيضاً من الاشتقاق الأكبر، فلا تغفل.

وقال بعض المُعْرِبين: «سلسبيلاً»: أَمْرٌ للنبيِّ ﷺ ولأمَّته بسؤال السبيل إليها، وعَزَوه إلى عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وهو غيرُ مستقيم بظاهره إلا أن يُراد أنَّ جملة قول القائل: «سَلْ سبيلاً» جعلت اسماً للعين، كما قيل: تأبَّط شرًّا، وذَرَّى حبًّا، وسُمِّيت بذلك لأنَّه لا يشرب منها إلا مَن سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلُّفٌ وابتداع، وعَزْوُه إلى مثل الأمير كرَّم الله تعالى وجهه أَبْدَع، ونصَّ بعضهم على أنَّه افتراءٌ عليه كرَّم الله تعالى وجهه، وفي شعر ابنِ مطران الشاشي:

سل سلسبيلاً فيها إلى راحةِ النَّفـ ... ـسِ بـراحٍ كـأنَّـهـا سَـلْـسَـبِـيـلُ[4]

وفيه الجناس الملفَّق، واستعمله غير واحد من المُحْدَثين.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم فيه من الطراوة والبهاء، وقيل: مُقرَّطون بخَلَدَة، وهي ضَرْب من القِرَطَة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٦، والكشاف ٤/ ١٩٨، والبحر ٨/ ٣٩٨.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٣) في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط ٨/ ١٦١ والكلام منه: سنح، والمثبت من الدر المصون ١٠/ ٦١٢، والسِّنْخ: الأصل. القاموس (سنخ).

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٩، والكلام منه، وذكره أيضاً الثعالبي في يتيمة الدهر ٤/ ١٣٤، وفي الإعجاز والإيجاز ص٢٤٤. والراح: الخمر.

وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن أنس مرفوعاً أنَّهم ألف خادم[١]. وفي بعض الآثار أضعاف ذلك[٢]:

والـجـود أعـظـم والـمـواهـب أوسـع[٣]

ويختلف ذلك قلَّة وكثرة باختلاف أعمال المخدومين.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ لحُسْنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم، وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم، وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، وقيل: شُبِّهوا باللؤلؤ الرَّطْب إذا نُثِرَ من صَدَفِه؛ لأنَّه أحسن وأكثر ماء، وعليه هو مِن تشبيه المفرد؛ لأنَّ الانبثاث غيرُ ملحوظ، والخطاب في «رأيتهم» للنبيِّ ﷺ أو لكلِّ واقف عليه، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة، وهو في موضع النصب على الظَّرْف، و«رأيت» منزَّل منزلةَ اللازم فيفيد العموم في المقام الخطابي، فالمعنى: إنَّ بَصَرك أينما وقع في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ عظيمَ القدر لا تُحيط به عبارةٌ، وهو يشمل المحسوس والمعقول، وقال عبد الله بنُ عمرو والكلبي: عريضاً واسعاً، يُبصِر أدناهم منزلةً في الجنة في مُلكه[٤] مسيرة ألف عام يَرى أقصاه كما يرى أدناه، وذلك لما يُعطى من حدَّة النظر، أو هو مِن خصائص الجنة.

وقال مجاهد: هو استئذان الملائكة عليهم السلام، فلا يدخلونَ عليهم إلا بإذن.

وقال الترمذي ـ وأظنُّه كما ظنَّ أبو حيان[٥]: الحكيم لا أبا عيسى المحدِّث صاحب الجامع ـ: هو مُلْكُ التكوينِ والمشيئة إذا أرادوا شيئاً كان.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠١، وأخرجه أيضاً ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٤٥.

(٢) منها حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم..» الحديث، وسلف ٢٥/ ٩٨.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩١.

(٤) في الأصل و(م): ملك، والمثبت من الكشاف ٤/ ١٩٩، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٩١، وتفسير أبي السعود ٩/ ٧٤، وغيرها من التفاسير، وينظر البحر ٨/ ٣٩٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩، والكلام منه.

وقيل: هو النظر إلى الله عزَّ وجلَّ. وقيل: غير ذلك، وقيل: المُلْكُ الدائم الذي لا زوالَ له.

وزعم الفرَّاء[١] أنَّ المعنى: وإذا رأيت ما ثَمَّ رأيت.. إلخ، وخرّج على أنَّه أراد أنَّ «ثمَّ» ظرف لمحذوف وقع صلةً لموصول محذوف هو مفعول «رأيت»، والتقدير: وإذا رأيتَ ما ثَمَّ رأيت نعيماً.. إلخ، فحذف «ما» كما حذف في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: ما بينكم.

وتعقَّبه الزَّجَّاج[٢] ثمَّ الزمخشري[٣] بأنه خطأ؛ لأنَّه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة. وأنتَ تعلم أنَّ الكوفيين يُجيزون ذلك، ومنه قوله:

فَمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ويَمْدَحه ويَنْصُره سواء[٤]

أراد: ومَن يمدحه، فحذف الموصول وأبقى صلته.

وقد يقال: إنَّ ذلك إنَّما يَرِدُ لو أراد أنَّ الموصول مقدَّر، أمَّا لو أراد المعنى وأنَّ الظرف يغني غناء المفعول به، فهو كلام صحيح؛ لأنَّ الظرف والمرئيَّ كليهما الجنَّة.

وقرأ حميد الأعرج: «ثُمَّ» بضمِّ الثاء[٥] حرف عطف، وجواب «إذا» على هذا محذوف يقدَّر بنحو: تحيَّر فِكْرك، أو بنحو: رأيتَ عاملاً في «نعيماً».

﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قيل: «عاليهم» ظرفٌ بمعنى فوقهم، على أنَّه خبر مقدَّم، و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر، والجملة حال من الضمير المجرور في «عليهم»[٦]، فهي شرحٌ لحال الأبرار المطوفِ عليهم. وقال أبو حيان[٧]: إنَّ عالي

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢١٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٦١.
(٣) الكشاف ٤/ ١٩٩.
(٤) البيت لحسان بن ثابت، وسلف ١٣/ ٦٣.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.
(٦) تحرفت في (م) إلى: عاليهم.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩بنحوه.

نفسه حالٌ من ذلك الضمير وهو اسم فاعل، و«ثياب» مرفوع على الفاعليَّة به، ويحتاج في إثبات كونه ظرفاً إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب: عالِيَك ثوب، مثلاً، ومثله فيما ذكر: عالية.

وقيل: حال مِن ضمير «لقَّاهم»، أو من ضمير «جزاهم». وقيل: من الضمير المستتر في «متكئين». والكُلُّ بعيد.

وجوّز كون الحال مِن مضاف مقدَّر قبل «نعيماً»، أو قبل «ملكاً»، أي: رأيتَ أهلَ نعيم أو أهل ملك عاليهم.. إلخ، وهو تكلُّف غيرُ محتاج إليه.

وقيل: صاحب الحال الضمير المنصوب في «حسبتهم» فهي شرح لحال الطائفين، ولا يخفى بُعْدُه؛ لما فيه من لزومِ التفكيك، ضرورةَ أنَّ ضمير «سقاهم» فيما بَعْدُ كالمتعيِّن عوده على الأبرار، وكونه من التفكيك مع القرينة المعيَّنة وهو مما لا بأسَ به ممنوع. واعترض أيضاً بأنَّ مضمون الجملة يصير داخلاً تحت الحسبان، وكيف يكون ذلك وهم لابسونَ الثيابَ حقيقةً، بخلاف كونهم لؤلؤاً فإنَّه على طريق التشبيه المقتضي لقُرْب شَبَهِهم باللؤلؤ أن يحسبوا لؤلؤاً. وأجيب بأنَّ الحسبان في حال من الأحوال لا يقتضي دخول الحال تحت الحسبان.

ورفع «خضر» على أنَّه صفةٌ «ثياب»، و«إستبرق» على أنَّه عطف على «ثياب»، والمراد: وثيابُ استبرقٍ.

والسندس، قال ثعلب: ما رَقَّ من الدِّيْباج، وقيل: ما رَقَّ مِن ثياب الحرير، والفرق أنَّ الديباجَ ضَرْبٌ من الحرير المنسوج يتلوَّن ألواناً. وقال الليث: هو ضَرْبٌ مِن البُزْيُون[1] يُتَّخَذُ من المِرْعِز[2]، وهو معرَّب بلا خلاف بين أهل اللغة على ما في «القاموس»[3] وغيره. وزعم بعض أنَّه ـ مع كونه معرَّباً ـ أصله: سِنْدِي، بياء النسبة؛ لأنَّه يُجلَب من السِّنْد، فأبدلت الياء سيناً كما قال في سادي: سادس، وهو كما ترى.

---

(١) أي: السندس. القاموس (البزيون).

(٢) المِرْعز والمِرْعِزَّى: الزَّغب الذي تحت شعر العنز، ويقال: ثوب مُمَرْعز. القاموس (رعز).

(٣) مادة (السندس).

والإستبرق: قيل: ما غَلُظَ من ثياب الحرير، وقال أبو إسحاق: الديباج الصَّفِيْق الغَلِيظ الخَشِن[1]. وقال ابن دريد: ثيابٌ حريرٌ نحو الديباج. وعن ابن عبادة: هو بُرْدَة حمراء. وقيل: هو المنسوج من الذهب.

وهو اسم أعجميٌّ معرَّب عند جمع، أصله بالفارسية: إِسْتَبْرَه[2]، وفي «القاموس»[3]: معرَّب اسْتَرْوَه. وحكي ذلك عن ابنِ دريد، وأنَّه قال: إنَّه سريانيّ. وقيل: معرَّب: اسْتَفْره، وما في صورة الفاء ليست فاءً خالصة وإنَّما هي بين الفاء والباء. وقيل: عربيٌّ وافقت لغةُ العربِ فيه لغةَ غيرهم، واستصوبه الأزهريُّ[4].

وكما اختلفوا فيه هل هو معرَّب أو عربيٌّ، اختلفوا هل هو نكرةٌ أو عَلَمُ جنسٍ، مبنيٌّ، أو مُعْرَب، أو ممنوعٌ من الصَّرْف، وهمزته همزة قَطْع أو وصل، والصحيح على ما قال الخفاجيُّ: إنَّه نكرةٌ مُعْرَب مصروفٌ مقطوع الهمزة، كما يشهد به القراءة المتواترة[5]. وسيُعلم إن شاء الله تعالى حالُ ما يخالفها.

وفي «جامع التعريب»[6]: إنَّ جمعَه: أَبارق، وتصغيره: أُبَيْرِق، حذفت السين والتاء في التكسير؛ لأنَّهما زيدتا معاً فأجريا مجرى الزيادة الواحدة. وفي المسألة خلاف أيضاً مذكور في محلِّه.

ولم يذكر لون هذا الإستبرق، وأشار ناصر الدين[7] إلى أنَّه الخضرة، فـ «خضر» وإن توسَّط بين المعطوف والمعطوف عليه فهو لهما.

---

(١) معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج ٥/ ٢٦٢، وتحرف في مطبوعه «الحسن» إلى: الخشن. والمثبت موافق لما نُقل عنه في تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٢، واللسان (أسق).

(٢) الذي في معجم الألفاظ الفارسية لأدى شير ص١٠: معرَّب: إِسْتَبْر. والذي في المعجم الذهبي ص٣٣٤: سِتَبْرق، معرَّب: استبرق، وتلفظ: ستبرك وستبره.

(٣) مادة: (برق).

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٠ مادة (تنر).

(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩١.

(٦) ذكر عبد اللطيف بن محمد رياضي زاده في كتابه أسماء الكتب ص١١٩ أنه لجمال الدين عبد الوهاب.

(٧) أي: البيضاوي في تفسيره ٨/ ٢٩١ بهامش حاشية الشهاب.

وعلى كلٍّ حال هذه الثياب لباسٌ لهم، وربَّما تُشعِر الآية بأنَّ تحتها ثياباً أخرى، وقيل على وجه الحاليَّة من ضمير «متَّكئين»: إنَّ المراد: فوق حِجَالهم المضروبة عليهم ثياب سندس. . إلخ، وحاصله: أنَّ حِجَالهم مكلَّلة بالسندس والإستبرق.

وقرأ ابن عباس ـ بخلاف عنه ـ والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابنُ محيصن ونافع وحمزة: «عالِيْهِم» بسكون الياء وكسر الهاء[١]، وهي رواية أبان عن عاصم، فهو مرفوع بضمَّة مقدَّرة على الياء على أنَّه مبتدأ، و«ثياب» خبره، وعند الأخفش فاعلٌ سدَّ مسدَّ الخبر. وقيل: على أنَّه خبرٌ مقدَّم، و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر، وأخبر به عن النكرة؛ لأنَّه نكرة، وإضافته لفظيَّة وهو في معنى الجماعة، كما في ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] على ما صرَّح به مكيٌّ[٢]، ولا حاجةَ إلى التزامه على رأي الأخفش. وقيل: هو باقٍ على النصب، والفتحة مقدَّرة على الياء، وأنتَ تعلم أنَّ مثلَه شاذٌّ أو ضرورة، فلا ينبغي أن يُخرَّج عليه القراءةُ المتواترة.

وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بنُ عليٍّ: «عالِيَتُهُم» بالياء والتاء مضمومة[٣]، وعن الأعمش أيضاً وأبان عن عاصم: فتح التاء الفوقيَّة[٤]، وتخريجهما كتخريج «عالِيهم» بالسكون والنصب.

وقرأ ابن سيرين ومجاهد في روايةٍ وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً: «عَلَيْهم» جارًّا ومجروراً[٥]، فهو خبر مقدَّم و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر.

وقرأت عائشة: «عَلَتْهُم» بتاء التأنيث فعلاً ماضياً، فـ «ثياب» فاعل.

---

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦ عن نافع وحمزة وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٣٩٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٨٢، والدر المصون ١٠/ ٦١٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٩ والكلام منه، والقراءة ذكرت في القراءات الشاذة ص١٦٦ عن مجاهد وابن سيرين بضمِّ الهاء هكذا: عليهُمْ.

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة: «ثيابٌ سندسٌ» بتنوين «ثياب» ورفع «سندس»[1] على أنَّه وصفٌ لها، وهذا كما تقول: ثوبٌ حريرٌ، تريد مِن هذا الجنس.

وقرأ العربيَّان ونافع في رواية: «وإستبرقٍ» بالجرِّ[2] عطفاً على «سندس».

وقرأ ابن كثير وأبو بكر بجرِّ «خضر»[3] صفة لـ «سندس»، وهو في معنى الجمع، وقد صرَّحوا بأنَّ وصف اسم الجنس الذي يُفرَّق بينه وبين واحدِهِ بتاء التأنيث بالجمع جائز فصيح، وعليه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] و﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠] وقد جاء سندسة في الواحدة، كما قاله غير واحد، وجوِّز كونه صفة لـ «ثياب»، وجرُّه للجوار، وفيه توافق القراءتين معنًى إلا أنَّه قليل.

وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ وحمزة والكسائي: «خضرٍ وإستبرقٍ» بجرِّهما[4].

وقرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقَ» بوصل الألف وفتح القاف[5]، كما في عامَّة كتب القراآت، ويفهم من «الكشاف»[6] أنَّه قرأ بالقطع والفتح، وأنَّ غيرَه قرأ بما تقدَّم، وهو خلاف المعروف، وخرَّج الفتح على المنع مِن الصَّرْف، للعلميَّة والعجمة، وغلِّط بأنَّه نكرةٌ يدخله حرف التعريف، فيقال: الإستبرق. وقيل: إنَّ ذاك كذا، والوصل مبنيٌّ على أنَّه عربيٌّ مسمًّى باستفعل من البريق، يقال: بَرِقَ واسْتَبْرَق، كعَجِبَ واستَعْجَبَ، فهو في الأصل فعلٌ ماضٍ ثم جُعِلَ عَلَماً لهذا النوع مِن الثياب، فمُنعَ من الصَّرْف للعلميَّة ووزن الفعل دون العجمة، وتعقّب بأنَّ كونه مُعَرَّباً مما لا ينبغي أن يُنكَر. وقيل: هو مبنيٌّ منقولٌ من جملةِ فِعْلٍ وضميرٍ مستترٍ. وحالُه لا يخفى.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.
(٢) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦، والبحر ٨/ ٤٠٠ والكلام منه.
(٣) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦.
(٤) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٦٦، والمحتسب ٢/ ٣٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٠.
(٦) ٤/ ١٩٩.

واختار أبو حيَّان[١] أنَّ «اسْتَبْرقَ» على قراءة ابنِ محيصن فعلٌ ماضٍ من البريق، كما سمعت، وأنَّه باقٍ على ذلك لم يُنقَل ولم يُجعَل عَلَماً للنوع المعروف مِن الثياب، وفيه ضمير عائد على السندس أو على الأخضر الدالِّ عليه «خضر»، كأنَّه لمَّا وصف بالخضرة وهي مما يكون فيها لشدَّتها دَهْمة وغَبَش، أخبر أنَّ في ذلك اللون بريقاً وحُسْناً يُزيل غَبَشَه، فقيل: واسْتَبرقَ، أي: برق ولمع لمعاناً شديداً، ثم قال معرِّضاً بمَن غلَّطه كأبي حاتم والزمخشري: وهذا التخريجُ أولى من تَلْحين قارئٍ جليلٍ مشهور بمعرفة العربية، وتوهيمِ ضابطٍ ثقة قد أَخَذَ عن أكابر العلماء. انتهى. وقيل: الجملة عليه معترضة أو حال بتقدير «قد» أو بدونه.

﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ﴾ جمع: سِوار، وهو معروف، وذكر الراغب أنَّه معرَّب: دستواره[٢] ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ هي فضة لائقة بتلك الدار. والظاهر أنَّ هذا عطف على «يطوف عليهم»، واختلافهما بالمضي والمضارعة لأنَّ الحِلْية[٣] مقدَّمة على الطواف المتجدِّد. ولا ينافي ما هنا قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] لإمكان الجمع بتعدُّد الأساور لكلٍّ، والمعاقبةِ بلبس الذهب تارةً والفضة أخرى، والتبعيضِ بأن يكون أساور بعضٍ ذهباً وبعضٍ فضَّة؛ لاختلاف الأعمال.

وقيل: هو حال من ضمير «عاليهم» بإضمار «قد» أو بدونه، فإن كان الضمير للطائفين على أن يكون «عاليهم» حالاً من ضمير «حسبتهم» جاز أن يقال: الفضة للخَدَم والذهب للمخدومين.

وجوّز أن يكون المراد بالأساور الأنوار الفائضة على أهل الجنة، المتفاوتةَ ـ لتفاوت الأعمال ـ تفاوت الذهب والفضة، والتعبير عنها بأساور الأيدي لأنَّه جزاء ما عملته أيديهم، ولا يخفى أنَّ هذا ممَّا لا يليقُ بالتفسير، وحَرِي أن يكون من باب الإشارة.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠.

(٢) المفردات (سور).

(٣) في (م): الحالية، والمثبت موافق لما في حاشية الشهاب ٨/ ٩١، والكلام منه.

ثم إنَّ التحلية إن كانت للوِلْدان فلا كلامَ، ويكونون على القول الثاني في «مخلَّدون» مسوَّرين مُقرَّطين، وهو مِن الحُسْن بمكان، وإن كانت لأهل الجنة المخدومين، فقد استشكل بأنَّها لا تَليق بالرجال، وإنَّما تَليقُ بالنساء والوِلْدان، وأجيب بأنَّ ذلك ممَّا يختلف باختلاف العادات والطبائع، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة، ومن المشاهد في الدنيا أنَّ بعض ملوكها يتحلَّون بأعضادهم وعلى تِيْجانهم وعلى صدورهم ببعضِ أنواع الحَلْي ممَّا هو عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان، ولا يَرَوْن ذلك بدعاً ولا نَقْصاً، كلُّ ذلك لمكان الأُلْف والعادة، فلا يبعد أن يكون مِن طباع أهل الجنة في الجنة الميلُ إلى الحَلْي مطلقاً لا سيَّما وهم جُرْد مُرْد أبناء ثلاثين، وقيل: إنَّ الأساور إنَّما تكون لنساء أهل الجنة والصبيان فقط، لكن غُلِّب في اللفظ جانبُ التذكير، وهو خلاف الظاهر، كما لايخفى.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ هو نوع آخر يَفوقُ النوعين السابقين، وهما ما مُزجَ بالكافور وما مُزجَ بالزنجبيل، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى ربِّ العالمين، ووصفه بالطهورية، قال أبو قلابة: يُؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان آخر ذلك أُتُوا بالشراب الطهور، فيُطهِّر بذلك قلوبَهم وبطونهم ويفيض عَرَقاً مِن جلودهم مثل ريح المسك. وعن مقاتل: هو ماءُ عين على باب الجنة مِن ساق شجرة، مَن شَرِبَ منه نَزَعَ اللهُ تعالى ما كان في قلبه مِن غِشٍّ وغِلٍّ وحسد، وما كان في جوفه مِن قَذَر وأذى. أي: إن كان. فالطهور عليهما بمعنى المطهِّر، وقد تقدَّم في ذلك كلامٌ، فتذكَّر.

وقال غير واحد: أُريدَ أنَّه في غاية الطهارة؛ لأنَّه ليس برجسٍ كخمر الدنيا التي هي في الشرع رِجْسٌ؛ لأنَّ الدارَ ليست دارَ تكليف، أو لأنَّه لم يُعصَر فتمسّه الأيدي الوَضِرة وتَدوسه الأقدام الدنسة، ولم يُجعَل في الدنان والأباريق التي لم يُعْنَ بتنظيفها، أو لأنَّه لا يؤول إلى النجاسة؛ لأنَّه يَرشُح عَرَقاً مِن أبدانهم له ريح كريح المسك.

وقيل: أُريدَ بذاك الشراب الروحانيُّ لا المحسوس، وهو عبارة عن التجلِّي الرباني الذي يُسكِرُهم عمَّا سواه:

صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هوًى ونُورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمُ[(١)]

ولعلَّ كلّ ما ذكره ابنُ الفارض في خمريَّته التي لم يُفرَغ مِثْلها في كأسٍ إشارةٌ إلى هذا الشراب، وإيَّاه عنى بقوله:

سَقَوْني وقالوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ حنينٍ ما سَقَوني لَغَنَّتِ[(٢)]

ويُحكى أنَّه سئل أبو يزيد عن هذه الآية، فقال: سقاهم شراباً طهَّرهم به عن محبَّة غيرِه، ثم قال: إنَّ تعالى شراباً ادَّخره لأفاضل عباده يتولَّى سقيهم إيَّاه، فإذا شربوا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتَّصلوا، فهم في ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وحمل بعضهم جميع الأشربة على غير المتبادر منها، فقال: إنَّ الأنوار الفائضة مِن جواهر أكابر الملائكة وعظمائِهم عليهم السلام على هذه الأرواح، مشبَّهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوِّي البَدَن، وكما أنَّ العيونَ متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوَّة، فكذا ينابيع الأنوار العلويَّة مختلفة، فبعضها كافوريَّة على طبع البَرْد واليُبس ويكون صاحب ذلك في الدنيا في مقام الحزن والبكاء والانقباض، وبعضها يكون زَنْجَبِيليًّا على طبع الحَرِّ واليبس ويكون صاحبه قليل الالتفات إلى السوى، قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات، ثم لا يزال الروح البشري منتقلاً مِن ينبوعٍ إلى ينبوعٍ ومن نور إلى نور، ولا شَكَّ أنَّ الأسباب والمسبَّبات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المُطلَق جلَّ جلاله، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربةُ المتقدِّمة، بل فنيت؛ لأنَّ نورَ ما سوى اللهِ تعالى يَضمحلُّ في مقابلة نورِ جلال الله سبحانه وكبريائه، وذلك آخِر سَيْرِ الصِّدِّيقين ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، ولهذا ختم الله تعالى ذِكْرَ ثواب الأبرار بقوله جلَّ وعلا: «وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً».

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٤٢، وسلف ١/ ٣٢٧.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٢، وفيه: لا تَغيبن، بدل: لا تغنِّ، و: لغابت، بدل: لغنَّت. وهو برواية المصنف في الكشكول ١/ ٧٧، ونسبه للحلاج. ونُسب لشيخ سكِّير ضمن قصة أخرجها ابن عساكر ٦٨/ ١٨٩ عن عمر بن عبد العزيز.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر مِن فنون الكرامات الجليلة الشأن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الصالحة التي اقتضاها حُسْنُ استعدادكم واختياركم، والظاهر أنَّ المَجِيْءَ بالفعل للتحقيق والدوام، وجوّز أن يكون المراد: كان في علمي وحكمي، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: مرضيًّا مقبولاً، أو: مجازًى عليه غير مضيَّع.

والكلام على ما روي عن ابن عباس على إضمار القول، أي: ويقال لهم بعد دخولهم الجنَّةَ ومشاهدتهم ما أعدَّ لهم: إنَّ هذا.. إلخ، والغَرَض أن يَزْداد سرورُهم، فإنَّه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرَّدِيء، فيزداد غمُّه، وللمثاب: هذا بطاعتك وعَمَلك الحَسَن، فيزداد سروره، ويكون ذلك تهنئةً له.

وجوّز أن يكون خطاباً من الله تعالى في الدنيا، كأنَّه سبحانه بعد أن شرح ثواب أهل الجنة، قال: إنَّ هذا كان في عِلْمي وحكمي جزاءً لكم يا معشر عبادي، وكان سعيكم مشكوراً. قيل: وهو لا يُغني عن الإضمار ليرتبطَ بما قبله.

وقد ذكر سبحانه مِن الجزاء ما تهشُّ له الألباب، وأعقبه جلَّ وعلا بما يدلُّ على الرضا الذي هو أعلى وأغلى لدى الأحباب:

إذا كنتَ عنِّي يا مُنَى القلبِ راضياً   أرى كلَّ مَن في الكون لي يَتَبَسَّمُ[(١)]

وروي مِن طرق أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه السورةَ وقد أُنزلت عليه وعنده رجلٌ مِن الحبشة أسودُ، فلمَّا بلغ صفةَ الجنان زَفَرَ زفرةً خرجت نَفْسُه، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجَ نَفْسَ صاحبكم الشوقُ إلى الجنَّة»[(٢)].

ولمَّا ذكر سبحانه أوَّلاً حالَ الإنسان وقَسَمه إلى الطائع والعاصي، وأمعن جلَّ شأنه فيما أعدَّه للطائع مشيراً إلى عِظَمِ سعة الرحمة، ذَكَرَ ما شرف به نبيّه ﷺ إزالةً

---

(١) البيت سلف ١٠/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه عبد الله بن وهب من طريق ابن زيد عن النبي ﷺ، كما ذكر ابن كثير في أول السورة، ثم قال عقبه: مرسل غريب. وجاء في هامش الأصل: يتخايل من هذا أن السورة مدنيّة، فلا تغفل. انتهى منه.

لوحشته وتقويةً لقلبه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: أنزلناه مفرَّقاً منجَّماً في نحو ثلاث وعشرين سنة لِحكَم بالغة مقتضية له، لا غَيْرُنا كما يُعرِب عنه تكرير الضمير مع «إنَّ»، سواء كان المنفصل تأكيداً أو فصلاً أو مبتدأ.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نَصْرك على الكفار، فإنَّ له عاقبة حميدة ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ قلَّةَ صبرٍ منك على أذاهم وضَجَراً من تأخُّر نصرك ﴿مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ قيل: إنَّ «أو» لأحد الشيئين في جميع مواقعها، ويَعرِض لها معانٍ أُخَر كالشَّكِّ والإباحة وغيرهما، فيكون أصل المعنى هنا: ولا تُطِع منهم أحدَ النوعين، ولمَّا كان: أحد، الأغلبُ عليه في غير الإثبات العمومُ، واحتمالُ غيره احتمالٌ مرجوح، صار المعنى على النهي عن إطاعة هذا وهذا، ولم يُؤْتَ بالواو؛ لاحتمال الكلام عليه النهيَ عن المجموعِ، ويحصل امتثاله بالانتهاء عن واحدٍ دون الآخَر، فلا يَرِدُ أن لا تطع[1] أحدَ النوعين، يحصل الامتثال به بتَرْك إطاعة واحدٍ مع إطاعة الآخَر، إذ يقال لمن فَعَلَ ذلك: إنَّه لم يُطِعْ أحدهما، ومن هنا قيل: إنَّ «أو» في الإثبات تفيد أحدَ الأمرين، وفي النفي تفيد نفيَ كلا الأمرين جميعاً، ولعلَّ ما ذكر في معنى كلام ابنِ الحاجب حيث قال: إن وضع «أو» لإثبات الحكم لأحد الأمرين إلا أنَّه إن حصلت قرينة يُفهَم معها أنَّ أحدَ الأمرين غيرُ حاجر عن الآخَر، مثل قولك: جَالِسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين، سُمِّي إباحة، وإن حُجِرَ فهو لأحد الأمرين.

واستشكل بعضهم وقوعَها في النهي كـ: «لا تطع منهم آثماً أو كفوراً»، إذ لو انتهى عن أحدِهما لم يمتثل، ومن ثمَّ حَمَلها بعضهم ـ يعني أبا عبيدة ـ على أنَّها بمعنى الواو[2]، والأولى أن تبقى على بابها، وإنَّما جاء التعميم فيها مِن وراء ذلك، وهو النهي الذي فيه معنى النفي؛ لأنَّ المعنى قبل وجود النهي: تطيع آثماً أو كفوراً، أي: واحداً منهما، فإذا جاء النهي ورد على ما كان ثابتاً في المعنى، فيصير المعنى: ولا تطع واحداً منهما، فيجيء التعميمُ فيهما من جهة النهي، وهي

---

(١) في (م): تطلع.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠.

على بابها فيما ذكر؛ لأنَّه لا يَحصُل الانتهاء عن أحدِهما حتى ينتهي عنهما، بخلاف الإثبات فإنَّه قد يفعلُ أحدهما دون الآخر. انتهى. وعليه ما قيل: إنَّ إفادة العموم في النفي والنهي الذي في معناه لِمَا أنَّ نقيضَ الإيجاب الجزئي السَّلبُ الكليُّ، وقريب مِن ذلك قول الزجَّاج[1]: إنَّ «أو» هاهنا أوكد من الواو؛ لأنَّك إذا قلتَ: لا تطع زيداً وعَمْراً، فأطاع أحدَهما، كان غيرَ عاصٍ، فإذا أبدلتها بـ «أو» فقد دَلَّلت على أنَّ كلَّ واحد منهما أهلٌ لأن يُعصى، ويعلم منه النهي عن إطاعتهما معاً كما لا يخفى، وأفاد جار الله[2] أنَّ «أو» باقية على حقيقتها، وأنَّ النهي عن إطاعتهما جميعاً إنَّما جاء من دلالة النَّصِّ، وهي المسمَّى مفهوم الموافقة بقسمَيْه الأولى والمساوي، فتأمَّل.

والمراد بالآثم والكفور جنسهما، وتعليقُ النهي بذلك مُشعِر بعليَّة الوصفَيْن له، فلا بُدَّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر لا فيما ليس بإثم ولا كفر، والمراد: ولا تُطِع مُرتكبَ الإثم الداعي لك إليه، أو مرتكبَ الكفر الداعي إليه، أي: لا تتبع أحداً مِن الآثِم إذا دعاك إلى الإثم، ومن الكفور إذا دعاك إلى الكفر، فإنَّه إذا قيل: لا تُطِع الظالم، فُهِمَ منه: لا تتبعه في الظلم إذا دعاكَ إليه، ومَنْعُ هذا الفهم مكابَرةٌ، فلا يتمُّ الاستدلال بالآية على عدم جواز الاقتداء بالفاسق إذا صلَّى إماماً، ثم إنَّ التقسيمَ باعتبار ما يَدْعُوانِ إليه مِن الكفر والإثم المقابل له، لا باعتبار الذوات حتى يكون بعضهم آثماً وبعضهم كفوراً، فيقال: كيف ذلك وكلُّهم كَفَرة؟!

والمبالغة في كفور قيل: لموافقة الواقع، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] واعتبار رجوعها إلى النهي كاعتبار رجوعها إلى النفي على ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] كما ترى.

وقيل: الآثِم: المنافق، والكفور: المُشرِك المجاهر. وقيل: الآثم: عتبة بنُ ربيعة، والكفور: الوليد بنُ المغيرة؛ لأنَّ عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٦٣.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٠.

الفسوق، وكان الوليد غالياً في الكفر شديدَ الشكيمة في العُتُوِّ. وعن مقاتل: أنَّهما قالا له ﷺ: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيكَ بالمال والتزويج، فنزلت. وقيل: الكفور: أبو جهل، والآية نزلت فيه. والأَولى ما تقدَّم، وفي النهي مع العصمة إرشاد لغير المعصوم إلى التضرُّع إلى الله تعالى والرغبة إليه سبحانه في الحفظ عن الوقوع فيما لا ينبغي.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ ودَاوِمْ على ذِكْره سبحانه في جميع الأوقات، أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنَّ الأصيل قد يُطلَق على ما بعدَ الزوال إلى المغرب فينتظمهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بعضه ﴿فَٱسْجُدْ﴾ فَصَلِّ ﴿لَهُۥ﴾ عزَّ وجلَّ، على أن السجودَ مجازٌ عن الصلاة بذِكْر الجزءِ وإرادةِ الكُلِّ، وحُمِلَ ذلك على صلاة المغرب والعشاء، وتقديمُ الظَّرْف للاعتناء والاهتمام؛ لما في صلاة الليلِ مِن مزيد كُلْفة وخلوص.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ وتهجَّد له تعالى قِطعاً من الليل طويلاً، فهو أمر بالتهجُّد على ما اختاره بعضهم، وتنوين «ليلاً» للتبعيض، وأصلُ التسبيحِ التنزيهُ، ويُطلَق على مُطلَق العبادة القوليَّة والفعليَّة، وعن ابن زيد وغيره أنَّ ذلك كان فَرْضاً ونُسخَ، فلا فرض اليوم إلا الخَمْس. وقال قوم: هو مُحكَم في شأنه عليه الصلاة والسلام. وقال آخرون: هو كذلك مطلقاً على وجه الندب. وفي تأخير الظرف قيل: دلالةٌ على أنَّه ليس بفَرْض كالذي قبله، وكذا في التعبير عنه بالتسبيح، وفيه نظر!.

وقال الطيبيُّ: الأقرب مِن حيث النظم أنَّه تعالى لمَّا نهى حبيبَه ﷺ عن إطاعة الآثِم والكفورِ وحثَّه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يُرشِدَه إلى متاركتهم، عقَّب ذلك بالأمر باستغراقِ أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلِّها مِن غير اختصاص، وبالتسبيح بما يُطيق على منوال قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] انتهى. وهو حَسَن.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وينهمكونَ في لذَّاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ هو يوم القيامة، وكونه أمامهم ظاهرٌ، أو: يذرون وراءَ ظهورِهم يوماً ثقيلاً لا يَعْبَؤون به، فالظرف قيل: على الأول حالٌ من «يوماً»، وعلى هذا ظرف «يذرون»، ولو جُعلَ على وتيرة واحدة في التعلُّق صحَّ أيضاً.

ووصفُ اليوم بالثقيل؛ لتشبيه شدَّته وهَوْله بثِقَل شيء فادح[1] باهظ لحامِله بطريق الاستعارة. والجملة كالتعليل لما أمرَ به ونهى عنه، كأنَّه قيل: لا تُطِعْهم واشتغل بالأهمِّ من العبادة؛ لأنَّ هؤلاء تركوا الآخرةَ للدنيا، فاتْرُك أنتَ الدنيا وأهلها للآخرة، وقيل: إنَّ هذا يفيد ترهيبَ محبِّ العاجل وترغيبَ محبِّ الآجل، والأوَّل علَّة للنهي عن إطاعة الآثِم والكفور، والثاني علَّة للأمر بالعبادة.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ لا غيرنا ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أَحْكَمْنا رَبْطَ مفاصلهم بالأعصاب والعُرُوق. والأسر في الأصل: الشَّدُّ والرَّبْط، وأطلق على ما يُشَدُّ به ويُربَط كما هنا، وإرادة الأعصاب والعُرُوق لشَبَهها بالحبال المربوط بها، ووجه الشَّبَه ظاهر، ومِن هنا قد يقول العارف: مَن كان أَسْرُه مِن ذاته وسجنه دنياه في حياته، فَلْيَبكِ[2] مدَّة عُمُره وليتأسَّف على وجوده بأسره. والمراد شدَّة الخَلْق وكونه مُوثقاً حَسَناً، ومنه: فرس مأسور الخَلْق: إذا كان موثَّقَه حَسَنه.

وعن مجاهد: الأسْرُ: الشَّرْج. وفسّر بمجرى الفضلة، وشدُّ ذلك جَعْلُه بحيث إذا خرج الأذى انقبضَ، ولا يخفى أنَّ هذا داخل في شدَّة الخَلْق، وكونه موثقاً حَسَناً.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أهلكناهم وبدَّلنا أمثالهم في شدَّة الخَلْق ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ بديعاً لا ريبَ فيه، يعني البعثَ والنشأة الأخرى، فالتبديل في الصفات؛ لأنَّ المعادَ هو المبتدأ، ولكون الأمر محقَّقاً كائناً جِيْءَ بـ «إذا»، وذِكْر المشيئة لإبهام وقته، ومثلُه شائع، كما يقول العظيمُ لمن يسأله الإنعام: إذا شئت أُحسنُ إليك.

---

(١) في (م): قادح.

(٢) في الأصل و(م): فليشك. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤، والكلام منه.

ويجوز أن يكون المعنى: وإذا شئنا أهلكناهم وبدَّلنا غيرهم ممَّن يُطيع، فالتبديل في الذوات، و«إذا» لتحقُّق قدرتُه تعالى عليه وتحقُّق ما يقتضيه مِن كفرهم المقتضي لاستئصالهم، فجعل ذلك المقدور المهدّد به كالمحقَّق، وعبّر عنه بما يُعبَّر به عنه. ولعلَّه الذي أراده الزمخشريُّ[1] بما نُقلَ عنه مِن قوله: إنَّما جاز ذلك؛ لأنَّه وعيدٌ جِيْءَ به على سبيل المبالغة، كأنَّ له وقتاً معيّناً، ولا يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] لأنَّ النكات لا يلزم اطِّرادها، فافهم، والوجه الأوَّل أوفقُ بسياق النظم الجليل.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القرآنية ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: فمَن شاء أن يتَّخذ إليه تعالى سبيلاً ـ أي: وسيلةً تُوصِله إلى ثوابِه ـ اتّخذَه، أي: تقرَّب إليه بالطاعة، فهي تُوْصِلُ إيصالَ[2] السبيلِ للمقاصد.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: شيئاً، أو اتِّخاذ السبيل ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئةِ الله تعالى لمشيئتكم. وقال الزمخشريُّ: أي: وما تشاؤون الطاعةَ إلا أن يشاء الله تعالى قَسْرَكم عليها[3]. وهو تحريفٌ للآية بلا دليل، ويلزمه على ما في «الانتصاف»[4] أنَّ مشيئةَ العبدِ لا توجد إلا إذا انتفت، وهو عن مذهب الاعتزال بمعزلٍ، وأبعد مَنْزِل. والظاهر ما قرَّرنا؛ لأنَّ المفعول المحذوف هو المذكور أوَّلاً كما تقول: لو شئت لقتلتُ زيداً، أي: لو شئتَ القتلَ لا لو شئت زيداً، ولا يمكن للمعتزلة أن ينازعوا أهلَّ الحقِّ في ذلك؛ لأنَّ المشيئةَ ليست من الأفعال الاختياريَّة، وإلا لتَسَلْسلَت، بل الفعل المقرون بها منها، فدعوى استقلالِ العبد مكابرة، وكذلك دعوى الجَبْر المُطلَق مهاترة، والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين، وحاصله على ما حقَّقه الكورانيُّ: أنَّ العبدَ مختارٌ في أفعاله، وغيرُ مختار في اختياره، والثواب والعقاب لحُسْنِ استعداد النفس الأمري وسوئه، فكلٌّ يعمل على شاكلته، وسبحان مَن أعطى كلَّ شيء خَلْقه ثم هدى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠١، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤.
(٢) في (م): أيضاً.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٠١.
(٤) ٤/ ٢٠١.

وفي «التفسير الكبير»[1]: هذه الآية مِن الآيات التي تلاطمت فيها أمواج القَدَر والجَبْر، فالقدريُّ يتمسَّك بالجملة الأولى، ويقول: إنَّ مفادها كون مشيئة العبدِ مستلزمة للفعل، وهو مذهبي، والجبريُّ يتمسَّك بضمِّ الجملة الثانية، ويقول: إنَّ مفادها أنَّ مشيئةَ الله تعالى مستلزمةٌ لمشيئة العبد، فيتحصَّل من الجملتين أنَّ مشيئةَ الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد، وأنَّ مشيئةَ العبد مستلزمةٌ لفعل العبد، كما تُؤذِن به الشرطيَّة، فإذن مشيئةُ الله تعالى مستلزمةٌ لفعل العبد؛ لأنَّ مُستلزَمَ المستلزِمِ مُستلزم، وذلك هو الجبر وهو صريح مذهبي.

وتعقّب بأنَّ هذا ليس بالجبر المحضِ المسلوب معه الاختيار بالكليَّة، بل يرجع أيضاً إلى أمر بين أمرين.

وقدَّر بعضُ الأجلَّة مفعولَ «يشاء» الاتخاذ والتحصيل ردًّا للكلام على الصدر، فقال: إنَّ قوله سبحانه: «وما تشاؤون» إلخ تحقيقٌ للحقِّ ببيانِ أنَّ مجرَّدَ مشيئتهم غيرُ كافية في اتخاذ السبيل، كما هو المفهوم مِن ظاهر الشرطيَّة، أي: وما تشاؤون اتِّخاذ السبيل ولا تقدرونَ على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى اتِّخاذَه وتحصيله لكم، إذ لا دخلَ لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنَّما التأثير والخَلْق لمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

وفيه نوعُ مخالفةٍ للظاهر كما لا يخفى، نعم قيل: إنَّ ظاهر الشرطيَّة أنَّ مشيئةَ العبد مطلقاً مستلزمةٌ للفعل، فيلزم أنَّه متى شاء فعلاً فَعَلَه مع أنَّ الواقعَ خلافه فلا بُدَّ مما قاله هذا البعض، وجعل الجملة الثانية تحقيقاً للحقِّ؟ وأجيب بأنَّها للتحقيق على وجه آخَر، وذلك أنَّ الأولى أفهمت الاستلزام، والثانية بيَّنت أنَّ هذه المشيئةَ المستلزمة لا تتحقَّق إلا وقت مشيئةِ الله تعالى إيَّاها، فكأنَّه قيل: وما تشاؤون مشيئةً تستلزم الفعل إلا وقت أن يشاء اللهُ تعالى مشيئتَكم تلك، فتأمَّل.

وأنتَ تَعلمُ أنَّ هذه المسألة من محار الأفهام، ومزالِّ أقدام أقوام بعد أقوام، وأقوى شُبَه الجبريَّة أنَّه قد تقرَّر أنَّ الشيءَ ما لم يَجِبْ لم يوجد، فإن وجب صدور

(١) ٣٠/ ٢٦٢.

الفعل فلا اختيارَ، وإلا فلا صدورَ، وبعبارة أخرى أنَّ جميع ما يتوقَّف عليه الفعلُ إذا تحقَّق، فإما أن يَلزم الفعل فيلزم الاضطرار، أو لا، فيلزم جواز تخلُّف المعلول عن علَّته التامَّة، بل مع الصدور الترجُّح بلا مرجِّح، فقد قيل: إنَّها نحو شبهة ابنِ كمونة في التوحيد يصعب التفصِّي عنها، وللفقير العاجز ـ جَبَرَ الله تعالى فَقْره ويسَّر أَمْرَه ـ عزمٌ على تأليف رسالة إن شاء الله تعالى في ذلك سالكاً فيها بتوفيقه سبحانه أحسنَ المسالك، وإن كان الكورانيُّ قدِّس سرُّه لم يَدَعْ فيها مقالاً، وأوشكَ أن يَدَعَ كلَّ مَن جاء بعدُ فيها بشيءٍ عليه عيالاً، والله تعالى الموفِّق.

وقرأ العربيَّان وابنُ كثير: «وما يشاؤون» بياء الغيبة[1]، وقرأ ابنُ مسعود: «إلا ما يشاء الله»[2]، و«ما» فيه مصدريَّة كـ «أنْ» في قراءة الجماعة، وقد أشرنا إلى أنَّ المصدرَ في محلِّ نصب على الظرفيَّة بتقدير المضاف السادِّ هو مسدَّه، وهو ما اختاره غيرُ واحد، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّهم نصُّوا على أنَّه لا يقوم مقامَ الظَّرْف إلا المصدر المصرّح، فلا يجوز: أَجِيْئُكَ أن يصيحَ الديكُ، أو: ما يصيح الديكُ، وإنَّما يجوز: أجيئكَ صياحَ الديك[3]. وكأنَّه لهذا قيل: إنَّ «أنْ يشاء» بتقدير حرف الجرِّ، والاستثناء من أعمِّ الأسباب، أي: وما تشاؤون بسببٍ من الأسباب إلا بأن يشاءَ اللهُ تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العِلْم، فيَعلم مشيئاتِ العباد المتعلِّقة بالأفعال التي سألوها بألسنة استعداداتهم ﴿حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ مبالغاً في الحكمة، فيُفيض على كلِّ ما هو الأوفق باستعدادِه، وما هو عليه في نفس الأمر من المشيئة، أو أنَّه تعالى مبالغ في العِلْم والحكمة فيعلمُ ما يستأهله كلُّ أحدٍ من الطاعة وخلافها، فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه عِلْمه سبحانه وتقتضيه حكمته عزَّ وجلَّ.

وقيل: «عليماً» أي: يعلم ما يتعلَّق به مشيئة العباد مِن الأعمال، «حكيماً» لا يشاء إلا على وفق حكمته، وهو أن يشاء العبد فيشاء الرَّبُّ سبحانه وتعالى،

---

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠١.

(٣) البحر ٨/ ٤٠٢.

لا العكس؛ ليتأتَّى التكليفُ مِن غير انفرادٍ لأحد المشيئتين عن الأخرى. وفيه بحث.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ إلخ، بيانٌ لما تضمَّنته الجملة قَبْلُ، أي: يُدخِل سبحانه في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، وهو الذي عَلِمَ فيه الخيرَ حيث يوفِّقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم، وهم الذين عَلِمَ فيهم الشَّرَّ ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ متناهياً في الإيلام، ونصب «الظالمين» بإضمار فِعْلٍ يفسِّره «أعدَّ» إلخ، وقُدِّر: يُعذِّب، وقد يُقدَّر: أَوْعَدَ، أو: كافأَ، أو شبه ذلك، ولم يُقدَّر «أعدّ» لأنَّه لا يتعدَّى [بنفسه بل][(١)] باللام.

وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة: «والظالمون»[(٢)] على الابتداء، وقراءة الجمهور أحسن ـ وإن أوجبت تقديراً ـ للطباق فيها، وذهابِه في هذه؛ إذ الجملة عليها اسميَّة، والأولى فعليَّة، ولا يقال: زيادة التأكيد في طرف الوعيد مطلوبةٌ؛ لأنَّا نقول: الأمر بالعكس لو حقِّق، لسبق الرحمة الغضب.

وقرأ عبد الله: «وللظالمين» بلام الجَرِّ[(٣)]، فقيل: متعلِّق بما بعدُ على سبيل التوكيد، وقيل: هو بتقدير: أعدَّ للظالمينَ أعدَّ لهم، والجمهور على الأوَّل.

ثمَّ إنَّ هذه السورة وإن تضمَّنت مِن سَعَة رحمة الله عزَّ وجلَّ ما تضمَّنت إلا أنَّها أشارت مِن عظيم جلاله سبحانه وتعالى إلى ما أشارت، أخرج أحمد والترمذي ـ وحسَّنه ـ وابنُ ماجه والضياء في «المختارة»، والحاكم وصححه، وغيرهم: عن أبي ذَرٍّ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا تَرونَ وأسمع ما لا تسمعونَ، أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابع إلا وملك واضعٌ جبهته ساجداً تعالى، واللهِ لو

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦ (وتحرف في مطبوعه إلى: والظالمين)، والبحر المحيط ٤/ ٤٠٢.

تعلمونَ ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذَّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرون إلى الله عزَّ وجلَّ»[١]. وهذا كالظاهر فيما قلنا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الأبرار والمقرَّبين الأخيار فيرزقنا جنَّة وحريراً، ويجعل سعينا لديه مشكوراً بحرمة النبيِّ ﷺ وأهل بيته المُطَهَّرين مِن الرجس تطهيراً.

---

(١) أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

(٧٧) سورة المرسلات مكية
وآياتها خمسون

● **سورة** المرسلات مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أمور العقيدة ، وتبحث عن شئون الآخرة ، ودلائل القدرة والوحدانية ، ، وسائر الأمور الغيبية .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة ، المكلفين بتدبير شئون الكون ، على أن القيامة حقٌّ ، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشراً . فالفارقات فرقاً . فالملقياتِ ذكراً . عذراً أو نذراً . إنما توعدون لواقع ﴾ .

● **ثم تحدثت** عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتتت . لأي يومٍ أُجّلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ ؟

● **وتناولت** السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت ، وإحيائه بعد الفناء ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . ألم نخلقكم من ماءٍ مهين .. ﴾ ؟ الآيات

● **ثم تحدثت** عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من

نكال وعقاب ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعب . لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرركا لقصر . كأنه جمالتٌ صفر ..﴾ الآيات

● **وبعد** الحديث عن المجرمين ، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين ، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار ، عن عبادة الله الواحد القهار ، وهو الطغيان والإجرام ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون . ويل يومئذٍ للمكذبين . وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذٍ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ ؟

سورة المرسلات

[٩٩٧] أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾[١] قال: نزلت في ثقيف.

* * *

[٩٩٧] (١) سورة المرسلات: الآية (٤٨).

سورة المرسلات

وهي خمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الكلمات الخمس إما أن يكون المراد منها جنسًا واحدًا أو أجناسًا مختلفة أما الاحتمال الأول: فذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن المراد منها بأسرها الملائكة فالمرسلات هم الملائكة الذين أرسلهم الله إما بإيصال النعمة إلى قوم أو لإيصال النقمة إلى آخرين، وقوله: ﴿ عُرْفًا ﴾ فيه وجوه: أحدها: متتابعة كشعر العرف يقال: جاءوا عرفًا واحدًا وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه، والثاني: أن يكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكرة فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة، فهذا المعنى فيهم ظاهر وإن كانوا لأجل العذاب فذلك العذاب، وإن لم يكن معروفًا للكفار، فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم. والثالث: أن يكون مصدرًا كأنه قيل: والمرسلات أرسالاً أي متتابعة وانتصاب عرفًا على الوجه الأول على الحال، وعلى الثاني لكونه مفعولاً أي أرسلت للإحسان والمعروف وقوله: ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ فيه وجهان: الأول: يعني أن الله تعالى لما أرسل أولئك الملائكة فهم عصفوا في طيرانهم كما تعصف الرياح. والثاني: أن هؤلاء الملائكة يعصفون بروح الكافر يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، يقال: ناقة عصوف، أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم، أي ذهبت بهم، قال الشاعر:

فِي فَيْلَقٍ شَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ   تَعْصِفُ بِالْمُقْبِلِ وَالْمُدْبِرِ

وقوله تعالى: ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ معناه أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، أو نشروا الشرائع في الأرض، أو نشروا الرحمة أو العذاب، أو المراد الملائكة الذين ينشرون الكتب يوم الحساب، وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم، قال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣] وبالجملة فقد نشروا الشيء الذي أمروا بإيصاله إلى أهل الأرض ونشره فيهم وقوله تعالى: ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ معناه أنهم يفرقون بين الحق والباطل، وقوله: ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ معناه أنهم يلقون الذكر إلى الأنبياء، ثم المراد من الذكر يحتمل أن يكون مطلق العلم والحكمة،

كما قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[النحل: ٢] ويحتمل أن يكون المراد هو القرآن خاصة، وهو قوله: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾[القمر: ٢٥] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[القصص: ٨٦] وهذا الملقى وإن كان هو جبريل عليه السلام وحده، إلا أنه يجوز أن يسمى الواحد باسم الجماعة على سبيل التعظيم.

واعلم أنك قد عرفت أن المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به، وشرف الملائكة وعلو رتبتهم أمر ظاهر من وجوه: أحدها: شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل: ٥٠]، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٧] وثانيها: أنهم أقسام: فمنهم من يرسل لإنزال الوحي على الأنبياء، ومنهم من يرسل للزوم بني آدم لكتابة أعمالهم؛ طائفة منهم بالنهار وطائفة منهم بالليل، ومنهم من يرسل لقبض أرواح بني آدم، ومنهم من يرسل بالوحي من سماء إلى أخرى، إلى أن ينزل بذلك الوحي ملك السماء إلى الأرض، ومنهم الملائكة الذين ينزلون كل يوم من البيت المعمور إلى الكعبة على ما روي ذلك في الأخبار، فهذا مما ينتظمه قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ثم ما فيها من سرعة السير، وقطع المسافات الكثيرة في المدة اليسيرة، كقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤] ثم ما فيها من نشر أجنحتهم العظيمة عند الطيران، ونشر العلم والحكمة والنبوة والهداية والإرشاد والوحي والتنزيل، وإظهار الفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال ذلك الوحي والتنزيل، وإلقاء الذكر في القلب واللسان بسبب ذلك الوحي، وبالجملة فالملائكة هم الوسائط بين الله تعالى، وبين عباده في الفوز بجميع السعادات العاجلة والآجلة والخيرات الجسمانية والروحانية، فلذلك أقسم الله بهم.

القول الثاني: أن المراد من هذه الكلمات الخمس بأسرها الرياح، أقسم الله برياح عذاب أرسلها عرفًا، أي متتابعة كشعر العرف، كما قال: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[الروم: ٤٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾[الحجر: ٢٢] ثم إنها تشتد حتى تصير عواصف ورياح رحمة نشرت السحاب في الجو، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[الأعراف: ٥٧] وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[الروم: ٤٨] ويجوز أيضًا أن يقال: الرياح تعين النبات والزرع والشجر على النشور والإنبات، وذلك لأنها تلقح فيبرز النبات بذلك، على ما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢] فبهذا الطريق تكون الرياح ناشرة للنبات وفي كون الرياح فارقة وجوه أحدها: أن الرياح تفرق بعض أجزاء السحاب عن بعض، وثانيها: أن الله تعالى خرب بعض القرى بتسليط الرياح عليها، كما قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[الحاقة: ٦] وذلك سبب لظهور الفرق بين أولياء الله وأعداء الله، وثالثها: أن عند حدوث الرياح المختلفة، وترتيب الآثار العجيبة عليها من تموج السحاب وتخريب الديار تصير الخلق مضطرين إلى الرجوع إلى الله والتضرع على باب رحمته، فيحصل الفرق بين المقر والمنكر والموحد والملحد، وقوله:

﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ معناه أن العاقل إذا شاهد هبوب الرياح التي تقلع القلاع، وتهدم الصخور والجبال، وترفع الأمواج تمسك بذكر الله والتجأ إلى إعانة الله، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والإيمان والعبودية في القلب، ولا شك أن هذه الإضافة تكون على سبيل المجاز من حيث إن الذكر حصل عند حدوث هذه.

القول الثالث: من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخمسة على القرآن، وعندي أنه يمكن حمل جميعها على القرآن، فقوله: ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ المراد منها الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ، وقوله: ﴿ عُرۡفٗا﴾ أي نزلت هذه الآيات بكل عرف وخير وكيف لا وهي الهادية إلى سبيل النجاة والموصلة إلى مجامع الخيرات ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ فالمراد أن دولة الإسلام والقرآن كانت ضعيفة في الأول، ثم عظمت وقهرت سائر الملل والأديان، فكأن دولة القرآن عصفت بسائر الدول والملل والأديان وقهرتها، وجعلتها باطلة دائرة، وقوله: ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ المراد أن آيات القرآن نشرت آثار الحكمة والهداية في قلوب العالمين شرقًا وغربًا، وقوله: ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ فذلك ظاهر، لأن آيات القرآن هي التي تفرق بين الحق والباطل، ولذلك سمي الله تعالى القرآن فرقانًا، وقوله: ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ فالأمر فيه ظاهر، لأن القرآن ذكر، كما قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وتذكرة كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨] وذكرى كما قال: ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] فظهر أنه يمكن تفسير هذه الكلمات الخمسة بالقرآن، وهذا وإن لم يذكره أحد فإنه محتمل.

القول الرابع: يمكن حملها أيضًا على بعثة الأنبياء عليهم السلام ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١] هم الأشخاص الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كل خير ومعروف، فإنه لا شك أنهم أرسلوا بلا إله إلا الله، وهو مفتاح كل خير ومعروف ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ معناه أن أمر كل رسول يكون في أول الأمر حقيرًا ضعيفًا، ثم يشتد ويعظم ويصير في القوة كعصف الرياح ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ المراد منه انتشار دينهم ومذهبهم ومقالتهم ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ المراد أنهم يفرقون بين الحق والباطل والتوحيد والإلحاد ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ المراد أنهم يدعون الخلق إلى ذكر الله، ويأمرونهم به ويحثونهم عليه.

القول الخامس: أن يكون المراد أن الرجل قد يكون مشتغلاً بمصالح الدنيا مستغرقًا في طلب لذاتها وراحاتها، ففي أثناء ذلك يرد في قلبه داعية الإعراض عن الدنيا والرغبة في خدمة المولى، فتلك الدواعي هي المرسلات عرفًا، ثم هذه المرسلات لها أثران أحدهما: إزالة حب ما سوى الله تعالى عن القلب، وهو المراد من قوله: ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾، والثاني: ظهور أثر تلك الداعية في جميع الجوارح والأعضاء حتى لا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، ولا ينظر إلا الله، فذلك هو قوله: ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ ثم عند ذلك ينكشف له نور جلال الله فيراه موجودًا، ويرى كل ما سواه معدومًا، فذلك قوله: ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ ثم يصير العبد كالمشتهر في محبته، ولا

يبقى في قلبه ولسانه إلا ذكره، فذلك قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ .

واعلم أن هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة، وإن كانت غير مذكورة إلا أنها محتملة جدًا. وأما الاحتمال الثاني: وهو أن لا يكون المراد من الكلمات الخمس شيئًا واحدًا، ففيه وجوه الأول: ما ذكره الزجاج واختيار القاضي، وهو أن الثلاثة الأول هي الرياح، فقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ هي الرياح التي تتصل على العرف المعتاد (والعاصفات) ما يشتد منه، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ما ينشر السحاب.

أما قوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ فهم الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل، والحلال والحرام، بما يتحملونه من القرآن والوحي، وكذلك قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أنها الملائكة المتحملة للذكر الملقية ذلك إلى الرسل، فإن قيل: وما المجانسة بين الرياح وبين الملائكة حتى يجمع بينهما في القسم؟ قلنا: الملائكة روحانيون، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح، القول الثاني: أن الاثنين الأولين هما الرياح، فقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ هما الرياح، والثلاثة الباقية الملائكة، لأنها تنشر الوحي والدين، ثم لذلك الوحي أثران أحدهما: حصول الفرق بين المحق والمبطل، والثاني: ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة، وهذا القول ما رأيته لأحد، ولكنه ظاهر الاحتمال أيضًا، والذي يؤكده أنه قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ عطف الثاني على الأول بحرف الفاء، ثم ذكر الواو فقال: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة القول الثالث: يمكن أيضًا أن يقال: المراد بالأولين الملائكة، فقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ملائكة الرحمة، وقوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية آيات القرآن، لأنها تنشر الحق في القلوب والأرواح، وتفرق بين الحق والباطل، وتلقي الذكر في القلوب والألسنة، وهذا القول أيضًا ما رأيته لأحد، وهو محتمل، ومن وقف على ما ذكرناه أمكنه أن يذكر فيه وجوهًا، والله أعلم بمراده.

المسألة الثانية: قال القفال: الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم، والواو في بعض مبني على الأصل، وهو أن عند أهل اللغة الفاء تقتضي الوصل والتعلق، فإذا قيل: قام زيد فذهب، فالمعنى أنه قام ليذهب فكان قيامه سببًا لذهابه ومتصلاً به، وإذا قيل: قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه لا يتعلق بالآخر، ثم إن القفال لما مهد هذا الأصل فرع الكلام عليه في هذه الآية بوجوه لا يميل قلبي إليها، وأنا أفرع على هذا الأصل فأقول: أما من جعل الأولين صفتين لشيء والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد، فالإشكال عنه زائل، وأما من جعل الكل صفات لشيء واحد، فنقول: إن حملناها على الملائكة، فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعًا، وذلك الطيران هو العصف، فالعصف مرتب على الإرسال فلا جرم ذكر الفاء، أما النشر فلا يترتب على الإرسال، فإن الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهورًا منتشرًا، بل الخلق يؤذون الأنبياء في أول الأمر وينسبونهم إلى الكذب والسحر

والجنون، فلا جرم لم يذكر الفاء التي تفيد التعقيب بل ذكر الواو، بل إذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذكر الحق على الألسنة فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء، فكأنه والله أعلم قيل: يا محمد إني أرسلت الملك إليك بالوحي الذي هو عنوان كل سعادة، وفاتحة كل خير، ولكن لا تطمع في أن ننشر ذلك الأمر في الحال، ولكن لا بد من الصبر وتحمل المشقة، ثم إذا جاء وقت النصرة اجعل دينك ظاهرًا منتشرًا في شرق العالم وغربه، وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق فتصير الأديان الباطلة ضعيفة ساقطة، ودينك هو الدين الحق ظاهرًا غالبًا، وهنالك يظهر ذكر الله على الألسنة، وفي المحاريب وعلى المنابر ويصير العالم مملوءًا من ذكر الله، فهذا إذا حملنا هذه الكلمات الخمس على الملائكة، ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر ما شابهه في الرياح وسائر الوجوه، والله أعلم.

أما قوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: فيهما قراءتان التخفيف وهو قراءة أبي عمرو وعاصم من رواية حفص والباقون قرأوا بالتثقيل، أما التخفيف فلا نزاع في كونه مصدرًا، والمعنى إعذارًا وإنذارًا، وأما التثقيل فزعم أبو عبيدة أنه جمع وليس بمصدر، وأما الأخفش والزجاج فزعما أنه مصدر، والتثقيل والتخفيف لغتان، وقرر أبو علي قول الأخفش والزجاج، وقال: العُذر والعَذِير والنذر والنذير مثل النُّكْر والنَّكِير، ثم قال أبو علي: ويجوز في قراءة من ثقل أن يكون عذرًا جمع عاذر كشرف وشارف، وكذلك النذر يجوز أن يكون جمع نذير، قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦].

المسألة الثانية: في النصب ثلاثة أوجه: أما على تقدير كونه مصدرًا فوجهان أحدهما: أن يكون مفعولاً على البدل من قوله: ذكرًا، والثاني: أن يكون مفعولاً له، والمعنى والملقيات ذكرًا للإعذار والإنذار، وأما على تقدير كونه جمعًا، فنصب على الحال من الإلقاء والتقدير فالملقيات ذكرًا حال كونهم عاذرين ومنذرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾

جواب القسم والمعنى: إن الذي توعدون به من مجيء يوم القيامة لكائن نازل، وقال الكلبي: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع، واحتج القائلون بالتفسير الأول بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات، علامات يوم القيامة، فدل على أن المراد من هذه الآية هو القيامة فقط، ثم إنه ذكر علامات وقوع هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾

أولها: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ وذكرنا تفسير الطمس عند قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ

﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]وبالجملة فيحتمل أن يكون المراد محقت ذواتها، وهو موافق لقوله: ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار: ٢]و﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]وأن يكون المراد محقت أنوارها، والأول أولى، لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار. ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور.

وثانيها: قوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ الفرج الشق يقال: فرجه الله فانفرج، وكل مشقوق فرج، فهاهنا قوله: فرجت أي شقت، نظيره ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]وقال ابن قتيبة: معناه فتحت، نظيره ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النبأ: ١٩]قال الشاعر:

الفَارِجِي بَابَ الأَمِيرِ المُبْهَمِ

وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ وفيه وجهان أحدهما: نسفت كالحب المغلث إذا نسف بالمنسف، ومنه قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ [طه: ٩٧]ونظيره ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]والثاني: اقتلعت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختطفته، وقرئ (طُمِّسَتْ) و(فُرِّجَتْ) و(نُسِّفَتْ) مشددة.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: أقتت أصلها وقتت ويدل عليه وجوه أحدها: قراءة أبي عمرو: (وُقِّتَتْ) بالواو وثانيها: أن أصل الكلمة من الوقت، وثالثها: أن كل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة فإنها تبدل على الإطراد همزة أولاً وحشوًا، ومن ذلك أن تقول: صلى القوم إحدانًا، وهذه أجوه حسان وأدؤر في جمع دار، والسبب فيه أن الضمة من جنس الواو، فالجمع بينهما يجري مجرى جمع المثلين فيكون ثقيلاً، ولهذا السبب كان كسر الياء ثقيلاً.

أما قوله تعالى:﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]فلا يجوز فيه البدل لأن الضمة غير لازمة، ألا ترى أنه لا يسوغ في نحو قولك: ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الأنبياء: ٣٨]أن تبدل.

المسألة الثانية: في التأقيت قولان: الأول: وهو قول مجاهد والزجاج أنه تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم، وهذا ضعيف، وذلك لأن هذه الأشياء جعلت علامات لقيام القيامة، كأنه قيل: إذا كان كذا وكذا كانت القيامة، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال: وإذا بين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم قامت القيامة لأن ذلك البيان كان حاصلاً في الدنيا ولأن الثلاثة المتقدمة وهي الطمس والفرج والنسف مختصة بوقت قيام القيامة، فكذا هذا التوقيت يجب أن يكون مختصًا بوقت قيام القيامة، القول الثاني: أن المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه، وهذا أقرب أيضًا إلى مطابقة اللفظ، لأن بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيات، فالتسويد تحصيل السواد والتحريك تحصيل الحركة، فكذا التأقيت تحصيل الوقت ثم إنه ليس في اللفظ بيان أنه تحصيل لوقت أي شيء، وإنما لم يبين ذلك ولم يعين لأجل أن يذهب الوهم إلى كل جانب فيكون التهويل فيه أشد فيحتمل أن يكون المراد تكوين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم وأن يكون هو الوقت الذي يجتمعون فيه للفوز بالثواب، وأن

يكون هو وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به وسؤال الأمم عما أجابوهم، كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وأن يكون هو الوقت الذي يشاهدون الجنة والنار والعرض والحساب والوزن وسائر أحوال القيامة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦].

قوله تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي أخرت كأنه تعالى يعجب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أخرت الأمور المتعلقة بهؤلاء: وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين.

ثم إنه تعالى بيّن ذلك فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهابته.

ثم اتبعه بتهويل ثالث فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي للمكذبين بالتوحيد والنبوة والمعاد وبكل ما ورد من الأنبياء عليهم السلام وأخبروا عنه، **بقي هاهنا سؤالان.**

السؤال الأول: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؟ الجواب: هو في أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه، ونحوه ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ويجوز ويلاً بالنصب، ولكن لم يقرأ به.

السؤال الثاني: أين جواب قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]؟ الجواب: من وجهين أحدهما: التقدير: إنما توعدون لواقع، إذا النجوم طمست، وهذا ضعيف، لأنه يقع في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، الثاني: أن الجواب محذوف، والتقدير ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ وإذا وإذا، فحينئذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الصورة تخويف الكفار وتحذيرهم عن الكفر.

فالنوع الأول: من التخويف أنه أقسم على أن اليوم الذي يوعدون به، وهو يوم الفصل واقع ثم هوّل فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٤] ثم زاد في التهويل فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

والنوع الثاني من التخويف: ما ذكر في هذه الآية: وهو أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم. فإذا كان الكفر حاصلاً في هؤلاء المتأخرين، فلا بد وأن يهلكهم أيضًا ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كأنه يقول: أما الدنيا فحاصلهم الهلاك، وأما الآخرة فالعذاب الشديد وإليه الإشارة بقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] وفي الآية سؤالان الأول: ما المراد من الأولين والآخرين؟ الجواب: فيه قولان: الأول: أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخرين قوم شعيب ولوط وموسى كذلك نفعل بالمجرمين وهم كفار قريش، وهذا القول ضعيف لأن قوله: ﴿نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ بلفظ المضارع فهو يتناول الحال والاستقبال ولا يتناول الماضي ألبتة، القول الثاني: أن المراد بالأولين جميع الكفار الذين كانوا قبل محمد ﷺ، وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ على الاستئناف على معنى سنفعل ذلك ونتبع الأول الآخر، ويدل على الاستئناف قراءة عبدالله (سنتبعهم)، فإن قيل: قرأ الأعرج (ثم نُتْبِعْهُم) بالجزم وذلك يدل على الاشتراك في ألم، وحينئذ يكون المراد به الماضي لا المستقبل، قلنا: القراءة الثابتة بالتواتر نتبعهم بحركة العين، وذلك يقتضي المستقبل، فلو اقتضت القراءة بالجزم أن يكون المراد هو الماضي لوقع التنافي بين القراءتين، وإنه غير جائز. فعلمنا أن تسكين العين ليس للجزم بل للتخفيف كما روي في بيت امرئ القيس:

وَالْيَوْمَ أُشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ (١)

ثم إنه تعالى لما بيّن أنه يفعل بهؤلاء المتأخرين مثل ما يفعل بأولئك المتقدمين قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي هذا الإهلاك إنما نفعله بهم لكونهم مجرمين، فلا جرم عَمَّ في جميع المجرمين، لأن عموم العلة يقتضي عموم الحكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة.

السؤال الثاني: المراد من الإهلاك في قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ هو مطلق الإماتة أو الإماتة بالعذاب؟ فإن كان ذلك هو الأول لم يكن تخويفًا للكفار، لأن ذلك أمر حاصل للمؤمن والكافر، فلا يصلح تحذيرًا للكافر، وإن كان المراد هو الثاني وهو الإماتة بالعذاب، فقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون الله قد فعل بكفار قريش مثل ذلك، ومن المعلوم أنه لم يوجد ذلك، وأيضًا فلأنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] الجواب: لم لا يجوز أن يكون المراد منه الإماتة بالتعذيب، وقد وقع ذلك في حق قريش وهو يوم بدر؟ سلمنا ذلك، فلم لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالثًا مغايرًا للأمرين اللذين ذكروهما وهو الإماتة المستعقبة للذم واللعن؟ فكأنه قيل: إن أولئك المتقدمين

---

(١) تقدمت ترجمة امرئ القيس.

لحرصهم على الدنيا عاندوا الأنبياء وخاصموهم، ثم ماتوا فقد فاتتهم الدنيا وبقي اللعن عليهم في الدنيا والعقوبة الأخروية دائمًا سرمدًا، فهكذا يكون حال هؤلاء الكفار الموجودين ومعلوم أن مثل هذا الكلام من أعظم وجوه الزجر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث: من تخويف الكفار ووجه التخويف فيه من وجهين: الأول: أنه تعالى ذكّرهم عظيم إنعامه عليهم، وكلما كانت نعمة الله عليهم أكثر كانت جنايتهم في حقه أقبح وأفحش، وكلما كان كذلك كان العقاب أعظم، فلهذا قال عقيب ذكر هذا الإنعام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. الوجه الثاني: أنه تعالى ذكرهم كونه قادرًا على الابتداء، وظاهر في العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، لا جرم قال في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وأما التفسير فهو أن قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من النطفة، كقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم، لأن ما يخلق منه الولد لا بد وأن يثبت في الرحم ويتمكن بخلاف مالا يخلق منه الولد، ثم قال: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ والمراد كونه في الرحم إلى وقت الولادة، وذلك الوقت معلوم لله تعالى لا لغيره كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وعبدالله بن عامر بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، أما التشديد فالمعنى إنا قدرنا ذلك تقديرًا فنعم المقدرون له نحن، ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩] ولأن إيقاع الخلق على هذا التقدير والتحديد نعمة من المقدِر على المخلوق فحسن ذكره في موضع ذكر المنة والنعمة، ومن طعن في هذه القراءة قال: لو صحت هذه القراءة لوجب أن يقال: فقدرنا فنعم المقدرون وأجيب عنه بأن العرب قد تجمع بين اللغتين، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧] وأما القراءة بالتخفيف ففيها وجهان: الأول: أنه من القدرة أي فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ حيث خلقناه في أحسن الصور والهيئات، والثاني: أنه يقال: قدرت الشيء بالتخفيف على معنى قدرته، قال: الفراء العرب تقول: قُدِرَ عليه الموت، وقُدِّرَ عليه الموت، وقُدِرَ عليه رزقه وقُدِّر بالتخفيف والتشديد، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من تخويف الكفار وذلك لأنه ذكّرهم بالنعم التي له عليهم في

الأنفس، وفي هذه الآية ذكَّرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق، ثم قال في آخر الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ والسبب فيه ما قدمنا أن النعم كلما كانت أكثر كانت الجناية أقبح فكان استحقاق الذم عاجلاً والعقاب آجلاً أشد، وإنما قدم تلك الآية على هذه الآية، لأن النعم التي في الأنفس كالأصل للنعم التي في الآفاق، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكنًا.

واعلم أنه تعالى ذكر هاهنا ثلاثة أشياء أولها: الأرض، وإنما قدمها لأن أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجية هو الأرض، ومعنى الكفات في اللغة الضم والجمع يقال: كَفَتُّ الشيء أي ضممته، ويقال: جراب كفيت وكفت إذا كان لا يضيع شيئًا مما يجعل فيه، ويقال للقدر: كفت. قال صاحب الكشاف: هو اسم ما يكفت، كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع، ويقال: هذا الباب جماع الأبواب، وتقول: شددت الشيء ثم تسمي الخيط الذي تشد به الشيء شدادًا، وبه انتصب أحياء وأمواتًا كأنه قيل: كافتة أحياء وأمواتًا، أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت ويكون المعنى تكفتكم أحياء وأمواتًا، فينصبان على الحال من الضمير هذا هو اللغة، ثم في المعنى وجوه: أحدها: أنها تكفت أحياء على ظهرها وأمواتًا في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في منازلهم والأموات يدفنون في قبورهم، ولهذا كانوا يسمون الأرض أُمًّا لأنها في ضمها للناس كالأم التي تضم ولدها وتكفله، ولما كانوا يضمون إليها جعلت كأنها تضمهم وثانيها: أنها كِفَات الأحياء بمعنى أنها تكفت ما ينفصل عن الأحياء من الأمور المستقذرة، فأما أنها تكفت (الأَحْيَاءَ) حال كونهم على ظهرها فلا، وثالثها: أنها كِفَاتُ الأحياء بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حاجاته من مأكل ومشرب، لأن كل ذلك يخرج من الأرض والأبنية الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية منها، ورابعها: أن قوله: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ معناه راجع إلى الأرض، والحي ما أنبت والميت مالم ينبت، بقي في الآية سؤالان:

الأول: لم قيل: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ على التنكير وهي كِفَاتُ الأحياء والأموات جميعًا؟ الجواب: هو من تنكير التفخيم، كأنه قيل: تكفت أحياء لا يعدون، وأمواتًا لا يحصرون.

السؤال الثاني: هل تدل هذه الآية على وجوب قطع النَّبَّاش؟ الجواب: نقل القفال أن ربيعة قال: دلت الآية على أن الأرض كفات الميت فتكون حرزًا له، والسارق من الحرز يجب عليه القطع.

النوع الثاني: من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ فقوله: ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي ثوابت على ظهر الأرض لا تزول و ﴿شَامِخَاتٍ﴾ أي عاليات، وكل عال فهو شامخ، ويقال: للمتكبر شامخ بأنفه، ومنافع خلقة الجبال قد تقدمت في هذا الكتاب.

النوع الثالث: من النعم قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ الفرات هو الغاية في العذوبة، وقد تقدم تفسيره في قوله: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٤ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الخامس: من وجوه تخويف الكفار وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة فأما قوله: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فالمعنى أنه يقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من العذاب، والظاهر أن القائلين هم خزنة النار وانطلقوا الثاني تكرير، وقرأ يعقوب (انْطَلَقُوا) على لفظ الماضي، والمعنى أنهم انقادوا للأمر لأجل أنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعًا منه، وهذا بعيد لأنه كان ينبغي أن يقال: فانطلقوا بالفاء، ليرتبط آخر الكلام بأوله، قال المفسرون: إن الشمس تقرب يوم القيامة من رؤوس الخلائق، وليس عليهم يومئذ لباس ولا كنان، فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم ويمتد ذلك اليوم، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهناك يقولون: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧] ويقال للمكذبين: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه، وقوله: ﴿ إِلَىٰ ظِلّٖ ﴾ يعني دخان جهنم كقوله: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٣] ثم إنه تعالى وصف هذا الظل بصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴾ وفيه وجوه أحدها: قال الحسن: ما أدري ما هذا الظل، ولا سمعت فيه شيئًا، وثانيها: قال قوم المراد بقوله: إلى ظل ذي ثلاث شعب كون النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم، وتسمية النار بالظل مجاز من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦] وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وثالثها: قال قتادة: بل المراد الدخان وهو من قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩] وسرادق النار هو الدخان، ثم إن شعبة من ذلك الدخان على يمينه وشعبة أخرى على يساره، وشعبة ثالثة من فوقه. وأقول هذا غير مستبعد لأن الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله، والقوة الشيطانية في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان في عقائده، وفي أعماله، ليس إلا هذه الثلاثة، فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة أنواع من الظلمات، ويمكن أيضًا أن يقال: هاهنا درجات ثلاثة، وهي الحس والخيال، والوهم، وهي مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة، ولكل واحد من تلك المراتب الثلاثة نوع خاص من الظلمة، ورابعها: قال قوم: هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيمًا، فإن الدخان العظيم ينقسم إلى شعب كثيرة، وخامسها: قال أبو مسلم ويحتمل في ثلاث شعب ما ذكره بعد ذلك، وهو أنه: غير ظليل وأنه لا يغني من اللهب وبأنها ترمى بشرر كالقصر.

الصفة الثانية لذلك الظل قوله: ﴿ لَّا ظَلِيلٖ ﴾ وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، والمعنى أن ذلك الظل لا يمنع حر الشمس.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ يقال: أَغْنِ عني وجهك، أي أبعده لأن الغني عن الشيء يباعده، كما أن المحتاج يقاربه، قال صاحب (الكشاف): إنه في محل الجر، أي وغيره مغن عنهم، من حر اللهب شيئًا، قال القفال: وهذا يحتمل وجهين أحدهما: أن هذا الظل إنما يكون في جهنم، فلا يظلهم من حرها، ولا يسترهم من لهيبها، وقد ذكر الله في سورة الواقعة الظل فقال: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤] وهذا كأنه في جهنم إذا دخلوها، ثم قال: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ فيحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ في معنى: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ في معنى: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي لا روح له يلجأ إليه من لهب النار، والثاني: أن تكوُّنَ ذلك إنما يكون قبل أن يدخلوا جهنم بل عندما يحبسون للحساب والعرض، فيقال لهم: إن هذا الظل لا يظلكم من حر الشمس ولا يدفع لهب النار، وفي الآية وجه ثان: وهو الذي قاله قطرب: وهو أن اللهب هاهنا هو العطش يقال: لهب لهبًا ورجل لهبان وامرأة لهبى.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ قال الواحدي: يقال شررة وشرر وشرارة وشرار، وهو ما تطاير من النار متبددًا في كل جهة وأصله من شررت الثوب إذا أظهرته وبسطته للشمس والشرار ينبسط متبددًا، واعلم أن الله تعالى وصف النار التي كان ذلك الظل دخانًا لها بأنها ترمي بالشرارة العظيمة، والمقصود منه بيان أن تلك النار عظيمة جدًّا، ثم إنه تعالى شبه ذلك الشرر بشيئين الأول: بالقصر وفي تفسيره قولان: أحدهما: أن المراد منه البناء المسمى بالقصر قال ابن عباس: يريد القصور العظام، الثاني: أنه ليس المراد ذلك، ثم على التقدير ففي التفسير وجوه أحدها: أنها جمع قَصْرَة ساكنة الصاد كتَمْرَة وتَمْر وجَمْرة وجَمْر، قال المبرد: يقال للواحد من الحطب الجزل الغليظ قصرة والجمع قصر، قال عبد الرحمن بن عابس: سألت ابن عباس عن القصر فقال: هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطعه وكنا نسميه القصر، وهذا قول سعيد بن جبير ومقاتل والضحاك، إلا أنهم قالوا: هي أصول النخل والشجر العظام، قال صاحب (الكشاف): قرئ (كالقَصَر) بفتحتين وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر، وقرأ ابن مسعود كالقصر بمعنى القصر كرهن ورهن، وقرأ سعيد بن جبير كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج.

التشبيه الثاني: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: جِمَالات جمع جِمَال كقولهم: رِجَالات ورِجَال وبِيوتَات وبيوت، وقرأ ابن عباس جُمَالاَت بضم الجيم وهو قراءة يعقوب وذكروا وجوهًا أحدها: قيل: الجمالات بالضم الحبال الغلاظ وهي حبال السفن، ويقال لها: القلوس ومنهم من أنكر ذلك وقال: المعروف في الحبال إنما هو الجُمَّل بضم الجيم وتشديد الميم وقرئ: (حَتَّى يَلِجَ الجُمَّل)، وثانيها: قيل هي قطع النحاس، وهو مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وابن عباس ومعظم أهل اللغة لا

يعرفونه، وثالثها: قال الفراء: يجوز أن يكون الجُمَالات بالضم من الشيء المجمل، يقال: أجملت الحساب، وجاء القوم جملة أي مجتمعين، والمعنى أن هذه الشررة ترتفع كأنها شيء مجموع غليظ أصفر، وهذا قول الفراء، ورابعها: قال الفراء: يجوز أن يقال: جمالات بضم الجيم جمع جمال بضم الجيم وجمال بضم الجيم يكون جمع جمل، كما يقال: رخل ورخال ورخال.

القراءة الثاني: جِمَالة بكسر الجيم هي جمع جَمَل مثل حَجَر وحِجَارة، قال أبو علي: والتاء إنما لحقت جمالاً لتأنيث الجمع، كما لحقت في فحل وفحالة.

القراءة الرابعة: جُمْلَة بضم الجيم وهي القلس، وقيل: صفر لإرادة الجنس، أما قوله: صفر فالأكثرون على أن المراد منه سود تضرب إلى الصفرة، قال الفراء: لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشوب صفرة، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة. وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد، لأن الشرر إنما يسمى شررًا ما دام يكون نارًا، ومتى كان نارًا كان أصفر، وإنما يصير أسود إذا انطفأ، وهناك لا يسمى شررًا، وهذا القول عندي هو الصواب.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى شبه الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر، وقيل: أيضًا إن ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر ثم يفترق فتكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجمالات الصفر، واعلم أنه نقل عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أن هذا التشبيه إنما ورد في بلاد العرب، وقصورهم قصيرة السمك جارية مجرى الخيمة، فبيَّن تعالى أنها ترمى بشرر كالقصر، فلما سمع أبو العلاء المعري بهذا تصرف فيه وشبهه بالخيمة من الأديم، وهو قوله:

حَمْرَاءَ سَاطِعَةَ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى تَـرْمِـي بِـكُـلِّ شـرارة كـطـراف[1]

ثم زعم صاحب الكشاف أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية، وأقول: كان الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك، وإذ قد ذكره فلا بد لنا من تحقيق الكلام فيه، فنقول: تشبيه الشرارة بالطراف يفيد التشبيه في الشكل والعظم، أما الشكل فمن وجهين: الأول: أن الشرارة تكون قبل انشعابها كالنقطة من النار، فإذا انشعبت اتسعت فهي كالنقطة التي تتسع فهي تشبه الخيمة فإن رأسها كالنقطة ثم إنها لا تزال تتسع شيئًا فشيئًا، الثاني: أن الشرارة كالكرة أو الأسطوانة فهي شديدة الشبه بالخيمة المستديرة وأما التشبيه بالخيمة في النظم فالأمر ظاهر، هذا منتهى هذا التشبيه.

وأما وجه القدح فيه فمن وجوه الأول: أن لون الشرارة أصفر يشوبها شيء من السواد، وهذا

---

(١) هذا البيت لابن الوردي وقد تقدمت ترجمته.

المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الخيمة من الأديم، الثاني: أن الجمالات متحركة والخيمة لا تكون متحركة فتشبيه الشرار المتحرك بالجمالات المتحركة أولى، والثالث: أن الشرارات متتابعة يجيء بعضها خلف البعض وهذا المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الطراف، الرابع: أن القصر مأمن الرجل وموضع سلامته فتشبيه الشرر بالقصر تنبيه على أنه إنما تولدت آفته من الموضع الذي توقع منه الأمن والسلامة، وحال الكافر كذلك فإنه كان يتوقع الخير والسلامة من دينه، ثم إنه ما ظهرت له آفة ولا محنة إلا من ذلك الدين، والخيمة ليست مما يتوقع منها الأمن الكلي، الخامس: أن العرب كانوا يعتقدون أن كل الجَمَال في ملك الجِمَال وتمام النِّعم إنما يحصل بملك النَّعم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] فتشبيه الشرر بالجِمَال السود كالتهكم بهم، كأنه قيل لهم: كنتم تتوقعون من دينكم كرامة ونعمة وجمالاً إلا أن ذلك الجَمَال هو هذه الشرارات التي هي كالجِمَال، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف، السادس: أن الجِمَال إذا انفردت واختلط بعضها بالبعض فكل من وقع فيما بين أيديها وأرجلها في ذلك الوقت نال بلاء شديدًا وألمًا عظيمًا، فتشبيه الشرارات بها حال تتابعها يفيد حصول كمال الضرر، والطراف ليس كذلك، السابع: الظاهر أن القصر يكون في المقدار أعظم من الطراف والجمالات الصفر تكون أكثر في العدد من الطراف فتشبيه هذه الشرارات بالقصر وبالجمالات يقتضي الزيادة في المقدار وفي العدد وتشبيهها بالطراف لا يفيد شيئًا من ذلك، ولما كان المقصود هو التهويل والتخويف كان التشبيه الأول أولى، الثامن: أن التشبيه بالشيئين في إثبات وصفين أقوى في ثبوت ذينك الوصفين من التشبيه بالشيء الواحد في إثبات ذينك الوصفين، وبيانه أن من سمع قوله: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ تسارع ذهنه إلى أن المراد إثبات عظم تلك الشرارات، ثم إذا سمع بعد ذلك قوله: ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ تسارع ذهنه إلى أن المراد كثرة تلك الشرارات وتتابعها ولونها. أما من سمع أن الشرار كالطراف يبقى ذهنه متوقفًا في أن المقصود بالتشبيه إثبات العظم أو إثبات اللون، فالتشبيه بالطراف كالمجمل، والتشبيه بالقصر وبالجمالات الصفر، كالبيان المفصل المكرر المؤكد. ولما كان المقصود من هذا البيان هو التهويل والتخويف، فكلما كان بيان وجوه العذاب أتم وأبين كان الخوف أشد، فثبت أن هذا التشبيه أتم. التاسع: أنه قال في أول الآية: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ والإنسان إنما يكون طيب العيش وقت الانطلاق والذهاب إذا كان راكبًا، وإنما يجد الظل الطيب إذا كان في قصره، فوقع تشبيه الشرارة بالقصر والجمالات، كأنه قيل له: مركوبك هذه الجمالات، وظلك في مثل هذا القصر، وهذا يجري مجرى التهكم بهم، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف، العاشر: من المعلوم أن تطاير القصر إلى الهواء أدخل في التعجب من تطاير الخيمة، لأن القصر يكون مركبًا من اللبن والحجر والخشب.

وهذه الأجسام أدخل في الثقل والاكتناز من الخيمة المتخذة إما من الكرباس أو من الأديم،

والشيء كلما كان أثقل وأشد اكتنازًا كان تطايره في الهواء أبعد، فكانت النار التي تطير القصر إلى الهواء أقوى من النار التي تطير الطراف في الهواء، ومعلوم أن المقصود تعظيم أمر النار في الشدة والقوة، فكان التشبيه بالقصر أولى، الحادي عشر: وهو أن سقوط القصر على الإنسان أدخل في الإيلام والإيجاع من سقوط الطراف عليه، فتشبيه تلك الشرارات بالقصر يفيد أن تلك الشرارات إذا ارتفعت في الهواء ثم سقطت على الكافر فإنها تؤلمه إيلامًا شديدًا، فصار ذلك تنبيهًا على أنه لا يزال يسقط عليه من الهواء شرارات كالقصور بخلاف وقوع الطراف على الإنسان، فإنه لا يؤلم في الغاية، الثاني عشر: أن الجمال في أكثر الأمور تكون موقرة، فتشبيه الشرارات بالجمال تنبيه على أن مع كل واحد من تلك الشرارات أنواعًا من البلاء والمحنة لا يحصي عددها إلا الله، فكأنه قيل: تلك الشرارات كالجمالات الموقرة بأنواع المحنة والبلاء، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف فكان التشبيه بالجمالات أتم.

واعلم أن هذه الوجوه توالت على الخاطر في اللحظة الواحدة ولو تضرعنا إلى الله تعالى في طلب الأزيد لأعطانا أي قدر شئنا بفضله ورحمته، ولكن هذه الوجوه كافية في بيان الترجيح والزيادة عليها تعد من الإطناب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾

نصب الأعمش (يَوْمَ) أي هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ، اعلم أن هذا هو النوع السادس: من أنواع تخويف الكفار وتشديد الأمر عليهم، وذلك لأنه تعالى بيَّن أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم، فيجتمع في حقه في هذا المقام أنواع من العذاب، أحدها: عذاب الخجالة، فإنه يفتضح على رءوس الأشهاد، ويظهر لكل قصوره وتقصيره وكل من له عقل سليم، علم أن عذاب الخجالة أشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار، وثانيها: وقوف العبد الآبق على باب المولى ووقوعه في يده مع علمه بأنه الصادق الذي يستحيل الكذب عليه، على ما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] وثالثها: أنه يرى في ذلك الموقف خصماءه الذين كان يستخف بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم، ويرى نفسه فائزًا بالخزي والنكال، وهذه ثلاثة أنواع من العذاب الروحاني، ورابعها: العذاب الجسماني وهو مشاهدة النار وأهوالها نعوذ بالله منها فلما اجتمعت في حقه هذه الوجوه من العذاب بل ما هو مما لا يصف كنهه إلا الله، لا جرم قال تعالى في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفي الآية سؤالان:

الأول: كيف يمكن الجمع بين قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ

حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]ويروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن هذا السؤال، والجواب عنه من وجوه أحدها: قال الحسن: فيه إضمار، والتقدير: هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، لأنه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم، فإذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا، لأن من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق، ونظيره ما يقال لمن ذكر كلامًا غير مفيد: ما قلت شيئًا، وثانيها: قال الفراء: أراد بقوله: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ تلك الساعة وذلك القدر من الوقت الذي لا ينطقون فيه، كما يقول: آتيك يوم يقدم فلان، والمعنى ساعة يقدم وليس المراد باليوم كله، لأن القدوم إنما يكون في ساعة يسيرة، ولا يمتد في كل اليوم، وثالثها: أن قوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ لفظ مطلق، والمطلق لا يفيد العموم لا في الأنواع ولا في الأوقات، بدليل أنك تقول: فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير، وتارة تقول: فلان لا ينطق بشيء ألبتة، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق قدر مشترك بين أن لا ينطق ببعض الأشياء، وبين أن لا ينطق بكل الأشياء، وكذلك تقول: فلان لا ينطق في هذه الساعة، وتقول: فلان لا ينطق ألبتة، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق مشترك بين الدائم والموقت، وإذا كان كذلك فمفهوم لا ينطق يكفي في صدقه عدم النطق ببعض الأشياء وفي بعض الأوقات، وذلك لا ينافي حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر، فيكفي في صدق قوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ أنهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت السؤال، وهذا الذي ذكرناه إشارة إلى صحة الجوابين الأولين بحسب النظر العقلي، فإن قيل: لو حلف لا ينطق في هذا اليوم، فنطق في جزء من أجزاء اليوم يحنث؟ قلنا: مبني الأيمان على العرف، والذي ذكرناه بحث عن مفهوم اللفظ من حيث إنه هو، ورابعها: أن هذه الآية وردت عقيب قول خزنة جهنم لهم ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]فينقادون ويذهبون، فكأنه قيل: إنهم كانوا يؤمرون في الدنيا بالطاعات فما كانوا يلتفتون.

أما في هذه الساعة فقد صاروا منقادين مطيعين في مثل هذا التكليف الذي هو أشق من كل شيء، تنبيهًا على أنهم لو تركوا الخصومة في الدنيا لما احتاجوا في هذا الوقت إلى هذا الانقياد الشاق، والحاصل أن قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ متقيد بهذا الوقت في هذا العمل، وتقييد المطلق بسبب مقدمة الكلام مشهور في العرف، بدليل أن المرأة إذا قالت: أخرج هذه الساعة من الدار، فقال الزوج: لو خرجت فأنت طالق، فإنه يتقيد هذا المطلق بتلك الخرجة، فكذا هاهنا.

السؤال الثاني: قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ يوهم أن لهم عذرًا وقد منعوا من ذكره، وهذا لا يليق بالحكيم، والجواب: أنه ليس لهم في الحقيقة عذر ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسدًا أن لهم فيه عذرًا، فهم لا يؤذن لهم في ذلك ذكر العذر الفاسد، ولعل ذلك العذر الفاسد هو أن يقول: لما كان الكل بقضائك وعلمك ومشيئتك وخلقك فلم تعذبني عليه، فإن هذا عذر فاسد إذ ليس لأحد أن يمنع المالك عن التصرف في ملكه كيف شاء وأراد، فإن قيل: أليس أنه قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم

بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] والمقصود من كل ذلك أن لا يبقى في قلبه، أن له عذرًا، فهب أن عذره في موقف القيامة فاسد فلم لا يؤذن له في ذكره حتى يذكره، ثم يبين له فساده؟ قلنا: لما تقدم الإعذار والإنذار في الدنيا بدليل قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥-٦] كان إعادتها غير مفيدة.

السؤال الثالث: لِمَ لم يقل: ولا يؤذن لهم فيعتذروا؟ كما قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر: ٣٦] الجواب: الفاء هاهنا للنسق فقط، ولا يفيد كونه جزاء ألبتة ومثله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥] بالرفع والنصب، وإنما رفع يعتذرون بالعطف لأنه لو نصب لكان ذلك يوهم أنهم ما يعتذرون لأنهم لم يؤذنوا في الاعتذار، وذلك يوهم أن لهم فيه عذرًا منعوا عن ذكره وهو غير جائز.

أما لما رفع كان المعنى أنهم لم يؤذنوا في العذر وهم أيضًا لم يعتذروا لا لأجل عدم الإذن بل لأجل عدم العذر في نفسه، ثم إن فيه فائدة أخرى وهي حصول الموافقة في رءوس الآيات لأن الآيات بالواو والنون، ولو قيل: فيعتذروا لم تتوافق الآيات، ألا ترى أنه قال في سورة اقتربت الساعة: ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] فثقل لأن آياتها مثقلة، وقال في موضع آخر: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨] وأجمع القراء على تثقيل الأول وتخفيف الثاني ليوافق كل منهما ما قبله.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾

اعلم أن هذا هو النوع السابع: من أنواع تهديد الكفار، وهذا القسم من باب التعذيب بالتقريع والتخجيل، فأما قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ فاعلم أن ذلك اليوم يقع فيه نوعان من الحكومة أحدهما: ما بين العبد والرب وفي هذا القسم كل ما يتعلق بالرب فلا حاجة فيه إلى الفصل وهو ما يتعلق بالثواب الذي يستحقه المرء على عمله وكذا في العقاب إنما يحتاج إلى الفصل فيما يتعلق بجانب العبد وهو أن تقرر عليهم أعمالهم التي عملوها حتى يعترفوا.

والقسم الثاني: ما يكون بين العباد بعضهم مع بعض، فإن هذا يدعى على ذاك أنه ظلمني وذاك يدعى على هذا أنه قتلني فهاهنا لا بد فيه من الفصل وقوله: ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ كلام موضح لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ لأنه لما كان هذا اليوم يوم فصل حكومات جميع المكلفين فلا بد من إحضار جميع المكلفين لا سيما عند من لا يُجَوِّز القضاء على الغائب، ثم قال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ يشير به إلى أنهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الحيل والكيد فكأنه قال: فهاهنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ثم إنهم يعلمون أن الحيل

منقطعة والتلبيسات غير ممكنة، فخطاب الله تعالى لهم في هذه الحالة بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ نهاية في التخجيل والتقريع، وهذا من جنس العذاب الروحاني، فلهذا قال عقيبه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

اعلم أن هذا هو النوع الثامن: من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم، وذلك لأن الخصومة الشديدة والنفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين، فصارت تلك النفرة بحيث إن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة، فلما بين الله تعالى في هذه السورة اجتماع أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار، بين في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن، حتى إن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والخزي والخسران، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة، تتضاعف حسرته وتتزايد غمومه وهمومه، وهذا أيضًا من جنس العذاب الروحاني، فلهذا قال في هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال مقاتل والكلبي: المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك بالله، وأقول هذا القول عندي هو الصحيح الذي لا معدل عنه، ويدل عليه وجوه أحدها: أن المتقي عن الشرك يصدق عليه أنه متق، لأن المتقي عن الشرك ماهية مركبة من قيدين: أحدهما: أنه متق، والثاني: خصوص كونه عن الشرك، ومتى وجد المركب، فقد وجد كل واحد من مفرداته لا محالة، فثبت أن كل من صدق عليه أنه متق عن الشرك، فقد صدق عليه أنه متق أقصى ما في الباب أن يقال: هذه الآية على هذا التقدير تتناول كل من كان متقيًا لأي شيء كان، إلا أنا نقول كونه كذلك لا يقدح فيما قلناه، لأنه خص كل من لم يكن متقيًا عن جميع أنواع الكفر فيبقى فيما عداه حجة لأن العام الذي دخل التخصيص يبقى حجة فيما عداه، وثانيها: أن هذه السورة من أولها إلى آخرها مرتبة في تقريع الكفار على كفرهم وتخويفهم عليه، فهذه الآية يجب أن تكون مذكورة لهذا الغرض، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، والنظم إنما يبقى لو كان هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره، وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سببًا في الزجر عن الكفر، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته، فذلك غير لائق بهذا النظم والترتيب، فثبت بما ذكرنا أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كل من كان متقيًا عن الشرك والكفر، وثالثها: أن حمل اللفظ على المسمى الكامل أولى، وأكمل أنواع التقوى هو التقوى عن الكفر والشرك، فكان حمل اللفظ عليه أولى.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما بعث الكفار إلى ظل ذي ثلاث شعب أعد في مقابلته للمؤمنين

ثلاثة أنواع من النعمة: أولها: قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ كأنه قيل: ظلالهم ما كانت ظليلة، وما كانت مغنية عن اللهب والعطش أما المتقون فظلالهم ظليلة، وفيها عيون عذبة مغنية لهم عن العطش وحاجزة بينهم وبين اللهب ومعهم الفواكه التي يشتهونها ويتمنونها، ولما قال للكفار: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ [المرسلات: ٣٠] قال للمتقين: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ فإما أن يكون ذلك الإذن من جهة الله تعالى لا بواسطة، وما أعظمها، أو من جهة الملائكة على وجه الإكرام، ومعنى ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي خالص اللذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص.

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في أن قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ أمر أو إذن قال أبو هاشم: هو أمر، وأراد الله منهم الأكل والشرب، لأن سرورهم يعظم بذلك، وإذا علموا أن الله أراده منهم جزاء على عملهم فكما يزيد إجلالهم وإعظامهم بذلك، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب معهم، وقال أبو علي: ذلك ليس بأمر، وإنما يريد بقوله: على وجه الإكرام، لأن الأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف، وليس هذا صفة الآخرة.

المسألة الرابعة: تمسك من قال العمل يوجب الثواب بالباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وهذا ضعيف لأن الباء للإضافة، ولما جعل الله تعالى ذلك العمل علامة لهذا الثواب كان الإتيان بذلك العمل كالآلة الموصلة إلى تحصيل ذلك الثواب، وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المقصود منه أن يذكر الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات، وإذا لم يفعلوا ذلك لا جرم وقعوا فيما وقعوا فيه.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾

اعلم أن هذا هو النوع التاسع: من أنواع تخويف الكفار، كأنه تعالى يقول للكافر حال كونه في الدنيا إنك إنما عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها ولهذه المحن التي شرحناها لأجل حبك للدنيا ورغبتك في طيباتها وشهواتها إلا أن هذه الطيبات قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة والمشتغل بتحصيلها يجري مجرى لقمة واحدة من الحلواء، وفيها السم المهلك فإنه يقال لمن يريد أكلها ولا يتركها بسبب نصيحة الناصحين وتذكير المذكرين: كل هذا وويل لك منه بعد هذا فإنك من الهالكين بسببه، وهذا وإن كان في اللفظ أمرًا إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

اعلم أن هذا هو النوع العاشر: من أنواع تخويف الكفار كأنه قيل لهم: هب أنكم تحبون الدنيا ولذاتها ولكن لا تعرضوا بالكلية عن خدمة خالقكم بل تواضعوا له فإنكم إن آمنتم ثم ضممتم إليه طلب اللذات وأنواع المعاصي حصل لكم رجاء الخلاص عن عذاب جهنم والفوز بالثواب، كما

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ثم إن هؤلاء الكفار لا يفعلوا ذلك ولا ينقادون لطاعته، ويبقون مصرين على جهلهم وكفرهم وتعريضهم أنفسهم للعقاب العظيم، فلهذا قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي الويل لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى هذه المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ المراد به الصلاة، وهذا ظاهر لأن الركوع من أركانها، فبين تعالى أن هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، وأنهم حال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب بترك الإيمان، فكذلك يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لأن الله تعالى ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة، وقال قوم آخرون: المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى، وأن لا يعبد سواه.

المسألة الثانية: القائلون بأن الأمر للوجوب استدلوا بهذه الآية، لأنه تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب، فإن قيل: إنهم كفار فلكفرهم ذمهم؟ قلنا: إنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه كثيرة، إلا أنه تعالى إنما ذمهم في هذه الآية لأنهم تركوا المأمور به، فعلمنا أن ترك المأمور به غير جائز.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٠﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة التي شرحناها، وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار، وبيَّن أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها فبأي حديث بعده يؤمنون قال القاضي: هذه الآية تدل على أن القرآن محدث لأنه تعالى وصفه بأنه حديث، والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان، فإذا كان حديثًا وجب أن لا يكون قديمًا، وأجاب الأصحاب أن المراد منه هذه الألفاظ ولا نزاع في أنها محدثة، والله تعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين.

سورة المرسلات

مكّيَّةٌ في قول الحسن وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [الآية: ٤٨] مدنيَّة(١).

وقال ابن مسعود: نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ على النبيِّ ﷺ ليلةَ الجنِّ ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنىً فنزلت، فبينا نحن نتلقَّاها منه، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها إذ وَثَبَت حيَّةٌ، فوثبنا عليها لنقتلَها فذهبت، فقال النبيُّ ﷺ: «وُقيتم شَرَّها كما وُقِيَتْ شَرَّكم»(٢).

وعن كُريب مولى ابن عباس قال: قرأت سورة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فسمعَتني أُمُّ الفضل امرأةُ العباسِ، فبكت وقالت: واللهِ يا بنيَّ لقد ذَكَّرتَني(٣) بقراءتك هذه السُّورةَ، إنها لآخِرُ ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأُ بها في صلاة المغرب(٤). والله أعلم.

وهي خمسون آية(٥).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرِّياحُ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٥٧٤)، والبخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٣) في (ز) و(ظ) و(م) و(ي): أذْكَرْتَني . والمثبت من (د) ومصادر التخريج الآتية الذكر.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٨٨٤)، والبخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٤ .

وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أُرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبرِ والوحي. وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبيّ[١]. وقيل: هم الأنبياء أُرسلوا بلا إله إلا الله؛ قاله ابن عباس. وقال أبو صالح: إنهم الرسل تُرْسَل بما يُعْرَفون به من المعجزات[٢]. وعن ابن عباس وابن مسعود: إنها الرياح[٣]؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى «عُرْفاً»: يتبع بعضُها بعضاً كعُرْفِ الفَرَس؛ تقول العرب: الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا[٤]. وهو نصب على الحال من «والْمُرْسَلَاتِ» أي: والرياح التي أرسلت متتابعةً. ويجوز أن تكون مصدراً، أي: تِباعاً. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف[٥] الجر، كأنه قال: والمرسلات بالعُرْف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل[٦]. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيها من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أُرسلت إليه. وقيل: إنها الزواجر والمواعظ. و«عُرْفاً» على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس؛ قاله ابن مسعود. وقيل: جاريات؛ قاله الحسن؛ يعني في القلوب. وقيل:

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٢ عن ابن مسعود وأبي صالح، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥١١ عن أبي هريرة ﷺ، وذكره أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٣٤ عن مقاتل والكلبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤١٦ عن أبي صالح مختصراً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧٥، وزاد المسير ٨/ ٤٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٦، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٠.

(٤) كذا في (د) و(م) وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٨٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٦، ووقع في (ظ): سار الناس إلى فلان عُرفاً واحداً، وهو بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢١، وزاد المسير ٨/ ٤٤٤.

(٥) في (ظ): حذف.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩١، وإملاء ما من به الرحمن ٤/ ٤٤١-٤٤٢، والرازي ٣٠/ ٢٦٤.

معروفات في العقول[١].

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: الرياح بغير اختلاف، قاله المهدويُّ. وعن ابن مسعود: هي الرياح العواصف[٢] تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحُطَامُه، كما قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ [الإسراء: ٦٩]. وقيل: العاصفات الملائكةُ الموكَّلون بالرياح يَعصِفون بها. وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر[٣]، يقال: عصف بالشيء أي: أباده وأهلكه، وناقة عَصُوف أي: تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم أي: ذهبت بهم[٤]. وقيل: يحتمل أنها الآيات المُهْلِكة؛ كالزلازل والخسوف[٥].

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: الملائكة الموكَّلون بالسُّحُب يَنْشُرونها. وقال ابن مسعود ومجاهد: هي الرياحُ يرسلها اللهُ تعالى نشراً بين يدي رحمته[٦]، أي: تنشر السحاب للغيث. وروي ذلك عن أبي صالح. وعنه أيضاً: الأمطار، لأنها تنشر النبات[٧]، فالنشر بمعنى الإحياء، يقال: نشر اللهُ الميِّت وأنشره، أي: أحياه[٨]. وروى عنه السديُّ: أنها الملائكة تنشر كتبَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٩]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. الضحاك: إنها الصحف تُنْشَر على الله بأعمال العباد. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح[١٠]. قال:

---

(١) النكت والعيون ٦/١٧٥-١٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٦/١٧٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٥ ، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٥ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٦٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٧٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧ بنحوه .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٧٦ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٦-٥٨٧ بنحوه.

(٨) الكلام بنحوه في الصحاح (نشر).

(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٧.

(١٠) النكت والعيون ٦/ ١٧٦ ، وزاد المسير ٨/ ٤٤٥ .

«وَالنَّاشِرَاتِ» بالواو، لأنه استئناف قسم آخر.

﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾: الملائكة تنزل بالفَرْق بين الحقِّ والباطل، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح(١). وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ما تفرِّق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدِّده(٢). وعن سعيد عن قتادة قال: «الْفَارِقاتِ فَرْقاً»: الفرقان، فَرَّق الله فيه بين الحقِّ والباطل والحرام والحلال. وقاله الحسن وابن كيسان(٣).

وقيل: يعني الرسل(٤) فَرَقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه، أي: بَيَّنوا ذلك. وقيل: السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق، وهي الحامل التي تخرج وتَنِدُّ في الأرض حين تضع، ونوق فَوارِقُ وفُرَّق. [وربما] شَبَّهوا السحابةَ التي تنفرد من السَّحاب بهذه الناقة(٥)، قال ذو الرمَّة:

أَوْ مُـزْنَـةٌ فـارِقٌ يَـجْـلـو غَـوارِبَـهَـا ... تَـبَـوُّجُ الْـبَـرْقِ والـظَّـلْـمَـاءُ عُـلْـجُـومُ(٦)

﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة بإجماع، أي: تلقي كتب الله عزَّ وجلَّ إلى الأنبياء عليهم السلام، قاله المهدوي(٧). وقيل: هو جبريل. وسمي باسم الجمع؛ لأنه كان

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٧-٥٨٨ عن ابن عباس وأبي صالح.

(٢) زاد المسير ٨/ ٤٤٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١١٢، وزاد المسير ٨/ ٤٤٦، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٨ عن سعيد عن قتادة.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧.

(٥) الصحاح (فرق) وما بين حاصرتين منه. وجاءت في النسخ الخطية: فشبهوا.

(٦) البيت في شرح ديوان ذي الرُّمة ١/ ٣٩٣-٣٩٤. قوله مزنة فارق، أي: سحابة منفردة. ويجلو غواربَها، أي: يكشف أعاليها. وتبوّج البرق، أي: تكشُّفه وتفتُّحه. وعلجوم: شديد السَّواد.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧ بنحوه، وزاد المسير ٨/ ٤٤٦ دون نسبة.

ينزل بها[١]. وقيل: المراد الرسل يُلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، قاله قُطْرب[٢]. وقرأ ابن عباس: «فَالملقَّيات» بالتشديد مع فتح القاف[٣]، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل:٦].

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: أي: تلقي الوحي إعذاراً من الله، أو إنذاراً إلى خلقه من عذابه، قاله الفراء[٤]. وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يُعذِرون ويُنذِرون. وروى سعيد عن قتادة: «عُذْراً» قال: عذراً لله جلَّ ثناؤه إلى خلقه، ونُذْراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به. وروى الضحاك عن ابن عباس: «عُذْراً» أي: ما يلقيه الله، جلَّ ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة، «أَوْنُذْراً»: يُنذر أعداءه.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص: «أَوْنُذْراً» بإسكان الذال، وجميع السبعة على إسكان ذال«عُذْراً» سوى ما رواه الجُعْفيُّ والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال[٥]. وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما. وقرأ إبراهيم التَّيمي وقتادة: «عُذْراً وَنُذْراً» بالواو العاطفة، ولم يجعلا بينهما ألفاً[٦].

وهما منصوبان على المفعول له، أي: للإعذار أو للإنذار. وقيل: على المفعول به؛ قيل: على البدل من «ذِكْراً» أي: فالملقيات عذراً أو نذراً[٧].

وقال أبو علي[٨]: يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر،

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٦٥ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧٧، وزاد المسير ٨/ ٤٤٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٣٤٥.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٢، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٦ بنحوه.

(٥) السبعة ص٦٦٦، والتيسيرص٢١٨، والقراءة المشهورة عن عاصم من رواية شبعة كقراءة الجماعة: نُذْراً. وينظر جامع البيان في القراءات السبع ٢/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٧) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٧.

(٨) في الحجة ٦/ ٣٦٣.

كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم:٥٦] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء، أي: يُلقون الذكر في حال العذر والإنذار. أو يكون مفعولاً لـ «ذكراً» أي: «فَالْمُلْقِيات» أي: تُذَكِّر «عُذْراً أَوْنُذْراً».

وقال المبرِّد: هما بالتثقيل جمع الواحد: عَذير ونَذير.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب ما تقَّدم من القسم، أي: ما توعدون من أمر القيامة لوَاقع بكم ونازلٌ عليكم، ثم بيَّن وقت وقوعه فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوؤها ومُحي نورُها كطمسِ الكتاب[١]؛ يقال: طَمَس الشيء: إذا دَرَسَ وطُمِس، فهو مطموس[٢]، والريحُ تطمُس الآثارَ، فتكون الريح طامسةً، والأثر طامساً بمعنى مطموس.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي: فُتِحت وشُقَّت[٣]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[النبأ:١٩]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرِجت للطيِّ.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: ذُهب بها كلِّها بسرعة؛ يقال: نَسَفْتُ الشيءَ وأنسفته: إذا أخذتَه كلَّه بسرعة[٤]. وكان ابن عباس والكلبيُّ يقول: سُوِّيَت بالأرض[٥]، والعرب تقول: فَرَسٌ نَسُوف: إذا كان يؤخِّر الحزام بمرفقيه[٦]؛ قال بِشْر:

نَسُوفٌ للحِزَام بمرفقيها[٧]

ونَسَفَت الناقةُ الكلأَ: إذا رعته. وقال المبرِّد: نُسِفت: قُلعَت من موضعها؛ يقول

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٧٧ .

(٢) ينظر الصحاح (طمس).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٦ ، ونقله عن ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٧ .

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٧٧ عن الكلبي.

(٦) الكلام بنحوه في الصحاح (نسف).

(٧) قائله هو بشر بن أبي خازم، والبيت في ديوانه ص١١١ ، وعجزه: يَسدُّ خَوَاءَ طُبْيَيْها الغبارُ.

الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنْسَفت رجلاه. وقيل: النَّسْف: تفريقُ الأجزاء حتى تذروها الرياح. ومنه نسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يُذهِب الريحُ بعضَ ما فيه من التِّبْن[١].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخَّر إليه؛ فالمعنى: جعل لها وقت وأجَل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم[٢]؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقيل: هذا في الدنيا أي: جُمعت الرسل لميقاتها الذي ضُرب لها في إنزال العذاب بمن كذَّبهم بأن الكفَّار مُمْهَلون، وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأوّل أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطمس ونسف الجبال وتشقيق السماء، ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة.

قال أبو علي[٣]: أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً. وقيل: أُقِّتت: وُعِدت وأُجِّلت. وقيل: «أُقِّتَتْ» أي: أرسلت لأوقات معلومةٍ على ما علمه اللهُ وأراد.

والهمزة في «أُقِّتَتْ» بدلٌ من الواو؛ قاله الفراء والزجاج[٤]. قال الفراء: وكلُّ واو ضُمَّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة[٥]؛ تقول: صلَّى القوم أُحْداناً، تريد: وُحْداناً، ويقولون: هذه وُجُوه حسان [وأُجُوه][٦]. وهذا لأن ضمة الواو ثقيلة. ولم يجز البدل في قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] لأن الضمة غير لازمة[٧].

---

(١) في (د) التتن.

(٢) الكلام بنحوه في زاد المسير ٨/ ٤٤٧ .

(٣) في الحجة ٦/ ٣٦٤-٣٦٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وللزجاج ٥/ ٢٦٦ ، ونقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٧ .

(٥) من قوله: وكل واو ضمت إلى هنا هو من قول الزجاج.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في النسخ، وهي زيادة يقتضيها الكلام، وينظر الكامل للمبرد ١/ ٨١ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٦٩ .

وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر عن عاصم ومجاهد: «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل [(١)]. وقال أبو عمرو: وإنما يقرأ «أُقِّتَتْ» مَن قال في وُجُوه أجُوه. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج: «وُقِتَت» بالواو وتخفيف القاف[(٢)]. وهو فُعِلَت من الوقت، ومنه: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]. وعن الحسن أيضاً: «وُوقِتَتْ» بواوين، وهو فُوعِلت[(٣)] من الوقت أيضاً، مثل: عُوهِدت. ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز. وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلَام: «أُقِتَتْ» بالهمزة والتخفيف[(٤)]؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي: أُخِّرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم، فهو استفهام على التعظيم[(٥)]. أي: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أُجِّلَت. وروى سعيد عن قتادة قال: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار[(٦)]. وفي الحديث: «إذا حُشِرَ الناسُ يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رؤوسهم الشمسُ، شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل»[(٧)].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أتبع التعظيم تعظيماً؛ أي: وما علمُك بيوم الفصل[(٨)]؟

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب وخزي لمن كَذَّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل، فهو وعيد. وكرَّره في هذه السورة عند كلِّ آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم

(١) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٦٦، والتيسير ص٢١٨، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٣٤٥.

(٢) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٩٧ وهي من العشرة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١١٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٥) الكلام بنحوه في زاد المسير ٨/ ٤٤٧.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٩٣.

(٧) سلف بنحوه ص١٧٨ من هذا الجزء عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨: وسنده حسن.

(٨) في (د) و(م): وما أعلمك مايوم الفصل. والمثبت من باقي النسخ الخطية، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٠، والكلام منه.

على قدر تكذيبهم، فإن لكل مَكذِّب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورُبَّ شيء كَذَّب به هو أعظم جُرْماً من تكذيبه بغيره، لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الردِّ على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه، وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]. وروي عن النعمان بن بشير أنه قال: وَيْلٌ: وادٍ في جهنم فيه ألوان العذاب(١). وقاله ابن عباس وغيره. قال ابن عباس: إذا خَبَتْ جهنمُ أُخذ من جمره فألقي عليها، فيأكل بعضُها بعضاً. وروي أيضاً عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «عُرضت عليَّ جهنم، فلم أرَ فيها وادياً أعظم من الويْل»(٢).

وروي أنه مَجْمَعُ ما يَسيل من قيحِ أهل النار وصديدِهم(٣)، وإنما يَسيل الشيء فيما سفل من الأرض وانفطَر، وقد علم العباد في الدنيا أن شرَّ المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذارِ والغُسالات من الجيف وماءِ الحمامات، فذكر أن ذلك الوادي مستنقعُ صديدِ أهل الكفر والشرك، ليعلم ذوو العقولِ أنه لاشيء أقذر منه قذارةً، ولاأنتن منه نَتْنا، ولا أشد منه مرارةً، ولاأشدّ سواداً منه، ثم وصفه رسولُ الله ﷺ بما تضمن من العذاب، وأنه أعظم وادٍ في جهنم، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمدٍ ﷺ(٤). ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾أي: نُلحق الآخِرين بالأولين.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤١٨ وسلف الكلام فيه ٢/ ٢٢١.

(٢) لم نقف عليه

(٣) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود كما في الدر المنثور ٦/٣٠٣ ، وذكره الطبري ٢٣/٥٩٣ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٥٩٤ .

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مثل ما فعلناه بمن تقدَّم نفعل بمشركي قريش، إما بالسيف وإما بالهلاك(١).

وقرأ العامة: «ثُمَّ نُتۡبِعُهُم» بالرفع على الاستئناف(٢)، وقرأ الأعرج: «نُتۡبِعۡهُمۡ» بالجزم(٣) عطفاً على «نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ» كما تقول: ألم تزرني ثم أكرمك. والمراد أنه أهلك قوماً بعد قومٍ على اختلاف أوقات المرسَلين. ثم استأنف بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يريد من يهلك فيما بعد. ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفاً من «نُتۡبِعُهُم» لتوالي الحركات(٤). وروي عنه الإسكان للتخفيف. وفي قراءة ابن مسعود: «ثُمَّ سَنُتۡبِعُهُمُ»(٥) والكاف من «كَذَٰلِكَ» في موضع نصب، أي: مثل ذلك الهلاك نفعله بكلِّ مشرك(٦). ثم قيل: معناه التهويل لهلاكهم في الدنيا اعتباراً. وقيل: هو إخبار بعذابهم في الآخرة(٧).

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أي: ضعيف حقير، وهو النطفة، وقد تقدَّم(٨). وهذه الآية أصلٌ لمن قال: إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده. وقد مضى القول فيه(٩).

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٧٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٣ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧ ، والمحتسب٢/ ٣٤٦ .

(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٦ بنحوه.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٠٣ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢٧١ ، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥ ، وجاء في معاني الفراء ٣/ ٢٢٣، وزاد المسير ٨/ ٤٤٧ : وستتبعهم.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٧ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٧٨ .

(٨) ١٧/ ١٥ .

(٩) ١٩/ ٤١٣ ، وينظر ١٤/ ٣١٣ .

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي: في مكان حَريزٍ وهو الرَّحم[١]. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوِّره. وقيل: إلى وقت الولادة[٢]. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ وقرأ نافع والكسائيُّ: «فَقَدَّرْنَا» بالتشديد، وخفَّف الباقون[٣]، وهما لغتان بمعنىً. قاله الكسائيُّ والفراء[٤] والقُتَبيُّ. قال القُتَبي[٥]: قَدَرْنا بمعنى قدَّرنا مشدَّدة: كما تقول: قَدَرْت كذا وقدَّرته، ومنه قول النبيِّ ﷺ في الهلال: «إذا غُمَّ عليكم فاقْدُرُوا له»[٦] أي: قدِّروا له المسيرَ والمنازل.

وقال محمد بن الجهم عن الفراء: «فَقَدَّرْنَا» قال: وذُكر تشديدها عن عليٍّ ﷺ وتخفيفها، قال: ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً؛ لأن العرب تقول: قَدَر عليه الموت وقَدَّر، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] قرئ بالتخفيف والتشديد، وقَدَر عليه رِزقه وقَدَّر. قال: واحتج الذين خفَّفوا فقالوا؛ لوكانت كذلك لكانت: فنعم المقدِّرون. قال الفراء: وتجمع العرب بين اللغتين، قال الله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٧] [الطارق: ١٧] قال الأعشى[٨]:

وأنْكَرَتني وما كان الذي نَكِرَتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروي عن عكرمة: «فَقَدَرْنا» مخففة من القدرة، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائيِّ لقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ ومن شدَّد فهو من التقدير، أي: فقدَّرنا الشقيَّ

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٥، و النكت والعيون ٦/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٣.

(٣) السبعة ص٦٦٦، والتيسير ص٢١٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٢٢٣.

(٥) في تفسير غريب القرآن ص٥٠٦.

(٦) أخرجه الإمام أحمد(٤٤٨٨)، والبخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ١٥٥.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٣، ٢٢٤، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٨-٤٤٩ بنحوه.

(٨) في ديوانه ص١٥١، وسلف ١١/ ١٦٢-١٦٣

والسعيد، فنعم المقدِّرون. رواه ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ[١]. وقيل: المعنى قدَّرنا قصيراً أو طويلاً. ونحوه عن ابن عباس: قدرنا ملَكنا. المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

قلت: هو صحيح، فإن عكرمة هو الذي قرأ: «فَقَدَرْنا» مخفَّفاً قال: معناه: فملكْنا فنعم المالكون[٢]، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين، أي: قدَّرنا وقتَ الولادة وأحوالَ النطفةِ في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشراً سويًّا، أو الشقيَّ والسعيد، أو الطويل والقصير[٣]، كلُّه على قراءة التشديد. وقيل: هما بمعنىً كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أي: ضامَّة؛ تضمُّ الأحياءَ على ظهرها[٤] والأمواتَ في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراةِ الميت ودفنه، ودفن شعَرِه وسائر مايزيله عنه[٥]. وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «قُصُّوا أظافيركم[٦] وادفنوا قُلاَماتِكم». وقد مضى في«البقرة» بيانُه[٧]. يقال: كَفَتُّ الشيء أكْفِته: إذا

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤١٨-٤١٩ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/٥٩٦ عن الضحاك.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٤٠٨ عن الكلبي بنحوه.

(٤) في(د) و(م) و(ي): ظهورها. والمثبت من (ز) (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٩ ، والكلام فيه بنحوه.

(٥) بنحوه في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٤٢٨ ، ولابن العربي ٤/ ١٨٨٨ .

(٦) في (ظ)و(م) أظافركم. والمثبت من (د) ونوادر الأصول ص٤٥ .

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادره ص٤٥ ، من حديث عبدالله بن بسر المازني ﷺ مرفوعاً والخبر ضعيف جداً، وسلف ٢/ ٣٥٨ - ٣٥٩، وينظر فتح الباري١٠/ ٣٣٨ .

جمعتَه وضممتَه، والكَفْت: الضمُّ والجمع[(١)]، وأنشد سيبويه.

كِـرامٌ حـيـنَ تَـنْـكَـفِـتُ الأفَـاعـي إلـى أحْـجَـارهـنَّ مـن الـصَّـقِـيـعِ[(٢)]

وقال أبو عبيدة[(٣)]: «كِفَاتاً»: أوعية. ويقال للنِّحْي[(٤)]: كِفْت وكَفِيت؛ لأنه يحوي اللبن ويضمه قال:

فـأنـت الـيـومَ فـوقَ الأرضِ حَـيًّـا وأنـت غـداً تَـضُـمُّـك[(٥)] فـي كِـفَـاتِ

وخرج الشَّعبيُّ في جنازة، فنظر إلى الجَبَّان فقال: هذه كِفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كِفات الأحياء[(٦)].

و[الثانية]: روي عن ربيعة في النَّبَّاش قال: تقطَع يده، فقيل له: لِم قلت ذلك؟ قال: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فالأرض حِرْزٌ[(٧)]. وقد مضى هذا في سورة المائدة[(٨)]. وكانوا يسمُّون بَقِيع الغَرْقد كَفْتَةً؛ لأنه مقبرة تضم الموتى[(٩)]، فالأرض تضم الأحياءَ إلى منازلهم والأموات في قبورهم. وأيضاً استقرار الناس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمامٌ منهم إليها. وقيل: هي كِفاتٌ للأحياء يعني دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات في الأرض؛ إذ لا ضَمَّ

---

(١) الوسيط ٤/٤٠٨ بنحوه.

(٢) الكتاب ٣/ ٥٧٧ ، والبيت لابن مقبل، وهو في ديوانه ص١٦٥ وروايته: مَقَارٍ، بدل: كرام. ومعناه كما قال شارحه: إن هؤلاء الناس يَقْرُون الضيوف في زمن الشدة حين يعزُّ الطعام.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أبو عبيد، والمثبت من (ظ) و(ي)، والكلام في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٩٥ .

(٤) النِّحْيُ: جَرَّة فخار يُجعل فيها لبنٌ ليُمخض. القاموس (نحى).

(٥) في النسخ الخطية: تُضَمَّنُ، والمثبت من (م) والنكت والعيون ٦/ ١٧٩، ونسبه الماوردي فيه للصمصامة بن الطِّرِمَّاح.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٩ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٩٧ بنحوه.

(٧) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٧٤ عنه، و الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٤ عن بعض أصحاب الشافعي.

(٨) ٧/ ٤٥٦ .

(٩) تفسير غريب القرآن ص٥٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٩ .

في كون الناس عليها، والضَّمّ يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه[١]. وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، أي: الأرض منقسمة إلى حيٍّ، وهو الذي ينبت، وإلى ميتٍ، وهو الذي لاينبت[٢]. وقال الفراء[٣]: انتصب «أَحْيَاءً وَ أَمْوَاتاً» بوقوعِ الكِفات عليه، أي: ألم نجعل الأرضَ كِفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ. فإذا نوّنت نصبت، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥].

وقيل: نصب على الحال من الأرض[٤]، أي: منها كذا ومنها كذا. وقال الأخفش: «كِفَاتاً» جمع كافتة، والأرض يراد بها الجمع، فنعتت بالجمع.

وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر. ويقال: انكفت القومُ إلى منازلهم، أي: انقلبوا[٥]. فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها، وينقلبون إليها، ويدفنون فيها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني الجبال، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، ومنه يقال: شمخ بأنفه: إذا رَفَعه كِبْراً[٦].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: وجعلنا لكم سُقْياً. والفُرَات: الماء العذب يُشرب ويُسقى منه الزرع. أي: خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات. وهذه الأمور أعجبُ من البعث[٧]. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفُرَاتُ

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٤ .

(٢) الكلام بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨١ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٧١٦ ، ونقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٩ ، وعن مجاهد نقله الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٧٩ ، وعن الأخفش نقله أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٣٦ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٤ ، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١١٨ ، والكشاف ٤/ ٢٠٤

(٥) العين ٥/ ٣٤١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٩ بنحوه، وينظر مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ١٥٩ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣٤ من قول مقاتل.

والدِّجلة[١] ونهرُ الأردن. وفي صحيح مسلم[٢]: سَيحان وَجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾أي: يقال للكفار: سيروا «إِلَى مَا كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» من العذاب، يعني النار، فقد شاهدتموها عِياناً. ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي: دخان ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يعني الدخان الذي يَرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شُعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعَّبَ[٣]. ثم وصَف الظلَّ فقال: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس كالظلِّ الذي يقي حَرَّ الشمس﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: لا يدفع من لهب جهنم شيئاً[٤].

واللهب ما يعلو على النار إذا اضطرمت، من أحمر وأصفر وأخضر.

وقيل: إن الشُّعَب الثلاث هي الضريع والزَّقُّوم والغِسْلين، قاله الضحاك. وقيل: اللهب ثم الشَّرر ثم الدخان، لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدَّت[٥].

وقيل: عُنُق يخرج من النار، فيتشعب ثلاث شعب [نورٌ ودخان ولهب]. فأما النورفيقف على رؤوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين[٦].

---

(١) في النسخ الخطية: العجوة. والمثبت من (م)، ولم نقف عليه.

(٢) برقم(٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩ .

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ٢٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٨ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٧٩ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٤ ، وما بين حاصرتين منه.

وقيل: هو السُّرَادق، وهو لسان من النار يحيط بهم، ثم يتشعب منه ثلاث شعب، فتظللهم حتى يُفْرَغ من حسابهم إلى النار(١). وقيل: هو الظلُّ من يَحْموم، كما قال تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤] على ماتقدَّم(٢). وفي الحديث: إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولالهم أكنان، فتلفحُهم الشمس(٣) وتأخذ بأنفاسهم، ومُدَّ ذلك اليوم، ثم ينجِّي الله برحمته من يشاء إلى ظلٍّ من ظلِّه، فهنالك يقولون: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]. ويقال للمكذبين: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من عذاب الله وعقابه ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾. فيكون أولياء الله جلَّ ثناؤه في ظلِّ عرشه، أو حيث شاء من الظلِّ، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكلِّ فريق إلى مستقرِّه من الجنة والنار.

ثم وصف النار فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ الشرر: واحده شررة. والشَّرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شَرَرْتُ الثوبَ: إذا بسطتَه للشمس ليجفَّ(٤). والقصر: البناء العالي. وقراءة العامة: «كَالْقَصرِ» بإسكان الصاد، أي: الحصون والمدائن في العِظم، وهو واحد القصور، قاله ابن عباس وابن مسعود(٥). وهو في معنى الجمع على طريق الجنس(٦). وقيل: القَصْر جمع قَصْرة ساكنة الصاد، مثل جَمْرَة وجَمْر، وتَمْرة وتَمْر. والقصرة: الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ(٧).

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٥ بنحوه، وتقدم ٢٠/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) في النسخ: ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس، وهو خطأ، وينظر تأويل مشكل القرآن ص٢٤٥ لابن قتيبة، والكلام له. ونقله عنه أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٣٦ بنحوه.

(٤) بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٦ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٦٠١ ، والبيهقي في الشعب (٥٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٠ ، والبغوي ٤/ ٤٣٤ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٧ بنحوه.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٠٥ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٦١ من قول الحسن. وجَزْل الحطب: ما عَظُمَ منه وييس.

وفي البخاري[١] عن ابن عباس أيضاً: ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٍ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ قال: كنَّا نَرفع الخشَبَ بقَصَرٍ ثلاثةَ أذرعٍ أو أقلَّ، فنرفعه للشتاء، فنسميه القَصَر.

وقال سعيد بن جُبير والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام[٢] إذا وقع وقُطِع. وقيل: أعناقه.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد والسُّلَميُّ: «كَالقَصَرِ» بفتح الصاد[٣]، أراد أعناق النخل. والقَصَرة العنق، جمعها: قَصَر وقَصَرات[٤]. وقال قتادة: أعناق الإبل[٥]. وقرأ سعيد بن جُبير بكسر القاف وفتح الصاد[٦]، وهي أيضاً جمع قَصْرة مثل بَدْرَة وبِدَر، وقَصْعة وقِصَع، وحَلْقَة وحِلَق، لِحلقِ الحديد. وقال: أبو حاتم: ولعله لغة، كما قالوا حاجَة وحِوَج[٧].

وقيل: القَصْر: الجبل، فشبَّه الشررَ بالقَصْر في مقاديره، ثم شبهه في لونه بالجِمالات الصُّفْر، وهي الإبل السود، والعرب تسمي السُّود من الإبل صُفْراً[٨]، قال الشاعر:

تِلْكَ خَيْلي منه وتلك رِكَابي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُها كالزَّبِيبِ[٩]

أي: هنَّ سود. وإنما سُمِّيت السُّود من الإبل صُفراً لأنه يشوب سوادَها شيءٌ من

(١) برقم (٤٩٣٢).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٤ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٤٦ ، والقراءات الشاذة ص١٧٦ عن ابن عباس ومجاهد.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٨٠ .

(٦) المحتسب ٢/ ٣٤٦ ، والقراءات الشاذة ص١٦٧ .

(٧) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٤٦ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٦-٤٣٧ ، وفي الصحاح (صفر)، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٠ .

(٩) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٣٨٥ ، وسلف ٢/ ١٨٥ ، وجاءت روايته في (ي): تلك خيلي وتلك هي ركابي .

صُفرة، كما قيل لِبيض الظِّباء: الأُدْم، لأن بياضها تعلوه كُدْرةٌ، والشررُ إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبهُ شيء بالإبل السود، لما يشوبُها من صُفْرة[١]. وفي شعر عِمران بن حِطَّان الخارجيِّ:

دَعَتْهُمْ بِأعلى صَوْتِها وَرَمَتْهُمُ ... بِمثلِ الجِمالِ الصُّفرِ نَزَّاعةُ الشَّوَى[٢]

وضعَّف الترمِذِيُّ[٣] هذا القول فقال: وهذا القول محال في اللغة، أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قد قال هذا، وقد قال الله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. ووجهه عندنا أن النار خُلِقت من النور، فهي نار مضيئة، فلما خلق الله جهنمَ ـ وهي موضع النار ـ حشا ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فاسودَّت من سلطانه وازدادت حِدَّةً، وصارت أشدَّ سواداً من النار ومن كلِّ شيء سواداً، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف، غضباً لغضب الله، والشررُ هو أسود؛ لأنه من نار سوداء، فإذا رمته[٤] النار بشررها فإنها ترمى الأعداء به، فهنَّ سود من سواد النار، لايصل ذلك إلى الموحِّدين؛ لأنهم في سرداق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الربُّ تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرميَ، فإذا عاينوه نزع اللهُ ذلك السلطان والغضبَ عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحِّدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه.

وكان ابن عباس يقول: الجِمالات الصُّفر: حِبال السفن يُجمع بعضُها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخاريُّ[٥]، وكان يقرؤها: «جُمَالَاتٌ» بضم

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٣٥ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٤ ، وذكره السمين في الدر ١٠/ ٦٤٢ .

(٣) في (د): اليزيدي.

(٤) في (م) رمت.

(٥) برقم (٤٩٣٣) .

الجيم[١]، وكذلك قرأ مجاهد وحُميد[٢]: «جُمَالَات» بضم الجيم، وهي الحِبال الغِلاظ، وهي قُلُوس السفينة، أي: حبالها، وواحد القُلُوس: قَلْس[٣]. وعن ابن عباس أيضاً على أنها قطع النحاس[٤]. والمعروف في الحبل الغليظ: جُمَّل؛ بتشديد الميم كما تقدم في «الأعراف»[٥].

و«جُمَالَات» بضم الجيم: جمع جِمالة بكسر الجيم مُوَحَّداً، كأنه جمع جَمَل، نحو حَجَر وحجارة، وذَكَر وذِكَارة[٦]. وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق وعيسى والجَحْدَريُّ: «جُمَالة» بضم الجيم موحداً وهي الشيء العظيم المجموع بعضُه إلى بعض[٧]. وقرأ حفص وحمزة والكسائي: «جِمَالة» وبقية السبعة: «جِمَالَات»[٨]

قال الفراء[٩]: يجوز أن تكون الجِمالات جمع جِمال كما يقال: رجل ورِجال ورِجالات.

وقيل: شبهها بِالجِمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضاً[١٠].

والقَصْر: واحدُ القصور. وقصْر الظلام: اختلاطُه. ويقال: أتيته قصراً، أي: عَشيّاً، فهو مشترك، قال:

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٧ .

(٢) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٥١ عن حُميد قراءة «جُمالة» بالإفراد.

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ٢٠٤ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٦٠٨ ، والبيهقي في البعث (٥٧١).

(٥) ٩/ ٢٢٠ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٨ .

(٧) كذا نقل المصنف من قراءة يعقوب عن البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣٥ ، والذي ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٥١ ،وابن الجزري في النشر ٢/ ٣٩٧ من رواية رويس عنه: جُمالات، على الجمع وضم الجيم.

(٨) السبعة ص٦٦٦ ، والتيسير ص٢١٨ .

(٩) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٥ .

(١٠) النكت والعيون ٦/ ١٨٠ .

كَـأَنَّـهُـمُ قَـصْـراً مَـصـابِـيـحُ راهِـبٍ بِـمَـوْزَنَ رَوَّى بـالـسَّـلِـيـط ذُبـالَـهـا[١]

مسألة: في هذه الآية دليل على جواز ادِّخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغاني مفاقِرِهِ. وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته، ليكون أرخص، وحالة وجوده أمكن، كما كان النبيُّ ﷺ يدَّخر القوت[٢] في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكلُّ شيء محمول عليه[٣]. وقد بين ابن عباس هذا بقوله: كنا نعمَد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثَة أذرع وفوق ذلك ودونه وندَّخره للشتاء، وكنا نسميه القَصَر[٤]. وهذا أصحُّ ما قيل في ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها[٥]، ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل[٦]. وعن عِكرمة عن ابن عباس قال: سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ و﴿فلا تَسْمَعُ إلا هَمْساً﴾ [طه:١٠٨] وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧] فقال له: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] فإن لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان.

---

(١) البيت لكثيِّر عزة، وهو في ديوانه ص٢٢٦، والصحاح (قصر)، وقوله: بموْزَن، هو بلد بالجزيرة ثم ديار مضر، فتحه عياض بن غنم صلحاً كما ذكر ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢٢١-٢٢٢. والسَّليط: الزيت. والذُّبال: الفتيل. القاموس المحيط (سلط ـ ذبل).

(٢) ينظر ما سلف ١٠/١٥٩-١٦٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٠.

(٤) سلف ص٥١٠ من هذا الجزء.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٨.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٧ بنحوه.

وقيل: لاينطقون بحجة نافعة، ومَن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نَطَق. قال الحسن: لاينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون[١].

وقيل: إن هذا وقت جوابهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وقد تقدَّم[٢].

وقال أبو عثمان: أسكتتهم رؤيةُ الهيبة وحياءُ الذنوب. وقال الجُنيد: أيُّ عذر لِمن أعرض عن مُنعِمِه، وجحده وكفر أياديه ونِعمه[٣]؟

و«يوم» بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر، أي: تقول الملائكة: «هذا يوم لاينطِقون». ويجوز أن يكون قوله: «انطلِقوا» من قول الملائكة، ثم يقول اللهُ لأوليائه: هذا يوم لاينطِق الكُفَّار. ومعنى اليوم: الساعة والوقت. وروى يحيى بن سليمان[٤] عن أبي بكر عن عاصم: «هذا يومَ لاينطِقون» بالنصب، ورُوِيتْ عن ابن هُرْمز وغيره[٥]، فجاز أن يكون مبنياً لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع. وهذا مذهب الكوفيين. وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم. وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بني عندهم إذا أضيف إلى مبنيٍّ، والفعل هاهنا معرب[٦].

وقال الفراء[٧] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾: الفاء نَسْقٌ، أي عطف على «يُؤْذَن»، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون. ولو قال: فيعتذروا لم يوافق

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٩ بنحوه.

(٢) ١٥/ ٩٢ وما بعد.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٥.

(٤) في(م): سلطان. والمثبت من باقي النسخ الخطية وهو الموافق لما في جامع البيان في القراءات السبع ٢/ ٤٧٢.

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٥/ ١٢١، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٧ عن الأعرج والأعمش.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٣.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٢٢٧.

الآيات. وقد قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦] بالنصب، وكلُّه صواب؛ ومثله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] بالنصب والرفع.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يُفْصل[١] فيه بين الخلائق؛ فيتبين المُحِقُّ من المُبطل[٢]. ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس: جمع الذين كذّبوا محمداً والذين كذَّبوا النبيين من قبله، رواه عنه الضحاك. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي: حيلةٌ في الخلاص من الهلاك[٣] ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي: فاحتالوا لأنفسكم وقاوُوْني، ولن تجدوا ذلك. وقيل: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ» أي: قدرتم على حربِ«فَكِيدُوني» أي: حاربوني. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. قال: يريد: كنتم في الدنيا تحاربون محمداً ﷺ وتحاربونني، فاليوم حاربوني.

وقيل: أي: إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدَّفْع عن أنفسكم[٤]. وقيل: إنه من قول النبيِّ ﷺ، فيكون كقول هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غداً،

---

(١) جاءت العبارة في (د) هذا يوم الذي يفصل، وفي (ز) و(م) و(ي) هذا اليوم الذي يفصل. والمثبت من (ظ).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٦١١، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٨.

(٣) في (ز) و(ظ): العذاب.

(٤) الكلام بنحوه في مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ١٦٣.

والمراد بالظِّلال: ظِلال الأشجار وظِلال القصور[١] مكان الظِّلِّ في الشُّعَب الثلاث. وفي سورة يس: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: يتمنَّون[٢]. وقراءة العامة: «ظِلاَلٍ». وقرأ الأعرج والزهريُّ وطلحة: «ظُلَلٍ»[٣] جمع ظُلَّة يعني في الجنة. ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم غداً هذا بدل ما يقال للمشركين: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فكيدون». فـ «كُلُوا وَاشْرَبُوا» في موضع الحال من ضمير «الْمُتَّقِين» في الظرف الذي هو «في ظِلاَلٍ» أي: هم مستقرُّون «في ظِلالٍ» مقولاً لهم ذلك[٤].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: نُثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمدٍ ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ هذا مردودٌ إلى ما تقدم قبلَ المتقين، وهو وعيد وتهديد[٥]، وهو حال من «الْمُكَذِّبِينَ» أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً»[٦].

﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي: كافرون. وقيل: مكتسبون فعلاً يضرُّكم في الآخرة، من الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المشركين:

---

(١) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ٤١٠.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٧.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢١، عن الأعرج والأعمش. ووقع في (ظ): ظل.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٠٥.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢١ بنحوه.
(٦) الكشاف ٤/ ٢٠٥.

«ارْكَعُوا» أي: صلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يُصَلُّون؛ قاله مجاهد[١].

وقال مقاتل: نزلت في ثقيف، امتنَعوا من الصلاة، فنزَل ذلك فيهم[٢]. قال مقاتل: قال لهم النبيُّ ﷺ: «أسلِموا»، وأمرَهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني فإنها مَسبَّةٌ علينا، فقال النبيُّ ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود»[٣].

يُذْكَر أن مالكاً رحمه الله دخَل المسجد بعد صلاة العصر ـ وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر ـ فجلس ولم يركع، فقال له صبيٌّ: يا شيخ، قم فاركع. فقام وركع ولم يحاجِّه بما يراه مذهباً، فقيل له في ذلك، فقال: خشيتُ أن أكون من الذين «إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ».

وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون[٤]. قتادة: هذا في الدنيا[٥]. ابن العربيّ[٦]: هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة، وقد انعقد الإجماعُ عليه، وظنَّ قومٌ أنَّ هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف، فيتوجه فيها أمرٌ يكون عليه ويلٌ وعقاب، وإنما يُدعون إلى السجود كَشْفاً لحالِ الناس في الدنيا، فمن كان يَسجد لله تمكَّن[٧] من السجود، ومن كان يسجد رياءً لغيره صار ظهرُه طَبَقاً واحداً.

وقيل: أي: إذا قيل لهم اخضعوا للحقِّ لا يخضعون، فهو عامٌّ في الصلاة

(١) في تفسيره ٢/ ٧١٨، وذكره عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٥٢.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢١.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢١ بنحوه، وزاد المسير ٨/ ٤٥٢ وقوله منه: «لا خير في دين ليس فيه ركوع». وقع في حديث عثمان بن أبي العاص في خبر وفد ثقيف بسياق آخر أخرجه الإمام أحمد (١٧٩١٣)، وأبو داود (٣٠٢٦).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٦، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٦١٣.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٦١٣ بنحوه.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٠.

(٧) في (ظ): فمن كان يسجد له في الدنيا يمكن ....

وغيرها، وإنما ذَكر الصلاةَ؛ لأنها أصلُ الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالصلاة أمرٌ بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنْ لم يصدِّقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدلالةُ على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فبأيِّ شيء يصدِّقون؟![(٢)]

وكرَّرَ «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار؛ لأنه أراد بكلٍّ قول منه غيرَ الذي أراده بالآخر؛ كأنه ذكر شيئاً فقال: ويل لمن يكذِّب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذِّبُ بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذِّب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها[(٣)].

ختمت السورة ولله الحمد.

تم الجزء الحادي والعشرون من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الثاني والعشرون ويبدأ بتفسير سورة النبأ

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٨٤ .

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٦١٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٩ .

(٣) زاد المسير ٨/ ٤٤٨ بنحوه.

سورة ﴿والمرسلات﴾

مَكِّيَّةٌ، وآيُها خمسونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٥) ـ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسَمَ بطوائِفَ مِن الملائكةِ أرسلهنَّ اللهُ بأوامـرِه متتابعةً، فعصَفْنَ عصفَ الرِّياحِ في امتثالِ أمرِه، ونَشَرْنَ الشَّرائعَ في الأرضِ، أو نَشَرْنَ النُّفوسَ الموتَى بالجهلِ بما أَوْحَيْن من العلمِ، ففرَقنَ بينَ الحقِّ والباطلِ، فألقينَ إلى الأنبياءِ ذكرًا عُذرًا للمُحقِّينَ ونُذْرًا للمُبْطِلينَ.

أو: بآياتِ القرآنِ المرسَلةِ بكلِّ عُرْفٍ إلى مُحَمَّـدٍ عليهِ السَّلامُ، فعصَفْنَ سائرَ الكتبِ والأديانِ بالنَّسخِ، ونشرنَ آثارَ الهُدَى والحِكَمَ فـي الشَّرقِ والغربِ، وفرَقْنَ بينَ الحقِّ والباطلِ، فألقينَ ذكرَ الحقِّ فيما بينَ العالَمينَ.

أو: بالنُّفـوسِ الكاملـةِ المرسَـلةِ إلـى الأبـدانِ لاستكمالِها، فعصَفْـنَ ما سـوى الحـقِّ، ونشـرنَ أثرَ ذلك فـي جميـعِ الأَعضاءِ، ففرَقـنَ بينَ الحـقِّ بذَاتِـه والباطل في نفسِـهِ، فيـرونَ كلَّ شـيءٍ هالِكًا إلا وجهَـه، فألقينَ ذِكـرًا بحيثُ لا يكونُ فـي القلوبِ والألسِـنَةِ إلا ذكـرُ اللهِ تَعالى.

أو: برياحِ عَذابٍ أُرْسِلْنَ فعَصَفْنَ، ورياحِ رحمَةٍ نشرنَ السَّحابَ في الجوِّ ففرَقنَ

فألقينَ ذكرًا؛ أي: تسبَّبْنَ له؛ فإنَّ العاقلَ إذا شاهَدَ هُبوبَها وآثارَها ذكرَ اللهَ تَعالى وتذكَّرَ كمالَ قُدرَتِه.

و﴿عُرۡفًا﴾ إمَّا نقيضُ النُّكرِ، وانتصابهُ على العِلَّةِ؛ أي: أُرْسِلْنَ للإحسانِ والمعروفِ، أو بمَعنى المتتابِعَةِ، مِن عُرْفِ الفَرَسِ، وانتصابُه على الحالِ.

(٦) ـ ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ مَصدرانِ لعَذَرَ: إذا مَحا الإساءةَ، وأَنْذَرَ[1]: إذا خوَّفَ.

أو جمعانِ لعَذِيرٍ بمعنى المَعذرَةِ، ونذيرٍ بمعنى الإنذارِ.

أو بمَعْنَى العاذرِ والمنذرِ.

ونصبُهُما على الأوَّلَينِ بالعِلِّيَّةِ؛ أي: عُذْرًا للمُحِقِّينَ ونُذْرًا للمُبْطِلينَ، أو البدليَّةِ من ﴿ذِكۡرًا﴾ على أنَّ المرادَ به الوَحْيُ، أو ما يعمُّ التَّوحيدَ والشِّركَ والإيمانَ والكفرَ.

وعلى الثَّالثِ بالحاليةِ.

وقرأَهُما أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالتَّخفيفِ[2].

(٧) ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ جوابُ القسمِ، ومعناه: إنَّ الذي توعدونَهُ مِن مَجيءِ القيامةِ كائن لا محالةَ.

(٨ ـ ١١) ـ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾: مُحِقَتْ ومُحيتْ، أو أُذهبَ نورُها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾: صُدِعَتْ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ كالحَبِّ يُنسَفُ بالمِنسَفِ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾:

---

(١) قولُه: (أَنْذَرَ) قياسُ مصدرِه «الإفعالُ»، وهذا على خلافِ القياسِ. وقيلَ: إنَّه اسمُ مصدرٍ؛ لأنَّ «فُعْل» لـم يُعهَدْ في مصدرِ «الإفعالِ». وقيلَ: مصدرُ «نذَرَ» بمعنَى «أنذَرَ»، وفيه نظرٌ. قاله الخفاجي.

(٢) قرأ ﴿عُذُرًا﴾ بضم الذال روح عن يعقوب، وباقي العشرة بسكونها. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٧).
وقرأ ﴿نُذُرًا﴾ بضم الذال ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر، والباقون بإسكانها، انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

عيِّنَ لها وقتُها الذي يحضرونَ فيه للشَّهادةِ على الأُمَمِ بحُصولِه فإنَّه لا يتعيَّنُ لهم قبلَه[1]، أو: بلغَتْ مِيقاتَها الذي كانَتْ تَنتَظِرُه.

وقرأَ أبو عَمرٍو: ﴿وُقِّتَتْ﴾ على الأَصْلِ[2].

(١٢) ـ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾؛ أي: يقالُ: لأيِّ يومٍ أُخِّرَتْ؟ وضربُ الأَجَلِ للجَمعِ، وهو تعظيمٌ لليَومِ وتَعجيبٌ مِن هَولِه، ويجوزُ أَنْ يكونَ ثانيَ مَفْعولَي ﴿أُقِّتَتْ﴾ على أنَّه بمَعنى: أُعلمَتْ.

(١٣) ـ ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيانٌ ليومِ التَّأجيلِ.

(١٤) ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: ومن أينَ تَعلمُ كُنْهَه ولم ترَ مثلَهُ.

(١٥) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: بذلك، و(ويلٌ) في الأصلِ مَصدَرٌ مَنصوبٌ بإضمارِ فعلِهِ عُدِلَ بِهِ إلى الرَّفعِ للدَّلالةِ على ثباتِ الهُلْكِ للمَدْعُوِّ عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفُه أو صِفَتُه.

(١٦) ـ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ، وقُرِئَ: (نَهلِكْ)[3] مِن هلكَهُ بمَعنى: أهلكَهُ.

(١٧) ـ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾: ثمَّ نحنُ نُتْبِعُهُم نظراءَهُم ككفَّارِ مكَّةَ.

وقُرِئَ بالجزمِ[4] عَطفًا على ﴿نُهْلِكِ﴾، فيكونُ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾: المتأخِّرينَ مِنَ المُهْلَكينَ كقَوْمِ لُوطٍ وشُعَيبٍ ومُوسَى عليهم السَّلامِ.

---

(١) قوله: «بحُصولِه...»؛ أي: بحصول ذلك الوقت ووجوده؛ أي: تعيين وقتها إنما هو بحصوله لا بتعيينه قبله، فإنه لم يتعين قبله بطريق الوحي أو غيره. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ٥١١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن قتادة.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٦)، عن الأعرج.

(١٨) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعلِ ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: بكلِّ مَن أجرمَ.

(١٩) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآياتِ اللهِ وأنبيائهِ فليسَ تكريرًا، وكذا إنْ أُطلقَ التَّكذيبُ، أو علِّقَ في الموضِعَيْنِ بواحِدٍ؛ لأنَّ الويلَ الأوَّلَ لعَذابِ الآخرةِ، وهذا للإهلاكِ في الدُّنيا، مع أنَّ التَّكريرَ للتَّوكيدِ حسنٌ شائعٌ في كلامِ العَربِ.

(٢٠ ـ ٢٢) ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: نطفةٍ قَذِرَةٍ ذَليلةٍ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِمُ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: إلى مقدارٍ مَعلومٍ مِن الوَقتِ قدَّرَهُ اللهُ للولادةِ.

(٢٣) ـ ﴿فَقَدَرْنَا﴾: فقدَرْنَا على ذلك، أو: فقدَّرْناهُ، ويدلُّ عليه قراءةُ نافعٍ والكسائيِّ بالتَّشديدِ[1].

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ نحن.

(٢٤) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقُدْرَتِنا على ذلك، أو على الإعادةِ.

(٢٥) ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾: كافتةً، اسمٌ لِمَا يَكفِتُ؛ أي: يَضمُّ ويَجمعُ كالضِّمامِ والجِماعِ لِمَا يَضمُّ ويَجمَعُ، أو مصدرٌ نُعِتَ به.

أو جمعُ كافِتٍ كصَائِمٍ وصِيَامٍ، أو كِفْتٍ وهو الوعاءُ، أُجريَ على الأرضِ باعتبارِ أَقْطارِهَا[2].

(٢٦) ـ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ مُنتَصِبَانِ على المفعوليَّةِ، وتنكيرُهما للتَّفخيمِ، أو لأنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهُم بعضُ الأحياءِ والأمواتِ، أو الحاليةِ مِن مَفعولِه المحذوفِ للعلمِ بهِ وهو الإنسُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٢) قولُه: (أُجرِيَ على الأرضِ)؛ لأنَّه مفعولٌ ثانٍ، وهذا توجيهٌ له على وجهَي الجمعِ مع أن الأرض مُفرَدةٌ. قاله الشهاب.

أو بـ﴿نَجْعَلِ﴾ على المفعوليَّةِ و﴿كِفَاتًا﴾ حالٌ، أو الحالِ، فيكونُ المعنيُّ بالأحياءِ ما يُنبتُ وبالأمواتِ ما لا يُنبتُ.

(٢٧) ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾: جبالًا ثوابِتَ طوالًا، والتَّنكيرُ للتَّفخيمِ وإشعارًا بأنَّ فيها ما لم يُعرَفْ ولم يُرَ ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ بخلقِ الأَنهارِ والمنابعِ فيهَا.

(٢٨) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثالِ هذهِ النِّعَمِ.

(٢٩) ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾؛ أي: يقالُ لهم: انطلِقُوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مِن العَذابِ.

(٣٠) ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ خصوصًا، وعن يعقوبَ: ﴿انطَلَقُوا﴾[1] على الإخبارِ مِن[2] امتثالِهم للأمرِ اضطِرارًا.

﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني: ظلَّ دخانِ جهنَّم، كقولِه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يَتشعَّبُ لعظمِه كما تَرَى الدُّخانَ العظيمَ يتفرَّقُ ذوائبَ، وخُصوصيَّةُ الثَّلاثِ: إمَّا لأنَّ حجابَ النَّفسِ عَن أنوارِ القُدسِ الحسُّ والخَيالُ والوَهْمُ، أو لأنَّ المؤدِّيَ إلى هذا العذابِ هو القوَّةُ الواهِمَةُ الحالَّةُ في الدِّماغِ، والغَضَبيَّةُ التي في يمينِ القَلْبِ، والشَّهْويَّةُ التي في يَسارِه، ولذلك قيل: شُعبةٌ تقِفُ فوقَ الكافرِ، وشُعبةٌ عَن يمينِه، وشُعبةٌ عَن يَسارِه.

(٣١) ـ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ تهكُّمٌ بهم، ورَدٌّ لِمَا أوهمَ لفظُ الظلِّ ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: وغيرُ مُغْنٍ عَنْهُم مِن حرِّ اللَّهَبِ شَيْئًا.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٧).

(٢) كذا في النسخ، والظاهر: «عن»، كما يفهم من قول الزمخشري: إخبَاراً بَعْدَ الأمر عن عمَلهم بمُوجَبِه؛ لأنَّهم مُضطَرُّونَ إليه لا يَستَطِيعُونَ امتِناعاً مِنه.

(٣٢) ـ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾؛ أي: كلُّ شَرَرةٍ كالقصرِ في عِظَمِها، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (بشَرارٍ)[١].

وقيل: هو جمعُ قَصْرَةٍ وهي الشَّجرَةُ الغليظَةُ.

وقُرِئَ: (كالقُصُر)[٢] بمعنى القُصُورِ كرَهْن ورُهُن، و: (كالقِصَر)[٣] جمعُ قَصَرةٍ كحاجةٍ وحِوَجٍ، و: (كالقَصَر)[٤] وهي أصلُ العُنُقِ[٥].

والهاءُ للشُّعَبِ.

(٣٣) ـ ﴿كأنه جِمَالَاتٌ﴾ جمعُ جمالٍ، أو جِمالَةٍ جمعِ جملٍ ﴿صُفْرٌ﴾ فإنَّ الشرارَ لِمَا فيه مِن النَّاريَّةِ يكونُ أصفرَ، وقيل: سودٌ؛ فإنَّ سوادَ الإبلِ يضربُ إلى الصُّفرَةِ، والأوَّلُ تشبيهٌ في العِظَمِ، وهذا في اللونِ والكثرةِ والتَّتابُعِ والاختلاطِ وسُرعَةِ الحركةِ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿جِمَلَتٌ﴾ وعن يعقوبَ[٦]: ﴿جُمالاتٌ﴾[٧]

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٨/ ٢٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٠)، و«البحر» (٢١/ ١٧٤)، عن عيسى بن عمر، وهذه بفتح الشين، وقرئ بكسرها كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن ابن عباس، و«الكامل في القراءات» (ص: ٦٥٦) عن ابن مقسم.

(٢) انظر: «المحتسب في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن ابن مسعود.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٦) عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٦) عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٥) أي: أصل عنق الإبل أو عنق النخل. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ٥٢٢).

(٦) بعدها في نسخة الخيالي: «ورويس» وفي نسخة التفتازاني: «وورش». والصواب أنها رواية رويس عن يعقوب.

(٧) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٨)، و«النشر» (٢/ ٣٩٧).

بالضَّمِّ جمعُ (جُمالةٍ)، وقد قُرِئَ بها[١]، وهي الحبلُ الغليظُ مِن حبالِ السَّفينَةِ، شبَّهَهُ بها في امتدادِه والتفافِه.

(٣٤ـ ٣٥) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ أي: بما يستحقُّ[٢]، فإنَّ النُّطقَ بما لا يَنفعُ كَلَا نُطقٍ، أو: بشيءٍ مِن فَرْطِ الدَّهشَةِ والحيرةِ، وهذا في بعضِ المواقفِ.

وقُرِئَ بنصبِ اليومِ[٣]، أي: هذا الذي ذُكرَ واقِعٌ يومَئذٍ.

(٣٦) ـ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عُطِفَ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ على ﴿يُؤْذَنُ﴾ ليدلَّ على نفيِ الإذنِ والاعتذارِ عقيبَهُ مُطلقًا، ولو جعلَه[٤] جوابًا لدلَّ على أنَّ عدمَ اعتذارِهم لعدمِ الإذنِ، وأَوْهَمَ ذلك أنَّ لهم عُذْرًا لكن لم يُؤْذَنْ لَهُم فيه.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بينَ المحقِّ والمُبطلِ ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ تقريرٌ وبيانٌ للفَصلِ.

(٣٩) ـ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تقريعٌ لهم على كيدِهِم للمُؤمنينَ في الدنيا وإظهارٌ لعَجزِهِم.

(٤٠) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلةَ لهم في التَّخلُّصِ مِن العذابِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن أبي حيوة.

(٢) قولُه: «بما يستَحقُّ» بصيغةِ المجهولِ، أو المعلومِ والتَّقديرُ: بما يَستَحِقُّ التَّفوُّهَ به، أو الإصغاءَ لهُ، فلا يُنافي ما ورَدَ في غيرِ هذه الآيةِ منَ النُّطقِ؛ لأنَّهم نطَقُوا، لكنَّ نُطقَهم جُعِلَ كالعدَمِ لعدَمِ نفعِه. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن أبي حيوة.

(٤) في نسخة الخيالي: «جعل».

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الشِّركِ ـ لأنَّهُم في مُقابلةِ المكذِّبينَ ـ ﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾: مُستقرُّونَ(١) في أنواعِ التَّرفُّهِ.

(٤٣) ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مَقُولًا لهم ذلك.

(٤٤) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدَةِ.

(٤٥) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تمحَّضَ لهم العذابُ المخلَّدُ، ولخصومِهِم الثَّوابُ المؤبَّدُ.

(٤٦) ـ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ حالٌ مِن المكذِّبينَ؛ أي: الويلُ ثابتٌ لهم في حالِ ما يُقالُ لهم ذلك؛ تذكيرًا لهم بحالِهِم في الدُّنيا وبما جَنَوْا على أنفُسِهِم مِن إيثارِ المتاعِ القَليلِ على النَّعيمِ المقيمِ.

(٤٧) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيثُ عرَّضُوا أنفُسَهُم للعَذابِ الدَّائمِ بالتَّمتُّعِ القليلِ.

(٤٨) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾: أطيعُوا واخضَعُوا، أو صَلُّوا، أو: اركَعُوا في الصَّلاةِ، إذ رُوِيَ أنَّه نزلَ حينَ أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ثقيفًا بالصَّلاةِ فقالوا: لا نُجبِّي فإنَّها مَسَبَّةٌ(٢).

---

(١) في نسخة الخيالي: «مستغرقون».

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٦)، والإمام أحمد في «المسند» (١٧٩١٣)، من طريق الحسن عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: أن وَفْدَ ثَقيفٍ لَمَّا قدِموا على رسولِ الله ﷺ أنزلَهم المسجدَ ليكون أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَرُوا ولا يُجَبُّوا، فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ» وليس فيه ذكر النزول. ورجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن ـ وهو البصري ـ من عثمان بن أبي العاص اختلافاً، قال عبد الحق الإشبيلي «الأحكام الوسطى» (٣/ ٧٥): ولا يعرف للحسن سماع عن عثمان، والحديث معروف وليس طرقه بقوية. =

وقيل: هو يومُ القيامةِ حينَ يُدْعَونَ إلى السُّجودِ فلا يَستَطِيعُونَ.

﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾: لا يمتَثِلُونَ، واستُدلَّ بـهِ عـلى أنَّ الأمرَ للوُجوبِ، وأنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبُونَ بالفُروعِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ بعـد القـرآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لـم يُؤمِنُـوا بـه، وهـو معجـزٌ فـي ذاتـهِ مُشـتملٌ علـى الحُجَـجِ الوَاضِحَـةِ والمَعانِـي الشَّـريفَةِ.

قال عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ كتبَ له أنَّه ليسَ مِن المُشركينَ»[1].

* * *

= قلت: ويُثبت سماعه منه ما أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٢) عن الحسن قوله: كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص.

وذكره مع النزول الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٢٩٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢١)، عن مقاتل.

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٢٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٠٧)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك.

(٧٧) سورة المرسلات مكية وآياتها خمسون

روى البخاري، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿والمرسلات﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذا وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرها»[1]. وقال الإمام أحمد: ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس عن أمه أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عُرفاً، وعن ابن عباس أن أمّ الفضل سمعته يقرأ: ﴿والمرسلات عُرفاً﴾ فقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿والمرسلات عُرفاً﴾ قال: هي الملائكة[3]، وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وقال الثوري، عن أبي العبيدين قال: سألت ابن مسعود عن المرسلات عرفاً، قال: الريح: وكذا قال في: ﴿العاصفات عصفاً والناشرات نشراً﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة، وتوقف ابن جرير في: ﴿المرسلات عرفاً﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف، أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً، أو هي

---

(١) أخرجه البخاري، ورواه مسلم من طريق الأعمش به.

(٢) أخرجاه في الصحيحين من طريق مالك عن الزهري. (٣) وهو قول مسروق وأبي الضحى والسدي والربيع بن أنس.

الرياح إذا هبت شيئاً فشيئاً ؟ وقطع بأن ﴿العاصفات عصفاً﴾ الرياح، وتوقف في ﴿الناشرات نشراً﴾ هل هي الملائكة أو الريح كما تقدم، وعن أبي صالح أن ﴿الناشرات نشراً﴾ هي المطر ، والأظهر أن ﴿المرسلات﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ ، وهكذا ﴿العاصفات﴾ هي الرياح، يُقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت، وكذا ﴿الناشرات﴾ هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عزَّ وجلَّ. وقوله تعالى: ﴿فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً﴾ يعني الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره، وقوله تعالى: ﴿إنما توعدون لواقع﴾ هذ هو المقسم عليه أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إن هذا كله لواقع أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي ذهب ضوءها كقوله تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾، وقوله: ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي فطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها، ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ الآية ، وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، وقوله تعالى : ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ قال ابن عباس : جمعت ، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ وقال مجاهد: ﴿اقتت﴾ أجلت ، ثم قال تعالى: ﴿لأي يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين﴾ يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ وذلك في يوم الفصل كما قال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾ ثم قال تعالى معظماً لشأنه: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ ؟ ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً .

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ﴿ألم نهلك الأولين﴾ يعني المكذبين للرسل المخالفين لما جاءوهم به، ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ أي ممن أشبههم، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداءة: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عزَّ وجلَّ، كما تقدم في سورة يس: « ابن آدم أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه ؟ »[1] ﴿فجعلناه في قرار

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة .

مكين﴾ يعني جمعناه في الرحم، وهو حافظ لما أودع فيه من الماء، وقوله تعالى: ﴿إلى قَدَرٍ معلوم﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياء وأمواتاً﴾ قال مجاهد: يكفت الميت فلا يرى منه شيء، وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم، ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ يعني الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب، ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي عذباً زلالاً من السحاب، أو مما أنبعه من عيون الأرض، ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لمن تأمل هذه المخلوقات، الدّالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء أنهم يُقال لهم يوم القيامة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه ﴿ولا يغني من اللهب﴾ يعني ولا يقيهم حرّ اللهب، وقوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس ومجاهد: يعني أُصول الشجر ﴿كأنه جمالة صفر﴾ أي كالإبل السود، قاله مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس ﴿جمالة صفر﴾ يعني حبال السفن، وعنه ﴿جمالة صفر﴾: قطع نحاس، عن عبد الرحمن بن عابس: قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع، وفوق ذلك فنرفعه للبناء، فنسميه القصر ﴿كأنه جمالة صفر﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال[1] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ أي لا يتكلمون، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي لا يقدرون على الكلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحال تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري.

﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ ، تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ . عن عبادة بن الصامت أنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الداعي ويقول الله: ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ اليوم لا ينجو مني جبار عنيد، ولا شيطان مريد[1] .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن، وقوله تعالى: ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا، ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ أي مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، كما قال تعالى: ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهـذا قال تعالى: ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، ثم قال تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى: ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ روي عن أبي هريرة : « إذا قرأ ﴿ والمرسلات عُرفاً ﴾ فقرأ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ فليقل آمنت بالله وبما أنزل »[2] .

[آخر تفسير سورة المرسلات ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة والمرسلات

وهى مكية .

قال البخارى : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، [حدثنا أبى] (١) ، حدثنا الأعمش ، حدثنى إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : بينما نحن مع النبى ﷺ ، فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ ﴾ ، فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وَثَبت علينا حيَّة ، فقال النبى ﷺ : « اقتلوها » . فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ : « وُقِيَتْ شركم كما وُقِيتُم شرَّهَا » .

وأخرجه مسلم أيضا ، من طريق الأعمش(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة ، عن الزّهْرى ، عن عُبَيد الله ، عن ابن عباس ، عن أمه : أنها سَمعَت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عُرفاً (٣) .

وفى رواية مالك ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله ، عن ابن عباس : أن أم الفضل سمعته يقرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقالت : يا بنى ، ذكَّرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب .

أخرجاه فى الصحيحين ، من طريق مالك ، به (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن سهل المروزى ، حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، أخبرنا الحسين بن واقد ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة : ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة .

---

(١) زيادة من م ، أ ، والبخارى .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٠) ، وصحيح مسلم برقم (٢٢٣٤) .

(٣) المسند (٦/٣٣٨) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٦٣) ، وصحيح مسلم برقم (٤٦٢) .

قال :ورُوى عن مسروق ،وأبى الضحى ، ومجاهد ــ فى إحدى الروايات ــ والسّدى ، والربيع ابن أنس ، مثلُ ذلك .

ورُوِىَ عن أبى صالح أنه قال : هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى ﴿ الْعَاصِفَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِرَاتِ ﴾ [و ﴿ الْفَارِقَاتِ ﴾] (١) و ﴿ الْمُلْقِيَاتِ ﴾ : أنها الملائكة .

قال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن مُسلم البَطين ، عن أبى العُبَيدَين قال : سألت ابنَ مسعود عن ﴿ الْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الريح . وكذا قال فى : ﴿ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح ــ فى رواية عنه ــ وتوقف ابن جرير فى ﴿الْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ ،هل هى الملائكة أرسلت بالعُرْف ، أو كعُرْف الفَرَس يتبع بعضهم بعضا ؟ أو : هى الريح إذا هَبَّت شيئا فشيئا ؟ وقطع بأن العاصفات عصفا هى الرياح ، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه . وممن قال ذلك فى العاصفات أيضا : على بن أبى طالب (٢) ، والسدى، وتوقف فى ﴿ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ ، هل هى الملائكة أو الريح ؟ كما تقدم . وعن أبى صالح: أن الناشرات نشرا : المطر .

والأظهر أن :﴿ الْمُرْسَلات ﴾ هى الرياح ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه ﴾ [الأعراف:٥٧] ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت ، وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ،كما يشاء الرب عز وجل .

وقوله : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا . فالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يعنى : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسّدى ، والثورى . ولا خلاف هاهنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغىّ ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِع ﴾ : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ،وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَاقِع ﴾ أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى : ذهب ضوؤها ،كقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَت ﴾ أى: انفطرت وانشقت ، وتدلت أرجاؤها ، ووَهَت أطرافها .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَت ﴾ أى : ذُهِب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(١) زيادة من أ .

(٢) فى أ : « على بن أبى طلحة » .

الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ــ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد : وهذه كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال مجاهد : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ : أجلت .

وقال الثورى ، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿ أُقِّتَتْ ﴾: أوعدت. وكأنه يجعلها كقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].

ثم قال : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، يقول تعالى : لأى يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] . وهو يوم الفصل ، كما قال : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ .

ثم قال معظما لشأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لهم من عذاب الله غدا . وقد قدمنا فى الحديث أن «ويل» : واد فى جهنم . ولا يصح .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ ؟ يعنى : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ أى : ممن أشبههم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾. قاله ابن جرير(١) .

ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبَدَاءة : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة البارى عز وجل ، كما تقدم فى سورة « يس» فى حديث بُسْر بن جِحَاش : « ابنَ آدم ، أنَّى تُعجزُنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ »(٢) .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٤٤) .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٢٦ من سورة «القيامة » .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعنى : جمعناه فى الرّحِم ،وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعنى : إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ : قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ : كنًّا . وقال مجاهد : يُكَفتُ المَيت فلا يُرَى منه شيء . وقال الشعبى : بطنها لأمواتكم ،وظهرها لأحيائكم . وكذا قال مجاهد وقتادة .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى : الجبال ، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب .

﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ : عذبا زُلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى : لَهَبَ النار إذا ارتفع وصَعَدَ معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب ، يعنى : ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال[1] ابن مسعود: كالحصون . وقال ابن عباس وقتادة ، ومجاهد ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وغيرهم : يعنى أصول الشجر .

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ أى : كالإبل السود . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

وعن ابن عباس ،ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ يعنى: حبال السفن . وعنه ـ

(١) فى م : « قاله » .

أعنى ابن عباس ــ : ﴿ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ : قطع نحاس(١) .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن على ،حدثنا يحيى ،أخبرنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ، قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فنرفعه للشتاء ، فنسميه القَصَرَ ، ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ : حبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال (٢) ،﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ﴾ أى : لا يتكلمون . ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أى : لا يقدرون على الكلام،ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ،ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ . فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِين ﴾ يعنى : أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسمعُهم الداعى ويَنفُذهُم البصر .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ : تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ،وتَنجُوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن:٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ [هود:٥٧] ، وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تَبلُغوا نَفْعِى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن المنذر الطريقى الأودى ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا حُصَين بن عبد الرحمن ، عن(٣) حسان بن أبى المخارق ، عن أبى عبد الله الجَدَلى قال : أتيت بيت المقدس ، فإذا عُبادة بن الصامت ،وعبد الله بن عمرو ، وكعب الأحبار يتحدثون فى بيت المقدس،فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد ، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعى، ويقول الله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ . فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ ، اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . فقال عبد الله بن عمرو (٤): فإنا نحدث يومئذ أنه يخرج عُنُق من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهرانى الناس نادت : أيها الناس ، إنى بُعثتُ إلى ثَلاثَة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يُغَيِّبهم عنى وَزَر ، ولا تُخفيهم عنى خافية : الذى جعل مع الله إلها آخر ،وكلّ جبار عنيد ، وكلّ شيطان مريد . فتطوى عليهم فتقذف بهم فى النار قبل الحساب بأربعين سنة (٥) .

(١) فى م : « النحاس » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٣) .

(٣) فى م : « ابن » . (٤) فى م : « عمر » .

(٥) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٣/ ١٧٠) عن محمد بن فضيل به نحوه .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين(١) الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون ، أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليحموم ، وهو الدخان الأسود المنتن .

﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا . ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم .

ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ : خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً ﴾ أى : مدة قليلة قريبة قصيرة ، ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أى: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ،فبأى كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية : سمعت رجلا أعرابيا بَدَويا يقول : سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقرأ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل .

وقد تقدم هذا الحديث فى سورة « القيامة » (٢) .

آخر تفسير سورة « والمرسلات » [ولله الحمد والمنة] (٣)

---

(١) فى أ : « المؤمنين » .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية الأخيرة من سورة القيامة من رواية الترمذى وأبى داود .

(٣) زيادة من م ، أ .

سورة المرسلات

مكّيّة، وهي خمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا * فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا * فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا * فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائفَ مِن الملائكة أرسلهنّ بأوامره فعصفنَ في مضيّهنّ عصفَ الرياح مُسارعةً في الامتثال بالأمر، وبطوائفَ أخرى نشرنَ أجنحتهنّ في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرنَ الشرائع في الأقطار، أو نشرنَ النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحَين ففرَّقنَ بين الحقّ والباطل فألقينَ ذِكرًا إلى الأنبياء. ﴿عُذۡرًا﴾ للمُحقّين ﴿أَوۡ نُذۡرًا﴾ للمُبطلين.

/ ولعلّ تقديمَ نشرِ الشرائع ونشرِ النفوس والفَرْقِ على الالتقاء للإيذان بكونها غايةً للإلقاء حقيقةً بالاعتناء بها، أو للإشعار بأنّ كلًّا مِن الأوصاف المذكورة مستقِلّ بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلالِ بالإقسام بهنّ، ولو جيء بها على ترتيب الوقوع لَربّما فُهِم أنّ مجموع الإلقاء والنّشْر والفَرْق هو الموجِب لِما ذُكر مِن الاستحقاق. [٢٥٢ظ]

أو إقسامٌ برياحِ عذاب أرسلهنّ فعصفنَ وبرياح رحمةٍ نشرنَ السحاب في الجوّ ففرّقن بينه، كقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الروم، ٤٨/٣٠]، أو بسحائبَ نشرنَ الموات ففرّقن كلَّ صنف منها عن سائر الأصناف بالشكل واللون وسائر الخواصّ،

أو فرّقن بين مَن يشكر الله تعالى وبين مَن يكفر به، فألقين ذِكرًا إمّا عُذرًا للمعتذِرين إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لآثار رحمته تعالى في الغيث ويشكرونها، وإمّا إنذار للذين يكفرونها وينسبونها إلى الأنواء. وإسنادُ إلقاء الذِّكر إليهنّ لكونهنّ سببًا في حصوله إذا شكرتَ النعمة فيهنّ أو كفرت.

أو إقسامٌ بآيات القرآن المرسَلة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فعصفنَ سائر الكتب بالنسخ ونشرنَ آثار الهدى في مشارق الأرض ومغاربها وفرّقن بين الحقّ والباطل، فألقين ذِكر الحقّ في أكناف العالمين. والعُرف إمّا نقيض النُّكر وانتصابُه على العِلّة، أي: أرسلنا للإحسان والمعروف، فإنّ إرسال ملائكةِ العذاب معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، أو بمعنى المُتابعة، مِن "عُرف الفرَس"، وانتصابُه على الحاليّة. و"العُذر" و"النُّذر" مصدران مِن "عَذَر" إذا محا الإساءة ومِن "أنذَر" إذا خوّف، وانتصابهما على البدليّة مِن ﴿ذِكۡرًا﴾، أو على العِلّيّة، وقُرئا بالتثقيل.[1]

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ جواب للقسم، أي: إنّ الذي توعدونه مِن مجيء القيامة كائنٌ لا محالةَ.

[٣٥٣و] / ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ مُحيَت ومُحِقت أو ذُهِب بنورها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ صُدعت وفُتحت فكانت أبوابًا.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ جُعلت كالحبّ الذي يُنسَف بالمِنسَف، ونحوه ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة، ٥٦/٥]. وقيل: أُخِذت مِن مقارّها بسرعة مِن "انتسَفتُ الشيءَ" إذا اختطفتَه.[2] وقُرئ: "طُمِّسَتْ" و"فُرِّجَتْ" و"نُسِّفَتْ"[3] مُشدَّدةً.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي: عُيِّن لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أمَمهم وذلك عند مجيئه وحضوره؛ إذ لا يتعيَّن لهم قبله، أو بلغوا المِيقات

---

[1] قرأ بضمّ الذال مِن الأولى رَوح، وقرأ بضمّ الذال مِن الثانية نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٧، ٣٩٦.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم وعمرو بن ميمون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٢.

الذي كانوا ينتظرونه. وقُرئ: "وُقِّتَتْ"[١] على الأصل، وبالتخفيف فيهما.[٢]

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ مقدَّر بقول هو جواب لـ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، أو حال مِن مرفوع ﴿أُقِّتَتْ﴾، أي: يقال: لأيّ يوم أخِّرت الأمور المتعلِّقة بالرسل، والمرادُ تعظيم ذلك اليوم والتعجيبُ مِن هوله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يُفصَل فيه بين الخلائق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، أي: أيّ شيء جعلك داريًا ما هو فوُضع موضعَ الضمير ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ لزيادة تفظيعٍ وتهويلٍ، على أنّ ﴿مَا﴾ خبر و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ، لا بالعكس كما اختاره سيبويهِ؛[٣] لأنّ محطّ الفائدة بيانُ كون يوم الفصل أمرًا بديعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره ولا يُكتنه كُنْهه كما يُفيده خبريّة ﴿مَا﴾، لا بيانُ كون أمر بديع مِن الأمور يومَ الفصل، كما يُفيده عكسه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل. و﴿وَيْلٌ﴾ في الأصل مصدر منصوب سادّ مَسدّ فعله، لكن عُدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه أو صفته.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ لتكذيبهم به. وقُرئ: "نَهْلِكِ"[٤] بفتح "النون" مِن "هَلَكَه" بمعنى أهْلَكه.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ / بالرفع على "ثمّ نحن نُتبعهم الآخِرين مِن نظرائهم السالكين لمَسلَكهم في الكفر والتكذيب" وهو وعيد لكفّار مكّة. وقُرئ: [٢٥٣ظ]

١ قرأ بها أبو عمرو وابن وردان وابن جمّاز. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٣ انظر: كتاب سيبويه، ١٣٤/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

"ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ"،[١] وقُرئ: "نُتْبِعْهُمْ"[٢] بالجزم عطفًا على ﴿نُهْلِكِ﴾، فيكون المراد بـ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ المتأخِّرين هلاكًا مِن المذكورين كقوم لوطٍ وشعيبٍ وموسى عليهم السلام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: سُنّتنا جارية على ذلك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ أهلكناهم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه، وليس فيه تكرير لِما أنّ الويل الأوّل لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أي: ألم نُقدِّركم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: مِن نطفة قذِرة مَهينة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى مِقدار معلوم مِن الوقت قدّره الله تعالى للولادة تسعةَ أشهر، أو أقلَّ منها، أو أكثرَ.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: فقدّرناه، وقد قُرئ مُشدَّدًا،[٣] أو فقدرنا على ذلك على أنّ المراد بالقُدرة ما يقارِن وجود المقدور بالفعل. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي: نحن.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقُدرتنا على ذلك، أو على الإعادة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكِفات اسم ما يُكفَتُ، أي: يُضمّ ويُجمَع، مِن "كَفَت الشيءَ" إذا ضمّه وجمَعه، كالضِّمام والجِماع لِما يُضمّ ويُجمَع، أي:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والزّعفرني وأبي حَيْوَة، وابن مسلم عن يعقوب، ونُعيم عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٣.

٣ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٧.

ألم نجعلها كِفاتًا تكفِتُ. ﴿أَحْيَآءً﴾ كثيرةً على ظهرها ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ غيرَ محصورة في بطنها. وقيل: هو مصدر نُعت به للمبالغة. وقيل: جَمْع "كافت" كـ"صائم" و"صِيام"، أو "كُفُتٍ" وهو الوعاء، أجريَ على الأرض باعتبار بقاعها.[١] وقيل: تنكير ﴿أَحْيَآءً﴾ و﴿أَمْوَٰتًا﴾؛ لأنّ أحياء الإنس وأمواتَهم بعض الأحياء والأموات. وقيل: انتصابُهما على الحاليّة مِن محذوف، أي: كِفاتًا تكفتُكم أحياءً وأمواتًا.[٢]

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ طِوالًا شواهقَ، ووَصْفُ جمع المذكّر بجمع المؤنّث في غير العقلاء مُطّرد كـ"داجن" و"دواجن" و﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة، ١٩٧/٢]. وتنكيرُها للتفخيم أو للإشعار / بأنّ فيها ما لم يُعرَف. [٢٥٤و]

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ بأن خلقنا فيها أنهارًا ومنابعَ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النِّعَم العظيمة.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ أي: يقال لهم يومئذ للتوبيخ وللتقريع: انطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا مِن العذاب.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ خصوصًا ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي: ظلّ دخانِ جهنّم، كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة، ٤٣/٥٦]. وقُرئ: "انْطَلَقُوا"[٣] على لفظ الماضي إخبارًا بعد الأمر عن عملهم بموجَبه لاضطرارهم إليه طوعًا أو كرهًا.

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يتشعّب لعِظَمه ثلاث شُعَب كما هو شأن الدّخان العظيم، تراه يتفرّق ذوائبَ. وقيل: يخرج لسان مِن النار، فيُحيط بالكفّار كالسُّرادق،

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٤/٣.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٤.

٣ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

ويتشعَّب مِن دخانها ثلاث شُعَب فتُظلُّهم حتّى يفرَغ مِن حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.[١] قيل: خصوصيّة الثلاث إمّا لأنّ حِجاب النفس عن أنوار القدس الحسُّ والخيال والوهم، أو لأنّ المُؤدّي إلى هذا العذاب هو القوّة الوهميّة الشيطانيّة الحالّة في الدِّماغ والقوّة الغضبيّة السبُعيّة التي عن يمين القلب والقوّة الشَّهويّة البهيميّة التي عن يساره، ولذلك قيل: تقِف شُعبة فوق الكافر وشُعبة عن يمينه وشُعبة عن يساره.[٢]

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ تهكُّم بهم أو ردٌّ لِما أوهمه لفظ الظلّ. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: غيرُ مُغنٍ لهم مِن حرّ اللهب شيئًا.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كلّ شررة كالقَصْر مِن القصور في عِظَمها. وقيل: هو الغليظ مِن الشجر، الواحدة "قَصْرة" نحو "جَمْر وجَمْرة".[٣] وقُرئ: "كالقَصَر"[٤] بفتحتين، وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل، نحو "شَجَرة وشَجَر". وقُرئ: "كَالقُصُرِ"[٥] بمعنى القُصور / كـ"رُهْن" و"رُهُن". وقُرئ: "كَالقِصَرِ"[٦] [٢٥٤ظ]
جمعُ "قَصَرة".

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾ قيل: هو جَمْع "جَمَل" والتاء لتأنيث الجمع، يقال: جَمَل وجِمال وجِمالة.[٧] وقيل: اسم جَمْع كـ"الحِجارة".[٨] ﴿صُفْرٌ﴾ فإنّ الشَّرار لِما فيه مِن الناريّة يكون أصفرَ. وقيل: سُود لأنّ سواد الإبل يضرب إلى الصُّفرة، والأوّل تشبيه في العِظَم، وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة.[٩]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٤.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٥/٣.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وإبراهيم بن أبي عبلة وابن مَقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٥.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٥.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٩.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٤.
٨ القول في اللباب لابن عادل، ٨٠/٢٠.
٩ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٥/٣.

وقُرئ: "جِمَالَاتٌ"[١] جَمْع "جِمال" أو "جِمالة"، وقُرئ: "جُمَالَاتٌ"[٢] جمع "جُمَالَة" وقد قُرئ بها،[٣] وهي الحبل العظيم مِن حِبال السفن وقُلوس[٤] الجسور، والتشبيه في امتداده والتفافه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار، أي: هذا يوم لا ينطقون فيه بشيء لِما أنّ السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك، ويوم القيامة طويل له مواطنُ ومواقيتُ ينطقون في وقت دون وقت فعُبّر عن كلّ وقت بـ﴿يَوْمُ﴾، أو لا ينطقون بشيء ينفعهم فإنّ ذلك كلا نُطقٍ. وقُرئ بنصب "اليوم"،[٥] أي: هذا الذي فُصِّل واقع يومَ لا ينطقون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منتظِم في سِلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار متعقّب له مِن غير أن يُجعَل الاعتذار مُسبَّبًا عن الإذن، كما لو نُصب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الحقّ والباطل والمُحِقّ والمُبطِل. ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ خطاب لأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ مِن الأمَم، وهذا تقرير وبيان للفصل.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ فإنّ جميع مَن كنتُم تُقلّدِونهم وتقتدون بهم حاضرون، وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهارٌ لعجزهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث ظهر ألّا حيلة لهم في الخلاص مِن العذاب.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٢ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وحُميد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٦.

٤ القلوس جمع قَلْس: وهو الحبل الضخم مِن ليف أو خُوص. **لسان العرب** لابن منظور، «قلس».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة والزّعفرني وحُميد وهُرمز وزيد بن عليّ. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٧.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الكفر والتكذيب ﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾.
[٢٥٥و] / أي: مستقِرُّون في فنون الترفُّه وأنواع التنعُّم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ هو حال مِن ضمير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الخبر، أي: مقولًا لهم: كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتُم تعملونه في الدنيا مِن الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء العظيم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في عقائدهم وأعمالهم، لا جزاءً أدنى منه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل، وهم بقُوا في العذاب المخلَّد الوَبيل.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ هو حال مِن ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: الويل ثابت لهم مقولًا لهم ذلك تذكيرًا لهم بحالهم في الدنيا، وبما جنَوا على أنفسهم مِن إيثار المتاع الفاني عن قريب على النعيم الخالد، وعُلِّل ذلك بإجرامهم دلالةً على أنّ كلّ مجرم مآله هذا. وقيل: هو كلام مستأنَف خُوطب به المكذِّبون في الدنيا بعد بيان مآل حالهم،[١] وقُرِّر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لزيادة التوبيخ والتقريع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ أي: أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقَبول وحيه واتّباع دينه وارفُضوا هذا الاستكبار والنخوة. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يخشَعون ولا يقبَلون ذلك، ويُصرُّون على ما هم عليه مِن الاستكبار. وقيل: إذا أُمروا بالصّلاة أو الركوع لا يفعلون؛[٢] إذ رُوي أنّه نزل حين أَمَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---
[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٤/٤.
[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٦/٣.

ثقيفًا بالصَلاة فقالوا: لا نُجَبّي فإنّها مَسَبّةٌ علينا، فقال عليه السلام: «لا خيرَ في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».[١] وقيل: هو يوم القيامة حين يُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون.[٢]

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع مُعجِز مؤسَّس على حُجَج قاطعة / وبراهينَ ساطعة [٢٥٥ظ]
﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وقُرئ: "تُؤْمِنُوْنَ"[٣] على الخطاب.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والمرسلات كُتب له أنّه ليس مِن المشركين».[٤]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٢٩٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٤. ومضى قريب منه في تفسير الإسراء، ١٧/٧٣.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٨٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وابن جرير عن ابن بكّار عن ابن عامر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٧.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٢٦٨ (المرسلات، ٧٧/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٧٧

سورة والمُرسَلات

مكية، خمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ﴿والمُرسَلاتِ عُرْفًا﴾ أي: الرياحِ مُتتابعةً كعُرف الفرس يتلو بعضه بعضًا - ونصبُه على الحال - ٢ - ﴿فالعاصِفاتِ عَصْفًا﴾: الرياحِ الشديدة، ٣ - ﴿والنّاشِراتِ نَشْرًا﴾: الرياحِ تنشر المطر، ٤ - ﴿فالفارِقاتِ فَرْقًا﴾ أي: آياتِ القُرآن، تفرق بين الحقّ والباطل والحلال والحرام، ....

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

قولُهُ: (أي: الرِّيَاحِ) أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي هُريرَةَ قال: المرسَلات: الملائكةُ، وعن أبي صالحٍ أنّه قال في البقيَّةِ: الملائكَةُ، كذا في «المبهمات»[١]، قالَ القاضي[٢]: أقسَمَ بطوائِفَ من الملائكةِ أرسلَهُنَّ اللهُ بأوامرِهِ مُتَتابعةً، فعَصَفت عَصفَ الرِّياحِ في امتثالِ الأوامرِ، ونشَرنَ الشَّرائعَ في الأرضِ بما أوحَينَ منَ العِلمِ ففرَقْنَ بين الحقِّ والباطِلِ، فألقَينَ إلى الأنبياءِ ذِكراً.

قولُهُ: (مُتَتَابِعَةً) بكسرِ الباء.

قولُهُ: (عُرْفِ الفَرَسِ) بالنَّصبِ؛ أي: «كعُرفِ الفَرَسِ»، كما في نُسخَةٍ صَحِيحَة، وهو بالضَّم شَعرُ عُنقِ الفَرَس[٣].

قولُهُ: (يَتلُو) أي: يتبَعُ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٤).

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٢٧) عن أبي صالح.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٧٤).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٣٦).

٥ ـ ﴿فالمُلقِياتِ ذِكْرًا﴾ أي: الملائكةِ تَنزل بالوحي إلى الأنبياء، أو الرسلِ يُلقون الوحي إلى الأمم، ٦ ـ ﴿عُذْرًا أو نُذْرًا﴾ أي: للإعذار والإنذار من الله تعالى ـ وفي قراءة بضمّ ذال «نُذُرًا»، وقُرئ بضمّ ذال «عُذُرًا» ـ ٧ ـ ﴿إنّ ما تُوعَدُونَ﴾ أي: كُفّارَ مكّة من البعث والعذاب ﴿لَواقِعٌ﴾: كائن لا محالة.

٨ ـ ﴿فإذا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾: مُحِيَ نُورُها، ٩ ـ ﴿وإذا السَّماءُ فُرِجَتْ﴾: شُقّت، ١٠ ـ ﴿وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ﴾: فُتّتت وسُيّرت، ١١ ـ ﴿وإذا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ﴾، بالواو وبالهمزة بدلاً منها، أي: جُمعت لوقت ـ ١٢ ـ ﴿لِأيِّ يَومٍ﴾: لِيوم عظيم ﴿أُجِّلَتْ﴾ للشهادة على أُممهم بالتبليغ! ١٣ ـ ﴿لِيَومِ الفَصلِ﴾ بين الخلق؟ ويُؤخذ منه جواب «إذا» أي: وقع الفصل بين الخلائق.

قولُهُ: (أو الرُّسُلِ) عطفٌ على: «الملائكة».

قولُهُ: (أي: للإعذارِ) أي: قَطعِ المعذِرَةِ، أو محوِ الإساءَةِ، فنصَبَهما بالعليَّةِ؛ أي: عُذراً للمُحقِّينَ ونَذراً للمُطيعينَ.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) للحرميَّينِ وشاميٍّ وشُعبَةَ[1].

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) ليعقوبَ بروايَةِ رَوْحٍ من العشرَةِ[2].

قولُهُ: (أي: يَا كُفَّارَ مَكَّةَ) أي: ندائيَّةٌ، فيُنصَبُ ما بعدَهُ، أو تفسيريَّةٌ فيُرفَع.

قولُهُ: (من البَعثِ) و﴿مَا﴾ موصولَةٌ، والرَّاجِعُ مَحذوفٌ، وهو جوابُ القَسَم.

قولُهُ: (مُحِيَ) أو مُحِقَت.

قولُهُ: (فُتِّتَت) أو كالحَبِّ يُنسَفُ بالمِنسَفِ.

قولُهُ: (بالوَاوِ) بَصريٌّ[3].

قولُهُ: (أي: جُمِعَت) يعني: عُيِّنَ لها وَقتُها الذي يحضُرونَ فيه للشَّهادَةِ على الأُمَمِ بحصُولِهِ، فإنَّه لا يتعيَّنُ لهم قبلَهُ.

قولُهُ: (لِيَومٍ عَظِيمٍ) أي: يقالُ: لأيِّ يومٍ أُخِّرَت، وضُرِبَ الأجَلُ للجَمعِ، وهو تعظيمٌ لليومِ وتعجيبٌ من هولِهِ.

قولُهُ: (بَينَ الخَلقِ) بيانٌ ليومِ التَّأجيلِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٧).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

١٤ ـ ﴿وما أدراكَ: ما يَومُ الفَصلِ﴾؟ تهويلٌ لشأنه ـ ١٥ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾ هذا وعيدٌ لهم.

١٦ ـ ﴿أَلَم نُهلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ بتكذيبهم؟ أي: أهلكناهم، ١٧ ـ ﴿ثُمَّ نُتبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾ ممّن كذّبوا ككُفّار مكّة، فنُهلكُهم. ١٨ ـ ﴿كَذَلِكَ﴾: مِثلَ ما فعلنا بالمُكذّبين ﴿نَفعَلُ بِالمُجرِمِينَ﴾: بِكُلِّ مَن أجرم، فيما يُستقبل فنُهلكهم. ١٩ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾: تأكيد.

٢٠ ـ ﴿أَلَم نَخلُقكُم مِن ماءٍ مَهِينٍ﴾: ضعيف وهو المنيّ، ٢١ ـ ﴿فَجَعَلناهُ في قَرارٍ مَكِينٍ﴾: حَرِيز وهو الرَّحِم، ٢٢ ـ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعلُومٍ﴾ وهو وقت الوِلادة، ٢٣ ـ ﴿فَقَدَرنا﴾ على ذلك؟ ﴿فَنِعمَ القادِرُونَ﴾ نحن! ٢٤ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٥ ـ ﴿أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ كِفاتًا﴾: مصدرٌ: كفتَ بمعنى: ضمَّ، أي: ضامّةً، ٢٦ ـ ﴿أَحياءً﴾ على ظهرها ﴿وَأَمواتًا﴾ في بطنها، ٢٧ ـ ﴿وَجَعَلنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ﴾: جبالاً مُرتفعاتٍ،............

قولُهُ: (تَهوِيلٌ) أي: ومن أينَ تعلَمُ كُنهَهُ ولم ترَ مثله.

وقولُهُ تَعالى: (﴿لِلمُكَذِّبِين﴾) أي: بذلك اليَومِ.

قولُهُ: (هَذَا وَعِيدٌ) و﴿وَيلٌ﴾ مَصدَرٌ في الأصلِ منصوبٌ بإضمارِ فعلِهِ، عُدِلَ به إلى الرَّفعِ؛ للدَّلالةِ على ثباتِ الهلاكِ للمَدعوِّ عليه، و﴿يَومَئِذٍ﴾ ظَرفُهُ أو صفتُهُ.

قولُهُ: (بتكذِيبِهِم) كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أو بآياتِ الله وأنبيائِهِ، فليسَ تكريراً؛ مع أنَّ التَّكريرَ للتَّوكيدِ حسَنٌ شائعٌ في كَلامِ العَرَبِ.

قولُهُ: (ضَعِيفٍ) أي: نُطفَةٍ قذرَةٍ مُنتنَةٍ ذليلَةٍ.

قولُهُ: (عَلَى ذَلِكَ) أو على رَدِّ ذلك، كقولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّهُ على رَجعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، ويؤيِّدهُ: ﴿فَنِعمَ القَادِرُون﴾، أي: فقدرنَاهُ أطواراً، ويُؤيِّدُه قراءَةُ نافعٍ والكسائِيِّ بالتَّشديدِ[١].

قولُهُ تعالَى: (﴿لِلمُكَذِّبِينَ﴾) بقُدرَتِنا على ذلك من الخَلقِ والجَعلِ، أو على الإعادَةِ.

قولُهُ: (مَصدرُ كَفَت) كـ(كِتَاباً) نُعتَ به.

قولُهُ: (أي: ضَامَّةً) و﴿أَحيَاءً وَأَموَاتاً﴾ مُنتَصبانِ على المفعوليَّةِ.

قولُهُ: (جِبَالاً) موصوفٌ مُقدَّرٌ، و﴿رَوَاسِي﴾؛ أي: ثوابِتَ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

﴿وأسقيناكُم ماءً فُراتًا﴾: عذبًا؟ ٢٨ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئذٍ لِلمُكَذِّبينَ﴾.

ويقال للمُكذّبين يومَ القيامة: ٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿انطَلِقُوا إِلَى ما كُنتُم بِهِ﴾ من العذاب ﴿تُكَذِّبُونَ، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ هو دُخان جهنّم، إذا ارتفع افترق ثلاثَ فِرَق لعظَمته، ٣١ ـ ﴿لا ظَلِيلٍ﴾: كَنينٍ يُظلّهم من حرِّ ذلك اليوم ﴿ولا يُغني﴾: يردّ عنهم شيئًا ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾ للنار. ٣٢ ـ ﴿إِنَّها﴾ أي: النارَ ﴿تَرمِي بِشَرَرٍ﴾ هو ما تطاير منها ﴿كالقَصْرِ﴾ من البناء في عِظمه وارتفاعه، ٣٣ ـ ﴿كأَنَّهُ جِمالاتٌ﴾: جمع جِمالةٍ جمع جَمَلٍ ـ وفي قراءة: «جِمالةٌ» ـ ﴿صُفرٌ﴾ في هيئتها ولونها. وفي الحديث «شَرارُ النّارِ أسوَدُ كالقِيرِ». والعرب تُسمّي سُودَ الإبل صُفرًا لشَوب سوادها بصُفرة. فقيل: صُفرٌ في الآية بمعنى سُود، لِما ذُكر. وقيل: لا. والشَّرر: جمع شررةٍ. والشرارُ: جمع شَرارةٍ. والقِير: القار. ٣٤ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئذٍ لِلمُكَذِّبينَ﴾.

قولُهُ: (عَذباً) بخَلقِ الأنهارِ والمنابعِ فيها.

قولُهُ تعالَى: (﴿لِلمُكَذِّبين﴾) بأمثالِ هذه النِّعَمِ، أو برسولِ هذا المنعِمِ، وكتابِهِ المكرَّمِ.

قولُهُ تعالَى: (﴿انطَلِقُوا﴾) الثَّاني؛ أي: خصوصاً، وعن يعقوبَ: (انطَلَقُوا) على الإخبارِ[1] من امتثالِهِم للأمرِ اضطِراراً.

قولُهُ: (هُوَ دُخَانُ جَهَنَّم) كقولِهِ: ﴿وظِلٍّ من يَحمُوم﴾ [الواقعة: ٤٣].

قولُهُ: (ثَلاثَ فِرَقٍ) قيلَ: شُعبةٌ تقفُ فوقَ الكافِرِ، وشُعبةٌ عن يمينِهِ، وشعبةٌ عن يسارِه.

قولُهُ: (كَنينٍ) تهكُّمٌ بهم، وردَ لما أوهَمَ لفظُ الظِّلِّ، وتعريضٌ بأنَّ ظلَّهُم غيرُ ظلِّ المؤمنينَ.

قولُهُ: (يَرُدُّ) أي: غيرَ مُغنٍ من حرِّ اللَّهيبِ.

قولُهُ: (هُوَ مَا تَطَايَرَ مِنهَا) أي: كُلُّ شرارَةٍ كالقَصرِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (بِشَرَار)[2].

قولُهُ: (جَمعُ: جَمَلٍ) أو جمعُ: جِمالٍ.

قولُـهُ: (ولَونِهَـا) وكثرَتِهـا وتتابُعِهـا واختِلاطِهـا وسُـرعَةِ حَرَكتِهـا، وقـرأ حمـزةُ والكسـائيُّ وحَفـصٌ: ﴿جِمَالَتٌ﴾[3].

---

(١) أي: بفتح اللام، وهي من رواية رويس عن يعقوب، انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٤٥٧)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعيسى بن عمر، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٨).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٨).

٣٥ ـ ﴿هذا﴾، أي: يومُ القيامة ﴿يَومُ لا يَنطِقُونَ﴾ فيه بشيء، ٣٦ ـ ﴿ولا يُؤذَنُ لَهُم﴾ في العُذر ﴿فيَعتَذِرُونَ﴾: عطفٌ على «يُؤذن» من غير تسبّب عنه، فهو داخل في حيز النفي، أي: لا إذنَ فلا اعتذار. ٣٧ ـ ﴿وَيلٌ يومَئذٍ لِلمُكَذِّبينَ﴾.

٣٨ ـ ﴿هذا يومُ الفَصلِ. جَمَعْناكُم﴾ ـ أيها المُكذّبون من هذه الأُمّة ـ ﴿والأوَّلِينَ﴾ من المُكذّبين قبلكم، فتُحاسَبون وتُعذّبون جميعًا. ٣٩ ـ ﴿فإن كانَ لَكُم كَيدٌ﴾: حِيلة في دفع العذاب عنكم ﴿فكِيدُونِ﴾: فافعلوها. ٤٠ ـ ﴿وَيلٌ يومَئذٍ لِلمُكَذِّبينَ﴾.

٤١ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في ظِلالٍ﴾ أي: تكاثُفِ أشجارٍ، إذ لا شمسَ يُظَلُّ من حرّها، ﴿وعُيُونٍ﴾ نابعة من الماء، ٤٢ ـ ﴿وفَواكِهَ مِمّا يَشتَهُونَ﴾ ـ فيه إعلام بأن المأكل والمشرب في الجنّة بحسَب شهواتهم بخِلاف الدنيا فبحسَب ما يجد الناس في الأغلب ـ ويقال لهم: ٤٣ ـ ﴿كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئًا﴾: حالٌ، أي: مُتهنّئين ـ ﴿بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ من الطاعات. ٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزَينا المُتّقين ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. وَيلٌ يومَئذٍ لِلمُكَذِّبينَ﴾.

قولُهُ: (بشَيءٍ) من فَرطِ الدَّهشَةِ والحيرَةِ، وهذا في بعضِ المواقِفِ، أو بما ينفَعُ فإنَّ النُّطقَ بما لا ينفَعُ كَلا نُطقٍ، قيل: أسكتَهُم رؤيَةُ الهيبَةِ وحَياءُ المعصيَةِ.

قولُهُ: (فَلا اعتِذَارَ) يوضِّحُهُ ما في البيضاوِيِّ[1]: عطفَ ﴿فَيَعتَذِرُون﴾ على ﴿يُؤذَن﴾؛ ليدُلَّ على نفيِ الإذنِ والاعتِذارِ عقيبَهُ مُطلَقاً، ولو جعلَهُ جواباً لدَلَّ على أنَّ عدمَ اعتذارِهِم لعَدَمِ الإذنِ، وأوهَمَ ذلك أنَّ لهم عُذراً، لكن لم يؤذَنْ لهم فيه، وعن الجُنَيدِ[2]: أنّى لهم أوانُ العُذرِ فيعتَذِرونَ، وأيُّ عُذرٍ لمن أعرَضَ عن مُنعمِهِ وكفرَ وجحدَ نعَمَهُ.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿هَذا يَومُ الفَصلِ﴾) أي: بينَ المُحِقِّ والمبطِلِ.

قولُهُ: (فافعَلُوهَا) تقريعٌ لهم على كيدِهِم للمؤمنِينَ في الدُّنيا، وإظهارٌ لعَجزِهِم في العُقبى.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿إنَّ المتَّقِين﴾) يعني: من الشِّركِ؛ لأنَّهُم في مُقابلَةِ المكَذِّبينَ مُستقِرُّونَ في أنواعِ النِّعمَة.

قولُهُ: (في الأَغلَبِ) لا حاجَةَ إلى ذِكرِ الأغلَبِ؛ لأنَّ السَّلاطِينَ مَثلاً لم تحصُلْ لهم جميعُ الفَواكِهِ، بل بَعضُها دائِماً.

قولُهُ: (كَمَا جَزَينَا المُتَّقِينَ) فيه أنَّه لا مُغايرَةَ بين المتَّقينَ والمحسِنِينَ، وعلى تقديرِ أنَّ أحدَهُما أخصُّ فلا

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٧٧).

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٦٧).

٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿كُلُوا وتَمَتَّعُوا﴾ ـ خِطابٌ للكُفّار في الدنيا ـ ﴿قَلِيلاً﴾ من الزمان وغايتِه إلى الموت. وفي هذا تهديد لهم. ﴿إنَّكُم مُجرِمُونَ ـ وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ ـ وإذا قِيلَ لَهُمُ: اركَعُوا﴾: صلُّوا ﴿لا يَركَعُونَ﴾: لا يُصلّون. ٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ. فبِأيِّ حَدِيثٍ بَعدَهُ﴾ أي: القُرآنِ ﴿يُؤمِنُونَ﴾؟ أي: لا يُمكن إيمانُهم بغيره من كُتب الله بعد تكذيبهم به لاشتماله على الإعجاز الذي لم يَشتمل عليه غيرُه.

يُلائمُهُ التَّشبيهُ مع أنَّ جَزَينا بصيغَةِ الماضي غيرُ ظاهرٍ، فالصَّوابُ: أي: مِثْلَ ذلك الجزاءِ نجزِي المحسِنين؛ أي: في العقيدَةِ، والتَّكرارُ باعتبارِ الوصفَينِ، وإشعارٌ بأنَّ الإحسانَ في مُقابلَةِ الإحسانِ.

قولُهُ: (خِطَابٌ) أو حالٌ من المكذِّبينَ؛ أي: الوَيلُ ثابتٌ لهم في حالِ ما يقالُ لهم تذكيراً لهم بحالِهِم في الدُّنيا، وبما جَنوا على أنفُسِهِم من إيثارِ المتاعِ القليلِ على النَّعيمِ المقيمِ، قالَ سَهلٌ[1]: من كانَت همَّتُهُ بَطْنَهُ وفرجَهُ فقد أظهَرَ خسارَتَه.

قولُهُ: (صَلُّوا) أو اركَعوا في الصَّلاةِ، أو أطيعُوا واخضَعوا، وقيل: هو يومُ القيامَةِ حين يُدعَونَ إلى السُّجودِ فلا يستَطيعونَ.

قولُهُ: (لا يُصَلُّونَ) أو لا يمتثِلونَ، واستَدلَّ به على أنَّ الأمرَ للوجوبِ.

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) إذا لم يؤمِنوا به، وهو مُعجِزٌ في ذاتِهِ مُشتمِلٌ على الحُجَجِ الواضِحَةِ والمعاني الشَّريفَةِ، ويُستحَبُّ أن يُقالَ في آخرِ هذه السُّورَةِ: آمَنتُ باللهِ[2]، والله أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٨٤).

(٢) روى أبو داود (٨٨٧)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٩١)، والحميدي في «مسنده» (١٠٢٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٢٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ومن قرأ: والمرسلات، فبلغ: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [المرسلات: ٥٠]، فليقل: آمنا بالله».

قال البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٢٩٦): هذا إسناد ضعيف؛ لجهالة التابعي.

سُورَةُ المُرْسَلاتِ

وتُسمَّى: سورة العُرْف، وهي مكِّيَّة فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والنسائيُّ وابن مردويه عن ابنِ مسعود، قال: بينما نحن مع النبيِّ ﷺ في غارٍ بمنىً إذ نزلت عليه سورة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فإنَّه ليتلوها وإنِّي لأتلقَّاها مِن فِيْهِ، وإنَّ فاه لرَطْبٌ بها، إذ خرجت علينا حيَّةٌ، فقال النبيُّ ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فسبقتنا، فدخلت جُحْرها، فقال رسول الله ﷺ: «وُقِيَتْ شرَّكم كما وُقِيتُم شرَّها»[(١)].

وعن ابنِ عباس وقتادة ومقاتل أنَّ فيها آيةً مدنيّةً، وهي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾، وظاهرُ حديث ابنِ مسعود هذا عدمُ استثناء ذلك، وأظهر منه ما أخرجه الحاكم ـ وصحَّحه ـ وابنُ مردويه عنه أيضاً قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في غارٍ، فنزلت عليه: «والمرسلات» فأخَذْتُها مِن فِيْهِ، وإنَّ فاهُ لرَطْبٌ بها، فلا أدري بأيِّها ختم: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[(٢)].

وآيُها خمسون آيةً بلا خلاف. ومناسَبَتُها لِمَا قبلها أنَّه سبحانه لمَّا قال فيما قَبْلُ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ إلخ، افتتح هذه بالإقسام على ما يدلُّ على تحقيقه وذِكْر وقته وأشراطه.

وقيل: إنَّه سبحانه أَقْسَم على تحقيق جميع ما تضمَّنته السورةُ قَبْلُ مِن وعيد الكافرين الفجَّار، ووَعْد المؤمنين الأبرار، فقال عزَّ مِن قائل:

---

(١) البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٠٨ وفي الكبرى (٣٨٥٢) و(٣٨٥٣)، والدر المنثور ٦/ ٣٠٢ والكلام منه.

(٢) المستدرك ٢/ ٢٥١، والدر المنثور ٦/ ٣٠٢ والكلام منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٣٥٧٤)، وابن حبان (٧٠٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ قيل: أقسم سبحانه بمَن اختاره مِن الملائكة عليهم السلام على ما أخرجه عبد بنُ حميد عن مجاهد، فقيل: المرسلات والعاصفات طوائفُ، والناشرات والفارقات والمُلقِيات طوائف أخرى، فالأُولى طوائفُ أُرْسِلْنَ بأمرِه تعالى وأُمِرنَ بإنفاذه، فعصفن في المضيِّ وأسرعن كما تَعصف الرِّيْحُ تخفُّفاً في امتثال الأمر وإيقاع العذاب بالكفرة؛ إنقاذاً للأنبياء عليهم السلام، ونصرةً لهم، والثانية طوائفُ نَشَرْنَ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند انحطاطهنَّ بالوحي، فَفَرقنَ بين الحقِّ والباطل، فَأَلْقَين ذِكْراً إلى الأنبياء عليهم السلام، ولعلَّ مَن يُلقي الذِّكْرَ لهم غيرُ مختصٍّ بجبريل عليه السلام، بل هو رئيسهم، ويُرشِد إلى هذا حديثُ الرَّصَد[1]، وفي بعض الآثار: نزل إليَّ مَلَكٌ بألوكة[2] مِن ربِّي، فوضع رِجْلاً في السماء، وثنى الأخرى بين يديَّ.

فـ «المرسلات» صفة لمحذوف، والمراد: وكلّ طائفةٍ مُرسَلة، وكذا «الناشرات»، ونُصبَ «عرفاً» على الحال، والمراد: متتابعةً، وكأن الأصل: والمرسلات متتابعة كالعُرْف، وهو عُرْف الدابَّة كالفرس والضَّبُع، أعني: الشَّعَرَ المعروف على قَفاها، فحذف متتابعة؛ لدلالة التشبيه عليه، ثم حذف أداةَ التشبيه مبالغةً، ومن هذا قولهم: جاؤوا عُرْفاً واحداً، إذا جاؤوا يَتْبع بعضهم بعضاً، و: هم عليه كعُرْف الضَّبُع، إذا تألَّبوا عليه. ويؤخذ مِن كلام بعض أنَّ العُرْف في الأصل ما ذُكر، ثم كثر استعماله في معنى التتابع، فصار فيه حقيقةً عرفيَّة.

---

(١) وهو ما رواه مسلم (٢٥٦٧) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مَدْرَجَتِه ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبَّك كما أحببته فيه». والمَدْرجة: الطريق. وتربُّها: تقوم بإصلاحها.

(٢) الألوكة والمأْلُكَة: الرسالة. القاموس (ألك) وهذا الخبر لم نقف عليه عند غير المصنف.

أو على أنَّه مفعول له، على أنَّه بمعنى العُرْف الذي هو نقيضُ النُّكْر، أي: والمرسلات للإحسان والمعروف، ولا يُعكِّر على ذلك أنَّ الإرسال لعذاب الكفَّار؛ لأنَّ ذلك إن لم يكن معروفاً لهم، فإنَّه معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين الذين انتقم اللهُ تعالى لهم منهم.

وعَطْفُ «الناشرات» على ما قَبْلُ بالواو ظاهرٌ؛ للتغاير بالذات بينهما، وعَطْفُ «العاصفات» على «المرسلات» و«الفارِقات» على «الناشرات» ـ وكذا ما بَعْدُ ـ بالفاء؛ لتنزيل تغاير الصفاتِ منزلةَ تغاير الذات، كما في قوله:

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلحَارِث الصـ ... ـصابحِ فالغانمِ فالآيبِ(١)

وهي للدلالة على ترتيب معاني الصفات في الوجود، أي: الذي صبحَ فغنم فآبَ، وترتيبُ مُضيِّ الأمر على الإرسال به والأمر بإنفاذه ظاهر، وأما ترتيب إلقاء الذِّكْر إلى الأنبياء عليهم السلام على الفرق بين الحقِّ والباطل، مع ظهور تأخُّر الفرقِ عن الإلقاء فقيل: لتأويل الفرق بإرادته، فحينئذٍ يتقدَّم على الإلقاء. وقيل: لتقدُّم الفرق على الإلقاء مِن غير حاجة إلى أن يُؤوَّل بإرادته؛ لأنَّه بنفسِ نزولهم بالوحي الذي هو الحقُّ المخالف للباطل الذي هو الهوى ومقتضَى الرأي الفاسد، وإنَّما العلم به متأخِّر، ومِن هذا يظهر ترتيبُ الفَرْقِ على نشر الأجنحة، إذ الحاصل عليه: نَشَرْنَ أجنحتهنَّ للنزول، فنزلن، فألقين، وهو غير ظاهر على ما قَبْله؛ لأنَّ إرادة الفرق تُجامِع النشرَ، وكذا إرادته إذا أُوِّلَ أيضاً بحسب الظاهر، بل ربَّما يقال: إنَّ تلك الإرادة قبل. وقيل: إنَّ الفاء في ذلك للترتيب الرُّتْبي؛ ضرورةَ أنَّ إرادة الفرق أعلى رتبةً من النشر. وقيل: إنَّها فيه وفيما بعده لمجرَّد الإشعار بأنَّ كلًّا مِن الأوصاف المذكورة ـ أعني النشر والفرق ـ مستقلٌّ بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهنَّ، فإنَّه لو جِيْءَ بها على ترتيب الوقوع لربَّما فُهِمَ أنَّ مجموعَ الثلاثة المترتِّبة هو الموجب لِمَا ذكر مِن الاستحقاق.

(١) البيت سلف ١١/٤٠٩.

واستعمال العاصفات بمعنى المسرعات سرعةَ الريح مجازٌ على سبيل الاستعارة، ولا يَبعُد أن يُرادَ بالعاصفات: المُذْهِبات المُهلِكات بالعذاب الذي أُرسلنَ به مَن أُرسلنَ إليه، على سبيل الاستعارة أيضاً أو المجاز المرسل.

و«عذراً» و«نذراً» في قوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝﴾ جوّز أن يكونا مصدرين مِن عذر: إذا أزال الإساءة، ومِن أَنْذَر إذا خوّف، جاءا على فُعْلٍ كالشكر والكفر، والأوّل ظاهر؛ لأنَّ فُعْلاً من مصادر الثلاثي، وأما الثاني فعلى خلاف القياس؛ لأنَّ قياس مصدر أَفْعَلَ الإفعال، وقيل: هو اسم المصدر كالطاقة، أو مصدر نَذَر بمعنى أَنْذَرَ، وتُسومحَ فيما تقدَّم. وأن يكونا جمع عذير بمعنى المعذرة، ونذير بمعنى الإنذار. وانتصابهما على العلِّيَّة، والعامل فيهما «الملقيات»، أو «ذكراً»، وهو بمعنى التذكير والعظة بالترغيب والترهيب، أي: فالملقيات ذِكْراً لأجل العذر للمحقِّين، أو لأجل النذر للمبطلين، أو على الحاليَّة مِن «الملقيات» أو الضميرِ المستتر فيها على التأويل، أي: عاذرين أو منذرين، أو على البدليَّة مِن «ذِكْراً» على أنَّ المراد به الوحي، فيكونان بدلَ بعضٍ، أو التذكيرُ والعظةُ فيكونان بدلَ كلٍّ، وأن يكونا وصفين بمعنى عاذرين ومنذرين، فنصبهما على الحاليَّة لا غير.

و«أو» في جميع ذلك للتنويع لا للترديد، ومن ثم قال الدينوري في «مشكل القرآن»: إنَّها بمعنى الواو[1].

وقيل: الثانية: طوائفُ نَشرنَ الشرائع في الأرض، إلى آخِر ما تقدَّم، ووجِّه العطف بأنَّ المرادَ: أردنَ النشرَ فنزلنَ فألقين، واحتيج للتأويل لمكان الإلقاء إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلا فهو لا يُحتاج إليه في النشر والفرق؛ لظهور ترتُّب الفرق على النشر، كذا قيل، فلا تغفل.

وقيل: طوائفُ نشرنَ النفوسَ الموتى بالكفر والجهل بما أَوْحَيْنَ ففرقن.. إلخ. والنشر على هذا بمعنى الإحياء، وفيما قبله بمعنى الإشاعة.

وقيل: لا مغايرةَ بين الكُلِّ إلا بالصفات، وهم جميعاً من الملائكة على

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤١٤.

الأقوال السابقة، بيدَ أنَّه لم يَعتبر هذا القائل تفسيرَ النشرِ بنشر الأجنحة، فقال: أقسم سبحانه بطوائفَ من الملائكة أَرسلهنَّ عزَّ وجلَّ بأوامره متتابعةً، فعصفنَ عصفَ الرياح في الامتثال، ونَشْرنَ الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوسَ الموتى بالجهل بما أَوحينَ مِن العلم، ففرقنَ بين الحقِّ والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذِكْراً. وظاهره أيضاً أنَّ الإرسال للأنبياء بالشرائع مِن الأمر والنهي بناءً على أنَّ الأوامر جمع جمع[1] مخصوص بالأمر مقابل النهي، ففي كلامه الاكتفاء، وخصَّ الأمر بالذِّكْر قيل: لأنَّه أهمُّ، مع أنَّه لا يؤدِّي ما يُراد من النهي بصيغته كـ : دع، مثلاً. وقيل في عطف «الناشرات» بالواو دون الفاء، وعطف «الفارقات» به: إنَّ النشرَ عليه بمعنى الإشاعة للشرائع وهو يكون بعد الوحي والدعوة والقبول، ويقتضي زماناً، فلذا جيءَ بالواو ولم يُقرَن بالفاء التعقيبيَّة، وإذا حصل النشر ترتَّب عليه الفرق من غير مُهلة، ولا يتوهَّم أنَّه كان حقّ الناشرات حينئذٍ: ثم؛ لأنَّه لا يتعلَّق القصد ها هنا بالتراخي. ويبقى الكلام في وجه تقديم نشرِ الشرائع ـ أو نشرِ النفوس ـ والفرقِ على الإلقاء مع أنهما بعده في الواقع، فقيل: الإيذانُ بكونهما غايةً للإلقاء حقيقة بالاعتناء، أو الإشعارُ بأنَّ كلًّا مِن الأوصاف مستقلٌّ بالدلالة على استحقاق التعظيم كما سمعت، على أنَّ بابَ التأويل واسعٌ فتذكَّر.

وقيل: أقسمَ سبحانه بأفراد نوعين مِن الرياح، فيقدَّر للمرسلات موصوف، وللناشرات موصوف آخر، ويُراد بالمرسلات الرياحُ المرسَلة للعذاب، لأنَّ الإرسال شاعَ فيه، وبالناشرات رياح رحمة، وحاصله أنَّه جلَّ وعلا أقسمَ برياح عذاب أَرسلهنَّ فعصفنَ، ورياحِ رحمة نَشَرْنَ السحاب في الجوِّ ففرقنه على البقاع فألقين ذِكْراً إمَّا عذراً للذين يَعتذرن إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم إذا شاهدوا آثارَ رحمته تعالى في الغيث، وإما إنذاراً للذين يكفرون ذلك وينسبونه إلى الأنواء ونحوها، وإسناد إلقاء الذِّكْر إليهنَّ؛ لكونهنَّ سبباً في حصوله إذا شُكرت النعمة فيهنَّ أو كفرت، فالتجوُّز في الإسناد، والمراد بـ «عُرْفاً» متتابعة. أو الناشرات رياح رحمة نَشَرْنَ النباتَ وأَبْرَزْنَه، أي: صِرْنَ سبباً لذلك بنَشْر السحاب وإدراره، ففرقن

(١) فوقها في الأصل: صح، ولم تكرر هذه الكلمة في حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٥، والكلام منه.

كلَّ صنف منه عن سائر الأصناف بالشَّكْل واللون وسائر الخواصِّ، فتسبَّبنَ ذِكْراً إما عذراً للشاكرين وإما نذراً للكافرين.

وقيل: أَقسم سبحانه أوّلاً بالرياح وثانياً بسحائب نَشَرْنَ الموات، ففرقن بين مَن يشكر وبين مَن يكفر، كقوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧] فتسببنَ ذِكْراً إمَّا وإمَّا.

وقيل: أقسم جلَّ وعلا بآيات القرآن المرسَلة إلى رسول الله ﷺ فضلاً وإحساناً أو شيئاً بعد شيء؛ لأنَّها نزلت منجَّمة، فعصفن وأذهبنَ سائرَ الكتب بالنَّسْخ، ونشرنَ آثارَ الهدى في مشارق الأرض ومغاربها، وفرقنَ بين الحقِّ والباطل، فألقينَ ذِكْر الحقِّ في أكناف العالمين.

وقيل: أقسم جلَّ جلاله برُسُله من البَشَر أُرسِلوا إحساناً وفضلاً كما هو المذهب الحقُّ، لا وجوباً كما زعم مَن زعم، فاشتدُّوا وعَظُمَ أمرهم ونَشروا دينَهم وما جاؤوا به، ففرقوا بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام، فألقوا ذِكْراً بين المكلَّفين، ويجوز أن يراد على هذا بـ «عرفاً» متابعة.

وقيل: أَقسم تبارك وتعالى بالنفوس الكاملة، أي: المخلوقة على صفة الكمال والاستعداد لقبول ما كلِّفت به وخُلِقت لأجله، المرسلة إحساناً إلى الأبدان لاستكمالها، فعصفنَ[1] وأذهبنَ ما سوى الحقِّ بالنظر في الأدلَّة الحقَّة، ففرقنَ بين الحقِّ المتحقِّق بذاته الذي لا مدخَل للغير فيه وهو واجب الوجود سبحانه، وبين الباطل المعدوم في نفسه، فَرَأَيْن كلَّ شيء هالكاً إلا وجهه، فألقينَ في القلوب والألسنة ومَكَّنَّ فيها ذِكْره تعالى، فليس في قلوبها وألسنتها إلا ذكره عزَّ وجلَّ، أو طَرَحْنَ ذِكْرَ غيره سبحانه عن القلوب والألسنة، فلا ذِكْر فيها لما عداه.

وقيل: الثلاثة الأُوَل: الرياح، والأخيرتان: الملائكة عليهم السلام. وقيل بالعكس، والمناسبة باللطافة وسرعة الحركة. وقيل: الأوَّلتان الملائكة إلا أنَّ

---

(١) في (م): فعصفهن.

المرسلاتِ ملائكة الرحمة، والعاصفاتِ ملائكةُ العذاب، والثلاثة الأخيرة آياتُ القرآن النازلةُ بها الملائكة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من وجهٍ عن أبي صالح أنَّه قال: «المرسلات عُرْفاً»: الرسلُ تُرسَل بالمعروف، «فالعاصفات عصفاً»: الريح، «والناشرات نشراً»: المَطَر، «فالفارقات فَرْقاً»: الرسل[1].

ومن وجه آخر: «المرسلات عرفاً» الملائكة، «فالعاصفات عصفاً» الرياح العواصف، «والناشرات نشراً» الملائكة ينشرون الكُتُبَ ـ أي: كُتُبَ الأعمال كما جاء مصرَّحاً به في بعض الروايات ـ «فالفارقات فَرْقاً» الملائكة يفرقونَ بين الحقِّ والباطل، «فالملقيات ذكراً»: الملائكة أيضاً يجيؤون بالقرآن والكتاب، «عذراً أو نذراً» منه تعالى إلى الناس وهم الرسل يعذرون ويُنذرون[2].

وعن أبي صالح روايات أُخَر في ذلك، وكذا عن أجلَّة الصحابة والتابعين، فعن ابنِ مسعود وأبي هريرة ومقاتل: «المرسلات»: الملائكة أُرسلَت بالعُرْف ـ ضدّ النُّكْر ـ وهو الوحي. وفي أخرى عن ابنِ مسعود أنَّها الرياح، وفسّر «العاصفات»: بالشديدات الهبوب. وروي تفسير «المرسلات» بذلك عن ابنِ عباس ومجاهد وقتادة، وفي أخرى عن ابنِ عباس أنَّها جماعةُ الأنبياء أُرسلَت إفضالاً من الله تعالى على عباده.

وعن ابن مسعود[3]: «الناشرات» الرياح تَنشُر رحمةَ الله تعالى ومطرَه. وروي عن مجاهد وقتادة، وقال الربيع: الملائكة تَنشُر الناس مِن قبورهم. وقال الضحاك: الصُّحُف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد. وعليه تكون «الناشرات» على معنى النسب.

وعن ابنِ مسعود وابنِ عباس ومجاهد والضَّحَّاك: الفارقات: الملائكة تفرقُ بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام. وقال قتادة والحسن وابنُ كيسان: آياتُ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠٣ وزاد نسبته لأبي الشيخ في العظمة.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٠٣، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٨٧.
(٣) في الأصل و(م): أبي مسعود، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والبحر ٨/ ٤٠٤، وعنه نقل المصنف.

القرآن فَرَقت بين ما يحلُّ وما يَحرُم. وعن مجاهد أيضاً: الرياح تَفرق بين السحاب فتُبدِّده.

وعن ابنِ عباس وقتادة والجمهور: الملقيات: الملائكة تُلقي ما حملت مِن الوحي إلى الأنبياء. وعن الربيع: آيات القرآن.

ومن الناس من فسَّر العاصفات بالآيات المُهلِكة كالزلازل والصواعق وغيرها، ومنهم من فسَّر الفارقات بالسحائب الماطرة على تشبيهها بالناقة الفاروق: وهي الحامل التي تَجزعُ حين تَضَع. ومنهم من فسَّرها بالعقول تفرقُ بين الحقِّ والباطل، والصحيح والفاسد.

إلى غير ذلك من الروايات والأقوال التي لا تكاد تنضبط، والذي أخاله أَظْهَرَ كونُ المقسَم به شيئين: المرسلات العاصفات، والناشرات الفارقات الملقيات؛ لشدَّة ظهور العطف بالواو في ذلك، وكونُ الكُلِّ من جنس الريح؛ لأنَّه أوفقُ بالمقام المتضمِّن لأمر الحَشْر والنَّشْر، لما أنَّ الآثارَ المشاهدة المترتِّبة على الرياح ترتُّباً قريباً وبعيداً تنادي بأعلى صوت ـ حتى يكاد يُشبِه صوتَ النفخ في الصُّور ـ على إمكان ذلك وصحَّته ودخوله في حيطة مشيئةِ الله تعالى وعظيم قدرته، ومع هذا الأقوالُ كثيرة لديك وأنتَ غيرُ محجور[1] عليكَ، فاختر لنفسك ما يَحلُو.

وقرأ عيسى: «عُرُفاً» بضمَّتين[2]، نحو نُكُر في نُكْر.

وقرأ ابن عباس: «فالمُلَقِّيَات» بالتشديد[3]، من التلقية، قيل: وهي كالإلقاء: إيصال الكلام إلى المخاطب، يقال: لقَّيته الذِّكْرَ فتلقَّاه. وذكر المهدويُّ أنَّه رضي الله عنه قرأ: «فالمُلَقَّيَات» بفتح اللام وتشديد القاف اسم مفعول، أي: ملقية[4] من الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) في (م): مجحود.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٣٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٤.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر ٨/ ٤٠٤ (والكلام منه): تلقته.

وقرأ زيد بن ثابت وابنُ خارجة وطلحة وأبو جعفر وأبو حَيْوَة وعيسى والحسن بخلاف والأعشى[1] عن أبي بكر: «عُذُراً أو نُذُراً» بضمِّ الذالين[2]. وقرأ الحِرْمِيَّان وأبو عامر وأبو بكر وزيد بن عليٍّ وشيبة وأبو جعفر أيضاً بسكون الذال في «عُذْراً» وضمِّها في «نُذُراً»[3]. وقرأ إبراهيم التيمي: «ونُذراً» بالواو[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ جواب للقَسَم، و«ما» موصولة، و«إنَّ» كتبت موصولةً، والعائد محذوف، أي: إنَّ الذي توعدونه مِن مَجيْءِ القيامة كائنٌ لا محالةَ. وجوّز أن يُراد بالموصول جميع ما تضمَّنته السورةُ السابقة، وهو خلاف الظاهر جدًّا.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ أُزيل أَثَرُها بإزالة نورها، أو بإعدام ذاتها وإذهابها بالكليَّة، وكلٌّ مِن الأمرين سيكون، وليس مِن المحال في شيء، وما زعمه الفلاسفة المتقدِّمون في أمر تلك الأجرام واستحالةِ التحلُّل والعَدَم عليها أَوْهَنُ مِن بيت العنكبوت، وما زعمه المعاصرون منهم فيها وإن كان غير ثابت عندنا إلا أنَّ إمكان الطمس عليه في غاية الظهور.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ شُقَّت، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقيل: فُتِحت، كما قال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]. وأنشد سيبويه:

الفارِجي بابِ الأمير المُبْهَمِ[5]

ولا مانعَ من ذلك أيضاً سواء كانت السماء جسماً صلباً أو جسماً لطيفاً، وأدلَّة استحالة الخَرْق والالتئام فيها خروق لا تَلتئم.

---

(١) في الأصل و(م): والأعمش، والمثبت من جامع البيان للداني ٢/ ٤٧٢، والبحر ٨/ ٤٠٥ وهو الصواب؛ لأن الراوي عن أبي بكر شعبة بن عياش هو أبو يوسف يعقوب الأعشى، لا الأعمش. ينظر: معرفة القراء الكبار ١/ ٢٨١، وغاية النهاية ١/ ٣٢٥.

(٢) النشر ٢/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٣) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٢١٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٥) الكتاب ١/ ١٨٥، ونسبه لرجل من بني ضبَّة، والمعنى: ينعت أقواماً أشرافاً لا يحجبون عن الأمراء، ولا تُغلَق دونهم أبوابهم. والفارج: الفاتح. والمبهم: المغلق.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ جُعلَت كالحَبِّ الذي يُنسَف بالمِنْسَف، ونحوه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، قال في «البحر»: فرَّقتها الرياحُ، وذلك بعد التسيير، وقبل ذلك جعلها هباءً[١].

وقيل: «نُسِفَت»: أُخِذَت من مقارِّها بسرعة، مِن انتسفْتُ الشيءَ: إذا اختطفتَه.

وقرأ عمرو بنُ ميمون: «طُمِّسَت»، و«فُرِّجَت» بتشديد الميم والراء[٢]، وذكر في «الكشاف»[٣] أنَّ الأفعال الثلاثة قُرِئَت بالتشديد.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ أي: بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة، وجوّز أن يكون المعنى: عُيِّن لها الوقتُ الذي تُحضَر فيه للشهادة على الأمم، وذلك عند مجيئه وحصوله، والوجه هو الأول كما قال جارُ الله[٤]، وتحقيقه كما في «الكشف»: أنَّ توقيتَ الشيءِ تحديدُه وتعيينُ وقتِه، فإيقاعه على الذوات بإضمارٍ؛ لأنَّ المؤقَّت هو الأحداث لا الجثث، ويَجِيْء بمعنى جعل الشيء منتهياً إلى وقته المحدود، وعلى هذا يقع عليها دون إضمارٍ إذا كان بينها وبين ذلك الوقت ملابسةٌ، وإنَّما كان الوجهَ لأنَّ القيامة ليست وقتاً يتبيَّن فيه وقتُ الرسل الذي يَحضرون فيه للشهادة، بل هي نفس ذلك الوقت، و«إذا الرسل أُقِّتت» يقتضي ذلك، لأنَّك إذا قلت: إذا أَكرمتَني أكرمتُكَ. اقتضى أن يكون زمان إكرام المخاطب للمتكلِّم، وهو ما دلَّ عليه «إذا» سواءٌ جُعِلَ الظرفُ معمولَه أو معمولَ الجزاء، أي: فلا بُدَّ مِن التأويل، وقد أشير إليه في ضمن التفسير.

وقرأ النخعي والحسن وعيسى وخالد: «أُقِتَتْ» بالهمزة وتخفيف القاف[٥].

وقرأ أبو الأشهب وعمرو بنُ عبيد وأبو عمرو وعيسى أيضاً: «وُقِّتَتْ» بالواو

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.
(٣) ٤/ ٢٠٣.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٠٣.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١١٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

على الأصل[١]؛ لأنَّ الهمزة مُبدَلة من الواو المضمومة ضمَّة لازمة، وهو أمرٌ مطَّرد كما بيِّن في محلِّه، وقال عيسى: «وُقِّتَتْ» لغةُ سُفلى مُضَر.

وقرأ عبد الله والحسن[٢] وأبو جعفر: «وُقِتَتْ» بواو واحدة وتخفيف القاف[٣]، وقرأ الحسن أيضاً: «وُوقِتَتْ» بواوين[٤]، على وزن فُوعِلَتْ، و«إذا» في جميع ما تقدَّم شرطيَّة.

وقوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ قيل: مقولٌ لقولٍ مقدَّر هو جواب «إذا»، أي: يقال: «لأيِّ يومٍ» إلخ، وجعل التأجيل بمعنى التأخير مِن قولهم: دَيْنٌ مؤجَّل، في مقابل الحالِّ، والضمير لما يشعر به الكلام، والاستفهام للتعظيم والتعجيب مِن هَوْلِ ذلك اليوم، أي: إذا كان كذا وكذا، يقال: لأيِّ يومٍ أُخِّرت الأمور المتعلِّقة بالرسل مِن تعذيب الكفرة وإهانتهم، وتنعيمِ المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل عليهم السلام تذكره مِن الآخرة وأحوالِها، وفظاعة أمورها وأهوالها. وجوّز أن يكون الضمير للأمور المشار إليها فيما قَبْلُ مِن طَمْس النجوم وفَرْج السماء ونَسْف الجبال وتأقيت الرسل، وأن يكون للرسل، إلا أنَّ المعنى على نحو ما تقدَّم.

وقيل: أن يكون القول المقدَّر في موضع الحال مِن مرفوع: «أُقِّتت» أي: مقولاً فيها: لأيِّ يومٍ أُجِّلت، وأن تكون الجملة نفسها مِن غير تقدير قول في موضع المفعول الثاني «لأُقِّتت» على أنَّه بمعنى أُعلمت، كأنَّه قيل: وإذا الرسلُ أُعلمت وقتَ تأجيلها، أي: بمجيئه وحصولِه. وجواب «إذا» على الوجهين؛ قيل: قوله تعالى الآتي: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وجاء حذف الفاء في مثله. وقيل: محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، أي: وقع الفصل، أو وقع ما تُوعَدون، واختار هذا أبو حيَّان[٥]، ويجوز ـ على احتمال كون الجواب: «ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين»، أو

---

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦-٣٩٧ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٠٥.
(٢) في الأصل و(م): عبد الله بن الحَسَن. والمثبت من البحر المحيط ٨/ ٤٠٥ والكلام منه.
(٣) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٩٧.
(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

تقدير المقدَّر مؤخَّراً ـ كونُ جملة «لأيِّ يومٍ أُجِّلت» اعتراضاً؛ لتهويل شأنِ ذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣﴾ بدل مِن «لأيِّ يومٍ» مبيّن له، وقيل: متعلّق بمقدَّر، تقديره: أُجِّلت ليومِ الفصل بين الخلائق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ أي: أيُّ شيء جَعَلك دارياً ما هو؟ على أنَّ «ما» الأولى مبتدأ، و«أدراك» خبره، و«ما» الثانية خبر مقدَّم، و«يوم» مبتدأ مؤخَّر، لا بالعكس كما اختاره سيبويه؛ لأنَّ محطَّ الفائدة بيانُ كون يوم الفصل أمراً بديعاً لا يُقادَر قَدْره ولا يُكْتنه كُنْهه، كما يفيده خبريَّة «ما»، لا بيان كونِ أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه، ووضع الظاهر موضعَ الضمير لزيادة التفظيع والتهويل المقصودَيْن من الكلام.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، و«ويل» في الأصل مصدر بمعنى هلاك، وكان حقُّه النصبَ بفعلٍ مِن لفظه أو معناه، إلا أنَّه رُفعَ على الابتداء للدلالة على ثبات الهلاك ودوامِه للمدعوِّ عليه، و«يومئذٍ» ظرفُه أو صفته، فمسوِّغ الابتداء به ظاهر، والمشهور أنَّ مسوِّغَ ذلك كونه للدعاء، كما في ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ كقوم نوح وعاد وثمود، وقرأ قتادة: «نَهْلِك» بفتح النون[١] على أنَّه مِن هَلَكه بمعنى أَهْلَكه، ومنه: هالِك بمعنى مُهْلِك، كما هو الظاهر في قول العجَّاج:

ومَهْمَهٍ هالكِ مَن تَعرَّجا   هائلةٍ أهوالُهُ مَن أدْرَجا[٢]

لئلا يلزمَ حذفُ الضميرِ مع حرف الجَرِّ، أعني «به» أو «فيه»، وليناسب ما في الشطر الثاني.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧﴾ بالرفع على الاستئناف، وهو وعيدٌ لأهل مكَّة وإخبارٌ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٢) ديوان العجاج ص٣٣٤-٣٣٥، وورد فيه: أدْلجا، بدل: أدرجا. والرجز سلف ١٥/ ٤٠٠.

عمَّا يقع بعد الهجرة كبدرٍ، كأنَّه قيل: ثم نحن نَفعلُ بأمثالهم من الآخَرين مِثْلَ ما فَعَلنا بالأوَّلين، ونَسلُك بهم سبيلهم؛ لأنَّهم كذبوا مِثْلَ تكذيبهم، ويقوِّيه قراءة عبد الله: «ثُمَّ سَنُتْبِعُهُم» بسين الاستقبال[(١)]، وجوّز العطف على قوله تعالى: «أَلَم نُهْلِك» إلى آخره.

وقرأ الأعرج والعبَّاس عن أبي عمرو: «نُتْبِعْهم» بإسكان العين[(٢)]، فحمل على الجزم والعطف على «نُهْلك»، فيكون المراد «بالآخرين» المتأخِّرين هلاكاً مِن المذكورين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام دون كفَّار أهلِ مكَّة، لأنَّهم بَعْدُ ما كانوا قد أُهلكوا، والعطف على «نُهْلك» يقتضيه، وجوّز أن يكون قد سُكِّن تخفيفاً، كما في: «وما يُشْعِرْكم»[(٣)] [الأنعام: ١٠٩] فهو مرفوع كما في قراءة الجمهور إلا أنَّ الضمَّة مقدَّرة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعلِ الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: بكلِّ مَن أجرم، والمراد أنَّ سُنَّتَنا جاريةٌ على ذلك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ أهلكناهم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بآياتِ الله تعالى وأنبيائِه عليهم السلام، وليس فيه تكريرٌ؛ لمَا أنَّ الويلَ الأوَّل لعذاب الآخِرة، وهذا لعذاب الدنيا. وقيل: لا تكرير؛ لاختلافِ متعلَّق المكذِّبين في الموضعين، بأن يكون متعلَّقه هنا ما سمعت، وفيما تقدَّم: «يوم الفصل» ونحوه، وكذا يقال فيما بَعْدُ، وجوّز اعتبار الاتحاد، والتأكيد أمرٌ حَسَن لا ضيرَ فيه.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ من نطفة قَذِرَة مهينة، وليس فيه دليل على نجاسة المنيِّ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ هو الرَّحِم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: مقدار معلوم عند الله تعالى من الوقت، قدَّره سبحانه للولادة، تسعة أشهر أو أقلّ منها أو أكثر.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.

(٣) بسكون الراء كما ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤٠٥، وسلفت القراءة عند تفسير الآية المذكورة.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: فقدرنا ذلك تقديراً ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: فنِعْمَ المقدِّرون له نحن. وجوّز أن يكون المعنى: فقدرنا على ذلك فنِعْم القادرون عليه نحن. والأوّل أَولى لقراءة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ونافع والكسائي: «فَقَدَّرْنا» بالتشديد[١]، ولقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩] ولقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٢] فزاده تفخيماً بأن جعلت الغاية مقصودة بنفسها، فقيل: فقدَّرنا ذلك تقديراً، أي: تقديراً دالًّا على كمال القدرة وكمال الرحمة، على أنَّ حديثَ القدرة قد تمَّ في قوله تعالى: «ألم نخلقكم»، وقول الطيبيِّ في ترجيح الثاني: إثبات القدرة أَولى؛ لأنَّ الكلام مع المنكِرين = لا وجهَ له، إذ لا أحد يُنكِر هذه القدرة، ولو سلِّم فقد قرِّروا بها بقوله تعالى: «أَلَم نخلقكم»، فتأمَّل.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بقدرتِنا على ذلك أو الإعادة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ الكِفَات: اسمُ جنس، أو اسمُ آلة لما يُكْفَت، أي: يُضَمُّ ويُجمَع، مِن كَفَتَ الشيءَ: إذا ضمَّه وجمعه، كالضمام والجِماع لما يُضَمُّ ويُجمَع، وأنشدوا قولَ الصمصامة بنِ الطِّرِمَّاح:

فأنتَ اليومَ فوقَ الأرضِ حيًّا ... وأنتَ غداً تضمُّك في كِفَاتِ[٢]

وعن أبي عبيدة تفسيره بالوعاء[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ مفعولٌ لفعل محذوف، لا «لكِفَاتاً»؛ لأنَّ اسمَ الجنس وكذا اسم الآلة كما صرَّح به النحاةُ لا يَعملُ، أي: أَلَم نجعلها كِفاتاً تكفتُ وتَجمعُ أحياءً كثيرة على ظهرها وأمواتاً غير محصورة في بطنها.

وقيل: هو مصدر كالقتال نُعت به للمبالغة، فلا يحتاج إلى تقدير فعل. وقيل: جمع كافِت، كصِيام وصَائِم، فلا يحتاج إلى تقدير أيضاً. أو: جمع كِفْتٍ ـ بكسر الكاف وسكون الفاء ـ وهو الوعاء كقِدْح وأقدَاح، وأُجريَ على الأرض مع جمعه وإفرادها؛ باعتبار أَقْطارها.

---

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٥٠٦.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٨١.

وجوّز انتصابُ الجمعين على الحاليَّة مِن مفعول «كفاتاً» المحذوف، والتقدير: كفاتاً إيَّاهم وإيَّاكم ـ أو: كفاتاً الإنس ـ أحياءً وأمواتاً أو من مفعولٍ حُذِفَ مع فعله، أي: كفاتاً تَكفتهم، أو: تَكفتكم، أو: تكفت الإنس أحياءً وأمواتاً، وأن يكون انتصابهما على المفعوليَّة لـ «نجعل»، بتقدير مضاف، أي: ذات أحياء وأموات، أو على أنَّ المراد بـ «أمواتاً» الأرض المَوَات ـ على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد ـ وبـ «أحياء» ما يقابلها، وانتصاب «كفاتاً» على الحاليَّة من «الأرض». وأنتَ تَعلمُ أنَّ انتصابهما على المفعوليَّة أظهرُ، وبعده انتصابهما على الحاليَّة مِن محذوف.

وتنوينهما على ما سمعت أوّلاً للتكثير، وجوّز أن يكون للتبعيض بإرادة أحياء الإنس وأمواتهم، وهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات، ولا ينافي ذلك التفخيم؛ نظراً إلى أنَّه بعضٌ غير محصور كثير في نفسه، فلا تغفل.

واستدلَّ الكيا[1] بالآية على وجوبِ مواراةِ الميت ودَفْنِه. وقال ابنُ عبد البرِّ: احتجَّ ابن القاسم بها على قَطْع النَّبَّاش؛ لأنَّه تعالى جَعَلَ القبرَ للميت كالبيت للحيِّ، فيكون حِرْزاً[2]. ولا يَخفى ضَعْفُ الاستدلالين.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ مرتفعات، ومنه: شَمَخَ بأنفِه، ووَصْفُ جمع المذكَّر بجمع المؤنَّث في غير العقلاء مُطَّرِد كـ «أشهر معلومات»، وتنكيرها للتفخيم أو للإشعار بأنَّ في الأرض جبالاً لم تُعرَف ولم يُوقف عليها، فأرضُ اللهِ تعالى واسعة، وفيها ما لم يَعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، وقيل: للإشعار بأنَّ في الجبال ما لم يُعرَف وهو الجبال السماويَّة، وهو ممَّا يوافق أهلَ الفلسفة الجديدة، إذ قالوا بوجود جبالٍ كثيرة في القمر، وظنُّوا وجودَها في غيره، وتعقّب بأنَّه تفسير بما لم يعرف.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: عذباً، وذلك بأنْ خلقناه في أصولها، وأجريناه لكم منها في أنهار، وأنبعناه في منابعَ تستمدُّ ممَّا استودعناه فيها، وقد يفسَّر بما هو أعمُّ من ذلك والماء المنزل من السماء.

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٢٨.
(٢) الاستذكار ٨/ ٣٤٤، والتمهيد ١٣/ ١٤١.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ بأمثال هذه النِّعَم العظيمة.

﴿انطَلِقُوٓا۟﴾ أي: يقال لهم يومئذٍ للتوبيخ والتقريع: انطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا من العذاب ﴿انطَلِقُوٓا۟﴾ أي: خصوصاً، فليس تكراراً للأوَّل، وقيل: هو تكرار له وإن قُيِّدَ بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ هو ظلُّ دخان جهنَّم، كما قاله جمهور المفسِّرين، فهو كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣] وفيه استعارة تهكميَّة.

وقرأ رويس عن يعقوب: «انْطَلَقُوا» بصيغة الماضي(١)، وهو استئناف بيانيٌّ كأنَّه قيل: فما كان بعد الأمر؟ فقيل: انْطَلَقوا إلى ظلٍّ.

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ متشعِّب ـ لعِظَمه ـ ثلاثَ شعب، كما هو شأنُ الدخان العظيم تراه يتفرَّق تفرُّق الذوائب، وفي بعض الآثار: يخرج لسانٌ من النار فيحيط بالكفَّار كالسُّرادق، ويتشعَّب من دخانها ثلاثَ شعب فتظلُّهم حتى يفرغَ من حسابهم، والمؤمنون في ظلِّ العرش. وخصوصيَّة الثلاث؛ قيل: إمَّا لأنَّ حجابَ النفس عن أنوار القُدُس الحسُّ والخيال والوهم، أو لأنَّ المؤدِّي إلى هذا العذاب هو القوَّة الوهميَّة الشيطانيَّة الحالَّة في الدماغ، والقوَّة الغَضَبية السَّبُعيَّة التي عن يمين القلب، والقوَّة الشهويَّة البهيميَّة التي عن يساره ولذلك قيل: تقف شُعبةٌ فوق الكافر وشُعبةٌ عن يمينه وشُعبةٌ عن يساره. وقيل: لأنَّ تكذيبَهم بالعذاب يتضمَّن تكذيبَ الله تعالى وتكذيبَ رسولِه ﷺ، فهناك ثلاثة تكذيبات، واعتبر بعضهم التكذيبَ بالعذاب أصلاً، والشُّعَب الثلاث التكذيبان المذكوران وتكذيبُ العقل الصريح، فتأمَّل.

وعن ابنِ عباس: يقال ذلك لعَبَدة الصليب، فالمؤمنون في ظلِّ الله عزَّ وجلَّ، وهم في ظلِّ معبودهم وهو الصليب له ثلاث شعب.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: لا مظلِّل، وهو صفة ثانية لظِلٍّ، ونفي كونه مظلِّلاً عنه ـ والظِّلُّ لا يكون إلا مظلِّلاً ـ للدلالة على أنَّ جعله ظلًّا تهكُّمٌ بهم، ولأنَّه ربَّما يتوهَّم أنَّ فيه راحةً لهم، فنفى هذا الاحتمال بذلك، وفيه تعريض بأنَّ ظلَّهم غيرُ ظلِّ المؤمنين.

---

(١) النشر ٢/٣٩٧، والبحر المحيط ٨/٤٠٦.

﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾ وغير مفيد في وقت من الأوقات من حرِّ اللهب شيئاً، وعدِّي «يغني» بـ «من»، لتضمُّنه معنى يبعد، واشتهر أنَّ هذه الآية تشير إلى قاعدة هندسيَّة وهي أنَّ الشكل المثلَّث لا ظلَّ له، فانظر هل تتعقَّل ذلك.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار، الدالُّ عليها الكلام، وقيل: الضمير للشُّعَب ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ﴾ هو ما تطايرَ من النار، سُمِّي بذلك لاعتقاد الشَّرِّ فيه، وهو اسم جنس جمعي، واحده: شَرَرة ﴿كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢﴾ كالدار الكبيرة المشيَّدة، والمراد كلّ شَرَرة كذلك في العِظَم، ويدلُّ على إرادة ذلك ما بعد، ويؤيِّده قراءةُ ابنِ عباس وابن مقسم: «بشِرار» بكسر الشين وألف بين الراءين[1]، فإنَّ الظاهر أنَّه جمع شَرَرة كرَقَبة ورِقاب، فيدلُّ على أنَّ المشبَّه بالقَصْر الواحدة، وكذا قراءة عيسى: «بِشَرَار» بفتح الشين وألف بين الراءين أيضاً[2]، فقد قيل: إنَّه جمعٌ لشَرَارة لا مفرد. وجوِّز على قراءة الكسر أن يكون جمعَ شَرٍّ غيرِ أفعلِ التفضيل، كخيار جمع خَيْر، وهو حينئذٍ صفة أُقيمت مقامَ موصوفها، أي: تَرمي بقوم شِرار، وهو خلاف الظاهر.

وقيل: القَصْر: الغليظ من الشجر، واحده: قَصْرة نحو جَمْرة وجَمْر، وقيل: قِطَعٌ من الخشب قَدْرَ الذراع وفوقه ودونه، يستعدُّ به للشتاء، واحده كذلك، فالتشبيهُ من تشبيه الجمع بالجمع مِن غير احتياجٍ للتأويل بما مرَّ، إلا أنَّ التهويل على القول الأخير دونه على غيرِه.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن جبير والحسن وابن مقسم: «كالقَصَر» بفتح القاف والصاد[3]، وهي أصول النخل، وقيل: أعناقها، واحدها: قَصَرة كشَجَرة وشَجَر، وفي كتاب «النبات»: الحبَّة لها قشرتان، التحتيَّة تسمَّى قشرة[4]، والفوقيَّة تسمَّى قَصَرة، ومنه قوله تعالى «كالقَصر»، وهو غريب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٤) جاء في هامش الأصل: بالقاف، وفي نسخة: حشرة، بالحاء المهملة، وهو صحيح أيضاً كما لا يخفى على من رجع إلى القاموس [مادة (حشر)]. انتهى منه.

وقرأ ابن مسعود: «كالقُصُر» بضمَّتين[١] جمع قَصْر كرَهْن ورُهُن، وفي «البحر»: كأنَّه مقصور من القصور، كالنجم من النجوم[٢]. وهو مخالف للظاهر؛ لأنَّ مثلَه ضرورةٌ أو شاذٌّ نادر.

وقرأ ابن جبير والحسن أيضاً «كالقِصَر» بكسر القاف وفتح الصاد[٣]، جمع قَصَرة بفتحتين، كحَلَقة من الحديد وحِلَق، وحَاجة وحِوَج. وبعض القرَّاء: «كالقَصِر» بفتح القاف وكسر الصاد[٤]، وهو بمعنى القَصْر في قراءة الجمهور.

﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي: الشرر ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم، كما قرأ به حمزة والكسائيُّ وحفص وأبو عمرو في رواية الأصمعي وهارون عنه[٥]، وهو جمع جَمَل، والتاء لتأنيث الجمع كما في «البحر»[٦]، يقال: جَمَل وجِمَال وجِمَالة، أو اسم جمع له كما قيل في حَجَر وحِجَارة، والتنوين للتكثير.

﴿صُفْرٌ ۝٣٣﴾ فإنَّ الشَّرار لِمَا فيه من الناريَّة والهوائيَّة يكون أصفرَ، فالصفرة على معناها المعروف، وقيل: سود، والتعبير بـ «صُفْر» لأنَّ سوادَ الإبل يَضرِبُ إلى الصُّفْرة، شبَّه الشرر حين ينفصلُ من النار في عِظَمه بالقَصْر، وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط لانشقاقه عن أعداد غيرِ محصورة بالجِمال، لتَصَوُّر الانشقاق والكثرة والصفرة والحركة المخصوصة، وقد روعي الترتيب في التشبيه رعايةً لترتيب الوجود، وأُفيدَ أنَّ القصورَ والجمال يشبَّه بعضها ببعض، ومنه قوله:

فَوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها ... فَدن[٧] لأقضي حاجةَ المتلوِّمِ[٨]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٤٤٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٥) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة والكسائي وحفص، والكلام من البحر ٨/ ٤٠٧.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٧) في هامش الأصل و(م): فَدَن، كلبن: القصر، جمعه: أفدان. انتهى منه.

(٨) القائل: عنترة بن شداد، والبيت هو الثالث من معلقته.

فالتشبيه الثاني بيان للتشبيه الأوَّل، على معنى أنَّ التشبيهَ بالقَصْر كان المتبادرُ منه إلى الفهم العِظَمَ فحسب، فلمَّا قيل: «كأنَّه جِمَالة صفر» وهو قائمٌ مقامَ التخصيص في القَصْر تكثَّر وجهُ الشَّبَه، كأنَّه قيل: كأنَّه قصرٌ مِن شأنه كذا وكذا، والتشبيه بالجِمال في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة أيضاً. والأوَّل هو التحقيق على ما في «الكشف»، وعلى الوجهين ليس التشبيه الثاني من البداء في شيء، ولا حاجةَ في شيء منهما إلى اعتبار كون ضمير «كأنَّه» للقصر.

وقد أَلَمَّ بشيء مِن حُسْنِ ما وقع في الآية من التشبيه أبو العلاء المعري في قوله في مرثيَّة واحدٍ من الأشراف:

المُوقدي نارِ القِرَى الآصالَ والـ ... أسحارَ بالأهْضامِ والأشعافِ
حمراءَ ساطعةَ الذوائب في الدُّجى ... ترمي بكلِّ شرارةٍ كطِرَافِ[1]

وإن كان قد قَصَد بذلك المعارضةَ للآية يكون قد أعمى اللهُ تعالى بصيرتَه عمَّا فيها مِن المَزِيَّة كما أعمى سبحانه بَصَرَه.

وقرأ الجمهور ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ: «جِمَالات» بكسر الجيم وبالألف والتاء[2]، جمع: جِمال أو جِمالة بكسر الجيم فيهما، فيكون جمعَ الجمع، أو جمعَ اسم الجمع، والمعنى على ما سمعت. وقرأ ابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك إلا أنَّهم ضمُّوا الجيم[3]، على أنَّه جمع جِمالة على ما في «الكشاف»[4]، وقال في «البحر»: هي حبال[5] السفن[6]، الواحد منها جُمْلة؛ لكونه جملة من الطاقات، ثم جُمع على جمل وجِمال، ثم

---

(١) شروح سقط الزند ص١٣٠٥-١٣٠٧، والهِضْم: المطمئنُّ من الأرض، والشعف: رأس الجبل، والطِّراف: قبَّة من أَدَم.

(٢) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧ والكلام منه.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٤٧، والبحر ٨/ ٤٠٧ وهي قراءة رويس عن يعقوب من العشرة، كما في النشر ٢/ ٣٩٧.

(٤) ٤/ ٢٠٤.

(٥) في مطبوع البحر المحيط ٨/ ٤٠٧: جمال.

(٦) جاء في هامش الأصل: أي: البحرية.

جمع جِمال ثانياً جمع صحَّة، فقالوا: جِمالات، وقيل: هي قُلوس الجسور، أي: حِبَالها التي تُشَدُّ بها، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير قالا: إنَّها إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عِظَام.

وعن ابن عباس أيضاً: هي قِطَعُ النحاس الكبار. والظاهر أنَّ التشبيهَ على هذا باعتبار اللون، وعلى ما سبق باعتبار الامتداد والالتفاف.

وقرأ ابن عباس أيضاً والسلميُّ والأعمش وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ورويس: «جُمَالَة» كقراءة حفص ومَن معه إلا أنَّهم ضمُّوا الجيم(١)، وهي عند الزمخشريِّ(٢) اسم مفرد بمعنى القَلْس، وجُمعَ «صُفْر» لإرادة الجنس.

وقرأ الحسن: «صُفُر» بضمِّ الفاء(٣).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ الإشارة إلى وقت دخولهم النار، أي: هذا يوم لا ينطقون فيه بشيءٍ لعِظَم الدهشة وفَرْط الحيرة، ولا ينافي هذا ما ورد في موضع آخَر مِن النطق؛ لأنَّ يوم القيامة طويلٌ له مواطن ومواقيت، ففي بعضها ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون. وجوّز أن يكون المراد: هذا يوم لا ينطقونَ بشيءٍ ينفعهم، وجُعلَ نطقُهم لعدم النفع كَلَا نطق.

وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن عليٍّ وعيسى وأبو حيوة وعاصم في رواية: «هذا يومَ» بالفتح(٤)، فقيل: هو فتح إعراب، على أنَّ «هذا» إشارة إلى ما ذكر، و«يوم» منصوب على الظرفيَّة متعلِّق بمحذوف وقع خبراً لـ «هذا»، أي: هذا الذي ذكر من الوعيد واقعٌ في يوم لا ينطقون، وقيل: هو فَتْحُ بناءٍ، و«يوم» في محلٍّ رفع على الخبريَّة، وبُنِيَ لإضافته للجملة ولِمَا حقُّه البناء، وعن صاحب «اللوامح»: قال عيسى: بناء «يوم» على الفتح مع «لا» لغةُ سُفْلى مُضَر؛ لأنَّهم جعلوه معها كالاسم

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

الواحد، وأنتَ تعلم أنَّ الجملة المصدَّرة بمضارع مثبت أو منفي لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجهٍ، وأنَّ ما ذكر مذهبٌ كوفيٌّ.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ قيل: في النطق مطلقاً، أو في الاعتذار، وقرأ زيد بن عليٍّ كما حكى عنه أبو عليٍّ الأهوازيُّ بالبناء للفاعل[1]، أي: ولا يَأْذنُ اللهُ تعالى لهم.

﴿فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦﴾ عطف على «يؤذن» منتظم معه في سلك النفي، والفاء للتعقيب بين النفيين في الإخبار في قول، ولترتُّب النفي الثاني نفسه على الأوَّل في آخر، ونظر فيه. ولم يقل: فيعتذروا، بالنصب في جواب النفي، قيل: ليفيد الكلام نفيَ الاعتذار مطلقاً، إذ لا عذرَ لهم ولا يعتذرون، بخلاف ما لو نصب وجعل جواباً فإنَّه يدلُّ على أنَّ عدم اعتذارهم لعدم الإذن، فيُوهم ذلك أنَّ لهم عذراً لكن لم يُؤْذَن لهم فيه، وقال ابنُ عطيَّة: إنَّما لم يُنصَب في جواب النفي، للمحافظة على رؤوس الآي، والوجهان جائزان[2]. وظاهره استواء المعنى عليهما، وهو مخالفٌ لكلامهم لقولهم بالسببيَّة في النَّصْب دون الرفع، نعم ذهب أبو الحجَّاج الأعلم[3] إلى أنَّه قد يُرفَع الفعل ويكون معناه على قلَّةٍ معنى المنصوب بعد الفاء، وأنَّ النحويين إنَّما جعلوا معنى الرفع غير معنى النصب رعياً للأكثر في كلام العرب، وجَعَلَ دليله على ذلك هذه الآية، وردَّ عليه ذلك ابنُ عصفور وغيره، فتدبَّر.

والظاهر أنَّ نفي الاعتذار باعتبار بعضِ المواطن والمواقيت كنفي النطق، وجوّز أن يكون المنفي حقيقةَ الاعتذار النافع، فلا منافاةَ بين ما هنا وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحقِّ والمُبطِل ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ أي: من تقدَّمكم من الأمم، والكلام تقرير وبيان للفصل؛ لأنَّه لا يُفصَل بين المحقِّ والمُبطِل إلا إذا جمع بينهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾ فإنَّ جميعَ من كنتم

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٠.
(٣) أي: الأعلم الشنتمري، وينظر كلامه في المسألة في كتابه تحصيل عين الذهب ص٣٩٣.

تقلِّدونهم وتقتدونَ بهم حاضرون، وهذا تقريعٌ لهم على كيدِهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعَجْزهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ حيث ظهر أنْ لا حولَ لهم ولا حيلةَ في التخلُّص ممَّا هم فيه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ مِن الكفر والتكذيب لوقوعه في مقابلة المكذِّبين بيوم الدين فيشمل عصاةَ المؤمنين ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع: ظِلٌّ، ضدُّ الضَّحِّ، وهو أعمُّ مِن الفَيْءِ، فإنَّه يقال: ظِلُّ الليل، وظِلُّ الجنة، ويقال لكلِّ موضع لم تَصِلِ إليه الشمس: ظِلٌّ، ولا يقال: الفيء، إلا لما زال عنه الشمس، ويعبَّر به أيضاً عن الرفاهة وعن العزَّة والمناعة، وعلى هذا المعنى حمل الراغبُ ما في الآية[1]، والمتبادر منه ما هو المعروف، ويؤيِّده ما تقدَّم في المقابل: «انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب» إلخ، وقراءة الأعمش: «في ظُلَلٍ»[2] جمع ظُلَّة، وأيّاً ما كان فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أنَّهم مستقرُّون في فنون التَّرَفُّه وأنواع التنعُّم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ مقدَّر بقولٍ هو حالٌ مِن ضمير المتَّقين في الخبر، كأنَّه قيل: مستقرُّون في ذلك، مقولاً لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الدنيا مِن العمل الصالح كالإيمان وغير ذلك ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لا جزاءً أدنى منه، والمراد بالمحسنين: المتَّقون السابق ذِكْرهم إلا أنَّه وضع الظاهر موضعَ الضمير مَدْحاً لهم بصفة الإحسان أيضاً مع الإشعار بعلَّة الحكم، وجوّز أن يُراد بالمتَّقين والمحسنين الصالحون من المؤمنين، ولا دليلَ فيه للمعتزلة على خلود العصاةِ أهلِ الكبائر في النار، وغايةُ الأمر عدم التعرُّض لحالهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثوابَ العظيم وهم بَقوا في العذاب الأليم.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ حال من المكذِّبين على ما ذهب إليه غير واحد من الأجلَّة، أي: الويل ثابتٌ لهم في حالِ ما يقال لهم ذلك، تذكيراً لِمَا كان

---

(١) المفردات (ظلل).

(٢) تفسير القرطبي ٥١٦/٢١ ونسبها للأعرج والزهري وطلحة، والبحر المحيط ٤٠٨/٨.

يقال لهم في الدنيا ولِمَا كانوا أحقَّاء بأن يُخاطَبوا به حيث تركوا الحظَّ الكثير إلى النَّزْر الحقير، فيفيد التحسيرَ والتخسير، وعلى طريقته قولُه:

إخـوتـي لا تَـبْـعَـدوا أبـداً وبَـلَـى واللهِ قـد بَـعِـدُوا[1]

فهو دعاء لإخوته بعدم الهلكة بعد هلاكهم تقريراً بأنَّهم كانوا أحقَّاء بذلك الدعاء في حياتهم، وأنَّ هلاكهم لحينونة الأجل المسمَّى لا لأنَّهم كانوا أحقَّاء بالدعاء عليهم. وذهب أبو حيَّان[2] إلى أنَّه كلام مستأنف خوطب به المكذِّبون في الدنيا، والأمر فيه أمرُ تحسير وتهديد وتخسير، ولم يعتبر التهديد على الأوَّل؛ لأنَّه غيرُ مقصود في الآخِرة. ورجَّح بأنَّه أبعدُ من التعسُّف وأوفق لتأليف النظم، وفيه نظر.

والظاهر أنَّ قوله سبحانه: «إنَّكم» إلخ في موضع التعليل، وفيه دلالة على أنَّ كلَّ مجرم نهايته تمتُّع أيام قليلة ثم يبقى في عذاب وهلاك أبداً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ أي: أطيعوا اللهَ تعالى واخشعوا وتواضعوا له عزَّ وجلَّ بقَبول وَحْيه تعالى واتِّباع دينه سبحانه، وارْفُضُوا هذا الاستكبار والنخوة ﴿لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لا يَخشعون ولا يَقبلون ذلك ويُصرُّون على ما هم عليه مِن الاستكبار.

وقيل: أي: إذا أُمروا بالصلاة أو بالركوع فيها لا يَفعلون، إذ روي عن مقاتل أنَّ الآيةَ نزلت في ثقيف، قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: حُطَّ عنَّا الصلاةَ فإنَّا لا نُجبِّي[3]، فإنَّها مسبَّةٌ علينا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا خيرَ في دِيْن ليس فيه ركوع ولا سجود»، ورواه أيضاً أبو داود والطبرانيُّ وغيرهما[4].

---

(١) البيت ذكره التبريزي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ١٩٠ ونسبه لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية، وكذلك المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩١٢ ولم ينسبه.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠٨.

(٣) من التجبية، وهي الانحناء على هيئة الراكع أو الساجد. حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢١، وزاد المسير ٨/ ٤٥٢، والخبر عند أحمد (١٧٩١٣)، وأبي داود (٣٠٢٦) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

وأخرج ابنُ جرير عن ابنِ عباس أنَّه قال: هذا يوم القيامة يُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون السجودَ مِن أجل أنَّهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا(١).

واتصال الآية ـ على ما نقل عن الزمخشريِّ ـ بقوله تعالى: «للمكذبين» كأنَّه قيل: ويلٌ يومئذٍ للذين كذَّبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون. وجوّز أن يكون أيضاً بقوله سبحانه: «إنكم مجرمون» على طريقة الالتفات، كأنَّه قيل: هم أحقَّاء بأن يقال لهم: كُلُوا وتمتَّعوا، ثم علّل ذلك بكونهم مجرمين، وبكونهم إذا قيل لهم: صلُّوا، لا يُصلُّون(٢).

واستدلَّ به على أنَّ الأمرَ للوجوب، وأنَّ الكفَّار مخاطبونَ بالفروع.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع مُعجِز مؤسَّسٍ على حجج قاطعةٍ وبراهينَ ساطعةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إذ لم يؤمنوا به، والتعبير بـ «بَعْدَه» دون غيره للتنبيه على أنَّه لا حديثَ يساويه في الفَضْل أو يدانيه، فضلاً أن يفوته ويعاليه، فلا حديثَ أحقُّ بالإيمان منه، فالبعدية للتفاوت في الرُّتبة كما قالوا في: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] وكأنَّ الفاء لِمَا أنَّ المعنى: إذا كان الأمر كذلك، وقد اشتمل القرآن على البيان الشافي والحقِّ الواضح، فما بالهم لا يُبادرون الإيمان به قبل الفوت، وحلول الويل، وعدم الانتفاع بـ «عسى» و«لعلَّ» و«ليت».

وقرأ يعقوب وابنُ عامر في رواية: «تؤمنون» على الخطاب(٣).

هذا، ولـمَّا أوجز في سورة «الإنسان» في ذِكر أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصفِ أحوال المؤمنين فيها، عَكَس الأمر في هذه السورة فوقع الاعتدالُ بذلك بين السورتين، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٦١٣.

(٢) لم نقف عليه في الكشاف، وذكره الشهاب في الحاشية ٨/٢٩٩-٣٠٠، ثم قال: كذا في الكشف نقلاً عن الحواشي.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر المحيط ٨/٤٠٨.

(٧٨) سورة النبأ مكية وآياتها أربعون

● **سورة** عمَّ مكية وتسمى «سورة النبأ» لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدِّق ومكذب ﴿عمَّ يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلاّ سيعلمون. ثم كلا سيعلمون﴾

● **ثم أقامت** الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً. والجبال أوتاداً. وخلقناكم أزواجاً. وجعلنا نومكم سباتاً. وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً..﴾ الآيات.

● **ثم أعقبت** ذلك بذكر البعث، وحدَّدت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً..﴾ الآيات.

● **ثم تحدثت** عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من

ألوان العذاب المهين ﴿إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لابثين فيها أحقاباً . لا يَذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً وغساقاً ..﴾ الآيات .

● **وبعد** الحديث عن الكافرين ، تحدثت السورة الكريمة عن المتقين ، وما أعدَّ الله تعالى لهم من ضروب النعيم ، على طريقة القرآن في الترهيب والترغيب ﴿إنَّ للمتقين مفازاً . حدائقَ وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأسا دِهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة ، حيث يتمنى الكافر أن يكون تراباً فلا يحشر ولا يحاسب ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صَفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . ذلك اليومُ الحقُّ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ .

سورة النبأ

[٩٩٨] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: لما بعث النبي [ﷺ] جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾[1].

* * *

[٩٩٨] (١) سورة النبأ: الآية (١و٢).

سورة النبأ

اربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿عَمَّ﴾: أصله حرف جر د؛خل (ما) الاستفهامية، قال حسان رحمه الله تعالى:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ(١)

والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل، ذكروا في سبب الحذف وجوهًا: **أحدها**: قال الزجاج: لأن الميم تشرك الغنة في الألف فصارا كالحرفين المتماثلين. **وثانيها**: قال الجرجاني: إنهم إذا وصفوا (ما) في استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن تكون اسمًا كقولهم: فيم وبم ولم وعلام وحتام. **وثالثها**: قالوا: حذفت الألف لاتصال (ما) بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبئ عن شدة الاتصال. **ورابعها**: السبب في هذا الحذف التخفيف في الكلام فإنه لفظ كثير التداول على اللسان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أنه سؤال، وقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ جواب السائل والمجيب هو الله تعالى، وذلك يدل على علمه بالغيب، بل بجميع المعلومات. فإن قيل: ما الفائدة في أن يذكر الجواب معه؟ قلنا: لأن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح، ونظيره: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

المسألة الثالثة: قرأ عكرمة وعيسى بن عمر: (عَمَّا) وهو الأصل، وعن ابن كثير أنه قرأ (عَمَّه) بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يُجري الوصل مجرى الوقف، وإما أن يقف ويبتدئ بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ على أن يضمر (يتساءلون) لأن ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسره.

المسألة الرابعة: (مَا) لفظة وُضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها، تقول: ما المَلَك؟ وما الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، ثم إن الشيء العظيم الذي يكون لعظمه وتفاقم مرتبته ويعجز العقل عن أن يحيط بكنهه- يبقى مجهولاً، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ (ما) وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة إحدى أسباب المجاز، فبهذا الطريق جعل (ما) دليلاً على عظمة حال ذلك

---

(١) هو الشاعر حسان بن ثابت الصحابي الجليل شاعر، الرسول ﷺ وقد تقدمت ترجمته.

المطلوب وعلو رتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] وتقول: زيد وما زيد.

المسألة الخامسة: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضًا، كالتقابل، وقد يستعمل أيضًا في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن من بعضهم لبعض سؤال، قال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥] ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥١، ٥٢] فهذا يدل على معنى التحدث فيكون معنى الكلام: عم يتحدثون. وهذا قول الفراء.

المسألة السادسة: أولئك الذين كانوا يتساءلون من هم؟ فيه احتمالات: **الاحتمال الأول:** أنهم هم الكفار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥] الضمير في (يتساءلون)، و(هم فيه مختلفون) و(سيعلمون)، راجع إلى شيء واحد. وقوله: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ تهديد والتهديد لا يليق إلا بالكفار، فثبت أن الضمير في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ عائد إلى الكفار، فإن قيل: فما تصنع بقوله: ﴿هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ مع أن الكفار كانوا متفقين في إنكار الحشر؟ قلنا: لا نسلِّم أنهم كانوا متفقين في إنكار الحشر، وذلك لأن منهم من كان يُثبت المعاد الروحاني، وهم جمهور النصارى، وأما المعاد الجسماني فمنهم من كان شاكًا فيه، كقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ومنهم من أصر على الإنكار، ويقول: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ومنهم من كان مقرًّا به، لكنه كان منكرًا لنبوة محمد ﷺ فقد حصل اختلافهم فيه، وأيضًا هب أنهم كانوا منكرين له لكن لعلهم اختلفوا في كيفية إنكاره، فمنهم من كان ينكره لأنه كان ينكر الصانع المختار، ومنهم من كان ينكره لاعتقاده أن إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها، والقادر المختار إنما يكون قادرًا على ما يكون ممكنًا في نفسه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾.

والاحتمال الثاني: أن الذين كانوا يتساءلون هم الكفار والمؤمنون، وكانوا جميعًا يتساءلون عنه، أما المسلم فليزداد بصيرة ويقينًا في دينه، وأما الكافر فعلى سبيل السخرية، أو على سبيل إيراد الشكوك والشبهات.

والاحتمال الثالث: أنهم كانوا يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة؟!

أما قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكر المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه: **أحدها:** أنه هو القيامة، وهذا هو الأقرب، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** قوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو القيامة.

وثانيها: أنه تعالى بَيَّن كونه قادرًا على جميع الممكنات بقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ إلى قوله: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النبأ: ٦-١٨] وذلك يقتضي أنه تعالى إنما قَدَّم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادرًا على إقامة القيامة، ولما كان الذي أثبته الله تعالى بالدليل العقلي في هذه

السورة هو هذه المسألة، ثبت أن النبأ العظيم الذي كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة. **وثالثها:** أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المطففين: ٤-٦] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٨ ,٦٧] ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه، فكان تخصيص اسم العظيم به لائقًا. **والقول الثاني:** ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] واحتج القائلون بهذا الوجه بأمرين: **الأول:** أن النبأ العظيم هو الذي كانوا يختلفون فيه وذلك هو القرآن؛ لأن بعضهم جعله سحرًا وبعضهم شعرًا، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين، فأما البعث ونبوة محمد ﷺ فقد كانوا متفقين على إنكارهما، وهذا ضعيف؛ لأنا بينا أن الاختلاف كان حاصلاً في البعث. **الثاني:** أن النبأ اسم الخبر لا اسم المخبر عنه فتفسير النبأ بالقرآن أَوْلى من تفسيره بالبعث أو النبوة؛ لأن ذلك في نفسه ليس بنبأ بل منبأ عنه، ويقوي ذلك أن القرآن سمي ذكرًا وتذكرة وذكرى وهداية وحديثًا، فكان اسم النبأ به أليق منه بالبعث والنبوة. **والجواب عنه:** أنه إذا كان اسم النبأ أليق بهذه الألفاظ فاسم العظيم أليق بالقيامة وبالنبوة، لأنه لا عظمة في الألفاظ إنما العظمة في المعاني، وللأولين أن يقولوا: إنها عظيمة أيضًا في الفصاحة والاحتواء على العلوم الكثيرة، ويمكن أن يجاب أن العظيم حقيقة في الأجسام مجاز في غيرها، وإذا ثبت التعارض بقي ما ذكرنا من الدلائل سليمًا. **القول الثالث:** أن النبأ العظيم هو نبوة محمد ﷺ، قالوا: وذلك لأنه لما بُعث الرسول عليه الصلاة والسلام جعلوا يتساءلون بينهم: ماذا الذي حدث؟ فأنزل الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وذلك لأنهم عجبوا من إرسال الله محمدًا عليه الصلاة والسلام إليهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] وعجبوا أيضًا أن جاءهم بالتوحيد كما قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فحكى الله تعالى عنهم مساءلة بعضهم بعضًا على سبيل التعجب بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

المسألة الثانية: في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: **أحدها:** وهو قول البصريين أن قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ كلام تام، ثم قال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ والتقدير: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ إلا أنه حذف (يتساءلون) في الآية الثانية؛ لأن حصوله في الآية الأولى يدل عليه. **وثانيها:** أن يكون قوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ استفهامًا متصلاً بما قبله، والتقدير: عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون؟ إلا أنه اقتصر على ما قبله من الاستفهام إذ هو متصل به وكالترجمة والبيان له، كما قرئ في قوله: (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا إنا لمبعوثون) بكسر الألف من غير استفهام لأن إنكارهم إنما كان للبعث، ولكنه لما ظهر الاستفهام في أول الكلام اقتصر عليه، فكذا ههنا. **وثالثها:** وهو اختيار الكوفيين أن الآية الثانية متصلة بالأولى على تقدير: لأي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم، و(عم) كأنها في المعنى (لأي شيء)، وهذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾

قال القفال: (كلا) لفظةٌ وضعت لرد شيء قد تقدم، هذا هو الأظهر منها في الكلام، والمعنى: ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبأ العظيم إنه باطل أو إنه لا يكون. وقال قائلون: (كلا) معناه حقًّا، ثم إنه تعالى قرر ذلك الردع والتهديد فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له، واقع لا ريب فيه، وأما تكرير الردع ففيه وجهان: الأول: أن الغرض من التكرير التأكيد والتشديد، ومعنى (ثُم) الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد. والثاني: أن ذلك ليس بتكرير. ثم ذكروا وجوهًا: أحدها: قال الضحاك: الآية الأولى للكفار والثانية للمؤمنين، أي سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وثانيها: قال القاضي: ويحتمل أن يريد بالأول سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة، ويريد بالثاني سيعلمون نفس العذاب إذا شاهدوه. وثالثها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما الله فاعل بهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر ليس كما كانوا يتوهمون من أن الله غير باعث لهم. ورابعها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما يصل إليهم من العذاب في الدنيا وكما جرى على كفار قريش يوم بدر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بما ينالهم في الآخرة.

المسألة الثالثة: جمهور القراء قرأوا بالياء المنقطة من تحت في (سَيَعْلَمُونَ) وروي بالتاء المنقطة من فوق عن ابن عامر. قال الواحدي: والأول أَوْلى؛ لأن ما تقدم من قوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣] على لفظ الغيبة، والتاء على (قل لهم: ستعلمون) وأقول: يمكن أن يكون ذلك على سبيل الالتفات، وهو ههنا متمكن حسن، كمن يقول: إن عبدي يقول كذا وكذا، ثم يقول لعبده: إنك ستعرف وبال هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر، قَدَّم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عَدَّد أنواعًا من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، ومتى ثبت هذان الأصلان وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض، ثبت لا محالة كونه تعالى قادرًا على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا هو الإشارة إلى كيفية النظم.

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا من عجائب مخلوقاته أمورًا: فأولها: قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ والمهاد مصدر، ثم ههنا احتمالات إحدها: المراد منه ههنا الممهود، أي ألم نجعل الأرض ممهودة؟ وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر، كقولك: (هذا ضَرْب الأمير) وثانيها: أن تكون الأرض

وُصفت بهذا المصدر، كما تقول: زيد جودٌ وكرمٌ وفضلٌ، كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة. **وثالثها:** أن تكون بمعنى ذات مهاد، وقرئ: (مهدًا)، ومعناه أن الأرض للخلق كالمهد للصبي، وهو الذي مُهد له فينوم عليه.

واعلم أنا ذكرنا في تفسير سورة البقرة عند قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ ﴾

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي للأرض (كي) لا تميد بأهلها، فيكمل كون الأرض مهادًا بسبب ذلك، وقد تقدم أيضًا.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ **وفيه قولان:**

الأول: المراد الذكَر والأنثى، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، **والثاني:** أن المراد منه كل زوجين و(كل) متقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والأضداد، كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان، فيتعبد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر، ويتعرف حقيقة كل شيء بضده، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف، فيكون ذلك أبلغ في تعريف النعم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ طَعَن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا: السبات هو النوم، والمعنى: وجعلنا نومكم نومًا. واعلم أن العلماء ذكروا في التأويل وجوهًا: **أولها:** قال الزجاج: ﴿سُبَاتًا﴾ موتًا، والمسبوت: الميت، من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة، ودليله أمران: **إحداهما:** قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠] **والثاني:** أنه لما جعل النوم موتًا جعل اليقظة معاشًا، أي حياة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] وهذا القول عندي ضعيف لأن الأشياء المذكورة في هذه الآية جلائل النعم، فلا يليق الموت بهذا المكان، وأيضًا ليس المراد بكونه موتًا أن الروح انقطع عن البدن، بل المراد منه انقطاع أثر الحواس الظاهرة، وهذا هو النوم، ويصير حاصل الكلام إلى: إنا جعلنا نومكم نومًا. **وثانيها:** قال الليث: السبات: النوم شبه الغشي، يقال: سبت المريض فهو مسبوت، وقال أبو عبيدة: السبات: الغشية التي تغشى الإنسان شبه الموت، وهذا القول أيضًا ضعيف؛ لأن الغشي ههنا إن كان النوم فيعود الإشكال، وإن كان المراد بالسبات شدة ذلك الغشي فهو باطل؛ لأنه ليس كل نوم كذلك ولأنه مرض فلا يمكن ذكره في أثناء تعديد النعم.

وثالثها: أن السبت في أصل اللغة هو القطع، يقال: سبت الرجل رأسه يسبته سبتًا، إذا حلق شعره، وقال ابن الأعرابي في قوله: ﴿سُبَاتًا﴾ أي قطعًا. ثم عند هذا يحتمل وجوهًا: **الأول:** أن

يكون المعنى : وجعلنا نومكم نومًا متقطعًا لا دائمًا، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء، أما دوامه فمن أضر الأشياء، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله تعالى في معرض الإنعام. **الثاني:** أن الإنسان إذا تعب ثم نام، فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب، فسميت تلك الإزالة سبتًا وقطعًا، وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة، بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله، فحينئذٍ تحصل الراحة. **الثالث:** قال المبرد: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي جعلناه نومًا خفيفًا يمكنكم دفعه وقطعه، تقول العرب: رجل مسبوت، إذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه، كأنه قيل: وجعلنا نومكم نومًا لطيفًا يمكنكم دفعه، وما جعلناه غشيًا مستوليًا عليكم، فإن ذلك من الأمراض الشديدة، وهذه الوجوه كلها صحيحة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قال القفال: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به، فيكون ذلك مغطيًا له، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جُعل لباسًا لهم، وهذا السبت سمي الليل لباسًا على وجه المجاز، والمراد كون الليل ساترًا لهم. وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربًا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء مالا يحب الإنسان اطلاع غيره عليه، قال المتنبي:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيلِ عِنْدِي مِنْ يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ[1]

وأيضًا فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة.

وسادسها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ في المعاش وجهان: **أحدهما:** أنه مصدر، يقال: عاش يعيش عيشًا ومعاشًا ومعيشة وعيشة، وعلى هذا التقدير فلا بد فيه من إضمار، والمعنى: وجعلنا النهار وقت معاش. **والثاني:** أن يكون معاشًا مَفْعلاً وظرفًا للتعيش، وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار، ومعنى كون النهار معاشًا أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار لا في الليل.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي سبع سموات شدادًا، جمع شديدة يعني محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان، لا فطور فيها ولا فروج، ونظيره: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ

(١) المتنبي تقدمت ترجمته.

سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] فإن قيل: لفظ البناء يستعمل في أسافل البيت والسقف في أعلاه فكيف قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾؟ قلنا: البناء يكون أبعد من الآفة والانحلال من السقف، فذكر قوله: ﴿وَبَنَيْنَا﴾ إشارة إلى أنه وإن كان سقفًا لكنه في البعد عن الانحلال كالبناء، فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ كلام أهل اللغة مضطرب في تفسير الوهاج، فمنهم من قال: الوهج مجمع النور والحرارة، فبيَّن الله تعالى أن الشمس بالغة إلى أقصى الغايات في هذين الوصفين، وهو المراد بكونها وهاجًا، وروى الكلبي عن ابن عباس أن الوهاج مبالغة في النور فقط، يقال للجوهر إذا تلألأ: (توهج)، وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال في النور، ومنه قول الشاعر يصف النور:

نُـوَّارُهَـا مُـتَـبَـاهِـجٌ يَـتَـوَهَّـجُ

وفي كتاب الخليل: الوهج، حر النار والشمس. وهذا يقتضي أن الوهاج هو البالغ في الحر. واعلم أن أي هذه الوجوه إذا ثبت فالمقصود حاصل.

وتاسعها: قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أما المعصرات ففيها قولان: **الأول:** وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس، وقول مجاهد، ومقاتل والكلبي وقتادة: إنها الرياح التي تثير السحاب. ودليله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] فإن قيل: على هذا التأويل كان ينبغي أن يقال: وأنزلنا بالمعصرات. قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** أن المطر إنما ينزل من السحاب، والسحاب إنما يثيره الرياح، فصح أن يقال: هذا المطر إنما حصل من تلك الرياح، كما يقال: هذا من فلان، أي من جهته وبسببه. **الثاني:** أن (مِن) ههنا بمعنى الباء والتقدير، وأنزلنا بالمعصرات، أي بالرياح المثيرة للسحاب. ويروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعكرمة أنهم قرأوا: (وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ) وطعن الأزهري في هذا القول، وقال الأعاصير من الرياح ليست من رياح المطر، وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الثجاج. **وجوابه:** أن الإعصار ليست من رياح المطر، فلمَ لا يجوز أن تكون المعصرات من رياح المطر؟

القول الثاني: وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار أبي العالية والربيع والضحاك أنها السحاب، وذكروا في تسمية السحاب بالمعصرات وجوهًا. **أحدها:** قال المؤرج: المعصرات: السحائب بلغة قريش. **وثانيها:** قال المازني: يجوز أن تكون المعصرات هي السحائب ذوات الأعاصير، فإن السحائب إذا عصرتها الأعاصير لا بد وأن ينزل المطر منها. **وثالثها:** أن المعصرات هي السحائب التي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كقولك: (أجز الزرع) إذا حان له أن يُجز، ومنه (أعصرت الجارية) إذا دنت أن تحيض.

وأما الثجاج فاعلم أن الثج شدة الانصباب، يقال: مطر ثجاج ودم ثجاج، أي شديد الانصباب.

واعلم أن الثج قد يكون لازمًا، وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا، وقد يكون متعديًا بمعنى الصب، وفي الحديث «أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ» أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهَدْي، وكان ابن عباس مثجًّا، أي يثج الكلام ثجًّا في خطبته، وقد فسروا الثجاج في هذه الآية على الوجهين: قال الكلبي ومقاتل وقتادة: الثجاج ههنا المتدفق المنصب. وقال الزجاج: معناه الصباب كأنه يثج نفسه أي يصب وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، **في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: كل شيء نبت من الأرض فإما أن لا يكون له ساق وإما أن يكون، فإن لم يكن له ساق فإما أن يكون له أكمام وهو الحب وإما أن لا يكون له أكمام وهو الحشيش وهو المراد ههنا بقوله: ﴿وَنَبَاتًا﴾ وإلى هذين القسمين الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] وأما الذي له ساق فهو الشجر فإذا اجتمع منها شيء كثير سُميت جنة، فثبت بالدليل العقلي انحصار ما ينبت في الأرض في هذه الأقسام الثلاثة، وإنما قَدَّم الله تعالى الحب لأنه هو الأصل في الغذاء، وإنما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وإنما أخر الجنات في الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية.

المسألة الثانية: اختلفوا في (ألفافًا) فذكر صاحب (الكشاف) أنه لا واحد له كالأوزاع والأخياف، والأوزاع: الجماعات المتفرقة، والأخياف: الجماعات المختلطة. وكثير من اللغويين أثبتوا له واحدًا، ثم اختلفوا فيه: فقال الأخفش والكسائي: واحدها (لِف) بالكسر، وزاد الكسائي: (لُف) بالضم، وأنكر المبرد الضم، وقال: بل واحدها لفاء. وجمعها لف، وجمع لف ألفاف، وقيل: يحتمل أن يكون لفيف كشريف وأشراف، نقله القفال رحمه الله.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي ملتفة، والمعنى أن كل جنة فإن ما فيها من الشجر تكون مجتمعة متقاربة، ألا تراهم يقولون: (امرأة لفاء) إذا كانت غليظة الساق مجتمعة اللحم يبلغ من تقاربه أن يتلاصق.

المسألة الثالثة: كان الكعبي من القائلين بالطبائع، فاحتج بقوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ وقال: إنه يدل على بطلان قول من قال: إن الله تعالى لا يفعل شيئًا بواسطة شيء آخر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾

اعلم أن التسعة التي عَدَّدها الله تعالى نظرًا إلى حدوثها في ذواتها وصفاتها، ونظرًا إلى إمكانها في ذواتها وصفاتها تدل على القادر المختار، ونظرًا إلى ما فيها من الإحكام والإتقان

تدلَ على أن فاعلها عالم، ثم إن ذلك الفاعل القديم يجب أن يكون علمه وقدرته واجبين، إذ لو كانا جائزين لافتقر إلى فاعل آخر ويلزم التسلسل وهو محال، وإذا كان العلم والقدرة واجبين وجب تعلقهما بكل ما صح أن يكون مقدورًا ومعلومًا وإلا لافتقر إلى المخصص وهو محال، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات، وقد ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة في الجسمية، فكل ما صح على واحد منها صح على الآخر، فكما يصح على الأجسام السلفية الانشقاق والانفطار والظلمة وجب أن يصح ذلك على الأجسام، وإذا ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة والعلم، ثبت أنه تعالى قادر على تخريب الدنيا، وقادر على إيجاد عالم آخر، وعند ذلك ثبت أن القول بقيام القيامة ممكن عقلاً، وإلى هنا يمكن إثباته بالعقل، فأما ما وراء ذلك من وقت حدوثها وكيفية حدوثها فلا سبيل إليه إلا بالسمع، ثم إنه تعالى تكلم في هذه الأشياء بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ ثم إنه تعالى ذكر بعض أحوال القيامة:

فأولها: قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ والمعنى أن هذا اليوم كان في تقدير الله وحكمه حدًّا تؤقت به الدنيا، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه، أو كان ميقاتًا لما وعد الله من الثواب والعقاب، أو كان ميقاتًا لاجتماع كل الخلائق في فصل الحكومات وقطع الخصومات.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾

وثانيها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

اعلم أن ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان، وهذا النفخ هو النفخة التي عندها يكون الحشر، والنفخ في الصور فيه قولان: **أحدهما:** أن الصور جمع الصورة، فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الأرواح في الأجساد. **والثاني:** أن الصور عبارة عن قرن. ينفخ فيه. وتمام الكلام في الصور وما قيل فيه قد تقدم في سورة الزمر. وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ معناه أنهم يأتون ذلك المقام فوجًا فوجًا حتى يتكامل اجتماعهم. قال عطاء: كل نبي يأتي مع أمته. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وقيل: جماعات مختلفة، روى صاحب (الكشاف) عن معاذ أنه سأل رسول الله ﷺ عنه، فقال عليه السلام: «**يَا مُعَاذُ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأُمُورِ**»، ثُمَّ أَرْسَلَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: «**يُحْشَرُ عَشَرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي، بَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ أَرْجُلُهُمْ فَوْقَ وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ، وَبَعْضُهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضُغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مُدَلَّاةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ يَسِيلُ الْقَيحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، يَتَقَذَّرُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجِيَفِ، وَبَعْضُهُمْ مُلْبَسُونَ جِبَابًا سَابِغَةً مِنْ قَطِرَانٍ لَازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ. فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ فَالْقَتَّاتُ مِنَ النَّاسِ. وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَهْلُ السُّحْتِ. وَأَمَّا**

الْمُنَكَّسُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا، وَأَمَّا الْعُمْيُ فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْحُكْمِ. وَأَمَّا الصُّمُّ وَالْبُكْمُ فَالْمُعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَمْضُغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقُصَّاصُ الَّذِينَ يُخَالِفُ قَوْلُهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ. وَأَمَّا الْمُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنَ النَّارِ فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السُّلْطَانِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجِيَفِ فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَمَنَعُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجِبَابَ فَأَهْلُ الْكِبْرِ والفَخْرِ وَالخُيَلاءِ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾

وثالثها قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾

قرأ عاصم وحمزة والكسائي (فُتحت) خفيفة والباقون بالتثقيل، والمعنى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة، قال القاضي: وهذا الفتح هو معنى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب. وأقول: هذا ليس بقوي لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر، فربما كانت السماء أبوابًا، ثم تُفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر، بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية. **فإن قيل:** قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ يفيد أن السماء بكليتها تصير أبوابًا، فكيف يعقل ذلك؟ **قلنا: فيه وجوه:**

أحدها: أن تلك الأبواب لما كثرت جدًّا صارت كأنها ليست إلا أبوابًا مفتحة، كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي كأن كلها صارت عيونًا تتفجر.

وثانيها: قال الواحدي: هذا من باب تقدير حذف المضاف، والتقدير: فكانت ذات أبواب.

وثالثها: أن الضمير في قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ عائد إلى مضمر والتقدير: فكانت تلك المواضع المفتوحة أبوابًا لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

---

(١) موضوع: أورده صاحب الكشاف في (تفسيره) (٧/ ٢١٩) وقال الألباني في (الضعيفة) (٦٤٤٤). موضوع: أورده السيوطي في (الدر المنثور) (٦/ ٣٠٧) ساكتًا عليه- كعادته غالبًا- من رواية ابن مردويه عن البراء بن عازب، أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله! ما قول الله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨]؟ فقال: .... فذكره بطوله. وعزاه الحافظ الزيعلي في (تخريج أحاديث الكشاف) (ص ٦٩٢) من طريقين: عن محمد بن زهير عن محمد بن المهتدي عن حنظلة السدوسي عن الراء بن عازب، ومن روايتهما ذكره الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) أيضًا (١٤/ ١٨١/ ٢٦٧) تبعًا للزيلعي. وسكتا عن إسناده وهو إسناده واهٍ: حنظلة السدوسي: ضعيف؛ لاختلاطه وروايته الأعاجيب والمناكير. وهو مترجم في (التهذيب) ومن دونه لم أجد من ترجمهما، إلا أن الحافظ أورده في ترجمة محمد بن زهير من (اللسان) الذي قال فيه: (تابعي أرسل حديثًا، عنه وهيب بن الورد، مجهول). زاد الحافظ فقال: (وأظنه الذي روى الحديث الظاهر الوضع في البعث المذكور عند الثعلبي في تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، روه عن محمد بن المفيد عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء) فأقول: إني أستبعد جدًّا (أن يكون) محمد بن زهير الراوي لهذا الحديث هو ذاك التابعي المجهول، كيف وبينه وبين البراء تابعي، وتابع تابعي؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله، وهو أن أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

والحالة الثانية لها: أن تصير ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، وهو قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ٤-٦].

والحالة الرابعة: أن تُنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارَّة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتُنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعًا في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسامًا جامدة وهي في الحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها (صيرها) مندكة متفتتة، وهي قوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النحل: ٨٨] ثم بيَّن أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

الحالة السادسة: أن تصير سرابًا، بمعنى لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئًا، كما أن من يرى السراب من بُعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئًا، والله أعلم.

واعلم أن الأحوال المذكورة إلى ههنا هي: أحوال عامة، ومن ههنا يصف أهوال جهنم وأحوالها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن يعمر: (أن جهنم) بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة، بأن جهنم كانت مرصادًا للطاغين، كأنه قيل كان كذلك لإقامة الجزاء.

المسألة الثانية: كانت مرصادًا، أي في علم الله تعالى، وقيل: صارت، وهذان القولان نقلهما القفال رحمه الله تعالى، وفيه وجه ثالث ذكره القاضي، فإنا إذا فسرنا المرصاد بالمرتقِب، أفاد ذلك أن جهنم كانت كالمنتظرة لمقدومهم من قديم الزمان، وكالمستدعية والطالبة لهم.

المسألة الثالثة: في المرصاد قولان: **أحدهما:** أن المرصاد اسم للمكان الذي يُرصد فيه،

كالمضمار اسم للمكان الذي يُضمر فيه الخيل، والمنهاج اسم للمكان الذي يُنهج فيه، وعلى هذا الوجه فيه احتمالان: **أحدهما:** أن خزنة جهنم يرصدون الكفار. **والثاني:** أن مجاز المؤمنين وممرهم كان على جهنم؛ لقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم، ويرصدونهم عندها.

القول الثاني: أن المرصاد مفعال من الرصد، وهو الترقب، بمعنى أن ذلك يكثر منه، والمفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار والمطعان، قيل: إنها ترصد أعداء الله وتشق عليهم، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] قيل ترصد كل كافرة ومنافق.

والقائلون بالقول الأول استدلوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ولو كان المرصاد نعتًا لوجب أن يقال: إن ربك لمرصاد.

المسألة الرابعة: دلت الآية على أن جهنم كانت مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي معدة، وإذا كان كذلك كانت الجنة أيضًا كذلك؛ لأنه لا قائل بالفرق.

قوله تعالى: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

وثانيها: قوله: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ وفيه وجهان: إن قلنا: (إنه مرصاد للكفار فقط) كان قوله: ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ من تمام ما قبله، والتقدير إن جهنم كانت مرصادًا للطاغين، ثم قوله: ﴿مَآبًا﴾ بدل من قوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ وإن قلنا بأنها كانت مرصادًا مطلقًا للكفار وللمؤمنين، كان قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١] كلامًا تامًا، وقوله: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ كلام مبتدأ، كأنه قيل: إن جهنم مرصاد للكل، ومآب للطاغين خاصة. ومن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله (مرصادًا) أما من ذهب إلى القول الثاني وقف عليه، ثم يقول: المراد بالطاغين من تكبر على ربه وطغى في مخالفته ومعارضته، وقوله: ﴿مَآبًا﴾ أي مصيرًا ومقرًّا.

وثالثها: قوله: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن جهنم مآب للطاغين، بيَّن كمية استقرارهم هناك، فقال: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ الجمهور: ﴿لَّابِثِينَ﴾ وقرأ حمزة: (لبثين) وفيه وجهان، قال الفراء: هما بمعنى واحد يقال: لابث ولبث، مثل طامع، وطمع، وفاره، وفره، وهو كثير. وقال صاحب الكشاف: واللبث أقوى لأن اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال: لبث إلا لمن شأنه اللبث، وهو أن يستقر في المكان، ولا يكاد ينفك عنه.

المسألة الثانية: قال الفراء: أصل الحقب من الترادف والتتابع، يقال: أحقب، إذا أردف، ومنه الحقيبة، ومنه كل من حمل وزرًا، فقد احتقب، فيجوز على هذا المعنى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي دهورًا متتابعة يتبع بعضها بعضًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] يحتمل سنين متتابعة إلى أن أبلغ أو آنس، واعلم أن الأحقاب، واحدها

حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة، والحقب السنون، واحدتها حقبة، وهي زمان من الدهر لا وقت له، ثم نُقل عن المفسرين فيه وجوه: **أحدها:** قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾: الحقب الواحد بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يومًا، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا. ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعًا. **وثانيها:** سأل هلال الهجري عليًّا عليه السلام فقال: الحقب مائة سنة، والسنة اثنا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم ألف سنة. **وثالثها:** وقال الحسن: الأحقاب لا يدري أحد ما هي، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون: فإن قيل: قوله أحقابًا وإن طالت إلا أنها متناهية، وعذاب أهل النار غير متناهٍ، بل لو قال (لابثين فيها الأحقاب) لم يكن هذا السؤال واردًا، ونظير هذا السؤال قوله في أهل القبلة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] قلنا: الجواب من وجوه: **الأول:** أن لفظ (الأحقاب) لا يدل على مضي حقب له نهاية، وإنما الحقب الواحد متناهٍ، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر، وهكذا إلى الأبد. **والثاني:** قال الزجاج: المعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا لا يذوقون في الأحقاب بردًا ولا شرابًا، فهذه الأحقاب توقيت لنوع من العذاب وهو أن لا يذوقوا بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون بعد الأحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. **وثالثها:** هب أن قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾ يفيد التناهي، لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم، والمنطوق دل على أنهم لا يخرجون، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] ولا شك أن المنطوق راجح، وذكر صاحب (الكشاف) في الآية وجهًا آخر، وهو أن يكون أحقابًا من (حقب عامنا) إذا قل مطره وخيره، و(حقب فلان) إذا أخطأه الرزق، فهو حقب وجمعه أحقاب، فينتصب حالاً عنهم بمعنى لابثين فيها حقبين مجدبين، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤] تفسير له.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾

ورابعها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إن اخترنا قول الزجاج كان قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ متصلاً بما قبله، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى الأحقاب، وإن لم نقل به كان هذا كلامًا مستأنفًا مبتدأ، والضمير في قوله عائدًا إلى جهنم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿بَرْدًا﴾ وجهان: **الأول:** أنه البرد المعروف، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم، والحاصل أنهم لا يجدون هواء باردًا، ولا ماء باردًا. **والثاني:** البرد ههنا النوم، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي، قال الفراء:

وإنما سُمي النوم بردًا لأنه يبرد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم. وأنشد أبو عبيدة[١] والمبرد في بيان أن المراد النوم قول الشاعر:

بَرُدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي عَنْهَا وَعَنْ رَشَفَاتِهَا الْبَرْدُ

يعني النوم، قال المبرد: ومن أمثال العرب: (منع البرد البرد) أي أصابني من البرد ما منعني من النوم. واعلم أن القول الأول أوْلى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب، والقائلون بالقول الثاني تمسكوا في إثباته بوجهين: **الأول:** أنه لا يقال: ذقت البرد ويقال: ذقت النوم. **الثاني:** أنهم يذوقون برد الزمهرير، فلا يصح أن يقال: إنهم ما ذاقوا بردًا. وهب أن ذلك البرد برد تأذوا به، ولكن كيف كان، فقد ذاقوا البرد، والجواب عن الأول: كما أن ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم أيضًا مجاز، ولأن المراد من قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي لا يستنشقون فيها نفَسًا باردًا، ولا هواء باردًا، والهواء المستنشق ممره الفم والأنف فجاز إطلاق لفظ الذوق عليه. والجواب عن الثاني: أنه لم يقل (لا يذوقون فيها البرد) بل قال: لا يذوقون فيها بردًا واحدًا، وهو البرد الذي ينتفعون به ويستريحون إليه.

المسألة الثالثة: ذكروا في الحميم أنه الصفر المذاب. وهو باطل بل الحميم الماء الحار المغلي جدًا.

المسألة الرابعة: ذكروا في الغساق وجوهًا:

أحدها: قال أبو معاذ: كنت أسمع مشايخنا يقولون: الغساق فارسية معربة، يقولون للشيء الذي يتقذرونه خاشاك.

وثانيها: أن الغساق هو الشيء البارد الذي لا يطاق، وهو الذي يسمى بالزمهرير.

وثالثها: الغساق ما يسيل من أعين أهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة، وفي كتاب الخليل: غسقت عينه، تغسق غسقًا وغساقًا.

ورابعها: الغساق هو المنتن، ودليله ما روي أنه عليه السلام قال: «**لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنَ الْغَسَّاقِ يُهْرَاقُ عَلَى الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا**»[٢].

---

(١) أبو عبيدة تقدمت ترجمته.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٧٠٦) حديث رقم (٢٥٨٤) من طريق رشدين بن سعد، حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به وقال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشيدين بن سعد في رشدين وقال وقد تُكلم فيه من قِبل حفظه. وأحمد في (مسنده) (٣/ ٨٣) حديث رقم (١١٨٠٣) من طريق ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به. والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٤٤) حديث رقم (٨٧٧٩) من طريق عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٥٢٢) حديث رقم (١٣٨١) من طريق ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أنا الهيثم حدثه عن أبي سعيد... به والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٢٢٨) من طريق ابن وهب قال: حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

وخامسها: أن الغاسق هو المظلم قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] فيكون الغساق شرابًا أسود مكروهًا يستوحش كما يستوحش الشيء المظلم.

إذا عرفت هذا فنقول: إن فسرنا الغساق بالبارد كان التقدير: لا يذوقون فيها بردًا إلا غساقًا ولا شرابًا إلا حميمًا، إلا أنهما جُمعًا لأجل انتظام الآي، ومثله من الشعر قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْبًا وَيَابِسًا   لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي(١)

والمعنى كأن قلوب الطير رطبًا العناب ويابسًا الحشف البالي. أما إن فسرنا الغساق بالصديد أو بالنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحميم والغساق راجعًا إلى البرد والشراب معًا، وأن يكون مختصًا بالشراب فقط.

أما الاحتمال الأول: فهو أن يكون التقدير: لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في الحميم والصديد المنتن.

وأما الاحتمال الثاني: فهو أن يكون التقدير: لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في السخونة أو الصديد المنتن، والله أعلم بمراده، فإن قيل: الصديد لا يُشرب فكيف استثنى من الشراب؟ قلنا: إنه مائع فأمكن أن يُشرب في الجملة، فإن ثبت أنه غير ممكن كان ذلك استثناء من غير الجنس ووجهه معلوم.

المسألة الخامسة: قرأ حمزة والكسائي وعاصم من رواية حفص عنه (غسَّاقًا) بالتشديد فكأنه فعَّال بمعنى سيال، وقرأ الباقون بالتخفيف مثل شراب، والأول نعت والثاني اسم.

واعلم أنه تعالى لما شرح أنواع عقوبة الكفار بيَّن فيما بعده أنه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ وفي المعنى وجهان: الأول: أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديدة، فيكون العقاب ﴿وِفَاقًا﴾ للذنب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والثاني: أنه ﴿وِفَاقًا﴾ من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ولم ينقص عنه، وذكر النحويون فيه وجوهًا: أحدها: أن يكون الوفاق والموافق واحدًا في اللغة، والتقدير: جزاء موافقًا. وثانيها: أن يكون نصبًا على المصدر والتقدير: جزاء وافق أعمالهم ﴿وِفَاقًا﴾ وثالثها: أن يكون وصف بالمصدر كما يقال: فلان (فضلٌ وكرمٌ) لكونه كاملاً في ذلك المعنى، كذلك ههنا لما كان ذلك الجزاء كاملاً في كونه على وفق الاستحقاق وُصف الجزاء بكونه ﴿وِفَاقًا﴾ ورابعها: أن يكون بحذف المضاف والتقدير: جزاء ذا وفاق. وقرأ أبو حيوة: (وفَّاقًا) فَعَّال من الوفق، فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب البالغ في الشدة الغير المتناهي بحسب المدة ﴿وِفَاقًا﴾ للإتيان بالكفر لحظة واحدة؟! وأيضًا فعلى قول أهل السنة إذا كان الكفر واقعًا بخلق الله وإيجاده، فكيف يكون هذا وفاقًا له؟ وأما على مذهب المعتزلة فكان علم الله بعدم إيمانهم حاصلاً ووجود إيمانهم منافٍ بالذات لذلك العلم، فمع قيام أحد المتنافيين كان التكليف بإدخال المنافي الثاني في الوجود ممتنعًا لذاته وعينه، ويكون

(١) تقدمت ترجمة امرئ القيس.

تكليفًا بالجمع بين المتنافيين، فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم وفاقًا لمثل هذا الجرم؟ قلنا: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

واعلم أنه تعالى لما بيَّن على الإجمال أن ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم شرح أنواع جرائمهم، وهي بعد ذلك نوعان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾

أولهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ **وفيه سؤالان:**

الأول: وهو أن الحساب شيء شاق على الإنسان، والشيء الشاق لا يقال فيه إنه يرجى بل يجب أن يقال: إنهم كانوا لا يخشون حسابًا. والجواب من وجوه: **أحدها:** قال مقاتل وكثير من المفسرين: قوله ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ معناه لا يخافون، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] **وثانيها:** أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين. **وثالثها:** أن الرجاء ههنا بمعنى التوقع لأن الراجي للشيء متوقع له، إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء فسُمي الجنس باسم أشرف أنواعه. **ورابعها:** أن في هذه الآية تنبيهًا على أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف، وذلك لأن للعبد حقًّا على الله تعالى بحكم الوعد في جانب الثواب، ولله تعالى حق على العبد في جانب العقاب، والكريم قد يسقط حق نفسه، ولا يُسقط ما كان حقًّا لغيره عليه، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى في الحساب، فلهذا السبب ذكر الرجاء، ولم يذكر الخوف.

السؤال الثاني: أن الكفار كانوا قد أتوا بأنواع من القبائح والكبائر، فما السبب في أن خص الله تعالى هذا النوع من الكفر بالذكر في أول الأمر؟ الجواب: لأن رغبة الإنسان في فعل الخيرات وفي ترك المحظورات إنما تكون بسبب أن ينتفع به في الآخرة، فمن أنكر الآخرة، لم يُقْدم على شيء من المستحسنات، ولم يحجم عن شيء من المنكرات، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تنبيه على أنهم فعلوا كل شر وتركوا كل خير.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾

والنوع الثاني من قبائح أفعالهم: قوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ اعلم أن للنفس الناطقة الإنسانية قوتين نظرية وعملية، وكمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ولذلك قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] ﴿هَبْ لِى حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣] إشارة إلى كمال القوة النظرية ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية، فههنا بين الله تعالى رداءة حالهم في الأمرين، أما في القوة العملية فنبه على فسادها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧] أي كانوا مُقْدمين على جميع القبائح والمنكرات، وغير راغبين في شيء

من الطاعات والخيرات. وأما في القوة النظرية فنبه على فسادها بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي كانوا منكرين بقلوبهم للحق ومصرين على الباطل.

وإذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر أنه تعالى بيَّن أنهم كانوا قد بلغوا في الرداءة والفساد إلى حيث يستحيل عقلاً وجود ما هو أَزْيد منه، فلما كانت أفعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة، فثبت بهذا صحة ما قدمه في قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦] فما أعظم لطائف القرآن مع أن الأدوار العظيمة قد استمرت، ولم ينتبه لها أحد، فالحمد لله حمدًا يليق بعلو شأنه وبرهانه على ما خص هذا الضعيف بمعرفة هذه الأسرار.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ يدل على أنهم كَذَّبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن، وذلك يدل على كمال حال القوة النظرية في الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل، وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ أي تكذيبًا وفِعَّال من مصادر التفعيل، وأنشد الزجاج[1]:

لَقَدْ طَالَ مَا رَيَّثَتْنِي عَنْ صحابتي ... وَعَنْ حِوَجٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَائِنَا

من قضَّيت قضَّاء، قال الفراء: هي لغة فصيحة يمانية، ونظيره خرَّقت القميص خِرَّاقًا، وقال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الحلو أحب إليك أم العِصَّار؟ وقال صاحب (الكشاف): كنت أفسر آية فقال بعضهم: لقد فسرتها فِسَّارًا ما سُمع به. وقرئ بالتخفيف وفيه وجوه: **أحدها:** أنه مصدر كَذَّب بدليل قوله:

فَصَدَقْتُهَا أَوْ كَذَبْتُهَا ... وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

وهو مثل قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابًا. **وثانيها:** أن ينصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب. **وثالثها:** أن يجعل الكِذَاب بمعنى المكاذبة، فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة. أو كذبوا بها مكاذبين. لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة. وقرئ أيضًا كذلك وهو جمع كاذب، أي كذبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال رجل كذاب، كقولك حسان وبخال، فيُجعل صفة لمصدر كذبوا، أي تكذيبًا كذابًا مفرطًا كذبه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝٢٩﴾

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن أن فساد حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية بلغ إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات بين أن تفاصيل تلك الأحوال في كميتها وكيفيتها معلومة له، وقدر ما يستحق عليه من العقاب معلوم له، فقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾، **وفيه مسائل:**

---

(١) تقدمت ترجمة الزجاج.

المسألة الأولى: قال الزجاج: (كل) منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ والمعنى: وأحصينا كل شيء. وقرأ أبو السمال: (وكلٌّ) بالرفع على الابتداء.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي علمنا كل شيء كما هو علمًا لا يزول ولا يتبدل، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] واعلم أن هذه الآية تدل على كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، واعلم أن مثل هذه الآية لا تقبل التأويل، وذلك لأنه تعالى ذكر هذا تقريرًا لما ادعاه من قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] كأنه تعالى يقول: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وعالم بجهات تلك الأفعال وأحوالها واعتباراتها التي لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلا قدر ما يكون وفاقًا لأعمالهم. ومعلوم أن هذا القدر إنما يتم لو ثبت كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كان كافرًا قطعًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: تقديره أحصيناه إحصاء، وإنما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة؛ لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم، ولهذا قال عليه السلام: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»(١) فكأنه تعالى قال: وكل شيء أحصيناه إحصاء مساويًا في القوة والثبات والتأكيد للمكتوب، فالمراد من قوله كتابًا تأكيد ذلك الإحصاء والعلم، واعلم أن هذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر، فإن المكتوب يقبل الزوال، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال لأنه واجب لذاته. **القول الثاني**: أن يكون قوله (كتابًا) حالاً في معنى مكتوبًا والمعنى: وكل شيء أحصيناه حال كونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ. كقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] أو في صحف الحفظة.

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال العقاب أولاً، ثم ادعى كونه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] ثم بين تفاصيل أفعالهم القبيحة، وظهر صحة ما ادعاه أولاً من أن ذلك العقاب كان ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:

---

(١) صحيح موقوف: أخرجه الدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من رخص في كتابة العلم) (١/ ١٢٢) حديث رقم (٤٩٧) والبغوي في (شرح السنة) (١/ ٢٣٤) جزء من حديث رقم (١٣٧) من حديث عمر بن الخطاب، والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٠٦) من طريق عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان عن عمر بن الخطاب... به. أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٧٠) حديث رقم (٦٣٧) من طريق عبد الله بن الحسين بن جابر مولى عقيل بن أبي طالب حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك... به. وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٩/ ٢١٢) حديث رقم (١٨٠٩) من طريق عبد الله بن سعد أبو سعد الأنصاري حدثنا إسماعيل بن أويس... به. والخطيب في (أخلاق الراوي) (١/ ٤٩٩) حديث رقم (٤٤٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن عبد الله بن المثني عن ثمامة عن أنس... به. وأورده ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٨٦) وقال: هذا حديث لا يصح مرفوعًا وجاء بالطرق كلها وصفها وصحح وقفه.

٢٦] لا جرم أعاد ذكر العقاب، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ والفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم، فهذا الفاء أفاد عين فائدة قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه: **أحدها**: قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ وكلمة (لن) للتأكيد في النفي. **وثانيها**: أنه في قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧] ذكرهم بالمغايبة وفي قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة، وهذا يدل على كمال الغضب. **وثالثها**: أنه تعالى عَدَّد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عَدَّد فضائحهم، ثم قال: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «**هَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ مَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، كُلَّمَا اسْتَغَاثُوا مِنْ نَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ أُغِيثُوا بِأَشَدَّ مِنْهُ**»، **بقي في الآية سؤالان**:

السؤال الأول: أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] فهنا لما قال لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فقد كلمهم؟ الجواب: قال أكثر المفسرين: تقدير الآية: فيقال لهم: فذوقوا، ولقائل أن يقول: على هذا الوجه لا يليق بذلك القائل أن يقول: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ بل هذا الكلام لا يليق إلا بالله، والأقرب في الجواب أن يقال: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ أي ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، فإن تخصيص العموم غير بعيد لاسيما عند حصول القرينة، فإن قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ إنما ذكره لبيان أنه تعالى لا ينفعهم ولا يقيم لهم وزنًا، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب.

السؤال الثاني: دلت هذه الآية على أنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبدًا، فتلك الزيادة إما أن يقال: إنها كانت مستحقة لهم أو غير مستحقة، فإن كانت مستحقة لهم كان تركها في أول الأمر إحسانًا، والكريم إذا أسقط حق نفسه، فإنه لا يليق به أن يسترجعه بعد ذلك، وأما إن كانت تلك الزيادة غير مستحقة كان إيصالها إليهم ظلمًا وإنه لا يجوز على الله. الجواب: كما أن الشيء يؤثر بحسب خاصية ذاته، فكذا إذا دام ازداد تأثيره بحسب ذلك الدوام، فلا جرم كلما كان الدوام أكثر كان الإيلام أكثر، وأيضًا فتلك الزيادة مستحقة، وتركها في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط، والله أعلم بما أراد.

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد الأخيار وهو أمور:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ ﴾

أولها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أما المتقي فقد تقدم تفسيره في مواضع كثيرة و ﴿مَفَازًا﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى فوزًا وظفرًا بالبغية، ويحتمل أن يكون موضع فوز، والفوز يحتمل أن يكون المراد منه فوزًا بالمطلوب، وأن يكون المراد منه فوزًا بالنجاة من العذاب، وأن

يكون المراد مجموع الأمرين، وعندي أن تفسيره بالفوز بالمطلوب أَوْلى من تفسيره بالفوز بالنجاة من العذاب، ومن تفسيره بالفوز بمجموع الأمرين، أعني النجاة من الهلاك والوصول إلى المطلوب، وذلك لأنه تعالى فسر المفاز بما بعده وهو قوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ فوجب أن يكون المراد من المفاز هذا القدر. فإن قيل: الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة، فلمَ أهمل الأهم وذكر غير الأهم؟ قلنا: لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز باللذة والخير، أما الفوز باللذة والخير فيستلزم الخلاص من الهلاك، فكان ذكر هذا أَوْلى.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ والحدائق جمع حديقة، وهي بستان محوط عليه، من قولهم: أحدقوا به، أي أحاطوا به، والتنكير في قوله: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ يدل على تعظيم حال تلك الأعناب.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ كواعب جمع كاعب وهي النواهد التي تكعبت ثديهن وتفلكت، أي يكون الثدي في النتوء كالكعب والفلكة.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾﴾ **وفي الدهاق أقوال:**

الأول: -وهو قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد- ﴿دِهَاقٗا﴾ أي ممتلئة، دعا ابن عباس غلامًا له فقال: اسقنا دهاقًا. فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس: هذا هو الدهاق. قال عكرمة، ربما سمعت ابن عباس يقول: اسقنا وادهق لنا.

القول الثاني: ﴿دِهَاقٗا﴾ أي متتابعة، وهو قول أبي هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد، قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: (أدهقت الحجارة إدهاقًا) وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض، ذكرها الليث والمتتابع كالمتداخل.

القول الثالث: يروى عن عكرمة أنه قال: ﴿دِهَاقٗا﴾ أي صافية، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر، التقدير. وخمرًا ذات دهاق، أي عُصرت وصُفيت بالدهاق.

وخامسها: قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، **في الآية سؤالان:**

الأول: الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ إلى ماذا يعود؟ الجواب فيه قولان: **الأول:** أنها ترجع إلى الكأس، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم، ولم يتكلموا بلغو. **والثاني:** أن الكناية ترجع إلى الجنة، أي لا يسمعون في الجنة شيئًا يكرهونه.

السؤال الثاني: الكذاب بالتشديد يفيد المبالغة، فوروده في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ [النبا: ٢٨] مناسب لأنه يفيد المبالغة في وصفهم بالكذب، أما وروده ههنا فغير لائق؛ لأن قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ يفيد أنهم لا يسمعون الكذب العظيم، وهذا لا ينفي أنهم يسمعون الكذب القليل، وليس مقصود الآية ذلك بل المقصود المبالغة في أنهم لا يسمعون الكذب ألبتة،

والحاصل أن هذا اللفظ يفيد نفي المبالغة واللائق بالآية المبالغة في النفي. والجواب: أن الكسائي قرأ الأول بالتشديد والثاني بالتخفيف، ولعل غرضه ما قررناه في هذا السؤال؛ لأن قراءة التخفيف ههنا تفيد أنهم لا يسمعون الكذب أصلاً؛ لأن الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لأن أبا علي الفارسي قال: كِذَاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب، فإذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة في النفي، وقراءة التشديد في الأول تفيد المبالغة في الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة في الموضعين على أكمل الوجوه، فإن أخذنا بقراءة الكسائي فقد زال السؤال، وإن أخذنا بقراءة التشديد في الموضعين وهي قراءة الباقين، فالعذر عنه أن قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد، والحاصل أن النعم الواصلة إليهم تكون خالية عن زحمة أعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾

ثم إنه تعالى لما عَدَّد أقسام نعيم أهل الجنة قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: المعنى جازاهم بذلك جزاء، وكذلك عطاء لأن معنى جازاهم وأعطاهم واحد.

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أنه تعالى جعل الشيء الواحد جزاء وعطاء، وذلك محال لأن كونه جزاء يستدعي ثبوت الاستحقاق، وكونه عطاء يستدعي عدم الاستحقاق والجمع بينهما متنافٍ والجواب عنه: لا يصح إلا على قولنا، وهو أن ذلك الاستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد، لا من حيث إن الفعل يوجب الثواب على الله، فذلك نظرًا إلى الوعد المترتب على ذلك الفعل يكون جزاء، ونظرًا إلى أنه لا يجب على الله لأحد شيء يكون عطاء.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿حِسَابًا﴾ فيه وجوه: الأول: أن يكون بمعنى كافيًا، مأخوذ من قولهم: أعطاني ما أحسبني، أي ما كفاني، ومنه قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، أي كفاني من سؤالي، ومنه قوله:

فما حَلَلْتُ بِهِ ضَمَّني فَأَوْلَى جَمِيلاً وَأَعْطَى حِسَابَا

أي أعطى ما كفى والوجه الثاني: أن قوله: (حسابًا) مأخوذ من حسبت الشيء إذا أعددته وقَدَّرته، فقوله: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي بقدر ما وجب له فيما وعده من الإضعاف؛ لأنه تعالى قَدَّر الجزاء على ثلاثة أوجه، وجه منها على عشرة أضعاف، ووجه على سبعمائة ضعف، ووجه على ما لا نهاية له، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، الوجه الثالث: -وهو قول ابن قتيبة-: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي كثيرًا، وأحسبت فلانًا، أي أكثرت له، قال الشاعر:

وَنُقْفِي وَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا ... وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعِ

الوجه الرابع: أنه سبحانه يوصل الثواب الذي هو الجزاء إليهم، ويوصل التفضل الذي يكون زائدًا على الجزاء إليهم، ثم قال: ﴿حِسَابًا﴾ ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب. **الوجه الخامس:** أنه تعالى لما ذكر في وعيد أهل النار: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] ذكر في وعد أهل الجنة جزاء عطاء حسابًا، أي راعيت في ثواب أعمالكم الحساب؛ لئلا يقع في ثواب أعمالكم بخس ونقصان وتقصير، والله أعلم بمراده.

المسألة الرابعة: قرأ ابن قطيب: (حَسَّابًا) بالتشديد على أن الحَسَّاب بمعنى المُحِسب كالدراك بمعنى المُدرِك، هكذا ذكره صاحب (الكشاف).

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بالغ في وصف وعيد الكفار ووعد المتقين، ختم الكلام في ذلك بقوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: (رب السموات والرحمن) فيه ثلاثة أوجه من القراءة: الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، والجر فيهما وهو قراءة عاصم وعبد الله بن عامر، والجر في الأول مع الرفع في الثاني، وهو قراءة حمزة والكسائي.

وفي الرفع وجوه: **أحدها:** أن يكون رب السموات مبتدأ، والرحمن خبره، ثم استؤنف لا يملكون منه خطابًا. **وثانيها:** رب السموات مبتدأ، والرحمن صفة، ولا يملكون خبره. **وثالثها:** أن يضمر المبتدأ والتقدير (هو ربُّ السموات والأرض)، (هو الرحمن) ثم استؤنف: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ **ورابعها:** أن يكون (الرحمن) و (لا يملكون) خبرين. وأما وجه الجر فعلى البدل (من ربك)، وأما وجه جر الأول ورفع الثاني فجرَ الأول بالبدل من ربك، والثاني مرفوع بكونه مبتدأ وخبره لا يملكون.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿يَمْلِكُونَ﴾ إلى من يرجع؟ فيه ثلاثة أقوال: **الأول:** نقل عطاء عن ابن عباس أنه راجع إلى المشركين، يريد لا يخاطب المشركون، أما المؤمنون فيشفعون يقبل الله ذلك منهم. **والثاني:** قال القاضي: إنه راجع إلى المؤمنين، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور؛ لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور، ثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفار عدل، وأن الثواب الذي أوصله إلى المؤمنين عدل، وأنه ما يخسر حقهم، فبأي سبب يخاطبونه؟! وهذا القول أقرب من الأول لأن الذي جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين لا ذكر الكفار. **والثالث:** أنه ضمير لأهل السموات والأرض، وهذا هو الصواب، فإن أحدًا من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته، وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام لأنه نفى الملك والذي يحصل بفضله وإحسانه، فهو غير مملوك، فثبت أن هذا

السؤال غير لازم. والذي يدل من جهة العقل على أن أحدًا من المخلوقين لا يملك خطاب الله.
وجوه الأول: وهو أن كل ما سواء فهو مملوكه والمملوك لا يستحق على مالكه شيئًا. **وثانيها:** أن معنى الاستحقاق عليه هو أنه لو لم يفعل لاستحق الذم. ولو فعله لاستحق المدح، وكل من كان كذلك كان ناقصًا في ذاته، مستكملاً بغيره، وتعالى الله عنه. **وثالثها:** أنه عالم بقبح القبيح، عالم بكونه غنيًّا عنه، وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح، وكل من امتنع كونه فاعلاً للقبيح، فليس لأحد أن يطالبه بشيء، وأن يقول له: لِمَ فعلت؟ والوجهان الأولان مفرعان على قول أهل السنة، والوجه الثالث يتفرع على قول المعتزلة، فثبت أن أحدًا من المخلوقات لا يملك أن يخاطب ربه ويطالب إلهه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أحدًا من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله في شيء أو يطالبه بشيء، قرر هذا المعنى وأكده فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾.

وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدرًا ورتبة، وأكثر قدرة ومكانة، فبَيَّن أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفًا منه وخضوعًا له، فكيف يكون حال غيرهم؟!

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لمن يقول بتفضيل الملك على البشر أن يتمسك بهذه الآية، وذلك لأن المقصود من الآية أن الملائكة لما بقوا خائفين خاضعين وجلين متحيرين في موقف جلال الله، وظهور عزته وكبريائه، فكيف يكون حال غيرهم؟! ومعلوم أن هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كانوا أشرف المخلوقات.

المسألة الثانية: اختلفوا في الروح في هذه الآية: فعن ابن مسعود أنه مَلَكٌ أعظم من السموات والجبال. وعن ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقًا. وعن مجاهد: خَلْق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون، وليس بناس. وعن الحسن وقتادة: هم بنو آدم. وعلى هذا معناه ذو الروح، وعن ابن عباس: أرواح الناس. وعن الضحاك والشعبي: هو جبريل عليه السلام. وهذا القول هو المختار عند القاضي، قال: لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام، وثبت أن القيام صحيح من جبريل، والكلام صحيح منه، ويصح أن يؤذن له فكيف يُصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام.

أما قوله: ﴿ صَفًّا ﴾ فيحتمل أن يكون المعنى أن الروح على الاختلاف الذي ذكرناه، وجميع الملائكة يقومون صفًا واحدًا، ويجوز أن يكون المعنى يقومون صفين، ويجوز صفوفًا، والصف

في الأصل مصدر فينبئ عن الواحد والجمع، وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، فيقوم الروح وحده صفًا، وتقوم الملائكة كلهم صفًا واحدًا، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم، وقال بعضهم: بل يقومون صفوفًا لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

المسألة الثالثة: الاستثناء إلى من يعود؟ **فيه قولان**:

أحدهما: إلى الروح والملائكة، وعلى هذا التقدير؛ الآية دلت على أن الروح والملائكة لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين: إحدهما: حصول الإذن من الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والمعنى أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله.

والشرط الثاني: أن يقول صوابًا، فإن قيل: لما؟؟ أذن له الرحمن في ذلك القول، علم أن ذلك القول صواب لا محالة، فما الفائدة في قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟ والجواب من وجهين: **الأول**: أن الرحمن أذن له في مطلق القول، ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب، فكأنه قيل: إنهم لا ينطقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد ورود ذلك الإذن يجتهدون ولا يتكلمون إلا بالكلام الذي يعلمون أنه صدق وصواب، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة والعبودية. **الوجه الثاني**: أن تقديره: لا يتكلمون إلا في حق ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ والمعنى لا يشفعون إلا في حق شخص أذن له الرحمن في شفاعته، وذلك الشخص كان ممن قال صوابًا. واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على أنهم يشفعون للمذنبين لأنهم قالوا صوابًا وهو شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يكفي في صدقه أن يكون قد قال صوابًا واحدًا، فكيف بالشخص الذي قال القول الذي هو أصوب الأقوال وتكلم بالكلام الذي هو أشرف الكلمات؟!

القول الثاني: أن الاستثناء غير عائد إلى الملائكة فقط بل إلى جميع أهل السموات والأرض، والمقول الأول أَوْلى لأن عود الضمير إلى الأقرب أَوْلى.

واعلم أنه تعالى لما قرر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب، وقرر عظمة يوم القيامة قال بعده:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ ذلك إشارة إلى تقدم ذكره، وفي وصف اليوم بأنه حق وجوه: **أحدها**: أنه يحصل فيه كل الحق، ويندمغ كل باطل، فلما كان كاملًا في هذا المعنى قيل: إنه حق، كما يقال: (فلان خير كله) إذا وُصف بأن فيه خيرًا كثيرًا، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ يفيد أنه هو اليوم الحق وما عداه باطل؛ لأن أيام الدنيا باطلها أكثر من حقها. **وثانيها**: أن الحق هو الثابت الكائن، وبهذا المعنى يقال: إن الله حق، أي هو ثابت لا يجوز عليه الفناء، ويوم القيامة

كذلك فيكون حقًّا. **وثالثها:** أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يستحق أن يقال له يوم؛ لأن فيه تُبلى السرائر وتنكشف الضمائر، وأما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتومة، والأحوال فيها غير معلومة.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مرجعًا، والمعتزلة احتجوا به على الاختيار والمشيئة، وأصحابنا رووا عن ابن عباس أنه قال: المراد فمن شاء الله به خيرًا هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبًا.

ثم إنه تعالى زاد في تخويف الكفار فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني العذاب في الآخرة، وكل ما هو آتٍ قريب، و(هو) كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وإنما سماه إنذارًا؛ لأنه تعالى بهذا الوصف قد خَوَّف منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما في قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فيه وجهان: **الأول:** أنها استفهامية منصوبة بقَدَّمَتْ، أي ينظر أي شيء قدمت يداه. **الثاني:** أن تكون بمعنى الذي وتكون منصوبة ينتظر، والتقدير: ينظر إلى الذي قدمت يداه. إلا أن على هذا التقدير حصل فيه حذفان أحدهما: أنه لم يقل: قدمته، بل قال: ﴿قَدَّمَتْ﴾ فحذف الضمير الراجع. الثاني: أنه لم يقل: ينظر إلى ما قدمت، بل قال: ينظر ما قدمت، يقال نظرته، بمعنى نظرت إليه.

المسألة الثانية: في الآية ثلاثة أقوال: **الأول:** وهو الأظهر أن المرء عام في كل أحد؛ لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين، فليس له إلا الثواب العظيم، وإن كان قدم عمل الكافرين، فليس له إلا العقاب الذي وصفه الله تعالى، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين في أمر سوى هذين، فهذا هو المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فطوبى له إن قدم عمل الأبرار، وويل له إن قدم عمل الفجار. **والقول الثاني:** وهو قول عطاء: أن المرء ههنا هو الكافر؛ لأن المؤمن كما ينظر إلى ما قدمت يداه، فكذلك ينظر إلى عفو الله ورحمته، وأما الكافر الذي لا يرى إلا العذاب، فهو لا يرى إلا ما قدمت يداه؛ لأن ما وصل إليه من العقاب ليس إلا من شؤم معاملته. **والقول الثالث:** وهو قول الحسن وقتادة أن المرء ههنا هو المؤمن. واحتجوا عليه بوجهين **الأول:** أنه تعالى قال بعد هذه الآية، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ فلما كان هذا بيانًا لحال الكافر، وجب أن يكون الأول بيانًا لحال المؤمن. **والثاني:** وهو أن المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من الله تعالى على خوف ورجاء، فينتظر كيف يحدث الحال، أما الكافر فإنه قاطع بالعقاب، فلا يكون له انتظار أنه كيف يحدث الأمر، فإن مع القطع لا يحصل الانتظار.

المسألة الثالثة: القائلون بأن الخير يوجب الثواب والشر يوجب العقاب تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: لولا أن الأمر كذلك، وإلا لم يكن نظر الرجل في الثواب والعقاب على عمله بل على

شيء آخر. والجواب عنه: أن العمل يوجب الثواب والعقاب، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ ففيه وجوه: **أحدها:** أن يوم القيامة ينظر المرء أي شيء قدمت يداه، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصي، على ما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الكافر فلا يتوقع العفو، على ما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي لم يكن حيًّا مكلفًا. **وثانيها:** أنه كان قبل البعث ترابًا، فالمعنى على هذا: يا ليتني لم أُبعث للحساب، وبقيت كما كنت ترابًا. كقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] **وثالثها:** أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة: (كوني ترابًا) فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم في أن يصير ترابًا، ويتخلص من عذاب الله.

وأنكر بعض المعتزلة ذلك. وقال: إنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوض وبين متفضل عليه، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن المنافع؛ لأن ذلك كالإضرار بها، ولا يجوز ذلك في الآخرة. ثم إن هؤلاء قالوا: إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابًا لأهل الجنة، وما كان قبيح الصورة عقابًا لأهل النار، قال القاضي: ولا يمتنع أيضًا إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضررًا. **ورابعها:** ما ذكره بعض الصوفية فقال: قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ معناه يا ليتني كنت متواضعًا في طاعة الله، ولم أكن متكبرًا متمردًا. **وخامسها:** الكافر إبليس، يرى آدم وولده وثوابهم، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] والله أعلم بمراده وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحب.

سورة «عَمَّ» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهي

أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ «عَمَّ» لَفْظُ استفهامٍ؛ ولذلك سَقَطَت منها ألفُ «ما» ليتميَّز الخبرُ عن الاستفهام. وكذلك: «فيمَ، وممَّ» إذا استَفْهَمْتَ. والمعنى: عن أيِّ شيءٍ يَسألُ بعضُهم بعضاً. وقال الزجَّاج[1]: أصلُ «عَمَّ»: عن ما، فأُدغِمت النونُ في الميم؛ لأنَّها تُشارِكُها في الغُنَّة.

والضميرُ في «يتساءلون» لقريش. ورَوى أبو صالح عن ابن عباس قال: كانت قريشٌ تجلسُ لمَّا نزل القرآنُ فتتحدَّثُ فيما بينها، فمنهم المُصَدِّقُ ومنهم المكذِّبُ به، فنزلت «عَمَّ يَتَساءلونَ».

وقيل: «عمَّ» بمعنى: فيم يتشدَّدُ المشركون ويختَصِمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، فـ«عن» ليس تَتعلَّقُ بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنَّه كان يَلزمُ دخولُ حرفِ الاستفهام فيكون «عن النبإِ العظِيم» كقولك: كم مالُك، أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لِمَا ذكرناه من امتناعِ تَعَلُّقِه بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنَّما يتعلَّقُ بيتساءلون آخَرَ مُضمَرٍ. وحَسُنَ ذلك لتقدُّمِ «يتساءلون»؛ قاله المَهْدويّ.

وذكر بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الاستفهامَ في قوله: «عن» مكرَّرٌ، إلَّا أنه مضمَرٌ، كأنه

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧١.

قال: عمَّ يتساءلون، أعن النبأ العظيم؟ فعلى هذا يكون متَّصلاً بالآية الأولى[١].

و«النبأ العظيم» أي: الخبر الكبير.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: يخالفُ فيه بعضُهم بعضاً، فيصدِّق واحدٌ ويكذِّبُ آخرُ، فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن[٢]، دليلُه قولُه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨] فالقرآنُ نبأٌ وخبرٌ وقَصَصٌ، وهو نبأٌ عظيمُ الشأن.

ورَوى سعيد عن قتادةَ قال: هو البعثُ بعد الموتِ، صار الناسُ فيه رجلين: مصدِّق ومكذِّب[٣].

وقيل: أمْر النبيِّ ﷺ. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: وذلك أنَّ اليهود سألوا النبيَّ ﷺ عن أشياء كثيرة؛ فأخبره الله جلَّ ثناؤه باختلافهم، ثم هدَّدهم فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: سيَعْلَمون عاقبةَ القرآن، أو سيعلمون البعثَ: أحقٌّ هو أم باطلٌ.

و«كلَّا» ردٌّ عليهم في إنكارهم البعثَ أو تَكذيبهم القرآنَ، فيوقَفُ عليها. ويَجوزُ أن يكون بمعنى: حقًّا، أو: ألَا، فيُبدأ بها.

والأَظْهَرُ أنَّ سؤالَهم إنَّما كان عن البعث؛ قال بعضُ علمائنا[٤]: والذي يدلُّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا يتساءلون عن البعث.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقًّا لَيَعْلَمُون[٥] صِدْقَ ما جاء به محمدٌ ﷺ من القرآن، وممَّا ذَكَرَه لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحَّاك: «كلَّا سيعلمون» يعني الكافرين عاقبةَ تَكْذيبِهم، «ثم كلَّا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبةَ تَصديقِهم[٦]. وقيل: بالعكس

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٤ .

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦-٧ .

(٤) هو الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٧١ .

(٥) كذا في النسخ، ولعل الصواب: ليعلمنَّ.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨ .

أيضاً. وقال الحسن: هو وعيدٌ بعد وعيدٍ[١]. وَقراءةُ العامَّةِ فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: «يتساءلون»، وقولِه: «هم فيه مختلِفون». وقرأ الحسن وأبو العاليةِ ومالك بنُ دينار بالتاء فيهما[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾: دلَّهم على قُدْرَته على البعث، أي: قُدْرتُنا على إيجادِ هذه الأمور أعْظَمُ من قدرتنا على الإعادة. والمِهادُ: الوطاءُ والفِراش. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]. وقُرِئَ: «مَهْداً»[٣]، ومعناه: أنَّها لهم كالمهدِ للصَّبيِّ، وهو ما يُمهَدُ له فينوَّمُ عليه.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: لتَسْكُنَ ولا تتكفَّأَ ولا تَميلَ بأهلها. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً: ذَكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخلُ في هذا كلُّ زوجٍ؛ من قبيحٍ وحَسَنٍ، وطويلٍ وقصيرٍ؛ لتختلفَ الأحوالُ فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضلُ ويصبر المفضول.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ «جعلنا» معناه: صَيَّرنا؛ ولذلك تعدَّتْ إلى مفعولَين. ﴿سُبَاتًا﴾ المفعولُ الثاني، أي: راحةً لأبدانكم، ومنه يومُ السَّبْتِ، أي: يومُ الراحة، أي: قيل لبني إسرائيلَ: استريحوا في هذا اليوم، فلا تَعمَلوا فيه شيئاً. وأنكر ابنُ الأنباريِّ هذا وقال: لا يُقالُ للراحةِ سُبَات[٤]. وقيل: أصلُه التمدُّد؛ يقال: سَبَتَتِ المرأةُ شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، فالسُّبَاتُ كالمدِّ، ورجلٌ مسبوتُ الخَلْق، أي: ممدود. وإذا أراد

(١) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٣.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧ عن مجاهد وعيسى الهمداني.
(٤) بنحوه في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٨٦.

الرجلُ أن يستريح تَمدَّدَ، فسمِّيت الراحةُ سَبْتاً. وقيل: أصلُه القَطْعُ؛ يقال: سَبَتَ شعرَه سَبتاً: حَلَقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّباتُ يشبه الموتَ، إلَّا أنه لم تُفارِقْه الروح. ويقال: سَيْرٌ سَبتٌ: أي سهلٌ لين؛ قال الشاعر:

وَمـطْـوِيَّـةُ الأقـرابِ أمَّـا نـهـارُهـا فَـسَـبْـتٌ وأمَّـا لـيـلُـهـا فـذَمِـيـلُ[1]

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: تَلبَسُكم ظُلمتُه وتَغْشاكم؛ قاله الطبريُّ[2]. وقال ابن جُبير والسُّدِّيُّ: أي: سَكناً لكم[3].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فيه إضمارٌ، أي: وقتَ مَعَاشٍ، أي: مُتَصَرَّفاً لِطَلَبِ المعاشِ، وهو كلُّ ما يُعاشُ به من المَطعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِ ذلك، فـ«معاشاً» على هذا اسمُ زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوزُ أن يكون مصدراً بمعنى العيش، على تقدير حَذْفِ المُضاف.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماواتٍ مُحكَماتٍ، أي: مُحْكَمة الخَلْقِ وثيقة البنيان.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وَقَّاداً، وهي الشمس. وجَعَلَ هنا بمعنى خَلَق؛ لأنها تَعدَّتْ لمفعولٍ واحد، والوهَّاج الذي له وَهَج؛ يقال: وَهَجَ يَهِجُ وَهْجاً ووَهَجاً ووَهَجاناً. ويقال للجوهر إذا تَلألأَ: تَوَهَّج. وقال ابنُ عباس: وهَّاجاً: منيراً مُتلألئاً[4].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: والمعصِراتُ: الرياح. وقاله

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١١٦ ، وإصلاح المنطق ص١١ ، وجمهرة اللغة ١/ ١٩٥ . قال ابن دريد: السبت ضرب من سير الإبل، والذميل: ضرب من السير أيضاً. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٦٨ : يريد أنها تسير سبتاً في نهارها وذميلاً في ليلها، والذَّميل أشد من السبت. ومطوية رفع عُطف على مرفوع متقدم. والأقراب: الخواصر.

(٢) في التفسير ٢٤/ ٩ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١ .

ابن عباس[١]. كأنَّها تَعْصِرُ السَّحاب.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها السحابُ. وقال سفيان والربيع وأبو العاليةِ والضحَّاكُ: أي: السحائبُ التي تَنْعصِرُ بالماء ولمَّا تُمْطِرْ بَعدُ، كالمرأةِ المُعصِرِ التي قد دنا حَيْضُها ولم تَحِض[٢]، قال أبو النجم[٣]:

فكان مِجَنِّي دون مَن كنتُ أتَّقي ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَان ومُعصِرُ[٤]

وقال آخر:

وذِي أُشُرٍ كالأُقحُوانِ يَزِينُهُ ذِهابُ الصَّبَا والمُعصِراتُ الرَّوائِحُ[٥]

فالرياح تسمَّى مُعصِرات؛ يقال: أعصَرَت الريح تُعصِرُ إعصاراً؛ إذا أثارت العجاجَ، وهي الإعصار، والسُّحبُ أيضاً تسمَّى المُعصِرات لأنَّها تُمْطِر.

وقال قتادةُ أيضاً: المُعصِراتُ: السماء[٦].

النَّحاس: هذه الأقوالُ صحاحٌ؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر: مُعْصِرات، والرياحُ تُلقِحُ السَّحابَ، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوزُ أن تكون الأقوال واحدةً، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذواتِ الرياحِ المُعْصِرات ماءً ثَجَّاجاً. وأصحُّ الأقوالِ أنَّ المعصراتِ: السحاب. كذا المعروفُ أنَّ الغيث منها. ولو

---

(١) أخرج قولهم أحمد كما في مسائل ابنه صالح ٢/٥٨-٦٠ ، والطبري ٢٤/١٢ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٣٧ ، وأخرجه عن ابن عباس وسفيان والربيع الطبري ٢٤/١٣ .

(٣) كذا في النسخ، والصواب عمر بن أبي ربيعة، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٦ . قوله: مجنِّي، المِجن: الترس، يريد أنه استتر بثلاث نسوة عن أعين الرقباء، والكاعب التي نَهَدَ ثديها. ينظر شرح الزرقاوي على موطأ مالك ٤/ ١٥٤ .

(٥) البيت للبعيث، كما في تهذيب اللغة ٢/١٦ ، والصحاح (ذهب)، واللسان (عصر)، والخزانة ٨/ ٥١١ ، وهو في هذه المصادر برواية: تشوفه، بدل: يزينه، والدوالح، بدل: الروائح. قال الأزهري: الدوالح هي السحاب التي أثقلها الماء فهي تدلح، أي: تمشي مَشْيَ المثقل، والذِّهاب: الأمطار. اهـ. والأُقْحوان: البابونج. القاموس (قحو).

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٢ ، والطبري ٢٤/ ١٣ .

كان: بالمعُصِرات، لكان الريح أَوْلَى[١].

وفي «الصِّحَاح»: والمُعْصِراتُ: السحائبُ تعتصر بالمطر. وأُعصِر القومُ، أي: أُمْطِروا، ومنه قرأ بعضُهم: «وفيه يُعْصَرون»[٢] [يوسف:٤٩]. والمُعْصِرُ: الجاريةُ أول ما أدْركَتْ وحاضَتْ؛ يقال: قد أَعْصَرتْ، كأنها دَخَلتْ عَصْرَ شبابِها أو بلغَته، قال الرَّاجزُ:

جـارِيـةٌ بِسَـفَـوانَ دارُهـا تَمشي الهُوَيْنَى ساقِطاً خِمَارُها

قد أَعْصَرتْ أو قَدْ دَنا إعصارُها[٣]

والجمعُ: مَعَاصِر. ويقال: هي التي قارَبت الحيض؛ لأنَّ الإعصار في الجارية كالمراهَقَةِ في الغلام. سمعتُه من أبي الغَوْثِ الأعرابيِّ[٤].

قال غيره: والمُعْصِرُ: السحابةُ التي حان لها أن تُمْطِر؛ يقال: أَجَزَّ الزرعُ فهو مُجِزٌّ، أي: صار إلى أنْ يُجزَّ، وكذلك السحابُ إذا صار إلى أن يُمطِر فقد أَعْصَر[٥]. وقال المبرِّد: يقال: سحابٌ مُعصِر، أي: مُمسِكٌ للماء، ويُعتَصَر منه شيءٌ بعد شيءٍ، ومنه: العَصَر ـ بالتحريك ـ للملجأ الذي يُلْجَأُ إليه، والعُصرةُ بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة يوسف[٦]، والحمدُ لله. وقال أبو زبيد:

صـادِيـاً يـسـتـغِـيـثُ غـيـر مُـغـاثٍ ولـقـدْ كـان عُـصـرةَ الـمـنـجـودِ[٧]

ومنه: المُعصِرُ للجارية التي قد قَرُبتَ من البلوغ؛ يقال لها: مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس

(١) الكلام بنحوه مختصراً في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٤ ، وينظر ما سلف ١١/ ٣٧٠ .

(٣) الصحاح (عصر)، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٥٤ لمنظور بن مرثد الأسدي، وهو بلا نسبة في العين ١/ ٢٩٥ ، وتهذيب اللغة ٢/ ١٧ . وسَفَوان بفتح أوله وثانيه، ماء على قَدْر مرحلة من باب المربد بالبصرة. معجم البلدان ٣/ ٢٢٥ .

(٤) الصحاح (عصر).

(٥) زاد المسير ٩/ ٦ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢ ، وتهذيب اللغة ٢/ ١٦ .

(٦) ١١/ ٣٦٩-٣٧٠ .

(٧) سلف ١١/ ٣٧٠ ، وأبو زبيد هو حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة.

في البيت، فيكون البيت لها عَصَراً.

وفي قراءةِ ابن عباس وعِكرمةَ: «وأَنزلنا بِالمعصِراتِ»[١]. والذي في المصاحف: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال أبيّ بن كعب والحسنُ وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بنُ حيان: «مِن المعصِراتِ»، أي: من السماوات[٢].

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ صباباً متتابعاً؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما[٣]. يقال: ثَجَجْتُ دَمَه فأنا أَثُجُّه ثَجًّا، وقد ثجَّ الدَّمُ يَثُجُّ ثُجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازِمٌ ومتعدٍّ، والثَّجَاجُ في الآية: المنصَبُّ. وقال الزجَّاج: أي: الصَّبَّاب[٤]، وهو متعدٍّ كأنه يَثُجُّ نفسَه، أي: يَصُبّ. وقال عَبيد بن الأبرص:

فثَجَّ أعلاه ثم ارتَجَّ أسفلُه   وضاقَ ذَرعاً بِحملِ الماءِ مُنصاحِ[٥]

وفي حديث النبيِّ ﷺ أنه سُئلَ عن الحجِّ المبرور فقال: «العَجُّ والثَّجُّ»[٦] فالعجُّ: رَفْعُ الصوتِ بالتلبية، والثجُّ: إراقةُ الدماءِ وذبحُ الهدايا. وقال ابن زيد: ثجَّاجاً كثيراً[٧]. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغيرِ ذلك ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الأبِّ، وهو ما تأكلُه الدوابُّ من الحشيش. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٣٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤ وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٧، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ١٣، وسلف هذا القول عن قتادة.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ١٤-١٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢.

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٣، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢/ ٢٢٠، ومختارات ابن الشجري ٢/ ٤٨. وهو في هذه المصادر برواية: فالتج أعلاه. والبيت برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ١٨٤. وقوله: منصاح، أي: منشق بالماء، في اللسان (صوح): يقال: صاحه يصوحه فهو منصاح: إذا شقَّه.

(٦) سلف ٥/ ٢٢٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥.

﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفَّةً بعضُها ببعضٍ لتَشَعُّب أغصانها، ولا واحدَ له كالأوْزاع، والأخياف[1]. وقيل: واحدُ الألفافِ لِفٌّ بالكسر، ولُفٌّ بالضم؛ ذكره الكسائيُّ[2]، قال:

جنةٌ لفٌّ وعيشٌ مُغْدِق ونَدامَى كلُّهم بِيضٌ زُهُرْ[3]

وعنه أيضاً وأبي عبيدةَ: لفيفٌ، كشريفٍ وأشراف[4].

وقيل: هو جمعُ الجمع؛ حكاه الكسائيُّ. يقال: جنةٌ لَفَّاءُ ونَبْتٌ ألَفُّ، والجمعُ: لُفٌّ بضم اللام، مثل: حُمْر، ثم يُجمع اللُّفُّ ألفافاً[5].

الزمخشري[6]: ولو قيل: جمع مُلْتفَّة، بتقديرِ حذفِ الزوائدِ لكان وجيهاً. ويقال: شجرةٌ لَفَّاءُ وشَجرٌ لُفٌّ، وامرأةٌ لفَّاءُ، أي: غليظةُ الساقِ مجتمعةُ اللَّحم.

وقيل: التقدير: ونُخرجُ به جناتٍ ألفافاً، فحذف لدلالةِ الكلام عليه. ثم هذا الالتفافُ والانضمامُ معناه أنَّ الأشجار في البساتين تكونُ متقارِبة، فالأغصانُ[7] من كلِّ شجرةٍ متقاربةٌ لقوَّتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: وقتاً ومَجمعاً وميعاداً للأوَّلين

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٨. الأوزاع: الجماعات المتفرقة. والأخياف: الضروب المختلفة في الأشكال والأخلاق، والإخوة لأم واحدة من آباء شتى. معجم متن اللغة (وزع) و(خيف).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ٩.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٨.

(٤) ذكره عن الكسائي ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، ولم نقف عليه في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٠٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٥.

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٠٨.

(٧) في (د): الأغصان.

والآخِرين؛ لمَا وَعَد الله من الجزاء والثواب. وسمِّي يومَ الفَصلِ لأنَّ الله تعالى يَفْصِلُ فيه بين خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي: إلى موضع العَرْضِ ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أُمماً. كلُّ أمَّةٍ مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعاتٍ. الواحد: فوجٌ. ونَصَبَ يوماً بدلاً من اليوم الأول.

ورُوي من حديث معاذ بنِ جبل: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال النبيُّ ﷺ: «يا معاذ، لقد سألتَ عن أمرٍ عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَرُ عشرةُ أصنافٍ من أمَّتي أشتاتاً قد مَيَّزهم الله تعالى من جماعاتِ المسلمين، وبدَّل صُورَهم، فمنْهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورةِ الخنازير، وبعضُهم مُنكَّسون: أرجُلُهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُمْيٌ يتردَّدون، وبعضُهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يَمضغون ألسنتَهم، فهي مُدلَّاةٌ على صدورهم، يسيلُ القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذَّرُهم أهلُ الجمع، وبعضُهم مقطَّعةٌ أيديهم وأرجلُهم، وبعضُهم مُصَلَّبون على جذوعٍ من النار، وبعضُهم أشدُّ نتْناً من الجيف، وبعضُهم مُلبَسون جلابيبَ سابغةً من القَطِران لاصقةً بجلودهم. فأمَّا الذين على صورة القردة: فالقَتَّات من الناس ـ يعني النَّمَّام ـ وأمَّا الذين على صورة الخنازير: فأهلُ السُّحْت والحرام والمَكْس. وأمَّا المنكّسون رؤوسهم ووجوههم: فأكلَةُ الربا، والعُمْيُ: مَن يَجورُ في الحكم، والصم البكم: الذين يُعجَبون بأعمالهم. والذي يمضغون ألسنتَهم: فالعلماءُ والقُصَّاص الذين يخالفُ قولَهم فِعْلُهم. والمقطَّعةُ أيديهم وأرجلُهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلّبون على جذوع النار: فالسُّعاةُ بالناس إلى السلطان. والذين هم أشدُّ نَتناً من الجِيف: فالذين يتمتَّعون بالشهوات واللَّذات، ويمنعون حقَّ الله من أموالهم. والذين يُلْبَسون الجلابيب: فأهلُ الكِبرِ والفَخْرِ والخيَلاء»[(١)].

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه: كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١. وفي إسناده حنظلة السدوسي، قال عنه أحمد: منكر الحديث يحدث بأعاجيب. وقال ابن معين: ليس بشيء تغيَّر في آخر عمره. الميزان ٧/ ٦٢١.

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: لنزولِ الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقيل: تَقطَّعتْ، فكانت قِطعاً كالأبواب، فانتصابُ الأبوابِ على هذا التأويل بحذفِ الكاف.

وقيل: التقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ؛ لأنها تصير كلّها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل: تنحلُّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبوابٌ. وقيل: إنَّ لكلِّ عبدٍ بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب.

وفي حديث الإسراء: «ثُم عرج بنا إلى السماء، فاستَفْتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: وقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا»(١).

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: لا شيء، كما أنَّ السراب كذلك: يظنُّه الرائي ماءً وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت»: نُسِفتْ من أصولها. وقيل: أُزيلَتْ عن مواضعها(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: مِفعال من الرَّصَد، والرَّصَد: كلُّ شيءٍ كان أمامك. قال الحسن: إنَّ على النار رَصَدًا، لا يدخل أحدٌ الجنةَ حتى يجتازَ عليه، فَمَن جاء بجوازٍ جاز، ومَن لم يَجِئْ بجوازٍ حُبِس. وعن سُفيان ﷺ قال: عليها ثلاثُ قَناطِر(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٠٤)، والبخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٨٥.

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٠-٢١.

وقيل: «مِرصاداً»: ذات أرصادٍ على النسب، أي: تَرصُدُ مَن يمرُّ بها. وقال مقاتل: مَحبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيلَ إلى الجنة حتى يَقْطَع جهنم. وفي «الصِّحَاح»: والمِرصاد: الطريق[(١)].

وذكر القُشَيريُّ: أنَّ المرصادَ: المكانُ الذي يَرصُد فيه الواحدُ العدوَّ، نحو المِضمار: الموضعُ الذي تُضمَّر فيه الخيل. أي: هي معدَّةٌ لهم، فالمِرصادُ بمعنى المحلّ، فالملائكةُ يرصدون الكفارَ حتى ينزلوا بجهنم.

وذكر الماوردِيّ[(٢)] عن أبي سِنان أنَّها بمعنى: راصِدة، تُجازيهم بأفعالهم.

وفي «الصِّحَاح»: الراصِدُ للشيء: الراقبُ له؛ تقول: رَصَده يَرْصُدُه رَصْداً ورَصَدًا، والتَّرصُّد: الترقُّب. والمَرصَد: موضعُ الرَّصد. الأصمعيُّ: رَصَدته أرصُده: ترقَّبته، وأرْصَدْتُ له[(٣)]: أعْدَدْتُ له. والكسائيُّ مِثْله.

قلت: فجهنَّمُ مُعدَّةٌ مترصِّدةٌ، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقُّب، أي: هي متطلِّعةٌ لِمَن يأتي. والمِرْصادُ مِفْعالٌ من أبنية المبالَغة، كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثُر من جهنَّم انتظارُ الكفار.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ بدلٌ من قوله: «مِرصاداً»، والمآبُ: المَرْجِعُ، أي: مَرْجِعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَؤُوبُ أوْبةً: إذا رجع. وقال قتادةُ: مَأوًى ومنزلاً[(٤)]. والمرادُ بالطاغين: مَن طغى في دِينه بالكفر، أو في دنياه بالظُّلم.

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: ماكِثين في النار مادامت الأحقاب، وهي لا تَنْقطعُ، فكلَّما مضى حُقُبٌ جاء حُقُبٌ. والحُقُب بضمَّتين: الدَّهْرُ، والأحقابُ:

---

(١) الصحاح (رصد).

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: وأرصدته، والمثبت من الصحاح (رصد)، وهو موافق لما في تهذيب اللغة ١٢/ ١٣٧، واللسان (رصد)، والتاج (رصد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١ .

الدُّهور. والحِقبة بالكسر: السَّنة؛ والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميميُّ:

وكنَّا كنَدْمانَيْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... من الدَّهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلمَّا تفرَّقْنا كأنِّي ومالِكاً ... لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا[1]

والحُقبُ بالضمِّ والسكون: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر من ذلك وأقلّ، على ما يأتي، والجمع: أحقاب.

والمعنى في الآية: لابِثين فيها أحقاب الآخرةِ التي لا نهايةَ لها، فحذف الآخرة لدلالةِ الكلام عليه، إذ في الكلام ذِكرُ الآخرة، وهو كما يقال: أيام الآخرة، أي: أيامٌ بعدَ أيامٍ إلى غير نهاية، وإنما كان يدلُّ على التوقيت لو قال: خمسة أحقابٍ، أو عشرة أحقاب، ونحوه. وذَكَر الأحقابَ لأنَّ الحُقُب كان أبْعَدَ شيءٍ عندهم، فتكلَّم بما تَذهبُ إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كنايةٌ عن التأبيد، أي: يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيامِ؛ لأنَّ الأحقابَ أهوَلُ في القلوب، وأدلُّ على الخلود. والمعنى متقاربٌ، وهذا الخلودُ في حقِّ المشركين.

ويمكن حَمْلُ الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب[2].

وقيل: الأحقابُ وقتٌ لشُرْبِهم الحميمَ والغَساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوعٌ آخرُ من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾.

و«لابِثِين» اسمُ فاعلٍ من لَبِثَ، ويقوِّيه أنَّ المصدر منه اللَّبْث بالإسكان،

---

(١) الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩١ و١٤٤٠، والمفضليات ص٢٦٧، ومعجم الشعراء ص٤٣٢-٤٣٣، والخزانة ٨/ ٢٧٢. قوله: كندماني جذيمة، هما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب، نادَما جذيمة الأبرش بعد أن ردَّا عليه ابن أخته، وينظر تفصيل قصتهما في الخزانة ٨/ ٢٧٠-٢٧٣. وذكر المرزباني أن متمم ابن نويرة أدرك الإسلام وأسلم فحسن إسلامه، واستفرغ شعره في مراثي أخيه مالك بن نويرة، وكان خالد ﷺ قتله في الردة.

(٢) ويردُّ هذا القول بأن بعده: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾. إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦.

كالشَّرْب. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لَبِثِينَ» بغير ألف[١]، وهو اختيارُ أبي حاتمٍ وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِثٌ ولَبِثٌ، مثل طَمِعٍ وطامِعٍ، وفَرِهٍ وفارِه. ويقال: هو لَبِثٌ بمكان كذا، أي: قد صار اللَّبْثُ شأنَه، فشُبِّه بما هو خِلْقةٌ في الإنسان، نحو: حَذِر وفَرِق؛ لأنَّ باب فَعِل إنَّما هو لِمَا يكونُ خِلْقةً في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسمُ الفاعلِ مِن لابِثٍ.

والحُقبُ: ثمانون سنةً في قول ابنِ عمرَ وابنِ مُحَيصنٍ وأبي هريرة[٢]؛ والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، واليومُ ألفُ سنةٍ من أيام الدنيا. قاله ابنُ عباس[٣]. وروى ابنُ عمرَ هذا مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ[٤].

وقال أبو هريرةَ: والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ مثلُ أيامِ الدنيا[٥].

وعن ابن عمر أيضاً: الحُقبُ: أربعون سنةً. السُّدِّيُّ: سبعون سنةً. وقيل: إنه ألفُ شهرٍ. رواه أبو أمامةَ مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلاث مئةِ سنةٍ[٦].

الحسن: الأحقابُ لا يَدرِي أحدٌ كم هي، ولكنْ ذَكَروا أنَّها مئةُ حُقبٍ، والحُقبُ

---

(١) السبعة ص٦٦٨، والتيسير ص٢١٩ عن حمزة. وقراءة الكسائي: «لابثين» كقراءة الباقين.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة ﷺ هناد في الزهد (٢١٩)، والطبري ٢٤/ ٢٤، وما بعده قطعة منه. وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٨ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وروي عن ابن عمر مرفوعاً على ما يأتي.

(٣) ذكره الرازي في التفسير ٣١/ ١٣.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣٢، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٣٤، وذكره الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢٣ مع حديث آخر، وقال: هما موضوعان في نَقْدي. وسيأتي متن الحديث منسوباً لعمر ﷺ.

(٥) من قوله: وقال أبو هريرة والسنة ثلاث مئة يوم، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ووقع في (ي): كل يوم مثل الدنيا. وقد سلف عن أبي هريرة نحوه، وفيه: ...واليومُ ألفُ سنة من أيام الدنيا.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٦. وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ. قال ابن كثير: هذا حديث منكر جدًّا، والقاسم (وهو ابن عبد الرحمن) والراوي عنه ـ وهو جعفر بن الزبير ـ كلاهما متروك.

الواحدُ منها سبعون ألفَ سنةٍ، اليومُ منها كألفِ سنةٍ ممّا تَعدُّون[(١)].

وعن أبي أمامةَ أيضاً، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الحُقُبَ الواحدَ ثلاثون ألفَ سنةٍ»[(٢)] ذكره المَهْدَويُّ. والأولُ الماوَرْديُّ[(٣)].

وقال قُطرب: هو الدهرُ الطويل غيرُ المحدود.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ لا يَخْرُجُ من النار مَن دَخَلَها حتى يكونَ فيها أحقاباً، الحُقبُ بضعٌ وثمانون سنةً، والسنةُ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ ممَّا تَعُدُّون، فلا يَتَّكِلَنَّ أحدُكم على أنه يخرجُ من النار»[(٤)]. ذكره الثعلَبيُّ.

القُرظيُّ: الأحقابُ: ثلاثةٌ وأربعون حُقباً، كلُّ حُقبٍ سبعون خَريفاً، كلُّ خريفٍ سبعُ مئةِ سنةٍ، كلُّ سنةٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنة.

قلت: هذه أقوالٌ مُتعارِضةٌ، والتحديدُ في الآية للخلود يحتاج إلى توقيفٍ يقطَعُ العُذْر، وليس ذلك بثابتٍ عن النبيِّ ﷺ. وإنَّما المعنَى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوَّلاً، أي: لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلَّما مضى زمنٌ يَعقُبه زمنٌ، ودهرٌ يَعقُبه دهرٌ، هكذا أَبَدَ الآبِدينَ من غير انقطاع.

وقال ابن كَيسان: معنى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾: لا غايةَ لها ولا انتهاء، فكأنه قال: أبداً.

وقال ابن زيد ومُقاتلٌ: إنَّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٥٧)، وفي إسناده جعفر بن الزبير والقاسم بن عبد الرحمن، وقد سلف الكلام عليهما.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٨٦، وما سيأتي من قول قطرب منه.

(٤) لم نقف عليه عن عمر ﷺ، وسلف من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يعني أنَّ العدد قد انقَطَع، والخلود قد حصل[١].

قلت: وهذا بعيدٌ؛ لأنه خَبَرٌ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] على ما تقدَّم. هذا في حقِّ الكفار، فأمَّا العُصاةُ الموحِّدون فصحيحٌ، ويكونُ النَّسخُ بمعنى التخصيصِ. والله أعلم.

وقيل: المعنى «لابِثِين فيها أحقاباً»، أي: في الأرض؛ إذ قد تقدَّم ذكرُها، ويكونُ الضمير في «لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً» لجهنم[٢].

وقيل: واحدُ الأحقاب حُقُبٌ وحِقبَةٌ[٣]؛ قال:

فإن تَنْأ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِها فأنك ممَّا أحدَثَتْ بالمُجَرَّبِ[٤]

وقال الكُميت:

مَرَّ لها [من] بعد حِقْبَةٍ حِقَبُ[٥]

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في الأحقاب ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ البردُ: النومُ في قول أبي عبيدةَ وغيرِه[٦]؛ قال الشاعر:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ وإن شِئتُ لم أطْعَمْ نُقاخاً ولا بردا[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٨، وفيه: يعني أن العدد قد ارتفع والخلود...

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣١.

(٣) العين ٣/ ٥٣، وتهذيب اللغة ٤/ ٧٣.

(٤) في (م): فأنت بما أحدثته بالمجرب. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤٢، قال: شارح الديوان: أي: سيبدو لك وَصْلُها أو هجرها، فتكون على تجربة منها.

(٥) وصدره: ولا حُمولٍ غدتْ ولا دِمَنٍ، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٠١، وما بين حاصرتين منه، قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: الدِّمَن: آثار الرماد، يقول: لم تُطربني حُمول (وهي الهوادج) غدت مفارِقةً لي، ولا دِمَنٌ وقفتُ بها أتذكر فيها أهلها.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٠٩، والأضداد لابن الأنباري ص٦٤.

(٧) البيت للعَرْجي، كما في الأضداد لابن الأنباري ص٦٤، والصحاح (نقخ)، وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص١٤٦ و٥٠٩، قال الجوهري: النقاخ: الماء العذب.

وقاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ والكسائيُّ والفَضْلُ بنُ خالد ومعاذٌ النحويُّ[١]، وأنْشَدوا قولَ الكِنديِّ:

بَـردتْ مَـراشِـفُـهـا عـلـيَّ فـصَـدَّنـي عـنـهـا وعـن تَـقْـبـيـلـهـا الـبَـرْدُ[٢]

يعني النوم. والعربُ تقول: مَنعَ البَرْدُ البَرْدَ، يعني: أذهبَ البردُ النوم.

قلت: وقد جاء الحديثُ أنه عليه الصلاة والسلام سُئل: هل في الجنَّة نومٌ؟ فقال: «لا، النومُ أخو الموتِ، والجنةُ لا موتَ فيها»[٣] فكذلك النار، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر:٣٦].

وقال ابن عباس: البَرْدُ: بردُ الشراب[٤]. وعنه أيضاً: البردُ: النوم، والشرابُ الماء[٥].

وقال الزجَّاج: أي: لا يذوقون فيها بَرْدَ ريحٍ ولا ظلٍّ ولا نومٍ[٦]. فجعل البردَ بردَ كلِّ شيءٍ له راحةٌ، وهذا بردٌ ينفعُهم، فأمَّا الزمهريرُ فهو بردٌ يَتأذَّونَ به، فلا ينفعُهم، فلهم منه من العذاب ما اللهُ أعلمُ به.

وقال الحسنُ وعطاءٌ وابن زيد: «بَرْدًا»، أي: رَوْحًا وراحة[٧]؛ قال الشاعر:

---

(١) في النسخ: وأبو معاذ النحوي، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/٤٢٦، والبحر ٨/٤١٤، وروح المعاني ٣٠/١٦. والفضل بن خالد هو أبو معاذ النحوي. ينظر الثقات لابن حبان ٩/٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/٦١، وبغية الوعاة ٢/٢٤٥. ومعاذ النحوي المذكور لعله معاذ بن مسلم الهراء، نحوي كوفي، وهو أستاذ الكسائي. ينظر إنباه الرواة ٣/٢٨٨، وبغية الوعاة ٢/٢٩٠.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٣١ برواية: ... فردّني عنها وعن قبلاتها البرد. قال شارح الديوان: مراشفها: شفاهها.

(٣) سلف ٥/١٥٣.

(٤) أخرجه الفراء ٣/٢٢٨ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٤١٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٧٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/٤٣٨ عن الحسن وعطاء.

فلا الظلَّ مِن بردِ الضُّحى تَستطيعُه ولا الفَيءَ أوقاتَ العَشِيِّ تَذوقُ[(١)]

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ جملةٌ في موضع الحال من «الطاغين» أو نعتٌ للأحقاب، والأحقابُ ظرفُ زمانٍ، والعاملُ فيه «لابِثين»، أو «لبِثين» على تعديةِ فَعِل. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناءٌ منقطِعٌ في قولِ مَن جَعَل البردَ النومَ، ومَن جعلَه من البرودة كان بدلاً منه[(٢)].

والحميم: الماءُ الحارُّ؛ قاله أبو عبيدة[(٣)]. وقال ابن زيد: الحميم: دموعُ أعيُنِهم، تُجمعُ في حياضٍ ثم يُسقَونه[(٤)].

قال النحاس: أصلُ الحميم: الماءُ الحارُّ، ومنه اشتُقَّ الحَمَّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٣]: إنَّما يرادُ به النهايةُ في الحرِّ. والغَسَّاقُ: صديدُ أهلِ النار وقَيحُهم. وقيل: الزَّمهرير[(٥)].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بتشديدِ السين[(٦)]، وقد مضى في «ص» القولُ فيه[(٧)].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: مُوافِقاً لأعمالهم. عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما[(٨)]، فالوِفاقُ بمعنى المُوافقة، كالقِتال بمعنى المقاتلة. و«جزاءً» نصبٌ على المصدر، أي:

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٤٠ ، وتهذيب اللغة ٣٥٨/٤ ، والصحاح (فيأ)، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٣٨٦/٧ ، ووقع في المصادر عدا الديوان: ولا الفيء من برد العشي تذوق، ورواية الديوان:

فلا الظلَّ منها بالضحى تستطيعُه ولا الفَيءَ منها بالعشي تذوق

(٢) مشكل إعراب القرآن ٧٩٦/٢ .

(٣) في مجاز القرآن ٢٨٢/٢ .

(٤) أخرجه الطبري ٣٠/٢٤ .

(٥) أخرج هذا القول الطبري ٣٠/٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) وهي قراءة حفص أيضاً. السبعة ص٦٦٨ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) عند تفسير الآية (٥٧) منها.

(٨) تفسير الطبري ٣١/٢٤ .

جازَيناهم جزاءً وافَقَ أعمالَهم؛ قاله الفَرَّاء والأخفش(١). وقال الفرَّاء أيضاً: هو جمعُ الوفْقِ، والوفقُ واللِّفق(٢) واحد.

وقال مقاتل: وافَقَ العذابُ الذنبَ، فلا ذنبَ أعظَمُ من الشرك، ولا عذابَ أعظمُ من النار(٣).

وقال الحسن وعكرمةُ: كانت أعمالُهم سيئةً، فأتاهم الله بما يَسُوءُهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون ﴿حِسَابًا﴾ أي: مُحاسبةً على أعمالهم. وقيل: معناه: لا يرجون ثوابَ حسابٍ(٤). الزجَّاج: أي: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابَهم(٥).

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: بما جاءتْ به الأنبياءُ. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءةُ العامَة: ﴿كِذَّابًا﴾ بتشديدِ الذَّالِ وكَسْرِ الكاف، على كَذَّب، أي: كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفرَّاء(٦): هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحةٌ؛ يقولون: كَذَّبت [به] كِذَّاباً، وخرَّقتُ القميصَ خِرَّاقاً؛ وكلُّ فِعلٍ في وزنِ «فَعَّلَ»، فمصدرُه فِعَّال مشدَّدٌ في لغتهم، وأنشد بعضُ الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطَتْني عن صَحابتي ... وعن حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِيا(٧)

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩ ، وللأخفش ٢/ ٧٢٧ .

(٢) اللِّفْقُ: القرين الملائم، يقال للرجلين لا يفترقان: هما لِفْقان. معجم متن اللغة (لفق)، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للفراء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩ ، والبيت للأعور بن براء الكلابي، كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢/ ٥٦٦ ، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص٧٩ ، وهو دون نسبة في العين ٣/ ٢٥٩ ، والأضداد لابن الأنباري ص٢١ .

وقرأ عليٌّ ﷺ: «كِذَاباً» بالتخفيف، وهو مصدرٌ أيضاً[(١)]. وقال أبو عليٍّ: التخفيفُ والتشديدُ جميعاً مصدرُ المكاذَبة، كقول الأعشى:

فصَدَقْتُها وكَذَبتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ[(٢)]

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدرَ: كَذَبَ وكَذَّب جميعاً[(٣)].

الزمخشري[(٤)]: «كِذَاباً» بالتخفيف مصدرُ: كَذَب، بدليلِ قوله:

فصَدَقتُها وكَذَبتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ

وهو مثلُ قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] يعني: وكذَّبوا بآياتنا فكذَبوا كِذَابا. أو تنصِبُه بـ«كَذَّبوا»؛ لأنه يتضمَّن معنى كَذَبوا؛ لأنَّ كلَّ مُكَذِّب بالحقِّ كاذِبٌ. [وإنْ جَعَلتَه بمعنى المُكَاذَبة فمعناه: وكذَّبوا بآياتنا فكاذَبوا مُكاذَبةً، أو: وكذَّبوا بها مُكاذِبين] لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذَبة.

وقرأ ابن عمر: «كُذَّاباً» بضمِّ الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصْبُه على الحال[(٥)]. الزَّمخشريُّ: وقد يكونُ الكُذَّاب بمعنى الواحدِ البليغِ في الكَذِب، يقال: رجلٌ كُذَّاب، كقولك: حُسَّان وبُخَّال، فيُجعَل صفةً لمصدرِ «كَذَّبوا»، أي:

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ٣٦٩، والكلام فيه مفصَّل، وهذا القول مع البيت ذكره أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٣، ونقله عنه ابن الجوزي ٩/ ٩. وقال المبرد في الكامل ٢/ ٧٤٧: وأنشدني المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة، ثم ذكره برواية: فصدقتهم وكَذَبتهم...، ولم نقف عليه في ديوان الأعشى.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٤) في الكشاف ٤/ ٢٠٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ وفيه أن الذي قرأ بها هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكذا ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤١٥، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٨ عن عمر بن عبد العزيز والماجشون.

تكذيباً كُذَّاباً مُفْرِطاً كَذِبُهُ[١].

وفي «الصِّحَاح»: وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ وهو أحدُ مصادرِ المشدَّد؛ لأنَّ مصدرَه قد يجيءُ على «تفعيل» مثل التكليم، وعلى «فِعَّال» مثل كِذَّابٍ، وعلى «تَفْعِلة» مثل تَوصِية، وعلى «مُفعَّلٍ» مثل: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩][٢].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ «كلَّ» نصب بإضمارِ فعلٍ يَدُلُّ عليه «أحصيناه»، أي: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه[٣]. وقرأ أبو السَّمَّال: «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء[٤]. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأنَّ معنى أحصينا: كتبنا، أي: كتبناه كتاباً[٥].

ثم قيل: أراد به العلمَ، فإنَّ ما كُتِب كان أَبْعَد من النسيان. وقيل: أي: كتبناه في اللوح المحفوظِ لتَعْرِفَه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابةٌ صَدَرَتْ عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليلهُ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال أبو بَرْزَةَ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن أشدِّ آيةٍ في القرآن؟ فقال: «قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾»[٦]. أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٩-٢١٠.

(٢) الصحاح (كذب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤. وقال النحاس: من النحويين مَن يقول: العامل فيه مضمر، أي: كتبناه كتاباً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١، وهو من طريق جَسر بن فرقد، عن الحسن، عن أبي برزة، عن النبي ﷺ. وأخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ١٥٩ من طريق جَسْر، عن الحسن، عن أبي برزة موقوفاً. قال ابن كثير: جَسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية. قلنا: والحسن لم يسمع من أبي برزة. المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذَكَر جزاءَ مَن اتَّقى مَخالفةَ أمرِ الله، «مَفازاً» مَوْضعَ فوزٍ ونجاةٍ وخَلاصٍ ممّا فيه أهلُ النار. ولذلك قيل للفَلاة إذا قلَّ ماؤها: مَفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا تفسيرُ الفوزِ. وقيل: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا»: إنَّ للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستانُ المُحَوَّطُ عليه؛ يقالُ: أَحْدَقَ به، أي: أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي: كرومَ أعنابٍ، فحذف.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعِب: جمع كاعِب، وهي النَّاهِد؛ يقال: كَعَبَت الجاريةُ تكعُبُ كُعوباً، وكَعَّبت تُكعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنهَد نهُوداً. وقال الضحَّاك: الكواعبُ: العَذَارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِن حَصَانٍ قد حَوَيْنا كَريمةٍ ... ومِن كاعبٍ لم تَدْرِ ما البؤسُ مُعصِرِ(١)

والأتراب: الأقرانُ في السنِّ. وقد مضى في سُورة الواقعة(٢)، الواحد: تِرْب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادةُ وابن زيد وابن عباس: مُترَعة مملوءة(٣)؛ يقال: أدْهَقْتُ الكأسَ، أي: ملأتها، وكأسٌ دِهَاقٌ، أي: ممتلِئة؛ قال:

ألَا فاسقِني صِرفاً سقانِي الساقي ... مِن مائِها بِكأسك الدِّهاقِ(٤)

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتانا عامِرٌ يَبْغي قِرَانا ... فأترغنا له كأساً دِهاقا(٥)

(١) النكت والعيون ٦/ ١٨٨ .

(٢) عند الآية (٣٧) منها.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩-٤١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٩ .

(٤) في (د): بكأسه الدهاق، ولم نقف على البيت.

(٥) الصحاح (دهق)، والنكت والعيون ٦/ ١٨٩ . ووقع في الصحاح: يرجو، بدل: يبغي.

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمةُ ومجاهدٌ وابن عباس أيضاً: متتابعة[١]، يَتْبَعُ بعضُها بعضاً، ومنه: ادَّهَقتِ الحِجارة ادِّهاقاً، وهو شدّة تَلازُمِها[٢] ودخول بعضِها في بعض؛ فالمتتابعُ كالمُتَدَاخِل.

وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسْلَم: صافية[٣]؛ قال الشاعر:

لأنتِ إلى الفؤادِ أحبُّ قُرْباً ... مِن الصَّادي إلى كأسٍ دِهاقِ[٤]

وهو جمعُ دَهَقٍ، وهو خشبتان يُعْصَرُ بهما[٥]. والمرادُ بالكأس: الخمرُ، فالتقدير: خمراً ذات دِهَاق، أي: عُصِرتْ وصُفِّيتْ؛ قاله القُشيريّ[٦].

وفي «الصحاح»: وأدْهَقْتُ الماء، أي: أفْرَغته إفراغاً شديداً، قال أبو عمرو: الدَّهَقُ ـ بالتحريك ـ: ضَرْبٌ من العذاب. وهو بالفارسية أشكَنْجَه. المبرِّد: والمَدهوق: المعذَّبُ بجميع العذابِ الذي لا فُرجةَ فيه. ابن الأعرابيِّ: دَهَقْتُ الشيء: كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقته، وأنشَدَ لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحمِ للباعِ والنَّدَى ... وبعضُهُمُ تغلي بذَمٍّ مَراجِلُهْ[٧]

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢ ، وأخرجه عن عكرمة البخاري (٣٨٣٩) بلفظ: ملأى متتابعة.

(٢) في (م): تلازبها. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٨٩ .

(٥) في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ ، والقاموس (دهق): الدَّهَق: خشبتان يُغمز بهما الساق. وفي المعجم الوسيط (دهق): الدهق: خشبتان يُعصَر بهما الساق للتعذيب، وينظر ما سينقله المصنف عن الصحاح.

(٦) وقاله أيضاً الرازي في التفسير ٣١/ ٢٠ .

(٧) الصحاح (دهق)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥١٥ ، وأساس البلاغة (نقع)، واللسان (بضع). ووقع في المصادر: مناقعه، بدل: مراجله. قوله: بَضْع، البَضْع جمع بَضْعة وهي القطعة من اللحم. القاموس (بضع). وقال المرزوقي: المناقع جمع المِنْقَع والمِنْقَعة، وهو القدور الصغار. وذِكْرُ الباع مَثَل، والمراد الكرم. وقوله: بذمٍّ، في موضع الحال، تقديره: تغلي مذمومة.

ودَهْمَقْتُه بزيادة الميم: مثلُه. وقال الأصمعيُّ: الدَّهْمقَة: لِينُ الطعام وطِيبُه ورِقَّته، وكذلك كلُّ شيءٍ ليِّنٍ، ومنه حديث عمر: لو شئتُ أن يدُهمَقَ لي لفعلْتُ، ولكنَّ الله عاب قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][١].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح، ومنه الحديثُ: «إذا قلتَ لصاحبكَ: أنْصِتْ، يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطُبُ، فقد لَغوت»[٢] وذلك أنَّ أهل الجنةِ إذا شربوا لم تتغيَّر عقولُهم، ولم يتكلَّموا بلغوٍ، بخلافِ أهلِ الدنيا.

«ولا كِذَّابا»: تقدَّم، أي: لا يُكذِّبُ بعضُهم بعضاً، ولا يسمعون كذباً، وقرأ الكسائيُّ: «كِذَاباً» بالتخفيف[٣]، من كَذَبت كِذَاباً، أي: لا يتكاذَبون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنَّما خفَّفها هاهنا لأنَّها ليست مقيَّدة بفعلٍ يصيرُ مصدراً له، وشدَّد قولَه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ لأنَّ «كذَّبوا» يقيِّدُ المصدرَ بالكِذَّاب.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ نصب على المصدر؛ لأنَّ المعنى: جزاهم بما تقدَّم ذكرُه جَزاءً، وكذلك ﴿عَطَآءً﴾ لأنَّ معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي: أعطاهم عطاء. ﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيراً؛ قاله قتادة[٤]؛ يقال: أحسَبْتُ فلاناً، أي: كَثَّرتُ له العطاءَ حتى قال: حَسْبي؛ قال:

ونُقفي ولِيدَ الحيِّ إنْ كان جائِعاً ... ونُحسِبُهُ إنْ كانَ ليس بجائِعِ[٥]

---

(١) الصحاح (دهق)، وخبر عمر ﷺ أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٧٣ ، وذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ .

(٢) سلف ٤/ ١٧ .

(٣) السبعة ص٦٦٩ ، والتيسير ص٢١٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣ ، والطبري ٢٤/ ٤٤ .

(٥) البيت لامرأة من بني نمير، أو هو لغيثة أمِّ الهيثم، كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ص٧٤ ، ونسبه =

وقال القُتَبيُّ[١]: ونرى أصلَ هذا: أنْ يُعطيَه حتى يقولَ حَسْبي.

وقال الزجَّاج[٢]: «حِساباً»، أي: ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أحْسَبني كذا: أي: كَفَاني.

وقال الكلبيُّ: حاسَبهم فأعطاهم بالحسنة عَشراً. مجاهد: حساباً لِمَا عملوا. فالحسابُ بمعنى العدِّ[٣]. أي: بقَدْرِ ما وَجْبَ له في وَعد الرَّبِّ؛ فإنَّه وَعَدَ للحسنة عَشراً، ووَعدَ لقومٍ بسبعِ مئةِ ضِعْفٍ، وقد وعد لقوم جزاءً لا نهايةَ له ولا مِقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][٤].

وقرأ أبو هاشم: «عَطَاء حَسَّاباً» بفتح الحاءِ وتشديدِ السين[٥]، على وزن فَعَّال، أي: كَفافاً؛ قال الأصمعيُّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجلَ بالتشديد: إذا أكرمته، وأنشد قولَ الشاعر:

إذا أتـــاهُ ضـــيـــفُـــه يُـــحـــسِّـــبُـــهْ[٦]

وقرأ ابن عباس: «حساناً» بالنون[٧].

= صاحب اللسان (حسب) لامرأة من بني قشير، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص٢٦٣ ، وأمالي القالي ٢/ ٢٥٤ و٢٦٢ ، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٠ . قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٤١٦ : نُقفي من القَفِيَّة، وهو المدَّخر في البيت من المأكول، يقول: إن جاء صبي من صبيان الحي جائعاً أطعمناه من القفية. وقوله: ونُحسِبه، قال ابن السكيت: أي نكثر له ونعطيه حتى يقول: حَسْبُ.

(١) في تفسير الغريب ص٥١٠ .

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٩ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٢٢ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٩ ، والكشاف ٤/ ٢١٠ عن يزيد بن قطيب.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) القراءات الشاذة ص١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٨ ، والبحر ٨/ ٤١٥ ، وعندهم جميعاً: «عطاء حَسَناً».

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾: قرأ ابن مسعود ونافعٌ وأبو عمر وابنُ كثير، وزيدٌ عن يعقوب، والمفضَّلُ عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبرُه[١]. أو بمعنى: هو ربُّ السَّماواتِ، ويكون «الرحمن» مبتدأً ثانياً.

وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ وابنُ مُحيصِنٍ كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: جزاءً من ربِّك ربِّ السَّماوات الرحمنِ[٢].

وقرأ ابن عباسٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «رَبِّ السَّماوات» خفضاً على النعت، «الرحمنُ» رفعاً على الابتداء[٣]، أي: هو الرحمنُ. واختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعدَلُها، خفض «رَبِّ» لقُرْبه من قوله: «مِن رَبِّك» فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبُعْدِه منه ـ على الاستئناف ـ وخبرُه ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ أي: لا يملكون أنْ يسألوه إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكسائيُّ: «لا يملكون منه خطابًا» بالشفاعة إلَّا بإذنه.

وقيل: الخطابُ: الكلام، أي: لا يملكون أنْ يُخاطبوا الربَّ سبحانه إلَّا بإذْنه، دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: أراد الكفار، أي[٤]: «لا يملِكُون منه خِطاباً»، فأمَّا المؤمنون فيَشفَعُون.

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة، والمشهور عن عاصم ويعقوب بالخفض في كليهما، على ما يأتي.

(٢) وهي قراءة عاصم أيضاً.

(٣) السبعة ص٦٦٩ ، والتيسير ص٢١٩ ، والنشر ٣٩٧/٢ عن حمزة والكسائي وخلف، وسلف المشهور عن عاصم.

(٤) قوله: أي، ليس في (م).

قلت: بعد أن يُؤذَنَ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ «يومَ» نصب على الظَّرف، أي: لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقومُ الروح، واختُلف في الروح على أقوالٍ ثمانيةٍ:

الأول: أنَّه مَلَكٌ من الملائكة. قال ابن عباس: ما خَلَق الله مخلوقاً بعدَ العرشِ أعظَمَ منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفًّا، وقامت الملائكةُ كلُّهم صفًّا، فيكونُ عِظَمُ خَلقه مثلَ صفوفهم(١). ونحوٌ منه عن ابن مسعود؛ قال: الروحُ ملكٌ أعظَمُ من السَّماوات السبع، ومن الأرضينَ السبع، ومن الجبال. وهو حِيَال السماءِ الرابعة، يُسبِّحُ الله كلَّ يوم اثنتي عَشرةَ ألفَ تسبيحةٍ، يخلُق الله من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً، فيجيءُ يومَ القيامةِ وحدَه صفًّا، وسائر الملائكة صَفًّا(٢).

الثاني: أنه جبريلُ عليه السلام. قاله الشَّعبيُّ والضحَّاك وسعيد بن جبير(٣). وعن ابن عباس: إنَّ عن يمين العرشِ نَهراً من نورٍ، مثلَ السماواتِ السبعِ، والأرضينَ السبعِ، والبحارِ السبع، يَدْخل جبريلُ كلَّ يومٍ فيه سَحراً فيغتسلُ، فيزدادُ نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفضُ فيخلقُ الله من كلِّ قطرةٍ تقعُ من ريشه سبعينَ ألفَ مَلكٍ، يدخل منهم كلَّ يومٍ سبعون ألفاً البيتَ المعمور، والكعبةَ سبعون ألفاً، لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة(٤).

وقال وَهْبٌ: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تعالى ترعد فرائصُه، يخلقُ الله تعالى من كلِّ رَعدةٍ مئةَ ألفِ مَلَك، فالملائكةُ صفوفٌ بين يدي الله تعالى

(١) الوسيط ٤/٤١٧، وتفسير البغوي ٤/٤٤٠، وزاد المسير ٩/١٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٤/٤٧.
(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٤٦-٤٧. وقال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: هذا قول غريب جدًّا.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/٤٧، والنكت والعيون ٦/١٩٠.
(٤) سلف ١٢/٢٨٨-٢٨٩. ووقع في النسخ الخطية: لا يعودون إليه إلى...

منكَّسةٌ رؤوسُهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت، وهو قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني قولَ: لا إلهَ إلَّا الله.

الثالث: روى ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الرُّوحُ في هذه الآيةِ جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكةً، لهم رُؤوسٌ وأيْدٍ وأرْجُلٌ، يأكلون الطعام». ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، فإنَّ هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند[1]. وهذا قولُ أبي صالح ومجاهد[2]. وعلى هذا هم خَلْقٌ على صورة بني آدَمَ، كالناس وليسوا بناس.

الرابع: أنَّهم أشرافُ الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيَّان[3].

الخامس: أنهم حَفَظَةٌ على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح[4].

السادس: أنهم بنو آدم؛ قاله الحسن وقتادة[5]. فالمعنى: ذَوو الروح.

وقال العَوْفيُّ والقُرَظيُّ: هذا ممّا كان يكتُمه ابن عباس[6]؛ قال: الرُّوح: خَلْقٌ من خَلْقِ الله على صُوَرِ بني آدَمَ، وما نزَلَ مَلَكٌ من السماء إلَّا ومعه واحدٌ من الرُّوح[7].

السابع: أرواحُ بني آدَمَ تقومُ صَفًّا، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وذلك بين النفختين، قبل أن تُرَدَّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية[8].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٩ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية عن ابن عباس بنحوه موقوفاً.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٨).

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ عن قتادة.

(٧) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٠٦).

(٨) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ من طريق عطية عن ابن عباس.

الثامن: أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢](١).

و«صفًّا»: مصدر: أي: يقومون صُفوفاً. والمصدرُ يُنْبِئُ عن(٢) الواحدِ والجمع، كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يومُ الصَّفّ. وقال في موضع آخر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] هذا يدلُّ على الصفوف، وهذا حينَ العرضِ والحساب. قال معناه القُتَبيُّ(٣) وغيره.

وقيل: يقومُ الروحُ صفًّا، والملائكةُ صفًّا، فهم صفَّان. وقيل: يقوم الكلُّ صفًّا واحداً.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يشفَعون ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني: حقاً؛ قاله الضحَّاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله(٤). وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: يَشفعون لمَن قال: لا إله إلا الله.

وأصلُ الصَّواب: السَّدَادُ من القول والفعل، وهو مِن أصاب يصيبُ إصابةً، كالجواب من أجاب يجيب إجابة.

وقيل: «لا يتكلَّمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفًّا، لا يتكلَّمون هيبةً وإجلالاً «إلَّا مَن أذِنَ له الرحمنُ» في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً، وأنهم يوحِّدون الله ويسبِّحونه.

وقال الحسن: إنَّ الرُّوح يقول يومَ القيامة: لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلَّا بالرحمة، ولا النار إلَّا بالعمل. فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾(٥).

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠ .

(٢) في (ظ) و(ي): يبنى على.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٥١١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٥١-٥٢ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: الكائنُ الواقع ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: مَرجِعاً بالعمل الصالح، كأنه إذا عَمِل خيراً ردَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا عمل شرًّا عدَّه منه. ويَنْظُر إلى هذا المعنى قولُه عليه السلام: «والخيرُ كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك»[1].

وقال قتادةُ: «مآباً»: سبيلاً[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾: يخاطِبُ كفارَ قريش ومشركي العربِ؛ لأنَّهم قالوا: لا نُبْعَثُ. والعذابُ عذابُ الآخرة، وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ، وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] قال معناه الكلبيُّ وغيره. وقال قتادةُ: عقوبةُ الدنيا؛ لأنَّها أقربُ العذَابين. قال مقاتل: هي قَتْلُ قريشٍ ببدْر[3].

والأَظْهَرُ أنه عذابُ الآخرة، وهو الموتُ والقيامة؛ لأنَّ مَن مات فقد قامتْ قيامتُه، فإن كان من أهل الجنةِ رأى مقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْيَ والهَوَانَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ بَيَّن وقتَ ذلك العذاب، أي: أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يومَ ينظُرُ المرء ما قدمتْ يداه، أي: يراه. وقيل: ينظُر إلى ما قدَّمت، فحذف إلى.

والمرءُ هاهنا: المؤمنُ في قول الحسن[4]، أي: يجدُ لنفسه عملاً، فأمَّا الكافرُ فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنَّى أن يكون تراباً، ولمَّا قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ عُلم أنه أرادَ بالمرءِ المؤمن.

وقيل: المرءُ هاهنا: أُبيّ بنُ خلف وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر»: أبو جهل.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي ﷺ، وسلف ٩/ ١٤٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، والطبري ٢٤/ ٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤ .

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أحدٍ وإنسانٍ يَرَى في ذلك اليوم جزاءَ ما كَسَب.

وقال مُقاتل: نزلت قولُه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبي سَلَمةَ بنِ عبد الأسَد المخزوميِّ، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ في أخيه الأسود بن عبد الأسد[١].

وقال الثعلبيُّ: سمعتُ أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافرُ هاهنا إبليس، وذلك أنَّه عاب آدمَ بأنه خُلِق من تراب، وافْتخَر بأنه خُلق من نار، فإذا عايَنَ يومَ القيامةِ ما فيه آدمُ وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنَّى أنه يكونُ بمكانِ آدمَ، فيقول: «يا ليتني كنت ترابا» قال: ورأيتُه في بعض التفاسير للقُشَيريِّ أبي نصر، وقيل: أي يقول إبليسُ: يا ليتني خُلِقتُ من التراب ولم أَقُلْ: أنا خيرٌ من آدم.

وعن ابن عمر: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرضُ مَدَّ الأدِيم، وحُشِر الدَّوابُّ والبهائمُ والوحوش، ثم يوضعُ القِصاصُ بين البهائم، حتى يُقتَصّ للشاة الجمَّاء من الشاة القَرناء نَطَحتْها، فإذا فُرِغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنتُ تراباً». ونحوه عن أبي هريرةَ وعبدِ الله بن عمرو بن العاص ﵁[٢]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مُجوَّداً[٣]، والحمد لله.

ذكر أبو جعفر النَّحاس: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سَلَمة بن شبيب، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدَّثنا مَعْمر، قال: أخبرني جعفر بن بُرقان الجَزَريُّ، عن يزيد بن الأصمِّ، عن أبي هريرة، قال: إنَّ الله تعالى يحشُر الخلقَ كلَّهم

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٢) أخرجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الطبري ٢٤/ ٥٤-٥٥ ، والحاكم ٤/ ٥٧٥ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٤٠ ، وذكره عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٩ . وأخرجه عن أبي هريرة الطبري ٢٤/ ٥٥ ، وسيأتي نحوه عن أبي هريرة أيضاً. وينظر ما سلف ٨/ ٣٧٢ .

(٣) ص٢٧٣ .

من دابة وطائرٍ وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُراباً[١].

وقال قومٌ: «يا ليتني كنتُ تراباً» أي: لم أُبعَثْ، كما قال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقال أبو الزِّناد: إذا قُضِي بين الناسِ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم [سوى ولدِ آدمَ] ولمؤمني الجنِّ: عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم: «يا ليتني كنتُ تراباً»[٢]. وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنِّ يعودون تراباً[٣]. وقال عمر بنُ عبد العزيز والزهريُّ والكلبيُّ ومجاهدٌ: مؤمنو الجِنَّةِ حولَ الجَنةِ في رَبَضٍ ورِحاب، وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة الرحمن بيانُ هذا، وأنَّهم مكلَّفون: يُثابُونَ ويُعاقَبون، فهم كبني آدمَ[٤]، واللهُ أعلمُ بالصواب.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٥ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأبو الزناد هو عبد الله بن ذكوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) ينظر ٢٠/ ١٣٨ .

سُورَةُ النَّبَإِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها أربعونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصلُهُ: (عن ما) فحُذِفَ الألِفُ لِمَا مَرَّ[1]، ومعنى هذا الاستفهامِ: تفخيمُ شأنِ ما يَتساءلونَ عنه، كأنَّه لفَخامَتِه خَفِيَ جِنسُهُ فيُسأَلُ عنه.

والضَّميرُ لأهلِ مكَّةَ؛ كانوا يتساءلونَ عن البعثِ فيما بينَهُم، أو يسألونَ الرَّسولَ والمؤمنينَ عنهُ استهزاءً، كقولهم: «يتداعونَهُم» و«يَتراءونهم»؛ أي: يَدْعُونَهم ويَرونَهم، أو للنَّاسِ.

(٢) ـ ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بيانٌ لشَأنِ[2] المُفخَّمِ، أو صِلَةُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، و﴿عَمَّ﴾ متعلِّقٌ بمُضمَرٍ مُفسَّرٍ به، ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ: ﴿عمَّهْ﴾[3].

(٣) ـ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بجزمِ النَّفيِ والشَّكِّ فيه، أو بالإقرارِ والإنكارِ.

---

(١) يعني قوله في سورة «سورة الصف» عن حذف ألف (ما) الاستفهامية مع حرف الجر: «والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر لكثرة استعمالهما معاً واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه».

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «للشأن».

(٣) هي قراءته حال الوقفِ بخُلفٍ عنه. انظر: «النشر» (٢/ ١٣٤)، وهكذا قرأ البزي أيضاً حال الوقف كما في «التيسير» (ص: ٦١). ووجهُ التَّأييدِ: أنَّه على الوقفِ أو نيَّتِه، وهو يدلُّ على أنَّه غيرُ مُتعلِّقٍ بالمذكورِ؛ لأنَّه لا يحسُنُ الوقفُ بين الجارِّ والمجرورِ ومُتعلَّقِه؛ لعدمِ تمامِ الكلامِ. قاله الشهاب.

(٤ ـ ٥) ـ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ عن التَّساؤُلِ ووَعيدٌ عليهِ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للمُبالغَةِ، و(ثم) للإشعارِ بأنَّ الوعيدَ الثَّانيَ أشَدُّ، وقيل: الأوَّلُ عندَ النَّزعِ والثَّاني في القِيامَةِ، أو الأوَّلُ للبَعثِ والثَّاني للجَزاءِ، وعن ابنِ عامرٍ: (ستَعْلمون) بالتَّاءِ[1] على تقديرِ: قُلْ لهم: ستعلمونَ.

(٦ ـ ٧) ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكيرٌ ببعضِ ما عاينوا مِن عَجائبِ صُنعِهِ الدَّالةِ على كمالِ قُدرتِه؛ ليَستدلُّوا بذلك على صِحَّةِ البَعثِ كما مرَّ تقريرُهُ مِرارًا.

وقُـرِئَ: (مَهْـدا)[2]؛ أي: إنَّهـا لهـم كالمهـدِ للصَّبيِّ؛ مصدرٌ سُـمِّيَ به مـا يُمْهَدُ ليُنَـوَّم عليه.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكـرًا وأُنثـى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾: قَطْعًـا عَـن الإحسـاسِ والحركـةِ، اسـتراحةً للقُـوَى الحَيوانيَّـةِ وإزاحـةً لكَلالِهـا.

أو: موتًا لأنَّه أحدُ التَّوفِّيينِ، ومنه: المسبوتُ، للميِّتِ، وأصلُهُ القَطْعُ أيضًا.

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾: غطـاءً يَسـتتِرُ بظُلمَتِـه مَـن أرادَ الاختفـاءَ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾: وقـتَ مَعـاشٍ تتقلَّبُـونَ فيه لتَحصيلِ ما تَعيشـونَ بـه، أو: حياةٍ تُبعثونَ فيها[3] عـن نومِكُم.

---

(١) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٦٦٨) من رواية ابن ذكوان عن ابن عامر، ولم ترد في «التيسير» و«النشر».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧) عن مجاهد وعيسى الهمداني.

(٣) «أو حياةٍ» بالجر معطوفٌ على قوله: «معاشٍ». انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الفاروقي: «تنبعثون فيه».

(١٢) ـ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾: سبعَ سَماواتٍ أَقوِيَاءَ مُحكماتٍ لا يُؤثِّرُ فيها مرورُ الدُّهورِ.

(١٣) ـ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: مُتلألِئًا وقَّادًا؛ مِن: وَهَجتِ النَّارُ: إذا أضاءَتْ، أو: بالغًا في الحرارةِ؛ مِن الوَهَجِ وهو الحرُّ، والمرادُ: الشَّمسُ.

(١٤) ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾: السَّحائبِ إذا أَعْصَرَت؛ أي: شارفَتْ أن تَعْصِرَها الرِّياحُ فتُمْطِرَ؛ كقولِك: أحصدَ الزَّرعُ: إذا حانَ له أَنْ يُحصَدَ، ومنه: أَعْصَرَت الجاريَةُ: إذا دَنَتْ أَنْ تحيضَ.

أو: مِن الرِّياحِ التي حانَ لها أن تَعصِرَ السَّحابَ، أو الرِّياحِ ذواتِ الأَعاصيرِ، وإنما جُعِلَت مَبدأً للإنزالِ لأنَّها تُنشِئُ السَّحابَ وتُدِرُّ أخلافَهُ[1]، ويؤيِّدُه أنه قُرِئَ: (بالمُعْصِراتِ)[2].

﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ مُنصبًّا بكثرةٍ، يقال: ثجَّهُ وثجَّ بنفسِه، وفي الحديثِ: «أفضلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ»[3]؛ أي: رفعُ الصَّوتِ بالتَّلبيَةِ، وصبُّ دماءِ الهَدي.

---

(١) «تُدرُّ» بالدّالِ المُهملةِ، «إفعالٌ» منَ الدَّرِّ، وهو اللَّبنُ. والأخلاف: جمعُ «خِلْفٍ» بكسرِ الخاءِ المُعجمةِ وسكونِ اللّامِ، وهو ضرعُ النّاقةِ. قاله الشهاب.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤٧) و«الكشاف» (٩/ ٤٥١) عن عكرمة. ووجهُ التَّأييدِ: أنَّها ظاهرةٌ في الرِّياحِ؛ فإنَّ بها ينزلُ الماءُ منَ السَّحابِ. قاله الشهاب.

(٣) رواه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، من طريق ابن أبي فديك، عن الضحاك بن عثمان، عن محمد بن المنكدر، عن عبد الرحمن بن يربوع، عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً. قال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي فديك، وابن المنكدر لم يسمع من عبد الرحمن...

ورواه الترمذي (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً. قال الترمذي: هذا حديثٌ لا نعرفُه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيدَ الخُوزِيِّ المَكِّيِّ، وقد تكلَّمَ بعضُ أهلِ الحديث في إبراهيم بن يزيدَ من قِبَلِ حفظه.

وقُرِئَ: (ثَجَّاحًا)[١] ومَثَاجِحُ الماءِ: مَصابُّه.

(١٥) ـ ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾: ما يُقتاتُ به، وما يُعتلَفُ مِن التِّبْنِ والحَشيشِ.

(١٦) ـ ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾: مُلتفَّةً بعضُها ببعضٍ، جمعُ لِفٍّ كجِذْعٍ قال:

جنَّـــةٌ لِـــفٌّ وعيـــشٌ مُغْـــدِقٌ[٢]

أو لَفيفٍ كشَريفٍ، أو لُفٌّ جمعُ لفَّاءَ كخَضراءَ وخُضْرٍ وأَخضَارٍ، أو مُلتفةٍ بحذفِ الزَّوائدِ[٣].

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ﴾ في علمِ اللهِ أو في حُكمِه ﴿مِيقَٰتٗا﴾: حدًّا تُوَقَّت به الدُّنيا، وتنتهي عندَهُ، أو: حدًّا للخلائقِ يَنتهونَ إليه ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ لـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾: جماعاتٍ مِن القُبورِ إلى المَحشرِ.

رُوِيَ أَنَّهُ عليهِ السَّلامُ سُئل عنه فقال: «يحشَرُ عشرةُ أصنافٍ مِن أُمَّتِي: بعضُهُم على صورةِ القِرَدةِ، وبعضُهُم على صُورَةِ الخَنازيرِ، وبعضُهُم مَنكوسُونَ يُسحَبُونَ على وُجوهِهِم، وبعضُهُم عُمْيٌ، وبَعضُهُم صُمٌّ بُكْمٌ، وبعضُهُم يَمضَغونَ ألسِنَتَهُم

---

(١) انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٥٣)، و«البحر» (٢١/ ١٨٨) عن الأعرج.

(٢) صدر بيت للحسن بن علي الطوسي، كما نقله الزمخشريُّ عن صاحب «الإقليد»، انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٥٣)، ولم أجده عند من تقدمه. وعجزه:

ونَدامَـــى كُلُّهـــم بِيْـــضٌ زُهُـــرْ

لِفٌّ: مُلتفَّةُ الأشجارِ والنَّباتِ، والعيشُ: المعيشةِ، ومُغدِقٌ: في الأصلِ من الغَدَقِ، وهو الماءُ الكثيرُ، فتجوَّزَ به هُنا عن السَّعةِ والرَّفاهيَّةِ، وندامَى: جمعُ «نَدمان» بمعنى نديمٍ، وزُهُرٌ: جمعُ «أزهر» بمعنَى مُشرِقٍ، والمُرادُ بكونِهم بيضًا زُهُرًا أنَّهم حِسانٌ، يصِفُ طيبَ الزَّمانِ والمكانِ، وحُسنَ الإخوانِ. قاله الشهاب.

(٣) قولُه: «بحذفِ الزَّوائدِ»؛ يعني: «ألفافٌ» جمع «مُلتفةٍ»، إلاّ أنَّ مثلَه يُجمَعُ على «مُلتَفَّاتٍ» قياسًا لا على «ألفافٍ»، فلذا قدَّرَ حذفَ زوائدِه ليكونَ ثلاثيًّا يُجمَعُ مثلُه على «أفعالٍ». قاله الشهاب.

فهيَ مُدلَّاةٌ على صُدورِهِم يَسيلُ القَيْحُ مِن أفواهِهِم يَتقذَّرُهُم أهلُ الجمعِ، وبَعضُهُم مُقطَّعَةٌ أيديهِم وأَرجُلُهم، وبَعضُهُم مَصْلوبونَ على جُذوعٍ مِن نارٍ، وبعضُهُم أشَدُّ نَتْنًا مِن الجِيَفِ، وبعضهُم مُلْبَسونَ جِبَابًا سابغةً مِن قَطِرانٍ لازقةً بجلودِهِم(٤).

ثمَّ فسَّرَهُم بالقَتَّاتِ، وأهلِ السُّحْتِ، وأكَلَةِ الرِّبَا، والجائرينَ في الحُكمِ، والمعجَبينَ بأَعمالِهِم، والعُلماءِ الذين خالفَ قَولُهُم عَمَلَهُم، والمؤذِينَ جِيرانَهُم، والسَّاعينَ بالنَّاسِ إلى السُّلطانِ، والتَّابعينَ للشَّهَواتِ المانعينَ حقَّ اللهِ، والمُتكبِّرينَ الخُيَلاءِ(٥).

(١٩) ـ ﴿وفُتِّحَت السَّماءُ﴾: وشُقَّتْ، وقرأ الكوفِيُّونَ بالتَّخفيفِ(٦) ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾: فصارَتْ مِن كثرةِ الشُّقوقِ كأنَّ الكُلَّ أَبوابٌ، أو: فصارَتْ ذاتَ أبوابٍ.

(٢٠) ـ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: في الهواءِ كالهَبَاءِ ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾: مثلَ سَرابٍ؛ إذ تُرى على صُورَةِ الجبالِ، ولَمْ تبقَ على حَقيقَتِها؛ لتفتُّتِ أجزائِها وانبِثاثِها.

(٢١) ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: مَوضِعَ رَصَدٍ يَرْصُدُ فيه خزنَةُ النَّارِ الكفَّارَ، أو خزنَةُ الجنَّةِ المُؤمنينَ ليحرسوهُمْ مِن فَيْحِها في(٧) مَجازِهِم عليها؛ كالمِضْمارِ فإنَّه الموضِعُ الذي تُضمَّرُ فيه الخيلُ(٨).

---

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٣١٥) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٩٣)، وقال ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ١٤١): حديث موضوع ظاهر الوضع.

(٥) «الـخُيلاء» أصلُ معناها المعروفِ فيها أنَّها بمعنَى التَّكبُّرِ، فإمّا أن يكونَ هنا وصفٌ بالمصدرِ مثل: رجلٌ عدلٌ، أو هو جمعُ «خائِلٍ» كجاهلٍ وجُهَلاءَ. عن الشهاب.

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٠)، و«النشر» (٢/ ٣٦٤).

(٧) في نسخة الخيالي: «لأن».

(٨) وتضميرها كما قال الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٨): أن تُشدّ عَلَيْهَا سُروجُها، وتُجَلَّل بالأجِلَّة حَتَّى تعرَق تحتَها فيذهَب رَهَلُها ويشتدّ لَحمها، ويُحمل عليها غِلمانٌ خِفافٌ يُجْرونها البُردين ولا يُعَنِّفُون بها، فإذا ضُمِّرَتْ واشتدّتْ لحومُها أُمِنَ عليها القَطْعُ عند حُضرها ولم يَقْطَعْها الشَّدُّ، فذلك التَّضمير الذي تعرفه العرب.

أو: مُجِدَّةً في ترصُّدِ الكفَرَةِ لئلَّا[1] يشذَّ مِنْها واحدٌ؛ كالمِطْعانِ.

وقُرِئَ: (أنَّ) بالفتحِ[2] على التَّعليلِ لقيامِ السَّاعةِ.

(٢٢ ـ ٢٥) ـ ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾: مَرجعًا ومأوًى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ وقرأَ حمزَةُ ورَوْحٌ: ﴿لَبِثين﴾[3]، وهو أبلَغُ ﴿أَحْقَابًا﴾: دُهورًا مُتتابِعَةً، وليسَ فيهِ ما يَدُلُّ على خُروجِهِم مِنْها؛ إذ لو صَحَّ أنَّ الحُقْبَ ثمانونَ سنةً أو سبعونَ ألفَ سنةٍ فليسَ فيه ما يَقتَضِي تَناهِيَ تلك الأَحقابِ؛ لِجَوازِ أن يكونَ المرادُ: أحقابًا مترادفةً؛ كلَّما مَضى حُقْبٌ تَبِعَه آخرُ، وإن كانَ؛ فمِنْ قَبيلِ المَفهومِ، فلا يُعارِضُ المَنطوقَ الدَّالَّ على خُلودِ الكُفَّارِ[4].

ولو جُعل قولُه: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ حالًا مِن المُستكنِّ في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، أو نُصِبَ ﴿أَحْقَابًا﴾ بـ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ احتملَ أن يلبثوا فيها أحقابًا غيرَ ذائقينَ إلا حميمًا وغسَّاقًا، ثمَّ يبدَّلُونَ جنسًا آخرَ مِن العذابِ.

ويجوزُ أن يكونَ جمعَ (حَقِبٍ)[5]؛ من حَقِبَ الرَّجُلُ: إذا أخطأَهُ الرِّزقُ، وحَقِبَ العامُ: إذا قلَّ مَطرُهُ وخيرُهُ، فتكونُ حالًا بمعنى: لابثِينَ فيها حَقِبينَ، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ تفسيرٌ له.

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «كيلا».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٥)، عن أبي معمر المنقري، ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٤٥٧) لابن يعمر.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٩)، و«النشر» (٢/ ٣٩٧).

(٤) قولُه: «وإن كان» هي «كانَ» التامّة؛ أي: وإن وُجِدَ وصحَّ أنَّ فيه ما يقتَضي التَّناهيَ، أو دلالتُها على الخروجِ ولو بعد زمانٍ طويلٍ، فهو مفهومٌ مُعارَضٌ بالمنطوقِ الصَّريحِ في خلافِه كآياتِ الخلودِ، كقولِه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] إلى غيرِ ذلكَ مِنَ النُّصوصِ المُجمَعِ عليها. قاله الشهاب.

(٥) كحَذِرٍ بمعنى: محرومٍ منَ النَّعيم، وهو حالٌ منَ الضَّميرِ المُستترِ في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾. قاله الشهاب.

والمرادُ بالبردِ: ما يروِّحُهُم ويُنفِّسُ عنهم حرَّ النَّارِ، أو النَّومُ، وبالغَسَّاقِ: ما يَغْسِقُ؛ أي: يسيلُ مِن صَديدِهِم، وقيل: الزَّمهريرُ، وهو مُستثنًى مِن البردِ إلَّا أنَّه أُخِّرَ ليتوافقَ رؤوسُ الآيِ.

وقرأهُ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالتَّشديدِ[1].

(٢٦) ـ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾؛ أي: جُوْزُوا بذلك جزاءً ذا وِفاقٍ لأعمالِهِم، أو: مُوافِقًا لها، أو: وافقَها وِفاقًا.

وقُرِئَ: (وَفَّاقًا)[2]؛ فَعَّالٌ مِن: وَفِقَهُ كذا[3].

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بيانٌ لِمَا وافقَهُ هذا الجزاءُ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾: تكذيبًا، وفِعَّالٌ بمَعنى تفعيلٍ مُطَّردٌ شائعٌ في كلامِ الفُصحاءِ.

وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[4]، وهو بمعنى الكَذِبِ كقولِه:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ[5]

وإنما أُقيمَ مُقامَ التَّكذيبِ للدَّلالةِ على أنَّهُم كَذَبُوا في تَكذيبِهِم، أو المكاذبةِ[6]

---

(١) والباقون بالتخفيف، انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨)، و«الكشاف» (٩/ ٤٥٧) عن أبي حيوة.

(٣) «وَفِقَهُ» يَفِقُهُ بالكسرِ والتَّخفيفِ كوَرِثَهُ يرِثُهُ؛ أي: وجَدَه مُوافقًا لحالِه، وهو مُتعدٍّ لواحدٍ على اختلافٍ فيه. قاله الشهاب.

(٤) أي: (وكَذَبوا بآياتنا كِذَابا)، انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٤٨) عن علي رضي الله عنه.

(٥) البيت للأعشى، كما في «مجاز القرآن» (٢/ ٢٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٢)، وقال المبرد في «الكامل» (٢/ ١٥٦): وأنشد المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة. والرواية عنده: «فصَدَقْتُهم وكَذَبْتُهم...».

(٦) قوله: «أو المكاذبة» عطف على «الكذب» في قوله: «بمعنى الكذب»، فيكون على هذا كالقتال بمعنى المقاتلة. قاله الشهاب (٨/ ٣٠٨).

فإنَّهُم كانوا عند المسلمينَ كاذبينَ، وكان المسلمونَ كاذبينَ عندَهُم، فكأنَّ بينَهُم مُكاذبَةً، أو كانوا مبالغينَ في الكذبِ مبالغَةَ المُغالِبِينَ فيه، وعلى المَعنيينِ يجوزُ أن يكونَ حالًا بمعنى: كاذبينَ أو مُكاذِبينَ، ويؤيِّدُه أنه قُرِئَ: (كُذَّابًا)(١) وهو جمعُ كاذبٍ، ويجوزُ أن يكونَ للمُبالغَةِ، فيكونُ صفةً للمَصدَرِ؛ أي: تكذيبًا مُفرِطًا كَذِبُه.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ وقُرِئَ بالرَّفعِ(٢) على الابتداءِ ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدرٌ لـ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ فإنَّ الإحصاءَ والكِتْبَةَ يَتشاركانِ في مَعنى الضَّبطِ، أو لفعلِه المقدَّرِ، أو حالٌ بمعنى: مكتوبًا في اللوحِ أو صحفِ الحفظةِ، والجملةُ اعتراضٌ.

وقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مُسبَّبٌ عَن كُفرِهم بالحسابِ وتَكذيبِهم بالآياتِ، ومجيئهُ على طريقةِ الالتفاتِ للمُبالغَةِ.

وفي الحديثِ: «هذه الآيةُ أشدُّ ما في القرآنِ على أهلِ النَّارِ»(٣).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨) عن عمر بن عبد العزيز والماجشون.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨) عن أبي السمال.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ١٤٥)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (١/ ٤١١)، من رواية جسر بن فرقد السبخي عن الحسن: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشدِّ آيةٍ في القرآن على أهل النارِ، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. قال الزيلعي: وجسر بن فرقد ضعيف جدًّا.

ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٣٣٤) من طريق الحسن بن دينار عن الحسن به. والحسن بن دينار متروك واتهم بالكذب. انظر: «الضعفاء والمتروكون» لابن الجوزي (١/ ٢٠١).

ورواه الطبراني في «الكبير» (ص: ٩٥ ـ ملحق قطعة من الجزء ٢١) من الطريق السابق موقوفًا، وحاله كحاله.

ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٩). وكذلك ابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ١٥٩) من طريق جسر بن فرقد عن الحسن عن أبي برزة موقوفاً.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفاً.

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾: فوزًا، أو: موضِعَ فوزٍ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾: بساتينَ فيها أنواعُ الأشجارِ المثمرةِ، بدلٌ مِن ﴿مَفَازًا﴾ بدلَ الاشتمالِ أو البعضِ.

(٣٣ ـ ٣٥) ـ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: نِساءً فَلَّكَتْ ثُدِيُّهُنَّ ﴿أَتْرَابًا﴾: لِدَاتٍ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: مـلآنًا، وأَدْهَقَ الحوضَ: مَلأَه ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ وقرأ الكِسائيُّ بالتَّخفيفِ[١]؛ أي: كِذْبًا، أو: مُكاذبةً؛ إذْ لا يَكذِبُ بَعضُهُم بعضًا.

(٣٦) ـ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ بمُقتضَى وعدِه ﴿عَطَآءً﴾: تفضُّلًا منه؛ إذ لا يجِبُ عليهِ شيءٌ، وهو بدلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾، وقيل: مُنتَصِبٌ بهِ نصبَ المفعولِ بهِ.

﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافيًا؛ مِن أَحْسبَهُ الشَّيءُ: إذا كفاهُ حتَّى قال: حَسْبِي، أو: على حسَبِ أَعمالِهم.

وقُرِئَ: (حَسَّابا)[٢]؛ أي: مُحْسِبًا؛ كالدَّرَّاكِ بمعنى المُدْرِكِ.

(٣٧) ـ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدلٌ مِن ﴿رَّبِّكَ﴾، وقد رفعَهُ الحجازيَّانِ وأبو عمرٍو على الابتداءِ[٣].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالجرِّ صفةٌ له في قراءةِ ابن عامرٍ وعاصمٍ ويعقوبَ، وبالرَّفعِ في قراءةِ أبي عمرٍو، وفي قراءةِ حمزةَ والكِسائيِّ بجرِّ الأوَّلِ ورفعِ الثَّاني[٤] على أنه خبرُ مَحذوفٍ أو مُبتدأٌ خبرُه:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٩)، و«التيسير» (ص: ٢١٩).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٤٩)، و«الكشاف» (٩/ ٤٦١)، عن يزيد بن قطيب.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٩) و«التيسير» (ص: ٢١٩).

(٤) وقع في بعض النسخ هنا اضطرابٌ نبَّهَ عليه الأنصاريُّ والخفاجي في «حاشيتيهما»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب. وقرأ بالرفعِ كأبي عمرٍو نافعٌ وابن كثيرٍ. انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٩)، و«التيسير» (ص: ٢١٩)، و«النشر» (٢/ ٣٩٧).

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ والواوُ لأهلِ السَّماواتِ والأرضِ؛ أي: لا يملكونَ خِطابَه والاعتراضَ عليه في ثوابٍ أو عقابٍ؛ لأنَّهُم مَملوكونَ له على الإطلاقِ فلا يستحقُّونَ عليه اعتراضًا، وذلك لا يُنافي الشَّفاعةَ بإذنِه.

(٣٨) - ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقريرٌ وتوكيدٌ لقوله: ﴿لا يملكون﴾ فإنَّ هؤلاء الذين هُمْ أفضَلُ الخَلائقِ وأقربُهُم مِن اللهِ إذا لم يقدِرُوا أن يتكلَّمُوا بما يكون صوابًا كالشَّفاعَةِ لِمَن ارتضَى إلَّا بإذنه، فكيفَ يملِكُه غيرُهُم؟

و﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أو لـ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾.

والرُّوحُ: ملكٌ مُوكَّلٌ على الأرواحِ أو جنسِها، أو جبريلُ، أو خلقٌ أعظَمُ مِن الملائكةِ.

(٣٩) - ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الكائنُ لا محالةَ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: إلى ثوابِه ﴿مَـَٔابًا﴾ بالإيمانِ والطَّاعةِ.

(٤٠) - ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذابَ الآخرةِ، وقُربُهُ لتَحقُّقِه؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قَريبٌ، ولأنَّ مبدأَهُ المَوتُ.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: يرَى ما قدَّمَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، و﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ، وقيل: هو الكافرُ؛ لقولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، فيكونُ ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ ظاهرًا وُضِعَ مَوضِعَ الضَّميرِ لزيادةِ الذَّمِّ.

و﴿مَا﴾ موصولةٌ منصوبةٌ بـ﴿يَنظُرُ﴾، أو استفهاميَّةٌ مَنصوبةٌ بـ﴿قَدَّمَتْ﴾؛ أي: ينظرُ أيَّ شيءٍ قدَّمَتْ يداهُ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ في الدُّنيَا فلم أُخْلَقْ ولم أُكلَّفْ، أو: في هذا اليومِ فلَمْ أُبعَثْ.

وقيل: تُحشرُ سائرُ الحيواناتِ للاقتصاصِ ثمَّ تُردُّ تُرابًا فيوَدُّ الكافِرُ حَالَها.

عن النبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورَةَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سقاهُ اللهُ بردَ الشَّرابِ يومَ القيامَةِ»[1].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٣٠٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٧٨) سورة النبأ مكية
وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عم يتساءلون * عن النبأ العظيم﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم: يعني الخبر الهائل المفظع الباهر، قال قتادة: النبأ العظيم: البعث بعد الموت، وقال مجاهد: هو القرآن، والأظهر الأول، لقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني الناس فيه مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها لها أوتاداً، أرساها بها وثبتها وقررها، حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، ثم قال تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى، يتمتع كل منهما بالآخر. ويحصل التناسل بذلك كقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعايش في عرض النهار، ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي يغشى الناس بظلامه وسواده، كما قال: ﴿والليل إذا يغشاها﴾، وقال قتادة ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي سكناً، وقوله تعال: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها

وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس: المعصرات: الرياح، تستدر المطر من السحاب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من المعصرات أي من السحاب[1]، وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض، وعن الحسن وقتادة: ﴿من المعصرات﴾ يعني السماوات وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب، كما قال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي من بينه، وقوله جلّ وعلا: ﴿ماء ثجاجاً﴾ قال مجاهد: ﴿ثجاجاً﴾: منصباً، وقال الثوري: متتابعاً، وقال ابن زيد: كثيراً، قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصب المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» يعني صب دماء البدن، **قلت**: وفي حديث المستحاضة: «إنما أثج ثجاً» وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حباً﴾ يدخر للأناسي والأنعام، ﴿ونباتاً﴾ أي خضراً يؤكل رطباً، ﴿وجنات﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال: ﴿وجنات ألفافاً﴾ قال ابن عباس وغيره: ألفافاً مجتمعة، وهذه كقوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو (يوم القيامة) أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أنه ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ قال البخاري: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس

---

(١) وهو قول عكرمة والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري، واختاره ابن جرير وهو الأظهر كما قال ابن كثير.

من الإنسان شيء إلا بلي إلا عظماً واحداً، وهو (عجب الذنب) ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[١] . ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ كقوله تعالى: ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، وقال ههنا ﴿ فكانت سراباً﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ ، وقال تعالى : ﴿ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً﴾ أي مرصدة معدة ﴿ للطاغين﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ، ﴿ مآباً﴾ أي مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاء ، وقال الحسن وقتادة : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس ، وقوله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً﴾ أي ما كثين فيها أحقاباً وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل ؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة، وعن الحسن والسدي: سبعون سنة. وعن عبد الله بن عمرو : الحقب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون[٢] ، وقال بشير بن كعب: ذكر لي أن الحقب الواحد ثلثمائة سنة، اثنا عشر شهراً، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم منها كألف سنة . وقال السدي: ﴿ لابثين فيها أحقاباً﴾ سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون، وقال خالد بن معدان هذه الآية ، وقوله تعالى: ﴿ إلا ما شاء ربك﴾ في أهل التوحيد[٣] : قال ابن جرير : والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما روي عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: ﴿ لابثين فيها أحقاباً﴾ قال أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقال قتادة . قال الله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده . وقال الربيع بن أنَس: ﴿ لابثين فيها أحقاباً﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عزَّ وجلَّ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به، ولهذا قال تعالى: ﴿ إلا حميماً وغساقاً﴾، وقال أبو العالية: استثني من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق. قال الربيع بن أنَس: فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه. والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه، وقوله تعالى: ﴿ جزاءاً وفاقاً﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، ثم قال تعالى: ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾

(١) أخرجه البخاري .
(٢) رواهما ابن أبي حاتم .
(٣) أخرجه ابن جرير .
(٤) أخرجه ابن جرير أيضاً .

أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله ﷺ فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة، وقوله ﴿ كذاباً﴾ أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل، وقوله تعالى: ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقوله تعالى: ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ أي يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج، قال قتادة: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ فهم في مزيد من العذاب أبداً .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن السعداء، وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ إن للمتقين مفازاً﴾ قال ابن عباس متنزهاً، وقال مجاهد: فازوا فنجوا من النار ، والأظهر ههنا قول ابن عباس لأنه قال بعده: ﴿ حدائق﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها، ﴿ وأعناباً وكواعب أتراباً﴾ أي وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد ﴿ كواعب﴾ أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين، لأنهن أبكار (عرب أتراب) أي في سن واحد. كما تقدم بيانه في سورة الواقعة، روى ابن أبي حاتم، عن ابن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة . عن النبي ﷺ أنه قال: «إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وأن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يا أهل الجنة ماذا تريدون أن أمطركم؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب»[1] . وقوله تعالى: ﴿ وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد والحسن ﴿ دهاقاً﴾ الملأى المترعة، وقال سعيد بن جبير : هي المتتابعة، وقوله تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ كقوله: ﴿ لا لغو فيه ولا تأثيم﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص، وقوله: ﴿جزاءً من ربك عطاء حساباً﴾ أي هذا الذي ذكرناه، جازاهم الله به بفضله ومنّه وإحسانه ﴿ عطاء حساباً﴾ أي كافياً وافياً سالماً كثيراً ، ومنه حسبي الله ، أي الله كافيَّ .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿ لا يملكون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله

(١) رواه ابن أبي حاتم .

تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وكقوله تعالى. ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو؟ على أقوال: **أحدها**: ما روي عن ابن عباس انهم أرواح بني آدم. **الثاني**: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. **الثالث**: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا ببشر قاله ابن عباس ومجاهد. **الرابع**: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحّاك. **الخامس** أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً. والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم[1]، وقوله تعالى: ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ كقوله: ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل»، وقوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً، ومن الحق ﴿لا إله إلا الله﴾، كما قاله عكرمة. وقوله تعالى: ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن لا محالة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه، ومنهجاً يمر به عليه، وقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت قريب، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها، قديمها وحديثها كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، **وقيل**: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبدالله بن عمرو وغيرهما.

[آخر تفسير سورة النبأ. ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) الأظهر أن المراد بالروح هنا (جبريل) عليه السلام كما قال سعيد بن جبير والضحّاك ويؤيده قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، فالروح هو جبريل.

تفسير سورة النبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : عن أى شىء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المفظع الباهر .

قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن . والأظهر الأول لقوله : ﴿ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعنى : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر .

ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد .

ثم شرع تعالى يُبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ؟ أى : ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم ، قارّةً ساكنة ثابتة ، ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى : قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد [١] والسعى

---

(١) فى أ : « الاسترداد » .

في المعايش (١) في عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة « الفرقان » (٢) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٤] ، وقال الشاعر (٣) :

فَلَمَّا لَبِسْنَ اللَّيلَ ، أو حِينَ نَصَّبتْ ... لـه مِـن خَـذا آذانِها وَهْـوَ جَـانِـحُ

وقال قتادة في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي : سكناً .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: جعلناه مشرقا مُنيراً (٤) مضيئاً ،ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعني : السموات السبع ، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعني : الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾: الريح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو داود الحَفَري (٥)، عن سفيان ، عن الأعمش، عن المِنْهَال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ قال : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، والكلبي ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أي : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا ، وأبو العالية ، والضحاك ،والحسن ،والربيع بن أنس ،والثوري . واختاره ابن جرير .

وقال الفراء : هي السحاب التي تَتَحلَّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا دنا حيضها ولم تحض .

وعن الحسن ، وقتادة : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ يعني : السموات . وهذا قول غريب .

والأظهر أن المراد بالمعصرات :السحاب ، كما قال [الله] (٦) تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [الروم:٤٨] أي : من بينه.

وقوله : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا . وقال الثوري : متتابعاً . وقال ابن زيد : كثيرا .

---

(١) في م : « في المعاش » .

(٢) عند تفسير الآية ٤٧ .

(٣) هو ذو الرمة ، والبيت في تفسير الطبري (٣٠ / ٣) .

(٤) في أ : « نيرا » .

(٥) في أ : « الجوني » .

(٦) زيادة من م .

قال ابن جرير : ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أفضلُ الحجّ العجّ والثجّ » . يعنى : صَبّ دماء البُدْن [١] . هكذا قال . قلت : وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أنعت لك الكُرسُفَ » ـ يعنى : أن تحتشى بالقطن ـ : قالت [٢] : يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً [٣] . وهذا فيه دَلالة على استعمال الثَّج فى الصبّ المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى : لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبَارَك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للأناسى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطبا ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذهلك [٤] فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ . قال ابن عباس ، وغيره : ﴿أَلْفَافًا ﴾: مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ الآية [الرعد: ٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤] .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : قال مجاهد : زُمَراً [٥] . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] [٦] .

وقال البخارى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون ».

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٥) ، وهذا الحديث جاء من حديث ابن عمر ، وأبى بكر ، وجابر ، وابن مسعود رضى الله عنهم ،وانظر تخريجها والكلام عليها فى : نصب الراية للإمام الزيلعى (٣/٣٣ ـ ٣٥) .

(٢) فى أ :« فقالت ».

(٣) حديث المستحاضة هو حديث حمنة بنت جحش ، وقد رواه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٤٣٩) ، وأبو داود فى السنن برقم (٢٨٧) ، والترمذى فى السنن برقم (١٢٨) .

(٤) فى م ، أ :« ذلك » .

(٥) فى م :« زمرا زمرا ».

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٦٠) .

قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيتُ » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال :« أبيت ». قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى ، إلا عظماً واحدا ، وهو عَجْبُ الذنَب ، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أي : طرقا ومسالك لنزول الملائكة ، ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨] ، وكقوله : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥] .

وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي : يخيل إلى الناظر أنها شيء ، وليست بشيء ، وبعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر ، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي : مرصدة مُعَدّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المَرَدة العصاة المخالفون للرسل ، ﴿ مَآبًا ﴾ أي : مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونُزُلا . وقال الحسن ، وقتادة في قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعني: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس . وقال سفيان الثوري : عليها ثلاث قناطر .

وقوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أي : ماكثين فيها أحقابا ، وهي جمع « حُقب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا في مقداره ، فقال ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مِهْران ، عن سفيان الثوري ، عن عَمَّار الدّهني ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال على بن أبي طالب لهلال الهَجَرى : ما تجدونَ الحُقْبَ في كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة (٢) .

وهكذا رُوِىَ عن أبي هُرَيرة ، وعبد الله بن عَمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَير ، وعَمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسّدى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهما ابن أبي حاتم .

وقال بُشَير (٣) بن كعب : ذُكر لي أن الحُقب الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً(٤) ، كل يوم ألف سنة . رواه ابن جرير (٥) ، وابن أبي حاتم .

ثم قال ابن أبي حاتم : ذكر عن عُمَر بن على بن أبي بكر الأسْفَذْني(٦): حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارى ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لابِثِينَ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٣٥) .
(٢) تفسير الطبري (٣٠/٨) .
(٣) في أ:« وقال بشر » .
(٤) في م :« كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما » .
(٥) تفسير الطبري (٣٠/٨) .
(٦) في أ :« الأسعدى » .

فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، قال : فالحقب [ألف] (١) شهر ، الشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة (٢) . وهذا حديثٌ منكر جداً ، والقاسم والراوى عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك .

وقال البزار :حدثنا محمد بن مِرْدَاس ، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المُعَلَّى قال : سألت سليمان التيمى : هل يخرج من النار أحد ؟ فقال : حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ أنه قال : «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا » . قال : والحُقْب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون (٣) .

ثم قال : سليمان بن مسلم بصرى مشهور .

وقال السّدى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ : سبعمائة حُقب ، كل حُقب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون .

وقد قال مقاتل بن حَيّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

وقالد خالد بن مَعْدان : هذه الآية وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما قال قتادة والربيع بن أنس . وقد قال قبل ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الرحيم البَرْقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن زهير ، عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود فى النار ، ولكن ذكروا أن الحُقبَ سبعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وقال سعيد ، عن قتادة : قال الله تعالى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ وهو : ما لا انقطاع له ، وكلما مضى حُقب جاء حقب بعده ، وذكر لنا أن الحُقْب ثمانون سنة .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ، ولكن الحُقْب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . رواهما أيضا ابن جرير (٤) .

---

(١) زيادة من إتحاف المهرة للبوصيرى .

(٢) ورواه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق ٢١٨ سليمانية) عن مروان ، عن جعفر بن الزبير بنحوه ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٩٢) من طريق يعقوب بن كعب ، عن مروان ، عن جعفر ، عن القاسم ،عن أبى أمامة مرفوعا : «الحقب الواحد : ثلاثون ألف سنة » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٩) « كشف الأستار » ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٧٠٢٩) من طريق زياد بن أبى زيد ،عن سليمان بن مسلم به نحوه ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٥) :« فيه سليمان بن مسلم الخشاب ، وهو ضعيف جداً ».

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٩) .

وقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ أي : لا يجدون في جهنّم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ . قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع بن أنس .

فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغَسَّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ، ولا يواجه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » [1] بما أغنى عن إعادته ، أجارنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه .

قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعنى : النوم ، كما قال الكندى :

بَرَدت مَرَاشفها عَلَيّ فصدّنى   عنها وَعَنْ قُبُلاتها ، البَرْدُ

يعنى بالبرد : النعاس والنوم [2] . هكذا ذكره ولم يَعزُه إلى أحد . وقد رواه ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن مرة الطيب . ونقله عن مجاهد أيضا . وحكاه البغوى عن أبى عُبيدة ، والكسائى أيضا .

وقوله : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة .

وقوله :﴿ كِذَّابًا ﴾ أى : تكذيبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفَرّاءَ على المروة : الحلقُ أحبّ إليك أو القِصار ؟ وأنشد بعضهم [3] :

لَقَد طالَ ما ثَبَّطتنى عَن صَحَابَتِى   وعن حوج قضاؤها من شفَائيا

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص:٥٨] .

قال قتادة : عن أبى أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال :لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى ، حدثنا خالد بن عبد

---

(١) انظر تفسير الآية : ٥٧ من سورة «ص» .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٩) .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/١١) .

الرحمن، حدثنا جَسر [١] بن فَرقد ، عن الحسن قال : سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية فى كتاب الله على أهل النار . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، فقال: « هلك القوم بمعاصيهم الله عزّ وجل » [٢] .

جسرُ [٣] بن فَرقد : ضعيف الحديث بالكلية .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ . قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس؛لأنه قال بعده:﴿ حَدَائِقَ ﴾،وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أى : حوراً كواعب . قال ابن عباس ومجاهد ،وغير واحد : ﴿كَوَاعِبَ﴾ أى : نواهد ، يعنون أن ثُدُيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب ، أى : فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدّشتكىّ ، حدثنى أبى ، عن أبى سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى ، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث ، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن أبى القاسم الدمشقى ، عن أبى أمامة : أنه سمعه يحدث عن النبى ﷺ أنه قال : « إن قُمُص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله ، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم : يا أهل الجنة ، ماذا تريدون أن أمطركم ؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب » [٤] .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ، قال ابن عباس : مملوءة متتابعة . وقال عكرمة : صافية . وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملأى المترعة . وقال مجاهد [٥] ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة .

وقوله : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:٢٣] أى: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص .

---

(١) فى أ:« حدثنا حسن » .

(٢) ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٣٥) من طريق محمد بن غالب ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن جسر بن فرقد به ،فذكره موقوفا ، ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٤/ ١٤٥) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد ، عن أبيه ، عن الحسن به،ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٤/ ١٤٥) من طريق مهدى بن ميمون ، عن الحسن بن دينار ، عن الحسن ، عن أبى برزة مرفوعاً بنحوه .

(٣) فى أ: « حسن » .

(٤) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١/ ١٩٥) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، عن أبى سفيان ـ عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى به .

(٥) فى م :« وقال قتادة » .

وقوله : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضله ومنِّه وإحسانه ورحمته ؛ ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : «أعطانى فأحسبنى » أى : كفانى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافىّ .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء .

وقوله : ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا، ما هو ؟ على أقوال :

أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم .

الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا [(١)] مما كان ابن عباس يكتمه .

الثالث : أنهم خَلق من خلق الله ، على صُور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش .

الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣ ، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى .

والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى:٥٢] .

والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، حدثنا روّاد [(٢)] بن الجراح ، عن أبى

---

(١) فى م:« وهذا » .

(٢) فى أ :« حدثنا داود » .

حمزة ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن ابن مسعود قال : الروح : فى السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة مَلَكاً من الملائكة يجىء يوم القيامة صفاً وحده (١) ، وهذا قول غريب جداً .

وقد قال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن عِرْس المصرى ، حدثنا وهب [الله بن رزق أبو هريرة ، حدثنا بشر بن بكر] (٢) ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عطاء ، عن عبد الله بن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن لله ملكا لو قيل له : التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة ، لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » (٣) .

وهذا حديث غريب جداً ، وفى رفعه نظر ، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس ، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم .

وتَوَقَّفَ ابنُ جرير فلم يقطَع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه ــ والله أعلم ــ أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] . وكما ثبت فى الصحيح : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى : حقا ، ومن الحق : « لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٤) ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩] ، وكقوله :﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة:١٣].

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا ، ولم يكن خُلِقَ ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدى الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٥) .

(٢) زيادة من م، أ .

(٣) المعجم الكبير (١١/ ٩٥) ، والمعجم الأوسط برقم (٦٦) « مجمع البحرين» ، وقال فى الأوسط :« لم يروه عن الأوزاعى إلا بشر ، تفرد به وهب » ، ووهب لم أر من ترجم له .

(٤) فى م :« سبيلا » وهوخطأ.

الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصّور المشهور [(١)] ، وورد فيه آثار عن أبى هُرَيرة ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما .

[آخر تفسير سورة « عم » [(٢)]] [(٣)]

(١) حديث الصور تقدم بطوله عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة « الأنعام » .
(٢) فى م :« النبأ » .	(٣) زيادة من م،أ .

سورة النبأ

مكّيّة، وهي أربعون أو[1] إحدى وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله "عمّا" فحُذف منه "الألف" إمّا فرقًا بين "ما" الاستفهاميّة وغيرها، أو قصدًا للخِفّة لكثرة استعمالها. وقُرئ على الأصل.[2] وما فيها مِن الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهَوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أيّ شيء عظيم الشأن.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: أهلُ مكّة، وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً، لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسمّاه؛ بل عن وقوعه الذي هو حال مِن أحواله ووصفٌ مِن أوصافه. فإنّ "ما" وإن وُضعت لطلب حقائق الأشياء ومسمّيات أسمائها، كما في قولك: ما المُلك؟ وما الروح؟ لكنّها قد يُطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيدٌ؟ فيقال: عالمٌ أو طبيبٌ.

وقيل: كانوا يسألون عنه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين استهزاءً، كقولهم: يتداعَونهم، أي: يدعُونهم.[3] وتحقيقه أنّ صيغة "التفاعُل" في الأفعال المتعدِّية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يصير كلّ واحد مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّه يُرفَع بإسناد الفعل إليه ترجيحًا

[1] س - أربعون أو.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وعكرمة وعيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٩.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٥.

لجانب فاعليّته ويُحال بمفعوليّته على دلالة العقل، كما في قولك: "تراءى القومُ"، أي: رأى كلّ واحد منهم الآخرَ.

وقد تُجرَّد عن المعنى الثاني،[١] فيُراد بها مجرَّد صدور الفعل عن المتعدِّد عاريًا عن اعتبار وقوعه عليه، فيُذكَر للفعل حينئذ مفعول متعدِّد كما في المثال المذكور، أو واحد كما في قولك: "تراءوا الهلالَ"، وقد يُحذَف لظهوره كما فيما نحن فيه، فالمعنى: عن أيّ شيء يسأل هؤلاء القومُ الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين؟ وربّما تُجرَّد عن صدور الفعل عن المتعدِّد أيضًا فيُراد بها تعدُّده باعتبار تعدُّد متعلَّقه مع وَحدة الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم، ٥٥/٥٣].

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المسئول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيهِ أذهان السامعين نحوه وتنزيلِهم منزلةَ المُستفهِمين، فإنّ إيراده على طريقة الاستفهام مِن علّام الغيوب للتنبيه على أنّه لانقطاع قرينه وانعدام نظيرِه خارجٌ عن دائرة علوم الخلق، خليق / بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه، كأنّه [٢٥٦و]
قيل: عن أيّ شيء يتساءلون؟ هل أخبِركم به؟ ثمّ قيل: بطريق الجواب: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠]، فـ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بما يدلّ عليه المذكور مِن مضمر حقُّه أن يقدَّر بعدها مُسارعةً إلى البيان ومراعاةً لترتيب السؤال. هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيليّة.

وقد قيل: هي متعلِّقة بالمذكور، و﴿عَمَّ﴾ متعلِّق بمضمر مفسَّر به، وأُيِّد ذلك بأنّه قُرئ: "عَمَّهْ".[٢] والأظهرُ أنّه مبنيٌّ على إجراء الوصل مُجرَى الوقف.[٣] وقيل: "عن" الأولى للتعليل، كأنّه قيل: لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وقيل: قبلَ ﴿عَنْ﴾ الثانية استفهام مضمر، كأنّه قيل: عمّ يتساءلون أعن النبأ العظيم؟[٤]

والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطَر، وقد وُصف بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعد وصفه بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ تأكيدًا لخطره إثر تأكيد، وإشعارًا بمدار التساؤل عنه، و﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قُدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل.

---

١ وفي هامش م: هو وقوع الفعل عليه.
٢ قرأ بها يعقوب والبَزّي بخلاف عنها. النشر لابن الجزري، ١٣٤/٢.
٣ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٤.
٤ القولان في اللباب لابن عادل، ٩٣/٢٠.

وجعلُ الصلة جملةً اسميّةً للدلالة على الثبات، أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمِن جازم باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا[١] وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون، ٣٧/٢٣]، وشاكٍّ يقول ﴿مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية، ٣٢/٤٥]. وقيل: منهم مَن يُنكِر المَعادَين معًا كهؤلاء، ومنهم مَن يُنكِر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى.[٢]

وقد حُمل الاختلاف على الاختلاف في كيفيّة الإنكار، فمنهم مَن يُنكره لإنكاره الصانع المختار، ومنهم مَن يُنكره بناءً على استحالة المعدوم بعينه.[٣]

وحملُه على الاختلاف بالنفي والإثبات بناءً على تعميم التساؤل لفريقَي المسلمين والكافرين، على أنّ سؤال الأوّلين ليزدادوا خشيةً واستعدادًا، وسؤالَ الآخرين ليزدادوا كفرًا وعنادًا،[٤] يردّه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾... إلخ،[٥] / فإنّه صريح في أنّ المراد اختلافُ الجاهلين به المنكرين له؛ إذ عليه يدور الردعُ والوعيد، لا على خلاف المؤمنين لهم، وتخصيصهما بالكفَرة بناءً على تخصيص ضمير ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بهم مع عموم الضميرين السابقين للكلّ ممّا ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله. هذا ما أدّى إليه جليلُ النظر. [٢٥٦ظ]

والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظرُ الدقيق أن يُحمَل اختلافهم على مخالفتهم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يُعتبَر في الاختلاف محضُ صدور الفعل عن المتعدِّد حسبما ذُكر في التساؤل، فإنّ "الافتعال" و"التفاعل" صيغتانِ متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك، يجري في كلّ منهما ما يجري في الأخرى، لا على مخالفة بعضهم لبعض مِن الجانبين؛ لأنّ الكلّ وإن استحقّ الردعَ والوعيد لكنّ استحقاق كلّ جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر؛ إذ لا حقّيّة في شيء منهما حتّى يستحقّ مَن يخالفه المؤاخذة؛ بل لمخالفته له عليه السلام.

---

١ م س + وما يهلكنا إلّا الدهر.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.
٣ الوجه في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.
٤ أورد الزمخشري هذا الوجه على سبيل التضعيف في الكشّاف، ٥١٥/٤.
٥ س – إلخ.

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين، و﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع، و"السين" للتقريب والتأكيد، وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام مِن وقوع ما يتساءلون عنه ووقوعِ ما يختلفون فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل، ٣٨/١٦] إلى قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ[1] فِيهِ﴾ الآية [النحل، ٣٩/١٦]، فإنّ ذلك عارٍ عن صريح الوعيد؛ بل هو عبارة عمّا يُلاقونه مِن فنون الدواهي والعقوبات.

والتعبير عن لقائها بالعِلم لوقوعه في معرِض التساؤل والاختلاف، والمعنى: ليرتدِعوا عمّا هم عليه، فإنّهم سيعلمون عمّا قليل حقيقةَ الحال إذا حلّ بهم العذاب والنَّكال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الوعيد الثّاني أبلغ وأشدّ. وقيل: الأوّل عند النزع والثاني في القيامة. وقيل: الأوّل للبعث والثاني للجزاء.[2] وقُرئ:
[٢٥٧و] "سَتَعْلَمُونَ"[3] بـ"التاء" على نهج الالتفات / إلى الخطاب الموافق لِما بعده مِن الخطابات تشديدًا للردع والوعيد، لا على تقدير "قل لهم" كما تُوهِّم؛[4] فإنّ فيه مِن الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾... إلخ، استئناف مَسوق لتحقيق النبأ المُتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقّيته إثر ما نُبّه عليها

---

[1] م س: اختلفوا.
[2] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن ومالك بن دينار وابن مِقسَم والفحّام، والجوردكي عن الوليد عن يعقوب، والتغلبي عن ابن ذكوان. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٧٩.
[4] ذلك في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

بما ذُكر مِن الردع والوعيد. ومِن ههنا اتّضح أنّ المُتساءل عنه هو البعث، لا القرآن أو نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما قيل.[١] و"الهمزة" للتقرير. والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة في الإلزام والتبكيت. والمِهاد: البِساط والفِراش. وقُرئ: "مَهْدًا"[٢] على تشبيهها بمهد الصبيّ، وهو ما يُمهَد له فيُنوّم عليه تسميةً للمَمهود بالمصدر. وجعلُ الجبال أوتادًا لها إرساؤها بها كما يُرسى البيت بالأوتاد.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عطفٌ على المضارع المنفيّ بـ﴿لَمْ﴾ داخل في حُكمه، فإنّه في قوّة "أمَا جعلنا"... إلخ، أو على ما يقتضيه الإنكار التقريري، فإنّه في قوّة أن يقال: "قد جعلنا"... إلخ. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ذكرًا وأنثى ليسكُن كلّ مِن الصنفين إلى الآخر، وينتظِم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنّى التناسُل.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: موتًا فإنّه أحد التَّوفّيين لِما بينهما مِن المشاركة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦٠/٦]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٤٢/٣٩]. وقيل: قطعًا عن الإحساس والحركة لإراحة القوى الحيوانيّة وإزاحةِ كلالها.[٣] والأوّل هو اللائق بالمقام، كما ستعرفه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع النوم فيه غالبًا ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، ولعلّ المرادَ به ما يُستتر به عند النوم مِن اللِّحاف ونحوه، فإنّ شبَه الليل به أكملُ واعتبارَه في تحقيق المقصد أدخَلُ، فهو جَعْل الليل محلًّا للنوم الذي جُعل موتًا كما جُعل النّهار محلًّا لليقظة المُعبَّر عنها بالحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ / أي: وقتَ حياةٍ تُبعثون فيه مِن نومكم الذي [٢٥٧ظ]
هو أخو الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان، ٤٧/٢٥].

وجَعْلُ كونِ الليل لباسًا عبارةً عن سَتْره عن العيون لمَن أراد هربًا مِن عدوّ

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وعيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

أو بيانًا له أو نحو ذلك،[١] ممّا لا مناسبةَ[٢] له بالمقام، وكذا جَعْلُ النهار وقتَ التقلّب في تحصيل المعايش والحوائج.[٣]

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماوات قويّةَ الخلقِ محكمَةَ البناء لا يُؤثّر فيها مرّ الدهور وكرّ العصور. والتعبير عن خَلْقها بـ"البناء" مبنيّ على تنزيلها منزلةَ القِباب المضروبة على الخَلْق. وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط؛ بل للتشويق إليه، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا ورد عليها تمكّن عندها فضلَ تمكُّن.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجَعْل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخَلْق، خلا أنّه مختصّ بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عامّ له كما في الآية الكريمة، وللتشريعي أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة، ١٠٣/٥]... إلخ، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

وأيًا ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أوّله أو منه أو نحو ذلك ملابَسةً مصحِّحةً لأنّ يتوسّط بينهما شيء مِن الظروف لغوًا كان أو مستقَرًا، لكن لا على أن يكون عُمدةً في الكلام؛ بل قيدًا فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان، ٥٣/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد، ٣/١٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ الآية [النساء، ٧٥/٤]. فإنّ كلّ واحد مِن هذه الظروف إمّا متعلِّق بنفس الجَعْل، أو بمحذوف وَقَع حالًا مِن مفعوله تقدَّمت عليه لكونه نكرةً.

وأيًا ما كان فهو قيد في الكلام حتّى إذا اقتضى الحالُ وقوعَه عمدةً فيه يكون الجَعْل متعدِّيًا إلى اثنين هو ثانيهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة، ١٩/٢]، وربّما يشتبه الأمر فيُظنّ أنّه عمدة فيه وهو في الحقيقيّة قيد بأحد الوجهين، كما سلف في قوله تعالى: / ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]. [٢٥٨و]

---

١ كما ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥١٦/٤.

٢ السياق: وجَعْل... ممّا لا مناسبةَ...

٣ وهو أحد وجهين ذكرهما البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٨٨/٣.

والوهّاج: الوقّاد المتلألئ مِن "وهَجت النارُ" إذا أضاءت، أو البالغُ في الحرارة مِن الوَهْج، والمراد به الشمس. والتعبير عنها بـ"السِّراج" مِن روادف التعبير عن خلق السماوات بـ"البناء".

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ هي السحائب إذا أعصَرَت، أي: شارفَت أن تعصِرها الرياح فتُمطِر، كما في "أحْصَدَ الزَّرعُ" إذا حان له أن يُحصَد، ومنه "أعصَرتِ الجاريةُ" إذا دنَت أن تحيض، أو الرياح التي حان لها أن تعصِر السحابَ. وقُرئ: "بِالمُعْصِرَاتِ"،[1] ووجهُ ذلك أنّ الإنزال حيث كان مِن المعصرات -سواء أريدَ بها السحائب أو الرياح- فقد كان بها، كما يقال: أعطاه مِن يده وبيده. وقد فُسِّرت ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ بالرياح ذوات الأعاصير، ووجهُهُ أنّ الرياح هي التي تنشئ السحابَ وتُدِرّ أخلافه فصلحت أن تُجعل مبدأً للإنزال.[2]

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: مُنصبًّا بكثرة، يقال: "ثجّ الماءُ"، أي: سال بكثرة، و"ثجّه"، أي: أسالَه، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أفضل الحجّ العَجّ والثجّ»،[3] أي: رَفْع الصوت بالتلبية وصبُّ دماء الهَدي. وقُرئ: "ثَجَّاحًا"[4] بـ"الحاء" بعد "الجيم"، قالوا: "مثاجحُ الماء: مَصابّه".

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾[5] بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ يُقتات كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿وَنَبَاتًا﴾ يُعتلَف كالتبن والحشيش. وتقديم الحبّ مع تأخّره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه؛ لأنّ غالبه غذاء الإنسان.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ الجنّة في الأصل هي المرّة مِن مصدر "جَنَّه" إذا سَتَره، تُطلق على النخل والشجر المُتكاثِف المُظلِّل بالتفاف أغصانه، قال زهير بن أبي سُلمى:

كــأنّ عيـنـيّ فـي غـربَـيْ مُـقـتَّـلـةٍ   مِـن الـنـواضـح تسقي جنّـةً سُحُقا[6]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن الزُّبير وقتادة وعكرمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.

[2] الكلام على هذا الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٤.

[3] بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٢٢٥/٥ (٢٩٩٨)؛ وسنن ابن ماجه، ١٤٣/٤ (٢٨٩٦)؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٠.

[5] س + أي.

[6] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢٦٦/٢.

وعلى الأرض ذات الشجر،[١] قال الفرّاء: الجنّة: ما فيه النخيل، والفِردوس: ما فيه الكَرْم،[٢] والأوّل هو المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفّةً تداخل بعضها في بعض، قالوا: لا واحد له كـ"الأوزاع" و"الأخياف"، وقيل: الواحد "لِفّ" كـ"كِنّ وأكنان"، أو "لفيف" / كـ"شَريف وأشراف". وقيل: هو جمع "لُفّ" جمعِ "لفّاء"، كـ"خُضر وخَضراء". [٢٥٨ظ]
وقيل: جمع "مُلتفّة" بحذف الزوائد.[٣]

واعلم أنّ فيما ذكر مِن أفعاله عزّ وجلّ دلالة على صحّة البعث وحقّيّته مِن وجوه ثلاثة: **الأوّل**: باعتبار قدرته تعالى، فإنّ مَن قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة مِن غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدرَ وأقوى، **الثاني**: باعتبار عِلمه وحكمته، فإنّ مَن أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافعَ جميلة عائدةً إلى الخلق يستحيل أن يُفنيَها بالكلّيّة ولا يجعل لها عاقبةً باقيةً، **والثالث**: باعتبار نفس الفعل، فإنّ اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كلّ يوم، وكذا إخراج الحبّ والنبات مِن الأرض الميتة يعاينونه كلّ حين، كأنّه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقيّةَ والأنفسيّةَ الدالّةَ بفنون الدلالات على حقّيّة البعث الموجِبةَ للإيمان به، فما لكم تخوضون فيه إنكارًا وتتساءلون عنه استهزاءً.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ شروع في بيان سرّ تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، ونوعُ تفصيل لكيفيّة وقوعه وما سيلقَونه عند ذلك مِن فنون العذاب، حسبما جرى به الوعيد إجمالًا، أي: إنّ يوم فصل الله عزّ وعلا بين الخلائق كان في عِلمه وتقديره

---

١ السياق: تُطلق على النخل... وعلى الأرض...

٢ ما وقفتُ عليه في معاني القرآن. ونقله عن الفرّاء البغويُّ في معالم التنزيل، ٧٣/١ (البقرة، ٢٥/٢)؛ وابن عادل في اللباب، ٤٥٠/١ (البقرة، ٢٥/٢).

٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

ميقاتًا وميعادًا لبعث الأوّلين والآخرين، وما يترتّب عليه مِن الجزاء ثوابًا وعقابًا لا يكاد يتخطّاه بالتقدّم والتأخّر.

وقيل: حدًّا تُوقَّت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه.[1] ولا ريبَ في أنّهما بمَعزِل مِن التقريب الذي أشيرَ إليه، على أنّ الدنيا تنتهي عند النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخةً ثانيةً بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطفُ بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، ولا ضيرَ في تأخّر الفصل عن النفخ، فإنّه زمان ممتدّ يقع في مبدئه النفخة وفي بقيّته الفصل ومباديه وآثاره. و﴿ٱلصُّورِ﴾: هو القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ عليه السلام.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرغ الله تعالى مِن خَلْق السماوات والأرض خَلَق الصُّور فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضعُه على فيه شاخص بصره إلى العرش، متى يؤمَر بالنفخ فيه فيُؤمَر به[2] فينفخ فيه نفخةً لا يبقى عندها في الحياة غيرُ مَن شاء الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يؤمَر بأخرى فينفخ نفخةً لا يبقى معها ميّت إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[3]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جملة قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بغاية سرعة الإتيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[4] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فتُبعثون مِن قبوركم فتأتون إلى الموقف عَقيبَ ذلك مِن غير لبث أصلًا. ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أممًا كلّ أمّة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ/ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء، ٧١/١٧]، أو زمرًا [٢٥٩و]
وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال متباينةَ الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

٢ س – فيُؤمر به.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥ (الكهف، ٩٩/١٨)؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٢٨/٩ (المؤمنون، ٨٧/٢٧).

٤ م س: فقلنا.

عن معاذ رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال عليه السلام: «يا معاذُ سألتَ عن أمر عظيم مِن الأمور»، ثمّ أرسل عينيه وقال: «تُحشَر عشرةُ أصناف مِن أمّتي: بعضُهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورة الخنازير، وبعضُهم مُنكَّسون أرجلهم فوق وجوههم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُميٌ، وبعضُهم صُمّ بُكمٌ، وبعضُهم يمضعون ألسنتهم فهي مدلّاة على صدورهم يسيل القيح مِن أفواههم يتقذّرهم أهلُ الجَمْع، وبعضُهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضُهم مُصلّبون على جذوع مِن نار، وبعضُهم أشدّ نتنًا مِن الجِيَف، وبعضُهم مُلبَسون جِبابًا سابغةً مِن قَطِران لازقةً بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القِرَدة فالقتّات مِن الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهلُ السُّحت، وأمّا المُنكَّسون على وجوههم فأكَلَة الرِّبا، وأمّا العُمي فالذين يجورون في الحُكم، وأمّا الصمّ البُكم فالمُعجَبون بأعمالهم، وأمّا الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالَهم، وأمّا الذين قُطِّعت أيديهم وأرجلُهم فهم الذين يؤذون جيرانهم، وأمّا المصلَّبون على جذوع مِن نار فالسُّعاة بالناس إلى السلطان، وأمّا الذين هم أشدّ نَتْنًا مِن الجِيَف فالذين يتّبعون الشهواتِ واللذّاتِ ومنعوا حقّ الله تعالى في أموالهم، وأمّا الذين يُلبَسون الجِباب فأهل الكِبر والفخر والخُيلاء».[١]

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وقُرئ: "فُتِّحَتْ"[٢] بالتشديد، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي: كثُرت أبوابها المُفتَّحة لنزول الملائكة نزولًا غيرَ معتاد حتّى صارت كأنّها ليست إلّا أبوابًا مفتَّحةً، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر، ١٢/٥٤]، كأنّ كلّها عيونٌ متفجِّرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وهو الغمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٢٨-٣١٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤-٥١٨.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

أي: أمرُه وبأسُه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة، ٢/٢١٠]. وقيل: الأبواب: الطرق والمَسالك، أي: تُكشَط فينفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدّها شيء.[١]

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الجوّ على هيئاتها بعد قلعها مِن مقارّها، / كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٢٧/٨٨] أي: تراها رأيَ العين ساكنةً في أماكنها والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسيِّرها الرياح سَيرًا حثيثًا، وذلك أنّ الأجرام العِظام إذا تحرّكتْ نحوًا مِن الأنحاءِ لا تكاد تتبيَّن حركتها وإن كانت في غاية السرعة لا سيّما مِن بعيد،[٢] وعليه قول مَن قال: [٢٥٩ظ]

بأرعَنَ مِثلِ الطَّود تحسب أنّهمْ   وقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكاب تُهَمْلِجُ[٣]

وقد أُدمِج في هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخُل الأجزاء وانتفاشها، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ١٠١/٥]. يُبدِّل الله عزّ وجلّ الأرض ويُغيِّر هيأتها ويُسيِّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حَشْر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها، ثمّ يفرِّقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارت بَعْدَ تَسييرها مثلَ السراب، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة، ٥٦/٥-٦] أي: غُبارًا منتشِرًا، وهي وإن اندكّت وانصدعَت عند النفخة الأولى، لكنّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٥-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٨]، فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيلُ عليه السلام وبُروزَ الخلق لله تعالى لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٨.

٢ الكلام بلفظ قريب في الغريبين للهروي، ١/٣٦٢.

٣ البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ١٤٨؛ وهو له في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٣٦١؛ وبلا عزو في الغريبين للهروي، ١/٣٦٢. وقصد به جيشًا يُشبِه الجبل، والجيش الأرعن: هو المضطرب لكثرته. لسان العرب لابن منظور، «رعن».

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ شروع في تفصيل أحكام الفَصْل الذي أضيفَ إليه "اليوم" إثر بيانِ هَوله. ووجهُ تقديم بيانِ حال الكفّار غَنيّ عن البيان. والمِرصاد: اسمٌ للمكان الذي يُرصَد فيه كـ"المِضمار" الذي هو اسم للمكان الذي يُضمُّر فيه الخيل، و"المِنهاج" اسم للمكان الذي يُنهَج فيه، أي: أنّها كانت في حُكم الله تعالى وقضائه موضعَ رَصد يَرصُد فيه خَزَنةُ النار الكفّار ليُعذّبوهم فيها.

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ متعلِّق بمضمَر هو إمّا نعت لـ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: كائنًا للطاغين، وقوله تعالى: ﴿مَـَٔابًا﴾ بدلٌ منه، أي: مَرجِعًا يرجعون إليه لا محالةَ، وإمّا حال مِن ﴿مَـَٔابًا﴾ قُدِّمت عليه لكونه نكرةً، ولو تأخّرت لكانت صفةً له. / وقد جُوِّز [٢٦٠و] أن يتعلَّق بنفس ﴿مَـَٔابًا﴾، على أنّها مِرصاد للفريقين مآبٌ للكافرين خاصّة.[١] ولا يخفى بُعده؛ فإنّ المتبادر مِن كونها مِرصادًا لطائفة كونُهم معذَّبين بها، وقد قيل: إنّها مِرصاد لأهل الجنّة يرصُدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها وهي مآب للطاغين.[٢] وقيل: "المِرصاد" صيغة مبالغة مِن الرصد، والمعنى أنها مُجِدَّة في ترصُّد الكفار لئلّا يشذّ منهم أحد.[٣] وقرئ: "أَنَّ"[٤] بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنّها مِرصاد للطاغين.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ حال مقدَّرة مِن المستكِنّ في ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾. وقُرئ: "لَبِثِينَ".[٥] وقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للَبْثهم، أي: دهورًا متتابعةً كلّما مضى حُقب[٦] تبِعه حُقب آخرُ إلى غير نهاية، فإنّ الحُقب لا يكاد يستعمل إلّا حيث يُراد تتابع الأزمنة

---

١ هذه الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٦٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠٤/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٩/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.

٥ قرأ بها حمزة ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٦ الحُقْب والحُقُب: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر مِن ذلك. والدهر. وقيل: السَّنة. وجمعه حِقاب، كـ"قُفّ وقِفاف". لسان العرب لابن منظور، «حقب».

وتواليها، فليس فيه ما يدلّ على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحُقب ثمانون سنةً أو سبعون ألفَ سنة.[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ جملةٌ مبتدأة، أُخبِر عنهم بأنّهم لا يذوقون فيها شيئًا مِن برد ورَوح يُنفِّس عنهم حرَّ النار ولا مِن شراب يُسكِّن مِن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميمًا وغسّاقًا. وقيل: البرد النوم.[٢] وقُرئ: "غَسَاقًا"[٣] بالتخفيف، وكلاهما ما يسيل مِن صَديدهم.

﴿جَزَآءً﴾ أي: جوّزوا بذلك جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ ذا وفاق لأعمالهم، أو نفسَ الوِفاق مبالغةً، أو وافقها وِفاقًا. وقُرئ: "وِفَّاقًا"[٤] على أنّه "فعّال" مِن "وَفِقَه كذا"، أي: لاقَه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، أي: كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا بأعمالهم.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا مُفرِطًا، ولذلك كانوا مصرّين على الكُفر وفنون المعاصي. و"فِعّال" مِن باب "فعّل" شائع فيما بين الفصحاء. وقُرئ بالتخفيف[٥] وهو مصدر "كَذَب"، قال:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُه[٦]

وانتصابه إمّا بفعله / المدلول عليه بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: وكذّبوا بآياتنا فكذَبوا كِذَابًا، وإمّا بنفس ﴿كَذَّبُواْ﴾ لتضمُّنه معنى "كَذَبوا"، فإنّ كلّ مَن يكذِّب بالحقّ فهو كاذب. وقُرئ: "كُذَّابًا"[٧] وهو جمع "كاذب"، فانتصابه على الحاليّة، أي: [٢٦٠ظ]

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٨.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٨.

[٣] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مناذر وابن مِقسَم عن الدُّروي عن الكسائي. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨١.

[٦] للأعشى في جامع البيان للطبري، ٢٤/٤٣؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٣/١٤١؛ وليس في ديوانه؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٩٠.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والماجشون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨١.

كذّبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكُذّاب بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب فيُجعل صفةً لمصدر ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: تكذيبًا كُذّابًا مفرطًا كِذبُه.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها أعمالهم. وانتصابه بمضمر يفسّره ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. وقُرئ بالرفع[١] على الابتداء. ﴿كِتَـٰبًا﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ لِما أنّ الإحصاء والكِتْبة مِن وادٍ واحد،[٢] أو لفعله المقدَّر، أو حال بمعنى مكتوبًا في اللوح أو في صحف الحَفَظة، والجملة اعتراض.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، وفي الالتفات المنبئ عن التشديد في التهديد وإيرادِ ﴿لَن﴾ المفيدة لكون تَرْك الزيادة مِن قبيل ما لا يدخل تحت الصحّة، مِن الدلالة[٣] على تبالُغ الغضب ما لا يخفى. وقد رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أنّ هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النّار.[٤]

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شروع في بيان محاسنِ أحوال المؤمنين إثرَ بيان سوء أحوال الكفرة، أي: إنّ للذين يتّقون الكفرَ وسائر قبائح أعمال الكفَرة فوزًا وظفَرًا بمباغيهم أو موضعَ فوز. وقيل: نجاةً ممّا فيه أولئك، أو موضعَ نجاة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾ أي: بساتينَ فيها أنواع الأشجار المثمِرة وكرومًا، بدلٌ مِن ﴿مَفَازًا﴾.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نساءً فَلَكت ثُدِيُهُنّ، وهنّ النواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: لِدَات.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: مُترَعةً، يقال: "أدهَق الحوضَ"، أي: مَلأه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

٣ السياق: وفي الالتفات... مِن الدلالة...

٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٣٦/٢٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة. وقيل: في الكأس.[١] ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي: لا ينطقون بلَغْو ولا يكذِّب بعضُهم بعضًا. وقُرئ: "كِذَابًا"[٢] بالتخفيف، أي: لا يكذِبه أو لا يُكاذِبه.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر مؤكِّد منصوب بمعنى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾،[٣] فإنّه في قوّة أن يقال: جازى المتّقين بمَفازٍ جزاءً كائنًا مِن ربّك. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المُنبِئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا مع الإضافة / إلى ضميره [٢٦١و]
صلّى الله عليه وسلّم مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿عَطَآءً﴾ أي: تفضّلًا وإحسانًا منه تعالى؛ إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل مِن ﴿جَزَآءً﴾.

﴿حِسَابًا﴾ صفة لـ﴿عَطَآءً﴾ بمعنى كافيًا على أنّه مصدر أقيمَ مُقام الوصف، أو بُولغ فيه مِن "أحسَبه الشيء" إذا كفَاه حتّى قال: "حسبي". وقيل: على حسب أعمالهم. وقُرئ: "حَسَّابًا"[٤] بالتشديد على أنّه بمعنى المُحسِب كالدّرّاك بمعنى المُدرِك.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَّبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة له. وقيل: صفة للأوّل.[٥] وأيًّا ما كان ففي ذِكر ربوبيّته تعالى للكلّ ورحمته الواسعة إشعارٌ بمَدار الجزاءِ المذكور.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ استئناف مقرِّر لِما أفاده الربوبيّة العامّة مِن غاية العظَمة والكبرياء واستقلالِه تعالى بما ذُكر مِن الجزاء والعطاء

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١١٤/٢٠.
٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.
٣ في الآية الحادية والثلاثين مِن هذه السورة.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١.
٥ الوجه في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

مِن غير أن يكون لأحد قُدرة عليه. وقُرئ برفعهما،[١] فقيل: على أنّهما خبران لمبتدأ مضمَر. وقيل: الثّاني نعت للأوّل. وقيل: الأوّل مبتدأ والثاني خبره، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ خبر آخرُ، أو هو الخبر و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ صفة للأوّل. وقيل: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ حال لازمة. وقيل: الأوّل مبتدأ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ خبره، والجملة خبرٌ للأوّل، وحصل الربطُ بتكرير المبتدأ بمعناه على رأي مَن يقول به.[٢]

والأوجهُ أن يكون كلاهما مرفوعًا على المدح، أو يكونَ الثاني نعتًا للأوّل، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ استئنافًا على حاله، ففيه ما ذُكر مِن الإشعار بمَدار الجزاء والعطاء كما في البدليّة؛ لِما أنّ المرفوع أو المنصوب مدحًا تابع لِما قبله معنى، وإن كان منقطعًا عنه إعرابًا، كما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة.

وقُرئ بجرّ الأوّل على البدليّة ورَفْعِ الثاني[٣] على الابتداء والخبرُ ما بعده، أو على أنّه خبرٌ لمبتدأ مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثانٍ أو حال.

وضمير ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ لأهل السماوات والأرض، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى مِن تلقاء أنفسهم -كما ينبئ عنه لفظ المُلك- خطابًا ما في شيء ما. والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء مِن نَقْص العذاب أو زيادةِ الثواب مِن غير إذنه على أبلغ وجه وآكدِه. وقيل: ليس في أيديهم ممّا يُخاطب الله به ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطابٌ واحدٌ يتصرّفون فيه تصرُّف الملّاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه.[٤]

[٢٦١ظ] ﴿يَوۡمَ يَقُومُ/ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ قيل: الروح خلقٌ أعظم مِن الملائكة وأشرفُ منهم وأقربُ مِن ربّ العالمين. وقيل: هو مَلَك، ما خَلَق الله عزّ وجلّ بعد العرش خَلْقًا أعظمَ منه.[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه إذا كان يوم القيامة

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٢ هذه الأقوال الخمسة كلّها في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. ومعناهما عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٧/٢٤.

قام هو وحدَه صفًّا والملائكة كلّهم صفًّا.[١] وعنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الرُّوح: جند مِن جنود الله تعالى ليسوا ملائكةً لهم رءوس وأيدٍ وأرجُل يأكلون الطعام»، ثمّ قرأ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ الآية.[٢] وهذا قول أبي صالح ومجاهدٍ، قالوا: ما ينزل مِن السماء مَلَك إلّا ومعه واحد منهم. نقله البغوي.[٣] وقيل: هم أشراف الملائكة. وقيل: هم حفَظة على الملائكة.[٤] وقيل: جبرائيل عليهم السلام.[٥]

و﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفِّين. وقيل: هما صفّان الروح صفّ واحدًا أو متعدِّدًا، والملائكة صفّ. وقيل: صفوف. وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر، ٢٢/٨٩]. وقيل: يقوم الكلّ صفًّا واحدًا.[٦] و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بدل مِن ضمير ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، العائد إلى أهل السماوات والأرض الذين مِن جملتهم الروح والملائكة.

وذِكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظَمة سلطانه وكبرياء ربوبيَّته وتهويلِ يوم البعث الذي عليه مدارُ الكلام مِن مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها. والجملة استئناف مقرِّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾... إلخ، ومؤكِّد له على معنى أنّ أهل السماواتِ والأرض إذا لم يقدروا يومئذ على أن يتكلّموا بشيء مِن جنس الكلام إلّا مَن أذن الله تعالى له منهم في التكلّم وقال ذلك المأذون له قولًا صوابًا، أي: حقًّا، فكيف يملِكون خِطاب ربّ العزَّة مع كونه أخصَّ مِن مطلق الكلام وأعزَّ منه مَرامًا.

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٨/٢٤؛ وبلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٦/٢٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٤٦/٢٣؛ وبمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨. ومِن قوله: "عن ابن عبّاس" إلى هنا مع النصّ على النقل عن البغوي بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١١٧/٢٠-١١٨.

٤ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

٥ مرويّ عن الضحّاك والشعبي في جامع البيان للطبري، ٤٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٦ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

لا على معنى أنّ الروح والملائكة مع كونهم أفضلَ الخلائق وأقربَهم مِن الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلّموا بما هو صواب مِن الشفاعة لمَن ارتضى إلّا بإذنه فكيف يملِكه غيرهم؟ كما قيل.[١] فإنّه مؤسَّس على قاعدة الاعتزال فمَن سلكه مع تجويزه أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفًا لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾ فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون.

[٢٦٢و] وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾... إلخ، منصوب / على أصل الاستثناء،[٢] والمعنى لا يتكلّمون إلّا في حقّ شخص أذِن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابًا، أي: حقًّا هو التوحيد. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موقع الإضمار للإيذان بأنّ مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنّ أحدًا يستحقّه عليه سبحانه وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد المشار إليه للإيذان بعلوّ درجته وبُعد منزلته في الهَول والفخامة. ومحلُّه الرفع على الابتداء خبره ما بعده، أي: ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الروح والملائكة مُصطفّين غيرَ قادرين هم وغيرهم على التكلّم مِن الهَيبة والجَلال. ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت المتحقِّق لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه ولا عاطف يَثنيه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن شرط محذوف، ومفعولُ المشيئة محذوف لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاءِ وانتفاءِ الغرابة في تعلّقه بها، حسب القاعدة المستمرّة. و﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿مَـَٔابًا﴾، قدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل، كأنّه قيل: وإذا كان الأمر كما ذُكر مِن تحقّق اليوم المذكور لا محالةَ فمَن شاء أن يتّخذ مرجعًا إلى ثواب ربّه الذي ذُكر شأنه العظيم فَعَل ذلك بالإيمان والطاعة. وقال قتادة: ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: سبيلًا.[٣] وتعلُّق الجارّ به لِما فيه مِن معنى الإفضاء والإيصال، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، ٣/٩٧].

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٠.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١١٨.
٣ جامع البيان للطبري، ٢٤/١٥٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٠/١١٩.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ أي: بما ذُكر في السورة مِن الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده مِن الدّواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن. ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عذاب الآخرة، وقُربه لتحقّق إتيانه حتمًا، ولأنّه قريب بالنسبة إليه تعالى، وإن رأوه بعيدًا وسيَرَونه قريبًا لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٤٦/٧٩].

وعن قتادةَ: هي عقوبة الدنيا؛ لأنّه أقرب العذابين. / وعن مقاتل: هو قتلُ قريش يوم بدر.[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، فإنّه إمّا بدل مِن ﴿عَذَابٗا﴾، أو ظرفٌ لمضمر هو صفة له، أي: عذابًا كائنًا يومَ ينظر المرء، أي: يُشاهِد ما قدَّمه مِن خير أو شرّ، على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة منصوبة بـ﴿يَنظُرُ﴾ والعائدُ محذوف، أو ينظر أيَّ شيء قدّمت يداه، على أنّها استفهاميّة منصوبة بـ﴿قَدَّمَتۡ﴾. [٢٦٢ظ]

وقيل: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ عبارة عن الكافر، وما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ ظاهر وُضع موضعَ الضمير لزيادة الذمّ.[٢] قيل: معنى تمنّيه: ليتني كنت ترابًا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلَّف، أو ليتني كنتُ ترابًا في هذا اليوم فلم أبعَث. وقيل: يحشُر الله تعالى الحيوان فيقتصّ للجمّاء مِن القَرْناء ثمّ يردّه ترابًا، فيَودّ الكافر حالَه. وقيل: الكافر إبليسُ يرى آدمَ وولده وثوابهم، فيتمنّى أن يكون الشيءَ الذي احتقره حين قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف، ١٢/٧].[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عمّ يتساءلون سقاه الله تعالى بردَ الشراب يوم القيامة».[٤]

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/٢٠.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.
٣ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٢/٢٨ (النبأ، ١/٧٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١١/٤ (النبأ، ١/٧٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٨

سُورَةُ النَّبَإِ

مكية، إحدى وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿عَمَّ﴾: عن أيِّ شيء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: يسأل بعضُ قُريشٍ بعضًا؟ ٢ ـ ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾: بيانٌ لذلك الشيء ـ والاستفهام لتفخيمه. وهو ما جاء به النبيّ ﷺ من القُرآن المُشتمل على البعث وغيره ـ ٣ ـ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فالمُؤمنون يُثبتونه، والكافرون يُنكِرونه؟ ٤ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ، ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ما يحُلّ بهم على إنكارهم له، ٥ ـ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ،.........

سُورَةُ النَّبَإِ

قولُهُ: (عَنْ أيِّ شَيءٍ) أصلُهُ: عن ما؛ دخلَ حرفُ الجرِّ على: ﴿مَا﴾ الاستفهاميَّةِ، وحُذِفَ الألِفُ في كَثرةِ الاستِعمالِ.

قولُهُ: (لتَفخِيمِهِ) أي: لتَعظيمِ شأنِ ما يَتَساءلونَ عنه؛ كأنَّهُ لفَخامَتِهِ خفيَ جنسُهُ فيسأَلُ عنه، والضَّميرُ لأهلِ مكَّةَ أو النَّاسِ.

قولُهُ: (المُشتَمِلِ) جمَعَ بينَ قولينِ، فإنَّ الجمهورَ على أنَّ ﴿النَّبَأَ﴾: القيامَةُ[١]، وعن مُجاهِدٍ[٢]: القُرآن.

قولُهُ: (رَدْعٌ) عن التَّساؤُلِ والاختِلافِ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) للمُبالغَةِ، وقيل: الأوَّلُ عندَ الفزَعِ، والثَّاني عندَ القيامَةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٥٠) عن قتادة وابن زيد.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٤٩). وذكره البخاري (٩/ ١٥١) عنه تعليقاً.

وجيء فيه بـ «ثمّ» للإيذان بأنّ الوعيد الثاني أشدُّ من الأوّل.

ثمّ أومأ ـ تعالى ـ إلى القُدرة على البعث فقال: ٦ ـ ﴿أَلَم نَجعَلِ الأرضَ مِهادًا﴾: فِراشًا كالمهد، ٧ ـ ﴿والجِبالَ أوتادًا﴾ تُثبَّتُ بها الأرض كما يُثبَّت الخباء بالأوتاد ـ والاستفهام للتقرير ـ ٨ ـ ﴿وخَلَقْناكُم أزواجًا﴾: ذُكورًا وإناثًا، ٩ ـ ﴿وجَعَلْنا نومَكُم سُباتًا﴾: راحة لأبدانكم، ١٠ ـ ﴿وجَعَلْنا اللَّيلَ لِباسًا﴾: ساترًا بسواده، ١١ ـ ﴿وجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشًا﴾: وقتًا للمَعايش، ١٢ ـ ﴿وبَنَينا فَوقَكُم سَبعًا﴾ سبع سماوات ﴿شِدادًا﴾: جمع شديدة، أي: قويّة مُحكمة لا يُؤثّر فيها مُرور الزمان، ١٣ ـ ﴿وجَعَلْنا سِراجًا﴾ مُنيرًا ﴿وَهّاجًا﴾ وقّادًا ـ يعني الشمس ـ ١٤ ـ ﴿وأنزَلْنا مِنَ المُعصِراتِ﴾: السحابات التي حان لها أن تُمطر، كالمُعصِر: الجارية التي دنت من الحيض، ﴿ماءً ثَجّاجًا﴾: صبّابًا، ....

قولُهُ: (مِنَ الأَوَّلِ) على طريقِ بالله ثمَّ بالله، ونَقْلُ القاضِي[1] عن ابنِ عامرٍ بالخِطابِ، شاذٌّ[2].

قولُهُ: (فِرَاشاً) وبِساطاً.

قولُهُ: (كالمَهدِ) وقُرِئَ: (مَهداً)[3].

قولُهُ: (ذُكُوراً) أو أصنافاً، أو أنواعاً في اللَّونِ والصُّورَةِ واللِّسانِ.

قولُهُ: (رَاحَةً) أي: قَطعاً عن الإحساسِ والحركَةِ استِراحَةً للقوى الحيوانيَّةِ وإزاحَةً لكَلالِها.

قولُهُ: (سَاتِراً) أي: غِطاءً يستُرُكُم عن العُيونِ.

قولُهُ: (وَقتاً) أي: وَقتَ مَعاشٍ يتقلَّبونَ فيه لتحصيلِ ما تعيشونَ به.

قولُهُ: (أي: قَوِيَّةٌ مُحكَمَةٌ) الأظهَرُ: أقوياءُ مُحكَمات.

قولُهُ: (يَعني: الشَّمسَ) وهو مفعولٌ أوَّلُ، والأظهرُ أنَّ ﴿وهَّاجاً﴾ صفَةٌ لـ﴿سِراجاً﴾، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خَلَقَ؛ لأنَّ الأولى أن لا يكونَ المفعُولُ الأوَّلُ لـ﴿جعَلَ﴾ نكرَةً محضَةً.

قولُهُ: (أَن تُمطِرَ) أي: السَّحابُ إذا أعصِرَت؛ أي: شارَفَت أن تَعصِرَها الرِّياحُ فتُمطِرَ؛ كقولِكَ: احصُدِ الزَّرعَ؛ أي: حانَ له أن يُحصَدَ.

قولُهُ: (دَنَت) عَصرَتها الطَّبيعَةُ.

قولُهُ: (صَبَّاباً) أي: مُنصبًّا بكَثرَة، يقالُ: ثجَّهُ وثَجَّ بنفسِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٠).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعيسى الهمداني ومجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٠).

١٥ ـ ﴿لِنُخرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ كالحِنطة ﴿ونَباتًا﴾ كالتِّبن، ١٦ ـ ﴿وجَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿ألفافًا﴾ أي: مُلتفّة، جمع لَفِيف كشَرِيف وأشراف؟

١٧ ـ ﴿إنَّ يَومَ الفَصلِ﴾ بينَ الخلائق ﴿كانَ مِيقاتًا﴾: وقتًا للثواب والعقاب، ١٨ ـ ﴿يَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾: القَرنِ، بدلٌ من «يومَ الفصل» أو بيانٌ له، والنافخ إسرافيل، ﴿فتأتُونَ﴾ من قُبوركم إلى الموقف ﴿أفواجًا﴾: جماعاتٍ مُختلفةً، ١٩ ـ ﴿وفُتِّحَتِ السَّماءُ﴾: بالتشديد والتخفيف: شُقّقت لنُزول الملائكة، ﴿فكانَتْ أبوابًا﴾: ذات أبواب، ٢٠ ـ ﴿وسُيِّرَتِ الجِبالُ﴾: ذُهب بها عن أماكنها، ﴿فكانَتْ سَرابًا﴾: هباء، أي: مِثلَه في خِفّة سيرها.

٢١ ـ ﴿إنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرصادًا﴾: راصدة أو مُرصَدة ٢٢ ـ ﴿لِلطّاغِينَ﴾: الكافرين..............

قولُهُ: (بَينَ الخَلائِقِ) أو بينَ الحقِّ والباطِلِ.

قولُهُ: (وَقتاً) الميقاتُ أخَصُّ من الوقتِ، وهو الوَقتُ المحدَّدُ، كالميعادِ والميلادِ لتوقيتِ زمانَي الوَعدِ والوِلادَة وتحديدِهما؛ أي: كانَ في عِلمِ الله، أو في حُكمِهِ حَدًّا تُوَقَّت به الدُّنيا وتنتَهي عندَهُ، أو حدًّا للخلائقِ ينتَهونَ إليه.

قولُهُ: (والتَّخفِيف) كوفيٌّ[١].

قولُهُ: (شُقِّقَت) عَطفٌ على: ﴿فتَأتُونَ﴾ وإيثارُ الماضي لتحَقُّقِ الوقوعِ، أو حالٌ؛ أي: فتَأتونَ، والحالُ أنّها قد فُتِحَت.

قولُهُ: (ذَاتَ أَبوَابٍ) أو فصارَتْ من كثرَةِ الشُّقُوقِ كأنَّ الكُلَّ أبوابٌ.

قولُهُ: (عَن أَمَاكِنِهَا)كالهَباءِ في الهَواءِ.

قولُهُ: (هَبَاءً) هذا حاصِلُ المعنى؛ أي: مِثلَ سَرابٍ؛ إذ تُرى على صورَةِ الجبالِ ولم تَبقَ على حقيقَتِها لتفَتُّتِ أجزائِها وانبِثاثِها.

قولُهُ: (رَاصِدَةً) يعني: أنّها مُبالِغَةٌ راصِدَةٌ؛ أي: مُجدَّةٌ في ترصُّدِ الكفَرَةِ كيلا يَشِذَّ منها واحِدٌ كالمطعانِ أيْ مُجدٌّ في الطَّعنِ.

قولُهُ: (أو مَرصَدَة) أي: موضِعاً يرصُدُ فيه خزنَةُ النَّارِ للكُفَّارِ، أو طريقاً وممرًّا إلى الجنَّةِ، وهو كلامُ الحسنِ وقتادَةَ[٢].

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٥٩) بمعناه عنهما.

فلا يتجاوزونها، ﴿مَآبًا﴾: مَرجِعًا لهم فيدخلونها، ٢٣ ـ ﴿لابِثِينَ﴾: حالٌ مُقدّرة، أي: مُقدَّرًا لَبثُهم ﴿فِيها أحقابًا﴾: دُهورًا لا نهاية لها، جمع حُقُب بضمّ أوّله، ٢٤ ـ ﴿لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا﴾: نومًا ﴿ولا شَرابًا﴾: ما يُشرب تلذّذًا، ٢٥ ـ ﴿إلاّ﴾ لكنْ ﴿حَمِيمًا﴾ ماءً حارًّا غايةَ الحرارة ﴿وغَساقًا﴾ بالتخفيف والتشديد: ما يسيل من صديد أهل النار، فإنّهم يذوقونه، جُوزوا بذلك ٢٦ ـ ﴿جَزاءً وِفاقًا﴾: مُوافقًا لعملهم. فلا ذنب أعظمُ من الكُفر ولا عذاب أعظمُ من النار.

٢٧ ـ ﴿إنَّهُم كانُوا لا يَرجُونَ﴾: لا يخافون ﴿حِسابًا﴾ لإنكارهم البعثَ، ٢٨ ـ ﴿وكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾: القُرآنِ ﴿كِذّابًا﴾: تكذيبًا، ٢٩ ـ ﴿وكُلَّ شَيءٍ﴾ من الأعمال ﴿أحصَيناهُ﴾: ضبطناه ﴿كِتابًا﴾:.........

قولُهُ: (فَلا يَتَجاوَزُونَها) كانَ حقُّهُ بعدَ قولِهِ: ﴿فَيَدخُلُونَها﴾.

قولُهُ: (مَرجِعاً) ومأوى.

قولُهُ: (حَالٌ) وقرَأ حمزةُ بالقَصرِ[1]، وهو أبلغُ.

قولُهُ: (دُهُوراً) منصوبٌ على الظَّرفِ.

قولُهُ: (لا نِهَايَةَ لَهَا) كذا قالَهُ الحسَنُ وقتادَةُ[2] وغيرُهُما.

قولُهُ: (بِضَمِّ أوَّلِهِ) وبضمَّتَينِ[3].

قولُهُ: (نَوماً) أو ما يروِّحُهُم ويُنفِّسُ عنهم حرَّ النَّارِ، لا بَرْدَ العَذابِ.

قولُهُ: (تَلَذُّذاً) أو تَسكيناً للعطشِ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (لَكِن) يذوقونَ.

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) كوفيٌّ غيرَ شُعبةَ[4].

قولُهُ: (مُوَافِقاً) أو ذا وِفاقٍ.

قولُهُ: (كَتْبًا) يعني: ﴿كِتَاباً﴾ مفعولٌ مطلقٌ من: ﴿أَحصَينَا﴾؛ لأنَّ أحصى بمعنى: كتَبَ، أو بالعَكسِ؛ يعني: ﴿كِتَاباً﴾ بمعنى: أحصى، أو ﴿كِتَاباً﴾ مصدَرٌ لِفعلِهِ، أو حَالٌ بمعنى: مكتوباً في اللَّوحِ، أو صُحُفِ الحفَظَةِ، والجملَةُ اعتراضٌ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٦٢) بمعناه عنهما.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٦).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

كتَبناه في اللوح المحفوظ لنُجازيَ عليه. ومن ذلك تكذيبُهم بالقرآن. ٣٠ ـ ﴿فذُوقُوا﴾ أي: فيقال لهم في الآخرة عِند وُقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم. ﴿فلَن نَزِيدَكُم إلاَّ عَذابًا﴾ فوق عذابكم.

٣١ ـ ﴿إنَّ لِلمُتَّقِينَ مَفازًا﴾: مكانَ فوز في الجنّة، ٣٢ ـ ﴿حَدائقَ﴾: بساتينَ، بدلٌ من «مفازًا» أو بيانٌ له، ﴿وأعنابًا﴾: عطفٌ على «مفازًا»، ٣٣ ـ ﴿وكَواعِبَ﴾: جواريَ تكعّبتْ ثُدِيُّهنّ، جمع كاعب، ﴿أترابًا﴾: على سِنٍّ واحدٍ، جمع تِرب بكسر التاء وسكون الراء، ٣٤ ـ ﴿وكأسًا دِهاقًا﴾: خمرًا مالئة مَحالَّها ـ وفي القتال: «وأنهارٌ مِن خَمرٍ» ـ ٣٥ ـ ﴿لا يَسمَعُونَ فِيها﴾ أي: الجنّةِ، عِند شُرب الخمر وغيره من الأحوال، ﴿لَغْوًا﴾: باطلاً من القول ﴿ولا كِذابًا﴾ بالتخفيف ....

قولُهُ: (فَوقَ عَذَابِكُم) عن بعضِ السَّلَفِ: «لَم يَنزِل علَى أهلِ النَّارِ آيَةٌ أشَدُّ من هَذِه»[1].

قولُهُ: (فِي الجَنَّةِ) أو هو الجنَّةُ، أو فَوزاً وظَفراً بالغنيمَةِ.

قولُهُ: (بَسَاتِينَ) فيها أنواعُ الأشجارِ المثمِرَةِ سِيما العِنَب.

قولُهُ: (بَدَلٌ) بدَلُ اشتِمالٍ، أو بعضٍ؛ أي: فَوزَ حَدائِق.

قولُهُ: (علَى ﴿مَفَازًا﴾) هذا بَعيدٌ جدًّا.

قولُهُ: (جَوَارِي) أي: نِساءً.

قولُهُ: (تَكَعَّبَت) أي: استَدارَت.

قولُهُ: (ثُدِيُّهُنَّ) جمعُ: ثَدي على: فُعول.

قولُهُ: (جَمعُ: كَاعِبَ) الظَّاهِرُ: كاعِب.

قولُهُ: (خَمراً) أو كَأساً مَلآنَ.

قولُهُ: (وأَنهَارٌ) فيملأُ منها، أو هذا شَرابٌ خالِصٌ خاصٌّ للخُصوصِ.

قولُهُ: (بَاطِلاً) أو كَلاماً خالياً عن الفائدَةِ، وهو الظَّاهِر.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) كسائيٌّ[2].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٦٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ورواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٨٦)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٩) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

ورواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١١)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين» (١/ ٤١١)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ٣٣٣) (٣٣٣٧)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٣٠٢) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

أي: كَذِبًا، وبالتشديد أي: تكذيبًا من واحد لغيره، بخلاف ما يقع في الدنيا عِند شُرب الخمر، ٣٦ ـ ﴿جَزَاءً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: جزاهم الله بذلك جزاء ﴿عَطَاءً﴾: بدلٌ من «جزاء»، ﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيرًا. من قولهم: أعطاني فأحسَبَني، أي: أكثرَ عليّ حتّى قلتُ: حَسْبِي.

٣٧ ـ ﴿رَبِّ السَّماواتِ والأرضِ﴾، بالجرّ والرفعِ، ﴿وما بَينَهُما الرَّحمنِ﴾. كذلك، وبرفعه مع جرّ «رَبِّ». ﴿لا يَملِكُونَ﴾ أي: الخلقُ ﴿مِنهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿خِطابًا﴾، أي: لا يقدر أحد أن يُخاطبه خوفًا منه،

قولُهُ: (عِندَ شُربِ الخَمرِ) وغيره.

قولُهُ: (بذَلِكَ) أي: بما ذكَرَ للمتَّقينَ بمُقتَضى وعدِهِ.

قولُهُ: (بَدَل) لا أنَّه مفعولٌ به لـ﴿جَزاء﴾؛ لأنَّ المصدَرَ المؤكِّدَ لا يعمَلُ بلا خِلافٍ من النُّحاةِ، كذا في «البَحرِ»[1]، ومعنى: ﴿عَطَاءً﴾ تفضُّلاً منه؛ إذ لا يجِبُ عليه شيءٌ.

قولُهُ: (أي: كَثِيراً) أو كافياً، أو على حسَبِ أعمالِهِم.

قولُهُ: (والرَّفعِ) حرميٌّ وبصريٌّ[2].

قولُهُ: (كذَلكَ) أي: بالجرِّ والرَّفعِ، والأوَّلُ لشاميٍّ وعاصِمٍ[3].

قولُهُ: (وبرَفعِهِ... إلخ) حمزةُ والكسائيُّ[4]، والحاصِلُ أنَّ نافِعاً وابنَ كثيرٍ وأبا عَمرٍو برفعِهِما، وابنَ عامِرٍ وعاصِماً بجرِّهِما، وحمزَةَ والكسائيَّ برفعِ الأوَّلِ وجرِّ الثَّاني فافهَم، فإنَّ نُسخَ البَيضاويِّ[5] في هذا المحَلِّ كلَّها سقيمَةٌ غيرُ مُستقيمَةٍ.

ثمَّ اعلم أنَّ رفعَ الأوَّلِ على الابتِداءِ، أو على أنَّه خبَرٌ محذوفٌ، و﴿الرَّحمَنُ﴾ صفَةٌ له أو خبَرٌ، وخُفِضَ الأوَّلُ على أنَّه بدَلٌ من: ﴿رَبِّكَ﴾، و﴿الرَّحمنُ﴾ صفَةٌ له.

قولُهُ: (أي: الخَلقُ) أي: أهلُ السَّماواتِ والأرضِ لا يَملِكونَ خطابَهُ، والاعتِراضَ عليهِ في ثَوابٍ أو عِقابٍ؛ لأنَّهم مملوكونَ له على الإطلاقِ، وذلك لا يُنافي الشَّفاعَةَ بإذنِهِ.

---

(١) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٦٩).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) أي: بجر الأول ورفع الثاني، وهو الصحيح، والعجيب أنه أخطأ في التفصيل فيما بعد في قوله: «وحمزة والكسائي برفع الأول وجر الثاني»، انظر: في «السبعة في القراءات» (ص: ٦٦٩)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٨١).

٣٨ ـ ﴿يَومَ﴾: ظرف لـ «لا يملكون» ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ جبريلُ أو جُند الله، ﴿والمَلائكةُ صَفًّا﴾: حالٌ، أي: مُصطفّينَ، ﴿لا يَتكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلقُ ﴿إلاّ مَن أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ﴾ في الكلام، ﴿وقالَ﴾ قولاً ﴿صَوابًا﴾ من المُؤمنين والملائكة، كأن يشفعوا لمن ارتضَى.

٣٩ ـ ﴿ذلِكَ اليَومُ الحَقُّ﴾: الثابتُ وقوعُه، وهو يوم القيامة. ﴿فمَن شاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ مآبًا﴾: مَرجِعًا، أي: رَجَع إلى الله بطاعته ليسلمَ من العذاب فيه. ٤٠ ـ ﴿إنّا أنذَرْناكُم﴾، أي كُفّارَ مكّة، ﴿عَذابًا قَرِيبًا﴾ أي: عذاب يوم القيامة الآتي ـ وكُلُّ آتٍ قريبٌ ـ ﴿يَومَ﴾: ظرف لـ «عذابًا» بصفته ﴿يَنظُرُ المَرءُ﴾: كُلُّ امرئ ﴿ما قَدَّمَتْ يَداهُ﴾ من خير وشرّ، ﴿ويَقُولُ الكافِرُ: يا﴾: حرف تنبيه ﴿لَيتَني كُنتُ تُرابًا﴾ يعني: فلا أُعذَّبُ. يقول ذلك عِندما يقول الله ـ تعالى ـ للبهائم بعد الاقتصاص من بعضها لبعض: كوني تُرابًا.

قولُهُ: (ظَرفُ ﴿لا يَملِكُون﴾) أو ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ﴾، والأظهَرُ أنّه ظرفُ (اذكر) مُقَدَّراً.

قولُهُ: (أو جُندُ اللهِ) فيه أنَّ الخلقَ كُلَّهم جُنودٌ للّهِ، أو ملكٌ موكَّلٌ على الأرواحِ أو جنسِها، أو خَلقٌ أعظَمُ قَدراً من الملائكَةِ على صورَةِ البشَرِ، أو مَلَكٌ بقَدرِ جميعِ المخلوقاتِ هو صَفٌّ وسائرُ الخلائقِ صَفٌّ.

قولُهُ: (أي: الخَلقُ) الظَّاهِرُ: الرُّوحُ والملائِكَة.

قولُهُ: (وكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ) ولأنَّ مبدَأَهُ الموتُ، والموتُ أدنى من شِراكِ نَعلِه[1].

قولُهُ: (ظَرفٌ لِعَذَاباً) أو لـ(اذكُر) مُقَدَّراً.

قولُهُ: (كُلُّ امرِئٍ) أي: المرءُ عامٌّ، وقيل: هو الكافِرُ؛ والمرادُ: ممَّا قدَّمَت يداهُ الشَّرَّ.

قولُهُ: (بَعدَ الاقتِصَاصِ) للشَّاةِ الجمَّاءِ من القَرناءِ[2].

قولُهُ: (كُونِي تُرَاباً) فـ﴿كُنتُ﴾ بمَعنى: صِرت، أو يتمنَّى أن يكونَ في الدُّنيا تُراباً فلم يُخلقْ ولم يُكلَّفْ، أو في هذا اليَومِ فلم يُبعَث، والمرادُ بـ﴿الكَافِرِ﴾: الجنسُ، وقيل: المرادُ من ﴿الكَافِرِ﴾: إبليسُ، والله أعلَم.

---

(١) هذا عجز البيت، وصدره: كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهْلِهِ.

جاء في «شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية» (٢/ ٣٠٣): رجز للحكيم بن الحارث بن نهيك النهشلي، شاعر جاهلي، وتمثل بالرجز أبو بكر رضي الله عنه عند ما أصيب بحمى المدينة أول الهجرة.

(٢) روى مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٠٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٦٣) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء».

وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣٢٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: يبلغ من عدل الله يوم القيامة أن الله يأخذ للجماء من القرناء قال: ثم يقول: كوني تراباً، قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ [النبأ: ٤٠]. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

سورة النبأ

وتسمّى سورة: عمَّ، وعمَّ يتساءلون، والتساؤل، والمعصرات.

وهي مكية بالاتفاق، وآيُها إحدى وأربعون في المكِّي والبصري، وأربعون في غيرهما.

ووَجْهُ مناسَبَتِها لِمَا قبلَها اشتمالُها على إثبات القدرة على البعث الذي دلَّ ما قبلُ على تكذيب الكفرة به، وفي «تناسق الدرر»(1): وجه اتصالها بما قبلُ تناسُبها معها في الجمل، فإنَّ في تلك: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ إلخ، وفي هذه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ إلخ، مع اشتراكها والأربعِ قبلَها في الاشتمال على وصف الجنة والنار، وما وعد «المدَّثِّر»(2)، وأيضاً في سورة «المرسلات»: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ وفي هذه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ إلخ، ففيها شرحُ يوم الفصل المجملِ ذكرُه فيما قبلها. اهـ.

وقيل: إنه تعالى لما ختمَ تلك بقوله سبحانه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ وكان المرادُ بالحديث فيه القرآنَ، افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاءِ به. وهو مبنيٌّ على ما رُوي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنَّ المرادَ بالنبأ العظيم القرآنُ. والجمهور على أنه البعثُ(3). وهو الأنسب بالآيات بعدُ كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

---

(1) ص91.

(2) كذا في الأصل و(م)، والذي في تناسق الدرر: وما عدا المدثر في الاشتمال على يوم القيامة وأهواله، وعلى ذكر بدء الخلق وإقامة الدليل على البعث.

(3) وهو أيضاً مروي عن قتادة. ينظر تفسير الطبري 24/6، والدر المنثور 6/305.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ﴾ أصله: عمَّا، على أنَّه حرف جرٍّ دخل على «ما» الاستفهامية فحذفت الألف، وعُلِّل بالتفرقة بينها وبين الخبرية، والإيذانِ بشدَّة الاتصال، وكثرةِ الدوران. وحالُ العلل النحوية معلومٌ.

وقد قرأ عبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى بالألف على الأصل[1]، وهو قليل الاستعمال، وقال ابن جنِّي[2]: إثباتُ الألف أضعفُ اللُّغتين، وعليه قوله:

علـى مـا قـامَ يـشـتـمـنـي لـئـيـمٌ كـخِـنْـزيـرٍ تـمـرَّغَ فـي رَمـادِ[3]

والاستفهامُ للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهولِه وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أيِّ شيءٍ عظيمِ الشأن ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ الضميرُ لأهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم؛ للاستغناء عنه بحضورهم حسًّا، مع ما في التَّركِ ـ على ما قيل ـ من التحقير والإهانة؛ لإشعاره بأنَّ ذكرَهم مِمَّا يُصان عنه ساحة الذكر الحكيم. ولا يتوهَّم العكس؛ لمنع المقام عنه.

وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً، لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسمَّاه، بل عن وقوعه الذي هو حالٌ من أحواله ووصفٌ من أوصافه.

و«ما» كما مرَّ غير مرَّةٍ وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسمَّيات أسمائها، لكنَّها قد يُطلب بها الصفةُ والحالُ، فيقال: ما زيد، ويجاب بـ: عالم، أو: طبيب.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٧، والبحر ٨/ ٤١٠.

(٢) في المحتسب ٢/ ٣٤٧.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩. ورواية ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٤٧، وابن هشام في المغني ص٣٩٤: تمرّغ في دَمَان. والدَّمَان: الرماد وزناً ومعنًى. وينظر الخزانة ٦/ ١٠٢.

وقيل: كانوا يسألون الرسولَ ﷺ والمؤمنين استهزاءً، فالتساؤل متعدٍّ ومفعولُه مقدَّرٌ هنا، وحذف لظهوره، أو لأنَّ المستعظَمَ السؤالُ بقطع النظر عمَّن سأل، أو لصون المسؤول عن ذكره مع هذا السائل. وتحقيقُ ذلك ـ على ما في «الإرشاد» ـ أنَّ صيغة التفاعل في الأفعال المتعدية [موضوعة] لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه، بحيث يصيرُ كلُّ واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، لكنه يرفع المتعدِّدَ على الفاعلية ترجيحاً لجانب فاعليته، وتُحال مفعوليتُه على دلالة الفعل، كما في قولك: تراءى القومُ، أي: رأى كلُّ واحدٍ منهم الآخرَ. وقد تجرَّد عن المعنى الثاني، فيراد بها مجرَّدُ صدور الفعل عن المتعدِّد عارياً عن اعتبار وقوعه عليه، فيذكر للفعل حينئذٍ مفعول، كما في قولك: تراءَوُا الهلالَ. وقد يحذف [ظهوره] كما فيما نحن فيه، فالمعنى: عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء القومُ الرسولَ ﷺ والمؤمنين. وربَّما تجرَّد عن صدور الفعل عن المتعدِّد أيضاً فيراد بها تعدُّده باعتبار تعدُّد متعلَّقِه مع وحدة الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥][(١)].

وذكر بعض المحقِّقين أنَّه قد يكون لصيغة التفاعل على الوجه الأول مفعولٌ أيضاً، لكنَّه غيرُ الذي فعلَ به مثلَ فعلِه، كما في: تعاطيا الكأسَ، وتفاوضا الحديثَ. وعليه قول امرئ القيس:

فلمَّا تنازَعْنا الحديثَ وأسمحَتْ هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَماريخَ ميَّالِ[(٢)]

فمن قال أنَّ تَفَاعلَ لا يكون إلَّا من اثنين ولا يكون إلَّا لازماً، فقد غلط كما قال البَطَلْيوسي في «شرح أدب الكاتب»[(٣)] إن أراد ذلك على الإطلاق. وليت شعري كيف يصحُّ ذلك مع أنَّ مجيءَ تَفَاعلَ بمعنى فَعَل غيرَ متعدِّد الفاعل ـ كتوانى زيدٌ، وتَدَانى الأمر، وتَعالى الله عمَّا يشركون ـ كثيرٌ جدًّا، وكذا مجيئه متعدّياً إلى غير الذي فَعَلَ به مثلَ فعلِه، كما سمعت.

---

(١) إرشاد العقل السليم وهو تفسير أبي السعود ٩/ ٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٢. قال شارح الديوان: تنازعنا الحديث: حدثتني وحدثتها، أسمحت: انقادت وسهُلت بعد امتناعها. هصرتُ: جذبت، وأراد بالغصن جسمها لنَعْمته، وشبّه شعرها بشماريخ النخل لتداخله وغزارته. اهـ.

(٣) ٣/ ٣٩٥-٣٩٦.

وجُوِّز أن يكون ضمير «يتساءلون» للناس عموماً؛ سواءٌ كانوا كفَّار مكة وغيرهم من المسلمين، وسؤالُ المسلمين ليزدادوا خشيةً وإيماناً، وسؤالُ غيرهم استهزاءً ليزدادوا كفراً وطغياناً. وهو خلاف ما يقتضيه ظاهرُ الآيات بعدُ.

وقيل: كان التساؤلُ عن القرآن. وتعقب بأنَّ قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ) إلخ ظاهرٌ في أنه كان عن البعث، وهو مرويٌّ عن قتادة أيضاً؛ لأنه من أدلته. وأجيب بأنَّ تساؤلَهم عنه واستهزاءَهم به واختلافهم فيه بأنَّه سحرٌ أو شعرٌ كان لاشتماله على الأخبار بالبعث، فبعد أن ذكر ما يفيد استعظامَ التساؤل عنه تعرَّضَ لدليل ما هو منشأٌ لذلك التساؤل. وفيه بعدٌ.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ بيانٌ لشأن المسؤول عنه إثْرَ تفخيمه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلةَ المستفهمين، فإنَّ إيراده على طريقة الاستفهام من علَّام الغيوب؛ للتنبيه على أنه ـ لانقطاع قرينِه وانعدام نظيره ـ خارجٌ عن دائرة علوم الخلق، خليقٌ بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه، كأنَّه قيل: عن أيِّ شيءٍ يتساءلون، هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: «عن النبإ العظيم». على منهاج: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فـ «عن» متعلِّقةٌ بما يدلُّ عليه المذكورُ من مضمَرٍ حقُّه ـ على ما قيل ـ أنْ يقدَّرَ بعدها؛ مسارعةً إلى البيان ومراعاةً لترتيب السؤال. وإلى تعلُّقه بما ذُكر ذهب الزجاج، وهو الذي تقتضيه جزالة التنزيل.

وقال مكِّي[1]: إنَّ ذلك بدلٌ من «ما» الاستفهامية بإعادة حرف الجرِّ. وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا يصحُّ، فإنَّ معنى الأول: عن النبأ العظيم أم عن غيره؟ والبدلُ لا يطابقه أُعيدَ الاستفهامُ أو لا. وقال الخفاجيُّ[2]: البدليةُ جائزةٌ، ولا يلزم إعادة الاستفهام؛ لأنَّه غيرُ حقيقيٍّ، ولا أن يكون البدلُ عينَ الأول؛ لجواز كونِه بدلَ بعضٍ.

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يتساءلون» المذكور، و«عمَّ» متعلِّقٌ بمضمرٍ مفسَّرٍ به. وأيّد

---

(١) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٤.

(٢) في حاشيته ٨/ ٣٠١.

ذلك بقراءة الضحاك ويعقوب وابن كثير في رواية: «عمَّه» بهاء السكت[١]، ووجهُه أنَّه على الوقف. وهو يدلُّ على أنَّه غيرُ متعلِّق بالمذكور؛ لأنه لا يحسنُ الوقف بين الجارِّ والمجرور ومتعلَّقه؛ لعدم تمام الكلام. ولعلَّ مَنْ ذهب إلى الأول يقول: إنَّ إلحاقَ الهاء مبنيٌّ على إجراء الوصل مجرى الوقف.

وقيل: «عن» الأولى للتعليل، وهي والثانية متعلِّقتان بـ «يتساءلون» المذكور، كأنَّه قيل: لم يتساءلون عن النبأ العظيم. ونقله ابنُ عطية[٢] عن أكثر النحاة.

وقيل: «عن النبأ» متعلِّقٌ بمحذوف، وهناك استفهامٌ مضمر، كأنه قيل: عمَّ يتساءلون، أيتساءلون عن النبأ العظيم؟

ووصفُ النبأ ـ وهو الخبر الذي له شأنٌ ـ بالعظيم لتأكيد خطره، ووصفُه بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ للمبالغة في ذلك، والإشعارِ بمدار التساؤل عنه.

و«فيه» متعلِّقٌ بـ «مختلفون»، قُدِّم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل.

وجعل الصلة جملةً اسمية للدلالة على الثبات، أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمن جازمٍ باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إلخ [المؤمنون: ٣٧]، وشاكٍّ يقول: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. وقيل: منهم من ينكر المَعَادَيْن معاً كهؤلاء، ومنهم من ينكر المَعادَ الجسمانيَّ فقط، كجمهور النصارى.

وقد حمل الاختلاف على الاختلاف في كيفية الإنكار، فمنهم مَنْ ينكره لإنكاره الصانعَ المختارَ تعالى شأنه، ومنهم مَنْ ينكره بناءً على استحالة إعادة المعدوم بعينه. وقيل: الاختلافُ بالإقرار والإنكار، أو بزيادة الخشية والاستهزاء، على أنَّ ضمير «يتساءلون» وضمير «هم» للناس عامةً. وقيل: يجوز أن يكون الاختلافُ بالإقرار والإنكار، على كون ضمير «يتساءلون» للكفار أيضاً، بأن يجعل ضمير «هم» للسائلين والمسؤولين.

---

(١) النشر ٢/ ١٣٤، والبحر ٨/ ٤١٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٣.

والكلُّ كما ترى وإن تفاوتت مراتبُ الضعف، والمعوَّلُ عليه الأول.

وقال مفتي الديار الرومية(١): الذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحملَ اختلافُهم في البعث على مخالفتهم للنبيِّ ﷺ؛ بأن يعتبرَ في الاختلاف محضُ صدور الفعل عن المتعدّد، حسبما قيل في التساؤل، فإنَّ الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان ـ كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل ـ يجري في كلٍّ منهما ما يجري في الأخرى، لا على مخالفة بعضِهم لبعض على أن يكون كلٌّ من الجانبين مخالِفاً ـ اسم فاعل ـ ومخالَفاً ـ اسم مفعول ـ لأنَّ الكلَّ وإن استحقَّ ما يذكر بعدُ من الردع والوعيد، لكنَّ استحقاق كلٍّ جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر ـ إذ لا حقيَّةَ في شيءٍ منهما حتى يستحقَّ مَنْ يخالفه المؤاخذةَ ـ بل لمخالفته عليه الصلاة والسلام، فكأنه قيل: الذي هم فيه مخالفون للنبيِّ ﷺ. انتهى.

وفيه أنه خلافُ الظاهر، وما ذكره من التعليل لا يخلو عن شيء.

وقرأ عبد الله وابن جبير: «تسَّاءلون» بغير ياءٍ وشدِّ السين(٢)، على أنَّ أصله تتساءلون بتاء الخطاب فأدغمت التاء الثانية في السين.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن التساؤل على الوجهَيْن المتقدِّمَيْن فيه. وقيل: عنه وعن الاختلاف بمعنى مخالفة الرسول ﷺ في أمر البعث، وتعقِّب بأنَّ الجملة التي تضمَّنته لم تُقصد لذاتها، فيبعدُ اعتبار الرَّدع إلى ما فيها.

وقوله سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ وعيدٌ لأولئك المتسائلين المستهزئين بطريق الاستئناف، وتعليلٌ للردع.

والسين للتقريب والتأكيد. ومفعولُ «يعلمون» محذوفٌ، وهو ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات.

والتعبيرُ عن لقائه بالعلم؛ لوقوعه في معرض التساؤل، والمعنى: ليرتدعوا عمَّا هم عليه فإنَّهم سيعلمون عمَّا قليلٍ حقيقةَ الحال إذا حلَّ بهم العذابُ والنكال، ومثلُ

(١) هو أبو السعود، والكلام في تفسيره ٩/ ٨٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر ٨/ ٤١١.

هذا تقديرُ المفعول جزاءَ التساؤل. وقيل: هو ما ينبئُ عنه الظاهر وهو وقوعُ ما يتساءلون عنه، على معنى: سيعلمون ذلك فيخجلون من تساؤلهم واستهزائهم بين يدي ربِّهم عزَّ وجل. وإلَّا لم يظهر كون ما ذكر وعيداً.

ومَنْ جعل ضمير «يتساءلون» للناس عامةً جعل ما هنا من باب التغليب؛ لأنَّه لغير المؤمنين بالبعث الجازمين به.

وجوَّزَ بعضُهم كونَ «كلا سيعلمون» ردعاً ووعداً على الارتداع، والمرادُ: ليرتدعوا فإنَّهم سيعلمون مثوبات الارتداع. وأنت تعلم أنَّ ذلك شائعٌ في الوعيد، وهو المتبادَر منه في أمثال هذه المقامات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ قيل: تكريرٌ لما قبله من الردع والوعيد؛ للمبالغة، و«ثم» للتفاوت في الرتبة، فكأنه قيل: لهم يوم القيامة ردعٌ وعذابٌ شديدان، بل لهم يومئذٍ أشدُّ وأشدُّ[١]. وبهذا الاعتبار صار كأنه مغايرٌ لما قبله فعُطف عليه، وابنُ مالك[٢] يقول في مثله: إنَّه من التوكيد اللَّفظي وإنْ توسَّط حرفُ العطف، فلا تغفل.

وقيل: الأول إشارةٌ إلى ما يكون عند النَّزْع وخروج الروح من زجرِ ملائكةِ الموت عليهم السلام، وملاقاةِ كُربات الموت وشدائده، وانكشافِ الغطاء. والثاني: إشارةٌ إلى ما يكون في القيامة من زجرِ ملائكة العذاب عليهم السلام، وملاقاةِ شديد العقاب، فـ «ثم» في محلِّها لما بينهما من البعد الزمانيِّ ولا تكرارَ فيه.

والظاهر أنَّ العطفَ ـ على هذا وما قبلَه ـ على مجموع «كلا سيعلمون».

وتوهَّم بعضُهم من كلام بعض الأجلَّة أنَّ العطف على «سيعلمون»، وأورد عليه أنَّ «ثم» إذا كانت للتراخي الزماني يلزمُ الفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبيٍّ، بخلاف ما إذا كانت للتراخي الرتبي، ووجّه لدفع التخصيص بلا مخصِّص أنَّه على الثاني يُفهم تفاوتُ الرتبة بين الردْعَيْن كتفاوتها بين الوعيدين لتبعيَّة الردع

---

(١) جاء في هامش الأصل: وتعقّب بأن الردع بمنزلة النهي وهو في الدنيا، فتأمل. انتهى منه.
(٢) ينظر شرح التسهيل ٣/ ٣٠٥.

للوعيد، فلا تكون «كلا» الثانية أجنبيةً، بخلاف الأول(١) فإن التراخي عليه إنَّما يتحقَّقُ فيما يتحقَّقُ فيه الزمانُ، وليس هو إلا «سيعلمون» دون «كلا» فتكون هي أجنبيةً، ثم قال ذلك المتوهِّمُ: ولا يبعدُ أن يقال: الردع الأول عن التساؤل والثاني عن الإنكار، أي: الصريح، وتفاوتُ ما بينهما يقتضي العطفَ بـ«ثم»، والكلُّ كما ترى.

وقيل: متعلَّقُ العلم في الأول البعثُ، وفي الثاني الجزاءُ على إنكاره، و«ثم» في محلِّها، أي: كلَّا سيعلمون حقيَّةَ البعث إذا بُعثوا، ثمَّ كلَّا سيعلمون الجزاءَ على إنكاره إذا دخلوا النارَ وعوقبوا.

وجوّز أن يكون المتعلَّقُ مختلفاً، و«ثم» للتراخي الرتبي بأن يكونَ المعنى: سيعلم الكفار أحوالَهم ثمَّ سيعلمون أحوالَ المؤمنين، والأول إشارةٌ إلى العذاب الجسماني، والثاني إلى العذاب الروحانيّ الذي هو أشدُّ وأخزى، وأن يكون فاعلُ «سيعلم»، في الموضعين مختلفاً بناءً على أنَّ ضمير «يتساءلون» للناس عامةً و«ثم» لذلك أيضاً، بأن يكون المعنى: سيعلمُ المؤمنون عاقبةَ تصديقهم ثمَّ سيعلم الكفَّارُ عاقبةَ تكذيبهم، فيكون الأول وعداً للمؤمنين والآخر وعيداً للكافرين وهما متفاوتان رتبةً، ولا يخفى عليك ما في ذلك.

وقرأ مالك بن دينار وابن مِقْسم والحسن وابن عامر: «ستعلمون» في الموضعين(٢) بالتاء الفوقيَّة على نهج الالتفاتِ إلى الخطاب الموافق لِمَا بعده من الخطابات تشديداً للردع والوعيد، لا على تقدير: قل لهم: كلَّا ستعلمون.. إلخ، فإنه ليس بذاك وإن كان فيه نوعُ حُسْنٍ على تقدير كون المراد: يسألون النبيَّ ﷺ.

وعن الضحاك أنَّه قرأ الأول بتاء الخطاب والثاني بياء الغيبة(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ إلخ استئنافٌ مَسوقٌ لتحقيق النبأ المتساءَلِ عنه بتعداد بعضِ الشواهد الناطقة بحقيَّته إثر ما نبَّه عليها بما ذكر من

---

(١) في الأصل: الثاني.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٧، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٧، ولم يذكر أحدٌ ـ فيما بين أيدينا من مصادر ـ قراءةَ ابن مِقْسم.

(٣) البحر ٨/ ٤١١.

الرَّدع، وجُوِّز أن يكون بتقدير: قل، كأنَّه قيل: قل كيف تنكرون أو تشكُّون في البعث وقد عاينتم ما يدلُّ عليه من القدرة التامَّة والعلمِ المحيط والحكمة الباهرة المقتضية أن لا يكونَ ما خلق عبثاً؟! وفيه أنَّ مَنْ كانَ عظيمَ الشأن باهرَ القدرة ينبغي أن يُخافَ ويُخشى ويُتأثَّرَ مِنْ زجره ووعيده. والهمزةُ للتقرير بما بعد النفي.

والمهادُ: الفراش الموطَّأ، وفي «القاموس»[(١)]: المهد: الموضع الذي يهيَّأ للصبي كالمهاد، وعليه فالمَهْد والمِهاد بمعنًى، ويؤيده قراءةُ مجاهد وعيسى الهمداني: «مَهْداً»[(٢)]، وفي الآية حينئذٍ تشبيهٌ بليغٌ، وكلٌّ منهما مصدرٌ سُمِّي به ما يُمهد. وجوّز أن يكون باقياً على المصدرية، والوصفُ بالمصدر كثيرٌ، أو التقدير: ذات مِهادٍ أو مَهْدٍ. وقيل: كما يمكن أن يكون المهاد مصدراً سُمِّي به المفعول يحتمل أن يكون فعالاً، أي: اسماً على زنته يُؤخذ للمفعول كالإله والإمام.

وجَعْلُ الأرض مِهاداً إمَّا في أصل الخِلْقة أو بعدَها. وأيًّا ما كان فلا دلالةَ في الآية على ما ينافي كُرِيَّتَها، كما هو المشهور من عدَّة مذاهبَ، ومذهبُ أهل الهيئة المحدثين أنَّها مسطَّحةٌ عند القطبين؛ لأنَّها كانت ليِّنةً جداً في مبدأ الأمر؛ لظهور غاية الحرارة الكامنة فيها اليوم، فيها إذ ذاك، وقد تحرَّكت على محورها، فاقتضى مجموعُ ذلك صيرورتَها مسطَّحةً عندهما عندهم، وأهلُ الشرع لا يقولون بذلك، ولا يتمُّ للقائل به دليلٌ حتى يرثَ اللهُ تعالى الأرض ومَنْ عليها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي: كالأوتاد، ففيه تشبيهٌ بليغٌ أيضاً، والمراد: أرسينا الأرضَ بالجبال كما يُرسى البيتُ بالأوتاد. قال الأفْوَه:

والبيتُ لا يُبْتَنى إلَّا له عَمَدٌ ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ[(٣)]

وفي الحديث[(٤)]: «خلقَ اللهُ تعالى الأرضَ فجعلت تميدُ، فوضعَ عليها الجبال فاستقرَّت، فقالت الملائكةُ: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الجبال؟ قال: نعم،

(١) مادة (مهد).
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر ٨/ ٤١١.
(٣) ديوان الأفوه الأودي ص١٠ (الطرائف الأدبية).
(٤) تقدم تخريجه في سورة الرعد، الآية (٣).

الحديد. فقالت: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الحديد؟ قال: نعم، النار. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الهواء؟ قال: نعم ابن آدم، يتصدَّقُ بيمينه فيخفي ذلك عن شماله». وظاهرُه كغيره أنَّ خلقَ الجبال بعد خلقِ الأرض، وإليه ذهب الفلاسفةُ المتقدّمون والمُحْدَثون، وهي متفاوتةٌ عندهم في الحدوث تقدُّماً وتأخُّراً.

وجاء في حديثٍ رواه الحاكمُ وصحَّحه[1] عن ابن عباس أنَّ أولَ جبلٍ أبو قبيس.

وفي كيفية حدوثها منذُ حدثت خلافٌ عندهم، وقد يتلاشى ما حدث منها بطول الزمان:

إنَّ الجديدَيْن إذا ما استَوْلَيا ... على جديدٍ أسْلَماه للبِلى[2]

وربما يشاهدُ حدوثُ بعض تلاعٍ حجرية من انجماد بعض المياه.

واستُشكل احتياجُها للإرساء بالجبال مع طلبها للمركز بثقلها المطلق، وأجيب بأنَّه قد علم الله تعالى أنَّها سَتَكِنُّ، ويكونُ عليها من الأثقال ما يكون، ومن المعلوم أنَّها حينئذٍ يكون لها مركزان، مركزُ حجم ومركزُ ثقل، والذي ينطبق منهما على مركز العالم إنَّما هو مركزُ الثقل، فيلزم من تحرك ثقيلٍ إلى جهة المشرق أو المغرب ـ مثلاً ـ عليها تحرُّكُها؛ لاختلاف مركز ثقلها ولزوم انطباقِه على مركز العالم، فيحصل المَيْد، ولم تكن إذ ذاك بحيثُ لا يكون لما يكونُ[3] عليها من أثقالٍ سكنَتْها قَدرٌ يُحسُّ به، فوُضعت عليها الجبالُ وانطبق مركز ثقلها

---

(١) المستدرك ٢/ ٥١٢، وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: طلحة بن عمرو (أحد رواة الحديث) ضعّفوه.

(٢) البيت لابن دريد، وهو أحد أبيات مقصورته المشهورة، ينظر «شرح المقصورة» للتبريزي ص٤٥، وفيه: أَدْنياه للبلى، وأورده الزبيدي في «تاج العروس» (جدد) وفيه: أدَّياه للبلى. والجديدان: الليل والنهار، واستوليا على جديد: ملكاه.

(٣) قوله: لما يكون، ليس في الأصل.

على مركز العالم وصار مجموع الأرض والجبال بحيثُ لا يظهر للمتحرِّك بعدُ قَدْرٌ يُحسُّ به.

وقيل: إنَّها كانت لخفَّتها بحيثُ تحركها أمواجُ البحر المحيط بها فيحصل المَيْدُ، فثقِّلت بالجبال، مع ما في الجبال من المنافع الجمَّة التي لم تخلق الأرض لأجلها بحيثُ لا تحركها الأمواج.

وتمامُ الكلام في ذلك حسبما كنَّا واقفين عليه قد مرَّ فتذكَّر(١).

وحُكي عن بعضٍ أنَّ جَعْلَها كذلك بمعنى جَعْلِها سبباً لانتظام أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع، ولولاها لَمادَتْ بهم، أي: لِمَا تهيَّأت للانتفاع بها ولاختلَّ أمرُ سكناهم إيَّاها. وهو تأويلٌ منافٍ للظواهر لا يُحتاج إليه ما لم يقم الدليل القطعيُّ على مُحَالِيَّة إرادة الظاهر. نعم قيل: إنَّ هذا أقربُ للتقرير، فإنَّ جعلها أوتاداً بهذا المعنى أظهرُ من جعلها كذلك بذلك المعنى وأقربُ إلى العلم به، وربّما يقال: إنَّه أوفقُ لترك إعادة العامل، ومَنْ لا يراه يجعل النكتةَ فيه قوَّةَ ما بين الأرض والجبال من الاشتراك والارتباط، فافهم.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عطفٌ على المضارع المنفيِّ بـ «لم» داخلٌ في حكمه، فإنَّه في قوَّة: أَمَا جَعَلْنا.. إلخ، أو على ما يقتضيه الإنكار التقريريُّ، فإنَّه في قوة أن يقال: قد جعلنا.. إلخ. والالتفاتُ إلى الخطاب هنا بناءً على القراءة المشهورة في «سيعلمون» للمبالغة في الإلزام والتبكيت.

﴿أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ قال الزجَّاجُ وغيره: مزدوجين ذكراً وأنثى؛ ليتسنَّى التناسلُ وينتظمَ أمرُ المعاش. وقيل: أصنافاً في اللَّون والصورة واللِّسان.

وقيل: يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجاً الخلقَ من منيَّين، منيِّ الرجل ومنيِّ المرأة، والمعنى: خلقنا كلَّ واحد منكم أزواجاً باعتبار مادَّته التي هي عبارةٌ عن منيَّين، فيكون «خلقناكم أزواجاً» من قبيل مقابلة الجمع بالجمع، وتوزيع الأفراد على الأفراد، وهو خلافُ الظاهر جدًّا ولا داعي إليه.

---

(١) في سورة الرعد، الآية (٣).

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي: كالسُّبات، ففي الكلام تشبيهٌ بليغ كما تقدَّم. والمراد بالسبات: الموت، وقد ورد في اللُّغة[1] بهذا المعنى، ووجهُ تشبيه النوم به ظاهرٌ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وهو على بناء الأدواء مشتقٌّ من السَّبْت بمعنى القطع؛ لما فيه من قطع العمل والحركة، ويقال: سَبَتَ شعره: إذا حلقه، وأنفَه إذا اصْطَلمَه[2]. وزعم ابنُ الأنباريِّ كما في «الدرر» أنَّه لم يسمع السبت بمعنى القطع[3]، وكأنَّه كان أصمَّ.

وقيل: أصلُ السبت التمدُّد كالبَسْط، يقال: سَبَتَ الشعر، إذا حلَّ عِقاصَه، وعليه تفسيرُ السبات بالنوم الطويل الممتدِّ، والامتنانُ به لما فيه من عدم الانزعاج، وجوَّز بعضُهم حملَه على النوم الخفيف بناءً على ما في «القاموس»[4] من إطلاقه عليه، على أنَّ المعنى: جعلنا نومكم نوماً خفيفاً غيرَ ممتدٍّ فيختلَّ به أمرُ معاشكم ومعادكم.

وفي «البحر»[5]: «سُباتاً» أي: سكوناً وراحةً، يقال: سَبَتَ الرجلُ، إذا استراح. وزعم ابنُ الأنباريِّ أيضاً عدمَ سماع سَبَت بهذا المعنى[6]، وردَّ عليه المرتضى[7] بأنَّه أُريد الراحة اللازمة للنوم وقطعِ الإحساس، فإنَّ في ذلك راحةَ القوى الحيوانية مِمَّا عراها في اليقظة من الكَلَال، ومنه سُمِّي اليومُ المعروف سبتاً؛ لفراغٍ وراحةٍ لهم فيه. وقيل: سُمِّي بذلك لأنَّ الله تعالى ابتدأ بخلق السماوات والأرض يومَ الأحد، فخلقها في ستَّةِ أيامٍ كما ذكر عزَّ وجلَّ، فقطعَ عملَه سبحانه يومَ السبت، فسُمِّي بذلك.

---

(١) القاموس المحيط (سبت).
(٢) الصَّلْم: قطع الأذن أو الأنف من أصلهما. القاموس المحيط (صلم).
(٣) كذا نقل المصنف رحمه الله عن الخفاجي في «حاشيته» على البيضاوي ٨/ ٣٠٢، في حين نقل المرتضى في «الدرر» (الأمالي) ١/ ٣٣٩ أن ابن الأنباري اعتمد أن السبت بمعنى القطع، وهو ما ذكره ابن الأنباري نفسه في كتابه «الزاهر في معاني كلمات الناس» ٢/ ١٣٧.
(٤) مادة (سبت).
(٥) ٨/ ٤١١.
(٦) ينظر «الزاهر» ٢/ ١٣٨، وأمالي المرتضى (الدرر والغرر) ١/ ٣٣٩-٣٤٠.
(٧) في الدرر ١/ ٣٣٩-٣٤٠.

واختار المحقِّقون كونَ السبات هنا بمعنى الموت؛ لأنه أنسبُ بالمقام كما لا يخفى.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع فيه النومُ غالباً ﴿لِبَاسًا ۝﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللِّباس، ولعلَّ المراد بهذا اللِّباسِ المشبَّهِ به ما يُستتر به عند النوم من اللِّحاف ونحوه، فإنَّ شَبَه اللَّيل به أكملُ، واعتبارَه في تحقيق المقصد أدخل.

واختار غيرُ واحدٍ إرادةَ الأعمِّ، وأنَّ المعنى: جعلناه ساتراً لكم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدوٍّ أو بياتاً له، أو إخفاءَ ما لا تحبُّون الاطِّلاعَ عليه من كثيرٍ من الأمور.

وقد عدَّ المتنبي من نِعَم اللَّيل البياتَ على الأعداء والفوزَ بزيارة المحبوب واللِّقاء، مكذِّباً ما اشتهر من مذهب المانويَّة[١] من أنَّ الخير منسوب إلى النور والشرَّ إلى الظلمة بالمعنى المعروف[٢]، فقال:

وكم لظلامِ اللَّيلِ عندي[٣] مِنْ يدٍ ... تخبِّرُ أنَّ المانويَّةَ تكذبُ
وقاكَ ردى الأعداءِ تسري إليهمُ ... وزارَكَ فيه ذو الدَّلالِ المحجَّبُ[٤]

وقال بعضهم: يمكن أن يحمل كونُ الليل كاللِّباس على كونه كاللِّباس لليوم في سهولة إخراجه منه. ولا يخفى بعدُه.

ومِمَّا يقضى منه العجب: استدلالُ بعضهم بهذه الآية على أنَّ من صلَّى عُرياناً في ليل أو ظلمة فصلاتُه صحيحةٌ. ولَعمري لقد أتى بعُريٍّ عن لباس التحقيق، كما لا يخفى على من أشرق عليه ضياءُ الحقِّ الحقيق.

---

(١) أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، يقولون: إن العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة. الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٤٤.

(٢) جاء في هامش الأصل: وهو مما لا يكاد يذهب إليه عاقل، فلعلهم أرادوا بالنور صفة الجمال وبالظلمة صفة الجلال. اهـ. منه.

(٣) في الديوان: عندك.

(٤) ديوان المتنبي ١/ ٣٠٢.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى العيش، وهو الحياة المختصَّةُ بالحيوان على ما قال الراغب(١)، دون العامَّة لحياة المَلَك مثلاً.

ووقع هنا ظرفاً كما قيل في نحو: أتيتُكَ خفوقَ النجم وطلوعَ الفجر. وجوِّز أن يكون اسمَ زمان، وتُعقِّب بأنه لم يثبت مجيئُه كذلك في اللُّغة، والمعنى: وجعلنا النهارَ وقتَ معاشٍ ـ أي: حياة ـ تُبعثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت، وكأنَّه لَمَّا جعل سبحانه النومَ موتاً مجازاً، جعل جلَّ شأنُه اليقظةَ معاشاً كذلك، لكن أُوثر النهارُ ليناسبَ المتوسِّط. وقيل: المعنى: وجعلنا النهارَ وقتَ معاشٍ تتقلَّبون فيه لتحصيل ما تعيشون به، وهو أنسبُ بجعل السبات ـ فيما تقدَّم ـ بمعنى القطع عن الحركة على ما قيل.

ولا يخفى حسنُ ذكرِ جعل الليل لباساً بعد جعل النوم سباتاً، وهو مشيرٌ إلى حكمة جعل النوم ليلاً أيضاً؛ لأنَّ النائمَ معطَّلُ الحواسِّ، فكان محتاجاً لساترٍ عمَّا يضرُّه، فهو أحوجُ ما يكون للدِّثار وضرب خيام الاستتار.

وفي «الكشف» أنَّ المطابقةَ بين قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا) وقوله سبحانه: (وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا) مصرّحةٌ، وفيه مطابقةٌ معنويةٌ أيضاً مع قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ)(٢) من حيثُ إنَّ النهار وقت اليقظة والمعاش في مقابلة السبات؛ لأنَّه حركةُ الحيِّ، ومنه عُلم أنَّ قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا) غيرُ مستطردٍ، ووجهُ النظم أنَّه لما ذكرَ خلقَهم أزواجاً استوفى أحوالهم مقترنين ومفترقين. اهـ.

وفيه تعريضٌ بالطيبيِّ حيثُ زعم الاستطراد إذا أُريد بالمعاش اليقظةُ وبالسبات الموتُ.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ أي: سبعَ سماواتٍ قويةَ الخَلْقِ محكمةً، لا يسقط منها ما يمنعكم المعاش، والتعبيرُ عن خلقها بالبناء للإشارة إلى تشبيهها

---

(١) في المفردات (عيش).

(٢) في الأصل و(م): وجعلنا النوم. ولم ترد آية بهذا اللفظ لا في سورة النبأ ولا غيرها، والمثبت هو الموافق لما في سورة النبأ.

بالقِباب المبنية على سَكَنتها. وقيل: للإشارة إلى أنَّ خلْقَها على سبيل التدريج، وليس بذاك.

وفيه أنَّ السماء خيميَّةٌ لا سطحٌ مستوٍ، وفي الآثار ما يشهدُ له، ولا يأباه جَعْلُها سقفاً في آية أخرى[1]، وقد صحَّ في العرش ما يشهد بخيميَّته أيضاً.

والفلاسفة السالفون على استدارتها، ويطلقون عليها اسم: الفَلَك، واستدلُّوا على ذلك حسبَ أصولهم بعدَ الاستدلال على استدارة السطح الظاهر من الأرض، ولا يكاد يتمُّ لهم دليلٌ عليه، قالوا: الذي يدلُّ على استدارة السماء هو أنَّه متى قصدنا عدَّة مساكنَ على خطٍّ واحدٍ من عرض الأرض، وحصَّلنا الكواكبَ المارَّةَ على سَمْت الرأس في كلٍّ واحدة منها، ثم اعتبرنا أبعادَ ممراتِ تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضِها من بعضٍ، وجدناها على نِسَبِ المسافات الأرضية بين تلك المساكن، وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب، فتحدُّبُ السماء في العرض مشابهٌ لتحدُّب الأرض فيه، لكنَّ هذا التشابه موجودٌ في كلِّ خطٍّ من خطوط العرض، وكذا في كلِّ خطٍّ من خطوط الطول، فسطحُ السماء بأسره موازٍ لسطح الظاهر من الأرض بأسره، وهذا السطحُ مستديرٌ حسًّا فكذا سطح السماء الموازي له.

وأيضاً أصحابُ الأرصاد دوَّنوا مقاديرَ أجرام الكواكب وأبعادَ ما بينها في الأماكن المختلفة في وقتٍ واحد كما في أنصاف نهار تلك الأماكن مثلاً متساويةً، وهذا يدلُّ على تساوي أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار المستلزمِ لتساوي أبعادها عن مركز العالم؛ لاستدارة الأرض المستلزمِ لكون السماء كريَّةً.

وزعموا أنَّ هذين أقربُ ما يُتمسَّك بهما في الاستدارة من حيثُ النظرُ التعليميُّ. وفي كلٍّ مناقشةٌ[2]:

---

(١) كما في سورة الأنبياء: الآية (٣٢).

(٢) جاء في هامش الأصل: قال الخضري: لا خفاء في جريان كل من المناقشتين في كل من الوجهين. انتهى منه.

أمَّا الثاني: فالمناقشة فيه أنه إنَّما يصحُّ لو كان الفَلَكُ عندهم ساكناً والكوكب متحركاً، إذ لو كان السماء متحركاً جاز أن يكون مربعاً، ويكون مساواةُ أبعادِ مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار وتَساوي مقادير الأجرام للكواكب حاصلاً.

وأمَّا الأول: فالمناقشة فيه أنَّه إنَّما يصحُّ لو كان الاعتدال المذكور موجوداً في كلِّ خطٍّ من خطوط الطول والعرض، وهو غير معلومٌ.

وأمَّا غيرُ ما ذُكر من أدلَّتهم فمذكورٌ مع ما فيه في «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك»(١) فارجع إليه إنْ أردته.

بقي هاهنا بحثٌ وهو أنَّ العطف إذا كان على الفعل المنفيِّ بـ «لم» داخلاً في حكمه، يلزمُ أن يكون بناءُ سبع سماواتٍ شدادٍ فوق معلوماً للمخاطبين، وهم مشركو مكة المنكرون للبعث كما سمعت، ليتأتَّى تقريرُهم به كسائر الأمور السابقة واللَّاحقة، فيقال: إنَّ كونَ السماوات سبعاً مِمَّا لا يُدرك بالمشاهدة، وهم المكذِّبون بالنبيِّ ﷺ فلا يصدّقونه بمثل ذلك مِمَّا معرفتُه ـ بحسب الظاهر ـ إنَّما هي من طريق الوحي. وأُجيب بأنَّهم علموا ذلك بواسطة مشاهدتهم اختلافَ حركات السيارات السبع مع اختلاف أبعادها بعضِها عن بعضٍ، وذلك أنَّهم علموا السيارات واختلافَ حركاتها، وعلموا أنَّ بعضَها فوق بعض لخَسْفِ بعضها بعضاً، فقالوا في بادئ النظر بسبع سماوات، كلُّ سماءٍ لكوكب من هاتك الكواكب. ولا يلزمنا البحثُ عمَّا قالوا في الثوابت وفي المحرِّك لها وللسبع بالحركة اليومية، إذ هو وراء ما نحن فيه.

واعترض بأنَّ هذا لا يتمُّ إلَّا إذا كانوا قائلين بأنَّ السماء عبارة عن الفَلَك وإنَّما تتحرَّكُ على الاستدارة، ويكون أوجُهَا حضيضاً وحضيضُها أوجاً، ولعلَّهم لا يقولون بذلك وإنَّما يقولون كبعض السلف من الصحابة ﷺ أنَّ السماءَ ساكنةٌ والكوكبَ متحركٌ، والفَلَك إنَّما هو مجراه، وحينئذٍ فيجوز أن تكون السبع ـ على

---

(١) كتاب في الهيئة للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (ت ٧١٠هـ)، رتَّبه على أربع مقالات: المقدمة، هيئة الأجرام، هيئة الأرض، مقادير الأجرام. كشف الظنون ٢/ ١٩٨٥.

اختلاف حركاتها وأبعادها ـ في ثخن سماءٍ واحدةٍ تجري في أفلاكٍ ومجارٍ لها على الوجه المحسوس، ويجوز أيضاً غيرُ ذلك كما لا يخفى. وأيضاً لو كان علمهم بذلك مِمَّا ذُكر لقالوا بالتداوير ونحوها أيضاً كما قال بذلك أهلُ الهيئة السالفون؛ لأنَّ اختلافَ الحركات يقتضيه بزعمهم، لاسيَّما في المتحيّرة، ولو كان العربُ قائلين به لوقع في أشعارهم، بل لا يبعد أنَّه لو ذَكر لهم ذاكرٌ التداويرَ والمتمِّمات الحاوية والمحويَّة مثلاً لنسبوه إلى ما يكره.

وقيل: إنَّهم ورثوا علم ذلك عن أسلافهم السامعين له مِمَّن يعتقدون صدقَه كإسماعيل عليه السلام، ويجوز أن يكونوا سمعوه من أهل الكتاب، ولَمَّا لم يرَوْه منافياً لما هم عليه اعتقدوه، ويكفي في صحة التقرير هذا المقدارُ من العلم.

وتعقِّب بأنَّه على هذا لا تنتظم المتعاطفات المقرَّرُ بها في سلكٍ واحد من العلم، والأمرُ فيه سهلٌ.

وقيل: نزِّلوا منزلةَ العالمين به؛ لظهور دليله، وهو إخبارُ مَنْ دلَّت المعجزةُ على صدقه به. وفيه بعدٌ.

وقيل: الخطاب للناس مؤمنيهم ومشركيهم، وغلِّبَ المؤمنون على غيرهم في التقرير المقتضي لسابقيَّة العلم، وهو كما ترى.

واختار بعضٌ أنَّ العطف على ما يقتضيه الإنكارُ التقريريُّ، فيكون الكلام في قوَّة: قد جعلنا الأرض. . ـ إلى آخره ـ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وهو حينئذٍ ابتداءُ إخبارٍ منه عز وجل بالبناء المذكور، فلا يقتضي سابقيَّةَ علم.

وتعقّب بأنَّ العطفَ على الفعل المنفيِّ بـ «لم» أوفقُ بالاستدلال بالمذكورات على صحَّة البعث، كما لا يخفى، فتأمّل.

وتقديمُ الظرف على المفعول للتشويق إليه مع مراعاة الفواصل.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: أنشأنا وأبدعنا ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ مشرقاً متلألئاً، من وهَجَتِ النارُ: إذا أضاءت. أو بالغاً في الحرارة، من الوَهَج. والمراد به الشمسُ، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خَلْق السماوات بالبناء.

ونصب «سراجا» على المفعولية، و«وهَّاجاً» على الوصفية له. وجوَّزَ بعضُهم أن يكونا مفعولين للجعل على أنَّه هنا مِمَّا يَتعدى إليهما. وتُعقِّب بأنَّه مخالفٌ للظاهر؛ للتنكير فيهما، وإن قيل: السراجُ الشمسُ، وهي - لانحصارها في فردٍ - كالمعرفة.

واختُلف في موضع الجَعْل، والمشهورُ أنَّه في السماء الرابعة، ولم نرَ فيه أثراً سوى ما في «البحر»[1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: الشمسُ في السماء الرابعة إلينا ظهرُها، ولهبُها يضطرم علوًّا.

والمذكور في كتب القوم أنَّهم جعلوا سبعةَ أفلاكٍ للسيارات السبع على ترتيبِ خَسْفِ بعضِها بعضاً، أقصاها لزحل، والذي تحته للمشتري، ثم للمريخ، والأدنى للقمر، والذي فوقه لعطارد، ثم الزهرة. إذ وجدوا القمر يكسفُ الستَّ من السيارات وكثيراً من الثوابت المحاذية لطريقته في ممرِّ البروج، وعلى هذا الترتيب وجدوا الأدنى يكسفُ الأعلى، والثوابتُ تنكسف بالكلِّ، ويُعلم الكاسفُ من المنكسِفِ باختلاف اللَّون، فأيُّهما ظهرَ لونُه عند الكسف فهو كاسفٌ، وأيُّهما خفي لونُه فهو منكسفٌ.

وبقي الشكُّ في أمر الشمس، إذ لم يُعرف انكسافُ شيءٍ من الكواكب بها؛ لاضمحلال نورها في ضيائها عند القرب منها، ولا انكسافُها بشيءٍ من الكواكب غير القمر، فذهب بعض القدماء إلى أنَّ فلكي الزهرة وعطارد فوق فلكها مستدلِّين عليه بأنَّهما لا يكسفانها كما يكسِفها القمر، وهو باطل، إذ من شرط كسف السافل العاليَ أن يكونا معاً، والبصرُ على خطٍّ واحدٍ مستقيم، وإلَّا لم يكسفه كما في أكثر اجتماعات القمر، وإذا كان كذلك فمن المحتمل أن يكون مدارهما بين الشمس والأبصار، ولأنَّ جرمَيْهما عندهم صغيران غيرُ مظلمين كجرم القمر حتى يكسفاها، ولأنَّه إذا كسفَ القمرُ من جِرْم الشمس ما مساحتُه مساويةٌ

---

(١) ٨/ ٤١١ وذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤.

لجرم أحد هذين الكوكبين أو أكثر، لا يظهر المنكسِفُ للأبصار على ما نصَّ عليه بطلميوس[(١)] في «الاقتصاص»[(٢)].

وذهب بعض مَنْ تقادم عهدُهم إلى أنهما تحت فلك الشمس وإن لم تُكسف بهما؛ استحساناً؛ لِمَا في ذلك من حسن الترتيب وجودة النظام على ما بُيِّن في موضعه، ومال إليه بطلميوس، قال في «المجسطي»: ونحن نرى ترتيب من تقادم عهدُه أقربَ إلى الإقناع؛ لأنَّه أشبهُ بالأمر الطبيعيِّ، لتوسّط الشمس بين ما يبعد عنها كلَّ البعد وبين ما لا يبعد عنها إلَّا يسيراً. ثم قويَ عزمُه لَمَّا رأى بُعدَ الشمس المعلومَ من الأرض مناسباً لهذا الموضع؛ لأنَّه لَمَّا وجد بين أبعدِ بُعْدِ القمر وأقربِ قُرْبِ الشمس بعداً يمكن أن يوجد فيه فَلَكا الزهرة وعطارد وأبعادَهما المختلفة، قال في «الاقتصاص»: مثلُ هذا الفضاء لا يَحْسن أن يترك عُطْلاً، ولا يحسن أن يكون فيه المريخ فضلاً عن غيره، فليكونا فيه.

وتأكّد هذا عند بعض المتأخِّرين بأنَّه شوهدت الزهرةُ على قرص الشمس في وقتين بينهما نيِّفٌ وعشرون سنةً، وكانت أولَ الحالين في ذروة التدوير، وفي الثاني في أسفله، ويبطل به ما ظُنَّ من كون عطارد والزهرة مع الشمس في كرة ومركز تدويرهما؛ لاستحالة أن ترى الزهرةَ في الذروة على هذا الوجه.

وهذه أمورٌ ضعيفة بعضُها خطابيٌّ إقناعيٌّ وبعضُها مبيَّنٌ ما فيه في محلِّه.

وقد زعم بعضُ الناس أنَّه كما وجد في وجه القمر محوٌ فكذا في وجه الشمس فوقَ مركزها بقليل نقطةٌ سوداء. وأهلُ الأرصاد ـ اليوم على ما سمعنا من غير واحد ـ جازمون بأنَّ في قرصها سواداً وعلامات مختلفةً، ولهم في ذلك كلامٌ مذكور في كتبهم، وعليه ففي تشبيهها بالسراج من الحسن ما فيه. وعن بعضهم أنَّ النور كخيمة عليها، ورأيتُ في بعض كتبهم أنه ينبثق من حوالي جِرْمها.

---

(١) في (م): بطليموس. وكُتب بكليهما في المصادر، وبغيره أيضاً ك : بطلماوس وأبطلميوس وغيرها.

(٢) جاء في هامش الأصل: ويسمى بالمشورات أيضاً. وكتابه هذا هو: اقتصاص أحوال الكواكب، كما ذكر ذلك القفطي في كتابه: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٦٩.

والكلامُ في مقدار جِرْمها وبُعْدِها عن الأرض عند كلٍّ من المتقدمين والمعاصرين من الفلاسفة مما لا حاجةَ لنا به في هذا المقام، مع ما في ذلك من الاختلاف المفضي بيانُه بما له وعليه إلى مزيدِ تطويلٍ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ هي السحائبُ على ما رُوي عن ابن عباس وأبي العالية والربيع والضحاك، ولَمَّا كانت مُعصَرةً ـ اسمَ مفعول ـ لا مُعصِرةً ـ اسم فاعل ـ قيل: إنها جمعُ مُعصِرة من أَعْصَر، على أن الهمزةَ فيه للحينونة، أي: حانت وشارفت أن تعصرَها الرياحُ فتمطرَ، والإفعال يكون بهذا المعنى كثيراً، كأَجْزَر إذا حان وقت جِزَاره، وأَحْصَد إذا شارف وقتُ حصاده، ومنه: أَعْصَرت الجاريةُ، إذا دَنَتْ أن تحيض، قال أبو النجم العجليُّ(١):

تمشي الهُوَينا مائلاً(٢) خمارُهَا قد أعْصَرتْ أو قد دَنا إعْصارُها

وجُوِّز على تقدير كون الهمزة للحينونة أن يكونَ المعنى: حان لها أن تَعْصِر، أي: تُغيث، ومنه: العاصرُ: المغيثُ، ولذا قال ابن كَيْسان: سُمِّيت السحائبُ بذلك؛ لأنَّها تُغيث، فهي من العَصْرة، كأنَّه في الأصل بمعنى: حان أن تَعْصِر، بتخييل أنَّ الدم يحصل منها بالعصر. وقيل: إنَّها جمعٌ لذلك أيضاً إلَّا أنَّ الهمزةَ لصيرورة الفاعل ذا المأخذ، كأيسر وأعسر وألحم، أي: صار ذا يسر، وصار ذا عسر، وصار ذا لحم.

وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة: أنَّها الرياح؛ لأنَّها تَعْصِر السحابَ فيمطر، وفسَّرها بعضُهم بالرياح ذوات الأعاصير، على أنَّ صيغة اسم الفاعل للنسبة إلى الإعصار بالكسر، وهي ريحٌ تثير سحاباً ذا رعدٍ وبرق، ويعتبر التجريد عليه على ما قيل. والمازنيُّ اعتبر النسبة أيضاً إلَّا أنه قال: «المعصرات»: السحائبُ ذوات الأعاصير؛ فإنَّها لا بدَّ أن تمطر معها، وأيّد تفسيرها بالرياح بقراءة ابن الزبير وابن

---

(١) كما في البحر ٨/ ٤٠٩، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٥٤، وابن منظور في اللسان (عصر) لمنظور بن مرثد الأسدي (ووقع في مطبوع: منصور)، وهو بلا نسبة في العقد الفريد ٣/ ٤٦٠، وتهذيب اللغة (عصر).

(٢) ويروى: ساقطاً.

عباس وأخيه الفضل وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة: «بالمعصرات»[(١)] بباء السببية والآليَّة؛ فإنَّها ظاهرةٌ في الرياح، فإنَّ بها ينزل الماء من السحاب، ولهذه القراءة جعلَ بعضُهم «مِن» في قراءة الجمهور ـ وتفسيرِ «المعصرات» بالرياح ـ للتعليل، وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّها للتعليل ابتدائية فإنَّ السحاب كالمبدأ الفاعل للإنزال، وتُعقِّب بأنَّ ورود «من» كذلك قليلٌ.

وعن أبيٍّ والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة أيضاً: أنَّها السماواتُ، وتُعقِّب بأنَّ السماء لا ينزل منها الماءُ بالعصر، فقيل في تأويله: إنَّ الماء ينزل من السماء إلى السحاب، فكأن السماوات يعصرن، أي: يَحْملنَ على عصر الرياحِ السحابَ ويُمكِّنَّ منه، وتُعقِّب بأنَّه مع بُعْدِه إنَّما يتمُّ لو جاء المعصر بمعنى العاصر، أي: الحامل على العصر، ولو قيل: المرادُ بالمعصِر: الذي حان له أن يعصر، كان تكلفاً على تكلُّفٍ، والذي في «الكشف» أنَّ الهمزة على التأويل المذكور للتعدية. فتدبَّر ولا تغفل.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ أي: منصبًّا بكثرة، يقال: ثجَّ الماءُ، إذا سال بكثرة، وثجَّه: أي: أساله. فثجَّ ورد لازماً ومتعدِّياً، واختير جعلُ ما في النظم الكريم من اللَّازم؛ لأنَّه الأكثر في الاستعمال. وجعله الزجَّاجُ من المتعدي، كأنَّ الماء المنزَّلَ لكثرته يصبُّ نفسَه، ومن المتعدِّي ما في قوله ﷺ: «أفضلُ الحجِّ: العجُّ والثجُّ»[(٢)]، أي: رفعُ الصوت بالتلبية وصبُّ دماء الهدي[(٣)]، والمرادُ: أفضلُ أعمال الحجِّ التلبيةُ والنحر.

ولا يأبى الكثرةَ كونُ الماء من المعصرات، وظاهرُه أنَّه بالعصر، وهو لا يحصل منه إلَّا القليلُ؛ لأنَّ ذلك غيرُ مسلَّم، ولو سلّم فالقلَّة نسبية.

وقرأ الأعرج: «ثَجَّاحاً» بجيم ثم حاء مهملة[(٤)]، ومثاجِحُ الماء: مصابُّه.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٧، والبحر ٨/ ٤١١-٤١٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) في (م): ماء الهدى.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٠٨، والبحر ٨/ ٤١٢، ونسبها في اللباب ٢٠/ ٩٩ للأعمش، وجاء في القراءات الشاذة ص١٦٧: تجّاحاً، ونسبها لعكرمة فقط، ولعلها: ثجاحاً.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، وهو على ظاهره عند السلف ومن اقتدى بهم، وقالت الأشاعرة: أي: عنده.

﴿حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾ ما يُقتات به كالحنطة والشعير، ويُعتلف كالحشيش والتبن. وتقديمُ الحبِّ مع تأخُّره عن النبات في الإخراج؛ لأصالته وشرفه؛ لأنَّ غالبه غذاءُ الإنسان.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ جمعُ: جنَّة، وهي كلُّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ، من الجَنِّ وهو الستر. وقال الفراء: الجنَّةُ ما فيه النخيلُ، والفردوسُ ما فيه الكَرْمُ. وقد تسمَّى الأشجار الساترة جنَّة، وعليه حُمل قولُ زهير:

مِـن الـنَّـواضِـحِ تَـسـقـي جَـنَّـةً سُـحُـقـاً[(١)]

وهو المراد هنا.

وقوله تعالى: ﴿أَلْفَافًا ۝١٦﴾ أي: ملتفةً تداخلَ بعضُها ببعض. قيل: لا واحد له، كالأوزاع والأخياف للجماعات المتفرقة المختلفة، واختاره الزمخشريُّ[(٢)].

وقال ابن قتيبة: جمعُ: لُفّ، بضمِّ اللّام جمعُ: لَفَّاء، فهو جمعُ الجمعِ[(٣)]. واستُبعد بأنَّه لم يجئ في نظائره ذلك، فقد جاء: خُضْر جمع: خضراء، وحُمْر جمع: حمراء، ولم يجئ أخضار جمعُ: خُضْر، ولا أحمار جمعُ: حُمْر، وجمعُ الجمع لا ينقاس، ووجودُ نظيره في المفردات لا يكفي، كذا قيل.

وقال الكسائيُّ: جمع: لَفيف بمعنى ملفوف. وفعيل يُجمَع على أفعال كشريف وأشراف، وإنَّما اختلف النحاة في كونه جمعاً لفاعل.

وفي «الكشاف»[(٤)]: لو قيل: هو جمعُ: ملتفَّة، بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً

---

(١) ديوان زهير ص٣٧، وسلف عند تفسير الآية (٣٤) من سورة ﴿يسٓ﴾. وصدر البيت:
كـأنَّ عـيـنَـيَّ فـي غـرْبَـي مُـقـتَّـلـةٍ

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٨.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٥٠٩.

(٤) ٤/ ٢٠٨.

وجيهاً. انتهى. وإنَّما يقدَّرُ حذفُ الزوائد وهو الذي يسمِّيه النحاةُ في مثل ذلك: ترخيماً؛ لأنَّ قياس جمع ملتفة: ملتفَّات، لا ألفاف.

واعترضه في «الكشف» فقال فيه: إنَّه لا نظير له؛ لأنَّ تصغير الترخيم ثابتٌ[1]، أما جمعُه فلا، لكن قيل: إنَّ هذا غيرُ مسلَّم، فإنَّه وقع في كلامهم ولم يتعرَّضوا له لقلَّته. والحقُّ أنَّه وجهٌ متكلَّفٌ.

وجمهور اللُّغويين على أنَّه جمع: لِفّ بالكسر، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ بمعنى ملفوف، وفِعْل يُجمع على أفعال باطِّراد كجِذْع وأجذاع، وعن صاحب «الإقليد» أنَّه قال: أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

جنَّةٌ لفٌّ وعيشٌ مُغْدِقٌ ونَدامى كلُّهم بِيضٌ زُهُر[2]

وجوّز في «القاموس»[3] أن يكون جمع: لَفّ بالفتح.

هذا وفيما ذُكر من أفعاله تعالى شأنه دلالةٌ على صحة البعث وحقِّيَّته من أوجهٍ ثلاثةٍ على ما قيل:

الأول: باعتبار قدرته عزَّ وجل، فإنَّ مَنْ قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه كان على الإعادة أقدرَ وأقوى.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإنَّ من أبدعَ هذه المصنوعات على نمطٍ رائع مستتبع لغايات جليلةٍ ومنافعَ جميلة عائدة إلى الخَلْق يستحيل حكمةً أن لا يجعل لها عاقبةً.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإنَّ اليقظةَ بعد النوم أنموذجٌ للبعث بعد الموت، يشاهدُه كلُّ واحدٍ، وكذا إخراجُ الحبِّ والنبات من الأرض يعايَنُ كلَّ حين، فكأنَّه قيل: فعلنا ـ أو ألم نفعل ـ هذه الأفعال الآفاقية الدالَّة بفنون الدلالات على حقِّيَّة البعث الموجبة للإيمان به، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتسألون عنه استهزاءً.

---

(١) جاء في هامش الأصل: واللواقح والطوائح ليس منه على ما قيل. اهـ منه.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٨، والقرطبي ٢٢/ ١٢، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤١٢.

(٣) مادة (لفّ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ شروعٌ في بيان سرِّ تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به، قائلين: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ونوعُ تفصيلٍ لكيفية وقوعه، وما سيلقَوْنه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّه لما أثبتَ سبحانه صحَّةَ البعث كان مظنَّة السؤال عن وقته، فقيل: «إنَّ» إلخ، وأكّد لأنَّه مِمَّا ارتابوا فيه. وليس بذاك.

أي: إنَّ يوم فَصْلِ الله تعالى شأنُه بين الخلائق كان في علمه عز وجل ميقاتاً وميعاداً لبعث الأوَّلين والآخرين، وما يترتَّب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً لا يكاد يتخطَّاه بالتقدُّم والتأخُّر. وقيل: حدًّا توقَّتُ به الدنيا وتنتهي إليه، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه؛ لتمييز أحوالهم.

والأول أوفقُ بالمقام، على أنَّ الدنيا تنتهي ـ على ما قيل ـ عند النفخة الأولى.

وأيًّاما كان فالمضيُّ في «كان» باعتبار العلم، وجُوِّز أن يكون بمعنى: يكون، وعبّر عن المستقبل بالماضي لتحقّق وقوعه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: النفخة الثانية. و«يوم» بدل من «يوم الفصل»، أو عطفُ بيان مفيدٌ لزيادة تفخيمه وتهويله.

ولا ضَيْرَ في تأخُّر الفصل عن النفخ، فإنَّه زمانٌ ممتدٌّ يقعُ في مبدئه النفخُ وفي بقيَّته الفصلُ ومباديه وآثارُه. وتقدَّم الكلامُ في الصُّور(١).

وقرأ أبو عياض: «في الصُّوَر» بفتح الواو(٢)، جمع: صورة. وقد مرَّ الكلامُ في ذلك أيضاً(٣).

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحةٌ تُفصح عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

---

(١) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.
(٢) البحر ٨/ ٤١٢.
(٣) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.

﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾[١] [الشعراء: ٦٣]، أي: فتحيون فتُبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لُبثٍ أصلاً.

﴿أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ أي: أمماً، كلُّ أمة بإمامها كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أو زمراً وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال متباينةَ الأوضاع حسبَ اختلاف الأعمال وتباينها، واستُدلَّ لهذا بما خرَّج ابنُ مردويه[٢] عن البراء بن عازب أنَّ معاذ بن جبل قال: يا رسول الله، ما قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال: «يا معاذ، سألت عن عظيم من الأمور» ثُمَّ أرسل عينيه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «عشرةُ أصنافٍ قد ميَّزهم الله عز وجل من جماعة المسلمين، فبدَّل صورَهم، فبعضُهم على صورة القردة، وبعضُهم على صورة الخنازير، وبعضُهم منكَّسين: أرجلُهم فوق ووجوهُهم أسفل يُسحبون عليها، وبعضُهم عُمْيٌ يتردَّدون، وبعضُهم صمٌّ بكمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلَّاةٌ على صدورهم يسيلُ القيح من أفواههم لعاباً يتقذَّرُهم أهلُ الجمع، وبعضُهم مقطَّعةٌ أيديهم وأرجلهم، وبعضُهم مصلَّبون على جذوعٍ من نار، وبعضُهم أشدُّ نَتْناً من الجِيَف، وبعضُهم ملبَّسون جياباً سابغةً من قَطِران لازقةً بجلودهم. فأمَّا الذين على صورة القردة: فالقتَّات من الناس، وأمَّا الذين على صورة الخنازير: فأكلةُ السُّحْت، وأمَّا المنكَّسون على وجوههم: فأكلةُ الربا، وأمَّا العُمْيُ: فالذين يجورون في الحكم، وأمَّا الصمُّ البكم فالمعجَبون بأعمالهم، وأمَّا الذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصَّاص الذين خالفَ أقوالَهم أعمالُهم، وأمَّا الذين قُطعت أيديهم وأرجلهم: فهم الذين يؤذون الجيران، وأمَّا المصلَّبون على جذوع من نار: فالساعون بالناس إلى السلطان، وأمَّا الذين هم أشدُّ نتناً من الجِيَف: فالذين يتمتَّعون بالشهوات واللَّذات ويمنعون حقَّ الله تعالى من أموالهم، وأمَّا الذين

---

(١) في الأصل و(م): «فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق»، وكذا وردت في تفسير أبي السعود ٩/ ٨٩ والكلام منه، والمثبت هو الصواب.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧، وأخرجه الثعلبي في تفسيره ١٠/ ١١٥.

يلبسون الجياب: فأهلُ الكبر والخُيَلاء والفخر». وهذا كما قال ابنُ حجر: حديثٌ موضوعٌ، وآثارُ الوضع لائحةٌ عليه(١).

وعليه قيل: لا بدَّ من التغليب في قوله تعالى: «فتأتون» إذ لا يمكن الإتيان للمصلوب والمسحوب على الوجه، ولا لمن قُطعت يداه ورجلاه. وتعقّب بأنّه ليس بشيءٍ، فإنَّ أمورَ الآخرة لا تقاس على أمور الدنيا، والقادرُ على البعث قادرٌ على جعلهم ماشين بلا أيدٍ وأرجلٍ، وأن تمشيَ بهم عمدُ النار التي صُلبوا عليها، مع أنَّه لا يلزم أن يأتوا بأنفسهم؛ لجواز أن تأتيَ بهم الزبانيةُ.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطفٌ على «ينفخ» على ما قيل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، وعن الزمخشريِّ أنه معطوفٌ على «فتأتون»(٢)، وليس بشرط أن يتوافقا في الزمان كما يَظنُّ مَن ليس بنحويٍّ. وأقرَّه في «الكشف»، وقال: الشرط في حسنه أن يكون مقرّباً من الحال، أو يكون المضارعُ حكايةَ حالٍ ماضية، وما نحن فيه مضارعٌ جيء به بلفظ الماضي تفخيماً وتحقيقاً لوقوعه فهو أقربُ قريبٍ منه، ولو جُعل حالاً على معنى: فتأتون وقد فُتحت السماء، لكان وجهاً.

وقرأ الجمهور ـ أي: مَن عدا الكوفيين ـ: «فُتِّحت» بالتشديد(٣)، قيل: وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

وفُسِّر الفتح بالشَّقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] إلى غير ذلك، والقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، وجاء الفتح بهذا المعنى كفتح الجسور(٤) وما ضاهاها. ولعلَّ نكتةَ التعبير به

---

(١) نقله الخفاجي في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٥، وقال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ١٤٢ في ترجمة: محمد بن زهير بن عطية السُّلَمي: وأظنه الذي روى الحديث الطويل الظاهر الوضع في البعث، المذكور عند الثعلبي في تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

(٢) لم نقف عليه في الكشاف، وذكر هذا الوجه الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٠٥، ولم ينسبه لأحد.

(٣) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٥: كفتح الجيوب.

عنه الإشارةُ إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شقُّ هذا الجِرم العظيم كفتح الباب سهولةً وسرعةً.

و«كان» بمعنى «صار»، ولدلالتها على الانتقال من حالٍ إلى أخرى، وكونِ السماء بالشقِّ لا تصير أبواباً حقيقةً، قالوا: إنَّ الكلام على التشبيه البليغ، أي: فصارت شقوقُها ـ لسعتها ـ كالأبواب، أو فصارت من كثرة الشقوق كأنَّ الكلَّ أبوابٌ، أو بتقدير مضافٍ أي: فصارت ذاتَ أبواب.

وقيل: الفتحُ على ظاهره، والكلامُ بتقدير مضافٍ إلى «السماء»، أي: فُتحت أبواب السماء فصارت كأن كلَّها أبوابٌ، ويجامع ذلك شقَّها فتشقُّ وتفتحُ أبوابها.

وتعقِّب بأنَّ شقَّها لنزول الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] فإذا شقِّقت لا يحتاج لفتح الأبواب، وأيضاً فتحُ أبوابها ليس من خواصِّ يوم الفصل، وفيه بحثٌ. نعم إنَّ الوجه الأول أولى.

وقيل: المعنى: يفتح مكان السماء بالكَشْط فتصيرُ كلُّها طرقاً لا يسدُّها شيءٌ. وفيه بعدٌ.

وعلى ما تقدَّم، في الآية ردٌّ على زاعمي امتناع الخَرْق على السماء، وفيها على هذا ردٌّ لزاعمي كَشْطها كما هو المشهور عن الفلاسفة المتقدِّمين، وإن حقَّقَ الملا صدرا في «الأسفار» أنَّ أساطنتهم على خلاف ذلك، والفلاسفةُ اليوم ينفون السماءَ المعروفة عند المسلمين، ولم يأتوا بشيءٍ تؤوَّل له الآياتُ والأخبار الصحيحة في صفتها كما لا يخفى على الذكيِّ المنصف.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الجوِّ على هيئتها بعد تفتُّتها، وبعد قلعها من مقارِّها كما يُعربُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وأدمجَ فيه تشبيه الجبال بحبال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: فصارت بعد تسييرها مثلَ سرابٍ، فتُرى بعد تفتُّتها وارتفاعها في الهواء كأنَّها جبالٌ، وليست بجبال، بل غبارٌ غليظ متراكم يُرى من

بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسراب يُرى كأنَّه بحرٌ مثلاً، وليس به، فالكلامُ على التشبيه البليغ.

والجامع أنَّ كلًّا من الجبال والسراب يُرى على شكل شيءٍ، وليس هو بذلك الشيء. وجُوِّز أن يكون وجهُ الشبه التخلخلَ، إذ تكون بعد تسييرها غباراً منتشراً كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

والمستفادُ من «الأزهار البديعة في علم الطبيعة» لمحمد الهراويِّ أنَّ السرابَ هواءٌ تسخَّنت طبقتُه السفلى التي تلي الأرض؛ لتسخُّنِ الأرض من حرِّ الشمس، فتخلخلت وصعدَ جزءٌ منها إلى ما فوقَها من الطبقات فكان أكثفَ مِمَّا تحته، وخرج بذلك التسخُّنِ عن موقعه الطبيعيِّ من الأرض، ولانعكاس الأشعة الضوئية وانكسارها فيه على وجهٍ مخصوص ـ مبيَّن في الكتاب المذكور ـ مع انعكاس لون السماء يُظَنُّ ماءً، وتُرى فيه صورةُ الشيء منقلبةً، وقد تُرى فيه صورٌ سابحةٌ كقصور وعمد ومساكنَ جميلةٍ مستغرَبةٍ وأشباح سائرة تتغير هيئتها في كلِّ لحظة وتنتقل عن محالِّها ثم تزول، وما هي إلَّا صورٌ حاصلةٌ من انعكاس صور مرئية بعيدةٍ جدًّا أو متراكبةٌ في طبقات الهواء المختلفة الكثافة، فاعتبارُ التخلخلِ فقط في وجه الشبه لا يخلو عن نظر.

وأيًّا ما كان فهذا بعد النفخة الثانية عند حشر الخَلْق، فاللهُ عز وجل يسيِّرُ الجبالَ ويجعلها هباءً منبثًّا، ويسوِّي الأرضَ يومئذٍ كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فإنَّ اتِّباع الداعي ـ الذي هو إسرافيلُ عليه السلام ـ وبروزَ الخلق تعالى لا يكون إلَّا بعد النفخة الثانية، وأمَّا اندكاكُ الجبال وانصداعُها فعند النفخة الأولى.

وقيل: إنَّ تسييرها وصيرورتها سراباً عند النفخة الأولى أيضاً، ويأباه ظاهر الآية، نعم لو جُعلت الجملةُ حاليةً، أي: فتأتون أفواجاً وقد سُيِّرت الجبال فكانت سراباً، لكان ذلك محتملاً، والظاهرُ أنها تصير سراباً لتسوية الأرض، ولا يبعد أن يكون فيه حِكَمٌ أخرى.

وقول بعضهم: إنَّها تجري جريانَ الماء وتسيل سيلانَه كالسراب، فيزيد ذلك في اضطراب متعطِّشي المحشر وغلبة شوقهم إلى الماء = خلاف الظاهر.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ شروعٌ في تفصيل أحكام الفَصْل الذي أُضيف إليه اليوم إثر بيان هوله.

والمرصادُ: اسم مكان، كالمضمار للموضع الذي تضمَّرُ فيه الخيل، ومِفْعال يكون كذلك ـ على ما صرَّح به الراغب والجوهريُّ[١] وغيرُهما ـ كما يكون اسمَ آلةٍ وصفةً مشبَّهةً للمبالغة. والظاهرُ أنَّه حقيقةٌ في الجميع. أي: موضعُ رصدٍ وترقُّب، تَرصدُ فيه خزنةُ النار الكفارَ ليعذِّبوهم. وقيل: ترصد فيه خزنةُ الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فَيْحها في مجازهم عليها. وقيل: ترصد الملائكةُ عليهم السلام الطائفتين لتعذب[٢] إحداهما وهي المؤمنة وتعذِّب الأخرى وهي الكافرة.

وجوِّز أن يكون صيغةَ مبالغة كمِنْحار[٣]، أي: مُجدَّة في ترصُّد الكفرة؛ لئلَّا يشذَّ منهم واحدٌ، أو مجدَّة في ترصُّد المؤمنين لئلا يتضرَّر أحدٌ منهم من فَيْحها، أو مجدَّةٌ في ترصُّد الطائفتين على نحو ما سمعتَ آنفاً.

وإسناد ذلك إليها مجازٌ أو على سبيل التشبيه. وفي «البحر»[٤]: إنَّ في: «مرصاداً» معنى النَّسب، أي: ذات رصدٍ.

وقد يفسَّرُ المرصاد بمطلق الطريق وهو أحد معانيه، فيكون للطائفتين، ومن هنا قال الحسن كما أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد في الآية: لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ حتى يجتاز النار. وقال قتادة كما أخرج هؤلاء عنه أيضاً: اعلموا أنَّه لا سبيل إلى الجنة حتى تُقطعَ النار[٥].

---

(١) الراغب في «المفردات» (رصد)، والجوهري في «الصحاح» مادة (ضمر).

(٢) كذا في الأصل و(م)، وصوابه: لتحرس، أو: لتنقذ، أو نحوه.

(٣) في (م): كمتحار. ورجل منحار: يوصف بالجود. الصحاح (نحر).

(٤) البحر ٨/ ٤١٣.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٢١، والدر المنثور ٦/ ٣٠٧.

وقوله تعالى: ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ أي: المتجاوزين الحدَّ في الطغيان، متعلِّقٌ بمضمر؛ إمَّا نعتٌ لـ «مرصاداً» أي: كائناً للطاغين، وإمَّا حالٌ من قوله تعالى: ﴿مَـَٔابٗا ٢٢﴾ قُدِّم عليه لكونه نكرةً، ولو تأخَّر لكان صفةً له، أي: كانت مرجعاً ومأوًى كائناً لهم يرجعون إليه ويأوون لا محالةَ، وجوّز أن يكون خبراً آخر لـ «كانت»، أو متعلقاً بـ «مآباً» أو بـ «مرصاداً»، وعليه قيل: معنى مرصاداً لهم: معدَّةٌ لهم، من قولهم: أرْصَدْت له، أي: أعددت وكافأته بالخير أو بالشر.

و«مآباً» قيل: بدل من «مرصاداً» على جميع الأوجه، بدلَ كلٍّ من كلّ. وقيل: هو خبرٌ ثانٍ لـ «كانت» أو صفةٌ لـ «مرصاداً»، و«للطاغين» متعلِّقٌ به أو حالٌ منه على بعض التفاسير السابقة في «كانت مرصاداً»، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو المِنْقَريُّ وابن يعمر: «أنَّ جهنَّم» بفتح الهمزة[1]، بتقدير لام جرٍّ؛ لتعليل قيام الساعة المفهوم من الكلام، والمعنى: كان ذلك لإقامة الجزاء. وتعقّب بأنَّه ينبغي حينئذٍ أن يكون «إنَّ للمتقين» أيضاً بالفتح ومعطوفاً على ما هنا؛ لأنه بكليهما يتمُّ التعليل بإقامة الجزاء، إلَّا أن يقال: ترك العطف للإشارة إلى استقلال كلٍّ من الجزاءين في استدعاء قيام الساعة. وفيه نظرٌ؛ لأنَّه بذاك يتمُّ الجزاء، وأمَّا نفس إقامته فيكفي في تعليلها ما ذكر، على أنَّه لو كان المراد فيما سبق: كانت مرصاداً للفريقين ـ على ما سمعت ـ لا يتسنَّى هذا الكلام أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ ـ أي: مقيمين في جهنم ملازمين لها ـ حالٌ مقدَّرةٌ من المستكنِّ في «للطاغين».

وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن عليٍّ وابن وثَّاب وعمرو بن شُرَحْبيل وابن جبير وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح: «لبثين» بغير ألف بعد اللَّام[2]، وفيه

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٩، والبحر ٨/ ٤١٣، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٧ إلى أبي معمر، وهي كنية المنقري نفسه، كما أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٥ نسبها لأبي معمر المنقري، ولعله يقال له أيضاً: أبو عمرو. ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٢٢، وغاية النهاية ١/ ٤٣٩ وباقي مصادر ترجمته.

(٢) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة وروح، والكلام من البحر ٨/ ٤١٣.

من المبالغة ما ليس في «لابثين». وقال أبو حيان[١]: إنَّ فاعلاً يدلُّ على مَنْ وُجد منه الفعل، وفَعِلاً يدلُّ على مَنْ شأنُه ذلك كحاذر وحَذِر.

وقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ ظرفٌ للبثهم وهو ـ وكذا: أحْقُب ـ جمع: حُقب، بالضم وبضمَّتين. وهو على ما رُوي عن الحسن: زمانٌ غير محدود، ونحوه تفسير بعض اللّغويين له بالدهر.

وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصحَّحه[٢] عن ابن مسعود أنه قال: الحُقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج نحوه البزارُ عن أبي هريرة[٣]، وابنُ جرير[٤] عن ابن عباس، وابنُ المنذر عن ابن عمر[٥]، ورُوي عن جمع من السلف[٦] بَيْدَ أنَّهم قالوا: إنَّ كلَّ يومٍ منه ـ أي: هنا ـ مقدار ألف سنة من سني الدنيا.

وأخرج البزار وابنُ مردويه والديلميُّ عن ابن عمر مرفوعاً أنَّه بضعٌ وثمانون سنة، كلُّ سنة ثلاثمئة وستُّون يوماً، واليوم ألف سنة مما تَعدُّون[٧].

وقيل: أربعون سنة، وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت فيه حديثاً مرفوعاً[٨].

وقال بعض اللغويين: سبعون ألف سنة. واختار غيرُ واحد تفسيرَه بالدهر.

وأيًّاما كان فالمعنى: لابثين فيها أحقاباً متتابعةً، كلَّما مضى حُقبٌ تبعه حُقبٌ

(١) في البحر ٨/ ٤١٣.
(٢) المستدرك ٢/ ٥١٢، وعزاه لهما السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧.
(٣) كشف الأستار (٢٢٧٨)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (٢١٩)، والطبري ٢٤/ ٢٤.
(٤) في تفسيره ٢٤/ ٢٤.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وفيه: ابن عمرو.
(٦) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٤-٢٥، والدر المنثور ٦/ ٣٠٧-٣٠٨.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣٢، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٣٤، وذكره الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢٣ مع حديث آخر وقال: هما موضوعان في نقدي.
(٨) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨ وأخرجه أيضاً ابن عدي ٥/ ١٧٨١، وفي إسناده عمرو بن شمر الجعفي، وهو متروك.

آخر. وإفادةُ التتابع في الاستعمال بشهادة الاشتقاق، فإنَّه من الحقيبة وهي ما يشدُّ خلف الراكب، والمتتابعات يكون أحدها خلف الآخر، فليس في الآية ما يدلُّ على خروج الكفرة من النار وعدم خلودهم فيها؛ لمكان فَهْمِ التتابع في الاستعمال، وصيغةُ القلَّة لا تنافي عدم التناهي، إذ لا فرقَ بين تتابع الأحقاب الكثيرة إلى ما لا يتناهى، وتتابع الأحقاب القليلة كذلك.

وقيل: إنَّ الصيغة هنا مشتركةٌ بين القلَّة والكثرة، إذ ليس للحُقب جمعُ كثرة فلْيُرَدْ بها - بمعونة المقام - جمع الكثرة. وتعقّب بثبوت جمع الكثرة له، وهو الحِقَب كما ذكره الراغب، والذي رأيته في «مفرداته»[1] أنَّ الحِقَب - أي: بكسر الحاء وفتح القاف - جمع[2]: الحقبة، المفسَّرة بثمانين عاماً.

نعم قيل: إنَّه ينافيه ما ورد أنَّه يخرج أناسٌ من أهل النار من النار ويقربون من الجنة، حتى إذا استنشقوا ريحَها ورأَوْا ما أعدَّ الله تعالى لعباده المؤمنين فيها نُودوا: أن اصرفوهم عنها، لا نصيبَ لهم فيها، فيُردُّون إلى النار بحسرةٍ ما رجع الأولون والآخرون بمثلها[3]. وتعقب بأنَّه إنْ صحَّ إنَّما ينافيه لو كان الخروج حقباً تامًّا، أمَّا لو كان في بعض أجزاء الحُقب فلا؛ لبقاء تتابعِ الأحقاب جملةً، سلَّمنا لكنَّ هذا الإخراجَ الذي يستعقب الردَّ لزيادة التعذيب كاللُّبث في النار بل[4] أشدّ، والكلامُ من باب التغليب، وليس فيه الجمعُ بين الحقيقة والمجاز، ثم إن وجد أنَّ في الآية ما يقتضي الدلالة على التناهي والخروج من النار ولو بعدَ زمانٍ طويل فهو مفهوم معارَضٌ بالمنطوق الصريح بخلافه كآيات الخلود وقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] إلى غير ذلك.

وإن جعل قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ حالاً من المستكنِّ في «لابثين» فيكون قيداً للَّبث، فيحتمل أن يلبثوا فيها أحقاباً غير

(١) مادة (حقب).
(٢) لفظ: جمع، ليست في (م).
(٣) سلف تخريجه ٨/ ٤٣٧.
(٤) لفظ: بل، ليست في (م).

ذائقين إلَّا حميماً وغسّاقاً، ثم يكون لهم بعد الأحقاب لبثٌ على حالٍ آخرَ من العذاب. وكذا إن جعل «أحقاباً» منصوباً بـ «لا يذوقون» قيداً له، إلَّا أنَّ فيه بُعْداً، ومثله لو جعل «لا يذوقون فيها» إلخ صفةً لـ «أحقاباً» وضميرُ «فيها» لها لا لجهنم، لكنَّه أبعدُ من سابقه.

وقيل: المراد بالطاغين ما يقابل المتقين، فيشمل العصاةَ، والتناهي بالنظر إلى المجموع، وهو كما ترى.

وقولُ مقاتل: إنَّ ذلك منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، فاسدٌ كما لا يخفى.

وجوّز أن يكون «أحقاباً» جمعُ: حَقِب، كحذِر، من حَقِب الرجلُ: إذا أخطأه الرزقُ، وحَقِبَ العامُ: إذا قلَّ مطرُه وخيرُه، والمراد: محرومين من النعيم، وهو كنايةٌ عن كونهم معاقبين، فيكون حالاً من ضمير «لابثين».

وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ صفةٌ كاشفةٌ أو جملةٌ مفسِّرةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهو على ما ذُكر أولاً جملةٌ مبتدأة خبر عنهم.

والمراد بالبرد ما يروِّحهم وينفِّس عنهم حرَّ النار، فلا ينافي أنَّهم قد يعذَّبون بالزمهرير. والشرابُ معروفٌ. والحميمُ: الماء الشديد الحرارة. والغسَّاق: ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد. أي: لا يذوقون فيها شيئاً ما؛ من رَوْح ينفِّس عنهم حرَّ النار، ولا من شراب يسكِّن عطشهم، لكن يذوقون ماءً حارًّا وصديداً.

وفي الحديث: «إنَّ الرجل منهم إذا أدنى ذلك مِن فِيْهِ سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع»(١).

وعن ابن عباس ﵄: أنَّ البردَ الشرابُ البارد المستلَذُّ، ومنه قولُ حسان بن ثابت:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٨ لابن مردويه.

يَسْقون مَنْ وَرَدَ البريْصَ عليهمُ بَرْداً[١] يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسل[٢]

وقولُ الآخر[٣]:

أمانيُّ من سُعْدَى حِسانٌ كأنَّما سَقتْكَ بها سُعْدَى على ظَمأ بَرْداً[٤]

فيكون «ولا شراباً» من نفي العامِّ بعد الخاصِّ.

وقال أبو عبيدة[٥] والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ[٦] النحويُّ: البَرْد: النوم، والعرب تسمّيه بذلك؛ لأنَّه يبرد سَوْرة العطش، ومن كلامهم: منعَ البردُ البردَ، وقال الشاعر:

فلو شِئتُ حرَّمتُ النساءَ سواكُمُ وإن شئتُ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْداً[٧]

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: النحويون ينشدون بيت حسان: بردى، بفتح الراء والدال بعدها ألف التأنيث، وهو نهر في دمشق. اهـ. منه. ويروى البيت بالروايتين.

(٢) ديوان حسان ص٣٦٥، وسلف عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأعراف.

(٣) اختُلف في نسبة هذا البيت كما هو مبيَّنٌ في التعليق التالي.

(٤) شعر ابن ميادة ص٢٤٥ (القسم الذي نُسب إليه أو إلى غيره)، ونسبه أبو تمام في الحماسة ٣/ ١٤١٣ (شرح المرزوقي) لرجل من بني الحارث، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٥/ ١٩٢ لبعض الأعراب، ونسبه في معاهد التنصيص ٢/ ١٤١ لابن سارة. ورُوي البيت بأسماء أخرى مثل: ليلى، سلمى. ويروى: عِذابٌ، بدل: حسانٌ، ويروى: سقتني، سقتنا. ويروى: أمانيَّ.... حساناً، بإضمار فعل، كأنه قال: أذكر أمانيَّ من سُعدى... والمعنى كما ذكر المرزوقي: أذكرُ أمانيَّ من هذه المرأة جميلةً، وكأن موقعها من قلوبنا موقعُ الماء البارد من ذي الغُلَّة الصادي.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢.

(٦) كذا في الأصل و(م)، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦، والبحر ٨/ ٤١٤، ولعلها: أبو معاذ، فالفضل بن خالد هو أبو معاذ النحوي، وقد نقل الحموي في معجم الأدباء ١٦/ ٢١٤ في ترجمته عن الأزهري قوله: ولأبي معاذ كتاب في القرآن حسن. اهـ. وقد روى عنه الأزهري في التهذيب فأكثر. (ت ٢١١هـ). وجاء في النسخ الخطية لتفسير القرطبي ٢٢/ ٢٠: وأبو معاذ، ولعل الواو فيها زائدة. وأما إن كانت كما هي، أي: ومعاذ، فلعله: معاذ بن مسلم، أبو مسلم، النحوي الكوفي الهراء، أستاذ الكسائي. (ت ١٨٨هـ). إنباه الرواة ٣/ ٢٨٨، والسير ٨/ ٤٨٢.

(٧) جاء في هامش الأصل: نُقاخاً، أي: ماءً. منه. والبيت للعرجي كما في الحيوان للجاحظ =

وهو[١] مجازٌ في ذلك عند بعض، ونقل في «البحر» عن كتاب «اللغات في القرآن» أنَّ البرد هو النوم بلغة هذيل[٢]، وعن ابن عباس وأبي العالية: الغسَّاق الزمهرير، وهو على ما قيل مستثنًى من «برداً» إلَّا أنَّه أُخِّر لتوافق رؤوس الآي، فلا تَغْفُل.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «غساقاً» بالتخفيف[٣].

﴿جَزَآءً﴾ أي: جُوزوا بذلك جزاءً، فـ «جزاء» مفعولٌ مطلق منصوب بفعل مقدَّر، وجعلُه خبراً آخر لـ «كانت» ليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ مصدرُ وافقه، صفةٌ له بتقدير مضاف، أي: ذا وفاق، أو بتأويله باسم الفاعل، أو لقصد المبالغة على ما عُرف في أمثاله.

وأيًّاما كان فالمراد: جزاءً موافقاً لأعمالهم، على معنى أنَّه بقَدْرِها في الشدَّة والضعف بحسب استحقاقهم، كما يقتضيه عدلُه وحكمتُه تعالى.

والجملةُ من الفعل المقدَّر ومعموله جملةٌ حالية أو مستأنفة.

وجُوِّز أن يكون «وفاقاً» مصدراً منصوباً بفعل مقدَّر أيضاً أي: وافقها وفاقاً، وهذه الجملة في موضع الصفة لـ «جزاءً». وقال الفراء: هو جمع: وفق[٤]. ولا يخفى ما في جعله حينئذٍ صفةً لـ «جزاء» من الخفاء.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: «وِفَّاقاً» بكسر الواو وتشديد الفاء[٥]، من وَفِقه يَفِقُه ـ ك: ورثه يرثه ـ: وَجَدَه موافقاً لحاله. وفي «الكشف»: وَفِقه بمعنى

= ٥/ ٣٢، والصحاح (نقخ)، ولسان العرب (برد)، وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص١٤٦ و٥٠٩. والنقاخ: الماء العذب.

(١) قبلها في (م): أي.

(٢) البحر ٨/ ٤١٤، والكتاب لعله لابن حَسْنُون، عبد الله بن الحسين بن حسنون، مسند القرّاء في زمانه وعالم باللغة. (ت ٣٨٦هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٣٢٧، والأعلام ٤/ ٧٩.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٠. وقرأ بالتشديد حفص وحمزة والكسائي وخلف.

(٤) البحر ٨/ ٤١٤.

(٥) البحر ٨/ ٤١٤.

وافقه، وليس وصف الجزاء به وصفاً بحال صاحبه كما لا يخفى، وحكى ابنُ القُوطيَّة[١]: وَفق أمرُه، أي: حَسُن، وليس المعنى عليه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ تعليلٌ لاستحقاق العذاب المذكور، أي: كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا بأعمالهم. ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الناطقةِ بذلك، أو به وبغيره مِمَّا يجب الإيمان به. ﴿كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: تكذيباً مفرطاً، وفِعَّال بمعنى تفعيل في مصدر فَعَّل مطَّردٌ شائع في كلام فصحاء العرب، وعن الفراء: أنه لغةٌ يمانية فصيحة، وقال لي أعرابيٌّ على جبل المروة يستفتيني: آلحلقُ أحبُّ إليك أم القِصَّار؟ ومن تلك اللغة قولُ الشاعر:

لقد طالَ ما ثبَّطتني عن صَحابتي وعن حاجةٍ قِضَّاؤُها من شِفائيا[٢]

وقال ابن مالك في «التسهيل»[٣]: إنَّه قليلٌ.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلافٍ عنه بالتخفيف[٤]. قال صاحب «اللوامح»: وذلك لغة اليمن، يجعلون مصدر كَذَب ـ مخففاً ـ كِذَاباً بالتخفيف، مثل: كتب كتاباً، فكِذَاباً بمعنى كَذِباً، وعليه قول الأعشى:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُه[٥]

---

(١) هو محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي، القرطبي النحوي، له «تصاريف الأفعال»، (ت ٣٦٧هـ). السير ١٦/ ٢١٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩، والبيت للأعور بن براء الكلبي كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢/ ٥٦٦، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص٧٩، ونسبه في تهذيب اللغة (كذب) لبعض بني كلاب، وفي لسان العرب (كذب) لبعض بني كُليب، ويروى البيت: وعن حِوَج، بدل: وعن حاجة.

(٣) ص٢٠٦.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٨، والبحر ٨/ ٤١٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤١٤، ولم نقف عليه في ديوان الأعشى، وقال المبرد في الكامل ٢/ ٧٤٧: وأنشدني المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة، ثم ذكره برواية: فصدقتهم وكذبتهم. . .، وهو برواية المصنف في اللسان، والتاج (صدق).

والكلام هنا عليه من باب: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] ففعلهُ الثلاثي إمَّا مقدَّرٌ، أي: كذَّبوا بآياتنا وكَذَبوا كِذَاباً، أو هو مصدر للفعل المذكور باعتبار تضمُّنه معنى كَذَبَ الثلاثي، فإنَّ تكذيبهم الحقَّ الصريح يستلزم أنَّهم كاذبون. وأيًّا ما كان يدلُّ على كذبهم في تكذيبهم.

وجوِّز أن يكون بمعنى مكاذَبة، كقتال بمعنى مقاتلة، فهو من باب المفاعلة، على معنى أنَّ كلًّا منهم ومن المسلمين اعتقد كذب الآخر بتنزيل الاعتقاد(١) منزلةَ الفعل، لا على معنى أنَّ كلًّا كذب الآخر حقيقةً، ويجوز أن تكون المفاعلة مجازاً مرسلاً بعلاقة اللُّزوم عن الجدِّ والاجتهاد في الفعل، ويحتمل الاستعارة فإنَّهم كانوا مبالغين في الكذب مبالغةَ المغالبين فيه.

وعلى المعنيين: كونهِ بمعنى الكذب وكونه بمعنى المكاذبة، يجوز أن يكون حالاً(٢)، بمعنى كاذبين أو مكاذبين، على اعتبار المشاركة وعدم اعتبارها.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والماجشون: «كُذَّاباً» بضمِّ الكاف وتشديد الذال(٣)، وخُرِّج على أنَّه جمع كاذب، كفُسَّاق جمع فاسق، فيكون حالاً أيضاً. و: كذبوا في حال كذبهم، نظير: إذا جاء.. حين يأتي، على ما قيل في قول طَرَفة:

إذا جاءَ ما لا بُدَّ منه فمرحباً ... به حين يأتي لا كِذَابٌ ولا عِلَلُ(٤)

وفيه بحث ظاهر. وجوِّز أن يكون مفرداً صيغةَ مبالغةٍ، ككُبَّار وحُسَّان فيكون صفةً لمصدر محذوف، أي: تكذيباً كُذَّاباً، فيفيد المبالغة والدلالة على الإفراط في الكذب؛ لأنه كـ: لَيلِ ٱلْيلَ وظلامٍ مظلمٍ، والإسناد فيه مجازيٌّ.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالُهم، وقال أبو حيان(٥): أي:

---

(١) في الأصل و(م): بتنزيل ترك الاعتقاد، والمثبت هو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٨.
(٢) جاء في هامش الأصل: كما يجوّزون مصدر المحذوف، أي: كذبوا أو كاذبوا. اهـ منه.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤١٥ عن ابن عطية وصاحب اللوامح أنها قراءة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ثم ذكر الذي عند ابن خالويه.
(٤) ديوان طرفة ص٧٥.
(٥) في البحر ٨/ ٤١٥.

كلِّ شيءٍ مِمَّا يقع عليه الثواب والعقاب، فهو عامٌّ مخصوص، وانتصابُه بمضمَر يفسِّره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. وقرأ أبو السَّمَّال بالرفع(١) على الابتداء.

﴿كِتَٰبًا ٢٩﴾ مصدر مؤكِّدٌ لـ «أحصيناه»، فإنَّ الإحصاء والكَتْب يتشاركان في معنى الضبط، فإمَّا أن يؤوَّلَ «أحصيناه» بـ : كتبناه، أو كتاباً بإحصاءً، وجوِّز الاحتباك على الحذفين من الطرفين. أو حالٌ بمعنى: مكتوباً في اللوح، أو صحف الحَفَظة.

والظاهرُ أنَّ الكلام على حقيقته، وقال بعضهم(٢): الظاهر أنَّه تمثيلٌ لصورة ضبط الأشياء في علمه تعالى بضبط المُحْصي المُجدِّ المتقن للضبط بالكتابة، وإلا فهو عزَّ وجل مستغنٍ عن الضبط بالكتابة، وهذا التمثيلُ لتفهيمنا، وإلَّا فالانضباط في علمه تعالى أجلُّ وأعلى من أن يُمثَّل بشيءٍ. والمشهور عند أهل السنَّة ما قدَّمنا، وليس ذلك للاحتياج وإنَّما هو لحِكَمٍ تقصر عنها العقول.

والجملةُ اعتراضٌ لتأكيد الوعيد السابق بأنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ لاحقٌ بهم؛ لأنَّ معاصيَهم مضبوطةٌ مكتوبة يُكفحون(٣) بها يوم الجزاء.

وقيل: لتأكيد كفرهم وتكذيبهم بالآيات بأنَّهما محفوظان للجزاء. وليس بذاك.

وقال البعض: الأوجَه عندي أنَّ «كلَّ شيء» منصوبٌ بالعطف على اسم «إنَّ» في «إنهم كانوا لا يرجون حساباً»، و«أحصيناه كتاباً» عطفٌ على خبره، والرفعُ على العطف على محلِّ اسم «إنَّ»، والجُملُ بيانٌ لكون الجزاء المذكور موافقاً لأعمالهم؛ لأنَّ الجزاءَ الموافق إنَّما يكون لصدور أفعالٍ موجبةٍ له عنهم، وضبطِها وعدم فوتها على المُجازي، فالجملتان الأُوليان لإفادة صدور الموجبِ وهو الكفرُ المعبَّر عنه بعدم رجاء الحساب والتكذيب بالآيات لما أنَّ ذلك كالعلم فيه، والأخيرةُ لإفادة الضبط وعدم الفوت، أي: مع إدماج الإشارة إلى باقي المعاصي فيها، وليست اعتراضاً. انتهى. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

(١) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤١٥.
(٢) في هامش الأصل: عصام الدين. اهـ منه.
(٣) أي: يواجهون بها، كافحه: لقيه مواجهة. المعجم الوسيط (كفح).

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ مسبَّبٌ عن كفرهم بالحساب وتكذيبِهم بالآيات، وتسبُّبُ الذوقِ والأمرُ به في غاية الظهور، وقيل: الأظهر أنَّه مرتبطٌ بقوله تعالى: (لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا) إلخ، أي: إذا ذاقوا الحميمَ والغسَّاق، فيقال لهم: ذوقوا فلن نزيدكم.. إلخ. وحينئذٍ الجملُ بينهما اعتراضية. وفيه: أنه في غاية البعد، مع ما فيه من كثرة الاعتراض. ومجيئُه على طريق الالتفات للمبالغة؛ لتقدير إحضارهم وقتَ الأمر ليُخاطبوا بالتقريع والتوبيخ، وهو أعظمُ في الإهانة والتحقير، ولو قدِّر القولُ فيه لم يكن هناك التفاتٌ.

وأخرج عبدُ بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن الحسن قال: سألتُ أبا بَرْزة الأسلميّ عن أشدِّ آيةٍ في كتاب الله تعالى على أهل النار؟ فقال: قول الله تعالى: (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)(1).

ووجه الأشديَّة ـ على ما قيل ـ أنَّه تقريعٌ في يوم الفصل، وغضب من أرحم الراحمين، وتأييس لهم، مع ما في «لن» ـ أي: على القول بإفادتها التأبيد ـ من أنَّ ترك الزيادة كالمُحال الذي لا يدخل تحت الصحة.

وقيل: يحتمل أن يكون المرادُ أنَّه أشدُّ حُجَج القرآن على أهل النار، فإنَّه إذا بلغهم في الدنيا هذا الوعيدُ ولم يخافوا منه، فقد قبلوا العذابَ الأبديَّ في مقابلة الكفر، فلا عذرَ لهم يوم القيامة في الحكم عليهم بخلود النار. وفيه من البعد ما فيه.

واستُشكل أمرُ زيادة العذاب بمنافاتها كونَ الجزاء موافقاً للأعمال. وأجيب بأنَّها لحفظ الأصل، إذ لولاها لأَلِفُوا ما أصابهم من العذاب أوَّل مرَّة ولم يتألَّموا به. وهو كما ترى. وقيل: إنَّ العذاب لَمَّا كان للكفر والمعاصي وهي متزايدةٌ في القبح في كلِّ آن، فالكفر مثلاً في الزمان الثاني أقبحُ منه في الزمن الأول وهكذا،

(1) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٥٩ من طريق جسر بن فرقد، عن الحسن، عن أبي برزة موقوفاً، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية بالإسناد المذكور مرفوعاً. قال ابن كثير: جسر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية. اهـ. والحسن لم يسمع من أبي برزة. المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢.

وعَلِمَ اللهُ تعالى منهم ـ لسوء استعدادهم ـ الاستمرارَ على ذلك، اقتضى ذلك زيادةَ العذاب وشدَّته يوماً فيوماً. وقيل: لَمَّا كان كفرُهم أعظمَ كفر اقتضى أشدَّ عذاب، والعذابُ المزاد يوماً فيوماً من أشدِّ العذاب. وقيل غيرُ ذلك، فليتأمَّل.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ شروعٌ في بيان محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء أحوال الكافرين، و«مفازاً» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسم مكان، أي: إنَّ للذين يتقون أعمال[١] الكفرة فوزاً وظفراً بمساعيهم، أو موضعَ فوز. وقيل: نجاةً مما فيه أولئك، أو موضع نجاة.

﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل اشتمال من «مفازاً» على الأول، وبدل البعض على الثاني، والرابطُ مقدَّرٌ، وتقديره: حدائق فيه، أو هي في محلِّه، أو نحو ذلك. وجوِّز أن يكون بدل كلٍّ على الادِّعاء، أو منصوباً بأعني مقدَّراً.

وهو جمع: حديقة، وهي بستان فيها أنواع الشجر المثمر، زاد بعضهم: والرياحين والزهر. وقال الراغب[٢]: قطعة من الأرض ذاتُ ماء، سميت بذلك تشبيهاً بحَدَقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها. وكأنَّه أراد: ذاتَ ماء وشجر.

﴿وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ جمع: عِنَب، ويقال للكَرْم نفسِه ولثمرته، والمتبادر عطفُه على «حدائق» قبلُ، وهو بعضٌ منها إذا أُريد به الكروم وبها الأشجار وموضعُها، وخُصَّ بالذكر اعتناءً به، وأمَّا إنْ أريد به الكروم وبها الموضعُ فقط فلا، ويتعيَّن الاشتمالُ، كما إذا أُريد به ثمرات الكروم، وجُوِّز أن يكون هو ـ وكذا ما بعدُ ـ عطفاً على «مفازاً».

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع: كاعب، وهي المرأة التي تكعَّب ثدياها واستدارا مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سنِّ البلوغ وأحسن الشبوبية[٣] ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: لِدَات

---

(١) في الأصل و(م): أعمل. والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ٩٢ والكلام منه.
(٢) في المفردات (حدق).
(٣) في الأصل و(م): التسوية، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٩.

ينشأن معاً، تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهنَّ معاً على التراب، أي: الأرض. وفي بعض التفاسير: نساءُ الجنة كلُّهن بنات ستَّ عشرة سنة، ورجالُهنَّ أبناءُ ثلاث وثلاثين.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: مترعة، يقال: دَهَقَ فلانٌ الحوضَ وأَدْهَقه، أي: ملأه، وروي عن ابن عباس أنَّه فسَّره بذلك، وأنشد قول الشاعر:

أتانا عامرٌ يبغي قِرانا فأتْرَعْنا له كأساً دِهاقا[1]

وفي «البحر»[2]: الدِّهاق: الملأى، مأخوذٌ من الدَّهْق، وهو ضغطُ الشيء وشدُّه باليد، كأنَّه لامتلائه انضغط. وعن مجاهد وجماعة تفسيرُه بالمتابعة.

وصحَّح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غيرُ واحد أنَّه قال: هي الممتلئة المترعة المتابعة، وربَّما سمعت العباس يقول: يا غلام اسقنا وأدْهِق لنا[3].

وأخرج ابن جرير[4] عن عكرمة أنَّه قال: أي: صافية. ولا يخلو عن كَدَر. والجمهور على الأول.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، وقيل: في الكأس. وجُعلت الفاء للسببية.

﴿لَغْوًا﴾ هو ما لا يعتدُّ به من الكلام، وهو على ما قال الراغب[5]: الذي يُورَد لا عن رَوِيَّة وفِكْر، فيجري مجرى اللَّغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير، وقد يسمَّى كلُّ كلام قبيح لغواً، وكذا ما لا يعتدُّ به مطلقاً.

﴿وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: تكذيباً. وقرئ بالتخفيف[6]، أي: كِذَاباً أو مكاذبةً.

وقد تضمَّنت هذه المذكوراتُ أنواعاً من اللذات الحسيَّة كما لا يخفى.

---

(١) هو لخداش بن زهير كما في الصحاح واللسان (دهق). وجاء فيهما: يرجو، بدل: يبغي.

(٢) ٨/ ٤٠٩.

(٣) مستدرك الحاكم ٢/ ٥١٢، وليس فيه: المترعة.

(٤) في تفسيره ٢٤/ ٤١.

(٥) في المفردات (لغا).

(٦) هي قراءة الكسائي كما في التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ منصوب، بمعنى: إنَّ للمتقين مفازاً، فإنَّه في قوَّة أن يُقال: جازى المتقين بمفاز[١] جزاءً كائناً من ربِّك.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية للإشارة إلى أنَّ ذلك حصل بتربيته[٢] وإرشاده تعالى، وإضافةُ الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه ﷺ. وقيل: لم يقل: من ربِّهم؛ لئلَّا يحمله المشركون على أصنامهم. وهو بعيدٌ جدًّا.

ويُعلم مما ذكرنا وجه ترك «من ربِّك» فيما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾. وعدمُ التعرُّض هناك لنسبة الجزاء إليه تعالى بعنوان آخر قيل: من باب: اللهمَّ إنَّ الخيرَ بيديك والشرَّ ليس إليك.

وقوله تعالى: ﴿عَطَآءً﴾ - أي: تفضُّلاً وإحساناً منه عزَّ وجل، إذ لا يجب عليه سبحانه شيءٌ - بدلٌ من «جزاء»، فمعنى كونه جزاءً أنَّه كذلك بمقتضى وعده جلَّ وعلا، وجوَّز أن يكون نصباً بـ «جزاء» نصبَ المفعول به. وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأنَّ «جزاء» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، والمصدر المؤكِّد لا يعمل بلا خلاف نعلمه عند النحاة؛ لأنَّه لا ينحلُّ لفعل وحرف مصدريٍّ.

وردَّ بأنَّ ذلك إذا كان الناصب للمفعول المطلق مذكوراً، أمَّا إذا حُذف مطلقاً ففيه خلاف: هل هو العامل أو الفعل؟.

وقال الشهاب[٤]: الحقُّ ما قال أبو حيان؛ لأنَّ المذكور هنا هو المصدر المؤكِّدُ لنفسه أو لغيره، والذي اختلف فيه النحاة هو المصدر الآتي بدلاً من اللَّفظ بفعله، كـ:

نَدْلاً زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثعالبِ[٥]

---

(١) في الأصل و(م): بمفازاً، والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ٩٢.
(٢) في (م): بترتيبه.
(٣) في البحر ٨/ ٤١٥.
(٤) في الحاشية ٨/ ٣٠٩.
(٥) عجز بيت لأعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩ وصدره:
على حينَ ألهى الناسَ جُلُّ أُمورهم
وهو دون نسبة في الكتاب ١/ ١١٦، والخصائص ١/ ١٢٠، واللسان (ندل). وزريق: قبيلة،

وقوله:

يا قابلَ التَّوبِ غُفْراناً مآثم قد أَسْلَفْتُها أنا منها خائفٌ وَجِلُ[١]

فليعرف.

وقوله تعالى: ﴿حِسَابًا ۝٣٦﴾ صفةُ «عطاء» بمعنى كافياً، على أنَّه مصدرٌ أُقيم مقام الوصف، أو بُولغ فيه، أو هو على تقدير مضاف. وهو مأخوذٌ من قولهم: أحْسَبَه الشَّيءُ، إذا كفاه حتى قال: حسبي. وقيل: على حسَب أعمالهم، أي: مقسَّطاً على قَدْرِها، وروي ذلك عن مجاهد. وكأن المراد: مقسّطاً بعد التضعيف على ذلك، فيندفع ما قيل: إنَّه غيرُ مناسب لتضعيف الحسنات، ولذا لم يقل: وفاقاً، كما في السابق. ودُفع أيضاً بأنَّ هذا بيانٌ لما هو الأصل لا للجزاء مطلقاً.

وقيل: المعنى: عطاءً مفروغاً عن حسابه لا كَنِعم الدنيا. وتعقِّب بأنَّه بعيدٌ عن اللَّفظ مع ما فيه من الإيهام.

وقرأ ابن قطيب: «حَسّاباً» بفتح الحاء وشدِّ السين[٢]، قال ابن جنِّي: بنى فعَّالاً من أفْعَلَ، كدَرَّاكٍ مِن أدْرَكَ[٣]. فمعناه: مُحْسِباً، أي: كافياً. ومنع بعضُهم مجيء فعَّالاً من الإفعال، ودرَّاك من دَرِكَ، فليحرر.

وقرأ شُريح بن يزيد الحمصي وأبو البرهسم بكسر الحاء وشدِّ السين[٤]، على أنَّه مصدر ككِذَّاب.

وقرأ ابن عباس: «حَسَناً» بالنون من الحُسن. وحكى المهدويُّ «حَسْبَاً» بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحَّدة[٥]، نحو قولك: حسبُك كذا، أي: كافيك.

= وندل الثعالب: سرعة الثعالب. وهو يصف قوماً لصُوصاً ـ أو تجّاراً ـ يأتون وقت انشغال الناس بالفتن والحروب فيسرقون.

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٩.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٤٩، والبحر ٨/ ٤١٥.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٤٩.

(٤) البحر ٨/ ٤١٥، وفي القراءات الشاذة ص١٦٨: «عِطا حِسَّاناً» قراءة أبي البرهسم.

(٥) البحر ٨/ ٤١٥، وقال في القراءات الشاذة ص١٦٨ عن قراءة ابن عباس: وهي في مصحف عبد الله كذلك.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدلٌ من لفظ «ربِّك»، وفي إبداله تعظيمٌ لا يخفى، وإيماءٌ ـ على ما قيل ـ إلى ما رُوي في كتب الصوفية من الحديث القدسيِّ: «لولاك لما خلقت الأفلاك»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفةٌ لـ «ربِّك»، أو لـ «ربِّ السماوات»، على الأصحِّ عند المحقِّقين من جواز وصف المضاف إلى ذي اللَّام بالمعرَّف بها، وجُوِّز أن يكون عطفَ بيان، وهل يكون بدلاً من لفظ «ربك»؟ قال في «البحر»(٢): فيه نظر؛ لأنَّ الظاهر أنَّ البدل لا يتكرَّر.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة، واستقلالِه تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحدٍ قدرةٌ عليه.

والقراءةُ كذلك مرويةٌ عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم(٣).

وقرأ الأعرجُ وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحِرْميَّان برفع الاسمين(٤)، فقيل: على أنَّهما خبران لمبتدأ مضمَرٍ، أي: هو ربُّ السماوات.. إلخ. وقيل: الأول هو الخبر، والثاني صفةٌ له أو عطف بيان. وقيل: الأول مبتدأ والثاني خبره، و«لا يملكون منه» خبرٌ آخرُ، أو هو الخبر والثاني نعتٌ للأول أو عطف بيان. وقيل: «لا يملكون» حالٌ لازمة. وقيل: الأول مبتدأ أول والثاني مبتدأ ثانٍ، و«لا يملكون» خبرُه، والجملةُ خبرٌ للأول، وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأي مَنْ يقول به. واختير أن يكون كلاهما مرفوعاً على المدح، أو يكون الثاني صفةً للأول، و«لا يملكون» استئنافاً على حاله؛ لما في ذلك من توافق القراءتين معنًى.

---

(١) حديث موضوع، وسلف ١/ ٢١٢.

(٢) ٨/ ٤١٥.

(٣) التيسير ص٢١٩ والنشر ٢/ ٣٩٧ عن ابن عامر وعاصم ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥.

(٤) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن الحرميين وأبي عمرو وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥، والحرميان هما: نافع، وابن كثير.

وقرأ الأخوان والحسن وابن وثّاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما بجرِّ الأول ـ على ما سمعتَ ـ ورفعِ الثاني[1] على الابتداء والخبرُ ما بعده، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأ مضمَر وما بعده استئنافٌ، أو خبرٌ ثانٍ.

وضميرُ: «لا يملكون» لأهل السماوات والأرض، و«منه» بيانٌ لـ «خطاباً» مقدَّمٌ عليه، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم ـ كما ينبئ عنه لفظ المِلْك ـ خطاباً مّا في شيءٍ مّا، والمرادُ نفيُ قدرتهم على أن يخاطبوه عزَّ وجلَّ بشيءٍ من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه تعالى على أبلغ وجهٍ وآكده.

وجوِّز أن يكون «منه» صلةَ «يملكون»، و«من» ابتدائية، والمعنى: لا يملكون من الله تعالى خطاباً واحداً، أي: لا يملِّكُهم اللهُ تعالى ذلك، فلا يكون في أيديهم خطابٌ يتصرَّفون فيه تصرُّف المُلّاك فيزيدون في الثواب أو ينقصون من العقاب، وهذا كما تقول: مَلَكت منه درهماً. وهو أقلُّ تكلُّفاً وأظهرُ من جعل «منه» حالاً من «خطاباً» مقدَّماً، وإضمارِ مضافٍ، أي: خطاباً من خطاب الله تعالى، فيكون المعنى: لا يملكون خطاباً واحداً من جملة ما يخاطب به اللهُ تعالى ويأمر به في أمر الثوابِ والعقاب.

وظاهرُ كلام البيضاويِّ[2] حملُ الخطاب على خطاب الاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب، و«منه» على ما سمعتَ منَّا أولاً، أي: لا يملكون خطابه تعالى والاعتراضَ عليه سبحانه في ثواب أو عقاب؛ لأنَّهم مملوكون له عز وجل على الإطلاق، فلا يستحقُّون عليه سبحانه اعتراضاً أصلاً.

وأيًّاما كان فالآيةُ لا تصلح دليلاً على نفي الشفاعة بإذنه عز وجل. وعن عطاء عن ابن عباس أنَّ ضمير «لا يملكون» للمشركين. وعدمُ الصلاحية عليه أظهرُ.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ﴾ قيل: «الروح» خلقٌ أعظم من الملائكة وأشرف منهم، وأقرب من ربِّ العالمين.

---

(١) التيسير ص٢١٩ والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥، والأخوان هما: حمزة والكسائي.

(٢) في تفسيره ٨/ ٣١٠ (مع حاشية الشهاب).

وقيل: هو مَلَكٌ، ما خلق الله عز وجل بعدَ العرش خلقاً أعظمَ منه، عن ابن عباس أنَّه إذا كان يوم القيامة قام هو وحدَه صفًّا، والملائكةُ صفًّا. وعن الضحاك أنَّه لو فتح فاه لوسع جميعَ الملائكة عليهم السلام.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «الروحُ جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكةً، لهم رؤوسٌ وأيدٍ وأرجلٌ» - وفي رواية: «يأكلون الطعام» - ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، وقال: هؤلاء جندٌ وهؤلاء جندٌ[1]. وروي القولُ بهذا عن مجاهد وأبي صالح.

وقيل: هم أشراف الملائكة. وقيل: هم حَفَظةُ الملائكة.

وقيل: مَلَكٌ موكَّلٌ على الأرواح. قال في «الإحياء»[2]: المَلَك الذي يقال له: الروح، هو الذي يولج الأرواحَ في الأجسام، فإنَّه يتنفَّس فيكون في كلِّ نَفَس من أنفاسه روحٌ في جسم، وهو حقٌّ يشاهدُه أرباب القلوب ببصائرهم.

وأخرج أبو الشيخ[3] عن الضحاك أنَّه جبريل عليه السلام. وهو قولٌ لابن عباس، فقد أخرج هو عنه أيضاً[4] أنَّه قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام يوم القيامة لقائمٌ بين يدي الجبار ترعدُ فرائصُه فَرَقاً من عذاب الله تعالى، يقول: سبحانك، لا إله إلَّا أنت، ما عبدناكَ حقَّ عبادتك. وإنَّ ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب، أما سمعتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

وفي رواية البيهقي في «الأسماء والصفات»[5] عنه أنَّ المراد به أرواحُ الناس وأنَّ قيامَها مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردَّ إلى الأجساد. وهو خلافُ الظاهر في الآية جدًّا، ولعلَّه لا يصحُّ عن الحَبْر.

---

(١) العظمة (٤١٢)، وعزاه لهم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٩.

(٢) ٤/ ٢٥٧.

(٣) في العظمة (٤١٦).

(٤) العظمة (٣٦٥).

(٥) برقم (٧٨٤)، وإسناده مسلسل بالضعفاء، كما ذكر ذلك الشيخ أحمد شاكر في حديثه على هذا الإسناد في تعليقه على تفسير الطبري ١/ ٢٦٣ (طبعة المعارف).

وقيل: القرآن، وقيامُه مجازٌ عن ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه. وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع ما لا يخفى. ولم يصحَّ عندي فيه هنا شيءٌ.

و«يوم» ظرف لـ «لا يملكون»، و«صفاً» حالٌ، أي: مصطفِّين. قيل: هما صفَّان؛ الروحُ صفٌّ واحد أو متعدِّدٌ، والملائكة صفٌّ آخرُ، وقيل: صفوفٌ. وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقيل: «يوم يقوم الروحُ والملائكة» الكلُّ صفًّا واحداً.

وجوِّز أن يكون «يوم»(١) ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ بدلٌ من ضمير «لا يتكلمون»، وهو عائدٌ إلى أهل السماوات والأرض الذين من جملتهم الروحُ والملائكة.

وذكرُ قيامهم مصطفِّين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عزَّ وجل، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدارُ الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها.

والجملةُ استئناف مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: «لا يملكون» إلخ ومؤكِّدٌ له، على معنى: إنَّ أهل السماوات والأرض إذا لم يقدروا حينئذٍ أن يتكلَّموا بشيءٍ من جنس الكلام ـ إلا مَنْ أذن الله تعالى له منهم في التكلُّم ـ مطلقاً، وقال ذلك المأذونُ له بعد الإذن في مطلَق التكلُّم قولاً صواباً ـ أي: حقًّا ـ من الشفاعة لمن ارتضى، فكيف يملكون خطابَ ربِّ العزَّة جلَّ جلاله مع كونه أخصَّ من مطلق الكلام وأعزَّ منه مراماً؟

وجوِّز أن يكون ضمير «لا يتكلمون» إلى الروح والملائكة، والكلامُ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: «لا يملكون» إلخ أيضاً، لكن على معنى: إنَّ الروح والملائكة مع كونهم أفضلَ الخلائق وأقرَبهم من الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلَّموا بما هو صوابٌ من الشفاعة لمن ارتضى إلَّا بإذنه، فكيف يملكه غيرُهم؟

وذكره بعض أهل السنّة، فتعقِّب بأنَّه مبنيٌّ على مذهب الاعتزال من كون الملائكة عليهم السلام أفضلَ من البشر مطلقاً، وأنت تعلم أنَّ من أهل السنة أيضاً

---

(١) لفظة: يوم، ليست في (م).

من ذهب إلى هذا كأبي عبد الله الحليمي[(١)]، والقاضي أبي بكر الباقلانيِّ، والإمام الرازيِّ[(٢)]، ونُسب إلى القاضي البيضاويِّ[(٣)]، وكلامُه في التفسير هنا لا يخلو عن إغلاقٍ، وتصدَّى من تصدَّى لتوجيهه وأطالوا في ذلك.

على أنَّ الخلاف في أفضليَّتهم بمعنى كثرة الثواب وما يترتَّب عليها من كونهم أكرمَ على الله تعالى وأحبَّهم إليه سبحانه، لا بمعنى قرب المنزلة ودخول حظائر القُدس ورفع ستارة الملكوت بالاطِّلاع على ما غاب عنَّا، والمناسبة في النزاهة وقلَّة الوسائط ونحو ذلك، فإنَّهم بهذا الاعتبار أفضلُ بلا خلاف، وكلامُ ذلك البعض يحتمل أن يكونَ مبنيًّا عليه، وهذا كما نشاهده من حال خدَّام الملك وخاصَّة حَرَمِه فإنَّهم أقربُ إليه من وزرائه والخارجين من أقربائه، وليسوا عنده بمرتبةٍ واحدة، وإنْ زادوا في التبسُّط والدَّلال عليه.

وعن ابن عباس أنَّ ضمير «لا يتكلمون» للناس.

وجوِّز أن يكون «إلا من أذن» إلخ منصوباً على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يتكلَّمون إلا في حقِّ شخصٍ أذن له الرحمن، وقال ذلك الشخص في الدنيا صواباً، أي: حقًّا، هو التوحيد وقولُ: لا إله إلَّا الله، كما روي عن ابن عباس وعكرمة، وعليه قيل: يجوز أن يكون «قال صوابا» في موضع الحال من «مَن» بتقدير «قد» أو بدونه، لا عطفاً على «أذن». ومن الناس من جوَّز الحالية على الوجه الأول أيضاً، لكن من ضمير «يتكلمون» باعتبار كلٍّ واحدٍ أو باعتبار المجموع، وظن أنَّ قول بعضهم: المعنى: لا يتكلَّمون بالصواب إلَّا بإذنه، لا يتمُّ بدون ذلك. وفيه ما فيه.

وقيل: جملة «لا يتكلمون» حالٌ من «الروح والملائكة» أو من ضميرهم في «صفًّا». والجمهور على ما تقدَّم.

---

(١) ينظر المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٠٩-٣١١.
(٢) ينظر تفسير الرازي ١/ ٢١٥-٢٣٥.
(٣) ينظر تفسيره ٨/ ٣١٠-٣١١ (مع حاشية الشهاب).

وإظهارُ «الرحمن» في موقع الإضمار للإيذان بأنَّ مناط الإذن هو الرحمةُ البالغة لا أنَّ أحداً يستحقُّه عليه سبحانه وتعالى، كما أنَّ ذكرَه فيما تقدَّم للإشارة إلى أنَّ الرحمة مناط تربيته عز وجل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوِّ درجته وبعد منزلته في الهَوْل والفخامة. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ الموصوف بقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أو هو الخبر و«اليوم» بدل أو عطف بيان، والمراد بالحقِّ الثابتُ المتحقِّقُ، أي: ذلك اليوم الثابتُ الكائن لا محالةَ، والجملة مؤكِّدةٌ لما قبلُ، ولذا لم تعطف.

والفاء في قوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ فصيحةٌ، تفصح عن شرطٍ محذوف، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ دلَّ عليه الجزاء، و«إلى ربه» متعلِّقٌ بـ «مآباً»، قدِّم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل، كأنَّه قيل: وإذا كان الأمر كما ذُكر من تحقُّق الأمر المذكور لا محالةَ، فمن شاء أن يتَّخذ مرجعاً إلى ثواب ربِّه الذي ذكر شأنُه العظيم فَعَلَ ذلك بالإيمان والطاعة.

وقال قتادة فيما رواه عنه عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر(١): «مآباً» أي: سبيلاً. وتعلّق الجارّ به لِمَا فيه من معنى الإفضاء والإيصال، والأول أظهرُ.

وتقديرُ المضاف ـ أعني: الثواب ـ قيل: لاستحالة الرجوع إلى ذاته عز وجل. وقيل: لأنَّ رجوع كلِّ أحدٍ إلى ربِّه سبحانه ليس بمشيئته، إذ لا بدَّ منه، شاء أم لا، والمعلَّق بالمشيئة الرجوعُ إلى ثوابه تعالى، فإنَّ العبد مختار في الإيمان والطاعة ولا ثواب بدونهما. وقيل: لتقدُّم قوله تعالى: (لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا) فإنَّ لهم مرجعاً تعالى أيضاً لكن للعقاب لا للثواب. ولكلٍّ وجهةٌ.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أي: بما ذُكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث بما فيه وما بعده من الدواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن العظيم ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة، وقربُه لتحقُّق إتيانه، فقد قيل: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو

---

(١) عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤٤، وعزاه لهم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

آت. أو لأنه قريبٌ بالنسبة إليه عزَّ وجل، أو يقال: البرزخُ داخلٌ في الآخرة، ومبدؤه الموت، وهو قريب حقيقةً كما لا يخفى على مَن عَرَف القرب والبعد.

وعن قتادة: هو عقوبة الذنب؛ لأنَّه أقربُ العذابين.

وعن مقاتل: هو قتل قريش يومَ بدر. وتعقّب بأنَّه يأباه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فإنَّ الظاهر أنَّه ظرفٌ لمضمر هو صفة «عذاباً» أي: عذاباً كائناً يوم.. إلخ، وليس ذلك اليوم إلَّا يومَ القيامة، وكذا على ما قيل من أنَّه بدلٌ من «عذاباً»، أو ظرف لـ «قريباً»، وعلى هذا الأخير قيل: لا حاجةَ إلى توجيه القرب؛ لأنَّ العذاب في ذلك اليوم قريبٌ لا فاصلَ بينه وبين المرء. ونُظر فيه بأنَّ الظاهر جعل المنذَر به قريباً في وقت الإنذار؛ لأنه المناسبُ للتهديد والوعيد، إذ لا فائدة في ذكر قربه منهم يومَ القيامة، فإذا تعلَّق به فالمرادُ بيانُ قرب اليوم نفسه، فتأمَّل.

والظاهر أنَّ «المرء» عامٌّ للمؤمن والكافر. و«ما» موصولة منصوبة بـ «ينظر»، والعائدُ محذوف، والمراد: يوم يشاهد المكلَّف المؤمن والكافر ما قدَّمه من خير أو شرٍّ. وجوِّز أن تكون «ما» استفهاميةً منصوبة بـ «قدَّمت» أي: ينظر أيَّ شيءٍ قدَّمت يداه. والجملة معلَّق عنها؛ لأنَّ النظر طريق العلم، والكلامُ في قوَّة: ينظر جوابَ ما قدَّمت يداه. وفي الكلام - على ما ذكره العلَّامة التفتازاني - تغليبُ ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه، حيثُ ذكر اليدان لأنَّ أكثر الأعمال تزاول بهما، فجعل الجميع كالواقع بهما تغليباً.

وقرأ ابن أبي إسحاق «المُرءُ» بضمِّ الميم[1]، وضعَّفها أبو حاتم، ولا ينبغي أن تضعَّف؛ لأنَّها لغةُ بعض العرب يتبعون [الميم][2] حركةَ الهمزة فيقولون: مُرْءٌ، ومَرْأً، ومِرْءٍ على حسب الإعراب.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ تخصيصٌ لأحد الفريقين اللَّذين تناولهما «المرء» فيما قبل منه بالذكر، وخُصَّ قول الكافر دون المؤمن؛ لدلالة قوله

(١) البحر ٨/ ٤١٦.
(٢) زيادة من البحر ٨/ ٤١٦ يقتضيها السياق.

على غاية الخيبة ونهاية التحسُّر، ودلالةُ حذف قول المؤمن على غاية التبجُّح ونهاية الفرح والسرور.

وقال عطاء: «المرء» هنا الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ وكان الظاهر عليه الضمير فيما بعد[١]، إلَّا أنَّه وضع الظاهر موضعه؛ لزيادة الذمِّ. وفيه: أنَّ تناول الفريقين هو المطابق لِمَا سبق من وصف يوم الفصل لما اشتمل على حالهما، وهو الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، و«إنا أنذرناكم» لا يخصُّ الكافر؛ لأنَّ الإنذار عامٌّ للفريقين أيضاً، فلا دلالة له[٢] على الاختصاص.

وقال ابن عباس وقتادة والحسن: المراد به المؤمن. قال الإمام[٣]: دلَّ عليه قول الكافر، فلمَّا كان هذا بياناً لحال الكافر وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن. ولا يخفى ما فيه من الضعف كاستدلال الرياشيِّ بالآية على أنَّ المرء لا يطلق إلَّا على المؤمن.

وأراد الكافر بقوله هذا: ليتني كنت تراباً في الدنيا، فلم أُخلق ولم أكلَّف، أو: ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أُبعث. وعن ابن عمر وأبي هريرة ومجاهد أنَّ الله تعالى يُحْضِرُ[٤] البهائمَ فيقتصُّ لبعضها من بعض، ثم يقول سبحانه لها: كوني تراباً فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكافرُ ذلك تمنَّى مثلَه. وإلى حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ذهب الجمهور، وسيأتي الكلامُ في ذلك في سورة «التكوير» إن شاء الله تعالى.

وقيل: الكافر في الآية إبليس ـ عليه اللَّعنة ـ لَمَّا شاهد آدمَ عليه الصلاة والسلام ونَسْلَه المؤمنين وما لهم من الثواب تمنَّى أن يكون تراباً؛ لأنَّه احتقره لَمَّا قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وهو بعيدٌ عن السياق، وإن كان حسناً.

---

(١) أي: عود ضمير لـ«المرء» من غير تصريح به. حاشية الشهاب ٨/ ٣١١.

(٢) لفظ: له، ليس في (م).

(٣) في تفسيره ٣١/ ٢٦.

(٤) في هامش الأصل: يحشر، نسخة.

والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف، والكلامُ على ظاهره وحقيقته. وجوّز ـ لاسيما على الأخير ـ أن يكون المراد: يقول: ليتني كنت في الدنيا متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جبَّاراً ولا متكبِّراً عليه[١]. والمعوَّل عليه ما تقدَّم كما لا يخفى.

(١) لفظ: عليه، ليست في (م).

(٧٩) سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون

● **سورة** النازعات مكية ، شأنها كشأن سائر السور المكية ، التي تُعنى بأصول العقيدة « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحورُ السورة يدور حول القيامة وأحوالها ، والساعة وأهوالها ، وعن مآل المتقين ، ومآل المجرمين .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار ، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطفٍ ولين ، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة ، ، تدبّر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿ والنازعاتِ غرقاً . والناشطاتِ نشطاً . والسابحاتِ سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً . يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ .

● **ثم تحدثت** عن المشركين ، المنكرين للبعث والنشور ، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذاً كرَّةٌ خاسرة . فإنما هي زجرةٌ واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾

● **ثم تناولت** السورة قصة فرعون الطاغية ، الذي ادعى الربوبية وتمادي في الجبروت والطغيان ، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿ هل أتاك حديث موسى ؟ إذ ناداه ربُّه بالواد المقدَّس طُوى . إذْهَبْ إلى فرعونَ إنَّهُ طَغَى . فقل هلْ لَكَ إلى أن تزكى .. ﴾ الآيات .

● **وتحدثت** السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ ، وذكَّرتهم بأنهم اضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها ؟ رفع سمكها فسوَّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ .. الآيات

● **وختمت** السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها .﴾

سورة النازعات

[٩٩٩] أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال لما نزل قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾[1] قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن فنزل: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾[2].

[١٠٠٠] ك.. أخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت كان رسول الله [ﷺ] يسئل عن الساعة حتى أنزل عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾[3] فانتهى.

[١٠٠١] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي أهل مكة سألوا النبي [ﷺ] فقالوا متى تقوم الساعة استهزاءً منهم فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[4] إلى آخر السورة.

[١٠٠٢] ك.. وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله [ﷺ] يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾[5] وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن عروة.

* * *

---

[٩٩٩] (١) سورة النازعات: الآية (١٠).
(٢) سورة النازعات: الآية (١٢).
[١٠٠٠] (٣) سورة النازعات: الآية (٤٢و٤٤).
[١٠٠١] (٤) سورة النازعات: الآية (٤٢).
[١٠٠٢] (٥) سورة النازعات: الآية (٤٣و٤٤).

سورة النازعات

وهي اربعون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الكلمات الخمس يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد، ويحتمل أن لا تكون كذلك: أما على الاحتمال الأول فقد ذكروا في الآية وجوهًا: **أحدها**: أنها بأسرها صفات الملائكة، فقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هم الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفس الكفار نزعوها بشدة، وهو مأخوذ من قولهم نزع في القوس فأغرق، يقال: أغرق النازع في القوس، إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل، فتقدير الآية: والنازعات إغراقًا، والغرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد، وقوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ النشط هو الجذب، يقال: نشطت الدلو أنشطها وأنشطتها نشطًا، نزعتها برفق، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق، فالنزع جذب بشدة، والنشط جذب برفق ولين، فالملائكة، تنشط أرواح المؤمنين كما تنشط الدلو من البئر، فالحاصل أن قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قَسَمٌ بملك الموت وأعوانه إلا أن الأول إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفار، والثاني إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين. **أما قوله**: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فمنهم من خصصه أيضًا بملائكة قبض الأرواح، ومنهم من حمله على سائر طوائف الملائكة، أما الوجه الأول: فنقل عن علي عليه السلام، وابن عباس ومسروق، أن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلاً رفيقًا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة كالذي يسبح في الماء، فإنه يتحرك برفق ولطافة لئلا يغرق، فكذا ههنا يرفقون في ذلك الاستخراج؛ لئلا يصل إليه ألم وشدة فذاك هو المراد من قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ وأما الذين حملوه على سائر طوائف الملائكة فقالوا: إن الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، فجُعل نزولهم من السماء كالسباحة، والعرب تقول للفرس الجواد، إنه السابح. **وأما قوله**: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ فمنهم من فسره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح، الكفار إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، ومنهم من فسره

بسائر طوائف الملائكة، ثم ذكروا في هذا السبق وجوهًا: **أحدها**: قال مجاهد وأبو روق: إن الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة، ولا شك أن المسابقة في الخيرات درجة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] **وثانيها**: قال الفراء والزجاج: إن الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء لأن الشياطين كانت تسترق السمع. **وثالثها**: ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] يعني قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال الله تعالى وخوفًا من هيبته، وههنا وصفهم بالسبق، يعني إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾. **وأما قوله**: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنهم هم الملائكة، قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل، وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، يدبرون أمر الله تعالى في أهل الأرض، وهم المقسمات أمرًا، أما جبريل فوُكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فوُكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فوُكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، وقوم منهم موكلون بحفظ بني آدم، وقوم آخرون بكتابة أعمالهم، وقوم آخرون بالخسف والمسخ والرياح والسحاب والأمطار. **بقي على الآية سؤالان**:

السؤال الأول: لمَ قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ولم يقل: (أمورًا) فإنهم يدبرون أمورًا كثيرة لا أمرًا واحدًا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع.

السؤال الثاني: قال تعالى: إن الأمر كله لله فكيف أثبت لهم ههنا تدبير الأمر؟ والجواب: لما كان ذلك الإتيان به كان الأمر كأنه له، فهذا تلخيص ما قاله المفسرون في هذا الباب، وعندي فيه وجه آخر: وهو أن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية، أما الصفات السلبية فهي أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة، والموت والهرم والسقم والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان، بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال، فقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعًا كليًّا من جميع الوجوه، وعلى هذا التفسير: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ هي ذوات النزع كاللابن والتامر، وأما قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكليف والمشقة كما في حق البشر، بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزهوا عن هذه الصفات، فهاتان الكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية، وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان: **أحدهما**: شرح قوتهم العاقلة، أي كيف حالهم في معرفة مُلْك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله فوصفهم في هذا المقام بوصفين: **أحدهما**: قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلال الله ثم لا منتهى لسباحتهم؛ لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه، فهم أبدًا في تلك السباحة وثانيهما: قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ وهو إشارة إلى مراتب الملائكة في تلك السباحة، فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة، ومراتب

معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة، فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة، وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية، لا بالعوارض فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا بالعوارض كانت لا محالة متفاوتة في درجات المعرفة وفي مراتب التجلي، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فهاتان الكلمتان المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة.

وأما قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ فهو إشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة، وذلك لأن كل حال من أحوال العالم السفلي مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوي وسكان بقاع السموات، ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم، لا جرم قَدَّم شرح القوة العاقلة التي لهم على شرح القوة العاملة التي لهم، فهذا الذي ذكرته احتمال ظاهر والله أعلم بمراده من كلامه.

واعلم أن أبا مسلم بن بحر الأصفهاني طعن في حمل هذه الكلمات على الملائكة، وقال: واحد النازعات نازعة وهو من لفظ الإناث، وقد نزه الله تعالى الملائكة عن التأنيث، وعاب قول الكفار حيث قال: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: ١٩].

واعلم أن هذا طعن لا يتوجه على تفسيرنا؛ لأن المراد الأشياء ذوات النزع، وهذا القدر لا يقتضي ما ذُكر من التأنيث.

الوجه الثاني في تأويل هذه الكلمات: أنها هي النجوم، وهو قول الحسن البصري، ووَصْف النجوم بالنازعات يحتمل وجوهًا: **أحدها:** كأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض، فإذا كانت منزوعة كانت ذوات نزع، فيصح أن يقال: إنها نازعة، على قياس اللابن والتامر. **وثانيها:** أن النازعات من قولهم: (نزع إليه) أي ذهب، نزوعًا، هكذا قاله الواحدي، فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسَّوق. **والثالث:** أن يكون ذلك من قولهم: نزعت الخيل، إذا جرت، فمعنى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ أي والجاريات على السير المقدر والحد المعين. وقوله: ﴿غَرۡقٗا﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما:** أن يكون حالاً من النازعات، أي هذه الكواكب كالغرقى في ذلك النزع والإرادة وهو إشارة إلى كمال حالها في تلك الإرادة، فإن قيل: إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة، فما معنى وصفها بذلك؟ قلنا: هذا يكون على سبيل التشبيه، كقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فإن الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء، ثم إنه ذكَّر في الكواكب على سبيل التشبيه. **والثاني:** أن يكون معنى غرقها غيبوبتها في أفق الغرب، فالنازعات إشارة إلى طلوعها وغرقًا إشارة إلى غروبها أي تنزع، ثم تغرق إغراقًا، وهذا الوجه ذكره قوم من المفسرين.

أما قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ فقال صاحب (الكشاف): معناه أنها تخرج من برج إلى برج، من قولك: (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد. وأقول: يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ إشارة إلى حركتها اليومية ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج وهو حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة، والعجب أن حركاتها اليومية قسرية، وحركتها من برج إلى برج ليست قسرية، بل ملائمة لذواتها، فلا جرم عَبَّر عن الأول بالنزع وعن الثاني بالنشط، فتأمل أيها المسكين في هذه الأسرار.

وأما قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله: هي النجوم تسبح في الفلك؛ لأن مرورها في الجو كالسبح؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وأما قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة: هي النجوم يسبق بعضها بعضًا في السير بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض، أو بسبب رجوعها أو استقامتها.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ ففيه وجهان: **أحدهما:** أن بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الأوقات عن بعض، فتظهر أوقات العبادات، على ما قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥] ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة، ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس في المعاش، فلا جرم أضيفت إليها هذه التدبيرات. **والثاني:** أنه لما ثبت بالدليل أن كل جسم محدث ثبت أن الكواكب محدثة مفتقرة إلى موجد يوجدها، وإلى صانع يخلقها، ثم بعد هذا لو قَدَّرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثرة في أحوال هذا العالم، فهذا يطعن في الدين ألبتة، وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضًا، لكنا نقول: إن الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سببًا لحدوث حادث مخصوص في هذا العالم، كما جعل الأكل سببًا للشبع، والشرب سببًا للري، ومماسة النار سببًا للاحتراق، فالقول بهذا المذهب لا يضر الإسلام ألبتة بوجه من الوجوه، والله أعلم بحقيقة الحال.

الوجه الثالث في تفسير هذه الكلمات الخمسة: أنها هي الأرواح، وذلك لأن نفس الميت تنزع، يقال فلان في النزع، وفلان ينزع، إذا كان في سياق الموت، والأنفس نازعات عند السياق، ومعنى ﴿غَرۡقٗا﴾ أي نزعًا شديدًا أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع في القوس، وكذلك تنشط لأن النشط معناه الخروج، ثم الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال العلوي بعد خروجها من ظلمة الأجساد -تذهب إلى عالم الملائكة، ومنازل القدس على أسرع الوجوه في رَوْح وريحان، فعبَّر عن ذهابها على هذه الحالة بالسباحة، ثم لا شك أن مراتب الأرواح في النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوي مختلفة، فكلما كانت أتم في هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القَسَم بها، ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يكون فيها ما يكون لقوتها وشرفها يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم، فهي ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أليس أن الإنسان

قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها؟ أليس أن الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون؟ أليس أن جالينوس قال: كنت مريضًا فعجزت عن علاج نفسي، فرأيت في المنام واحدًا أرشدني إلى كيفية العلاج؟ أليس أن الغزالي قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها، ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن، فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهامًا؟ ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة، وهذه المعاني وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل لها جدًّا.

الوجه الرابع في تفسير هذه الكلمات الخمس: أنها صفات خيل الغزاة فهي نازعات لأنها تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عِراب وهي ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ لأنها تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب، من قولهم: (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد، وهي سابحات لأنها تسبح في جريها، وهي سابقات لأنها تسبق إلى الغاية، وهي مدبرات لأمر الغلبة والظفر، وإسناد التدبير إليها مجاز لأنها من أسبابه.

الوجه الخامس وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله: أن هذه صفات الغزاة فالنازعات أيدي الغزاة يقال للرامي: (نزع في قوسه) ويقال: (أغرق في النزع) إذا استوفى مد القوس، والناشطات: السهام وهي خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها، وكل شيء حللته فقد نشطته، ومنه نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته، والسابحات في هذا الموضع الخيل وسَبْحها العَدْو، ويجوز أن يعني به الإبل أيضًا، والمدبرات مثل المعقبات، والمراد أنه يأتي في أدبار هذا الفعل الذي هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها - الأمرُ الذي هو النصر، ولفظ التأنيث إنما كان لأن هؤلاء جماعات، كما قيل: المدبرات، ويحتمل أن يكون المراد الآلة من القوس والأوهاق، على معنى المنزوع فيها والمنشوط بها.

الوجه السادس: أنه يمكن تفسير هذه الكلمات بالمراتب الواقعة في رجوع القلب من غير الله تعالى إلى الله ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ هي الأرواح التي تنزع إلى اعتلاق العروة الوثقى، أو المنزوعة عن محبة غير الله تعالى ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ هي أنها بعد الرجوع عن الجسمانيات تأخذ في المجاهدة، والتخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى بنشاط تام، وقوة قوية ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ ثم إنها بعد المجاهدة تسرح في أمر الملكوت فتقطع في تلك البحار فتسبح فيها ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ إشارة إلى تفاوت الأرواح في درجات سيرها إلى الله تعالى ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ إشارة إلى أن آخر مراتب البشرية متصلة بأول درجات الملكية، فلما انتهت الأرواح البشرية إلى أقصى غاياتها وهي مرتبة السبق، اتصلت بعالم الملائكة وهو المراد من قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ فالأربعة الأُول هي المراد من قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥] والخامسة هي النار في قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

واعلم أن الوجوه المنقولة عن المفسرين غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصًا، حتى لا يمكن الزيادة عليها، بل إنما ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، فإذا كان احتمال اللفظ لما ذكرناه ليس دون احتماله للوجوه التي ذكروها لم يكن ما ذكروه أَوْلى مما ذكرناه، إلا أنه لا بد ههنا من دقيقة، وهو أن اللفظ محتمل للكل، فإن وجدنا بين هذه المعاني مفهومًا واحدًا مشتركًا حملنا اللفظ على ذلك المشترك: وحينئذٍ يندرج تحته جميع هذه الوجوه. أما إذا لم يكن بين هذه المفهومات قدر مشترك تَعَذر حمل اللفظ على الكل؛ لأن اللفظ المشترك لا يجوز استعماله لإفادة مفهوميه معًا، فحينئذٍ لا نقول: (مراد الله تعالى هذا) بل نقول: يحتمل أن يكون هذا هو المراد، أما الجزم فلا سبيل إليه ههنا.

الاحتمال الثاني: وهو أن لا تكون الألفاظ الخمسة صفات لشيء واحد، بل لأشياء مختلفة، ففيه أيضًا وجوه: **الأول:** النازعات غرقًا، هي: القِسي، والناشطات نشطًا هي الأوهاق، والسابحات: السفن، والسابقات: الخيل، والمدبرات: الملائكة، رواه واصل بن السائب عن عطاء. **الثاني:** نُقل عن مجاهد في النازعات، والناشطات، والسابحات أنها الموت، وفي السابقات، والمدبرات أنها الملائكة، وإضافة النزع، والنشط، والسبح إلى الموت مجاز بمعنى أنها حصلت عند حصوله. **الثالث:** قال قتادة: الجميع هي النجوم إلا المدبرات، فإنها هي الملائكة.

المسألة الثانية: ذكر (فالسابقات) بالفاء، والتي قبلها بالواو، وفي علته وجهان: **الأول:** قال صاحب (الكشاف): إن هذه مسببة عن التي قبلها، كأنه قيل: (واللاتي سبحن، فسبقن) كما تقول: (قام فذهب) أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب، ولو قلت: (قام وذهب) لم تجعل القيام سببًا للذهاب، قال الواحدي: قول صاحب (النظم) غير مطرد في قوله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير. وأقول: يمكن الجواب عن اعتراض الواحدي رحمه الله من وجهين: **الأول:** لا يبعد أن يقال: إنها لما أُمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أُمرت بتدبيرها وإصلاحها، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، كقولك: قام زيد، فذهب، فضرب عمرًا.

الثاني: لا يبعد أن يقال: إنهم لما كانوا سابقين في أداء الطاعات متسارعين إليها ظهرت أمانتهم، فلهذا السبب فوض الله إليهم تدبير بعض العالم.

الوجه الثاني: أن الملائكة قسمان/ الرؤساء والتلامذة، والذليل عليه أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] فقلنا في التوفيق بين الآيتين: إن ملك الموت هو الرأس، والرئيس وسائر الملائكة هم التلامذة، إذا عرفت هذا فتقول: النازعات والناشطات والسابحات محمولة على التلامذة الذين هم يباشرون العمل بأنفسهم، ثم قوله: تعالى: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ . . . ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ إشارة إلى الرؤساء الذين هم السابقون، في الدرجة والشرف، وهم المدبرون لتلك الأحوال والأعمال.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: جواب القسم المتقدم محذوف أو مذكور، فيه وجهان: **الأول:**أنه محذوف، ثم على هذا الوجه في الآية احتمالات: **الأول:**قال الفراء: التقدير: لتبعثُن، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عنهم، أنهم قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]أي أنُبعث إذا صرنا عظامًا نخرة؟! **الثاني:**قال الأخفش والزجاج: لننفخنَ في الصور نفختين ودل على هذا المحذوف ذكر الراجفة والرادفة وهما النفختان. **الثالث:**قال الكسائي: الجواب المضمر هو أن القيامة واقعة، وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ١-٧]فكذلك ههنا فإن القرآن كالسورة الواحدة.

القول الثاني:أن الجواب مذكور وعلى هذا القول احتمالات: **الأول:**المقسم عليه هو قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩]والتقدير: والنازعات غرقًا أن يوم ترجف الراجفة تحصل قلوب واجفة وأبصارها خاشعة. **الثاني:**جواب القسم هو قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]فإن هل ههنا بمعنى قد، كما في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]أي قد أتاك حديث الغاشية الثالث: جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

المسألة الثانية: ذكروا في ناصب (يوم) بوجهين: **أحدهما:**أنه منصوب بالجواب المضمر والتقدير: لتبعثُن يوم ترجف الراجفة. فإن قيل: كيف يصح هذا مع أنهم لا يُبعثون عند النفخة الأولى والراجفة هي النفخة الأولى؟ قلنا: المعنى لتبعثُن في الوقت الواسع الذي يحصل فيه النفختان، ولا شك أنهم يُبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى، ويدل على ما قلناه أن قوله: ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جعل حالاً عن الراجفة. **والثاني:**أن ينصب (يوم ترجف) بما دل عليه ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب.

المسألة الثالثة: الرجفة في اللغة تحتمل وجهين: **أحدهما:**الحركة لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]. **الثاني:**الهدة المنكرة والصوت الهائل، من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفًا ورجيفًا، وذلك تردد أصواته المنكرة وهدهدته في السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١]فعلى هذا الوجه الراجفةُ صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد وأما الرادفة فكل شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفه، أي جاء بعده. وأما القلوب الواجفة فهي المضطربة الخائفة، يقال: وجف قلبه يجف وجافًا، إذا اضطرب، ومنه إيجاف الدابة، وحملها على السير الشديد، وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير الواجفة ومعناها واحد، قالوا: خائفة وجلة زائلة

عن أماكنها قلقة مستوفزة مرتكضة شديدة الاضطراب غير ساكنة، أبصار أهلها خاشعة، وهو كقوله: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

إذا عرفت هذا فنقول، اتفق جمهور المفسرين على أن هذه الأمور أحوال يوم القيامة، وزعم أبو مسلم الأصفهاني أنه ليس كذلك، ونحن نذكر تفاسير المفسرين ثم نشرح قول أبي مسلم.

أما القول الأول: - وهو المشهور بين الجمهور - أن هذه الأحوال أحوال يوم القيامة، فهؤلاء ذكروا وجوهًا: **أحدها:** أن الراجفة هي النفخة الأولى، وسميت به إما لأن الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها، وإما لأن صوت تلك النفخة هي الراجفة، كما بينا القول فيه، والرادفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء، على ما ذكره تعالى في سورة الزمر، ثم يروى عن الرسول ﷺ أن بين النفختين أربعين عامًا، ويروى في هذه الأربعين يمطر الله الأرض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف، وأن ذلك كالسبب للإحياء، وهذا مما لا حاجة إليه في الإعادة، ولله أن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. **وثانيها:** الراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي قيام الساعة، من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] أي القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها، فهي رادفة لهم لاقترابها. **وثالثها:** الراجفة: الأرض والجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] والرادفة: السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك. **ورابعها:** الراجفة هي الأرض تتحرك وتتزلزل، والرادفة زلزلة ثانية تتبع الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى.

القول الثاني: - وهو قول أبي مسلم - أن هذه الأحوال ليست أحوال يوم القيامة، وذلك لأنا نقلنا عنه أنه فسر النازعات بنزع القوس والناشطات بخروج السهم، والسابحات بعَدْو الفرس، والسابقات بسبقها، والمدبرات بالأمور التي تحصل، أدبار ذلك الرمي والعَدْو، ثم بنى على ذلك فقال: الراجفة هي خيل المشركين وكذلك الرادفة، ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول الله ﷺ فسبقت إحداهما الأخرى، والقلوب الواجفة هي القلقة، والأبصار الخاشعة هي أبصار المنافقين، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠] كأنه قيل: لما جاء خيل العدو يرجف، وردفتها أختها اضطرب قلوب المنافقين خوفًا، وخشعت أبصارهم جبنًا وضعفًا، ثم قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] أي نرجع إلى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لأجلها وقالوا أيضًا: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله ﷺ من المشركين، وأوسطه حكاية لحال المنافقين، وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر، ثم إنه سبحانه وتعالى أجاب عن كلامهم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] وهذا كلام أبي مسلم، واللفظ محتمل له وإن كان على خلاف قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ اعلم أنه تعالى لم يقل: (القلوب يومئذ

واجفة) فإنه ثبت بالدليل أن أهل الإيمان لا يخافون بل المراد منه قلوب الكفار، ومما يؤكد ذلك أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] وهذا كلام الكفار لا كلام المؤمنين، وقوله: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم.

وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ الجواب: قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها، وأبصارها خاشعة خبرها، فهو كقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١].

السؤال الثاني: كيف صحت إضافة الأبصار إلى القلوب؟ الجواب: معناه أبصار أصحابها، بدليل قوله: (يقولون) ثم اعلم أنه تعالى حكى ههنا عن منكري البعث أقوالاً ثلاثة:

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾

أولها: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ يقال: رجع فلان في حافرته، أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي أثَّر فيها بمشيه فيها، جعل أثر قدميه حفرًا فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة، كما قيل: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي منسوبة إلى الحفر والرضا والدفق، أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: (رجع إلى حافرته) أي إلى طريقته وفي الحديث: «**إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لاَ يُتْرَكُ عَلَى حَالِهِ حَتَّى يُرَدَّ عَلَى حَافِرَتِهِ**»[1] أي على أول تأسيسه وحالته الأولى. وقرأ أبو حيوة: (في الحفرة) والحفرة بمعنى المحفورة، يقال: حفرت أسنانه، فحفرت حفرًا، وهي حفرة، هذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفور، إذا عرفت هذا ظهر أن معنى الآية: أنُرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا؟!

وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ حمزة وعاصم: (ناخرة) بألف، وقرأ الباقون: (نخرة) بغير ألف، واختلفت الرواية عن الكسائي، فقيل: إنه كان لا يبالي كيف قرأها، وقيل: إنه كان يقرؤها بغير ألف، ثم رجع إلى الألف، واعلم أن أبا عبيدة اختار نخرة، وقال: نظرنا في الآثار التي فيها ذكر العظام التي قد نخرت، فوجدناها كلها العظام النخرة، ولم نسمع في شيء منها الناخرة. وأما من سواه، فقد اتفقوا على أن الناخرة لغة صحيحة، ثم اختلف هؤلاء على قولين: الأول: أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد، قال الأخفش: هما جميعًا لغتان أيهما قرأت فحسن. وقال الفراء: الناخر والنخر سواء في المعنى، بمنزلة الطامع والطمِع، والباخل والبخِل، وفي كتاب

(١) لم أجده إلا في كتب التفسير بغير إسناد.

(الخليل): نخرت الخشبة، إذا بليت فاسترخت حتى تتفتت إذا مُست، وكذلك العظم الناخر. ثم هؤلاء الذين قالوا: هما لغتان والمعنى واحد اختلفوا، فقال الزجاج والفراء: الناخرة أشبه الوجهين بالآية لأنها تشبه أواخر سائر الآي نحو الحافرة والساهرة. وقال آخرون: الناخرة والنخر كالطامع والطمع، واللابث واللِبث وفعِل أبلغ من فاعل. **القول الثاني:** أن النخرة غير والناخرة غير، أما النخرة فهو من نخر العظم ينخر فهو نخِر مثل عفن يعفن فهو عفن، وذلك إذا بلي وصار بحيث لو لمسته لتفتت، وأما الناخرة فهي العظام الفارغة التي يحصل من هبوب الريح فيها صوت كالنخير، وعلى هذا الناخرة من النخير بمعنى الصوت، كنخير النائم والمخنوق لا من النخر الذي هو البلى.

المسألة الثانية: (إذًا) منصوب بمحذوف تقدير إذا كنا عظامًا نُرد ونُبعث؟!

المسألة الثالثة: اعلم أن حاصل هذه الشبهة أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله: (أنا) هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة، فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته لوجوه: أحدها: أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولاً، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أن يقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً. **وثانيها:** أن تلك الأجزاء تصير ترابًا وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الأرض وكل المياه وكل الهواء، فتميُّز تلك الأجزاء بأعيانها عن كل هذه الأشياء محال. **وثالثها:** أن الأجزاء الترابية باردة يابسة قشفة، فتولُّد الإنسان الذي لا بد وأن يكون حارًّا رطبًا في مزاجه عنها محال.

هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ والجواب عن هذه الشبهة من وجوه: **أولها وهو الأقوى:** لا نسلِّم أن المشار إليه لكل أحد بقوله: (أنا) هو هذا الهيكل، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان: **الأول:** أن أجزاء هذا الهيكل في الزوبان والتبدل، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله (أنا) ليس في التبدل والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل. **والثاني:** أن الإنسان قد يعرف أنه هو حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة، والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به، وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله: (أنا) ليس هو هذا الهيكل، ثم ههنا ثلاثة احتمالات: أحدها: أن يكون ذلك الشيء موجودًا قائمًا بنفسه ليس بجسم ولا بجسماني، على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين. **وثانيها:** أن يكون جسمًا مخالفًا بالماهية لهذه الأجسام القابلة للانحلال والفساد سارية فيها سريان النار في الفحم وسريان الدهن في السمسم وسريان ماء الورد في جِرم الورد، فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء وبقيت حية مدركة عاقلة، إما في الشقاوة أو في السعادة. **وثالثها:** أن يقال: إنه جسم مساوٍ لهذه الأجسام في الماهية إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكوُّن شخص في الوجود إلى

آخر عمره، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان، فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله (أنا) فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء, وتبقى حية، إما في السعادة أو في الشقاوة.

وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة، وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث. وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر ألبتة، سلَّمنا علَى سبيل المسامحة أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، فلمَ قلتم: إن الإعادة ممتنعة؟

قوله أولاً: المعدوم لا يعاد. قلنا: أليس أن حال عدمه لم يمتنع عندكم صحة الحكم عليه بأنه يمتنع عوده، فلمَ لا يجوز أن لا يمتنع على قولنا أيضًا صحة الحكم عليه بالعود، **قوله ثانيا:** الأجزاء القليلة مختلطة بأجزاء العناصر الأربعة. قلنا: لكن ثبت أن خالق العالم عالم بجميع الجزئيات، وقادر على كل الممكنات، فيصح منه جمعها بأعيانها. وإعادة الحياة إليها. **قوله ثالثا:** الأجسام القشفة اليابسة لا تقبل الحياة. قلنا: نرى السمندل يعيش في النار، والنعامة تبتلع الحديدة المحماة، والحيات الكبار العظام متولدة في الثلوج، فبطل الاعتماد على الاستقراء، والله الهادي إلى الصدق والصواب.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾

النوع الثالث من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن منكري البعث: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ والمعنى كرة منسوبة إلى الخسران، كقولك تجارة رابحة، أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذًا خاسرون لتكذيبنا. وهذا منهم استهزاء.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه الكلمات قال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ متعلق بمحذوف معناه: لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة، يعني لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فإنها سهلة هينة في قدرته.

المسألة الثانية: يقال: (زجر البعير) إذا صاح عليه، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية وهي صيحة إسرافيل، قال المفسرون: يحييهم الله في بطون الأرض فيسمعونها فيقومون. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

المسألة الثالثة: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية، سُميت بذلك لوجهين: **الأول:** أن سالكها لا ينام خوفًا منها. **الثاني:** أن السراب يجري فيها، من قولهم: (عين ساهرة) جارية الماء، وعندي فيه وجه ثالث: وهي أن الأرض إنما تسمى ساهرة لأن من شدة الخوف فيها يطير النوم عن الإنسان، فتلك الأرض التي يجتمع الكفار فيها في موقف القيامة يكونون فيها في أشد

الخوف، فسميت تلك الأرض ساهرة لهذا السبب، ثم اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم: هي أرض الدنيا. وقال آخرون: هي أرض الآخرة لأنهم عند الزجرة والصيحة يُنقلون أفواجًا إلى أرض الآخرة. ولعل هذا الوجه أقرب.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين: **الأول**: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] وكان ذلك يشق على محمد ﷺ فذكر قصة موسى عليه السلام، وبيَّن أنه تحمَّل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ **الثاني**: أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعًا وأشد شوكة، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون في تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالاً.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يحتمل أن يكون معناه: أليس قد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام، أما إن لم يكن قد أتاه فقد يجوز أن يقال: هل أتاك كذا، أم أنا أخبرك به؟ فإن فيه عبرة لمن يخشى.

المسألة الثالثة: الوادي المقدس: المبارك المطهر، وفي قوله: ﴿طُوًى﴾ وجوه: **أحدها**: أنه اسم وادي بالشام وهو عند الطور الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١، ٢] وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] **والثاني**: أنه بمعنى (يا رجل) بالعبرانية، فكأنه قال: (يا رجل اذهب إلى فرعون) وهو قول ابن عباس. **والثالث**: أن يكون قوله: ﴿طُوًى﴾ أي ناداه ﴿طُوًى﴾ من الليلة ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ لأنك تقول: جئتك بعد طوى، أي بعد ساعة من الليل. **والرابع**: أن يكون المعنى: بالوادي المقدس الذي طوى، أي بورك فيه مرتين.

المسألة الرابعة: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (طُوَى) بضم الطاء غير منون، وقرأ الباقون بضم الطاء منونًا، وروي عن أبي عمرو: (طِوى) بكسر الطاء، و(طَوَى) مثل ثنى، وهما اسمان للشيء المثنى، والطي بمعنى الثني، أي ثنيت في البركة والتقديس، قال الفراء: (طُوًى) وادٍ بين المدينة ومصر، فمن صرفه قال: هو ذكَر سمينا به ذكَرًا، ومن لم يصرفه جعله معدولاً عن جهته كعمر وزفر. ثم قال: والصرف أحب إليَّ إذ لم أجد في المعدول نظيرًا، أي لم أجد اسمًا من الواو والياء عُدل عن فاعلة إلى فُعَل غير ﴿طُوًى﴾.

المسألة الخامسة: تقدير الآية: إذ ناداه ربه وقال: اذهب إلى فرعون. وفي قراءة عبد الله:

(أن اذهب) لأن في النداء معنى القول. وأما أن ذلك النداء كان بإسماع الكلام القديم، أو بإسماع الحرف والصوت، وإن كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى أنه كلام الله؟ فكل ذلك قد تقدم في سورة طه.

المسألة السادسة: أن سائر الآيات تدل على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة، كقوله في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ١١-٢٤] فدل ذلك على أن قوله ههنا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ من جملة ما ناداه به ربه، لا أنه كل ما ناداه به، وأيضًا ليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى فرعون فقط، بل إلى كل من كان في ذلك الطرف، إلا أنه خصه بالذكر لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم.

المسألة السابعة: الطغيان مجاوزة الحد، ثم إنه تعالى لم يبين أنه تعدى في أي شيء، فلهذا قال بعض المفسرين: معناه أنه تكبر على الله وكفر به. وقال آخرون: إنه طغى على بني إسرائيل. والأَوْلى عندي الجمع بين الأمرين، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق.

واعلم أنه تعالى لما بعثه إلى فرعون، لقنه كلامين ليخاطبه بهما:

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

فالأول: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا؟ كما تقول: هل ترغب فيه، وهل ترغب إليه؟ قال الواحدي: المبتدأ محذوف في اللفظ مراد في المعنى، والتقدير: هل لك إلى تزكى حاجة أو إربة؟ قال الشاعر:

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَيَّ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِيَّ حِذْيَمَا[1]

ويحتمل أن يكون التقدير: هل لك سبيل إلى أن تزكى؟

المسألة الثانية: الزكي: الطاهر من العيوب كلها، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه؛ لأن المراد هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكيًا عن كل ما لا ينبغي؟ وذلك يجمع كل ما يتصل بالتوحيد والشرائع.

المسألة الثالثة: فيه قراءتان: التشديد: على إدغام تاء التفعل في الزاي لتقاربهما، والتخفيف.

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر أوس بن حجر، وقد تقدمت ترجمته.

المسألة الرابعة: المعتزلة تمسكوا به في إبطال كون الله تعالى خالقًا لفعل العبد بهذه الآية، فإن هذا استفهام على سبيل التقرير، أي لك سبيل إلى أن تزكى، ولو كان ذلك بفعل الله تعالى لانقلب الكلام على موسى. والجواب عن أمثاله تقدم.

المسألة الخامسة: أنه لما قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه: ٤٤] فكأنه تعالى رتب لهما ذلك الكلام اللين الرقيق، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوة إلى الله من اللين والرفق وترك الغلظة، ولهذا قال لمحمدﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩] ويدل على أن الذين يخاشنون الناس ويبالغون في التعصب - كأنهم على ضد ما أمر الله به أنبياءه ورسله.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بأن معرفة الله لا تستفاد إلا من الهادي، تمسكوا بهذه الآية، وقالوا: إنها صريحة في أنه يهديه إلى معرفة الله. ثم قالوا: ومما يدل على أن هذا هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل؛ أمران: **الأول**: أن قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ يتناول جميع الأمور التي لا بد للمبعوث إليه منها، فيدخل فيه هذه الهداية، فلما أعاده بعد ذلك علم أنه هو المقصود الأعظم من البعثة. **والثاني**: أن موسى ختم كلامه عليه، وذلك ينبه أيضًا على أنه أشرف المقاصد من البعثة. والجواب: أنا لا نمنع أن يكون للتنبيه والإشارة معونة في الكشف عن الحق، إنما النزاع في أنكم تقولون: يستحيل حصوله إلا من المعلم. ونحن لا نحل ذلك.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته؛ لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها ومفرعة عليها، ونظيره قوله تعالى في أول النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[النحل: ٢] وفي طه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[طه: ١٤].

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨] أي العلماء به، ودلت الآية على أن الخشية ملاك الخيرات؛ لأن من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، ومنه قوله عليه السلام: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أدلج بلغ المَنْزِلَ»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٣٣) حديث رقم (٢٤٥٠) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٣٤٣) حديث رقم (٧٨٥١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والبغوي في (شرح السنة) (٧/ ٢٩٣) والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٥١٢) حديث رقم (٨٨١) وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٤٢٥) حديث رقم (١٤٦٠) جميعًا من طريق هاشم بن القاسم عن أبي عقيل هو الثقفي عن يزيد بن سنان سمعت بكير بن فيروز قال: سمعت أبا هريرة قال: قال رسول اللهﷺ ... فذكره وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (١٣٣٥) وقال: صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الفاء في ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ معطوف على محذوف معلوم، يعني: (فذهب فأراه) كقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾[البقرة: ٦٠] أي فضرب فانفجرت.

المسألة الثانية: اختلفوا في الآية الكبرى على ثلاثة أقوال: الأول: قال مقاتل والكلبي: هي اليد، لقوله في النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[النمل: ١٢] آية أخرى ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾[طه: ٢٣] القول الثاني: قال عطاء: هي العصا؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونه إلى لون آخر، وهذا المعنى كان حاصلاً في العصا؛ لأنها لما انقلبت حية فلا بد وأن يكون قد تغير اللون الأول، فإذًا كل ما في اليد فهو حاصل في العصا، ثم حصل في العصا أمور أخرى أزيد من ذلك، منها حصول الحياة في الجِرم الجمادي، ومنها تزايد أجزائه وأجسامه، ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة، ومنها أنها كانت ابتلعت أشياء كثيرة وكأنها فنيت، ومنها زوال الحياة والقدرة عنها، وفناء تلك الأجزاء التي حصل عظمها، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزًا مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا. والقول الثالث في هذه المسألة: قول مجاهد: وهو أن المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا، وذلك لأن سائر الآيات دلت على أن أول ما أظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا، ثم أتبعه باليد، فوجب أن يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾

أحدها: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى قوله: ﴿فَكَذَّبَ﴾ أنه كَذَّب بدلالة ذلك المعجز على صدقه. واعلم أن القدح في دلالة المعجزة على الصدق إما لاعتقاد أنه يمكن معارضته، أو لأنه وإن امتنعت معارضته لكنه ليس فعلاً لله بل لغيره، إما فعل جني أو فعل مَلَك، أو إن كان فعلاً لله تعالى لكنه ما فعله لغرض التصديق، أو إن كان فعله لغرض التصديق لكنه لا يلزم صدق المدعي، فإنه لا يقبح من الله شيء ألبتة، فهذه مجامع الطعن في دلالة المعجز على الصدق، وما بعد الآية يدل على أن فرعون إنما منع من دلالته عن الصدق لاعتقاده أنه يمكن معارضته، بدليل قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾[النازعات: ٢٣] وهو كقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٥٣].

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أن كل أحد يعلم أن كل من كَذَّب الله فقد عصى، فما

الفائدة في قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ ؟ والجواب: كذب بالقلب واللسان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

المسألة الثالثة: هذا الذي وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلاً قبل ذلك؛ لأن تكذيبه لموسى عليه السلام وقد دعاه وأظهر هذه المعجزة - يوفى على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه، والحال هذه مخالفة لمعصيته من قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

وثانيها: قوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ وفيه وجوه: **أحدها**: أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبًا يسعى يسرع في مشيه، قال الحسن: كان رجلاً طياشًا خفيفًا. **وثانيها**: تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته. **وثالثها**: أن يكون المعنى. ثم أقبل يسعى، كما يقال: فلان أقبل يفعل كذا، بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال.

ثالثها: قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ فحشر فجمع السحرة، كقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر مناديًا فنادى في الناس بذلك، وقيل: قام فيهم خطيبًا فقال تلك الكلمة، وعن ابن عباس: كلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] والآخرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ .

واعلم أنا بينا في سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقًا للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، فمن تشكك فيه كان مجنونًا، ولو كان مجنونًا لما جاز من الله بعثة الأنبياء والرسل إليه، بل الرجل كان دهريًّا منكرًا للصانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولاً. قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية، أن لا يقول هذا القول؛ لأن عند ظهور الذلة والعجز، كيف يليق أن يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؟ فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه أفعاله وأقواله، أتبعه بما عامله به، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: ذكروا في نصب (نكال) وجهين: **الأول**: قال الزجاج: إنه مصدر مؤكد لأن معنى أخذه الله: نكل الله به، نكال الآخرة والأولى؛ لأن أخذه ونكله متقاربان، وهو كما يقال: (أَدَعُه تركًا شديدًا) لأن أدعه وأتركه سواء، ونظيره قوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، **الثاني**: قال الفراء: يريد أخذه الله أخذًا نكالاً للآخرة والأولى، والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في هذه الآية وجوهًا: أحدها: أن الآخرة والأولى صفة لكلمتي فرعون: إحداهما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] والأخرى: قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] قالوا: وكان بينهما أربعون سنة. وهذا قول مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل، ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال، بل أمهله أربعين سنة، فلما ذكر الثانية أُخذ بهما، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل. **الثاني**: وهو قول الحسن وقتادة: ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي عذبه في الآخرة، وأغرقه في الدنيا. **الثالث**: الآخرة هي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية، قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٠-٢٤] فذكر المعصيتين، ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ فظهر أن المراد أنه عاتبه على هذين الأمرين.

المسألة الثالثة: قال الليث: (النكال) اسم لمن جُعل نكالاً لغيره، وهو الذي إذا رآه أو بلغه خاف أن يعمل عمله، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، وقيل للقيد نكل لأنه يمنع، فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذي وقع التنكيل به، وهو في العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾

ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر -عبرة لمن يخشى وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى والتكذيب لأنبيائه خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلمًا بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبِروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم.

ثم اعلم أنه تعالى لما ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكري البعث فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾، **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: في المقصود من هذا الاستدلال وجهان: الأول: أنه استدلال على منكري البعث فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾ فنبههم على أمر يُعلم بالمشاهدة. وذلك لأن خلقة الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها - يسير، فبيّن تعالى أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أَوْلى أن يكون مقدورًا لله تعالى، فكيف ينكرون ذلك؟ ونظيره قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْۚ﴾ [يس: ٨١] وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] والمعنى أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء، أي عندكم وفي تقديركم، فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد. **والثاني:** أن المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين. وهذا القول ضعيف لوجهين أحدهما: أن من أنكر كون الإنسان مخلوقًا فبأن ينكر (ه) في السماء كان أَوْلى. **وثانيهما:** أن أول السورة كان في بيان مسألة الحشر والنشر، فحَمْل هذا الكلام عليه أَوْلى.

المسألة الثانية: قال الكسائي والفراء والزجاج: هذا الكلام تم عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ابتداء كلام آخر. وعند أبي حاتم الوقف على قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ قال: لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف (التي) ومثل هذا الحذف جائز، قال القفال: يقال: (الرجل جاءك عاقل) أي الرجل الذي جاءك عاقل. إذا ثبت أن هذا جائز في اللغة فنقول: الدليل على أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة لما قبله أنه لو لم يكن صلة لكان صفة، فقوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صفة، ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ صفة، فقد توالت صفتان لا تعلق لإحداهما بالأخرى، فكان يجب إدخال العاطف فيما بينهما، كما في قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات: ٢٩] فلما لم يكن كذلك علمنا أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء، ثم قال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ ابتداء بذكر صفته، وللفراء أن يحتج على قوله بأنه لو كان قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء لكان التقدير: أم السماء (التي) بناها، وهذا يقتضي وجود سماء ما بناها الله، وذلك باطل.

المسألة الثالثة: الذي يدل على أنه تعالى هو الذي بنى السماء وجوه: **أحدها:** أن السماء جسم، وكل جسم محدث؛ لأن الجسم لو كان أزليًا لكان في الأزل إما أن يكون متحركًا أو ساكنًا، والقسمان باطلان، فالقول بكون الجسم أزليًا باطل، أما الحصر فلأنه إما أن يكون مستقرًّا حيث هو فيكون ساكنًا، أو لا يكون مستقرًّا حيث هو فيكون متحركًا، وإنما قلنا: إنه يستحيل أن يكون متحركًا؛ لأن ماهية الحركة تقتضي المسبوقية بالغير، وماهية الأزل تنافي المسبوقية بالغير، والجمع بينهما محال، وإنما قلنا: إنه يستحيل أن يكون ساكنًا؛ لأن السكون وصف ثبوتي وهو ممكن الزوال، وكل ممكن الزوال مفتقر إلى الفاعل المختار، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فكل سكون محدث فيمتنع أن يكون أزليًا، وإنما قلنا: إن السكون وصف ثبوتي؛ لأنه يتبدل كون الجسم متحركًا بكونه ساكنًا مع بقاء ذاته، فأحدهما لابد وأن يكون أمرًا ثبوتيًا، فإن كان الثبوتي هو السكون فقد حصل المقصود، وإن كان الثبوتي هو الحركة وجب أيضًا أن يكون السكون ثبوتيًا؛ لأن الحركة عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان في غيره، والسكون عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان فيه بعينه، فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس في الماهية، بل في المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير، وذلك وصف عارضي خارجي عن الماهية، وإذا كان كذلك فإذا ثبت أن تلك الماهية أمر وجودي في إحدى الصورتين وجب أن تكون كذلك في صورة أخرى، وإنما قلنا: إن سكون السماء جائز الزوال؛ لأنه لو كان واجبًا

لذاته لامتنع زواله، فكان يجب أن لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة، فعلمنا أنها لو كانت ساكنة في الأزل، لكان ذلك السكون جائز الزوال، وإنما قلنا: إن ذلك السكون لما كان ممكنًا لذاته، افتقر إلى الفاعل المختار لأنه لما كان ممكنًا لذاته، فلا بد له من مؤثر، وذلك المؤثر لا يجوز أن يكون موجبًا؛ لأن ذلك الموجب إن كان واجبًا، وكان غنيًّا في إيجابه لذلك المعلول عن شرط، لزم من دوامه دوام ذلك الأثر، فكان يجب أن لا يزول للسكون وإن كان واجبًا ومفتقرًا في إيجابه لذلك المعلول إلى شرط واجب لذاته، لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام المعلول، أما إن كان الموجب غير واجب لذاته، أو كان شرط إيجابه غير واجب لذاته، كان الكلام فيه كالكلام في الأول، فيلزم التسلسل، وهو محال أو الانتهاء إلى موجب واجب لذاته، وإلى شرط واجب لذاته، وحينئذٍ يعود الإلزام الأول، فثبت أن ذلك المؤثر لا بد وأن يكون فاعلاً مختارًا، فإذًا كل سكون، فهو فعل فاعل مختار، وكل ما كان كذلك فهو محدث؛ لأن المختار إنما يفعل بواسطة القصد، والقصد إلى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل محال، فثبت أن كل سكون فهو محدث، فثبت أنه يمتنع أن يكون الجسم في الأزل لا متحركًا ولا ساكنًا، فهو إذًا غير موجود في الأزل، فهو محدث، وإذا كان محدثًا افتقر في ذاته وفي تركيب أجزائه إلى موجد، وذلك هو الله تعالى، فثبت بالعقل أن باني السماء هو الله تعالى.

الحجة الثانية: كل ما سوى الواجب فهو ممكن، وكل ممكن محدث، وكل محدث فعل صانع، إنما قلنا: (كل ما سوى الواجب ممكن) لأنا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتيهما لاشتركا في الوجود ولتباينا بالتعيين، فيكون كل منهما مركبًا مما به المشاركة، ومما به الممايزة، وكل مركب مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته، فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات، هذا خلف، ثم ينقل الكلام إلى ذينك الجزأين، فإن كانا واجبين، كان كل واحد من تلك الأجزاء مركبًا، ويلزم التسلسل، وإن لم يكونا واجبين كان المفتقر إليهما أَوْلى بعدم الوجود، فثبت أن ماعدا الواجب ممكن، وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر إلى المؤثر محدث؛ لأن الافتقار إلى المؤثر لا يمكن أن يتحقق حال البقاء لاستحالة إيجاد الموجد، فلا بد وأن يكون إما حال الحدوث أو حال العدم، وعلى التقديرين فالحدوث لازم، فثبت أن ما سوى الواجب محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث، فلا بد للسماء من بانٍ.

الحجة الثالثة: صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لا يمتنع أن يكون أكبر مما هو الآن بمقدار خردلة، ولا يمتنع أن يكون أصغر بمقدار خردلة، فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون الأزيد والأنقص لا بد وأن يكون بمخصص، فثبت أنه لا بد للسماء من بانٍ: فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يقال: إنه تعالى خلق شيئًا وأعطاه قدرة يتمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من خلق الأجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشيء؟ الجواب: من العلماء من قال: المعلوم بالعقل أنه

لا بد للسماء من محدث، وأنه لا بد من الانتهاء آخر الأمر إلى قديم، والإله قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فأما نفي الواسطة فإنما يُعلم بالسمع فقوله في هذه الآية: ﴿بَنَىٰهَا﴾ يدل على أن باني السماء هو الله لا غيره. ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لأنه لما ثبت أن كل ما عداه محدث ثبت أنه قادر لا موجب، والذي كان مقدورًا له إنما صح كونه مقدورًا له بكونه ممكنًا، فإنك لو رفعت الإمكان بقي الوجوب أو الامتناع، وهما يحيلان المقدورية، وإذا كان ما لأجله صح في البعض أن يكون مقدورًا لله وهو الإمكان والإمكان عام في الممكنات، وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة أن تكون مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت ذلك ونسبة قدرته إلى الكل على السوية، وجب أن يكون قادرًا على الكل، وإذا ثبت أن الله قادر على الممكنات، فلو قدرنا قادرًا آخر قدر على بعض الممكنات، لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة، وذلك محال؛ لأنه إما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال؛ لأنهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا أَوْلى من وقوعه بذاك أو بهما معًا، وهو أيضًا محال لأنه يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجًا إليهما معًا وغنيًّا عنهما معًا وهو محال، فثبت بهذا أنه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى، وهذا الكلام جيد، لكن على قول من لا يثبت في الوجود مؤثرًا سوى الواحد، فهذا جملة ما في هذا الباب.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن في السماء أنه بناها، بَيَّن بعد ذلك أنه كيف بناها، وشرح تلك الكيفية من وجوه:

أولها: ما يتعلق بالمكان، فقال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ .

واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقًا، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكًا، فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام، و(قَد) بيَّن أصحاب الهيئة مقادير الأجرام الفلكية وأبعاد ما بين كل واحد منها وبين الأرض. وقال آخرون: بل المراد: رفع سمكها من غير عمد. وذلك مما لا يصح إلا من الله تعالى.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ وفيه وجهان: الأول: المراد تسوية تأليفها. **وقيل:** بل المراد نفي الشقوق عنها، كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك: ٣] والقائلون بالقول الأول قالوا: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض الأشياء، ثم قالوا: هذا يدل على كون السماء كرة؛ لأنه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحًا، والبعض زاوية، والبعض خطًا، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التسوية الحقيقة حاصلة، فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقة حاصلة، ثم قالوا: لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار، فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرة؟

قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أغطش قد يجيء لازمًا، يقال: (أغطش الليل) إذا صار مظلمًا، ويجيء متعديًا يقال: (أغطشه الله) إذا جعله مظلمًا، والغطش الظلمة، والأغطش شبه الأعمش، ثم ههنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس، فقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلمًا، وهو بعيد. والجواب: معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله وتقديره، وحينئذٍ لا يبقى الإشكال.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أخرج نهارها، وإنما عَبَّر عن النهار بالضحى؛ لأن الضحى أكمل أجزاء النهار في النور والضوء.

المسألة الثالثة: إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء؛ لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك؛ فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء. ثم إنه تعالى لما وصف كيفية خلق السماء أتبعه بكيفية خلق الأرض وذلك من وجوه:

الصفة الأولى: قوله تعالى: : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: دحاها: بسطها، قال زيد بن عمرو بن نفيل (١):

دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ   عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالاَ

وقال أمية بن أبي الصلت (٢):

دَحَوْتَ الْبِلاَدَ فَسَوَّيْتَهَا   وَأَنْتَ عَلَى طَيِّهَا قَادِرٌ

قال أهل اللغة: في هذه اللفظة لغتان: دحوت أدحو، ودحيت أدحى، ومثله صفوت وصفيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت، وفي حديث علي عليه السلام: «اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحِيَّاتِ» (٣) أي باسط الأرضين السبع وهو المدحوات أيضًا، وقيل: أصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال: (إن الصبي يدحو بالكرة) أي يقذفها على وجه الأرض، و(أدحى النعامة موضعه الذي يكون فيه) أي بسطته وأزلت ما فيه من حصى حتى يتمهد له، وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يقتضي كون الأرض بعد السماء، وقوله: في حم السجدة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١] يقتضي كون السماء بعد الأرض، وقد ذكرنا هذه المسألة في

---

(١) تقدمت ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل.

(٢) تقدمت ترجمة أمية بن أبي الصلت.

(٣) لم أجده.

سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ٢٩] ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الوجوه: أحدها: أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحى الأرض أي بسطها ثالثًا، وذلك لأنها كانت أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، فإن قيل: الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة أيضًا، وإشكال آخر وهو أن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي، فيستحيل أن يكون هذا الجسم مخلوقًا ولا يكون ظاهره مدحوًّا مبسوطًا. وثانيها: أن لا يكون معنى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾: مجرد البسط، بل يكون المراد أنه بسطها بسطًا مهيأ لنبات الأقوات، وهذا هو الذي بَيَّنه بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[النازعات: ٣١] وذلك لأن هذا الاستعداد لا يحصل للأرض إلا بعد وجود السماء فإن الأرض كالأم والسماء كالأب، وما لم يحصلا لم تتولد أولاً المعادن والنباتات والحيوانات. وثالثها: أن يكون قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مع ذلك كقوله: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣] أي مع ذلك، وقولك للرجل أنت كذا وكذا، ثم أنت بعدها كذا لا تريد به الترتيب، وقال تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البلد: ١٣-١٧] والمعنى وكان مع هذا من أهل الإيمان بالله، فهذا تقرير ما نُقل عن ابن عباس ومجاهد والسدي وابن جريج أنهم قالوا في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي مع ذلك دحاها.

المسألة الثالثة: لما ثبت أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحى الأرض بعد ذلك ثالثًا، ذكروا في تقدير تلك الأزمنة وجوهًا، روي عن عبد الله بن عمر: (خَلَقَ اللَّهُ الْبَيْتَ قَبْلَ الْأَرْضِ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ، وَمِنْهُ دُحِيَتِ الْأَرْضُ)(١) واعلم أن الرجوع في أمثال هذه الأشياء إلى كتب الحديث أَوْلى.

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ماؤها: عيونها المتفجرة بالماء، ومرعاها: رعيها، وهو في الأصل موضع

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٦/ ٢٠) من طريق عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا شيبان عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٣) حديث رقم (٣٩٩١) من طريق عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا شيبان عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٣) حديث رقم (٣٩١١) من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٤٣١) حديث رقم (٣٩٨٣) من طريق عبيد الله بن عبد الجبار العطاردي أخبرنا أبي أخبرنا جرير بن عبد الحميد عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، وفي (دلائل النبوة) (١/ ٤٢٣) حديث رقم (٣٧٦) من طريق عبيد الله بن موسى قال: حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به وقال: تابعه منصور عن مجاهد. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٦٢٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

الرعي، ونصب (الأرض والجبال) بإضمار دحا وأرسى على شريطة التفسير، وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء، فإن قيل: هلا أدخل حرف العطف على (أخرج؟) قلنا لوجهين: **الأول:** أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتادًا لها حتى تستقر ويستقر عليها. **والثاني:** أن يكون ﴿أَخْرَجَ﴾ حالاً، والتقدير: والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها.

المسألة الثانية: أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام، ونظيره قوله في النحل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل: ١٠] وقال في سورة أخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾[عبس: ٢٥، ٢٦] إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[عبس: ٣٢] فكذا في هذه الآية، واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[يوسف: ١٢] وقرئ (نرتع) من الرعي، ثم قال ابن قتيبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠] فانظر كيف دل بقوله: ﴿مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والعصف والحطب، واللباس والدواء، حتى النار والملح، أما النار فلا شك أنها من العيدان، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[الواقعة: ٧١، ٧٢] وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به، فأصله الماء والنبات، ولهذا السبب تردد في وصف الجنة ذكرهما، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة: ٢٥] ثم الذي يدل على أنه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والأنعام قوله في آخر هذه الآية: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ والكلام في شرح منافع الجبال قد تقدم.

ثم إنه تعالى لما بيَّن كيفية خلقه الأرض وكمية منافعها قال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ والمعنى أنا إنما خلقنا هذه الأشياء متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم. واحتج به من قال: إن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح، والكلام فيه قد مر غير مرة، .

واعلم أنا بينا أنه تعالى إنما ذكر كيفية خلقه السماء والأرض ليستدل بها على كونه قادرًا على الحشر والنشر، فلما قرر ذلك وبيَّن إمكان الحشر عقلاً أخبر بعد ذلك عن وقوعه.

فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وفي اشتقاقها وجوه، قال المبرد: أخذت فيما أحسب من قولهم: طم الفرس طميمًا، إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء، إذا ملأ النهر كله. وقال الليث: الطم طم البئر بالتراب، وهو الكبس، ويقال: طم السيل

الركية، إذا دفنها حتى يسويها، ويقال للشيء الذي يكبر حتى يعلو: قد طم، والطامة: الحادثة التي تطم على ما سواها، ومن ثَم قيل: فوق كل طامة طامة، قال القفال: أصل الطم: الدفن والعلو، وكل ما غلب شيئًا وقهره وأخفاه فقد طمه، ومنه الماء الطامي وهو الكثير الزائد، والطاغي والعاتي والعادي سواء وهو الخارج عن أمر الله تعالى المتكبر، فالطامة اسم لكل داهية عظيمة يُنسى ما قبلها في جنبها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الثانية: قد ظهر بما ذكرنا أن معنى الطامة الكبرى الداهية الكبرى، ثم اختلفوا في أنها أي شيء هي: فقال قوم: إنها يوم القيامة لأنه يشاهد فيه من النار، ومن الموقف الهائل، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة - ما يُنسى معه كل هائل، وقال الحسن: إنها هي النفخة الثانية التي عندها تُحشر الخلائق إلى موقف القيامة. وقال آخرون: إنه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فالطامة تكون اسمًا لذلك الوقت، فيحتمل أن يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب، على ما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] ويحتمل أن تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم بوصفين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ يعني إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها، وكان قد نسيها، كقوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أنها تظهر إظهارًا مكشوفًا لكل ناظر ذي بصر، ثم فيه وجهان: **أحدهما**: أنه استعارة في كونه منكشفًا ظاهرًا، كقولهم: تبين الصبح لذي عينين. وعلى هذا التأويل لا يجب أن يراه كل أحد. **والثاني**: أن يكون المراد أنها بُرزت ليراها كل من له عين وبصر، وهذا يفيد أن كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار، إلا أنها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها، وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧١، ٧٢] فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١] فخص الغاوين بتبريزها لهم. قلنا: إنها برزت للغاوين، والمؤمنون يرونها أيضًا في الممر، ولا منافاة بين الأمرين.

المسألة الثانية: قرأ أبو نهيك: (وَبَرَزَتْ) وقرأ ابن مسعود: (لمن رأى) وقرأ عكرمة: (لمن ترى) والضمير للجحيم، كقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢] وقيل: لمن ترى يا محمد من الكفار الذين يؤذونك.

واعلم أنه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة قسم المكلفين قسمين: الأشقياء والسعداء، فذكر حال الأشقياء.

فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في جواب قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤] وجهان: الأول: قال الواحدي: إنه محذوف على تقدير: إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، ودل على هذا المحذوف ما ذكر في بيان مأوى الفريقين، ولهذا كان يقول مالك بن مغول في تفسير الطامة الكبرى، قال: إنها إذا سبق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار والثاني: أن جوابه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وكأنه جزاء مركب على شرطين، نظيره إذا جاء الغد، فمن جاءني سائلاً أعطيته، كذا ههنا، أي إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغيًا فإن الجحيم مأواه.

المسألة الثانية: منهم من قال: المراد بقوله: ﴿طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ النضر وأبوه الحارث، فإن كان المراد أن هذه الآية نزلت عند صدور بعض المنكرات منه فجيد، وإن كان المراد تخصيصها به، فبعيد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لا سيما إذا عرف بضرورة العقل أن الموجب لذلك الحكم هو الوصف المذكور.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿طَغَىٰ﴾ إشارة إلى فساد حال القوة النظرية؛ لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه، وعرف استيلاء قدرة الله عليه، فلا يكون له طغيان وتكبر، وقوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى فساد حال القوة العملية، وإنما ذكر ذلك لما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «حُبُّ الدُّنيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»(١) ومتى كان الإنسان والعياذ بالله موصوفًا بهذين

---

(١) موضوع: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ٣٣٨) حديث رقم (١٠٥٠١) وابن أبي الدنيا في (الزهد) (١/ ١٠/ ٩) كلاهما من طريق سريج بن يونس حدثنا عباد بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره، وأورده الفتني في (الموضوعات) (١/ ١٧٣) وقال: لابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً، وفي المقاصد هو عن الحسن مرسلاً وعن علي بلا سند، ومن قول عيسى بن مريم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وقيل: قول جندب رضي الله عنه. ويرد على هذا القائل وعلى من حكم بوضعه رفع الحسن له فإن مرسلاته صحاح إذا رواها الثقات. اهـ بتصرف. وأورده العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٤٤) وقال: رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً، وذكره الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، وقال ابن الغرس الحديث ضعيف، ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم، وفي رواية لولد أحمد بلفظ رأس الخطيئة حب الدنيا، والنساء حبالة الشيطان، والخمر مفتاح كل شر. ولأحمد في الزهد عن سفيان، قال: كان عيسى بن مريم يقول: «حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير» قالوا: وما داؤه؟ قال: «لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء»، قالوا: فإن سلم قال: «شغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى»، وعند ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان له أنه من قول مالك بن دينار، وعند ابن يونس في تاريخ مصر له من قول سعيد بن مسعود، وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي، قال في المقاصد: وبالأول يرد عليه وعلى غيره ممن صرح بالحكم عليه بالوضع أي كالصغاني لقول ابن المديني؟ مرسلات الحسن إذا رواها عنه الثقات صحاح، ما أقل ما يسقط منها. وقال أبو زرعة: كل شيء يقول الحسن فيه: قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلاً ثابتًا، ما خلا أربعة أحاديث. وليته ذكرها، وقال في الدرر: قد عد الحديث في الموضوعات، وتعقبه شيخ الإسلام ابن حجر بأنه أثنى على مراسيل الحسن. انتهى، =

الأمرين، كان بالغًا في الفساد إلى أقصى الغايات، وهو الكافر الذي يكون عقابه مخلدًا، وتخصيصه بهذه الحالة يدل على أن الفاسق الذي لا يكون كذلك، لا تكون الجحيم مأوى له.

المسألة الرابعة: تقدير الآية: فإن الجحيم هي المأوى له، ثم حذفت الصلة لوضوح المعنى، كقولك للرجل: (غض الطرف) أي غض طرفك، وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون التقدير: فإن الجحيم هي المأوى اللائق بمن كان موصوفًا بهذه الصفات والأخلاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

ثم ذكر تعالى حال السعداء فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ واعلم أن هذين الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما، فقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ضد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٨]واعلم أن الخوف من الله لا بد وأن يكون مسبوقًا بالعلم بالله على ما قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى، لا جرم قدم العلة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح، دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات، وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أُحد، ووقى رسولَ الله بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن بالبرهان العقلي إمكان القيامة، ثم أخبر عن وقوعها، ثم ذكر أحوالها العامة، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون إثبات القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالاً، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]ثم في قوله: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ قولان: أحدهما: متى إرساؤها، أي إقامتها، أرادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها والثاني:

=لكن في اللآلئ للحافظ المذكور مراسيل الحسن عندهم تشبه الريح. انتهى، وقال الدارقطني: في مراسيله ضعف. وللديلمي عن أبي هريرة رفعه: «أعظم الآفات تصيب أمتي حبهم الدنيا وجمعهم الدنانير والدراهم، لا خير في كثير ممن جمعها إلا من سلطه الله على هلكتها في الحق» وفي تاريخ ابن عساكر عن سعيد بن مسعود الصدفي التابعي بلفظ: «حب الدنيا رأس الخطايا». ا. هـ.

﴿أَيَّانَ﴾ منتهاها ومستقرها، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه.

ثم إن الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ وفيه وجهان: **الأول**: معناه في أي شيء أنت عن تذكر وقتها لهم، وتبين ذلك الزمان المعين لهم، ونظيره قول القائل: إذا سأله رجل عن شيء لا يليق به: ما أنت وهذا؟ وأي شيء لك في هذا؟ وعن عائشة: «لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ السَّاعَةَ وَيَسْأَلُ عَنْهَا حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ»(١) فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها؟ والمعنى أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها لم يؤته أحدًا من خلقه.

الوجه الثاني: قال بعضهم: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال؟ ثم قيل: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي أرسلك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل ذاكرًا من أنواع علاماتها، وواحدًا من أقسام أشراطها، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها، ولا فائدة في سؤالهم عنها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: معنى الآية أنك إنما بُعثت للإنذار، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام القيامة، بل لو أنصفنا لقلنا بأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً.

المسألة الثانية: أنه عليه الصلاة والسلام منذر للكل إلا أنه خص بمن يخشى؛ لأنه الذي ينتفع بذلك الإنذار.

المسألة الثالثة: قرئ منذر بالتنوين وهو الأصل، قال الزجاج: مفعل وفاعل إذا كان كل واحد منهما لما يستقبل أو للحال ينون؛ لأنه يكون بدلاً من الفعل، والفعل لا يكون إلا نكرة، ويجوز حذف التنوين لأجل التخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد الماضي فلا يجوز إلا الإضافة كقوله: (هو منذرُ زيد أمس).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

وتفسير هذه الآية قد مضى ذكره في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الاحقاف: ٣٥] والمعنى أن ما أنكروه سيرونه حتى كأنهم أبدًا فيه وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ثم مضت (فإن قيل): قوله: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ معناه ضحى العشية، وهذا غير معقول لأنه ليس للعشية ضحى: (قلنا): الجواب عنه من وجوه: أحدها: قال عطاء عن ابن عباس:

---

(١) أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٥٠٦) حديث رقم (١١٦٤٥) من طريق مؤمل بن الفضل أخبرنا عيسى عن إسماعيل أخبرنا طارق بن شهاب . . . به، والطبري في (تفسيره) (١٣/ ٢٩٢) حديث رقم (١٥٤٦٤) والضياء في (الأحاديث المختارة) (٣/ ٢٣٣) وابن أبي الدنيا في (الأهوال) (١/ ٩/ ٧) جميعًا من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن طارق بن شهاب . . . به، وذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٥٢٣) وقال: هذا إسناد قوي.

الهاء والألف صلة للكلام، يريد لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى. **وثانيها:** قال الفراء والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافتها إلى يوم العشية، كأنه قيل: إلا عشية أو ضحى يومها، والعرب تقول: (آتيك العشية أو غداتها) على ما ذكرنا **وثالثها:** أن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالضحى، المتقدم على عشية يصح أن يقال: إنه ضحى تلك العشية، وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية، وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى، فالذين يحضرون في موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية، فيقولون: كأن عمرنا في الدنيا ما كان إلا هاتين الساعتين.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النازعات

مَكِّية بإجماع. وهي خمسٌ أو ستٌّ وأربعون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: أَقْسَمَ سبحانه بهذه الأشياء التي ذَكَرها على أنَّ القيامة حقٌّ. و«النازعاتِ»: الملائكةُ التي تَنزِعُ أرواحَ الكفار؛ قاله عليٌّ ﷺ[1]، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: هي الملائكةُ تَنزِعُ نفوسَ بني آدم[2]. قال ابن مسعود: يريدُ أنفُسَ الكُفار يَنزِعُها ملكُ الموتِ من أجسادهم، مِن تحت كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظافير وأصولِ القدمين، نَزْعاً كالسَّفُّود يُنزَعُ من الصُّوف الرَّطب، ثم يُغرِقُها، أي: يُرْجِعُها في أجسادهم، ثم ينزِعُها، فهذا عملُه بالكفار[3]. وقاله ابن عباس[4].

وقال سعيد بن جبير: نُزِعتْ أرواحُهم، ثم غُرِّقتْ، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِفَ بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزعِ كأنَّها تغرق.

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤ ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧ والنكت والعيون ٦/ ١٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ .

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

وقال السُّدِّيُّ: و«النازِعاتِ»: هي النفوسُ حين تَغرَق في الصدور.

مجاهد: هي الموتُ ينزعُ النفوس.

الحسن وقتادة: هي النجومُ تَنْزِع من أُفقٍ إلى أفق[1]، أي: تذهب، مِن قولهم: نَزَع إليه، أي: ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل، أي: جرت. «غَرْقاً» أي: أنَّها تَغْرَقُ وتَغيبُ وتطلعُ من أفقٍ إلى أفقٍ آخرَ. وقاله أبو عُبيدةَ وابنُ كَيسان والأخفش[2].

وقيل: النازعات القِسِيُّ تنزعُ بالسِّهام؛ قاله عطاءٌ وعِكرمة[3]. و«غَرْقاً» بمعنى: إغراقاً، وإغراقُ النازع في القوس أنْ يبلغ غايةَ المدِّ، حتى ينتهيَ إلى النَّصْل. يقال: أغرقَ في القوس، أي: استَوْفَى مدَّها، وذلك بأنْ تنتهي إلى العَقَب الذي عند النَّصلِ الملفوفِ عليه. والاستغراقُ: الاستيعاب. ويقال لقِشْرةِ البيضةِ الداخلةِ: «غِرقِئ»[4].

وقيل: هم الغُزاة الرُّماة[5].

قلت: هو والذي قَبلَه سواءٌ؛ لأنَّه إذا أقسمَ بالقِسِيِّ فالمرادُ النَّازِعون بها تعظيماً لها، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ والله أعلم. وأراد بالإغراق: المبالغةَ في النَّزع، وهو سائغٌ في جميع وجوهِ تأويلها.

وقيل: هي الوحشُ تنزِعُ إلى الكلأ[6] وتَنْفِرُ. حكاه يحيى بنُ سلام. ومعنى «غرقاً» أي: إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكةَ تَنْشِطُ نفسَ المؤمنِ

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٥٨-٥٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤١ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩ عن عطاء.

(٤) وهي القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض. المعجم الوسيط (غرق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٦) في (د) و(م) و(ي): من الكلأ، وكذا وقع في النكت والعيون ٦/ ١٩٢ والكلام منه، وفي (ظ): بين الكلأ، والمثبت من البحر ٨/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٣٠/ ٢٥ .

فتقبضُها، كما يُنشَط العِقالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القولَ الفرَّاءُ ثم قال: والذي سمعتُ من العرب أنْ يقولوا: أنْشَطْتُ، وكأنَّما أُنشِطَ من عِقال. ورَبَطها: نَشَطها، والرابط: الناشِط، وإذا رَبَطْتَ الحبلَ في يد البعير فقد نشَطْتَه، فأنت ناشطٌ، وإذا حَلَلْته فقد أنْشَطْتَه، وأنت مُنشِط(١).

وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفُسُ المؤمنين عند الموتِ تَنْشطُ للخروج، وذلك أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلاَّ وتُعرَضُ عليه الجنةُ قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدَّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يَدْعونه إليها، فنفْسُه إليهم نشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم(٢).

وعنه أيضاً قال: يعني أنفسَ الكفارِ والمنافقين تُنْشَطُ كما يُنشَط العقَبُ الذي يُعْقَبُ به السهم. والعقَبُ بالتحريك: العَصَبُ الذي تُعمل منه الأوتار، الواحدةُ عَقَبة؛ تقول منه: عَقَبَ السهمَ والقدحَ والقوسَ عَقْباً: إذا لوى شيئاً منه عليه(٣). والنَّشْطُ: الجَذْبُ بسرعة، ومنه الأنشوطةُ: عقدةٌ يسَهُلُ انْحِلالُها إذا جُذِبتْ مثل عُقدة التكَّة. وقال أبو زيد: نَشَطْتُ الحبلَ أنشُطُه نَشطاً: عَقَدتُه بأُنشوطةٍ. وأنشَطْتُه، أي: حَلَلتْه، وأنشطْتُ الحبل(٤)، أي: مَدَدْتُه حتى يَنحلَّ. وقال الفرَّاء: أُنشِطَ العقالُ، أي: حُلَّ، ونُشِط أي: رُبِطَ الحبلُ في يديه(٥).

وقال الليث(٦): أنشطْتُه بأنشوطة وأُنشوطتين، أي: أوثقته، وأنشطتُ العِقال: أي: مددتُ أُنشوطَته فانحلَّتْ. قال: ويقال: نَشَطَ بمعنى أنشَط، لغتان بمعنى. وعليه

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩-٦٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٤١، والطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ٢١.

(٣) الصحاح (عقب).

(٤) في الصحاح (نشط) والكلام منه: وانتشطت الحبل، وكلاهما صواب كما في كتاب العين ٦/ ٢٣٣.

(٥) سلف قول الفراء قريباً.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٢٣٢.

يصحُّ قولُ ابنِ عباس المذكورُ أوَّلاً.

وعنه أيضاً: الناشطاتُ: الملائكةُ؛ لنشاطها، تذهبُ وتَجيءُ بأمرِ الله حيثُما كان.

وعنه أيضاً وعن عليٍّ رضي الله عنهما: هي الملائكةُ تَنْشَطُ أرواحَ الكفار، ما بين الجِلْدِ والأظفارِ، حتى تُخْرِجَها من أجوافهم، نشطاً بالكَرْب والغم(١)، كما يُنشَط الصوفُ من سَفُّود الحديد. وهي من النَّشط بمعنى الجَذْبِ، يقال: نَشَطْتُ الدَّلْوَ، أنشِطُها بالكسر، وأنشُطها بالضم: أي: نزعتها. قال الأصمعيُّ: بئرٌ أنشاطٌ: أي: قريبةُ القَعْرِ، تخرجُ الدَّلوُ منها بجذبةٍ واحدة. وبئرٌ نشوطٌ، قال: وهي التي لا يخرجُ منها الدلوُ حتى تُنشَطَ كثيراً(٢).

وقال مجاهد: هو الموتُ يَنشِطُ نفسَ الإنسان.

السُّدِّيُّ: هي النفوسُ حين تُنشَطُ من القدمين(٣).

وقيل: النازعاتُ: أيْدي الغُزاةِ أو أنفسُهم، تنزع القِسِيَّ بإغراق السهام، والتي تَنشِطُ الأوهاق(٤).

عِكرمةُ وعطاءٌ: هي الأوهاقُ تَنشِط البهائم(٥).

وعن عطاء أيضاً وقتادةُ والحسنُ والأخفشُ: هي النجومُ تَنشِطُ من أُفقٍ إلى أُفق،

---

(١) ذكره عن علي ﷺ البغوي ٤/ ٤٤٢، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٢) الصحاح (نشط).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣.

(٤) في (م): وهي التي تنشط الأوهاق، والمثبت من النسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢١٢ والكلام منه. وقد سلف نحو هذا القول قريباً. والأوهاق جمع وَهَق، وهو الحبل في أحد طرفيه أنشوطة يُطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ. المعجم الوسيط (وهق).

(٥) في النسخ عدا (ظ): السهام، والمثبت من (ظ). وأخرج هذا القول عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦١ دون قوله: تنشط البهائم. وكذا أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١.

أي: تذهبُ[١]. وكذا في «الصِّحَاح»: «وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا» يعني النجومَ [تَنْشِطُ] من بُرْجٍ إلى برج، كالثورِ الناشطِ من بلدٍ إلى بلدٍ. والهمومُ تَنشِطُ بصاحبها؛ قال هِمْيان ابنُ قُحافةَ:

أمْسَتْ همومي تَنْشِطُ المَنَاشِطَا ... الشامَ بي طَوراً وطَوْراً واسِطَا[٢]

أبو عبيدَة وعطاءٌ أيضاً: الناشطاتُ: هي الوحشُ حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أنَّ الهمومَ تنشِطُ الإنسانَ من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان: أمْسَتْ هُمومي، البيت[٣].

وقيل: «والنازِعاتِ» للكافرين «والناشِطاتِ» للمؤمنين، فالملائكةُ يجذبون رُوح المؤمنِ برِفْقٍ، والنزعُ: جذبٌ بشدةٍ، والنَّشطُ: جذبٌ بِرفْقٍ. وقيل: هما جميعاً للكفار، والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبَحُ بأرواح المؤمنين[٤].

الكلبيُّ: هي الملائكةُ تقبضُ أرواحَ المؤمنين، كالذي يسبحُ في الماء، فأحياناً يَنْغَمِسُ، وأحياناً يرتفع، يَسلُّونها سَلًّا رفيقاً بسهولة، ثم يَدَعونها حتى تَسْتَرِيح[٥].

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكةُ ينزلون من السماء مُسْرِعين لأمر الله،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٦.

(٢) الصحاح (نشط)، وما سلف بين حاصرتين منه، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وهميان ابن قحافة هو أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجز مُحْسِن إسلامي، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٣٠٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ عن أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وذكره عن عطاء ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وذكر الطبري ٢٤/ ٦١-٦٢ جميع هذه الأقوال ثم قال: فكلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسم به، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيَّ بالقَسم من ذلك بعضٌ دون بعض.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٥) زاد المسير ٩/ ١٦.

كما يقال للفرس الجواد: سابح، إذا أسرعَ في جَرْيِه[١]. وعن مجاهد أيضاً: الملائكةُ تَسْبَحُ في نزولها وصُعودها[٢].

وعنه أيضاً: السابحات: الموتُ يَسْبَحُ في أنفُسِ بني آدم[٣].

وقيل: هي الخيلُ الغُزاةُ؛ قال عنترة:

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْـ ... ـبَحُ في حِياضِ الموتِ سَبْحا[٤]

وقال امرؤُ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيد المُرَكَّلِ[٥]

قتادةُ والحسن: هي النجومُ تَسْبَحُ في أفلاكها، وكذا الشمسُ والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠][٦].

عطاء: هي السُّفن تَسْبحُ في الماء[٧].

ابن عباس: السابحاتُ: أرواحُ المؤمنين تسبحُ شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٦، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٦٢-٦٣.

(٢) ذكر الطبري ٢٤/ ٦٣ هذا القول مع الذي قبله على أنهما قول واحد، ولم يفرق بينهما.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣، وزاد المسير ٩/ ١٦، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٢.

(٤) النكت والعيون ٩/ ١٩٣، ولم نقف على البيت في المطبوع من ديوان عنترة، وذكر القول دون البيت البغوي ٤/ ٤٤٢.

(٥) ديوان امرئ القيس ص٢٠. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٣٧: المِسَحُّ: الكثير الجَرْي. والسابحات: السريعات. والوَنى: الفتور. والكديد: المكان الغليظ. والمركَّل: الذي أثَّرت فيه بحوافرها. ومعنى البيت: أن الخيل السريعات إذا فترت وأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جَرْياً سهلاً كما تَسِحُّ السحابُ المطرَ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٩٣، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢. وأخرجه عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦٣، وعن الحسن أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٩٣، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣.

(٨) أخرجه جويبر في تفسيره، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبِقُ الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروقٌ ومجاهد.

وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكةُ سبقَتْ ابنَ آدمَ بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبقُ بني آدمَ إلى العمل الصالح فتكتُبه.

وعن مجاهد أيضاً: الموتُ يسبقُ الإنسان.

مقاتل: هي الملائكة تسبقُ بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

ابن مسعود: هي أنفُسُ المؤمنين تسبقُ إلى الملائكة الذين يَقْبضونها وقد عايَنَتِ السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوسُ تسبقُ بالخروج عند الموت.

وقال قتادةُ والحسن ومعمر: هي النجومُ يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

عطاء: هي الخيلُ التي تسبقُ إلى الجهاد[١].

وقيل: يحتملُ أن تكون السابقاتُ ما يسبقُ من الأرواح قَبْلَ الأجسادِ إلى جنةٍ أو نار؛ قاله الماوَرْديّ[٢].

وقال الجُرجانيُّ: ذَكَر «فالسابقات» بالفاء لأنَّها مشتقَّةٌ من التي قبلها، أي: واللّائي يَسبَحْنَ فيَسْبِقْنَ، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجبُ أن يكون القيامُ سبباً للذهاب، ولو قلتَ: قام وذهب، لم يكن القيامُ سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قال القُشَيريُّ: أجمعوا على أنَّ المرادَ الملائكة.

وقال الماوَرْديُّ[٣]: فيه قولان: أحدُهما: الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٧.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

الثاني: هي الكواكبُ السبعةُ؛ حكاه خالد مَعْدان عن مُعاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمرَ وجهان: أحدُهما: تدبيرُ طُلوعِها وأُفولها. الثاني تدبيرُ ما قضاه الله تعالى فيها من تقلُّب الأحوال. وحكى هذا القولَ أيضاً القُشيريُّ في تفسيره، وأنَّ الله تعالى علَّق كثيراً من تدبير أمرِ العالَم بحركاتِ النجوم، فأُضيفَ التدبيرُ إليها وإن كان من الله، كما يسمَّى الشيءُ باسمِ ما يُجاوِرُه.

وعلى أنَّ المرادَ بالمدبِّرات الملائكةُ، فتدبيرُها: نزولُها بالحلالِ والحرام وتَفصيلِهِ؛ قاله ابن عباس وقتادةُ وغيرهما[١]. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكنْ لمَّا نزلت الملائكةُ به سمِّيتْ بذلك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] يعني جبريل، نزَّله على قلبِ محمدٍ ﷺ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي أنزله.

وروى عطاءٌ عن ابن عباس: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا»: الملائكةُ وُكِّلتْ بتدبيرِ أحوالِ الأرضِ في الرياح والأمطار وغيرِ ذلك. قال عبد الرحمن بنُ سابطٍ: تدبيرُ أمرِ الدنيا إلى أربعةٍ؛ جبريلُ وميكائيلُ وملكُ الموتِ ـ واسمُه عزرائيل ـ وإسرافيلُ. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكَّلٌ بالقَطْرِ والنبات، وأمَّا ملكُ الموتِ فموكَّلٌ بقبضِ الأنفسِ في البرِّ والبحر، وأما إسرافيلُ فهو ينزل بالأمر عليهم[٢]. وليس من الملائكة أقربُ من إسرافيل[٣]، وبينه وبين العرشِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ.

وقيل: أي: وُكِّلوا بأمورٍ عرَّفهم الله بها[٤].

ومن أوَّلِ السورةِ إلى هنا قَسَمٌ أقَسمَ الله به، ولله أن يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه،

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ دون نسبة.

(٢) سلف ١٧/ ٨ .

(٣) قطعة من خبر أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٩٥) عن وهيب بن عروة قال: بلغني أن أقرب الخلق من الله عز وجل إسرافيل...

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٩ ، والبغوي ٤/ ٤٤٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس لنا ذلك إلَّا به عزَّ وجلّ. وجوابُ القسمِ مُضمَرٌ، كأنه قال: والنازِعاتِ وكذا وكذا لَتُبعثُنَّ ولتحاسَبُنَ. أُضْمِرَ لمعرفةِ السامِعينَ بالمعنى؛ قاله الفراء[١]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أَلَسْتَ تَرى أنه كالجواب لقولهم: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً» نُبْعَث؟ فاكتفى بقوله: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً».

وقال قومٌ: وقع القسمُ على قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ وهذا اختيارُ التِّرمذيِّ ابن عليٍّ. أي: فيما قصصتُ مِن ذِكْرِ يومِ القيامةِ، وذِكْرِ موسى وفرعونَ «لعِبرةً لِمن يخشى».

ولكنَّ وَقْعَ القسمِ على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أحرى وأقْمنُ مِن أنْ يُؤتَى بشيءٍ ليس بمذكورٍ فيها، قال ابن الأنباريِّ: وهذا قبيح؛ لأنَّ الكلامَ قد طال فيما بينهما.

وقيل: جوابُ القسمِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لأنَّ المعنى: قد أتاك[٢].

وقيل: الجوابُ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ على تقدير: لَيوم ترجُف، فحذف اللام[٣].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: يومَ ترجُف الراجفةُ وتَتْبَعها الرادفةُ والنازعاتِ غرقاً[٤].

وقال السِّجِسْتانيُّ: يجوزُ أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعاتِ. ابن الأنباريِّ: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ الفاء لا يُفتحُ بها الكلام، والأوّلُ الوَجْهُ.

وقيل: إنَّما وقع القسمُ على أنَّ قلوبَ أهل النار تجفُّ، وأبصارهم تخشعُ،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ وقال: ليس بشيء.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ .

فانتصابُ «يومَ ترجُف الراجفة» على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجّاج[١]: أي: قلوبٌ واجفةٌ يومَ تَرْجُف. وقيل: انتَصَبَ بإضمارِ: اذْكُر.

و«ترجُف» أي: تَضْطَرِبُ. و«الراجفة» أي: المُضطَرِبة، كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرضُ، والرادِفةُ: الساعة[٢].

مجاهد: الراجفةُ: الزلزلة، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الصيْحة.

وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي: النفختان. أمَّا الأُولى فتُمِيتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى، وأمَّا الثانيةُ فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى[٣]. وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة»[٤].

وقال مجاهد أيضاً: الرادفةُ حين تنشقُّ السماء، وتُحملُ الأرضُ والجبال فتدَكُّ دكَّةً واحدة، وذلك بعد الزلزلة[٥].

وقيل: الراجفةُ تحرِّكُ الأرض، والرادفةُ: زلزلةٌ أخرى تُفني الأرضين. فالله أعلم. وقد مضى في آخرِ «النمل» ما فيه كفايةٌ في النفخ في الصور[٦].

وأصلُ الرجفةِ الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ [المزمل: ١٤] وليست الرجفةُ هاهنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعدُ يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً، أي: أَظْهَر الصوتَ والحركة، ومنه سمِّيت الأراجيفُ؛ لاضطراب الأصوات بها، وإفاضةِ الناس فيها؛ قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥-٦٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة.

(٤) سلف ١٦/ ٢١٨ .

(٥) أخرجه الطبري بنحوه ٢٤/ ٦٧ .

(٦) ١٦ : ٢١٨ فما بعد .

أبِالأَراجِيفِ يا ابنَ اللؤمِ تُوعِدنِي   وفي الأَرَاجيفِ خِلتُ اللؤمَ والخوَرَا[(١)]

وعن أُبيّ بن كعبٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربعُ الليلِ قام ثم قال: «يا أيها الناسُ، اذكُروا الله، جاءتِ الرَّاجِفةُ تَتبَعها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه»[(٢)].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفةٌ وَجِلَةٌ؛ قاله ابنُ عباس، وعليه عامَّةُ المفسِّرين[(٣)]. وقال السُّدِّيُّ: زائلةٌ عن أماكنها، نظيرهُ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨][(٤)]. وقال المؤرِّج: قلقة مُستوفِزة، مُرْتكِضَةٌ غيرُ ساكنة[(٥)]. وقال المبرد: مضطربةٌ. والمعنى متقارب.

والمرادُ قلوبُ الكفارِ؛ يقال: وجَفَ القلبُ يجِفُ وجِيفاً: إذا خَفَقَ، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيباً، ومنه: وَجيفُ الفرسِ والناقةِ في العَدْو، والإيجافُ: حَملُ الدابَّةِ على السَّيرِ السريع، قال:

بُدِّلْنَ بعد جِرَّةٍ صَرِيفَا   وبعد طولِ النَّفَسِ الوجِيفا[(٦)]

و«قلوبٌ» رفع بالابتداء، و«واجِفةٌ» صفتُها، و﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ خبرُها، مثل قوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ومعنى «خاشِعة»: مُنْكسِرة ذليلة من هَوْلِ ما ترى، نظيره: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣][(٧)]. والمعنى: أبصارُ

---

(١) ١٧/ ٢٣٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣ .

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٣٤ ، وقوله: مرتكضة، أي: مضطربة، في القاموس (ركض): ارتكض: اضطرب.

(٦) ذكرهما بهذا اللفظ الطبري ١٧/ ٥١٩ ضمن خبر عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقائلهما لبيد، وهما في ديوانه ص٣٥١ برواية:

بدِّلن بعد النَّفَش الوجيفا   وبعد طول الخبرة الصريفا

الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت علفه. والصريف: صرير ناب البعير، القاموس (جرر) و(صرف).

(٧) الكشاف ٤/ ٢٠٢

أصحابِها، فحذف المضاف.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: يقولُ هؤلاء المكذِّبون المنكِرون للبعث، إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون، قالوا مُنكِرين متعجِّبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أولِ الأمر، فنعودَ أحياءً كما كنَّا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] يقال: رجع فلانٌ في حافِرته، وعلى حافرته، أي: رجع مِن حيثُ جاء؛ قاله قتادة[١].

وأنشد ابن الأعرابيِّ:

أحَافِرةً على صَلَعٍ وشَيبٍ مَعَاذَ اللهِ مِن سَفَهٍ وعارِ[٢]

يقول: أأَرْجِعُ إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزَل والصِّبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته، أي: الطَّريقِ الذي جاء منه. وقولُهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوَّلِ كلمة. ويقال: التقى القومُ فاقتتلوا عند الحافرة، أي: عند أولِ ما التقَوْا[٣].

وقيل: الحافرةُ: العاجلة، أي: أئنَّا لمردودون إلى الدنيا فنَصِيرَ أحياءً كما كنَّا؟ قال الشاعر:

آلَيْتُ لا أنساكُمُ فاعلَمُوا حَتى يُرَدَّ الناسُ في الحافِرهْ[٤]

وقيل: الحافرة: الأرضُ التي تُحفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة، كقوله

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١ .

(٢) أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧، وأمالي القالي ١/ ٢٧، والصحاح (حفر). قال البَطَلْيَوْسي في الاقتضاب ص٣٩٤: هذا البيت لا أعلم قائله. اهـ. ونصب حافرة على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجوعاً إلى أول أمري، يريد: أأرجع رجوعاً، فحذف الفعل واكتفى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧ .

(٣) الصحاح (حفر) وقول يعقوب (وهو ابن السكيت) في إصلاح المنطق ص٣٢٧ . وقولهم: النقد عند الحافرة، هو لما يباع نقداً، وأصله من بيع الفرس؛ كان يقال: لا يزول حافره حتى ينقد ثمنه. مفردات الراغب (حفر)، وعمدة الحفاظ ١/ ٦٩٥ .

(٤) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠، والسمين في الدر المصون ١٠/ ٦٧١ .

تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. والمعنى: أئنا لمردودون في قبورنا أحياء. قاله مجاهدٌ والخليلُ والفرَّاء[١].

وقيل: سمِّيت الأرضُ الحافرة؛ لأنَّها مستَقَرُّ الحوافر، كما سمِّيت القدمُ أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى: أئنَّا لراجِعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا.

وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[٢]. وقال مقاتلٌ وزيد بن أسلم: هي اسمٌ من أسماء النار.

وقال ابن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا[٣].

وقرأ أبو حَيوةَ: «الحَفِرة» بغير ألف[٤]، مقصورٌ من الحافر، وقيل: الحفِرة: الأرضُ المُنتِنةُ بأجسادِ مَوْتاها، من قولهم: حَفِرتْ أسنانُه، إذا ركبها الوسخُ من ظاهرها وباطنها[٥]. يقال: في أسنانه حَفْر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْراً، مثل كَسَر يَكسِر كسْراً، إذا فَسَدتْ أصولُها. وبنو أَسدٍ يقولون: في أسنانه حَفَرٌ ـ بالتحريك ـ وقد حَفِرت، مثال: تعِبَ تَعَباً، وهي أردأُ اللغتين؛ قاله في «الصحاح»[٦].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي: بالية متفتِّتةً. يقال: نَخِرَ العظمُ بالكسر، أي: بَلِيَ وتَفتَّتَ؛ يقال: عظام نخِرة. وكذا قرأ الجمهورُ من أهلِ المدينة ومكةَ والشام والبصرة[٧]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الآثار التي تُذكَر فيها العظام، نظَرْنا فيها

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢، وذكره عن مجاهد والخليل ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، وأخرجه بنحوه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٧١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١-٧٢.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٧٠ عن ابن عباس ﷺ، قال: الحافرة: الحياة.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٠.

(٦) مادة (حفر).

(٧) قرأ بها من السبعة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص. السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩.

فرأينا نخِرة لا ناخرة.

وقرأ أبو عمرو وابنُه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «ناخِرةً» بألفٍ[١]، واختاره الفرَّاء والطبريُّ وأبو معاذٍ النحويُّ؛ لِوفاق رؤوسِ الآي[٢]. وفي «الصحاح»: والناخِرُ من العظام: الذي تدخلُ الريحُ فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخِرٌ، أي: ما بها أحدٌ. حكاه يعقوبُ عن الباهليِّ[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخِرةُ: التي لم تنخر بعد، أي: لم تَبْلَ، ولابدَّ أن تنخر[٤]. وقيل الناخرة: المُجوَّفة[٥].

وقيل: هما لغتان بمعنى، كذلك تقول العرب: نَخِرَ الشيءُ فهو نُخِرٌ وناخِر، كقولهم: طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِع، وحَذِرٌ وحاذِر، وبَخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه[٦]؛ قال الشاعر:

يـظَلُّ بـهـا الـشـيـخُ الـذي كـان بـادِناً ... يَـدِبُّ عـلـى عُـوْجٍ لـه نَـخِـراتِ[٧]

عُوج: يعني قوائم.

وفي بعض التفسير: ناخِرة بالألف: بالِية، ونَخِرة: تَنخُرُ فيها الريح[٨]، أي تمرُّ

---

(١) السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، دون ذكر أبي عمرو وابنه، والمشهور عن أبي عمرو: «نخرة»، كما في التعليق السابق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٢.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ عن بعض المفسرين أنه قال: النخرة: البالية، والناخرة: العظم المجوف الذي تمر فيه الريح فينخر.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١-٢٣٢، والكشاف ٤/ ٢١٣. قال الزمخشري: وفَعِلٌ أبلغ من فاعِل.

(٧) البيت للحطيئة، وهو في شرح ديوانه برواية:

فـظـل بـه الـشـيـخ الـذي كـان فـانـيـاً ... يَـدِفُ عـلـى عـوج لـه نـخـرات

قال الشارح: يَدِفُّ: كأنه يسرع ويمشي وفيه إبطاء لكبره، والعوج: أراد قوائمه قد اعوَجَّتْ من الكبر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٩٦.

فيها، على عَكسِ الأولِ؛ قال:

مِن بعدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرة[١]

وقال بعضُهم: الناخِرةُ: التي أُكِلتْ أطرافُها وبقيتْ أوساطُها. والنَّخِرةُ: التي فَسَدتْ كلُّها.

قال مجاهد: نَخِرة، أي: مَرْفوتة[٢]، كما قال تعالى: ﴿عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء:٩٨] ونُخْرةُ الريحِ بالضم: شدَّةُ هُبوبِها. والنُّخْرةُ أيضاً والنُّخَرةُ مثال الهُمَزةِ: مقدَّمُ أنفِ الفرسِ والحمارِ والخنزير؛ يقال: هشَّم نُخْرَته، أي: أنفه[٣].

﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رَجعةٌ خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنةً؛ قاله الحسن وغيره[٤]. الربيع بن أنس: خاسِرةٌ على مَن كذَّب بها. وقيل: أي: هي كَرَّةُ خُسْران. والمعنى: أهلُها خاسرون؛ كما يقال: تجارةٌ رابِحةٌ، أي: يَرْبَحُ صاحبها. ولا شيءَ أخسَرُ من كَرَّةٍ تقتضي المَصِيرَ إلى النار.

وقال قتادةُ ومحمد بن كعب: أي: لئن رَجَعْنا أحياءً بعد الموتِ لنحشَرَنَّ بالنار[٥]. وإنَّما قالوا هذا لأنَّهم أُوْعِدوا بالنار.

والكَرُّ: الرجوع؛ يقال: كَرَّهُ، وكَرَّ بنفسه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. والكَرَّةُ المَرَّة، والجمعُ: الكَرَّات[٦].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ذَكَر جلَّ ثناؤه سهولةَ البعثِ عليه فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

---

(١) سيأتي قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ عن قتادة بلفظ: رجعة خاسرة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٦، وفيه لنخسرن، بدل: لنحشرن.

(٦) الصحاح (كرر).

وَٰحِدَةٌ﴾. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: نفخةٌ واحدة[١] ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: الخلائقُ أجمعون ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وَجْهِ الأرض، بَعْدَ ما كانوا في بطنها. قال الفرَّاء: سُمِّيتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ فيها نومَ الحيوانِ وسَهَرَهم[٢]. والعربُ تُسمِّي الفَلاةَ ووَجْهَ الأرضِ: ساهِرة، بمعنى: ذات سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفاً منها[٣]، فَوصَفَها بصِفَةِ ما فيها. واستدلَّ ابنُ عباسٍ والمفسِّرون بقولِ أميةَ بنِ أبي الصَّلْتِ:

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبحرٍ وما فاهُوا به لَهُمُ مُقِيمُ[٤]

وقال آخَرُ يومَ ذي قارٍ لفرسه:

أَقْدِمْ مَحَاجِ إنَّها الأساوِرَهْ ولا يَهُولَنَّكَ رِجلٌ نادِرَهْ
فإنَّما قَصرُك تُربُ الساهِرهْ ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ
مِن بعدِ ما صِرتَ عِظاماً ناخِرَهْ[٥]

وفي «الصحاح»: ويقال: السَّاهور: ظِلُّ الساهِرة، وهي وجهُ الأرض. ومنه قولُه تعالى: «فإذا هُمْ بالساهِرةِ»، قال أبو كبير الهذليُّ:

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأنَّ جَميمَها وعَمِيمَها أسدافُ ليلٍ مُظلِمِ[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤ عن ابن زيد، وذكر الماوردي ٦/ ١٩٦ عن الربيع بن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ .

(٣) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤-٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ والبيت في ديوان أمية ص١٢١ . قوله: فاهوا، قال أبو عبيدة: أي تكلموا.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ . وذكرها القالي في أماليه ١/ ٢٦ ، وابن دريد في الجمهرة ٢/ ٢١٥ ، على أنها قيلت في القادسية، مع اختلاف يسير فيها. ونسبت في سمط اللآلي ١/ ١٢٣-١٢٤ للحارث بن سمي بن رؤاس الهمداني. وقال البكري: وكان قد ضُربت رجله فَنَدرتْ، أي: بانت، وقوله: فإنما قَصْرُك، أي: قُصَارُك.

(٦) الصحاح (سهر)، والبيت في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١٠٩٠ . قال شارح الديوان: الجميم: النبت الذي قد نبت وارتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، والعميم: المكتهل التام من النَّبت. اهـ. والأسداف جمع سَدَفٍ بالتحريك، وهو ظلمة الليل. اللسان (سدف).

ويقال: الساهور: كالغِلافِ للقمر يَدْخُلُ فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قولَ أمية بنِ أبي الصَّلْت:

قَـمـرٌ وسـاهـورٌ يُـسَـلُّ ويُـغْـمَـدُ[١]

وأنشدوا لآخَر في وَصْفِ امرأةٍ:

كـأنَّـهـا عِـرْقُ سـامٍ عـنـد ضـارِبِـهِ أو شُقَّةٌ خرجَتْ مِن جَوْفِ ساهورِ[٢]

يريد شُقَّةَ القمر.

وقيل: الساهرة: هي الأرضُ البيضاء.

ورَوى الضَّحاك عن ابن عباس قال: أرضٌ من فِضَّةٍ لم يُعْصَ الله جلَّ ثناؤه عليها قطُّ، خلَقَها حينئذٍ.

وقيل: أرضٌ جدَّدها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرةُ اسمُ الأرضِ السابعةِ يأتي بها الله تعالى فيحاسِبُ عليها الخلائق، وذلك حين تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال الثوريُّ: الساهرة: أرضُ الشام[٣]. وهب بنُ منبه: جبلُ بيتِ المَقْدِس. عثمان بنُ أبي العاتِكَةِ: إنه اسمُ مكانٍ من الأرض بعَيْنه بالشام، وهو الصُّقْعُ الذي بين جبل أرِيحاء وجبلِ حسَّان يَمدُّه الله كيف يشاء[٤].

قتادة: هي جهنم[٥]، أي: فإذا هؤلاء الكفارُ في جهنَّم. وإنَّما قيل لها: ساهرة؛

(١) ديوان أمية ص٤٩ ، والصحاح (سهر)، والخزانة ١/ ٢٤٩ ، وصدره: لا نقص فيه غير أن خبيئه.

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٢٠ ، وأساس البلاغة (سهر)، واللسان (سهر). وصدره في تهذيب اللغة وأساس البلاغة: كأنها بُهْتَةٌ ترعى بأقرية. وفي اللسان: أو فلقة، بدل: أو شقة. والسام: عروق الذهب والفضة، واحدتها سامَة. والبهتة: البقرة. اللسان (سهر) و(سوم).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٤ ، ووقع في إعراب القرآن: أرض بالشام.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٦-١٩٧ ، وأخرج القولين الطبري ٢٤/ ٧٧-٧٨ . وحسان: قرية بين دير العاقول وواسط. معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٨ .

لأنَّهم لا ينامون عليها حينئذٍ.

وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم، أي: يُوقَفون بأرض القيامة، فيدومُ السَّهرُ حينئذ.

ويقال: السَّاهرة: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سمِّيتْ بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعثُ بنُ قيس:

وساهرة يُضْحي السَّرابُ مُجَلِّلاً لأقطارِها قد جئتُها مُتلَثِّماً

أو لأنَّ سالِكَها لا ينامُ خَوفَ الهَلَكة(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَنهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: قد جاءك وبَلَغكَ حديثُ موسى، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. أي: إنَّ فرعون كان أقوى من كفَّار عَصْرِك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما»، أي: ما أتاك، ولكنْ أُخْبِرْتَ به، فإنَّ فيه عِبرةً لمن يخشَى. وقد مضى من خَبَرِ موسى وفرعونَ في غيرِ موضعٍ ما فيه كفاية.

وفي «طُوى» ثلاثُ قراءاتٍ: قرأ ابنُ مُحيصِنٍ وابنُ عامرٍ والكوفيون: «طُوًى» منوَّناً، واختاره أبو عبيد لخفَّةِ الاسم. الباقون بغير تنوين(٢)؛ لأنَّه معدولٌ، مثل: عُمر

---

(١) الكلام مع البيت في الكشاف ٤/ ٢١٣.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو من السبعة. السبعة ص٦٧١، والتيسر ص١٥٠.

﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأُرْشِدَكَ إلى طاعةِ ربِّك ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ أي: تخافه وتَتَّقيه.

وقرأ نافع وابن كثير: «تَزَّكَّى» بتشديدِ الزاي، على إدغامِ التاء في الزاي، لأنَّ أصلها: تتزكَّى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيفِ الزاي، على معنَى طَرْحِ التاء[1]. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد [تَتَصدَّق بـ][2] الصدقة، و«تَزَكَّى»: تكون زَكيًّا مؤمناً، وإنَّما دعا فرعونَ ليكون زكيًّا مؤمناً. قال: فلهذا اختَرْنا التخفيف.

وقال صخر بنُ جُوَيرية: لمَّا بعث الله موسى إلى فرعون قال له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ ولن يَفعَلَ. فقال: يا رب، وكيف أذهبُ إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل؟ فأوْحَى الله إليه: أن امضِ إلى ما أمرْتُكَ به، فإنَّ في السماء اثني عَشَرَ ألفَ مَلَكٍ يطلبون علمَ القَدر، فلم يَبْلُغوه ولا يُدْرِكوه[3].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: العلامةَ العُظمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبرُقُ كالشمس. وروى الضحَّاك عن ابن عباس: «الآية الكبرى» قال: العصا. الحسن: يده وعصاه[4]. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارةٌ إلى جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذَّب نبيَّ الله موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ أي: عصى ربَّه عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ أي: ولَّى مُدبِراً مُعْرِضاً عن الإيمان، «يسعَى» أي: يعملُ بالفساد في الأرض. وقيل: يعملُ في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية .﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جَمعَ أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جَمعَ جنودَه للقتال والمُحاربة، والسَّحَرةَ للمعارَضَة. وقيل: حشر الناس للحضور .﴿فَنَادَىٰ﴾ أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ ﴿فَقَالَ

---

(١) السبعة ص٦٧١ ، والتيسير ص٢١٩ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من تفسير الطبري ٢٤/ ٨١ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٦ . وصخر بن جويرية هو الإمام المحدث أبو نافع التميمي مولاهم، وقيل: مولى بني هلال، البصري، توفي سنة بضع وستين ومئة. السير ٧/ ٤١٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٢ .

وقُثَم. قال الفرَّاء[١]: طُوَى: وادٍ بين المدينةِ ومصرَ. قال: وهو معدولٌ عن طاوٍ، كما عُدِلَ عُمَرُ عن عامر.

وقرأ الحسنُ وعِكرمةُ: «طِوًى» بكَسْرِ الطَّاء، ورُوِي عن أبي عمرو. على معنى: المُقَدَّس مرةً بعد مرة؛ قاله الزجَّاج وأنْشَد:

أعَاذِل إنَّ اللومَ في غيرِ كُنْهِهِ علَيَّ طِوًى مِن غَيِّكِ المتردِّدِ[٢]

أي: هو لومٌ مُكرَّرٌ عليَّ. وقيل: ضمُّ الطَّاءِ وكَسْرُها لغتان، وقد مضى في «طه» القولُ فيه[٣].

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ناداه ربُّه، فحذف؛ لأنَّ النداء قولٌ، فكأنه: قال له ربُّه: «اذْهَبْ إلى فِرعونَ». ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: جاوَزَ القَدْرَ في العِصْيان.

ورُوِي عن الحسن قال: كان فرعون عِلجًا من هَمْدان[٤]. وعن مجاهدٍ قال: كان من أهلِ إصْطَخْر[٥]. وعن الحسن أيضاً قال: من أهلِ أصبهان، يقال له: ذو ظفر، طولُه أربعةُ أشبار.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تُسْلِم فتَطْهُر من الذنوب. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هل لك أنْ تشْهَد أن لا إلهَ إلاَّ الله[٦].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٩ ، ونسبه الزجاج لطرفة وكذلك الفارسي في الحجة ٦/ ٣٧٢ ، وليس في ديوانه. ونسب لعدي بن زيد، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٤ ، واللسان (طوي). والقراءة بكسر الطاء في القراءات الشاذة ص١٦٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٨٠ .

(٣) ١٤/ ٢٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٣/ ١٠٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٨ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨١ عن عكرمة.

أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا ربَّ لكم فوقي.

ويُروَى: أنَّ إبليسَ تَصَوَّر لفرعون في صورة الإنس بمصرَ في الحمام، فأنكره فرعون. فقال له إبليس: ويْحَك! أمَا تَعْرفُني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ ألَسْتَ القائلَ: أنا ربُّكم الأعلى! ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»(١).

وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال: أنا ربُّ أصنامِكم. وقيل: أراد القادةَ والسادةَ، هو ربُّهم، وأولئك هم أربابُ السَّفِلة.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ: فنادى فحشر(٢).

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: نكالَ قولِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] وقولِه بَعْدُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وعِكرمة(٣). وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ابن عباس(٤). والمعنى: أمْهَلَه في الأُولى، ثم أخَذَه في الآخرة، فعذَّبه بكلِمتَيْه.

وقيل: نكالُ الأُولى: هو أن أغرقَه، ونكالُ الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادةُ وغيرُه(٥).

وقال مجاهدٌ: هو عذابُ أولِ عمرِه وآخِرِه(٦).

وقيل: الآخرةُ قولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأُولى تكذيبُه لموسى. عن قتادة أيضاً(٧).

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٥ عن ابن عباس ومجاهد، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٤، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨. وأخرجه الطبري أيضاً ٢٤/ ٨٦ عن مجاهد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٨، والوسيط ٤/ ٤٢٠.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨٧، وفيه: عمله، بدل: عمره.

(٧) ذكره الرازي ٣١/ ٤٣ دون نسبة.

و«نكالَ» منصوبٌ على المصدر المؤكِّدِ في قول الزجَّاج؛ لأنَّ معنى أخَذَه الله: نكَّل الله به[١]، فأخرَجَ مكانَ مصدرٍ من معناه، لا من لَفْظِه. وقيل: نُصِبَ بنزْعِ حرفِ الصِّفَة، أي: فأخَذَه الله بنكال الآخرة، فلمَّا نُزِعَ الخافِضُ نُصِب. وقال الفرَّاء: أي: أخَذَه الله أخْذاً نكالاً[٢]، أي: للنكال.

والنكال: اسمٌ لما جُعِلَ نَكالاً للغير، أي: عقوبةً له حتى يَعْتَبِر به. يقال: نكَّلَ فلانٌ بفلان: إذا أثْخَنه عقوبةً. والكلمةُ من الامتناع، ومنه النُّكولُ عن اليمين، والنِّكْلُ: القيد. وقد مضى في سورة المزَّمل[٣]، والحمد لله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً وعِظَةً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: يخافُ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يريدُ أهلَ مكةَ، أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، فَمَنْ قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١]، فمعنى الكلامِ التقريعُ والتوبيخُ.

ثم وَصَف السماءَ فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: رَفَعها فوقكم كالبناء. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: أعْلَى سَقْفَها في الهواء؛ يقال: سَمَكتُ الشيءَ، أي: رفعته في الهواء، وسَمَكَ الشيءُ سُمُوكاً: ارتفع. وقال الفرَّاء: كلُّ شيءٍ حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناءٌ مَسْمُوك، وسَنامٌ سامِكٌ تامك، أي: عالٍ، والمسموكات: السَّمَاوات. ويقال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨٠ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ وإعراب القرآن، للنحاس ٥/ ١٤٤ والعبارة فيهما: فأخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى.

(٣) ٢١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ .

اسمُكْ في الرَّيْم، أي: اصْعَدْ في الدرجة[١].

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلَقها خَلْقاً مستوياً، لا تَفاوُتَ فيه، ولا شُقوقَ، ولا فُطُور. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَلَه مُظْلماً؛ غَطَشَ الليلُ وأغْطَشَه الله، كقولك: ظَلِمَ وأظْلَمه الله. ويقال أيضاً: أغْطَشَ الليلُ بنَفْسِه، وأغْطَشَه الله، كما يقال: أظْلَمَ الليلُ، وأظْلَمه الله. والغَطَشُ والغَبَش: الظُّلْمةُ. ورجلٌ أغْطَشُ، أي: أَعْمَى، أو شبيهٌ به، وقد غَطِشَ، والمرأةُ غَطشاءُ، ويقال: ليلةٌ غَطشاءُ، وليلٌ أغْطَشُ. وفلاةٌ غَطشَى: لا يُهتدَى لها؛ قال الأعشى:

وَيَهْماءَ بالليلِ غَطْشَى الفَلا ةِ يُؤْنِسُني صوتُ فَيَّادِها[٢]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً ناقتي وغامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ[٣]

يعني بغامرِهم: ليلَهم؛ لأنه غَمَرَهم بسواده.

وأضاف الليلَ إلى السماء لأنَّ الليل يكونُ بغروب الشمس، والشمسُ مضافٌ إلى السماء، ويقال: نجومُ الليلِ، لأنَّ ظهورها بالليل.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرزَ نهارَها وضوءَها وشمسها. وأضاف الضُّحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل[٤]؛ لأنَّ فيهاسببَ الظَّلام والضياءِ، بغُروب[٥]

---

(١) الصحاح (سمك). وذكر القالي في الأمالي ١/ ١٦٠ عن أبي عمرو بن العلاء قال: أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل، فقال لي رجل منهم: اسمُك في الرَّيم، أي: اعل في الدرجة.

(٢) ديوان الأعشى ص١٢٣ ، وتهذيب اللغة ١٦/ ١٦١ ، والصحاح (غطش)، واللسان (غطش) وفيه: الأرض اليهماء: التي لا يُهتَدى فيها لطريق، والغطش مثله. وقوله: فيادها، هو ذَكَر البوم. القاموس (فيد).

(٣) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ١/ ١٢١ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤ ووقع في الجمهرة: وغامرنا، وفي المحرر: وليلهم. قوله: موهناً، هو نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. القاموس (وهن).

(٤) في النسخ الخطية: كما أضاف الظلمة.

(٥) في (م): وهو غروب.

الشمسِ وطُلوعها.

و﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها[١]. وهذا يشيرُ إلى كونِ الأرضِ بعدَ السماء. وقد مضى القولُ فيه في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية: ٢٩] مستوفًى. والعربُ تقول: دَحَوْتُ الشيءَ أدْحُوه دَحْواً: إذا بَسَطْته. ويقال لعشِّ النعامة: أُدحِيٌّ؛ لأنَّه مبسوطٌ على وجه الأرض[٢]. وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها فَهُمْ قُطَّانُها حتى التَّنادي[٣]

وأنشد المبرِّد:

دَحَاها فلمَّا رآها اسْتَوتْ على الماءِ أرْسَى عليها الجبالا[٤]

وقيل: دحاها: سوَّاها، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو:

وأسْلَمتُ وجهي لمَن أسْلَمَتْ له الأرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا
دحاها فلمَّا اسْتَوتْ شَدَّها بأيْدٍ وأرْسَى عليه الجبالا[٥]

وعن ابن عباس: خَلَق الله الكعبةَ ووَضَعَها على الماء على أربعةِ أركان قبل أن يخلُقَ الدنيا بألْفَيْ عامٍ، ثم دُحِيت الأرضُ من تحت البيت[٦].

وذَكَر بعضُ أهلِ العلم: أنَّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرضَ مع ذلك

---

(١) أخرج الطبري ٢٤/ ٩٥ هذا القول على قتادة والسدي وسفيان.

(٢) في الصحاح (دحا): وأُدْحِيُّها (يعني النعامة): موضعها الذي تفرِّخ فيه؛ لأنها تَدْحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عُشٌّ. ومثله في غريب الحديث للخطابي ٣/ ٨١، واللسان (دحا).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٩، وسلف ١٨/ ٣٥٣ برواية: سكانها، بدل: قطانها.

(٤) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وهو بهذه الرواية في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١، وسيكرره المصنف بنحوه مع بيت آخر من القصيدة نفسها.

(٥) الأغاني ٣/ ١٢٨، والنكت والعيون ٦/ ١٩٩، واللفظ منه، ووقع في الأغاني: سواء، بدل: بأيد.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٣.

دحاها، كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] ومنه قولُهم: أنت أحمقُ وأنت بعد هذا سَيِّئُ الخُلُقِ[١]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لها فِيئي[٢] إليكِ فإنَّني حَرَامٌ وإنِّي بعدَ ذاكَ لَبيبُ[٣]

أي: مع ذلك لبيب.

وقيل: «بعدَ» بمعنى: قَبْلَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥] أي: من قَبْلِ الفرقان؛ قال أبو خِرَاش الهذلي:

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عروةَ إذ نجا خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ[٤]

وزَعَموا أنَّ خِراشاً نجا قبلَ عروة.

وقيل: «دحاها» حَرَثَها وشقَّها. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: «دحاها»: مهَّدها للأقْوات. والمعنى مُتَقارِب.

وقراءةُ العامة: «والأرضَ» بالنصب، أي: دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «والأرضُ» بالرفع[٦] على الابتداء؛ لرجوع الهاء.

ويقال: دحا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَى يَدحَى دَحْياً، كقولهم: طَغَى يَطْغَى ويَطْغُو،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٣، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. وأخرج الطبري هذا القول عن مجاهد والسدي.

(٢) في (م): عني.

(٣) البيت للمضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، كما في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠، وأمالي القالي ٢/ ١٧١، والاقتضاب ص٤٧٥، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٦١٥، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. قال البطليوسي: ويروى لشبل بن الصامت المرِّي، وقال في شرحه: معنى فيئي: ارجعي، والحرام: المُحْرِم. ولبيب هنا بمعنى مُلَبٍّ، وصف أن محبوبته لقيها وهو مُحرِمٌ مُلبٌّ فتورَّع عن الكلام معها.

(٤) الأضداد لابن الأنباري ص١٠٨، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٧. قال الشارح: عروة أخوه، وخراش ابنه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٩.

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٨ عن الحسن.

وطغِيَ يَطْغَى، ومحا يَمحو ويمْحى، ولحَى العود يَلْحَى ويَلْحو[١]، فَمَن قال: يدحو، قال: دَحَوْتُ، ومَن قال: يَدحَى، قال: دَحَيْتُ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخرجَ من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ أي: العيونَ المتفجِّرة بالماء ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: النباتَ الذي يُرعَى. وقال القُتَبيُّ[٢]: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرَجه من الأرض قُوتاً ومتاعاً للأنام، من العُشْبِ والشَّجرِ والحَبِّ والتَّمرِ والعَصْفِ والحَطَبِ واللِّباسِ، والنارِ والملح؛ لأنَّ النار من العيدان، والمِلْحَ من الماء.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ قراءةُ العامَّةِ: «والجبالَ» بالنَّصب، أي: وأرْسَى الجِبالَ أرْساها، يعني: أثْبتَها فيها أوْتاداً لها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم: «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء[٣].

ويقال: هلاَّ أدْخَل حرفَ العطفِ على «أخرج». فيقال: إنه حالٌ بإضمارِ قد، كقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠][٤].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعةً لكم ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ من الإبل والبقر والغنم. و«متاعاً» نصب على المصدر من غيرِ اللَّفظ؛ لأنَّ معنى «أَخْرجَ منها ماءَها ومَرْعاها»: أمْتعَ بذلك[٥]. وقيل: نصب بإسقاطِ حرفِ الصِّفةِ، تقديرُه: لتتمتَّعوا به متاعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهيةُ العُظْمَى، وهي النفخةُ الثانيةُ

---

(١) أي: قشره، في اللسان (لحا): لَحَوْتُ العود ألحوه وألحاه: إذا قشرته.

(٢) في تأويل مشكل القرآن ص٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢١٥ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨١ .

التي يكونُ معها البعثُ؛ قاله ابن عباس في روايةِ الضحَّاكِ عنه، وهو قولُ الحسن[١].

وعن ابن عباسٍ أيضاً والضحاك: أنَّها القيامة[٢]، سمِّيتْ بذلك لأنها تَطمُّ على كلِّ شيءٍ، فتعمُّ ما سواها لِعظَمِ هَوْلها، أي: تَغْلبهُ. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيّ[٣].

المبرِّد: الطامَّةُ عند العرب: الداهيةُ التي لا تُستَطاع، وإنَّما أُخِذَتْ فيما أحْسبُ من قولهم: طمَّ الفرسُ طميماً: إذا استَفْرَغَ جهدَه في الجَرْي، وطمَّ الماء: إذا ملأ النهرَ كلَّه. غيره: مأخوذةٌ من طَمَّ السيلُ الرَّكيَّة، أي: دَفَنَها، والطَّمُّ: الدَّفْنُ والعُلُوّ[٤].

وقال القاسم بن الوليد الهمْدانيُّ: الطامَّةُ الكبرى حين يُساقُ أهلُ الجنةِ إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار. وهو معنى قولِ مجاهد[٥] وقال سفيان: هي الساعةُ التي يُسْلَم فيها أهلُ النارِ إلى الزَّبانية. أي: الداهيةُ التي طَمَّتْ وعَظُمَتْ؛ قال:

إنَّ بعضَ الحبِّ يُعمِي ويُصِمّ وكذاك البغضُ أدهَى وأطَمّ[٦]

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يُكشَفُ عنها فيراها تَتلَظَّى كلُّ ذي بَصرٍ. وقيل: المرادُ الكافرُ؛ لأنه الذي يرى النارَ بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمنُ ليعرف قَدْرَ النعمةِ ويَصْلَى الكافرُ بالنار. وجوابُ «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوفٌ، أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ عن الحسن، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ عن ابن عباس والحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٩٧.

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٣٠٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٩، والمستقصى ٢/ ٥١. قال الزمخشري: القري: هو مستجمَعُ الماء الكثير، يضرب مثلاً في غلبةِ الرجل قرنَه. وقال العسكري: يضرب مثلاً للأمر العظيم، يجيءُ فيعم الصغير والكبير.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٤٩، والرَّكِيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠، وقول القاسم بن الوليد أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨، والطبري ٢٤/ ٩٧. والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، روى عن المنهال بن عمرو وقتادة ومجاهد وغيرهم، توفي سنة (١٤١هـ). التهذيب ٣/ ٤٢٣.

(٦) لم نقف عليه.

إذا جاءت الطامةُ، دخل أهلُ النارِ النارَ وأهلُ الجنةِ الجنةَ(١).

وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ»(٢). عِكرمةُ وغيرُه: «لِمن تَرى» بالتاء، أي: لمن تَراه الجحيم، أو لمن تَراه أنتَ يا محمد. والخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمرادُ به الناس(٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تَجاوزَ الحدَّ في العِصيان. قيل: نزلت في النَّضر وأبيه(٤) الحارث، وهي عامةٌ في كلِّ كافرٍ آثَرَ الحياةَ الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: مَن اتَّخذ مِن طعامٍ واحدٍ ثلاثةَ ألوانٍ فقد طَغى.

وروى جُوَيبر عن الضحَّاك قال: قال حذيفةُ: أخْوَفُ ما أخافُ على هذه الأمَّةِ أنْ يُؤْثِروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون(٥).

ويُروَى أنه وُجِدَ في الكتب: إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: لا يُؤْثِرُ عبدٌ لي دنياهُ على آخرته، إلاَّ بَثَثْتُ عليه همومَه وضَيَّعْتُه، ثم لا أُبالي في أيِّها هَلَك.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مأواه. والألفُ واللَّامُ بَدَلٌ من الهاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥١ ، وذكر الرازي وجهاً آخر، وهو أن يكون الجواب: «فإن الجحيم هو المأوى»، قال: وكأنه جزاء مركب على شرطين، أي: إذا جاءت الطامة الكبرى، فمن جاء طاغياً، فإن الجحيم مأواه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥١ .

(٤) في النسخ: وابنه، والمثبت من تفسير الرازي ٣١/ ٥١ وفيه: «طغى وأثر الحياة الدنيا» النضر وأبوه الحارث.

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٩٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٨ .

مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حَذِر مقامَه بين يدي ربِّه. وقال الربيع: مقامه يومَ الحساب[١]. وكان قتادةُ يقول: إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفُه في الدنيا من الله عزَّ وجلَّ عند مُواقَعةِ الذَّنْبِ فيُقْلِع[٢]. نظيرُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زَجَرها عن المعاصي والمَحارِم. وقال سهل: تَرْكُ الهوى مِفتاحُ الجنة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾. قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمانٍ يقودُ الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهَوَى الحقَّ، فنعوذُ بالله من ذلك الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل.

والآيتان نزلتا في مصعَب بن عُمير وأخيه عامر بنِ عمير، فروَى الضحَّاك عن ابن عباسٍ قال: أمَّا مَن طَغَى، فهو أخٌ لمصعب بنِ عمير أُسِر يومَ بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: مَن أنت؟ قال: أنا أخو مُصعَب بنِ عُمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيَّتوه عندهم، فلمَّا أصبحوا حدَّثوا مصعَب بنَ عُمير حديثَه، فقال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثرُ أهلِ البطحاءِ حُلِيّاً ومالاً. فأوثَقوه حتى بعثتْ أمُّه في فِدائه. «وأما من خاف مقامَ ربِّه» فمصعَب بنُ عمير، وَقَى رسول الله ﷺ بنفسه يومَ أُحُدٍ حين تَفرَّقَ الناس عنه، حتى نفذت المشاقصُ في جَوْفه ـ وهي السهامُ ـ فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ مُتشحِّطاً في دَمِه قال: «عندَ الله أحْتَسِبُكَ»، وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردانِ ما تُعرَفُ قيمتُها، وإنَّ شِراكَ نَعْلَيْه من ذَهب»[٣]. وقيل: إنَّ مصعب بنَ عمير قَتَل أخاه عامِراً يومَ بدر[٤].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) أخرج قول قتادة وقول مجاهد الطبري ٢٢/ ٢٣٦-٢٣٧ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ مختصراً دون نسبة، وسلف ١٠/ ٧٦ خبر مصعب بن عمير مع أخيه عندما أُسر يوم بدر.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ ، إلا أنه ذكر أبا عزيز بدل عامر، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ عن هذا الخبر والذي قبله: لم أجده. اهـ وينظر ما سلف ١٧/ ٣٠٧-٣٠٨ .

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلتْ هذه الآيةُ في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميّ، ومصعب بنِ عمير العَبدَريّ.

وقال السُّدِّيُّ: نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في أبي بكرٍ الصِّديقِ ﷺ، وذلك أنَّ أبا بكر كان له غلامٌ يأتيه بطعام، وكان يسأله: مِن أين أتيتَ بهذا؟ فأتاه يوماً بطعامٍ فلم يسأله وأكلَه، فقال له غلامُه: لِمَ لا تسألُني اليوم؟ فقال: نسيتُ، فمِنْ أين لك هذا الطعام؟ فقال: تَكَهَّنْتُ لقومٍ في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقاياه من ساعته وقال: يا ربِّ، ما بقي في العروق فأنت حَبَسْتَه، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[(١)].

وقال الكلبيُّ: نزلتْ في مَن همَّ بمعصية وقَدَر عليها في خلوة، ثم تركها مِن خوفِ الله. ونحوه عن ابن عباس[(٢)]. يعني مَن خاف عند المعصيةِ مَقامَه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال ابن عباسٍ: سأل مُشركو مكةَ رسولَ الله ﷺ: متى تكون الساعةُ استهزاءً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية[(٣)].

وقال عُروة بنُ الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ لم يَزَل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[(٤)]. ومعنى «مُرْساها»، أي: قيامُها. قال الفرَّاء: رُسُوُّها: قيامُها، كرسوِّ السفينةِ[(٥)]. وقال أبو عبيدة[(٦)]: أي:

(١) الورع لأحمد ص٨٤، وحلية الأولياء ١/ ٣١، وليس فيهما ذكر نزول الآية.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وقال الفراء: وليس قيامها كقيام القائم على رجله ونحوه، إنما هو كقولك: قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.

مُنتَهاها، ومرسَى السفينةِ حيث تنتهي. وهو قولُ ابنِ عباس. الربيعُ بن أنس: متى زمانُها[١]. والمعنى متقارِبٌ. وقد مضى في «الأعراف» بيانُ ذلك[٢]. وعن الحسن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ إلَّا بغَضبَةٍ يغضَبُها ربُّك»[٣].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: في أيِّ شيءٍ أنت يا محمدُ من ذِكرِ القيامةِ والسؤالِ عنها؟ وليس لك السؤالُ عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهريُّ عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ؟ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٤] أي: مُنتهى عِلْمِها؛ فكأنه عليه الصلاة والسلامُ لمَّا أكثَروا عليه سأل الله أن يعرِّفه ذلك. فقيل له: لا تَسأَلْ، فلستَ في شيءٍ من ذلك.

ويجوزُ أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنتَ من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولستَ ممَّن يَعلَمُه. رُوِي معناه عن ابن عباس[٥]. والذِّكرَى بمعنى الذِّكْرِ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: مُنتهى عِلْمِها، فلا يُوجَدُ عند غيرِه، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: مخوِّفٌ، وخَصَّ الإنذارَ بمَن يَخشى؛ لأنَّهم المنتفعون به، وإنْ كان مُنْذِراً لكلِّ مُكلَّفٍ، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١٢]. وقراءةُ العامَّةِ: «منذِرُ» بالإضافةِ غيرَ منوَّنٍ؛ طَلَبَ التخفيفِ، وإلَّا فأصلُه التنوين لأنَّه للمستقبل، وإنَّما لا ينوَّنُ في الماضي. قال

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) ٩/ ٤٠٥ .

(٣) أخرجه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٧٩)، وهو من مراسيل الحسن، ويرويه عنه الحسن بن دينار، قال عنه ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، فأما أحمد ويحيى فكانا يكذبانه. الميزان ١/ ٤٨٩ .

(٤) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

الفرَّاء: يجوزُ التنوينُ وتَرْكُه، كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ [الطلاق:٣] و«بالِغٌ أمْرَه» و﴿مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨] و«موهِنٌ كيدَ الكافِرين»[1]، والتنوينُ هو الأصلُ، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبةُ والأعرجُ وابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ، وعباسٌ عن أبي عمرو: «منذِرٌ» منوناً[2]، وتكون [مَن][3] في موضعِ نصب. والمعنى[4]: إنَّما ينتفعُ بإنذارِكَ مَن يخشَى الساعة.

وقال أبو عليٍّ[5]: يجوزُ أن تكون الإضافةُ للماضي، نحو: [هذا] ضاربُ زيدٍ أمسِ؛ لأنَّه قد فَعَل الإنذار.

والآيةُ ردٌّ على مَن قال: أحوالُ الآخرة غيرُ مَحْسوسةٍ، وإنَّما هي راحةُ الرُّوحِ أو تألُّمها من غير حِسٍّ.

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾ يعني الكفارَ يَرَوْنَ الساعةَ ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ أي: في دُنْياهُم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قَدْرَ عشيةٍ ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أو قَدْرَ الضُّحا الذي يلي تلك العَشيَّةَ، والمرادُ تقليلُ مدَّةِ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف:٣٥] ورَوَى الضحاك عن ابن عباس: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يلبثوا إلَّا يوماً واحداً.

وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم «إلَّا عشِيةً أو ضُحاها»، وذلك أنَّهم استَقصَروا مدَّة لَبثِهم في القبور لِمَا عاينوا من الهول.

وقال الفرَّاء: يقولُ القائلُ: وهل للعشيةِ ضُحًا؟ وإنَّما الضُّحا لصَدرِ النَهارِ، ولكنْ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩: فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

(٢) النشر ٢/ ٣٩٨ عن أبي جعفر، ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٦٧١، والمشهور عن أبي عمرو: «منذرُ» بالإضافة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بعدها في (م): نصب، ولا معنى لها.

(٥) في الحجة ٦/ ٣٧٥، وما سيأتي بين حاصرتين.

أضيفَ الضُّحا إلى العشية ـ وهو اليومُ الذي يكونُ فيه ـ على عادةِ العرب؛ يقولون: آتيكَ الغَدَاة أو عشيَّتها، وآتيكَ العشيةَ أو غَدَاتَها، فتكونُ العشيةُ في معنى آخِرِ النهار، والغداةُ في معنى أوّلِ النهار؛ قال: وأنشدني بعضُ بني عقيل:

نحنُ صَبَحنا عامِراً في دارِها جُردًا تَعَادَى طَرَفَيْ نهارِها
عشِيةَ الهلالِ أو سِرَارِها[1]

أراد: عشية الهلالِ، أو عشيةِ سِرارِ العشيةِ، فهذا أشدّ[2] من: آتيكَ الغداةَ أو عَشِيَّها.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠١، وزاد المسير ٩/ ٢٥، وليس عندهم إلا البيتان الأول والثالث، والأبيات الثلاثة في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥، واللسان (سرر)، وذكر الأول والثاني صاحب اللسان (صبح) وقال: يريد أتيناها صباحاً بخيلٍ جُرْدٍ.

(٢) في مطبوع معاني القرآن للفراء: أَسَدُّ.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكِّيَّةٌ، وآيُها خمسٌ أو سِتٌّ وأربعونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٥) ـ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ هـذهِ صفـاتُ ملائكةِ المـوتِ، فإنَّهـم يَنزِعـونَ أرواحَ الكُفَّارِ مِـن أبدانِهـم غَرْقًـا؛ أي: إغراقًـا في النَّـزعِ؛ فإنَّهُم يَنزِعُونَها مِن أقاصـي الأبدانِ، أو نفوسًـا[1] غَرِقـةً فـي الأجسـادِ، ويَنشِـطُونَ؛ أي: يُخرِجـونَ أرواحَ المؤمنيـنَ برِفْقٍ، مِـن نَشَـطَ الدَّلـوَ مِـن البئـرِ: إذا أخرجَهـا، ويَسْـبَحونَ في إخراجِهـا سَـبْحَ الغوَّاصِ الـذي يُخـرِجُ الشَّـيْءَ مِـن أَعمـاقِ البحـرِ، فيَسـبِقونَ بـأَرواحِ الكفَّـارِ إلـى النَّـارِ وبـأرواحِ المُؤمنيـنَ إلـى الجنَّةِ، فيُدبِّـرونَ أمـرَ عقابِها وثوابِهـا بأن يُهَيِّئوهَـا لإدراكِ مـا أُعِـدَّ لها مِـن الآلامِ واللـذَّاتِ.

أو الأُوليانِ لَهُم، والباقياتُ لطَوائفَ مِن الملائكةِ يَسْبَحونَ في مُضيِّها[2]؛ أي: يُسرِعونَ فيه، فيَسبقونَ إلى ما أُمِرُوا به، فيُدبِّرونَ أمرَهُ.

---

(١) قوله: «أو نفوساً» عطف على «أرواح الكفار». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٥٢).

(٢) قوله: «في مضيها» الأظهر أن يقال: في مضيِّهم، ولما حمل السابقات على طوائف غير ملائكة الموت لم يكن السبح إخراجَ الأرواح بل بمعنى المضي والسرعة في اتصالها لما سيقت له من النعيم والعذاب. قاله الشهاب.

أو: صفاتُ النُّجومِ؛ فإنَّها تَنزِعُ مِن المشرقِ إلى المغربِ غَرْقًا في النَّزعِ[١]، بأن تقطعَ الفَلَكَ حتى تنحطَّ في أقصى المغربِ، وتَنشِطُ مِن بُرجٍ إلى بُرجٍ؛ أي: تخرجَ، مِن نَشِطَ الثَّورُ: إذا خرجَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ويَسبحونَ في الفَلَكِ فيَسبِقُ بعضُها في السَّيرِ لكونِه أسرعَ حركةً، فتُدبِّرُ أمرًا نيطَ بها كاختلافِ الفُصولِ وتقديرِ الأزمِنَةِ وظُهورِ مَواقيتِ العباداتِ، ولَمَّا كانَتْ حركاتُها مِن المشرقِ إلى المغربِ قَسْرِيَّةً، وحركاتُها مِن برجٍ إلى برجٍ مُلائِمةً، سمَّى الأُولَى نزعًا والثانيةَ نَشْطًا.

أو: صفاتُ النُّفوسِ الفاضِلَةِ حالَ المفارقةِ؛ فإنَّها تُنزَع عن الأبدانِ غَرْقًا؛ أي: نزعًا شديدًا، مِن إغراقِ النَّازعِ في القَوسِ، وتُنشَطُ إلى عالمِ المَلَكوتِ، وتَسبَحُ فيها فتَسبِقُ إلى حظائرِ القُدسِ، فتصيرُ لشَرَفِها وقُوَّتِها مِن المدبِّراتِ، أو حالَ سُلوكِها[٢]؛ فإنَّها تَنْزِعُ عَن الشَّهواتِ، وتَنشِطُ إلى عالم القدسِ، فتسبحُ في مراتبِ الارتقاءِ، فتَسبِقُ إلى الكمالاتِ حتَّى تصيرَ مِن المُكمِّلاتِ[٣].

أو: صفاتُ أنفُسِ الغُزَاةِ أو أَيديهِمْ، تَنزِعُ القِسِيَّ بإغراقِ السِّهامِ، ويَنشِطونَ بالسَّهمِ للرَّميِ[٤]، ويَسْبَحونَ في البرِّ والبَحرِ، فيَسبِقونَ إلى حربِ العدوِّ، فيُدبِّرونَ أمرَها.

أو: صفاتُ خيلِهِم؛ فإنَّها تَنزِعُ في أعنَّتِها نَزْعًا تَغْرَقُ فيه الأعنَّةُ لطولِ

---

(١) «غَرْقاً في النَّزعِ»؛ أي: مجدّةً في السَّيرِ مُسرِعةً. قاله الشهاب.

(٢) قوله: «أو حال سلوكها» عطف على «حال المفارقة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٥٢ـ٤٥٣).

(٣) «حتى تصير من المكملات»: بصيغة اسم الفاعل أو المفعول، والظاهرُ الأول لأنه تفسير للمدبرات. قاله الشهاب.

(٤) «بإغراقِ السِّهامِ»؛ أي: المُبالغةِ في جذبِها للرَّميِ «ينشِطُونَ بالسَّهمِ للرَّميِ»؛ أي: يُرسِلُونَه بعد الجذبِ. قاله الشهاب.

أَعناقِهـا، وتَخْـرُجُ مِن دارِ الإسـلامِ إلـى دارِ الكُفرِ، وتسـبَحُ في جَريِها، فتَسـبِقُ إلى العَـدُوِّ، فتُدبِّـرُ أمـرَ الظَّفرِ.

أقسمَ اللهُ بها على قيامِ السَّاعةِ، وإنَّما حُذِفَ[٥] لدلالةِ ما بعدَهُ عليهِ.

(٦) ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهـو مَنصـوبٌ بـهِ[٦]، والمـرادُ بالرَّاجفَـةِ: الأجـرامُ السَّـاكنَةُ التـي تشـتدُّ حركَتُهـا حينئـذٍ كالأرضِ والجبـالِ؛ لقولـه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، أو الواقعـةُ التـي ترجـفُ الأجـرامُ عندَهـا، وهـي النَّفخَـةُ الأولى.

(٧) ـ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾: التَّابعةُ، وهي السَّماءُ والكواكِبُ تنشَقُّ وتنتَثِرُ، أو النَّفخةُ الثَّانيةُ، والجملةُ في موقعِ الحالِ.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾: شديدةُ الاضطرابِ، مِن الوَجيفِ، وهي صفةٌ لـ﴿قُلُوبٌ﴾[٧] والخبرُ: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾؛ أي: أبصارُ أَصحابِها ذليلةٌ مِن الخوفِ، ولذلك أضافَها إلى القُلوبِ.

(١٠) ـ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾: فـي الحالـةِ الأولـى، يعنـونَ: الحيـاةَ بعـدَ المـوتِ؛ مِـن قولِهـم: رجَـعَ فـلانٌ فـي حافرَتِـه؛ أي: طريقِـه التـي جـاءَ فيهـا

(٥) قولُـه: «وإنَّمـا حُـذِفَ»؛ أي: جوابُ القَسـمِ، وتقديـرُه: لتُبعَثُـنَّ، أو: لتَقُومَـنَّ القيامةُ، ونحـوُه. قاله الشهاب.

(٦) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿يَوْمَ﴾ «منصوب به»؛ أي: بالجوابِ المُقدَّرِ؛ لأنَّه ظرفُه، وتقديرُه ما مرَّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٥٣).

(٧) قولُه: «صفةٌ لـ﴿قُلُوبٌ﴾» فهي مُسوِّغةٌ للابتداءِ به، وهو نكرةٌ، وأمّا كونُه خبرًا؛ لأنَّ تنوينَ ﴿قُلُوبٌ﴾ للتَّنويعِ، فمع إلباسِه مُخالفٌ للظّاهرِ في الابتداءِ بالنَّكرةِ، وجَعلُ تنوينِ التَّنويعِ كالوصفِ معنًى تعسُّفٌ، ولذا لـم يلتَفِتُوا له. قاله الشهاب.

فحفَرَهـا؛ أي: أثَّرَ فيها بمشـيِه؛ على النِّسـبَةِ، كقولِـه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[(١)] [الحاقة: ٢١]، أو تشـبيهِ القابـلِ بالفَاعلِ[(٢)].

وقُـرِئَ: (في الحَفِـرةِ)[(٣)] بمعنـى: المحفـورةِ، يقال: حُفِـرَتْ أسـنانُهُ فحَفِرَتْ حَفَـرًا[(٤)]، وهـي حَفِرَةٌ.

(١١) ـ ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ: ﴿إذا كنَّا﴾[(٥)] على الخبرِ.

﴿عظامًا ناخِرَةً﴾: باليةً، وقرأ الحجازيَّانِ وأبو عمرٍو والشَّاميُّ وحفصٌ ورَوحٌ: ﴿نَّخِرَةً﴾[(٦)]، وهي أبلَغُ.

(١٢) ـ ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: ذاتُ خسرانٍ، أو: خاسرٌ أصحابُها، والمعنى: أنَّها إنْ صَحَّتْ فنَحنُ إذًا خاسرونَ لتكذيبِنَا بها، وهو استهزاءٌ مِنْهُم.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: لا تَستَصعِبُوهَا فما هي إلا صيحَةٌ واحِدَةٌ، يعني: النَّفخةَ الثَّانيةَ ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: فإذا هُمْ أحياءٌ على وجهِ الأرضِ بعدما كانوا أمواتًا في بطنِها.

---

(١) يعني: أنَّ «حافِرة» بمعنى محفورةٍ، كراضِيةٍ بمعنَى مرضِيّةٍ؛ لتأويلِه بـ: ذاتِ حفرٍ، وذو الشَّيءِ صادقٌ بالفاعلِ والمفعولِ. قاله الشهاب.

(٢) قولُه: «تشبيهِ القابلِ بالفاعلِ» لأنَّه بمعنَى الطَّريقِ، وهي قابلةٌ للحفرِ، فشُبهَ القابل للفعلِ بمَن يفعلُه، ونُزِّل منزلتَه. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٠) عن أبي حيوة.

(٤) «حُفِرَتْ أسنانُه» بالبناءِ للمجهولِ، ومعناه: تغيَّرَتْ وتآكَلَتْ «فحَفِرَتْ» بصيغةِ المعلومِ وكسرِ الفاءِ مُطاوِعُه، و«حَفَرًا» بفتحتَينِ مصدرُه، وهو دليلٌ على أنَّ الحافرةَ بمعنَى المحفورةِ. قاله الشهاب.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٩).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٠)، و«التيسير» (ص: ٢١٩) و«النشر» (٢/ ٣٩٧).

والسَّاهرةُ: الأرضُ البيضاءُ المُستَوِيَةُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنَّ السَّرابَ يجري فيها؛ مِن قَولِهِم: عينٌ ساهِرَةٌ، للَّتي يجري ماؤُها، وفي ضدِّهَا: نائِمَةٌ، أو لأنَّ سالِكَهَا يَسْهَرُ خَوْفًا، وقيل: اسمُ جَهنَّمَ.

(١٥) ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: أليسَ قَدْ أتاكَ حديثُه، فيُسلِّيكَ على تكذيبِ قَومِكَ، ويُهَدِّدُهم عليه بأن يصيبَهُم مثلُ ما أصابَ مَن هو أعظَمُ مِنهم؟

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مرَّ بيانُه في سورةِ طه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ على إرادةِ القولِ، وقُرِئَ: (أن اذهَبْ)[1] لِمَا في النِّداءِ مِن معنى القولِ.

(١٨) ـ ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾: هل لكَ ميلٌ إلى أن تتطهَّرَ مِن الكُفرِ والطُّغيانِ[2]، وقرأ الحجازيَّانِ ويَعقوبُ: ﴿تَزَّكَّى﴾ بالتَّشديدِ[3].

(١٩) ـ ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: وأرشدكَ إلى معرفتِهِ ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ بأداءِ الواجباتِ وتركِ المُحرَّماتِ؛ إذ الخشيةُ إنَّما تكونُ بعدَ المعرفَةِ، وهذا كالتَّفصيلِ لقولِه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤].

(٢٠) ـ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ أي: فذهبَ وبَلَّغَ فأراهُ المعجزةَ الكُبرى، وهي قلبُ العصا حيَّةً؛ فإنَّه كانَ المقدَّمَ والأصلَ، أو مجموعُ مُعجزاتِه؛ فإنَّها باعتبارِ دلالَتِها كالآيةِ الواحدةِ.

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾: فكذَّبَ مُوسى وعصى اللهَ بعدَ ظُهورِ الآيةِ وتَحقُّقِ الأمرِ ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ﴾ عَنِ الطَّاعةِ ﴿يَسۡعَىٰ﴾: ساعيًا في إبطالِ أمرِه.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٧٠) عن ابن مسعود.

(٢) في نسخة التفتازاني: «والعصيان».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧١)، و«التيسير» (ص: ٢١٩) و«النشر» (٢/ ٣٩٨).

أو: أدبرَ بعدما رأى الثُّعبانَ مَرْعُوبًا مسرعًا في مَشيِه.

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿فَحَشَرَ﴾: فجمعَ السَّحَرةَ، أو جُنودَهُ ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجمَعِ[1] بنفسِهِ أو مُنادٍ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أعلى كلِّ مَن يَلِي أمرَكُم.

(٢٥) ـ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: أخذًا مُنكِّلًا لِمَن رآهُ أو سَمِعَه في الآخرةِ بالإحراقِ، وفي الدُّنيا بالإغراقِ، أو على كلمَتِه الآخرةِ وهي هذه، وكلمتِه الأولى وهو[2] قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، أو للتَّنكيلِ فيهِمَا، أو لهما[3]، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَصْدرًا مؤكِّدًا مُقدَّرًا بفعلِه.

(٢٦) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾: لِمَن كانَ مِن شَأنِه الخَشيةُ.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: أصعبُ خَلْقًا ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثمَّ بيَّنَ كيفَ خلَقَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾، ثمَّ بيَّنَ البناءَ فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾؛ أي: جعل مقدارَ ارتفاعِها مِن الأرضِ ـ أو ثخنَها الذَّاهبَ في العلوِّ ـ رفيعًا[4].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فعدَّلَها، أو: فجعلَها مُستَوِيَةً، أو: فتمَّمَها بما يَتِمُّ به كمالُها مِن الكواكبِ والتَّداويرِ وغيرِها؛ مِن قَولِهم: سوَّى فُلانٌ أمرَهُ: إذا أصلحَهُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «الجمع».

(٢) في نسخة الخيالي: «وهي». وعلى المثبت فتذكير ضمير الكلمة باعتبار الخبر. قاله الشهاب.

(٣) قولُه: «أو للتَّنكيلِ فيهما»؛ أي: على أنَّ النَّكالَ بالمعنى المصدريِّ، وهو مفعولٌ له، والأُولى والآخرةُ هما الدّارانِ، والإضافة على معنَى «في»، وقوله: «أو لهما» على أنهما بمعنى الكلمتين، والإضافة لاميَّة من إضافة المسبب للسبب. عن الشهاب.

(٤) انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٧٣) وفيه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾؛ أي: جَعلَ مِقدَارَ ذهَابِها في سَمْتِ العلو مَديداً رفيعاً مَسِيرةَ خمسِ مئة عامٍ.

(٢٩) ـ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أظلمَـهُ، مَنقـولٌ مِـن غَطِـشَ الليـلُ: إذا أظْلَـمَ[1]، وإنَّما أضـافَ إليهـا لأنـه يحـدثُ بحركتِهـا ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: وأبرزَ ضـوءَ شَمسِـها، كقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ يريدُ النَّهارَ.

(٣٠ ـ ٣٢) ـ ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾: بسـطَها ومَهَّدهـا للسُّـكنى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتَفجيـرِ العُيـونِ ﴿وَمَرْعَاهَا﴾: ورعيَهـا، وهـو فـي الأصـلِ لِمَوضـعِ الرَّعْيِ، وتَجريـدُ الجُملَـةِ عَـن العاطـفِ لأَنَّهـا حـالٌ بإضمارِ (قـد)، أو بيـانٌ للدَّحوِ.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾: أثبتَها.

وقُـرِئَ: (والأرضُ) و(الجبـالُ)[2] بالرَّفـعِ علـى الابتـداءِ، وهو مرجـوحٌ؛ لأنَّ العطـفَ علـى فعليَّةٍ.

(٣٣) ـ ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾: تمتيعًا لكم ولِمَواشيكُم.

(٣٤) ـ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾: الدَّاهِيَـةُ التـي تَطُـمُّ؛ أي: تعلو على سـائرِ الدَّواهي ﴿الْكُبْرَىٰ﴾ التـي هـي أكبَـرُ الطَّامَّاتِ، وهـي: القيامَـةُ، أو النَّفخَـةُ الثَّانيةُ، أو السَّـاعةُ التـي يسـاقُ فيها أهـلُ الجنَّةِ إلـى الجنَّـةِ وأهلُ النَّـارِ إلـى النَّارِ.

---

(١) فـي نسـخة الفاروقـي: «ظلـم». والمثبـت من باقـي النسـخ وكلاهما صـواب كما يفهم مـن عبارة «الكشـاف» (٩/ ٤٧٣): «غَطِـش اللَّيلُ وأَغطشَـهُ اللهُ؛ كقولك: ظَلِـمَ وأَظْلَمَه، ويُقـالُ أيضاً: أَغْطشَ اللَّيـلُ؛ كمـا يُقـال أظلَـمَ». ومعنـى كلامـه: أن «ظَلِـم الليـل» و«أظلم الليـل» كلاهما صـواب وهم لازمـان، لكـن الثانـي يجوز فيـه التعـدي فيقال: «أظلمـه الله»»، لكـن الأولى هنـا: «ظَلِـم» لمقابلة «غَطِش».

(٢) هي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨)، واقتصر في «المحتسب» (٢/ ٣٥٠) على الجبال، وزاد نسبتها لعمر بن عبيد.

(٣٥) ـ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ بأن يراه مُدَوَّنًا في صحيفَتِه، وكان قد نَسِيَها[١] مِن فَرطِ الغفلةِ أو طولِ المدَّةِ، وهو بدلٌ مِن (إذا جاءت)، و﴿مَا﴾ مَوصولةٌ أو مَصدريَّةٌ.

(٣٦) ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾: وأُظهِرَتْ ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾: لكلِّ راءٍ بحيثُ لا يَخفَى على أحدٍ، وقُرِئَ: (وبَرَزَت)[٢]، و: (لِمَنْ رأى)[٣].

و: (لمن تَرى)[٤] على أنَّ فيه ضميرَ الجَحيمِ، كقولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، أو أنه خطابٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ؛ أي[٥]: لِمَن تراهُ مِن الكفَّارِ.

وجوابُ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليهِ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ أو ما بعدَهُ مِن التَّفصيلِ.

(٣٧ ـ ٣٩) ـ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ حتَّى كفرَ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فانهمكَ فيها ولم يستعِدَّ للآخرةِ بالعبادةِ وتَهذيبِ النَّفسِ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: هي مأواهُ، واللامُ فيهِ سادٌّ مَسَدَّ الإضافةِ؛ للعلمِ بأنَّ صاحِبَ المأوى هو الطَّاغي، و﴿هِيَ﴾ فصلٌ أو مُبتدأٌ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «نسيه». وقوله: «نسيها» الضمير للأعمال المرادةِ من ﴿مَا﴾ أو المفهومة من السياق، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨) عن أبي نهيك وعكرمة.

(٣) المصدر السابق، عن ابن مسعود.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥١) عن عكرمة.

(٥) في نسخة الخيالي: «أو»، والمثبت من باقي النسخ، وأشار إليهما الخفاجي فقال: قوله: «أو أنه خطاب للرسول... إلخ» أو لكل راءٍ، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الآية، وهذا هو معنى قول المصنف: «أو لمن تراه من الكفار» كما في بعض النسخ، وفي بعضها (أي) التفسيرية، أي: تبريزها لمن تشاهده من الكفرة لأن المرادَ الوعيدُ والتهديدُ.

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: مقامَهُ بينَ يدَيْ ربِّهِ؛ لعِلْمِه بالمبدأِ والمَعادِ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لعلمِهِ بأنَّه مُرْدٍ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ليس لهُ سواها مَأوًى.

(٤٢) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: متى إرساؤُها؛ أي: إقامَتُها وإثباتُها، أو مُنتهاهَا ومُستقرُّهَا، مِن مَرْسَى السَّفينَةِ وهو حيثُ تَنتَهِي إليهِ وتَستَقِرُّ فيه.

(٤٣) ـ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: في أيِّ شيءٍ أنتَ مِن أن تذكُرَ وقتَها لهم؛ أي: ما أنتَ مِن ذكرِها لهم وتبيينِ وَقتِها في شيءٍ؛ فإنَّ ذِكرَها لا يَزيدُهُم إلا غَيًّا، ووقتَها ممَّا استأثرَهُ اللهُ بعلمِه.

وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، و﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ مُستأنَفٌ معناه: أنتَ ذكرٌ مِن ذكرِهَا[1]؛ أي: علامةٌ مِن أَشراطِها؛ فإنَّ إرسالَهُ خاتمًا للأنبياءِ أمارةٌ مِن أماراتِها.

وقيل: إنَّه مُتَّصلٌ بسُؤالِهم، والجواب:

(٤٤) ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ أي: مُنتَهَى علمِها.

(٤٥) ـ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾: إنَّما بُعِثْتَ لإنذارِ مَن يخافُ هولَها، وهو لا يُناسِبُ تعيينَ الوقتِ، وتخصيصُ مَن يخشى لأنَّه المُنتفِعُ به.

وعن أبي جعفرٍ: ﴿مُنذِرٌ﴾[2] بالتَّنوينِ والإعمالِ على الأصلِ؛ لأنه بمَعْنَى الحالِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «ذكراها»، والمثبت موافق لما في «الكشاف» وكلاهما صواب.

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٨). وفي النسخ: «وعن أبي عمرو»، والمثبت هو الصواب، وهكذا جاء في «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٥٨) وقال: وفي نسخة: «عن أبي عمرو»، وهو سبقُ قلمٍ.

(٤٦) ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾؛ أي: في الدُّنيا، أو: في القبورِ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: عشيَّةَ يومٍ أو ضُحَاهُ، كقوله: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولذلك أضافَ الضُّحَى إلى العَشِيَّةِ لأنَّهُما مِن يَومٍ واحدٍ.

عَن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قَرَأَ سورةَ النَّازعاتِ كان ممَّنْ حبسَهُ اللهُ في القيامةِ حتى يدخلَ الجنَّةَ قَدْرَ صلاةٍ مَكتوبَةٍ»(١).

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٣٦١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤١٨)، من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (ص: ٢٩٦).

(٧٩) سورة النازعات مكية
وآياتها ست وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

﴿**والنازعات غرْقاً**﴾ : الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾ قاله ابن عباس وغيره، وعنه ﴿والنازعات﴾ : هي أنفس الكفّار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار[1]، وقال مجاهد ﴿والنازعات غرقاً﴾ : الموت. وقال الحسن وقتادة ﴿والنـازعات غرقـاً . والناشطات نشطاً﴾: هي النجوم، والصحيح الأول وعليه الأكثرون. وأما قوله تعالى ﴿والسابحات سبحاً﴾ فقال ابن مسعود: هي الملائكة، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي السفن، وقوله تعالى ﴿فالسابقات سبقاً﴾: يعني الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ قال علي ومجاهد: هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عزَّ وجلَّ، وقوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية[2]، قال مجاهد: أما الأولى ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ فكقوله جلّت عظمته: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾، وأما الثانية وهي الرادفة، كقوله: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذاً يكفيك

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم.

الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »[١] رواه أحمد والترمذي، ولفظ الترمذي: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه » . وقوله تعالى: ﴿ قلوب يومئذ واجفة﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة ﴿ أبصارها خاشعة﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة. أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال .

وقوله تعالى: ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾ يعني مشركي قريش، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى ﴿ الحافرة﴾ وهي القبور[٢] وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقرئ : ناخرة أي بالية، قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه، ﴿ قالوا تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرة﴾ . وعن ابن عباس وقتادة: الحافرة الحياة بعد الموت، وقال ابن زيد: الحافرة النار، وما أكثر أسماءها ! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية والحافرة ولظى والحطمة، وأما قولهم: ﴿ تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرة﴾ فقال محمد ابن كعب، قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن، قال الله تعالى: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عزَّ وجلَّ ينظرون، كما قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ قال مجاهد: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة﴾ صيحة واحدة، وأشد ما يكون الرب عزَّ وجلَّ غضباً على خلقه يوم يبعثهم، قال الحسن البصري: زجرة من الغضب، وقوله تعالى: ﴿ فإذا هم بالساهرة﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وقال عكرمة والحسن: الساهرة وجه الأرض، قال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها، عن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فإذا هم بالساهرة﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية كالخبزة النقي[٣] . وقال الربيع بن أنس: ﴿ فإذاهم بالساهرة﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾، ويقول تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ۞ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، ويقول تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة ولم يهرق عليها دم .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

(١) أخرجه أحمد .

(٢) قاله مجاهد .

(٣) رواه ابن أبي حاتم .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك يا محمد وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾، فقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أي هل سمعت بخبره ﴿إذ ناداه ربه﴾ أي كلمه نداء ﴿بالواد المقدس﴾ أي المطهر، ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبر وتمرد وعتا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به أي تسلم وتطيع، ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فتخشى﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاء به من عند الله، ﴿فكذب وعصى﴾ أي فكذب بالحق، وخالف ما أمره به من الطاعة، ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة، ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿فحشر فنادى﴾ أي في قومه، ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ بأربعين سنة، قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾، كما قال تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة، **وقيل**: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية، **وقيل**: كفره وعصيانه، والصحيح الأول، وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي لمن يتعظ وينزجر.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشد خلقاً أم السماء﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم كما قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿بناها﴾ فسره بقوله: ﴿رفع سمكها فسواها﴾ أي جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وقوله تعالى: ﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، قال ابن عباس: أغطش ليلها أظلمه، ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي انار نهارها، وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فسّره بقوله تعالى: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وقد تقدم في سورة «حم السجدة» أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، عن ابن عباس ﴿دحاها﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام فذلك قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾، وقد تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ أي قررها وأثبتها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم. وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها

وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام، التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس سميت بذلك، لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى: ﴿ والساعة أدهى وأمر﴾، ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله، خيره وشره كما قال تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾، ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً، ﴿ فأما من طغى﴾ أي تمرد وعتا، ﴿ وآثر الحياةالدنيا أي قدمها على أمر دينه وأُخراه، ﴿ فإن الجحيم هي المأوى﴾، أي فان مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها، ﴿ فإن الجنة هي المأوى﴾ أي منقلبه ومصيره إلى الجنة الفيحاء، ثم قال تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها﴾ أي ليس علمها اليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عزَّ وجلَّ ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿ قل إنما علمها عند الله﴾ ، وقال ههنا : ﴿ إلى ربك منتهاها﴾ ، ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ، وقوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده أتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك ، وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم، قال ابن عباس: أما عشية فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿ أو ضحاها﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار ، وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة النازعات، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة النازعات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾ .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وأبو صالح ، وأبو الضحى ، والسُّدى : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فَتُغرق فى نزعها ، و [منهم] (١) مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط ، وهو قوله : ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾، قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هى النجوم .

وقال عَطَاءُ بنُ أبى رَباح فى قوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هى القسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ ، فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ،وسعيد بن جُبَير ، وأبى صالح مثلُ ذلك .

وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن .

وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ : رُوى عن على ، ومسروق ، ومجاهد ،وأبى صالح ، والحسن البصرى : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيل فى سبيل الله .

---

(١) زيادة من م.

وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، قال على ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة، والربيع بن أنس ، والسدى : هى الملائكة ــ زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعنى : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ،وغير واحد .

وعن مجاهد : أما الأولى ــ وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ــ فكقوله جلت عظمته : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل:١٤] ، والثانية ــ وهى الرادفة ــ فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : «إذاً يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » .

وقد رواه الترمذى ، وابن جرير، وابن أبى حاتم ، من حديث سفيان الثورى ،بإسناده مثله [(١)]، ولفظ الترمذى وابن أبى حاتم : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ».

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها .وإنما أضيف إليها ؛ للملابسة ، أى : ذليلة حقيرة ؛ مما عاينت من الأهوال .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة ».

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخَلت الريح فيه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والسدى ، وقتادة : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار، والجحيم ،وسقر ،وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحُطَمة .

وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

(١) المسند (٥/١٣٦) ، وسنن الترمذى برقم (٢٤٥٧) ، وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصور نفخةَ البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَى الربّ عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧].

قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة .

وقال إبراهيم التيمى : أشد ما يكون الرب غَضَباً على خلقه يوم يبعثهم .

وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة ، وأبو صالح .

وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض .

وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : المكان المستوى .

وقال الثورى : ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبى العاتكة : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض بيت المقدس . وقال وهب بن مُنَبه : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جبل إلى جانب بيت المقدس . وقال قتادة أيضا: ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جهنم .

وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا خَزَر بن المبارك الشيخ الصالح ، حدثنا بشر ابن السرى ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء كالخُبزَة النَقِىّ .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥،١٠٦] . وقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يُهرَاق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال في آخر القصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ ؟ أي : هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي : كلمه نداء، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أي : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادي على الصحيح ، كما تقدم في سورة «طه» . فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ؟ أي : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزَكَّى به ، أي : تسلم وتطيع. ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يعني : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفرَ قلبُه فلم ينفعل [(١)] لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُهُ بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ،وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أي : في مقابلة الحق بالباطل ، وهو جَمعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أي : في قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨] بأربعين سنة.

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا ،﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود:٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص:٤١] . هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله : ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذي لا شك فيه الأول .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي : لمن يتعظ وينزجر .

(١) في أ :« فلم يفعل » .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَأَنتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ [1] ﴾ [يس:٨١] ، فقوله : ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسره بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أى :جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ،مستوية الأرجاء ،مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء.

وقوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا ،ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا .

قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وجماعة كثيرون .

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : أنار نهارها .

وقوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسره بقوله : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ . وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » [2] أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، حدثنا عبيد الله ــ يعنى ابن عمرو ــ عن زيد بن أبى أنيسة ، عن المِنْهال بن عَمْرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿دَحَاهَا ﴾ : وَدَحْيها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق [فيها] [3] الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام ، فذلك قوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ . وقد تقدم تقرير ذلك هنالك.

وقوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أى :قررها وأثبتها وأكّدها فى أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حَوشب ، عن سليمان بن أبى سليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تَميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت ، فتعجبت الملائكةُ من خلق الجبال فقالت : يا ربِ ، فهل من

---

(١) فى م ، أ :« بلى إنه على كل شىء قدير » وهو خطأ .

(٢) عند تفسير الآية : ٩.

(٣) زيادة من أ .

خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد .قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء . قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال : نعم ، الريح. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ،ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من [(١)] شماله» [(٢)] .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابنُ حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن السّلمىّ ، عن على قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : تخلق عَلَىّ آدم وذريته ، يلقون على نتنهم ويعملون عَلَىّ بالخطايا ، فأرساها الله بالجبال ، فمنها ما ترون ،ومنها ما لا ترون ، وكان أول قَرَار الأرض كلحم الجزور إذا نحِر ، يختلج لحمه . غريب [(٣)] .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ،وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ : وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦] .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أى : حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر:٢٣] .

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا ،﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أى : تَمَرّد وعتا ،﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى: فإن مصيرَه إلى الجحيم ،وإن مطعمه من الزقوم ،ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

---

(١) فى أ :« عن » .

(٢) المسند (٣/ ١٢٤) ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٦٩) عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون به ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٠) .

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى : خاف القيام بين يدى الله عز وجل ، وخاف حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردَها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ . ولهذا (١) لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه (٣) ،فمن خشى الله وخاف مقامه(٤) ووعيده ،اتبعك فأفلح وأنجح ،والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى:إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا ،حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم .

قال جُويْبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، أما عَشِيَّة : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ،﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة « النازعات »] (٥) [ولله الحمد والمنة] (٦)

---

(١) فى م:« وهذا » .

(٢) هذا جزء من حديث جبريل الطويل وهو فى صحيح مسلم برقم(٨) .

(٣) فى م :« وعقابه » .

(٤) فى م: « وخاف عقابه » .

(٥) زيادة من م،أ .

(٦) زيادة من م.

سورة النازعات

مكيّة، وهي خمس أو ستّ وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواحَ مِن الأجساد على الإطلاق، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهدٌ،[1] أو أرواحَ الكفَرة كما قاله عليّ رضي الله تعالى عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق.[2] وينشِطونها، أي: يُخرجونها مِن الأجساد مِن "نَشَط الدلوَ" مِن البئر إذا أخرجها، ويسبَحون في إخراجها سَبْح الغوّاص الذي يُخرِج مِن البحر ما يُخرِج فيسبقون بأرواح الكفَرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنّة، فيدبِّرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيّئوها لإدراك ما أُعدّ لها / مِن الآلام واللذّات والعطف، [٢٦٣و] مع اتّخاذ الكلّ بتنزيل التغايُر العُنواني منزلةَ التغايُر الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْم وابن الهُمامِ   وليثِ الكتائبِ في المُزدحَمْ[3]

للإشعار بأنّ كلّ واحد مِن الأوصاف المعدودة مِن مُعظَّمات الأمور حقيقٌ بأن يكون على حياله مَناطًا لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به مِن غير انضمام الأوصاف الأُخَر إليه. و"الفاء" في الأخيرين للدلالة على ترتُّبهما على ما قبلهما بغير مُهلة، كما في قوله:

---

[1] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨-٣٢٥.

[2] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨-٣٢٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠.

[3] مضى بتخريجه وشرحه في تفسير البقرة، ٢٣١/٢.

يا لهفَ زيّابةَ للحارث الصـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

و﴿غَرْقًا﴾ مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، أي: إغراقًا في النَّزْع حيث تنزِعها مِن أقاصي الأجساد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تنزع روح الكافر مِن جسده مِن تحت كلّ شعرة، ومِن تحت الأظافير وأصول القدمين، ثم تُغرِقها في جسده، ثمّ تنزِعها، حتّى إذا كادت تخرُج تردُّها في جسده، فهذا عملها بالكفّار.[2] وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزْع كأنّها تغرَق.[3]

وانتصابُ ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ أيضًا على المصدريّة، وأمّا ﴿أَمْرًا﴾ فمفعول لـ﴿ٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾. وتنكيرُه للتهويل والتفخيم. ويجوزُ أن يُراد بـ﴿ٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ وما بعدها طوائفُ مِن الملائكة يسبحون في مُضيّهم، أي: يُسرعون فيه فيسبقون إلى ما أُمروا به مِن الأمور الدنيويّة والأخرويّة.

والمُقسَم عليه محذوف تعويلًا على إشارة ما قبله مِن المُقسَم به إليه ودلالةِ ما بعده مِن أحوال القيامة عليه وهو "لتُبعثنّ"، فإنّ الإقسام بمَن يتولّى نزعَ الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوِّح بكون المُقسَم عليه مِن قبيل تلك الأمور لا محالةَ. وفيه مِن الجَزالة ما لا يخفى.

وقد جُوِّز أن يكون إقسامًا بالنجوم التي تنزِع مِن المَشرِق إلى المَغرِب غَرَقًا في النَّزْع بأن تقطَع الفَلَك حتّى تنحطّ في أقصى الغرب وتنشَط مِن بُرج إلى بُرج، أي: تخرُج مِن "نشِط الثور" إذا خرج مِن بلد إلى بلد، وتسبح في الفَلَك فيسبِق بعضها بعضًا، فتُدبِّر أمرًا نِيط بها، كاختلاف الفصول وتقديرِ الأزمنة وتبيُّنِ مواقيت العبادات.[4] وحيث كانت حركاتها مِن المَشرِق

---

[1] البيت لابن زيّابة، واختُلف في اسمه، فهو: عمرو بن لأي، أو سَلَمة بن ذُهل، أو عمرو بن الحارث بن همّام. وزيّابة أمّه. انظر تفصيل ذلك والكلامَ على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ١٠٧/٥-١١٣. والبيت له في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٣٣؛ وهو مِن حماسيّة له في شرح الحماسة للمَرزوقي، ١٤٧/١؛ وبلا عزو في شرح الرضيّ على الكافية، ٣٣٢/٢.

[2] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨.

[4] القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤. وأصل القول بأنّه إقسام بالنجوم مرويّ عن الحسن وقتادة في جامع البيان للطبري، ٥٨/٢٤-٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٥/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢٢/٢٠.

إلى المَغرِب قسريّةً وحركاتُها مِن برج إلى برج ملائمةً عبّر عن الأولى بـ"النزع" وعن الثانية بـ"النشط".

أو بأنفس الغُزاة أو أيديهم التي تنزع القِسِيَّ بإغراق / السِّهام، وينشطون بالسهم للرمي، ويسبحون في البرّ والبحر، فيسبِقون إلى حرب العدوّ، فيدبِّرون أمرها.[1] [٢٦٣ظ]

أو بخيلهم التي تنزِع في أعِنَّتها نَزْعًا تغرّق فيه الأعِنّة لطول أعناقها؛ لأنّها عِراب، وتخرج مِن دار الإسلام إلى دار الحرب، وتسبح في جريها لتسبِق إلى الغاية فتُدبِّر أمرَ الظفَر والغلَبة.[2] وإسنادُ التدبير إليها؛ لأنّها مِن أسبابه.

هذا، والذي يليق بشأن التنزيل هو الأوّل.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ منصوب بالجواب المضمر، والمراد بـ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الواقعةُ التي ترجُف عندها الأجرامُ الساكنة، أي: تتحرَّك حركةً شديدةً وتتزلزل زلزلةً عظيمةً كالأرض والجبال، وهي النفخة الأولى. وقيل: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل، ٧٣/١٤].[3]

وقوله تعالى: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردَف الأولى وهي النفخة الثانية، حالٌ مِن ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ مُصحِّحة لوقوع "اليوم" ظرفًا للبعث، أي: لتُبعثنّ يومَ النفخة الأولى حالَ كون النفخة الثانية تابعةً لها لا قبل ذلك، فإنّه عبارة عن الزمان الممتدّ الذي يقع فيه النفختان، وبينهما أربعون سنةً، واعتبارُ امتداده مع أنّ البعث لا يكون إلّا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعًا لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حيّ إلّا مات ولا عند وقوع الثانية ميّت إلّا بُعث وقام. ووجهُ إضافته إلى الأولى ظاهرٌ.

---

١ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤.

٢ هذا الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٤/٣.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤.

وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوب بـ"اذكُرْ"،[١] فيكون الجملة استئنافًا مقرِّرًا لمضمون الجواب المضمر، كأنّه قيل: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اذكُر لهم يوم النفختين فإنّه وقتُ بعثِهم. وقيل: هو منصوب بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: يوم ترجُف وجَفت القلوب. قيل: ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ
[٢٦٤و] و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلِّق بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾ / وهي صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾ مسوِّغة لوقوعه مبتدأ.[٢]

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ وقعَت خبرًا لـ﴿قُلُوبٌ﴾. وقد مرّ أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، حتّى قالوا: إنّ الصفاتِ قبل العِلم بها أخبارٌ والأخبارُ بعد العِلم بها صفاتٌ،[٣] فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوتُ الخشوع لأبصار أصحابها سواءً في المعرفة والجهالة كان جَعْلُ الأوّل عنوانًا للموضوع مسلَّمَ الثبوت مفروغًا عنه وجَعْلُ الثاني مخبَرًا به مقصودَ الإفادة تحكُّمًا بحتًا. على أنّ الوجيف -الذي هو عبارة عن شدّة اضطراب القلب وقلقه مِن الخوف والوَجَل- أشدُّ مِن خشوع البصر وأهولُ، فجعلُ أهونِ الشرَّين عمدةً وأشدِّهما فضلةً ممّا لا عهدَ له في الكلام. وأيضًا فتخصيصُ الخشوع بـ﴿قُلُوبٌ﴾ موصوفة بصفة معيّنة غيرِ مشعرة بالعموم والشمول تهوينٌ للخَطْب في موقع التهويل.

فالوجه أن يقال: تنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقوم مقامَ الوصف المخصِّص: سواءٌ حُمل على التنويع، كما قيل، وإن لم يُذكَر النوع المقابلُ، فإنّ المعنى منسَحبٌ عليه؛ أو على التكثير[٤] كما في «شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ»،[٥] فإنّ التفخيم كما يكون بالكيفيّة يكون بالكمّيّة أيضًا، كأنّه قيل: قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: شديدة الاضطراب. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: خائفة وَجِلة.[٦] وقال السدّي: زائلة عن أماكنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر، ١٨/٤٠].[٧]

---

١ هذا الوجه في **التبيان** للعكبري، ١٢٦٩/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٢٧/٢٠.

٢ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٢/٤.

٣ انظر القول في **المطوَّل** للتفتازاني، ص ٤٢.

٤ السياق: سواءٌ حُمل على التنويع... أو التكثير...

٥ مِن أمثال العرب. انظر: **كتاب سيبويه** ٣٢٩/١؛ و**مجمع الأمثال** للميداني، ٣٧٠/١؛ و**المستقصى** للزمخشري، ١٣٠/٢.

٦ **جامع البيان** للطبري، ٦٩/٢٤.

٧ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٢٧/٨.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ حكاية لِما يقوله المنكِرون للبعث المكذِّبون بالآيات الناطقة به إثرَ بيان وقوعِه بطريق التوكيد القَسَمي، وذِكرُ مقدّماته الهائلة وما يعرِض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أي: يقولون إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون منكِرين له متعجِّبين منه: أئنّا لَمردودون بعد موتنا في الحافرة، أي: في الحالة الأولى، يعنون الحياة[1] مِن قولهم: / "رَجَع فلان في حافرته"، أي: طريقته التي جاء فيها فحفَرها، أي: أثّر فيها بمشيه. وتسميتُها حافرةً مع أنّها محفورة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩] أي: منسوبة إلى الحَفْر والرِّضا، أو كقولهم: "نهارُه صائمٌ" على تشبيه القابل بالفاعل. وقُرئ: "فِي الحَفِرَةِ"[2] وهي بمعنى المحفورة. [٢٦٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ تأكيد لإنكار الردّ ونفيه بنسبته إلى حالة مُنافيةٍ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمر يدلّ عليه ﴿مَرْدُودُونَ﴾، أي: أئذا كنّا عظامًا بالية نُردّ ونُبعث مع كونها أبعدَ شيء مِن الحياة. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا"[3] على الخبر أو إسقاطِ حرف الإنكار. وناخِرَة مِن "نخِر العَظْمُ" فهو نخِر وناخِر، وهو البالي الأجوف الذي يمرّ به الريح فيُسمَع له نخير.

﴿قَالُوا۟﴾ حكاية لكُفرٍ آخرَ لهم متفرّع على كفرهم السابق. ولعلّ توسيطَ ﴿قَالُوا۟﴾ بينهما للإيذان بأنّ صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرّ صدوره عنهم في كافّة أوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع، أي: قالوا بطريق الاستهزاء مُشيرين إلى ما أنكروه مِن الرِّدّة في الحافِرة مشعرين بغاية بُعدها مِن الوقوع. ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: ذاتُ خُسران أو خاسِرة أصحابها، أي: إن صحّت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها.

---

١ س + بعد الموت.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن يعمر والضرير عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/١.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ تعليل لمقدّر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخِرة الذي عبّروا عنها بالكرّة، فإنّ مداره لمّا كان استصعابَهم إيّاها رُدّ عليهم ذلك فقيل: لا يستصعِبوها فإنّما هي صيحة واحدة، أي: حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية، عُبّر عنها بها تنبيهًا على كمال اتّصالها بها، كأنّها عينُها. وقيل:[١] ﴿هِيَ﴾ راجع إلى ﴿الرَّادِفَةُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ حينئذ بيان لترتّب الكرّة على الزجرة مفاجأةً، أي: فإذ هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتًا في جوفها، وعلى الأوّل بيان لحضورهم الموقف عقيبَ الكرّة التي عُبِر عنها بالزجرة. و﴿السَّاهِرَةِ﴾: الأرض البيضاء المستوية، سُمّيت بذلك؛ لأنّ السراب يجري فيها، [٢٦٥و] مِن قولهم: "عين ساهرة جارية الماء"، وفي / ضدّها "نائمة".

وقيل: لأنّ سالكها لا ينام خوف الهَلَكة.[٢] وقيل: اسم لجهنّم.[٣] وقال الراغبُ: هي وجه الأرض.[٤] وقيل: هي أرض القيامة.[٥] وروى الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الساهرة أرض مِن فضّة لم يُعصَ الله تعالى عليها قطّ خلقها حينئذ.[٦] وقيل: هي أرض يجدِّدها الله عزّ وجلّ يوم القيامة. وقيل: هي اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيُحاسب الخلائق عليها، وذلك حين تُبدَّل الأرضُ غير الأرض.[٧] وقال الثوري: الساهرة أرض الشام.[٨] وقال وهب بن منبِّه: جبل بيت المَقدِس.[٩] وقيل: الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنّم.[١٠]

---

١ وفي هامش م: كواشي. انظر: تفسير الكواشي، ٥٧٢و.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤.
٣ مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣.
٤ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤٣٠؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٣٤/٢٠. وهو مرويّ عن ابن عبّاس وعكرمة والحسن وسعيد بن جُبير والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٧٥/٢٤-٧٧.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٦ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٧ القولان في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٨ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٩ جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
١٠ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف وارد لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن تكذيب قومه بأنّه يصيبهم مثلُ ما أصاب مَن كان أقوى منهم وأعظمَ. ومعنى هل ﴿أَتَىٰكَ﴾ -إن اعتُبر هذا أوّل ما أتاه عليه السلام مِن حديثه عليه السلام-[١] ترغيبٌ له عليه السلام في استماع حديثه، كأنّه قيل: هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به، وإن اعتُبر إتيانه قبل هذا، وهو المتبادر مِن الإيجاز في الاقتصاص، أليس قد أتاك حديثه؟

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما. ﴿طُوًى﴾ بضمّ "الطاء" غيرَ منوَّن. وقُرئ مُنوَّنًا،[٢] وقُرئ بالكسر مُنوَّنًا[٣] وغيرَ منوَّن،[٤] فمَن نونّه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مصدر لـ"نادى" أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: ناداه نِدائين، أو المقدّس مرّةً بعد أخرى.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. وقيل: هو تفسير للنداء، أي: ناداه: اذهبْ. وقيل: هو على حذف "أن" المفسِّرة، ويدلّ عليه قراءة عبد الله: "أَنِ اذْهَبْ"؛[٥] لأنّ في النداء معنى القول. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ / تعليل للأمر أو لوجوب الامتثالِ به. [٢٦٥ظ]

﴿فَقُلْ﴾ بعد ما أتيتَه ﴿هَل لَّكَ﴾ رغبة وتوجُّه ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بحذف إحدى "التاءين" مِن تتزكّى، أي: تتطهَّر مِن دَنَس الكفر والطغيان. وقُرئ: "تَزَّكَّى"[٦] بالتشديد.

---

١ س - عليه السلام.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد والأعمش وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عُبيد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٢.

٦ قرأ بها نافع وابن كثير ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأُرشِدك إلى معرفته عزّ وجلّ فتعرِفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ إذ الخشية لا تكون إلّا بعد معرفته تعالى، قال عزّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر، ٢٨/٣٥]، وجَعَل الخشية غايةً للهداية لأنّها ملاك الأمر، مَن خشيَ الله تعالى أتى منه كلّ خير، ومَن أمِنَ اجترأ على كلّ شرّ. أُمِر النبيّ عليه السلام بأن يُخاطِبه بالاستفهام الذي معناه العَرْض ليستدعيه بالتلطّف في القول ويستنزِله بالمُداراة مِن عُتوّه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه، ٤٤/٢٠].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فصيحة تُفصِح عن جُمَل قد طُويَت تعويلًا على تفصيلها في السوَر الأخرى، فإنّه عليه السلام ما أراه إيّاها عَقيب هذا الأمر؛ بل بعد ما جرى بينه وبين الله تعالى ما جرى مِن الاستدعاء والإجابة وغيرِهما مِن المراجعات، وبعد ما جرى بينه وبين فرعونَ ما جرى مِن المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ١٠٦/٧].

والإراءة إمّا بمعنى التبصير أو التعريف، فإنّ اللعين حين أبصرها عرَفها. وادّعاء سحريّتها إنّما كان إراءةً منه وإظهارًا للتجلّد. ونسبتُها إليه عليه السلام بالنظر إلى الظاهر، كما أنّ نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [طه، ٥٦/٢٠] بالنظر إلى الحقيقة.

والمراد بـ﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قلبُ العصا حيّةً، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فإنّها كانت المقدّمة والأصل، والأخرى كالتبَع لها. أو هما جميعًا، وهو قول مجاهد،[٢] فإنّهما كالآية الواحدة، وقد عُبّر عنهما بصيغة الجمع حيث قيل: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه، ٤٢/٢٠]، باعتبار ما في تضاعيفهما / مِن [٢٦٦و]
بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، كما مرّ تفصيله في سورة طه،[٣]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.

٢ مرويّ عن الحسن ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ٨٢/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.

٣ في تفسير الآية الثانية والأربعين منها.

ولا مَساغ لحَمْلها على مجموع معجزاته، فإنّ ما عدا هاتين الآيتين مِن الآيات التسع إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غَلَب السحرة على مَهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في سورة الأعراف،[1] ولا ريبَ في أنّ هذا مطلَع القصّة وأمر السحرة مُترقَّب بعد.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى عليه السلام، وسمّى معجزته سِحرًا ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله عزّ وجلّ بالتمرّد بعد ما علِم صحّة الأمر ووجوبَ الطاعة أشدَّ عصيان وأقبحَه، حيث اجترأ على إنكار وجود ربّ العالمين رأسًا، وكان اللعينُ وقومُه مأمورين بعبادته عزّ وعلا وتركِ العظيمة التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فئتُه الباغية، لا بإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسْر والقَسْر فقط.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: تولّى عن الطاعة، أو انصرف عن المجلس ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يجتهد في معارضة الآية، أو أريدَ: ثمّ أقبَل، أي: أنشأ يسعى فوُضع موضعَه ﴿أَدْبَرَ﴾ تحاشيًا عن وصفه بالإقبال. وقيل: أدبرَ هاربًا مِن الثعبان.[2] فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقى العصا انقلبت ثعبانًا أشعرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضع لَحيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر، فتوجَّه نحو فرعونَ فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه. وقيل: إنها انقلبت حيّةً ارتفعت في السماء قدرَ مِيل ثمّ انحطت مقبلةً نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت ويقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.[3]

ويأباه أنّ ذلك كان قبل الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدّي للمعارضة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجَمَع السَّحَرةَ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ[4] فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٥٣]، وقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه، ٢٠/٦٠] أي: ما يُكاد به مِن السَّحَرة وآلاتهم.

---

[1] في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.
[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.
[3] مضت هذه المرويات بتخريجها في تفسير طه، ٥٦/٢٠.
[4] م س – فرعون.

وقيل: جنودَه.[١] ويجوز أن يراد: جَمَع الناس.[٢] ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المَجمَع بنفسه، أو بواسطة المنادي.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قيل: قام فيهم خطيبًا، فقال / تلك العظيمة.[٣] [٢٦٦ظ]

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ النَّكال بمعنى التنكيل كـ"السلام" بمعنى "التسليم"، وهو التعذيب الذي يُنكِّل مَن رآه أو سمعه ويمنعه مِن تعاطي ما يفضي إليه، ومحلّه النصب على أنّه مصدر مؤكِّد كـ"وَعْدَ الله" و"صبغةَ الله"، كأنّه قيل: نكّل الله به نكالَ الآخرة والأولى، وهو الإحراق في الآخرة والإغراقُ في الدنيا.

وقيل: مصدر لـ﴿أَخَذَ﴾، أي: أخذَه الله أخذَ نَكال... إلخ، وقيل: مفعول له، أي: أخذه لأجل نَكال... إلخ. وقيل: نصب على نَزْع الخافض، أي: أخذه بنَكال الآخرة والأولى.[٤] وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذِ فيهما، لا باعتبار أنّ ما فيه مِن معنى المنع يكون فيهما، فإنّ ذلك لا يتصوَّر في الآخرة؛ بل في الدنيا، فإنّ العقوبة الأخرويّة تنكّل مَن سمعها وتمنعه مِن تعاطي ما يؤدّي إليها لا محالةَ.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص، ٣٨/٢٨].[٥] قيل: كان بين الكلمتين أربعون سنةً.[٦] فالإضافة إضافة المسبَّب إلى السبب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّة فرعونَ وما فَعَل وما فُعل به ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ عظيمةً ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى، وهو مِن مَن شأنه المعرفة.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٩٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٢ هذا الوجه في اللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٤ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١٤٠/٢٠؛ والأوّلان بلفظ قريب في التبيان للعكبري، ١٢٦٩/٢.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٨٤/٢٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٤.

٦ مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٨٤/٢٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٩/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٤.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب لأهل مكّة المنكِرين للبعث بناءً على صعوبته في زَعْمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بُيّن كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات، ١٩/٣٧]، أي: أخَلْقكم بعد موتكم أشدّ، أي: أشقّ وأصعب في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أم خَلْق السماء على عِظَمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر، ٥٧/٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾... إلخ، بيان وتفصيل لكيفيّة خَلْقها المستفاد مِن قوله تعالى:[١] ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، وفي عدم ذِكر الفاعل فيه وفيما عُطف عليه مِن التنبيه على تعيّنه وتفخيمِ شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء، أي: جَعْلُ مقدار ارتفاعِها مِن الأرض وذهابِها إلى سَمْت العُلوّ مديدًا رفيعًا مسيرةَ خمسمائة عام. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدَّلها مستويةً ملساءَ ليس فيها تفاوتٌ ولا فُطور، أو فتمَّمها بما عَلِم أنّها تتمّ به مِن الكواكب / والتداوير وغيرِها ممّا لا يعلمه إلّا الخلّاق العليم مِن قولهم: [٢٦٧و]
"سوّى أمرَ فلان" إذا أصلحه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَله مظلِمًا، يقال: غَطِش الليل وأغطَشه الله تعالى، كما يقال: ظَلِم وأظلَمه، وقد مرّ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة، ٢٠/٢]. ويقال أيضًا: أغطَش الليل، كما يقال: "أظلَم".

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرَز نهارها، عُبِّر عنه بالضّحى؛ لأنه أشرفُ أوقاته وأطيبُها، فكان أحقَّ بالذِّكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذِكره عن ذِكر الليل.

---

[١] س - تعالى.

وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، فإنّ إفاضةَ النور بعد الظُّلمة أتمّ في الإنعام وأكملُ في الإحسان. وإضافةُ "الليل" و"الضحى" إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها. ويجوز أن يكون إضافة "الضحى" إليها بواسطة الشمس، أي: أبرَز ضوء شمسِها.[١] والتعبيرُ عنه بالضّحى؛ لأنّه وقت قيام سلطانها وكمال إشراقها.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ أي: بسَطها ومهّدها لسكنى أهلها وتقلُّبهم في أقطارها، وانتصابُ الأرض بمضمر يفسِّره ﴿دَحَىٰهَا﴾.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بأن فجَّر منها عُيونًا وأجرى أنهارًا ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: رَعْيَها، وهو في الأصل موضعُ الرَّعي. وقيل: هو مصدر مِيميّ بمعنى المفعول.[٢] وتجريد الجملة عن العاطف إمّا لأنّها بيان وتفسير لـ﴿دَحَىٰهَا﴾ وتكملة له، فإنّ السُّكنى لا يتأتّى بمجرَّد البسط والتمهيد؛ بل لا بدّ مِن تسوية أمرِ المَعاش مِن المأكل والمشرب حتمًا، وإمّا لأنّها حال مِن فاعله بإضمار "قد" عند الجمهور أو بدونه عند الكوفيّين والأخفش،[٣] كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء، ٤/٩٠].

﴿وَٱلْجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر يفسِّره ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أثبتَها وأثبتَ بها الأرض أن تميد بأهلها. وهذا تحقيق للحقّ وتنبيهٌ على أنّ الرسوّ المنسوب إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي ليس مِن مقتضيات ذواتها؛ بل هو بإرسائه عزّ وجلّ، ولولاه لَما ثبتَتْ في أنفسها فضلًا عن إثباتها للأرض. وقُرئ: "وَالأَرْضُ" و"الجَبَالُ"[٤] بالرفع على الابتداء.

ولعلّ تقديمَ إخراج الماء والمرعى ذِكرًا مع تقدّم الإرساء عليه وجودًا / وشدَّةَ تعلّقِه بالدَّحو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المَأكَل والمَشرَب، مع ما فيه [٢٦٧ظ]
مِن دَفْع توهّم رجوع ضميرَي الماء والمَرعى إلى الجبال. وهذا كما ترى يدلّ

---

١ وهو المذكور في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.

٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠. وانظر تفصيل المسألة في الإنصاف للأنباري، ٢٥٢/١-٢٥٨. ومضى موجزًا في تفسير سورة الجن، ٢٨/٧٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي حَيْوَة وأبي السَّمّال وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٦.

بظاهره على تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء وما فيها، كما يُروى عن الحسَن مِن أنّه تعالى خَلَق الأرض في موضع بيت المَقدِس كهيئة الفِهر[1] عليه دُخانٌ ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخان وخَلَق منه السماواتِ وأمسك الفِهر في موضعها وبسطَ منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٣٠/٢١].[2]

وقد مرّ في سورة السجدة حم السجدة أنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآية [فصلت، ١١/٤١] إنّ حُمِل ما فيه مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها، فهو وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] يدلّان على تقدّم خَلْق الأرض وما فيها على خَلْق السماء وما فيها. وعليه إطباقُ أكثرِ أهل التفسير.

وقد رُوي أنّ العرش كان قبل خَلْق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدَث في الماء اضطرابًا، فأزبَد فارتفع منه دُخان، فأمّا الزَّبَد فبقيَ على وجه الماء، فخَلَق فيه اليُبوسةَ فجعله أرضًا واحدةً ثمّ فتقها فجعلها أرضِين وأمّا الدخان فارتفع وعلا فخَلَق منه السماوات.

ورُوي أنّه تعالى خَلَق جِرْم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها، وخَلَق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخَلَق السماواتِ وما فيهنّ يوم الخميس ويوم الجمعة، وخَلَق آدمَ عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[3]

فالأقربُ كما قيل تأويلُ هذه الآيةِ بأن يُجعَل ذلك إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء / ورَفْع سَمْكها وتسويتِها وغيرِها لا إلى أنفسها، ويُحمَل بُعديّة [٢٦٨و]

---

١ الفِهر: حجَر يملأ الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

٢ ما رُوي عن الحسن مضى مرارًا، آخرُها في تفسير فصلت، ١٢/٤١.

٣ مضت هذه المرويّات في تفسير فصلت، ١٢/٤١.

الدَّحْو عنها على البعديَّة في الذِّكر كما هو المعهود في ألسنة العرب والعجم لا في الوجود، لِما عرفتَ مِن أنّ انتصاب الأرض بمضمر مقدَّم قد حُذف على شريطة التفسير لا بما ذُكر بعده ليفيد القصر وتتعيَّن البَعديّة في الوجود.

وفائدة تأخيره في الذِّكر إمّا التنبيهُ على أنّه قاصر في الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء، وإمّا الإشعار بأنّه أدخَل في الإلزام، لِما أنّ المَنافع المَنوطَةَ بما في الأرض أكثرُ وتعلُّقَ مصالح الناس بذلك أظهرُ وإحاطتَهم بتفاصيل أحواله أكملُ.

وليس ما رُوي عن الحسَن رضي الله عنه نصًّا في تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء فإنّ بَسْط الأرض معطوف على إصعاد الدُّخان وخَلْق السماء بـ"الواو" التي هي بمَعزِل مِن الدلالة على الترتيب.

هذا على تقدير حَملِ ما ذُكر في آيات سورة السجدة مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة، وأمّا إذا حُملت على تقديرها فلا دلالةَ فيها إلّا على تقدّم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء، كما لا دلالةَ على الترتيب أصلًا إذا حُملت كلمة "ثمّ" فيها وفيما في سورة البقرة[1] على التراخي في الرُّتبة. وقد سلف تفصيلُ الكلام في السورة المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعل ذلك تمتيعًا لكم ولأنعامكم؛ لأنّ فائدة ما ذُكر مِن البسط والتمهيد وإخراجِ الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم، فإنّ المراد بـ"المَرعى" ما يعمّ ما يأكله الإنسان وغيرُه بناءً على استعارة الرَّعي لتناول المأكول على الإطلاق، كاستعارة "المَرسِن" للأنف. وقيل: مصدر مؤكِّد لفعله المضمر، أي: متَّعكم بذلك متاعًا، أو مصدر مِن غير لفظه، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣١/٧٩] في معنى "متَّع بذلك".[2]

---

١ في الآية التاسعة والعشرين منها، ومضى ذِكرها آنفًا.

٢ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهية العظمى التي تطمّ على سائر الطامّات، أي: تعلوها وتغلِبها، وهي القيامة أو النفخة الثانية. وقيل: هي الساعة التي يُساق فيها الخلائق إلى مَحشرِهم. وقيل: التي يُساق فيها أهل الجنّة إلى الجنّة وأهل النار إلى النار.[١] شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيانِ أحوال معاشهم بقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾... إلخ [المائدة، ٩٦/٥]، و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها عمّا قليل، كما ينبئ عنه لفظ المتاع.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتْ﴾.[٢] والأظهرُ أنّه منصوب بـ"أعني"، كما قيل،[٣] تفسيرًا لـ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، فإنّ الإبدال منها بالظَرف المَحض ممّا يُوهِن تعلُّقها بالجواب. ويجوز أن يكون بدلًا مِن ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ / مفتوحًا لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيّين،[٤] أي: يتذكّر فيه كلّ [٢٦٨ظ] أحد ما عَمِله مِن خير أو شرّ بأن يُشاهده مدوّنًا في صحيفة أعماله، وقد كان نسيَه مِن فرط الغفلة وطولِ الأمد، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة، ٦/٥٨]. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً.[٥]

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَتْ﴾، أي: أُظهِرت إظهارًا بيّنًا لا تخفى على أحد ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ كائنًا مَن كان. يُروى أنّه يُكشف عنها فتتلظّى فيراها كلّ ذي بصر. وقُرئ: "وَبَرَزَتْ"[٦] بالتخفيف، و"لِمَنْ رَأَى"[٧] و"لِمَنْ تَرَى"،[٨] على أنّ فيه

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.

٤ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ٢٤٩/١.

٥ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نهيك وعكرمة وأبي السَّمّال ومالك بن دينار، وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وعُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.

ضمير الجحيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، أو على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: لمَن تراه مِن الكفّار.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلى آخره جواب ﴿فَإِذَا﴾، جاءت على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية [البقرة، ٣٨/٢]. وقيل: هو تفصيل للجواب المحذوف، تقديره: انقسم الراءون قسمين ﴿فَأَمَّا مَن﴾... إلخ.[١]

والذي يستدعيه فخامةُ التنزيل ويقتضيه مقامُ التهويل أنّ الجواب المحذوف كان مِن عظائم الشئون ما لم تُشاهده العيون، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥] أي: فأمّا مَن عتا وتمرَّد عن الطاعة وجاوز الحدّ في العصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية التي هي على جناح الفوات فانهمك فيما مُتّع به فيها، ولم يستعدّ للحياة الأخرويّة الأبديّة بالإيمان والطاعة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذُكر شأنها ﴿هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه. و"اللام" سادّة مَسدّ الإضافة، للعِلم بأنّ صاحب المأوى هو الطاغي، كما في قولك: "غُضّ الطَّرْفَ". ودخول "اللام" في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ و"الطَّرْف" للتعريف؛ لأنّهما معروفان، وهي إمّا ضمير فَصْل أو مبتدأ. قيل: نزلت الآية في النَّضْر وأبيه الحارث المشهورَين بالغلوّ في الكفر والطغيان.[٢]

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي مالك أمرِه يومَ الطامّة الكبرى، يومَ يتذكّر الإنسان ما سعى، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عن المَيل إليه بحُكم الجِبلّة البشريّة، ولم يعتدّ بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها، ولم يغترّ بزخارفها وزينتها عِلمًا منه بوَخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له لا غيرُها. وقيل: نزلت الآيتان في أبي عَزيز بن عُمير ومصعب بن عُمير وقد قتَل مصعب أخاه أبا عَزيز يوم أُحُد ووقى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى استُشهد رضي الله عنه.[٣]

[٢٦٩و] هذا، وقد قيل: / جوابُ ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾... إلخ، أي: فإذا جاءت الطامّة الكبرى يتذكّر الإنسان ما سعى، على طريقة قوله تعالى:

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٦/٢٠.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.
٣ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٤٩/٢٠.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، وقولِه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار، ٥/٨٢]، فيكون قولُه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ﴾ عطفًا عليه، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق، أو حالًا مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بإضمار "قد"، أو بدونه على اختلاف الرأيين، و﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ مُغنٍ عن العائد؛ وقولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلخ تفصيلًا[١] لحالَي الإنسان الذي يتذكّر ما سعى وتقسيمًا له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها، أي: إقامتها، يُريدون متى يُقيمها الله تعالى ويُثبِتها ويكوِّنها. وقيل: أيّان منتهاها ومستقرُّها، كما أنّ مُرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقرّ فيه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ إنكارٌ وردّ لسؤال المشركين عنها، أي: في أيّ شيء أنت مِن أن تذكُر لهم وقتها وتُعلِمَهم به حتّى يسألوك بيانها، كقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧] أي: ما أنت مِن ذِكرها لهم وتبيين وقتها في شيء؛ لأنّ ذلك فَرْعُ عِلمك به، وأنّى لك ذلك؟ وهو ممّا استأثر بعِلمه علّام الغيوب.

ومَن قال بصدَد التعليل: فإنّ ذِكرها لا يزيدهم إلّا غيًّا،[٣] فقد نأى عن الحقّ. وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، وما بعده مِن الاستئناف تعليل للإنكار وبيانٌ لبطلان السؤال، أي: فيمَ هذا السؤال. ثمّ ابتُدئ فقيل: أنت مِن ذكراها، أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث في نسَم الساعة علامةٌ مِن علاماتها، ودليل يدلّهم على العِلم بوقوعها عن قريب فحسبُهم هذه المَرتبة مِن العِلم.[٤]

---

١ السياق: فيكون قوله... عطفًا... وقولُه... تفصيلًا...

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

٣ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٧/٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا﴾ على هذا الوجه: إليه تعالى يرجع منتهى عِلمِها، أي: عِلمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره، وإنّما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها، وقد حصل لهم ذلك بمَبعثك، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك؟ وأمّا على الوجه الأوّل فمعناه إليه تعالى انتهاء عِلمها ليس لأحد منه شيء ما كائنًا مَن كان، فلأيّ شيء يسألونك عنها؟

[٢٦٩ظ] / وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ على الوجه الأوّل تقرير لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾،[١] وتحقيقٌ لِما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه السلام في ذلك الشأن، فإنّ إنكار كونه عليه السلام في شيء مِن ذكراها ممّا يُوهِم بظاهره أن ليس له عليه السلام أن يذكُرها بوجه مِن الوجوه، فأزيحَ ذلك ببيان أنّ المنفيَّ منه عليه السلام ذِكرُها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه السلام عنها. فالمعنى إنّما أنت منذِرُ مَن يخشاها، وظيفتُك الامتثال بما أُمِرتَ مِن بيان اقترابها وتفصيلِ ما فيها مِن فنون الأهوال كما تُحيط به خُبرًا، لا تعيينُ وقتها الذي لم يُفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمّا ليس مِن وظائفك بيانه؟

وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾[٢] ببيان أنّ إرساله عليه السلام، وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منذِرٌ بمجيء الساعة، كما ينطق به قوله عليه السلام: «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتين، إن كادت لَتسبِقني».[٣] وقُرئ: "مُنْذِرٌ"[٤] بالتنوين، وهو الأصل، والإضافةُ تخفيفٌ صالح للحال والاستقبال، فإذا أريدَ الماضي تعيَّنت الإضافة. وتخصيص الإنذارِ بمَن يخشى مع عموم الدعوة لأنّه المُنتفَع به.

---

١ في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.

٢ في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٦١/٣١ (١٨٧٧٠)، ٣٦/٣٨ (٢٢٩٤٧)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٢٦/٢٢ (٣٢٦). والشطر الأوّل منه في صحيح البخاري، ١٠٥/٨ (٦٥٠٤)؛ وصحيح مسلم، ٥٩٢/٢ (٨٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٩٦/٤ (٢٢١٤).

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ إمّا تقرير وتأكيد لِما ينبئ عنه الإنذار مِن سرعة مجيء المُنذَر به، لا سيّما على الوجه الثّاني، أي: كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلّا عشيّةَ يوم واحد أو ضحاه، فلمّا تُرك "اليوم" أضيف ضحاه إلى عشيّته؛ وإمّا ردٌّ[١] لِما أدمجوه في سؤالهم، فإنّهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجِلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ١٠/٤٨]. فالمعنى: كأنّهم يومَ يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلّا عشيّةً أو ضحاها.

واعتبار كونِ اللُّبث في الدنيا أو في القبور،[٢] لا يقتضيه المقام، وإنّما الذي يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقًا للإنذار وردًّا لاستبطائهم.

والجملة على الأوّل حال مِن الموصول، فإنّه / على تقديرَي الإضافة وعدمِها مفعول لـ﴿مُنذِرُ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس، ١٠/٤٥] حالٌ مِن ضمير المفعول في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس، ١٠/٤٥]، أي: يحشُرهم مُشْبِهِين بمَن لم يلبث في الدنيا إلّا ساعةً، خلا أن الشَّبَه هناك في الأحوال الظاهرة مِن الزيّ والهيئة وفيما نحن فيه في الاعتقاد، كأنّه قيل: تُنذرهم مُشْبِهِين يومَ يرونها في الاعتقاد بمَن لم يلبث بعد الإنذار بها إلّا تلك المدّة اليسيرة؛ وعلى الثاني مُستأنَفة[٣] لا محلّ لها.[٤] [٢٧٠و]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنازعات كان ممّن حبَسه الله عزّ وجلّ في القبر والقيامة حتّى يدخل الجنّة قدرَ صلاة مكتوبة».[٥]

---

١ السياق: إمّا تقريرٌ... وإمّا ردٌّ...
٢ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٥.
٣ السياق: والجملة على الأوّل... وعلى الثاني...
٤ س ي + مِن الإعرب. | كأنّه خُطّ عليها.
٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٣٦٢ (النازعات، ٧٩/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/٤١٨ (النازعات، ٧٩/١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٥. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٧٩

سورة والنازعات

مكية، ستٌّ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والنّازِعاتِ﴾: الملائكةِ تنزِع أرواحَ الكُفّار ﴿غَرْقًا﴾: نزعًا بشِدّة، ٢ ـ ﴿والنّاشِطاتِ نَشطًا﴾: الملائكةِ تَنشِط أرواح المُؤمنين، أي: تَسُلّها برُفق، ٣ ـ ﴿والسّابِحاتِ سَبحًا﴾: الملائكةِ تسبح من السماء بأمره ـ تعالى ـ أي: تنزل، ٤ ـ ﴿فالسّابِقاتِ سَبقًا﴾: الملائكةِ تسبق بأرواح المُؤمنين إلى الجنّة، ٥ ـ ﴿فالمُدَبِّراتِ أمرًا﴾: الملائكةِ تُدبّر أمر الدنيا، أي: تنزل بتدبيره. وجواب هذه الأقسام محذوف، أي: لَتُبعَثُنَّ، يا كُفّارَ مكّة. وهو عامل في: ٦ ـ ﴿يومَ تَرجُفُ الرّاجِفةُ﴾: النفخة الأُولى، بها يرجف كُلّ شيء، أي: يتزلزل، فوُصِفتْ بما يحدث منها، ٧ ـ ﴿تَتبَعُها الرّادِفةُ﴾: النفخة الثانية ـ وبينهما أربعون سنةً. والجملة: حال من الراجفة. فاليوم واسع للنفختين وغيرهما، فصحّ ظرفيّته للبعث الواقع عقبَ الثانية ـ ٨ ـ ﴿قُلُوبٌ يَومَئِذٍ واجِفةٌ﴾: خائفةٌ قلقة، ٩ ـ ﴿أبصارُها خاشِعةٌ﴾: ذليلة لهَول ما تَرى.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

قولُهُ: (تَسُلُّهَا) أي: تخرِجُها.

قولُهُ: (أي: تَنزِلُ) بسُرعَةٍ.

قولُهُ: (بأَروَاحِ المُؤمِنِينَ) أو إلى ما أُمرَت به.

قولُهُ: (أي: لَتُبعَثُنَّ) أو لتقومَنَّ السَّاعةُ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (بِهَا يَرجُفُ) أو الواقعَة التي ترجُفُ الأجرامُ عندها.

قولُهُ: (قَلِقَةٌ) شديدَةُ الاضطرابِ، وهي صفةٌ لـ﴿قُلُوب﴾، والخبَرُ: ﴿أَبصَارُهَا﴾؛ أي: أبصارُ أصحابِها.

١٠ ـ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: أربابُ القُلوب والأبصار استهزاءً وإنكارًا للبعث: ﴿أَإِنَّا﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين، في الموضعينِ ـ ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي: أَنُرَدُّ بعد الموت إلى الحياة؟ والحافرة: اسم لأوّل الأمر ـ ومنه: رجَع فُلان في حافرته، إذا رجَع من حيثُ جاء ـ ١١ ـ ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾، وفي قراءة: «ناخِرةً»: بالية مُتفتّتة نَحيا؟ ١٢ ـ ﴿قَالُوا: تِلْكَ﴾ أي: رجعتُنا إلى الحياة ﴿إِذًا﴾ إن صحّت ﴿كَرَّةٌ﴾: رجعةٌ ﴿خَاسِرَةٌ﴾: ذات خُسران. ١٣ ـ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: الرادفة التي يَعقِبها البعث ﴿زَجْرَةٌ﴾: نفخة ﴿وَاحِدَةٌ﴾، فإذا نُفِخَت ١٤ ـ ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: كُلّ الخلائق ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾: بوجه الأرض أحياءً بعدما كانوا ببطنها أمواتًا.

١٥ ـ ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ ١٦ ـ عاملٌ في: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ، بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: اسم الوادي بالتنوين وتركِه؟ ....

قولُهُ: (بِتَحقِيقِ) تحقَّقَ مراراً[1]، غير أنَّ نافِعاً وشاميًّا وكسائيًّا يقرَؤونَ بالإخبارِ في الثَّاني هُنا[2].

قولُهُ: (وإِدخَالِ أَلِف) لقالونَ والبصريِّ وهشامٍ.

قولُهُ: (إلى الحَيَاةِ) فـ﴿فِي﴾ بمعنَى: إلى، و﴿الحَافِرَة﴾ الحالَة الأولى.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لكوفيٍّ غيرِ حفصٍ[3].

قولُهُ: (إِن صَحَّت) الظَّاهِرُ أنَّ المعنى: أنَّها إن صَحَّت فنحنُ إذاً خاسرونَ لتكذيبِنا بها، وهو استِهزاءٌ منهُم.

قولُهُ: (ذَاتُ خُسرَانٍ) أو خاسِرٌ أصحابُها.

قولُهُ: (أي: الرَّادِفَةُ) وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: لا يستصعِبُوها فما هي إلا صيحَةٌ.

قولُهُ: (بِوَجهِ الأَرضِ) السَّاهِرَة: الأرضُ البَيضاءُ المستويَةُ[4]؛ لأنَّ سالِكَها يسهَرُ خوفاً، وقيلَ: وجهُ الأرضِ، وإنَّما قيلَ لها السَّاهِرَةُ؛ لأنَّهم لا ينامُونَ عليها حينئذٍ، وقيل: هي الفَلاةُ، وقيل: أرضٌ يُجدِّدُها الله يومَ القيامةِ، وقيل: اسمُ جهنَّمَ[5].

قولُهُ: (وتَركِهِ) حرميٌّ وبصريٌّ[6].

---

(١) انظر الآية رقم: (٥) من سورة الرعد.

(٢) هذا وما بعده انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٠)، «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٦).

(٣) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٧).

(٤) انظر: «الكليات» (ص: ٥٢٠).

(٥) قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٣١٤): وهذه أقوال كلها غريبة، والصحيح: أنها الأرض وجهها الأعلى.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧١).

١٧ ـ فقال: ﴿اذهَبْ إِلَى فِرعَونَ ـ إِنَّهُ طَغَى﴾: تجاوز الحدّ في الكُفر ـ ١٨ ـ ﴿فقُلْ: هَل لَكَ﴾: أدعوك ﴿إِلَى أن تَزَكَّى﴾، وفي قراءة بتشديد الزاي بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها: تتطهّرَ من الشّرك، بأن تشهد أنْ لا إلـٰـهَ إلاّ اللهُ، ١٩ ـ ﴿وأهدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾: أدلّك على معرفته بالبُرهان ﴿فتَخشَى﴾ فتخافَه؟

٢٠ ـ ﴿فأراهُ الآيَةَ الكُبرَى﴾ من آياته التسع ـ وهي اليد أو العصا ـ ٢١ ـ ﴿فكَذَّبَ﴾ فِرعَونُ مُوسَى، ﴿وعَصَى﴾ اللهَ ـ تعالى ـ ٢٢ ـ ﴿ثُمَّ أدبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿يَسعَى﴾ في الأرض بالفساد، ٢٣ ـ ٢٤ ـ ﴿فحَشَرَ﴾: جَمَعَ السَّحرة وجُنده ﴿فنادَى، فقالَ: أنا رَبُّكُمُ الأعلَى﴾: لا ربَّ فوقي. ٢٥ ـ ﴿فأخَذَهُ اللهُ﴾: أهلَكه بالغرَق ﴿نكالَ﴾: عُقوبةَ ﴿الآخِرةِ﴾ أي: هذه الكلمةِ ﴿والأُولَى﴾ أي: قولِه قبلها: «ما عَلِمتُ لَكُم مِن إِلـٰـهٍ غَيرِي». وكان بينهما أربعون سنة. ٢٦ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَعِبرَةً لِمَن يَخشَى﴾ اللهَ تعالى.

٢٧ ـ ﴿أأنتُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا وتسهيلِها، وإدخالِ ألف بين المسهَّلة والأُخرى وتركِه ـ أي: منكرو البعث ﴿أشَدُّ خَلقًا أمِ السَّماءُ﴾..............................

قولُهُ: (أَدعُوكَ) أو هل لك مَيلٌ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للحرميِّ(١).

قولُهُ: (فَتَخَافَهُ) بأداءِ الواجِباتِ وتركِ المحرَّماتِ؛ إذ الخشيَةُ إنَّما تكونُ بعد المعرفةِ، قيل: الخشيَةُ ميزانُ صحَّةِ الهدايَةِ، وهذا كالتَّفصيلِ لقولِهِ: ﴿فَقُولا لَهُ قَولاً لَيِّناً﴾ [طه: ٤٤].

قولُهُ: (والعَصَا) وهو الأظهرُ، فإنَّها المقدَّمُ والأصلُ.

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) أو الطَّاعَةِ.

قولُهُ: (فِي الأَرضِ) أو ساعياً في إبطالِ أمرِهِ.

قولُهُ: (لا رَبَّ فَوقِي) أي: أعلى كُلِّ من يَلي أمرَكُم.

قولُهُ: (أي: هَذِهِ الكَلِمَةِ) والإضافَةُ بمَعنى اللَّام.

قولُهُ: (بِتَحقِيقِ) مِثل: ﴿أَنذَرتَهُم﴾ [١١].

قولُهُ: (أي: مُنكِرُو البَعثِ) وفي نُسخةٍ: بترك (أي)، والتَّقديرُ: هُم؛ أي: المخاطَبونَ بأنتم هم مُنكِرُو البَعثِ، والأظهَرُ: أي مُنكري البعثِ، على النِّداءِ فغيَّرهُ النَّاسخُ مع أنَّه يمكنُ حملُ كلامِهِ عليه أيضاً في بعض اللُّغاتِ بأن يُعربَ جمع المذكَّرِ السَّالِمِ بالحركاتِ المقدَّرَةِ على الواو، وقالَ بعضُ الفضلاءِ: لا يحتاجُ إلى

---

(١) انظر المصدر السابق.

أشدُّ خلقًا؟ ﴿بَناها﴾: بيانٌ لكيفيّة خلقها، ٢٨ ـ ﴿رَفَعَ سَمْكَها﴾: تفسيرٌ لكيفية البناء، أي: جعل سمْتها في جِهة العلوّ رفيعًا ـ وقيل: سمكها: سقفها ـ ﴿فسَوّاها﴾: جعلها مستوية بلا عيب، ٢٩ ـ ﴿وأغطَشَ لَيلَها﴾: أظلمه ﴿وأخرَجَ ضُحاها﴾: أبرزَ نُور شمسها ـ وأضيف إليها الليلُ لأنه ظِلّها، والشمسُ لأنها سراجها ـ ٣٠ ـ ﴿والأرضَ بَعدَ ذلِكَ دَحاها﴾: بسَطَها، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دَحْو، ٣١ ـ ﴿أخرَجَ﴾: حالٌ بإضمار «قد»، أي: مُخرِجًا ﴿مِنها ماءَها﴾ بتفجير عُيونها ﴿ومَرعاها﴾: ما ترعاه النَّعم من الشجر والعُشب وما يأكله الناس من الأقوات والثمار ـ وإطلاق المرعى عليه استعارة ـ ٣٢ ـ ﴿والجِبالَ أرساها﴾: أثبَتَها على وجه الأرض لتَسكن، ٣٣ ـ ﴿مَتاعًا﴾: مفعولٌ له لمُقدّر، أي: فعلَ ذلك مُتعةً، أو مصدرٌ أي: تمتيعًا ﴿لَكُم ولِأنعامِكُم﴾: جمعُ نَعَم. وهي الإبل والبقر والغنم.

٣٤ ـ ﴿فإذا جاءَتِ الطّامّةُ الكُبرَى﴾: النفخةُ الثانية،..........................

تقديرِ بل قولُهُ: (أي: مُنكِرو البَعثِ) تفسيرٌ للضَّميرِ المنفصِلِ، فالتَّفسيرُ في حُكمِ المبتدأ؛ لأنَّ المفسَّرَ مُبتدأٌ والخبرُ أشدُّ، لكن فيه أنَّ المفسَّرَ كلامُ غيرِ المفسِّرِ.

قولُهُ: (أَشَدُّ خَلقاً) أشارَ إلى أنَّ: ﴿السَّمَاءَ﴾ مُبتدأٌ خبرُه محذوفٌ.

قولُهُ: (نُورَ شَمسِهَا) الأظهَرُ: ضَوءَ شمسِها، كقولِهِ: ﴿والشَّمسِ وضُحَاهَا﴾ يريدُ: النَّهارَ.

قولُهُ: (لأَنَّه ظِلُّهَا) أي: كالظِّلِّ لها، والأظهَرُ: لأنَّه يحدُثُ بحركتِها؛ أي: بحركَةِ السَّماءِ أو شمسِها.

قولُهُ: (بَسَطَهَا) ومهَّدَها للسُّكنى.

قولُهُ: (حَالٌ) الأظهَرُ أنَّه استئنافٌ بَياناً للدَّحوِ.

قولُهُ: (مَا تَرعَاهُ النَّعَمُ) أي: رِعيَها ـ بكسرِ الراءِ ـ، وهو في الأصلِ لموضِعِ الرَّعي[1].

قولُهُ: (وإِطلاقُ المَرعَى عَلَيهِ) أي: على ما يأكلُهُ الإنسَانُ.

قولُهُ: (استِعَارَةٌ) حيثُ شبَّهَ أكلَ النَّاسِ برعيِ الدَّوابِ، أو ما يأكُلهُ الإنسانُ بما يرعاهُ الحيوانُ، وفيه جمعٌ بينَ الحقيقَةِ والمجازِ، وهو جائزٌ عند الشَّافعيَّةِ[2]، وأمَّا إطلاقُ المحلِّ وإرادةُ الحالِّ؛ فهو مجازٌ مرسَلٌ لا استعارَةٌ.

قولُهُ: (النَّفخَةُ الثَّانِيَةُ) أو القيامَةُ، أو السَّاعةُ التي يساقُ فيها أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ وأهلُ النَّارِ إلى النَّارِ؛ يعني: الدَّاهيَةَ التي تطُمُّ؛ أي: تَعلو على سائرِ الدَّواهي، و﴿الكُبرَى﴾: أي: التي هي أكبرُ الطَّامَّاتِ.

---

(١) والرعي: الكلأ. «القاموس المحيط» (ص: ١٢٨٩).

(٢) انظر: «البرهان في أصول الفقه» (١/ ١٢١)، و«إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (١/ ٧٩).

٣٥ ـ ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ﴾: بدلٌ من «إذا»، ﴿ما سَعَى﴾ في الدنيا من خير وشرّ، ٣٦ ـ ﴿وبُرِّزَتِ﴾: أُظهرتِ ﴿الجَحِيمُ﴾: النار المُحرقة ﴿لِمَن يَرَى﴾: لكُلّ راءٍ، وجواب إذا: ٣٧ ـ ﴿فأمّا مَن طَغَى﴾: كفرَ ٣٨ ـ ﴿وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيا﴾ باتّباع الشهوات ٣٩ ـ ﴿فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأوَى﴾: مأواه، ٤٠ ـ ﴿وأمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ﴾: قِيامَه بين يديه، ﴿ونَهَى النَّفسَ﴾ الأمّارة ﴿عَنِ الهَوَى﴾ المُردِي باتّباع الشهوات، ٤١ ـ ﴿فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأوَى﴾. وحاصلُ الجواب: فالعاصي في النار، والمُطيع في الجنّة.

٤٢ ـ ﴿يَسألُونَكَ﴾ أي: كُفّارُ مكّةَ ﴿عَنِ السّاعةِ: أيّانَ مُرساها﴾: متى وقوعُها وقيامها؟ ٤٣ ـ ﴿فِيمَ﴾: في أيّ شيء ﴿أنتَ مِن ذِكراها﴾؟ أي: ليس عِندك عِلمها حتّى تذكرَها. ٤٤ ـ ﴿إلَى رَبِّكَ مُنتَهاها﴾: مُنتهى عِلمها لا يعلمه غيره. ٤٥ ـ ﴿إنَّما أنتَ مُنذِرُ﴾: إنّما ينفع إنذارك ﴿مَن يَخشاها﴾: يخافها، ٤٦ ـ ﴿كأنَّهُم يَومَ يَرَونَها لَم يَلبَثُوا﴾ في قُبورهم ﴿إلاّ عَشِيَّةً أو ضُحاها﴾ أي: عشيّةَ يوم أو بُكرتَه. وصحّ إضافة الضحى إلى العشيّة لِما بينهما من المُلابسة إذ هما طرفا النهار، وحسّنَ الإضافةَ وقوعُ الكلمة فاصلةً.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) قالَ القاضِي[1]: بأن يراهُ مُدوَّناً في صحيفَتِهِ، وكان قد نسيَها من فرطِ الغفلَةِ أو طُولِ المدَّةِ، أقول: ويمكِنُ أن يتذكَّرَ من غيرِ رُؤيَةِ الصَّحيفَةِ لارتفاعِ الغفلةِ.

قولُهُ: (وجَوَابُ إذَا) حَقُّه ﴿فإذا﴾ دلَّ عليه ما بعدهُ من التَّفصيلِ؛ أي: انقسَمَ النَّاسُ.

قولُهُ: (كَفَر) أي: حتَّى كفَرَ، قيل: الطُّغيانُ: الإعراضُ عن الآجلَةِ، والإقبالُ على العاجِلةِ[2].

قولُهُ: (باتِّبَاعِ الشَّهوَاتِ) فانهمَكَ فيها ولم يستَعِدَّ للآخرَةِ بالعبادَةِ وتهذيبِ النَّفسِ.

قولُهُ: (مَأوَاهُ) واللامُ فيه سادٌّ مسَدَّ الإضافَةِ؛ للعلمِ بأنَّ صاحبَ المأوَى هو الطَّاغي، و﴿هيَ﴾ فَصلٌ، أو مُبتَدأ.

قولُهُ: (بَينَ يَدَيهِ) أي: مقامَهُ بين يَدَي ربِّهِ؛ لعلمِهِ بالمبدَأ والمعادِ.

قولُهُ: (المُرْدِي) أي: المهلِكِ.

قولُهُ: (مَتَى وُقُوعُهَا) أو إرساؤُها؛ أي: إقامَتُها وإثباتُها.

قولُهُ: (عِلمُهَا) أي: عِلمُ وَقتِها.

قولُهُ: (يَخَافُهَا) أي: هَولَها، وهو لا يُناسِبُ تعيينَ الوَقتِ.

قولُهُ: (في قُبُورِهِم) أو دُنياهُم.

قولُهُ: (أو بُكرَتَه) كقَولِه: ﴿إلا سَاعَةً من نَهَار﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قولُهُ: (فَاصِلَة) منَ الفَواصِلِ؛ أي: رُؤُوسَ الآيِ، والله أعلَمُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٨٤).

(٢) نسبه السلمي في «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧١) لأبي عثمان.

سورة النازعات

وتسمَّى سورةَ الساهرة، والطامَّة.

وهي مكيةٌ بالاتفاق. وعددُ آيها ستٌّ وأربعون في الكوفيِّ وخمسٌ وأربعون في غيره(1).

وعن ابن عباس أنها نزلت عقبَ سورة «عمَّ». وأوَّلُها يشبه أن يكون قَسَماً لتحقيق ما في آخر «عمَّ» أو ما تضمَّنته كلُّها.

وفي «البحر»(2): لمَّا ذكر سبحانه في آخر ما قبلها الإنذارَ بالعذاب يومَ القيامة أَقْسَم عز وجل في هذه على البعث ذلك اليوم، فقال جلَّ شأنه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ أقسامٌ من الله تعالى بطوائفَ من ملائكة الموت عليهم السلام الذين ينزعون الأرواحَ من الأجساد على الإطلاق كما في روايةٍ عن ابن عباس ومجاهد(3). أو أرواحَ الكَفَرة على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن عليٍّ

---

(1) ورد في هامش الأصل ما نصُّه: اختلافها آيتان: ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [٣٣] حجازي كوفي. ﴿طَغَىٰ﴾ [٣٧] عراقي وشامي. اهـ. والكلام من مجمع البيان ٣٠/ ١٧.

(2) ٨/ ٤١٩.

(3) هذا قول ابن مسعود ورواية عن ابن عباس كما في النكت والعيون ٦/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩، وقال مجاهد: إنها المنايا تنزع النفوس. وقوله في المصادر المذكورة آنفاً. ولم نقف على من نسب القول الأول لمجاهد.

كرَّم الله تعالى وجهه، وجويبر في تفسيره عن الحبر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود، وعبد بن حميد عن قتادة(١)، ورُوي عن سعيد بن جبير ومسروق(٢).

ويَنْشِطُونها: أي: يُخرِجونها من الأجساد، من نَشَط الدَّلْوَ من البئر: إذا أخرجها، ويَسبَحون في إخراجها سَبْحَ الذي يُخرِج من البحر ما يُخرج، فيَسْبِقون ويُسرِعُون بأرواح الكَفَرة إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبِّرون أمرَ عقابِها وثوابِها بأن يُهَيِّئوها لإدراكِ ما أُعِدَّ لها من الآلام واللذَّاتِ.

ومال بعضُهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار، والنشطِ والسبحِ بأرواح المؤمنين، لأن النزعَ جذبٌ بشدَّةٍ، وقد أردف بقوله تعالى: «غرقاً» وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ بحذف الزوائد، أي: إغراقاً في النزع من أقاصي الأجساد.

وقيل: هو نوعٌ، والنزعُ جنسٌ، أي: في هذا المحلِّ، وذلك أنسبُ بالكفار، وقال ابن مسعود: تَنزع الملائكة روحَ الكافر من جسده من تحتِ كلِّ شعرةٍ ومن تحت الأظافر وأصولِ القدمَيْنِ، ثم تُغرِقها في جسده ثم تنزعها، حتى إذا كادت تخرُج يرُدُّها في جسده، وهكذا مراراً، فهذا عملُها في الكفَّار.

والنشْطُ: الإخراجُ برفقٍ وسهولةٍ، وهو أنسبُ بالمؤمنين، وكذا السبحُ ظاهرٌ في التحرُّك برفقٍ ولطافةٍ، قال بعضُ السلف: إنَّ الملائكةَ يسُلُّون أرواحَ المؤمنين سلًّا رقيقاً، ثم يتركونها حتى تَستريحَ رُويداً، ثم يستخرجونها برفقٍ ولطفٍ، كالذي يسبَح في الماء فإنه يتحرَّك برفقٍ لئلا يغرق، فهم يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألمٌ وشدَّةٌ.

وفي «التاج» أنَّ النشطَ حلُّ العقدةِ برفقٍ(٣). ويقال ـ كما في «البحر»(٤) ـ: أَنْشَطْتُ العقالَ ونَشَطْتُه: إذا مددتَ أنشوطتَه فانحلَّت، والأنشوطة: عُقدةٌ يَسهُل

(١) ذكر هذه الأخبار السيوطيُّ في الدر ٦/ ٣١٠-٣١١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٨، والنكت والعيون ٦/ ١٩٢.
(٣) تاج العروس (نشط).
(٤) ٨/ ٤١٩.

انحلالُها إذا جُذِبت، كعقدة التِّكَّة، فإذا جُعِلت «الناشطات» من النشط بهذا المعنى كان أوفقَ للإشارة إلى الرفق.

والعطف مع اتحاد الكلِّ لتنزيلِ التغايُر العنوانيِّ منزلةَ التغاير الذاتي، كما مرَّ غير مرة، للإشعار بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصاف المعدودة من مُعظَّمات الأمور حقيقٌ بأن يكونَ على حياله مَناطاً لاستحقاقِ موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمامِ الأوصاف الأُخرِ إليه.

ولو جعلتَ «النازِعات» ملائكةَ العذاب، و«الناشطات» ملائكةَ الرحمة، كان العطفُ للتغايُر الذاتي على ما هو الأصل.

والفاءُ في الأخيرَين للدلالة على ترتُّبهما على ما قبلَهما بغير مُهلة. وانتصابُ «نشطاً» و«سبحاً» و«سبقاً» على المصدرية كانتصابِ «غرقاً»، وأما انتصابُ «أمراً» فعلى المفعولية لـ «المدبِّرات» لا على نزع الخافض، أي: بأمرٍ منه تعالى، كما قيل، وزُعم أنه الأولى. وتنكيره للتهويل والتفخيم.

وجوِّز أن يكون «غرقاً» مصدراً مؤوَّلاً بالصفة المشبَّهة، ونصبُه على المفعولية أيضاً لـ «النازعات»، أو صفةً للمفعول به لها، أي: نفوساً غَرِقةً في الأجساد. وحمل بعضُهم غرقَها فيها بِشدَّةِ تعلُّقها بها وغلبةِ صفاتها عليها، وكأنَّ ذلك مبنيٌّ على تجرُّدِ الأرواح، كما ذهب إليه الفلاسفة وبعضُ أجلَّةِ المسلمين.

هذا، ولم نقف على نصٍّ في أنَّ الملائكة حالَ قبض الأرواح وإخراجها هل يدخلون في الأجساد أم لا؟ وظاهرُ تفسير «الناشطات» أنَّهم حالةَ النزع خارجَ الجسد، كالواقف، و«السابحات» دخولُهم فيه لإخراجها على ما قيل، وأنتَ تعلم أنَّ السبحَ ليس على حقيقته، ولا مانعَ من أن يُرادَ به مجرَّدُ الاتصال ونحوِه مما لا تَوقُّفَ له على الدخول.

وجوِّز أن يكونَ المرادُ بـ «السابحات» وما بعدها طوائف من الملائكة يسبَحون في مُضيِّهم، فيسبقون فيه إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية، فيدبِّرون أمرَه من كيفيته وما لا بدَّ منه فيه. ويعمُّ ذلك ملائكةَ الرحمة وملائكةَ العذاب، والعطفُ عليه لتغايُر الموصوفات كالصفات.

وأيًّا ما كان فجوابُ القَسَم محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدُ من أحوال القيامة، ويلوِّح إليه الأقسامُ المذكورةُ، والتقدير: والنازعات.. إلخ، لتُبعَثُنَّ، وإليه ذهب الفراءُ[١] وجماعةٌ.

وقيل: أقسامٌ بالنجوم السيَّارة التي تَنزع، أي: تسير، من نَزَعَ الفَرَسُ: إذا جرى من المشرق إلى المغرب غَرقاً في النزع وجدًّا في السير، بأن تقطع الفلكَ على ما يبدو للناس حتى تنحطَّ في أقصى الغرب، وتَنشِط من بُرج إلى بُرج، أي: تخرُج، من: نَشَط الثورُ: إذا خَرَج من مكانٍ إلى مكانٍ آخَر، ومنه قولُ هِمْيان بن قُحافة:

أرى هُمومي تَنشِط المَناشِطا الشامَ بي طَوْراً وطَوراً واسطاً[٢]

وتسبح في الفلك فيسبق بعضُها في السير لكونه أسرعَ حركةً، فتدَبِّرُ أمراً نِيط بها كاختلاف الفصول، وتقدير الأزمنة، وظهورِ مواقيت العبادات والمعاملات المؤجَّلة، ولَمَّا كانت حركاتُها من المشرق إلى المغرب سريعةً قسريةً وتابعةً لحركة الفلك الأعظم ضرورةً، وحركاتُها من بُرج إلى برج بإراداتها من غير قسرٍ لها وهي غيرُ سريعةٍ، أُطلِق على الأولى النزعُ لأنه جذبٌ بشدَّةٍ، وعلى الثانية النشطُ لأنه برفقٍ.

ورُوي حملُ «النازعات» على النجوم عن الحسن وقتادة والأخفش وابن كيسان وأبي عبيدة[٣]. وحَملُ «الناشطات» عليها عن ابن عباس والثلاثة الأوَل[٤]، وحملُ

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣١.

(٢) البيت في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٣، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠، برواية: أمست، في الشطر الأول. وهو في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٧ برواية المصنف. ونسبه الجميع لهميان بن قحافة، وتحرف في النكت والعيون إلى: همام. وفي المحرر الوجيز إلى: همان. وهو: هِميان بن قُحافة أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجزٌ محسنٌ إسلاميٌّ، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف ص٣٠٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤.

(٤) يريد بهم الحسن وقتادة والأخفش، المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩.

«السابحات» عليها عن الأولين[١]. وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها، و«المدبرات» عليها عن معاذ[٢]. وإضافة التدبير إليها مجازٌ.

وقيل: أقسامٌ بالنفوس الفاضلة حالةَ المفارقة لأبدانها بالموت، فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً ـ أي: نزعاً شديداً من: أغرقَ النازعُ في القوس: إذا بلغ غايةَ المدِّ حتى ينتهي إلى النصْل ـ لعُسرِ مفارقتها إياها حيث أَلِفَتْه وكان مطيَّةً لها لاكتساب الخير ومظنةً لازدياده، فتنشَط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبَح به، فتسبق إلى حظائر القُدس فتصير لشَرَفها وقوَّتها من المدبِّرات، أي: مُلحَقةً بالملائكة، أو تصلُح هي لأن تكون مدبِّرةً، كما قال الإمام: إنَّها بعد المفارقة قد تظهر لها آثارٌ وأحوالٌ في هذا العالم، فقد يرى المرءُ شيخَه بعد موته فيُرشده لِمَا يهمُّه. وقد نُقِل عن جالينوس أنه مَرِض مرضاً عجز عن علاجه الحكماءُ، فوُصِف له في منامه علاجُه، فأفاق وفعله فأفاق. وقد ذكره الغزالي[٣]. ولذا قيل ـ وليس بحديث كما تُوهِّم ـ: إذا تحيَّرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور، أي: أصحابِ النفوس الفاضلة المتوفَّين، ولا شكَّ في أنه يحصل لزائرهم مددٌ روحانيٌّ ببركتهم، وكثيراً ما تنحلُّ عقَدُ الأمور بأنامل التوسُّل إلى الله تعالى بحرمتهم.

وحمله بعضُهم على الأحياء الممتثِلين أمرَ: موتوا قبل أن تموتوا[٤].

وتفسير «النازعات» بالنفوس مرويٌّ عن السدي، إلا أنه قال: هي جماعةُ النفوس تنزع بالموت إلى ربِّها[٥]. و«الناشطات» بها عن ابن عباس أيضاً، إلا أنه قال: هي النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج[٦]. و«السابقات» بها عن ابن

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٢) القولان في المصدرين السابقين، وقول معاذ في النكت والعيون ٦/ ١٩٤.

(٣) التفسير الكبير ٣١/ ٣١، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٨/ ٣١٣.

(٤) قال ابن حجر: هو غير ثابت. وقال القاري: هو من كلام الصوفية. كشف الخفا ٢/ ٣٨٤. وسلف ٢/ ١٧٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠.

(٦) البحر ٨/ ٤١٩.

مسعود، إلا أنَّه قال: هي أنفُسُ المؤمنين تسبِق إلى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها، وقد عاينتِ السرورَ شوقاً إلى لقاء الله تعالى(١).

وقيل: أقسامٌ بالنفوس حالَ سلوكها وتطهيرِ ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقِّي في المعارف الإلهيَّة، فإنها تَنزع عن الشهوات وتنشَط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة.

وقيل: أقسامٌ بأنفُس الغُزاة، أو أيديهم تَنزع القسيَّ بإغراق السهام، وتنشَط بالسهم للرمي، وتسبح في البرِّ والبحر، فتسبق إلى حرب العدو فتدبِّر أمرَها. وإسناد السبح وما بعده إلى الأيدي عليه مجازٌ للملابسة.

وحملُ «النازعات» على الغُزاة مرويٌّ عن عطاء، إلا أنه قال: هي النازعات بالقسيِّ وغيرها(٢).

وقيل: بصفاتِ خيلهم، فإنها تنزع في أعنَّتها غرقاً، أي: تمدُّ أعنَّتها مدًّا قويًّا حتى تُلصِقها بالأعناق من غير ارتخائها، فتصير كأنها انغمست فيها، وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في جريها فتسبق إلى العدوِّ فتُدبِّر أمرَ الظفر. وإسناد التدبير إليها إسنادٌ إلى السبب.

وحملُ «السابحات» على الخيل مرويٌّ عن عطاء أيضاً وجماعةٍ.

ولا يخفى أنَّ أكثر هذه الأقوال لا يليق بشأن جزالة التنزيل، وليس له قوَّةُ مناسِبةٌ للمقام، ومنها ما فيه قولٌ بما عليه أهل الهيئة المتقدِّمُون من الحركة الإرادية للكوكب، وهي حركته الخاصَّةُ ونحوها مما ليس في كلام السلف ولم يتمَّ عليه برهانٌ، ولذا قال بخلافه المحدثون من الفلاسفة.

وفي حمل «المدبِّرات» على النجوم إيهامُ صحَّةِ ما يزعمه أهلُ الأحكام وجهلةُ المنجِّمين، وهو باطلٌ عقلاً ونقلاً كما أوضحنا ذلك فيما تقدَّم(٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٩، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الصافات.

وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهامُ صحةِ ما يزعمه كثيرٌ من سَخَفَة العقول من أن الأولياء يتصرَّفون بعد وفاتهم بنحوِ شفاء المريض وإنقاذِ الغريق والنصر على الأعداء، وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد، على معنى أنَّ الله تعالى فوَّض إليهم ذلك، ومنهم مَن خصَّ ذلك بخمسةٍ من الأولياء، والكلُّ جهلٌ وإن كان الثاني أشدَّ جهلاً. نعم لا ينبغي التوقُّف في أنَّ الله تعالى قد يُكرم مَن شاء من أوليائه بعدَ الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيُبرئ سبحانه المريضَ ويُنقِذ الغريقَ وينصر على العدوِّ وينزلُ الغيث وكيت وكيت كرامةً له، وربَّما يُظهر عزَّ وجل مَن يُشبِهُه صورةً فتفعل ما سُئل الله تعالى بحرمته مما لا إثمَ فيه استجابةً للسائل، وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعاً فيُظهِر سبحانه نحو ذلك مكراً بالسائل واستدراجاً له.

ونقل الإمام في هذا المقام عن الغزالي أنه قال: إنَّ الأرواحَ الشريفة إذا فارقت أبدانَها ثم اتفق إنسانٌ مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن، فإنَّه لا يَبعُد أن يحصل للنفس المفارقة تعلُّقٌ بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلِّقة بذلك البدن على أعمال الخير، فتُسمَّى تلك المعاونةُ إلهاماً، ونظيرُه في جانب النفوس الشريرة وسوسة(١). انتهى.

ولم أَرَ ما يشهد على صحَّتِه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، وقد ذكر الإمام نفسه في «المباحث المشرقية» استحالةَ تعلُّقِ أكثر من نفسٍ ببدنٍ واحد، وكذا استحالةَ تعلُّق نفسٍ واحدةٍ بأكثر من بدنٍ، ولم يتعقَّب ما نقله هنا، فكأنه فَهِم أنَّ التعلُّقَ فيه غيرُ التعلُّقِ المستحيل، فلا تغفل.

وقال في وجه حمل المذكورات على الملائكة: إنَّ الملائكة عليهم السلام لها صفاتٌ سلبيةٌ، وصفاتٌ إضافيةٌ، أما الأولى فهي أنَّها مبرَّأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة، والموت والهرم والسقم والتركيب، والأعضاء والأخلاط والأركان، بل هي جواهرُ روحانيةٌ مبرَّأةٌ عن هذه الأحوال، فـ «النازعاتِ غَرْقاً»

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٣١.

إشارةٌ إلى كونها منزوعةً عن هذه الأحوال نزعاً كليًّا من جميع الوجوه على أنَّ الصيغة للنسبة. و«الناشطات نشْطاً» إشارةٌ إلى أنَّ خروجَها عن ذلك ليس كخروج البشر على سبيل الكلفة والمشقَّة، بل بمقتضَى الماهية، فالكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية.

وأما صفاتُهم الإضافية فهي قسمان:

الأول: شرحُ قوَّتهم العاقلة وبيانُ حالهم في معرفة مُلك الله تعالى وملكوته سبحانه والاطّلاع على نورِ جلاله جلَّ جلالُه، فوصفهم سبحانه في هذا المقام بوصفين:

أحدهما: «والسابحات سبحاً» فهم يَسبَحون من أول فطرتهم في بحارِ جلالِه تعالى، ثم لا منتهى لسبحهم؛ لأنَّه لا منتهى لعظمة الله تعالى وعلوِّ صمديته ونور جلاله وكبريائه، فهم أبداً في تلك السباحة.

وثانيهما: «فالسابقات سبقاً» وهو إشارةٌ إلى تفاوُتِ مراتبهم في درجات المعرفة وفي مراتب التجلِّي.

والثاني: شرحُ قوَّتهم العامة وبيانُ حالهم فيها، فوصفهم سبحانه في هذا المقام بقوله تعالى: «والمدبرات أمرا» ولَمَّا كان التدبير لا يتمُّ إلا بعدَ العلم قدَّم شرح القوَّة العاقلة على شرح القوَّة العاملة[1]. انتهى.

وهو على ما في بعضه من المنع ـ ليس بشديد المناسبة للمقام.

ونقل غيرُ واحد أقوالاً غيرَ ما ذُكر في تفسير المذكورات، فعن مجاهد: «النازعات» المنايا، تنزع النفوسَ. وحكى يحيى بن سلام أنها الوحشُ تَنزع إلى الكلأ. وعن الأول تفسيرُ «الناشطات» بالمنايا أيضاً. وعن عطاء تفسيرُها بالبقر الوحشية وما يَجري مجراها من الحيوان الذي يَنشِط من قطرٍ إلى قطرٍ. وعنه أيضاً تفسيرُ «السابحات» بالسُّفُن. وعن مجاهد تفسيرُها بالمنايا تسبح في نفوس الحيوان.

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٢٨-٢٩.

وعن بعضهم تفسيرها بالسحاب، وعن آخر تفسيرها بدوابِّ البحر. وعن بعضٍ تفسيرُ «السابقات» بالمنايا على معنى أنها تسبِق الآمالَ(١).

وعن غير واحدٍ تفسير «المدبِّرات» بجبريل يدبِّر الرياحَ والجنودَ والوحيَ، وميكالَ يدبِّر القطرَ والنباتَ، وعزرائيلَ يدبِّر قبضَ الأرواح، وإسرافيل يدبِّر الأمر المنزَّل عليهم، لأنه ينزل به ويدبِّر النفخَ في الصور(٢). والأكثرون تفسيرُها بالملائكة مطلقاً، بل قال ابن عطية: لا أحفظ خلافاً في أنها الملائكة(٣).

وليس في تفسير شيء مما ذكر خبرٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ فيما أعلم، وما ذكرتُه أولاً هو المرجَّح عندي نظراً للمقام، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ منصوبٌ بالجواب المضمَر، والمراد بـ «الراجفة»: الواقعةُ أو النفخةُ التي تَرجُف الأجرامُ عندها، على أنَّ الإسناد إليها مجازيٌّ؛ لأنها سببُ الرجف، أو التجوُّزِ في الطرف بجعلِ سببِ الرجف راجفاً.

وجوِّز أن تُفسَّر «الراجِفَةُ» بالمحرِّكة، ويكون ذلك حقيقةً؛ لأنَّ: رَجَفَ، يكون بمعنى: حرَّك وتحرَّك، كما في «القاموس»(٤)، وهي النفخة الأولى.

وقيل: المراد بها الأجرام الساكنة التي تشتدُّ حركتُها حينئذٍ كالأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] وتسميتُها راجفة باعتبار الأول، ففيه مجازٌ مرسلٌ، وبه يتضح فائدةُ الإسناد.

وقوله تعالى: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ أي: الواقعة أو النفخةُ التي تردف وتتبَع الأولى، وهي النفخة الثانية. وقيل: الأجرام التابعةُ، وهي السماء والكواكب، فإنها تنشقُّ وتنتثر بعدُ. والجملة حالٌ من «الراجفة»، مصحِّحةٌ لوقوع اليوم ظرفاً للبعث لإفادتها امتدادَ الوقت وسعتَه، حيثُ أفادت أنَّ اليومَ زمانُ الرجفة المقيَّدةِ

---

(١) ينظر لهذه الأقوال: تفسير الطبري ٢٤/٥٧-٦٤، والنكت والعيون ٦/١٩٢-١٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠-٤٣١، والبحر ٨/٤١٩.

(٢) زاد المسير ٩/١٧، والبحر ٨/٤١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٤٣١.

(٤) مادة (رجف).

بتبعيَّةِ «الرادفة» لها، وتبعيَّةُ الشيء الآخَرَ فرعُ وجودِ ذلك الشيء، فلا بدَّ من امتدادِ اليوم إلى «الرادفة»، واعتبارُ امتداده مع أنَّ البعثَ لا يكون [إلا][(١)] ـ عند «الرادفة» ـ أعني: النفخةَ الثانيةَ، وبينَها وبينَ الأولى أربعون ـ لتهويل اليوم ببيانِ كونه موقعاً لداهيتَيْن عظيمتَيْن.

وقيل: «يومَ تَرْجُف» منصوبٌ بـ «اذكر»، فتكون الجملة استئنافاً مقرِّراً لمضمونِ الجواب المضمَر، كأنه قيل لرسول الله ﷺ: اذكُر لهم يومَ النفختين، فإنه وقتُ بعثهم.

وقيل: هو منصوبٌ بما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: يومَ ترجُف وَجَفَتِ القلوبُ، أي: اضطربت، يقال: وَجَفَ القلبُ وَجيفاً: اضطربَ من شدَّة الفزَع، وكذلك وَجَب وَجِيباً.

ورُوي عن ابن عباس أنَّ «واجفة» بمعنى: خائفة، بلغةِ همدان[(٢)].

وعن السديّ: زائلةٌ عن مكانها[(٣)].

ولم يُجعَل منصوباً بـ «واجفة»؛ لأنه نَصَبَ ظرفَه، أعني «يومئذ»، والتأسيسُ أولى من التأكيد فلا يُحمَل عليه، كيف وحذفُ المضافِ وإبدالُ التنوين مما يأباه أيضاً.

ورفع «قلوبٌ» على الابتداء، و«يومئذ» متعلِّقٌ بـ «واجفة»، وهي الخبر على ما قيل، وهو الأظهر كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٤] وجاز الابتداء بالنكرة لأنَّ تنكيرَها للتنويع، وهو يقوم مقامَ الوصف المخصِّص، نعم التنويعُ في النظير أظهرُ لذكر المقابل، بخلاف ما نحن فيه، ولكن لا فرقَ بعدَ ما ساق المعنى إليه، وإن شئتَ فاعتبر ذلك للتكثير كما اعتُبِر في: شَرٌّ أهرَّ ذا ناب[(٤)].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. ينظر الكشاف ٤/ ٢١٢، وتفسير أبي السعود ٩/ ٩٦، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩، والكلام من البحر ٨/ ٤١٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣.

(٤) يقال: أهرَّه: إذا حمله على الهرير، و«شرٌّ» رفع بالابتداء، وهو نكرة، وشرط النكرة أن لا يبتدأ بها حتى تخصص، وإنما جاز ذلك لأن المعنى: ما أهرّ ذا ناب إلّا شرٌّ. وذو =

وقيل: «واجفة» صفةُ «قلوبٌ» مصحِّحة للابتداء بها.

وقولُه تعالى: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ أي: أبصارُ أهلِها ذليلةٌ من الخوف، ولذلك أضافَها إليها، فالإضافة لأدنى ملابسةٍ. وجوِّز أن يرادَ بالأبصار البصائرُ، أي: صارت البصائر ذليلةً لا تُدرِك شيئاً، فكنَى بذُلِّها عن عدم إدراكها، لأنَّ عزَّ البصيرة إنما هي بالإدراك. وبُحِث في كون القلوب غيرَ مُدرِكة يومَ القيامة. وأجيب بأنَّ المرادَ شدَّةُ الذهول والحيرة = جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ في محلِّ رفعٍ على الخبرية لـ «قلوب».

وتعقِّب بأنه قد اشتهر أنَّ حقَّ الصفة أن تكونَ معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع، حتى قال غيرُ واحدٍ: إنَّ الصفات قبلَ العلم بها أخبارٌ، والأخبار بعد العلم بها صفاتٌ، فحيث كان ثبوتُ الوجيف وثبوتُ الخشوع لأبصارِ أصحابِ القلوب سواء في المعرفة والجهالةِ كان جَعْلُ الأول عنوانَ الموضوع مسلَّمَ الثبوت مفروغاً عنه، وجَعْلُ الثاني مخبراً به مقصودَ الإفادة تحكُّماً بحتاً، على أنَّ الوجيفَ الذي هو عبارةٌ عن اضطراب القلب وقَلَقِه من شدَّة الخوف والوَجَلِ أشدُّ من خشوع البصر وأهولُ، فجَعْلُ أهونِ الشرَّين عمدةً وأشدِّهما فضلةً مما لا عهدَ له في الكلام.

وأيضاً فتخصيصُ الخشوع بقلوبٍ موصوفةٍ بصفة معيَّنةٍ غيرِ مُشعِرةٍ بالعموم والشمول تهوينٌ للخطب في موقع التهويل. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ «المشتهر» و«ما قاله غيرُ واحد» غيرُ مجمع على اطِّراده، وأنَّ بعضَ ما اعترض به يندفع على ما يُفهِمه كلامُ بعض الأجلة من جواز جعل المفرد خبراً والجملةِ بعدُ صفةً، لكنه بعيدٌ، وما قيل على الأول من أنَّ جعلَ التنوين للتنويع مع إلباسه مخالفٌ للظاهر، وكونه كالوصف معنًى تعسُّف = خروج[1] عن الإنصاف.

= الناب: السبع. ويضرب به المثل في ظهور أمارات الشرِّ ومخايله. مجمع الأمثال ١/ ٣٧٠، وقد سلف ٢٤/ ١٢٠.

(١) قوله: خروج، هو خبر «ما» في قوله: وما قيل على الأول. . . .

وزعم ابن عطية أنَّ النكرةَ تخصَّصت بقوله تعالى: «يومئذ»[١]. وتعقِّب بأنه لا تتخصَّصُ الأجرامُ[٢] بظروف الزمان.

وقدَّر عصام الدين جوابَ القَسَم: ليأتينَّ، وقال: نحن نقدِّره كذلك ونجعل «يوم تَرجُف» فاعلاً له مرفوعَ المحلِّ، ونجعل «تتبعها الرادفة» صفةً للراجفة بجَعْلِها في حكم النكرة، لكون التعريف للعهد الذهني، نحو:

أمُرُّ على اللئيم يسبُّني[٣]

وفيه ما فيه، وفيه ما فيه[٤].

وقيل: إنَّ الجوابَ «تتبعها الرادفة»، و«يومَ» منصوبٌ به، ولامُ القَسَم محذوفةٌ، أي: لَيومَ كذا تتبعها الرادفة. ولم تدخل نون التأكيد لأنَّه قد فصل بين اللام المقدَّرة والفعل. وليس بذاك.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذي[٥]: إنَّ جوابَ القَسَم «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى». وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: هو «هل أتاك حديث موسى» لأنَّه في تقدير: قد أتاك.

وقال أبو حاتم: على التقديم والتأخير، كأنه قيل: فإذا هم بالساهرةِ والنازعاتِ. وخطَّأه ابن الأنباري بأنَّ الفاء لا يُفتَتح بها الكلامُ.

وبالجملة الوجهُ الوجيه هو ما قدَّمنا.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ حكايةٌ لِمَا يقوله المنكرون للبعث، المكذِّبون بالآيات الناطقة به، إثرَ بيانِ وقوعه بطريق التوكيد القَسَميِّ وذكرِ مقدِّماته الهائلة وما يَعرِض عندَ وقوعها للقلوب والأبصار، أي: يقولون إذا قيل

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

(٢) تحرف في (م) إلى: بالإجرام. والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ٤٢٠، والكلام منه.

(٣) وعجزه: فمضيتُ ثمةَ قلتُ لا يعنيني، وسلف ٧/ ٤٦٤.

(٤) كذا وردت العبارة مكررة في الأصل و(م)، وكتب فوقها في الأصل: صح.

(٥) كما في البحر ٨/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف ما سيرد من أقوال.

لهم: إنكم تُبعَثون، منكرين له متعجِّبين منه: أئنَّا لمردودون بعدَ موتنا في الحافرة؟! أي: في الحالة الأولى، يعنون الحياةَ كما قال ابن عباس وغيرُه.

وقيل: إنه تعالى شأنه لَمَّا أقسم على البعث وبيَّن ذُلَّهم وخوفَهم ذكر هنا إقرارَهم بالبعث وردَّهم إلى الحياة بعدَ الموت، فالاستفهامُ لاستغرابِ ما شاهدوه بعدَ الإنكار، والجملة مستأنَفةٌ استئنافاً بيانيًّا لِمَا يقولون إذ ذاك.

والظاهرُ ما تقدَّم، وأنَّ القولَ في الدنيا، وأيًّا ما كان فهو من قولهم: رَجَعَ فُلانٌ في حَافِرته، أي: طريقته التي جاء فيها فَحَفَرها، أي: أثَّر فيها بمشيه، والقياس: المحفورةُ، فهي إما بمعنى: ذاتِ حَفْرٍ، أو الإسنادُ مجازيٌّ، أو الكلامُ على الاستعارة المكنية بتشبيه القابل بالفاعل وجَعْلِ الحافريةِ تخييلاً، وذلك نظيرُ ما ذكروا في: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧].

ويقال لكلِّ مَن كان في أمرٍ فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته، وعليه قوله:

أحافِرةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ معاذَ الله من سَفَهٍ وعارِ[1]

يريد: أأَرْجِع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي بعدَ أن شبتُ؟! معاذَ الله من ذاك سفهاً وعاراً. ومنه المثل: النقد عند الحافرة. فقد قيل: الحافرةُ فيه بمعنى الحالة الأولى، وهي الصفقة، أي: النقدُ حالَ العقد، لكن نقل الميداني[2] عن ثعلب أنَّ معناه: النقدُ عند السَّبْق. وذلك أنَّ الفرس إذا سَبَقَ أخذَ الرهنَ، والحافرةُ: الأرضُ التي حَفَرَها السابقُ بقوائمه على أحد التأويلات.

وقيل: «الحافرةُ»: جمعُ: الحافر، بمعنى القَدَم، أي: يقولون أئنا لمردودون

---

(١) البيت في أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧، والصحاح (حفر)، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، والبحر ٨/ ٤١٧، وهو في تفسير الطبري برواية: طيش. بدل: عار. وصَلِعَ: انحسر شعر مقدم رأسه. مختار الصحاح (صلع)، ونصب «حافرة» على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجُوعاً إلى أول أمري؟ يريد: أأرجع رجوعاً؟ فحذف الفعلَ واكتفَى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/ ٣٣٧.

أحياءً نمشي على أقدامنا ونَطَأ بها الأرضَ؟! ولا يخفى أنَّ أداء اللفظ هذا المعنى غيرُ ظاهر.

وعن مجاهد: «الحافرة»: القبورُ المحفورة، أي: لمردودون أحياء في قبورنا[1]. وعن زيد بن أسلم: هي النار[2]. وهو كما ترى.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: «في الحَفِرَة» بفتح الحاء وكسر الفاء[3]، على أنه صفةٌ مشبَّهة من حَفِر اللازم كَعِلم، مطاوع: حُفِر، بالبناء للمجهول، يقال: حُفِرَت أسنانُه فَحفِرَت حَفَراً بفتحتين: إذا أثَّر الإكالُ في أسناخها[4] وتغَيَّرت، ويرجع ذلك إلى معنى المحفورة. وقيل: هي الأرض المنتِنَة المتغيِّرة بأجساد موتاها.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ تأكيدٌ لإنكار البعث بذكر حالةٍ منافيةٍ له، والعاملُ في «إذا» مضمَرٌ يدلُّ عليه «مردودون»، أي: أئذا كنَّا عظاماً باليةً نُرَدُّ ونُبعَث مع كونها أبعدَ شيء من الحياة.

وقرأ نافع وابن عامر: «إذا كنّا» بإسقاط همزة الاستفهام[5]، فقيل: يكون خبرَ استهزاءٍ بعدَ الاستفهام الإنكاريِّ. واستُظهِر أنه متعلِّقٌ بـ «مردودون».

وقرأ عمر وأبيٌّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر: «ناخِرة» بالألف[6]، وهو كـ «نَخِرة» من نَخِر العظمُ، أي: بَلِي وصار أجوفَ تَمرُّ به الريحُ فيُسمَع له نَخِير، أي: صوتٌ، وقراءةُ الأكثرين أبلغ، فقد صرَّحوا بأنَّ فَعِلاً أبلغُ من فاعِل، وإن كانت حروفُه أكثرَ، وقولهم: زيادة المبنى

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٧١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٠.

(٤) الأسناخ: جمع سِنْخ، بكسر المهملة: منبت الأسنان. القاموس (سنخ).

(٥) وهي أيضاً قراءة الكسائي ويعقوب. ينظر التيسير ص١٣٢-١٣٣، والنشر ١/ ٣٧٤.

(٦) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن الأخوين (حمزة والكسائي) وأبي بكر، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٠.

تدلُّ على زيادة المعنى أغلبيٌّ، أو إذا اتَّحد النوعُ، لا إذا اختلف، كأنْ كان «فاعِل» اسمَ فاعل، و«فَعِل» صفةً مشبهةً.

نعم تلك القراءةُ أوفق برؤوس الآي، واختيارها لذلك لا يفيد اتحادَها مع الأخرى في المبالغة كما وهم.

وإلى الأبلغية ذهب المعظم، وفُسِّرت النخرة عليه بالأشدِّ بلًى، وقال عمرو بن العلاء: النَّخِرة التي قد بَلِيَت، والناخرة التي لم تَنخَر بعدُ(١). ونُقل اتحادُ المعنى عن الفراء وأبي عبيدة(٢) وأبي حاتم وآخرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ حكايةٌ لكفرٍ آخَرَ لهم متفرِّعٍ على كفرهم السابق، ولعلَّ توسيطَ «قالوا» بينهما للإيذان بأنَّ صدورَ هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطِّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرِّ صدورُه عنهم في كافَّة أوقاتهم، حسبما ينبئ عنه حكايتُه بصيغة المضارع. أي: قالوا بطريق الاستهزاء مُشيرين إلى ما أنكروه من الردِّ في الحافرة مُشعرين بغاية بُعدِه عن الوقوع: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: ذاتُ خُسْرٍ، أو: خاسرٌ أَصحابُها، أي: إذا صحَّت تلك الرجعةُ فنحن خاسرون لتكذيبنا بها، وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورةِ ما يغلب على الظنِّ وقوعُه لمزيد الاستهزاء. وقال الحسن: «خاسرة»: كاذبة، أي: [ليست] بكائنة(٣)، فكأن المعنى: تلك إذا كنَّا عظاماً نَخِرَةً كَرَّةٌ ليست بكائنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ تعليلٌ لمقدَّرٍ يقتضيه إنكارُهم ذلك، فإنَّه لَمَّا كان مداره استصعابَهم الكرَّةَ رُدَّ عليهم ذلك فقيل: لا تحسبُوا تلك الكرَّة صعبةً، فإنَّما هي صيحةٌ واحدةٌ، أي: حاصلةٌ بصيحةٍ واحدةٍ وهي النفخة الثانية، عُبِّر عنها بها تنبيهاً على كمال اتصالها بها كأنَّها عينُها.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٢) قول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.

(٣) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، والبحر ٨/ ٤٢١، وتحرفت كلمة: بكائنة، في البحر إلى: بكافية.

وقيل: «هي» راجعٌ إلى «الرادفة»، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ حينئذٍ بيانٌ لترتُّبِ الكرَّة على الزجرة مفاجأةً، أي: فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها، وعلى الأول بيانٌ لحضورهم الموقفَ عقيبَ الكرَّة التي عُبِّر عنها بالزجرة.

و«الساهرة» قيل: وجهُ الأرض والفلاةُ، وأنشدوا قول أمية ابن أبي الصلت:

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبحرٍ   وما فاهُوا به أبداً مُقيمُ[(١)]

وفي «الكشاف»: الأرض البيضاء ـ أي: التي لا نباتَ فيها ـ المستويةُ، سمِّيت بذلك لأنَّ السرابَ يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعث بن قيس:

وساهرةٍ يُضحي السرابُ مجلِّلاً   لأقطارِها قد جُبْتُها مُتلثِّما[(٢)]

أو لأنَّ سالكها لا ينام خوفَ الهَلَكة[(٣)]. وفي الأول مجازٌ على المجاز، وعلى الثاني السهرُ على حقيقته، والتجوُّز في الإسناد.

وحكى الراغبُ فيها قولين: الأول: أنَّها وجهُ الأرض. والثاني: أنَّها أرضُ القيامة. ثم قال: وحقيقتُها: التي يكثُر الوطءُ بها، فكأنها سَهِرَت من ذلك، إشارةً إلى نحو ما قال الشاعر:

تحرَّكَ يَقظَانُ التُّرابِ ونَائِمُه[(٤)]

وروى الضحاك عن ابن عباس أنَّ الساهرةَ أرضٌ من فضَّةٍ لم يُعصَ الله تعالى

---

(١) ديوان أمية ص١٢١، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦، والبحر ٨/ ٤١٧، وعند الجميع: لَهُمُ، بدل: أبداً.

(٢) البيت في الكشاف ٤/ ٢١٣، والدر المصون ١٠/ ٦٧٤، وهو في تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٣ بلفظ: جِئْتها. بدلَ: جُبْتُها.

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٣.

(٤) مفردات الراغب (سهر)، وصدر البيت: إذا نحن سِرْنا بينَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ، وهو في الأغاني ١٤/ ٣٨٦، والحماسة البصرية ١/ ٨، لحريث بن عناب الطائي، وفي أساس البلاغة (يقظ) دون نسبة.

عليها قطُّ، يَخلُقها عزَّ وجلَّ حينئذٍ. وعنه أيضاً أنها أرضُ مكة.

وقيل: هي الأرض السابعة، يأتي الله تعالى بها فيحاسبُ الخلائق عليها، وذلك حين تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال وهب بن منبه: جبلٌ بالشام يمدُّه الله تعالى يومَ القيامة لحشر الناس.

وقال أبو العالية وسفيان: أرضٌ قريبةٌ من بيت المقدس.

وقيل: «الساهرة» بمعنى الصحراء على شفير جهنم.

وقال قتادة: هي جهنم لأنه لا نومَ لمن فيها(١).

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ كلامٌ مستأنَفٌ واردٌ لتسلية رسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتهديدِهم عليه بأن يُصيبَهم مثلُ ما أصاب مَن كان أَقوى منهم وأعظم.

ومعنى «هل أتاك» إن اعتُبِرَ أنَّ هذا أولُ ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام = ترغيبٌ له ﷺ في استماع حديثه، كأنَّه قيل: هل أتاك حديثُه؟ أنا أُخبرك به.

وإن اعتُبِر إتيانُه قبلَ هذا وهو المتبادرُ من الإيجاز في الاقتصاص = أليس قد أتاك حديثُه. وليس «هل» بمعنى «قد» على شيء من الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ ظرفٌ للحديث لا للإتيان لاختلافِ وقتَيْهما. وجُوِّز كونُه مفعولَ: اذكر، مقدَّراً. وتقدَّم الكلامُ في «الواد المقدس» واختلاف القراء في «طوى»(٢).

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول، والتقديرُ: وقال له أو قائلاً له: اذهب.. إلخ. وقيل: هو تفسيرٌ للنداء، أي: ناداه: اذهب. وقيل: هو على حذف «أنْ» المفسِّرة، يدلُّ عليه قراءةُ عبد الله: «أن اذْهَبْ»(٣) لأنَّ في النداء معنى القول.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ١٩٦-١٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣، والبحر ٨/ ٤٢١.
(٢) عند تفسير الآية (١٢) من سورة طه.
(٣) الكشاف ٤/ ٢١٣، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٩.

وجُوِّز أن يكونَ بتقدير «أن» المصدرية قبلَها حرفُ جرٍّ.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوب الامتثال به.

﴿فَقُلْ﴾ بعد ما أتيتَه: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾ أي: هل لك ميلٌ إلى أن تَتَزكَّى، فـ «لك» في موضع الخبر لمبتدأ محذوفٍ، و«إلى أن تزكى» متعلِّقٌ بذلك المبتدأ المحذوف، ونحوُه قولُ الشاعر:

فهل لكم فيها إليَّ فإنَّني بصيرٌ بما أعيا النِّطاسِيَّ حِذْيَما[1]

قد يقال: هل لك في كذا. فيؤتى بـ «في» ويقدَّر المبتدأ: رغبةٌ، ونحوُه مما يتعدَّى بها. ومنهم من قدَّره هنا: رغبةٌ، لأنها تتعدَّى بها أيضاً.

وقال أبو البقاء: لَمَّا كان المعنى: أدعوك، جيء بـ «إلى»[2]. ولعلَّه جَعَلَ الظرفَ متعلِّقاً بمعنى الكلام أو بمقدَّرٍ يدلُّ عليه.

و«تزكَّى» بحذف إحدى التاءين، أي: تَتَطَهَّرُ من دَنَس الكفر والطغيان.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو بخلافٍ: «تَزَّكَّى» بتشديد الزاي[3]، وأصلُه كما أشرنا إليه: تَتَزكَّى، فأدغمت التاءُ الثانية في الزاي.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أرشِدَك إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿فَتَخْشَىٰ ١٩﴾ إذ الخشية لا تكون إلا بعدَ معرفته؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وجَعَلَ الخشيةَ غايةً للهداية؛ لأنها مِلاك الأمر، مَن خَشِي الله تعالى أتى منه كلُّ خير، ومَن أَمِنَ اجْتَرأ على كلِّ شرٍّ، ومنه قوله ﷺ فيما رواه الترمذي عن

---

(١) البيت في المستقصى ١/ ٢٢٠، ولسان العرب (نطس)، والخزانة ٤/ ٣٧٣ لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١١١. والشطر الثاني عند الجميع: طبيب بما أعيا...، وهو في البحر ٨/ ٤٢١: بصيرٌ، كما أورده المصنف. والنِّطاسيُّ: دقيقُ النظر في الأمور، ويقال للطبيب: نِطاسِيٌّ، لدقَّةِ نظره في الطبِّ. وحِذْيَم: على حذف المضاف، أي: ابن حِذْيَم: وهو رجل من أطباء العرب.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٥١.

(٣) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٨، عن الحرمين (نافع وابن كثير)، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٢.

أبي هريرة: «من خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزلَ»(١).

وفي الاستفهام ما لا يخفى من التلطُّف في الدعوة والاستنزال عن العتوِّ، وهذا ضربُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جُمَلٍ قد طُويت تعويلاً على تفصيلها في موضعٍ آخرَ، كأنه قيل: فذهب وكان كيت وكيت فأراه. واقتصر الزمخشريُّ في الحواشي على تقدير جملةٍ، فقال: إنَّ هذا معطوفٌ على محذوفٍ، والتقديرُ: فذهب فأراه. لأنَّ قولَه تعالى: «اذهب» يدلُّ عليه، فهو على نحو: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والإراء إما بمعنى التبصير أو بمعنى التعريف، فإنَّ اللعين حين أبصرها عرفها، وادِّعاءُ سحريَّتها إنما كان إظهاراً للتجلُّد، ونسبتُها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر، كما أنَّ نسبتَها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [طه: ٥٦] بالنظر إلى الحقيقة.

والمراد بـ «الآية الكبرى» على ما رُوي عن ابن عباس: قلبُ العصا حَيَّةً، فإنها كانت المقدَّمةَ والأصلَ، والأخرى كالتَّبَع لها. وعلى ما رُوي عن مجاهد: ذلك واليدُ البيضاء، فإنهما باعتبارِ الدلالة كالآية الواحدة، وقد عبَّر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه: ٤٢] باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كلٌّ منها آيةٌ بيِّنةٌ لقوم يعقلون.

وجُوِّز أن يراد بها مجموعُ معجزاته عليه السلام، والوحدةُ باعتبار ما ذُكر، والفاءُ لتعقيب أولها، أو مجموعِها باعتبار أولها، وكونُها كبرى باعتبار معجزاتِ مَن قبله من الرسل عليهم السلام، أو هو للزيادة المطلقة. ولا يخفى بُعده. ويزيده بُعداً ترتيبُ حَشْرِ السَّحَرَة بعدُ، فإنَّه لم يكن إلَّا على إراءةِ تَينك الآيتين وإدباره عن العمل بمقتضاهما، وأمَّا ما عداهما من التسع فإنما ظهر على يده عليه السلام بعدَ ما غلب

(١) سنن الترمذي (٢٤٥٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

السَّحَرَة على مهلٍ في نحوٍ من عشرين سنةً.

وزعم غُلاةُ الشيعة أنَّ «الآية الكبرى» عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، أراه إيَّاه متطورةً روحُه الكريمة بأعظم طَور، وهو هَذَيانٌ وراءَ طَور العقل وطور النقل.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى عليه السلام وسمَّى معجزتَه سحراً ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الله تعالى بالتمرُّد بعد ما عَلم صحَّةَ الأمر ووجوبَ الطاعة أشدَّ عصيانٍ وأقبحَه، حيث اجترأ على إنكار وجودِ ربِّ العالمين رأساً، وكان اللعينُ وقومُه مأمورين بعبادته عز وجل وتَركِ العظمة التي يدَّعيها الطاغيةُ ويَقْبلُها منه فئتُه الباغية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط.

وفي جعل متعلَّق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلَّق العصيان اللهَ عز وجل ما ليس في جعلهما موسى كما قيل: فكذَّبَ موسى وعصاه = من الذمّ كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولَّى عن الطاعة ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ساعياً مجتهداً في إبطالِ أمره عليه السلام ومعارَضةِ الآية، و«ثم» لأنَّ إبطالَ ذلك ونقضَه يقتضي زماناً طويلاً. وجُوِّز أن يكون الإدبار على حقيقته، أي: ثم انصرف عن المجلس ساعياً في إبطال ذلك.

وقيل: أدبر يسعى هارباً من الثُّعبان، فإنَّه رُوي أنه لَمَّا ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، فوضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، فهرب فرعونُ وأحدث، وانهزم الناسُ مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه.

وفي بعض الآثار أنها انقلبت حيَّة وارتفعت في السماء قَدْر مِيلٍ، ثم انحطَّت مُقبلة نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى، مُرني بما شئتَ. ويقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذتَه. فأخذه فعاد عصاً[1].

وأنت تعلم أنَّ هذا إن كان بعد حشر السَّحَرَة للمعارضة كما هو المشهور، فلا تظهر صحَّةُ إرادته هاهنا إذا أريد بالحشر بعدُ حَشْرُهم، وإن كان بعد التكذيب والعصيان وقبلَ الحشر فلا يظهر تراخيه عن الأولين. نعم، قيل: إنَّ «ثم» عليه

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٠٠.

للدلالة على استبعاد إدباره مرعوباً مسرعاً مع زعمه الإلهيَّة.

وقيل: أريد بقوله سبحانه: «ثم أدبر»: ثم أقبل، من قولهم: أقبل يفعل، أي: أنشأ، لكن جُعل الإدبار موضعَ الإقبال تمليحاً وتنبيهاً على أنَّه كان عليه دماراً وإدباراً.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجمع السَّحَرَة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] وقوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠] أي: بما يُكاد به من السحَرَة وآلاتهم.

وقيل: جَمَعَ جنودَه. وجُوِّز أن يراد: جَمَعَ أهلَ مملكته.

﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في المجمع بنفسه، أو بواسطة المنادي، وأُيِّد الأول بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وعلى الثاني فيه تقديرٌ، أي: فقال: يقول فرعون: أنا ربكم.. إلخ، مع ما في الثاني من التجوُّز.

وفي بعض الآثار أنَّه قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمةَ، وأراد اللعينُ تفضيلَ نفسه على كلِّ مَن يلي أمورَهم.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ النكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيبُ الذي يُنكِّل مَن رآه أو سَمِعه، ويمنعه من تعاطي ما يُفضي إليه، وهو نصب على أنه مصدرٌ مؤكِّد، كـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٦] و﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، كأنه قيل: نكَّل الله تعالى به نكالَ الآخرة والأولى، وهو الإحراقُ في الآخرة والإغراقُ والإذلال في الدنيا.

وجوِّز أن يكون نصباً على أنَّه مفعولٌ مطلَقٌ لـ «أخَذَ»، أي: أخذه الله تعالى أخْذَ نكالِ الآخرة.. إلخ. وأن يكونَ مفعولاً له، أي: أخذه لأجلِ نكالِ.. إلخ. وأن يكون نصباً بنزع الخافض، أي: أخذه بنكال الآخرة والأولى. وإضافته إلى الدارين باعتبارِ وقوعِ نفس الأخذ فيهما، لا باعتبار أنَّ ما فيه من معنى المنع يكون فيهما، فإنَّ ذلك لا يُتصوَّر في الآخرة بل في الدنيا، فإنَّ العقوبة الأخروية تُنكِّل مَن سَمِعها وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها فيها.

وأن يكون في تأويل المشتقِّ حالاً، وإضافته على معنى «في»، أي: منكِّلاً لمن رآه أو سمع به في الآخرة والأولى. وجُوِّز أن تكون الإضافة عليه لاميَّةً.

وحمل «الآخرة» و«الأولى» على الدارين هو الظاهرُ، ورُوي عن الحسن وابن زيد وغيرهما.

وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبي أنَّ الآخرةَ قولتُه: «أنا ربكم الأعلى»، والأولى قولته: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وقيل بالعكس. فهما كلمتان، وكان بينهما ـ على ما قالوا ـ أربعون سنة.

وقال أبو رزين: «الأولى» حالةُ كفره وعصيانه، و«الآخرة» قولته: «أَنا رَبُّكُم الأعلى».

وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرِها(١)، أي: نُكِّل بالجميعِ.

والإضافة على جميع ذلك من إضافة المسبَّب إلى السبب. ومآل من يقول بقبول إيمان فرعون إلى هذه الأقوال وجعلِ ذلك النكال الإغراقَ في الدنيا، وقد قدَّمنا الكلامَ في هذا المقام(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من قصة فرعون وما فَعَل وما فُعِل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لمن شأنُه أن يخشى، وهو مَن مِن شأنِه المعرفةُ، وهذا إما لأنَّ مَن كان في خشية لا يحتاج للاعتبار، أو ليشمَلَ مَن يخشى بالفعل ومَن كان مِن شأنه ذلك على ما قيل.

وقولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطابٌ للمخاطبين في جواب القَسَم ـ أعني: لتبعثنَّ ـ من أهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بيَّن كمالَ سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ).

ونصبُ «خَلْقاً» على التمييز، وهو محوَّلٌ عن المبتدأ، أي: أَخَلْقُكم بعد موتكم

---

(١) ينظر ما ورد من أخبار في تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٧، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨.

(٢) عند تفسير الآية (٩٢) من سورة يونس.

أشدُّ، أي: أشقُّ وأصعبُ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أم خَلْقُ السماء على عِظَمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقولُ عن ملاحظة أدناها.

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلخ بيانٌ وتفصيلٌ لكيفية خلقها المستفادِ من قوله تعالى: «أم السماء». وفي عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عُطف من الأفعال من التنبيهِ على تعيينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى.

وقوله سبحانه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيانٌ للبناء، أي: جعلَ مقدارَ ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سَمت العلوِّ مديداً رفيعاً. وجوِّز أن يفسَّر السمكُ بالثِّخَن، فالمعنى: جعل ثِخَنَها مرتفعاً في جهة العلوِّ، ويقال للثِّخَن: سَمْكٌ، لِمَا فيه من ارتفاع السطح الأعلى عن السطح الأسفل، وإذا لُوحظ هذا الامتدادُ من العلوِّ للسفل قيل له: عُمْقٌ، ونظيرُ ذلك الدَّرَج والدَّرَك.

وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمس مئة عامٍ، وارتفاع كلِّ سماءٍ عن سماءٍ وثِخَنُ كلٍّ كذلك[١]. والظاهرُ تقديرُ ذلك بالسير المتعارَف، وأنَّ المراد بالعدد المذكورِ التحديدُ دون التكثير، ونحن مع الظاهر إلا أن يمنعَ عنه مانعٌ.

﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ أي: جعلها سواءً فيما اقتضته الحكمة فلم يُخلَّ عز وجل قطعةً منها عمَّا تقتضيه الحكمةُ فيها، ومن ذلك تزيينُها بالكواكب.

وقيل: تسويتُها: جعلُها ملساءَ ليس في سطحها انخفاضٌ وارتفاعٌ.

وقيل: جعلُها بسيطةً متشابهة الأجزاء والشكل، فليس بعضُها سطحاً وبعضُها زاويةً وبعضُها خطًّا. وهو قولٌ بكُريَّتها الحقيقية، وإليه ذهب كثيرٌ وقالوا ـ وحكاه الإمام ـ: لَمَّا ثبت أنَّها محدَثةٌ مفتقرةٌ إلى فاعلٍ مختارٍ فأيُّ ضررٍ في الدين ينشأ من كونها كريَّة[٢]؟

وقيل: تسويتها تتميمُها بما يتمُّ به كمالُها من الكواكب والمتمِّمات والتداوير

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الطلاق.

(٢) تفسير الرازي ٣١/٤٧.

وغيرها مما بُيِّن في علم الهيئة، من قولهم: سوَّى أمرَه، أي: أصلحه. أو من قولهم: استوت الفاكهةُ: إذا نَضِجَتِ.

وأنت تعلم أنَّ هذا مع بنائِه على اتحاد السماوات والأفلاك غير معروف في الصدر الأول من المسلمين؛ لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله ﷺ وعدمِ ظهور الدليل عليه، والأدلةُ التي يذكرها أهلُ الهيئة لتلك الأمور لا يخفى حالُها، ولذا لم يقل بما تقتضيه مخالفوهم من أهل الهيئة اليومَ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مُظلِماً؛ يقال: غَطَشَ الليلُ وأغطَشَه اللهُ تعالى، كما يقال: ظَلم وأظلَمَه. ويقال أيضا: أغطش الليلُ، كما يقال: أظلم. وجاء: ليلةٌ غَطْشاءُ، وليلٌ أغطشُ وغَطِشٌ؛ قال الأعشى:

عقرتُ لهم ناقتي مَوهِناً فليلُهم مدلهمٌّ غَطِشْ[1]

وفي «البحر» عن «كتاب اللُّغات في القرآن»: «أغطش»: أظْلَم، بلغة أنمار وأشعر[2].

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ أي: أبرز نهارَها، والضحى في الأصل على ما يفهم من كلام الراغب[3]: انبساطُ الشمس وامتدادُ النهار، ثم سمِّي به الوقتُ المعروفُ وشاع في ذلك، وتُجوِّز به عن النهار بقرينةِ المقابلة. وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: ضُحَى شمسِها، أي: ضوءَ شمسها، وكنى بذلك عن النهار. والأول أقربُ.

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٢١، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٥٨، وورد في بعض المصادر: وغامرُنا. بدلَ: فليلهم، وفي بعضها: وغامرهم. وفي الجمهرة والمحرر: نحرتُ، بدل: عقرتُ. وقوله: مَوهِناً، بفتح الميم، هو نحو من نصف الليل، أو بعدَ ساعة منه. القاموس (وهن).

(٢) لم نقف عليه في البحر، وذكره ابن عادل في اللباب ٢٠/ ١٤٢.

(٣) في المفردات (ضحى).

وعُبِّر عن النهار بالضحى لأنه أشرفُ أوقاته وأطيبها، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها، فكان أوفقَ لمقامِ تذكير الحجَّة على مُنكري البعث وإعادة الأرواح إلى أبدانها. وقيل: إنه لذلك كان أحقَّ بالذكر في مقام الامتنان.

وإضافة الليل والضحى إلى السماء لأنهما يَحدُثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهي سماوية. أو: وهما إنما يحصُلان بسبب حركتها ـ على القول بحركتها ـ لاتحادها مع الفلك. أو: وهما إنما يحصُلان بسبب حركة الشمس في فلكها فيها، على القول بأنَّ السماء والفلك متغايران، والمتحرِّك إنما هو الكوكب في الفلك، كما يقتضيه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وأنَّ الفلك ليس إلا مَجرى الكوكب في السماء.

وقيل: أضيفا إليها؛ لأنهما أولُ ما يظهران منها؛ إذ أول الليل بإقبال الظلام من جهة المشرق، وأولُ النهار بطلوع الفجر وإقبالِ الضياء منه.

وفي «الكشاف»: أضيف الليل والشمس إلى السماء لأنَّ الليل ظلُّها، والشمس هي السراج المُثقَب في جوِّها[1]. واعترض بأنَّ الليلَ ظلُّ الأرض. وأجيب بأنه اعتبارٌ بمرأى الناظر كذلك، كما أنَّ زينةَ السماء الدنيا أيضاً اعتبارٌ بمرأى الناظر.

وقيل: إضافتهما إليها باعتبار أنهما إنما يحدُثان تحتَها، وشَمَلا بهذا الاعتبار ما لم يَكَد يخطُر في أذهان العرب من ليلٍ ونهارٍ طولُ كلٍّ منهما ستَّةُ أشهر، وهما ليلُ ونهارُ عرضِ تسعين حيثُ الدَّورُ رَحَوِيٌّ.

وتعقِّب بأنهم قالوا: إنَّ ظلَّ الأرض المخروطيَّ ينتهي إلى فلك الزهرة، وهي في السماء الثالثة، فالحصر غيرُ تامٍّ. وفيه نظر، فتأمَّل.

وبالجملة الإضافةُ لأدنى ملابسةٍ.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الظاهر أنه إشارةٌ إلى ما تقدَّم من خَلْق السماء وإغطاشِ الليل وإخراج النهار، دونَ خَلْق السماء فقط، وانتصابُ «الأرْضَ» بمضمَرٍ، قيل: على

---

(١) الكشاف ٤/ ٢١٤.

شريطة التفسير. وقيل: تقديرُه: تَذَكَّر. أو: تدبَّر. أو: اذْكُر. وستعلم ما في ذلك إن شاء الله تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ بسطها ومدَّها لسكنى أهلها وتقلُّبِهم في أقطارها، من الدَّحْو أو الدَّحْي بمعنى البسط، وعليه قولُ أمية بن أبي الصلت:

وبثَّ الخلقَ فيها إذْ دَحاها فَهُم قُطَّانُها حتى التَّنادِي[1]

وقيل: دحاها: سوَّاها، وأنشدوا قولَ زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمتُ وَجْهِي لمن أسْلَمَتْ له الأرْضُ تَحمِلُ صَخْراً ثِقالَا
دَحَاها فلمَّا استَوَتْ شَدَّها بأيدٍ وأرْسَى عَلَيها الجِبَالَا[2]

والأكثرون على الأول، وأنشد الإمام بيتَ زيد فيه[3].

والظاهر أنَّ دَحْوَها بعد خَلْقها، وقيل: مع خَلْقها. فالمراد: خَلَقَها مدحوَّةً. ورُوي الأول عن ابن عباس، ودَفَع به توهُّمَ تعارُضٍ بين آيتين؛ أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أنَّ رجلاً قال له: آيتان في كتاب الله تعالى تُخالِف إحداهما الأخرى. فقال: إنما أُتِيتَ من قِبَل رأيك، اقْرَأ. قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩-١١] وقوله تعالى: (وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ). قال: خلق الله تعالى الأرضَ قبلَ أن يخلق السماءَ، ثم خلق السماءَ، ثم دحا الأرضَ بعدَ ما خلق السماءَ، وإنما قوله سبحانه: (دَحَىٰهَآ) بَسَطَها[4].

وتعقَّبه الإمام بأنَّ الجسمَ العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي، ويستحيل أن يكون هذا الجسمُ العظيم مخلوقاً ولا يكون ظاهرُه مدحوًّا مبسوطاً[5].

---

(١) ديوان أمية ص٦٤، والنكت والعيون ٦/١٩٩، والقرطبي ٢٢/٥٩، والبحر ٨/٤١٨.
(٢) النكت والعيون ٦/١٩٩، وتفسير القرطبي ٢٢/٥٩، والبحر ٨/٤١٨، والبيت الثاني في تفسير الرازي ٣١/٤٧.
(٣) تفسير الرازي ٣١/٤٧.
(٤) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/٣١٣، وقد سلف تخريجه ٢٤/١٤٨.
(٥) تفسير الرازي ٣١/٤٨.

وأجيب أنه لعلَّ مرادَ القائل بخلقها أولاً ثم دحوِها ثانياً خَلْقُ مادتها أولاً ثم تركيبها وإظهارُها على هذه الصورة والشكل مدحوَّةً مبسوطةً، وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(١) [البقرة: ٢٩] أنَّ السماء خُلقت مادتُها أولاً، ثم سُوِّيت وأُظهرت على صورتها اليومَ. وعن الحسن ما يدلُّ على أنها كانت يومَ خُلقت قبل الدحو كهيئة الفِهْر(٢). ويشعر بأنها لم تكن على عظمها اليوم.

وتعقَّبه بعضُهم بشيء آخر، وهو أنه يأبى ذلك قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [البقرة: ٢٩]، فإنه يفيد أنَّ خلْقَ ما في الأرض قبلَ خلق السماوات، ومن المعلوم أنَّ خلق ما فيها إنما هو بعدَ الدحو، فكيف يكون الدحوُ بعد خلق السماوات؟

وأجيب بأنَّ «خَلَقَ» في الآية بمعنى قدَّر، أو: أراد الخلقَ. ولا يمكن أن يُراد به فيها الإيجادُ بالفعل ضرورةَ أنَّ جميع المنافع الأرضيَّة يتجدَّد إيجادُها أولاً فأولاً، سلَّمنا أنَّ المراد الإيجادُ بالفعل لكن يجوز أن يكون المراد خَلْقَ مادَّةِ ذلك بالفعل، ومن الناس مَن حمل «ثُمَّ» على التراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ خلق السماء أعجبُ من خلق الأرض.

وقال عصام الدين: إنَّ «بعد ذلك» هنا كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] يعني فَعَل بالأرض ما فعل بعدَ ما سمعتَ في السماء، والمراد التأخيرُ في الإخبار، فخلقُ الأرض ودَحْوها وإخراجُ مائها ومرعاها وإرساءُ الجبال عليها عندَه قبل خَلْق السماء، كما يقتضيه ظاهرُ آية «البقرة»، وظاهر آية «الدخان»(٣).

---

(١) في الأصل و(م): ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سماوات.

(٢) سلف ٢٤/ ١٥٤.

(٣) آية البقرة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٢٩]، وآية الدخان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وأيِّد حمل البعديَّة على ما ذكر بأنَّ حملَها على ظاهرها مع حمل الإشارة على الإشارة إلى مجموع ما تقدَّم مما سمعتَ يلزم عليه أنَّ إغطاشَ الليل وإبراز النهار كانا قبل خلقِ الأرض ودحوها، وذلك مما لا يتسنَّى على تقديرِ أنها غيرُ مخلوقةٍ أصلاً، ومما يَبْعُدُ على تقدير أنها مخلوقةٌ غيرُ عظيمةٍ.

وأيضاً قيل: لو لم تُحمَل البعديَّة على ما ذكر، وقيل بنحو ما قال ابن عباس من تأخُّرِ الدحو عن خَلْق السماء، مع تقدُّم خَلْق الأرض من غير دحوٍ على خَلْقها = لم تَنحَسِم مادَّةُ الإشكال؛ إذ آيةُ الدخان ظاهرةٌ في أنَّ جعل الرواسي في الأرض قبل خَلْق السماء وتسويتها، وهذه الآية إلى آخرها ظاهرةٌ في أنَّ جعل الرواسي بعدُ.

وبالجملة إنَّه قد اختلف أهلُ التفسير في أنَّ خلقَ السماء مقدَّم على خلق الأرض أو مؤخَّرٌ؟ فقال ابن الطاشكبري: نقل الواحديُّ عن مقاتل أنَّ خلقَ السماء مقدَّم على خلق الأرض. واختاره جمعٌ، لكنَّهم قالوا: إنَّ خلْق ما فيها مؤخَّرٌ. وأجابوا عمَّا هنا وآيةِ البقرة بأنَّ الخلقَ فيها بمعنى التقدير، أو بمعنى الإيجاد وتقدير الإرادة، وأنَّ البعدية هاهنا لإيجاد الأرض وجميع ما فيها. وعمَّا هنا وآيةِ الدخان بنحوِ ذلك، فقدَّروا الإرادةَ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [فصلت: ١٠] وقالوا: يؤيِّد ما ذُكر قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فإنَّ الظاهرَ أنَّ المرادَ: ائتيا في الوجود. ولو كانت الأرضُ موجودةً سابقةً لما صحَّ هذا، فكأنه قال سبحانه: أئنكم لتكفرون بالذي أراد إيجادَ الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام، ثم قصد إلى السماء فتعلَّقت إرادته بإيجاد السماء والأرض، فأطاعا لأمر التكوين، فأوجد سبع سماوات في يومين، وأوجد الأرضَ وما فيها في أربعة أيام.

ونكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الظاهر في سورة البقرة والدخان على خلق السماوات والعكس هاهنا أنَّ المقام في الأولَيْنِ مقامُ الامتنان وتعدادِ النعم على أهل الكفر والإيمان، فمقتضاه تقديمُ ما هو نعمةٌ بالنظر إلى المخاطَبين من الفريقَين، فكأنه قال سبحانه: هو الذي دبَّر أمرَكم قبلَ السماء، ثم خلق السماءَ. والمقام هنا مقامُ بيانِ كمالِ القدرة، فمقتضاه تقديمُ ما هو أدلُّ. انتهى.

وفي «الكشف»: أطبق أهلُ التفسير أنه تمَّ خلقُ الأرض وما فيها في أربعة أيام، ثم خَلْقُ السماء في يومين، إلا ما نَقل الواحديُّ في «البسيط» عن مقاتل أنَّ خلْقَ السماء مقدَّم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها.

والكلامُ مع مَن فرَّق بين الإيجاد والدحوِ، وما قيل: إنَّ دحو الأرض متأخِّرٌ عن خلق السماء لا عن تسويتها، يَرِدُ عليه «بعد ذلك» فإنه إشارةٌ إلى السابق وهو رفعُ السَّمْك والتسوية، والجوابُ بتراخي الرتبة لا يتمُّ لِمَا نُقِل من إطباق المفسِّرين، فالوجهُ أن يجعَل «الأرْض» منصوباً بمضمَر نحو: تذكَّر وتدبَّر. أو: واذكر الأرضَ بعد ذلك. وإن جُعل مضمَراً على شريطة التفسير جُعل «بعد ذلك» إشارةً إلى المذكور سابقاً من ذكرِ خلق السماء لا خلقِ السماء نفسه؛ ليدلَّ على أنه متأخِّر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصرٌ في الدلالة عن الأول لكنه تتميمٌ(١)، كما تقول جُمَلاً ثم تقول بعد ذلك: كيت وكيت. وهذا كثيرٌ في استعمال العرب والعجم، وكأن «بعد ذلك» بهذا المعنى عكسُه إذا استعمل لتراخي الرتبة، وقد تستعمل «ثم» بهذا المعنى وكذا الفاء.

وهذا لا ينافي قولَ الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر، عليها دخانٌ ملتزقٌ بها، ثم أصعد الدخانَ وخلق منه السماوات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرضَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٠](٢). فإنه يدلُّ على أنَّ كونَ السماء دخاناً سابقٌ على دحو الأرض وتسويتها، وهو كذلك، بل ظاهرُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] يدلُّ على ذلك، وإيجادُ الجوهرة النورية والنظرُ إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال، وذوبُها وامتيازُ لطيفها عن كثيفها، وصعودُ

---

(١) ورد في هامش الأصل ما نصه: وجوِّز أن يكون للإشعار بأنه أدخل في الإلزام لِمَا أن المنافع المنوطة بما في الأرض وتعلُّق مصالح الناس بذلك أظهر، وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكمل. وقيل فيما رُوي عن الحسن: إنه ليس نصًّا في تأخُّر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعادِ الدخان وخلقِ السماء بالواو والتي هي بمعزِلٍ من الدلالة على الترتيب. اهـ.

(٢) سلف ٢٤/ ١٥٤.

المادة الدخانيَّة اللطيفة، وبقاء الكثيف، هذا كلّه سابقٌ على الأيام السِّتَّة، وثبت في الخبر الصحيح، ولا ينافي الآيات(١).

وأما ما نقله الواحديُّ عن مقاتل واختاره الإمام فلا إشكالَ فيه، ويتعيَّن «ثُمَّ» في سورتي البقرة والسجدة على تراخي الرتبة، وهو أوفقُ لمشهورِ قواعد الحكماء، لكن لا يوافِقُ ما رُوي أنَّه تعالى خلق جِرم الأرض يوم الأحد ويومَ الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السماوات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة تمَّ خلقُ آدم عليه السلام. انتهى.

والذي أميل إليه أنَّ تسويةَ السماء بما فيها سابقةٌ على تسوية الأرض بما فيها؛ لظهور أمر العليَّة في الأجرام العلويَّة، وأمرِ المعلوليَّة في الأجرام السفليَّة، ويعلم تأويل ما ينافي ذلك مما سمعتَ، وأما الخبر الأخير ففي صحته مقال، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وقد مرَّ شيء مما يتعلَّق بهذا المقام(٢)، وإنما أعدنا الكلامَ فيه تذكيراً لذوي الأفهام، فتأمَّل والله تعالى الموفِّق لتحصيل المرام.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بأن فجَّر منها عيوناً وأجرى أنهاراً. ﴿وَمَرْعَنٰهَا ﴿٣١﴾﴾ يقع على الرِّعْي بالكسر، وهو الكلأ، والرَّعْيُ بالفتح، وهو المصدر، وكذا على الموضع والزمان. وزعم بعضهم أنَّه في الأصل للموضع. ولعلَّه أراد أنه أشهر معانيه، والمناسب للمقام المعنى الأول، لكنَّه قيل: إنه خاصٌّ بما يأكله الحيوان غير الإنسان، وتُجوِّز به عن مطلقِ المأكول للإنسان وغيره. فهو مجازٌ مرسلٌ من قبيل المَرْسِن(٣).

وقال الطيبي: يجوز أن يكون استعارةً مصرّحةً، لأنَّ الكلام مع منكري الحشر بشهادة: «أأنتم أشد خلقا»، كأنه قيل: أيُّها المعاندون المَلزُوزون في قرن البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة.

---

(١) ينظر: ٢٤/١٥٣-١٥٤.
(٢) ينظر تفسير الآية [٢٩] من سورة البقرة، والآية [١١] من سورة فصلت.
(٣) المَرْسِن: موضع الرَّسَن من أنف الفرس، ثم كثر حتى قيل: مَرْسِن الإنسان. الصحاح (رسن).

بيانٌ[١] وتفسيرٌ لـ «دحاها» وتكملةٌ له، فإنَّ السكنى لا تتأتَّى بمجرَّد البسط والتمهيد، بل لا بدَّ من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب. أو حالٌ من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه، وكلا الوجهين مقتضٍ لتجريد الجملة عن العاطف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ﴾ منصوبٌ بمضمر يفسِّره قولُه سبحانه: ﴿أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي: أثبتها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الرُّسُوَّ المنسوبَ إليها في مواضع كثيرة من التنزيل ليس من مقتضيات ذاتها، وللفلاسفة المحدَثين كلامٌ في أمر الأرض وكيفية بدئها لا مستندَ لهم فيه إلا آثارٌ أرضيةٌ يزعمون دلالتَها على ذلك، هي في أسفل الأرض عن ساحة القبول.

وقرأ عيسى برفع: «الأرض»[٢]. والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفع «الأرض» و«الجبال»[٣]، وهو - على ما قيل - على الابتداء. وتعقَّبه الزجَّاج[٤] بأنَّ ذلك مرجوحٌ؛ لأنَّ العطفَ على فعليةٍ.

وأورد عليه أنَّ قوله تعالى: «بناها» بيانٌ لكيفية خَلْق السماء، وقوله سبحانه: «رفع سمكها» بيانٌ للبناء، وليس لدحو الأرض، وما بعده دخل في شيء من ذلك، فكيف يُعطَف عليه ما هو معطوفٌ على المجموع عطفَ القصَّة على القصَّة، والمعتبرُ فيه تناسبُ القصتين، وهو حاصلٌ هنا، فلا ضيرَ في الاختلاف، بل فيه نوعُ تنبيهٍ على ذلك.

وقيل: إنَّ جملةَ قوله تعالى: «والأرض» إلخ على القراءتين ليست معطوفةً على قوله سبحانه: «رفع سمكها» لأنها لا تصلح بياناً لبناء السماء، فلا بدَّ من تقدير معطوفٍ عليه، وحينئذٍ يقدَّر جملة فعلية على قراءة الجمهور، أي: فَعَل ما فَعَل في السماء. وجملةٌ اسميةٌ على قراءة الآخرين، أي: السماءُ وما يتعلَّق بها مخلوقٌ له تعالى.

وجوِّز عطفُ «الأرض» بالرفع على «السماء» من حيث المعنى، كأنه قيل:

---

(١) قوله: بيان، خبر لقوله: وقوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا﴾....

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر ٨/ ٤٢٣.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر ٨/ ٤٢٣.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٨٠.

السماءُ أشدُّ خلقاً والأرضُ بعدَ ذلك. أي: والأرضُ بعدَ ما ذُكر من السماء أشدُّ خلقاً. فيكون وزانُ قوله تعالى: «دحاها» إلخ وزانَ قوله تعالى: «بناها» إلخ. وحينئذٍ فلا يكون «بعد ذلك» مُشعِراً بتأخُّرِ دحو الأرض عن بناءِ السماء.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ قيل: مفعولٌ له، أي: فَعَلَ ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم؛ لأنَّ فائدةَ ما ذُكر من الدَّحْو وإخراج الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم، فإنَّ المرعى كما سمعتَ مجازٌ عمَّا يأكله الإنسان وغيره.

وقيل: مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَر، أي: متَّعكم بذلك متاعاً. أو مصدَرٌ من غير لفظه، فإنَّ قولَه تعالى: «أخرج منها ماءها ومرعاها» في معنى: متَّع بذلك.

وأُورِد على الأول أنَّ الخطابَ لمنكري البعث، والمقصودُ هو تمتيعُ المؤمنين، فلا يلائم جعلَ تمتيع الآخرين كالغرض، فالأولى ما بعده.

وأجيب بأنَّ خطابَ المشافهة وإن كان خاصًّا بالحاضرين إلا أنَّ حكمَه عامٌّ، كما تقرَّر في الأصول، فالمآل إلى تمتيع الجنس. وأيضاً النصبُ على المصدرية بفعله المقدَّر لا يدفع المحذورَ؛ لكونه استئنافاً لبيان المقصود، ولا يخفى أنَّ كونَ المقصود هو تمتيعُ المؤمنين محلُّ بحثٍ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ إلخ شروعٌ في بيان معادهم إثْرَ بيان أحوال معاشهم بقوله عز وجل: (مَتَٰعًا) إلخ، والفاءُ للدلالة على ترتُّبِ ما بعدها على ما قبلها على ما قيل، كما يُنبئ عنه لفظُ المتاع.

و«الطَّامَّة»: أعظمُ الدواهي، لأنه من طَمَّ بمعنى: علا. كما ورد في المثل: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ[(١)]. و: جاء السيلُ فطمَّ الركيَّ[(٢)]. وعلوُّها على

---

(١) يضرب عند تجاوز الشرِّ حدَّه. وطمَّ: دفن، و«على» من صلة المعنى، أي: أتى على القَريِّ، يعنى: أهلكه بأن دفنه. مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٥٩، وورد في هامش الأصل: القَريُّ: فعيل، مجرى الماء في الحوض، والجمع: أَقْرِية وقُريان، وهي جداول الأنهار. اهـ. والمثل عجز بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٣/ ٣٥٩، وصدره:

وإنَّ لهم لإحساناً ولكنْ

(٢) في هامش الأصل: يقال: طَمَّ السيلُ الركيةَ: دفنها. اهـ.

الدواهي غلبتُها عليها. فيرجع لِمَا ذكر. قيل: فوَصْفها بـ «الكبرى» للتأكيد، ولو فسِّر كونُها طامَّةً بكونها غالبةً للخلائق لا يقدرون على دفعها لكان الوصفُ مخصِّصاً.

وقيل: كونُها طامَّةً باعتبارِ أنها تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا، وكونُها كبرى باعتبارِ أنها أعظمُ من جميع الدواهي مطلقاً.

وقيل غير ذلك، وأنت تعلم أنَّ «الطَّامَّة الكُبْرى» صارت كالعَلَم للقيامة، ورُوي كونها اسماً من أسمائها هنا عن ابن عباس[١]، وعنه أيضاً وعن الحسن أنَّها النفخةُ الثانية[٢].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمداني أنها الساعةُ التي يُساق فيها أهلُ الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار[٣].

وأخرجا عن عمرو بن قيس الكندي أنها ساعةَ يساق أهلُ النار إلى النار[٤]. وفي معناه قول مجاهد: هي إذا دُفِعوا إلى مالك خازنِ جهنم.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ بدلُ كلٍّ أو بعضٍ من «إذا جاءَت» على ما قيل.

وقيل: بدلٌ من «الطَّامَّة الكبرى» فيكون مرفوعَ المحلِّ، وفُتِح لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيين، وتكون «الطامة» حقيقة التذكُّر والبروز؛ لأنَّ حُسن العمل يغلب كلَّ لذَّةٍ وسواه كلَّ مشقَّةٍ، وكذا بروزُ الجحيم مع الابتلاء به يغلب كلَّ مشقَّةٍ، ومع النجاة عنه كلَّ لذَّةٍ. ولا يخفى تعسُّفُه.

وقيل: ظرفٌ لـ «جاءت» وعليه الطبرسي[٥]. واستُظهِر أنه منصوبٌ بـ: أعني تفسيراً لـ «الطَّامَّة الكبرى».

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٧.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٩٧. والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، توفي سنة (١٤١هـ). كان ثقة. تهذيب التهذيب ٣/ ٤٢٣.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٩/ ٣٨١ (تحقيق محمد عوامة).

(٥) في مجمع البيان ٣٠/ ٣١.

و«ما» موصولةٌ و«سعى» بمعنى: عَمِل، والعائدُ مقدَّر، أي: له، والمراد: يومَ يتذكَّر كلُّ أحدٍ ما عمله من خيرٍ أو شرٍّ بأن يشاهِدَه مدوَّناً في صحيفته، وقد كان نسيه من فرط الغفلة أو طول الأمد أو شدَّة ما لقي، أو كثرته التي تُعجز الحافظَ عن الضبط، لقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. ويمكن أن يكون تذكُّره بوجهٍ آخر. وجوِّز أن تكون «ما» مصدرية، أي: يتذكَّر فيه سعيَه.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفٌ على «جاءت»، وقيل: على «يتذكَّر». وقيل: حالٌ من «الإنسان» بتقدير «قد» أو بدونه، والموصولُ بعدُ مُغنٍ عن العائد. وكلا القولين على ما في «الإرشاد» على تقدير الجواب: يتذكر الإنسانُ. ونحوه(١). وسيأتي إن شاء الله تعالى فلا تغفل.

ومعنى «بُرِّزت»: أُظهِرَتْ إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحدٍ ﴿لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ كائناً مَن كان. يُروى أنه يُكشَف عنها فتتلظَّى، فيراها كلُّ ذي بصرٍ. وخَصَّ بعضٌ «مَنْ» بالكافر. وليس بشيء.

وقرأت عائشة وزيد بن عليٍّ وعكرمة ومالك بن دينار: «وبَرَزَتْ» مبنيًّا للفاعل مخفَّفاً «لمن تَرى» بالتاء الفوقية(٢)، على أنَّ فيه ضميرَ جهنم كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، وإسناد الرؤية لها مجازٌ، أو هو حقيقةٌ على أن يخلق الله تعالى ذلك فيها. ويجوز أن يكون خطاباً لسيِّد المخاطَبين ﷺ. أو لكلِّ راءٍ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي: لمن تراه من الكفار.

وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو: «وبُرِزَت» مبنيًّا للمفعول مخفَّفاً(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ جوابُ «إذا» على أنها شرطيَّةٌ لا ظرفيَّة،

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٠٤-١٠٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٣، وفي المحتسب ٢/ ٣٥١ قراءة عكرمة: «وبُرِّزت» مثل الجمهور، «لمن تَرَى» بالتاء.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٣.

كما جُوِّز على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية [البقرة: ٣٨]، وقولِك: إذا جاءك بنو تميم فأما العاصي فأهِنْه، وأما الطائع فأكرِمْه. واختاره أبو حيان[١].

وقيل: جوابها محذوفٌ، كأنه قيل: فإذا جاءت وقع ما لا يدخُل تحتَ الوصف. وقولُه سبحانه: «فأما» إلخ تفصيلٌ لذلك المحذوف، وفي جعله جواباً غموضٌ. وهو وجه وجيه بَيْدَ أنه لا غموضَ في ذاك بعد تحقُّقِ استقامةِ أن يقال: فإذا جاءت فإنَّ الطاغيَ الجحيمُ مأواه، وغيرَه في الجنة مثواه. وزيادة «أما» لم تُفِد إلا زيادةَ المبالغة وتحقيقَ الترتُّب والثبوتِ على كلٍّ تقدير.

وقيل: هو محذوفٌ لدلالةِ ما قبلُ، والتقدير: ظهرت الأعمالُ ونُشِرت الصحفُ، أو: يتذكَّر الإنسانُ ما سعى. أو لدلالة ما بعدُ، والتقدير: انقسم الراؤُون قسمين. وليس بذاك.

أي: فأمَّا مَن عتا وتمرَّد عن الطاعة وجاوَزَ الحدَّ في العصيان حتى كفر ﴿وَءَاثَرَ﴾ أي: اختار ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ الفانيةَ التي هي على جناح الفوات، فانهَمَك فيما مُتِّع به فيها ولم يستعدَّ للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذُكر شأنها ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: مأواه، على ما رآه الكوفيون من أنَّ «أل» في مثله عوضٌ عن المضاف إليه الضمير، وبها يحصل الربطُ. أو: المأوى له، على رأي البصريين من عدم كونها عوضاً ورابطاً. وهذا الحذف هنا للعلم بأنَّ الطاغي هو صاحبُ المأوى، وحسَّنه وقوعُ «المأوى» فاصلةً، وهو الذي اختاره الزمخشريُّ[٢]. و«هي» إما ضميرُ فصلٍ لا محلَّ له من الإعراب، أو ضميرُ «جهنم» مبتدأٌ، والكلامُ دالٌّ على الحصر، أي: كأنه قيل: فإنَّ الجحيمَ هي مأواه أو المأوى له، لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي مالك أمره يومَ الطامَّة الكبرى

(١) في البحر ٨/ ٤٢٣.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢١٨.

يوم يتذكَّر الإنسان ما سعى، على أنَّ الإضافةَ مِثْلُها في: رقود حلب[١]. أو: وأمَّا مَن خاف ربَّه سبحانه، على أنَّ لفظَ «مقام» مُقحَم، والكلام معه كنايةٌ عن ذلك وإثباتٌ للخوف من الربِّ عز وجل بطريقٍ برهانيٍّ بليغٍ، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنهُ﴾ [يوسف: ٢١] وتمامُ الكلام في ذلك قد تقدَّم في سورة الرحمن[٢].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: زَجَرها وكفَّها عن الهوى المُرْدي وهو الميل إلى الشهوات، وضَبَطَها بالصبر والتوطين على إيثار الخيرات، ولم يعتدَّ بمتاع الدنيا وزهرتها ولم يغترَّ بزخارفها وزينتها علماً بوَخامة عاقبتها.

وعن ابن عباس ومقاتل: أنه الرجل يَهمُّ بالمعصية فيذكر مقامَه للحساب بين يدي ربِّه سبحانه فيخاف فيتركها[٣].

وأصل الهوى مطلقُ الميل، وشاع في الميل إلى الشهوة، وسمِّي بذلك على ما قال الراغب[٤] لأنَّه يَهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلِّ واهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، ولذلك مُدِح مخالِفُه. قال بعض الحكماء: إذا أردتَ الصوابَ فانظر هواك فخالِفْه. وقال الفضيل: أفضلُ الأعمال مخالَفةُ الهوى. وقال أبو عمران المِيرَتُلِّي:

فَخالِفْ هواها واعْصِها، إنَّ مَن يُطِع هَوَى نَفسِه تَنْزِعْ به شَرَّ مَنْزِعِ
ومَن يُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَةَ تُرْدِه وتَرْمِ به في مَصرَعٍ أيِّ مَصْرَعِ[٥]

إلى غير ذلك، وقد قارب أن يكون قبحُ موافقة الهوى وحسنُ مخالفته

(١) سلف عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الرحمن.
(٢) ينظر تفسير الآية (٤٦) منها.
(٣) قول ابن عباس في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥، والبحر ٨/ ٤٢٣، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ٤٤٥.
(٤) في المفردات (هوي).
(٥) البيتان في البحر ٨/ ٤٢٤ وأبو عمران الميرَتُلِّي هو: موسى بن حسين القيسي، الإمام العارف زاهد الأندلس، كان له الحظ الوافر من الأدب والنظم في الزهد والتخويف، وكان ملازماً لمسجده بإشبيلية، يُقرئ ويُعلِّم وما تزوَّج، توفي سنة (٦٠٤هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٨.

ضروريَّينِ، إلَّا أنَّ السالم من الموافقة قليلٌ، قال سهل: لا يسْلَم من الهوى إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعضُ الصِّدِّيقين، فطوبى لمن سلم منه.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ له لا غيرها.

والظاهرُ أنَّ هذا التفصيل عامٌّ في أهل النار وأهل الجنة، وعن ابن عباس أنَّ الآيتين نزلتا في أبي عَزيز[(١)] بن عُمير وأخيه مصعب بن عمير رضي الله عنه[(٢)]. كان الأول طاغياً مُؤثِر الحياة الدنيا، وكان مصعب خائفاً مقامَ ربِّه ناهياً النفسَ عن الهوى، وقد وقى رسولَ الله ﷺ بنفسه يومَ أحدٍ حين تفرَّق الناسُ عنه حتى نفذت المشاقِصُ - أي: السهامُ - في جوفه، فلمَّا رآه عليه الصلاة والسلام متشحِّطاً في دمه قال: «عندَ الله تعالى أَحْتَسِبُك» وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردان ما تُعرف قيمتُهما، وإنَّ شراكَ نعله من ذهبٍ»[(٣)].

ولَمَّا أُسِر أخوه أبو عزيز ولم يُشَدَّ وثاقُه إكراماً له وأُخبر بذلك، قال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيرَكم فإنَّ أمَّه أكثرُ أهل البطحاء حُليًّا ومالاً[(٤)].

وفي الكشاف أنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد[(٥)].

---

(١) في هامش الأصل: بزايين، واسمه قيل: عامر. اهـ.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٤، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٠٤. وأبو عزيز اسمه: زرارة بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري. وكان صاحب راية قريش يوم بدر، وأُسرَ ثم أسلم وله صحبة ورواية. سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٦، والاستيعاب ١٢/ ٥٤، والإصابة ١١/ ٢٥٤.

(٣) الخبر ورد في الكشاف ٤/ ٤١٩ والبحر ٨/ ٤٢٤ مختصراً، وفي تفسير القرطبي ٢٢/ ٦٤، واللباب ٢٠/ ١٤٩ عن الضحاك عن ابن عباس مطولاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ١٨١: لم أجده.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٥.

(٥) الكشاف ٤/ ٢١٩، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ١٨١: لم أجده. اهـ. والقول بأنه قُتل يوم أحد كافراً ذكره ابن حجر في الإصابة ١١/ ٢٥٥ عن الزبير بن بكار وابن الكلبي وأبي عبيد والبلاذُري والدارقطني، وردّه أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢/ ٥٥ (بهامش الإصابة)، والسهيلي في الروض الأنف ٣/ ٦٦، وغلَّطا الزبير بن بكّار في ذلك. وقال السهيلي: لم يصح هذا عند أحد من أهل الأخبار، وقد روى عنه نُبَيْه بن وهب وغيره، ولعلَّ المقتول بأُحد كافراً أخٌ لهم غيره. اهـ.

وعن ابن عباس أيضاً أنهما نزلتا في أبي جهل وفي مصعب.

وقيل: نزلت الأولى في النضر وابنه الحارث المشهورَين باللغو في الكفر والطغيان.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾ أي: متى إرساؤها، أي: إقامتها، يريدون: متى يُقيمها الله تعالى ويُكوِّنها ويُثبتها. فالمُرْسَى مصدرٌ ميمي من: رسى[١] بمعنى ثبت، ومنه: الجبالُ الرواسي. وحاصلُ الجملة الاستفهاميةِ السؤالُ عن زمان ثبوتها ووجودِها.

وجوِّز أن يكون المرسَى بمعنى المنتهى، أي: متى منتهاها ومستقَرُّها، كما أنَّ مُرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقِرُّ فيه، كذا قيل. وتقديرُ الاستفهام بمتى يقتضي أنَّ المُرسى اسمُ زمانٍ، وقولُه: كما أن.. إلخ، ظاهرٌ في أنه اسم مكان، ولذا قيل: الكلام على الاستعارة بجعل اليوم المتباعَد فيه كشخصٍ سائرٍ لا يُدرك ويوصَل إليه ما لم يستقرَّ في مكانٍ، فُجعِل وقتُ إدراكه مستقَرًّا له، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ إنكارٌ وردٌّ لسؤال المشركين عنها، أي: في أيِّ شيء أنتَ من أن تذكر لهم وقتَها وتُعلمهم به حتى يسألوك بيانَها؟ كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالاستفهام للإنكار، و«فيم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«أنت» مبتدأ مؤخَّر، و«من ذكراها» على تقديرِ مضافٍ، أي: ذكرى وقتها، متعلِّقٌ بما تعلَّق به الخبرُ.

وقيل: «فيم» إنكارٌ لسؤالهم، وما بعده استئنافُ تعليلٍ للإنكار وبيان لبطلانِ السؤال، أي: فيم هذا السؤالُ؟ ثم ابتُدِئ فقيل: أنتَ من ذكراها، أي: إرسالُك وأنتَ خاتم الأنبياء المبعوثُ في نَسَم[٢] الساعة علامة من علامتها ودليلٌ يدلُّهم على العلم بوقوعها عن قريبٍ، فحَسْبُهم هذه المرتبةُ من العلم. فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ على هذا الوجه: إليه تعالى يرجع منتهى عِلْمِها، أي: علمها

(١) تحرف في (م) إلى: سار.
(٢) نَسَم الريح: أوّلها، بفتحتين، كما في الصحاح (نسم)، وضبط في الأصل بكسر الأول.

بكُنهها وتفاصيلِ أمرها ووقتِ وقوعها، لا إلى أحدٍ غيرِه سبحانه، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومُشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك!

وأما على الوجه الأول فمعناه: إليه عز وجل انتهاءُ علمها ليس لأحدٍ منه شيء كائناً ما كان، فلأيِّ شيء يسألونك عنها؟ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ عليه، تقريرٌ لِمَا قبلُ من قوله سبحانه: (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ) وتحقيقٌ لِمَا هو المراد منه، وبيانٌ لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن، فإنَّ إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها مما يُوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزيح ذلك ببيان أنَّ المنفيَّ عنه ﷺ ذكراها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عنها، فالمعنى: إنما أنت مُنذِر مَن يخشاها ويخاف أهوالها، وظيفتُك الامتثالُ بما أُمرتَ به من بيان اقترابها وتفصيلِ ما فيها من فنون الأهوال كما تحيط به، لا مُعْلِم بتعيين وقتها الذي لم يفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمَّا لم تبعث له ولم يفوَّض إليك أمره.

وعلى الوجه الثاني هو تقريرٌ لقوله تعالى: (أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ) ببيانِ أنَّ إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذرٌ بمجيء الساعة كما ينطق به قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، إن كادت لتسبقني»[1].

والظاهر على الأول أنَّ القصر من قصر الموصوف على الصفة، والمعنى: ما أنت إلا منذرٌ لا مُعلِمٌ بالوقت مبيِّنٌ له. وإنما ذكر صلة المنذر إظهاراً لكونها ذات مدخل في القصر؛ لكون الكلام في القصر على منذرٍ خاصٍّ، ونفي إعلام خاصٍّ يقابله.

وكونُه من قصر الصفة على الموصوف بناءً على ما يتبادر إلى الفهم من كلام السكاكي[2] أنَّ المعنى: إنما أنت منذر الخاشي دونَ مَن لا يخشى، أي: ما أنت

(١) سلف ١٤/٨.

(٢) مفتاح العلوم ص٢٩٤.

منذر إلا مَن يخشى دون غيره = غيرَ مناسب للمقام، على أنه قيل عليه: إنَّ «من يخشى» من صلة «منْذِر» ليس من متعلّق «إنما» في شيء، ليجعل الجزء الأخير المقصور عليه الإنذار. وهذا إن صحَّ استلزم عدم صحَّة ما قَرَّر، لكن في صحَّته مقال إذ يستلزم أيضاً أن لا يصحَّ: إنما هو غلام زيد لا عمرو، و: إنما هو ضاربٌ عَمْراً لا زيداً. مع شهرة استعمال ذلك من غير نكير، فتأمل.

والظاهر على الثاني أنَّ «إنما» لمجرَّد التأكيد زيادةً في الاعتناء بشأن الخبر، وليست للحصر إذ لا يتعلَّق به غرضٌ عليه بحسب الظاهر على ما قيل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ إما تقريرٌ وتأكيدٌ لِمَا ينبئ عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذَر به، لاسيما على الوجه الثاني، والمعنى: كأنَّهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار إلا قليلاً.

وإما ردٌّ لما أدمجوه في سؤالهم؛ فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها، ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، والمعنى: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلا عشيَّة.. إلخ.

وهذا الكلام على ما نقل عن الزمخشري[1] له أصلٌ، وهو: لم يلبثوا إلا ساعة من نهارٍ عشيتَه أو ضحاه، فوضع هذا المختصر موضعه، وإنما أفادت الإضافةُ ذلك كما في «الكشف» من حيث إنك إذا قلتَ: لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحًى، احتمل أن تكون العشيَّة من يوم والضحى من آخر، فيتوهَّم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر، أما إذا قلت: عشيته أو ضحاه، لم يحتمل ذلك ألبتة، وفي قولك: ضحى تلك العشيَّة، ما يغني عن قولك: عشية ذلك النهار أو ضحاه.

وقال الطيبي: إنه من المحتمل أن يراد بالعشيَّة أو الضحى كلُّ اليوم مجازاً، فلمَّا أضيف أفاد التأكيدَ، ونفى ذلك الاحتمال. وجَعَله من باب: رأيته بعينيَّ. وهو حسنٌ، ولكن السابق أبعد من التكلُّف، ولا منع من الجمع.

(١) كلامه في الكشاف ٤/ ٢١٧، ونقله عنه في البحر ٨/ ٤٢٤.

وزاد الإضافةَ حسناً كونُ الكلمة فاصلةً، واعتبر جمعٌ كونَ اللبث في الدنيا، وبعضُهم كونَه في القبور. وجُوِّز فيهما، واختار في «الإرشاد» ما قدَّمنا، وقال: إنَّ الذي يقتضيه المقامُ اعتبارُ كونه بعد الإنذار، أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار وردًّا لاستبطائهم(١).

والجملة على الوجه الأول حال من الموصول، كأنه قيل: تُنذِرهم مُشبَّهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة. وعلى الثاني مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

هذا، ولا يخفى عليك أنَّ الوجه الثاني وإن كان حسناً في نفسه لكنه مما لا يتبادر إلى الفهم، وعليه يحسن الوقف على «فيم» ثم يستأنف «أنت من ذكراها» لئلا يلبس.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فيم» إلخ متصلٌ بسؤالهم على أنه بدلٌ من جملة «يسألونك» إلخ، أو هو بتقدير القول، أي: يسألونك عن زمانِ قيام الساعة ويقولون لك: في أيِّ مرتبة أنت من ذكراها، أي: عِلْمها، أي: ما مَبْلَغُ عِلْمك فيها. أو: يسألونك عن ذلك قائلين لك: في أيِّ مرتبة أنت.. إلخ، والجوابُ عليه قوله تعالى: «إلى ربك منتهاها» ولا يخفى ضعفُ ذلك.

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن عائشة قالت: ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فانتهى عليه الصلاة والسلام، فلم يسأل بعدها(٢).

وأخرج النسائيُّ وغيرُه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر ذكرَ الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فكفَّ عنها(٣).

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/١٠٦.

(٢) الدر المنثور ٦/٣١٤، ومسند البزار (٢٢٧٩ - كشف)، وتفسير الطبري ٢٤/٩٩، والمستدرك ٢/٥١٣.

(٣) السنن الكبرى (١١٥٨١)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٢٤/١٠٠.

وعلى هذا فهو تعجيبٌ من كثرة ذِكْره ﷺ لها، كأنه قيل: في أيِّ شغل واهتمامٍ أنت من ذِكْرها والسؤال عنها، والمعنى: إنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تَذْكرها وتسأل عنها.

ونَظَر فيه ابن المنيِّر بأنَّ قوله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] يردّه، إذ المراد: إنَّك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتمُّ بذلك، وهم يسألونك كما يُسأل الحفيُّ عن الشيء، أي: الكثيرُ السؤالِ عنه(١).

وأجيب بأنه يحتمل أنه لم يكن منه ﷺ أوّلاً احتفاءٌ، ثم كان، وأن سؤالهم هذا ونزولَ الآية بعدَ وقوع الاحتفاء. وأنت تعلم ما في ذلك من البعد.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وابن مقسم وأبو عمرو في رواية: «منذرٌ» بالتنوين والإعمال(٢)، وهو الأصل في مثله بعد اعتبار المشابهة، والإضافةُ للتخفيف فلا ينافي أنَّ الأصل في الأسماء عدم الإعمال والإعمالُ عارضٌ للشبه، والوصفُ عند إعماله وإضافته للتخفيف صالحٌ للحال والاستقبال، وإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس. وهو هنا ـ على ما قيل ـ للحال لمقارنة «يخشى»، ولا ينافي أنه ﷺ منذرٌ في الماضي والمستقبل حتى يقال: المناسبُ لحال الرسالة الاستمرارُ، ومثله يجوز فيه الإعمالُ وعدمه. ثم المراد بالحال حال الحكم لا حالُ التكلم، وفي ذلك كلامٌ في كتب الأصول فلا تغفل، والله تعالى أعلم.

---

(١) الانتصاف ٤/ ٢١٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، والبحر ٨/ ٤٢٤، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٨٠) سُورة عَبَسَ مكيّة وآياتها ثنتان وأربعون

● **سورة** عبس من السور المكية ، وهي تتناول شئوناً تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى « عبد الله بن أم مكتوم » الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسولُ الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، وكرر ذلك وهو لا يعلم أنه مشغول بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطع الأعمى لكلامه ، فعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن يعاتب الرسول عتاباً شديداً مع توجيهه إلى الطريق الأصوب ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزَّكَّى . أو يَّذكَّر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تَصدَّى .. ﴾ الآيات

● **ثم تحدثت** السورة عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿ قُتل الإنسان ما أكفره.؟ من أي شيءٍ خلقه ؟ من نطفةٍ خلقه فقدَّره . ثم السبيل يسَّره .. ﴾ الآيات

● **ثم تناولت** السورة دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسَّر الله للإنسان سُبُل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿ فلينظر الإنسان

إلى طعامه أنا صببنا الماء صبًّا ثم شققنا الأرضَ شقًّا فأنبتنا فيها حَبًّا وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غُلباً. وفاكهةً وأبًّا. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾

● **وختمت** السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع، وبينت في ذلك اليوم العصيب حال المؤمنين وحال الكافرين ﴿فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأُمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه. وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة. ترهقها قترة. أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

سورة عبس

[١٠٠٣] أخرج الترمذي والحاكم[١] عن عائشة قالت: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾[٢] في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله [ﷺ] فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله [ﷺ] رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله [ﷺ] يعرض عنه ويقبل على الآخر فيقول له: **«أترى بما أقول بأساً»** فيقول لا فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾[٣]. وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس.

[١٠٠٤] ك.. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾[٤] قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرت برب النجم.

* * *

[١٠٠٣] (١) رواه الترمذي في سننه (٣٣٣١) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٢).
(٢) سورة عبس: الآية (١).
(٣) سورة عبس: الآية (١ و٢).
[١٠٠٤] (٤) سورة عبس: الآية (١٧).

سورة عبس

وهي اربعون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أتى رسولَ الله ﷺ ابن أم مكتوم، وأم مكتوم أم أبيه، واسمه عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام؛ رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال للنبي ﷺ: أقرئني وعلِّمني مما علمك الله!! وكرر ذلك، فكرِه رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»[1] ويقول: «هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟» واستخلفه على المدينة مرتين **وفي الموضع سؤالات:**

الأول: أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدب ابن أم مكتوم وزجره؟ وإنما قلنا: إنه كان يستحق التأديب لوجوه:

أحدها: أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضًا، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض - النبي إيذاء للنبي عليه الصلاة والسلام، وذلك معصية عظيمة.

وثانيها: أن الأهم مقدم على المهم، وهو كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين، أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا، وهو إسلامهم سببًا لإسلام جمع عظيم، فإلقاء ابن أم مكتوم ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم.

وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت، فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته - أَوْلى أن يكون ذنبًا ومعصية.

فثبت بهذا أن الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنبًا ومعصية، وأن الذي فعله الرسول كان هو

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس رقم (٦٨٠٥) بدون إسناد عن أنس رضي الله عنه.

الواجب، وعند هذا يتوجه السؤال في أنه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل؟!

السؤال الثاني:أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس في وجهه، كان تعظيمًا عظيمًا من الله سبحانه لابن أم مكتوم، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جدًّا؟!

السؤال الثالث:الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذونًا في أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيرًا ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء، وكيف لا يكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بُعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلاً في إذن الله تعالى إياه في تأديب أصحابه، وإذا كان ذلك مأذونًا فيه، فكيف وقعت المعاتبة عليه؟! فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات. **والجواب عن السؤال الأول من وجهين الأول:**أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء، فلهذا السبب حصلت المعاتبة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] **والوجه الثاني:**لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه، فلما وقع التعبيس والتولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية.

والجواب عن السؤال الثاني:أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه، بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة. **والجواب عن السؤال الثالث:**أنه كان مأذونًا في تأديب أصحابه لكن ههنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة.

المسألة الثانية: القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لما عاتبه الله في ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية. وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لا بحسب هذا الاعتبار الواحد، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان كذلك، كان ذلك جاريًا مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنبًا ألبتة.

المسألة الثالثة: أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وأجمعوا (على) أن الأعمى هو ابن أم مكتوم، وقرئ: (عبَّس) بالتشديد للمبالغة ونحوه كلَّح في كلح، (أن جاءه) منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين في إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس لأن جاءه الأعمى، وأعرض لذلك، وقرئ: (أن جاءه) بهمزتين، وبألف بينهما وقف على ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ثم ابتدأ على معنى ألآن جاءه الأعمى، والمراد منه الإنكار

عليه، واعلم أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانيًا جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهًا بالتوبيخ وإلزام الحجة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

فيه قولان: الأول: أي شيء يجعلك داريًا بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك – من الجهل أو الإثم، أو يتعظ فتنفعه ذكراك، أي موعظتك، فتكون له لطفًا في بعض الطاعات، وبالجملة فلعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض ما لا ينبغي، وهو الجهل والمعصية، أو يشغله ببعض ما ينبغي وهو الطاعة. **الثاني:** أن الضمير في (لعله) للكافر، بمعنى أنت طمعت في أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذّكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أن ما طمعت فيه كائن، وقرئ (فَتَنْفَعُهُ) بالرفع عطفًا على (يذّكر) وبالنصب جوابًا للعل، كقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] وقد مر.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ قال عطاء: يريد عن الإيمان. وقال الكلبي: استغنى عن الله. وقال بعضهم: استغنى: أثرى. وهو فاسد ههنا؛ لأن إقبال النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له: أما من أثرى، فأنت تُقبل عليه، ولأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ [عبس: ٨، ٩] ولم يقل: وهو فقير عديم، ومن قال: (أما من استغنى بماله) فهو صحيح، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن بما له من المال.

وقوله تعالى ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ قال الزجاج: أي أنت تُقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه، يقال: تصدى فلان لفلان، يتصدى، إذا تعرض له، والأصل فيه تصدد يتصدى من الصدد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك، وقد ذكرنا مثل هذا في قوله: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] وقرىء: (تصَّدى) بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر: (تُصدى)، بضم التاء، أي تعرض، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص، والتهالك على إسلامه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ المعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم مَن تدعوه إلى الإسلام، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تُعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أن يسرع في طلب الخير، كقوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقوله: ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه: يخشى الله ويخافه في أن لا يهتم بأداء تكاليفه. أو

يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك . أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى وما كان له قائد .

[ثم قال]: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل، من لهى عن الشيء والتهى وتلهى، وقرأ طلحة بن مصرف: (تتلهى) وقرأ أبو جعفر ﴿تَلَهَّىٰ﴾ أي يلهيك شأن الصناديد، فإن قيل: قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ . . ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ كان فيه اختصاصًا، قلنا: نعم، ومعناه إنكار التصدي والتلهي عنه، أي مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدى للغني، ويتلهى عن الفقير .

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال الحسن: لما تلا جبريل عن النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّآ﴾ سُري منه، أي لا تفعل مثل ذلك . وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى .

ثم قال: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، **وفيه سؤالان:**

الأول: قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٢] ضمير المذكر، والضميران عائدان إلى شيء واحد، فكيف القول فيه؟ الجواب: وفيه وجهان: **الأول:** أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، قال مقاتل: يعني آيات القرآن . وقال الكلبي: يعني هذه السورة . وهو قول الأخفش، والضمير في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عائد إلى التذكرة أيضًا؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . **الثاني:** قال صاحب (النظم): ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني به القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكَّره لجاز، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤] والدليل على أن قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ المراد به القرآن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ .

السؤال الثاني: كيف اتصال هذه الآية بما قبلها؟ الجواب: من وجهين: **الأول:** كأنه قيل: هذا التأديب الذي أوحيته إليك وعرفته لك في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أُثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وُكل بحفظه أكابر الملائكة . **الثاني:** كأنه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأي حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم، وإياك وأن تُعرض عمن آمن به تطييبًا لقلب أرباب الدنيا .

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين: **الأول:** قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه . **والثاني:** قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي تلك التذكرة معدة في هذه الصحف المكرمة، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره، والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة في صحف، والمراد من الصحف قولان: **الأول:** أنها صحف منتسخة من اللوح، مكرمة عند الله تعالى، مرفوعة في السماء السابعة . أو

مرفوعة المقدار مطهرة عن أيدي الشياطين، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: أن الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصفات: **أولها:** أنهم سفرة وفيه قولان: **الأول:** قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة: هم الكتبة من الملائكة، قال الزجاج: السفرة: الكتبة، واحدها سافر، مثل كتبة وكاتب، وإنما قيل للكتبة: سفرة وللكاتب سافر، لأن معناه أنه الذي يبين الشيء ويوضحه، يقال: (سفرت المرأة) إذا كشفت عن وجهها. **القول الثاني:** وهو اختيار الفراء أن السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله وبين رسله، واحدها سافر، والعرب تقول: (سفرت بين القوم) إذا أصلحت بينهم، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح به بين القوم، وأنشدوا:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ... وَمَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

واعلم أن أصل السفارة من الكشف، والكاتب إنما يسمى سافرًا لأنه يكشف، والسفير إنما سمي سفيرًا أيضًا لأنه يكشف، وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسائط بين الله وبين البشر في البيان والهداية والعلم، لا جرم سُموا سفرة.

الصفة الثانية لهؤلاء الملائكة: أنهم ﴿كِرَامٍ﴾ قال مقاتل: كرام على ربهم. وقال عطاء: يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة.

الصفة الثالثة: أنهم: ﴿بَرَرَةٍ﴾ قال مقاتل: مطيعين، وبررة جمع بار، قال الفراء: لا يقولون فعلة للجمع إلا والواحد منه فاعل، مثل كافر وكفرة، وفاجر وفجرة. **القول الثاني في تفسير الصحف:** أنها هي صحف الأنبياء لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨] يعني أن هذه التذكرة مثبتة في صحف الأنبياء المتقدمين، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: هم القراء.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ يقتضي أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدي هؤلاء السفرة، فقال القفال في تقريره: لما كان لا يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين، عجَّب عباده المؤمنين من ذلك، فكأنه قيل: وأي سبب في هذا العجب والترفع

مع أن أوله نطفة قذوة وآخره جيفة مذرة، وفيها بين الوقتين حمال عذرة، فلا جرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجًا لعجبهم، وما يصلح أن يكون علاجًا لكفرهم، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر.

المسألة الثانية: قال المفسرون: نزلت الآية في عتبة بن أبي لهب. وقال آخرون: المراد بالإنسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم. وقال آخرون: بل المراد ذم كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر، والذي يدل على ذلك وجوه: **أحدها**: أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة. **وثانيها**: أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء على ما قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ . . . ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ وعموم هذا الزجر يقتضي عموم الحكم. **وثالثها**: وهو أن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة، واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم؛ لأن القتل غاية شدائد الدنيا و(ما أكفره) تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله، فقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب، وقوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات، فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، والقادر على الكل كيف يليق به ذاك؟ والتعجب أيضًا إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك؟ الجواب: أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقه ما ذكرنا أنه تعالى بيَّن أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح. واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب أوله ووسطه وآخره، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للإنسان:

أما المرتبة الأولى: فهي قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وهو استفهام، وغرضه زيادة التقرير في التحقير.

ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ ولا شك أن النطفة شيء حقير مهين، والغرض منه أن من كان أصله (من) مثل هذا الشيء الحقير، فالنكير والتجبر لا يكون لائقًا به.

ثم قال: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ وفيه وجوه: **أحدها**: قال الفراء: قدره أطوارًا نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكرًا أو أنثى وسعيدًا أو شقيًّا. **وثانيها**: قال الزجاج: المعنى قَدَّره على الاستواء، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، **وثالثها**: يحتمل أن يكون المراد وقدَّر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته، ونظيره قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وأما المرتبة الثانية: -وهي المرتبة المتوسطة- فهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: نصب السبيل بإضمار يسَّره، وفسَّره بيسره.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسيره أقوالاً: **أحدها:** قال بعضهم: المراد تسهيل خروجه من بطن أمه، قالوا: إنه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا الله؟ ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حيًّا من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب. **وثانيها:** قال أبو مسلم: المراد من هذه الآية هو المراد من قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين، أي جعلناه متمكنًا من سلوك سبيل الخير والشر، والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب. **وثالثها:** أن هذا مخصوص بأمر الدين؛ لأن لفظ السبيل مشعر بأن المقصود أحوال الدنيا (لاَ) أمور تحصل في الآخرة.

وأما المرتبة الثالثة: - وهي المرتبة الأخيرة - فهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

واعلم أن هذه المرتبة الثالثة مشتملة أيضًا على ثلاث مراتب: الإماتة، والإقبار، والإنشار، أما الإماتة فقد ذكرنا منافعها في هذا الكتاب، ولا شك أنها هي الواسطة بين حال التكليف والمجازاة، وأما الإقبار فقال الفراء: جعله الله مقبورًا ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع؛ لأن القبر مما أُكرم به المسلم. قال: ولم يقل: (فقبره) لأن القابر هو الدافن بيده. والمقبر هو الله تعالى، يقال: قبر الميت، إذا دفنه وأقبر الميت، إذا أمر غيره بأن يجعله في القبر، والعرب تقول: بترت ذَنَب البعير، والله أبتره وعضبت قرن الثور، والله أعضبه، وطردت فلانًا عني، والله أطرده. أي صيره طريدًا.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ المراد منه الإحياء (و) البعث، وإنما قال: (إذا شاء) إشعارًا بأن وقته غير معلوم لنا، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة الله تعالى، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه، إذ الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حدًّا معلومًا.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿ كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن تكبره وترفعه، أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد، وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر، وفي قوله: ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ وجوه: **أحدها:** قال مجاهد: لا يقضي أحد جميع ما كان مفروضًا عليه أبدًا، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير ألبتة. وهذا التفسير عندي فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿ لَمَّا يَقْضِ﴾ الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق، وهو الإنسان في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر، فقوله: ﴿ لَمَّا يَقْضِ﴾ كيف يمكن حمله على جميع الناس؟!

وثانيها: أن يكون المعنى أن الإنسان المترفع المتكبر لم يقض ما أُمر به من ترك التكبر، إذ المعنى أن ذلك الإنسان الكافر لما يقض ما أُمر به من التأمل في دلائل الله، والتدبر في عجائب خلقه وبينات حكمته. وثالثها: قال الأستاذ أبو بكر بن فورك: كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر، بل أمره بما لم يقض له به.

واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق، فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الذي يعيش به كيف دبرنا أمره، ولا شك أنه موضع الاعتبار، فإن الطعام الذي يتناول الإنسان له حالتان: إحداهما: متقدمة وهي الأمور التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود. والثانية: متأخرة، وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول، ولما كان النوع الأول أظهر للحسن وأبعد عن الشبهة، لا جرم اكتفى الله تعالى بذكره؛ لأن دلائل القرآن لا بد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض، فالسماء كالذكر، والأرض كالأنثى، فذكر في بيان نزل القطر قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله ﴿صَبَبْنَا﴾ المراد منه الغيث، ثم انظر في أنه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة، وكيف بقي معلقًا في جو السماء مع غاية ثقله، وتأمل في أسبابه القريبة والبعيدة، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته، وفي تدبير خلقه هذا العالم.

المسألة الثانية: قرئ (إِنَّا) بالكسر، وهو على الاستئناف، و(أَنَّا) بالفتح على البدل من الطعام والتقدير: فلينظر الإنسان إلى أن كيف صببنا الماء. قال أبو علي الفارسي: من قرأ بكسر (إنا) كان ذلك تفسيرًا للنظر إلى طعامه كما أن قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] تفسير للوعد، ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال؛ لأن هذه الأشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه، فهو كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤، ٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾. والمراد شق الأرض بالنبات، ثم ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات:

أولها: الحَب، وهو المشار إليه بقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾. وهو كل ما حصد من نحو الحنطة

والشعير وغيرهما، وإنما قدم ذلك لأن كالأصل في الأغذية .

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا﴾ وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَضْبًا﴾، وفيه قولان: الأول: أنه الرطبة وهي التي إذا يبست سميت بالقت، وأهل مكة يسمونها بالقضب وأصله من القطع، وذلك لأنه يُقضب مرة بعد أخرى، وكذلك القضيب لأنه يقضب أي يقطع. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل، واختيار الفراء وأبي عبيدة والأصمعي.

والثاني: قال المبرد: القضب هو العلف بعينه، وأصله من أنه يُقضب أي يُقطعْ وهو قول الحسن.

والرابع والخامس: قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ومنافعهما قد تقدمت في هذا الكتاب.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ الأصل في الوصف بالغُلب الرقاب، فالغُلب: الغلاظ الأعناق، الواحد أغلب، يقال أسد أغلب، ثم ههنا قولان:

الأول: أن يكون المراد وصف كل حديقة بأن أشجارها متكاثفة متقاربة، وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا: الغُلب: الملتفة الشجر بعضه في بعض، يقال: اغلولب العشب واغلولبت الأرض، إذا التف عشبها.

والثاني: أن يكون المراد وصف كل واحد من الأشجار بالغلظ والعظم، قال عطاء عن ابن عباس: يريد الشجر العظام. وقال الفراء: الغُلب: ما غلظ من النخل.

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾

وسابعها: قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ وقد استدل بعضهم بأن الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب أن لا تدخل هذه الأشياء في الفاكهة، وهذا قريب من جهة الظاهرة؛ لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾ والأب هو المرعى، قال صاحب (الكشاف): لأنه يُؤب، أي يُؤم وينتجع، والأب والأم أخوان، قال الشاعر:

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا ... لَنَا الأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ

وقيل: الأب: الفاكهة اليابسة لأنها تؤب للشتاء أي تُعد.

ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان قال: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾. قال الفراء: خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم. وقال الزجاج: هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ لأن إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورًا ثلاثة: أولها: الدلائل الدالة

على التوحيد. وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة على المعاد. وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان - لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده، أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكدًا لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، ويدعوه ذلك أيضًا إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد، فلا جرم ذكر القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ . قال المفسرون: يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج: أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال: صخ رأسه بحجر، أي شدخه، والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير أي يطعن، فمعنى الصاخة: الصاكة بشدة صوتها للآذان. وذكر صاحب (الكشاف) وجهًا آخر فقال: يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازًا لأن الناس يصخون لها، أي يستمعون. ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يُشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز، والسبب في ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات. يقول الأخ: ما واسيتني بمالك. والأبوان يقولان: قصَّرتَ في بِرنا، والصاحبة تقول: أطعمتني الحرام، وفعلت وصنعت. والبنون يقولون: ما علَّمتنا وما أرشدتنا. وقيل: أول من يفر من أخيه هابيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبته نوح ولوط، ومن ابنه نوح، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه، وهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وإما الفرار من نصرته، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١] وإما ترك السؤال وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

المسألة الثانية: المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين، بل من الصاحبة والولد؛ لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. وفي قوله: ﴿يُغْنِيهِ﴾ وجهان: **الأول**: قال ابن قتيبة: يغنيه، أي يصرفه ويصده عن قرابته. وأنشد:

سَيُغْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ ... عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ فِي الْمَحْفِلِ

أي سيشغلك، ويقال: أغن عني وجهك، أي اصرفه. **الثاني**: قال أهل المعاني: يغنيه أي ذلك الهم الذي بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع لهمٍّ آخر، فصار شبيهًا بالغنى في أنه حصل عنده من ذلك المملوك شيء كثير.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة في الهول، بيّن أن المكلفين فيه على قسمين، منهم السعداء، ومنهم الأشقياء، فوصف السعداء بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ . مسفرة مضيئة متهللة، من أسفر الصبح، إذا أضاء، وعن ابن عباس: من قيام الليل. لما روي: مَن كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار[(١)]. وعن الضحاك: من آثار الوضوء. وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله، وعندي أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة، قال الكلبي: يعني بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه.

---

(١) موضوع: رواه جابر وأنس: حديث جابر: أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٢) رقم (١٣٣٣)، قال البوصيرى (١/ ١٥٧): هذا حديث ضعيف: والعقيلى (١/ ١٧٦) ترجمة (٢٢١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٢٩) رقم (٣٠٩٥)، وأخرجه أيضًا: ابن عدى (٦/ ٣٤٧)، ترجمة (١٨٢٩) موسى بن محمد بن عطاء، والقضاعي (١/ ٢٥٣) رقم (٤٠٩)، والديلمي (٣/ ٥٠١) رقم (٥٥٥٠) جميعًا من طريق ثابت بن موسى أبي يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره.

أما حديث أنس: فأخرجه ابن عساكر (٣١/ ٦٩). وأخرجه أيضا: القضاعي (١/ ٢٥٦) رقم (٤١٤) من طريق أبي الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جميع الغساني، ثنا أحمد بن محمد بن سعيد أبو العباس الرقي بالمصيصة، ثنا أبو الحسين محمد بن هشام بن الوليد، ثنا جبارة بن المغلس عن كثير بن سليم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره. وقال ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ١٠٩/ ١١١) بعد أن ذكر جميع طرق الحديث: قال رحمويه: بلغني عن محمد بن عبد الله بن نمير أنه ذكر له الحديث عن ثابت فقال: باطل شُبِّه على ثابت، وذلك أن شريكًا كان مزاحًا وكان ثابت رجلاً صالحًا، فيشتبه أن يكون ثابت دخل على شريك وهو يقول: حدثنا الاعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ فالتفت فرأى ثابتًا فقال يمازحة: (من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار) فظن ثابت لغفلته أن هذا الكلام الذى قال شريك هو من الإسناد، وقال الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٤٨): لا أصل له، وروي من طرق بعضها عند ابن ماجه، وأورد الكثير منها القضاعي وغيره، ولكن قرأت بخط شيخنا أنه ضعيف والمعتمد الأول، وأطنب ابن عدي في ورده وظن القضاعي أنه صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا، واتفق أئمة الحديث على أنه من قول شريك لثابت قبل سرقة جماعة من ثابت: في الخلاصة قال الصغاني: هو موضوع. اللآلئ قال القضاعي في مسند الشهاب: روى هذا الحديث جماعة وما طعن أحد منهم في إسناده ولا متنه، وقد أنكره بعض الحفاظ وقال: إنه من كلام شريك حين دخل ثابت الزاهد عليه وهو يقول: حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ ولم يذكر المتن فلما نظر إلى ثابت موسى قال: من كثرت صلاته . . . إلخ. لزهده فظن ثابت أنه روى الحديث بهذا الإسناد، فكان ثابت يحدث به عن شريك عن الأعمش، وليس له أصل إلا بهذا الوجه، وعن قوم مجروحين سرقوه من ثابت وردوه عن ثابت قال: وقد روي لنا من طرق كثيرة وعن ثقات غير ثابت وعن غير شريك، وروي عن أنس (شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس) لا يصح، المتهم به داود، قلت: لم ينفرد به بل توبع مع أن له شواهد: خلاصة قال الصغاني: موضوع. وفي الوجيز: هو حديث أبي هريرة وفيه داود بن عثمان حدث بالبواطيل قلت: قد توبع وشاهده ما أخرجه البخاري في تاريخه عن صهيب وحديث سهل بن سعد: (أحبب من شئت فإنك مفارقه) وفيه (شرف المؤمن قيامه بالليل) إلخ. وفيه محمد بن حميد كذبه أبو زرعة وغيره وزافر سيئ الحفظ لا يتابع على عامة ما يرويه قلت: صححه الحاكم، قال ابن حجر: اختلف فيه نظر حافظين في طرفي تناقض، فصححه الحاكم ووهاه ابن الجوزي، والصواب أن لا يحكم بالوضع ولا بالصحة. قلت: قد حسنه المنذري ولصدره شاهد عن جابر، وروي عن أهل البيت، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٦٤٤) وقال: موضوع.

واعلم أن قوله: مسفرة إشارة إلى الخلاص عن هذا العالم وتبعاته، وأما الضاحكة والمستبشرة، فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية، أو على وجدان المنفعة ووجدان التعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

قال المبرد: الغبرة ما يصيب الإنسان من الغبار، وقوله: ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تدركها عن قرب، كقولك: (رهقت الجبل) إذا لحقته بسرعة، والرهق: عجلة الهلاك، والقترة سواد كالدخان، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور، والله أعلم.

واعلم أن المرجئة والخوارج تمسكوا بهذه الآية:

أما المرجئة فقالوا: إن هذه الآية دلت على أن أهل القيامة قسمان: أهل الثواب، وأهل العقاب، ودلت على أن أهل العقاب هم الكفرة، وثبت بالدليل أن الفساق من أهل الصلاة ليسوا بكفرة، وإذا لم يكونوا من الكفرة كانوا من أهل الثواب، وذلك يدل على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس له عقاب.

وأما الخوارج فإنهم قالوا: دلت سائر الدلائل على أن صاحب الكبيرة يعاقب، ودلت هذه الآية على أن كل من يعاقب فإنه كافر، فيلزم أن كل مذنب فإنه كافر.

والجواب: أكثر ما في الباب أن المذكور ههنا هو هذان الفريقان، وذلك لا يقتضي نفي الفريق الثالث، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

فيه ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كَلَح بوَجْهِه؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقد تقدَّمَ[١]. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرَضَ بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ لأنه مفعولٌ له، المعنى: لأنْ جاءه الأعمى، أي: الذي لا يُبْصِرُ بعينيه. فروى أهلُ التفسيرِ أجمع: أنَّ قوماً من أشراف قريشٍ كانوا عند النبيِّ ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقْبَل عبد الله ابنُ أمِّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعْرَضَ عنه، ففيه نزلت هذه الآية.

قال مالك: إنَّ هشام بنَ عُروة حدَّثه عن عروةَ أنه قال: نزلتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتوم، جاء إلى النبيِّ ﷺ فجعل يقول: يا محمد اسْتَدْنِني، وعند النبيِّ ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل النبيُّ ﷺ يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً؟» فيقول: لا والدُّمَى، ما أرى بما تقولُ بأساً، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[٢].

---

(١) ٢١/٣٧٨.

(٢) الموطأ ١/٢٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٣. ووقع في الموطأ: لا والدِّماء، قال ابن الأثير في النهاية (دما): لا والدماء، أي: دماء الذبائح. ويروى: لا والدُّمَى، جمع دمية وهي الصورة، ويريد بها الأصنام.

وفي الترمذيِّ مُسنَداً قال: حدَّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُمَويُّ، حدَّثني أبي، قال: هذا ما عَرَضنا على هشام بنِ عُروةَ عن أبيه عن عائشة، قالت: نَزلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومِ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ فجعل يقول: يا رسولَ الله أرشِدْني، وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسولُ الله ﷺ يُعرِضُ عنه، ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «أتَرى بما أقولُ بأساً» فيقول: لا، ففي هذا نزلت. قال: هذا حديث غريب[(١)].

الثانية: الآيةُ عِتابٌ من الله لنبيِّه ﷺ في إعراضه وتَولِّيه عن عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ. ويقال: عمرو بن أمِّ مكتومٍ، واسمُ أمِّ مكتومٍ عاتكةُ بنت [عبد الله بن عنكثة بن] عامر ابن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابنُ قيس بنِ زائدة بن الأصمِّ، وهو ابنُ خالِ خديجةَ رضي الله عنها[(٢)]. وكان قد تَشَاغَلَ عنه برجلٍ من عظماء المشركين؛ يقال: كان الوليد بنَ المغيرة. ابن العربيِّ[(٣)]: قاله المالكيةُ من علمائنا، وهو يُكْنَى أبا عبد شمس.

وقال قتادةُ: هو أمية بنُ خلف. وعنه: أُبيّ بن خلف[(٤)]. وقال مجاهدٌ: كانوا ثلاثةً: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُبيّ بن خلف[(٥)]. وقال عطاءٌ: عتبة بن ربيعة. سفيان الثوريُّ: كان النبيُّ ﷺ مع عمِّه العباس[(٦)].

الزمخشريُّ[(٧)]: كان عنده صناديدُ قريشٍ: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعباس بنُ عبد المطلّب، وأميةُ بن خَلف، والوليدُ بن المغيرة، يدعوهم إلى

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣١).

(٢) الاستيعاب ٨/ ٣٥١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٣.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ١٠٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ فلم يذكر أبي بن خلف، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ وفيه: عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧.

(٧) في الكشاف ٤/ ٢١٧.

الإسلام. رَجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم.

قال ابن العربيِّ: أمَّا قولُ علمائنا: إنَّه الوليد بنُ المغيرة، وقال آخرون: إنه أميةُ ابن خلفٍ والعباسُ، وهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ من المفسِّرين الذين لم يتحقَّقوا الدِّينَ، ذلك أنَّ أميةَ والوليدَ كانا بمكةَ وابن أمِّ مكتومٍ كان بالمدينة، ما حَضَر معهما ولا حَضَرا معه، وكان موتُهما كافرين، أحدُهما قَبلَ الهجرةِ، والآخَرُ ببدرٍ، ولم يَقصِدْ قطُّ أميةُ المدينةَ، ولا حَضَر عندَه مُفرَداً، ولا مع أحدٍ(١).

الثالثة: أقبَلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ والنبيُّ ﷺ مُشتغلٌ بمَن حَضَره من وجوه قريشٍ يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قَوِيَ طَمَعُه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلامُ مَن وراءَهم مِن قومهم، فجاء ابنُ أمِّ مكتومٍ وهو أعمى فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني ممَّا عَلَّمكَ الله، وجعل يناديه ويُكثِرُ النداءَ، ولا يدري أنه مشتغلٌ بغيره، حتى ظهرت الكراهةُ في وجه رسولِ الله ﷺ لقَطْعِه كلامَه، وقال في نفسه: يقولُ هؤلاء: إنَّما أتباعُه العُميانُ والسِّفْلةُ والعبيد، فعَبَس وأعرَضَ عنه، فنزلت الآية(٢). قال الثَّوريُّ: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابنَ مكتومٍ يبسُطُ له رداءَه ويقول: «مرحباً بمَن عاتَبني فيه ربِّي». ويقولُ: «هل مِن حاجةٍ»؟ واستخلفه على المدينة مرَّتين في غزوتين غَزَاهما(٣). قال أنس: فرأيتُه يوَم القادسيةِ راكباً وعليه درعٌ ومعه رايةٌ سوداء(٤).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣-١٨٩٤ . وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٧ هذا الكلام عن القرطبي، ثم قال: والغلط من القرطبي كيف ينفي حضورَ ابن أمِّ مكتوم معهما (يعني أمية والوليد)، وهو وهمٌ منه، وكلهم من قريش، والسورة كلها مكية بالإجماع... وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٤ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ ، وأحمد (١٢٣٤٤)، والطبري ٢٤/ ١٠٤ ، وزاد أحمد في أوله: استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم مرتين على المدينة، ولقد رأيته...، وأخرجه أبو داود (٢٩٣١) بذكر الاستخلاف فقط.

الرابعة: قال علماؤنا: ما فَعَله ابنُ أمِّ مكتومٍ كان من سوءِ الأدبِ لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنَّه يَرْجو إسلامَهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتَبه حتى لا تَنكَسِرَ قلوبُ أهلِ الصُّفَّةِ، أو ليعلم أنَّ المؤمن الفقيرَ خيرٌ من الغنيِّ، وكان النظر إلى المؤمن أوْلَى، وإنْ كان فقيراً أصلحُ وأوْلَى من الأمرِ الآخَرِ، وهو الإقبالُ على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية [الأنفال:٦٧] على ما تقدَّم.

وقيل: إنَّما قَصَدَ النبيُّ ﷺ تأليفَ الرجلِ، ثقةً بما كان في قلبِ ابنِ أمِّ مكتومٍ من الإيمان؛ كما قال: «إنِّي لأُعطي[1] الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافةَ أن يَكُبَّه الله في النار على وجهه»[2].

الخامسة: قال ابن زيد: إنَّما عبس النبيُّ ﷺ لابنِ أمِّ مكتومٍ وأعرَضَ عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقودُه أنْ يكفَّه، فدفعه ابنُ أمِّ مكتومٍ، وأبَى إلَّا أنْ يكلِّم النبيَّ ﷺ حتى يعلِّمه[3]. فكان في هذا نوعُ جفاءٍ منه، ومع هذا أنزل الله في حقِّه على نبيِّه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظِ الإخبار عن الغائب؛ تعظيماً له[4]، ولم يَقُلْ: عبَسْتَ وتولَّيْتَ. ثم أقبلَ عليه بمواجهةِ الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: يُعلِمُكَ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بما استدعى منكَ تعليمَه إياه من القرآن والدِّين، بأنْ يزدادَ طهارةً في دينه، وزوال ظلمةِ الجهلِ عنه.

وقيل: الضميرُ في «لعله» للكافر، يعني: إنَّك إذا طمعتَ في أنْ يتزكَّى بالإسلام، أو يذَّكَّرَ فتقرِّبه الذِّكرى إلى قبولِ الحقِّ، وما يُدْريكَ أنَّ ما طَمِعتَ فيه كائن[5].

---

(١) في (م): لأصل.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٢)، والبخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣ .

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٠٥ .

(٤) في (د): تعليماً.

(٥) تفسير الرزاي ٣١/ ٥٦ .

وقرأ الحسن: «آن جاءه الأعمى» بالمدِّ على الاستفهام، فـ«أنْ» متعلِّقةٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ التقدير: أأن جاءه أعرَضَ عنه وتَولَّى؟ فيوقَفُ على هذه القراءةِ على «وتولَّى»[(١)]. ولا يوقفُ عليه على قراءة الخبر، وهي قراءةُ العامة.

السادسة: نظيرُ هذه الآيةِ في العتاب قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية:٥٢] وكذلك قولُه في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية:٢٨] وما كان مثلَه، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتَّعِظ بما تقولُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: العِظَةُ. وقراءةُ العامَّةِ: «فتنفعُه» بضمِّ العين، عَطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وابنُ أبي إسحاقَ وعيسى: «فتنفَعَه» نصباً[(٢)]. وهي قراءةُ السُّلَميِّ وزِرِّ بنِ حُبَيش، على جواب لعلَّ؛ لأنه غيرُ مُوجَبٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروةٍ وغِنًى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تَعَرَّضُ له، وتُصغِي لكلامه. والتَّصدِّي: الإصغاءُ؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوضاحٍ كأنَّ جبينَه ... سِرَاجُ الدُّجَى تُجبَى إليه الأساوِرُ[(٣)]

وأصلُه: تَتَصدَّدُ من الصَّدَد[(٤)]، وهو ما استقبلك، وصار قُبالَتَك؛ يقال: داري

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٥٢، وقال ابن جني: فكأنه قال: أَلِأَنْ جاءه الأعمى كان ذلك منه. والقراءة في القراءات الشاذة ص١٦٨.

(٢) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

(٣) في (ي) و(م): يحني إليه الأساور، والمثبت من باقي النسخ. وروايته في ديوان الراعي ص١٠٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٩٢:

تَصَدَّى لوضاح الجبين كأنه ... سراجُ الدُّجى تُجْبَى إليه السوائر

(٤) في (م). الصد، وفي (ظ) و(ي): الصدود، والمثبت من (د)، وهو موافق لما في تفسير الرازي ٣١/ ٥٦، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٨٧.

صَدَدَ دارِه، أي: قُبالتَها، نُصِبَ على الظرف[١]. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي: تتعرَّض له كما يتعرَّض العطشانُ للماء، والمصَاداةُ: المعارَضة.

وقراءةُ العامَّةِ: «تَصدَّى» بالتخفيف، على طَرْحِ التاء الثانية تخفيفاً. وقرأ نافعٌ وابنُ مُحيصنٍ بالتشديد على الإدغام[٢].

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنَّما أنت رسولٌ، ما عليك إلَّا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلبُ العلمَ لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخافُ اللهَ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تُعرِضُ عنه بوجهك وتَشتَغلُ بغيره. وأصلُه: تتلهَّى. يقال: لَهِيتُ عن الشيء ألهَى، أي: تَشاغَلتُ عنه. والتلهِّي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَلَهَّيْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ «كلَّا» كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعلُ مع الفريقين، أي: لا تَفْعلْ بعدها مثلها: من إقبالك على الغنيِّ، وإعراضِكَ عن المؤمن الفقير، والذي جرى من النبيِّ ﷺ كان تَرْكَ الأولَى كما تقدَّم، ولو حُمِلَ على صغيرةٍ لم يَبْعُدْ؛ قاله القشيرُّي.

والوقفُ على «كلَّا» على هذا الوجهِ جائزٌ. ويجوز أن تقفَ على «تَلَهَّى»، ثم تبتدئ: «كَلَّا»، على معنى: حَقًّا.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: السورةُ، أو آياتُ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: مَوعظةٌ وتَبصِرةٌ للخَلْق ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتَّعظ بالقرآن.

قال الجُرْجانيُّ: «إنها» أي: القرآن، والقرآنُ مذكَّر إلَّا أنه لمَّا جُعل القرآنُ

---

(١) الصحاح (صدد).

(٢) أي: «تصَّدَّى»، وقرأ بها من السبعة أيضاً ابن كثير. السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

تذكرةً، أخرجه على لفظِ التَّذكِرة، ولو ذَكَّره لجاز، كما قال تعالى في موضعٍ آخَر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]. ويدلُّ على أنَّه أرادَ القرآنَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] أي: كان حافظاً له غيرَ ناسٍ، وذكَّر الضمير. لأنَّ التذكرة في معنى الذِّكرِ والوَعظِ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس في قوله تعالى: «فمن شاء ذَكَره» قال: مَن شاء الله تبارك وتعالى أَلْهَمه[2].

ثم أخبر عن جَلَالته فقال: ﴿فِي صُحُفٖ﴾ جمعُ صحيفةٍ ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي: عند الله، قاله السّدِّيّ. الطبريُّ: «مُكَرَّمةٍ» في الدِّين؛ لمَا فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرامُ الحفَظة[3]. أو لأنَّها نازلةٌ من اللوح المحفوظ.

وقيل: «مكرمةٍ» لأنَّها نزلت من كريم؛ لأنَّ كرامةَ الكتابِ من كرامة صاحبِه[4].

وقيل: المرادُ كُتُبُ الأنبياءِ، دليلُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩][5].

﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ رفيعة القَدرِ عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة؛ قاله يحيى بن سلام. الطبريُّ: مرفوعة الذِّكرِ والقَدْر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقُض[6].

﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ قال الحسن: من كلِّ دَنَس. وقيل: مُصَانة[7] عن أنْ ينالَها الكفَّار.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥٩.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٢٣ بلفظ: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتَّعظ به.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٧.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣-٢٠٤، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٧) كذا في النسخ، والصواب: مصونة، يقال: صنت الشيء فهو مَصُون، ولا تقل: مُصَان. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٢، والصحاح (صون)، واللسان (صون).

وهو معنى قولِ السُّدِّيّ. وعن الحسن أيضاً: مُطهَّرة من أن تنزل على المشركين[(١)].

وقيل: أي: القرآن أُثبت للملائكة في صحفٍ يقرؤونها، فهي مكرمةٌ مرفوعةٌ مطهَّرة.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة الذين جعلهم الله سُفراءَ بينه وبين رُسُله، فهم بَررةٌ لم يتدنَّسوا بمعصيةٍ. ورَوى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: هي مطهَّرةٌ تجعلُ التطهيرَ لمن حملها، «بأيدي سَفَرةٍ» قال: كَتَبةٍ[(٢)]. وقاله مجاهدٌ أيضاً[(٣)].

وهم الملائكةُ الكرامُ الكاتبون لأعمالِ العبادِ في الأسفار، التي هي الكتبُ، واحدُهم: سافِرٌ، كقولك: كاتبٌ وكَتَبة. ويقال: سَفرتُ، أي: كتبتُ، والكتاب: هو السِّفْر، وجَمْعُه أسفار. قال الزجَّاج[(٤)]: وإنَّما قيل للكِتَاب سِفرٌ ـ بكَسرِ السِّين ـ وللكاتب سافِر؛ لأنَّ معناه أنه يبيِّنُ الشيءَ ويوضِّحُه. يقال: أسفَر الصبح: إذا أضاء، وسفَرتِ المرأة: إنما كَشَفَت النقابَ عن وجهها. قال: ومنه سَفَرتُ بين القومِ أسفِرُ سِفارةً: أصلَحتُ بينهم. وقاله الفرَّاء، وأنشد:

فما أدَعُ السِّفارةَ بينَ قومي ... ولا أمشي بغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ[(٥)]

والسَّفير: الرسولُ والمُصْلِحُ بين القوم، والجمع: سُفَراء، مثل: فقيهٍ وفقهاء. ويقال للورَّاقين: سُفَراءُ، بلُغةِ العِبرانية.

وقال قتادة: السَّفَرة هنا هم القُرَّاء؛ لأنَّهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضاً كقولِ

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٨ مختصراً بلفظ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ قال: كتبة.

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٨٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٩، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٨٥ لموسى بن جابر الحنفي اليمامي، وهو شاعر نصراني جاهلي يلقب: أُزَيْرِق اليمامة، ويعرف بابن ليلى.

ابن عباس[١].

وقال وهب بن مُنبِّه: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ هم أصحابُ النبيِّ ﷺ. قال ابن العربي[٢]: لقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ سَفَرةً، كِراماً بَرَرَةً، ولكنْ ليسوا بمُرادِينَ بهذه الآية، ولا قارَبوا المرادِينَ بها، بل هي لفظةٌ مخصوصةٌ بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرُهم. ورُوي في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «[مَثَلُ] الذي يقرأ القرآنَ وهو حافظٌ له، مع السَّفَرةِ الكرامِ البررة، ومَثَلُ الذي يقرؤه وهو يتَعاهدُه، وهو عليه شديدٌ، فله أجران» متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاريِّ[٣].

﴿كِرَامٍ﴾ أي: كرامٍ على ربِّهم؛ قاله الكلبيُّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسَهم عنها[٤]. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرَّمون أن يكونوا مع ابنِ آدمَ إذا خلا بزوجته، أو تَبرَّز لغائطه[٥]. وقيل: أي: يُؤثِرون منافعَ غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ جمعُ بارٍّ، مثل: كافرٍ وكَفَرة، وساحِرٍ وسَحَرة، وفاجِرٍ وفَجَرة؛ يقال: بَرٌّ وبارٌّ: إذا كان أهلاً للصِّدق، ومنه بَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَق، وفلانٌ يَبرُّ خالقَه ويتبرَّرُه، أي: يطيعُه، فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم[٦]. وقد مضى في سورة الواقعة قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

---

(١) أخرج القولين الطبري ٢٤/١٠٨-١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٤ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨)، وسلف ١/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/٥٨ عن عطاء قوله.

(٦) في (د): إيمانهم.

﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الآيات: ٧٧-٧٩] أنَّهم الكرامُ البرَرَةُ في هذه السورة(١).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ «قتِل» أي: لُعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسانُ: الكافر. روى الأعمشُ عن مجاهدٍ قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنَّما عُني به الكافر(٢).

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: نزلت في عُتبةَ بنِ أبي لَهَب، وكان قد آمن فلمَّا نزلتْ «والنجم» ارتدَّ، وقال: آمنت بالقرآن كلِّه إلَّا النجم، فأنزل الله جلَّ ثناؤه فيه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾(٣) أي: لُعِنَ عُتبةُ، حيث كَفَر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهُمَّ سَلِّطْ عليه كَلْبكَ أسَدَ الغاضِرَة» فخرج من فَورِه بتجارةٍ إلى الشام، فلمَّا انتهى إلى الغاضرة تذكَّر دعاءَ النبيِّ ﷺ، فجعل لمَن معه ألفَ دينارٍ إنْ هو أصبح حيًّا، فجعلوه في وسط الرُّفقةِ، وجعلوا المتاعَ حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلمَّا دنا من الرِّحال وثب فإذا هو فوقه فمزَّقه، وقد كان أبوه نَدبه وبكى وقال: ما قال محمدٌ شيئاً قَطُّ إلَّا كان(٤).

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) في المسألة الخامسة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٠.

(٣) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن ابن جريج ومجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) سلف المرفوع منه في بداية تفسير سورة النجم بلفظ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». وكذا أخرجه أبو الفرج في الأغاني ١٦/ ١٧٦ عن عكرمة، ثم قال: فقال ابن عباس: فخرج إلى الشام في ركب فيهم هبار بن الأسود، حتى إذا كانوا بوادي الغاضرة، وهي مَسبَعة، نزلوا ليلاً...، وذكر الخبر.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: «ما أكْفَره»: أيُّ شيءٍ أكفَرَه[١]؟

وقيل: «ما» تعجُّبٌ؛ وعادةُ العربِ إذا تعجَّبوا من شيءٍ قالوا: قاتَلَه الله ما أحسَنه! وأخْزاه الله ما أظْلَمَه! والمعنى: اعجَبوا مِن كُفرِ الإنسانِ، لجميع ما ذَكَرنا بعد هذا[٢].

وقيل: ما أكْفَره بالله ونعمِه مع معرفتِه بكَثرةِ إحسانِه إليه، على التعجُّب أيضاً؛ قال ابنُ جُرَيج: أي: ما أشدَّ كُفرَه[٣]!

وقيل: «ما» استفهامٌ، أي: أيُّ شيءٍ دعاه إلى الكُفْر[٤]؛ فهو استفهامُ توبيخٍ. و«ما» تَحتَمِلُ التعجُّبَ، وتحتملُ معنى «أيّ» فتكونُ استفهاماً.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَ الله هذا الكافرَ فيتكبَّر؟ أي: اعجَبوا لخَلْقِه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماءٍ يَسيرٍ مهين جَماد ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فلمَ يغْلُظُ[٥] في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبَّر مَن خرج من سبيل البولِ مرَّتين[٦].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ في بَطْنِ أمِّه؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس[٧]، أي: قدَّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه[٨]، وحَسناً ودَميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقيًّا وسعيداً.

وقيل: «فقدَّره» أي: فسوَّاه، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

(١) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٤٨ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن السدي ويحيى ابن سلام.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٨، وقد سلف هذا القول قريباً من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) في (م): يغلط.

(٦) ذكره عن الحسن الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٥٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٢١٠) عن الأحنف بن قيس ﷺ.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٨) جمع إرْب، وهو العضو. اللسان (أرب).

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقيل: فقدَّره أطواراً، أي: من حالٍ إلى حالٍ؛ نطفةً ثم علقةً، إلى أنْ تمَّ خَلقُه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ قال ابن عباس في روايةِ عطاءٍ، وقتادةُ والسدِّيُّ ومقاتلٌ: يسَّره للخروج من بَطْنِ أمِّه[١].

مجاهدٌ: يسَّره لطريقِ الخيرِ والشرِّ، أي: بيَّن له ذلك، دليلُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقاله الحسن وعطاء[٢]، وابنُ عباسٍ أيضاً في روايةِ أبي صالح عنه.

وعن مجاهدٍ أيضاً قال: سبيل الشَّقاءِ والسعادة[٣]. ابن زيد: سبيل الإسلام[٤].

وقال أبو بكر بن طاهرٍ: يَسَّر على كلِّ أحدٍ ما خَلَقه له، وقدَّره[٥] عليه؛ دليلُه قولُه عليه السلام: «اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[٦].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَل له قبراً يُوَارَى فيه إكراماً له، ولم يَجعَله ممَّا يلْقَى على وَجْهِ الأرضِ تأكله الطيرُ والعَوافي، قاله الفرَّاء[٧].

وقال أبو عبيدةَ: «أقْبَره»: جَعل له قبراً، وأَمَر أنْ يُقبَر. قال أبو عبيدة: ولمَّا قَتَل عمرُ بن هُبيرةَ صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقْبِرنا صالحاً، فقال: دونكُموه. وقال: «أقْبَره» ولم يَقُلْ: قَبَره؛ لأنَّ القابِرَ هو الدَّافِنُ بيده، قال الأعشى:

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١-١١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣ عن مجاهد والحسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٣ .

(٥) في (د) و(ظ): وقدر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٧ ، والعوافي مفردها: العافية والعافي، وهو كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر. النهاية (عفا).

لـو أسـنَـدَتْ مَـيْـتـاً إلـى نـحـرِهـا عـاشَ ولـم يُـنـقَـلْ إلـى قـابِـرِ(١)

يقال: قبرتُ الميتَ: إذا دفنته، وأقْبره الله: أي: صيَّره بحيث يُقْبَر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترتُ ذَنَب البعير، وأبترَه الله، وعَضَبْتُ قَرنَ الثورِ، وأعضَبه الله، وطَرَدتُ فلاناً، والله أطْرَدَه، أي: صيَّره طَريداً(٢).

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياه بعدَ مَوْته. وقراءةُ العامَّة: «أنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيوةَ عن نافعٍ وشعيب بن أبي حمزة: «شاء نَشَره» بغير ألفٍ(٣)، لغتان فصيحتان بمعنى(٤)؛ يقال: أنشَر الله الميتَ ونَشَره؛ قال الأعشى:

حـتـى يـقـولَ الـنـاسُ مـمَّـا رأوْا يـا عَـجَـبـاً لـلـمـيِّـتِ الـنَّـاشِـرِ(٥)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: «لَمَّا يقضِ»: لا يقضي أحدٌ ما أُمرِ به(٦). وكان ابن عباس يقول: «لمَّا يَقْضِ ما أمَره»: لم يَفِ بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلْبِ آدم. ثم قيل: «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجرٌ، أي: ليس الأمرُ كما يقول الكافر؛ فإنَّ الكافر إذا أُخْبِرَ بالنُّشور وقال(٧): ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ربَّما يقول: قد قَضَيتُ ما أَمِرْتُ به. فقال: كلَّا لم يَقْضِ شيئاً،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٦ ، والبيت في ديوان الأعشى ١٨٩ . وعمر بن هبيرة هو أبو المثنى الفزاري الشامي، أمير العراقين، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٤/ ٥٦٢ . وصالح بن عبد الرحمن هو كاتب الحجاج، وهو الذي نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، وكان يرى رأي الخوارج، ويقال: إن الذي قتله هو الحجاج. ينظر ما سلف ١/ ٣٥١ ، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٢٨١ ، والكامل للمبرد ٢/ ٧٢٩ ، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ ، والبحر ٨/ ٤٢٩ . وشعيب بن أبي حمزة هو أبو بشر الأموي مولاهم الحمصي الكاتب، واسم أبيه دينار. توفي سنة (١٦٢هـ). السير ٧/ ١٨٧ .

(٤) وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٣ : «أنشر» أقوى اللغتين.

(٥) ديوان الأعشى ص١٩١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٤ عن مجاهد بلفظ: لا يقضي أحد أبداً ما افتُرِض عليه.

(٧) في (د) و(م): قال.

بل هو كافرٌ بي وبرسولي.

وقال الحسن: أي: حَقّاً لم يَقْضِ[١]، أي: لم يَعمَلْ بما أُمِرَ به. و«ما» في قوله: «لمَّا» عمادٌ للكلام[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤٠].

وقال الإمامُ ابن فُورَك: أي: كلَّا لَمَّا يَقْضِ الله لهذا الكافرِ ما أمره به من الإيمان، بل أمرَه بما لم يَقضِ له [به][٣].

ابن الأنباريّ: الوَقفُ على «كلَّا» قبيح، والوقفُ على «أمره» و«أنشره» جيد[٤]؛ فـ«كلَّا» على هذا بمعنى حقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لمَّا ذَكَر جلَّ ثناؤه ابتداءَ خَلْقِ الإنسانِ، ذَكَر ما يسَّر مِن رِزقه، أي: فَلينظرْ كيف خَلَق الله طعامَه. وهذا النظرُ نظرُ القلبِ بالفكر، أي: ليتَدَبَّرْ كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوَامُ حياتِه، وكيف هَيَّأ له أسبابَ المعاش، ليستعدَّ بها للمعاد. ورُوي عن الحسن ومجاهدٍ قالا: «فَلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» أي: إلى مدخله ومخرجه[٥].

وروى ابن أبي خَيثمةَ عن الضحَّاك بن سفيان الكلابيِّ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «يا ضحاكُ، ما طعامُك؟» قلت: يا رسولَ الله! اللَّحمُ واللَّبن. قال: «ثم يصيرُ إلى ماذا؟»

---

(١) تفسير البغوي ٤/٤٤٨، وزاد المسير ٩/٣٢.

(٢) يعني صلة.

(٣) تفسير الرازي ٣١/٦١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/٤٤٨ عن مجاهد، وأخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/٣١٦.

قلتُ: إلى ما قد عَلِمتَه؛ قال: «فإنَّ الله ضَرَبَ ما يَخرجُ من ابنِ آدمَ مثلاً للدنيا»[١].

وقال أبيّ بن كعب: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ مَطْعَم ابن آدمَ جُعِل مَثَلاً للدنيا، وإنْ قَزَحَه ومَلَحه، فانظرْ إلى ما يصير»[٢].

وقال أبو الوليد: سألتُ ابنَ عمر عن الرجل يدخلُ الخَلاءَ فينظر ما يخرجُ منه؛ قال: يأتيه الملكُ فيقولُ: انْظُر ما بَخِلتَ به إلى ما صار[٣]؟

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قراءةُ العامَّة: «إنَّا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيس عن يعقوب: «أنَّا» بفتح الهمزة[٤]، فـ«أنَّا» في موضع خَفْضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدَلٌ منه، كأنه قال: فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ، إلى أنَّا صَبَبنا. فلا يَحسُنُ الوقفُ على «طعامِهِ» من[٥] هذه القراءة، وكذلك إنْ رَفَعتَ «أنَّ»[٦] بإضمارِ: هو أنَّا صببنا؛ لأنَّها في حالِ رَفعِها مُترجمةٌ عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنَّا صَببنا الماءَ، فأخْرَجْنا به الطعامَ، أي: كذلك[٧] كان.

وقرأ الحسين بن علي: «أنّى» ممال، بمعنى كيف[٨]؟ فَمن أخذَ بهذه القراءة قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أحمد (٢١٢٣٩)، قال السندي كما في حاشية المسند: قَزَحَه، أي: أصلحه بالأبزار (يعني حبوب التوابل)، و«إن» وصلية، أي: انظروا إلى ما يصير إليه وإن أصلحه. و«مَلَحه» بالتخفيف، يقال: مَلحت القدر: إذا طرحت فيها من الملح بقدر، وأملحتها وملَّحتها بالتشديد: إذا كثَّرت فيها الملح حتى فسدت.

(٣) ذكره بنحوه عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي قلابة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٤) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٥) في (ظ): على، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه.

(٦) في (م): أنا، وليست في (ظ)، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ): لذلك.

(٨) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، ووقع في النسخ الخطية: الحسن بن علي، وهو موافق لما في الدر المصون ١٠/ ٦٩٢، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥، وذكر القراءة ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، وفيه: وقرأ بعض القراء...

الوقفُ على «طعامه» تامٌّ. ويقال: معنى «أنّى»: أين، إلَّا أنَّ فيها كنايةً عن الوجوه، وتأويلُها: من أيِّ وجهٍ صببنا الماء؛ قال الكُميت:

أنَّى ومِن أين آبَكَ الطَّرَبُ ... مِن حيثُ لا صَبوةٌ ولا رِيبُ[1]

﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾: يعني الغيثَ والأمطارَ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾: أي: بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحاً وشعيراً وسُلْتاً، وسائرَ ما يُحصَدُ ويدَّخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَتُّ والعَلَف؛ عن الحسن[2]. سمِّي بذلك لأنه يقضب، أي: يُقْطَعُ بعد ظهورِه مرَّةً بعد مرةٍ. قاله القُتبيُّ وثعلب[3]. وأهلُ مكةَ يسمُّون القَتَّ: القَضْب[4].

وقال ابن عباس: هو الرُّطَبُ؛ لأنه يُقضَبُ من النخل، ولأنه ذَكَر العِنَبَ قبلَه. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصةُ[5]، وهو القَتُّ الرَّطْبُ.

وقال الخليل: القَضبُ: الفِصْفِصةُ الرَّطْبةُ ـ وقيل: بالسِّين ـ فإذا يبسَتْ فهو قَتٌّ. قال: والقَضْبُ اسمٌ يقع على ما يُقضَبُ من أغصان الشجرة، ليتَّخذَ منها سِهامٌ أو قِسيٌّ[6].

ويقال: قَضْباً، يعني جميعَ ما يُقضَبُ، مثل القَتِّ والكُرَّاثِ وسائر البقول التي تُقطَع فينبتُ أصلُها.

---

(١) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠، وإيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه. قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: آبك: أتاك ليلاً، والطَّرَب: الخفَّة من حزن ومن فرح جميعاً. يقول: إنما طربُك إلى بني هاشم لا صبوةٌ في صبا، ولا رِيب، أي: لا ريبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦ دون قوله: القت. والقَتُّ: الفِصْفِصة، وهي نبات كالبرسيم. المعجم الوسيط (قت) و(رطب). وفي النهاية (فصفص): الفِصْفِصة: هي الرَّطبةُ من علف الدوابّ، وتسمى: القت، فإذا جفَّ فهو قَضب. ويقال: فِسْفِسة بالسين.

(٣) تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٤، وذكره عن ثعلب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وهو بنحوه في مجالس ثعلب ص٢٢٩، ووقع في النسخ: قال، بدل: قاله.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٨، وتفسير الطبري ٢٤/ ١١٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦، ولم نقف على الذي قبله.

(٦) بنحوه في العين ٥/ ٥٢-٥٣.

وفي «الصحاح»: والقَضبةُ والقَضبُ الرَّطْبةُ، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية، والموضع الذي تَنْبُتُ فيه: مَقضَبة[١].

﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرةُ الزيتونِ ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، واحدُها حديقة. قال الكلبيُّ: وكلُّ شيءٍ أُحيطَ عليه من نخيلٍ أو شجرٍ فهو حديقةٌ، وما لم يُحَطْ عليه فليس بحديقة[٢].

﴿غُلْبًا﴾ عِظَاماً شجرُها؛ يقال: شجرةٌ غَلباءُ، ويقال للأسد: الأغلَب؛ لأنه مُصمَتُ العنقِ، لا يَلتفتُ إلَّا جميعاً؛ قال العجَّاج:

مـازِلـتُ يـومُ الـبَـيـنِ ألـوِي صَـلَـبـي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلَبِ[٣]

ورجلٌ أغلبُ بيِّنُ الغَلبِ: إذا كان غليظَ الرقبة. والأصلُ في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستُعير. قال عمرو بن مَعْدِي كَرِب:

يَـمـشـي بـهـا غُـلـبُ الـرقـابِ كـأنـهـم بُـزْلٌ كُـسِـينَ مـن الـكُـحَـيـلِ جِلَالا[٤]

وحديقةٌ غَلبَاءُ: ملتفَّةٌ، وحدائقُ غُلبٌ. واغلَوْلَبَ العشبُ: بلغ والتَفَّ البعضُ بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلَبَ وغَلباءَ، وهي الغِلاظ[٥]. وعنه أيضاً: الطِّوَال. قتادةُ وابنُ زيد: الغُلْبُ: النخلُ الكِرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمةُ: عِظَامُ الأوساطِ والجُذوع. مجاهد: ملتفَّة[٦].

(١) الصحاح (قضب). والرَّطبة: الفِصْفِصة، وكلُّ ما أكل من البنات غضًّا طريًّا. المعجم الوسيط (رطب).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩ .

(٣) ذكره ابن دريد في الجمهرة ١/ ٢٩٨ و٣١٨ عن الأغلب العجلي، وقال: الصَّلَب: الصُّلْب، لغة تميمية. ولم نقف عليه في ديوان العجاج.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠ . البُزُل: جمع بَزول، وهو البعير طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة. المعجم الوسيط (بزل). والجِلال جمع جلٍّ (بضم الجيم وبفتحها) وهو ما تُلْبَسه الدابة لتصان به. والكُحيل كزبير: النفط أو القطران تُطْلى به الإبل. القاموس (جلل) و(كحل).

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ ، ولفظه: الغلب: ما غلظ.

(٦) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ٢٤/ ١١٧-١١٩ .

﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾ أي: ما تأكلُه الناسُ من ثمار الأشجار، كالتين والخَوخِ وغيرِهما ﴿وَأَبّٗا﴾ هو ما تأكلُه البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كلُّ ما أنبتَت الأرضُ، ممَّا لا يأكلُه الناس[١]، وما يأكلُه الآدميون هو الحَصيدة، ومنه قولُ الشاعر في مَدحِ النبيِّ ﷺ:

لـه دَعـوةٌ مَـيـمـونـةٌ رِيـحُـهـا الـصَّـبـا بـهـا يُـنـبِـتُ الله الـحـصِـيـدةَ والأبَّـا[٢]

وقيل: إنَّما سمِّي أبًّا؛ لأنَّه يُؤَبُّ، أي: يُؤَمُّ ويُنتجَعُ. والأبُّ والأمُّ أخَوان؛ قال:

جِـذمُـنـا قـيـسٌ ونَـجْـدٌ دارُنـا ولـنـا الأبُّ بـه والـمـكْـرَعُ[٣]

وقال الضحَّاك: الأبُّ: كلُّ شيءٍ يَنْبتُ على وَجْهِ الأرضُ[٤]. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلُّ عليه قولُ ابنِ عباس قال: الأبُّ: ما تُنبتُ الأرضُ ممّا يأكلُ الناسُ والأنعام[٥].

وعن ابن عباسٍ أيضاً وابنِ أبي طلحةَ: الأبُّ: الثمارُ الرَّطبة[٦].

وقال الضحاك: هو التِّبنُ خاصةً. وهو مَحْكيٌّ عن ابن عباس أيضاً[٧]؛ قال الشاعر:

فـمـا لَـهُـم مَـرْتَـعٌ لِـلـسَّـوَا مِ والأبُّ عـنـدَهُـم يُـقْـدَرُ[٨]

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن خزيمة (٢١٧٢) - (٢١٧٤)، والطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، ونسبه صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيْطة.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩ ، والكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه. قوله: جِذْمنا، الجذْم بالكسر: الأصل، القاموس (جذم). وقال ابن دريد: المكرع: الذي تكرع فيه الماشية، مثل ماء السماء، ، يقال: كرع في الماء: إذا غابت فيه أكارعه.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٥) أخرج قول أبي رزين وقول ابن عباس الطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ عن الضحاك، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ عن ابن عباس، وأخرجه عن الضحاك عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٧ . ووقع في النسخ: التين، والمثبت عن المصادر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، والسَّوام: الإبل الراعية. القاموس (سوم).

الكلبيُّ: هو كلُّ نباتٍ سوى الفاكهةِ. وقيل: الفاكهةُ: رَطْبُ الثمارِ، والأبُّ يابِسُها[(١)].

وقال إبراهيمُ التَّيميُّ: سُئل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عن تفسير الفاكهةِ والأبِّ، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتابِ اللهِ ما لا أعلَم[(٢)].

وقال أنس: سمعتُ عمر بنَ الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: كلُّ هذا قد عَرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لعَمرُ الله التكلُّفُ، وما عليك يا ابنَ أمِّ عمرَ ألَّا تَدري ما الأبُّ؟ ثم قال: اتَّبِعوا ما تَبيَّن[(٣)] لكم من هذا الكتابِ، وما لَا فدَعوه[(٤)].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خُلِقتُم من سَبْعٍ، و رزُقتُم من سبعٍ، فاسْجُدوا لله على سبعٍ». وإنَّما أراد بقوله: «خُلقتُم من سبع» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ . ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ الآية [الحج:٥]، والرزقُ من سَبعٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾[(٥)]، ثم قال: «وأبًّا»، وهو يدلُّ على أنه ليس برزقٍ لابنِ آدم، وأنَّه مما تَختصُّ به البهائم. والله أعلم.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد؛ لأنَّ إنباتَ هذه الأشياءِ إمتاعٌ لجميعِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧ ، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنهما. وروي كذلك عن طريق إبراهيم النخعي عن أبي بكر، وهو أيضاً منقطع كما ذكر الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٦٥ ، وقال: لكن أحدهما يقوي الآخر.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٢٧ ، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧ ، وسعيد بن منصور في سننه (٤٣ ـ تفسير)، والطبري ٢٤/ ١٢٠ و١٢٣ ، ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٠ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ مَن قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩ ، ولم نقف عليه مسنداً.

الحيوانات. وهذا ضربُ مَثَلٍ؛ ضرَبَه الله تعالى لبَعْثِ الموتى من قبورهم، كنباتِ الزرعِ بعد دُثوره[١]، كما تقدَّم بيانُه في غيرِ موضعٍ. ويتضمَّنُ امتناناً عليهم بما أنْعَم به وقد مضى في غيرِ موضعٍ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر أمرَ المعاشِ أمرَ ذكَر المَعادِ، ليتزوَّدوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق ممَّا امتَنَّ به عليهم. والصَّاخَّةُ: الصيحةُ التي تكون عنها القيامةُ، وهي النفخةُ الثانية، تَصُخُّ الأسماعَ: أي: تُصِمُّها فلا تَسْمَعُ إلَّا ما يُدعَى به للإحياء.

وذكر ناسٌ من المفسرين قالوا: تُصِيخُ لها الأسماعُ، مِن قولك: أصاخَ إلى كذا، أي: اسْتَمَعَ إليه، ومنه الحديثُ: «ما من دابَّةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعةِ شَفَقًا من الساعةِ، إلَّا الجنَّ والإنس»[٢]. وقال الشاعر:

يُصِيخُ للنَّبْأةِ أسماعَهُ ... إصاخةَ الناشِدِ للمُنشِدِ[٣]

قال بعضُ العلماءِ: وهذا يؤخَذُ على جهةِ التسليم للقُدَماء، فأمَّا اللغةُ فمقتضاها القولُ الأولُ؛ قال الخليل: الصاخَّة: صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ صَخًّا، أي: تُصِمُّها بشدةِ

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨ ، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٣-١١٥ عن أبي هريرة ﷺ. ووقع عند أحمد وأبي داود: مُسيخة، بدل: مصيخة. قال الخطابي في معالم السنن ١/ ٢٤٢ : يقال: أصاخ وأساخ، بمعنى واحد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٠٩ ، ووقع في (م): إصاخة المنشد للمنشد. والنَّبْأة: الصوت الخفي. القاموس (نبأ).

وَقعَتها[١]. وأصلُ الكلمةِ في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يـا جـارتـي هـل لـكِ أنْ تـجـالـدي جـلادةً كـالـصَّـكِّ بـالـجَـلامِـدِ[٢]

ومن هذا البابِ قولُ العربِ: صَخَّتْهم الصاخَّةُ وباقَتْهم البائقة[٣]، وهي الداهية. الطبريُّ: وأحسبُه من صَخَّ فلانٌ فلاناً: إذا أصْماه[٤].

قال ابن العربيِّ: الصاخَّة التي تُورِثُ الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعةٌ، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعضُ حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أصَمَّ بِكَ النـاعـي وإنْ كـان أسـمَعـا[٥]

وقال آخر:

أصَـمَّـنـي سِـرُّهـم أيـامَ فُـرقـتـهـم فهل سمِعتُم بسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما[٦]

لعَمْرُ الله إنَّ صيحةَ القيامةِ لمسمِعةٌ تُصِمُّ عن الدنيا، وتُسمِعُ أمورَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: يهربُ، أي: تَجيءُ الصاخَّة في هذا اليومِ الذي يهربُ فيه من أخيه، أي: من مُوَالاةِ أخيه ومُكالمَتهِ؛ لأنه لا يتفرَّغُ لذلك لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: يَشْغَلُه عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرُّ حذراً من مطالبتهم إياه بمَا[٧] بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلَّا يَرَوْا

---

(١) العين ٤/ ١٣٥ ، ووقع في (ظ): بشدة وقعها.

(٢) لم نقف عليه. قوله: بالجلامد، جمع جَلْمد، وهو الصخر. والصك: الضرب الشديد بالشيء العريض. اللسان (جلمد) و(صك).

(٣) في النسخ عدا (ظ): وباتتهم البائتة، والمثبت من (ظ). وفي البحر ٨/ ٤٢٩ : ونابتهم النائبة.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٤ : وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخ فلان لصوت فلان: إذا استمع له.

(٥) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩ ، وعجزه: وأصبح مَغْنَى الجودِ بعدكَ بَلقَعا.

(٦) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٣/ ١٦٦ برواية... هل كنت تعرف سرًّا يورث الصمما.

(٧) في (د) و (م): لما.

ما هو فيه من الشدَّة. وقيل: لعِلْمِه أنَّهم لا ينفعونه ولا يُغْنونَ عنه شيئاً، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بنُ طاهرِ الأبهَريُّ: يَفِرُّ منهم لِمَا تبيَّنَ له من عَجزِهم وقلَّةِ حيلتهم، إلى مَن يملكُ كَشفَ تلك الكُروبِ والهمومِ عنه، ولو ظَهَر له ذلك في الدنيا لَمَا اعتَمَدَ شيئاً سوى ربِّه تعالى.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته. ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده.

وذكر الضحَّاك عن ابن عباس قال: يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، وإبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ونوحٌ عليه السلام من ابنه، ولوطٌ من امرأته، وآدمُ من سَوأةِ بنيه[(١)].

وقال الحسن: أولُ مَن يفرُّ يومَ القيامةِ من أبيه: إبراهيمُ، وأولُ مَن يفرُّ من ابنه نوحٌ، ،أولُ مَن يفرُّ من امرأته لوطٌ. قال: فيرَوْنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم[(٢)] وهذا فرارُ التبرُّؤ.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. في «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» قلتُ: يا رسولَ الله! الرجالُ والنساءُ جميعاً ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ مِن أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[(٣)].

خرَّجه التِّرمذيُّ عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً» فقالت امرأةٌ: أينْظُرُ بعضُنا ـ أو يرى بعضُنا ـ عورة بعض؟ قال: «يا فلانة، لكلِّ امرئ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة دون قوله: وآدم من سوأة بنيه. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٥٩)، وسلف ١٣/ ٢٩٧ . قوله: غرلاً، الغُرْل جمع الأَغْرل، وهو الأقلف. النهاية (غرل).

مِنهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيهِ». قال: حديثٌ حسنٌ صحيح(١).

وقراءةُ العامَّة بالغَيْنِ المعجَمة، أي: حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ: «يَعنِيهِ» بفتح الياءِ، وعين غير معجَمة(٢)، أي: يَعْنيه أمره.

وقال القُتَبيُّ: يُغْنيه(٣): يَصْرِفُه ويصُدُّه عن قرابته، ومنه يقال: أغنِ عنِّي وجهك، أي: اصرِفْه، وأغنِ عنِّي السَّفيه(٤)؛ قال خُفاف:

سَيُغْنِيك(٥) حربُ بني مالكٍ ... عن الفُحْشِ والجهلِ في المحْفلِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: أي: مُشرقةٌ مضيئة، قد عَلمتْ مالَها من الفوز والنعيم، وهي وجوهُ المؤمنين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي: مسرورة فَرِحة ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: بما آتاها الله من الكرامة.

وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: «مُسْفِرة» من طولِ ما اغبرَّتْ في سبيل الله جلَّ ثناؤه. ذكَره أبو نعيم(٦).

الضحَّاك: مِن آثارِ الوضوء. ابنُ عباس: من قيام الليلِ؛ لمَا رُوي في الحديث: «مَن كَثُرتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار»(٧) يقال: أسْفَر الصُّبحُ: إذا أضاء.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٢).

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٣ عن ابن محيصن.

(٣) في (د) و(م) و(ي): يعنيه، والمثبت من (ظ)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) في (ظ) و(م) و(ي): اعن عني وجهك . . . واعن عن السفيه، وكذلك وقع في مطبوع تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٥ ، والمثبت من (د)، وهو موافق لما نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٣٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، واللباب ٢٠/ ١٧١ ، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٠٢ .

(٥) في (م) و(ي): سيعنيك، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (د) وتفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، والبيت فيه دون نسبة.

(٦) في الحلية ٥/ ٢٠٠ .

(٧) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٩١-٧٩٦) عن جابر ﷺ وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٧٩٧) عن أنس ﷺ، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسلف ١٦/ ٢٩٣ . والكلام من الكشاف ٤/ ٢٢٠ .

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبارٌ ودُخانٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تَغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوفٌ وسواد. كذا قال ابن عباس[(١)]. وعنه أيضاً: ذِلَّةٌ وشِدَّة[(٢)]. والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيدة[(٣)]؛ وأنشد الفرزدقُ:

مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبعُه مَوجٌ ترى فوقَه الراياتِ والقَتَرا[(٤)]

وفي الخبر: إنَّ البهائم إذا صارت تراباً يومَ القيامة، حُوِّلَ ذلك الترابُ في وجوه الكفار[(٥)].

وقال زيد بن أسلم: القَتَرةُ: ما ارتفعتْ إلى السماء، والغَبَرة: ما انحطَّتْ إلى الأرض، والغبارُ والغَبَرَةُ واحدٌ[(٦)].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ جمعُ كافرٍ ﴿الْفَجَرَةُ﴾ جمعُ فاجِرٍ، وهو الكاذبُ المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ فَجَر فُجوراً، أي: فَسَق. وفَجَر، أي: كذب. وأصلُه: الميل، والفاجِرُ: المائل. وقد مضى بيانُه والكلامُ فيه[(٧)]. والحمد لله وحده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٧ ، ولفظه: «قترة»، قال: سواد الوجوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ ، دون قوله: وشدة.

(٣) في (د) و(م): عبيد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (قتر)، والكلام منه، وكذا في اللسان (قتر).

(٤) الصحاح (قتر)، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٤ ، برواية: مُعْتَصِبٌ برداء الملك...

(٥) ذكره الطبري ٢٤/ ١٢٧ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٧) ٢١/ ٤٠٩ .

سُورَةُ عَبَسَ

مكيَّةٌ، وهيَ إحدى وأربعونَ آيةً(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ رُوِيَ أنَّ ابنَ أمِّ مَكتومٍ أتى رسولَ اللهِ ﷺ وعندَهُ صَناديدُ قُرَيشٍ يدعوهُمْ إلى الإسلامِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! علِّمْني ممَّا علَّمَكَ اللهُ، وكرَّرَ ذلك ولم يعلَمْ تَشاغُلَه بالقومِ، فكَرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ قَطْعَهُ لكلامِه وعبسَ وأعرَضَ عنهُ، فنزلَتْ(٢).

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُكرِمُه، ويقولُ إذا رآهُ: «مرحبًا بمَنْ عاتَبَني فيهِ ربِّي»(٣)، واستخلفَهُ على المدينَةِ مرَّتينِ(٤).

---

(١) قال أبو عمرو الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٦٤): وهي أربعون آية في الشامي وإحدى وأربعون في عدد أبي جعفر والبصري واثنتان وأربعون في عدد الباقين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٩٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: فيه غرابة ونكارة، وقد تكلم في إسناده. ورواه الترمذي (٣٣٣١) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: هذا حديث غريب. وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة.

(٣) أورده مكي بن أبي طالب في «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٥٣) عن سفيان الثوري، والسمعاني في «تفسيره» (٦/ ١٥٧) عن سفيان بن عيينة. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٩) دون نسبة، وذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٥١٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٩٣١)، عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلي بهم وهو أعمى».

وقُرِئَ: (عَبَّسَ) بالتَّشديدِ[1] للمُبالغَةِ.

و﴿أَن جَآءَهُ﴾ علةٌ لـ(تولى) أو ﴿عَبَسَ﴾ على اختلافِ المذهبينِ[2].

وقُرِئَ: (أأن) بهمزتينِ[3]، وبألفٍ بينَهُما[4] بمَعنى: أَلِأَنْ جاءَهُ الأعمى فعلَ ذلك.

وذِكْرُ الأعمى للإشعارِ بعُذرِهِ في الإقدامِ على قَطعِ كَلامِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ بالقومِ، والدَّلالةِ على أنَّه أحَقُّ بالرَّأفَةِ والرِّفقِ، أو لزيادةِ الإنكارِ، كأنَّه قال: تولَّى لكَونِه أعمى، كالالتفاتِ في قولِه: (٣) ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أي: وأيُّ شيءٍ يجعَلُكَ دارِيًا بحالِه لعلَّهُ يَتطهَّرُ مِن الآثامِ بما يتلقَّفُ مِنكَ، وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَهُ كانَ لتَزكِيَةِ غيرِه.

(٤) ـ ﴿أو يذكَّرُ فتَنْفَعُهُ الذِّكرَى﴾: أو يتَّعِظُ فتَنفعُهُ مَوعِظَتُكَ.

وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافرِ؛ أي: إنَّكَ طَمِعْتَ في تَزكِّيهِ بالإسلامِ وتذكُّرِه بالمَوعِظَةِ ولذلك أعرضتَ عَن غيرِه، فما يُدريكَ أنَّ ما طَمِعْتَ فيهِ كائِنٌ.

وقرأ عاصمٌ بالنَّصبِ[5] جوابًا لـ(لعل).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن بعضهم.

(٢) «على احتلاف المذهبَينِ» يعني: في إعمالِ أيِّ الفعلَينِ أولَى في التَّنازعِ، وإن كانَ بحسبِ المعنى علّةً لهما معًا. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٣٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن بعضهم.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢) عن الحسن. ذكراها بالمد ولم يشيرا لهمز بعد المد.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٥ ـ ٦) ـ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: تتعرَّضُ بالإقبالِ عليه، وأصلُه: تَتصدَّى، وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿تصَّدَّى﴾ بالإدغامِ[1]، وقُرِئَ: (تُصَدَّى)[2]؛ أي: تُعَرَّضُ وتُدعَى إلى التَّصدِّي.

(٧) ـ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: وليس عليكَ بأسٌ في أَنْ لا يَتزكَّى بالإسلامِ حتى يبعثكَ الحرصُ على إسلامِهِ إلى الإعراضِ عمَّنْ أسلمَ، إنْ عليكَ إلَّا البَلاغُ.

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾: يُسرِعُ طالِبًا للخَيرِ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ، أو أذيَّةَ الكُفَّارِ في إتيانِكَ، أو كبوةَ الطَّريقِ؛ لأنَّه أعمى لا قائدَ لهُ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: تتشاغَلُ، يقالُ: لَهِيَ عنه والْتَهى وتَلَهَّى، ولعلَّ ذكرَ التَّصدِّي والتَّلهِّي للإشعارِ بأنَّ العِتابَ على اهتمامِ قلبِهِ بالغنيِّ وتَلهِّيه عن الفقيرِ، ومثلُه لا يَنبغي له ذلك.

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عَن المعاتَبِ عليه أو عن[3] مُعاودةِ مثلِه ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾: حَفِظَهُ، أو اتَّعظَ به، والضَّميرانِ للقُرآنِ أو العِتابِ المذكورِ، وتأنيثُ الأوَّلِ لتَأنيثِ خبرِه.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿فِى صُحُفٍ﴾ مُثبتةٌ فيها، صفةٌ لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عندَ اللهِ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القَدْرِ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾: منزهَّةٍ عَن أيدي الشياطينِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢) عن أبي جعفر.

(٣) في نسخة الخيالي: «ومعاودة مثله». وأشار إلى هذا الفرق الشهاب فقال: «قوله: «أو عن معاودة مثله» إذا كان بعد انقضائه، ووقع في نسخة عطفه بالواو، والمعنى عليها أنه في الأثناء فيزجر عنه وعن معاودته، وهذه موافقة لما في «الكشاف»، ومن قال: إن العطف تفسيري، فقد وهم. اهـ. قلت: عبارة «الكشاف» (٩/ ٤٨٢): وعن مُعاوَدة مِثلِهِ.

(١٥) - ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: كَتَبَةٍ مِن المَلائكةِ أو الأنبياءِ، يَنسخونَ[١] الكتبَ مِن اللوحِ أو الوحيِ، أو سفراءَ يَسْفُرونَ بالوَحيِ بينَ اللهِ ورسلِه أو الأمَّةِ؛ جمعُ سافرٍ مِن السَّفَرِ أو السِّفَارةِ، والتَّركيبُ للكشفِ يقال: سَفَرتِ المرأةُ: إذا كشَفَتْ وَجهَها.

(١٦) - ﴿كِرَامٍ﴾: أعزَّاءَ على اللهِ، أو متعطِّفينَ على المؤمنينَ يُكَمِّلونَهُم ويستغفرونَ لَهُم ﴿بَرَرَةٍ﴾: أتقياءَ.

(١٧) - ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ دعاءٌ عليهِ بأشنَعِ الدَّعواتِ، وتَعجُّبٌ مِن إفراطِه في الكُفرانِ، وهو مع قِصَرِهِ يدلُّ على سخطٍ عظيمٍ وذَمٍّ بَليغٍ.

(١٨ ـ ١٩) - ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيانٌ لِمَا أنعمَ عليهِ خصوصًا مِن مَبدَأ حُدوثِه، والاستفهامُ للتَّحقيرِ، ولذلك أجابَ عنهُ بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾: فهيَّأَهُ لِمَا يصلحُ له مِن الأعضاءِ والأَشكالِ، أو: فقدَّرَه أطوارًا إلى أن تمَّ خلقُه.

(٢٠) - ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: ثمَّ سهَّلَ مخرجَهُ مِن بَطنِ أُمِّهِ، بأَنْ فتحَ فُوَّهةَ الرَّحمِ وألهمَهُ أَنْ ينتَكِسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخيرِ والشَّرِّ، ونُصِبَ ﴿السَّبِيلَ﴾ بفعلٍ يفسِّرُهُ الظَّاهرُ للمُبالغةِ في التَّيسيرِ، وتعريفُه باللامِ دونَ الإضافةِ للإشعارِ بأنَّه سَبيلٌ عامٌّ، وفيه على المعنى الأخيرِ إيماءٌ[٢] بأنَّ الدُّنيا طريقٌ والمقصدَ غيرُها، ولذلك عقَّبَه بقولِه:

(٢١ ـ ٢٢) - ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ وعدَّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتةَ وُصلَةٌ في الجملةِ إلى الحياةِ الأبديَّةِ واللذَّاتِ الخالِصَةِ، والأمرُ بالقبرِ تكرمةٌ وصيانَةٌ عن السِّباعِ، وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾ إشعارٌ بأنَّ وقتَ النُّشورِ غيرُ مُتعيِّنٍ في نَفسِهِ، وإنَّما هو مَوكولٌ إلى مَشيئتِه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ينتسخون».

(٢) في نسخة الفاروقي: «إشعار».

(٢٣) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليهِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: لم يَقْضِ بعدُ مِن لَدُن آدمَ إلى هذهِ الغايَةِ ما أمرَهُ اللهُ بأسرهِ، إذ لا يخلو أحدٌ مِن تَقصيرٍ مّا.

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إتباعٌ للنِّعَمِ الذَّاتيَّةِ بالنِّعَمِ الخارجيَّةِ ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ إحداثِ الطَّعامِ، وقرأ الكوفيُّونَ بالفَتحِ[٣] على البدلِ منه بدلَ الاشتمالِ.

(٢٦) ـ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ أي: بالنَّباتِ أو بالكِرابِ، وأَسنَدَ الشَّقَّ إلى نَفسِه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطَةِ والشَّعيرِ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ يعني: الرَّطبةَ؛ سُمِّيَتْ بمصدرِ قَضَبَهَ: إذا قَطعَهُ؛ لأنَّها تُقْضَبُ مرَّةً بعدَ أُخرَى.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: عِظامًا، وصفَ به الحدائقَ لتكاثُفِها وكثرةِ أَشجارِها، أو لأنَّها ذاتُ أَشجارٍ غِلاظٍ، مُستعارٌ مِن وصفِ الرِّقابِ.

(٣١) ـ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾: ومَرعًى؛ مِن أبَّ: إذا أَمَّ لأنَّه يُؤَمُّ ويُنتجَعُ، أو مِن أبَّ لكذا: إذا تهيَّأَ لَهُ؛ لأنَّه مُتهيِّئٌ للرَّعيِ، أو فاكهةً يابسةً تُؤَبُّ للشِّتاءِ.

(٣٢) ـ ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فإنَّ الأنواعَ المذكورةَ بعضُها طعامٌ، وبعضُها عَلَفٌ.

(٣٣) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ أي: النَّفخَةُ، وُصِفَتْ بها مجازًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَصُخُّونَ لها.

(٣٤ ـ ٣٦) ـ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغالِه بشأنِه وعلمِه بأنَّهُم لا يَنفعونَهُ، أو للحذرِ مِن مُطالبَتِهم بما قصَّرَ في حقِّهم، وتأخيرُ الأحَبِّ فالأَحَبِّ للمُبالغَةِ، كأنَّه قيل: يفِرُّ مِن أخيهِ، بل مِن أَبويهِ، بل مِن صاحِبَتِه وبَنِيه.

---

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٣٧) ـ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾: يكفيهِ في الاهتمامِ به، وقُرِئَ: (يَعنيه)[1]؛ أي: يُهِمُّهُ.

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: مضيئةٌ، مِن إسفارِ الصُّبحِ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما ترى مِن النَّعيمِ[2].

(٤٠ ـ ٤٢) ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾: غبارٌ وكُدورَةٌ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: يغشاها سَوادٌ وظُلمَةٌ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾: الذين جمعوا إلى الكفرِ الفُجورَ، ولذلك يُجمعُ إلى سَوادِ وُجوهِهِم الغُبرةُ.

قال عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأ سُورةَ عَبَسَ جاءَ يومَ القيامَةِ ووَجهُهُ ضاحِكٌ مُستَبْشِرٌ»[3].

* * *

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢)، عن ابن محيصن والزهري.

(٢) في نسخة الخيالي: «المسرة».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٢)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٨٠) سورة عبس مكية
وآياتها ثنتان وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديمـاً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى، ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ۞ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم. ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أي أما الغني فأنت تَعرَّض له لعله يهتدي ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يزك نفسه. ﴿ وأما من جاءك يسعى ۞ وهو يخشى ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بمـا تقول له، ﴿ فأنت عنه تلهَّى ﴾ أي تتشاغل. ومن ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البـالغة والحجة الدامغة، روى الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿ عبس وتولى ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ، وهو يكلم (ابيّ بن خلف) فأعرض عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ عبس وتولى ۞ أن جاءه الأعمى ﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه[1]،

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وعن عائشة قالت: أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ، فجعل يقول أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: ﴿ عبس وتولى ﴾[1]، وهكذا ذكر غير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن ام مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، وقوله تعالى: ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ أي هذه الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم، وقال قتادة ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ يعني القرآن ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه، وقوله تعالى:

﴿ في صحف مكرمة ۞ مرفوعة مطهرة ﴾ أي هذه السورة أو العظة ﴿ في صحف مكرمة ﴾ أي معظمة موقرة، ﴿ مرفوعة ﴾ أي عالية القدر، ﴿ مطهرة ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء، وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: سفرة: الملائكة، سفرتُ أصلحت بينهم، وجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، وقوله تعالى: ﴿ كرام بررة ﴾ أي خَلْقهم كريم، وأخلاقهم بارة طاهرة، وفي الصحيح: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»[2].

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾، قال ابن عباس: لعن الإنسان، وهذا الجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافراً أي ما حمله على التكذيب بالمعاد؟ وقال قتادة: ﴿ ما أكفره ﴾ ما ألعنه، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال ابن عباس: ثم يسر

(١) أخرجه ابن جرير وأبو يعلى.

(٢) أخرجه الجماعة عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

عليه خروجه من بطن أمه[١]، وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه، وهذا هو الأرجح والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي أنه بعد خلقه له ﴿أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر، والعرب تقول قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه. وأقبره الله، وطردت عني فلاناً وأطرده الله، أي جعله طريداً، وقوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه بعد موته، ومنه يقال البعث والنشور، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[٢] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[٣]، وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لمّا يقض ما أمره﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عزّ وجلّ، عن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القت أيضاً. قال ذلك ابن عباس وقتادة، وقال الحسن البصري: القضب العلف، ﴿وزيتوناً﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به، ﴿ونخلاً﴾ يؤكل بلحاً وبسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، ويعتصر منه رب وخل. ﴿وحدائق غلباً﴾ أي بساتين، قال الحسن وقتادة: غلباً نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضاً ﴿غلباً﴾ الشجر الذي يستظل به، وقال عكرمة: ﴿غلباً﴾ أي غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كل ما أكل رطباً، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ ﴿عبس وتولى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهة وأباً﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف[٤]، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه،

---

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك وقتادة والسدي واختاره ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.

وإلا فهو يعلم أنه من نبـات الأرض لقوله : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبـاً وفاكهة وأباً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ متاعـاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار ، إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصّاخَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة ، عظّمه الله وحذّره عباده ، وقال البغوي : ﴿ الصاخة ﴾ يعني يوم القيامة ، سميت بذلك لأنهـا تصخ الأسماع ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ، ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وبنيه * وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفر منهم ؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لهـا : يا هذه أي بعل كنت لكِ ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين ، فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف ، قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيعلق به فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير ، فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول ولده : يا أبتِ ما أيسر ما طلبتَ ، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف ، فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً ، يقول الله تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه ﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة : حتى عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني ، عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً » قال ، فقالت زوجته : يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض قال : « لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » أو قال : « ما أشغله عن النظر »(1) . وروى النسائي عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »(2) . وعن أنَس بن مالك قال : سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمّي ، إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به ، قال : « إن كـان عنـدي منه علم » قالت يا نبي الله كيف يحشر الرجـال ؟ قال : « حفاة عراة » ثم انتظرت ساعة ، فقالت : يا رسول الله كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » ، قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ، قال : « وعن أي ذلك تسألين إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون » ، قالت : أية آية هي يا نبي الله ؟ قال : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »(3) ، وقال البغوي في تفسيره . عن سودة زوج النبي ﷺ قالت ، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » ، فقلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : قد شغل

(١) اخرجه ابن ابن حاتم .
(٢) انفرد به النسائي من هذه الوجه .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

الناس ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة أي مستنيرة ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ أي مسرورة فرحة، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة، ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ أي يعلوها وتغشاها ﴿قترة﴾ أي سواد، وفي الحديث: «يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم»، فهو قوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾[2] ؛ وقال ابن عباس ﴿ترهقها قترة﴾ أي يغشاها سواد الوجوه، وقوله تعالى: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ .

[آخر تفسير سورة عبس ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) حديث غريب من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة عبس

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾ .

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ــ وكان ممن أسلم قديما ــ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شىء ويلح عليه ، ووَدّ النبى ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه ، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

قال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا محمد ــ هو ابن مهدى ــ حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة [عن أنس][(١)] فى قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، جاء ابن أم مكتوم إلى النبى ﷺ وهو يكلم أبى بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ ، فكان النبى ﷺ بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : وأخبرنى أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ــ

---

(١) تنبيه : ما بين المعقوفين ليس فى أصل مسند أبى يعلى وتفسير عبد الرزاق . وهو من النسخ ،وأظنه مقحماً . والله أعلم .

يعنى ابن أم مكتوم (١) .

وقال أبو يعلى وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنى أبى ،عن هشام بن عروة مما عرضه عليه عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى** ﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت : فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول: لا . ففى هذا أنزلت : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى** ﴾ (٢).

وقد روى الترمذى هذا الحديث ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، بإسناده ، مثله ، ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أنزلَت ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى** ﴾ فى ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة (٣).

قلت : كذلك هو فى الموطأ (٤) .

ثم روى ابن جرير وابن أبى حاتم أيضا من طريق العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ** ﴾ ، قال : بينا رسولُ الله ﷺ يناجى عتبةَ بن ربيعة ، وأبا جهل بنَ هشام ، والعباس بن عبد المطلب ــ وكان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص (٥) عليهم أن يؤمنوا ــ فأقبل إليه رجل أعمى ــ يقال له عبد الله بن أم مكتوم ــ يمشى وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وعبس فى وجهه ، وتولى وكَرِهَ كَلامَه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسولُ الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خَفَق برأسه ،ثم أنزل الله : ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى** ﴾ . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبى ﷺ : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شىء ؟ » . وذلك لما أنزل الله تعالى : ﴿**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ. وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ** ﴾ (٦) .

فيه غرابة ونكارة ، وقد تُكُلِّم فى إسناده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرّمادى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث، حدثنى يونس ، عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر :

(١) مسند أبى يعلى (٥/ ٤٣١) ، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٨٢) .

(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢٦١) ، وتفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) .

(٤) الموطأ (١/ ٢٠٣) .

(٥) فى أ :« ويجعل » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) ، ووجه غرابته ما نقله السهيلى فى الروض الأنف عن شيخه ابن العربى قال :« قول المفسرين فى الذى شغل النبى ﷺ أنه الوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعباس كله باطل ، فإن أمية والوليد كانا بمكة ،وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما، ولا حضرا معه وماتا كافرين ، أحدهما قبل الهجرة والآخر فى بدر ، ولم يقصد أمية المدينة قط ، ولا حضر عنده مفردا ولا مع آخر » انتهى .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » . وهو الأعمى الذى أنزل الله فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ ، وكان يؤذن مع بلال .قال سالم : وكان رَجُلاً ضريرَ البصر ، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس ـ حين ينظرون إلى بزوغ الفجر ـ : أذِّن[١] .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت [٢] فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم من[٣] شريفهم ووضيعهم .

وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص .

وقوله : ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة.

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ،وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء .

وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال: السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير ، كما قال الشاعر :

وَما أَدَعُ السِّفَارَةَ بَين قَومى ... وَما أَمْشى بغش إن مَشَيتُ [٤]

وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفرت : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزَلت بوَحْى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم[٥] .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن زُرَارة بن أوفى ، عن سعد ابن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » .

---

(١) أصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٠٩٢) .
(٢) فى م : «أنها أنزلت » . (٣) فى أ : « بين » .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) .
(٥) صحيح البخارى (٨/ ٦٩١) « فتح » .

أخرجه الجماعة من طريق قتادة ، به [(١)] .

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ،بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم .

قال ابن جرير [(٢)] : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شيء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد [(٣)] .

وقال قتادة ــ وقد حكاه البغوى عن مقاتل والكلبى ــ : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خَلَقَه الله من الشيء الحقير ،وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، قال العوفى ، عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير [(٤)] .

وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] أى : بيّنا [(٥)] له ووَضّحناه وسَهلنا عليه علمه [(٦)]، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد .وهذا هو الأرجح ،والله أعلم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرتُ الرجل » : إذا وَلِى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَضبتُ قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وطردت عنى فلاناً ، وأطرده الله ، أى : جعله طريدا ، قال الأعشى:

لَو أَسْنَدَتْ مَيتاً إلى نَحْرِها[(٧)] عَاش ، ولَم يُنقَل إلى قَابِرِ [(٨)]

---

(١) المسند (٦/٤٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٧) وصحيح مسلم برقم (٧٩٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٥٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٧٩).

(٢) فى أ:« ابن جريج » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) ، وقد تصرف الحافظ هنا فى كلامه .

(٤) تفسير الطبرى(٣٠/ ٣٦) .

(٥) فى أ :« أى بيناه » .

(٦) فى أ:« عمله » .

(٧) فى م ، أ :« إلى صدرها» .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٦) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أصبغُ بنُ الفَرَج ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث : أن دراجا أبا السمح أخبره ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « يأكل الترابُ كلَّ شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبه [(١)] » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » [(٢)] .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح من رواية الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب ، منه خلق وفيه يُركَّب »[(٣)] .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ ، قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يُؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل .

ثم روى ــ هو وابن أبى حاتم ــ من طريق ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افتُرض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كَلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك ــ والله أعلم ــ أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ،﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [أى] [(٤)] : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة،ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى[(٥)] له أن سيُوجَدُ منهم،ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقد روى ابنُ أبى حاتم ، عن وهب بن مُنَبّه قال : قال عُزَير ، عليه السلام : قال الملك الذى جاءنى : فإن القبور هى بطنُ الأرض ، وإن الأرض هى أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق ، وتمت هذه القبورُ التى مَدّ الله لها ، انقطعت الدنيا ومات من عليها ، ولفظت الأرض ما فى جوفها ، وأخرجت القبورُ ما فيها ، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم بالصواب .

وقال[(٦)] : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ : فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ،﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخومها وتَخَلَّل فى

(١) فى أ:« إلا عجز الذنب » .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/٦٠٩) من طريق بحر بن نصر ، عن ابن وهب به ، وقال :« حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قلت: دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) .

(٤) زيادة من م ، أ. (٥) فى م :« ممن كتب الله » . (٦) فى أ :« وقوله » .

أجزاء الحب المودَع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ ، فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفِصْفِصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَتّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ،وقتادة ،والضحاك ، والسدى .

وقال الحسن البصرى : القضب : العلف .

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أدْمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ،ويعتصر منه رُبٌّ وخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : «الحدائق» : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ غُلْبًا [١] ﴾: الشجر الذى يستظل به. وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿غُلْبًا﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب [٢]، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عوَى فَأثارَ أغلبَ ضَيْغَمياً ... فَويلَ ابن المَراغَة ما استثَارا [٣]

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا . والأبّ ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ــ وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل شىء نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ . وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ.

وقال ابن إدريس ، عن عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الأب : نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . ورواه ابن جرير من ثلاث طرق ، عن ابن إدريس ، ثم قال : حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ،حدثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير قال : عدّ ابن عباس وقال : الأب : ما أنبتت الأرض للأنعام .هذا لفظ أبى كريب ، وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الأب : الكلأ والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة، وابن زيد ، وغير واحد .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا العوام بن حَوشَب ، عن إبراهيم التَّيمى قال : سُئِلَ أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، عن قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلم [٤] .

---

(١) فى م :« الغلب » . (٢) فى م :« الأرقاب » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٧) .

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٢٢٧) ، وسبق الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق . فأما ما رواه ابن جرير حيث قال :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ، فلما أتي على هذه الآية : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف [١].

فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس ، به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحَذّره عباده .

قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة فى الصور . وقال البَغَوىّ : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها [٢] .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل .

قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها [٣] لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقولُ له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح ـ فى أمر الشفاعة ـ : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٣٨) ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ١٨٠) من طريق يزيد به ، وتقدم الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

(٢) فى أ: « تصخها » . (٣) فى أ : « تهبيها » .

لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه. وَأُمِّهِ وَأَبِيه. وَصَاحِبَتِه وَبَنِيه** ﴾ [(١)].

قال قتادة : الأحب فالأحبَ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا الوليد بن صالح ، حدثنا ثابت أبو زيد العبادانى ، عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى [(٢)] بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ ». أو قال : « ما أشغله عن النظر ».

وقد رواه النسائى منفردا به ، عن أبى داود ، عن عارم ، عن ثابت بن يزيد ــ وهو أبو زيد الأحول البصرى ، أحد الثقات ــ عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به[(٣)]. وقد رواه الترمذى عن عَبد بن حُمَيد ، عن محمد بن الفضل ، عن ثابت بن يزيد ، عن هلال ابن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تُحشَرون حُفاة عُرَاة غُرْلاً » . فقالت امرأة : أيبصر ــ أو : يرى ــ بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ » [(٤)] . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن ابن عباس ، رضى الله عنه [(٥)].

وقال النسائى : أخبرنى عمرو بن عثمان ، حدثنا بَقيَّة ، حدثنا الزبيدى ، أخبرنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : « ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ » [(٦)].

انفرد به النسائى من هذا الوجه .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أزهر بن حاتم ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن عائذ ابن شُرَيح ، عن أنس بن مالك قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى سائلتك عن حديث فتخبرنى أنتَ به . فقال : « إن كان عندى منه علم » . قالت : يا نبى الله ، كيف يُحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » . ثم انتظَرتْ ساعة فقالت : يا نبى الله ، كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » . قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ! قال : «وعن أى ذلك تسألين؟ إنه قد نزل على آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون ».

---

(١) أحاديث الشفاعة سبقت عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) فى م :« يا رسول الله ، ننظر أو يرى » .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٧) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٢) .

(٥) فى أ :« رضى الله تعالى عنهما » .

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٨) .

قالت : أيةُ آية هى يا نبى الله ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » [١] .

وقال البغوى فى تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشّريحى ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنى الحسين بن عبد الله ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ،حدثنا ابن أبى أويس ، حدثنا أبى ، عن محمد بن أبى عياش ، عن عطاء بن يسار ، عن سودة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلا قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان » . فقلت : يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : «قد شُغل الناس ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » [٢] .

هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عمار الحسين بن حريث المروزى ، عن الفضل بن موسى ، به[٣] . ولكن قال أبو حاتم الرازى : عائذ بن شريح ضعيف ، فى حديثه ضعف [٤].

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : ﴿ وُجُوهٌ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أى : مستنيرة ، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من سرور قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء أهل الجنة . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها [٥] قترة ، أى : سواد .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكرى ، حدثنا أبو على محمد مولى جعفر بن محمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يلجم الكافرَ العرقُ ثم تقع الغُبْرة على وجوههم » . قال : فهو قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [٦] .

وقال ابن عباس : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧] .

آخر تفسير سورة « عبس » ولله الحمد والمنة

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/ ٣٩) ، عن الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى به .

(٢)معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٤٠) ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق إسماعيل بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أبى أويس به نحوه . وقال :« هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ» .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٩) .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٧/ ١٦) .

(٥) فى م :« تعلوها وتغشاها » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٤٢٤) ، وله شاهد من حديث ابن مسعود : رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٨٢) «موارد» من طريق شريك ،عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود مرفوعا :« إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : أرحنى ولو إلى النار » .

سورة عبس

مكّيّة، وهي إحدى وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ رُوي أنّ ابن أمّ مكتوم -واسمه عبد الله بن شُريح بن مالك بن أبي ربيعةَ الفِهري، وأمّ مكتوم اسم أمّ أبيه- أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده صناديدُ قريشٍ عتبةُ وشيبةُ بنا ربيعةَ وأبو جهل بن هشام والعبّاس بن عبد المطّلب وأميّةُ بن خَلَف[1] والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: «يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني ممّا علّمك الله تعالى»، وكرّر ذلك وهو لا يعلَم تشاغله عليه السلام بالقوم، فكَرِه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قَطْعَه لكلامه وعبَس وأعرَض عنه، فنزلت.[2] فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكرمه ويقول إذا رآه: «مرحبًا بمَن عاتبني فيه ربّي»، ويقول له: «هل لك مِن حاجة؟»، واستخلَفه على المدينة مرّتين.[3] وقُرئ: "عَبَّسَ"[4] بالتشديد للمبالغة.

---

[1] هو أُميّة بن خلف بن وهب مِن بني لؤيّ (ت. ٢هـ/٦٢٤م). أحد جبابرة قريش في الجاهليّة ومِن ساداتهم. أدرك الإسلام ولم يُسلم. هو الذي عذّب بلالًا الحبشي في بداءة ظهور الإسلام، أسَرَه عبد الرحمن بن عوف يوم بدر فرآه بلال فصاح يحرّض الناس على قتله فقتلوه. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢/٢.

[2] مرويّ بمعناه عن عائشة وابن عبّاس ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٠٢/٢٤-١٠٤؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٤.

[3] كلّه في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٤؛ وبعضه في جامع البيان للطبري، ١٠٤/٢٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وأبي عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.

و﴿أَن جَآءَهُ﴾ علّة لـ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾ على اختلاف الرأيين،[١] أي: لأنْ جاءه الأعمى.

[٢٧٠ظ] والتعرّض لعنوان عَماه إمّا لتمهيد عُذره في الإقدام / على قَطْع كلامه عليه السلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرِّفق والرأفة، وإمّا لزيادة الإنكار، كأنّه قيل: تولّى لكونه أعمى. كما أنّ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لذلك، فإنّ المشافهة أدخَلُ في تشديد العِتاب، أي: وأيّ شيء يجعلك داريًا بحاله حتّى تُعرِض عنه.

وقوله تعالى:[٢] ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ استئناف وارد لبيان ما يلوِّح به ما قبله، فإنّه مع إشعاره بأنّ له شأنًا منافيًا للإعراض عنه خارجًا عن دِراية الغير وإدْرائه مؤذِنٌ بأنّه تعالى يُدريه ذلك، أي: لعلّه يتطهَّر بما يقتبس منك مِن أوضار الأوزار بالكلّيّة. وكلمة ﴿لَعَلَّ﴾ مع تحقّق التزكّي واردةٌ على سَنن الكبرياء، أو على اعتبار معنى الترجّي بالنسبة إليه عليه السلام للتنبيه على أنّ الإعراض عنه عند كونه مرجوّ التزكّي ممّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعًا بالتزكّي؟ كما في قولك: "لعلّك ستندم على ما فعلتَ". وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن تصدّى لتزكيتهم مِن الكفَرة لا يُرجى منهم التزكّي والتذكّر أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ عطفٌ على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخلٌ معه في حُكم الترجّي.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ بالنصب على جواب ﴿لَعَلَّ﴾. وقُرِئ بالرفع[٣] عطفًا على ﴿يَذَّكَّرُ﴾، أي: أو يتذكَّر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكّي التامّ. وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافر،[٤] فالمعنى أنّك طمِعت في أن يتزكّى أو يذكَّر فتُقرِّبه الذكرى إلى قَبول الحقّ، ولذلك تولّيت عن الأعمى، وما يدريك أن ذلك مرجّوُ الوقوع.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: عن الإيمان وعمّا عندك مِن العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

[٢] س - تعالى.

[٣] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتصدّى وتتعرّض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه. وفيه مزيدُ تنفير له عليه السلام عن مصاحبتهم، فإنّ الإقبال على المُدبِر ليس مِن شِيم الكِرام. وقُرئ: "تَصَّدَّى"[١] بإدْغام "التاء" في "الصاد". وقُرئ: "تُصَدَّى"[٢] بضمّ "التاء"، أي: تُعرَّض، ومعناه يدعوك إلى التصدّي له داعٍ مِن الحرص والتهالُك على إسلامه.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكّى بالإسلام حتّى تهتمّ بأمره وتُعرِضَ عمّن أسلم. والجملة حال مِن ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة للإنكار،[٣] / أي: أيُّ شيء عليك في ألّا يتزكّى، ومآله النفيُ أيضًا. [٢٧١و]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ أي: حالَ كونه مُسرِعًا طالبًا لِما عندك مِن أحكام الرُّشد وخصالِ الخير.

﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي: الله تعالى. وقيل: يخشى أذيّة الكفّار في إتيانك. وقيل: يخشى الكَبوَة إذ لم يكن معه قائدٌ.[٤] والجملة حال مِن فاعل ﴿يَسۡعَىٰ﴾، كما أنّه حال مِن فاعل ﴿جَآءَكَ﴾.

﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. يقال: "لهى عنه والتهى وتلهّى". وقُرئ: "تَتَلَهَّى"،[٥] و"تُلَهَّى"،[٦] أي: يُلهِيك شأن الصناديد. وفي تقديم ضميره عليه السلام على الفعلين تنبيهٌ على أنّ مَناط الإنكار خصوصيّته عليه السلام، أي: مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدّى للمستغني ويتلهّى عن الفقير الطالب للخير.

وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنۡهُ﴾ للتعريض باهتمامه عليه السلام بمضمونهما.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم ما عبَس بعد ذلك في وجه فقير قطّ ولا تصدّى لغنيّ.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٣ لم أقف على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٧.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة بن مصرف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٧ ما وقفت عليه في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٧.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع له صلّى الله عليه وسلّم عمّا عُوتب عليه مِن التصدّي لمَن استغنى عمّا دعاه إليه مِن الإيمان والطاعة وما يُوجبهما مِن القرآن الكريم، مبالِغًا في الاهتمام بأمره، متهالِكًا على إسلامه معرِضًا بسبب ذلك عن إرشاد مَن يسترشده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة يجب أن يُتّعَظ بها ويُعمَل بموجَبها، تعليلٌ للردع عمّا ذُكر ببيان علوّ رُتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدّى عليه السلام[1] له، وتحقيقُ أنّ شأنه أن يكون موعظةً حقيقةً بالاتّعاظ بها، فمَن رغِب فيها اتّعظ بها، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: حَفِظَه واتّعظَ به ومَن رغِب عنها كما فعله المستغني فلا حاجةَ إلى الاهتمام بأمره، فالضميران للقرآن، وتأنيث الأوّل لتأنيث خبره.

وقيل: الأوّل للسورة، أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة والتذكير؛ لأنّها في معنى الذِّكر والوعظ.[2] وليس بذلك؛ فإنّ السورة والآياتِ وإن كانت متّصفةً بما سيأتي مِن الصفات الشريفة، لكنّها ليست ممّا أُلقيَ على مَن استغنى عنه واستحقّ بسبب ذلك ما سيأتي مِن الدعاء عليه والتعجّبِ مِن كفره المُفرِط، لنزولها بعد الحادثة.

وأمّا مَن جوّز رجوعَهما إلى العِتاب المذكور،[3] فقد أخطأ وأساء الأدبَ وخبط خبطًا يُقضى منه العجبُ. فتأمّلْ وكنْ على الحقّ المُبين.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ متعلّق بمضمر هو صفة لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، وما بينهما اعتراضٌ جيءَ به للترغيب فيها والحثّ على حِفْظها، أي: كائنة في صُحُف مُنتسَخة مِن اللوح، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: في السماء السابعة، أو مرفوعةِ المقدار والذِّكر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزّهةٍ عن مساس أيدي الشياطين.

---

١ س - عليه السلام.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٥٨-١٥٩.

٣ جوّز ذلك الطِّيبي في فتوح الغيب، ١٦/٢٩٦.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: كَتَبة مِن الملائكة عليهم السلام[١] ينتسِخون الكتب مِن اللوح على أنّه جَمْع "سافر" مِن "السَّفْر"، وهو الكتب. وقيل: بأيدي رسُل مِن الملائكة يُسفِرون بالوحي بينه تعالى وبين الأنبياء على أنّه جمع "سفير" مِن "السِّفَارة".[٢] وحَمْلُهم على الأنبياء عليهم السلام[٣] بعيدٌ؛ فإنّ وظيفتَهم التلقّي مِن الوحي لا الكَتْبُ منه، وإرشادُ الأمّة بالأمر والنّهي وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرَّد السِّفارةِ إليهم. وكذا حَمْلُهم على القرّاء لقراءتهم الأسفار، أو على أصحابه صلّى الله عليه وسلّم.[٤] وقد قالوا: هذه اللفظة مختصّة بالملائكة لا تكاد تُطلَق / على غيرهم،[٥] وإن جاز الإطلاق بحسَب اللغة. [٢٧١ظ]

و"الباء" متعلّقة بـ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾. قال القفّال: لمّا لم يمسّها إلّا الملائكة المطهَّرون أضيفَ التطهيرُ إليها لطهارة مَن يَمسُّها.[٦] وقال القُرطبي: إنّ المراد بما في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة، ٧٩/٥٦] هؤلاء السَّفَرة الكرام البَرَرة.[٧]

﴿كِرَامٍ﴾ عند الله عزّ وجلّ، أو متعطِّفين على المؤمنين يكمِّلونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. وقيل: مُطيعين لله تعالى، مِن قولهم: "فلان يَبَرّ خالقه"، أي: يُطيعه. وقيل: صادقين مِن "بَرّ في يمينه".[٨]

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ
﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

---

١ س – عليهم السلام.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣–٥٠٠.
٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣.
٤ هذان الوجهان في جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.
٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠.
٦ نقله عن القفّال ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.
٧ انظر: تفسير القرطبي، ٢٢٥/١٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.
٨ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠–١٦٠.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعجُّب مِن إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقه للدعاء عليه. والمراد به إمّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذُكرت نُعوته الجليلة الموجِبة للإقبال عليه والإيمان به، وإمّا الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله مِن أفراده لا باعتبار جميع أفراده. وفيه مع قِصَر مَتْنه وتقارُب قُطرَيه مِن الإنباء عن سخط عظيم ومذمّة بالغة ما لا غايةَ وراءه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عليه مِن مبدأ فطرته إلى منتهى عمره مِن فنون النِّعَم الموجِبة لقضاء حقّها بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك. وفي الاستفهام مِن مَبدأ خلقه ثمّ بيانِه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ تحقيرٌ له، أي: مِن أيّ شيء حقير مَهين خلقه، مِن نطفة مَذِرة خَلَقه، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيّأه لِمَا يصلح له ويليق به مِن الأعضاء والأشكال، أو فقدّره أطوارًا إلى أن تمّ خَلْقه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره الظاهر، أي: ثمّ سهَّل مَخرَجه مِن البطن بأن فتح فمَ الرَّحِم وألهمه أن ينتكِس، أو يسَّر له سبيل الخير والشرّ، ومكّنه مِن السلوك فيهما. وتعريف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بـ"اللام" دون الإضافة للإشعار بعمومه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَله ذا قبر يُوارى فيه تكرمةً له، ولم يَدَعه مطروحًا على وجه الأرض جَزَرًا للسِّباع والطير[1] كسائر الحيوان، يقال: "قَبَر الميّتَ" إذا دفَنه، و"أقبرهُ" إذا أمر بِدفنِه أو مكّن منه.[2] وعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم لأنّها
[٢٧٢و] / وُصلة في الجملة إلى الحياة الأبديّة والنَّعيم المُقيم.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إذا شاء إنشاره أنشَره على القاعدة المستمرّة في حذف مفعولِ المشيئة. وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذانٌ بأنّ وقته غيرُ متعيّن؛ بل هو تابع لها. وقُرئ: "نَشَرَهُ".[3]

---

[1] جزر السِّباع والطير: اللحم الذي تأكله، بأن يُترك قطعًا. لسان العرب لابن منظور، «جزر».

[2] وفي هامش م: قال أبو عبيدة: أقبره: جَعَل له قبرًا وأمر أن يُقبَر. «منه». | وانظر الكلام في مجاز القرآن لابي عبيدة، ٢/٢٨٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن شعيب وأبي حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٠٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩١.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عمّا هو عليه. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان لسبب الردع، أي: لم يقضِ بعدُ مِن لدن آدمَ عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما أمره الله تعالى بأسره؛ إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما. كذا قالوا، وهكذا نُقل عن مجاهدٍ وقتادةَ.[1]

ولا ريبَ في أنّ مساق الآياتِ الكريمة لبيان غاية عِظَم جنايةِ الإنسان وتحقيقِ كفرانه المفرط المستوجِب للسخط العظيم، وظاهرٌ أنّ ذلك لا يتحقَّق بهذا القدر مِن نوع تقصير لا يخلو عنه أحد مِن أفراده، كيف لا، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورة هود»،[2] لِما فيها مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود، ١١/١١٢].

فالوجه أن يُحمَل عدمُ القضاء على عموم النفي لا على نفي العموم، إمّا على أنّ المحكوم عليه هو المستغني، أو هو الجنس، لكن لا على الإطلاق؛ بل على أنّ مِصداق الحُكم بعدم القضاء بعضُ أفراده، وقد أسنِدَ إلى الكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٤] للإشباع في اللوم بحُكم المجانسة، على طريقة قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم، وإمّا على أنّ مِصداقه الكلّ[3] مِن حيث هو كلّ بطريق رَفْع الإيجاب الكلّي دون السَّلْب الكلّي، فالمعنى لمّا يقضِ جميعُ أفراده ما أمره، بل أخلّ به بعضُها بالكفر والعصيان، مع أنّ مقتضى ما فُصّل مِن فنون النَّعماء الشاملة للكلّ أن لا يتخلَّف عنه أحد أصلًا. هذا، وقد قيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًّا،[4] فيتعلّق بما بعده، أي: حقًّا لم يعمل بما أمره به.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ شروع في تعداد النِّعَم المتعلِّقة ببقائه بعد تفصيل النِّعَم المتعلّقة بحدوثه، أي: فلينظر إلى طعامه الذي عليه يدور أَمْر معاشه كيف دبّرناه.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٦٣.

٢ سنن الترمذي، ٥/٤٠٢ (٣٢٩٧)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٦/١٤٨ (٥٨٠٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٠٣ (هود، ١١/١١٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٩ (هود، ١١/١١٢).

٣ السياق: إمّا على أنّ المحكوم... وإمّا على أنّ مِصداقه...

٤ مرويّ عن الحسن في تفسير القرطبي، ١٩/٢١٩؛ ونقله عن القرطبي ابن عادل في اللباب، ٢٠/١٦٣.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي: الغيث بدل اشتمال مِن ﴿طَعَامِهِۦ﴾؛ لأنّ الماء سبب لحدوث الطعام / فهو مشتمِل عليه. وقُرئ: "إِنَّا"[1] على الاستئناف، [٢٧٢ظ] وقُرئ: "أَنَّى"[2] بالإمالة. أي: كيف صببنا... إلخ، أي: صببناه صبًّا عجيبًا.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالنبات ﴿شَقًّا﴾ بديعًا لائقًا بما يَشقّها مِن النبات صِغرًا وكِبَرًا وشكلًا وهيئةً. وحَمْلُ شقّها على ما بالكِراب[3] بجَعْل إسناده إلى نون العظمة مِن قبيل إسناد الفعل إلى سببه،[4] يأباه كلمة ﴿ثُمَّ﴾.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ فإنّ الشقّ بالمعنى المذكور لا ترتُّب بينه وبين الإمطار أصلًا، ولا بينه وبين إنبات الحبّ بلا مُهلة، وإنّما الترتّب بين الإمطار وبين الشقّ بالنبات على التراخي المعهود وبين الشقّ المذكور وبين إنبات الحبّ بلا مهلة، فإنّ المراد بالنبات ما نبت مِن الأرض إلى أن يتكامل النموّ وينعقِد الحبّ، فإنّ انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتّسع إلى تلك المرتبة.

على أنّ مَساق النظم الكريم لبيان النِّعَم الفائضة مِن جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة، كما ينبئ عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين، فتوسيط فِعْل المُنعَم عليه في حصول تلك النِّعَم مُخِلّ بالمرام.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا﴾ عطفٌ على ﴿حَبًّا﴾، وليس مِن لوازم العطف أن يُقيَّد المعطوف بجميع ما قُيِّد به المعطوف عليه، فلا ضيرَ في خلوّ إنبات العِنَب عن شقّ الأرض. ﴿وَقَضْبًا﴾ أي: رَطبةً، سُمِّيت بمصدر قَضَبه، أي: قَطَعه مبالغةً، كأنّها لتكرُّر قَطْعها وتكثُّره نفسُ القَطْع.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ الكلام فيهما وفي أمثالهما كما في العنب.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي: عِظامًا. وُصِف به الحدائق لتكاثفها وكثرةِ أشجارها، أو لأنّها ذات أشجار غِلاظ. مُستعار مِن وَصْف الرِّقاب.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر ووافقهم رُويس في الابتداء. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الصرصري والعنبريّ والمَلَطي والبصري، كلّهم عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩١.

٣ كَرَب الأرض يكرِبها كربًا وكِرابًا: قَلَبها للحَرْث وأثارها للزرع. لسان العرب لابن منظور، «كرب».

٤ جوّز الزمخشري هذا الوجه في الكشّاف، ٥٢٨/٤.

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي: مرعًى مِن "أبّه" إذا أمّه، أي: قَصده؛ لأنّه يؤمّ وينتجَع، أو مِن "أبّ لكذا" إذا تهيّأ له؛ لأنّه متهيّئ للرعي، أو فاكهةً / يابسةً تؤبّ للشتاء. [٢٧٣و]
وعن الصِّدّيق رضي الله عنه أنّه سُئل عن "الأبّ" فقال: «أيُّ سماء تُظِلّني، وأيُّ أرض تُقلّني إذا قلتُ في كتاب الله ما لا عِلمَ لي به».[١] وعن عمرَ رضي الله عنه أنّه قرأ هذه الآية، فقال: «كلُّ هذا قد عرفنا، فما الأبّ؟» ثم رفض عصًا كانت بيده وقال: «هذا لعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابن أمّ عمرَ ألّا تدري ما الأبّ؟»، ثم قال: «اتّبعوا ما تبيَّن لكم مِن هذا الكتاب، وما لا فدَعوه».[٢]

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعلَ ذلك تمتيعًا لكم ولمواشيكم، فإنّ بعض النِّعَم المعدودة طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابّهم. والالتفاتُ لتكميل الامتنان؛ وإمّا مصدرٌ مؤكِّد لفعله المضمر بحَذْف الزوائد، أي: متّعكم بذلك مَتاعًا، أو لفعل مترتِّب عليه، أي: متّعكم بذلك فتمتّعتم مَتاعًا، أي: تمتُّعًا كما مرّ غيرَ مرّة، أو مصدرٌ مِن غير لفظه، فإنّ ما ذُكر مِن الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم إثرَ بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم. و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها مِن فنون النِّعَم عن قريب، كما يُشعِر لفظ "المتاع" بسرعة زوالها وقُرب اضمحلالها. و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي الداهية العظيمة التي يصخّ لها الخلائق، أي: يُصيخون لها، مِن "صَخّ لحديثه" إذا أصاخ له واستمع. وُصِفت بها النفخة الثانية؛ لأنّ الناس يصخّون لها.

---

[١] بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٤٠/٣ (٢٠٨٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

[٢] مرويّ عن أنس بن مالك بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٢٠/٢٤؛ والمستدرك للحاكم، ٥٥٩/٢ (٣٨٩٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٤١/٣ (٢٠٨٤)؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

وقيل: هي الصيحة التي تُصِخّ الآذان، أي: تُصِمّها لشِدّة وقعِها. وقيل: هي مأخوذة مِن "صَخّه بالحَجَر"، أي: صَكّه.[١]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إمّا منصوب بـ"أعني" تفسيرًا لـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، أو بدل منها، مبنيّ على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأي الكوفيّين.[٢] وقيل: بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتِ﴾،[٣] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ [النازعات، ٧٩/٣٥]... إلخ، أي: يُعرِض عنهم ولا يُصاحِبهم ولا يَسأل عن حالهم كما في الدنيا / لاشتغاله بحال نفسه. [٢٧٣ظ]

وأمّا تعليل ذلك بعلمه بأنّهم لا يُغنون عنه شيئًا، أو بالحذر مِن مطالبتهم بالتبِعات،[٤] فيأباه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ فإنّه استئناف وارد لبيان سببِ الفِرار، أي: لكلّ واحد مِن المذكورين شُغل شاغل وخَطْب هائل يكفيه في الاهتمام به. وأمّا الفِرار حَذَرًا مِن مطالبتهم أو بُغضًا لهم، كما يُروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه يفِرّ قابيلُ مِن أخيه هابيلَ، ويفِرّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أمّه، ويفِرّ إبراهيمُ عليه السلام مِن أبيه، ونوحٌ عليه السلام مِن ابنه، ولوطٌ عليه السلام مِن امرأته،[٥] فليس مِن قبيل[٦] هذا الفرارِ.

وكذا ما يُروى أنّ الرجل يفِرّ مِن أصحابه وأقربائه لئلّا يرَوه على ما هو عليه مِن سوء الحال. وقُرئ: "يَعْنِيهِ" بـ"الياء" المفتوحة و"العين" المهملة، أي: يُهمّه مِن "عَناه الأمرُ" إذا أهمّه، أي: أوقعه في الهمّ، ومنه: «مِن حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه».[٧] لا مِن "عَناه" إذا قَصَده كما قيل.[٨]

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ بيان لمآل أَمر المذكورين وانقسامهم إلى السُّعداء والأشقياء بعد ذِكر وقوعهم في داهية دَهْياء، فـ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١٦٩/٢٠.

٢ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية، ٢٤٩/١.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٠/٢٠.

٤ كما ذكر البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٠١/٣.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٦ السياق: وأمّا الفرارُ... فليس مِن قبيل...

٧ مسند أحمد، ٢٥٩/٣ (١٧٣٧)؛ سنن الترمذي، ٥٥٨/٤ (٢٣١٧)؛ سنن ابن ماجه، ١١٩/٥ (٣٩٧٦).

٨ القول في اللباب لابن عادل، ١٧١/٢٠.

وإن كانت نكرةً لكونها في حيّز التنويع، و﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّق به، أي: مُضيئة متهلّلة مِن "أسفَر الصبح" إذا أضاء. وعن ابن عبّاس أنّ ذلك مِن قيام الليل. وفي الحديث: «مَن كثُر صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار».[١] وعن الضحّاك: مِن آثار الوضوء.[٢] وقيل: مِن طُول ما اغبرّت في سبيل الله.[٣]

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما تُشاهِد مِن النعيم المُقيم والبهجة الدائمة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غُبار وكُدورة.

﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: سواد وظُلمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره. ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الجامعون / بين الكفر والفجور، فلذلك جَمَع الله [٢٧٤و]
عزّ وجلّ إلى سواد وجوههم الغَبرةَ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهُه ضاحك مُستبشِر».[٤]

---

١ سنن ابن ماجه، ٣٥٨/٢ (١٣٣٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٧١/٤ (٢٨٣٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٧٢/٢٠.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٤/٢٨ (عبس، ١/٨٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٢/٤ (عبس، ١/٨٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٠

سُورَةُ عَبَسَ

مكية، اثنتان وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ﴿عَبَسَ﴾ النبيُّ: كلَحَ وجهُه ﴿وتَوَلَّى﴾: أعرضَ لأجل ٢ - ﴿أن جاءَهُ الأعمَى﴾ عبدُ الله بن أُمِّ مكتوم، فقطعه عما هو مشغول به ممّن يرجو إسلامَه من أشراف قريش الذي هو حَريص على إسلامهم. ولم يدرِ الأعمى أنه مشغول بذلك، فناداه: عَلِّمْني ممّا علّمَك الله. فانصرف النبيّ إلى بيته، فعوتب في ذلك بما نزل في هذه السورة، فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء: «مَرحَبًا بمَن عاتَبَني فِيهِ رَبِّي»، ويَبسُط له رداءه.

سُورَةُ عَبَسَ

قولُهُ: (لأجلِ) علّةٌ لـ﴿تَوَلَّى﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾، على اختلافِ المذهَبَينِ في التَّنازُعِ[١].

قولُهُ: (عَلِّمْني) وكرَّرَ ذلك فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ قطعَهُ لكلامِهِ، وعبَسَ وأعرَضَ عنه.

قولُهُ: (رِدَاءَهُ) واستخلَفَهُ على المدينَةِ مرَّتَينِ[٢]، وفي «الكشاف»[٣]: رويَ أنَّه ما عبَسَ بعدها في وجهِ فَقيرٍ قطُّ، ولا تصَدَّى لغنيٍّ، وذكَرَ الأعمَى للإشعارِ بعُذرِهِ في الإقدامِ على قَطعِ الكَلامِ، والدَّلالَةِ على أنَّه أحَقُّ بالرِّفقِ والرَّأفةِ من سائرِ الأنامِ، وللإشارَةِ بالتَّخلُّقِ بأخلاقِ الله حيثُ قالَ في الحديثِ القُدسيِّ: «مَن تقرَّبَ إليَّ شِبراً تَقرَّبتُ إليهِ باعاً[٤]»[٥]، ولقولِهِ تعالى لداودَ: «إذَا رَأيتَ لِي طَالِباً، فَكُن لَهُ خادِماً»[٦].

---

(١) الكوفي والبصري؛ فالكوفيون يرجحون إعمال الأول، والبصريون الثاني.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٩).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٠١).

(٤) كذا في كل الأصول، والصواب: «ذراعاً».

(٥) روى البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(٦) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٨٢) عن عبد العزيز بن عمر.

٣ ـ ﴿وما يُدرِيكَ﴾: يُعلِمُك: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ـ فيه إدغام التاء في الأصل في الزاي ـ أي: يتطهّرُ من الذنوب بما يسمع منك ٤ ـ ﴿أو يَذَّكَّرُ﴾، فيه إدغام التاء في الأصل في الذال، أي: يتّعظ ﴿فتنفَعَهُ الذِّكرَى﴾: العِظةُ المسموعة منك؟ وفي قراءة بنصب «تَنفَعَهُ» جوابَ الترجّي.

٥ ـ ﴿أمّا مَنِ استَغنَى﴾ بالمال ٦ ـ ﴿فأنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾، وفي قراءة بتشديد الصاد بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها: تُقبِلُ وتتعرّضُ، ٧ ـ ﴿وما عَلَيكَ ألاّ يَزَّكَّى﴾: يُؤمنَ، ٨ ـ ﴿وأمّا مَن جاءَكَ يَسعَى﴾: حالٌ من فاعل «جاء»، ٩ ـ ﴿وهُوَ يَخشَى﴾ اللهَ: حالٌ من فاعل «يسعى» وهو الأعمى، ١٠ ـ ﴿فأنتَ عَنهُ تَلَهَّى﴾ ـ فيه حذف التاء الأُخرى في الأصل ـ أي: تتشاغلُ. ١١ ـ ﴿كَلاّ﴾ لا تفعلْ مثلَ ذلك ﴿إنَّها﴾ أي: السُّورةَ ....

قولُهُ: (يُعلِمُك) أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ دارياً بحالِهِ.

قولُه: (يَتَطَهَّرُ) وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَهُ كان لتزكيَةِ غيرِهِ.

قولُهُ: (العِظَةُ) أي: موعِظَتُكَ (وَفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِمٍ[(١)].

قولُهُ: (بالمَالِ) هو أميَّةُ بن خَلَف، أو عتبَةُ بن ربيعَةَ، أو هو وأبو جهلٍ والعبَّاسُ بن عبدِ المطَّلِب، كذا في «المبهمات»[(٢)]، والظَّاهرُ أنَّ المرادَ بـ﴿مَن﴾ معناهُ الجَمع.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للحرميِّ[(٣)].

قولُهُ: (تُقبِلُ) عليه (وتَتَعَرَّضُ) له.

قولُهُ: (يُؤمِنَ) أي: ليس عليكَ بأسٌ في أن لا يتزَكَّى بالإسلامِ حتَّى يبعثَكَ الحِرصُ على إسلامِهِ إلى الإعراضِ عمَّن أسلمَ، إنْ عليكَ إلَّا البلاغُ.

قولُهُ: (حَالٌ) أي: يسرعُ طالباً للخَيرِ.

قولُهُ: (الله) أو أذيَّةَ الكفَّارِ في إتيانِكَ، أو كبوَةَ الطَّريقِ؛ لأنَّه أعمى لا قائدَ له.

قولُهُ: (الأُخرَى) أو الأولى، وقرأ البزِّيُّ بإشباعِ الضَّميرِ وتشديدِ التَّاءِ[(٤)].

قولُهُ: (لا تَفعَلْ) أي: رَدعٌ عن معاودَةِ مثله.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٥). الأول والثاني عزاه لابن أبي حاتم عن مجاهد، والثالث عن ابن عباس من طريق العوفي.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣).

(٤) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٨).

أو الآياتِ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: عظة للخلق ـ ١٢ ـ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾: حَفِظَ ذلك فاتعظَ به ـ ١٣ ـ ﴿فِي صُحُفٖ﴾: خبرٌ ثانٍ لـ «إنها»، وما قبله اعتراض، ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ عِند الله، ١٤ ـ ﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ في السماء ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾: مُنزّهة عن مسّ الشياطين، ١٥ ـ ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾: كَتَبَةٍ ينسخونها من اللوح المحفوظ، ١٦ ـ ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾: مُطيعينَ للهِ ـ تعالى ـ وهم الملائكة.

١٧ ـ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: لُعِنَ الكافر. ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؟ استفهام توبيخ، أي: ما حَمَلَهُ على الكُفر؟ ١٨ ـ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؟ استفهام تقرير، ثمّ بيّنه فقال: ١٩ ـ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ علقةً ثمّ مُضغة إلى آخر خلقِه، ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: طريقَ خُروجه من بطن أُمّه ﴿يَسَّرَهُۥ، ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾: جعلَه في قبر يَستره، ٢٢ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ للبعث.

قولُهُ: (أو الآيَاتِ) أو المعاتبَةَ.

قولُهُ: (عِظَةٌ) أي: موعظَةٌ بليغَةٌ مباركَةٌ.

قولُهُ: (حَفِظَ ذَلِكَ) أي: العتابَ المذكورَ، أو القُرآنَ؛ أي: فمن شاءَ الله التَّوفيقَ له قبلَهُ.

قولُهُ: (خَبَرٌ ثَانٍ) أو خبرُ محذوفٍ، أو صفَةٌ لـ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾؛ أي: مُثبتَةٌ فيها.

قولُهُ: (فِي السَّمَاءِ) أو مرفوعَةِ القَدرِ.

قولُهُ: (مِن اللَّوحِ) أو الوحيِ.

قولُهُ: (المَلائِكَةُ) أو الأنبياءُ.

قولُهُ: (لُعِنَ الكَافِرُ) دعاءٌ عليهِ بأشنَعِ الدَّعَواتِ.

قولُهُ: (تَوبِيخٍ) وتعجيبٍ من إفراطِهِ في الكفرانِ.

قولُهُ: (تَقرِيرٍ) أو تحقيرٍ، وهو الأظهَرُ، وهو بيانٌ لما أنعَمَ عليه خصوصاً من مبدَأ حدوثِهِ.

قولُهُ: (عَلَقَةً) أي: فقدَّرهُ أطواراً من نُطفَةٍ إلى أن تمَّ خلقُهُ.

قولُهُ: (طَرِيقُ خُرُوجِهِ) بأن فتَحَ فُوَّهةَ الرَّحِمِ، وألهمَهُ أن ينكُسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخيرِ والشَّرِّ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الدُّنيا طريقٌ، والمقصدُ غيرها.

قولُهُ: (فِي قَبرٍ) أي: جعَلهُ ذا قَبرٍ.

قولُهُ: (للبَعثِ) وعدُّ الإماتَةِ والإقبارِ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتَةَ وُصلَةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبديَّةِ واللَّذَّاتِ الخالصَةِ السَّرمديَّةِ، والأمرُ بالقبرِ تكرمَةٌ، وفي ﴿إِذَا شَآءَ﴾: إشعارٌ بأنَّ وقتَ النُّشورِ غير متعيِّنٍ في نفسِهِ، وإنَّما هو موكولٌ إلى مشيئتِهِ.

٢٣ ـ ﴿كَلَّا﴾: حقًّا ﴿لَمَّا يَقضِ﴾: لم يفعلْ ﴿ما أَمَرَهُ﴾ به ربّه.

٢٤ ـ ﴿فلْيَنظُرِ الإنسانُ﴾ نظرَ اعتبار ﴿إلَى طَعامِهِ﴾ كيف قُدّر ودُبّر له؟ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿إنّا صَبَبْنا الماءَ﴾ من السحاب ﴿صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا، فأنبَتْنا فِيها حَبًّا﴾ كالحِنطة والشعير، ٢٨ ـ ﴿وعِنبًا وقَضْبًا﴾ هو: القَتّ الرَّطب، ٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿وزَيتُونًا ونَخلاً، وحَدائِقَ غُلبًا﴾: بساتين كثيرة الأشجار، ٣١ ـ ﴿وفاكِهةً وأبًّا﴾: ما ترعاه البهائم، وقيل: التِّبنُ، ٣٢ ـ ﴿مَتاعًا﴾: مُتعة أو تمتيعًا كما تقدّم في السورة قبلها ﴿لَكُم ولأنعامِكُم﴾.

٣٣ ـ ﴿فإذا جاءَتِ الصّاخّةُ﴾: النفخة الثانية ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أخِيهِ، وأُمِّهِ وأبِيهِ، وصاحِبتِهِ﴾: ....

قولُهُ: (حَقًّا) أو رَدعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه.

قولُهُ: (لَم يَفعَلْ) أي: لم يقضِ بعدُ من لدُنْ آدمَ عليهِ السَّلام إلى هذه الغايَةِ ما أمَرَ الله تعالى بأسرِهِ؛ إذ لا يخلو أحَدٌ من تقصيرٍ ما.

قولُهُ: (كَيفَ قُدِّرَ) إتْباعٌ للنِّعمِ الذَّاتيَّةِ بالنِّعمِ الخارجيَّةِ.

قولُهُ: (مِنَ السَّحَابِ) استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ إحداثِ الطَّعامِ، وقرأ الكوفيُّونَ بالفتحِ[١] على البدلِ منه بدلَ اشتِمالٍ.

قولُهُ: (هُوَ القَتُّ الرَّطْبُ) يعني: الرَّطبَة، ويقالُ لها الآن في استعمالِ أهلِ مكَّةَ البَرسِيمُ، وبالفارِسيَّة: (سبيست)[٢]، سُمِّيت بمصدَرِ قَضبَه: إذا قطَعَهُ؛ لأنَّها تُقضَبُ مرَّةً بعدَ أخرى[٣].

قولُهُ: (بَسَاتِينَ و﴿غُلباً﴾) جمعُ: غلباء؛ أي: عظاماً، وصَفَ به الحَدائِقَ لتكاثُفِها وكثرَةِ أشجارِها.

قولُهُ: (وقيلَ: التِّبنُ) وقيل: فاكِهةٌ يابسَةٌ تؤَبُّ وتهيَّأ للشِّتاءِ.

قولُهُ: (النَّفخَةُ) وُصفَت بها مَجازاً؛ لأنَّ النَّاسَ يصيخُونَ لها؛ أي: يُصغونَ إليها، وقيل: الصَّاخَّةُ: صيحَةٌ تَصُمُّ لشدَّتِها.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٨).

(٢) جاء في «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١): وهي الإسْفِسْتُ؛ بالفارسيَّة. وانظر «المغرب» (ص: ٣٧٢).

وجاء في «التكملة والذيل والصلة» للصغاني (٥/ ٥٧٧): الشَّبْذَرَ.

(٣) انظر: «تفسير الزمخشري» (٤/ ٧٠٤).

زوجته ﴿وبَنِيهِ﴾ يومَ: بدلٌ من «إذا»، وجوابُها دلّ عليه: ٣٧ ـ ﴿لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم يَومَئِذٍ شأنٌ يُغنِيهِ﴾: حالٌ يَشغله عن شأن غيره، أي: اشتغلَ كل واحد بنفسه، ٣٨ ـ ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ مُسفِرةٌ﴾: مضيئة، ٣٩ ـ ﴿ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ﴾: فرحة ـ وهم المؤمنون ـ ٤٠ ـ ﴿ووُجُوهٌ يَومَئِذٍ علَيها غَبَرَةٌ﴾: غُبار، ٤١ ـ ﴿تَرهَقُها﴾: تغشاها ﴿قَتَرةٌ﴾: ظُلمة وسواد. ٤٢ ـ ﴿أُولَئِكَ﴾: أهل هذه الحالة ﴿هُمُ الكَفَرةُ الفَجَرةُ﴾ أي: الجامعون بين الكُفر والفُجور.

قولُهُ: (زَوجَتِهِ) لاشتِغالِهِ بشأنِهِ وعلمِهِ بأنَّهم لا ينفَعونَهُ، قال الحسنُ[1]: أوَّلُ من يفرُّ يومَ القيامَةِ من أبيهِ: إبراهيمُ، ومن ابنِهِ: نوحٌ، ومن امرأتِهِ: لوطٌ، كذا في «التَّذكِرَة» للقرطُبيِّ[2]، ولعلَّ أوَّلَ من يفِرُّ من أخيهِ هابيلُ، ومن أمِّهِ بناتُ لوطٍ.

قولُهُ: (يَشغَلُهُ) أي: يكفيهِ في الاهتِمامِ به، وقرئَ: (يَعنِيه)[3] أي: يُهِمُّه.

قولُهُ: (مُضِيئَةٌ) من إسفارِ الصُّبحِ.

قولُهُ: (فَرِحَةٌ) لما ترى من النِّعَمِ.

قولُهُ: (غُبَارٌ) وكُدورَةٌ.

قولُهُ: (ظُلمَةٌ وسَوَادٌ) الأحسَنُ: سوادٌ وظلمَةٌ.

قولُهُ: (بينَ الكُفرِ والفُجُورِ) فلذلك يجمَعُ إلى سَوادِ وجوهِهِم الغبرَةَ، والله أعلمُ.

***

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٨).

(٢) انظر: «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ٥٧٨).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن محيصن وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٣).

سورة عبس

وتسمَّى سورة الصَّاخَّة، وسورة السَّفَرَة، وسمِّيت في غير كتاب[1] سورة الأعمى. وهي مكية بلا خلاف.

وآيها اثنتان وأربعون في الحجازيِّ والكوفيِّ، وإحدى وأربعون في البصريِّ، وأربعون في الشاميِّ والمدني الأول[2].

ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ذكر عز وجل في هذه مَن ينفعه الإنذار ومَن لم ينفعه، فقال عز من قائل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ إلخ. رُوي أنَّ ابن أمِّ مكتوم وهو ابنُ خال خديجة ـ واسمه: عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي، وقيل: عبد الله بن عمرو. وقيل: عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري. والأول أكثر وأشهر كما في «جامع الأصول»[3]، وأمُّ مكتوم كنيةُ أمِّه، واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وغَلِط الزمخشريُّ في جعلها في «الكشاف»[4] جدتَه. وكان أعمى، وعَمِي بعد نُور، وقيل: وُلد أعمى، ولذا قيل لأمِّه: أمّ مكتوم ـ أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديدُ

---

(١) في القراءات الشاذة ص١٦٨: سورة الأعمى والعتاب.

(٢) في هامش الأصل: اختلافها ثلاث: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾.

(٣) لم نقف على نسبه فيه، وهو في الإصابة ٧/ ٨٣، والاستيعاب ٨/ ٣٥١ (بهامش الإصابة).

(٤) ٤/ ٢١٧.

قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم، فقال: يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني مما علَّمك الله تعالى. وكرَّر ذلك ولم يعلَم تشاغُلَه بالقوم، فكره رسولُ الله ﷺ قطعَه لكلامه وعبس وأعرض عنه، فنزلت. فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي. ويقول: هل لك من حاجة[1]. واستخلفه ﷺ على المدينة فكان يصلِّي بالناس ثلاث عشرة مرَّة كما رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب»[2] عن أهل العلم بالسِّيَر، ثم استخلف بعده أبا لُبابة.

وهو من المهاجرين الأولين، هاجر على الصحيح قبلَ النبيِّ ﷺ، ووهم القرطبي[3] في زعمه أنه مدنيٌّ، وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة.

وموته ـ قيل ـ بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله عنه، ورآه أنس يومئذٍ وعليه درعٌ، وله راية سوداء. وقيل: رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله عنه.

وضميرُ «عَبَسَ» وما بعده للنبيِّ ﷺ، وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ؛ لإيهام أنَّ من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثلُه، كما أنَّ في التعبير عنه ﷺ بضمير الخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ ذلك؛ لِمَا فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض. والتعبيرُ عن ابن أمِّ مكتوم بـ «الأعمى» للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وتشاغلِه بالقوم.

وقيل: إنَّ الغيبة أولاً والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار، وذلك كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ثم يُقبل على الجاني إذا حمي على الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجَّة، وفي ذكر الأعمى نحوٌ من ذلك لأنه وصفٌ يناسب الإقبال عليه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩، وينظر: سنن الترمذي (٣٣٣١)، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٢-١٠٤، والمستدرك ٢/ ٥١٤، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٢، والكشاف ٤/ ٢١٧.
(٢) ٨/ ٣٥١.
(٣) في تفسيره ٢٢/ ٧١، نقلاً عن ابن العربي.

والتعطُّفَ، وفيه أيضاً دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعيَّن، وإيماءٌ إلى أنَّ كلَّ ضعيفٍ يستحقُّ الإقبال من مثله، على أسلوب: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[1].

و«أنْ» بتقدير حرف الجرِّ، أعني: لام التعليل، وهو معمولٌ لأول الفعلين على مختار الكوفيين، وثانيهما على مختار البصريين، وكليهما معاً على مذهب الفراء. نعم هو بحسب المعنى علَّةٌ لهما بلا خلافٍ، أي: عَبَسَ لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «عَبَّسَ» بتشديد الباء[2]، للمبالغة لا للتعدية.

وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى: «آأنْ» بهمزة ومدَّة بعدها[3]. وبعض القرَّاء بهمزتين محقَّقتين[4]. والهمزة في القراءتين للاستفهام الإنكاريِّ. ويوقف على «تَوَلَّى»، والمعنى: ألأنْ[5] جاء الأعمى فَعَلَ ذلك؟!.

وضمير «لعلَّه» للأعمى، والظاهر أنَّ الجملة متعلِّقةٌ بفعل الدراية على وجه سدَّ مسدَّ مفعوله، أي: أيُّ شيء يجعلك دارياً بحالِ هذا الأعمى، لعلَّه يتطهَّر بما يتلقَّن من الشرائع من بعضِ أوضار الإثم ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتَّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ أي: ذكراك وموعظتك، والمعنى: إنَّك لا تدري ما هو مترقَّب منه من تزكٍّ أو تذكُّرٍ، ولو دريتَ لَمَا كان الذي كان. والغرضُ نَفي درايةِ أنه يَزَّكَّى أو يذَّكَّر. والترجِّي راجعٌ إلى الأعمى أو إلى النبيِّ ﷺ ـ على ما قيل ـ دلالةً على أنَّ رجاءَ تزكِّيه أو كونه ممن يُرجَى منه ذلك كافٍ في الامتناع من العُبوس والإعراض، كيف وقد كان استزكاؤُه

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٥٠٦٣) من حديث أبي بكرة ﷺ. وهو عند البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) بنحوه.

(٢) البحر ٨/ ٤٢٧. وهو في القراءات الشاذة ص١٦٨ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٥) تحرف في (م) إلى: ألا أن. والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع الحاشية ٨/ ٣٢٠. والكلام منه.

محقَّقاً. ولَمَّا هضم من حقِّه في تعلُّق الرجاء به لا التحقُّقِ اعتبر متعلَّق التزكِّي بعضَ الأوضار ترشيحاً لذلك، وفيه إظهارُ ما يقتضي مقام العظمة هاهنا من إطلاق التزكِّي وحمله على ما ينطلق عليه الاسمُ لا الكامل.

وقال بعضهم[1]: متعلَّق الدراية محذوفٌ، أي: ما يُدريك أمرَه وعاقبةَ حاله ويُطلعك على ذلك، وقوله سبحانه: «لعله» إلخ استئنافٌ واردٌ لبيانِ ما يلوِّح به ما قبله، فإنه ـ مع إشعاره بأنَّ له شأناً منافياً للإعراض عنه، خارجاً عن دراية الغير وإدرائه ـ مُؤذِنٌ بأنه تعالى يُدريه ذلك، واعتَبَر في التزكِّي الكمالَ فقال: أي: لعلَّه يتطهَّر بما يقتبس منك من أوضار الإثم بالكلية، أو يتذكَّر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجةَ التزكِّي التامِّ. ولعلَّ الأوَّل أبعدُ مغزًى.

وقدَّم التزكِّي على التذكُّر لتقدُّم التخلية على التحلية، وخَصَّ بعضهم الثاني بما إذا كان ما يتعلَّمه من النوافل، والأولَ بما إذا كان سوى ذلك، وهو كما ترى.

وفي الآية تعريضٌ وإشعار بأنَّ مَن تصدَّى ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من الكَفَرة لا يُرجى منهم التزكِّي والتذكُّر أصلاً، فهي كقولك لمن يقرِّر مسألةً لمن لا يفهمها وعنده آخَر قابلٌ لفهمها: لعلَّ هذا يفهم ما تُقرِّر، فإنه يُشعر بأنه قصد تفهيم غيره، وليس بأهل لِمَا قصده.

وقيل: جاء التعريض من جهةِ أنَّ المحدَّث عنه كان متزكِّياً من الآثام متَّعظاً.

وقيل: ضمير «لعلَّه» للكافر، والترجِّي راجعٌ إلى الرسول ﷺ، أي: إنك طعمتَ في تزكِّيه بالإسلام وتذكُّرِه بالموعظة، ولذلك أعرضتَ عن غيره، فما يُدريك أنَّ ما طمِعتَ فيه كائنٌ. وضعِّف بعدم تقدُّمِ ذكر الكافر، وبإفراد الضمير، والظاهرُ جمعه، أي: بناءً على المشهور في أنَّ مَن تشاغَل عليه الصلاة والسلام به كان جمعاً، وجاء في بعض الروايات أنه كان واحداً.

وقرأ الأعرج وعاصم في رواية: «أو يَذْكُر» بسكون الذال وضمِّ الكاف[2].

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٠٧-١٠٨.

(٢) البحر ٨/ ٤٢٧.

وقرأ الأكثر: «فتنْفَعُه» بالرفع[1] عطفاً على «يذَّكَّر»، وبالنصب قرأ عاصمٌ في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفرانيُّ[2]، وهو عند البصريين بإضمارِ «أن» بعد الفاء، وعند الكوفيين في جواب الترجِّي، وهو كالتمنِّي عندهم ينصب في جوابه.

وفي «الكشف» أنَّ النصب يؤيِّد رجوعَ ضميرِ «لعلَّه» على الكافر؛ لإشمام الترجِّي معنى التمنِّي لبعد المرجوِّ من الحصول، أي: بالنظر إلى المجموع؛ إذ قد حصل من العباس. وعلى السابق وجهُه ترشيحُ معنى الهضم، فتذكَّر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ أي: عن الإيمان وعمَّا عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن، وفي معناه ما قيل: استغنى بكفره عمَّا يَهديه.

وقيل: أي: وأمَّا مَن كان ذا ثروةٍ وغنًى. وتعقِّب بأنه لو كان كذلك لذكر الفقر في مقابله. وأجيب بما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تتصدَّى وتتعرَّض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه، وفيه مزيدُ تنفيرٍ له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبِر مخلٌّ بالمروءة، ومن هنا قيل:

لا أبتغي وصلَ مَن لا يبتغي صِلَتي ... ولا أَلِينُ لِمَن لا يبتغي لِيني

واللهِ لو كرِهَتْ كفِّي مصاحَبتي ... يوماً لقلتُ لها عن صُحبتي بِيْنِي[3]

---

(١) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٢) المصدران السابقان، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٣) البيتان في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٥ غير منسوبين. والشطر الأخير فيه:

لقلت للكف بيني إذ كرهتيني

وهما في تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ٣٥١، والوافي بالوفيات ١٦/ ٢٦٠-٢٦١، وفوات الوفيات ٢/ ١١١-١١٢ لصالح بن عبد القدوس الشامي، وهو الذي قتله المهدي في الزندقة، والرواية عندهم:

يا صاح لو كرهت كفي منادمتي ... لقلت إذ كرهَتْ كفي لها: بِيني

لا أبتغي وصلَ مَن لا يبتغي صلتي ... ولا أبالي حبيباً لا يباليني

وقرأ الحِرْميَّان: «تَصَّدَّى» بتشديد الصاد[١]، على أنَّ الأصلَ: تَتصدَّى، فقُلبت التاء صاداً وأدغمت.

وقرأ أبو جعفر: «تُصَدَّى» بضمِّ التاء وتخفيف الصاد مبنيًّا للمفعول[٢]، أي: تُعرَّض، ومعناه: يدعوك إلى التصدِّي والتعرُّضِ له داعٍ من الحرص ومزيد الرغبة في إسلامه.

وأصلُ «تصدَّى» على ما في «البحر»[٣]: تصدَّد، من الصدد: وهو ما استقبلك وصار قُبالتك، يقال: داري صدَدَ داره، أي: قُبالتها. وقيل: من الصَّدَى: وهو العطش. وقيل: من الصَّدَى: وهو الصوت المعروف.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾ وليس عليك بأسٌ في أن لا يتزكَّى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمَّن أسلم. فـ «ما» نافيةٌ والجملة حالٌ من ضمير «تصدّى»، والممنوع عنه في الحقيقة الإعراضُ عمَّن أسلم، لا الإقبالُ على غيره والاهتمامُ بأمره حرصاً على إسلامه. ويجوز أن تكون «ما» استفهامية للإنكار، أي: أيُّ شيء عليك في أن لا يتزكَّى. ومآله النفي أيضاً.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: حالَ كونه مُسرعاً طالباً لِمَا عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي: يخاف الله تعالى. وقيل: أذيَّةَ الكفَّار في الإتيان. وقيل: العثارَ والكبوةَ؛ إذ لم يكن معه قائدٌ، والجملة حالٌ مِن فاعلِ «يَسْعَى»، كما أنَّ جملةَ «يَسْعَى» حالٌ من فاعل «جاءك».

واستظهر بعضُ الأفاضل أنَّ النظم الجليلَ من الاحتباك؛ ذَكَر الغنى أوَّلاً للدلالة على الفقر ثانياً، والمجيءَ والخشيةَ ثانياً للدلالة على ضدِّهما أوَّلاً. وكأنه حَملَ «استغنى» على ما نُقل أخيراً، واستشْعَر ما قيل عليه فاحتاج لدفعه إلى هذا التكلُّف، وعدمُ الاحتياج إليه على ما نقلناه في غاية الظهور.

---

(١) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٩، والمحتسب ٢/ ٣٥٢، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٧. ونسبها في مجمع البيان ٣٠/ ٣٤ لأبي جعفر الباقر.
(٣) ٨/ ٤٢٥.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ تتشاغل، يقال: لَهِيَ عنه ـ كرَضِيَ ورَمَى ـ والْتَهى وتلهَّى. وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيهٌ على أنَّ مناطَ الإنكار خصوصيتُه عليه الصلاة والسلام.

وتقديم «له» و«عنه» ـ قيل ـ للتعريض بالاهتمام بمضمونهما. وقيل: للعناية؛ لأنهما منشأُ العتاب. وقيل: للفاصلة. وقيل: للحصر.

وذكر التصدِّي في المستغني دون الاشتغال به ـ وهو المقابل للتلهِّي عن المُسرِع الخاشي ـ والتلهِّي عنه دون عدم التصدي له ـ وهو المقابل للتصدِّي لذلك ـ قيل: للإشعار بأنَّ العتاب للاهتمام بالأول لا للاشتغال به، إذ الاشتغال بالكفار غيرُ ممنوع، وعلى الاشتغال عن الثاني لا لأنه لا اهتمامَ له ﷺ في أمره، إذ الاهتمامُ غيرُ واجب لأنه عليه الصلاة والسلام ليس إلا مُنذِراً.

وقرأ البزي عن ابن كثير: «عَنْهُ تَّلَهَّى» بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعَّل[1].

وأبو جعفر: «تُلَهَّى» بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول[2]، أي: يَشغلك الحرص على دعاء الكافر للإسلام.

وطلحة: «تَتَلهى» بتاءين، وعنه: بتاء واحدة وسكون اللام[3].

﴿كَلَّآ﴾ مبالغة في إرشاده ﷺ إلى عدم معاودةِ ما عوتب عليه ﷺ، وقد نزل ذلك كما في خبرٍ رواه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بعد أن قَضى عليه الصلاة والسلام نجواه وذهب إلى أهله[4].

وجوِّز كونه إرشاداً بليغاً إلى ترك المعاتَب عليه عليه الصلاة والسلام؛ بناءً على أنَّ النزول في أثناء ذلك وقبل انقضائه، وفي بعض الآثار أنه ﷺ بعدُ ما عَبَس في وجه فقيرٍ ولا تصدَّى لغنيٍّ، وتأدَّب الناس بذلك أدباً حسناً، فقد رُوي عن سفيان الثوريِّ أنَّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

---

(١) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٢، والبحر ٨/ ٤٢٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٢٨.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٣.

والضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ للقرآن العظيم، والتأنيثُ لتأنيث الخبر، أعني قولَه سبحانه: ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي: موعظةٌ يجب أن يُتَّعظ بها ويُعمَل بموجبها، وكذا الضميرُ في قوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

والجملةُ المؤكَّدة تعليلٌ لِمَا أفادته «كلَّا» ببيانِ علوِّ رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدَّى عليه الصلاة والسلام له، والجملة الثانية اعتراضٌ جيء به للترغيب في القرآن والحثِّ على حفظه أو الاتعاظ به، واقتران الجملة المعترَض بها بالفاء قد صرَّح به ابن مالك في «التسهيل»[1] من غير نقل اختلافٍ فيه، وكلام الزمخشريِّ في «الكشاف»[2] عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] نصٌّ في ذلك، نعم قيل: إنه قيل له: «فمن شاء ذكره» اعتراضٌ. فقال: لا؛ لأنَّ الاعتراضَ شرطه أن يكون بالواو أو بدونه، فأما بالفاء فلا، أي: وهو استطراد. لكن تعقِّب بأنَّ النقلَ لمنافاته ذلك ليس بثبت، ويمكن أن يكون في القوم مَن يُنكر ذلك، فوافقه تارةً وخالفه أخرى، وما ألطف قولَ السعد في «التلويح»: الاعتراض يكون بالواو والفاء:

واعْلَمْ فَعِلْمُ المرءِ ينفَعُه[3]

هذا، وقيل: الضميرُ الأول للسورة أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة، والتذكيرُ لأنها بمعنى الذكر والوعظ، أو لمرجع الأول، والتذكيرُ باعتبارِ كون ذلك قرآناً. ورُجِّح بعدم ارتكابِ التأويل قبل الاحتياج إليه.

وتعقِّب بأنه ليس بذاك، فإن السورةَ أو الآيات وإن كانت متَّصفةً بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الصفات الشريفة، لكنها ليست مما أُلقي على مَن استغنى عنه واستحقَّ بسبب ذلك ما سيأتي إن شاء الله تعالى من الدعاء عليه والتعجُّب من كفره المفرِط؛ لنزولها بعد الحادثة.

---

(١) ص١١٣.
(٢) ٢/ ٤١١.
(٣) سلف ١/ ٤٢٨.

وجوّز كون الضميرين للمعاتبة الواقعة، وتذكيرُ الثاني لكونها عتاباً. وفيه أنه يأباه الوصفُ بالصفات الآتية، وإن كان باعتبارِ أنَّ العتاب وقع بالآيات المذكورة قبلُ وهي متَّصفة بما ذُكر جاء ما سمعتَ آنفاً.

وقيل: لك أن تجعلهما للدعوة إلى الإسلام، وتذكيرُ الثاني لكونها دعاء. وهذا على ما فيه مما يأباه المقام.

وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلِّقٌ بمضمَر هو صفةٌ لـ «تذكرة» أو خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، أي: كائنةٌ أو مثبتَةٌ في صحفٍ، والمراد بها الصحف المنتَسَخة من اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس: هي اللوح نفسه. وهو غيرُ ظاهر.

وقيل: الصحفُ المنزَّلة على الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقيل: صحفُ المسلمين، على أنه إخبارٌ بالغيب، فإنَّ القرآن بمكة لم يكن في الصحف، وإنما كان متفرِّقاً في الدفاف والجريد ونحوهما، وأولُ ما جُمع في صحيفةٍ في عهد أبي بكر الصديق ﷺ. وهو كما ترى.

﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ عند الله عز وجل ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلام(١)، أو مرفوعةِ القَدْرِ كما قيل.

﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ منزَّهة عن مساس أيدي الشياطين، أو عن كلِّ دنسٍ، على ما رُوي عن الحسن. وقيل: عن الشبه والتناقُض، والأول ـ قيل ـ مأخوذٌ من مقابلته بقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: كَتَبَةٍ من الملائكة عليهم السلام كما قال مجاهد وجماعة، فإنهم ينسَخون الكتب من اللوح، وهو جمع: سافرٍ، أي: كاتبٍ، والمصدر: السَّفْرُ، كالضرب.

وعن ابن عباس: هم الملائكة المتوسِّطون بين الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام، على أنه جمعُ سافرٍ أيضاً بمعنى سفيرٍ، أي: رسولٍ وواسطةٍ، والمشهورُ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٣، والبحر ٨/ ٤٢٨.

في مصدره بهذا المعنى السِّفارةُ بكسر السين وفتحها، وجاء فيه السَّفْر أيضاً كما في «القاموس»(١).

وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم سُفَراءُ بين الله تعالى والأمة، أو لأنهم يكتبون الوحي. ولا يخفى بعدُه، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام وظيفتُهم التلقِّي من الوحي لا الكَتْب لِمَا يُوحَى، على أنَّ خاتمهم ﷺ لم يكن يكتب القرآنَ، بل لم يكتب أصلاً على ما هو الشائع، وقد مرَّ تحقيقُه، وكذا وظيفتُهم إرشادُ الأمة بالأمر والنهي، وتعليمُ الشرائع والأحكام، لا مجرَّد السفارة إليهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن مُنَبِّه أنهم أصحابُ محمد ﷺ(٢). قيل: لأنهم سفراء ووسائط بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر الأمة، وقيل: لأنَّ بعضَهم يَسْفِر إلى بعضٍ في الخير والتعليم والتعلُّم.

وفي روايةٍ عن قتادة أنَّهم القُرَّاءُ. وكلا القولين ليس بالمعوَّل عليه.

وقد قالوا: هذه اللفظة مختصَّة بالملائكة عليهم السلام لا تكاد تطلق على غيرهم، وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة، ومادَّتُها موضوعةٌ بجميع تراكيبها لِمَا يتضمَّن الكشفَ، كسَفَرَت المرأةُ: إذا كشفَت القناعَ عن وجهها.

والباء ـ قيل ـ متعلِّقةٌ بـ «مُطَهَّرَة». وقيل: بمضمَرٍ هو صفةٌ أخرى لـ «صُحُف».

﴿كِرَامِۭ﴾ أي: أعزَّاء على الله تعالى معظَّمين عنده عز وجل، فهو من الكرامة بمعنى التوقير. أو متعطِّفين على المؤمنين يستغفرون لهم ويُرشِدونهم إلى ما فيه الخير بالإلهام، وينزلون بما فيه تكميلُهم من الشرائع، فهو من الكَرَم ضدِّ اللؤم.

﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: أتقياء، وقيل: مطيعين تعالى، من قولهم: فلانٌ يبرُّ خالقَه، أي: يُطِيعُه، وقيل: صادقين، من: بَرَّ في يمينه.

وهو جمعُ: بَرٍّ، لا غير، وأما أبرار فيكون جمعَ: بَرٍّ، كرَبٍّ وأرباب، وجمع: بارٍّ، كصاحب وأصحاب، وإن منعه بعض النحاة لعدم اطِّراده. واختَصَّ ـ على

---

(١) مادة (سفر).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

ما قيل ـ الجمعُ الأولُ بالملائكة والثاني بالآدميين في القرآن ولسان الشارع ﷺ، وكأن ذلك لأنَّ الأبرارَ من صِيَغ القلَّة دون البَرَرَة، ومتَّقو الملائكة أكثر من مُتَّقي الآدميين، فناسَبَ استعمال صيغة القلَّة وإن لم ترد حقيقتها في الآدميين دونهم.

وقال الراغب: خصَّ البررةُ بهم من حيث إنَّه أبلغ من أبرار، فإنه جمعُ: بَرٍّ، وأبرار جمع: بارٍّ، وبرٌّ أبلغ من بارٍّ، كما أنَّ عدلاً أبلغُ من عادل[1]. وكأنه عَنى أنَّ الوصف بـ «بَرٍّ» أبلغ ـ لكونه من قبيل الوصف بالمصدر ـ من الوصف بـ «بار»، لكن قد سمعتَ أنَّ أبراراً يكون جمعَ بَرٍّ كما يكون جمعَ بارٍّ، وأيضاً في كون الملائكة أحقَّ بالوصف بالأبلغ بالنسبة إلى الآدميين مطلقاً بحثٌ.

وقيل: إن الأبرارَ أبلغُ من البررة، إذ هو جمعُ: بارٍّ، والبَرَرَةُ جمع: بَرٍّ، وبارٌّ أبلغُ منه لزيادة بنيته، ولمَّا كانت صفاتُ الكمال في بني آدم تكون كاملةً وناقصةً وُصِفُوا بالأبرار إشارةً إلى مدحهم بأكمل الأوصاف، وأما الملائكة فصفات الكمال فيهم لا تكون ناقصةً فوُصِفوا بالبررة لأنه يدلُّ على أصل الوصف بقطع النظر عن المبالغة فيه لعدم احتياجهم لذلك، وإشارة لفضيلة البشر لِمَا في كونهم أبراراً من المجاهدة وعصيانِ داعي الجِبِلَّة. وفيه ما لا يخفى.

ومن استعمال البَرَرَة في الملائكة ما أخرجه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السَّفَرَة الكِرَام البَرَرة، والذي يقرأه وهو عليه شاقٌّ له أجران»[2].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه بأشْنع الدعوات وأفظعها ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ تعجيبٌ من إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقه الدعاءَ عليه، والمرادُ به إمَّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوتُه الجليلة الموجبةُ للإقبال عليه والإيمانِ به،

---

(١) المفردات (برر).

(٢) مسند أحمد (٢٤٢١١)، وصحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨) (٢٤٤)، وسنن أبي داود (١٤٥٤)، وسنن الترمذي (٢٩٠٤)، وسنن النسائي الكبرى (٧٩٩٢)، وسنن ابن ماجه (٣٧٧٩).

وإما الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده، ورجِّح هذا بأن الآية نزلت ـ على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة ـ في عتبة بن أبي لهب؛ غاضَبَ أباه فأسلم، ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهَّزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافرٌ بربِّ النَّجْم إذا هوى، فقال ﷺ: «اللَّهم ابعث عليه كَلْبَك حتى يفترسَه». فلمَّا كان في أثناء الطريق ذكر الدعاءَ، فجعل لمن معه ألفَ دينارٍ إن أَصبح حيًّا، فجعلوه وسط الرفقة، والمتاعُ حولَه، فأقبل أَسَدٌ إلى الرحال ووثب، فإذا هو فوقه فمزَّقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه، ويقول: ما قال محمد ﷺ شيئاً قطُّ إلا كان[(١)].

وسيأتي إن شاء الله تعالى خبرٌ في هذه القصَّة أطولُ من هذا الخبر فلا تغفل.

ثم إنَّ هذا كلامٌ في غاية الإيجاز، وقد قال جار الله: لا نرى أسلوباً أغلظَ منه، ولا أدلَّ على سخطٍ ولا أبعدَ شوطاً في المذمَّة مع تقارُب طرفيه، ولا أجمعَ لِلَّائِمَة على قِصَر مَتْنِه[(٢)]. حيث اشتمل على ما سمعتَ من الدعاء مراداً به ـ إذ لا يُتصوَّر منه تعالى ـ لازمُه، وعلى التعجُّب المراد به ـ لاستحالته عليه سبحانه ـ التعجيبُ لكلِّ سامع.

وقال الإمام: إنَّ الجملة الأولى تدلُّ على استحقاقهم أعظمَ أنواع العقاب عرفاً، والثانيةُ تنبيهٌ على أنَّهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً[(٣)].

ولم يُسمَع ذلك قبل نزول القرآن، وما نسب إلى امرئ القيس من قوله:

يتمنَّى المرءُ في الصيفِ الشتا ... فإذا جاء الشتا أنْكَرَهْ
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ ... قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهْ[(٤)]

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ مختصراً، وأخرجه بنحوه عن عكرمة صاحب الأغاني ١٦/ ١٧٦، وروى فيه عكرمة قصة خروجه إلى الشام عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ عن أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه، وفيه أن اسمه: لهب بن أبي لهب، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٨، والبحر ٨/ ٤٢٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١٩.

(٣) التفسير الكبير ٣١/ ٥٩.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٣، وورد صدر البيت الثاني في هامش الأصل برواية: لا بذا رَضِي

لا أصلَ له، ومَن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مُولَّد أراد الاقتباس، لا جاهليٌّ.

وجوَّز بعضهم أن يكون قولُه تعالى: (قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ) خبراً عن أنه سيقتل الكفارُ بإنزال آية القتال، وعُبِّر بالماضي مبالغةً في أنه سيتحقَّق ذلك. وليس بشيء، ونحوه ما قيل: إنَّ «ما» استفهاميةٌ، أي: أيُّ شيء أكفره؟ أي: جعله كافراً، بمعنى: لا شيءَ يُسوِّغ له أن يكفر.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ شروعٌ في بيان إفراطه في الكُفرَان بتفصيلِ ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعَم الموجبة لأنْ تُقابَل بالشكر والطاعة من إخلاله بذلك.

والاستفهامُ ـ قيل ـ للتحقير، وذِكْرُ الجواب أعني قولَه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ لا يقتضي أنه حقيقيٌّ؛ لأنه ليس بجوابٍ في الحقيقة بل على صورته، وهو بدلٌ من قوله سبحانه: (مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ). وجوِّز أن يكون للتقرير، والتحقيرُ مستفادٌ من «شيءٍ» المنكَّر، وقيل: التحقير يُفهم أيضاً من قوله سبحانه: (مِن نُّطْفَةٍ) إلخ، أي: من أيِّ شيءٍ حقيرٍ مَهينٍ خَلَقَه، من نطفة مَذِرةٍ خَلَقَه.

﴿فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ فهيَّأه لِمَا يصلُح له ويليق به من الأعضاء والأشكال، فالتقدير بمعنى التهيئة لِمَا يصلح ـ ولذا ساغ عطفُه بالفاء ـ دون التسوية؛ لأنَّ الخَلْق بمعنى التقدير بهذا المعنى أو يتضمَّنه فلا تصلح الفاءُ. وجوِّز أن يكون هذا تفصيلاً لِمَا أجمل أولاً في قوله تعالى: (مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) أي: فقدَّره أطواراً إلى أن أتمَّ خلقَه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ثم سهَّل مخرجَه من البطن ـ كما جاء في روايةٍ عن ابن عباس ـ بأنْ فَتَحَ فم الرحم ومدَّد الأعصاب في طريقه ونكس رأسَه لأسفلَ بعد أن كان في جهة العلوّ[1].

= ولا رَضِيَ بِذَا. وهذان البيتان نسبهما الذهبي في تاريخ الإسلام ١٣/ ٩٣٧ لجمال الدين النحوي.

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١ مختصراً.

وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وأبي صالح والسدِّي: المرادُ بـ «السبيل» سبيلُ النظر القويم المؤدِّي إلى الإيمان، وتيسيرُه له هو هبةُ العقل وتمكينُه من النظر[1].

وقال مجاهد والحسن وعطاء ـ وهو رواية عن الحبر أيضاً ـ: هو سبيلُ الهدى والضلال[2]، أي: سهَّل له الطريقَ الذي يريد سلوكَه من طريق الخير والهدى، وطريقِ الشرِّ والضلال، بأن أقْدَره عز وجل على كلٍّ ومكَّنه منه، والإقدار على المراد نعمةٌ ظاهرةٌ بقطع النظر عن خيريَّته وشَرِّيَّته، فلا يَرِد عليه أنه كيف يُعدُّ تسهيلُ طريق الشرِّ والضلال من النعم؟

وقيل: إنه عُدَّ منها لأنه لو لم يكن مسهَّلاً كسبيل الخير لم يستحقَّ المدحَ والثواب بالإعراضِ عنه وتركِه. وهو مبنيٌّ على القول بأنَّ ترك المحرَّم كالزنى مع عدم القدرة عليه لعِنَّةٍ مثلاً لا يثاب عليه. وقيل: يثاب ويُمدح عليه إذا قدَّر التارك في نفسه أنَّه لو تمكَّن لم يفعل. وقال بعضهم: العجزُ عن الشرِّ نعمة، وأنشد:

جكونَه شُكْرِ إين نعمت كِزَارَمْ ... كه زورِ مَرْدُم آزاري نَدَارَمْ[3]

ونصبُ «السبيل» بمضمَرٍ يفسِّره الظاهر، وفيه مبالغةٌ في التيسير وتمكينٌ في النفس بسببِ التكرير، قيل: وفي تعريفه باللام دون الإضافة إشعارٌ بعُمومه، فإنَّه لو قيل: سَبيلَه، أَوْهَم أنَّه على التوزيع وأنَّ لكلِّ إنسانٍ سبيلاً يخصُّه. وخَصَّ بعضُهم هذه النكتةَ بالمعنى الأخير لـ «السبيل» فتدبَّر، وعلى هذا المعنى قيل: إنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ الدنيا طريقٌ، والمقصد غيرها؛ لِمَا أشعرت به الآية من أنَّ الميسَّر سبيلُ المكلَّفين الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب. وفيه خفاءٌ.

وأيَّاما كان فالضميرُ المنصوب في «يسَّره» لـ «السبيل»، وليس في التفكيك لَبْسٌ حتى يكون نقصاً في البيان.

---

(١) البحر ٨/ ٤٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٦.

(٣) قوله: جكَونه، بالجيم والكاف الفارسيتين، معناه: كيف. إين، أي: هذا، أو هذه. زارم: فعل ماضٍ، بمعنى عجزتُ أو ضَعُفت. زور: قوة، مَقْدِرة. مردُم: إنسان، رجل. ندارم: لا أعرف. آزار: إيذاء. ومعنى البيت: كيف أؤدي شكرَ نعمةِ ضَعفي وعجزي عن إيذاء الناس.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ أي: جعله ذا قبرٍ تُوارى فيه جِيفتُه تكرمةً له، ولم يجعله مطروحاً على الأرض يستقذره مَن يراه وتَقتسمه السباع والطيرُ إذا ظفرت به كسائر الحيوان، والمراد من جعله ذا قبرٍ أمرُه عز وجل بدفنه، يقال: قَبَر الميتَ: إذا دفنه بيده، ومنه قول الأعشى:

لـو أسـنَـدَت مَـيْـتـاً إلـى نَـحْـرِهـا عـاش ولـم يُـنـقَـل إلـى قـابِـرِ[1]

وأقْبره: إذا أمر بدفنه أو مَكَّن منه، ففي الآية إشارةٌ إلى مشروعية دفن الإنسان، وهي مما لا خلافَ فيه، وأمَّا دَفْنُ غيره من الحيوانات فقيل: هو مباحٌ لا مكروه، وقد يُطلب لأمرٍ مشروع يَقتضيه، كدفع أذى جيفتِه مثلاً.

وعدُّ الإماتةِ من النعم لأنها وصلةٌ في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم.

وخُصَّت هذه النعم بالذكر لِمَا فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه، وما تتضمَّن من النعم التي هي محضُ فضلٍ من الله تعالى، فإذا تأمَّل ذلك العاقل علم قُبحَ الكفر وكفرانِ نعم الربِّ سبحانه وتعالى، فشَكَره جلَّ وعلا بالإيمان والطاعة.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ أي: إذا شاء إنشارَه أنشره، على القاعدة المعروفة في حذف مفعول المشيئة، وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ معيَّنٍ أصلاً، بل هو تابعٌ لها، وهذا بخلاف الإماتة فإنَّ وقتها معيَّنٌ إجمالاً على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعيَّة، وكذا الحال في وقت الإقبار بل هو أظهر في ذلك.

وقرأ شعيب بن الحَبْحاب[2] كما في «كتاب اللوامح» وابن أبي حمزة كما في تفسير ابن عطية: «نَشَرَه» بدون همزة[3]، وهما لغتان في الإحياء.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عمَّا هو عليه من كفران النعم البالغ نهايتَه، وقوله سبحانه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ بيانٌ لسبب الردع، و«لمَّا» نافيةٌ جازمةٌ،

---

(١) ديوان الأعشى ص١٨٩، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١١٣.

(٢) تحرفت في (م) إلى: الحجاب. والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ٤٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٦/ ٤٣٩، والبحر ٨/ ٤٢٩. وابن أبي حمزة هو شعيب بن دينار أبو بشر الحمصي الكاتب. توفي سنة (١٦٣هـ). السير ٧/ ١٨٩.

ونفيها غيرُ منقطع، و«ما» موصولةٌ، وضميرُ «أمره» إما للإنسان كالمستتر في «يَقْضِ»، والعائدُ إلى الموصول محذوفٌ، أي: به، أو للموصول على الحذف والإيصال، والعائدُ إلى الإنسان محذوفٌ، أي: إياه، قيل: والثاني أحسن؛ لأنَّ حذف المفعول أهون من حذف العائد إلى الموصول، والمراد بـ «ما أمره» جميعُ ما أمره، والمعنى على ما قال غير واحد: لم يَقْضِ من أول زمانٍ تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره. أو: من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميعَ ما أمره، فلم يَخرُج من جميع أوامره تعالى، إذ لا يخلو أحدٌ عن تقصيرٍ ما، ونُقل هذا عن مجاهد وقتادة، وفيه حملُ عدم القضاء على نفي العموم.

وتعقِّب بأنه لا ريبَ في أنَّ مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيقِ كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم، وظاهرٌ أنَّ ذلك لا يتحقَّق بهذا القدر من نوع تقصيرٍ لا يخلو عنه أحدٌ من أفراده. واختير أن يُحمل عدم القضاء على عموم النفي، إمَّا على أنَّ المحكوم عليه هو الإنسان المستغني أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق، بل على أنَّ مصداقَ الحكم بعدم القضاء بعضُ أفراده وقد أُسنِد إلى الكلِّ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وإما على أنَّ مصداقه الكلُّ من حيث هو كلٌّ بطريق رفع الإيجاب الكلِّيِّ دون السلب الكلِّي، فالمعنى: لمَّا يقضِ جميعُ أفراده ما أمره، بل أخلَّ به بعضُها(١) بالكفر والعصيان مع أنَّ مقتضى ما فصِّل من فنون النعماء الشاملة للكلِّ أن لا يتخلَّف عنه أحدٌ.

وعن الحسن أنَّ «كلَّا» بمعنى: حَقًّا، فيتعلَّق بما بعده، أي: حَقًّا لم يعمل بما أمره به.

وقال ابن فورك: الضمير في «يَقْضِ» تعالى، أي: لم يَقضِ اللهُ تعالى لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره إقامةً للحجَّة عليه بما لم يقضِ له. ولا يَخفى بعدُه، والظاهر عليه أنَّ «كلَّا» بمعنى: حَقًّا، أيضاً.

---

(١) أي: بعض الأفراد، كما أشير إلى ذلك في الأصل.

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ على معنى: إذا كان هذا حال الإنسان وهو أنه إلى الآن لم يقض ما أمره مع أنَّ مقتضى النعم السابقة القضاءُ، فلينظر إلى طعامه.. إلخ لعلَّه يقضي.

وفي «الحواشي العصامية»: لا يخفى ما في قوله تعالى: (لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ) من كمال تَهْييج الإنسان وتحريضه على امتثالِ ما يعقبه من الأمر بالنظر، وتفريعُ الأمر عليه مبنيٌّ على أنَّ الائتمارَ كما ينبغي إنما[1] يتيسَّر بعد الارتداع عمَّا هو عليه. والظاهر أنَّ المرادَ بالإنسان هنا نحو ما أريد به في قوله تعالى: (قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ).

ولَمَّا جوَّز صاحبُ الحواشي المذكورة حملَ عدم القضاء على السلب الكليِّ، وجَعَل الكلامَ في الإنسان المبالِغ في الكفر، قال: فالمراد بضمير «يَقْضِ» غيرُ الإنسان الذي أُمر بالنظر، فإنه عامٌّ فلذا أُظهِر.

وتضمَّن ما مرَّ ذكرَ النعم الذاتيَّة، أي: ما يتعلَّق بذات الإنسان من الذات نفسها ولوازمها، وهذا ذكرَ النعم الخارجية المقابلة لذلك، وقيل: الأولى نِعَمٌ خاصَّة، والثانية نِعَمٌ عامَّةٌ.

وقيل: تلك نِعَمٌ متعلِّقةٌ بالحدوث، وهذه نِعَمٌ متعلِّقة بالبقاء. وفيه نظر.

والظاهر أنَّ المرادَ بالطعام: المطعومُ بأنواعه، واقتصر عليه ولم يُذكَر المشروب؛ لأنَّ آثار القدرة فيه أكثر من آثارها في المشروب، واعتبار التغليب لا يخفى ما فيه، وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ بدلٌ منه بدلَ اشتمال، فإنه ـ لكونه من أسباب تكوُّنِه ـ كالمشتمل عليه، والعائد محذوف، أي: صَبَبْنا له.

وجوِّز كونه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، على معنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، أنا صَبَبْنا.. إلخ. وهو كما ترى.

وأيًّا ما كان، فالمقصود بالنظر هو البدل، وبذلك يضعف ما رُوي عن أبيٍّ وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أنَّ المعنى: فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعاً،

---

(١) في (م): أن، وهو تصحيف.

ليتأمَّل عاقبةَ الدنيا وما تَهالك عليه أهلُها[١]. ولعمري إنَّ هذا بعيدُ الإرادة عن السياق، ولا أظن أنه وقع على صحَّة روايته عن هؤلاء الأجلَّة الاتفاقُ.

وظاهر الصَّبِّ يقتضي تخصيصَ الماء بالغيث، وهو المرويُّ عن ابن عباس، وجوَّز بعضهم إرادةَ الأعمِّ، وقال: إنَّ في كلِّ ماء صبًّا من الله تعالى بخَلْق أسبابه على أصول النباتات. وأنت تعلم أنَّ إيصال الماء إلى أصول النباتات يَبعد تسميتُه صبًّا.

وتأكيد الجملة للاعتناء بمضمونها مع كونها مظنَّةً لإنكار القاصر لعدم الإحساس بفعلٍ من الله تعالى، وإنما يُعْرَفُ الاستنادُ إليه عز وجل بالنظر الصحيح.

وقرأ الأكثر: «إنَّا» بالكسر على الاستئناف البيانيِّ[٢]، كأنَّه لمَّا أمر سبحانه بالنظر إلى ما رزقه جل وعلا من أنواع المأكولات، قيل: كيف أُحْدِثَ ذلك وأُوجدَ بعد أن لم يكن. فقيل: إنَّا صببنا.. إلخ.

وقرأ الإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجههما ورضي سبحانه عنهما: «أنَّى صَبَبْنَا» بفتح الهمزة والإمالة[٣]، على معنى: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

﴿صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ عجيباً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالنبات، كما قال ابن عباس ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بديعاً لائقاً بما يشقُّها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة. وقيل: شَقّها بالكِراب[٤]، وإسناده إلى ضميره تعالى مجازٌ من باب الإسناد إلى السبب، وإن كان الله تعالى عز وجل هو الموجِد حقيقةً، فقد تبيَّن في موضعه أنَّ إسناد الفعل حقيقةً لمن قام به، لا مَن صدر عنه إيجاداً[٥]، ولهذا يشتقُّ اسم الفاعل له.

---

(١) البحر ٨/ ٤٢٩.
(٢) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨، وقرأ بفتح الهمزة عاصم وحمزة والكسائي وخلف.
(٣) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩.
(٤) بكسر الكاف، مصدر كربتُ الأرض: إذا قَلَبْتَها للحرث. حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٤.
(٥) قوله: لا من صدر عنه إيجاداً، أي: لا لمن أوجده. حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٤.

وتعقّب بأنه يأباه كلمةُ «ثم» والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾، فإنَّ الشقَّ بالمعنى المذكور لا ترتُّب بينه وبين الإمطار أصلاً، ولا بينه وبين إنبات الحبِّ بلا مهلة، فإنَّ المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامَل النموُّ وينعقد الحَبُّ، فإنَّ انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة، على أنَّ مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارج عن العادات المعهودة، كما ينبئ عنه إردافُ الفعلَين بالمصدرَين، فتوسيطُ فعل المنعَم عليه في حصول تلك النعم مُخلٌّ بالمرام، وللبحث فيه مجالٌ.

وقيل عليه أيضاً: إنَّ الشق بالكراب لا يظهر في العنب والزيتون والنخل.

وأجيب بأنه ليس من لوازم العطف تقييد المعطوف بجميع ما قُيِّد به المعطوف عليه، ويحتمل أن يكون ذكرُ الكِراب في القيل على سبيل التمثيل، أو أريد به ما يشمل الحفرَ.

وجوِّز أن يكون المراد شقَّها بالعيون، على أنَّ المراد بصبِّ الماء إمطارُ المطر، وبهذا إجراءُ الأنهار. وتعقِّب بأنَّه يأباه ترتُّبُ الشقِّ على صبِّ الماء بكلمة التراخي، وأيضاً ترتُّب الإنبات على مجموع الصبِّ والشقِّ بالمعنى المذكور لا يلائم قولَه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا﴾ الآية [النبأ: ١٤-١٥] لإشعاره باستقلال الصبِّ وإنزالِ الغيث في ذلك. ودفعا بأنَّ ماء العيون من المطر لا من الأبخرة المحتبسة في الأرض. ولا يخفى على ذي عين أنَّ هذا الوجه بعيدٌ متكلَّف.

والمراد بالحبِّ جنسُ الحبوب التي يُتقوَّت بها وتُدَّخر كالحنطة والشعير والذرة وغيرها.

﴿وَعِنَبٗا﴾ معروفٌ ﴿وَقَضۡبٗا ٢٨﴾ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو الفِصْفِصَة[1]. وقيَّدها الخليلُ بالرطبة، وقال: إذا يَبست

(١) الدر المنثور ٦/٣١٦، وتفسير الطبري ٢٤/١١٦. وورد في هامش الأصل: الفِصْفَصَةُ، وتقال بالسين، وتسمَّى بالتركية: بونجه، وبالفارسية: إسْبسْت. اهـ. وقال الشهابي في معجم =

فهي القتُّ[١]. وسمِّيت بمصدرِ قَضَبَه، أي: قطعه، مبالغةً، كأنها لتكرُّر قطعها وتكثُّره نفسُ القطع. وضَعَّف هذا مَن فسَّر الأبَّ بما يشمل ذلك.

وقيل: هو كلُّ ما يُقضَب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهَلْيَون[٢].

وفي «البحر» عن الحِبْر أنه الرطب، وهو يُقضَب من النخل، واستأنس له بذكره مع العنب[٣]. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩﴾ هما معروفان ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ رياضاً ﴿غُلْبًا ۝٣٠﴾ أي: عظاماً، وأصله جمعُ: أغْلَب وغَلباء صفةُ العنق، وقد يوصف به الرجل لكن الأول هو الأغلب، ومنه قول الأعشى:

يَمشي بها غُلْبُ الرِّقاب كأنَّهم ... بُزلٌ كُسِين من الكُحَيلِ جِلالَا[٤]

ووصْفُ الحدائق بذلك على سبيل الاستعارة، شُبِّه تكاثُفُ أوراق الأشجار وعروقها بغِلَظ الأوداج، وانتفاخ الأعصاب مع اندماج بعضها في بعضٍ في غِلَظ[٥] الرقبة، ولا يَرِد أنَّ الغلظ في الأشجار أقوى؛ لأنَّ الأمر بالعكس نظراً إلى الاندماج وتقوِّي البعض بالبعض حتى صارت شيئاً واحداً.

= الألفاظ الزراعية ص٤٠١: الفصفصة جنس نبات كلئيَّة عُشبيَّةٍ من القرنيات، فيه أنواع تزرع، وأنواع تنبت، والفصفصة الزراعية هي الفصَّة في الشام، والبرسيم الحجازي في مصر.

(١) العين ٥/ ٥٢، و٥/ ١٩.

(٢) قال الشهابي في معجمه ص٦٠: هليون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية والقبيلة الهليونية، فيه نوع زراعي مشهور، وأنواع للتزيين، وأنواع برية يتبقّلونها ويستعملونها.

(٣) البحر ٨/ ٤٢٩.

(٤) كذا نسبه للأعشى، وهو في الكشاف ٤/ ٢٢٠، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٥، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٩٤ عن عمرو بن معد يكرب. وورد في البحر والدر: يسعى، بدل: يمشي، وفي البحر: الشعور، بدل: الكحيل. وبُزُلٌ: جمع بَزول، وهو جمل أو ناقة في تاسع سنه. القاموس (بزل). والكُحَيل: ورد في هامش الأصل و(م): مصَغَّر، وهو النفط يطلى به الجرب. اهـ منه. والجِلال: جمع جلٍّ (بضم الجيم وفتحها) ما تُلبسه الدابة لتصان به. القاموس (جلل).

(٥) كذا في الأصل و(م): في غلظ، ولعل الصواب: بغلظ، كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٥.

وجوّز أن يكون هناك مجازٌ مرسل كما في المَرْسِن، بأن يراد بالأغلَب الغليظُ مطلقاً، وتجوّز في الإسناد أيضاً؛ لأنَّ الحدائق نفسَها ليست غليظةً بل الغليظُ أشجارُها. وقال بعض: المراد بالحدائق نفس الأشجار لمكان العطف على ما في حيِّز «أنبتنا» فلا تغفل.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ قيل: هي الثمار كلُّها. وقيل: بل هي الثمار ما عدا العِنَب والرمان. وأيَّاما كان فذكرُ ما يدخل فيها أولاً للاعتناء بشأنه.

﴿وَأَبًّا ٣١﴾ عن ابن عباس وجماعة أنَّه الكلأ والمرعى(١)، من: أبَّه: إذا أمَّه وقصده؛ لأنه يُؤَمُّ ويقصد. أو من: أبَّ لكذا: إذا تهيأ له؛ لأنَّه متهيِّئٌ للرعي، ويطلق على نفس مكان الكلأ، ومنه قوله:

جِذْمُنا قيسٌ ونجد دارنا ولنا الأبُّ بها والمَكْرَعُ(٢)

وذكر بعضهم أنَّ ما يأكله الآدميُّون من النبات يسمَّى الحصيدةَ والحصيد، وما يأكله غيرهم يسمَّى الأبَّ، وعليه قول بعض الصحابة يمدح النبيَّ ﷺ:

له دعوةٌ ميمونةٌ ريحُها الصبا بها يُنبِت الله الحصيدةَ والأبَّا(٣)

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه التِّبْن خاصَّة(٤).

وقيل: هو يابسُ الفاكهة؛ لأنها تُؤَبُّ وتُهيَّأ للشتاء للتفكُّه بها.

وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيميِّ قال: سُئل

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢١-١٢٢، وهو قول الحسن ومجاهد أيضاً.

(٢) جمهرة اللغة ١/ ١٣، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩، والكشاف ٤/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٤٢٥، والكلام منه. وورد في هامش الأصل و(م): جِذْمُنا: بكسر الجيم، أي: أصلنا. اهـ منه. وكذا هو في القاموس (جذم). والمَكرَع: مفعل من الكَرَع وهو ماء السماء يُكرَع فيه. اللسان (كرع).

(٣) البيت في النكت والعيون ٦/ ٢٠٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٦، والبحر ٨/ ٤٢٥ دون نسبة، وهو في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيطة، قدم على النبي ﷺ مع جماعة من أهله، ولقوه بين الجحفة والمدينة. ذكره الحافظ في ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٢٦.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٧.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الأبِّ ما هو؟ فقال: أيُّ سماءٍ تُظلُّني وأيُّ أرضٍ تُقلُّني إذا قلتُ في كتاب الله تعالى ما لا أعلم(١).

وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن أنس أنَّ عمر رضي الله عنه قرأ على المنبر: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: كلٌّ هذا قد عرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفض عصا كانت في يده، فقال: هذا لعَمْر الله هو التكلُّف، فما عليك يا ابن أمِّ عمر أن لا تدري ما الأبُّ، ابتغوا ما بيِّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فَكِلُوه إلى ربِّه(٢).

وفي «صحيح البخاري» من رواية أنس أيضاً: أنه قرأ ذلك وقال: فما الأبُّ؟ ثم قال: ما كُلِّفنا، أو: ما أُمرنا بهذا(٣).

ويتراءى من ذلك النهيُ عن تتبُّع معاني القرآن والبحثِ عن مشكلاته، وفي «الكشاف»: لم يَذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبرُ همَّتهم عاكفةً على العمل، وكان التشاغل بشيءٍ من العلم لا يعمل به تكلُّفاً [عندهم]، فأراد رضي الله عنه أنَّ الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد عُلم من فحواها أنَّ الأبَّ بعضُ ما أنبت سبحانه للإنسان متاعاً له أو لأنعامه، فعليك بما هو أهمُّ من النهوض بالشكر له عز وجل على ما تبيَّن لك ولم يُشْكِل مما عدَّد من نعمه تعالى،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، وفضائل القرآن ص٢٢٧، وفيه انقطاع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، وطبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٧، وفضائل القرآن ص٢٢٧، وسنن سعيد بن منصور (٤٣ - تفسير)، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٢٠، والمستدرك ٢/ ٥٥٩، وهو في شعب الإيمان (٢٢٨١)، وتاريخ بغداد ١١/ ٤٦٨-٤٦٩.

(٣) وهم المصنف في إحالة هذا اللفظ على البخاري، إذ إن البخاري رواه برقم (٧٢٩٣) عن أنس بلفظ: كنا عند عمر، فقال: نُهينا عن التكلُّف. مختصراً. وما أورده المصنف هو لفظ الحميدي الذي أورده في الجمع بين الصحيحين (٦١) بعد ذكر رواية البخاري، قال: وفي رواية عن ثابت عن أنس أنَّ عمر قرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾... إلخ. اهـ. وهذه الرواية أخرجها الإسماعيلي في المستخرج من طريق هشام عن ثابت، كما قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٧١.

ولا تتشاغلْ عنه بطلب معنى الأبِّ ومعرفة النبات الخاصِّ الذي هو اسمٌ له، واكتَفِ بالمعرفة الجمليَّة إلى أن يتبيَّن لك في غير هذا الوقت، ثم وصَّى الناسَ بأن يَجْرُوا على هذا السَّنَنِ فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن[١]. انتهى.

وهو قُصارى ما يقال في توجيه ذلك، لكن في بعض الآثار عن الفاروق كما في «الدر المنثور»[٢] ما يبعدُ فيه ـ إن صحَّ ـ هذا التوجيه.

بقي شيء وهو أنه ينبغي أن يعلم[٣] أنَّ خفاء تعيين المراد من الأبِّ على الشيخين رضي الله عنهما ونحوها من الصحابة، وكذا الاختلاف فيه، لا يستدعي كونَه غريباً مُخلًّا بالفصاحة وأنَّه غيرُ مستعمل عند العرب العرباء، وقد فسَّره ابن عباس لابن الأزرق بما تعتلف منه الدوابُّ، واستشهد له بقول الشاعر:

ترى به الأبَّ واليقطينَ مُختلِطا[٤]

ووقع في شعر بعض الصحابة كما سمعتَ، ومَن تتبَّع وجد غير ذلك.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: إما مفعولٌ له، أي: فَعَل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم. فإنَّ بعضَ النعم المعدودة طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابِّهم، ويوزِّع وينزِّل كلٌّ على مقتضاه، والالتفات لتكميل الامتنان. وإما مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَر بحذف الزوائد، أي: متَّعكم بذلك متاعاً، أو لفعلٍ مرتَّبٍ عليه، أي: فتمتَّعتُم بذلك متاعاً، أي: تمتُّعاً. أو مصدرٌ من غير لفظه، فإنَّ ما ذُكر من الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع، وقد مرَّ الكلام في نظيره. فتذكَّر[٥].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ينظر ٦/ ٣١٦.

(٣) قوله: أن يعلم، ليس في (م).

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ للطستي في مسائله، وهو في الإتقان ١/ ٤١١-٤١٢، وتمام البيت:

على الشريعة يجري تحتها الغَرْبُ

والشريعة: مورد الشاربة. وهم قوم يسكنون على ضفة النهر. والغرب: الدلو العظيمة. القاموس (شرع) و(غرب).

(٥) ينظر تفسير الآية (٣٣) من سورة النازعات.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ شروعٌ في بيانِ أحوال معادهم بعد بيان ما يتعلَّق بخَلْقِهم ومعاشهم، والفاء للدلالة على ترتُّب ما بعدها على ما يُشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقربِ اضمحلالها، و«الصاخَّة» هي الداهيةُ العظيمة، من صَخَّ بمعنى أصاخ، أي: استَمَع، والمراد بها النفخة الثانية، ووُصِفت بها لأنَّ الناسَ يَصِخُّون لها فجُعلت مُستَمِعةً مجازاً في الطرف أو الإسنادِ.

وقال الراغب: الصاخَّةُ: شدَّةُ صوت ذي النطق، يقال: صخَّ يَصِخُّ فهو صاخٌّ[(١)]. فعليه هي بمعنى الصائحة مجازاً أيضاً.

وقيل: مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر، أي: صكَّه.

وقال الخليل: هي صيحةٌ تصخُّ الآذانَ صخًّا، أي: تُصِمُّها لشدَّة وقعتها[(٢)]. ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قولَه: الصاخَّة هي التي تُورِث الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعة، وهو من بديع الفصاحة كقوله:

أصمَّ بك الدَّاعي وإن كان أسْمَعَا[(٣)]

ثم قال: ولعمْرُ الله تعالى إنَّ صيحةَ القيامة مُسمِعة تُصِمُّ عن الدنيا وتُسمِع أمورَ الآخرة[(٤)].

والكلام في جواب «إذا» وفي «يوم» من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ على نحو ما تقدَّم في «النازعات»، فتذكَّره فما في العهد من قدم[(٥)]. أي: يومَ يُعرِض عنهم ولا يصاحبهم ولا يَسأل

---

(١) المفردات (صخخ).

(٢) العين ٤/ ١٣٥.

(٣) صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩، ولفظ البيت فيه وفي الأغاني ١٦/ ٣٨٧، والوافي بالوفيات ١٢/ ٤٢٩، ومعجم الأدباء ٨/ ٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٩: الناعي. بدل: الداعي. وعجزه:

وأصبح مَغْنى الجُودِ بعدَك بَلْقَعا

(٤) تفسير القرطبي ٢٢/ ٨٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، وعنه نقل المصنف.

(٥) ينظر: ٣٠/ ٣٥.

عن حالهم كما في الدنيا؛ لاشتغاله بحال نفسه كما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ فإنَّه استئنافٌ واردٌ لبيان سبب الفرار، وجَعْلُه جوابَ «إذا» والاعتذارُ عن عدم التصدير بالفاء بتقدير الماضي بغير «قد» أو المضارعِ المثبتِ، أو بإلغاء[١] إبدالِ «يومَ يَفِرُّ المرء» عنه إياه؛ لأنَّ البدل لا يطلب جزاءً = لا يخفى حاله على مَن شرط الإنصافَ على نفسه.

أي: لكلٍّ واحد من المذكورين شغلٌ شاغل وخَطْبٌ هائل يكفيه في الاهتمام به؛ وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ والحاكم وصحَّحه عن أمِّ المؤمنين سودة بنت زمعة قالت: قال النبيُّ ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً، قد ألجمهم العرقُ وبلغ شحومَ الآذان». قلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضُهم إلى بعض! قال: «شُغِل الناس عن ذلك». وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ الآية[٢].

وجاء في رواية الطبرانيِّ عن سهل بن سعد أنَّه قيل له عليه الصلاة والسلام: ما شَغَلهم؟ فقال ﷺ: «نَشْرُ الصحائف، فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردَل»[٣].

وقيل: يفرُّ منهم لعلمه أنهم لا يُغنُون عنه شيئاً. وكلام «الكشاف» يُشعِر بذلك[٤]، ويأباه ما سمعتَ، وكذا ما قيل: يفرُّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتَبِعات،

---

(١) تحرفت في (م) إلى: بالفاء.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، والمعجم الكبير ٢٤/ ٣٤، والمستدرك ٢/ ٥١٤-٥١٥، وأورده البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٢٠ بعد حديث (٣٥٩)، وهو عند البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) بنحوه.

(٣) لم نقف عليه عن سهل بن سعد، بل أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٧)، وفي الكبير (كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٣) عن أم سلمة ﵂ مرفوعاً. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن أبي موسى بن عياش، وهو ثقة. اهـ. وأما حديث سهل بن سعد فأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٦) والكبير (٥٨٧٦) بلفظ: قال النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة مُشاة عراة غُرْلاً». وزاد في الأوسط: فقيل: يا رسول الله، ينظر الرجال إلى النساء؟ فقال: «لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه». قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٣٣: وفيها إبراهيم بن حماد بن أبي حازم ضعفه الدارقطني. وبقية رجال الكبير رجال الصحيح.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠، حيث قال فيه: يفرّ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً.

يقول الأخ: لَمْ تُواسِني بمالك. والأبوان: قصَّرتَ في بِرِّنا. والصاحبة: أطعمتَني الحرام، وفعلتَ وصنعتَ. والبنون: لم تُعلِّمنا ولم تُرشِدنا. ويُشعر بذلك ما أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال: ليس شيءٌ أشدَّ على الإنسان يومَ القيامة من أن يرى مَن يعرفه مخافةَ أن يكون يطلبه بمظلمةٍ، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ الآية[1].

وذكر المرء بناءً على أنه الرجل لا الإنسان؛ ليعلم منه حالُ المرأة من باب أولى. وقيل: هو من باب التغليب. وفيه نظر.

وجَعَل القاضي ذكرَ المتعاطفات على هذا النمط من باب الترقِّي على اعتبار عطف الأب على الأمِّ سابقاً على عطفهما على الأخ، فيكون المجموع معطوفاً عليه، وكذا في صاحبته وبَنِيْه، فقال: تأخير الأحبِّ فالأحبِّ للمبالغة، كأنه قيل: يفرُّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبَنِيْه[2]. ولا يخفى تكلُّفُه، مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحبِّ، ولعلَّ عدم مراعاة تَرَقٍّ أو تَدَلٍّ لهذا الاختلاف مع الرمز إلى أنَّ الأمر يومئذٍ أبعدُ من أن يخطُر بالبال فيه ذلك.

ورُوي عن ابن عباس أنه يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، ويفرُّ إبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ويفرُّ نوحُ عليه السلام من ابنه، ويفرُّ لوطٌ عليه السلام من امرأته[3]. وفي خبرٍ رواه ابن عساكر عن الحسن نحو ذلك، وفيه: فيرون أنَّ هذه الآية - أعني: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ إلخ - نزلت فيهم[4]. وكِلَا الخبرين لا يعوَّلُ عليهما، ولا ينبغي أن يُلتفتَ إليهما كما لا يخفى.

والذي أَدِينُ اللهَ تعالى به نجاةُ أبويه ﷺ، وقد أَلَّفتُ رسائلَ في ذلك رغماً لأنف عليٍّ القاري ومَن وافقه، وأعتقد أن جميع آبائه عليه الصلاة والسلام لاسيما مَن وَلَداه بلا واسطةٍ أوفرُ الناس حظًّا مما أوتي هناك من السعادة والشرف وسموِّ القَدْر:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١٧.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ٢٢/ ٩٠، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، وتاريخ مدينة دمشق ٦٤/ ٨.

كم من أبٍ قد سما بابنٍ ذُرَى شرفٍ كـمـا سـمـا بـرسـول الله عـدنـانُ[١]

وقرأ ابنُ محيصنٍ وابنُ أبي عبلةَ وحميدٌ وابنُ السَّمَيْفَع: «يَعْنيه» بفتح الياء وبالعين المهملة[٢]، أي: يَهمُّه، من عَنَاه الأمرُ: إذا أهمَّه، أي: أوقعه في الهمِّ، ومنه قوله ﷺ: «مِن حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنِيه»[٣]، لا من عَنَاه إذا قصده، كما زعمه أبو حيان[٤].

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ بيانٌ لمآل أمر المذكورين وانقسامِهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهيةٍ دهياءَ، فـ «وجوه» مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به كونُه في حيِّز التنويع كما مرَّ، و«مسفرة» خبره، و«يومئذ» متعلِّقٌ به. أي: مضيئةٌ متهلِّلة، من أَسْفَر الصبح: إذا أضاء. وعن ابن عباس أنَّ ذلك من قيام الليل. وعن الضحاك: من آثار الوضوء؛ فيختصُّ ذلك بهذه الأمة، أي: لأنَّ الوضوء من خواصِّهم قيل: أي: بالنسبة إلى الأمم السابقة فقط، لا مع أنبيائهم عليهم السلام.

وقيل: من طول ما اغبرَّتْ في سبيل الله تعالى.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: مسرورةٌ بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: غبارٌ وكدورةٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: سوادٌ وظلمة، ولا ترى أَوْحَشَ من اجتماع الغَبرَة والسواد في الوجه.

وسوَّى الفيروزآباديُّ والجوهريُّ بين الغبرة والقترة[٥]، فقيل: المراد بالقَتَرة

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ٦/ ٢٤٢٥، والشطر الأول فيه:
وكـم أبٍ قـد عـلا بـابـنٍ ذُرَى شـرفٍ

(٢) البحر ٨/ ٤٣٠.

(٣) سلف عند تفسير الآية (١١٣) من سورة التوبة.

(٤) البحر ٨/ ٤٣٠.

(٥) الصحاح والقاموس (قتر).

الغبارُ حقيقةً، وبالغبرة ما يغشاهم من العبوس من الهمِّ. وقيل: هما على حقيقتهما، والمعنى أنَّ عليها غباراً وكدورةً فوق غبارٍ وكدورةٍ.

وقال زيد بن أسلم: الغبرةُ ما انحطَّت إلى الأرض، والقترة ما ارتفع إلى السماء[1]. والمراد وصولُ الغبار إلى وجوههم من فوقٍ ومن تحتٍ. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

وقرأ ابن أبي عبلة: «قَتْرة» بسكون التاء[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه، وما فيه من معنى البعد للإيذان بِبُعْدِ درجتهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: الجامعون بين الكفر والفجور، فلذلك جمع الله تعالى لهم بين الغبرة والقترة، وكأنَّ الغبرة للفجور والقترة للكفور، نعوذ بالله عز وجل من ذلك.

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٢) البحر ٨/ ٤٣٠.

(٨١) سورة التكوير مكية
وآياتها تسع وعشرون

● **سورة** التكوير من السور المكية ، وهي تعالج حقيقتين من حقائق العقيدة الإسلامية وهما : حقيقة القيامة ، وحقيقة الوحي والرسالة ، وكلاهما من لوازم الإيمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلابٍ كوني هائل ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل البشر ، ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً ، ينتثر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدَّل وتغيَّر من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿ إذا الشمسُ كُوِّرتْ . وإذا النجومُ انكدرتْ . وإذا الجبالُ سُيِّرت . وإذا العِشَارُ عُطِّلتْ . وإذا الوُحوشُ حُشِرتْ . وإذا البحارُ سُجِّرتْ . وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ . وإذا الموءودةُ سُئِلتْ . بأيِ ذنبٍ قُتِلَتْ ؟ .. ﴾ الآيات .

● **وتناولت** السورة حقيقة الوحي ، وصفة الملك الذي يحمله ، وصفة النبي الذي يلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور العلم والإيمان ﴿ فلا أقسم بالخُنَّس . الجوار الكُنَّس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسولٍ كريم . ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين .

مطاعٍ ثَمَّ أمين . وما صاحبكم بمجنون ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وذكرت أنه موعظةٌ من الله تعالى لعباده ﴿ فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّ العالمين﴾ .

سورة التكوير

[١٠٠٥] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم[١] عن سليمان بن موسى قال لما نزلت: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[٢] قال أبو جهل ذاك إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن عمرو بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة مثله.

ك.. وأخرج ابن المنذر من طريق سليمان عن القاسم بن مخيمرة مثله.

* * *

[١٠٠٥] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٣).
(٢) سورة التكوير: الآية (٢٨).
(٣) سورة التكوير: الآية (٢٩).

سورة التكوير

عشرون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾

اعلم أنه تعالى ذكر اثني عشر شيئًا، وقال: إذا وقعت هذه الأشياء فهنالك ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]: **فالأول:** قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ وفي التكوير وجهان: **أحدهما:** التلفيف على جهة الاستدارة كتكوير العمامة، وفي الحديث: «**نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ**» (١) أي من التشتت بعد الألفة والطي واللف، والكور والتكوير واحد، وسميت كارة القصار كارة لأنه يجمع ثيابه في ثوب واحد، ثم إن الشيء الذي يُلف لا شك أن يصير مختفيًا عن الأعين، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس وتصييرها غائبة عن الأعين بالتكوير؛ فلهذا قال بعضهم: كُورت، أي طُمست. وقال آخرون: انكسفت. وقال الحسن: مُحي ضوؤها. وقال المفضل بن سلمة: كُورت أي ذهب ضوؤها، كأنها استترت في كارة. **الوجه الثاني في التكوير:** يقال: كَورت الحائط ودهورته، إذا طرحته حتى يسقط، قال الأصمعي: يقال: طعنه فكوره إذا صرعه، فقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ أي أُلقيت ورُميت عن الفلك. **وفيه قول ثالث:** يروى عن عمر أنه لفظة مأخوذة من الفارسية، فإنه يقال للأعمى: كور، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية؟ **الجواب:** بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر، يفسره كورت لأن (إذا)، يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط.

السؤال الثاني: روي أن الحسن جلس بالبصرة إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن، فحَدَّث عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ثَوْرَانِ مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» (٢)، **فَقَالَ الْحَسَنُ، وَمَا ذَنْبُهُمَا؟ قَالَ: إِنِّي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ! فَسَكَتَ الْحَسَنُ.** **والجواب:** أن سؤال

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق) باب (صفة الشمس والقمر بحسبان) (٣/ ١١٧١) حديث رقم (٣٠٢٨) قال: حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله بن الداناج... مختصرًا والطحاوي في (مشكل الآثار) (١/ ٦٦-٦٧) من طريق عبد العزيز بن المختار... فذكره، وأورده الألباني في (الصحيحة) (١٢٤) ورواه تمام في (فوائده) (٣/ ٤٢٥) حديث رقم (١٤٢٣) رواه البوصيري في (إتحاف الخبرة المهرة) (٢/ ٦٣) حديث رقم (١٣٥٧) جميعًا من طريق عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناج، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة... به.

الحسن ساقط؛ لأن الشمس والقمر جمادان فإلقاؤهما في النار لا يكون سببًا لمضرتهما، ولعل ذلك يصير سببًا لازدياد الحر في جهنم، فلا يكون هذا الخبر على خلاف العقل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ ﴾

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أي تناثرت وتساقطت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] والأصل في الانكدار الانصباب، قال الخليل: يقال: انكدر عليهم القوم، إذا جاؤوا أرسالاً فانصبوا عليهم. قال الكلبي: تمطر السماء يومئذٍ نجومًا فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على وجه الأرض. قال عطاء: وذلك أنها في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من النور، وتلك السلاسل في أيدي الملائكة، فإذا مات من في السماء والأرض تساقطت تلك السلاسل من أيدي الملائكة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي عن وجه الأرض، كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] أو في الهواء كقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

الرابع: قوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾، **فيه قولان:**

القول الأول: المشهور أن ﴿ ٱلْعِشَارُ ﴾ جميع عُشَراء كالنفاس في جمع نفساء، وهي التي أتي على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما يكون عند أهلها وأعزها عليهم، و ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ قال ابن عباس: أهملها أهلها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة، وليس شيء أحب إلى العرب من النوق الحوامل، وخوطب العرب بأمر العشار لأن أكثر مالها وعيشها من الإبل، والغرض من ذلك ذهاب الأموال وبطلان الأملاك واشتغال الناس بأنفسهم، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

والقول الثاني: أن العشار كناية عن السحاب، تعطلت عما فيها من الماء، وهذا وإن كان مجازًا إلا أنه أشبه بسائر ما قبله، وأيضًا فالعرب تشبه السحاب بالحامل، قال تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ كل شيء من دواب البر مما لا يُستأنس فهو وحش، والجمع الوحوش، و ﴿ حُشِرَتْ ﴾ جُمعت من كل ناحية، قال قتادة: يُحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص. قال المعتزلة: إن الله تعالى يحشر الحيوانات كلها في ذلك اليوم ليعوضها على آلامها التي وصلت إليها في الدنيا بالموت والقتل وغير ذلك، فإذا عوضت على تلك الآلام، فإن شاء الله أن يبقي بعضها في الجنة إذا كان مستحسنًا فعل، وإن شاء أن يفنيه أفناه على ما جاء به الخبر. وأما أصحابنا فعندهم أنه لا يجب على الله شيء بحكم الاستحقاق، ولكنه

تعالى يحشر الوحوش كلها فيقتص للجَمَّاء من القَرْناء، ثم يقال لها: (موتي) فتموت.

والغرض من ذكر هذه القصة ههنا وجوه: **أحدها:** أنه تعالى إذا كان (يوم القيامة) يحشر كل الحيوانات إظهارًا للعدل، فكيف يجوز مع هذا أن لا يحشر المكلفين من الإنس والجن؟ **الثاني:** أنها تجتمع في موقف القيامة مع شدة نفرتها عن الناس في الدنيا وتبددها في الصحاري، فدل هذا على أن اجتماعها إلى الناس ليس إلا من هول ذلك اليوم. **والثالث:** أن هذه الحيوانات بعضها غذاء للبعض، ثم إنها في ذلك اليوم تجتمع ولا يتعرض بعضها لبعض، وما ذاك إلا لشدة هول ذلك اليوم: وفي الآية قول آخر لابن عباس وهو أن حشر الوحوش عبارة عن موتها، يقال إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم: (حشرتهم السنة) وقرئ (حُشِّرت) بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾

السادس: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾. قرئ بالتخفيف والتشديد، وفيه وجوه: **أحدها:** أن أصل الكلمة من سجرت التنور، إذا أوقدتها، والشيء إذا وُقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذٍ لا يبقى في البحار شيء من المياه ألبتة، ثم إن الجبال قد سُيرت، على ما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠] وحينئذٍ تصير البحار والأرض شيئًا واحدًا في غاية الحرارة والإحراق، ويحتمل أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربت فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال، ويحتمل أن الجبال لما اندكت وتفرقت أجزاؤها وصارت كالتراب، وقع ذلك التراب في أسفل الجبال، فصار وجه الأرض مستويًا مع البحار، ويصير الكل بحرًا مسجورًا. **وثانيها:** أن يكون ﴿سُجِّرَتْ﴾ بمعنى (فُجرت) وذلك لأن بين البحار حاجزًا، على ما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض، وصارت البحار بحرًا واحدًا، وهو قول الكلبي. **وثالثها:** ﴿سُجِّرَتْ﴾ أوقدت، قال القفال: وهذا التأويل يحتمل وجوهًا: **الأول:** أن تكون جهنم في قعور البحار، فهي الآن غير مسجورة لقيام الدنيا، فإذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك. **والثاني:** أن الله تعالى يلقي الشمس والقمر والكواكب في البحار، فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك. **والثالث:** أن يخلق الله تعالى بالبحار نيرانًا عظيمة حتى تتسخن تلك المياه. **وأقول:** هذه الوجوه متكلفة لا حاجة إلى شيء منها؛ لأن القادر على تخريب الدنيا وإقامة القيامة لا بد وأن يكون قادرًا على أن يفعل بالبحار ما شاء من تسخين، ومن قلب مياهها نيرانًا من غير حاجة منه إلى أن يلقى فيها الشمس والقمر، أو يكون تحتها نار جهنم.

واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا، ويمكن وقوعها أيضًا بعد قيام القيامة، وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين، أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾

السابع: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وفيه وجوه: **أحدها:** قُرنت الأرواح بالأجساد. **وثانيها:** قال الحسن: يصيرون فيها ثلاثة أزواج، كما قال: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾[الواقعة: ٧-١٠] **وثالثها:** أنه يضم إلى كل صنف من كان في طبقته من الرجال والنساء، فيضم المبرز في الطاعات إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله، فالتزويج أن يقرن الشيء بمثله، والمعنى أن يضم كل واحد إلى طبقته في الخير والشر. **ورابعها:** يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان كما قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[الصافات: ٢٢] قيل: فزدناهم من الشياطين. **وخامسها:** قال ابن عباس: زُوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقُرنت نفوس الكافرين بالشياطين. **وسادسها:** قُرن كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني، وقد ورد في خبر مرفوع. **وسابعها:** قال الزجاج: قُرنت النفوس بأعمالها. واعلم أنك إذا تأملت في الأقوال التي ذكرناها أمكنك أن تزيد عليها ما شئت.

الثامن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: وأد يئد مقلوب من آد يئود أودًا، ثقل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي يثقله؛ لأنه إثقال بالتراب، كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها. وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها إلى البئر فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنت رمتها في الحفرة، وإذا ولدت ابنًا أمسكته، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: ما الذي حملهم على وأد البنات؟ **الجواب:** الخوف من لحوق العار بهم من أجلهم أو الخوف من الإملاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[الإسراء: ٣١] وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات بالملائكة، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد، فافتخر الفرزدق به في قوله:

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ ... فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ(١)

السؤال الثاني: فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قُتلت به، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ **الجواب:** سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها، وهو كتبكيت النصارى في قوله لعيسى:

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر المتقارب للشاعر الفرزدق، وقد تقدمت ترجمته.

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

المسألة الثانية: قرئ (سألت)، أي خاصمت عن نفسها، وسألت الله أو قاتلها، وقرئ: (قُتِّلت) بالتشديد، فإن قيل: اللفظ المطابق أن يقال: ﴿سُئِلَتْ﴾ ومن قرأ (سألت) فالمطابق أن يقرأ: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ فما الوجه في القراءة المشهورة؟ قلنا: الجواب من وجهين: الأول: تقدير الآية: وإذا الموءودة سئلت (أيْ سئل) الوائدون عن أحوالها بأي ذنب قتلت. والثاني: أن الإنسان قد يسأل عن حال نفسه عند المعاينة بلفظ المغايبة، كما إذا أردت أن تسأل زيدًا عن حال من أحواله فتقول: ماذا فعل زيد في ذلك المعنى؟ ويكون زيد هو المسئول وهو المسئول عنه، فكذا ههنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

التاسع: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، يريد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته، ثم تُنشر إذا حوسب، ويجوز أن يراد نُشرت بين أصحابها، أي فُرقت بينهم.

العاشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي كُشفت وأزيلت عما فوقها، وهو الجنة وعرش الله، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاء عن الشيء، وقرأ ابن مسعود: (قُشطت) واعتقاب القاف والكاف كثير، يقال لبكت الثريد ولبقته، والكافور والقافور. قال الفراء: نُزعت فطُويت.

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أوقدت إيقادًا شديدًا وقرئ (سُعِّرت) بالتشديد للمبالغة، قيل: سعرها غضب الله، وخطايا بني آدم، واحتج بهذه الآية من قال: النار غير مخلوقة الآن، قالوا: لأنها تدل على أن تسعيرها معلق بيوم القيامة.

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ . أي أُدنيت من المتقين، كقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

ولما ذكر الله تعالى هذه الأمور الاثني عشر ذكر الجزاء المرتب على الشروط الذي هو مجموع هذه الأشياء فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ومن المعلوم أن العمل لا يمكن إحضاره، فالمراد إذن ما أحضرته في صحائفها، وما أحضرته عند المحاسبة، وعند الميزان من آثار تلك الأعمال، والمراد: ما أحضرت من استحقاق الجنة والنار، فإن قيل: كل نفس تعلم ما أحضرت، لقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] فما معنى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ ؟ قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن هذا هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به

الإفراط، وإن كان اللفظ موضوعًا للقليل، ومنه قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحجر: ٢] كمن يسأل فاضلاً مسألة ظاهرة ويقول: هل عندك فيها شيء؟ فيقول: (ربما حضر شيء) وغرضه الإشارة إلى أن عنده في تلك المسألة ما لا يقول به غيره، فكذا ههنا. **الثاني:** لعل الكفار كانوا يتعبون أنفسهم في الأشياء التي يعتقدونها طاعات ثم بدا لهم يوم القيامة خلاف ذلك، فهو المراد من هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ الكلام في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ قد تقدم في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ **فيه قولان:**

الأول: وهو المشهور الظاهر أنها النجوم الخنس، جمع خانس، والخنوس: الانقباض والاستخفاء، تقول: خنس من بين القوم وانخنس، وفي الحديث: «الشَّيْطَانُ يُوَسْوِسُ إِلَى الْعَبْدِ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ» أي انقبض ولذلك سمي الخناس ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ جمع كانس وكانسة، يقال: كنس، إذا دخل الكناس وهو مقر الوحش، يقال كنس الظباء في كنسها، وتكنست المرأة، إذا دخلت هودجها تشبه بالظبي إذا دخل الكناس.

ثم اختلفوا في خنوس النجوم وكنوسها على ثلاثة أوجه: فالقول الأظهر: أن ذلك إشارة إلى رجوع الكواكب الخمسة السيارة واستقامتها، فرجوعها هو الخنوس، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس، ولا شك أن هذه حالة عجيبة، وفيها أسرار عظيمة باهرة. **القول الثاني:** ما روي عن علي عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة أنها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل، أي تظهر في أماكنها كالوحش في كنسها. **والقول الثالث:** أن السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها، على ما قال تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] ولا شك أن فيها مطلعًا واحدًا ومغربًا واحدًا هما أقرب المطالع والمغارب إلى سمت رؤوسنا، ثم إنها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع إلى سائر المطالع طول السنة، ثم ترجع إليه، فخنوسها عبارة عن تباعدها عن ذلك المطلع، وكنوسها عبارة عن عودها إليه، فهذا محتمل فعلى القول الأول يكون القسم واقعًا بالخمسة المتحيرة، وعلى القول الثاني يكون القسم واقعًا بجميع الكواكب، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرته يكون القسم واقعًا بالسبعة السيارة، والله أعلم بمراده.

والقول الثاني: أن ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ وهو قول ابن مسعود والنخعي أنها بقر الوحش. وقال سعيد بن جبير: هي الظباء. وعلى هذا: الخنس من الخنس في الأنف وهو تقعير في الأنف، فإن البقر والظباء أنوفها على هذه الصفة ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ جمع كانس وهي التي تدخل الكناس. والقول هو الأول، والدليل عليه أمران:

الأول: أنه قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وهذا بالنجوم أليق منه ببقر الوحش.

الثاني: أن محل قسم الله كلما كان أعظم وأعلى رتبة كان أَوْلى، ولا شك أن الكواكب أعلى رتبة من بقر الوحش.

الثالث: أن ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ جمع خانس من الخنوس، وإما جمع خنساء وأخنس من الخنس، خنس بالسكون والتخفيف، ولا يقال: الخنس فيه بالتشديد إلا أن يجعل الخنس في الوحشية أيضًا من الخنوس وهو اختفاؤها في الكناس، إذا غابت عن الأعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ ذكر أهل اللغة أن عسعس من الأضداد، يقال: عسعس الليل، إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر، وأنشدوا في ورودها بمعنى أدبر قول العجاج[(١)]:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وأنشد أبو عبيدة في معنى أقبل[(٢)]:

مُدَرَّجَاتُ اللَّيْلِ لَمَّا عَسْعَسَا

ثم منهم من قال: المراد ههنا أقبل الليل؛ لأن على هذا التقدير يكون القسم واقعًا بإقبال الليل وهو قوله: ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ وبإدباره أيضًا وهو قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ومنهم من قال: بل المراد أدبر وقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي امتد ضوءه وتكامل، فقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ إشارة إلى أول طلوع الصبح، وهو مثل قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إشارة إلى تكامل طلوع الصبح فلا يكون فيه تكرار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي إذا أسفر كقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] ثم في كيفية المجاز قولان: **أحدهما:** أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله رَوْح ونسيم، فجعل ذلك نفسًا له على المجاز، وقيل: تنفس الصبح. **والثاني:** أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك، واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفس وجد راحة، فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس، وهو استعارة لطيفة.

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، **وفيه قولان:**

الأول: وهو المشهور أن المراد أن القرآن نزل به جبريل: فإن قيل: ههنا إشكال قوي وهو أنه

---

(١) تقدمت ترجمة العجاج.

(٢) تقدمت ترجمة أبي عبيدة.

حلف أنه قول جبريل، فوجب علينا أن نصدقه في ذلك، فإن لم نقطع بوجوب حمل اللفظ على الظاهر، فلا أقل من الاحتمال، وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن هذا القرآن يحتمل أن يكون كلام جبريل لا كلام الله، وبتقدير أن يكون كلام جبريل يخرج عن كونه معجزًا؛ لاحتمال أن جبريل ألقاه إلى محمد ﷺ على سبيل الإضلال، ولا يمكن أن يجاب عنه بأن جبريل معصوم لا يفعل الإضلال؛ لأن العلم بعصمة جبريل مستفاد من صدق النبي، وصدق النبي مفرع على كون القرآن معجزًا، وكون القرآن معجزًا يتفرع على عصمة جبريل، فيلزم الدور وهو محال. والجواب: الذين قالوا بأن القرآن إنما كان معجزًا للصرفة، إنما ذهبوا إلى ذلك المذهب فرارًا من هذا السؤال؛ لأن الإعجاز على ذلك القول ليس في الفصاحة، بل في سلب تلك العلوم والدواعي عن القلوب، وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

القول الثاني: أن هذا الذي أخبركم به محمد من أمر الساعة على ما ذكر في هذه السورة - ليس بكهانة ولا ظن ولا افتعال، إنما هو قول جبريل أتاه به وحيًا من عند الله تعالى.

واعلم أنه تعالى وصف جبريل ههنا بصفات ست: أولها: أنه رسول، ولا شك أنه رسول الله إلى الأنبياء فهو رسول وجميع الأنبياء أمته، وهو المراد من قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وثانيها: أنه كريم، ومن كرمه أنه يعطي أفضل العطايا، وهو المعرفة والهداية والإرشاد. وثالثها: قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ ثم منهم من حمله على الشدة، روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل: «ذَكَرَ اللَّهُ قُوَّتَكَ، فَمَاذَا بَلَغْتَ؟ قَالَ: رَفَعْتُ قُرَيَّاتِ قَوْمِ لُوطٍ الْأَرْبَعَ عَلَى قَوَادِمِ جَنَاحِي حَتَّى إِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَأَصْوَاتَ الدَّجَاجِ قَلَبْتُهَا»(١) وذكر مقاتل أن شيطانًا يقال له الأبيض صاحب الأنبياء، قصد أن يفتن النبي ﷺ فدفعه جبريل دفعة رقيقة وقع بها من مكة إلى أقصى الهند. ومنهم من حمله على القوة في أداء طاعة الله وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وعلى القوة في معرفة الله وفي مطالعة جلال الله.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وهذه العندية ليست عندية المكان، مثل قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وليست عندية الجهة، بدليل قوله: (أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ) بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم. وأما ﴿مَكِينٍ﴾ فقال الكسائي: يقال قد مكن فلان عند فلان بضم الكاف مكنًا ومكانة، فعلى هذا المكين هو ذو الجاه الذي يعطي ما يسأل.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ اعلم أن قوله: ﴿ثَمَّ﴾ إشارة إلى الظرف المذكور، أعني ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠] والمعنى أنه عند الله مطاع في ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، وقرئ (ثُمَّ) تعظيمًا للأمانة وبيانًا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

---

(١) لم أجده.

وسادسها: قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ أي هو أمين على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ واحتج بهذه الآية من فضَّل جبريل على محمد ﷺ فقال: إنك إذا وازنت بين قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢١] وبين قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ظهر التفاوت العظيم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني حيث تطلع الشمس في قول الجميع، وهذا مفسر في سورة النجم ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما محمد على الغيب بظنين، والغيب ههنا القرآن وما فيه من الأنباء والقصص، والظنين: المتهم، يقال: (ظننت زيدًا) في معنى اتهمته، وليس من الظن الذي يتعدى إلى مفعولين، والمعنى ما محمد على القرآن بمتهم، أي هو ثقة فيما يؤدي عن الله، ومن قرأ بالضاد فهو من البخل، يقال: ضننت به أضن، أي بخلت، والمعنى ليس ببخيل فيما أنزل الله، قال الفراء: يأتيه غيب السماء وهو شيء نفيس فلا يبخل به عليكم. وقال أبو علي الفارسي: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلوانًا. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لوجهين: أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه فنفي التهمة أَوْلى من نفي البخل. وثانيها: قوله: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولو كان المراد البخل لقال بالغيب لأنه يقال: فلان ضنين بكذا وقلما يقال: على كذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ كان أهل مكة يقولون: إن هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسانه، فنفى الله ذلك، فإن قيل: القول بصحة النبوة موقوف على نفي هذا الاحتمال، فكيف يمكن نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي؟ (قلنا): بينا أن على القول بالصرفة لا تتوقف صحة النبوة على نفي هذا الاحتمال، فلا جرم يمكن نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ وهذا استضلال لهم، يقال لتارك الجادة اعتسافًا: أين تذهب؟ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، والمعنى أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم؟! قال الفراء: العرب تقول: إلى أين تذهب وأين تذهب؟ وتقول: ذهبت الشام وانطلقت السوق. واحتج أهل الاعتزال بهذه الآية ووجهه ظاهر.

ثم بيَّن أن القرآن ما هو فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو بيان وهداية للخلق أجمعين.

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

ثم قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ وهو بدل من العالمين، والتقدير: إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم، وفائدة هذا الإبدال أن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم

المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، والمعنى أن القرآن إنما ينتفع به من شاء أن يستقيم. ثم بيَّن أن مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله.

فقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إلا أن يشاء الله تعالى أن يعطيه تلك المشيئة؛ لأن فعل تلك المشيئة صفة محدثة فلا بد في حدوثها من مشيئة أخرى فيظهر من مجموع هذه الآيات أن فعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة. وهذه الإرادة موقوفة الحصول على أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة، والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فأفعال العباد في طرفي ثبوتها وانتفائها موقوفة على مشيئة الله. وهذا هو قول أصحابنا.

وقول بعض المعتزلة: (إن هذه الآية مخصوصة بمشيئة القهر والإلجاء) ضعيف لأنا بينا أن المشيئة الاختيارية شيء حادث، فلا بد له من محدث، فيتوقف حدوثها على أن يشاء محدثها إيجادها، وحينئذٍ يعود الإلزام، والله أعلم بالصواب.

سورة التكوير

مكّيةٌ في قول الجميع، وهي تسعٌ وعشرون آيةً

وفي الترمذيِّ: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إليَّ يومَ القيامةِ [كأنه رَأيُ عينٍ] فليقرأ: إذا الشمسُ كُوِّرتْ، وإذا السماءُ انفطَرتْ، وإذا السماء انشقَّتْ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ [غريب][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس: تكويرُها: إدخالُها في العرش. الحسن: ذهابُ ضَوئِها. وقاله قتادةُ ومجاهدٌ، وروي عن ابن عباسٍ أيضاً[(٢)]. سعيد بن جُبير: غُوِّرَتْ[(٣)]. أبو عبيدة[(٤)]: كوِّرتْ مثلَ تكويرِ العمامة، تُلفُّ فتُمْحَى. وقال الربيع ابن خثيم: «كوِّرتْ»: رُميَ بها[(٥)]، ومنه: كوَّرتُه فتكوَّر، أي: سقط[(٦)].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٣)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٤٨٠٦).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٦ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٣) في (د) و(م): عورت، ولم تجود في (ظ) و(ي)، والمثبت من تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٠ ، والنكت والعيون ٦/ ٢١١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١ ، وزاد المسير ٩/ ٣٨ ، والدر المنثور ٦/ ٣١٨ .

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥٠-٣٥١ ، والطبري ٢٤/ ١٣١ .

(٦) الصحاح (كور).

قلت: وأصلُ التكوير: الجمع؛ مأخوذٌ مِن كارَ العمامةَ على رأسه يَكُورُها، أي: لاثَها[١] وجَمَعها، فهي تُكَوَّر ويُمحَى ضَوءُها، ثم يُرمَى بها في البحر[٢]. والله أعلم.

وعن أبي صالح: كوِّرَتْ: نكِّست[٣].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تَهافَتتْ وتناثَرتْ. وقال أبو عبيدةَ: انصَبَّت كما تَنصَبُّ العُقابُ إذا كَسَرت[٤]. قال العجَّاج يصفُ صقراً:

أبْصَرَ خِرْبانَ قضاءٍ فانكَدرْ تقَضِّيَ البازِي إذا البازِي كَسَرْ[٥]

ورَوى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَبْقى في السماء يومئذٍ نجمٌ إلَّا سقط في الأرض، حتى يفزَعَ أهلُ الأرضِ السابعةِ ممَّا لَقِيتْ وأصابَ العليا» يعني الأرضَ. وروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: تساقَطَتْ؛ وذلك أنها قناديلُ معلَّقةٌ بين السماء والأرض بسلاسلَ من نورٍ، وتلك السلاسلُ بأيدي ملائكةٍ من نور، فإذا جاءت النفخةُ الأولى مات مَن في الأرض ومَن في السماوات، فتناثَرْتَ تلك الكواكبُ وتَساقطت السلاسلُ من أيدي الملائكةِ؛ لأنَّه مات مَن كان يُمسكها[٦].

ويحتمل أن يكون انكدارُها طَمسُ آثارِها[٧]. وسُميت النجومُ نجوماً لظهورها في

(١) لاث العمامة على رأسه يَلوثُها لَوثاً، أي: عصبها، الصحاح (لوث).

(٢) وقال الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٥٠ : جاء في الأخبار الصحيحة أن الشمس تدنو يوم القيامة من الرؤوس في المحشر حتى تكون على قَدْر ميل، ويُلْجِم الناسَ العرقُ يومئذٍ، ولا بحرَ حينئذٍ لتُلقى فيه بَعْدُ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٣٠ .

(٤) في النسخ عدا (د): انكسرت، والمثبت من (د)، والعبارة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٧ : «انكدرت» يقال: انكدر فلان: انصبَّ.

(٥) ديوان العجاج ص٨٣ على اختلاف في الترتيب بين البيتين، ولم يذكر أبو عبيدة سوى الأول. قوله: خربان، هو جمع خَرَب: وهو ذكر الحُبَارى. ويقال للطائر إذا ضم جناحيه: كسر. سمط اللآلي ٢/ ٧٩١ . وتقضَّى البازي: انقضَّ. القاموس (قضى).

(٦) ذكر الخبرين الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٢٨ عن الكلبي وعطاء.

(٧) في (ظ): نارها.

السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضاً: «انكدرت»: تغيَّرتْ فلم يَبْقَ لها ضوء[١]؛ لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارِبٌ.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يعني قُلِعَتْ من الأرض، وسيِّرتْ في الهواء؛ وهو مِثْلُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧]. وقيل: سَيرُها: تَحوُّلُها عن منزلة الحجارة، فتكونُ كثيباً مَهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكونُ كالعِهْن، وتكونُ هَباءً منثوراً[٢]، وتكون سَراباً، مثل السَّرابِ الذي ليس بشيء. وعادت الأرضُ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوَجاً ولا أمْتاً. وقد تقدَّم في غير موضعٍ والحمد لله.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: النُّوقُ الحَواملُ التي في بطونها أولادُها، الواحدةُ عُشَراء، وهي التي[٣] أتى عليها في الحمل عشرةُ أشهرٍ، ثم لا يزالُ ذلك اسمها حتى تَضعَ، وبعد ما تضعُ أيضاً. ومن عادة العرب أن يُسَمُّوا الشيءَ باسمه المتقدِّم وإن كان قد جاوَزَ ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرح[٤]: هاتوا مُهْري، وقرِّبوا مُهْري، يسمِّيه بمتقدِّم اسمِه؛ قال عنترة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطْـعَـمْـتُـه   فيكونَ جِلدُك مِثلَ جِلدِ الأجرْبِ[٥]

وقال أيضاً:

وحَمَلْتُ مُهري وسطَها فمضاها[٦]

وإنَّما خصَّ العِشار بالذِّكر؛ لأنَّها أعزُّ ما تكون على العرب، وليس يُعَطِّلها أهلُها إلَّا حالَ القيامة. وهذا على وَجهِ المَثَل؛ لأنَّ في القيامة لا تكونُ ناقةٌ عُشَرَاءُ، ولكنْ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١١، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٣٣ دون قوله: فلَم يَبْقَ لها ضوء.

(٢) في (ظ): منبثا.

(٣) في (م): أو التي، بدل: وهي التي.

(٤) قَرَح الفرس يقرح قروحاً، وقَرِح قَرَحاً: إذا انتهت أسنانه، وإنما تنتهي في خمس سنين. اللسان (قرح).

(٥) سلف ١٤/ ٢٠٣.

(٦) وصدره: وضربتُ قرنَيْ كبشها فتجدَّلا، وهو في ديوان عنترة ص٧٥، وسلف صدره ١٤/ ٤٠٠.

أراد به المثل، [يعني] أنَّ هَوْلَ يوم القيامةِ بحالٍ لو كان للرجل ناقةٌ عُشَراءُ، لعطَّلها واشتغلَ بنفسه[١].

وقيل: إنَّهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضُهم بعضاً، ورَأوا الوُحوشَ والدوابَّ محشورةً، وفيها عِشارُهم التي كانت أنْفَسَ أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمَّهم أمرُها. وخُوطبت العربُ بأمر العِشار لأن مالَها وعيشَها أكثَرُه من الإبل.

ورَوَى الضحَّاكُ عن ابن عباس: «عُطِّلت»: عَطَّلها أهلُها لاشتغالهم بأنفسهم[٢].

وقال الأعشى:

هو الواهِبُ المئةَ المُصطَفا ةَ إمَّا مَخاضاً وإما عِشَارا[٣]

وقال آخرُ:

ترى المرءَ مهجوراً إذا قلَّ مالُهُ وبيتُ الغِنَى يُهدَى له ويُزارُ
وما ينفعُ الزوارَ مالُ مَزُورِهم إذا سَرَحَتْ شَولٌ له وعِشارُ[٤]

يقال: ناقة عُشَراء، وناقتان عُشَراوان، ونوق عِشارٌ وعُشَراوات، يُبدِلون من همزة التأنيث واواً. وقد عَشَّرت الناقةُ تعشيراً، أي: صارتْ عُشَراء[٥].

وقيل: العِشار: السحابُ يُعَطَّل مما يكونُ فيه ـ وهو الماء ـ فلا يُمطِر؛ والعربُ تشبِّه السحابَ بالحامل[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره بنحوه الرزاي في التفسير ٣١/ ٦٧ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٠١ . وقال الشارح: مخاضاً: تتهيأ للنتاج.

(٤) لم نقف عليهما. والشَّوْل جمع شائلة، وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها. القاموس (شول).

(٥) الصحاح (عشر).

(٦) تفسير الرازي ٣١/ ٦٧ .

وقيل: الديار تُعَطَّلُ فلا تُسكن. وقيل: الأرضُ التي يُعشَّر زَرْعُها تعطَّلُ فلا تُزرَع[١]. والأولُ أشهرُ، وعليه من الناسِ الأكثرُ.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمعت، والحَشرُ: الجمع. عن الحسن وقتادةَ وغيرِهما[٢]. وقال ابن عباس: حَشرُها: موتُها ـ رواه عنه عِكرمةُ ـ وحَشرُ كلِّ شيء: الموتُ، غيرَ الجنِّ والإنس، فإنهما يُوافيان[٣] يومَ القيامة.

وعن ابن عباس أيضاً قال: يُحشَر كلُّ شيء حتى الذُّبابُ[٤]. قال ابن عباس: تُحشَر الوحوشُ غداً، أي: تُجمع حتى يُقتصَّ لبعضها من بعض، فيقتصُّ للجَمَّاء من القَرناء، ثم يقال لها: كوني تراباً، فتموتُ. وهذا أصحُّ ممَّا رواه عنه عِكرمة، وقد بينَّاه في كتاب «التذكرة» مستوفى[٥]، ومضى في سورة الأنعام بعضُه[٦]. أي: إنَّ الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم.

وقيل: عُنيَ بهذا أنَّها مع نُفرتها اليومَ من الناس، وتبدُّدِها في الصحارَى، تنضمُّ غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم[٧]. قال معناه أُبيُّ بنُ كعب[٨].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: مُلئتْ من الماء، والعربُ تقول: سَجَرْتُ الحوضَ أسجُره سَجْراً: إذا ملأتَه، وهو مسجورٌ، والمسجورُ والسَّاجِر في اللغة: المَلآن. وروى

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٢ . قوله : يعشَّر، أي: يؤخَذ منه العشر، في القاموس (عشر): عشَّرهم: أخذ عُشر أموالهم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري بنحوه ٢٤/ ١٣٧ .

(٣) في تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٩ : يوقفان، وكذا وقع في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ عن الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وغيرهم.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ .

(٥) ص٢٧٣ .

(٦) ٨/ ٣٧٢ .

(٧) تفسير الرازي ٣١/ ٦٨ .

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢١٢ بلفظ: اختلطت وصارت بين الناس.

الربيع بن خثيم: «سُجِّرتْ»: فاضَتْ ومُلئت. وقاله الكلبيُّ ومقاتلٌ والحسن والضحَّاك[١]. قال ابن أبي زَمَنين[٢]: «سُجِّرتْ» حقيقتُه: مُلئتْ، فيفضي[٣] بعضُها إلى بعضٍ، فتصيرُ شيئاً واحداً. وهو معنى قولِ الحسن.

وقيل: أُرسل عَذبُها على مالحها، ومالحُها على عَذبِها، حتى امتلأتْ. عن الضحاك ومجاهد: أي: فُجِّرتْ، فصارت بحراً واحداً[٤]. القُشيريُّ: وذلك بأن يرفع الله الحاجزَ الذي ذَكره في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رُفع ذلك البرزخُ تفجَّرت مياهُ البحار، فعمَّتْ الأرضَ كلَّها، وصارت البحار بحراً واحداً[٥]. وقيل: صارتْ بحراً واحداً من الحميم لأهل النار.

وعن الحسن أيضاً وقتادةَ وابنِ حَيَّان: تَيْبَسُ فلا يبقى من مائها قطرة[٦].

القُشيريُّ: وهو من سَجَرتُ التنورَ أسجُره سَجراً: إذا أحْميته، وإذا سُلِّط عليه الإيقادُ نَشِفَ ما فيه من الرطوبة، وتُسيَّر الجبال حينئذٍ، وتصيرُ البحار والأرضُ كلُّها بساطاً واحداً، بأن يُملأَ مكانُ البحارِ بتراب الجبال.

وقال النحاس: وقد تكونُ الأقوالُ متفقةً؛ يكون: تيبسُ من الماء بعد أن يفيض بعضُها إلى بعض، فتقلَبُ ناراً.

قلت: ثم تُسَيَّر الجبالُ حينئذٍ، كما ذكر القشيريُّ، والله أعلم.

وقال ابن زيد وشَمِر وعطية[٧] وسفيانُ ووهبٌ وأُبيٌّ وعليّ بنُ أبي طالب، وابنُ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٩ عن الربيع والكلبي والضحاك.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عيسى المرّي.

(٣) في (م): فيفيض.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٣، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١.

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٦٨ عن الكلبي.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٤٠ وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١ عن الحسن وقتادة.

(٧) كذا في النسخ، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٨ والدر المنثور ٦/ ٣١٩ عن شَمِر بن عطية.

عباسٍ في رواية الضحَّاك عنه: أُوقِدَتْ فصارتْ ناراً[١]. قال ابن عباس: يُكوِّرُ الله الشمسَ والقمرَ والنجومَ في البحر، ثم يبعثُ عليها ريحاً دَبُوراً، فتنفخُه حتى يصير ناراً[٢]. وكذا في بعض الحديث: يأمرُ الله جلَّ ثناؤه الشمسَ والقمرَ والنجومَ فيَنْتَثِرون في البحر، ثم يبعثُ الله جلَّ ثناؤه الدَّبورَ فيسجِّرُها ناراً، فتلك نارُ الله الكبرى، التي يعذِّبُ بها الكفار[٣].

قال القشيريُّ: قيل[٤] في تفسير قولِ ابنِ عباس: «سُجِّرتْ»: أُوقِدَتْ، يحتملُ أن تكون جهنم في قُعورٍ من البحار، فهي الآنَ غيرُ مَسجورةٍ؛ لِقوَامِ الدنيا، فإذا انقضت الدنيا سُجِّرت، فصارت كلُّها ناراً يدخِلُها الله أهلَها. ويحتملُ أن تكون تحت البحر نارٌ، ثم يوقِدُ الله البحر كلَّه فيصير ناراً. وفي الخبر: البحرُ نارٌ في نارٍ[٥]. وقال معاويةُ ابن سعيد: بحرُ الرومِ وَسْطَ الأرضِ، أسفلُه آبارٌ مُطبقةٌ بنُحاسٍ يُسجَّر ناراً يومَ القيامة[٦]. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيصيرُ البحرُ ناراً بحرِّ الشمس.

ثم جميعُ ما في هذه الآياتِ يجوزُ أن يكون في الدنيا قبلَ يومِ القيامة ويكون من أشراطِها، ويجوزُ أن يكون يومَ القيامة، وما بعدَ هذه الآيات فيكونُ في يوم القيامة.

قلت: رُوِي عن عبد الله بن عمرو: لا يتوضَّأ بماء البحر لأنه طبقُ جَهنم[٧].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/١٣٨ .

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٣٣٤)، والطبري ٢٤/١٣٨ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣١) عن علي ﷺ، أنه كان يقول عن يهودي: ما كان في اليهود أعلم منه، قال: البحر نار الله الكبرى يَنْتَثِر فيها الشمس والقمر والنجوم، فيبعث الله عز وجل الدبور، فيسجره ناراً.

(٤) في (ظ): قال المفسرون.

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٨٩ ، وسلف ٢١/٢٦٦ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. قال ابن كثير: هذا أثر غريب عجيب. ومعاوية بن سعيد التُّجَيْبِيُّ الفَهميُّ مولاهم، مصريٌّ، من رجال التهذيب ٤/١٠٦ .

(٧) سلف ١٥/٤٤١-٤٤٢ ، وينظر الأوسط ١/٢٤٩ .

وقال أُبيّ بنُ كعب: ستُّ آياتٍ من قبلِ يومِ القيامة: بينما الناسُ في أسواقهم ذهب ضوءُ الشمس وبدت النجومُ فتحيَّروا ودُهِشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجومُ وتَساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبالُ على وجه الأرض، فتحرَّكت واضطربت واحترقت، فصارت هباءً منثوراً، ففزعت الإنسُ إلى الجنِّ والجنُّ إلى الإنس، واختلطت الدوابُّ والوحوشُ والهوامُّ والطير، وماج بعضُها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ثم قالت الجنُّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطَلَقوا إلى البحار فإذا هي نارٌ تأجَّجُ، فبينما هم كذلك إذ تصدَّعتِ الأرضُ صدعةً واحدةً إلى الأرض السابعة السُّفْلَى، وإلى السماء السابعة العليا. فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريحٌ فأماتتهم[١].

وقيل: معنى «سُجِّرت»: هو حُمرةُ مائها، حتى تصير كالدَّم؛ مأخوذٌ من قولهم: عينٌ سَجراء، أي: حمراء[٢].

وقرأ ابن كثير: «سُجِرَتْ» وأبو عمرو أيضاً[٣]، إخباراً عن حالها مرةً واحدةً. وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرةً بعد أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال النعمان بنُ بشير: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: «يُقرَنُ كلُّ رجلٍ مع كلِّ قومٍ كانوا يعملون كعمله»[٤]. وقال عمر ابن الخطاب: يُقرَنُ الفاجر مع الفاجرِ، ويقرنُ الصالح مع الصالح[٥]. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة[٦]، السابقون زوجٌ ـ يعني صنفاً ـ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١٣ .

(٣) السبعة ص٦٧٣ ، والتيسر ص٢٢٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٢ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥١ ، والطبري ٢٤/ ١٤٢ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٣ .

وأصحابُ اليمينِ زوجٌ، وأصحابُ الشمالِ زوجٌ.

وعنه أيضاً قال: زُوِّجَتْ نفوسُ المؤمنين بالحُورِ العين، وقُرِنَ الكافر بالشياطين(١)، وكذلك المنافقون.

وعنه أيضاً: قُرِن كلُّ شَكلٍ بشَكلِه من أهلِ الجنة وأهلِ النار، فيُضَمُّ المبرِّزُ في الطاعة إلى مثلِه، والمتوسِّطُ إلى مِثْلِه، وأهل المعصيةِ إلى مِثلِه؛ فالتزويجُ: أنْ يُقرنَ الشيءُ بمثله(٢)؛ والمعنى: وإذا النفوسُ قُرِنَت إلى أشكالها في الجنة والنار.

وقيل: يُضَمُّ كلُّ رجلٍ إلى مَن كان يَلْزمُه من مَلِكٍ وسلطان، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: جُعِلوا أزواجاً على أشباهِ أعمالِهم، ليس بتزويجٍ، أصحابُ اليمين زوجٌ، وأصحابُ الشمالِ زوجٌ، والسابقون زوجٌ، وقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشكالَهم.

وقال عِكرمةُ: «وإذا النفوسُ زُوِّجتْ»: قُرِنَتْ الأرواحُ بالأجساد، أي: رُدَّتْ إليها(٣).

وقال الحسن: أُلْحِقَ كلُّ امرئ بشيعته(٤)؛ اليهودُ باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوسُ بالمجوس، وكلُّ مَن كان يعبدُ شيئاً من دون الله يُلحَقُ بعضُهم ببعضٍ، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين.

وقيل: يُقرَنُ الغاوي بمَن أغواه من شيطانٍ أو إنسان، على جهةِ البغضِ والعداوة، ويُقرَنُ المطيعُ بمَن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين.

---

(١) ذكره الرازي في التفسير ٣١/ ٦٩ ، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ .

(٢) ذكره الرازي ٣١/ ٦٩ دون نسبة.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٤ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٣ .

وقيل: قُرِنت النفوسُ بأعمالها، فصارت لاختصاصِها به كالتزويج[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤودة المقتولةُ، وهي الجاريةُ تُدفَنُ وهي حيةٌ، سمِّيتْ بذلك لمَا يطرحُ عليها من التراب، فيؤودها، أي: يُثقِلُها حتى تموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يُثقِلُه؛ وقال متمِّم ابنُ نُويرةَ:

ومَوءودةٍ مَقبورةٍ في مَفازةٍ بآمَتِها مَوسودةٍ لم تُمهَّدِ[٢]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياءً لخصلتين؛ إحداهما: كانوا يقولون: إنَّ الملائكة بناتُ الله، فألحقوا البناتِ به. الثانية: إمَّا مخافة الحاجةِ والإملاق، وإمَّا خوفاً من السَّبْي والاسْتِرقاق. وقد مضى في سورة النحل هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [الآية: ٥٩] مستوفًى.

وقد كان ذَوُو الشَّرفِ منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال:

ومِنَّا الَّذي مَنعَ الوائِدات وأحيا الوئِيدَ فلم يُوْأدِ[٣]

يعني جدَّه صَعْصَعة[٤]؛ كان يشتريهنَّ من آبائهن، فجاء الإسلامُ وقد أحيا سبعين موءودةً.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٤ ، وذكر هذا القول أيضاً الرازي ٣١/ ٦٩ وقال: واعلم أنك إذا تأمَّلتَ في الأقوال التي ذكرناها، أمكَنَك أن تزيد عليها ما شئت.

(٢) في (ظ) و(ي): موسومة لم تمهد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢١٤ ، والكلام منه. والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٤٥ ، واللسان (أوم) و(عوز) منسوب لحسان بن ثابت برواية:

وموءودةٍ مقرورة في مَعاوزٍ بآمتها مرسومة لم تُوَسَّدِ

ولم نقف عليه في ديوانه. الآمة: ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه، ويقال: ما لُفَّ فيه من خرقة وما خرج معه. والمعاوز: خُلقانُ الثياب. اللسان (أوم) و(عوز).

(٣) ديوان الفرزدق ١/ ١٧٣ .

(٤) ابن ناجية التميمي الدارمي، قال ابن السكن: له صحبة، وكان من أشراف بني مجاشع في الجاهلية والإسلام، وهو ابن عم الأقرع ابن حابس. الإصابة ٥/ ١٤٢ .

وقال ابن عباس: كانت المرأةُ في الجاهلية إذا حملتْ حَفَرت حفرةً، وتَمخَّضتْ على رأسها. فإنْ ولدت جارية رَمَتْ بها في الحفرة، وردَّتِ الترابَ عليها، وإن ولدتْ غلاماً حَبسَته[١]، ومنه قولُ الراجزِ:

سَمَّيتُها إذ وُلِدتْ تموتُ والقبرُ صِهرٌ ضامِنٌ زِمِّيتُ[٢]

الزِّميتُ: الوقور، والزميتُ مثالُ الفِسِّيقِ أوْقَر من الزَّمِيت، وفلانٌ أزْمتُ الناس، أي: أوْقَرُهم، وما أشدَّ تزمُّتَه؛ عن الفرَّاء[٣].

وقال قتادةُ: كانت الجاهليةُ يقتلُ أحدهم ابنته، ويَغذُو كَلبَه، فعاتَبَهم الله على ذلك، وتَوعَّدهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾[٤].

قال عمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ قال: جاء قيس بنُ عاصم إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنِّي وأدْتُ ثمان بناتٍ كنَّ لي في الجاهلية، قال: «فأعتِقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ رقبةً» قال: يا رسولَ الله، إنِّي صاحب إبلٍ، قال: «فأهْدِ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ بَدَنةً إنْ شِئْتَ»[٥].

وقوله تعالى: «سُئِلت» سؤال الموؤودةِ توبيخٌ[٦] لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب: لم ضُرِبتَ؟ وما ذَنبُك؟ قال الحسن: أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتلت بغير ذنب.

وقال ابن أسلم: بأيِّ ذَنبٍ ضُربت، وكانوا يضربونها.

---

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/٤٢٩، وذكره البغوي ٤/٤٥٢، وابن الجوزي ٩/٤٠.

(٢) الرجز في جمهرة اللغة ٢/١٦، واللسان (ربت). والثاني في العين ٧/٣٥٩، وتهذيب اللغة ١٣/١٨٦، والصحاح (زمت)، واللسان (زمت).

(٣) الصحاح (زمت).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/١٤٧، وفيه: فعاب الله عليهم ذلك، بدل: فعاتبهم الله على ذلك...

(٥) أخرجه البزار في مسنده (٢٣٧)، والطبراني في الكبير ١٨/(٨٦٣)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، ووقع عند البزار «فانحر عن كل واحدة...».

(٦) في (د) و(م): سؤال الموؤودة سؤال توبيخ.

وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى: «سُئلتْ» قال: طُلِبت؛ كأنه يريدُ كما يُطلب بدم القتيل، قال: وهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] أي: مطلوباً. فكأنها طُلِبت منهم، فقيل: أين أولادُكم[١]؟

وقرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبي صالح: «وإذا الموؤودة سألت»[٢]. فتتعلَّق الجارية بأبيها، فتقول: بأيِّ ذنبٍ قَتلتني؟ فلا يكونُ له عذرٌ؛ قاله ابن عباس، وكان يقرأ: «وإذا الموؤودة سألَتْ»[٣]، وكذلك هو في مصحف أُبيٍّ[٤]. وروى عكرمةُ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة التي تقتلُ ولدَها تأتي يومَ القيامةِ مُتعلِّقاً ولدُها بثدييها، ملطَّخاً بدمائه، فيقول: ياربِّ، هذه أمِّي، وهذه قَتَلتْني»[٥].

والقولُ الأولُ عليه الجمهور، وهو مثلُ قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] على جهة التَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم، فكذلك سؤالُ الموؤودة توبيخٌ لوائدِها، وهو أبلغُ من سؤالها عن قَتلِها؛ لأنَّ هذا مما لا يصحُّ إلَّا بذنبٍ، فبأيِّ ذنبٍ كان ذلك. فإذا ظَهَر أنه لا ذنبَ لها، كان أعظمَ في البليةِ وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلم.

وقرئ: «قتِّلت» بالتشديد. وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يُعذَّبون، وعلى أنَّ التعذيب لا يُستحقُّ إلَّا بذنبٍ[٦].

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤١ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢ ، وذكر ابن عطية أن بعض مَن قرأ بهذه القراءة قرأ ايضاً: «قُتِلْتُ» بسكون اللام وضم التاء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢١٤ ، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥٨ .

(٥) لم نقف عليه.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٢٢ ، وقراءة «قتِّلت» في القراءات الشاذة ص١٦٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ أي: فُتِحَتْ بعدَ أنْ كانت مَطوِيَّةً، والمرادُ صحفُ الأعمال التي كَتَبت الملائكةُ فيها ما فعلَ أهلُها من خيرٍ وشرّ، تُطوَى بالموت، وتُنشَر في القيامة، فيقفُ كلُّ إنسانٍ على صحيفته، فيَعْلَم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩][١].

وروي عن مَرثَد بن وَدَاعة قال: إذا كان يومُ القيامة تطايرت الصحفُ من تحتِ العرش، فتقع صحيفةُ المؤمن في يده ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٤] وتقع صحيفة الكافر في يده ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤][٢].

ورُوي عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُحشَرُ الناسُ يوم القيامةِ حُفاةً عُراةً» فقلتُ: يا رسولَ الله! كيف بالنساء؟ قال: «شُغِلَ الناسُ يا أمَّ سَلَمة». قلتُ: وما شَغَلَهم؟ قال: «نَشرُ الصُّحُفِ، فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيل الخَرْدَلِ»[٣].

وقد مضى في سورة سُبحان[٤] قولُ أبي السَّوَّار العدَوِيِّ: هما نَشرَتان وطَيَّةٌ، أما ما حَيِيتَ يا ابنَ آدم فصحيفتُكَ المنشورةُ، فأَمْلِ فيها ما شِئتَ، فإذا متَّ طُوِيتْ، حتى إذا بُعثْتَ نُشِرَتْ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال مقاتل: إذا مات المرءُ طُوِيتْ صحيفةُ عمله، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرتْ.

وعن عمر ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: إليكَ يُساقُ الأمرُ يا ابنَ آدم[٥].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٥ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٣ ، وزاد في آخره: أي مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غير صحف الأعمال . اهـ. ومرثَد بن وَداعة هو أبو قتيلة الحمصي، قال البخاري: له صحبة. الإصابة ٩/ ١٦٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٣٧). ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٢-٢٢٣ .

(٤) ١٣/ ٤١ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٢٢ .

وقرأ نافعٌ وابن عامرٍ وعاصمٌ وأبو عمرو: «نُشِرَت» مخفَّفةً[١]، على نَشرِها مرةً واحدةً، لقيام الحجة. الباقون بالتشديد، على تكرار النَّشرِ؛ للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشيرِ المطيع. وقيل: لتكرارِ ذلك من الإنسان والملائكةِ الشُّهداءِ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾: الكَشْطُ: قَلْعٌ عن شدَّةِ الْتِزاقٍ، فالسماءُ تُكشَطُ كما يكشَطُ الجلد عن الكبش وغيره. والقَشطُ لغةٌ فيه، وفي قراءةِ عبدِ الله: «وإذا السماءُ قُشِطَت». وكَشَطْتُ البعيرَ كَشْطاً: نزعت جِلدَه، ولا يقال: سَلخته؛ لأنَّ العرب لا تقولُ في البعير إلَّا كشَطْته أو جَلَّدته، وانكشط [رَوْعُه]، أي: ذهب[٢]. فالسماءُ تُنزَع من مكانها كما ينزعُ الغِطاءُ عن الشيء.

وقيل: تُطوَى، كما قال تعالى: ﴿يوم نطوِي السماء كطيّ السِّجِلّ لِلكتابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فكأنَّ المعنى: قُلِعَتْ فطُوِيتْ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ أي: أُوْقدَتْ فأضرمت للكفار وزِيدَ في إحمائها. يقال: سَعَّرتُ النار وأسعَرتها. وقراءةُ العامَّةِ بالتخفيف، من السعير. وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوانَ ورُوَيْس بالتشديد[٣]؛ لأنَّها أوقدَتْ مرةً بعد مرةٍ. قال قتادة: سَعَّرها غضبُ الله، وخطايا بني آدم[٤].

وفي الترمذيِّ[٥] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «أُوقِدَ على النار ألف سنةٍ حتى احْمَرَّتْ، ثم أُوْقِدَ عليها ألف سنةٍ حتى ابيَضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألف سنةٍ حتى

---

(١) السبعة ص٦٧٣ ، والنشر ٢/ ٣٩٨ عن نافع وابن عامر وعاصم، أما أبو عمرو فقرأ: «نشّرت» بتشديد الشين.

(٢) الصحاح (كشط)، وما بين حاصرتين منه. وقراءة عبد الله ﷺ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤١ .

(٣) وقرأ بها أيضاً من العشرة حفص وأبو جعفر. السبعة ص٦٧٣ ، والتيسير ص٢٢٠ ، والنشر ٢/ ٣٩٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥٠ .

(٥) برقم (٢٥٩١).

اسوَدَّتْ، فهي سوداءُ مُظلمة». ورُوي موقوفاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: دَنَتْ وقرِّبت من المتَّقين. قال الحسن: إنهم يُقرَّبون منها؛ لا أنَّها تَزولُ عن مَوضِعها. وكان عبدُ الرحمن بنُ زيد يقول: زُيِّنت[٢].

والزُّلفَى في كلام العرب: القُربة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وتزلَّف فلانٌ: تَقرَّبَ.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ يعني ما عَمِلَتْ من خيرٍ وشرٍّ. وهذا جوابُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما بَعدَها. قال عمر ﷺ: لهذا أُجْرِيَ الحديث[٣]. ورُوِيَ عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنَّهما قرآها، فلمَّا بلغا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قالا: لهذا أُجريَت القصةُ. فالمعنى على هذا: إذا الشمسُ كُوِّرَتْ وكانت هذه الأشياء، عَلمتْ نفسٌ ما أَحْضرتْ من عملها.

وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ إلَّا وسيُكلِّمه الله ما بينه وبينه تَرجُمان، فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلَّا شيئاً قدَّمه، وينظر أشأمَ منه فلا يرى إلَّا شيئاً قدَّمه، وينظر أمامه، فتستقبلُه النار، فَمَن استطاع منكم أن يتَّقي النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ فلْيفعَلْ»[٤].

وقال الحسن: «إذ الشمسُ كوِّرتْ» قسمٌ وقع على قوله: «علمتْ نفسٌ ما أحضَرتْ»[٥] كما يقال: إذا نَفَر زيدٌ نفرَ عمرو. والقولُ الأولُ أصح.

وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى: «إذا الشمسُ كُوِّرتْ» إلى قوله:

---

(١) أخرجه الترمذي إثر المرفوع، ثم قال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح.

(٢) في (ظ): تزينت.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٥١-١٥٢.

(٤) صحيح البخاري (١٤١٣)، وصحيح مسلم (١٠١٦)، وهو عند أحمد (١٨٢٤٦).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢١٥.

«وإذا الجنة أُزلِفت» اثنتا عشرةَ خصلةً: ستَّةٌ في الدنيا، وستَّةٌ في الآخرة[١]، وقد بينَّا الستَّةَ الأُولى بقولِ أبيّ بنِ كعب[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: أُقسِمُ، و«لا» زائدةٌ، كما تقدَّم[٣]. ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ هي الكواكبُ الخمسةُ الدَّراريُّ: زُحَلُ والمُشتري وعُطارِدٌ والمرِّيخُ والزُّهرةُ، فيما ذكر أهلُ التفسير. والله أعلم. وهو مَرْويٌّ عن عليٍّ كَرَّم الله وَجهَه[٤].

وفي تخصيصها بالذِّكْر من بينِ سائرِ النجوم وجهان: أحدُهما: لأنَّها تستقبلُ الشمس؛ قاله بكر بنُ عبد الله المُزَنيُّ. الثاني: لأنها تقطعُ المجرَّة؛ قاله ابن عباس[٥].

وقال الحسن وقتادةُ: هي النجومُ التي تَخْنسُ بالنهار، وإذا غَرَبَت[٦]، وقاله عليٌّ ﷺ، قال: هي النجومُ تَخنسُ بالنهار، وتَظهَرُ بالليل، وتَكنِسُ في وقتِ غروبها[٧]، أي: تتأخَّر عن البصر لخفائها، فلا تُرَى.

---

(١) زاد المسير ٩/ ٤١ .

(٢) سلف ص١٠٠ من هذا الجزء.

(٣) عند تفسير الآية (٧٥) من سورة الواقعة، والآية (٤٠) من سورة المعارج.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، وزاد المسير ٩/ ٤٢ ، وأخرجه عن علي ﷺ ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٠ ، وفيه: بَهْرام، بدل: المريخ، وهما واحد، كما في زاد المسير، والأزمنة والأمكنة ٢/ ٤٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، وأخرجه عن ابن عباس أبو الشيخ في العظمة (٦٨٦). وعن بكر بن عبد الله الطبري ٢٤/ ١٥٣ .

(٦) في (د): إذا غربت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، والكلام منه. وأخرج القول بنحوه عن قتادة والحسن الطبري ٢٤/ ١٥٤ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥٢-١٥٣ بلفظ: تخنس بالنهار، وتكنس بالليل، وفي رواية: تجري بالليل، وتخنس بالنهار. وفي رواية: تكنس بالنهار، وتبدو بالليل.

وفي «الصحاح»: و«الخُنَّس»: الكواكب كلُّها؛ لأنها تَخنسُ في المغيب، أو لأنَّها تَخفَى نهاراً[١]. ويقال: هي الكواكبُ السيارةُ منها دون الثابتة. وقال الفرَّاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ . ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: إنَّها النجومُ الخمسةُ؛ زُحلُ والمشتري والمرِّيخ والزُّهرةُ وعُطاردُ؛ لأنها تُخنسُ في مجراها، وتَكنِسُ، أي: تَستَتِر كما تَكنِسُ الظِّباءُ في المَغَارِ، وهو الكِناس[٢]. ويقال: سمِّيتْ خُنَّساً لتأخُّرها؛ لأنَّها الكواكبُ المتحيِّرةُ التي تَرجعُ وتستقيم؛ يقال: خَنَس عنه يَخنُس ـ بالضَّم ـ خُنوساً: تأخَّر، وأخْنَسه غيرُه: إذا خلَّفه ومَضى عنه[٣]. والخَنَس: تَأخُّر الأنفِ عن الوجه مع ارتفاعٍ قليلٍ في الأرنبة، والرجلُ أخنَسُ، والمرأةُ خَنساءُ، والبقرُ كلُّها خُنسٌ.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «فلا أُقسِم بِالخُنس»: هي بقرُ الوحش؛ روى هُشَيم عن زكريا، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ عمرو بنِ شُرحبيل قال: قال لي عبد الله بنُ مسعود: إنكم قومٌ عربٌ، فما الخنَّس؟ قلت: هي بقرُ الوَحشِ، قال: وأنا أرى ذلك[٤]. وقاله إبراهيم وجابر بنُ عبد الله[٥]. وروي عن ابن عباس: إنَّما أقسمَ الله ببقرِ الوحش[٦]. وروى عنه عِكرمة قال: «الخُنَّسُ»: البقرُ، و«الكُنَّس»: هي الظِّباء[٧]، فهي خُنَّسٌ؛ إذا رأينَ الإنسان خَنَسنَ وانقبضنَ وتأخَّرنْ ودَخَلنَ كِناسَهنَّ.

---

(١) في (م): تخنس نهاراً، وفي الصحاح (خنس): تختفي بالنهار، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في مختار الصحاح.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (خنس).

(٣) في مختار الصحاح: وخنس يكون متعدياً ولازماً... وبعضهم لا يجعله متعدياً إلا بالألف، فيقول: أخنسه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥١ ، والطبري ٢٤/ ١٥٤-١٥٥ .

(٥) أخرجه عن إبراهيم الطبري ٢٤/ ١٥٦-١٥٧ ، ولم نقف عليه عن جابر بن عبد الله.

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي، كما في تفسير ابن كثير، بلفظ: «الجواري الكنس» قال: البقر الوحش تكنس إلى الظل.

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ ، وفيه: المعز، بدل: البقر.

القشيريُّ: وقيل على هذا: «الخُنْس» من الخنَس في الأنف، وهو تأخُّر الأرنبةِ وقِصَرُ القَصَبةِ، وأنوفُ البقرِ والظِّباءِ خنسٌ، والأصلُ[1] الحملُ على النجوم، لذِكرِ الليلِ والصُّبحِ بعد هذا، فذِكرُ النجومِ أَلْيَقُ بذلك.

قلت: لله أن يقسمَ بما شاء مِن مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يُعلَم وَجهُ الحكمةِ في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بنِ عبد الله ـ وهما صحابيَّان ـ والنخعيّ: أنَّها بقرُ الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جُبير: أنها الظِّباء[2]. وعن الحجاج بن منذر قال: سألتُ جابر بنَ زيد عن الجواري الكنَّس، فقال: الظِّباءُ والبقر[3]. فلا يَبْعُدُ أن يكون المرادُ النجوم.

وقد قيل: إنَّها الملائكة؛ حكاه الماورديُّ[4]. والكنَّس الغُيَّب؛ مأخوذةٌ من الكِناس، وهو كِناسُ الوحشِ الذي يختفي فيه. قال أوس بن حَجَر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ مُزْنَةً وعُفْرُ الظباءِ في الكِناسِ تَقَمَّعُ[5]

وقال طَرَفة:

كأنَّ كِناسَيْ ضالَةٍ يَكْنُفانِها وأَطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤيَّدِ[6]

---

(١) في (م): والأصح.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٤/ ١٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٣٧٤، والطبري ٢٤/ ١٥٥.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢١٥ و٢١٦.

(٥) ديوان أوس بن حجر ص٥٧، والمعاني الكبير ٢/ ٦٠٥، وسلف ١٧/ ٢٩١. قال ابن قتيبة: تَقَمَّع: تطرد عنها القمعة، وهو ذباب أزرق، يقول: خصَّه الله بهذه المزنة في غير وقت مطر، في الحر، والذباب لم يَخِفَّ ولم يذهب.

(٦) ديوان طرفة ص٢٥، الكناس: بيت يتخذه الوحش في أصل شجرة. والضَّالُ: ضَرْبٌ من الشجر، وهو السِّدر البري، الواحدة ضالَة. كنفت الشيء: صرت في ناحيته، والكنف الناحية. والأطر: العَطْف، ومُنحنَى القوس. والمؤيَّد: المقوَّى. شبَّه إبطي الناقة في السَّعة ببيتين من بيوت الوحش في أصل شجرة، وشبَّه أضلاعها بقِسِيٍّ معطوفة وسعةُ الإبط أبْعَدُ لها من العِثَار؛ لذلك مَدحها بها. شرح المعلقات للزوزني في ص٥١.

وقيل: الكُنوسُ: أنْ تأويَ إلى مَكانسها، وهي المواضعُ التي تأوي إليها الوحشُ والظِّباء.

قال الأعشى:

فلمَّا أتينا الحيَّ أتلَعَ أُنَّسٌ كما أتلَعَتْ تحتَ المكانِسِ رَبْرَبُ(١)

يقال: تَلَع النهار: ارتفع، وأتْلَعتِ الظَّبيةُ من كِناسها، أي: سَمَتْ بجيدِها. وقال امرُؤ القيس:

تَعَشَّى قليلاً ثم أنْحى ظُلُوفَه يثِيرُ الترابَ عن مَبيتٍ ومَكنِسِ(٢)

والكُنَّس: جمعُ كانِس وكانِسةٍ، وكذا الخُنَّسُ جمعُ خانِسٍ وخانِسةٍ. والجواري: جمعُ جاريةٍ، مِن جَرى يَجري.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قال الفرَّاء: أجمعَ المفسِّرون على أنَّ معنى عَسْعَسَ: أدبَر ـ حكاه الجوهريُّ ـ وقال بعضُ أصحابنا: إنه [إذا] دنا من أوَّله وأظْلَم، وكذلك السَّحابُ إذا دنا من الأرض(٣).

المهدويُّ: «والليل إذا عَسْعَسَ»: أدْبَرَ بظَلامِه؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما(٤). وروي عنهما أيضاً وعن الحسن وغيره: أقبلَ بظلامه(٥). زيد بن أسلَم: «عسعسَ»: ذهب(٦).

---

(١) ديوان الأعشى ص١١ (طبعة دار صادر) برواية: فلما ادَّرَكْتُ. وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ١٥٨ برواية: فلما لحقنا. قوله: أتلع، يقال: أتلع رأسه، أي: أطلعه فنظر. والربرب: القطيع من بقر الوحش، وقيل: من الظباء، ولا واحد له. اللسان (ربب) و(تلع).

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٠٢ . قال الشارح: قوله: تعشى، أي: دخل في العشاء، وهو أول الليل، كأنه قال: أمسى قليلاً ثم أنحى ظلوفه، أي: اعتمد بأظلافه يحفر مربضاً يبيت فيه ويكنس.

(٣) الصحاح (عسس)، وما سلف بين حاصرتين منه وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ١٥٩-١٦٠ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ١٦٠ و١٦١ عن مجاهد والحسن. وأخرجه عن ابن عباس عبد الرزاق ٢/ ٣٥٢ ، وابن الأنباري في الأضداد ص٣٣ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦١ .

الفراء: العربُ تقول: عَسْعَسَ الليلُ وسَعْسَع: إذا لم يَبْقَ منه إلَّا اليسيرُ[١].

الخليلُ وغيرُه: عَسْعَسَ الليلُ: إذا أقبلَ أو أدْبَر. المبرِّد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيءٍ واحدٍ، وهو ابتداءُ الظلامِ في أوَّله، وإدبارُه في آخره[٢]؛ وقال علقمةُ بنُ قُرْطٍ:

حتى إذا الصبحُ لها تَنفَّسا وانْجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا[٣]

وقال رُؤبة:

يا هندُ ما أَسْرَعَ ما تَسَعْسَعا مِن بَعدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا[٤]

وهذه حجةُ الفرَّاء. وقال امرؤُ القيس:

عَسْعَسَ حتى لو يشاءُ ادَّنا كان لنا مِن نارِهِ مَقْبِسُ[٥]

فهذا يدلُّ على الدنوِّ.

وقال الحسن ومجاهدٌ: عَسْعَسَ: أظلَم؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما ليلُهنَّ عَسْعَسَا رَكِبْنَ مِن حدِّ الظلامِ حِنْدِسَا[٦]

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٥٣ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٢ ، وتهذيب اللغة ١/ ٧٩ .

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٣٨ ، والأضداد لابن السكيت ص١٦٧ ، والأضداد لابن الأنباري ص٣٣ ، والأزمنة والأمكنة ١/ ٣٢٥ .

(٤) الأول في الديوان ص٨٨ ، والبيتان في العين ١/ ٧٥ . قوله: سرعرعاً، أي: شابًا قويًا، كما ذكر صاحب العين. وتسعسع الرجل، أي: كَبِر حتى هرم وولى. الصحاح (سعسع).

(٥) كذا ذكره ابن الأنباري عن امرئ القيس ضمن خبر أخرجه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وقد ذُكر البيت في ملحقات ديوان امرئ القيس ص٤٦٣ عن ابن الأنباري. وذكر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢ : أن أبا البلاد النحوي كان ينشد هذا البيت، قال: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع، وذكر في شرحه: أن معناه: لو يشاء إذ دنا، فتركت همزة إذ، وأبدلوا من الذال دالاً، وأدغموها في الدال التي بعدها.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢١٧ ، وأنشده ابن الأنباري في الأضداد ص٣٤ برواية:

حتى إذا الليل عليها عسعسا وادَّرعت منه بهيماً حِندساً

قال ابن الأنباري: الحندس: الشديد السواد، والبهيم: الذي لا يخالط لونَه لونٌ آخر.

الماورديُّ: وأصلُ العسِّ: الامتلاءُ، ومنه قيل للقدح الكبير: عُسٌّ؛ لامتلائه بما فيه، فانْطَلَق على إقبال الليل لابتداءِ امتلائه، وانطلق على إدباره لانتهاءِ امتلائه، وانطلق على ظلامه لاستكمال امتلائه[1]. وأمَّا قولُ امرئ القيس:

أَلِمَّا على الرَّبْعِ القديم بِعسْعَسَا[2]

فموضعٌ بالبادية، وعسعسٌ أيضاً اسمُ رجلٍ؛ قال الراجز:

وعَسْعَسٌ نِعمَ الفتى تَبَيَّاهُ[3]

أي: تَعْتَمِدُه. ويقال للذئب: العَسْعَسُ والعَسعاسُ والعَسَّاس؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويَطلبُ. ويقال للقنادفذ: العَسَاعِسُ؛ لكَثْرةِ تَردُّدِها بالليل. قال أبو عمرو: والتَّعَسْعُس: الشمُّ، وأنشد:

كَمنْخَرِ الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا[4]

والتَّعَسْعُس أيضاً: طَلَبُ الصيدِ [بالليل].

قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: امتدَّ حتى يصيرَ نهاراً واضحاً؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفَّس. وكذلك الموجُ إذا نَضحَ الماءَ. ومعنى التنفُّسِ: خروجُ النسيمِ من الجَوْف.

وقيل: «إذا تنفَّس»، أي: انشقَّ وانفَلَقَ، ومنه: تَنفَّستِ القوسُ[5]، أي: تَصَدَّعتْ.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢١٧ ، وليس في مطبوعه: وانطلق على إدباره لانتهاء امتلائه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٠٥ ، وعجزه: كأني أنادي أو أكلِّم أخرسا. قال شارح الديوان: يقول لصاحبيه: ألمَّا على الرَّبْع، أي: انزلا عليه مساعدة لي حتى أسأله عن أهله، ثم أخبر أنه ناداه فلم يُجبْه.

(٣) البيت لرويشد الأسدي كما في التاج (بيي)، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٤٥ ، والصحاح (عسس)، والاقتضاب ص٣٠٩ ، وذكر البطليوسي قبله: منَّا يزيد وأبو مُحيَّاهْ.

(٤) الصحاح (عسس)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ: تنفست القوس والنفوس، والمثبت من تهذيب اللغة ١٣/ ١٠ والصحاح (نفس) واللباب ٢٠/ ١٨٨ ، وفتح القدير ٦/ ٣٩١ . واللسان (نفس).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا جوابُ القَسَم. والرسولُ الكريم: جبريل؛ قاله الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ[١]. والمعنى: «إنه لقولُ رسولٍ» عن الله، «كريمٍ» على الله. وأضاف الكلام إلى جبريلَ عليه السلام، ثم عدَّاه عنه بقوله: «تنزيلٌ مِن ربِّ العالَمِين» ليعلم أهلُ التحقيق في التصديق، أنَّ الكلام للهِ عزَّ وجلَّ.

وقيل: هو محمدٌ عليه الصلاة والسلام[٢] ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: مَن جَعَله جبريلَ فقوَّتُه ظاهرةٌ، فروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: مِن قوَّته قَلْعُه مَدائنَ قومِ لُوطٍ بقوادمِ جناحه[٣].

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: عند الله جلَّ ثناؤه ﴿مَكِينٖ﴾ أي: ذي منزلةٍ ومكانةٍ، فرُوي عن أبي صالح قال: يدخلُ سبعين سُرادِقاً بغيرِ إذنٍ[٤].

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ أي: في السماوات؛ قال ابن عباس: من طاعةِ الملائكةِ جبريلَ، أنه لمَّا أسرِيَ برسول الله ﷺ قال جبريل عليه السلام لرضوان خازنِ الجِنَان: افتح له، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمالكٍ خازنِ النار: افتح له جهنَّم حتى ينظرَ إليها، فأطاعه وفتح له[٥].

﴿أَمِينٖ﴾ أي: مؤتَمن على الوحي الذي يجيءُ به.

ومَن قال: إنَّ المرادَ محمدٌ ﷺ، فالمعنى: «ذي قوةٍ» على تبليغ الرسالة[٦]، «مُطاعٍ» أي: يطيعُه مَن أطاع الله جلّ وعزّ.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ يعني محمداً ﷺ، ليس بمجنون حتى يُتَّهم في قوله. وهو من

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٨، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٥٢، والطبري ٢٤/ ١٦٣.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢١٨ عن ابن عيسى.

(٣) سلف ٢٠/ ١٢ عن الكلبي، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٤، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٤٣، كلاهما في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ ولفظه: أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٤٣ دون نسبة.

(٦) في (د) و(ظ): الوحي.

جواب القَسَم.

وقيل: أراد النبيُّ ﷺ أن يرى جبريلَ في الصورة التي يكونُ بها عند ربِّه جلَّ وعزَّ، فقال: ما ذاك إليَّ؛ فأذِنَ له الربُّ جلَّ ثناؤه، فأتاه وقد سَدَّ الأُفقَ، فلمَّا نظرَ إليه النبيُّ ﷺ خرَّ مَغشيًا عليه، فقال المشركون: إنَّه مجنون، فنزلت: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[1] وإنَّما رأى جبريلَ على صورته فهابَه، وورد عليه ما لم تَحْتَمِلْ بِنيتُه، فخرَّ مَغشيًا عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: رأى جبريلَ في صورته، له ستُّ مئة جناحٍ[2]. «بِالأفقِ المُبينِ» أي: بمطلع الشمس من قِبَلِ المَشرِق؛ لأنَّ هذا الأفقَ إذا كان منه تطلعُ الشمسُ فهو مُبين. أي: من جهته تُرَى الأشياء.

وقيل: الأفقُ المبينُ: أقطارُ السماءِ ونواحيها؛ قال الشاعر:

أخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عليكُمُ   لنا قَمراها والنجومُ الطَّوالِعُ[3]

الماورديُّ: فعلَى هذا فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنه رآه في أفقِ السماءِ الشرقيِّ؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربيِّ، حكاه ابن شجرة. الثالث: أنه رآه نَحوَ أجياد، وهو مَشرقُ مكةَ؛ قاله مجاهد[4].

وحكى الثعلبيُّ عن ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ لجبريلَ: «إنِّي أحبُّ أن أراكَ في

---

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وسيأتي خبر رؤية النبي ﷺ لجبريل في صورته التي يكون فيها في السماء.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٦-١٦٧ عن أبي الأحوص، وأخرج عبد الرزاق ٢/ ٣٥٢ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأى جبريل له خمس مئة جناح قد سدَّ الأفق.

(٣) البيت للفرزدق، وهو في الكامل للمبرد ١/ ١٨٧ ، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٨٠ ، والخزانة ٩/ ١١٤ . قوله: قمراها، قال المبرد: يريد الشمس والقمر.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٨-٢١٩ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٦ .

صورتك التي تكونُ فيها في السماء» قال: لن تقدرَ على ذلك. قال: «بلى» قال: فأين تشاءُ أن أتخيَّل لك؟ قال: «بالأبطح» قال: لا يَسعُني. قال: «فبمِنًى» قال: لا يسعني. قال: «فبعرفات» قال: ذلك بالحريِّ أن يَسعني. فَواعَدَه، فخرج النبيُّ ﷺ للوقت، فإذا هو قد أقبلَ بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرفات، قد ملأ ما بينَ المشرقِ والمغرب، ورأسُه في السماء ورجلاه في الأرض، فلمَّا رآه النبيُّ ﷺ خرَّ مغشيًّا عليه، فتحوَّل جبريلُ في صورته، وضمَّه إلى صدره. وقال: يا محمدُ لا تَخَفْ، فكيف لو رأيتَ إسرافيلَ، ورأسُه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإنَّ العرش على كاهله، وإنه ليتضاءلُ أحياناً من خشية الله، حتى يصير مثل الوَصَع ـ يعني العصفور ـ حتى ما يحملُ عرشَ ربِّك إلَّا عظمتُه[(١)].

وقيل: إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام رأى ربَّه عزَّ وجلَّ بالأفق المبين. وهو معنى قولِ ابنِ مسعود[(٢)]. وقد مضى القولُ في هذا في «والنَّجْمِ» مستوفًى[(٣)]، فتأمَّله هناك.

وفي «المبين» قولان: أحدُهما أنه صفةُ الأفقِ؛ قاله الربيع. الثاني: أنه صفةٌ لمن رآه؛ قاله مجاهد.

﴿وما هو على الغيب بِظَنينٍ﴾ بالظاء، قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو والكسائيِّ[(٤)]، أي: بمتَّهم، والظِّنَّة: التُّهمة؛ قال الشاعر:

أمَا وكتابِ اللهِ لا عن شناءةٍ هُجِرتُ ولكنَّ الظَّنِينَ ظَنينُ[(٥)]

---

(١) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٤٥٤ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١٨ .

(٣) ٢٠/ ٢١ وما بعد، وقول ابن مسعود هناك هو أن الذي رآه رسول الله ﷺ هو جبريل، وقد ذكر المصنف ٨/ ٤٨٣-٤٨٤ عن ابن مسعود القولين؛ الأول: أنه إنما رأى جبريل. والثاني: ذكره عن بعض المتكلمين عن ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى ربه. ثم قال: والأول عنه أشهر.

(٤) السبعة ص٦٧٣ ، والتيسير ص٢٢٠ .

(٥) البيت لعبد الرحمن بن حسان، كما في الكامل ١/ ٢٣ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ٣٦٤ ، ونسبه ابن بري =

واختاره أبو عُبيد؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذَّبوه؛ ولأنَّ الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنَّما يقولون: ما أنت على هذا بمتَّهم.

وقرأ الباقون: «بِضَنِينٍ» بالضاد: أي: ببخيل؛ من ضَنِنْتُ بالشيء أضِنُّ ضِنًّا. فروى ابنُ أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يَضنُّ عليكم بما يَعلَم(١)، بل يُعَلِّم الخَلقَ كلامَ اللهِ وأحكامَه. وقال الشاعر:

أجُودُ بمكنونِ الحديث وإنَّني ... بِسِرِّكِ عمَّن سالَني لضَنِينِ(٢)

والغَيْب: القرآنُ وخبرُ السماء. ثم هذا صفةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام. وقيل: صفةُ جبريلَ عليه السلام.

وقيل: بظَنين: بضعيف. حكاه الفرَّاء والمبرِّد؛ يقال: رجلٌ ظَنينٌ(٣)، أي: ضعيفٌ. وبئر ظَنونٌ: إذا كانت قليلةَ الماء؛ قال الأعشى:

ما جُعِلَ الجُدُّ الظَّنونُ الذي ... جُنِّبَ صَوبَ اللَّجِبِ الماطِرِ
مِثلَ الفُرَاتيِّ إذا ما طما ... يَقذِفُ بالبُوصِيِّ والماهِرِ(٤)

والظَّنونُ: الدَّينُ الذي لا يُدْرَى أيقْضِيه آخِذُه أم لا؟ ومنه حديثُ عليٍّ عليه السلامُ في الرجل يكون له الدَّينُ الظَّنون، قال: يزكِّيه لِمَا مضى إذا قَبَضَه إن كان صادقاً(٥).

= لنَهار بن تَوسِعة، كما في اللسان (ظنن). ووقع في هذه المصادر: جناية، بدل: شناءة. والشناءة: أشدُّ البغض. المعجم الوسيط (شنأ).

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٨ .

(٢) البيت لقيس بن الخطيم، كما في أمالي القالي ٢/ ١٧٧ ، وفيه: أجود بمكنون التلاد...، وذكره أيضاً القالي في الأمالي ٢/ ٢٠٢ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٤٦٠ برواية: أجود بمضنون التلاد. والتلاد: ما ولد عندك من مالك أو نتج. القاموس (تلد).

(٣) في معاني القرآن للفراء: ظنون، وكذا نقل عنه الطبري ٢٤/ ١٧٠ ، والأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٦٣ .

(٤) ديوان الأعشى ص١٩١ ، واللسان (مهر)، وفيه: الجُدُّ: البئر، والفراتي: الماء المنسوب إلى الفرات. وطما: ارتفع. والبوصي: الملاح. والماهر: السابح. قال شارح الديوان: أي: ليس البئر القليل الماء قد جانَبه السيل الزاخر، مثلَ الفرات إذا جاش بالماء يقذف بالسُّفين وبالسبَّاح.

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٦٤ ، وأحمد كما في مسائل ابنه عبد الله ٢/ ٥٣٢ .

والظَّنون: الرجلُ السيِّئُ الخُلُقِ[١]؛ فهو لفظٌ مُشتَرَكٌ.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجومٍ ملعونٍ، كما قالت قريش. قال عطاءٌ: يريدُ بالشيطان الأبيضَ الذي كان يأتي النبيَّ ﷺ في صورةِ جبريلَ يريدُ أنْ يَفْتِنَه.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ قال قتادةُ: فإلى أين تَعدِلون عن هذا القول وعن طاعته؟ كذا روَى مَعمر عن قتادة[٢]، أي: أين تذهبون عن كتابي وطاعتي؟

وقال الزجَّاج[٣]: فأيَّ طريقةٍ تَسلُكون أبينَ من هذه الطريقةِ التي بيّنت لكم؟ ويقال: أين تذهبُ؟ وإلى أين تذهبُ؟ وحَكَى الفرَّاء[٤] عن العرب: ذهبتُ الشامَ وخرجتُ العراقَ وانطلقتُ السوقَ، أي: إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرفِ الثلاثة، وأنشدني بعضُ بني عقيل:

تـصِـيـحُ بـنـا حـنـيـفـةُ إذْ رَأتـنـا وأيَّ الأرضِ تَـذْهـبُ بـالـصِّـيـاحِ[٥]

يريد: إلى أيِّ أرضٍ تذهبُ، فحذف إلى. وقال الجنيد: معنى الآيةِ مقرونٌ[٦] بآيةٍ أخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] المعنى: أيَّ طريقٍ تسلُكون أبينَ من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قولِ الزجَّاج.

---

(١) في المعاجم: الظنون: الرجل السيء الظن. زاد الأزهري عن الليث، والظنون: الرجل القليل الخير. تهذيب اللفظ ٤/ ٣٦٣.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٧١ من طريق سعيد عن قتادة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢١٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٣.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٣، وإصلاح المنطق ص٩٩، وفيهما: تذهب للصياح. والبيت كما قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٤٨ لعتي بن مالك العقيلي من قصيدة قالها في يوم الفَلَج، وهو يوم كان بينهم وبين بني حنيفة. ومعناه: أنهم شجعان لا يبرحون مكاناً، إذا صيح بهم في الحرب ثبتوا.

(٦) في (د): معروف.

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: مَوعظةٌ وزَجرٌ. و«إنْ» بمعنى «ما». وقيل: ما محمدٌ إلاَّ ذِكر. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: يتَّبع الحقَّ ويُقيم عليه.

وقال أبو هريرةَ وسليمان بنُ موسى: لمَّا نزلتْ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال أبو جهل: الأمرُ إلينا، إنْ شئنا استقَمْنا، وإنْ شئنا لم نَسْتَقِمْ ـ وهذا هو القَدَرُ، وهو رأسُ القَدَرية ـ فنزلت ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، فبيَّن بهذا أنه لا يعملُ العبدُ خيراً إلَّا بتوفيقِ الله، ولا شرًّا إلَّا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العربُ الإسلامَ حتى شاءه الله لها.

وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ في سبعةٍ وثمانين كتاباً ممَّا أنزلَ الله على الأنبياء: مَن جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كَفَر(٢). وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] والآيُ في هذا كثير، وكذلك الأخبارُ، وأنَّ الله سبحانه هَدَى بالإسلام، وأضلَّ بالكفر، كما تقدَّم في غيرِ موضعٍ. خُتمت السورة والحمد لله.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٣ عن سليمان بن موسى، وأخرجه عن أبي هريرة ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٢ .

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٧٠) و(١٢٥٨)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٤ ، وفيه: قرأت نيِّفاً وتسعين كتاباً...

سُورَةُ التَّكوِير

مكيَّةٌ، وآيُها تسعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: لُفَّتْ، مِن كوَّرْتُ العِمامةَ: إذا لفَفْتَها، بمعنَى رُفِعَت؛ لأنَّ الثَّوبَ إذا أُريدَ رَفعُهُ لُفَّ.

أو: لُفَّ ضَوْؤُها فذهبَ انبساطُه في الآفاقِ وزالَ أثرُهُ.

أو: أُلقِيَت عَن فَلَكِها؛ مِن طَعَنَهُ فكوَّرَه: إذا ألقاهُ مُجتَمِعًا، والتَّركيبُ للإدارةِ والجمعِ.

وارتفاعُ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ بفعلٍ يفسِّرُه ما بعدَها أَوْلَى؛ لأنَّ (إذا) الشَّرطيَّةَ تَطلُبُ الفِعلَ.

(٢) ـ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾: انقضَّتْ، قال:

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ[1]

---

(١) الرجز للعجاج، انظر: «ديوانه» (ص: ٨٣)، و«الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقطرب (ص: ٣٠)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٤٢٣).
«خِربان»: جمعُ خَرَبٍ وهو ذكَرُ الحُبارى، «فانكدَر»؛ أي: فانقضَّ وسقطَ، والشِّعرُ للعجَّاجِ يمدحُ عمرَ بن معمَرٍ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١٦/ ٣٠٥).

أو: أظلمَتْ؛ من: كدَّرْتُ الماءَ فانكدَرَ.

(٣) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجهِ الأرضِ أو في الجوِّ.

(٤) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾: النُّوقُ التي أتى على حَمْلِهنَّ عشرةُ أشهُرٍ، جمعُ عُشَرَاءَ ﴿عُطِّلَتْ﴾: تُرِكَتْ مُهملَةً، أو السَّحائِبُ عُطِّلَت عَن المطرِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[١].

(٥) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: جُمِعَتْ مِن كُلِّ جانبٍ، أو بُعِثَتْ للقِصاصِ ثمَّ رُدَّتْ تُرَابًا، أو أُميتَتْ، مِن قَولِهم: «إذا أَجْحَفَت السَّنَةُ بالنَّاسِ حَشَرَتْهُم»، وقُرِئَ بالتَّشديدِ[٢].

(٦) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: أُحمِيَتْ، أو: مُلِئَت بتَفجيرِ بَعضِها إلى بعضٍ حتَّى تعودَ بحرًا واحدًا؛ من سجَّر التَّنورَ: إذا ملأَهُ بالحطبِ ليُحْمِيَهُ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ بالتَّخفيفِ[٣].

(٧) ـ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: قُرِنَتْ بالأَبدانِ، أو: كلٌّ مِنها بشَكلِها، أو بكتابِها وعَمَلِها.

أو: نفوسُ المؤمنينَ بالحُورِ ونُفُوسُ الكافرينَ بالشَّياطينِ.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: المدفونةُ حيَّةً ـ وكانت العربُ تَئِدُ البناتِ مخافةَ الإملاقِ أو لحوقِ العارِ بهم مِن أجلهنَّ ـ ﴿سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تبكيتًا لوائِدِها، كتَبكيتِ النَّصارَى بقولِه تَعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾ [المائدة: ١١٦]، وقُرِئَ: (سَأَلَتْ)[٤]؛ أي: خاصمَتْ عَن نفسِها.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن ابن كثير، وهي خلاف المشهور عنه.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن عمرو بن ميمون.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠)، و«النشر» (٢/ ٣٩٨).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله =

وإنما قيل: ﴿قُتِلَتْ﴾ على الإخبار عنها، وقُرِئَ: (قُتِلْتُ) على الحكايةِ[1].

(١٠) ـ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني: صُحفَ الأَعمالِ فإنَّها تُطوَى عندَ الموتِ وتُنشَرُ وقتَ الحسابِ.

وقيل: ﴿نُشِرَتْ﴾: فُرِّقَتْ بينَ أَصحابِها.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ بالتَّشديدِ[2] للمُبالغَةِ في النَّشرِ، أو لكثرةِ الصُّحُفِ، أو شدَّةِ التَّطايُرِ.

(١١) ـ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾: قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ كما يُكشَطُ الإهابُ عَن الذَّبيحَةِ، وقُرِئَ: (قُشِطَتْ)[3]، واعتقابُ القافِ والكافِ كثيرٌ.

(١٢) ـ ﴿وإذا الجحيمُ سُعِرَتْ﴾: أُوقِدَتْ إيقادًا شديدًا، وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذكوانَ وحَفصٌ ورُوَيسٌ بالتَّشديدِ[4].

(١٣) ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾: قُرِّبَتْ مِن المُؤمنينَ.

= عنهم، وعن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) قرأ بها مَن قرأ (سألت). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ.
وعبارة الزمخشري (٩/ ٤٩٤): وإنَّما قِيل: ﴿قُتِلَتْ﴾ بناءً على أنَّ الكلامَ إخبارٌ عنها، ولَو حُكِيَ ما خُوطِبَتْ به حِين سُئِلَتْ لَقِيْلَ: «قُتِلْتِ» أو كلامُها حيْنَ سألَتْ لَقِيل: «قُتِلتُ»، وقرأ ابن عبَّاس: (قُتِلْتُ) على الحكايةِ.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٣).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن ابن مسعود.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠)، و«النشر» (٢/ ٣٩٨).

(١٤) ـ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ جوابُ (إذا)، وإنَّما صَحَّ ـ والمذكورُ في سياقِها ثنتا عشرةَ خصلةً، ستٌّ منها في مبادئِ قيامِ السَّاعةِ قبلَ فَناءِ الدُّنيا، وستٌّ بعدَهُ ـ لأنَّ المرادَ زمانٌ مُتَّسِعٌ شامِلٌ لها ولِمُجازاةِ النُّفوسِ على أعمالِها، و﴿نَفْسٌ﴾ في مَعنى العُمومِ[١] كقولِهم: «تَمْرَةٌ خيرٌ مِن جرادَةٍ»[٢].

(١٥) ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾: بالكواكبِ الرَّواجعِ؛ مِن خَنَسَ: إذا تأخَّرَ، وهي ما سِوَى النَّيِّرَيْنِ مِن الكواكبِ السَّياراتِ، ولذلك وصفَها بقولِه:

(١٦) ـ ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾؛ أي: السَّيَّاراتِ التي تختفي تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ؛ مِن كَنَسَ الوَحشيُّ: إذا دخلَ كِنَاسَهُ، وهو بيتُهُ المتَّخذُ[٣] مِن أغصانِ الشَّجرِ.

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: أقبلَ ظَلامُهُ أو أدبرَ، وهو مِن الأَضدادِ، يقال: عَسْعَسَ الليلُ وسَعْسَعَ: إذا أدبرَ.

(١٨) ـ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: أضاءَ، عبَّرَ بِهِ عن[٤] إقبالِ رَوْحٍ ونَسيمٍ.

(١٩ ـ ٢١) ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: جبريلَ؛ فإنَّه قالَه عَن اللهِ تَعالى ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كقولِه: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «نفوس».

(٢) قالَه ابنُ عمرَ لبعضِ أهلِ الشّامِ، وقد سألَه عن المُحرمِ إذا قتلَ جرادةً، أيتصَدَّقُ بتمرةٍ فديةً لها؟ فقالَ ذلكَ؛ يعني: لا يلزمُه شيءٌ، وهي هنا عامّةٌ في الإثباتِ، ولذا ساغَ الابتداءُ بها. قاله الشهاب.

(٣) في نسخة الفاروقي: «وهو بيت متخذ».

(٤) قوله: «أضاء غبرته عند» هو استعارة بتشبيه أجزاء الظلام مع الفجر لاختلاطه بالنور بغبار مرتفع في الجو، وقد وقع في هذا الموضع اختلاف في النسخ حكاه أصحاب الحواشي، ففي بعضها: «غرّته» أي: أوله؛ من غرة الفرس، بعضها: «عبر به عن»، وهو الظاهر في السياق، كما في «حاشية الخفاجي» و«حاشية ابن التمجيد»: (٢٠/ ١٢٠).

عـنـدَ اللهِ ذي مكانـةٍ ﴿مُطَاعٍ﴾ فـي ملائكَتِـه ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ على الوَحـيِ، و﴿ثَمَّ﴾ يحتملُ اتِّصالَـهُ بمـا قبلَهُ ومـا بعدَهُ.

وقُرِئَ: (ثُمَّ)(١) تَعظيمًا للأمانةِ وتفضيلًا لها على سائرِ الصِّفاتِ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ كمـا تَبْهَتُـه الكَفَـرةُ، واسـتُدِلَّ بذلـك على فَضلِ جبريـلَ علـى محمَّدٍ عليهِمَا السَّـلامُ حيـثُ عَدَّ فضائِـلَ جبرئيلَ، واقتصـرَ على نفيِ الجُنـونِ عَـن النَّبـيِّ ﷺ، وهو ضعيـفٌ؛ إذ المقصـودُ مِنْهُ نفـيُ قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحـل: ١٠٣] ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سـبأ: ٨]، لا تعـدادُ فضلِهِمَـا والموازنـةُ بينَهُمَا.

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾: ولقد رأى رسولُ اللهِ جبريلَ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾: بمطلعِ الشَّمسِ الأعلى ﴿وَمَا هُوَ﴾: وما مُحمَّدٌ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: على ما يخبرُهُ مِن الوَحيِ إليهِ وغيرِه مِن الغيوبِ، ﴿بظنينٍ﴾ بمُتَّهَمٍ؛ مِن الظِّنَّةِ وهي التُّهَمَةُ، وقرأَ نافعٌ وعاصِمٌ وحمزَةُ وابنُ عامرٍ بالضَّادِ: ﴿بِضَنِينٍ﴾(٢) مِن الضِّنِّ وهو البخلُ؛ أي: لا يبخلُ بالتَّبليغِ والتَّعليمِ، والضَّادُ مِن أصلِ حافةِ اللسانِ وما يليها مِن الأضراسِ مِن يمينِ اللسانِ أو يسارِه، والظَّاءُ مِن طرفِ اللسانِ وأُصُولِ الثَّنايَا العُلْيَا.

(٢٥) ـ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ بقولِ بعضِ المُسترِقَةِ للسَّمعِ، وهو نفيٌ لقَوْلِهِم: إنَّه لَكهانةٌ وسِحْرٌ.

(٢٦) ـ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استِضلالٌ لَهُم فيما يسلكونَهُ في أمرِ الرَّسُولِ والقرآنِ، كقولك لتاركِ الجادَّةِ: أينَ تذهَبُ؟

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن أبي حيوة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: تذكيرٌ لِمَن يعلَمُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بتحرِّي الحقِّ وملازمَةِ الصَّوابِ، وإبدالُه مِن (العالمين)؛ لأنَّهم المنتفِعونَ بالتَّذكيرِ.

(٢٩) ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامةَ يا مَن يَشاؤُها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: إلا وقتَ أَنْ يشاءَ مَشيئتَكُم، فلَهُ الفَضلُ والحقُّ عليكم باستقامَتِكُم ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالكُ الخلقِ كلِّهِ.

قال عليهِ السَّلامُ: «مَن قرَأَ سُورةَ التَّكويرِ أعاذَهُ اللهُ أَنْ يفضحَهُ حينَ تنشرُ صَحِيفَتُه»[١].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٢)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٨١) سورة التكوير مكية وآياتها تسع وعشرون

قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و ﴿إذا السماء انشقت﴾» أخرجه أحمد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قال ابن عباس: ﴿إذا الشمس كورت﴾ يعني أظلمت، وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبير: ﴿كورت﴾ غورت، وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض، قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كورت﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها، روي عن ابن عباس أنه قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً[1]، وروى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة»[2]. وقوله تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي انتثرت كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾. وأصل الانكدار الانصباب، قال أبي بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق.

بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض، ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: اختلطت، ﴿وإذا العشار عطلت﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وإذ البحار سجرت) قال، قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[1]. وقال ابن عباس: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي تغيرت، وعن يزيد بن أبي مريم مرفوعاً: «انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها»[2].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً، وقوله: ﴿وإذا العشار عطلت﴾ عشار الإبل، قال مجاهد: ﴿عطلت﴾ تركت وسيِّبت، وقال أُبيّ بن كعب: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خيثم: لم تحلب ولم تُخلَّ عنها أربابها، والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها، واحدتها عشراء قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بما دهمهم من الأمر العظيم الهائل، وهو أمر يوم القيامة ووقوع مقدماتها، **وقيل**: بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها، كذلك لا سبيل لهم إليها، وقد قيل في العشار: إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا، والراجح أنها الإبل، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أي جمعت كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، وقال عكرمة: حشرها موتها، وعن ابن عباس قال: حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس[3]. وعن الربيع بن خيثم ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: أتى عليها أمر الله، وعن أُبيّ بن كعب أنه قال: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ اختلطت، قال ابن جرير: والأولى قول من قال حشرت جمعت، قال الله تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ أي مجموعة، وقوله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال ابن عباس: يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير ناراً تأجج، وفي سنن أبي داود: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» الحديث، وقال مجاهد ﴿سجرت﴾: أوقدت، وقال الحسن: يبست، وقال الضحّاك وقتادة: غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة، وقال الضحّاك أيضاً: ﴿سجرت﴾ فجّرت، وقال السدي: فتحت وصيرت، وقوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره كقوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله. روى النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقرأ: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فقال: تزوجها

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير.

أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم، يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس[1]، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، وقال مجاهد: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري وعكرمة: زوجت الأرواح بالأبدان، **وقيل**: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين[2].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الموءُودة سئلت ۝ بأي ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ الموءُودة هي التي كانت أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءُودة على أي ذنت قُتلت ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً؟ وقال ابن عباس: ﴿وإذا الموءُودة سئلت﴾ أي سألت أي طالبت بدمها. وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءُودة فقال الإمام أحمد عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً»، ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهو الموءُودة سئلت»[3]. وروى الإمام أحمد عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا»، قلنا: فإنها كانت وأدت أُختاً لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموءُودة في النار، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»[4]. وفي الحديث: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءُودة في الجنة»[5]. وعن قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل، يا رسول الله مَن في الجنة؟ قال: «الموءُودة في الجنة»[6]. وقال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وإذا الموءُودة سئلت ۝ بأي ذنب قتلت﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة، وقال عبد الرزاق: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال فانحر عن كل واحدة منهن بدنة»[7] وقوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ قال الضحّاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته، قوله تعالى: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ قال مجاهد: اجتذبت، وقال السدي: كشفت، وقال الضحّاك: تنكشط فتذهب، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) حكاه القرطبي في التذكرة.

(٣) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي بنحوه.

(٤) أخرجه أحمد والنسائي.

(٥) أخرجه أحمد من حديث خنساء بنت معاوية الصريمية عن عمها قال، قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ فقال الحديث.

(٦) هذا من مراسيل الحسن ومنهم من قبله.

(٧) أخرجه عبد الرزاق والحافظ البزار بنحوه عن عمر بن الخطاب.

السدي: أحميت، وقال قتادة: أوقدت، قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ قال الضحّاك: أي قربت إلى أهلها، وقوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت، وأحضر ذلك لها كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ . عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إذا الشمس كورت﴾ قال عمر: لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ قال: لهذا أجري الحديث .

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿فلا أقسم بالخنَّس * الجوار الكُنَّس﴾ قال علي: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وروى ابن جرير عن خالد بن عرعرة سمعت علياً، وسئل عن ﴿لا أُقسم بالخنس * الجوار الكنس﴾ فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[1]، وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن : أنها النجوم، وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم الخنس، أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها كنّس، من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه، إذا تغيب فيه، وروى الأعمش عن عبدالله ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ قال : بقر الوحش ، وقال ابن عباس ﴿الجوار الكنس﴾ البقر تكنس إلى الظل ، وقال العوفي عن ابن عباس: هي الظباء[2]، وقال أبو الشعثاء : هي الظباء والبقر، وتوقف ابن جرير في المراد بقوله: ﴿الخنس الجوار الكنس﴾ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً، وقوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس﴾ فيه قولان (**أحدهما**) : إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم: وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ، وقال الحسن البصري : إذا غشي الناس. (**والثاني**) : إدباره، قال ابن عباس: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحّاك ﴿إذا عسعس﴾ أي إذا ذهب فتولى، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، قال: لقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضاً :

حتى إذا الصبح له تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

---

(١) أخرجه ابن جرير .
(٢) وكذا قال سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك .

أي أدبر ، وعندي أن المراد بقوله : ﴿ إذا عسعس ﴾ إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ۞ والنهار إذا تجلى ﴾، وقال تعالى: ﴿ والضحى ۞ والليل إذا سجى ﴾، وقال تعالى: ﴿ فالق الاصباح وجعل الليل سكناً ﴾ وغير ذلك من الآيات، وقوله تعالى: ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الضحّاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ، وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبيّن .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر ، وهو (جبريل) عليه الصلاة والسلام، ﴿ ذي قوة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ علمه شديد القوى ۞ ذو مرة ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل، ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة عند الله عزَّ وجلَّ ومنزلة رفيعة، ﴿ مطاع ثَمّ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة: ﴿ مطاع ثم ﴾ أي في السماوات، يعني ليس هو من أفناد[1] الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالى: ﴿ أمين ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً، أن الرب عزَّ وجلَّ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ قال الشعبي وميمون: المراد بقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ يعني محمداً ﷺ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعني ولقد رأى محمد (جبريل)، الذي يأتيه بالرسالة عن الله عزَّ وجلَّ، على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي البين، وهي الرؤية الأولى كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿ علمه شديد القوى ۞ ذو مرة فاستوى ۞ وهو بالأفق الأعلى ﴾، والظاهر أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ولقد رآه نزلة أُخرى ۞ عند سدرة المنتهى ۞ عندها جنة المأوى ۞ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء، وقوله تعالى: ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ أي بمتهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي ببخيل بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: (ظنين) و (ضنين) سواء، أي ما هو بفاجر ، و (الظنين) المتهم ، و (الضنين) البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده ، واختار ابن جرير قراءة الضاد . (**قلت**) : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدَّم ، وقوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له ، كما قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين ۞ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ۞ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ فأين تذهبون ﴾ ؟ فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عزَّ وجل ! كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذّاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل » أي من إلّه، وقال قتادة: ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي عن كتاب الله

(١) أفناد : جماعات .

وعن طاعته، وقوله تعالى: ﴿ إن هو إلا ذكر للعـالمين ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون بـه ويتعظون ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم ، بـل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين، قال سفيان الثوري : لمـا نزلت هذه الآية : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

[آخر تفسير سورة التكوير ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة التكوير

وهى مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص : أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعانى أخبره : أنه سمع ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سَرَّه أن ينظر إلىّ يوم القيامة كأنه رأىُ عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن العباس بن عبد العظيم العَنْبَرىّ ، عن عبد الرزاق ، به [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى : أظلمت . وقال العوفى ، عنه : ذهبت ، وقال مجاهد : اضمحلّت وذَهَبت . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : غُوِّرت .

وقال الربيع بن خُثَيم : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى : رمى بها .

وقال أبو صالح : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : ألقيت . وعنه أيضا : نكست . وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض .

قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن التكوير جَمعُ الشىء بعضه إلى [٢] بعض، ومنه تكوير العمامة [وهو لفها على الرأس ، وكتكوير الكاره ، وهى] [٣] جمع الثياب بعضها إلى[٤] بعض ، فمعنى قوله : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها [٥] .

---

(١) المسند (٢/٢٧) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٣) ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) فى م :« على » .

(٣) زيادة من تفسير الطبرى .

(٤) فى م :« على » .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/٤١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودى ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجالد ، عن شيخ من بَجيلة ، عن ابن عباس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال :يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ، ويبعث الله ريحا دبوراً فتضرمها نارا . وكذا قال عامر الشعبى . ثم قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن ابن يزيد بن أبى مريم ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال فى قول الله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، قال : « كورت فى جهنم » (١) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا موسى بن محمد بن حَيَّان ، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد ، حدثنا يزيد الرقاشى ، حدثنا أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشمس والقمر ثوران (٢) عقيران فى النار » (٣) .

هذا حديث ضعيف ؛ لأن يزيد الرقاشى ضعيف ، والذى رواه البخارى فى الصحيح بدون هذه الزيادة ، ثم قال البخارى :

حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا عبد الله الداناجُ ، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » (٤) .

انفرد به البخارى وهذا لفظه ، وإنما أخرجه فى كتاب « بدء الخلق » ، وكان جديراً أن يذكره هاهنا أو يكرره ، كما هى عادته فى أمثاله ! وقد رواه البزار فَجَوَّد إيراده فقال :

حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادى ، حدثنا يونس بن محمد ،حدثنا عبد العزيز بن المختار ، عن عبد الله الداناج قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسرى فى هذا المسجد ــ مسجد الكوفة ، وجاء الحسن فجلس إليه فَحدّث قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الشمس والقمر نوران فى النار يوم القيامة » . فقال الحسن : وما ذنبهما ؟ فقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : أحسبه قال : وما ذنبهما .

ثم قال : لا يروى عن أبى هُرَيرة إلا من هذا الوجه ، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبى سلمة سوى هذا الحديث .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى : انتثرت ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢] ، وأصل الانكدار : الانصباب .

قال الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ

(١) ورواه الديلمى فى مسنده ، كما فى الدر المنثور للسيوطى (٨/ ٤٢٦) .
(٢) فى م ،أ ، هـ :« نوران » ، والصواب بالثاء .
(٣) مسند أبى يعلى (٧/ ١٤٨) ، ورواه ابن حبان فى المجروحين (١/ ٢٩٣) من طريق درست بن زياد به ، وقال فى درست بن زياد : «كان منكر الحديث جداً ،لا يحل الاحتجاج بخبره.وروى عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك ، فذكر هذا الحديث » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٠) .

وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم فى بعض : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ، ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجَّجُ ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم .

رواه ابن جرير [١] ــ وهذا لفظه ــ وابن أبى حاتم ، ببعضه ، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم [٢] ، والحسن البصرى ، وأبو صالح ، وحماد بن أبى سليمان ، والضحاك فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى : تناثرت .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى : تغيرت . وقال يزيد ابن أبى مريم عن النبى ﷺ : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ قال : « انكدرت فى جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو فى جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يُعبَدا لدخلاها » . رواه ابن أبى حاتم بالإسناد المتقدم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أى: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا .

وقوله :﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾. قال عكرمة ، ومجاهد: عشار الإبل .قال مجاهد:﴿ عُطِّلَتْ﴾: تركت وسُيِّبت .

وقال أبى بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع بن خُثَيم [٣] : لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها .

وقال الضحاك : تركت لا راعى لها .

والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود أن العشار من الإبل ــ وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وَصَلت فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها [٤] : عُشَراء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع ــ قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها .

وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العشار : إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . و[قد] [٥] قيل : إنها الأرض التى تُعشَّر . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعطَّل لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبى فى كتابه « التذكرة » ،ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس [٦] .

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ٤١) .
(٢ ، ٣) فى أ :« خيثم » . (٤) فى م :« واحدتها » . (٥) زيادة من م .
(٦) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص٢١٢، ٢١٣) .

قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت** ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام:٣٨]. قال ابن عباس : يحشر كل شيء حتى الذباب . رواه ابن أبى حاتم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم [١] والسّدىّ ، وغير واحد . وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق [موافية] [٢] فيقضى الله فيها ما يشاء .

وقال عكرمة : حشرها : موتها .

وقال ابن جرير : حدثنى على بن مسلم الطوسى ، حدثنا عباد بن العوام ، أخبرنا حُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت** ﴾ قال : حَشرُ البهائم : موتها ، وحشر كل شيء الموت غيره [٣] الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن أبيه ،عن أبى يعلى ،عن الربيع بن خُثَيم[٤]: ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت** ﴾ قال : أتى عليها أمر الله . قال سفيان : قال أبى : فذكرته لعكرمة ، فقال: قال ابن عباس : حشرها : موتها .

وقد تقدم عن أبىّ بن كعب أنه قال : ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت** ﴾ : اختلطت .

قال ابن جَرير : والأولى قَولُ من قال : ﴿ **حُشِرَت** ﴾ : جُمعت ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً** ﴾ [ص:١٩] ، أى : مجموعة .

وقوله : ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت** ﴾ ، قال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَية ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب قال : قال على ، رضى الله عنه ، لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال: البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿ **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ﴾ [الطور:٦] ، ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت** ﴾ [مُخَفّفة][٥] [٦] .

وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدّبور فتسعرها ، وتصير ناراً تأجج ، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله : ﴿ **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أبو طاهر ، حدثنى عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط ــ شيخٌ صَالح يُشبهُ مالكَ بن أنس ــ عن معاوية بن سعيد قال : إن هذا البحر بركة ــ يعنى بحر الرُّوم ــ وسط الأرض ، والأنهار كلها تصب فيه ، والبحر الكبير يصب فيه ، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس ، فإذا كان يوم القيامة أسجر .

---

(١) فى أ :« خيثم » .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) فى م:« غير » .
(٤) فى أ :« خيثم » .
(٥) زيادة من تفسير الطبرى .
(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٤٣) .

وهذا أثر غريب عجيب . وفى سنن أبى داود : « لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » الحديث ، وقد تقدم الكلام عليه فى سورة « فاطر » (١) .

وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿ سُجِّرَت ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا : ﴿ سُجِّرَت ﴾ فجرت . وقال السدى: فتحت وسيرت . وقال الربيع بن خُثَيم (٢) : ﴿ سُجِّرَت ﴾ : فاضت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الصباح البزار ، حدثنا الوليد بن أبى ثور ، عن سِمَاك ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الضرباء ، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله » ، وذلك بأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٧ ــ ١٠] ، قال : هم الضرباء (٣) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من طرق أخر ، عن سماك بن حرب ، عن النعمان بن بشير أن عُمَر خطب الناس فقرأ : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فقال : تَزَوّجها : أن تؤلف (٤) كل شيعة إلى شيعتهم . وفى رواية : هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار (٥) .

وفى رواية عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فقال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ،ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وفى رواية عن النعمان أن عمر قال للناس : ما تقولون فى تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ؟ فسكتوا . قال : ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة ، والرجل يزوج نظيره من أهل النار ، ثم قرأ : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع

(١) لم يتقدم الكلام على الحديث فى سورة « فاطر » ،وهو فى سنن أبى داود برقم (٢٤٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٢) فى أ : « خيثم » .

(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره ، كما فى الدر المنثور (٨/ ٤٢٩) .

(٤) فى أ : « أن يؤلف الله » .

(٥) ورواه أبو بكر بن حمدان كما فى مسند عمر (٢/ ٦٢٠) للمؤلف من طريق خلف بن الوليد ، عن إسرائيل عن سماك بنحوه ،ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٢٨٤، ٢٨٥) ،عن الثورى ، عن سماك ، عن النعمان ، وعن إسرائيل ،عن سماك ، عن النعمان ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٥) من طريق سفيان عن سماك ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

بينهم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم [١] والحسن ، وقتادة . واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

قول آخر فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث [بن سوار] [٢] ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ، ومقدار ما بينهما أربعون عاما ، فينبت منه كل خلق بلى ، من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض . قد نبتوا ، ثم تُرسَل الأرواح فتزوج الأجساد ، فذلك قول الله تعالى [٣] : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والشعبى ، والحسن البصرى أيضا فى قوله: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : زوجت بالأبدان . وقيل : زوج المؤمنون بالحور العين ، وزوج الكافرون بالشياطين . حكاه القرطبى فى « التذكرة » [٤] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ، هكذا قراءة الجمهور : ﴿ سُئِلَت ﴾ . والموؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموؤودة على أى ذنب قتلت ،ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإذا [٥] سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟ !

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَت ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها . وعن السدى ، وقتادة ، مثله [٦] .

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموؤودة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى أبو الأسود ــ وهو : محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ــ عن عروة ، عن عائشة ، عن جُدَامة بنت وهب ــ أخت عكاشة ــ قالت حضرتُ رسولَ الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلَة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم ، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا » . ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك الوأد الخفى ، وهو الموؤودة سئلت » .

ورواه مسلم من حديث أبى عبد الرحمن المقرئ ــ وهو عبد الله بن يزيد ــ عن سعيد بن أبى أيوب [٧] . ورواه أيضا ابن ماجة ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يحيى بن إسحاق السيلحينى ، عن يحيى بن أيوب [٨] . ورواه مسلم أيضا وأبو داود والترمذى، والنسائى ، من حديث مالك بن

---

(١) فى أ : « خيثم » .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى م ، أ :« قول الله عز وجل » .

(٤) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢١٣) .

(٥) فى م :« فإنه إذا » .

(٦) انظر : تفسير الطبرى (٣٠/ ٤٥) ، والبحر المحيط لأبى حيان (٨/ ٤٣٣) .

(٧) المسند (٦/ ٤٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٤٤٢) .

(٨) سنن ابن ماجة برقم (٢٠١١) .

أنس ، ثلاثتهم عن أبى الأسود ، به(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عَدى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن سلمة بن يزيد الجُعْفى قال : انطلقتُ أنا وأخى إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، إن أمنا مليكة كانت تَصل الرحم وتقرى الضيف ، وتفعل [وتفعل](٢) هلكت فى الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئا ؟ قال : « لا » . قلنا : فإنها كانت وأدت أختا لنا فى الجاهلية ، فهل ذلك نافعُها شيئا ؟ قال : « الوائدةُ والموؤودةُ فى النار ، إلا أن يدركَ الوائدةَ الإسلامُ ، فيعفو الله عنها » .

ورواه النسائى ،من حديث داود بن أبى هند ، به(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى(٤)، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن علقمة وأبى الأحوص ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموؤودة فى النار » (٥) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسحاق الأزرق ، أخبرنا عوف ، حدثتنى حسناء(٦) ابنة معاوية الصُّرَيمية ، عن عمها قال : قلت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والموؤودة فى الجنة » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا قرة قال : سمعت الحسن يقول : قيل : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « الموؤودة فى الجنة » .

هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن ، ومنهم من قبله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنى أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العدنى ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : أطفال المشركين فى الجنة ، فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله عز وجل(٨) : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . قال ابن عباس: هى المدفونة .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن سِمَاك بن حرب ، عن النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب فى قوله: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . [بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ] (٩) ﴾ ، قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى وأدت بنات لى فى الجاهلية ، فقال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » . قال : يا رسول الله ، إنى صاحب إبل ؟ قال : « فانحر عن كل واحدة منهن بدنة » .

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٤٢) ، وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٢) وسنن الترمذى برقم (٢٠٧٧) وسنن النسائى (٦/١٠٦) .

(٢) زيادة من م، أ والمسند .

(٣) المسند (٣/٤٧٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٩) .

(٤) فى أ :« التبريذى » .

(٥) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٧١٧) من طريق أبى إسحاق ، عن عامر ، عن علقمة ،عن ابن مسعود به ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ١١٤) من طريق أبى إسحاق ،عن الشعبي عن علقمة ،عن ابن مسعود ، به .

(٦) فى م، أ :« خنساء ».

(٧) المسند (٥/٥٨) .

(٨) فى م : « الله تعالى » .

(٩) زيادة من أ.

قال الحافظ أبو بكر البزار: خولف فيه عبد الرزاق، ولم نكتبه إلا عن الحسين بن مهدى ، عنه[١].

وقد رواه ابن أبى حاتم فقال : أخبرنا أبو عبد الله الظهرانى[٢] ــ فيما كتب إلى ــ قال : حدثنا عبد الرزاق . . . فذكره بإسناده مثله ، إلا أنه قال : « وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية » . وقال فى آخره : « فأهد إن شئت عن كل واحدة[٣] بدنة » . ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حُصَين قال : قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى وأدتُ اثنتى عشرة ابنةً لى فى الجاهلية ــ أو : ثلاث عشرة ــ قال[٤] : « اعتق عددهن نَسَما » . قال : فأعتق عددهن نسما ، فلما كان فى العام المقبل جاء بمائة ناقة ، فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة قومى على أثر ما صنعت بالمسلمين . قال على بن أبى طالب : فكنا نريحها ، ونسميها القيسية [٥] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله .

وقال قتادة : [صحيفتك] [٦] يا ابن آدم، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر[٧] رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ : قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك : تنكشط فتذهب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ : قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت . قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ : قال الضحاك ، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خُثَيم[٨] أى: قربت إلى أهلها .

وقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ ، هذا هو الجواب ، أى : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا محمد بن مُطَرِّف ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، قال عمر : لما بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ قال : لهذا أجرىَ الحديثُ .

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٨٠) « كشف الأستار » .

(٢) فى م ، أ : « الطبرانى » . (٣) فى م : « واحدة منهن » . (٤) فى م : « فقال » .

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٨/١٨) من طريق يحيى الحمانى، عن قيس بن الربيع به نحوه، والحمانى ضعيف لكنه توبع هنا.

(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٤٦/٣٠) . مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٧) فى م : « فينظر » . (٨) فى أ : « خيثم » .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾ .

روى مسلم فى صحيحه ، والنسائى فى تفسيره عند هذه الآية ، من حديث مِسْعر بن كِدَام ، عن الوليد بن سَرِيع ، عن عمرو بن حُرَيث قال : صليت خلف النبى ﷺ الصبح ، فسمعته يقرأ : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١) .

ورواه النسائى عن بندار ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن الحجاج بن عاصم ، عن أبى الأسود ، عن عمرو بن حُرَيث ، به نحوه (٢) .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير ، من طريق الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن رجل من مراد ، عن على : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، سمعت خالد بن عرعرة ، سمعت عليا وسئل عن: ﴿لا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ فقال: هى النجوم ، تخنس بالنهار وتكنس بالليل (٣) .

وحدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن إسرائيل ، عن سِماك ، عن خالد ، عن علىّ قال : هى النجوم .

وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعرة ، وهو السهمى الكوفى ، قال أبو حاتم الرازى : روى عن على ، وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيبانى (٤) . ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلا ، والله أعلم .

وروى يونس ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : أنها النجوم . رواه ابن أبى حاتم . وكذا رُوِى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسّدى ، وغيرهم : أنها النجوم .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا هَوذة بن خليفة ، حدثنا عوف ، عن بكر بن عبد الله فى قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال :هى النجوم الدرارىّ ، التى تجرى تستقبل المشرق .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٦) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥١) .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٠) .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٤٧) .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٣/٣٤٣) .

وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : « الخنس » ، أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها يقال لها :« كُنَّس » من قول العرب: أوى الظبى إلى كنَاسة: إذا تغيب فيه .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم قال : قال عبد الله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ قال : بقر الوحش .

وكذا قال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى ميسرة ، عن عبد الله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، ما هى يا عمرو ؟ قلت : البقر . قال : وأنا أرى ذلك .

وكذا روى يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه .

وقال أبو داود الطيالسى ، عن عمرو ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : البقر [الوحش] (١) تكنس إلى الظل . وكذا قال سعيد بن جبير .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هى الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك .

وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد : هى الظباء والبقر .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا مغيرة (٢) ، عن إبراهيم ومجاهد : أنهما تذاكرا هذه الآية : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ ، فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت. قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئا ، وناس يقولون : إنها النجوم . قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت . قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس فى حُجْرتها . قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون على علىّ ، هذا كما رووا عن على أنه ضمن الأسفل الأعلى ، والأعلى الأسفل .

وتوقف ابن جرير فى قوله : ﴿ الْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّس ﴾ ، هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ، فيه قولان :

أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وقال الحسن البصرى : إذا غَشى الناس . وكذا قال عطية العوفى .

وقال على بن أبى طلحة ، والعوفى عن ابن عباس : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أى : إذا ذهب فتولى .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَخْتَرى ، سمع أبا عبد الرحمن السلمى قال : خرج علينا على ، رضى الله عنه ، حين ثَوّب المثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ؟ هذا حين أدبر حسن .

---

(١) زيادة من م .
(٢) فى أ:« سفيان » .

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . قال لقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى : أضاء ، واستشهد بقول الشاعر [١] أيضا :

حَتَّى إذا الصُّبحُ له تَنَفَّسا ... وانجابَ عَنها لَيلُها وعَسعَسَا

أى : أدبر . وعندى أن المراد بقوله: ﴿ عَسْعَسَ ﴾ : إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله فى الإدبار ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل [٢] وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل:١ ، ٢]، وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال :﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سكنا ﴾ [الأنعام:٩٦] ، وغير ذلك من الآيات .

وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن « عسعس » : دنا من أوله وأظلم. وقال الفراء : كان أبو البلاد [٣] النحوى يُنشد بيتاً :

عَسعَس حَتَّى لو يشاء ادَّنا ... كانَ له من ضَوئه مَقبِس

يريد : لو يشاء إذ دنا ، أدغم الذال فى الدال . وقال الفراء : وكانوا يَرَون أن هذا البيت مصنوع [٤] .

وقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على ، رضى الله عنه .

وقال ابن جرير : يعنى : وَضَوءُ النهار إذا أقبل وتَبَيَّن .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم ، أى : ملك شريف حَسَن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والشعبى، وميمون بن مِهْران ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ [فَاسْتَوَىٰ] [٥] ﴾ [النجم:٥ ، ٦] ، أى : شديد الخَلْق ، شديد البطش والفعل ، ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة .

قال أبو صالح فى قوله : ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من

---

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٠) منسوبا إلى علقمة بن قرط.

(٢) فى م :« بالفجر » .

(٣) فى أ :« أبو التلاد » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٠) .

(٥) زيادة من أ .

نور بغير إذن ، ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : له وجاهة ، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى .

قال قتادة : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، مُعتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة .

وقوله :﴿ أَمِينٍ ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله:﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ .

قال الشعبى ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : ولقد رأى محمدٌ جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:٥ ــ ١٠] ، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره . والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر ــ والله أعلم ــ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية الأولى، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٣ ــ ١٦] ، فتلك إنما ذكرت فى سورة « النجم » ، وقد نزلت بعد [سورة] (١) الإسراء .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد .

قال سفيان بن عُيينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل .

وقال قتادة : كان القرآن غيبا ، فأنزله الله على محمد ، فما ضَنّ به على الناس ، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد،وغير واحد. واختار ابنُ جرير قراءة الضاد (٢) .

قلت : وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده، ولا ينبغى له . كما قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ــ ٢١٢] .

---

(١) زيادة من م .
(٢) تفسير الطبرى (٥٣/٣٠) .

وقوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه جاء [(١)] من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق ، رضى الله عنه ، لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة ، فقال : ويحكم ، أين يُذهَب بعقولكم [(٢)] ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ ، أى : من إله .

وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاةٌ له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين .

قال سفيان الثورى ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن سليمان بن موسى : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ، قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم . فأنزل الله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [(٣)] .

آخر تفسير سورة « التكوير » ولله الحمد [والمنة] [(٤)]

---

(١) فى م « حقا » .

(٢) فى م : « أين تذهب عقولكم » .

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/٥٣) .

(٤) زيادة من م .

سورة التكوير

مكّيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ⑭﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: لُفّتْ مِن "كوَّرتُ العِمامةَ" إذا لففتَها، على أنّ المراد بذلك إمّا رفعُها وإزالتها مِن مقرّها، فإنّ الثوب إذا أريدَ رفعه يُلفّ لفًّا ويُطوى، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء، ١٠٤/٢١]، وإمّا لفّ ضوئها[1] المنبسِط في الآفاق المنتشِر في الأقطار، على أنّه عبارة عن إزالتها والذهابِ بها بحُكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم؛ أو أُلقيَت[2] عن فَلَكها كما وُصفت النجوم بالانكدار مِن "طعَنه فكوّره" إذا ألقاه على الأرض.

وعن أبي صالح: ﴿كُوِّرَتْ﴾: نُكِّست،[3] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: تكويرُها إدخالها في العرش.[4] ومدار التركيب على الإدارة والجَمْع. وارتفاعُ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ على أنّه فاعل لفِعل مضمر يفسِّره المذكور، وعند البعض على الابتداء.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: انقضّت. وقيل: تناثرتْ وتساقطتْ.[5] رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[6] أنّه لا يبقى يومئذ نجم إلّا سقط في الأرض،

---

١ السياق: إمّا رفعُها... وإمّا لفّ ضوئها...

٢ السياق: لُفّت... أو أُلقيَت...

٣ جامع البيان للطبري، ١٣٠/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٥/٢٠.

٤ لم أجده في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ١٧٥/٢٠.

٥ مرويّ عن مجاهد وأبي صالح وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٣٢/٢٤-١٣٣.

٦ م - رضي الله عنهما.

وعنه رضي الله عنه: أنّ النجوم قناديلُ معلّقة بين السماء والأرض بسلاسلَ مِن نور بأيدي ملائكة مِن نور، فإذا مات مَن في السماوات ومَن في[1] الأرض تساقطت مِن أيديهم.[2] وقيل: انكدارها انطماس نورها.[3] ويُروى أنّ الشمس والنجوم تُطرح في جهنّم ليراها مَن عَبَدها، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١].[4]

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: عن أماكنها بالرجفة الحاصلة. لا في الجوّ،[5] فإنّ ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جَمْع عُشَراء: وهي الناقة التي أتى على حَمْلها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السَّنة، وهي أنفَسُ ما يكون عند أهلها وأعزُّها عليهم. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُركت مهملةً لاشتغال أهلها بأنفسهم. وقيل: العِشار: السحائب،[6] فإنّ العرب تُشبّهها بالحامل، ومنه قوله تعالى: / ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [٢٧٤ظ]
[الذاريات، ٢/٥١]. وتعطيلها: عدم إمطارها. وقُرئ: "عُطِلَتْ"[7] بالتخفيف.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمعت مِن كلّ جانب. وقيل: بُعثت للقِصاص.[8] قال قتادةُ: يُحشَر كلّ شيء حتّى الذُّباب للقِصاص، فإذا قُضي بينها رُدّت ترابًا، فلا يبقى منها إلّا ما فيه سرور لبني آدمَ وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه.[9] وقُرئ: "حُشِّرَتْ"[10] بالتشديد.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أُحمِيت أو مُلئت بتفجير بعضها إلى بعض حتّى يعود بحرًا واحدًا. مِن "سَجَر التنور" إذا ملأه بالحطب ليُحميَه. وقيل: مُلئت نيرانًا

---

١ س – مَن في.
٢ لم أجِدهما في مظانّهما. وهما بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٧٦/٢٠.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٦/٢٠.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤.
٥ كما ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٠٢/٣.
٦ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٢/٣.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن البَزي وابن خالويه عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.
٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٣/٣.
٩ مرويّ عن قتادة وابن عبّاس في تفسير ابن أبي حاتم، ٣٤٠٥/١٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٧٧/٢٠.
١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مِقسَم وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.

تضطرم لتعذيب أهل النار.[١] وعن الحسن: يذهب ماؤها حتّى لا يبقى فيها قطرة.[٢] وقُرئ: "سُجِرَتْ"[٣] بالتخفيف.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قُرنت بأجسادها أو قُرنت كلّ نفس بشكلها أو بكتابها أو بعملها، أو نفوس المؤمنين بالحُور ونفوسُ الكفَرة بالشياطين.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ أي: المدفونة حيّةً، وكانت العرب تئد البنات مخافةَ الإملاق أو لحوقِ العار بهم مِن أجلهنّ. قيل: كان الرجل إذا وُلدت له بنت ألبسها جُبّةً مِن صوف أو شعر، حتّى إذا بلغت ستّ سنين ذهَب بها إلى الصحراء وقد حفر لها حفرةً فيلقيها فيها ويهيل عليها التراب.[٤] وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفَرت حفرةً فتمخَّضت على رأس الحُفرة، فإذا ولدت بنتًا رمَت بها وإن ولدت ابنًا حبسته.[٥]

﴿سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ توجيه السؤال إليها لتسليتها وإظهارِ كمال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥]. وقُرئ: "سَأَلَتْ"،[٦] أي: خاصمَتْ أو سألتِ الله تعالى[٧] / أو قاتلَها. وإنّما قيل: ﴿قُتِلَتْ﴾ [٢٧٥و] لِما أنّ الكلام إخبار عنها، لا حكايةٌ لِما خُوطبت به حين سُئلت ليقال: "قُتلتِ" على الخطاب، ولا حكاية لكلامها حين سألَت ليقال: "قُتلتُ" على الحكاية عن نفسها، وقد قُرئ كذلك،[٨] وبالتشديد أيضًا.[٩]

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٦/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤.

٢ مرويّ عن قتادة والحسن في جامع البيان للطبري، ١٣٩/٢٤-١٤٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤-٥٣٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلاف عن رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٨/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩.

٧ م - تعالى.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩.

٩ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه سُئل عن أطفال المشركين، فقال: لا يُعذّبون، واحتجّ بهذه الآية.[١]

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي: صحف الأعمال، فإنّها تُطوى عند الموت وتُنشر عند الحساب. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «يُحشَر الناس عُراةً حُفاةً»، فقالت أمّ سلمة: «فكيف بالنساء»، فقال: «شُغِل الناس يا أمّ سلمة»، قالت: «وما شُغلهم؟» قال: «نَشْرُ الصُّحف فيها مثاقيلُ الذرّ ومثاقيلُ الخردل».[٢]

وقيل: نُشرت، أي: فرّقت بين أصحابها، عن مَرثد بن وَداعة:[٣] إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف مِن تحت العرش فيقع صحيفة المؤمن في يده في جنّة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سَموم وحميم، أي: مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غيرُ صُحف الأعمال.[٤]

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قُلعت وأُزيلت كما يُكشَط الإهاب عن الذبيحة والغِطاءُ عن الشيء المستور به. وقُرئ: "قُشِطَتْ"،[٥] واعتقاب "الكاف" و"القاف" غيرُ عزيز كـ"الكافور" و"القافور".

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي: أوقِدتْ إيقادًا شديدًا. قيل: سعَّرها غضب الله عزّ وجلّ وخطايا بني آدم. وقُرئ: "سُعِرَتْ"[٦] بالتّخفيف.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قُرِّبت مِن المتّقين، كقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق، ٣١/٥٠]. قيل: هذه اثنتا عشرةَ خصلةً ستّ منها في الدنيا، أي: فيما بين النفختين، وهنّ مِن أوّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾،[٧]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٧/٢٨-٤٨٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٣ هو مرثد بن وداعة الكِندي، ويقال: الجُعْفي، أبو قُتيلة، قيل: مِن ساكنيّ مصر، له صُحبة فيما ذكر البخاري، وله عند أبي داود والبغوي حديث في فضل الشام، وقال أبو حاتم الرازي: ليس له صحبة وإنّما كان يروي عن عبد الله بن حوالة، وذكره ابن حبّان ومسلم بن الحجّاج في التابعين. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٨٦/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٧١/٦.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.

٦ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام وروح وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٧ الآية السادسة مِن هذه السورة.

على أنّ المراد بـ"حَشْر الوحوش" جمعُها مِن كلّ ناحية، لا بعثُها للقِصاص؛ وستّ في الآخرة، أي: بعد النفخة الثانية.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، على أنّ المراد بها زمان واحد ممتدّ يسَع ما في سِياقها وسِياق ما عُطف عليها مِن الخصال، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فَصْل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى / أنّها تعلم ما تعلم في [٢٧٥ظ]
كلّ جزء مِن أجزاء ذلك الوقت المديد، أو عند وقوع داهية مِن تلك الدواهي؛ بل عند نَشْر الصحف، إلّا أنّه لمّا كان بعض تلك الدّواهي مِن مباديه، وبعضُها مِن روادفه نُسِب عِلمها بذلك إلى زمان وقوع كلِّها تهويلًا للخطب وتفظيعًا للحال.

والمراد بـ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أعمالُها مِن الخير والشرّ، وبحضورها إمّا حضور صحائفها، كما يُعرِب عنه نَشْرها، وإمّا حضور أنفُسها على ما قالوا: مِن أنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصوَر عرضيّة تبرز في النشأة الآخرة بصوَر جوهريّة مناسبة لها في الحُسن والقُبح على كيفيّات مخصوصة وهيئات معيَّنة، حتّى إنّ الذنوب والمعاصي تتجسّم هنالك وتتصوَّر بصورة النار.

وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٤٩/٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء، ١٠/٤]، وكذا قوله عليه السلام في حقّ مَن يشرب مِن آنية الذهب والفضّة: «إنّما يُجَرجَر في بطنه نارُ جهنّم»،[١] ولا بُعد في ذلك، ألا يُرى أنّ العِلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن، كما لا يخفى على مَن له خبرة بأحوال الحضرات الخمس.

وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه يؤتى بالأعمال الصالحة على صوَر حسنة وبالأعمال السيّئة على صور قبيحة، فتُوضع في الميزان.[٢] وأيًّا ما كان فإسنادُ إحضارها إلى النفس مع أنّها تُحضَر بأمر الله تعالى، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية [آل عمران، ٣٠/٣]؛

---

١ صحيح البخاري، ١١٣/٧ (٥٦٣٤)؛ صحيح مسلم، ١٦٣٤/٣ (٢٠٦٥).

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٥/٣ (الأعراف، ٩/٧)؛ فتوح الغيب للطِّيبي، ٣٣٠/٦ (الأعراف، ٩/٧).

لأنّها لمّا عملتها في الدنيا فكأنّها أحضرتها في الموقف، ومعنى عِلمها بها حينئذ أنّها تُشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحةً تُشاهدها على صوَر أحسنَ ممّا كانت تُشاهدها عليه في الدنيا؛ لأنّ الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقّة، وإن كانت سيّئةً تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا؛ / لأنّها كانت مزيَّنةً لها مُوافقةً لهواها. [٢٧٦و]

وتنكيرُ "النفس" المُفيدُ لثبوت العِلم المذكور لفرد مِن النفوس أو لبعض منها للإيذان بأنّ ثبوته لجميع أفرادها قاطبةً مِن الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعًا يعرِفه كلّ أحد ولو جيء بعبارةٍ تدلّ على خلافه، وللرمز إلى أنّ تلك النفوسَ العالمة بما ذُكر مع توفُّر أفرادها وتكثُّر أعدادها ممّا يُستقَلّ بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذي أشيرَ إلى بعض بدائع شئونه المنبِئة عن عِظَم سلطانه.

وأمّا ما قيل: مِن أنّ هذا مِن قبيل عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يُعكَس عنه وتمثيلُه بقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر، ٢/١٥]، وبقول مَن قال:

قد أترُكُ القِرن مُصفَرًّا أنامِلُهُ[١]

وبقول مَن قال حين سُئل عن عدد فرسانه: "ربّ فارس عندي"،[٢] وعنده المقانب،[٣] قاصدًا بذلك التماديَ في تكثير فرسانه وإظهار براءته مِن التزيّد، وأنّه ممّن يُقلِّل كثيرَ ما عنده فضلًا أن يتزيَّد،[٤] فمِن لوائح النظر الجليل؛[٥] لِما أنّ الكلام المعكوس عنه فيما ذُكر مِن الأمثلة ممّا يقبل الإفراطَ والتماديَ فيه،

---

١ لعبيد بن الأبرص في ديوانه، ص ٤٩، وتمامه:
كأنّ أثوابه مُجّتْ بفِرصادِ
وهو له في الصحاح للجوهري، «قدد»؛ وهو للهُذليّ في كتاب سيبويه، ٢٢٤/٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤؛ وشرح الرضيّ على الكافية، ٤٤٥/٤. على أنّ "قد" بمعنى "ربّما". ونبّه الرضيُّ وأنّها استُعملت ههنا للتكثير لأنّ المقام مقام تمدُّح، وهو ما سيُعوِّل عليه المؤلِّف في الاعتراض على هذا الوجه.

٢ المثال في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

٣ المقانب: جمع "مِقنَب"، وهي جماعة الخيل والفرسان، وقيل: هي دون المائة. لسان العرب لابن منظور، «قنب».

٤ القول مع الأمثلة في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

٥ السياق: وأمّا ما قيل... فمِن لوائح...

فإنّه في الأوّل: "كثيرًا ما يودّ"، وفي الثاني "كثيرًا ما أترك"، وفي الثالث "كثير مِن الفرسان"، وكلّ واحد مِن ذلك قابل للإفراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتبِ الكثرة، وقد قُصِد بعكسه ما ذُكر مِن التمادي في التكثير حسبما فُصِل، وأمّا فيما نحن فيه فالكلام الذي عُكس عنه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، كما صرّح به القائل، وليس فيه إمكان التكثير حتّى يُقصَد بعكسه المبالغةُ والتّمادي فيه، وإنّما الذي يُمكِن فيه مِن المبالغة ما ذكرناه، فتأمَّلْ.

ويجوز أن يكون ذلك للإشعار / بأنّه إذا عَلِمت حينئذ نفسٌ مِن النفوس ما أحضرتْ وجَب على كلّ نفس إصلاحُ عملِها مخافةَ أن تكون هي تلك التي عَلِمت ما أحضرت، فكيف وكلّ نفس تعلَمه؟ على طريقة قولك لمَن تنصحه: "لعلّك ستندم على ما فعلت" و"ربّما ندِم الإنسان على ما فعَل"، فإنّك لا تقصِد بذلك أنّ ندَمه مَرجوُّ الوجود لا متيقَّنٌ به أو نادر الوقوع؛ بل تُريد أنّ العاقل يجب عليه أن يجتنب أمرًا يُرجى فيه الندم، أو قلّما يقع فيه فكيف به إذا كان قطعيَّ الوجود كثيرَ الوقوع. [٢٧٦ظ]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ أي: بالكواكبِ الرواجع مِن "خَنَس" إذا تأخَّر، وهي ما عدا النيّرين مِن الدّراريّ الخمسة، وهي بَهرام وزُحَلُ وعُطاردٌ والزُّهرةُ والمُشتري.

وُصفت بقوله تعالى: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ لأنّها تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتّى تختفي تحت ضوء الشمس، فخُنوسها: رجوعُها، وكُنوسها: اختفاؤها تحت ضوئها، مِن "كَنَس الوحشُ" إذا دخل كِناسه، وهو بيته الذي يتّخذه مِن أغصان الشجر. وقيل: هي جميع الكواكب تخنِس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل، أي: تطلُع في أماكنها كالوحش في كُنُسها.[١]

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: أدبَر ظلامه أو أقبَل فإنّه مِن الأضداد، وكذلك "سَعْسَع". قال الفرّاء: أجمع المفسِّرون على أنّ معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾ أدبَر،[٢]

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٤٢/٣؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٨٧/٢٠.

وعليه قول العجّاج:

حتّى إذا الصبحُ لها[1] تنفّسا وانجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسَا[2]

وقيل: هي لغة قريشٍ خاصّة. وقيل: معنى إقبال ظلامه أوفَق لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛[3] لأنّه أوّل النهار. وقيل: إدباره أقرب مِن تنفّس الصبح، ومعناه أنّ الصبح إذا أقبل يُقبل بإقباله رَوح ونسيم، فجُعل ذلك نفَسًا له مجازًا، فقيل: تنفّس الصبح.[4]

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم الناطق بما ذُكر مِن الدواهي الهائلة ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هو جبريلُ عليه السلام، قاله مِن جهة الله عزّ وجلّ. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ شديدة، كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم، ٥/٥٣]. وقيل: المراد القوّة في أداء طاعة الله تعالى[5] وتركُ الإخلال بها مِن أوّل الخلق إلى آخر زمان التكليف.[6] ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ ذي مكانة رفيعة عند الله عزّ وعلا عنديّةَ إكرام وتشريف لا عنديّةَ مكان.

[٢٧٧و] ﴿مُّطَاعٖ﴾ / فيما بين ملائكته المقرَّبين يَصدُرون عن أمره ويَرجِعون إلى رأيه. ﴿ثَمَّ[7] أَمِينٖ﴾ على الوحي. و﴿ثَمَّ﴾[8] ظرف لِما قبله، وقيل: لِما بعده.[9] وقُرئ: "ثُمَّ"،[10] تعظيمًا لوصف الأمانة وتفضيلًا لها على سائر الأوصاف.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥﴾

---

[1] وفي هامش م: مفازة. «منه».

[2] الرجز لعلقمة بن قُرط في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٢٨٨/٢؛ وجامع البيان للطبري، ١١٦٢/٢٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٧٢/٢٣. وهو للعجّاج في ملحقات ديوانه، ٢٥٦/١؛ وهو له في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/٢٠.

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

[5] س - تعالى.

[6] القول في اللباب لابن عادل، ١٨٨/٢٠.

[7] م س: ثمّة.

[8] م س: ثمّة.

[9] الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٤/٣.

[10] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن مِقسَم وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٨٩٦.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تَبهَتُه الكفرة. والتعرّض لعنوان المُصاحَبة للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام خُبرًا، وعِلمهم بنزاهته عليه السلام[1] عمّا نسبوه إليه بالكلّيّة. وقد استدلّ به على فضل جبريلَ عليه عليهما السلام للتباين البيّن بين وَصْفَيهما، وهو ضعيف؛ إذ المقصود ردُّ قولِ الكفرة في حقّه عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل، ١٠٣/١٦]، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ، ٨/٣٤]، لا تعدادُ فضائلهما والموازنة بينهما.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: وبالله لقد رأى رسول الله جبريلَ عليهما الصلاة والسلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على ما يُخبِره مِن الوحي إليه وغيره مِن الغيوب ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: ببخيل لا يبخل بالوحي ولا يُقصِّر في التبليغ والتعليم. وقُرئ: "بِظَنِينٍ"،[2] أي: بمُتَّهم مِن الظِّنّة وهي التُّهمة.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: قول بعض المسترِقة للسمع، وهو نفي لقولهم: إنّه كِهانة وسِحر.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر القرآن، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن ظهور أنّه وحيٌ مُبين، وليس ممّا يقولون في شيء، كما تقول لمَن تَرَك الجادّة بعد ظهورها: هذا الطريق الواضح، فأين تذهب؟

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ موعظة وتذكير لهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل مِن "العالمين" بإعادة الجارّ. وقوله تعالى: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مفعول ﴿شَآءَ﴾ أي: لمَن شاء منكم الاستقامة / بتحرّي الحقّ وملازمة الصواب. وإبدالُه مِن ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّهم المنتفِعون بالتذكير. [٢٧٧ظ]

[1] س – عليه السلام.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٨-٣٩٩.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الاستقامة مشيئةً مستتبِعةً لها في وقت مِن الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة، أي: المستتبِعة للاستقامة، فإنّ مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله لها. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالك الخلق ومُربّيهم أجمعين.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحَه حين تُنشَر صحيفتُه».[١]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٤/٢٨ (التكوير، ١/٨١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/٤ (التكوير، ١/٨١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨١

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية، تسع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ﴾: لُفِفتْ وذُهِبَ بنُورها، ٢ ـ ﴿وإذا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾: انقَضَّتْ وتساقطت على الأرض، ٣ ـ ﴿وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ﴾: ذُهِبَ بها عن وجه الأرض فصارت هباء مُنبثًّا، ٤ ـ ﴿وإذا العِشارُ﴾: النُّوق الحوامل ﴿عُطِّلَتْ﴾: تُركتْ بلا راع أو بلا حلْب لِما دهاهم من الأمر ـ ولم يكن مالٌ أعجبَ إليهم منها ـ ٥ ـ ﴿وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: جُمعتْ بعد البعث ليُقتصَّ لبعضٍ من بعض، ثمّ تصير تُرابًا، ٦ ـ ﴿وإذا البِحارُ سُجِرَتْ﴾ بالتخفيف والتشديد: أُوقدتْ فصارت نارًا، ٧ ـ ﴿وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾:..........................

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

قولُهُ: (لُفِّفَت) الأظهَرُ: لفَّتْ، من كوَّرتَ العِمامَةَ: إذا لفَفتَها، بمعنى: رُفِعَت؛ لأنَّ الثَّوبَ إذا أُريدَ رفعُهُ لُفَّ، أو لُفَّ ضَوءُها فذهبَ انبساطُهُ في الآفاقِ وزالَ أثرُهُ، وفي نُسخَةٍ: «كُسِفَت».

قولُهُ: (انقَضَّتْ) أو أظلَمَت.

قولُهُ: (الحَوَامِلُ) التي أتى على حملِهِنَّ عشرَةُ أشهُرٍ، جمعُ: عُشَراءَ، كالنُّفاسِ والنُّفَساء.

قولُهُ: (جُمِعَت) من كُلِّ جانِبٍ، أو أميتَتْ[١].

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[٢].

---

(١) في الأصول هنا زيادة: «وقرأ البصري والكسائي بالتشديد» ولعلها خطأ أو سبق قلم، فلا يوجد هنا وجه لقراءة ما.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٣).

قُرنتْ بأجسادها، ٨ـ ﴿وإذا المَوءُودةُ﴾: الجارية تُدفن حيّة خوفَ العارِ أو المسألةِ والحاجة ﴿سُئِلَتْ﴾ تبكيتًا لقاتلها: ٩ ـ ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾؟ ـ وقُرئ بكسر التاء، حكاية لِما تُخاطَب به. وجوابُها أن تقول: قُتلتُ بلا ذنب ـ ١٠ ـ ﴿وإذا الصُّحُفُ﴾: صُحف الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾، بالتخفيف والتشديد: فُتحتْ وبُسطت، ١١ ـ ﴿وإذا السَّماءُ كُشِطَتْ﴾: نُزعتْ عن أماكنها كما يُنزع الجِلد عن الشاة، ١٢ ـ ﴿وإذا الجَحِيمُ﴾: النار ﴿سُعِرَتْ﴾ بالتخفيف والتشديد: ....

قولُهُ: (بأَجسَادِهَا) أو بأشكالِها من أهلِ الخَيرِ والشَّرِّ، أو نُفوسُ المؤمنينَ بالحورِ ونُفوسُ الكافِرينَ بالشَّياطينِ.

قولُهُ: (تَبكِيتاً) كتبكيتِ النَّصارى بقولِهِ تعالى لعيسى: ﴿أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاس﴾ [المائدة: ١١٦].

قولُهُ: (حِكَايَةً لِمَا تُخَاطَبُ) والأوَّلُ حكايَةُ المعنى.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) نافِعٌ وشاميٌّ وعاصمٌ[1]؛ يعني: صُحُفَ الأعمالِ، فإنَّها تُطوى عندَ الموتِ وتُنشَرُ وقتَ الحسابِ، وقيل: ﴿نُشِرَت﴾ فُرِّقت بين أصحابِها، وذكَرَ في «الكشاف»[2] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «يُحشَرُ النَّاسُ عُرَاةً حُفَاةً» فقالَت أمُّ سلمةَ: كيفَ بالنِّساءِ؟ فقال: «شُغِلَ النَّاسُ يا أُمَّ سَلَمَةَ»، قالَت: وما شغلُهُم؟ قال: «نَشرُ الصُّحُفِ فيها مثاقيلُ الذَّرِّ ومَثاقِيلُ الخَردَل»[3].

قولُهُ: (نُزِعَت) وقُلِعَت وأُزيلَت، وقرئَ: (قُشِطَت)[4].

قولُهُ: (عَن جِلدِهَا) هذا مَقلوبٌ، بل كما يُكشَطُ الإهابُ عن الذَّبيحَةِ.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) نافِعٌ وابنُ ذكوانَ وحفص[5]، وحقُّهُ أن يقولَ: وبالتَّشديدِ[6]؛ ليُفهمَ الباقونَ، ولئلَّا يُتوهَّمَ الاتِّفاقُ على التَّخفيفِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٣).

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٠٩).

(٣) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ٤٨٧) (٣٣٧٢).

وأصل الحديث رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك».

(٤) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٤).

(٥) هذا سهو منه رحمه الله والصواب أن قراءة الثلاثة بالتشديد، انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٩٢).

(٦) كذا قال القاري رحمه الله، وهو موجود في المطبوع، فالله أعلم.

أُجِجتْ، ١٣ ـ ﴿وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾: قُرِّبتْ لأهلها ليدخلوها، وجواب «إذا» أوّلَ السورة وما عُطف عليها: ١٤ ـ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كُلُّ نفس وقتَ هذه المذكورات ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿ما أحضَرَتْ﴾ من خير وشرّ.

١٥ ـ ١٦ ـ ﴿فلا أُقسِمُ﴾ لا: زائدةٌ ﴿بِالخُنَّسِ، الجَوارِ الكُنَّسِ﴾ هي النجوم الخمسة: زُحلُ والمُشتري والمِرّيخ والزُّهَرة وعُطاردٌ ـ تَخنُسُ بضمّ النون أي: ترجِع في مجراها وراءها، بينما ترى النجم في آخر البُرج إذ كرَّ راجعًا إلى أوّله. وتكنِس بكسر النون: تدخل في كِناسها، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها ـ ١٧ ـ ﴿واللَّيلِ إذا عَسعَسَ﴾: أقبلَ بظلامه أو أدبر، ١٨ ـ ﴿والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ﴾: امتدّ حتّى يصير نهارًا بيّنًا. ١٩ ـ ﴿إنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ على الله ـ تعالى ـ وهو جِبريل..............

قولُهُ: (أُجِّجَت) بالجيمَينِ؛ أي: أوقدَتْ إيقاداً شديداً.

قولُهُ: (أي: كُلُّ نَفسٍ) يعني: ﴿نَفْس﴾ في معنى نُفوس، كقولِهِم: تمرَةٌ خَيرٌ من جرادَة[1].

قولُهُ: (وَقتَ هَذِهِ المَذكُورَاتِ) وإنَّما صحَّ، وهي اثنتا عشرَةَ خصلَةً ستٌّ منها في مبادِئِ قيامِ السَّاعةِ قبلَ فناءِ الدُّنيا، وستٌّ بعدَهُ؛ لأنَّ المرادَ زمانٌ متَّسِعٌ شامِلٌ لها ولمُجازاةِ النُّفُوسِ على أعمالِها.

قولُهُ: (الخَمسَةُ) ليس في الكواكِبِ شيءٌ يقطَعُ المجرَّةَ غيرها، كذا رويَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه[2].

قولُهُ: (بِظَلامِهِ) أو ظَلامُهُ.

قولُهُ: (أو أَدبَرَ) وهو من الأضدادِ، وفي «الصحاح»[3]: قالَ الفرَّاءُ[4]: أجمَعَ المفسِّرونَ على أنَّ معنى ﴿عَسعَسَ﴾: أدبَرَ، وقالَ بعضُ أصحابنا: إنَّه دَنا من أوَّلِهِ وأظلَم.

قولُهُ: (امتَدَّ) أو أضاءَ، عبَّرَ به عن إقبالِ رَوحٍ ونسِيمٍ.

قولُهُ: (وهوَ جِبرِيلُ) قالَهُ الضَّحَّاكُ والرَّبيع والسُّدِّيُّ وغيرهُم. أخرجَهُ ابن أبي حاتِمٍ، وقالَ آخرونَ: هو محمَّدٌ ﷺ، كذا في «المبهمات»[5].

---

(١) انظر: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٣/ ١٩٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٨/ ٤٣١) من طريق الأصبغ بن نباتة عنه به.

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ٩٤٩).

(٤) انظر: «معاني القرآن» (٣/ ٢٤٢).

(٥) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٦) وعزا الأول لابن أبي حاتم.

وروى عبد الرزاق في «التفسير» (٣٥١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٥٨) عن قتادة أنه جبريل.

أضيف إليه لنُزوله به، ٢٠ ـ ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: شديدِ القُوى ﴿عِندَ ذِي العَرشِ﴾ أي: الله ـ تعالى ـ ﴿مَكِينٍ﴾: ذي مكانة ـ مُتعلّق به «عند» ـ ٢١ ـ ﴿مُطاعٍ ثَمَّ﴾ أي: تُطيعُه الملائكة في السماوات ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي، ٢٢ ـ ﴿وما صاحِبُكُم﴾ مُحمّد ﷺ: عطفٌ على «إنه» إلى آخر المُقسَم عليه ﴿بِمَجنُونٍ﴾ كما زعمتم، ٢٣ ـ ﴿ولَقَد رَآهُ﴾ رأى مُحمّدٌ جبريلَ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ على صُورته التي خُلق عليها ﴿بِالأُفُقِ المُبِينِ﴾: البيِّن، وهو الأعلى بناحية المشرق.

٢٤ ـ ﴿وما هُوَ﴾ أي: مُحمّدٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿علَى الغَيبِ﴾ أي: ما غاب من الوحي وخبر السماء ﴿بِظَنِينٍ﴾: بمُتّهم ـ وفي قراءة بالضاد، أي: ببخيلٍ فيَنقُصَ شيئًا منه ـ ٢٥ ـ ﴿وما هُوَ﴾ أي: القرآنُ ﴿بِقَولِ شَيطانٍ﴾ مُسترقِ السمعِ ﴿رَجِيمٍ﴾: مرجوم.

٢٦ ـ ﴿فأَينَ تَذهَبُونَ﴾: فأيَّ طريق تسلكون في إنكاركم القُرآنَ وإعراضكم عنه؟ ٢٧ ـ ﴿إِنْ﴾: ما ﴿هُوَ إلاّ ذِكرٌ﴾: عِظة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: الإنس والجِنّ، ٢٨ ـ ﴿لِمَن شاءَ مِنكُم﴾: بدلٌ من «العالمين» بإعادة الجارّ ﴿أَن يَستَقِيمَ﴾ باتّباع الحقّ. ٢٩ ـ ﴿وما تَشاؤُونَ﴾ الاستقامةَ على الحقّ ﴿إلاّ أن يَشاءَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ﴾: الخلائقِ استقامَتكم عليه.

قولُهُ: (لنُزُولِهِ) أو لأنّه قالَهُ عن الله تعالى.

قولُهُ: (ذي مَكَانَةٍ) الأظهَرُ: ذي مكانَةٍ.

قولُهُ: (في السَّمَاوَاتِ) أشارَ إلى أنَّ ﴿ثَمَّ﴾ مُتَّصِلٌ بما قبلَهُ، ويحتَمِلُ اتِّصالَهُ بما بعدَهُ.

قولُهُ: (كَمَا زَعَمتُم) أو كما زَعَموا.

قولُهُ: (بمُتَّهَمٍ) من الظِّنَّةِ، وهي التُّهمَةُ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافِعٍ وشاميٍّ وعاصِمٍ وحمزَةَ[1]، مُوافقَةً للمَرسومِ.

قولُهُ: (فَيَنْقُصَ) تبليغاً وتعليماً.

قولُهُ: (فأَيَّ طَرِيقٍ) استِضلالٌ لهم فيما يسلُكونَهُ، كقولِكَ لتارِكِ الجادَّةِ: أين تذهَبُ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) لأنَّهُم المنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ.

قولُهُ: (الاستِقَامَةَ) يا من يَشاؤُها.

قولُهُ: (استِقَامَتكُم) أي: إلا وَقتَ أن يشاءَ مَشيئَتَكُم فله الفَضلُ عليكم باستِقامَتِكُم، والله أعلم.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٣).

سورة التكوير

ويقال: سورة «كورت»، وسورة «إذا الشمس كورت»، وهي مكيةٌ بلا خلاف، وآيُها تسعٌ وعشرون آيةً، وفي «التيسير»: ثمانٍ وعشرون. وفيها من شرح حال يوم القيامة الذي تضمَّنه آخر السورة قبلُ ما فيها، وقد أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ وحسَّنه والحاكم وصححه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامة كأنه رأيُ عينٍ فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقَّت»(١). أي: السورَ الثلاث، وكفى بذلك مناسبةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ أي: لُفَّتْ، من كوَّرتُ العمامة: إذا لَفَفْتها، وهو مجازٌ عن رفعها(٢) وإزالتها من مكانها بعلاقة اللزوم، فإنَّ الثوب إذا أريد رفعُه يُلفُّ لفًّا ويُطوَى ثم يُرفع، ونحوُه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ويجوز أن يراد لفُّ ضوئها المنبسط في الآفاق، المنتشرِ في الأقطار، إمَّا على أنَّ الشمس مجازٌ عن الضوء فإنه شائعٌ في العرف، أو على تقدير المضاف، أو على التجوُّز في الإسناد، ويرادُ من لفِّه إذهابُه مجازاً بعلاقة اللزوم كما سمعتَ آنفاً، أو رفعُه وستره استعارةً كما قيل، وقد اعتُبر تشبيه الضوء بالجواهر والأمورِ النفيسة التي إذا رُفعت لُفَّتْ في ثوبٍ، ثم تعتبر الاستعارة ويُجعل التكوير بمعنى اللفِّ قرينةً ليكون هناك استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ.

---

(١) مسند أحمد (٤٨٠٦)، وسنن الترمذي (٣٣٣٣)، والمستدرك ٢/ ٥١٥.

(٢) في هامش الأصل و(م): ولعل القرينة النسبة فتأمل. اهـ منه.

وكون المراد إذهابَ ضوئها مرويٌّ عن الحسن وقتادة ومجاهد، وهو ظاهرُ ما رواه جماعةٌ عن ابن عباس من تفسيره «كوِّرت» بـ : أظلمتْ.

والظاهرُ أنَّ ذاك مع بقاء جرمها كالقمر في خسوفه، وفي الآثار ما يؤيِّد ذلك. وقيل: إنَّ ذاك عبارةٌ عن إزالة نفس الشمس والذهابِ بها، للُّزومِ العاديِّ، واستلزامِ زوال اللازم لزوال الملزوم.

ويجوز أن يكون المراد بـ «كوِّرت»: أُلقيت عن فلكها وطُرحت، من طَعَنَه فحوَّره وكوَّره، أي: ألقاه مجتمعاً على الأرض. وإلقاؤها في جهنم مع عَبَدتها كما يدلُّ عليه بعضُ الأخبار المرفوعة[١]، ويذهب إذ ذاك نورُها كما صرَّح به القرطبي[٢]، أو في البحر كما يدلُّ عليه خبر ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس، وفيه أنَّ الله تعالى يبعث ريحاً دَبوراً فتنفخه ـ أي: البحر ـ حتى يرجع ناراً[٣].

وعِظَمُ جرم الشمس اليومَ لا يقتضي استحالةَ إلقائها في البحر ذلك اليوم؛ لجوازِ اختلاف الحال في الوقتين، والله عز وجل على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لكن جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ الشمس تدنو يوم القيامة من الرؤوس في المحشر حتى تكون قَدْرَ ميلٍ، ويلجِمُ الناسَ العرقُ يومئذٍ[٤]، ولا بحرَ حينئذٍ لتُلقَى فيه بعدُ، فلا تغفل.

وعن أبي صالح: «كوِّرت»: نكِّسَتْ. وفي روايةٍ عن ابن عباس: تكويرها إدخالها في العرش. وعن مجاهد أيضاً: اضمحلَّتْ. ومدار التركيب على الإدارة والجمع.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٨، عن أبي مريم أن النبيَّ ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال: «كوِّرت في جهنم» ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ قال: «انكدرت في جهنم، وكلُّ مَن عُبد من دون الله فهو في جهنم...».

(٢) في تفسيره ٢٢/ ٩٤.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١٨، وهو في العظمة لأبي الشيخ (٦٤٥)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (٣٣٤)، والطبري ٢٤/ ١٣٨، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية. ووقع في الأصل و(م) بدل ابن عباس: ابن عتيك، والمثبت من المصادر.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود ﷺ.

هذا ولم نقف لأحدٍ من السلف على إرادة لفِّها حقيقةً، وللمتأخِّرين في جواز إرادته خلافٌ؛ فقيل: لا تجوز إرادتُه لأن الشمس كريَّةٌ مصمتةٌ، وغايةُ اللفِّ هي الإدارة، وهي حاصلةٌ فيها.

وقيل: تجوز؛ لأنَّ كون الشمس كذلك مما لا يثبته أهلُ الشرع، وعلى تسليمه يجوزُ أن يحدث فيها قابلية اللفِّ بأنْ يصيِّرها سبحانه منبسطةً ثم يلفَّها، وله عز وجل في ذلك ما له من الحِكَم.

ويُبْعِدُ إرادةَ الحقيقة فيما أرى كونُها كيفما كانت من الأجرام التي لا تلفُّ كالثياب، نعم القدرة في كلِّ وقت لا يتعاصاها شيءٌ.

وارتفاعُ الشمس بفعلٍ مضمر يفسِّره المذكور عند جمهور البصريين؛ لاختصاص «إذا» الشرطيةِ عندهم بالفعل، وعلى الابتداء عند الأخفش والكوفيين؛ لعدم الاختصاص عندهم، وكونِ التقدير خلافَ الأصل.

وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي: انقضَّتْ وسقطت، كما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهدٍ وقتادة[1]، ومنه انكدر البازي: إذا نزل بسرعةٍ على ما يأخذه؛ قال العجَّاج يمدحُ عمر بنَ معمرٍ التيميَّ:

إذا الكرامُ ابتدروا الباعَ بَدَرْ
تَقَضِّيَ البازي إذا البازي كَسَرْ
دانَى جناحيه من الطود فمرّ
أبصر خِرْبان فضاءٍ فانكَدَرْ[2]

وهذا إحدى روايتين عن ابن عباس.

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١٨، وخبر مجاهد بلفظ: تناثرت، وخبر قتادة بلفظ: تساقطت وتهافتت.

(٢) ديوان العجاج ص٨٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٢٦، وفيه: يصفه بالكرم، وأنه لحرصه على السبق للمكارم يسرع إليها إسراع بازٍ رأى صيداً فانقض عليه، وابتدروا بمعنى بادروا، والباع: الذراع وقَدْرُ مدِّ اليدين، وهو مجاز هنا عن الإحسان. وكسر بمعنى: ضم جناحيه للنزول. والطود: الجبل. وخِرْبان بكسر الخاء وسكون الراء جمع خَرَب بفتحتين، وهو ذَكَر الحبارى.

وروي عنه أنه قال: لا يبقى يومئذٍ نجمٌ إلا سقط في الأرض.

وعنه أيضاً: أنَّ النجوم قناديلُ معلقةٌ بين السماء والأرض بسلاسلَ من نورٍ بأيدي ملائكةٍ من نور، فإذا مات مَن في السماوات والأرض تساقطت من أيديهم[١]. وظاهرُ هذا أنَّ النجوم ليست في جرم أفلاك لها كما يقول الفلاسفة المتقدِّمون، بل معلَّقةٌ في فضاءٍ، ويقرُبُ منه من وجهٍ قولُ الفلاسفة المحْدَثين، فإنهم يقولون بكونها في فضاءٍ أيضاً، لكنْ بقوًى متجاذبةٍ لا معلَّقةً بسلاسلَ بأيدي ملائكةٍ، وليس وراء ما يشاهَد منها إلا سماءٌ بمعنى جهة علوٍّ، لا سماءٌ بالمعنى المعروف، وإنْ صحَّ خبر الحبر[٢] ـ وهو في حكم المرفوع ـ لم نَعْدِلْ عن ظاهره إلا إن ظهر استحالتُه، وهيهاتَ ذلك، وحينئذٍ فالأمرُ سهلٌ، وقد ذكر بعض المتألِّهين أنَّ الملائكة قد تطلَقُ على الأرباب النورية كما في خبرٍ: إنَّ لكلِّ شيءٍ ملكاً، وإن كلَّ قطرةٍ من قطرات المطر ينزل معها ملكٌ[٣]. وخبر: «أتاني مَلَكُ الجبال ومَلَكُ البحار»[٤]، وتسمَّى المثلَ الأفلاطونية، وهي أنوارٌ مجرَّدةٌ قائمةٌ بنفسها، مدبِّرة بإذن الله تعالى للمربوبات حافظةٌ إياها، وهي المنمِّية والغاذيةُ والمولِّدة في النباتات والحيوانات. ويقال في السلاسل: إنه أريدَ بها القُوى التي بها حِفْظُ الأوضاع، أو نحوُ ذلك.

وقيل: انكدرت تغيَّرت وانطمس نورُها كما هو الرواية الأخرى عن ابن عباس، من: كَدَرْتُ الماء فانكدر، ففيه تشبيهُ انطماسِ نورِها بتكدُّر الماء الذي لا يبقى معه صفاؤه ورونقُ منظره، وتكون هي حينئذٍ على ما في بعض الآثار مع عَبَدتها في النار.

---

(١) ذكره عن ابن عباس القرطبي ٢٢/ ٩٤، وأبو السعود ٩/ ١١٤ وعنه نقل المصنف. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٢٨، والرازي في مفاتيح الغيب ٣١/ ٦٧، والنيسابوري في غرائب القرآن ٣٠/ ٣٤ عن عطاء. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) والضعف عليه ظاهر، وقد ذكره المصنف ٢٣/ ٦٨ عن الكلبي وقال: ولا أراه إلا حديث خرافة. وذكره أيضاً ٢٩/ ٨ عن عطاء وتعقبه بأنه لا يكاد يصح.

(٣) لم نقف عليه، وسلف ١/ ٤٨١.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر ما سلف ١/ ٤٨١-٤٨٢.

وظاهرٌ أنَّ النجوم لا تشملُ الشّمس، وقيل: تشملُها، وذِكْرُها بعدها تعميمٌ بعد تخصيصٍ، فلا تغفل.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ أي: أُزيلت عن أماكنها من الأرض بالرجفة الحاصلةِ، على أنَّ التسيير مجازٌ عن ذلك. وقيل: سيِّرتْ بعد رَفْعِها في الجوِّ، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وهذا إنما يكون بعد النفخة الثانية.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عُشَراء كنِفَاسٍ جمع نُفَساء، وهي الناقة التي أتى عليها من يومِ أُرسل فيها الفحل عشرةُ أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمَها حتى تضع، وقد يقال لها ذلك بعدما تضع أيضاً، وهي أنفسُ ما يكون عند أهلها، وأعزُّ شيء عليهم.

﴿عُطِّلَتْ ۝٤﴾ تُركت مهملةً لا راعيَ لها ولا طالب. وقيل: عطَّلها أهلها عن الحلب والصرِّ. وقيل: عن أن يُرسَلَ فيها الفحول. وذلك إذا كان قُبيل قيام القيامة؛ لاشتغال أهلها بما عراهم مما يكون إذ ذاك.

وقيل: إنَّ هذا التعطيلَ يومَ القيامة؛ فقال القرطبي: الكلامُ على التمثيل؛ إذ لا عِشَارَ حينئذٍ، والمعنى: أنه لو كانت عشارٌ لعطَّلها أهلُها واشتغلوا بأنفسهم[١].

وقيل: على الحقيقة، أي: إذا قاموا من القبور وشاهدوا الوحوش والأنعام والدوابَّ محشورةً ورأوا عِشَارهم التي كانت كرائمَ أموالِهم فيها لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم. وهو كما ترى.

وقيل: المراد بالعشار السحابُ، على تشبيه السحابة المتوقَّع مطرُها بالناقة العُشَراء القريبِ وضعُ حملها، وفيه استعارةٌ لطيفةٌ مع المناسبة التامَّة بينه وبين ما قبله، فإنَّ السحب تنعقد على رؤوس الجبال وتُرى عندها. ولا ينافيه كونُه مناسباً لِمَا بعده على الأول، فإنه معنًى حقيقيٌّ مرجَّحٌ بنفسه. وتعطيلُها مجازٌ عن عدم ارتقاب مطرها؛ لأنهم في شغلٍ عنه. وقيل: عن عدم إمطارها.

وقيل: هي الديارُ تعطَّل فلا تُسْكَنُ.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢/ ٩٥-٩٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٤٣٢.

وقيل: الأرض التي يُعشَّر زَرْعُها، تعطَّلُ فلا تُزرع.

وقرأ مضرٌ عن اليزيدي: «عُطِلَتْ» بالتخفيف والبناء للمجهول(١)، ونقله في «اللوامح» عن ابن كثير، ثم قال: هو وهمٌ، إنما هو عَطَلَتْ بفتحتين بمعنى تعطَّلت؛ لأنَّ تشديده للتعدية؛ يقال: عطَّلتُ الشيءَ وأعطلتُه فعَطَلَ بنفسه، وعَطَلتِ المرأةُ فهي عاطل: إذا لم يكن عليها حليٌّ، فلعل هذه القراءة لغةٌ استوى فيها فَعَلت وأَفْعَلت، أي: في التعدِّي(٢). وقيل: الأظهر أنه عدِّي بالحرف، ثم حُذِفَ وأُوْصِلَ الفعل بنفسه.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ جمعُ وحشٍ، وهو حيوانُ البرِّ الذي ليس في طبعه التأنُّسُ ببني آدم، والمراد به ما يعمُّ البهائم مطلقاً.

﴿حُشِرَتْ ۝٥﴾ أي: جُمعت من كلِّ جانبٍ، وذلك قُبيلَ النفخة الأولى حين تخرج نارٌ تفرُّ الناس والأنعام منها حتى تجتمعَ.

وقيل: أُميتتْ، من قولهم إذا أجحفت السنة بالناس(٣): حشرتهم. ونحوُه ما أخرج عبد بن حميد عن مجاهدٍ أنه قال: حَشْرُها موتُها(٤).

وعن ابن عباس تفسير الحشر بالجمع، إلا أنه قال كما أخرجه جماعةٌ وصححه الحاكم: جُمِعتْ بالموت، فلا تُبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين(٥).

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٢، واليزيدي هو يحيى بن المبارك بن المغيرة، أبو محمد العدوي البصري، وعرف باليزيدي لصحبته يحيى بن منصور الحميري خال المهدي، توفي سنة (٢٠٢هـ). ومضر لعله مضر بن محمد بن خالد، أبو محمد الضبي الأسدي الكوفي، روى الحروف عنه ابن مجاهد وابن شنبوذ وغيرهم. طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٢٩٩ و٣٧٥.

(٢) البحر ٨/ ٤٣٢، وذكرها عن ابن كثير أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٩.

(٣) أي: أهلكتهم واستأصلتهم. المغرب للمطرزي (جحف)، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٢٧.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٩.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣١٩، وهو في المستدرك ٢/ ٥١٥، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ١٣٦، ولفظه عندهم: حَشْرُ البهائم موتها، وحَشْرُ كلِّ شيءٍ الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. ونقل المصنف لفظه عن البحر ٨/ ٤٣٢.

وقيل: بُعثت للقصاص، فيحشرُ كلُّ شيءٍ حتى الذباب. وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً[(١)]، وعن قتادة وجماعةٍ.

وفي روايةٍ عن الحبر: تُحشر الوحوش حتى يُقتصَّ من بعضها لبعضٍ، فيقتصُّ للجمَّاء من القَرْناء، ثم يقال لها: موتي، فتموت[(٢)].

وقيل: إذا قُضي بينها رُدَّتْ تراباً، فلا يبقى منها إلا ما فيه سرورٌ لبني آدم وإعجابٌ بصورته، كالطاووس والظبي.

وقيل: يبقى كلُّ ما لم يَنتفع به إلا المؤمنُ، كشاةٍ لم يأكل منها إلا هو، ويدخل ما يبقى الجنةَ على حالٍ لائقةٍ بها.

وذهب كثيرٌ إلى بعث جميع الحيوانات ميلاً إلى هذه الأخبار ونحوها؛ فقد أخرج مسلم والترمذيُّ عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة، حتى يُقاد للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْناء»[(٣)] وزاد أحمد بن حنبل: «وحتى الذرَّةُ من الذرَّةِ»[(٤)].

ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعةٌ إلى أنه لا يحشر غيرُ الثَّقلَيْنِ لعدم كونه مكلَّفاً، ولا أهلاً للكرامة بوجهٍ، وليس في هذا الباب نصٌّ من كتابٍ أو سنَّةٍ معوَّلٍ عليها يدلُّ على حشر غيرهما من الوحوش، وخبر مسلم والترمذيِّ وإن كان صحيحاً لكنه لم يخرج مخرجَ التفسير للآية، ويجوز أن يكون كنايةً عن العدل التامِّ. وإلى هذا القول أميلُ، ولا أجزمُ بخطأ القائلين بالأول، لأنَّ لهم ما يَصْلحُ مستنداً في الجملة، والله تعالى أعلم.

وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «حشِّرتْ» بالتشديد[(٥)] للتكثير.

---

(١) أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٩.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٢٢/ ٩٧، وقال: وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة. ويعني بما رواه عنه عكرمة ما أخرجه الحاكم وجماعةٌ عنه، وسلف تخريجه ولفظه قريباً.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٨٢)، وسنن الترمذي (٢٤٢٠).

(٤) مسند أحمد (٨٧٥٦).

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٣٢.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أي: أُحْمِيتْ بأنْ تغيضَ مياهُها، وتَظْهرَ النارُ في مكانها، ولذا ورد على ما قيل: إنَّ البحر غطاءُ جهنم.

أو: ملئت بتفجير بعضها إلى بعضٍ، حتى يكون مالحها وعَذْبُها بحراً واحداً، من سَجَر التنور: إذا ملأه بالحطب ليُحْمِيَه.

وقيل: مُلئت نيراناً تضطرمُ لتعذيب أهل النار.

وقيل: ملئت تراباً تسويةً لها بأرض المحشر. وليس له مستندُ أثرٍ عن السلف.

ونقل في «البحر» عن كتاب «لغات القرآن» أن «سجِّرت» بمعنى جُمعت بلغة خثعم[(١)]، ولعل جمعها عليه بالتفجير.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون المعنى: مُلِكَتْ وقيِّد اضطرابها حتى لا تخرج عن الأرض من الهول، فيكون ذلك مأخوذاً من ساجور الكلب[(٢)]، وهو خشبةٌ تجعل في عنقه، ويقال: سجره، إذا شدَّه به.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «سُجِرتْ» بالتخفيف[(٣)].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: قُرِنتْ كلُّ نفسٍ بشكلها؛ أخرج جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه عن النعمان بن بشير عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن ذلك، فقال: يُقْرَنُ الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويُقْرَنُ الرجل السوءُ مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويجُ الأنفس[(٤)]. وفي حديثٍ مرفوعٍ رواه النعمان أيضاً ما يقتضي ظاهرُه ذلك[(٥)].

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢.

(٣) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٩، وهو في المستدرك ٢/ ٥١٥-٥١٦، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ١٤١-١٤٢، والحافظ في تغليق التعليق ٤/ ٣٦٢.

(٥) أخرجه ابن مردويه كما ذكر الحافظ في الفتح ٨/ ٦٩٤، وقال: والأول - يعني خبر عمر - هو المحفوظ.

وقال بعضٌ: هذا في الموقف، أن يُقْرَنَ بين الطبقات: الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل.

وقال مقاتل بن سليمان: تُقرن نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور وغيرهنَّ، ونفوسُ الكافرين بالشياطين.

وقيل: تُقرن كلُّ نفسٍ بكتابها. وقيل: بعملها.

وجوِّز أن يراد: تُقْرَنُ كلُّ نفسٍ بخصمها فلا يمكنها الفرارُ منه. وأنت تعلم أنَّ كون كلِّ نفسٍ ذا خصمٍ بيِّنَ الانتفاء.

وأيًّاما كان فالنفسُ بمعنى الذات، والتزويجُ جَعْلُ الشيء زوجاً، أي: مقارناً.

وقال عكرمة والضحاك والشعبي: تُقرن النفوس بأزواجها، وذلك عند البعث. والنفسُ عليه بمعنى الروح.

وقرأ عاصم: «زُوْوِجتْ» على فُوْعِلَتْ[1].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ وهي البنت التي تُدفن حيَّةً، من الوَأد: وهو الثِّقل، كأنها سمِّيت بذلك لأنها تُثْقَلُ بالتراب حتى تموت. وقيل: هو مقلوبُ الأوْدِ، وحكاه المرتضى في «درره» عن بعض أهل اللغة[2]، وهو غير مرتضًى عند أبي حيان[3].

وكانت العرب تئِدُ البنات مخافةَ لُحوقِ العار بهم من أجلهنَّ، وقيل: مخافةَ الإملاق، ولعله بالنسبة إلى بعضهم، ومنهم مَن يقول: الملائكةُ بناتُ الله، سبحانه عمَّا يقولون، فألحقوا البناتِ به تعالى، فهو عزَّ وجلَّ أحقُّ بهنَّ.

وذكر غيرُ واحدٍ أنه كان الرجل منهم إذا ولدتْ له بنتٌ فأراد أن يستحييها ألبسها جبَّةً من صوفٍ أو شعرٍ تَرْعَى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها، حتى إذا كانت سداسية[4] فيقول لأمها: طيِّبيها وزيِّنيها حتى أذهب بها إلى

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢، والبحر ٨/ ٤٣٣، وهي خلاف المشهور عن عاصم.
(٢) ينظر أمالي المرتضى المسماة غرر الفوائد ودرر القلائد ٢/ ٢٨٢، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٢٧. وينظر الكشاف ٤/ ٢٢٢.
(٣) في البحر ٨/ ٤٣٣.
(٤) في هامش الأصل: بلغت قامتُها ستَّةَ أشبار.

أحمائها. وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها. ثم يدفعُها مِن خَلْفِها ويُهيل عليها الترابَ حتى تستويَ البئرُ بالأرض.

وقيل: كانت الحامل إذا أَقْرَبَتْ[(١)] حَفَرتْ حفرةً فتمخَّضتْ على رأس الحفرة، فإذا وَلَدتْ بنتاً رمتْ بها فيها، وإن ولدتْ ابناً حبسته.

ورأيتُ إذ أنا يافعٌ في بعض الكتب أنَّ أول قبيلةٍ وأَدَتْ من العرب ربيعةُ، وذلك أنهم أُغِيرَ عليهم، فنُهبت بنتٌ لأميرٍ لهم، فاستردَّها بعد الصلح، فخيِّرتْ برضًى منه بين أبيها ومَن هي عنده، فاختارت مَن هي عنده وآثرته على أبيها، فغضب وسنَّ لقومه الوأدَ، ففعلوه غيرةً منهم ومخافةَ أنْ يقع لهم بعدُ مثلُ ما وقع، وشاع في العرب غيرهم، والله تعالى أعلم بصحة ذلك.

وقرأ البزّي في روايةٍ: «المؤودة» كمعونة، فاحتَمَلَ أن يكون الأصل «الموؤودة» كقراءة الجمهور، فنقل حركة الهمزة إلى الواو قبلها وحذفت، ثم هُمزت تلك الواو. واحتمل أن يكون اسمَ مفعولٍ من آد، والأصل: المأوودة، فحذف أحد الواوين فصارت «المؤودة» كما حذف من مَقْوُول فصار مقولاً[(٢)].

وقرئ: «المَوُودة» بضمِّ الواو الأولى وتسهيل الهمزة، أعني التسهيلَ بحَذْفِها، ونَقْلِ حركتها إلى ما قبلها[(٣)].

وفي «مجمع البيان» والعهدةُ عليه: روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قرؤوا: «المودَّة» بفتح الميم والواو، والمراد بها الرَّحِمُ والقرابةُ، وعن أبي جعفر: قرابةُ الرسول ﷺ[(٤)]. ويراد بقتلها قَطْعُها، أو هو على حقيقته والإسناد مجازيٌّ، والمراد قتلُ المتصف بها.

وتوجيه السؤال إلى «الموؤودة» في قوله تعالى: ﴿سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ دون الوائد مع أنَّ الذنب له دونها لتسليتها وإظهارِ كمال الغيظ والسخط لوائدها،

---

(١) أي: قَرُبَ وِلادُها، فهي مُقْرِب. القاموس (قرب).

(٢) البحر ٨/ ٤٣٣، وهذه القراءة هي خلاف المشهور عن البزي.

(٣) البحر ٨/ ٤٣٣، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢ عن البزي.

(٤) مجمع البيان ٣٠/ ٤٥ و٤٦.

وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغةِ في تبكيته، فإنَّ المجنيَّ عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونُسبت إليه الجنايةُ دون الجاني كان ذلك بعثاً للجاني على التفكُّر في حال نفسه وحالِ المجنيِّ عليه، فيرى براءةَ ساحته، وأنه هو المستحقُّ للعتاب والعقاب، وهذا نوعٌ من الاستدراج واقعٌ على طريق التعريض، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقرأ أبيٌّ وابن مسعود والربيع بنُ خثيم وابن يعمر: «سَأَلتْ»[(١)]، أي: خاصَمَتْ، أو: سألت الله تعالى، أو قاتِلَها، وإنما قيل: «قُتِلَتْ» لِمَا أنَّ الكلام إخبارٌ عنها لا حكايةٌ لِمَا خُوطبت به حين سئلت ليقال: قُتِلْتِ على الخطاب، ولا حكايةٌ لكلامها حين سألت ليقال: قُتِلْتُ على الحكاية عن نفسها، وقد قرأ كذلك عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن مسعود أيضاً وجابرُ بن زيد وأبو الضحى ومجاهد[(٢)].

وقرأ الحسن والأعرج: «سيلت» بكسر السين، وذلك على لغةِ مَن قال: سال: بغير همزٍ[(٣)].

وقرأ أبو جعفر بشدِّ الياء[(٤)]؛ لأن الموؤودة اسمُ جنسٍ فناسَبَ التكثيرَ باعتبار الأشخاص.

وفي الآية دليلٌ على عظم جناية الوأد، وقد أخرج البزَّار والحاكم في الكنى والبيهقيُّ في «سننه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: جاء قيس بن عاصم التميميُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي وَأَدْتُ ثمان بناتٍ لي في الجاهلية. فقال النبيُّ ﷺ: «أَعْتِقْ عن كلِّ واحدةٍ رقبةً» قال: إنِّي صاحبُ إبلٍ. قال: «فاهْدِ عن كلِّ واحدةٍ بَدَنَةً»[(٥)] وكأن الأمر للندب، لا للوجوب؛ لتوقُّف صحة التوبة عليه، فإنَّ

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٣، وقد قرأ بها غيرهم كما سيرد، ولكن اختلفوا في «قتلت»، فقرأ هؤلاء كقراءة الجماعة، وقرأ غيرهم: «قُتِلْتُ» بسكون اللام وضم التاء كما سيرد أيضاً.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢، والبحر ٨/ ٤٣٣، والكلام منه.

(٤) النشر ٢/ ٣٩٨.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، وهو في مسند البزار (٢٣٧)، وسنن البيهقي الكبرى ٨/ ١١٦.

الإسلام يجبُّ ما قبله من مثل ذلك، وفيه تعظيمُ أمر الوأد، وكان من العرب مَن يستقبحُه كصعصعةَ بنِ ناجية المجاشعيِّ جدِّ الفرزدق، كان يفتدي الموؤدات من قومه بني تميم، وبه افتخر الفرزدق في قوله:

وجدِّي[١] الذي منع الوائدات ... فأحيا الوئيدَ فلم يُوأدِ[٢]

وأخرج الطبراني عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، إنِّي عملتُ أعمالاً في الجاهلية، فهل فيها من أجرٍ؟ أحييتُ ثلاث مئةٍ وستين من الموؤدة، أشتري كلَّ واحد منهنَّ بناقتين عشراوين وجملٍ، فهل لي في ذلك من أجرٍ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لك أجره إذ منَّ الله تعالى عليك بالإسلام»[٣].

وعُدَّ من الوأد العزلُ، لِمَا أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه والطبرانيُّ وابن مردويه عن جُذَامةَ بنتِ وَهْبٍ قالت: سئل رسول الله ﷺ عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي»[٤] ومن هنا قيل بحرمته.

وأنت تعلم أن المسألة خلافيةٌ، فقد قال الإمام النوويُّ في «شرح صحيح مسلم»[٥]: العزل ـ وهو أن يجامع فإذا قارَبَ الإنزالَ نَزَعَ وأنزل خارج الفَرْجِ ـ مكروهٌ عندنا في كلِّ حالٍ وكلِّ امرأةٍ سواءٌ رضيتْ أم لا؛ لأنه طريقٌ إلى قَطْعِ النسل، وأما التحريم فقد قال أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ: لا يَحْرُمُ في مملوكته ولا في زوجته الأمَةِ سواءٌ رضيتْ أم لا؛ لأن عليه ضرراً في مملوكته بمصيرها أمَّ ولدٍ

---

(١) في هامش الأصل: ومنا في روايةٍ. اهـ. وهي رواية الديوان على ما يأتي.
(٢) ديوان الفرزدق ١/ ١٧٣.
(٣) المعجم الكبير (٧٤١٢)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٢٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٩٥: فيه الطفيل بن عمرو التميمي، قال البخاري: لا يصح حديثه. وقال العقيلي: لا يتابع عليه.
(٤) مسند أحمد (٢٧٤٤٧)، وصحيح مسلم (١٤٤٢)، وسنن أبي داود (٣٨٨٢)، وسنن الترمذي (٢٠٧٧)، وسنن النسائي ٦/ ١٠٦-١٠٧، وسنن ابن ماجه (٢٠١١)، والمعجم الكبير ٢٤/ ٥٣٥. والمذكور قطعة من الحديث، وهي لم ترد في رواية أبي داود والترمذي والنسائي.
(٥) ١٠/ ٩.

وامتناعِ بيعها، وعليه ضرر في زوجته الرقيقةِ بمصير ولده رقيقاً تبعاً لأمه، وأمَّا زوجتُه الحرَّةُ فإنْ أذِنَتْ فيه لم يَحْرُمْ، وإلا فوجهان أصحُّهما: لا يحرم. ثم الأحاديث التي ظاهرها التعارُض في هذا المطلب يجمع بينها بأنَّ ما ورد منها في النهي محمولٌ على كراهة التنزيه، وما ورد في الإذن في ذلك محمولٌ على أنه ليس بحرامٍ، وليس معناه نفيَ الكراهة. انتهى.

وأجيب على الحديث السابق بأنَّ تسميته بالوأد الخفيِّ لا يدلُّ على أنَّ حُكْمه حُكْمُ الوأد الظاهر، فقد صحَّ أن الرياء شركٌ خفيٌّ، ولم يقل أحدٌ بأنَّ حُكْمَه حُكْمُه.

ولا يَبعدُ أن يكون الاستمناء باليد كالعزل وأداً خفيًّا، وذكر بعضهم أنه إذا لم يَخْشَ الزنا حرامٌ، وإن خشي لم يَحْرُم، وكذا لا يبعدُ أن يكون التفخيذ مع مَن يَحِلُّ له وَطْؤُها كذلك، ولم أرَ قائلاً بحرمته، وتمامُ الكلام في هذا المقام في كتب الفقه فلتراجع.

واستدلَّ الزمخشريُّ[١] بالآية على أنَّ أطفال المشركين لا يعذَّبون، وعلى أنَّ العذاب لا يستحقُّ إلا بالذنب:

أمَّا الأول: فلأنَّ تبكيت قاتلها يباينُ تعذيبها؛ لأنَّ استحقاقَ التبكيت لبراءتها من الذنب، فمتى بكَّت سبحانه الكافر ببراءتها من الذنب كيف يكرُّ سبحانه عليها فيفعلُ بها ما يُنْسَى عنده فعلُ المبكَّت من العذاب السرمد[٢]؟

وأما الثاني: فلإشارةِ قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ إلى أنَّ القتل إنما يُصار إليه بذنبٍ، وأنه لا يستحسَنُ ارتكابُه دونه، ومعلومٌ أنَّ في معناه كلَّ تعذيبٍ، ثم الآية لمَّا دلَّت على أنَّ الموؤدة لا ذنبَ لها ليتمَّ التبكيتُ تضمَّنتْ عدمَ استحقاقها العقاب.

وزَعَم[٣] أنَّ ابن عباس سئل عن ذلك فاحتجَّ بهذه الآية.

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٢٢.

(٢) في (م): السرمدي.

(٣) يعني الزمخشري، والتعليل الثاني لم يذكره الزمخشري، ولعل المصنف رحمه الله ينقل من بعض حواشي الكشاف.

وتعقِّب بأنَّ مبنى ما ذكره التحسينُ والتقبيح، وقد بيِّن ما فيهما في موضعه، وعلى التسليم نمنعُ انحصارَ سبب التبكيت في البراءة، على أنَّ القتل للباعث المذكور في القرآن بمعنى خشية الإملاق رذيلةٌ يُستحَقُّ بها التبكيت، اسْتَحَقَّ بها المقتولُ التعذيبَ الأخرويَّ أوْ لا، وإشارةُ الآية على أنَّ باعثهم على القتل لم يكن الذنبَ، لا إلى أنَّ الذنبَ ـ أعني ما تستحقُّ به الموؤدةُ التعذيب ـ معدومٌ من كلِّ وجهٍ.

وما رُوي عن ابن عباس لا نسلِّم صحته، وفي الأخبار ما ينافيه؛ أخرج الإمام أحمد والنسائيُّ وغيرُهما عن سلمةَ بنِ يزيد الجُعْفِيِّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الوائدةُ والموؤدةُ في النار إلا أن تدرك الوائدةُ الإسلام فيعفو الله تعالى عنها»(١).

وأخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائيُّ عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «الله تعالى إذ خلقهم أعلمُ بما كانوا عاملين»(٢) وتفسيره ـ على ما قيل ـ ما رَوَى أبو داود عن عائشة: قلت: يا رسول الله، ذراريُّ المؤمنين؟ فقال: «من آبائهم» قلت: بلا عملٍ؟ قال: «اللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين» قلت: يا رسول الله، فذراريُّ المشركين؟ فقال: «من آبائهم» قلت: بلا عملٍ؟ قال: «اللهُ تعالى أعلم بما كانوا عاملين»(٣).

وفي مسند الإمام أحمد: سألتْ خديجةُ عن ولدين ماتا لها(٤) في الجاهلية؟ فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار»(٥).

---

(١) مسند أحمد (١٥٩٢٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٨٥) وهذا الحديث في متنه نكارة، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.
(٢) صحيح البخاري (١٣٨٣)، وصحيح مسلم (٢٦٦٠)، وسنن أبي داود (٤٧١١)، وسنن النسائي ٤/ ٥٨.
(٣) سنن أبي داود (٤٧١٢).
(٤) في الأصل و(م) بدل «ماتا لها»: ما بالهما، وهو تصحيف.
(٥) مسند أحمد (١١٣١)، وهو من زيادات عبد الله بن أحمد على المسند، وفي إسناده محمد بن عثمان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٤٢: لا يُدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وله خبر منكر، ثم ساق هذا الحديث. وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد كما في كنز العمال ٢/ ٥١٢: في إسناده محمد بن عثمان لا يقبل حديثه، ولا يصح في تعذيب الأطفال حديث.

وأنت تعلم أنَّ في مسألة الأطفال من هذه الحيثية ما عدا أطفال الأنبياء عليهم السلام ـ فإنهم أُجمِعَ على كونهم من أهل الجنة كما قال اللقاني ـ خلافاً، فقد قال الإمام النوويُّ في «شرح صحيح مسلم»[١]: أجمع مَن يُعتدُّ به من علماء المسلمين على أنَّ مَن مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلَّفاً، وتوقَّفَ فيه بعضُ مَن لا يعتدُّ به؛ لحديثِ عائشةَ: توفِّي صبيٌّ من الأنصار، فقالت: طوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمل السوءَ ولم يدركه. قال ﷺ: «أوَ غيرَ ذلك يا عائشة، إنَّ الله تعالى خَلَقَ للجنة أهلاً، خَلَقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخَلَقَ للنار أهلاً خَلَقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[٢] وأجاب العلماء عنه بأنه لعله عليه الصلاة والسلام نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليلٌ قاطعٌ، ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا قبل أن يَعْلَم أن أطفال المسلمين في الجنة، فلمَّا علم ﷺ قال ذلك في قوله ﷺ: «ما من مسلم يموت له ثلاثٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ إلا أدخله الله تعالى الجنة بفضله ورحمته إياهم»[٣] وغيرِ ذلك من الأحاديث.

وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثةُ مذاهب:

قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم؛ لحديث: سئل عن أولاد المشركين مَن يموت منهم صغيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «الله تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين» أي: وغير ذلك.

وتوقَّفتْ طائفةٌ فيهم.

وقالت الثالثة وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحقِّقون: إنهم من أهل الجنة. ويستدلُّ له بأشياء، منها حديثُ إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبيُّ ﷺ في الجنة حوله أولاد الناس، قالوا: يا رسول الله، وأولادُ المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين» رواه البخاري في «صحيحه»[٤]. ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ

---

(١) ١٦/ ٢٠٧.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٢)، وسلف ١٥/ ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٤٨) عن أنس بن مالك ﷺ، وقد سلف تخريجه ١٤/ ٤٣٢.

(٤) برقم (٧٠٤٧) وهو من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. ولا يتوجَّه على المولود التكليفُ، ويلزمُه قولُ الرسول: «حتى يبلغ»، وهذا متفقٌ عليه.

والجواب عن حديث «الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين»: أنه ليس فيه تصريحٌ بأنهم في النار، وحقيقةُ لفظِهِ: الله تعالى أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا، ولم يبلغوا، والتكليفُ لا يكون إلا بالبلوغ. انتهى.

وتعقِّب ما ذكره من الاحتمال في حديث عائشة رضي الله عنها بأنه يأباه ما ذكره من حديث إبراهيم عليه السلام؛ فإنَّ حديث عائشة كان بالمدينة؛ لأنه في صبيٍّ من الأنصار، وبناؤه عليه الصلاة والسلام عليها إنما كان فيها، وحديثُ إبراهيم عليه السلام كان بمكة؛ لأنَّ الظاهر أنَّ تلك الرؤية كانت ليلةَ المعراج وهو قد كان فيها، ومنه يعلم أنه ﷺ قد علم أنَّ الأطفال كلّهم في الجنة يومئذٍ، فكيف يحتمل أن يكون ما قاله بعدُ قاله قبل أن يعلم أنَّ أطفال المسلمين في الجنة؟

وأيضاً إذا كان حديث إبراهيم عليه السلام في مكة يضعف الجواب الأول عن حديث عائشة باحتمال أن تكون قالت ما قالت لأنه بلغها ذلك الحديث.

ثم ما ذَكَر من أنَّ المذاهب في أطفال المشركين ثلاثةٌ الظاهرُ أنه مبنيٌّ على ما وقف عليه، وإلا فهي غير منحصرةٍ فيها، بل منها أنهم في برزخٍ بين الجنة والنار، ومنها أنهم يُمتَحَنون بدخول النار يوم القيامة، فَمَنْ كُتب له السعادة أطاع بدخولها فيُردُّ إلى الجنة، ومَن كتب له الشقاوةُ امتنع فيُسحَبُ إلى النار كما جاء في بعض الروايات[1]، فلا يُحكم على معيَّنٍ منهم بجنةٍ ولا نارٍ، وعليه حُمل: «الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين» وفي «اختيارات» الشيخ ابن تيمية أنَّ هذا أحسنُ الأجوبة فيهم[2]. وقال الجلال السيوطيُّ: هو الصحيحُ المعتمَدُ.

---

(١) ينظر حديث أنس رضي الله عنه في مسند أبي يعلى (٤٢٢٤)، وينظر كذلك ما ورد من روايات في هذه المسألة في الحاوي للسيوطي ٢/ ٣٥٧-٣٥٩، وقد حسَّن أسانيدها ابن تيمية كما في مختصر الفتاوى ص٦٤٣.

(٢) لم نقف عليه في الاختيارات، وهو في الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ١/ ٣٢١، ومختصر الفتاوى ص٦٤٣.

ومنها ما ذكره هذا الجلالُ واختاره الإمام الربانيُّ الفاروقي السرهنديُّ قدِّس سرُّه: أنهم يحشرون ثم يصيرون تراباً كالوحوش.

وإن أريدَ مما تقدَّم من أنهم في الجنة كونُهم فيها كسائر أهلها فهناك قولٌ آخرُ، وهو أنهم فيها خدماً لأهلها، وقد نقله النسفيُّ في «بحر الكلام»[1] على أهل السنَّة والجماعة، وفيه أحاديثُ جمةٌ.

والظاهر أنَّ المراد بأطفال المشركين الأطفالُ الذين ولدوا لهم وهم مشركون ولو آمنوا بعدُ، ويدل عليه قولُه عليه الصلاة والسلام السابق في ولدي خديجة: «هما في النار» وهو يعكِّر على مَن يقول: أطفال الذين ماتوا مشركين في النار، وأطفالُ المشركين الذين آمنوا بعد موتهم في الجنة إكراماً لهم.

والذي أختارُه القولُ بأنَّ الأطفال مطلقاً وكذا فرخُ الزنا، ومَن جُنَّ قبل البلوغ، في الجنة، فهو الأخْلَقُ بكرم الله تعالى وواسعِ رحمته عز وجل، والأوفَقُ للحكمة بحسب الظاهر، والأكثرُ تأيُّداً بالآيات، ولا بُعْدَ في ترجُّح الأخبار الدالة على ذلك بما ذكر على الأخبار الدالة على خلافه.

والقولُ بأنَّ ما تضمَّنته هاتيك الأخبار كان منه عليه الصلاة والسلام قَبْلَ عِلْمِه ﷺ بأنَّ الأطفال في الجنة بعيدٌ عندي، نعم جوِّز أن يكون قد أَخبر ﷺ بأنهم من أهل النار بناءً على إخبار الوحي به ـ كإخباره بالوَعيدات التي يعفو الله تعالى عنها ـ من حيث إنه مقيدٌ بشرطٍ ك : إن لم يشملهم الفضل، مثلاً، لكنه لم يُذكر معه كما لم يذكر معها لحكمةٍ، ثم أخبَر عليه الصلاة والسلام بأنهم من أهل الجنة بناءً على إخبار الوحي به أيضاً، ويكون متضمِّناً للإخبار بأنَّ شرط كونهم من أهل النار لا يتحقَّق؛ فضلاً من الله تعالى وكرماً، ويكون ذلك كالعفو عمَّا يقتضيه الوعيدُ، ومِثْلُ ذلك إخبارُه بما ذكر بناءً على مشاهدةِ كونهم في الجنة عند إبراهيم عليه السلام، فتأمل.

---

(١) بحر الكلام لميمون بن محمد، أبي المعين النسفي الحنفي، المتوفى سنة (٥٠٨هـ). كشف الظنون ١/ ٢٢٥.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ أي: صحف الأعمال؛ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: إذا مات الإنسان طُويت صحيفتُه، ثم تُنشر يوم القيامة فيحاسَبُ بما فيها(١).

وقيل: «نُشِرَتْ» أي: فرِّقَتْ بين أصحابها؛ عن مَرْثَد بنِ وَدَاعةَ(٢): إذا كان يومُ القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنةٍ عاليةٍ، وتقع صحيفة الكافر في يده في سمومٍ وحميم. أي: مكتوبٌ فيها ذلك، وهي صحفٌ غيرُ صحفِ الأعمال.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «نشِّرت» بالتشديد(٣) للمبالغة في النشر بمعنييه، أو لكثرة الصحف، أو لشدة التطاير.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾ قُلعت وأُزيلت كما يُكشَفُ الإهاب عن الذبيحة، والغطاءُ عن الشيء المستور به، فأصل الكشط السلخُ، واستُعير هنا للإزالة. وقرأ عبد الله: «قُشِطَتْ» بالقاف مكانَ الكاف(٤)، واعتقابُهما غيرُ عزيزٍ كالكافور والقافور، و: عربيٌّ قحٌّ وكحٌّ.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢﴾ أي: أُوقدت إيقاداً شديداً؛ قال قتادة: سعَّرها غضبُ الله تعالى وخطايا بني آدم. وقرأ جمعٌ منهم عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «سُعِرَتْ» بالتخفيف(٥).

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ أي: قرِّبتْ من المتَّقين، كقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية أنه قال:

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠.
(٢) أبو قتيلة الحمصي، قال البخاري: له صحبة. الإصابة ٩/ ١٦٣، والكلام من الكشاف ٤/ ٢٢٣.
(٣) النشر ٢/ ٣٩٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٣٤.
(٥) البحر ٨/ ٥٦، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف، وشعبة عن عاصم، وهشام عن ابن عامر، وروح عن يعقوب. التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

ستُّ آياتٍ من هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون، وستٌّ في الآخرة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ هذه في الدنيا، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ هذه في الآخرة[1].

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه قال: ستُّ آياتٍ قبل يوم القيامة؛ بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ انكدرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرَّكت واضطربت، ففزعت الجنُّ إلى الإنس والإنسُ إلى الجنِّ، واختلطت الدوابُّ والطير والوحش، فماجوا بعضهم في بعض وأُهملت العشار، وقال الجنُّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر. فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نارٌ تأجَّجُ، فبينما هم كذلك إذ تصدَّعت الأرض صدعةً واحدةً، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريحٌ فأماتتهم[2].

وقال بعضهم: إنَّ الستَّ الأولى فيما بين النفختين، وإنه مرادُ مَن قال: إنها في الدنيا. وقيل: هي فيما قبل النفخة الأولى، وما بعدها إلى النفخة الثانية، فلا تغفل.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ جواب «إذا»، على أنَّ المراد بها زمانٌ واحدٌ ممتدٌّ يَسَعُ الأمور المذكورة، مبدؤه قُبيلَ النفخة الأولى، أو هي، ومنتهاه فصلُ القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أنَّ النفس تعلم ما تعلم في كلِّ جزءٍ من أجزاء ذلك الوقت المديد، أو عند وقوع داهيةٍ من تلك الدواهي، بل عند نشر الصحف، إلَّا أنه لمَّا كان بعضُ تلك الدواهي من مباديه وبعضها من روادفه نسب عِلْمُها بذلك إلى زمانِ وقوع كلِّها تهويلاً للخطب وتفظيعاً للحال.

والمراد بـ «ما أحضرت» أعمالُها من الخير والشرِّ، وبحضور الأعمال إما حضورُ صحائفها كما يُعْرِبُ عنه نَشْرُها، وإما حضورُ أنفُسِها على ما قالوا من أنَّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورٍ عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورٍ جوهرية مناسبةٍ

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٨، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٨.

لها في الحسن والقبح على كيفياتٍ مخصوصةٍ وهيئاتٍ معيَّنةٍ، حتى إنَّ الذنوب والمعاصي تتجسَّم هنالك وتتصوَّر، وحُمل على ذلك نحوُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] وعن ابن عباس ما يؤيِّده[١]، ويؤيِّده أيضاً حديثُ ذبح الموت[٢] ونحوه.

قيل: ولا بُعد في ذلك، ألا يُرى أنَّ العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللَّبَنِ كما لا يخفى على مَن له خبرةٌ بأحوال الحضرات الخمس؟ وقد حكي عن بعض الأكابر أنهم يشاهدون في هذه النشأة الأعمال عند العروج بها إلى السماء، وكأنَّ ذلك بنوعٍ من التجسُّد.

وأيَّاما كان فإسنادُ إحضارها إلى النفس مع أنها تحضُر بأمر الله تعالى كما يؤذِنُ به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠] لأنها لمَّا عملتها في الدنيا فكأنها أَحْضَرتْها في الموقف، ومعنى عِلْمِها بها على التقدير الأول اطِّلاعُها عليها مفصَّلةً في الصحف بحيث لا يشذُّ عنها منها شيءٌ، كما ينبئ عنه قولُهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وعلى التقدير الثاني أنها تشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحةً تشاهدها على صورٍ أحسن مما كانت تدركها في الدنيا؛ لأن الطاعات لا تخلو فيها عن نوعِ مشقَّةٍ، وإن كانت سيئةً تشاهدها على خلافِ ما كانت عندها في الدنيا؛ لأنها[٣] كانت مزيَّنةً لها موافقةً لهواها.

وتنكيرُ النفس المفيدُ لثبوت العلم لفردٍ من النفوس أو لبعضٍ منها؛ للإيذان بأنَّ ثبوته لجميع أفرادها قاطبةً من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحومُ حوله شائبةٌ قطعاً، يعرفه كلُّ أحدٍ ولو جيء بعبارةٍ تدل على خلافه، وللرمز إلى أنَّ تلك النفوس العالمةَ بما ذكر مع توفُّر أفرادها وتكثُّر أعدادها مما يُستقلُّ بالنسبة إلى جناب

(١) روي عنه أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة، فتوضع في الميزان. تفسير أبي السعود ٩/ ١١٧، والكلام منه.
(٢) سلف ١٦/ ٨٩.
(٣) قوله: لأنها، ساقط من (م).

الكبرياء والعظمة الذي أشيرَ إلى بعض بدائع شؤونه المُنْبِئةِ عن عظم سلطانه عز وجل.

وفي «الكشاف»[١] أنَّ هذا من عَكْسِ كلامهم الذي يقصدون فيه الإفراط فيما يُعْكَس عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] ومعناه: كم وأَبْلَغُ[٢]، وقولُ القائل:

قد أتركُ القِرْنَ[٣] مصفرًّا أناملُه كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفرصاد[٤]

وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رُبَّ فارسٍ عندي، أو: لا تعدمُ عندي فارساً. وعنده المَقَانِبُ[٥]، وقَصْدُه بذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنه أراد إظهار براءته من التزيُّد، وأنه ممن يقلِّلُ كثيرَ ما عندَه فضلاً أن يتزيَّد، فجاء بلفظ التقليل ففُهِمَ منه معنى الكثرة على الصحة واليقين.

وبيَّن في «الكشف» أنه يفيد ذلك مع ما في خصوص كلِّ موقعٍ من فائدةٍ خاصةٍ، وذكر أنَّ من الفوائد هاهنا تهويلَ اليوم بتقليل الأنفس العالمة وإن كنَّ جميعها، وإظهارَ أنه كلامٌ من غاية العظمة والكبرياء، وأنَّ مَن يغيِّر هذه الأجرام العظام ويبدلها صفاتٍ وذواتٍ تُستَقلُّ الأنفسُ الإنسانية في جنب قدرته سبحانه أيما استقلال.

وتعقَّب ذلك أبو السعود[٦] بما لا يخلو عن نظر كما لا يخفى على ذي نظرٍ

---

(١) ٤/ ٢٢٣.

(٢) في الكشاف: ومعناه معنى «كم» وأبلغ منه.

(٣) في الأصل و(م): القرم، والمثبت من الكشاف والمصادر على ما يأتي.

(٤) البيت لعبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص٦٤، والكتاب ٤/ ٢٢٤، والمقتضب ١/ ٤٣، والخزانة ١١/ ٢٥٣. وذكر الزمخشري صدره ولم يذكر العجز. قال البغدادي: القِرن بكسر القاف: المِثْل في الشجاعة، والمعنى: أقتله فينزف دمه فتصفرُّ أنامله، خصَّ الأنامل لأن الصفرة إليها أسرع، وفيها أظهر. ومجَّت: دَمِيَتْ، والمراد: صُبغت. والفِرْصاد: التوت، شبَّه الدم بحمرة عصارته.

(٥) المقانب: الذئاب الضارية. القاموس (قنب).

(٦) في تفسيره ٩/ ١١٧، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

جليلٍ فضلاً عن ذي نظرٍ دقيقٍ، وجوَّز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا عَلِمتْ حينئذٍ نفسٌ من النفوس ما أحضرت، وَجَبَ على كلِّ نفسٍ إصلاحُ عملها مخافةَ أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت، فكيف وكلُّ نفسٍ تعلمه، على طريقةِ قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم [على] ما فعلتَ، وربما ندم الإنسان على ما فعل. فإنك لا تقصد بذلك أنَّ ندمه مرجوُّ الوجود لا متيقنٌ به أو نادرُ الوقوع[1]، بل تريد أنَّ العاقل يجب عليه أن يجتنب أمراً يُرجى منه الندمُ أو قلَّما يقع فيه، فكيف إذا كان قطعيَّ الوجود كثيرَ الوقوع.

واشتهر أنَّ النكرة هنا في معنى العموم، وهي قد تعمُّ في الإثبات إذا اقتضى المقام أو نحوُه ذلك، ومنه قولُ ابن عمر لبعض أهل الشام وقد سأله عن المُحْرِمِ إذا قتل جرادةً: أيتصدَّقُ بتمرةٍ فديةً لها؟: تمرةٌ خيرٌ من جرادةٍ[2]. قيل: ولهذا العموم ساغ الابتداءُ بالنكرة فيه، وقولُ بعضٍ: إنه لا عمومَ فيها، بل العمومُ جاء من تساوي نسبة الجزء إلى أفراد الجنس، قيل: مبنيٌّ على ظنِّ منافاة العموم للوحدة والإفراد، وأنت تعلم أنَّ ذلك إنما ينافي العمومَ الشموليَّ دون البدليِّ.

وقالُ بعضٍ: لا يبعُدُ أن يقال: استُفيدَ العمومُ بجعلها في حيِّز النفي معنًى؛ لأن «علمت نفسٌ» في معنى: لم تَجْهَلْ نفسٌ، لأن الحكم بالشيء يستلزم نفيَ ضدِّه. ليس بشيء وإلا لعمَّت كلُّ نكرةٍ في الإثبات بنحو هذا التأويل.

وعن عبد الله بن مسعود أنَّ قارئاً قرأ هذه السورة عنده، فلما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قال: واانقطاعَ ظهرياه[3].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ جمعُ خانس، من الخنوس: وهو الانقباضُ والاستخفاء.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية، من الجري: وهو المَرُّ السريع، وأصله لمرِّ الماء ولِمَا يجري بجَرْيه.

---

(١) في الأصل و(م): الوجود، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٢٧) من سورة لقمان.
(٣) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٩، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢٣.

﴿ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ جمع كانسٍ وكانسةٍ، من كَنَسَ الوحشُ: إذا دخل كِناسه، وهو بيتُه الذي يتَّخده من أغصان الشجر. والمراد بها على ما أخرج الفريابيُّ وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: الكواكب[1]. أي: جميعها، فقيل: لأنها تَخْنسُ بالنهار فتغيبُ عن العيون، وتَكْنِسُ بالليل أي: تَطْلُعُ في أماكنها كالوحش في كُنُسها. وفي تفسير تَكْنِسُ بتَطْلُع خفاءٌ.

وقيل: لأنها تَخْنسُ نهاراً وتَخْفَى عن العيون مع طلوعها وكونِها فوق الأفق، وتَكْنِسُ بعد طلوعها في المغيب وتدخل فيه كما تَكْنِسُ الظباء في الكُنُس، فتكون تحت الأفق بعد أن كانت فوقه.

وروي تفسيرها بالكواكب عن الحسن وقتادةَ أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه أنه قال: هي خمسةُ أنجمٍ: زُحَلُ وعُطَاردٌ والمشتري وبهْرام ـ يعني المريخ ـ والزُّهَرة[2]، والخنَّس: الرَّواجع، من خَنَس: إذا تأخَّر، ووُصفت بما ذُكر في الآية لأنها تجري مع الشمس والقمر، وترجعُ حتى تَخْفَى تحت ضوء الشمس، فخنوسُها رجوعُها بحسب الرؤية، وكنوسُها اختفاؤها تحت ضوئها، وتسمَّى المتحيِّرة؛ لاختلافِ أحوالها في سيرها فيما يشاهَدُ، فلها استقامةٌ ورجعةٌ وإقامة، فبينما تراها تجري إلى جهة، إذا بها راجعة تجري إلى خلاف تلك الجهة، وبينما تراها تجري إذا بها مقيمة لا تجري. وسببُ ذلك على ما قال المتقدِّمون من أهل الهيئة: كونُها في تداوير في حوامل مختلفةِ الحركات على ما بيِّن في موضعه، وللمُحْدَثين منهم النافينَ لِمَا ذكر غيرُ ذلك مما هو مذكورٌ في كتبهم.

وهي مع الشمس والقمر يقال لها: السيارات السبع؛ لأنَّ سيرها بالحركة الخاصة مما لا يكاد يَخْفَى على أحدٍ، بخلافِ غيرها من الثوابت، وأخرج الخطيب

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، وهو في المستدرك ٢/ ٥١٦، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ١٥٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠. وجاء في هامش الأصل: عطارد بضم العين، والزهرة بفتح الهاء، وبهرام بكسر الباء، وفي لغة العجم بفتحها. منه.

في كتاب «النجوم» وابن مردويه عن ابن عباس أنها المرادة هنا[١]، ووصفُها بالخنَّس بمعنى الرواجع، قيل: من باب التغليب؛ إذ لا رجعةَ للشمس ولا للقمر، وبالكنَّس[٢] لاختفائها في مغيبها.

وقيل: الوصفان باعتبار أنها تغيب عن العيون وتطلعُ في أماكنها على نحو ما تقدَّم، على تقدير أنْ يكون المراد بها الكواكبَ جميعَها.

وكونُ السيارات هي هذه السبع هو المعروفُ عند المتقدِّمين من المنجِّمين، وأمَّا اليوم فقد ضمُّوا إليها كواكبَ أُخَرَ يقال لها: وستا، وزونو، وبالاس، وسرس، وأورنوس ويسمَّى هرشل، وهو اسمُ المنجِّم الذي ظفر به بالرصد. وبيَّنوا مقدار أقطارها وأبعادَها وحركاتها ولولا مخافةُ التطويل لذكرتُ ذلك، وعدُّوا من جملة السيارات الأرضَ، بناءً على زَعْمِهم أنَّ لها حركةً حول الشمس، واشتهر أنهم لم يعدُّوا القمر منها لكونه من توابع الأرض بزَعْمِهم.

وأخرج الحاكم وصححه وجماعةٌ من طرقٍ عن ابن مسعود أنها بقرُ الوحش[٣]. وأخرج نحوه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[٤]، وعبد بنُ حميد عن مجاهد وأبي ميسرة والحسن[٥]، وحكاه في «البحر» عن النخعي وجابر بن زيد وجماعةٍ[٦].

وأخرج ابن جرير عن الحبر أنها الظباء. ورَوَى ذلك أيضاً عن ابن جبير والضحاك[٧].

---

(١) يعني السيارات السبع، والخبر في الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في (م): وبالخنس، وهو تصحيف.

(٣) المستدرك ٢/ ٥١٦، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٥١، والطبري ٢٤/ ١٥٤-١٥٥.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، وأخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٢٠.

(٦) البحر ٧/ ٤٣٤، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٥٥-١٥٧ عن جابر بن زيد والنخعي ومجاهد.

(٧) تفسير الطبري ٢٤/ ١٥٧.

قالوا: والخَنَسُ تأخُّر الأنف عن الشفة مع ارتفاعٍ قليل من الأرنبة، وتوصفُ به بقر الوحش والظباء، ومنه قول بعض المولَّدين:

مـا سَلِمَ الـظَّـبْـيُ عـلـى حُـسْـنِـه كـلَّا ولا الـبـدرُ الـذي يـوصَـفُ
فـالـظَّـبْـيُ فـيـه خـنـسٌ بـيِّـنٌ والـبـدرُ فـيـه كَـلَـفٌ يُـعْـرَفُ[1]

﴿وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ أي: أدبر ظلامُه، أو أقبل، وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره، وهو من الأضداد عند المبرِّد. وقال الراغب: العسعسة والعِسَاس: رقَّةُ الظلام، وذلك في طرفي الليل[2]. فهو من المشترك المعنويِّ عنده وليس من الأضداد. وفسَّر «عسعس» هنا بأقبل وأدبر معاً، وقال: ذلك في مبدأ الليل ومنتهاه[3].

وقال الفرَّاء: أجمع المفسِّرون على أنَّ معنى «عسعس»: أدبر[4]، وعليه العجَّاجُ يصف الخمر أو المفازة:

حـتـى إذا الـصـبـحُ لـهـا تـنـفَّـسـا وانـجـابَ عـنـهـا لـيـلُـهـا وعَـسْـعَـسـا[5]

وقيل: هي لغة قريشٍ خاصةً.

وقيل: كونُه بمعنى أقبل ظلامُه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ فإنه أولُ النهار فيناسبُ أولَ الليل.

وقيل: كونه بمعنى أدبر أنسبُ بهذا؛ لِمَا بين إدبار الليل وتنفُّس الصبح من الملاصقة، فيكون بينهما مناسبةُ الجِوارِ.

---

(١) أنشدتهما جارية للرشيد حين رفض أن يشتريها بسبب كَلَفٍ في وجهها وخنسٍ في أنفها، فأعجبتْه بلاغتها فاشتراها، وكانت أحظى جواريه عنده. الأذكياء لابن الجوزي ص٢٥٤.

(٢) مفردات الراغب (عسعس).

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٢.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٢٤، والأول منهما في ديوان العجاج ص١٦٢، ونُسب الرجز أيضاً لعلقمة بن قرط، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٨، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٦٢، والأضداد لابن الأنباري ص٣٣، والأزمنة والأمكنة ١/ ٣٢٥.

والمراد من تنفُّس الصبح ـ على ما ذَكر غير واحد ـ إضاءتُه وتبلُّجُه، وفي «الكشاف» أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله رَوْحٌ ونسيمٌ، فجُعل ذلك نفساً له على المجاز وقيل: تنفَّس الصبحُ[1]. وعنى بالمجاز الاستعارةَ؛ لأنه لمَّا كان النَّفَس ريحاً خاصًّا يفرج عن القلب انبساطاً وانقباضاً شبِّه ذلك النسيمُ بالنَّفَس، وأُطلق عليه الاسمُ استعارةً، وجُعل الصبح متنفِّساً لمقارنته له، ففي الكلام استعارةٌ مصرَّحةٌ وتجوُّزٌ في الإسناد، وظاهرُ كلام بعضهم أنه بعد الاستعارة يكون ذلك كنايةً عن الإضاءة.

وجوِّز أن يكون هناك مكنية وتخييليةٌ بأنْ يشبَّه الصبح بماشٍ وآتٍ من مسافةٍ بعيدة، ويُثْبَتَ له التنفُّسُ المرادُ به هبوبُ نسيمه مجازاً على طريق التخييل، كما في: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧].

وقال الإمام: النهار بغشيان الليل المظلم كالمكروب، وكما أنه يجد راحةً بالتنفُّس، كذلك تخلُّص الصبح من الظلام وطلوعُه كأنه تخلَّص من كربٍ إلى راحةٍ[2]. وهذا أدقُّ مما في «الكشاف» كما لا يخفى.

وجوِّز أن يقال: إنَّ الليل لمَّا غشيَ النهار ودفع به إلى تحت الأرض فكأنه أماته ودفنه، فجعل ظهورُ ضوئه كالتنفس الدالِّ على الحياة، وهو نحوٌ مما نُقل عن الإمام.

وقيل: «تنفس» أي: توسَّع وامتدَّ حتى صار نهاراً.

والظاهرُ أنَّ التنفس في الآية إشارةٌ إلى الفجر الثاني الصادق، وهو المنتشرُ ضوءُه معترِضاً بالأفق، بخلافِ الأول الكاذب وهو ما يبدو مستطيلاً وأعلاه أضوأُ من باقيه، ثم يُعْدَمُ وتَعقبُه ظلمةٌ، أو يتناقصُ حتى ينغمر في الثاني على زعم بعض أهل الهيئة، أو يختلف حاله في ذلك تارةً وتارةً بحَسَب الأزمنة والعُروض على ما قيل.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٤.

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ٧٢، وعبارته: شبّه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك، واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفَّس وجد راحةً، فهاهنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن، فعبَّر عنه بالتنفُّس.

وسمِّي هذا الكاذبُ عارضاً؛ ففي خبر مسلمٍ: «لا يغرَّنَّكم أذانُ بلالٍ، ولا هذا العارضُ (لعمود الصبح) حتى يستطير»[1] أي: ينتشر ذلك العمود[2] في نواحي الأفق.

وكلام بعض الأجلة يُشْعِرُ بأنه فيها إشارةٌ إلى الكاذب، حيث قال: يؤخذ من تسمية الفجر الأول عارضاً للثاني أنه يَعْرِضُ للشعاع الناشئ عنه الفجرُ الثاني انحباسٌ قُرْبَ ظهوره، كما يُشْعِرُ به التنفُّس في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ فعند ذلك الانحباسِ يتنفَّس منه شيءٌ من شبه كوَّةٍ، والمشاهد في المنحبس إذا خرج بعضه دفعةً أن يكون أوَّلُه أكثر من آخره، ويعلم من ذلك سببُ طول العمود وإضاءة أعلاه. إلى آخر ما قال، وفيه بحثٌ.

ثم الظاهر أنَّ تنفُّس الصبح وضياءه بواسطة قرب الشمس إلى الأفق الشرقي بمقدارٍ معيَّنٍ، وهو في المشهور ثمانيةَ عَشَرَ جزءاً، وقولُ الإمام: إنه يلزم على ذلك بناءً على كرية الأرض واستضاءةِ أكثر من نصفها من الشمس دائماً ظهورُ الضياء وتنفُّس الصبح إذا فارقت الشمس سَمْتَ القدم من دائرة نصف النهار، وذلك بُعَيْدَ نصف الليل، والواقعُ خلافُه = تشكيكٌ فيما يَقْرُبُ أن يكون بديهيًّا، وفيه غفلةٌ عن أحوال ظلِّ الأرض وانعكاسِ الأشعة من أبصار سَكَنةِ أقطارها، فتأمَّل ولا تغفل.

والواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ على ما نُقل عن ابن جنِّي للعطف، و«إذا» ليس معمولاً لفعل القسم؛ لفسادِ المعنى، إذ التقييدُ بالزمان غيرُ مرادٍ حالاً كان أو استقبالاً، وإنما هو على ما اختاره غيرُ واحدٍ معمولُ مضافٍ مقدَّرٍ من نحوِ العظمة؛ لأن الإقسام بالشيء إعظامٌ له، كأنه قيل: ولا أقسم بعظمة الليل زمانَ

---

(١) صحيح مسلم (١٠٩٤) من حديث سمرة بن جندب ﷺ، وفيه: البياض، بدل: العارض، وذكره بلفظ المصنف النووي في المجموع ٦/ ٣٤٢. ولم يَرِد في شروح مسلم إشارةٌ لهذا اللفظ. ينظر إكمال المعلم ٤/ ٣١، والمفهم ٣/ ١٥٤، وشرح النووي لصحيح مسلم ٧/ ٢٠٥، والديباج للسيوطي ٣/ ١٩٥.

(٢) في الأصل و(م): العموم، والمثبت هو الصواب، وينظر ما سلف ٨/ ٣١٨ وما بعدها.

عسعس، وبعظمة النهار زمانَ تنفَّسَ، على نحو قولهم: عجباً من الليث إذا سطا، فإنه ليس المعنى على تقييد التعجُّب من هَوْلِه وعظمته في ذلك الزمان.

وقال عصام الدين: ينبغي أن يُجعل تقييداً للمقْسَم به، أي: أقسم بالليل كائناً إذا عسعس، والحالُ مقدَّرةٌ، أي: مقدَّراً كونه في ذلك الوقت. وصرَّح العلَّامة التفتازاني في «التلويح» في مثله أنَّ «إذا» بدلٌ من الليل؛ إذ ليس المراد تعليقَ القسم وتقييده بذلك الوقت، ولهذا منع المحققون كونه حالاً من الليل؛ لأنه أيضاً يفيدُ تقييد القسم بذلك الوقت، وسيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الشمس ما يتعلَّق بهذا المقام أيضاً.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الجليل الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة، وجَعْلُ الضمير للإخبار عن الحشر والنشر تعسُّفٌ.

﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ هو كما قال ابن عباس وقتادة والجمهور: جبريل عليه السلام، ونسبتُه إليه عليه السلام لأنه واسطةٌ فيه، وناقلٌ له عن مُرْسِلِه وهو الله عز وجل.

﴿كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: عزيزٍ على الله سبحانه وتعالى. وقيل: متعطِّفٍ على المؤمنين.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أي: شديد كما قال سبحانه: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وجاء في قوته أنه عليه السلام بُعث إلى مدائن لوط وهي أربعُ مدائن وفي كلِّ مدينةٍ أربعُ مئة ألف مقاتلٍ سوى الذراري، فحملها بمن فيها من الأرض السفلى حتى سمع أهلُ السماء أصواتَ الدجاج ونباحَ الكلاب، ثم هوى بها فأهلكها.

وقيل: المراد القوةُ في أداء طاعة الله تعالى وتركِ الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف.

وقيل: لا يبعد أن يكون المراد قوةَ الحفظ والبعد عن النسيان والخلط.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ذي مكانةٍ رفيعةٍ وشرفٍ عند الله العظيم جلَّ جلاله، عِنْديَّةَ إكرامٍ وتشريفٍ لا عِنْدية مكانٍ، فالظرفُ متعلِّقٌ بـ «مكين» وهو فعيلٌ

من المكانة، وقد كثر استعمالُها كما في «الصحاح» حتى ظُنَّ أن الميم من أصل الكلمة واشتُقَّ منه: تمكَّن، كما اشتقَّ من المسكنة: تَمسْكَنَ[١].

وجوِّز أن يكون مصدراً ميميًّا من الكون، وأصله مَكْوِن بكسر الواو، فصار بالنقل والقلب مكيناً، وأريد بالكون الوجود، كأنه من كمال الوجود صار عينَ الوجود. والأول هو الظاهر.

وقيل: إنَّ الظرف متعلقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً أخرى لـ «رسول»، أي: كائن عند ذي العرش الكينونةَ اللائقة. وهو كما ترى.

﴿مُّطَاعٍ﴾ فيما بين الملائكة المقرَّبين عليهم السلام؛ يَصْدُرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه.

﴿ثَمَّ﴾ ظرفُ مكانٍ للبعيد، وهو يحتمِلُ أن يكون ظرفاً لِمَا قبله، وجُعل إشارةً إلى «عند ذي العرش»، والمراد بكونه مطاعاً هناك كونُه مطاعاً في ملائكته تعالى المقرَّبين كما سمعت، ويحتمل أن يكون ظرفاً لما بعده، أعني قوله سبحانه: ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ والإشارة بحالها، وأمانته على الوحي. وفي رواية عنه عليه السلام أنه قال: أمانتي أنِّي لم أومر بشيء فعَدَوْتُه إلى غيره[٢]. ولأمانته أنه عليه السلام يدخل الحجُب كما في بعض الآثار بغير إذنٍ.

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو البرهسم وابن مقسم: «ثُم» بضم الثاء[٣] حرف عطف؛ تعظيماً للأمانة، وبياناً لأنها أفضلُ صفاته المعدودة. وقال صاحب «اللوامح»[٤]: هي بمعنى الواو؛ لأنَّ جبريل عليه السلام كان بالصفتين معاً في حالٍ

(١) الصحاح (كون).
(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٠/ ٣٢٥-٣٢٦ من طريق المسيب بن شريك، عن يزيد بن أبي زياد، عن معاوية بن قرة، عن النبي ﷺ. وهو مرسل، كما أن يزيد بن أبي زياد ضعيف كما في التقريب، والمسيب بن شريك قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال أحمد: ترك الناس حديثه. الميزان ٤/ ١١٤.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٣٤.
(٤) كما في البحر ٨/ ٤٣٤.

واحدةٍ، ولو ذهب ذاهبٌ إلى الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنى: مطاعٍ في الملأ الأعلى ثُم أمينٍ عند انفصاله عنهم حالَ وحيه إلى الأنبياء عليهم السلام، لجاز إن ورد به أثرٌ. انتهى، والمعوَّلُ عليه ما سمعتَ، والمقامُ يقتضي تعظيمَ الأمانة لأنَّ دفع كون القرآن افتراءً منوطٌ بأمانة الرسول.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ هو رسولُ الله ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ كما تبهتُه الكفرة قاتلهم الله تعالى. وفي التعرُّض لعنوان الصحبة مضافةً إلى ضميرهم على ما هو الحقُّ تكذيبٌ لهم بألطف وجهٍ؛ إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرفُ به وبأنه ﷺ أتمُّ الخلق عقلاً وأرجحُهم قِيلاً وأكملُهم وصفاً وأصفاهم ذهناً، فلا يُسْنِدُ إليه الجنونَ إلا مَن هو مركَّبٌ من الحمق والجنون.

واستدلَّ الزمخشريُّ بالمبالغة في ذكر جبريل عليه السلام وتَرْكِها في شأن النبيِّ ﷺ على أفضليته عليه السلام على النبيِّ ﷺ[1]. وأجابوا بما بُحث فيه.

والوجه في الجواب ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ الكلام مسوقٌ لحقِّية المنزَلِ دلالةً على صدق ما ذُكر فيه من أهوال القيامة، وقد علمتَ أنَّ من شأن البليغ أن يجرِّد الكلام لِمَا ساق له لئلا تُعدَّ الزيادة لكنةً وفضولاً، ولا خفاءَ أنَّ وصف الآتي بالقول يشدُّ من عضد ذلك أبلغَ شدٍّ، وأما وصفُ مَن أنزل عليه فلا مدخل له في البين إلا إذا كان الغرضُ الحثَّ على اتِّباعه، فلهذا لم تدلَّ المبالغة في شأن جبريل عليه السلام وعدُّ صفاته الكواملِ وتركُ ذلك في شأن نبينا عليه أفضل الصلوات والتسليمات على تفضيله بوجهٍ.

وقال بعضهم: إنَّ المبالغة في وصف جبريل عليه السلام مدحٌ بليغٌ في حقِّ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ المَلَكَ إذا أرسل لأحدٍ مَن هو معزَّزٌ معظَّمٌ مقرَّبٌ لديه دلَّ على أنَّ المرسَلَ إليه بمكانةٍ عنده ليس فوقها مكانةٌ. وقد علمتَ أنَّ المقام ليس للمبالغة في مدح المنزَل عليه.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٥.

وقيل: المراد بالرسول هو نبينا ﷺ كالمراد بالصاحب. وهو خلافُ الظاهر الذي عليه الجمهور.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: وبالله تعالى لقد رأى صاحبُكم رسولُ الله ﷺ الرسولَ الكريم جبريلَ عليه السلام على كرسيٍّ بين السماء والأرض بالصورة التي خلقه الله تعالى عليها له ستُّ مئة جناح.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ وهو الأفقُ الأعلى من ناحية المشرق كما روي عن الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان. وفي روايةٍ عن مجاهد أنه ﷺ رآه عليه السلام نحو جياد، وهو مشرقُ مكة. وقيل: إنَّ المراد به مطلعُ رأس السرطان، فإنه أعلى المطالع لأهل مكة. وهذه الرؤية كانت فيها بعد أمر غار حراء.

وحكى ابن شجرة[1] أنه أفقُ السماء الغربي، وليس بشيءٍ.

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في الآية: رآه في صورته عند سدرة المنتهى[2]. والأفق على هذا قيل: بمعنى الناحية. وقيل: سمِّي ذلك أفقاً مجازاً.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: رسولُ الله ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على ما يخبر به من الوحي إليه وغيرِه من الغيوب ﴿بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ من الضّنِّ بكسر الضاد وفتحها بمعنى البخل، أي: ببخيل، لا يبخلُ بالوحي، ولا يقصِّر في التبليغ والتعليم ومَنْحِ كلٍّ ما هو مستعدٌّ له من العلوم، على خلاف الكهنة فإنهم لا يُطْلِعون على ما يزعمون معرفته إلا بإعطاءِ حلوانٍ.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروةُ وهشام بن جندب ومجاهدٌ وغيرهم، ومن السبعة النحويَّان وابنُ كثير: «بظنين» بالظاء، أي: بمتَّهم[3]، من الظِّنة بالكسر بمعنى التُّهمة، وهو نظير الوصف السابق بـ «أمين».

---

(١) كما في النكت والعيون ٦/ ٢١٨، والبحر ٨/ ٤٣٥.

(٢) المعجم الكبير (١٢٥٦٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٢١.

(٣) البحر ٨/ ٤٣٥، وقراءة النحويين (وهما أبو عمرو والكسائي) وابن كثير في التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨-٣٩٩.

وقيل: معناه: بضعيفِ القوة على تبليغ الوحي، من قولهم: بئرٌ ظَنُونٌ، إذا كانت قليلةَ الماء.

والأول أشهر، ورجِّحت هذه القراءة عليه بأنها أنسبُ بالمقام؛ لاتِّهام الكفرة له ﷺ، ونفيُ التهمة أولى من نفي البخل، وبأنَّ التهمة تتعدَّى بعلى، دون البخل فإنه لا يتعدَّى بها إلا باعتبار تضمينه معنى الحرص ونحوِه، لكن قال الطبري: بالضاد خطوطُ المصاحف كلِّها[١]. ولعله أراد المصاحفَ المتداوَلَة؛ فإنهم قالوا: بالظاء خطُّ مصحف ابن مسعود. ثم إنَّ هذا لا ينافي قول أبي عبيدة: إنَّ الظاء والضاد في الخطِّ القديم لا يختلفان إلا بزيادةِ رأس إحداهما على الأخرى زيادةً يسيرةً قد تَشْتَبِه، كما لا يخفى.

والفرقُ بين الضاد والظاء مخرجاً أنَّ الضاد مخرجُها من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يسارِه، ومنهم مَن يتمكَّن من إخراجها منهما، والظاء مخرجُها من طرف اللسان وأصولِ الثنايا العليا.

واختلفوا في إبدال إحداهما بالأخرى: هل يمتنع وتَفْسُدُ به الصلاة أم لا؟

فقيل: تفسد قياساً، ونقله في «المحيط البرهاني»[٢] عن عامة المشايخ، ونقله في «الخلاصة» عن أبي حنيفة ومحمد.

وقيل: لا، استحساناً، ونقله فيها عن عامة المشايخ كأبي مطيع البلخيِّ ومحمد بن سلمة.

وقال جمع: إنه إذا أمكن الفرق بينهما فتعمَّد ذلك وكان مما لم يُقرأ به كما هنا وغيَّر المعنى فسدتْ صلاتُه، وإلَّا فلا؛ لعُسْرِ التمييز بينهما خصوصاً على العجم، وقد أسلم كثيرٌ منهم في الصدر الأول ولم يُنقل حثُّهم على الفَرْق وتعليمِه من الصحابة، ولو كان لازماً لفعلوه ونُقل، وهذا هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه ويفتَى به.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١٧٠.

(٢) المحيط البرهاني في الفقه النعماني، لبرهان الدين محمود بن تاج الدين أحمد البخاري الحنفي المتوفى سنة (٦١٦هـ). كشف الظنون ٢/ ١٦١٩.

وقد جمع بعضُهم الألفاظ التي لا يختلف معناها ضاداً وظاءً في رسالةٍ صغيرة، ولقد أَحْسنَ بذلك، فليُراجَعْ فإنه مهمٌّ.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: بقول بعض المسترِقَةِ للسمع لأنها هي التي تُرْجَم، وهو نفيٌ لقولهم: إنه كهانة.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ استضلالٌ لهم فيما يسلكونه في أمر القرآن العظيم، كقولك لتارك الجادة الذاهب في بنيات الطريق: أين تذهب؟ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهورِ أنه وحيٌ.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ موعظةٌ وتذكيرٌ عظيمٌ لمن يعلم، وضمير «هو» للقرآن أيضاً.

وجوِّز كونُ الضميرين للرسول عليه الصلاة والسلام، أي: وما هو ملتبسٌ بقول شيطانٍ رجيم كما هو شأنُ الكهنة، إنْ هو إلا مذكِّرٌ للعالَمين، وقوله تعالى: (فَأَيْنَ) إلخ استضلالٌ لهم فيما يسلكونه في أمره ﷺ. وهو كما ترى.

وقوله سبحانه ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بدلٌ من «العالمين» بدلَ بعضٍ من كلٍّ، والبدلُ هو المجرورُ، وأُعيد معه العاملُ على المشهور، وقيل: هو الجارُّ والمجرور. وجوِّز أن يكون بدلَ كلٍّ من كلٍّ؛ لإلحاق مَن لم يشأ بالبهائم ادِّعاءً، وهو تكلُّفٌ. وقوله تعالى: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ مفعول «شاء» أي: لمن شاء منكم الاستقامة بتحرِّي الحقِّ وملازمةِ الصواب. وإبدالُه من «العالمين» لأنهم المنتفعون بالتذكير.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أي: الاستقامةَ بسببٍ من الأسباب ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلَّا بأنْ يشاء الله تعالى مشيئتكم، فمشيئتُكم بسببِ مشيئة الله تعالى. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ملك الخَلْقِ ومربِّيهم أجمعين. أو: ما تشاؤون الاستقامة مشيئةً نافعةً مستتبعةً لها إلا بأنْ يشاءها الله تعالى، فله سبحانه الفضلُ والحقُّ عليكم باستقامتكم إن استقمتُم. روي عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة أنه لمَّا نزلت ﴿لِمَن شَاءَ

﴿مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال أبو جهل: جُعِلَ الأمرُ إلينا إن شئنا استقَمْنا وإن شئنا لم نَسْتَقِمْ. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الآية(١).

و«أن» وما معها هنا على ما ذكرنا في موضع خفضٍ بإضمار باء السببية، وجوِّز أن تكون للمصاحَبة.

وذهب غير واحدٍ إلى أنَّ الاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأوقات، أي: وما تشاؤون الاستقامةَ في وقتٍ من الأوقات إلا وقتَ أنْ يشاء الله تعالى شأنُه استقامتَكم، وهو مبنيٌّ على ما نقل عن الكوفيين من جواز نيابة المصدر المؤوَّل من «أن» والفعل عن الظرف. وفي الباب الثامن من «المغني» أنَّ «أنْ» وصِلَتَها لا يعطَيان حُكْمَ المصدر في النيابة عن ظرف الزمان؛ تقول: جئتك صلاةَ العصر، ولا يجوز: جئتك أنْ تصلِّيَ العصر(٢). فالأَوْلَى ما ذكرنا أولاً، وإليه ذهب مكِّي(٣).

وذهب القاضي إلى الثاني(٤)، وقد اعتُرِضَ عليه أيضاً بأنَّ «ما» لنفي الحال، و«أنْ» خاصةٌ للاستقبال، فيلزم أن يكون وقتُ مشيئته تعالى المستقبلُ ظرفاً لمشيئة العبد الحالية.

وأجيبَ بأنَّا لا نسلِّم أنَّ «ما» مختصَّةٌ بنفي الحال، ومَن ادَّعى اختصاصَها بذلك اشْتَرَطَ انتفاءَ القرينة على خلافه، ولم تَنْتَفِ هاهنا لمكان «أن» في حيِّزها، أو بأنَّ كون «أنْ» للاستقبال مشروطٌ بانتفاء قرينةِ خلافه، وهاهنا قد وُجدت؛ لمكانِ ما قبلها، فهي لمجرَّد المصدرية.

وقيل: يندفع الاعتراضُ بجعل الاستثناء منقطعاً، فليُجْعَلْ كذلك وإنْ كان الأصل فيه الاتصالَ. وليس بشيءٍ.

---

(١) أخرجه عن سليمان بن موسى الطبري ٢٤/ ١٧٢-١٧٣، وعن القاسم بن مخيمرة عبد الرزاق ٢/ ٣٥٣.

(٢) مغني اللبيب ص٨٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٣١.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٠٣، والكلام من حاشية الشهاب.

(٤) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٣١.

وقد أُوْرِدَ على وجه السببية الذي ذكرناه نحوُ ذلك، وهو أنه يلزم من كون «ما» لنفي الحال و«أن» للاستقبال سببيةُ المتأخِّر للمتقدِّم، ومما ذكر يعلم الجوابُ كما لا يخفى، فتأمَّل جميع ذلك والله تعالى الهادي لأوضح المسالك.

❁ ❁ ❁

وقال بعض أهل التأويل: الشمسُ شمسُ الروح، والنجومُ نجومُ الحواسِّ، والجبالُ جبالُ القوالب، وهي تسير كلَّ وقتٍ إلا أنه يظهر ذلك للمحجوب إذا كُشف له الغطاء.

والعشارُ عشارُ القوى القالبية، والوحوشُ وحوشُ الأخلاق الذميمة النفسانية، والبحارُ بحارُ العناصر الطبيعية، والنفوسُ القوى النفسانية، وتزويجُها قَرْنُ كلِّ قوةٍ بعملها، والموءودةُ الخواطر الإلهامية التي تَرِدُ على السالك فيئدُها في قبر القالب ويظلمها، والصحفُ على ظاهرها، والسماء سماءُ الصدر، والجحيم جحيمُ النَّفْس، وتسعيرُها بنيران الهوى، والجنةُ جنة القلب.

والخنَّس الأنوار المودَعةُ في القوى القلبية، والليلُ الأنوار الجلالية، والصبحُ الأنوار الجمالية.

إلى آخر ما قال، ويستدلُّ بحال البعض على البعض.

وقد حَكَى أبو حيان شيئاً من نحو ذلك، وعقَّبه بتشنيعٍ فظيعٍ(١)، وهو لا يتم إلا إذا أُنكِرَ إرادةُ الظاهر، وأمَّا إذا لم تُنْكَر وجُعل ما ذكر ونحوُه من باب الإشارة فلا يتمُّ أمرُ التشنيع كما حقِّق ذلك في موضعه.

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٢.

(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

● **سورة** الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار يوم البعث والنشور .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون ، من انفطار السماء ، وانتشار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إذا السماءُ انْفَطَرتْ . وإذَا الكواكِبُ انْتَثَرتْ . وإذا البِحَارُ فُجِّرتْ . وإذا القبورُ بُعْثِرتْ . علمتْ نفسٌ ما قَدَّمت وأخرت﴾ .

● **ثم تحدثت** عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسوَّاك فعدلك . في أي صورةٍ ما شاء ركبك﴾ .

● **ثم بينت** السورة علة هذا الجحود والإنكار ، وهو التكذيب بيوم الحساب ، مع أن الله تعالى وكَّل بكل إنسان ملائكةً يسجلون عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله ﴿كلاَّ بل تكذبون بالدين . وإن عليكم

لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون﴾

● **وذكرت** السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبينت مآلَ كلٍّ من الفريقين ﴿إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة ، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمر يومئذٍ لله﴾ .

سورة انفطرت

[١٠٠٦] أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾[1] الآية. قال نزلت في أبي بن خلف.

* * *

[١٠٠٦] (١) سورة الإنفطار: الآية (٦).

سورة الانفطار

تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

اعلم أن المراد أنه إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، فهناك يحصل الحشر والنشر، وفي تفسير هذه الآيات مقامات: **الأول:** في تفسير كل واحد من هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة وهي ههنا أربعة، اثنان منها تتعلق بالعلويات، واثنان آخران تتعلق بالسفليات: **الأول:** قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي انشقت، وهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] و﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] قال الخليل: ولم يأت هذا على الفعل، بل هو كقولهم: مرضع وحائض، ولو كان على الفعل لكان منفطرة، كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أما الثاني: وهو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ فالمعنى ظاهر لأن عند انتقاض تركيب السماء لا بد من انتثار الكواكب على الأرض.

واعلم أنا ذكرنا في بعض السورة المتقدمة أن الفلاسفة ينكرون إمكان الخرق والالتئام على الأفلاك، ودليلنا على إمكان ذلك أن الأجسام متماثلة في كونها أجسامًا، فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر، إنما قلنا: (إنها متماثلة) لأنه يصح تقسيمها إلى السماوية والأرضية، ومورد التقسيم مشترك بين القسمين، فالعلويات والسفليات مشتركة في أنها أجسام، وإنما قلنا: (إنه متى كان كذلك وجب أن يصح على العلويات ما يصح على السفليات) لأن المتماثلات حكمها واحد، فمتى يصح حكم على واحد منها وجب أن يصح على الباقي.

وأما الاثنان السفليان: **فاحدهما:** قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وفيه وجوه: **أحدهما:** أنه ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخًا، وحينئذٍ يصير الكل بحرًا واحدًا، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها. **وثانيها:** أن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها. **وثالثها:** قال الحسن: فجرت أي يبست.

واعلم أن على الوجوه الثلاثة، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها، وهو كما ذكر أنه تغير الأرض عن صفتها في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [ابراهيم: ٤٨] وتغير

الجبال عن صفتها في قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦] ورابعها: قرأ بعضهم: (فُجِرَتْ) بالتخفيف، وقرأ مجاهد: (فَجَرتْ) على البناء للفاعل والتخفيف، بمعنى بغت لزوال البرزخ نظرًا إلى قوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] لأن البغي والفجور أخوان.

وأما الثاني: فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فاعلم أن بعثر وبحثر بمعنى واحد، ومركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما، والمعنى أثيرت وقُلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها، ثم ههنا وجهان: أحدهما: أن القبور تُبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] والثاني: أنها تُبعثر لإخراج ما في بطنها من الذهب والفضة، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تُخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها، ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى، والأول أقرب لأن دلالة القبور على الأول أتم.

المقام الثاني: في فائدة هذا الترتيب: واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف، والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار، فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض، وهو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ثم إنه تعالى يخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهرًا لبطن، وبطنًا لظهر.

المقام الثالث: في تفسير قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وفيه احتمالان: الأول: أن المراد بهذه الأمور ذكر يوم القيامة، ثم فيه وجوه: أحدها: وهو الأصح أن المقصود منه الزجر عن المعصية والترغيب في الطاعة، أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم، فلم يقصر فيه وما أخر فقصر فيه؛ لأن قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ يقتضي فعلاً وما (أخَّرت) يقتضي تركًا، فهذا الكلام يقتضي فعلاً وتركًا وتقصيرًا وتوفيرًا، فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار، وإن كان قدم العمل الصالح وأخر الكبائر فمأواه الجنة. وثانيها: ما قدمت من عمل أدخله في الوجود وماأخرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر. وثالثها: قال الضحاك: ما قدمت من الفرائض وما أخرت أي ما ضيعت. ورابعها: قال أبو مسلم: ما قدمت من الأعمال في أول عمرها وما أخرت في آخر عمرها، فإن قيل: وفي أي موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم؟ قلنا: أما العلم الإجمالي فيحصل في أول زمان الحشر؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر. وأما العلم التفصيلي، فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد قبل قيام القيامة بل عند ظهور أشراط الساعة وانقطاع التكاليف، وحين لا ينفع العمل بعد ذلك، كما قال: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ

كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فيكون ما عمله الإنسان إلى تلك الغاية هو أول أعماله وآخرها؛ لأنه لا عمل له بعد ذلك. وهذا القول ذكره القفال.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر، ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين: الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟ الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثًا، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة فتلك الحكمة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد، والأول باطل لأنه سبحانه متعالٍ عن الاستكمال والانتفاع، فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا، والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل - يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] إلى أن قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧] وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضًا مع من ينفي الابتداء والإعادة معًا؛ لأن الخَلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر.

فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك بربك الحكيم؟ الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيمًا؛ لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنيًا على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيرًا لا كرمًا، أما إذا كان مبنيًا على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرمًا، إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريمًا يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيمًا فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أَوْلى من ذكر الحكيم. هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم، ولنرجع إلى التفسير: أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه الكافر؛ لقوله من بعد ذلك: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩] وقال عطاء عن ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في ابن الأسد بن كلدة بن أسيد، وذلك أنه ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله تعالى، وأنزل هذه الآية.

والقول الثاني: أنه يتناول جميع العصاة. وهو الأقرب؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ.

أما قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فالمراد ما الذي خدعك وسول لك الباطل حتى تركت الواجبات وأتيت بالمحرمات؟ والمعنى ما الذي أمنك من عقابه؟ يقال: غره بفلان، إذا أمنه المحذور من جهته مع أنه غير مأمون، وهو كقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] هذا إذا حملنا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على جميع العصاة، وأما إذا حملناه على الكافر، فالمعنى ما الذي دعاك إلى الكفر والجحد بالرسل، وإنكار الحشر والنشر: **وههنا سؤالات:**

الأول: أن كونه كريمًا يقتضي أن يغتر الإنسان بكرمه بدليل المعقول والمنقول: أما المعقول فهو أن الجود إفادة ما ينبغي لا لعوض، فلما كان الحق تعالى جوادًا مطلقًا لم يكن مستعيضًا، ومتى كان كذلك استوى عنده طاعة المطيعين وعصيان المذنبين، وهذا يوجب الاغترار لأنه من البعيد أن يقدم الغني على إيلام الضعيف من غير فائدة أصلاً. وأما المنقول فما روي عن علي عليه السلام أنه دعا غلامه مرات فلم يجبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: لِمَ لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه[(١)]، وقالوا أيضًا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، ولما ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به، فكيف جعله ههنا مانعًا من الاغترار به؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أن معنى الآية أنك لما كنت ترى حلم الله على خلقه ظننت أن ذلك لأنه لا حساب ولا دار إلا هذه الدار، فما الذي دعاك إلى هذا الاغترار، وجرأك على إنكار الحشر والنشر؟ فإن ربك كريم، فهو لكرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطًا في مدة التوبة، وتأخيرًا للجزاء إلى أن يجمع الناس في الدار التي جعلها لهم للجزاء، فالحاصل أن ترك المعاجلة بالعقوبة لأجل الكرم، وذلك لا يقتضي الاغترار بأنه لا دار بعد هذه الدار. **وثانيها:** أن كرمه لما بلغ إلى حيث لا يمنع من العاصي موائد لطفه، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان أَوْلى، فإذن كونه كريمًا يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار، وترك الجراءة والاغترار. **وثالثها:** أن كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة والاستحياء من الاغترار والتواني. **ورابعها:** قال بعض الناس: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ليكون ذلك جوابًا عن ذلك السؤال حتى يقول: غرني كرمك، ولولا كرمك لما فعلت لأنك رأيت فسترت، وقدرت فأمهلت. وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ليس الكافر.

السؤال الثاني: ما الذي ذكره المفسرون في سبب هذا الاغترار؟ **قلنا: وجوه: أحدها:** قال قتادة: سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له. **وثانيها:** قال الحسن: غره حمقه وجهله. **وثالثها:** قال مقاتل: غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه في أول أمره. وقيل: للفضيل بن عياض إذا أقامك الله

---

(١) أورده صاحب الكشاف (٧/ ٢٤٧) عن علي بن أبي طالب موقوفًا، ولم أجد له إسنادًا.

يوم القيامة وقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ماذا تقول؟ قال: أقول: غرتني ستورك المرخاة.

السؤال الثالث: ما معنى قراءة سعيد بن جبير: (ما أغرك؟) قلنا: هو إما على التعجب وإما على الاستفهام، من قولك: (غر الرجل فهو غار) إذا غفل، ومن قولك: بيَّتهم العدو وهم غارون، وأغره غيره، جعله غارًا.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم: أولها: الخلق وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ ولا شك أنه كرم وجود لأن الوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، وهو الذي قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، **وثانيها:** قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي جعلك سويًا سالم الأعضاء تسمع وتبصر، ونظيره قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] قال ذو النون: سَوَّاك، أي سخَّر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخرًا لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرك بالإيمان، وشَرَّفك بالأمر والنهي وفضَّلك على كثير ممن خلق تفضيلاً. **وثالثها:** قوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قال مقاتل: يريد عَدَّل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، وهو كقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤] وتقريره ما عُرف في علم التشريح أنه سبحانه ركَّب جانبي هذه الجثة على التساوي حتى إنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم، وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائمًا معتدلاً حسن الصورة، لا كالبهيمة المنحنية. وقال أبو علي الفارسي: عَدَّل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعدًا لقبول العقل والقدرة والفكر، وصَيَّرك بسبب ذلك مستوليًا على جميع الحيوان والنبات، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم.

البحث الثاني: قرأ الكوفيون: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف، وفيه وجوه: **أحدها:** قال أبو علي الفارسي: أن يكون المعنى: عَدَل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. **والثاني:** قال الفراء: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي فصرفك إلى أي صورة شاء. ثم قال: والتشديد أحسن الوجهين لأنك تقول: عدلتك إلى كذا، كما تقول صرفتك إلى كذا، ولا يحسن: عدلتك فيه ولا صرفتك فيه، ففي القراءة الأولى جعل في من قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ صلة للتركيب، وهو حسن، وفي القراءة الثانية جعله صلة لقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وهو ضعيف، واعلم أن اعتراض الفراء إنما يتوجه على هذا الوجه الثاني، فأما على الوجه الأول الذي ذكره أبو علي الفارسي فغير متوجه. **والثالث:** نقل القفال عن بعضهم أنهما لغتان بمعنى واحد.

أما قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ **ففيه مباحث: الأول:** (ما) هل هي مزيدة أم لا؟ فيه قولان:

الأول: أنها ليست مزيدة، بل هي في معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى: في أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك. وبناء على هذا الوجه قال أبو صالح ومقاتل: المعنى إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة كلب أو صورة حمار أو خنزير أو قرد. والقول الثاني: أنها صلة مؤكدة والمعنى: في أي صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة، فإنه سبحانه يركبك على مثلها، وعلى هذا القول تحتمل الآية وجوهًا: أحدها: أن المراد من الصور المختلفة شبه الأب والأم، أو أقارب الأب أو أقارب الأم، ويكون المعنى أنه سبحانه يركبك على مثل صور هؤلاء. ويدل على صحة هذا ما روي أنه عليه السلام قال في هذه الآية: «إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ، أَحْضَرَهَا اللَّهُ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ»، والثاني: وهو الذي ذكره الفراء والزجاج أن المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة، ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور؛ لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء، وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية، فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لا يفعل إلا فعلاً واحدًا، فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار، قال القفال: اختلاف الخلق والألوان كاختلاف الأحوال في الغنى والفقر والصحة والسقم، فكما أنا نقطع أنه سبحانه إنما ميز البعض عن البعض في الغنى والفقر، وطول العمر وقصره، بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها إلا هو، فكذلك نعلم أنه إنما جعل البعض مخالفًا للبعض في الخلق والألوان بحكمة بالغة، وذلك لأن بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الأجنبي. ثم قال: ونحن نشهد شهادة لا شك فيها أنه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات إلا لما علم من صلاح عباده فيه وإن كنا جاهلين بعين الصلاح. القول الثالث: قال الواسطي: المراد صورة المطيعين والعصاة فليس من ركبه على صورة الولاية كمن ركبه على صورة العداوة. قال آخرون: إنه إشارة إلى صفاء الأرواح وظلمتها. وقال الحسن: منهم من صوره ليستخلصه لنفسه، ومنهم من صَوَّره ليشغله بغيره مثال الأول: أنه خلق آدم ليخصه بألطاف بره وإعلاء قدره وأظهر روحه من بين جماله وجلاله، وتوَّجه بتاج الكرامة وزينه برداء الجلال والهيبة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن بالدلائل العقلية على صحة القول بالبعث والنشور على الجملة، فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك، وهو أنواع:

النوع الأول: أنه سبحانه زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله: ﴿كَلَّا﴾ و ﴿بَلْ﴾ حرف وُضع في اللغة لنفي شيء قد تقدم وتحقق غيره، فلا جرم ذكروا في تفسير ﴿كَلَّا﴾ وجوهًا: الأول: قال القاضي: معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي عليكم وإرشادي لكم، بل تكذبون بيوم الدين. الثاني:

كلا، أي ارتدِعوا عن الاغترار بكرم الله، ثم كأنه قال: وإنكم لا ترتدعون عن ذلك بل تكذبون بالدين أصلاً. الثالث: قال القفال: كلا، أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور؛ لأن ذلك يوجب أن الله تعالى خلق الخلق عبثًا وسدى، وحاشاه من ذلك، ثم كأنه قال: وإنكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون.

وفي قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ وجهان: الأول: أن يكون المراد من الدين الإسلام، والمعنى أنكم تكذبون بالجزاء على الدين والإسلام. الثاني: أن يكون المراد من الدين الحساب، والمعنى أنكم تكذبون بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۞﴾

والمعنى التعجب من حالهم، كأنه سبحانه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۞﴾ [ق: ١٧-١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، ثم ههنا مباحث:

الأول: من الناس من طعن في حضور الكرام الكاتبين من وجوه: أحدها: أن هؤلاء الملائكة إما أن يكونوا مركبين من الأجسام اللطيفة كالهواء والنسيم والنار، أو من الأجسام الغليظة، فإن كان الأول لزم أن تنتقض بنيتهم بأدنى سبب من هبوب الرياح الشديدة وإمرار اليد والكم والسوط في الهواء، وإن كان الثاني وجب أن نراهم إذ لو جاز أن يكونوا حاضرين ولا نراهم، لجاز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار وفيلات وبوقات، ونحن لا نراها ولا نسمعها، وذلك دخول في التجاهل، وكذا القول في إنكار صحائفهم وذواتهم وقلمهم. وثانيها: أن هذا الاستكتاب إن كان خاليًا عن الفوائد فهو عبث وذلك غير جائز على الله تعالى، وإن كان فيه فائدة فتلك الفائدة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد، والأول محال لأنه متعالٍ عن النفع والضر، وبهذا يظهر بطلان قول من يقول: إنه تعالى إنما استكتبها خوفًا من النسيان، والغلط والثاني أيضًا محال؛ لأن أقصى ما في الباب أن يقال: فائدة هذا الاستكتاب أن يكونوا شهودًا على الناس وحجة عليهم يوم القيامة، إلا أن هذه الفائدة ضعيفة؛ لأن الإنسان الذي علم أن الله تعالى لا يجور ولا يظلم، لا يحتاج في حقه إلى إثبات هذه الحجة، والذي لا يعلم ذلك لا ينتفع بهذه الحجة لاحتمال أنه تعالى أمرهم بأن يكتبوا تلك الأشياء عليه ظلمًا. وثالثها: أن أفعال القلوب غير مرئية ولا محسوسة فتكون هي من باب المغيبات، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى على ما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وإذا لم تكن هذه الأفعال معلومة للملائكة استحال أن يكتبوها، والآية تقضي أن يكونوا كاتبين علينا كل ما نفعله، سواء كان ذلك من أفعال القلوب أم لا؟ والجواب عن الأول: أن هذه الشبهة لا تزال إلا على مذهبنا بناء على أصلين: أحدهما: أن البنية ليست شرطًا للحياة عندنا. والثاني: أي عند سلامة الحاسة وحضور المرئي

وحصول سائر الشرائط لا يجب الإدراك، فعلى الأصل الأول يجوز أن تكون الملائكة أجرامًا لطيفة تتمزق وتتفرق ولكن تبقى حياتها مع ذلك، وعلى الأصل الثاني يجوز أن يكونوا أجسامًا كثيفة لكنا لا نراها. **والجواب عن الثاني:** أن الله تعالى إنما أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم؛ لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم، ولما كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة، فيخرج لهم كتب منشورة، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره، فيقولون له: أعطاك الملك كذا وكذا، وفعل بك كذا وكذا، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا. فكذا ههنا والله أعلم بحقيقة ذلك. **الجواب عن الثالث:** أن غاية ما في الباب تخصيص هذا العموم بأفعال الجوارح، وذلك غير ممتنع.

البحث الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ وإن كان خطاب مشافهة، إلا أن الأمة مجمعة على أن هذا الحكم عام في حق كل المكلفين، **ثم ههنا احتمالان:**

أحدهما: أن يكون هناك جمع من الحافظين، وذلك الجمع يكونون حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم.

وثانيهما: أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخرة ثم يحتمل أن يكون الموكل بكل واحد من بني آدم واحدًا من الملائكة لأنه تعالى قابل الجمع بالجمع، وذلك يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعًا من الملائكة، كما قيل: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، أو كما قيل: إنهم خمسة.

البحث الثالث: أنه تعالى وصف هؤلاء الملائكة بصفات: **أولها:** كونهم حافظين. **وثانيها:** كونهم كرامًا. **وثالثها:** كونهم كاتبين. **ورابعها:** كونهم يعلمون ما تفعلون، وفيه وجهان: **أحدهما:** أنهم يعلمون تلك الأفعال حتى يمكنهم أن يكتبوها، وهذا تنبيه على أن الإنسان لا يجوز له الشهادة إلا بعد العلم. **والثاني:** أنهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة.

واعلم أن وصف الله إياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظَّم شأنهم، وفي تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه هؤلاء العظماء الأكابر، قال أبو عثمان: من يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين؟!

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

النوع الثالث من تفاريع مسألة الحشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

اعلم أن الله تعالى لما وصف الكرام الكاتبين لأعمال العباد، ذكَر أحوال العاملين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ وهو نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وهو النار، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: أن القاطعين بوعيد أصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: صاحب الكبيرة فاجر، والفجار كلهم في الجحيم؛ لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الاستغراق. والكلام في هذه المسألة قد استقصيناه في سورة البقرة، وههنا نكت زائدة لا بد من ذكرها، **قالت الوعيدية:** حصلت في هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد: **أحدها:** قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت إلا ويدخل فيه، كما تقول: يوم الدنيا ويوم الآخرة. **الثاني:** قال الجبائي: لو خصصنا قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة، ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار، وهذا يقتضي أن لا يتميز الفجار عن الأبرار، وذلك باطل لأن الله تعالى ميز بين الأمرين، فإذن يجب أن لا يدخل الفجار الجنة كما لا يدخل الأبرار النار. **والثالث:** أنه تعالى قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ وهو كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] وإذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما إلا الخلود في النار أبد الآبدين، ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة، ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبدًا في النار، وثبت أن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر. **والجواب عنه:** أنا بينا أن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية، والتمسك بالدليل الظني في المطلوب القطعي غير جائز، بل ههنا ما يدل على قولنا؛ لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام في المعهود السابق شائع في اللغة، فيحتمل أن يكون اللفظ ههنا عائدًا إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين، والكلام في ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء، سلَّمنا أن العموم يفيد القطع، لكن لا نسلِّم أن صاحب الكبيرة فاجر، والدليل عليه قوله تعالى في حق الكفار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢] فلا يخلو إما أن يكون المراد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ الذين يكونون من جنس الفجرة أو المراد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ وهم ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ والأول باطل لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع، فتقييد الكافر بالكافر الذي يكون من جنس الفجرة عبث، وإذا بطل هذا القسم بقي الثاني، وذلك يفيد الحصر، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجرة لا غيرهم، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق. سلَّمنا أن الفجار يدخل تحته الكافر والمسلم، لكن قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ معناه أن مجموع الفجار لا يكونون غائبين، ونحن نقول بموجبه: فإن أحد نوعي الفجار وهم الكفار لا يغيبون، وإذا كان كذلك ثبت أن صدق قولنا: (إن الفجار بأسرهم لا يغيبون) يكفي فيه أن لا يغيب الكفار، فلا حاجة في صدقه إلى أن لا يغيب المسلمون، سلَّمنا ذلك لكن قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ يقتضي كونهم في الحال في الجحيم وذلك كذب، فلا بد من صرفه عن الظاهر، فهم يحملونه على أنهم بعد الدخول في الجحيم يصدق عليهم قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ ونحن نحمل ذلك على أنهم في الحال ليسوا

غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، إلا أن ثبوت الاستحقاق لا ينافي العفو. سلَّمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر؛ والترجيح لهذا الجانب؛ لأن دليلهم لا بد وأن يتناول جميع الفجار في جميع الأوقات، وإلا لم يحصل مقصودهم، ودليلنا يكفي في صحته تناوله لبعض الفجار في بعض الأوقات، فدليلهم لا بد وأن يكون عامًّا، ودليلنا لا بد وأن يكون خاصًّا، والخاص مقدم على العام، والله أعلم.

المسألة الثانية: فيه تهديد عظيم للعصاة، حكي أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم على الله غدًا؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. قال: فبكى، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله! فقال أبو حازم: أعرض عملك على كتاب الله. قال: في أي مكان من كتاب الله؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وقال جعفر الصادق عليه السلام: النعيم: المعرفة والمشاهدة، والجحيم: ظلمات الشهوات. وقال بعضهم: النعيم: القناعة، والجحيم: الطمع، وقيل: النعيم: التوكل، والجحيم: الحرص، وقيل: النعيم: الاشتغال بالله، والجحيم: الاشتغال بغير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

النوع الرابع: من تفاريع الحشر: تعظيم يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في الخطاب في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقال بعضهم: هو خطاب للكافر على وجه الزجر له. وقال الأكثرون: إنه خطاب للرسول، وإنما خاطبه بذلك لأنه ما كان عالمًا بذلك قبل الوحي.

المسألة الثانية: الجمهور على أن التكرير في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ لتعظيم ذلك اليوم، وقال الجبائي: بل هو لفائدة مجددة، إذ المراد بالأول أهل النار، والمراد بالثاني أهل الجنة، كأنه قال: وما أدراك ما يعامل به الفجار في يوم الدين؟ ثم ما أدراك ما يعامل به الأبرار في يوم الدين؟ وكرر يوم الدين تعظيمًا لما يفعله تعالى من الأمرين بهذين الفريقين.

المسألة الثالثة: في: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ قراءتان الرفع والنصب، أما الرفع ففيه وجهان: أحدهما: على البدل من يوم الدين. **والثاني:** أن يكون بإضمار (هو) فيكون المعنى (هو يوم لا تملك) وأما النصب ففيه وجوه: **أحدها:** بإضمار (يدانون) لأن الدين يدل عليه. **وثانيها:** بإضمار (اذكروا) **وثالثها:** ما ذكره الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح لإضافته

إلى قوله: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح، وإن كان في موضع رفع أو جر، كما قال:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أَوْ قَالِ

فبنى غير على الفتح لما أضيف إلى قوله: (إن نطقت) قال الواحدي: والذي ذكره الزجاج من البناء على الفتح إنما يجوز عند الخليل وسيبويه، إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي، نحو قولك: (على حين عاتبت) أما مع الفعل المستقبل، فلا يجوز البناء عندهم، ويجوز ذلك في قول الكوفيين، وقد ذكرنا هذه المسألة عند قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] ورابعها: ما ذكره أبو علي وهو أن اليوم لما جرى في أكثر الأمر ظرفًا ترك على حالة الأكثرية، والدليل عليه إجماع القراء والعرب في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ولا يرفع ذلك أحد، ومما يقوي النصب قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ [القارعة: ٣، ٤] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٢، ١٣] فالنصب في ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ مثل هذا.

المسألة الرابعة: تمسكوا في نفي الشفاعة للعصاة بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] والجواب عنه قد تقدم في سورة البقرة.

المسألة الخامسة: أن أهل الدنيا كانوا يتغلبون على الملك ويعين بعضهم بعضًا في أمور، ويحمي بعضهم بعضًا، فإذا كان يوم القيامة بطل مُلْك بنى الدنيا وزالت رياستهم، فلا يحمي أحد أحدًا، ولا يغني أحد عن أحد، ولا يتغلب أحد على ملك. ونظيره قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وهو وعيد عظيم من حيث إنه عَرَّفهم أنه لا يغني عنهم إلا البر والطاعة يومئذٍ دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء. قال الواحدي: والمعنى أن الله تعالى لم يُملك في ذلك اليوم أحدًا شيئًا من الأمور، كما مَلَّكهم في دار الدنيا. قال الواسطي: في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه.

وأما قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم وفي الآخرة، ولم يتغير من حال إلى حال، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر، لا إلى أحوال المنظور إليه، فالكاملون لا تتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات، كما قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، وكحارثة لما أخبر بحضرة النبي ﷺ يقول: «كأني أنظر وكأني وكأني» والله سبحانه وتعالى أعلم, والحمد لله رب العالمين.

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسعَ عَشرةَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: تَشقَّقتْ بأمر الله لنزول الملائكة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: تفطَّرتْ لهيبةِ اللهِ تعالى.

والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فَطرتُه فانْفطَر، ومنه: فَطَر نابُ البعير: طَلَع، فهو بعيرٌ فاطِرٌ، وتَفطَّر الشيءُ: تشقَّق، وسيفٌ فُطارٌ، أي: فيه شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقةِ وهو كِمْعي ... سلاحي لا أفلَّ ولا فُطارا

وقد تقدَّم في غير موضع[1].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تَساقَطَتْ؛ نَثرْتُ الشيءَ أَنثرُه نَثراً، فانتثر، والاسمُ: النِّثار[2]. والنُّثار بالضم: ما تَناثَر من الشيء، ودُرٌّ مُنثَّر، شُدِّد للكَثْرة.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فُجِّر بعضُها في بعضٍ، فصارتْ بحراً واحداً، على ما تقدَّم[3]. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويبِسَت[4]، وذلك أنها أوّلاً راكدةٌ

---

(١) سلف الكلام مع البيت ١٧/ ٣٤٠.

(٢) بكسر النون كما في مختار الصحاح، والكلام من الصحاح (نثر).

(٣) ص٩٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٥ بلفظ: فجرٌ بعضها في بعض فذهب ماؤها.

مجتمعةٌ، فإذا فُجّرتْ تفرَّقَتْ، فذهب ماؤها. وهذه الأشياءُ بين يدي الساعة، على ما تقدَّم في «إذا الشمس كورت».

و﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُلِبتْ فأُخرِجَ ما فيها من أهلها أحياءً؛ يقال: بَعثرتُ المتاعَ: قلبته ظهراً لبَطْنٍ، وبَعثَرتُ الحوضَ وبحثَرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء(١): «بعثِرت»: أَخْرجتْ ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تُخرِجَ الأرضُ ذَهبَها وفضَّتها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ مثل: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وتقدَّم. وهذا جوابُ «إذا السماءُ انْفَطَرَتْ» لأنه قَسَمٌ في قولِ الحسنِ وَقَع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾(٢). يقول: إذا بَدَتْ هذه الأمورُ من أشراطِ الساعة خُتِمَت الأعمالُ، فعَلِمَتْ كلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ، فإنَّها لا ينفعُها عملٌ بعد ذلك.

وقيل: أي: إذا كانت هذه الأشياءُ قامت القيامة، فحوسِبَتْ كلُّ نفسٍ بما عَمِلَتْ، وأُوتِيَتْ كتابَها بيمينها أو بشمالها، فتذكَّرتْ عند قراءتِه جميعَ أعمالها.

وقيل: هو خبرٌ وليس بقَسَمٍ، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خاطَبَ بهذا مُنْكِري البعثِ. وقال ابن عباس: الإنسانُ هنا: الوليدُ بن المغيرة(٣). وقال عكرمة: أبيّ بنُ خَلَف(٤). وقيل: نزلت في

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢١.

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ٧٩ من طريق عطاء عن ابن عباس. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤، والبغوي ٤/ ٤٥٥ عن عطاء قوله.

(٤) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.

أبي الأشدِّ بنِ كَلَدة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً[١].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: ما الذي غرَّك حتى كَفَرْتَ بربِّك الكريم، أي: المتجاوِزِ عنك. قال قتادةُ: غرَّه شيطانُه المسلَّطُ عليه[٢]. الحسن: غرَّه شيطانُه الخبيث[٣].

وقيل: حُمقُه وجَهْلُه؛ رواه الحسن عن عمر ﷺ[٤].

وروى غالبٌ الحنفيُّ قال: لمَّا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ قال: «غرَّه الجَهْلُ»[٥].

وقال صالح بنُ مسمار: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ فقال: «غرَّه جَهْلُه»[٦]. وقاله عمر ﷺ؛ قال: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][٧].

وقيل: غرَّه عَفْوُ اللهِ، إذ لم يُعاقِبْه في أوّل مرَّةٍ[٨]. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يومَ القيامةِ بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ماذا كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقولُ: غَرَّني سُتُورُك الْمُرْخَاةُ؛ لأنَّ الكريم هو الستَّار. نَظَمه ابنُ السَّمَّاكِ فقال:

يا كاتمَ الذنبِ أمَا تستحي والله في الخُلْوةِ ثانيكا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٢١ ، وزاد المسير ٩/ ٤٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٢٢، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٧١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٥ . وصالح بن مسمار بصريٌّ سكن الجزيرة، وروى عن الحسن البصري وابن سيرين. ذكره الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٠٠ تمييزاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٦ .

(٨) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤ ، وفيه: ... في أول أمره.

غَـــرَّك مـــن ربِّـــك إمـــهـــالُـــهُ وسَـــتْـرُه طـــولَ مَـــسَـــاوِيـــكَـــا[١]

وقال ذو النون المِصْريُّ: كم من مغرورٍ تحت السَّتْرِ وهو لا يَشْعرُ.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهريُّ:

يـا مَـن غـلا فـي الـعُـجْـبِ والـتِّـيـهِ وغـــرَّه طـــولُ تَـــمَـــادِيـــهِ
أَمْـــلَـــى لـــك الـــلـــه فـــبـــارَزْتَـــه ولـــم تَـــخَـــفْ غِـــبَّ مَـــعـــاصِـــيـــهِ[٢]

وروي عن عليٍّ ﷺ أنه صاح بغلامٍ له مرَّاتٍ فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجِبْني؟ فقال: لِثقَتي بِحِلْمِكَ، وأَمْني من عقوبتك. فاستَحْسَنَ جوابَه فأعتقه[٣].

وناسٌ يقولون: ما غرَّك: ما خَدَعك وسَوَّل لك حتى أضعتَ ما وَجَبَ عليك؟

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ إلَّا وسَيَخْلو الله به يومَ القيامة، فيقول له: يا ابن آدمَ، ماذا غرَّك بي؟ يا ابن آدمَ ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ يا ابن آدمَ، ماذا أجبتَ المُرْسَلين[٤]؟

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: قدَّر خَلْقَكَ من نطفةٍ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ في بطن أمِّك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين، وسائرَ أعضائك ﴿فعدَّلكَ﴾ أي: جعلك معتدلاً سَوِيَّ الخَلْقِ؛ كما يقال: هذا شيءٌ معدَّلٌ. وهذه قراءةُ العامَّةِ[٥]، وهي اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفرَّاء وأبو عبيد: يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤][٦].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٣٥، وخبر الفضيل دون الأبيات في الكشاف ٤/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥٥.
(٢) الوسيط ٤/ ٤٣٥.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٢: لم أجده.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٧٥)، والطبراني في الكبير (٨٨٩٩).
(٥) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر من السبعة. السبعة ص ٦٧٤، والتيسير ص ٢٢٠.
(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٤.

وقرأ الكوفيون عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ مخفَّفاً، أي: أمالَكَ وصَرَفَكَ إلى أيِّ صورةٍ شاء، إمَّا حَسَنًا وإمَّا قبيحاً، وإمَّا طويلاً وإمَّا قصيراً. وقال [موسى بن عُليّ بن رَباحٍ اللَّخْميُّ، عن أبيه، عن جده:][1] قال لي النبيُّ ﷺ: «إنَّ النطفةَ إذا استقرَّتْ في الرَّحِمِ أَحْضَرها الله كلَّ نسبٍ بينها وبين آدم، أمَا قرأتَ هذه الآية: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟» قال: «فيما بينك وبين آدم»[2].

[وقال عكرمةُ وأبو صالح: «في أيِّ صورةٍ ما شاء ركَّبك»]: إنْ شاء في صورةِ إنسانٍ، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير[3].

وقال مكحول: إنْ شاء ذَكَراً، وإن شاء أنثى.

وقال مجاهد: «في أيِّ صورةٍ» أي: في أيِّ شَبَهٍ؛ من أبٍ أو أمٍّ أو عمٍّ أو خالٍ أو غيرهم[4].

و«في» متعلِّقةٌ بـ «ركَّبك». ولا تتعلَّق بـ «عَدَلك» على قراءةِ مَن خفَّف؛ لأنك تقول: عَدَلْتُ إلى كذا، ولا تقول: عَدَلتُ في كذا، ولذلك مَنَع الفرَّاء[5] التخفيفَ؛ لأنه قدَّر «في» متعلِّقةً بـ «عدَّلك».

و«ما» يجوزُ أن تكون صِلَةً مؤكِّدةً، أي: في أيِّ صورةٍ شاء ركَّبكَ. ويجوزُ أن تكونَ شرطيةً، أي: إن شاء ركَّبك في غيرِ صورة الإنسانِ، من صورة قِرْدٍ أو حمارٍ أو

---

(١) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، على ما يأتي، ووقع بدلاً منه في (د) و(ي): نجدة، وفي (ظ): أبو عبيدة.

(٢) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ١٨٠، والطبراني في الكبير (٤٦٢٤)، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ٣٢٣ للبخاري في تاريخه، وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع. قال ابن كثير: وهذا الحديث لو صح لكان فيصلاً في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٥: فيه مطهَّر ابن الهيثم، وهو متروك.

(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه عن عكرمة وأبي صالح الطبري ٢٤/ ١٧٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٤.

خنزير، فـ «ما» بمعنى الشَّرْطِ والجزاء، أي: في أيِّ صورةٍ ما شاء أن يُركِّبكَ فيها ركَّبك[١].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى: حقًّا و«ألَا»، فيبتدأ بها. ويجوزُ أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى: ليس الأمرُ كما تقولون من أنكم في عبادتكم غيرَ اللهِ مُحِقُّون. يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وكذلك يقول الفراء، يصير المعنى: ليس كما غُرِرْتَ به.

وقيل: أي: ليس الأمرُ كما تقولون، من أنه لا بعثَ. وقيل: هو بمعنى الرَّدْعِ والزَّجْر، أي: لا تغترُّوا بِحلْمِ الله وكرمه، فتتركوا التفكُّر في آياته.

ابن الأنباريِّ: الوقفُ الجيِّد على «الدِّينِ»، وعلى «ركَّبك»، والوقفُ على «كَلَّا» قبيح.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالحساب. و«بل» لنفي شيءٍ تقدَّمَ وتحقيقِ غيره. وإنكارُهم للبعث كان معلوماً، وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: رُقباء من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ أي: على الله، كقوله: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦] **.وهنا ثلاثُ مسائلَ:**

الأولى: رُوِي عن رسول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يُفارِقونكم إلَّا عند إحدى حالتين: الخِرَاءةُ أو الجماعُ، فإذا اغتسل أحدُكم فلْيَسْتَتر بِجذْمِ [حائِطٍ] أو بغيره، أو ليَسْتُرْه أخوه»[٢]. ورُوي عن عليٍّ ﷺ قال: لا يزالُ المَلَك مُوَلِّياً عن العبد ما دام باديَ العورةِ[٣]. ورُوِي: إنَّ العبد إذا دخل الحمَّامَ بغيرِ مئزرٍ لَعَنه مَلَكاه[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه البزار (٣١٧ - كشف)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٣، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر. ووقع فيها: ببعيره، بدل: بغيره. والجِذْم: الأصل. القاموس (جذم). وقوله الخراءة، ليس في المصادر، ووقع بدلاً منه عند البزار وابن أبي الحاتم: الغائط، وعند ابن مردويه: حيث يكون الرجل على خلائه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الشيرازي عن أنس ﷺ، كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير، ورمز لضعفه. قال المناوي: =

الثانية: واختلف الناسُ في الكُفَّار؛ هل عليهم حفَظَةٌ أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأنَّ أمرهم ظاهِرٌ، وعملهم واحدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: بل عليهم حفظةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ . كِرَامًا كَٰتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فأخبر أنَّ الكفار يكونُ لهم كتَابٌ، ويكونُ عليهم حفَظَةٌ. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتبُ ولا حسنةَ له؟ قيل له: الذي يكتبُ عن شماله يكونُ بإذنِ صاحبه، ويكونُ شاهداً على ذلك وإن لم يَكْتُبْ. والله أعلم.

الثالثة: سئل سفيان: كيف تَعْلَم الملائكةُ أنَّ العبدَ قد هَمَّ بحسنةٍ أو سيئة؟ قال: إذا همَّ العبدُ بحسنةٍ وَجَدوا منه ريحَ المسك، وإذا همَّ بسيئةٍ وَجَدوا منه ريحَ النَّتْن. وقد مضى في «ق» عند قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [الآية: ١٨] زيادةُ بيانٍ لمعنى هذه الآيةِ.

وقد كَرِه العلماءُ الكلامَ عند الغائطِ والجماعِ، لمفارَقةِ المَلَكِ العبدَ عند ذلك. وقد مضى في آخر «آل عمران» القولُ في هذا[(١)].

وعن الحسن: «يعلمون»: لا يَخْفَى عليهم شيءٌ من أعمالكم.

وقيل: يعلمون ما ظَهَرَ منكم دون ما حدَّثتُم به أنفسَكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ تقسيمٌ مثل قوله: ﴿فَرِيقٌ

= وفيه أن كشف العورة أو بعضها بحضرة من لا يحل له النظر حرام، فإن كان بحضرة مَن يحلُّ له النظر إليها، أو كان خالياً وكشفها لحاجة جاز. فيض القدير ٦/ ١٢٤ .

(١) ٥/ ٤٦٦ .

فِي ٱلْجَنَّةِ . وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ(١) . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآيتين [الروم: ١٤-١٥].

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يصيبُهم لهبُها وحَرُّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاءِ والحساب، وكرَّر ذِكْرَه تعظيماً لشأنه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وقال ابن عباس فيما روي عنه: كلُّ شيءٍ من القرآن من قوله: «وما أَدْرَاكَ»، فقد أَدْرَاه، وكلُّ شيءٍ من قوله: «وما يُدْرِيكَ»، فقد طُوِيَ عنه(٢).

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يومُ» بالرفع(٣)، على البدل من «يومُ الدينِ»، أو ردًّا على اليوم الأوّل، فيكون صفةً ونعتاً لـ «يوم الدينِ». ويجوزُ أن يُرفع بإضمارِ «هو». الباقون بالنصب على أنه في موضعِ رفعٍ، إلّا أنه نُصِبَ لأنه مضاف غير مَحْضٍ(٤)، كما تقول: أَعْجبني يومَ يقومُ زيدٌ. وأنشد المبرِّد:

مِن أيِّ يَومَيَّ مِن الموتِ أَفِرّ أيومَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ(٥)

فاليومان الثَّانيان مخفوضان على الترجمة(٦) عن اليومين الأوَّلَيْن، إلَّا أنَّهما نُصِبا في اللفظ لأنَّهما أُضيفا إلى غيرِ مَحْضٍ(٧). وهذا اختيارُ الفرَّاء والزجَّاج(٨).

(١) في النسخ: يصدعون، والمثبت هو الصواب.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وسلف في بداية تفسير سورة الحاقة عن يحيى بن سلام وسفيان بن عيينة.

(٣) السبعة ص ٦٧٤، والتيسير ص ٢٢٠.

(٤) في (د) و(م): غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩، والكلام منه.

(٥) نسبه صاحب العقد الفريد ١/ ١٠٥ لعلي ﷺ، وهو دون نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٧٥، والخصائص ٣/ ٩٤، والخزانة ١١/ ٤٥١. والكلام من إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩. قوله: لم يُقْدَرَ، قال البغدادي: يريد: لم يقدَرَن. وقال ابن جني: أراد: لم يُقْدَرْ أم، ثم خفف همزة أم، فحذفها وألقى حركتها على راء يُقْدَر.

(٦) في (د) و(م): مخفوضان بالإضافة عن الترجمة، وفي (ظ) و(ي): مخفوضان بالإضافة على الترجمة، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ) و(ي): إلى غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٥، وللزجاج ٥/ ٢٩٦، وقال فيه: يكون في موضع رفع وهو مبني على =

وقال قومٌ: اليومُ الثاني منصوبٌ على المحلِّ، كأنه قال: في يومِ لا تَملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً[١].

وقيل: بمعنى: إنَّ هذه الأشياءَ تكون يومَ، أو على معنى: يُدَانون يومَ؛ لأنَّ «الدِّين» يدلُّ عليه، أو بإضمارِ اذكُر[٢].

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا يُنازِعُه فيه أحدٌ، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦-١٧]. تمت السورة والحمد لله.

= الفتح لإضافته إلى قوله: «لا تملك»؛ لأن ما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح وإن كان في موضع رفع أو جر.

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٩ .

سورة ﴿انفطرت﴾

مكيَّةٌ، وآيُها تسعَ عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٤) ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾: انشقَّتْ ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾: تساقطَتْ مُتفرِّقَةً ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾: فُتِحَ بعضُها إلى بعضٍ فصارَ الكُلُّ بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾: قُلِبَ تُرابُها وأُخرِجَ مَوتاهَا، وقيل: إنه مُركَّبٌ مِن (بَعْث) وراءِ الإثارةِ[1]؛ كبَسْمَلَ، ونظيرهُ: «بُحْثِرَ» لفظًا ومَعنى.

(٥) ـ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ﴾ مِن عملٍ أو صَدقَةٍ ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ مِن سُنَّةٍ أو تَركةٍ، ويجوزُ أن يرادَ بالتَّأخيرِ التَّضييعُ، وهو جوابُ ﴿إِذَا﴾.

(٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾: أيُّ شيءٍ خدعَكَ وجرَّأَكَ على عصيانِه؟

وذكرُ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ للمُبالغَةِ في المنعِ عن الاغترارِ؛ فإنَّ محضَ الكرمِ لا يقتَضِي إهمالَ الظَّالمِ وتسويةَ المُوَالي والمُعَادي والمطيعِ والعاصي، فكيفَ إذا انضمَّ إليه صفةُ القهرِ والانتقامِ؟

---

(١) قوله: «مركب من بعث وراء الإثارة» أي: والراءِ التي في الإثارة، انظر: «حاشية الأنصاري»: (٥/ ٤٦٩).

والإشعارِ[1] بما به يَغرُّهُ الشَّيطانُ؛ فإنَّه يقولُ له: افعَلْ ما شئتَ فربُّكَ كريمٌ لا يُعذِّبُ أحدًا، أو: لا يُعاجِلُ بالعُقوبَةِ.

والدَّلالةِ على أنَّ كثرةَ كرمِه تَستَدعي الجِدَّ في طاعَتِه، لا الانهماكَ في عِصيانِه اغترارًا بكرمِه.

(٧) ـ ﴿الذي خلقَكَ فسوَّاكَ فعَدَّلَكَ﴾ صفةٌ ثانيَةٌ مُقرِّرَةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنَةٌ[2] للكَرمِ، مُنبِّهَةٌ على أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك أولاً قدرَ عليه ثانيًا.

والتَّسويةُ: جعلُ الأَعضاءِ سَليمَةً مُسوَّاةً مُعَدَّةً لِمَنافِعِها.

والتَّعديلُ: جعلُ البِنيةِ مُعتَدِلَةً مُتناسِبَةَ الأَعضاءِ، أو مُعدَّلَةً بما يَستَعِدُّها[3] من القُوَى.

وقرأ الكوفيُّونَ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتَّخفيفِ[4]؛ أي: عَدَلَ بعضَ أعضائِكَ ببعضٍ حتى اعتدَلْتَ، أو: فصرفكَ عن خلقةِ غيرِكَ وميَّزكَ بخلقَةٍ فارَقَتْ خلقةَ سائرِ الحيواناتِ.

(٨) ـ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ أي: ركَّبكَ في أيِّ صُورَةٍ شاءَها، و﴿مَّا﴾ مَزيدةٌ، وقيل: شرطيَّةٌ و﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابُها، والظَّرفُ صِلَةُ (عدَّلك)، وإنَّما لم يَعطِفِ الجملةَ على ما قبلَها لأنها بيانٌ لـ(عدَّلك).

---

(١) قوله: «والإشعار»: هو مع ما بعده عطفٌ على «المبالغة»، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٦٩).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «مثبتة»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٣) في نسخة الفاروقي: «تستعده»؛ والمثبت من باقي النسخ وعليه شرح شيخ زاده فقال: والمنوي في «يستعدها» ضمير البنية بتقدير المضاف وهو الأعضاء؛ أي: والتعديل جعل كل عضو من أعضاء البنية معادلاً مناسباً لما بني له من القوة؛ كاليد للبطش والرجل للمشي والعين للإبصار واللسان للتكلم، فالتعديل على هذا بين الأعضاء ومنافعها التي هي القوى المودعة فيها، والبارز المنصوب في «يستعدها» عائد إلى «ما» وأُنث لكونها عبارة عن القوى. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٥٣٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٤)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٩) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عَن الاغترارِ بكرمِ اللهِ، وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضرابٌ إلى بيانِ ما هو السَّببُ الأَصليُّ في اغترارِهِم، والمرادُ بالدِّينِ: الجزاءُ أو الإسلامُ.

(١٠ ـ ١٢) ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيقٌ لِمَا يكذِّبونَ بهِ، وردٌّ لِمَا يتوقَّعُونَ مِن التَّسامُحِ والإهمالِ[١]، وتَعظيمُ الكَتَبَةِ بكونِهم كرامًا عندَ اللهِ لتَعظيمِ الجَزاءِ.

(١٣ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ بيانٌ لِمَا يَكتبونَ لأَجلِه[٢] ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: يقاسونَ حَرَّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لخُلُودِهِم فيها.

وقيل: معناه: وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك؛ إذ كانوا يَجِدُونَ سَمومَهَا[٣] في القبورِ.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعجيبٌ وتَفخيمٌ لشَأنِ اليَومِ؛ أي: كُنْهُ أمرِهِ بحيثُ لا تُدرِكُه درايَةُ دارٍ.

(١٩) ـ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ تقريرٌ لشدَّةِ هولِه وفَخامَةِ أَمرِهِ إجمالًا، ورفعَ ابنُ كثيرٍ والبَصريَّانِ: ﴿يومُ﴾[٤] على البدلِ مِن ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أو الخبرِ المَحذوفِ.

قال عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ انفطَرَتْ كتبَ اللهُ لهُ بعددِ كلِّ قطرَةٍ مِن السَّماءِ حسنةً وبعددِ كلِّ قبرٍ حسنَةً»[٥].

---

(١) في نسخة الخيالي: «والإمهال».

(٢) قولُه: «بيانٌ لِـما يكتُبونَ لأجلِه» يعني: أنَّها جُملةٌ مُستأنفةٌ في جوابِ سؤالٍ تقديرُه: لِـمَ يكتُبونَ ذلك؟ فكأنَّه قيلَ: ليُجازَى الأبرارُ بالنَّعيمِ والفُجّارُ بالجحيمِ. قاله الشهاب.

(٣) بضمِّ السِّينِ بمعنى حرِّها، أو بفتحِ السِّينِ بمعنى ريحِها الحارّةِ. قاله الشهاب.

(٤) وقرأ الباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٤)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٣٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٨٢) سورة الانفطار مكية
وآياتها تسع عشرة

قد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: « من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿ إذا الشمس كورت ﴾، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾، و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ».

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي أنشقت، كما قال تعالى: ﴿ السماء منفطر به ﴾، ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت، ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها، وقال الكلبي: ملئت. ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قال ابن عباس: بحثت. وقال السدي: تبعثر – تحرك فيخرج من فيها، ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾؟ هذا تهديد من الله للإنسان[1] والمعنى: ما غرك يا ابن آدم ﴿ بربك الكريم ﴾ أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: « يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين »؟ وعن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله، وقال قتادة: ما غرَّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان، وقال الفضل

---

(١) الكلام تهديد كما قال ابن كثير، وليس كما زعم بعضهم أنه إرشاد إلى الجواب حتى قالوا:

ابن عياض: لو قال لي: ما غرّك بي؟ لقلت: ستورك المرخاة، وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل، لأنه إنما أتى باسمه الكريم، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور، وقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة، منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي: قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟»[1].

وقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم، أو خال أو عم، وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير، وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير، وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، ومعنى هذا القول عندهم أن الله عزَّ وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح، من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه، يخلقه على شكل حسن مستقيم، معتدل تام حسن المنظر والهيئة. وقوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، وقوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره». وفي الحديث: «ما من حافظين يرفعان إلى الله عزَّ وجلَّ ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة، وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»[2]، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم - وأحسبه قال ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: هلك الليلة فلان»[3]

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة.

(٢) أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعاً. (٣) أخرجه البزار أيضاً وفي سنده سلام المدائني ليّن الحديث.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله عزَّ وجلَّ ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، وفي الحديث قال عليه السلام: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً»، ولهذا قال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ كقوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قال قتادة: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والأمر والله اليوم لله، لكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

[آخر تفسير سورة الإنفطار، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

تفسير سورة الانفطار

وهى مكية .

قال النسائى : أخبرنا محمد بن قدامة ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن محارب بن دثَار ، عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ! [أفتان يا معاذ؟!] (١) أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت ؟! » (٢) .

وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين(٣) ، ولكن ذُكرَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت﴾ فى (٤) أفراد النسائى . وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من سرَّه أن ينْظُرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت . كما قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل:١٨] .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أى : تساقطت .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط مالحها بعذبها . وقال الكلبى : ملئت .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾: قال ابن عباس : بُحِثَت. وقال السدى: تُبعثر : تُحرّك فيخرج من فيها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حَصَلَ هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ؟ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس

---

(١) زيادة من سنن النسائى .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٠،٧١١) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) فى م ،أ :« من» .

(٥) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة التكوير ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٣٣٣) .

من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم ـ أى : العظيم ـ حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن [١] آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان : أن عمر سمع رجلا يقرأ: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ، فقال عمر : الجهل [٢] .

وقال أيضا : حدثنا عمر بن شبَّة ، حدثنا أبو خلف ، حدثنا يحيى البكاء ، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال ابن عمر: غره ـ والله ـ جهله.

قال : ورُوى عن ابن عباس ، والربيع بن خُثَيم [٣] ، والحسن ، مثلُ ذلك .

وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىءٌ ، ما غرَّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى: « ما غرك بى [٤] » ، لقلت : سُتُورك المُرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم .

قال البغوى : وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال: ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة[٥] .

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ؛ لينبه [٦] على أنه لا ينبغى أن يُقَابَل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء .

و[قد] [٧] حكى البغوى ، عن الكلبى ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذه الآية فى الأسود بن شَرِيق، ضرب النبى ﷺ ولم يعاقب فى الحالة الراهنة ، فأنزل الله: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ؟ [٨].

وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أى : جعلك سَوِيا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا حَرِيزُ ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيسرة ، عن جُبير ابن نُفَير ، عن بُسْر بن جِحَاش القرشى : أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن [٩] آدم ، أنَّى تُعجِزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى

---

(١) فى م :« يا ابن » .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٤٣٩) وعزاه لابن المنذر وسعيد بن منصور أيضا .

(٣) فى أ : « خيثم » . (٤) فى أ :« بربك » .

(٥) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٥٦) .

(٦) فى أ : « للتنبيه » . (٧) زيادة من م .

(٨) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٥٦) .

(٩) فى م : « يا ابن » .

إذا سوّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ ، فجَمَعت ومَنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدقُ ، وأنَّى أوانُ الصدقة » .

وكذا رواه ابن ماجة ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَريز بن عثمان ، به (١) .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزِّى : وتابعه يحيى بن حمزة ، عن ثور بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن ميسرة (٢) .

وقوله: ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾: قال مجاهد : فى أى شَبَه أب أو أم أو خال أو عم ؟

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن سنان القزاز ، حدثنا مُطَهَّر بن الهيثم ، حدثنا موسى بنُ عُلَىِّ ابن رَبَاح ، حدثنى أبى ، عن جدى : أن النبى ﷺ قال له : « ما ولد لك ؟» قال : يا رسول الله، ما عسى أن يُولَد لى ؟ إما غلام وإما جارية . قال : « فمن يشبه ؟» . قال : يا رسول الله ، من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى ﷺ عندها : « مه . لا تقولَنَّ هكذا ، إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ؟ أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ » (٣) قال : سَلَكك (٤) .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم والطبرانى ، من حديث مُطهر بن الهيثم ، به (٥) . وهذا الحديث لو صح لكان فيصلا فى هذه الآية ، ولكن إسناده ليس بالثابت ؛ لأن « مُطَهَّر بن الهيثم » قال فيه أبو سعيد بن يونس : كان متروك الحديث . وقال ابن حبان : يُرْوى عن موسى بن على وغيره ما لا يُشبهُ حَديثَ الأثبات . ولكن فى الصحيحين عن أبى هُرَيرة أن رَجُلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتى وَلَدت غُلاماً أسودَ ؟ . قال : «هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمر . قال : « فهل فيها من أورَق ؟ » قال : نعم . قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزَعة عِرْق . قال : «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » (٦) .

وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير .

وقال قتادة : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، قال : قادر ــ والله ــ ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله، عز وجل، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات

---

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٥) : « إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٢) تحفة الأشراف للمزى (٢/ ٩٧) .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٥) .

(٤) فى م : «شكلك » .

(٥) المعجم الكبير (٥/ ٧٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٣٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٠) .

المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ، حَسَن المنظر والهيئة .

وقوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّين ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكةً حَفَظَةً كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسىّ ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ومِسْعَر ، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن مجاهد قال : قال رسول اللَّهَ ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط . فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بحرم حائط أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، فوصله بلفظ آخر ، فقال : حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن حفص بن سليمان ، عن علقمة بن مرثد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين ، الذين لا يُفَارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل . فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه ، أو بجرم حائط ، أو ببعيره » .

ثم قال : حفص بن سليمان لين الحديث ، وقد روى عنه ، واحتمل حديثه (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مُبَشّر بن إسماعيل الحلبى ، حدثنا تمام ابن نَجِيح ، عن الحسن ــ يعنى البصرى ــ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله، عز وجل، ما حفظا فى يوم ، فيرى فى أول الصحيفة وفى آخرها استغفار إلا قال الله تعالى : قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » .

ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح ، وهو صالح الحديث (٢).

قلت : وثقه ابن معين وضعفه البخارى ، وأبو زُرْعة ، وابن أبى حاتم والنسائى ، وابن عدى . ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادى المعروف بالقُلُوسِى (٣) ، حدثنا بيان بن حمران (٤) ، حدثنا سلام ، عن منصور بن زاذان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ :« إن لله ملائكة (٥) يعرفون بنى آدم ــ وأحسبه قال :ويعرفون أعمالهم ــ فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسَمَّوه ، وقالوا : هلك الليلة فلان » .

---

(١) مسند البزار برقم (٣١٧) « كشف الأستار » .

(٢) مسند البزار برقم (٣٢٥٢) « كشف الأستار » .

(٣) فى مسند البزار :« الفلوسى » نسبة إلى الفلوس .

(٤) فى أ: « عمران » .　　(٥) فى م:« إن ملائكة الله » .

ثم قال البزار : سلام هذا ، أحسبه سلام المدائنى ، وهو لين الحديث (١) .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ،ولم يقابلوه بالمعاصى .

وقد روى ابن عساكر فى ترجمة « موسى بن محمد » ، عن هشام بن عمار ، عن عيسى بن يونس بن أبى إسحاق ، عن عبيد الله ، عن محارب ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بَروا الآباء والأبناء » (٢) .

ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى: يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله :﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ أى: لا يقدر واحد (٣) على نفع أحد ولا خَلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

ونذكر هاهنا حديث : « يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا ». وقد تقدم فى آخر تفسير سورة « الشعراء » ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦] ، وكقوله : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان:٢٦]، وكقوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] .

قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، والأمر ــ والله ــ اليوم لله ، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد .

آخر تفسير سورة «الانفطار » ولله الحمد

(١) مسند البزار برقم (٢١٩٥) « كشف الأستار » .
(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٠٠ « المخطوط») .
(٣) فى أ :« أحد » .

سورة الانفطار[1]

مكيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقَّت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ، ١٩/٧٨]، والكلام في ارتفاع ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ كما مرّ في ارتفاع ﴿ٱلشَّمْسُ﴾.[2]

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت متفرِّقةً.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُتح بعضها إلى بعض فاختلط العذبُ بالأُجاج وزال ما بينهما مِن البرزخ الحاجز، وصارت البحار بحرًا واحدًا. ورُوي أنّ الأرض تنشَف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستويةً، وهو معنى التسجير عند الحسن رحمه الله.[3] وقيل: إنّ مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت وذهبت. وقُرئ: "فُجِرَتْ" بالتخفيف مبنيًا للمفعول،[4] ومبنيًا للفاعل[5] أيضًا، بمعنى بغَت مِن "الفجور" نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن، ٢٠/٥٥].

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُلب ترابُها وأُخرج موتاها، ونظيره "بَحْثَر" لفظًا ومعنى، وهما مركّبان مِن "البعث" و"البحث" مع "راء" ضُمّت إليهما.

---

١ س: انفطرت.

٢ في تفسير سورة التكوير، ١/٨١.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٦/٤. وانظر المرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٤٠/٢٤ (التكوير، ٦/٨١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الربيع بن خُثيم ومجاهد والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٩٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، لكن لا على أنّها تعلمه عند البعث؛ بل عند نشر الصُّحف لِما عرفتَ مِن أنّ المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعدِّدة حسب تعدُّد / كلمة ﴿إِذَا﴾، وإنّما كُرِّرت لتهويل ما في حيّزها مِن الدّواهي. والكلام فيه كالذي مرّ تفصيله في نظيره. [٢٧٨و]

ومعنى ما قدّم وأخّر: ما أسلَف مِن عمل خير أو شرّ، وأخَّر مِن سُنّة حسنة أو سيّئة يُعمل بها بعده، قاله ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما.[١] وعن ابن عبّاس أيضًا: ما قدَّم مِن معصية وأخّر مِن طاعة، وهو قول قتادةَ.[٢] وقيل: ما قدَّم مِن أمواله لنفسه وما أخَّر لورثته. وقيل: ما قدَّم مِن فَرْض وأخَّر مِن فرض. وقيل: أوّلُ عملِه وآخِرُه.[٣] ومعنى عِلمها بهما عِلمُها التفصيلي حسبما ذُكر فيما مرّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: أيّ شيء خدَعك وجرّأك على عصيانه وقد علمتَ ما بين يديك مِن الدواهي التامّة والعراقيل الطّامة، وما سيكون حينئذ مِن مشاهدة أعمالك كلّها. والتعرّض لعنوان كَرَمه تعالى للإيذان بأنّه ليس ممّا يصلح أن يكون مدارًا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإنّ ربك كريم قد تفضّل عليك في الدنيا، وسيفعل مِثله في الآخرة، فإنّه قياس عقيم وتَمْنِيةٌ باطلة؛ بل هو ممّا يُوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتنابَ عن الكفر والعصيان، كأنّه قيل: ما حَمَلك على عصيان ربّك الموصوفِ بالصفات / الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه؟ [٢٧٨ظ]

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر المرويّ عنهم في جامع البيان للطبري، ١٧٧/٢٤-١٧٨.

[٣] انظر هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ١٩٥/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقرِّرة للربوبيّة مبيِّنة للكرم منبِّهة على أنّ مَن قَدَر على ذلك بدءًا قَدَر عليه إعادةً. والتسوية جعلُ الأعضاء سليمةً سويّةً معدَّةً لمنافعها، وعَدْلُها عَدْل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت، أو صَرْفها عن خِلقة غير ملائمة لها. وقُرئ: "فَعَدَّلَكَ"[١] بالتشديد، أي: صيَّرك معتدِلًا متناسِبَ الخَلْق مِن غير تفاوت فيه.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ركّبك في أيِّ صورة شاءها مِن الصور المختلفة، و﴿مَا﴾ مَزيدة، و﴿شَآءَ﴾ صفة لـ﴿صُورَةٍ﴾، أي: ركّبك في أيِّ صورة شاءها واختارها لك مِن الصور العجيبة الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥/٤]، وإنّما لم تُعطف الجملة على ما قبلها لأنّها بيان لـ﴿عَدَلَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكَرَم الله تعالى وجعلِه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي مع كونه موجِبًا للشكر والطاعة. وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضراب عن جملة مقدَّرة ينساق إليها الكلام، كأنّه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجترئون على أعظمَ مِن ذلك، حيث تكذِّبون بالجزاء والبعث رأسًا، أو بدين الإسلام الذي هما مِن جملة أحكامه، فلا تُصدِّقون سؤالًا ولا جوابًا ولا ثوابًا ولا عقابًا. وقيل: كأنّه قيل: إنّكم لا تستقيمون على ما تُوجبه نِعَمي عليكم وإرشادي لكم، ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾... إلخ. وقال القفّال: ليس الأمر كما تقولون مِن أنّه لا بعث ولا نشور، ثمّ قيل: أنتم لا تتبيَّنون بهذا البيان؛ بل تكذّبون بيوم الدِّين.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقُّق ما يكذّبون به، أي: تكذِّبون بالجزاء والحالُ أنّ عليكم مِن قبلنا لحافظين لأعمالكم. ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لها.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠٠/٢٠.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال قليلًا وكثيرًا ويضبِطونه نقيرًا وقِطميرًا لتُجازَوا بذلك. وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيمٌ لأمر / الجزاء وأنّه عند الله [٢٧٩و] عزّ وجلّ مِن جلائل الأمور حيث يُستعمَل فيه هؤلاء الكرام.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب مِن الثواب والعقاب. وفي تنكير "النعيم" و"الجحيم" مِن التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمّا صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ مِن تهويلها، كأنّه قيل: ما حالهم فيها؟[١] فقيل: يُقاسُون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ طرفةَ عينٍ، فإنّ المراد دوام نفي الغَيبة لا نفيُ دوامِ الغَيبة لِما مرّ مرارًا مِن أنّ الجملة الاسميّة المنفيّة قد يراد بها استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار، باعتبار ما تُفيده مِن الدوام والثبات بعد النفي لا قبله. وقيل: معناه وما كانوا غائبين عنها.[٢] قيل: ذلك بالكلّيّة؛ بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم،[٣] حسبما قال[٤] عليه السلام: «القبرُ روضة مِن رياض الجنّة، أو حفرةٌ مِن حفر النيران».[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تفخيم لشأن يوم الدِّين الذي يكذِّبون، به إثر تفخيمٍ وتهويلٍ لأمره بعد تهويل ببيان أنّه خارج عن دائرة دراية الخلق، على أيّ صورة تَصوَّروه فهو فوقها، وكيفما تخيّلوه فهو أطَمّ مِن ذلك وأعظمُ، أي: وأيُّ شيء جعلك داريًا ما يوم الدين؟

---

١ س - فيها.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٨.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٠٧.
٤ س ي + النبيّ.
٥ سنن الترمذي، ٤/٦٣٩-٦٤٠ (٢٤٦٠)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٨/٢٧٢-٢٧٣ (٨٦١٣).

على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبرُ لـ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ لا بالعكس كما هو رأي سيبويهِ،[١] لِما مرّ مِن أنّ مدار الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريبَ في أنّ مناط إفادة الهَول والفخامة هنا هُوَ ﴿مَا﴾ لا ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: أيُّ شيء عجيب هو في الهَول والفظاعة؟ لِما مرّ غير مرّة أنّ كلمة ﴿مَا﴾ قد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعةً لطلب الحقيقة وشرح الاسم، يقال: ما زيد؟ فيقال في الجواب: "كاتبٌ" أو "طبيبٌ"، / وفي إظهار ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ في موقع الإضمار تأكيد لهَوله وفخامته. [٢٧٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ بيانٌ إجمالي لشأن يوم الدِّين إثرَ إبهامه وبيانِ خروجه عن علوم الخَلْق بطريق إنجاز الوعد، فإنّ نفي إدرائهم مُشعِر بالوعد الكريم بالإدراء. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كلّ ما في القرآن مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكلّ ما فيه مِن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طوي عنه.[٢]

و﴿يَوْمَ﴾ مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وحركتُه الفتح لإضافته إلى غير متمكّن،[٣] كأنّه قيل: هو يومَ لا تملك فيه نفس مِن النفوس لنفس مِن النفوس شيئًا مِن الأشياء... إلخ، أو منصوبٌ بإضمار "اذكُر"، كأنّه قيل: بعد تفخيم أمر يوم الدِّين وتشويقه صلّى الله عليه وسلّم إلى معرفته: اذكُر يومَ لا تملك نفس... إلخ، فإنّه يدريك ما هو. وقيل: بإضمار "يُدانون"،[٤] وليس بذاك؛ فإنّه عارٍ عن إفادة ما لم[٥] يُفده[٦] ما قبله، كما أنّ إبداله مِن ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ على قراءة الرفع[٧] كذلك؛ بل الحقّ حينئذٍ الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. والله تعالى أعلم.

---

١ انظر: كتاب سيبويه، ١/١٣٤.

٢ بلفظ قريب في تفسير القرطبي، ١٩/٢٤٩؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٠٣.

٣ وفي هامش م: قال الزجّاج: يجوز أن يكون في موضع رفع، إلّا أنّه بُنِيَ على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾، وما أضيفَ إلى غير المتمكّن فقد يُبنى كما إذا أضيفَ إلى الماضي، وأمّا إذا أضيفَ إلى المستقبل فلا يبنى عند البصريّين ويبنى عند الكوفيّين. «منه». | انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٥/٢٩٦، وليس فيه تفصيل نسبة المذاهب إلى البصريّين والكوفيّين، وإنّما ذكره الواحدي تفصيلًا لكلام الزجّاج، ونقله عنه ابن عادل. انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٢٣/٣٠٢-٣٠٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٠٣-٢٠٤.

٤ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٨.

٥ س ي – لم.

٦ س ي: يفيده.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الانفطار كَتَب الله تعالى له بعدد كلّ قطرة مِن السماء حسنة وبعدد كلّ قَبْر حسنةً».[١]

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩ (الانفطار، ١/٨٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٣٣/٤ (الانفطار، ١/٨٢)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٢

سُورَةُ الانفِطَارِ

مكية، تسعَ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا السَّماءُ انفَطَرَتْ﴾: انشقَّت، ٢ ـ ﴿وإذا الكَواكِبُ انتَثَرَتْ﴾: انقضَّت وتساقطت، ٣ ـ ﴿وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ﴾: فُتح بعضها في بعض فصارت بحرًا واحدًا فاختلط العذب بالمِلح، ٤ ـ ﴿وإذا القُبُورُ بُعثِرَتْ﴾: قُلِب تُرابها وبُعث موتاها، وجواب «إذا» وما عُطف عليها: ٥ ـ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كُلُّ نفس وقتَ هذه المذكورات ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿ما قَدَّمَتْ﴾ من الأعمال ﴿و﴾ ما ﴿أَخَّرَتْ﴾ منها فلم تعمله.

٦ ـ ﴿يا أيُّها الإنسانُ﴾ الكافر، ﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ حتّى عصَيتَه، ....

سُورَةُ الانفِطَارِ

قولُهُ: (تَسَاقَطَت) مُتفرِّقةً.

قولُهُ: (مِنَ الأَعمَالِ) والصَّدَقَة.

قولُهُ: (مِنهَا) من سنَّةٍ أو تَركةٍ، ويجوزُ أن يرادَ بالتَّأخيرِ: التَّضييعُ، وقيل: ما قدَّمَتْ من خيرٍ وأَخَّرَتْ من شرٍّ.

قولُهُ: (حتَّى عَصَيتَهُ) أي: أيُّ شيءٍ خدعكَ وجرَّأكَ على عصيانِهِ، قال جعفرٌ: ما الذي أقعدَكَ عن خدمةِ مولاكَ، وقالَ عمرُ[1]: لو قيلَ لي: ما غرَّكَ بي؟ لقلتُ: جهلي بكَ غرَّني لا غير.

---

(١) ذكر القولين السلمي في «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٧) وقول عمر ذكره من قول يحيى بن معاذ، وأما قول عمر فهو: لقلت: يا رب كرمك. وروى ابن أبي حاتم كما في «تفسيره ابن كثير» (٨/ ٣٤٢): أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ فقال عمر: الجهل.

٧ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ بعد أن لم تكن ﴿فَسَوّاكَ﴾: جعلك مُستويَ الخِلقة سالم الأعضاء ﴿فعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد والتخفيف: جعلك مُعتدل الخَلق متناسب الأعضاء، ليست يد أو رجل أطولَ من الأُخرى، ٨ ـ ٩ ـ ﴿في أيِّ صُورةٍ ما﴾: زائدةٌ ﴿شاءَ رَكَّبَكَ؟ كَلاّ﴾: ردعٌ عن الاغترار بكرم الله تعالى، ﴿بَل تُكَذِّبُونَ﴾ ـ أيْ كُفّارَ مكّةَ ـ ﴿بِالدِّينِ﴾: الجزاء على الأعمال، ١٠ ـ ﴿وإنَّ عليكُم لَحافِظِينَ﴾ من الملائكة لأعمالكم ١١ ـ ﴿كِرامًا﴾ على الله ﴿كاتِبِينَ﴾ لها، ١٢ ـ ﴿يَعلَمُونَ ما تفعَلُونَ﴾ جميعَه.

١٣ ـ ﴿إنَّ الأبرارَ﴾: المُؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾: جنّة، ١٤ ـ ﴿وإنَّ الفُجّارَ﴾: الكُفّار ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾: نارٍ مُحرقة، ١٥ ـ ﴿يَصلَونَها﴾: يدخلونها ويُقاسون حرَّها ﴿يَومَ الدِّينِ﴾ الجزاء، ١٦ ـ ﴿وما هُم عَنها بِغائِبِينَ﴾: بمُخرَجينَ. ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمَكَ: ﴿ما يَومُ الدِّينِ؟ ثُمَّ ما أدراكَ: ما يَومُ الدِّينِ﴾؟ تعظيمٌ لشأنه.

وتوضيحُهُ ما قالَ القاضِي[1]: وذِكرُ ﴿الكَرِيمِ﴾ للمُبالغَةِ في المنعِ عن الاغتِرارِ، فإنَّ محضَ الكرَمِ لا يقتَضِي إهمالَ الظَّالِمِ وتسويَةَ الموالي والمعادِي والمطيعِ والعاصِي، فكيفَ إذا انضَمَّ إليه صفَةُ القَهرِ والانتِقامِ والإشعارِ بما به يغرُّهُ الشَّيطانُ، فإنَّه يقولُ له: افعَلْ ما شئتَ، فربُّكَ كريمٌ لا يعذِّبُ أحَداً ولا يعاجِلُ بالعُقوبَةِ، والدَّلالَةِ على أنَّ كثرَةَ كرمِهِ تستدعي الجِدَّ في طاعتِهِ لا الانهماكَ في عصيانِهِ اغتِراراً بكرَمِه.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) كوفيٌّ[2].

قولُـهُ: (أي: كُفَّـارَ مَكَّـةَ) أي: نداثيَّةٌ أو تفسيريَّةٌ؛ أي: المخاطبونَ كفَّـارُ مكَّةَ، وقرأَ أبو جعفَرٍ من العشـرَةِ بالغَيبةِ[3].

قولُهُ: (الجَزَاء) أو الإسلامِ.

قولُهُ: (نَارٍ مُحرِقَةٍ) قال جعفرٌ[4]: النَّعيمُ: المعرفَةُ والمشاهدَةُ، والجحيمُ: هي النَّفسُ، وأنَّ لها نيراناً متَّقدَةً من الشَّهواتِ والغَفَلاتِ، وقيل: النَّعيمُ: القناعَةُ، والجحيمُ: الطَّمعُ.

قولُهُ: (بمُخْرَجِينَ) وقيل معناهُ: وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك؛ إذ كانوا يباشِرونَ أسبابَها.

قولُهُ: (تَعظِيمٌ) وتعجيبٌ؛ أي: كُنهُ أمرِهِ بحيثُ لا تدرِكهُ درايَةُ دارٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩).

(٤) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٨).

١٩ ـ ﴿يَومُ﴾ ـ بالرفع ـ أي: هو يومُ ﴿لا تَملِكُ نَفسٌ لِنَفسٍ شَيئًا﴾ من المنفعة، ﴿والأمرُ يَومَئذٍ لِلهِ﴾ لا أمر لغيره فيه، أي: لم يمكِّن أحدًا من التوسط فيه بخِلاف الدنيا.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[1]، وحقُّهُ أن يقولَ: وبالنَّصبِ؛ لقراءَةِ الجمهورِ[2]، ومثلُ هذا اختصارٌ مخلٌّ كما في ذِكرِ الهمزاتِ وتكرارِها تطويلٌ مُملٌّ.

قولُهُ: (أي: هُو) يعني: أنَّه خبرٌ لمحذُوفٍ، وقيل: إنَّه بدلٌ من: ﴿يَومِ الدِّينِ﴾.

قولُهُ: (منَ المَنْفَعَةِ) تقريرٌ لشدَّةِ هولِهِ إجمالاً.

قولُهُ: (بخِلافِ الدُّنيَا) أي: في نظرِ العوامِّ، فإنَّهم إذا شاهَدوا الغيبَ تيقَّنوا أنَّ الأمرَ كلَّهُ للهِ، فأمَّا أهلُ المعرفةِ فمشاهدَتَهُم للأمرِ اليومَ كمشاهدَتِهم يومئذٍ لا يزيدُهُم مشاهَدَةُ الغَيبِ عياناً على مشاهدَتِهم له تصديقاً كعامِرِ بن عبدِ قيسٍ حيثُ قالَ: لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازدَدْتُ يقيناً، وكحارِثَة أخبَرَ بحضرَةِ النَّبيِّ ﷺ يقول: كأنِّي أنظُرُ[3]، كذا في تفسيرِ السُّلميِّ[4]، والله أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٢) أي: مدني وشامي وكوفي، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٣) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه يوسف بن عطية متروك. «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٦٨)

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٤٢٥) عن زبيد مرسلاً.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٦٧) من حديث الحارث بن مالك رضي الله عنه.

(٤) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٩).

سورة الانفطار

وتسمَّى سورةَ «انفطرت»، وسورة «المنفطرة»، ولا خلاف في أنها مكيةٌ، ولا في أنها تسعَ عَشْرةَ آيةً. ومناسبتُها لِمَا قبلها معلومةٌ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ أي: انشقَّتْ لنزولِ الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] والكلامُ في ارتفاع السماء كما مرَّ في ارتفاع الشمس.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ أي: تساقطتْ متفرِّقةً، وهو استعارةٌ لإزالتها، حيث شبِّهتْ بجواهرَ قُطِعَ سِلْكُها، وهي مصرَّحةٌ أو مكنيةٌ.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ فُتحت وشقِّقتْ جوانبُها، فزال ما بينها من البرزخ، واختلط العَذْبُ بالأُجَاج، وصارت بحراً واحداً. وروي أنَّ الأرض تَنْشِفُ الماء[1] بعد امتلاء البحار فتصير مستويةً، أي: في أنْ لا ماءَ، وأريدَ أنَّ البحار تصير واحدةً أوَّلاً، ثم تَنْشَفُ الأرضُ جميعاً فتصير بلا ماء. ويحتمل أن يراد بالاستواء بعد النضوب عدمُ بقاء مغايضِ الماء؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٧].

وقرأ مجاهدٌ والربيعُ بنُ خثيم والزعفرانيُّ والثوري: «فُجِرتْ» بالتخفيف مبنيًا

---

(١) أي: تشربه، وأرض نَشِفَة، أي: تَنْشف الماء. ونَشِف الثوب العرق ـ كسَمِعَ ونَصَرَ ـ: شربه. القاموس (نشف).

للمفعول[١]. وعن مجاهد أيضاً: «فَجَرَتْ» به[٢] مبنيًّا للفاعل، بمعنى: بَغَتْ[٣] لزوالِ البرزخ، من الفجور، نظر إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] لأنَّ البغي والفجور أخوان.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ قُلِبَ ترابها الذي حُثِيَ على موتاها، وأُزيلَ وأُخرج مَن دُفِنَ فيها، على ما فسَّر به غيرُ واحدٍ. وأصل البعثرة على ما قيل: تبديدُ التراب ونحوه، وهو إنما يكون لإخراج شيءٍ تحته، فقد يُذكر ويراد معناه ولازمُه معاً، وعليه ما سمعتَ، وقد يُتَجوَّزُ به عن البعث والإخراج كما في «العاديات» حيث أسند فيها لما في القبور دونها كما هنا. وزعم بعضٌ أنه مشتركٌ بين النبش والإخراج.

وذهب بعضُ الأئمة كالزمخشريِّ والسهيليِّ إلى أنه مركَّبٌ من كلمتين اختصاراً، ويُسمَّى ذلك نحتاً، وأصلُ بُعْثِرَ: بُعِثَ وأُثِيرَ[٤]، ونظيره: بَسْمَلَ وحَمْدَلَ وحَوْقَلَ ودَمْعزَ، أي: قال بسم الله، والحمد تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى، وأدام تعالى عزَّه، إلى غير ذلك من النظائر، وهي كثيرةٌ في لغة العرب، وعليه يكون معناه النبشُ والإخراج معاً.

واعترضه أبو حيان بأنَّ الراء ليست من أحرف الزيادة[٥]، وهو توهُّمٌ منه فإنه فرَّق بين التركيب والنحتِ من كلمتين، والزيادةِ على بعض الحروف الأصول من كلمةٍ واحدة، كما فصَّل في «المُزْهِر»[٦] نقلاً عن أئمة اللغة، نعم الأصلُ عدمُ التركيب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٣٦.

(٢) أي: بالتخفيف، وهي في القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٣٦.

(٣) في الأصل و(م): نبعت، وهو تصحيف، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٢٧، والبحر ٨/ ٤٣٦، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٢٠.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٢٢٧، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٢.

(٥) البحر ٨/ ٤٣٦.

(٦) في الأصل و(م) الزهر، وهو تصحيف، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٢، وينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١/ ٤٨٢ و٢/ ٦ وما بعدها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ جوابُ «إذا» لكنْ لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نَشْرِ الصحف، لِمَا عرفْتَ أنَّ المراد بها زمانٌ واحدٌ مبدؤه قبيل النفخة الأولى، أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنةٌ متعدِّدةٌ بحسب كلمة «إذا»، وإنما كرِّرتْ لتهويل ما في حيِّزها من الدواهي، والكلامُ فيه كالذي مرَّ في نظيره.

ومعنى ما قدَّم وأخَّر: ما أَسْلَفَ من عملِ خيرٍ أو شرٍّ، وأخَّر من سنَّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ يُعمل بها بعده؛ قاله ابن عباس وابن مسعود.

وعن ابن عباس أيضاً: ما قدَّم من معصيةٍ وأخَّر من طاعةٍ. وهو قولُ قتادةَ.

وقيل: ما عمل ما كلِّف به وما لم يعملْ منه.

وقيل: ما قدَّم من أمواله لنفسه، وما أخَّر لورثته.

وقيل: أول عمله وآخره.

ومعنى عِلمِها بهما عِلْمُها التفصيليُّ حَسْبَما ذكر فيما قدَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ أي: أيُّ شيءٍ خَدعك وجرَّأك على عصيانه تعالى وارتكابِ ما لا يليقُ بشأنه عزَّ شأنُه وقد علمتَ ما بين يديك وما سيظهرُ من أعمالك عليك؟

والتعرُّضُ لعنوان كرمه تعالى دون قَهْرِه سبحانه من صفات الجلال المانعةِ ملاحظتُها عن الاغترار؛ للإيذان بأنه ليس مما يَصْلُحُ أن يكون مداراً لاغتراره حَسْبَما يُغويه الشيطانُ ويقول له: افعل ما شئتَ فإنَّ ربَّك كريمٌ قد تفضَّل عليك في الدنيا وسيفعل مثلَه في الآخرة، أو يقول له نحوَ ذلك ممَّا مبناه الكرمُ، كقول بعض شياطين الإنس:

تَكَثَّرْ ما استَطَعْتَ من الخطايا ... سَتَلْقَى في غدٍ ربًّا غفوراً
تَعَضُّ ندامةً كفَّيْكَ ممَّا ... تركتَ مخافةَ الذنبِ السرورا[1]

---

(١) البيتان لأبي نواس، وهما في ديوانه ص٣٠٧ باختلاف يسير.

فإنه قياسٌ عقيمٌ وتمنيةٌ باطلةٌ، بل هو مما يوجب المبالغةَ في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتنابِ عن الكفر والعصيان دون العكس، ولذا قال بعض العارفين: لو لم أَخَفِ الله تعالى لم أَعْصِه[1]. فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربِّك الموصوفِ بما يَزْجُر عنه ويَدْعُو إلى خلافه.

وقيل: إنَّ هذا تلقينٌ للحجَّة، وهو من الكرم أيضاً، فإنه إذا قيل له: ما غرَّك.. إلخ، يتفطَّنُ للجواب الذي لقِّنه ويقول: كرمُه، كما قيل: يُعرف حُسْنُ الخُلق والإحسان بقلَّة الآداب في الغلمان. ولم يرتَضِ ذلك الزمخشريُّ[2]، وكأن الاغترار بذلك في النظر الجليل، وإلَّا فهو في النظر الدقيق كما سمعتَ.

وعن الفضيل أنه قال: غرَّه سترُه تعالى المَرْخيُّ. وقال محمد بن السماك:

يا كاتمَ الذَّنْبِ أمَا تستحي ... واللهُ في الخلوة رائيكا
غرَّك من ربِّك إمهالُه ... وسَترُه طولَ مَساوِيْكا[3]

وقال بعضهم:

يقولُ مولاي أمَا تستحي ... ممَّا أرى من سوء أفعالك
فقلتُ يا مولاي رفقاً فقد ... جرَّأني كثرةُ أفضالك[4]

وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلَّط عليه.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ الآية فقال: الجهل[5]. وقاله عمر رضي الله عنه، وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] والفرقُ بين هذا وبين ما ذكروا لا يَخْفَى على ذي علم.

---

(١) أراد أنه إنما يطيع الله حبًّا له لا خوف عقابه، فلو لم يكن عقاب يخافه ما عصى الله، ففي الكلام محذوف، والتقدير: لو لم أخف الله لم أعصه فكيف وقد خفته. وينظر ما سلف ١/ ٤٩٢.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٢٨.

(٣) الوسيط ٤/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٢٢-١٢٣، وفيهما: ثانيكا، بدل: رائيكا.

(٤) البيتان لعبد الكريم القشيري، وهما في تفسيره لطائف الإشارات ٣/ ٦٩٧.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٧١، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٥ من طريق صالح بن مسمار عن النبي ﷺ مرسلاً.

واختلف في الإنسان المنادَى، فقيل: الكافر، بل عن عكرمة أنه أبيّ بنُ خلف.

وقيل: الأعمُّ الشامل للعصاة. وهو الوجهُ؛ لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصَّلِه، أعني «علمتْ نفسٌ» و«إنَّ الأبرار» و«إنَّ الفجَّار» وأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ ففي «الكشف»: إما أن يكون ترشيحاً لقوَّة اغترارهم بإيهامِ أنهم أسوأُ حالاً من المكذِّبين تغليظاً، وإما لصحة خطاب الكلِّ بما وُجد فيما بينهم.

وقرأ ابن جبير والأعمش: «ما أغرَّك» بهمزةٍ[1]، فاحتَمَلَ أن يكون تعجُّباً، وأن تكون «ما» استفهاميةً كما في قراءة الجمهور، و«أغرك» بمعنى: أدخلك في الغِرَّة.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ صفةٌ ثانيةٌ مقرِّرةٌ للربوبية مبيِّنةٌ للكرم، مُوميةٌ إلى صحة ما كذِّب من البعث والجزاء، موطِّئةٌ لِمَا بعدُ حيث نبَّهت على أنَّ مَن قدرَ على ذلك بدءاً أَقْدَرُ عليه إعادةً.

والتسوية: جَعْلُ الأعضاء سَوِيَّةً سليمةً معدَّة لمنافعها، وهي في الأصل جَعْلُ الأشياء على سواءٍ، فتكون على وَفْقِ الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتمُّ به.

وعَدْلُها: عَدْلُ بعضها ببعضٍ بحيث اعتدلتْ، من عَدَلَ فلاناً بفلان: إذا ساوى بينهما. أو: صَرْفُها عن خلقةٍ غيرِ ملائمة لها، مِن عَدَلَ بمعنى صَرَفَ. وذهب إلى الأول الفارسيُّ وإلى الثاني الفرَّاء[2].

وقرأ غير واحد مِن السبعة: «عدَّلك» بالتشديد[3]، أي: صيَّرك معتدلاً متناسبَ الخَلْقِ من غير تفاوتٍ فيه. ونقل القفَّال عن بعضهم أن عَدَل وعدَّل بمعنًى واحدٍ.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ أي: ركَّبك ووضعك في أيِّ صورة اقتضتها مشيئتُه تعالى وحكمتُه جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٨، والبحر ٨/ ٤٣٦.
(٢) الحجة للفارسي ٦/ ٣٨٢، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٤.
(٣) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٩، وقرأ الكوفيون بالتخفيف.

الحسن ونحوها، فالجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «ركَّبك» و«أيّ» للصفة، مثلُها في قوله:

أرأيــتَ أيَّ ســوالــفٍ وخُــدود بَــرزَتْ لـنـا بـيـن الـلِّـوَى وزَرُودِ[1]

ولمَّا أريدَ التعميمُ لم يُذكَرْ موصوفُها[2]، وجملة «شاء» صفةٌ لها، والعائد محذوفٌ، و«ما» مزيدةٌ. وإنما لم تُعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيانٌ لـ «عدلك»[3]. وجوِّز أن يكون الجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: ركَّبك كائناً في أيِّ صورةٍ شاءها.

وقيل: «أيّ» موصولة، صلتُها جملة «شاءها»، كأنه قيل: ركَّبك في الصورة التي شاءها. وفيه أنه صرَّح أبو عليٍّ في «التذكرة» بأنَّ «أياً» الموصولةَ لا تضاف إلى نكرة، وقال ابن مالك في «الألفية»: واخصُصَنْ بالمعرفة موصولةً أيًّا، وفي «شرحها» للسيوطي: مع اشتراطِ ما سبق - يعني كونَ المعرفة غيرَ مفردةٍ - فلا تُضِفْها إلى نكرةٍ خلافاً لابن عصفور.

ويجوز أن تُجعل «أيّ» شرطيةً والماضي في جوابها في معنى المستقبل إذا نظر إلى تعلُّق المشيئة وترتُّب التركيب عليه، فجيء بصورة[4] الماضي نظراً إلى المشيئة، وأداةِ الشرط نظراً إلى التعلُّق[5] والترتُّب.

ويجوز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بـ «عدلك»، وحينئذ يتعيَّن في «أيّ» الصفة، كأنه قيل: فعدلك في صورةٍ أيِّ صورةٍ، أي: في صورةٍ عجيبةٍ، ثم حذف الموصوف زيادةً للتفخيم والتعجيب، و«أيّ» هذه منقولةٌ من الاستفهامية، لكنها لانسلاخِ معناها عنها بالكلِّية عَمِلَ فيها ما قبلها، ويكون «ما شاء ركَّبك» كلاماً مستأنفاً،

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٣٨٤ برواية: عنَّت لنا بين اللوى فزرود. واللوى وزرود موضعين.

(٢) وأصله: في صورةٍ أيِّ صورةٍ، كما تقول: مررت برجلٍ أيِّ رجل. حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٣.

(٣) والتقدير: فعَدَلَك: ركَّبك في صورةٍ أيِّ صورةٍ من الصور العجيبة الحسنة التي شاءها. الدر المصون ٩/ ٧١١.

(٤) بعدها في (م): إلى، وهو خطأ.

(٥) في (م): المتعلق، وهو تصحيف.

و«ما» إما موصولةٌ أو موصوفةٌ مبتدأ أو مفعولاً مطلقاً لـ «ركَّبك»، أي: ما شاء من التركيب ركَّبك فيه، أو: تركيباً شاء ركَّبك.

وجوِّز أن تكون شرطيةً، و«شاء» فعلُ الشرط، و«ركَّبك» جزاؤه، أي: إنْ شاء تركيبك في أيِّ صورةٍ غيرِ هذه الصورة ركَّبك فيها، والجملةُ الشرطية في موضع الصفة لـ «صورة» والعائد محذوفٌ، ولم يجوِّزوا على هذا الوجه تعلُّقَ الظرف بـ «ركَّبك» لأنَّ معمول ما في حيِّز الشرط لا يجوز تقديمه عليه.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عن الاغترار بكرم الله تعالى وجَعْلِه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي، مع كونه موجباً للشكر والطاعة.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝﴾ إضرابٌ عن جملةٍ مقدَّرةٍ ينساق إليها الكلام، كأنه قيل بعد الرَّدع بطريقِ الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجترؤون على أعظمَ منه، حيث تكذِّبون بالجزاء والبعث رأساً أو بدين الإسلام اللَّذَيْنِ هما من جملة أحكامه، فلا تصدِّقون سؤالاً ولا جواباً ولا ثواباً ولا عقاباً، وفيه ترقٍّ من الأهون إلى الأغلظ.

وعن الراغب[1]: «بل» هنا لتصحيح الثاني وإبطالِ الأول، كأنه قيل: ليس هنا مقتضٍ لغرورهم ولكنَّ تكذيبهم حَمَلَهم على ما ارتكبوه.

وقيل: تقدير الكلام: إنكم لا تستقيمون على ما تُوْجِبُه نِعَمي عليكم وإرشادي لكم، بل تكذِّبون.. إلخ.

وقيل: إن «كلَّا» ردعٌ عمَّا دلَّ عليه هذه الجملة من نفيهم البعث، و«بل» إضرابٌ عن مقدَّرٍ، كأنه قيل: ليس الأمر كما تزعمون من نفي البعث والنشور، ثم قيل: لا تتبيَّنون بهذا البيان بل تكذِّبون.. إلخ.

وأدغم خارجة عن نافع «ركَّبك كلَّا» كأبي عمرو في إدغامه الكبير[2].

وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبةُ وأبو بشر: «يكذِّبون» بياء الغيبة[3].

(١) في مفرداته (بل)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٣٣.
(٢) البحر ٨/ ٤٣٧، وينظر مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير في التيسير ص٢٠.
(٣) النشر ٢/ ٣٩٩ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٧.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ حالٌ من فاعل «تكذِّبون» مفيدةٌ لبطلان تكذيبهم وتحقيقِ ما يكذِّبون به من الجزاء على الوجهين في «الدِّين» أي: تكذِّبون بالجزاء والحالُ إنَّ عليكم مِن قِبَلِنا لحافظين لأعمالكم ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ لها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الأفعال قليلاً كان أو كثيراً، ويضبطونه نقيراً أو قطميراً، وليس ذلك [إلا][(١)] للجزاء وإقامةِ الحجة، وإلا لكان عبثاً ينزَّه عنه الحكيم العليم.

وقيل: جيء بهذه الحال استبعاداً للتكذيب معها. وليس بذاك.

وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيمٌ لأمر الجزاء، وأنه عند الله عزَّ وجلَّ من جلائل الأمور، حيث استَعْمَلَ سبحانه فيه هؤلاء الكرامَ لديه تعالى.

ثم إنَّ هؤلاء الحافظين غيرُ المعقِّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] فمع الإنسان عدَّةُ ملائكةٍ؛ روي عن عثمان أنه سأل النبيَّ ﷺ: كم من ملك على الإنسان؟ فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين مَلَكاً[(٢)]. قاله المهدويُّ في «الفيصل»[(٣)].

وقيل: إنَّ كلَّ آدميٍّ يُوكل به من حين وقوعه نطفةً في الرَّحِم إلى موته أربعُ مئة ملكٍ، ومَن يكتب الأعمال ملكان: كاتبُ الحسنات وهو في المشهور على العاتق الأيمن، وكاتبُ ما سواها وهو على العاتق الأيسر، والأول أمينٌ على الثاني فلا يمكِّنُه من كتابة السيئة إلا بعد مضيِّ ستِّ ساعاتٍ من غير مكفِّرٍ لها. ويكتبان كلَّ شيءٍ حتى الاعتقادَ والعزمَ والتقريرَ، وحتى الأنين في المرض، وكذا يكتبان حسنات الصبيِّ على الصحيح.

ويفارقان المكلَّف عند الجماع، ولا يدخلان مع العبد الخلاء، وأخرج البزَّار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ينهاكم عن التعرِّي،

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعله التفصيل، وهو تفسير المهدوي المسمى: التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٨) من سورة ﴿قٓ﴾.

فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرامِ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حاجات: الغائط والجنابة والغُسْل»(١) ولا يمنع ذلك من كَتْبِهما ما يَصْدُر عنه.

ويجعل الله تعالى لهما أمارةً على الاعتقاد القلبيِّ ونحوِه. ويَلْزَمان العبد إلى مماته، فيقومان على قبره يسبِّحان ويهلِّلان ويكبِّران، ويُكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة إن كان مؤمناً، ويلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً.

واستظهر بعضهم أنهما اثنان بالشخص، وقيل: بالنوع، وقيل: كاتب الحسنات يتغيَّر دون كاتب السيئات. ونصُّوا على أنَّ المجنون لا حَفَظَةَ عليه. وورد في بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ بعض الحسنات ما يكتبها غير هذين الملكين.

والظواهر تدلُّ على أنَّ الكَتْبَ حقيقيٌّ، وعِلْمُ الآلةِ وما يُكتب فيه مفوَّضٌ إلى الله عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ نتيجة الحفظ والكَتْبِ من الثواب والعقاب، وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمَّا صفةٌ للجحيم، أوحالٌ من ضمير «الفجَّار» في الخبر، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من تهويلها، كأنه قيل: ما حالُهم فيها؟ فقيل: يقاسُون حرَّها.

وقرأ ابن مقسم: «يُصَلَّونها» مشدَّداً مبنيًّا للمفعول(٢).

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ يومَ الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به استقلالاً أو في ضِمْن تكذيبهم بالإسلام.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ طرفةَ عينٍ، فإنَّ المراد استمرارُ النفي لا نفيُ

---

(١) كشف الأستار (٣١٧).

(٢) البحر ٨/ ٤٣٧.

الاستمرار، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: ٣٧] في الدلالة على سرمدية العذاب، وأنهم لا يزالون محسِّين بالنار.

وقيل: معناه: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلِّية، بل كانوا يجدون سمومَها في قبورهم حَسْبَما قال النبيُّ ﷺ: «القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حفرةٌ من حفر النار»[1] على أنَّ «غائبين» من حكاية الحال الماضية.

والجملةُ، قيل: على الوجهين في موضع الحال، لكنها على الأول حالٌ مقدَّرةٌ، وعلى الثاني من باب ﴿جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء: ٩٠].

وقيل: إنها على الأول حاليةٌ دون الثاني؛ لانفصال ما بين صُلِيِّ النار وعذابِ القبر بالبعث وما في موقف الحساب، بل هي عليه معطوفةٌ على ما قبلها، ويُحتَمَلُ اسمُ الفاعل فيها ـ أعني «غائبين» ـ على الحال، أي: وما هم عنها بغائبين الآن، ليغايِرَ المعطوفَ عليه الذي أريد به الاستقبال، والكلام على ما عُرِفَ في إخباره تعالى من التعبير عن المستقبل بغيره لتحقُّقه، فلا يَرِدُ أنَّ بعض الفجَّار في زمرة الأحياء بعدُ، وبعضَهم لم يُخلق كذلك، وعذابُ القبر بعد الموت، فكيف يُحْمَل «غائبين» على الحال؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ تفخيمٌ لشأن يوم الدين الذي يكذِّبون به إثر تفخيمٍ، وتعجيبٌ منه بعد تعجيبٍ، والخطابُ فيه عامٌّ، والمراد أن كنهَ أمره بحيث [لا] تدركه درايةُ دارٍ[2].

وقيل: الخطابُ لسيد المخاطبين ﷺ. وقيل: للكافر.

والإظهارُ في موضع الإضمار تأكيدٌ لهول يوم الدين وفخامته. وقد تقدَّم الكلام في تحقيق كون الاستفهام في مثل ذلك مبتدأً أو خبراً مقدَّماً[3]، فلا تغفل.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٦٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: حسن غريب. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٦٠٨) من طريق آخر عن أبي هريرة. وضعَّف سندهما العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١١٨.

(٢) في الأصل و(م): داري، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٢٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣١، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة المرسلات.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ بيانٌ إجماليٌّ لشأن يوم الدين إثر إبهامه وإفادةِ خروجه عن دائرة الدراية، قيل: بطريق إنجاز الوعد؛ فإنَّ نفي الإدراء مشعرٌ بالوعد الكريم بالإدراء، على ما روي عن ابن عباس من أنه قال: كلُّ ما في القرآن من قوله تعالى: «ما أدراك» فقد أدراه، وكلُّ ما فيه من قوله عز وجل: «ما يدريك» فقد طوي عنه[(١)].

و«يوم» منصوبٌ بإضمارِ «اذكر»، كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتَشْويقِه ﷺ إلى معرفته: اذكر يومَ لا تملك نفسٌ من النفوس لنفسٍ من النفوس مطلقاً ـ لا للكافرة فقط كما روي عن مقاتل ـ شيئاً من الأشياء.. إلخ، فإنه يُدْريك ما هو.

أو مبنيٌّ على الفتح محلُّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ على رأي مَن يرى جواز بناء الظرف إذا أضيف إلى غير متمكِّنٍ وهم الكوفيون، أي: هو يومَ لا تملك.. إلخ.

وقيل: هو نصبٌ على الظرفية بإضمار «يدانون»، أو «يشتدُّ الهول»، أو نحوِه مما يدلُّ عليه السياق. أو هو مبنيٌّ على الفتح محلُّه الرفع على أنه بدلٌ من «يوم الدين». وكلاهما ليسا بذاك لخلوِّهما عن إفادة ما أفاده ما قبلُ.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو: «يومُ» بالرفع بلا تنوينٍ[(٢)] على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هو يومُ، لا بدلٌ؛ لمَا سمعتَ آنفاً.

وقرأ محبوبٌ عن أبي عمرو: «يومٌ» بالرفع والتنوين[(٣)]، فجملةُ «لا تملك» إلخ في موضع الصفة له والعائدُ محذوفٌ، أي: فيه.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢/١٢٧، وتفسير أبي السعود ٩/١٢٣، وهو مروي عن سفيان بن عيينة كما في صحيح البخاري قبل الحديث رقم (٢٠١٤) تعليقاً، وعن يحيى بن سلّام كما في النكت والعيون ٦/٧٦.

(٢) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/٣٩٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والكلام من البحر ٨/٤٣٧.

(٣) البحر ٨/٤٣٧، وهو أيضاً مرفوع على تقدير: هو يومٌ كما ذكر أبو حيان.

و«الأمر» كما قال في «الكشف»: واحدُ الأوامر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فإن الأمر من شأن الملك المطاع، واللام للاختصاص، أي: الأمر له تعالى لا لغيره سبحانه، لا شركةً ولا استقلالاً، أي: إنَّ التصرُّف جميعَه في قبضة قدرته عز وجل لا غير، وفيه[١] تحقيقُ قوله تعالى: (لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا) لدلالته على أنَّ الكلَّ مَسُوسُون مطيعون مشتغلون بحال أنفسهم، مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية.

وقيل: واحد الأمور، أعني الشأن. وليس بذاك، وقول قتادة فيما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر: أي: ليس ثَمَّ أحدٌ يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً غير ربِّ العالمين[٢]، تفسيرٌ لحاصل المعنى، لا إيثارٌ لذلك، هذا وقولُه وحده ليس بحجةٍ يترك له الظاهر، والمنازعةُ في الظهور مكابرةٌ.

وأيًّاما كان فلا دلالةَ في الآية على نفي الشفاعة يومَ القيامة كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): وفي، وهو تصحيف.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.

(٨٣) سورة المطففين مكية
وآياتها ست وثلاثون

● **هذه** السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن ، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حساباً للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿ويلٌ للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين﴾ .

● **ثم تحدثت** عن الأشقياء الفجار ، وصوَّرت جزاءهم يوم القيامة ، حيث يلقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ، والذل والهوان ﴿كلاَّ إنَّ كتابَ الفُجَّارِ لفي سِجِّينٍ . وما أدراك ماسجين ؟ كتابٌ مرقوم . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم ..﴾ الآيات

● **ثم عرضت** السورة الكريمة لصفحة المتقين الأبرار ، وماهم من النعيم الخالد الدائم ، في دار العز والكرامة ، وذلك في مقابلة ما للأشقياء الأشرار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم

نضرة النعيم . يُسقون من رحيقٍ مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال ، من عباد الله الأبرار الأخيار ، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون منهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أُرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرونَ . هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ .

سورة المطففين

[١٠٠٧] أخرج النسائي وابن ماجه[١] بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي [ﷺ] المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾[٢] فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

* * *

[١٠٠٧] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٣).
(٢) سورة المطففين: الآية (١).

سورة المطففين

ثلاثون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾

اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر؛ لأنه تعالى بيَّن في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر كله لله، وذلك يقتضي تهديدًا عظيمًا للعصاة؛ فلهذا أتبعه بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد الزجر عن التطفيف، وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية، وذلك لأن الكثير يظهر فيُمنع منه، وذلك القليل إن ظهر أيضًا مُنع منه، فعلمنا أن التطفيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية، **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: الويل كلمة تُذكر عند وقوع البلاء، يقال: ويل لك، وويل عليك.

المسألة الثانية: في اشتقاق لفظ المطفف قولان: الأول: أن طف الشيء هو جانبه وحرفه، يقال: طف الوادي والإناء، إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلئ فهو طِفَافه وطَفَافه وطَفَفه، ويقال: هذا طف المكيال وطفافه، إذا قارب ملأه لكنه بعد لم يمتلئ، ولهذا قيل: الذي يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف، يعني أنه إنما يبلغ الطفاف. **والثاني:** وهو قول الزجاج: أنه إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف؛ لأنه يكون الذي لا يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف، **وههنا سؤالات:**

الأول: وهو أن الاكتيال الأخذ بالكيل، كالاتزان الأخذ بالوزن، ثم إن اللغة المعتادة أن يقال: اكتلت من فلان، ولا يقال: اكتلت على فلان، فما الوجه فيه ههنا؟ **الجواب من وجهين الأول:** لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً فيه إضرار بهم وتحامل عليهم، أقيم على مقام من الدالة على ذلك. **الثاني:** قال الفراء: المراد اكتالوا من الناس، و(على) و(مِن) في هذا الموضع يعتقبان لأنه حق عليه، فإذا قال اكتلت عليك، فكأنه قال أخذت ما عليك، وإذا قال: اكتلت منك، فهو كقوله: استوفيت منك.

السؤال الثاني: هو أن اللغة المعتادة أن يقال: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، ولا يقال كلته ووزنته فما وجه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؟ **والجواب من وجوه: الأول:** أن المراد من قوله: (كالوهم أو وزنوهم) كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. قال الكسائي

والفراء: وهذا من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم، يقولون: زني كذا، كلي كذا. ويقولون صدتك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، فعلى هذا الكناية في كالوهم ووزنوهم في موضع نصب. **الثاني:** أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم. **الثالث:** يروى عن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيدًا لما في كالوا ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا، وزعم الفراء والزجاج أنه غير جائز؛ لأنه لو كان بمعنى كالوهم لكان في المصحف ألف مثبتة قبل (هم) واعترض صاحب (الكشاف) على هذه الحجة، فقال: إن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الحظ. والجواب أن إثبات هذه الألف لو لم يكن معتادًا في زمان الصحابة فكان يجب إثباتها في سائر الأعصار، لما أنا نعلم مبالغتهم في ذلك، فثبت أن إثبات هذه الألف كان معتادًا في زمان الصحابة فكان يجب إثباته ههنا.

السؤال الثالث: ما السبب في أنه قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا﴾ ولم يقل إذا اتزنوا، ثم قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ فجمع بينهما؟ **الجواب:** أن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر

السؤال الرابع: اللغة المعتادة أن يقال: خسرته، فما الوجه في أخسرته؟ **الجواب:** قال الزجاج: أخسرت الميزان وخسرته سواء، أي نقصته، وعن المؤرج: يُخسرون: ينقصون بلغة قريش.

المسألة الثالثة: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك، وقيل: كان أهل المدينة تجارًا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «**خَمْسٌ بِخَمْسٍ**» قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس؟ قال: «**مَا نقص قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيْلَ إِلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ**»(١).

المسألة الرابعة: الذم إنما لحقهم بمجموع أنهم يأخذون زائدًا، ويدفعون ناقصًا، ثم اختلف العلماء: فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلا إذا بلغ التطفيف حد الكثير، وهو نصاب السرقة. وقال آخرون بل ما يصغر ويكبر دخل تحت الوعيد، لكن بشرط أن لا يكون معه توبة ولا طاعة أعظم منها. وهذا هو الأصح.

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٤٥) حديث رقم (١١٠١٤) من طريق إسحاق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن الضحاك بن مزاحم عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما. . . به والروياني في (مسنده) (٢/ ٤١٥) حديث رقم (١٤٢٣) من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر. . . به، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٥٥٥١) وقال: حسن. والهيثمي في (المجمع) (٣/ ٢٠٣) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، لينه الحاكم وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

المسألة الخامسة: احتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية، قالوا: وهذه الآية واردة في أهل الصلاة لا في الكفار، والذي يدل عليه وجهان. الأول: أنه لو كان كافرًا لكان ذلك الكفر أولى باقتضاء هذا الويل من التطفيف، فلم يكن حينئذٍ للتطفيف أثر في هذا الويل، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف. الثاني: أنه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤، ٥] فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة. والجواب عنه ما تقدم مرارًا، ومن لواحق هذه المسألة أن هذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك ومن يعزم عليه إذ العزم عليه أيضًا من الكبائر.

واعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم؛ وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر المكيال والميزان؛ فلهذا السبب عظَّم الله أمره فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩] وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وعن قتادة: «**أَوْفِ يَا بْنَ آدَمَ الْكَيلَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُوَفَّى لَكَ، وَاعْدِلْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُعْدَلَ لَكَ**» وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين! أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم في أخذ القليل، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟!

قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾

اعلم أنه تعالى وبخ هؤلاء المطففين فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ الذين يطففون ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وهو يوم القيامة، وفي الظن ههنا قولان: الأول: أن المراد منه العلم، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدقين بالبعث، ويحتمل أن لا يكونوا كذلك، أما الاحتمال الأول: فهو ما روي أن المسلمين من أهل المدينة وهم الأوس والخزرج كانوا كذلك، وحين ورد النبي ﷺ كان ذلك شائعًا فيهم، وكانوا مصدقين بالبعث والنشور، فلا جرم ذُكروا به، وأما إن قلنا بأن المخاطبين بهذه الآية ما كانوا مؤمنين بالبعث إلا أنهم كانوا متمكنين من الاستدلال عليه؛ لما في العقول من إيصال الجزاء إلى المحسن والمسيء، أو إمكان ذلك إن لم يثبت وجوبه، وهذا مما يجوز أن يخاطب به من ينكر البعث، والمعنى ألا يتفكرون حتى يعلموا أنهم مبعوثون، لكنهم قد أعرضوا عن التفكر، وأراحوا أنفسهم عن متاعبه ومشاقه، وإنما يجعل العلم الاستدلال ظنًّا، لأن أكثر العلوم الاستدلالية راجع إلى الأغلب في الرأي، ولم يكن كالشك الذي يعتدل الوجهان فيه، لا جرم سمي ذلك ظنًّا. القول الثاني: أن المراد من الظن ههنا

هو الظن نفسه لا العلم، ويكون المعنى أن هؤلاء المطففين هب أنهم لا يجزمون بالبعث ولكن لا أقل من الظن، فإن الأليق بحكمة الله ورحمته ورعايته مصالح خلقه أن لا يهمل أمرهم بعد الموت بالكلية، وأن يكون لهم حشر ونشر، وأن هذا الظن كاف في حصول الخوف، كأنه سبحانه وتعالى يقول: هب أن هؤلاء لا يقطعون به أفلا يظنونه أيضًا؟!

فأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (يَوْمَ) بالنصب والجر، أما النصب فقال الزجاج: يوم منصوب بقوله: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ والمعنى ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة. وقال الفراء: وقد يكون في موضع خفض إلا أنه أضيف إلى (يَفعل) فنُصب، وهذا كما ذكرنا في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ [الانفطار: ١٩] وأما الجر فلكونه بدلاً من ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

المسألة الثانية: هذا القيام له صفات:

الصفة الأولى: سببه، وفيه وجوه: أحدها: وهو الأصح أن الناس يقومون لمحاسبة رب العالمين، فيظهر هناك هذا التطفيف الذي يُظن أنه حقير، فيعرف هناك كثرته واجتماعه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وثانيها: أنه سبحانه يرد الأرواح إلى أجسادها فتقوم تلك الأجساد من مراقدها، فذاك هو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وثالثها: قال أبو مسلم معنى: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ هو كقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي لعبادته، فقوله: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لمحض أمره وطاعته لا لشيء آخر، على ما قرره في قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الصفة الثانية: كيفية ذلك القيام، روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «**يَقُومُ أَحَدُكُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**» (١) وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة، فلما بلغ قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بكى نحيبًا حتى عجز عن قراءة ما بعده.

الصفة الثالثة: كمية ذلك القيام، روى عنه عليه السلام أنه قال: «**يَقُومُ النَّاسُ مِقْدَارَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، لَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ**» (٢) وعن ابن مسعود: «**يَمْكُثُونَ أَرْبَعِينَ عَامًا ثُمَّ يُخَاطَبُونَ**» (٣) وقال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة المطففين) (٤/ ١٨٨٤) حديث رقم (٤٦٥٤) من طريق مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر... به، ورواه ابن الأنباري في (المعجم) (١/ ٣٥) من طريق إبراهيم بن طهمان قال: حدثني موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٩٥/ ٢٨٦٢) من طريق يحيى بن سعيد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر... به والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٢٧٩) من طريق عيسى بن يونس عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر... به وبيبي في (جزئها) (١/ ٥٣) من طريق سليمان بن حبان أبي خالد الأحمر عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر... به.

(٢) أورده ابن عادل في (تفسير اللباب) (١٦/ ٢٦٢) وقال: وفي الحديث... ثم ذكره من غير إسناد.

(٣) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٢٨١) من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي قال: حدثنا شريك عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن مسعود... به، وفي إسناده يحيى بن طلحة اليربوعي قال الحافظ: لين الحديث.

ابن عباس: وهو في حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة.

واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعًا من التهديد، فقال أولاً: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]وهذه الكلمة تُذكر عند نزول البلاء، ثم قال ثانيًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، ثم قال ثالثًا: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة، ثم قال رابعًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه نوعان من التهديد: أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار. والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربًا للعالمين.

ثم ههنا سؤال وهو كأنه قال قائل: كيف يليق بك مع غاية عظمتك أن تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف؟ فكأنه سبحانه يجيب فيقول: عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة والعظمة في الحكمة، فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربًّا للعالمين، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف للمظلوم من الظالم بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب وإخفائه، وفي طلب الإنصاف والانتصاف، ويقال: من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه – من هذه الجملة، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه، فهو من هذه الجملة، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقًّا.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ ﴾

واعلم أنه سبحانه لما بين عظم هذا الذنب أتبعه بذكر لواحقه وأحكامه:

فأولها:قوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا: الأول:أنه ردع وتنبيه، أي ليس الأمر على ماهم عليه من التطفيف والغفلة، عن ذكر البعث والحساب فليرتدعوا، وتمام الكلام ههنا.

الثاني:قال أبو حاتم: ﴿ كَلَّآ ﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ وهو قول الحسن.

النوع الثاني: أنه تعالى وصف كتاب الفجار بالخيبة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم.

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: السِّجين اسم علم لشيء معين أو اسم مشتق عن معنى؟ قلنا: فيه قولان:

الأول: وهو قول جمهور المفسرين: أنه اسم علم على شيء معين، ثم اختلفوا فيه: فالأكثرون على أنه الأرض السابعة السفلى، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد، وروى البراء أنه عليه السلام قال: «سِجِّينٌ أَسْفَلُ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1] قال عطاء الخراساني: وفيها إبليس وذريته، وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: «سِجِّينٌ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ»[2] وقال الكلبي ومجاهد: سجين صخرة تحت الأرض السابعة.

القول الثاني: أنه مشتق، وسمي سِجينًا فعيلاً من السجن، وهو الحبس والتضييق، كما يقال: فِسِّيق من الفسق، وهو قول أبي عبيدة والمبرد والزجاج، قال الواحدي: وهذا ضعيف والدليل على أن سجينًا ليس مما كانت العرب تعرفه قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت وقومك. ولا أقول: هذا ضعيف، فلعله إنما ذُكر ذلك تعظيمًا لأمر سجين، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[الانفطار: ١٧] قال صاحب (الكشاف): والصحيح أن السِّجين فِعيل، مأخوذ من السجن، ثم إنه ههنا اسم علم منقول، من وصف كحاتم وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سببٍ واحد وهو التعريف. إذا عرفت هذا فنقول: قد ذكرنا أن الله تعالى أجرى أمورًا مع عباده على ما تعارفوه من التعلمل فيما بينهم وبين عظمائهم، فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين، والسجين موصوف بالتسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين، ولا شك أن العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين، كل ذلك من صفات الكمال والعزة، وأضدادها من صفات النقص والذلة، فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلة والحقارة، قيل: إنه في موضع التسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين، ولما وصف كتاب الأبرار بالعزة قيل: إنه ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨]. و﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢١].

السؤال الثاني: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ ثم فسر سجينًا بـ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟ أجاب القفال: فقال: قوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ ليس تفسيرًا لسجين، بل التقدير: كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار كتاب مرقوم،

---

(١) رواه البغوي في (تفسيره) (٨/ ٣٦٣)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٣٠) كلاهما من طريق موسى بن محمد، حدثنا الحسن بن علوية، أخبرنا إسماعيل بن عيسى حدثنا المسيب، حدثنا الأعمش عن المنهال عن زاذان عن البراء. . . به.

(٢) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٣٢) من طريق مسعود بن موسى بن مشكان قال: حدثنا نضر بن خزيمة عن شعيب بن صفوان عن القرظي عن أبي هريرة. . . به، وفي مسنده شعيب بن صفوان قال ابن حجر: مقبول. وعند الذهبي في الكشف قال: وثق. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه.

فيكون هذا وصفًا لكتاب الفجار بوصفين: أحدهما: أنه في سجين، والثاني: أنه مرقوم، ووقع قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ فيما بين الوصفين معترضًا، والله أعلم. والأولى أن يقال: وأي استبعاد في كون أحد الكتابين في الآخر، إما بأن يوضع كتاب الفجار في الكتاب الذي هو الأصل المرجوع إليه في تفصيل أحوال الأشقياء، أو بأن ينقل ما في كتاب الفجار إلى ذلك الكتاب المسمى بالسجين، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون المراد من الكتاب: الكتابة فيكون في المعنى: كتابة الفجار في سجين، أي كتابة أعمالهم في سجين، ثم وصف السجين بأنه ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ فيه جميع أعمال الفجار.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** مرقوم، أي مكتوبة أعمالهم فيه. **وثانيها:** قال قتادة: رُقم لهم بسوء، أي كُتب لهم بإيجاب النار. **وثالثها:** قال القفال: يحتمل أن يكون المراد أنه جعل ذلك الكتاب مرقومًا، كما يرقم التاجر ثوبه علامة لقيمته، فكذلك كتاب الفاجر جُعل مرقومًا برقم دال على شقاوته. **ورابعها:** المرقوم ههنا المختوم، قال الواحدي: وهو صحيح لأن الختم علامة، فيجوز أن يسمى المرقوم مختومًا. **وخامسها:** أن المعنى كتاب مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينمحي.

أما قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ **ففيه وجهان: أحدهما:** أنه متصل بقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ويل لمن كذب بأخبار الله. **والثاني:** أن قوله: ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ معناه رُقم برقم يدل على الشقاوة يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم من ذلك الكتاب. ثم إنه تعالى أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ومعناه أنه لا يكذب بيوم الدين إلا من كان موصوفًا بهذه الصفات الثلاثة: **فأولها:** كونه معتديًا، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق. **وثانيها:** الأثيم وهو مبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي. وأقول: الإنسان له قوتان: قوة نظرية وكمالها في أن يعرف الحق لذاته، وقوة عملية وكمالها في أن يعرف الخير لأجل العمل به، وضد الأول أن يصف الله تعالى بما لا يجوز وصفه به، فإن كل من منع من إمكان البعث والقيامة إنما منع إما لأنه لم يعلم تعلق علم الله بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، أو لأنه لم يعلم تعلق قدرة الله بجميع الممكنات. فهذا الاعتداء ضد القوة العملية، هو الاشتغال بالشهوة والغضب وصاحبه هو الأثيم، وذلك لأن المشتغل بالشهوة والغضب قلما يتفرغ للعبادة والطاعة، وربما صار ذلك مانعًا له عن الإيمان بالقيامة.

وأما الصفة الثالثة: للمكذبين بيوم الدين فهو قوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ والمراد منه الذين ينكرون النبوة، والمعنى إذا تلي عليه القرآن قال: (أساطير الأولين) وفيه وجهان: أحدهما: أكاذيب الأولين. والثاني: أخبار الأولين وأنه عنهم أُخذ، أي يقدح في كون القرآن من عند الله بهذا الطريق. وههنا بحث آخر: وهو أن هذه الصفات الثلاثة هل المراد منها

شخص معين أولاً؟ فيه قولان: **الأول:** وهو قول الكلبي: أن المراد منه الوليد بن المغيرة. وقال آخرون: إنه النضر بن الحارث. واحتج من قال: (إنه الوليد) بأنه تعالى قال في سورة (القلم): ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] إلى قوله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٢] إلى قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] فقيل: إنه الوليد بن المغيرة، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: وما يكذب بيوم الدين من قريش أو من قومك إلا كل معتد أثيم، وهذا هو الشخص المعين. **والقول الثاني:** أنه عام في حق جميع الموصوفين بهذه الصفات.

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فالمعنى ليس الأمر كما يقوله من أن ذلك أساطير الأولين، بل أفعالهم الماضية صارت سببًا لحصول الرين في قلوبهم. ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه، ولأهل التفسير وجوه أخر: **أما أهل اللغة:** فقال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به. قال الليث: ران النعاس والخمر في الرأس، إذا رسخ فيه، وهو يريد رينًا، وريونًا، ومن هذا حديث عمر في أسيفع جهينة لما ركبه الدين (أَصْبَحَ قَدْ رِينَ بِهِ) قال أبو زيد: يقال: رين بالرجل يران به رينًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه. قال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسْوَد القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين، والأقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب. قال الزجاج: ران على قلوبهم بمعنى غطى على قلوبهم، يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا، أي غشيه، والرين كالصدإ يغشى القلب ومثله الغين. **أما أهل التفسير فلهم وجوه:** قال الحسن ومجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ عَلَى الذَّنْبِ يُوقِدُ عَلَى صَاحِبِهِ جَحِيمًا ضَخْمَةً**»(١) وعن مجاهد: القلب كالكف، فإذا أذنب الذنب انقبض، وإذا أذنب ذنبًا آخر انقبض ثم يطبع عليه وهو الرين. وقال آخرون: كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله، وروي هذا مرفوعًا في حديث أبي هريرة.

قلت: لا شك أن تكرر الأفعال سبب لحصول ملكة نفسانية، فإن من أراد تعلم الكتابة فكلما كان إتيانه بعمل الكتابة، أكثر كان اقتداره على عمل الكتابة أتم، إلى أن يصير بحيث يقدر على الإتيان بالكتابة من غير روية ولا فكرة، فهذه الهيئة النفسانية لما تولدت من تلك الأعمال الكثيرة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الهيئة النفسانية، إذا عرفت هذا فنقول: إن الإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب، حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة،

---

(١) إسناده جيد: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٧٨) من طريق الخزاعي وأبي سعيد... به ثلاثتهم (الخزاعي، وأبو سعيد، منصور) عن سعيد بن مسلم... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في التوبة) (٢/ ١٨٦) حديث رقم (٢٧٢٦) عن مالك عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن عوف بن الحارث عن عائشة... بنحوه.

فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثر في حصولها، فذلك هو المراد من قولهم: (كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب) ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة، لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة، فبعضها يكون رينًا وبعضها طبعًا وبعضها أقفالاً، قال القاضي: ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالاً بعد حال متجرئين عليه وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع، فاستمروا وصعب الأمر عليهم، ولذلك بَيَّن أن علة الرين كسبهم، ومعلوم إن إكثارهم من اكتساب الذنوب لا يمنع من الإقلاع والتوبة، وأقول: قد بينا أن صدور الفعل حال استواء الداعي إلى الفعل والداعي إلى الترك محال لامتناع ترجيح الممكن من غير مرجح، فبأن يكون ممتنعًا حال المرجوحية كان أَوْلى، ولما سلم القاضي أنهم صاروا بسبب الأفعال السالفة راجحًا، فوجب أن يكون الإقلاع في هذه الحالة ممتنعًا، وتمام الكلام قد تقدم مرارًا في هذا الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فاعلم أنهم ذكروا في ﴿كَلَّآ﴾ وجوهًا: **أحدها:** قال صاحب (الكشاف): ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الكسب الرائن عن قلوبهم. **وثانيها:** قال القفال: إن الله تعالى حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم أنه كان يقول: إن كانت الآخرة حقًا، فإن الله تعالى يعطيه مالاً وولدًا، ثم إنه تعالى كَذَّبه في هذه المقالة فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] وقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ولما كان هذا مما قد تردد ذكره في القرآن، ترك الله ذكره ههنا وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة حسنى بل هم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون. **وثالثها:** أن يكون ذلك تكريرًا وتكون ﴿كَلَّآ﴾ هذه هي المذكورة في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾.

أما قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فقد احتج الأصحاب على أن المؤمنين يرونه سبحانه، قالوا: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة.

وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار، وما يكون وعيدًا وتهديدًا للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤْمنْ أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه: **أحدها:** قال الجبائي: المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون، أي ممنوعون، كما يقال في الفرائض: الإخوة يحجبون الأم على الثلث، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول: (هو حاجب) لأنه يمنع من رؤيته. **وثانيها:** قال أبو مسلم: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي غير مقربين، والحجاب الرد وهو ضد القبول، والمعنى هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] **وثالثها:** قال القاضي: الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية، فإنه قد يقال: (حُجب فلان عن الأمير) وإن كان قد رآه من البعد، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال، بل يجب أن يُحمل على صيرورته ممنوعًا عن وجدان رحمته تعالى. **ورابعها:** قال صاحب (الكشاف): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم. **والجواب:** لا شك أن من مُنع من رؤية شيء يقال: إنه حُجب عنه، وأيضًا من منع من الدخول على الأمير يقال: إنه حجب عنه، وأيضًا يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعًا للاشتراك في اللفظ، وذلك هو المنع، ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية، وفي الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه، وفي الثالثة حصل المنع من استحقاق الثلث، فيصير تقدير الآية: كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لممنوعون، والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى، وهو إما العلم وإما الرؤية، ولا يمكن حمله على العلم؛ لأنه ثابت بالاتفاق للكفار، فوجب حمله على الرؤية. أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، وكذا ما قاله صاحب (الكشاف): ترك للظاهر من غير دليل. ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين، قال مقاتل: معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم، وقال الكلبي: يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يُحجب عن رؤية ربه. وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه. وعن الشافعي لما حجب قومًا بالسخط دل على أن قومًا يرونه بالرضا.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ فالمعنى لما صاروا محجوبين في عرصة القيامة إما عن رؤية الله على قولنا، أو عن رحمة الله وكرامته على قول المعتزلة، فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار، ثم إذا دخلوا النار، وبُخوا بتكذيبهم بالبعث والجزاء فقيل لهم: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، والآن قد عاينتموه فذوقوه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ومن أن كتاب الله أساطير الأولين. واعلم أن لأهل اللغة في لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ أقوالاً، ولأهل التفسير أيضًا أقوالاً:

أما أهل اللغة قال أبو الفتح الموصلي: ﴿عِلِّيِّينَ﴾ جمع عِلي وهو فِعِّيل من العلو. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع، كما تقول: هذه قنسرون

ورأيت قنسرين. وأما المفسرون فروي عن ابن عباس أنها السماء الرابعة، وفي رواية أخرى أنها السماء السابعة، وقال قتادة ومقاتل: هي قائمة العرش اليمنى فوق السماء السابعة. وقال الضحاك: هي سدرة المنتهى. وقال الفراء: يعني ارتفاعًا بعد ارتفاع لا غاية له. وقال الزجاج: أعلى الأمكنة. وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوظة بالجلالة قد عظَّمها الله وأعلى شأنها.

وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة. وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير لأنه تعالى قال لرسوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تنبيهًا له على أنه معلوم له، وأنه سيعرفه ثم قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ فبيَّن أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له، ولا يمتنع أن الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار فإنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وُكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حسابًا يسيرًا؛ لأن هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء صح قول من تأول ذلك على أنه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذًا كان الذي ذكرناه أَوْلى.

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بينا أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم، وفي الآية وجه آخر، وهو أن المراد من الكتاب الكتابة، فيكون المعنى أن كتابة أعمال الأبرار في عليين، ثم وصف عليين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع أعمال الأبرار. وهو قول أبي مسلم.

أما قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ ففيه تأويلان: **أحدهما:** أن المراد بالكتاب المرقوم كتاب أعمالهم. **والثاني:** أنه كتاب موضوع في عليين، كُتب فيه ما أعد الله لهم من الكرامة والثواب. واختلفوا في ذلك الكتاب: فقال مقاتل: إن تلك الأشياء مكتوبة لهم في ساق العرش. وعن ابن عباس أنه مكتوب في لوح من زبرجد معلق تحت العرش. وقال آخرون: هو كتاب مرقوم بما يوجب سرورهم، وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار بما يسوءهم، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة الذي هم في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، ومن قال: (إنه كتاب الأعمال) قال: يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة كرامة للمؤمن.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما عظَّم كتابهم في الآية المتقدمة، عظَّم بهذه الآية منزلتهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة: **أولها:** قوله: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ قال القفال: الأرائك: الأسِرَّة في الحجال، ولا تسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا كانت كذلك. وعن الحسن: كنا لا ندري ما الأريكة حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك.

أما قوله: ﴿ يَنظُرُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** ينظرون إلى أنواع نعمهم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها، قال عليه السلام: «يَلْحَظُ الْمُؤْمِنُ فَيُحِيطُ بِكُلِّ مَا آتَاهُ اللَّهُ، وَإِنَّ أَدْنَاهُمْ يَتَرَاءَى لَهُ مِثْلُ سَعَةِ الدُّنْيَا» (١) **والثاني:** قال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون في النار. **والثالث:** إذا اشتهوا شيئًا نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشيء في الحال. واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد وهو المنظور إليه، فوجب حمل اللفظ على الكل، ويخطر ببالي تفسير رابع وهو أشرف من الكل وهو أنهم ينظرون إلى ربهم، ويتأكد هذا التأويل بما أنه قال بعد هذه الآية: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات، وما هو إلا رؤية الله تعالى. **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة بسبب ما ترى في وجوههم من القرائن الدالة على ذلك. ثم في تلك القرائن قولان:

أحدهما: أنه ما يشاهد في وجوههم من الضحك والاستبشار، على ما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

والثاني: قال عطاء: إن الله تعالى يزيد في وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يصفه واصف، وتفسير النضرة قد سبق عند قوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

المسألة الثانية: قرئ: (تُعرف) على البناء للمفعول (ونضرة النعيم) بالرفع.

وثالثها: قوله: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في بيان أن الرحيق ما هو؟ قال الليث: (الرحيق) الخمر. وأنشد لحسان.

بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

---

(١) لم أجده.

وقال أبو عبيدة والزجاج: (الرحيق) من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده، ولعله هو الخمر الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[الصافات: ٤٧] .

المسألة الثانية: ذكر الله تعالى لهذا: (الرحيق) صفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ وفيه وجوه: **الأول:** قال القفال: يحتمل أن هؤلاء يُسقون من شراب مختوم قد خُتم عليه تكريمًا له بالصيانة، على ما جرت به العادة من ختم ما يُكرم ويصان، وهناك خمر آخر تجري منها أنهار كما قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[محمد: ١٥] إلا أن هذا المختوم أشرف في الجاري. **الثاني:** قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج: المختوم الذي له ختام، أي عاقبة. **والثالث:** روي عن عبدالله في مختوم أنه ممزوج، قال الواحدي: وليس بتفسير لأن الختم لا يكون تفسيره المزج، ولكن لما كانت له عاقبة هي ريح المسك فسَّره بالممزوج؛ لأنه لو لم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك. **الرابع:** قال مجاهد: مختوم مطين. قال الواحدي: كان مراده من الختم بالطين هو أن لا تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار. والأقرب من جميع هذه الوجوه الوجه الأول الذي ذكره القفال. **الصفة الثانية لهذا الرحيق:** قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وفيه وجوه الأول: قال القفال: معناه أن الذي يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك، كالطين الذي يختم به رؤوس القوارير، فكان ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم، وهذا الوجه مطابق للوجه الأول الذي حكيناه عن القفال في تفسير قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾. **الثاني:** المراد من قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي عاقبته المسك، أي يختم له آخره بريح المسك، وهذا الوجه مطابق للوجه الذي حكيناه عن أبي عبيدة في تفسير قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ كأنه تعالى قال: من رحيق له عاقبة. ثم فسر تلك العاقبة فقال: تلك العاقبة مسك، أي مَن شربه كان ختم شربه على ريح المسك. وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير، ومقاتل وقتادة قالوا: إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك، والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها، مع طيب الطعم، والختام آخر كل شيء، ومنه يقال: ختمت القرآن، والأعمال بخواتيمها، ويؤكده قراءة علي عليه السلام، واختيار الكسائي فإنه يقرأ: (خَاتَمُهُ مِسْكٌ) أي آخره كما يقال: خاتم النبيين، قال الفراء: وهما متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم اسم والختام مصدر، كقولهم: هو كريم الطباع والطابع. **الثالث:** معناه خلطه مسك، وذكروا أن فيه تطييبًا لطعمه. وقيل: بل لريحه، وأقول: لعل المراد أن الخمر الممزوج بهذه الأفاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة، فلعل المراد منه الإشارة إلى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم، وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن الأسود عن عائشة، تقول المرأة: لقد أخذت ختم طيني، أي لقد أخذت أخلاط طيني. قال أبو الدرداء: هو شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به آخر شربهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو رُوح إلا وجد طيب ريحه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ قال الواحدي: يقال: نفست عليه

الشيء أنفسه نفاسة، إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه، والتنافس تفاعل منه، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، والمعنى: وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.

واعلم أن مبالغة الله تعالى في الترغيب فيه تدل على علو شأنه، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: تسنيم علم لعين بعينها في الجنة، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سَنَّمه، إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضًا، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع، ومنه سنام البعير، وتسنمت الحائط، إذا علوته، وأما قول المفسرين: فروى ميمون بن مهران أن ابن عباس سئل عن تسنيم، فقال: هذا مما يقول الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]ويقرب منه ما قال الحسن. وهو أنه أمر أخفاه الله تعالى لأهل الجنة. قال الواحدي: وعلى هذا لا يُعرف له اشتقاق وهو اسم معرفة، وعن عكرمة: ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ من تشريف.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر أن تسنيم عين يشرب بها المقربون، قال ابن عباس: أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم؛ لأنه يشربه المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين.

واعلم أن الله تعالى لما قسَّم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم إنه تعالى لما ذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون؛ علمنا أن المذكورين في هذا الموضع هم أصحاب اليمين، وأقول: هذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة، فتسنيم أفضل أنهار الجنة، والمقربون أفضل أهل الجنة، والتسنيم في الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذة النظر إلى وجه الله الكريم، والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات، فالمقربون لا يشربون إلا من التسنيم، أي لا يشتغلون إلا بمطالعة وجهه الكريم، وأصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجًا، فتارة يكون نظرهم إليه وتارة إلى مخلوقاته.

المسألة الثانية: (عينًا) نُصب على المدح، وقال الزجاج: نصب على الحال. وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]وقد مر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف كرامة الأبرار في الآخرة، ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم في الدنيا في استهزائهم وضحكهم، ثم بيَّن أن ذلك سينقلب على الكفار في الآخرة، والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكروا في سبب النزول وجهين: **الأول:** أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم، **الثاني:** جاء علي عليه السلام في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع!! فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي إلى رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكى عنهم أربعة أشياء من المعاملات القبيحة: **فأولها:** قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي يستهزئون بهم وبدينهم. **وثانيها:** قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يتفاعلون من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون الغمز أيضًا بمعنى العيب، وغمزه إذا عابه، وما في فلان غميزة، أي ما يعاب به، والمعنى أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يُتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه. **وثالثها:** قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا، أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء. قرأ عاصم في رواية حفص عنه: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف في هذا الموضع وحده، وفي سائر القرآن (فاكهين) بالألف وقرأ الباقون فاكهين بالألف، فقيل: هما لغتان، وقيل: فاكهين أي متنعمين مشغولين بما هم فيه من الكفر والتنعم بالدنيا، وفكهين: معجبين. **ورابعها:** قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي هم على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يُدري هل له وجود أم لا، وهذا آخر ما حكاه تعالى عن الكفار.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ يعني أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل، فيعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً، بل إنما أُمروا بإصلاح أنفسهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى أن في هذا اليوم الذي هو يوم تصقع الأعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر، وفي سبب هذا الضحك وجوه: **أحدها:** أن الكفار كانوا يضحكون على

المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم قد باعوا باقيًا بفانٍ ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنة فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون في النار وكيف يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضًا. **الثاني:** قال أبو صالح: يقال لأهل النار وهم فيها: (اخرجوا) وتُفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فُتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلقت دونهم، فذاك هو سبب الضحك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال من يضحكون، أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر.

ثم قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ثُوب بمعنى أثيب، أي الله المثيب، قال أوس [(١)]:

سَأَجْزِيكِ أَوْ يَجْزِيكِ عَنِّي مُثَوِّبٌ وَحَسْبُكِ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكِ وَتُحْمَدِي

قال المبرد: وهو فُعِّل من الثواب، وهو ما يثوب، أي يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر، والثواب يستعمل في المكافأة بالشر، وأنشد أبو عبيدة [(٢)]:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا حَسَنٍ رَسُولاً فَمَا لَكَ لاَ تَجِيءُ إِلَى الثَّوَابِ

والأَوْلى أن يُحمل ذلك على سبيل التهكم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائدًا في سرورهم؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم، والمقصود منها أحوال القيامة. والله أعلم.

---

(١) تقدمت ترجمة أوس بن حجر.

(٢) تقدت ترجمة أبي عبيدة.

سورة المطففين

مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والضحاك[٣]. ومدنية في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومقاتل[٤]. قال مقاتل: وهي أولُ سورةٍ نزلتْ بالمدينة. وقال ابنُ عباس وقتادةُ: مدنيةٌ إلَّا ثمان آياتٍ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إلى آخِرها مكيٌّ. وقال الكلبيُّ وجابر بنُ زيد: نزلتْ بين مكَّةَ والمدينة. وهي ستٌّ وثلاثون آيةً[٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(٣) بعدها في النسخ: ومقاتل، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ ، والكلام منه.

(٤) قوله: ومقاتل، ليس في (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ .

الأولى: روى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أَخْبثِ الناسِ كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، فأَحْسَنُوا الكيلَ بعد ذلك[(١)]. قال الفرَّاء[(٢)]: فهم من أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا.

وعن ابن عباس أيضاً قال: هي أوّلُ سورةٍ نزلت على رسول الله ﷺ ساعةَ نزل المدينةَ. وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا اشتَرَوا استَوْفَوا بكيلٍ راجحٍ، فإذا باعوا بَخَسوا المكيالَ والميزانَ، فلمَّا نزلت هذه السورةُ انتهوا، فهم أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا[(٣)].

وقال قومٌ: نزلتْ في رجلٍ يُعْرَفُ بأبي جهينةَ ـ واسمُه عمرو ـ كان له صاعان يأخذُ بأحدهما، ويعطي بالآخَرِ[(٤)]؛ قاله أبو هريرةَ رضي الله عنه[(٥)].

الثانية: قولُه تعالى: «ويْلٌ» أي: شدةُ عذابٍ في الآخرة. وقال ابن عباس: إنَّه وادٍ في جهنمَ يسيلُ فيه صَديدُ أهلِ النار[(٦)]، فهو قولُه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أي: الذين يَنْقُصُون مَكاييلَهم ومَوازينَهم.

ورُوِي عن ابن عمر قال: المطفِّف: الرجلُ يَستأجِرُ الكيَّالَ وهو يَعْلمُ أنه يَحِيفُ في كيله، فوِزْرُه عليه[(٧)].

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٩٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٢٢٣).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٥ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو في معنى خبر ابن عباس الذي سلف. وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أول ما نزل بالمدينة «ويل للمطففين». الدر المنثور ٦/ ٣٢٣ .

(٤) أخرجه الثعلبي عن السدي، كما في الإصابة ١١/ ٦٩ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٨٣ .

(٥) ينظر ما سيأتي ص١٣٤-١٣٥ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٥١٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولم نقف عليه عن ابن عباس، وقد سلف عنه أن الويل: المشقة والعذاب. ينظر ٢/ ٢٢١ .

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٧ . وفي إسناده إبراهيم بن يزيد، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

وقال آخَرون: التطفيفُ في الكيلِ والوزنِ والوضوءِ والصلاةِ والحديث. وفي «الموطّأ»[١] قال مالك: ويقالُ: لكلِّ شيءٍ وفاءٌ وتَطْفيفٌ، وروي عن سالم بن أبي الجَعْد قال: [قال سلمان: الصلاةُ مِكْيالٌ]، فَمَن أوفَى أُوْفيَ له، ومَن طَفَّف فقد عَلِمْتُم ما قال الله عز وجل في ذلك: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٢].

الثالثة: قال أهلُ اللغةِ: المطفِّفُ مأخوذٌ من الطَّفِيف، وهو القليلُ، والمطفِّفُ هو المقلِّلُ حقَّ صاحبِهِ بنقصانه عن الحقِّ في كيلٍ أو وَزْنٍ. وقال الزجَّاج: إنَّما قيل للفاعل من هذا مطفِّفٌ؛ لأنه لا يكاد يسرقُ من المكيال والميزان إلَّا الشيءَ الطفيفَ الخفيَّ[٣]، وإنَّما أُخِذَ من طَفّ الشيءِ، وهو جانبه.

وطِفَافُ المكُّوكِ وطَفَافُه بالكسر والفتح: ما ملأ أصْبارَه، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث: «كلُّكم بنو آدمَ، طَفُّ الصَّاعِ لم تَمْلَؤوه». وهو أن يَقْرُبَ أن يمتلئَ فلا يفعل[٤]؛ والمعنى: بعضُكم قريبٌ من بعضٍ، فليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بالتقوى[٥]. والطُّفَافُ والطُّفَافةُ بالضم: ما فوقَ المِكيالِ، وإناءٌ طَفَّانُ: إذا بلغ الكيلُ[٦] طفافَه؛ تقول منه: أَطْفَفْتُ. والتطفيفُ: نَقْصُ المِكيالِ، وهو ألَّا تَملأَه إلى أَصبارِه، أي: جوانبه؛ يقال: أَدْهَقْتُ الكأسَ إلى أصبارها، أي: إلى رأسها. وقولُ ابنِ عمرَ حين ذَكَر [أن] النبيَّ ﷺ سَبَّق [بينَ] الخيلِ: كنتُ فارساً يومئذٍ فسبقتُ الناسَ، حتى طَفَّف بي الفرسُ مسجدَ بني زُرَيقٍ، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي[٧].

---

(١) ١/ ١٢.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، والدولابي في الكنى ٢/ ١٤١ ، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) في (م): الخفيف، وفي معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧ : الحقير.

(٤) الصحاح (طفف)، والحديث أخرجه أحمد (١٧٣١٣) و(١٧٦٤٦) عن عقبة بن عامر ﷺ. قال السندي كما في حاشية المسند: أي: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام. وهو بالرفع خبرٌ بعد خبر، وقيل: بدلٌ أو خبرُ محذوفٍ، أو بالنصب حالٌ مؤكِّدة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٥ ، وقوله: فليس لأحد...، قطعة من الحديث.

(٦) في (م) واللسان: الملء، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح (طفف) والكلام منه.

(٧) الصحاح (طفف)، وما سلف بين حاصرتين منه.والحديث أخرجه أحمد (٤٤٨٧)، وبنحوه البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠).

الرابعة: المطفِّفُ: هو الذي يُخسِرُ في الكَيْلِ والوزن، ولا يُوفي، حَسْبَ ما بيَّناه. وروى ابن القاسم عن مالك: أنه قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُب[١]، ولكنْ أَرْسِلْ وصُبَّ عليه صَبًّا، حتى إذا استوى[٢] أَرْسِلْ يَدَكَ ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مَسْحِ الطُّفاف، وقال: إنَّ البركةَ في رأسه. قال: وبلغني أنَّ كيلَ فرعونَ كان مسحاً بالحديدة[٣].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ قال الفرَّاء: أي: مِن الناس؛ يقال: اكْتَلْتُ منكَ، أي: استَوْفَيتُ منك، ويقال: اكتلتُ عليك[٤]، أي: أخذتُ ما عليك. وقال الزجَّاج: أي: إذا اكتالوا من الناس استَوْفَوْا عليهم الكيلَ[٥]. والمعنى: الذين إذا استَوْفَوا أخذوا الزيادة، وإذا أَوْفَوا أو وَزَنوا لغيرهم نَقَصُوا، فلا يَرْضَوْن للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبريُّ: «على» بمعنى عند[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي: كالوا لهم أو وَزَنوا لهم، فحذفت اللام، فتعدَّى الفعلُ فنَصب، ومثلُه: نَصَحتُك ونصحتُ لك، وأَمَرْتُك به وأَمَرْتُكَه؛ قاله الأخفشُ والفرَّاء[٧]. قال الفرَّاء: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: إذا صَدَرَ

---

(١) أي: لا تخدع. القاموس (خلب).

(٢) في (م): استوفى، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٦، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: كان طفافاً مسحاً بالحديدة.

(٤) في النسخ: اكتلت ما عليك، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦، والكشاف ٤/ ٢٣٠، وزاد المسير ٩/ ٥٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٨٦: «الذين إذا اكتالوا على الناس»: الذين إذا اكتالوا من الناس، و«على» و«من» في هذا الموضع يتعاقبان.

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٣٤، وللفراء ٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦، وما سيأتي منه أيضاً.

الناسُ أتينا التاجِرَ فيَكِيلُنا المُدَّ والمُدَّينِ إلى الموسم المقبل. قال: وهو مِن كلامِ أهل الحجازِ ومَن جاوَرَهم من قيس.

قال الزجاج[١]: لا يجوزُ الوقفُ على «كالُوا» و«وَزَنوا» حتى تَصِلَ به «هُمْ» قال: ومِن الناس مَن يجعلُها توكيداً، ويُجيز[٢] الوقفَ على «كالُوا» و«وزَنوا»، والأوّلُ الاختيارُ؛ لأنها حرفٌ واحدٌ. وهو قولُ الكسائيِّ[٣].

قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلُها حرفين، ويقفُ على «كالوا» و«وزنوا»، ويبتدئُ: «هُمْ يُخسِرون»، قال: وأحسبُ قراءةَ حمزةَ كذلك أيضاً[٤].

قال أبو عبيد: والاختيارُ أن يكونا كلمةً واحدةً من جهتين:

إحداهما: الخطُّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا: «كالوا» و«وزنوا»، بالألف.

والأخرى: أنه يقال: كِلْتُكَ ووزنتُك، بمعنى: كِلْتُ لك، ووزنتُ لك، وهو كلامٌ عربيٌّ، كما يقال: صِدْتُك وصِدْتُ لك، وكَسَبتُك وكَسَبْتُ لَك، وكذلك شكرتُكَ ونَصَحْتُكَ ونحو ذلك.

قوله: «يُخْسِرون»، أي: يَنْقُصون، والعربُ تقول: أَخْسَرتُ الميزانَ وخَسَرتُه.

و«هم» في موضع نصبٍ على قراءةِ العامَّة، راجعٌ إلى الناس، تقديرُه: وإذا كالوا الناسَ أو وزنوهم يُخْسِرون. وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد كالوا لهم أو وَزَنُوا لهم، فحُذف الجارُّ، وأُوْصِلَ الفعلُ، كما قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): ويجوز، وفي معاني القرآن: فيجوز.

(٣) ذكره عنه أبو الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) ذكر قول أبي عبيد البغوي ٤/ ٤٥٨ دون قوله: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً، وذكرها عن حمزة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٠، والمشهور عنه كقراءة الجماعة.

ولـقـد جَـنَـيْـتُـكَ أَكْـمُـؤاً وعَـسـاقِـلًا ولـقـد نـهـيـتُـكَ عـن بـنـاتِ الأَوْبَـرِ[(١)]

أراد: جنيتُ لك.

والوجهُ الآخرُ: أن يكون على حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه، والمضافُ هو المكيلُ والموزون[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّكم معاشرَ الأَعاجِمِ وَلِيتُم أمرين بهما هَلَكَ مَن كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجِمَ لأنَّهم كانوا يجمعون الكيلَ والوزنَ جميعاً، وكانا مُفَرَّقينِ في الحَرَمين؛ كان أهلُ مكةَ يَزِنون، وأهلُ المدينةِ يَكيلون[(٣)].

وعلى القراءةِ الثانيةِ «هُمْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، أي: وإذا كالوا للناس أو وَزَنوا لهم فهم يُخْسِرون. ولا يصحُّ؛ لأنه تكون الأُولى مُلْغاةً ليس لها خبر، وإنَّما كانت تستقيمُ لو كان بعدها: وإذا كالواهم يَنْقُصون، أو وَزَنوا هم يُخْسِرون.

الثانية: قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «خمسٌ بخمسٍ: ما نَقَضَ قومٌ العهدَ إلَّا سَلَّط الله عليهم عدوَّهم، ولا حَكَموا بغيرِ ما أَنْزَلَ اللهُ إلَّا فشا فيهم الفقرُ، وما ظَهَرَت الفاحشةُ فيهم إلا فشا فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيلَ إلَّا مُنِعوا النَّباتَ، وأُخِذوا بالسِّنين، ولا مَنعوا الزكاةَ إلا حَبَس الله عنهم المَطَر»[(٤)] خرَّجه أبو بكر البزارُ بمعناه، ومالك بنُ أنسٍ أيضاً من حديث ابن عمر[(٥)]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٦)].

---

(١) المقتضب ٤/٤٨، ومجالس ثعلب ص ٥٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٦٦، والخصائص ٣/ ٥٨، والإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٣١٩، والكشاف ٤/ ٢٣٠، والكلام منه. قال ثعلب: وعساقل وبنات أوبر: ضربان من الكمأة.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق، وخبر ابن عباس أخرجه هناد في الزاهد (٦٨١).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١، وتفسير الرازي ٣١/ ٨٨.

(٥) حديث ابن عمر في مسند البزار (١٦٧٦)، وأخرجه من طريق مالك ابن عبد البر في الاستذكار ١٤/ ٢١١، وهو في الموطأ ١/ ٤٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٦) ص ٥٨٠.

وقال مالك بن دينار: دَخَلْتُ على جارٍ لي قد نزل به الموتُ، فجعل يقول: جَبَلَيْنِ من نار! جَبَلَيْنِ من نار! فقلتُ: ما تقولُ؟ أتَهْجُر؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان؛ أَكيلُ بأحدهما، وأكتالُ بالآخر؛ فقمتُ فجعلتُ أضربُ أحدَهما بالآخَر، حتى كَسَرتُهما، فقال: يا أبا يحيى، كلَّما ضربتُ أحدَهما بالآخَرِ ازدادَ عِظَماً، فمات من وَجَعِه[1].

وقال عكرمةُ: أشهدُ على كلِّ كيَّالٍ أو وزَّانٍ أنه في النار. قيل له: فإنَّ ابنك كيالٌ ـ أو وَزَّان ـ فقال: أشهدُ أنه في النار[2].

قال الأصمعيُّ: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: لا تَلْتَمِس المروءةَ ممَّن مروءتُه في رؤوسِ المكاييل، ولا أَلْسِنةِ الموازين[3]. ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ. وقال عبدُ خير: مرَّ عليٌّ ﷺ على رجلٍ وهو يَزِنُ الزعفرانَ وقد أَرْجَح، فأَكْفَأَ الميزانَ ثم قال: أَقِمِ الوزنَ بالقِسْطِ؛ ثم أَرْجِحْ بعد ذلك ما شئت. كأنه أَمَرَه بالتسويةِ أولاً؛ ليعتادها، ويَفْصِلَ الواجبَ من النفل[4].

وقال نافع: كان ابنُ عمر يمرُّ بالبائع فيقول: اتَّقِ اللهَ وأَوْفِ الكيلَ والوزنَ بالقسط، فإنَّ المطفِّفين يومَ القيامة يُوْقَفون حتى إنَّ العَرَق ليُلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم[5].

وقد رُوِي أنَّ أبا هريرةَ قَدِمَ المدينةَ وقد خرج النبيُّ ﷺ إلى خيبرَ واستَخْلَفَ على المدينة سِباع بنَ عُرْفُطة، فقال أبو هريرةَ: فوجدناه في صلاةِ الصُّبحِ، فقرأ في الركعةِ

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٤١ دون قولِه: حتى كسرتهما. وقولُه: أتهجر، أي: أتهذي، في القاموس (هجر): هَجَر في نومه ومرضه هُجْراً بالضم: هذى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٨٦ مطولاً دون قوله: قيل له إن ابنك..

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٠، عن أبيٍّ ﷺ. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩ عن بعض العرب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٨.

الأولى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وقرأ في الركعة الثانية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. قال أبو هريرة: فأقولُ في صلاتي: ويْلٌ لأبي فلان؛ كان له مكيالان، إذا اكتالَ اكتالَ بالوافي، وإذا كالَ كالَ بالناقِص(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ﴾ إنكارٌ وتَعْجيبٌ عظيمٌ من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون(٢) ببالهم، ولا يُخمِّنون تخميناً ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ فمسؤولون عمَّا يفعلون. والظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألا يُوقنُ أولئك، ولو أيْقنوا ما نَقَصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظنُّ بمعنى الترَدُّدِ، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلَّا ظَنُّوه، حتى يتدبَّروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحْوَط ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ شأنه وهو يومُ القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ دلَّ عليه «مبعوثون»، والمعنى: يُبْعثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. ويجوز أن يكونَ بدلاً من «يوم» في «لِيوم عظِيم»، وهو مبنيٌّ. وقيل: هو في موضع خفضٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى غيرِ متمكِّن. وقيل: هو منصوبٌ على الظَّرف، أي: في يوم. ويقال: أَقِمْ إلى يومَ يَخْرجُ فلان، فتنصبُ يوم، فإنْ أضافوا إلى الاسم فحيئنذٍ يخفضون ويقولون: أَقم إلى يومِ خُروجِ فلان(٣). وقيل: في الكلام

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٥٢). وسباع بن عُرفُطة الغفاري، ويقال له: الكناني، له ذكر في حديث أبي هريرة هذا، وقال أبو حاتم: استعمله النبي ﷺ في غزوة دُومة الجندل. الإصابة ٤/ ١١٩ .

(٢) بعدها في (م): التطفيف، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٣١ ، والكلام منه.

(٣) وهذا على مذهب الكوفيين، وهو بناء الظرف على الفتح إذا أضيف إلى الجملة الفعلية وإن كانت معربة، وأما البصريون فلا يجيزون البناء إلا إذا صدِّرت الجملة المضاف إليها بفعل ماض. الدر المصون ٤/ ٥٢٠ .

تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقديرُ: إنَّهم مبعوثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين ليومٍ عظيم.

الثانية: وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابيًّا قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطفِّفين ـ أراد بذلك أنَّ المطفِّفين قد تَوَجَّه عليهم هذا الوعيدُ العظيمُ الذي سمعتَ به ـ فما ظنُّك بنفسك وأنت تأخُذُ أموالَ المسلمين بلا كيلٍ ولا وزْن[١]؟

وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظَّنِّ، ووَصْفِ اليومِ بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته بربِّ العالمين، بيانٌ بليغٌ لِعظَمِ الذَّنْبِ، وتَفاقُمِ الإِثم في التَّطْفيف، وفيما كان في مثلِ حاله من الحَيْفِ وتركِ القيام بالقِسْطِ، والعَمَلِ على التسوية والعَدْل في كلِّ أَخْذٍ وإعطاءٍ، بل في كلِّ قولٍ وعملٍ[٢].

الثالثة: قرأ ابن عمر: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبكى حتى سَقَط، وامتنع من قراءةِ ما بَعْدَه، ثم قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، فمنهم مَن يَبْلُغ العرَقُ كعبيه، ومنهم مَن يَبْلُغُ ركبتيه، ومنهم مَن يبلغُ حِقْوَيْه، ومنهم مَن يبلغُ صدرَه، ومنهم مَن يبلغُ أذنيه، حتى إنَّ أحدهم ليغيبُ في رَشْحِه كما يغيبُ الضِّفدع»[٣].

وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: يقومون مقدارَ ثلاثِ مئةِ سنة. قال: ويَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة[٤].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق، والموقوف منه أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٠، وهناد في الزهد (٣٣٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٠٥. وأخرج المرفوع مختصراً أحمد (٥٩١٢). وللمرفوع شاهد من حديث المقداد ﷺ عند أحمد (٢٣٨١٣)، ومسلم (٢٨٦٤). وآخر من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٣٩). وثالث من حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢١٨٦). وينظر ما سيأتي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ذكر الجزء الثاني منه الرازي ٣١/ ٩١، وأخرجه بتمامه ابن مردويه عن حذيفة، وعبد بن حميد عن قتادة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٤.

ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «يقومون ألفَ عامٍ في الظُّلْمَة»[١].

وَرَوَى مالك عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، حتى إنَّ أحدهم ليقومُ في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذنيه»[٢]. وعنه أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «يقوم مئةَ سنةٍ»[٣].

وقال أبو هريرةَ: قال النبيُّ ﷺ لبشيرٍ الغِفاريِّ: «كيف أنت صانعٌ في يومٍ يقومُ الناسُ فيه مقدارَ ثلاثِ مئة سنةٍ لربِّ العالمين، لا يأتيهم فيه خبرٌ، ولا يؤمَرُ فيه بأمرٍ» قال بشير: المستعانُ الله[٤].

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّه لَيُخفَّفُ عن المؤمن، حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يصلِّيها في الدنيا» في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾[٥].

وعن ابن عباس: يَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة[٦].

وقيل: إنَّ ذلك المقامَ على المؤمن كزوال الشمس. والدليلُ على هذا من الكتاب قولُه الحقُّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وَصَفَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣] جَعَلَنا الله منهم بفضله وكرمه وجُوده ومَنِّه آمين.

وقيل: المرادُ بالناسِ جبريلُ عليه السلام يقومُ لربِّ العالمين؛ قاله ابن جُبير[٧].

---

(١) في (د) و(م): في الظلة. ولم نقف عليه، وأخرج نحوه مطولاً الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٧ وقال: فيه هشام بن بلال لم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧، وأخرجه من طريق مالك البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧، وأخرجه موقوفاً الطبري ٢٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٠، وفي إسناده عبد السلام بن عجلان، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٦١٨: قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وتوقَّف غيره في الاحتجاج به.

(٥) ٢١/ ٢٢٥، وسلف أيضاً ١٥/ ٣٩٩، وأخرجه أحمد (١١٧١٧).

(٦) سلف قريباً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧.

وفيه بُعدٌ؛ لِمَا ذَكَرْنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحةٌ ثابتةٌ، وحَسْبُك بما في «صحيح» مسلم والبخاريِّ والترمذيِّ من حديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «يقومُ أحدُهم في رَشْحِه إلى نِصْفِ أُذُنَيْه»(١).

ثم قيل: هذا القيامُ يومَ يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوقِ عبادهِ في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء(٢).

الرابعة: القيامُ لله ربِّ العالمين سبحانه حَقيرٌ بالإضافة إلى عَظَمتِه وحَقِّه، فأمَّا قيامُ الناسِ بعضِهم لبعضٍ فاختَلفَ فيه الناس؛ فمنهم مَن أجازه، ومنهم مَن مَنَعه. وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ قام إلى جعفر بنِ أبي طالب واعْتَنَقه، وقام طلحةُ لكعب بنِ مالكٍ يومَ تِيبَ عليه. وقال النبيُّ ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بنُ مُعاذ: «قوموا إلى سيدكم». وقال أيضاً: «مَن سرَّه أن يَتمثَّلَ له الناسُ قياماً فلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار». وذلك يَرجعُ إلى حالِ الرجلِ ونيَّته، فإن انتظرَ ذلك واعتقده لنفسه [حقًّا]، فهو ممنوعٌ، وإن كان على طريق البشاشةِ والوُصْلةِ فإنَّه جائز، وخاصةً عند الأسباب، كالقدوم من السَّفر ونحوِه(٣). وقد مضى في آخر سورة يوسف شيءٌ من هذا(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ قال قومٌ من أهل العلم بالعربية:

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٦٢)، وسنن الترمذي (٣٣٣٦)، وهو عند أحمد (٤٦١٣)، وسلف قريباً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢٦ - ٢٢٧ . ويزيد الرشك هو ابن أبي يزيد الضُّبَعيُّ مولاهم، أبو الأزهر البصري، قيل: كان غيوراً فسمي بالفارسية أرشك، فقيل: الرشك. وقيل: الرشك بالفارسية: الكبير اللحية، توفي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ٤/ ٤٣٤ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١١/ ٤٥٧ ، وسلف ثمة حديث: «قوموا إلى سيدكم» وحديث: «من سره...». أما حديث قيام طلحة لكعب فسلف ١٠/ ٤١٨ ضمن حديث كعب بن مالك الطويل في التخلف عن غزوة تبوك.

«كَلَّا»: رَدْعٌ وتنبيهٌ، أي: ليس الأمرُ على ما هم عليه من تَطْفيفِ الكَيْلِ والميزان، أو تكذيبٍ بالآخرة، فلْيرتَدِعوا عن ذلك. فهي كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾.

وقال الحسن: «كلَّا» بمعنى حَقًّا[١]. ورَوَى ناسٌ عن ابن عباس: «كَلَّا» قال: ألَا تصدِّقون[٢]. فعلى هذا: الوقفُ «لِربِّ العالمِين».

وفي تفسير مقاتل: إنَّ أعمالَ الفجَّار. وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: إنَّ أرواحَ الفجَّارِ وأعمالَهم «لَفي سِجِّينٍ».

وروى ابنُ نَجيح عن مجاهد قال: سجِّين صخرةٌ تحت الأرضِ السابعة، تُقْلَبُ فيُجْعَلُ كتابُ الفجَّار تحتها[٣]. ونحوه عن ابن عباسٍ وقتادةَ وسعيد بن جُبير ومقاتلٍ وكعبٍ؛ قال كعب: تحتها أرواحُ الكفَّارِ تحت خدِّ إبليس[٤].

وعن كعب أيضاً قال: سجِّين صخرةٌ سوداءُ تحت الأرضِ السابعة، مكتوبٌ فيها اسمُ كلِّ شيطانٍ، تُلْقَى أَنْفُسُ الكفَّارِ عندها.

وقال سعيد بن جبير: سجِّين تحت خدِّ إبليس[٥]. يحيى بنُ سلام: حجرٌ أسودُ تحت الأرض، يُكْتَبُ فيه أرواحُ الكفار[٦]. وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: هي الأرضُ السابعةُ السُّفْلَى، وفيها إبليسُ وذرِّيته[٧].

وعن ابن عباس قال: إنَّ الكافر يَحْضُره الموت، وتَحْضُره رسلُ الله، فلا

(١) الوسيط ٤/٤٤٣، وتفسير البغوي ٤/٤٥٨ ولفظه: «كلا» ابتداء يتصل بما بعده على معنى: حقًّا.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٥١ عن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/١٩٣ - ١٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٦/٢٢٨ .

(٧) تفسير البغوي ٤/٤٥٩ .

يستطيعون لبُغْضِ اللهِ وبُغْضِهم إياه أنْ يؤخِّروه ولا يعجلوه حتى تجيءَ ساعتُه، فإذا جاءت ساعتُه قَبَضوا نَفْسَه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأَرَوْه ما شاء الله أَنْ يُرُوه من الشرِّ، ثم هَبَطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخِرُ سلطانِ إبليسَ، فأَثْبَتوا فيها كتابه[١].

وعن كعبِ الأحبارِ في هذه الآية قال: إنَّ رُوحَ الفاجِرِ إذا قُبِضَتْ يُصْعَدُ بها إلى السماء، فتأبَى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبَطُ بها إلى الأرض، فتأبى الأرضُ أن تَقْبلَها، فتدخلُ في سبعِ أَرَضِينَ، حتى يُنْتَهى بها إلى سِجِّين، وهو خدُّ إبليسَ، فيُخرجُ لها من سجينٍ من تحت خدِّ إبليس رَقٌّ، فيُرْقَم فيوضعُ تحت خدِّ إبليس[٢]. وقال الحسن: سجين في الأرض السابعة.

وقيل: هو ضربُ مثلٍ وإشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يَردُّ أعمالَهم التي ظنُّوا أنَّها تنفعُهم.

قال مجاهد: المعنى: عملُهم في الأرضِ السابعةِ لا يصعدُ منها شيء[٣]. وقال: سجين صخرةٌ في الأرض السابعة[٤].

وروى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «سجين جُبٌّ في جهنمَ وهو مفتوحٌ» وقال في الفَلَق: «إنه جُبٌّ مُغَطًّى»[٥].

وقال أنس: هي دَرَكَةٌ في الأرض السُّفلى. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «سجِّين أسفلَ سبع أرضين»[٦].

---

(١) قطعة من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧، وهو فيه من كلام كعب الأحبار في جوابه على سؤال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٤.

(٣) الصدر السابق.

(٤) سلف قريباً.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٦. وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث غريب منكر لا يصح.

(٦) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣٥٢٠)، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٧، والبغوي ٤/ ٤٥٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ، ولم نقف عليه عن أنس ﷺ.

وقال عِكرمة: سِجِّين: خَسارٌ وضلال[١]، كقولهم لمن سَقَط قَدْرُه: قد زَلَق بالحضيض.

وقال أبو عبيدةَ والأخفشُ والزجَّاج: «لفي سجِّين» لفي حَبْسٍ وضيقٍ شديدٍ، فِعيِّل من السّجن، كما يقالُ: فِسِّيق وشِرِّيب[٢]؛ قال ابنُ مُقْبِلٍ:

ورُفقةً يَضْرِبون البَيْضَ ضاحِيةً ضَرْبًا تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينا[٣]

والمعنى: كتابُهم في حَبْسٍ، جُعل ذلك دليلاً على خساسةِ منزلتهم، أو لأنه يَحُلُّ من الإعراضِ عنه والإبعادِ له مَحَلَّ الزَّجْرِ والهَوَان.

وقيل: أصلُه سجِّيل، فأُبْدِلَتْ اللامُ نوناً. وقد تقدَّم ذلك[٤].

وقال زيد بنُ أَسْلَمَ: سِجين الأرضُ السَّافِلة، وسِجِّيل السماء الدنيا[٥].

القُشيريُّ: سجِّين: موضعٌ في السَّافِلِينَ، يُدْفَنُ فيه كتابُ هؤلاء، فلا يَظْهَرُ بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليلٌ على خُبْثِ أعمالهم، وتحقيرِ اللهِ إياها، ولهذا قال في كتاب الأبرار: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك ممَّا كنتَ تَعْلَمه يا محمدُ أنت ولا قومُك. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحَى. وقال قتادة: «مرقومٌ» أي: مكتوبٌ، رُقِمَ له بَشَرٌ[٦]، لا يُزادُ فيهم أحدٌ ولا ينقصُ منهم أحد.

---

(١) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٥ دون قوله: وضلال.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٨٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٨، وقول الأخفش في النكت والعيون ٦/ ٢٢٨.

(٣) ديوان ابن مقبل ص٣٣٣، والمعاني الكبير ٢/ ٩٩١، وتهذيب اللغة ١١/ ٢٩، والصحاح (سجن)، ومنتهى الطلب ١/ ٣٦٦، وفيها جميعاً: ورَجْلةً يضربون البيض عن عُرُضٍ. البيض جمع بيضة، وهي الخوذة. المعجم الوسيط (بيض). وسلف البيت ١١/ ١٨٨.

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٨.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧.

(٦) في النسخ: رقم لهم بشر، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٨، والكلام منه. وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٨ دون قوله: لا يزاد فيهم... ، وهو في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٩، وزاد المسير ٩/ ٥٥ بلفظ: رقم له بشرٌ كأنه عُلِّم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وفي تفسير الرازي ٣٢/ ٩٣: رقم لهم بسوء، أي: كتب لهم بإيجاب النار.

وقال الضحَّاك: مَرْقُومٌ: مختومٌ، بلغةِ حِمْيَر[١]. وأصلُ الرَّقْمِ: الكتابةُ؛ قال:

سأَرقُمُ في الماءِ القَرَاحِ إليكُمُ ... على بُعْدِكم إن كان للماءِ راقِمُ[٢]

وليس في قوله: «وما أدراك ما سِجِّين؟» ما يدلُّ على أنَّ لَفْظَ سجينٍ ليس عربيًّا، كما لا يدلُّ في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ بل هو تعظيمٌ لأمرِ سجِّينٍ. وقد مضى في مقدِّمة الكتاب ـ والحمدُ لله ـ أنه ليس في القرآن غيرُ عربيٍّ[٣].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: شدةٌ وعذابٌ يومَ القيامةِ للمكذِّبين. ثم بيَّن تعالى أَمْرَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الحسابِ والجزاء والفَصْل بين العباد ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: فاجرٍ جائرٍ عن الحقِّ، مُعْتَدٍ على الخَلْقِ في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيمٌ في تَرْكِ أمرِ الله. وقيل: هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهلٍ ونُظَرائِهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقراءةُ العامَّةِ: «تُتْلَى» بتاءين، وقرأ أبو حَيْوَة وأبو سِمَاكٍ وأشهبُ العُقَيليُّ والسُّلَميُّ: «إذا يُتْلَى» بالياء[٤]. وأساطيرُ الأولين: أحاديثُهم وأَباطيلُهم التي كتبوها وزَخْرفوها. واحدُها أُسْطورة وإِسطارة، وقد تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: «كلَّا»: رَدْعٌ وزَجْر، أي: ليس هو أساطيرَ الأولينَ. وقال الحسن: معناها: حقًّا رانَ على قلوبهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/٤٥٩ دون نسبة، وذكره عن الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٢٨ دون قوله: بلغة حمير.

(٢) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص ١١٦، واللسان (رقم)، وفيه: وقولهم: هو يَرقم في الماء، أي: بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم. اهـ. والقراح: الخالص. القاموس (قرح).

(٣) ١/١١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٧٠.

(٥) ٨/٣٤٦.

وفي الترمذيِّ عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا أَخْطَأَ خَطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكْتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ الله وتاب صُقِلَ قلبُه، فإن عاد زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ على قلبه، وهو الرَّانُ الذي ذَكَر اللهُ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». قال: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وكذا قال المفسِّرون: هو الذنبُ على الذنبِ حتى يَسْودَّ القلبُ. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنبُ الذَّنْبَ، فيحيطُ الذنبُ بقلبه، ثم يُذْنبُ الذَّنْبَ فيحيطُ الذَّنْبُ بقلبه، حتى تُغشِّيَ الذنوبُ قلبه. قال مجاهد: هي مِثْلُ الآيةِ التي في سورةِ البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآيةَ [الآية: ٨١][(٢)]. ونحوه عن الفراء[(٣)]؛ قال: يقول: كَثُرتِ المعاصي منهم والذنوبُ، فأحاطَتْ بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها.

ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلبُ مثلُ الكفِّ - ورَفَع كفَّه - فإذا أَذْنَبَ العبدُ الذَّنْبَ انْقَبضَ، وضمَّ إصْبِعَه، فإذا أَذْنبَ الذَّنْبَ[(٤)] انْقَبَضَ، وضمَّ أخرى - حتى ضمَّ أصابعَه كلَّها - حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يَرَوْنَ أنَّ ذلك هو الرَّين، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٥)]. ومثلُه عن حذيفةَ ﷺ سواء[(٦)].

وقال بكر بن عبد الله: إنَّ العبد إذا أَذْنَبَ صار في قلبه كوخزةِ الإبرة، ثم إذا أَذْنَبَ ثانياً صار كذلك، ثم إذا كَثُرتِ الذنوبُ صار القلبُ كالمُنْخُلِ، أو كالغِرْبالِ، لا يعي خيراً، ولا يثبُتُ فيه صلاحٌ. وقد بيَّنا في «البقرة» القولَ في هذا المعنى بالأخبارِ الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، فلا معنَى لإعادتها[(٧)].

وقد روى عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد، عن موسى بنِ عبد الرحمن، عن ابن جُريجٍ، عن

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، وهو عند أحمد (٧٩٥٢)، وسلف بنحوه ١/ ٢٨٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ و٢٠٤ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦ .

(٤) في (د): أخرى.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٠٦).

(٧) ينظر ما سلف ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

عطاءٍ، عن ابن عباس. وعن موسى، عن مقاتلٍ، عن الضحَّاكِ، عن ابن عباس شيئاً اللهُ أَعْلَمُ بصحَّته؛ قال: هو الرّانُ الذي يكونُ على الفخذينِ والساقِ والقدم، وهو الذي يُلْبَسُ في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطِرُ الذي يَخْطُر بقلب الرجل[1]. وهذا ممَّا لا يُضْمَنُ عُهْدةُ صِحَّتِهِ. فالله أعلم.

فأمَّا عامَّةُ أهلِ التفسيرِ فَعَلَى ما قد مضى ذِكْرُه قبلَ هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذَنْبُه يَرِين رَيْناً ورُيوناً، أي: غَلَبَ. قال أبو عُبيدةَ في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: غَلَبَ. وقال أبو عُبيدٍ: كلُّ ما غَلَبك فقد رانَ بك، ورانَكَ، ورانَ عليك[2]؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قَلْبِ فاجِرٍ فتابَ مِن الذَّنْبِ الذي رَانَ وانْجَلى[3]

ورانت الخمرُ على عقله، أي: غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطَّاه، ومنه قولُ عمرَ في الأُسَيفع ـ أُسَيْفع جُهَيْنَةَ ـ: فأصبح قد رِيْنَ به[4]. أي: غَلَبَتْه الديون، وكان يَدَّانُ. ومنه قولُ أبي زُبَيدٍ يَصِفُ رجلاً شرب حتى غَلَبَه الشرابُ سُكْراً، فقال:

ثم لمَّا رآه رانَتْ به الخمـ ـرُ وأنْ لا تَرِينه باتِّقاءِ[5]

فقوله: رانَتْ به الخمرُ، أي: غَلَبتْ على عَقْلِه وقلبه. وقال الأمويُّ: قد أَران

---

(١) لم نقف عليه، وموسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني، قال عنه ابن حبان: دجَّال، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير. الميزان ٤/ ٢١١ .

(٢) الصحاح (رين). وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩ . وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٢٩ .

(٤) أخرجه مالك في الموطا ٢/ ٧٧٠ ، وسلف ٦/ ٥٣ .

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩ ، وغريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧٠ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٩٩ ، والبيت في طبقات الفحول ٢/ ٦٠٤ ، والمعاني الكبير ١/ ٤٦٢ ، والأغاني ١٢/ ١٣٢ برواية: يريبه، بدل: ترينه.
قال الأستاذ محمود شاكر في حاشية طبقات الفحول: رابه يريبه: شك في أمره. ودعاه إلى الريبة فيه، أراد: لم يشك فيه ولم يتق شره.

القومُ فيهم مُرِينُون: إذا هَلَكَتْ مواشيهم أو هُزِلَتْ. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم ولا يستطيعون احتمالَه. قال أبو زيد: يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْناً: إذا وقع فيما لا يستطيعُ الخروجَ منه، ولا قِبَلَ له به[(١)].

وقال أبو مُعاذٍ النَّحويُّ: الرَّينُ: أن يسودَّ القلبُ من الذنوب، والطَّبعُ: أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشدُّ من الرَّين، والإقفالُ أشدُّ من الطَّبع[(٢)].

الزَّجَّاج: الرَّيْن: هو كالصَّدأ يُغَشِّي القلبَ كالغيم الرقيق، ومثلُه الغين، يقال: غِينَ على قلبه: غُطِّي[(٣)]. والغِيْنُ: شجرٌ ملتفٌّ، الواحدةُ غَيْناءُ، أي: خَضْراءُ كثيرةُ الورقِ مُلْتفَّةُ الأغصان[(٤)]. وقد تقدَّم قولُ الفراءِ: أنه إحاطةُ الذَّنبِ بالقلوب. وذَكَر الثعلبيُّ عن ابن عباس: «ران على قلوبهم»، أي: غطَّى عليها[(٥)]. وهذا هو الصحيحُ عنه إن شاء الله.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ وأبو بكر والمفضَّلُ: «ران» بالإمالة؛ لأنَّ فاءَ الفعل الراءُ، وعينه الألفُ منقلبة من ياء، فحَسُنَتِ الإمالةُ لذلك. ومَن فَتَحَ فعلَى الأصلِ؛ لأنَّ بابَ فاءِ الفعلِ في «فَعَلَ» الفتحُ، مثل: كالَ وباعَ ونحوه. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم. ووقف حفصٌ «بَلْ» ثم يبتدئُ «رَانَ»[(٦)] وَقْفاً يُبيِّن اللامَ، لا للسَّكْت.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ أي: حقًّا، «إنَّهم» يعني الكفارَ ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامة: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾. وقيل: «كلَّا» ردعٌ وزَجْر، أي: ليس كما يقولون، بل «إنَّهم عن ربِّهم يومَئذٍ لمحجوبون».

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧١، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٩.

(٤) الصحاح (غين).

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٣ بلفظ: طبع على قلوبهم ما كسبوا.

(٦) التيسير ص ١٤٢ و٢٢٠.

قال الزجَّاج[١]: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآيةِ فائدةٌ، ولا خَسَّتْ منزلةُ الكفارِ بأنَّهم يُحْجَبون. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فأَعْلَمَ الله جلَّ ثناؤه أنَّ المؤمنين ينظرون إليه، وأَعْلَمَ أنَّ الكفار محجوبون عنه.

وقال مالك بن أنس في هذه الآيةِ: لمَّا حَجَبَ أعداءَه فلم يَرَوْه تجلَّى لأوليائه حتى رَأَوْه. وقال الشافعيُّ: لمَّا حجب قوماً بالسُّخْطِ، دلَّ على أنَّ قوماً يَرَوْنه بالرضا. ثم قال: أمَا واللهِ لو لم يُوْقِنْ محمد بنُ إدريس أنَّه يَرى ربَّه في المَعَادِ لَمَا عَبَدَه في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: كما[٢] حجبهم في الدنيا عن نور تَوْحيدِه حجبهم في الآخرة عن رؤيته[٣].

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: عن كرامته ورحمته ممنوعون[٤]. وقال قتادةُ: هو أنَّ الله لا ينظرُ إليهم برحمته، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم[٥].

وعلى الأول الجمهورُ، وأنَّهم محجوبون عن رؤيته فلا يَرَوْنه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: مُلازِمُوها ومُحْتَرِقون فيها غير خارِجين منها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ويقال: الجحيم: البابُ الرابعُ من النار. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم، أي: تقولُ لهم خَزَنةُ جهنَّم ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ رسلَ اللهِ في الدنيا.

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩ .

(٢) في (م): لما.

(٣) ذكره هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/٤٤٦ .

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٦٠ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥ . وذكره البغوي ٤/ ٤٦٠ .

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ «كَلَّا» بمعنى: حقًّا، والوقفُ على «تكذِّبون». وقيل: أي: ليس الأمرُ كما يقولون ولا كما ظنُّوا، بل كتابُهم في سجِّين، وكتابُ المؤمنين في علِّيين. وقال مقاتل: كَلَّا، أي: لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم استأنف فقال: «إن كتاب الأبرارِ» مرفوعٌ في علِّيين على قَدْرِ مَرْتَبتهم. قال ابن عباس: أي: في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالُهم في كتابٍ [عند] الله في السماء.

وقال الضحَّاك ومجاهدٌ وقتادةُ: يعني السماءَ السابعةَ فيها أرواحُ المؤمنين.

ورَوَى الأَجْلَحُ عن الضحَّاك قال: هي سِدْرةُ المنتهى، ينتهي إليها كلُّ شيءٍ من أَمْرِ اللهِ لا يَعْدُوها، فيقولون: ربِّ! عَبْدُكَ فلان، وهو أَعْلَمُ به منهم، فيأتيه كتابٌ من الله عزَّ وجلَّ مختومٌ بأمانه من العذاب. فذلك قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

وعن كعب الأحبار قال: إنَّ روحَ المؤمنِ إذا قُبِضَتْ صُعِدَ بها وفُتِحَتْ لها أبوابُ السماءِ، وتلقَّتها الملائكةُ بالبُشْرَى، ثم يَخْرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرجُ لهم من تحت العرشِ رَقٌّ، فيُرْقَم ويُختَم فيه النجاةُ من الحساب يومَ القيامة، ويَشْهدُه المقرَّبون.

وقال قتادةُ أيضاً: «في علِّيين» هي فوقَ السماءِ السابعةِ عند قائمةِ العرشِ اليمنى[(١)]. وقال البَرَاء بن عازبٍ: قال النبيُّ ﷺ: «عِلِّيون في السماء السابعةِ تحت العرش»[(٢)].

وعن ابن عباسٍ أيضاً: هو لوحٌ من زَبَرْجَدَةٍ خضراءَ معلَّقٌ بالعرش، أعمالُهم مكتوبةٌ فيه[(٣)].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٢٠٧ و٢١٠، وما بين سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٧، وينظر الحديث (١٨٥٣٤) في مسند أحمد عن البراء ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٠.

وقال الفرَّاء: عِلِّيون: ارتفاعٌ بعد ارتفاع[١]. وقيل: علِّيون: أَعْلَى الأمكنةِ[٢]. وقيل: معناه: علوٌّ في علوٍّ مضاعَف كأنه لا غايةَ له؛ ولذلك جُمع بالواو والنُّون. وهو معنى قولِ الطبريِّ[٣]. قال الفرَّاء: هو اسمٌ موضوعٌ على صفةِ الجمع، ولا واحدَ له من لَفْظِه، كقولك: عشرون وثلاثون، والعربُ إذا جَمَعَتْ جمعاً ولم يكن له بناءٌ مِن واحدِهِ ولا تثنيةٌ، قالوا في المذكَّر والمؤنَّث بالنون[٤]. وهو معنى قولِ الطبريِّ[٥]. وقال الزجَّاج[٦]: إعرابُ هذا الاسم كإعرابِ الجمع [لأنه على لفظ الجمع]، كما تقول: هذه قِنَّسرون، ورأيتُ قِنَّسرين.

وقال يونس النحويُّ: واحدُها: علِّيٌّ وعِلِّيَةٌ. وقال أبو الفتح: عِلِّيين: جمعُ عِلِّيٍّ، وهو فِعِّيل من العُلُوِّ. وكان سبيلُه أن يقول: عِلِّية، كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنَّها من العلوِّ، فلمَّا حُذِفَتِ التاءُ من عِلِّية عوَّضوا منها الجمعَ بالواو والنون، كما قالوا في أَرضين[٧].

وقيل: إنَّ علِّيين صفةٌ للملائكة، فإنَّهم الملأُ الأعلى، كم يقال: فلانٌ في بني فلانٍ؛ أي: هو في جُمْلتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهلَ عِلِّيين لَيَنْظُرون إلى الجنة من كذا[٨]، فإذا أَشْرَفَ رجلٌ

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٢) هو قول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩ .

(٣) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) يعني أن كلمة أرض اسم مؤنث، فكأن فيها هاءً مُرادةً، وكأن تقديرها: أرْضة، فلما حذفت التاء التي كان القياس يوجبها، عوَّضوا منها الجمع بالواو والنون، فقالوا: أرضون. ينظر سر صناعة الإعراب لابن جني ٢/ ٦١٤ و٦٢٥ .

(٨) كذا في النسخ، والذي في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٢ : كوى، وكذا نقلها عنه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧ .

من أهل عِلِّيين أشرقت الجنةُ لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟! فيقال: أَشْرفَ رجل من أهل علِّيين الأبرارِ أهلِ الطَّاعةِ والصِّدْقِ». وفي خبرٍ آخَرَ: «إنَّ أهلَ الجنة لَيَرْون أهلَ عِلِّيين كما يُرى الكوكبُ الدُّرِّيُّ في أُفُقِ السماء»(١) يدلُّ على أنَّ عِلِّيين اسمُ الموضعِ المرتفعِ.

وروى ناسٌ عن ابن عباس في قوله: «عِلِّيين»، قال: أَخْبَرَ أنَّ أعمالهم وأرواحَهم في السماء الرابعة(٢).

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أَعْلَمَكَ يا محمدُ أيُّ شيءٍ علِّيون؟ على جهةِ التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وقيل: إنَّ «كتابٌ مرقومٌ» ليس تفسيراً لعلِّيين، بل تمَّ الكلام عند قوله: «علِّيون»، ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي: كتابُ الأبرارِ كتابٌ مَرْقومٌ، ولهذا عكس الرقْم في كتاب الفجَّار؛ قاله القشيريُّ.

وروي: أنَّ الملائكة تصعَدُ بعمل العبد، فيَسْتقِلُّونه(٣) فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله من سلطانه أَوْحَى إليهم: إنَّكم الحفَظَةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنَّه أَخْلَصَ لي عملَه، فاجعلوه في علِّيين، فقد غَفَرْتُ له، وإنَّها لتصعدُ بعملِ العبد، فيزكُّونه، فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله أَوْحَى إليهم: أنتم الحفظةُ على عبدي وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنه لم يُخْلِصْ لي عملَه، فاجعلوه في سِجِّين(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في (ظ) و(ي): السابعة، وهما روايتان عن ابن عباس ذكرهما الرازي ٣١/ ٩٧ .

(٣) في النسخ عدا (د): فيستقبلونه، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المصادر، على ما يأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٢ ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٥٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٢٢) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب، عن النبي ﷺ. وابن أبي مريم ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب، كما أن الخبر مرسل.

قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَشْهدُ عملَ الأبرارِ مقرَّبو كلِّ سماءٍ من الملائكة. وقال وهبٌ وابنُ إسحاقَ: المقرَّبون هنا إسرافيلُ عليه السلامُ، فإذا عَمِلَ المؤمنُ عَملَ البِرِّ، صَعدت الملائكةُ بالصحيفة وله نورٌ يتلألأُ في السماوات كنورِ الشمس في الأرض، حتى يُنْتَهى بها إلى إسرافيل، فيختمُ عليها ويكتبُ، فهو قولُه: «يشهده المقربون» أي: يشهدُ كتابتهم(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: أهلَ الصِّدْقِ والطاعة. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي: نَعْمةٍ، والنَّعمةُ بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعَمَه فتنعَّم، وامرأةٌ منعَّمةٌ ومنَاعَمةٌ بمعنى(٢). أي: إنَّ الأبرار في الجنات يتنعَّمون. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي الأسِرَّةُ في الحِجال(٣) ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمةُ وابن عباسٍ ومجاهد(٤). وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبيِّ ﷺ: «ينظُرون إلى أعدائهم في النار»(٥) ذكره المَهْدَوِيُّ. وقيل: على أرائكِ أَفْضالِه ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجَته وغَضارتَه ونورَه؛ يقال: نَضَر النبات؛ إذا ازْهَرَّ ونَوَّر(٦). وقراءةُ العامَّةِ: «تَعرِفُ» بفتح التاء وكَسْرِ الراء «نَضْرةَ»

---

(١) في (ظ): كتابهم.

(٢) الصحاح (نعم).

(٣) جمع حَجَلة، وهو موضع مثل القبة يتخذ للعروس، يزين بالثياب والسُّتور والأَسِرَّة. معجم متن اللغة (حجل).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٤٦١ دون نسبة.

(٥) ذكره مرفوعاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٣ . وذكره الواحدي ٤/٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٤٦١ عن مقاتل قوله.

(٦) نوَّر: أخرج نَوْرَه، والنَّوْر: الزَّهر. القاموس (نور).

نصباً، أي: تَعْرِفُ يا محمد. وقرأ أبو جعفر بنُ القعقاع ويعقوبُ وشيبةُ وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضمِّ التاء وفتحِ الراء على الفعل المجهول، «نضرةُ» رفعاً[١].

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شرابٍ لا غِشَّ فيه. قاله الأخفشُ والزجَّاج[٢]. وقيل: الرحيقُ: الخمرُ الصافية. وفي «الصحاح»[٣]: الرحيقُ صفوةُ الخمر. والمعنى واحدٌ. الخليل: أَصْفى[٤] الخمرِ وأجودُها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمرُ العتيقةُ البيضاءُ الصافيةُ من الغشِّ النيِّرةُ، قال حسان:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عليهِمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[٥]

وقال آخر:

أمْ لا سبِيلَ إلى الشبابِ وذِكْرُه أشهى إليَّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ[٦]

﴿مَّخْتُومٍ . خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال مجاهدٌ: يُختمُ به آخِرُ جُرْعةٍ. وقيل: المعنى: إذا شربوا هذا الرحيقَ فَفَني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتمِ المِسْكِ. وكان ابنُ مسعود يقول: يجدون عاقبتها طَعْمَ المِسْكِ[٧]. ونحوه عن سعيد بنِ جبير وإبراهيمَ النخعيِّ قالا: ختامُه: آخِرُ طَعْمِه[٨]. وهو حسنٌ؛ لأنَّ سبيل الأشربةِ أن يكون الكَدَرُ في آخرها، فوصف شراب أهلِ الجنة بأنَّ رائحةَ آخِرِه رائحةُ المِسْكِ.

---

(١) النشر ٢/ ٣٩٧ عن يعقوب وأبي جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠ ، وذكره عن الأخفش الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٣٠ .

(٣) مادة (رحق).

(٤) في النسخ: أقصى، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٣٠ ، والكلام منه. وفي العين ٣/ ٤٥ : الرحيق من أسماء الخمر.

(٥) ديوان حسان ص ١٨٠ ، وسلف ٢١/ ٤٧٨ .

(٦) البيت لأبي كبير، وهو في ديوان الهذليين ص ٨٩ . قال شارح الديوان: السلسل: السهلُ في الحَلْقِ السَّلِسُ.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٦٤).

(٨) أخرجه بهذا اللفظ عن سعيد بن جبير ابن أبي شيبة ٣/ ١٤٣ . وأخرجه عن إبراهيم الطبري ٢٤/ ٢١٨ بلفظ: عاقبته مسك.

وعن مسروق عن عبد الله. قال: المختومُ: الممزوج[١].

وقيل: مختوم، أي: خُتِمتْ ومُنِعتْ عن أن يمسَّها ماسٌّ إلى أن يَفُكَّ ختامَها الأبرارُ.

وقرأ عليٌّ وعلقمةُ وشقيقٌ والضحاكُ وطاوسٌ والكسائيُّ: «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألفٌ بينهما[٢]. قال علقمةُ: أمَا رأيتَ المرأةَ تقولُ للعطار: اجْعَلْ خاتَمه مِسْكاً، تريدُ آخِرَه. والخاتمَ والخِتام متقارِبان في المعنى، إلَّا أنَّ الخاتم الاسمُ، والخِتام المصدرُ؛ قاله الفراء[٣].

وفي «الصحاح»: والخِتامُ: الطِّينُ الذي يُخْتَم به[٤]. وكذا قال مجاهدٌ وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطِّين. حكاه المهدويُّ. وقال الفرزدق:

وبِتُّ أَفُضُّ أَغلاقَ الخِتامِ[٥]

وقال الأعشى:

وأَبْرَزَها وعليها خَتَمْ[٦]

أي: عليها طينةٌ مختومةٌ، مثل نَفَضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبَض بمعنى مقبوضٍ[٧].

وذكر ابنُ المبارك وابنُ وَهْبٍ، واللفظُ لابنِ وَهْبٍ، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «خِتامه مِسْك»: خِلْطُه، ليس بخاتمٍ يَخْتِم، ألَا ترى إلى قولِ المرأةِ من

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/١٤٢ ، وهناد في الزهد (٦٦)، والطبري ٢٤/٢١٦ .

(٢) السبعة ص ٦٨٦ ، والتيسير ص ٢٢١ عن الكسائي. وذكرها عن علي وعلقمة الفراء في معاني القرآن ٣/٢٤٨ .

(٣) في معاني القرآن ٣/٢٤٨ .

(٤) الصحاح (ختم).

(٥) وصدره: فبتن بجانبيَّ مُصرَّعات، وسلف ١٣/١٤٨ .

(٦) وصدره: وصهباءَ طاف يَهوديُّها. وهو في ديوان الأعشى ص ٨٥ ، والصحاح (ختم). قال الشارح: أي: يبرزها صاحبها اليهودي مختومة لم تُفَضَّ ولم تعبث بها يد. والصهباء: الخمر. القاموس (صهب).

(٧) الصحاح (ختم). والنَّفَض: ما تساقط من ورق الشجر والثمر. الصحاح (نفض).

نسائكم: إنَّ خِلْطَه من الطِّيب كذا وكذا. إنَّما خِلْطُه مسك(١).

قال [أبو الدرداء]: شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ يَخْتِمون به آخِرَ أَشْرِبَتهم، لو أنَّ رجلاً من أهل الدنيا أَدْخَل فيه يده ثم أَخْرَجَها، لم يَبْقَ ذو روحٍ إلَّا وَجَدَ ريحَ طِيْبِها(٢).

وروى أُبَيُّ بنُ كعب قال: قيل: يا رسول الله، ما الرحيقُ المختوم؟ قال: «غُدْرانُ الخمر»(٣). وقيل: مختومٌ في الآنية، وهو غيرُ الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم.

﴿وَفِى ذَالِكَ﴾ أي: وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فلْيَرْغَب الراغبون؛ يقال: نَفِسْتُ عليه الشيءَ أَنْفَسُه نفاسةً، أي: ضَنِنتُ به، ولم أُحِبَّ أنْ يصيرَ إليه(٤). وقيل: الفاءُ بمعنى إلى، أي: وإلى ذلك فليتبادرِ المتبادِرون في العمل، نظيرُه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: ومِزَاجُ ذلك الرحيقِ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ وهو شرابٌ ينصبُّ عليهم من علوٍّ، وهو أشرفُ شرابٍ في الجنة. وأصلُ التسنيم في اللغة: الارتفاعُ، فهي عينُ ماءٍ تجري من علوٍّ إلى أسفل، ومنه: سنام البعير؛ لعلوِّه من بَدَنِه، وكذلك تسنيمُ القبور.

ورُوي عن عبد الله قال: «تسنيم» عينٌ في الجنة يشربُ بها المقرَّبون صِرْفاً، ويُمزجُ منها كأسُ أصحابِ اليمين فتطيب(٥).

وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: هذا ممَّا قال الله

(١) الزهد لابن المبارك (٢٧٧ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٢١٦، والطبراني في الكبير (٩٠٦٢).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٧٦ - زوائد نعيم)، وتفسير مجاهد ٢/ ٧٣٩، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢١٨، والبعث والنشور للبيهقي (٢٦٥)، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣٠.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ١٠٠.

(٥) أخرجه الحسين المروزي في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٢، وهناد في الزهد (٦٥)، والطبري ٢٤/ ٢٢١.

تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][١].

وقيل: التسنيم: عينٌ تجري في الهواء بقدرةِ الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهلِ الجنةِ على قَدْرِ مائها، فإذا امتلأتْ أَمْسَكَ الماء، فلا تقع منه قطرةٌ على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة[٢].

ابن زيد: بَلَغَنا أنَّها عينٌ تجري من تحت العرش[٣]. وكذا في مراسيلِ الحسن. وقد ذكرناه في سورة الإنسان[٤].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربُ منها أهلُ جنةِ عَدْنٍ ـ وهم أفاضِلُ أهلِ الجنةِ ـ صِرْفًا، وهي لغيرهم مِزَاجٌ.

و«عيناً» نصب على المدح. وقال الزجَّاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفةٌ، ليس يُعرفُ له اشتقاق، وإن جَعَلْته مصدراً مشتقًّا من السَّنام فـ«عيناً» نصب لأنه مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥] وهذا قولُ الفراءِ: أنه منصوبٌ بتسنيم. وعند الأخفش بـ «يُسْقَون» أي: يُسقونَ عيناً، أو: من عين. وعند المبرِّد بإضمارِ أعني على المدح[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وَصَفَ أحوالَ الكفَّارِ في الدنيا مع المؤمنين في

---

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٠٠ ، والبغوي ٤/ ٤٦٢ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩ .

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٦١ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٢٤ .

(٤) عند تفسير الآية السادسة منها.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٩ ، وللزجاج ٥/ ٣٠١ ، وللأخفش ٢/ ٧٣٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٨٢ .

استهزائهم[١] بهم، والمرادُ رؤساءُ قريشٍ من أهلِ الشِّرْك. رَوَى ناسٌ عن ابن عباسٍ قال: هو الوليدُ بنُ المغيرةِ، وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغوث، والعاصُ بن هشام، وأبو جهل، والنَّضْرُ بنُ الحارثِ، وأولئك ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أصحاب محمدٍ ﷺ، مثل عَمارٍ وخَبَّابٍ وصُهَيبٍ وبلال ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجهِ السُّخْرية[٢]. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ عند إتيانهم رسولَ الله ﷺ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضُهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي: يعيِّرونهم بالإسلام ويَعِيْبونَهم به. يقال: غَمزْتُ الشيءَ بيدي، قال:

وكــنــتُ إذا غــمــزتُ قــنــاةَ قــومٍ　　　كَسَرْتُ كُعوبَها أو تستقيما[٣]

وقالت عائشةُ: كان النبيُّ ﷺ إذا سجد غَمزَني، فقبضتُ رِجْليَّ، الحديثَ، وقد مضى في «النساء»[٤]. وغمزتُه بعيني.

وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال: غمزه، أي: عابَه، وما في فلانٍ غَمْزة[٥]، أي: عيب.

وقال مقاتل: نزلت في عليّ بنِ أبي طالب؛ جاء في نَفَرٍ من المسلمين إلى النبيّ ﷺ فَلَمَزهم المنافقون، وضحكوا عليهم وتَغامَزوا[٦].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: انْصَرَفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿انقلبوا فاكِهين﴾ أي: مُعَجِّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر، متفكِّهون بِذِكْرِ المؤمنين. وقرأ ابنُ القعقاع وحَفْصٌ والأعرجُ والسُّلميُّ: «فَكِهِين» بغيرِ ألفٍ. الباقون بألف[٧].

---

(١) في (د) و(م): باستهزائهم، وفي (ظ): واستهزاءهم.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩، والبغوي ٤/ ٤٦٢، والرازي ٣١/ ١٠١ دون نسبة.

(٣) سلف ٥/ ١٧٣.

(٤) ٦/ ٣٧٥.

(٥) كذا في النسخ، وفي المعاجم: غميزة.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨، والكشاف ٤/ ٢٣٣، وتفسير الرازي ٣١/ ١٠١.

(٧) السبعة ص ٦٧٦، والتيسير ص ٢٢١، والنشر ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥ و٣٩٩.

قال الفرَّاء[١]: هما لغتان، مثل: طَمِع وطامِع، وحَذِر وحاذِر، وقد تقدَّم في سورة الدخان[٢]، والحمد لله. وقيل: الفَكِهُ: الأَشِرُ البَطِرُ، والفاكِه: الناعِم المتنعِّم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى هؤلاء الكفارُ أصحابَ محمدٍ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ في اتِّباعهم محمداً ﷺ ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهم، مُوَكَّلين بأحوالهم، رُقَباءَ عليهم. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يومُ القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ كما ضحك الكفارُ منهم في الدنيا. نظيرُه في آخِر سورةِ المؤمنين، وقد تقدَّم[٣].

وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن يسار عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ قال: ذُكِر لنا أنَّ كعباً كان يقول: إنَّ بين الجنةِ والنارِ كُوًى، فإذا أراد المؤمنُ أن ينظر إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطَّلَع من بعضِ الكُوَى؛ قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] قال: ذُكِر لنا أنه اطَّلع فرأى جماجمَ القومِ تَغْلِي[٤].

وذكر ابن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيُّ عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بِهِم﴾ [البقرة: ١٥] قال: يقال لأهل النارِ وهم في النار: اخرجوا، فتفتَحُ لهم أبوابُ النارِ، فإذا رَأَوْها قد فُتِحَتْ أَقْبَلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انْتَهَوْا إلى أبوابها غُلِّقَتْ دونهم، فذلك قولُه: ﴿الله يستهزئ بِهِم﴾ ويَضْحكُ منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٥] وقد

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ بنحوه.

(٢) ١٩/ ١١٧ - ١١٨ .

(٣) ١٥/ ٩٥ .

(٤) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٢٨ .

(٥) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ١/ ٣١ .

مضى هذا في أولِ سورة البقرة[١].

ومعنى «هل ثُوّب» أي: هل جُوزي [الكفار] بسُخْرِيتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك[٢]. وقيل: إنه متعلّق بـ «ينظرون» أي: ينظرون: هل جُوزيَ الكفار؟ فيكون معنى هل وموضعُها نصباً بـ «ينظرون». وقيل: استئنافٌ لا موضعَ له من الإعراب. وقيل: هو إضمارٌ على القول، والمعنى: يقول بعضُ المؤمنين لبعضٍ: «هل ثُوّب الكفار» أي: أُثيبَ وجُوزي. وهو مِن ثابَ يثوبُ، أي: رجع، فالثَّوابُ ما يرجع على العبد في مقَابَلَةِ عَمَلِه، ويُستعمل في الخير والشَّرّ. خُتِمَتِ السورةُ والله أعلم.

---

(١) ١/ ٣١٥.

(٢) بنحوه في مجمع البيان ٣٠/ ٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه. قال الطبرسي: وهو استفهام يراد به التقرير، ويكون استئنافَ كلام لا موضع له من الإعراب.

سورة المطففين

مُختلَفٌ فيها، وآيُها سِتٌّ وثلاثونَ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ التَّطفيفُ: البَخْسُ في الكيلِ والوزنِ؛ لأنَّ ما يُبخسُ طَفيفٌ؛ أي: حَقِيرٌ، رُوِيَ أنَّ أهلَ المدينةِ كانوا أخبَثَ النَّاسِ كيلًا فنزلَتْ، فأَحْسَنُوهُ[2].

وفي الحديثِ: «خمسٌ بخَمْسٍ: ما نقضَ العَهْدَ قومٌ إلَّا سَلَّطَ اللهُ عليهم عَدُوَّهُم، وما حَكَمُوا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ إلَّا فَشَا فيهِم الفقرُ، وما ظَهَرَتْ فيهِم الفاحِشَةُ إلا فشا

---

(١) في نسخة الخيالي: «سورة المطففين مكية، وآيها ست وثلاثون، وقيل مدنية»، وقد ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤١٣) الاختلاف فيها فقال: فيها ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها مكيَّة، قاله ابن مسعود والضَّحَّاك ويحيى بن سلام.
والثاني: مدنيَّة، قاله ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومقاتل، إلَّا أنَّ ابن عباس وقتادة قالا: فيها ثمان آيات مكيّة، من قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخرها. وقال مقاتل: فيها آية مكّيَّة، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣].
والثالث: أنها نزلت بين مكّة والمدينة، قاله جابر بن زيد وابن السّائب، وذكر هبة الله بن سلامة المفسّر أنها نزلت في الهجرة بين مكَّة والمدينة، نصفها يقارب مكَّة، ونصفها يقارب المدينة.

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (١١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٢٢٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٨٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٤٤١).

فيهم الموتُ، ولا طفَّفُوا الكيلَ إلا مُنِعُوا النَّباتَ وأُخِذُوا بالسِّنينَ، ولا مَنَعوا الزَّكاةَ إلا حُبِسَ عَنْهُم القطرُ»(١).

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾؛ أي: إذا اكتالوا مِـن النَّاسِ حقوقَهُم يأخذونَها وافيةً، وإنَّما أبدلَ ﴿عَلَى﴾ بـ(من) للدَّلالةِ على أنَّ اكتِيَالَهُم لِمَا لهم على النَّاسِ، أو اكتيالٌ يُتحَامَلُ فيه عليهم.

(٣) ـ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ أي: إذا كالوا للنَّاسِ أو وَزنوا لهم ﴿يُخۡسِرُونَ﴾ فحُذِفَ الجارُّ وأوصِلَ الفعلُ، كقولِه:

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا ... ولقد نَهَيْتُكَ عن بناتِ الأَوْبَرِ(٢)

بمعنى: جنيتُ لك.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٩٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٣٧ـ٣٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال في «مجمع الزوائد» (٣/ ٦٥): فيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي لينه الحاكم، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٣١٠): رواه الطبراني في «الكبير»، وسنده قريب من الحسن وله شواهد.

قلت: من هذه الشواهد ما رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٥٧٧) وصححه من حديث بريدة رضي الله عنه، و(٨٦٢٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) دون نسبة في «العين» (٢/ ٢٩٠)، و«الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٢/ ٣٣٣)، و«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (١/ ٣٣٥)، و«الجراثيم» لابن قتيبة (٢/ ٦٩)، و«المقتضب» (٤/ ٤٨)، و«مجالس ثعلب» (ص: ١٠٦)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٣٣١). ونقل السيوطي عن السَّخاويُّ في «شرحِ المفصَّلِ» قوله: أنشدهُ أبو زيادٍ الكلابيُّ، وهوَ مِن فصحائِهم. وقال السيوطي: والأَكْمُؤُ جَمْعُ كَمْأَةٍ، والعَسَاقِلُ ضربٌ منها، وأصلُهُ: عَسَاقِيلُ؛ لأنَّ واحدَها عُسْقُولٌ كعُصْفُورٍ، فحَذَفَ المدَّةَ للضَّرورةِ، وبناتُ أوبَرَ ضربٌ من الكمأةِ رديءٌ.

أو: كالوا مكيلَهُم؛ فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ.

ولا يَحْسُنُ جعلُ المُنفَصِلِ تأكيدَ المُتَّصِلِ؛ فإنَّه يُخْرِجُ الكَلامَ عَن مقابَلَةِ ما قبلَهُ، إذ المقصودُ بيانُ اختلافِ حالِهم في الأخذِ والدَّفعِ، لا في المباشَرَةِ وعدمِها[1]، ويستدعي إثباتَ الألفِ بعدَ الواوِ كما هو خَطُّ المُصحَفِ في نَظائرِه.

(٤) ـ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فإنَّ مَن ظنَّ ذلك لم يَتجاسَرْ على أمثالِ هذه القبائحِ، فكيفَ بمَنْ تيقَّنَهُ؟ وفيه إنكارٌ وتَعجيبٌ مِن حالِهم.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ عظَّمَهُ لعِظَمِ ما يكونُ فيه ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ نصبٌ بـ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾، أو بدلٌ مِن الجارِّ والمَجرورِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالجرِّ[2].

﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: لحُكْمِه، وفي هذا الإنكارِ والتَّعجيبِ، وذكرِ الظَّنِّ، ووصفِ اليومِ بالعِظَمِ، وقيامِ النَّاسِ فيه لله، والتَّعبيرِ عنه بربِّ العالمينَ= مبالغاتٌ في المنعِ عن التَّطفيفِ، وتَعظيمِ إثمِه.

(٧) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عَن التَّطفيفِ والغفلَةِ عَن البَعثِ والحسابِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ ما يُكتَبُ مِن أعمالِهم، أو: كتابةُ أعمالِهم ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾: كتابٍ جامعٍ لأعمالِ الفَجَرةِ مِن الثَّقلينِ، كمَا قال:

---

(١) يعني إن جُعلَ الضَّميرُ للمُطَفِّفينَ انقلَب إلى قولِك: إذا أَخَذُوا من النَّاسِ استَوْفَوا وإذا تَولَّوا الكَيْلَ أو الوَزْنَ هُم عَلى الخصُوص أَخْسَرُوا، وهُو كلامٌ مُتنافِرٌ لأنَّ الحديثَ وَاقِعٌ في الفِعْلِ لا في المُباشِر، والمعنى: إذا أَخَذُوا من النَّاس استَوفَوا وإذا أَعْطَوْهُم أخسَرُوا. انظر: «الكشاف» (٩/ ٥١٥).

(٢) حكاها أبو معاذ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٠).

(٨ ـ ٩) ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾؛ أي: مَسْطورٌ بَيِّنُ الكتابَةِ، أو مُعْلَمٌ يَعْلَمُ مَن رآهُ من ورائه(١) أنَّه لا خيرَ فيهِ، (فِعِّيل) مِن السِّجنِ لُقِّبَ بهِ الكتابُ؛ لأنَّه سببُ الحبسِ، أو لأنَّهُ مطروحٌ كما قيلَ تحتَ الأرضينَ في مَكانٍ وَحِشٍ.

وقيل: هو اسمُ المَكانِ، والتَّقديرُ: ما كتابُ السِّجِّينِ؟ أو: محلُّ كتابٍ مرقومٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالحقِّ، أو بذلك ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ صفةٌ مُخصِّصةٌ، أو مُوضِّحةٌ، أو ذامَّةٌ.

(١٢) ـ ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾: مُتجاوزٌ عن النَّظرِ غالٍ في التَّقليدِ، حتى استقصَرَ قُدرةَ اللهِ وعلمَه فاستحالَ منهُ الإعادةَ ﴿أَثِيمٍ﴾: منهمِكٍ في الشَّهواتِ المُخدَجةِ، بحيثُ أشغلَتْهُ عمَّا وراءَهَا، وحملَتْهُ على الإنكارِ لِما عَداهَا.

(١٣) ـ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مِن فَرْطِ جهلِه وإعراضِه عن الحقِّ، فلا تنفعُه شواهدُ النَّقلِ كما لم تنفَعْهُ دلائلُ العقلِ.

(١٤) ـ ﴿كَلَّاۖ﴾ ردعٌ عَن هذا القولِ ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ردٌّ لِمَا قالوهُ، وبيانٌ لِمَا أدَّى بهم إلى هذا القولِ، بأَنْ غلَبَ عليهِمْ حبُّ المعاصي بالانهماكِ فيه حتَّى صارَ ذلك صدأً على قُلوبِهم، فعَمِيَ عليهِم معرفَةُ الحقِّ والباطلِ؛ فإنَّ كثرةَ الأفعالِ سببٌ لحُصولِ المَلكاتِ، كمَا قال عليهِ السَّلامُ: «إنَّ العبدَ كُلَّما أذنبَ ذنبًا حصَلَ في قلبهِ نكتةٌ سوداءُ حتى يَسْوَدَّ قلبُه»(٢).

---

(١) «من رآه» ليست في نسخة الفاروقي والخيالي، و«من ورائه»، ليست في نسخة التفتازاني والطبلاوي، والمثبت من نسخة ذكرها الأنصاري في «الحاشية» (٥/ ٤٧٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤) وصححه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٠٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والرَّيْنُ: الصَّدَأُ، وقرأَ حفصٌ: ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ بإظهارِ اللامِ مع سكتةٍ بينهما(١).

(١٥) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عَن الكسبِ الرَّائنِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فلا يرونَهُ، بخلافِ المُؤمنينَ، ومَن أنكرَ الرُّؤيةَ جعلَهُ تمثيلًا لإهانَتِهِم بإهانةِ مَن يُمْنَعُ عن الدُّخولِ على الملوكِ، أو قَدَّرَ مُضافًا مثلَ: رحمةِ ربِّهم، أو قُربِ ربِّهِم(٢).

---

(١) وقرأ غيره بترك السكت مع إدغام اللام في الراء. انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٢ و٢٢٠)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٣٣٩).

(٢) قوله: «ومن أنكر الرؤية» هم المعتزلة، وعلى رأسهم مفسرهم الزمخشري الذي راحَ يسوقُ الوجوه ـ من جعلِ الآية تمثيلاً للاستخفافِ بهم، ثم تفسيرِ الآية بالحَجْبِ عن الرحمةِ، وعن الكرامة ـ لصرفِ الآية عن المعنى الذي يكادُ يُطبِقُ عليه المفسِّرون وغيرُهم من أئمةِ الإسلام، وهو الحجبُ عن رؤية الله، في إشارةٍ إلى أنَّ المؤمنينَ غير محجوبينَ عنها.

وقد ذكر ابن الجوزي عن ابن عباس قوله: إنهم عن النظر إلى ربهم يومئذ لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤيته.

وسُئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: لمَّا حجبَ أعداءَه فلم يرَوْه تجلَّى لأوليائِهِ حتى رأوه.

وقال الحسن رحمه الله: لو علم الزَّاهدون والعابدون أنَّهم لا يرون ربَّهم في المعاد لزهقَتْ أنفسُهم في الدُّنيا.

وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسُّخْطِ دل على أن قوماً يرونه بالرِّضى.

وقال الزجَّاج: وفي هذه الآية دليل على أن الله يُرَى في الآخرة، لولا ذلك لما كان في هذه الآية فائدة، ولا خسَّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن الله عزَّ وجلَّ، وقال تعالى في المؤمنين: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، فأعلم الله عزَّ وجلَّ أن المؤمنين ينظرون إلى الله، وأن الكفارَ يُحْجَبُونَ عَنْه.

وقال الواحدي: وقوم ذهبوا إلى أن معنى محجوبون: الحجب عن رحمة الله وما أعد لأوليائه من النعيم، وذلك عدول عن سنن الخطاب وظاهر الكلام.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دلّ عليه منطوق قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ وكما دلت على ذلك =

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾: لَيَدْخلونَ النَّارَ ويَصْلَوْنَها[1] ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ تقوله لهم الزَّبانيَةُ.

(١٨ ـ ٢١) ـ ﴿كَلَّا﴾ تكريرٌ للأوَّلِ ليُعَقَّبَ بوعدِ الأبرارِ كما عُقِّبَ بوَعيدِ الفجَّارِ، إشعارًا بأنَّ التَّطفيفَ فجورٌ والإيفاءَ بِرٌّ. أو: ردعٌ عَن التَّكذيبِ.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ الكلامُ فيه ما مرَّ في نَظيرِهِ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: يَحْضُرونَهُ فيحفظونَهُ، أو يشهدونَ على ما فيه يومَ القيامةِ.

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: على الأسرَّةِ في الحِجَالِ[2] ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما يَسرُّهُم مِن النِّعَمِ والمُتفرَّجَاتِ.

(٢٤) ـ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾: بهجةَ التَّنعُّمِ وبريقَهُ، وقرأ يعقوبُ: ﴿تُعْرَفُ﴾ على بناءِ المَفعولِ و﴿نَضْرَةُ﴾ بالرَّفعِ[3].

= الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة.

انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (٢٩/ ٦٣ ـ ٦٥)، و«البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٦٦)، و«التيسير في التفسير» للنسفي عند هذه الآية، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير ابن كثير» عند هذه الآية.

(١) في نسخة الفاروقي: «ويُصْلَوْن بها» والضبط منها. وقال الشهاب: قوله: «ليدخلون النار ويصلونها»: هو من الدخول أو الإدخال، ولا يتعين الثاني كما توهم، ومعنى يصلونها: يحترقون بها، لا بمعناه المعروف، فإنه غير صحيح هنا مع الدخول، وفي نسخة: «يصلون بها»؛ لأنه يتعدى بنفسه وبالباء كما في «القاموس».

(٢) الحجال: جمع الحجلة: وهو ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس، ويرخى على السرير، قال الشهاب: يسمى بديارنا ناموسية. انظر: «القاموس» و«المعجم الوسيط» (مادة: حجل)، و«حاشية الخفاجي».

(٣) وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٧).

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾: شرابٍ خالِصٍ ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: مختومٍ أوانيهِ بالمسكِ مكانَ الطِّينِ، ولعلَّهُ تمثيلٌ لنَفاسَتِه، أو: الذي له خِتامٌ؛ أي: مَقطعٌ هو رائحةُ المسكِ، وقرأ الكِسائيُّ: ﴿خاتَمُهُ﴾ بفتحِ التَّاءِ[1]، أي: ما يُختَمُ به ويُقطَعُ.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ يعني: الرَّحيقَ أو النَّعيمَ ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾: فليرتَغِبِ المرتغِبونَ.

(٢٧) ـ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَلَمٌ لِعَينٍ بعينِها، سُمِّيَتْ تَسنيمًا لارتفاعِ مَكانِها، أو رفعةِ شَرابِها.

(٢٨) ـ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنَّهُم يشربونَها صِرْفًا؛ لأنَّهُم لم يشتَغِلُوا بغيرِ اللهِ، وتمزجُ لسائرِ أهلِ الجنَّةِ، وانتصابُ ﴿عَيْنًا﴾ على المدحِ أو الحالِ مِن ﴿تَسْنِيمٍ﴾، والكلامُ في الباءِ كما في ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ يعني: رؤساءَ قُرَيشٍ ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يَستَهْزِئُونَ بفُقَراءِ المُؤمنينَ ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يَغمِزُ بعضُهم بعضًا ويشيرونَ بأَعيُنِهم.

(٣١) ـ ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فاكِهِينَ﴾ مُلْتذِّينَ بالسُّخريةِ مِنْهُم، وقرأ حفصٌ: ﴿فَكِهِينَ﴾[2].

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾: وإذا رأوا المؤمنينَ نَسَبوهُم إلى الضَّلالِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢١). وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٣) القراءة بفتح التاء وبكسرها كلاهما عن الكسائي وعلي بن أبي طالب والضحاك والنخعي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٣٣) ـ ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾: على المؤمنينَ ﴿حَٰفِظِينَ﴾ يحفظونَ عليهِم أعمالَهُم، ويَشهَدُونَ برشدِهِم وضَلالِهِم.

(٣٤) ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ حينَ يرونَهُم أذلَّاءَ مَغلولِينَ في النَّارِ.

وقيل: يُفتَحُ لهم بابٌ إلى الجنَّةِ، فيقالُ لهم: اخرجُوا إليها، فإذا وَصَلوا أُغلِقَ دُونَهُم، فيضحكُ المُؤمِنُونَ مِنْهُم.

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حالٌ مِن ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾: هل أثيبوا ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بإدغامِ اللامِ في الثَّاءِ[١].

قال عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ المُطفِّفينَ سقاهُ اللهُ مِن الرَّحيقِ المختومِ يوم القيامَةِ»[٢].

* * *

(١) وقرأ بها أيضاً ابن عامر في رواية هشام. انظر: «التيسير» (ص: ٢٢١).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٣١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٨٣) سورة المطففين مكية
وآياتها ست وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ويل للمطفِّفين﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك[1]، وروى ابن جرير، عن عبد الله قال، قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله تعالى: ﴿ويل للمطففين - حتى بلغ - يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2]، والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما النقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك بقوله تعالى: ﴿إذا اكتالوا على الناس﴾ أي من الناس ﴿يستوفون﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي ينقصون، والأحسن أن يجعل «كالوا ووزنوا» متعدياً ويكون (هم) في محل نصب. وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾، وقال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال، ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ۝ ليوم عظيم﴾؟ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ أي يقومون حفاة عراة، في موقف صعب حرج، ضيق على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[3]، وفي رواية لأحمد عن النبي

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والإمام مالك.

ﷺ قال: «يوم يقوم النـاس لرب العالمين، لعظمة الرحمن عزَّ وجلَّ يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم»[1] . حديث آخر : وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود الكِنْدي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين - قال - فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً»[2] . حديث آخر: روى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه - رأيت رسول الله ﷺ يشير بيده هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه» وضرب بيده، إشارة[3] ، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة، وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برهم وفاجرهم .

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى حقاً: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ أي ان مصيرهم ومأواهم ﴿لفي سجين﴾ فعّيل من السجن، وهو الضيق كما يقال: فسّيق وخمّير وسكّير ونحو ذلك، ولهذا عظّم أمره فقال تعالى: ﴿ما أدراك ما سجّين﴾ ؟ أي هو أمر عظيم، وسجين مقيم، وعذاب أليم، ثم قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب يقول الله عزَّ وجلَّ في روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»، وقيل: بئر في جهنم، والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقال ههنا: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا﴾، وقوله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿ومـا أدراك ما سجين﴾، وإنما هو تفسير لمـا كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد، ثم قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من

(١) أخرجه الإمام أحمد .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

السجن والعذاب المهين، ﴿ويل﴾ لهم والمراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال: ويل لفلان، ثم قال تعالى: مفسراً للمكذبين الفجّار الكفرة: ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام، والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم، من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿ما كانوا يكسبون﴾ والرين يعتري قلوب الكافرين، والغَيْن للمقربين، وقد روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»[1] ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»[2]. وقال الحسن البصري: هو الذنب حتى يعمى القلب فيموت[3]، وقوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ أي ثم هم يوم القيامة محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم، قال الإمام الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عزَّ وجلَّ يومئذ، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة، في رؤية المؤمنين ربهم عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، قال الحسن: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية، وقوله تعالى: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن، من أهل النيران، ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك، على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) هذا لفظ النسائي وقد رواه أحمد بنحوه.

(٣) وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد.

يقول تعالى: حقاً إن كتاب الابرار - وهم بخلاف الفجار - ﴿لفي عليين﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين، روى الأعمش عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً - وأنا حاضر - عن سجين؟ قال: هي الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عليين؟ فقال: هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين(١)، وقال ابن عباس: ﴿لفي عليين﴾ يعني الجنة، وفي رواية عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمنى، وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى، والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وما أدراك ما عليّون﴾؟ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ وهم الملائكة قاله قتادة، وقال ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها، ثم قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر تحت الحجال ﴿ينظرون﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير، والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد، وقيل: معناه ﴿على الأرائك ينظرون﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عزَّ وجلَّ في اليوم مرتين». وقوله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم ﴿نضرة النعيم﴾ أي صفة الترافة والسرور، والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ أي يسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر(٢)، وفي الحديث: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة»(٣)، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك، وقال الحسن: عاقبته مسك، وقال ابن جرير، عن أبي الدرداء: ﴿ختامه مسك﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها(٤)؛ وقال مجاهد: ﴿ختامه مسك﴾ طيبه مسك، وقوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى وليستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾، وقوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي مزاج هذا الرحيق الموصوف ﴿من تسنيم﴾ أي من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً(٥).

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا

---

(١) وهكذا قال غير واحد من السلف أنها السماء السابعة.

(٢) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.

(٣) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن جرير.

(٥) قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم.

ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ
ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين، أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ إي وإذا انقلب: أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين، أي مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون، حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟ كما قال تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي إلى الله عزَّ وجلَّ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته، وقوله تعالى: ﴿هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؟ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين، من الاستهزاء والسخرية أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

[آخر تفسير سورة المطففين، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة المطففين

وهى مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ ﴾.

قال النسائى وابن ماجة : أخبرنا محمد بن عقيل ــ زاد ابن ماجة : وعبد الرحمن بن بشر ــ قالا : حدثنا على بن الحسين بن واقد ، حدثنى أبى ، عن يزيد ــ هو ابن أبى سعيد النحوى ، مولى قريش ــ عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن النضر بن حماد ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن هلال بن طلق قال : بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت : من أحسن الناس هيئةً وأوفاه كيلا ؟ أهل مكة أو المدينة ؟ قال : حق لهم ، أما سمعت الله يقول : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا ابن فضيل ، عن ضرار ، عن عبد الله المكتب ، عن رجل ، عن عبد الله قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إن أهل المدينة ليوفون الكيل . قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

فالمراد بالتطفيف هاهنا : البَخْس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قَضَاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلاَك وهو الويل ، بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوافى والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون .والأحسن أن يجعل « كالوا » و«وزنوا» متعديا، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله :«كالوا »و « وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٢٣) .
(٢) تفسير الطبرى (٥٨/٣٠) .

وقد أمر الله ــ تعالى ــ بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء:٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان .

ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَى من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غُرلاً ، فى موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ــ ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه .

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

رواه البخارى ، من حديث مالك وعبد الله بن عون ، كلاهما عن نافع ، به (١) . ورواه مسلم من الطريقين أيضا . وكذلك رواه صالح [وثابت بن كيسان] (٢) وأيوب بن يحيى ، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ، ومحمد بن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، به (٣) .

ولفظ الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا ابن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : لعظَمة الرحمن عز وجل يوم القيامة، حتى إن العرقَ ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم» (٤) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ،حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثنى سليم بن عامر ، حدثنى المقداد ــ يعنى ابن الأسود الكندى ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يومُ القيامة أدنيَت الشمس من العباد ، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون فى العَرَق كقَدْر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ،ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه ، ومنهم من يلجمه إلجاما » .

رواه مسلم ، عن الحكم بن موسى ، عن يحيى بن حمزة ــ والترمذى ، عن سويد ، عن ابن المبارك ــ كلاهما عن ابن جابر ، به (٥) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوَّار ، حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٢،٦٥٣١) .
(٢) زيادة من أ .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٢) .
(٤) المسند (٢/ ٣١) .
(٥) المسند (٦/ ٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٤) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢١) .

ابن صالح : أن أبا عبد الرحمن حدثه ،عن أبى أمامة : أن رسول الله ﷺ قال :« تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد فى حرها كذا وكذا ، تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يُعرَقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » . انفرد به أحمد (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا أبو عُشَّانة حَى بن يُؤمِنُ ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقِبيه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العَجُز ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه ــ وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ــ ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٢) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة (٣) آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة مرفوعا : «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ،حدثنا أبو عون الزيادى ، أخبرنا عبد السلام بن عَجْلان ، سمعت أبا يزيد المدنى ، عن أبى هريرة (٥) قال : قال النبى (٦) ﷺ لبشير(٧) الغفارى : « كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ، من أيام الدنيا ، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر ؟ » . قال بشير :المستعان الله .قال : « فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كَرْب يوم القيامة ،وسوء الحساب » .

ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام ، به (٨).

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة (٩) .

وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعى رؤوسهم إلى السماء ، لا يكلمهم أحد ، قد ألجم العرق بَرّهم وفاجرهم .

وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة . رواهما ابن جرير (١٠) .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجة ، من حديث زيد بن الحباب ، عن معاوية بن صالح ،

---

(١) المسند (٥/ ٢٥٤) .

(٢) المسند (٤/ ١٥٧) .

(٣) فى أ :«عدة » .

(٤) صحيح مسلم برقم(٩٨٧) .

(٥) فى م :« عن أبى هريرة مرفوعا » . (٦) فى م ، أ : « قال رسول الله » . (٧) فى أ :« لبشر » .

(٨) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٩) .

(٩) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٠) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٩) .

عن أزهر بن سعيد الحوارى ، عن عاصم بن حميد ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (١) .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

يقول : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ــ فعيل من السِّجن ، وهو الضيق ــ كما يقال : فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير ، ونحو ذلك . ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم .

ثم قد قال قائلون : هى تحت الأرض السابعة . وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب ، فى حديثه الطويل : يقول الله عز وجل فى روح الكافر : اكتبوا كتابه فى سجين .

وسجين : هى تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء . وقيل : بئر فى جهنم .

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا منكرا لا يصح فقال : حدثنا إسحاق بن وهب الواسطى، حدثنا مسعود بن موسى بن مُشكان الواسطى ، حدثنا نَصر بن خُزَيمة الواسطى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « الفلق : جب فى جهنم (٢) مغطى ، وأما سجين فمفتوح » (٣) .

والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السِّجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ،وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التى دونها ، حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز فى وسط الأرض السابعة . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهى أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [التين: ٥، ٦] . وقال هاهنا : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال :

(١) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) وسنن النسائى (٣/ ٢٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٥٦) .

(٢) فى م :« فى وادى جهنم » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٦١) .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] .

وقوله : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرا لقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وإنما هو تفسير (١) لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظى .

ثم قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السِّجن والعذاب المهين . وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ وَيْلٌ ﴾ بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك (٢) الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان . وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدَة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يُحَدِّث فيكذب ، ليضحكَ الناس ، ويل له ، ويل له »(٣) .

ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى : لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجاوزة فى تناول المباح والأثيم (٤) فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : إذا سمع كلام الله من الرسول ، يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] ، وقال : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّين الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . والرين يعترى قلوبَ الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجة من طرق ، عن محمد بن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صُقِل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٥) .

وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت فى قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال

---

(١) فى م : « تقرير » . (٢) فى أ : « ذلك أنه » .

(٣) المسند (٥/ ٥، ٧) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٥) .

(٤) فى أ: « والإثم ».

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٦٢) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤) .

الله : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ » .

وقال أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا ابن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله فى القرآن : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ » (١) .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد ابن جبر وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أى : لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع (٢) ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام أبو عبد الله الشافعى : [فى] (٣) هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ (٤) .

وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله ، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح (٥) المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة .

وقد قال ابن جرير [محمد بن عمار الرازى] (٦) : حدثنا أبو معمر المنْقَرىّ ، حدثنا عبد الوارث ابن سعيد ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن فى قوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ، قال : يكشف الحجاب ، فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون . كُلّ يوم غدوة وعشية ــ أو كلاما هذا معناه .

قوله : ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

---

(١) المسند (٢/٢٩٧) .
(٢) فى م:« بعد » .
(٣) زيادة من م ، أ .
(٤) رواه البيهقى فى مناقب الشافعى (١/٤١٩) .
(٥) فى م : « الصحيحة » .
(٦) زيادة من م ، أ .

الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : حقا ﴿ **إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ** ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ **لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين .

قال الأعمش ، عن شَمِر بن عطية ، عن هلال بن يَسَاف قال : سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر عن سجين ، قال : هى الأرض السابعة ، وفيها أرواح الكفار . وسأله عن علِّيين فقال : هى السماء السابعة ، وفيها أرواح المؤمنين . وهكذا قال غير واحد : إنها السماء السابعة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾ يعنى : الجنة .

وفى رواية العَوفى ، عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى .

والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشىء وارتفع عظم واتسع ؛ ولهذا قال معظما أمره ومفخما شأنه : ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ** ﴾ . ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿**كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها .

ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ، ﴿ **عَلَى الأَرَائِكِ** ﴾ وهى : السرر تحت الحِجَال ، ﴿ **يَنظُرُونَ** ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل : معناه ﴿ **عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ** ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة [(١)] لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم فى حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله فى اليوم مرتين » [(٢)] .

وقوله : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدِّعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .

وقوله : ﴿ **يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ** ﴾ أى : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ،والحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن سعد [(٣)] أبى المجاهد الطائى ، عن عطية بن سعد العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى ــ أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ ــ قال : « أيما مؤمن سقى

---

(١) فى أ : « مقابل » .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٣) فى أ : « عن سعيد » .

مؤمنا شربة [١] على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم . وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة . وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عُرى ، كساه الله من خُضر الجنة» [٢].

وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي : خلطه مسك .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، خُتِم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .

وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي : عاقبته مسك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن أبي الدرداء : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به شرابهم. ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها[٣].

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك .

وقوله : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أي : وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكاثر[٤] ويستبق إلى مثله المستبقون. كقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١].

وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أي : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أي : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك ؛ ولهذا قال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : يشربها المقربون صِرْفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أي : يستهزئون بهم ويحتقرونهم[٥] ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أي : محتقرين لهم ، ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أي : إذا انقلب ، أي : رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ،

(١) في م : « شربة ماء » .
(٢) المسند (٣/١٣) وعطية العوفي ضعيف .
(٣) تفسير الطبري (٣٠/٦٨) .
(٤) في م ، أ :« ويتكاثر » .
(٥) في أ :« يحقرونهم ».

أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وما بُعث هؤلاء المجرمون [(١)] حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُون . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٨ـ١١١].

ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ،ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته .

وقوله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر [تفسير سورة] [(٢)] « المطففين »

---

(١) فى أ : « المجرمين » وهو خطأ .
(٢) زيادة من أ .

سورة المطفّفين

مختلَف فيها،[1] وهي ستّ وثلاثون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ قيل: الويل: شدَّة الشرّ.[2] وقيل: العذاب الأليم.[3] وقيل: هو وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره.[4] وقيل وقيل.[5] وأيًّا ما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرةً، لوقوعه في موقع الدّعاء. والتطفيف: البخس في الكيل والوزن؛ لأنّ ما يُبخَس شيء طفيف حقير.

ورُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدِم المدينة وكان أهلها مِن أخبَث الناس كَيلًا، فنزلت فأحسَنوا الكَيل.[6] وقيل: قدمها عليه السلام وبها رجل يعرف بأبي جهينةَ ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.[7] وقيل:

---

[1] انظر تفصيل ذلك الاختلاف في اللباب لابن عادل، ٣٠٥/٢٠.

[2] منقول عن الخليل في المحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ١٧٠/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[3] مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[4] مرويّ عن أبي سعيد الخدري في جامع البيان للطبري، ١٦٤/٢ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢).

[5] انظر هذه الأقوال في جامع البيان للطبري، ١٦٣/٢-١٦٤ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢-٢٠٨ (البقرة، ٧٩/٢).

[6] بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٣٦/٢ (٢٢٢٣)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[7] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٩؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[٢٨٠و] كان أهل المدينة تِجارًا يطفِّفون وكانت / بياعاتهم المُنابَذة والمُلامَسة[١] والمُخاطَرة،[٢] فنزلت،[٣] فخَرَج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقرأها عليهم، وقال: «خَمس بخَمس: ما نقض قوم العهد إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وما حكَموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طفَّفوا الكيل إلّا مُنعوا النبات وأُخِذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حُبِس عنهم القطر».[٤]

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾... إلى آخره، صفة كاشفة للمطفِّفين شارحة لكيفيّة تطفيفهم الذي استحقّوا به الذمّ والدعاء بالويل، أي: إذا اكتالوا مِن الناس مَكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافيًا وافرًا، وتبديل كلمة ﴿عَلَى﴾ بـ"مِن" لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء،[٥] أو للإشارة إلى أنّه اكتيال مُضِرّ بهم، لكن لا على اعتبار الضرر في حيِّز الشرط الذي يتضمّنه كلمة ﴿إِذَا﴾ لإخلاله بالمعنى؛ بل في نفس الأمر بموجَب الجواب؛[٦] فإنّ المراد بالاستيفاء ليس أخذَ الحقّ وافيًا مِن غير نقص؛ بل مجرّدُ الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا، بأيّ وجه تيسَّر مِن وجوه الحِيَل، وكانوا يفعلونه بكَبْس المَكيل وتحريكِ المِكيال والاحتيال في مَلئه.

وأمّا ما قيل: مِن أنّ ذلك للدلالة على أنّ[٧] اكتيالهم لِما لهم على النّاس، فمع اقتضائه لعدم شمول الحُكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء

---

١ بيع المُلامَسة أو اللِّماس: أن يقولَ لصاحبه: إذا لمستُ ثوبك أو لمستَ ثوبي فقد وجب البيعُ. وبيع المنابذة: أن تقول: إذا نبذتُه إليك، أو يقولَ المشتري إذا نبذته إليّ، فقد وجب البيعُ. **المُغرب** للمُطرِّزي، «لمس».

٢ وقال الطِّيبي في **فتوح الغيب**، ٣٣٤/١٦: «وقيل: المخاطرة: بيع الغَرَر، مثل بَيع الطير في الهواء والسَّمكِ في الماء»، وأصل الكلام في **الكشف عن مشكلات الكشّاف** للقزويني، ٣١٨و. وفي **معجم المصطلحات** لنزيه حمّاد، ص ١١٤: أنّ بيع المخاطرة: هو أن يقول رجل لرجل: بعتُ منك هذا المتاعَ بكذا وكذا إن قدم فلان مِن سفره، ونحوه. وهو البيع المعلّق على شرط.

٣ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٧٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٤ بلفظ قريب في **المعجم الكبير** للطبراني، ٤٥/١١ (١٠٩٩٢)؛ و**المستدرك** للحاكم، ١٣٦/٢ (٢٥٧٧)؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٧٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٥ وفي هامش م: فإنّ الاستيلاء على مَكيلهم بمنزلة الاستيلاء على أنفسهم. «منه».

٦ وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».

٧ س – أنّ.

بطريق الشراء ونحوه -مع أنّه الشائع فيما بينهم- يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أخذَ ما لهم عليهم وافيًا مِن غير نقص؛ إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرِض الحقّ، فلا يكون مدارًا لذمّهم والدعاءِ عليهم، وحَمْلَ ما لهم عليهم على معنى ما سيكون لهم عليهم[١] -مع كونه بعيدًا جدًّا- ممّا لا يُجدي نفعًا؛ فإنّ اعتبار كون المَكيل لهم حالًا كان أو مآلًا يستدعي كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتمًا.

وكذا حالُ ما نُقل عن الفرّاء مِن أنّ "مِن" و"على" تعتقبان في هذا الموضع؛ لأنّه حقّ عليه، فإذا قال: "اكتلتُ عليك"، فكأنّه قال: "أخذتُ ما عليك"، وإذا قال: "اكتلتُ منك"، فكقوله: "استوفيتُ منك".[٢] فتأمّلْ.

وقد جُوّز أن تكون ﴿عَلَى﴾ متعلقةً بـ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصيّة، أي: يستوفون على النّاس خاصّة، فأمّا أنفسهم فيستوفون لها.[٣]

وأنت خبير بأنّ القصر بتقديم الجارّ والمجرور إنّما يكون فيما يمكن تعلُّق الفعل بغير المجرور أيضًا حسب تعلُّقه به، فيُقصَد بالتقديم قَصْره عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام. ولا ريبَ في أنّ الاستيفاء الذي هو عبارة عن الأخذ الوافي ممّا لا يُتصوَّر أن يكون على أنفسهم حتّى يُقصَد بتقديم الجارّ والمجرور قَصْرُه على الناس، على أنّ الحديث واقع في الفعل لا فيما وَقَع عليه. فتدبّرْ.

والضمير البارز في قوله تعالى: / ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ للناس، أي: إذ كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، يقال: "خَسَر الميزانَ وأَخْسَره"، فحُذف الجارّ وأوصِل الفعل، كما في قوله: [٢٨٠ظ]

ولقد جنيتُكَ أَكْمُؤًا وعَساقِلًا[٤]

---

[١] ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٤٦/٣؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٤٠/٤.

[٣] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٤.

[٤] تمامه:

ولقد نهيتُكَ عن بناتِ الأوبرِ

وهو بلا عزو في سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٤٤٤/٢؛ والصحاح للجوهري، «عسقل»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٨/٣ (البقرة، ٧١/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٤. والأكمؤ والكمأة جمعُ الكمء، والعساقل: ضرب منه، وبنات الأوبر: الرديء منه. لسان العرب لابن منظور، «كمأ»، «وبر»، «عسقل».

أي: جنيتُ لك. وجعلُ البارز تأكيدًا للمستكِنّ ممّا لا يليق بجزالة التنزيل. ولعلّ ذِكرَ الكَيل والوزنِ في صورة الإخسار والاقتصارَ على الاكتيال في صورة الاستيفاء لِما أنّهم لم يكونوا متمكِّنين مِن الاحتيال عند الاتّزان تمكُّنَهم منه عند الكيل والوزنِ. وعدمُ التعرّض للمَكيل والمَوزون في الصورتين؛ لأنّ مَساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء لا في خصوصيّة المأخوذ والمُعطى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه مِن التطفيف والتعجيب مِن اجترائهم عليه. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿الْمُطَفِّفِينَ﴾،[1] ووضعُه موضعَ ضميرهم للإشعار بمَناط الحُكم الذي هو وصفُهم، فإنّ الإشارة إلى الشيء متعرِّضة له مِن حيث اتّصافه بوَصْفه، وأمّا الضمير فلا يَتعرَّض لوصفه؛ وللإيذان بأنّهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكملَ امتياز، نازلون منزلةَ الأمور المشار إليها إشارةً حسّيّةً. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجتهم في الشرارة والفساد، أي: ألا يظنّ أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنّهم مبعوثون.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قَدْر عِظَمه وعِظَمِ ما فيه، ومُحاسَبون فيه على مِقدار الذرّة والخَردلة، فإنّ مَن يظنّ ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفًا مُتاخِمًا للشكّ فالوهم لا يكاد يتجاسَر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمَن تيقّنه؟

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لحُكمه وقضائه. منصوب بإضمار "أعني"، وقيل: بـ﴿مَبْعُوثُونَ﴾، أو مرفوع المحلّ خبرًا لمبتدأ مضمر أو مجرور بدلًا مِن ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبنيّ على الفتح / لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعًا، كما هو رأي الكوفيّين.[2] ويؤيّد الأخيرين القراءة بالرفع[3] وبالجرّ.[4] [٢٨١و]

---

١ في الآية الأولى مِن هذه السورة.

٢ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ١/٢٤٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وفي هذا الإنكار والتعجيب وإيرادِ الظنّ ووصفِ اليوم بالعِظَم وقيامِ الناس فيه كافّة لله تعالى خاضعين ووَصْفِه تعالى بربوبيّة العالمين مِن البيان البليغ[1] لعِظَم الذَّنب وتفاقُمِ الإثـم في التطفيف وأمثالِه ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عمّا كانوا عليه مِن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾... إلخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق. و﴿سِجِّينٍ﴾ عَلَم لكتاب جامع هو ديوان الشرّ، دُوّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفَسَقة مِن الثقلين، منقولٌ مِن وصف كـ"حاتم". وأصلُه "فِعّيل" مِن "السَّجْن" وهو الحبس والتضييق؛ لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنّم، أو لأنّه مطروح -كما قيل- تحت الأرض السابعة في مكان مُظلِم وَحِش وهو مَسكَن إبليسَ وذرّيّته.[2] فالمعنى أنّ كتاب الفجّار الذين مِن جملتهم المطفِّفون، أي: ما يُكتَب مِن أعمالهم أو كتابةُ أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدوَّن فيه قبائح أعمالِ المذكورين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تهويل لأمره، أي: هو بحيث لا يبلغه دِراية أحد.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[3] مسطور بيِّن الكتابة أو مُعلَم يَعلَم مَن رآه أنّه لا خيرَ فيه. وقيل: هو اسم المكان، والتقدير: ما كتابُ السِّجِّين، أو محلّ كتابٍ مرقوم.[4]

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وما بينهما اعتراض.

---

١ السياق: وفي هذا الإنكار... مِن البيان البليغ...

٢ أورده الزمخشري في الكشّاف، ٥٤١/٤.

٣ س ي + أي.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٠/٣-٥١١.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة ذامّة للمكذِّبين، أو بدلٌ منه، أو مرفوعٌ، أو منصوبٌ على الذمّ.

[٢٨١ظ] ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي: متجاوِز عن حدود النظر والاعتبار / غالٍ في التقليد حتّى استقصر قُدرة الله تعالى وعِلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدء. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: منهمِك في الشهوات المخدَجة الفانية، بحيث شغلَته عمّا وراءها مِن اللذات التامّة الباقية وحملَته على إنكارها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿قَالَ﴾ مِن فرط جهله وإعراضه عن الحقّ الذي لا مَحيد عنه. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هي حكايات الأوّلين. قال الكلبي: المراد بالمعتدي الأثيم: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: النَّضْر بن الحارث. وقيل: عامّ لكلّ مَن اتّصف بالأوصاف المذكورة.[١] وقُرئ: "إِذَا يُتْلَى"[٢] بتذكير الفعل، وقُرئ: "أَإِذَا تُتْلَى"[٣] على الاستفهام الإنكاري.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للمُعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه. وقوله تعالى: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بيان لِما أدّى بهم إلى التفوّه بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يُصحِّح أن يقال في شأنها مِثلُ هذه المقالات الباطلة؛ بل ركَّب قلوبهم وغلَب عليها ما كانوا يكسبونها مِن الكفر والمعاصي، حتّى صارت كالصدأ في المرآة، فحالَ ذاك بينهم وبين معرفة الحقّ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ العبد كلّما أذنب ذنبًا حَصَل في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتّى يسوَدّ قلبه»،[٤] ولذلك قالوا ما قالوا. والرَّيْن: الصدأ، يقال:

---

١ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢١٤/٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والحسن وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٣٣/١٣ (٧٩٥٢)؛ وسنن ابن ماجه، ٣١٦/٥-٣١٧ (٤٢٤٤)؛ وسنن الترمذي، ٤٣٤/٥ (٣٣٣٤)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١١/٣.

رانَ عليه الذَّنب وغانَ عليه رَينًا وغَينًا، ويقال: ران فيه النوم، أي: رَسَخ فيه.[١] وقُرئ بإدغام "اللام" في "الراء".[٢]

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجرٌ عن الكسب الرائن ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فلا يكادون يرَونه، بخلاف المؤمنين. وقيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة مَن يُحجَب عن الدخول على الملوك.[٣] وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه[٤] وقتادةَ وابن أبي مُلَيكةَ:[٥] محجوبون عن رحمته. وعن ابن كَيسان: عن كرامته.[٦]

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: داخلو النار، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة فإنّ صِليّ الجحيم أشدّ مِن الإهانة والحرمان مِن الرحمة والكرامة.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا مِن جهة الزبانيَة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فذُوقوا / عذابه. [٢٨٢و]

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عمّا كانوا عليه بعد ردع، وزجرٌ إثرَ زجر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استئناف مَسوق لبيان محلّ كتاب الأبرار بعد بيان

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٢ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٢٥/١.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٤ س – رضي الله عنه.

٥ هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي، أبو بكر (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م). الإمام الحجّة الحافظ القاضي الأحول المؤذن. كان عالمًا مفتيًا صاحب حديث وإتقان، معدود في طبقة عطاء. حدّث عن عائشة وأختها أسماء وابن عبّاس وغيرهم. ولاه ابن الزبير قضاء الطائف. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٨٨/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٠٢/٤.

٦ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٠٤/٢٤-٢٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٥/٨.

سوءِ حال الفجّار متّصلًا ببيان سوء حال كتابهم، وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع. وكتابُهم: ما كُتب مِن أعمالهم، وعِلّيُّون: عَلَم لديوان الخير الذي دُوّن فيه كلّ ما عمِلته الملائكة وصُلحاء الثقلين، منقولٌ مِن جَمْع "عِلِّيّ" على "فِعّيل" مِن العُلوّ، سُمّي بذلك إمّا لأنّه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنّة وإمّا لأنّه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكَرُوبيُّون[١] تكريمًا له وتعظيمًا.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ كما مرّ في نظيره.

وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٞ﴾ أي: يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ شروع في بيان مَحاسِن أحوالهم إثرَ بيان حال كتابهم، على طريقة ما مرّ في شأن الفجّار.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي: على الأسِرّة في الحِجال،[٢] ولا يكاد يُطلق الأريكة على السرير عندهم إلّا عند كونه في الحَجَلة. ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه مِن رغائب مناظرِ الجنّة، وإلى ما أولاهم الله عزّ وجلّ مِن النِّعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يُعذَّبون في النار وما تحجُب الحِجال أبصارَهم عن الإدراك.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجةَ التنعّم وماءه ورونقَه. والخطاب لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، للإيذان بأنّ ما لهم مِن آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ شراب خالص لا غِشّ فيه ﴿مَّخۡتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي: مختوم أوانيه وأكوابه بالمِسك مكانَ الطين، ولعلّه تمثيل لكمال نفاسته. وقيل:

---

١ الملائكة الكَرُوبيُّون: هم سادة الملائكة، وقيل حملة العرش. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/١٦ (الأنبياء، ٩٥/٢١)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٩/٧ (غافر، ٧/٤٠)؛ ولسان العرب لابن منظور، «كرب».

٢ الحِجال جمع حَجَلة: وهو بيت مثل القُبّة يستر بالثياب، ويكون له أزرار كِبار، منه حَجَلة العروس: بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرّة والستور. لسان العرب لابن منظور، «حجل».

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ أي: مقطعُه رائحة مِسك. وقُرئ: "خَاتمُهُ" بفتح "التاء"[1] وكسرها،[2] أي: ما يُختَم به ويُقطَع.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحيق، وهو الأنسب لِما بعده، أو إلى ما ذُكر مِن أحوالهم. وما فيه مِن معنى البعد إمّا للإشعار بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته، أو لكونه في الجنّة، أي: في ذلك خاصّةً دون غيره. ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى. وقيل:[3] فليَعمل العاملون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات، ٦١/٣٧].[4] وقيل:[5] فليَستبق المستبقون.[6] وأصل التنافُس: التغالُب في الشيء النفيس، وأصله مِن النَّفْس لعزّتها. قال الواحدي: نفَست الشيء أنفسُه نفاسةً، والتنافس تفاعلٌ منه، كأنّ كلّ واحد مِن الشخصين يريد أن يستأثر به.[7] وقال البَغوي: وأصله مِن الشيء النفيس الذي يحرص عليه نفوسُ الناس ويُريده كلّ أحد لنفسه، وينفس به على غيره، أي: يضنّ به.[8]

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ عطفٌ على ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، صفة أخرى لـ﴿رَحِيقٍ﴾ مثله، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّر لنفاسته، أي: ما يُمزَج به ذلك الرحيق مِن ماء تسنيم على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة أو تبعيضيّة، أو مِن نفسه على أنّها ابتدائيّة. و"التسنيم" عَلَم لِعَين بعينها، سُمّيت به إمّا لأنّها أرفَع شراب في الجنّة، وإمّا لأنّها تأتيهم مِن فوق. رُوي أنّها تجري في الهواء متسنِّمة فتنصبُّ في أوانيهم.[9]

﴿عَيۡنٗا﴾ نصبٌ على الاختصاص وجُوّز أن تكون حالًا مِن ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ مع كونه جامدًا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فإنّهم يشربونها صِرفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنّة، فـ"الباء" مزيدة أو بمعنى "مِن".

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخعي وابن يعمُر والعِجلي والأسدي، والخاشع عن أبي بكر، والشّيزريُّ وابن المغيرة كلاهما عن الكسائي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠١.

٣ وفي هامش م: مجاهد.

٤ مروي عن مجاهد في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٥ في هامش م: عطاء.

٦ مروي عن عطاء في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٧ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٨/٤-٤٤٩؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٨ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾... إلخ، حكايةٌ لبعض قبائح مشركي قريش، جيء بها تمهيدًا لذِكر بعض أحوال الأبرار في الجنّة. ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أي: يستهزئون بفقرائهم كعَمّار وصُهيب وخَبّاب وبلال وغيرِهم مِن فقراء المؤمنين. وتقديمُ الجارّ والمجرور إمّا للقصر إشعارًا بغاية شَناعة ما فعلوا، أي: كانوا مِن الذين آمنوا / يضحكون مع ظهور عدم [٢٨٣و] استحقاقهم لذلك، على مِنهاج قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم، ١٠/١٤]، أو لمراعاة الفواصل.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ أي: فقراء المؤمنين ﴿بِهِمۡ﴾ بالمشركين وهم في أنديتهم، وهو الأظهر، وإن جاز العكس أيضًا. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يغمِز بعضُهم بعضًا ويُشيرون بأعينهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ مِن مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ملتذِّين بذِكرهم بالسوء والسخرية منهم. وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا لا يفعلون ذلك بمَرأى مِن المارّين بهم، ويكتفون حينئذ بالتغامز. وقُرئ: "فَاكِهِينَ".[1] قيل: هما بمعنًى. وقيل: فَكِهين أشِرين. وقيل: فَرِحين وفاكِهين متفكِّهين. وقيل: ناعِمين. وقيل: مازِحِين.[2]

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ أينما كانوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: نَسَبوا المسلمين ممّن رأوهم ومِن غيرهم إلى الضلال بطريق التأكيد.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ على المسلمين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ حال مِن واو ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنّهم ما أُرسلوا مِن جهة الله تعالى موكَّلين بهم، يحفظون عليهم أحوالهم، ويُهيمِنون على أعمالهم، ويشهدون بِرُشدهم وضلالهم. وهذا تهكُّم بهم وإشعارٌ بأنّ ما اجترأوا عليه مِن القول مِن وظائف مَن أُرسِل مِن جهته تعالى.

وقد جُوّز أن يكون ذلك مِن جملة قول المجرمين، كأنّهم قالوا: "إنّ هؤلاء لضالُّون وما أرسلوا علينا حافظين" إنكارًا لصدِّهم عن الشِّرك ودعائهم إلى الإسلام.[3]

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر وابن عامر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢-٣٥٥، ٣٩٩.

[2] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢٤/٢٠.

[3] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

وإنّما قيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ نقلًا له بالمعنى كما في قولك: "حَلَف لَيفعلنّ"، لا بالعبارة كما في قولك: "حَلَف لأفعلنّ".

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المعهودون مِن الفقراء ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: مِن المعهودين، وهو الأظهر. وإن أمكَن التعميم مِن الجانبين. / ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [٢٨٣ظ] حين يرَونهم أذِلّاء مغلولين قد غشِيَهم فنون الهَوان والصَّغار بعد العِزّة والكِبْر ورَهَقهم ألوانُ العذاب بعد التنعّم والتَّرفّه. وتقديم الجارّ والمجرور للقَصْر تحقيقًا للمقابلة، أي: فاليوم هم مِن الكفّار يضحكون، لا الكفّار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما فيهم مِن سوء الحال. وقيل: يُفتح للكفّار بابٌ إلى الجنّة، فيقال لهم: "اخرجوا إليها" فإذا وصلوا إليها أُغلِق دونهم، يُفعَل بهم ذلك مِرارًا، ويضحك المؤمنون منهم.[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ ضَحِك المؤمنين منهم جزاءٌ لضَحِكهم منهم في الدنيا، فلا بدّ مِن المجانَسة والمشاكَلة حتمًا. والتثويب والإثابة: المُجازاة. وقُرئ بإدغام "اللام" في "الثاء".[٢]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة المطفِّفين سقاه الله تعالى يوم القيامة مِن الرحيق المختوم».[٣]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٣/٤.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وهشام بخلاف عنه. **النشر** لابن الجزري، ٧/٢.

٣ بلفظ قريب في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١/٢٩ (المطففين، ١/٨٣)؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٤٠/٤ (المطففين، ١/٨٣)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٣/٤. وهو جزء مِن حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٣

سورة التطفيف

مكية أو مدنية، ستٌّ وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿وَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب أو وادٍ في جهنّم ﴿لِلمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إذا اكتالُوا علَى﴾ أي: مِنَ ﴿النّاسِ يَستَوفُونَ﴾ الكيلَ، ٣ ـ ﴿وإذا كالُوهُم﴾ أي: كالوا لهم ﴿أو وَزَنُوهُم﴾ أي: وزنوا لهم ﴿يُخسِرُونَ﴾: يُنقِصون الكيل أو الوزن. ٤ ـ ٥ ـ ﴿ألا﴾ ـ استفهامُ توبيخ ـ ﴿يَظُنُّ﴾: يتيقّن ﴿أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبعُوثُونَ لِيَومٍ عَظِيمٍ﴾ أي: فيه ـ وهو يوم القيامة ـ ٦ ـ ﴿يَومَ﴾: بدلٌ من محلّ «ليوم» فناصبُه «مبعوثون» ﴿يَقُومُ النّاسُ﴾...

سورةُ التَّطفِيفِ

قولُهُ: (كَلِمَةُ عَذَابٍ) أي: كلمَةٌ يُعبَّرُ بها عن العَذابِ والهَلاكِ.

قولُهُ تعالَى: (﴿للمطَفِّفِين﴾) التَّطفِيفُ: البَخسُ في الكيلِ والوَزنِ؛ لأنَّ ما يُبخَسُ طفيفٌ؛ أي: حقيرٌ.

قولُهُ: (الكَيلَ) أي: يأخُذونَ حُقوقَهُم وافيَةً.

قولُهُ: (وَزَنُوا لَهُم) فحذَفَ الجارَّ وأوصَلَ الفِعلَ، وقيل لمن يبصِرُ عيوبَ أخيهِ ويعمى عن عُيوبِهِ: إنَّه مُطفِّفٌ.

قولُهُ: (تَوبِيخٍ) وتَعجُّبٍ.

قولُهُ: (يَستَيقِنُ) أو فإنَّ من ظنَّ ذلك لم يتجاسَرْ على أمثالِ هذه القَبائحِ، فكيفَ بمن يتيقَّنُه.

قولُهُ: (أي: فِيهِ) عظَّمَهُ لعِظَمِ ما يكون فيه.

قولُهُ: (بَدَلٌ) ويُؤيِّدُه القراءَةُ الشَّاذَّةُ بالجرِّ[1]، أو نصبَ بـ﴿مَبعُوثُون﴾.

قولُهُ: (فَنَاصِبُهُ) أي: بالواسِطَةِ.

---

(١) أي: (يوم يقوم الناس) ونسبت لأبي معاذ، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٧٠).

من قُبورهم ﴿لِرَبِّ العالَمِينَ﴾: الخلائقِ لأجل أمره وحِسابه وجزائه؟

٧ ـ ﴿كَلاَّ﴾: حقًّا ﴿إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ﴾ أي: كُتُبَ أعمال الكُفّار ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾. قيل: هو كِتابٌ جامع لأعمال الشياطين والكَفَرة. وقيل: هو مكانٌ أسفلَ الأرض السابعة، وهو محلّ إبليسَ وجُنودِه. ٨ ـ ﴿وما أدراكَ: ما سِجِّينٌ﴾: ما كتابُ سجّين؟ ٩ ـ ﴿كِتابٌ مَرقُومٌ﴾: مختوم.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿ وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَومِ الدِّينِ﴾: الجزاءِ، بدلٌ أو بيان للمكذّبين، ١٢ ـ ﴿وما يُكَذِّبُ بِهِ إلاّ كُلُّ مُعتَدٍ﴾: مُتجاوزِ الحدِّ ﴿أثِيمٍ﴾: صيغةُ مُبالغة، ١٣ ـ ﴿إذا تُتلَى علَيهِ آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿قالَ: أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾: الحكاياتُ التي سُطرت قديمًا، جمع أُسطورة بالضمّ أو إسطارة بالكسر. ١٤ ـ ﴿كَلاّ﴾: ردعٌ وزجر لقولهم ذلك ﴿بَل رانَ﴾: غلب..........

قولُهُ: (من قُبُورِهِم) أو في المبعَثِ، وفي هذا التَّوبيخِ والتَّعجيبِ، وذكرِ الظَّنِّ[١] ووصفِ اليوم بالعِظَمِ[٢]، وقيامِ النَّاسِ فيه لله تعالى[٣]، والتَّعبيرِ عنه بـ﴿ربِّ العالمينَ﴾؛ مُبالغاتٌ في المنعِ عن التَّطفِيفِ، وتَعظيمِ إثمِهِ، فكيفَ أخذُ الدَّنانيرِ بالقناطيرِ.

قولُهُ: (حَقًّا) أو رَدعٌ عن التَّطفِيفِ والغفلَةِ عن البَعثِ والحِسابِ.

قولُهُ: (كِتَابُ سِجِّينٍ) أو محَلُّ كتابٍ مرقومٍ، فحذَفَ المضافَ، والتَّقديرُ إنَّما هو على القَولِ الأخيرِ.

قولُهُ: (مَختُومٌ) قالَ البَغويُّ[٤]: قيلَ: مختومٌ بلُغةِ حميَر، أو مَسطورٌ بيِّنُ الكتابَةِ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) والأظهَرُ أنّه صفَةٌ مُخصِّصةٌ أو مُوضِّحَةٌ أو ذامَّةٌ.

قولُهُ: (مُتَجَاوِزِ الحَدِّ) عن النَّظَرِ، غال في التَّقليدِ؛ حتَّى استقصَرَ قُدرَةَ الله تعالى فاستَحالَ منه الإعادَةَ.

قولُهُ: (صيغة مُبَالَغَةٍ) أي: مُنهمِكٌ في الشَّهَواتِ بحيثُ شغلَتهُ عمَّا وراءَها، وحمَلَتهُ على الإنكارِ لما عَداها.

قولُهُ: (الحِكَايَاتُ) أي: لا تنفعُهُ شواهِدُ النَّقلِ؛ كما لا تنفَعهُ دلائِلُ العَقلِ.

قولُهُ: (رَدٌّ) الصَّواب: رَدْعٌ، كما في نُسخَةٍ.

قولُهُ: (غَلَبَ) ردٌّ لما قالوهُ، وبيانٌ لما أدَّى بهم إلى هذا القَولِ بأن غلَبَ عليهم حُبُّ المعاصي.

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿ألا يظن أولئك... ﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ليوم عظيم﴾.

(٣) في قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٢٢٤).

﴿عَلَى قُلُوبِهِم﴾ فغشّاها ﴿ما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من المعاصي فهو كالصدأ.

١٥ ـ ﴿كَلاّ﴾: حقًّا ﴿إِنَّهُم عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ﴾: يومَ القيامة ﴿لَمَحجُوبُونَ﴾ فلا يرونه، ١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّهُم لَصالُو الجَحِيمِ﴾: لداخلو النار المُحرِقة، ١٧ ـ ﴿ثُمَّ يُقالُ﴾ لهم: ﴿هذا﴾ أي: العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿كَلاّ﴾: حقًّا ﴿إِنَّ كِتابَ الأبرارِ﴾ أي: كُتُبَ أعمال المُؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قيل: هو كِتاب جامعٌ لأعمال الخير من الملائكة ومُؤمني الثقلين. وقيل: هو مكانٌ في السماء السابعة تحت العرش. ١٩ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمَكَ: ﴿ما عِلِّيُّونَ﴾: ما كتابُ علّيّينَ؟ ٢٠ ـ هو ﴿كِتابٌ مَرقُومٌ﴾: مختوم، ٢١ ـ ﴿يَشهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة.

٢٢ ـ ﴿إِنَّ الأبرارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: جنّة، ٢٣ ـ ﴿عَلَى الأرائِكِ﴾: السُّررِ في الحِجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما أُعطُوا من النعيم، ٢٤ ـ ﴿تَعرِفُ في وُجُوهِهِم نَضْرةَ النَّعِيمِ﴾: بهجةَ التنعّمِ وحُسنَه، ٢٥ ـ ﴿يُسقَونَ مِن رَحِيقٍ﴾: خمرٍ خالصة من الدنس ﴿مَختُومٍ﴾ على إنائها لا يَفكّ ختمَها إلاّ هم،.................

قولُهُ: (فَهوَ) أي: الانهماكُ في المعاصِي.

قولُهُ: (كالصَّدَأ) ولذا عميَ عليهم معرفَةُ الحقِّ والباطلِ، والدِّينِ والصَّداءِ، وفي الحديث: «إنَّ العَبدَ كُلَّما أذنَبَ ذَنباً حَصَلَ في قَلبِهِ نُكتَةٌ سَوداءُ حتَّى يَسوَدَّ قلبُهُ» رواهُ التِّرمذي وصحَّحَهُ[1]، قالَ القاضي[2]: وقرأَ حفص: ﴿بَل رَانَ﴾ بإظهارِ اللّام؛ يعني: مع السَّكتَةِ، وهي وقفَةٌ لطيفَةٌ من غيرِ تنفُّسٍ[3].

قولُهُ: (حَقًّا) أو رَدعٌ عن الكسبِ الرَّائِنِ.

قولُهُ: (حَقًّا) أو رَدعٌ عن التَّكذيبِ.

قولُهُ: (مِنَ المَلائِكَةِ) أي: يحضُرونَهُ فيحفَظونَهُ، أو يشهَدونَ على ما فيه يومَ القيامَةِ.

قولُهُ: (مَا أُعطُوا) أو إلى ما يَسرُّهُم من النِّعَمِ والمتفرَّجاتِ، قيل: على أرائكِ المعرفَةِ ينظُرونَ إلى المعروفِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٩٥٢) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٩٥).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٥).

٢٦ ـ ﴿خِتامُهُ مِسكٌ﴾ أي: آخرُ شُربه يفوح منه رائحة المِسك ـ ﴿وفي ذلِكَ فلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ﴾: فليَرْغبوا بالمُبادرة إلى طاعة الله تعالى ـ ٢٧ ـ ﴿ومِزاجُهُ﴾ أي: ما يُمزج به ﴿مِن تَسنِيمٍ﴾. فُسّر بقوله: ٢٨ ـ ﴿عَينًا﴾ فنصبُه بـ «أمدحُ» مُقدّرًا، ﴿يَشرَبُ بِها المُقَرَّبُونَ﴾ أي: منها، أو ضُمِّنَ «يشرب» معنى: يلتذّ.

٢٩ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ أجرَمُوا﴾ كأبي جهل ونحوه ﴿كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كعمّارٍ وبِلال ونحوهما ﴿يَضحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم، ٣٠ ـ ﴿وإذا مَرُّوا﴾ أي: المُؤمنون ﴿بِهِم يَتَغامَزُونَ﴾ أي: يشير المُجرمون إلى المُؤمنين بالجفن والحاجب استهزاءً، ٣١ ـ ﴿وإذا انقَلَبُوا﴾: رَجَعوا ﴿إلَى أهلِهِمِ انقَلَبُوا فاكِهِينَ﴾، وفي قراءة: «فَكِهِينَ»: مُعجَبِينَ بِذِكرهم المُؤمنين، ٣٢ ـ ﴿وإذا رأَوهُم﴾: رأوُا المُؤمنين ﴿قالُوا: إنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ﴾ لإيمانهم بمُحمّد ﷺ. ٣٣ ـ قال تعالى: ﴿وما أُرسِلُوا﴾ أي: الكفارُ ﴿علَيهِم﴾: على المُؤمنين ﴿حافِظِينَ﴾ لهم ولأعمالهم حتّى يردّوهم إلى مصالحهم.

٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿فاليَومَ﴾ أي: يومَ القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفّارِ يَضحَكُونَ، علَى الأرائِكِ﴾ في الجنّة ﴿يَنظُرُونَ﴾ من منازلهم إلى الكُفّار، وهم يُعذّبون، فيضحكون منهم كما ضحك الكُفّار منهم في الدنيا: ٣٦ ـ ﴿هَل ثُوِّبَ﴾: جُوزِيَ ﴿الكُفّارُ ما كانُوا يَفعَلُونَ﴾؟ نعم.

قولُهُ: (أي: آخِرُ شُربِهِ) أي: الذي له خِتامٌ؛ أي: يقطَعُ هو رائحَةَ المسكِ، أو مَختومٌ أَوَانِيهِ بالمِسكِ مكانَ الطِّينِ، وقرأ الكسائيُّ: (خَاتَمُه) بفتحِ التَّاء[1]؛ أي: ما يُختَمُ به ويقطَعُ.

قولُهُ تعالَى: (﴿وفي ذَلِكَ﴾) أي: الرَّحيقِ، أو النَّعيمِ.

قولُهُ: (فُسِّرَ) عَلَمٌ لعَينٍ بعَينِها، سمِّيَت تَسنيماً؛ لارتفاعِ مكانِها، أو رفعَةِ شَرابِها.

قولُهُ: (بِأَمدَحُ) والأظهَرُ أنّه منصوبٌ على المدحِ، أو الحالِ من: ﴿تَسنِيمٍ﴾.

قولُهُ: (أي: مِنهَا) فإنَّهم يشرَبونَها صِرْفاً؛ لأنَّهم لم يشتَغِلوا بغَيرِ الله، ويُمزَجُ لسائرِ أهلِ الجنَّةِ.

قولُهُ: (ونَحوُهُ) مُستدرَكٌ كنحوِهِما.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَة) لعاصِم بروايَةِ حَفصٍ[2].

قولُهُ: (مُعجَبِينَ) مُلتَذِّينَ بالسُّخريَةِ منهم.

قولُهُ: (أو لأَعمَالِهِم) هذا هو الصَّحيحُ.

قولُهُ: (حَتَّى يَرُدُّوهُم) ويَشهَدوا برُشدِهِم وضَلالِهِم، والله سُبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٦).

سورة التطفيف

ويقال لها: سورة «المطففين». واختلف في كونها مكيةً أو مدنيةً؛ فعن ابن مسعود والضحاك أنها مكيةٌ. وعن الحسن وعكرمة أنها مدنية. وعليه السدِّيُّ؛ قال: كان بالمدينة رجلٌ يُكْنَى أبا جهينةَ، له مكيالان يأخذ بالأَوْفَى ويُعطي بالأنقص، فنزلت.

وعن ابن عباس رواياتٌ، فأخرج ابن الضريس عنه أنه قال: آخرُ ما نزل بمكة سورة المطفِّفين[1].

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عنه أنه قال: أول ما نزل بالمدينة «ويل للمطففين»[2]. ويؤيِّد هذه الرواية ما أخرجه النسائيُّ وابن ماجه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» بسندٍ صحيح وغيرِهم عنه قال: لمَّا قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأَحْسَنوا الكيل بعد ذلك[3].

وفي روايةٍ عنه أيضاً وعن قتادة: أنها مكيةٌ إلا ثمان آياتٍ من آخرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلخ[4].

وقيل: إنها مدنيةٌ إلا ستَّ آياتٍ من أوَّلها.

وبعضُ مَن يُثبت الواسطة بين المكيِّ والمدنيِّ يقول: إنها ليست أحدهما، بل

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس (١٧)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢٣، وينظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٣-١٤٤.

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٩٠)، وسنن ابن ماجه (٢٢٢٣)، وشعب الإيمان (٥٢٨٦).

(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٥.

نزلت بين مكة والمدينة ليُصلح الله تعالى أمر أهل المدينة قبل ورود رسول الله ﷺ عليهم.

وآيُها ستٌّ وثلاثون بلا خلافٍ.

والمناسبةُ بينها وبين ما قبلها أنه سبحانه لمَّا ذكر فيما قبلُ السعداءَ والأشقياءَ ويومَ الجزاء وعظمَ شأنِه، ذكر عز وجل هنا ما أعدَّ جلَّ وعلا لبعض العصاة، وذَكَره سبحانه بأخسِّ ما يقع من المعصية، وهو التطفيفُ الذي لا يكاد يُجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته، مع اشتمال هذه السورة من شرح حال المكذِّبين المذكورين هناك على زيادةِ تفصيلٍ كما لا يخفى.

وقال الجلال السيوطيُّ[1]: الفصلُ بهذه السورة بين «الانفطار» و«الانشقاق» ـ التي هي نظيرتُها من أوجهٍ ـ لنكتةٍ لطيفةٍ ألهمنيها الله تعالى، وذلك أنَّ السور الأربع: هذه والسورتان قبلها و«الانشقاق»، لمَّا كانت في صفةِ حالِ يوم القيامة ذُكرت على ترتيبِ ما يقع فيه، فغالبُ ما وقع في «التكوير» وجميعُ ما وقع في «الانفطار» يقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساةُ الأهوال، فذكره في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم بعد ذلك تحصُلُ الشفاعة العظمى فتُنْشَرُ الصحف، فآخِذٌ باليمين، وآخِذٌ بالشمال، وآخِذٌ من وراء ظهره، ثم بعد ذلك يقع الحساب كما ورد بذلك الآثارُ، فناسَبَ تأخُّرَ سورة الانشقاق التي فيها إيتاءُ الكتب والحساب عن السورة التي فيها ذكر الموقف، والسورة التي فيها ذِكْرُه عن السورة التي فيها ذكر مبادي أحوال[2] اليوم.

ووجهٌ آخَرُ: وهو أنه جلَّ جلالُه لمَّا قال في «الانفطار»: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ وذلك في الدنيا، ذكر سبحانه في هذه حالَ ما يكتبه الحافظون، وهو مرقومٌ يُجْعَلُ في عِلِّيينَ أو سِجِّينٍ، وذلك أيضاً في الدنيا كما تدلُّ عليه الآثار، فهذه حالةٌ ثانيةٌ للكتاب ذُكرت في السورة الثانية. وله حالةٌ ثالثةٌ متأخِّرةٌ

(١) في الدرر في تناسق الآيات والسور ص٩٣.
(٢) في الدرر: أهوال.

عنهما، وهي إيتاؤه صاحبَه باليمين أو غيرها، وذلك يومَ القيامة، فناسَبَ تأخيرَ السورة التي فيها ذلك عن السورة التي فيها الحالة الثانية. انتهى، وهو ـ وإنْ لم يَخْلُ عن لطافةٍ ـ للبحثِ فيه مجالٌ، فتذكر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ قيل: الويل شدةُ الشرِّ. وقيل: الحزن والهلاك. وقيل: العذاب الأليم. وقيل: جبلٌ في جهنم، وأخرج ذلك عن عثمان مرفوعاً ابنُ جرير بسندٍ فيه نظر[١].

وذهب كثيرٌ إلا أنه وادٍ في جهنم؛ فقد أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلُغَ قَعْرَه»[٢]. وفي صحيحي ابن حبان والحاكم بلفظ: «وادٍ بين جبلين يهوي فيه الكافر» إلخ[٣].

ورَوَى ابن أبي حاتم عن عبد الله: أنه وادٍ في جهنم من قيحٍ[٤].

(١) تفسير الطبري ٢/ ١٦٤، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة وقال: غريب جدًّا. وقال ابن رجب في التخويف من النار ص٨٤: في إسناده نظر.

(٢) مسند أحمد (١١٧١٢)، وسنن الترمذي (٢٥٧٦) و(٣١٦٤) وهو من طريق درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ﷺ به. وإسناده ضعيف لضَعْفِ درَّاج ـ وهو ابن سمعان ـ في روايته عن أبي الهيثم، وهو سليمان بن عمرو العتواري.

(٣) ذكره بهذا اللفظ المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٦٤، وابن رجب في التخويف من النار ص٨٤ ونسباه للترمذي، ولم نقف عليه فيه، ثم قال المنذري: ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ولم نقف عليه بهذا اللفظ أيضاً عند ابن حبان والحاكم، وهو في صحيح ابن حبان (٧٤٦٧)، والمستدرك ٢/ ٥٠٧، و٤/ ٥٩٦ باللفظ الأول.

(٤) ذكره عن ابن أبي حاتم بإسناده ابن رجب في أهوال القبور ص٨٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٩١١٤)، وفي إسناده يحيى الحمامي، وهو ضعيف كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٥.

وفي كتاب «المفردات» للراغب[١]: قال الأصمعي: ويل: قُبُوح[٢]، وقد يُستعمل للتحسُّر، ومَن قال: ويلٌ وادٍ في جهنم، لم يُرِدْ أنَّ ويلاً في اللغة موضوعٌ لهذا، وإنما أراد: مَن قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحقَّ مقرًّا من النار، وثَبت ذلك له. انتهى، والظاهرُ أنَّ إطلاقه على ذلك كإطلاق جهنم على ما هو المعروف فيها، فليُنْظَر من أيِّ نوعٍ ذلك الإطلاق.

وأيًّاما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرةً؛ لوقوعه في موقع الدعاء، و«للمطففين» خبرُه. والتطفيفُ: البخس في الكيل والوزن؛ لِمَا أنَّ ما يُبْخَسُ في كيلٍ أو وزنٍ واحدٍ شيءٌ طفيفٌ، أي: نزرٌ حقير، والتفعيل فيه للتعدية أو للتكثير، ولا ينافي كونَه من الطفيف بالمعنى المذكور؛ لأن كثرة الفعل بكثرة وقوعه، وهو بتكراره لا بكثرة متعلّقه.

وعن الزجَّاج أنَّه مِن طَفِّ الشيءِ [وهو] جانبه[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ إلخ صفةٌ مخصِّصةٌ للمطففين الذين نزلت فيهم الآية، أو صفةٌ كاشفةٌ لحالهم شارحةٌ لكيفية تطفيفهم الذي استحقُّوا به الويل. أي: إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحُكْمِ الشراء ونحوه كيلاً يأخذونه وافياً وافراً. وتبديل كلمة «على» هنا بمِن قيل: لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء، أو للإشارة إلى أنه اكتيالٌ مُضِرٌّ للناس لا على اعتبارِ الضرر من حيث الشرط[٤] الذي يتضمَّنه «إذا»؛ لإخلاله بالمعنى، بل في نفس الأمر بموجب الجواب، بناءً على أنَّ المراد بالاستيفاء ليس أخذَ الحقِّ وافياً من غير نقصٍ، بل مجرَّدَ الأخْذِ الوافي الوافر حَسْبَما أرادوا بأيِّ وجهٍ يتيسَّر من وجوه الحيل، وكانوا يفعلونه بكَبْسِ المكيل ودَعْدَعةِ المكيال إلى غير ذلك.

---

(١) مادة (ويل).

(٢) في المفردات: قبح، وذكره عن الأصمعي بلفظ المصنف ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٤٨٦، وصاحب اللسان (ويل)، والحافظ في الفتح ١٠/ ٥٥٣. والقُبْح والقُبُوح بمعنى، وهما من مصادر قَبُح كما في القاموس (قبح).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧، وما بين حاصرتين منه.

(٤) في تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٤ (والكلام منه): لا على اعتبار الضرر في حيز الشرط، ولعله أنسب بالسياق.

وقيل: إن ذلك لاعتبارِ أنَّ اكتيالهم لِمَا لهم من الحقِّ على الناس، فعن الفرَّاء أنَّ «مِن» و«على» يعتقبان في هذا الموضع، فيقال: اكتلتُ عليه، أي: أخذتُ ما عليه كيلاً، و: اكتلت منه، أي: استوفيتُ منه كيلاً[1].

وتعقِّب[2] بأنه مع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيءٌ بطريق الشراء ونحوِه ـ مع أنه الشائع فيما بينهم ـ يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أَخْذَ ما لَهُم على الناس وافياً من غير نقصٍ؛ إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرض الحقِّ، فلا يكون مداراً لذمِّهم والدعاءِ عليهم. وحَمْلُ ما لَهم عليهم على معنى: ما سيكون لهم عليهم، مع كونه بعيداً جدًّا، مما لا يُجْدي نفعاً؛ فإنَّ اعتبار كون المكيل لهم حالاً كان أو مآلاً يستدعي كونَ الاستيفاء بالمعنى المذكور حتماً. انتهى.

وأقول: إنْ قُطِعَ النظر عن كون الآية نازلةً في مطففين صفتُهم أَخْذُ مكيلِ الناس إذا اكتالوا وافراً حسبما يريدون، فلا بأس بحملها على ما يدلُّ على أنَّ المأخوذ حقٌّ حالاً أو مآلاً، وكونُ المتبادر حينئذٍ من الاستيفاء أخذَ ما لَهُم وافياً من غير نقصٍ مسلَّمٌ، لكنه لا يضرُّ. قوله: فلا يكون مداراً لذمِّهم والدعاءِ عليهم. قلنا: مدارُ الذمِّ ما تضمَّنه مجموعُ المتعاطفين، والكلامُ كقولك: فلانٌ يأخذ حقَّه من الناس تامًّا ويعطيهم حقَّهم ناقصاً، وهي عبارةٌ شائعةٌ في الذمِّ، بل الذمُّ بها أشدُّ من الذمِّ بنحو: يأخذ ناقصاً ويعطي ناقصاً، وكونُه دون الذمِّ بنحوِ قولك: يأخذ زائداً ويعطي ناقصاً، لا يضرُّ كما لا يخفى.

ثم قد يقال: إن الأغلب في اكتيال الشخص من شخصٍ كونُ المكيل حقًّا له بوجهٍ من الوجوه، ولعل مبنَى كلام الفرَّاء على ذلك، فتأمل.

وجوِّز[3] أن تكون «على» متعلِّقةً بـ «يستوفون»، ويكون تقديمها على الفعل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦، والكشاف ٤/ ٢٣٠، والبحر ٨/ ٤٣٩، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٢٥.

(٢) المتعقب هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٢٤.

(٣) بعدها في (م): على، وهو خطأ.

لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصةً فأمَّا أنفسهم فيستوفون لها.

وتعقَّب[1] بأنَّ القَصْرَ بتقديم الجارِّ والمجرور إنما يكون فيما يمكن تعلُّق الفعل بغير المجرور أيضاً حَسْب تعلُّقِه به، فيقصَدُ بالتقديم قَصْرُه عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حَسْبَما يقتضيه المقامُ، ولا ريبَ في أنَّ الاستيفاء الذي هو عبارةٌ عن الأخذ الوافي مما لا يتصوَّرُ أن يكون على أنفسهم حتى يُقْصَدَ بتقديم الجارِّ والمجرور قَصْرُه على الناس، على أنَّ الحديث واقعٌ في الفعل لا فيما وقع عليه. انتهى.

وأجيب بأنَّ المراد بالاستيفاء المعدَّى بـ «على» على ذلك الإضرارُ، فكأنه قيل: إذا اكتالوا يضرُّون الناس خاصةً ولا يضرُّون أنفسهم بل ينفعونها، والقَصْرُ بطريق القلب، والإضرارُ مما يمكن أن يكون لأنفسهم كما يمكن أن يكون للناس، وإن كان ما به الإضرارُ مختلفاً، حيث إنَّ إضرارهم أنفسَهم بأخذ الناقص وإضرارَهم الناسَ بأخذ الزائد، ثم إن خصوصية ما وقع عليه الفعل هو مدارُ الذمِّ والدعاءِ بالويل، وبه يجاب عمَّا في حيِّز العلاوة. انتهى، ولا يخفى ما فيه فتدبر.

والضمير المنفصل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ للناس، وما تقدَّم في الأخذ من الناس وهذا في الإعطاء، فالمعنى: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون. وكال تُستعمل مع المكيل باللام وبدونه، فقد جاء في اللغة على ما قيل: كال له، وكاله بمعنى: كال له.

وجَعَلَ غيرُ واحدٍ «كالَه» من باب الحذف والإيصال، على أنَّ الأصل: كال له، فحذف الجارُّ وأُوْصِل الفعل، كما في قوله:

ولقد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وعَسَاقِلاً ولقد نهيتُكَ عن بناتِ الأَوْبَرِ[2]

---

(١) المتعقب هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٢٥.

(٢) المقتضب ٤/ ٤٨، ومجالس ثعلب ص٥٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٦٦، والإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٣١٩، والكشاف ٤/ ٢٣٠، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥. قال الشهاب: الأكمؤ جمع كمأة، والعاقل ضرب منها، وصَرْفُه للضرورة هنا، وعطفه على الأكمؤ هنا من قبيل عطف جبريل على الملائكة، وبنات أوبر ضرب من الكمأة أيضاً، وهو أردؤها.

وقولِهم في المثل: الحريصُ يصيدك لا الجواد. أي: جنيتُ لك، ويصيد لك.

وجوّز أن يكون الكلام على حذف المضاف ـ وهو: مكيل وموزون ـ وإقامةِ المضاف [إليه][(١)] مقامه، والأصل: وإذا كالوا مكيلَهم أو وزنوهم[(٢)].

وعن عيسى بن عمر وحمزة أن المكيل له والموزونَ له محذوفٌ، و«هم» ضميرٌ مرفوعٌ تأكيدٌ للضمير المرفوع وهو الواو، وكانا يقفان على الواوين وقيفةً يبيّنان بها ما أرادوا[(٣)].

وقال الزمخشري: لا يصحُّ كونُ الضمير مرفوعاً للمطففين؛ لأنه يكون المعنى عليه: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولَّوا الكيلَ أو الوزنَ هم على الخصوص أَخْسَروا، وهو كلامٌ متنافرٌ؛ لأنَّ الحديث واقعٌ في الفعل لا في المباشِر[(٤)].

وذلك على ما في «الكشف» لأنَّ التأكيد اللفظيَّ يدفعُه المقام، فليس المرادُ أن يحقّق أنَّ الكيل صَدَرَ منهم لا من عبيدهم مثلاً، والتقوّي وحده يدفعه تركُ الفاء في جواب «إذا»؛ لأنَّ الفصيح إذ ذاك: فهم يخسرون، فيتعيَّن الحملُ على التخصيص، ويظهرُ العذرُ في ترك الفاء إذ المعنى: لا يُخْسِرُ إلا هم، ويلزمُ التنافُرُ وفواتُ المقابلة[(٥)]، هذا و«هم» أوّلاً في «كالوهم» مانعٌ من هذا التقدير أشدَّ المنع، والحملُ على حذف الخبر من أحدهما ـ وهو شَطْرُ الجزاء ـ لا نظيرَ له.

وقيل: إنه يُبْعِدُ كونَ الضمير مرفوعاً عدمُ إثبات الألف بعد الواو وقد تقرَّر في علم الخطِّ إثباتُها بعدها في مثل ذلك، وجرى عليه رسمُ المصحف العثماني في نظائره، وكونُه هنا بالخصوص مخالفاً لِمَا تقرَّر ولِمَا سُلك في النظائر بعيدٌ كما لا يخفى.

---

(١) ما بين حاصرتين من الكشاف ٤/ ٢٣٠، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أو وزنوا موزونهم.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٣١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٠، والبحر ٨/ ٤٣٩، والمشهور عن حمزة كقراءة الجماعة.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

(٥) أي: مقابلة الاكتيال بالكيل، و«على الناس» بـ «للناس»، و«يستوفون» بـ «يُخْسِرون». حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥.

ولعل الاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء، وذِكْرَ الكيل والوزن في صورة الإخسار؛ [لما][١] أنَّ المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين؛ لتمكُّنِهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، وإذا أَعْطَوا كالوا ووزنوا لتمكُّنهم من البخس في النوعين جميعاً.

والحاصل أنه إنما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق مَن نزل فيهم، فالصفةُ تَنْعَى عليهم[٢] ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم، وهذا صحيح، جُعِلَتْ الصفة مخصِّصةً لهؤلاء المطفِّفين كما هو الأظهر أو كاشفةً لحالهم، فقد أريد بالأول معهودٌ ذهنيٌّ.

وقال شيخ مشايخنا العلَّامة السيد صبغةُ الله الحيدريُّ في ذلك: إنَّ التطفيف في الكيل يكون بشيءٍ قليلٍ لا يُعْبأُ به في الأغلب، دون التطفيف في الوزن، فإنَّ أدنى حيلةٍ فيه يفضي إلى شيءٍ كثيرٍ.

وأيضاً الغالبُ فيما يوزن ما هو أكثر قيمةً مما يكال، فإذا أخبرتِ الآيةُ بأنهم لا يُبقون على الناس ما هو قليلٌ مَهينٌ من حقوقهم، عُلم أنهم لا يُبقون عليهم الكثير الذي لا يتسامح به أكثرُ الناس ـ بل أهلُ المروءات أيضاً ـ إلا نادراً بالطريق الأولى، بخلافِ ما إذا ذكر أنهم يُخْسِرون الناسَ بالأشياء الجزئية كما يُفهم من ذكر الإخسار في الكيل، فإنه لا يُعْلم منه أنهم يُخْسِرونهم بالشيء الكثير أيضاً، بل ربما يتوهَّم من تخصيص الجزئيات[٣] بالذكر أنهم لا يتجرؤون على إخسارهم بكلِّيات الأموال، فلا بدَّ في الشقِّ الثاني من ذكر الإخسار في الوزن أيضاً، فتكون الآيةُ مناديةً على ذميم أفعالهم ناعيةً عليهم بشنيع أحوالهم. انتهى.

وتعقِّب بأنه لا يحسم السؤال؛ لجواز أن يقال: لمَ لمْ يقُل: إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا وزنوهم يُخْسِرون، ليعلم من القرينتين أنهم يستوفون الكثير ويُخْسِرون بالنزر الحقير بالطريق الأَوْلى، ويكون في الكلام ما هو من قبيل الاحتباك.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٥، والكلام فيه بنحوه.
(٢) أي: تُظْهِر، في القاموس: وهو يَنْعَى على زيد ذنوبه: يُظهرها ويَشْهَرُها.
(٣) في (م): الجزئية.

وقال الزجَّاج: المعنى: إذا اكتالوا من الناس استَوْفَوْا عليهم الكيل، وكذلك إذا اتَّزنوا استَوْفَوا الوزن، ولم يذكر «إذا اتَّزنوا» لأن الكيل والوزن بهما الشراءُ والبيعُ فيما يكالُ ويوزن[١].

ومراده على ما نصَّ عليه الطيبيُّ: أنه استغني بذكر إحدى القرينتين عن الأخرى لدلالة القرينة الآتية عليها، وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ المطفِّفين باعةٌ، وهم في الغالب يشترون الشيء الكثير دفعةً ثم يبيعونه متفرِّقاً في دفعاتٍ، وكم قَدْ رأينا منهم مَن يشتري من الزراعين مقداراً كثيراً من الحبوب مثلاً في يومٍ واحد، فيدَّخرُه ثم يبيعه شيئاً فشيئاً في أيامٍ عديدة، ولما كانت العادةُ الغالبةُ أَخْذَ الكثير بالكيل ذُكر الاكتيال فقط في صورة الاستيفاء، ولَمَّا كان ما يبيعونه مختلفاً كثرةً وقلةً ذكر الكيلُ والوزن في صورة الإعطاء، أو لَمَّا كان اختيارُ ما به تعيينُ المقدار مفوَّضاً إلى رأي مَن يشتري منهم ذُكرا معاً في تلك الصورة؛ إذ منهم مَن يختار الكيل ومنهم مَن يختار الوزن.

وأنت تعلم أنَّ كونَ العادة الغالبةِ أَخْذَ الكثير في الكيل غيرُ مسلَّمٍ على الإطلاق، ولعله في بعض المواضع دون بعضٍ، وأهل بلدنا مدينةِ السلام اليومَ لا يكتالون ولا يكيلون أصلاً، وإنما عادتُهم الوزن والاتِّزانُ مطلقاً.

وعدمُ التعرُّضِ للمكيل والموزون في الصورتين ـ على ما قال غير واحدٍ ـ لأنَّ مساقَ الكلام لبيان سوء معاملة المطففين في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصيةِ المأخوذ والمعطَى.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ استئنافٌ واردٌ لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف، والهمزةُ للإنكار والتعجيبِ، و«لا» نافيةٌ، فليست «ألا» هذه الاستفتاحية أو التنبيهيةَ، بل المركَّبة[٢] من همزة الاستفهام و«لا» النافية، والظنُّ على معناه المعروفِ، و«أولئك» إشارةٌ إلى «المطففين»، ووضعُه موضعَ ضميرهم للإشعار

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧.

(٢) في (م): مركبة.

بمناط الحكم الذي هو وصفُهم، فإنَّ الإشارة إلى الشيء متعرِّضةٌ له من حيث اتِّصافُه بوَصْفِه، وأمَّا الضميرُ فلا يتعرَّضُ للوصف، وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصفِ القبيح عن سائر الناس أكملَ امتيازٍ، نازلون منزلةَ الأمور المشارِ إليها إشارةً حسيةً، وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببُعْدِ درجتهم في الشرارة والفساد، أي: ألا يظنُّ أولئك الموصوفون بذلك الوصفِ الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ لا يقادَرُ قَدْرُ عظمه، فإنَّ مَن يظنُّ ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقَّنه؟ ووصفُ اليوم بالعِظَم لعظم ما فيه، كما أنَّ جَعْلَه علةً للبعث باعتبارِ ما فيه. وقدَّر بعضهم مضافاً، أي: لحسابِ يومٍ.

وقيل: الظنُّ هنا بمعنى اليقين. والأول أَوْلَى وأبلغ.

وعن الزمخشريِّ أنه سبحانه جعلهم أسوأ حالاً من الكفار؛ لأنه أثبتَ جلَّ شأنُه للكفار ظنًّا، حيث حكى سبحانه عنهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] ولم يثبته عز وجل لهم[١]، والمراد أنه تعالى نزلهم منزلةَ مَن لا يظنُّ ليصحَّ الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ - أي: لِحُكْمِه تعالى وقضائه عز وجل - منصوبٌ بإضمارِ «أعني»، وجوِّز أن يكون معمولاً لـ «مبعوثون»، أو مرفوع المحلِّ خبراً لمبتدأ مضمَرٍ، أي: هو - أو ذلك - يوم، أو مجرورٌ كما قال الفرَّاء بدلاً من «يوم عظيم»[٢]. وهو على الوجهين مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين، وقد مرَّ غيرَ مرَّةٍ، ويؤيِّد الوجهين قراءةُ زيد بن علي: «يومُ» بالرفع[٣]، وقراءةُ بعضهم كما حَكَى أبو معاذ: «يومِ» بالجر[٤].

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٢٣١، وعبارة الزمخشري: «ألا يظن» إنكار وتعجيب من عظيم حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون ببالهم ولا يخمِّنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦، والبحر ٨/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٤٠.

وفي هذا الإنكار والتعجيب، وإيرادِ الظنِّ، والإتيان باسم الإشارة، ووصفِ يومِ قيامهم بالعظمة، وإبدالِ «يوم يقوم» إلخ منه على القول به، ووَصْفِه تعالى بربوبية العالمين، من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقُم الإثم في التطفيف ما لا يخفى، وليس ذلك نظراً إلى التطفيف من حيث هو تطفيفٌ، بل من حيث إنَّ الميزان قانونُ العدل الذي قامت به السماواتُ والأرض، فيعمُّ الحكمُ التطفيفَ على الوجه الواقع من أولئك المطفِّفين وغيره.

وصحَّ من رواية الحاكم والطبرانيِّ وغيرهما عن ابن عباس وغيره مرفوعاً: «خمسٌ بخمسٍ» قيل: يا رسول الله، وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: «ما نقض قومٌ العهدَ إلا سلَّط الله تعالى عليهم عدوَّهم، وما حَكَموا بغير ما أنزل الله تعالى إلَّا فَشا فيهم الفقرُ، وما ظهرتْ فيهم الفاحشةُ إلا فَشَا فيهم الموتُ، ولا طفَّفوا الكيلَ إلَّا مُنعوا النباتَ وأُخِذوا بالسنين، ولا مَنَعوا الزكاة إلَّا حُبِسَ عنهم القَطْرُ»(١).

وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول: اتَّقِ الله تعالى وأَوْفِ الكيل فإنَّ المطفِّفين يوقَفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إنَّ العرق ليُلْجِمُهم(٢).

وعن عكرمة: أَشْهَدُ أنَّ كلَّ كيَّالٍ ووزَّانٍ في النار. فقيل له: إنَّ ابنك كيَّالٌ ووزَّان؟ فقال: أشهد أنه في النار. وكأنه أراد المبالغة لما علم أنَّ الغالب فيهم التطفيفُ.

ومن هذا القبيل ما روي عن أبيٍّ رضي الله عنه: لا تلتمس الحوائجَ ممن رزقُه في رؤوس المكاييل وأَلْسُنِ الموازين. والله تعالى أعلم.

واستُدلَّ بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إلخ على منع القيام للناس لاختصاصه بالله تعالى.

---

(١) المعجم الكبير (١٠٩٩٢) واللفظ له، وهو في مسند البزار (١٦٧٦ - كشف)، والمستدرك ٤/ ٥٤٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه بدل «إلا فشا فيهم الفقر»: «إلا ألقى الله بأسهم بينهم». وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٤٦٠بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/٤٥٨، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٠، وعنه نقل المصنف هذا الخبر وكذا ما بعده من أخبار.

وأجاب عنه الجلال السيوطيُّ بأنه خاصٌّ بالقيام للمرء بين يديه، أمَّا القيامُ له إذا قدم ثم الجلوس فلا[١]. وأنت تعلم أنَّ الآية بمعزل عن أنْ يستدلَّ بها على ما ذُكِر ليُحْتاجَ إلى هذا الجواب، وأرى الاستدلال بها على ذلك من العَجَبِ العُجاب.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عمَّا كانوا عليه من التطفيف والغَفْلةِ عن البعث والحساب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ إلخ تعليلٌ للردع أو وجوبِ الارتداع بطريق التحقيق.

و«كتاب» قيل: بمعنى مكتوب، أي: ما يُكتب من أعمال الفجَّار لفي.. إلخ، وقيل: مصدرٌ بمعنى الكتابة وفي الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: كتابةُ عملِ الفجَّار لفي.. إلخ.

والمراد بالفجَّار هنا على ما قال أبو حيان: الكفار[٢]. وعلى ما قال غيرُ واحدٍ: ما يعمُّهم والفسقةَ، فيدخل فيهم المطفِّفون.

و«سجِّين» قيل: صفةٌ كسِكِّير. واختار غيرُ واحدٍ أنه عَلَمٌ لكتابٍ جامعٍ وهو ديوان الشرِّ دوِّن فيه أعمالُ الفَجَرة من الثَّقلين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ فإنَّ الظاهر أنَّ «كتاب» بدلٌ من «سجِّين»، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو ضميرٌ راجعٌ إليه، أي: هو كتابٌ، وأصله وصفٌ من السَّجْن بفتح السين لقِّب به الكتابُ لأنه سببُ الحبس، فهو في الأصل فِعِّيلٌ بمعنى فاعِلٍ، أو لأنه مُلْقًى كما قيل تحت الأرضين في مكانٍ وَحْشٍ[٣] كأنه مسجونٌ، فهو بمعنى مفعول، ولا يلزمُ على جَعْلِه عَلَماً لِمَا ذُكر كونُ «الكتاب» ظرفاً لـ «الكتاب»؛ لِمَا سمعتَ من تفسير «كتاب الفجار»[٤]، وعليه يكون الكتاب المذكور ظرفاً للعمل المكتوب فيه، أو ظرفاً للكتابة.

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٨٤.
(٢) البحر ٨/ ٤٤٠.
(٣) أي: قَفْرٍ. القاموس (وحش)، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٣٦.
(٤) يعني كون «الكتاب» فيه بمعنى مكتوب، أو مصدراً بمعنى الكتابة.

وقيل: الكتاب على ظاهره، والكلامُ نظير أنْ تقول: إنَّ كتاب حساب القرية الفلانية في الدستور الفلانيِّ، لمَا يشتملُ على حسابها وحسابِ أمثالها، في أنَّ الظرفية فيه من ظرفية الكلِّ للجزء.

وعن الإمام: لا اسْتِبْعادَ في أن يوضع أحدُهما في الآخر حقيقةً، أو ينقل ما في أحدهما للآخر[١].

وعن أبي عليٍّ أنَّ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: موضعُ كتابٍ، فـ «كتاب» على ظاهره، و«سجين» موضعٌ عنده، ويؤيِّده ما أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً أنَّ «الفلق جبٌّ في جهنم مغطًّى، وسجِّين جبٌّ فيها مفتوح»[٢] وعليه يكون «سجين» لشرِّ موضع في جهنم.

وجاء في عدَّة آثارٍ أنه موضعٌ تحت الأرض السابعة[٣]، ولا منافاةَ بين ذلك وبين الخبر المذكور بناءً على القول بأن جهنم تحت الأرض.

وفي «الكشف»: لا يبعُدُ أن يكون «سجين» عَلَمَ الكتاب وعَلَمَ الموضع أيضاً؛ جمعاً بين ظاهر الآية وظواهر الأخبار.

وبعضُ من ذهب إلى أنه في الآية عَلَمُ الموضع قال: وما «أدراك ما سجين» على حذف مضافٍ، أي: وما أدراك ما كتابُ سجين؛ وقال ابن عطية: مَن قال بذلك فـ «كتاب» عنده مرفوعٌ على أنه خبر «إنَّ»، والظرف الذي هو «لفي سجِّين» ملغًى[٤].

وتعقِّب بأنَّ إلغاءه لا يتسنَّى إلا إذا كان معمولاً للخبر أعني «كتاب»، أو لصفته أعني «مرقوم»، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ «كتاب» موصوف فلا يعمل، ولأن «مرقوم»

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٩٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١٩٦، وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث غريب منكر لا يصح.

(٣) ينظر ما ورد في ذلك من آثار في تفسير الطبري ٢٤/ ١٩٣-١٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٥١.

الذي هو صفته لا يجوز أن تدخل اللام في معموله، ولا يجوز أن يتقدَّم معمولُه على الموصوف. وفيه نظر.

وقيل: «كتاب» خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ». وقيل: خبر مبتدأ محذوفٍ هو ضميرٌ راجعٌ إلى «كتاب الفجار»، ومناطُ الفائدة الوصفُ، والجملة في البَيْنِ اعتراضيةٌ. وكِلَا القولين خلافُ الظاهر.

وعن عكرمة أن «سجّين» عبارةٌ عن الخسارِ والهوان، كما تقول: بلغ فلانٌ الحضيضَ: إذا صار في غاية الخمول، والكلام في «وما أدراك» إلخ عليه يُعْلَم مما ذكرنا، وهذا خلافُ المشهور.

وزعم بعض اللغويين أنَّ نونه بدلٌ من لام، وأصلُه: سجِّيل[١]، فهو كجِبْرين في جبريل، فليس مشتقًّا من السَّجْن أصلاً.

و«مرقوم» من رَقَمَ الكتابَ: إذا أعجمه وبيَّنه لئلا يلغو، أي: كتابٌ بيِّنُ الكتابة، أو من رَقَمَ الكتابَ: إذا جَعَلَ له رقماً أي: علامةً، أي: كتابٌ معلَّمٌ يَعْلَم مَن رآه أنه لا خير فيه.

وقال ابن عباس والضحاك: «مرقوم»: مختوم بلغة حمير. وذكر بعضُهم أنه يقال: رَقَمَ الكتاب بمعنى خَتَمَه، ولم يخصَّه بلغةٍ دون لغةٍ.

وفي «البحر»: «مرقوم»، أي: مثبتٌ كالرقم لا يَبْلى ولا يُمْحَى[٢]. وهو كما ترى.

وشاع الرَّقْمُ في الكتابة، قال أبو حيان: وهو أصلُ معناه، ومنه قولُ الشاعر:

سأَرْقُمُ في الماء القَرَاحِ إليكُمُ ... على بُعْدِكُم إن كان للماء راقمُ[٣]

---

(١) مشتقًّا من السِّجِلّ، وهو الكتاب. الدر المصون ٩/ ٧١٩.

(٢) البحر ٨/ ٤٤٠.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٠، والبيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١١٦، واللسان (رقم)، وفيه: وقولهم: هو يرقم في الماء، أي: بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم. اهـ. والقراح: الخالص. القاموس (قرح).

وأما الرَّقَم المعروفُ عند أهل الحساب فالظاهرُ أنه بمعنى العلامة، وخُصَّ بعلامة العدد فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ متصلٌ بقوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وما بينهما اعتراضٌ، والمراد: للمكذبين بذلك اليوم، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ ذامَّةٌ لـ «المكذِّبين»، أو بدلٌ منه، أو مرفوعٌ أو منصوب على الذمِّ. وجوِّز أن يكون صفةً كاشفةً موضِّحةً.

وقيل: هو صفةٌ مخصِّصةٌ فارقةٌ، على أنَّ المراد: المكذِّبين بالحقِّ. والأول أظهر؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ إلخ يدلُّ على أنَّ القصد إلى المذمَّة، أي: وما يكذِّبُ بيوم الدين إلَّا كلُّ متجاوزٍ حدودَ النظر والاعتبار، غالٍ في التقليد، حتى جعل قدرةَ الله تعالى قاصرةً عن الإعادة، وعِلْمَه سبحانه قاصراً عن معرفة الأجزاء المتفرِّقةِ التي لا بدَّ في الإعادة منها، فعَدَّ الإعادة مُحالةً عليه عزَّ وجل.

﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: كثير الآثام منهمكٍ في الشهوات المخدجة[1] الفانية، بحيث شغلته عمَّا وراءها من اللذَّات التامة الباقية، وحملته على إنكارها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الناطقةُ بذلك ﴿قَالَ﴾ من فَرْطِ جهله وإعراضه عن الحقِّ الذي لا محيدَ عنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: هي حكاياتُ الأوَّلين، يعني هي أباطيلُ جاء بها الأوَّلون وطال أمدُ الإخبار بها ولم يظهر صدقُها. أو: أباطيلُ ألقيت على آبائنا الأوَّلين وكذَّبوها، ولسنا أولَ مكذِّبٍ بها حتى يكون التكذيبُ منَّا عجلةً وخروجاً عن طريق الحزم والاحتياط. والأول أظهرُ.

والآية قيل: نزلت في النضر بن الحارث. وعن الكلبي: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة. وأيَّاما كان فالكلامُ على العموم.

وقرأ أبو حيوة وابن مقسم: «إذا يتلى» بتذكير الفعل. وقرئ: «أإذا تتلى» على الاستفهام الإنكاري[2].

---

(١) أي: الناقصة.

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٤١.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للمعتدي الأثيم عن ذلك القولِ الباطل، وتكذيبٌ له فيه.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ بيانٌ لِمَا أدَّى بهم إلى التفوُّه بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يصحِّح أن يقال في شأنها مثلُ تلك المقالةِ الباطلة، بل رَكِبَ قلوبَهم وغَلَبَ عليها ما استمرُّوا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحقِّ، فلذلك قالوا ما قالوا.

والرين في الأصل: الصدأ؛ يقال: ران عليه الذنبُ وغان عليه رَيْناً وغيناً، ويقال: ران فيه النومُ، أي: رسخ فيه. وفي «البحر»: أصل الرين الغلبةُ، يقال: رانت الخمر على عقل شارِبها، أي: غلبت، وران الغَشْيُ على عقل المريض، أي: غلب. وقال أبو زيد: يقال: رِيْنَ بالرجل يُران به ريناً: إذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج(١).

وأريدَ به حبُّ المعاصي الراسخُ، بجامعِ أنه كالصدأ المسوِّد للمرآة والفضةِ مثلاً، المغيِّرِ عن الحالة الأصلية. وأخرج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكم وصحَّحاه والنسائيُّ وابن ماجه وابنُ حبَّان وغيرُهم عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ العبد إذا أذْنَب ذنباً نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإنْ تابَ ونَزَعَ واستغفر صُقِلَ قلبه، وإن عاد زادتْ حتى تعلوَ قلبَه، فذلك الرَّانُ الذي ذكر الله تعالى في القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(٢).

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال: كانوا يرون أنَّ الرين هو الطبعُ(٣).

وذكروا له أسباباً، وفي حديث أخرجه عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي المجبَّر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أربعُ خصالٍ مُفْسِدةٌ للقلوب:

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٨.

(٢) مسند أحمد (٧٩٥٢)، وسنن الترمذي (٣٣٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٩٤)، وسنن ابن ماجه (٤٢٤٤)، وصحيح ابن حبان (٢٧٨٧)، والمستدرك ٢/ ٥١٧.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢٦.

مُجاراةُ الأحمق؛ فإنْ جاريتَه كنتَ مثله وإنْ سكتَّ عنه سلمتَ منه، وكثرةُ الذنوب مفسدةٌ للقلوب، وقد قال الله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، والخلوةُ بالنساء والاستماعُ منهنَّ[(١)] والعملُ برأيهنَّ، ومجالسةُ الموتَى» قيل: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «كلُّ غنيٍّ قد أبطره غناه»[(٢)].

وقرئ بإدغام اللام في الراء[(٣)]، وقال أبو جعفر بن الباذش: أجمعوا ـ يعني القراءَ ـ على إدغام اللام في الراء، إلا ما كان من وَقْفِ حفصٍ على «بل» وقفاً خفيفاً يسيراً لتبيين الإظهار. وليس كما قال من الإجماع ففي «اللوامح» عن قالون من جميع طرقه إظهارُ اللام عند الراء، نحو قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٦] وفي كتاب ابن عطية: وقرأ نافع: «بل ران» غير مدغمٍ، وفيه أيضاً: وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة[(٤)].

وقال سيبويه في اللام مع الراء نحو «اشْغَل رحمه»[(٥)]: البيانُ والإدغام حسنان. وقال أيضاً: فإذا كانت ـ يعني اللام ـ غيرَ لام التعريف نحو لام «هل» و«بل» فإنَّ الإدغام أحسن، فإن لم تدغم فهي لغةٌ لأهل الحجاز وهي عربية جائزة[(٦)].

وفي «الكشاف»: قرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهارِ، والإدغامُ أجود وأُميلت الألف وفُخِّمَتْ[(٧)]. فليحفظ.

---

(١) في الأصل و(م): والاستمتاع بهن، وفي الدر المنثور ٦/ ٣٢٦ (والكلام منه): والاستمتاع منهن، والمثبت من باقي المصادر على ما يأتي.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٦، وأخرجه أيضاً أبو موسى المديني في التتمة كما في توضيح المشتبه ٨/ ٤٧، ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة ٦/ ٢٧٥. وجاء في توضيح المشتبه: «مجازاة الأحمق، إن جازيته. . .» كلاهما بالزاي. وأبو المجبَّر، بتشديد الباء المفتوحة كما ذكر صاحب التوضيح، وقال: له صحبة، واختلف فيه هل هو بجيم أم بمهملة.

(٣) وهي قراءة الجماعة سوى حفص. التيسير ص١٤٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٢، والكلام من البحر ٨/ ٤٤١.

(٥) كذا في الأصل و(م) والبحر، وفي الكتاب ٤/ ٤٥٢: رحبة. والرَّحَبة: الأرض الواسعة المِنْبات المِحْلال. القاموس (رحب).

(٦) الكتاب ٤/ ٤٥٧، والبحر ٨/ ٤٤١، والكلام منه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٣٢، والبحر ٨/ ٤٤١.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجرٌ عن الكسب الرائن، أو بمعنى حقًّا ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المكذِّبين ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ لا يرونه سبحانه وهو عز وجل حاضرٌ ناظرٌ لهم، بخلاف المؤمنين، فالحجابُ مجازٌ عن عدم الرؤية؛ لأنَّ المحجوب لا يرى ما حُجِبَ. أو الحَجْبُ: المنعُ، والكلام على حذف مضافٍ، أي: عن رؤية ربِّهم لممنوعون فلا يرونه سبحانه.

واحتجَّ بالآية مالكٌ على رؤية المؤمنين له تعالى من جهة دليل الخطاب، وإلا فلو حُجِبَ الكلُّ لَمَا أَغْنَى هذا التخصيصُ. وقال الشافعي: لمَّا حَجَبَ سبحانه قوماً بالسخط دلَّ على أن قوماً يرونه بالرضا. وقال أنس بن مالك[(١)]: لمَّا حجب عز وجل أعداءه سبحانه فلم يروه، تجلَّى جلَّ شأنه لأوليائه حتى رأوه عز وجل.

ومَن أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال: إنَّ الكلام تمثيلٌ للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يؤذَنُ على الملوك إلا للوجهاء المكرَّمين لديهم، ولا يُحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم، كما قال:

إذا اعْـتَـرَوا بـابَ ذي عُـبِّـيَّـةٍ رُجِـبـوا والناسُ من بين مَرْجوبٍ ومَحْجوبِ[(٢)]

أو هو بتقدير مضافٍ، أي: عن رحمة ربهم ـ مثلاً ـ لمحجوبون، وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد تقديرُ ذلك، وعن ابن كسيان تقدير الكرامة. لكنهم أرادوا عمومَ المقدَّر للرؤية وغيرِها من ألطافه تعالى.

والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «محجوبون»، وهو العامل في «يومئذ»، والتنوينُ فيه تنوينُ عوضٍ، والمعوَّضُ عنه هنا «يقوم الناس» السابقُ، كأنه قيل: إنهم لمحجوبون عن ربِّهم يومَ إذ يقوم الناس لربِّ العالمين.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والبحر، والصواب: مالك بن أنس، كما ذكر الثعلبي والواحدي والبغوي وابن الجوزي والقرطبي والنسفي في تفاسيرهم عند تفسير هذه الآية.

(٢) البيت في الكشاف ٤/ ٢٣٢ والبحر ٨/ ٤٤١ دون نسبة. وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: إذا اعتروا. . . إلخ، عراه واعتراه: إذا غَشِيه، وذي عُبِّية بضم العين وتشديد الباء الموحدة، أي: مَلِكٍ ذي كبر، ورُجِبوا بالتخفيف، أي: عُظِّموا. اهـ منه. وفي الفائق (عبب): العُبِّيَّة: الكبر، من فُعِّيلَة أو فُعُّولَة، من باب عُباب الماء، وهو ارتفاعه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ مُقَاسُو حرِّها على ما قال الخليل. وقيل: داخلون فيها.

و«ثم» قيل: لتراخي الرتبة، لكنْ بناءً على ما عندهم، فإنَّ صُلِيَّ الجحيم عندهم أشدُّ من حجابهم عن ربِّهم عز وجل، وأما عند المؤمنين ـ لاسيما الوالهين به سبحانه منهم ـ فإنَّ الحجاب عذابٌ لا يدانيه عذاب.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تقريعاً وتوبيخاً من جهة الخَزَنةِ أو أهلِ الجنة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فذوقوا عذابه.

﴿كَلَّآ﴾ تكريرٌ للردع السابق في قوله تعالى: (كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ) إلخ ليُعقب بوعد الأبرار كما عقَّب ذاك بوعيد الفجّار، إشعاراً بأنَّ التطفيف فجورٌ والإيفاءَ برٌّ.

وقيل: ردعٌ عن التكذيب، فلا تكرار.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ الكلامُ نحوُ ما مرَّ في نظيره، بيد أنهم اختلفوا في «عليين» على وجهٍ آخر غيرِ اختلافهم في «سجِّين»، فقال غير واحد: هو علمٌ لديوان الخير الذي دوِّن فيه كلُّ ما عملته الملائكة وصُلَحاء الثقلين، منقولٌ من جَمْع عِلِّيٍّ فِعِّيل من العلو كسجِّين من السِّجْنِ، سمِّي بذلك إمَّا لأنه سببُ الارتفاع إلى أعالي درجات الجنان، أو لأنه مرفوعٌ في السماء السابعة أو عند قائمةِ العرش اليمنى مع الملائكة المقرَّبين عليهم السلام تعظيماً له.

وقيل: هو المواضع العَلِيَّة، واحدُه عِلِّيٌّ، وكان سبيله أن يقال: عِلِّية، كما قالوا للغرفة: عِلِّية، فلمَّا حذفوا التاء عوَّضوا عنها الجمعَ بالواو والنون، وحكي ذلك عن أبي الفتح بن جنِّي(١).

وقيل: هو وصفٌ للملائكة ولذلك جمع بالواو والنون.

وقال الفرَّاء: هو اسمٌ موضوع على صيغة الجمع، ولا واحدَ له من لَفْظِه

---

(١) حكاه عنه أبو حيان في البحر ٨/ ٤٤٢، وعنه نقل المصنف، وكلام ابن جني في كتابه سرّ صناعة الإعراب ٢/ ٦٢٥.

كعشرين وثلاثين، والعربُ إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناءُ واحدٍ ولا تثنيةٌ أطلقوه في المذكَّر والمؤنَّث بالواو والنون[١].

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاب»، أي: يَحْضُرونه، على أنَّ «يشهد» من الشهود بمعنى الحضور، وحضورُه كنايةٌ عن حفظه في الخارج. أو: يشهدون بما فيه يوم القيامة، على أنه من الشهادة. وعلى الوجهين المراد بـ «المقرَّبين» جمعٌ من الملائكة عليهم السلام، كذا قالوا.

وأخرج عبد بن حميد[٢] من طريق خالد بن عَرْعَرة وأبي عجيل أنَّ ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية، فقال: إنَّ المؤمن يَحْضُره الموت، ويَحْضُره رسلُ ربِّه عز وجل، فلا هم يستطيعون أن يؤخِّروه ساعةً ولا يعجِّلوه، حتى تجيءَ ساعتُه، فإذا جاءت ساعتُه قبضوا نَفْسَه فدفعوه إلى ملائكة الرحمة فأَرَوْه ما شاء الله تعالى أن يُرُوه من الخير، ثم عَرَجوا بروحه إلى السماء، فيشيِّعه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها، حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة، فيضعونه بين أيديهم ولا ينتظرون به صلاتكم عليه، فيقولون: اللهم هذا عبدُك فلانٌ قبضنا نَفْسَه ـ ويَدْعون له بما شاء الله تعالى أن يَدْعوا له ـ فنحن نحبُّ أن تُشْهِدَنا اليوم كتابَه. فيُنْشَر كتابُه من تحت العرش فيثبتون اسمَه فيه وهم شهودٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ الآيةَ فقال: إنَّ العبد الكافر يحضره الموتُ ويحضُره رسلُ ربِّه سبحانه، فإذا جاءت ساعتُه قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة العذاب فأَرَوْه ما شاء الله تعالى أنْ يُرُوه من الشرِّ، ثم هبطوا به إلى الأرض السفلى وهي[٣] سجِّين، وهي آخِرُ سلطان إبليس فأثبتوا كتابه فيها، الحديثَ.

وفي بعض الأخبار ما ظاهرُه أنَّ نفس العمل يكون في سجِّينٍ ويكون في علِّيين؛ فقد أخرج ابن المبارك عن ضَمْرةَ[٤] بن حبيبٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧، والبحر ٨/ ٤٤٢.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧.
(٣) في (م): وهو.
(٤) في الأصل: صخرة، وفي (م): صخرت، والصواب ما أثبتناه.

«إنَّ الملائكة يرفعون أعمالَ العبد من عباد الله تعالى يَسْتَكْثِرونه ويزكُّونه، حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه، فيوحي الله تعالى إليهم: إنَّكم حفظةٌ على عمل عبدي وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا لم يُخْلِصْ لي عملَه فاجعلوه في سجِّين. ويصعدون بعمل العبد يستقلُّونه ويستحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه، فيوحي الله تعالى إليهم: إنكم حفظةٌ على عمل عبدي وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا أَخْلَصَ لي عملَه فاجعلوه في علِّيين»(١). وبأدنى تأويلٍ يَرْجِعُ إلى ما تضمَّنته الآية، فلا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ شروعٌ في بيان محاسن أحوالهم إثر بيانِ حالِ كتابهم، والجملة مستأنفةٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنه قيل: هذا حالُ كتابهم، فما حالُهم؟ فأجيبَ بما ذُكر، أي: إنهم لفي نعيم عظيم.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: على الأسرَّة في الحِجَال(٢)، وقد تقدم تمامُ الكلام فيها.

﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إلى ما شاؤوا من رغائب مناظر الجنة، وما تَحْجُبُ الحِجَالُ أبصارَهم.

وقال ابن عباس وعكرمةُ ومجاهد: إلى ما أعدَّ الله تعالى لهم من الكرامات.

وقال مقاتل: إلى أهل النار أعدائهم. ولم يَرْتَضِه بعضٌ ليكون ما في آخر السورة تأسيساً.

وقيل: ينظر بعضهم إلى بعضٍ فلا يُحجَبُ حبيبٌ عن حبيبه.

وقيل: النظر كنايةٌ عن سَلْبِ النوم، فكأنه قيل: لا ينامون، وكأنه لدَفْعِ توهُّم النوم من ذكر الأرائك المعدَّة للنوم غالباً، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا نومَ في الجنة

---

(١) الزهد لابن المبارك (٤٥٢)، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٥٢٢)، كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة به. وابن أبي مريم ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، كما أن الخبر مرسل.

(٢) جمع حَجَلة، وهو مثل القبة يتخذ للعروس، يزيَّن بالثياب والستور، ويرخى على السرير، قال الشهاب: يُسمَّى بديارنا ناموسية. حاشية الشهاب ٣٣٨/٨، ومعجم متن اللغة (حجل).

كما وردت به الأخبار(١)؛ لِمَا فيه من زوال الشعور وغفلةِ الحواس، إلى غير ذلك مما لا يناسبُ ذلك المقامَ. وعليه يكون قوله سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ - أي: بهجةَ النعيم ورونَقَه - لنفي ما يُوْهِمه سلبُ النوم من الضعف وتغيُّرِ بهجة الوجه كما في الدنيا، وهو وجهٌ لا يَعْرِفُ فيه الناظر نضرةَ التحقيق.

والخطابُ في «تَعْرِفُ» لكلِّ مَن له حظٌّ من الخطاب؛ للإيذان بأنَّ ما لهم من آثار النعمة وأحكامِ البهجة بحيث لا يختصُّ براءٍ دون راءٍ. وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحةُ وشيبةُ ويعقوبُ: «تُعْرَفُ» مبنيًّا للمفعول «نضرةُ» رفعاً على النيابة عن الفاعل(٢).

وجوَّز بعضهم أن يكون نائبُ فاعلِ «تُعرف» ضميرَ «الأبرار»، و«في وجوههم نضرة» مبتدأ وخبر، كأنه قيل: تُعرف الأبرارُ بأنَّ في وجوههم نضرة النعيم، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقرأ زيد بن عليٍّ كذلك إلَّا أنه قرأ: «يُعْرَفُ» بالياء(٣)؛ إذ تأنيثُ «نضرة» مجازيٌّ.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ قال الخليل: هو أجودُ الخمر. وقال الأخفش والزجَّاج: الشراب الذي لا غشَّ فيه(٤)؛ قال حسان:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ البريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يصفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ(٥)

وفسِّر هاهنا بالشراب الخالص مما يكدِّرُ حتى الغَوْل(٦).

﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: مختومٌ أوانيه وأكوابُه بالمسك مكانَ الطين كما روي عن مجاهدٍ، وذُكر أنَّ طين الجنة مسكٌ معجونٌ. والظاهرُ أنَّ الختام

---

(١) ينظر حديث جابر ﷺ عند البزار (٣٥١٧ - كشف)، وسلف ٢٥/ ١٣٧.
(٢) النشر ٢/ ٣٩٧ عن أبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٨.
(٣) البحر ٨/ ٤٤٢.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٠، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٨.
(٥) ديوان حسان ص١٨٠، والبحر ٨/ ٤٣٨، وسلف عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأعراف.
(٦) الغَوْل: السُّكر. القاموس (غول).

ما يُخْتَمُ به، وأنَّ الختم على حقيقته، وكذا إسناده، وقولنا: مختومٌ أوانيه.. إلخ، ليس لأنَّ الإسناد مجازيٌّ، بل لأن الختم على الشيء - أعني الاستيثاقَ منه بالختم - طريقُه ذلك.

وخُتم اعتناءً به وإظهاراً لكرامة شاربه، وكان ذلك بما هو على هيئة الطين ليكون على النهج المألوف، ويجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لكمال نفاسته، وإلا فليس ثمةَ غبارٌ أو ذبابٌ أو خيانةٌ ليصانَ عن ذلك بالختم.

وقال ابن عباس وابن جبير والحسن: المعنى: خاتمتُه ونهايتُه رائحةُ مسكٍ إذا شُرب، أي: يجدُ شاربُه ذلك عند انتهاء شربه. وكأن ذلك لأنَّ اشتغال الذائقة بكمال لذته تمنع عن إدراك الرائحة، فإذا انقطع الشربُ أُدْرِكَتْ، وإلا فالرائحةُ لا تختصُّ بالانتهاء.

وقيل: المعنى: ذو نهايةٍ، نهايتُه وما يبقى بعد شربه ويَرْسُبُ[1] في أوانيه مسكٌ، وليس كشراب الدنيا نهايتُه وما يَرْسبُ في إنائه طينٌ أو نحوه. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ الرحيق يُمزج بالكافور ويُختم مزاجُه بالمسك، فالمعنى: ذو ختامٍ، ختامُ مزاجُه مسكٌ. وهو - مع كونه خلافَ الظاهر، وفيما بعدُ ما يُبْعِدُه في الجملة - يحتاج إلى نقلٍ يعوَّلُ عليه.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والنخعيُّ والضحاك وزيد بن عليٍّ وأبو حيوة وابنُ أبي عبلة والكسائيُّ: «خاتَمه» بألفٍ بعد الخاء وفَتْحِ التاء[2]، والمراد ما يُختم به أيضاً، فإنَّ فاعلاً بالفتح يكون أيضاً اسمَ آلةٍ كالقالَب والطابَع، لكنه سماعيٌّ.

وعن الضحاك وعيسى، وأحمد بن جبير الأنطاكيِّ عن الكسائي كَسْرُ التاء[3]، أي: آخِرُه رائحةُ مسكٍ.

---

(١) في (م): ويشرب، هو تصحيف.

(٢) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩ عن الكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٤٤٢.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٢، وهي خلاف المشهور عن الكسائي، وقال صاحب النشر ٢/ ٣٩٩: ولا خلاف عنهم في فتح التاء.

والجمَلُ السابقة، أعني «على الأرائك ينظرون» و«تعرف في وجوههم» إلخ و«يسقون» إلخ، قيل: أحوالٌ مترادفةٌ. وقيل: مستأنفاتٌ كجملةِ «إنَّ الأبرار» إلخ، وقعت أجوبةً للسؤال عن حالهم، والفصلُ للتنبيه على استقلالِ كلٍّ في بيان كرامتهم.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الرحيق، وهو الأنسبُ بما بعدُ، أو إلى ما ذكر من أحوالهم. وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار بعلوِّ مرتبته وبُعْدِ منزلته، وجوِّز أن يكون لكونه في الجنة.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾، وقدِّم للاهتمام أو للحصر، أي: فليتنافس ولْيَرغَبْ فيه لا في خمورِ الدنيا، أو لا في غيره من ملاذِّها ونعيمها ﴿ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الراغبون في المبادرة[1] إلى طاعة الله تعالى.

وقيل: أي: فلْيَعْمَلْ لأَجْلِه ـ أي: لأَجْلِ تحصيله خاصةً والفوزِ به ـ العاملون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أي: فلْيَسْتَبِقْ في تحصيل ذلك المتسابقون.

وأصل التنافُس: التغالُبُ في الشيء النفيس، وأصله من النَّفْسِ لعزَّتها، قال الواحدي: نَفِسْتُ الشيءَ أَنْفَسُه نفاسةً، والتنافُسُ تفاعُلٌ منه، كأنَّ كلَّ واحدٍ من الشخصين يريد أن يستأثر به[2].

وقال البغوي[3]: أصلُه من الشيء النفيس الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناس، ويريده كلُّ أحدٍ لنفسه، ويقال: نَفِسْتُ عليه بالشيء أَنْفَسُ نفاسةً: إذا بخلت به عليه.

---

(١) في الأصل: بالمبادرة.

(٢) ذكره عن الواحدي الرازي في تفسيره ٣١/ ١٠٠، وأبو السعود ٩/١٢٨، وعنه نقل المصنف. وفي تفسير الرازي: نفستُ عليه الشيء أنفسُه نفاسة: إذا ضننت به ولم تحبّ أن يصير إليه، والتنافس تفاعل... إلخ.

(٣) في تفسيره ٤/ ٤٦١.

وفي «مفردات» الراغب: المنافسةُ مجاهدةُ النفس للتشبُّه بالأفاضل واللُّحوقِ بهم من غير إدخالِ ضررٍ على غيره[1]. وهي بهذا المعنى مِن شَرَفِ النفس وعلوِّ الهمة، والفرقُ بينها وبين الحسد أظهرُ من أنْ يَخْفَى.

واستشكل ذلك التعلُّق بأنه يلزم عليه دخولُ العاطف على العاطف؛ إذ التقدير: وفليتنافس في ذلك.

وأجيبَ بأنه بتقدير القول، أي: ويقولون لشدة التلذُّذ من غير اختيارٍ: في ذلك فليتنافس المتنافسون، أي: في الدنيا، على معنى أنه كان اللائقُ بهم أن يتنافسوا في ذلك.

وقيل: الكلام على تقدير حرف الشرط والفاءُ واقعةٌ في جوابه، أي: وإنْ أريدَ تنافسٌ فليتنافس في ذلك المتنافسون، وتقديمُ الظرف ليكون عِوَضاً عن الشرط في شغل حيِّزه، وهو أنفَسُ ممَّا تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ عطفٌ على «ختامُه مسكٌ»، صفةٌ أخرى لـ «رحيق» مثلُه، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ لنفاسته، و«تسنيم» عَلَمٌ لعينٍ بعينها في الجنة كما روي عن ابن مسعود. وعن حذيفة [بن] اليمان أنه قال: عينٌ من عَدْنٍ[2]. سمِّيتْ بالتسنيم الذي هو مصدرُ سَنَمَه: إذا رفعه، إمَّا لأن شرابها أرفعُ شرابٍ في الجنة على ما روي عن ابن عباس، أو لأنها تأتيهم من فوقٍ على ما روي عن الكلبي. ورُوي أنها تجري في الهواء متسنِّمةً فتنصبُّ في أوانيهم. وقيل: سميت بذلك لرِفْعةِ مَن يشرب بها.

ولا يلزمُ من كونه عَلَماً لِمَا ذُكر مَنْعُ صرفه للعَلَمية والتأنيث لأنَّ العين مؤنَّثةٌ؛ إذ هي قد تذكَّر بتأويل الماء أو نحوه.

و«من» بيانيةٌ أو تبعيضيةٌ، أي: ما يمزج به ذلك الرحيقُ هو تسنيمٌ، أي: ماءُ تلك العين، أو بعضُ ذلك، وجوِّز أن تكون ابتدائيةً.

---

(١) مفردات الراغب (نفس).

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٨، وما بين حاصرتين منه.

﴿عَيْنًا﴾ نصبٌ على المدح. وقال الزجَّاج: على الحال من «تسنيم»[١]. قيل: وصحَّ[٢] كونُه حالاً مع جموده لوَصْفِه بقوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أو لتأويله بمشتقٍّ كجارية. وأنت تعلم أنَّ الاشتقاق غيرُ لازمٍ.

والباء إما زائدةٌ، أي: يشربها. أو بمعنى «مِن»، أي: يشرب منها. أو على تضمين «يشرب» معنى يروي، أي: يشرب راوين بها ـ أو: يُرْوَى بها شاربين ـ المقرَّبون. أو صلة الالتذاذ، أي: يشرب ملتذًّا بها. أو الامتزاج، أي: يشرب الرحيقَ ممتزجاً بها. أو الاكتفاء، أي: يشرب مكتفين بها. أوجُهٌ ذكروها.

وفي كونها صلةَ الامتزاج مقالٌ، فقد قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح: يشربُ بها المقرَّبون صرفاً، وتُمزجُ للأبرار.

ومذهبُ الجمهور أنَّ «الأبرار» هم أصحاب اليمين، وأنَّ «المقربين» هم السابقون، وكأنهم إنما كان شرابهم صرفَ التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحيِّ القيوم، فهي الرحيقُ التي لا يقاس بها رحيقٌ، والمدامةُ التي تَوَاصَى على شُربها ذوو الأذواق والتحقيق:

على نفسه فليَبْكِ مَن ضاع عمرُه ... وليس له منها نصيبٌ ولا سهم[٣]

وقال قوم: الأبرار والمقرَّبون في هذه السورة بمعنًى واحدٍ يشمل كلَّ مَن نعِّم في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلخ حكايةٌ لبعض قبائح مشركي قريش: أبي جهلٍ، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأشياعهم، جيء بها تمهيداً لذكر بعض أحوال الأبرار في الجنة.

﴿كَانُوا۟﴾ أي: في الدنيا كما قال قتادة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كانوا يستهزؤون بفقرائهم كعمَّارٍ وصهيبٍ وخبَّابٍ وبلالٍ وغيرِهم من الفقراء.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠١.
(٢) في الأصل: وقيل صح.
(٣) سلف في مقدمة المصنف.

وفي «البحر»: روي أنَّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مرُّوا بجَمْعٍ من كفَّار مكة، فضحكوا منهم واستخفُّوا بهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلخ قبل أن يَصِلَ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه إلى رسول الله ﷺ(١).

وفي «الكشاف» حكايةُ ذلك عن المنافقين، وأنهم قالوا: ربنا اليوم الأصلع(٢). أي: سيدنا، يعنون عليًّا كرم الله تعالى وجهه، وإنما قالوه استهزاءً، ولعل الأول أصحُّ.

وتقديم الجارِّ والمجرور إمَّا للقصر إشعاراً بغايةِ شناعةِ ما فعلوا، أي: كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] أو(٣) لمراعاة الفواصل.

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أي: المؤمنون ﴿بِهِمْ﴾ أي: بالذين أجرموا وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويُشيرون بأعينهم استهزاءً بالمؤمنين.

وإرجاعُ ضمير «مرُّوا» للمؤمنين وضمير «بهم» للمجرمين هو الأظهر الأوفق بحكاية سبب النزول، واستظهر أبو حيان العكسَ معلِّلاً له بتناسُق الضمائر(٤).

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا﴾ أي: المجرمون ورجعوا من مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ ملتذِّين باستخفافهم بالمؤمنين، وكأنَّ المراد بذلك الإشارةُ إلى أنهم يَعدُّون صنيعهم ذلك من أَحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم، أو إلى أنَّ له وقعاً في قلوبهم، ولم يفعلوه مراعاةً لأحد، وإنما فعلوه لحظِّ أنفسهم.

وقيل: فيه إشارةٌ إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمَرْأًى من المارِّين بهم، ويكتفون حينئذٍ بالتغامز.

وقرأ الجمهور: «فاكهين» بالألف(٥)، فقيل: هما بمعنًى. وقيل: «فكهين»:

---

(١) البحر ٨/ ٤٤٣.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٣، وفيه: رأينا، بدل: ربنا.
(٣) قوله: أو، ساقط من (م).
(٤) البحر ٨/ ٤٤٣.
(٥) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٢٥٤-٢٥٥ و٣٩٩. وقرأ «فَكِهين» بغير ألف حفص وأبو جعفر.

أَشِرينَ، وقيل: فَرِحين. و«فاكهين» قيل: متفكِّهين، وقيل: ناعمين، وقيل: مازحين(١).

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأوا المؤمنين أينما كانوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون جنسَ المؤمنين مطلقاً لا خصوصَ المرئيين منهم، والتأكيد لمزيد الاعتناء بسبِّهم.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ جملةٌ حاليةٌ من ضمير «قالوا»، أي: قالوا ذلك والحالُ أنهم ما أُرسلوا من جهة الله تعالى على المؤمنين موكَّلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم. وهذا تهكُّمٌ واستهزاءٌ بهم، وإشعارٌ بأنَّ ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف مَن أُرسل من جهته تعالى.

وجوِّز أن يكون من جملة قول المجرمين، والأصل: وما أرسلوا علينا حافظين، إلا أنه قيل: «عليهم» نقلاً بالمعنى، على نحو: قال زيد ليفعلنَّ كذا، وغرضُهم بذلك إنكارُ صدِّ المؤمنين إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإيمان.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المعهودون من الفقراء ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: من المعهودين، وجوِّز التعميمُ من الجانبين ﴿يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ حين يرونهم أذلَّاء مغلولين قد غَشِيتْهم فنونُ الهوان والصَّغَارِ بعد العزِّ والكبر، ورَهَقَهم ألوانُ العذاب بعد التنعُّم والترفُّه.

والظرف والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ «يضحكون»، وتقديم الجارِّ والمجرور قيل: للقَصْرِ تحقيقاً للمقابلة، أي: واليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفارُ منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حالٌ من فاعل «يضحكون»، أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال.

---

(١) في الأصل: مارحين، وفي (م): مادحين، والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/١٢٩ وهو الصواب؛ قال القشيري كما في تفسير القرطبي ١٩/١١٨: فاكهين: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي: مزَّاح، وفيه فكاهة، أي: مزح.

وقيل: يُفتح للكفار بابٌ إلى الجنة فيقال لهم: هلمَّ هلمَّ. فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم، يُفْعل ذلك مراراً حتى إنَّ أحدهم يقال له: هلم هلم. فما يأتي من إياسه، ويضحك المؤمنون منهم[(١)].

وتعقِّب بأنَّ قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يأباه؛ فإنه صريحٌ في أنَّ ضحك المؤمنين منهم جزاءٌ لضحكهم منهم في الدنيا، فلا بدَّ من المجانسة والمشاكلة حتماً. والحقُّ أنه لا إباءَ كما لا يخفى.

والتثويبُ والإثابة: المجازاة، ويقال: ثوَّبه وأثابه: إذا جازاه، ومنه قول الشاعر:

سأَجْزيكِ أو يَجْزيكِ عنِّي مثوِّبٌ وحَسْبُكِ أن يُثْنَى عليكِ وتُحْمَدي[(٢)]

وظاهر كلامهم إطلاقُ ذلك على المجازاة بالخير والشر، واشتهر بالمجازاة بالخير، وجوِّز حملُه عليه هنا على أنَّ المراد التهكُّم، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] و﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل أثبنا هؤلاء على ما كانوا يفعلون كما أثبناكم على ما كنتم تعملون، فيكون هذا القول زائداً في سرورهم لِمَا فيه من تعظيمهم والاستخفافِ بأعدائهم. والجملة الاستفهامية حينئذٍ معمولةٌ لقولٍ محذوفٍ وقع حالاً من ضمير «يضحكون» أو من ضمير «ينظرون»، أي: يضحكون أو ينظرون مقولاً لهم: هل ثوِّب.. إلخ، ولم يتعرَّض لذلك الجمهور.

وفي «البحر»: الاستفهام لتقرير المؤمنين، والمعنى: قد جُوزيَ الكفار ما كانوا.. إلخ. وقيل: «هل ثوِّب» متعلِّقٌ بـ «ينظرون» والجملةُ في موضع نصبٍ به بعد إسقاط حرف الجرِّ الذي هو «إلى»[(٣)]. انتهى.

---

(١) أخرج نحوه ابن المنذر كما في الدر المنثور ١/ ٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح.
(٢) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٢٧، والكشاف ٤/ ٢٣٣، والبحر ٨/ ٤٤٣.
(٣) البحر ٨/ ٤٤٣.

و«ما» مصدريةٌ، أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: يفعلونه، والكلامُ بتقديرِ مضافٍ، أي: ثوابَ أو جزاءَ ما كانوا.. إلخ. وقيل: هو بتقدير باء السببية، أي: هل ثوِّب الكفار بما كانوا.

وقرأ النحويان وحمزة وابن محيصن بإدغام اللام في الثاء[1]، والله تعالى أعلم.

(١) البحر ٨/ ٤٤٣، وهي في التيسير ص٢٢١ عن الكسائي وحمزة وهشام.

(٨٤) سورة الانشقاق مكية وآياتها خمس وعشرون

● **سورة الإنشقاق** مكية ، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة ، كشأن سائر السور المكية في معالجة أمور العقيدة والإيمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة ، وصور الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿ إذا السماء انشقت . وأذِنَتْ لربها وحُقّت . وإذا الأرض مُدَّتْ . وألْقَتْ ما فيها وتخلَّتْ . وأذِنَتْ لربها وحُقَّتْ﴾ .

● **ثم تحدثت** عن خلق الإنسان ليعمر هذه الدنيا ، ويكدَّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه ، وليقدِّم لآخرته ما يشتهي من صالحٍ أو طالح ، ومن خيرٍ أو شر ، ثم هناك الجزاء العادل ﴿ يا أيها الإنسانُ إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ..﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** السورة موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ، ويركبون الأخطار والأهوال ، في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿ فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتَّسَق . لتركَبُنَّ طبقاً عن طبق﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله ،

مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ؟ بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلمُ بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ .

سورة الانشقاق

وهي عشرون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

أما انشقاق السماء فقد مر شرحه في مواضع من القرآن، وعن علي عليه السلام أنها تنشَقُّ من المجرة، أما قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ومعنى أذن له استمع، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1] وأنشد أبو عبيدة والمبرد والزجاج قول قعنب:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

والمعنى أنه لم يوجد في جِرم السماء ما يمنع من تأثير قدرة الله تعالى في شقها وتفريق أجزائها، فكانت في قبول ذلك التأثير كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك أنصت له وأذعن ولم يمتنع، فقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١] يدل على نفاذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً، وقوله ههنا: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ يدل على نفوذ القدرة في التفريق والإعدام والإفناء من غير ممانعة أصلاً، وأما قوله: ﴿وَحُقَّتْ﴾ فهو من قولك: هو محقوق بكذا، وحقيق به، يعني وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع؛ وذلك لأنه جسم، وكل جسم فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فإن الوجود والعدم بالنسبة إليه على السوية، وكل ما كان كذلك كان ترجيح وجوده على عدمه أو ترجيح عدمه على وجوده - لا بد وأن يكون بتأثير واجب الوجود وترجيحه فيكون تأثير قدرته في إيجاده، وإعدامه نافذًا ساريًا من غير ممانعة أصلاً، وأما الممكن فليس له إلا القبول والاستعداد، ومثل هذا الشيء حقيق به أن يكون قابلاً للوجود تارة وللعدم أخرى من واجب الوجود. أما قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ففيه وجهان الأول: أنه مأخوذ من مد الشيء فامتد، وهو أن تُزال حبالها بالنسف، كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[طه: ١٠٥] يسوي ظهرها، كما قال: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧] وعن ابن عباس مدت مد الأديم الكاظمي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل القرآن) باب (من لم يتقن القرآن) (٤/ ١٩١٨) حديث رقم (٤٧٣٥) ومسلم في (صحيحه) (١/ ٥٤٥/ ٧٩٢) كلاهما من طريق ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة... به.

واستوى. **والثاني:** أنه مأخوذ من مده بمعنى أمده، أي يزاد في سعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب، واعلم أنه لا بد من الزيادة في وجه الأرض، سواء كان ذلك بتمديدها أو بإمدادها؛ لأن خلق الأولين والآخرين لما كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها، فلا بد من الزيادة في طولها وعرضها. أما قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ فالمعنى أنها لما مُدت رمت بما في جوفها من الموتى والكنوز، وهو كقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة: ٢] ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[الانفطار: ٤] ﴿بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾[العاديات: ٩] وكقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[المرسلات: ٢٥، ٢٦] وأما قوله: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ فالمعنى: وخلت غاية الخلو حتى لم يبق في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرَّم الكريم، وترحَّم الرحيم. إذا بلغا جهدهما في الكرم الرحمة وتكلفا فوق ما في طبعهما، واعلم أن التحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من بطن الأرض إلى ظهرها، لكن الأرض وُصفت بذلك على سبيل التوسع. وأما قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ فقد تقدم تفسيره إلا أن الأول في السماء وهذا في الأرض، وإذا اختلف وجه الكلام لم يكن تكرارًا.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[الانشقاق: ١] إلى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ شرط، ولا بد له من جزاء، واختلفوا فيه على وجوه: **أحدها:** قال صاحب الكشاف: حذف جواب (إذا) ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أدخل في التهويل. **وثانيها:** قال الفراء: إنما ترك الجواب لأن هذا المعنى معروف قد تردد في القرآن معناه فعُرف، ونظيره قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١] ترك ذكر القرآن لأن التصريح به قد تقدم في سائر المواضع. **وثالثها:** قال بعض المحققين: الجواب هو قوله: ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾[الانشقاق: ٦] معترض، وهو كقول القائل: إذا كان كذا وكذا يا أيها الإنسان ترى عند ذلك ما عملتَ من خير أو شر. فكذا ههنا. والتقدير: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله. **ورابعها:** أن المعنى محمول على التقديم والتأخير، فكأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت وقامت القيامة. **وخامسها:** قال الكسائي: إن الجواب في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ﴾[الإنشقاق: ٧] واعترض في الكلام قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ والمعنى إذا السماء انشقت وكان كذا وكذا، فمن أوتي كتابه بيمينه فهو كذا، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فهو كذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾[البقرة: ٣٨]، **وسادسها:** قال القاضي: إن الجواب ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ كأنه تعالى قال: يا أيها الإنسان ترى ما عملِتَ فاكدح لذلك اليوم أيها الإنسان لتفوز بالنعيم. أما قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ففيه قولان: **الأول:** أن المراد جنس الناس، كما يقال: أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل. فكذا ههنا، وكأنه

خطاب خص به كل واحد من الناس، قال القفال: وهو أبلغ من العموم لأنه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين، بخلاف اللفظ العام فإنه لا يكون كذلك. **والثاني:** أن المراد منه رجل بعينه، وههنا فيه قولان: **الأول:** أن المراد به محمد ﷺ والمعنى أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله وإرشاد عباده وتحمَّل الضرر من الكفار، فأبشِر فإنك تلقى الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده. **الثاني:** قال ابن عباس: هو أُبيّ بن خلف، وكدحه جِده واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرسول عليه السلام، والإصرار على الكفر. والأقرب أنه محمول على الجنس لأنه أكثر فائدة، ولأن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠] كالنوعين له، وذلك لا يتم إلا إذا كان جنسًا. **اما قوله:** ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ فاعلم أن الكدح جهد الناس في العمل والكدح فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده، إذا خدشه، أما قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** إنك كادح إلى لقاء ربك وهو الموت، أي هذا الكدح يستمر ويبقى إلى هذا الزمان، وأقول: في هذا التفسير نكتة لطيفة، وذلك لأنها تقتضي أن الإنسان لا ينفك في هذه الحياة الدنيوية من أولها إلى آخرها عن الكدح والمشقة والتعب، ولما كانت كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة، وذلك معقول، فإن نسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى رحم الأم، فكما صح أن يقال: يا أيها الجنين إنك كادح إلى أن تنفصل من الرحم، فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة إلى ما قبله خالصًا عن الكدح والظلمة، فنرجو من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك. **وثانيهما:** قال القفال: التقدير: إنك كادح في دنياك كدحًا تصير به إلى ربك. فبهذا التأويل حسن استعمال حرف (إلى) ههنا. **وثالثها:** يحتمل أن يكون دخول (إلى) على معنى أن الكدح هو السعي، فكأنه قال: ساع بعملك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أما قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ففيه قولان: **الأول:** قال الزجاج: فملاقٍ ربك، أي ملاق حكمه لا مفر لك منه. وقال آخرون: الضمير عائد إلى الكدح، إلا أن الكدح عمل وهو عَرَضٌ لا يبقى فملاقاته ممتنعة، فوجب أن يكون المراد ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال، ويتأكد هذا التأويل بقوله بعد هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ ﴾

فالمعنى: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ و(سوف) من الله واجب وهو كقول القائل: (اتبعني فسوف نجد خيرًا) فإنه لا يريد به الشك، وإنما يريد ترقيق الكلام. والحساب اليسير هو أن تُعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه والمعصية هذه، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة على

صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لِمَ فعلت هذا؟ ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه. فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذرًا ولا حجة فيفتضح، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسرورًا فائزًا بالثواب آمنًا من العذاب، والمراد من (أهله) أهل الجنة من الحور العين أو من زوجاته وذرياته إذا كانوا مؤمنين، فدلت هذه الآية على أنه سبحانه أعد له ولأهله في الجنة ما يليق به من الثواب، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا»، قلت: وما الحساب اليسير؟ قال: «يَنْظُرُ فِي كِتَابِهِ وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، فَأَمَّا مَنْ نُوقِشَ فِي الْحِسَابِ فَقَدْ هَلَكَ» وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ فَقَدْ هَلَكَ» فقلت: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنَّ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»[1] وفي قوله: (يحاسب) إشكال لأن المحاسبة تكون بين اثنين، وليس في القيامة لأحد قِبل ربه مطالبة فيحاسبه، وجوابه: أن العبد يقول: إلهي فعلتُ المعصية الفلانية. فكأن ذلك بين الرب والعبد محاسبة والدليل على أنه تعالى خص الكفار بأنه لا يكلمهم، فدل ذلك على أنه يكلم المطيعين والعبد يكلمه فكانت المكالمة محاسبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾

أما قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ فللمفسرين فيه وجوه: **أحدها:** قال الكلبي: السبب فيه لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره. **وثانيها:** قال مجاهد: تُخلع يده اليسرى فتُجعل من وراء ظهره. **وثالثها:** قال قوم: يتحول وجهه في قفاه، فيقرأ كتابه كذلك. **ورابعها:** أنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يُمنع من ذلك وأوتي من وراء ظهره بشماله. فإن قيل: أليس أنه قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[الحاقة: ٢٥] ولم يذكر الظهر؟ **والجواب:** من وجهين: **أحدهما:** يحتمل أن يؤتى بشماله وراء ظهره على ما حكيناه عن الكلبي. **وثانيها:** أن يكون بعضهم يعطى بشماله، وبعضهم من وراء ظهره.

أما قوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾ فاعلم أن الثبور هو الهلاك، والمعنى أنه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم أنه من أهل النار فيقول: واثبوراه!! قال الفراء: العرب تقول: فلان يدعو لهفه، إذا قال: والهفاه. وفيه وجه آخر ذكره القفال، فقال: الثبور مشتق من المثابرة على شيء، وهي المواظبة عليه فسمي هلاك الآخرة ثبور لأنه لازم لا يزول، كما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وأصل الغرام اللزوم والولوع.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (العلم) باب (من سمع شيئا فراجع) (١/ ٥١) حديث رقم (١٠٣) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٦) كلاهما من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة... به.

قوله تعالى: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ ﴾

أما قوله تعالى: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: صلى الكافر النار، قال الله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وقال: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١١٥] وقال: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥، ١٦] والمعنى أنه إذا أُعطي كتابه بشماله من وراء ظهره فإنه يدعو الثبور ثم يدخل النار، وهو في النار أيضًا يدعو ثبورًا، كما قال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وأحدهما لا ينفي الآخر، وإنما هو على اجتماعهما قبل دخول النار وبعد دخولها، نعوذ بالله منها ومما قرب إليها من قول أو عمل.

المسألة الثانية: قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو (وَيُصْلَى) بضم الياء والتخفيف، كقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١١٥] وهذه القراءة مطابقة للقراءة المشهورة لأنه يصلى فيصلى، أي يدخل النار. وقرأ ابن عامر ونافع والكسائي بضم الياء مثقلة، كقوله: (وَتَصْلِيَةُ جحيم) وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١].

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ فقد ذكر القفال فيه وجهين: أحدهما: أنه كان في أهله مسرورًا، أي منعمًا مستريحًا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد، مُقْدمًا على المعاصي آمنًا من الحساب والثواب والعقاب، لا يخاف الله ولا يرجوه فأبدله الله بذلك السرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه متقيًا من المعاصي غير آمن من العذاب ولم يكن في دنياه مسرورًا في أهله، فجعله الله في الآخرة مسرورًا فأبدله الله تعالى بالغم الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد. **الثاني:** أن قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] أي متنعمين في الدنيا معجبين بما هو عليه من الكفر، فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى أنه كان في أهله مسرورًا بما هم عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث يضحك ممن آمن به وصدق بالحساب، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» (١).

أما قوله: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ فاعلم أن الحور هو الرجوع، والمحار المرجع والمصير، وعن ابن عباس. ما كنت أدري ما معنى يحور، حتى سمعت أعرابية تقول لابنتها: (حوري) أي ارجعي، ونقل القفال عن بعضهم أن الحور هو الرجوع إلى خلاف ما كان عليه المرء، كما قالوا: (نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ) فعلى الوجه الأول معنى الآية أنه ظن أن لن يرجع إلى الآخرة، أي لن يُبعث، وقال مقاتل وابن عباس: حسب أن لا يرجع إلى الله تعالى، وعلى الوجه الثاني أنه ظن أن لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدنيا من السرور والتنعم.

(١) تقدم.

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ أي ليبعثن، وعلى الوجه الثاني يكون المعنى أن الله تعالى يبدل سروره بغم لا ينقطع، وتنعمه ببلاء لا ينتهي ولا يزول.

أما قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ فقال الكلبي: كان بصيرًا به من يوم خلقه إلى أن بعثه. وقال عطاء: بصيرًا بما سبق عليه في أم الكتاب من الشقاء. وقال مقاتل: بصيرًا متى بعثه. وقال الزجاج: كان عالمًا بأن مرجعه إليه. ولا فائدة في هذه الأقوال، إنما الفائدة في وجهين ذكرهما القفال: **الأول:** أن ربه كان عالمًا بأنه سيجزيه. **والثاني:** أن ربه كان عالمًا بما يعمله من الكفر والمعاصي، فلم يكن يجوز في حكمته أن يهمله فلا يعاقبه على سوء أعماله، وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي.

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن هذا قسم، وأما حرف (لا) فقد تكلمنا فيه في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] ومن جملة الوجوه المذكورة هناك أن (لا) نفي ورد لكلام قبل القسم، وتوجيه هذا الوجه ههنا ظاهر؛ لأنه تعالى حكى ههنا عن المشرك أنه ظن أن لن يحور فقوله: (لا) رد لذلك القول وإبطال لذلك الظن ثم قال بعده: أُقسم بالشفق.

المسألة الثانية: قد عرفت اختلاف العلماء في أن القسم واقع بهذه الأشياء أو يخالفها، وعرفت أن المتكلمين زعموا أن القسم واقع برب الشفق وإن كان محذوفًا؛ لأن ذلك معلوم من حيث ورد الحظر بأن يقسم الإنسان بغير الله تعالى.

المسألة الثالثة: تركيب لفظ الشفق في أصل اللغة لرقة الشيء، ومنه يقال: (ثوب شفق) كأنه لا تماسك لرقته، ويقال للرديء من الأشياء: (شفق)، و(أشفق عليه) إذا رق قلبه عليه، والشفقة: رقة القلب ثم اتفق العلماء على أنه اسم للأثر الباقي من الشمس في الأفق بعد غروبها إلا ما يحكى عن مجاهد أنه قال: الشفق هو النهار. ولعله إنما ذهب إلى هذا لأنه تعالى عطف عليه الليل فيجب أن يكون المذكور أولاً هو النهار، فالقسم على هذا الوجه واقع بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش والثاني سكن، وبهما قوام أمور العالم. ثم اختلفوا بعد ذلك فذهب عامة العلماء إلى أنه هو الحمرة، وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، ومن أهل اللغة قول الليث والفراء والزجاج. قال صاحب (الكشاف): وهو قول عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه أنه البياض، وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه، واحتجوا عليه بوجوه: **أحدها:** قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: (عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق) وكان أحمر. قال: فدل ذلك على أن الشفق هو الحمرة. **وثانيها:** أنه جعل الشفق وقتًا للعشاء الأخيرة، فوجب أن يكون المعتبر هو الحمرة لا

البياض؛ لأن البياض يمتد وقته ويطول لبثه، والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس ثم بعدت الشمس عن الأفق ذهبت الحمرة. **وثالثها:** أن اشتقاق الشفق لما كان من الرقة، ولا شك أن الضوء يأخذ في الرقة والضعف من عند غيبة الشمس فتكون الحمرة شفقًا. أما قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فقال أهل اللغة: وسق، أي جمع، ومنه الوسق وهو الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن، ثم صار اسمًا للحمل، واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، والراعي يسقها أي يجمعها. قال صاحب (الكشاف): يقال: وسقه فاتسق واستوسق، ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع. وأما المعنى فقال القفال: مجموع أقاويل المفسرين يدل على أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ على جميع ما يجمعه الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما يتحرك فيه من الهوام. ثم هذا يحتمل أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها لاشتمال الليل عليها، فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾[الحاقة: ٣٨] وقال سعيد بن جبير: ما عُمل فيه. قال القفال: يحتمل أن يكون ذلك هو تهجد العباد فقد مدح الله تعالى بها المستغفرين بالأسحار، فيجوز أن يحلف بهم. وإنما قلنا: إن الليل جمع هذه الأشياء كلها لأن ظلمته كأنها تجلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات، فلا جرم صح أن يقال: وسق جميع هذه الأشياء. أما قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فاعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، أي جمعته فاجتمع، ويقال: أمور فلان متسقة، أي مجتمعة على الصلاح، كما يقال: منتظمة، وأما أهل المعاني فقال ابن عباس: إذا اتسق، أي استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر. ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر ما به أقسم أتبعه بذكر ما عليه أقسم فقال: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرئ: (لَتَرْكَبَنَّ) على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان، ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بالضم على خطاب الجنس لأن النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[الانشقاق: ٦] للجنس (وَلَتَرْكَبِنَّ) بالكسر على خطاب النفس، و(لَيَرْكبَن) بالياء على المغايبة، أي ليركبن الإنسان.

المسألة الثانية: الطبق ما طابق غيره، يقال: ما هذا يطبق كذا، أي لا يطابقه، ومنه قيل: للغطاء الطبق، وطباق الثرى ما يطابق منه، قيل للحال المطابقة لغيرها طبق، ومنه قوله تعالى: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أي حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة، من قولهم هو على طبقات، والمعنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة. ولنذكر الآن وجوه المفسرين فنقول: أما القراءة برفع الياء وهو خطاب الجمع فتحتمل وجوهًا: **أحدها:** أن يكون المعنى لتركبن أيها الإنسان أمورًا وأحوالاً أمرًا بعد أمر وحالاً بعد حال ومنزلاً بعد منزل إلى أن يستقر الأمر على ما يقضى به على الإنسان من جنة أو نار، فحينئذٍ يحصل الدوام والخلود إما في دار الثواب أو في دار العقاب، ويدخل في هذه الجملة أحوال الإنسان، من يكون نطفة إلى أن

يصير شخصًا ثم يموت فيكون في البرزخ، ثم يُحشر ثم يُنقل إما إلى جنة وإما إلى نار. **وثانيها:** أن معنى الآية أن الناس يَلقون يوم القيامة أحوالاً وشدائد حالاً بعد حال وشدة، بعد شدة كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله أن البعث كائن وأن الناس يلقون فيها الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ من حسابهم، فيصير كل أحد إلى ما أُعد له من جنة أو نار، وهو نحو قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧]وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، **وثالثها:** أن يكون المعنى أن الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه في الدنيا، فمن وضيع في الدنيا يصير رفيعًا في الآخرة، ومن رفيع يتضع، ومن متنعم يشقى، ومن شقي يتنعم، وهو كقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية؛ لأنه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه وراء ظهره، أنه كان في أهله مسرورًا، وكان يظن أن لن يحور أخبر الله أنه يحور، ثم أقسم على الناس أنهم يركبون في الآخرة طبقًا عن طبق، أي حالاً بعد حالهم في الدنيا. **ورابعها:** أن يكون المعنى: لتركبن سنة الأولين ممن كان قبلكم في التكذيب بالنبوة والقيامة.

وأما القراءة بنصب الياء ففيها قولان: **الأول:** قول من قال: إنه خطاب مع محمد ﷺ وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين: **أحدهما:** أن يكون ذلك بشارة للنبي ﷺ بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث، كأنه يقول: أقسم يا محمد لنركبن حالاً بعد حال حتى يُختم لك بجميل العافية فلا يُحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم. وفي هذا الوجه احتمال آخر يقرب مما ذكرنا، وهو أن يكون المعنى أنه يركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة. واحتمال ثالث: وهو أن يكون المعنى أن الله تعالى يبدله بالمشركين أنصارًا من المسلمين، ويكون مجاز ذلك من قولهم طبقات الناس، وقد يصلح هذا التأويل على قراءة من قرأ بضم الباء، كأنه خطاب للمسلمين بتعريف تنقل الأحوال بهم وتصييرهم إلى الظفر بعدوهم بعد الشدة التي يلقونها منهم، كما قال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]الآية. **وثانيهما:** أن يكون ذلك بشارة لمحمد ﷺ بصعوده إلى السماء لمشاهدة ملكوتها، وإجلال الملائكة إياه فيها، والمعنى لتركبَن يا محمد السموات طبقًا عن طبق، وقد قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]وقد فعل الله ذلك ليلة الإسراء، وهذا الوجه مروي عن ابن عباس وابن مسعود. **وثالثها:** لتركبن يا محمد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى. **القول الثاني في هذه القراءة:** أن هذه الآية في السماء وتغيرها من حال إلى حال، والمعنى لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة، وذلك لأنها أولاً تنشق كما قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١]ثم تنفطر كما قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]ثم تصير ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]وتارة: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، فكأنه تعالى لما ذكر في أول السورة أنها تنشق أقسم في آخر السورة أنها تنتقل من أحوال إلى أحوال، وهذا الوجه مروي عن ابن مسعود.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَن طَبَقٍ﴾ أي بعد طبق، كقول الشاعر:

مَا زِلْتُ أَقْطَعُ مَنْهَلًا عَنْ مَنْهَلٍ حَتَّى أَنَخْتُ بِبَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ

ووجه هذا أن الإنسان إذا صار من شيء إلى شيء آخر فقد صار إلى الثاني بعد الأول، فصلحت بعد وعن معاقبة، وأيضًا فلفظة (عن) تفيد البعد والمجاوزة فكانت مشابهة للفظة بعد.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الأقرب أن المراد ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصحة البعث والقيامة، لأنه تعالى حكى عن الكافر ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[الانشقاق: ١٤] ثم أفتى سبحانه بأنه يحور، فلما قال بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دل على أن المراد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالبعث والقيامة، ثم اعلم أن قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، وهذا إنما يحسن عند ظهور الحجة وزوال الشبهات، الأمر ههنا كذلك، وذلك لأنه سبحانه أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار، ولِما بعدها وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فإنه يدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصًا، فإنه تعالى أقسم بهذه الأحوال المتغيرة على تغير أحوال الخلق، وهذا يدل قطعًا على صحة القول بالبعث؛ لأن القادر على تغيير الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال وصفة إلى صفة بحسب المصالح - لا بد وأن يكون في نفسه قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات، ومَن كان كذلك كان لا محالة قادرًا على البعث والقيامة، فلما كان ما قبل هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة على صحة البعث والقيامة، لا جرم قال على سبيل الاستبعاد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

المسألة الثانية: قال القاضي: لا يجوز أن يقول الحكيم فيمن كان عاجزًا عن الإيمان: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلما قال ذلك دل على كونهم قادرين، وهذا يقتضي أن تكون الاستطاعة قبل الفعل، وأن يكونوا موجدين لأفعالهم، وأن لا يكون تعالى خالقًا للكفر فيهم. فهذه الآية من المحكمات التي لا احتمال فيها البتة، وجوابه قد مر غير مرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فعند سماعهم القرآن لا بد وأن يعلموا كونه معجزًا، وإذا علموا صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب طاعته في الأوامر والنواهي، فلا جرم استبعد الله منهم عند سماع القرآن ترك السجود والطاعة.

المسألة الثانية: قال ابن عباس والحسن وعطاء والكلبي ومقاتل: المراد من السجود الصلاة. وقال أبو مسلم: الخضوع والاستكانة. وقال آخرون: بل المراد نفس السجود عند آيات مخصوصة، وهذه الآية منها.

المسألة الثالثة: روي أنه عليه السلام قرأ ذات يوم: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق: ١٩] فسجد هو ومن

معه من المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت هذه الآية[(١)] واحتج أبو حنيفة على وجوب السجدة بهذا من وجهين: **الأول:** أن فعله ﷺ يقتضي الوجوب لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ **والثاني:** أن الله تعالى ذم من يسمعه فلا يسجد، وحصول الذم عند الترك يدل على الوجوب.

المسألة الرابعة: مذهب ابن عباس أنه ليس في المفصل سجدة[(٢)]، وعن أبي هريرة أنه سجد ههنا، وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[(٣)]. وعن أنس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان، فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

أما قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فالمعنى أن الدلائل الموجبة للإيمان وإن كانت جلية ظاهرة، لكن الكفار يكذبون بها إما لتقليد الأسلاف، وإما للحسد، وإما للخوف من أنهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ فأصل الكلمة من الوعاء، فيقال: أوعيت الشيء، أي جعلته في وعاء، كما قال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾[المعارج: ١٨] والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الشرك والتكذيب، فهو مجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استحقوه على تكذيبهم وكفرهم.

أما قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ ففيه قولان: قال: صاحب (الكشاف): الاستثناء منقطع. وقال الأكثرون: معناه إلا من تاب منهم فإنهم وإن كانوا في الحال كفارًا إلا أنهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر وهو الثواب العظيم.

وفي معنى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ وجوه: **أحدها:** أن ذلك الثواب يصل إليهم بلا من ولا أذى. **وثانيها:** من غير انقطاع. **وثالثها:** من غير تنغيص. **ورابعها:** من غير نقصان. والأولى أن يُحمل اللفظ على الكل، لأن من شرط الثواب حصول الكل، فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب دائم لا انقطاع فيه ولا نقص ولا بخس، وهذا نهاية الوعد فصار ذلك ترغيبًا في العبادات، كما أن الذي تقدم هو زجر عن المعاصي والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من لم ير السجود في المفصل) (٢/ ٦١٠) حديث رقم (١٤٠٣) وفي إسناده أبو قدامة وهو الحارث بن عبيد الإيادي قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ. وفي التهذيب: قال أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بذاك القوي، لم يسجد في شيء من المفصل، احتج به مالك ومن وافقه على أنه لا سجود في المفصل.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (الجهر في العشاء) (٢/ ٢٩٢) حديث رقم (٧٦٦) ومسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) (١/ ١١٠/ ٤٠٧) من طريق المعتمر . . . به.

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: انْصَدَعَتْ(٣) وَتَفَطَّرَتْ بالغمام، والغَمامُ مثلُ السَّحاب الأبيض. وكذا رَوَى أبو صالح عن ابن عباس. وروي عن عليٍّ عليه السلامُ قال: تُشَقُّ من المَجَرَّة(٤). وقال: المَجرَّةُ بابُ السماء(٥). وهذا من أشراطِ الساعةِ

(٣) في (د) و(ظ): تصدعت.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٩.

(٥) أخرجه الطبراني (١٠٥٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٩٦) عن ابن عباس بلفظ: المجرة باب السماء الذي تنشق منه.

وعلاماتها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي: سمِعتْ، وحُقَّ لها أن تسمع. رُوي معناه عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما[١]؛ ومنه قولُه ﷺ: «ما أَذِن الله لشيءٍ كَأَذَنِه لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن»[٢] أي: ما استمع الله لشيءٍ؛ قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمِعوا خيراً ذُكِرْتُ بِه وإنْ ذُكرتُ بسوءٍ عندهم أَذِنوا[٣]

أي: سمعوا: وقال قَعْنَب بنُ أمِّ صاحب:

إنْ يأذَنُوا رِيبةً طاروا بها فرحاً وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دَفَنُوا[٤]

وقيل: المعنى: وحقَّق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك: حُقَّتْ: أَطاعَتْ[٥]، وحُقَّ لها أن تُطيعَ ربَّها؛ لأنه خَلَقها؛ يقال: فلانٌ مَحقوقٌ بكذا. وطاعةُ السَّماء: بمعنى أنها لا تمتنعُ مما أراد الله بها، ولا يَبْعدُ خَلْقُ الحياةِ فيها حتى تُطيعَ وتُجيبَ. وقال قتادة: حُقَّ لها أن تفعل ذلك؛ ومنه قولُ كثير:

فإن تَكُنِ العُتْبَى فأهلاً ومَرْحباً وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقَلَّتِ[٦]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطَت ودُكَّتْ جِبالُها. قال النبيُّ ﷺ: «تُمدُّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٧٠)، والبخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٢٨.

(٣) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما في عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وبهجة المجالس ١/ ٧٢٤، ومختارات ابن الشجري ص ٧، واللسان (أذن) و(شور)، وهو دون نسبة في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٣.

(٤) عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وللمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، وبهجة المجالس ١/ ٧٢٥، ومختارات ابن الشجري ص ٧، واللسان (أذن) و(شور)، وهو في هذه المصادر برواية:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٣٢ بلفظ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: سمعت وأطاعت.

(٦) ديوان كثير ص٧٩، والنكت والعيون ٦/ ٢٣٤، والكلام منه.

مَدَّ الأديم»[١] لأنَّ الأديم إذا مدَّ زال كُلُّ انثناءٍ فيه وامتدَّ واسْتَوَى. قال[٢] ابنُ عباسٍ وابنُ مسعود: ويُزادُ في سَعَتِها كذا وكذا؛ لوقوفِ الخلائقِ عليها للحساب، حتى لا يكون لأحدٍ من البشر إلَّا موضعُ قدمه، لكَثْرةِ الخلائقِ فيها. وقد مضى في سورة «إبراهيم» أنَّ الأرض تبدَّلُ بأرضٍ أخرى[٣]، وهي السَّاهرةُ في قولِ ابنِ عباسٍ على ما تقدَّم عنه[٤].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أَخْرجَتْ أمواتَها، وتخلَّتْ منهم[٥]. وقال ابن جُبَير: أَلْقَتْ ما في بطنها من الموتى، وتخلَّتْ ممَّن على ظَهْرِها من الأحياء[٦].

وقيل: أَلْقَتْ ما في بطنها من كنوزها ومَعادِنها، وتخلَّت منها، أي: خلا جوفُها، فليس في بطنها شيءٌ، وذلك يُؤْذِنُ بعِظَمِ الأمر، كما تُلْقي الحاملُ ما في بَطْنها عند الشدَّة.

وقيل: تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها.

وقيل: أَلْقَتْ ما استُودِعتْ، وتَخلَّتْ ممَّا استُحْفِظَتْ؛ لأنَّ الله تعالى استَوْدَعَها عِبَادَه أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلادَه مزارعةً وأقواتاً[٧].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: في إلقاءِ مَوْتاها ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ لها أنْ تَسْمعَ أمرَه.

واختُلف في جوابِ «إذا»؛ فقال الفرَّاء[٨]: «أذِنت»، والواوُ زائدةٌ، وكذلك

---

(١) سلف ١٢/١٦٨ .

(٢) في (ي): وقاله، وفي (د) و(ظ): وقال، وينظر ما سلف ١٢/١٦٨ .

(٣) ١٢/١٦٩ .

(٤) ص٥١ من هذا الجزء.

(٥) في (م): عنهم.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ ، وفيه: مزارع وأقواتاً.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦ .

«وأَلْقَتْ». ابن الأنباريّ: قال بعضُ المفسِّرين: جوابُ «إذا السماء انشقَّتْ»: «أَذِنَتْ»، وزَعَم أنَّ الواوَ مُقْحمَةٌ، وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ العرب لا تُقْحِمُ الواوَ إلَّا مع «حتى إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] ومع «لمَّا» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ . وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤] معناه: «ناديناهُ»، والواوُ لا تُقْحمَ مع غيرِ هذين. وقيل: الجوابُ فاءٌ مُضْمَرةٌ، كأنه قال: «إذا السماء انشقَّت» فيا أيها الإنسانُ إنَّك كادح[(١)].

وقيل: جوابُها ما دلَّ عليه «فمُلاقِيهِ»، أي: إذا السماء انشقَّتْ لاقَى الإنسانُ كَدْحَه[(٢)].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: «يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فملاقِيهِ» «إذا السماء انشقَّت». قاله المبرد[(٣)]. وعنه أيضاً: الجوابُ: «فأمَّا مَن أوتيَ كتابه بيمينه» وهو قولُ الكسائيّ[(٤)]؛ أي: إذا السماء انشقَّتْ فَمَن أُوتيَ كتابه بيمينه فحُكْمُه كذا. قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أصحُّ ما قيل فيه وأَحْسَنُه.

وقيل: هو بمعنى: اذْكُرْ إذا السماءُ انشقَّتْ[(٥)].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ لِعلْم المخاطَبينَ به، أي: إذا كانت هذه الأشياءُ عَلِمَ المكذِّبون بالبعث ضلالتَهم وخُسْرانَهم.

وقيل: تقدَّم منهم سؤالٌ عن وقتِ القيامة، فقيل لهم: إذا ظَهَرَتْ أشراطُها كانت القيامةُ، فرأيتم عاقبةَ تكذيبِكم بها. والقرآنُ كالآيةِ الواحدةِ في دلالةِ البعضِ على البعض.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧١ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٣ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٦٣ .

(٤) ذكره عنه الرازي ٣١/ ١٠٥ .

(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ١٨٥ وقال: فعلى هذا لا تحتاج إلى جواب.

وعن الحسن: إنَّ قوله: «إذا السماءُ انشقَّتْ» قَسَمٌ. والجمهورُ على خلافِ قوله، من أنه خبرٌ وليس بقَسَمٍ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، أي: يا ابنَ آدمَ. وكذا روى سعيدٌ عن قتادةَ: يا ابنَ آدمَ، إنَّ كَدْحَكَ لضعيفٌ، فَمَن استطاع أن يكونَ كَدْحُه في طاعة الله فليفعلْ، ولا قوَّةَ إلَّا بالله[1].

وقيل: هو مُعَيَّنٌ؛ قال مقاتل: يعني الأسودَ بنَ عبد الأسد. ويقال: يعني أُبيَّ بنَ خَلفَ. ويقال: يعني جميعَ الكفَّارِ، يعني: يا أيها الكافرُ إنك كادحٌ. والكَدْحُ في كلام العرب: العملُ والكَسْبُ؛ قال ابن مُقْبِلٍ:

وما الدَّهْرُ إلَّا تارَتانِ فمنهما أموتُ وأُخرى أبتغي العيشَ أَكْدَحُ[2]

وقال آخَرُ:

ومَضَتْ بشاشةُ كلِّ عيشٍ صالِحٍ وبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلحياةِ وأَنصبُ[3]

أي: أَعْملُ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس: «إنك كادِحٌ» أي: راجعٌ، «إلى ربِّك كدحاً» أي: رجوعاً لا مَحالةَ، «فملاقِيهِ» أي: مُلاقِي ربِّك. وقيل: مُلاقِي عَملَك. القُتَبيُّ[4]: «إنك كادحٌ» أي: عامِلٌ ناصِبٌ في معيشتك إلى لقاء ربك.

والملاقاةُ بمعنى اللقاءِ، أي: تَلْقَى ربَّك بعملك. وقيل: أي: تُلاقي كتابَ عملك؛ لأنَّ العمل قد انْقَضَى ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[5].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ص٢٤ ، وسلف ١٦/ ٤١٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ .

(٤) في تفسير غريب القرآن ص ٥٢١ .

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٠٥ .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهو المؤمنُ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لا مناقشةَ فيه. كذا روي عن رسول الله ﷺ من حديث عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّب» قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله: أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: «ليس ذاكِ الحسابُ، إنَّما ذلك العَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب» أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيّ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أزواجِه في الجنة من الحور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ أي: مُغْتبطاً قريرَ العين.

ويقال: إنها نزلت في أبي سلمةَ بن عبد الأسد، وهو أوّلُ مَن هاجَرَ من مكةَ إلى المدينة.

وقيل: إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا، ليُخْبِرَهم بخَلاصِه وسلامته. والأوّلُ قولُ قتادة؛ أي: إلى أهله الذين قد أعدَّهم الله له في الجنة[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ نزلتْ في الأسود بنِ عبد الأسد أخي أبي سلمةَ؛ قاله ابنُ عباس. ثم هي عامةٌ في كلِّ مؤمنٍ وكافرٍ. قال ابن عباس: يمدُّ يدَه اليمنى ليأخذَ كتابه، فيجذبُه مَلَكٌ فيخلعُ يمينه، فيأخذُ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادةُ ومقاتلٌ: تُفَكُّ ألواحُ صدرِه وعظامُه، ثم تَدْخُلُ يدُه وتَخْرجُ من ظهره، فيأخذُ كتابَه كذلك.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي: بالهلاك، فيقول: يا وَيْلاه، يا ثُبوراه. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٦) و(٣٣٣٧)، وهو عند البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، وسلف ١٧/ ٢٩٨ .
(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٣٩ .

أي: ويدخُلُ النارَ حتى يَصْلَى بحرِّها.

وقرأ الحِرْمِيَّانِ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ: ﴿ويُصَلَّى﴾ بضم الياء وفتحِ الصَّاد وتشديدِ اللَّام، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] وقوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]. الباقون: «ويَصْلَى» بفتح الياءِ مخفَّفاً[١]، فِعْلٌ لازمٌ غيرُ متعدٍّ[٢]؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقوله: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢] وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا﴾ [المطففين: ١٦].

وقراءةٌ ثالثةٌ رواها أبانٌ عن عاصمٍ، وخارجةُ عن نافعٍ، وإسماعيلُ المكِّيُّ عن ابن كثير: «ويُصْلَى» بضمِّ الياءِ وإسكانِ الصَّادِ وفتحِ اللَّام مخفَّفاً[٣]، كما قُرِئ: ﴿وسَيُصْلَون﴾ [النساء: ١٠] بضمِّ الياء[٤]، وكذلك في «الغاشية» قد قُرِئ أيضاً: ﴿تُصْلَى ناراً﴾ [الآية: ٤][٥]. وهما لغتان: صلَّى وأَصْلَى، كقوله: نزَّل وأَنْزَل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ قال ابن زيد: وَصَفَ الله أهلَ الجنةِ بالمَخافةِ والحزنِ والبكاءِ والشفقةِ في الدنيا، فأَعْقَبهم به النعيمَ والسرورَ في الآخرة، وقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦-٢٧]. قال: ووصَفَ أهلَ النارِ بالسرور في الدنيا والضَّحِكِ فيها والتفكُّهِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: لن يرجعَ حيًّا مبعوثًا فيحاسَب، ثم يثاب أو يُعاقَب. يقال: حارَ يحورُ: إذا رجع؛ قال لبيد:

---

(١) السبعة ص ٦٧٧، والتيسير ص ٢٢١.

(٢) ويكون نصبُ «سعيراً» على هذا بنزع الخافض، ينظر ما سلف ٦/ ٤٢٠، والدر المصون ٣/ ٥٩٥ - ٥٩٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٠.

(٤) وهي قراءة ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وقد سلفت ٦/ ٩١.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر، وستأتي.

وما المرءُ إلّا كالشِّهابِ وضَوْئِهِ يحورُ رَماداً بعد إذ هو ساطِعُ[(١)]

وقال عِكرمةُ وداودُ بنُ أبي هند: يحورُ كلمةٌ بالحَبَشيَّة، ومعناها: يرجع[(٢)]. ويجوزُ أن تتَّفق الكلمتان فإنهما كلمةُ اشتقاقٍ. ومنه: الخبزُ الحُوَّارَى[(٣)]؛ لأنه يرجع إلى البياض.

وقال ابن عباس: ما كنتُ أدري ما يحور، حتى سمعتُ أعرابيةً تدعو بُنيةً لها: حُوري، أي: ارجعي إليّ[(٤)]. فالحَوْرُ في كلام العرب: الرجوعُ، ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْر»[(٥)] يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحُوْرُ بالضم. وفي المثل: «حُورٌ في مَحَارَةٍ» أي: نقصان في نقصان. يُضْرَبُ للرجل إذا كان أَمْرُه يُدْبِرُ؛ قال الشاعر:

واستَعْجَلوا عن خفيفِ المَضْغِ فازْدَردُوا والذمُّ يَبْقَى وزادُ القومِ في حُوْرِ[(٦)]

والحُوْرُ أيضًا: الاسمُ من قولكِ: طحَنَتِ الطاحنةُ فما أحارتْ شيئًا، أي: ما ردَّتْ شيئاً من الدقيق. والحُوْر أيضًا: الهَلَكةُ؛ قال الراجزُ:

فـي بِئـرِ لا حُـورٍ سَرَى ومـا شَعَـرْ[(٧)]

---

(١) ديوان لبيد ص ١٦٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦ ، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ .

(٣) الحوَّارَى بالضم وتشديد الواو والراء مفتوحة: الدقيق الأبيض، وكلُّ ما حوِّر من الطعام، أي: بُيِّضَ. الصحاح (حور)، والمعجم الوسيط (حور).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٠٨ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٧٧٢)، ومسلم (١٣٤٣) والترمذي (٣٤٣٩) من حديث عبد الله سَرْجِسَ ﷺ. ووقع في صحيح مسلم والترمذي: بعد الكون. قال الترمذي: ويروى: الحور بعد الكور، وكلاهما له وجه. اهـ. وسيأتي الكلام عن الروايتين قريباً.

(٦) البيت لسبيع بن الخطيم، كما في شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٢٨٨ ، واللسان (حور)، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص ١٤١ ، والصحاح (حور) والكلام منه. قال السيرافي: الازدراد الابتلاع، وقوله: والذم يبقى...، يريد: الذم يبقى على الأيام، والأكل يذهب.

(٧) البيت للعجاج، وهو في ديوانه ص ٧٢ ، والصحاح (حور) والكلام منه. قال الأصمعي شارح =

قال أبو عبيدةَ: أي: في بئرِ حُوْرٍ، و«لا» زائدةٌ.

وروي: «بعد الكَوْنِ» ومعناه: من انتشارِ الأمرِ بعد تَمَامِهِ[1]. وسُئِل معمرٌ عن الحَوْرِ بعد الكَوْنِ، فقال: هو الكُنْتيُّ. فقال له عبد الرزاق: وما الكُنْتيُّ؟ فقال: الرجلُ يكون صالحاً ثم يتحوَّلُ رجلَ سوءٍ[2]. قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كُنْتيٌّ، كأنه نُسِبَ إلى قوله: كنتُ في شبابي كذا وكذا. قال:

فأصبحت كُنْتيًّا وأصبحتُ عاجِنًا وشرُّ خِصَالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ[3]

عَجَنَ الرجلُ: إذا نَهضَ مُعْتمداً [بيديه] على الأرض من الكِبَر[4]. وقال ابن الأعرابيِّ: الكُنْتيُّ: هو الذي يقول: كنتُ شابًّا، وكنتُ شجاعًا، والكانيُّ هو الذي يقول: كان لي مالٌ وكنتُ أَهَبُ، وكان لي خيلٌ وكنتُ أَرْكَبُ[5].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ، بل يحورُ إلينا ويرجع. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ

= الديوان: يريد: في بئر حور سرى الحَرُوريُّ وما شعر.

والبيت من قصيدة في مدح عمر بن عبد الله بن معمر، وكان عبد الملك وجهه إلى أبي فديك الحروري، فقتله وأصحابه.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/ ١١١: هو في معظم النسخ من صحيح مسلم: «بعد الكون» بالنون، بل لا يكاد يوجد في نسخ بلادنا إلا بالنون. اهـ. وقد رواه بعض رواة صحيح مسلم بالراء، كما ذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٤/ ٤٥٢، وأبو العباس في المفهم ٣/ ٤٥٥. قال النووي: معناه بالراء والنون جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفُّها وجَمْعها، ورواية النون مأخوذة من الكون، مصدر كان يكون كونًا: إذا وُجد واستقر.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٩٤.

(٣) الصحاح (كون) و(عجن)، وأساس البلاغة (كون)، والتكملة للصاغاني ١/ ٣٣٦. وهو في تهذيب اللغة ١٠/ ١٤١ برواية:

وما كنت كنتيًّا ولا كنت عاجنًا وشر الرجال الكُنْتُنِيُّ وعاجِنُ

(٤) الصحاح (عجن)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦، وذكره بنحوه الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ١٤١.

كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ قبل أنْ يَخْلُقَه، عالماً بأنَّ مَرْجِعَه إليه. وقيل: بلَى لَيَحُورَنَّ ولَيَرْجِعَنَّ. ثم استأنف فقال: «إنَّ ربَّه كان بِهِ بصيرًا» مِن يومِ خَلَقَه إلى أنْ بَعَثَه. وقيل: عالمًا بما سبق له من الشقاء والسعادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: فأُقْسِمُ و«لا» صِلَةٌ. ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ أي: بالحُمْرةِ التي تكونُ عندَ مغيبِ الشمسِ حتى تأتيَ صلاةُ العشاءِ الآخِرةِ. قال أشهبُ وعبد الله ابنُ الحكم ويحيى بنُ يحيى وغيرُهم ـ كثيرٌ عددُهم ـ عن مالك: الشَّفَقُ: الحُمْرةُ التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرةُ فقد خَرَجْتَ من وقتِ المغرب ووَجَبتْ صلاةُ العشاءِ[1].

وروى ابنُ وهب قال: أخبرني غيرُ واحدٍ عن عليّ بنِ أبي طالب ومُعاذ بنِ جبل وعُبادةَ بنِ الصامتِ وشدَّاد بنِ أَوْسٍ وأبي هريرةَ: أنَّ الشفَقَ الحمرةُ، وبه قال مالك ابن أنس. وذَكَر غيرُ ابنُ وَهْبٍ من الصحابة: عمرَ وابنَ عمرَ وابنَ مسعودٍ وابنَ عباسٍ وأنَساً وأبا قتادةَ وجابر بنَ عبد الله وابنَ الزبير، ومن التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيب، وطاوس، وعبد الله بن دينار، والزهريّ، وقال به من الفقهاء: الأوزاعيُّ ومالكٌ والشافعيُّ وأبو يوسفَ وأبو ثورٍ وأبو عُبيدٍ وأحمدُ وإسحاقُ.

وقيل: هو البياض؛ رُوي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرةَ أيضاً وعمر بنِ عبد العزيز والأوزاعيّ[2]، وأبي حنيفةَ في إحدى الروايتين عنه، ورَوَى أسد بنُ عمرو أنه

---

(١) الموطأ ١/ ١٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٨.

(٢) تنظر أقوال الأئمة المذكورين في الأوسط ٢/ ٣٣٩ - ٣٤١، والتمهيد ٨/ ٩١ - ٩٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٨، وزاد المسير ٩/ ٦٥ - ٦٦. وسلف بعضها ١٩/ ١٢٢.

رجع عنه[١]. ورُوي عن ابن عمرَ أيضًا أنه البياضُ، والاختيارُ الأولُ؛ لأنَّ أكثر الصحابةِ والتابعين والفقهاءِ عليه؛ ولأنَّ شواهدَ كلامِ العربِ والاشتقاق والسنة تشهدُ له. قال الفرَّاء[٢]: سمعتُ بعضَ العربِ يقول لثوبٍ عليه مصبوغٍ: كأنه الشَّفَقُ، وكان أحمرَ، فهذا شاهدٌ للحُمْرة، وقال الشاعر:

أحمر[٣] اللونِ كمُحْمَرِّ الشَّفَقْ

وقال آخر:

قُمْ يا غلامُ أَعِنِّي غيرَ مُرْتَبِكٍ ... على الزمانِ بِكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ[٤]

ويقال للمَغْرة[٥]: الشَّفَق. وفي «الصحاح»: الشَّفقُ بقيةُ ضوءِ الشمسِ وحُمْرتِها في أوّل الليل إلى قريبٍ من العَتَمة. قال الخليل: الشَّفَقُ: الحمرةُ، من غروبِ الشمس إلى وقتِ العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل: غاب الشَّفَق[٦]. ثم قيل: أصلُ الكلمةِ من رِقَّةِ الشيءِ؛ يقال: شيءٌ شَفِقٌ، أي: لا تَماسُكَ له لرقَّته. وأَشْفَقَ عليه: أي: رقَّ قلبه عليه، والشَّفَقةُ: الاسمُ من الإشفاق، وهو رِقَّةُ القلب، وكذلك الشَّفَق؛ قال الشاعر:

تَهْوَى حَياتي وأَهْوَى موتَها شَفَقًا ... والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ[٧]

فالشَّفَقُ: بقيةُ ضوءِ الشمسِ وحمرتِها، فكأنَّ تلك الرقَّةَ من ضوء الشمس. وزعم

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٥ . وأسد بن عمرو هو أبو المنذر - وقيل: أبو عمرو - القاضي القشيري البجلي الكوفي، سمع أبا حنيفة وتفقه عليه، توفي سنة (١٨٨هـ). الجواهر المضيَّة ١/ ٣٧٦ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥١ .

(٣) في (م): وأحمر، ولم نقف على البيت.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) المَغْرة ويحرك: طين أحمر. القاموس (مغر).

(٦) الصحاح (شفق).

(٧) نسب لإسحاق بن خلف، كما في زهر الآداب ١/ ٤٨٥ ، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٥ ، وفوات الوفيات ١/ ١٦٤ ، واللسان (شفق). قال صاحب اللسان: وقيل: هو لابن المعلى. ونسبه ابن المعتز في طبقات الشعراء ص٢٨١-٢٨٢ لمحمد بن يسير الرياشي. وهو دون نسبة في عيون الأخبار ٣/ ٩٤ ، والصحاح (شفق).

الحكماءُ أنَّ البياضَ لا يغيبُ أصلاً. وقال الخليل: صعدتُ مَنارةَ الإسكندريةِ فرمقتُ البياضَ، فرأيتُه يتردَّدُ من أفقٍ إلى أفقٍ ولم أَرَه يغيبُ(١). وقال ابن أبي أُويس: رأيتُه يتمادَى إلى طلوعِ الفجرِ. قال علماؤنا(٢): فلمَّا لم يتحدَّدْ وقتُه سَقَطَ اعتبارُه.

وفي «سُنَن» أبي داودَ عن النعمان بن بَشير قال: أنا أَعْلَمُكم بوقتِ صلاةِ العشاءِ الآخِرة؛ كان النبيُّ ﷺ يصلِّيها لسقوطِ القمرِ لثالثةٍ(٣). وهذا تحديدٌ، ثم الحكمُ معلَّقٌ بأولِ الاسم. لا يقال: فينقَضُ عليكم بالفجر الأوّل، فإنَّا نقولُ: الفجرُ الأوّل لا يتعلَّقُ به حكمٌ من صلاةٍ ولا إمساكٍ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن الفجرَ بقوله وفِعْلِه فقال: «وليس الفجرُ أن تقول هكذا ـ ورَفَعَ يدَه إلى فوق ـ ولكنَّ الفجرَ أن تقول هكذا». وبَسَطها، وقد مضى بيانُه في آيةِ الصيامِ من سورة البقرة(٤)، فلا معنى للإعادة.

وقال مجاهد: الشفقُ: النهارُ كلُّه، ألا تراه قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾(٥). وقال عِكرمةُ: ما بقي من النهار(٦).

والشفقُ أيضاً: الرديءُ من الأشياء؛ يقال: عطاءٌ مُشَفَّقٌ، أي: مقلَّل؛ قال الكُميت:

مَلِكٌ أَغَرُّ مِن المُلوك تَحلَّبتْ ... لِلسائلين يداه غيرَ مُشَفَّقِ(٧)

---

(١) ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٢/ ٢٧٨ ، وقال: وقد راعيته في البوادي في ليالي الصيف، والجوُّ نقي، والسماء مصحيةٌ، فإذا هو يغيب قبل أن يمضي من الليل ربعه بالتقريب، ومن أراد أن يعرف ذلك فليجرب حتى يتبين له غلط هذا القول.

(٢) هو ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٩ .

(٣) سنن أبي داود (٤١٩)، وهو عند أحمد (١٨٤١٥)، والترمذي (١٦٥)، والنسائي في المجتبى ١/ ٢٦٤ . قوله: «لسقوط القمر» أي: وقت غروبه أو سقوطه إلى الغروب «لثالثة» أي: في ليلة ثالثة من الشهر. تحفة الأحوذي ١/ ٥٠٧ .

(٤) ٣/ ١٩٣ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٢٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٤٤ دون قوله: ألا تراه...

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٤ .

(٧) ديوان الكميت ص ٢٤٨ ، والصحاح (شفق) والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جَمعَ وضمَّ ولفَّ، وأصلُه من سَواد[١] السلطانِ وغَضَبِه؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من بابِ الرحمةِ ما تَمالك العبادُ لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزِج بها، فسَكَنَ الخَلْقُ إليه، ثم ابْذَعَرُّوا[٢] والْتفُّوا وانْقَبَضوا، ورجع كلٌّ إلى مأواه فسَكَن فيه مِن هَوْلِه وحشاً، وهو قولُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: بالليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أي: بالنهار، على ما تقدَّم. فالليلُ يَجْمعُ ويضمُّ ما كان منتشراً بالنهار في تَصَرُّفه. هذا معنى قولِ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ ومقاتلٍ وغيرهم[٣]؛ قال ضابئ بنُ الحارث البُرْجُميُّ:

فإنِّي وإياكُمْ وشوقًا إليكُمُ ... كقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أنامِلُهْ[٤]

يقول: ليس في يدي من ذلك شيءٌ، كما أنه ليس في يدِ القابضِ على الماء شيءٌ. فإذا جلَّل الليلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فاجتمعت له، فقد وَسَقَها[٥]. والوَسْقُ: ضَمُّكَ الشيءَ بعضَه إلى بعضٍ، تقول: وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقًا. ومنه قيل للطعام الكثيرِ المجتمِع: وَسْقٌ، وهو ستُّونَ صاعاً. وطعامٌ مُوْسَق، أي: مجموع. وإبلٌ مُسْتَوْسِقةٌ، أي: مُجتمِعةٌ؛ قال الراجز:

إنَّ لنا قَلائِصاً حَقَائِقا ... مُسْتَوْسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقا[٦]

---

(١) في (م): سورة.

(٢) أي: فرُّوا وجفلوا. تاج العروس (بذعر).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) الصحاح (وسق)، والمستقصى ٢/ ٢٠٩ ، والخزانة ٩/ ٣٢٣ .

(٥) الصحاح (وسق).

(٦) نسبهما صاحب اللسان (وسق) للعجاج، وليسا في ديوانه، وهما بلا نسبة في الكامل ٣/ ١١٤٥ ، والفاضل للمبرِّد ص١٠ ، والثاني في مجاز القرآن ص ٢٩١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٤٥ . القلائص جمع قَلُوص، وهي الناقة الشابة. والحقائق جمع حِقَّة، وهي من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها، سمي بذلك لأنه استحق الركوب والتحميل. النهاية (قلص) و(حقق).

وقال عِكرمةُ: «وما وَسَق» أي: وما ساق من شيءٍ إلى حيث يَأوي[١]، فالوَسْقُ بمعنى الطَّرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر: وسِيقة، قال الشاعر:

كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائِفُ[٢]

وعن ابن عباس: «وما وَسَق»، أي: وما جَنَّ وسَتر[٣]. وعنه أيضاً: وما حَمَل. وكلُّ شيءٍ حَملْتَه فقد وَسَقْتَه، والعربُ تقول: لا أفعلُه ما وَسَقَتْ عيني الماءَ، أي: حَمَلَتْه. ووسَقَتِ الناقةُ تَسِقُ وَسْقًا، أي: حَمَلَتْ وأغْلَقتْ رَحِمَها على الماء، فهي ناقةٌ واسِقٌ، ونُوْقٌ وِسَاقٌ، مثل: نائِم ونيام، وصاحِب وصِحاب، قال بشر بن أبي خازم:

أَلَظَّ بِهِنَّ يَحْدوهُنَّ حتى تَبَيَّنَتِ الحِيالُ مِنَ الوِساقِ[٤]

ومَواسيقُ[٥] أيضًا. وأَوْسَقْتُ البعيرَ: حَمَّلْته حِمْلَه. وأوسَقَتِ النخلةُ: كَثُر حملُها[٦].

وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان: حَمَلَ من الظُّلْمةِ. قال مقاتل: أو حَمَلَ من الكواكب. القشيريُّ: ومعنى حَمَل: ضمَّ وجمع، والليلُ يجلِّلُ بظُلْمتِه كلَّ شيءٍ،

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٢٤٨ .

(٢) وصدره: كذبتُ عليك لا تزال تقوفني. والبيت للأسود بن يعفر، كما في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٠٥ ، ونسب للقطامي كما في اللسان (قوف). وهو بلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٣٢٤ ، والصحاح (وسق)، واللسان (كذب) وفيه: معنى كذب عليكم معنى الإغراء، أي: عليكم به. فقوله كذبت عليك، إنما أغراه بنفسه، أي: عليك بي. قال السيرافي: يهجو بذلك تولباً أحد بني معاوية بن مالك، وقافه يقوفه: إذا اتَّبعه. يقول: عليك بي فاتبعني كما تُتَّبعُ آثار الطريدة إذا أُخذت، فإنك لا تضيرني بذلك. اهـ. والطريدة: ما سرق من الإبل. القاموس (طرد).

(٣) النكت والعيون ٦/٢٣٧ .

(٤) الصحاح (وسق) و(لظظ)، والبيت في ديوان بشر ص ١٧٨ برواية: تبيَّن حُوْلهن من الوساق. والحيال والحُوْل جمع حائل، وهي الناقة التي حُمل عليها فلم تلقح. القاموس (حول). وقوله: ألظ، أي: ألحَّ، وفي الصحاح (لظظ): الإلظاظ: الإلحاح.

(٥) في (ي) و(ظ): ومواسق، وكلاهما صواب، يقال: نوق مواسيق ومواسق، وهو جمع على غير قياس. الصحاح (وسق).

(٦) الصحاح (وسق).

فإذا جلَّلها فقد وَسَقَها، ويكونُ هذا القَسَمُ قسماً بجميع المخلوقات؛ لاشتمالِ الليلِ عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ . وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وقال ابن جُبير: «وما وَسَق» أي: وما عُمِلَ فيه[١]. يعني التهجُّدَ والاستغفارَ بالأسحار، قال الشاعر:

ويومًا ترانا صالحينَ وتارةً ... تقومُ بِنا كالواسِقِ المتلَبِّبِ

أي: كالعامل[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: تمَّ واجْتَمَعَ واسْتَوَى. قال الحسن: اتَّسق، أي: امْتَلأَ واجْتَمَع. ابن عباس: اسْتَوَى. قتادةُ: استدار[٣]. الفرَّاءُ: اتِّساقُه: امتلاؤه واستواؤه لياليَ البدر، وهو افتعالٌ من الوَسْقِ الذي هو الجمع[٤]، يقال: وَسَقْتُه فاتَّسَقَ، كما يقال: وَصَلْتُه فاتَّصَلَ، ويقال: أمرُ فلانٍ مُتَّسِقٌ، أي: مُجتمِعٌ على الصلاح مُنْتظِمٌ. ويقال: اتَّسقَ الشيءُ: إذا تتابع.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قرأ عمرُ وابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وأبو العاليةِ ومسروقٌ وأبو وائلٍ ومجاهدٌ والنخَعيُّ والشعبيُّ وابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «لَتَرْكَبَنَّ» بفتح الباء[٥]، خطاباً للنبيِّ ﷺ، أي: لتركَبَنَّ يا محمدُ حالاً بَعْدَ حالٍ؛ قاله ابن عباس[٦]. الشعبيُّ: لتركَبَنَّ يا محمدُ سماءً بعد سماءٍ، ودرجةً بعد درجةٍ، ورُتبةً بعد رتبةٍ، في

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٣٧، وأخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٧، وذكر البيت أيضاً صاحب اللسان (وسق).

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٥٨.

(٤) الوسيط ٤/ ٤٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥١: اتساقه: امتلاؤه ثلاث عشرة إلى ست عشرة.

(٥) السبعة ص ٦٧٧، والتيسير ص ٢٢١ عن ابن كثير وحمزة والكسائي. وذكرها عن عمر وابن مسعود وابن عباس الطبري ٢٤/ ٢٥٠.

(٦) أخرجه البخاري (٤٩٤٠)، والطبري ٢٤/ ٢٥١.

القربةِ من الله تعالى[١].

ابن مسعود: لتَرْكَبَنَّ السماءُ حالاً بعد حالٍ، يعني حالاتها التي وَصَفَها الله تعالى بها؛ من الانشِقاق والطَّيِّ، وكونها مرةً كالمُهلِ ومرةً كالدِّهانِ[٢]. وعن إبراهيم عن عبد الله: «طبقاً عن طبقٍ» قال: السماءُ تقلَّبُ حالاً بعد حال. قال: تكونُ وردةً كالدِّهانِ، وتكونُ كالمهل[٣].

وقيل: أي: لتركَبَنَّ أيها الإنسانُ حالاً بعدَ حالٍ، من كَوْنِكَ نطفةً ثم عَلَقةً ثم مضغةً، ثم حيًّا وميتاً وغنيًّا وفقيرًا. فالخطابُ للإنسان المذكورِ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ وهو اسمٌ للجنس، ومعناه الناس.

وقرأ الباقون: «لتركَبُنَّ» بضمِّ الباءِ، خطاباً للناس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، قال: لأنَّ المعنى بالناسِ أشبهُ منه بالنبيِّ ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية: فَمَن أُوتي كتابه بيمينه ومَن أُوتي كتابه بشماله. أي: لتركُبنَّ حالاً بعد حالٍ من شدائد القيامة. أو لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قَبْلَكم في التكذيب والاختلافِ[٤] على الأنبياء.

قلت: وكلُّه مُرادٌ، وقد جاءتْ بذلك أحاديثُ، فروى أبو نعيم الحافظُ عن أبي جعفر محمد بنِ علي[٥] عن جابرٍ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ ابن آدمَ لفي غَفْلةٍ ممَّا[٦] خَلَقَه الله عزَّ وجلَّ له؛ إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَه قال للمَلكِ: اكتُبْ رزقَه وأَثَره وأَجَلَه، واكتب شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك الملكُ، ويبعث الله

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٤ ، وقوله: ودرجة بعد درجة...، ليس منه، وإنما ذُكر في شرحه، كما في الوسيط ٤/ ٤٥٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) أخرجه من طريق إبراهيم عن عبد الله بن مسعود الطبري ٢٤/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وهو والذي قبله في المعنى سواء.

(٤) في (م): واختلاق.

(٥) في النسخ: عن جعفر بن محمد بن علي، والمثبت هو الصواب.

(٦) في (م): عما.

مَلَكاً آخَرَ فيحفظُه حتى يُدْرِكَ، ثم يبعثُ الله مَلَكَين يكتبان حسناتِه وسيئاته، فإذا جاءه الموتُ ارتفع ذانِكَ الملكان، ثم جاءه ملكُ الموتِ عليه السلامُ فيقبضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حُفْرتَه رُدَّ الروحُ في جسده، ثم يرتفعُ مَلكُ الموتِ، ثم جاءه مَلَكا القبرِ فامتَحَناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعةُ انحطَّ عليه مَلَكُ الحسناتِ ومَلَكُ السيئاتِ، فأَنْشَطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحدٌ سائقٌ والآخَرُ شهيدٌ، ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ * فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: «حالاً بعدَ حالٍ» ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامَكُمْ أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم»(١) فقد اشتمل الحديثُ على أحوالٍ تعتري الإنسانَ، من حين يُخْلقُ إلى حين يُبعثُ، وكلُّه شدَّةٌ بعد شدَّةٍ، حياةٌ ثم موتٌ، ثم بعثٌ ثم جزاءٌ، وفي كلِّ حالٍ من هذه شدائدُ.

وقال ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكم، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخَلْتُموه» قالوا: يا رسولَ الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟» خرَّجه البخاريُّ(٢).

وأمَّا أقوال المفسِّرين، فقال عكرمةُ: حالاً بعد حالٍ، فطيماً بعد رضيعٍ، وشيخاً بعد شَابٍّ(٣)، قال الشاعر:

كذلِك المرءُ إن يُنْسَأْ له أَجَلٌ يَرْكَبْ على طَبقٍ مِن بَعْدِه طَبَقُ(٤)

---

(١) الحلية ٣/ ١٩٠، وسلف ١٩/ ٤٤٥. قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٢) في صحيحه (٣٤٥٦)، وهو عند أحمد (١١٨٠٠)، ومسلم (٢٦٦٩) وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ووقع في هذه المصادر: لتتبعن، بدل: لتركبن. وأخرج أحمد (١٨٨٩٧) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ: «لتركبن سنن مَن كان قبلكم سُنَّةً سُنَّةً».

(٣) في (د) و(م) و(ي): شباب، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢٣٨ والكلام منه.

(٤) البيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص ٦٨، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ١٢٩، وهو فيهما برواية: يُرْكَب به طبق...، قال ابن قتيبة: أي ينقل من حال الشباب إلى حال الهرم.

وعن مكحول: كلَّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه[١].

وقال الحسن: أمراً بعد أمرٍ، رَخاءً بعد شدَّةٍ، وشدَّةً بعد رَخاءٍ، وغنًى بعد فَقْرٍ، وفقرًا بعد غِنًى، وصحةً بعد سُقْمٍ، وسقماً بعد صحةٍ.

سعيد بن جبير: منزلةً بعد منزلةٍ، قومٌ كانوا في الدنيا متَّضِعينَ فارتفعوا في الآخرة، وقومٌ كانوا في الدنيا مُرْتَفعين فاتَّضَعوا في الآخرة[٢].

وقيل: منزلةً عن منزلةٍ، وطَبَقاً عن طَبَقٍ، وذلك أنَّ مَن كان على صلاحٍ دعاه إلى صلاحٍ فوقَه، ومَن كان على فسادٍ دعاه إلى فسادٍ فوقه، لأنَّ كلَّ شيء يجري إلى شَكْلِه.

ابن زيد: ولتصيرُنَّ من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة[٣].

وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموتُ، ثم البعث، ثم العَرْض[٤]. والعربُ تقولُ لمن وقع في أمرٍ شديدٍ: وَقَع في بَنَاتِ طَبَقٍ، وإحدى بناتِ طَبَقٍ، ومنه قيل للدَّاهية الشَّديدة: أمُّ طَبَقٍ، وإحدى بناتِ طَبَقٍ، وأصلُها من الحيَّات؛ إذ يُقال للحية: أمُّ طَبَق لتَحَوِّيها[٥]. والطَّبَقُ في اللغة: الحالُ، كما وصفنا؛ قال الأقرعُ بنُ حابس التميميُّ:

إنِّي امرؤٌ قد حَلَبْتُ الدَّهرَ أَشْطُرَه   وساقني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ[٦]

وهذا أَدَلُّ دليلٍ على حدوث العالَم، وإثباتِ الصانع؛ قالت الحكماء: مَن كان

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير والدر المنثور ٦/ ٣٣١، وفيهما: تُحدثون، بدل: تجدون.

(٢) ذكر قول الحسن وقول سعيد بن جبير الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٣٨.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٥.

(٥) تحوَّى: تجمَّع واستدار. المعجم الوسيط (حوى).

(٦) زاد المسير ٩/ ٦٧. ويقال: حَلَب فلانٌ الدهرَ أشْطُرَه، أي: خبر ضروبه، أي: مرَّ به خير وشر. تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٧.

اليومَ على حالةٍ، وغداً على حالةٍ أُخرى، فلْيَعلَم أنَّ تدبيره إلى سواه. وقيل لأبي بكرٍ الورَّاقِ: ما الدليلُ على أنَّ لهذا العالَمِ صانعاً؟ فقال: تحويلُ الحالاتِ، وعجزُ القوَّةِ، وضَعْفُ الأركان، وقَهْرُ المنيةِ، ونَسْخُ العزيمة.

ويقال: أتانا طَبَقٌ من الناس وطَبَقٌ من الجراد، أي: جماعة(١): وقولُ العباسِ في مَدْحِ النبيِّ ﷺ:

تُـنْـقَـلُ مِـن صـالِـبٍ إلـى رَحِـمٍ إذا مـضَـى عـالَـمٌ بـدا طَـبَـقُ(٢)

أي: قَرْنٌ من الناس يكونُ طِبَاقَ الأرض: أي: مِلْأها.

والطَّبق أيضاً: عَظْمٌ رقيق يَفْصِلُ بين الفَقَارين. ويقال: مضَى طَبَقٌ من اللَّيل، وطَبَقٌ من النهار، أي: مُعْظَمٌ منه. والطَّبَقُ: واحدُ الأطباق(٣)، فهو مُشْتركٌ.

وقُرِئ: «لتَرْكَبِنَّ» بكَسْرِ الباء، على خطابِ النَّفْسِ، و«ليَرْكَبَن» بالياءِ على: ليَرْكَبَنَّ الإنسان(٤).

و«عن طبقٍ» في محلِّ نصبٍ على أنَّه صفةٌ لـ «طبقًا»، أي: طبقاً مُجاوزاً لطبقٍ. أو حالٌ من الضمير في «لتَركَبُنَّ» أي: لتركبُنَّ طبقاً مُجاوِزينَ لطبقٍ، أو مُجاوِزاً، أو مُجاوِزَةً، على حَسَبِ القراءة(٥).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أيُّ شيءٍ يمنعُهم من الإيمان بعد ما وَضَحَتْ لهم الآياتُ، وقامتِ الدلالاتُ. وهذا استفهامُ إنكارٍ. وقيل: تعجيب، أي: اعْجَبوا منهم في تَرْكِ الإيمانِ مع هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يُصَلُّون. وفي الصحيح: أنَّ

---

(١) الصحاح (طبق).

(٢) المعاني الكبير ٢/٥٥٧، واللسان (صلب)، وسلف ١٤/٨٧. قال صاحب اللسان: أراد بالصالب: الصُّلْب، وهو قليل الاستعمال. وقال ابن قتيبة: العالَم: القرن من الناس، وكذلك الطبق من الناس.

(٣) الصحاح (طبق).

(٤) الكشاف ٤/٢٣٦، وذكر الثانية ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٠ عن عمر ﷺ.

(٥) الكشاف ٤/٢٣٦.

أبا هريرة قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسَجَدَ فيها، فلمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهم أنَّ رسول الله ﷺ سَجَدَ فيها[١]. وقد قال مالكٌ: إنَّها ليستْ من عزائم السُّجود[٢]؛ لأنَّ المعنى: لا يُذْعِنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. ابنُ العربيِّ[٣]: والصحيحُ أنَّها منه، وهي روايةُ المَدَنيين عنه، وقد اعْتَضَد فيها القرآنُ والسنَّةُ.

قال ابنُ العربيِّ: لمَّا أَمَمْتُ بالناسِ تَرَكْتُ قراءتها؛ لأنِّي إنْ سجدتُ أَنْكَروه، وإنْ تركتُها كان تقصيراً منِّي، فاجتنبتُها إلَّا إذا صلَّيتُ وحدي. وهذا تحقيقُ وَعْدِ الصَّادقِ بأنْ يكونَ المعروفُ مُنْكَراً، والمنكَرُ معروفاً؛ وقد قال ﷺ لعائشةَ: «لولا حِدْثانُ قومِكِ بالكفرِ لهَدَمْتُ البيتَ، ولَرَدَدْتُه على قواعِدِ إبراهيمَ»[٤]. ولقد كان شيخُنا أبو بكرٍ الفِهْرِيُّ يرفعُ يديه عند الركوعِ، وعند الرفعِ منه، وهو مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ، ويفعلُه الشِّيعةُ، فحضر عندي يوماً في مَحْرَسِ ابنِ الشَّواء بالثغر - مَوْضع تَدْريسي - عند صلاةِ الظُّهْرِ، ودخل المسجدَ من المَحْرسِ المذكورِ، فتقدَّم إلى الصفِّ [الأولِ] وأنا في مؤخَّرِه قاعدٌ[٥] على طاقاتِ البحر، أتنسَّمُ الريح من شدَّة الحرِّ، ومعي في صفٍّ واحدٍ أبو ثمنةَ رئيسُ البحرِ وقائدُه، مع نَفَرٍ من أصحابه يَنتظِرُ الصلاة، ويتطلَّع على مراكب تَحت المنار[٦]، فلمَّا رفع الشيخُ يديه في الركوعِ وفي رَفْعِ الرأس منه، قال أبو ثمنةَ وأصحابُه: أَلَا تَرَوْنَ إلى هذا المَشْرِقيِّ كيف دخل مَسْجِدَنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارْمُوا به إلى البحر، فلا يراكم أحدٌ. فطار قلبي من بين جَوَانحي وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشيُّ فقيهُ الوقتِ. فقالوا لي: ولِمَ يَرفعُ يديه؟ فقلت: كذلك كان النبيُّ ﷺ يفعلُ،

(١) صحيح البخاري (٧٦٦)، وصحيح مسلم (٥٧٨)، واللفظ له، وسلف ٩/ ٤٤٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٩.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٩ - ١٩٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٩٧)، والبخاري (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣)، وسلف ٢/ ٣٩٢.

(٥) في النسخ: قاعداً، والمثبت من أحكام القرآن.

(٦) في (م) ومطبوع أحكام القرآن: الميناء، والمثبت من النسخ الخطية، وهو أيضاً نسخة في أحكام القرآن ذكرت في الحاشية.

وهذا مذهبُ مالكٍ في روايةِ أهلِ المدينة عنه. وجعلتُ أُسَكِّنُهم وأُسْكِتُهم حتى فرغ من صلاته، وقمتُ معه إلى المَسكَنِ من المحرس، ورأى تغيُّرَ وجهي، فأنْكره، وسألني فَأعْلَمْتُه، فضحك وقال: ومِن أين لي أنْ أُقتلَ على سنَّةٍ؟ فقلتُ له: ولا يَحِلُّ لك هذا، فإنَّك بين قومٍ إنْ قُمْتَ بها قاموا عليك، وربَّما ذهبَ دمُكَ. فقال: دَعْ هذا الكلامَ، وخُذْ في غيره.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ محمداً ﷺ وما جاء به. وقال مقاتلٌ: نزلت في بني عمرو بنِ عُمَير وكانوا أربعةً، فأَسْلَم اثنان منهم. وقيل: هي في جميع الكفار.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يُضْمِرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا رَوى الضحاكُ عن ابنِ عباسٍ[(١)]. وقال مجاهدٌ: يكتُمون من أفعالهم[(٢)]. ابنُ زيدٍ: يَجْمعون من الأعمال الصالحةِ والسيئةِ؛ مأخوذٌ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه؛ يقال: أَوْعَيْتُ الزادَ والمتاعَ: إذا جَعَلْته في الوِعاء؛ قال الشاعر:

الـخـيـرُ أَبْـقَـى وإن طـالَ الـزمـانُ بِـه والـشـرُّ أَخْـبَـثُ مـا أَوْعَـيـتَ مِـن زادِ[(٣)]

وَوَعَاه، أي: حَفِظَه؛ تقول: وَعَيْتُ الحديثَ أَعِيْهِ وَعْيًا، وأذُنٌ واعِيةٌ. وقد تقدَّم[(٤)].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مُوْجِعٍ في جهنَّمَ على تكذيبهم. أي: اجْعَلْ ذلك بمنزلةِ البِشَارةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كأنه قال: لكنِ الذين صَدَّقوا بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، وعَمِلوا الصالحات،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٦، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر بلفظ: يُسِرُّون. الدر المنثور ٦/ ٣٣١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٨.

(٤) ٢١/ ١٩٧ - ١٩٨.

أي: أدَّوا الفرائضَ المفروضةَ عليهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرُ مَنْقوصٍ ولا مَقْطوعٍ؛ يقال: مَنَنْتُ الحبلَ: إذا قطعته. وقد تقدَّم[١].

وسأل نافع بنُ الأزْرقِ ابنَ عباس عن قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فقال: غيرُ مقطوعٍ. فقال: هل تَعْرِفُ ذلك العربُ؟ قال: نعم قد عَرَفَه أخو يشكرَ حيث يقول:

فترى خَلْفَهُنَّ مِن سُرْعةِ الرَّجْـ ـعِ مَنِيناً كأنَّه أَهْبَاءُ[٢]

قال المبرِّدُ: المَنينُ: الغبارُ؛ لأنها تقطِّعُه وراءها[٣]. وكلُّ ضعيفٍ مَنينٌ وممنونٌ.

وقيل: «غيرُ ممنونٍ»: لا يُمنُّ عليهم به.

وذكر ناسٌ من أهلِ العلم أنَّ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليس استثناءً، وإنما هو بمعنى الواو، كأنَّه قال: والذين آمنوا. وقد مضى في «البقرة» القولُ فيه[٤]، والحمدُ لله. تمت سورة الانشقاق.

---

(١) عند تفسير الآية (٨) من سورة فصلت.

(٢) ذكر هذا الخبر المبرد في الكامل ٣/ ١١٥١، والبيت من معلقة الحارث بن حِلِّزةَ اليشكري، كما في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٥٧، وسلف ١٥/ ٣٩٦.

(٣) في الكامل: تقطعه قطعاً وراءها.

(٤) ٢/ ٤٥٥.

سورة الانشقاق

مكيَّةٌ، وآيُها خَمْسٌ وعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ بالغمامِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: تنشقُّ مِن المَجرَّةِ[1].

(٢) ـ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾: واستمَعَتْ له؛ أي: انقادَتْ[2] لتأثيرِ قُدرَتِه حينَ أرادَ انشقاقَها انقيادَ المِطْواعِ الذي يَأذَنُ للآمرِ ويُذعِنُ له.

﴿وَحُقَّتۡ﴾: وجُعِلَتْ حَقيقةً بالاستماعِ والانقيادِ، يُقال: حُقَّ بكذا، فهو محقوقٌ وحَقيقٌ.

(٣ ـ ٥) ـ ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾: بُسِطَتْ بأَنْ تُزالَ جبالُها وآكامُها ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾: ما في جوفِها من الكنوزِ والأمواتِ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: وتكلَّفَتْ في الخُلُوِّ أقصى جُهْدِها حتَّى لم يبقَ شيءٌ في باطنِها ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاءِ والتَّخليَةِ ﴿وَحُقَّتۡ﴾ للإذنِ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤١١).

(٢) «أي انقادت» في نسخة: «وانقادت» أشار إليها الشهاب في «الحاشية»، وقال: هما بمعنى.

وتكريرُ (إذا) لاستقلالِ كلٍّ مِن الجُملتينِ بنوعٍ مِن القُدرةِ، وجوابُه مَحذوفٌ للتَّهويلِ بالإبهامِ، أو الاكتفاءِ بما مرَّ في سُورَتَيْ التَّكويرِ والانفطارِ، أو بدلالةِ قولِه: (٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ عليه، وتقديرُه: لاقى الإنسانُ كَدْحَهُ؛ أي: جُهدًا يؤثِّرُ فيه[1]؛ مِن كَدَحَهُ: إذا خَدَشَهُ.

أو: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾[2]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ اعتراضٌ، والكدحُ إليه: السَّعيُ إلى لِقاءِ جَزائِه.

(٧ ـ ٩) ـ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾: سَهْلًا لا يناقَشُ فيه ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾: إلى عشيرَتِه المُؤمنينَ، أو فريقِ المؤمنينَ، أو أهلِه في الجنَّةِ مِن الحُورِ.

(١٠) ـ ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾؛ أي: يُؤتَى كتابَهُ بشِمالِه مِن وراءِ ظهرِه، قيل: تُغَلُّ يمناهُ إلى عنقِه، وتجعلُ يُسراهُ وراءَ ظَهرِه.

(١١) ـ ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾: يتمنَّى الثُّبورَ، ويقولُ: وا ثُبُوراهُ، وهو الهلاكُ.

(١٢) ـ ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ وقرأ الحِجازِيَّانِ والشَّامِيُّ والكِسائيُّ: ﴿ويُصَلَّى﴾[3]؛ كقولِه: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]، وقُرِئَ: (ويُصْلَى)[4] كقولِه: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) قولُه: «أي: جُهدًا يُؤثِّرُ فيه» تفسيرٌ للجوابِ على أنَّه لاقَى كَدحَه، والجُهدُ بضَّم الجيمِ: التَّعبُ، فالمعنَى: أنَّه لاقَى تعبًا ونصَبًا مُؤثِّرًا فيه غايةَ التَّأثيرِ لِما يرَى من هولِ القيامةِ، وما يخشَى منَ الحسابِ والعقابِ، قاله الشهاب.

(٢) قوله: «أو فملاقيه»: عطفٌ على قوله: «محذوف». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٧٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٧)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) عن أبان عن عاصم، و«الكامل في القراءات» =

(١٣ ـ ١٥) ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ في الدُّنيا ﴿مَسۡرُورًا﴾: بَطِرًا بالمالِ والجاهِ فارغًا عن الآخرةِ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾: لن يَرجِعَ إلى اللهِ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِمَا بعدَ ﴿لَّن﴾، ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾: عالِمًا بأعمالِه فلا يهملُهُ بل يُرجِعُه ويُجازيهِ.

(١٦) ـ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾: الحُمرةِ التي تُرى في أُفُقِ المغربِ بعدَ الغُروبِ، وعَن أبي حَنيفةَ: أنَّهُ البَياضُ الذي يَلِيها، سُمِّيَ به لرِقَّتِه؛ مِن الشَّفقةِ.

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾: وما جمعَهُ وستَرَهُ من الدَّوابِّ وغيرِها، يقال: وَسَقَهُ فاتَّسقَ واسْتَوْسَقَ، قال:

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقا[1]

أو: طردَهُ إلى أَماكنِهِ؛ مِن الوَسيقَةِ.

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: اجتمَعَ وتمَّ بَدْرًا ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: حالًا بعدَ حالٍ مطابِقةً لأُختِها في الشدَّةِ، وهو لِمَا طابقَ غيرَهُ، فقيلَ للحالِ المطابِقَةِ[2].

= للهذلي (ص: ٦٥٩) عن أبان وخارجة والأصمعي عن نافع، ومحبوب عن ابن كثير، وهارون ومحبوب والقزاز والقرشي عن أبي عمرو.

(١) نسبه صاحب «اللسان» (مادة: وسق) للعجاج وليس في ديوانه، وهو دون نسبة في «مجاز القرآن» (٢/ ٢٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٥)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ١٨٥)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ١٣٩)، و«الصحاح» (مادة: وسق). وأنشده ابن عباس دون نسبة لنافع بن الأزرق لما سأله عن قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ كما في «الكامل» للمبرد (٣/ ١٦٤)، وكذا رواه السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٧٥) وسمى قائله: طرفة بن العبد، وفي رواية الطبراني في «الكبير» (١٠٥٩٧): لأبي صرمة الأنصاري. وقبله:

إن لنا قلائصاً نقانقا

(٢) قوله: «وهو»؛ أي: الطَّبَق «فقيل للحال المطابقة»؛ أي: قيل لها: طبق. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٨٠).

أو: مراتبَ[١] مِن الشِّدَّةِ بعدَ المراتبِ، وهي الموتُ ومواطنُ القيامةِ وأهوالُها، أو هي وما قبلَها مِن الدَّواهِي، على أنَّه جمعُ طَبَقَةٍ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿لتَرْكَبَنَّ﴾[٢] بالفتحِ على خطابِ الإنسانِ باعتبارِ اللفظِ، أو الرَّسُولِ على معنى: لتركَبَنَّ حالًا شريفةً ومرتبةً عاليةً بعدَ حالٍ ومَرتبةٍ، أو طَبَقًا من أطباقِ السَّماءِ بعدَ طَبَقٍ ليلةَ المعراجِ.

وبالكسرِ على خطابِ النَّفسِ، وبالياءِ على الغَيْبةِ[٣].

و﴿عَن طَبَقٍ﴾ صفةٌ لـ﴿طَبَقًا﴾، أو حالٌ مِن الضَّميرِ بمعنى: مجاوزًا لطَبَقٍ، أو مجاوزِينَ لهُ.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيومِ القِيامَةِ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾: لا يخضعونَ، أو: لا يسجدونَ لتِلَاوَتِه؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ قرأَ: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، فسجدَ بمن معَهُ مِن المؤمنينَ وقريشٌ تصفِّقُ فوقَ رُؤوسِهم فنزلَتْ[٤].

واحتجَّ بهِ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ على وجوبِ السُّجودِ؛ فإنَّه ذمٌّ لِمَن سمعَهُ ولم يَسجُد.

---

(١) قوله: «أو مراتب» عطفٌ على «حالاً بعد حالٍ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٨٠). وكتب تحتها في نسخة الطبلاوي: «فتكون جمع طبقة».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٧)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٣) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) الأولى عن بعضهم، والثانية عن عمر رضي الله عنه.

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٣): لم أجده. قلت: لعله يريد: مسنداً، فهو في «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٤٠).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه سجدَ فيها، وقال: واللهِ ما سجدْتُ فيها إلَّا بعدَ أنْ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يسجدُ فيهَا[١].

(٢٢ ـ ٢٤) ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: بالقُرآنِ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾: بما يُضمِرونَ في صُدورِهم مِن الكُفرِ والعَداوةِ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاءٌ بهم.

(٢٥) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ أو مُتَّصِلٌ، والمرادُ: مَنْ تابَ وآمنَ مِنهُم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: مقطوعٍ، أو ممنونٍ بهِ عليهم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرأَ سورةَ انشقَّتْ أعاذَهُ اللهُ أن يعطيَهُ كتابَهُ وراءَ ظَهرِهِ»[٢].

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٤)، ومسلم (٥٧٨).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٩٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٥١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٨٤) سورة الانشقاق مكية وآياتها خمس وعشرون

روى البخاري، عن أبي رافع قال: «صلَّيتُ مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إذا السماء انشقت﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ
وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن
لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وأذنت لربها﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الإنشقاق، وذلك يوم القيامة ﴿وحُقَّتْ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿وإذا الأرض مدَّت﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت، وفي الحديث «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه»[2]. وقوله تعالى: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت عنهم، ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ كما تقدم، وقوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿فملاقيه﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، عن جابر قال، قال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه ابن جرير عن علي بن الحسين مرفوعاً.

ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[١]، ومن النـاس من يعيد الضمير على قوله ﴿ ربك ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، قال ابن عباس: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً، وقال قتادة: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله. ثم قال تعالى: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقـائق أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت، فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾، قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامـة عذب»[٢]. وروى ابن جرير، عن عائشة رضي الله عنها قالت؛ قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس أحـد يحاسب يوم القيامة إلا معذباً»، فقلت: أليس الله يقول ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾؟ قال: «ذاك العرض، إنه من نوقش الحساب عذب»، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت[٣]. وفي رواية عن عائشة قالت: «من نوقش الحساب - أو من حوسب - عذب، ثم قالت: إنمـا الحساب اليسير عرض على الله تعالى وهو يراهم»[٤]. وقوله تعالى: ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ﴿ مسروراً ﴾ أي فرحاً مغتبطاً بمـا أعطاه الله عزَّ وجلَّ، وقد روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرور أو مكظوم[٥]. وقوله تعالى: ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً ﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿ إنه ظنَّ أن لن يحور ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته، قال ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحَوْر هو الرجوع، قال الله: ﴿ بلى إن ربه كان به بصيراً ﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه ﴿ كان به بصيراً ﴾ أي علياً خبيراً.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي.

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه الشيخان وابن جرير.

(٤) رواه ابن جرير.

(٥) أخرجه الطبراني.

قال علي وابن عباس: ﴿الشفق﴾ الحمرة، وقال عبدالرزاق، عن أبي هريرة: ﴿الشفق﴾ البياض، فالشفق هو حمرة الأفق، إما قبل طلوع الشمس، كما قاله مجاهد، وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة، قال الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق، وفي الحديث: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»[١]، ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ هو النهار كله، وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى: ﴿والليل وما وسق﴾ أي جمع، كأنه أقسم بالضياء والظلام، قال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً وبالليل مقبلاً، وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض، وهو من الأضداد. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما وسق﴾ وما جمع، قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة، وقال عكرمة: ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه، وقوله تعالى: ﴿والقمر إذا اتسق﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى، وقال الحسن: إذا اجتمع وامتلأ، وقال قتادة: إذا استدار، ومعنى كلامهم إنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلاً لليل وما وسق.

وقوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال البخاري، قال ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ[٢]، وقال الشعبي ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء، يعني ليلة الإسراء، وقيل: ﴿طبقاً عن طبق﴾ منزلاً على منزل، ويقال: أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال[٣]؛ وقال السدي: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل، وكأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وقال ابن مسعود: ﴿طبقاً عن طبق﴾ السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق، وقال سعيد بن جبير ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: قوم كانوا في الدنيا خسيسٌ أمرهم فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا فاتضعوا في الآخرة، وقال عكرمة: ﴿طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً، وقال الحسن البصري: ﴿طبقاً عن طبق﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة. ثم قال ابن جرير: والصواب من التأويل قول من قال: لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمراً بعد أمر من الشدائد، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ - جميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً، وقوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عزَّ وجلَّ

(١) أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) هي رواية العوفي عن ابن عباس.

قد أعد لهم عذاباً أليماً، وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي بجوارحهم ﴿لهم أجر﴾ أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد: غير محسوب، وحاصل قولهما: أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون: غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول قد أنكره غير واحد، فإن الله عزَّ وجلَّ له المنة على أهل الجنة، في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، والحمد لله وحده أبداً.

[آخر تفسير سورة الإنشقاق ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

تفسير سورة الانشقاق

وهى مكية .

قال مالك ، عن عبد الله بن يزيد ، عن أبى سلمة : أن أبا هريرة قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ، فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائى ، من طريق مالك ، به [١] .

وقال البخارى : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن بكر ، عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هُرَيرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ،فقلت له ، قال :سجدتُ خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه [٢] .

ورواه أيضا عن مسدد ، عن معتمر ، به . ثم رواه عن مسدد ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن التيمى، عن بكر ، عن أبى رافع ، فذكره[٣] . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من طرق ، عن سليمان بن طِرْخان التيمى ، به [٤] . وقد روى مسلم وأهل السنن من حديث سفيان بن عُيَينة ــ زاد النَّسائى : وسفيان الثورى ــ كلاهما عن أيوب بن موسى ، عن عطاء بن ميناء ، عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦٠) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٦٦) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٦٨) .
(٤) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٨) وسنن النسائى (٢/ ١٦١) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٧) وسنن الترمذى برقم (٥٧٣) وسنن النسائى (٢/ ١٦٢) .

وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي : وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يغالب ،بل قد قهر كل شيء وذل له كلّ شيء .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي : بُسطت وفرشت وَوُسِّعَت .

قال ابن جرير ، رحمه الله : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن [١] ثور ، عن معمر ، عن الزهري ، عن على بن الحسين : أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يومُ القيامة مَدَّ الله الأرض مَدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب ،إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي ؟ فيقول الله عز وجل: صدق. ثم أشفع فأقول : يا رب ، عبادك عبدوك في أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود » [٢] .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي : ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ،وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي : ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ، ﴿ فَمُلاقِيهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملتَ من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسي ، عن الحسن بن جعفر ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه،واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» [٣] .

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي : فملاق [٤] ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم .

قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملا تلقى الله به ،خيرا كان أو شرا .

وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك ــ يا ابن آدم ــ لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي : سهلا بلا تعسير ، أي: لا يحقق عليه جَميعُ دقائق أعماله ؛ فإن من حوسب كذلك يهلك [٥] لا محالة .

---

(١) في أ : « حدثنا أبو » .

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٧٢) ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٨/١) ومن طريقه الطبري في تفسيره (٩٩/١٥) عن معمر ، عن الزهري، عن علي بن الحسين به مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن جعفر ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهري، عن علي بن الحسين ، عن رجل من أهل العلم به ، وقال : « صحيح تفرد بهذه الألفاظ علي بن الحسين لم يروه عنه إلا الزهري ولا عنه إلا إبراهيم بن سعد ، وعلي بن الحسين هو أفضل وأتقى من أن يروه عن رجل لا يعتمده فينسبه إلى العلم ويطلق القول به». وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٤٠٠) : « رجاله ثقات ، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً » . لكن الحديث له علة وهي الاختلاف على الزهري في اسم الصحابي ، فرواه الحاكم في المستدرك (٥/ ٥٧٠) من طريق إبراهيم بن حمزة الزبيري ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن علي بن حسين ، عن جابر مرفوعاً بنحوه ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) مسند الطيالسي برقم (١٧٥٥) .

(٤) في م : « أي ملاق » .

(٥) في م ، أ : « كذلك هلك » .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، عن عبد الله بن أبى مُلَيْكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نُوقش الحساب عُذِّب » . قالت : فقلت : أليس قال الله : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ؟ ، قال : « ليس ذاك بالحساب ،ولكن ذلك العَرْض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » .

وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير ، من حديث أيوب السختيانى ، به[(١)] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكيع ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا أبو عامر الخَزَاز ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :« إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقش الحساب عُذب » ، وقال بيده على إصبعه كأنه يَنكُتُ .

وقد رواه أيضا عن عمرو بن على ، عن ابن أبى عدى ، عن أبى يونس القُشَيرى ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، عن القاسم ، عن عائشة ، فذكر الحديث [(٢)] . أخرجاه من طريق أبى يونس القُشَيَرى ، واسمه حاتم بن أبى صغيرة [(٣)]، به [(٤)] .

قال ابن جرير : حدثنا نصر بن على الجهضمى ، حدثنا مسلم ، عن الحريش بن الخَرِّيت أخى الزبير ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة قالت : من نُوقش الحساب ــ أو : من حُوسِب ــ عُذِّبَ . قال : ثم قالت : إنما الحسابُ اليسيرُ عَرض على الله عز وجل وهو يراهم [(٥)] .

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى عبد الواحد بن حمزة بن [(٦)] عبد الله بن الزبير ، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقش الحسابَ يا عائشةُ يومئذ هَلَكَ » . صحيح على شرط مسلم [(٧)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ، والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل .

وقد روى الطبرانى عن ثوبان ــ مولى رسول الله ﷺ ــ أنه قال : إنكم تعملون أعمالا لا تعرف، ويوشك العازب [(٨)] أن يثوب إلى أهله ، فمسرور ومكظوم[(٩)] .

---

(١) المسند (٦/ ٤٧) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٩) وتفسير الطبرى (٣٠/ ٧٤) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٧٤) .

(٣) فى أ : « صفرة » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦) .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٧٤) .

(٦) فى م : « عن » .

(٧) المسند (٦/ ٤٨) .

(٨) فى م ، أ، هـ : « العارف » والمثبت من المعجم الكبير .

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٩٤) من طريق يحيى الحمانى ، عن جعفر بن سليمان ، عن أبى عبد الله الشامى ، عن عائذ الله ، عن ثوبان به مرفوعاً ، ويحيى الحمانى ضعيف .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي : بشماله من وراء ظهره ، تُثْنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أي: خسارا وهلاكا ، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي : فرحا لا يفكر في العواقب ،ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني : بلى سيعيده الله كما بدأه ،ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه ﴿ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أي : عليما خبيرا .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾ .

رُوِى عن علي ، وابن عباس ، وعُبادة بن الصامت ، وأبي هُرَيرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، ومحمد بن علي بن الحسين ، ومكحول ،وبكر بن عبد الله المزني ، وبُكَيْر [١] بن الأشج ، ومالك ، وابن أبي ذئب ، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجَشُون أنهم قالوا : الشفق : الحمرة .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن ابن خُثَيم [٢] ، عن ابن لبيبة ، عن أبي هُرَيرة قال : الشفق: البياض [٣] .

فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ـ كما قاله مجاهد ـ وإما بعد غروبها ـ كما هو معروف[٤] عند أهل اللغة .

قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، فإذا ذهب قيل : غاب الشفق .

وقال الجوهري : الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتُها في أول الليل إلى قريب من العَتَمَة .

وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء .

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق » [٥] .

ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه

---

(١) في أ : « وبكر » . (٢) في أ : « خيثم » .
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٩٢) .
(٤) في م : « كما هو المعروف » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٦١٢) .

قال فى هذه الآية : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله. وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبى حاتم .

وإنما حمله على هذا قَرْنُهُ بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى : جمع . كأنه أقسم بالضياء والظلام .

وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلا . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد [(١)].

قال ابن عباس ، ومجاهد ،والحسن ،وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة .واستشهد ابن عباس بقول الشاعر [(٢)] :

مُستَوسقات لو تَجِدْنَ سَائقا

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شىء إلى مأواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ،والضحاك ،وابن زيد .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ،إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار .

ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلا لليل وما وسق .

وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : قال البخارى : أخبرنا سعيد بن النضر ، أخبرنا هُشَيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد قال : قال ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ــ قال هذا نبيكم ﷺ .

هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ [(٣)] ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبى ﷺ ، كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم ﷺ ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعا على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر ، والله أعلم ، كما قال أنس: لا يأتى عام إلا والذى بعده شَرٌّ منه ، سمعته من نبيكم ﷺ .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ،حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد ؛ أن ابن عباس كان يقول : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : يعنى نبيكم ﷺ ، يقول : حالا بعد حال . هذا لفظه [(٤)] .

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٧٦) .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/٧٦) وقد ذكره المبرد فى الكامل :

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائقاً

وهو منسوب لابن صرمة .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٠) .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/٧٨) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومُرَة الطَّيِّب ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك [ومسروق وأبو صالح] (١) .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . قال : هذا ، يعنى المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعا على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ،كما قال أبو داود الطيالسى وغُنْدَر : حدثنا شعبة، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءةُ عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبَنّ» بفتح التاء والباء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ،حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل ، عن الشعبى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : لتركَبن يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا رُوى عن ابن مسعود، ومسروق ، وأبى العالية : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ : سماء بعد سماء .

قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال أبو إسحاق ، والسدى (٢) ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ : منزلا على منزل . وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس مثله ــ وزاد :«ويقال : أمرا بعد أمر ،وحالا بعد حال».

وقال السدى نفسُه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل .

قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، حَذْو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه ». قالوا: يا رسول الله،اليهود والنصارى؟ قال:« فمن؟ » (٣) . وهذا محتمل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا ابن جابر ،أنه سمع مكحولا يقول فى قول الله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : فى كل عشرين سنة ،تحدثون أمرا لم تكونوا عليه .

وقال الأعمش : حدثنى إبراهيم قال : قال عبد الله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ،ثم تكون لونا بعد لون .

وقال الثورى ، عن قيس بن وهب ، عن مرة ، عن ابن مسعود : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال : السماء مَرةً كالدهان ، ومرة تنشق .

وروى البزار من طريق جابر الجعفى ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ ، يا محمد ، يعنى حالا بعد حال . ثم قال : ورواه جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس .

---

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « عن السدى » .

(٣) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣٤ من سورة التوبة .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة ، وآخرون كانوا أشرافا فى الدنيا ،فاتضعوا فى الآخرة .

وقال عكرمة :﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً .

وقال الحسن البصرى : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ،وسَقَما بعد صحة .

وقال ابن أبى حاتم :ذكر عن عبد الله بن زاهر :حدثنى أبى ، عن عمرو بن شَمِر ، عن جابر ــ هو الجعفى ــ عن محمد بن على ،عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن ابن آدم لفى غفلة مما خُلِقَ له ؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه ، اكتب أجله ، اكتب أثره ، اكتب شقيا أو سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله إليه مَلَكا فيحفظه حتى يدرك ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا حَضَره الموتُ ارتفع ذانك الملكان ،وجاءه ملك الموت فقبض روحه ، فإذا دخل قبره رَدَّ الروح فى جسده ، ثم ارتفع ملك الموت ، وجاءه مَلَكا القبر فامتحناه ، ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات ، فانتشطا كتابا معقودا فى عنقه ، ثم حضرا معه : واحدٌ سائقا وآخر شهيدا » ، ثم قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ [ق:٢٢] . قال رسول الله ﷺ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : « حالا بعد حال » . ثم قال النبى ﷺ : « إن قدامكم لأمرا عظيما لا تَقدرُونه ، فاستعينوا بالله العظيم » (١) .

هذا حديث منكر ،وإسناده فيه ضعفاء ،ولكن معناه صحيح ،والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت ــ يا محمد ــ حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشَّدَائد . والمراد بذلك ــ وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوَجَّها (٢) ــ جَمِيعَ الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً (٣) .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن (٤) وكلامه ــ وهو هذا القرآن ــ لا يسجدون إعظاما وإكراماً واحتراما ؟

وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ : قال مجاهد وقتادة : يكتمون فى صدورهم .

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٠٠) لابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية .

(٢) فى م : « متوجهاً » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٠) .

(٤) فى أ : « آيات الله » .

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: فأخبرهم ـ يا محمد ـ بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابا أليما .

وقوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى لكن الذين آمنوا ـ أى : بقلوبهم ـ وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .

﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : قال ابن عباس : غير منقوص . وقال مجاهد ،والضحاك : غير محسوب .

وحاصل قولهما أنه غير مقطوع ، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] . وقال السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم .

وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد ؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وآن ولحظة ،وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنة دائما سرمداً ، والحمد لله وحده أبدا ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] .

آخر تفسير سورة « الانشقاق » ولله الحمد

سورة الانشقاق[1]

مكيّة، وهي خمس[2] وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ أي: بالغمام كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]. وعن عليّ رضي الله عنه: تنشقّ مِن المجرّة.[3]

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت، أي: انقادت وأذعَنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلّقت إرادته بانشقاقها انقيادَ المأمور المِطواع إذا ورد عليه أَمْر الآمر المُطاع. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إليها للإشعار بعِلّة الحُكم. وهذه الجملة ونظيرتُها الآتية بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ١١/٤١] في الإنباء عن كون ما نُسب إلى السماء والأرض مِن الانشقاق والمدّ وغيرهما جاريًا على مقتضى الحِكمة، كما أشيرَ إليه فيما سلف.

﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي: جُعلت حقيقةً بالاستماع والانقياد لكن لا بعدَ أن لم يكن كذلك؛ بل في نفسها وحدّ ذاتها مِن قولهم "هو محقوق بكذا" و"حقيقٌ به"، والمعنى: انقادت لربّها وهي حقيقة بذلك، لكن لا على أنّ المدار خصوصيّة ذاتها مِن بين سائر المقدورات؛ بل خصوصيّة القدرة القاهرة الربّانيّة التي يتأتّى لها

---

[1] س: انشقّت.

[2] س: ثلاث.

[3] النكت والعيون للماوردي، ٢٣٨/٦؛ تفسير أبي المظفّر السمعاني، ١٨١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

كلّ مقدور ولا يتخلّف عنها أمر مِن الأمور، فحَقُّ الجملة أن تكون اعتراضًا مقرِّرًا لِما قبلها لا معطوفةً / عليه. [٢٨٤و]

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطت بإزالة جبالها وآكامها مِن مقارّها وتسويتها بحيث صارت قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، أو زِيدت سَعةً وبسطةً، مِن "مدّه" بمعنى أمدّه، أي: زاده.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: رَمَت ما في جوفها مِن الموتى والكنوز، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة، ٢/٩٩]. ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلَت عمّا فيها غاية الخُلوّ، حتّى لم يبقَ فيها شيء منه، كأنّها تكلّفت في ذلك أقصى جُهدها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلّي ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وهي حقيقة بذلك، أي: شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانيّة. وتكريرُ كلمة ﴿إِذَا﴾ مع اتّحاد الأفعال المنسوبة إلى السماء والأرض وقوعًا في الوقت الممتدّ الذي هو مدلولها، قد مرّ سرّه فيما مرّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: جاهِدٌ ومُجِدٌ إلى الموت وما بعده مِن الأحوال التي مُثِّلت باللقاء مبالغٌ في ذلك، فإنّ الكدح جُهد النفس في العمل والكدُّ فيه، بحيث يؤثّر فيها مِن "كَدَح جِلدَه" إذا خَدَشه. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: فمُلاقٍ له عَقيب ذلك لا محالةَ مِن غير صارف يَلوِيك عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾... إلى آخره. قيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ اعتراضٌ. وقيل: هو محذوف للتهويل والإيماء إلى قصور العبارة عن بيانه، أو للتعويل على دلالة ما مرّ في سورة التكوير والانفطار عليه. وقيل: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، تقديرُه لاقى الإنسان كَدْحه. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وما قبله اعتراض. وقيل: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، بإضمار القول ومعنى يسيرًا سهلًا

لا مناقشة فيه ولا اعتراض.[١] وعن الصِّدِّيقة رضي الله عنها: هو أن يُعرَّف ذنوبه ثم يُتجاوز عنه.[٢]

﴿وَيَنقَلِبُ / إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عشيرتِه المؤمنين أو فريقِ المؤمنين [٢٨٤ظ] مبتهجًا بحاله قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة، ١٩/٦٩]. وقيل: إلى أهله في الجنّة مِن الحور والغِلمان.[٣]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي: يؤتاه بشِماله مِن وراء ظهره. قيل: تُغَلّ يمناه إلى عنقه وتُجعَل شِماله وراءَ ظهره، فيُؤتى كتابَه بشماله. وقيل: تُخلَع يده اليسرى مِن وراء ظهره.[٤]

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي: يتمنّى الثُّبور: وهو الهلاك، ويدعوه "يا ثبوراه تعالَ فإنّه أوانك"، وأنّى له ذلك؟

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: يدخلها. وقُرئ: "يُصَلَّى"،[٥] كقوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة، ٩٤/٥٦]. وقُرئ: "وَيُصْلَى"،[٦] كما في قوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء، ١١٥/٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ مُترَفًا بَطِرًا مُستبشِرًا كدَيْدَن الفُجّار الذين لا يُهمّهم ولا يخطُر ببالهم أمور الآخرة ولا يتفكّرون في العواقب، ولم يكن حزينًا متفكِّرًا في حاله ومآله كسنّة الصُّلحاء والمتّقين. والجملة استئناف ببيان عِلّة ما قبلها.

---

١ انظر لهذه الأقوال اللباب لابن عادل، ٢٢٦/٢٠-٢٢٧؛ وبعضها في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٣/٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٥/٣.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٤.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة وهارون، وأبان عن عاصم، وخارجة والأصمعي عن نافع، والعتكي عن أبي عمرو، والقَرّاب عن أُبيّ، ومحبوب عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ تعليل لسروره في الدنيا، أي: ظنّ أن لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبًا للمَعاد. و"أنْ" مخفَّفة مِن "أنّ" سادّة مع ما في حيّزها مَسدّ مفعولي "الظنّ" أو أحدهما، على الخلاف المعروف.[1]

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لِما بعد ﴿لَن﴾. وقوله تعالى:[2] ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ تحقيق وتعليل له، أي: بلى لَيحورَنّ البتّةَ إنّ ربّه الذي خلقه كان به وبأعماله الموجِبة للجزاء بصيرًا بحيث لا تخفى منها خافية، فلا بدّ مِن رَجْعه وحسابه وجزائه عليها حتمًا. وقيل: نزلت الآيتان في أبي سلمةَ بن عبد الأشدّ وأخيه الأسود.[3]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هي الحُمرة التي تُشاهَد في أُفُق المغرب بعد الغروب، أو البياضُ الذي يليها، سُمّي به لرِقّته، ومنه الشَّفَقة التي هي عبارة عن رِقّة القلب. ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جَمَع وضَمّ، / يقال: "وَسَقه فاتّسَق واستوسَق"، [٢٨٥و] أي: جَمَعه فاجتمع. و﴿مَا﴾ عبارة عمّا يجتمع بالليل ويأوي إلى مكانه مِن الدوابّ وغيرها. ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع وتمّ بدرًا ليلة أربعَ عشرةَ.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أي: لَتُلاقُنّ حالًا بعد حال كلُّ واحدة منها مطابقة لأختها في الشِّدّة والفظاعة. وقيل: الطَّبَق جَمْع طَبَقة وهي المرتبة، وهو الأوفق للرُّكوب المنبئ عن الاعتلاء، والمعنى لَتركبُنّ أحوالًا بعد أحوال هي طبقات في الشِّدّة بعضُها أرفع مِن بعض، وهي الموتُ وما بعده مِن مواطن القيامة ودواهيها.

وقُرئ: "لَتَرْكَبَنَّ"[4] بالإفراد على خطاب الإنسان، باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لأفراده كالقراءة الأولى. وقُرئ بكسر "الباء" على خطاب النفس،[5]

---

[1] بين سيبويهِ والأخفش. انظر لتفصيله: شرح الرضي على الكافية، ٤/١٧١.

[2] س – وقوله تعالى.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٤٥.

[4] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

[5] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١.

و"لَيَرْكَبَنَّ"[١] بـ"الياء"، أي: لَيَركبنّ الإنسانُ. ومحلّ ﴿عَن طَبَقٍ﴾ النصب على أنّه صفة لـ﴿طَبَقًا﴾، أي: طبقًا مجاوزًا لطبَق، أو حال مِن الضمير في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي: لَتركبنّ طبقًا مجاوِزين أو مجاوِزًا أو مجاوِزةً على حسب القراءة.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لترتيب ما بعدها مِن الإنكار والتعجيب على ما قبلها مِن أحوال يوم القيامة وأهوالها الموجِبة للإيمان والسجود، أي: إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذُكر، فأيّ شيء لهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين؟ أي: أيُّ شيء يمنعهم مِن الإيمان مع تعاضُد موجِباته؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ جملة شرطيّة محلّها النصب على الحاليّة نسَقًا على ما قبلها، أي: فأيُّ مانع لهم حالَ عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة القرآن؟ وقيل: قرأ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق، ١٩/٩٦]، فسَجَد هو ومَن معه مِن المؤمنين وقريشٌ تصفِّق فوق رءوسهم وتصفِر، فنزلَت.[٢] وبه احتجّ أبو حنيفةَ رحمه الله على وجوب السجدة.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ليس في المفصَّل سجدة»،[٤] وعن أبي هريرةَ: أنّه سجد فيها، وقال: «واللهِ ما سجدتُ إلّا بعد أن رأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم / يسجد فيها»،[٥] وعن أنسٍ رضي الله عنه: «صلّيتُ خلفَ أبي بكر وعمرَ وعثمانَ رضي الله تعالى عنهم فسجدوا»،[٦] وعن الحسَن رحمه الله: هي غيرُ واجبة.[٧] [٢٨٥ظ]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدرداء والقاسم بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

[٣] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

[٤] مصنّف عبد الرزّاق، ٣٤٣/٣ (٥٩٠٠)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٤٤٤/٢-٤٤٥ (٣٧٠٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

[٥] بمعناه في صحيح البخاري، ١٥٣/١ (٧٦٦)؛ وصحيح مسلم، ٤٠٧/١ (٥٧٨)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧٧/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

[٦] ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

[٧] الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن الناطق بما ذُكر مِن أحوال القيامة وأهوالها مع تحقُّق موجِبات تصديقه، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يُضمِرون في قلوبهم ويجمعون في صدورهم مِن الكفر والحسد والبغي والبغضاء، أو بما يجمعون في صحفهم مِن أعمال السوء ويدَّخرون لأنفسهم مِن أنواع العذاب عِلمًا فعليًّا.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنّ عِلمه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجِبٌ لتعذيبهم حتمًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطِع إن جُعل الموصول عبارةً عن المؤمنين كافّة، ومتّصلٌ إن أريد به مَن آمن منهم بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرُ مقطوع أو ممنون به عليهم، استئناف مقرِّر لِما أفاده الاستثناء مِن انتفاء العذاب عنهم، ومبيِّن لكيفيّته ومقارنته للثواب العظيم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة انشقّت أعاذه الله تعالى أن يعطيَه كتابه وراءَ ظهره».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٩٤/٢٩ (الانشقاق، ١/٨٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥١/٤ (الانشقاق، ١/٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٤

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

مكية، ثلاثٌ أو خمس وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿إذا السَّماءُ انشَقَّتْ، وأذِنَتْ﴾: سمعتْ وأطاعت في الانشقاق ﴿لِرَبِّها وحُقَّتْ﴾ أي: حُقّ لها أن تسمع وتطيع، ٣ ـ ﴿وإذا الأرضُ مُدَّتْ﴾: زِيدَ في سَعتها كما يُمدّ الأديم ولم يبق عليها بناء ولا جبل، ٤ ـ ﴿وألقَتْ ما فِيها﴾ من الموتى إلى ظاهرها ﴿وتَخَلَّتْ﴾ عنه، ٥ ـ ﴿وأذِنَتْ﴾: سمعتْ وأطاعت في ذلك ﴿لِرَبِّها وحُقَّتْ﴾ ـ وذلك كُلّه يكون يوم القيامة ـ وجواب «إذا» وما عُطف عليها محذوف، دلّ عليه ما بعده، تقديره: لقِيَ الإنسانُ عملَه.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

قولُهُ: (سَمِعَت) أي: استَمَعت.

قولُهُ: (وأَطَاعَت) عَطفُ تَفسيرٍ؛ أي: انقادَتْ لتَأثيرِ قُدرتِهِ تعالى.

قولُهُ: (أي: حُقَّ لَهَا) أي: جُعِلت حقيقَةً بالاستماعِ والانقيادِ، يُقال: حُقَّ بكذا فهو محقوقٌ وحَقيقٌ.

قولُهُ: (زِيدَ) وبُسِطَت، بأن تُزالَ جبالُها وآكامُها.

قولُهُ: (مِنَ المَوتَى) قيلَ: والكُنوزِ.

قولُهُ: (عَنْه) أي: وتكلَّفَت في الخُلوِّ أقصى جُهدِها حتَّى لم يبقَ شيءٌ في باطِنِها.

قولُهُ: (فِي ذَلِكَ) من الإلقاءِ والتَّخليَة.

قولُهُ: (عَمَلَه) الأظهَرُ: كدحَه، وقيلَ: جوابُهُ محذوفٌ للتَّهوِيلِ بالإيهامِ.

٦ ـ ﴿يا أيُّها الإنسانُ، إنَّكَ كادِحٌ﴾: جاهدٌ في عملك ﴿إِلَى﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾ ـ وهو الموتُ ـ ﴿كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ أي: مُلاقٍ عملَكَ المذكورَ من خير أو شرّ يوم القيامة.

٧ ـ ﴿فأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ﴾: كِتابَ عمله ﴿بِيَمِينِهِ﴾ ـ هو المُؤمن ـ ٨ ـ ﴿فَسَوفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا﴾ هو عرضُ عمله عليه كما فُسّر في حديث الصحيحين ـ وفيه: «مَن نُوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ» ـ وبعدَ العرض يُتجاوز عنه، ٩ ـ ﴿ويَنقَلِبُ إِلَى أهلِهِ﴾ في الجنّة ﴿مَسرُورًا﴾ بذلك، ١٠ ـ ﴿وأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهرِهِ﴾ ـ هو الكافر، تُغَلّ يُمناه إلى عُنقه وتُجعل يُسراه وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه ـ ١١ ـ ﴿فَسَوفَ يَدعُو﴾ عِند رُؤيته ما فيه ﴿ثُبُورًا﴾: يُنادي هلاكَه بقوله: يا ثُبوراهْ، ١٢ ـ ﴿ويَصلَى سَعِيرًا﴾: يَدخل النارَ الشديدة. وفي قراءة بضمِّ الياء وفتحِ الصاد واللامِ المُشدّدة. ١٣ ـ ﴿إنَّهُ كانَ في أهلِهِ﴾: عشيرته في الدنيا ﴿مَسرُورًا﴾: بطِرًا باتّباعه لِهواه. ١٤ ـ ﴿إنَّهُ ظَنَّ أنْ﴾: مُخففةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: أنّه ﴿لَن يَحُورَ﴾: يرجِعَ إلى ربّه. ١٥ ـ ﴿بَلَى﴾ يرجِعُ إليه. ﴿إنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيرًا﴾: عالمًا برُجوعه إليه.

١٦ ـ ﴿فلا أُقسِمُ﴾ ـ لا: زائدةٌ ـ ﴿بِالشَّفَقِ﴾ ....

قولُهُ: (أي: مُلاقٍ عَمَلَك) الأظهرُ: فأنتَ ملاقي ربِّكَ، وهو مجازي عملِكَ.

قولُهُ: (هُوَ عَرضُ عَمَلِهِ) أي: سَهلاً لا يناقَشُ فيه.

قولُهُ: (وفِيهِ) تِكرارٌ.

قولُهُ: (الحِسَابَ[1]) أي: «في الحِسابِ»، كما في رِوايَة[2].

قولُهُ: (وبَعدَ العَرضِ) ليسَ من الحديثِ.

قولُهُ: (يُنَادِي) ويتمَنَّى.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) لحرمِيٍّ وشامِيٍّ وكسائِيٍّ[3].

قولُهُ: (لِهَوَاه) قيل: لنفسِهِ مُتابِعاً في هواهُ مُسارِعاً، (بَطَراً) بالمالِ والجاهِ فارِغاً عن مُحاسَبةِ مَولاهُ.

قولُهُ: (برُجُوعِهِ) أو عالِماً بأعمالِهِ، فلا يُهمِلهُ بل يرجعُهُ ويجازِيهِ.

---

(١) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ٢٢٨) (٢٣٢١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٧).

هو الحُمرة في الأُفق بعد غُروب الشمس، ١٧ ـ ﴿والليلِ وما وَسَقَ﴾: جمعَ ما دخل عليه من الدوابّ وغيرها، ١٨ ـ ﴿والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ﴾: اجتمع وتمّ نُوره وذلك في الليالي البيض، ١٩ ـ ﴿لَتَركَبُنَّ﴾ ـ أيها الناسُ. أصله «تَركبُونَنَّ» حُذفت نونُ الرفع لتوالي الأمثال، والواوُ لالتقاء الساكنين ـ ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حال. وهو الموت ثمّ الحياة وما بعدها من أحوال القيامة.

٢٠ ـ ﴿فمالَهم﴾ أي: الكُفّارِ ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ أي: أيُّ مانع لهم من الإيمان؟ أو أيُّ حُجّة لهم في تركه مع وُجود براهينه؟ ٢١ ـ ﴿و﴾ مالهم ﴿إذا قُرِئَ علَيهِم القُرآنُ لا يَسجُدُونَ﴾: يخضعون بأن يُؤمنوا به لإعجازه؟ ٢٢ ـ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث وغيره، ٢٣ ـ ﴿واللهُ أعلَمُ بِما يُوعُونَ﴾: يَجمعون في صُحفهم من الكُفر والتكذيب وأعمال السوء. ٢٤ ـ ﴿فبَشِّرْهُم﴾: أخبرْهم ﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾: مُؤلم. ٢٥ ـ ﴿إلاّ﴾ لكن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم أجرٌ غَيرُ مَمنُونٍ﴾: غير مقطوع ولا منقوص ولا يُمَنُّ به عليهم.

قولُهُ: (هُوَ الحُمْرَةُ) وعندَ أبي حنيفَةَ[1]: أنَّه البَياضُ الذي يَليها.

قولُهُ: (فِي الأُفُقِ) أي: أفُقِ المغرِبِ.

قولُهُ: (أيُّها النَّاسُ) وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ بالفتحِ على خِطابِ[2] الإنسانِ باعتِبارِ اللَّفظِ.

قولُهُ: (بَعدَ حَالٍ) مطابقَةٍ لأختِها في الشِّدَّةِ.

قولُهُ: (يَخضَعُونَ) أو لا يسجُدونَ للتِّلاوَةِ، لما رويَ أنَّه ﷺ قرأ: ﴿واسجُد واقتَرِب﴾ فسجَدَ بمن معهُ من المؤمنِينَ وقُرَيشٌ تُصفِّقُ فوقَ رُؤوسِهِم فنزَلَت[3]، واحتجَّ به أبو حنيفَةَ[4] على وجوبِ السُّجودِ، فإنَّه ذمٌّ لمن سمِعَهُ ولم يسجُدْ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) أو بالقُرآنِ.

قولُهُ: (يَجمَعُونَ) أو يُضمِرونَ في صُدورِهِم.

قولُهُ: (أَخبِرهُم) أو تهَكُّمٌ واستِهزاءٌ بهِم.

قولُهُ: (لكِن) فالاستثناءُ مُنقطِعٌ أو مُتَّصِلٌ، والمرادُ: مَن تابَ وآمنَ منهم.

قولُهُ: (ولا) لعلَّ الواوَ بمعنى: أو، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ.

---

(١) انظر: «الجوهرة النيرة» (١/ ٤٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٧).

(٣) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ١٠٨٨): قال الولي العراقي: لم أقف عليه، والحافظ ابن حجر: لم أقف عليه.

(٤) انظر: «التجريد» (٢/ ٦٤٤).

سورة الانشقاق

ويقال: سورة «انشقَّت». وهي مكيةٌ بلا خلافٍ، وآيُها ثلاثٌ وعشرون آيةً في البصري والشامي، وخمسٌ وعشرون في غيرهما.

ووجهُ مناسبتها لِمَا قبلها يُعلم مما نقلناه عن الجلال السيوطيِّ فيما قبلُ[(١)]. وأَوْجَزَ بعضهم في بيان وجهِ ترتيب هذه السور الثلاث فقال: إنَّ في «انفطرت» التعريفُ بالحفظة الكاتبين، وفي «المطففين» مقرُّ كُتُبِهم، وفي هذه عَرْضُها في القيامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ أي: بالغمام كما روي عن ابن عباس، وذهب إليه الفرَّاء والزجَّاج كما في «البحر»[(٢)]، ويشهد له قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] فالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً.

وقيل: تنشقُّ لهول يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]. وبُحِثَ فيه بأنه لا ينافي أن يكون الانشقاقُ بالغمام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنها تنشقُّ من المجرة[(٣)]. وفي الآثار أنها بابُ السماء[(٤)].

---

(١) سلف عند بداية تفسير سورة المطففين.

(٢) ٨/ ٤٤٥، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢٤٩، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ٣٠٣.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢٩.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٩٦) عن ابن عباس بلفظ: المجرَّة: باب السماء الذي تنشقُّ منه.

وأهلُ الهيئة يقولون: إنها نجومٌ صغارٌ متقاربةٌ جدًّا غيرُ متميزةٍ في الحسِّ، ويظهر ذلك ظهوراً بيِّناً لمن نظر إليها بالأرصاد ولا منافاةَ على ما قيل من أنَّ المراد بكونها بابَ السماء أنَّ مَهْبِطَ الملائكة عليهم السلام ومَصْعَدَهم من جهتها، وذلك يجامِعُ[1] كونَها نجوماً صغاراً متقاربةً غيرَ متميِّزةٍ في الحسِّ.

وخبرُ أنَّ النبيَّ ﷺ أرسل معاذاً إلى أهل اليمن فقال له: «يا معاذ، إنهم سائلوك عن المجرة، فقل: هي لعابُ حيةٍ تحت العرش»[2] ومنه قيل: إنها في البحر المكفوف تحت السماء = لا يكاد يصحُّ، والقولُ المذكورُ لا ينبغي أن يُحْكَى إلَّا لينبَّه على حاله.

وقرأ عبيد بن عقيل عن أبي عمرو «انشقت» وكذا ما بعدُ من نظائره بإشمام التاء كسراً في الوقف، وحَكَى عنه أيضاً الكسرَ أبو عبيد الله بن خالويه[3]، وذلك لغةُ طيِّئ على ما قيل. وعن أبي حاتم: سمعتُ أعرابيًّا فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاء، أي: تاء التأنيث اللاحقة للفعل، وهي لغةٌ. ولعل ذلك لأنَّ الفواصل قد تُجْرَى مجرى القوافي، فكما أنَّ هذه التاء تُكسر في القوافي ـ كما في قول كثيِّر عزَّةَ من قصيدة:

وما أنا بالداعي لعزةَ بالرَّدَى ولا شامت إنْ قيل عزةُ ذلَّتِ[4]

إلى غير ذلك من أبيات تلك القصيدة ـ تُكسر في الفواصل، وإجراءُ الفواصل في الوقف مُجْرَى القوافي مهيعٌ معروفٌ، كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ في سورة الأحزاب، وحَمْلُ الوصل على حالة الوقف موجودٌ أيضاً في الفواصل.

---

(١) في (م): بجامع.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٥٤)، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٩، وابن الجوزي في الموضوعات (٦٤) من حديث جابر ﷺ. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٣) من حديث معاذ ﷺ، وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٣٠ ترجمة عبد الأعلى بن حكيم: هذا إسناد مظلم، ومتن ليس بصحيح.

(٣) في القراءات الشاذة ص١٧٠، والكلام من البحر ٨/ ٤٤٥.

(٤) ديوان كثير عزة ص٨٠، والبحر ٨/ ٤٤٥، والكلام منه. ورواية الديوان: إنْ نعلُ عزَّة زلَّت، أي: لم أكن لأشمت إذا زلَّت بها النعل فوقعت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت له تعالى، يقال: أذن إذا سمع؛ قال الشاعر:

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرْتُ به   وإن ذُكِرْتُ بشرٌّ عندهم أَذِنوا(١)

وقال قعنب:

إن يَأْذَنوا ريبةً طاروا بها فرحاً   وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دَفَنوا(٢)

والاستماع هنا مجازٌ عن الانقياد والطاعة، أي: انقادت لتأثير قدرته عز وجل حين تعلَّقتْ إرادتُه سبحانه بانشقاقها انقيادَ المأمور المِطْوَاع إذا وَرَدَ عليه أمرُ الآمِرِ المُطَاعِ. والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم.

وهذه الجملةُ ونظيرتُها بعدُ قيل: بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] في الإنباء عن كون ما نسب إلى السماء والأرض من الانشقاق والمدِّ وغيرهما جارياً على مقتضى الحكمة على ما قرَّروه.

﴿وَحُقَّتْ ۝٢﴾ أي: جُعِلَتْ حقيقةً(٣) بالاستماع والانقياد، لكنْ لا بَعْدَ أنْ لم تكن كذلك، بل في نفسِها وحدِّ ذاتها، من قولهم: هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وحاصل المعنى: انقادتْ لربِّها وهي حقيقةٌ وجديرةٌ بالانقياد؛ لِمَا أنَّ القدرة الربانية لا يتعاصاها أمرٌ من الأمور، لا لأمرٍ اختصَّتْ به من بين الممكنات.

وذكر بعضُهم أنَّ أصل الكلام: حَقَّ الله تعالى عليها بذلك، أي: حَكَم عليها بتحتُّم الانقياد، على معنى: أراده سبحانه منها إرادةً لا نَقْضَ لها.

---

(١) البيت لقعنب بن أم صاحب كما في عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٧٢٤، ومختارات ابن الشجري ص٧، واللسان (أذن) و(شور). ودون نسبة في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٥٨، والبحر ٨/ ٤٤٥.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢/ ١٥٨، والبحر ٨/ ٤٤٥. وهذا البيت ورد في عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وللمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، وبهجة المجالس ١/ ٧٢٥، ومختارات ابن الشجري ص٧، واللسان (أذن) و(شور) مقروناً مع البيت الذي سبقه في قصيدة واحدة لكن برواية:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً   مني وما سمعوا من صالح دفنوا

(٣) أي: جديرة وخليقة. حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٩.

وقيل: المعنى: وحُقَّ لها أن تنشقَّ لشدة الهول.

والجملةُ على ما اختاره بعض الأجلَّة اعتراضٌ مقرِّرٌ لِمَا قبلها. وقيل: معطوفةٌ عليه، وليس بذاك.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝﴾ قال الضحاك: بُسطت باندِكاك جبالها وآكامها وتسويتها، فصارت قاعاً صفصفاً لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً.

وقال بعضهم: زيدتْ سعةً وبَسْطةً، من مَدَّه بمعنَى أَمَدَّه، أي: زاده. ونحوُه ما قيل: جُرَّتْ فزاد انبساطها وعَظُمَتْ سعتُها، وأخرج الحاكم بسندٍ جيد عن جابر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تمدُّ الأرض يوم القيامة مدَّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضعُ قدميه»(١).

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: رمَتْ ما في جوفها من الموتى والكنوز، كما أخرج ذلك عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة(٢)، وإليه ذهب الزجَّاجُ(٣)، واقْتَصَر بعضهم كابن جبيرٍ وجماعةٍ على الموتى بناءً على أنَّ إلقاء الكنوز إذا خرج الدجَّال، وكأنَّ من ذهب إلى الأول لا يسلِّم إلقاء الكنوز يومئذٍ، ولو سلَّم يقول: يجوز أن لا يكون عامًّا لجميع الكنوز، وإنما يكون كذلك يومَ القيامة.

والقولُ بأنَّ يوم القيامة متسِعٌ يجوز أن يدخل فيه وقتُ خروج الدجَّال، ينبغي أن يُلْقَى ولا يُلْتفتَ إليه.

﴿وَتَخَلَّتْ ۝﴾ أي: وخَلَتْ عما فيها غايةَ الخلوِّ، حتى لم يبق فيها شيءٌ من ذلك، كأنها تكلَّفت في ذلك أقصى جهدِها، فصيغة التفعُّل للتكلُّف، والمقصود منه المبالغةُ كما في قولك: تَحلَّمَ الحليمُ، و: تكرَّمَ الكريمُ.

وقيل: تخلَّتْ ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: مما على ظهرها من جبالها

---

(١) المستدرك ٤/ ٥٧٠، والدر المنثور ٦/ ٣٢٩، وعنه نقل المصنف.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٥٩، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٦/ ٣٢٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٣.

وبحارها. وكِلَا القولين كما ترى. وقد أخرج أبو القاسم الخُتُّلي[(١)] في «الديباج» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أنا أولُ من تنشقُّ عنه الأرض، فأجلس جالساً في قبري وإنَّ الأرض تحرَّكُ بي، فقلت لها: ما لَكِ؟ فقالت: إنَّ ربِّي أمرني أن ألقي ما في جوفي، وأنْ أتخلَّى فأكونَ كما كنتُ إذ لا شيء فيَّ، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾»[(٢)].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء وما بعده ﴿وَحُقَّتْ ۝٥﴾ الكلام فيه نظيرُ ما تقدَّم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما ذكر وإنْ أسند إلى الأرض فهو بفعل الله تعالى وقدرتِه عز وجل وتكريرُ كلمة «إذا» لاستقلال كلٍّ من الجملتين بنوعٍ من القدرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي: جاهِدٌ ومُجدٌّ جدًّا في عملك من خيرٍ وشرٍّ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: طول حياتك إلى لقاء ربِّك، أي: إلى الموت وما بعده من الأحوال الممثَّلة باللقاء.

والكدحُ: جهدُ النفس في العمل حتى يؤثِّر فيها، من كَدَحَ جِلْدَه: إذا خَدَشَه، قال ابن مُقْبِلٍ:

وما الدهرُ إلَّا تارتان فمنهما أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكدحُ[(٣)]

وقال آخر:

ومضت بشاشةُ كلِّ عيشٍ صالح وبقيتُ أكدحُ للحياة وأنصَبُ[(٤)]

﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي: فملاقٍ له عقيبَ ذلك لا محالةَ من غير صارفٍ يَلْوِيْكَ عنه،

---

(١) في الأصل و(م): الجيلي، وهو تصحيف، وأبو القاسم الخُتُّلي هو إسحاق بن إبراهيم بن محمد نزيل بغداد، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال الذهبي: في كتابه الديباج أشياء منكرة، توفي سنة (٢٨٣هـ). السير ١٣/ ٣٤٢.

(٢) ذكره بإسناده عن الختلي القرطبي في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ١٨١، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٢٩. وفي إسناده سلام بن سلم الطويل، قال عنه أحمد: منكر الحديث. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك. الميزان ٢/ ١٧٥.

(٣) ديوان ابن مقبل ص٢٤.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥.

والضميرُ له عزَّ وجل، أي: فملاقي جزائه تعالى. وقيل: هو للكدح، أي: فملاقي جزاء الكدح، وبولغ فيه على نحو: «إنما هي أعمالكم تردُّ إليكم»(١). والظاهر أن «ملاقيه» معطوفٌ على «كادح» على القولين.

وقال ابن عطية بعد ذكره الثاني: فالفاء على هذا عاطفةٌ جملةَ الكلام على الجملة التي قبلها، والتقدير: فأنت ملاقيه(٢). ولا يظهر وجه التخصيص.

والمراد بالإنسان الجنس كما يؤذِنُ به التقسيم بعدُ، وقال مقاتل: المراد به الأسود بن [عبد الأسد بن](٣) هلال المخزومي؛ جادَلَ أخاه أبا سلمةَ في أمر البعث، فقال أبو سلمة: إي والذي خلقك لتركبنَّ الطبقة، ولتوافينَّ العقبة. فقال الأسود: فأين الأرضُ والسماء؟ وما حالُ الناس؟ وكأنه أراد أنها نزلت فيه وهي تعمُّ الجنس.

وقيل: المراد أبيّ بنُ خلف، كان يكدح في طلب الدنيا وإيذاءِ الرسول ﷺ والإصرار على الكفر، ولعل القائل أراد ذلك أيضاً.

وأَبْعَدَ غايةَ الإبعاد مَن ذهب إلى أنه الرسول عليه الصلاة والسلام، على أن المعنى: إنك تكدح في إبلاغ رسالات الله عز وجل وإرشاد عباده سبحانه واحتمال الضرر من الكفار، فأبشِرْ فإنك تَلْقَى الله تعالى بهذا العمل، وهو غيرُ ضائعٍ عنده جلَّ شأنه.

وجواب «إذا» قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ إلخ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وقولُه تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ) إلخ اعتراضٌ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٢٥-١٢٦، والمزي في تهذيب الكمال ١٦/ ٣٧٨ عن أبي ذر ﷺ. وأخرجه مسلم (٢٥٧٧) بلفظ: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوَفِّيكم إياها».

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٧. قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٤٦: ولا يتعيَّن ما قاله، بل يصح أن يكون معطوفاً على «كادح» عطف المفردات.

(٣) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٤٤٦، والكلام منه.

وقيل: هو محذوفٌ للتهويل، أي: كان ما كان مما يضيقُ عنه نطاقُ البيان. وقدَّره بعضهم نحوَ ما صرَّح به في سورتي التكوير والانفطار.

وقيل: هو ما دلَّ عليه «يا أيها الإنسان» إلخ، وتقديره: لاقَى الإنسانُ كَدْحَه. وقيل: هو نفسُه على حذف الفاء، والأصل: فيا أيها الإنسان، أو بتقدير: يقال.

وقال الأخفش والمبرد: هو قولُه تعالى: (فَمُلَٰقِيهِ) بتقديرِ: فأنت ملاقيه[1]؛ ليكون مع المقدَّر جملةً، وعلى هذا جملةُ «يا أيها الإنسان» إلخ معترضة[2].

وقال ابن الأنباري والبلخيُّ: هو «وأذنت» على زيادة الواو، كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣][3].

وعن الأخفش أن «إذا» هنا لا جوابَ لها؛ لأنها ليست بشرطيةٍ بل هي في «إذا السماء» متجرِّدةٌ عنها مبتدأ، وفي «وإذا الأرض» خبرٌ، والواو زائدة، أي: وقتُ انشقاق السماء وقتُ مدِّ الأرض.

وقيل: لا جواب لها لأنها ليست بذلك، بل متجرِّدةٌ عن الشرطية واقعةٌ مفعولاً لاذْكُرْ محذوفاً.

ولا يخفى ما في بعض هذه الأقوال من الضعف، ولعل الأولى منها الأوَّلان.

والحساب اليسير: السهل الذي لا مناقشةَ فيه كما قيل. وفسَّره عليه الصلاة والسلام بالعرض وبالنظر في الكتاب مع التجاوُز؛ فقد أخرج الشيخان والترمذيُّ

---

(١) البحر ٨/ ٤٤٦، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٣٦، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) الذي ذكره الأخفش في معاني القرآن، والمبرد كما في زاد المسير ٩/ ٦٣، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٦٠ أن الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت.

(٣) ذكر ابن الأنباري هذا القول في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧١ عن بعض المفسرين، ثم تعقَّبه بقوله: وهذا غلط؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع «حتى إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] ومع «لَمَّا» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤] معناه: «ناديناه».

وأبو داود عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس أحدٌ يحاسب إلا هلك» قلت: يا رسول الله جعلني الله تعالى فداك، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ذلك العرضُ؛ يُعْرَضون ومَن نُوقِشَ الحساب هلك»(١).

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهمَّ حاسبني حساباً يسيراً» فلما انصرف عليه الصلاة والسلام قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوزَ له عنه»(٢).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ أي: عشيرته المؤمنين مبتهجاً بحاله، قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقيل: أي: فريق المؤمنين مطلقاً وإن لم يكونوا عشيرته؛ إذ كلُّ المؤمنين أهلٌ للمؤمن من جهة الاشتراك في الإيمان.

وقيل: أي: إلى خاصَّته ومَن أعدَّه الله تعالى له في الجنة من الحور والغلمان، وأخرج هذا ابنُ المنذر عن مجاهد(٣).

وقرأ زيد بن علي: «ويُقْلَبُ» مضارع «قَلَبَ» مبنيًّا للمفعول(٤).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ أي: يؤتاه بشماله من وراء ظهره؛ قيل: تُغَلُّ يمناه إلى عنقه وتُجْعَلُ شماله وراء ظهره، فيؤتَى كتابَه بشماله. ورُوي أن شماله تدخُل في صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيأخذ كتابه بها. فلا تَدَافُعَ بين ما هنا وما في سورة الحاقة حيث لم يذكر فيه الظَّهْر.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٩)، وصحيح مسلم (٢٨٧٦)، وسنن الترمذي (٢٤٢٦) و(٣٣٣٧)، وسنن أبي داود (٣٠٩٣).

(٢) مسند أحمد (٢٤٢١٥)، والمستدرك ١/ ٥٧ و٢٥٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢٩.

(٤) البحر ٨/ ٤٤٦.

ثم هذا إنْ كان في الكَفَرة وما قبله في المؤمنين المتَّقين فلا تعرُّضَ هنا للعصاة كما استظهره في «البحر»(١). وقيل: لا بُعْدَ في إدخال العصاة في أهل اليمين، إما لأنهم يُعْطَوْنَ كتبهم باليمين بعد الخروج من النار كما اختاره ابن عطية(٢)، أو لأنهم يُعْطَوْنها بها قبلُ لكنْ مع حسابٍ فوقَ حسابِ المتقين ودون حسابِ الكافرين، ويكون قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ من وَصْفِ الكلِّ بوَصْفِ البعض.

وقيل: إنهم يُعْطَوْنها بالشمال، وتَميَّزَ(٣) الكفرة بكون الإعطاء من وراء ظهورهم، ولعل ذلك لأن مُؤْتي الكتبِ لا يتحمَّلون مشاهدةَ وجوههم لكمال بشاعتها، أو لغايةِ بغضهم إياهم، أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ يطلبه ويناديه، ويقول: يا ثبوراه تعالي فهذا أَوَانُكِ، والثبورُ الهلاك وهو جامعٌ لأنواع المكارِه.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ يقاسي حرَّها، أو يدخلها. وقرأ أكثر السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج: «يُصَلَّى» بضمِّ الياء وفتح الصاد واللام مشدَّدة من التصلية(٤)؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤].

وقرأ أبو الأشهب وخارجةُ عن نافعٍ وأبانٌ عن عاصم والعتكي وجماعةٌ عن أبي عمرو: «يُصْلَى» بضم الياء ساكنَ الصاد مخفَّفَ اللام مبنيًّا للمفعول من الإصلاء(٥)؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ فَرِحاً بَطِراً مُتْرَفاً لا يخطر بباله أمور الآخرة، ولا يتفكَّر في العواقب، ولم يكن حزيناً متفكِّراً في حاله ومآلِه كسنَّة الصلحاء والمتقين. والجملةُ استئنافٌ لبيان علَّةِ ما قبلَها.

---

(١) ٨/٤٤٦-٤٤٧.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/٤٥٧.

(٣) في (م): وتمييز، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٠.

(٤) التيسير ص ٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩ عن نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي، والكلام من البحر ٨/٤٤٧.

(٥) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/٤٤٧.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ لسروره في الدنيا، أي: ظَنَّ أنْ لن يَرْجِعَ إلى الله تعالى تكذيباً للمَعاد.

وقيل: ظنَّ أن لن يرجع إلى العدم، أي: ظنَّ أنه لا يموت، وكان غافلاً عن الموت غيرَ مستعدٍّ له. وليس بشيء.

والحَوْرُ: الرجوعُ مطلقاً، ومنه قول الشاعر:

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه ... يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ(١)

والتقييدُ هنا بقرينة المقام، و«أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة سادَّةٌ مع ما في حيِّزها مسدَّ مفعولي الظنِّ على المشهور.

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِمَا بعدَ «لن»، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ تحقيقٌ وتعليلٌ له، أي: بلى يحورُ البتةَ؛ إنَّ ربَّه عز وجل الذي خَلَقه كان به وبأعماله الموجبةِ للجزاء بصيراً بحيث لا تَخْفَى عليه سبحانه منها خافيةٌ، فلا بدَّ من رَجْعِهِ وحسابه ومُجازاته.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ هي الحمرةُ التي تُشاهد في أفق المغرب بعد الغروب، وأصله من رقَّةِ الشيء؛ يقال: شيء شفقٌ، أي: لا يتماسَكُ لرقَّته، ومنه أشفق عليه: رقَّ قلبُه، والشَّفَقَةُ من الإشفاق، وكذلك الشَّفَقُ؛ قال الشاعر:

تَهْوَى حياتي وأَهْوَى موتَها شَفَقاً ... والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ(٢)

وقيل: البياض الذي يلي تلك الحمرةَ ويُرى بعد سقوطها، وفي تسمية ذلك شَفَقاً خلافٌ؛ فالجمهورُ على أنه لا يسمَّى به، وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز

---

(١) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٦٩.

(٢) نسب لإسحاق بن خلف، كما في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٤٨٥، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٥، وفوات الوفيات ١/ ١٦٤، واللسان (شفق). ونسبه ابن المعتز في طبقات الشعراء ص٢٨١-٢٨٢ لمحمد بن يسير الرياشي. وقال صاحب اللسان (شفق): وقيل: هو لابن المعلى. وهو دون نسبة في عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ٩٤، والصحاح (شفق).

وأبو حنيفة ﷺ على أنه يسمَّى[١]، ورَوَى أسد بن عمرو عن أبي حنيفة ﷺ أنه رَجَعَ عن ذلك إلى ما عليه الجمهور[٢]، وتمامُ الكلام عليه في شروح «الهداية».

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمةَ أنه هنا النهارُ كلُّه[٣]. وروي ذلك عن الضحاك وابن أبي نجيح، وكأنه شجَّعهم على ذلك عَطْفُ الليل عليه.

وعن عكرمةَ أيضاً: أنه ما بقي من النهار.

والفاء في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا عَرَفْتَ هذا، أو تحقَّقْتَ الحَوْرَ بالبعث، فلا أقسم بالشفق.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ وما ضَمَّ وجَمَعَ؛ يقال: وَسَقَه فاتَّسَقَ واسْتَوْسَقَ، أي: جَمَعَه فاجْتَمَع. ويقال: طعامٌ موسوقٌ، أي: مجموعٌ، و: إبلٌ مستوسقة، أي: مجتمعة؛ قال الشاعر:

إنَّ لـنـا قَـلَائـصـاً حَـقَـائـقـا

مـسـتـوسـقـاتٍ لـم يَـجِـدْنَ سـائـقـا[٤]

ومنه الوَسْقُ: الأصواع المجتمعة، وهي ستُّون صاعاً، أو حملُ بعيرٍ لاجتماعه على ظهره.

---

(١) تنظر أقوالهم في الأوسط لابن المنذر ٢/ ٣٣٩-٣٤١، والتمهيد ٨/ ٩١-٩٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٨، وزاد المسير ٩/ ٦٥-٦٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٥. وأسد بن عمرو هو أبو المنذر ـ وقيل: أبو عمرو ـ القاضي القشيري البجلي الكوفي، سمع أبا حنيفة وتفقَّه عليه، توفي سنة (١٨٨هـ). الجواهر المضية ١/ ٣٧٦.

(٣) لم نقف عليه عن عبد بن حميد، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٢٤٤.

(٤) الرجز للعجاج كما في اللسان (وسق)، وليس في ديوانه، وهو بلا نسبة في الكامل ٣/ ١١٤٥، والفاضل ص١٠، والثاني في مجاز القرآن ص٢٩١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٤٥. القلائص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. والحقائق: جمع حِقَّة، وهي من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها، سمِّي بذلك لأنه استحق الركوب والتحميل. النهاية (قلص) و(حقق). قال الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٤١: الشاهد فيه ورود مستوسقات بمعنى متَّسِقاتٍ، أي: مجتمعات.

و«ما» تحتملُ المصدريةَ والموصولةَ؛ والجمهورُ على الثاني، والعائد محذوفٌ، أي: والذي وَسَقَه، والمراد به ما يجتمع بالليل ويأوي إلى مكانه من الدوابِّ وغيرِها.

وعن مجاهد: ما يكون فيه من خيرٍ أو شر.

وقيل: ما سَتَره وغطَّى عليه بظُلْمته.

وقيل: ما جمعه من الظُّلمة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جبير أنه قال: «وما وسق»: وما عُمِلَ فيه[1]. ومنه قوله:

فيوماً تَرانا صالحينِ وتارةً ... تقومُ بنا كالواسِقِ المتلبِّبِ[2]

وقيل: «وسق» بمعنى طَرَد، أي: وما طَرَدَه إلى أماكنه من الدوابِّ وغيرها، أو: ما طَرَدَه من ضوء النهار، ومنه الوسيقة؛ قال في «القاموس»: وهي من الإبل كالرُّفْقةِ من الناس، فإذا سُرِقَتْ طُرِدَتْ معاً[3].

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ أي: اجتمع نورُه وصار بدراً.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ خطابٌ لجنس الإنسان المنادَى أولاً باعتبارِ شموله لأفراده، والمراد بالركوب الملاقاةُ، والطبق في الأصل ما طابق غيره مطلقاً، وخصَّ في العرف بالحال المطابقة لغيرها، ومنه قول الأقرع بن حابس:

إنِّي امرؤٌ قد حلبتُ الدهرَ أَشْطُرَه ... وساقني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ[4]

و«عن» للمجاوزة، وقال غير واحد: هي بمعنى «بعدَ» كما في قولهم: سادُوك كابراً عن كابر، وقوله:

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٦/ ٣٣٠، ولم نقف عليه عن ابن المنذر.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٧، والبحر ٨/ ٤٤٧، واللسان (وسق).
(٣) القاموس (وسق).
(٤) زاد المسير ٩/ ٦٧، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٧٤. ويقال: حَلَبَ فلانٌ الدهرَ أشطُرَه، أي: خبر ضروبَه، أي: مرَّ به خير وشرٌّ. تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٧.

ما زلتُ أقطع منهلاً عن منهلٍ حتى أَنَخْتُ بباب عبد الواحد(١)

والمجاوَزَةُ والبَعْدِيةُ متقاربان. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «طبقاً» أو حالاً من فاعل «تركبن»، والظاهر أنَّ نَصْبَ «طبقاً» على أنه مفعولٌ به، أي: لتلاقُنَّ حالاً مجاوِزةً لحالٍ أو كائنةً بعد حالٍ، أو مجاوزين لحالٍ أو كائنين بعد حالٍ، كلُّ واحدةٍ مطابقةٌ لأختها في الشدة والهول.

وجوِّز كون الركوب على حقيقته، وتُجعل الحالُ مركوبةً مجازاً.

وقيل: نصب «طبقاً» على التشبيه بالظرف أو الحالية.

وقال جمع: الطبقُ جمعُ طبقةٍ، كتُخَمٍ وتُخَمةٍ، وهي المرتبةُ - ويقال: إنه اسم جنسٍ جمعيٌّ واحدُه ذلك - والمعنى: لتركبنَّ أحوالاً بعد أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشدة بعضُها أرفعُ من بعضٍ، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها. ورجَّحه الطيبيُّ فقال: هذا الذي يقتضيه النظمُ وترتُّبُ الفاء في «فلا أقسم» على قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

وفسَّر بعضهم الأحوال بما يكون في الدنيا من كونهم نطفةً إلى الموت، وما يكون في الآخرة من البعث إلى حين المستقرِّ في إحدى الدارين.

وقيل: يمكن أن يراد بـ «طبقاً عن طبق» الموتُ المطابقُ للعدم الأصلي، والإحياءُ المطابق للإحياء السابق، فيكون الكلام قَسَماً على البعث بعد الموت، ويجري فيه ما ذكره الطيبي.

وأخرج نعيم بن حماد وأبو نعيم عن مكحول أنه قال في الآية: تكونون في كلِّ عشرين سنةً على حالٍ لم تكونوا على مثلها(٢). وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه: في كلِّ عشرين عاماً تُحدِثون أمراً لم تكونوا عليه(٣). فالطبقُ بمعنى عشرين

---

(١) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ٣١/ ١١١.
(٢) الفتن لنعيم بن حماد (٤٢)، والحلية ٥/ ١٨٤.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣١.

عاماً، وقد عدَّ ذلك في «القاموس» من جملة معانيه[١]، وما ذكر بيانٌ للمعنى المراد.

وقيل: الطبقُ هنا القرنُ من الناس، مثلُه في قول العباس بن عبد المطلب يمدح رسول الله ﷺ:

وأنتَ لَمَّا وُلِدْتَ أشرقتِ الأر ... ضُ وضاءتْ بنورك الأفقُ

تُنْقَلُ من صالِبٍ إلى رَحِمٍ ... إذا مضى عالَمٌ بدا طَبَقُ[٢]

وأنَّ المعنى: لتركبنَّ سَنَنَ من مضى قَبْلَكم قرناً بعد قرنٍ. وكِلَا القولين خلافُ الظاهر.

وقرأ عمر وابن مسعود وابن عباس ومجاهدٌ والأسود وابن جبير ومسروقٌ والشعبيُّ وأبو العالية وابن وثَّابٍ وطلحةُ وعيسى والأخوان وابنُ كثيرٍ: «لَتَرْكَبَنَّ» بتاء الخطاب وفتح الباء[٣]. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنهما أيضاً كسرا تاءَ المضارعة، وهي لغة بني تميم[٤]، على أنه خطابٌ للإنسان أيضاً، لكن باعتبار اللفظ لا باعتبار الشمول.

وأخرج البخاريُّ عن ابن عباس أنَّ الخطاب للنبيِّ ﷺ[٥]، ورُوي ذلك عن جماعةٍ، وكأنَّ مَن ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام هو المرادُ بالإنسان فيما تقدَّم يذهبُ إليه، وعليه يراد: لَتَرْكَبَنَّ أحوالاً شريفةً بعد أخرى من مراتب القُرْب. أو:

(١) القاموس (طبق).

(٢) المعاني الكبير لابن قتيبة ١/٥٥٧، والمحرر الوجيز ٥/٤٥٩، والبحر ٨/٤٤٨، ووردا ضمن خبر أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/٣٢٨، والبيهقي في الدلائل ٥/٢٦٨. وقال الحاكم: هذا حديث تفرَّد به رواته الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون. وقال صاحب اللسان: أراد بالصالب الصُّلْب، وهو قليل الاستعمال. وقال ابن قتيبة: العالَم: القرن من الناس، وكذلك الطبق من الناس.

(٣) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/٣٩٩ عن ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٨/٤٤٧.

(٤) البحر ٨/٤٤٨.

(٥) صحيح البخاري (٤٩٤٠).

مراتبَ من الشدة في الدنيا؛ باعتبارِ ما يقاسيه ﷺ من الكفرة ويعانيه في تبليغ الرسالة.

أو الكلامُ عِدَةٌ بالنصر، أي: لتُلاقِنَّ فتحاً بعد فتحٍ، ونصراً بعد نصر. أو تبشيرٌ بالمعراج، أي: لتَرْكَبَنَّ سماءً بعد سماءٍ، كما أخرجه عبد بن حميد عن ابن عباس وابن مسعود(١)، وأيِّد بالتوكيد بالجملة القسمية والتعقيبِ بالإنكارية.

وأخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن ابن مسعود أنه قال في ذلك: يعني السماء تنفطرُ ثم تنشقُّ ثم تحمرُّ(٢). وفي رواية: السماءُ تكون كالمهل، وتكون وردةً كالدهان، وتكونُ واهيةً، وتشقَّقُ، فتكون حالاً بعد حالٍ(٣). فالتاء للتأنيث والضمير الفاعل عائدٌ على السماء.

وقرأ عمر وابنُ عباس أيضاً: «ليَرْكَبَنَّ» بالياء آخِرِ الحروف وفتح الباء على الالتفات من خطاب الإنسان إلى الغيبة، وعن ابن عباس: يعني نبيّكم عليه الصلاة والسلام(٤). فجَعَل الضميرَ له ﷺ، والمعنى على نحوِ ما تقدَّم.

وقيل: الضمير الغائب يعود على القمر؛ لأنه يتغيَّر أحوالاً من سرارٍ واستهلالٍ وإبدارٍ.

وقرأ عمر أيضاً: «ليَرْكَبُن» بياء الغيبة وضمِّ الباء(٥)، على أن ضمير الجمع للإنسان باعتبارِ الشمول.

وقرئ بالتاء الفوقية وكَسْرِ الباء(٦) على تأنيث الإنسان المخاطب باعتبارِ النفس.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٣٠، وأخرجه عن ابن مسعود أيضاً الطبري ٢٤/ ٢٥٤، والطبراني في الكبير (١٠٠٦٨)، والحاكم ٢/ ٥١٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٢٥٥ بلفظ: تَشَقَّقُ ثم تحمرُّ ثم تنفطر.

(٣) عزاه بهذه الرواية السيوطي في الدر ٦/ ٣٣٠ لعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في البعث.

(٤) البحر ٨/ ٤٤٧، وذكر القراءة عن عمر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٠.

(٥) البحر ٨/ ٤٤٨.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٤٨، والدر المصون ٩/ ٧٣٨، وقيدها السمين بفتح حرف المضارعة، وقال ابن خالويه: بالكسر فيهما.

وأمرُ تقدير الحالية المشارِ إليها فيما مرَّ على هذه القراءات لا يخفى.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ جوِّز أن تكون لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجُّب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها، المشارِ إليها بقوله تعالى: (لَتَرْكَبُنَّ) إلخ على بعض الأوجُه الموجبةِ للإيمان والسجود، أي: إذا كان حالهم يوم القيامة كما أشيرَ إليه فأيُّ شيءٍ لهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين؟ أي: أيُّ شيءٍ يمنعهم من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وسائرِ ما يجب الإيمان به، مع تعاضُدِ مُوْجِباته من الأهوال التي تكون لتاركه يومئذٍ؟

وجوِّز أن يكون لترتيب ذلك على ما قبلُ من عظيم شأنه عليه الصلاة والسلام، المشار إليه بقوله سبحانه: (لَتَرْكَبُنَّ) إلخ على بعضٍ آخَرَ من الأوْجُهِ السابقة فيه، أي: إذا كان حاله وشأنه ﷺ ما أشير إليه، فأيُّ شيءٍ يمنعهم من الإيمان به عليه الصلاة والسلام؟

وجوِّز أن يكون لترتيب ذلك على ما تضمَّنه قوله سبحانه: (فَلَآ أُقْسِمُ) إلخ مِمَّا يدلُّ على صحة البعث من التغييرات العلوية والسُّفليةِ الدالَّة على كمال القدرة، وإليه ذهب الإمام[1]، أي: إذا كان شأنُه ـ تعالى شأنُه ـ كما أشيرَ إليه من كونه سبحانه وتعالى عظيمَ القدرة واسعَ العلم، فأيُّ شيء يمنعهم عن الإيمان بالبعث الذي هو من جملة الممكنات التي تَشْمَلُها قدرتُه عز وجل، ويحيط بها علمُه جلَّ جلاله؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١﴾ عطفٌ على الجملة الحالية، فهي حاليةٌ مثلُها، أي: فأيُّ مانعٍ لهم حالَ عدم سجودهم عند قراءة القرآن، والسجودُ مجازٌ عن الخضوع اللازم له على ما روي عن قتادة، أو المراد به الصلاةُ، وفي قَرْنِ ذلك بالإيمان دلالةٌ على عظم قَدْرِها كما لا يخفى.

أو هو على ظاهره، فالمرادُ بما قبله: قرئ القرآنُ المخصوص، أو: وفيه آيةُ سَجْدةٍ، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه سجد عند قراءة هذه الآية؛ أخرج مسلم وأبو داود

(١) في تفسيره ٣١/١١١.

والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[(١)].

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائيُّ عن أبي رافع قال: صلَّيتُ مع أبي هريرة العتمةَ، فقرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجدُ فيها حتى ألقاه عليه الصلاة والسلام[(٢)].

وفي ذلك ردٌّ على ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: ليس في المفصَّل ـ وهو من سورة محمد ﷺ، وقيل: من «الفتح»، وقيل وهو قول الأكثر: من «الحجرات» ـ سجدةٌ[(٣)].

وهي سنَّةٌ عند الشافعيِّ وواجبةٌ عند أبي حنيفةَ، قال الإمام: روي أنه ﷺ قرأ ذات يومٍ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩] فسجد هو ومَن معه من المؤمنين، وقريشٌ تصفِّقُ فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت هذه الآية. واحتجَّ أبو حنيفة على وجوب السجدة بهذا من وجهين:

الأول: أنَّ فِعْلَه عليه الصلاة والسلام يقتضي الوجوبَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الثاني: أنه تعالى ذمَّ مَن يسمعُه ولا يسجد، وحصول الذمِّ عند الترك يدلُّ على الوجوب[(٤)]. انتهى.

وفيه بحثٌ، مع أنَّ الحديث ـ كما قال ابن حجر ـ لم يثبت[(٥)].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بالقرآن، وهو انتقالٌ عن كونهم لا يسجدون

---

(١) صحيح مسلم (٥٧٨) (١٠٨)، وسنن أبي داود (١٤٠٧)، وسنن الترمذي (٥٧٣)، وسنن النسائي ٢/ ١٦١، وسنن ابن ماجه (١٠٥٨).

(٢) صحيح البخاري (٧٦٦)، وصحيح مسلم (٥٧٨) (١١٠)، وسنن أبي داود (١٤٠٨)، وسنن النسائي ٢/ ١٦٢-١٦٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٩٠٠)، وصحح إسناده ابن حجر في الدراية ١/ ٢١١.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ١١٢.

(٥) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣: لم أجده.

عند قراءته إلى كونهم يكذّبون به صريحاً، ووُضِعَ الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر، والإشعارِ بعلَّة الحكم. وقرأ الضحاك وابن أبي عبلة: «يَكْذِبون» مخفَّفاً وبفتح الياء(١).

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بالذي يُضْمِرونه في صدورهم من الكفر والحسد والبغضاء والبغي ف «ما» موصولة والعائدُ محذوفٌ.

وأصل الإيعاء: جَعْلُ الشيء في وعاء. وفي «مفردات» الراغب: الإيعاء حِفْظُ الأمتعة في وعاءٍ، ومنه قوله:

والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد(٢)

وأُريدَ به هنا الإضمارُ مجازاً، وهو المرويُّ عن ابن عباس، ولا يلزمُ عليه كونُ الآية في حقِّ المنافقين مع كون السورة مكيةً كما لا يخفَى.

وفسَّره بعضهم بالجمع، وحُكي عن ابن زيد، وجوّز أن يكون المعنى: والله تعالى أعلم بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السوء.

وأيًّا ما كان فعِلْمُ الله تعالى بذلك كنايةٌ عن مُجازاته سبحانه عليه.

وقيل: المرادُ الإشارةُ إلى أنَّ لهم وراء التكذيب قبائحَ عظيمةً كثيرةً يضيقُ عن شرحها نطاقُ العبارة.

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المعنى: والله تعالى أعلم بما يضمرون في أنفسهم من أدلة كونه - أي: القرآن - حقًّا. فيكون المراد المبالغةَ في عنادهم وتكذيبهم على خلاف عِلْمِهم، والظاهر أنَّ الجملة على هذا حالٌ من ضمير «يكذِّبون»، وكونُها كذلك على ما قيل من الإشارة خلافُ الظاهر.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/٤٤٨.

(٢) مفردات الراغب (وعى)، وصدر البيت: الخير يبقى وإن طال الزمان به، وقائله عبيد بن الأبرص كما في الأغاني ٢٢/٩٣، والمستقصى ١/٣٢٦، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري ص٢٤١، والخزانة ١١/٢٥٧. وقال البكري: الشعر لعبيد بإجماع من الرواة.

وقرأ أبو رجاء: «بما يَعُون» من وَعَى يَعي[1].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ مرتَّبٌ على الإخبار بعلمه تعالى بما يُوعون مراداً به مجازاتُهم به. وقيل: على تكذيبهم. وقيل: الفاء فصيحةٌ، أي: إذا كان حالهم ما ذكر فبشِّرهم.. إلخ.

والتبشير في المشهور: الإخبار بسارٍّ، والتعبيرُ به هاهنا من باب:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[2]

وجوِّز أن يكون ذلك على تنزيلهم ـ لانهماكهم في المعاصي الموجبةِ للعذاب، وعدمِ استرجاعهم عنها ـ منزلةَ الراغبين في العذاب، حتى كان الإخبارُ به تبشيراً وإخباراً بسارٍّ. والفرقُ بين الوجهين يظهر بأدنى تأمُّلٍ.

وأبْعَدَ جدًّا من قال: إنَّ ذلك تعريضٌ بمحبة نبي الرحمة ﷺ البشارةَ، فيستعار لأمره عليه الصلاة والسلام بالإنذار لفظُ البشارة تطييباً لقلبه ﷺ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ من الضمير المنصوب في «فبشرهم».

وجوِّز أن يكون متصلاً على أنْ يراد بالمستثنى مِن آمَنَ وعَمِلَ الصالحات: مَن آمن وعَمِلَ بعدُ منهم، أي: من أولئك الكفرة، والمضيُّ في الفعلين باعتبارِ عِلْمِ الله تعالى، أو هما بمعنى المضارع.

ولا يخفَى ما فيه من التكلُّف، مع أنَّ الأول أنسبُ منه بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ الأجر المذكور لا يخصُّ المؤمنين منهم، بل المؤمنين كافةً، وكونُ الاختصاص إضافيًّا بالنسبة إلى الباقين على الكفر منهم خلافُ الظاهر، على أنَّ إيهام الاختصاص بالمؤمنين منهم يكفي في الغرض كما لا يخفى.

والتنوينُ في «أجر» للتعظيم، ومعنى «غير ممنون»: غيرُ مقطوع، مِن مَنَّ: إذا

---

(١) البحر ٨/ ٤٤٨.

(٢) سلف ٥/ ٦٤.

قطع. أو: غيرُ معتدٍّ به ومحسوبٍ عليهم، مِن منَّ عليه: إذا اعتدَّ بالصنيعة وحَسَبَها. وجعل بعضُهم المنَّ بهذا المعنى من مَنَّ بمعنى قَطَعَ أيضاً؛ لِمَا أنه يقطع النعمة ويقتضي قطعَ شكرها.

والجملة ـ على ما قيل ـ استئنافٌ مقرِّرٌ لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عن المذكورين، ومبيِّنٌ لكيفيته ومقارنتِه للثواب العظيم الكثير.

(٨٥) سورة البروج مكية
وآياتها ثنتان وعشرون

● **هذه** السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ، ولواجبات المسلم حول إيمانه وعقيدته التي ينبغي أن يضحي من أجلها بكل غالٍ ورخيص ، والمحورُ الذي تدور عليه السور الكريمة هو حادث « أصحاب الأخدود » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ، ومداراتها الضخمة التي تدور فيها تلك الأفلاك ، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة ، وبالرسل والخلائق التي تشهد ضخامة ذلك اليوم ، على هلاك ودمار المجرمين الذين طرحوا المؤمنين في النار المتأججة ليفتنوهم عن دينهم ﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قُتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. ﴾ الآيات .

● **ثم تلاها** الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿ إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

● **وبعد** ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين

قتنوا عباده وأولياءه ﴿إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بقصة فرعون الطاغية الجبار ، وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود . بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ وهو ختم رائع يناسب موضوع السورة الكريمة .

سورة البروج

عشرون وآيتان مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ ﴾

اعلم أن المقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار وكيفية تلك التسلية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب، ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البُرُوج: ٢٠]ذكر وجها ثالثا وهو أن هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير وهو قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]فهذا ترتيب السورة.

اعلم أن في البروج ثلاثة أقوال: **أحدها:** أنها هي البروج الاثنا عشر وهي مشهورة، وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة، وذلك لأن سير الشمس فيها، ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس، فيدل ذلك على أن لها صانعًا حكيمًا، قال الجبائي: وهذه اليمين واقعة على السماء الدنيا لأن البروج فيها. واعلم أن هذا خطأ وتحقيقه ذكرناه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، **وثانيها:** أن البروج هي منازل القمر، وإنما حسن القسم بها لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة. **وثالثها:** أن البروج هي عظام الكواكب سميت بروجًا لظهورها. وأما اليوم الموعود فهو يوم القيامة، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال القفال: يحتمل أن يكون المراد واليوم الموعود لانشقاق السماء وفنائها وبطلان بروجها. وأما الشاهد والمشهود، فقد اضطرب أقاويل المفسرين فيه، والقفال أحسن الناس كلامًا فيه، قال: إن الشاهد يقع على شيئين: **أحدهما:** الشاهد الذي تُثبت به الدعاوى والحقوق. **والثاني:** الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر، كقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]ويقال: فلان شاهد وفلان غائب، وحَمْل الآية على هذا الاحتمال الثاني أَوْلى، إذ لو كان المراد هو الأول لما خلا لفظ المشهود عن حرف الصلة، فيقال: مشهود عليه، أو مشهود له. هذا هو الظاهر، وقد يجوز أن يكون المشهود معناه المشهود عليه فحذفت الصلة، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]أي مسئولاً عنه، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن حملنا الشهود على الحضور احتملت الآية وجوهًا من التأويل: **أحدها:** أن المشهود هو يوم القيامة، والشاهد هو الجمع الذي يحضرون فيه، وهو مروي عن ابن عباس والضحاك، ويدل على صحة هذا الاحتمال وجوه: **الأول:** أنه لا حضور أعظم من ذلك الحضور، فإن الله تعالى يجمع فيه

خلق الأولين والآخرين من الملائكة والأنبياء والجن والإنس، وصَرْف اللفظ إلى المسمى الأكمل أَوْلى. **والثاني:** أنه تعالى ذكر اليوم الموعود، وهو يوم القيامة، ثم ذكر عقيبه: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وهذا يناسب أن يكون المراد بالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب. **الثالث:** أن الله تعالى وصف يوم القيامة بكونه مشهودًا في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم: ٣٧] وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[هود: ١٠٣] وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء: ٥٢] وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[يس: ٥٣] وطريق تنكيرهما إما ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[التكوير: ١٤] كأنه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما الإبهام في الوصف كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يُكتنه وصفهما، وإنما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة إذ كان هو يوم الفصل والجزاء ويوم تفرد الله تعالى فيه بالملك والحكم، وهذا الوجه اختيار ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن بن علي وابن المسيب والضحاك والنخعي والثوري. **وثانيها:** أن يفسر المشهود بيوم الجمعة، وهو قول ابن عمر وابن الزبير، وذلك لأنه يوم يشهده المسلمون للصلاة ولذكر الله، ومما يدل على كون هذا اليوم مسمى بالمشهود خبران: **الأول:** ما روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، تَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ**»(١) **والثاني:** ما روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «**تَحْضُرُ الْمَلَائِكَةُ أَبْوَابَ الْمَسْجِدِ فَيَكْتُبُونَ النَّاسَ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِيَتِ الصُّحُفُ**»(٢) وهذه الخاصية غير موجودة إلا في هذا اليوم، فيجوز أن يسمى مشهودًا لهذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء: ٧٨] وروى: «**أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَحْضُرُونَ وَقْتَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَسُمِّيَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ مَشْهُودَةً لِشَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ**» فكذا يوم الجمعة. **وثالثها:** أن يفسر

---

(١) **حسن لغيره:** أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٥٢٤) حديث رقم (١٦٣٧) من طريق عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسي عن أبي الدرداء... به، وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٦/ ٤٧٣) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء فإنه لم يدركه. قلت: وله شاهد من حديث أوس... بنحوه. صحيح، أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (فضل يوم الجمعة وليلته) (١/ ٧٧٥) حديث رقم (١٠٤٧) من طريق هارون بن عبد الله... به والنسائي في كتاب (الجمعة) باب (إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة) (٢/ ١٩٧) حديث رقم (١٣٧٣)، وابن ماجه في كتاب (الإقامة) باب (في فضل يوم الجمعة) (١/ ٣٤٥) حديث رقم (١٠٨٥) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة... به والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (فضل الجمعة) (١/ ٤٤٥) حديث رقم (١٥٧٢) من طريق عثمان بن محمد... به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٨) جميعا (هارون، أبو بكر، عثمان، أحمد بن حنبل) قالوا: حدثنا حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس قال: قال رسول الله ﷺ... بنحوه.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة) باب (الاستماع إلى الخطبة) (٢/ ٤٩٤) حديث رقم (٩٢٩) من طريق ابن أبي ذئب... به ومسلم في كتاب (الجمعة) باب (فضل التهجير يوم الجمعة) (٢/ ٢٤/ ٥٨٧) من طريق يونس... به، جميعًا (ابن أبي ذئب، يونس، معمر) عن الزهري... به.

المشهود بيوم عرفة والشاهد من يحضره من الحاج، وحسُن القسم به تعظيمًا لأمر الحج، روي أن الله تعالى يقول للملائكة يوم عرفة: «انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا أَتَوْنِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. وَأَنَّ إِبْلِيسَ يَصْرُخُ وَيَضَعُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ لِمَا يَرَى مِنْ ذَلِكَ» والدليل على أن يوم عرفة مسمى بأنه مشهود قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]. **ورابعها**: أن يكون المشهود يوم النحر، وذلك لأنه أعظم المشاهد في الدنيا فإنه يجتمع أهل الشرق والغرب في ذلك اليوم بمنى والمزدلفة وهو عيد المسلمين، ويكون الغرض من القسم به تعظيم أمر الحج. **وخامسها**: حمل الآية على يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم النحر جميعًا لأنها أيام عظام فأقسم الله بها كما أقسم بالليالي العشر والشفع والوتر، ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من أيام الدنيا ولكل مقام جليل من مقاماتها وليوم القيامة أيضًا لأنه يوم عظيم، كما قال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥، ٦] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧] ويدل على صحة هذا التأويل خروج اللفظ في الشاهد والمشهود على النكرة، فيحتمل أن يكون ذلك على معنى أن القصد لم يقع فيه إلى يوم بعينه فيكون معرفًا، أما الوجه الأول: وهو أن يُحمل الشاهد على من تثبت الدعوى بقوله، فقد ذكروا على هذا التقدير وجوهًا كثيرة: **أحدها**: أن الشاهد هو الله تعالى لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] والمشهود هو التوحيد؛ لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] والنبوة: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣] **وثانيها**: أن الشاهد محمد ﷺ، والمشهود عليه سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الفتح: ٨] **وثالثها**: أن يكون الشاهد هو الأنبياء، والمشهود عليه هو الأمم، لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١]. **ورابعها**: أن يكون الشاهد هو جميع الممكنات والمحدثات، والمشهود عليه واجب الوجود، وهذا احتمال ذكرته أنا وأخذته من قول الأصوليين: (هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب) وعلى هذا التقدير يكون القسم واقعًا بالخلق والخالق، والصنع والصانع. **وخامسها**: أن يكون الشاهد هو المَلَك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] والمشهود عليه هم المكلفون. **وسادسها**: أن يكون الشاهد هو المَلَك، والمشهود عليه هو الإنسان الذي تشهد عليه جوارحه يوم القيامة، قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤] ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] وهذا قول عطاء الخراساني. **وأما الوجه الثالث**: وهو أقوال مبنية على الروايات لا على الاشتقاق، **فأحدها**: أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، روى أبو موسى الأشعري أنه عليه الصلاة والسلام قال: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ

ذَخِيرَةُ اللَّهِ لَنَا»(١) وعن أبي هريرة مرفوعًا قال: «الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَى أَفْضَلَ مِنْهُ، فِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ بِخَيْرٍ إِلاَّ اسْتَجَابَ لَهُ، وَلاَ يَسْتَعِيذُ مِنْ شَرٍّ إِلاَّ أَعَاذَهُ مِنْهُ»(٢) وعن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَهُوَ الشَّاهِدُ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ»(٣) وهذا قول كثير من أهل العلم كعلي بن أبي طالب عليه السلام، وأبي هريرة وابن المسيب والحسن البصري والربيع بن أنس، قال قتادة: شاهد ومشهود: يومان عظّمهما الله من أيام الدنيا، كما يحدث أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة. **وثانيها:** أن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وذلك لأنهما يومان عظّمهما الله وجعلهما من أيام أركان أيام الحج، فهذان اليومان يشهدان لمن يحضر فيهما بالإيمان واستحقاق الرحمة، وروي أنه عليه السلام ذبح كبشين(٤)، وقال في أحدهما: «هَذَا عَمَّنْ يَشْهَدُ لِي بِالْبَلاَغِ» فيحتمل لهذا المعنى أن يكون يوم النحر شاهدًا لمن حضره بمثل ذلك لهذا الخبر. **وثالثها:** أن الشاهد هو عيسى لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[المائدة: ١١٧]، **ورابعها:** الشاهد هو الله والمشهود هو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يس: ٥٢] وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾[المجادلة: ٧]، **وخامسها:** أن الشاهد هو الإنسان، والمشهود هو التوحيد لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] **وسادسها:** أن الشاهد الإنسان والمشهود هو يوم القيامة، أما كون الإنسان شاهدًا فلقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾[الأعراف: ١٧٢] وأما كون يوم القيامة مشهودًا فلقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟

---

(١) أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٣٦) حديث رقم (٣٣٣٩) من طريق روح بن عبادة وعبيدة بن موسى عن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره ورواه الطبراني في (الكبير) (٣/ ٢٩٨) والطبري في (تفسيره) (٣٠/ ٨٢) من طريق هاشم بن مرثد عن محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري... به، وفي إسناده ضعف وانقطاع.

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) صحيح مرسل: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٣٠/ ١٢٩) من طريق ابن أبي فديك عن ابن حرملة عن سعيد... به وأيضًا في (٣٠/ ١٣٠) من طريق سفيان عن عبد الرحمن بن حرملة... به والشافعي في (مسنده) (١/ ٧٢) قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد حدثنا عبد الرحمن بن حرملة... به وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٤٧٦) حديث رقم (٥٥٥١) من طريق عبد الرحمن بن حرملة عن المسيب... به والبيهقي في السنن والآثار (٥/ ٢١٥) حديث رقم (١٨٤٢) من طريق إبراهيم بن محمد حدثنا عبد الرحمن بن حرملة... به، وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات إلى سعيد بن المسيب وقالوا: إن مراسيل سعيد بن المسيب صحيحة والله أعلم.

(٤) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الضحايا) باب (ما يُستحب من الضحايا) (٣/ ١٢١٩) حديث رقم (٢٧٩٥) وابن ماجه في كتاب (الأضاحي) باب (أضاحي الرسول ﷺ) (٢/ ١٠٤٣) حديث رقم (٣١٢١) وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٧٥) والدارمي في (سننه) (٢/ ١٠٣) حديث رقم (١٩٤٦) وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٨٧) حديث رقم (٢٨٩٩) جميعًا من طريق محمد بن إسحاق... به، وفي إسناده محمد بن إسحاق مدلس، وقد عنعنه وأبو عباس المعافري المصري وهو مجهول.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فهذه هي الوجوه الملخصة، والله أعلم بحقائق القرآن.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

اعلم أنه لا بد للقسم من جواب، واختلفوا فيه على وجوه: **أحدها:** ما ذكره الأخفش وهو أن جواب القسم قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ واللام مضمرة فيه، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] يريد: لقد أفلح، قال: وإن شئت على التقديم كأنه قيل: قُتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج. **وثانيها:** ما ذكره الزجاج، وهو أن جواب القسم: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] وهو قول ابن مسعود وقتادة. **وثالثها:** أن جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ [البروج: ١٠] الآية، كما تقول: والله إن زيدًا لقائم، إلا أنه اعترض بين القسم وجوابه قولُه: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ [البروج: ١٠] **ورابعها:** ما ذكره جماعة من المتقدمين أن جواب القسم محذوف، وهذا اختيار صاحب (الكشاف) إلا أن المتقدمين قالوا: ذلك المحذوف هو أن الأمر حق في الجزاء على الأعمال وقال صاحب (الكشاف): جواب القسم هو الذي يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ كأنه قيل: أُقْسم بهذه الأشياء، أن كفار قريش ملعونون كما لُعن أصحاب الأخدود. وذلك لأن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم، ويعلموا أن كفار مكة عند الله بمنزلة أولئك الذين كانوا في الأمم السالفة يحرقون أهل الإيمان بالنار، وأحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكروا قصة أصحاب الأخدود على طرق متباينة، ونحن نذكر منها ثلاثة:

أحدها: أنه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضُم إليه غلام ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب، ثم رأى الغلام في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجرًا وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فقوني على قتلها بواسطة رمي الحجر إليها! ثم رمى فقتلها، فصار ذلك سببًا لإعراض الغلام عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء، فاتفق أن عمي جليس للملك فأبرأه، فلما رآه الملك قال: من رد عليك نظرك؟ فقال: (ربي) فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فأحضر الراهب وزجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله، فقد بالمنشار، ثم أتوا بالغلام إلى جبل ليطرح من ذروته، فدعا الله فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، فذهبوا به إلى سفينة لجججوا بها ليغرقوه، فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا، فقال

للملك: لستَ بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول: باسم الله رب الغلام، ثم ترميني به. فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام!! فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد في أفواه السكك، وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق!! فصبرت على ذلك.

الرواية الثانية: روي عن علي عليه السلام أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل الكتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أُحلت لهم فتناولها بعض ملوكها فسكر فوقع على أخته، فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات. ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: بعد ذلك حرمه. فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له: ابسط فيهم السوط. فلم يقبلوا، فقالت: ابسط فيهم السيف. فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أتى فيها الذين أرادهم الله بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ . **الرواية الثالثة:** أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى، فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيَّرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثني عشر ألفًا في الأخاديد، وقيل سبعين ألفًا، وذُكر أن طول الأخدود أربعون ذراعًا وعرضه اثنا عشر ذراعًا، وعن النبي ﷺ: «**أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ**»(١).

فإن قيل: تعارض هذه الروايات يدل على كذبها. **قلنا:** لا تعارض فقيل: إن هذا كان في ثلاث طوائف ثلاث مرات، مرة باليمن، ومرة بالعراق، ومرة بالشام، ولفظ الأخدود وإن كان واحدًا إلا أن المراد هو الجمع وهو كثير من القرآن، وقال القفال: ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس في شيء منها ما يصح إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكًا كافرًا كان حاكمًا عليهم فألقاهم في أخدود وحفر لهم. ثم قال: وأظن أن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيهًا لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار من مبالغتهم في إيذاء عمار وبلال.

المسألة الثانية: الأخدود: الشق في الأرض يُحفر مستطيلاً، وجمعه الأخاديد، ومصدره الخد وهو الشق، يقال: خد في الأرض خدًّا، وتخدد لحمه، إذا صار طرائق كالشقوق.

المسألة الثالثة: يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود القاتلين، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين، والرواية المشهورة أن المقتولين هم المؤمنون، وروي أيضًا أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) (٧/ ٧٩) حديث رقم (٣٤٣٣٣) من طريق عوف عن الحسن. . . به، وهذا من مراسيل الحسن، ومراسيله ضعيفة.

منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدي، وتأولوا قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]أي لهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وجوهًا ثلاثة وذلك لأنا إما أن نفسر أصحاب الأخدود بالقاتلين أو بالمقتولين، أما على الوجه الأول ففيه تفسيران: أحدهما: أن يكون هذا دعاء عليهم، أي لُعن أصحاب الأخدود، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠] **والثاني**:أن يكون المراد أن أولئك القاتلين قُتلوا بالنار على ما ذكرنا أن الجبابرة لما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم، وأما إذا فسرنا أصحاب الأخدود بالمقتولين كان المعنى أن أولئك المؤمنين قُتلوا بالإحراق بالنار، فيكون ذلك خبرًا لا دعاء.

المسألة الرابعة: قرئ (قُتِّل) بالتشديد.

أما قوله تعالى:﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: النار إنما تكون عظيمة إذا كان هناك شيء يُحترق بها إما حطب أو غيره، فالوَقود اسم لذلك الشيء لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]وفي: ﴿ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ تعظيم أمر ما كان في ذلك الأخدود من الحطب الكثير.

المسألة الثانية: قال أبو علي: هذا بدل الاشتمال، كقولك: (سُلب زيد ثوبه) فإن الأخدود مشتمل على النار.

المسألة الثالثة: قرئ الوقود بالضم.

أما قوله تعالى:﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: العامل في (إذ) قُتل والمعنى لُعنوا في ذلك الوقت الذي هم فيه قعود عند الأخدود يعذبون المؤمنين.

المسألة الثانية: في الآية إشكال وهو أن قوله: ﴿هُمْ﴾ ضمير عائد إلى أصحاب الأخدود، لأن ذلك أقرب المذكورات والضمير في قوله: ﴿ عَلَيْهَا﴾ عائد إلى النار فهذا يقتضي أن أصحاب الأخدود كانوا قاعدين على النار، ومعلوم أنه لم يكن الأمر كذلك. **والجواب: من وجوه: أحدها:** أن الضمير في (هم) عائد إلى أصحاب الأخدود، لكن المراد ههنا من أصحاب الأخدود المقتولون لا القاتلون فيكون المعنى إذ المؤمنون قعود على النار يحترقون مطرحون على النار **وثانيها**: أن يجعل الضمير في ﴿ عَلَيْهَا﴾ عائد إلى طرف النار وشفيرها والمواضع التي يمكن الجلوس فيها، ولفظ (على) مشعر بذلك تقول: (مررت عليها) تريد مستعليًا بمكان يقرب منه، فالقائلون كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على النار، فمن كان يترك دينه تركوه ومن كان يصبر على دينه ألقوه في النار. **وثالثها**:هب أنا سلَّمنا أن الضمير في (هم) عائد إلى أصحاب الأخدود بمعنى القاتلين، والضمير في (عليها) عائد إلى النار، فلمَ لا يجوز أن يقال: إن أولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار، فإنا بينا أنهم لما ألقوا المؤمنين في النار ارتفعت النار إليهم

فهلكوا بنفس ما فعلوه بأيديهم لأجل إهلاك غيرهم، فكانت الآية دالة على أنهم في تلك الحالة كانوا ملعونين أيضًا، ويكون المعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة. **ورابعها:** أن تكون (على) بمعنى عند، كما قيل في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] أي عندي.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ فاعلم أن قوله: ﴿شُهُودٌ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه حضور، ويحتمل أن يكون المراد منه الشهود الذين تثبت الدعوى بشهادتهم.

أما على الوجه الأول: فالمعنى أن أولئك الجبابرة القاتلين كانوا حاضرين عند ذلك العمل يشاهدون ذلك فيكون الغرض من ذكر ذلك أحد أمور ثلاثة: إما وصفهم بقسوة القلب إذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له، وإما وصفهم بالجد في تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا في تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة، وإما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد في دينهم والإصرار على حقهم، فإن الكفار إنما حضروا في ذلك الموضع طمعًا في أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم، ثم إن أولئك المؤمنين لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق، فإن قلت: المراد من الشهود إن كان هذا المعنى، فكان يجب أن يقال: (وهم لما يفعلون شهود) ولا يقال: (وهم على ما يفعلون شهود؟) قلنا: إنما ذكر لفظة (على) بمعنى أنهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين - وهو إحراقهم بالنار - كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الأفعال القبيحة.

أما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد من الشهود الشهادة التي تثبت الدعوى بها، ففيه وجوه: **أحدها:** أنهم جعلوا شهودًا يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحدًا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب. **وثانيها:** أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، **وثالثها:** أن هؤلاء الكفار مشاهدون لما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق بالنار حتى لو كان ذلك من غيرهم لكانوا شهودًا عليه، ثم مع هذا لم تأخذهم بهم رأفة، ولا حصل في قلوبهم ميل ولا شفقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾

المعنى وما عابوا منهم وما أنكروا الإيمان، كقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ (١)

ونظيره قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] وإنما قال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ لأن التعذيب إنما كان واقعًا على الإيمان في المستقبل، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يدوموا على إيمانهم. وقرأ أبو حيوة: (نقموا) بالكسر، والفصيح

---

(١) هذا البيت للنابغة الجاهلي وقد سبق ترجمته.

هو الفتح، ثم إنه ذكر الأوصاف التي بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد: **فأولها**: العزيز وهو القادر الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُدفع، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة. **وثانيها**: الحميد وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين، وإن كان بعض الأشياء لا يحمده بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وذلك إشارة إلى العلم لأن من لا يكون عالمًا بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه. **وثالثها**: الذي له ملك السموات والأرض، وهو مالكها والقيم بهما ولو شاء لأفناهما، وهو إشارة إلى المُلك التام، وإنما أخر هذه الصفة عن الأولين لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة والعلم، فثبت أن من كان موصوفًا بهذه الصفات كان هو المستحق للإيمان به، وغيره لا يستحق ذلك ألبتة، فكيف حَكَم أولئك الكفار الجهال يكون مثل هذا الإيمان ذنبًا؟!

واعلم أنه تعالى أشار بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين، ولأطفأ نيرانهم ولأماتهم. وأشار بقوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها، فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل، فإنه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم، وعقاب أولئك الكفرة إليهم، ولكنه تعالى لم يعالجهم بذلك لأنه لم يفعل إلا على حسب المشيئة أو المصلحة على سبيل التفضل؛ فلهذا السبب قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو وعد عظيم للمطيعين ووعيد شديد للمجرمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، **وههنا مسائل**:

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك، وهذا أَوْلى لأن اللفظ عام والحكم عام، فالتخصيص تَرْك للظاهر من غير دليل.

المسألة الثانية: أصل الفتنة: الابتلاء والامتحان، وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم، وقال بعض المفسرين: الفتنة هي الإحراق بالنار. وقال ابن عباس ومقاتل: ﴿فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حرقوهم بالنار. قال الزجاج: يقال: فتنت الشيء، أحرقته والفتن: أحجار سود كأنها محترقة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد، وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل على أن توبة القاتل عمدًا مقبولة، خلاف

ما يروى عن ابن عباس.

المسألة الرابعة : في قوله: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ **قولان:**

الأول: أن كلا العذابين يحصلان في الآخرة، إلا أن عذاب جهنم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين، فيحتمل أن يكون العذاب الأول عذاب برد، والثاني عذاب إحراق، وأن يكون الأول عذاب إحراق والزائد على الإحراق أيضًا إحراق، إلا أن العذاب الأول كأنه خرج عن أن يسمى إحراقًا بالنسبة إلى الثاني؛ لأن الثاني قد اجتمع فيه نوعا الإحراق فتكامل جدًّا، فكان الأول ضعيفًا، فلا جرم لم يُسمَّ إحراقًا.

القول الثاني: أن قوله: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ إشارة إلى عذاب الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المجرمين ذكر وعد المؤمنين وهو ظاهر، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ﴾ ولم يقل (تلك) لدقيقة لطيفة وهي أن قوله: ﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وقوله: (تلك) إشارة إلى الجنات وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضيًا، والفوز الكبير هو رضا الله لا حصول الجنة.

المسألة الثانية: قصة أصحاب الأخدود ولا سيما هذه الآية تدل على أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم الأَوْلى له أن يصبر على ما خُوف منه، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك، روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ فقال لأحدهما: تشهد أني رسول الله فقال: نعم. فتركه، وقال للآخر مثله فقال: لا، بل أنت كذاب!! فقتله فقال عليه السلام: «**أَمَّا الَّذِي تُرِكَ فَأَخَذَ بِالرُّخْصَةِ فَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الذي قُتِلَ فَأَخَذَ بِالفَضْلِ فَهَنِيئًا لَهُ**» (١).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولاً وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانيًا، أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد، فقال لتأكيد الوعيد: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ والبطش هو الأخذ بالعنف، فإذا وُصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، ونظيره ﴿إِنَّ أَخْذَهُ

(١) **إسناده ضعيف**: ابن أبي شيبة في (مصمنفه) (١٢/ ٣٥٧) حديث رقم (٣٣٧٠٨) من طريق يونس عن الحسن... به، وهذا مرسل من مراسيل الحسن البصري وهي ضعيفة.

﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢] ثم إن هذا القادر لا يكون إمهاله لأجل الإهمال، لكن لأجل أنه حكيم إما بحكم المشيئة أو بحكم المصلحة، وتأخير هذا الأمر إلى يوم القيامة، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي إنه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء ليجازيهم في القيامة، فدل الإمهال لهذا السبب لا لأجل الإهمال، قال ابن عباس: إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحمًا، ثم يعيدهم خلقًا جديدًا، فذاك هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ .

ثم قال لتأكيد الوعد: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ **فذكر من صفات جلاله وكبريائه خمسة:**

أولها: الغفور، قالت المعتزلة: هو الغفور لمن تاب. وقال أصحابنا: إنه غفور مطلقًا لمن تاب ولمن لم يتب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] ولأن غفران التائب واجب، وأداء الواجب لا يوجب التمدح، والآية مذكورة في معرض التمدح. **وثانيها:** الودود، وفيه أقوال: **أحدها:** المحب، هذا قول أكثر المفسرين، وهو مطابق للدلائل العقلية، فإن الخير مقتضى بالذات والشر بالعَرَض، ولا بد أن يكون الشر أقل من الخير، فالغالب لا بد وأن يكون خيرًا فيكون محبوبًا بالذات. **وثانيها:** قال الكلبي: الودود هو المتودد إلى أوليائه بالمغفرة والجزاء، والقول هو الأول. **وثالثها:** قال الأزهري: قال بعض أهل اللغة: يجوز أن يكون ودود فعولاً بمعنى مفعول كرَكوب وحَلوب، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وأفعاله. قال: وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه. **ورابعها:** قال القفال: قيل: الودود قد يكون بمعنى الحليم، من قولهم: دابة ودود، وهي المطيعة القياد التي كيف عطفتها انعطفت، وأنشد قطرب[1] :

وَأَعْـدَدْتُ لِـلْـحَـرْبِ خَـيْـفَـانَـةً ذَلُـولَ الْـقِـيَـادِ وَقَـاحًـا وَدُودَا

وثالثها: ذو العرش، قال القفال: ذو العرش، أي ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير مُلكه، وإن لم يكن على السرير، وكما يقال: (ثُل عرشُ فلان) إذا ذهب سلطانه، وهذا معنى متفق على صحته، وقد يجوز أن يكون المراد بالعرش السرير، ويكون جل جلاله خلق سريرًا في سمائه في غاية العظمة والجلالة بحيث لا يعلم عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه.

ورابعها: المجيد، وفيه قراءتان: **إحداهما:** الرفع فيكون ذلك صفة لله سبحانه، وهو اختيار أكثر القراء والمفسرين؛ لأن المجد من صفات التعالي والجلال، وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه، والفصل والاعتراض بين الصفة والموصوف في هذا النحو غير ممتنع. والقراءة الثانية: بالخفض، وهي قراءة حمزة والكسائي، فيكون ذلك صفة العرش، وهؤلاء قالوا: القرآن دل على أنه يجوز وصف غير الله بالمجيد حيث قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[البروج: ٢١] ورأينا أن الله

---

(١) تقدمت ترجمة قطرب.

تعالى وصف العرش بأنه كريم فلا يبعد أيضًا أن يصفه بأنه مجيد. ثم قالوا: إن مجد الله عظمته بحسب الوجوب الذاتي وكمال القدرة والحكمة والعلم، وعظمة العرش علوه في الجهة وعظمة مقداره وحسن صورته وتركيبه، فإنه قيل: العرش أحسن الأجسام تركيبًا وصورة.

وخامسها: أنه فعال لما يريد، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (فعَّال) خبر مبتدأ محذوف.

المسألة الثانية: من النحويين من قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ خبران لمبتدأ واحد. وهذا ضعيف لأن المقصود بالإسناد إلى المبتدأ إما أن يكون مجموعها أو كل واحد واحد منهما، فإن كان الأول كان الخبر واحد الآخرين، وإن كان الثاني كانت القضية لا واحد قبل قضيتين.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال فقالوا: لا شك أنه تعالى يريد الإيمان، فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان بمقتضى هذه الآية وإذا كان فاعلاً للإيمان وجب أن يكون فاعلاً للكفر ضرورة أنه لا قائل بالفرق، قال القاضي: ولا يمكن أن يستدل بذلك على أن ما يريده الله تعالى من طاعة الخلق لا بد من أن يقع لأن قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يتناول إلا ما إذا وقع كان فعله دون ما إذا وقع لم يكن فعلاً له. هذه ألفاظ القاضي ولا يخفى ضعفها.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى لا يجب لأحد من المكلفين عليه شيء ألبتة. وهو ضعيف لأن الآية دالة على أنه يفعل ما يريد، فلمَ قلتم: إنه يريد أن لا يعطي الثواب؟!

المسألة الخامسة: قال القفال: فعال لما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب، فهو يُدخل أولياءه الجنة لا يمنعه منه مانع، ويُدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم ويعاجل بعضهم العقوبة إذا شاء، ويعذب من شاء منهم في الدنيا، وفي الآخرة يفعل من هذه الأشياء ومن غيرهما ما يريد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن حال أصحاب الأخدود في تأذي المؤمنين بالكفار، بيَّن أن الذين كانوا قبلهم كانوا أيضًا كذلك، واعلم أن فرعون وثمود بدل من الجنود، وأراد بفرعون إياه وقومه كما في قوله: ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ [يونس: ٨٣] وثمود كانوا في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة فذكر تعالى من المتأخرين فرعون، ومن المتقدمين ثمود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج، وهذا هو المراد من قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ ولما طيَّب قلب الرسول عليه السلام بحكاية أحوال الأولين في هذا الباب، سلاَّه بعد ذلك من وجه آخر، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ وفيه وجوه: أحدها أن المراد وصف

اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحوزته، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسَدَّ عليه مسلكه، فلا يجد مهربًا، يقول تعالى: فهو كذا في قبضتي وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك، فلا تجزع من تكذيبهم إياك، فليسوا يفوتونني إذا أردتُ الانتقام منهم. **وثانيها:** أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم كقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١] وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك، يقول: فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك. **وثالثها:** أن يكون المراد: والله محيط بأعمالهم، أي عالم بها، فهو مرصد بعقابهم عليها.

ثم إنه تعالى سلى رسوله بعد ذلك بوجه ثالث، وهو قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: تعلق هذا بما قبله هو أن هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم، وبتأذي قوم من قوم، امتنع تغيره وتبدله، فوجب الرضا به، ولا شك أن هذا من أعظم موجبات التسلية.

المسألة الثانية: قرئ: (قُرْآنُ مَجِيدٍ) بالإضافة، أي قرآن رب مجيد، وقرأ يحيى بن يعمر: (في لوحٍ) واللوح الهواء يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ، وقرئ (مَحْفُوظٌ) بالرفع صفة للقرآن كما قلنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

المسألة الثالثة: أنه تعالى قال ههنا: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحدًا، ثم كونه محفوظًا يحتمل أن يكون المراد كونه محفوظًا عن أن يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] ويحتمل أن يكون المراد كونه محفوظًا من اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة المقربين، ويحتمل أن يكون المراد أن لا يجري عليه تغيير وتبديل.

المسألة الرابعة: قال بعض المتكلمين: إن اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه، ولما كانت الأخبار والآثار واردة بذلك وجب التصديق.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة البروج

مكية باتفاق. وهي ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾

قَسَمٌ أَقْسَمَ الله به جلَّ وعزَّ. وفي «البروج» أقوالٌ أربعةٌ:

أحدُها: ذات النجوم؛ قاله الحسنُ وقتادةُ ومجاهدٌ والضحَّاك(١).

الثاني: القُصُور؛ قاله ابن عباس(٢) وعِكرمةُ ومجاهدٌ أيضاً. قال عِكرمةُ: هي قُصورٌ في السماء. مجاهدٌ: البُروج فيها الحرس.

الثالث: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ؛ قاله المِنهالُ بنُ عمرو(٣).

الرابع: ذات المنازِلِ؛ قاله أبو عبيدةَ ويحيى بنُ سلام. وهي اثْنَا عَشَرَ بُرْجاً، وهي منازِلُ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ. يسيرُ القمرُ في كلِّ بُرْجٍ منها يومين وثُلُثِ يومٍ؛ فذلك ثمانيةٌ وعشرون يوماً، ثم يَسْتَسِرُّ ليلتين. وتَسيرُ الشمسُ في كلِّ بُرْجٍ منها شهراً(٤). وهي: الحَمَل، والثَّورُ، والجَوزاءُ، والسَّرَطانُ، والأسدُ، والسُّنْبلةُ، والمِيزانُ، والعَقْرَبُ، والقَوسُ، والجَدْي، والدَّلْوُ، والحُوتُ.

والبروجُ في كلام العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وقد تقدّم(٥).

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، والطبري ٢٤/ ٢٦١، وعن مجاهد الطبري ٢٤/ ٢٦١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٦٠، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٩٣، وذكر القول عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٥) ٦/ ٤٦٥، وينظر في الكلام عن البروج وعن منازل الشمس والقمر ١٢/ ١٨٦ و١٧/ ٤٤٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ أي: الموعود به. وهو قَسَمٌ آخَرُ، وهو يومُ القيامةِ، من غيرِ اختلافٍ بين أهل التأويل. قال ابن عباس: وُعِدَ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ أنْ يجتمعوا فيه.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ اختُلِفَ فيهما؛ فقال عليٌّ وابْنُ عباسٍ وابنُ عمرَ وأبو هريرة ﷺ: الشاهدُ يومُ الجمعةِ، والمشهودُ يومُ عرفةَ. وهو قولُ الحسن[(١)]. ورواه أبو هُريرةَ مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اليومُ الموعودُ يومُ القيامةِ، واليومُ المشهودُ يومُ عَرَفَةَ، والشاهدُ يومُ الجمعةِ...» خرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ في جامِعِه، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلَّا مِن حديثِ موسى بنِ عُبيدةَ، وموسى بنُ عبيدةَ يُضَعَّفُ في الحديث، ضَعَّفه يحيى بنُ سعيدٍ وغيرُه. وقد رَوَى شُعبةُ وسفيانُ الثوريُّ وغيرُ واحدٍ من الأئمة عنه[(٢)]. قال القشَيريُّ: فيومُ الجمعةِ يَشْهدُ على كلِّ عاملٍ بما عَمِلَ فيه.

قلت: وكذلك سائرُ الأيامِ واللَّيالي؛ فكلُّ يومٍ شاهدٌ، وكذا كلُّ ليلةٍ؛ ودليلُه ما رواه أبو نعيمٍ الحافظُ عن معاويةَ بنِ قُرَّةَ، عن مَعْقِل بنِ يسارٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على العبدِ إلَّا يُنادَى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا فيما تَعْمَلُ عليك [غداً] شهيدٌ، فاعْمَلْ فيَّ خيراً أَشْهَدْ لك به غداً، فإنِّي لو قد مَضَيْتُ لم تَرَنِي أبداً، ويقولُ الليلُ مثلَ ذلك». حديثٌ غريبٌ من حديثِ معاويةَ، تفرَّد به عنه زيدٌ العَمِّيُّ، ولا أَعْلَمُه مرفوعاً عن النبيِّ ﷺ إلَّا بهذا الإسناد[(٣)].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٢٦٤-٢٦٥ عدا ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الوسيط ٤/ ٤٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٦-٤٦٧، وزاد المسير ٩/ ٧١ عن ابن عمر أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر. وقول أبي هريرة أخرجه أيضاً أحمد (٧٩٧٣).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٣٩)، ووقع في مطبوعه: حسن غريب. وفي تحفة الأحوذي ٩/ ٢٥٨: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى...، ونحوه في تحفة الأشراف ١٠/ ١٣٤. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه. اهـ. وقد سلف الموقوف آنفاً.

(٣) الحلية ٢/ ٣٠٣-٣٠٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

وحكى القُشَيريُّ عن ابنِ عمرَ وابنِ الزُّبير: أنَّ الشاهدَ يومُ الأضحى[١].

وقال سعيد بن المسيب: الشاهدُ: يومُ التَّرْوِيةِ، والمشهودُ: يومُ عَرَفةَ[٢].

وروى إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارث، عن عليٍّ ﷺ: الشاهدُ يومُ عرفة، والمشهودُ يومُ النحر[٣]. وقاله النخعيُّ[٤].

وعن عليٍّ أيضاً: المشهودُ يومُ عرفةَ[٥]. وقال ابنُ عباسٍ والحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: المشهودُ يومُ القيامةِ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣][٦].

قلت: وعلى هذا اختَلَفَتْ أقوالُ العلماءِ في الشاهد، فقيل: اللهُ تعالى؛ عن ابن عباسٍ والحسنِ وسعيد بنِ جُبير[٧]، بيانُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: محمدٌ ﷺ؛ عن ابنِ عباسٍ أيضاً والحسينِ بنِ عليٍّ، وقرأ ابنُ عباس: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] وقرأ الحسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥][٨].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٤/ ٢٦٦ و٢٦٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٧، وزاد المسير ٩/ ٧٢.

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ١١٦-١١٧ دون نسبة، وفي تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٥ من طريق شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث عن علي: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر.

(٤) لم نقف عليه، وروي عنه عكسه، وهو أن الشاهد يوم النحر، والمشهود يوم عرفة. النكت والعيون ٦/ ٢٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١، وزاد المسير ٩/ ٧٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، والطبري ٢٤/ ٢٦٥، وسلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٦) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، والطبري ٢٤/ ٢٦٦، وأخرجه عن الحسين الطبري ٢٤/ ٢٦٦-٢٦٧، والطبراني في الصغير (١١٣٧)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٦، ووقع في تفسير الطبري: الحسن، بدل: الحسين.

(٧) أخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٢٦٩، وذكره عن سعيد بن جبير البغوي ٤/ ٤٦٧، وابن الجوزي ٩/ ٧٢.

(٨) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، وعن الحسين الطبراني في الصغير (١١٣٧). وقد سلفت قطعة منه قريباً.

قلت: وأقرأُ أنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الأنبياءُ يَشْهَدون على أُممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: آدمُ. وقيل: عيسى بنُ مريم؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمشهودُ: أُمَّتُه.

وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بنِ كعب: الشاهدُ: الإنسان؛ دليلُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

مقاتل: أعضاؤه، بيانُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

الحسين بنُ الفَضْلِ: الشاهدُ هذه الأمَّةُ، والمشهودُ سائرُ الأممِ، بيانُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشاهد: الحفَظَة، والمشهودُ: بنو آدم[١]. وقيل: الليالي والأيامُ. وقد بيَّناه[٢].

قلت: وقد يشهدُ المالُ على صاحبه، والأرضُ بما عملَ عليها؛ ففي «صحيح» مسلم[٣] عن أبي سعيد الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، ونِعْمَ صاحبُ المُسْلِم هو لمَن أَعْطَى منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ وإنَّه مَن يأخذُه بغيرِ حقِّه كان كالذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، ويكونُ عليه شهيداً يومَ القيامة».

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم. قال:

(١) تنظر هذه الأقوال وغيرها في النكت والعيون ٦/ ٢٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٧، وزاد المسير ٩/ ٧٢-٧٣.

(٢) في الصفحة السابقة.

(٣) برقم (١٠٥٢).

«فإنَّ أخبارَها أنْ تَشْهَدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها، تقولُ: عَمِلَ يومَ كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارُها». قال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح(١).

وقيل: الشاهدُ الخَلْقُ، شهدوا للهِ عزَّ و جلَّ بالوحدانية. والمشهودُ له بالتوحيدِ هو اللهُ تعالى.

وقيل: المشهودُ يومُ الجمعةِ، كما رَوَى أبو الدَّرداءِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِروا عليَّ من الصلاةِ يومَ الجمعةِ فإنه يومٌ مشهودٌ تَشْهَدُه الملائكةُ.... »وذكر الحديث. خرَّجه ابنُ ماجه وغيرُه(٢).

قلت: فعلى هذا يومُ عرفةَ مشهودٌ؛ لأنَّ الملائكةَ تَشْهدُه، وتنزلُ فيه بالرحمة. وكذا يومُ النَّحْرِ إنْ شاءَ الله.

وقال أبو بكرٍ العطارُ: الشاهدُ الحجرُ الأسودُ، يَشْهدُ لِمَنْ لَمَسَه بصدقٍ وإخلاصٍ ويقينٍ. والمشهودُ الحاجُّ. وقيل: الشاهدُ الأنبياءُ، والمشهودُ محمدٌ ﷺ، بيانُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١](٣).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾أي: لُعن. قال ابنُ عباسٍ: كلُّ شيءٍ في القرآن«قُتل»، فهو لُعِن. وهذا جوابُ القَسَم في قولِ الفرَّاء، واللام فيه مُضْمَرةٌ، كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] أي: لقد أَفْلَح(٤).

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٩) و(٣٣٥٣)، وهو عند أحمد (٨٨٦٧).

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٣٧)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٧٠ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٧٣ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء٣/ ٢٥٣ ، وللأخفش ٢/ ٧٣٦ . وعقب عليه الفراء بقوله: هذا في التفسير، ولم نجد العرب تَدَعُ القسم بغير لام يستقبل بها، أو «لا»، أو «إنَّ»، أو«ما»، فإن يكن كذلك فكأنه مما ترك فيه الجواب، ثم استؤنف موضع الجواب بالخبر.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قُتل أصحابُ الأخدود والسماء ذاتِ البُروجِ، قاله أبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ. ابنُ الأنباريِّ: وهذا غَلَطٌ؛ لأنه لا يجوزُ لقائلٍ أنْ يقولَ: واللهِ قام زيدٌ؛ على معنى: قام زيدٌ واللهِ. وقال قومٌ: جوابُ القَسَمِ: «إنَّ بطْشَ ربك لشديد» وهذا قبيحٌ، لأنَّ الكلامَ قد طال بينهما(١).

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾(٢). وقيل: جوابُ القَسَمِ محذوفٌ، أي: والسماءِ ذاتِ البروجِ لَتُبْعَثُنَّ. وهذا اختيارُ ابنِ الأنباريِّ(٣). والأخدودُ: الشقُّ العظيمُ المستطيلُ في الأرض كالخندق، وجَمْعُه أخاديد. ومنه الخدُّ، لمجاري الدموع، والمخدَّةُ، لأنَّ الخدَّ يوضعُ عليها(٤). ويقال: تَخدَّد وجه الرجلِ: إذا صارتْ فيه أخاديدُ من جِراحٍ، قال طَرَفة:

ووجهٌ كأنَّ الشمسَ حَلَّتْ رداءها ... عليه نَقيُّ اللونِ لم يَتَخدَّدِ(٥)

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ «النارِ» بدلٌ من «الأخدودِ» بدلُ الاشتمال. و«الوَقود» بفتحِ الواو قراءةُ العامَّةِ، وهو الحَطَبُ. وقرأ قتادةُ وأبو رجاءٍ ونصر بنُ عاصم بضمِّ الواوِ على المصدر(٦)، أي: ذاتِ الاتِّقادِ والالتهابِ. وقيل: ذاتِ الوُقودِ بأبدان الناس. وقرأ أشهبُ العُقَيْليُّ وأبو السَّمَّالِ العَدَويُّ وابنُ السَّمَيْفَع: «النارُ ذاتُ» بالرفعِ فيهما(٧)، أي: أَحْرقَتْهم النارُ ذاتُ الوقود.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٢- ٩٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤١ .

(٥) ديوان طرفة ص٢١ . قوله: ووجْهٌ، أي: ولها وجهٌ، ومعنى حلت رداءها عليه: قَلَعتْه وأَلْبَسَتْه إياه. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٥٩ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ عن أبي عبد الرحمن السلمي. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ دون نسبة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي: الذين خدّدوا الأخاديدَ وقَعَدوا عليها يُلْقون فيها المؤمنين، وكانوا بنَجرْانَ في الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقد اختلفت الروايةُ(١) في حديثهم. والمعنى متقارِبٌ. ففي«صحيح» مسلم عن صُهَيب: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كانَ مَلِكٌ فيمَن كان قَبْلَكم، وكان له ساحرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للملك: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابْعَثْ إليَّ غلاماً أُعَلِّمْه السِّحْرَ، فبعَثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكان في طريقه إذا سَلَك راهبٌ، فقَعَدَ إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجبه، فكان إذا أَتَى السَّاحرَ مرَّ بالراهبِ وقَعَدَ إليه، فإذا أَتَى السَّاحر ضَرَبَه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خَشِيْتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسني أَهْلي. وإذا خَشيت أَهْلَك فقُلْ: حَبَسني السَّاحرُ. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَت الناسَ، فقال: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أم الراهبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حجراً فقال: اللهمَّ إنْ كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليكَ من أَمْرِ السَّاحرِ فاقْتُلْ هذه الدابةَ حتى يمضي الناسُ، فرماها فقتلها، ومضى الناسُ. فَأَتى الراهبَ فَأَخبَره، فقال له الراهبُ: أي بنيَّ، أنت اليومَ أفضلُ منِّي، قد بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أرى، وإنَّك ستُبْتَلَى، فإنِ ابتُلِيْتَ فلا تَدُلَّ عليَّ. وكان الغلامُ يُبْرِئُ الأَكْمهَ والأَبْرَصَ، ويُداوي الناسَ من سائرِ الأَدْواءِ. فسمع جليسٌ للملك كان قد عَمِي، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ماهاهُنا لك أَجْمعُ إنْ أنتَ شَفَيْتَني. فقال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ، فإنْ أنتَ آمنتَ بالله دَعَوْتُ الله فشَفَاكَ، فآمَنَ بالله فشَفَاه الله. فأتَى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملكُ: مَنْ رَدَّ عليك بَصَرَكَ؟ قال: ربِّي. قال: ولكَ ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّكَ اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذِّبُه حتى دَلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام فقال له الملكُ: أي بنيَّ! قَدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَه والأَبْرصَ، وتَفْعلُ وتفعلُ؟! قال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذبه حتى دَلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهب، فقيل له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأَبَى، فدعا بالمنشار، فوَضَعَ المنشار في مَفْرِق رأسِه، فشقَّه حتى

(١) في(م): الرواة.

وقع شِقَّاه. ثم جيءَ بجليسِ الملِكِ فقيل له: ارجعْ عن دينِكَ، فأبى، فوضَعَ المنشارَ في مَفرق رأسِه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبى، فدَفَعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصْعَدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذِرْوَتَه، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلّا فاطْرَحوه، فَذَهبوا به فصَعِدوا به الجبل، فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فرَجَفَ بهم الجبلُ فسَقَطوا. وجاء يمشي إلى الملِكِ، فقال له الملك: ما فَعَلَ أصحابكَ؟! قال: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به فاحمِلوه في قُرْقُور[١]، فتوسَّطوا به البحرَ، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلّا فاقْذِفوه، فذهبوا به فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فانْكَفأَتْ بهم السفينةُ فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملكُ: ما فَعَل أصحابُك؟! قال: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فقال للملك: إنَّك لَسْتَ بقاتِلي حتى تَفْعَل ما آمرُكَ به. قال: وما هو؟ قال: تَجْمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصْلُبُني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سهماً من كِنانَتي، ثم ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قل: بِاسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم ارْمِني، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك قَتلْتني. فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذْعٍ، ثم أَخَذَ سهماً من كنانته، ثم وضع السهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قال: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم رماه فوقع السهمُ في صُدْغِه، فوضَعَ يَده في صُدْغِه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمَنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! فأُتي الملِكُ فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَرُ؟ قد واللهِ نَزَلَ بك حَذَرُكَ، قد آمنَ الناسُ، فأَمر بالأُخدودِ في أفواه السِّككِ، فخُدَّت، وأَضْرمَ النيرانَ، وقال: من لم يَرْجِعْ عن دِينهِ فأَحْموه فيها[٢] ـ أو قيل له: اقْتَحِمْ ـ ففعلوا، حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ أن تقع فيها، فقال لها الغلامُ: «ياأُمَّهْ اصْبِري فإنَّكِ على الحقِّ»[٣].

---

(١) هو السفينة العظيمة، وجمعها قراقير. النهاية (قرقر).

(٢) أي: ارموه فيها، شرح النووي لصحيح مسلم ١٨/ ١٣٣ .

(٣) صحيح مسلم (٣٠٠٥)، وهو عند أحمد (٢٣٩٣١).

خرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وفيه: «وكان على طريق الغلامِ راهبٌ في صومعةٍ» قال معمر: أَحْسَبُ أنَّ أصحابَ الصَّوامع كانوا يومئذٍ مسلمين. وفيه: أنَّ الدابةَ التي حَبَستِ الناس كانت أَسَداً، وأنَّ الغلام دُفِنَ، قال: فيُذْكَر أنه أُخرِجَ في زمن عمر بن الخطاب وأصبعهُ على صِدْغِه كما وَضَعَهَا حين قُتِل. وقال: حديثٌ حسنٌ غريب[١].

ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان مَلِكٌ بنَجْران، وفي رعيته رجُل له بُنَيٌّ[٢]، فبعثه إلى ساحرٍ يعلِّمه السِّحرَ، وكان طريقُ الفتى على راهبٍ يقرأ الإنجيل، فكان يُعْجِبُه مايَسْمَعهُ من الراهب، فدخل في دينِ الراهبِ، فأقبل يوماً فإذا حيةٌ عظيمةٌ قَطَعتْ على الناس طريقَهم، فأخذ حجراً فقال: باسم الله ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، فقتلها. وذَكَر نحوَ ما تقدَّم. وأنَّ الملك لمَّا رماه بالسَّهم وقَتَلَه، قال أهلُ مملكةِ الملكِ: لا إله إلَّا إلهُ عبدِ الله[٣] بن ثامرٍ ـ وكان اسمَ الغلام ـ فغضب الملك، وأَمر فخُدَّتْ أخاديدُ، وجُمِع فيها حطبٌ ونارٌ، وعَرَضَ أهلَ مملكته عليها، فَمَن رَجَعَ عن التوحيد تَرَكَه، ومَن ثَبَتَ على دِينه قَذَفه في النار. وجيءَ بامرأةٍ مُرْضعٍ، فقيل لها: ارجِعي عن دينك وإلا قذفناكِ وولَدَكِ، قال: فأَشْفَقتْ وهَمَّتْ بالرجوع، فقال لها الصَّبيُّ المُرْضَع: يا أمِّي، اثْبُتي على ما أنتِ عليه، فإنَّما هي غُمَيْضَةٌ، فَأَلْقَوْها وابنَها.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنَّ النار ارتفعتْ من الأخدودِ فصارت فوقَ الملكِ وأصحابِهِ أربعينَ ذراعاً فَأَحْرَقَتْهم[٤].

وقال الضحاك: هم قومٌ من النصارى كانوا باليمن قبل مَبْعَثِ رسول الله ﷺ بأربعين سنةً، أَخَذَهم يوسف بنُ شراحيل بن تُبَّع الحميريُّ، وكانوا نيفاً وثمانين

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٠).

(٢) في (م): فتى.

(٣) في النسخ: لا إله إلا الله عبد الله، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٤٦٩ والخبر فيه بنحوه من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره مطولاً الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣٩-٤٤١ ، وفيه: لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله...

(٤) ذكر نحوه الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢ عن الكلبي.

رجلاً، وحَفَر لهم أُخدوداً وأَحْرقَهم فيه. حكاه الماورديُّ[١]. وحَكَى الثعلبيُّ عنه: أنَّ أصحابَ الأخدودِ من بني إسرائيل، أَخَذوا رجالاً ونساءً، فخدُّوا لهم الأخاديدَ، ثم أَوْقَدوا فيها النارَ، ثم أُقيم المؤمنون عليها، وقيل لهم: تكفُرونَ أو تُقْذَفون في النار[٢]؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابُه، وقاله عَطِيةُ العَوْفيُّ. ورُوي نحوُ هذا عن ابن عباس[٣].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ ملِكاً سكِر فوقعَ على أُخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رَعيَّته، فلم يقبلوا، فأشارتْ إليه أنَّ يخطُبَ بأنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ أَحَلَّ نكاحَ الأَخواتِ، فلم يُسْمَعْ منه، فأشارتْ عليه أن يخُدَّ لهم الأخدودَ، ويُلقي فيه كلَّ من عَصَاه، ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوسُ، وكانوا أهلَ كتاب[٤].

ورُوي عن عليٍّ أيضاً أنَّ أصحاب الأخدودِ كان سببُهم أنَّ نبيًّا بَعَثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتَّبعه ناسٌ، فخدَّ لهم قومُهم أخدوداً، فَمَن اتَّبع النبيَّ رُمي فيها، فجيءَ بامرأةٍ لها بُنَيٌّ رضيعٌ فجزِعتْ، فقال لها: يا أمَّاه، امْضي ولا تَجْزعي[٥].

وقال أيوب عن عِكرمةَ قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: كانوا من قومِكَ من السِّجِسْتان. وقال الكلبيُّ: هم نصارى نجران، أَخَذوابها قوماً مؤمنين، فخدُّوا لهم سبعةَ أخاديد، طولُ كلِّ أخدودٍ أربعون ذراعاً، وعرضُه اثنا عَشَر ذراعاً. ثم طُرِحَ فيه النِّفْطُ والحطبُ، ثم عَرَضوهم عليها، فَمَنْ أَبَى قَذَفوه فيها. وقيل: قومٌ من النصارى كانوا بالقُسْطَنْطينيةِ زمانَ قُسْطَنطين.

وقال مقاتل: أصحابُ الأخدودِ ثلاثةٌ، واحدٌ بنجرانَ، والآخرُ بالشَّامِ، والآخَرُ

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٢ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وذكره عن عطية الماوردي ٦/ ٢٤٢.

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٢٧٠-٢٧١.

(٥) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٣، وذكره البغوي ٤/ ٤٦٩.

بفارس. أمَّا الذي بالشامِ، فأنطنيانوس الروميُّ، والذي بفارس بختنصَّر، والذي بأرض العربِ يوسف بن ذي نُواس. فلم يُنْزِل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجرانَ. وذلك أنَّ رجلين مسلمين كان أحدُهما بتهامةَ، والآخرُ بنجران، آجَرَ أحدُهما نفسَه، فجعل يعملُ ويقرأُ الإنجيلَ، فرأت ابنةُ المستأجر النور في قراءة الإنجيل، فأَخْبرتْ أباها فأَسْلَم. وبلغوا سبعةً وثمانين بين رجلٍ وامرأةٍ، بعدَ ما رُفع عيسى، فخدَّ لهم يوسف بنُ ذي نُواس بن تُبَّعٍ الحِميريُّ أُخدوداً، وأَوْقَد فيه النارَ، وعَرَضهم على الكفر، فَمَن أَبَى أنْ يكفر قَذفه في النار، وقال: مَن رجع عن دين عيسى لم يُقْذَف. وإنَّ امرأةً معها ولدُها صغيرٌ لم يتكلَّم، فرجعت، فقال لها ابنُها: ياأمَّاه، إنِّي أرى أمامك ناراً لا تُطْفَأ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها اللهُ وابنَها في الجنة. فقُذِفَ في يومٍ واحدٍ سبعةٌ وسبعون إنساناً[(١)].

وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبِّهٍ: كان رجلٌ من بقايا أهلِ دينِ عيسى ابن مريم عليه السلام، يقال له: قيميون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً، زاهداً في الدنيا، مُجابَ الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعْرَفُ بقريةٍ إلَّا مَضَى عنها، وكان بَنَّاءً يعملُ الطِّين[(٢)].

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: وكان أَهلُ نَجْرانَ أهلَ شِرْكٍ يعبدون الأصنام، وكان في قريةٍ من قُراها قريباً من نجران ساحرٌ يعلِّم غلمانَ أهلِ نجران السِّحرَ، فلمَّا نزل بها قيميون، بنى بها خيمةً بين نجرانَ وبين تلك القريةِ التي بها السَّاحر، فجعل أهلُ نجران يبعثون غلمانَهم إلى ذلك الساحرِ يعلِّمهم السِّحرَ، فبعث إليه الثامر عبدَالله ابنَ الثامر، فكان مع غلمانِ أهلِ نجران، فكان عبدُ الله إذا مرَّ بصاحبِ الخيمةِ أَعْجبَه ما يرى من أمرِ صَلاتِه وعبادته، فجعل يجلسُ إليه ويسمعُ منه، حتى أَسْلَم، فوحَّد الله

(١) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٦٩-٤٧٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣١-٣٢ .

وعَبَدَه، وجعل يسألهُ عن اسمِ اللهِ الأعظم، وكان الراهبُ يعلّمه، فَكَتَمَه إياه وقال: يا ابن أخي، إنَّك لن تَحْمِلَه، أخشى ضَعْفَكَ عنه، وكان أبوه الثامرُ لايظنُّ إلّا أنَّ ابنه يختلفُ إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلمّا رأى عبدُ الله أنَّ الراهبَ قد بَخِلَ عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عمدَ إلى قِداحٍ فجمعَها، ثم لم يُبْقِ للهِ تعالى اسماً يعلَمُه إلّا كتبه في قِدْح، لكلِّ اسمٍ قِدْحٌ، حتى إذا أحصاها أَوْقَدَ لها ناراً، ثم جعل يقذفُها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مرَّ بالاسم الأَعْظَمِ قذف فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتى خرج منها لم يضرَّه شيءٌ، فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد عَلِمَ اسمَ الله الأعظمَ الذي كَتَمه إياه؛ فقال: وماهو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف عَلِمْتَه؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابنَ أخي، قد أَصَبْتَه، فأمْسِكْ على نفسك، وما أظنُّ أنْ تَفْعَلَ. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَبْقَ أحدٌ به ضُرٌّ إلّا قال: يا عبد الله، أَتُوَحِّدُ الله وتَدْخُلُ في ديني، فأَدْعوَ الله لك فيعافِيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحِّد الله ويُسْلِم، فيدعو الله له فيشفَى، حتى لم يَبْقَ أحدٌ بنجران به ضرٌّ إلّا أتاه فاتَّبعه على دينه، ودعا له فعُوفي، حتى رُفِع شأنُه إلى مَلِكِهم، فدعاه فقال له: أَفْسَدْتَ عليَّ أهلَ قريتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، فلأُمثِّلَنَّ بك. قال: لا تقدرُ على ذلك. فجعل يرسلُ به إلى الجبل الطويل، فيُطْرَحُ عن رأسه، فيقعُ على الأرض ليس به بأسٌ. وجعل يبعثُ به إلى مياهِ نجرانَ، بحار لا يُلْقَى فيها شيءٌ إلّا هَلَكَ، فيُلْقَى فيها فيخرجُ ليس به بأسٌ، فلمّا غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدرُ على قتلي حتى توحِّدَ الله وتؤمنَ بما آمنتُ به، فإنك إن فعلتَ ذلك سُلِّطْتَ عليَّ وقَتَلْتني. فوحَّد الله ذلك الملكُ وشَهِدَ شهادتَه، ثم ضَرَبه بعصاً فشجَّه شجةً صغيرةً ليست بكبيرةٍ، فقتله، وهَلَكَ الملك مكانهُ، واجْتَمَعَ أهلُ نجرانَ على دينِ عبد الله بن الثَّامِر، وكان على ما جاء به عيسى ابنُ مريم من الإنجيل وحُكْمِه. ثم أصابهم ما أصاب أهلُ دينهم من الأحداث، فَمِن ذلك كان أصلُ النصرانيةِ بنجرانَ. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديُّ بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيَّرهم بين ذلك أو

القتلِ، فاختاروا القتلَ، فخدَّ لهم الأخدودَ؛ فحرَّق بالنار وقَتَلَ بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قَتَلَ منهم عشرين ألفاً[١]. وقال وهب ابن منبه: اثني عَشَر ألفاً. وقال الكلبيُّ: كان أصحابُ الأخدودِ سبعين ألفاً[٢].

قال وهبٌ: ثم لمَّا غَلَبَ أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق. قال ابن إسحاق: وذو نُواس هذا اسمُه زُرْعةُ بنُ تُبَّان أسعد الحميريُّ، وكان أيضاً يسمَّى يوسف، وكان له غَدَائرُ من شعرٍ تَنُوسُ، أي: تضطربُ، فسُمِّي ذا نُواس، وكان فَعَلَ هذا بأهلِ نجران، فأفْلَتَ منهم رجلٌ اسمُه دَوْسٌ ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نُواس في البحر، أَلْقَى نفسَه فيه[٣]، وفيه يقولُ عمرو بن معدي كَرِب:

أَتُوْعِدني كأنَّك ذو رُعَيْنٍ ... بأَنْعَمِ عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائن كان قبلَك من نَعِيمٍ ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ ... عظيمٍ قاهرِ الجبروتِ قاسِ
أزالَ الدهرُ مُلْكَهم فأَضْحَى ... يُنَقَّل من أناسٍ في أناسِ[٤]

وذو رُعينٍ: ملكٌ من ملوك حمير. ورُعَينٌ حصنٌ له، وهو من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ.

مسألة: قال علماؤنا: أَعْلَم الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمةِ في هذه الآية ما كان يلقاه مَن وَحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤَنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبيُّ ﷺ قصةَ الغلامِ لِيَصْبِروا على ما يلاقون من الأذى و الآلام، والمَشقَّات التي كانوا عليها، ليتأسَّوْا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤-٣٥ .

(٢) ذكر القولين الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢ .

(٣) التعريف والإعلام ص١٨٢ ، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٣٠ و٣١ و٣٧.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠ ، وعرائس المجالس ص٤٤٢ وصدر البيت الأخير فيهما: فأمسى أهله بادوا وأمسى...

بمثل هذا الغلام في صبره وتصلُّبه في الحقِّ وتمسُّكه به، وبَذْلِه نَفْسَه في حقِّ إظهارِ دعوته، ودخولِ الناس في الدين، مع صِغَرِ سنِّه وعظيمِ صَبْرِهِ. وكذلك الراهبُ صبر على التمسُّك بالحقِّ حتى نُشِرَ بالمنشار. وكذلك كثيرٌ من الناس لمَّا آمنوا بالله تعالى وَرَسَخَ الإيمانُ في قلوبهم، صبروا على الطَّرْح في النار ولم يرجعوا في دينهم(١). ابن العربيِّ: وهذا منسوخٌ عندنا، حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل(٢).

قلت: ليس بمنسوخٍ عندنا، وإنَّ الصَّبر على ذلك لِمَن قَوِيَتْ نَفْسُه وصَلُب دينُه أَوْلَى، قال الله تعالى مُخْبِراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]. وروى أبو سعيد الخدريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ من أَعْظَمِ الجهادِ كلمةَ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائرٍ»: خرَّجه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ غريب(٣).

ورَوَى ابن سنجر ـ محمد بنُ سنجر ـ عن أميمةَ مولاة النبيِّ ﷺ قالت: كنتُ أوضِّئُ النبيَّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: أَوْصِني. فقال: «لاتُشْرِكْ بالله شيئاً وإنْ قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ بالنار...» الحديث(٤).

قال علماؤنا: ولقد امتُحِنَ كثيرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ بالقتل والصَّلب والتعذيب الشديد، فصَبَروا ولم يلتفتوا إلى شيءٍ من ذلك، ويكفيكَ قصةُ عاصمٍ وخُبيبٍ

---

(١) المفهم ٧/٤٢٦ ، وفيه: .... ولم يرجعوا عن دينهم.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٤ ، وينظر أحكام القرآن ٣/ ١١٦٥ وما بعدها، وينظر ما سلف ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها.

(٣) سنن الترمذي (٢١٧٤)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وله شاهد من حديث أبي أمامة ﷺ سلف ١٤/ ٤٥١ . وآخر من حديث طارق بن شهاب عند أحمد (١٨٨٢٨)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٦١ .

(٤) لعله في مسند ابن سنجر، وقد سلف الكلام عنه ١٤/٥ ، و أخرجه مطولاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٧)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٤٧٩). وأخرجه عبد بن حميد (١٥٩٤) من حديث أم أيمن رضي الله عنها. وينظر الإصابة ١٢/ ١٤١ .

وأصحابِهما، ومالَقُوا[(١)] من الحروبِ والمحنِ والقتلِ والأسرِ والحَرْقِ، وغير ذلك، وقد مضى في «النحل» أنَّ هذا إجماعٌ ممن قَوِيَ في ذلك، فتأمَّلْه هناك[(٢)].

قول تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفَّار بالإبعاد من رحمة الله تعالى.

وقيل: معناه: الإخبارُ عن قَتْلِ أولئك المؤمنين، أي: إنهم قُتلو بالنار فصَبروا.

وقيل: هو إخبارٌ عن أولئك الظالمين، فإنه رُوي أنَّ الله قَبَضَ أرواح الذين أُلْقُوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجتْ نارٌ من الأخدود فأَحْرقَت الذين هم عليها قعود[(٣)]. وقيل: إنَّ المؤمنين نَجَوا، وأَحْرقَت النارُ الذين قعدوا، ذكره النحاس[(٤)].

ومعنى«عليها» أي: عندها، وعلى بمعنى عند. وقيل: «عليها»: على ما يدنو منها من حافاتِ الأخدود، كما قال:

وباتَ على النارِ النَّدى والمحلَّقُ[(٥)]

والعامل في«إذ»: «قُتِل»، أي: لُعنوا في ذلك الوقت.

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾أي: حضورٌ، يعني الكفارَ، كانوا يعرِضون الكفرَ على المؤمنين، فَمَن أَبى أَلْقَوْه في النار، وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجِدِّ في ذلك.

---

(١) يعني أصحاب النبي ﷺ عامةً، والكلام من المفهم ٧/ ٤٢٦ .

(٢) ينظر ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها، وسلفت قصة عاصم وخبيب وأصحابهما ١٣/ ٣٤٣ وما بعد .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٦ عن الربيع بن أنس قوله.

(٤) وذكره كذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ وقال: هو أشبه بالصواب.

(٥) وصدره: تُشَبُّ لمَقْرورَيْنِ يصطليانها. والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٢٧٥ ، من قصيدة في مدح المحلَّق بن حنتم بن شداد. قال الشارح: أي: بات عليها اثنان يستدفئان من البرد ويَسْمُران، هما الكرَم والمحلَّق.

وقيل: «على» بمعنى مع، أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وقرأ أبو حَيْوة: «نَقِموا» بالكسر، والفصيحُ هو الفتح[١]، وقد مضى في «براءة» القولُ فيه[٢]، أي: ما نَقَم الملِكُ وأصحابُه من الذين حَرَّقهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ أي: إلَّا أنْ يصدِّقوا ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالبِ المنيعِ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ في كلِّ حال. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لاشريكَ له فيهما ولانديدَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالمٌ بأعمالِ خَلْقِه لاتَخْفى عليه خافيةٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حَرَّقوهم بالنار. والعربُ تقول: فَتَنَ فلانٌ الدرهمَ والدينارَ: إذا أَدْخَلَه النارَ[٣] لينظرَ جودَتَه. ودينارٌ مفتونٌ. ويسمَّى الصَّائغ: الفتَّان، وكذلك الشيطانُ، ووَرِقٌ فَتِين، أي: فضةٌ مُحْرَقةٌ[٤]. ويقال للحَرَّة[٥]: فَتين، أي: كأنها[٦] أُحْرِقَتْ حجارتُها بالنار، وذلك لسَوَادها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي: مِن قبيحِ صَنيعِهم مع ما أَظْهَره الله لهذا الملِكِ الجبارِ الظالم

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٩ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٧١ .

(٢) ١٠/ ٣٠٤ .

(٣) في (د) و(م): الكور.

(٤) في (ظ) و(م): محترقة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (فتن)، والكلام منه.

(٥) الحرَّة: أرض ذات حجارة سودٍ نَخِرةٍ كأنها أحرقت بالنار. الصحاح (حرر).

(٦) في (ي) و(ظ): كأنما.

وقومِه من الآيات البيناتِ على يدِ الغلام. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكُفْرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدَّم عن ابن عباس[1].

وقيل: «ولهم عذاب الحريق»، أي: ولهم في الآخرة عذابٌ زائدٌ على عذابِ كُفْرِهم بما أحْرقوا المؤمنين.

وقيل: لهم عذابُ الجحيم وعذابُ الحريق[2]. والحريق: اسمٌ من أسماء جهنم، كالسَّعير. والنارُ دَرَكاتٌ وأنواعٌ ولها أسماء، وكأنَّهم يعذَّبون بالزَّمْهَرير في جهنم، ثم يعذَّبون بعذابِ الحريق. فالأولُ عذابٌ بِبَرْدها، والثاني عذابٌ بحرِّها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله، أي: صدَّقوا به وبرسُله. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، ومن لَبَنٍ لم يتغيَّر طَعْمُهُ، ومن خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٍ من عسلٍ مُصَفًّى. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم، الذي لا فوزَ يُشْبِهه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: أَخْذَه الجبابِرَةَ والظَّلَمَةَ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ * إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. وقد تقدَّم. قال المبرد[3]: «إنَّ بَطْشَ ربِّك» جوابُ القَسَم. المعنى: والسماءِ ذاتِ البروج إنَّ بَطْشَ ربِّك، وما بينهما معتَرِضٌ مؤكِّدٌ للقَسَم. وكذلك قال التِّرمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[4]: إنَّ القسم واقعٌ على[5] ذِكْرِ صفتِه بالشِّدة.

(١) ص١٨٧ من هذا الجزء.

(٢) في (د) و(م): لهم عذاب وعذاب جهنم الحريق.

(٣) في المقتضب ٢/ ٣٣٧.

(٤) قوله: نوادر الأصول، ليس في (ي) و(ظ)، ولم نقف على هذا الكلام في المطبوع منه.

(٥) في (م): عما.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني الخَلْقَ ـ عند أكثر العلماء ـ يخلُقهم ابتداءً، ثم يعيدُهم عند البعث. وروى عكرمةُ قال: عَجِبَ الكفارُ من إحياءِ اللهِ جلَّ ثناؤه الأمواتَ.

وقال ابن عباس: يبدئُ لهم عذابَ الحريقِ في الدنيا، ثم يعيدُه عليهم في الآخرة. وهذا اختيارُ الطبريِّ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ أي: السَّتُورُ لذنوبِ عبادِه المؤمنين، لا يفضحُهم بها. ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ أي: المحبُّ لأوليائه. ورَوَى الضحَّاك عن ابن عباس قال: كما يَوَدُّ أحدُكم أخاه بالبشرى والمحبةِ. وعنه أيضاً: «الودود»، أي: المتودِّدُ إلى أوليائه بالمغفرة[(٢)]. وقال مجاهد: الوادُّ لأوليائه، فعولٌ بمعنى فاعِلٍ. وقال ابن زيد: الرحيم[(٣)].

وحكى المبرِّدُ عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أنَّ الودودَ هو الذي لا وَلَدَ له، وأنشد قولَ الشاعر:

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ عُرْيانةً ذَلولَ الجَنَاحِ لَقاحاً وَدُودا[(٤)]

أي: لا ولَد لها تَحِنُّ إليه، ويكونُ معنى الآيةِ: إنه يَغْفِرُ لعباده وليس له ولدٌ يَغْفِرُ لهم من أَجْلِه، ليكونَ بالمَغْفِرة متفضِّلاً من غير جزاء[(٥)].

وقيل: الودودُ بمعنى المَوْدودِ، كرَكوب وحَلُوب، أي: يَوَدُّه عبادُه الصالحون ويحبُّونه[(٦)].

---

(١) في التفسير ٢٤/٢٨٣ ، وقول ابن عباس منه.

(٢) ذكره الرازي ٣١/١٢٣ عن الكلبي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٢٨٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/٢٤٣ ، والبيت في البحر ٨/٤٥٢ برواية: ذلول الجماع، وفي الدر المصون ١٠/٤٧٨ برواية: خيفانة ذلول الجماح. وورد صدر البيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٣ . وذكر الرازي ٣١/١٢٤ ، وصاحب اللسان (ورد) البيت برواية:

وأَغْددتُ للحرب خَيْفانةً جَمُومَ الجِراءِ وَقَاحاً ودودا

(٥) النكت والعيون ٦/٢٤٣ .

(٦) الوسيط ٤/٤٦٢ ، وتفسير الرازي ٣١/١٢٣ .

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «المجيدِ» بالخفض[(١)]، نعتاً للعرش. وقيل: لـ «ربِّك»، أي: إنَّ بَطْشَ ربِّك المجيدِ لشديدٌ، ولم يمتنع الفَصْلُ، لأنه جارٍ مجرى الصفةِ في الشديد.

الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو اللهُ تعالى. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّ المجدَ هو النهايةُ في الكرم والفَضْلِ، والله سبحانه هو المنعوتُ بذلك. وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»، تقول العرب: في كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[(٢)]، أي: تَناهَيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما.

ومعنى ذو العرش: أي: ذو المُلْكِ والسُّلْطانِ، كما يقال: فلانٌ على سريرِ مُلْكِه، وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُلَّ عرشُه، أي: ذهب سلطانُه. وقد مضى بيانُ هذا في «الأعراف»[(٣)] وخاصَّةً في «كتاب الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[(٤)].

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لا يمتنعُ عليه شيءٌ يريدهُ. الزمخشريُّ[(٥)]: «فَعَّالٌ» خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وإنَّما قيل: «فَعَّالٌ» لأنَّ ما يريدُ ويفعلُ في غاية الكَثْرةِ. وقال الفرَّاء: هو رفعٌ على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرةٌ مَحْضَةٌ. وقال الطبريُّ: رُفعَ «فعالٌ» ـ وهي نكرةٌ مَحْضَةٌ ـ على وجهِ الإتباعِ لإعراب «الغفورُ الودودُ»[(٦)].

وعن أبي السَّفَرِ قال: دخل ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ على أبي بكرٍ ﷺ يَعُودونه

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٦٧٨، والتيسير ص٢٢١.

(٢) يريد بذكر المثل أن المجد والتمجيد قد يوصف بهما الجمادات، وقد سلف هذا المثل ١٥/ ٦٠. وكذلك حين وصف العرش بالكرم في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦] جاز أن يوصف العرش بالمجد؛ لأن معناه الكمال، والعرش على ما ذكر أحسن شيء وأكمله وأجمعه لصفات الحُسن. ينظر الوسيط٤/ ٤٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣.

(٣) ٩/ ٢٤٠.

(٤) ص١٨٣ وما بعدها.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٣٩.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٨٤-٢٨٥.

فقالوا: أَلَا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إنِّي فعالٌ لِمَا أُريد(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي: قد أتاك يا محمدُ خبرَ الجموعِ الكافرةِ المكذِّبةِ لأنبيائِهم؛ يؤنِّسه بذلك ويُسلِّيه. ثم بَيَّنهم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وهما في موضعِ جرٍّ على البَدَلِ من «الجنودِ». المعنى: إنَّك قد عَرَفْتَ ما فَعَلَ الله بهم حين كذَّبوا أنبياءَه ورُسُلَه.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك. ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ لك، كدأبِ مَن قَبْلَهم. وإنَّما خص فرعون وثمود؛ لأنَّ ثمودَ في بلاد العرب، وقصتُهم عندهم مشهورةٌ وإن كانوا من المتقدِّمين. وأمرُ فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتَاب وغيرهم، وكان من المتأخِّرين في الهلاك، فدلَّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي: يَقْدِرُ على أن يُنْزِلَ بهم ما أَنزل بفرعون. والمحاطُ به كالمحصور. وقيل: أي: واللهُ عالمٌ بهم فهو يُجازيهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: مُتناهٍ في الشَّرفِ والكرمِ والبركة، وهو بيانُ ما بالناس الحاجةُ إليه من أحكام الدِّين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل: «مَجيد»، أي: غيرُ مخلوقٍ.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي: مكتوبٌ في لوح. وهو محفوظٌ عند الله تعالى من وصول

---

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ١٩٨، وهناد في الزهد (٣٨٢)، وأبو السَّفَر هو سعيد بن يُحْمِد الهمدانيُّ الكوفي، من رجال التهذيب.

الشياطين إليه. وقيل: هو أمُّ الكتاب، ومنه انتسخَ القرآنُ والكتب.

وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: اللوحُ من ياقوتةٍ حمراءَ، أعلاه معقودٌ بالعرش وأسفلُه في حِجْرِ مَلَكٍ يقال له: ماطريون، كتابُه نورٌ، وقَلَمُه نورٌ، ينظر الله عزَّ وجلَّ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَ مئةٍ وستِّين نظرةً، ليس منها نظرةٌ إلَّا وهو يفعلُ ما يشاءُ؛ يرفعُ وضيعاً، ويَضَعُ رفيعاً، ويُغني فقيراً، ويُفْقِرُ غنيّاً؛ يُحيي ويُميتُ، ويفعلُ ما يشاء، لا إلهَ إلَّا هو(١).

وقال أنس بن مالك ومجاهد: إنَّ اللوحَ المحفوظَ الذي ذكره الله تعالى في جَبْهَةِ إسرافيل(٢).

وقال مقاتل: اللوحُ المحفوظُ عن يمين العرش(٣).

وقيل: اللوحُ المحفوظُ: الذي فيه أصنافُ الخلْقِ والخليقةِ، وبيانُ أمورِهم، وذِكْرُ آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقبِ أمورِهم، وهو أمُّ الكتاب.

وقال ابن عباس: أوَّلُ شيءٍ كَتبَه الله تعالى في اللوح المحفوظ: إنِّي أنا اللهُ لا إلهَ إلَّا أنا، محمدٌ رسولي، مَن استسلم لقضائي، وصَبر على بلائي، وشَكَر نَعْمائي، كتبتُه صدِّيقاً وبعثتُه مع الصِّدِّيقين، ومَن لم يستسلم لقضائي، ولم يَصْبر على بلائي، ولم يَشْكُر نَعْمائي، فليتَّخِذْ إلهاً سواي(٤).

وكتب الحجَّاجُ إلى محمد ابن الحنفية ﷺ يتوعَّدهُ، فكتب إليه ابنُ الحنفيةِ: بلغني

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥١٩ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٣ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه مختصراً بنحوه عبد الرزاق ١/ ٣٨٩ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٧ عن أنس.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٢ ، وذكره الألوسي ٣٠/ ٩٤ وقال: وجاء فيه أخبار غير ذلك، ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته وغير ذلك.

(٤) أخرجه الديلمي كما ذكر المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص٤٦ .

أنَّ للهِ تعالى في كلِّ يوم ثلاثُ مئةٍ وستِّين نظرةً في اللوح المحفوظ؛ يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَبْتلي ويُفْرِحُ، ويفعلُ ما يريد، فلعلَّ نظرةً منها تَشْغَلُك بنفسك، فتشتغلُ بها ولا تتفرَّغ[1].

وقال بعضُ المفسِّرين: اللوحُ شيءٌ يلوحُ للملائكة فيقرؤونه.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة: «قرآنُ مجيدٍ» على الإضافة[2]، أي: قرآنُ ربٍّ مجيدٍ.

وقرأ نافعٌ: «في لوحٍ محفوظٌ» بالرفعِ[3] نعتاً للقرآن، أي: بل هو قرآنٌ مجيدٌ محفوظٌ في لوح. الباقون بالجرِّ نعتاً للَّوح.

والقرَّاءُ متَّفقُون على فتح اللام من «لَوْح»، إلَّا ما روي عن يحيى بن يعمر؛ فإنه قرأ: «في لُوحٍ» بضمِّ اللام[4]، أي: إنه يَلُوحُ، وهو ذو نورٍ وعلوٍّ وشرف. قال الزمخشريُّ[5]: واللُّوحُ الهواء، يعني اللُّوح فوقَ السماءِ السابعةِ الذي فيه اللَّوح. وفي «الصِّحاح»[6]: لاحَ الشيءُ يَلُوحُ لَوْحاً، أي: لَمَحَ[7]. ولاحَهُ السَّفرُ: غيَّره. ولاحَ لَوْحاً ولُواحاً: عَطِشَ، والْتَاحَ مثلُه. واللَّوحُ: الكَتِفُ، وكلُّ عظمٍ عريضٍ. واللَّوحُ: الذي يُكْتَبُ فيه. واللُّوحُ بالضم: الهواءُ بين السماءِ والأرض. والحمد لله.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣ .

(٣) السبعة ص٦٧٨ ، والتيسير ص٢٢١ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن اليماني.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٤٠ .

(٦) مادة (لوح).

(٧) لمح: لمع. مختار الصحاح (لوح).

سُورَةُ البُرُوجِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها اثنتانِ وعِشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ يعني: البُروجَ الاثنَيْ عشرَ؛ شُبِّهَتْ بالقُصورِ لأنَّها تَنْزِلُها السَّيَّاراتُ، وتكونُ فيها الثَّوابتُ.

أو: مَنازِلَ القمرِ.

أو: عِظَامَ الكَواكبُ؛ سُمِّيَتْ بُروجًا لظُهورِهَا.

أو: أبوابَ السَّماءِ؛ فإنَّ النَّوازِلَ تخرجُ مِنْهَا. وأصلُ التَّركيبِ للظُّهورِ.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾: يومُ القيامةِ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ومَن يَشْهَدُ في ذلك اليومِ مِن الخلائقِ، وما أُحضِرَ فيهِ مِن العجائبِ، وتَنْكيرُهما للإبهامِ في الوَصفِ؛ أي: وشاهدٍ ومَشهودٍ لا يُكتَنَهُ وَصفُهُما، أو المبالغةِ في الكثرةِ؛ كأنَّه قيل: ما أفرطَتْ كثرتُه مِن شاهدٍ ومَشهودٍ.

أو: النَّبيُّ وأمَّتُه، أو: أمَّتُه وسائرُ الأممِ، أو: كلُّ نبيٍّ وأمَّتُه.

أو: الخالقُ والخَلْقُ، أو: عكسُهُ؛ فإنَّ الخالقَ مطَّلعٌ على خلقهِ وهو شاهدٌ على وُجودِه.

أو: المَلَكُ الحفيظُ والمُكلَّفُ.

أو: يومُ النَّحرِ ـ أو عرفةُ ـ والحجيجُ.

أو: يومُ الجُمعةِ والمُجمِّعُ؛ فإنَّه يشهدُ له، أو: كلُّ يومٍ[١] وأهلُه.

(٤) ـ ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قيل: إنَّهُ جوابُ القَسَمِ، على تقديرِ: لقَدْ قُتِلَ، والأظهرُ أنَّه دليلُ جوابٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيل: إنَّهُم مَلعونونَ ـ يعني: كفَّارَ مكَّةَ ـ كما لُعِنَ أصحابُ الأُخدودِ؛ فإنَّ السُّورةَ وردَتْ لتَثبيتِ المؤمنينَ على أذاهُمْ وتَذكيرِهم بما جرى على مَن قبلَهُم.

والأُخدودُ: الخَدُّ، وهو الشَّقُّ في الأرضِ، ونحوُهما بناءً ومَعنًى: الخَقُّ والأُخْقُوقُ.

رُوِيَ مَرْفُوعًا: أنَّ مَلِكًا كانَ له ساحرٌ، فلمَّا كَبِرَ ضمَّ إليه غلامًا ليُعلِّمَهُ، وكان في طريقِهِ راهِبٌ فمالَ قَلبُهُ إليه، فرأى في طريقِهِ ذاتَ يومٍ حيَّةً قد حَبَستِ النَّاسَ، فأخذَ حَجَرًا وقال: اللهمَّ إن كانَ الرَّاهِبُ أحبَّ إليك مِن السَّاحرِ فاقتُلْها، فقتَلَها، فكانَ الغلامُ بعدُ يُبرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويشفي مِن الأدواءِ، وعَمِيَ جَليسُ الملكِ فأبرَأَهُ، فسألَ الملكُ عمَّنْ أبرَأَهُ فقالَ: ربِّي، فغَضِبَ فعذَّبَه فدلَّ على الغلامِ، فعذَّبَهُ فدَلَّ على الرَّاهبِ، فقدَّهُ بالمنشارِ، وأرسلَ الغلامَ إلى جبلٍ ليُطرَحَ مِن ذِروتِهِ، فدعا فرجَفَ فهلكُوا ونجا، وأجلسَهُ في سَفينَةٍ ليَغرقَ فدعا فانكفَأَتِ[٢] السَّفينةُ بمَنْ معَهُ فغَرِقُوا ونجا، فقالَ للملكِ: لستَ بقَاتِلي حتى تجمعَ النَّاسَ وتَصلُبَنِي وتأخذَ سَهْمًا مِن كِنانَتِي وتقولَ: بسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثمَّ تَرمِيَنِي به، فرَماهُ فوقعَ في صُدغِهِ وماتَ، فآمنَ النَّاسُ، فأمرَ بأَخادِيدَ وأوقِدَتْ فيها النِّيرَانُ، فمَنْ لَمْ يرجِعْ مِنهُم طرحَهُ فيها،

---

(١) بعدها في نسخة التفتازاني: «وليلة»، وله وجه ففي «الكشاف»: وقيل: الأيَّامُ واللَّيالي وبَنُو آدمَ.

(٢) في نسخة الخيالي: «فانقلب».

حتى جاءَتِ امرأَةٌ معَها صبيٌّ فتقاعَسَتْ، فقالَ الصَّبِيُّ: يا أُمَّاهُ اصبرِي فإنَّكِ على الحَقِّ، فاقتحَمَتْ[1].

وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: أنَّ بعضَ مُلوكِ المَجوسِ خطبَ بالنَّاسِ وقال: إنَّ اللهَ أحَلَّ نكاحَ الأخواتِ، فلم يقبَلُوهُ، فأمرَ بأخاديدِ النَّارِ فطُرِحَ فيها مَن أَبى[2].

وقيل: لَمَّا تَنصَّرَ أهلُ نجران غَزَاهُم ذو نُواسٍ اليَهودِيُّ مِن حِمْيَرَ، فأحرقَ في الأَخاديدِ مَن لم يَرتدَّ[3].

(٥) ـ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ بدلَ الاشتمالِ ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفةٌ لها بالعَظمةِ وكثرةِ ما يرتفعُ به[4] لهبُهَا، واللامُ في ﴿ٱلْوَقُودِ﴾ للجِنْسِ.

(٦ ـ ٧) ـ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾: على حافَّةِ النَّارِ ﴿قُعُودٌ﴾: قاعدونَ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾: يشهَدُ بَعضُهُم لبَعضٍ عندَ المَلِكِ بأنَّه لم يُقَصِّرْ فيما أمرَهُ به، أو: يشهدونَ على ما يفعلونَ يومَ القيامةِ حينَ تشهدُ عليهِمْ ألسنتُهُم وأيديهِم.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾: وما أنكرُوا ﴿مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استثناءٌ على طريقَةِ قولِه:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[5]

---

(١) رواه مطولًا مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه، وسياق المصنف مختصر منه.

(٢) رواه عبدُ بن حميد في «تفسيره» كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ١٨٣)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٤٦٧)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ١٦٣ ـ ١٦٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ١٧٠) عن الكلبي.

(٤) في نسخة التفتازاني: «من». قلت: والهاء في «به» تعود على «ما يرتفع»، والمراد به الوقود من الحطب الكثير وأبدان الناس. انظر: «الكشاف» (٩/ ٥٤٠).

(٥) البيت للنابغة الذبياني في «ديوانه» (ص: ١٥). وتقدم غير مرة.

ووصفَه بكونِه عزيزًا غالبًا يُخْشَى عقابُه، حميدًا مُنعِمًا يُرجى ثوابُه، وقرَّرَ ذلك بقولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعارِ بما يَستحِقُّ أَنْ يُؤمَنَ به ويُعبَدَ.

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: بَلَوْهُمْ بالأذى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكُفرِهِم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: العذابُ الزَّائدُ في الإحراقِ بفِتنَتِهِم.

وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ أصحابُ الأُخدودِ، وبـ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ ما رُوِيَ أنَّ النَّارَ انقلَبَتْ عليهِمْ فأَحْرَقَتْهُم(١).

(١١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إذ الدُّنيا وما فيها تَصغُرُ دونَه.

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾: مُضاعَفٌ عُنفُهُ؛ فإنَّ البطشَ أَخذٌ بعُنفٍ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: يُبدئُ الخلقَ ويُعيدُهُ، أو يُبدِئُ البَطشَ بالكفَرةِ في الدُّنيا ويُعيدُهُ في الآخرةِ.

(١٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لِمَن تابَ ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: المحبُّ لِمَن أطاعَ.

(١٥) ـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خالقُهُ، وقيل: المرادُ بالعَرْشِ المُلكُ، وقُرِئَ: (ذي العرشِ)(٢) صفةً لـ﴿رَبِّكَ﴾.

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: العظيمُ في ذاتِه وصفاتِه؛ فإنَّه واجبُ الوُجودِ تامُّ القُدرةِ والحكمةِ، وجرَّهُ حمزَةُ والكِسائيُّ(٣) صفةً لـ﴿رَبِّكَ﴾، أو لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ ومَجْدُهُ: عُلُوُّه وعِظَمُه(٤).

---

(١) رواه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤١٤)، عن الربيع. وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٦١) عن الربيع بن أنس والكلبي.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) عن ابن عامر في رواية.

(٣) وقرأ الباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٨)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٤) قوله: «ومجده..» يعني: إذا كان وصفا للعرش.

(١٦) ـ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: لا يَمتنِعُ عليه مرادٌ مِن أَفعالِه وأَفعالِ غَيرِه.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أبدلَهُما مِن ﴿ٱلْجُنُودِ﴾؛ لأنَّ المرادَ بفرعونَ هو وقَومُه، والمعنى: قد عرفتَ تَكذيبَهُم للرُّسُلِ وما حاقَ بهم، فتسلَّ واصبِرْ على تكذيبِ قَومِكَ وحَذِّرْهُم مثلَ ما أَصابَهُم.

(١٩) ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾: لا يَرْعَوُونَ عنه، ومعنى الإضرابِ: أنَّ حالَهُم أعجَبُ مِن حالِ هَؤلاءِ؛ فإنَّهُم سَمِعُوا قِصَّتَهُم ورَأَوْا آثارَ هَلاكِهِم وكذَّبُوا أَشَدَّ مِن تَكذيبِهِم.

(٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ لا يَفُوتُونَه كما لا يفوتُ المُحَاطُ المُحِيطَ.

(٢١) ـ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾: بَلْ هذا الذي كذَّبوا به كتابٌ شريفٌ وحيدٌ في النَّظمِ والمعنى، وقُرِئَ: (قرآنُ مجيدٍ) بالإضافةِ[١]؛ أي: قرآنُ ربٍّ مَجيدٍ.

(٢٢) ـ ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ مِن التَّحريفِ، وقرأ نافعٌ: ﴿محفوظٌ﴾ بالرَّفعِ[٢] صفةً للقُرآنِ.

وقُرِئَ: (في لُوْحٍ)[٣] وهو الهواءُ، يعني: ما فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ الذي فيه اللوحُ.

عن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ البُروجِ أعطاهُ اللهُ بعدَدِ كلِّ جمعةٍ وعرفةٍ تكونُ في الدُّنيا عشرَ حسناتٍ»[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) عن اليماني. وهو محمد بن السميفع.

(٢) والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٨)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) عن اليماني، و«الكشاف» (٩/ ٥٤٤) عن يحيى بن يعمر، و«البحر» (٢١/ ٣٠٤) عنهما.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ١٣٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٥٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٨٥) سورة البروج مكية وآياتها اثنتان وعشرون

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ
إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام، قال ابن عباس: البروج النجوم، وقال يحيى بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو: ﴿والسماء ذات البروج﴾ الخلق الحسن، واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ويستسر ليلتين، وقوله تعالى: ﴿واليوم الموعود وشاهد ومشهود﴾ اختلف المفسرون في ذلك فروي عن أبي هريرة مرفوعاً﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة، ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة، ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة[1]. روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة[2]. وعن سعيد بن المسيب أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة»[3]. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والأشبه أنه موقوف على أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) هذا من مراسيل سعيد بن المسيب.

الشاهد هو محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة. ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموع له النـاس وذلك يوم مشهود﴾[١]. وسأل رجل الحسن بن علي عن ﴿وشاهد ومشهود﴾ فقال: سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة، فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يـوم مشهود﴾[٢] وهكذا قال الحسن البصري، وقال مجاهد والضحاك: الشاهد ابن آدم، والمشهود يوم القيامة؛ وعن عكرمة: الشاهد محمد ﷺ، والمشهود يوم الجمعة، وقال ابن عباس: الشاهد الله، والمشهود يوم القيامة، وقال ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد الإنسان، والمشهود يوم الجمعة[٣]، وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وشاهد ومشهود﴾ الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، قال ابن جرير: وقال آخرون: ﴿المشهود﴾ يوم الجمعة، لحديث أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»[٤]، وعن سعيد بن جبير: الشاهد الله، وتلا: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ والمشهود نحن[٥]، وقال الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة.

وقوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأُخدُود﴾ أي لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد وهي الحفـر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عزَّ وجلَّ فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً، وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لهـا وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ∘ إذ هم عليها قعود ∘ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي مشاهدون لـما يفعل بأولئك المؤمنين ∘ قال الله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله ﴿العزيز﴾ الـذي لا يضام من لاذ بجنابه، ﴿الحميد﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ثم قال تعالى: ﴿الذي له ملـك السماوات والأرض﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية، وقـد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟ فعن علي أنهم أهل فارس، حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه، وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قـال

---

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) أخرجه ابن جرير أيضاً.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه ابن جرير.
(٥) حكاه البغوي.

للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم: أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ قال، فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس، فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي؟ فقال: أنا! قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ. قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو، قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: باسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك؛ قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أُماه فإنك على الحق[1].

---

(١) أخرجه احمد ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

وروى ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنَس في قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ قال: سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين وحدث حديثهم فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا وأنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هـذه الآلهة التي عبدت فإني قاتلكم، فأبوا عليه، فخد أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار بعد أن وقفهم عليها، اختاروا هذه أو الذي نحن فيه، فقالوا: هذه أحب إلينا وفيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقالوا لهم – أي آباؤهم : لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بهـا، في ذلك أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قتل أصحاب الأخدود ۞ النار ذات الوقود ۞ إذ هم عليها قعود ۞ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ۞ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۞ الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذلك الفوز الكبير﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه، الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي من قوته وقدرته التامة، يبدئ الخلق ويعيده، كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، و﴿الودود﴾ قال ابن عباس: هو الحبيب ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق. و﴿المجيد﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عزَّ وجلَّ، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح، ﴿فعال لما يريد﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وروى محمد بن اسحاق قصة أصحاب الأخدود بسياق آخر وأنها كانت مع عبدالله بن التـامر وأصحابه المؤمنين في نجران، والله أعلم.

قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال لي: إني فعال لما أريد، وقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود ۝ فرعون وثمود﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر، عن عمرو ابن ميمون قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ فقام يستمع فقال: «نعم قد جاءني»[1].

وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد، ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي عظيم كريم، ﴿في لوح محفوظ﴾ أي هو في الملأ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل، روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن سلمان قال: «ما من شيء قضى الله، القرآن فما قبله وما بعده، إلا وهو في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه»[2]. وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه، وقد روى البغوي عن ابن عباس قال: «إن في صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة»[3]. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء»[4].

[آخر تفسير سورة البروج، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البغوي.

(٤) أخرجه الطبراني.

تفسير سورة البروج

وهى مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا رُزَيق بن أبى سلمى ، حدثنا أبو المهزّم ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق [(١)] .

وقال أحمد : حدثنا أبو سعيد ــ مولى بنى [(٢)] هاشم ــ حدثنا حماد بنُ عباد السدوسى ، سمعت أبا المهزم يحدث عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات فى العشاء [(٣)] . تفرد به أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾ .

يقسم الله بالسماء وبروجها ، وهى : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك فى قوله : **﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾** [الفرقان: ٦١] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : البروج : النجوم . وعن مجاهد أيضا : البروج التى فيها الحرس .

وقال يحيى بن رافع : البروج : قصور فى السماء . وقال المِنْهَال بن عمرو : **﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾** : الخلق الحسن .

واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهى اثنا عشر برجا ، تسير الشمس فى كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر فى كل واحد يومين وثلثا ، فذلك ثمانية وعشرون منزلة [(٤)] ، ويستسرّ ليلتين .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢٦) .

(٢) فى م : « مولى ابن » .

(٣) المسند (٢/ ٣٢٧) .

(٤) فى م : « منزلاً » .

وقوله: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ :اختلف المفسرون في ذلك،وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزى [١] ، حدثنا عُبَيد الله ــ يعنى ابن موسى ــ حدثنا موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد بن صفوان بن أوس الأنصارى ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ يوم الجمعة . وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه ، ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم عرفة » [٢] .

وهكذا روى هذا الحديث ابن خُزَيمة ، من طرق عن موسى بن عُبَيدة الربذى ــ وهو ضعيف الحديث ــ وقد روى موقوفا على أبى هريرة ، وهو أشبه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ، حدثنا شعبة ، سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار ــ مولى بنى هاشم ــ عن أبى هريرة ــ أما علىّ فرفعه إلى النبى ﷺ ، وأما يونس فلم يَعْدُ أبا هريرة ــ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : يعنى الشاهدَ يومُ الجمعة ، ويوم مشهود يوم القيامة [٣] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس ، سمعت عماراً ــ مولى بنى هاشم ــ يحدث عن أبى هريرة وأنه قال فى هذه الآية : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة [٤] .

وقد رُوى عن أبى هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون فى ذلك ، ولله الحمد .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيح بن [٥] عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود يوم القيامة ، وإن الشاهد يوم الجمعة ، وإن المشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخره الله لنا» [٦] .

ثم قال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيَّب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهدُ ، والمشهود يوم عرفة » [٧] .

---

(١) فى أ : « المقرئ ».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٣٩) من طريق روح بن عبادة وعبيد الله بن موسى ، عن موسى بن عبيدة به نحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره » .

(٣) المسند (٢/٢٩٨) ووقع فيه : « يعنى الشاهد يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة » .

(٤) المسند (٢/٢٩٨،٢٩٩) .

(٥) فى أ : « عن » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٩٨) عن هاشم بن مرثد ، عن محمد بن إسماعيل به ، وفيه ضعف وانقطاع ، وقد تقدم هذا الإسناد مراراً .

(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٢) .

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيَّب ، ثم قال ابن جرير :

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن شعبة ، عن على بن زيد ، عن يوسف المكى ، عن ابن عباس قال : الشاهد هو محمد ﷺ ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣] (١) .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن شباك قال : سأل رجل الحسن بن على عن: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال :سألت أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عمر وابن الزبير ، فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . فقال : لا ، ولكن الشاهد محمد ﷺ . ثم قرأ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (٢) .

وهكذا قال الحسن البصرى . وقال سفيان الثورى ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب : ﴿وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم القيامة .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة .

وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة .

[وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة] (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا سفيان ، عن أبى يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة . هكذا رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة .

وبه عن سفيان ــ هو الثورى ــ عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة ، يعنى الشاهد والمشهود .

قال ابن جرير : وقال آخرون : المشهود يوم الجمعة . ورووا فى ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى عمى عبد الله بن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا علىَّ من الصلاة يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهده الملائكة » (٤) .

وعن سعيد بن جبير : الشاهد : الله ، وتلا ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩] ، والمشهود :

(١ ، ٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٣) .
(٣) زيادة من م ، أ ، والطبرى .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٤) .

نحن . حكاه البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفير فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدُوداً وأججوا فيه نار ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قَدّر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس .

ثم قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على ، رضى الله عنه، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج [(١)] المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم .

وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدُّوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة ، واحدهم [(٢)] حَبَشِىٌّ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خَدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعُرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم ، وقيل غير ذلك . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن [(٣)] عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سنِّى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه

---

(١) فى أ : « تزوج » . (٢) فى م ، أ : « ونبيهم » . (٣) فى أ : « بن » .

وقالوا: ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسني أهلي . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر .

قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أىْ بُنَى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستُبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمعُ . فقال: ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من رَدّ عليك بصرك؟ فقال : ربى ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أىْ بُنَى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ،وقال للأعمى:ارجع عن دينك، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال : إذا بلغتم ذروته،فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه [من فوقه] (١) فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، افكنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال: كافنيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرقُور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرِّقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال:« باسم الله رب الغلام».فوقع السهم فى صدغه،فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد ــ والله ــ نزل بك ، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فَخُدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران ، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه ، فإنك على الحق » .

---

(١) زيادة من المسند .

وهكذا رواه مسلم فى آخر الصحيح عن هُدْبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة به نحوه [(١)] . ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة[(٢)] . ومن طريق حماد بن زيد، كلاهما عن ثابت ، به واختصروا أوله . وقد جَوّده الإمام أبو عيسى الترمذى ، فرواه فى تفسير هذه السورة عن محمود بن غَيلانَ وعَبد بن حُمَيد ــ المعنى واحد ــ قالا : أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ثابت البُنانى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر هَمَس ــ والهَمس فى قول بعضهم : تحريك شفتيه كأنه يتكلم ــ فقيل له: إنك ــ يا رسول الله ــ إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أُعجِب بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النقمة ، فسلَّط عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حَدّث بهذا الحديث ، حَدّث بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فَهِماً ــ أو قال: فطناً لَقِناً ــ فأعلّمه علمى هذا . . . فذكر القصة بتمامها ، وقال فى آخره [(٣)] : « يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ » حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدْغه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب [(٤)] .

وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزّى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يَسَار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر ،فيها مخالفة لما تقدم فقال:

حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى ــ وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها ــ : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران ــ ونجران هى القرية العظمى التى إليها جمَاعُ أهل تلك البلاد ــ ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيمُون [(٥)] ــ ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها ــ ابتنى [(٦)] خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له:يا ابن أخى، إنك لن تحمله ؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدْح،

(١) المسند (٦/١٦) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٥) .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦١) .

(٣) فى أ : « فى أواخره » .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٠) .

(٥) فى أ : « ميمون » . (٦) فى م : « فابتنى » .

وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدْحا قدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدْحه ، فوثب القدْح حتى خرج منها لم يضره شىء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو : قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحدُ الله وتدخلُ فى دينى وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيَشفَى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت علىّ أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأُمثلنّ بك . قال: لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فَيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بُحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس .فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك ــ والله ــ لا تقدر على قتلى حتى تُوَحّدَ الله فتُؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سُلّطتَ علىّ فقتلتنى. قال: فوحّدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ــ وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، من الإنجيل وحُكمه ــ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أىّ ذلك كان .

قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفا ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز وجل ، على رسوله ﷺ : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (١) .

هكذا ذكر محمد بن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمَّى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تبَان أسعد أبى كَرب ، وهو تُبَّع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوّد من تَهَوّد من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مَبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفا ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثَعلبان ، ذهب فارسا ، وطَرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة ، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدى اليهود ، وذهب ذو نواس هارباً

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤) .

فَلَجَّج فى البحر ، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة فى أيدى النصارى سبعين سنة ، ثم استنقذه سيف ابن ذى يزن الحميرى من أيدى النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن ، ورجع الملك إلى حمير . وسنذكر طرفاً من ذلك ــ إن شاء الله ــ فى تفسير سورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أنه حُدِّث : أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ، حَفَر خَرِبَة من خَرِب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها ثَعبتْ دما ، وإذا أرسلت يده رُدّت عليها ، فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله . فكُتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدّفنَ الذى كان عليه . ففعلوا [١] .

وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا ، رحمه الله : حدثنا أبو بلال الأشعرى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، حدثنى بعض أهل العلم : أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلا قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت.

قلت: هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مُضاض بن عمرو الجرهمى ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْت [٢] بن إسماعيل بن إبراهيم ، ووَلَدُ الحارث هذا هو : عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة ، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل فى شعره الذى قال ابن هشام [٣] إنه أول شعر قاله العرب :

كَأن لَم يَكُنْ بَين الحَجُون إلى الصّفا ... أَنِيسٌ ، ولـم يَسمُـر بمكَّـةَ سَامِرُ
بَلَـى ، نَحـنُ كُنَّـا أهلَـهَا فـأبـادَنَـا ... صُروفُ اللَّيالى والجُدودُ العَـوَاثِـرُ

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت فى زمان الفترة التى بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع فى العالم كثيراً ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع ، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتّونا ، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفى العراق فى أرض بابل بختنصر ، الذى وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه :

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦) .
(٢) فى م : « ثابت » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١١٥) .

عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيه الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما برداً وسلاما ، وأنقذهما منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط ، عن السدى فى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خَدّ بالعراق ، وخَدّ بالشام ، وخَدّ باليمن . رواه ابن أبى حاتم .

وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس ، أما التى بالشام فهو انطنانوس الرومى ، وأما التى بفارس فهو بختنصر ، وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس . فأما التى بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآنا ، وأنزل فى التى كانت بنجران .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكى ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ـ هو ابن أنس ـ فى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود ﴾ قال : سمعنا أنهم كانوا قوماً فى زمان الفترة فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً ، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٣،الروم:٣٢] ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البينة:٥]، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحُدّث حديثهم ، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا (١) ، وأنهم أبوا عليه كلّهم وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده ، لا شريك له . فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عبدتُ فإنى قاتلكم . فأبوا عليه ، فخَدَّ أخدودا من نار ، وقال لهم الجبار ـ ووَقفهم عليها ـ : اختاروا هذه أو الذى نحن فيه . فقالوا : هذه أحب إلينا . وفيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية ، فقالوا لهم : لا نار من بعد اليوم . فوقعوا فيها ، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حَرّهُا ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففى ذلك أنزل الله، عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُود . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ورواه ابن جرير : حُدِّثت عن عمار ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، به نحوه (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات ﴾ أى : حَرقوا (٣) . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبْزَى .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا .

﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق ﴾ ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

---

(١) فى أ : « التى اتخذوها » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٨٨) .

(٣) فى م : « حرقوا بالنار » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ [(١)] ﴾ ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه ، ولو كان الذنب من أى شيء كان .

والودود ـــ قال ابن عباس وغيره ـــ : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [أى : صاحب العرش] [(٢)] المعظم [(٣)] العالى على جميع الخلائق .

و ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ،عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له ـــ وهو فى مرض الموت ـــ : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال :قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟

وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديدا ، أخذ عزيز مقتدر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسيّ ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ ، فقام يسمع [(٤)] ، فقال : « نعم ، قد جاءنى » [(٥)] .

---

(١) فى أ بعدها : « خالدين فيها » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « العظيم » .
(٤) فى أ : « يستمع » . (٥) وهذا مرسل .

وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا قُرَّة بن سليمان ، حدثنا حرب بن سُرَيج [١] ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك في قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قال: إن اللوح المحفوظ الذى ذكر الله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾، فى جبهة إسرافيل [٢].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ،حدثنا معاوية بن صالح : أن أبا الأعْيَس ــ هو عبد الرحمن بن سَلْمَان ــ قال : ما من شىء قضى الله ــ القرآن فما قبله وما بعده ــ إلا وهو فى اللوح المحفوظ . واللوح المحفوظ بين عينى إسرافيل ، لا يؤذن له بالنظر فيه .

وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

وقد روى البغوى من طريق إسحاق بن بشر [٣] : أخبرنى مقاتل وابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إنه فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله ، أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك [٤] .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن ليث ، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من دُرَّة بيضاء ، صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قَلَمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ، ويفعل ما يشاء » [٥] .

آخر تفسير سورة « البروج » ولله الحمد [٦]

---

(١) فى أ : « شريح » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٩٠) .

(٣) فى أ : « بشير » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٨٩) .

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ٧٢) وزياد وليث بن أبى سليم ضعيفان ، وقد جاء موقوفاً على ابن عباس ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٣١٦) من طريق بكير بن شهاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس بنحوه .

(٦) فى أ : « والله أعلم » .

سورة البروج

مكيّة، وهي ثنتان وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ هي البروج الاثنا عشر، شُبِّهت بالقصور لأنّها تنزلها السّيّارات ويكون فيها الثوابت، أو منازلُ القمر، أو عِظامُ الكواكب، سُمّيت بروجًا لظهورها، أو أبوابُ السماء، فإنّ النوازل تخرج منها، وأصل التركيب للظهور.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي: ومَن يشهد في ذلك اليوم مِن الخلائق، وما يُحضَر فيه مِن العجائب. وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أي: وشاهد ومشهود لا يُكتنه وصفُهما، أو للمبالغة في الكثرة.

وقيل: الشاهد محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمشهود يوم القيامة.[١] وقيل:
عيسى عليه السلام / وأمّته، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾... إلخ [المائدة، [٢٨٦و]
١١٧/٥]. وقيل: أمّة محمّد وسائر الأمم. وقيل: يوم التروية ويوم عرفة.[٢] وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة.[٣] وقيل: الحجر الأسود والحجيج. وقيل: الأيّام والليالي وبنو آدم.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس والحسن بن عليّ وسعيد بن المسيّب في جامع البيان للطبري، ٢٦٦/٢٤-٢٦٧؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٣ مرويّ عن أبي هريرة وابن عبّاس وعليّ بن أبي طالب وقتادة وغيرهم في جامع البيان للطبري، ٢٦٤/٢٤-٢٦٦؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

وعن الحسن: ما مِن يوم إلّا وينادي: إنّي يوم جديد وإنّي على ما يُعمَل فيّ شهيد فاغتنمني، فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة. وقيل: الحَفَظة وبنو آدم. وقيل: الأنبياء ومحمّد عليهم الصلاة والسلام.[١]

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قيل: هو جواب القسم على حذف "اللام" منه للطول، والأصل "لَقُتِل"،[٢] كما في قول مَن قال:

حلفتُ لها بالله حَلفةَ فاجرٍ   لَناموا فما إنْ مِن حديث ولا صَالِ[٣]

وقيل: تقديره لقد قُتل.[٤] وأيًّا ما كان فالجملة خبريّة.

والأظهرُ أنّها دعائيّة دالّة على الجواب، كأنّه قيل: أقسمُ بهذه الأشياء إنّهم، أي: كفّار مكّة ملعونون كما لُعن أصحاب الأخدود، لِما أنّ السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه مِن الإيمان وتصبيرهم على أذيّة الكفَرة وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدَّمهم مِن التعذيب على الإيمان وصَبْرهم على ذلك، حتّى يأتَسُوا بهم ويصبروا على ما كانوا يَلقَون مِن قومهم، ويعلموا أنّ هؤلاء عند الله عزّ وجلّ بمنزلة أولئك المعذِّبين ملعونون مِثلَهم أحقّاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم.[٥] وقُرئ: "قُتِّلَ"[٦] بالتشديد. والأُخدود: الخدّ في الأرض، وهو الشقّ، ونحوهما بناءً ومعنًى "الخَقّ" و"الأُخْقوق".

---

١ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٣ البيت لامرئ القيس في ديوانه، ص ١٣٢، وهو بلا عزو في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧٤٣/١٠، واللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٤ القول في التبيان للعكبري، ١٢٨٠/٢، واللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤-٥٤٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهسَم والحسن وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧، المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٦.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان لبعض الملوك ساحرٌ فلمّا كبِر ضمّ إليه غلامًا ليُعلّمه السِّحرَ، وكان في طريق الغلام راهبٌ فسمع منه، فرأى في طريقه ذات يوم دابّةً قد حبست الناس، قيل: كانت الدابّة أسدًا، فأخذ حجرًا فقال: اللّٰهمّ إن كان الراهب أحبَّ إليك مِن الساحر فاقتلها فقتلها، فكان الغلام بعد ذلك يُبرئ الأكمَه والأبرص ويشفي مِن الأدواء.

وعَمِي جليسٌ للمَلِك فأبرَأه، فأبصره المَلِك فسأله / مَن ردّ عليك بصرَك؟ [٢٨٦ظ]
فقال: ربّي، فغَضَب فعذّبه، فدلّ على الغلام فعذّبه، فدلّ على الراهب فلم يرجع الراهبُ عن دينه فقُدّ بالمِنشار، وأبى الغلام فذُهِب به إلى جبل ليُطرح مِن ذروته فدعا فرُجِف بالقوم فطاحوا ونجا، فذُهِب به إلى قُرْقُور[١] فلجَّجوا به ليُغرِقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا.

فقال للمَلِك: لستَ بقاتلي حتّى تجمَع الناس في صعيد وتصلبني على جِذع وتأخُذ سهمًا مِن كِنانتي وتقول: "باسم الله ربّ الغلام" ثمّ ترميني به، فرماه فوَقَع في صُدغه فوَضَع يده عليه ومات، فقال الناس: "آمنّا بربّ الغلام". فقيل للمَلَك: نزل بك ما كنتَ تحذر، فأمر بأخاديدَ في أفواه السِّكَك وأوقدت فيها النيران، فمَن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيّ فتقاعست فقال الصبي: "يا أمّاه اصبري فإنّك على الحقّ" فاقتحمتْ. وقيل: قال لها: "قَعي ولا تُنافقي ما هي إلّا غُمَيضة" فصبرَت.[٢]

قيل: أُخرِج الغلام مِن قبره في خلافة عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه وأصبعه على صُدغه كما وضعها حين قُتل.[٣]

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه: أنّ بعض ملوك المجوَس وقع على أخته وهو[٤] سكران، فلمّا صحا ندِم وطَلَب المَخرَج، فقالت له: المَخرَج أن تخطب بالناس

---

١ القُرقُور: ضرب مِن الشفن، قيل: هي العظيمة والطويلة. لسان العرب لابن منظور، «قرقر».

٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٩/٣٥١-٣٥٤ (٢٣٩٣١)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢٩٩-٢٣٠٠ (٣٠٠٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/٢٧٣-٢٧٥، ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٨٣-٣٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٤٨.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٨٥.

٤ س - وهو.

فتقول: "إنّ الله قد أحلّ نكاحَ الأخوات"، ثمّ تخطُبهم بعد ذلك أنّ الله حرّمه، فخَطَب فلم يقبلوا منه، فقالت له: ابسُط فيهم السَّوط ففعل فلم يقبلوا، فقالت: ابسُط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا، فأمر بالأخاديد وإيقاد النيران[١] وطرح مَن أبى فيها، فهم الذين أرادهم الله تعالى[٢] بقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾.[٣]

وقيل: وقع إلى نجرانَ رجل ممّن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نُوَاس اليهودي[٤] بجنود مِن حِمْيَر، فخيَّرهم بين النار واليهوديّة فأبَوا، فأحرَق منهم اثني عشرَ ألفًا في الأخاديد. وقيل: سبعين ألفًا. وذُكر أنّ [٢٨٧و] طول الأخدود أربعون ذراعًا وعرضَه / اثنا عشر ذراعًا.[٥]

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ وصف لها بغاية العِظَم وارتفاع اللهَب وكثرةِ ما يُوجِبه مِن الحطب وأبدان الناس. وقُرئ: "الوُقُودِ"[٦] بالضمّ.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ ظرف لـ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان مُشرِف عليها مِن حافّات الأخدود، كما في قوله:

وبــاتَ عـلـى الـنـار الـنـدى والـمُـحـلِّـقُ[٧]

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي: يشهد بعضهم لبعض عند المَلِك بأنّ أحدًا لم يقصِّر فيما أُمِر به، أو أنّهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم. وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى "مع"، والمعنى:

---

١ س ي: النار.

٢ س – تعالى.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٧١/٢٤.

٤ هو زرعة بن تبان أسعد، أحد ملوك حِميَر. وهو صاحب الأخدود. وذلك أنّه بلغه عن أهل نجران أنّهم أتاهم رجل مِن آل جفنة مِن غسّان، فردّهم إلى دين النصرانيّة. فسار إليهم ذو نواس بنفسه، حتّى احتفر في الأرض أخاديد وملأها نارًا، فمَن تبعه على دينه خلّى عنه، مَن أقام على النصرانيّة قذفه فيها. انظر: التيجان للحميري، ص ٣١٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٢٩/٣.

٥ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٤/٨-٣٨٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٨.

٧ عجز بيت للأعشى، صدره:

تُـشـبُّ لـمَـقـروريـن يَـصطلِيانها

وهو في ديوانه، ص ٢٢٥؛ وله في الصحاح للجوهري، «حلق»؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٤. وضُبطت "اللام" في اسم "المُحلّق" في نسخة المؤلّف بالكسر، وبذلك ضبطها الجوهريُّ. واستُدرك عليه أنّها بفتح "اللام"، كما ذكر الصغاني في التكملة والذيل والصلة، «حلق»؛ والصفديُّ في تصحيح التصحيف، ص ٤٦٧.

وهـم مع ما يفعلون بالمؤمنين مِن العذاب حُضور لا يَرِقّون لهـم لغاية قسوة قلوبهـم.[١] هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وينطِق به الرِّوايات المشهورة.

وقد رُوي أنّ الجبابرة لمّا ألقَوا المؤمنين في النار وهم قعود حولها علِقت بهـم النّار فأحرقتهم، ونجّى الله عزّ وجلّ المؤمنين منها سالمين. وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس[٢] والواحديّ،[٣] وعلى ذلك حملا قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.[٤]

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: ما أنكروا منهم وما عابوا ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استثناء مُفصِح عن براءتهم عمّا يُعاب ويُنكَر بالكلّيّة، على مِنهاج قوله:

ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أنّ ضيوفَهمْ تُلام بنسيان الأحبّةِ والوطنْ[٥]

ووصفُه تعالى بكونه عزيزًا غالبًا يُخشى عقابه وحميدًا مُنعِمًا يُرجى ثوابه، وتأكيدُ ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشعار بمَناط إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعدٌ لهم ووعيد شديد لمعذِّبيهم، فإنّ عِلمه تعالى بجميع الأشياء التي مِن جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كلّ منهما حتمًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ / وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: مَحَنوهم في دينهم ليرجعوا [٢٨٧ظ]
عنه، والمراد بهم إمّا أصحاب الأخدود خاصّة، وبالمفتونين المطروحون في الأخدود، وإما الذين بَلَوهم في ذلك بالأذيّة والتعذيب على الإطلاق، وهم داخلون في جملتهم دخولًا أوّليًا. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي: عن كفرهم وفتنتهم، فإنّ ما ذُكر مِن الفتنة في الدِّين لا يُتصوَّر مِن غير الكافر قطعًا.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢٥١/٢٠.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٧٦/٢٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٦١/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٨٧/٨.

٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٦١/٤.

٤ سيأتي في الآية الحادية عشرة مِن هذه السورة.

٥ ما عرفت قائله. وهو بلا عزو في خزانة الأدب لابن حجّة، ٣٩٩/٢؛ والكلّيّات للكفوي، ص ٢٧٠.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جملة وقعت خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أو الخبر ﴿لَهُمْ﴾ و﴿عَذَابُ﴾ مرتفعٌ به على الفاعليّة، وهو الأحسن. و"الفاء" لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط. ولا ضيرَ في نَسْخه بـ﴿إِنَّ﴾، وإن خالفه الأخفشُ.[١] والمعنى: لهم في الآخرة عذاب جهنّم بسبب كفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهي نار أخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الإطلاق مِن المفتونين وغيرهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إن أريدَ بالجنّات الأشجارُ فجريان الأنهار مِن تحتها ظاهرٌ، وإن أريدَ بها الأرضُ المشتمِلة عليها فالتحتيّة باعتبار جزئها الظاهر، فإنّ أشجارها ساترةٌ لساحتها كما يُعرِب عنه اسم الجنّة، وقد مرّ بيانه مِرارًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إمّا إلى الجنّات الموصوفة، والتذكيرُ لتأويلها بما ذُكر للإشعار بأنّ مَدار الحُكم عنوانُها الذي يتنافس فيه المتنافِسون، فإنّ اسم الإشارة متعرِّض لذات المشار إليه مِن حيث اتّصافُه بأوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير، فإذا أشيرَ إلى الجنّات مِن حيث ذِكرُها فقد اعتُبر معها عنوانها المذكورُ حتمًا. وإمّا إلى ما يُفيده[٢] قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾... إلخ، مِن حِيازتهم لها، فإنّ حصولها لهم مستلزمٌ لحِيازتهم لها قطعًا. وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجته وبُعد منزلته في الفضل والشرف. ومحلُّه الرفع على الابتداء خبرُه ما بعده، أي: ذلك المذكور العظيم الشأنِ.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي تصغُر عنده الدنيا وما فيها مِن فنون الرغائب بحذافيرها. و﴿ٱلْفَوْزُ﴾: النجاة مِن الشرّ والظفَرُ بالخير، فعلى الأوّل[٣] هو مصدر أُطلقَ على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني[٤] مصدرٌ على حاله.

---

١ الكلام في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٥٣.

٢ السياق: إشارة إمّا إلى الجنّات... وإمّا إلى ما يفيده...

٣ وفي هامش م: هو كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجنّات. «منه».

٤ وفي هامش م: هو كونه إشارة إلى ما يُفيده قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾. «منه».

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾

[٢٨٨و] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ / استئناف خُوطِب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إيذانًا بأنّ لكفّار قومه نصيبًا موفورًا مِن مضمونه كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام. والبطشُ: الأَخْذ بعُنف، وحيث وُصف بالشدَّة فقد تضاعَف وتفاقَم، وهو بطشُه بالجبابرة والظلَمة وأَخْذه إيّاهم بالعذاب والانتقام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود، ١٠٢/١١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: هو يُبدئ الخلق وهو يُعيده مِن غير دَخلٍ لأحد في شيء منهما، ففيه مزيدُ تقرير لشدّة بطشه، أو هو يُبدئ البطش بالكفرة في الدنيا ويُعيده في الآخرة.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمَن تاب وآمن ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المُحبّ لمَن أطاع.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقُه. وقيل: المراد بالعرش المُلك،[١] أي: ذو السلطنة القاهرة. وقُرئ: "ذِي العَرْشِ"[٢] على أنّه صفة ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ العظيمُ في ذاته وصفاته، فإنّه واجب الوجود تامّ القُدرة كامل الحِكمة. وقُرئ بالجرّ[٣] على أنّه صفة لـ﴿رَبِّكَ﴾ أو لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾. ومجدُه: عُلوّه وعظمتُه.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بحيث لا يتخلَّف عن إرادته مُراد مِن أفعاله تعالى وأفعالِ غيره، وهو خبرُ مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ استئناف مقرّر لشدّة بطشه تعالى بالظلَمة العُصاة والكفَرة العُتاة، وكونُه فعّالًا لِما يريد متضمِّن لتسليته صلّى الله عليه وسلّم بالإشعار بأنّه سيُصيب قومَه ما أصاب الجنود. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْجُنُودِ﴾؛ لأنّ المراد بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو وقومه. والمراد بـ"حديثهم" ما صدر عنهم

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٩/٣.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن بكّار عن ابن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٩.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

مِن التمادي في الكفر والضلال وما حلّ بهم مِن العذاب والنَّكال، والمعنى: قد أتاك حديثهم وعرفتَ ما فعلوا وما فُعل بهم فذكِّر قومك بشئون الله تعالى وأنذِرهم أن يصيبهم مثلُ ما أصاب أمثالَهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ﴾ إضراب عن مُماثلتهم لهم وبيانٌ لكونهم أشدَّ منهم في الكفر والطغيان، كأنّه قيل: ليسوا مثلَهم في ذلك؛ بل هم أشدّ منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب، فإنّهم مستقرّون في تكذيب شديدٍ للقرآن الكريم، أو قيل: ليست جنايتُهم مجرّدَ عدم التذكّر والاتّعاظ بمّا سمعوا مِن حديثهم؛ بل هم مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن
[٢٨٨ظ] / الناطق بذلك لكن لا أنّهم يكذِّبون بوقوع الحادثة؛ بل يكون ما نطَق به قرآنًا مِن عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبيّنات الباهرة.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ تمثيل لعدم نجاتِهم مِن بأس الله تعالى بعدم فَوْت المُحاطِ المُحيطَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ ردّ لكفرهم وإبطالٌ لتكذيبهم وتحقيقٌ للحقّ، أي: ليس الأمر كما قالوا بل هو كتاب شريف عالي الطبقةِ فيما بين الكتب الإلهيّة في النظم والمعنى. وقُرئ: "قُرآنُ مَجِيدٍ"[١] بالإضافة، أي: قرآنُ ربٍّ مَجيدٍ.

﴿فِى لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ أي: مِن التحريف ووصول الشياطين إليه. وقُرئ: "مَحفُوظٌ"[٢] بالرفع على أنّه صفة ﴿قُرۡءَانٞ﴾. وقُرئ: "فِي لُوحٍ"[٣] وهو الهواء، أي: ما فوق السماء السابعة التي فيه اللوح.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كلّ جمعة وعَرَفةٍ تكون في الدنيا عشر حسنات».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١.

٢ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وطاوس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٧.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٦/٢٩ (البروج، ١/٨٥)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٧/٤ (البروج، ١/٨٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٥

سورة البروج

مكية، ثنتانِ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ﴾ ـ للكواكبِ اثنا عشَرَ بُرجًا تقدَّمت في «الفُرقان» ـ ٢ ـ ﴿واليَومِ المَوعُودِ﴾: يومِ القيامة، ٣ ـ ﴿وشاهِدٍ﴾: يومِ الجُمعة ﴿ومَشهُودٍ﴾: يومِ عرَفة ـ كذا فُسِّرت الثلاثة في الحديث. فالأوّل موعود به، والثاني شاهد بالعمل فيه، والثالث تشهده الناس والملائكة ـ وجوابُ القسم محذوف صدرُه، أي: لقد ٤ ـ ﴿قُتِلَ﴾: لُعِن ﴿أصحابُ الأُخدُودِ﴾: الشقِّ في الأرض،........

سورة البروج

قولُهُ: (فِي الحَدِيثِ) أخرجَهُ ابنُ جَريرٍ عن أبي هُريرةَ مرفُوعاً، كذا في «المبهمات»[1]، وقيل: الشَّاهدُ والمشهودُ يومُ النَّحرِ أو عرفَة والحجيج، فإنَّه يُشهَدُ له، أو كلُّ يومٍ وأهلُهُ، في «الكشاف»[2] عن الحسنِ: ما من يومٍ إلا ويُنادِي إنِّي يومٌ جديدٌ، وإنِّي على ما تعملُ فيَّ شهيدٌ، فاغتَنِمني فلو غابت شَمسي لم تُدرِكني إلى يومِ القيامَةِ.

قولُهُ: (الشَّقِّ) أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ قتادةَ قال: كنَّا نُحدَّثُ أنَّ عليًّا قال: هم ناسٌ كانوا بمذارعِ اليمنِ، وأخرَجَ من طريقِ الحسَنِ عنه قال: هُم الحبَشَة، كذا في «المبهمات»[3]، وروِيَ مَرفوعاً: «أنَّ مَلِكاً كانَ

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٦).

والحديث رواه الترمذي (٣٣٣٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣٣٢، ٣٣٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٠٨٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٥٦٤). قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث؛ ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه، وقد تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وغيره من قبل حفظه.

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٢٩).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٦).

٥ ـ ﴿النّارِ﴾: بدلُ اشتمال منه ﴿ذاتِ الوَقُودِ﴾: ما تُوقد به، ٦ ـ ٧ ـ ﴿إذ هُم علَيها﴾ أي: حولها على جانب الأُخدود على الكراسيّ ﴿قُعُودٌ، وهُم علَى ما يَفعَلُونَ بِالمُؤمِنِينَ﴾ بالله من تعذيبهم بالإلقاء في النار، إن لم يرجعوا عن إيمانهم، ﴿شُهُودٌ﴾: حُضور ـ رُوي أنّ الله أنجى المُؤمنين المُلقَين في النار بقبض أرواحهم قبل وُقوعهم فيها، وخرجَتِ النار إلى مَن ثَمَّ فأحرقتْهم ـ ٨ ـ ﴿وما نَقَمُوا مِنهُم إلاّ أن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿الحَمِيدِ﴾ المحمود، ٩ ـ ﴿الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، واللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾. أي: ما أنكرَ الكُفّار على المُؤمنين إلاّ إيمانهم.

١٠ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾ بالإحراق ﴿ثُمَّ لَم يَتُوبُوا فلَهُم عَذابُ جَهَنَّمَ﴾ بكُفرهم ﴿ولَهُم عَذابُ الحَرِيقِ﴾ أي: عذاب إحراقهم المُؤمنين في الآخرة،.................

له ساحِرٌ، فلَمَّا كَبِرَ ضمَّ إليه غُلاماً ليُعلِّمَهُ وكان في طريقِهِ راهِبٌ، فمالَ قلبُهُ إليه فرأى في طريقِهِ ذاتَ يومٍ حيَّةً قَد حبسَتِ النَّاسَ فأخذَ حَجَراً وقال: اللهُمَّ إن كانَ الرَّاهِبُ أحبَّ إليك من السَّاحرِ فاقتُلها فقتَلَها، فكان الغُلامُ بعدُ يُبرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ، ويشفِي من الأدواءِ، وعَمِيَ جليسٌ للملِكِ، فأَبرَأَهُ فسألَهُ الملِكُ عمَّن أبرأَهُ فقالَ: رَبِّي فغضِبَ فعذَّبَهُ، فدلَّ على الغُلامِ فعذَّبَهُ، فدلَّ على الرَّاهِبِ فقَدَّهُ[1] بالمنشَارِ، وأرسَلَ الغُلامَ إلى جبلٍ ليُطرَحَ مِن ذروتِهِ فدعا فرجَفَ فهلَكُوا ونَجا، وأجلسَهُ في سفينَةٍ ليَغرَقَ فَدعا فانكَفَأَتِ السَّفينَةُ بمَن معهُ فغرِقُوا ونجا، فقالَ للملِكَ: لستَ بقاتِلِي حتَّى تجمَعَ النَّاسَ وتصلُبَنِي وتأخُذَ سهماً مِن كنانَتِي وتقولَ: باسم الله ربِّ هذا الغُلامِ، ثمَّ ترمِينِي به، فرَماهُ فوقَعَ في صدغهِ ومات فآمنَ النَّاسُ فأمَرَ بأَخادِيدَ أُوقِدَ فيها النِّيرانُ، فمَن لم يرجِعْ منهُم طرحَهُ فيها، حتَّى جاءَت امرأَةٌ معَها صبيٌّ فتَقاعَسَتْ ـ أي: تأخَّرَت ـ فقال الصَّبِيُّ: يا أُمَّاهُ اصبِرِي فإنَّكِ على الحَقِّ، فاقتحَمَت ـ أي: دَخلَت ـ » رواهُ مُسلِمٌ بمعناه[2].

قولُهُ: (في مُلكِهِ) غالِبٌ يُخشَى عقابُهُ.

قولُهُ: (المَحمُودِ) مُنعِمٌ يرجى ثوابُهُ.

قولُهُ: (إلَّا إيمَانَهُم) وهو ممَّا لا يُنكرُ، فيكونُ من بابِ تأكيدِ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، كقولِهِ[3]:

وَلا عَيـبَ فِيهِـم غَيـرَ أَنَّ سُيُوفَهُم ... بِـهِنَّ فُلُـولٌ مـن قِـراعِ الكَتائِـبِ

قولُهُ: (بالإِحرَاقِ) أي: بَلوهُم به.

قولُهُ: (عَذَابُ إِحرَاقِهِم) أو العَذابُ الزَّائدُ في الإحراقِ لفتنَتِهِم.

---

(١) القد: الشق طولا. «الصحاح» (٢/ ٥٢٢).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه.

(٣) قائله: النابغة الذبياني، انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢).

وقيل: في الدنيا بأن خرجت النار فأحرقتهم كما تقدّم. ١١ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهم جَنّاتٌ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ. ذلِكَ الفَوزُ الكَبِيرُ﴾.

١٢ ـ ﴿إِنَّ بَطشَ رَبِّكَ﴾ بالكُفّار ﴿لَشَدِيدٌ﴾ بحسَب إرادته. ١٣ ـ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبدِئُ﴾ الخلقَ ﴿ويُعِيدُ﴾ فلا يُعجِزه ما يُريد، ١٤ ـ ﴿وهُوَ الغَفُورُ﴾ للمُذنبين المُؤمنين ﴿الوَدُودُ﴾: المُتودّد إلى أوليائه بالكرامة، ١٥ ـ ﴿ذُو العَرشِ﴾: خالقُه ومالكه ﴿المَجِيدُ﴾، بالرفع: المستحقُّ لكمال صفات العُلوّ، ١٦ ـ ﴿فَعّالٌ لِما يُرِيدُ﴾: لا يُعجزه شيء.

١٧ـ١٨ ـ ﴿هَل أتاكَ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿حَدِيثُ الجُنُودِ، فِرعَونَ وثَمُودَ﴾؟ بدلٌ من الجنود. واستُغني بذكر فرعون عن أتباعه. وحديثُهم أنهم أُهلكوا بكُفرهم. وهذا تنبيه لمن كفر بالنبيّ والقُرآن ليتّعظوا. ١٩ ـ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في تَكذِيبٍ﴾ بما ذُكِر، ٢٠ ـ ﴿واللهُ مِن وَرائِهِم مُحِيطٌ﴾ لا عاصم لهم منه.

قولُهُ: (بالكُفّارِ) والبَطشُ: أخذٌ بعُنفٍ.

قولُهُ: (الخَلقَ) قالَ جعفرٌ[1]: يُبدِئ فيُغني عمّا سواهُ، ثمَّ يُعيدُ فيَبقى ببقائِهِ.

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) ولمن تابَ من الكافِرينَ.

قولُهُ: (المُتَوَدِّد) أو المودُودُ لمن أطاعَ.

قولُهُ: (خَالِقُهُ) قالَ الواسِطيُّ[2]: هو أعلى من أن يكونَ له فيه وإليه حاجَةٌ، بل أظهَرَ العَرشَ إظهاراً لقُدرتِهِ لا مكاناً لذاتِهِ.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) غيرُ حمزَةَ والكسائيِّ[3]، فحقُّهُ أن يقولَ: وبالجرِّ؛ ليكونَ لهما على أنّه صفَةٌ للعرشِ، ومجدُهُ: عُلوُّهُ وعُظمُه، وأمّا على الرَّفعِ فإنَّه تعالى عَظيمٌ في ذاتِهِ وصفاتِهِ، فإنّه واجبُ الوجودِ تامُّ القُدرَةِ والحِكمَة.

قولُهُ: (عَن أَتبَاعِه) كما اكتَفَى بأتباعِهِ عنه في مَواضِع.

قولُهُ: (تَنبِيه) وتسليةٌ له ﷺ وللمؤمِنينَ.

قولُهُ: (بِمَا ذُكِرَ) لا يدعونَ عنهُ.

قولُهُ: (لا عَاصِمَ) أو لا يفوتونَهُ، كما لا يَفوتُ المحاطُ المحيطَ.

---

(١) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٨٧).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٨).

٢١ ـ ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ﴾: عظيم، ٢٢ ـ ﴿فِي لَوحٍ﴾ هو في الهواء فوق السماء السابعة ﴿مَحفُوظٍ﴾ ـ بالجرّ ـ من الشياطين، ومن تغيير شيء منه، طولُه ما بين السماء والأرض، وعرضُه ما بين المشرق والمغرب، وهو من دُرّة بيضاء. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قولُهُ: (**هُو في الهَواءِ**) وقُرِئَ بالضمِّ[1]، وهو الهواءُ.

قولُهُ: (**بالجَرِّ**) للجُمهورِ، وبالرَّفعِ لنافعٍ[2] صفَةً للقُرآنِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ [الحجر: ٩]، والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) أي: (في لوح) وهي قراءة شاذة، ونسبت لليماني، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٨).

سُورَةُ البُرُوجِ

لا خلافَ في مكّيتها، ولا في كونها اثنتين وعشرين آيةً.

ووجهُ مناسبتها لِمَا قبلها اشتمالُها[1] كالتي قبلُ على وعد المؤمنين ووعيدِ الكافرين، مع التنويه بشأن القرآن وفخامة قَدْرِه.

وفي «البحر»: أنه سبحانه لَمَّا ذكر أنه جل وعلا أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء مَن أسلم بأنواعٍ من الأذى، كالضرب والقتل والصلب، والحرقِ بالشمس، وإحماءِ الصخر ووضعِ أجسادِ مَن يريدون أن يَفْتِنوه عليه، ذكر سبحانه أن هذه الشِّنْشِنةَ كانت فيمَن تقدَّم من الأُمم، فكانوا يعذِّبون بالنار، وأن المعذَّبين كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم، وأنَّ الذين عذَّبوهم ملعونون، فكذلك الذين عذَّبوا المؤمنين من كفار قريش، فهذه السورة عظةٌ لقريش، وتثبيتٌ لمن يعذِّبونه من المؤمنين[2]. انتهى، وهو وجهٌ وجيهٌ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ أي: القصور، كما قال ابن عباس وغيرُه. والمراد بها عند جمعٍ البروجُ الاثنا عشر المعروفة.

وأصلُ البُرْجِ: الأمر الظاهر، ثم صار حقيقةً للقصر العالي؛ لأنه ظاهرٌ للناظرين. ويقال لِمَا ارتفع من سور المدينة بُرْجٌ أيضاً. وبروجُ السماء بالمعنى

---

(١) في (م): باشتمالها، وهو تصحيف.

(٢) البحر ٨/ ٤٤٩.

المعروف وإن التحقتْ بالحقيقة، فهي في الأصل استعارةٌ، فإنها شبِّهت بالقصور لعلوِّها، ولأنَّ النجوم نازلةٌ فيها كسكَّانها، فهناك استعارةٌ مصرَّحةٌ تتبعها مكنيةٌ.

وقيل: شبِّهت السماء بسور المدينة فأُثبت لها البروج.

وقيل: هي منازلُ القمر. وهذا راجعٌ إلى القول الأول؛ لأن البروج منقسمةٌ إلى ثمانيةٍ وعشرين منزلاً، وقد تقدَّم الكلامُ فيها[1].

وقال مجاهدٌ والحسن وعكرمةُ وقتادةُ: هي النجوم. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله[2] رضي الله عنه فيه حديثاً مرفوعاً بلفظ «الكواكب» بدل النجوم، والله تعالى أعلم بصحَّته.

وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن أبي صالح أنه قال: هي النجومُ العِظامُ[3]. وعليه إنما سمِّيت بروجاً لظهورها، وكذا على ما قبله وإن اختلف الظهور ولم يَظْهَرْ شمولُه جميعَ النجوم.

وقيل: هي أبوابُ السماء، وسمِّيت بذلك لأن النوازل تخرج مع[4] الملائكة عليهم السلام منها، فجعِلَتْ مشبَّهةً بقصور العظماء النازلةِ أوامِرُهم منها، أو لأنها لكونها مبدأً للظهور وُصفت به مجازاً في الطَّرف. وقيل: في النسبة.

والبروجُ الاثنا عشر في الحقيقة على ما ذكره محقِّقو أهل الهيئة معتبرةٌ في الفلك الأعلى المسمَّى بفلك الأفلاك، والفلك الأطلس، وزعموا أنه العرشُ بلسان الشرع، لكنها لَمَّا لم تكن ظاهرةً حسًّا دلُّوا عليها بما سامَتَها وقتَ تقسيم الفلك الأعلى من الصور المعروفة، كالحمل والثور وغيرهما، التي هي في الفلك الثامن المسمَّى عندهم بفلك الثوابت، وبالكرسيِّ في لسان الشرع على ما زعموا، فبرج الحمل مثلاً ليس إلا جزءاً من اثني عشر جزءاً من الفلك الأعلى سامَتَتْه صورة

---

(١) عند تفسير الآية (٥) من سورة يونس، والآية (٣٩) من سورة ﴿يسٓ﴾.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣١.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣١.

(٤) في (م): من، وهو خطأ.

الحمل من الثوابت وقتَ التقسيم، وبرجُ الثور ليس إلا جزءاً من ذلك سامتَتْه صورة الثور منها ذلك الوقت أيضاً، وهكذا. وإنما قيل: وقت التقسيم؛ لأن كلَّ صورة قد خرجت لحركتها وإن كانت بطيئةً عما كانت مُسامِتَةً له من تلك البروج، حتى كاد يسامتُ الحمل اليوم برج الثور، والثور برج الجوزاء، وهكذا.

فعلى هذا، وكونُ المراد بالبروج البروجَ الاثني عشر أو المنازلَ، قيل: المراد بالسماء الفلك الأعلى، وقيل: الفلك الثامن لظهور الصور الدالة على البروج فيه، ولذا يسمَّى فلك البروج. وقيل: السماء الدنيا؛ لأنها تُرى فيها بظاهر الحسِّ نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] وقيل: الجنس الشامل لكلِّ سماءٍ؛ لأن السماوات شفَّافةٌ فيشارك العليا فيما فيها السفلى؛ لأنه يرى فيها ظاهراً.

وإذا أريد بالبروج النجومُ، فقيل: المراد بالسماء الفلك الثامن؛ لأنها فيه حقيقة. وقيل: السماء الدنيا. وقيل: الجنس، على نحو ما مرَّ، ولا يراد ـ على ما قيل ـ الفلكُ الأطلس، أعني الفلك الأعلى، لأنه كاسْمِه غيرُ مكوكبٍ.

وإذا أُريد بها الأبواب، فقيل: المراد بالسماء ما عدا فلك الأفلاك المسمَّى بلسان الشرع بالعرش، فإنه لم يَرِدْ أنَّ له أبواباً.

هذا وأنت تعلم أنَّ أكثر ما ذُكر مبنيٌّ على كلام أهل الهيئة المتقدِّمين، وهو لا يصحُّ له مستندٌ شرعاً، ولا تكاد تسمع فيه إطلاقَ السماء على العرش أو الكرسي، لكن لَمَّا سمع بعض الإسلاميين من الفلاسفة أفلاكاً تسعةً، وأراد تطبيق ذلك على ما ورد(١) في الشرع، زعم أنَّ سبعةً منها هي السماواتُ السبع، والاثنين الباقيين هما الكرسيُّ والعرش، ولم يَدْرِ أنَّ في الأخبار ما يأبى ذلك، وكونُ الدليل العقليِّ يقتضيه محلُّ بحثٍ كما لا يَخْفَى، ومَن رجع إلى كلام أهل الهيئة المحدَثين، ونظر في أدلتهم على ما قالوه في أمر الأجرام العلوية وكيفيةِ ترتيبها، قَوِيَ عنده وَهْنُ ما ذهب إليه المتقدِّمون في ذلك.

---

(١) في (م): روي.

فالذي ينبغي أن يقال: البروجُ هي المنازل للكواكب مطلقاً، التي يشاهدها الخواصُّ والعوامُّ، وما علينا في أيِّ سماء كانت، أو الكواكب أنفسُها أينما كانت، أو أبوابُ السماء الواردة في لسان الشرع والأحاديثِ الصحيحة، وهي لكلِّ سماءٍ، ولم يثبت للعرش ولا للكرسيِّ منها شيءٌ، ويراد بالسماء جنسُها أو السماءُ الدنيا في غير القول الأخير على ما سمعتَ فيما تقدَّم، فلا تغفل.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ أي: الموعودِ به، وهو يومُ القيامة باتِّفاق المفسرين.

وقيل: لعله اليومُ الذي يخرج الناسُ فيه من قبورهم، فقد قال سبحانه: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤] أو يوم طيِّ السماء كطيِّ السجلِّ للكتب.

وقيل: يمكن أن يراد به يومُ شفاعةِ النبيِّ ﷺ، على ما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] ولا يَخْفَى أنَّ جميع ذلك داخلٌ في يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ أي: ومَن يشهدُ ذلك[1] اليوم ويحضُره من الخلائق المبعوثين فيه، وما يَحْضُر فيه من الأهوال والعجائب، فيكون الله عزَّ وجلَّ قد أقسم سبحانه بيوم القيامة وما فيه تعظيماً لذلك اليوم، وإرهاباً لمنكريه. وتنكيرُ الوصفين للتعظيم، أي: وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكْتَنَه وَصْفُهما، أو للتكثير كما قيل في ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤].

وأخرج الترمذيُّ وجماعةٌ عن أبي هريرة مرفوعاً: «الشاهد يومُ الجمعة، والمشهودُ يومُ عرفة»[2] ورُوي ذلك عن أبي مالك الأشعري وجبير بن مطعم رضي الله عنهما

(١) في (م): بذلك.

(٢) سنن الترمذي (٣٣٣٩). قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعَّف في الحديث. اهـ. ووقع في مطبوع الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ولم ترد هذه العبارة في تحفة الأشراف ١٠/١٣٣، ولا في تحفة الأحوذي ٩/٢٥٨. وقد أخرجه موقوفاً على أبي هريرة أحمد (٧٩٧٣)، وقال ابن كثير: وهو أشبه.

مرفوعاً أيضاً[١]. وأخرجه جماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وغيرِه من الصحابة والتابعين[٢].

وأخرج الحاكم وصحَّحه عنه مرفوعاً أيضاً: «الشاهدُ يومُ عرفةَ ويومُ الجمعة، والمشهودُ يومُ القيامة»[٣].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: الشاهدُ يومُ الجمعة والمشهودُ يومُ النحر[٤].

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما وكرم وجههما أنَّ رجلاً سأله عن ذلك، فقال: هل سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابن عمر وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة. قال: لا، ولكنَّ الشاهدَ محمدٌ - وفي روايةٍ: جدِّي رسولُ الله ﷺ - ثم قرأ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] والمشهودُ يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ

---

(١) حديث أبي مالك أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٦٦، والطبراني في الكبير (٣٤٥٨). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٧٣-١٧٤: فيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، قال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئاً. اهـ. قلنا: ويرويه عن أبي مالك شريح بن عبيد؛ قال أبو حاتم في المراسيل: شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري مرسل.
وحديث جبير بن مطعم أخرجه ابن عدي ٥/ ١٧٢٨، وتمَّام كما في الروض البسام (١٣٦٩) من طريق عمار بن مطر، عن مالك، عن عمارة بن عبد الله، عن نافع بن جبير، عن أبيه، عن النبي ﷺ. قال ابن عدي: هذا عن مالك بهذا الإسناد باطل، ليس هو بمحفوظ عنه. اهـ. وعمار بن مطر كذبه أبو حاتم، وقال ابن حبان: كان يسرق الحديث، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال ابن عدي: أحاديثه بواطيل. الميزان ٣/ ١٧٠.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) كذا ذكر المصنف، والذي في المستدرك ٢/ ٥١٩ من طريق شعبة قال: سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار مولى بني هاشم عن أبي هريرة، أما علي فرفعه إلى النبي ﷺ، وأما يونس فلم يَعْد أبا هريرة، ثم ذكر الحديث كما أورده المصنف. فلعل الوهم في نسبة الحديث إلى علي ﷺ وقع من قول الحاكم: أما علي فرفعه...، والصواب أنه علي بن زيد بن جدعان الذي روى عنه شعبة هذا الحديث. وعلي بن زيد ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٣٢، ووقع في (م) بدل النحر: النجم، وهو تصحيف.

مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣][1] وروى النسائيُّ وجماعةٌ من طرقٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوَه[2].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه: الشاهدُ الله عز وجل، والمشهودُ يومُ القيامة[3].

وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار: الشاهد آدمُ عليه السلام وذرِّيتُه، والمشهودُ يومُ القيامة.

وعن ابن المسيب: الشاهدُ يومُ التروية، والمشهودُ يومُ عرفة.

وعن الترمذي[4]: الشاهد الحفظة، والمشهود ـ أي: عليه ـ الناس.

وعن عبد العزيز بن يحيى: هما رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه عليه الصلاة والسلام. وعنه أيضاً: هما الأنبياء عليهم السلام وأممهم.

وعن ابن جبير ومقاتل: هما الجوارحُ وأصحابها.

وقيل: هما يومُ الاثنين ويوم الجمعة.

وقيل: هما الملائكة المتعاقبون عليهم السلام، وقرآنُ الفجر.

وقيل: هما النجم، والليل والنهار.

وقيل: الشاهد الله تعالى والملائكةُ وأولو العلم، والمشهود به الوحدانية و﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقيل: الشاهد مخلوقاتُه تعالى، والمشهود به الوحدانيةُ.

وقيل: هما الحجرُ الأسود والحجيج.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٣٢، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٦٦-٢٦٧. ورواية: جدي رسولُ الله ﷺ، أخرجها الطبراني في الصغير (١١٣٧)، وفيه: الحسين، بدل: الحسن. وفيه أيضاً الآية (٤٥) من سورة الأحزاب بدل الآية (٤١) من سورة النساء.

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٥٩٩)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٦٦.

(٣) وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٦٩.

(٤) هو الحكيم كما في البحر ٨/ ٤٥٠، والكلام منه.

وقيل: الليالي والأيام وبنو آدم؛ فعن الحسن: ما من يومٍ إلا ينادي: إنِّي يومٌ جديدٌ، وإنِّي على ما يُعْمَلُ فيَّ شهيدٌ، فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة.

وقيل: أمَّة النبيِّ ﷺ وسائر الأمم.

وجوِّز أن يراد بهما المقرَّبون والعلِّيون؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٠-٢١].

وأن يراد بالشاهد الطفل الذي قال: «يا أماه اصبري فإنك على الحقِّ» كما سيجيء إن شاء الله تعالى، والمشهودُ له أمه والمؤمنون؛ لأنه إذا كانت أمُّه على الحق فسائر المؤمنين كذلك.

وقيل وقيل، وجميعُ الأقوال في ذلك على ما وقفتُ عليه نحوٌ من ثلاثين قولاً، والوصفُ على بعضها من الشهادة بمعنى الحضور ضدّ المغيب، وعلى بعضها الآخر من الشهادة على الخصم أوْ له، وشهادةُ الجوارح بأنْ يُنْطِقها الله تعالى الذي أنطق كلَّ شيءٍ، وكذا الحجرُ الأسود، ولا بُعْدَ في حضوره يوم القيامة للشهادة للحجيج.

وأما شهادةُ اليوم فيمكن أن تكون بعد ظهوره في صورةٍ، كظهور القرآن على صورة الرجل الشاحب إذ يتلقَّى صاحبه عند قيامه من قبره[(١)]، وظهورِ الموت في صورة كبشٍ يوم القيامة حتى يُذبح بين الجنة والنار[(٢)]، إلى غير ذلك.

وقال الشهاب: الله تعالى قادرٌ على أن يُحْضِرَ اليومَ ليشهد[(٣)]. ولم يبيِّنْ كيفيةَ ذلك، فإن كانت كما ذكرنا فذاك، وإن كانت شيئاً آخر بأن يُحضِرَ نفسَ اليوم في ذلك اليوم، فالظاهرُ أنه يلزم أن يكون للزمان زمانٌ، وهو وإنْ جوَّزه مَن جوَّزه من المتكلِّمين لكنْ في الشهادة بلسان القال عليه خفاءٌ، ومثلُها نداءُ اليوم الذي سمعتَه

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٦)، وابن ماجه (٣٧٨١)، وسلف ٥/ ١٠٤.
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وسلف ٥/ ١٠٤.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٢.

آنفاً عن الحسن إن كان بلسان القال أيضاً دون لسان الحال كما هو الأرجحُ عندي.

واختار أبو حيان من الأقوال على تقدير أن يراد بالشهادة الشهادةُ بالمعنى الثاني القولَ بأنَّ الشاهد مَن يشهد في ذلك اليوم، أعني اليوم الموعود يوم القيامة، وأنَّ المشهود مَن يُشْهَدُ عليه فيه. وعلى تقديرِ أنْ يراد بها الشهادةُ بالمعنى الأول القولَ بأنَّ الشاهد الخلائقُ الحاضرون للحساب، وأنَّ المشهود اليوم[1]. ولعل تكرير القسم به وإن اختلف العنوان لزيادة تعظيمه، فتأمَّل.

وجوابُ القسم قيل: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ [الآية: ١٠].

وقال المبرِّد: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [الآية: ١٢] وصرَّح به ابن جُريج، وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود ما يدلُّ عليه[2].

وقال غير واحد: هو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ على حذف اللام منه للطول، والأصل: لَقُتِلَ كما في قوله:

حلفتُ لها بالله حلفةَ فاجرٍ لناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صالي[3]

وقيل: على حذف اللام و«قد»، والأصل: لقد قُتِلَ، وهو مبنيٌّ على ما اشتهر من أنَّ الماضي المثبتَ المتصرِّفَ الذي لم يتقدَّم معموله تلزمُه اللام و«قد»، ولا يجوز الاقتصارُ على أحدهما إلا عند طول الكلام، كما في قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ إلخ، والبيتِ المذكور، ولا يجوز تقدير اللام بدون «قد» لأنها لا تدخل على الماضي المجرَّد منها، وتمامُ الكلام في محلِّه كشروح «التسهيل» وغيرها.

وأيًّاما كان فالجملة خبرية. وقال بعض المحققين: إنَّ الأظهر أنها دعائيةٌ دالةٌ على الجواب، كأنه قيل: أُقسم بهذه الأشياء إنَّ كفار قريش لملعونون أحقَّاءُ بأن

---

(١) البحر ٨/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣١-٣٣٢، وهو في المستدرك ٢/ ٥١٩، وذكر ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٣ هذا القول دون نسبة، ثم تعقبه بقوله: وهذا قبيح لأن الكلام قد طال بينهما.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢.

يقال فيهم: قُتلوا، كما هو شأن أصحاب الأخدود؛ لِما أنَّ السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفرة، وتذكيرهم بما جرى ممن تقدَّمهم من التعذيب لأهل الإيمان وصَبْرِهم على ذلك، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يَلْقَون من قومهم، ويعلموا أنهم مثل أولئك عند الله عز وجل في كونهم ملعونين مطرودين[1]. فالقتلُ هنا عبارةٌ عن أشدِّ اللعن والطرد؛ لاستحالة الدعاء منه سبحانه حقيقةً، فأُريدَ لازِمُه من السخط والطرد عن رحمته جل وعلا.

وقال بعضهم: الأظهر أن يقدَّر: إنهم لمقتولون كما قُتل أصحابُ الأخدود، فيكون وعداً له ﷺ بقتل الكفرة المتمرِّدين لإعلاء دينه، ويكون معجزةً بقتل رؤوسهم في غزوة بدرٍ. انتهى، وظاهرُه إبقاءُ القتل على حقيقته واعتبارُ الجملة خبريةً، وهو كما ترى.

وحكى في «البحر» أن الجواب محذوفٌ، وتقديره: لتبعثُنَّ ونحوه[2]، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

والأخدود: الخَدُّ، وهو الشقُّ في الأرض، ونحوُهما بناءً ومعنًى: الخَقُّ والأُخْقُوق، ومنه ما جاء في خبر سراقة حين تبع رسول الله ﷺ فساخت قوائمه - أي: قوائمُ فرسه - في أخاقيقِ جرذان[3].

أخرج مسلم والترمذيُّ والنسائيُّ[4] وغيرُهم من حديث صهيب يرفعه: «كان

---

(١) صاحب هذا القول هو الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٧.

(٢) لم نقف عليه في البحر، وهو في النهر الماد من البحر لأبي حيان أيضاً ٨/ ٤٤٨ (على هامش البحر).

(٣) كذا ذكر المصنف، والصواب أنه ورد في قصة الرجل الذي وقصت به دابته وهو محرم، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه وكفنوه ولا تخمروا رأسه...» كما ذكر أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٩٥، والزمخشري في الفائق ٤/ ٧٤، وصاحب النهاية (خقق)، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٢٩٢، ولفظه عندهم: فوقصت به ناقته في أخاقيق جرذانٍ. وأصله دون هذه العبارة في صحيح مسلم (٩٤) ص٨٦٥ من حديث ابن عباس ﵄.

(٤) صحيح مسلم (٣٠٠٥)، وسنن الترمذي (٣٣٤٠)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٩٧)، =

ملكٌ من الملوك، وكان لذلك الملك كاهنٌ يكهن له، فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً فأعلِّمَه عِلْمي هذا، فإنِّي أخاف أن أموت فينقطعَ منكم هذا العلمُ ولا يكون فيكم مَن يَعْلَمه. فنظروا له غلاماً على ما وَصَفَ، فأمروه أن يَحْضُرَ ذلك الكاهنَ، وأنْ يَخْتلِفَ إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهبٌ في صومعةٍ، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلَّما مرَّ به، فلم يَزَلْ به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله تعالى. فجعل الغلام يمكثُ عند الراهب ويُبْطِئُ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يَحْضُرني. فأخبر الغلامُ الراهبَ بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن أين كنت؟ فقل: عند أهلي. وإذا قال لك أهلك: أين كنت؟ فأخبرهم أنك كنت عند الكاهن.

فبينما الغلام على ذلك إذ مرَّ بجماعةٍ من الناس كثيرةٍ قد حَبَسَتْهم دابَّةٌ يقال: كانت أسداً. فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهمَّ إن كان ما يقول الراهبُ حقًّا فأسألك أن أقتل هذه الدابةَ، وإن كان ما يقوله الكاهن حقًّا فأسألك أن لا أقتلها. ثم رَمَى فقتل الدابةَ، فقال الناس: مَن قتلها؟ فقالوا: الغلام. ففزع الناس وقالوا: قد عَلِم هذا الغلامُ عِلْماً لم يَعْلَمْه أحدٌ! فسمع أعمى فجاءه فقال له: إن أنت رَدَدْتَ بصري فلك كذا وكذا. فقال الغلام: لا أريد منك هذا، ولكن أرأيتَ إن رَجَعَ عليك بصرُك، أتؤمنُ بالذي ردَّه عليك؟ قال: نعم. فردَّ عليه بصره، فآمن الأعمى.

فبلغ الملكَ أمرُهم، فبعث إليهم فأُتي بهم، فقال: لأقتلنَّ كلَّ واحدٍ منكم قِتْلةً لا أقتلُ بها صاحبَه. فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوُضع المنشارُ على مَفْرِقِ أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلةٍ أخرى. ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه. فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلمَّا انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يُلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردَّوْنَ، حتى لم يبق منهم إلا الغلامُ.

= وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٩٧٥١)، وأحمد (٢٣٩٣١) ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٣٣، وهو موافق للفظ الترمذي وعبد الرزاق.

ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيُلقوه فيه، فانطُلِقَ به إلى البحر ففرَّقَ الله تعالى الذين كانوا معه وأنجاه الله تعالى، فقال الغلام للملك: إنك لا تقتلني حتى تَصْلُبَني وترميني وتقول: بسم الله ربِّ الغلام. فأمر به فصُلب، ثم رماه وقال: بسم الله ربِّ الغلام. فوضع الغلامُ يده على صدغه حين رُمي ثم مات، فقال الناس: لقد عَلِمَ هذا الغلامُ علماً ما عَلِمَه أحدٌ، فإنَّا نؤمنُ بربِّ هذا الغلام. فقيل للملك: أَجَزِعْتَ أنْ خالفَكَ ثلاثةٌ؟ فهذا العالَم كلُّهم قد خالفوك. فخدَّ أخدوداً، ثم أَلْقَى فيها الحطبَ والنار، ثم جمع الناس فقال: مَن رَجَعَ عن دينه تركناه، ومَن لم يَرْجِعْ ألقيناه في هذه النار. فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، فقال: يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ حتى بلغ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وفيه: فأمَّا الغلام فإنه دُفن ثم أُخرج، فيُذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(١)] وأصبعُه على صدغه كما وضعها حين قُتل.

وفي بعض رواياته[(٢)]: فجاءت امرأةٌ بابنٍ لها صغيرٍ، فكأنها تقاعَسَتْ أن تقع في النار، فقال الصبي: يا أُمَّهْ اصبري فإنك على الحق».

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن نُجَيٍّ قال: شهدتُ عليًّا كرم الله تعالى وجهه وقد أتاه أسقفُ نجران، فسأله عن أصحاب الأخدود فقصَّ عليه القصة، فقال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: أنا أعلم بهم منك؛ بُعِثَ نبيٌّ من الحبش إلى قومه - ثم قرأ رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] - فدعاهم فتابعه الناس، فقاتلهم فقُتل أصحابه وأُخِذَ فأُوْثِقَ، فانفلت فأنس إليه رجال [يقول: اجتمع إليه رجال] فقاتلهم وقتلوا وأخذ فأوثق، فخدَّدوا أخدوداً وجعلوا فيها النيران، وجعلوا يعرضون الناس، فمن تبع النبيَّ رُمي به فيها، ومَن تابعهم تُرِك، وجاءت امرأة في آخر مَن جاء ومعها صبيٌّ لها فجزعت، فقال الصبيُّ: يا أمَّه اصبري ولا تُماري. فوقعت[(٣)].

---

(١) كذا وقعت العبارة في الدر المنثور، وجاء في سنن الترمذي ومصنف عبد الرزاق: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب... إلخ، ولم ترد هذه الزيادة في باقي المصادر.

(٢) وهي رواية مسلم وأحمد والنسائي.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣٣، وما بين حاصرتين منه.

وأخرج عبد بن حميد عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال: كان المجوس أهلَ كتابٍ، وكانوا متمسِّكين بكتابهم، وكانت الخمرةُ قد أُحِلَّتْ لهم، فتناول منها ملكٌ من ملوكهم فغلبته على عقله، فتناول أخته أو ابنته فوقع عليها، فلمَّا ذهب عنه السُّكْر ندم وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيتُ؟ وما المخرجُ منه؟ قالت: المخرج منه أن تخطب الناس فتقول: أيها الناس إن الله تعالى أحلَّ نكاح الأخوات أو البنات. فقال الناس جماعتُهم: معاذ الله تعالى أن نؤمن بهذا أو نقرَّ به، أو جاء به نبيٌّ، أو نزل علينا في كتاب. فرجع إلى صاحبته، وقال: ويحك! إنَّ الناس قد أبوا عليَّ ذلك. قالت: إن أبوا عليك فابسُطْ فيهم السوطَ. فبسط فيهم السوط، فأبوا أن يُقِرُّوا، قالت: فجرِّد فيهم السيف. فأبوا أن يُقرُّوا، قالت: فخُدَّ لهم الأخدود ثم أوقد فيها النيران، فمن تابعك خلِّ عنه. فخدَّ لهم أخدوداً وأوقد فيها النيران، وعرض أهلَ مملكته على ذلك، فمن أبى قذفه في النار، ومَن لم يأبَ خلَّى عنه[1].

وقيل: وقع إلى نجران رجلٌ ممن كان على دين عيسى عليه السلام، فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهوديُّ بجنودٍ من حِمْيَر، فخيَّرهم بين النار واليهودية، فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد. وقيل: سبعين ألفاً. وذُكر أنَّ طول الأخدود أربعون ذراعاً، وعرضه اثنا[2] عشر ذراعاً.

ولاختلاف الأخبار في القصة اختلفوا في موضع الأخدود؛ فقيل: بنجران؛ لهذا الخبر الأخير. وقيل: بأرض الحبشة لخبر ابن نُجَيٍّ السابق.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه كان بمذارع اليمن[3]، أي: قراه، وهذا لا ينافي كونه بنجران؛ لأنه بلدٌ باليمن.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) في الأصل و(م): اثني، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ٣١/ ١١٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٨٨، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٣٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣٢، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٢٧١-٢٧٢، ووقع في الأصل و(م): بمذراع، والصواب ما أثبتناه. والمذارع: هي القرى القريبة من الأمصار، وقيل: هي قرًى بين الريف والبر. النهاية (ذرع).

وكذا اختلفوا في أصحاب الأخدود لذلك، فحكي فيه ما يزيد على عشرة أقوالٍ؛ منها أنهم حبشةٌ، ومنها أنهم من النَّبط، وروي عن عكرمة، ومنها أنهم من بني إسرائيل، وروي عن ابن عباس. وأصحُّ الروايات عندي في القصة ما قدَّمناه عن صهيبٍ رضي الله عنه، والجمعُ ممكنٌ، فقد قال عصام الدين: لعل جميع ما روي واقعٌ، والقرآن شاملٌ له، فلا تغفل.

وقرأ الحسن وابن مقسم: «قتّل» بالتشديد[1]، وهو مبالغةٌ في لعنهم لعظم ما أتوا به. وقد كان ﷺ ـ على ما أخرج ابن أبي شيبة عن عوفٍ، وعبد بنُ حميد عن الحسن ـ إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوَّذ من جهد البلاء[2].

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلُ اشتمالٍ من «الأخدود» والرابطُ مقدَّرٌ، أي: فيه، أو أقيم «أل» مقام الضمير، أو لأنه معلومٌ اتصالُه به فلا يحتاج لرابطٍ، وكذا كلُّ ما يظهر ارتباطه فيما قبلُ، وجوَّز أبو حيان كونَه بدلَ كلٍّ من كلٍّ على تقدير محذوفٍ، أي: أخدود النار[3]، وليس بذاك.

وقرأ قوم: «النارُ» بالرفع[4]؛ فقيل: على معنى: قتلَتْهم النارُ، كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] على قراءة «يسبَّح» بالبناء للمفعول[5]، وقوله:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ[6]

ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين، وليس المراد بالقتل اللعنَ، وجوِّز أن يراد بهم الكفرة والقتلُ على حقيقته بناءً على ما قال الربيع بن أنس والكلبيُّ

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧١، والبحر ٨/ ٤٥٠.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣٣، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧ من طريق عوف عن الحسن. والحديث مرسل.
(٣) البحر ٨/ ٤٥٠.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢، والبحر ٨/ ٤٥٠.
(٥) وهي قراءة ابن عامر وشعبة كما في التيسير ص١٦٢.
(٦) سلف ٤/ ٢٣١ و٧/ ٤٧.

وأبو العالية وابن إسحاق[١] من أنَّ الله تعالى بعث على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم، وخرجت النارُ فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود، وأنت تعلم أنَّ قول هؤلاء مخالفٌ لقول الجمهور، ولِمَا دلَّت عليه القصص التي ذكروها، فلا ينبغي أن يعوَّل عليه، وأنَّ حملَ القتل على حقيقته غيرُ ملائم للمقام.

ولعل الأَوْلى في توجيه هذه القراءة أنَّ النار خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي - أو: هو - النارُ، ويكون الضمير راجعاً على الأخدود، وكونُه النارَ خارجٌ مخرجَ المبالغة كأنه نفسُ النار.

﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ وصفٌ لها بغاية العظمة وارتفاعِ اللهب وكثرةِ ما يوجبُه، ووجهُ إفادته ذلك أنه لم يقل: موقدة، بل جُعلت ذاتَ وقودٍ، أي: مالِكَتَه، وهو كنايةٌ عن زيادته زيادةً مفرطةً لكثرة ما يرتفع به لهبُها، وهو الحطبُ الموقَدُ به؛ لأن تعريفه استغراقيٌّ، وهي إذا مَلَكتْ كلَّ موقودٍ به عَظُم حريقُها ولهبها، وليس ذلك لأنه لا يقال ذو كذا إلا لمن كثر عنده كذا؛ لأنه غيرُ مسلَّم، وذو النون يأباه، وكذا ذو العرش.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى: «الوُقود» بضم الواو[٢]، وهو مصدرٌ، بخلاف مفتوحِه فإنه ما يُوقَدُ به. وقد حكى سيبويه أنه مصدرٌ كمضمومه[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ ظرفٌ لـ «قتل»، أي: لُعنوا حين أَحْدَقوا بالنار قاعدين حولها في مكانٍ قريبٍ منها، مشرفينَ عليها من حافات الأخدود، كما في قول الأعشى:

تُشَبُّ لمقرورَيْنِ يَصْطَليانِها وبات على النار النَّدَى والمحلَّقُ[٤]

---

(١) في الأصل و(م): وأبو إسحاق، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢، والبحر ٨/ ٤٥٠، وعنه نقل المصنف.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١، والبحر ٨/ ٤٥٠.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٢.

(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٥، والبيت من قصيدة في مدح المحلَّق بن حنتم بن شداد. قال شارح الديوان: أي: بات عليها اثنان يستدفئان من البرد ويسمُران، وهما الكرم والمحلَّق.

وقيل: الكلام بتقدير مضافٍ، أي: على حافاتها، أو نحوه، والجمهور على أنَّ المراد ذلك من غير تقدير.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ أي: يَشْهدُ بعضهم لبعض عند الملك بأنَّ أحداً لم يقصِّر فيما أُمر به، أو يشهدون عنده على حُسْنِ ما يفعلون واشتمالِه على الصلاح على ما قيل، أو يشهد بعضُهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة، أو يشهدون على أنفسهم بذلك يوم تشهد عليهم جوارحُهم بأعمالهم.

وقيل: «على» بمعنى «مع»، والمعنى: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضورٌ، لا يَرِقُّون لهم لغايةِ قسوة قلوبهم.

ومَن زعم أنَّ الله تعالى نجَّى المؤمنين وإنما أحرق سبحانه الكافرين، يقول هنا: المراد: وهم على ما يريدون فِعْلَه بالمؤمنين شهودٌ.

وأيَّاما كان ففي «المؤمنين» تغليبٌ، والمراد: بالمؤمنين والمؤمنات.

ومن الغريب الذي لا يُلتفت إليه ما قيل: إنَّ أصحاب الأخدود عمرو بن هند ـ المشهور بمحرِّقٍ ـ ومَن معه، حرَّق مئةً من بني تميم، وضمير «هم على ما يفعلون» لكفار قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: ما أنكروا منهم وما عابوا، وفي «مفردات» الراغب: يقال: نَقَمْتُ الشيء، إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة(١).

وقرأ زيد بن عليٍّ وأبو حيوةَ وابنُ أبي عبلةَ «وما نَقِموا» بكسر القاف(٢).

والجملة عطفٌ على الجملة الاسمية، وحسَّن ذلك ـ على ما قيل ـ كونُ تلك الاسمية لوقوعها في حيز «إذ» ماضويةً، فكان العطفُ عطفَ فعليةٍ على فعليةٍ.

وقيل: إن هذه الفعلية بتقدير: وهم ما نقموا منهم.

﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ استثناءٌ مفصِحٌ عن براءتهم عمَّا يعاب وينكَرُ بالكلِّية، على منهاج قوله:

---

(١) مفردات الراغب (نقم).
(٢) القراءات الشاذة ص١٧١، والبحر ٨/ ٤٥١.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ[١]

وكونُ الكفرة يرون الإيمان أمراً منكَراً والشاعرُ لا يرى الفلولَ كذلك لا يضرُّ على ما أرى في كون ذلك منه عز وجل جارياً على ذلك المنهاج من تأكيد المدح بما يُشْبِهُ الذمَّ، ثم إنَّ القوم إن كانوا مشركين فالمنكَرُ عندهم ليس هو الإيمانَ بالله تعالى، بل نفيَ ما سواه من معبوداتهم الباطلةِ، وإن كانوا معطِّلةً فالمنكَرُ عندهم ليس إلا إثباتَ معبودٍ غيرِ معهودٍ لهم لكن لَمَّا كان مآلُ الأمرين إنكارَ المعبود بحقٍّ، الموصوفِ بصفات الجلال والإكرام، عبّر بما ذكر مفصحاً عما سمعتَ، فتأمل.

ولبعض الأعلام كلامٌ في هذا المقام قد ردَّه الشهاب[٢]، فإنْ أَرَدْتَه فارْجِعْ إليه.

وفي «المنتخب»[٣]: إنما قال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان في المستقبل، ولو كفروا فيه لم يعذَّبوا على ما مضى، فكأنه قال عز وجل: إلا أن يَدُوموا على إيمانهم. انتهى، وكأنه حمل النقم على الإنكار بالعقوبة.

ووَصْفُه عز وجل بكونه عزيزاً غالباً يُخْشَى عقابُه وحميداً مُنْعِماً يُرْجَى ثوابُه، وتأكيدُ ذلك بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشعار بمناطِ إيمانهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ وعدٌ لهم ووعيدٌ لمعذِّبيهم، فإنَّ علم الله جلَّ شأنه الجامع لصفات الجلال والجمال بجميع الأشياء التي من جملتها

---

(١) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص١١، والكشاف ٤/٢٣٨، والفلول: الثُّلَم. القاموس (فلل).

(٢) في الحاشية ٨/٣٤٤.

(٣) كما في البحر ٨/٤٥١، وعنه نقل المصنف، والمنتخب كما ذكر أبو حيان في البحر ١/١٦١ لأبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي، وهو شرف الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل، الأديب النحوي المفسِّر المحدِّث الفقيه، له التفسير الكبير، واسمه «ري الظمآن» قصد فيه ارتباط الآي بعضها ببعض، والتفسير الأوسط، والتفسير الصغير، والكافي في النحو، ومختصر صحيح مسلم، توفي سنة (٦٥٥هـ). معجم الأدباء ١٨/٢٠٩، والأعلام ٦/٢٣٣.

أعمالُ الفريقين يستدعي توفيرَ جزاء كلٍّ منهما، ولكونه تذييلاً لذلك واللائقُ به الاستقلالُ جيء فيه بالاسم الجليل دون الضمير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: مَحَنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد بـ «الذين فَتنوا» وبـ «المؤمنين والمؤمنات» المفتونين؛ إما أصحابُ الأخدود والمطرَحون فيه خاصةً، وإما الأعمُّ ويدخل المذكورون دخولاً أوَّليًّا، وهو الأظهر.

وقيل: المراد بالموصول كفارُ قريش الذين عذَّبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواعٍ من العذاب. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ قال ابن عطية: يقوِّي أنَّ الآية في قريش؛ لأنَّ هذا اللفظَ فيهم أحكمُ منه في أولئك الذين قد عُلم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريشٌ فكان فيهم وقتَ نزولها مَن تاب وآمن(١). وأنت تعلم أنَّ هذا على ما فيه لا يعكِّر على أظهرية العموم.

والظاهر أنَّ المراد: ثم لم يتوبوا من فَتْنِهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: بسبب فَتْنِهم ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ وهو نارٌ أخرى زائدةُ الإحراق كما تُنْبِئ عنه صيغةُ فَعيل، لعدم توبتهم ومبالاتهم بما صدر منهم.

وقال بعض الأجلَّة: أي: فلهم عذاب جهنم بسبب كفرهم فإنَّ فعلهم ذلك لا يتصوَّر من غير الكافر، ولهم عذاب الحريق بسبب فتنهم المؤمنين والمؤمنات، وفي جَعْلِ ذلك جزاءَ الفتن من الحسن ما لا يخفى.

وتعقِّب بأنَّ عنوان الكفر لم يصرَّح به في جانب الصلة، وإنما المصرَّحُ به الفتن وعَدَمُ التوبة، فالأظهرُ اعتبارهما سببين في جانب الخبر على الترتيب.

وقيل: أي: فلهم جهنمُ في الآخرة، ولهم عذابُ الحريق في الدنيا، بناءً على ما روي عن الربيع ومَن سمعتَ أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم، وقد علمتَ حاله.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «ثم لم يتوبوا» يأبى عنه؛ لأنَّ أولئك المحرِقين لم يُنْقَل لنا أنَّ أحداً منهم تاب، بل الظاهرُ أنهم لم يُلعنوا إلَّا وهم قد ماتوا على الكفر[1]. وفيه نظر.

وعليه[2] إنما أخِّر «ولهم عذاب الحريق» رعايةً للفواصل، أو للتتميم[3] والترديف، كأنه قيل: ذلك ـ وهو العقوبةُ العظمى ـ كائنٌ لا محالةَ، وهذا أيضاً لا يتجاوزونه.

وفي «الكشف»: الوجه أنَّ عذاب جهنم وعذابَ الحريق واحدٌ، وُصِفَ بما يدلُّ على أنه للمبعودين جدًّا عن رحمته عز وجل، وعلى أنه عذابٌ هو محضُ الحريق، وهو الحَرْقُ البالغُ وكفى به عذاباً.

والظاهر أنه اعتبر «الحريق» مصدراً والإضافةَ بيانيةً، ولا بأس بذلك، إلا أنَّ الوحدة التي ادَّعاها خلافُ ظاهر العطف.

وقال بعضهم: لو جُعِلَ من عطف الخاصِّ على العامِّ للمبالغة فيه؛ لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما، كان أقرب. ولعل ما ذكرناه أبعدُ عن القال والقيل.

وجملة «فلهم عذاب» إلخ وقعت خبراً لـ «إنَّ»، أو الخبر الجارُّ والمجرور و«عذاب» مرتفعٌ به على الفاعلية، وهو الأحسن. والفاء لِما في المبتدأ من معنى الشرط، ولا يضرُّ نسخُه بـ «إنَّ» وإنْ زَعَمَه الأخفش.

واستُدلَّ بالآية على بعض أوجُهها على أن عذاب الكفار يضاعَفُ بما قارنه من المعاصي.

---

(١) البحر ٨/ ٤٥١، وقد تعقب أبو حيان بكلامه هذا القول بأن المراد بـ «الذين فتنوا» أصحابُ الأخدود خاصة، وبـ «المؤمنين والمؤمنات» المطروحون في الأخدود، وكلام الربيع المذكور قبله يقتضي ذلك، فإن ما ذكره من أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم يقتضي تخصيص «الذين فتنوا» بأصحاب الأخدود، وينظر الكشاف ٤/ ٢٣٩، وقد استظهر أبو حيان أن «الذين فتنوا» عامٌّ في كل من ابتلَى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذًى.

(٢) أي: على القول بأن لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا.

(٣) التتميم: هو أن يؤتى في كلام لا يوهم غيرَ المراد بفَضْلَةٍ تفيدُ نكتةً. الإتقان ٢/ ٨٧١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إنْ أُريدَ بالجنات الأشجارُ فجريان الأنهار من تحتها ظاهرٌ، وإنْ أريد بها الأرض المشتملةُ عليها فالتحتيةُ باعتبار جزئها الظاهر، فإنَّ أشجارها ساترةٌ لساحتها كما يُعرب عنه اسمُ الجنة.

وفصلُ الجملة؛ قيل: لأنها كالتأكيد لِما أَشْعَرتْ به الآيةُ قبلُ من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كون ما ذكر لهم وحيازتهم إياه، وقيل: للجنات الموصوفة، والتذكيرُ لتأويلها بـ : ما ذُكر، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان بعلوِّ الدرجة وبُعْدِ المنزلة في الفضل والشرف.

ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ الذي يصغُرُ عنده الفوزُ بالدنيا وما فيها من الرغائب. والفوزُ: النجاة من الشرِّ والظفرُ بالخير، فعلى الوجه الثاني في الإشارة هو مصدرٌ أطلق على المفعول مبالغةً، وعلى الأول مصدرٌ على حاله.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ استئنافٌ خوطب به النبيُّ ﷺ إيذاناً بأنَّ لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبئ عنه التعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام.

والبطشُ: الأخذ بصولةٍ وعنفٍ، وحيث وُصِفَ بالشدة فقد تضاعَفَ وتفاقَمَ، وهو بطشُه عز وجل بالجبابرة والظَّلَمة، وأَخْذُه سبحانه إياهم بالعذاب والانتقام.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي: إنه عز وجل هو يُبْدِئُ الخلق بالإنشاء، وهو سبحانه يعيدُه بالحشر يوم القيامة كما قال ابن زيد والضحاك. أو: يبدِئُ كلَّ ما يُبْدَأُ ويعيد كلَّ ما يعاد كما قال ابن عباس، من غير دَخْلٍ لأحدٍ في شيءٍ منهما، ومَن كان كذلك كان بطشُه في غاية الشدة.

أو: يُبدِئُ البطش بالكفرة في الدنيا ثم يعيده في الآخرة.

وعلى الوجهين الجملةُ في موضع التعليل لِما سبق، ووجهُه على الثاني ظاهرٌ، وعلى الأول قد أشرنا إليه، وقيل: وجهُه عليه أنَّ الإعادة للمجازاة فهي متضمِّنةٌ للبطش. وليس بذاك.

وعن ابن عباس: يبدئُ العذاب بالكفار ويُعيده عليهم فتأكلهم النار حتى يصيروا فحماً، ثم يعيدهم عز وجل خَلْقاً جديداً. وفيه خفاءٌ وإن كان أمرُ الجملة عليه في غاية الظهور.

واستعمالُ «يبدئ» مع «يعيد» حَسَنٌ، وإن لم يُسمع «أَبْدأَ» كما بيِّن في محلّه، وحكى أبو زيد أنه قرئ: «يَبدأ» من بَدَأَ ثلاثيًّا، وهو المسموعُ لكنَّ القراءة بذلك شاذةٌ[1].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن يشاء من المؤمنين. وقيل: لمن تاب وآمن، والتخصيصُ عند مَن يَرَى رأيَ أهل السنَّة إما لمناسبةِ مقام الإنذار، أو لِمَا في صيغة «الغفور» من المبالغة، فأصلُ المغفرة لا يتوقَّفُ على التوبة، وزيادتُها بما لا يعلمه إلا الله تعالى للتائبين.

﴿ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ المحبُّ كثيراً لمن أطاع، ففَعُولٌ صيغةُ مبالغةٍ في الوادِّ اسم فاعل، ومحبةُ الله تعالى ومودَّتُه عند الخَلَفِ بإنعامه سبحانه وإكرامه جلَّ شأنه، ومن هنا فسِّر الودود بكثير الإحسان. وعن ابن عباس: أي: المتودِّد إلى عباده تعالى شأنُه بالمغفرة.

وقيل: هو فعولٌ بمعنى مفعول، كرَكُوبٍ وحَلُوبٍ، أي: يودُّه ويحبُّه سبحانه عبادُه الصالحون. وهو خلافُ الظاهر.

وحكى المبرِّد عن القاضي إسماعيل بن إسحاق أنَّ الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد قوله:

وأركبُ في الرَّوْع عُرْيانةً ذلولَ الجماحِ لقاحاً ودودا

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧١، والبحر ٨/ ٤٥١.

أي: لا ولد لها تحنُّ إليه(١). وحَمْلُه مع «الغفور» على هذا المعنى غيرُ مناسبٍ كما لا يخفى.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحبه، والمراد: مالكه أو خالقه، وهو أعظم المخلوقات، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: لو جُمعتْ مياه الدنيا ومُسِحَ بها سطحُ العرش الذي يلينا لَما استُوعِبَ منه إلا قليلٌ. وجاء في الأخبار من عظمه ما يبهر العقول.

وقال القفَّال: «ذو العرش»: ذو المُلْكِ والسلطان. كأنه جَعَلَ العرش بمعنى المُلْكِ بطريق الكناية والتجوُّزِ، وجوَّز أن يبقى العرش على حقيقته ويرادَ بذي العرش المَلِكُ؛ لأنَّ ذا العرش لا يكون إلا مَلِكاً.

وقرأ ابن عامر في روايةٍ: «ذي العرش» بالياء(٢) على أنه صفةٌ لـ «ربك»، وحينئذٍ يكون قوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ) إلخ جملةً معترضةً لا يضرُّ الفَصْلُ بها بين الصفة والموصوف، وكذا لا يضرُّ الفصل بينهما بخبر المبتدأ لأنه ليس بأجنبيٍّ؛ فإنَّ الموصوف هنا من تتمة المبتدأ، وقد قال ابن مالك في «التسهيل»: يجوزُ الفَصْلُ بين التابع والمتبوع بما لا يتمحَّضُ مباينتُه(٣). نعم قال ابن الحاجب: الفصلُ بين الصفة والموصوف بخبر المبتدأ شاذٌّ كما في قوله:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوه ... لعمرُ أبيك إلا الفرقدان(٤)

﴿ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾ العظيم في ذاته عز وجل وصفاتِه سبحانه، فإنه تعالى شأنه واجبُ الوجود، تامُّ القدرة، كاملُ الحكمة.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضَّل عن عاصم

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٤٣، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٩٦، والبحر ٨/ ٤٥١-٤٥٢. والبيت في تفسير الرازي ٣١/ ١٢٤، واللسان والتاج (ودد) برواية:

وأعددْتُ للحرب خَيْفانةً ... جَمُومَ الجِرَاءِ وَقَاحاً وَدُودا

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١، والبحر ٨/ ٤٥٢.

(٣) التسهيل ص١٦٣.

(٤) سلف ١١/ ١٩٢. قوله: إلّا الفرقدان، «إلّا»، بمعنى غير، أي: غير الفرقدين. وهو صفة كُلّ، فَفُصل بينهما بالخبر، وهو: مُفارِقُه أخوه. ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٩.

والأخوان: «المجيدِ» بالجرّ[1] صفةً للعرش، ومجدُه علوُّه وعظمتُه وحُسْنُ صورته وتركيبِه؛ فإنه قيل: العرش أحسن الأجسام صورةً وتركيباً، وليس من مجده كونُ الحوادث الكونية بتوسُّط أوضاعه كما يزعمه المنجِّمون، فإنَّ ذلك باطلٌ شرعاً وعقلاً على ما تقتضيه أصولُهم. وجاز على قراءة «ذي العرش» بالياء أن يكون صفةً لـ «ذي».

وجوِّز كونُه صفةً لـ «ربك»، وليس بذاك لأنَّ الأصل عدمُ الفصل بين التابع والمتبوع، فلا يقال به ما لم يتعيَّن.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ بحيث لا يتخلَّف عن إرادته تعالى [مرادٌ][2] من أفعاله سبحانه وأفعالِ غيره عز وجل، فـ «ما» للعموم، وفي التنكير من التفخيم ما لا يخفى، وفيه ردٌّ ظاهرٌ على المعتزلة في قولهم: إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان الكافر وطاعةَ العاصي ويتخلَّفان عن إرادته سبحانه.

والمرفوعاتُ كلُّها على ما استحسنه أبو حيان[3] أخبارٌ لـ «هو» في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ وجوِّز أن يكون «الودود» و«ذو العرش» و«المجيد» صفاتٍ لـ «الغفور»، ومَن لم يجوِّز تعدُّد الخبر لمبتدأ واحدٍ يقول بذلك، أو بتقدير مبتدآت للمذكورات.

وأطلق الزمخشريُّ القولَ بأنَّ «فعَّالٌ» خبرٌ لمبتدأ محذوف[4]، أي: هو فعالٌ. فقال صاحب «الكشف»: إنما لم يحمله على أنه خبر السابق ـ أعني «هو» في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ ـ لأن قوله سبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ تحقيقٌ للصفتين: البطشِ بالأعداء والغفرِ والودِّ للأولياء، ولو حُمِلَ عليه لفاتت هذه النكتة. اهـ وهو تدقيقٌ لطيفٌ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ استئنافٌ فيه تقريرٌ لكونه تعالى فعَّالاً لِما يريد، وكذا لشدَّةِ بطشه سبحانه بالظَّلمة العصاة والكَفَرةِ العتاةِ، وتسليةٌ له ﷺ

---

(١) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٨/ ٤٥٢.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٩/ ١٣٨.
(٣) في البحر ٨/ ٤٥٢.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٩.

بالإشعار بأنه سيصيب كَفَرةَ قومه ما أصاب الجنود، وهو جمعُ جُنْدٍ يقال للعسكر اعتباراً بالغلظة، من الجَنَد أي: الأرض الغليظة، وكذا للأعوان، ويقال لصنفٍ من الخلق على حِدَةٍ، وكذا لكلِّ مجتمع.

والمراد بالجنود هاهنا الجماعات الذين تجنَّدوا على أنبياء الله تعالى عليهم السلام واجتمعوا على أذيتهم.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ بدلٌ من «الجنود» بدلَ كلٍّ من كلٍّ على حذف مضافٍ، أي: جنودِ فرعون، أو على أن يراد بـ «فرعون» هو وقومه، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعُه.

وقيل: البدلُ هو المجموعُ لا كلٌّ من المتعاطفين. وهو خلافُ الظاهر.

وقال السمين: يجوز كونُه منصوباً بأعني؛ لأنه لَمَّا لم يطابق ما قبله وجب قطعُه[١].

وتعقِّبَ بأنه تفسيرٌ للجنود حينئذٍ، فيعود الإشكال.

وأجيبَ بأنَّ المفسَّر حينئذ المجموعُ، وليس اعتبارُه مع أعني كاعتباره مع الإبدال.

والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال، وما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال، والمعنى: قد أتاك حديثُهم وعرفتَ ما فعلوا وما فُعل بهم، فذكِّر قومك بأيام الله تعالى وشؤونه سبحانه، وأنذِرْهم أنْ يصيبهم مثلُ ما أصاب أمثالَهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من قومك ﴿فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ عن مماثلتهم لهم، وبيانٌ لكونهم أشدَّ منهم في الكفر والطغيان كما ينبئُ عنه العدولُ عن: يكذبون، إلى: «في تكذيب» المفيدِ لإحاطة التكذيب بهم إحاطةَ الظرف بمظروفه، أو البحرِ بالغريق فيه، مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه

---

(١) الدر المصون ١٠/٧٤٩.

وتهويله، فكأنه قيل: ليسوا مثلَهم بل هم أشدُّ منهم، فإنهم غَرْقَى مغمورون في تكذيبٍ عظيمٍ للقرآن الكريم، فهم أوْلَى منهم في استحقاق العذاب.

أو كأنه قيل: ليست جنايتُهم مجرَّدَ عدم التذكُّر والاتِّعاظ بما سمعوا من حديثهم، بل هم مع ذلك في تكذيبٍ عظيم للقرآن الناطق بذلك، وكونِه قرآناً من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهورِ حاله بالبينات الباهرة.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ جوِّز أن يكون اعتراضاً تذييليًّا، وأنْ يكون حالاً من الضمير في الجارِّ والمجرور السابق، والكلامُ تمثيلٌ لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فَوْتِ المحاطِ المحيطَ كما قال غيرُ واحد، وكأنَّ المعنى: إنه عز وجل عالمٌ بهم وقادرٌ عليهم، وهم لا يُعْجِزونَه ولا يفُوتونه سبحانه وتعالى.

وذكر عصام الدين أنَّ في ذلك تعريضاً وتوبيخاً للكفار بأنهم نبذوا الله سبحانه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الهوى والشهوات بكلِّيتهم، ولعل ذلك من العدول عن: بهم، إلى «من ورائهم».

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ ردٌّ لكفرهم، وإبطالٌ لتكذيبهم، وتحقيقٌ للحق، أي: بل هو كتابٌ شريفٌ عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى، لا يحقُّ تكذيبه والكفرُ به.

وقيل: إضرابٌ وانتقالٌ عن الإخبار بشدة تكذيبهم وعدمِ ارْعِوائهم عنه إلى وصف القرآن؛ للإشارة إلى أنه لا ريبَ فيه، ولا يضرُّه تكذيبُ هؤلاء. والأولُ أَوْلَى.

وزَعَم بعضهم أن الإضراب الأول عن قصة فرعون وثمود إلى جميع الكفار، والمعنى عليه: إنَّ جميع الكفار في تكذيب، ولم يكن نبيٌّ فارغاً عن تكذيبهم، والله تعالى لا يهمل(١) أمرهم، وفيه من تسليته ﷺ ما فيه. ويُبْعِدُه إردافُ ذلك بهذا الإضراب.

---

(١) في الأصل: يمهل.

وقرأ ابن السميفع: «قرآنُ مجيدٍ» بالإضافة؛ قال ابن خالويه: سمعت ابن الأنباري يقول: معناه: بل هو قرآنُ ربٍّ مجيدٍ، كما قال الشاعر:

ولــكــنَّ الــغِــنَــى ربٌّ غــفــورٌ(١)

أي: غِنَى ربٍّ غفورٍ. وقال ابن عطية: قرأ اليمانيُّ بالإضافة على أن يكون «المجيد» هو الله تعالى(٢). وهو محتملٌ للتقدير وعَدَمِه.

وجوِّز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته؛ قال أبو حيان: وهذا أولى لتوافُق القراءتين(٣).

﴿فِي لَوۡحٖ﴾ أي: كائنٌ في لوح ﴿مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ أي: ذلك اللوح من وصول الشياطين إليه، وهذا هو اللوحُ المحفوظُ المشهورُ، وهو على ما روي عن ابن عباس والعُهْدة على الراوي: لوحٌ من درَّةٍ بيضاءَ طولُه ما بين السماء والأرض، وعرضُه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدرُّ والياقوت، ودفَّتاه ياقوتةٌ حمراء، وقلمُه نورٌ، وهو معقودٌ بالعرش وأصلُه في حجر مَلَك يقال له ساطريون، عز وجل فيه في كلِّ يومٍ ثلاث مئةٍ وستُّون لحظةً يُحيي ويميتُ ويُعزُّ ويُذلُّ ويفعل ما يشاء(٤). وأنه كُتب في صدره: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دينُه الإسلام، ومحمدٌ عبدُه ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل وصدَّق بوعده واتَّبع رسله أدخله الجنة(٥).

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٤٥٨. ووقع البيت في القراءات الشاذة: ولكن الغِنَى غِنَى غفور. والبيت لعروة بن الورد كما في عيون الأخبار ١/ ٢٤٢، والعقد الفريد ٣٠/ ٢٩، والبيان والتبيين ١/ ٢٣٤، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١/ ٦١، وصدره: قليلٌ ذنبُه والذنبُ جمٌّ، وعجزه في عيون الأخبار والعقد: ولكنْ للغني ربٌّ غفور، وهو في باقي المصادر موافق لما في البحر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣.

(٣) البحر ٨/ ٤٥٢.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٧٤، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٣ من طريق أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. قال الحاكم: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي بقوله: اسم أبي حمزة ثابت، وهو واهٍ بمرَّة.

(٥) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٣ من طريق إسحاق بن بشر، عن مقاتل وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس. وإسحاق بن بشر هو أبو حذيفة البخاري صاحب كتاب =

وقال مقاتل: إنَّ اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

وجاء فيه أخبارٌ غيرُ ذلك، ونحن نؤمنُ به ولا يلزمنا البحثُ عن ماهيته وكيفيةِ كتابته ونحوِ ذلك. نعم نقول: إنَّ ما يزعمه بعض الناس من أنه جوهرٌ مجرَّدٌ ليس في حيِّزٍ، وأنه كالمرآة للصور العلمية، مخالفٌ لظواهر الشريعة، وليس له مستندٌ من كتابٍ ولا سنَّةٍ أصلاً.

وقرأ ابن يعمر وابن السميفع: «لُوحٍ» بضمِّ اللام[١]، وأصله في اللغة الهواء، والمراد به هنا مجازاً: ما فوق السماء السابعة.

وقرأ الأعرج وزيد بن عليٍّ وابن مُحَيْصنٍ ونافعٌ بخلافٍ عنه: «محفوظٌ» بالرفع[٢] على أنه صفةٌ لـ «قرآن»، و«في لوح» قيل: متعلقٌ به. وقيل: صفةٌ أخرى لـ «قرآن». وتعقِّب بأنَّ فيه تقديمَ الصفة المركَّبة على المفردة، وهو خلافُ الأصل.

والمعنى عليه، قيل: محفوظٌ بعد التنزيل من التغيير والتبديل والزيادة والنقص، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقيل: محفوظٌ في ذلك اللوحِ عن وصول الشياطين إليه. والله تعالى أعلم.

= المبتدأ، قال الذهبي في الميزان ١/ ١٨٤: تركوه، وكذبه علي بن المديني، وقال الدارقطني: كذاب متروك.

(١) القراءات الشاذة ص١٧١، والكشاف ٤/ ٢٤٠، والبحر ٨/ ٤٥٢.

(٢) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩ عن نافع، والكلام من البحر ٨/ ٤٥٣.

(٨٦) سورة الطارق مكيّة
وآياتها سبع عشرة

● **هذه** السورة الكريمة « سورق الطارق » من السور المكية ، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، ومحور السورة يدور حول ترسيخ الإيمان بالبعث والنشور ، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث ، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة ، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم ، ويهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، على أن كلَّ إنسان قد وُكّل به من يحرسه ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿ والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجمُ الثاقبُ . إنْ كلُّ نفسٍ لَمّا عليها حافظ ﴾ .

● **ثم ساقت** الأدلة والبراهين ، على قدرة رب العالمين ، في إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ؟ خلق من ماءٍ دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر ﴾ .

● **ثم أخبرت** عن كشف الأسرار ، وهتك الأستار عن الإنسان في الآخرة ، حيث لا معين له ولا نصير ﴿ يوم تبلى السرائر . فما له من قوةٍ ولا ناصر ﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ، معجزة

محمد الخالدة ، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين ، وبيَّنت صدق هذا القرآن ، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصَّدْع . إنه لقولٌ فصل . وما هو بالهزل . إنهم يكيدون كيداً . وأكيد كيداً . فمهّلْ الكافرين أمهلهم رويداً﴾ .

سورة الطارق

[١٠٠٨] أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝﴾[١] قال: نزلت في أبي الأشد كان يقوم على الأديم فيقول: يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا أكفيكم وحدي عشرة واكفوني انتم تسعة.

* * *

[١٠٠٨] (١) سورة الطارق: الآية (٥).

سورة الطارق

سبع عشرة آية مكية، وهي مشتملة على الترغيب في معرفة المبدأ والمعاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾

اعلم أنه تعالى أكثر في كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها - عجيبة، وأما الطارق فهو كل ما أتاك ليلاً سواء كان كوكبًا أو غيره، فلا يكون الطارق نهارًا، والدليل عليه قول المسلمين في دعائهم: (نعوذ بالله من طوارق الليل) وروي أنه عليه السلام: «نَهَى عَنْ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا» والعرب تستعمل الطروق في صفة الخيال لأن تلك الحالة إنما تحصل في الأكثر في الليل، ثم إنه تعالى لما قال: ﴿وَالطَّارِقِ﴾ كان هذا مما لايستغني سامعه عن معرفة المراد منه، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ قال سفيان بن عيينة: كل شيء في القرآن (ما أدراك) فقد أخبر الرسول به، وكل شيء فيه (ما يدريك) لم يخبر به، كقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] ثم قال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي هو طارق عظيم الشأن، رفيع القدر، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الأمطار.

وههنا مسائل:

المسألة الأولى: إنما وصف النجم بكونه ثاقبًا لوجوه: أحدها: أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه، كما قيل: درىء لأنه يدرؤه، أي يدفعه. وثانيها: أنه يطلع من المشرق نافذًا في الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء. وثالثها: أنه الذي يُرى به الشيطان فيثقبه، أي ينفذ فيه ويحرقه. ورابعها: قال الفراء: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ هو النجم المرتفع على النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعًا: قد ثقب.

المسألة الثانية: إنما وصف النجم بكونه طارقًا؛ لأنه يبدو بالليل، وقد عرفت أن ذلك يسمى طارقًا، أو لأنه يطرق الجنّي، أي يصكه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في قوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال بعضهم: أشير به إلى جماعة النجوم فقيل الطارق، كما قيل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وقال آخرون: إنه نجم بعينه. ثم قال ابن زيد: إنه الثريا. وقال الفراء: إنه زحل؛ لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات، وقال آخرون: إنه الشهب التي يُرجم بها الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

المسألة الرابعة: روي أن أبا طالب أتى النبي ﷺ، فأتحفه بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل

إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم نارًا، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟! فقال: هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله. فعجب أبو طالب، ونزلت السورة(١).

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به، أتبعه بذكر المقسم عليه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿لَّمَّا﴾ قراءتان: إحداهما: قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع والكسائي، وهي بتخفيف الميم. والثانية: قراءة عاصم وحمزة والنخعي بتشديد الميم.

قال أبو علي الفاسي: من خفف كانت (إن) عنده المخففة من الثقيلة، واللام في ﴿لَّمَّا﴾ هي التي تدخل مع هذه المخففة لتخلصها من (إن) النافية، و(ما) صلة كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وتكون ﴿إِن﴾ متلقية للقسم، كما تتلقاه مثقلة. وأما من ثقل فتكون (إن) عنده النافية، كالتي في قوله: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦] و ﴿لَّمَّا﴾ في معنى ألا، قال: وتستعمل ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى ألا في موضعين أحدهما: هذا والآخر: في باب القسم، تقول: سألتك بالله لمَّا فعلت، بمعنى ألا فعلت. وروى عن الأخفش والكسائي وأبي عبيدة أنهم قالوا: لم توجد لما بمعنى ألا في كلام العرب. قال ابن عون: قرأت عند ابن سيرين لما بالتشديد، فأنكره وقال: سبحان الله، سبحان الله!! وزعم العتبي أن (لَمَّا) بمعنى ألا، مع أن الخفيفة التي تكون بمعنى ما موجودة في لغة هذيل.

المسألة الثانية: ليس في الآية بيان أن هذا الحافظ من هو، وليس فيها أيضًا بيان أن الحافظ يحفظ النفس عماذا؟ أما الأول ففيه قولان: الأول: قول بعض المفسرين: إن ذلك الحافظ هو الله تعالى. أما في التحقيق فلأن كل وجود سوى الله ممكن، وكل ممكن فإنه لا يترجح وجوده على عدمه إلا لمرجح، وينتهي ذلك إلى الواجب لذاته، فهو سبحانه القيوم الذي بحفظه وإبقائه تبقى الموجودات، ثم إنه تعالى بيَّن هذا المعنى في السموات والأرض على العموم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وبيَّنه في هذه الآية في حق الإنسان على الخصوص، وحقيقة الكلام ترجع إلى أنه تعالى أقسم أن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود محدث محتاج مخلوق مربوب، هذا إذا حملنا النفس على مطلق الذات، أما إذا حملناها على النفس المتنفسة وهي النفس الحيوانية، أمكن أن يكون المراد من كونه تعالى حافظًا لها كونه تعالى عالمًا بأحوالها وموصلاً إليها جميع منافعها ودافعًا عنها جميع مضارها.

والقول الثاني: أن ذلك الحافظ هم الملائكة، كما قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وأما البحث الثاني: وهو أنه ما الذي يحفظه هذا الحافظ؟ ففيه وجوه: أحدها: أن هؤلاء الحفظة

---

(١) أورده الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٢٩٩) وليس له إسناد.

يكتبون عليه أعماله دقيقها وجليلها حتى تخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا. **وثانيها:** ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عملها ورزقها وأجلها، فإذا استوفى الإنسان أجله ورزقه قبضه إلى ربه، وحاصله يرجع إلى وعيد الكفار وتسلية النبي ﷺ كقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] ثم ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقونه. **وثالثها:** ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، يحفظها من المعاطب والمهالك فلا يصيبها إلا ما قدر الله عليها. **ورابعها:** قال الفراء: إن كل نفس لما عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى المقابر، وهذا قول الكلبي.

واعلم أنه تعالى لما أقسم على أن لكل نفس حافظًا يراقبها ويعد عليها أعمالها، فحينئذٍ يحق لكل أحد أن يجتهد ويسعى في تحصيل أهم المهمات، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أن أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، واتفقوا على أن معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد، فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدل على المبدأ.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الدفق: صب الماء، يقال: دفقت الماء، أي صببته، وهو مدفوق، أي مصبوب، ومندفق أي منصب، ولما كان هذا الماء مدفوقًا اختلفوا في أنه لمَ وُصف بأنه دافق على وجوه: الأول: قال الزجاج: معناه ذو اندفاق، كما يقال: دارع وفارس ونابل ولابن وتامر، أي درع وفرس ونبل ولبن وتمر. وذكر الزجاج أن هذا مذهب سيبويه. **الثاني:** أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل، قال الفراء: وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم، يجعلون المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب النعت، كقوله سرٌّ كاتم، وهَمٌّ ناصب، وليل نائم، وكقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧] أي مرضية. **الثالث:** ذكر الخليل في الكتاب المنسوب إليه: دفق الماء دفقًا ودفوقًا، إذا انصب بمرة، واندفق الكوز، إذا انصب بمرة، ويقال في الطيرة عند انصباب الكوز ونحوه: دافق خير، وفي كتاب قطرب: دفق الماء يدفق، إذا انصب. **الرابع:** صاحب الماء لما كان دافقًا أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز.

المسألة الثانية: قرئ (الصَّلب) بفتحتين، و(الصُّلُب) بضمتين، وفيه أربع لغات: صُلْب وصَلَب وصُلُب وصالب:

المسألة الثالثة: ترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة، وكل عظم من ذلك تريبة، وهذا قول جميع أهل اللغة، قال امرؤ القيس:

تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ (١)

(١) تقدمت ترجمة امرئ القيس.

المسألة الرابعة: في هذه الآية قولان: أحدهما: أن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وقال آخرون: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين الأول: أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط، وماء المرأة خارج من الترائب فقط، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف الآية الثاني: أنه تعالى بين أن الإنسان مخلوق ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج، يعني هذا الدافق من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط أجاب: القائلون بالقول الأول عن الحجة الأولى: أنه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين: أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك، وأجابوا عن الحجة الثانية: بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المني دافقًا أطلق هذا الاسم على المجموع، ثم قالوا: والذي يدل على أن الولد مخلوق من مجموع الماءين أن مني الرجل وحده صغير فلا يكفي، ولأنه روي أنه عليه السلام قال: «**إِذَا غَلَبَ مَاءُ الرَّجُلِ يَكُونُ الْوَلَدُ ذَكَرًا وَيَعُودُ شبه إِلَيْهِ وَإِلَى أَقَارِبِهِ، وَإِذَا غَلَبَ مَاءُ الْمَرْأَةِ فَإِلَيْهَا وَإِلَى أَقَارِبِهَا يَعُودُ الشَّبَهُ**»(١) وذلك يقتضي صحة القول الأول. واعلم أن الملحدين طعنوا في هذه الآية، فقالوا: إن كان المراد من قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أن المني إنما ينفصل من تلك المواضع فليس الأمر كذلك، لأنه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، فيصير مستعدًا لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه، وإن كان المراد أن معظم أجزاء المني يتولد هناك فهو ضعيف، بل معظم أجزائه إنما يتربى في الدماغ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولاً في عينيه، وإن كان المراد أن مستقر المني هناك فهو ضعيف، لأن مستقر المني هو أوعية المني، وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين، وإن كان المراد أن مخرج المني هناك فهو ضعيف، لأن الحس يدل على أنه ليس كذلك الجواب: لا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني هو الدماغ، والدماغ خليفة وهي النخاع وهو في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهو التريبة، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر، على أن كلامكم في كيفية تولد المني، وكيفية تولد الأعضاء من المني محض الوهم والظن الضعيف، وكلام الله تعالى أولى بالقبول.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحيض) باب (وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها) (١/ ٣٠) حديث رقم (٢٥٠) من طريق يزيد بن زريع... به والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (الفصل بين ماء الرجل وماء المرأة) (١/ ٢٠٠) حديث رقم (٢٠٠)، وابن ماجه في كتاب (الطهار) باب (المرأة تري في منامها ما يري الرجل) (١/ ١٩٧) حديث رقم (٦٠١) من طريق عبد الأعلى... به كلاهما (يزيد بن زريع، وعبد الأعلى) عن سعيد... به.

المسألة الخامسة: قد بينا في مواضع من هذا الكتاب أن دلالة تولد الإنسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من أظهر الدلائل، لوجوه أحدها: أن التركيبات العجيبة في بدن الإنسان أكثر، فيكون تولده عن المادة البسيطة أدل على القادر المختار وثانيها: أن اطلاع الإنسان على أحوال نفسه أكثر من اطلاعه على أحوال غيره، فلا جرم كانت هذه الدلالة أتم وثالثها: أن مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال في أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة، فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى ورابعها: وهو أن الاستدلال بهذا الباب، كما أنه يدل قطعًا على وجود الصانع المختار الحكيم، فكذلك يدل قطعًا على صحة البعث والحشر والنشر، وذلك لأن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنسانًا سويًا، وجب أن يقال: إنه بعد موته وتفرق أجزائه لا بد وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقًا سويًا، كما كان أولاً ولهذا السر لما بين تعالى دلالته على المبدأ، فرع عليه أيضًا دلالته على صحة المعاد فقال:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الضمير في أنه للخالق مع أنه لم يتقدم ذكره، والسبب فيه وجهان الأول: دلالة خلق عليه، والمعنى أن ذلك الذي خلق قادر على رجعه الثاني: أنه وإن لم يتقدم ذكره لفظًا، ولكن تقدم ذكر ما يدل عليه سبحانه، وقد تقرر في بداءة العقول أن القادر على هذه التصرفات، هو الله سبحانه وتعالى، فلما كان ذلك في غاية الظهور كان كالمذكور.

المسألة الثانية: الرجع مصدر رجعت الشيء إذا رددته، والكناية في قوله على رجعه إلى أي شيء ترجع؟ فيه وجهان أولهما: وهو الأقرب أنه راجع إلى الإنسان، والمعنى أن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء وجب أن يقدر بعد موته على رده حيًا، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وثانيهما: أن الضمير غير عائد إلى الإنسان، ثم قال مجاهد: قادر على أن يرد الماء في الإحليل، وقال عكرمة والضحاك: على أن يرد الماء في الصلب. وروي أيضًا عن الضحاك أنه قادر على رد الإنسان ماء كما كان قبل، وقال مقاتل بن حيان: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة، واعلم أن القول الأول أصح، ويشهد له قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي أنه قادر على بعثه يوم القيامة، ثم إنه سبحانه لما أقام الدليل على صحة القول بالبعث والقيامة، وصف حاله في ذلك اليوم فقال:

فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب برجعه ومن جعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه

إلى مخرجه من الصلب والترائب أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ أي ماله من قوة ذلك اليوم.

المسألة الثانية: ﴿تُبْلَى﴾ أي تختبر، والسرائر ما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفى من الأعمال، وفي كيفية الابتلاء والاختبار ههنا أقوال: الأول:ما ذكره القفال معنى الاختبار ههنا أن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه وينظر أيضًا في الصحيفة التي كتبت الملائكة فيها تفاصيل أعمالهم ليعلم أن المذكور هل هو مطابق للمكتوب، ولما كانت المحاسبة يوم القيامة واقعة على هذا الوجه جاز أن يسمى هذا المعنى ابتلاء، وهذه التسمية غير بعيدة لعباده لأنها ابتلاء وامتحان، وإن كان عالمًا بتفاصيل ما عملوه وما لم يعملوه. والوجه الثاني:أن الأفعال إنما يستحق عليها الثواب والعقاب لوجوهها، فرب فعل يكون ظاهره حسنًا وباطنه قبيحًا، وربما كان بالعكس. فاختبارها ما يعتبر بين تلك الوجوه المتعارضة من المعارضة والترجيح، حتى يظهر أن الوجه الراجح ما هو، والمرجوح ما هو. الثالث:قال أبو مسلم: بلوت يقع على إظهار الشيء ويقع على امتحانه كقوله: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥]ثم قال المفسرون: ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ التي تكون بين الله وبين العبد تختبر يوم القيامة حتى يظهر خبرها من سرها ومؤديها من مضيعها، وهذا معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر منها، فيكون زينًا في الوجوه وشينًا في الوجوه، يعني من أداها كان وجهه مشرقًا ومن ضيعها كان وجهه أغبر.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم، لأن قوة الإنسان إما أن تكون له لذاته أو مستفادة من غيره، فالأول منفي بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ والثاني منفي بقوله: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ والمعنى ماله من قوة يدفع بها عن نفسه ما حل من العذاب ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينصره في دفعه ولا شك أنه زجر وتحذير، ومعنى دخول من في قوله: ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ على وجه النفي لقليل ذلك وكثيره، كأنه قيل: ماله من شيء من القوة ولا أحد من الأنصار.

المسألة الرابعة: يمكن أن يتمسك بهذه الآية في نفي الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، الجواب: ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما فرغ من دليل التوحيد، والمعاد أقسم قسمًا آخر، أما قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ فنقول: قال الزجاج الرجع المطر لأنه يجيء ويتكرر. واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسمًا موضوعًا للمطر بل سمي رجعًا على سبيل المجاز، ولحسن هذا المجاز وجوه أحدها: قال القفال: كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته

ووصل الحروف به، فكذا المطر لكونه عائدًا مرة بعد أخرى سمي رجعًا وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض وثالثها: أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعًا ليرجع ورابعها: أن المطر يرجع في كل عام، إذا عرفت هذا فنقول للمفسرين أقوال: أحدها: قال ابن عباس: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي ذات المطر يرجع لمطر بعد مطر وثانيها: رجع السماء إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعًا، أي تعطيه مرة بعد مرة وثالثها: قال ابن زيد: هو أنها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما، والقول هو الأول، أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ فاعلم أن الصدع هو الشق ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي يتفرقون وللمفسرين أقوال قال ابن عباس: تنشق عن النبات والأشجار، وقال مجاهد: هو الجبلان بينهما شق وطريق نافذ. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ [الأنبياء: ٣١] وقال الليث: الصدع نبات الأرض، لأنه يصدع الأرض فتنصدع به، وعلى هذا سمي النبات صدعًا لأنه صادع للأرض، واعلم أنه سبحانه كما جعل، كيفية خلقة الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد، ذكر في هذا القسم كيفية خلقة النبات، فالسماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم وكلاهما من النعم العظام لأن نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء من المطر متكررًا، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك، ثم إنه تعالى أردف هذا القسم بالمقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في هذا الضمير **قولان:**

الأول: ما قال القفال وهو: أن المعنى أن ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم في اليوم الذي تبلى فيه سرائركم قول فصل وحق.

والثاني: أنه عائد إلى القرآن أي القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل: له فرقان، والأول أولى لأن عود الضمير إلى المذكور السالف أولى.

المسألة الثانية: ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي حكم ينفصل به الحق عن الباطل، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم، ويقال: هذا فصل أي قاطع للمراء والنزاع، وقال بعض المفسرين: معناه أنه جد حق لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي باللعب، والمعنى أن القرآن أنزل بالجد، ولم ينزل باللعب، ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ والمعنى أن البيان الفصل قد يذكر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه وقد يكون على غير سبيل الجد وهذا الموضع من ذلك، ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ وذلك الكيد على وجوه. منها بإلقاء الشبهات كقولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨] ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥] ومنها بالطعن فيه بكونه ساحرًا وشاعرًا ومجنونًا، ومنها بقصد قتله على ما قاله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ثم قال: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ .

واعلم أن الكيد في حق الله تعالى محمول على وجوه: أحدها: دفعه تعالى كيد الكفرة عن محمد عليه الصلاة والسلام ويقابل ذلك الكيد بنصرته وإعلاء دينه تسمية لأحد المتقابلين باسم كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال الشاعر:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[1]

وكقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] وثانيها: أن كيده تعالى بهم هو إمهاله إياهم على كفرهم حتى يأخذهم على غرة، ثم قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل، ثم إنه تعالى لما أمره بإمهالهم بين أن ذلك الإمهال المأمور به قليل، فقال: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين من الرسول عليه الصلاة والسلام والتصبر وههنا مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عبيدة: إن تكبير رويد رود، وأنشد:

يَمْشِي وَلاَ تُكَلِّمُ الْبَطْحَاءُ مِشْيَتَهُ   كَأَنَّهُ ثَمِلٌ يمشي على ورد

أي على مهلة ورفق وتؤدة، وذكر أبو علي في باب أسماء الأفعال رويدًا زيدًا يريد أرود زيدًا، ومعناه أمهله وارفق به، قال النحويون: رويد في كلام العرب على ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون اسمًا للأمر كقولك: رويد زيدًا تريد أرود زيد أي خله ودعه وأرفق به ولا تنصرف رويد في هذا الوجه لأنها غير متمكنة والثاني: أن يكون بمنزلة سائر المصادر فيضاف إلى ما بعده كما تضاف المصادر تقول: رويد زيد، كما تقول: ضرب زيد قال تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، والثالث: أن يكون نعتًا منصوبًا كقولك: ساروا سيرًا رويدًا، ويقولون أيضًا: ساروا رويدًا، يحذفون المنعوت ويقيمون رويدًا مقامه كما يفعلون بسائر النعوت المتمكنة، ومن ذلك قول العرب: ضعه رويدًا أي وضعًا رويدًا، وتقول للرجل: يعالج الشيء الشيء رويدًا، أي علاجًا رويدًا، ويجوز في هذا الوجه أمران أحدهما: أن يكون رويدًا حالاً والثاني: أن يكون نعتًا فإن أظهرت المنعوت لم يجز أن يكون للحال، والذي في الآية هو ما ذكرنا في الوجه الثالث، لأنه يجوز أن يكون نعتًا للمصدر كأنه قيل: إمهالاً رويدًا، ويجوز أن يكون للحال أي أمهلهم غير مستعجل.

المسألة الثانية: منهم من قال: أمهلهم رويدًا إلى يوم القيامة وإنما صغر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب، ومنهم من قال: أمهلهم رويدًا إلى يوم بدر والأول أولى، لأن الذي جرى يوم بدر وفي سائر الغزوات لا يعم الكل، وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل، ولا يمتنع مع ذلك أن يدخل في جملته أمر الدنيا، مما نالهم يوم بدر وغيره، وكل ذلك زجر وتحذير للقوم، وكما أنه تحذير لهم فهو ترغيب في خلاف طريقهم في الطاعات، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) هذا البيت للشاعر عمرو بن كلثوم وقد تقدمت ترجمته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة «الطارق»

مَكِّيَّةٌ، وهي سبع عشرة آية

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قَسَمان: «السماء» قَسَمٌ، و«الطارِقُ» قَسَم. والطارق: النَّجم. وقد بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. واختُلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل، الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخباراً، الله أَعْلَمُ بصحَّتها[١].

وقال ابن زيد: إنَّه الثُّريَّا. وعنه أيضاً أنَّه زُحَل[٢]. وقاله الفرَّاء[٣].

ابن عباس: هو الجَدْي[٤]. وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفرَّاء: «النجم الثاقِب»: نجمٌ في السماء السابعة، لا يسكنُها غيرُه من النجوم؛ فإذا أخَذَت النجومُ أَمْكِنَتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارقٌ حين ينزل، وطارقٌ حين يصعد[٥]. وحكى الفراء[٦]: ثَقَبَ الطائرُ: إذا ارتفع وعَلاَ.

---

(١) التعريف والإعلام ص١٨٢ ، ومحمد بن الحسن هو أبو بكر النقاش.

(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٩٠ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن علي ﷺ والفراء.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحطَّ نجم، فامتلأت الأرضُ نوراً، ففزع أبو طالب وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: «هذا نجمٌ رُميَ به، وهو آيةٌ من آيات الله» فعَجِبَ أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[1].

وروي عن ابن عباس أيضاً «والسماءِ والطارِقِ»: وما يَطْرُقُ فيها[2].

وعن ابن عباس وعطاء: «الثاقب»: الذي تُرْمَى به الشياطين[3].

قتادةُ: هو عامٌّ في سائر النجوم؛ لأنَّ طلوعها بليلٍ، وكلُّ مَن أتاك ليلاً فهو طارِقٌ[4]؛ قال:

ومِثْلِك حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرضِعًا ... فأَلْهَيْتُها عن ذِي تَمائمَ مُغْيِلِ[5]

وقال:

ألم تَرَياني كلَّما جئتُ طارقًا ... وَجَدْتُ بها طيبًا وإنْ لم تَطَيَّبِ[6]

فالطارق: النجم، اسمُ جنسٍ، سمِّي بذلك لأنه يَطْرُقُ ليلاً، ومنه الحديث: «نهى النبيُّ ﷺ أن يَطْرُقَ المسافر أهلَه ليلاً، كي تَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ، وتَمْتَشِطَ الشَّعِثة»[7].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٧٢ عن الكلبي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٤ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤١ ، والثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣ دون نسبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٧ عن الحسن البصري.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٢٨٩ بلفظ: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ قال: ظهور النجوم، يقول: تَطْرُقك ليلاً.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢ ، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة ص . قال الشارح: مَن نصب مثلك، فعلى قوله: طرقت، ومن خفضه فعلى معنى رُبَّ. والمغيل: المرضَع وأمه حبلى، أو المرضَع وأمه تُجامع.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وسلف ١٧/ ٤٨١ .

(٧) أخرجه بنحوه أحمد (١٤١٨٤)، والبخاري (١٨٠١) و(٥٢٤٣-٥٢٤٧)، ومسلم ص١٥٢٧ ، قوله: المُغيبة، هي التي غاب عنها زوجها. شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٧١ .

والعربُ تسمِّي كلَّ قاصدٍ في الليل طارقًا. يقال: طَرَقَ فلانٌ: إذا جاء بليل. وقد طَرَقَ يَطْرُقُ طُروقًا، فهو طارق. ولابن الروميِّ:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِهِ إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا
لا تَفْرَحَنَّ بليلٍ طابَ أوَّلُه فرُبَّ آخِرِ ليلٍ أجَّجَ النَّارا[(١)]

وفي «الصِّحاح»: والطارق: النجمُ الذي يقال له كوكبُ الصُّبح. ومنه قولُ هند:

نحنُ بناتُ طارقِ نمشي على النمارقِ

أي: إنَّ أبانا في الشَّرف كالنجم المضيء[(٢)].

الماوَرْديُّ: وأصلُ الطَّرْق: الدَّقُّ، ومنه سمِّيت المِطْرقة، فسمِّي قاصدُ الليلِ طارقًا؛ لاحتياجه في الوصول إلى الدَّق[(٣)].

وقال قومٌ: إنه قد يكون نهاراً. والعربُ تقول: أتيتُك اليومَ طَرْقَتين، أي: مرَّتين. ومنه قولُه ﷺ: «أعوذُ بكَ مِن شَرِّ طَوارِقِ الليلِ والنَّهار، إلَّا طارقاً يَطْرُقُ بخيرٍ يا رحمن»[(٤)]. وقال جرير في الطُّروق:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا حينَ الزيارة فارجِعي بسلامِ[(٥)]

ثم بيَّن فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ والثاقبُ: المضيءُ. ومنه: ﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠]. يقال: ثَقَبَ يَثْقُبُ ثُقُوبًا وثَقَابةً: إذا أضاء. وثُقوبُه: ضَوْءُه.

---

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، والأول منهما نسبه المرزباني في معجم معجم الشعراء ص٣٧١ لمحمد بن حازم الباهلي، ونسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٥٣ لعدي بن زيد العبادي. وهو دون نسبة في البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٢٠٢. وذكر في كتاب الحيوان ٦/ ٥٠٨ أن أبا عبد الحميد المكفوف كان يتمثل به في قصصه. وذكر البيتين دون نسبة ابن عرب شاه في فاكهة الخلفاء ص٣٩٥.

(٢) الصحاح (طرق)، والبيت في طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠، وورد ضمن حديث للزبير ﵁ في مسند البزار (٩٧٩).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٥.

(٤) سلف ١٦/ ١٦٧.

(٥) النقائض ١/ ٢٧٠، والخزانة ٥/ ٤٣١.

والعربُ تقول: أَثْقِبْ نارَك، أي: أَضِئْها. قال:

أذاعَ بـه فـي الـنـاسِ حـتـى كـأنـه بـعـلـيـاءَ نـارٌ أُوْقِـدَتْ بـثَـقُـوبِ[١]

الثَّقوب: ما تُشْعَلُ به النارُ من دِقاق العِيدان.

وقال مجاهد: الثاقب: المتوهِّج[٢].

القشيريُّ: والمُعْظَمُ على أنَّ الطارقَ والثاقبَ اسمُ جنسٍ أُرِيدَ به العُمومُ، كما ذكرنا عن مجاهد.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تفخيمًا لشأن هذا المُقْسَمِ به. وقال سفيان: كلُّ ما في القرآن: «وما أَدْراكَ»، فقد أَخْبَره به، وكلُّ شيء قال فيه: «وما يدريك»، لم يُخْبِره به[٣].

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

قال قتادةُ: حَفَظةٌ يحفظون عليكَ رِزقكَ وعملكَ وأَجَلك[٤]. وعنه أيضاً قال: قرينُه يَحْفظُ عليه عملَه من خيرٍ أو شرٍّ[٥]. وهذا هو جوابُ القَسَم. وقيل: الجوابُ: «إنَّه على رَجْعِهِ لقادِر» في قول الترمذيِّ محمد بنِ عليٍّ[٦].

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، و«ما» مؤكِّدة، أي: إنْ كلُّ نفسٍ لعليها حافظ. وقيل: المعنى: إنْ كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظ[٧]، يحفظُها من الآفات، حتى يُسْلِمها إلى

---

(١) البيت لأبي الأسود الدِّيلي، كما في الحيوان ٥/ ٦٠١، والأضداد لابن الأنباري ص٢١٤، والخزانة ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٠.

(٣) سلف ٢١/ ١٨٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٢.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٦، بلفظ: الملائكة يحفظون عليه عمله...

(٦) ذكر هذا القول السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٥٢ وقال: وفيه بعد.

(٧) وهذا القول على قراءة «لمَّا» بالتشديد، والذي قبله على القراءة بالتخفيف، حيث تكون فيه «ما» زائدة مؤكدة، كما سيرد. ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٨، والحجة للفارسي ٦/ ٣٩٧، والوسيط ٤/ ٤٦٤-٤٦٥.

القَدَر. قال الفراء[١]: الحافظُ من الله، يحفظُها حتى يُسْلِمَها إلى المقادير. وقاله الكلبيُّ.

وقال أبو أُمامةَ: قال النبيُّ ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن مئةٌ وستُّون مَلَكاً يذبُّون عنه ما لم يُقَدَّرْ عليه. من ذلك البصرُ، سبعةُ أملاكٍ يَذُبُّون عنه، كما يُذَبُّ عن قصعةِ العَسَلِ الذبابُ. ولو وُكِلَ العبدُ إلى نَفْسِه طَرْفَةَ عينٍ لاخْتَطَفتْه الشياطين»[٢].

وقراءةُ ابنِ عامرٍ وعاصم وحمزة: «لَمَّا» بتشديد الميم[٣]، أي: ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظٌ، وهي لغةُ هذيل؛ يقولُ قائلُهم: نَشَدْتُكَ لمَّا قمتَ. الباقون بالتخفيف، على أنَّها زائدةٌ مؤكِّدة، كما ذَكَرْنا. ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١] على ما تقدَّم.

وقيل: الحافظُ هو اللهُ سبحانه؛ فلولا حِفْظُه لها لم تَبْقَ.

وقيل: الحافظُ عليه عقلُه، يرشدُه إلى مصالحه، ويَكُفُّه عن مَضَارِّه[٤].

قلت: العقلُ وغيرُه وسائطُ، والحافظُ في الحقيقة هو اللهُ جلَّ وعزَّ؛ قال الله عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف:٦٥]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء:٤٢]، وما كان مثلَه.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: ابنُ آدمَ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ وجهُ الاتِّصالِ بما قَبْلَه

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ .

(٢) ذكره بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٧١١٧)، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣.

(٣) السبعة ص٦٧٨ ، والتيسير ص٢٢١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٦ .

توصيةُ الإنسان بالنظرِ في أوّلِ أمرِه وسُنَّته(١) الأُولى، حتى يعلمَ أنَّ مَن أنْشأه قادرٌ على إعادته وجزائه، فيعمل ليومِ الإعادةِ والجزاء، ولا يُمْلي على حافِظِه إلّا ما يسرُّه في عاقبةِ أمرِه.

و«مِمَّ خُلِق». استفهامٌ، أي: من أيِّ شيءٍ خُلِق؟ ثم قال: ﴿خُلِقَ﴾ وهو جوابُ الاستفهام ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: من المنيِّ. والدَّفْقُ: صبُّ الماءِ، دَفَقْتُ الماءَ أَدْفُقُه دفقًا: صَبَبته، فهو ماءٌ دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سِرٌّ كاتِم، أي: مَكْتوم. لأنَّه من قولك: دُفِق الماءُ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه. ولا يقال: دَفَقَ الماءُ. ويقال: دفَقَ الله رُوحَه: إذا دُعي عليه بالموت(٢).

قال الفرَّاء والأخفشُ: «من ماءٍ دافِقٍ» أي: مَصْبوبٍ في الرَّحِم. الزجَّاج(٣): من ماءٍ ذي انْدِفاقٍ. يقال: دارِعٌ وفارِسٌ ونابِلٌ، أي: ذو فرسٍ، ودِرعٍ، ونبلٍ. وهذا مذهبُ سيبويه(٤). فالدافقُ هو المندفقُ بشدَّة قوتِه. وأراد ماءين: ماءَ الرجلِ وماءَ المرأة؛ لأنَّ الإنسان مخلوقٌ منهما، لكِنْ جَعَلهما ماءً واحداً لامْتِزاجِهما.

وعن عكرمة عن ابن عباس: «دافِقٍ»: لَزِج.

﴿يَخْرُجُ﴾ أي: هذا الماءُ ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: الظَّهْر. وفيه لغاتٌ أربعُ: صُلْب، وصُلُب ـ وقرئ بهما(٥) ـ وصَلَب بفتح اللَّام، وصالب على وزن قالب، ومنه قولُ العباس:

تُنْقَلُ من صالبٍ إلى رَحِمٍ(٦)

(١) في (ظ): ونسبته.

(٢) الصحاح (دفق). وفي تهذيب اللغة ٩/ ٣٩ : وقال الليث: يقال: دَفَق الماء دفوقاً ودفقاً إذا انصبَّ، قال الأزهري: ولم أسمع دفقت الماء فدَفَق لغير الليث. وينظر العين ٥/ ١٢٠ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣١١ .

(٤) ينظر الكتاب ٣/ ٣٨١ .

(٥) «الصُّلْب» قراءة الجمهور، و«الصُّلُب» بضمتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن عيسى.

(٦) وعجزه: إذا مضى عالَمٌ بدا طَبَقُ، وسلف ١٤/ ٨٧ و ص١٧٥ من هذا الجزء .

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي: الصَّدْر، الواحدةُ: تَرِيْبَة؛ وهي موضعُ القِلادةِ من الصَّدر. قال:

مُـهَـفْـهـفَـةٌ بـيـضـاءُ غـيـرُ مُـفَـاضَـةٍ تَـرائـبُـهـا مَـصْـقـولـةٌ كـالـسَّـجَـنْـجَـلِ[١]

والصُّلْبُ من الرجل، والترائبُ من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضعُ القلادة. وعنه: ما بين ثَدْيَيْها. وقاله عكرمة[٢].

ورُوي عنه: يعني ترائبَ المرأة: اليدين والرجلين والعينين[٣]. وبه قال الضحَّاك[٤].

وقال سعيد بن جبير: هو الجِيْدُ.

مجاهد: هو ما بين المَنْكِبين والصَّدْرِ[٥]. وعنه: الصَّدْر. وعنه: التراقي[٦].

وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربعةُ أضلاعٍ من هذا الجانب[٧].

وحكى الزجَّاج[٨]: أنَّ الترائبَ أربعةُ أضلاعٍ من يَمنةِ الصَّدر، وأربعةُ أضلاعٍ من يَسْرةِ الصَّدر.

وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيُّ: الترائبُ: عُصارةُ القلبِ، ومنها يكونُ الولد[٩].

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٢٣ : المهفهفة: الحسنة الخَلْقِ، ولا تكون مهفهفةً حتى تكون مع حُسْن خَلْقِها ضامرةَ الخاصرة. والمفاضة: المسترخية البطن. والسجنجل: المرآة، وقيل: الفضة.

(٢) في النسخ: وقال عكرمة، والمثبت هو الصواب، وأخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/ ٢٩٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ ، وذكره ابن الجوزي ٩/ ٨٣ ، وليس فيهما: يعني ترائب المرأة. وذكره مكي عن ابن عباس، كما في روح المعاني ٣٠/ ٩٧ ، وفيه: أطراف المرء، بدل: ترائب المرأة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٤ .

(٦) ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٠ بلفظ: الترائب أربعة أضلاعٍ من كل جانب من أسفل الأضلاع.

(٨) في معاني القرآن ٥/ ٣١٢ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٦ .

والمشهورُ من كلام العرب: أنَّها عظامُ الصَّدر والنحر، قال دُريد بن الصمة:

فإنْ تُدْبِروا نأخُذْكُمُ في ظهورِكُمْ وإنْ تُقْبِلوا نَأخُذْكم في الترائبِ(١)

وقال آخر:

وبَدَتْ كأنَّ ترائباً من نحرها جَمْرُ الغَضَى في ساعدٍ تَتوقَّدُ(٢)

وقال آخر:

والزَّعْفرانُ على تَرائِبِها شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنحرُ(٣)

وعن عكرمةَ: الترائبُ الصَّدر، ثم أنشد:

نِظامُ دُرٍّ على ترائبِها(٤)

وقال ذو الرمّة:

ضَرَجْنَ البُرودَ عن ترائبِ حُرةٍ(٥)

أي: شَقَقْنَ. ويُروى «ضَرَحْنَ» بالحاء، أي: أَلْقَيْنَ(٦). وفي «الصحاح»: والتَّرِيبَةُ: واحدةُ الترائب، وهي عظامُ الصدرِ، مابين التَّرْقُوةِ والثَّنْدُوة. قال الشاعر:

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٢٨، والأصمعيات ص١١٢، وفيهما: يأخُذْنكم، بدل: نأخذكم.

(٢) لم نقف عليه. قوله: جمر الغضى، الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ. المعجم الوسيط (غضي).

(٣) البيت للمخبل، كما في اللسان (شرق)، وهو دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٣/١٤٦، وتفسير الطبري ٢٢/٥٤٦، و٢٤/٢٩٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/٤٠١، ووقع في هذه المصادر: شَرِقاً، بدل: شرق، وذكره في البحر ٨/٤٥٣ برواية: شرقت. وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/٢٤٧، واللسان (ترب).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/٣٣٦، وفيه:

نظامُ اللؤلؤِ على ترائبها شَرِقاً به اللَّبَّاتُ والنحرُ

(٥) وعجزه: وعن أعْيُنٍ قتلننا كلَّ مقتل. وهو في الديوان ٣/١٤٦٧.

(٦) الصحاح (ضرج).

أَشْرفَ ثَدياها على التَّرِيبِ[١]

وقال المثقَّبُ العَبْدِيُّ:

ومِن ذَهَبٍ يَبِينُ[٢] على تَرِيبٍ كلونِ العاجِ ليس بذي غُضونِ

عن غير الجوهريِّ.

الثُّنْدُؤةُ للرجل: بمنزلةِ الثَّدي للمرأة. وقال الأصمعيُّ: مَغْرِزُ الثَّدْي. وقال ابنُ السِّكِّيت: هي اللحمُ الذي حَوْلَ الثَّدْيِ، إذا ضَمَمْتَ أوَّلها هَمَزْتَ، وإذا فَتَحْتَ لم تَهْمِز[٣].

وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرجُ من صُلْبِه العظم والعَصَب. ومن ماء المرأة الذي يخرجُ من ترائبها اللحم والدَّم. وقاله الأعمش[٤]. وقد تقدَّم مرفوعاً في أوَّلِ سورةِ آلِ عمران[٥]. وفي «الحجرات»: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الآية: ١٣] وقد تقدَّم.

وقيل: إنَّ ماء الرجلِ ينزلُ من الدماغ، ثم يجتمعُ في الأُنْثَيين[٦]. وهذا لا يُعارِضُ قولَه: «مِن بينِ الصُّلْبِ»؛ لأنه إنْ نَزَلَ من الدِّماغ، فإنَّما يمرُّ بين الصُّلْبِ والترائب.

وقال قتادةُ: المعنى: ويخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة. وحكى الفراء[٧]

---

(١) الصحاح (ترب)، والبيت للأغلب العجلي، كما في اللسان (ترب)، وعجزه: لم يَعْدُوَا التَّفليكَ في النُّتُوب. فلَّك ثديها: استدار. والنتوب: النهود، وهو ارتفاعه. القاموس (فلك)، واللسان (ترب).

(٢) في (م) و(ز) وتفسير الطبري: يسن، ولم تجود في (د)، وسقط هذا الموضع من (ي)، والمثبت من (ظ) وروح المعاني ٣٠/ ٩٧ . والبيت في المفضليات ص٢٨٩ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٥ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٤/ ١٦ برواية: يلوح.

(٣) من قوله: الثندؤة للرجل، إلى هذا الموضع ليس في النسخ الخطية، والكلام من الصحاح (ثدأ).

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٦ .

(٥) ٥/ ١٤ .

(٦) أي: الخصيتين. القاموس (أنث).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ .

أنَّ مِثْلَ هذا يأتي عن العرب، وعليه فيكونُ معنى «من بينِ الصُّلْب»: من الصُّلْب.

وقال الحسن: المعنى: يخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ الرجلِ، ومن صُلْبِ المرأةِ وترائبِ المرأة(١).

ثم إنَّا نعلم أنَّ النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبِهُ الرجلُ والديه كثيراً. وهذه الحكمةُ في غَسْلِ جميعِ الجسدِ من خروج المني. وأيضاً المكْثِرُ من الجماع يجدُ وَجَعاً في ظَهْرِه؛ وليس ذلك إلَّا لخلوّ صُلْبِه عمَّا كان مُحْتَبِساً من الماء.

ورَوَى إسماعيلُ عن أهلِ مكة: «يخرج من بين الصُّلُب» بضمِّ اللام. ورُوِيتْ عن عيسى الثقفيِّ(٢). حكاه المهدويُّ وقال: مَن جَعَلَ المنيَّ يخرج من بين صُلْبِ الرجل وترائبه، فالضميرُ في «يَخْرجُ» للماء. ومَن جَعَلَه من بين صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة، فالضميرُ للإنسان.

وقُرِئ: «الصَّلَب»، بفتح الصَّاد واللام. وفيه أربعُ لغاتٍ: صُلْبٌ وصُلُبٌ وصَلَبٌ وصَالبٌ. قال العَجَّاج:

فـي صَلَـبٍ مِثْـلِ الـعِـنـانِ الـمُـؤْدَمِ(٣)

وفي مَدْحِ النبيِّ ﷺ:

تُـنْـقَـل مــن صَــالــبٍ إلـى رَحِــمِ(٤)

الأبياتُ مشهورةٌ معروفةٌ.

---

(١) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤١ ، وقد سلف نحو هذا الكلام ص٢٠٦ من هذا الجزء، والبيت في ديوان العجاج ص٢٨١ ، وقبله: ريَّا العظامِ فَعْمةُ المخدَّم. قال شارح الديوان: الفَعْم: الممتلئ، والمخدَّم: موضع الخِدام، وهو الخلخال. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص١٢٣ : ريَّا: ليست بمهزولةٍ تَبِينُ عظامها، وصُلْبُها مثلُ العنان نعمةً واستواءً. والعنان المؤدم: الذي لم تُقْشَر أَدَمتُه، فهو أَلينُ له. وقوله: في صَلَب، أي: مع صَلَبٍ. وفي أساس البلاغة (عنن): امرأة معنَّنة، أي: مجدولة جَدْلَ العنان.

(٤) سلف ١٤/ ٨٧ ، و ص١٧٥ و ص٢٠٦ من هذا الجزء.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنَّ الله جلَّ ثناؤه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي: على ردِّ الماءِ في الإحليل، ﴿لَقَادِرٌ﴾ كذا قال مجاهدٌ والضحاك[١]. وعنهما أيضاً أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الماءِ في الصُّلْب. وقاله عكرمة[٢].

وعن الضحَّاك أيضاً: أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الإنسان ماءً كما كان لقادر[٣]. وعنه أيضاً أنَّ المعنى: إنه على ردِّ الإنسانِ من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر؛ كذا في المهدويِّ. وفي الماورديِّ والثعلبيِّ: إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة[٤].

وقال ابن زيد: إنه على حَبْسِ ذلك الماءِ حتى لا يخرج، لقادر[٥].

وقال ابن عباس وقتادةُ والحسن وعكرمةُ أيضاً: إنه على ردِّ الإنسانِ بعد الموتِ لقادر[٦]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٧]. الثعلبيُّ: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

قال الماورديُّ[٨]: ويحتمل: إنه على أنْ يُعِيدَه إلى الدنيا بعد بَعْثِه في الآخرة؛ لأنَّ الكفار يَسألون الله تعالى فيها الرَّجْعةَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥، والطبري ٢٤/ ٢٩٧ عن مجاهد.

(٢) الوسيط ٤/ ٤٦٥ عن عكرمة والضحاك، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٨.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، ومثله في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٠، وزاد المسير ٩/ ٨٤.

(٥) زاد المسير ٩/ ٨٤، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٩٩.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٩-٣٠٠ عن قتادة.

(٧) في التفسير ٢٤/ ٣٠٠.

(٨) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٧.

الأولى: العاملُ في «يومَ» ـ في قولِ مَن جَعَلَ المعنى: إنَّه على بعثِ الإنسان ـ قولُه «لقادر»، ولا يَعْملُ فيه «رَجْعِه»؛ لـمَا فيه من التَّفْرِقةِ بين الصِّلةِ والموصولِ بخبرِ «إنَّ» [1].

وعلى الأقوال الأُخَر التي في «إنه على رجْعِه لقادِر»، يكونُ العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ، ولا يعملُ فيه «القادر»؛ لأنَّ المراد: في الدنيا. و﴿تُبْلَى﴾ أي: تُمتَحَنُ وتُختَبَر؛ قال أبو الغُول الطُّهَوِيُّ:

ولا تُبْلَى بَسالَتُهُمْ وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحَرْب حِيناً بعدَ حِينِ [2]

ويروى: «تَبْلَى بَسالتُهم»، فَمَن رواه «تُبلى» ـ بضم التاء ـ جَعَلَه من الاختبار، وتكون البسالةُ على هذه الرواية: الكراهةَ، كأنه قال: لا يُعْرفُ لهم فيها كراهةٌ. و«تُبْلى»: تُعْرَف. قال الراجز:

قد كنتَ قبلَ اليومِ تَزْدَريني ... فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِيني [3]

أي: أَعْرِفُكَ وتَعْرِفُني. ومَن رواه: تَبْلَى ـ بفتح التاء ـ فالمعنى: أنهم لا يَضْعُفون عن الحرب وإنْ تَكَرَّرتْ عليهم زمانًا بعدَ زمانٍ. وذلك أنَّ الأمورَ الشِّدادَ إذا تَكَرَّرتْ على الإنسان هَدَّتْه وأَضْعفَتْه.

وقيل: «تُبْلَى السرائر»، أي: تخرج مخبَّآتُها وتَظْهَر، وهو كلُّ ما كان استسرَّه

---

(١) وأجاز بعض العلماء أن يكون العامل فيه «رجعه»، مثل الطبري ٢٤/ ٢٠٠، والزمخشري ٤/ ٢٤١. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦: قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خبر إنَّ بينه وبين معموله، وقال الحذّاق: العامل فعل مضمر تقديره: فرَجْعُه يومَ تبلى السرائر.

(٢) أمالي القالي ١/ ٢٦٠، والصحاح (صلي)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٣٩، والخزانة ٦/ ٤٣٣. قال البكري في سمط اللآلي ١/ ٥٨٠: أي: لا يختبر ما عندهم من النجدة والبأس وإن طال أمد الحرب. اهـ. وأبو الغول قال عنه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٤٥: هو من قوم من بني طهية يقال لهم: بنو عبد شمس بن أبي سود، وكان يكنى أبا البلاد، وقيل له: أبو الغول؛ لأنه فيم زعم رأى غولاً فقتلها. وقال البغدادي في الخزانة ٦/ ٤٤٠: لم أقف على كونه إسلاميًّا أو جاهليًّا.

(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٤٢٠.

الإنسانُ من خيرٍ أو شرٍّ، وأَضْمرَه من إيمانٍ أو كفر، كما قال الأَحْوَصُ:

سيَبْقَى لها[1] في مُضْمَرِ القلبِ والحَشَا سريرةُ وُدٍّ يومَ تُبْلَى السَّرائرُ

الثانية: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ائتَمنَ الله تعالى خَلْقَه على أربعٍ: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسْلِ، وهي السرائرُ التي يَخْتَبِرُها الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة»[2]. ذَكَره المَهْدَويُّ.

وقال ابنُ عمرَ: قال النبيُّ ﷺ: «ثلاثٌ مَن حافَظَ عليها فهو وليُّ الله حقًّا، ومَن اختانَهنَّ فهو عدوُّ الله حقًّا: الصلاةُ، والصَّوْمُ، والغُسْلُ من الجنابة»[3] ذَكَره الثعلبيُّ.

وذكر الماوَرْدِيُّ عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمانةُ ثلاثٌ: الصلاةُ، والصومُ، والجنابةُ. استَأْمَنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصلاة، فإنْ شاء قال: صلَّيْتُ، ولم يُصَلِّ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصوم، فإن شاء قال: صُمْتُ، ولم يَصُمْ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الجنابة، فإن شاء قال: اغْتَسَلْتُ، ولم يَغْتَسِلْ، اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[4]»، وذكره الثعلبيُّ عن عطاء قوله[5].

وقال مالكٌ في روايةِ أَشْهبَ عنه، وسأَلْتُه عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أَبَلَغكَ أنَّ الوضوءَ مِن السَّرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقولُ الناسُ، فأمَّا حديثٌ أُحدِّثُ به فلا[6]. والصَّلاةُ من السرائر، والصِّيامُ من السرائر، إنْ شاء قال: صلَّيتُ، ولم يُصَلِّ. ومِن السرائرِ ما في القلوب، يجزي اللهُ به العبادَ.

---

(١) في (ظ): سيبلى لكم، وهو موافق لما في الشعر والشعراء ١/ ٥١٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الديوان ص٨٤ ، والخزانة ٢/ ١٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٧٥١)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٦ من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٥٦) من حديث أنس ﷺ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٩٣ : فيه عدي بن الفضل وهو ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٨ ، وسلف بنحوه ١٧/ ٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠٠ .

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ (والكلام منه): فأما حديث أخذته فلا.

قال ابن العربي: قال ابن مسعود: يُغفر للشهيدِ إلَّا الأمانةَ، والوضوءُ من الأمانة، والصلاةُ والزكاةُ من الأمانة، والوديعةُ من الأمانة، وأشدُّ ذلك الوديعةُ؛ تُمَثَّلُ له على هيئتها يومَ أَخَذَها، فيُرْمَى بها في قَعْرِ جهنَّم، فيقال له: أَخْرِجْها، فَيَتْبَعُها فيجعلها في عُنُقِه، فإذا رَجَا أن يخرج بها زَلَّتْ منه، فيتبعُها، فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أُبيُّ بن كعب: من الأمانةِ أنِ ائتُمنتِ المرأةُ على فَرْجِها[١].

قال أشهبُ: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت: لم أَحِضْ وأنا حامِلٌ صُدِّقتْ، ما لم تأتِ بما يُعْرَفُ فيه أنَّها كاذبةٌ. وفي الحديث: «غُسْلُ الجنابةِ من الأمانة»[٢].

وقال ابن عمرَ: يُبدي اللهُ يومَ القيامةِ كلَّ سرٍّ خفيٍّ، فيكونُ زيناً في الوجوه، وشَيْناً في الوجوه[٣]. واللهُ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكنْ يظهر[٤] علامات الملائكةِ والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ أي: منعةٍ تَمنعُه ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ ينصرُه ممَّا نزل به. وعن عِكرمةَ «فما له مِن قوةٍ لا ناصِرٍ» قال: هؤلاء الملوكُ، مالهم يومَ القيامةِ من قوةٍ ولا ناصرٍ. وقال سفيان: القوّة: العَشِيرة. والناصر: الحلِيف[٥].

وقيل: «فماله من قوةٍ» في بدنه، و«لا ناصِرٍ» من غيره يمتنعُ به من الله. وهو معنى قولِ قتادة[٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٠٦ . وقول أبيٍّ ﷺ سلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٠٦ ، وقوله: غسل الجنابة. . . ، أخرجه بنحوه أبو داود (٤٢٩) من حديث أبي الدرداء ﷺ موقوفاً، وسلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٣) الوسيط ٤/٤٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٤ .

(٤) في (ظ): تظهر.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠١-٣٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/٢٤٨ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٣٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: ذاتِ المطر. تَرجعُ كلَّ سنةٍ بمطرٍ بعدَ مطرٍ. كذا قال عامَّةُ المفسِّرين. وقال أهلُ اللغةِ: الرَّجْعُ: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصفُ سيفاً شبَّهه بالماء:

أبـيـضُ كـالـرَّجْـعِ رَسُـوبٌ إذا ... ما ثـاخ فـي مُـحْـتَـفَـلٍ يَـخْـتَـلـي[1]

قال الخليلُ: الرَّجْعُ: المطر نَفْسُه، والرَّجْعُ أيضاً: نباتُ الربيع[2]. وقيل: «ذاتِ الرَّجْعِ»، أي: ذاتِ النَّفْع[3].

وقد يُسمَّى المطرُ أيضاً أَوْبا، كما يسمَّى رَجْعاً، قال:

رَبَّـاءُ شَـمَّـاءَ لا يـأوِي لِـقُـلَّـتِـهـا ... إلَّا الـسَّـحـابُ وإلَّا الأَوْبُ والـسَّـبَـلُ[4]

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمسُ والقمرُ والنجومُ يَرْجِعْنَ في السماء، تَطْلعُ من ناحيةٍ وتَغيبُ في أخرى[5].

وقيل: ذاتِ الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد.

---

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٢، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣٠٢، والصحاح (رجع) و(ثوخ). قال شارح ديوان الهذليين: المحتفل: مُعْظَم الشيء، محتفل الوادي: معظمه، وثاخ وساخ واحد، أي: غاب. يختلي: يقطع. والرسوب: الذي إذا وقع غَمُضَ مكانه لسرعة قَطْعِه. اهـ. وقال الجوهري: ثاخت قدمه بالوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه.

(٢) العين ١/ ٢٢٧.

(٣) الصحاح (رجع).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤١، والبيت للمتنخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٣٧ ضمن قصيدة يرثي فيها الشاعر ابنه. قوله: ربَّاء، هو صيغة مبالغة، من ربأت الجبل: إذا صعدته، فيكون رباءُ شمَّاءَ، كقولهم: طلَّاعُ أَنْجُدٍ، وهو مضاف إلى شماء، والمعنى: ربَّاءُ هضبةٍ شماءَ. وقوله: لايدنو لقلَّتها، أي: لرأسها، أي: لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب، والسَّبَل: المطر النازل. ينظر الخزانة ٥/ ٣-٦.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٠٤.

وهذا قَسَمٌ. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قَسَمٌ آخَرُ، أي: تتصدَّعُ عن النباتِ والشَّجرِ والثِّمارِ والأَنْهارِ، نظيرُه: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ الآيةَ [عبس: ٢٦]. والصَّدْعُ: بمعنى الشَّقِّ؛ لأنَّه يَصْدَعُ الأرضَ، فتنصَدِعُ به. وكأنه قال: والأرضِ ذاتِ النباتِ؛ لأنَّ النباتَ صادِعٌ للأرض[١].

وقال مجاهدٌ: والأرضِ ذاتِ الطُّرُقِ التي تَصْدَعُها المُشَاةُ. وقيل: ذاتِ الحَرْثِ؛ لأنه يَصْدَعُها. وقيل: ذاتِ الأمواتِ؛ لانْصِداعِها عنهم للنشور[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَم. أي: إنَّ القرآن يَفْصِلُ بينَ الحقِّ والباطل. وقد تقدَّم في مقدمة الكتاب[٣] ما رواه الحارثُ عن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتاب اللهِ فيه خَبَرُ ما قَبْلَكم وحُكْمُ ما بَعْدَكم، هو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، مَن تَرَكَه من جَبَّارٍ قَصَمَه الله، ومَن ابْتَغَى الهُدَى في غيره أَضَلَّه الله».

وقيل: المرادُ بالقول الفَصْلِ: ما تقدَّم من الوعيدِ في هذه السورةِ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: ليس القرآنُ بالباطِلِ واللَّعِب. والهَزْلُ: ضدُّ الجِدِّ، وقد هَزَلَ يَهْزِلُ. قال الكُميت:

يُجَدُّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِلُ[٥]

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ أعداءَ الله ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكُرون بمحمدٍ ﷺ وأصحابِه

---

(١) أخرج هذا القول عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥، والطبري ٢٤/ ٣٠٤ عن ابن عباس قال: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قال: ذات النبات.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٩.

(٣) ١/ ١٠-١١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٩.

(٥) وصدره: أرانا على حبِّ الحياة وطولها، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٤٨. قال ابن زيد الأسدي الشارح: يقول: نحب أن تطول حياتنا، ونحن كلَّ يوم نقرب إلى آجالنا.

مَكْراً. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أُجازيهم جزاءَ كَيْدِهم. وقيل: هو ما أَوْقَع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر.

وقيل: كَيْدُ اللهِ: استِدْراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أوّلِ «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [الآية: ١٥] مُسْتَوفًى.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أَخِّرهم، ولا تَسْأَلِ اللهَ تعجيلَ إهلاكِهم، وارْضَ بما يُدبِّره في أمورهم. ثم نُسِخَتْ بآيةِ السيفِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥][(١)].

﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيدٌ. ومَهَّل وأَمْهَلَ: بمعنىً، مثل: نَزَّل وأَنْزل. وأَمْهَلَه: أَنْظَرَه، ومهَّله تمهيلاً، والاسمُ: المُهْلَة. والاسْتِمهالُ: الاستنظار. وتَمهَّلَ في أمره، أي: اتَّأَدَ. واتْمَهَلَ اتْمِهْلالاً، أي: اعْتَدَلَ وانْتَصبَ. والاتْمِهلالُ أيضاً: سكونٌ وفتور[(٢)]. ويقال: مهلاً يافلانُ، أي: رِفْقاً وسكوناً[(٣)].

﴿رُوَيْدًۢا﴾ أي: قريباً، عن ابن عباس. قتادة: قليلاً[(٤)]، والتقدير: أَمْهِلْهم إمهالاً قليلاً. والرُّوَيْد في كلام العرب: تصغيرُ رُوْد. وكذا قال أبو عبيد[(٥)]، وأنشد:

كأنَّها ثَمِلٌ يمشي على رُودِ[(٦)]

(١) الوسيط ٤/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٧ ، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٥١ ، قال ابن الجوزي: وإذا قلنا: إنه وعيد، فلا نسخ.

(٢) الصحاح (مهل).

(٣) تهذيب اللغة ٦/ ٣٢١ .

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٠٧-٣٠٨ .

(٥) في (د): عبيدة.

(٦) الصحاح (رود)، وصدره: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها، والبيت للجَموح الظَّفَري، كما في اللسان (رود)، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (رويد) برواية: خطوتها، بدل: وطأتها. وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٣ برواية: كأنها مِثْلُ مَن يمشي على رُودِ.

أي: على مَهَل. وتفسيرُ «رُوَيداً»: مَهْلاً، وتفسيرُ رُوَيْدَكَ: أَمْهِلْ؛ لأنَّ الكافَ إنَّما تَدْخُله إذا كان بمعنى أَفْعِلْ دون غيرِه[١]، وإنَّما حرِّكت الدالُ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، فنُصِبَ نَصْبَ المصادرِ، وهو مصغَّرٌ مأمورٌ به؛ لأنه تصغيرُ التَّرْخيمِ من إرواد، وهو مصدرُ أَرْوَدَ يُرْوِد[٢]. وله أربعةُ أَوْجُهٍ: اسمٌ للفعل، وصفةٌ، وحالٌ، ومصدرٌ. فالاسمُ نحوُ قولِكَ: رُوَيْدَ عَمْراً، أي: أَرْوِدْ عمراً، بمعنى أَمْهِلْه. والصفةُ نحوُ قولِكَ: ساروا سَيْراً رُوَيْداً، والحالُ نحوُ قولك: سار القومُ رُوَيْدًا، لمَّا اتَّصلَ بالمعرفة صار حالاً لها. والمصدرُ نحو قولك: رُوَيْدَ عَمرٍو بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. قال جميعَهُ الجوهريُّ[٣].

والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتًا للمصدر، أي: إمهالاً رُوَيداً. ويجوزُ أن يكون للحال، أي: أَمْهِلْهم غيرَ مستعجِلٍ لهم العذابَ. خُتِمَتِ السورة.

---

(١) وتقول رويدَكَ عمراً، أي: أَمْهِلْه وهذه الكاف للخطاب لا موضعَ لها من الإعراب لأنها ليست بِاسْمٍ، ورويد غير مضاف إليها. وهو متعدٍّ إلى عمرو؛ لأنه اسم سمِّي به الفعل يعمل عمل الأفعال. الصحاح (رود).

(٢) وتقول: أَرْوِدْه إرواداً، بمعنى: أَمْهِلْه إمهالاً، ثم صغَّروا الإرواد تصغير الترخيم، ثم نقلوه وسمَّوْا به فِعْلَه فقالوا: رويدَ عمراً. وتصغير الترخيم: هو أن تصغر الاسم على حذف الزوائد التي فيه، كقولك في حارث: حريث، وفي سرحوب: سُرَيْحِب؛ لأن الواو فيه زائدة. ينظر المقتضب ٢/ ٢٩٣، وأوضح المسالك ص٥٤٧-٥٤٨.

(٣) في الصحاح (رود).

سُورَةُ الطَّارِقِ

مَكيَّةٌ، وآيُها سبعَ عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾: والكوكبِ البادِي بالليلِ، وهـو فـي الأصلِ لسالكِ الطَّريقِ، واختَصَّ عُرفًا بالآتي ليلًا، ثمَّ استُعملَ للبَادِي فيه[1].

(٢ ـ ٣) ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: المضيءُ؛ كأنَّه يثقُبُ الظَّلامَ بضَوئِهِ فيَنفُذُ فيه، أو[2] الأفلاكَ[3]، والمرادُ الجنسُ، أو معهودٌ بالثَّقْبِ، وهو زُحَلُ، عبَّرَ عنه أوَّلًا بوصفٍ عامٍّ، ثمَّ فسَّرَه بما يخصُّهُ تفخيمًا لشأنِه.

(٤) ـ ﴿إنْ كلُّ نفسٍ لَمَا عليهَا﴾؛ أي: إنَّ الشَّأنَ كلُّ نفسٍ لَعَلَيْها ﴿حَافِظٌ﴾: رقيبٌ، فـ﴿إن﴾ هي المخفَّفَةُ، واللامُ الفاصلةُ، و(ما) مزيدةٌ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزَةُ: ﴿لَّمَّا﴾[4] على أنَّها بمَعنى: إلا، و﴿إن﴾ نافيَةٌ.

والجملةُ على الوجهينِ جوابُ القَسَمِ.

---

(١) قوله: «للبادي»، أي: للكوكب البادي. قاله الشهاب.

(٢) قوله: « الأفلاك» معطوفٌ على «الظلام»، قاله الشهاب.

(٣) قوله: «أو الأفلاك» معطوفٌ على «الظلام»، قاله الشهاب.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٨)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٥) ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لَمَّـا ذكـرَ أنَّ كُلَّ نفـسٍ عليها حافـظٌ، أتبعَهُ توصيةَ الإنسـانِ بالنَّظـرِ في مَبدئِـهِ ليعلمَ صحَّـةَ إعادَتِه، فلا يُملـي على حافظِهِ إلا ما يَسُـرُّهُ فـي عاقبَتِه.

(٦) ـ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ جوابُ الاستفهامِ، و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى: ذي دَفْقٍ، وهو صَبٌّ فيه دفعٌ، والمرادُ: الممتزجُ مِن الماءينِ في الرَّحِمِ؛ لقولِه:

(٧) ـ ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: مِـن بيـنِ صُلْـبِ الرَّجُـلِ وترائـبِ المرأةِ وهي عظـامُ صدرِها.

ولو صحَّ أنَّ النُّطفةَ تتولَّدُ مِن فضلِ الهضمِ الرَّابعِ، وتنفَصِلُ عَن جميعِ الأعضاءِ حتَّى تَستعدَّ لأنْ يتولَّدَ منها مثلَ تلك الأَعضاءِ، ومقرُّهَا عروقٌ مُلتَفٌّ بَعضُها بالبعضِ عند البيضتَيْنِ= فالدِّماغُ[1] أعظَمُ الأعضاءِ معونةً في تَوليدِها ولذلك تُشْبهُهُ، ويُسرِّعُ الإفراطُ في الجماعِ بالضَّعفِ فيه[2]، وله خليفةٌ وهي النُّخاعُ، وهو في الصُّلبِ، وشعبٌ كثيرةٌ نازِلَةٌ إلى التَّرائبِ، وهما أقرَبُ إلى أوعيَةِ المنيِّ، فلذلك خُصَّا بالذِّكرِ.

وقُـرِئَ: (الصَّلَـبِ) بفَتْحَتيـنِ، و(الصُّلُـبِ) بضَمَّتيـنِ[3]، وفيه لغـةٌ رابعةٌ وهي: صالِبٌ.

(٨) ـ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ والضَّميرُ للخالقِ ويدلُّ عليه ﴿خُلِقَ﴾.

(٩) ـ ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: يُتَعرَّفُ ويُميَّزُ بين ما طابَ مِن الضَّمائرِ وما خَفِيَ مِن الأعمالِ وما خبُثَ مِنها، وهو ظرفٌ لـ﴿رَجْعِهِۦ﴾.

---

(١) قولـه: «فالدمـاغ» جـواب (لـو)، وفـي نسـخة: «فـلا شـك أن الدمـاغ». انظـر: «حاشـية الأنصاري» (٥/ ٤٨٨).

(٢) «بالضعف فيه»؛ أي: في الدماغ.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧١) الأولى عن اليماني، والثانية عن عيسى.

(١٠) ـ ﴿فَمَا لَهُۥ﴾: فما للإنسانِ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾: مِن مَنَعةٍ في نَفسِه يمتنعُ بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنَعُه.

(١١) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: تَرجِعُ(١) في كلِّ دورةٍ إلى الموضعِ الذي تتحرَّكُ عنه.

وقيل: الرَّجْعُ: المطرُ، سُمِّيَ به كما سُمِّيَ أَوْبًا؛ لأنَّ اللهَ يُرجِعُهُ وَقْتًا فوَقْتًا، أو لِمَا قيلَ مِن أنَّ السَّحابَ يحملُ الماءَ مِن البِحارِ ثمَّ يُرجِعُهُ إلى الأرضِ، وعلى هذا يجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ بالسَّماءِ السَّحابَ.

(١٢) ـ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾: ما تتصدَّعُ عنه الأرضُ مِن النَّباتِ، أو: الشَّقِّ بالنَّباتِ والعُيونِ.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ القُرآنَ ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ فاصلٌ بينَ الحقِّ والباطلِ ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ فإنَّه جِدٌّ كلُّهُ.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ في إبطالِه وإطفاءِ نُورِه ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾: وأقابِلُهُم بكيدي في استِدراجِي لهم وانتقامي مِنْهُم بحيثُ لا يَحتَسِبُون.

(١٧) ـ ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فلا تشتَغِلْ بالانتقامِ مِنْهُم، أو: لا تَسْتعجِلْ بإهلاكِهِم ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾: إمهالًا يسيرًا، والتَّكريرُ وتَغييرُ البِنيةِ لزِيادَةِ التَّسكينِ.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورَةَ الطَّارِقِ أعطَاهُ اللهُ بعددِ كلِّ نجمٍ في السَّماءِ عشرَ حَسَناتٍ»(٢).

---

(١) بالبناء للفاعل أو المفعول؛ كما قال الشهاب.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ١٩٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٦٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٨٦) سورة الطارق مكية وآياتها سبع عشرة

روى النسائي عن جابر بن عبدالله قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها ونحوها؟»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

يقسم تبارك وتعالى بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾، ثم قال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، ثم فسَّره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾. قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». وقوله تعالى: ﴿الثاقب﴾ قال ابن عباس: المضيء، وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان، وقوله تعالى: ﴿إن كل نفس لمَّا عليها حافظ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقوله تعالى: ﴿خلق من ماء دافق﴾ يعني المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو (صدرها)، وقال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما، وعنه قال: هذه

---

(١) أخرجه النسائي.

الترائب ووضع يده على صدره، وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر، وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي، وقال الثوري: فوق الثديين، وقال قتادة: ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ من بين صلبه ونحره، وقوله تعالى: ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ فيه قولان: (**أحدهما**): على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما. (**الثاني**): إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، قال الضحاك واختاره ابن جرير، ولهذا قال تعالى: ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، وقوله تعالى: ﴿ فما له ﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿ من قوة ﴾ أي في نفسه، ﴿ ولا ناصر ﴾ أي من خارج منه، أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس: الرجع المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات[1]، وقوله تعالى: ﴿ إنه لقول فصل ﴾ قال ابن عباس: حق، وقال غيره: حكم عدل، ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي بل هو جد حق، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به، ويصدون عن سبيله فقال: ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون بالناس، في دعوتهم إلى خلاف القرآن، ثم قال تعالى: ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ أي قليلاً وسترى ماذا أحل بهم، من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك كما قال تعالى: ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾.

[آخر تفسير سورة الطارق ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهو قول ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.

تفسير سورة الطارق

وهى مكية .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن محمد ــ قال : عبد الله وسمعته أنا منه ــ حدثنا مروان بن معاوية الفزارى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفى ، عن عبد الرحمن ابن خالد بن أبى جَبَل [١] العُدْوانى ، عن أبيه : أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مُشرّق ثَقيف وهو قائم على قوس ــ أو : عصا ــ حين أتاهم يبتغى عندهم النصر ، فسمعته يقول : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ، حتى ختمها ــ قال : فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها فى الإسلام ــ قال : فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت [٢] من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه [٣] .

وقال النسائى : حدثنا عمرو بن منصور ، حدثنا أبو نعيم ، عن مسْعَر ، عن محارب بن دِثَار ، عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ (١٠) ﴾ .

يقسم [٥] تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ .

قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار . ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا [٦] ، أى : يأتيهم فجأة بالليل . وفى

---

(١) فى أ : « جهل » .

(٢) فى م : « ما سمعت » .

(٣) المسند (٤/ ٣٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٦) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يخرجه أحد وبقية رجاله ثقات » .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦٤) .

(٥) فى أ : « أقسم » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٣) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

الحديث الآخر المشتمل على الدعاء : « إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن » (١) .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ : قال ابن عباس : المضيء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ،كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الرعد:١١] .

وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ : تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خُلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] .

وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفْقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل(٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها .

قال شبيب بن بشر ، عن عكْرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وعكرمة ،وقتادة والسُّدِّى ،وغيرهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مِسْعَر : سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال: هذه الترائب. ووضع يده على صدره.

وقال الضحاك وعطية ، عن ابن عباس : تَرِيبة المرأة موضُع القلاَدة . وكذا قال عكرمة ،وسعيد ابن جُبَير . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها .

وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقى .

وقال سفيان الثورى : فوق الثديين . وعن سعيد بن جُبَير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل .

وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين .

وقال الليث بن سعد عن مَعْمَر بن أبى حبيبة (٣) المدنى : أنه بلغه فى قول الله عز وجل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصارة القلب ، من هناك يكون الولد .

وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ، فيه قولان :

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ،

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٤١٩) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « بإذن الله تعالى » .　　　(٣) فى أ : « حبة » .

وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ،عز وجل ،هذا الدليل في القرآن فى غير ما موضع،وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أى : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال :« يرفع لكل غادر لواء عند استه [١] ، يقال : هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان » [٢].

وقوله : ﴿ **فَمَا لَهُ** ﴾ أى : الإنسان يوم القيامة ﴿ **مِن قُوَّةٍ** ﴾ أى : فى نفسه ﴿ **وَلا نَاصِرٍ** ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)** ﴾.

قال ابن عباس : الرجع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** ﴾ : تمطر ثم تمطر.

وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم .

وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا .

﴿ **وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ﴾ : قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمة ،وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ** ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .

وقال آخر : حكم عدل .

﴿ **وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا** ﴾ أى: يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .

ثم قال : ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ** ﴾ أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ **أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : ﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ [لقمان: ٢٤] .

آخر تفسير سورة « الطارق » ولله الحمد [٣]

---

(١) فى أ : « عند رأسه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥) .

(٣) فى أ : « والله أعلم » .

سورة الطارق

مكّيّة، وهي سبع وعشرون[1] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ الطارق في الأصل اسم فاعل مِن طَرَق طَرْقًا وطروقًا إذا جاء ليلًا، قال الماوَردي: «وأصل الطرق الدقّ، ومنه سُمّيت المِطرَقة، وإنّما سُمّي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه إلى طَرْق الباب غالبًا»،[2] ثمّ اتُّسع في كلّ ما ظهَر بالليل كائنًا ما كان، ثمّ أُشبع في التوسّع حتّى أُطلِق على الصوَر الخياليّة الباديةِ بالليل، قال:

طَـرَق الـخيـالُ ولا كليلة مُـدلِـجٍ   سَـدِكًـا بـأرحلنـا ولـم يـتـعـرَّجِ[3]

والمراد ههنا الكوكبُ البادي بالليل، إمّا على أنّه اسم جنس أو كوكب معهود. وقيل: الطارق: النجم الذي يقال له: كوكبُ الصبح.[4]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، وتنبيهٌ على أنّ رِفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق، فلا بدّ مِن تلقّيها مِن الخلّاق العليم، فـ﴿مَا﴾ الأولى مبتدأ و﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبرٌ، والثانية خبرٌ و﴿ٱلطَّارِقُ﴾ مبتدأ، حسبما بيّن في نظائره، أي: وأيُّ شيء أعلمك ما الطارق؟

---

١ س: سبع عشرة. | وهو الصحيح، وما في م سهو.

٢ النكت والعيون للماوردي، ٢٤٥/٦؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٦٠/٢٠.

٣ البيت للحارث بن حِلِّزة في ديوانه، ص ١٠٧؛ وهو له في المفضّليّات للضّبّي، ص ١٢٥٥؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٢٩٨.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠؛ ونقله عن الصحاح للجوهري، «طرق».

[٢٨٩و] وقوله تعالى: / ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة استئنافٌ وقع جوابًا عن استفهام نشأ عمّا قبله، كأنّه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم المضيء في الغاية، كأنّه يثقب الظلام أو الأفلاكَ بضوئه وينفذ فيها، والمراد به إمّا الجنس -فإنّ لكلّ كوكبٍ ضوءًا ثاقبًا لا محالةَ- وإمّا كوكب معهود.

قيل: هو زُحَل.[١] وقيل: هو الثُّريّا.[٢] وقيل: هو الجَدْي.[٣] وقيل: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيرُه، فإذا أخذت النجوم أمكنتها مِن السماء هَبَط فكان معها، ثمّ يرجع إلى مكانه مِن السماء السابعة، وهو زُحَل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد.[٤]

وفي إيراده عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره، ثمّ الإشارةِ إلى أنّ ذلك الوصف غيرُ كاشف عن كُنه أمره وأنّ ذلك ممّا لا يبلغه أفكار الخلائق، ثمّ تفسيرِه بـ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، مِن تفخيم شأنه وإجلال محلّه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جواب للقسم وما بينهما اعتراض جيء به لِما ذُكر مِن تأكيد فخامة المقسَم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسَم عليها، و﴿إِن﴾ نافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى "إلّا"، أي: ما كلّ نفس إلّا عليها حافظ مُهيمِن رقيب وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب، ٥٢/٣٣]. وقيل: هو مَن يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب مِن خير وشرّ،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا﴾ الآية [الانفطار، ١٠/٨٢-١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام، ٦١/٦]، وقولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ [الرعد، ١١/١٣].

---

١ مرويّ عن محمّد بن الحسين في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٣/٨.

٢ مرويّ عن ابن زيد في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٣/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٤ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٥١/٤.

وقُرئ: "لَمَا"[١] مخفَّفة على أنّ "إنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، و"اللام" هي الفارقة و"ما" مزيدة، أي: إنّ الشأن كلُّ نفس لَعَلَيْها حافظٌ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ للتنبيه على أنّ ما بُيِّن مِن أنّ كلّ نفس عليها حافظ يحصي عليها كلَّ ما يصدر عنها مِن قول وفعل، مستوجبٌ على الإنسان أن يتفكّر في مبدأ فطرته حقَّ التفكّر، حتّى يتّضح له أنّ مَن قدر على إنشائه مِن موادَّ لم تشَمَّ رائحة الحياة قطّ فهو قادر على إعادته؛ بل أقدرُ على قياس العقل، فيعملَ ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويُجديه ولا يملي على حافظه / ما يُرديه. [٢٨٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ استئناف وقع جوابًا عن استفهام مقدَّر كأنّه قيل: مِمّ خُلق؟ فقيل: خُلق مِن ماء ذي دَفْق: وهو صبٌّ فيه دَفْع وسيَلان بسرعة، والمراد به الممتزِج مِن الماءين في الرَّحِم، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي: صُلب الرجل وترائب المرأة: وهي عِظام صدرها.

قالوا: إنّ النطفة تتولّد مِن فضل الهضم الرابع، وينفصل عن جميع الأعضاء حتّى يستعدّ لأنْ يتولّد منها مِثلُ تلك الأعضاء، ومقرّها عروق ملتفٌّ بعضُها بالبعض عند البيضتين، فالدماغُ أعظم الأعضاء معونةً في توليدها، ولذلك يُشْبِهُه ويُورث الإفراطُ في الجماع الضعفَ فيه، وله خليفة هي النُّخاع وهو في الصُّلب وشُعَب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقربُ إلى أوعية المَنيّ، فلذلك خُصّا بالذِّكر.[٢]

وقُرئ: "الصَّلَبِ"[٣] بفتحتين، و"الصُّلُبِ"[٤] بضمّتين، وفيه لغة رابعة هي "صالب".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩١، ٣٩٩.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٢٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للخالق تعالى، فإنّ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ﴾ يدلّ عليه، أي: إنّ ذلك الذي خَلَقه ابتداءً ممّا ذُكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي:[1] إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾ لَبيّنُ القدرة.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: يُتعرَّف ويُتصفَّح ما أُسرَّ في القلوب مِن العقائد والنيّات وغيرها، وما أُخفيَ مِن الأعمال ويُميَّزُ بين ما طاب منها وخبُث. وهو ظرف لـ﴿رَجْعِهِۦ﴾.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: المطرِ، سُمّي رَجْعًا لِما أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء مِن بحار الأرض ثمّ يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليَرجع، ولذلك سمَّوه أَوْبًا، أو لأنّ الله تعالى يرجعه حينًا فحينًا.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما يتصدَّع عنه الأرض مِن النبات، أو مصدر
[٢٩٠و] مِن المبنيّ / للمفعول وهو تَشَقُّقها بالنبات لا بالعيون كما قيل، فإنّ وَصْف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقّيّة القرآن الناطق بالبعث بما ذُكر مِن الوصفين للإيماء إلى أنّهما في أنفسهما مِن شواهده، وهو السرّ في التعبير عنه[2] وعن المطر بالرَّجْع، وذلك في تشقُّق الأرض بالنبات المُحاكي للنشور، حسبما ذُكر في مواقعَ مِن التنزيل، لا في تشقُّقها بالعيون.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي مِن جملته ما تُلي مِن الآيات الناطقة بمَبدأ حال الإنسان ومَعاده ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: فاصل بين الحقّ والباطل مبالغ في ذلك كأنّه نفس الفَصْل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ ليس في شيء منه شائبةُ هَزْل، بل كلّه جِدّ مَحضٌ لا هَوَادَة فيه، فمِن حقّه أن يهتدي به الغُواة وتخضع له رِقابُ العُتاة.

---

[1] س + على.

[2] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾. «منه».

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿يَكِيدُونَ﴾ في إبطال أمره وإطفاء نوره ﴿كَيْدًا﴾ حسبما يفي به قدرتهم.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أقابلهم بكيد متينٍ لا يمكن ردُّه حيث أستدرجهم مِن حيث لا يعلمون.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تَدْعُ عليهم بالهلاك، أو لا تستعجل به. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ الإخبار بتولّيه تعالى لكيدهم بالذات ممّا يوجب إمهالَهم وتركَ التصدّي لمُكايدتهم قطعًا. وقوله تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدل مِن ﴿مَهِّلِ﴾. وقوله تعالى: ﴿رُوَيْدًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لمعنى العامل، أو نعت لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالًا رُوَيدًا، أي: قريبًا، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما،[1] أو قليلًا كما قاله قتادةُ.[2] قال أبو عبيدةَ:[3] هو في الأصل تصغير "رُودٍ" بالضمّ، وأنشدَ:

كأنّها ثَمِل تمشي على رُودِ[4]

أي على مَهَل. وقيل: تصغير "إِرْوَادٍ" مصدرِ "أَرْوَد" بالترخيم، وله في الاستعمال وجهان آخران: كونه اسمَ فعل نحو "رُوَيدَ زيدًا"، وكونه حالًا نحو "سار القوم رُوَيدًا"، أي: متمهِّلين.[5]

وفي إيراد البدل بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييدِه بـ﴿رُوَيْدًا﴾ على أحد الوجهين المذكورين مِن تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم / وتسكين قلبه ما لا يخفى. [٢٩٠ظ]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٠٧/٢٤-٣٠٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٠٨/٢٤.

٣ ليس الكلام في مجاز القرآن. والظاهر أنّه أبو عبيد، كما في مطبوع تفسير القرطبي، ١٢/٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٢٧٠/٢٠.

٤ م: رُودِ. | وهو سهو؛ لأنّه عجز بيت، أولّه:
تكاد لا تثلِم البطحاءَ وطأتُها
والبيت للهُذلي في أساس البلاغة للزمخشري، «رود»؛ وللجموح الظُفري في لسان العرب لابن منظور، «رود»؛ وعجزه بلا عزو في الصحاح للجوهري، «رود»؛ وتفسير القرطبي، ١٢/٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٢٧٠/٢٠.

٥ الكلام بلفظ قريب في الغريبين للهروي، ٧٩٠/٣، وليس فيه الشِّعر المذكور؛ وهو عن أبي عُبيد مع الشِّعر في تفسير القرطبي، ١٢/٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٢٧٠/٢٠. ولفظ المصنِّف هنا أقرب إلى عبارة اللباب.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كلّ نجم في السماء عشر حسنات».[١]

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩/١٩٦ (الطارق، ١/٨٦)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٤٦٤ (الطارق، ١/٨٦)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٥٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٨٦

سورة الطارق

مكية، سبعَ عشْرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والسَّماءِ والطَّارِقِ﴾، أصلُه كُلُّ آتٍ ليلاً، ومنه النجوم لطُلوعها ليلاً ـ ٢ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمَك: ﴿ما الطَّارِقُ﴾؟ مُبتدأ وخبر، في محلّ المفعول الثاني لـ «أدرى». وما بعدَ «ما» الأُولى: خبرها، وفيه تعظيم لشأن الطارق المُفسَّر بما بعده. ٣ ـ هو ﴿النَّجمُ﴾ أي: الثُّريّا أو كُلّ نجم ﴿الثاقِبُ﴾: المضيء لثَقبه الظلامَ بضوئه ـ وجوابُ القسم: ٤ ـ ﴿إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا علَيها حافِظٌ﴾، بتخفيف «ما» فهي مزيدة، وإنْ: مُخفّفة من الثقيلة واسمها محذوف، أي: إنّه، واللام: فارقة، وبتشديدها فإنْ: نافية، ولمّا: بمعنى إلّا.

سورة الطارق

قولُهُ: (أَصلُهُ) أو هو في الأصلِ لسالِكِ الطَّريقِ، واختصَّ عُرفاً بالآتي ليلاً، ثمَّ استُعمِلَ في البادي فيه.

قولُهُ: (فِيهِ تَعظِيمٌ) حيثُ عبَّرَ عنه أوَّلاً بوصفٍ عامٍّ، ثمَّ فسَّرهُ بما يخصُّهُ.

قولُهُ: (أي: الثُّرَيَّا) أو زُحَلُ.

قولُهُ: (لثَقْبِهِ) أي: كأنَّهُ يثقُبُهُ فينفُذُ فيه.

قولُهُ: (أي: إنَّهُ) أي: إنَّ الشَّأنَ.

قولُهُ: (وبتَشدِيدِهَا) شاميٌّ وعاصِمٌ وحمزَةُ[1].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٨).

والحافظ: من الملائكة يحفظ عملها من خير وشرّ.

٥ ـ ﴿فلْيَنظُرِ الإنسانُ﴾ نظرَ اعتبار: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾: من أيِّ شيء؟ جوابه: ٦ ـ ﴿خُلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ﴾: ذي اندفاق من الرجل والمرأة في رحمها، ٧ ـ ﴿يَخرُجُ مِن بَينِ الصُّلْبِ﴾ للرجل ﴿والتَّرائبِ﴾للمرأة، وهي عِظام الصدر. ٨ ـ ﴿إنَّهُ﴾ تعالى ﴿علَى رَجعِهِ﴾: بعثِ الإنسان بعد موته ﴿لَقادِرٌ﴾ ـ فإذا اعتَبر أصلَه عَلِمَ أنّ القادر على ذلك قادر على بعثه ـ ٩ ـ ﴿يَومَ تُبلَى﴾: تُختبرُ وتُكشف ﴿السَّرائرُ﴾: ضمائر القُلوب في العقائد والنيّات، ١٠ ـ ﴿فما لَهُ﴾: لِمُنكرِ البعث ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يمتنع بها عن العذاب ﴿ولا ناصِرٍ﴾ يدفعه عنه.

١١ ـ ﴿والسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾: المطرِ لعوده كُلَّ حين، ١٢ ـ ﴿والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾: الشقّ عن النبات،...

قولُهُ: (منَ المَلائِكَةِ) وذكَرَ في «الكشاف»[1]: عن النَّبيِّ ﷺ: «وُكِّلَ بالمؤمنِ مائةٌ وستُّونَ مَلَكاً يذُبُّونَ عنهَ كما يُذَبُّ عن قصعَةِ العسَلِ الذُّبابُ، ولو وُكِلَ العبدُ إلى نفسِهِ طرفَةَ عَينٍ لاختطَفَتْهُ الشَّياطِينُ»[2]، وقيل: الحافظُ هو الرَّقيبُ عليها، وهو الله تعالى.

قولُهُ: (نَظَرَ اعتِبَارٍ) إلى مبدئِهِ لئلَّا ينسى نفسَهُ ويقيسَ عليهِ صحَّةَ إعادتِهِ، ويُملي على حافِظهِ ما يسُرُّهُ في عاقبتِهِ.

قولُهُ: (ذِي اندِفَاقٍ) والدَّفقُ: صبٌّ فيه دَفعٌ.

قولُهُ: (منَ الرَّجُلِ) يعني: المرادُ: الممتَزِجُ من الماءَينِ في الرَّحِمِ.

قولُهُ: (في رَحمِها) مُتعلِّقٌ باندِفاق.

قولُهُ: (وتُكْشَف) ويُمَيَّزُ بين ما طابَ من الضَّمائرِ وما خفيَ من الأعمالِ وما خَبُثَ منها.

قولُهُ: (لمُنْكِرِ البَعثِ) أو للإنسانِ.

قولُهُ: (يَمتَنِعُ) أي: من مَنعَةٍ في نفسِهِ.

قولُهُ: (يَدفَعُهُ) ويمنَعُهُ.

قولُهُ: (كُلَّ حِينٍ) أي: وَقتاً فوَقتًا.

قولُهُ: (عَنِ النَّبَاتِ) أو عن العُيونِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٦٧) (٧٧٠٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٩): فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف.

١٣ ـ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يَفصِل بين الحقّ والباطل، ١٤ ـ ﴿وما هُوَ بِالْهَزْلِ﴾: باللعب والباطل.

١٥ ـ ﴿إِنَّهُم﴾ أي: الكُفّارَ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: يَعملون المَكايدَ للنبيّ ﷺ ١٦ ـ ﴿وأَكِيدُ كَيْدًا﴾: أستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون. ١٧ ـ ﴿فمَهِّلِ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿الكافِرِينَ أمهِلْهُم﴾: تأكيدٌ، حسَّنه مُخالفة اللفظ أي: أنظِرْهم ﴿رُوَيدًا﴾: قليلاً. وهو مصدرٌ مُؤكِّد لمعنى العامل، مُصغَّر رُودٍ، أو إرْوادٍ على الترخيم. وقد أخذهم الله ـ تعالى ـ ببدر. ونُسخ الإمهال بآية السيف بالأمر بالجهاد والقتال.

قولُهُ: (يَفصِلُ) أي: فاصِل، أو مُبالغَةٌ؛ كرجُلٍ عَدلٍ.

قولُهُ: (باللَّعِبِ والبَاطِلِ) فإنَّهُ جِدٌّ وحَقٌّ كلُّه.

قولُهُ: (للنَّبيِّ) أي: في إبطالِهِ وإطفاءِ نورِهِ.

قولُهُ: (يَا مُحَمَّدُ) أي: لا تستَعجِل بإهلاكِهِم أيُّها النبيُّ.

قولُهُ: (حَسَّنَهُ) أي: رَقَّاهُ من مرتبَةِ الجَوازِ إلى مرتبَةِ الحُسنِ، أو زادَ في حسنِهِ؛ إذ لا قُبحَ في التَّأكيدِ باللَّفظِ الموافقِ، كما سَيأتي في: ﴿لِإِيلافِ﴾.

قولُهُ: (قَلِيلاً) أي: إمهالاً يَسيراً، والتَّكريرُ وتغييرُ البُنيَةِ لزيادَةِ التَّسكينِ.

قولُهُ: (عَلى التَّرخِيمِ) مُتعلِّقٌ بالأخيرِ؛ أي: على حَذفِ الزَّوائدِ.

قولُهُ: (ونُسِخَ الإِمهَالُ) فيه أنَّ الإمهالَ المقيَّدَ بالقَليلِ ليسَ فيه نسخٌ، واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكيةٌ بلا خلافٍ، وهي سَبْعَ عَشْرَةَ آيةً على المشهور، وفي «التيسير»: ستَّ عشرة.

ولَمَّا ذكر سبحانه فيما قبلها تكذيبَ الكفار للقرآن نبَّه تعالى شأنه هنا على حقارة الإنسان، ثم استطرد جلَّ وعلا منه إلى وصف القرآن، ثم أمر سبحانه نبيَّه ﷺ بإمهال أولئك المكذِّبين، فقال عز قائلاً:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ هي المعروفةُ على ما عليه الجمهور. وقيل: المطر هنا، وهو أحد استعمالاتها ومنه قوله:

إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا[1]

ولا يَخْفَى حاله.

﴿وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ وهو في الأصل اسمُ فاعلٍ من الطَّرْقِ بمعنى الضَّرْبِ بوَقْعٍ وشدةٍ يُسمع لها صوتٌ، ومنه المِطْرَقةُ، والطريق لأنَّ السابلة تَطْرُقُها، ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق؛ لتصوُّرِ أنه يطرقها بقدمه، واشتهر فيه حتى صار حقيقةً، ثم اختصَّ بالآتي ليلاً؛ لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقةً فيطرقها، ثم اتَّسع في كلِّ ما يظهر بالليل كائناً ما كان حتى الصور الخيالية البادية فيه، والعربُ تصفها بالطُّروق كما في قوله:

(١) سلف عند تفسير الآية (٥٢) من سورة هود.

طَرَقَ الخيالُ ولا كليلةِ مُدْلجٍ سَدِكاً بأرْحُلنا ولم يتعرَّجِ[1]

والمراد به هاهنا عند الجمهور: الكوكبُ البادي بالليل، إمَّا على أنه اسمُ جنسٍ، أو كوكبٌ معهود كما ستَعْلَمه إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ تنويهٌ بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام، وتنبيهٌ على أن رِفْعةَ قَدْرِه بحيث لا ينالُها إدراك الخلق، فلا بدَّ من تلقِّيها من الخلَّاق العليم، فـ «ما» الأولى مبتدأ و«أدراك» خبرُه، و«ما» الثانية خبر، و«الطارق» مبتدأ على ما اختاره بعضُ المحقِّقين، أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما الطارق؟

وقوله سبحانه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ والجملةُ استئنافٌ وقع جواباً عن استفهام نشأ عما قبلُ، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم.. إلخ.

و«الثاقب» في الأصل: الخارق، ثم صار بمعنى المضيء لتصوُّرِ أنه يثقبُ الظلامَ، وقد يُخصُّ بالنجوم والشهب لذلك وتَصَوُّرِ أنها ينفذ ضوؤُها في الأفلاك ونحوها.

وقال الفرَّاء: «الثاقب»: المرتفع، يقال: ثَقَبَ الطائر، أي: ارتفع وعلا[2].

والمراد بالنجم الثاقب الجنسُ عند الحسن؛ فإنَّ لكلِّ كوكبٍ ضوءاً ثاقباً لا محالة، وكذا كلُّ كوكبٍ مرتفعٍ، ولا يضرُّ التفاوتُ في ذلك.

وذهب غير واحدٍ إلى أنَّ المراد به معهودٌ، فعن ابن عباس أنه الجدي. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه الثريَّا[3]، وهو الذي تطلِقُ العرب عليه اسم النجم. وروي عنه أيضاً أنه زُحَلُ، وهو أبعد السيارات وأرفعُها، وما يثقبه ضوؤه من الأفلاك أكثرُ فيما يزعم المنجِّمون المتقدِّمون، وإنما قلنا: أبعد السيارات، لأنَّ الجدي والثريا عندهم أبعدُ منه بكثيرٍ، وكذا عند المحدَثين.

---

(١) البيت للحارث بن حِلِّزة اليَشْكري كما في المفضليات ص٢٥٥، وأمالي القالي ١/ ٢٠٥، واللآلي ١/ ٤٩٠، وفيه: المدلج: الذي أسرى الليل كلَّه. ولم يتعرَّج: لم يأخذ يمنة ولا يسرة. اهـ. وجاء في حاشية (م): سدكاً بفتح فكسر، أي: مولعاً. اهـ منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٠.

وعن الفرَّاء أنه القمر؛ لأنه آيةُ الليل وأشدُّ الكواكب ضوءاً فيه، وهو زمانُ سلطانه. وأنت تعلم أنَّ إطلاق النجم عليه ولو موصوفاً غيرُ شائع.

وقيل: هو النجم الذي يقال له: كوكب الصبح.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أنه نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيرُه، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، فهو طارقٌ حين ينزل وطارقٌ حين يصعد(١).

ولا يخفى أنَّ المعروف أنَّ الذي يسكن السماء السابعة ـ أعني الفلكَ السابعَ وحده ـ هو زُحَلُ، فيكون ذلك قولاً بأنَّ «النجم الثاقب» هو، لكنْ لا يُعرف له نزولٌ ولا صعودٌ بالمعنى المتبادر، وأيضاً لا يُعقل له نزولٌ إلى حيث تكون النجوم ـ أعني الثوابت ـ لأنَّ المعروف عندهم أنها في الفلك الثامن، ويجوز عقلاً أن يكون بعضها في أفلاكٍ فوق ذلك، بل نصَّ المحدَثون لِما قام عندهم على تفاوُتها في الارتفاع، ولم يشكُّوا في أنَّ كثيراً منها أبعدُ من زحل بعداً عظيماً، وإذا اعتبرت الظواهر وقلنا بأنها في السماء الدنيا وإن تفاوتت في الارتفاع، فذلك أيضاً مِمَّا يأباه أنَّ النجوم قد تأخذ أمكنتها من السماء وليس معها زحل، وبالجملة ما يعكِّر على هذا الخبر كثيرٌ، وكونُه كرم الله تعالى وجهه أراد كوكباً آخر هذا شأنُه لا يخفى حالُه، والذي يقتضيه الإنصافُ وتَرْكُ التعصُّبِ أنَّ الخبر مكذوبٌ على الأمير ﷺ وكرم وجهه.

وجوِّز على إرادة الجنس أن يراد به جنسُ الشهب التي يُرْجَم بها، وليس بذاك، وما روي أنَّ أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ فانحطَّ نجمٌ فامتلأ ما ثَمَّ نوراً، ففزع أبو طالب فقال: أيُّ شيء هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «هذا نجمٌ رُمي به، وهو آيةٌ من آيات الله تعالى» فعجب أبو طالبٍ، فنزلت(٢) = لا يقتضي ذلك على ما لا يَخْفَى.

---

(١) ذكره عن علي ﷺ القرطبي ٢٢/ ٢٠١، وأبو حيان ٨/ ٤٥٤، وعنه نقل المصنف. وذكره الثعلبي في تفسيره ١٠/ ١٧٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٨١، والقرطبي ٢٢/ ٢٠١ عن ابن عباس ﷺ.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٧٢ عن الكلبي، وهو دون نسبة في تفسير الثعلبي ١٠/ ١٧٧، وأسباب النزول للواحدي ص٤٨٤، والكشاف ٤/ ٢٤١.

وزعم ابنُ عطيَّةَ أنَّ المراد بالطارق جميعُ ما يطرقُ من الأمور والمخلوقات[1]، فيعمُّ النجمَ الثاقب وغيره، ويكون معنى «وما أدراك» إلخ: وما أدراك[2] ما الطارق حقَّ الطارق، بأن تكون «أل» في «ما الطارق» مثلَها في: أنت الرجل. وما أدري ما الطارقُ على هذا الرجل حتى ركب هذا الطريقَ الوَعْرَ في التفسير.

وفي إيراد ذلك عند الإقسام به بوصفٍ مشترك بينه وبين غيره، ثم الإشارة إلى أنَّ ذلك الوصفَ غيرُ كاشفٍ عن كُنْهِ أمره، وأنَّ ذلك مِمَّا لا يبلغه أفكار الخلائق، ثم تفسيره بالنجم الثاقب = من تفخيم شأنه وإجلال محلِّه ما لا يَخْفَى على ذي نظرٍ ثاقبٍ، ولإرادةِ ذلك لم يقل ابتداءً: والنجم الثاقب، مع أنه أَخْصَرُ وأظهرُ؛ ولله عز وجل أن يفخِّم شأنَ ما شاء مِن خَلْقِه لِما شاء.

ولا دلالةَ فيه هاهنا على شيءٍ مما يزعمه المنجمون في أمر النجوم زُحَلَ وغيره من التأثير في سعادةٍ أو شقاوةٍ أو نحوِهما.

وجواب القسم قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ وما بينهما اعتراضٌ جيء به لِما ذُكر من تأكيدِ فخامة المقسَم به المستتبع لتأكيدِ مضمون الجملة المقسَم عليها.

وقيل: جوابه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الآية: ٨] وما في البين اعتراضٌ. وهو كما ترى.

و«إنْ» نافية، و«لَمَّا» بمعنى إلا، ومجيئها كذلك لغةٌ مشهورةٌ ـ كما نقل أبو حيان عن الأخفش ـ في هذيل وغيرهم؛ يقولون: أقسمتُ عليك أو سألتُك لَمَّا فعلْتَ كذا، يريدون: إلا فعلتَ[3]. وبهذا ردٌّ على الجوهريِّ المنكِرِ لذلك[4].

وقال الرضيُّ: لا تجيءُ إلا بعد نفيٍ ظاهرٍ أو مقدَّرٍ، ولا تكون إلا في المفرَّغ، أي: بخلافِ «إلا».

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٤.
(٢) قوله: إلخ وما أدراك، ساقط من (م).
(٣) البحر ٨/ ٤٥٤.
(٤) ذكره عن الجوهري الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٤٦.

و«كل» لتأكيد العموم؛ لتحقُّق أصله من وقوع النكرة في سياق النفي، وهو مبتدأ، والخبرُ على المشهور «حافظ»، و«عليها» متعلِّقٌ به، وعلى ما سمعتَ عن الرضي محذوفٌ، أي: ما كلُّ نفسٍ كائنةٌ في حالٍ من الأحوال إلا في حالِ أنْ يكون عليها حافظ، أي: مهيمنٌ ورقيب، وهو الله عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقلْ خلوتُ ولكنْ قل عليَّ رقيبُ

وقيل: هو مَن يحفظ عملها من الملائكة عليهم السلام، ويحصي عليها ما تكسبُ من خيرٍ أو شرٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ الآية [الانفطار: ١٠-١١] وروي ذلك عن ابن سيرين وقتادةَ وغيرهما، وخصَّصوا النفس بالمكلَّفة.

وقيل: هو مَن وُكِّلَ على حفظها والذبِّ عنها من الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وعن أبي أُمامة عن النبيِّ ﷺ قال: «وكِّلَ بالمؤمن مئةٌ وستُّونَ مَلَكاً يذبُّون عنه كما يُذَبُّ عن قصعة العسل الذبابُ، ولو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفةَ عينٍ لاختطفته الشياطين»(١).

وقيل: هو العقلُ يُرْشِدُ المرءَ إلى مصالحه، ويكفُّه عن مَضارِّه.

وقرأ الأكثر: «لَمَا» بالتخفيف(٢)، فعند الكوفيين «إنْ» نافيةٌ كما سبق، واللام بمعنى «إلا»، و«ما» زائدة، وصرَّحوا هنا بأنَّ «كل» و«حافظ» مبتدأ وخبر، فلا تغفل.

وعند البصريين «إنْ» مخفَّفة من الثقيلة، و«كل» مبتدأ، و«ما» زائدة، واللامُ هي الداخلة للفرق بين «إنْ» النافية و«إن» المخفَّفة، و«حافظ» خبر المبتدأ، و«عليها»

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣.

(٢) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٢٩١، وقرأ بالتشديد ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر.

متعلِّقٌ به. وقدِّر لـ «إنْ» ضميرُ الشأن، وتعقِّب بأنه لا حاجة إليه؛ لأنه في غير المفتوحة ضعيفٌ لعدم العمل، مع أنه مخلٌّ بإدخال اللام الفارقة؛ لأنه إذا كان الخبر جملةً فالأولى إدخالُ اللام على الجزء الأول كما صرَّح به في «التسهيل»(١)، وإدخالُها على الجزء الثاني كما صرح به بعض الأفاضل في حواشيه عليه. ولعل مَن قال: أي: إن الشأن كلُّ نفسٍ لعليها حافظ، لم يُرِدْ تقديرَ الضمير، وإنما أراد بيانَ حاصل المعنى.

وحكى هارون أنه قرئ: «إنَّ» بالتشديد، و«كلَّ» بالنصب، و«لمَا» بالتخفيف، فاللامُ هي الداخلة في خبر «إنَّ» و«ما» زائدة(٢).

وعلى جميع القراءات أمرُ الجوابية ظاهرٌ لوجود ما يتلقَّى به القسم، وتلقِّيه بالمشدَّدة مشهورٌ، وبالمخفَّفة ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦] وبالنافية ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ متفرِّعٌ على ما قبله وليست الفاء بفصيحةٍ ـ خلافاً للطيبي ـ إذ لا يُحتاج إلى حذفٍ في استقامة الكلام:

أما على تقديرِ أن يكون الحافظ هو الله عز وجل أو المَلَكُ الذي وكَّله تعالى شأنُه للحفظ على الوجه الذي سمعتَ، فلأنَّه لَمَّا أثبت سبحانه أنَّ عليه رقيباً منه تعالى حثَّه على النظر المعرِّف لذلك مع أوصافه، كأنه قيل: فليَعْرِفِ المهيمنَ عليه بنصبه الرقيبَ أو بنفسه، ولْيَعلمْ رجوعَه إليه تعالى، ولْيَفعَلْ ما يُسَرُّ به حال الرجوع، وعبَّر عن الأول بقوله تعالى: (فَلْيَنظُرِ) ليبيِّن طريق المعرفة، فهو بسطٌ فيه إيجازٌ وأُدمج فيه الأخيران.

وأمَّا على تقدير أن يكون المراد به العقلَ، فلأنه لَمَّا أثبت سبحانه أنَّ له عقلاً يرشد إلى المصالح، ويكفُّ عن المضارِّ، حثَّه على استعماله فيما ينفعه، وعدم تعطيله وإلغائه، كأنه قيل: فلينظر بعقله وليتفكَّر به في مبدأ خَلْقِه حتى يتَّضح له قدرةُ

(١) ص٦٣.
(٢) البحر ٨/ ٤٥٤.

واهبه، وأنه إذا قدر على إنشائه من موادَّ لم تَشُمَّ رائحةَ الحياة قطُّ، فهو سبحانه على إعادته أَقْدَرُ وأقدرُ، فيعمل بما يُسَرُّ به حين الإعادة. وقد يقرَّرُ التفريعُ على جميع الأوجُه بنحوٍ واحدٍ، فتأمل.

و«ممَّ خُلِقَ» استفهامٌ، و«من» متعلِّقةٌ بـ «خُلق»، والجملةُ في موضع نصب بـ «ينظر»، وهي معلَّقةٌ بالاستفهام.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن استفهامٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: ممَّ خُلِق؟ فقيل «خُلق من ماء» إلخ، وظاهرُ كلام بعض الأجلة أنه جوابُ الاستفهام المذكور مع تعلُّقِ الجارِّ بـ «ينظر»، وفيه مسامحةٌ، وكأن المراد أنه على صورة الجواب، وجَعْلُه جواباً له حقيقة على أنه مقطوعٌ عن «ينظر» ليس بشيء عند مَن له نظر.

والدَّفْقُ: صبٌّ فيه دفعٌ وسَيَلانٌ بسرعة، وأريد بـ «الماء الدافق»: المنيُّ. و«دافق» قيل: بمعنى مدفوق على تأويل اسم الفاعل بالمفعول، وقد قرأ بذلك زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما[1].

وقال الخليل وسيبويه[2]: هو على النسب كلابِنٍ وتامرٍ، أي: ذي دَفْقٍ، وهو صادقٌ على الفاعل والمفعول.

وقيل: هو اسم فاعلٍ، وإسناده إلى الماء مجازٌ، وأسند إليه ما لصاحبه مبالغةً، أو هو استعارةٌ مَكنيةٌ وتخييليةٌ كما ذهب إليه السكاكي[3]، أو مصرِّحةٌ بجَعْلِه دافقاً؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق، أي: يدفع بعضُه بعضاً.

وقد فسَّر ابن عطية الدفق بالدفع فقال: الدفقُ دفعُ الماء بعضه ببعض، يقال: تدفَّق الوادي والسيل: إذا جاء يركب بعضُه بعضاً، ويصحُّ أن يكون الماء دافقاً؛ لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافق ومنه مدفوق[4].

---

(١) البحر ٨/ ٤٥٥.

(٢) كما في البحر ٨/ ٤٥٥، وينظر الكتاب ٣/ ٣٨١.

(٣) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ الدَّفْقَ بمعنى الدفع غيرُ محفوظٍ في اللغة؛ بل المحفوظُ أنه الصبُّ[(١)].

ونُقِلَ عن الليث أنَّ دَفَقَ بمعنى انْصَبَّ بمرَّةٍ، فـ «دافق» بمعنى منصبٌّ، فلا حاجة إلى التأويل. وتعقِّب بأنه مِمَّا تفرَّد به الليث كما في «القاموس»[(٢)] وغيره.

وقيل: «من ماء» ـ مع أنَّ الإنسان لا يُخْلَقُ إلَّا من ماءين: ماءِ الرجل وماءِ المرأة، ولذا كان خَلْقُ عيسى عليه السلام خارقاً للعادة ـ لأنَّ المراد به الممتزجُ من الماءين في الرحم، وبالامتزاج صارا ماءً واحداً. ووَصْفُه بالدفق؛ قيل: باعتبار أحد جزئيه وهو منيُّ الرجل. وقيل: باعتبار كليهما، ومنيُّ المرأة دافقٌ أيضاً إلى الرَّحم.

ويشير إلى إرادةِ الممتزج ـ على ما قيل ـ قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: من بين أجزاء صُلْبِ كلِّ رجلٍ، أي: ظهرِه ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ أي: ومن بين ترائب كلِّ امرأةٍ، أي: عظام صدرها، جمع تَرِيْبَة. وفسِّرت أيضاً بموضع القلادة من الصدر، وروي عن ابن عباس، وهو لكلِّ امرأةٍ واحدٌ إلا أنه يجمعُ كما في قول امرئ القيس:

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ... ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

باعتبارِ ما حوله على ما في «البحر»[(٣)].

وجاء في المفرد تَرِيْبٌ كما في قول المثقَّب العبدي:

ومن ذهبٍ يَبِيْنُ على تَرِيْبٍ ... كلَوْنِ العاجِ ليس بذي غُضونِ[(٤)]

---

(١) البحر ٨/ ٤٥٥.

(٢) مادة (دفق).

(٣) ٨/ ٤٥٣، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٥. المهفهفة: الحسَنَة الخَلْق، ولا تكون مهفهفةً حتى تكون مع حُسْن خَلْقِها ضامرة الخاصرة. والمفاضة: المسترخية البطن. والسجنجل: المرآة، وقيل: الفضة. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٢٣.

(٤) المفضليات ص٢٨٩، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٥، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٤/ ١٦، والبحر ٨/ ٤٥٣، وجاء في المصادر عدا البحر: يلوح، بدل: يبين.

وحملُ الآية على ما ذكر مرويٌّ عن سفيان وقتادةَ، إلا أنهما قالا: أي: يخرج من بين صُلْبِ الرجل وترائبِ المرأة. وظاهرُه كالآية أنَّ أحد الطرفين للبينية الصُّلبُ، والآخَر الترائبُ، وهو غيرُ ما قلناه، وعليه قيل: هو كقولك: يخرج من بين زيد وعمرو خيرٌ كثيرٌ، على معنى أنهما سببان فيه. وقيل: إنَّ ذلك باعتبارِ أنَّ الرجل والمرأة يصيران كالشيء الواحد، فكأنَّ الصلب والترائب لشخصٍ واحدٍ، فلا تَغْفَلْ.

ثم إنَّ ما تقدَّم مبنيٌّ إما على أنَّ الترائب مخصوصةٌ بالمرأة كما هو ظاهرُ كلام غيرِ واحدٍ، وإما على حَمْلِ تعريفها على العهد. وقال الحسن ـ وروي عن قتادة أيضاً ـ: إنَّ المعنى: يخرج من بين صلب كلِّ واحدٍ من الرجل والمرأة، وترائبِ كلٍّ منهما. ولم يفسِّر الترائب؛ فقيل: عظام الصدر. وقيل: ما بين الثديين. وقيل: ما بين المنكبين والصدر. وقيل: التراقي. وقيل: أربع أضلاعٍ من يَمْنةِ الصدر، وأربعٌ من يَسْرَتِه. وعن ابن جبير: الأضلاع التي هي أسفلُ الصلب. وحَكَى مكِّي عن ابن عباس[١] أنها أطرافُ المرء: رجلاه ويداه وعيناه. والأشهر أنها عظامُ الصدر وموضعُ القِلَادةِ منه.

وطَعَنَ في ذلك ـ على ما قال الإمام[٢] ـ بعضُ الملاحدة خَذَلَهم الله تعالى بأنَّ المنيَّ إنما يتولَّد من فضلة الهضم الرابع[٣]، وينفصل من جميع أجزاء البدن، فيأخذ من كلِّ عضوٍ طبيعةً وخاصِّيةً مستعدًّا[٤] لأنْ يتولَّدَ منه مثلُ تلك الأعضاء، وإن كان

---

(١) كما في البحر ٨/ ٤٥٥، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥.

(٢) في تفسيره ٣١/ ١٣٠-١٣١.

(٣) إشارة إلى ما كان سائداً أن الغذاء ينهضم أولاً في الفم بالمضغ، وثانياً في المعدة بطبخها له بالحرارة الطبيعية الموقدة في مطبخها، ثم تجذب صفوته بعروق متصلة بها إلى الكبد فتهضمه هضماً ثالثاً، ثم إلى الأعضاء جميعها فينهضم فيها هضماً رابعاً بعده لتنمية الأعضاء وبقائها، وما زاد على ذلك ينفصل عن جميع الأعضاء إلى مقر المني بعد أن أَوْدَع فيه خلَّاق القُوى القُدَر ما يستعد به للتوليد والتخلُّق. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٧.

(٤) العبارة في تفسير الرازي: فيأخذ من كلِّ عضو طبيعته وخاصيته فيصير مستعدًّا، وهي أنسب بالسياق.

المراد أنَّ معظم أجزاء المنيِّ تتولَّد في ذينك الموضعين فهو ضعيفٌ؛ لأنَّ معظمه إنما يتولَّد في الدماغ، ألا ترى أنه في صورته يشبه الدماغ، والمكثِرُ منه يَظْهَرُ الضعفُ أوَّلاً في دماغه وعينيه، وإن كان المراد أنَّ مستقره هناك فهو ضعيفٌ أيضاً؛ لأنَّ مستقرَّه عروقٌ يلتفُّ بعضُها بالبعض عند البيضتين وتسمَّى أوعيةَ المنيِّ، وإن كان المراد أنَّ مخرجه هناك فهو أيضاً كذلك؛ لأنَّ الحسَّ يدلُّ على خلافه.

وأجاب رحمه الله تعالى بأنه لا شكَّ أنَّ أعظم الأعضاء معونةً في توليد المنيِّ الدماغُ، وخليفتُه النخاع[1] في الصلب، وشُعَبٌ نازلةٌ إلى مقدَّمِ البدن وهي التريبة، فلذا خُصَّا بالذكر، على أنَّ كلامهم في أمر المنيِّ وتولُّدِه محضُ الوهم والظنِّ الضعيفِ، وكلامُ الله تعالى المجيد لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، فهو المقبول والمعوَّلُ عليه. اهـ.

وفي «الكشف»: أقول: النخاع بين الصُّلب والترائب، ولا يحتاج إلى تخصيص التريبة بالنساء، فقد يمنع الشُّعَبُ النازلة، على أنَّ تلك الشُّعَبَ إن كانت فهي أعصابٌ[2] لا ذاتُ تجاويفَ. والوجه والله تعالى أعلمُ أنَّ النخاع والقُوى الدماغيةَ والقلبيةَ والكبديةَ كلها تتعاون في إبراز ذلك الفضل على ما هو عليه قابلاً لأنْ يصيرَ مبدأ الشخص على ما بيِّن في موضعه، وقولُه سبحانه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ عبارةٌ مختصرةٌ جامعةٌ لتأثير الأعضاء الثلاثة، فالترائب يشملُ القلبَ والكبد، وشمولُها للقلب أظهرُ، والصُّلبُ النخاعُ، ويتوسَّطُه الدماغ، ولعله لا يحتاج إلى التنبيه على مكان الكبد لظهور ذلك؛ لأنه دمٌ نضيجٌ، وإنما احتيج إلى ما خَفِيَ وهو أمرُ الدماغ والقلب[3] في تكوُّن ذلك الماء، فنبَّه على مكانهما. وقيل: ابتداءُ الخروج منه كما أنَّ انتهاءه بالإحليل. انتهى.

---

(١) أي: قائم مقامه في كل ما يكون، قال الشهاب في الحاشية ٨/٣٤٧: والنخاع مثلث النون: خيطٌ أبيضُ في جوف عظم الرقبة ممتدٌّ إلى الصلب، ويتشعب منه شعب كثيرة إلى الأضلاع وينزل إلى الترائب.

(٢) في هامش الأصل و(م): فيه أنه لا يضر كونها أعصاباً كما لا يخفى. اهـ منه.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب ٨/٣٤٨: الدماغ والصلب.

وقيل: لو جُعِلَ ما بين الصُّلْبِ والترائب كنايةً عن البدن كلِّه لم يَبْعُدْ، وكان تخصيصُهما بالذكر لِما أنهما كالوعاء للقلب الذي هو المضغةُ العظمى فيه، وأمرُ هذه الكناية على ما حَكَى مكِّي عن ابن عباس في الترائب أظهرُ.

وزعم بعضُهم جواز كون «الصلب والترائب» للرجل، أي: يخرج من بين صلبِ كلِّ رجلٍ وترائبه، فالمراد بالماء الدافق: ماءُ الرجل فقط، وجَعَلَ الكلام إمَّا على التغليب أو على أنه لا ماءَ للمرأة أصلاً فضلاً عن الماء الدافق كما قيل به. ولا يخفى ما فيه، والقولُ بأنَّ المرأة لا ماء لها تكذِّبُه الشريعة وغيرُها.

وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم: «يُخْرَجُ» مبنيًّا للمفعول، وهما وأهلُ مكة وعيسى: «الصُّلُب» بضم الصاد واللام، واليمانيُّ بفتحهما[1]، وروي على اللغتين قولُ العجَّاج:

رَيَّا العظام فخمةُ المخدَّم ... في صَلَبٍ مثلِ العنان المؤدَمِ[2]

وفيه لغةٌ رابعةٌ وهي صالب، كما في قول العباس:

تُنْقَلُ من صالبٍ إلى رَحِمٍ[3]

وهي قليلة الاستعمال.

واستشهد بعض الأجلَّة بقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ على أن الإنسان هو الهيكل المخصوصُ كما ذهب إليه جمهورُ المتكلِّمين النافين للنفس الناطقة

---

(١) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥، والكشاف ٤/ ٢٤١، والبحر ٨/ ٤٥٥.

(٢) ديوان العجاج ص٢٨١، والثاني في الكشاف ٤/ ٢٤١، والبحر ٨/ ٤٥٥. ورواية الديوان: فَعْمة المخدَّم، قال شارح الديوان الفَعْم: الممتلئ، والمخدَّم: موضع الخِدام، وهو الخلخال. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص١٢٣: ريًّا: ليست بمهزولةٍ تَبِينُ عظامها، وصلبها مثل العنان نعمةً واستواء. والعنان المؤدم: الذي لم تُقْشَر أَدَمتُه، فهو ألين له. وقوله: في صَلَبٍ، أي: مع صلب. وقال الزمخشري في الأساس (عنن): امرأة معنَّنة، أي: مَجدولةٌ جَدْلَ العنان.

(٣) وعجزه: إذا مَضَى عالَمٌ بدا طَبَقٌ، وسلف ص٤٠٨ من هذا الجزء.

الإنسانية المجرَّدة التي ليست داخلَ البدن ولا خارجَه، وقال: إنه شاهدٌ قويٌّ على ذلك، وتأويلُه بأنه على حذف المضاف ـ أي: خُلق بدن الإنسان ـ لا يُسمعُ ما لم يقم برهانٌ على امتناع ظاهره. انتهى، وأنت تعلم أن القائلين بالنفس الناطقة المجرَّدة قد أقاموا فيما عندهم براهينَ على إثباتها، نعم إنَّ فيها أبحاثاً للنافين، وتحقيق ذلك بما لا مزيد عليه في كتاب «الروح» للعلَّامة ابن القيم عليه الرحمة[1].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ الضميرُ الأول للخالق تعالى شأنُه، وكما فخَّم أولاً بترك الفاعل في قوله تعالى: (مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ) إذ لا يُذهب إلى خالقٍ سواه عز وجل، فخَّم بالإضمار ثانياً، والضمير الثاني للإنسان، أي: إنَّ ذلك الذي خلقه ابتداءً مما ذكر على إعادته بعد موته لبيِّنُ القدرة، وهذا كما في قوله:

لئن كان يُهْدَي بَرْدُ أنيابها العُلَى ... لأَفْقَرَ منِّي إنَّني لفقيرُ[2]

فإنه أراد: لَبيِّن الفقر، وإلَّا لم يصحَّ إيراده في مقابلةِ: لأفقر منِّي، والتأكيدُ البالغ لفظاً لِما قام عليه البرهان الواضح معنًى، ولذا فسِّر «قادر» هنا بـ: بيِّن القدرة كما في «الكشاف»، واعتَبَر فيه أيضاً الاختصاص فقال: أي: على إعادته خصوصاً[3]. وكأنَّ ذلك لأنَّ الغرض المسوقَ له الكلامُ ذلك، فكأنَّ ما سواه مطَّرَحٌ بالنسبة إليه، وحينئذٍ يراد ما ذكر جعل الجارّ من صلة «لقادر» أو مدلولاً على موصوله به، على المذهبين، وفَصْلُ الجملة عمَّا سبق لكونه جوابَ الاستفهام دونها.

وقال مجاهد وعكرمة: الضمير الثاني للماء، أي: إنه تعالى على ردِّ الماء في الإحليل أو في الصُّلْب لقادرٌ. وليس بشيء. ومثلُه كونُ المعنى على تقدير كونه

---

(١) ينظر المسألة الخامسة من كتاب الروح ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) البيت لقيس بن الملوح كما في ديوانه ص١٤٠، والأغاني ٢/ ٤٧، وورد أيضاً في ديوان ابن الدمينة ص ٤٩، ونسب لمزاحم بن أبي الأزهر كما في الأغاني ١٩/ ١٠٤، وهو في ديوان المعاني ١/ ٢٠٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٠٥، والتذكرة السعدية ص٣٠٢ غير منسوب. قال المرزوقي: قوله: أنيابها العلى، يراد به: الشريفة العالية الشأن، ويجوز أن يراد بالعُلى العالي من الأسنان لأنها موضع القُبَل، ويعني ببرد الأسنان عذوبة الرضاب عند المذاق. اهـ.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤١.

للإنسان: إنه عز وجل على ردِّه من الكبر إلى الشباب لقادر، كما روي عن الضحاك، وما ذكرناه أولاً مرويٌّ عن ابن عباس.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أي: يُتعرَّفُ ويُتَصَفَّحُ ما أُسِرَّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أُخفي من الأعمال، ويميَّز بين ما طاب منها وما خَبُثَ. وأصل الابتلاء: الاختبار، وإطلاقه على ما ذكر إطلاقٌ على اللازم.

وحَمْلُ السرائر على العموم هو الظاهر، وأخرج ابن المنذر عن عطاء ويحيى بن أبي كثير أنها الصومُ والصلاةُ والغُسْلُ من الجنابة[1]. وأخرج البيهقي في «الشعب» عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ضمَّنَ الله تعالى خَلْقَه أربعاً: الصلاةَ والزكاةَ وصومَ رمضان والغُسْلَ من الجنابة، وهنَّ السرائر التي قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾»[2]. وفي «البحر»[3] ضم التوحيد إليها. ولعل المراد بيانُ عظيمها على سبيل المبالغة لا حقيقةُ الحصر. وسَمِعَ الحسن مَن ينشد قولَ الأحوص:

سيَبْقَى لها في مضمَرِ القلب والحشا ... سريرةُ ودٍّ يوم تُبلَى السرائرُ

فقال: ما أَغْفَلَه عمَّا في «السماء والطارق»[4]. وكأنه حمل البقاء فيه على عدم التعرُّف أصلاً، فليفهم.

و«يوم» عند جمعٍ من الحذَّاق ظرفٌ لمحذوفٍ يدلُّ عليه «رَجْعِه» أي: يَرْجِعُه يوم.. إلخ، وقال الزمخشريُّ وجماعةٌ: ظرفٌ لـ «رَجْعِه»[5]. واعتُرِضَ بأنَّ فيه فصلاً بين المصدر ومعموله بأجنبيٍّ. وأُجيب تارةً بأنه جائزٌ لتوسُّعهم في الظروف، وأخرى بأنَّ الفاصل هنا غيرُ أجنبيٍّ؛ لأنه إما تفسيرٌ أو عاملٌ، على المذهبين.

وقال عصام الدِّين: إنَّ الفصل بهذا الأجنبيِّ كَلَا فَصْلٍ؛ لأنَّ المعمول في نية التقديم عليه، وإنما أُخِّر لرعاية الفاصلة. وفيه ما لا يخفى.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٣٦.
(٢) شعب الإيمان (٢٧٥١)، وأخرجه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٦.
(٣) ٨/ ٤٥٦.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٤١، والبحر ٨/ ٢٥٦، والبيت في ديوان الأحوص ص٨٤، والخزانة ٢/ ١٨.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٤١.

وقيل: ظرفٌ لـ «ناصر» بعدُ. وتعقَّبه أبو حيان بأنه فاسدٌ؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، وكذلك «ما» النافية على المشهور المنصور(١).

وقيل: معمول لاذكُرْ محذوفاً. وهو كما ترى، ويتعيَّن هو أو ما قبله على رأي مجاهد وعكرمةَ ورأي الضحاك السابقين آنفاً.

وجوَّز الطبرسيُّ تعلُّقه بـ «قادر»(٢)، ولم يعلِّقه جمهور المُعْرِبين به لأنه يوهمُ اختصاصَ قدرته عز وجل بيومٍ دون يومٍ كما قال غيرُ واحدٍ. وقال ابن عطية: فرُّوا من أن يكون العامل «القادر» للزومِ تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تؤمِّل المعنى وما يقتضيه فصيحُ كلام العرب، جاز أن يكون العاملَ، وذلك أنه تعالى قال: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ على الإطلاق أولاً وآخِراً وفي كلِّ وقتٍ، ثم ذكر سبحانه من الأوقات الوقتَ الأعظم على الكفار؛ لأنه وقتُ الجزاء والوصولِ إلى العذاب، ليجتمع الناس على حذره والخوف منه(٣). انتهى، وهو على ما فيه لا يدفعُ الإيهام.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: الإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنعُ بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ وهي المُظِلَّة في قول الجمهور ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ أي: المطر في قولهم أيضاً، كما في قول الخنساء:

يومَ الوداع ترى دموعاً جاريةْ كالرَّجْع في المُدْجِنَةِ الساريةْ(٤)

وأصلُه مصدر رَجَع المتعدِّي، واللازمِ أيضاً في قول، ومصدرُه الخاصُّ به الرجوع، سمَّوا به المطر كما سمَّوه بالأَوْبِ مصدر آبَ، ومنه قولُه:

---

(١) البحر ٨/ ٤٥٥.

(٢) مجمع البيان ٣٠/٩٩.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦.

(٤) ديوان الخنساء ص١٤٧، وعجزه في الكشاف ٤/ ٢٤٢. وصدره في الديوان: عطَّافُه أبيض ذو رونق. والمدجنة: سحابة لها ظلام؛ لكثافتها وقُرْبها من الأرض، يقال: هذا يوم دَجْنٍ، أي: يوم إلباس غيم، والدُّجُنَّة: الظلمة. والسارية: التي تسري ليلاً. ينظر شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٤٢.

رَبَّــاءُ شَـمَّـاءَ لا يـأوي لـقُـلَّـتـهـا إلَّا الـسحابُ وإلَّا الأَوْبُ والـسَّبَلُ[١]

أو المراد به فيه النَّحْلُ[٢].

لأنَّ الله تعالى يَرْجِعُه[٣] حيناً فحيناً. وقال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كلَّ عام. أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع، أو لأنَّ السحاب يحمله من بحار الأرض ثم يَرْجِعه إلى الأرض، وبَنَى هذا غيرُ واحدٍ على الزَّعْم[٤]، وفيه بحثٌ.

وعن ابن عباس ومجاهدٍ تفسيرُ «السماء» بالسحاب و«الرَّجْع» بالمطر.

وقال ابن زيد: «السماء» هي المعروفة، و«الرَّجْع» رجوعُ الشمس والقمر والكواكب من حالٍ إلى حالٍ، ومن منزلة إلى منزلةٍ فيها.

وقيل: رجوعُها نفسُها[٥]؛ فإنها ترجع في كلِّ دورةٍ إلى الموضع الذي تتحرَّك منه. وهذا مبنيٌّ على أنَّ السماء والفلكَ واحدٌ، فهي تتحرَّكُ ويصير أَوْجُهَا حضيضاً وحضيضُها أَوْجاً. وقد سمعتَ فيما تقدَّم أنَّ ظاهر كلام السلف أنَّ السماء غيرُ الفلك، وأنها لا تدورُ ولا تتحرَّك، والذي ذُكر رأيُ الفلاسفة ومَن تابعهم.

وقيل: «الرَّجع» الملائكة عليهم السلام سُمُّوا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ هو ما تتصدَّع عنه الأرض من النبات، وأصله الشقُّ،

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤١، والبيت للمتنخل الهذلي من قصيدة في رثاء ابنه، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٣٧. قوله: ربَّاء، هو صيغة مبالغة من ربأت الجبل: إذا صعدته، فيكون ربَّاء شمَّاءَ كقولهم: طلَّاعُ أَنْجُدٍ، وهو مضاف إلى شماء، والمعنى: ربَّاءُ هضبةٍ شمَّاءَ. وقوله: لا يدنو لقُلَّتها، أي: لرأسها، أي: لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب. والسَّبَل: المطر النازل. ينظر الخزانة ٥/ ٣-٦.

(٢) قوله: أو المراد به فيه النحل، الضمير في «به» عائد على الأوب، والضمير في «فيه» عائد على البيت، والمعنى: أو المراد بالأوب في البيت النحل.

(٣) قوله: لأن الله تعالى يرجعه، متعلق بقوله: سمَّوا به المطر، أي: سموا المطر بالرجع لأن الله يرجعه... إلخ.

(٤) يشير إلى قول الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٢، وأبي السعود في تفسيره ٩/ ١٤٢: وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض... إلخ.

(٥) أي: السماء، كما في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٨.

سُمِّي به النبات مجازاً، أو هو مصدرٌ من المبنيِّ للمفعول، فالمراد تشقُّقها بالنبات، ورُوي ذلك عن عطية وابن زيد. وقيل: تشقُّقُها بالعيون. وتُعقِّب بأنَّ وصفَ السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقِّية القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للإيماء إلى أنَّهما في أنفسهما من شواهده، وهو السرُّ في التعبير عن المطر بالرجْع، وذلك في تشقُّق الأرض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذُكر في مواضع من التنزيل، لا في تشقُّقها بالعيون.

ويُعلم منه ما في تفسير الرجع بغير المطر، وكذا ما في قول مجاهد: الصدعُ: ما في الأرض من شقاقٍ وأوديةٍ وخنادقَ وتشقُّقٍ بحرثٍ وغيره. وما رُوي عنه أيضاً: الصدعُ: الطرقُ تَصدَعها المُشاةُ.

وقيل: ذاتِ الأموات؛ لانصداعها عنهم للنشور.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي من جملته هذه الآياتُ الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده، وهو أولى من جَعْل الضمير راجعاً لِما تقدَّم، أي: ما أخبرتُكم به من قدرتي على إحيائكم. لأنَّ القرآن يتناول ذلك تناوُلاً أوليًّا، وقولُه تعالى: ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣﴾ أنسبُ به، والمراد: لقولٌ فاصلٌ بين الحقِّ والباطل قد بلغ الغايةَ في ذلك حتى كأنه نفسُ الفصل.

وقيل: مقابلةُ الفصل بالهزل بعدُ يستدعي أن يفسَّر بالقطع، أي: قولٌ مقطوعٌ به. والأول أحسن.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾ أي: ليس في شيء منه شائبةُ هزلٍ، بل كلُّه جدٌّ محضٌ، فمِن حقِّه أن يهتدي به الغواةُ وتخضع له رقابُ العُتاة، وفي حديثٍ أخرجه الترمذيُّ والدارميُّ وابن الأنباري عن الحارث الأعور عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنةٌ» قلت: فما المخرجُ منها يا رسول الله؟ قال: «كتابُ الله، فيه نبأُ مَن قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، مَن تركه مِن جَبَّارٍ قَصَمه الله، ومَن ابتغى الهُدَى في غيره أضلَّه الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ

المستقيم، هو الذي لا تَزيغ فيه الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلَق عن الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنُّ لَمَّا سمعَتْه عن أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢] من قال به صدق، ومَن حكم به عَدَل، ومَن عمل به أُجِر، ومَن هَدَى به هَدَى إلى صراطٍ مستقيم»(١).

وفي هذا من الردِّ على الذين نبذوه وراءَ ظهورهم ما فيه.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: كفارُ مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ يعملون المكايد في إبطال أمره وإطفاء نوره، أو في إبطال أمر الله تعالى وإطفاء نور الحقِّ. والأول أتمُّ انتظاماً، وهذا ـ قيل ـ أملأُ فائدةً.

﴿كَيْدًا ۝١٥﴾ أي: عظيماً حسبما تفي به قدرتُهم. والجملةُ تحتمل أن تكون استئنافاً بيانيًّا، كأنه قيل: إذا كان حال القرآن ما ذُكر فما حالُ هؤلاء الذين يقولون فيه ما يقولون؟ فقيل: إنهم يكيدون كيداً.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ أي: أقابلهم بكيدٍ متينٍ لا يمكن ردُّه حيث أستَدرِجُهم من حيث لا يعلمون. أو: أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره وإكثار نوره من حيث لا يحتسبون. والفصل لهذا، وقيل: لئلا يُتوَّهَمَ عطفُها على جواب القسم مع أنها غيرُ مقسَمٍ عليها.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تشتَغِل بالانتقام منهم ولا تَدعُ عليهم بالهلاك، أو تأنَّ وانتظرِ الانتقامَ منهم ولا تستعجل، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ الإخبارَ بتَوَلِّيه تعالى لكَيدهم بالذات، وعدم إهمالهم، مما يُوجِبُ إمهالهم وتَرْكَ التصدِّي لمكايدتهم قَطْعاً، وَوَضْعُ الظاهر موضِعَ الضمير لِذَمِّهم بأبي الخبائث وأمها. وقيل: للإشعار بعِلَّة ما تضمَّنه الكلامُ من الوعيد.

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٠٦)، وسنن الدارمي ٢/ ٧١٠. وعزاه لابن الأنباري وغيره السيوطيُّ في الدر ٦/ ٣٣٧. وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدلٌ من «مَهِّل» على ما صَرَّح به في «الإرشاد»[١].

وقوله سبحانه: ﴿رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ إما مصدرٌ مؤكِّدٌ لمعنى العامل، أو نعتٌ لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالاً رويداً، أي: قريباً كما أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس[٢]. أو قليلاً كما روي عن قتادة.

وأخرج ابن المنذر عن السدي أنه قال: أي: أمهلهم حتى آمرَ بالقتال[٣]. ولعلَّهُ المراد بالإمهال القريب أو القليل.

واختار بعضُهم أن يكونَ المرادُ: إلى يوم القيامة؛ لأنَّ ما وقع بعد الأمر بالقتال ـ كالذي وقع يومَ بدرٍ وفي سائر الغزوات ـ لم يَعُمَّ الكلَّ، وما يكونُ يومَ القيامة يَعُمُّهم، والتقريبُ باعتبار أنَّ كلَّ آتٍ قريب، وعلى هذا النحو التقليل، على أنَّ مَنْ مات فقد قامتْ قيامتُهُ.

والظاهر ما قال السُّدِّيُّ، وقد عَرَاهم بعد الأمر بالقتال ما عَرَاهم، وعدمُ العموم الحقيقيِّ لا يضرُّ.

وهو في الأصل على ما قال أبو عبيدة تصغيرُ «رُوْد» بالضَّمِّ، وأنشد:

كأنها ثَمِلٌ يمشي على رُوْدِ[٤]

أي: على مهلٍ.

وقال أبو حيان وجماعةٌ: تصغير إرواد مصدر أَرْوَدَ يُرْوِدُ بالترخيم[٥]. وهو تصغيرُ تحقيرٍ وتقليلٍ.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٤٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٠٧، والدر المنثور ٦/ ٣٣٧.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣٧.

(٤) عجز بيت للجَموح الظفري، وصدره: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها، وهو في الصحاح (رود)، واللسان (رود)، وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٢٢٣ برواية:

كأنها مثل مَن يمشي على رُود

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٥٣، وتصحف «أرود» في (م) إلى: رواد.

وله في الاستعمال وجهان آخران: كونه اسم فعل نحو: رويداً زيداً[١]، أي: أمهله، وكونه حالاً نحو: سار القومُ رويداً، أي: متمهِّلين غير مستعجلين.

ولم يذكرْ أحدٌ احتمالَ كونه اسمَ فعلٍ هنا، وصرح ابن الشيخ بعدم جريانه، وعلَّل ذلك بأنَّ الأوامرَ كلَّها بمعنى، فكأنه قيل: أَمهلِ الكافرين أمهلهم أمهلهم، وفائدةُ التأكيد تحصلُ بالثاني، فيلغو الثالث.

وفي التعليل نظرٌ، فقد يُسلكُ في التأكيد بألفاظ متَّحدةٍ لفظاً ومعنًى نحوُ ذلك، ففي الحديث: «أيما امرأةٍ أنكحت نفسها بدون وليٍّ، فنكاحها باطلٌ باطلٌ باطلٌ»[٢] ولا فرقَ بين الجمل والمفردات، نعم هو خلافُ الظاهر جدًّا. وجوَّزَ رحمه الله كونه حالاً، أي: أمهلهم غيرَ مستعجلٍ، والظاهرُ أنه حالٌ مؤكِّدةٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] فلا تغفل، وهو أيضاً بعيدٌ.

وظاهر كلام أبي حيان وغيره أنَّ الأمرَ الثاني توكيدٌ للأول، قالوا: والمخالفة بين اللفظين في البنية لزيادة تسكينه ﷺ وتصبيره عليه الصلاة والسلام[٣]، وإنما دلَّت على[٤] الزيادة من حيث الإشعارُ بالتغاير، كأنَّ كلًّا كلامٌ مستقلٌّ بالأمر بالتأني، فهو أَوكدُ من مجرد التكرار.

وقرأ ابن عباس: «مَهِّلْهُمْ» بفتح الميم وشَدِّ الهاء[٥] موافقةً للفظ الأمر الأول.

---

(١) في (م): زيد.
(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٥) والترمذي (١١٠٢) ـ وحسَّنه ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) ينظر البحر ٨/٤٥٦، والكشاف ٤/٢٤٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/٣٤٨.
(٤) قوله: على، ساقط من (م).
(٥) البحر المحيط ٨/٤٥٦.

(٨٧) سُورَةُ الأعلى مكيَّة وآياتها تسع عشرة

● **سورة** الأعلى من السور المكية ، وهي تعالج باختصار بعض المواضيع المتعلقة بالعقيدة الإسلامية وهي كالتالي : ١ – الذاتِ العلية وبعض صفات الله جل وعلا ، وذكر الدلائل على القدرة والوحدانية . ٢ – الوحي والقرآن المنزَّل على خاتم الرسل ﷺ وبتيسير حفظه عليه ﷺ . ٣ – الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتنزيه الله جل وعلا ، الذي خلق فأبدع ، وصوَّر فأحسن ، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد ، فهو الرب المعبود ، المنعوت بأكمل الصفات ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوَّى . والذي قدَّر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاءً أحوى ﴾ .

● **ثم تحدثت** عن الوحي والقرآن ، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد ، وتيسير حفظه عليه بحيث لا ينساه إلا ما أراد الله نسخه من الأحكام ﴿ سنقرئك فلا تنسى : إلا ما شاء اللهُ إنه يعلم الجهر وما يخفى . ونيسرك لليسرى ﴾ .

● **ثم أمرت** بالتذكير بهذا القرآن ، الذي يستفيد من نوره وضيائه المؤمنون ، ويتعظ ويهتدي بهديه المتقون ، وميزت بينهم

وبين الأشقياء المجرمين ﴿ فذكّرْ إنْ نفعت الذكرى . سيذَّكَّر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ .

وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام ، وزكاها بصالح الأعمال ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خيرٌ وأبقى . إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف ، إبراهيم وموسى﴾ .

سورة الأعلى

[١٠٠٩] أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كان النبي [ﷺ] إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يتكلم النبي [ﷺ] بأوله مخافة أن ينساه فأنزل الله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[1] في إسناده جويبر ضعيف جداً. ك

* * *

[١٠٠٩] (١) سورة الأعلى: الآية (٦).

سورة الأعلى

تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد الأمر بتنزيه اسم الله وتقديسه والثاني: أن الاسم صلة والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى. أما على الوجه الأول ففي اللفظ احتمالات أحدها: أن المراد نزه اسم ربك عن أن تسمي به غيره، فيكون ذلك نهيًا على أن يدعى غيره باسمه، كما كان المشركون يسمون الصنم باللات، ومسيلمة برحمان اليمامة وثانيها: أن لا يفسر أسماءه بما لا يصح ثبوته في حقه سبحانه نحو أن يفسر الأعلى بالعلو في المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقتداء والاستواء بالاستيلاء وثالثها: أن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم، ويدخل فيه أن يذكر تلك الأسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها ورابعها: أن يكون المراد بسبح باسم ربك، أي مجده بأسمائه التي أنزلتها عليك وعرفتك أنها أسماؤه كقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] ونظير هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ومقصود الكلام من هذا التأويل أمران: أحدهما: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، أي صل باسم ربك، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية والثاني: أن لا يذكر العبد ربه إلا بأسماء التي ورد التوقيف بها، قال الفراء: لا فرق بين ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وبين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٩٦] قال الواحدي: وبينهما فرق لأن معنى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبىء عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون، و ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي نزه الاسم من السوء وخامسها: قال أبو مسلم: المراد من الاسم ههنا الصفة، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أما على الوجه الثاني وهو أن يكون الاسم صلة ويكون المعنى سبح ربك وهو اختيار جمع من المحققين، قالوا: لأن الاسم في الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب في الله تعالى، ولكن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه فيقال: سبح اسمه، ومجد ذكره، كما يقال: سلام على المجلس العالي، وقال لبيد:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا(١)

أي السلام وهذه طريقة مشهورة في اللغة، ونقول على هذا الوجه: تسبيح الله يحتمل وجهين الأول: أن لا يعامل الكفار معاملة يقدمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغي على ما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، الثاني: أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وفي أسمائه وفي أحكامه، أما في ذاته فأن يعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض، وأما في صفاته، فأن يعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة، وأما في أفعاله فأن يعتقد أنه مالك مطلق، فلا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور، وقالت المعتزلة هو أن يعتقد أن كل ما فعله فهو صواب حسن، وأنه لا يفعل القبيح ولا يرضى به، وأما في أسمائه فأن لا يذكر سبحانه إلا بالأسماء التي ورد التوقيف بها، هذا عندنا وأما عند المعتزلة فهو أن لا يذكر إلا بالأسماء التي لا توهم نقصًا بوجه من الوجوه سواء ورد الإذن بها أو لم يرد، وأما في أحكامه فهو أن يعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود إليه، بل إما لمحض المالكية على ما هو قولنا، أو لرعاية مصالح العباد على ما (هو) قول المعتزلة.

المسألة الثانية: من الناس من تمسك بهذه الآية في أن الإسم نفس المسمى، فأقول: إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع، فلا بد ههنا من بيان أن الإسم ما هو والمسمى ما هو حتى يمكننا أن نخوض في الاسم هل هو نفس المسمى أم لا، فنقول: وإن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ، وبالمسمى تلك الذات، فالعاقل لا يمكنه أن يقول: الاسم هو المسمى، وإن كان المراد، من الاسم هو تلك الذات، وبالمسمى أيضًا تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى، هو أن تلك الذات نفس تلك الذات، وهذا لا يمكن أن ينازع فيه عاقل، فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة. وإن كان كذلك كان الخوض في ذكر الاستدلال عليه أرك وأبعد بل ههنا دقيقة، وهي أن قولنا: اسم لفظة جعلناها اسمًا لكل ما دل على معنى غير مقترن بزمان، والاسم كذلك فيلزم أن يكون الاسم إسمًا لنفسه فههنا الاسم نفس المسمى فلعل العلماء الأولين ذكروا ذلك فاشتبه الأمر على المتأخرين، وظنوا أن الاسم في جميع المواضع نفس المسمى، هذا حاصل التحقيق في هذه المسألة، ولنرجع إلى الكلام المألوف، قالوا: الذي يدل على أن الاسم نفس المسمى أن أحدًا لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا فمعنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ سبح ربك، والرب أيضًا اسم فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه، واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لما بينا في المسألة الأولى أنه يمكن أن يكون الأمر واردًا بتسبيح الاسم، ويمكن أن يكون المراد تسبيح المسمى وذكر الاسم صلة فيه. ويمكن أن يكون المراد سبح باسم ربك كما يقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ويكون

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

المعنى سبح ربك بذكر أسمائه.

المسألة الثالثة: روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[(١)] ثم روي في الأخبار أنه عليه السلام كان يقول: في ركوعه: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم» وفي سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» ثم من العلماء من قال: إن هذه الأحاديث تدل على أن المراد من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صل باسم ربك، ويتأكد هذا الاحتمال بإطباق المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] ورد في بيان أوقات الصلاة.

المسألة الرابعة: قرأ علي عليه السلام وابن عمر: (سُبْحَانَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) ولعل الوجه فيه أن قوله: ﴿سَبِّحِ﴾ أمر بالتسبيح فلا بد وأن يذكر ذلك التسبيح وما هو إلا قوله: سبحان ربي الأعلى.

المسألة الخامسة: تمسكت المجسمة في إثبات العلو بالمكان بقوله: ﴿رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والحق أن العلو بالجهة على الله تعالى محال، لأنه تعالى إما أن يكون متناهيًا أو غير متناه، فإن كان متناهيًا كان طرفه الفوقاني متناهيًا، فكان فوقه جهة فلا يكون هو سبحانه أعلى من جميع الأشياء وأما إن كان غير متناه فالقول: بوجود أبعاد غير متناهية محال وأيضًا فلأنه إن كان غير متناه من جميع الجهات يلزم أن تكون ذاته تعالى مختلطة بالقاذورات تعالى الله عنه، وإن كان غير متناه من بعض الجهات ومتناهيًا من بعض الجهات كان الجانب المتناهي مغايرًا للجانب غير المتناهي فيكون مركبًا من جزأين، وكل مركب ممكن، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود، هذا محال. فثبت أن العلو ههنا ليس بمعنى العلو في الجهة، مما يؤكد ذلك أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ينافي أن يكون المراد هو العلو بالجهة، أما قبل الآية فلأن العلو عبارة عن كونه في غاية البعد عن العالم، وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم، أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك، والسورة ههنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم، وأما ما بعد هذه الآية فلأنه أردف قوله: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة.

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده) (١/ ٢٢٩) حديث رقم (٨٦٩) من طريق ابن المبارك... به وابن ماجه في كتاب (الصلاة) باب (التسبيح في الركوع والسجود) (١/ ٢٨٧) حديث رقم (٨٨٧) من طريق ابن المبارك... به وابن خزيمة في (صحيحه) (١) حديث رقم (٦٠٠/ ٦٧٠) من طريق عبد الله بن يزيد... به وفي (١) حديث رقم (٦٠١/ ٦٧٠) من طريق ابن المبارك... به وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٥٥) قال: حدثنا أبو عبد الرحمن والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع) (١/ ٣١١) حديث رقم (١٣٠٥) من طريق عبد الله بن يزيد المقرئ... به، جميعا (ابن المبارك، ابن يزيد، أبو عبد الرحمن) عن موسي بن أيوب... به.

المسألة السادسة: من الملحدين من قال: بأن القرآن مشعر بأن للعالم ربين أحدهما عظيم والآخر أعلى منه، أما العظيم فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] وأما الأعلى منه فقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فهذا يقتضي وجود رب آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه.

واعلم أنه لما دلت الدلائل على أن الصانع تعالى واحد سقط هذا السؤال، ثم نقول ليس في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلى من رب آخر، بل ليس فيه إلا أنه أعلى، ثم لنا فيه تأويلات.

الأول: أنه تعالى أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا.

الثاني: أن قوله: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ تنبيه على استحقاق الله التنزيه من كل نقص فكأنه قال سبحانه فإنه: الأَعْلَى أي فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته، وهو كما تقول: اجتنبت الخمر المزيلة للعقل أي اجتنبتها بسبب كونها مزيلة للعقل.

والثالث: أن يكون المراد بالأعلى العالي كما أن المراد بالأكبر الكبير.

المسألة السابعة: روي أنه عليه السلام كان يحب هذه السورة ويقول: «لَوْ عَلِمَ النَّاسُ عِلْمَ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى لَرَدَّدَهَا أَحَدُهُمْ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً»(١) وروى: (أن عائشة مرت بأعرابي يصلي بأصحابه فقرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، الَّذِي يُسِرُّ عَلَى الْحُبْلَى، فَأَخْرَجَ مِنْهَا نَسَمَةً تَسْعَى، مِنْ بَيْنِ صِفَاقٍ وَحَشَا، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى، أَلاَ بَلَى أَلاَ بَلَى) فَقَالَتْ عَائِشَةُ: (لاَ آبَ غَائِبُكُمْ، وَلاَ زَالَتْ نِسَاؤُكُمْ فِي لَزْبَةٍ) والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح، فكأن سائلاً قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ قال موسى عليه السلام: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وأما محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢] هذا إشارة إلى الخلق، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤] وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرًا لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها، واطلاعه عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة، ثم ههنا مسائل:

(١) لم أجده.

المسألة الأولى: قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهًا أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة، على ما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وثانيها: أن كل حيوان فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط، وغير مستعد لسائر الأعمال، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا وثالثها: أنه هيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات، وأما من حمله على جميع الحيوانات. قال: المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس، وقد استقصينا القول في هذا الباب في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، وأما من حمله على جميع المخلوقات، قال: المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات، خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفًا بوصف الأحكام والإتقان، مبرأ عن الفسخ والاضطراب.

المسألة الثانية: قرأ الجمهور: ﴿قَدَّرَ﴾ مشددة وقرأ الكسائي على التخفيف، أما قراءة التشديد فالمعنى أنه قدر كل شيء بمقدار معلوم، وأما التخفيف فقال القفال: معناه ملك فهدى وتأويله: أنه خلق فسوى، وملك ما خلق، أي تصرف فيه كيف شاء وأراد، وهذا هو الملك فهداه لمنافعه ومصالحه، ومنهم من قال: هما لغتان بمعنى واحد، وعليه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] بالتشديد والتخفيف.

المسألة الثالثة: أن قوله: ﴿قَدَّرَ﴾ يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارًا معلومًا على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، تفسير هذه الآية. وتفصيل هذه الجملة.

أما قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى، وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرًا لفعل معين، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة، وللمفسرين فيه وجوه، قال مقاتل: هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وقال آخرون: هداه للمعيشة ورعاه، وقال آخرون: هدى الإنسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة، وذلك لأنه جعله

حساسًا دراكًا متمكنًا من الإقدام على ما يسره والإحجام عما يسوءه كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج وقال الفراء: قدر فهدى وأضل، فاكتفى بذكر إحداهما: كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وقال آخرون: الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ [الشورى: ٥٢] أي تدعو، وقد دعى الكل إلى الإيمان، وقال آخرون: هدى أي دلهم بأفعاله على توحيده وجلال كبريائه، ونعوت صمديته، وفردانيته، وذلك لأن العاقل يرى في العالم أفعال محكمة متقنة منتسقة منتظمة، فهي لا محالة تدل على الصانع القديم، وقال قتادة في قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ إن الله تعالى ما أكره عبدًا على معصية، ولا على ضلالة، ولا رضيها له ولا أمره بها، ولكن رضي لكم الطاعة، وأمركم بها، ونهاكم عن المعصية، واعلم أن هذه الأقوال على كثرتها لا تخرج عن قسمين، فمنهم من حمل قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ على ما يتعلق بالدين كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ومنهم من حمله على ما يرجع إلى مصالح الدنيا، والأول أقوى، لأن قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ يرجع إلى أحوال الدنيا، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى، ثم أتبعه بقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي كلفه ودله على الدين، أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم: فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي هو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التي عبدتها الكفرة، والمرعى ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش، قال ابن عباس: المرعى الكلأ الأخضر، ثم قال: فجعله غثاء أحوى، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح، وقال قطرب واحد الغثاء غثاءة.

المسألة الثانية: الحوة السواد، وقال بعضهم: الأحوى هو الذي يضرب إلى السواد إذا أصابته رطوبة، وفي أحوى قولان: أحدهما: أنه نعت الغثاء أي صار بعد الخضرة يابسًا فتغير إلى السواد، وسبب ذلك السواد أمور أحدها: أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد على الهواء، ومن شأن البرودة أنها تبيض الرطب وتسود اليابس وثانيها: أن يحملها السيل فيلصق بها أجزاء كدرة فتسود وثالثها: أن يحملها الريح فتلصق بها الغبار الكثير فتسود القول الثاني: وهو اختيار الفراء وأبي عبيدة، وهو أن يكون الأحوى هو الأسود لشدة خضرته، كما قيل: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أي سوداوان لشدة خضرتهما، والتقدير الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء، كقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١، ٢] أي أنزل قيمًا ولم يجعل له عوجًا.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا بالتسبيح فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وعلم محمدًا

عليه السلام أن ذلك التسبيح لا يتم ولا يكمل إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن، لما بينا أن التسبيح الذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه، فلا جرم كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي سنجعلك قارئًا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه، والمعنى نجعلك قارئًا للقرآن تقرؤه فلا تنساه، قال مجاهد ومقاتل والكلبي: كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان، فقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] ثم ذكروا في كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهًا أحدها: أن جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظًا لا تنساه وثانيها: أنا نشرح صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظ بالمرة الواحدة حفظًا لا تنساه وثالثها: أنه تعالى لما أمره في أول السورة بالتسبيح فكأنه تعالى قال: واظب على ذلك ودم عليه فإنا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه في قلبك، ونيسرك لليسرى وهو العمل به.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين الأول: أنه كان رجلاً أميًا فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة، خارق للعادة فيكون معجزًا الثاني: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع في المستقبل وقد وقع فكان هذا إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا، أما قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ فقال بعضهم: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ معناه النهي، والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] يعني فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه، والقول المشهور أن هذا خبر والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان، كقولك سأكسوك فلا تعرى أي فتأمن العرى، واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات في هذه الآية منها أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يصح ورود الأمر والنهي به، فلا بد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التي تنافي النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر. وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ. ومنها أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضًا خلاف الأصل ومنها أنا إذا جعلناه خبرًا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأني أجعلك بحيث لا تنساه، وإذا جعلناه نهيًا كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة، وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول، ولأنه على خلاف قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

أما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ففيه احتمالان أحدهما: أن يقال: هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئًا، قال الكلبي: إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئًا، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أحد أمور أحدها: التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] وكأنه تعالى يقول: أنا مع أني عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لا أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة فأنت وأمتك يا محمد أولى بها وثانيها: قال الفراء: إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئًا، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسيًا لذلك لقدر عليه، كما قال: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك وقال لمحمد عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك ألبتة، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته وثالثها: أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز رسول الله ﷺ في كل ما ينزل عليه من الوحي قليلاً كان أو كثيرًا أن يكون ذلك هو المستثنى، فلا جرم كان يبالغ في التثبت والتحفظ والتيقظ في جميع المواضع، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه عليه السلام على التيقظ، في جميع الأحوال ورابعها: أن يكون الغرض من قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ نفي النسيان رأسًا، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء (الله)، ولا يقصد استثناء شيء. القول الثاني: أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء في الحقيقة، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوهًا أحدها: قال الزجاج: إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك، فإذًا قد ينسى ولكنه يتذكر فلا ينسى نسيانًا كليًا دائمًا، روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نسخت، فسأله فقال: نسيتها.

وثانيها: قال مقاتل: إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنساء ههنا نَسْخُهُ، كما قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به، فيصير ذلك سببًا لنسيانه، وزواله عن الصدور. وثالثها: أن يكون معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ القلة والندرة، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والسنن، فإنه لو نسي شيئًا من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإنه غير جائز.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ففيه وجهان أحدهما: أن المعنى أنه سبحانه عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالم بالسر الذي في قلبك وهو أنك تخاف النسيان، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه والثاني: أن يكون المعنى: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ، فإنه أعلم بمصالح العبيد، فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ.

قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اليسرى هي أعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر، إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين فيه وجوه: أحدها: أن قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ اعتراض، والتقدير: سنقرؤك فلا تنسى، ونوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر، يعني في حفظ القرآن وثانيها: قال ابن مسعود: اليسرى الجنة، والمعنى نيسرك للعمل المؤدي إليها وثالثها: نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به ورابعها: نوفقك للشريعة وهي الحنيفية السهلة السمحة، والوجه الأول أقرب.

المسألة الثانية: لسائل أن يسأل فيقول العبارة المعتادة أن يقال: جعل الفعل الفلاني ميسرًا لفلان، ولا يقال: جعل فلان ميسرًا للفعل الفلاني فما الفائدة فيه؟ ههنا الجواب: أن هذه العبارة كما أنها اختيار القرآن في هذا الموضع، وفي سورة الليل أيضًا، فكذا هي اختيار الرسول في قوله عليه السلام: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١) وفيه لطيفة علمية، وذلك لأن ذلك الفعل في نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية، فما دام القادر يبقى بالنسبة إلى فعلها وتركها على السوية امتنع صدور الفعل عنه، فإذا ترجح جانب الفاعلية على جانب التاركية، فحينئذ يحصل الفعل، فثبت أن الفعل ما لم يجب لم يوجد، وذلك الرجحان هو المسمى بالتيسير، فثبت أن الأمر بالتحقيق هو أن الفاعل يصير ميسرًا للفعل، لا أن الفعل يصير ميسرًا للفاعل، فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ بنون التعظيم لتكون عظمة المعطي دالة على عظمة العطاء، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره، وكيف لا وقد كان صبيًا لا أب له ولا أم له نشأ في قوم جهال، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين، وهديًا للخلق أجمعين.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝﴾

فاعلم أنه تعالى لما تكمل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة أمر بدعوة الخلق إلى الحق، لأن كمال حال الإنسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه تامًا وفوق التمام، فلما صار محمد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (القدر) باب (جف القلم على علم الله) (١١/ ٤٩٩) حديث رقم (٦٥٩٦) ومسلم في كتاب (القدر) باب (كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه) (٤/ ٩/ ٢٠٤١) كلاهما من طريق يزيد الدشك. . . به.

عليه الصلاة والسلام تامًا بمقتضى قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨] أمر بأن يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين وهداية الجاهلين، ومن كان كذلك كان فياضًا للكمال، فكان تامًا وفوق التمام، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى الكل فيجب عليه أن يذكرهم سواء نفعتهم الذكرى أو لم تنفعهم، فما المراد من تعليقه على الشرط في قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ؟ الجواب: أن المعلق بأن على الشيء لا يلزم أن يكون عدمًا عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] ومنها قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ومنها قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١] فإن القصر جائز وإن لم يوجد الخوف، ومنها قوله: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] والرهن جائز مع الكتابة، ومنها قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن، إذا عرفت هذا فنقول ذكروا لذكر هذا الشرط فوائد إحداها: أن من باشر فعلاً لغرض فلا شك أن الصورة التي علم فيها إفضاء تلك الوسيلة إلى ذلك الغرض، كان إلى ذلك الفعل أوجب من الصورة التي علم فيها عدم ذلك الإفضاء، فلذلك قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وثانيها: أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين، ونبه على الأخرى كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والتقدير: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أو لم تنفع وثالثها: أن المراد منه البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق: قد أوضحت لك إن كنت تعقل فيكون مراده البعث على القبول والانتفاع به ورابعها: أن هذا يجري مجرى تنبيه الرسول ﷺ أنه لا تنفعهم الذكرى كما يقال للرجل: ادع فلانًا إن أجابك، والمعنى وما أراه يجيبك وخامسها: أنه عليه السلام دعاهم إلى الله كثيرًا، وكلما كانت دعوته أكثر كان عتوهم أكثر، وكان عليه السلام يحترق حسرة على ذلك فقيل له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] إذ التذكير العام واجب في أول الأمر فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط.

السؤال الثاني: التعليق بالشرط إنما يحسن في حق من يكون جاهلاً بالعواقب، أما علام الغيوم فكيف يليق به ذلك؟ الجواب: روي في الكتب أنه تعالى كان يقول لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وأنا أشهد أنه لا يتذكر ولا يخشى. فأمر الدعوة والبعثة شيء وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الأمور غير ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر.

السؤال الثالث: التذكير المأمور به هل مضبوط مثل أن يذكرهم عشرات مرات، أو غير مضبوط، وحينئذ كيف يكون الخروج عن عهدة التكليف؟ والجواب: أن الضابط فيه هو العرف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام منهم من قطع بصحته، ومنهم من جوز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم من أصر على إنكاره وقطع بأنه لا يكون فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف إذا عرفت ذلك ظهر أن الآية تحتمل تفسيرين: أحدهما: أن يقال: الذي يخشى هو الذي يكون عارفًا بالله وعارفًا بكمال قدرته وعلمه وحكمته، وذلك يقتضي كونه قاطعًا بصحة المعاد ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨] فكأنه تعالى لما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بين في هذه الآية أن الذي تنفعه الذكرى من هو، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنيًا على حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله سبحانه وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير. الثاني: أن يقال: إن الخشية حاصلة للعاملين وللمتوقفين غير المعاندين وأكثر الخلق متوقفون غير معاندين والمعاند فيهم قليل، فإذا ضم إلى المتوقفين الذين لهم الغلبة العارفون كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين، ثم إن كثيرًا من المعاندين، إنما يعاندون باللسان، فأما المعاند في قلبه بينه وبين نفسه فذلك مما لا يكون أو إن كان فهو في غاية الندرة والقلة، ثم إن الإنسان إذا سمع التخويف بأنه يصلى النار الكبرى وأنه لا يموت فيها ولا يحيى انكسر قلبه فلا بد وأن يستمع وينتفع أغلب الخلق في أغلب الأحوال، وأما ذلك المعرض فنادر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، فمن هذا الوجه كان قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يوجب تعميم التذكير.

المسألة الثالثة: السين في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى سوف يذكر وسوف من الله واجب كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦] ويحتمل أن يكون المعنى أن من خشي الله فإنه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر فهو بعد طول المدة يذكر، والله أعلم.

المسألة الرابعة: العلم إنما يسمى تذكرًا إذا كان قد حصل العلم أولاً ثم نسيه وهذه الحالة غير حاصلة للكفار فكيف سمى الله تعالى ذلك بالتذكر؟ وجوابه: أن لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلاً، ثم إنه زال بسبب التقليد والعناد. فلهذا أسماه الله تعالى بالتذكر.

المسألة الخامسة: قيل: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان، وقيل: نزلت في ابن أم مكتوم.

أما قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾

فاعلم أنا بينا أن أقسام الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون والمعاندون، وبينا أن القسمين الأولين، لا بد وأن يكون لهما خوف وخشية، وصاحب الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها، فيكون الأشقى هو المعاند الذي لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وجوهًا أحدها: قال الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا وثانيها: أن في الآخرة نيرانًا ودركات متفاضلة كما أن في الدنيا ذنوبًا ومعاصي متفاضلة، وكما أن الكافر أشقى العصاة كذلك يصلى أعظم النيران وثالثها: أن النار الكبرى هي النار السفلى، وهي تصيب الكفار على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

المسألة الثانية: قالوا: نزلت هذه الآية في الوليد وعتبة وأبي، وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لا سيما وقد بينا صحة هذا الترتيب بالبرهان العقلي.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: إن الله تعالى ذكر ههنا قسمين أحدهما: الذي يذكر ويخشى والثاني: الأشقى الذي يصلى النار الكبرى، لكن وجود الأشقى يستدعي وجود الشقي فكيف حال هذا القسم؟ وجوابه: أن لفظة الأشقى لا تقتضي وجود الشقي إذ قد يجري مثل هذا اللفظ من غير مشاركة، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقيل: المعنى، ويتجنبها الشقي الذي يصلى كما في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي هين عليه، ومثل قول القائل:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ(١)

هذا ما قيل لكن التحقيق ما ذكرنا أن الفرق الثلاثة، العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف، والمتوقف له بعض الشقاء والأشقى هو المعاند الذي بينا أنه هو الذي لا يلتفت إلى الدعوة ولا يصغى إليها ويتجنبها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: للمفسرين فيه وجهان: أحدهما: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، كما قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حي ولا هو ميت وثانيهما: معناه أن نفس أحدهم في النار

---

(١) هذا البيت قائله الفرزدق وتقدمت ترجمته.

تصير في حلقه فلا تخرج فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا.

المسألة الثانية: إنما قيل: ﴿ثُمَّ﴾ لأن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى فهو متراخ عنه في مراتب الشدة. أما قوله تعالى:

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه تعالى لما ذكر وعيد من أعرض عن النظر والتأمل في دلائل الله تعالى، أتبعه بالوعد لمن تزكى ويطهر من دنس الشرك. **وثانيهما:** وهو قول الزجاج: تكثر من التقوى لأن معنى الزاكي النامي الكثير، وهذا الوجه معتضد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] أثبت الفلاح للمستجمعين لتلك الخصال وكذلك قوله تعالى في أول البقرة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وأما الوجه الأول فإنه معتضد بوجهين: الأول: أنه تعالى لما لم يذكر في الآية ما يجب التزكي عنه علمنا أن المراد هو التزكي عما مر ذكره قبل الآية، وذلك هو الكفر، فعلمنا أن المراد ههنا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ عن الكفر الذي مر ذكره قبل هذه الآية والثاني: أن الاسم المطلق ينصرف إلى المسمى الكامل، وأكمل أنواع التزكية هو تزكية القلب عن ظلمة الكفر فوجب صرف هذا المطلق إليه، ويتأكد هذا التأويل بما روي عن ابن عباس أنه قال معنى: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ قول: لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر المفسرون فيه وجوهًا. أحدها: قال ابن عباس: ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له. وأقول: هذا التفسير متعين وذلك لأن مراتب أعمال المكلف ثلاثة أولها: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب وثانيها: استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه وثالثها: الاشتغال بخدمته.

فالمرتبة الأولى: هي المراد بالتزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]. **وثانيها:** هي المراد بقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة. **وثالثها:** الخدمة وهي المراد بقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه، لا بد وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع. **وثانيها:** قال قوم من المفسرين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] يعني من تصدق قبل مروره إلى العيد: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ يعني ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام. وهذا قول عكرمة وأبي العالية وابن سيرين وابن عمر وروي ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وهذا التفسير فيه إشكال من وجهين الأول: أن عادة الله تعالى في القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة لا تقديم الزكاة على الصلاة والثاني: قال الثعلبي: هذه السورة مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر. أجاب

الواحدي عنه بأنه لا يمتنع أن يقال: لما كان في معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون أثنى على من فعل ذلك وثالثها: قال مقاتل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أي تصدق من ماله وذكر ربه بالتوحيد في الصلاة فصلى له، والفرق بين هذا الوجه وما قبله أن هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين، والوجه الأول ليس كذلك ورابعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] ليس المراد منه زكاة المال بل زكاة الأعمال أي من تطهر في أعماله من الرياء والتقصير، لأن اللفظ المعتاد أن يقال: في المال زكى ولا يقال تزكى قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨]، وخامسها: قال ابن عباس: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ أي كبر في خروجه إلى العيد وصلى صلاة العيد وسادسها: المعنى وذكر اسم ربه في صلاته ولا تكون صلاته كصلاة المنافقين حيث يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

المسألة الثانية: الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بها على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة، قال: لأن الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعي المغايرة، واحتج أيضًا بهذه الآية على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه وأجاب أصحابنا بأن تقدير الآية، وصلى فذكر اسم ربه ولا فرق بين أن تقول أكرمتني فزرتني وبين أن تقول زرتني فأكرمتني، ولأبي حنيفة أن يقول: ترك العمل بفاء التعقيب لا يجوز من غير دليل والأولى في الجواب أن يقال: الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس في الآية بيان أن ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح. فلعل المراد به أن من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى فعل الصلاة، فحينئذ يأتي بالصلاة التي أحد أجزائها التكبير، وحينئذ يندفع الاستدلال. ثم قال تعالى:

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾

وفيه قراءتان: قراءة العامة بالتاء ويؤكده حرف أبي، أي بل أنتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة. قال ابن مسعود: إن الدنيا أحضرت، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وإن الآخرة لغيب لنا وزويت عنا، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل. وقرأ أبو عمرو: يؤثرون بالياء يعني الأشقى. ثم قال تعالى:

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وتمامه أن كل ما كان خيرًا وأبقى فهو آثر، فيلزم أن تكون الآخرة آثر من الدنيا وهم كانوا يؤثرون الدنيا، وإنما قلنا: إن الآخرة خير لوجوه أحدها: أن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية، والدنيا ليست كذلك، فالآخرة خير من الدنيا وثانيها: أن الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام، والآخرة ليست كذلك وثالثها: أن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني. ثم قال:

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ واختلفوا في المشار إليه بلفظ (هذا) منهم من قال: جميع السورة، وذلك لأن السورة مشتملة على التوحيد والنبوة والوعيد على الكفر بالله، والوعد على طاعة الله تعالى.

ومنهم من قال: بل المشار إليه بهذه الإشارة هو من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغي. أما القوة النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة، وأما في القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذمية.

وأما قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ [الأعلى: ١٥] فهو إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى، وأما قوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٥] فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى.

وأما قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] فهو إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا.

وأما قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] فهو إشارة إلى الترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع، فلهذا السبب قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهذا الوجه كما تأكد بالعقل فالخبر يدل عليه، روى عن أبي ذر أنه قال: قلت هل في الدنيا مما في صحف إبراهيم وموسى؟ فقال: اقرأ يا أبا ذر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقال آخرون: إن قوله (هذا) إشارة إلى قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وذلك لأن الإشارة راجعة إلى أقرب المذكورات وذلك هو هذه الآية، وأما قوله: ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فهو نظير لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

فيه قولان: أحدهما: أنه بيان لقوله: ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨] والثاني: أن المراد أنه مذكور في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى، روي عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: «**مِائَةً وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، عَلَى آدَمَ عَشْرَ صُحُفٍ وَعَلَى شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً وَعَلَى إِدْرِيسَ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ**»(١) وقيل: إن في صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون حافظًا للسانه عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رواه الأجرى في (الأربعين) (١/ ٤٥) حديث رقم (٤٤) من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثني أبي حدثني جدي عن إدريس الخولاني عن أبي ذر... به والطبري في (تاريخ الرسل والملوك) (١/ ٥٥) من طريق أبي سليمان عن القاسم بن محمد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر... به وقال الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٤/ ١٩٦) وقال: رواه الحاكم في المستدرك في الفضائل من حديث عبيد بن عبير عن أبي ذر فذكره وسكت عنه وكذلك رواه الطبراني في معجمه والبيهقي في أول شعب الإيمان وأبو نعيم الحافظ في الحلية في ترجمة أبي ذر كلهم بلفظ ابن حبان سواء وكأن الوهم من المصنف في قوله على آدم عشر صحف.

سورة «الأعلى»

مَكِّيةٌ في قولِ الجمهورِ، وقال الضحَّاكُ: مَدَنِيَّةٌ[1]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾

يُستحبُّ للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن يقول عَقِبَه: سبحانَ ربِّي الأَعْلَى؛ قاله النبيُّ ﷺ، وقاله جماعةٌ من الصحابة والتابعين، على ما يأتي.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه قال: إنَّ لله تعالى مَلَكاً يقال له: حزقيائيل، له ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ جَناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناحِ مَسيرةُ خمسِ مئةِ عام، فخطَر له خاطِرٌ: هل تَقْدِرُ أن تُبْصِر العرشَ جميعَه؟ فزادَه الله أجنحةً مِثْلَها، فكان له ستةٌ وثلاثون ألفَ جناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناح خمسُ مئةِ عامٍ. ثم أَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، أَنْ طِرْ، فطار مقدارَ عشرين ألفَ سنةٍ، فلم يبلغ قائمة[2] من قوائم العرش. ثم ضاعف الله في الأجنحةِ والقوةِ، وأَمَره أن يطير، فطار مقدارَ ثلاثين ألفَ سنةٍ أخرى، فلم يَصِلْ أيضاً، فأَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، لو طِرْتَ إلى نفخِ الصورِ مع أَجْنِحَتِك وقوتك لم تبلغ ساقَ عرشي. فقال المَلَك: سبحانَ ربِّي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقال النبيُّ ﷺ: «اجْعَلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في «كتاب العرائس» له[3]. وقال ابن عباس والسُّديُّ: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: عَظِّمْ ربَّك الأعلى. والاسمُ صِلةٌ قُصِد بها تعظيمُ المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

---

(١) حكاه عنه النقاش، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٨، قال ابن عطية: وهو ضعيف، وإنما دعا إليه قولُ مَن قال: إنَّ ذكر صلاة العيد فيها.

(٢) في (م): رأس قائمة.

(٣) ص١٦.

إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما[١]

وقيل: نَزِّه ربَّك عن السوء، وعمَّا يقولُ فيه المُلْحِدون.

وذكر الطبريّ أنَّ المعنى: نزِّه اسمَ ربِّك عن أن يسمَّى به أحدٌ سواه[٢].

وقيل: نَزِّهْ تَسْمِيةَ ربِّك وذِكْرَكَ إياه، أن تَذْكُره إلَّا وأنت خاشعٌ مُعَظِّمٌ، ولذِكْرِه محترِمٌ. وجعلوا الاسمَ بمعنى التَّسْميةِ[٣]، والأَوْلَى أن يكون الاسمُ هو المسَمَّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تَقُلْ على اسمِ الله؛ فإنَّ اسمَ الله هو الأعلى[٤].

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربِّك الأعلى[٥]. قال: وهو أن تقولَ: سبحان ربِّي الأعلى. وروي عن عليٍّ ﷺ وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود ﷺ: أنَّهم كانوا إذا افْتَتَحوا قراءةَ هذه السورةِ قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى[٦]؛ امتثالاً لأمره في ابتدائها. فيُختارُ الاقتداءُ بهم في قراءتهم، لا أنَّ سبحان ربِّي الأعلى من القرآن؛ كما قال بعضُ أهلِ الزَّيغ.

وقيل: إنَّها في قراءةِ أُبيٍّ: «سبحان ربِّي الأعلى». وكان ابنُ عمر يقرؤها كذلك[٧].

وفي الحديث كان رسولُ الله إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر

(١) وعجزه: ومَن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ، وهو في ديوان لبيد ص٧٩ ، وسلف ١/ ١٥٣ ، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥١ ، وينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٣١١ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٠-٣١١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٨٤-٣٨٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ ، وذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٩ عن الكلبي.

(٦) أخرج هذه الآثار ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٨ -٥٠٩ ، والطبري ٢٤/ ٣٠٩-٣١٠ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٥٢ ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٠٩ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يقرأ: «سبح اسم ربك الأعلى سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى». قال: وهي في قراءة أبي بن كعب كذلك.

الأنباريُّ: حدَّثني محمد بنُ شَهْريار، قال: حدَّثنا حسين بن الأسود، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدَّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليّ بن أبي طالب ﷺ في الصلاة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقال: سبحان ربِّي الأعلى، فلمَّا انقضت الصلاةُ قيل له: يا أمير المؤمنين، أَتَزيدُ هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربِّي الأعلى. قال: لا، إنَّما أُمِرنا بشيءٍ فقُلْتُه(١).

وعن عقبةَ بن عامر الجُهَنيّ قال: لمَّا نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلوها في سجودكم»(٢).

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الاسم هو المسمَّى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسمِ ربِّي الأعلى.

وقيل: إنَّ أوّلَ مَن قال: سبحان ربي الأعلى، ميكائيلُ عليه السلام. وقال النبيُّ ﷺ لجبريل: «يا جبريلُ، أَخْبِرْني بثوابِ مَن قال: سبحان ربِّي الأعلى، في صلاته أو في غيرِ صلاته». فقال: «يا محمدُ، ما مِن مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ يقولهُا في سجوده أو في غير سجوده، إلَّا كانت له في ميزانه أَثْقلَ من العرش والكرسيِّ وجبالِ الدنيا، ويقول الله تعالى: صَدَقَ عبدي، أنا فوقَ كلِّ شيءٍ، وليس فوقي شيءٌ، اشْهَدوا يا ملائكتي أنِّي قد غَفَرْتُ له، وأَدْخَلْته الجنةَ. فإذا مات زاره مِيكائيلُ كلَّ يومٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ حَمَلَه على جناحه، فأَوْقَفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يارِبِّ، شَفِّعني فيه، فيقول: قد شَفَّعْتُك فيه، فاذهَبْ به إلى الجنة»(٣).

وقال الحسن: «سبِّحِ اسمَ ربِّك الأعلى» أي: صلِّ لربِّك الأعلى. وقيل: أي:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٨ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف وللفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الواقعة.

(٣) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢٥٧-٢٥٨ دون قوله: فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه... ، وفي إسناده محمد بن الحسن النقاش المفسر، قال عنه البرقاني: كل حديث النقاش منكر. الميزان ٣/ ٥٢٠ .

صلِّ بأسماء الله، لا كما يصلِّي المشركون بالمُكَاءِ والتَّصْدِية.

وقيل: ارْفعْ صوتك بذِكْرِ ربّك. قال جرير:

قَبَحَ الإلهُ وُجوهَ تَغْلِبَ كلَّما ... سَبَحَ الحجيجُ وكَبَّروا تَكْبيرا[١]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قد تقدَّم معنى التَّسْويةِ في «الانفطار» وغيرِها[٢].

أي: سوَّى ماخَلَق، فلم يكن في خَلْقِه تَثْبيج[٣]. وقال الزجَّاج: أي: [خَلَقَ الإنسانَ سَوِيًّا. ومعنى «سوَّى»] عدَّل قامَتَه[٤]. وعن ابن عباس: حَسَّنَ ما خَلَق.

وقال الضحَّاك: خَلَق آدمَ فسوَّى خَلْقَه. وقيل: خَلَق في أصلاب الآباءِ، وسوَّى في أرحام الأمَّهات. وقيل: خَلَقَ الأجساد، فسوَّى الأفهام[٥]. وقيل: أي: خَلَق الإنسانَ وهيَّأه للتكليف.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قرأ عليٌّ ﷺ والسُّلَميُّ والكسائيُّ: «قَدَر» مخفَّفةَ الدَّالِ، وشدَّد الباقون[٦]. وهما بمعنًى واحدٍ. أي: قدر ووفَّق لكلِّ شَكْلٍ[٧] شَكْلَه، «فَهَدَى» أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥١ ، والتاج (سبح). وهو في ديوان جرير ١/ ٥٢ برواية:

قبح الإله وجوه تغلب كلما ... شَبَح الحجيج وكبروا إهلالا

قال محمد بن حبيب شارح الديوان: الشبح: رفع الأيدي بالدعاء، والإهلال: رفع الصوت.

(٢) ينظر ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) أي: تخليط. اللسان (ثبج).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٦٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وقول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣١٥ دون قوله: ومعنى سوى...

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٥٢ .

(٦) السبعة ص٦٨٠ ، والتيسير ص٢٢١ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦ .

(٧) في (ظ): شيء.

أَرْشَدَ. قال مجاهد: قدَّر الشقاوةَ والسعادةَ، وهَدى للرُّشدِ والضلالة. وعنه[(١)] قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشَّقاوة، وهَدَى الأنعامَ لمراعيها.

وقيل: قدَّر أقواتَهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إنْ كانوا وَحْشاً.

وروي عن ابن عباس والسُّديِّ ومقاتلٍ والكلبيِّ في قوله: «فَهَدَى»، قالوا: عَرَّفَ خَلْقَه كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى، كما قال في «طه»: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [الآية: ٥٠] أي: الذَّكَرَ للأنثى.

وقال عطاء: جَعَل لكلِّ دابَّةٍ ما يُصْلِحُها، وهداها له[(٢)].

وقيل: خَلَق المنافعَ في الأشياء، وهدى الإنسانَ لوجه استخراجِها منها.

وقيل «قَدَّر فهدَى»: قدَّر لكلِّ حيوانٍ ما يُصْلِحهُ، فهداه إليه، وعرَّفه وجهَ الانتفاعِ به. يُحكَى أنَّ الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنةٍ عَمِيتْ، وقد أَلْهَمَها الله أنَّ مَسْحَ العينِ بورقِ الرازيانج الغضِّ يردُّ إليها بَصَرَها، فربما كانت في بَرِّيةٍ بينها وبين الريف مسيرةُ أيامٍ، فتَطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عَمَاها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرةِ الرازيانج لا تخطئُها، فتحكُّ بها عينها وترجع باصرةً بإذن الله تعالى[(٣)].

وهداياتُ الإنسانِ إلى مالا يُحَدُّ من مصالحه، ومالا يُحْصَرُ من حَوَائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبوابِ دنياه ودِينِه، وإلهاماتُ البهائمِ والطيورِ وهوامِّ الأرضِ بابٌ واسعٌ، وشَوْطٌ بَطِينٌ[(٤)]، لا يحيطُ به وصفُ واصفٍ؛ فسبحان ربِّي الأعلى.

وقال السُّدِّيُّ: قدَّر مدَّةَ الجنينِ في الرَّحِم تسعةَ أشهرٍ، وأقلَّ وأكثَرَ، ثم هداه

(١) بعدها في (ظ): أيضاً.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٧٩-٨٠ و٢٤/ ٣١١-٣١٢، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وزاد المسير ٩/ ٨٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٣، والرازيانج: نبات يعرف اليوم بالشَّمَر. معجم متن اللغة (رزن).

(٤) أي: بعيد. القاموس (بطن)، والكلام من الكشاف ٤/ ٢٤٣.

للخروج من الرَّحِم[١].

وقال الفراء[٢]: أي: قدَّر فهدى وأضلَّ؛ فاكتفَى بذِكْرِ أحدِهما، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

ويحتملُ أن يكون بمعنى: دعا إلى الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لتَدْعو، وقد دعا الكلَّ إلى الإيمان.

وقيل: «فهدى»، أي: دلَّهم بأفعاله على توحيده، وكونِه عالماً قادراً.

ولا خلافَ أنَّ مَن شدَّد الدال مِن «قَدَّر» أنه مِن التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ومَن خفَّف، فيحتملُ أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتملُ أن يكون من القُدْرة والمُلْك، أي: مَلَكَ الأشياءَ، وهَدَى مَن يشاء.

قلت: وسمعتُ بعضَ أشياخي يقول: «الذي خَلَق فسوَّى والذي قدَّر فهدَى» هو تفسيرُ العلوِّ الذي يليقُ بجلالِ الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: النباتَ والكلأَ الأخضَر. قال الشاعر:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى   وَتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيَا[٣]

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاء: ما يَقْذِفُ به السيلُ على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[٤]. وكذلك الغُثَّاء بالتشديد. والجمع: الأغثاء. قتادة: الغُثَاء:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ ، وزاد المسير ٩/ ٨٨ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦ .

(٣) البيت لزُفَر بن الحارث الكلابي، كما في مجالس ثعلب ص٣٦٧ ، والمعاني الكبير ٢/ ٨٤٨ ، وجمهرة الأمثال ١/ ١٧ ، وديوان المعاني ٢/ ٢٠٠ ، والحماسة البصرية ١/ ٢٦ . قال العسكري: معناه: أن الدِّمْنة هي الموضع الذي تبرك فيه الإبل، فتبول وتبعر فيه فلا يُنْبِتُ شيئاً، فإذا أصابته السماء وسَفَتْه الرياح أنبت، فيقول: إن ذلك الموضع قد يُنبت بعد أن لم يكن ينبت، فيتغير بالنبات، وتبقى حزازات النفوس لا تتغير.

(٤) القماش: هو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء. القاموس (قمش).

الشيء اليابس[(١)]. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطَّم ويَبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للَّذي يكون حولَ الماء من القُماش: غثاء، كما قال:

كـأنَّ طَـمِـيَّـةَ الـمُـجَـيْـمِـرِ غُـدْوةً   من السَّيْل والأَغثاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ[(٢)]

وحكى أهلُ اللغةِ: غثا الوادي وجفأ[(٣)]. وكذلك الماء إذا علاه من الزَّبَد والقُماش مالا يُنتفَعُ به.

والأَحْوى: الأسود، أي: أنَّ النبات يَضْرِبُ إلى الحُوَّة من شدَّة الخضرةِ كالأسود. والحوَّةُ: السَّوَاد؛ قال الأعشى:

لَـمْـيَـاءُ فـي شَـفَـتـيـهـا حُـوَّةٌ لَـعَـسٌ   وفـي اللِّـثـاتِ وفـي أنـيـابـهـا شَـنَـبُ[(٤)]

وفي «الصحاح»: والحوَّةُ: سُمْرةُ الشَّفةِ. يقال: رجلٌ أَحْوَى، وامرأةٌ حوَّاء، وقد حَوِيَتْ. وبعيرٌ أَحْوَى: إذا خالَطَ خضرتَه سوادٌ وصُفْرةٌ. وتصغيرُ أَحْوَى: أُحَيْوٍ، في لغةِ مَن قال: أُسَيْوِد[(٥)].

ثم قيل: يجوزُ أن يكون «أَحْوَى» حالاً من «المَرْعَى»، ويكون المعنى: كأنه من

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧، والطبري ٢٤/ ٣١٣-٣١٤.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٥ برواية: من السيل والغُثَّاء. ووقع في (ظ): كأن ذرى رأس المجيمر... ، وهو موافق لرواية البيت في شرح المعلقات للنحاس ١/ ٤٨، وللتبريزي ص٧٠. قال التبريزي: روى الأصمعي: كأن طمية المجيمر، والمجيمر أرض لبني فزارة، وطميةُ: جبل في بلادهم، يقول: قد امتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل؛ لِمَا جمع السيلُ حوله من الغثاء. ورواه الفراء: من السيل والأغثاء، جمع الغُثَاء وهو قليل في الممدود.

(٣) في النسخ: وانجفى، والمثبت من المعاجم، وفي الصحاح (جفأ): جَفَأَ الوادي جَفْأً: إذا رمى بالقذى والزَّبَد

(٤) البيت ليس للأعشى كما ذكر المصنف، وإنما هو لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٢. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّمى: سُمْرةٌ في الشفتين، وكذلك الحُوَّة شبيهة باللمى تضرب إلى السواد، وكذلك اللَّعَس يكون بالشفتين واللثة. والشنب، قال الأصمعي: بردٌ وعذوبة في الأسنان، وغيره يقول: تمديد الأسنان ودقتها، والأول أجود.

(٥) في الصحاح (حوا).

خُضْرته يَضْرِبُ إلى السواد، والتقدير: أَخْرجَ المرعَى أَحْوَى، فجعله غُثاءً. يقال: قد حَوِيَ النَّبْتُ؛ حكاه الكسائيُّ. وقال:

وغَيْثٍ من الوسْمِيِّ حُوٌّ تِلاعُه تَبطَّنْتُه بشيظَمٍ صَلَتانِ[١]

ويجوزُ أن يكون «أحوى» صفةً لـ «غُثاء». والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. قال أبو عبيدةَ[٢]: فجعله أسودَ من احتراقه وقِدَمِه؛ والرَّطْبُ إذا يَبِسَ اسْوَدَّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضرَ، ثم لمَّا يَبِسَ اسودَّ[٣]، فصار غُثاءً تذهبُ به الرياحُ والسيول[٤]. وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها[٥].

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: القرآنَ يا محمدُ، فنُعلِّمُكه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فتحفظُ؛ رواه ابنُ وهبٍ عن مالك[٦]. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشَّره بأنْ أعطاه آيةً بيِّنةً، وهي أنْ يقرأَ عليه جبريلُ ما يَقْرأُ عليه من الوحي، وهو أُميٌّ لا يَكتبُ ولا يقرأ، فيحفظُه ولا ينساه.

وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال: كان يتذكَّر مخافةَ أنْ يَنْسى[٧]، فقيل:

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٧ . قوله: الوسمي، هو مطر الربيع الأول . والتلاع جمع التَّلعة، وهي مسيل الماء، أو ما اتسع من فوهة الوادي، أو القطعة المرتفعة من الأرض. والصَّلَتان: الحديد الفؤاد من الخيل. القاموس (وسم) و(تلع) و(صلت). وقال شارح الديوان: الحوَّة لون يضرب إلى السواد، يصف أن نبات التِّلاع حُوٌّ ناعم ريَّان، فخضرته تضرب إلى السواد، وقوله: تبطَّنته، أي: سلكت بطنه وسرت فيه. والشيظم: الطويل.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٥ .

(٣) بعدها في (م): من احتراقه.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥ .

كَفَيتُكَه. قال مجاهد والكلبيُّ: كان النبيُّ ﷺ إذا نزل عليه جبريلُ بالوحي، لم يَفْرَغْ جبريلُ من آخرِ الآيةِ، حتى يتكلَّم النبيُّ ﷺ بأوَّلها مخافةَ أن يَنْساها، فنزلت: «سَنُقْرِئكَ فلا تَنْسَى» بعد ذلك شيئاً[(١)]، فقد كَفَيتُكَه.

ووجهُ الاستثناءِ على هذا، ما قاله الفرَّاءُ: إلَّا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨] ولا يشاءُ. ويقال في الكلام: لأُعْطينَّكَ كلَّ ما سألتَ إلَّا ما شئتُ، وإلَّا أنْ أشاء أنْ أمنعكَ، والنيةُ على ألَّا يمنعه شيئاً. فعلى هذا مَجارِي الأيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونيةُ الحالفِ التمامُ[(٢)].

وفي روايةِ أبي صالحٍ عن ابن عباس: فلم يَنْسَ بعد نزولِ هذه الآيةِ حتى مات، إلَّا ما شاء الله. وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً، إلَّا ما شاء الله[(٣)]. وعلى هذه الأقوالِ قيل: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم يَنْسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية.

وقيل: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَى، ثم يَذْكُر بعد ذلك، فإذًا قد نسي، ولكنه يتذكَّر ولا ينسَى نسياناً كُلِّياً. وقد رُوِي أنه أَسْقَطَ آيةً في قراءته في الصلاة، فحسِبَ أبَيٌّ أنها نُسِخَتْ، فسأله فقال: «نُسِّيتُها»[(٤)].

وقيل: هو من النسيان، أي: إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَ. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ، أي: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَخَه. والإنساءُ[(٥)] نوعٌ من النَّسْخ. وقيل: النسيانُ بمعنى التَّرك، أي: يَعْصِمُكَ مِن أنْ تتركَ العملَ به، إلَّا ما شاء الله أن تتركه لنَسْخِه إياه. فهذا في نَسْخِ العملِ، والأوّلُ في نَسْخِ القراءة.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٦٥)، والبخاري في القراءة خلف الإمام (١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٨٣).

(٥) في النسخ: والاستثناء، والمثبت من الوسيط ٤/ ٤٧٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦ .

قال الفَرْغانيُّ(١): كان يَغْشَى مجلسَ الجنيد أهلُ البَسْطِ من العلوم، وكان يغشاه ابنُ كَيْسانَ النحويُّ، وكان رجلاً جليلاً، فقال يوماً: ما تقولُ يا أبا القاسم في قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدَّم له السؤالُ قبل ذلك بأوقاتٍ ـ: لا تَنسَى العملَ به. فقال ابن كيسانَ: لا يَفْضُضِ الله فاكَ مِثْلُكَ مَن يُصْدَر عن رأيه(٢).

وقوله: «فلا»: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي، وإنَّما أُثبتتِ الياء لأنَّ رؤوسَ الآيِ على ذلك(٣). والمعنى: لا تَغْفَلْ عن قراءته وتَكْرارِه فتنساه، إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَه برفع تلاوته للمصلحة(٤). والأوّلُ هو المختار؛ لأنَّ الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلَّا مؤقَّتاً معلوماً. وأيضاً فإنَّ الياء مُثْبتةٌ في جميع المصاحف، وعليها القرَّاءُ.

وقيل: معناه: إلَّا ما شاء الله أن يؤخِّر إنزالَه. وقيل: المعنى: فجعله غثاءً أَحْوى إلَّا ما شاء الله أن يناله بنو آدمَ والبهائمُ، فإنَّه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ أي: الإعلانَ من القول والعمل. ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ من السرِّ. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم(٥): يعلم إعلانَ الصدقةِ وإخفاءَها. وقيل: الجهرُ ما حَفِظْتَه من القرآن في صدرك، «وما يَخْفَى» هو ما نُسِخ من صدرك(٦).

﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوفٌ على «سنُقْرِئك»، وقولُه: «إنَّه يعلمُ الجهرَ وما يَخْفَى»

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عباد، ولقبه حمدون وهو الغالب عليه، توفي سنة (٢٧٠هـ). تاريخ بغداد ٤/ ٢٧١ و٨/ ١٧٧ .

(٢) ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٦ عن جعفر بن محمد الخلدي قال: حضرت شيخنا جنيداً، وسأله ابن كيسان... ، وذكر القصة بنحوها.

(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٩ ، والكشاف ٤/ ٢٤٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٤٢ ، ويعني بالياء الألف في «تنسى»، والتي أصلها ياء.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٣ .

(٥) لعله محمد بن حاتم بن ميمون المروزي ثم البغدادي السمين، الحافظ المفسِّر، جمع كتاباً في تفسير القرآن، كتبه الناس عنه ببغداد. توفي سنة (٢٣٥هـ). السير ١١/ ٤٥٠ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣ ، وفيه: ... وما يخفى هو ما نسخ من حفظك.

اعتراضٌ. ومعنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للطَّريقة اليُسْرَى؛ وهي عملُ الخير. قال ابن عباس: نيسِّركَ لأنْ تعملَ خيراً. ابن مسعود: «لِلْيُسْرى» أي: للجنة. وقيل: نوفِّقُكَ للشريعة اليُسْرى؛ وهي الحنيفيةُ السَّمْحةُ السَّهْلةُ؛ قال معناه الضحَّاك. وقيل: أي: نهوِّنُ عليك الوحيَ حتى تَحْفَظَه وتعملَ به(١).

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فَعِظْ قومَكَ يا محمدُ بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظةُ. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرةٌ للمؤمن، وحجةٌ على الكافر. وكان(٢) ابن عباس يقول: تنفعُ أوليائي، ولا تنفعُ أعدائي.

وقال الجُرْجانيُّ: التذكيرُ واجبٌ وإنْ لم يَنْفَعْ، والمعنى: فذكِّر إنْ نفعت الذكرى، أو لم تَنْفع، فحذف، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١](٣).

وقيل: إنه مخصوصٌ بأقوامٍ بأعيانهم. وقيل: «إنْ» بمعنى ما ، أي: فذكِّر ما نَفَعتِ الذكرى، فتكون «إنْ» بمعنى ما، لا بمعنى الشَّرْطِ؛ لأنَّ الذكرى نافعةٌ بكلِّ حالٍ؛ قاله ابنُ شَجَرة.

وذكر بعضُ أهلِ العربية: أنَّ «إنْ» بمعنى إذْ، أي: إذْ نَفَعْت، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذ كنتم، فلم يُخْبِرْ بعلُوِّهم إلَّا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

أي: مَن يَتَّقي اللهَ ويخافُه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلتْ في ابنِ أمّ

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦ .

(٢) في (د): وقال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦ ، والوسيط ٤/ ٤٧٠ .

مكتوم[١]. الماوَرْديُّ[٢]: وقد يذَّكَّرُ مَن يرجوه، إلَّا أنَّ تَذْكِرةَ الخاشي أبْلَغُ من تذكرة الراجي، فلذلك علَّقها بالخشية دون الرجاء، وإنْ تَعلَّقتْ بالخشية والرجاء.

وقيل: أي: عَمِّمْ أنت التذكيرَ والوَعْظَ، وإنْ كان الوعظُ إنَّما ينفعُ مَن يَخْشَى، ولكنْ يحصلُ لك ثوابُ الدعاءِ؛ حكاه القُشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: ويتجنَّبُ الذكرى ويبعدُ عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الشقيُّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بنِ المغيرة وعتبةَ بنِ ربيعة[٣].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العُظْمَى، وهي السُّفْلى من أطباقِ النار؛ قاله الفرَّاء[٤]. وعن الحسن: الكبرى نارُ جهنم، والصغرى نارُ الدنيا. وقاله يحيى بن سلام[٥].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموتُ فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياةً تنفعُه، كما قال الشاعر:

أَلَا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي ... عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ[٦]

وقد مضى في «النساء» وغيرِها حديثُ أبي سعيد الخُدْريِّ، وأنَّ الموحِّدين من

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٤٦ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٤٩ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٤ عن يحيى بن سلام.

(٦) البيت لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦، والأغاني ٩/ ١٥٠، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١، ووقع في هذه المصادر: ألا مَن لنفسي... ، والبيت برواية المصنف في اللسان (طعم).

المذنبين[١] إذا دخلوا جهنم ـ وهي النارُ الصُّغرى على قول الفرَّاء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم. خرَّجه مسلم[٢].

وقيل: أهلُ الشَّقاءِ متفاوتون في شقائهم، وهذا الوعيدُ للأشقى، وإن كانَ ثَمَّ شقيٌّ لا يبلغُ هذه المرتبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد صادفَ البقاءَ في الجنة، أي: مَن تَطَهَّر من الشِّرك بالإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاءٌ وعكرمة[٣]. وقال الحسن والربيع: مَن كان عملُه زاكياً نامِياً[٤]. وقال مَعْمر عن قتادة: «تزكَّى»، قال: بعملٍ صالح[٥].

وعنه وعن عطاءٍ وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطْرِ. وعن ابن سِيرينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: خرج فصلَّى بعد ما أَدَّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدِّم زكاتي بين يَدَيْ صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ وابنِ عمر: أنَّ ذلك في صدقة الفطر، وصلاةِ العيد[٦]. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إنَّ أهلَ المدينةِ لا يَرَوْنَ

(١) في (م): المؤمنين.

(٢) في صحيحه (١٨٥)، وسلف ٦/ ٩٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ ، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ٣١٩ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧ .

(٦) تنظر أقوالهم في الوسيط ٤/ ٤٧١-٤٧٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦-٤٧٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٠ ، والدر المنثور ٦/ ٣٤٠ .

صدقةً أفضلَ منها، ومن سِقاية الماء[١].

وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال: «أَخْرجَ زكاةَ الفِطْرِ»، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: «صلاة العيد»[٢].

وقال ابن عباس والضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّه» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى» صلاةَ العيد[٣].

وقيل: المرادُ بالآية زكاةُ الأموالِ كلِّها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء[٤]. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: «قد أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى» للفِطْر؟ قال: هي للصَّدَقات كلِّها[٥].

وقيل: هي زكاةُ الأعمال، لا زكاةُ الأموال، أي: تطهَّر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأنَّ الأكثر أن يقال في المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبيُّ ﷺ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وخَلَعَ الأندادَ، وشَهِدَ أنِّي رسولُ الله»[٦]. وعن ابن عباس: «تزكَّى»، قال: لا إلهَ إلَّا الله[٧].

وروى عنه عطاءٌ قال: نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ. قال: كان بالمدينة منافقٌ كانت له نخلةٌ مائلةٌ في دار رجلٍ من الأنصار، إذا هبَّتِ الرياحُ أَسْقطَتِ البُسْرَ والرُّطَبَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢٠ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٢٠)، والبزار (٣٣٨٣)، وابن عدي ٦/ ٢٠٨٠، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١. وكثير بن عبد الله، قال عنه الحافظ في مختصر زوائد مسند البزار ١/ ٣٩٨: ضعيف جدًّا.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٩/ ٢٢ عن أبي الأحوص، وسيأتي عن عطاء، وأخرجه عن أبي الأحوص بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠، وفيه أن السائل هو عطاء والمسؤول ابن عباس.

(٦) أخرجه البزار (٢٢٨٤-كشف) والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١، وفي إسناده عباد بن أحمد العرزمي، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧: متروك.

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وهو عند الطبري ٢٤/ ٣١٩ بلفظ: تزكَّى من الشرك.

إلى دار الأنصاريِّ، فيأكلُ هو وعيالهُ، فخاصمه المنافقُ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: «إنَّ أخاك الأنصاريَّ ذكر أن بُسْركَ ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعيالهُ، فهل لك أنْ أُعطيكَ نخلةً في الجنة بَدَلَها؟» فقال: أبيعُ عاجلاً بآجلٍ! لا أَفْعلُ. فذَكَروا أنَّ عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخلٍ بَدَلَ نخلته، ففيه نزلتْ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾. ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾[(١)].

وذكر الضحاك: أنَّها نزلت في أبي بكر الصدِّيقِ ﷺ[(٢)].

الثانية: قد ذَكَرنا القولَ في زكاة الفِطْرِ في سورة البقرة مستوفىً[(٣)]. وقد تقدَّم أنَّ هذه السورةَ مكيةٌ، في قول الجمهور، ولم يكن بمكةَ عِيدٌ ولا زكاةُ فِطْرٍ. القشيرِيُّ: ولا يَبْعدُ أن يكون أَثْنَى على مَن يَمتثلُ أمره في صدقة الفِطر وصلاةِ العيد، فيما يأمُر به في المستقبل.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذَكَر ربَّه. وروى عطاءٌ عن ابن عباس قال: يريدُ ذَكَر مَعَادَه وموقفَه بين يدي اللهِ جلَّ ثناؤه، فعَبَدَه وصلَّى له[(٤)].

وقيل: ذَكَر اسمَ ربِّه بالتكبير في أوّل الصلاة؛ لأنَّها لا تنعقدُ إلَّا بِذِكْره، وهو قولُه: الله أكبر، وبه يُحتَجُّ على وجوب تكبيرةِ الافتتاح، وعلى أنَّها ليست من الصلاة؛ لأنَّ الصلاة معطوفةٌ عليها. وفيه حجةٌ لمن قال: إنَّ الافتتاح جائزٌ بكلِّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٥)]. وهذه مسألةٌ خلافيةٌ بين الفقهاء. وقد مضى القولُ في هذا في أوَّلِ سورة البقرة[(٦)].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٥ عن عطاء في سبب نزول سورة الليل، وفيه: أبو الدحداح، بدل: عثمان. وأخرجه بنحوه مطولاً عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٥ في سبب نزول سورة الليل أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ .

(٣) ينظر ما سلف ٢/ ٢٤ و٤/ ٣٦٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٩-١٩١٠ .

(٦) ١/ ٢٦٩ .

وقيل: هي تكبيراتُ العيد؛ قال الضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّهِ» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى»، أي: صلاةَ العيد[١].

وقيل «وذكر اسم ربِّهِ» هو أنْ يَذْكُره بقلبه عند صلاته، فيخافُ عقابَه، ويرجو ثوابَه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعُه فيها، بحَسَبِ خوفه ورجائه[٢].

وقيل: هو أنْ يفتتحَ أوّلَ كلِّ سورةٍ ببسم الله الرحمن الرحيم[٣]. «فصلَّى» أي: فصلَّى وذكر. ولا فَرْقَ بين أن تقول: أكْرمتني فزُرْتني، وبين أن تقول: زُرْتَني فأكْرَمْتني. قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلواتُ الخمس[٤]. وقيل: الدعاء، أي: دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيُّ وابنُ عمر وغيرهما. وقد تقدَّم[٥].

وقيل: هو أن يتطوَّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص[٦]، وهو مقتضى قولِ عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: مَن أقام الصلاةَ ولم يُؤْتِ الزكاةَ فلا صلاةَ له[٧].

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾

قراءة العامة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء، تصديقُه قراءةُ أبيٍّ: «بل أنتم تُؤْثِرون»[٨]. وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم: «بل يؤثِرون» بالياء على الغيبة[٩]، تقديرهُ: بل يؤثِرُون

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥، وسلف في المسألة الأولى.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢١ .

(٥) في المسألة الأولى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٧٤).

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٢ عن ابن مسعود ﷺ.

(٩) السبعة ص٦٨٠، والتيسير ص٢٢١ عن أبي عمرو.

الأَشْقَونَ الحياةَ الدنيا(١). وعلى الأوّل فيكونُ تأويلُها: بل تُؤْثِرون أيُّها المسلمون الاستكثارَ من الدنيا على الاستكثار(٢) من الثواب.

وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أَتَدْرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ لأنَّ الدنيا حَضَرتْ وعُجِّلَتْ لنا طيباتُها، وطعامُها وشرابُها، ولذَّاتُها وبَهْجَتُها، والآخرة غُيِّبتْ عنَّا. فأَخَذْنا العاجلَ، وتَرَكْنا الآجِلَ(٣).

وروى ثابتٌ عن أنسٍ قال: كُنَّا مع أبي موسى في مَسِيرٍ، والناسُ يتكلَّمون ويَذْكُرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إنَّ هؤلاء يكادُ أحدُهم يَفْرِي الأديمَ بلسانه فَرْياً، فتعال فلْنَذْكُر ربَّنا ساعةً. ثم قال: يا أنس، ما ثَبَرَ الناس! ما بَطَّأ بهم؟ قلت: الدُّنيا والشيطانُ والشهواتُ. قال: لا، ولكنْ عُجِّلَتِ الدنيا، وغُيِّبت الآخرة، أمَا واللهِ لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا(٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾

أي: والدارُ الآخرةُ، أي: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضلُ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أَدْوَمُ من الدنيا. وقال النبيُّ ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يضعُ أحدُكم أصبعَه في اليمِّ، فلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدم(٥). وقال مالك بنُ دينارٍ: لو كانت الدنيا من ذهبٍ يَفْنَى، والآخرةُ من خزفٍ يبقَى، لكان الواجبُ أنْ يُؤْثَر خزفٌ يبقَى على ذهبٍ يفنَى.

---

(١) يعني أنه مردود على الأشقى في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

(٢) في النسخ: للاستكثار، بدل: على الاستكثار، والمثبت من اللباب ٢٠/ ٢٨٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢٢ ، والطبراني في الكبير (٩١٤٧). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٨٦ ، وأحمد في الزهد ص٢٤٧ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٩ .
قوله: يفري الأديم، الفَرْي: الشَّق، والأديم: الجلد. القاموس (أدم) و(فري).
وقوله: ما ثبر الناس، أي: مالذي صدَّهم ومنعهم. قوله: ما عدلوا، أي: ما ساوَوا بها شيئاً. ولا ميَّلوا، أي: ما شكُّوا ولا تردَّدوا. النهاية (ثبر) و(ميل).

(٥) ٥/ ٤٨١ ، وهو في صحيح مسلم (٢٨٥٨).

قال: فكيف والآخرةُ من ذهبٍ يبقَى، والدنيا من خزفٍ يفنَى!

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال قتادة وابنُ زيد: يريد قولَه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وقالا: تتابعتْ كتبُ اللهِ جلَّ ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقَى من الدنيا[١].

وقال الحسن: «إِنَّ هذا لَفي الصحفِ الأُولى» قال: كُتُبِ الله جلَّ ثناؤه كلِّها[٢].

الكلبيُّ: «إِنَّ هذا لفي الصُّحفِ الأُولى»: من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى آخر السورة[٣]؛ لحديثِ أبي ذرٍّ على ما يأتي.

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس: «إِنَّ هذا لفي الصحف الأولى» قال: هذه السورة[٤].

وقال الضحاك: إنَّ هذا القرآنَ لفي الصُّحُفِ الأُولى[٥]، أي: الكتبِ الأُولى.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني الكتبَ المنزلةَ عليهما. ولم يُرِدْ أنَّ هذه الألفاظَ بعينها في تلك الصحف، وإنَّما هو على المعنى، أي: إنَّ معنَى هذا الكلامِ واردٌ في تلك الصُّحف. وروى الآجُرِّيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فما كانت صحفُ إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملكُ المتسلِّطُ المُبْتَلَى المغرورُ، إنِّي لم أَبْعثْكَ لتَجْمَعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكنْ بَعثْتُكَ لتردَّ عني دعوةَ المظلوم، فإنِّي لا أردُّها ولو كانت من فمِ كافرٍ. وكان فيها أمثالٌ: وعلى العاقلِ أن يكون له ساعاتٌ: ساعةٌ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَه، يفكِّر فيها في صُنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه قولهما الطبري ٢٤/ ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١ .

(٣) ذكره الطبري ٢٤/ ٣٢٥ واختاره.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٠٤)، وسعيد بن منصور، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١ .

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٠ وقال: قول ضعيف؛ لأنه باطل قطعاً.

إليه، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من المَطْعَم والمَشْرَب. وعلى العاقل ألَّا يكون ظاعنًا إلَّا في ثلاثٍ: تزوُّدٌ لمعَادٍ، وَمَرمَّةٌ لمعاشٍ، ولذةٌ في غير محرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مُقْبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومَن عدَّ[1] كلامَه من عمله قلَّ كلامُه إلَّا فيما يعنيه». قال: قلتُ: يا رسول الله، فما كانت صحفُ موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها: عجِبْتُ لمن أَيْقَنَ بالموت كيف يفرح! وعجبتُ لمن أيقنَ بالقَدَر كيف ينْصَب! وعجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها! وعجبتُ لمن أيقنَ بالحساب غداً ثم هو لا يعمل!» قال: قلتُ: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيءٌ ممَّا كان في يَدَيْ إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. وذَكَر الحديث[2].

---

(١) في المصادر: ومن حسب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١) مطولاً، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢-١٤٣ . وأخرجه ابن عدي ٧/ ٢٦٩٩ ، وابن عساكر في تاريخه ٢٣/ ٢٧٨ بإسناد آخر عن أبي ذر، وفيه يحيى بن سعد السعدي عن ابن جريج، قال ابن عدي: هذا حديث منكر من هذا الطريق عن ابن جريج، ويحيى بن سعد هذا يعرف بهذا الحديث.

سُورةُ ﴿سَبِّح﴾[1]

مكيَّةٌ، وآيُها تسعَ عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾: نـزِّهِ اسـمَهُ عَـن الإلحـادِ فيـه بالتَّأويـلاتِ الزَّائغَـةِ، وإطلاقِـه[2] على غيـرِه زاعمًا أنَّهُما فيه سـواءٌ، وذكـرِه لا على وجهِ التَّعظيـمِ، وقُرِئَ: (سُـبحانَ ربـي الأَعلى)[3].

وفـي الحديـثِ: لَمَّـا نزلَـتْ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قـال عليـه السَّـلامُ: «اجعَلُوهـا فـي ركوعِكُـم»، فلَمَّـا نـزلَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قـال «اجعلوهـا فـي سُـجودِكُم»[4].

وكانوا يقولون في الركوع: اللهمَّ لك ركَعْتُ، وفي السُّجودِ: اللهم لك سَجَدْتُ.

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: خلقَ كلَّ شيءٍ فسَوَّى خلقَهُ، بأَنْ جعلَ له ما به يتأتَّى كمالُه ويَتِمُّ معاشُهُ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «سورة سبح اسم ربك».

(٢) «وإطلاقه» عطف على «الإلحاد»، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٩٠).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٢)، و«الكشاف» (٩/ ٥٥٢)، عن علي رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٩٨)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) ـ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾؛ أي: قدَّرَ أجناسَ الأشياءِ وأنواعَها وأشخاصَها ومقاديرَها وصِفاتِها وأفعالَها وآجالَها، وقرأ الكسائي: ﴿قدَرَ﴾ بالتخفيف[١].

﴿فَهَدَىٰ﴾: فوجَّهه إلى أفعاله طبعًا أو اختيارًا بخلقِ الميولِ والإلهاماتِ، ونصبِ الدلائلِ وإنزالِ الآيات.

(٤ ـ ٥) ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾: أنبتَ ما يرعاهُ الدَّوابُ ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خُضرَتِه ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾: يابسًا أسودَ، وقيل: ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾؛ أي: أخرجَهُ أحوى مِن شدَّةِ خُضرَتِه.

(٦) ـ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ على لسانِ جبريلَ، أو: سنجعلُكَ قارئًا بإلهامِ القراءةِ.

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصلًا مِن قُوَّةِ الحفظِ مع أنَّكَ أمِّيٌّ؛ ليكونَ ذلك آيةً أخرى لك، مع أنَّ الإخبارَ به عمَّا يُستقبَلُ ووقوعَه كذلك أيضًا مِن الآياتِ.

وقيل: نهيٌ، والألفُ للفاصِلَةِ كقولِه: ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

(٧) ـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ نسيانَهُ بأَنْ نَسَخَ تِلاوتَهُ.

وقيل: المرادُ به القلَّةُ والنُّدرَةُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ أسقطَ آيةً في قراءتِهِ في الصَّلاةِ، فحسبَ أبيٌّ أنَّها نُسِخَتْ، فسألَهُ فقال: «نُسِّيْتُها»[٢].

أو نفيُ النِّسيانِ رأسًا؛ فإنَّ القِلَّةَ تُستعملُ للنَّفي.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾: ما ظهرَ مِن أَحوالِكُم وما بَطَنَ، أو: جهرَكَ بالقراءةِ مع جبريلَ، وما دعاكَ إليه مِن مَخافةِ النِّسيانِ، فيعلمُ ما فيه صَلاحُكَ[٣] مِن إبقاءٍ وإنساءٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٠)، و«التسيير» (ص: ٢٢١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٣٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٨٣)، من حديث عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٦٩): رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) في نسخة التفتازاني: «صلاحكم».

(٨) ـ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾: ونُعِدُّكَ للطَّريقَةِ اليُسرَى في حفظِ الوَحْيِ أو التَّديُّنِ، ونُوَفِّقُكَ لها، ولهذه النُّكتَةِ قال: ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ لا: نيسِّرُ لكَ، عطفٌ على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، و﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ اعتراضٌ.

(٩) ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ بعدما استتَبَّ لكَ الأمرُ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لعلَّ هذه الشَّرطيَّةَ إنَّما جاءَتْ بعدَ تكريرِ التَّذكيرِ وحُصولِ اليَأسِ عَن البعضِ؛ لئلَّا يُتعِبَ نفسَهُ ويتلهَّفَ عليهِم، كقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ الآية [ق: ٤٥]، أو لذمِّ المَذكَّرينَ واستبعادِ تأثيرِ الذِّكرى فيهِمْ، أو للإشعارِ بأنَّ التَّذكيرَ إنَّما يَجِبُ إذا أَمْكنَ نفعُهُ، ولذلك أُمِرَ بالإعراضِ عمَّنْ تَولَّى.

(١٠) ـ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾: سيتَّعِظُ وينتفِعُ بها مَن يَخْشَى اللهَ تعالى، بأنَّه يَتفكَّرُ فيها فيعلَمُ حقيَّتَها، وهو يتناوَلُ العارفَ والمتردِّدَ.

(١١) ـ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: ويَتجنَّبُ الذِّكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: الكافرُ؛ فإنَّه أشقى مِن الفاسقِ، أو: الأشقى مِن الكَفرةِ لتوغُّلِه في الكُفرِ.

(١٢) ـ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: نارَ جَهنَّمَ؛ فإنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «نارُكُم هذهِ جزءٌ مِن سبعينَ جزءًا مِن نارِ جهنَّمَ»(١)، أو ما في الدَّرْكِ الأَسفلِ منها.

(١٣) ـ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً تَنفَعُهُ.

(١٤) ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾: تطهَّرَ مِن الكُفرِ والمعصيةِ، أو: تَكثَّرَ مِن التَّقوى؛ مِن الزَّكاءِ(٢)، أو: تطهَّرَ للصَّلاةِ(٣)، أو: أدَّى الزَّكاةَ.

---

(١) رواه «البخاري» (٣٢٦٥) و«مسلم» (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قوله: «من الزكاء» هو كالنماء لفظا ومعنى، قاله الشهاب.

(٣) قوله: «أو تطهر...» لم يقدمه على المعنى الثاني مع أنه متحد مع الأوّل في كون الزكاة فيهما بمعنى الطهارة لئلا يفصل بين المعنيين السابقين فإنهما بمعنًى واحد فإنّ من تطهر عن الكفر والمعصية فهو =

(١٥) ـ ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبِهِ ولسانِه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالذِّكرِ تكبيرَةُ التَّحريم.

وقيل: ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تَصدَّقَ للفطرِ، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾: كبَّرَهُ يومَ العيدِ فصَلَّى صلاتَه.

(١٦) ـ ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا تفعلونَ ما يُسعِدُكُم في الآخرة، والخطابُ للأَشْقَيْنَ على الالتفاتِ، أو على إضمارِ: قُلْ، أو للكلِّ؛ فإنَّ السَّعيَ للدُّنيا أكثَرُ في الجملةِ، وقرَأَ أبو عَمرٍو بالياءِ[1].

(١٧) ـ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ فإنَّ نَعيمَهَا مُلِذٌّ بالذَّاتِ[2] خالصٌ عن الغوائلِ لا انقطاعَ لهُ.

(١٨) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الإشارةُ إلى ما سبقَ مِن ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾؛ فإنَّه جامعٌ أمرَ الدِّيانَةِ وخلاصةَ الكُتبِ المُنزَلَةِ.

(١٩) ـ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

قال عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ الأعلى[3] أعطاهُ اللهُ عَشرَ حَسناتٍ بعددِ كلِّ حرفٍ أنزلَهُ اللهُ على إبراهيمَ ومُوسَى ومُحمَّدٍ عليهِم السَّلامُ»[4].

***

= متق، وأيضاً أخره لتقترن الصلاة بالزكاة فإنهما أخوان، قاله الشهاب.

(١) والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٠)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «تلذذ بالذات». وقال الشهاب: «ملذ» بصيغة اسم الفاعل من «ألذ» إذا وجد اللذة، وقوله: «بالذات» بخلاف نعيم الدنيا فإنه بالعَرَض؛ كدفع ألم الجوع والعطش مثلاً.

(٣) في نسخة التفتازاني: «سبح».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٢٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٦٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٨٧) سورة الأعلى مكية وآياتها تسع عشرة

روى البخاري، عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء حتى قرأت: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ في سور مثلها»[1]. وروى مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما[2]، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، زادت عائشة: والمعوذتين[3].

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: ﴿سبحان ربي الأعلى﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، وقوله تعالى: ﴿والذي قدَّر فهدى﴾، قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم وأهل السنن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود.

الآية كقوله تعالى ﴿ وقال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أي قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم : « إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »(١). وقوله تعالى: ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً، وقوله تعالى: ﴿ سنقرئك ﴾ أي يا محمد ﴿ فلا تنسى ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله، وقوله تعالى: ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وقوله تعالى: ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر، وقوله تعالى: ﴿ فذكِّر إن نفعت الذكرى ﴾ أي ذكّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟ وقوله تعالى: ﴿ سيذكّر من يخشى ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فيميتهم إماتة حتى إذا ما صاروا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل »(٢)، ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾، وقال تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾
إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، واتبع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لشرع الله، روي عن جابر بن عبد الله يرفعه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال: من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال: « هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها »(٣)، وكذا قال ابن عباس إن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير، وعن عمر بن عبد العزيز أنه

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.
(٢) أخرجه أحمد ومسلم.
(٣) أخرجه الحافظ البزار.

كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية: ﴿ قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾، وقال قتادة في هذه الآية: ﴿ قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ زكى ماله وأرضى خالقه، ثم قال تعالى: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدّونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة، خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟ وقد قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[1] عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ فلما بلغ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وهذا منه على وجه التواضع والهضم، وفي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[2] ، وقوله تعالى: ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ كقوله في سورة النجم: ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أُخْرَى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى﴾ الآيات إلى آخرهن؛ وهكذا قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ يقول: الآيات التي في ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى، واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ إنّ هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إن هذا﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿ لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة سبح ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

---

(١) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً.

تفسير سورة سبح

وهى مكية .

والدليلُ على ذلك ما رواه البخارى : حدثنا عبدان : أخبرنى أبى ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أمّ مكتوم ، فجعلا يُقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين. ثم جاء النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ فى سُوَر مثلها [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا إسرائيل ، عن ثُوَيْر بن أبى فاختَةَ ، عن أبيه ، عن على قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ . تفرد به أحمد [٢] .

وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صَلّيت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ ، و ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا [٤] .

هكذا وقع فى مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث . وقد رواه مسلم ــ فى صحيحه ــ وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث أبى عَوَانة وجرير وشعبة ، ثلاثتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن النعمان بن بشير ، به [٥]. قال الترمذى : « وكذا رواه الثورى ومسعر ، عن إبراهيم ــ قال : ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم ــ عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان . ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه » .

وقد رواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن المنتشر ، عن أبيه عن حبيب بن سالم ، عن النعمان به [٦] . كما رواه الجماعة ،والله أعلم .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٤١) .

(٢) المسند (١/ ٩٦١) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٦) : « فيه ثوير بن أبى فاختة وهو متروك » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٧) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) المسند (٤/ ٢٧١) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن أبى داود برقم (١١٢٢) وسنن الترمذى برقم (٥٣٣) وسنن النسائى (٣/ ١١٢) .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٢٨١) .

ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، و﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبْزَى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الوتر بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ــ زادت عائشة : والمعوذتين [(١)] .

وهكذا رُوى هذا الحديث ــ من طريق ــ جابر وأبى أمامَة صُدَىّ بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهم [(٢)] . ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن فى الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (١٣) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى ــ يعنى ابن أيوب الغافقى ــ حدثنا عمى إياس بن عامر ، سمعت عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤ ، ٩٦] ، قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ قال : « اجعلوها فى سجودكم » .

ورواه أبو داود وابن ماجة ، من حديث ابن المبارك ، عن موسى بن أيوب ، به [(٣)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ،حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البَطِين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، قال: « سبحان ربى الأعلى » .

وهكذا رواه أبو داود عن زُهَير بن حرب ، عن وكيع ، به [(٤)]. وقال : « خولف فيه وكيع ،

(١) حديث أبى بن كعب فى المسند (٥/ ١٢٣) وحديث ابن عباس فى المسند (١/ ٢٩٩) وحديث ابن أبزى فى المسند (٣/ ٤٠٦) وحديث عائشة فى المسند (٦/ ٢٢٧) .

(٢) وقد توسع الحافظ ابن حجر فى ذكر طرق هذا الحديث والكلام عليها فى كتابه تلخيص الحبير (٢/ ١٩) .

(٣) المسند (٤/ ١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٨٦٩) وسنن ابن ماجة برقم (٨٨٧) .

(٤) المسند (١/ ٢٣٢) وسنن أبى داود برقم (٨٨٣) .

رواه أبو وكيع وشعبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، موقوفا » .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ [١] : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ، فقال : سبحان ربى الأعلى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا حكَّام عن عَنْبَسة ، عن أبى إسحاق الهَمْدانى : أن ابن عباس كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، يقول: سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة:١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى [٢] .

وقال قتادة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ : ذُكِرَ لنا أن نَبِىّ الله ﷺ كان إذا قرأها ، قال : «سبحان ربى الأعلى » .

وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : خلق الخليقة وسَوّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات .

وقوله : ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ : قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ،كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله ابن عَمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » [٣] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ أى : من جميع صنوف النباتات والزروع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ : قال ابن عباس : هشيما متغيرا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب [٤] يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى ، أى : أخضر إلى السواد ، فجعله غثاء بعد ذلك . ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملا إلا أنه غير صواب ؛لمخالفته أقوال أهل التأويل.

وقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلا تَنسَىٰ ﴾ . وهذا إخبار من الله، عز وجل ،ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير .

وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلا تَنسَى ﴾ : طلب ، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من

(١) فى أ : « يقرأ » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٩٦) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) .

(٤) فى أ : « بكلام العربية » .

النسخ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه ؛ فلا عليك أن تتركه .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ،ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : ذكِّر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا [(١)] يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه : ما أنت بمحدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدِّث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذّب اللهُ ورسوله ؟!

وقوله : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أى : سيتعظ بما تبلغه ــ يا محمد ــ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ،بل هى مضرة عليه ؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عدى ، عن سليمان ــ يعنى التيمى ــ عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا[(٢)] يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء [(٣)] ، فيأخذ الرجلُ أنصاره فينبتهم ــ أو قال : ينبتون ــ فى نهر الحياء ــ أو قال : الحياة ــ أو قال : الحيوان ــ أو قال: نهر الجنة فينبتون ــ نبات الحبَّة فى حميل السيل » . قال : وقال النبى ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » .قال : فقال بعضهم : كأن النبى ﷺ كان بالبادية [(٤)] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد بن يزيد ،عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس ــ أو كما قال ــ تصيبهم النار بذنوبهم ــ أو قال : بخطاياهم ــ فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فَنَبتوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، اقبضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية .

ورواه مسلم فى حديث بشر بن المفضل [(٥)] وشعبة ، كلاهما عن أبى مَسْلَمة سعيد بن زيد ، به

(١) فى م : « ومن هذا » . (٢) فى أ : « فإنهم لا » . (٣) فى أ : « الشفاعة » .
(٤) المسند (٣/٥) .
(٥) فى أ : « الفضل » .

مثله [(١)]. ورواه أحمد أيضا عن يزيد ، عن سعيد بن إياس الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، أو : يرش [(٢)] عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبَّة فى حَميل السيل» [(٣)] .

وقد قال الله إخبارا عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات فى هذا المعنى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ أى : طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ أى : أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالا لشرع الله . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن أحمد العرزمى ، حدثنا عمى محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ،عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى ﷺ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾، قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » ، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها » .

ثم قال[(٤)]: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه [(٥)] .

وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنى عَمرو بن عبد الحميد الآملى [(٦)] ، حدثنا مروان بن معاوية ،عن أبى خلدة قال: دخلت على أبى العالية فقال لى : إذا غدوت غداً إلى العيد فمرّ بى . قال : فمررت به فقال:هل طعمت شيئا ؟ قلت: نعم. قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم . قال : فأخبرنى ما فعلت بزكاتك ؟ قلت : وكأنك قُلت : قد وَجّهتهَا ؟ قال : إنما أردتك لهذا . ثم قرأ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾. وقال:إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء .

---

(١) المسند (٣/ ١١) وصحيح مسلم برقم (١٨٥) .

(٢) فى م : « فيرش » .

(٣) المسند (٣/ ٢٠) .

(٤) فى م : « وقال » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٨٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٧) :« رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمى وهو متروك » .

(٦) فى أ : « الأيلى » .

قلت : وكذلك روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدى صلاته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ :زكى ماله وأرضى خالقه.

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنيَّة فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟!

قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا ذُوَيد ، عن أبى إسحاق ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دَارُ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن عطاء ، عن عَرْفَجة الثقفى قال : استقرأت ابن مسعود : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزُويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٢) .

وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث (٣) هو ، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرنى عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب بن عبد الله ، عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومَن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقَى على ما يفنى » . تفرد به أحمد .

وقد رواه أيضا عن أبى سلمة الخزاعى ، عن الدراوردى ، عن عمرو بن أبى عمرو ، به مثله سواء (٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ : قال الحافظ أبو بكر البزار :

---

(١) المسند (٦/ ٧١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٨) : « رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٠) .

(٣) فى أ : « من جنسه » .

(٤) المسند (٤/ ٤١٢) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٧٣) « موارد » من طريق يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو به .

حدثنا نصر بن على ، حدثنا مُعتمر بن سليمان ، عن أبيه عن عطاء بن السائب ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ قال النبى ﷺ: « كان كل هذا ــ أو : كان هذا ــ فى صحف إبراهيم وموسى » [١] .

ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير [٢] هذا، وحديثا آخر أورده قبل هذا .

وقال النسائى : أخبرنا زكريا بن يحيى ، أخبرنا نصر بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى ، فلما نزلت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم:٣٧] قال : وفَّى ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:٣٨] [٣] .

يعنى أن هذه الآية كقوله فى سورة « النجم »: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ . وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عكرمة ــ فيما رواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهْران ، عن سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن عكرمة ــ فى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، يقول : الآيات التى فى سبح اسم ربك الأعلى .

وقال أبو العالية : قصة هذه السورة فى الصحف الأولى .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، ثم قال : ﴿إِنَّ هَذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [٤] .

وهذا اختيار حسن قوى . وقد رُوى عن قتادة وابن زيد ، نحوَه . والله أعلم .

آخر تفسير سورة « سبح » ولله الحمد والمنة

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦٨) .

(٢) فى أ : « نحو » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٨٥) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠١) .

سورة الأعلى

مكيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أي: نزِّه اسمه عزّ وجلّ عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة، وعن إطلاقه على غيره بوجه يُشعِر بتشاركهما فيه، وعن ذِكره لا على وجه الإعظام والإجلال. و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ إمّا صفة للربّ، وهو الأظهرُ، أو للاسم. وقُرِئ: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى".[1] وفي الحديث: لمّا نزلت ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة، ٧٤/٥٦] قال عليه السلام: «اجعلوها في ركوعكم»، فلمّا نزل ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم».[2] وكانوا يقولون في الركوع: «اللّٰهمّ لك ركعتُ»، وفي السجود: «اللّٰهمّ لك سجدتُ».[3]

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ صفة أخرى للربّ على الوجه الأوّل، ومنصوب على المدح على الثاني، لئلّا يلزَم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره، أي: خلق كلّ شيء فسوّى خَلْقه، بأن جَعَل له ما به يتأتّى كماله ويتسنّى معاشه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ إمّا صفة أخرى للربّ كالموصول الأوّل، أو معطوف عليه، وكذا حال ما بعده، أي: قدّر أجناسَ الأشياء وأنواعها وأفرادها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعمرَ بن الخطّاب وأُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١١.

٢ مسند أحمد، ٦٣٠/٢٨ (١٧٤١٤)؛ سنن ابن ماجه، ٥٧/٢ (٨٨٧)؛ سنن أبي داود، ١٥١/٢ (٨٦٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٧/٨ (الواقعة، ٩٦/٥٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٤.

٣ طرف حديث في مسند أحمد، ١٣٢/٢ (٧٢٩)؛ وسنن أبي داود، ٧٣/٢ (٧٦٠)؛ وسنن الترمذي، ٤٨٥/٥ (٣٤٢١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٤.

ومقاديرها وصفاتِها وأفعالها وآجالها. ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فوجّه كلّ واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعًا واختيارًا، ويسّره لِما خُلِق له بخَلْق الميول والإلهامات ونَصْب الدلائل وإنزال الآيات. ولو تتبّعتَ أحوال النباتات والحيوانات لرأيتَ في كلّ منها ما يحار فيه العقول.

يُحكى أنّ الأفعى إذا بلغت ألف سنةٍ عميَت وقد ألهمها الله تعالى أنّ مَسْح عينها بورقِ الرَّازِيانج الغضِّ يردّ إليها بصرها، فربّما كانت عند عُروض العمى لها في بَرِّيّة بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطويها حتّى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرَّازِيانج لا تخطئها فتحكّ عينها بورقها، وترجع باصرةً بإذن الله عزّ وجلّ.

[٢٩١و] ويروى أنّ التمساح لا يكون له دُبر وإنّما يُخرِج فضلاتِ ما يأكله / مِن فمه حيث قيّض الله تعالى له طائرًا قُدِّر غذاؤه مِن ذلك، فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه، وقد خلَق الله تعالى له مِن فوق منقاره ومن تحته قَرْنَين لئلّا يُطبق عليه التمساح فمَه.

هذا وأمّا فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان مِن حيث الجسميّةُ ومن حيث الحيوانيّةُ لا سيّما مِن حيث الإنسانيةُ فممّا لا يحيط به فَلَك العبارةِ والتحريرِ ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي: أنبت ما يرعاه الدوابّ غضًّا طريًّا يرِفّ.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد ذلك ﴿غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ أي: دَرينًا[١] أسودَ. وقيل: ﴿أَحۡوَىٰ﴾ حال مِن المرعى، أي: أخرجه أحوى مِن شدّة الخُضرة والرِّيّ، فجعله غُثاءً بعد ذلك.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بيان لهدايته تعالى الخاصّة برسول الله

---

١ الدَّرين والدُّرانة: يبيس الحشيش، وحُطام المرعى إذا قدُم. لسان العرب لابن منظور، «درين».

صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيان هدايته العامّة لكافّة مخلوقاته، وهي هدايته عليه السلام لتلقّي الوحي وحِفظ القرآن الذي هو هدًى للعالمين، وتوفيقُه عليه السلام لهداية الناس أجمعين.

و"السين" إمّا للتأكيد وإمّا لأنّ المراد إقراءُ ما أُوحيَ إليه حينئذ وما سيُوحى إليه بعدَ ذلك، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء، أي: سنُقرئك ما نُوحي إليك الآن وفيما بعدُ على لسان جبريلَ عليه السلام، أو سنجعلك قارئًا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلًا مِن قوّة الحفظ والإتقان مع أنّك أمّيّ لا تدري ما الكتاب وما القراءة، ليكون ذلك آيةً أخرى لك مع ما في تضاعيف ما تقرؤه مِن الآيات البيّنات مِن حيث الإعجازُ ومن حيث الإخبارُ بالمغيّبات. وقيل: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نهيٌ، و"الألف" لمراعاة الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب، ٣٣/٦٧].[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل، أي: لا تنسى ممّا تقرؤه شيئًا مِن الأشياء إلّا ما شاء الله أن تنساه أبدًا بأن نسَخ تلاوته. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهيّة المستتبعة لسائر الصفات.

وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلّة والنُّدرة،[٢] كما روي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أسقطَ آيةً في قراءته / في الصلاة، فحسب أُبيّ أنّها نُسخت فسأله فقال [٢٩١ظ]
عليه السلام «نسيتُها».[٣] وقيل: نفى النسيان رأسًا، فإنّ القِلّة قد تُستعمَل في النفي،[٤] فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان بالكلّيّة؛ إذ هو المنفيّ رأسًا لا ما قد يُنسى ثمّ يُذكَر.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ تعليل لِما قبله، أي: يعلم ما ظهر وما بطن مِن الأمور التي مِن جملتها ما أوحى إليك فيُنسي ما يشاء إنساءَه ويُبقي محفوظًا ما يشاء إبقاءَه لِما نيط بكلّ منهما مِن مصالح دينكم.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٥.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٥.
٣ مسند أحمد، ٢٤/٨٠ (١٥٣٦٥)؛ صحيح ابن خزيمة، ٣/٧٣ (١٦٤٧).
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٥.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿نُقْرِئُكَ﴾،[١] كما ينبئ عنه الالتفاتُ إلى الحكاية، وما بينهما اعتراضٌ وارد لِما ذُكر مِن التعليل. وتعليق التيسير به عليه السلام مع أنّ الشائع تعليقه بالأمور المسخَّرة للفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه، ٢٦/٢٠] للإيذان بقوّة تمكينه عليه السلام مِن اليُسرى والتصرّف فيها بحيث صار ذلك مَلَكةً راسخةً له كأنّه عليه السلام جُبل عليها، كما في قوله عليه السلام: «اعملوا فكلّ مُيسَّر لِما خُلق له».[٢]

أي: نوفِّقك توفيقًا مستمِرًّا للطريقة اليُسرى في كلّ باب مِن أبواب الدِّين عِلمًا وتعليمًا واهتداءً وهدايةً، فيندرج فيه تيسير طريق تلقّي الوحي والإحاطة بما فيه مِن أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهيّة ممّا يتعلّق بتكميل نفسه عليه السلام وتكميل غيره، كما يُفصح عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي: فذكِّر الناس حسبما يسَّرناك له بما يُوحى إليك واهدِهم إلى ما في تضاعيفه مِن الأحكام الشرعيّة، كما كنتَ تفعله، لا بعد ما استتبّ لك الأمر كما قيل.[٣]

وتقييد التذكير بنَفْع الذكرى لِما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طالما كان يُذكِّرهم ويستفرغ فيه غايةَ المجهود ويتجاوز في الجدّ كلّ حدّ معهود حرصًا على إيمانهم، وما كان يزيد ذلك لبعضهم إلّا كفرًا وعِنادًا فأُمر عليه السلام بأن يخصّ التذكير بموادّ النفع في الجملة، بأن يكون مَن يذكِّره كلًّا أو بعضًا ممّن يرجى منه التذكّر ولا يُتعِب نفسه في تذكير مَن لا يورثه التذكير إلّا عتوًّا ونفورًا مِن المطبوع على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق، ٤٥/٥٠]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النجم، ٢٩/٥٣].

وقيل: هو ذمّ للمذكَّرين وإخبارٌ عن حالهم، واستبعادٌ لتأثير التذكير فيهم،[٤] وتسجيلٌ عليهم بالطبع على قلوبهم، كقولك للواعظ: "عِظِ المَكّاسين / إن سمعوا منك" قصدًا إلى أنّه ممّا لا يكون. [٢٩٢و]

---

١ في الآية السادسة مِن هذه السورة.

٢ صحيح البخاري، ١٧١/٦ (٤٩٤٩)؛ صحيح مسلم، ٢٠٤٠/٤ (٢٦٤٧).

٣ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٤/٣.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٤/٣.

والأوّل أنسبُ، لقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: سيتذكّر بتذكيرك مَن مِن شأنه أن يخشى الله تعالى حقّ خشيته أو مَن يخشى الله تعالى في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكّر في أمر ما تذكّر به فيقف على حقّيّته فيؤمن به.

وقيل: ﴿إن﴾ بمعنى "إذ"، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران، ١٣٩/٣]، أي: إذ كنتم. وقيل: هي بمعنى "ما"، أي: فذكِّر ما نفَعت الذكرى، فإنّها لا تخلو عن نفع بكلّ حال. وقيل: هناك محذوف، فالتقدير: إن نفَعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل، ٨١/١٦]. قاله الفرّاء والنَّحّاس والجُرجاني والزهراوي.[١]

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ مِن الكفَرة لتوغُّله في عداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعُتبة بن ربيعة.[٢]

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الطبقة السفلى مِن طبقات النار. وقيل: الكبرى نار جهنّم والصغرى نار الدنيا،[٣] لقوله عليه السلام: «نارُكم هذه جزء مِن سبعين جزءًا مِن نار جهنّم».[٤]

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ حتّى يستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً تنفعه، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في مراتب الشِّدّة لأنّ التردّد بين الموت والحياة أفظع مِن الصِّليّ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي: نجا مِن المكروه وظفر بما يرجوه ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهَّر مِن الكفر والمعاصي بتذكّره واتّعاظه بالذكرى، أو تكثَّر مِن التقوى والخشية مِن "الزَّكاء" وهو النماء. وقيل: تطهَّر للصلاة. وقيل: "تزكّى" تفعّل مِن "الزكاة".[٥] وكلمة ﴿قَدْ﴾ لِما أنّ عند الإخبارِ بسوء حال المتجنِّب عن الذكرى في الآخرة يتوقَّع السامع الإخبارَ بحسن حالِ المتذكِّر فيها وينتظره.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢٨٢/٢٠. والوجه الأخير ذكره النّحّاس في إعراب القرآن، ٢٠٦/٥، ولم أجده في معاني القرآن للفرّاء، والذي في تفسير درج الدُّرر المنسوب إلى الجرجاني، ٧١/٤، أنّ ﴿إن﴾ بمعنى "قد".

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٢٨٠/١٢ (٧٣٢٧)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٣)؛ وسنن ابن ماجه، ٣٧٠/٥ (٤٣١٨)؛ وسنن الترمذي، ٧٠٩/٤ (٢٥٨٩).

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أقام الصلوات الخمس، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه، ١٤/٢٠]، أي: كبّر تكبيرة الافتتاح فصلّى. وقيل: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، أي: تصدَّق صدقة الفطر.[١] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، أي: كبّره يوم العيد فصلّى، أي: صلاته.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إضراب عن مقدَّر ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل إثر بيان ما يؤدّي / إلى الفلاح: لا تفعلون ذلك؛ بل تُؤثِرون اللذّات العاجلة الفانية [٢٩٢ظ] فتَسْعون لتحصيلها. والخطاب إمّا للكفَرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والإعراضُ عن الآخرة بالكلّيّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ الآية [يونس، ٧/١٠]، أو للكلّ فالمراد بإيثارها ما هو أعمّ ممّا ذُكر وما لا يخلو عنه الناس غالبًا مِن ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادي. والالتفات على الأوّل لتشديد التوبيخ وعلى الثاني كذلك في حقّ الكفرة وتشديد العتاب في حقّ المسلمين. وقُرئ: "يُؤْثِرُونَ"[٢] بـ"الياء".

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ مؤكِّدة للتوبيخ والعِتاب، أي: تؤثِرونها على الآخرة، والحال أنّ الآخرة خير في نفسها لِما أنّ نعيمها مع كونه في غاية ما يكون مِن اللذّة خالص عن شائبة الغائلة أبديّ لا انصرام له. وعدمُ التعرّض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغِّصات وانقطاعِه عمّا قليل لغاية ظهوره.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.[٣] وقيل: إلى ما في السورة جميعًا.[٤] ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ثابت فيها معناه.

---

[١] مرويّ عن أبي سعيد الخُدري وعليّ بن أبي طالب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

[٢] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[٣] في الآية الرابعة عشرة مِن هذه السورة.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدل مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي إبهامها ووصفِها بالقِدم ثـمّ بيانها وتفسيرها مِن تفخيم شأنها ما لا يخفى. رُوي أنّ جميع ما أنزلَ الله عزّ وجلّ مِن كتاب مائة وأربعة كتب، أنزل على آدمَ عليه السلام عشرَ صُحف وعلى شيث خمسين صحيفةً وعلى إدريسَ ثلاثين صحيفةً وعلى إبراهيمَ عشر صحائفَ عليهم السلام والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ والفرقانَ.[1]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأعلى أعطاه الله تعالى عشرَ حسنات بعدد كلّ حرف أنزله الله تعالى على إبراهيمَ وموسى ومحمّد عليهم السّلام».[2]

١ جزء مِن حديث طويل بلفظ قريب في صحيح ابن حبّان، ٧٧/٢ (٣٦١)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤٤/٤ (٢١٥٥)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٨/٢٩ (الأعلى، ١/٨٧)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٦٨/٤ (الأعلى، ١/٨٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٧

سُورَةُ الأَعْلَى

مكية، تسعَ عشْرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهْ ربَّك عمّا لا يليق به ـ واسم: زائدٌ ـ ﴿الأعلَى﴾: صفةٌ لـ «ربّك»، ٢ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ فسَوَّى﴾ مخلوقه جعله مُتناسب الأجزاء غير مُتفاوت، ٣ ـ ﴿والَّذِي قَدَّرَ﴾ ما شاء ﴿فهَدَى﴾ إلى ما قدّره من خير وشرّ، ٤ ـ ﴿والَّذِي أخرَجَ المَرعَى﴾: ....

سُورَةُ الأَعْلَى

قولُهُ: (و﴿اسْمَ﴾ زَائِدٌ) أو نَزِّه اسمَهُ عن الإطلاقِ على غيرِهِ، أو إطلاقِ اسمِ غيرِهِ عليه، أو عن الإلحادِ فيه بالتَّأويلاتِ الزَّائغةِ، أو عن ذكرِهِ لا على وجهِ التَّعظيمِ.

قولُهُ: (صِفَةٌ لِـ﴿رَبِّكَ﴾) أو للاسمِ، فلله الأسماءُ الحُسنى والصِّفاتُ العُلى.

قولُهُ: (فَجعَلَه) وجعلَ له ما به يتأتَّى كمالُهُ ويتمُّ معاشُهُ، وقيل: خلَقَ الخَلقَ فسوَّى بينَهُم في الخلقَةِ، وميَّزَ بينهم في اختصاصِ الهدايَةِ.

قولُهُ: (مَا شَاءَ) أي: أجناسَ الأشياءِ وأنواعَها وأشخاصَها ومقاديرَها وصفاتِها وأفعالَها وآجالَها، وقرأ الكسائيُّ: بالتَّخفيفِ[1].

قولُهُ: (إِلَى مَا قَدَّرَهُ) أي: فوجَّهَهُ إلى أفعالِهِ طَبعاً واختياراً بخلقِ الميولِ والإلهاماتِ ونصبِ الدَّلائلِ وإنزالِ الآياتِ، وقالَ الواسطيُّ[2]: قدَّرَ السَّعادَةَ والشَّقاوَةَ عليهم، ثمَّ يسَّرَ لكُلٍّ من الطَّائفتينِ ما قدَّرَ له.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٠).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٨٩).

أنبتَ العُشب ٥ ـ ﴿فجَعَلَهُ﴾ بعد الخُضرة ﴿غُثاءً﴾: جافًا هشيمًا ﴿أحوَى﴾: أسودَ يابسًا.

٦ ـ ﴿سَنُقرِئُكَ﴾ القُرآنَ ﴿فلا تَنسَى﴾ ما تقرؤه، ٧ ـ ﴿إلاّ ما شاءَ اللهُ﴾ أن تنساه بنسخ تلاوته وحُكمه ـ وكان ﷺ يَجهر بالقِراءة مع قِراءة جِبريل خوفَ النسيان. فكأنه قيل له: لا تعجلْ بها. إنك ما تنسى. فلا تُتعِب نفسك بالجهر بها. ﴿إنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعلَمُ الجَهرَ﴾ من القول والفِعل ﴿وما يَخفَى﴾ منهما ـ ٨ ـ ﴿ونُيَسِّرُكَ لِليُسرَى﴾ للشريعة السهلة وهي الإسلام.

٩ ـ ﴿فذَكِّرْ﴾: عِظْ بالقُرآن ﴿إن نَفَعَتِ الذِّكرَى﴾ مَن تُذَكِّرُهُ، المذكورَ في: ١٠ ـ ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بها ﴿مَن يَخشَى﴾: يخافُ الله ـ تعالى ـ كآية «فذَكِّرْ بِالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعِيدِ»، ١١ ـ ﴿ويَتَجَنَّبُها﴾ أي: الذكرى، أي: يَتركها جانبًا لا يلتفت إليها ﴿الأشقَى﴾ بمعنى الشقيّ أي: الكافر ١٢ ـ ﴿الَّذِي يَصلَى النّارَ الكُبرَى﴾ ـ هي نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا ـ ....

قولُهُ: (العُشْبَ) أي: ما يرعاهُ الدَّوابُّ.

قولُهُ: (القُرآنَ) على لسانِ جبريلَ.

قولُهُ: (مَا تَقرَؤُهُ) أصلاً مع أنّك أُمِّيٌّ؛ ليكونَ ذاك آيةً أخرى لك، وقيل: نهيٌ، وإثباتُ حُروفِ العلَّةِ في المجزومِ لُغةٌ، أو الألفُ[1] للفاصلةِ كقولِهِ: ﴿السَّبِيلا﴾، قالَ الجنيدُ: لا تنسَى العمَلَ به، ويُمكِنُ أن يكونَ نَفياً معناهُ النَّهيُ، وهو أبلغُ.

قولُهُ: (فلا تُتْعِبْ نَفسَكَ) هذا توطئَةٌ لما بعدَه.

قولُهُ: (للشَّريعَةِ) أي: نعدُّكَ ونُوفِّقُكَ عَطفُ تفسيرٍ على: ﴿سَنُقرِئكَ﴾، و﴿إنَّهُ يَعلَمُ﴾ اعتِراضٌ.

قولُهُ: (مَنْ تُذَكِّرُهُ) مفعولُ: ﴿نَفَعَت﴾ والمذكورُ صفَةُ من، والشَّرطيَّةُ للإشعارِ بأنَّ التَّذكيرَ إنَّما يجبُ إذا أمكَنَ نفعُهُ، ولذلك أمرَ بالإعراضِ عن من تولَّى.

قولُهُ: (بِهَا) أي: سيَتَّعِظُ وينتفعُ بالذِّكرى والموعِظَةِ.

قولُهُ: (يَخَافُ) فإنَّه يتفكَّرُ فيها فيعلَمُ حقيقَتَها، وهو يتناوَلُ العارِفَ والمتَرَدِّد.

قولُهُ: (بِمَعنَى الشَّقِيِّ) أو فإنَّهُ أشقَى من الفاسقِ، أو الأشقى منَ الكفرَةِ لتوغُّلِهِ في الكُفرِ.

قولُهُ: (نَارُ الآخِرَة) فإنَّه ﷺ قال: «نارُكُم هذهِ جُزءٌ من سبعِينَ جُزءاً من نارِ جهنَّمَ»[2]، أو ما في الدَّركِ الأسفَلِ منها.

---

(١) في الأصول: «أو إثبات.... والألف»، ولعل الصواب ما أثبته وانظر: «حاشيه الشهاب» (٨/ ٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٣ ـ ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها﴾ فيستريحَ ﴿ولا يَحيا﴾ حياة هنيئة.

١٤ ـ ﴿قَد أفلَحَ﴾: فاز ﴿مَن تَزَكَّى﴾: تطهّرَ بالإيمان، ١٥ ـ ﴿وذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ﴾ مُكبِّرًا ﴿فصَلَّى﴾ الصلواتِ الخمسَ. وذلك من أُمور الآخرة، وكُفّارُ مكّة مُعرضون عنها. ١٦ ـ ﴿بَل يُؤثِرُونَ﴾ ـ بالتحتانيّة والفَوقانيّة ـ ﴿الحَياةَ الدُّنيا﴾ على الآخرة، ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿والآخِرةُ﴾ المُشتملة على الجنّة ﴿خَيرٌ وأبقَى. إنَّ هذا﴾ أي: إفلاحَ من تزكّى وكونَ الآخرة خيرًا ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ أي: المُنزَلة قبل القُرآن، ١٩ ـ ﴿صُحُفِ إبراهِيمَ ومُوسَى﴾. وهي عشْرُ صُحف لإبراهيم والتوراةُ لموسى.

قولُهُ: (فيَستَرِيحَ) بالنَّصبِ جوابُ النَّفيِ.

قولُهُ: (بالإيمَانِ) أو للصَّلاةِ، أو أدّى الزَّكاةَ.

قولُهُ: (مُكبِّراً) قالَ أبو حنيفَةَ[1]: لا يُشترَطُ التَّكبيرُ بل كُلُّ ذكرٍ يدُلُّ على تعظيمِهِ تعالى[2] غيرَ مَشُوبٍ بالدُّعاءِ ولو بالفارسيَّةِ جائزٌ للإطلاقِ، وقالَ: إنَّه شَرطٌ لا ركنٌ؛ للعَطفِ بالفاءِ، وقيل المعنَى: وذكرَ اسمَ ربِّهِ بقلبِهِ ولسانِهِ، وقيل: ﴿تَزَكَّى﴾ تصدَّقَ للفِطرِ، و﴿ذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ﴾ كبَّرَ يومَ العيدِ فصَلَّى صلاتَهُ.

قولُهُ: (بالتَّحتَانِيَّةِ) بَصريٌّ[3].

قولُهُ: (والفَوقَانِيَّةِ) قيل: الخِطابُ إلى الأشقَينَ على الالتِفاتِ، أو إضمارِ: قُل، أو إلى الكُلِّ، فإنَّ السَّعيَ للدُّنيا أكثرُ في الجُملةِ.

قولُهُ: (على الآخِرَةِ) فلا تفعَلونَ ما يُسعِدُكُم فيها.

قولُهُ: (أي: إفلاحَ) يَعني: الإشارَةُ إلى ما سبَقَ من ﴿قَد أفلَحَ﴾؛ فإنَّه جامِعُ أمرِ الدِّيانَةِ وخُلاصَةُ الكُتُبِ المنزَلةِ.

قولُهُ: (وهيَ عَشرُ صُحُفٍ) بدَلٌ من: ﴿الصُّحُفِ الأُولَى﴾ قالَه القاضِي[4]، والظَّاهرُ أنَّه بدلُ بعضٍ، والله سبحانهُ وتعالى أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «التجريد» (١/ ٤٦٣).

(٢) في بعض الأصول: «يقال».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٠).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٠٦).

سُورَةُ الأَعْلَى

جل و علا

وتُسمَّى سورةَ «سبّح»، والجمهور على أنها مكيةٌ، وحكى ابن الفرس عن بعضهم أنها مدنيةٌ، لِذِكْر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها. ورَدَّهُ الجلالُ السيوطيُّ[1] بما أخرج البخاريُّ وابن سعد وابن أبي شيبة[2] عن البراء بن عازب قال: أول مَنْ قَدِمَ علينا من أصحاب النبيِّ ﷺ مصعبُ بن عمير وابن أمِّ مكتوم، فجعلا يُقرئانا القرآن، ثم جاء عمارٌ وبلالٌ وسعدٌ، ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرينَ، ثم جاء النبيُّ ﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينة فرحوا بشيءٍ فَرَحَهم به عليه الصلاة والسلام، حتى رأيتُ الولائدَ والصبيانَ يقولون: هذا رسولُ الله ﷺ قد جاء، فما جاء عليه الصلاة والسلام حتى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ مثلها.

ثم إنَّ ذِكْرَ صلاة العيد وزكاة الفطر فيها غيرُ مُسَلَّم، ولو سُلِّمَ فلا دلالة فيه على ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيلُهُ.

وهي تِسْعَ عشرةَ آيةً بلا خلاف، وَوَجْهُ مناسبتها لما قَبلها أنه ذُكِرَ في سورة الطارق خَلْقُ الإنسان، وأُشير إلى خلق النبات بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ وذُكرا هاهنا في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وقصةُ النبات هنا أوضحُ وأبسطُ، كما أنَّ قصةَ خَلْقِ الإنسان هناك كذلك، نعم إنَّ ما في هذه السورة أعمُّ من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات.

---

(١) في الإتقان ١/ ٤٠.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٢٤) و(٤٩٤١) و(٤٩٩٥)، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٣٤. وهو عند أحمد (١٨٥١٢) وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٧.

وكان ﷺ يحبُّها، أخرج الإمامُ أحمد والبزار وابن مردويه[1] عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السورة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

وجاء في حديثٍ أخرجه أبو عبيد عن أبي تميمٍ أنه عليه الصلاة والسلام سمَّاها أفضلَ المسبِّحات[2].

وأخرج أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبيُّ ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى: «سبّح»، وفي الثانية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين[3].

وفي حديث أخرجه المذكورون وغيرُهم إلا الترمذي عن أبيٍّ بن كعب نحو ذلك، بيد أنه ليس فيه المعوّذتان[4].

وأخرج ابن أبي شيبةَ والإمامُ أحمد ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه[5] عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وإن وافقَ يوم الجمعة قرأهما جميعاً.

وأخرج الطبرانيُّ[6] عن عبد الله بن الحارث قال: آخرُ صلاةٍ صلّاها رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) أحمد (٧٤٢)، والبزار (٧٧٥)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٣٧.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٣٩، وهو مرسل؛ فإن أبا تميم ـ واسمه عبد الله بن مالك الجيشاني، وأصله من اليمن ـ ولد في حياة النبي ﷺ، وهاجر زمن عمر، وروى عنه عدد من الصحابة. التهذيب ٢/ ٤١٤.

(٣) سنن أبي داود (١٤٢٤)، وسنن الترمذي (٤٦٢)، وسنن ابن ماجه (١١٧٣)، والمستدرك ٢/ ٥٢٠، وسنن البيهقي ٣/ ٣٧.

(٤) سنن أبي داود (١٤٢٣)، وسنن ابن ماجه (١١٧١)، وسنن البيهقي ٣/ ٣٨.

(٥) ابن أبي شيبة ٢/ ١٧٦، وأحمد (١٨٣٨٣)، ومسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٨٤، وابن ماجه (١٢٨١).

(٦) في الكبير كما في مجمع الزوائد ٢/ ١١٨، وهو في مسند البزار (٢١٧٤)، وفي إسناده حجاج بن نصير، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف، كان يقبل التلقين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي: نَزِّهْ أسماءه عزَّ وجلَّ عمَّا لا يليق، فلا تؤوِّل مما ورد منها اسماً من غير مقتضٍ، ولا تُبْقِهِ على ظاهره إذا كان ما وُضِعَ له مما لا يصحُّ له تعالى، ولا تُطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصًّا كالاسم الجليل، أو على وجهٍ يُشعر بأنه تعالى والغيرُ فيه سواء إذا[1] لم يكن مختصًّا، فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلاً: هذا رازقي، على وجهٍ يُشعر بذلك.

وَصُنْهُ عن الابتذال والتلفُّظ به في محلٍّ لا يليق به، كالخلاء وحالة التغوُّط، وذِكْرِه لا على وجه الخشوع والتعظيم، وربما يُعَدُّ مما لا يليقُ ذِكْرُهُ عند مَنْ يَكرهُ سماعه من غير ضرورةٍ إليه. وعن الإمام مالك رضي الله عنه أنه كان إذا لم يجدْ ما يُعطي السائلَ يقول: ما عندي ما أُعطيك، أو: ائتني في وقتٍ آخر، أو نحو ذلك، ولا يقول نحو ما يقول الناس: يرزقك الله تعالى، أو يبعثُ الله تعالى لك، أو يُعطيك الله تعالى، أو نحوه، فسُئل عن ذلك فقال: إنَّ السائلَ أثقلُ شيءٍ على سمعه وأبغضُهُ إليه قولُ المسؤول له ما يفيده رَدَّه وحرمانه، فأنا أُجِلُّ اسمَ الله سبحانه من أن أذكره لمن يَكرهُ سماعه، ولو في ضمن جملة. وهذا منه رضي الله عنه غايةٌ في الورع.

وما ذُكِرَ من التفسير مبنيٌّ على الظاهر من أنَّ لفظ «اسم» غير مُقْحَم، وذهب كثيرٌ إلى أنه مُقْحَمٌ، وهو قد يُقْحَمُ لضَرْبٍ من التعظيم على سبيل الكناية، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما[2]

فالمعنى: نَزِّهْ ربَّكَ عمَّا لا يليقُ به من الأوصاف. واستُدلَّ لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبةَ بن عامر الجهني قال: لما نزلت

(١) في (م): إذ.

(٢) ديوانه ص٧٩، وتمامه: ومَنْ يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر، وسلف عند تفسير الآية (٤١) من سورة هود.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»(١). ومن المعلوم أنَّ المجعول فيهما: سبحان ربي العظيم، وسبحان ربي الأعلى.

وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبرانيُّ والبيهقيُّ في «سننه»(٢) عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى».

وروى عبد بن حميد وجماعةٌ أنَّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه قرأ ذلك فقال: سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة. فقيل له: أتزيدُ في القرآن. قال: لا إنما أُمرنا بشيءٍ ففعلته(٣).

وفي «الكشاف»: تسبيحُ اسمه تعالى: تنزيههُ عمَّا لا يصحُّ فيه من المعاني التي هي إلحادٌ في أسمائه سبحانه؛ كالجبر والتشبيه مثلاً، وأن يُصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم(٤). فجعل المعنيين ـ على ما قيل ـ راجعين إلى الاسم، وإن كان الأول بالحقيقة راجعاً إليه عزَّ وجلَّ، لكن كما يصحُّ أن يقال: نزِّهِ الذاتَ عمَّا لا يصحُّ له من الأوصاف، يصحُّ أن يقال أيضاً: نَزِّهْ أسماءه تعالى الدالَّةَ على الكمال عمَّا لا يصحُّ فيه من خلافه. وليس المعنى الأولُ مبنيًّا على أنَّ لَفْظَ «اسم» مُقْحَمٌ، ولا على أنَّ المراد به المسمَّى إطلاقاً لـ «اسم» الدالِّ على المدلول، نعم قال به بعضُهم هنا، وهو إن كان للأخبار السابقة كما في دعوى الإقحام فلا بأس، وإن كان لِظَنٍّ أنَّ التسبيحَ لا يكون للألفاظ الموضوعة له تعالى، فليس بشيءٍ؛ لفساد هذا الظَّنِّ بظهور أنَّ التسبيحَ يكونُ لها كما سمعت، وقد قال الإمام(٥): إنه كما يجبُ تنزيهُ ذاته تعالى وصفاته جلَّ وعلا عن النقائص، يجبُ

---

(١) أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧). وسلف عند تفسير الآية (٩٧) من سورة الواقعة. وجاء في هامش الأصل و(م): وفي الكشاف: وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت. وليس في هذا الحديث المروي عمن سمعت.

(٢) أحمد (٢٠٦٦)، وأبو داود (٨٨٣)، والطبراني في الكبير (١٢٣٣٥)، والبيهقي ٢/ ٣١٠.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣٨، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٨ دون قوله: فقيل له: أتزيد... إلخ.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٥) لم نقف على قوله في التفسير الكبير.

تنزيهُ الألفاظ الموضوعة لذلك عن الرَّفَثِ وسوء الأدب. ومن هذا يُعلَمُ ما في التعبير عنه تعالى شأنه بنحو ليلى ونُعْم كما يُدَّعى ذلك في قول ابن الفارض قُدِّسَ سِرُّهُ:

أَبَـرْقٌ بـدا مـن جـانـبِ الـغَـوْر لامـعُ أمِ ارتفعتْ عن وجه ليلى البراقعُ[1]

وقوله:

إذا أنـعـمـتْ نُـعْـمٌ عـلـيَّ بـنـظـرةٍ فلا أَسعدتْ سُعدَى ولا أجملتْ جُملُ[2]

إلى غير ذلك من أبياته، وقد عاب ذلك بعضُ الأجلَّة وعدَّهُ من سوء الأدب، ومخالفاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

وأجاب بعضُهم بأنَّ ذلك ليس من الوضع في شيءٍ، وفَهْمُ الحضرة الإلهية من تلك الألفاظ إنما هو بطريق الإشارة، كما قالوا في فَهْم النفس الأمَّارة من البقرة مثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

والمنكِرُ لا يقنعُ بهذا، والأظهرُ أن يقال: إنَّ الكلامَ الموردَ فيه ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية، ولا نظرَ فيها إلى تشبيه المفردات بالمفردات، فليس فيه التعبيرُ عنه عزَّ وجلَّ بليلى ونحوها، واستعمالُ الاستعارة التمثيلية في شأنه تعالى مما لا بأس به، حتى إنهم قالوه في البسملة كما لا يخفى على مَنْ تتبَّعَ رسائلهم فيها. هذا ولعلَّ عندهم خبراً منه.

وقال جمعٌ: الاسمُ بمعنى التسمية، والمعنى: نَزِّهْ تسميةَ ربِّكَ بأن تذكره وأنت له سبحانه معظِّمٌ، ولذِكْره جلَّ شأنه محترِمٌ. وأنت تعلمُ أنَّ هذا يندرجُ في تسبيح الاسم كما تقدَّم.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: صَلِّ باسم ربك الأعلى، كما تقول: أبدأ باسم الله تعالى، وحَذْفُ حرف الجر حكاه في «البحر»[3]، ولا أظنُّ صحَّته.

---

(١) البيت في ديوانه ص١٦٦.
(٢) البيت في ديوانه ص١٣٦.
(٣) ٨/ ٤٥٨.

وقال عصام الدين: لا يبعدُ أن يُراد بالاسم(١) الأثر، أي: سَبِّح آثارَ ربِّكَ الأعلى عن النقصان، فإنَّ أثره تعالى دالٌّ عليه سبحانه كالاسم، فيكون مَنْعاً عن عيبِ المخلوقات، أي: من حيثُ إنها مخلوقةٌ له تعالى، وعلى وجهٍ ينافي قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. ولا يَخْفَى بُعْدُه، وإن كان فيما بعدُ من الصفات ما يُستأنس به له.

وأنا أقول: إن كان «سبِّح» بمعنى نزِّه، فكِلا الأمرين ـ من كون «اسم» مقحماً وكونِه غيرَ مقحَمٍ وتعلُّق التسبيح به على الوجه الذي سمعتَ ـ محتملٌ غيرُ بعيدٍ، وإذا كان معناه: قلْ سبحان، كما هو المعروف فيما بينهم، فكونه مُقحَماً متعيِّنٌ؛ إذ لم يُسْمَعْ سَلَفاً وخَلَفاً مَنْ يقول: سبحان اسم ربي الأعلى، أو سبحان اسم الله. والأخبارُ ظاهرةٌ في ذلك، وحَمْلُ ما فيها على اختيار الأخصر المستلزمِ لغيره كما ترى، ويؤيِّدُ هذا قراءة أبيِّ بن كعب كما في خبر سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن جبير: «سبحان ربي الأعلى»(٢)، وأما ما قيل من أنَّ الاسمَ عينُ المسمَّى، واستُدِلَّ عليه بهذه الآية ونحوها، فهو مما لا يُعوَّلُ عليه أصلاً، وقد تقدم الكلامُ أولَ الكتاب، فارجع إليه إن أردته.

و«الأعلى» صفةٌ للرَّبِّ، وأُريد بالعلوِّ العلوُّ بالقهر والاقتدار، لا بالمكان؛ لاستحالته عليه سبحانه، والسلفُ وإن لم يؤوِّلوه بذلك لكنهم أيضاً يقولون باستحالة العلوِّ المكانيِّ عليه عزَّ وجلَّ.

وجوِّز جعلُهُ صفةً لـ «اسم»، وعلوُّه ترفُّعه عن أن يشاركه اسمٌ في حقيقة معناه.

واستُشكل بأنَّ قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلخ إن كان صفةً للرَّبِّ كما هو الظاهر، لَزِمَ الفَصْلُ بين الموصوف وصفته بصفةِ غيره، وهو لا يجوز، فلا يقال: رأيتُ غلامَ هندٍ العاقلَ الحسنةِ. وإن كان صفةً لـ «اسمِ» أيضاً اختلَّ المعنى؛ إذ الاسمُ لا يتَّصفُ بالخلق وما بعده.

---

(١) في (م): الاسم.

(٢) الطبري ٢٤/٣٠٩، والحاكم ٢/٥٢١، والدر المنثور ٦/٣٣٨.

وأُجيب باختيار الثاني، ولا اختلال: إما لأنَّ الاسمَ بمعنى المسمَّى، أو لأنه لَمَّا كان مُقحَماً كان «اسم ربك» بمنزلة ربِّك، فَصَحَّ وَصْفُهُ بما يُوصَفُ به الرَّبُّ عزَّ وجلَّ. وفيه نظرٌ، والجوابُ المقبول أنَّ «الذي» على ذلك التقدير إما مرفوعٌ على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أو منصوبٌ على المدح، ومفعولُ «خلق» محذوفٌ، ولذا قيل بالعموم، أي: الذي خلق كلَّ شيءٍ.

﴿فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي: فجعله متساوياً، وهو أصلُ معناه، والمراد: فجعل خَلْقَهُ كما تقتضيه حِكْمته سبحانه في ذاته وصفاته، وفي معناه ما قيل: أي: فجعل الأشياءَ سواءً في باب الإحكام والإتقان، لا أنه سبحانه أتقنَ بعضاً دون بعض.

وَرُدَّ بما دلَّتْ عليه الآيةُ من العموم على المعتزلة في زَعْمهم أنَّ العبد خالقٌ لأفعاله، والزمخشريُّ مع أنَّ مذهبَهُ مذهبُهُمْ قال هنا بالعموم[1]، ولعلَّهُ لم يُرِدِ العمومَ الحقيقيَّ، أو أراده لكن على معنى: خَلَقَ كلَّ شيءٍ إما بالذات أو بالواسطة، وجَعَلَ ذلك في أفعال العباد بإقداره سبحانه، وتمكينهم على خَلْقها باختيارهم وقُدَرهم الموهوبة لهم.

وعن الكلبيِّ: خَلَقَ كلَّ ذي روح فسوَّى بين يديه وعينيه ورجليه.

وعن الزجاج: خَلَقَ الإنسانَ فَعَدَلَ قامَتَهُ، ولم يجعله منكوساً كالبهائم[2].

وفي كلٍّ تخصيصٌ لا يقتضيه ظاهرُ الحَذْف.

﴿وَالَّذِى قَدَّرَ﴾ أي: جَعَلَ الأشياءَ على مقاديرَ مخصوصةٍ في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها وأفعالها وآجالها.

﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ فوجَّهَ كلَّ واحدٍ منها إلى ما يصدرُ عنه وينبغي له طَبْعاً أو اختياراً، ويسَّره لما خُلِقَ له بخَلْقِ الميول والإلهامات، ونَصْبِ الدلائل وإنزال الآيات، فلو تتبَّعتَ أحوالَ النباتات والحيوانات لرأيتَ في كلٍّ منها ما تَحارُ فيه

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٣.

(٢) مجمع البيان ٣٠/ ١٠٦، وهو في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٥ بلفظ: خلق الإنسان مستوياً.

العقول، وتضيقُ عنه دفاترُ النقول، وأما فنونُ هداياته سبحانه وتعالى للإنسان على الخصوص ففوقَ ذلك بمراحلَ، وأبعدَ منه، ثم أبعد وأبعد بألوفٍ من المنازل، وهيهات أن يُحيطَ بها فَلَكُ العبارة والتحرير، ولا يكادُ يعلمها إلا اللطيف الخبير:

أتزعمُ أنك جِرْمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر[1]

وقيل: أي: والذي قدَّرَ الخَلْقَ على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات، وأجرى لهم أسبابَ معاشهم من الأرزاق والأقوات، ثم هداهم إلى دينه ومعرفة توحيده بإظهار الدلالات والبيِّنات.

وقيل: قَدَّرَ أقواتهم وهداهم لطلبها.

وعن مقاتلٍ والكلبي: قَدَّرهم ذُكْراناً وإناثاً، وهدى الذَّكَر كيف يأتي الأنثى.

وعن مجاهدٍ: قَدَّر الإنسانَ والبهائمَ، وهدى الإنسانَ للخير والشر، والبهائمَ للمراتع.

وعن السُّدِّيِّ: قدَّر الولد في البطن تسعةَ أشهرٍ أو أقلَّ أو أكثر، وهداه للخروج منه للتمام.

وقيل: قدَّر المنافعَ في الأشياء، وهدى الإنسان لاستخراجها.

والأَوْلَى ما ذُكر أولاً، ولعلَّ ما في سائر الأقوال من باب التمثيل لا التخصيص، وزَعَمَ الفراءُ أنَّ في الآية اكتفاءً، والأصلُ: فهدى وأضلَّ[2]. وليس بشيءٍ.

وقرأ الكسائيُّ: «قَدَرَ» بالتخفيف[3] من القُدْرة أو التقدير.

﴿وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي: أنبتَ ما ترعاه الدوابُّ غَضًّا رَطْباً يرفّ.

---

(١) البيت في الديوان المنسوب لعلي ﷺ ص٤٥. وسلف ١/ ٢٧٣.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٥٦ والاكتفاء: أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازمٌ وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٣) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ هو ما يَقذِفُ به السيلُ على جانب الوادي من الحشيش والنبات، وأصله على ما في «المجمع» الأخلاطُ من أجناسٍ شتَّى، والعربُ تُسمِّي القومَ إذا اجتمعوا من قبائلَ شتَّى أخلاطاً وغُثاءً(١). ويقال: غُثَّاءً بالتشديد، وجاء جَمْعُهُ على أغثاء، وهو غريبٌ من حيثُ جَمْعُ فُعالٍ على أفعال، والمراد به هنا اليابسُ من النبات، أي: فجعله بعد ذلك يابساً.

﴿أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ من الحُوَّة، وهي كما قيل السوادُ، وقال الأعلم: لونٌ يضربُ إلى السواد. وفي «الصحاح»(٢): الحُوَّةُ: السُّمرة. فالمرادُ بأحوى أسودُ أو أسمرُ، والنبات إذا يبس اسودَّ أو اسمرَّ، فهو صفةٌ مؤكِّدةٌ للغثاء، وتُفسَّرُ الحُوَّةُ بشِدَّة الخُضْرة، وعليه قولُ ذي الرُّمة:

لمياءُ في شَفَتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ   وفي اللِّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ(٣)

ولا ينافي ذلك تفسيرُها بالسواد؛ لأنَّ شِدَّةَ الخضرة تُرى في بادئ النظر كالسواد، وجُوِّز كونُهُ حالاً من المرعى، أي: أخرج المرعى حالَ كونه طريًّا غضًّا شديدَ الخُضْرة، فجعله غُثاءً، والفَصْلُ بالمعطوف بين الحال وصاحبها ليس فصلاً بأجنبيٍّ، لاسيَّما وهو حالٌ يعاقِبُ الأولَ من غير تراخٍ، وسِرُّ التقديم المبالغةُ في استعقاب حالةِ الجفاف حالةَ الرفيف والغضارة، كأنه قبل أن يتمَّ رفيفُهُ وغضارتُهُ يصيرُ غُثاءً، ومع هذا هو خلافُ الظاهر.

وهذه الأوصافُ على ما قيل يتضمَّنُ كلٌّ منها التدريج، ففي الوصف بها تحقيقٌ لمعنى التربية، وهي تبليغُ الشيء كمالَه شيئاً فشيئاً.

وقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ بيانٌ لهدايته تعالى شأنه الخاصةِ

---

(١) مجمع البيان ٣٠/ ١٠٥.

(٢) مادة (حوا).

(٣) البيت في ديوانه ١/ ٣٢. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّمى: سُمْرةٌ في الشفتين، وكذلك الحُوَّة شبيهةٌ باللَّمى تضرب إلى السواد، وكذلك اللَّعَسُ يكون بالشفتين واللثة. والشنب؛ قال الأصمعي: بردٌ وعذوبةٌ في الأسنان. وغيره يقول: تمديد الأسنان ودقتها. والأول أجود.

برسوله ﷺ إثرَ بيان هدايته عزَّ وجلَّ العامة لكافة مخلوقاته سبحانه، وهي هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقِّي الوحي وحفظِ القرآن الذي هو هُدًى للعالمين، وتوفيقه ﷺ لهداية الناس أجمعين.

والسِّين إما للتأكيد، وإما لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أوحي إليه ﷺ حينئذٍ وما سيوحى إليه عليه الصلاة والسلام بعد، فهو وَعْدٌ كريمٌ باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء، وإسنادُ الإقراء إليه تعالى مجازيٌّ، أي: سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعدُ على لسان جبريل عليه السلام ـ فإنه عليه السلام الواسطةُ في الوحي على سائر كيفياته ـ فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والإتقان، مع أنك أميٌّ لم تكن تدري ما الكتابُ وما القراءة؛ ليكون ذلك لك آية، مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البيِّنات من حيثُ الإعجازُ ومن حيث الإخبارُ بالمغيبات.

وجُوِّزَ أن يكون المعنى: سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة ـ أي: في الكتاب ـ من دون تعليمِ أحدٍ كما هو العادة، فقد روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ الكتابةَ ولا يكتب[1]. ويكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نفيُ النسيان مطلقاً عنه عليه الصلاة والسلام؛ امتناناً عليه ﷺ بأنه أوتي قوةَ الحفظ. وفيه أنه مع كونه خلاف المأثور عن السلف في الآية، تأباهُ فاءُ التفريع.

وجُوِّزَ أيضاً أن يكون المراد نفيُ نسيان المضمون، أي: سنقرئك القرآنَ فلا تغفلُ عنه فتخالفَه في أعمالك، ففيه وعدٌ بتوفيقه عليه الصلاة والسلام لالتزام ما فيه من الأحكام. وهو كما ترى.

وقيل: «فلا تنسى» نهيٌ، والألفُ لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]. وفيه أنَّ النسيانَ ليس بالاختيار، فلا يُنهى عنه إلا أن يُرادَ مجازاً تَرْكُ أسبابه الاختيارية، أو تركُ العمل بما تضمَّنه المقرأ، وفيه ارتكابُ تكلُّفٍ من غير داعٍ، وأيضاً رَسْمُهُ بالياء يقتضي أنها من البنْية، لا للإطلاق، وكونُ رَسْمِ المصحف مخالفاً تكلُّفٌ أيضاً، نعم قيل: رُسِمَتْ ألفُ الإطلاق ياءً لموافقة غيرها

(١) لم نقف عليه.

من الفواصل، وموافقة أصلها، مع أنَّ الإمام المرزوقيَّ صرَّحَ بأنه عند الإطلاق تُرَدُّ المحذوفة.

وقيل: هو نهيٌ لكن لم تُحذَفِ الألفُ فيه؛ إذ قد لا يَحذِفُ الجازمُ حرفَ العِلَّة، وحَسَّنَ ذلك هنا مراعاةُ الفاصلة. وفيه أيضاً ما فيه.

والأهون للطالب معنى النهي أن يقول: هو خبرٌ أُريد به النهي على أحد التأويلين السابقين آنفاً.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ المفاعيل، أي: لا تنسى أصلاً مما سنقرئكهُ شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه، قيل: أي: أبداً. قال الحسن وقتادة وغيرهما: وهذا مما قضى الله تعالى نَسْخَهُ وأن يرتفع حكمه وتلاوته.

والظاهر أنَّ النسيانَ على حقيقته، وفي «الكشاف» أي: إلا ما شاء الله فذهب به عن حِفْظك برَفْعِ حُكْمه وتلاوته(١). وجَعْلُ النسيان عليه بمعنى رَفْع الحكم والتلاوة وكنايةً عنه؛ لأنَّ ما رُفِعَ حُكْمُهُ وتلاوته يُتْرَكُ فيُنسى، فكأنه قيل - بناءً على إرادة المعنيين في الكنايات -: سنقرئك القرآنَ فلا تنسى شيئاً منه ولا يُرفَعُ حُكمه وتلاوته، إلا ما شاء الله فتنساه ويُرفع حكمه وتلاوته. أو نحو هذا، وأنا لا أرى ضرورةً إلى اعتبار ذلك.

والباء في «برفع» إلخ للسببية، والمراد: إما بيانُ السبب العادي البعيد لذهاب الله تعالى به عن الحفظ، فإنَّ رَفْعَ الحكم والتلاوة يؤدِّي عادةً في الغالب إلى ترك التلاوة؛ لعدم التعبُّد بها، وإلى عدم إخطاره في البال لعدم بقاء حكمه، وهو يؤدِّي عادةً في الغالب أيضاً إلى النسيان. أو بيانُ السبب الدافع لاستبعاد الذهاب به عن حفظه عليه الصلاة والسلام، وهو كالسبب المجوِّزِ لذلك. وأيًّا ما كان فلا حاجةَ إلى جَعْلِ معنى «فلا تنسى»: فلا تتركُ تلاوةَ شيءٍ منه والعملَ به. فتأمل.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٣.

ثم إنه لا يلزمُ من كون ما شاء الله تعالى نسيانَه مما قضى سبحانه أن يرتفع حكمه وتلاوته أن يكون كلُّ ما ارتفع حُكْمه وتلاوته قد شاء الله تعالى نسيانَ النبيِّ ﷺ له، فإنَّ من ذلك ما يحفظه العلماء إلى اليوم، فقد أخرج الشيخان عن عائشة ﵂: كان فيما أُنزل: عَشْرُ رَضَعاتٍ معلوماتٍ، فَنُسِخْنَ بخمسٍ معلومات. الحديث[(١)]، وكونه ﷺ نسيَ الجميعَ بعد تبليغه وبقي ما بقي عند بعضٍ مَنْ سَمِعَهُ منه عليه الصلاة والسلام فَنُقِلَ حتى وَصَلَ إلينا، بعيدٌ وإن أمكن عقلاً.

وقيل: كان ﷺ يَعْجَلُ بالقراءة إذا لقَّنه جبريل عليه السلام، فقيل: لا تعجلْ فإنَّ جبريل عليه السلام مأمورٌ أن يقرأه عليك قراءةً مكرَّرةً إلى أن تحفظه، ثم لا تنساه إلا ما شاء الله تعالى، ثم تذكره بعد النسيان. وأنت تعلم أنَّ الذِّكْرَ بعد النسيان وإن كان واجباً إلا أنَّ العلم به لا يُستفاد من هذا المقام.

وقيل: إنَّ الاستثناءَ بمعنى القِلَّة، وهذا جارٍ في العُرْف، كأنه قيل: إلا ما لا يعلم؛ لأنَّ المشيئةَ مجهولةٌ، وهو لا محالة أقلُّ من الباقي بعد الاستثناء، فكأنه قيل: فلا تنسى شيئاً إلا شيئاً قليلاً، وقد جاء في «صحيح البخاري» وغيره أنه ﷺ أسقطَ آيةً في قراءته في الصلاة، وكانت صلاةَ الفجر، فَحَسِبَ أُبَيٌّ أنها نُسختْ، فسأله عليه الصلاة والسلام، فقال: «نُسِّيتُها»[(٢)] ثم إنه عليه الصلاة والسلام لا يُقَرُّ على نسيانه القليل أيضاً، بل يُذكِّرهُ الله تعالى، أو يُيسِّرُ من يُذكِّره، ففي «البحر» أنه ﷺ قال حين سمع قراءة عباد بن بشر[(٣)]: «لقد ذكَّرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٥٢)، ولم نقف عليه في صحيح البخاري.

(٢) لم نقف عليه في الصحيح، وإنما أخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام (١٩٣)، وأحمد (١٥٣٦٥)، وهو من حديث عبد الرحمن بن أبزى.

(٣) في الأصل و(م) والبحر: بشير، والصواب ما أثبتناه، وهو عباد بن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل، ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدراً، قال: واستشهد باليمامة. الإصابة ٥/٣١١، وينظر ما سيأتي في التعليق الذي بعده.

(٤) البحر ٨/٤٥٩، وأخرج البخاري (٢٦٥٥)، ومسلم (٧٨٨) من حديث عائشة ﵂ قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال: «رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية =

وقيل: الاستثناء بمعنى القِلَّة، وأُريد بها النفي مجازاً، كما في قولهم: قَلَّ مَنْ يقول كذا، قيل: والكلام عليه من باب:

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم[(١)]

البيت، والمعنى: فلا تنسى إلا نسياناً معدوماً. وفي «الحواشي العصامية على أنوار التنزيل»[(٢)]: إنَّ الاستثناءَ على هذا الوجه لتأكيد عموم النفي، لا لنقض عمومه.

وقد يقال: الاستثناءُ من أعمِّ الأوقات، أي: فلا تنسى في وقتٍ من الأوقات إلا وقتَ مشيئة الله تعالى نسيانك، لكنه سبحانه لا يشاء، وهذا كما قيل في قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] وقد قدمنا ذلك[(٣)]. وإلى هذا ذهب الفراء[(٤)] فقال: إنه تعالى ما شاء أن يُنسيَ النبيَّ ﷺ شيئاً، إلا أنَّ المقصود من الاستثناء بيانُ أنه تعالى لو أراد أن يُصيِّره عليه الصلاة والسلام ناسياً لذلك لَقَدَرَ عليه كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] ثم إنَّا نقطعُ بأنه تعالى ما شاء ذلك، وقال له ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يُشرِكِ البتَّةَ، وبالجملة ففائدةُ هذا الاستثناء أن يُعرِّفه الله تعالى قُدْرته حتى يعلمَ ﷺ أنَّ عَدَمَ

= أسقطتهن من سورة كذا وكذا» قال البخاري: وزاد عباد بن عبد الله عن عائشة: تهجَّد النبي ﷺ في بيتي فسمع صوت عبَّاد يصلي في المسجد، فقال: «يا عائشة، أصوت عباد هذا؟» قلت: نعم. قال: «اللهم ارحم عباداً». قلنا: وصله أبو يعلى (٤٣٨٨) من طريق عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: تهجَّد رسول الله ﷺ في بيته وتهجد عباد بن بشر في المسجد، فسمع رسول الله ﷺ صوته... الحديث، وينظر فتح الباري ٥/ ٢٦٥.

(١) صدر بيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١ وتمامه:
بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائب

(٢) هي حاشية عصام الدين الإسفراييني، إبراهيم بن محمد بن عربشاه، المتوفى سنة (٩٤٣هـ). طبقات المفسرين للأدرنهوي ص ٣٧٦..

(٣) ينظر ١١/ ١٤١ وما بعدها.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

النسيان من فضله تعالى وإحسانه، لا من قوته، أي: حتى يتقوَّى ذلك جدًّا، أو ليُعرِّفَ غيرَه ذلك، وكأنَّ نفيَ أن يشاء الله تعالى نسيانه عليه الصلاة والسلام معلومٌ من خارج، ومنه آية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ الآية [القيامة: ١٦].

وقد أشار أبو حيان إلى ما قاله الفراء وإلى الوجه الذي قبله وأباهما غاية الإباء؛ لعدم الوقوف على حقيقتهما، وقال: لا ينبغي أن يكون ذلك في كلام الله تعالى، بل ولا في كلامٍ فصيح[١]. وهو مجازفةٌ منه عفا الله تعالى عنه.

ثم إنَّ المراد من نفي نسيان شيءٍ من القرآن نفي النسيان التامِّ المستمرِّ، فما[٢] لا يُقَرُّ عليه ﷺ كالذي تضمَّنه الخبر السابق ليس كذلك، وقد ذكروا أنه عليه الصلاة والسلام لا يُقَرُّ على النسيان فيما كان من أصول الشرائع والواجبات، وقد يُقَرُّ على ما ليس منها، أو منها وهو من الآداب والسنن، ونُقِلَ هذا عن الإمام الرازي عليه الرحمة[٣] فليحفظ.

والالتفاتُ إلى الاسم الجليل على سائر الأوجه لتربية المهابة والإيذان بدَوَران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات.

ورَبْطُ الآية بما قبلها على الوجه الذي ذكرناه هو الذي اختاره في «الإرشاد»[٤]، وقال أبو حيان[٥]: إنه سبحانه لما أمره ﷺ بالتسبيح، وكان لا يتمُّ إلا بقراءة ما أُنزل عليه من القرآن، وكان ﷺ يتفكر[٦] في نفسه مخافةَ أن ينسى، أزال سبحانه عنه ذلك بأنه عزَّ وجلَّ يُقرئه، وأنه لا ينسى إلا ما شاء أن يُنسيه لمصلحة.

وفيه نظرٌ لا يخفى، ولو قيل: إنَّ «سنقرئك» استئنافٌ واقعٌ موقعَ التعليل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٥٩.
(٢) في (م): مما، وهو تصحيف.
(٣) التفسير الكبير ٣١/ ١٤٣.
(٤) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٤٤.
(٥) في البحر ٨/ ٤٥٩.
(٦) في البحر ٨/ ٤٥٩: يتذكر.

للتسبيح، أو للأمر به، فيفيدُ جلالةَ الإقراء، وأنه مما ينبغي أن يقابَلَ بتنزيه الله تعالى وإجلاله، كان أهون مما ذُكر، ونحوُه كونُه في موقع التعليل على معنى: هَيِّئْ نفسَكَ للإفاضة عليك بتسبيح الله تعالى؛ لأنَّا سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله. ويتضمَّنُ ذلك الإشارةَ إلى فَضْلِ التسبيح، وقد وردتْ أخبارٌ كثيرةٌ في ذلك، وذكر الثعلبيُّ بعضاً منها، ونقله ابن الشيخ في «حواشيه على تفسير البيضاوي» والله تعالى أعلم بصحته.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ تعليلٌ لما قبله، والجهر هنا: ما ظهر قولاً أو فعلاً أو غيرهما، وليس خاصًّا بالأقوال بقرينة المقابلة، أي: إنه تعالى يعلم ما ظهر وما بَطَنَ من الأمور التي من جملتها حالُكَ وحِرْصُكَ على حفظ ما يُوحى إليك بأسره، فيقرئك ما يقرئك، ويَحْفَظُكَ عن نسيان ما شاء منه، ويُنسِيكَ ما شاء منه مراعاةً لما نِيْطَ بكلٍّ من المصالح والحكم التشريعية.

وقيل: توكيدٌ لجميع ما تقدَّمه، وتوكيدٌ لما بعده.

وقيل: توكيدٌ لقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ) إلخ على أنَّ الجهر ما ظهر من الأقوال، أي: يعلمُ سبحانه جهرَكَ بالقراءة مع جبريل عليه السلام، وما دعاك إليه من مخافة النسيان، فيعلمُ ما فيه الصلاح من إبقاءٍ وإنساءٍ، أو: فلا تخفْ فإني أكفيكَ ما تخافُ.

وقيل: إنه متعلِّقٌ بقوله تعالى: (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى). وهذا ليس بشيءٍ كما ترى.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ عَطْفٌ على «سنقرئك» كما يُنبئ عنه الالتفات إلى الحكاية، وما بينهما اعتراضٌ واردٌ لما سمعتَ، وتعليقُ التيسير به ﷺ مع أنَّ الشائعَ تعليقُهُ بالأمور المسخَّرة للفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٦] للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك مَلَكَةً راسخةً له، كأنه عليه الصلاة والسلام جُبِلَ عليها، أي: نوفِّقك توفيقا مستمرًّا للطريقة اليسرى في كلِّ بابٍ من أبواب الدين عِلْماً وتعليماً واهتداءً وهدايةً،

فيندرجُ فيه تيسيرُ طريق تلقِّي الوحي[١] والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السَّمْحة والنواميس الإلهية مما يتعلَّقُ بتكميل نفسه الكريمة ﷺ وتكميل غيره كما يُفصِحُ عنه الفاء فيما بعد. كذا في «الإرشاد»[٢].

وقيل: المراد باليسرى: الطريقةُ التي هي أيسرُ وأسهلُ في حفظ الوحي.

وقيل: هي الشريعةُ الحنيفيةُ السهلة.

وقيل: الأمور الحسنة في أمر الدنيا والآخرة، من النصر وعلوِّ المنزلة والرفعة في الجنة. وضَمَّ إليها بعضُ أمرَ الدين، وهو مع هذا الضمِّ تعميمٌ حَسَنٌ، وظاهرٌ عليه أيضاً أمر الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أي: فذكِّرِ الناسَ حسبما يسَّرناك بما يوحى إليك، واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله.

وقيل: أي: فذكِّر بعد ما استتبَّ ـ أي: استقامَ وتهيّأ ـ لك الأمر، فإن أراد: فَدُمْ على التذكير بعد ما استقام لك الأمرُ من إقرائك الوحي وتعليمك القرآن بحيث لا تنسى منه إلا ما اقتضتِ المصلحةُ نسيانه، وتيسيرك للطريقة اليسرى في كلِّ بابٍ من أبواب الدين = فذاك، وإلا فليس بشيءٍ.

وتقييدُ التذكير بنَفْعِ الذكرى لِمَا أنَّ رسول الله ﷺ كان قد ذَكَّرَ وبالغ فيه، فلم يَدَعْ في القوس مَنْزِعاً، وسَلَكَ فيه كلَّ طريقٍ، فلم يترك مَضيقاً ولا مَهْيَعاً[٣] حرصاً على الإيمان وتوحيد الملك الديان، وما كان يزيدُ ذلك بعضَ الناس إلا كفراً وعناداً، وتمرُّداً وفساداً، فأُمِرَ ﷺ تخفيفاً عليه ـ حيثُ كاد الحرصُ على إيمانهم يُوجِّهُ سهام التلف إليه كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] ـ بأن يخصّ التذكير بمواد النفع في الجملة بأن

---

(١) في الأصل و(م): تيسير تلقي طريقي الوحي، والمثبت من إرشاد العقل السليم ٩/ ١٤٥، والكلام منه.

(٢) ٩/ ١٤٥.

(٣) المضيق: ما ضاق من الأماكن والأمور. والمَهْيَع: الطريق البيِّن. القاموس المحيط (ضاق) (هيع).

يكون مَنْ يُذكِّره كلًّا أو بعضاً ممن يُرجى منه التذكُّر، ولا يُتعِبَ نفسَهُ الكريمةَ في تذكير مَنْ لا يُوْرِثُه التذكير إلا عتوًّا ونفوراً وفساداً وغروراً من المطبوع على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وعِلْمُهُ ﷺ بِمَنْ طُبِعَ على قلبه بإعلام الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام به، فهو ﷺ بعد التبليغ وإلزام الحجَّة لا يجب عليه تكريرُ التذكير على مَنْ عَلِمَ أنه مطبوعٌ على قلبه، فالشرطُ على هذا على حقيقته.

وقيل: إنه ليس كذلك، وإنما هو استبعادُ النفع بالنسبة إلى هؤلاء المذكَّرين(١) نعياً عليهم بالتصميم، كأنه قيل: افعل ما أُمرت به لتؤجَرَ وإن لم ينتفعوا به. وفيه تسليةٌ له ﷺ.

ورُجِّحَ الأولُ بأنَّ فيه إبقاءَ الشرط على حقيقته مع كونه أنسب بقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: سيذكَّر بتذكيرك مَنْ مِنْ شأنه أن يخشى الله تعالى حقَّ خشيته، أو مَنْ يخشى الله تعالى في الجملة، فيزدادُ ذلك بالتذكير فيتفكَّرُ في أمر ما تُذكِّرُهُ به، فيقفُ على حَقِّيَّته، فيؤمنُ به.

وقيل: إنَّ «إنْ» بمعنى «إذ» كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذ كنتم؛ لأنه سبحانه لم يُخبرهم بكونهم الأعلون إلا بعد إيمانهم، وقوله ﷺ في زيارة أهل القبور: «وإنَّا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون»(٢) وأثبت هذا المعنى لها الكوفيون احتجاجاً بما ذُكِرَ ونظائره، وأجاب النافون عن ذلك بما في «المغني»(٣) وغيره.

وقيل: هي بمعنى «قد»، وقد قال بهذا المعنى قُطرب. وقال عصام الدين: المراد أنَّ التذكيرَ ينبغي أن يكون بما يكون مهمًّا لمن له التذكير، فينبغي تذكيرُ الكافرين بالإيمان، لا بالفروع كالصلاة والصوم والحج؛ إذ لا تنفعهُ بدون الإيمان،

---

(١) في (م): المذكورين.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ص٣٩ وما بعدها.

وتذكيرُ المؤمن التارك للصلاة بها دون الإيمان مثلاً، وهكذا، فكأنه قيل: ذَكِّرْ كلَّ واحدٍ بما ينفعه ويليقُ به.

وقال الفراء والنحاس والجرجانيُّ والزهراويُّ: الكلامُ على الاكتفاء، والأصلُ: فذكِّر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][١].

والظاهرُ أنَّ الذين لا يقولون بمفهوم المخالفة ـ سواء كان مفهومَ الشرط أو غيره ـ لا يُشكِلُ عليهم أمرُ هذه الآية كما لا يخفى.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: ويتجنَّبُ الذكرى ويتحاماها ﴿ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ وهو الكافرُ المصرُّ على إنكار المعاد ونحوه، الجازمُ بنفي ذلك مما يقتضي الخشية بوجه، وهو أشقى أنواع الكَفَرة.

وقيل: المراد به الكافرُ المتوغِّلُ في عداوة الرسول ﷺ؛ كالوليد بن المغيرة، وعُتْبة بن ربيعة، وقد روي أنَّ الآية نزلت فيهما، فإنه أشقى من غير المتوغِّلِ.

وقيل: المراد به الكافر مطلقاً، فإنه أشقى من الفاسق.

وقيل: المفضَّل عليه كَفَرَةُ سائر الأمم، فإنه حيث كان المؤمنُ من هذه الأمة أسعد من مؤمنيهم، كان الكافر منها أشقى من كافريهم.

والأوجهُ عندي في المراد بالأشقى ما تقدم.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: الطبقةَ السُّفلى من أطباق النار كما قال الفراء[٢]، ولا بُعْدَ في تفاضل نارِ الآخرة وكون بعضٍ منها أكبر من بعض وأشدّ حرارة.

وقال الحسن: الكُبرى: نار الآخرة، والصغرى: نار الدنيا، ففي الصحيحين[٣]

---

(١) ذكر قولهم أبو حيان في البحر ٨/ ٤٥٩، وأبو السعود ٩/ ١٤٦، وعنه نقل المصنف، وكلام النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٦.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٣) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وهو عند أحمد (٧٣٢٧).

عن أبي هريرة مرفوعاً: «ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» وفي روايةٍ للإمام أحمد[1] عنه مرفوعاً أيضاً: «إنَّ هذه النار جزءٌ من مئة جزءٍ من جهنم» فلعلَّ السبعينَ واردٌ مَوْرِدَ التكثير وهو كثيرٌ.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: حياةً تنفعُه. وقيل: إنَّ روحَ أحدهم تصيرُ في حَلْقه، فلا تخرجُ فيموت ولا ترجعُ إلى موضعها من الجسد فيحيا. وهو غيرُ غنيٍّ عن التقييد بنحو حياةٍ كاملةٍ، على أنه بَعْدُ لا يخلو عن بحثٍ.

و«ثم» للتراخي في الرتبة، فإنَّ هذه الحالةَ أفظعُ وأعظمُ من نفس الصَّلْي، وقال عصام الدين: يحتملُ أن يكون هذا الكلامُ كناية عن عدم النجاة؛ لأنَّ النجاةَ عن العذاب إنما تكون بالعمل في دارٍ يموت فيها العامل ويحيا، والنَّظْمُ أقربُ إلى هذا المعنى، كيف واللائقُ بالمعنى السابق: ثم لا يكون ميتاً فيها ولا حيًّا، فتأمل. انتهى.

وفي كون اللائق بالمعنى السابق ما ذكره دون ما في النَّظْم الجليل مَنْعٌ ظاهرٌ، والظاهر أنه لائقٌ به مع تضمُّنه رعايةَ الفواصل، وكذا في توجيه كون ما ذُكِرَ كنايةً عن عدم النجاة خفاءٌ، وكأنه لذلك أمر بالتأمل.

وقد يقال: إنَّ مِثْلَ ذلك الكلام يقال لمن وقع في شِدَّةٍ واستمرَّ فيها، فلا يبعدُ أن يكون فيه إشارةٌ إلى خلودهم في العذاب، وأَمْرُ التراخي الرُّتَبي عليه ظاهرٌ أيضاً؛ لظهور أنَّ الخلودَ في النار الكبرى أفظعُ من دخولها وصَلْيها.

واعلم أنَّ عدم الموت في النار ـ على ما صرَّح به غيرُ واحدٍ ـ مخصوصٌ بالكَفَرة، وأما عصاةُ المؤمنين الذين يدخلونها، فيموتون فيها، واستُدلَّ لذلك بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيَوْن، ولكن ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتهم الله تعالى إماتةً، حتى إذا كانوا فَحْماً أُذِنَ في الشفاعة، فجِيءَ

(١) رقم (٨٩٢١).

بهم ضَبائِرَ ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهلَ الجنة أفيضوا عليهم من الماء، فينبتون نباتَ الحِبَّة في حَميل السيل»[١].

قال الحافظ ابن رجب: إنه يدلُّ على أنَّ هؤلاء يموتون حقيقةً، وتفارقُ أرواحُهم أجسادَهم[٢].

وأُيِّدَ بتأكيد الفعل بالمصدر في قوله عليه الصلاة والسلام: «فأماتهم الله تعالى إماتةً» وأظهرُ منه ما أخرجه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنَّ أدنى أهل الجنة حظًّا ـ أو نصيباً ـ قومٌ يُخرجهم الله تعالى من النار، فيرتاحُ لهم الرَّبُّ تبارك وتعالى، وذلك أنهم كانوا لا يُشركون بالله تعالى شيئاً، فيُنبَذون بالعراء، فينبتون كما ينبتُ البقل، حتى إذا دخلتِ الأرواحُ أجسادَهم فيقولون: ربَّنا كما أخرجتنا من النار وأرجعتَ الأرواحَ إلى أجسادنا، فاصرفْ وجوهنا عن النار، فيَصْرِفُ وجوههم عن النار»[٣].

وهذه الإماتةُ ـ على ما اختاره غيرُ واحدٍ ـ بعدَ أن يذوقوا ما يستحقُّونه من عذابها بحَسَبِ ذنوبهم كما يُشعِرُ به حديثُ مسلم، وإبقاؤهم فيها مَيِّتين إلى أن يُؤذَنَ بالشفاعة لإيجابِه تأخيرَ دخولهم الجنةَ تلك المدَّة كان تتمَّة لعقوبتهم بنوعٍ آخر، فتكونُ ذنوبهم قد اقتضت أن يُعذَّبوا بالنار مدَّةً ثم يُحبَسوا فيها من غير عذابٍ مُدَّةً، فهم كَمَنْ أذنبَ في الدنيا ذنباً، فَضُرِبَ وحُبِسَ بعد الضرب جزاءً لذنبه، ولم يبقوا أحياءً فيها من غير عذابٍ كخزنتها، إما ليكونَ أبعدَ عن أن يهولهم رؤيتها، أو لتكونَ الإماتةُ وإخراجُ الروح من تتمَّةِ العقوبة أيضاً.

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥)، وهو عند أحمد (١١٠٧٧). الحِبة بالكسر: بزور البقول وحب الرياحين، وأما الحَبَّة بالفتح: فهي الحنطة والشعير ونحوهما، وحميل السيل: هو ما يجيء به السيل من طين وغثاء ونحوهما، فإذا اتفقت فيه حِبةٌ واستقرت على شط مجرى السيل فإنها تنبت في يوم وليلة، فشبَّه به سرعة عَوْد أبدانهم وأجسامهم إليها بعد إحراق النار لها. النهاية (حبب) و(حمل).

(٢) التخويف من النار لابن رجب ص ١٨٩.

(٣) كشف الأستار (٣٥٥٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠٠: رواه البزار ورجاله ثقات.

وقال القرطبيُّ: يجوز أن تكون إماتتهم عند إدخالهم فيها، ويكونُ إدخالهم وصَرْفُ نعيم الجنة عنهم مُدَّةَ كونهم فيها عقوبةً لهم كالحبس في السجن بلا غلٍّ ولا قيدٍ مثلاً، ويجوز أن يكونوا متألِّمين حالةَ موتهم نحو تألُّم الكافر بعد موته وقبل قيام الساعة، ويكون ذلك أخفَّ من تألُّمهم لو بَقُوا أحياء، كما أنَّ تألُّمَ الكافر بعد موته في قبره أخفُّ من تألُّمه إذا أُدخل النار بعد البعث. وهو كما ترى.

وفي «مطامح الأفهام»(١) يجوز أن يُرادَ بالإماتة المذكورة في الحديث: الإنامة، وقد سمَّى الله تعالى النومَ وفاةً؛ لأنَّ فيه نوعاً من عدم الحِسِّ، وفي الحديث المرفوع «إذا أدخلَ الله تعالى الموحِّدين النارَ أماتهم فيها، فإذا أراد سبحانه أن يخرجوا أَمَسَّهم العذابَ تلك الساعة»(٢) انتهى.

والمعوَّل عليه ما ذكرناه أولاً والله تعالى أعلم.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾ أي: نجا من المكروه وظفر بما يرجوه.

﴿مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي: تطهَّرَ من الشرك بتذكُّره واتِّعاظه بالذكرى، وحَمْلُهُ على ذلك مرويٌّ عن ابن عباس وغيره، وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبيِّ ﷺ أنه قال في ذلك: «مَنْ شَهِدَ أن لا إله إلا الله، وخَلَعَ الأنداد، وشَهِدَ أني رسول الله»(٣).

واعتبر بعضُهم أمرين فقال: أي: تطهَّر من الكفر والمعصية. وعليه يجوزُ أن يكونَ ما تقدَّم من باب الاقتصار على الأهم.

وقيل: تزكَّى، أي: تكثَّر من التقوى والخشية، من الزكاء وهو النماء.

وقيل: تطهَّر للصلاة.

---

(١) مطامح الأفهام في شرح الأحكام للقاضي عياض. كشف الظنون ٢/ ١٧١٨.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٢٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده الحسن بن علي بن راشد، ذكره الذهبي في الضعفاء. ينظر أسنى المطالب لمحمد بن السيد درويش ص٢٨، والمغني في الضعفاء للذهبي ص ١٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣٩، وهو في كشف الأستار (٢٢٨٤)، وفي إسناده عباد بن أحمد العرزمي، وهو متروك كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧.

وقيل: آتى الزكاةَ. وروي هذا عن أبي الأحوص وقتادة وجماعة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بلسانه وقلبه، لا بلسانه مع غفلة القلب؛ إذ مِثْلُ ذلك لا ثوابَ فيه، فلا ينبغي أن يدخل فيما يترتَّبُ عليه الفلاح، والذِّكْرُ القلبيُّ باستحضار اسمه تعالى في القلب وإن كان ممدوحاً بلا شبهة إلا أنَّ إرادته بخصوصه مما ذُكِرَ خلافُ الظاهر، وحكاه في «مجمع البيان»[١] عن بعضٍ، وما روي عن ابن عباس من قوله: أي: ذَكَرَ معادَهُ وموقفه بين يدي ربه عزَّ وجلَّ، ظاهرٌ فيه وفي إقحام لفظ «اسم».

وذهب بعضُ الحنفية إلى أنَّ المراد بهذا الذكر تكبيرةُ الافتتاح، كأنه قيل: وكبَّر للافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ أي: الصلوات الخمس، كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس[٢]، وروي ذلك في حديث مرفوع[٣]. وقيل: الصلاةَ المفروضةَ وما أمكنَ من النوافل. واحتجَّ بذلك على وجوب التكبيرة، حيث نِيطَ به الفلاحُ، ووقع بين واجبين، بل فَرْضين: التَّزَكِّي من الشرك والصلاة، مع أنَّ الاحتياط في العبادات واجبٌ فلا يضرُّ الاحتمال.

وعلى أنَّ الافتتاحَ جائزٌ بكلِّ اسمٍ من أسمائه عزَّ وجلَّ، وهو ظاهرٌ.

وعلى أنَّ التكبيرةَ شرطٌ لا ركنٌ؛ للعطف بالفاء، وعَطْفُ الكلِّ على الجزء كعطفِ العامِّ على الخاصِّ وإن جاز لا يكون بها، مع أنه لو سُلِّم صحته بتكلُّفٍ فلا بدَّ له من نُكْتَةٍ ليُدَّعى وقوعه في الكلام المعجز، فحيث لم تظهرْ لم يصحَّ ادِّعاؤه وبناءُ الركنية عليه. والإنصافُ أنه مع ما سمعت احتجاجٌ ليس بالقوي.

وقيل: هو خصوصُ «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل الصلاة. وليس بشيء.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «تزكَّى» أي: تصدَّقَ صدقةَ الفطر، و«ذَكَرَ اسم ربه»: كبَّر يوم العيد فصلَّى صلاة العيد. وعن جماعةٍ من السلف ما يقتضي ظاهره ذلك.

---

(١) ٣٠/ ١٠٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣٩. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢١، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤١٧.
(٣) قطعة من حديث جابر الذي سلف قريباً.

وتُعقِّبَ بأنَّ الصلاةَ مقدَّمةٌ على الزكاة في القرآن، وأنَّ السورةَ مكيةٌ، ولم يكن حينئذٍ عيدٌ ولا فِطْرٌ.

وَرُدَّ بأنَّ ذلك إذا ذُكِرَتْ باسمها، أما إذا ذُكرت بفعلٍ فتقديمُها غيرُ مُطَّرِدٍ، ومنه ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] على أنه يجوز أن تكونَ مخالفةُ العادة هاهنا للإرشاد إلى أنَّ هذه الزكاةَ المقدَّمة قولاً ينبغي تقديمُها فعلاً على الصلاة، ولهذا كانوا يُخرجونها قبلَ أن يُصلُّوا العيدَ كما جاء في الآثار، وكونُ السورة مكيةً غيرُ مُجمَعٍ عليه، وعلى القول بِمَكِّيَّتها ـ الذي هو الأصح ـ يكون ذلك مما تأخَّرَ حُكْمُهُ عن نزوله.

وأقول: يجوز أن يقال: «تزكَّى»، أي: تطهَّر من الشرك بأن آمن بقلبه و«ذَكَرَ اسمَ ربِّه»، أي: قال: لا إله إلا الله، «فصلَّى»، أي: الصلاةَ المفروضة. وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ما يؤيده(١)، فيكون «تزكَّى» إشارة إلى التصديق بالجَنان و«ذَكَرَ اسمَ ربِّه» إلى النطق باللسان، و«صلى» إلى العمل بالأركان؛ لِمَا أنَّ الصلاةَ عمادُ الدين، وأفضلُ الأعمال البدنية، وناهيةٌ عن الفحشاء والمنكر، فلا بِدع أن تُذْكَرَ فيُرادَ جَمْعُ الأعمال البدنية والعبادات القالبية.

وقد يقال: اقتصرَ على ذِكرِ الصلاة لأنَّ الفرائضَ والواجباتِ البدنية لم تكن تامةً يومَ نزول السورة، وكانت الصلاةُ أهمّ ما نزل إن كان نزل غيرُها، وقد روى عطاءٌ عن ابن عباس، ويزيد النحويُّ عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن أنَّ أولَ ما نزل من القرآن بمكَّة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿نٓ﴾ ثم «المزمل»، ثم «المدثر»، ثم ﴿تَبَّتْ﴾ ثم ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ثم ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾(٢) ثم إن من رِدافِ(٣) لا إله إلا الله: محمد رسول الله، وكان ذِكرُ الله تعالى المطلوب هو مجموع الجملتين،

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤١٧، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣١٩، ٣٢١.
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٢.
(٣) أي: توابع، الرِّداف: جمع الرِّدف والرديف، وهو كل ما تبع شيئاً. معجم متن اللغة (ردف).

فلا بُعْدَ في أن يُرادَ من ذِكْره تعالى في الآية، وإذا اعتُبر الإتيانُ باسمه عزَّ وجلَّ في الجملة الثانية على الوجه الذي أتى به ذِكْراً له تعالى، كان أمرُ الإرادة أقربَ، وهذا الوجهُ لا يخلو عن حُسْن.

وكلمةُ «قد» لما أنه عند الإخبار بسوء حال المتجنِّب عن الذِّكر في الآخرة يتوقَّعُ السامعُ الإخبارَ بحُسْن حال المتذكِّر فيها، ولا يَبْعُدُ أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً استئنافاً جواباً لسؤالٍ نشأ عن بيانِ حال المتجنِّب، والسكوتِ عن حال المتذكِّر الذي يخشى، فكأنه قيل: ما حالُ مَنْ تذكَّر، فقيل: قد أفلح.. إلى آخره.

وكان الظاهرُ: قد أفلح مَنْ تذكَّر، إلا أنه وُضِعَ «مَنْ تزكَّى» إلى آخره موضعَ «مَنْ تذكَّر» إشارة إلى بيان المتذكر بسماته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦﴾ إضرابٌ عن مُقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح: لا تفعلون ذلك بل تؤثرون.. إلخ، ولعلَّهُ مرادُ مَنْ قال: إنه إضرابٌ عن «قد أفلح» إلخ.

وقيل: إضرابٌ عن بيان حال المتذكِّر والمتجنِّب، إلى بيان أنه لا ينفع هذا البيانُ وأضعافُه المتمرِّدينَ، على وجهٍ يتضمَّنُ بيانَ سبب عدم النفع، وهو إيثار الحياة الدنيا. والخطابُ على هذا للكفرة الأَشْقَيْنَ من أهل مكة، وعلى الأول يحتملُ أن يكون لهم، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ الآية [يونس: ٧] ويحتمل أن يكون لجميع الناس على سبيل التغليب، فالمراد بإيثارها ما هو أعمُّ مما ذُكِرَ، وما لا يخلو عنه الناس غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادي. وعن ابن مسعود ما يقتضيه.

والالتفاتُ على الأول لتشديد التوبيخ، وعلى الثاني كذلك في حقِّ الكفَرة، ولتشديد العتاب في حق المسلمين.

وقيل: لا التفات؛ لأنه بتقدير «قل».

وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم: «يؤثرون» بياء الغيبة(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ حالٌ من فاعل «تؤثرون» مؤكِّدة للتوبيخ والعتاب، أي: تؤثرونها على الآخرة والحالُ أنَّ الآخرةَ خيرٌ في نفسها؛ لِمَا أنَّ نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللَّذَّة خالصٌ عن شائبة الغائلة أبديٌّ لا انصرامَ له. وعدمُ التعرُّض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغِّصات وانقطاعِه عمَّا قليلٍ لغاية الظهور.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ ـ على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ـ إلى قوله تعالى: (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)(٢) وروي ذلك عن قتادة.

وقال غيرُ واحدٍ: إشارةٌ إلى ما ذُكر من قوله سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) إلخ. وسيأتي إن شاء الله تعالى في الحديث ما يشهد له.

وقال الضحاك: إشارةٌ إلى القرآن، فالآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وعن ابن عباس وعكرمة والسدي: إشارةٌ إلى ما تضمَّنته السُّوَر جميعاً. وفيه بعدٌ.

﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: ثابتٌ فيها معناه، وقرأ الأعمش وهارون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكون الحاء، وكذا فيما بعد، وهي لغةُ تميمٍ على ما في «اللوامح»(٣).

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بدلٌ من «الصحف الأولى» وفي إبهامها وَوَصْفِها بالقِدَم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى، وكانت صحفُ إبراهيمَ عشرة، وكذا صحف موسى عليه السلام، والمراد بها ما عدا التوراة، أخرج عبد بن

(١) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٢٤-٣٢٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٦٠.

حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: كم أنزل الله تعالى من كتاب؟ قال: «مئة كتاب وأربعة كتب، أَنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراةَ والإنجيل والزبور والفرقان». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «أمثالٌ كلُّها، أيها الملك المتسلِّطُ المُبتَلَى[(١)] المغرور، لم أبعثك لتجمعَ الدنيا بعضَها إلى بعض، ولكنْ بعثتكَ لتردَّ عني دعوةَ المظلوم، فإني لا أردُّها ولو كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات: ساعةٌ يناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسَهُ ويتذكَّر فيما صنع، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من الحلال، فإنَّ في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات، واجتماعاً للقلوب، وتفريغاً لها. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، فإنَّ مَنْ حَسَبَ كلامَهُ من عمله أقلَّ الكلام إلا فيما يعنيه. وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مَرَمَّةٌ لمعاش، أو تزوُّدٌ لمعاد، أو تلذُّذٌ في غير محرَّم». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبَراً كلّها: عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم يفرح، ولمن أيقن بالنار ثم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم يطمئنُّ إليها، ولمن أيقن بالقَدَر ثم يغضب، ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل» قلت: يا رسول الله، هل أُنزل عليك شيءٌ مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذر نعم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[(٢)]. والله تعالى أعلم بصحَّة الحديث.

وقرأ أبو رجاء: «إبرهَم» بحذف الألف والياء، وبالهاء مفتوحةً ومكسورةً،

---

(١) قبلها في الأصل و(م): على، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٧٨، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣٤١، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٧/ ٢٦٩٩، وفيه يحيى بن سعد السعدي عن ابن جريج، قال ابن عدي: هذا حديث منكر من هذا الطريق عن ابن جريج، ويحيى بن سعد هذا يعرف بهذا الحديث.
وأخرجه ابن حبان (٣٦١) بإسناد آخر عن أبي ذر، وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢-١٤٣.

وعبد الرحمن بن أبي بكرة بكسرها لا غير. وقرأ أبو موسى الأشعري وابن الزبير: «إبراهام» بألفين في كلِّ القرآن. وقرأ مالك بن دينار: «إبراهَم» بألفٍ وفتح الهاء وبغير ياء[١]. وجاء كما قال ابن خالويه: «إبرهُم» بضم الهاء بلا ألفٍ ولا ياء[٢].

وهذا من تصرُّفات العرب في الأسماء الأعجمية، فإنَّ إبراهيم على الصحيح منها، وحكى الكرمانيُّ في عجائبه أنه اسمٌ عربيٌّ مشتقٌّ من البرهمة، وهي شِدَّةُ النظر. ونَسَبُهُ قد تقدم، وكذا نَسَبُ موسى صلى الله تعالى عليهما وسلم.

---

(١) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص ١٧٢، والبحر ٨/ ٤٦٠، وعنه نقل المصنف.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢.

(٨٨) سورة الغاشية مكية
وآياتها ست وعشرون

سورة الغاشية مكية ، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما : ١ - القيامة وأحوالها وأهوالها ، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء ، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء . ٢ - الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وقدرته الباهرة ، في خلق الإبل العجيبة ، والسماء البديعة ، والجبال المرتفعة ، والأرض الممتدة الواسعة ، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه . وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله سبحانه للحساب والجزاء .

● ● ●

سورة الغاشية

[١٠١٠] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾[1].

* * *

[١٠١٠] (١) سورة الغاشية: الآية (١٧).

سورة الغاشية

وهي عشرون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

اعلم أن في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ مسألتين:

المسألة الأولى: ذكروا في الغاشية وجوهًا: أحدها: أنها القيامة، من قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥] إنما سميت القيامة بهذا الاسم لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، والقيامة كذلك من وجوه: الأول: أنها تَرِد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]، والثاني: أنها تغشى الناس جميعًا من الأولين والآخرين. والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد. القول الثاني: الغاشية هي النار أي تغشى وجوه الكفرة وأهل النار، قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل القول الثالث: الغاشية أهل النار يغشونها ويقعون فيها. والأول أقرب؛ لأن على هذا التقدير يصير المعنى أن يوم القيامة يكون بعض الناس في الشقاوة، وبعضهم في السعادة.

المسألة الثانية: إنما قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ وذلك لأنه تعالى عرف رسول الله من حالها وحال الناس فيها ما لم يكن هو ولا قومه عارفًا به على التفصيل؛ لأن العقل إن دل فإنه لا يدل إلا على أن حال العصاة مخالفة لحال المطيعين، فأما كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل إليها، فلما عرفه الله تفصيل تلك الأحوال، لا جرم قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فاعلم أنه وصف لأهل الشقاوة، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفار، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة، وذلك من صفات المكلف، لكن الخشوع يظهر في الوجه فعلقه بالوجه لذلك، وهو كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وقوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة قد عراهم الخزي والهوان، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] وإنما يظهر الذل في

الوجه؛ لأنه ضد الكِبْر الذي محله الرأس والدماغ. وأما العاملة فهي التي تعمل الأعمال، ومعنى النصب الدؤوب في العمل مع التعب.

المسألة الثانية: الوجوه الممكنة في هذه الصفات الثلاثة لا تزيد على ثلاثة؛ لأنه إما أن يقال: هذه الصفات بأسرها حاصلة في الآخرة، أو هي بأسرها حاصلة في الدنيا، أو بعضها في الآخرة وبعضها في الدنيا: **أما الوجه الأول وهو أنها بأسرها حاصلة في الآخرة:** فهو أن الكفار يكونون يوم القيامة خاشعين، أي ذليلين، وذلك لأنها في الدنيا تكبرت عن عبادة الله، وعاملين لأنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال الثقيلة، على ما قال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل بحيث ترتقي عنه تارة وتغوص فيه أخرى، والتقحم في حر جهنم والوقوف عراة حفاة جياعًا عطاشًا في العرصات قبل دخول النار في يوم كان مقداره ألف سنة، وناصبين لأنهم دائمًا يكونون في ذلك العمل، قال الحسن: هذه الصفات كان يجب أن تكون حاصلة في الدنيا لأجل الله تعالى، فلما لم تكن كذلك سلَّطها الله عليهم يوم القيامة على سبيل العقاب. **وأما الوجه الثاني وهو أنها بأسرها حاصلة في الدنيا:** فقيل: هم أصحاب الصوامع من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس، والمعنى أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب، وذلك لأنهم لما اعتقدوا في الله ما لا يليق به، فكأنهم أطاعوا ذاتًا موصوفة بالصفات التي تخيلوها فهم في الحقيقة ما عبدوا الله وإنما عبدوا ذلك المتخيل الذي لا وجود له، فلا جرم لا تنفعهم تلك العبادة أصلاً وأما الوجه الثالث وهو أن بعض تلك الصفات حاصلة في الآخرة وبعضها في الدنيا **ففيه وجوه: أحدها:** أنها خاشعة في الآخرة، مع أنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة، والمعنى أنها لم تنتفع بعملها ونصبها في الدنيا، ولا يمتنع وصفهم ببعض أوصاف الآخرة، ثم يذكر بعض أوصاف الدنيا ثم يعاد ذكر الآخرة، إذا كان المعنى في ذلك مفهومًا، فكأنه تعالى قال: وجوه يوم القيامة خاشعة؛ لأنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة في غير طاعة الله، فهي إذن تصلى نارًا حامية في الآخرة. **ثانيها:** أنها خاشعة عاملة في الدنيا، ولكنها ناصبة في الآخرة، فخشوعها في الدنيا خوفها الداعي لها إلى الإعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها، وعملها هو صلاتها وصومها، ونصبها في الآخرة هو مقاساة العذاب، على ما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وقرئ (عاملةً ناصبةً) على الشتم. واعلم أنه تعالى بعد أن وصفهم بهذه الصفات الثلاثة شرح بعد ذلك كيفية مكانهم ومشربهم ومطعمهم، نعوذ بالله منها.

قوله تعالى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾

أما مكانهم فقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ يقال: صلى بالنار يصلى، أي لزمها واحترق بها، وقرئ بنصب التاء، وحجته قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقرأ أبو عمرو وعاصم

برفع التاء من أصليته النار لقوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] وقوله: ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] وصلوه مثل أصلوه، وقرأ قوم (تصلّى) بالتشديد، وقيل: المصلى عند العرب: أن يحفروا حفيرًا فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلاة أو في التنور، فلا يسمى مصلى. وقوله: ﴿حَامِيَةً﴾ أي قد أوقدت، وأحميت المدة الطويلة، فلا حر يعدل حرها، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله.

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾

وأما مشروبهم فقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ الآني: الذي قد انتهى حره من الإيناء بمعنى التأخير، وفي الحديث: (أن رجلاً أخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس، فقال له النبي ﷺ: «آنَيْتَ وَآذَيْتَ»[(١)] ونظير هذه الآية قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] قال المفسرون: إن حرها بلغ إلى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت.

وأما مطعومهم فقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ واختلفوا في أن الضريع ما هو على وجوه: **أحدها:** قال الحسن: لا أدري ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئًا. **وثانيها:** روي عن الحسن أيضًا أنه قال: الضريع بمعنى المُضرع، كالأليم والسميع والبديع بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع، ومعناه إلا من طعام يحملهم على أن يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرارة. **وثالثها:** أن الضريع ما يبس من الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا، فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل، قال أبو ذويب:

رَعَى الشِّبْرِقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى ... وَعَادَ ضَرِيعًا عَادَ عَنْهُ النَّحَائِصُ[(٢)]

جمع نحوص وهي الحائل من الإبل، وهذا قول أكثر المفسرين وأكثر أهل اللغة. **ورابعها:** قال الخليل في كتابه: ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم: هي الضريع، فكأنه تعالى وصفه بالقلة، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع. **وخامسها:** قال أبو الجوزاء: الضريع السلا. ويقرب منه ما روي عن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك. ثم قال أبو الجوزاء: وكيف يسمن

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (تخطي رقاب الناس يوم الجمعة) (١/ ٢٩٢) حديث رقم (١١١٨) من طريق بشر بن السري حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية... به، والنسائي في كتاب (الجمعة) باب (النهي عن تخطي رقاب الناس...) (٣/ ١٠٣) حديث رقم (١٣٩٩) من طريق ابن وهب قال: سمعت معاوية بن صالح... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٤٣٢) حديث رقم (٣٥٠٦) وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٨) جميعا من طريق أبي الزاهرية عن عبد الله بن يسر... به.

(٢) أبو ذؤيب الهذلي (...- نحو ٢٧ = ...- نحو ٦٤٨م) خويلد بن خالد بن محرث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى إفريقية (سنة ٢٦هـ) غازيًا، فشهد فتح إفريقية، وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان رضي الله عنه فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها، وقيل: مات بإفريقية.

من كان يأكل الشوك؟! وفي الخبر: الضريع شيء يكون في النار شبيه الشوك أمَرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة وأشد حرًّا من النار. قال القفال: والمقصود من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام بيان نهاية ذلهم، وذلك لأن القوم لما أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشًا جياعًا، ثم أُلقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئًا من النبات، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميمًا لا يروي بل يشوي، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم من الجوع والعطش، كما قال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] وبيَّن أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع، نعوذ بالله منها، **وههنا سؤالات:**

السؤال الأول: قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦] وقال ههنا: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ والضريع غير الغسلين والجواب من وجهين: **الأول:** أن النار دركات، فمن أهل النار من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، لكل باب منهم جزء مقسوم. **الثاني:** يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع، ويكون ذلك كقوله: ما لي طعام إلا من الشاه، ثم يقول: ما لي طعام إلا من اللبن، ولا تناقض لأن اللبن من الشاة.

السؤال الثاني: كيف يوجد النبت في النار؟ **الجواب من وجهين: الأول:** ليس المراد أن الضريع نبت في النار يأكلونه، ولكنه ضرب مثله، أي أنهم يقتاتون بما لا يشبعهم أو يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع. **الثاني:** لمَ لا يجوز أن يقال: إن النبت يوجد في النار؟ فإنه لما لم يستبعد بقاء بدن الإنسان مع كونه لحمًا ودمًا في النار أبد الآباد، فكذا ههنا، وكذا القول في سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾

أما قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ فهو مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع، وأما المعنى ففيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن طعامهم ليس من جنس مطاعم الإنس، وذلك لأن هذا نوع من أنواع الشوك، والشوك مما يرعاه الإبل، وهذا النوع مما ينفر عنه الإبل، فإذن منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن. **وثانيها:** أن يكون المعنى لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع وأسمن وهو منهما بمعزل، كما تقول: (ليس لفلان ظل إلا الشمس) تريد نفي الظل على التوكيد. **وثالثها:** روي أن كفار قريش قالت: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا. فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ فلا يخلو إما أن يتعنتوا بذلك الكلام كذبًا فيردّ قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير

مسمن ولا مغنٍ من جوع. قال القاضي: يجب في كل طعامهم أن لا يغني من جوع لأن ذلك نفع ورأفة، وذلك غير جائز في العقاب.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار، أتبعه بشرح أحوال المؤمنين، فذكر وصف أهل الثواب أولاً، ثم وصف دار الثواب ثانيا:

أما وصف أهل الثواب فبأمرين: أحدهما: في ظاهرهم، وهو قوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، كقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] أو متنعمة.

قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾

والثاني: في باطنهم وهو قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ وفيه تأويلان: أحدهما: أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله، لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة، كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول، ما أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت. فيثنى على عملٍ نفسه ويرضاه. والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب. وهذا أَوْلى إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه. وأما وصف دار الثواب، فاعلم أن الله تعالى وصفها بأمور سبعة:

أحدها: قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في المكان، ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في الدرجة والشرف والمنقبة، أما العلو في المكان فذاك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، قال عطاء: الدرجة مثل ما بين السماء والأرض.

وثانيها: قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ ثلاث قراءات أحدها: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب (لاغية) بالنصب، والمخاطب بهذا الخطاب يحتمل أن يكون هو النبي ﷺ وأن يكون لا تسمع يا مخاطب فيها لاغية، وهذا يفيد السماع في الخطاب، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ [الإنسان: ٢٠] وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ [الإنسان: ١٩] ويحتمل أن تكون هذه التاء عائدة إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ [الغاشية: ٨]، والمعنى لا تسمع الوجوه فيها لاغية. وثانيها: قرأ نافع بالتاء المنقوطة من فوق مرفوعة على التأنيث (لاغية) بالرفع. وثالثها: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لا يُسمع) بالياء المنقوطة من تحت مضمومة على التذكير (لاغية) بالرفع، وذلك جائز لوجهين: الأول: أن هذا الضرب من المؤنث إذا تقدم فعله وكان بين الفعل والاسم حائل حسن التذكير، قال الشاعر:

إن امرأً غَرَّهُ مِنْكُنَّ وَاحِدَةٌ ... بَعْدِي وَبَعْدَكِ فِي الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ[1]

---

(١) هذا البيت لمسكين الدارمي وهو: ربيعة بن عامر بن أُنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عدس بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، المعروف بمسكين الدارمي التميمي؟ - ٨٩هـ/ =

والثاني: أن المراد باللاغية اللغو، فالتأنيث على اللفظ، والتذكير على المعنى.

المسألة الثانية: لأهل اللغة في قوله: ﴿لَٰغِيَةً﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقال: لغا يلغو لغوًا ولاغية، فاللاغية واللغو شيء واحد، ويتأكد هذا الوجه بقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢]، **وثانيها:** أن يكون صفة والمعنى لا يسمع كلمة لاغية. **وثالثها:** قال الأخفش: لاغية أي كلمة ذات لغو، كما تقول: فارس ودارع لصاحب الفرس والدرع. وأما أهل التفسير فلهم وجوه: **أحدها:** أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله تعالى، وإنما نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل، وهكذا كل مجلس في الدنيا شريف مكرم فإنه يكون مبرأ عن اللغو، وكل ما كان أبلغ في هذا كان أكثر جلالة، هذا ما قرره القفال. **والثاني:** قال الزجاج لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة والثناء على الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم. **والثالث:** عن ابن عباس: يريد لا تسمع فيها كذبًا ولا بهتانًا ولا كفرًا بالله ولا شتمًا. **والرابع:** قال مقاتل: لا يسمع بعضهم من بعض الحلف عند شراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر. وأحسن الوجوه ما قرره القفال. **الخامس:** قال القاضي: اللغو ما لا فائدة فيه، فالله تعالى نفى عنهم ذلك، ويندرج فيه ما يؤذي سامعه على طريق الأَوْلى.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

الصفة الثالثة للجنة: قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ قال صاحب الكشاف: يريد عيونًا في غاية الكثرة، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] قال القفال: فيها عين شراب جارية على وجه الأرض في غير أخدود، وتجري لهم كما أرادوا. قال الكلبي: لا أدري بماء أو غيره.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية في الهواء، وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم والملك، وقال خارجة بن مصعب: بلغنا أنها بعضها فوق بعض فيرتفع ما شاء الله، فإذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له، فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله. والأول أَوْلى، وإن كان الثاني أيضًا غير ممتنع لأن ذلك بما كان أعظم في سرور المكلف، قال ابن عباس: هي سرر ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ الأكواب: الكيزان التي لا عرى لها، قال قتادة:

=؟-٧٠٨م شاعر عراقي شجاع من أشراف تميم، لُقب مسكينًا لأبيات قال فيها:

أنا مسكين لمن أنكرني ولمن يعرفني جد نطق

له أخبار مع معاوية، وكان متصلاً بابنه يزيد وزياد بن أبيه، وكانت بينه وبين الفرزدق والأخطل وعبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان وشائج مودة وهجاء.

فهي دون الأباريق. وفي قوله: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ وجوه: أحدها: أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئًا فيقول: (هو ههنا موضوع) بمعنى معد. وثانيها: موضوعة على حافاة العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشرب. وثالثها: موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر، وتلذذهم بالشراب منها. ورابعها: أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر، أي هي أوساط بين الصغر والكبر، كقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦].

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ النمارق هي الوسائد في قول الجميع، واحدها نمرقة بضم النون، وزاد الفراء سماعًا عن العرب نِمرقة بكسر النون، قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى.

الصفة السابعة قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ يعني البسط والطنافس، واحدها زربية وزِربي بكسر الزاي في قول جميع أهل اللغة، وتفسير مبثوثة: مبسوطة منشورة أو مفرقة في المجالس.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسَّم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء، ووصف أحوال الفريقين، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم، لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد: أما الأول: فلأن الأجسام متساوية في الجسمية، فاختصاص كل واحد منها بالوصف الذي لأجله امتاز على الآخر - لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص وإيجاد قادر، ولما رأينا هذه الأجسام مخلوقة على وجه الإتقان والإحكام علمنا أن ذلك الصانع عالم، ولما علمنا أن ذلك الصانع لا بد وأن يكون مخالفًا لخلقه في نعت الحاجة والحدوث والإمكان، علمنا أنه غني، فهذا يدل على أن للعالم صانعًا قادرًا عالمًا غنيًا، فوجب أن يكون في غاية الحكمة، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجًا إلى البعض، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه، بل لا بد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولاً بمهم آخر حتى يتنظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد، وذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار، فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة.

فإن قيل: فأي مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، ثم لمَ بدأ بذكر الإبل؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن جميع المخلوقات متساوية في هذه الدلالة، وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها، وأي واحد منها ذُكر دون غيره كان هذا السؤال عائدًا، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير، وأيضًا فلعل الحكمة في ذكر هذه الأشياء التي هي غير متناسبة التنبيه

على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع، بل هو عام في الكل، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤] ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك، لا جرم ذكر الله تعالى أمورًا غير متناسبة بل متباعدة جدًا، تنبيهًا على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها - متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم، فهذا وجه حسن معقول، وعليه الاعتماد**الوجه الثاني:** وهو أن نبين ما في كل واحد من هذه الأشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر، ثم نبين أنه كيف يجانس بعضها بعضًا.

أما المقام الأول: فنقول: الإبل له خواص، منها أنه تعالى جعل الحيوان الذي يُقتنى أصنافًا شتى، فتارة يُقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليُشرب لبنه، وتارة ليَحمل الإنسان في الأسفار، وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد، إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾[النحل: ٧-٥] وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال، فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب. **وثانيها:** أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جُعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جُعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جُعلت ركوبة أمكن أن يُقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما رُكب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جُعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها: أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعًا في قلب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير؛ لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل: ٦] ومنها: أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق، فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب، والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل، فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف، حتى أن الذي عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فإن ذلك الحيوان اهتدى إليه، ومنها: أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير، ومبانية لغيرها أيضًا في أنها يُحمل عليها وهي باركة ثم تقوم.

فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها،

ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها؛ فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ أي رفعًا بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد.

﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ نصبًا ثابتًا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول.

﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ سطحًا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها، ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة. وهو ضعيف؛ لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح، وقرأ علي عليه السلام (كيف خلقتُ ورفعتُ ونصبتُ وسطحتُ) على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير فعلتها، فحذف المفعول.

المقام الثاني في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة: اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب، قال صاحب (الكشاف): ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبهًا بالإبل في كثير من أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة، أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرًا؛ لأن بلدتهم بلدة خالية من الزرع، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرًا ما يسيرون عليها في المهامه والقفار مستوحشين منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء؛ لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظرًا عجيبًا، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يمينًا وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمَرَه بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئًا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية.

الوجه الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين: منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معًا، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب، وليس للشهوة فيها نصيب.

والقسم الأول: كالإنسان الحسن الوجه، والبساتين النزهة، والذهب والفضة وغيرها، فهذه

الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها؛ لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعًا عن إتمام النظر والفكر وسببًا لاستغراق النفس في محبته.

أما القسم الثاني: فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها، إلا أن ذكر الإبل ههنا أَوْلى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة، وليس فيها ما يكون نصيبًا للشهوة، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة، لا جرم أمر الله بالتدبر فيها، فهذا ما يحضرنا في هذا الموضع، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن الدلائل على صحة التوحيد والمعاد، قال لرسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه، وبيان أنه إنما بُعث لذلك دون غيره، فلهذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمسلط، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم، والمعنى أنك ما أُمرت إلا بالتذكير، فأما أن تكون مسلطًا عليهم حتى تقتلهم، أو تُكرههم على الإيمان فلا، قالوا: ثم نسختها آية القتال. هذا قول جميع المفسرين، والكلام في تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧].

أما قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية قولان: أحدهما: أنه استثناء حقيقي، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء، استثناء عماذا؟ فيه احتمالان: الأول: أن يقال: التقدير: فذكِّر إلا من تولى وكفر. والثاني: أنه استثناء عن الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ [الغاشية: ٢٢] والتقدير: لست عليهم بمسيطر إلا من تولى. واعترض عليه بأنه عليه السلام ما كان حينئذٍ مأمورًا بالقتال. وجوابه: لعل المراد أنك لا تصبر مسلطًا إلا على من تولى. القول الثاني: أنه استثناء منقطع عما قبله، كما تقول في الكلام: قعدنا نتذكر العلم إلا أن كثيرًا من الناس لا يرغب، فكذا ههنا التقدير: لستَ بمسئول عليهم، لكن من تولى منهم فإن الله يعذبه العذاب الأكبر الذي هو عذاب جهنم. قالوا: وعلامة كون الاستثناء منقطعًا حسن دخول (أنَّ) في المستثني، وإذا كان الاستثناء متصلاً لم يحسن ذلك، ألا

ترى أنك تقول: عندي مائتان إلا درهمًا، فلا تُدخل عليه (أنَّ)، وههنا يحسن (أن)، فإنك تقول: إلا أنَّ من تولى وكفر فيعذبه الله.

المسألة الثانية: قرئ: (أَلاَ مَنْ تَوَلَّى) على التنبيه، وفي قراءة ابن مسعود: (فَإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ).

المسألة الثالثة: إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه: **أحدها**: أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، **وثانيها**: هو العذاب في الدرك الأسفل في النار. **وثالثها**: أنه قد يكون العذاب الأكبر حاصلاً في الدنيا، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال. والقول الأول أَوْلى وأقرب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ وهذا كأنه من صلة قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤] وإنما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبي ﷺ حزنه على كفرهم، فقال: طب نفسًا عليهم، وإن عاندوا وكذبوا وجحدوا، فإن مرجعهم إلى الموعد الذي وعدنا، فإن علينا حسابهم. **وفيه سؤال**: وهو أن محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم وذلك حق الله تعالى، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه. **والجواب**: أن ذلك واجب عليه إما بحكم الوعد الذي يمتنع وقوع الخلف فيه، وإما في الحكمة، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيهًا بكونه تعالى راضيًا بذلك الظلم، وتعالى الله عنه، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة: **وههنا مسألتان**:

المسألة الأولى: قرأ أبو جعفر المدني: (إِيَّابهم) بالتشديد. قال صاحب (الكشاف): وجهه أن يكون فيعالاً، مصدره أيَّب، فيعل من الإياب، أو يكون أصله أوابًا، فعَّالاً من أوب، ثم قيل: إيوابًا كديوان في دون، ثم فعل به ما فُعل بأصل سيد.

المسألة الثانية: فائدة تقديم الظرف التشديد بالوعيد، فإن ﴿ إِيَابَهُمْ﴾ ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «الغاشية»

وهي مكية في قول الجميع، وهي ستٌّ وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾

«هل» بمعنى قد، كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]؛ قاله قُطْرب[١]. أي: قد جاءك يا محمدُ حديثُ الغاشية، أي: القيامةِ التي تَغْشَى الخلائقَ بأهوالها وأَفْزاعِها؛ قاله أكثرُ المفسِّرين.

وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب: «الغاشية»: النار تَغْشَى وجوهَ الكفارِ ـ ورواه أبو صالحٍ عن ابن عباس ـ ودليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠][٢]. وقيل: تَغشَى الخَلْق.

وقيل: المرادُ النفخةُ الثانيةُ للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: «الغاشية»: أهلُ النار يَغْشَوْنها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى «هل أتاك»، أي: هذا لم يكن مِن عِلْمِك، ولا مِن عِلْمِ قومِك، قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيلِ المذكورِ هاهنا.

وقيل: أنَّها خرجتْ مخرجَ الاستفهامِ لرسوله، ومعناه: إنْ لم يكن أتاك حديث الغاشيةِ فقد أتاك؛ وهو معنى قولِ الكلبيِّ.

قوله: تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثُهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧ ، وزاد المسير ٩/ ٩٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢ دون قوله: ورواه أبو صالح عن ابن عباس. وأخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٢٧.

يومَ القيامة. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ قال سفيان: أي: ذليلةٌ بالعذاب. وكلُّ متضائلٍ ساكنٍ: خاشعٌ. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلَّل ونكَّس رأسَه. وخَشَع الصوتُ: خَفِيَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨].

والمرادُ بالوجوه أصحابُ الوجوه. وقال قتادةُ وابن زيد: «خاشعةٌ»، أي: في النار[١]. والمرادُ وجوهُ الكفارِ كلِّهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوهَ اليهودِ والنصارى؛ قاله ابنُ عباس[٢].

ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأنَّ الآخرة ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وجوهٌ عاملةٌ ناصبةٌ في الدنيا، «خاشعةٌ» في الآخرة. قال أهلُ اللغة: يقال للرجل إذا دَأَبَ في سيره: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. ويقال للسَّحَاب إذا دام بَرْقُه: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. وذا سحابٌ عَمِلٌ. قال الهذليُّ:

حتى شَآها كَليلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ باتَتْ طِرَاباً وباتَ الليلَ لم يَنَمِ[٣]

﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تَعِبةٌ. يقال: نَصِبَ ـ بالكَسْر ـ يَنْصَبُ نَصَبًا: إذا تَعِبَ، ونَصْبًا أيضاً، وأَنْصَبه غيرُه. فروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هم الذين أَنْصَبوا أنفسَهم في الدنيا على معصية اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى الكفر، مثل عَبَدةِ الأوثان، وكفَّارِ أهلِ الكتاب مثل الرهبان وغيرِهم، لا يقبلُ الله جلَّ ثناؤه منهم إلَّا ما كان خالصاً له[٤].

وقال سعيد عن قتادة: «عاملةٌ ناصبةٌ» قال: تكبَّرتْ في الدنيا عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، فأَعْمَلَها الله وأَنْصَبَها في النار، بجرِّ السلاسل الثِّقال، وحَمْلِ الأغلال،

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨ ، والطبري ٢٤/ ٣٢٨ عن قتادة.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧-٢٥٨ ، وأخرج قول ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠ .

(٣) البيت لساعدة بن جؤية، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٨ ، والكتاب ١/ ١١٤ ، والخزانة ٨/ ١٥٥ .
قوله: شآها، أي: ساقها. كليل، أي: برق ضعيف. والموهن: القطعة من الليل. والعَمِل: الدائب المجتهد في أمره، الذي لا يفتر. وباتت طراباً. يعني البقر الوحشية طراباً إلى السير إلى الموضع الذي فيه البرق. وبات الليلَ لم ينم، أي: بات البرق يبرق ليلته. الخزانة ٨/ ١٦٠ .

(٤) ذكره الوحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ من طريق عطاء عن ابن عباس.

والوقوفِ حُفاةً عُراةً في العَرَصات، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة[١]. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تَعْمَلْ لله في الدنيا، ولم تَنْصَبْ له، فأَعْمَلَها وأَنْصبَها في جهنَّم[٢].

وقال الكلبيُّ: يُجَرُّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارْتِقاءَ جبلٍ من حديدٍ في جهنَّم، فيَنْصَبون فيها أشدَّ ما يكونُ من النَّصَب، بمعالجةِ السلاسل والأغلال، والخوضِ في النار كما تخوضُ الإبلُ في الوَحَل، وارتقائها في صَعُودٍ من نار، وهبوطِها في حَدُورٍ منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس[٣].

وقرأ ابن مُحيصِنٍ وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير: «ناصبةً»[٤] بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون بالرفع على الصِّفة، أو على إضمارِ مبتدأ، فيوقَفُ على «خاشعة». ومَن جَعَل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبرٍ عن «وجوهٌ»، فلا يوقَفُ على «خاشعة».

وقيل: «عاملة ناصبة»، أي: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ في الآخرة. وعلى هذا يحتمل: وجوهٌ يومئذٍ عاملةٌ في الدنيا، ناصبةٌ في الآخرة، خاشعةٌ. قال عكرمةُ والسدِّيُّ: عَمِلتْ في الدنيا بالمعاصي[٥]. وقال سعيد بن جبير وزيد بنُ أَسْلَمَ: هم الرُّهبان أصحابُ الصوامع. وقاله ابن عباس[٦]. وقد تقدَّم في روايةِ الضحَّاك عنه. وروي عن الحسن قال: لمَّا قَدِمَ عمر بنُ الخطاب ﷺ الشامَ أتاه راهبٌ شيخٌ كبيرٌ

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ دون قوله: بجر السلاسل... ، والعَرَصات جمع عَرْصة، وهي كلُّ موضعٍ واسع لا بناء فيه. اللسان (عرص).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٧٨ .

(٤) المحتسب ٢/٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢ .

(٥) ذكر قولهما البغوي ٤/٤٧٨ ، وابن الجوزي ٩/ ٩٥ ولفظه: عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة.

(٦) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ .

مُتَقَهِّلٌ، عليه سوادٌ، فلمَّا رآه عمرُ بَكَى. فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، ما يُبْكيكَ؟ قال: هذا المسكين طَلَبَ أمراً فلم يُصِبْه، ورَجَا رجاءً فأَخْطأَه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [(١)]. قال الكسائيُّ: التقهُّل: رثاثةُ الهيئة، ورجلٌ مُتَقَهِّل: يابسُ الجِلْدِ سَيِّئُ الحال، مثل المتقحّل. وقال أبو عمرو: التقهُّل: شَكْوَى الحاجة، وأنشد:

لَـعْـوًا إذا لاقـيـتــه تـقــهَّــلا[(٢)].

والقَهْل: كُفْرانُ الإحسانِ. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أَثْنَى ثناءً قبيحاً. وأَقْهَلَ الرجلُ: تكلَّف ما يَعيبُهُ ودنَّس نَفْسَه. وانْقَهَلَ: ضَعُفَ وسَقَطَ؛ قاله الجوهريُّ[(٣)].

وعن عليٍّ ﷺ: أنهم أهلُ حَرُوراء، يعني الخوراجَ الذين ذَكَرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحقِرون صلاتَكم مع صلاتِهم، وصيامَكم مع صيامِهم، وأعمالَكم مع أعمالِهم، يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّة» الحديث[(٤)].

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

أي: يُصيبها صِلاؤُها وحرُّها ﴿حَامِيَةً﴾ شديدةَ الحرِّ، أي: قد أُوْقِدَتْ وأُحْمِيتْ المدةَ الطويلة. ومنه حَمِيَ النهارُ بالكَسْر، وحَمِيَ التنورُ حَمْياً فيهما، أي: اشتدَّ حرُّه. وحكى الكِسائيُّ: اشتدَّ حَمْيُ الشمسِ وحَمْوُها، بمعنى[(٥)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والحاكم ٢/ ٥٢١-٥٢٢، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ بنحوه من طريق أبي عمران الجوني عن عمر.

(٢) وقبله: فلا تكونن ركيكاً تنتلا، وهو في الصحاح (قهل) والكلام منه، وأساس البلاغة. (قهل)، واللسان (قهل) و(ذرمل). قوله: لعواً، اللعو: السَّيِّءُ الخلُق، والشَّره الحريص. القاموس (لعو).

(٣) في الصحاح (قهل).

(٤) ينظر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن أحمد (١١٠٠٨) و(١١٢٩١) و(١١٥٧٩)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٥) الصحاح (حمى).

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوبُ: «تُصْلَى» بضم التاء. الباقون بفتحها[١]. وقرئ: «تُصَلَّى» بالتشديد[٢]. وقد تقدَّم القولُ فيها في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[٣].

الماوَرْدِيُّ[٤]: فإنْ قيل: فما معنى وَصْفِها[٥] بالحَمْي وهي لا تكونُ إلَّا حاميةً، وهو أقلُّ أحوالها، فما وَجْهُ المبالغةِ بهذه الصِّفة الناقصة؟

قيل: قد اختُلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعةِ أَوْجُهٍ:

أحدُها: أنَّ المراد بذلك أنَّها دائمةُ الحَمْي، وليستْ كنارِ الدنيا التي ينقطعُ حَمْيُها بانطفائها.

الثاني: أنَّ المراد بالحامية أنَّها حِمًى [يمنع] من ارتكابِ المحظورات، وانتهاكِ المحارِم، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، وإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُه، ومَن يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشك أنْ يقعَ فيه»[٦].

الثالث: أنَّها تَحمي نفسها عن أن تطاقَ مُلامَستُها، أو ترامَ مُماسَّتُها، كما يحمي الأسدُ عَرِينَه، ومثلُه قولُ النابغةِ:

تعدو الذئابُ على مَن لا كلابَ له وتتَّقي صَولةَ المُسْتأسِدِ الحامي[٧]

(١) السبعة ص٦٨١، والتيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢.

(٣) ص١٦٠ من هذا الجزء.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) في النسخ الخطية: صفتها.

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٧) طبقات الفحول ١/ ٥٧، والأغاني ١/ ٧٩، وتهذيب اللغة ١٥/ ٧٦، ونُسب للزبرقان كما في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٥٤٠، والصحاح (ثفر). قال ابن سلام: سألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده في شعره، كالمَثَل حين جاء موضعه، لا مجتلباً له. اهـ. ووقع في المصادر عدا الأغاني: وتتقي مَرْبِضَ المستثفر الحامي. قال الأزهري: استثفار الكلب: إدخالهُ ذَنَبَه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه.

الرابع: أنَّها حاميةٌ حَمْيَ غيظٍ وغضب؛ مبالغةً في شدَّة الانتقام. ولم يُرِدْ حَمْيَ جِرْمٍ وذاتٍ، كما يقال: قد حَمِيَ فلانٌ: إذا اغتاظَ وغضب عند إرادةِ الانتقام. وقد بيَّن الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾

الآني: الذي قد انتهى حَرُّه؛ من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه «آنَيْتَ وآذَيْتَ»[(١)]. وآناه يُؤْنيه إيناءً، أي: أخَّره وحَبَسه وأبْطَأه ومنه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. وفي التفاسير: «مِن عينٍ آنيةٍ»، أي: تَناهَى حرُّها؛ فلو وَقَعتْ نقطةٌ منها على جبالِ الدنيا لذابَتْ[(٢)]. وقال الحسن: «آنيةٍ» أي: حرُّها أدرك[(٣)]؛ أُوْقِدَتْ عليها جهنَّمُ منذ خُلِقَتْ، فدُفِعوا إليها وِرْداً عِطاشاً[(٤)]. وعن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ قال: بَلَغتْ إِنَاها، وحان شربها[(٥)].

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار. ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لمَّا ذَكَر شرابَهم ذَكَر طعامهم. قال عكرمةُ ومجاهدٌ: الضَّرِيع، نبتٌ ذو شوكٍ لاصِق بالأرض، تُسمِّيه قريشٌ الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضَّريع، لا تَقْرَبُه دابةٌ ولا بهيمةٌ، ولا ترعاه، وهو سُمٌّ قاتلٌ، وهو أخبثُ الطعامِ وأشْنَعُه. على هذا عامَّةُ المفسِّرين[(٦)]، إلَّا أنَّ الضحَّاكَ روى عن ابن عباس قال: هو شيءٌ يَرْمي به البحر، يُسمَّى الضَّريعَ، من أقوات الأنعام لا الناسِ، فإذا وقعتْ فيه الإبلُ لم تَشْبَعْ، وهَلَكتْ هُزْلاً. والصحيحُ ما

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٧).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٣.

(٣) في (د) ادارك.

(٤) الوسيط ٤/ ٤٧٤ دون قوله: أي حرها أدرك.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٠.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣١-٣٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٨، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣.

قاله الجمهورُ: أنه نَبْتٌ. قال أبو ذُؤيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى   وعاد ضَريعاً بانَ عنه النَّحائصُ[١]

وقال الهُذَليُّ وذَكَر إبلاً وسوءَ مَرْعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكلُّها   حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ[٢]

وقال الخليل: الضَّريعُ: نباتٌ أخضرُ مُنتنُ الريحِ، يَرْمي به البحر.

وقال الوالِبيُّ عن ابن عباس: هو شجرٌ من نار[٣]، ولو كانت في الدنيا لأحْرقت الأرضَ وما عليها.

وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة. وقاله عكرمة[٤].

والأَظْهَرُ أنه شجرٌ ذو شوكٍ حَسْبَ ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «الضريعُ: شيءٌ يكونُ في النار، يُشبه الشوكَ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، وأَنْتَنُ من الجيفة، وأَحَرُّ من النار، سمَّاه الله ضريعاً»[٥].

وقال خالد بن زياد[٦]: سمعتُ المتوكِّلَ بنَ حمدان[٧] يُسألُ عن هذه الآية:

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ ، ولم نقف عليه في ديوان الهذليين. قوله: النحائص، هي جمع نحوص: وهي الناقة الشديدة السِّمَن. القاموس (نحص).

(٢) البيت لقيس بن عيزارة، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٧٣ . قال الشارح: الهَزْم: ما تكسَّر من الضريع. وحَرود: لا تكاد تَدُرّ.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣٣ ، وزاد المسير ٩/ ٩٦ .

(٤) أخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٣٢ ، وذكره عن عكرمة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١١ .

(٥) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٤ ، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٢ ، وسنده واه كما ذكر السيوطي.

(٦) الأزدي، أبو عبد الرحمن الترمذي، قال ابن حبان: يروي عن نافع صحيفة مستقيمة، وعن قتادة الحرف بعد الحرف، مات وهو ابن مئة سنة وسنة، وكان على القضاء بترمذ. الثقات ٦/ ٢٦٣ ، وتهذيب التهذيب ١/ ٥١٩ .

(٧) لعله المتوكل بن حمران البلخي، ذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٩٨ وقال: من العبَّاد، يروي عن كثير ابن زياد وأبي سهل، روى عنه أهل بلده.

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. قال: بلغني أنَّ الضَّريعَ شجرةٌ من نارِ جهنَّم، حَمْلُها القيحُ والدَّمُ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، فذلك طعامُهم. وقال الحسن: هو بعضُ ما أخفاه الله من العذاب.

وقال ابن كيسان: هو طعامٌ يَضْرَعون عنده ويَذِلُّون، ويتضرَّعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسمِّي بذلك لأنَّ آكِلَه يَضْرَعُ في أنْ يُعْفَى منه، لكراهته وخُشونته[1]. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقًّا من الضَّارِع، وهو الذليلُ، أي: ذو ضراعةٍ، أي: مَن شَرِبه ذليلٌ تلحقُه ضَراعةٌ. وعن الحسن أيضاً: هو الزَّقُّوم[2]. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم.

وقد قال الله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦]. وقال هنا: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو غيرُ الغِسْلِين. ووَجْهُ الجمعِ: أنَّ النار دَرَكاتٌ؛ فمنهم مَنْ طعامُه الزَّقومُ، ومنهم مَن طعامُه الغِسْلينُ، ومنهم مَن طعامُه الضَّريعُ، ومنهم مَن شرابُه الحميمُ، ومنهم مَن شرابُه الصَّديد[3]. قال الكلبيُّ: الضريعُ في درجةٍ ليس فيها غيرُه، والزَّقومُ في درجةٍ أُخْرى. ويجوزُ أنْ تُحْمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٥٥].

القُتَبيُّ[4]: ويجوزُ أن يكون الضريعُ وشجرةُ الزَّقومِ نَبْتينِ من النار، أو مِن جوهرٍ لا تأكلُه النار. وكذلك سلاسلُ النارِ وأغلالُها، وعقاربُها وحَيَّاتها، ولو كانت على ما نَعْلَم ما بقيتْ على النار. قال: وإنَّما دلَّنا الله على الغائبِ عنده، بالحاضرِ عندنا، فالأسماءُ متَّفقةُ الدلالةِ، والمعاني مختلفةٌ. وكذلك ما في الجنة من شجرها وفُرُشها.

القُشَيريُّ: وأَمْثَلُ من قولِ القُتَبيِّ أن نقول: إنَّ الذي يُبقي الكافرين في النار ليدومَ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٩٧ مختصراً.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢١١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٤٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٤ .

(٤) في تأويل مشكل القرآن ص٥٠ .

عليهم العذابُ، يُبقي النباتَ وشجرةَ الزقومِ في النار ليعذِّب بها الكفار.

وزعم بعضُهم أنَّ الضَّريع بعَيْنِه لا يَنْبتُ في النار، ولا أنَّهم يأكلونه. فالضريعُ مِن أقْواتِ الأنعام، لا مِن أَقْواتِ الناس. وإذا وقعت الإبلُ فيه لم تَشْبَعْ، وهلكتْ هزلاً، فأراد أنَّ هؤلاء يقتاتون بما لا يُشْبِعُهم، وضَرَب الضَّريعَ له مثلاً، أنهم يعذَّبون[(١)] بالجوع كما يَعذَّبُ مَن قُوتُه الضَّريعُ.

قال الترمذيُّ الحكيم: وهذا نظرٌ سقيمٌ من أهله وتأويلٌ دنيءٌ، كأنه يدلُّ على أنَّهم تحيَّروا في قدرة الله تعالى. وإنَّ الذي أَنْبتَ في هذا الترابِ هذا الضريعَ قادرٌ على أنْ يُنْبِتَه في حريق النار، كما[(٢)] جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً، فلا النارُ تُحْرِقُ الشجرَ، ولا رطوبةُ الماءِ في الشجر تُطْفِئُ النارَ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]. وكما قيل حين نزلت ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء:٩٧]، قالوا: يا رسول الله، كيف يَمشونَ على وجوههم؟ فقال: «الذي» أمشاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم»[(٣)]. فلا يتحيَّرُ في مثلِ هذا إلا ضعيفُ القلب. أَوَليس قد أخْبَرنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم:٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: قُيوداً ﴿وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل:١٢-١٣] قيل: ذا شوك. فإنَّما يَتلوَّنُ عليهم العذابُ بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾

يعني الضريعَ لا يُسْمِنُ آكلَه. وكيف يَسْمَنُ مَن يأكلُ الشوك! قال المفسِّرون: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال المشركون: إنَّ إبلَنا لتَسْمَنُ بالضَّريع، فنزلتْ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى

---

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٤٩ (والكلام منه): أو يعذبون، بدل: أنهم يعذبون.

(٢) قوله: كما، ليس في (م).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣٩٢)، والبخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٦٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِن جُوعٍ﴾[١]. وكَذَبوا، فإنَّ الإبل إنَّما ترعاه رَطْباً، فإذا يَبِسَ لم تأكلْه[٢]. وقيل: اشْتَبَه عليهم أمرُه فظنُّوه كغيره من النَّبْتِ النافع؛ لأنَّ المضارَعةَ: المشابهة، فوجدوه لا يُسْمِنُ[٣] ولا يغني من جوع.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ذاتُ نَعْمةٍ. وهي وجوهُ المؤمنين، نَعِمَتْ بما عايَنَتْ من عاقبة أَمْرِها وعَمَلِها الصالح. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي: لعملها الذي عَمِلَتْه في الدنيا. ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيتِ الجنةَ بعَمَلِها. ومَجازُه: لثوابِ سَعْيِها راضيةٌ. وفيها واوٌ مُضْمَرةٌ، المعنى: ووجوهٌ يومئذٍ، للفصل بينها وبين الوجوهِ المتقدِّمة. والوجوهُ عبارةٌ عن الأنفُس.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مُرْتفعةٍ؛ لأنَّها فوق السماوات حَسْبَ ما تقدَّم. وقيل: عاليةِ القَدْرِ؛ لأنَّ فيها ما تَشْتَهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأَعْيُن، وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾

أي: كلاماً ساقطاً غيرَ مَرْضِيٍّ. وقال: «لاغية»، واللَّغْو واللَّغَا واللَّاغية: بمعنًى واحدٍ؛ قال:

عــنِ الــلَّـغَــا ورَفَــثِ الــتَّـكَــلُّـمِ[٤]

وقال الفرَّاء والأخفش: أي: لا تَسمعُ فيها كلمةَ لغوٍ[٥]. وفي المراد بها ستةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٧، والوسيط ٤/ ٤٧٥، والكشاف ٤/ ٢٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٣) في (د): لا يشبع.

(٤) البيت للعجاج، وهو في ديوانه ص٢٨٣، وقبله: ورَبِّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ. أقسم بربِّ أسراب حجيج، وأسراب الحجيج: جماعات الحاجِّ. والكظَّم: السكوت. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٢٥٩.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠، وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٧٣٧. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

أَوْجُهٍ: أحدها: يعني كذبًا وبُهتانًا وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثاني: لا باطلَ ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع: المعصية؛ قاله الحسن[١]. الخامس: لا يُسْمَعُ فيها حالفٌ يحلفُ بكذبٍ؛ قاله الفرَّاء[٢]. وقال الكلبيُّ: لا يُسمع في الجنة حالفٌ بيمينٍ برَّةٍ ولا فاجرة[٣]. السادس: لا يُسمع في كلامهم كلمةٌ تُلْغَى؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لا يتكلَّمون إلَّا بالحكمةِ وحَمْدِ الله على ما رَزَقَهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرَّاء أيضاً[٤]. وهو أحسنُها لأنه يَعمُّ ما ذُكر.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «لا يُسْمَع» بياءٍ غير مسمَّى الفاعل. وكذلك نافع، إلَّا أنَّه بالتاء المضمومة[٥]؛ لأنَّ اللاغيةَ اسمٌ مؤنثٌ فأنثَ الفعل لتأنيثه. ومَن قرأ بالياء فلأنه حالَ بين الاسم والفعلِ الجارُّ والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحةً، «لاغِيَةً» نَصْباً[٦]، على إسنادِ ذلك للوجوه، أي: لا تسمعُ الوجوهُ فيها لاغيةً.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماءٍ مُنْدَفِقٍ، وأنواعِ الأشربةِ اللذيذةِ على وَجْهِ الأرضِ من غيرِ أُخدود. وقد تقدَّم في سورة الإنسان[٧] أنَّ فيها عيونًا، فـ«عينٌ» بمعنى: عيون. والله أعلم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعُها قَدْرَ ما بين السماءِ

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٠ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦١ ، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٥) ومَن قرأ بهاتين القراءتين قرأ: «لاغيةٌ» بالرفع. السبعة ص٣٨١ ، والتيسير ص٢٢٢ .

(٦) في (م): نصاً.

(٧) ٢١/ ٤٥٦ .

والأرض، ليرَى وليُّ اللهِ مُلْكَه حَوْلَه.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أباريقُ وأوانٍ. والإبريق: هو ماله عُروةٌ وخُرطوم. والكوبُ: إناءٌ ليس له عروةٌ ولا خرطوم. وقد تقدَّم هذا في سورة «الزخرف»[١] وغيرِها.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي: وسائدُ، الواحدةُ: نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: واحدة إلى جَنْبِ الأخرى، قال الشاعر:

وإنا لنُجْرِي الكأسَ بين شُروبنا وبينَ أبي قابوسَ فوقَ النَّمارِقِ[٢]

وقال آخر:

كُهولٌ وشبَّانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ على سُرُرٍ مَصفوفةٍ ونَمارِقِ[٣]

وفي «الصحاح»: النُّمْرُقُ والنُّمرُقةُ: وسادةٌ صغيرة. وكذلك النِّمرِقة ـ بالكسر ـ لغةٌ حكاها يعقوب. وربَّما سَمَّوا الطِّنْفِسةَ التي فوق الرَّحْلِ نُمرقة؛ عن أبي عُبيد[٤].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: قال أبو عُبيدة[٥]: الزرابيُّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيُّ: الطَّنافسُ التي لها خَمْلٌ رقيقٌ، واحدتُها: زربية[٦]. وقاله الكلبيُّ والفرَّاء[٧].

والمبثوثة: المبسوطةُ؛ قاله قتادة. وقيل: بعضُها فوق بعضٍ؛ قاله عكرمةُ. وقيل: كثيرة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: متفرقةٌ في المجالس؛ قاله القُتَبيّ[٨].

---

(١) ١٩/ ٨١ - ٨٢.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٦٩ . قوله: شُروبنا، الشُّروب: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٣) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ لزهير، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) الصحاح (نمرق).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٦ .

(٦) تكسر زايها وتفتح وتضم. النهاية (زرب).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٨ ، وذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦١ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٦١-٢٦٢ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٨ ، وقول الفراء في معاني =

قلت: هذا أَصْوَبُ، فهي كثيرةٌ متفرِّقةٌ. ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بن الحسين، قال: حدَّثنا حسين بن عرفة، قال: حدَّثنا عمار بن محمد، قال: صلَّيتُ خَلْفَ منصور بنِ المعتمر، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وقرأ فيها: «وزَرَابيُّ مَبْثُوثةٌ متَّكئين فيها ناعمين»[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾

قال المفسِّرون: لمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ أَمْرَ أهلِ الدارَيْنِ، تعجَّب الكفار من ذلك، فكذَّبوا وأنكروا، فذكَّرهُمُ الله صنعته وقُدْرتَه، وأنه قادرٌ على كلِّ شيء، كما خَلَقَ الحيواناتِ والسماءَ والأرضَ. ثم ذَكَر الإبلَ أولاً، لأنَّها كثيرةٌ في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلةَ، فنبَّههم جلَّ ثناؤه على عظيمٍ مِن خَلْقِه، قد ذلَّله للصغير يقودُه ويُنيخُه ويُنْهِضُه، ويحملُ عليه الثقيل من الْحِمْل وهو بارِكٌ، فينهضُ بثقيلِ حِمْلِه، وليس ذلك في شيءٍ من الحيوان غيرِه. فأراهم عظيماً من خَلْقِه، مسخَّراً لصغيرٍ مِن خَلْقِه؛ يدلُّهم بذلك على توحيده وعظيمِ قدرته.

وعن بعضِ الحكماءِ: أنَّه حُدِّثَ عن البعير وبديعِ خَلْقِه، وقد نشأ في بلادٍ لا إبلَ فيها، ففكَّر ثم قال: يوشكُ أنْ تكونَ طِوالَ الأعناقِ. وحين أراد بها أن تكونَ سفائنَ البرِّ، صبَّرها على احتمالِ العطش، حتى إنَّ إظماءَها ليرتفعُ إلى العَشْر فصاعداً، وجعلها ترعَى كلَّ شيءٍ نابتٍ في البراري والمفاوزِ، ممَّا لا يرعاه سائرُ البهائم[(٢)].

وقيل: لَمَّا ذَكَر السُّرُرَ المرفوعةَ قالوا: كيف نَصْعدُها؟ فأنزل الله هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ الإبلَ تَبْرُك حتى يُحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السُّرُر تَتَطامنُ ثم ترتفع. قال

= القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٥٢٥. وقول عكرمة أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(١) الخبر في كتاب المصاحف لابن الأنباري، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٧.

معناه قتادةُ ومقاتلٌ وغيرهما[١].

وقيل: الإبلُ هنا القِطَعُ العظيمةُ من السحاب؛ قاله المبرِّد[٢]. قال الثعلبيُّ: وقيل في الإبِل هنا: السحابُ، ولم أَجِدْ لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذَكَر الأصمعيُّ أبو سعيدٍ عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: مَن قرأها: «أفلا ينظُرون إلى الإِبِلِ كيف خُلِقتْ» بالتخفيف: عنَى به البعير؛ لأنَّه من ذواتِ الأربع، يَبرُك فتُحْمَلُ عليه الحمولةُ، وغيرهُ من ذواتِ الأربع لا يُحملُ عليه إلَّا وهو قائم. ومَن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبِلِّ» عنَى بها السحابَ التي تحملُ الماءَ للمطر[٣].

وقال الماوَرْديُّ[٤]: وفي الإبل وجهان: أحدُهما ـ وهو أَظْهَرُهما وأَشْهرُهما ـ: أنَّها الإبلُ من النَّعَم. الثاني: أنَّها السَّحابُ. فإنْ كان المرادُ بها السحابَ، فلِمَا فيها من الآيات الدالَّةِ على قُدْرَته، والمنافع العامَّة لجميع خَلْقِه. وإن كان المرادُ بها الإبلَ من النَّعَم، فلأنَّ الإبلَ أَجْمعُ للمنافع من سائر الحيوان؛ لأنَّ ضُروبَه أربعةٌ: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبلُ تجمع هذه الخِلالَ الأربع، فكانت النعمةُ بها أعمَّ، وظهورُ القدرةِ فيها أتمَّ.

وقال الحسن: إنَّما خصَّها الله بالذِّكْرِ لأنها تأكلُ النَّوى والقَتَّ، وتُخرِجُ اللَّبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيلُ أعظمُ في الأعجوبة! فقال: العربُ بعيدةُ العهدِ بالفيل، ثم هو خنزيرٌ لا يُؤكل لحمُه، ولا يُركبُ ظَهْرُه، ولا يُحلَبُ دَرُّه[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ وزاد المسير ٩/ ٩٩ عن قتادة دون قوله: وبين أن الإبل تبرك . . .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ ، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ دون نسبة.

(٣) اللسان (أبل)، وذكر قول أبي عمرو مختصراً ابن خالويه في القراءة الشاذة ص١٧٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٧٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ .

وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة حتى ننظرَ إلى الإبل كيف خُلِقت[١].

والإبل: لا واحدَ لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيثُ لها لازم، وإذا صغَّرتَها دَخَلَتْها الهاءُ، فقلتَ: أُبيلة وغُنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ أي: رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالُها شيء. ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ أي: كيف نُصبت على الأرض بحيث لا تزول، وذلك أن الأرض لمَّا دُحِيت مادت، فأرساها بالجبال، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ أي: بُسطت ومدّت. وقال أنس: صلَّيت خلف عليّ ﷺ، فقرأ: «كَيفَ خَلَقْتُ» و«رَفَعْتُ» و«نَصَبْتُ» و«سَطَحْتُ»، بضم التاءات[٣]؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية، والمفعول محذوف، والمعنى: خلقتها. وكذلك سائرُها.

وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء[٤]. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنَّهم خفَّفوا الطاء. وقدَّم الإبل في الذكر، ولو قدَّم غيرها لجاز.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٩ ، والكناسة: محلةٌ بالكوفة. معجم البلدان ٤/ ٤٨١ .

(٢) الصحاح (أبل).

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ عن هارون الرشيد، وذكرها عن الحسن ابن عطية في المحرر الموجيز ٥/ ٤٧٥ .

قال القشيري: وليس هذا ممَّا يُطلب فيه نوعُ حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حقِّ العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرفِ الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر، فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظَم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تَفكَّر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء؛ فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فعِظْهم يا محمدُ وخوِّفْهم. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: واعِظٌ. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: بمسلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نَسَخَتْها آيةُ السَّيف.

وقرأ هارون الأعور: «بِمُسَيْطَرٍ» بفتح الطاء، و«المُسَيْطَرون» [الطور: ٣٧]. وهي لغةُ تميم[١].

وفي «الصِّحاح»: المُسَيطِر والمُصَيْطِر: المُسَلَّطُ على الشيء، ليُشْرِفَ عليه، ويتعهَّدَ أحواله، ويكتبَ عملَه، وأصلهُ من السَّطر؛ لأنَّ الكتاب مُسَطَّرٌ[٢]، والذي يفعلُه مُسَطِّر ومُسَيْطِر؛ يقال: سَيْطَرْتَ علينا، وقال تعالى: «لَسْتَ عليهم بمسَيْطِرٍ».

---

(١) البحر ٨/ ٤٦٤ . قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٨ : قيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء، على أن سيطر متعدٍّ عندهم، وقولهم: تَسَيْطَر، يدل عليه.

(٢) في (م): لأن من معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، وفي النسخ الخطية: لأن معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، والمثبت من الصحاح (سطر)، ومثله في اللسان (سطر).

وسَطَرَه، أي: صَرَعَه.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، أي: لكنْ مَن تولَّى عن الوعظِ والتذكير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وهي جهنمُ الدائمُ عذابُها ـ وإنَّما قال: «الأكبر» لأنهم عذِّبوا في الدنيا بالجوع والقَحْطِ والأَسْرِ والقتل ـ ودليلُ هذا التأويلِ قراءةُ ابنِ مسعود: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر فإنَّه يعذِّبُه الله»(١).

وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ، والمعنى: لَسْتَ بمسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر، فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجهاد، واللهُ يعذِّبه بعد ذلك العذابَ الأكبرَ، فلا نَسْخَ في الآية على هذا التقدير.

ورُوِي أنَّ عليًّا أُتِي برجلٍ ارتدَّ، فاستتابه ثلاثةَ أيام، فلم يُعاوِدِ الإسلامَ، فضرب عنقَه، وقرأ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾(٢).

وقرأ ابنُ عباس وقتادةُ: «أَلَا» على الاستفتاح والتنبيه(٣)، كقولِ امرئ القيس:

أَلَا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالِحٍ(٤)

و«مَنْ» على هذا: للشرط. والجوابُ: «فيعذِّبه اللهُ» والمبتدأُ بعد الفاءِ مُضْمَرٌ، والتقدير: فهو يعذِّبُه الله؛ لأنه لو أُرِيدَ الجوابُ بالفعل الذي بَعْدَ الفاءِ لكان: أَلَا مَن تولَّى وكَفَر يعذِّبْه الله(٥).

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي: رُجوعَهم بعد الموت. يقال: آبَ يؤوب، أي: رجع. قال عَبيد:

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه بنحوه مطولاً دون ذكر الآية البيهقي ٨/ ٢٠٦.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٧.

(٤) وعجزه: ولا سيما يوم بدارة جلجل، وهو في الديوان ص١٠. قال شارح الديوان: دارة جلجل: موضع يقال له: الحمى. والدار والدارة واحد.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٧.

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وغائبُ الموتِ لايَؤوبُ[١]

وقرأ أبو جعفر: «إِيَّابُهمْ» بالتشديد[٢]. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمَخْشَريُّ[٣]: وقرأ أبو جعفر المدنيُّ: «إِيَّابهم» بالتشديد، ووجهه أن يكون فِيْعالاً: مصدر أَيَّب فيْعَلَ من الإِيَّاب[٤]. أو أن يكون أصلُه إِوَّاباً فِعَّالاً من أوَّب، ثم قيل: إيواباً، كديوان في دِوَّان. ثم فُعِل [به] ما فُعِل بأصل سيِّد[٥] ونحوِه.

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٦.

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٤) ويقال منه: أَيَّبَ يؤيِّبُ إِيَّاباً، والأصل: أَيْوَب يُؤَيْوِبُ إيواباً ـ كبَيْطَر يُبَيْطِر ـ ثم قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء المزيدة فيها، فإِيَّاب على هذا: فيعال. ينظر الدر المصون ١٠/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٥) يعني أن أصله: سَيْوِد، فقلبت الواو ياءً وأدغمت. الدر المصون ١٠/ ٢٧٣.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكيَّةٌ، وهي سِتٌّ وعشرونَ آيةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: الدَّاهيَةِ التي تغشى النَّاسَ بشَدائِدِهَا؛ يعني: يومَ القيامةِ.

أو: النَّارِ؛ مِن قولِه: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

(٢ ـ ٣) ـ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾: ذليلةٌ ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ تعمَلُ ما تَتعبُ فيه؛ كجرِّ السَّلاسلِ، وخوضِهَا في النَّارِ خوضَ الإبلِ في الوَحلِ، والصُّعودِ والهُبوطِ في تِلالها ووِهادِها.

أو: عَمِلَت ونَصِبَتْ في أعمالٍ لا تنفَعُها يومئذٍ.

(٤ ـ ٥) ـ ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا﴾: تدخلُها، وقرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ وأبو بكرٍ: ﴿تُصْلَى﴾[١] مِن أَصْلاهُ اللهُ.

وقُرِئَ: (تُصَلَّى) بالتَّشديدِ[٢] للمُبالغَةِ.

﴿حَامِيَةٗ﴾: متناهيةً في الحَرِّ ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾: بلغَتْ أَناها في الحرِّ[٣].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨١)، و«التيسير» (ص: ٢٢١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٢) عن خارجة. وهو ابن زيد.

(٣) قوله: «بلغت أناها» أي: غايتها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٩٤).

(٦) ـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾: يَبِيسُ الشِّبْرِقِ، وهو شوكٌ تَرعاهُ الإبلُ ما دامَ رطبًا.

وقيل: شجرةٌ ناريَّةٌ تُشبِهُ الضَّريعَ.

ولعلَّهُ طعامُ هؤلاءِ، والزَّقُّومُ والغِسْلينُ طَعامُ غَيرِهِم، أو المرادُ طعامُهُم ممَّا تَتحامَاهُ الإبلُ وتَتعافاهُ لضُرِّهِ وعدمِ نَفعِهِ كمَا قال:

(٧) ـ ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ والمقصودُ مِن الطَّعامِ أحدُ الأُمرينِ.

(٨ ـ ١١) ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾: ذاتُ بهجَةٍ، أو: مُتنعِّمَةٌ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رَضِيَتْ بعَمَلِها لَمَّا رأَتْ ثوابَه ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: عليَّةِ المحلِّ أو القَدْرِ ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطَبُ، أو: الوجوهُ، وقرأ على بناءِ المفعولِ بالياءِ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ، والتَّاءِ نافعٌ[١].

﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾: لغوًا، أو: كلمةً ذاتَ لغوٍ، أو: نفسًا تَلْغو؛ فإنَّ كلامَ أهلِ الجنَّةِ الذكرُ والحِكَمُ.

(١٢) ـ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤُها ولا ينقطِعُ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾: رفيعةُ السُّمْكِ أو القَدْرِ.

(١٤) ـ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوبٍ، وهو إناءٌ لا عُروةَ له ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بينَ أَيدِيهِمْ.

(١٥) ـ ﴿وَنَمَارِقُ﴾: مَسانِدُ؛ جمعُ نَمْرَقَةٍ بالفَتحِ والضَّمِّ[٢] ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضُها إلى بعضٍ.

(١٦) ـ ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: وبُسُطٌ فاخرةٌ، جمعُ زِرْبِيَّةٍ ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطةٌ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويسٌ: ﴿لا يُسْمَعُ﴾ بياء التَّذكير مضمومةً و﴿لاغيةٌ﴾ بالرَّفع، وقرأ نافع: ﴿لا تُسْمَعُ﴾ بتاء التأنيث مضمومةً و﴿لاغيةٌ﴾ بالرَّفع، والباقون: ﴿لا تَسْمَعُ﴾ بفتح التاء ﴿لاغيةً﴾ بالنَّصب. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨١ ـ ٦٨٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢) و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٢) قوله: «بالفتح والضم» أراد: فتح الراء والنون أو ضمهما، ويجوز كسرهما أيضًا فهو مثلث. قاله الشهاب.

(١٧) ـ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظرَ اعتبارٍ ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خَلْقًا دالًّا على كمالِ قُدرَتِه وحُسنِ تَدبيرِه، حيثُ خلَقَها لجَرِّ الأَثقالِ إلى البلادِ النَّائيَةِ، فجَعلَها عظيمةً باركةً[١] للحَمْلِ، ناهضةً بالحِمْلِ، مُنقادةً لِمَن اقتادَهَا، طِوالَ الأعناقِ لتَنُوءَ بالأوقارِ، ترعَى كلَّ نابتٍ، وتحتملُ العطشَ إلى عشرٍ فصاعِدًا ليتأتَّى لها قطعُ البَراري والمفاوزِ، مَع ما لها مِن مَنافِعَ أُخَرَ، ولذلك خُصَّتْ بالذِّكرِ لبيانِ الآياتِ المُنبثَّةِ في الحيواناتِ التي هي أشرَفُ المُركَّباتِ وأكثَرُها صُنْعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العَربِ مِن هذا النَّوعِ.

وقيل: المرادُ بها السَّحابُ؛ على الاستعارةِ.

(١٨ ـ ٢٠) ـ ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عَمَدٍ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسِخَةٌ لا تميلُ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾: بُسِطَتْ حتَّى صارَتْ مِهادًا.

وقُرِئَ الأفعالُ الأربعَةُ على بناءِ الفاعلِ للمُتكلِّمِ وحذفِ الرَّاجعِ المنصوبِ[٢].

والمعنى: أفلا ينظرونَ إلى أنواعِ المَخلوقاتِ مِن البسائطِ والمُركَّباتِ ليتَحقَّقُوا كمالَ قدرةِ الخالقِ فلا ينكروا اقتدارَهُ على البعثِ، ولذلك عَقَّبَ به أمرَ المعادِ ورتَّبَ عليه الأمرَ بالتَّذكيرِ، فقال:

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليكَ إنْ لم يَنظرُوا ولم يذكرُوا إذ ما عليكَ إلَّا البَلاغُ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾: بمُتسلِّطٍ، وقرأ هشامٌ[٣] بالسِّينِ على الأصلِ، وحمزةُ بالإشمامِ[٤].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «نازلة».

(٢) أي: (خَلَقْتُ) و(رَفَعْتُ) و(نَصَبْتُ) و(سَطَحْتُ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٦)، عن علي رضي الله عنه.

(٣) في النسخ عدا نسخة التفتازاني: «وعن الكسائي». وعدها الأنصاري في «حاشيته» (٥/ ٤٩٦) سهواً، ثم قال: «وتبعَ هشامًا قنبلٌ وابن ذكوان وحفصٌ بخلاف عنهم». وانظر التعليق الآتي.
وقد ذكرت القراءة بالسين عن الكسائي في غير المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٦، ٦٨٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٢)، و«النشر» (٢/ ٣٧٨).

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾: لكنْ مَن تَولَّى وكفرَ[1] ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ يعني: عذابَ الآخرةِ.

وقيل: مُتَّصِلٌ؛ فإنَّ جِهادَ الكُفَّارِ وقَتلَهُم تَسلُّطٌ، وكأنَّه أوعدَهُم بالجهادِ في الدُّنيا وعذابِ النَّارِ في الآخرة.

وقيل: هو استثناءٌ مِن قَولِه: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي: فذكِّرْ إلَّا مَن تَولَّى وأصرَّ فاستحقَّ العذابَ الأكبرَ، وما بينَهُما اعتراضٌ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ أنَّهُ قُرِئَ: (أَلَا)[2] على التَّنبيهِ.

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾: رُجوعَهُم، وقُرِئَ بالتَّشديدِ[3] على أنَّه (فِيعَالٌ) مَصدرُ فَيْعَلَ؛ مِن الإيَابِ، أو (فِعَّال) مِن الأَوْبِ؛ قُلِبَت واوُه الأولى قَلْبَها في: (ديوان)، ثمَّ الثَّانيةُ للإدغامِ[4].

(٢٦) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المحشَرِ، وتقديمُ الخبرِ للتَّخصيصِ والمُبالغَةِ في الوَعيدِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ الغاشيةَ حاسبَهُ اللهُ حِسابًا يَسيرًا»[5].

* * *

---

(١) قوله: «لكن من تولى وكفر» يعني أن الاستثناءَ منقطعٌ، و(إلا) بمعنى (لكن)، وبعده جملة؛ فإن (مَن) مبتدأ متضمن لمعنى الشرط، وقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ خبره. قاله الشهاب.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٧)، عن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وزيد بن علي.

(٣) أي: ﴿إِيَّابَهم﴾، وهي قراءةُ أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٤) أي: أَصْلُه إِوَّابٌ: فِعَّالٌ من أَوَّبَ، ثُمَّ قِيْل: إِيْواباً؛ كدِيْوانٍ في دِوَّانٍ، ثُمَّ فُعِل به ما فُعِل بأَصْل: سيِّد. انظر: «الكشاف» (٩/ ٥٦٨).

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٦٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٧٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٨٨) سُورَةُ الغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَعِشْرُونَ

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

الغاشية من أسماء يوم القيامة، لأنها تغشى الناس وتعمهم، روي عن عمرو بن ميمون أنه قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ فقام يستمع، ويقول: « نعم قد جاءني » . وقوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ أي ذليلة ، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها، وقوله تعالى: ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، عن ابي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب، قال، فناداه: يا راهب، فأشرف، قال، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال: ذكرت قول الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿ عاملة ناصبة ۞ تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذي أبكاني، قال ابن عباس: ﴿ عاملة ناصبة ﴾ النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك . قال ابن عباس: ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ أي حارة شديدة الحر، ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها (٢) ، وقوله تعالى: ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال ابن عباس: شجر من النار، وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم، وعنه أنها الحجارة ، وقال البخاري، قال مجاهد: الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، وهو سم، وقال قتادة: ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ، وقوله تعالى: ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

---

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

لما ذكر حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء فقال: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ناعمة﴾ أي يعرف النعيم فيا، وإنما حصل لها ذلك بسعيها، ﴿لسعيها راضية﴾ قد رضيت عملها، وقوله تعالى: ﴿في جنة عالية﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾، ﴿فيها عين جارية﴾ أي سارحة وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك»[1]، ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أي عالية ناعمة، كثيرة الفرش مرتفعة السمك، عليها الحور العين، فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وأكواب موضوعة﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها، ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال ابن عباس: النمارق الوسائد[2]، وقوله تعالى: ﴿وزرابي مبثوثة﴾ قال ابن عباس: الزرابي البسط، ومعنى مبثوثة: أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها، عن أسامة بن زيد قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية!»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله» قال القوم إن شاء الله[3]

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾؟ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: أخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي كيف رفعها الله عزَّ وجلَّ عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها «وجعل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وكذا قال عكرمة وقتادة والضحّاك والسدي وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن ماجة.

فيها ما جعل من المنافع والمعادن ، ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ ! أي كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه، ، عن أنَس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن كل شيء، فكان يعجبنا أن أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله، ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إنا أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: « صدق » قال: فمن خلق السماء ؟ قال: « الله » قال: فمن خلق الأرض ؟ قال: « الله » ، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال: « الله » ، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال: « نعم » . قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال: « صدق » ، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال: « نعم »، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال: « صدق » ، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ، قال: « نعم » ، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ؟ قال: « صدق » ، قال: ثم ولى ، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ : « إن صدق ليدخلن الجنة »[1] .

وقوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ، ولهذا قال: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : لست عليهم بجبار ، أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان ، عن جابر قال، قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ » ثم قرأ: ﴿فذكِّر إنما أنت مذكِّر * لستَ عليهم بمسيطر﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿فلا صدَّق ولا صلَّى * ولكن كذَّب وتولى﴾ ، ولهذا قال: ﴿فيعذِّبه الله العذاب الأكبر﴾ ، روى الإمام أحمد : أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله »[3] . وقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم ، ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرٌ .

[آخر تفسير سورة الغاشية ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السنن والإمام أحمد ، وجاء في بعض الروايات : « وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر » .

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم والنسائي والترمذي .

(٣) تفرد بإخراجه الإمام أحمد .

تفسير سورة الغاشية

وهى مكية .

قد تقدم عن النعمان بن بَشير : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة .

وقال الإمام مالك ، عن ضَمْرَة بن سعيد ، عن عُبَيد الله بن عبد الله : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .

رواه أبو داود عن القَعْنَبى ، والنسائى عن قتيبة ، كلاهما عن مالك ، به [١] . ورواه مسلم وابن ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن ضمرة بن سعيد ، به [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لاَّ يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) ﴾ .

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس وتَعُمّهم . وقد قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم ، قد جاءنى » [٣] .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أى : ذليلة . قاله قتادة . وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها .

وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ، ونَصِبت فيه ، وصَلِيت يوم القيامة ناراً حامية .

وقال الحافظ أبو بكر البرقانى : حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّى ، حدثنا محمد بن إسحاق

---

(١) الموطأ (١/ ١١١) وسنن أبى داود برقم (١١٢٣) وسنن النسائى (٣/ ١١٢) .
(٢) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١١١٩) .
(٣) وهذا مرسل وقد تقدم .

وقال الحافظ أبو بكر البرقانى : حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّى ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار (١) ، حدثنا جعفر قال : سمعت أبا عمران الجَونى يقول: مر عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بدير راهب ، قال : فناداه : يا راهب [يا راهب] (٢). فأشرف . قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك من هذا ؟ قال: ذكرت قول الله ،عز وجل، فى كتابه: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، فذاك الذى أبكانى(٣).

وقال البخارى : قال ابن عباس : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ : النصارى .

وعن عكرمة، والسدى: ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال (٤).

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى : حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أى : قد انتهى حَرّها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسّدى .

وقوله : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : شجر من نار .

وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : هو الشِّبرِقُ . قال قتادة : قريش تسميه فى الربيع الشِّبرِقُ ، وفى الصيف الضريع . قال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض .

وقال البخارى : قال مجاهد : الضريعُ نبتٌ يقال له : الشِّبرِقُ ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس ، وهو سم (٥) .

وقال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ : هو الشِّبرِقُ ، إذا يبس سُمّى الضريع .

وقال سعيد ، عن قتادة : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : ﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ يعنى : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « حدثنا يسار » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٢٩٩) عن جعفر بن سليمان ، عن أبى عمران به ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٢٢) من طريق الخضر بن أبان ، عن سيار ، عن جعفر به ، وقال الحاكم :« هذه حكاية فى وقتها ، فإن أبا عمران الجونى لم يدرك زمان عمر » .

(٤) فى م : « والإهلاك » .

(٥) صحيح البخارى (٨/ ٧٠٠) « فتح » .

لما ذكر حال الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أى : يعرف النعيم فيها . وإنما حَصَلَ لها ذلك بسعيها .

وقال سفيان : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : رفيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ أى : لا يسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو. كما قال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا ﴾ [مريم:٦٢] ، وقال : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:٢٣] . وقال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة:٢٥ ، ٢٦] .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات .

وقال ابن أبى حاتم : قُرئ على الربيع بن سليمان : حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن قُرَّة ، عن عبد الله بن ضَمْرة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ــ أو : من تحت جبال ــ المسك » [(١)] .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السَّمْك ، عليها الحور العين . قالوا: فإذا أراد ولىُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ، ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى: أوانى الشرب معدة مُرصدة [(٢)] لمن أرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾: قال ابن عباس : النمارق : الوسائد . وكذا قال عكرمة، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : الزرابى: البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد .

ومعنى مبثوثة ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه أبو بكر بن أبى داود : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبى ، عن محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافرى ، عن سليمان بن موسى : حدثنى كُرَيْب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مُشَمِّر للجنة ، فإن الجنة لا خَطَر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دارٍ سليمة ،وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : « قولوا : إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقى ، عن الوليد بن مسلم [(٣)] ، عن محمد بن

---

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) « موارد » من طريق القراطيسى ، عن أسد بن موسى به .

(٢) فى م : « موضوعة » .

(٣) فى أ : « سلمة » .

مهاجر ، به [١] .

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خَلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أى : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ؟ أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبَّه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه، والأرض التى تحته ـ على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه . وهكذا أقسم « ضِمَام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولُك فزعَم لنا أنك تَزعُم أن الله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، آللهُ أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولُك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

---

(١) البعث لابن أبى داود برقم (٧١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : « مجهول » . وسليمان بن موسى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ . قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حَجّ البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : «صدق» . قال : ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبى ﷺ : «إن صدق ليدخُلَنّ الجنة » .

وقد رواه مسلم،عن عمرو الناقد،عن أبى النضر هاشم بن القاسم،به[١]. وعَلّقه البخارى،ورواه الترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة به[٢]. ورواه الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث الليث بن سعد ، عن سعيد المقبرى ، عن شريك ابن عبد الله بن أبى نمر ،عن أنس ، به بطوله [٣] ، وقال فى آخره :« وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنى عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة فى الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها ترعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمه ، من خلقك ؟ قالت :الله . قال :فمن خلق أبى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقنى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : إنى لأسمع لله شأنا . وألقى نفسه من الجبل فتقطع .

قال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا .

قال ابن دينار : كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا [٤] .

فى إسناده ضعف ، وعبد الله بن جعفر هذا هو المدينى ، ضَعّفه ولده الإمام على بن المدينى وغيره .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أى : فذكر ــ يا محمد ــ الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال:﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: لست عليهم بجبار .

وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .

قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ .

---

(١) المسند (٣/١٤٣) وصحيح مسلم برقم (١٢) .

(٢) صحيح البخارى (١/١٤٨) « فتح » وسنن الترمذي برقم (٦١٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠١) .

(٣) المسند (٣/١٦٨) وصحيح البخارى برقم (٦٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٢) .

(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/١٧٨) عن أبى يعلى به مثله . وقال : « غير محفوظ ، لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر » .

وهكذا رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » ، والترمذى والنسائى فى كتابى[١] « التفسير » من سننيهما ، من حديث سفيان بن سعيد الثورى ، به بهذه الزيادة [٢] . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية [٣] .

وقوله : ﴿ إلا من تولَّىٰ وكفر ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : ﴿ فلا صدَّق ولا صلَّىٰ . ولَكن كذَّب وتولَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١ ، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿ فيُعذِّبُه اللَّهُ العذاب الأكبر ﴾ . قال الإمام أحمد :

حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن على بن خالد[٤] : أن أبا أمامة الباهلى مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شرَد على الله شرَاد البعير على أهله » .

تفرد [٥] بإخراجه الإمام أحمد [٦] ، وعلى بن خالد هذا ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه ،ولم يزد على ما هاهنا : « روى عن أبى أمامة ، وعنه سعيد بن أبى هلال » [٧].

وقوله : ﴿ إنَّ إلينا إيابهم ﴾ أى : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثمَّ إنَّ علينا حسابهم ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

آخر تفسير سورة « الغاشية » ولله الحمد والمنة

(١) فى أ : « فى كتاب » .
(٢) المسند (٣/ ٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٠) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (٢١) .
(٤) فى أ : « على بن أبى خالد » والمثبت من «م» والمسند .
(٥) فى م : « انفرد » .
(٦) المسند (٥/ ٢٥٨) .
(٧) الجرح والتعديل (٦/ ١٨٤) وقد ذكر الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٣) « أنه ثقة » .

سورة الغاشية

مكيّة، وهي ستّ وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ قيل: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى "قد"، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ الآية [الإنسان، ١/٧٦]، قال قُطرُب: أي: قد جاءك يا محمّد حديث الغاشية.[1] وليس بذاك؛ بل هو استفهام أريدَ به التعجيب ممّا في حيّزه والتشويق إلى استماعه والإشعار / بأنّه مِن الأحاديث البديعة التي حقُّها أن [٢٩٣و] يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقّيها الوُعاة مِن كلّ حاضر وبادٍ.

والغاشية: الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهي القيامة مِن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾... إلخ [العنكبوت، ٥٥/٢٩]. وقيل: هي النار مِن قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم، ٥٠/١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف، ٤١/٧].[2] والأوّل هو الحقّ فإنّ ما سيُروى مِن حديثها ليس مختصًا بالنار وأهلها؛ بل ناطق بأحوال أهل الجنّة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾[3] استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن الاستفهام التشويقيّ، كأنّه قيل: مِن جهته عليه السلام: ما أتاني حديثها، ما هو؟ فقيل: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾، أي: يوم إذ غشيَت ذليلة.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٩/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٤.

٣ في الآية السادسة عشرة مِن هذه السورة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يكن أتاه عليه السلام حديثُها فأخبره عليه السلام عنها فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾... إلخ،[١] فـ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، ولا بأس بتنكيرها؛ لأنّها في موضع التنويع، و﴿خَاشِعَةٌ﴾ خبره.

وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ خبران آخران لـ﴿وُجُوهٌ﴾ إذ المراد بها أصحابها، أي: تعمل أعمالًا شاقّةً تتعب فيها وهي جرّ السلاسل والأغلال والخوضُ في النار خوضَ الإبل في الوحل والصعودُ والهبوط في تلال النار ووِهادِها. وقيل: عملت في الدنيا أعمالَ السوء والتذّت بها فهي يومئذ في نَصَب منها. وقيل: عَمِلت ونَصِبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ﴾ أي: تدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: متناهيةً في الحرّ، خبر آخرُ لـ﴿وُجُوهٌ﴾. وقيل: هو الخبر وما قبله صفات لـ﴿وُجُوهٌ﴾.[٣] وقد مرّ غيرَ مرّة أنّ الصفة حقُّها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جَعْلها صفةً له، ولا ريبَ في أنّ صُليَّ النار وما قبله مِن الخشوع والعمل والنَّصَب أمور متساوية في الانتساب إلى الوجوه معرفةً وجهالةً، فجعلُ بعضِها عنوانًا للموضوع قيدًا مفروغًا عنه غيرَ مقصود الإفادة وبعضِها مَناطًا للإفادة تحكّمٌ بحت. ويجوز أن يكون هذا وما بعده / مِن الجملتين استئنافًا مبيِّنًا لتفاصيل أحوالها. [٢٩٣ظ]

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: متناهية في الحَرّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٤].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم. والضريع: يبيس الشِّبْرِق، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا وإذا يبس تحامته، وهو سمّ قاتل.[٤] وقيل: هي شجرة ناريّة تشبه الضريع.[٥] وقال ابن كَيسان: هو طعام يضرعون عنده ويذِلّون ويتضرّعون إلى الله تعالى طلبًا للخلاص منه، فسمّي بذلك.[٦] وهذا طعام لبعض أهل النار، والزّقوم والغِسلين لآخرين.

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.
٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩١.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٨.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٢٦-٥٢٧.
٦ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٠/٢٩٦.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي: ليس مِن شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا، وإنّما هو شيء يُضطرّون إلى أكله مِن غير أن يكون له دَفْع لضرورتهم، لكن لا على أنّ لهم استعدادًا للشِّبع والسِّمن إلّا أنّه لا يفيدهم شيئًا منهما؛ بل على أنّه لا استعداد مِن جهتهم ولا إفادة مِن جهة طعامهم.

وتحقيق ذلك أنّ جوعهم وعطشهم ليسا مِن قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة مِن حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلَّل مِن البدن مُشوّقةٍ له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذّ بهما عند الأكل والشرب ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المَعِدَة ويستفيد منهما قوّةً وسِمنًا عند انهضامهما؛ بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها مِن اللهب، وأمّا أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما أو التذاذٌ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادةُ قوّةٍ فهيهات.

وكذا عطشُهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد يطفئه مِن غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادةُ قوّة به في الجملة، وهو المعنيّ بما رُوي أنّه تعالى يسلّط عليهم الجوع بحيث يضطرّهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلِّط عليهم العطش فيضطرّهم إلى شُرب الحميم فيشوي / وجوهَهم ويُقطِّع أمعاءهم. [٢٩٤و]

وتنكير الجوع للتحقير، أي: لا يغني مِن جوعٍ ما. وتأخيرُ نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسّل به إلى التصريح بنفي كلا الأمرين؛ إذ لو قُدِّم لَمَا احتيج إلى ذِكر نفي الإسمان ضرورةَ استلزام نفي الإغناء عن الجوع إيّاه بخلاف العكس، ولذلك كُرِّر ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في رواية حديث أهل الجنّة. وتقديمُ حكاية حال أهل النار لأنّه أدخَل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها،

ولأنّ حكاية حُسن حال أهل الجنّة بعد حكاية سوء حال أهل النار ممّا يزيد المحكيّ حسنًا وبهجةً. والكلام في إعراب الجملة كالذي مرّ في نظيرتها، وإنّما لم تُعطَف عليها إيذانًا بكمال تباين مضمونيهما. ومعنى ناعمة ذات بهجة وحُسن، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين، ٢٤/٨٣]، أو متنعِّمة.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي عمِلتْه في الدنيا حيث شاهدت ثمرتَه.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المحلّ أو عليّة المقدار.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ أي: أنت أو الوجوه ﴿فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ لغوًا، أو كلمةً ذات لغو، أو نفسًا تلغو، فإنّ كلام أهل الجنّة كلّه أذكار وحِكَم. وقُرئ: "لَا يُسمَع" على البناء للمفعول بـ"الياء"[١] و"التاء"[٢] ورفع "لَاغِيَةٌ".

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة[٣] تجري مياهها، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير، ١٤/٨١].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة السَّمْك أو المِقدار ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب: وهو إناء لا عُروةَ له ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: بين أيديهم، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد، جمع "نمرقة" بالفتح والضمّ، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي: بُسُط فاخرة جمع زِربيّة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي: مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فُصِّل مِن حديث الغاشية وما هو مبنيّ عليه مِن البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٢ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٣ في هامش م: فيه إشارة إلى التنوين للتكثير. «منه».

بما لا يستطيعون إنكاره. و"الهمزة" للإنكار والتوبيخ، و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، / وكلمة ﴿كَيْفَ﴾ منصوبة بما بعدها، كما في قوله تعالى: [٢٩٤ظ]
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨/٢] معلّقة لفعل النظر.

والجملة في حيّز الجرّ على أنّها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْإِبِلِ﴾، أي: أيُنكرون ما ذُكر مِن البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه مِن قدرة الله عزّ وجلّ؟ فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نُصب أعينهم يستعملونها كلّ حين، إلى[1] أنّها كيف خُلقت خلقًا بديعًا معدولًا به عن سَنَن خِلْقَة سائر أنواع الحيوانات؛ في عِظَم جثّتها وشدّةِ قوتها وعجيبِ هيئتها اللائقة بتأتّي ما يصدر عنها مِن الأفاعيل الشاقّة كالنّوء بالأوقار الثقيلة وجرّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش حتّى إنّ أظماءها لتبلُغ العِشر فصاعدًا واكتفائها باليسير ورعيها لكلّ ما تيسّر مِن شَوك وشجر وغير ذلك ممّا لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما شاء ويقتادها بقطارها كلّ صغير وكبير.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها كلّ لحظة بالليل والنهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعًا سحيق المدى بلا عِماد ولا مِساك بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبًا رصينًا فهي راسخة لا تميل ولا تميد.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلّبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحًا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها مِن الخلائق. وقُرئ: "سُطِّحَتْ"[2] مشدّدًا، وقُرئت الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلّم، وحذفِ الراجع المنصوب.[3] والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبّر والاعتبار إلى كيفيّة خَلْق هذه المخلوقات الشاهدة بحقّيّة البعث والنشور ليرجعوا عمّا هم عليه مِن الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك ويستعدّوا للقائه بالإيمان والطاعة.

---

[1] وفي هامش م: بدل مِن قوله: "إلى الإبل". «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون الرشيد والحسن وسعيد بن جُبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٥و] و"الفاء" في قوله تعالى: / ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما ينبئ عنه الإنكار السابق مِن عدم النظر، أي: فاقتصر على التذكير ولا تُلحّ عليهم ولا يُهمنّك أنّهم لا ينظرون ولا يتذكّرون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقرير له وتحقيق لمعنى الإنذار، أي: لست بمتسلِّط عليهم تُجبِرهم على ما تُريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق، ٤٥/٥٠]. وقُرئ بـ"السين" على الأصل،[١] وبالإشمام،[٢] وقُرئ بفتح "الطاء".[٣] قيل: هي لغة بني تميم، فإنّ "سيطر" عندهم متعدٍّ، ومنه قولهم: "تسيطَر".[٤]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّ مَن تولّى منهم فإنّ لله تعالى الولايةَ والقهر.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الذي هو عذاب جهنّم. وقيل: استثناء متّصل مِن قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر إلّا مَن انقطع طمعك مِن إيمانه وتولّى فاستحقّ العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراضٌ.[٥] ويعضد الأوّل أنّه قُرئ: "أَلَا"[٦] على التنبيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر، أي: إنّ إلينا رجوعَهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وجَمْع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراده فيما سَبَق باعتبار لفظها. وقُرئ: "إِيَّابَهُمْ"[٧] على أنّه "فِيعَال" مصدر "فَيْعَلَ" مِن الإياب، أو "فِعَّال" مِن "أَوَّب" كـ"فِسَّار" مِن "فَسَّرَ"، ثمّ قيل: "إِيوَابًا" كـ"دِيوَان" في "دِوَّان"، ثمّ قُلبت الواو ياءً فأُدغمت الياء الأولى في الثانية.

---

[١] قرأ بها هشام، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسين والصاد. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢.

[٢] قرأ بها خلف عن حمزة، وقرأ خلّاد بالإشمام وبالصاد الخالصة. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن قُطيب واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٤.

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[٧] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المَحشَر لا على غيرنا، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرُّتبة لا في الزمان، فإنّ الترتّب الزماني بين إيَابهم وحسابهم لا بين كون إيَابهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى، فإنّهما أمران مستمرّان.

وفي تصدير الجملتين بـ﴿إِنَّ﴾ وتقديمِ خبرها وعطفِ الثانية على الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدةِ لبُعد منزلة الحساب في الشدّة مِن الإنباء عن غاية السخط الموجِب لتشديد العذاب ما لا يخفى.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الغاشية يُحاسِبه الله تعالى حسابًا يسيرًا».[1]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٢٩ (الغاشية، ١/٨٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٣/٤ (الغاشية، ١/٨٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٨

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكية، ستٌّ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿هَل﴾: قد ﴿أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيةِ﴾: القِيامة لأنها تغشى الخلائقَ بأهوالها؟ ٢ ـ ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ﴾ ـ عُبّر بها عن الذوات في الموضعين ـ ﴿خاشِعةٌ﴾: ذليلة، ٣ ـ ﴿عامِلةٌ ناصِبةٌ﴾: ذات نَصَب وتعب بالسلاسل والأغلال، ٤ ـ ٥ ـ ﴿تُصلَى﴾ ـ بضم التاء وفتحها ـ ﴿نارًا حامِيةً، تُسقَى مِن عَينٍ آنِيةٍ﴾: شديدة الحرارة، ٦ ـ ﴿لَيسَ لَهُم طَعامٌ إلاّ مِن ضَرِيعٍ﴾ ـ هو نوع من الشوك لا ترعاه دابّةٌ لخُبثه ـ ٧ ـ ﴿لا يُسمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ﴾.

٨ ـ ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ ناعِمةٌ﴾: حسنة، ٩ ـ ﴿لِسَعيِها﴾ في الدنيا بالطاعة ﴿راضِيةٌ﴾ في الآخرة لمّا رأت ثوابه، ١٠ ـ ﴿في جَنّةٍ عالِيةٍ﴾ حِسًّا ومعنًى،...

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

قولُهُ: (ذَاتُ نَصَبٍ) أي: تعمَلُ ما تتعبُ فيه، كجرِّ السَّلاسلِ والصُّعودِ والهبوطِ، أو عمِلَتْ ونَصِبتْ في أعمالٍ لا تنفعُها يومئذٍ.

قولُهُ: (بضَمِّ التَّاءِ) بصريٌّ وشعبةُ[1]، من أصلاهُ الله تعالى.

قولُهُ: (حَسَنَةٌ) أو ذاتُ بهجةٍ، أو متنعِّمةٌ.

قولُهُ: (حِسًّا ومَعنَىً) أي: محلًّا وقَدْراً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨١)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص: ٣٦٩).

١١ ـ ﴿لا يُسمَعُ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿فِيها لاغِيةٌ﴾ أي: نفسٌ ذات لغوٍ: هَذَيانٍ من الكلام، ١٢ ـ ﴿فِيها عَينٌ جارِيةٌ﴾ بالماء بمعنى عُيون، ١٣ ـ ﴿فِيها سُرُرٌ مَرفُوعةٌ﴾ ذاتًا وقدْرًا ومَحلًّا، ١٤ ـ ﴿وأكْوابٌ﴾: أقداح لا عُرَى لها ﴿مَوضُوعةٌ﴾ على حافات العُيون مُعدّة لشُربهم، ١٥ ـ ﴿ونَمارِقُ﴾: وسائد ﴿مَصفُوفةٌ﴾: بعضُها بجنب بعض يُستند إليها، ١٦ ـ ﴿وزَرابِيُّ﴾: بُسطٌ طَنافسُ لها خَمْل ﴿مَبثُوثةٌ﴾: مبسوطة.

١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿أفلا يَنظُرُونَ﴾ أي: كفّارُ مكة نظرَ اعتبار ﴿إلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ؟ وإلَى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ؟ وإلَى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَتْ؟ وإلَى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ﴾، أي: بُسطتْ؟ فيستدلّون بها على قُدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته؟ وصُدِّرت بالإبل لأنهم أشدّ مُلابسة لها من غيرها. وقوله «سُطِحَتْ» ظاهر في أنّ الأرض سطحٌ لا كُرةٌ كما قاله أهل الهيئة، وإن لم ينقض رُكنًا من أركان الشرع.

قولُهُ: (باليَاءِ) أي: المضمومةِ، مكّيٌّ وبصريٌّ[1].

قولُهُ: (والتَّاء) أي: المضمومةِ نافعٌ، والباقونَ بالفوقيَّةِ المفتوحَةِ؛ أي: يا مخاطباً، أو الوجوهُ.

قولُهُ: (أي: نَفْسٌ) الرَّفعُ حرميٌّ وبصريٌّ، أو لَغوٌ، أو كلمةٌ ذاتُ لغوٍ، فإنَّ كلامَ أهلِ الجنَّةِ الذِّكرُ والحِكَمُ، قيل: لاستغراقِهِم في سماعِ الحقِّ، وقيل: تلكَ آذانٌ مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ بعدَ سماعِهِم من الحقِّ.

قولُهُ: (بالمَاءِ) أي: يجرِي ماؤُها ولا ينقطعُ أبداً.

قولُهُ: (بمَعنَى عُيُون) أو لكلِّ أحدٍ عينٌ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

قولُهُ: (أَقدَاحٌ) جمعُ: كُوب، وهو إناءٌ لا عُروةَ له.

قولُهُ: (عَلى حَافَاتِ العُيُونِ) الأظهرُ: بين أيديهِم.

قولُهُ: (وَسَائِدُ) أو مسانِدُ، جمعُ: نَمرِقَة؛ بفَتحِ النُّونِ وتثليثِ الرَّاء[2].

قولُهُ: (بُسُطٌ) فاخِرَةٌ، جمعُ: زِربيَّة؛ بالكَسرِ وقد تُضمُّ[3].

قولُهُ: (طَنَافِس) البُسطُ والثِّيابُ، جمعُ: طِنفِسَة مُثلَّثَةَ الطَّاءِ والفاء، كذا في «القامُوس»[4].

قولُهُ: (خَمْلٌ) أي: هَدبٌ.

قولُهُ: (بِهَا) أي: بهذه الأشياءِ.

---

(١) هذا وما بعده انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨١)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٤٦٩).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٩٢٦).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٥٥).

٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿فذَكِّرْ﴾هُم نِعَمَ الله ودلائلَ توحيده. ﴿إنَّما أنتَ مُذَكِّرٌ. لَستَ علَيهِم بِمُسَيطِرٍ﴾ ـ وفي قراءة بالصاد بدل السين ـ أي بمُسلَّط. وهذا قبل الأمر بالجِهاد. ٢٣ ـ ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَن تَوَلَّى﴾: أعرض عن الإيمان ﴿وكَفَرَ﴾ بالقُرآن ٢٤ ـ ﴿فيُعَذِّبُهُ اللهُ العَذابَ الأكبَرَ﴾: عذابَ الآخرة. والأصغرُ عذابُ الدنيا بالقتل والأسر. ٢٥ ـ ﴿إنَّ إلَينا إيابَهُم﴾: رُجوعَهم بعد الموت، ٢٦ ـ ﴿ثُمَّ إنَّ علَينا حِسابَهُم﴾: جزاءهم لا نتركه أبدًا.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَة) هي للجمهورِ، وإنَّما قرأ بالسِّينِ هشام فكانَ حقُّهُ أن يجعلَ الصَّادَ أصلاً، وقرأ حمزةُ بخلْفٍ عن خَلَف بإشمامِ الصَّادِ زاياً[1].

قولُهُ: (لَكِن) أي: الاستثناءُ مُنقطِعٌ، ويؤيِّدهُ أنَّه قُرِئَ: (ألا)[2] على التَّنبيهِ.

قولُهُ: (جَزَاءَهُم) وتقديمُ الخبرِ للتَّخصيصِ، والمبالغةِ في الوعيدِ، والله تعالى أعلمُ.

***

---

(١) كذا هنا والصواب: وقرأ حمزة بخلاف عن خلاد. انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٢٣).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن علي، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥١١).

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكيةٌ بلا خلاف، وعِدَّةُ آياتها سِتٌّ وعشرون كذلك، وكان ﷺ كما أخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير يقرؤها في الجمعة مع سورتها[1].

ولما أشار سبحانه فيما قبلُ إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً، بَسَطَ الكلامَ هاهنا فقال عزَّ قائلاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ قيل: «هل» بمعنى «قد» وهو ظاهرُ كلام قُطْرب حيث قال: أي: قد جاءك يا محمدُ حديثُ الغاشية. والمختار أنه للاستفهام، وهو استفهامٌ أريد به التعجيبُ مما في حَيِّزه، والتشويقُ إلى استماعه، والإشعارُ بأنه من الأحاديث البديعة التي حَقُّها أن تتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقُّنها الوعاة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على امرأةٍ تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فقام عليه الصلاة والسلام يستمعُ ويقول: «نعم قد جاءني»[2].

«والغاشيةُ»: القيامة، كما قال سفيان والجمهور، وأُطلق عليها ذلك لأنها تغشى الناسَ بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها.

---

(١) مسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٨٤، وهو عند أحمد (١٨٣٨٣)، وسلف ص١٠٢ من هذا الجزء.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو مرسل.

وقال محمد بن كعب وابن جبير: هي النار، من قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. وليس بذاك، فإنَّ ما سيروى[١] من حديثها ليس مختصًّا بالنار وأهلها، بل ناطقٌ بأحوال أهل الجنة أيضاً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ المرفوعُ مبتدأٌ، وجاز الابتداءُ به وإن كان نكرةً؛ لوقوعه في موضع التنويع، وقيل: لأنَّ تقديرَ الكلام: أصحابُ وجوه. والخبرُ ما بعد، والظرفُ متعلِّقٌ به، والتنوينُ عِوَضٌ عن جملةٍ أشعرت بها الغاشية، أي: يومَ إذ غشيت، والجملةُ إلى قوله تعالى: (مَبْثُوثَةٌ) استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن سؤالٍ نشأ من الاستفهام التشويقي، كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام: ما أتاني حديثُها، ما هو؟ فقيل: «وجوهٌ» إلخ؛ قال ابن عباس ﵄: لم يكن أتاهُ ﷺ حديثُها، فأخبره سبحانه عنها فقال جلَّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

والمراد بـ «خاشعة»: ذليلة، ولم توصف بالذُّلِّ ابتداءً؛ لما في وَصْفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكُّم، وأنها لم تخشَعْ في وقتٍ ينفعُ فيه الخشوع، وكذا حالُ وَصْفها بالعمل في قوله سبحانه: ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ما قيل، وهو وقوله تعالى: ﴿نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ خبران آخران لـ «وجوه» إذ المراد بها أصحابها، وفي ذلك احتمالاتٌ[٢] أُخر ستأتي إن شاء الله تعالى.

أي: عاملةٌ في ذلك اليوم تعبةٌ فيه، وذلك في النار على ما روي عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة، وعملُها فيها على ما قيل جَرُّ السلاسل والأغلال، والخوضُ فيها خوضَ الإبل في الوحل، والصعودُ والهبوطُ في تلالها وَوِهَادها، وذلك جزاءُ التكبُّر عن العمل وطاعة الله تعالى في الدنيا.

وعن زيد بن أسلم أنه قال: أي: عاملةٌ في الدنيا، ناصبةٌ فيها؛ لأنها على غير هدًى، فلا ثمرةَ لها إلا النَّصَب، وخاتمته النار. وجاء ذلك في روايةٍ أخرى عن ابن

(١) في (م): ما سيرى.
(٢) في (م): الاحتمالات.

عباس وابن جبير أيضاً. والظاهرُ أنَّ الخشوع عند هؤلاء باقٍ على كونه في الآخرة، وعليه فـ «يومئذ» لا تَعلُّقَ له بالوصفين معنًى، بل متعلّقهما في الدنيا، ولا يخفى ما في هذا الوجه من البعد، وظهورُ أنَّ العملَ لا يكون في الآخرة ـ بعد تسليمه ـ لا يجدي نفعاً في دَفْعِ بُعْده.

وقال عكرمة: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة. والظاهرُ أنَّ الخشوعَ على ما مرَّ، ولا يخفى ما في جَعْلِ المُحاط باستقباليين ماضويًّا من البعد.

وقيل: الأوصاف الثلاثةُ في الدنيا، والكلامُ على منوال:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ[1]

أي: ظهر لهم يومئذٍ أنها كانت خاشعةً عاملةً ناصبةً في الدنيا من غير نفع، وأما قبل ذلك اليوم فكانوا يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً، وهؤلاء النُّسَّاكُ من اليهود والنصارى كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس[2]، ويشمل غيرَهم مما شاكلهم من نُسَّاك أهل الضلال، وهذا الوجهُ أبعدُ من أخويه.

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ متناهيةً في الحرِّ، من حَميتِ النارُ: إذا اشتدَّ حَرُّها، خبرٌ آخرُ لـ «وجوه».

وقيل: «خاشعةٌ» صفةٌ لها، وما بعدُ أخبار. وقيل: الأولان صفتان، والأخيران خبران. وقيل: الثلاثةُ الأُوَلُ صفات، وهذه الجملةُ هي الخبر، والكلُّ كما ترى.

وجُوِّزَ أن يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافاً مبيِّناً لتفاصيل أحوالها.

وقرأ ابن كثير في رواية شبل، وحميد وابن محيصن: «عاملةً ناصبةً» بالنصب على الذَّمِّ[3].

---

(١) البيت لزائدة بن صعصعة، وعجزه: ولم تَجِدي من أن تُقرّي به بدًّا، وسلف ١٦/ ١٦٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢.

وقرأ أبو رجاء وابن محيصن ويعقوب وأبو عمرو وأبو بكر: «تُصْلَى» بضم التاء[١]. وقرأ خارجة: «تُصَلَّى» بضم التاء وفتح الصاد مشدّد اللام للمبالغة[٢].

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ بلغت إناها، أي: غايتها في الحَرِّ، فهي متناهية فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] وهو التفسيرُ المشهور، وقد روي عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

وقال ابن زيد: أي حاضرة لهم، من قولهم أَنِيَ الشيءُ: حَضَرَ. وليس بذاك.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ بيانٌ لطعامهم إثر بيان شرابهم، والضريعُ ـ كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ـ الشِّبْرِقُ اليابسُ[٣]. وهي ـ على ما قال عكرمة ـ شجرةٌ ذاتُ شَوْكٍ لاطئةٌ بالأرض.

وقال غير واحد: هو جنسٌ من الشَّوك، ترعاه الإبل رَطْباً، فإذا يبِس تحامَتْهُ، وهو سمٌّ قاتلٌ، قال أبو ذؤيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى ... وصارَ ضَرِيعاً بانَ عنه النَّحائصُ[٤]

وقال ابن عَيزارة[٥] الهذلي يذكر إبلاً وسوءَ مرعى:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريع فكلُّها ... حَدْباءُ داميةُ اليدين حَرُودُ[٦]

---

(١) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو وأبي بكر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢، والكشاف ٤/ ٢٤٦، والبحر ٨/ ٤٦٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.
(٤) لم نقف عليه في ديوان الهذليين، وهو في الكشاف ٤/ ٢٤٦، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣.
وجاء في هامش الأصل: النحائص جمع نحوص وهي الأتان الحامل. منه. وفي القاموس (نحص): هي الناقة الشديدة السمن.
(٥) في الأصل: عزارة، وفي (م): غرارة. والمثبت هو الصواب. وعيزارة أمُّه، واسمه: قيس بن خويلد، أخو بني صاهلة، والبيت من قصيدة في رثاء أخيه لأبيه وأمه الحارث بن خويلد. شرح أشعار الهذليين للسكري ٣/ ٥٨٩ و٥٩٧.
(٦) البيت في ديوان الهذليين ٣/ ٧٣. وجاء في هامش الأصل: هزم بالزاي المعجمة: ما تكسَّر منه، وناقة حدباء: بادٍ عظمُ وركها. ويروى: جرباء بالجيم والراء من الجرب معروف. والحرود من النوق القليلة اللبن.

وقال بعض اللُّغويين: الضريعُ: يبيسُ العَرْفَج إذا انحطم. وقال الزجاج: نبتٌ كالعوسج. وقال الخليل: نبتٌ أخضرُ مُنْتِنُ الريح يرمي به البحرُ[(١)].

والظاهر أنَّ المرادَ ما هو ضريعٌ حقيقةً. وقيل: هو شجرةٌ ناريةٌ[(٢)] تُشبه الضريع. وأنت تعلم أنه لا يُعجِزُ الله تعالى الذي أخرج من الشجر الأخضر ناراً أن يُنبتَ في النار شجرَ الضريع، نعم يؤيِّدُ ما قيل ما حكاه في «البحور الزاخرة»[(٣)] عن البغوي عن ابن عباسٍ يرفعه: «الضريعُ: شيءٌ في النار شبه الشوك، أَمَرُّ من الصَّبْر، وأنتنُ من الجيفة، وأشدُّ حَرًّا من النار»[(٤)] فإن صَحَّ فذاك.

وقال ابن كيسان: هو طعامٌ يَضْرَعون عنده ويذلُّون، ويتضرَّعون إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسُمِّيَ بذلك. وعليه يحتملُ أن يكون شجراً وغيره.

وعن الحسن وجماعة: أنه الزَّقُّوم.

وعن ابن جبير: أنه حجارةٌ في النار.

وقيل: هو وادٍ في جهنم، أي: ليس لهم طعامٌ إلا من ذلك الموضع، ولعلَّه هو الموضع الذي يسيلُ إليه صديدُ أهل النار وهو الغِسْلين، وعليه يكون التوفيقُ بين هذا الحصر والحصر في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] ظاهراً بأن يكونَ طعامُهم من ذلك الوادي هو الغِسْلين الذي يسيلُ إليه، وكذا إذا أُريد به ما قاله ابن كيسان واتحد به، وقد يتَّحدُ بهما عليه أيضاً الزقوم، واتِّحادُهُ بالضَّريع ـ على القول بأنه شجرةٌ ـ قريبٌ.

وقيل في التوفيق: إنَّ الضريعَ مجازٌ أو كنايةٌ أُريد به طعامٌ مكروهٌ حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذُّ رعيَ الشوك، فلا ينافي كونه زَقُّوماً أو غِسْليناً.

---

(١) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٨/ ٤٦١، وقول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣١٧: الضريع: الشبرق، وهو جنس من الشوك، إذا كان رطباً فهو شبرق، فإذا يبس فهو الضريع.

(٢) أي: من الأشجار التي خلقها الله في النار. حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٣.

(٣) البحور الزاخرة عن علوم الآخرة، لشمس الدين محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، المتوفى سنة (١١٨٨). هدية العارفين ٢/ ٣٤٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٢، وسنده واهٍ كما ذكر السيوطي.

وقيل: إنه أُريد أن لا طعام لهم أصلاً؛ لأنَّ الضريعَ ليس بطعامٍ للبهائم، فضلاً عن الناس، كما يقال: ليس لفلانٍ ظِلٌّ إلا الشمس، أي: لا ظِلَّ له. وعليه يُحملُ قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٤] فلا مخالفةَ أصلاً.

وقيل: إنَّ الغِسْلين وهو الصديد في القدرة الإلهية أن تجعله على هيئة الضريع والزقوم، فطعامهم الغِسْلين والزقوم اللذان هما الضريع. ولا يخفى تعسّفُه على الرضيع.

وقد يقال في التوفيق على القول بأنَّ الثلاثةَ متغايرةٌ بالذات: إنَّ العذابَ ألوانٌ، والمعذَّبون طبقاتٌ، فمنهم أَكَلَةُ الزَّقُّوم، ومنهم أَكَلَةُ الغِسْلين، ومنهم أَكَلَةُ الضَّريع، لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ إما في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ «ضريع»، والمعنى: إنَّ طعامهم من شيءٍ ليس من مطاعم الإنس، وإنما هو شوكٌ، والشوكُ مما ترعاه الإبل وتتولَّعُ به، وهذا نوعٌ منه تنفرُ عنه ولا تقربه، ومنفعتا الغذاء منفيَّتان عنه، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسِّمَن في البدن. وإن شئت فقل: إنه من شيءٍ مكروهٍ يُضْرَعُ عنده ويُتَضَرَّعُ إلى الله تعالى، ويُطلَبُ منه سبحانه الخلاص عنه، وليس فيه منفعتا الغذاء أصلاً.

وإما في محلِّ رَفْع صفةٍ لـ «طعام» المقدَّر؛ إذ التقدير: ليس لهم طعامٌ إلا طعامٌ من ضريع. والمعنى قريبٌ مما ذكر، ولا يجوز كونه صفةً للمذكور؛ إذ لا يدلُّ حينئذٍ على أنَّ طعامَهم منحصرٌ في الضريع، بل يدلُّ على أنَّ ما لا يسمنُ ولا يغني من طعامهم منحصرٌ فيه، ويفسدُ المعنى.

وإما لا محلَّ له من الإعراب، على أنه مستأنفٌ. والأول أظهر.

ويُروى أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا لَمَّا سمعوا صَدْرَ الآية: إنَّ الضريع لَتَسْمَنُ عليه إبِلُنا. فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ إلخ[١]. قيل: فلا يخلو إما أن يتكذَّبوا ويتعنَّتوا

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٥.

بذلك ـ وهو الظاهرُ ـ فيُرَدُّ قولهم بنفي السِّمَن والشِّبَع، وإما أن يُصدِّقوا، فيكون المعنى: إنَّ طعامهم من ضريعٍ ليس من جنس ضريعكم، إنما هو غيرُ مُسْمِنٍ ولا مُغْنٍ من جوع. وعلى الأول هو صفةٌ مؤكِّدةٌ ردًّا لما زعموه، لا كاشفةٌ؛ إذ لا خفاءَ، وعلى الثاني هو صفةٌ مخصِّصةٌ.

وأيًّاما كان فتنكيرُ الجوع للتحقير، أي: لا يغني من جوعٍ ما، وتأخيرُ نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل، والتوسُّلِ به إلى التصريح بنفي كِلَا الأمرين؛ إذ لو قُدِّمَ لما احتيج إلى ذِكْرِ نفي الإسمان ضرورةَ استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، ولذلك كُرِّرَ لا لتأكيد النفي.

وفي «الإرشاد» أنَّ نفيَ الأمرين عنه ليس على أنَّ لهم استعداداً للشِّبَع والسِّمَن، إلا أنه لا يفيدُ شيئاً منهما، بل على أنه لا استعدادَ من جهتهم، ولا إفادةَ من جهته. وتحقيقُ ذلك: أنَّ جوعَهم وعَطَشَهم ليسا من قبيل ما هو المعهودُ منهما في هذه النشأة من حالةٍ عارضةٍ للإنسان عند استدعاء الطبيعة لِبَدَل ما يتحلَّل من البدن مشوِّقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذُّ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيدُ منهما قوةً وسِمَناً عند انهضامهما، بل جوعُهم عبارةٌ عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيءٍ كثيفٍ يملؤها ويُخرِجُ ما فيها من اللَّهَب، وأما أن يكون لهم شوقٌ إلى مطعوم ما، والتذاذٌ به عند الأكل، واستغناءٌ به عن الغير، واستفادةُ قوة، فهيهات. وكذا عَطَشُهُمْ عبارةٌ عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيءٍ مائعٍ باردٍ ليُطفؤوه من غير أن يكونَ لهم التذاذٌ بشُرْبه، أو استفادةُ قوةٍ به في الجملة، وهو المعني بما روي أنه تعالى يُسلِّطُ عليهم الجوعَ بحيث يُضطرُّون إلى أكل الضَّريع، فإذا أكلوه سلَّط عليهم العطش، فاضطرُّوا إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطعُ أمعاءهم[1]. أعاذنا الله تعالى وسائر المسلمين من ذلك. انتهى.

وهو خلافُ الظاهر، ومثلُهُ لا يُقالُ عن الرأي، وليس له فيما وقفنا عليه مستندٌ يُؤوِّل لأجله الظواهر، فالحقُّ أنَّ لهم جوعاً وعطشاً وشهوةً إلى الطعام والشراب،

(١) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٤٩.

كما أنَّ للجائع والعطشان في الدنيا شهوةً إليهما، لكنهما لهم هناك قد بلغا الغايةَ بتسليط الله تعالى عزَّ وجلَّ بدون سببٍ عاديٍّ على نحو ما في الدنيا، فيضطرُّون لذلك إلى الضريع والحميم، كما يضطرُّ مَنْ أفرطَ فيه الجوعُ والعطشُ في الدنيا إلى تناول الكَريه البَشِعِ من المطعوم والمشروب، لكنهم لا ينتفعون بما يتناولونه، بل يزدادون به عذاباً فوق العذاب، نسأل الله تعالى العفو والعافية بِمَنِّه وكَرَمه.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ شروعٌ في رواية حديث أهل الجنة، وتقديمُ حكاية أهل النار لأنه أَدخلُ في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأنَّ حكايةَ حُسْنِ حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكيَّ حُسْناً وبهجةً، والكلامُ في إعرابه نظيرُ ما تقدم، وإنما لم تُعطَفْ هذه الجملةُ على تلك الجملة، إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما.

والناعمةُ إما من النعومة، وكنَى بها عن البهجة وحُسْن المنظر، أي: وجوهٌ يومئذٍ ذاتُ بهجةٍ وحُسْنٍ كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] أو من النعيم، أي: وجوهٌ يومئذٍ متنعِّمة.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي: لعملها الذي عملته في دار الدنيا، وهو متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، والتقديمُ للاعتناء مع رعاية الفاصلة، واللامُ ليست للتعليل، بل مثلُها في: رضيت بكذا، فكأنه قيل: راضيةٌ بسعيها. وذكر بعضُ المحقِّقين أنها مقوِّيةٌ لتعدِّي الوصف بنفسه، ولذا قال سفيانُ في ذلك ـ كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم ـ: رَضِيتْ عملَها[1]. ورضاها به كنايةٌ أو مجازٌ عن أنه محمودُ العاقبة، مُجازًى عليه أعظمَ الجزاء وأحسَنَهُ.

وقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: لثواب سَعْيِها راضية.

وجُوِّزَ كونُ اللام للتعليل، أي: لأجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية، حيث أُوتيتْ ما أُوتيتْ من الخير. وليس بذاك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ مرتفعةِ المحل، أو عَلِيَّةِ القَدْر، فالعلوُّ إما حِسِّيٌّ أو معنويٌّ، وجمع أبو حيان[١] بينهما.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ خطابٌ لكلِّ مَنْ يصلحُ للخطاب، أو هو مُسنَدٌ إلى ضمير الغائبة المؤنَّثة، وهو راجعٌ للوجوه، على أنَّ المراد بها أصحابها، أو الإسنادُ مجازيٌّ، وكذا يقال فيما قبل، وأشار بعضٌ إلى أنَّ في الآية صنعةَ الاستخدام[٢] اختياراً؛ لأنَّ المرادَ بالوجوه أولاً حقيقتُها، وعند إرجاع الضمير إليها ثانياً أصحابُها، فهم الذين لا يسمعون.

﴿فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾﴾ أي: لغواً، فهي مصدرٌ بمعناه، ويجوز كونها صفةَ كلمةٍ محذوفةٍ على أنها للنسب، أي: كلمةً ذاتَ لغوٍ، وجُوِّزَ على تقدير كونها صفةً كونُ الإسناد مجازيًّا لأنَّ الكلمةَ ملغوٌّ بها لا لاغية. ويجوز أن تكونَ صفة «نفس» محذوفةً، أي: لا تسمعُ فيها نفساً لاغيةً، وجَعْلُها مسموعةً لِوَصْفِها بما يُسمَعُ، كما تقول: سمعتُ زيداً يقول كذا. وجُوِّزَ أن يكون ذلك على المجاز في الإسناد أيضاً.

وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلافٍ عنهم «لا تُسْمَعُ» بتاء التأنيث مبنيًّا للمفعول «لاغيةٌ» بالرفع[٣].

وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك، إلا أنهم قرؤوا بالياء التحتية[٤]؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ مع وجود الفاصل. والجحدريُّ كذلك إلا أنه نصب «لاغيةً»، على معنى: لا يُسْمَع فيها - أي: أحدٌ - لاغيةً، من قولك: أَسمعْتُ زيداً[٥].

---

(١) في البحر المحيط ٨/ ٤٦٣.

(٢) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٣) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن نافع، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٣.

(٤) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٣. وذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٦٩ عن المفضل والجحدري أنهما قرأا: «لا يَسمع» بياء الغيبة مفتوحة.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ قيل: يجري ماؤها ولا ينقطع، وعدمُ الانقطاع إما من وَصْفِ العين؛ لأنها الماء الجاري، فَوَصْفُها بالجريان يدلُّ على المبالغة كما في «نار حامية»، وإما من اسم الفاعل، فإنه للاستمرار بقرينة المقام. والتنكيرُ للتعظيم، واختار الزمخشريُّ(١) كونه للتكثير كما في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] أي: عيونٌ كثيرةٌ تجري مياهها.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾ رفيعةُ السَّمك أو المقدار، وقيل: مخبوءةٌ، من: رفعتُ لك كذا، أي: خبأته.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ وقِداحٌ لا عُرى لها.

﴿مَوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾ أي: بين أيديهم، وقيل: على حافَّات العيون.

وجُوِّزَ أن يُراد: موضوعةٌ عن حَدِّ الكبار، أوساطٌ بين الصِّغَر والكِبَر، كقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٦]. ولا يخفى بُعْدُهُ.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ ووسائدُ؛ قال زهير:

كهولاً وشُبَّاناً حساناً وجوهُهُمْ على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارقِ(٢)

جمع نُمْرُقة بضمِّ النون والراء، وبكسرهما، وبفتحهما(٣)، وبغير هاء.

﴿مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾ صُفَّ بعضُها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها. وقال الكلبي: وسائدُ موضوعةٌ بعضُها إلى جَنْبِ بعضٍ، كالشيءِ الذي جُعِل صفًّا، أينما أراد أن يجلسَ المؤمنُ جلس على واحدةٍ واستند إلى أخرى، وعلى رأسه وصائفُ كأنَهنَّ الياقوتُ والمرجان.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ وبُسُطٌ فاخرةٌ كما قال غير واحد. وقال الفراء: هي الطَّنافس التي لها خَمْلٌ رقيق(٤). وقال الراغب: إنها في الأصل ثيابٌ محبَّرةٌ منسوبةٌ إلى موضع، ثم

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٤٧.
(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤، والبحر ٨/ ٤٦١.
(٣) في (م): وفتحهما.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٨.

استُعيرت للبُسط، واحدها زرْبِيةٌ مثلَّثَةَ الزاي[1].

ولم يفرق في «الصحاح»[2] بين الزرابيِّ والنمارق. والظاهرُ الفرقُ، نعم قيل: قد جاء نمارق بمعنى الزرابي، ومنه:

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق[3]

لظهور أنَّ الوسائد لا يُمشَى عليها عادةً.

﴿مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ مبسوطةٌ أو مفرَّقةٌ في المجالس.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما فُصِّلَ من حديث الغاشية، وما هو مبنيٌّ عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره.

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال: لمَّا نَعَتَ الله تعالى ما في الجنة، عَجِبَ من ذلك أهلُ الضلالة، فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ إلخ[4]. ويرجع هذا في الآخرة إلى إنكار البعث كما لا يخفى.

والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، والفاءُ للعَطْفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، وكلمة «كيف» منصوبةٌ بما بعدها على أنها حالٌ من مرفوع «خُلقت» كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] معلَّقةٌ لفعل النظر، والجملةُ بدلُ اشتمالٍ من الإبل، وقد تُبدَلُ الجملةُ وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها، كقولهم: عرفتُ زيداً أبو مَنْ هو؟ على أصحِّ الأقوال، على أنَّ العربَ قد أدخلتْ «إلى» على «كيف» بلا واسطة إبدال، كما أدخلت عليها «على»، فحُكي عنهم أنهم قالوا: انظر إلى كيف يصنع، كما حكي عنهم أنهم قالوا: على كيفَ تبيعُ الأحمرين. وذكر أبو حيان

(١) مفردات الراغب (زرب).

(٢) مادة (زرب).

(٣) سلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة هود.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٤٣، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣٨-٣٣٩.

في «البحر» و«التذكرة» وغيرهما أنه إذا عُلِّقَ الفعل عما فيه الاستفهام، لم يبقَ الاستفهامُ على حقيقته[1].

وقيل: «كيف» بدلٌ من «الإبل». وتعقَّبه في «المغني»[2] بما في بعضه نظر.

وجَوَّزَ في «مجمع البيان» كونها في موضع نصبٍ على المصدر[3]، وهو كما ترى.

والإبل: يقع على البُعْران الكثيرة، ولا واحدَ له من لفظه، وهو مؤنَّثٌ، ولذا إذا صُغِّر دخلته التاء، فقالوا: أُبيلةٌ، وقالوا في الجمع آبال، وقد اشتقُّوا من لفظه فقالوا: أَبَّلَ وتأبَّلَ الرجلُ. وتعجَّبوا من هذا الفعل على غير قياسٍ فقالوا: ما آبَلَ زيداً. ولم يحفظ سيبويه فيما قيل اسماً جاء على «فِعِلٍ» بكسر الفاء والعين غيرَ إِبِلٍ[4].

أي: أينكرون ما أُشيرَ إليه من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قُدْرة الله عزَّ وجلَّ، فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصْب أعينهم يستعملونها كلَّ حينٍ كيف خُلقتْ خَلْقاً بديعاً، معدولاً به عن سَنَنِ خَلْقِ أكثر أنواعِ الحيوانات، في عِظَم جُثَّتها، وشِدَّةِ قوَّتها، وعجيبِ هيئاتها اللائقة بتأتِّي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنَّوء بالأوقار[5] الثقيلة وهي باركةٌ، وإيصالها الأثقال الفادحة إلى الأقطار لنازحة، وفي صَبْرها على الجوع والعطش حتى إنَّ ظِمْئها[6] ليبلغ العِشْرَ ـ بكسرٍ فسكون، وهو ثمانيةُ أيامٍ بين الوِرْدَين، وربما يجوز ذلك، وتُسمَّى حينئذٍ الحوازى بالحاء المهملة والزاي ـ واكتفائها باليسِير، ورَعْيها لكلِّ ما يتيسَّر من شوكٍ وشجرٍ وغير ذلك مما لا يكادُ يرعاه سائرُ البهائم، وفي انقيادها مع ذلك

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦٤.
(٢) مغني اللبيب ص ٢٧٣.
(٣) مجمع البيان ٣٠/ ١١٣.
(٤) الكتاب ٣/ ٥٧٤.
(٥) جمع وقر، وهو الحمل الثقيل، وتنوء به، أي: تقوم به وترفعه. حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٤.
(٦) الظِّمْء بالكسر: ما بين الشربتين والوردين. القاموس (ظمأ).

للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء، ويقتادها بقطارها كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، وفي تأثُّرها بالصوت الحَسَنِ على غَلِظِ أكبادها، إلى غير ذلك.

وخُصَّتْ بالذكر لأنها أعجبُ ما عند العرب من الحيوانات التي هي أشرفُ المركبات وأكثرها صُنْعاً، ولهم على أحوالها أتمُّ وقوفٍ.

وعن الحسن أنها خُصَّتْ بالذكر لأنها تأكلُ النَّوى والقَتّ، وتُخرج اللَّبنَ. وقيل له: الفيل أعظمُ في الأعجوبة. فقال: العربُ بعيدةُ العهد بالفيل، ثم هو خنزيرٌ لا يُؤكَلُ لحمه، ولا يُركَبُ ظهره ـ أي: على نحو ما يُركَبُ ظهرُ البعير من غير مشقَّةٍ في ترييضه ـ ولا يُحلَبُ دَرُّه[1].

وقال أبو العباس المبرِّد: الإبلُ هنا السحاب؛ لأنَّ العربَ قد تُسمِّيها بذلك؛ إذ تأتي أرسالاً كالإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وهي في هيئاتها أحياناً تشبه الإبل، يعني أنَّ إرادته منها هنا على طريق التشبيه والمجاز، وكأنه كما قال الزمخشريُّ[2] لم يَدعُ القائل بذلك إلا طلبُ المناسبة بين المتعاطفات على ما يقتضيه قانون البلاغة، وهي حاصلةٌ مع بقاء الإبل في عَطَنها.

قال الإمام: التناسب فيها أنَّ الكلامَ مع العرب وهم أهلُ أسفارٍ على الإبل في البراري، فربما انفردوا فيها، والمنفردُ يتفكَّرُ لعدم رفيقٍ يُحادثه، وشاغلٍ يشغله، فيتفكَّرُ فيما يقعُ عليه طَرْفُهُ، فإذا نظر لِمَا معه رأى الإبل، وإذا نظر لما فوقه رأى السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً رأى الجبال، وإذا نظر لأسفلَ رأى الأرض، فأُمرَ بالنظر في خلوته لما يتعلَّقُ به النظر من هذه الأمور، فبَيْنَها مناسبةٌ بهذا الاعتبار[3].

وقال عصام الدين: إنَّ خيال العرب جامعٌ بين الأربعة؛ لأنَّ مالَهُمُ النفيسَ الإبلُ، ومدارَ السَّقي لهم على السماء، ورعيَهم في الأرض، وحفظَ مالهم

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٦.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢٤٧.
(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٩، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٥٤، وعنه نقل المصنف.

بالجبال، وما ألطفَ ذِكْرَ الإبل بعد ذكر الضريع، فإنَّ خُطورها بعده على طَرَف الثُّمام، وإذا صَحَّ ما روي من كلام قريش عند نزول تلك الآية، كان ذِكْرُها ألطفَ وألطفَ.

وقرأ الأصمعيُّ عن أبي عمرو: «إلى الإبْل» بسكون الباء[١].

وقرأ عليٌّ كرَّمَ الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما: «الإبلِّ» بتشديد اللام، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي[٢]، وقالوا: إنها السحاب، عن قومٍ من أهل اللغة.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها ليلاً ونهاراً ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ رَفْعاً سحيقَ المدى بلا عمادٍ ولا مساك، بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمائها وأشجارها.

﴿كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ وُضِعَتْ وَضْعاً ثابتاً يتأتَّى معه ارتقاؤها، فلا تميلُ ولا تميدُ، ويمكن الرُّقيُّ إلى ذُراها[٣].

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلَّبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ سَطْحاً بتوطئةٍ وتمهيدٍ وتسويةٍ وتوطيدٍ حسبما يقتضيه صلاحُ أمور أهلها، ولا ينافي ذلك القولُ بأنها قريبةٌ من الكرة الحقيقية؛ لمكان عِظَمها.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة وابن أبي عبلة: «خَلَقْتُ» «رَفَعْتُ» «نَصَبْتُ» «سَطَحْتُ» بتاء المتكلِّم مبنيًّا للفاعل[٤]، والمفعولُ ضميرٌ محذوفٌ، وهو العائدُ إلى المُبْدَلِ منه بَدَلَ اشتمال، أي: خَلَقْتُها رَفَعْتُها نَصَبْتُها سَطَحْتُها.

وقرأ الحسن وهارون الرشيد: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء[٥]، والمعنى:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٢، والبحر ٨/ ٤٦٤.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) في (م): دارها.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٢، والمحتسب ٢/ ٣٥٦، والبحر ٨/ ٤٦٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٧٢، والبحر ٨/ ٤٦٤.

أفلا ينظرون نظرَ التدبُّر والاعتبار إلى كيفية خَلْقِ هذه المخلوقات الشاهدة بحَقِّيةِ البعث والنشور؛ ليرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار والنفور، ويسمعوا إنذارك، ويستعدُّوا للقائه بالإيمان والطاعة.

وجُوِّزَ أن يُحمَلَ النظرُ على الإبصار، ويكون فيه دعوى ظهور المطلوب، بحيثُ يظهرُ بمجرَّد إبصار هذه المخلوقات. وهو خلافُ الظاهر.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما يُنبئ عنه الإنكار السابق من عدم النظر، أي: فاقتصرْ على التذكير، ولا تُلِحَّ عليهم، ولا يهمَّنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتذكَّرون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ تعليلٌ للأمر. وقوله سبحانه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تقريرٌ له، وتحقيقٌ لمعنى الإنذار، أي: لستَ بمتسلِّطٍ عليهم تُجبرهم على ما تريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

وقرأ الجمهور: «بمصيطر» بالصاد وكسر الطاء[(١)]، والأصل السين، والصاد بدلٌ منه، فإنه من السَّطر بمعنى التسلُّط، يقال: سطر عليه: إذا تسلَّط.

وقرأ حمزة في روايةٍ بإشمام الصاد زاياً[(٢)]. وهارون بفتح الطاء[(٣)]، وهي لغةُ تميم، و«سيطر» متعدٍّ عندهم، ويدلُّ عليه قولهم «تسيطر»؛ لمكان المطاوعة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قيل: استثناءٌ منقطعٌ، و«إلا» فيه بمعنى «لكن» و«مَنْ» موصولةٌ مبتدأ، وما بعدها صلة، والعائدُ الضمير المستتر فيه. وقوله سبحانه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ خبرُ المبتدأ، والفاء لتضمُّنِ المبتدأ معنى الشرط، نحو: الذي يأتيني فله درهمٌ. وجَعْلُ «مَنْ» شرطية يُبعده وجودُ الفاء فيما يصلحُ لجوابيَّتها بدونها، وتقدير: فهو يعذبه، تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

(١) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٣٧٨ وقرأ هشام بالسين، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد زاياً، وسيذكرها المصنف لاحقاً.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٣٧٨، وهي قراءة حمزة بخلف عن خلاد.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٨، والبحر ٨/ ٤٦٤.

وأيّاما كان فمن المنقطع ما يقع بعد «إلا» فيه جملة، أي: لكن مَنْ أعرضَ وأقام على الكفر منهم يُعذّبه الله تعالى العذابَ الأكبر، وهذا عذابُ الآخرة في النار، فإنه الأكبر، وعذابُ الدنيا بالنسبة إليه أصغرُ.

وجعل الزمخشريُّ الانقطاعَ على معنى: لستَ بمستولٍ عليهم، لكن مَنْ تولَّى وكَفَرَ منهم فإنَّ تعالى الولاية عليه والقهر، فيُعذِّبه في نار جهنم[1].

ولم يُجعَلْ ـ على ما قيل ـ متصلاً لأنه يلزمُ عليه كونُه ﷺ مستولياً على مَنْ تولَّى، وقد حُصِرتِ الولايةُ به تعالى.

وجُوِّزَ اتصاله بأن يكون من ضمير «عليهم»، فيكونُ «مَنْ» في محلِّ جرٍّ تابعاً له، وتسلُّطُهُ ﷺ على المتولِّي باعتبار جهاده وقتله الذي وُعد به عليه الصلاة والسلام[2]. ولا ينافي حَصْرَ الولاية به تعالى؛ لأنه بأمره عزَّ وجلَّ، فكأنه قيل: لستَ عليهم بمسيطرٍ إلا على مَنْ تولَّى وأقام على الكفر، فإنك متسلِّطٌ عليه بما يُؤذَنُ لك من جهاده وقتله وسَبْيه وأَسْره، وبعد ذلك يُعذِّبه الله تعالى في جهنم، فيكونُ في الآية إيعادٌ لهم بالجهاد في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

وجُوِّزَ أن يكون إيعاداً بالجهاد فقط على أنَّ المراد بالعذاب الأكبر القتلُ وسبيُ النساء والأولاد، وسائرُ ما يترتَّبُ على الجهاد من البلايا، فيكونُ فيه إشارة إلى أنَّ هذه الأمة أكبرُ عذابهم في الدنيا ذلك، لا ما كان في الأمم السابقة من الخَسْفِ والمسخ ونحوهما. وأقيم «فيعذِّبه» إلخ مقام: فتكون عليه متسلِّطاً، إيذاناً بأنَّ ذلك من قِبَله عزَّ وجلَّ، حتى كأنه ﷺ لا دَخْلَ له فيه.

وقال عصام الدين: في كون الاستثناء منقطعاً إشكالٌ؛ لأنَّ المستثنى المنقطع هو المذكور بعد «إلا»، غير مُخرجٍ عن متعدِّدٍ قبله لعدم دخوله فيه، مخالف له في الحكم، وليس «مَنْ تولَّى وكَفَرَ» خارجاً عن قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِم﴾ وليس حُكْمهم مخالفاً له.

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٨.

(٢) جاء في هامش الأصل: فلا يضر كون السورة مكية.

ثم أجاب بأنَّ الاستثناءَ المنقطعَ قد يكون لدفع توهُّمٍ ناشئٍ مما سبق من غير أن يُخالف المستثنى منه في الحكم، فالواجبُ ذِكْرُ حُكْمٍ له ليُعلَمَ أنه ليس حُكْمه مخالفاً لحكم المستثنى منه، فكأنه هاهنا لِدَفْع توهُّم التعذيب، فتأمل.

وجُوِّزَ كون الاستثناء متصلاً من قوله تعالى: (فَذَكِّرْ)، و«مَنْ» موصولةٌ لا غير، والمراد بالعذاب استحقاقُ العذاب، أي: فذكِّر إلا مَن انقطعَ طَمَعُكَ من إيمانه وتولَّى، فاستحقَّ العذابَ الأكبرَ، وقوله: (إِنَّمَآ أَنتَ) إلخ على هذا اعتراضٌ.

ورُجِّحَ الانقطاعُ بأنَّ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم قرؤوا: «ألا» حرف تنبيه واستفتاح[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ تعليلٌ لتعذيبه تعالى إياهم بالعذاب الأكبر. وإياب مصدر آب، أي: رجع، أي: إنَّ إلينا رجوعهم بالموت والبعث، لا إلى أحدٍ سوانا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. وجَمْعُ الضميرِ فيه وفيما بعده باعتبار معنى «مَنْ» كما أنَّ إفراده فيما سبق باعتبار لفظها.

وقرأ أبو جعفر وشيبة: «إِيَّابهم» بتشديد الياء[(٢)]؛ قال البطليوسي في كتاب «المثلثات»: هذه القراءةُ تحتملُ تأويلين:

أحدهما: أن يكون «إيّاب» بالتشديد فِعَّالاً من أوَّب على زنة فَعَّلَ، كَكَذَّبَ كِذَّاباً، وأصله إوَّاب، فلم يُعتدَّ بالواو الأولى حاجزاً لضعفها بالسكون، فأُبدل من الواو الثانية ياءً لانكسار الهمزة، فصار في التقدير: إوْيَاباً، ثم قلبت الأولى ياءً أيضاً لاجتماع ياءٍ وواوٍ وسكونِ إحداهما، ولأنَّ الواوَ الأولى إذا لم تمنع من انقلاب الثانية فهي أجدرُ بالانقلاب.

والثاني: أن يكون فِيْعالاً، وأصله إيْواباً، فأُعِلَّ إعلالَ «سَيِّد»[(٣)]، وفعله على هذا: أَيَّب، على وزن فَيْعَلَ، كَحَوْقَلَ حِيقالاً، من الإيَّاب، وأصله أَيْوَب فأُعِلَّ كما ذكرنا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٢، والمحتسب ٢/ ٣٥٧.

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٥.

(٣) يعني أن أصله: سَيْوِد.

والوجهُ الأول أَقْيَسُ؛ لأنهم قالوا في مصدره: التأويب، والتفعيلُ مصدر فَعَّلَ لا فَيْعل، ومع ذلك فقد قالوا: هو سريعُ الأوبة والأيبة، فكأنهم آثروا الياء لخفَّتها. انتهى.

وقد ذكر هذين الوجهين الزمخشريُّ، إلا أنه في الأول منهما يُجوِّزُ أن يكونَ أصله إوَّاباً - فِعَّالاً - من أوَّبَ، ثم قيل: إيواباً كديوان في دِوَّان، ثم فُعل به ما فُعِلَ بأصل «سَيِّد»[١]. وظاهره أنَّ الواوَ الأولى هي التي قُلبت أولاً ياءً، واعتُرض بأنَّ المقرَّرَ أنَّ الواو الأولى إذا كانت موضوعةً على الإدغام، وجاء ما قبلها مكسوراً، لا تُقلَبُ ياءً لأجل الكسر، كما في اخرِوَّاط مصدر اخروَّط، وأنَّ «ديواناً» إذا كان مذكوراً للقياس عليه لا للتنظير، لا يصلحُ لذلك؛ لنصِّهم على شذوذه، وكأنَّ البطليوسيَّ عَدَلَ إلى ما عَدَلَ لذلك.

وفي «الكشف» لو جُعِلَ مصدرَ فاعَلَ من الأوب فقد جاء فيه فِيعال، حتى قال بعضهم: إن فِعَالاً مخفَّفٌ عنه، لكان أظهر؛ لأنَّ فَيْعل لا يثبتُ إلا بثبت، والأول كالمنقاس، ومعنى المفاعلة حينئذٍ إما المبالغة، وإما مسابقة بعضهم بعضاً في الأوب، وأما جَعْلُهُ فِعَّالاً على ما قرَّر الزمخشريُّ فأبعدُ، إلى آخر كلامه.

وكونه مِن فاعَلَ جوَّزه ابن عطية[٢] أيضاً، لكنه قال: ويصحُّ أن يكون من أَأْوَبَ[٣] فيجيء إيواباً[٤]، سُهِّلت همزته، وكان اللازمُ في الإدغام بردِّها إوَّاباً، لكن استحسنتْ فيه الياءُ على غير قياس.

فاعترضه أبو حيان بأنَّ قوله: وكان اللازمُ.. إلخ، ليس بصحيح، بل اللازمُ إذا اعتُبر الإدغام أن يكون إيَّاباً؛ لأنه قد اجتمعت ياءٌ وهي المبدَلَةُ من الهمزة

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥.

(٣) وقع رسمها في الأصل و(م) ومطبوع المحرر: أوب، والصواب ما أثبتناه، وهو الموافق لما في البحر ٨/ ٤٦٥ نقلاً عن ابن عطية، وأأوبَ على وزن أَفْعَلَ كـ: أَكْرَم. وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) والأصل: إأواب كـ: إكرام، فأبدت الهمزة الثانية ياء لسكونها بعد همزة مكسورة فصار: إيواباً. الدر المصون ١٠/ ٧٧٤.

بالتسهيل، وواوٌ وهي عينُ الكلمة، وإحداهما ساكنةٌ، فتُقلَبُ الواوُ ياءً وتُدغَمُ فيها الياءُ، فيصير إيَّاباً[1]، فلا تغفل.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ في المحشر، لا على غيرنا، و«ثم» للتراخي الرُّتْبي لا الزماني؛ فإنَّ الترتيبَ الزمانيَّ بين إيابهم وحسابهم، لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه سبحانه، فإنهما أمران مستمرَّان.

وفي تصدير الجملتين بـ «إنَّ»، وتقديمِ خبرها، والإتيانِ بضمير العَظَمة، وعَطْفِ الثانية على الأولى بـ «ثم» المفيدةِ لِبُعْدِ منزلة الحساب في الشِّدَّة، من الإنباء عن غاية السُّخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفى.

وفي الآية ردٌّ على كثيرٍ من الشيعة حيثُ زعموا أنَّ حساب الخلائق على الأمير كرم الله تعالى وجهه، واستدلُّوا على ذلك بما افتروه عليه وعلى أهل بيته - رضي الله عنهم أجمعين - من الأخبار. ومعنى قوله كرم الله تعالى وجهه: أنا قسيمُ الجنة والنار - إن صحَّ - أنَّ الناسَ من هذه الأمة فريقان؛ فريقٌ معي فَهُمْ على هُدًى، وفريقٌ عليَّ فَهُمْ على ضلال، فقِسْمٌ معي في الجنة، وقِسْمٌ في النار، ولعلَّهم عنَوا أنَّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه يُحاسِبُ الخلائقَ بأمره عزَّ وجلَّ كما يقول غيرهم بأنَّ الملائكةَ عليهم السلام يحاسبونهم بأمره جلَّ وعلا، وهو معنى لا ينافي الحصرَ الذي تقتضيه الآية، لكنه لم يثبت، وأيُّ خصوصيةٍ في الأمير كرم الله تعالى وجهه من بين جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين عليهم الصلاة والسلام أجمعين تقتضيهِ؟! ولا نَقْصَ له كرم الله تعالى وجهه في نفي ذلك عنه، ويكفيه رضي الله عنه من ظهور شَرَفه يوم القيامة أنه يُزَفُّ إلى الجنة بين النبيِّ وإبراهيم عليهما وعليه الصلاة والسلام كما جاء في الحديث[2]، إلى غير ذلك مما يظهر في ذلك اليوم والله تعالى أعلم.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثامن والعشرون من روح المعاني
ويليه إن شاء الله الجزء التاسع والعشرون ويبدأ
بسورة الفجر

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦٥.

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة ٧/ ٢٥٤ وقال: هذا لا أصل له، وهو كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث.

(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي :
١ - ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله ، كقوم عاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم « ألم تركيف فعل ربك بعاد .. » الآيات ٢ - بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه .. ﴾ الآيات . ٣ - الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء ، وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس الكريمة الخيّرة ﴿ كلا إذا دُكَّت الأرض دكًّا دكاً . وجاء ربك والملك صفًّا صفاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى .. ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

سورة الفجر

[١٠١١] أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾[1] قال: نزلت في عمر.

[١٠١٢] وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي [ﷺ] قال: «**من يشتري بئر رومة يستعذب بها غفر الله له فاشتراها عثمان فقال: هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟** قال: نعم» فأنزل الله في عثمان: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾[2].

* * *

[١٠١١] (١) سورة الفجر: الآية (٢٧).

[١٠١٢] (٢) سورة الفجر: الآية (٢٧).

سورة الفجر

ثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ⑤ ﴾

اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله تعالى بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية - مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد - أو فائدة دنيوية توجب بعثًا على الشكر، أو مجموعهما، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا في تفسير هذه الأشياء اختلافًا شديدًا، فكل أحد فسره بما رآه أعظم درجة في الدين وأكثر منفعة في الدنيا.

أما قوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** ما روي عن ابن عباس أن الفجر هو الصبح المعروف، فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب، أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الأرزاق، وذلك مُشاكل لنشور الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وهذا كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] وقال في موضع آخر: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] وتمدح في آية أخرى بكونه خالقًا له: فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الإنعام: ٩٦] ومنهم من قال: المراد به جميع النهار إلا أنه دل بالابتداء على الجميع، نظيره: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١] وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢] **وثانيها:** أن المراد نفس صلاة الفجر، وإنما أقسم بصلاة الفجر لأنها صلاة في مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة في صلاة الصبح. **وثالثها:** أنه فجر يوم معين، وعلى هذا القول ذكروا وجوهًا: **الأول:** أنه فجر يوم النحر، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم، وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتي الإنسان فيه بالقربان، كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] **الثاني:** أراد فجر ذي الحجة لأنه قرن به قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ولأنه أول شهر هذه العبادة المعظمة. **الثالث:** المراد فجر المحرم، أقسم به لأنه أول يوم من كل سنة، وعند ذلك يحدث أمورًا كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الأهلة، وفي الخبر: «**إن أعظم الشهور عند الله المحرم**» وعن ابن عباس أنه قال: فجر السنة هو المحرم فجعل جملة المحرم فجرًا. **ورابعها:** أنه عنى بالفجر: العيون التي تنفجر منها المياه، وفيها حياة الخلق.

أما قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما جاءت منكرة من بين ما أقسم الله به لأنها ليالٍ مخصوصة بفضائل لا تحصل في غيرها، والتنكير دال على الفضيلة العظيمة.

المسألة الثانية: ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أنها عشر ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بهذا النسك في الجملة، وفي الخبر: «ما من أيام العمل الصالح فيه أفضل من أيام العشر» وثانيها: أنها عشر المحرم من أوله إلى آخره، وهو تنبيه على شرف تلك الأيام، وفيها يوم عاشوراء ولصومه من الفضل ما ورد به الأخبار. وثالثها: أنها العشر الأواخر من شهر رمضان، أقسم الله تعالى بها لشرفها وفيها ليلة القدر، إذ في الخبر «اطْلُبُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ» وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المئزر وأيقظ أهله، أي كف عن الجماع، وأمر أهله بالتهجد.

وأما قوله: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الشفع والوتر هو الذي تسميه العرب الخسا والزكا، والعامة تسميه الزوج والفرد، قال يونس: أهل العالية يقولون: الوَتر بالفتح في العدد والوِتر بالكسر في الذحل، وتميم تقول وِترٍ بالكسر فيهما معًا، وتقول أوترته أوتره إيتارًا، أي جعلته وترًا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ»[1] والكسر قراءة الحسن والأعمش وابن عباس، والفتح قراءة أهل المدينة وهي لغة حجازية.

المسألة الثانية: اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر وأكثروا فيه، ونحن نرى ما هو الأقرب: أحدها: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وإنما أقسم الله بهما لشرفهما، أما يوم عرفة فهو الذي عليه يدور أمر الحج كما في الحديث: «الْحَجُّ عَرَفَةُ» وأما يوم النحر فيقع فيه القربان وأكثر أمور الحج من الطواف المفروض، والحلق والرمي، ويروى: «يَوْمُ النَّحْرِ هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» فلما اختص هذان اليومان بهذه الفضائل لا جرم أقسم الله بهما. وثانيها: أن أيام التشريق أيام بقية أعمال الحج فهي أيام شريفة، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] والشفع هو يومان بعد يوم النحر، والوتر هو اليوم الثالث، ومن ذهب إلى هذا القول قال: حمل الشفع والوتر على هذا أولى من حملهما على

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة) باب (الاستنجاء في الخلاء) (١/ ١٠) حديث رقم (٣٥) من طريق عيسى بن يونس... به. وابن ماجه في كتاب (الطهارة) باب (الابتعاد للغائط) (١/ ١٢١) حديث رقم (٣٣٧) من طريق عبد الملك بن الصباح... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧١)، والدارمي في كتاب (الطهارة) باب (التستر عند الحاجة) (١/ ١٥٨) حديث رقم (٦٦٢) جميعًا من طريق ثور بن يزيد... به وقال المنذري في (مختصر السنن) (١/ ٣٥): وفي إسناده أبو سعد الخير الحمصي وهو الذي رواه عن أبي هريرة، قال أبو زرعة الرازي: لا أعرفه (قلت): لقي أبا هريرة قال: على هذا يوضع، وعلته الحصين الحراني فهو مجهول كما في التقريب: وأورده الألباني في الضعيفة (١٠٢٨) البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ١٠٤) من طريق حصين الحراني عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة... به.

العيد وعرفة من وجهين: **الأول:** أن العيد وعرفة دخلا في العشر، فوجب أن يكون المراد بالشفع والوتر غيرهما. **الثاني:** أن بعض أعمال الحج إنما يحصل في هذه الأيام، فحَمْل اللفظ على هذا يفيد القسم بجميع أيام أعمال المناسك. **وثالثها:** الوتر آدم شفع بزوجته، وفي رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. **ورابعها:** الوتر ما كان وترًا من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعًا منها، روى عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال: «هِيَ الصَّلَوَاتُ مِنْهَا شَفْعٌ وَمِنْهَا وَتْرٌ»(١) وإنما أقسم الله بها لأن الصلاة تالية للإيمان، ولا يخفى قدرها ومحلها من العبادات. **وخامسها:** الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وقوله: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله تعالى، وقال بعض المتكلمين: لا يصح أن يقال: الوتر هو الله لوجوه: **الأول:** أنا بينا أن قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ تقديره ورب الشفع والوتر. فيجب أن يراد بالوتر المربوب فبطل ما قالوه. **الثاني:** أن الله تعالى لا يُذكر مع غيره على هذا الوجه بل يعظم ذكره حتى يتميز من غيره، وروي أنه عليه الصلاة والسلام سمع من يقول (الله ورسوله) فنهاه، وقال: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ رَسُولُهُ» قالوا: وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنَّ اللَّهَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ»(٢) ليس بمقطوع به. **وسادسها:** أن شيئًا من المخلوقات لا ينفك عن كونه شفعًا ووترًا، فكأنه يقال: أُقسم برب الفرد والزوج من خلقه، فدخل كل الخلق تحته، ونظيره قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] **وسابعها:** الشفع درجات الجنة وهي ثمانية، والوتر دركات النار وهي سبعة. **وثامنها:** الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم، حياة بلا موت، علم بلا جهل، قدرة بلا عجز، عز بلا ذل. **وتاسعها:** المراد بالشفع والوتر نفس العدد، فكأنه أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذي مَنَّ الله به على العباد إذ قال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وقال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]. وكذلك بالحساب يعرف مواقيت العبادات والأيام والشهور، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] **وعاشرها:** قال مقاتل: الشفع هو الأيام والليالي، والوتر هو اليوم الذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة. **الحادي عشر:** الشفع كل نبي له اسمان مثل محمد وأحمد والمسيح وعيسى ويونس وذي النون، والوتر كل نبي له اسم واحد مثل آدم ونوح وإبراهيم. **الثاني عشر:** الشفع آدم وحواء، والوتر مريم **الثالث عشر:** الشفع العيون الاثنتا عشرة، التي فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام، والوتر الآيات التسع التي أوتي

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٧٧) من طريق أيوب... به، وفي (٢/ ٤٩٠/ ٤٩١) من طريق هشام... به والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (الحث على الوتر) (١/ ٤٠٩) حديث رقم (١٥٨٠) من طريق هشام... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (٢) حديث رقم (١٠٧١) من طريق هشام... به، كلاهما (أيوب، وهشام) عن محمد بن سيرين... به.

موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، **الرابع عشر**: الشفع أيام عاد، والوتر لياليهم لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] **الخامس عشر**: الشفع البروج الاثنا عشر لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] والوتر الكواكب السبعة. **السادس عشر**: الشفع الشهر الذي يتم ثلاثين يومًا، والوتر الشهر الذي يتم تسعة وعشرين يومًا. **السابع عشر**: الشفع الأعضاء، والوتر القلب، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، **الثامن عشر**: الشفع الشفتان، والوتر اللسان، قال تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩] **التاسع عشر**: الشفع السجدتان، والوتر الركوع. **العشرون**: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار لأنها سبعة. واعلم أن الذي يدل عليه الظاهر أن الشفع والوتر أمران شريفان، أقسم الله تعالى بهما، وكل هذه الوجوه التي ذكرناها محتمل، والظاهر لا إشعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبر عن رسول الله ﷺ أو إجماع من أهل التأويل حُكم بأنه هو المراد، وإن لم يثبت فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع، ولقائل أن يقول أيضًا: إني أحمل الكلام على الكل لأن الألف واللام في الشفع والوتر تفيد العموم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] وسراها مضيها وانقضاؤها، أو يقال: سراها هو السير فيها، وقال قتادة: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ أي إذا جاء وأقبل.

المسألة الثانية: أكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة بل العموم، بدليل قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ ولأن نعمة الله بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما على الخلق - عظيمة، فصَحَّ أن يقسم به لأن فيه تنبيهًا على أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات، وقال مقاتل: هي ليلة المزدلفة، فقوله: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ أي إذا يُسار فيه، كما يقال: (ليل نائم) لوقوع النوم فيه، و(ليل ساهر) لوقوع السهر فيه، وهي ليلة يقع السُّرى في أولها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة، وفي آخرها كما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة أهله في هذه الليل، وإنما يجوز ذلك عند الشافعي رحمه الله بعد نصف الليل.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: قرئ (إذا يَسْرِي) بإثبات الياء، ثم قال: وحذفها أحب إليَّ لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات، ويدل عليها الكسرات. قال الفراء: والعرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسرة ما قبلها، وأنشد:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا يُبْقِي دِرْهَمَا جُودًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدِّمَا

فإذا جاز هذا في غير الفاصلة فهو في الفاصلة أَوْلى، فإن قيل: لمَ كان الاختيار أن تحذف

الياء إذا كان في فاصلة أو قافية، والحرف من نفس الكلمة، فوجب أن يثبت كما أثبت سائر الحروف ولم يحذف؟ أجاب أبو علي فقال: القول في ذلك أن الفواصل والقوافي موضع وقف والوقف موضع تغيير، فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وروم الحركة فيها، غُيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف، وأما من أثبت الياء في (يسري) في الوصل والوقف فإنه يقول: الفعل لا يحذف منه في الوقف كما يحذف في الأسماء، نحو قاضٍ وغازٍ، تقول: هو يقضي وأنا أقضي، فتثبت الياء ولا تحذف.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الحجر: العقل، سمي به لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونُهية لأنه يعقل ويمنع، وحصاة من الإحصاء وهو الضبط، قال الفراء: والعرب تقول: إنه لذو حِجر، إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنه أُخذ من قولهم: حجرت على الرجل، وعلى هذا سمي العقل حجرًا لأنه يمنع من القبيح، من الحجر وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ استفهام، والمراد منه التأكيد، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه. قال القاضي: وهذه الآية تدل على ما قلنا، أن القسم واقع برب هذه الأمور لأن هذه الآية دالة على أن هذا مبالغة في القسم، ومعلوم أن المبالغة في القسم لا تحصل إلا في القسم بالله، ولأن النهي قد ورد بأن يحلف العاقل بهذه الأمور.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

واعلم أن في جواب القسم وجهين: **الأول**: أن جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وما بين الموضعين معترض بينهما. **الثاني**: قال صاحب (الكشاف): المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وهذا أَوْلى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾**، ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ألم تر: ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول، وإنما أطلق لفظ

الرؤية ههنا على العلم، وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر، أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب، وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب، وخبر التواتر يفيد العلم الضروري، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة، فلذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم تعلم؟

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وإن كان في الظاهر خطابًا للنبي ﷺ لكنه عام لكل من علم ذلك. والمقصود من ذكر الله تعالى حكايتهم أن يكون زجرًا للكفار عن الإقامة على مثل ما أدى إلى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه، وليكون بعثًا للمؤمنين على الثبات على الإيمان.

أما قوله تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى ذكر ههنا قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين وهي عاد وثمود وقوم فرعون على سبيل الإجمال حيث قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ولم يبين كيفية ذلك العذاب، وذكر في سورة الحاقة بيان ما أبهم في هذه السورة فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٥-٦] إلى قوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩] الآية.

المسألة الثانية: عاد هو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح، ثم إنهم جعلوا لفظة عاد اسمًا للقبيلة، كما يقال لبني هاشم هاشم ولبني تميم تميم، ثم قالوا للمتقدمين من هذه القبيلة: عاد الأولى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] وللمتأخرين عاد الأخيرة.

وأما إرم فهو اسم لجد عاد، وفي المراد منه في هذه الآية أقوال: **أحدها:** أن المتقدمين من قبيلة عاد كانوا يسمون بعاد الأولى فلذلك يسمون بإرم تسمية لهم باسم جدهم. **والثاني:** أن إرم اسم لبلدتهم التي كانوا فيها، ثم قيل: تلك المدينة هي الإسكندرية وقيل دمشق. **والثالث:** أن إرم أعلام قوم عاد كانوا يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، قال أبو الدقيش: الأروم قبور عاد. وأنشد:

بِهَا أُرُومٌ كَهَوَادِي الْبُخْتِ

ومن الناس من طعن في قول من قال: إن إرم هي الإسكندرية أو دمشق، قال: لأن منازل عاد كانت بين عمان إلى حضرموت وهي بلاد الرمال والأحقاف، كما قال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وأما الإسكندرية ودمشق فليستا من بلاد الرمال.

المسألة الثالثة: إرم لا تنصرف قبيلة كانت أو أرضًا للتعريف والتأنيث.

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿إِرَمَ﴾ وجهان وذلك لأنا إن جعلناه اسم القبيلة كان قوله: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد وإيذانًا بأنهم عاد الأولى القديمة، وإن جعلناه اسم البلدة أو الأعلام كان التقدير بعاد أهل إرم، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما في قوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ويدل عليه قراءة ابن الزبير: (بعاد إرم) على الإضافة.

المسألة الخامسة: قرأ الحسن: (بعاد إرم) مفتوحين وقرئ: (بعاد إرم) بسكون الراء على التخفيف كما قرئ: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وقرئ: (بعاد إرم ذات العماد) بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وقرئ: (بعاد إرم ذات العماد) بدلاً من (فَعَل ربك) والتقدير: ألم تر كيف فعل ربك بعاد جعل ذات العماد رميمًا.

أما قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في إعرابه وجهان، وذلك لأنا إن جعلنا: ﴿إِرَمَ﴾ اسم القبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين يسكنون الأخبية والخيام والخباء لا بد فيها من العماد، والعماد بمعنى العمود. وقد يكون جمع العمد أو يكون المراد بذات العماد أنهم طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة، وقيل: ذات البناء الرفيع، وإن جعلناه اسم البلد فالمعنى أنها ذات أساطين أي ذات أبنية مرفوعة على العمد، وكانوا يعالجون الأعمدة فينصبونها ويبنون فوقها القصور، قال تعالى في وصفهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي علامة وبناء رفيعًا.

المسألة الثانية: روي أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد، فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلها!! فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوصل إلى جنة شداد، فحمل ما قدر عليه مما كان هناك، وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن (أبي) قلابة فقال: هذا والله هو ذلك الرجل!!

أما قوله: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فالضمير في (مثلِهَا) إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه: **الأول:** ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي مثل عاد في البلاد في عظم الجثة وشدة القوة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الجمع فيهلكوا. **الثاني:** لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير (لم يخلق مثلها) أي لم يخلق الله مثلها. **الثالث:** أن الكناية عائدة إلى العماد، أي لم يخلق مثل تلك الأساطين في البلاد، وعلى هذا فالعماد جمع عمد، والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فإنه تعالى بيَّن أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل، مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه، فلأن تكونوا خائفين من مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان أَوْلى.

أما قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ فقال الليث: الجواب قطعُك الشيء كما يجاب

الجيب، يقال: جاب يجوب جوبًا. وزاد الفراء: يجيب جيبًا. ويقال: جبت البلاد جوبًا، أي جلت فيها وقطعتها، قال ابن عباس: كانوا يجوبون البلاد فيجعلون منها بيوتًا وأحواضًا وما أرادوا من الأبنية، كما قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[الشعراء: ١٤٩] قيل: أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود، وبنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ قال مقاتل: بوادي القرى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ فالاستقصاء فيه مذكور في سورة ص، ونقول الآن: فيه وجوه: **أحدها:** أنه سمي ذا الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا. **وثانيها:** أنه كان يعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا، روي عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١]، ففرج الله عن بيتها في الجنة فرأته[١] **وثالثها:** ذي الأوتاد، أي ذي الملك والرجال، كما قال الشاعر:

فِـي ظِـلِّ مَـلِـكٍ رَاسِـخِ الأَوْتَـادِ

ورابعها: روى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن تلك الأوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله. واعلم أن الكلام محتمل لكل ذلك، فبين الله تعالى لرسوله أن كل ذلك مما تعظم به الشدة والقوة والكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: يحتمل أنه يرجع الضمير إلى فرعون خاصة لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهذا هو الأقرب.

المسألة الثانية: أحسن الوجوه في إعرابه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعًا على (الإخبار، أي) هم الذين طغوا، أو مجرورًا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون.

المسألة الثالثة: ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين، ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله وحَكَم في عباده بالظلم فهو مفسد.

---

(١) **صحيح:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٨) حديث رقم (٣٩٢٩) من طريق معمر عن ثابت البناني عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود. . . به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٤٤) حديث رقم (١٦٣٨) والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٤٠٩) وعبد الرزاق في (تفسيره) (٨/ ١٠١) حديث رقم (٣٥٠٧) جميعًا من طريق معمر عن ثابت البناني عن أبي رافع . . . فذكره، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٠٨) وقال: صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ واعلم أنه يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة - كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. قال القاضي: وشبهه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: إن عند الله أسواطًا كثيرة فأخذهم بسوط منها. فإن قيل: أليس أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥] يقتضي تأخير العذاب إلى الآخرة، فكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟ قلنا: هذه الآية تقتضي تأخير تمام الجزاء إلى الآخرة، والواقع في الدنيا شيء من ذلك ومقدمة من مقدماته.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تقدم عند قوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[النبأ: ٢١] ونقول: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الراصد، مفعال من رصده، كالميقات من وقته، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه، وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد، وللمفسرين فيه وجوه: **أحدها:** قال الحسن: يرصد أعمال بني آدم. **وثانيها:** قال الفراء: إليه المصير. وهذان الوجهان عامان للمؤمنين والكافرين، ومن المفسرين من يخص هذه الآية إما بوعيد الكفار أو بوعيد العصاة، أما الأول فقال الزجاج: يرصد من كفر به وعدل عن طاعته بالعذاب. وأما الثاني فقال الضحاك: يرصد لأهل الظلم والمعصية. وهذه الوجوه متقاربة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤] كأنه قيل: إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة، فلا يريد إلا السعي للآخرة، فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمني، وإن لم يجد هذه الراحة يقول: ربي أهانني. ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[الروم: ٧] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[الحج: ١١]. وهذا خطأ من وجوه: **أحدها:** أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقيًّا في الآخرة فذاك التنعم ليس بسعادة، والمتألم المحتاج في الدنيا لو كان سعيدًا في الآخرة فذاك ليس بإهانة ولا شقاوة، إذ المتنعم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة، والمتألم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان. **وثانيها:** أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيرًا ما يوسع على العصاة والكفرة، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإما بحكم المصلحة، وإما على سبيل

الاستدراج والمكر، وقد يضيق على الصِّديقين لأضداد ما ذكرنا، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة. وثالثها: أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة، فالأمور بخواتيمها، والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقًا. ورابعها: أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها، أما إذا لم يحصل للإنسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى الله، واشتغلت بعبودية الله، فكان وجدان الدنيا سببًا للحرمان من الله، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا، مع أن ذلك أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات؟! وخامسها: أن كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة، وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق، فكل من كان وجدانه للدنيا أكثر وأدوم كانت محبته لها أشد، فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد، والذي بالضد فبالضد، فإذن حصول لذات الدنيا سبب للألم الشديد بعد الموت، وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت، فكيف يقال: إن وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة؟!

واعلم أن هذه الوجوه إنما تصح مع القول بإثبات البعث روحانيًّا كان أو جسمانيًّا، فأما من ينكر البعث من جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شيء من هذه الوجوه، بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة، ولكن فيه دقيقة أخرى وهي أنه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سببًا للقتل والنهب والوقوع في أنواع العذاب، فربما كان الحرمان سببًا لبقاء السلامة، فعلى هذا التقدير لا يجوز أيضًا لمنكر البعث من جميع الوجوه أن يقضي على صاحب الدنيا بالسعادة وعلى فاقدها بالهوان، فربما ينكشف له أن الحال بعد ذلك بالضد، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المراد منه شخص معين أو الجنس؟ الجواب: فيه قولان: الأول: أن المراد منه شخص معين، فروي عن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة. وقال الكلبي: هو أُبي بن خلف. وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف والقول الثاني: أن المراد من كان موصوفًا بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء.

السؤال الثاني: كيف سمي بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ الجواب: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع، فالحكمة فيهما واحدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

السؤال الثالث: لما قال: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ فقد صحح أنه أكرمه. وأثبت ذلك ثم إنه لما حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ ذمه عليه، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: لأن كلمة الإنكار هي قوله: ﴿كَلَّاۖ﴾ فلمَ لا يجوز أن يقال: إنها مختصة بقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ سلَّمنا أن الإنكار عائد إليهما معًا

ولكن فيه وجوه ثلاثة: أحدها: أنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الإكرام. الثاني: أن نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال، وهي نعمة سلامة البدن والعقل والدين، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال، علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد. الثالث: أن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكرًا للبعث، فلا جرم استحق الذم، على ما حكى الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ إلى قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٧].

السؤال الرابع: لم قال في القسم الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وفي القسم الثاني: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو؟ والجواب: لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقبله الثاني على ما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

السؤال الخامس: لما قال في القسم الأول: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يجب أن يقول في القسم الثاني: فأهانه فيقول: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لكنه لم يقل ذلك. والجواب: لأنه في قوله: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ صادق وفي قوله: ﴿أَهَٰنَنِ﴾ غير صادق، فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة، وهذا جهل واعتقاد فاسد، فكيف يحكي الله سبحانه ذلك عنه؟!

السؤال السادس: ما معنى قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ الجواب: ضَيَّق عليه بأن جعله على مقدار البلغة، وقرئ (فقدر) على التخفيف وبالتشديد، أي قتر، وأكرمن وأهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيًا منها بالكسرة.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الشبهة قال: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع للإنسان عن تلك المقالة، قال ابن عباس: المعنى لم ابتله بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك إما على مذهب أهل السنة، فمن محض القضاء أو القدر والمشيئة، والحكم الذي تنزه عن التعليل بالعلل، وإما على مذهب المعتزلة فبسبب مصالح خفية لا يطلع عليها إلا هو، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه، ثم إنه تعالى لما حكى من أقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال: بل لهم فعل هو شر من هذا القول، وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو: (يُكْرِمُونَ) وما بعده بالياء المنقوطة من تحت، وذلك أنه لما تقدم ذكر الإنسان، وكان يراد به الجنس والكثرة، وهو على لفظة الغيبة، حمل يكرمون ويحبون

عليه، ومن قرأ بالتاء فالتقدير: قل لهم يا محمد ذلك.

المسألة الثانية: قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيمًا في حجر أمية بن خلف، فكان يدفعه عن حقه.

واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه: **أحدها**:ترك بره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ **والثاني**:دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ **والثالث**:أخذ ماله منه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ أي تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم، أما قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ قال مقاتل: ولا تطعمون مسكينًا، والمعنى لا تأمرون بإطعامه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤]ومن قرأ: (ولا تحضون) أراد تتحاضون فحذف تاء تتفاعلون، والمعنى: لا يحض بعضكم بعضًا، وفي قراءة ابن مسعود: (تُحاضون) بضم التاء من المحاضة.

أما قوله:﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: قالوا: أصل التراث: وُراث، والتاء تبدل من الواو المضمومة، نحو تُجاه ووُجاه، من واجهت.

المسألة الثانية: قال الليث: اللم: الجمع الشديد، ومنه كتيبة ملمومة وحجر ملموم، والآكل يلم الثريد فيجعله لقمًا ثم يأكله ويقال: لممت ما على الخوان ألمه، أي أكلته أجمع، فمعنى اللم في اللغة الجمع، وأما التفسير ففيه وجوه: **أحدها**:قال الواحدي والمفسرون: يقولون في قوله: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي شديدًا، وهو حل معنى وليس بتفسير، وتفسيره أن اللم مصدر جُعل نعتًا للأكل، والمراد به الفاعل، أي آكلاً لامًّا أي جامعًا، كأنهم يستوعبونه بالأكل. قال الزجاج: كانوا يأكلون أموال اليتامى إسرافًا وبدارًا، فقال الله: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي تراث اليتامى لمًّا أي تلمون جميعه. وقال الحسن: أي يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم. **وثانيها**:أن المال الذي يبقى من الميت بعضه حلال وبعضه شبهة وبعضه حرام، فالوارث يلم الكل، أي يضم البعض إلى البعض ويأخذ الكل ويأكله. **وثالثها**:قال صاحب (الكشاف): ويجوز أن يكون الذم متوجهًا إلى الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً لمًّا واسعًا، جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعله الوراث البطالون.

أما قوله تعالى:﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ فاعلم أن الجم هو الكثرة، يقال: جم الشيء يجم جمومًا، يقال ذلك في المال وغيره، فهو شيء جم وجام وقال أبو عمرو: جم يجم، أي يكثر، والمعنى: ويحبون المال حبًّا كثيرًا شديدًا، فبيَّن أن حرصهم على الدنيا فقط وأنهم عادلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم، أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها، والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حل أو حرام، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء. فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة، ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى. ثم بيَّن أنه إذا جاء يوم موصوف بصفات ثلاثة فإنه يحصل ذلك التمني وتلك الندامة:

الصفة الأولى من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ قال الخليل: الدك كسر الحائط والجبل، والدكداك رمل متلبد، ورجل مدك، شديد الوطء على الأرض. وقال المبرد: الدك حط المرتفع بالبسط، واندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره، وناقة دكاء، إذا كانت كذلك ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش. فمعنى الدك على قول الخليل كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زُلزلت فلم يبق على ظهرها شيء، وعلى قول المبرد معناه أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصخرة الملساء، وهذا معنى قول ابن عباس: تمد الأرض يوم القيامة.

واعلم أن التكرار في قوله: ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ معناه دكًّا بعد دك، كقولك: حسبته بابًا بابًا وعلَّمته حرفًا حرفًا، أي كرر عليها الدك حتى صارت هباءً منثورًا. واعلم أن هذا التدكدك لا بد وأن يكون متأخرًا عن الزلزلة، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة وحُركت تحريكًا بعد تحريك، انكسرت الجبال التي عليها وانهدمت التلال وامتلأت الأغوار وصارت ملساء، وذلك عند انقضاء الدنيا وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] وقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥].

الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

واعلم أنه ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله تعالى محال؛ لأن كل ما كان كذلك كان جسمًا والجسم يستحيل أن يكون أزليًّا فلا بد فيه من التأويل، وهو أن هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ثم ذلك المضاف ما هو؟ فيه وجوه: **أحدها:** وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة. **وثانيها:** وجاء قهر ربك، كما يقال جاءتنا بنو أمية، أي قهرهم. **وثالثها:** وجاء جلائل آيات ربك لأن هذا يكون يوم القيامة، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم وجلائل الآيات، فجعل مجيئها مجيئًا له تفخيمًا لشأن تلك الآيات. **ورابعها:** وجاء ظهور ربك، وذلك لأن معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق، فقيل: ﴿ وَجَآءَ

﴿رَبُّكَ﴾ أي زالت الشبهة وارتفعت الشكوك . **خامسها:** أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلها . **وسادسها:** أن الرب هو المربي ، ولعل ملكًا هو أعظم الملائكة هو مربٍّ للنبي ﷺ جاء فكان هو المراد من قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ .

أما قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فالمعنى أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًّا بعد صف محدقين بالجن والإنس .

الصفة الثالثة من صفات ذلك اليوم: قوله تعالى : ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] قال جماعة من المفسرين : جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش فتشرد شردة لو تُركت لأحرقت أهل الجمع ، قال الأصوليون : ومعلوم أنها لا تنفك عن مكانها ، فالمراد ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي ظهرت حتى رآها الخلق ، وعلم الكافر أن مصيره إليها .

ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ واعلم أن تقدير الكلام : إذا دُكت الأرض ، وحصل كذا وكذا ، فيومئذٍ يتذكر الإنسان ، وفي تذكره وجوه : **الأول:** أنه يتذكر ما فرط فيه لأنه حين كان في الدنيا كانت همته تحصيل الدنيا ، ثم إنه في الآخرة يتذكر أن ذلك كان ضلالاً ، وكان الواجب عليه أن تكون همته تحصيل الآخرة . **الثاني:** يتذكر أي يتعظ ، والمعنى أنه ما كان يتعظ في الدنيا فيصير في الآخرة متعظًا فيقول : ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، **الثالث:** يتذكر يتوب وهو مروي عن الحسن ، ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وقد جاءهم رسول مبين

واعلم أن بين قوله : ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ وبين قوله : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ تناقضًا فلا بد من إضمار المضاف والمعنى : ومن أين له منفعة الذكرى؟!

ويتفرع على هذه الآية مسألة أصولية ، وهي أن قبول التوبة عندنا غير واجب على الله عقلاً ، وقالت المعتزلة : هو واجب . فنقول : الدليل على قولنا أن الآية دلت ههنا على أن الإنسان يعلم في الآخرة أن الذي يعمله في الدنيا لم يكن أصلح له وأن الذي تركه كان أصلح له ، ومهما عرف ذلك لا بد وأن يندم عليه ، وإذا حصل الندم فقد حصلت التوبة ، ثم إنه تعالى نفى كون تلك التوبة نافعة بقوله : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فعلمنا أن التوبة لا يجب عقلاً قبولها ، فإن قيل : القوم إنما ندموا على أفعالهم لا لوجه قبحها بل لترتب العقاب عليها ، فلا جرم ما كانت التوبة صحيحة؟ قلنا : القوم لما علموا أن الندم على القبيح لا بد وأن يكون لوجه قبحه حتى يكون نافعًا ، وجب أن يكون ندمهم واقعًا على هذا الوجه ، فحينئذ يكونون آتين بالتوبة الصحيحة مع عدم القبول فصح قولنا .

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم شرح تعالى ما يقوله هذا الإنسان فقال تعالى : ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: للآية تأويلات:

أحدها: يا ليتني قدمت في الدنيا التي كانت حياتي فيها منقطعة -لحياتي هذه التي هي دائمة غير منقطعة، وإنما قال: ﴿لِحَيَاتِي﴾ ولم يقل: (لهذه الحياة) على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا الحياة في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي لهي الحياة.

وثانيها: أنه تعالى قال في حق الكافر: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقال: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣] فهذه الآية دلت على أن أهل النار في الآخرة كأنه لا حياة لهم، والمعنى فياليتني قدمت عملاً يوجب نجاتي من النار حتى أكون من الأحياء.

وثالثها: أن يكون المعنى: فيا ليتني قدمت وقت حياتي في الدنيا، كقولك: جئته لعشر ليالٍ خلون من رجب.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم، وأنهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجترئين على المعاصي. وجوابه: أن فعلهم كان معلقًا بقصدهم، فقصدهم إن كان معلقًا بقصد آخر لزم التسلسل، وإن كان معلقًا بقصد الله فقد بطل الاعتزال.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قراءة العامة (يعذب ويوثق) بكسر العين فيهما، قال مقاتل: معناه: فيومئذٍ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق، ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق، والمعنى لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب والوثاق. قال أبو عبيدة: هذا التفسير ضعيف لأنه ليس يوم القيامة معذب سوى الله فكيف يقال: لا يعذب أحد في مثل عذابه؟ وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه: الأول: أن التقدير لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله الكافر يومئذٍ، ولا يوثق أحد في الدنيا وثاق الله الكافر يومئذٍ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه في الشدة والمبالغة. الثاني: أن المعنى لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد، أي الأمر يومئذٍ أمره ولا أمر لغيره. الثالث: - وهو قول أبي علي الفارسي-: أن يكون التقدير: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه، فالضمير في عذابه عائد إلى الإنسان. وقرأ الكسائي: (لا يعذب ولا يوثَق) بفتح العين فيها واختاره أبو عبيدة، وعن أبي عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره؛ لما روي أن رسول الله ﷺ قرأهما بالفتح. والضمير للإنسان الموصوف، وقيل: هو أبي بن خلف ولهذه القراءة تفسيران: أحدهما: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وفساده والثاني: أنه لا يعذب أحد من الناس عذاب الكافر، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] قال الواحدي: وهذه أولى الأقوال.

المسألة الثانية: العذاب في القراءتين بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق، كالعطاء بمعنى الإعطاء في قوله:

أكفرًا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا[1]

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا، وصف حال من اطمأن إلى معرفته وعبوديته، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: تقدير هذا الكلام. يقول الله للمؤمن: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ فإما أن يكلمه إكرامًا له كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان ملك، وقال القفال: هذا وإن كان أمرًا في الظاهر لكنه خبر في المعنى، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله، وقال الله لها: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٩، ٣٠] قال: ومجيء الأمر بمعنى الخبر كثير في كلامهم، كقولهم: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

المسألة الثانية: الاطمئنان هو الاستقرار والثبات، وفي كيفية هذا الاستقرار وجوه: **أحدها**: أن تكون متيقنة بالحق، فلا يخالجها شك، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة: ٢٦٠] **وثانيها**: النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، ويشهد لهذا التفسير قراءة أبي بن كعب: (يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة) وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾[فصلت: ٣٠] وتحصل عند البعث، وعند دخول الجنة لا محالة. **وثالثها**: -وهو تأويل مطابق للحقائق العقلية- فنقول: القرآن والبرهان تطابقا على أن هذا الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر الله، أما القرآن فقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨] وأما البرهان فمن وجهين: **الأول**: أن القوة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكنًا لذاته طلب العقل له سببًا آخر، فلم يقف العقل عنده، بل لا يزال ينتقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات. ومنتهى الضرورات، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه، ولم ينتقل عنه إلى غيره، فإذًا كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفتة إليه استحال أن تستقر عنده، وإذا نظرت إلى جلال واجب الوجود، وعرفت أن الكل منه، استحال أن تنتقل عنه، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود: **الثاني**: أن حاجات العبد غير متناهية وكل ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوة إلا بإمداد الله، وغير المتناهي لا يصير مجبورًا بالمتناهي، فلا بد في مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال الله الذي لا نهاية له حتى يحصل الاستقرار، فثبت أن كل من آثر معرفة الله لا لشيء

(١) هذا البيت للقطامي التغلبي، وقد تقدمت ترجمته.

غير الله فهو غير مطمئن، وليست نفسه نفسًا مطمئنة، أما من آثر معرفة الله لشيء سواه فنفسه هي النفس المطمئنة، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله، فلا جرم يخاطب عند مفارقته الدنيا بقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ وهذا كلام لا ينتفع الإنسان به إلا إذا كان كاملاً في القوة الفكرية الإلهية أو في التجريد والتفريد.

المسألة الثالثة: اعلم أن الله تعالى ذكر مطلق النفس في القرآن فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وتارة وصفها بكونها أمارة بالسوء، فقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وتارة بكونها لوامة، فقال: ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] وتارة بكونها مطمئنة كما في هذه الآية. واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك: (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك: فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت، إلا أن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هو هذه البنية لوجهين: **الأول**: أن المشار إليه بقولك: (أنا) قد يكون معلومًا حال ما تكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة، والمعلوم غير ما هو غير معلوم. **والثاني**: أن هذه البنية متبدلة الأجزاء، والمشار إليه بقولك: (أنا) غير متبدل، فإني أعلم بالضرورة أني أنا الذي كنت موجودًا قبل هذا اليوم بعشرين سنة، والمتبدل غير ما هو غير متبدل، فإذًا ليست النفس عبارة عن هذه البنية، وتقول: قال قوم: إن النفس ليست بجسم لأنا قد نعقل المشار إليه بقوله: (أنا) حال ما أكون غافلاً عن الجسم الذي حقيقته المختص بالحيز الذاهب في الطول والعرض والعمق. والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم، وجواب المعارضة بالنفس مذكور في كتابنا المسمى بلباب الإشارات، وقال آخرون: بل هو جوهر جسماني لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نوراني سماوي مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حيًّا وإن فارقته صار البدن ميتًا، وعلى التقدير الأول يكون وصفها بالمجيء والرجوع بمعنى التدبير وتركه، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك الوصف حقيقًا.

المسألة الرابعة: من القدماء من زعم أن النفوس أزلية، واحتجوا بهذه الآية وهي قوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ فإن هذا إنما يقال لما كان موجودًا قبل هذا البدن.

واعلم أن هذا الكلام يتفرع على أن هذا الخطاب متى يوجد؟ وفيه وجهان: **الأول**: أنه إنما يوجد عند الموت، وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الأرواح على الأجساد، إلا أنه لا يلزم من تقدمها عليها قدمها. **الثاني**: أنه إنما يوجد عند البعث والقيامة، والمعنى: ارجعي إلى ثواب ربك، فادخلي في عبادي، أي ادخلي في الجسد الذي خرجتِ منه.

المسألة الخامسة: المجسمة تمسكوا بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية. وجوابه: إلى حكم ربك، أو إلى ثواب ربك أو إلى إحسان ربك، والجواب الحقيقي المفرع على القاعدة العقلية التي قررناها، أن القوة العقلية بسيرها العقلي تترقى من موجود إلى موجود

آخر، ومن سبب إلى سبب حتى تنتهي إلى حضرة واجب الوجود، فهناك انتهاء الغايات وانقطاع الحركات.

أما قوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ فالمعنى راضية بالثواب، مَرضية عنك في الأعمال التي عملتِها في الدنيا. ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن رجلاً قرأ عند النبي ﷺ هذه الآيات، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا! فقال عليه الصلاة والسلام: «أَمَا إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهَا لَكَ»(١).

قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

ثم قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحَوِّل وجهي نحو بلدتك!! فحَوَّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله. وأنت قد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي انضمي إلى عبادي المقربين، وهذه حالة شريفة، وذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة، فإذا انضم بعضها إلى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض، فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في كلها، وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سببًا لتكامل تلك السعادات، وتعاظم تلك الدرجات الروحانية، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] وذلك هو السعادة الروحانية، ثم قال: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا إشارة إلى السعادة الجسمانية، ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء، لا جرم قال: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ فذكره بفاء التعقيب، ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى، لا جرم قال: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ فذكره بالواو لا بالفاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) إسناده ضعيف: رواه ابن مسعود في (أماليه) (١/ ٥٠) حديث رقم (٢٢٢) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٤٣٣) حديث رقم (٦٤٥٤) كلاهما من طريق يحيى بن يمان حدثنا أشعث عن جعفر عن سعيد... به وفي إسناده يحيى بن يمان قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا وقد تغير وأيضًا في إسناده انقطاع بين سعيد بن جبير وأبي بكر الصديق.

سورة «الفجر»

مكِّيةٌ، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقْسَمَ بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسامٌ خمسةٌ. واختُلِف في «الفجر»؛ فقال قومٌ: الفجر هنا: انفجارُ الظُّلْمةِ عن النهار من كلِّ يومٍ؛ قاله عليٌّ وابن الزُّبير وابن عباس ﷺ[1].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه النهارُ كلُّه، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوَّله[2].

وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس: يعني فجرَ يومِ المحرَّمِ. ومثلُه قال قتادة. قال: هو فجرُ أوّلِ يومٍ من المحرَّم، منه تنفجرُ السنة[3].

وعنه أيضًا: صلاة الصبح[4].

وروى ابنُ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريدُ صبيحةَ يومِ النَّحْرِ؛ لأنَّ الله تعالى جلَّ ثناؤه جعل لكلِّ يومٍ ليلةً قَبْلَه، إلاَّ يومَ النَّحْرِ لم يَجعَلْ له ليلةً قبله ولا ليلةً بعده؛ لأنَّ يومَ عرفةَ له ليلتان: ليلةٌ قبله وليلةٌ بعده، فَمَن أدركَ الموقفَ ليلةً بعد عرفةَ، فقد أَدْركَ الحجَّ إلى طلوع الفجر، فجرِ يومِ النَّحْرِ. وهذا قولُ مجاهد[5].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٨ ، وزاد المسير ٩/ ١٠٢ عن ابن عباس، وذكره عن علي بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٤٤ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٧٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤ .

(٥) ذكره عن مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ .

وقال عكرمةُ: «والفجر» قال: انْشِقاقُ الفجرِ من يومِ جَمْع[١]. وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ: «والفجرِ»: آخر أيامِ العَشْرِ، إذا دفَعْتَ من جَمْع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأنَّ الله تعالى قَرَنَ الأيامَ به فقال: «وليالٍ عشرٍ»، أي: ليالٍ عشرٍ مِن ذي الحجة[٢]. وكذا قال مجاهدٌ والسدِّيُّ والكلبيُّ في قوله: «وليالٍ عَشْرٍ»: هو عَشْرُ ذي الحجة، وقاله ابن عباس. وقال مسروق: وهي العَشْرُ التي ذَكَرها الله في قصةِ موسى عليه السلام: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وهي أفضلُ أيامِ السَّنة[٣].

وروى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «عشر الأضحى»[٤] فهي ليالٍ عشر على هذا القول؛ لأنَّ ليلةَ يومِ النحر داخلةٌ فيه، إذ قد خصَّها الله بأنْ جَعَلَها موقفاً لمن لم يُدْرِكِ الوقوفَ يومَ عرفةَ. وإنَّما نكِّرتْ ولم تعرَّفْ لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تَسْتَقِلَّ بمعنى الفضيلةِ الذي في التنكير، فنكِّرتْ مِن بينِ ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هي العشرُ الأواخِرُ من رمضان. وقاله الضحاك[٥].

وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريُّ: هي العشرُ الأَوَّلُ من المحرَّمِ، التي عاشِرُها يومُ عاشوراءَ[٦]. وعن ابن عباس: «وليالِ عشرٍ» ـ بالإضافة ـ يريد: وليالِ أيامِ عشرٍ[٧].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ بلفظ: طلوعُ الفجر غداةَ جمع. وجمع هو المزدلفة. القاموس (جمع).

(٢) الوسيط ٤/ ٤٧٨ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٧ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، وسيأتي لفظه بتمامه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٦ ، وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٩ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١ ، وزاد المسير ٩/ ١٠٤ عن يمان (وهو ابن رئاب)، وحكى الطبري ٢٤/ ٣٤٨ هذا القول دون نسبة ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٤٩ . قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٠ : بعضهم يكتب «ليال» في هذه القراءة دون ياء، وبعضهم قال: وليالي بالياء، وهو القياس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختُلف في ذلك؛ فرُوي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الشفع والوتر: الصلاةُ؛ منها شَفْعٌ، ومنها وَتْر»(١). وقال جابر بنُ عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ . وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ قال: «هو الصبحُ، وعَشْرُ النَّحْرِ، والوتر: يومُ عرفةَ، والشفعُ: يومُ النحر»(٢). وهو قولُ ابن عباس وعكرمة(٣). واختاره النحاس، وقال: حديثُ أبي الزبيرِ عن جابرٍ هو الذي صحَّ عن النبيِّ ﷺ، وهو أصحُّ إسناداً من حديث عِمران بن حُصين. فيومُ عرفةَ وترٌ لأنه تاسِعُها، ويومُ النحرِ شفعٌ لأنه عاشِرُها.

وعن أبي أيوب قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ فقال: «الشَّفعُ: يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ، والوترُ: ليلةُ يومِ النحر»(٤).

وقال مجاهدٌ وابن عباس أيضاً: الشَّفعُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ:٨]، والوَتْر هو الله عزَّ وجل(٥). فقيل لمجاهد: أَتَرْوِيهِ عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبيِّ ﷺ(٦). ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروقٌ وأبو صالحٍ وقتادةُ، قالوا: الشفعُ: الخَلْقُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذاريات:٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء،

(١) أخرجه أحمد (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. اهـ. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، واللفظ له، وسلف قريباً.

(٣) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٢٤٩ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٧٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧ : فيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٥١ و٣٥٢ .

(٦) لم نقف عليه، وقال البغوي ٤/ ٤٨١ : روي ذلك عن أبي سعيد.

والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عزَّ وجلَّ، قال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[(١)]. وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، والله وِتْرٌ يُحبُّ الوِتر»[(٢)].

وعن ابن عباس أيضاً: الشفعُ: صلاةُ الصبح، والوترُ: صلاةُ المغرب.

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاةُ المغرب؛ الشفعُ فيها ركعتان، والوترُ الثالثة.

وقال ابن الزُّبير: الشفعُ: يوما مِنًى؛ الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر: الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

وقال الضحاك: الشَّفعُ: عَشْرُ ذي الحجة، والوتر: أيامُ مِنًى الثلاثة. وهو قولُ عطاء.

وقيل: إنَّ الشفعَ والوتر: آدمُ وحوّاء؛ لأنَّ آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وترٍ. رواه ابن أبي نَجيح، وحكاه القشيريُّ عن ابن عباس.

وفي رواية: الشفع: آدمُ وحوّاء، والوتر هو الله تعالى.

وقيل: الشفع والوتر: الخَلْقُ؛ لأنهم شفعٌ ووتر، فكأنه أَقْسَم بالخلق[(٣)]. وقد يُقْسِمُ الله تعالى بأسمائه وصفاته لعِلْمِه، ويقسمُ بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. ويقسمُ بمفعولاته، لعجائب صُنْعِه، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١ عن مجاهد ومسروق، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥١ عن مجاهد وأبي صالح.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٠-٣٥٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٦٦ ، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ .

وقيل: الشفعُ: دَرَجاتُ الجنة، وهي ثمان. والوترُ دَرَكاتُ النارِ؛ لأنها سبعةٌ. وهذا قولُ الحسين بن الفضل، كأنه أقسم بالجنة والنار.

وقيل: الشَّفعُ: الصفا والمروةُ، والوترُ: الكَعْبة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: الشفع: الأيامُ والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلةَ بعده، وهو يومُ القيامةِ.

وقال سفيان بن عُيينة: الوترُ هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال أبو بكر الورَّاقُ: الشفعُ: تَضَادُّ أوصافِ المخلوقين: العِزُّ والذلُّ، والقدرةُ والعجزُ، والقوّةُ والضعفُ، والعلمُ والجهلُ، والحياةُ والموتُ، والبصرُ والعَمَى، والسَّمْعُ والصَّمَم، والكلامُ والخَرَس. والوتر: انفرادُ صفاتِ الله تعالى: عِزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرةٌ بلا عجزٍ، وقوّةٌ بلا ضعفٍ، وعلمٌ بلا جهلٍ، وحياةٌ بلا موتٍ، وبصرٌ بلا عَمًى، وكلامٌ بلا خَرَسٍ، وسمعٌ بلا صَمَمٍ، وما وازاها.

وقال الحسن: المرادُ بالشَّفْعِ والوَتْرِ: العددُ كلُّه؛ لأنَّ العددَ لا يخلو عنهما، وهو إقسامٌ بالحساب.

وقيل: الشَّفعُ: مسجدُ مكةَ والمدينةِ، وهما الحرمان. والوتر: مسجدُ بيتِ المقدس.

وقيل: الشَّفع: القِرَانُ بين الحجِّ والعمرةِ، أو التمتُّعُ بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفرادُ فيه.

وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذَكَرٌ وأُنثَى. والوتر: الجماد.

وقيل: الشفع: ما يَنْمي، والوتر: ما لا يَنْمي. وقيل غيرُ هذا(١).

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨١-٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٧، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٩: وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل، جديرٌ بالتَّلهي عنه.

وقرأ ابن مسعود وأصحابُه والكسائيُّ وحمزةُ وخلف: «والوِترِ» بكسر الواو. والباقون بفتح الواو[١]، وهما لغتان بمعنًى واحدٍ. وفي «الصحاح»[٢]: الوِتر بالكسر: الفرد، والوَتْر بفتح الواو: الذَّحْل[٣]. هذه لغةُ أهلِ العالية. فأَمَّا لغُة أهلِ الحجاز فبالضِّدِّ منهم. فأمَّا تميمٌ فبالكسرِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وهذا قَسَمٌ خامسٌ. وبعدَ ما أَقْسَم بالليالي العَشْرِ على الخصوص، أَقْسَم بالليل على العموم. ومعنى «يسري» أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ؛ قال:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرَى ونِمْتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ[٤]

ومنه قولُه تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا قولُ أكثرِ أهلِ المعاني، وهو قولُ القُتَبيِّ والأخفش[٥].

وقال أكثرُ المفسِّرين: معنى «يَسْرِي»: سار فذهب[٦].

وقال قتادةُ وأبو العاليةِ: جاء وأَقْبَل[٧].

ورُوِي عن إبراهيم: «والليلِ إذا يَسْرِ» قال: إذا استوى.

وقال عكرمةُ والكلبيُّ ومجاهدٌ ومحمد بن كعب في قوله «والليلِ»: هي ليلةُ

(١) السبعة ص٦٨٣، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) مادة (وتر).

(٣) الذحل: الحقد والعداوة. الصحاح (ذحل).

(٤) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٢٦، وسيأتي عن الأخفش.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥٦-٣٥٧ عن ابن الزبير وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي العالية وابن زيد.

(٧) ذكره عن قتادة البغوي ٤/ ٤٨٢، وابن الجوزي ٩/ ١٠٨.

المزدلفةِ خاصةً؛ لاختصاصها باجتماع الناسِ فيها لطاعة الله[١].

وقيل: ليلة القَدْر؛ لسِرايةِ الرحمةِ فيها، واختصاصِها بزيادةِ الثوابِ فيها[٢].

وقيل: إنه أراد عمومَ الليلِ كلِّه.

قلت: وهو الأظهرُ كما تقدَّم. والله أعلم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ مُحيصنٍ ويعقوبُ: «يسري» بإثباتِ الياءِ في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومةٍ، فتَثْبتُ فيها الياء. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف[٣]، وروي عن الكسائيِّ. قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول مرةً بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف؛ اتِّباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حَذْفِ الياءِ في الحالين جميعاً[٤]؛ لأنَّه رأسُ آيةٍ، وهي قراءةُ أهلِ الشَّامِ والكوفةِ، واختيارُ أبي عُبيد، اتِّباعًا للخطِّ؛ لأنَّها وقعت في المصحفِ بغيرِ ياءٍ. قال الخليل: تسقطُ الياءُ منها اتِّفاقًا لرؤوسِ الآي.

قال الفرَّاء: قد تحذفُ العربُ الياءَ وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها، وأنشد بعضُهم:

كفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ دِرهَمًا جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسَّيف الدَّمَا[٥]

يقال: فلانٌ ما يُلِيقُ درهماً من جُودِه، أي: ما يمُسِكُه، ولا يلصقُ به.

وقال المؤرِّج: سألتُ الأخفشَ عن العِلَّة في إسقاطِ الياءِ من «يَسْرِ»، فقال: لا أُجِيبُكَ حتى تَبِيتَ على بابِ داري سنةً، فبِتُّ على بابِ دارِه سنةً[٦]، فقال: الليلُ لا

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ ، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦ .

(٣) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٤) وهذا هو المشهور عنه: حذف الياء في الحالين، وذكر قول أبي عبيد ابن مجاهد في السبعة ص٦٨٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ . وسلف البيت ١١/ ٢٠٩ .

(٦) كذا في النسخ، ولعل الصواب في الموضعين: ليلة، كما في البرهان للزركشي ٣/ ١٠٧ ، وذكر القصة أيضاً صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٦٠ وفيه: حتى تبيت على باب داري، دون تعيين.

يَسْري وإنَّما يُسْرَى فيه، فهو مصروفٌ، وكلُّ ما صَرَفْتَه عن جِهَتِه بَخَسْتَه من إعرابه، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، ولم يَقُلْ: بغيَّةً، لأنه صَرَفَها عن باغية[١].

الزمخشريُّ: وياءُ «يسري» تُحذفُ في الدَّرْج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأمَّا في الوقف فتُحذَفُ مع الكسرة. وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ بالقَسَم، والجوابُ محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[٢].

وقال ابن الأنباريِّ: هو: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ»[٣].

وقال مقاتلٌ: «هل» هنا في موضع إنَّ؛ تقديرهُ: إنَّ في ذلك قَسَماً لذي حِجْر. فـ«هل» على هذا في موضعِ جوابِ القَسَم[٤]. وقيل: هل[٥] على بابها من الاستفهام الذي معناه التقدير، كقولك: أَلَمْ أُنْعِمْ عليك؟ إذا كنتَ قد أَنْعَمْتَ.

وقيل: المرادُ بذلك التأكيدُ لِمَا أَقْسَم به وأَقْسَم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَعٌ لذي حِجْرٍ. والجوابُ على هذا: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ». أو مُضْمَرٌ محذوفٌ.

ومعنى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: لذي لُبٍّ وعقلٍ، قال الشاعر:

وكيف يُرجَّى أَنْ تَتوبَ وإنَّما ... يُرَجَّى من الفِتيانِ مَن كان ذا حِجْرِ[٦]

---

(١) ذكر قول الأخفش دون ذكر القصة البغوي ٤/ ٤٨٢ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٩ و٢٥٠ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٦ .

(٤) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ : هذا قولٌ لم يَصْدُرْ عن تأمُّل؛ لأن المقسَمَ عليه ـ على تقدير أن يكون التركيب: إن في ذلك قسماً لذي حجر ـ لم يُذْكَر، فيبقى قسم بلا مُقْسمٍ عليه؛ لأن الذي قدَّره لا يصح أن يكون مُقْسَماً عليه . اهـ. وذكر قول مقاتل الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٧ دون قوله: ف «هل» على هذا ...

(٥) في (م): هي.

(٦) البيت للحارث بن مُنَبِّهٍ الجنبي، كما روى ابن الأنباري عن السدي في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٥ ، وفيه: وكيف رجائي أن تثوب وإنما...

كذا قال عامَّةُ المفسِّرين[١]، إلَّا أنَّ أبا مالكٍ قال: «لِذِي حِجْرٍ» لذي سِتْرٍ من الناس[٢]. وقال الحسن: لذي حِلْم[٣]. قال الفرَّاء: الكلُّ يرجعُ إلى معنًى واحدٍ: لذي حجْر، ولذي عقلٍ، ولذي حِلْمٍ، ولذي سِتْرٍ؛ الكلُّ بمعنى العقل[٤].

وأصلُ الحِجر: المنعُ. يقال لِمَن مَلَكَ نفسَه ومَنَعها: إنه لذو حِجْر، ومنه سمِّي الحَجَر؛ لامتناعه بصلابته، ومنه: حَجر الحاكمُ على فلان، أي: مَنَعه وضَبَطَه عن التصرُّف؛ ولذلك سمِّيتِ الحُجْرةُ حجرةً؛ لامتناعِ ما فيها بها. وقال الفرَّاء[٥]: العربُ تقول: إنه لذو حِجْر: إذا كان قاهراً لنفسِه، ضابطاً لها كأنه أُخِذَ من: حَجَرتُ على الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالِكُكَ وخالِقُكَ. ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ قراءةُ العامَّةِ: «بعادٍ» منوَّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية: «بِعادِ إرَمَ» مضافاً[٦]. فَمَن لم يُضِفْ جعل «إرَمَ» اسمَه، ولم يَصْرِفْه؛ لأنه جعل عادًا اسمَ أبيهم، وإرمَ اسمَ القَبِيلة، وجعله بدلاً منه أو عَطْفَ بيانٍ. ومَن قَرَأه بالإضافة ولم يَصْرِفه جعله اسمَ أمِّهم[٧]، أو اسمَ بلدتهم.

وتقديرُه[٨]: بعادِ أهلِ إرمَ، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ولم تنصرفْ ـ

---

(١) تنظر أقوالهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٨-٣٦٠.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ عن الحسن، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٥٠ عن ابن الزبير رضي الله عنهما.

(٧) في (ظ): أبيهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (أرم) والكلام منه.

(٨) يعني على قراءة العامة وليس على قراءة الإضافة، وذلك على القول بأن «إرم» هو اسم البلدة أو المدينة. ينظر الكشاف ٤/ ٢٥٠، وتفسير الرازي ٣١/ ١٦٧، والدر المصون ١٠/ ٧٨٢، واللباب ٢٠/ ٣١٥.

قبيلةً كانت أو أرضًا ـ للتعريفِ والتأنيث(١).

وقراءةُ العامةِ: «إِرَمَ» بكَسْرِ الهمزة. وعن الحسن أيضاً: «بعادَ إِرَمَ» مفتوحتين(٢).

وقرِئ: «بعادٍ أَرْمَ» بسكونِ الراء، على التخفيف، كما قرئ: «بوَرْقِكم»(٣).

وقرئ: «بِعادِ إِرَمِ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إِرَمِ» إلى «ذاتِ العِمادِ». والإِرَمُ: العَلَم. أي: بعادٍ أهلِ أعلامِ ذاتِ العماد(٤).

وقرئ: «بِعادٍ أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ» أي: جعل الله ذاتَ العمادِ رميمًا(٥).

وقرأ مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ: «أَرم» بفتح الهمزة(٦). قال مجاهد: مَن قرأ بفتح الهمزة شبَّههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدُها: أَرِم(٧).

وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: والفجرِ وكذا وكذا إنَّ ربَّك لبالمِرصاد «أَلَمْ تَرَ» أي: أَلَم يَنْتهِ عِلْمُكَ إلى ما فعل ربُّك بعاد. وهذه الرؤيةُ رؤيةُ القلب، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ. وكان أمرُ عادٍ وثمودَ عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلادِ

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٥٠، و«عادَ» على هذه القراءة غير مصروفة كما ذكر ابن خالويه وابن عطية.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٠، وهي بفتح الهمزة من «أرم»، كذا ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ عن الضحاك. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣: هي تخفيف «أرِم» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة. اهـ. و«عاد» على هذه القراءة رويت مصروفة وغير مصروفة، كما ذكر أبو حيان.

(٤) في النسخ: أي بعاد أهل ذات العلم، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٥٠ والكلام منه. وهي أعلام كان قوم عاد يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، كما ذكر الرازي ٣١/ ١٦٧.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠. وهي بدل من: «فَعَل ربك» كما ذكر الزمخشري، أو دعاء عليهم، كما ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣. والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ وستأتي.

(٦) القراءة بفتح الهمزة ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ عن الضحاك وقيدها بفتح الراء، وعن ابن الزبير وقيدها بكسر الراء، وقرئت أيضاً: «أَرْم» بسكون الراء كما سلف.

(٧) مثل كَتِف، وكذلك إِرَم، مثل: عِنب. القاموس (أرم).

العرب، وحِجْرُ ثمودَ موجودٌ اليوم. وأمرُ فرعونَ كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضتْ به الأخبار، وبلادُ فرعونَ متَّصلةٌ بأرضِ العرب. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة البروج[١] وغيرها.

﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقومِ عاد. فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: إنْ كان الرجلُ من قومِ عادٍ لَيتَّخذُ المِصْراعَ من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسُ مئةٍ من هذه الأمةِ لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإنْ كان أحدُهم ليُدخِلُ قدمَه في الأرض فتدخلُ فيها[٢].

و«إِرَم»، قيل: هو سام بنُ نوح؛ قاله ابنُ إسحاق[٣]. وروى عطاء عن ابن عباس ـ وحكي عن ابن إسحاق أيضاً ـ قال: عاد بن إرَم. فإرَمُ على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم ابن عوص بن سام بن نوح[٤]. وعلى القول الأوّل: هو اسمُ جدِّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بنُ نوح له أولاد، منهم إرم بنُ سام، وأَرْفَخْشَذ بن سام. فَمِن ولد إرم بنِ سام العمالقةُ والفراعنةُ والجبابرةُ والملوكُ الطغاةُ والعصاة.

وقال مجاهد: «إِرَم» أمّةٌ من الأمم. وعنه أيضاً: أنَّ معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح[٥]. وعن مجاهدٍ أيضاً أنَّ معناها: القوية.

وقال قتادة: هي قبيلةٌ من عاد[٦]. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]. فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لنبي هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى

---

(١) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٨ (١٥٨٣٧).

(٣) الذي قال إن إرم هو سام بن نوح، الكلبي كما في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠١، وقول ابن إسحاق الذي ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٧: أن إرم هو ابن سام بن نوح. وسيأتي.

(٤) ذكر هذه الرواية عن ابن إسحاق الطبري ٢٤/ ٣٦٣، والماوردي ٦/ ٢٦٨.

(٥) أخرج القولين عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٣٦٢.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٢-٣٦٣.

ـ وإِرَم: تسميةٌ لهم باسمِ جَدِّهم ـ ولِمَن بعدهم: عادٌ الأخيرة[١]. قال ابن الرُّقَيّات:

مَـجْـدًا تـلِـيـداً بـنـاهُ أوّلُـهـم   أَدْرَكَ عـاداً وقـبـلـهُ إرَمَـا[٢]

وقال مَعْمر: «إرم»: إليه مجمعُ عاد وثمود، وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ[٣]. وكانت القبائلُ تنتسب[٤] إلى إرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ، ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجلُ منهم طولُه خمسُ مئةِ ذراع، والقصيرُ منهم طولُه ثلاثُ مئةِ ذراعٍ بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أنَّ طولَ الرجلِ منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العربيّ[٥]: وهو باطلٌ؛ لأنَّ في الصحيح: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ طولُه ستُّونَ ذراعاً في الهواء، فلم يَزَل الخَلْقُ يَنقُصُ إلى الآن»[٦]. وزعم قتادة: أنَّ طولَ الرجلِ منهم اثنا عَشَرَ ذراعاً[٧].

قال أبو عبيدة[٨]: «ذاتِ العِمادِ»: ذات الطُّول. يقال: رجلٌ مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد[٩].

وعن قتادة أيضاً: كانوا عِمادًا لقومهم؛ يقال: فلانٌ عميدُ القومِ وعَمودُهم، أي: سيدُهم وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك؛ لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٧ ، وذكر هذا القول مختصراً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧ ، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٢٢ .

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥ .

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٨٢ عن الكلبي، وفيه: عاد إرم وثمود إرم، وهو أشبه.

(٤) في (د) و(ظ): تنسب.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨ .

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٧ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٩) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٦٥ .

أهلَ خيامٍ وأعمدة، ينتجعون الغيوثَ، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم[١].

وقيل: «ذاتِ العِمادِ» أي: ذاتِ الأبنيةِ المرفوعةِ على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدةَ، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: «ذاتِ العِمادِ»: يعني إحكامَ البُنيانِ بالعَمَد[٢]. وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنيةُ الرفيعةُ، تُذكَّر وتؤنَّث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمادُ الحيِّ خَرَّتْ ... على الأَحْفاضِ نَمْنعُ مَن يَلِينا

والواحدةُ عِمادة. وفلانٌ طويلُ العِماد: إذا كان منزلُه مَعْلَماً لزائره[٣]. والأحفاض: جمعُ حَفَضٍ بالتحريك، وهو متاعُ البيتِ إذا هُيِّء ليُحْمَلَ، أي: خَرَّتْ على المتاع. ويروى: عن الأحفاض، أي: خرَّت عن الإبل التي تحملُ خُرْثيَّ البيت[٤].

وقال الضحاك: «ذاتِ العِمادِ» ذات القوَّةِ والشدَّة، مأخوذٌ من قوَّةِ الأعمدة[٥]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وروى عوفٌ عن خالد الرَّبعيِّ: «إرم ذاتِ العِمادِ» قال: هي دمشق. وهو قولُ عكرمةَ وسعيدٍ المَقْبُرِيِّ. ورواه ابنُ وهبٍ وأشهبُ عن مالك[٦]. وقال محمد بن كعب القُرظيُّ: هي الإسكندرية[٧].

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وزاد المسير ٩/ ١١٢.

(٣) الصحاح (عمد)، وبيت عمرو بن كلثوم في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١.

(٤) الصحاح (حفض). والخُرْثي: أثاث البيت، أو أردأ المتاع والغنائم. القاموس (خرث).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٦، دون قوله: مأخوذ...

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٢ عن المقبري، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠-٢٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ عن مالك، وأخرجه عن عكرمة وخالد الربعي عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦١. قال النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢١: فأما أن يكون إرم الإسكندرية =

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾

الضمير في «مِثْلِها» يرجعُ إلى القبيلة. أي: لم يُخْلَقْ مثلُ القبيلةِ في البلاد: قوةً وشدةً، وعِظَمَ أجسادٍ، وطولَ قامةٍ؛ عن الحسن[1] وغيرِه. وفي حرف عبدِ الله: «التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهم في البلاد»[2]. وقيل: يرجع للمدينة. والأوّلُ أَظْهَرُ، وعليه الأكثرُ، حَسْبَ ما ذكرنا.

ومَن جعل «إرم» مدينةً قدَّر حَذْفًا، المعنى: كيف فَعَلَ ربُّك بمدينةِ عادٍ إرم، أو بعادٍ صاحبةِ إرم. وإرمُ على هذا: مؤنَّثةٌ معرفة [فلذلك لم تنصرف][3].

واختار ابن العربيّ أنها دِمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلُها. ثم أخذ يَنْعتُها بكَثْرةِ مياهِها وخيراتها. ثم قال: وإنَّ في الإسكندرية لعجائبُ، لو لم يَكُنْ إلّا المنارةُ، فإنَّها مَبْنيةُ الظاهرِ والباطنِ على العَمَد، ولكنْ لها أمثالٌ، فأمَّا دِمشقُ فلا مِثلَ لها. وقد روى مَعْنٌ عن مالكٍ: أنَّ كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو؟ فإذا فيه: أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتُها حين لا شَيْبَ ولا مَوْت. قال مالك: إنْ كان لتمرُّ بهم مئةُ سنةٍ لا يَرَوْنَ فيها جنازةً[4].

وذُكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شدَّاد بن عاد، وأنا الذي رفعتُ العماد، وأنا الذي شَدَدْتُ بذراعي بطنَ الوادي، وأنا الذي كنزتُ كنزاً على سبعةِ أَذْرُعٍ، لا يُخْرِجه إلَّا أمّةُ محمدٍ ﷺ[5].

ورُوِي أنه كان لعاد ابنان: شدَّاد وشديد، فَملَكا وقَهَرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ

= أو دمشق فبعيد؛ لقول الله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ والحقف ما التوى من الرمل، وليس كذا دمشق ولا الإسكندرية. وردَّ هذا القول أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ .

(٢) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨١٧ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفتح الباري ٨/ ٧٠٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٠ .

الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانَتْ له ملوكُها؛ فسمع بذِكْرِ الجنة، فقال: أبني مِثْلَها. فبنَى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وكان عمرُه تسعَ مئةِ سنةٍ. وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهارِ المُطَّرِدة. ولمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمَّا كان منها على مسيرةِ يومٍ وليلة، بعث الله عليهم صحيةً من السماء فهلكوا(١).

وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التَفتَ فأبْصرَ ابنَ قِلابة، وقال: هذا واللهِ ذلك الرجل(٢).

وقيل: أي: لم يُخْلق مثلُ أبنيةِ عاد المعروفةِ بالعَمَد. فالكنايةُ للعماد. والعمادُ على هذا: جمع عَمَد(٣).

وقيل: الإرَم: الهلاكُ؛ يقال: أَرِمَ بنو فلان، أي: هلكوا. وقاله ابن عباس(٤). وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ»(٥)، أي: أهْلَكَهم، فجعلهم رَمِيماً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . والأساطين: جمع أسطوانة، وهي السارية. القاموس (سطن).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وأخرجه مطولاً جدًّا أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) ، وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤ : آثار الوضع عليه لائحة. . وقال ابن كثير: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يُقطع بعدم صحته.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٨ . وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٦٨ هذا القول عن ابن زيد. قال ابن كثير: قول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٣ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٩-٣٦٠ عن ابن عباس والضحاك. وقد سلفت.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

ثمود: هم قومُ صالحٍ. و«جابوا»: قَطَعوا. ومنه: فلانٌ يجوب البلادَ، أي: يقطعُها. وإنَّما سمِّي جيبُ القميصِ لأنه جِيبَ، أي: قطع. قال الشاعرُ وكان قد نَزَلَ على ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فكتب له بستِّين وسْقًا يأخذُها بالكوفة، فقال:

راحَتْ رَوَاحًا قَلُوصِي وهي حامدةٌ آلَ الزُّبَيرِ ولم تَعْدِلْ بهم أَحدَا
راحتْ بستِّينَ وَسْقًا في حَقِيبتها ما حمِّلتْ حِمْلَها الأدنَى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصًا قَبْلَها حَمَلتْ سِتِّين وَسْقًا ولا جابَتْ به بلدا[(١)]

أي: قَطَعتْ. قال المفسِّرون: أوّلُ مَن نَحَتَ الجبالَ والصخورَ والرخامَ: ثمود. فبنَوْا من المدائن ألفاً وسبعَ مئةِ مدينةٍ كلُّها من الحجارة. ومن الدُّورِ والمنازلِ ألفَيْ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألف، كلُّها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. وكانوا لقوَّتهم يُخرجون الصخورَ، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم.

﴿بِالوادي﴾[(٢)] أي: بوادي القُرَى؛ قاله محمد بنُ إسحاق[(٣)]. وروى أبو الأشهب عن أبي نَضْرةَ قال: أَتَى رسولُ الله ﷺ في غَزاةِ تَبوكَ على وادي ثمود، وهو على فَرَسٍ أَشْقَرَ، فقال: «أَسْرِعوا السيرَ، فإنَّكم في وادٍ ملعون»[(٤)].

---

(١) الأبيات لأبي وجزة السعدي، والخبر مع الأبيات في الكامل للمبرد ١/ ٢٤٣ ، والأغاني ١٢/ ٢٤٤ ، ووقع فيهما في أول الخبر: آل الزبير، بدل: ابن الزبير.

(٢) بإثبات الياء وصلاً: ورش، وفي الحالين: البزي ويعقوب، وأما قنبل فأثبتها وصلاً، واختلف عنه وقفاً، فروي عنه إثباتها وروي عنه حذفها، وحَذفها الباقون في الحالين. ينظر السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢-٢٢٣ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، ووادي القرى: واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، من أعمال المدينة كثير القرى. معجم البلدان ٤/ ٣٣٨ و٥/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، وأخرجه البغوي في الجعديات (٣١٧٧)، والذهبي في السير ٧/ ٢٨١ وقال: هذا مرسل جيد. وأبو الأشهب هو جعفر بن حيان العطاري البصري، وأبو نضرة هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي البصري، توفي سنة (١٠٨هـ). التهذيب ٤/ ١٥٤ .

وقيل: الوادي بين جبالٍ، وكانوا ينقُبون في تلك الجبال بيوتاً ودُوراً وأحواضاً. وكلُّ مُنْفَرَجٍ بين جبالٍ أو تلالٍ يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾

أي: الجنودِ والعساكرِ والجموعِ والجيوشِ التي تشدُّ مُلْكَه؛ قاله ابن عباس[١].

وقيل: كان يعذِّب الناس بالأوتاد، ويشدُّهم بها إلى أن يموتوا، تجبُّراً منه وعُتُوًّا. وهكذا فعل بامرأته آسيةَ وماشطةِ ابنته، حَسْبَ ما تقدَّم في آخر سورة التحريم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرةٌ تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذُ الإنسان فتُوتَدُ له أوتادُ الحديد، ثم يرسلُ تلك الصخرة عليه فتشدخُه. وقد مضى في سورة «ص»[٣] مِن ذِكْرِ أوتادِه ما فيه كفايةٌ. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني عادًا وثمودًا[٤] وفرعونَ، «طَغَوْا» أي: تمرَّدوا وعَتَوْا وتَجاوَزوا القَدْرَ في الظُّلْم والعُدوان. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: الجَوْرَ والأذى.

و«الذين طَغَوْا» أَحْسنُ الوجوهِ فيه أن يكون في محلِّ النَّصْبِ على الذَّمِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على: هم الذين طَغَوْا، أو مجروراً على وصفِ المذكورِينَ: عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧١ .

(٢) ٢١/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) عند تفسير الآية (١٢).

(٤) مَن صَرَفه ذهب به إلى الحي؛ لأنه اسم عربي مذكَّر سمي بمذكَّر، ومَن لم يَصْرِفه ذهب به إلى القبيلة، وهي مؤنثة. اللسان (ثمد).

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٩ .

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أَفْرَغَ عليهم وأَلْقى؛ يقال: صبَّ على فلان خِلْعةً، أي: ألقاها عليه وقال النابغة:

فَصبَّ عليه اللهُ أَحْسَنَ صُنْعِه وكان له بينَ البَرِيَّة ناصِرا[١]

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نَصِيبَ عذابٍ. ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ السوطَ كان عندهم نهايةَ ما يُعَذَّب به، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أظهرَ دِينَه وصبَّ على الكفَّار سَوْطَ عَذابِ[٢]

وقال الفرَّاء[٣]: هي كلمةٌ تقولُها العربُ لكلِّ نوعٍ من أنواع العذاب. وأصلُ ذلك: أنَّ السَّوْطَ هو عذابُهم الذي يُعذِّبون به، فجرى لكلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندهم غايةُ العذاب.

وقيل: معناه: عذاب يخالطُ اللَّحمَ والدَّمَ، مِن قولهم: ساطَه يَسُوطُه سَوْطاً، أي: خَلَطَه، فهو سائطٌ. فالسَّوْطُ: خَلْطُ الشيءِ بعضِه ببعضٍ؛ ومنه سمِّي المِسْواط[٤]. وسَوَّطَهُ، أي: خَلَطه[٥] وأَكْثرَ ذلك؛ يقال: سَوَّط فلانٌ أمورَه، قال:

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأْيِ غيرَ مُوَفَّقٍ فلَسْتَ على تَسْوِيطِها بمُعَانِ[٦]

قال أبو زيد: يقال: أموالُهم سَوِيطةٌ بينهم؛ أي: مختلطةٌ. حكاه عنه يعقوب[٧]. وقال الزجَّاج: أي: جَعَلَ سَوْطَهم[٨] الذي ضَرَبهم به العذابَ. يقال: ساط دابَّته

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٦٥ برواية: ورَبَّ عليه الله...

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ١/ ١٨٧ عن أوس بن بجير الطائي برواية:

ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصب على الكفار سوط عذاب

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١.

(٤) المِسْوَط والمِسْواط: ما يخلط به من عصاً ونحوِها. القاموس (سوط).

(٥) بعدها في (د) و(م): فهو سائط، والمثبت من باقي النسخ والصحاح (سوط)، والكلام منه.

(٦) العين ٧/ ٢٧٨، والصحاح (سوط) والكلام منه، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٤، وأساس البلاغة (سوط).

(٧) الصحاح (سوط)، ويعقوب هو ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص٣٩٠.

(٨) في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٢: سوطه.

يَسُوطُها، أي: ضربها بسَوْطه.

وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآيةِ قال: إنَّ عندَ الله أسواطاً كثيرةً، فأَخَذَهم بسوطٍ منها[١]. وقال قتادةُ: كلُّ شيءٍ عذَّب الله تعالى به فهو سوطُ عذابٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

أي: يَرْصُدُ عملَ كلِّ إنسانٍ حتى يُجازِيَه به؛ قاله الحسن وعكرمةُ[٣]. وقيل: أي: عليه طريقُ العبادِ لا يفوتُه أحد[٤]. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة براءة[٥]، والحمد لله.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: إنَّ على جهنَّمَ سبعَ قَناطِرَ، يُسأل الإنسان عند أوَّلِ قنطرةٍ عن الإيمان، فإن جاء به تامًّا جازَ إلى القنطرةِ الثانية، ثم يُسألُ عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهرِ رمضانَ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحجِّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يسأل عن صلةِ الرَّحِم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: أَلَا مَن كانت له مَظْلِمةٌ فلْيأْتِ؛ فيُقتصُّ للناس منه، ويُقتصُّ له من الناس؛ فذلك قولُ عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٦].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٨ .

(٣) ذكره عنهما بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ٣٧١ ، والطبري ٢٤/ ٣٧٦ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، والبغوي ٤/ ٤٨٤ عن الكلبي. قال الواحدي: والمعنى لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت مَن بالمرصاد، وهذا معنى قول الحسن وعكرمة.

(٥) ١٠/ ١١١ .

(٦) ذكره بنحوه السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٢١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣. وأخرجه بنحوه أيضاً البيهقي من الأسماء والصفات (٩١٥) عن مقاتل بن سليمان قوله .

وقال الثوريُّ: «لبِالمِرصادِ» يعني جهنَّمَ؛ عليها ثلاثُ قناطرَ: قنطرةٌ فيها الرَّحِمُ، وقنطرةٌ فيها الأمانةُ، وقنطرةٌ فيها الربُّ تبارك وتعالى[١].

قلت: أي: حُكْمُه[٢] وإرادتُه وأمرُه. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: «لبالمِرصادِ»، أي: يَسْمعُ ويَرى[٣].

قلت: هذا قولٌ حسن، يَسْمعُ أقوالَهم ونجواهم، ويَرَى، أي: يعلمُ أعمالَهم وأسرارَهم، فيجازِي كلًّا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربُّك؟ فقال: بالمرصاد.

وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورةَ عند المنصور حتى بلغ هذه الآيَةَ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يا أبا جعفر[٤]! قال الزمخشريُّ[٥]: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعضُ من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة، فِللهِ دَرُّه، أيُّ أَسَدِ فِراصٍ[٦] كان بين يديه[٧]؟ يَدُقُّ الظَّلمةَ بإنكاره، ويَقْصَعُ[٨] أهلَ الأهواءِ والبدعِ باحتجاجه!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عُتبةَ بنَ ربيعةَ وأبا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) في (ظ) و(م): حكمته.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥ .

(٤) أخرجه مطولاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٧-١٦٨ .

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٦) في (م) والكشاف: فراس. المثبت من النسخ الخطية. والفِرَاص: الشديد. والفَرَّاس: الأسد. القاموس (فرس) و(فرص).

(٧) في (ي): ثدييه، وفي الكشاف: ثوبيه.

(٨) في (ظ): ويقنع، وفي (د) و(م): ويقمع، والمثبت من (ي) والكشاف، ومعنى قصع: صغَّر وحقَّر. القاموس (قصع).

حذيفةَ بنَ المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل: أبيّ بن خلف(١).

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امْتَحَنه واخْتَبَره بالنعمة. و«ما»: زائدةٌ صِلَةٌ. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بِالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أَوْسَع عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فيفرحُ بذلك ولا يحمَدُه.

و﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: امْتَحَنه بالفقر واخْتَبَره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدارِ البُلْغة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أَوْلاني هَواناً. وهذه صفةُ الكافِرِ الذي لا يؤمنُ بالبعث، إنما الكرامةُ عنده والهوانُ بكثرةِ الحظِّ في الدنيا وقِلَّتِه. فأمَّا المؤمنُ فالكرامةُ عنده أنْ يُكْرِمَه الله بطاعته وتوفيقِه المؤدِّي إلى حظِّ الآخرة(٢)، وإنْ وسَّع عليه في الدنيا حَمِدَه وشَكَره.

قلت: الآيتان صفةُ كلِّ كافرٍ. وكثيرٌ من المسلمين يظنُّ أنَّ ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربَّما يقولُ بجهله: ولو لم أَسْتَحقَّ هذا لم يُعْطِنِيه الله. وكذا إنْ قَتَّر عليه يظنُّ أنَّ ذلك لهوانه على الله.

وقراءةُ العامَّةِ: «فَقَدر» مخفَّفةَ الدال. وقرأ ابنُ عامرٍ مشدَّداً(٣)، وهما لغتان. والاختيارُ التخفيفُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]. قال أبو عمرو: و«قَدَر» أي: قَتَر. و«قدَّر» مشدَّدا: هو أنْ يعطيه ما يَكْفِيه. ولو فعل به ذلك ما قال: «ربِّي أهانَن».

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «ربِّيَ» بفتح الياء في الموضعين. وأَسْكَن الباقون(٤).

وأَثْبَتَ البَزِّيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ ويعقوبُ الياءَ من «أكرمنِ»، و«أهاننِ» في الحالين(٥)؛

---

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١١٨ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣ .

(٣) ذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٨٢ وقال: ولم يذكر ابن مجاهد هذا الحرف في كتابه. ولم ترد هذه القراءة في مطبوع التيسير. وهي في النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر.

(٤) وهم الكوفيون وابن عامر. التيسير ص٢٢٢ .

(٥) السبعة ص٦٨٤ ، والتيسر ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

لأنها اسمٌ فلا تُحذَف. وأَثبتها المدنيُّون في الوصل دون الوقف، اتِّباعاً للمصحف[١]. وخَيَّر أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حَذْفِها؛ لأنَّها رأسُ آيةٍ، وحَذَفها في الوقف لخطِّ المصحف. الباقون بحَذْفِها لأنَّها وقعت في الموضعين بغير ياءٍ، والسُّنةُ ألَّا يُخالَفَ خطُّ المصحف؛ لأنه إجماعُ الصحابة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردٌّ، أي: ليس الأمرُ كما يُظَنُّ، فليس الغِنَى لفَضْلِه، ولا الفقرُ لهوانه، وإنَّما الفقرُ والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفرَّاء[٢]: «كَلَّا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكنْ يحمدُ الله عزَّ وجلَّ على الغنى والفقر. وفي الحديث: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: كلَّا إنِّي لا أُكْرِمَ مَن أَكْرمتُ بكَثْرةِ الدنيا، ولا أُهينُ مَن أَهَنْتُ بقلَّتها، إنَّما أُكْرِمُ مَن أَكْرمتُ بطاعتي، وأُهينُ مَن أَهَنْتُ بمعصيتي»[٣].

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ إخبارٌ عن ما كانوا يصنعونه من مَنْعِ اليتيمِ الميراثَ، وأَكْلِ مالِه إسْرافاً وبِدَارًا أَنْ يَكْبَروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ: «يُكْرِمون»، و«يَحُضُّون» و«يأكلون»، و«يُحِبُّونَ» بالياء[٤]؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ الإنسانِ، والمرادُ به الجنسُ، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة، كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وتركُ إكرامِ اليتيمِ بدَفْعِه عن حقِّه وأَكْلِ ماله، كما ذَكَرْنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامةَ بنِ مظعون، وكان يتيماً في حِجْرِ أُميةَ بنِ خَلَف[٥].

---

(١) أثبتها في الوصل من العشرة نافع وأبو جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٧ عن قتادة قوله.

(٤) السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٥ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٧٢ .

﴿ولا يَحُضُّونَ[(١)] على طعامِ المسكينِ﴾ أي: لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكينٍ يَجيئُهم. وقرأ الكوفيون: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح التاءِ والحاءِ والألف[(٢)]، أي: يَحُضُّ بعضُهم بعضًا، وأصلُه تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءينِ لدلالةِ الكلامِ عليها. وهو اختيارُ أبي عُبيد.

ورُوِي عن إبراهيمَ، والشَّيْزَرِيِّ عن الكسائي، والسُّلَمِيِّ: «تُحَاضُّون» بضمِّ التاء[(٣)]، وهو تُفاعِلون من الحضِّ، وهو الحثُّ.

﴿ويَأْكُلُون التُّراثَ﴾ أي: ميراثَ اليتامَى. وأصلُه: الوُرَاث من وَرِثْتُ، فأَبْدَلوا الواوَ تاءً، كما قالوا في تُجاه وتُخَمة وتُكَأَة وتُؤَدة ونحوِ ذلك[(٤)]. وقد تقدَّم[(٥)].

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي: شديداً؛ قاله السُّدِّيّ[(٦)]. وقيل «لَمًّا»: جمعاً، من قولهم: لَمَمْتُ الطعامَ لمًّا: إذا أكلته جمعًا؛ قاله الحسنُ وأبو عُبيدة[(٧)]. وأصلُ اللَّمِّ في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: جمعته، ومنه يقال: لَمَّ الله شَعَثَه، أي: جَمع ما تفرَّقَ من أموره، قال النابغة:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... علَى شَعَثٍ أيُّ الرجَّالِ المُهَذَّبُ[(٨)]

ومنه قولُهم: إنَّ دارك لَمُومَةٌ، أي: تَلُمُّ الناسَ وتَرُبُّهم وتَجمعُهم. وقال المِرناقُ

(١) في (م): تحضون، وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر من السبعة.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم من السبعة. السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠ ، والبحر ٨/ ٤٧١ . والشيزري هو عيسى بن سليمان.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣ .

(٥) ينظر ٥/ ٨٨ ، وكذلك تفسر الآية (٣١) من سورة الكهف.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٨٠ عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ عن الحسن، وقول أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٨ .

(٨) ديوان النابغة ص١٨ ، والخزانة ٩/ ٤٦٧ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٨٨ . قال البغدادي: يقول: أي الرجال يكون مبرَّأً من العيوب؟ فإن قَطَعْتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ. وقوله: أي الرجال المهذب، قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يُعرف بالإصابة في الأمور، وتكون منه السَّقْطة.

الطائيُّ يمدحُ علقمةَ بنَ سيف:

لأحبَّني حُبَّ الصبيِّ ولمَّني لَمَّ الهَدِيِّ إلى الكريمِ الماجِدِ[١]

وقال الليث: اللمُّ: الجمعُ الشديد، ومنه: حَجَرٌ مَلْمومٌ، وكتِيبةٌ مَلْمومةٌ. والآكِلُ يَلُمُّ الثَّريدَ، فيجمعهُ لُقَماً ثم يأكلُه[٢].

وقال مجاهد: يَسفُّه سَفًّا. وقال الحسن: يأكلُ نصيبَه ونصيبَ غيرِه[٣]؛ قال الحُطيئةُ:

إذا كانَ لَمًّا يُتْبِعُ الذمَّ ربَّه فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنَّهم يجمعون في أَكْلِهم بين نَصِيبِهم [من الميراث] ونصيبِ غيرِهم[٤].

وقال ابن زيد: هو أنَّه إذا أكل مالَه أَلَمَّ بمالِ غيرِهِ فأَكَلَه، ولا يفكِّر فيما أَكَلَ من خبيثٍ وطيِّبٍ[٥]. قال: وكان أهلُ الشِّركِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثَهم مع مِيراثِهم، وتُراثَهم مع تُراثِهم[٦].

وقيل: يأكلون ما جَمَعه الميتُ من الظَّلَمةِ[٧] وهو عالمٌ بذلك، فَيلُمُّ في الأكل بين

---

(١) الصحاح (لمم) والكلام منه، والحيوان ٣/٤٦٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٤٤٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/١٥٩١، وللتبريزي ٤/ ٧٠. ووقع في المصادر عدا الصحاح: ورمَّني رمَّ الهديِّ، قال التبريزي: رمَّني: أصلح حالي. رمَّ الهديِّ، الهديُّ: العروس. وقال المرزوقي: أي: أحبني كما يُحَبُّ الصبي، وأصلح من أموري ما يُصْلَح من شأن العروس إذا زفت إلى الموسر الغني. والمرناق هو فدكي بن أعبد كما ذكر الجوهري، وكان قد سرقت إبل له، فردها عليه علقمة بن سيف. وعلقمة بن سيف من تغلب، وكان شريفاً رئيساً في الجاهلية، ذكره عمرو بن كلثوم في معلقته، ويقال: إنه هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة. الاشتقاق ص٣٣٧، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٧٦، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧١-٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة.

(٥) في (م): ولا يفكر أكل من خبيث أو طيب.

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٨١.

(٧) في (م) الظلم، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٥٣، والكلام منه.

حَرامِه وحَلَاله.

ويجوزُ أنْ يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً، مِن غيرِ أنْ يَعرَقَ فيه جبينُه، فَيُسْرِفُ في إنفاقه، ويأكلُه أكلاً واسعاً، جامعاً بين المُشتَهَيات[١] من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرَّاثُ البطَّالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، حلالَه وحرامَه. والجمُّ: الكثير. يقال: جمَّ الشيءُ يُجُمُّ جُموماً، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جَمَّ الماءُ في الحوض: إذا اجتمع وكَثُر؛ وقال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمّا   وأيُّ عبْدٍ لكَ لا ألَمّا[٢]

والجَمَّةُ: المكانُ الذي يجتمعُ فيه ماؤه. والجَمومُ: البئرُ الكثيرةُ الماءِ. والجُمومُ بالضمِّ المصدرُ؛ يقال: جَمَّ الماءُ يجم[٣] جموماً: إذا كثُر في البئر واجتمع، بعد ما استُقي ما فيها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمر. فهو ردٌّ لانْكِبابِهم على الدنيا، وجَمْعِهم لها؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك يندمُ يومَ تُدَكُّ الأرضُ، ولا ينفعُه النَّدمُ. والدَّكُّ: الكَسْرُ والدقُّ، وقد تقدَّم[٤]. أي: زُلْزِلتِ الأرضُ، وحُرِّكتْ تحريكاً بعدَ تحريكٍ.

وقال الزجَّاج[٥]: أي: زُلزلتْ فَدَكَّ بعضُها بعضاً. وقال المبرِّد: أي: أُلصِقَتْ وذَهبَ ارتفاعُها؛ يقال ناقةٌ: دَكَّاءُ، أي: لا سنامَ لها، والجمعُ دُكٌّ. وقد مضى في

---

(١) في النسخ الخطية: المشتبهات، والمثبت من (م) والكشاف.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت أو لأبي خراش، وقد سلف عند تفسر الآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) بالكسر والضم في الجيم. مختار الصحاح (جمم)، والكلام من الصحاح (جمم).

(٤) ينظر ٩/ ٣٢٥، وتفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف، والآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٣٢٣.

سورة الأعرافِ والحاقَّةِ القولُ في هذا[١]. ويقولون: دُكَّ الشيءُ، أي: هُدِمَ. قال:

هـل غـيـرُ غـارٍ دَكَّ غـاراً فـانْـهـدَمْ[٢]

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرةً بعد مرةٍ، زُلْزِلتْ فكسَّر بعضُها بعضًا، فتكسَّر كلُّ شيءٍ على ظَهْرِها. وقيل: دُكَّتْ جبالُها وأَنْشازُها[٣] حتى اسْتَوَتْ. وقيل: «دُكَّتْ» أي: استَوَتْ في الانْفِراش، فذهب دُورُها وقُصورُها وجبالُها وسائرُ أبنيتها. ومنه سمِّي الدُّكَّان[٤]؛ لاستوائه في الانفراش. والدكُّ: حَطُّ المرتفع من الأرض بالبَسْطِ؛ وهو معنى قولِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس: تُمدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي أمرُه وقضاؤُه؛ قاله الحسن[٦]. وهو من باب حَذْفِ المضافِ.

وقيل: أي: جاءهم الربُّ بالآياتِ العظيمة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظُللٍ.

وقيل: جُعل مجيءُ الآياتِ مجيئاً له؛ تفخيماً لشأن تلك الآياتِ، ومنه قولُه[٧] تعالى في الحديث: «يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، واسْتَسقَيتُك فلم تَسْقِني، واستطعمتُكَ فلم تُطْعِمْني»[٨].

---

(١) ٩/ ٣٢٥ ، وتفسير الآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف.

(٣) جمع نَشَز، وهو المكان المرتفع. الصحاح (نشز).

(٤) الدكان: المِصْطَبة. المعجم الوسيط (دكن).

(٥) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الطبري ٢٤/ ٣٨٤-٣٨٦ ، و سلف ١٢/ ١٦٨ و١٩/ ٢٧٠ .

(٦) الوسيط ٤/ ٤٨٤ .

(٧) في (ظ): وهي كقوله.

(٨) أخرجه مطولاً مسلم (٢٥٦٩).

وقيل: «وجاءَ رَبُّك» أي: زالتِ الشُّبَهُ ذلك اليومَ، وصارتِ المعارفُ ضروريةً، كما تزولُ الشُّبَه والشكُّ عند مجيءِ الشيءِ الذي كان يُشَكُّ فيه.

وقال أهلُ الإشارةِ: ظَهَرتْ قدرتُه واسْتَوْلتْ[١]، والله جلَّ ثناؤه لا يُوْصَفُ بالتحوُّلِ من مكانٍ إلى مكان، وأنَّى له التحوُّلُ والانتقالُ، ولا مكانَ له ولا أَوان، ولا يجري عليه وقتٌ ولازمان؛ لأنَّ في جَرَيانِ الوقتِ على الشيء فَوْتُ الأوقات، ومَن فاته شيءٌ فهو عاجِز.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكةُ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفا ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقادُ جهنَّمُ بسبعين ألفَ زمامٍ، كلُّ زمامٍ بيدِ سبعين ألفَ مَلَكٍ، لها تغيُّظٌ وزفير، حتى تنصبَّ عن يسار العرش[٢]. وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنَّم يومئذٍ، لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجرُّونها»[٣].

وقال أبو سعيد الخُدريُّ: لمَّا نزلت: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تَغيَّر لونُ رسولِ الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريلُ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾. قال عليٌّ ﷺ: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُجاءُ بها؟ قال: «يؤتَى بها تقادُ بسبعين ألفَ زمامٍ، يقودُ بكلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لو تُرِكَتْ لأَحْرقَتْ أهلَ الجمعِ، ثم تَعْرِضُ لي جهنَّم فتقول: مالي ولك يا مُحمد، إنَّ الله قد حرَّم لحمك عَلَيَّ» فلا يَبْقَى أحدٌ إلَّا قال: نَفْسي نَفْسي! إلَّا محمدٌ ﷺ فإنه يقول: ربِّ أمتي! ربِّ آمتي![٤]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويتوبُ. وهو الكافرُ، أو مَن

(١) في النسخ الخطية: واستوت.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٢)، سلف ٢١/ ٣٨٦ .

(٤) خبر علي وخبر أبي سعيد أخرجهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٨-٤٥٩ في خبر واحد.

هِمَّتُه معظَم الدنيا. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومِن أين له الاتِّعاظُ والتوبةُ وقد فرَّط فيها في الدنيا.

ويقال: أي: ومِن أين له مَنْفَعةُ الذِّكرى. فلا بدَّ من تقديرِ حَذْفِ المضافِ، وإلَّا فبَيْنَ «يَوْمَئذٍ يتذكَّرُ» وبينَ «وأنَّى له الذكرى» تَنَافٍ؛ قاله الزمخشريّ(١).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

أي: في حياتي. فاللامُ بمعنى في. وقيل: أي: قدَّمتُ عملاً صالحاً لحياتي، أي: لحياةٍ لا موتَ فيها. وقيل: حياةُ أهلِ النارِ ليست هنيئةً، فكأنهم لا حياةَ لهم، فالمعنى: ياليتني قدَّمتُ من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمَن له حياةٌ هنيئةٌ.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذِّبُ كعذابِ الله أَحَدٌ، ولا يُوْثِقُ كوَثاقِه أحدٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى الله تعالى. وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحسن(٢). وقرأ الكسائيُّ: «لا يُعَذَّبُ» «ولا يُوثَقُ» بفتح الذَّالِ والثاء(٣)، أي: لا يعذَّب أحدٌ في الدنيا كعذابِ اللهِ الكافرَ يَوْمَئذٍ، ولا يوثَقُ كما يوثَق الكافر(٤). والمرادُ إبليسُ؛ لأنَّ الدليل قام على أنه أشدُّ الناسِ عذاباً؛ لأَجْلِ إجرامِه، فأطلق الكلام لأَجْلِ ما صَحِبَه من التفسير.

وقيل: إنه أميةُ بنُ خلف؛ حكاه الفرَّاء(٥). يعني أنه لا يعذَّبُ كعذاب هذا الكافرِ

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٥٣ .

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠ .

(٣) السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣ ، وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٢٢ أن هذه القراءة تختص بالآخرة، وأن القراءة الأولى تختص بالدنيا. ومثله قال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٢ .

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٢ : وقد وجهه بعضهم على أنه رجل مسمًّى لا يعذَّبُ كعذابه أحد. فلم يعيِّنْه الفراء، وقال البغوي ٤/ ٤٨٦ : هو أمية بن خلف.

المعيَّنِ أحدٌ، ولا يوثَقُ بالسلاسلِ والأغلالِ كَوثاقه أحدٌ؛ لِتَناهيه في كُفْرِه وعنادِه.

وقيل: أي: لا يعذَّبُ مَكانَه أحدٌ، فلا يؤخَذُ منه فِداءٌ.

والعذابُ بمعنى التعذيبِ، والوَثاقُ بمعنى الإيثاقِ. ومنه قولُ الشاعر:

وبَعْدَ عَطائِكَ المِئَةَ الرِّتاعا[1]

وقيل: لا يعذَّبُ أحدٌ ليس بكافرٍ عذابَ الكافرِ.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتحَ الذَّالِ والثاء. وتكونُ الهاء ضميرَ الكافر؛ لأنَّ ذلك معروفٌ: أنه لا يعذِّب أحدٌ كعذاب الله. وقد روى أبو قِلابةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذَّال والثاء[2]. وروي أنَّ أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيِّ ﷺ[3].

وقال أبو عليٍّ[4]: يجوزُ أن يكون الضميرُ للكافر على قراءة الجماعة، أي: لا يعذِّبُ أحدٌ أحداً مثلَ تعذيبِ هذا الكافر؛ فتكونُ الهاءُ للكافر. والمرادُ بـ «أحدٌ» الملائكةُ الذين يتولَّوْن تعذيبَ أهلِ النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدنيا، فاتَّهم اللهَ في إغنائه وإفقاره، ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّتْ نفسُه إلى الله تعالى، فسلَّم لأمره، واتَّكَلَ عليه. وقيل: هو من قولِ الملائكةِ لأولياء الله عزَّ وجلَّ. والنفسُ المطمئنةُ: الساكنةُ المُؤْقِنةُ؛ أيقنتْ أنَّ الله ربُّها، فأَخْبَتَتْ لذلك؛ قاله مجاهدٌ وغيره.

(١) وصدره: أكُفراً بعد ردِّ الموت عني، والبيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٣٧، وسلف ٥/ ١٠٥، والكلام من تفسير الرزاي٣١/ ١٧٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٩١)، وأبو داود (٣٩٩٦) و(٣٩٩٧).

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٤) في الحجة ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عباس: أي: المطمئنةُ بثوابِ الله. وعنه: المؤمنةُ. وقال الحسن: المؤمنةُ الموقنةُ.

وعن مجاهد أيضاً: الراضيةُ بقضاء الله، التي علمت أنَّ ما أخطأها لم يكن لِيُصيبَها، وأنَّ ما أصابها لم يكن لِيُخْطِئَها. وقال مقاتل: الآمنةُ من عذاب الله[١]. وفي حرفِ أُبيّ بن كعب: «يا أيتها النفسُ الآمنةُ المطمئنةُ»[٢].

وقيل: التي عمِلت على يقينٍ بما وَعَدَ الله في كتابه.

وقال ابن كَيسان: المطمئنةُ هنا: المُخْلِصةُ.

وقال ابن عطاء: العارفةُ التي لا تصبرُ عنه طرفةَ عينٍ.

وقيل: المطمئنةُ بذِكْرِ الله تعالى، بيانُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقيل: المطمئنةُ بالإيمان، المُصدِّقةُ بالبعث والثواب.

وقال ابن زيد: المطمئنةُ لأنها بشِّرت بالجنة عند الموتِ، وعند البعثِ، ويومَ الجمع[٣].

وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفسَ حمزةَ[٤]. والصحيحُ أنَّها عامةٌ في كلِّ نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ طائع.

قال الحسن البصريُّ: إنَّ الله تعالى إذا أراد أن يقبضَ رُوحَ عَبْدِه المؤمِن، اطمأنَّت النفسُ إلى الله تعالى، واطمأنَّ الله إليها[٥].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣-٣٩٥، والوسيط ٤/ ٤٨٧، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

وقال عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمنُ أرسلَ الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفةً من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفْس المطمئنةُ راضية مَرْضِيَّةً ومَرْضيًّا عنكِ، اخرُجي إلى رَوْحٍ وريَحْانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ وَجَدَ أحدٌ من أَنْفِه على ظَهْرِ الأرض. وذَكَر الحديث[١].

وقال سعيد بن جبير[٢]: قرأ رجلٌ عند النبيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أَحْسنَ هذا يا رسولَ الله! فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المَلَكَ سيقولُها لك يا أبا بكر [عند الموت][٣]».

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خِلْقَتِه طائرٌ قطُّ، فدخل نَعْشَه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شَفِيرِ القبر ـ لا يُدْرَى مَن تَلَاها ـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٤].

وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ حين وقف بئرَ رُومَةَ[٥].

وقيل: نزلت في خُبَيب بن عديٍّ الذي صَلَبه أهلُ مكةَ، وجعلوا وَجْهَه إلى المدينة، فحوَّل الله وجهَه نحو القِبلة[٦]. والله أعلم.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ وعطاء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٧، والبغوي ٤/ ٤٨٦ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وفيهما: ... فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه. وأخرج نحوه مطولاً أحمد (٨٧٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و (١٨٥٣٤) من حديث البراء ﷺ.

(٢) في (م): زايد، وفي النسخ الخطية: زيد، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٨٣، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن.

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٧٩)، والطبراني في الكبير (١٠٥٨١)، والذهبي في السير ٣/ ٣٥٨ وقال: هذه قضية متواترة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

واختاره الطَّبَريُّ[1]، ودليلُه قراءةُ ابنِ عباسٍ: «فادْخُلي في عَبْدي» على التوحيد[2]، فيأمرُ الله تعالى الأرواحَ غداً أنْ ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود: «في جَسَدِ عبدي»[3].

وقال الحسن: ارجعي إلى ثوابِ ربِّكِ وكرامتِه[4].

وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت[5].

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: في أجسادِ عبادي، دليلهُ قراءةُ ابنِ عباسٍ وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يومَ القيامة. وقاله الضحَّاك[6].

والجمهورُ على أنَّ الجنةَ هي دارُ الخلودِ التي هي مَسْكَنُ الأبرارِ، ودارُ الصالحين والأخيار. ومعنى «في عبادي» أي: في الصالحين من عبادي، كما قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩] وقال الأخفش: «في عبادي» أي: في حزبي. والمعنى واحدٌ، أي: انْتَظِمي في سِلْكِهم ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/ ٣٦٠.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٧، وزاد المسير ٩/ ١٢٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٤/٣٩٧.

سُورَةُ الفَجْرِ

مكيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ وعِشرونَ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أَقْسَمَ بالصُّبحِ، أو فَلَقِهِ[2]؛ كقولِه: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، أو: بصَلاتِه.

(٢) ـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: عشرِ ذي الحجَّةِ، ولذلك فُسِّرَ الفَجرُ بفجرِ عرَفَةَ أو النَّحرِ، أو عشرِ رمضانَ الأخيرِ، وتَنكيرُها للتَّعظيمِ.

وقُرِئَ: (وليالِ عشرٍ) بالإضافةِ[3] على أنَّ المرادَ بالعشرِ الأيامُ.

(٣) ـ ﴿والشَّفعِ والوِتْرِ﴾: والأشياءِ كلِّها شَفْعِها ووترِها، أو: والخَلْقِ[4] ـ لقولِه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ـ والخالِقِ لأنَّه فردٌ.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٧٣): هي تسع وعشرون آية في البصري وثلاثون في الكوفي والشامي واثنتان وثلاثون في المدنيين والمكي.

(٢) قال الشهاب: «أو فلقه» بفتحتين، أي: ضوئه الممتدِّ كالعمودِ، وجوَّزَ بعضهم سكون اللامِ كالشَّقِّ لفظًا ومعنًى، والأوَّلُ أولى.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣) عن ابن عامر، و«الكشاف» (٩/ ٥٧٣) عن ابن عباس.

(٤) قوله «أو والخلق» عطفٌ على «والأشياءِ» كما نبَّه عليه الأنصاري والخفاجي في «حاشيتيهما».

ومَن فسَّرَهما بالعَناصرِ والأفلاكِ، أو البروجِ والسَّياراتِ، أو شَفْعِ الصَّلوات ووِترِها، أو يومَي النَّحرِ وعرفةَ ـ وقد رُوِيَ مرفوعًا(١) ـ، أو بغيرِها = فلعلَّهُ أفردَ بالذِّكرِ مِن أنواعِ المدلولِ ما رآه أظهرَ دلالةً على التَّوحيدِ، أو مَدخلًا في الدِّينِ، أو مُناسبةً لِمَا قبلَهُما(٢)، أو أكثرَ مَنفعَةً مُوجِبةً للشُّكرِ.

وقرأ غيرُ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو(٣)، وهما لُغتانِ كالحِبْرِ والحَبْرِ.

(٤) ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا يمضي، كقولِه: ﴿واللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتَّقييدُ بذلك لِمَا في التَّعاقُبِ مِن قوَّةِ الدلالةِ على كمالِ القُدرَةِ ووُفورِ النِّعمَةِ.

أو: يُسْرَى فيهِ؛ مِن قولهم: صَلَّى المُقامُ(٤)، وحذفُ الياءِ للاكتفاءِ بالكسرةِ تخفيفًا.

وقد خصَّه نافعٌ وأبو عَمرٍو بالوقفِ لِمُراعاةِ الفواصلِ، ولم يَحْذِفْها ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ أصلًا(٥).

وقُرِئَ: (يسرٍ) بالتَّنوينِ(٦) المُبدَلِ مِن حرفِ الإطلاقِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٥١١)، والبزار (٢٢٨٦ ـ كشف الأستار)، والنسائي في «الكبرى» (٤٠٨٦) و(١١٦٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥١٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٧): رواه البزار وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

(٢) قوله: «أو مدخلًا» معطوف على «دلالة» وهو ناظر لتفسيره بالصلاة، وقوله: «أو مناسبة» معطوف على «دلالة» وهو ناظر لتفسيره باليومين المناسب لليال، وضمير «قبلهما» مثنًّى للشفع والوتر. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢).

(٤) أي: صُلِّيَ فيه.

(٥) أثبت الياء بعد الراء وصلًا نافع وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين ابن كثير ويعقوبُ، وحذفها الباقون مطلقاً. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣) عن أبي الدينار الأعرابي.

(٥) ـ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ القسمِ أو المُقسَمِ به ﴿قَسَمٌ﴾: حَلِفٌ أو محلوفٌ بِهِ ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ يعتبرُهُ ويُؤكِّدُ به ما يُريدُ تَحقيقَهُ، والحِجْرُ: العَقْلُ، سُمِّيَ بِهِ لأنَّه يَحْجرُ عمَّا لا ينبَغِي، كما سُمِّيَ عَقْلًا ونُهْيَةً وحَصَاةً مِن الإحصاءِ وهو الضَّبطُ.

والمُقْسَمُ عليهِ محذوفٌ وهو: لَتُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليهِ قولُه:

(٦) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني: أولادَ عادِ بنِ عوصِ بنِ إِرَمَ بنِ سَام بنِ نوحٍ، قومَ هودٍ، سُمُّوا باسمِ أبيهِم كمَا سُمِّيَ بنو هاشمٍ باسمِه.

(٧) ـ ﴿إِرَمَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ(عادٍ) على تَقديرِ مُضافٍ؛ أي: سِبطِ إِرَمَ، أو أهلِ إِرَمَ ـ إن صحَّ أنَّه اسمُ بلدَتِهم ـ، وقيل: سُمِّيَ أَوائِلُهم ـ وهم عادٌ الأُولى ـ باسمِ جَدِّهِم، ومُنِعَ صرفُه للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ.

﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: ذاتِ البناءِ الرَّفيعِ، أو القُدودِ الطِّوالِ، أو الرِّفعةِ والثَّباتِ.

وقيل: كانَ لعادٍ ابنانِ: شَدَّادٌ وشَدِيدٌ، فمَلكَا وقهَرَا، ثمَّ ماتَ شَدِيدٌ فخَلَصَ الأمرُ لشَدَّادٍ ومَلَكَ المعمورةَ ودانَتْ له مُلوكُها، فسَمِعَ بذكرِ الجنَّةِ فبنى على مثالها في بعضِ صَحارى عَدَن جنَّةً وسمَّاها إِرَمَ، فلمَّا تَمَّ سارَ إليهَا بأَهلِه، فلَمَّا كان مِنْها على مسيرةِ يومٍ وليلَةٍ بعثَ اللهُ عليهِم صيحَةً مِن السَّماءِ فهَلكُوا، وعَن عبدِ اللهِ بن قِلَابَةَ: أنَّه خرجَ في طَلَبِ إبلِهِ فوقعَ عليهَا[١].

---

(١) هذا مختصر لخبر طويل جدًّا رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٣٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٩٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٤): آثار الوضع عليه لائحة.

وقال ابن كثير عند هذه الآية: هذه الحكايةُ ليس يَصِحُّ إسنادُها، ولو صحَّ إلى ذلك الأعرابيِّ (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكونُ اختَلَق ذلك، أو أنه أصابه نوعٌ من الهَوَس والخَبَال فاعتَقَد أن ذلك له حقيقةٌ في الخارج، وليس كذلك. وهذا ممَّا يُقْطَع بعَدَم صحته.

(٨) ـ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ صفةٌ أُخرَى لـ﴿إِرَمَ﴾، والضَّميرُ لها سواءٌ جُعِلَتْ اسمَ القبيلَةِ أو البلدَةِ.

(٩) ـ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾: قَطَعوهُ واتَّخذُوه مَنازِلَ؛ كقولِه[1]: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩]، ﴿بِٱلْوَادِ﴾: وادي القُرى.

(١٠) ـ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ لكثرةِ جُنودِه ومَضارِبِهم التي كانوا يَضرِبُونَها إذا نزلوا، أو لتَعذيبِه بالأوتادِ.

(١١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ صِفَةٌ للمَذكورينَ: عادٍ وثمودَ وفِرعونَ، أو ذمٌّ مَنصوبٌ أو مَرفوعٌ.

(١٢) ـ ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بالكُفرِ والظُّلمِ.

(١٣) ـ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾: ما خلطَ لهم مِن أَنواعِ العَذابِ، وأَصلُهُ: الخَلْطُ، وإنَّما سُمِّيَ به الجِلدُ المَضفورُ الذي يُضرَبُ به لكونِهِ مَخلوطَ الطَّاقاتِ بعضِها ببعضٍ.

وقيل: شُبِّهَ بالسَّوطِ ما أحلَّ بهم في الدُّنيا إشعارًا بأنَّه بالقياسِ إلى ما أُعِدَّ لَهُم في الآخرةِ مِن العَذابِ كالسَّوْطِ إذا قيسَ إلى السَّيفِ.

(١٤) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ المكانِ الذي يَترَقَّبُ فيه الرَّصَدُ[2]، مِفْعَالٌ مِن رَصَّدهُ[3] كالميقاتِ مِن وقَّتَهُ، وهو تمثيلٌ لإرصادِه العُصاةَ بالعِقابِ.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كأنَّه قيل:

---

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «لقوله».

(٢) الرَّصَد: جمع راصد.

(٣) هكذا ضبطت في نسخة الفاروقي بالتشديد.

إنَّـه لبالمرصـادِ مِـن الآخـرةِ فلا يريدُ إلَّا السَّـعيَ لهـا[١]، فأمَّا الإنسـانُ فـلا يُهِمُّهُ إلا الدُّنيا ولذَّاتُها.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اختبرَهُ بالغنى واليُسرِ ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالجاهِ والمالِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾: فضَّلَني بما أَعطاني، وهو خبرُ المبتدأِ الذي هو الإنسانُ، والفاءُ لِمَا في (أمَّا) مِن مَعنى الشَّرطِ، والظَّرفُ المُتوسِّطُ في تقديرِ التَّأخيرِ، كأنَّه قيل: فأمَّا الإنسانُ فقائلٌ: ربي أكرمنِي وقتَ ابتلائهِ بالإنعامِ.

وكذا قولُه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ إذ التَّقديرُ: وأمَّـا الإنسانُ إذا مـا ابتلاهُ؛ أي: بالفَقرِ والتَّقتيرِ؛ ليُوازِنَ قَسِيمَه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لقُصورِ نَظَرِهِ وسُوءِ فِكرِه، فإنَّ التَّقتيرَ قد يُؤدِّي إلى كرامةِ الدَّارينِ، إذ التَّوسِعَةُ قد تُفْضِي إلى قصدِ الأعداءِ والانهماكِ في حُبِّ الدُّنيا، ولذلك ذمَّهُ على قولَيهِ، ورَدَعَه عنه بقولِه: ﴿كَلَّا﴾ مع أنَّ قولَهُ الأوَّلَ مُطابِقٌ لـ(أكرمه) ولم يقُل: «فأهانه وقدَرَ عليه» كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ لأنَّ التَّوسِعَةَ تَفضُّلٌ، والإخلالَ به لا يكونُ إهانةً.

وقرأَ ابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ بغيرِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وعَن أبي عمرٍو مثلُه، ووافَقَهُم نافعٌ في الوَقفِ[٢]، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فقدَّرَ﴾ بالتَّشديدِ[٣].

---

(١) قوله: «فلا يريد إلا السعي لها» قال الشهاب: تبع فيه الزمخشري في قوله: «لا يريد من الإنسان إلا الطاعة» وقد شنع عليه في «الانتصاف» لابتناء كلامه على الاعتزال، وأنّ المعاصي ليست بإرادته، إلا أنه لا وجه له كما في «الكشف» لأنه إذا كانت الإرادة بمعنى الطلب والأمر لم يكن محلَّ النزاع، إنما النزاع إذا كانت الإرادة بالمعنى المتعارف وهي غير مرادة هنا.

(٢) أثبت الياء في الحالين البزي، وأثبتها في الوصل نافع، وخيَّر فيهما أبو عمرو، والباقون بحذفها مطلقاً. انظر: «التيسير» (ص: ٢٢٣)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٣٤٢).

(٣) وقـرأ بهـا أيضاً أبـو جعفر، والباقـون بالتخفيف. انظر: «النشـر» (٢/ ٤٠٠)، ولم ترد في «السـبعة» و«التيسـير». وذكرهـا الداني فـي «جامـع البيـان» (٤/ ١٧٠٠) وقـال: ولـم يذكر ابـن مجاهد هذا الحرف فـي كتابه.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ أي: بَلْ فِعلُهُم أسوَأُ مِن قولِهم وأدَلُّ على تَهالُكِهِم بالمالِ، وهو أنَّهُم لا يُكرِمُونَ اليتيمَ بالنَّفقَةِ والمبرَّةِ، ولا يَحُثُّونَ أهلَهُم على طعامِ المسكينِ فَضْلًا عَن غَيرِهِم، وقرأ الكُوفِيُّونَ ﴿تَحَٰضُّونَ﴾[1].

(١٩) ـ ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: الميراثَ، وأصلُهُ: وُرَاثٌ ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾: ذا لَمٍّ؛ أي: جمْعٍ بينَ الحَلالِ والحَرامِ؛ فإنَّهُم كانوا لا يورِّثونَ النِّساءَ والصِّبيانَ ويأكلونَ أَنصباءَهُم، أو يأكلونَ ما جمعَهُ المورِّثُ مِن حَلالٍ أو حَرامٍ عَالِمِينَ بذلك.

(٢٠) ـ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: كثيرًا مع حرصٍ وشَرَهٍ.

وقرأ أبو عمرٍو وسهلٌ ويعقوبُ: ﴿لا يكرمون﴾ إلى ﴿ويحبون﴾ بالياءِ، والباقونَ بالتَّاءِ[2].

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عَن ذلك وإنكارٌ لفِعْلِهم، وما بعدَهُ وَعيدٌ عليه.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: دكًّا بعدَ دَكٍّ حتَّى صارَتْ مُنخَفِضَةَ الجبالِ والتِّلالِ، أو هباءً مُنبَثًّا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ظهرَتْ آياتُ قُدرَتِه وآثارُ قَهْرِه، مثَّلَ ذلك بما يَظهرُ عندَ حُضورِ السُّلطانِ مِن آثارِ هيبَتِه وسِيَاسَتِه ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسبِ مَنازِلِهم ومَرَاتِبِهم.

(٢٣) ـ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقولِه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩١]، وفي الحديثِ: «يُؤْتَى بجَهنَّمَ يومَئِذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ مع كلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونَها»[3].

---

(١) وقرأ الباقون دون ألف. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامِلُ فيهِما: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾؛ أي: يتذكَّرُ مَعاصيَهُ، أو يتَّعِظُ لأنَّه يعلَمُ قُبحَها فيندَمُ عليها.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: مَنفعةُ الذِّكرى؛ لئلَّا يُناقِضَ ما قبلَهُ، واستُدِلَّ به على عَدمِ وُجوبِ قبولِ التَّوبةِ؛ فإنَّ هذا التَّذكُّرَ تَوبَةٌ غيرُ مَقبولَةٍ.

(٢٤) ـ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؛ أي: لحياتي هذهِ، أو: وقتَ حَياتِي في الدُّنيا أعمالًا صالحةً، وليس في هذا التَّمنِّي دلالةٌ على استقلالِ العَبدِ بفعلِهِ؛ فإنَّ المَحجورَ عَنِ الشَّيءِ قد يَتمنَّى أن كانَ مُمكَّنًا منه[1].

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الهاءُ للهِ؛ أي: لا يتولَّى عذابَ اللهِ ووثَاقَهُ يومَ القيامَةِ سِواهُ إذ الأمرُ كلُّه لهُ، أو للإنسانِ؛ أي: لا يعذِّبُ أحدٌ مِن الزَّبانيةِ مثلَ ما يُعذِّبُونَه.

وقرأَهُما الكِسائيُّ ويَعقوبُ على بناءِ المَفعولِ[2].

(٢٧) ـ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادةِ القَولِ، وهي التي اطمأنَّتْ بذكرِ اللهِ فإنَّ النَّفسَ تَترقَّى في سلسلةِ الأَسبابِ والمُسبَّباتِ إلى الواجبِ لذاتِه فتستقِرُّ[3] دونَ مَعرِفَتِه وتَستَغْنِي بِهِ عَن غيرِه، أو: إلى الحقِّ[4] بحيثُ لا يَريبُها شَكٌّ.

---

(١) فيه رد على الزمخشري. انظر: «الكشاف» (٩/ ٥٨٤).

(٢) هي قراءة الكسائي، والباقون بالكسر فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٣) قوله: «فتستقر»، كذا في نسخنا، وفي بعض النسخ: «فتستفز» بالفاء والزاي المعجمة؛ أي: تضطرب وتقلق قبل الوصول إلى معرفته، فإذا وصلت إليه؛ استغنت به عما سواه واطمأنت به. قاله الشهاب.

(٤) قوله: «أو إلى الحق»؛ معطوف بحسب المعنى على قوله: «بذكر الله» لأنّ المعنى: المطمئنة إلى ذكر الله أو المطئنة إلى الحق. قاله الشهاب.

أو: الآمنةُ التي لا يَستَفِزُّهَا خَوفٌ ولا حزنٌ، وقد قُرِئَ بها[١].

(٢٨ ـ ٣٠) ـ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: إلى أمرِه أو موعدِه بالمَوْتِ، ويُشعِرُ ذلك بقولِ مَن قال: كانَتِ النُّفوسُ قبلَ الأبدانِ مَوجودةً في عالمِ القُدسِ، أو: بالبعثِ.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيتِ ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عندَ اللهِ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾: في جملةِ عِبادي الصَّالحين ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معَهُم.

أو: في زُمرَةِ المُقرَّبينَ فتَستضيءُ بنُورِهم، فإنَّ الجَواهرَ القُدسيَّةَ كالمَرايا المتقابلَةِ.

أو: ادخُلِي في أجسادِ عِبادِي التي فارَقْتِ عنها، وادخُلِي دارَ ثوابي التي أعددْتُ لكِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ الفَجرِ في الليالي العشرِ غُفِرَ لهُ، ومَن قرأَهَا في سائرِ الأيَّامِ كانَت له نورًا يومَ القيامةِ»[٢].

* * *

(١) أي: (يا أيَّتها النَّفسُ الآمِنةُ المُطمئنَّةُ) نسبت لأبي رضي الله عنه. انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٤).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٩٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٧٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أمّا الفجر فمعروف وهو الصبح، وعن مسروق: المراد بـه فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة[1]، وقـد ثبت في صحيح البخاري «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجُلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[2].
وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، عن ابن عباس: ﴿وليال عشر﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان، والصحيح القول الأول. روي عن جابر يرفعه: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر»[3].
وقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس: **قول ثان**: عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ قلت: صلاتنا وترنـا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى. **قول ثالث**: عن أبي سعيد بن عوف قال: سمعت عبدالله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر؟ فقال: الشفع

(١) وهو قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف.
(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس مرفوعاً.
(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم، قال ابن كثير: إسناد رجاله لا بأس بهم والمتن في رفعه نكارة.

قول الله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾[1]. وفي الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[2]. **قول رابع**: قال الحسن البصري: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه[3]. وقال ابن عباس: ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. **قول خامس**: عن مجاهد ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الشفع الزوج، والوتر الله عزَّ وجلَّ[4]، وعنه: الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى، وعنه: كل شيء خلقه الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، كقوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. **قول سادس**: قال الحسن: ﴿والشفع والوتر﴾ هو العدد منه شفع، ومنه وتر. **قول سابع**: قال أبوالعالية والربيع بن أَنَس: هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل، ولم يجزم ابن جرير بشيء من الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال ابن عباس: أي إذا ذهب، وقال مجاهد وأبو العالية ﴿والليل إذا يسر﴾: إذا سار أي ذهب، ويحتمل إذا سار: أي أقبل، وهذا أنسب لأنه في مقابلة قوله: ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس، كقوله: ﴿والليل إذا عسعس ۞ والصبح إذا تنفس﴾ وقال الضحّاك: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي يجري، وقال عكرمة: ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة، وقوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب وحجى، وإنما سمي العقل (حجراً) لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، وحجَر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب، التي يتقرب إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ۞ إرم ذات العماد﴾؟ وهؤلاء (عاد الأولى) وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكّرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) وهو رواية عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، وقال ههنا: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم، روي عن المقدام أنه ذكر ﴿ إرم ذات العماد﴾ فقال: «كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»[1]، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ مدينة إما دمشق، أو اسكندرية أو غيرهما، فضعيف لأنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الاخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الاخبار عن مدينة أو إقليم، وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف، فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها، يقال: اجتاب الثوب: إذا فتحه، وقال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾، وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وقال السدي: كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه، وقال ثابت البناني: قيل لفرعون ذي الأوتاد، لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت، وقوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن المقدام مرفوعاً.

يقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نمدهم بـه من مال وبنين ۞ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: ﴿ كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر ، وقوله تعالى: ﴿ بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه أمر بالاكرام له كما جاء في الحديث: « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »[1]. وقال ﷺ: « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الابهام[2]، ﴿ ولا تحاضون على طعـام المسكين﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لمًّا﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً فاحشاً.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى: ﴿ كلاً﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً، وقوله تعالى: ﴿ وجيء يومئذ بجهنم﴾ روى الإمام مسلم في صحيحه: عن عبدالله بن مسعود قال رسول ﷺ: « يؤتى بجهنم يومئذ لهـا سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[3]، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿ وأنّى له الذكرى﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى، ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن جبير بن نفير عن محمد بن عمرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه رد إلى الدنيا

---

(١) أخرجه عن عبد الله من المبارك .

(٢) أخرجه أبو داود . (٣) أخرجه مسلم في صحيحه .

كما يزداد من الأجر والثواب، وقال الله تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي وليس أحـد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عزَّ وجلَّ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، فيقال لها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أي في نفسها، ﴿مرضية﴾ أي قـد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها، ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقـال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا، ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآيـة، فروي أنها نزلت في عثمان بن عفّان، وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا؟ فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»[1]. وروى الحافظ ابن عساكر، عن أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»[2]

[آخر تفسير سورة الفجر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر.

تفسير سورة الفجر

وهى مكية .

قال النسائى : أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم ، أخبرنى يحيى بن سعيد ، عن سليمان ، عن محارب بن دِثار وأبى صالح ، عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَول ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فَطَوّل عَلَىّ ، فانصرفت وصليتُ فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى . فقال رسول الله ﷺ : « أفتّان يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و ﴿ وَالْفَجْرِ﴾ و ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ .

أما الفجر فمعروف ،وهو : الصبح . قاله على ،وابن عباس ، ومجاهد ،وعكرمة ، والسدى .

وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر .

وقيل : المراد بذلك الصلاة التى تفعل عنده ، كما قاله عكرمة .

وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالى العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا :« ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » ــ يعنى عشر ذى الحجة ــ قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » (٢) .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم ، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد [(١)] .

وقد روى أبو كُدَيْنة ، عن قابوس بن أبى ظِبْيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان .

والصحيح القول الأول ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عَيَّاش بن عقبة ، حدثنى خَير بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر، عن النبى ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ،والشفع يوم النحر » .

ورواه النسائى عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله ، كل منهما عن زيد بن الحباب ، به [(٢)] . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث زيد بن الحباب ، به [(٣)] . وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندى أن المتن فى رفعه نكارة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ : قد تقدم فى هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنى عقبة بن خالد ، عن واصل ابن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ قلتُ : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهانى ، حدثنى أبى ، عن النعمان ــ يعنى ابن عبد السلام ــ عن أبى سعيد بن عوف ، حدثنى بمكة قال : سمعتُ عبدَ الله ابن الزبير يخطبُ الناس ، فقام إليه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن الشفع والوتر . فقال: الشفع قول الله ، عز وجل : ﴿ **فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ **وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة:٢٠٣] .

وقال ابن جريج : أخبرنى محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام [(٤)] التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق .

وفى الصحيحين من رواية أبى هُرَيرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » [(٥)] .

قول رابع : قال الحسن البصرى ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول .

---

(١) فى أ : « إلى واحد » .

(٢) المسند (٣/ ٣٢٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧١) .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٨) .

(٤) فى أ : « الشفع الأيام من » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل .

وقال أبو عبد الله ، عن مجاهد : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : كل شىء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكروه فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : فى الآية الكريمة رواه ابنُ أبى حاتم وابنُ جَرير من طريق ابن جريج ،ثم قال ابن جرير : ورُوِى عن النبى ﷺ خبر يؤيد القول الذى ذكرنا عن أبى الزبير : حدثنى عَبد الله بن أبى زياد القطوانى ، حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرنى عياش بن عقبة ، حدثنى خير [(١)] بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » [(٢)] .

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ فى رواية أحمد والنسائى وابن أبى حاتم ، وما رواه هو أيضا ، والله أعلم .

قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

وقد قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن عمران بن حصين : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال: هى الصلاة المكتوبة ، منها شفع ومنها وتر . وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة . وقد روى متصلا مرفوعا إلى النبى ﷺ ولفظه عام ، قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود ــ هو الطيالسى ــ حدثنا همام ، عن قتادة ،عن عمران بن عصام : أن شيخا [(٣)] حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الشفع والوتر ، فقال: « هى الصلاة ، بعضها شفع ، وبعضها وتر » [(٤)] .

هكذا وقع فى المسند ،وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار ، عن عفان وعن أبى كُرَيْب ، عن عبيد الله بن موسى ، كلاهما عن همام ــ وهو ابن يحيى ــ عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن

(١) فى أ : « حدثنى القطرانى » .
(٢) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٩) .
(٣) فى أ : « أن جبيرا » .
(٤) المسند (٤/٤٣٧) .

شيخ، عن عمران بن حصين [١] . وكذا رواه أبو عيسى الترمذى ، عن عمرو بن على ، عن ابن مَهْدِىّ وأبى داود ، كلاهما عن همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين ، به . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضا عن قتادة [٢] .

وقد روى عن عمران بن عصام ، عن عمران نفسه ، والله أعلم .

قلت : ورواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام [٣] ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام الضبعى ـ شيخ من أهل البصرة ـ عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فذكره ، هكذا رأيته فى تفسيره ، فجعل الشيخ البصرى هو عمران بن عصام [الضبعى] [٤] .

وهكذا رواه ابن جرير : حدثنا نصر بن على ،حدثنى أبى ، حدثنى خالد بن قيس ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فى الشفع والوتر قال : « هى الصلاة منها شفع ، ومنها وتر » [٥] .

فأسقط ذكر الشيخ المبهم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبعى أبو عمارة البصرى ، إمام مسجد بنى ضُبَيعة وهو والد أبى جَمْرَة [٦] نصر بن عمران الضبعى . روى عنه قتادة ، وابنه أبو جمرة [٧] ، والمثنى بن سعيد ، وأبو التياح يزيد بن حميد . وذكره ابن حبَّان فى كتاب الثقات [٨] ، وذكره خليفة ابن خَيَّاط فى التابعين [٩] من أهل البصرة ، وكان شريفا نبيلا حظيا عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث [١٠] وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث الواحد . وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ،والله أعلم .

ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [١١] ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى إذا ذهب .

وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ،وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا سار .

وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ،

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٩) .
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٢) .
(٣) فى أ : « أخبرنا هشام » .
(٤) زيادة من أ .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٩) .
(٦،٧) فى أ : « أبى حمزة » .
(٨) الثقات (٥/ ٢٣٤) .
(٩) فى أ : « المتابعين » .
(١٠) فى م: « سنة ثنتين » .
(١١) فى م : « يسرى » .

أى: أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله :﴿وَالْفَجْرِ ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [١] ﴾ ، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٧، ١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿[وَاللَّيْلِ] [٢] إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى .

وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعنى : ليلة جَمْع . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظى ، يقول فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبين إلا بجَمْع .

وقوله : ﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أى: لذى عقل ولب وحجا [ودين] [٣] ،وإنما سمى العقل حجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ،ومنه حجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى .ومنه حجر اليمامة ،وحَجَرَ الحاكم على فلان :إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٢]،كل هذا من قبيل واحد ،ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ،وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها [إليه عباده] [٤] المتقون المطيعون له،الخائفون منه،المتواضعون لديه،الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ،وجعلهم أحاديث وعبَرا ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧، ٨] .وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ [٥] ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم [٦] خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] [٧] ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا

(١) فى م : « يسرى » .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) زيادة من م .
(٤) زياة من م ، أ .
(٥) فى م : « بعاد إرم » .
(٦) فى م : « زيادتهم » .
(٧) فى م ، أ ، هـ : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » والصواب ما أثبتناه .

عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ أي : القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم .

قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعني : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسُّدِّيُّ : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوي .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبي في قوله : ﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : إنما قيل لهم :﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ لطولهم .

واختار الأول ابنُ جرير ، ورد الثاني فأصاب .

وقوله : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ : أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال: بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أي : لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد ، يعني في زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿ **لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثني معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام ، عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كان الرجل منهم يأتي على صخرة فيحملها على الحي فيهلكهم » (١) .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض ، عن ثور بن زيد الديلي . قال : قرأت كتابا ـ قد سمي حيث قرأه ـ : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد ، وأنا الذي كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ .

قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم ـ فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما هاهنا ، والله أعلم . ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ مدينة إما دمشق ، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة ، أو اسكندرية كما رُوي عن القُرَظي (٢)، أو غيرهما ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ ، إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يُرَد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

---

(١) ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٠١) .

(٢) في أ : « القرطبي » .

وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها [(١)] لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها [(٢)] وأبوابها تَصفُر ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد ـ فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم فى جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب ـ وهو عبد الله بن قِلابة ـ في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه فى ابتغائها ، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذى قال فلم يروا شيئا .

وقد ذكر ابن أبى حاتم قصة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هاهنا مطولة جداً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابى فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال[(٣)] ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت [(٤)] واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويَطْنزُون بهم . والذى يجزم به أن فى الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة ، من ظفر بشىء منها أمكنه تحويله [(٥)] ، فأما على الصفة التى زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح فى ذلك شىء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب .

وقولُ ابن جرير : يحتمل أن يكون المراد بقوله :﴿ إِرَمَ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف فيه نظر ؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعنى : يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . ومنه يقال : « مُجتابى النّمار » . إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى:﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩] .

وأنشد ابن جرير وابن أبى حاتم هاهنا قولَ الشاعر :

---

(١) فى أ : « وأن حصباؤها » وهو خطأ .
(٢) فى م : « وسررها » .
(٣) فى م : « والخيال » .
(٤) فى م : « والياقوت » .
(٥) فى م : « تحويلها » .

ألا كُلّ شيء ــ ما خَلا الله ــ بائدٌ كَما بَاد حَيٌّ من شنيف ومارد

هُم ضَرَبُوا فى كُـلِّ صَمَّاء صَعَـدة بأيد شِدَاد أَيّدات السَّواعد [١]

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَاد﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حَديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . قال السدى: كان يربط الرجل ،كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه [٢] .

وقال قتادة : بلغنا أنه كانت له مَطَالٌ وملاعب ، يلعب له تحتها ، من أوتاد وحبال .

وقال ثابت البنانى ، عن أبى رافع : قيل لفرعون﴿ ذِى الأَوْتَاد ﴾ ؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وقوله :﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلاد . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإفساد والأذيَّة للناس ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى : أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يَرُدّها عن القوم المجرمين .

وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ : قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعنى : يرصد [٣] خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً ــ وفى إسناده نظر وفى صحته ــ فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا يونس الحذاء ، عن أبى حمزة البيسانى ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن لدى الحق أسير . يا معاذ ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلَّف جسر جهنم خلف ظهره . يا معاذ ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته ، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله ، عز وجل ، فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، وربه ، عز وجل ، من وراء ذلك كله بالمرصاد » [٤] .

قال ابن أبى حاتم : يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل . ولو كان عن أبى حمزة لكان حسناً . أى : لو كان من كلامه لكان حسناً . ثم قال ابن أبى حاتم :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١١٣) .

(٢) فى أ : « فشخده » . (٣) فى أ : « يراصد » .

(٤) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان ، عن أحمد بن أبى الحوارى به ، ورواه أبو نعيم فى الحلية (١/٢٦) من طريق عبد الملك بن أبى كريمة ، عن أبى حاجب ، عن عبد الرحمن، عن معاذ مرفوعاً بنحوه .

حدثنا أبى ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعى : أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر ــ قال : والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى ، فيقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال : فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك ، وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها ، وكيف خانوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصَلُوها وكيف قطعوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . قال : والرحم يومئذ متدلية إلى الهُوِىّ فى جهنم تقول : اللهم من وصلنى فَصِلْه ،ومن قطعنى فاقطعه . قال :وهى التى يقول الله عز وجل :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

هكذا أورد هذا الأثر ، ولم يذكر تمامه .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله ابن المبارك ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن سليمان ، عن زيد بن أبى عتاب [(١)] ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » ثم قال بأصبعه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » [(٢)] .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز ــ يعنى ابن أبى حازم ــ حدثنى أبى ، عن سهل ــ يعنى ابن سعد ــ أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن [(٣)] بين إصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام [(٤)] .

---

(١) فى م : « غياث » .

(٢) الزهد لابن المبارك برقم (٦٥٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٦٧٩) من طريق ابن المبارك ، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/١٦٥) : « هذا إسناد ضعيف ، يحيى بن سليمان ــ أبو صالح ــ قال فيه البخارى : منكر ، وقال أبو حاتم : مضطرب الحديث، وذكره ابن حبان فى الثقات » .

(٣) فى أ : « وفرق » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٥٠) وهو فى صحيح البخارى برقم (٦٠٠٥) من طريق ابن أبى حازم به .

﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعنى : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعنى : الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً ــ زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون [١] إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ [٢] فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات ، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة «سبحان» [٣]، فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفا .

وقوله : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن [٤] غياث ، حدثنا أبى ، عن العلاء بن خالد الكاهلى ، عن شقيق ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها » .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن عمر بن حفص ، به [٥]، ورواه أيضا عن عبد بن حُمَيد ، عن أبى عامر ، عن سفيان الثورى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ابن سلمة ــ وهو أبو وائل ــ عن عبد الله بن مسعود ، قوله ولم يرفعه [٦] . وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن مَروان بن معاوية الفزارى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قوله [٧] .

(١) فى أ : « يشفعون » .
(٢) فى م : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(٣) عند تفسير الآية : ٧٩ .
(٤) فى أ : « نبأنا » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٠) .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى ــ إن كان عاصيا ــ ويود لو كان ازداد من الطاعات ــ إن كان طائعا ــ كما قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله ــ يعنى ابن المبارك ــ حدثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن محمد بن أبى عَميرة ــ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ــ قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرماً فى طاعة الله ، لَحَقِرَه يوم القيامة ، ولودَّ أنه يُرَدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب .

ورواه بَحِيرُ بنُ سَعد ، عن خالد بن مَعْدانَ ، عن عتبة بن عبد ، عن رسول الله ﷺ [١] .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين [٢] . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ، فروى الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى عثمان ابن عفان . وعن بُرَيدة بن الحُصَيب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

وروى عنه أنه كان يَقرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى ».وكذا [٣] قال عكرمة والكلبى، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام:٦٢]، ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا [٤] إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر:٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدَّشْتَكِى، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى

---

(١) المسند (٤/ ١٨٥) .

(٢) فى أ : « والعالمين » . (٣) فى م : « وكذلك » .

(٤) فى م : « وأن مصيرنا » وهو خطأ .

قوله : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا . فقال : « أما إنه سيقال لك هذا » (١).

ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : إن هذا حسن . فقال له النبى ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن ابن يمان ، به . وهذا مرسل حسن (٢) .

ثم قال ابن أبى حاتم : وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزرى ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خَلْقه (٣) ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

رواه الطبرانى عن عبد الله بن أحمد عن أبيه ، عن مَرْوان بن شجاع ، عن سالم بن عجلان الأفطس ، به فذكره (٤) .

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروى ـ المعروف بشكَّر ـ فى كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَاث بن رزين أبى هاشم قال : أسرتُ فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعَرَض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه فى نهر هناك ، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان ـ يناديهم بأسمائهم ـ قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ . ثم غاص فى الماء ، [قال] (٥) ، فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رواحة بنت أبى عمرو الأوزاعى ، عن أبيها : حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى ، حدثنى أبو أمامة : أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل : اللهم ، إنى أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » (٦) .

ثم روى عن سليمان بن زَبْر أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمّه .

آخر تفسير سورة « الفجر » ولله الحمد [والمنة] (٧)

(١) ورواه ابن مردويه والضياء المقدسى فى المختارة كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٢) ورواه عبد بن حميد وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٣) فى م :« على خلقته » .

(٤) المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٨٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تاريخ دمشق (ص ١٠٠) « تراجم النساء » ط ـ المجمع العربى بدمشق ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١١٨) من طريق عبد الرحمن بن عبد الغفار ، عن رواحة بنت عبد الرحمن به .

(٧) زيادة من م ، أ .

/ سورة الفجر [٢٩٥ظ]

مكّيّة، وهي تسع وعشرون أو ثلاثون[١] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾

﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير، ١٨/٨١]. وقيل: المراد به صلاتُه.[٢]

﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ هنّ عشر ذي الحجّة، ولذلك فُسِّر ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ بفجر عرفةَ أو النحر، أو العشر الأواخر مِن رمضان. وتنكيرُها للتفخيم. وقُرئ: "وَلَيَالِ عَشْرٍ"[٣] بالإضافة على أنّ المراد بـ"العشر" الأيّام.

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أي: الأشياءِ كلّها شفعِها ووَترها، أو شفعِ هذه الليالي ووَترها، وقد رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسّرهما بيوم النحر ويوم عرفةَ،[٤] ولقد كثُرت فيهما الأقوال،[٥] والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. وقُرئ بكسر "الواو" وهما لغتان كـ"الحَبْر" و"الحِبْر". وقيل:[٦] ﴿ٱلۡوَتۡرِ﴾ بالفتح في العدد

---

١ س – أو ثلاثون.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٩/٣.

٤ بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٣٠٤/٥ (٣٤٦٨)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

٦ وفي هامش م: هذا على ما حكى يونس لغة أهل العالية. وفي الصحاح أنّها لغة أهل الحجاز وأمّا تميم فبالكسر فيهما. «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «وتر».

وبالكسر في الدَّخل.[١] وقُرئ: "وَالوَتِرِ"[٢] بفتح "الواو" وكسرِ "التاء".

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يمضي كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر، ٣٣/٧٤] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير، ١٧/٨١]. والتقييد لِما فيه مِن وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفورِ النعمة، أو يُسرى فيه مِن قولهم: "صلّى المقامُ"، أي: صُلّيَ فيه، وحُذِف "الياء" اكتفاءً بالكسر. وقُرئ بإثباتها على الإطلاق[٣] وبحذفها في الوقف خاصّة،[٤] وقُرئ: "يَسْرٍ" بالتنوين كما قُرئ: "والفَجْرٍ"، "والوَتْرٍ"،[٥] وهو التنوين الذي يقع بدلًا مِن حرف الإطلاق.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ﴾... إلخ، تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة شأن المقسَم بها وكونِها أمورًا جليلةً حقيقةً بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيهٌ على أنّ الإقسام بها أمر مُعتدٌّ به خليقٌ بأنْ يؤكَّد به الأخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٧٦/٥٦]. وذلك إشارة إمّا إلى الأمور المقسَم بها والتذكير بتأويل ما ذُكر كما مرّ تحقيقه، أو إلى الإقسام بها. وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الشرف والفضل، أي: هل فيما ذُكر مِن الأشياء قَسَم، أي: مُقسَم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يراه حقيقًا بأن يُقسَم به إجلالًا وتعظيمًا. والمراد تحقيق أنّ
[٢٩٦و] الكلّ كذلك، / وإنّما أُوثِرت هذه الطريقة هضمًا للحقّ وإيذانًا بظهور الأمر. أو هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسامٌ لذي حِجْر مقبولٌ عنده يَعتدّ به ويفعل مثلَه ويُؤكِّد به المقسَم عليه؟ والحِجْر: العقل؛ لأنّه يحجُر صاحبه، أي: يمنعه مِن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمّي عَقْلًا ونُهْيَةً؛ لأنّه يعقِل ويَنهى، وحصاةً أيضًا

---

[١] وفي هامش م: قال الأصمعي: الدحل: هوّة تكون في الأرض وفي أسافل الأودية، فيها ضِيقٌ ثمّ تتّسع. صحاح. | انظر: الصحاح للجوهري، «دحل».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون ويونس وعديّ، وابن موسى وختن ليث كلاهما عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٧.

[٣] قرأ بها ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدينار الأعرابي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

مِن الإحصاء وهو الضبط. قال الفرّاء: «يقال: "إنّه لذو حِجر" إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها».[١]

والمُقسَم عليه محذوف وهو "لَيُعَذَّبُنَّ"، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾... إلخ، فإنّه استشهاد بعِلمه عليه السلام بما يدلّ عليه مِن تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه السلام في الطغيان والفساد على طريقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة، ٢٥٨/٢]، وقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٢٥/٢٦]، كأنّه قيل: ألم تعلم علمًا يقينيًّا كيف عذّب ربّك عادًا ونظائرَهم، فيُعذِّب هؤلاء أيضًا لاشتراكهم فيما يُوجِبه مِن الكفر والمعاصي.

والمراد بعاد أولادُ عاد بن عُوص بن إرَمَ بن سام بن نوح عليه السلام قومِ هودٍ عليه السلام، سُمُّوا باسم أبيهم كما سمّي بنو هاشم هاشمًا. وقد قيل: لأوائلهم: عاد الأولى ولأواخرهم: عاد الأخيرة.[٢] قال عماد الدين بن كثير: كلّ ما ورد في القرآن خبرُ عادٍ الأولى إلّا ما في سورة الأحقاف.[٣]

وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لـ﴿عَادٍ﴾ للإيذان بأنّهم عاد الأولى بتقدير مضاف، أي: سبط إرَمَ، أو أهل إرَمَ على ما قيل: مِن أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها ويؤيّده القراءة بالإضافة، وأيًّا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث. وقرئ: "إِرْمَ" بإسكان "الراء" تخفيفًا،[٤] كما قرئ: "بِوَرْقِكُمْ".[٥]

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لـ﴿إِرَمَ﴾، أي: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم: "رجل عُمَدٌ وعُمَدانٌ" إذا كان طويلًا، أو ذاتِ الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويّين أهلَ عُمُد، أو ذاتِ البناء الرفيع، أو ذاتِ الأساطين، على أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم. وقُرئ: "إِرَمِ ذَاتِ العِمَادِ"،[٦] بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٢٦٠/٣؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.

٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٣/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٨.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزُّبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٦ظ] والإِرَم: العَلَم، أي: بعادٍ أهل أعلام ذات العماد، / على أنّها اسم بلدتهم. وقرئ: "أَرَمَّ ذَاتَ العِمَادِ"،[١] أي: جعلها الله تعالى رميمًا، بدلٌ مِن ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾. وقيل: هي جملة دعائيّة اعترضت بين الموصوف والصفة.[٢]

ورُوي أنّه كان لعادٍ ابنان شديد وشدّاد فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد وخَلُص الأمر لشدّاد، فمَلَك الدنيا، ودانَت له ملوكها، فسمع بذِكر الجنّة فقال: "أَبْني مثلَها"، فبنى إرَمَ في بعض صحاري عدَن في ثلاثمائة سنةٍ، وهي مدينة عظيمة، قصورها مِن الذهب والفضّة، وأساطينها مِن الزَّبَرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطَّردة. ولمّا تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحةً مِن السماء فهلَكوا.

وعن عبد الله بن قِلابةَ أنّه خرج في طلب إبل له فوقَع عليها فحمل ما قدر عليه ممّا ثمَّة وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره فقصّ عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرَمُ ذات العِماد، وسيدخلها رجل مِن المسلمين في زمانك أحمرُ أشقرُ قصيرٌ، على حاجبه خالٌ وعلى عقِبه خالٌ، يخرج في طَلَب إبل له، ثمّ التفت إلى ابن قِلابةَ فقال: هذا والله ذلك الرجل.[٣]

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفة أخرى لـ﴿إِرَمَ﴾ أي: لم يُخلَق مِثلهم في عِظَم الأجرام والقوّة، حيث كان طُول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحيّ فيُهلكهم، أو لم يُخلَق مِثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا. وقُرئ: "لَمْ يَخْلُقْ"[٤] على إسناده إلى الله تعالى.

﴿وَثَمُودَ﴾ عطفٌ على ﴿عَادٍ﴾ وهي قبيلة مشهورة سُمّيت باسم جدّهم ثمودَ أخي جَديس، وهما ابنا عامر بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربًا

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وشهر بن حوشب وعُبيد بن عُمير وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٩.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣١٦/٢٠.

٣ الخبر كلّه بزيادة تفصيل في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٢٩-٣٣١؛ وهو بلفظ جِدّ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّبير وعكرمةَ واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢.

مِن العاربة يسكنون الحِجر بين الحِجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد.
﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: قطعوا صخر الجبال / فاتّخذوا فيها بيوتًا نحتوها [٢٩٧و]
مِن الصخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء، ١٤٩/٢٦]. قيل: هم أوّل مَن نحَت الجبال والصخور والرُّخام، وقد بنَوا ألفًا وسبعمائة مدينةٍ كلّها مِن الحجارة.[١]

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ وُصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم، أو لتعذيبه بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة للمذكورين أو منصوب أو مرفوع على الذمّ، أي: طغى كلّ طائفة منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: بالكفر وسائر المعاصي.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنزل إنزالًا شديدًا على كلّ طائفة مِن أولئك الطوائف عَقيب ما فعلَتْ ما فعلت مِن الطغيان والفساد. ﴿رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: عذاب شديد لا يُدرَك غايته، وهو عبارة عمّا حلّ بكلّ منهم مِن فنون العذاب التي شُرحت في سائر السور الكريمة. وتسميتُه سوطًا للإشارة إلى أنّ ذلك بالنسبة إلى ما أُعدّ لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف.

والتعبير عن إنزاله بـ"الصبّ" للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنّه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جارٍ مَجراه في السيلان كالرمل والحبوب وإفراغِه بشدّة وكثرةٍ واستمرارٍ. ونسبتُه إلى "السَّوط" مع أنّه ليس مِن ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشيء المصبوب.

وقيل: السَّوط: خلطُ الشيء بعضِه ببعض، فالمعنى ما خُلط لهم مِن أنواع العذاب.[٢] وقد فُسِّر بالنصيب وبالشدَّة أيضًا؛ لأنّ السَّوط يُطلَق على كلّ منهما لغةً،[٣] فلا حاجةَ حينئذ في تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرُّر تعلُّقه بالمعذَّب، كما في المعنى الأوّل، فإنّ كلّ واحد مِن هذه المعاني ممّا يقبل الاستمرار في نفسه.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٣/٤.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣١/٣.
٣ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٣٢٢/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تعليل لِما قبله وإيذان بأنّ كفّار قومه صلّى الله عليه وسلّم سيُصيبهم مثلُ ما أصاب المذكورين مِن العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام. وقيل:[١] هو جواب القسَم وما بينهما اعتراضٌ. / والمِرصاد: المكان يترقّب فيه الرَّصَد،[٢] [٢٩٧ظ] "مِفعال" مِن "رَصَده" كـ"المِيقات" مِن "وَقَته". وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعُصاة وأنّهم لا يفوتونه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، متّصل بما قبله، كأنّه قيل: إنّه تعالى بصدَد مراقبة أحوال عباده ومُجازاتهم بأعمالهم خيرًا وشرًّا، فأمّا الإنسان فلا يُهمّه ذلك، وإنّما مَطمَح أنظاره ومَرصَد أفكاره الدنيا ولذائذُها. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: عامله معاملة مَن يبتليه بالغنى واليسار.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإكرام والتنعيم عين الابتلاء. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي: فضّلني بما أعطاني مِن الجاه والمال حسبما كنتُ أستحقُّه، ولا يخطر بباله أنّه فَضْل تفضّل به عليه ليبلوَه أيشكر أم يكفر، وهو خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و"الفاء" لِما في ﴿أَمَّا﴾ مِن معنى الشرط، والظرف المتوسّط على نيّة التأخير، كأنّه قيل: فأمّا الإنسان فيقول ربّي أكرمَنِ وقتَ ابتلائه بالإنعام. وإنّما تقديمُه للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الإكرام والتنعيم بطريق الابتلاء ليتّضح اختلالُ قوله المحكيّ.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: وأمّا هو إذا ما ابتلاه ربّه ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ ولا يخطر بباله

---

١ في هامش م: كواشي. «منه». | الوجه في تفسير الكواشي، ٥٨١ظ.

٢ في هامش م: جمع "راصد". «منه».

أنّ ذلك ليبلوَه أيصبر أم يجزَع مع أنّه ليس مِن الإهانة في شيء؛ بل التقتير قد يؤدّي إلى كرامة الدارين، والتوسِعةُ قد تُفضي إلى خُسرانهما.

وقرئ: "فَقَدَّرَ"[1] بالتشديد، وقرئ: "أَكْرَمَنِي" و"أَهَانَنِي" بإثبات "الياء"،[2] و"أَكْرَمَنْ" و"أَهَانَنْ"[3] بسكون "النون" في الوقف.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن مقالته المحكيّة وتكذيبٌ له فيها في كلتا الحالتين، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى لم أبتَلِهِ بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتلِه بالفقر لهوانه عليّ؛ بل ذلك لمَحض القضاء والقدر.[4] وحملُ الردع والتكذيب إلى قوله الأخير[5] بعيدٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ انتقال مِن بيان سوء أقواله إلى بيان سوءِ أفعاله، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديدًا للتقريع وتأكيدًا للتشنيع. / والجمع باعتبار معنى [٢٩٨و]
الإنسان؛ إذ المرادُ هو الجنس، أي: بل لكم أحوال أشدّ شرًّا ممّا ذُكر وأدلّ على تهالككم على المال حيث يُكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدُّون ما يلزمكم فيه مِن إكرام اليتيم بالمَبرّة به. وقرئ: "لَا يُكْرِمُونَ".[6]

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تتحاضّون"، أي: لا يحضّ بعضُكم بعضًا ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي: على إطعامه. وقُرئ: "تُحَاضُّونَ"[7] مِن المُحاضّة، وقُرئ: "يَحُضُّونَ" بـ"الياء"[8] و"التاء".[9]

---

[1] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[2] قرأ البزيّ ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢-٤٠١.

[3] قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه بإثبات الياء فيهما وصلًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[4] القول عن ابن عبّاس وقتادة بمعناه في **التفسير البسيط** للواحدي، ٥١٠/٢٣؛ وبلا عزو في **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٢١/٨؛ وهو بلفظه عن ابن عبّاس في **اللباب** لابن عادل، ٣٢٧/٢٠.

[5] ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[6] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الشّيرزي وخلف عن الكسائي وأبي بشر عن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥١٣؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٢٠.

[8] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[9] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: المِيراث، وأصله "وُرَاث"، ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذا لَمّ، أي: جَمْع بين الحلال والحرام، فإنّهم كانوا لا يورّثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءَهم، أو يأكلون ما جَمَعه المورث مِن حلال وحرام عالمين بذلك.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرًا مع حرص وشَرَهٍ. وقُرئ: "وَيُحِبُّونَ"[١] بـ"الياء".

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾... إلخ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلًا للردع، أي: إذا دُكَّت الأرض دَكًّا متتابعًا حتّى انكسر وذهب كلّ ما على وجهها مِن جبال وأبنية وقصور حين زُلزِلت وصارت هباءً منبثًّا. وقيل: الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط والتسوية،[٢] فالمعنى إذا سُوِّيت تسويةً بعد تسوية ولم يبقَ على وجهها شيء حتّى صارت كالصخرة الملساء، وأيًّا ما كان فهو عبارة عمّا عَرَض لها عند النفخة الثانية.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: ظهرت آيات قُدرته وآثار قَهْره، مُثِّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان مِن أحكام هيبته وسياسته. وقيل: جاء أمرُه تعالى وقضاؤه، على حذف المضاف للتهويل.[٣]

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفِّين أو ذوي صفوف، فإنّه ينزل يومئذ ملائكة كلّ سماء فيصطفُّون صفًّا بعد صفّ بحسب منازلهم ومراتبهم محدِقين بالجنّ والإنس.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ [الشعراء، ٢٦/٩١]. قال ابن مسعود ومقاتل: «تُقاد جهنّم بسبعين ألف زمام، كلُّ زمام / معه سبعون ألف مَلَك [٢٩٨ظ]

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٣٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٣١، وعزاه إلى الحسن.

يجرُّونها حتّى تُنصَب عن يسار العرش لها تغيُّظ وزفيرٌ».[١] وقد رواه[٢] مسلم في **صحيحه** عن ابن مسعود مرفوعًا.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: يتذكّر ما فرّط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه، على أنّ الأعمال تتجسّم في النشأة الآخرة، فيبرز كلّ مِن الحسنات والسيّئات بما يُناسبها مِن الصور الحسنة والقبيحة أو يتّعظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنّه ليس يتذكّر حقيقةً لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه في أوانه، و﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدَّم، و﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُ﴾ متعلّق بما تعلَّق به الخبرُ، أي: ومِن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها. وقيل: هناك مضاف محذوف،[٣] أي: وأنّى له منفعةُ الذكرى.[٤]

والاستدلال به على عدم وجوبِ قَبول التوبة في دار التكليف[٥] ممّا لا وجهَ له، على أنّ تذكّره ليس مِن التوبة في شيء، فإنّه عالم بأنّها إنّما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾، وهو بدل اشتمال مِن ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: ماذا يقول عند تذكُّره، فقيل: يقول:[٦] يا ليتني عمِلت لأجل حياتي هذه أو وقتَ حياتي في الدنيا أعمالًا صالحةً أنتفع بها اليوم. وليس في هذا التمنّي شائبةُ دلالةٍ على استقلال العبد بفعله، وإنّما الذي يدلّ عليه ذلك اعتقاد كونه متمكّنًا مِن تقديم الأعمال الصالحة، وأمّا أنّ ذلك بمَحض قُدرته[٧] أو بخَلْق الله تعالى عند صَرْف قدرته الكاسبة إليه فكلّا.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المحجور قد يتمنّى إن كان ممكنًا منه،[٨] فربّما يُوهِم أنّ مَن صرَف قدرته إلى أحد طرفَي الفعل يعتقد أنّه محجور مِن الطرف الآخر.

---

١ بلفظ قريب في **صحيح مسلم**، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٢)؛ و**سنن الترمذي**، ٧٠١/٤ (٢٥٧٣).

٢ في هامش م: لباب. | والكلام في **اللباب** لابن عادل، ٣٣٢/٢٠.

٣ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٤ التقدير في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٥ نُقل هذا الاستدلال في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٦ س - يقول.

٧ س + تعالى.

٨ الكلام في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

وليس كذلك؛ بل كلّ أحد جازم بأنّه لو صَرَف قدرته إلى أيّ طرف كان مِن أفعاله الاختياريّة لحَصَل، وعلى هذا يدور / فَلَك التكليف وإلزامُ الحجّة. [٢٩٩و]

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ يكون ما ذُكر مِن الأحوال والأقوال ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ "الهاء" لله تعالى، أي: لا يتولّى عذابَ الله تعالى ووثاقَه أحد سواه؛ إذ الأمر كلّه له أو للإنسان، أي: لا يعذِّب أحدٌ مِن الزبانية مثلَ ما يُعذِّبونه. وقُرئ الفعلان على البناء للمفعول، والضمير للإنسان أيضًا.

وقيل: المراد به أُبيّ بن خَلَف، أي: لا يُعذَّب أحدٌ مثلَ عذابه، ولا يُوثَق بالسلاسل والأغلال مثلَ وَثاقه لتناهيه في الكفر والعِناد.[١] وقيل: لا يُحمَّل عذابَ الإنسان أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام، ٦/١٦٤].[٢]

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ حكاية لأحوال مَن اطمأنّ بذِكر الله عزّ وجلّ وطاعته إثر حكاية أحوال مَن اطمأنّ بالدنيا، وُصِفت بالاطمئنان؛ لأنّها تترقّى في معارج الأسباب والمسبَّبات إلى المبدأ المؤثِّر بالذات فتستقرّ دون معرفته وتستغني به في وجودها وسائر شئونها عن غيرها بالكلّيّة.

وقيل: هي النفس المؤمنة المطمئنّة إلى الحقّ الواصلة إلى ثَلَج اليقين، بحيث لا يُخالِجها شكّ ما. وقيل: هي الآمنة التي لا يستفزُّها خوف ولا حَزَن،[٣] ويؤيّده أنّه قُرئ: "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الآمِنَةُ المُطْمَئِنَّةُ"،[٤] أي: يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلّم موسى عليه السلام، أو على لسان المَلَك عند تمام حساب الناس. وهو الأظهر. وقيل: عند البعث. وقيل: عند الموت.[٥]

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى موعده أو إلى أمره ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أُوتيت مِن النعيم المقيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ في زمرة عبادي الصالحين المختصّين بي.

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معهم أو انتظمي في سِلك المقرَّبين واستضيئي بأنوارهم، فإنّ الجواهر القدسيّة كالمرايا المتقابلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلنَّفْسُ﴾ الروح، والمعنى فادخلي أجساد عبادي التي فارقتِ عنها / وادخلي دارَ ثوابي.[1] وهذا يؤيّد كون الخطاب عند البعث. وقُرئ: "فَادْخُلِي فِي عَبْدِي"،[2] وقُرئ: "فِي جَسَدِ عَبْدِي".[3] وقيل: نزلت في حمزةَ بن عبد المطلب. وقيل: في خُبَيْب بن عَديّ رضي الله عنهما. والظاهر العموم.[4] [٢٩٩ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفجر في الليالي العَشر غُفر له، ومَن قرأها في سائر الأيّام كانت له نورًا يوم القيامة».[5]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٣/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٤ القولان وترجيح العموم في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٠/٢٩ (الفجر، ١/٨٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٨/٤ (الفجر، ١/٨٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٩

سُورَةُ الفَجْرِ

مكية أو مدنية، ثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والفَجرِ﴾ أي: فجرِ كُلّ يوم، ٢ ـ ﴿ولَيالٍ عَشْرٍ﴾ أي: عشر ذِي الحِجّة، ٣ ـ ﴿والشَّفعِ﴾: الزوجِ ﴿والوَتْرِ﴾، بفتح الواو وكسرها ....

سُورَةُ الفَجْرِ

قولُهُ: (أي: فَجرِ كُلِّ يومٍ) أو فجرِ عرفةَ، أو النَّحرِ، وعن ابن عبَّاسٍ[1] قال: الفجرُ: (المحرَّمُ)[2] هو فَجرُ السَّنَةِ.

قولُهُ: (عَشرِ ذِي الحِجَّةِ) كما أخرجَهُ أحمدُ والنَّسائيُّ عن جابرٍ مرفوعاً[3]، وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّه العَشرُ الأواخرُ من رمضانَ[4].

قولُهُ: (الزَّوجِ) وصحَّ عنه ﷺ: «أنَّ الشَّفعَ يومُ الأضحَى، والوترَ يومُ عرَفَةَ»[5].

قولُهُ: (وكَسرِهَا) حمزةُ والكسائيُّ[6].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٩٤)، وابن عساكر «تاريخ دمشق» (١/ ٥٢).

(٢) أي: شهر المحرم.

(٣) روى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٥١١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥١٧) عن جابر، قال رسول الله ﷺ: ﴿والفجر وليال عشر﴾، قال: «عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٥٠٢).

(٥) جاء ذلك في حديث جابر المتقدم.

(٦) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩).

لغتانِ: الفردِ، ٤ ـ ﴿واللَّيلِ إذا يَسْرِ﴾ مُقبلاً ومُدبرًا ـ ٥ ـ ﴿هَل في ذلِكَ﴾ القسمِ ﴿قَسَمٌ لِذِي حِجرٍ﴾: عقل؟ وجوابُ القسم محذوف أي: لتُعذَّبُنَّ، يا كُفّارَ مكّة.

٦ ـ ٧ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ، إرَمَ﴾ ـ هي عادٌ الأُولى. فإرمَ: عطف بيان أو بدل، ومُنِعَ الصرفَ للعلميّة والتأنيث ـ ﴿ذاتِ العِمادِ﴾، أي: الطولِ، كان طول الطويل منهم أربعَمِائةِ ذراع، ٨ ـ ﴿الَّتِي لَم يُخلَقْ مِثلُها في البِلادِ﴾ في بطشهم وقُوّتهم، ٩ ـ ﴿وثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا﴾: قطعوا ﴿الصَّخرَ﴾: جمع صخرة واتّخذوها بُيوتًا ﴿بِالوادِ﴾: وادي القُرى، ١٠ ـ ﴿وفِرعَونَ ذِي الأوتادِ﴾ ـ كان يَتِدُ أربعة أوتاد، يشدّ إليها يدَي ورجلَي مَن يُعذّبه ـ ١١ ـ ١٢ ـ ﴿الَّذِينَ طَغَوا﴾: تجبّروا ﴿في البِلادِ، فأكثَرُوا فِيها الفَسادَ﴾: القتل وغيره، ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿فصَبَّ علَيهِم رَبُّكَ سَوطَ﴾: نوعَ

قولُهُ: (الفَردِ) يعني: الأشياءَ كلَّها شفعَها ووترَها، أو شَفْعَ الصَّلاةِ ووترَها.

قولُهُ: (مُقبِلاً ومُدبِراً) والتَّقييدُ بذلك لما في التَّعاقُبِ من قوَّةِ الدَّلالةِ على كمالِ القُدرةِ ووفورِ النِّعمَةِ، وحذفُ الياءِ للاكتفاءِ بالكسرةِ تخفيفاً، وقد خصَّهُ نافعٌ وأبو عَمرو بالوقفِ لمراعاةِ الفواصلِ، ولم يحذِفها ابنُ كثيرٍ أصلاً[1].

قولُهُ: (القَسَمِ) أي: إقسامِ الله، أو المقسَمِ به.

وقولهُ تعالَى: (﴿قَسَم﴾) أي: حَلِفٌ، أو محلوفٌ به.

قولُهُ: (عَقْلٍ) يعتبرهُ ويؤكِّدُ به ما يريدُ تحقيقَهُ، وسمِّيَ العقلُ به؛ لأنَّهُ يحجرُ عمَّا لا ينبغِي، كما سمِّي عقلاً ونُهيَةً.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) أو: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالمِرصَاد﴾.

قولُهُ: (عَادٌ الأُولَى) يعني: أولادَ عادِ بن عوص بن إرَمَ بن سامِ بن نُوحٍ، قومِ هودٍ عليهِ السَّلام سمُّوا باسمِ أبيهِم.

قولُهُ: (عَطفُ بَيانٍ) على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: سِبطَ إرَمَ.

قولُهُ: (أي: الطولِ) أي: القُدودِ الطِّوالِ.

قولُهُ: (وغيرِهِ) من الكُفرِ والظُّلمِ.

قولُهُ: (نَوع) قيل: شُبِّهَ بالسَّوطِ ما أُحلَّ بهم في الدُّنيا؛ إشعاراً بأنَّه بالقياسِ إلى ما أعدَّ لهم في الآخرَةِ من العذابِ، كالسَّوطِ إذا قيسَ إلى السَّيفِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٣).

﴿عَذَابٍ - إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يرصد أعمال العباد، فلا يفوته منها شيء ليُجازيَهم عليها.

١٥ - ١٦ - ١٧ - ﴿فَأَمَّا الإِنسانُ﴾ الكافر، ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾: اختبره ﴿رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال وغيره ﴿وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّيَ أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ﴾: ضيّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّيَ أَهَانَنِ. كَلَّا﴾: ردعٌ، أي: ليس الإكرامُ بالغنى والإهانةُ بالفقر، وإنما هما بالطاعة والمعصية. وكُفّار مكّة لا يتنبهون لذلك. ﴿بَل لَا يُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ لا يُحسنون إليه مع غِناهم، أو لا يُعطونه حقّه من الميراث، ١٨ - ١٩ - ﴿وَلَا يَحُضُّونَ﴾ أنفُسَهم ولا غيرهم ﴿عَلَى طَعَامِ﴾ أي: إطعام ﴿الْمِسْكِينِ، وَيَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾: المِيراثَ ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أي: شديدًا، للَمِّهم نصيبَ النِّساء والصِّبيان من المِيراث مع نصيبهم منه، أو مع مالِهم، ٢٠ - ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، فلا يُنفقون. وفي قراءة بالفَوقانيّة، في الأفعال الأربعة.

قولُهُ: (يَرصُدُ) أي: بالمكانِ الذي يترتَّبُ فيه الرَّصدُ، وفي «القامُوسِ»[1]: المِرصاد: الطَّريقُ، والمكانُ يُرصَدُ فيه العدُوُّ؛ أي: يُرْقَب، وهو تمثيلٌ لإرصادِهِ العُصاةَ بالعِقابِ، ولذا فسَّرَهُ ابنُ عبَّاسٍ[2] بقولِهِ: أي: يسمَعُ ويَرى.

قولُهُ: (الكَافِرُ) قالَ ابنُ جريجٍ: نزلَتْ في أُميَّةَ بن خلفٍ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ، كذا في «المبهمات»[3].

قولُهُ: (اختبَرَهُ) بالغِنى واليُسرِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ)كالجاهِ والصِّحَّةِ.

قولُهُ: (ضَيَّقَ) وقرأ الشَّاميُّ بالتَّشديدِ[4].

قولُهُ: (لَيسَ الإِكرَامُ) أي: المعتبَرُ الإلهيُّ.

قولُهُ: (المِيرَاثِ) وأصلُهُ: وراثٌ.

قولُهُ: (أي: شَدِيداً) أو إذا جمعَ بين الحَلالِ والحرامِ.

قولُهُ: (أو مَعَ مَالِهِم) أو يأكلونَ ما جمعهُ المورِّثُ من حلالٍ وحرامٍ عالمينَ بذلك.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[5].

قولُهُ: (فِي الأَفعَالِ الأَربَعَةِ) إلا أنَّ الكوفيَّ: ﴿تَحَاضُّونَ﴾ بحذفِ إحدى التَّاءينِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٨٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩١٢).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٧).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٦١٢).

(٥) هذا وما بعده، انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩).

٢١ ـ ﴿كَلاَّ﴾: ردعٌ لهم عن ذلك، ﴿إذا دُكَّتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا﴾: زُلزِلَتْ حتّى ينهدمَ كُلّ بناء عليها وينعدم، ٢٢ ـ ﴿وجاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمرُه ﴿والمَلَكُ﴾ أي: الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: حالٌ أي: مُصطفّين أو ذوي صُفوف كثيرة، ٢٣ ـ ﴿وجِيءَ يَومَئذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تُقاد بسبعينَ ألفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمام بأيدي سبعينَ ألفَ ملَك، لها زفير وتغيّظ، ﴿يَومَئذٍ﴾: بدلٌ من «إذا»، وجوابُها: ﴿يَتَذَكَّرُ الإنسانُ﴾ أي: الكافر ما فرّط فيه ـ ﴿وأنّى لَهُ الذِّكرَى﴾؟ استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لا ينفعه تذكُّره ذلك ـ ٢٤ ـ ﴿يَقُولُ﴾ مع تذكّره: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿لَيتَني قَدَّمتُ﴾...

قولُهُ: (رَدعٌ) وما بعدَهُ وعيدٌ عليه.

قولُهُ: (كُلُّ بِنَاءٍ) بل كُلّ جبلٍ، والمعنى: دكًّا بعد دكٍّ.

قولُهُ: (أي: أَمرُهُ) أو ظهرَتْ آياتُ قُدرتِهِ وآثارُ قهرِهِ وعظمَتِهِ، مثّل ذلك بما يظهَرُ عندَ حُضورِ السُّلطانِ من آثارِ هيبتِهِ وسياستِهِ، ويمكنُ أن يكونَ كنايةً عن تجلّي الرَّبِّ بوصفِ القهاريَّةِ والجلاليَّةِ.

قولُهُ: (أي: المَلائِكَةُ) يعني: المرادُ بـ﴿الملَكُ﴾: الجنسُ.

قولُهُ: (ذَوِي صُفُوفٍ) بحسَبِ منازِلِهِم.

قولُهُ: (تُقَادُ) رَوى مسلِمٌ بمعناه[1].

قولُهُ: (أي: الكَافِرُ) الظَّاهرُ أنّه أعمُّ؛ يعني: يتذكَّرُ معاصيَهُ، أو يتَّعظُ؛ لأنّه يعلمُ قُبحها فيندَمُ عليها.

قولُهُ: (أي: لا يَنفَعُهُ) فالتَّقديرُ: أنّى له منفعةُ الذِّكرى؛ لئلا يُناقضَ ما قبله، قالَ القاضِي[2]: واستُدلَّ به على عدمِ وجوبِ قبولِ التَّوبةِ، فإنَّ هذا التَّذكُّرَ توبةٌ غير مقبولَةٍ، قلتُ: من شرائطِ صحَّةِ التَّوبةِ وجودُ الغَيبِ وعدمُ العيانِ، فإنَّ توبَةَ اليأسِ غيرُ مقبولةٍ بالإجماعِ، وقالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبَلُ توبَةَ العَبدِ ما لَم يُغرغِر»[3]، وقالَ تعالَى: ﴿ولَيسَتِ التَّوبَةُ للَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ الآية [النساء: ١٨]، وأمَّا وجوبُ القَبولِ فليسَ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ، نعم إذا وُجدت وتحقَّقَت شرائطُ صحَّةِ التَّوبةِ يمتنعُ عدمُ القبولِ للزُومِ التَّخلُّفِ في خبرِهِ تعالى بقولِهِ: ﴿وهوَ الذي يَقبَلُ التَّوبَةَ عن عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، واللهُ تعالى أعلمُ.

---

(١) روى مسلم (٢٨٤٢) عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣١١).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٦١٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

الخيرَ والإيمان ﴿لِحَيَاتِي﴾ الطيّبة في الآخرةِ، أو وقتِ حياتي في الدنيا.

٢٥ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ﴾، بكسر الذال، ﴿عَذَابَهُ﴾ أي: اللهِ ﴿أَحَدٌ﴾ أي: لا يَكِلُه إلى غيره، ٢٦ ـ ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يُوثِقُ﴾، بكسر الثاء، ﴿وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾. وفي قراءة بفتح الذال والثاء، فضمير «عذابَه» «ووثاقَه» للكافر، والمعنى: لا يُعذَّب أحدٌ مِثلَ تعذيبه، ولا يُوثَق مثلَ إيثاقه.

٢٧ ـ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: الآمنةُ ـ وهي المُؤمنة ـ ٢٨ ـ ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ ـ يقال لها ذلك عند الموت ـ أي: ارجعي إلى أمره وإرادته، ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عِند الله بعملك، أي: جامعةً بين الوصفين ـ وهما حالان ـ ويقال لها في القِيامة: ٢٩ ـ ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ جُملة ﴿عِبَادِي﴾ الصالحين ٣٠ ـ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

قولُهُ: (الخَيرَ والإِيمَانَ) الأولى: تقديمُ الإيمانِ.

قولُهُ: (الطَّيِّبَةِ)؛ أي: لحياتي هذه، قالَ القاضِي[1]: وليسَ في هذا التَّمنِّي دَلالَةٌ على استقلالِ العَبدِ بفعله، فإنَّ المحجورَ عن الشَّيءِ قد يتمنَّى أن كان مُمكَّناً فيه، قلت: قالَ تعالَى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للكِسائيِّ[2].

قولُهُ: (الآمِنَةُ) التي لا يستفِزُّها خَوفٌ ولا حُزنٌ، وقد قرئَ بهما[3]، و﴿المطمَئِنَّةُ﴾ التي اطمأنَّتْ بذكرِ اللهِ، أو إلى الحقِّ، وقيل: هي العارفَةُ بالله تعالى التي لا تصبِرُ عنه طَرفَةَ عينٍ، وقيل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمَئِنَّةُ﴾ بالدُّنيا ﴿ارجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ بتَركِها.

قولُهُ: (إِلى أَمرِهِ) أو موعدِهِ بالموتِ، أو بالبعثِ.

قولُهُ: (جُملَة) أو أجسادِ عبادِي التي فارَقْتِ عنها، والله أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣١١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٥).

(٣) أي: (يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة)، وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٧٤).

سُورَةُ الفَجْرِ

مكيةٌ في قول الجمهور، وقال عليُّ بن أبي طلحة: مدنيةٌ. وآيها اثنتان وثلاثون آيةً في الحجازي، وثلاثون في الكوفي والشامي، وتسعٌ وعشرون في البصري[1].

ولمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ أتبعه تعالى بذِكْرِ الطوائف المكذِّبين من المتجبِّرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار جلَّ شأنه إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله سبحانه فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾. وأيضاً فيها ما يتعلَّقُ بأمر الغاشية ما فيها.

وقال الجلال السيوطيُّ: لم يظهر لي في وجه ارتباطها سوى أنَّ أوَّلها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها، أو على ما تضمَّنته من الوعد والوعيد، هذا مع أنَّ جملة «ألم تر كيف فعل ربك» مشابِهةٌ لجملة «أفلا ينظرون»[2]. وهو كما ترى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ أقسم سبحانه بالفجر، كما أقسم عزَّ وجلَّ بالصبح في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] فالمراد به الفجر المعروف كما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن الزبير وغيرهم ﷺ. وقيل: المراد عموده وضوءُه الممتدُّ.

---

(١) جاء في هامش الأصل: اختلافها أربع آيات: «ونعَّمه» «فقدر عليه رزقه» كلتاهما حجازي، «بجهنم» حجازي شامي، «في عبادي» كوفي.

(٢) تناسق الدرر ٩٥-٩٦.

وأصله شَقُّ الشيءِ شَقًّا واسعاً، وسُمِّيَ الصبحُ فجراً لكونه فاجرَ الليل، وهو كاذبٌ: لا يتعلَّقُ به حُكْمُ الصوم والصلاة، وصادقٌ: به يتعلَّقُ حكمهما، وقد تكلَّموا في سبب كلٍّ بما يطول، وتقدَّم بعضٌ منه.

ولعلَّ المراد به هنا الصادقُ، فهو أحرى بالقَسَم به، والمراد به عند كثيرٍ جنسُ الفجر، لا فجرُ يومٍ مخصوص، وعن ابن عباس ومجاهد: فجرُ يوم النحر، وعن عكرمة: فجرُ يوم الجمعة، وعن الضحاك: فجرُ ذي الحجة، وعن مقاتل: فجرُ ليلة جَمْعٍ.

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقيُّ في «الشعب» عن ابن عباس أنه قال: هو فجرُ المحرَّم فجر السنة[1]. وروي نحوه عن قتادة.

وعن الحبر أيضاً أنه النهار كلُّه.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً أنه قال: يعني صلاةَ الفجر[2]. وروي نحوه عن زيد بن أسلم. فهو إما على تقدير مضافٍ، أو على إطلاقه على الصلاة مجازاً، وهو شائعٌ.

وقيل: المراد فَجْرُ العيون من الصخور وغيرها.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ هُنَّ العشر الأُوَلُ من الأضحى كما أخرجه الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس[3]، وروي عن ابن الزبير ومسروق ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم، وأخرج ذلك أحمد والنسائيُّ والحاكم وصححه والبزار وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن جابرٍ يرفعه[4].

---

(١) شعب الإيمان (٣٧٧١).

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٤.

(٣) المستدرك ٢/ ٥٢٢، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٦.

(٤) أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦) و(١١٦٠٨)، وابن جرير ٢٤/ ٣٤٨، والبيهقي في الشعب (٣٧٤٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧: رواه البزار وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

ولها من الفضل ما لها، وقد أخرج أحمد والبخاريُّ عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام فيهنَّ العملُ أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ وأفضلُ من أيام العشر» قيل يا رسول الله: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ جاهدَ في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[١].

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنهنَّ العشرُ الأواخر من رمضان[٢]. وروي أيضاً عن الضحاك، بل زعم التبريزيُّ الاتفاقَ على أنهنَّ هذه العشر، وأنه لم يخالف فيه أحدٌ، واستدلَّ له بعضُهم بالحديث المتفق على صحته، قالت عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العَشْرُ ـ تعني العشر الأواخر من رمضان ـ شَدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٣]. وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ ذلك محتمِلٌ لأنْ يَحْظَى عليه الصلاة والسلام بليلة القدر؛ لأنها فيها، لا لكونها العشرَ المرادةَ هنا.

وعن ابن جريج: أنهنَّ العشر الأول من رمضان.

وعن يمان وجماعة: أنهنَّ العشرُ الأول من المحرَّم، وفيها يومُ عاشوراء، وقد وَرَدَ في فضله ما ورد.

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ واليهودُ تصومُ يوم عاشوراء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا اليوم الذي تصومونه» قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، أنجى الله تعالى فيه موسى، وأغرق آل فرعون فيه، فصامه موسى عليه السلام شكراً. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحقُّ بموسى منكم» فصامه ﷺ، وأمر بصيامه[٤].

---

(١) مسند أحمد (١٩٦٨)، وصحيح البخاري (٩٦٩).

(٢) الدر المنثور ٦/٣٤٦، وذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: والصحيح القول الأول.

(٣) أحمد (٢٤١٣١)، والبخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٤) البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠). وهو عند أحمد (٢٦٤٤).

وصحَّ في الصحيحين(١) أنه عليه الصلاة والسلام أرسل غداةَ عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حولَ المدينة: «مَنْ كان أصبحَ صائماً فليتمَّ يومه، ومن كان أصبح مفطراً فليصمْ بقيةَ يومه» فكان الصحابةُ بعد ذلك يصومونه ويُصوِّمونه صبيانهم الصغار، ويذهبون بهم إلى المسجد، ويجعلون لهم اللعبة من العِهْن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار.

وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود، وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً»(٢).

وجاء في الأمر بالتوسعة فيه على العيال عِدَّةُ أحاديثَ ضعيفة(٣)، لكن قال البيهقيُّ: هي وإن كانت ضعيفة، إذا ضُمَّ بعضُها إلى بعضٍ أحدثَ قوةً(٤).

وأيًّاما كان فتنكيرها للتفخيم، وقيل: للتبعيض؛ لأنها بعضُ ليالي السنة أو الشهر. والتفخيمُ أَوْلَى؛ قيل: ولولا قَصْدُ ما ذُكِرَ كان الظاهرُ تعريفَها كأخواتها؛ لأنها ليالٍ معهودةٌ معيَّنةٌ.

وقَدَّرَ بعضُهم على إرادة صلاة الفجر فيما مرَّ مضافاً هنا، أي: وعبادةِ ليالٍ، ويقال نحوُه فيما بعدُ على بعض الأقوال فيه، وليس بلازمٍ، ولا أثرَ فيه.

وقرأ ابن عباس بالإضافة(٥)، فضبطه بعضُهم: وليالِ عَشْرٍ. بلام دون ياء، وبعضُهم: وليالي عشر بالياء، وهو القياسُ. والمراد: وليالي أيامِ عَشْرٍ، فحُذِفَ

---

(١) البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦) من حديث الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ رضي الله عنها.

(٢) أحمد (٢١٥٤)، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة (٢٠٩٥)، والبيهقي ٤/ ٢٨٧.

(٣) منها ما أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٧٣) و(٩٧٤) من حديث ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، ثم قال: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ في حديث مسند. وقال الدارقطني في الأفراد بعد أن أخرجه من حديث ابن عمر: إنما يعرف هذا عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر من قوله. ينظر الأمالي المطلقة لابن حجر ص ٢٨-٣٠، وينظر كذلك تخريج هذا الحديث والكلام عليه في حاشية كشاف القناع ٥/ ٣٢٢.

(٤) شعب الإيمان بعد الحديث (٣٧٩٥).

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٧.

الموصوفُ وهو المعدودُ، وفي مثل ذلك يجوزُ التاء وتَرْكُها في العدد، ومنه: «وأتْبعَه بستٍّ من شوال»[1]، وما حكاه الكسائيُّ: صُمْنا من الشهر خمساً. والمرجِّحُ للترك هاهنا وقوعُهُ فاصلةً.

وجُوِّزَ أن تكونَ الإضافةُ بيانيةً، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ هما على ما في حديث جابر المرفوع الذي أشرنا إليه فيما تقدم: «يوم النحر ويوم عرفة».

وقال الطيبيُّ: رُوِّينا عن الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الشفع والوتر، فقال: «الصلاة بعضُها شَفْعٌ وبعضُها وَتْر»[2] ثم قال: هذا هو التفسيرُ الذي لا محيد عنه. انتهى.

وقد رواه عن عمران أيضاً عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم [والحاكم] وصححه[3]، لكن في «البحر»[4] أنَّ حديث جابر أصحُّ إسناداً من حديث عمران بن حصين.

ووراء ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، فأخرج عبد بن حميد[5] عن الحسن أنه قال: أقسمَ ربُّنا بالعَدَدِ كُلِّه، منه الشفعُ ومنه الوتر.

وأخرج عبد الرزاق[6] عن مجاهد أنه قال: الخلقُ كلُّه شَفْعٌ ووتر، فأقسم سبحانه بخلقه.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١١٦٤)، وأبو داود (٢٤٣٣)، والترمذي (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦) عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

(٢) سيأتي تخريجه لاحقاً.

(٣) الدر المنثور ٦/٣٤٦، وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٩٩١٩)، وسنن الترمذي (٣٣٤٢)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٤، والمستدرك ٢/ ٥٢٢، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٤) ٨/ ٤٦٨.

(٥) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٦.

(٦) في تفسيره ٢/ ٣٦٩.

وأخرج ابن المنذر وجماعة[1] عنه أنه قال: الله تعالى الوَتْرُ، وخَلْقُهُ سبحانه الشفع: الذَّكَرُ والأنثى.

وروي نحوه عن أبي صالحٍ ومسروق، وقرأا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقيل: المراد شَفْعُ تلك الليالي وَوَتْرُها.

وقيل: الشَّفْعُ أيامُ عادٍ، والوتر لياليها.

وقيل: الشفع أبوابُ الجنة، والوتر أبواب النار.

وقيل غيرُ ذلك، وقد ذكر في كتاب «التحرير والتحبير» مما قيل فيهما سِتّةً وثلاثين قولاً.

وفي «الكشاف»[2]: قد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل جديرٌ بالتلهِّي عنه.

وقال بعض الأفاضل: لا إشعار للفظ الشفع والوتر بتخصيص شيءٍ مما ذكروه وتعيينه، بل هو إنما يدلُّ على معنًى كُلِّيٍّ متناولٍ لذلك، ولعلَّ مَنْ فسَّرهما بما فسَّرهما لم يَدَّعِ الانحصارَ فيما فسَّر به، بل أفرد بالذكر من أنواع مدلولهما ما رآه أظهرَ دلالةً على التوحيد، أو مدخلاً في الدين، أو مناسبةً لما قبلُ أو لما بعدُ، أو أكثر منفعةً موجبةً للشكر، أو نحو ذلك من النُّكات، وإذا ثبت من الشارع عليه الصلاة والسلام تفسيرُهما ببعض الوجوه، فالظاهرُ أنه ليس مبنيًّا على تخصيص المدلول، بل واردٌ على طريق التمثيل بما رأى في تخصيصه بالذكر فائدةً معتدًّا بها، فحينئذٍ يجوز للمفسِّر أن يحملَ اللَّفظَ على بعضٍ آخر من محتملاته لفائدةٍ أخرى. انتهى.

وهو ميلٌ إلى أنَّ «أل» فيهما للجنس لا للعهد، والظاهرُ أنَّ ما تقدَّم من

(١) كما في الدر المنثور ٦/٣٤٦.
(٢) ٤/٢٤٩.

الحديثين من باب القَطْع بالتعيين دون التمثيل، لكن يُشكِلُ أمرُ التوفيق بينهما حينئذٍ، وإذا صحَّ ما قال في «البحر» كان المعوَّلُ عليه حديثَ جابرٍ ﷺ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأغرُّ عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلافٍ عنه: «والوِتْر» بكسر الواو[1]، وهي لغةُ تميم، والجمهورُ على فَتْحها، وهي لغة قريش، وهما لغتان كالحَبْر والحِبْر بمعنى العالم على ما قال صاحب «المطلع» في الوتر المقابل للشفع، وأما في الوتر بمعنى التِّرَة، أي: الحقد، فالكسرُ هو المسموعُ وحده، والأصمعيُّ حكى فيه أيضاً اللُّغتين.

وقرأ يونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء[2]، وهو إما لغةٌ، أو نقل حركة الواو في الوقف لما قبلها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ أي: يمضي، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] والظاهر أنه مجازٌ مرسلٌ أو استعارةٌ، ووجهُ الشبه كالنهار.

و«إذا» على ما صرَّح به العلامة التفتازاني في «التلويح» بدلٌ من «الليل»، وخروجُها عن الظرفية مما لا بأس به، أو ظرفٌ متعلِّقٌ بمضافٍ مقدَّرٍ، وهو العَظَمةُ على ما اختاره بعضُهم. والإقسامُ بذلك الوقت أو تقييدُ العظمة به؛ لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة.

أو: يُسْرَى فيه، على ما نقل أبو حيان عن الأخفش وابن قتيبة[3]، كقولهم: صلَّى المقام، أي: صلِّي فيه، على أنه تجوُّزٌ في الإسناد بإسناد ما للشيءِ للزمان كما يُسنَدُ للمكان.

وأيَّاما كان فالمرادُ بالليل جنسُهُ. وقال مجاهدٌ وعكرمةُ والكلبيُّ: المراد به ليلة

---

(١) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن حمزة والكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٧.

(٢) أي: الوَتِر. ينظر الكشاف ٤/ ٢٩٤، والبحر ٨/ ٤٦٨.

(٣) البحر ٨/ ٤٦٨، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص ٥٢٦.

النحر، وهي يسري الحاجُّ فيها إلى المزدلفة بعد الإفاضة من عرفات. وليس بذاك.

والإقسامُ والتقييدُ على الوجه الأخير لما في السَّير في الليل من نعمة الحفظ من حَرِّ الشمس وشَرِّ قُطَّاع الطريق غالباً.

وحُذفتِ الياءُ عند الجمهور وَصْلاً وَوَقْفاً من آخر «يسر» ـ مع أنها لامُ مضارعٍ غيرِ مجزوم ـ اكتفاءً عنها بالكسرة للتخفيف، ولتتوافق رؤوس الآي، ولذا رُسمتْ كذلك في المصاحف، ولا ينبغي أن يُقال: إنها حُذِفتْ لسقوطها في خَطِّها، فإنه يقتضي أنَّ القراءةَ باتباع الرسم دون روايةٍ سابقةٍ عليه، وهو غيرُ صحيح.

وخَصَّ نافعٌ وأبو عمرو في روايةٍ هذا الحذفَ بالوقف لمراعاة الفواصل[1]، ولم يَحذِفْ مطلقاً ابنُ كثير ويعقوب[2].

وفي «تفسير البغوي»: سُئل الأخفشُ عن عِلَّة سقوط ياء «يسر»، فقال: الليل لا يسري، ولكن يُسرَى فيه[3]. وهو تعليلٌ كثيراً ما يُسأَلُ عنه لخفائه، والجواب أنه أراد أنه لَمَّا عُدِلَ عن الظاهر في المعنى وغُيِّرَ عمَّا كان حَقُّهُ معنًى غُيِّر لفظُهُ؛ لأنَّ الشيءَ يَجُرُّ جنسه لإلفه به: إن الطيور على أمثالها تقع[4]، وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] أنه لـمَّا عُدِلَ عن «باغية» أُسقطت منه التاء، ولم يقلْ: بَغيَّة، ومثله من بدائع اللغة العربية.

ويمكن التعليل بنحوه على تفسير «يسر» بـ: يمضي؛ لما فيه من العدول عن الظاهر في المعنى أيضاً؛ لما[5] علمت من أنه مجازٌ في ذلك.

وقرأ أبو الدينار الأعرابي: «والفجرٍ والوترٍ ويسرٍ» بالتنوين في الثلاثة؛ قال ابن خالويه[6]: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وَقَفَ على أواخر القوافي بالتنوين،

(١) التيسير ص ٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠، وخَصَّهُ بذلك أيضاً أبو جعفر.
(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٥٧، والكلام منه.
(٤) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٣٦٣، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٤٤٢.
(٥) قوله: لما، ساقط من (م).
(٦) في القراءات الشاذة ص١٧٣.

وإن كانت أفعالاً أو فيها «أل»، نحو قوله:

أَقِلِّي اللومَ عاذلَ والعتاباً وقولي إنْ أصبتُ لقد أصاباً[١]

انتهى. وهذا كما قال أبو حيانٍ: ذكره النحويون في القوافي المطلقة - يعني المحرَّكة - إذا لم يترنَّمِ الشاعرُ، وهو أحد وجهين للعرب إذا لم يترنَّموا[٢]. والوجهُ الآخر الوقف، فيقولون: «العتاب» و«أصاب» كحالهم إذا وقفوا على الكلمة في النثر. وهذا الأعرابيُّ أجرى الفواصل مجرى الوقف، وعاملَها معاملةَ القوافي المطلقة، ويُسمَّى هذا التنوينُ تنوينَ الترنُّم[٣]، ولا اختصاصَ له بالاسم، ويغلبُ على ظنِّي أنه قيلَ: يُكتَبُ نوناً، بخلاف أقسام التنوين المختصَّة بالاسم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلخ تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة الأشياء المذكورة المُقْسَم بها، وكونها مستحقَّةً لأن تُعظَّم بالإقسام بها، فيدلُّ على تعظيم المُقْسَم عليه وتأكيده من طريق الكناية، فذلك إشارةٌ إلى المُقْسَم به. وما فيه من معنى البعد لزيادة تعظيمه، أي: هل فيما ذُكِرَ من الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مُقْسَمٌ به ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: هل يحقُّ عنده أن يُقْسَم به إجلالاً وتعظيماً، والمراد تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلك، وإنما أُوثرت هذه الطريقةُ هَضْماً للحق وإيذاناً بظهور الأمر، وهذا كما يقول المتكلِّمُ بعد ذِكْرِ دليلٍ واضحِ الدلالة على مُدَّعاه: هل دلَّ هذا على ما قلناه.

وجُوِّزَ أن يكون التحقيق أنَّ ذوي الحجر يؤكِّدون بمثل ذلك المُقْسَم عليه، فيدلُّ أيضاً على تعظيمه وتأكيده، فـ «ذلك» إشارةٌ إلى المصدر، أعني: الإقسام، أي[٤]: هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسامٌ لذي حِجْر مقبولٌ عنده يعتَدُّ به ويفعلُ مثله ويؤكِّد به المقسَمَ عليه.

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨١٣. وجاء في (م): والعتابن... أصابن.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٧.

(٣) وقد عاب بعضهم قول النحويين: تنوين الترنم، وقال: ينبغي أن يسموه بـ : تنوين ترك الترنم. الدر المصون ١٠/ ٧٧٨.

(٤) قوله: أي، ساقط من (م).

وحاصل الوجهين فيما يَرْجِعُ إلى تأكيد المُقْسَم عليه واحدٌ، إلا أنَّ الوجهَ مختلفٌ كما لا يخفى، ولعلَّ الأولَ أظهرُ.

والحِجْرُ: العقل؛ لأنه يَحجُرُ صاحبه، أي: يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنه يَعقِلُ وينهى، وحصاةً من الإحصاء، وهو الضبط. وقال الفراء: يقال: إنه لذو حجر، إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها[(١)].

والمقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو «لَيُعذِّبَنَّ» كما يُنبئ عنه قوله تعالى شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ إلخ فإنه استشهادٌ بعلمه ﷺ بما يدلُّ عليه من تعذيب عادٍ وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام في الطُّغيان والفساد، على طريقة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨] وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥].

وقال أبو حيان: الذي يظهرُ أنه محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ وتقديره: لَإيابُهم إلينا وحسابُهم علينا[(٢)].

وأخرج ابن المنذر[(٣)] عن ابن مسعود ﷺ أنه قرأ: (وَٱلْفَجْرِ) إلى قوله سبحانه: (إِذَا يَسْرِ) فقال: هذا قَسَمٌ على أنَّ ربك لبالمرصاد. وإلى أنه هو المقسَمُ عليه ذهب ابن الأنباري.

وعن مقاتل أنه: «هل في ذلك» إلخ، و«هل» بمعنى «إنَّ». وهو باطلٌ روايةً ودرايةً؛ إذ يبقى عليه قَسَمٌ بلا مُقْسَمٍ عليه.

والمراد بعادٍ أولاد عاد بن عاص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هودٍ عليه السلام، سُمُّوا باسم أبيهم كما سُمِّي بنو هاشم هاشماً، وإطلاقُ الأب على نَسْله مجازٌ شائعٌ، حتى أُلحق بعضُهُ بالحقيقة، وقد قيل لأوائلهم: عادٌ الأولى، ولأواخرهم: عادٌ الآخرة. قال عماد الدين بن كثير: كلما ورد في القرآن خبرُ عادٍ،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٨.

(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

فالمراد بعادٍ فيه عادٌ الأولى، إلا ما في سورة الأحقاف[١]. ويقال لهم أيضاً: «إرم» تسميةً لهم باسم جَدِّهم، والتسميةُ بالجدِّ شائعةٌ أيضاً، وهو اسمٌ خاصٌّ بالأولى، وعليه قول ابن الرقيات:

مـجـداً تـلـيـداً بـنـاهُ أوَّلُـه أدْرَكَ عـاداً وقـبـلـهـا إرمـا[٢]

ونحوه قول زهير:

وآخـريـن تـرى الـمـاذيَّ عـدَّتَـهـم مـن نَـسْـجِ داودَ أو مـا أورثـتْ إرَمُ[٣]

فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عَطْفُ بيانٍ لعاد؛ للإيذان بأنهم عادٌ الأولى، وجُوِّزَ أن يكون بدلاً، ومُنِعَ من الصرف للعَلَمية والتأنيث باعتبار القبيلة، وصُرِفَ «عادٌ» باعتبار الحيِّ، وقد يُمنَعُ من الصَّرْف باعتبار القبيلة أيضاً، وقرأ الضحاك بذلك في إحدى الروايتين عنه[٤]. ورُجِّحَ اعتبارُ الصَّرْف فيه بخفَّته لسكون وسطه، وقَدَّرَ بعضُهم مضافاً في الكلام، أي: سِبْط إرم، وجُعل إرم عليه اسم أمِّهم، وهو قولٌ فيه حكاه في «القاموس»[٥]، وَوَجْهُ مَنْع الصرف فيه ظاهرٌ، وأبى بعضُهم إلا جَعْلَهُ اسم جَدِّهم، ومعنى كونهم سِبْطه أنهم وَلَدُ ولده، ولا يظهرُ على هذا عِلَّةُ مَنْع صَرْفه، ولعلَّ ذلك هو الذي دعا إلى جَعْله اسمَ أُمِّهم، لكن رأيتُ في تعليقات بعض الأفاضل[٦] على «الحواشي العصامية على تفسير البيضاوي» أنَّ إرمَ إنما مُنِعَ من الصرف ـ سواءٌ كان اسماً للقبيلة أم لجدِّها ـ للعَلَمية والعُجْمة، وقال: إنهما موجودتان في عادٍ أيضاً، إلا أنه لكونه ثلاثيًّا ساكنَ الوسط يجوزُ فيه الأمران؛ الصرفُ وعَدَمُهُ، وزعم أنَّ هذا هو الحقُّ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ...﴾ [الآية: ٢١]، وينظر البداية والنهاية ١/ ٣٠٣.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥.

(٣) ديوان زهير ص١٥٨، وجاء في الأصل و(م): إرما. والمثبت من الديوان. قال شارحه: الماذيُّ: الدروع السهلة اللينة.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٥) مادة (أرم).

(٦) في هامش الأصل: محيي الدين.

وبكونه اسمَ القبيلة قال مجاهد وقتادة وابن إسحاق، ولا حاجة معه إلى تقدير مضافٍ، فقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ صفةٌ لـ «إرم» نفسها، والمراد: ذاتُ القُدود الطِّوال، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم: مُعْمَدٌ وعُمُدَّان[1]: إذا كان طويلاً، ورُوي هذا عن ابن عباس ومجاهد.

واشتهر أنه كان قَدُّ أحدهم اثني عشر ذراعاً وأكثر، وفي «تفسير الكواشي»: قالوا: كان طول الطويل منهم أربعَ مئة ذراع، وكان أحدهم يأخذ الصخرةَ العظيمةَ فيقلبها على الحيِّ فيهلكهم.

وعن قتادة وابن عباس في رواية عطاء: المراد: ذاتُ الخيام والأعمدة، وكانوا سيَّارةً في الربيع، فإذا هاج النَّبْتُ رجعوا إلى منازلهم. وقال غير واحد: كانوا بدويين أهلَ عَمَدٍ وخيام يسكنونها حلًّا وارتحالاً.

وقيل: المراد: ذاتُ الرِّفعة، أو: ذات الوقار، أو: ذات الثَّبات وطول العمر، والكلُّ على الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ صفةٌ أخرى لها، أي: لم يُخْلَقْ مثلُهم في عِظَم الأجرام والقوة في بلاد الدنيا، وقد سمعتَ ما نُقل عن الكواشي آنفاً، وما ذكر فيه من أنه كان أحدُهم.. إلخ جاءَ في حديثٍ مرفوعٍ أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معد يكرب[2].

وقيل: إرم: اسمُ مدينةٍ لهم. قال محمد بن كعب: هي الإسكندرية. وقال ابن المسيب والمقبُريّ: هي دمشق.

وقيل: اسمُ أرضهم، وهي بين عُمان وحضرموت، وهي أرض رمالٍ وأحقافٍ، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وبهذا اعتُرض القول بأنَّ مدينتهم الإسكندرية والقول بأنها دمشق، حيث إنهما ليستا

---

(١) مُعْمَد كمُكْرَم، وعُمُدّان كجُلُبّان.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤٧، وذكره عن ابن أبي حاتم أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن المقدام.

من بلاد الأحقاف والرمال، إلا أن يقالَ: ما هنا عادُ الأولى، وما في آية «الأحقاف» عادُ الآخرة، ويلتزمُ عَدَمُ اتحاد منازلهما.

وعلى القول بكونه اسم مدينتهم أو اسم أرضهم، فهو بتقدير مضافٍ لتصحيح التبعية، أي: أهلُ إرَمَ. وقيل: يُقدَّرُ مضافٌ في جانب المتبوع، أي: بمدينة أو بأرضِ عاد إرم، وهو كما ترى، ومَنْعُ الصَّرْف على الوجهين لما سمعتَ.

والأكثرون على أنها اسمُ مدينةٍ عظيمةٍ في أرض اليمن، والوصفان لها، والمرادُ: ذاتُ البناء الرفيع، أو ذاتُ الأساطين التي لم يُخلَقْ مثلُها سَعَةً وحُسْنَ بيوتٍ وبساتين في بلاد الدنيا.

ويُروى أنه كان لعادٍ ابنان: شدَّادٌ وشديدٌ، فملَكَا وقهرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانت له ملوكُها، فسمع بذِكْر الجنة، فقال: أَبْني مِثْلَها، فبنى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاث مئة سنةٍ، وكان عمره تسعَ مئة سنة، وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجَد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهار المُطَّردة. ولَمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها مسيرة يومٍ وليلة، بعث الله تعالى عليهم صيحةً من السماء فهلكوا[1].

وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُهُ معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال: هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خالٌ، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التفتَ فأبصر ابنَ قِلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل[2].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠. وأخرجه مطولاً أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤: آثار الوضع عليه لائحة. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع =

وخبر شدَّاد المذكور أخوه في الضعف، بل لم تصحَّ روايته كما ذكره الحافظ ابن حجر(١)، فهو موضوعٌ كخبر ابن قلابة.

وروي عن مجاهد أنَّ إرَمَ مصدرُ أَرِمَ يَأْرَمُ: إذا هَلَكَ، فـ «إرم» بمعنى هلاك، منصوبٌ على نحو نَصْبِ المصدر التشبيهيِّ، مضافٌ إلى «ذات»، و«التي» صفةٌ لـ «ذات العماد» مراداً بها المدينة، و«كيف فَعَلَ» في قوة: كيف أهلك، فكأنه قيل: ألم تَرَ كيف أهلك ربُّكَ عاداً، كهلاك ذات العماد التي لم يُخْلَقْ مثلُها في البلاد. وهو قولٌ غريبٌ غيرُ قريب.

وقرأ الحسن: «بعاد إرمَ» بإضافة عادٍ إلى إرم(٢)، فجاز أن يكون إرم جَدًّا والوصفان لـ «عادٍ»، وأن يكون مدينةً والوصفان لـ «إرم»، وجُوِّزَ أن يكونا لـ «عادٍ».

وقرأ ابن الزبير: «بعادِ أَرِمَ» بالإضافة أيضاً، إلا أنَّ «أَرِمَ» بفتح الهمزة وكسر الراء(٣). قيل: وهي لغةٌ في المدينة لا غير.

وعن الضحاك أنه قرأ: «بعاد» مصروفاً وغير مصروف «أَرْم» بفتح الهمزة وسكون الراء للتخفيف(٤)، وأصله «أَرِم» كَفَخِذ.

وقرئ: «إرَمِ ذاتِ» بإضافة «إرم» إلى «ذات»(٥)؛ فقيل: الإرَمُ عليه العَلَمُ،

= من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته.

(١) في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٥٨.

(٢) القراءة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٤٦٩، وقد ذكر فيهما أن عاداً مصروفة، ووردت هذه القراءة في القراءات الشاذة ص ١٧٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٥٠ على أن عاداً فيه مفتوحة ممنوعة من الصرف، ومع ذلك جعلها ابن عطية مضافة، وتعقب السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٢ ذلك بأنه لو كان مضافاً لوجب صرفه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠، والبحر ٨/ ٤٦٩.

والمعنى: بعادٍ أعلام ذات العماد(١)، وهي مدينتهم، و«التي» صفةٌ لـ «ذات العماد» على الأظهر.

وعن ابن عباس أنه قرأ: «أَرَمَّ» بالتشديد فعلاً ماضياً «ذاتَ» بالنصب على المفعول به(٢)، أي: جعل الله تعالى ذاتَ العماد رميماً، ويكون «أرمَّ» ـ على ما في «البحر» ـ بدلاً من «فَعَلَ» أو تبييناً له(٣). والمراد بـ «ذات العماد» عليه، إما عادٌ نفسُها، ويكون فيه وَضْعُ المظهر موضعَ المضمر، والنكتةُ فيه ظاهرةٌ، وإما مدينتهم، ويكون جَعْلُها رميماً ـ أي: إهلاكها ـ كنايةً عن جَعْلهم كذلك.

وقرأ ابن الزبير: «لم يَخْلُقْ» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره عزَّ وجلَّ، مثلُها بالنصب على المفعولية، وعنه أيضاً: «لم نَخْلُقْ» بنون العَظمة(٤).

﴿وَثَمُودَ﴾ عَطْفٌ على عاد، وهي قبيلةٌ مشهورةٌ سُمِّيت باسم جَدِّهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا عَرَباً من العاربة يسكنون الحِجْرَ بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام.

ومَنْعُ الصرف للعَلَمية والتأنيث. وقرأ ابن وثاب بالتنوين(٥)، صَرَفَهُ باعتبار الحيِّ، كذا قالوا، وظاهره أنه عربيٌّ، وقد صُرِّحَ بذلك فقيل: هو فَعُولٌ من الثَّمْد: وهو الماء القليل الذي لا مادَّةَ له، ومنه قيل: فلانٌ مَثْمودٌ ثَمَدَتْهُ النساء، أي: قَطَعْنَ مادةَ مائه؛ لكثرة غشيانه لهنَّ، ومثمودٌ إذا كَثُرَ عليه السُّؤَّال حتى نفدتْ مادةُ ماله. وحكى الراغب أنه عجميٌّ(٦)، فمَنْعُ الصَّرْف للعَلَمية والعُجْمة.

---

(١) كذا وقعت هذه العبارة في الأصل و(م) ومطبوع البحر، والذي في الكشاف: بعادٍ أهلِ أعلام...

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٩، والبحر ٨/ ٤٦٩.

(٣) البحر ٨/ ٤٦٩.

(٤) القراءة الأولى في القراءات الشاذة ص١٧٣، والكشاف ٤/ ٢٥٠، والبحر ٨/ ٤٦٩. والثانية في البحر ٨/ ٤٦٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٦) مفردات الراغب (ثمد).

﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: قَطَعوا صخرَ الجبال واتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصَّخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩] قيل: أولُ مَنْ نحتَ الحجارةَ والصخور والرخام ثمود، وبنوا ألفاً وسبع مئة مدينة، كلُّها بالحجارة. ولا أظنُّ صحةَ هذا البناء.

﴿بِٱلْوَادِ﴾ هو وادي القُرى. وقرئ بالياء آخر الحروف[(١)]، والباءُ للظرفية، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «جابوا»، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من الفاعل أو المفعول.

وقيل: الباء للآلة، أو السببية، متعلِّقةٌ بـ «جابوا»، أي: جابوا الصَّخْرَ بواديهم، أو بسببه، أي: قطعوا الصخر وشقُّوه وجعلوه وادياً ومحلًّا لمائهم فِعْلَ ذوي القوة والآمال. وهو خلاف الظاهر.

وأيًّا ما كان فالجَوْبُ القَطْعُ، والظاهر أنه حقيقةٌ فيه، تقول: جُبْتُ البلاد أَجُوبها، إذا قَطَعْتَها، قال الشاعر:

ولا رأيتُ قَلُوصاً قبلَها حملتْ　　سِتِّينَ وَسْقاً ولا جابَتْ بها بلدا[(٢)]

ومنه: الجواب؛ لأنه يقطعُ السؤال. وقال الراغب: الجَوْبُ قطعُ الجَوْبة، وهي الغائط من الأرض، ثم يُستعملُ في قَطْع كلِّ أرضٍ. وجوابُ الكلامِ هو ما يقطَعُ الجَوْبَ فَيَصِلُ من فَمِ القائل إلى سَمْعِ المستمع، لكنه خُصَّ بما يعودُ من الكلام دون المبتدأ من الخطاب[(٣)]. انتهى، فاختر لنفسك ما يحلو.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ وُصِفَ بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم، أو لأنه كان يَدُقُّ للمعذَّبِ أربعةَ أوتادٍ، ويشدُّهُ بها مبطوحاً على الأرض، فيعذِّبُهُ بما يريد من ضَرْبٍ أو إحراقٍ أو غيره، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[(٤)].

---

(١) أثبتها وصلاً ورش، وفي الحالين يعقوب وابن كثير بخلاف عن قنبل في الوقف. التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) البيت لأبي وجزة السعدي، وهو في الكامل ١/ ٢٤٤، والأغاني ١٢/ ٢٤٤.

(٣) المفردات (جوب) وفيه: وهي كالغائط. بدل: وهي الغائط.

(٤) عند تفسير الآية (١٢) سمن سورة ﴿صٓ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ للمذكورين: عاد ومَنْ بعده، أو منصوبٌ أو مرفوعٌ على الذَّمِّ، أي: طغى كلُّ طاغيةٍ منهم في بلاده، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ أي: بالكفر وسائر المعاصي.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أي: أنزل سبحانه إنزالاً شديداً على كلِّ طائفةٍ من أولئك الطوائف، عَقِيبَ ما فعلتْ من الطغيان والفساد.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: سَوْطاً من عذابٍ، على أنَّ الإضافة بمعنى «من» والعذاب بمعنى المعذَّب به، والمراد بذلك ما حلَّ بكلٍّ منهم من فنون العذاب التي شُرِحتْ في سائر السور الكريمة.

والسَّوْطُ في الأصل مصدرٌ مِن سَاطَ يَسُوط إذا خَلَطَ، قال الشاعر:

أحــارِثُ إنَّــا لــو تُــسَــاطُ دمــاؤنــا تَــزَايَــلْــنَ حــتــى لا يَــمَــسَّ دمٌ دمــا[1]

وشاع في الجلد المضفور الذي يُضرَبُ به، وسُمِّي به لكونه مخلوطَ الطاقات بعضها ببعض، أو لأنه يَخْلِطُ اللحمَ بالدم، والتعبيرُ عن إنزاله بالصَّبِّ للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره، فإنه عبارةٌ عن إراقة شيءٍ مائعٍ، أو جارٍ مجراه في السيلان كالحبوب والرمل، وإفراغه بشِدَّةٍ وكثرةٍ واستمرار، ونسبتُهُ إلى السوط - مع أنه على ما سمعتَ ليس من هذا القبيل - باعتبار تشبيهه في سُرْعة نزوله بالشيء المصبوب، وتسميةُ ما أُنزل سَوْطاً قيل: للإيذان بأنه على عِظَمه بالنسبة إلى ما أُعِدَّ لهم في الآخرة كالسوط بالنسبة إلى سائر ما يُعذَّبُ به.

وفي «الكشف»: إنَّ إضافةَ السَّوط إلى العذاب تقليلٌ لما أصابهم منه، ولا يأبى ذلك التعبيرُ بالصَّبِّ المؤذِنِ بالكَثْرة؛ لأنَّ القِلَّةَ والكَثْرةَ من الأمور النسبية.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالعذاب التعذيبُ، والإضافةُ حينئذٍ على معنى اللام، وأَمْرُ التعبير بالصَّبِّ والتسمية بالسوط على ما تقدم، والآيةُ من قبيل قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ [النحل: ١١٢]. وجُوِّزَ أن تكون الإضافةُ كالإضافة في لُجَين الماء،

---

(١) البيت للمتلمس، وهو في الأصمعيات ص٢٤٥، والشعر والشعراء ١/ ١٨١، ورسالة الصاهل والشاحج ص٥٩٩.

أي: فَصَبَّ عليهم ربك عذاباً كالسَّوْط، على معنى: أنواعاً من العذاب مخلوطاً بعضُها ببعضٍ اختلاطَ طاقات السَّوط بعضها ببعض، وأن يكون السَّوْطُ مصدراً بمعنى المفعول، والإضافةُ كالإضافة في «جرد قطيفةٍ»[١]، أي: فَصَبَّ عليهم ربك عذاباً مسوطاً، أي: مخلوطاً، ومآله: فَصَبَّ أنواعاً من العذاب خُلِطَ بعضُها ببعض.

وفي «الصحاح»: «سَوْطَ عذابٍ» أي: نصيبَ عذاب، ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ العذابَ قد يكون بالسوط[٢]. وأراد أنَّ الغرضَ التصوير، والأليقُ بجزالة التنزيل ما تقدم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ لما قبله، وإيذانٌ بأنَّ كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثلُ ما أصاب أضرابهم المذكورين من العذاب، كما يُنبئُ عنه التعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام.

والمرصاد: المكانُ الذي يقوم به الرَّصَد ويترقَّبون فيه، مِفْعالٌ من رَصَدَهُ كالميقات من وَقَتَهُ، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ: شُبِّهَ كونه تعالى حافظاً لأعمال العصاة ـ على ما روي عن الضحاك ـ مترقِّباً نقيرها وقِطْميرها، بحيث لا ينجو منه سبحانه أحدٌ منهم، بحالِ مَنْ قَعَدَ على الطريق مترصِّداً لمن يسلُكها، ليأخذه فيوقع به ما يريد، ثم أُطلق لفظُ أحدهما على الآخر.

والآيةُ على هذا وعيدٌ للعصاة مطلقاً، وقيل: هي وعيدٌ للكَفَرة، وقيل: وعيدٌ للعصاة وَوَعْدٌ لغيرهم، وهو ظاهرُ قول الحسن، أي: يَرصُدُ سبحانه أعمال بني آدم.

وجوَّزَ ابن عطية[٣] كونَ المرصاد صيغة مبالغة، كالمِطْعام والمِطْعان. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لو كان كما زَعَمَ لم تدخل الباءُ؛ لأنها ليست في مكانِ دخولها،

---

(١) أي: قطيفة انجرد خَمْلُها وخلقَتْ، وهذا من إضافة الصفة للموصوف، ومثله: أخلاق ثياب. ينظر النهاية (جرد)، وفيض القدير ٥/٥٢٨.

(٢) الصحاح (سوط).

(٣) في المحرر الوجيز ٥/٤٧٩.

لا زائدةً ولا غيرَ زائدة[١]. وأُجيب بأنها على ذلك تجريدية، نعم يلزمهُ إطلاق المرصاد على الله عزَّ وجلَّ، وفيه شيءٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ متَّصلٌ بما عنده، كأنه قيل: إنه سبحانه لبالمرصاد من أجل الآخرة، فلا يطلبُ عزَّ وجلَّ إلا السَّعيَ لها، فأما الإنسان فلا يهمُّهُ إلا الدنيا ولذَّاتها، فإن نالَ منها شيئاً رضي، وإلا سَخِطَ، وكان اللائقُ أن لا يهمَّهُ إلا ما يطلبه الله عزَّ وجلَّ، ولا يكون حالهُ ذلك.

وقيل: هو متَّصلٌ به متفرِّعٌ عليه على معنى: فالإنسانُ يؤاخَذُ لا محالةَ؛ لأنه بين غِنًى مهلكٍ مُوجبٍ للتكبُّر والافتخار بالدنيا، وبين فَقْرٍ لا يصبرُ عليه، ويكفرُ لأجله بالجَزَع والقول بما لا ينبغي. وهو كما ترى.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: عامله معاملةَ مَنْ يبتليه بالغنى واليسار، ليرى هل يشكرُ أم لا.

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريةٌ، فإنَّ الإكرامَ والتنعيمَ عينُ المراد بالابتلاء، ولَمَّا كان الإكرامُ والتنعيمُ في حُكْم شيءٍ واحدٍ اقتصر على قوله: «أكرمن» في قوله سبحانه: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ولم يضمَّ إليه: ونعَّمني، وهذه الجملةُ خبرٌ للمبتدأ الذي هو «الإنسان»، والفاء لِمَا في «أمَّا» من معنى الشرط، والظرفُ ـ أعني «إذا» ـ متعلِّقٌ بـ «يقول» وهو على نية التأخير، ولا تمنعُ الفاء من ذلك كما صرَّح به الزمخشريُّ[٢] وغيرُهُ من متقدِّمي النحاة، وتَبِعَهم مَنْ بعدهم كأبي حيان والسمين[٣] والسفاقسي مع جَمْعٍ غفيرٍ من المفسِّرين، وهو كما قال الشهاب: الحقُّ الذي لا محيدَ عنه، وخالفهم في ذلك الرضي ومَنْ تبعه كالبدر الدماميني في «شرح المغني» فقالوا: إنما يجوز تقديمُ ما بعد الفاء عليها إذا كان المقدَّمُ هو الفاصل بين «أما» والفاء؛ لما يتعلَّقُ بتقديمه من الأغراض، فإن كان ثمَّةَ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٠.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٥١.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٧٠، والدر المصون ١٠/ ٧٨٧.

فاصلٌ آخر امتنع تقديمُ غيره[١]، فيمتنعُ: أمَّا زيدٌ طعامَك فآكِلٌ، وإن جاز: أمَّا طعامَك فزيدٌ آكِلٌ، وقالوا في ذلك: إنهم لَمَّا التزموا حَذْفَ الشرط، لَزِمَ دخولُ أداته على فاء الجواب، وهو مستكرَهٌ، فدعتِ الضرورةُ للفصل بينهما بشيءٍ مما بعد الفاء، والفاصلُ الواحدُ كافٍ فيه، فيجبُ الاقتصارُ عليه، وزَعَمَ الجلبيُّ مُحَشِّي «المطوَّل»[٢] أنَّ هذا متَّفقٌ عليه، فَرَدَّ به على المفسِّرين إعرابَهم السابق، وقال: إنه خطأٌ، والصوابُ أن يُجعَل الظرفُ متعلِّقاً بمقدَّرٍ وهو المبتدأ في الحقيقة، والتقدير: فأما شأنُ الإنسان إذا. . إلخ، فالظرفُ من تتمة الجزء المفصول به وليس فاصلاً ثانياً كقولك: أما إحسان زيدٍ إلى الفقير فَحَسَنٌ. ويَرِدُ على تقديره أنه لا يصحُّ وقوعُ جملةِ «يقول» خبراً عن الشأن إلا بتعسُّفٍ، كأن يكون الفعلُ بتأويل المصدر وإن لم تكن معه في اللفظ «أن» المصدرية، كما قيل في: تسمع بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه[٣]. وهو فرارٌ من السحاب إلى الميزاب، وذهب أبو البقاء إلى أنَّ «إذا» شرطيةٌ، وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ﴾ جوابها، والجملةُ الشرطيةُ خبرُ «الإنسان»، ويلزمه حَذْفُ الفاء بدون القول، وقد قيل: إنه ضرورةٌ[٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ عامله معاملةَ مَنْ يبتليه ويختبره بالحاجة والفقر ليرى هل يصبر أم لا ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ بتقدير: وأما هو ـ أي: الإنسان ـ إذا ما ابتلاه. . إلخ؛ ليصحَّ التفصيلُ ويتمَّ التوازنُ، وبقيةُ الكلام فيه كما في سابقه.

والظاهرُ أنَّ كلتا الجملتين متضمِّنةٌ لإنكار قول الإنسان الذي تضمَّنته، وإنكارُ قوله إذا ضُيِّقَ عليه رزقه: «ربِّي أهانن»؛ لدلالته على قصور نظره وسوء فكره، حيث حَسِبَ أنَّ تضييقَ الرزق إهانةٌ، مع أنه قد يؤدِّي إلى كرامة الدارين، ولِعَدَمِ كونه

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: هذا في غير الظرف لتوسعهم فيه فليحفظ.
(٢) هو حسن جلبي بن محمد شاه الرومي الحنفي، بدر الدين المعروف بابن الفناري، المتوفى سنة (٨٨٦هـ). نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي ص ١٠٥.
(٣) يضرب لمن خَبَرُهُ خيرٌ من مرآه. مجمع الأمثال ١/ ١٢٩.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وينظر الإملاء ٤/ ٤٦٥.

إهانةً أصلاً لم يقل سبحانه في تفسير الابتلاء: فأهانه وقَدَرَ عليه رزقه، نظير ما قال سبحانه أولاً: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾.

وإنكارُ قوله إذا أُكرمَ: «ربِّي أكرمني» مع قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ أولاً من حيث إنه أثبتَ إكرامَ الله تعالى له على خلاف ما أثبتَ الله تعالى، وهو قصدُ أنَّ الله تعالى أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقًّا ومستوجباً قَصْداً جارياً على ما كانوا عليه من افتخارهم وزَعْمهم جلالةَ أقدارهم.

والحاصلُ أنَّ المنكَرَ كونُهُ عن استحقاقٍ لِحَسَبٍ أو نَسَبٍ، وفي «المفصل» ما يدلُّ على أنَّ أصلَ الإكرام مُنكَرٌ، لا كونه عن استحقاقٍ، وإنكارُ أصل الإهانة يَعضدُهُ، ووجهه ما أثبته تعالى من الإكرام أنَّ الله عز وجل أثبتَ الإكرامَ بإيتاء المال والتوسعة، وهو جَعَلَهُ إكراماً كُلِّيًّا مثبتاً للزلفى عنده تعالى، فأنكر أنه ليس من ذلك الإكرام في شيءٍ.

وجُوِّزَ أن يكون الإنكارُ إنكاراً للإهانة فقط، يعني أنه إذا تفضّل عليه بالخير وأُكرم به، اعترفَ بتفضُّل الله تعالى وإكرامه، وإذا لم يتفضَّل عليه سمَّى تَرْكَ التفضُّل هواناً، وليس به، قيل: ويعضده ذِكْرُ الإكرام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وفي الآية مع ما بعدُ شَمَّةٌ من أسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]. ولا يخفى أنَّ الوجه هو الأول.

وقرأ ابن كثير: «أكرمني وأهانني» بإثبات الياء فيهما[(١)]. ونافعٌ بإثباتها وَصْلاً وحَذْفها وَقْفاً، وخيَّرَ في الوجهين أبو عمرو، وحَذَفَها باقي السبعة فيهما وَصْلاً ووَقْفاً، ومَنْ حَذَفها وَقْفاً سَكَّنَ النون فيه[(٢)].

وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلافٍ عنه، وابن عامر: «فَقَدَّرَ» بتشديد الدال للمبالغة[(٣)].

---

(١) وهي قراءة ابن كثير من رواية البزي عنه. التيسير ص٢٢٣، والنشر ٢/ ٤٠٠-٤٠١، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٠.

(٢) البحر ٨/ ٤٧٠.

(٣) النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٠.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ للإنسان عن قوليه المحكيَّين، وتكذيبٌ له فيهما، لا عن الأخير فقط كما في الوجه الأخير، وقد نصَّ الحسنُ على ما قلنا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لم أَبتله بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر.

وقوله سبحانه: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ إلخ انتقالٌ وترقٍّ من ذَمِّه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل، والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد التقريع وتأكيد التشنيع. وقيل: هو بتقدير: قل، فلا التفاتَ، نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه، والجمعُ باعتبار معنى الإنسان؛ إذ المرادُ هو الجنس، أي: بل لكم أفعالٌ وأحوالٌ أشدُّ شرًّا مما ذُكِرَ، وأدلُّ على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدُّون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرَّة به والإحسان إليه، وفي الحديث: «أحبُّ البيوت إلى الله تعالى بيتٌ فيه يتيمٌ مُكْرَمٌ»[1].

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدريُّ وأبو عمرو: «لا يُكرِمُون» بياء الغيبة[2].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتحاضون، أي: ولا يحضُّ ويحثُّ بعضُكم بعضاً.

﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ أي: على إطعامه، فالطعام مصدرٌ بمعنى الإطعام كالعَطاء بمعنى الإعطاء. وزعم أبو حيان أنَّ الأَوْلى أن يُرادَ به الشيءُ المطعوم، ويكونُ الكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: على بذل طعام المسكين[3]. والمرادُ بالمسكين ما يعمُّ الفقير.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٣٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده إسحاق بن إبراهيم الحُنَيني، وهو ضعيف. ينظر تهذيب التهذيب ١/ ١١٤، وأسنى المطالب ص ٢٠-٢١.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٧١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧١.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ وزيد بن علي وعبد الله بن المبارك والشَّيزَري[١] عن الكسائي كقراءة الجماعة، إلا أنهم ضمُّوا تاءَ «تُحاضُّون» من المحاضة[٢].

وقرأ أبو عمرو ومَنْ سمعتَ الحسنُ ومَنْ معه: «ولا يَحضُّون» بياء الغيبة ولا ألف بعد الحاء، وباقي السبعة بتاء الخطاب كذلك، وكذا الفِعْلان بعدُ[٣].

والفعلُ على القراءتين جُوِّزَ أن يكون متعدِّياً ومفعوله محذوفٌ، فقيل: أنفسهم أو أنفسكم، وقيل: أهليهم أو أهليكم. وقيل: أحداً، وجُوِّزَ ـ وهو الأَولى ـ أن يكون منزَّلاً منزلةَ اللازم للتعميم.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: الميراثَ، وأصله: وُرَاث، فأُبدلت الواو تاءً كما في: تُخَمَة، وتُكَأة، ونحوهما.

﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذا لَمٍّ، أو هو نفسُ اللَّمِّ على المبالغة، واللَّمُّ: الجمعُ، ومنه قول النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ[٤]

والمراد به هنا الجمعُ بين الحلال والحرام، وما يُحمَدُ وما لا يُحمَدُ، ومنه قول الحُطَيئة:

إذا كان[٥] لَمًّا يَتْبَعُ الذَّمّ ربّه ... فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحنا[٦]

يعني: أنكم تجمعون في أَكْلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم، ويُروى أنهم كانوا لا يُورِّثون النساءَ ولا صغارَ الأولاد، فيأكلون نصيبهم ويقولون: لا يأخذ الميراثَ إلا مَنْ يقاتل ويحمي الحَوْزة، هذا وهم يعلمون من شريعة

---

(١) في (م): الشيرزي.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠، والبحر ٨/ ٤٧١.

(٣) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٧١.

(٤) ديوان النابغة ص١٨. قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٦٩: يقول: أيُّ الرجال يكون مبرَّأً من العيوب؟ فإن قطعتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ.

(٥) في هامش الأصل: أي الأكل.

(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الكشاف ٤/ ٢٥٣، والقرطبي ٢٢/ ٢٧٩.

إسماعيل عليه السلام أنهم يَرِثون، فاندفعَ ما قيل: إنَّ السورة مكيةٌ، وآيةُ المواريث مدنية، ولا يُعلَمُ الحِلُّ والحُرْمةُ إلا من الشرع، فإنَّ الحُسْنَ والقُبْحَ العقليين ليسا مذهباً لنا[١].

وقيل: يعني تأكلون ما جَمَعَهُ الميتُ المورِّثُ من حلالٍ وحرامٍ، عالمين بذلك، فتلمُّون في الأكل بين حلاله وحرامه.

وفي «الكشاف»[٢]: يجوز أن يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِرَ بالمال سَهْلاً مَهْلاً من غير أن يعرق فيه جبينُهُ، فيُسرفُ في إنفاقه، ويأكله أَكْلاً واسعاً، جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها، كما يفعله الوُرَّاثُ البطَّالون. وتُعقِّبَ بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: كثيراً كما قال ابن عباس، وأنشد قولَ أمية:

إنْ تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا[٣]

والمراد: إنكم تُحبُّونه مع حِرْصٍ وشَرَهٍ.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ لهم عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى آخره، استئنافٌ جيءَ به بطريق الوعيد تعليلاً للرَّدْع. والدَّكُّ قال الخليل: كسرُ الحائطِ والجبلِ ونحوهما، وتكريرُهُ للدلالة على الاستيعاب، فليس الثاني تأكيداً للأول؛ بل ذلك نظيرُ الحال في نحو قولك: جاؤوا رجلاً رجلاً، و: علَّمته الحساب باباً باباً، أي: إذا دُكَّتِ الأرضُ دكًّا متتابعاً حتى انكسرَ وذهب كلُّ ما على وجهها من جبالٍ وأبنيةٍ وقصورٍ وغيرها، حين زُلزلتِ المرَّةَ بعد المرَّة، وصارت هباءً منثوراً.

---

(١) فوقها في الأصل: من كلام القائل.
(٢) ٤/ ٢٥٣.
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١١٤.

وقال المبرِّد: الدَّكُّ: حَطُّ المرتفع بالبَسْطِ والتسوية، واندكَّ سنامُ البعير: إذا انفرشَ في ظهره، وناقةٌ دَكَّاءُ: إذا كانت كذلك، والمعنى عليه: إذا سُوِّيتْ تسويةً بعد تسويةٍ، ولم يبقَ على وجهها شيءٌ حتى صارت كالصخرة الملساء.

وأيًّاما كان فهو على ما قيل عبارةٌ عمَّا عَرَضَ للأرض عند النفخة الثانية.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال منذر بن سعيد: معناه: ظهر سبحانه للخلق هنالك، وليس ذلك بمجيءِ نُقْلةٍ، وكذلك مجيءُ الطَّامَّة والصَّاخَّة.

وقيل: الكلامُ على حَذْفِ المضاف للتهويل، أي: وجاء أمرُ ربك وقضاؤه سبحانه.

واختار جَمْعٌ أنه تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره تعالى، وتبيُّن آثار قُدْرته عزَّ وجلَّ وسلطانه عزَّ سلطانه، مُثِّلتْ حالُهُ سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حَضَرَ بنفسه ظَهَرَ بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصِّه عن بَكْرةِ أبيهم، وأنت تعلمُ ما للسَّلف في المتشابه من الكلام[(١)].

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: جنسُ الملك، فيشملُ جميع ملائكة السماوات عليهم السلام.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مُصطفِّين، أو ذوي صفوفٍ، فإنه قيل: ينزل يومَ القيامة ملائكةُ كلِّ سماءٍ، فيصطفُّون صفًّا بعد صفٍّ بحَسَبِ منازلهم ومراتبهم، مُحْدِقين بالجنِّ والإنس. وقيل: يصطفُّون بحَسَبِ أمكنة أمورٍ تتعلَّقُ بهم. وهو قريبٌ مما ذُكِرَ. ورويَ أنَّ ملائكةَ كلِّ سماءٍ تكونُ صفًّا حول الأرض. فالصفوف سبعةٌ على ما هو الظاهر.

وقال بعض الأفاضل: الظاهرُ أنَّ «المَلَكَ» أعمُّ من ملائكة السماوات وغيرها، وتعريفُهُ للاستغراق، وادَّعى أنَّ اصطفافهم بحَسَبِ مراتبهم اصطفافَ أهل الدنيا في الصلاة. وظاهره أنه اصطفافٌ من غير تحديق، ورأيتُ غيرَ أثرٍ في أنهم يصطفُّون مُحدِقين[(٢)].

---

(١) ينظر ما سلف ١٦/ ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) منها ما أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٠/ ٢٧١ عن قتادة والسدي.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ قيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] على أن يكون مجيئها متجوَّزاً به عن إظهارها.

واختير أنه على حقيقته، فقد أخرج مسلمٌ والترمذيُّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه[١] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونها»، وفي روايةٍ بزيادة: «حتى تُنْصَبَ عن يسار العرش، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ»[٢].

وجاء في بعض الآثار أنَّ جبريلَ عليه السلام جاء إلى النبيِّ ﷺ فناجاه، ثم قام النبيُّ عليه الصلاة والسلام منكسرَ الطَّرْفِ، فسأله عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، فقال ﷺ: «أتاني جبريلُ عليه السلام بهذه الآية: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية» فقال له عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: كيف يُجاء بها، فقال رسول الله ﷺ: «تُقاد بسبعين ألفَ زمام، كلُّ زمامٍ يقوده سبعون ألفَ ملك، فبينما هم كذلك إذ شَرَدَتْ عليهم شَرْدَةً انفلتت من أيديهم، فلولا أنهم أدركوها فأخذوها لأحرقت مَنْ في الجمع»[٣]، وفي رواية: «لولا أنَّ الله تعالى حَبَسَها لأحرقت السماوات والأرض»[٤].

وتأويل كلِّ ما ذُكِرَ ونحوه مما ورد وحَمْلُهُ على المجاز لا يدعو إليه إلا استحالةُ الانتقال الذي يقتضيه المجيءُ الحقيقيُّ على جهنم، وهو لَعَمْري غيرُ مستحيلٍ، فيجوز أن تخرجَ وتنتقلَ من محلِّها في المحشر، ثم تعود إليه، والحالُ في ذلك اليوم وراءَ ما تتخيَّلُهُ الأذهان.

---

(١) مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، وابن جرير ٢٤/ ٣٨٩، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٣) أخرجه ابن وهب في كتاب الأهوال كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٩ عن زيد بن أسلم قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فناجاه...، وفيه: منكس الطرف. بدل: منكسر الطرف. وأخرجه بنحوه الثعلبي في تفسيره ١٠/ ٢٠١، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٨-٤٥٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن مردويه من حديث علي رضي الله عنه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٩.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من «إذا دُكَّت»، وظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ العامل فيه هو العاملُ نفسُهُ في المبدل منه، أعني: قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾(١)، وهو قولٌ قد نُسِبَ إلى سيبويه، وفي «البحر»: المشهور خلافه، وهو أنَّ البدلَ على نية تكرار العامل(٢). والظاهر عندي الأولُ.

و«يتذكَّر» من الذِّكر ضِدِّ النسيان، أي: يتذكَّرُ الإنسان ما فرَّط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه، أو بإحضار الله تعالى إياه في ذهنه وإخطاره له، وإن لم يشاهد بعدُ أثراً، أو بمعاينة عينه، بناءً على أنَّ الأعمال تتجسَّمُ في النشأة الآخرة، فتبرزُ بما يناسبها من الصُّوَر حُسْناً وقُبْحاً. أو من التذكُّر بمعنى الاتِّعاظ، أي: يتَّعظُ بما يرى من آثار قدرة الله عزَّ وجلَّ وعظيم عظمته تعالى شأنه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ اعتراضٌ جيءَ به لتحقيق أنه ليس بتذكُّرٍ حقيقةً؛ لعرائه عن الجدوى لعدم وقوعه في أوانه، و«أنَّى» خبرٌ مقدَّمٌ و«الذكرى» مبتدأٌ، و«له» متعلِّقٌ بما تعلَّقَ به الخبرُ، أي: ومن أين تكونُ له الذكرى وقد فات أوانها.

وقيل: هناك مضافٌ محذوفٌ، أي: وأنَّى له منفعةُ الذكرى، ولا بدَّ من تقديره لئلَّا يكونَ تناقضٌ. وقد علمتَ أنَّ هذا يتحقَّقُ بما قُرِّرَ أولاً، على أنه إذا جُعِلَ اختصاصُ اللام مقصوراً على النافع، استقامَ من غير تقدير، ويكونُ إنكار أنْ تكونَ الذكرى له لا عليه، وأما كونه حكايةً لما كان عليه في الدنيا من عدم الاعتبار والاتعاظ، فليس بشيءٍ.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ التوبةَ من حيث هي توبةٌ غيرُ واجبةِ القَبول عقلاً كما زعم المعتزلة بناءً على وجوب الأصلح عندهم. وقيل في توجيهه: إنه لو وَجَبَ قبولها لوجب قبولُ هذا التذكُّر، فإنه توبةٌ؛ إذ هي كما بُيِّنَ في محلِّه: الندمُ على المعصية من حيث هي معصيةٌ، والعزمُ على أن لا يعودَ لها إذا قَدر عليها. ولم يعتبرْ أحدٌ في

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٧١.

تعريفها كونَها في الدنيا، وإن كانت النافعةُ منها لا تكون إلا فيها، وهذا التذكُّرُ هو عينُ الندم المذكور، وقد صرَّح الضحاك ـ كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم[1] ـ بأنه توبةٌ، ولم تُقْبَلْ لعدم ترتُّب المنفعة عليه التي هي من لوازم القبول.

واعتُرض بأنَّ المعتزلةَ إنما يقولون بوجوب قبولها بشرط عدم رَفْعِ التكاليف.

وقيل: إنَّ تذكُّرَهُ ليس من التوبة في شيء، فإنه عالمٌ بأنها إنما تكون في الدنيا كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾. ويُعلَمُ ما فيه مما تقدَّمَ من توجيه الاستدلال، فلا تغفل.

وهذه الجملةُ بدلُ اشتمال من «يتذكَّر»، أو استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن سؤالٍ نشأ منه، كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكُّره؟ فقيل: يقول: يا ليتني.. إلخ، واللام للتعليل، والمراد بحياته: حياتُه في الآخرة، ومفعولُ «قدَّمتُ» محذوفٌ، فكأنه قال: يا ليتني قدَّمتُ لأَجْلِ حياتي هذه أعمالاً صالحةً أنتفعُ بها فيها.

وقيل: اللام للتعليل، إلا أنَّ المعنى: يا ليتني قدَّمتُ أعمالاً صالحةً لأجل أنْ أحيا حياةً نافعةً، وقال ذلك لأنه لا يموتُ ولا يحيا حينئذٍ. وهو كما ترى.

ويجوز أن تكونَ اللامُ توقيتيةً مثلُها في نحو: كتبته لخمسَ عشرةَ ليلةً مَضَين من المحرَّم. و: جئتُ لطلوع الشمس، ويكون المراد بحياته حياتَه في الدنيا، أي: يا ليتني قدَّمتُ وعملتُ أعمالاً صالحةً وقتَ حياتي في الدنيا، لأنتفع بها اليومَ.

وليس في هذا التمنِّي شائبةُ دلالةٍ على استقلال العبد بفعله، وإنما يدلُّ على اعتقاد كونه متمكِّناً من تقديم الأعمال الصالحة، وأما أنَّ ذلك بمحض قدرته تعالى أو بخَلْق الله عزَّ وجلَّ عند صَرْفِ قدرته الكاسبة إليه فكلّا، وزَعَمَه الزمخشريُّ[2] دليلاً على الاستقلال، ورَدَّ به على المجبِّرة وهم عنده غيرُ المعتزلة؛ زَعْماً منه المنافاةَ بين التمنِّي والحَجْر، وقد علمتَ أنه لا دلالة على ذلك، وفي «الكشف» أنَّ

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٥٣.

التمنِّي قد يقعُ على المستحيل، على أنه حالتئذٍ كالغريق، هذا وأهل الحق لا يقولون بسَلْبِ الاختيار بالكلية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكونُ ما ذُكِرَ من الأحوال والأقوال.

﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ الهاء إما لله عزَّ وجلَّ، أي: لا يتولَّى عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه أحدٌ سواه عزَّ وجلَّ، وكأنه قيل: لا يفعلُ عذاب الله تعالى ووثاقه ولا يباشرهما أحدٌ، وذلك لأنَّ الفعل في ضمن كلِّ فعلٍ خاصّ، واستعمل ذلك استعمالاً شائعاً في مثل:

وقد حِيلَ بين العِير والنَّزَوان(١)

و﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] فالعذاب مفعولٌ به، وكذا الوثاق، وفيه تعظيمُ عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه لهذا الإنسان الذي شرح من أحواله ما شرح على طريق الكناية، فما ادعاه ابن الحاجب من عدم قوة المعنى على تقدير عَوْدِ الضمير إليه تعالى بناءً على فوات التعظيم الذي يقتضيه السياق، فللغفول عن نكتةِ الكناية.

وإما للإنسان الموصوف، والإضافةُ إلى المفعول، أي: لا يُعذِّبُ ولا يُوثِقُ أحدٌ من الزبانية أحداً من أهل النار مثل ما يُعذِّبونه ويُوثقونه، كأنه أشدّهم عذاباً ووثاقاً؛ لأنه أشدُّهم سيئات أفعال وقبائح أحوال. وهو وجهٌ حسنٌ، بل هو أرجحُ من الأول على ما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو: «لا يُعذَّبُ ولا يُوثَقُ» بالبناء للمفعول(٢)، فالهاء في «عذابه» و«وثاقه» للإنسان الموصوف، أي: لا يُعذَّبُ أحدٌ مثلَ عذابه، ولا يُوثَقُ بالسلاسل والأغلال مثلَ وثاقه؛ لتناهيه في كُفْره وشقاقه، ونَصْبُ «العذاب» على المصدرية واقعٌ موقعَ التعذيب، إما لأنه بمعناه في الأصل

---

(١) عجز بيت لصخر بن عمرو، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٣٤٥، والكامل للمبرد ٣/ ١٤٢٦، والخزانة ١/ ٤٣٦، وصدره: أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن الكسائي ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٢.

كالسلام بمعنى التسليم، ثم نُقِلَ إلى ما يُعذَّبُ به، أو لأنه وُضِعَ موضعه كما يُوضَعُ العطاءُ موضعَ الإعطاء، وكذلك الوثاق.

وجُوِّزَ أن يكون المعنى: لا يحملُ عذابَ الإنسان أحدٌ، ولا يُوثَقُ وثاقه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والعذاب عليه جارٍ على المتعارف، والنصبُ على تضمين التعذيب معنى التحميل. والأول أنسبُ بمقام التغليظ على هذا الإنسان المفرِّط أوانَ التمكُّن، والوجهُ الثاني للقراءة الأولى مطابقٌ لهذا كما لا يخفى، والمراد من أنه لا يُعذِّبُ أحدٌ مثلَ عذابه أنه لا يُعذِّبُ أحدٌ من جنسه ـ كالعصاة ـ كذلك، فلا يلزمُ كونه أشدَّ عذاباً من إبليس ومَنْ في طبقته.

ثم إنَّ الظاهر أنَّ المرادَ جنسُ المتَّصف بما ذُكِرَ. وقيل: المراد به أميَّةُ بن خَلَف، وقيل: أُبيُّ بن خَلَف، وهو خلافُ الظاهر، وإن قيل: إنَّ الآيةَ نزلتْ فيمَنْ ذُكِرَ.

وأما القول بأنَّ هذا المعذَّب الموثق إبليس عليه اللعنة، فليس بشيءٍ؛ إذ لا يقال له إنسانٌ، وكونُ الضمير له وإن لم يسبق له ذِكْرٌ لا للإنسان المذكور في قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ) إلخ مما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة بخلاف عنه: «وِثاقه» بكسر الواو[1].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ إلخ حكايةٌ لأحوال مَن اطمأنَّ بذِكْر الله تعالى وطاعته عزَّ وجلَّ إثرَ حكاية من اطمأنَّ بالدنيا وسَكَنَ إليها. وذُكِرَ أنه على إرادة القول، أي: يقول الله تعالى: يا أيتها النفس.. إلخ، إما بالذات كما كلَّم سبحانه موسى عليه السلام، أو على لسان الملك.

واستُظهرَ أنَّ ذلك القول عند تمام الحساب، وليُنظر التفاوت ما بين ذلك الإنسان وهذه النفس، ذاك يقول: يا ليتني قدَّمتُ لحياتي، وهذه يقول الله تعالى

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

لها: يا أيتها النفس المطمئنَّة.. إلخ، وكأنه للإيذان بغاية التباين لم يذكرِ القول، وتُعطَف الجملةُ على الجملة السابقة.

والنفس: قيل بمعنى الذات، ووُصِفتْ بالاطمئنان بذلك لأنها تترقَّى[١] بقوَّتها العاقلة في معارج الأسباب والمسبَّبات إلى المبدأ المؤثِّر بالذات جلَّت صفاته وأسماؤه، فتضطربُ وتقلقُ قبل الوصول إلى معرفته تعالى، فإذا وصلت إليه عزَّ وجلَّ اطمأنت واستغنت به سبحانه عن وجودها وسائر شؤونها، ولم تلتفتْ إلى ما سواه جلَّ وعلا بالكلية.

وقيل: هي النفسُ المؤمنةُ المطمئنَّةُ إلى الحقِّ، الواصلةُ إلى ثلج اليقين وبرودته، بحيث لا يُخالطها شكٌّ ما، ولا يمازجها سخونةُ اضطراب القلب في الحق أصلاً. وهو وجهٌ حَسَنٌ، والارتباطُ عليه أنَّ هذه النفس هي المتَّعظةُ الذاكرةُ، على خلاف الإنسان الموصوف فيما قبل، فإنَّ التذكُّرَ على قدر قوة اليقين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]؟.

وقيل: هي الآمنةُ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ يوم القيامة، أعني: النفس المؤمنة اليومَ، المتوفَّاة على الإيمان. وأُيِّدَ بقراءة أُبيٍّ: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة»[٢]، وكأنه لأنَّ الوصفين يعتبر تناسبهما في الأكثر، وهي على هذا أيضاً تُقابِلُ السابقَ، وهو المتحسرُ المتحزِّنُ.

وقرأ زيد بن علي: «يا أيها» بغير تاء، وذكر صاحب «البديع» أنَّ «أيًّا» قد تُذكَّرُ مع المنادى المؤنَّث، قيل: ولذلك وجهٌ من القياس، وذلك أنها كما لم تُثَنَّ ولم تُجْمَعْ في نداء المثنَّى والمجموع، فكذلك لم تؤنَّثْ في نداء المؤنَّثِ[٣]. واعتبارُ النفس هاهنا مذكرةً ثم مؤنَّثةً مما لا تلتفت إليه النفس المطمئنة.

﴿ٱرْجِعِىٓ﴾ أي: من حيث حُوسبتِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى محلِّ عنايته تعالى وموقف كرامته عزَّ وجلَّ لك أولاً، وهذا لأنَّ للسعداء قبلَ الحساب كما يُفهَمُ من

---

(١) في (م): لترقى، بدل: تترقى.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً يكرمهم الله تعالى به، لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النَّصَب، ومنه يُنادى الواحدُ بعد الواحد للحساب، فمتى كان هذا القولُ عند تمام الحساب اقتضى أن يكون المعنى ما ذكر.

ويجوز أن يكون المعنى: ارجعي بتخلية القلب عن الأعمال، والالتفاتِ إليها والاهتمامِ بأمرها، أَتُقْبَلُ أم لا؟ أي: إلى ملاحظة ربك والانقطاع إليه، وترك الالتفات إلى ما سواه عزَّ وجلَّ كما كنت أولاً، كأنَّ النفسَ المطمئنَّةَ لَمَّا دعيت للحساب شُغِلَ فكرُها ـ وإن كانت مطمئنةً ـ بمقتضى الطبيعة وحالِ اليوم بأمر الحساب وما ينتهي إليه، وأنه ماذا يكون حالُ أعمالها أَتُقْبَلُ أم لا؟ فلما تَمَّ حسابُها وقُبلتْ أعمالها قيل لها ذلك؛ تطييباً لقلبها بأنَّ الأمرَ قد انتهى وفُرِغ منه، وليس بعدُ إلا كلُّ خيرٍ، ونداؤها بعنوان الاطمئنان لتذكيرها بما يقتضي الرجوع، نظير قولك لشجاعٍ مشهور بالشجاعة أَحْجَمَ في بعض المواقف: يا أيها الشجاع أَقدِمْ ولا تُحجِمْ. والظاهر أنه على الأول لا يناسبها.

ولا يخفى ما في قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ على الوجهين من مزيد اللُّطف بها، ولذا لم يقل نحو: ارجعي إلى الله تعالى، أو: إليَّ.

﴿رَاضِيَةً﴾ أي: بما تُؤْتَيْنَهُ من النِّعَم التي لا تتناهى. وقد يقال: راضيةً بما نلتيه من خِفَّة الحساب وقبول الأعمال. وليس بذاك.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أي: عند الله عزَّ وجلَّ.

وقيل: المراد: راضيةً عن ربك، مرضيةً عنده. وزُعِمَ أنه الأظهر. واعترض بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق، وفيه نظرٌ.

والوصفان منصوبان على الحال، والظاهر أنَّ الحالَ الأولى مقدَّرةٌ، وقيل: مقارِنةٌ، وذِكْرُ الحال الثانية من باب الترقِّي، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(1) [التوبة: ٧٢].

---

(١) جاء في هامش الأصل: وما ألطف ما قيل:

إذا كنت عني يا منى القلب راضياً   أرى كلّ من في الكون لي يَتَبسَّم

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي، وانتظمي في سلكهم، وكوني في جملتهم.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ عَطْفٌ على الجملة قبلها، داخلةٌ معها في حَيِّز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيبَ ما قبلها من غير تراخٍ.

وكأنَّ الأمرَ بالدخول في جملة عباد الله تعالى الصالحين إشارةٌ إلى السعادة الروحانية؛ لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح، والأمرَ بدخول الجنة إشارةٌ إلى السعادة الجسمانية، ولفَضْلِ الأولى على الثانية قُدِّمَ الأمرُ الأول، وجيء بالثاني على وجه التتميم. ونكتةُ الالتفات فيهما ظاهرةٌ بأدنى التفات.

وتعدِّي الدخول أولاً بـ «في» وثانياً بدونها، قال أبو حيان: لأنَّ المدخولَ فيه إن كان غير ظرف حقيقيٍّ تعدَّى إليه في الاستعمال بـ «في»؛ تقول: دخلتُ في الأمر، ودخلتُ في غمار الناس، وإذا كان ظَرْفاً حقيقيًّا تعدَّى إليه في الغالب بغير وساطتها[1]. فلا تغفل.

وقيل: المراد: ارجعي إلى موعد ربك، واستُظهر أنَّ المرادَ بموعده تعالى على تقدير كون القول المذكور بعد تمام الحساب: ما وعده سبحانه من الجنة، والكونِ مع عباده تعالى الصالحين، والفاءُ تفسيريةٌ.

واستشكل عليه الأمر بالرجوع؛ إذ يقتضي أن تكونَ الجنةُ مقرًّا للنفس قبل ذلك.

وأُجيب بتحقُّقِ هذا المقتضَى بناءً على وجودها بالقوة في ظهر آدم عليه السلام حين كان في الجنة، وقد قيل نحوُ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥] على ما روي عن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وعن ابن عباس رضي الله عنهما، من أنَّ المراد بالمعاد الجنة دون مكة.

وأنت تعلم أنَّ هذا على ما فيه لا يتمُّ إلا على القول بأنَّ جنةَ آدم عليه السلام هي الجنةُ التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، لا جنةٌ أخرى كانت في الأرض،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

والخلافُ في ذلك قويٌّ كما لا يخفى على مَنْ راجع كتاب «مفتاح السعادة»[(١)] للعلامة ابن القيم، واطَّلع على أدلة الطرفين.

وقيل: المراد: ارجعي إلى أمر ربك. واستُظهر أنَّ المرادَ بالأمر على ذلك التقدير واحدُ الأمور، ويُفسَّرُ بمعاملة الله تعالى إياها بما ليس فيه ما يشغل بالها، أو بتمييزها بموقفٍ كريمٍ، أو بنحو ذلك مما يتحقَّقُ معه ما يقتضيه ظاهر الرجوع.

وقيل: المراد: ارجعي إلى كرامة ربك، ويُرادُ جنسُ كرامته سبحانه، والرجوعُ إليه باعتبار أنها كانت بعد الموت في البرزخ، أو بعد البعث وقبل الحساب في نوعٍ منه، والفاءُ عليه قيل: تفسيريةٌ أيضاً.

وعن عكرمة والضحاك أنَّ ذلك القول عند البعث؛ فقيل: النفس بمعنى الذات أيضاً، والمراد بالرَّبِّ هو الله عزَّ وجلَّ، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، ولا يُقدَّرُ محلُّ كرامته تعالى مراداً به الموقفُ الخاصُّ على ما سمعت؛ لأنه إنما يكون لها بعد.

وقيل: النفس بمعنى الروح، والمراد بالرَّبِّ الصاحب، وفُسِّر بالجسد، وباقي الآية على حاله، أي: ارجعي إلى جسدك كما كنتِ في الدنيا، فادخلي بعد الرجوع إليه في جملة عبادي، وادخلي دارَ ثوابي.

وقيل: المراد بالنفس والربّ ما ذُكِرَ، وقوله تعالى: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ على حَذْفِ مضافٍ، أي: فادخلي في أجساد عبادي. وجاء هذا في روايةٍ عن ابن عباس وابن جبير، ولا يضرُّ الإفرادُ أولاً والجمعُ ثانياً؛ لأنَّ المعنى على الجنس.

وقال ابن زيد وجماعةٌ: إنَّ ذلك القول عند الموت، وأُيِّدَ بما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن جبير قال: قُرئتْ عند النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ هذا لَحَسَنٌ. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّ الملك سيقولها لك عند الموت»[(٢)].

---

(١) ص١٢ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٦، والحلية ٤/٢٨٣. والكلام من الدر المنثور ٦/٣٥٠. وهذا مرسل حسن كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وجاء نحو هذا من رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»[١] من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن عامر عن الصديق رضي الله عنه.

والنفس عليه بمعنى الروح، والمعنى على ما قيل: ارجعي بالموت إلى عالم قُدْسِ ربك، راضيةً بما تؤتَيْنَ من النعيم، أو راضيةً عن ربك، مرضيَّةً عنده تعالى، فادخلي في زمرة عبادي المقرَّبين سَكَنَةِ حظائر القدس، وادخلي جنتي التي أعددتها لذوي النفوس المطمئنَّة، وهذان الدخولان يعقبان الرجوع، إلا أنَّ الدخولَ الأولَ يعقبه بلا تراخٍ قبل يوم القيامة، والثاني يعقبه بتراخٍ لأنه يوم القيامة إن أُريد بدخول الجنة دخولها على وجه الخلود، إلا أنَّ الأمر لتحقُّقه يجوز تعقيبه بالفاء.

وجُوِّزَ أن يكون تعقيبُ الأمرين على هذا النمط إن أُريد بالدخول في عباده تعالى انتظامها في سلك العباد الصالحين المخلصين من جنسها، ويجوز على إرادة هذا التعقيب أن يُرادَ: فادخلي في أجساد عبادي.

وجُوِّزَ أن يكون تعقيبُ الأمرين بلا تراخٍ إن أُريد بالدخول في العباد الدخول في زمرة المقربين من سَكَنَةِ حظائر القدس، وبالدخول في الجنة الدخول لا على وجه الخلود، بل لنوعٍ من التنعُّم إلى أن تقوم الساعة، ففي الحديث: «إنَّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور في الجنة»[٢]، وفي بعض الآثار: «إذا مات المؤمن أعطي نصفَ الجنة»[٣] أي: نصفَ جنَّته التي وُعِدَ دخولها يوم القيامة، وذُكِرَ في وجه إدخالها مع الأرواح القدسية أنها[٤] كالمرايا المصقولة، فإذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ تعاكست أشعةُ أنوار المعارف، فيظهرُ لكلٍّ منها ما يُكمِّلها، فيكونُ سبباً لتكامل[٥] السعادات، وتعاظم الدرجات، وهو عندي كلامٌ خِطابيٌّ.

---

(١) ص١٩ دون ذكر الإسناد.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٥٧٧٨)، والنسائي ٤/١٠٨، وابن ماجه (١٤٤٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قوله: أنها، ليس في (م).

(٥) قبلها في (م): أنها.

وعن بعض السلف ما يُؤيِّدُ بعضَ هذه الأوجه، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح أنه قال في الآية: ﴿ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ هذا عند الموت، ورجوعُها إلى ربِّها خروجها من الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قيل لها: ادخلي في عبادي، وادخلي جنتي[١].

وقيل: إنَّ هذا القول بعد الموت وقبل القيامة، والمراد برجوعها إلى ربها رجوعُها إلى جسدها لسؤال الملكين، أخرج ابن المنذر[٢] عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية: إنَّ المؤمنَ إذا مات أُريَ منزله من الجنة، فيقول تبارك وتعالى: يا أيتها النفس المطمئنة عندي، ارجعي إلى جسدك الذي خرجتِ منه، راضيةً بما رأيتِ من ثوابي، مرضيًّا عنك، حتى يسألك منكرٌ ونكيرٌ.

وقيل: إنه في مواطنَ ثلاثة، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال في الآية: بُشِّرتْ بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع[٣]. وتُفسَّرُ عليه بما ينطبق على الجميع.

وقيل: يجوز أن يكون ذلك في سائر أوقات النفس في حياتها الدنيا، والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرَّبِّ: الأمرُ بالرجوع إليه تعالى في كلِّ أمرٍ من الأمور، والمرادُ بالأمر بالدخول في العباد: الأمرُ بالدخول في زمرة العباد الخُلَّص، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، بالإكثار من العمل الصالح، وبالأمر بالدخول في الجنة: الأمرُ بالدخول فيها بالقوة القريبة، فكأنه سبحانه بعد أن بالغ جلَّ وعلا في سوء حال الأمَّارة ووعيدها، خاطَبَ المطمئنَّة بذاك، وأَرشدَها سبحانه إلى ما فيه صلاحُها ونجاتُها.

ولا يخفى ما فيه، فلا ينبغي أن يُعَدَّ وجهاً.

وأيًّاما كان من الأَوْجُه فالظاهر العموم فيها وإن أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عثمان بن عفان ﷺ حين اشترى

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥١، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٦.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥١.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥١.

بئر رُومة، وجعلها سقايةً للناس[١].

وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب.

وقيل: نزلت في خُبيب بن عدي الذي صَلَبَهُ أهلُ مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خيرٌ، فحوِّلْ وجهي نحو قبلتك، فحوَّل الله تعالى وجهه نحوها، فلم يستطعْ أحدٌ أن يُحوِّله بعدُ[٢].

فتفسير النفس المذكورة بأحد هؤلاء المذكورين كما نُقِلَ عن بعضٍ من باب التمثيل، وأنَّ صورةَ السبب قطعيةُ الدخول، وينبغي أن يُحمَلَ قولُ ابن عباس في تلك النفس كما أخرجه عنه ابن مردويه: هو النبيُّ ﷺ[٣]، على نحو ذلك.

وأشعرت الآية على بعض أوجهها بأنَّ الأرواحَ مخلوقةٌ قبلَ الأبدان، ومقرُّها إذ ذاك في عالم الملكوت، والخلافُ في المسألة شهيرٌ، وجمهورُ المتكلِّمين على أنها مخلوقةٌ عند استعداد الأبدان لها، وكذا أفلاطون وأصحابه.

وقرأ ابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح وأبو شيخ واليماني: «في عبدي» على الإفراد[٤]، واستُظهر أنَّ المراد الجنسُ كما في «النفس».

وللسادة الصوفية قُدِّستْ نفوسُهم كلامٌ طويلٌ في تقسيم مراتب النفس، وقالوا: إنَّ الآيةَ متضمِّنةٌ لمراتبَ ثلاثٍ منها: المطمئنَّةُ والراضيةُ والمرضيةُ، وفسَّروا كلًّا بما فسَّروه، فمَنْ أراده فليرجع إليه في كتبهم، وأنا أقول كما علَّم رسول الله ﷺ بعض الصحابة على ما أخرج الطبراني وابن عساكر[٥] عن أبي أُمامة رضي الله عنه: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنةً تؤمنُ بلقائك، وترضى بقضائك، وتَقْنَعُ بعطائك».

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥٠، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٤، والبحر ٨/ ٤٧٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.
(٤) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/ ٣٦٠، والبحر ٨/ ٤٧٢، وأبو شيخ، هو الهُنَائي البصري، قيل: اسمه حيوان ـ بالمهملة أو المعجمة ـ بن خالد. التقريب ص ٥٧١.
(٥) المعجم الكبير (٧٤٩٠)، وتاريخ ابن عساكر ٣٥/ ٨١.

(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

● هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، من تثبيت العقيدة والإيمان ، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء ، والتمييز بين الأبرار والفجار .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام ، الذي يسكنه النبي عليه الصلاة والسلام تعظيماً لشأنه ، وتكريماً لمقامه الرفيع عند ربه ، ولفتاً لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى .

● **ثم تحدثت** عن بعض كفار مكة ، الذين اغتروا بقوتهم ، فعاندوا الحقَّ ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة ، ظناً منهم أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله ، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

● **ثم تناولت** أهوال القيامة وشدائدها ، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها ويجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح .

● **وختمت** السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب ، وبيَّنت مآل السعداء ، ومآل الأشقياء ، في دار الجزاء .

سورة البلد

عشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾

أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هي مكة، واعلم أن فضل مكة معروف، فإن الله تعالى جعلها حرمًا آمنًا، فقال في المسجد الذي فيها: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] وشرَّف مقام إبراهيم بقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال في البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦] وقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] وحرَّم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودُحيت الدنيا من تحته، فهذه الفضائل وأكثر منها لمَّا اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها.

فأما قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ فالمراد منه أمور: **أحدها:** وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به، كأنه تعالى عظَّم مكة من جهة أنه عليه الصلاة والسلام مقيم بها. **وثانيها:** الحل بمعنى الحلال، أي أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات، ثم إنهم مع ذلك ومع إكرام الله تعالى إياك بالنبوة يستحلون إيذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك، فأنت حل لهم في اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك، عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيدًا أو يعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب له من حالهم في عدوانهم له. **وثالثها:** قال قتادة: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له، وما فُتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء وفعل ما شاء، فقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابة وغيرهما، وحرم دار أبي سفيان، ثم قال: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَلُها، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ**» فقال العباس: إلا الإذخر يا

رسول الله فإنه لبيوتنا وقبورنا، فقال «إلاَّ الإِذْخِرَ» (١). فإن قيل: هذه السورة مكية، وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرتم إنما حدثت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟ **قلنا:** قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلاً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] وكما إذا قلت لمن تعده الإكرام والحباء: (أنت مكرم محبو) وهذا من الله أحسن؛ لأن المستقبل عنده كالحاضر بسبب أنه لا يمنعه عن وعده مانع. **ورابعها:** ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي وأنت غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه تعظيمًا منك لهذا البيت، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر بالله، وتكذيب الرسل. **وخامسها:** أنه تعالى لما أقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد، ثم قال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي وأنت من حل هذه البلدة المعظمة المكرمة، وأهل هذا البلد يعرفون أصلك ونسبك وطهارتك وبراءتك طول عمرك من الأفعال القبيحة. وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٦] فيكون الغرض شرح منصب رسول الله ﷺ بكونه من هذا البلد.

أما قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فاعلم أن هذا معطوف على قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، وللمفسرين فيه وجوه: **أحدها:** الولد آدم، وما ولد: ذريته، أقسم بهم إذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض؛ لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه، وكل ما في الأرض مخلوق لهم وأمَر الملائكة بالسجود لآدم وعلَّمه الأسماء كلها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم؛ لِما ذكرنا من ظهور العجائب في هذه البنية والتركيب، وقيل: هو قسم بآدم والصالحين من أولاده، بناء على أن الطالحين كأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم، كما قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] **وثانيها:** أن الوالد إبراهيم وإسماعيل وما ولد محمد ﷺ وذلك لأنه أقسم بمكة وإبراهيم بانيها وإسماعيل ومحمد عليهما السلام سكانها، وفائدة التنكير الإبهام المستقل بالمدح والتعجب، وإنما قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ولم يقل: (ومن ولد) للفائدة الموجودة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي بأي شيء وضعت، يعني موضوعًا عجيب الشأن. **وثالثها:** الولد إبراهيم وما ولد جميع ولد إبراهيم بحيث يحتمل العرب والعجم. فإن جملة ولد إبراهيم هم سكان البقاع الفاضلة من أرض الشام ومصر وبيت المقدس وأرض العرب، ومنهم الروم لأنهم ولد عيصو بن إسحاق، ومنهم من خص ذلك

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الحج) باب (لا ينفر صيد الحرم) (٢/ ٦٥١) حديث رقم (١٧٣٦) من طريق خالد عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٠٣٨) حديث رقم (٣١٠٩) من طريق الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة... به.

بولد إبراهيم من العرب، ومنهم من خص ذلك بالعرب المسلمين، وإنما قلنا: إن هذا القسَم واقع بولد إبراهيم المؤمنين لأنه قد شُرع في التشهد أن يقال: (كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ) وهم المؤمنون. **ورابعها:** روي عن ابن عباس أنه قال: الولد الذي يلد، وما ولد الذي لا يلد، فما ههنا يكون للنفي، وعلى هذا لا بد عن إضمار الموصول أي (ووالد والذي ما ولد) وذلك لا يجوز عند البصريين. **وخامسها:** يعني كل والد ومولود، وهذا مناسب؛ لأن حرمة الخلق كلهم داخلة في هذا الكلام.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الكبد وجوه: **أحدها:** قال صاحب (الكشاف): إن الكبد أصله من قولك كِبد الرجل كبدًا فهو كبِدُ، إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة، وأصله كبَده إذا أصاب كبِده. وقال آخرون: الكبد شدة الأمر ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد لأنه دم يغلظ ويشتد، والفرق بين القولين أن الأول جُعل اسم الكبد موضوعًا للكبد، ثم اشتقت منه الشدة. وفي الثاني جعل اللفظ موضوعًا للشدة والغلظ، ثم اشتق منه اسم العضو. **الوجه الثاني:** أن الكبد هو الاستواء والاستقامة: **الوجه الثالث:** أن الكبد شدة الخلق والقوة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد شدائد الدنيا فقط، وأن يكون المراد شدائد التكاليف فقط، وأن يكون المراد شدائد الآخرة فقط، وأن يكون المراد كل ذلك.

أما الأول: فقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي خلقناه أطوارًا كلها شدة ومشقة، تارة في بطن الأم، ثم زمان الإرضاع، ثم إذا بلغ ففي الكد في تحصيل المعاش، ثم بعد ذلك الموت.

وأما الثاني: -وهو الكبد في الدين- فقال الحسن: يكابد الشكر على السراء، والصبر على الضراء، ويكابد المحن في أداء العبادات.

وأما الثالث: -وهو الآخرة- فالموت ومساءلة الملك وظلمة القبر، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار.

وأما الرابع: وهو يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق، وعندي فيه وجه آخر، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر، فهذا معنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ ويظهر منه أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة؛ لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم، فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب، وإن كان مطلوبه أن يلتذ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذًا لا بد بعد

هذه الدار من دار أخرى؛ لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرامات.

وأما على الوجه الثاني: -وهو أن يفسر الكبد بالاستواء- فقال ابن عباس: في كبد، أي قائمًا منتصبًا، والحيوانات الأخر تمشي منكسة، فهذا امتنان عليه بهذه الخلقة.

وأما على الوجه الثالث: -وهو أن يفسر الكبد بشدة الخلقة- فقد قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يكنى أبا الأشد، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظي، فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الأديم ولم تَزُل قدماه، واعلم أن اللائق بالآية هو الوجه الأول.

المسألة الثانية: حرف في واللام متقاربان، تقول: إنما أنت للعناء والنصب، وإنما أنت في العناء والنصب. وفيه وجه آخر وهو أن قوله: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا أنه ليس في الدنيا إلا الكد والمحنة.

المسألة الثالثة: منهم من قال: المراد بالإنسان إنسان معين، وهو الذي وصفناه بالقوة، والأكثرون على أنه عام يدخل فيه كل أحد، وإن كنا لا نمنع من أن يكون ورد عند فعل فعله ذلك الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ اعلم أنا إن فسرنا الكبد بالشدة في القوة، فالمعنى أيحسب ذلك الإنسان الشديد أنه لشدته لا يقدر عليه أحد؟! وإن فسرنا بالمحنة والبلاء كان المعنى تسهيل ذلك على القلب، كأنه يقول: وهب أن الإنسان كان في النعمة والقدرة، أفيظن أنه في تلك الحالة لا يقدر عليه أحد؟ ثم اختلفوا فقال بعضهم: لن يقدر على بعثه ومجازاته فكأنه خطاب مع من أنكر البعث. وقال آخرون: المراد لن يقدر على تغيير أحواله ظنًّا منه أنه قوي على الأمور لا يدافع عن مراده، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ قال أبو عبيدة: لبد: فُعَل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض، قال الزجاج: فُعَل للكثرة، يقال: رجل حُطَم، إذا كان كثير الحطم. قال الفراء: واحدته لُبْدة ولُبَد جمع وجعله بعضهم واحدًا، ونظيره قُسَم، وحُطَم وهو في الوجهين جميعًا الكثير، قال الليث: مال لُبَد: لا يُخاف فناؤه من كثرته. وقد ذكرنا تفسير هذا الحرف عند قوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] والمعنى أن هذا الكافر يقول: أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيرًا، والمراد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر.

ثم قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فيه وجهان: **الأول:** قال قتادة: أيظن أن الله لم يره ولم يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ **الثاني:** قال الكلبي: كان كاذبًا، لم ينفق شيئًا، فقال الله

تعالى : أيظن أن الله تعالى ما رأى ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق ، بل رآه وعلم منه خلاف ما قال . واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الكافر قوله : ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] أقام الدلالة على كمال قدرته فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ وعجائب هذه الأعضاء مذكورة في كتب التشريح ، قال أهل العربية : النجد : الطريق في ارتفاع ، فكأنه لما وضحت الدلائل جُعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار ، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر ، وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال : «**إنما هما النجدان، نجد الخير ونجد الشر ، ولا يكون نجد الشر أحب إلى أحدكم من نجد الخير**» وهذه الآية كالآية في ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ إلى قوله : ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٣] وقال الحسن : قال : ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فمن الذي يحاسبني عليه؟ فقيل : الذي قدر على أن يخلق لك هذه الأعضاء قادر على محاسبتك . وروي عن ابن عباس وسعيد بن المسيب أنهما الثديان . ومن قال ذلك ذهب إلى أنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والله تعالى هدى الطفل الصغير حتى ارتضعهما ، قال القفال : والتأويل هو الأول . ثم قرر وجه الاستدلال به فقال : إن من قدر على أن يخلق من الماء المهين قلبًا عقولاً ولسانًا قؤولاً ، فهو على إهلاك ما خلق قادر ، وبما يخفيه المخلوق عالم ، فما العذر في الذهاب عن هذا مع وضوحه وما الحجة في الكفر بالله من تظاهر نعمه؟ وما العلة في التعزيز على الله وعلى أنصار دينه بالمال وهو المعطي له ، وهو الممكّن من الانتفاع به .

ثم إنه سبحانه وتعالى دل عباده على الوجوه الفاضلة التي تنفق فيها الأموال ، وعَرَّف هذا الكافر أن إنفاقه كان فاسدًا وغير مفيد ، فقال تعالى : ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ ، وفيه مسائل:

المسألة الأولى : الاقتحام : الدخول في الأمر الشديد ، يقال : قحم يقحم قحومًا ، واقتحم اقتحامًا وتقحم تقحمًا ، إذا ركب القحم ، وهي المهالك والأمور العظام . والعقبة : طريق في الجبل ، وَعرٌ ، الجمع العقب والعقاب ، ثم ذكر المفسرون في العقبة ههنا وجهين : الأول : أنها في الآخرة وقال عطاء : يريد عقبة جهنم . وقال الكلبي : هي عقبة بين الجنة والنار ، وقال ابن عمر : هي جبل زلال في جهنم . وقال مجاهد والضحاك : هي الصراط يُضرب على جهنم . وهو معنى قول الكلبي : إنها عقبة الجنة والنار . قال الواحدي : وهذا تفسير فيه نظر لأن من المعلوم أن (بَنِي) هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها ، فحَمْل الآية عليه يكون إيضاحًا للواضحات ، ويدل عليه أنه لما قال : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] فسره بفك الرقبة وبالإطعام . الوجه الثاني في تفسير العقبة: هو أن ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر ، وهو قول الحسن ومقاتل قال الحسن : عقبة الله شديدة وهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه من شياطين الإنس والجن . وأقول : هذا التفسير هو الحق لأن الإنسان يريد أن يترقى من عالم الحس والخيال إلى يفاع عالم الأنوار الإلهية ولا شك أن بينه وبينها عقبات سامية دونها صواعق حامية ، ومجاوزتها صعبة والترقي إليها شديد .

المسألة الثانية: أن في الآية إشكالاً وهو أنه قلما توجد (لا) الداخلة على المضي إلا مكررة، تقول: (لا جنبني ولا بعدني) قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]وفي هذه الآية ما جاء التكرير فما السبب فيه؟ أجيب عنه من وجوه: **الأول**:قال الزجاج: إنها متكررة في المعنى لأن معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينًا، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧]يدل أيضًا على معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ولا آمن. **الثاني**: قال أبو علي الفارسي: معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ لم يقتحمها، وإذا كانت (لا) بمعنى (لم) كان التكرير غير واجب كما لا يجب التكرير مع (لم)، فإن تكررت في موضع نحو ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ فهو كتكرر (ولم): نحو ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].

المسألة الثالثة: قال القفال: قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي هلا أنفق ماله فيما فيه اقتحام العقبة؟ وأما الباقون فإنهم أجروا اللفظ على ظاهره، وهو الإخبار بأنه ما اقتحم العقبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ فلا بد من تقدير محذوف؛ لأن العقبة لا تكون فك رقبة، فالمراد وما أدراك ما اقتحام العقبة، وهذا تعظيم لأمر التزام الدين:

ثم قال تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والمعنى أن اقتحام العقبة هو الفك أو الإطعام، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: الفك فرق يزيل المنع كفكّ القيد والغل، وفك الرقبة فرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية وإبطال العبودية، ومنه فك الرهن وهو إزالة غلق الرهن، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه فك الكتاب، قال الفراء: في المصادر فكها يفكها فكاكًا بفتح الفاء في المصدر ولا تقل بكسرها، ويقال: كانت عادة العرب في الأسارى شد رقابهم وأيديهم، فجرى ذلك فيهم وإن لم يشدد، ثم سمي إطلاق الأسير فكاكًا، قال الأخطل:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الْأَغْلَالَا[١]

المسألة الثانية: فك الرقبة قد يكون بأن يعتق الرجل رقبة من الرق، وقد يكون بأن يعطي مكاتبًا ما يصرفه إلى جهة فكاك نفسه، روى البراء بن عازب قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: «**عِتْقُ النَّسَمَةِ وَفَكُّ الرَّقَبَةِ**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أو ليسا وَاحِدًا؟ قَالَ: «**لاَ، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا**»[٢] وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من

---

(١) تقدمت ترجمة الأخطل.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٩٩) والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٣٦) حديث رقم (٢٣٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٩٧) حديث رقم (٣٧٤) والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٨) حديث رقم (٦٩) جميعًا من طريق طلحة بن مصرف عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب . . . به.

العبادة التي يصير بها إلى الجنة فهي الحرية الكبرى، ويتخلص بها من النار.

المسألة الثالثة: قرئ: (فك رقبة أو إطعام)، والتقدير هي فك رقبة أو إطعام وقرئ: (فك رقبة أو أطعم) على الإبدال من اقتحم العقبة، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ اعتراض، قال الفراء: وهو أشبه الوجهين بصحيح العربية لقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ [البلد: ١٦] لأن فك وأطعم فعل، وقوله: ﴿كَانَ﴾ فعل، وينبغي أن يكون الذي يعطف عليه الفعل فعلاً، أما لو قيل: ثم إن كان كان ذلك مناسبًا لقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالرفع لأنه يكون عطفًا للاسم على الاسم.

المسألة الرابعة: عند أبي حنيفة العتق أفضل أنواع الصدقات، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقدم العتق على الصدقة فيها.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: سغب سغبًا، إذا جاع فهو ساغب وسغبان، قال صاحب (الكشاف): المسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، وترب إذا افتقر، ومعناه التصق بالتراب، وأما أترب فاستغنى، أي صار ذا مال كالتراب في الكثرة. قال الواحدي: المتربة مصدر من قولهم: (ترب يترب تربًا ومتربة) مثل مسغبة إذا افتقر حتى لصق بالتراب.

المسألة الثانية: حاصل القول في تفسير: ﴿يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ ما قاله الحسن: وهو نائم يوم محروص فيه على الطعام. قال أبو علي: ومعناه ما يقول النحويون في قولهم: ليل نائم ونهار صائم، أي ذو نوم وصوم.

واعلم أن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر، وهو كقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا﴾ [الإنسان: ٨] وقرأ الحسن: (ذَا مَسْغَبَةٍ) نصبه بإطعام ومعناه أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

أما قوله تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ قال الزجاج: ذا قرابة، تقول: زيد ذو قرابتي وذو مقربتي، و(زيد قرابتي) قبيح لأن القرابة مصدر. قال مقاتل: يعني يتيمًا بينه وبينه قرابة، فقد اجتمع فيه حقان يتم وقرابة، فإطعامه أفضل، وقيل: يدخل فيه القرب بالجوار كما يدخل فيه القرب بالنسب.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾

أما قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي مسكينًا قد لصق بالتراب من فقره وضره، فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه، روي أن ابن عباس مر بمسكين لاصق بالتراب فقال: هذا الذي

قال الله تعالى (فيه): ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ واحتج الشافعي بهذه الآية على أن المسكين قد يكون بحيث يملك شيئًا؛ لأنه لو كان لفظ المسكين دليلاً على أنه لا يملك شيئًا ألبتة، لكان تقييده بقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ تكريرًا وهو غير جائز.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي كان مقتحم العقبة من الذين آمنوا، فإنه إن لم يكن منهم لم ينتفع بشيء من هذه الطاعات، ولا مقتحمًا للعقبة. **فإن قيل:** لما كان الإيمان شرطًا للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدمًا عليها، فما السبب في أن الله تعالى أخره عنها بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أن هذا التراخي في الذكر لا في الوجود، كقوله:

إنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

لم يرد بقوله: ثم ساد أبوه التأخر في الوجود، وإنما المعنى: ثم اذكر أنه ساد أبوه. كذلك في الآية. **وثانيها:** أن يكون المراد: ثم كان في عاقبة أمره من الذين آمنوا وهو أن يموت على الإيمان، فإن الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات. **وثالثها:** أن من أتى بهذه القرب تقربًا إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد ﷺ ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه الصلاة والسلام، فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات، قالوا: ويدل عليه ما روي أن حكيم بن حزام بعدما أسلم قال لرسول الله ﷺ: إنا كنا نأتي بأعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه السلام: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا قَدَّمْتَ مِنَ الْخَيْرِ**»(١) **ورابعها:** أن المراد من قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لأن درجة ثواب الإيمان أعظم بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ فالمعنى أنه كان يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو الصبر على المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن، ثم ضم إليه التواصي بالمرحمة وهو أن يحث بعضهم بعضًا على أن يرحم المظلوم أو الفقير، أو يرحم المُقْدم على منكر فيمنعه منه لأن كل ذلك داخل في الرحمة، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه، واعلم أن قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ... بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة، وهذه الطائفة هم أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم، فإنهم كانوا مبالغين في الصبر على شدائد الدين والرحمة على الخلق.

وبالجملة فقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله، ومدار أمر الطاعات ليس إلا على هذين الأصلين، وهو الذي

---

(١) أورده النسابوري في (غريب القرآن) (٦/ ٥٠٤).

قاله بعض المحققين: إن الأصل في التصوف أمران: صدق مع الحق، وخُلُق مع الخَلْق.

ثم إنه سبحانه لما وصف هؤلاء المؤمنين بيّن أنهم من هم في القيامة فقال:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وإنما ذكر ذلك لأنه تعالى بيّن حالهم في سورة الواقعة وأنهم ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨، ٢٩] قال صاحب (الكشاف): الميمنة والمشأمة: اليمين والشمال، أو اليمن والشؤم، أي الميامين على أنفسهم والمشائيم عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ فقيل: المراد من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره، وقد تقدم وصف الله لهم بأنهم ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٣] إلى غير ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الفراء والزجاج والمبرد: يقال: آصدت الباب وأوصدته، إذا أغلقته، فمن قرأ (مؤصدة) بالهمزة أخذها من آصدت فهمز اسم المفعول، ويجوز أن يكون من أوصدت ولكنه همز على لغة من يهمز الواو وإذا كان قبلها ضمة نحو مؤسى، ومن لم يهمز احتمل أيضًا أمرين:

أحدهما: أن يكون من لغة من قال: (أوصدت) فلم يهمز اسم المفعول كما يقال: من أوعدت موعد.

الآخر: أن يكون من آصد مثل آمن، ولكنه خُفف كما في تخفيف جؤنة وبؤس جونة وبوس، فيقلبها في التخفيف واوًا، قال الفراء: ويقال من هذا: الأصيد والوصيد، وهو الباب المطبق.

إذا عرفت هذا فنقول: قال مقاتل: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ يعني أبوابها مطبقة فلا يفتح لهم باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها رَوْح أبد الآباد. وقيل: المراد إحاطة النيران بهم، كقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

المسألة الثانية: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ هي الأبواب، وقد جرت صفة للنار على تقدير: عليهم نار مؤصدة الأبواب، فكلما تركت الإضافة عاد التنوين لأنهما يتعاقبان.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «البلد»

مكية باتفاق. وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾

يجوزُ أن تكونَ «لا» زائدةً، كما تقدَّم في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ قاله الأخفش. أي: أُقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ وقد أَقْسَم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أَقْسَم به. قال الشاعر:

تَـذَكَّـرتُ لـيـلَـى فـاعْـتَـرتْـنـي صَـبـابـةٌ   وكـاد صـمِـيـمُ الـقـلـبِ لا يَـتـقـطَّـعُ(١)

أي: يتقطَّعُ، ودخل حرفُ «لا» صلةً، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] بدليل قوله تعالى في «صٓ»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥].

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وابنُ كثير: «لَأُقْسِم» من غيرِ ألفٍ بعد اللام إثباتاً(٢).

وأجاز الأخفشُ أيضاً أن تكون بمعنى «أَلَا»(٣).

وقيل: ليستْ بنفي القَسَم، وإنَّما هو كقولِ العربِ: لا واللهِ لا فعلتُ كذا، ولا واللهِ ما كان كذا، ولا واللهِ لَأَ فْعَلَنَّ كذا.

وقيل: هي نفيٌ صحيحٌ، والمعنى: لا أقسمُ بهذا البلدِ إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكّيٌّ. ورواه ابنُ أبي نَجِيحٍ عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم(٤)،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ وفيه: ضمير، بدل: صميم، وسلف ٢١/ ٤٠٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١، وذكرها عن الحسن ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦١، والمشهور عن ابن كثير في هذه الآية كقراءة الجماعة، وينظر ما سلف ٢١/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) ذكره عن الأخفش النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٧.

وهذا اختيارُ ابنِ العربيِّ؛ لأنه قال: وأمَّا مَن قال: إنها رَدٌّ، فهو قولٌ ليس له ردٌّ؛ لأنه يصحُّ به المعنى، ويتمكَّن اللفظُ والمراد. فهو ردٌّ لكلامِ مَن أنْكَر البعثَ ثم ابتدأ القسم[(١)].

وقال القشيريُّ: قولهُ «لا»: ردٌّ لمَا تَوهَّم الإنسانُ المذكورُ في هذه السورة، المغرورُ بالدنيا. أي: ليس الأمرُ كما يَحْسَبُه، مِن أنَّه لن يقدرَ عليه أحدٌ، ثم ابتدأ القسم.

و«البلد»: هي مكة، أجمعوا عليه. أي: أُقسِمُ بالبلد الحرامِ الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبِّي لك. وقال الواسطيُّ: أي: نحلفُ لك بهذا البلد الذي شَرَّفْتَه بمكانكَ فيه حيًّا، وببركتِكَ ميتاً، يعني المدينة. والأوّلُ أصح؛ لأنَّ السورةَ نزلت بمكةَ باتِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾

يعني في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومثلُه واسعٌ في كلام العِبَاد[(٢)]؛ تقولُ لمَن تَعِدُه الإكرامَ والحِباءَ: أنت مُكرمٌ مَحْبُوٌّ. وهو في كلام اللهِ أوسَعُ[(٣)]، لأنَّ الأحوال المستقبَلَةَ عنده كالحاضرة المشاهَدَة؛ وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحالِ مُحالٌ: أنَّ السورة بالاتِّفاق مكيةٌ قبلَ الفتح. فروى منصورٌ عن مجاهد: «وأنتَ حِلٌّ» قال: ما صنعت فيه من شيءٍ فأنت في حِلٍّ. وكذا قال ابن عباس: أُحِلَّ له يومَ دخل مكةَ أن يقتل مَن شاء، فقتل ابنَ خَطَلٍ ومِقْيس بنَ صبَابةَ وغيرَهما. ولم يَحِلَّ لأحدٍ من الناس أن يقتلَ بها أحداً بعد رسول الله ﷺ[(٤)]. وروى السُّديُّ قال: أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله. وروى أبو

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ و١٩٢٢ .

(٢) في (د) و(م): العرب، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٤/ ٢٥٥ ، والكلام منه.

(٣) في النسخ: واسع، والمثبت من الكشاف.

(٤) أخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ٢٤/ ٤٠٣-٤٠٤ .

صالح عن ابن عباس قال: أُحِلَّتْ له ساعةً من نهار، ثم أُطبقتْ وحرِّمتْ إلى يوم القيامة، وذلك يومَ فتحِ مكةَ.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله حرَّم مكةَ يومَ خَلَق السماواتِ والأرضَ، فهي حَرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ، فلمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلَّا ساعةً من نهار» الحديث[١]. وقد تقدَّم في سورة «المائدة»[٢].

ابن زيد: لم يكن بها أحدٌ حَلالاً غير النبيِّ ﷺ[٣].

وقيل: وأنت مُقيمٌ فيه وهو مَحلُّك. وقيل: وأنت فيه مُحْسِنٌ، وأنا عنك فيه راضٍ. وذَكرَ أهلُ اللغةِ أنه يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، ورجلٌ حَرَامٌ ومُحْرِمٌ وحِرْمٌ[٤]. وقال قتادةُ: أنت حِلٌّ به لَستَ بآثم[٥].

وقيل: هو ثناءٌ على النبيِّ ﷺ، أي: إنك غيرُ مرتكبٍ في هذا البلدِ ما يَحرُمُ عليك ارتكابُه؛ معرفةً منك بحقِّ هذا البيتِ، لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفرَ بالله فيه. أي: أُقسِمُ بهذا البيتِ المعظَّم الذي قد عَرَفْتَ حُرْمتَه، فأنتَ مقيمٌ فيه معظِّمٌ له، غير مرتكِبٍ فيه ما يحرُمُ عليك.

وقال شُرَحْبِيل بن سعد: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: حلالٌ، أي: هم يحرِّمون مكةَ أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرةً، ثم هم مع هذا يَسْتحلُّون إخراجَك وقتلَك[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سلف في سورة البقرة ٢/ ٣٨٣-٣٨٤، وينظر ٨/ ٢٢١.

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣، والطبري ٢٤/ ٤٠٤-٤٠٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

قال مجاهدٌ وقتادةُ والضحاكُ والحسنُ وأبو صالح: «وَوَالِدٍ»: آدم عليه السلام. «وما وَلَدَ» أي: وما نَسَلَ مِن وَلَدِه[١]. أَقْسَم بهم لأنهم أعْجَبُ ما خَلَقَ اللهُ تعالى على وَجْهِ الأرض؛ لمَا فيهم من التِّبيان[٢] والنُّطْقِ والتدبير، وفيهم الأنبياءُ والدُّعاةُ إلى الله تعالى.

وقيل: هو إقسامٌ بآدم والصالحين من ذريته، وأمَّا غيرُ الصالحين فكأنهم بهائم.

وقيل: الوالدُ إبراهيم. وما وَلَد: ذرِّيتُه؛ قاله أبو عمران الجونيُّ[٣]، ثم يحتملُ أنه يريد جميعَ ذرِّيتِه، ويحتملُ أنه يريدُ المسلمين من ذريته.

قال الفرَّاء: وصَلحَتْ «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء:٣]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] وهو الخالقُ للذَّكرِ والأنثى.

وقيل: «ما» مع ما بعدَها في موضع المصدر؛ أي: ووالدٍ ووِلادته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥][٤].

وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: «ووالدٍ» يعني الذي يُوْلَدُ له، «وما ولد» يعني العاقرَ الذي لا يُولدُ له ـ وقاله ابن عباس[٥]. و«ما» على هذا نفيٌ. وهو بعيدٌ، ولا يصحُّ إلَّا بإضمارِ الموصول، أي: ووالدٍ والذي ما وَلَد، وذلك لا يجوزُ عند البصريين[٦].

وقيل: هو عمومٌ في كلِّ والدٍ وكلِّ مولودٍ؛ قاله عطيةُ العَوفيُّ. ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً[٧]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٨].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٤٠٦-٤٠٧ .

(٢) في (ظ) و(ي): البيان.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٦ عن ابن عباس وعكرمة.

(٦) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٦ من طريق عطية عن ابن عباس.

(٨) في التفسير ٢٤/ ٤٠٨ .

قال الماوَرْديُّ[١]: ويحتملُ أنَّ الوالد النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذِكْرِه. وما وَلَد أمَّتُه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمكم»[٢]. فأقسم به وبأمَّته بعد أن أَقْسَم ببلده؛ مبالغةً في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾

إلى هنا انتهى القَسَم، وهذا جوابُه. ولله أن يُقسِمَ بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدَّم. والإنسانُ هنا ابنُ آدم. ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي: في شدَّةٍ وعناءٍ من مُكابدة الدنيا. وأصلُ الكَبَدِ: الشدَّةُ. ومنه: تَكَبَّد اللَّبَنُ: غَلُظَ وخَثُر واشتدَّ. ومنه الكَبِد؛ لأنَّه دمٌ تَغلَّظ واشتدَّ[٣]. ويقال: كابَدْتُ هذا الأمر: قاسَيْتُ شدَّته، قال لَبِيد:

يا عينُ هلَّا بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ ... قُمْنا وقامَ الخصومُ في كَبَدِ[٤]

قال ابن عباس والحسن: «في كَبَد» أي: في شدَّةٍ ونَصَب. وعن ابن عباس أيضاً: في شدَّةٍ من حَمْلِه ووِلَادتِه ورضاعِه ونَبْتِ أسنانِه، وغيرِ ذلك من أحواله[٥]. وروى عكرمةُ عنه قال: منتصباً في بَطْنِ أمِّه[٦]. والكَبَدُ: الاستواءُ والاستقامةُ. فهذا امتنانٌ عليه في الخِلْقة. ولم يَخْلقِ الله جلَّ ثناؤه دابةً في بطن أمِّها إلَّا مُنْكَبَّةً على وجهها إلا ابنَ آدم، فإنه منتصبٌ انتصاباً. وهو قولُ النخَعِيِّ ومجاهدٍ وغيرِهما.

ابنُ كيسان: منتصباً رأسُه في بطن أمِّه، فإذا أذِنَ الله أن يخرجَ من بطن أمِّه قَلَبَ رأسَه إلى رجلَيْ أمِّه[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ .

(٢) سلف ١٧/ ٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٤) ديوان لبيد ص١٦٠، وأربد هو أخو لبيد، وقد سلفت قصته مع البيت ١٢/ ٣٦-٣٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٨-٤١٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ عن عكرمة وابن عباس بلفظ: في انتصابٍ في بطن أمه وبعد ولادته، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

وقال الحسن: يُكابِد مصائبَ الدنيا وشدائدَ الآخرة[١].

وعنه أيضاً: يكابدُ الشُّكْرَ على السَّرَّاءِ، ويكابدُ الصَّبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر[٢].

وقال يَمانٌ: لم يَخْلُقِ الله خَلْقاً يكابِدُ ما يكابِدُ ابنُ آدمَ؛ وهو مع ذلك أضعفُ الخَلْقِ[٣].

قال عُلماؤنا: أولُ ما يكابدُ قَطْعَ سُرَّته، ثم إذا قُمِطَ قِماطاً، وشدَّ رِباطاً، يكابدُ الضِّيقَ والتَّعبَ، ثم يكابدُ الارْتِضاعَ، ولو فاته لضاع، ثم يكابدُ نَبْتَ أسنانِه، وتحرُّكَ لسانِه، ثم يكابدُ الفِطامَ الذي هو أشدُّ من اللِّطام، ثم يكابدُ الختانَ، والأوجاعَ والأحزانَ، ثم يكابدُ المُعَلِّم وصَوْلَتَه، والمؤدِّبَ وسياستَه، والأستاذَ وهَيبتَه، ثم يكابدُ شُغْلَ التَّزْويجِ والتعجيل فيه[٤]، ثم يكابدُ شُغْلَ الأولادِ، والخدمِ والأجناد، ثم يكابدُ شغلَ الدُّورِ وبناءَ القصور. ثم الكِبرَ والهَرَمَ وضَعْفَ الرُّكْبةِ والقدم، في مصائبَ يكثرُ تعدادُها، ونوائبَ يطولُ إيرادُها، من صُداعِ الرأس، ووجع الأضْراسِ، ورَمَدِ العين، وغَمِّ الدَّين، ووجعِ السِّنِّ، وأَلَمِ الأُذُنِ. ويكابِدُ مِحَناً في المالِ والنَّفْس، مثل الضَّربِ والحَبْس، ولا يمضي عليه يومٌ إلَّا يُقاسي فيه شدَّةً، ولا يكابدُ إلَّا مَشَقَّةً، ثم الموتُ بعد ذلك كلِّه، ثم مُساءلةُ المَلَكِ، وضَغطةُ القبرِ وظلمتهُ، ثم البعثُ والعَرْضُ على الله، إلى أنْ يستقرَّ به القرارُ، إمَّا في الجنة وإمَّا في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمرُ إليه لَمَا اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أنَّ له خالقاً دبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فلْيَمْتَثِلْ أمرَه.

وقال ابن زيد: الإنسانُ هنا: آدمُ، وقولُه: «في كَبَدٍ» أي: في وَسَطِ السماء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٣١)، والطبري ٢٤/ ٤٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٣ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٦ عن ابن عمر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٤) بعده في النسخ الخطية: والتزويج.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٦ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤١٢ .

وقال الكَلْبيُّ: إنَّ هذا نزل في رجلٍ من بني جُمَحَ، كان يقال له: أَبُو الأشدّين، وكان يأخذُ الأديمَ العُكاظِيَّ فيجعلُه تحت قدميه، ويقولُ: مَن أزالني عنه فله كذا. فيجذبهُ عشرةٌ حتى يتمزَّق ولا تزولُ قدماه، وكان من أعداء النبيِّ ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني: لقوَّته[1]. وروي عن ابن عباس. ومعنى «في كَبَدٍ» أي: شديداً، يعني شديدَ الخَلْقِ، وكان مِن أشدِّ رجالِ قريش. وكذلك رُكانةُ بنُ هاشم ابنِ عبد المطلب، وكانا مَثَلاً في البأس والشدَّة.

وقيل: «في كَبَدٍ» أي: جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضَعْفِ خِلْقتِه، ومهانةِ مادَّته. ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ. الترمذيُّ: مُضِيعاً ما يَعْنيه، مُشْتغِلاً بما لا يَعْنيه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أَيظُنُّ ابنُ آدمَ أنْ لن يُعاقِبَه الله عزَّ وجلَّ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي: أنفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً مجتمعاً ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: أيظنُّ ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أي: أنْ لم يُعايِنْه ﴿أَحَدٌ﴾. بل عَلِمَ الله عزَّ وجلَّ ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهْلَكتُ، ولم يكن أنفقه.

وروى أبو هريرةَ قال: يوقفُ العبدُ، فيقال: ماذا عَمِلْتَ في المال الذي رزقتُك؟ فيقول: أنفقتُه وزكّيتُه. فيقال: كأنك إنَّما فعلتَ ذلك ليقال سَخِيٌّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمرُ به إلى النار[2].

وعن سعيد عن قتادة: إنَّك مسؤولٌ عن مالِكَ من أينَ جمعتَ؟ وكيف أنفقت[3]؟

وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقتُ في عداوة محمدٍ مالاً

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤، والوسيط ٤/ ٤٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨-٤٨٩.

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وسلف ١/ ٣٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣، والطبري ٢٤/ ٤١٤.

كثيراً، وهو في ذلك كاذب[١].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذْنبَ فاستَفْتَى النبيَّ ﷺ، فأَمَره أن يُكَفِّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات والنفقات منذ دخلتُ في دِين محمدٍ[٢]. وهذا القولُ منه يحتملُ أن يكونَ استطالةً بما أَنفقَ، فيكونُ طغياناً منه. أو أسفاً عليه، فيكونُ ندماً منه.

وقرأ أبو جعفر: «مالاً لُبَّداً» بتشديد الباءِ مفتوحةً[٣]، على جمعِ: لابِدٍ، مثل: راكعٍ ورُكَّع، وساجدٍ وسُجَّد، وشاهد وشُهَّد، ونحوه.

وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمِّ الباءِ واللام مخفَّفاً، جمع لَبُود[٤]. الباقون بضمِّ اللامِ وكَسْرِها وفتح الباءِ مخفَّفاً، جمع لُبْدَةٍ ولِبْدَةٍ، وهو ما تَلبَّد، يريدُ الكَثْرة[٥]. وقد مضى في سورة الجن القولُ فيه[٦].

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ: «أَيَحسب» بضم السين في الموضعين[٧].

وقال الحسن: يقولُ: أتلفتُ مالاً كثيراً، فَمَن يحاسبني به، دعني أحسبه. أَلَمْ يعلم أنَّ الله قادر على مُحاسبته، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرى صنيعه[٨].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ عن الكلبي ومقاتل، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ ، وزاد المسير ٩/ ١٢٩ .

(٣) النشر ٢/ ٤٠١ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وقراءة الجمهور (لُبَداً) بضم اللام وفتح الباء.

(٦) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٧) لم نقف على هذه الرواية بضم السين، وأخرج أبو عمر الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٢٨) من طريق رجل من بني عامر عن أبيه قال: صليت خلف النبي ﷺ فقرأ: «أيحسِب أن لن يقدر عليه أحد» مكسورة السين. وأخرجه أبو يعلى شاهداً على القراءة بفتح السين كما ذكر الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٦ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ . وقد قرأ بكسر السين نافع وابن عامر والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص١٩١-١٩٢ ، والتيسير ص٨٤ .

(٨) ذكره بنحوه الرازي ٣١/ ١٨٤ .

ثم عَدَّد عليه نعمَه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبْصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يَنْطِقُ به. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستُر بهما ثغرَه. والمعنى: نحن فَعَلنا ذلك، ونحن نقدرُ على أنْ نبعثَه ونُحصِيَ عليه ما عَمِلَه.

وقال أبو حازم: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: يا ابنَ آدمَ، إنْ نازَعَكَ لسانُكَ فيما حرَّمْتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بطِبْقَين فأَطْبِقْ، وإنْ نازَعَكَ بَصَرُكَ فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بطِبْقَين فأَطْبِقْ، وإن نازعَكَ فَرْجُكَ إلى ما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بطِبْقَين، فأَطْبِقْ»[١].

والشَّفَةُ: أصلُها شَفَهةٌ، حُذفت منها الهاء، وتصغيرُها: شُفَيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات، والهاء أَقْيَسُ، والواوُ أعمُّ، تشبيهاً بالسَّنوات. وقال الأزهريُّ[٢]: يقال: هذه شَفَةٌ ـ في الوصل ـ وشَفَهٌ، بالتاء والهاء.

وقال قتادة: نِعَمُ الله ظاهرةٌ، يقرِّرك بها حتى تشكر[٣].

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشرِّ. أي: بيَّناهما له بما أرسلنا من الرسُل. والنَّجْدُ: الطريقُ في ارتفاع. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وغيرِهما[٤]. وروى قتادةُ قال: ذُكِر لنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «يا أيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجدُ الخيرِ، ونجدُ الشرِّ، فلِمَ تجعلُ نَجْدَ الشرِّ أحبَّ إليكَ من نَجْدِ الخير؟!»[٥].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩، وأخرجه بنحوه ابن عساكر في تاريخه ٦٦/ ٢٢٩ من طريق مكحول عن النبي ﷺ.

(٢) في تهذيب اللغة ٦/ ٨٦، وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٥-٤١٨، وأخرجه عن ابن مسعود أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٨، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤، والطبري ٢٤/ ٤١٧-٤١٨ من طريق الحسن عن النبي ﷺ.

ورُوي عن عكرمةَ قال: النَّجْدان: الثَّدْيان. وهو قولُ سعيد بنِ المسيِّب والضحَّاك، ورُوِي عن ابن عباس وعليٍّ رضي الله عنهما[1]؛ لأنهما كالطريقين لحياةِ الولدِ ورِزْقِه. فالنَّجْدُ: العُلُوُّ، وجَمْعُه: نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»؛ لارتفاعها عن انخفاض تِهامةَ. فالنَّجْدان: الطَّريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ وآخَرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[2]

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾

أي: فهلَّا أنفق مالَه الذي يزعمُ أنه أنفقه في عداوة محمدٍ، هلَّا أَنفقه لاقتحامِ العَقَبةِ فيأمنَ! والاقتحامُ: الرَّمْيُ بالنفس في شيءٍ من غيرِ رَوِيَّةٍ؛ يقال منه: قَحَمَ في الأمر قُحوماً، أي: رَمَى بنفسه فيه من غير رَوِيَّةٍ. وقَحَّم الفَرَسُ فارسَه تَقْحيماً على وجهه: إذا رمَاه. وتَقْحيمُ النفسِ في الشيء: إدخالُها فيه من غير رَوِيةٍ. والقُحْمةُ بالضمِّ: المَهْلكةُ، والسنةُ الشديدة. يقال: أصابت الأعرابَ القُحْمةُ: إذا أصابهم قَحْطٌ، فدخلوا الرِّيف. والقُحَم: صِعابُ الطريق[3].

وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: وذكر «لا» مرةً واحدةً، والعربُ لا تكاد تُفْرِدُ «لا» مع الفعلِ الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلامٍ آخَرَ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وإنَّما

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن المسيب. ولم نقف عليه عن علي ﷺ، وأخرج عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ ، أن النجدين هما الخير والشر. وكذا أخرج الفريابي وعبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن ناساً يقولون: إن النجدين الثديان، قال: الخير والشر. الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٤٣ . قوله: جازع بطن نخلة، يعني بستانَ ابن معمر، وهو مجتمعٌ لواديين؛ نخلةِ الشامية، ونخلةِ اليمانية، وكبكب: اسم جبل. يعني: افترق الحيان بعد انقضاء المرتبع الذي كان يجمعهم، ورجع كل حيٍّ إلى مائه وموضع إقامته، فكانوا فرقتين، فمنهم آخذٌ سُفْلاً، ومنهم آخِذٌ عُلُوًّا. ينظر شرح الديوان، ومعجم البلدان ١/ ٤١٤ و٥/ ٢٧٧ .

(٣) الصحاح (قحم).

أَفْرَدوها لدلالةِ آخِرِ الكلامِ على معناه؛ فيجوزُ أن يكون قوله: «ثم كان من الذين آمنوا» قائماً مقامَ التكرير، كأنه قال: فلا اقتحَمَ العقبةَ ولا آمَن[١]. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نَجا ولا سَلِم.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عُيينة: كلُّ شيءٍ قال فيه: «وما أدراك» فإنه أخْبَر به، وكلُّ شيءٍ قال فيه: «وما يدريك» فإنه لم يُخْبِر به[٢]. وقال: معنى «فلا اقتحم العقبة»، أي: فلم يقتحم العقبةَ، كقول زُهَير:

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتكِنَّةٍ فلا هو أبداها ولَمْ يَتَقَدَّمِ[٣]

أي: فلَمْ يُبْدِها ولم يتقدَّم. وكذا قال المبرِّد وأبو عليٍّ[٤]: «لا» بمعنى لم. وذكره البخاريُّ[٥] عن مجاهد. أي: فلم يقتحم العقبةَ في الدنيا، فلا يحتاجُ إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبةَ وركوبَها فقال: «فَكُّ رَقَبَةٍ» وكذا وكذا، فبيَّن وجوهاً من القُرَبِ المالية.

وقال ابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين: معنى الكلامِ الاستفهامُ الذي معناه الإنكار، تقديره: أفَلا اقْتَحَم العقبة، أو هلَّا اقتحمَ العقبة. يقول: هلَّا أنفق مالَه في فكِّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان؛ ليُجاوِزَ به العقبةَ، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوةِ محمدٍ ﷺ[٦].

ثم قيل: اقتحامُ العقبةِ هاهنا ضربُ مَثَلٍ، أي: هلَّا[٧] تَحَمَّلَ عِظامَ الأمورِ في

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤-٢٦٥ ، وللزجاج ٥/ ٣٢٩ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٢١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠ ، وسلف ٢١/ ١٨٩ و ص٢٠٤ من هذا الجزء.

(٣) ديوان زهير ص٢٢ . قال الشارح: الكشح: الخاصرة. على مستكنة: على أمر أكَنَّه في نفسه، يقال: طوى كشحه على كذا، أي: لم يُظْهِره.

(٤) هو الفارسي، وقوله في تفسير الرازي ٣١/ ١٨٥ .

(٥) في صحيحه، قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ ، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٤/ ٤٢١ . والسغبان: الجائع. القاموس (سغب).

(٧) في (م): هل.

إنفاقِ مالِه في طاعةِ ربِّه، والإيمانِ به. وهذا إنَّما يليقُ بقولِ مَن حَمَلَ «فلا اقتحَمَ العَقَبَةَ» على الدعاء، أي: فلا نَجَا ولا سَلِمَ مَن لم يُنَفِقْ مالَه في كذا وكذا.

وقيل: شبَّه عِظَمَ الذنوبِ وثِقلَها وشدَّتَها بعقبةٍ، فإذا أعتق رقبةً وعَمِلَ صالحاً، كان مَثَلُه كَمَثَلِ مَن اقتحم العقبةَ، وهي الذنوبُ التي تَضرُّه وتُؤذيه وتُثْقِلُه.

وقال ابن عمر: هذه العقبةُ جبلٌ في جهنَّم[١].

وعن أبي رجاءٍ قال: بَلَغنا أنَّ العقبةَ مَصْعَدُها سبعةُ آلافِ سنةٍ، ومَهْبِطُها سبعةُ آلافِ سنةٍ[٢].

وقال الحسن وقتادةُ: هي عقبةٌ شديدةٌ في النار دونَ الجِسْرِ، فاقْتَحِمُوها بطاعةِ الله[٣].

وقال مجاهدٌ والضحَّاك والكلبيُّ: هي الصِّراطُ يُضرَبُ على جهنَّم كحدِّ السيف، مسيرة ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، سَهْلاً وصُعوداً وهُبوطاً[٤]. واقتحامُه على المؤمن كما بَيْنَ صلاةِ العصرِ إلى العشاء. وقيل: اقتحامُه عليه قدر ما يصلِّي صلاةَ المكتوبة[٥].

وروي عن أبي الدَّرْداءِ أنه قال: إنَّ وراءَنا عقبةً، أَنْجَى الناسِ منها أخفُّهم حِمْلاً[٦].

وقيل: النارُ نفسُها هي العقبةُ؛ فروى أبو رجاءٍ عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعتقُ رقبةً إلَّا كانت فداءَه من النار[٧]. وعن عبد الله بن عمر قال: مَن أَعْتَقَ رقبةً

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٢٦ بلفظ: جبلٌ زلالٌ في جهنم، وبنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠ .

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠ ، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٢٠ .

(٤) ذكره عنهم البغوي ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ مطولاً.

(٥) ينظر ما سلف ١٣/ ٤٩٤ .

(٦) أخرجه ابن مردويه بنحوه من حديث أبي الدرداء ﷺ مرفوعا، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٢٢ .

أَعْتقَ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ عضوٍ منها عضواً منه.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَن أَعْتقَ رقبةً أَعْتَقَ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فَرْجَه بفَرْجِه»[١].

وفي الترمذيِّ عن أبي أمامةَ وغيرِهِ من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما امرئٍ مُسْلِمٍ أعتقَ امرأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منه عضواً منه، وأيُّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتِ امرأةً مُسلمةً، كانت فَكاكَها من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منها عضواً منها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢].

وقيل: العقبةُ: خلاصُه من هَوْلِ العَرْض. وقال قتادةُ وكعب: هي نارٌ دون الجسر[٣].

وقال الحسن: هي واللهِ عقبةٌ شديدةٌ: مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه وهواه وعدوَّه الشيطان[٤]. وأنشد بعضهم:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ يَرْمِينَني ... بالنَّبْلِ قد نَصَبوا عَليَّ شِرَاكا
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... مِن أين أرجو بينهنَّ فَكَاكا
يا ربِّ ساعِدْني بعفوٍ إنَّني ... أصبحتُ لا أرجو لهنَّ سِواكا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾

فيه حذفٌ، أي: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة. وهذا تعظيمٌ لالتزامِ أمرِ الدِّين، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ليعلِّمه اقتحامَ العقبة. قال القشيريُّ: وحَمْلُ العقبةِ على عَقَبةِ جهنَّم بعيدٌ؛ إذ أحدٌ في الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنَّم، إلَّا أنْ يُحملَ على أنَّ المرادَ:

---

(١) صحيح مسلم (١٥٠٩)، وهو عند أحمد (٩٤٤١)، والبخاري (٦٧١٥).

(٢) سنن الترمذي (١٥٤٧).

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٤٢٠، وسلف عنه بنحوه قريباً.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٦.

فهلَّا صَيَّر نفسَه بحيث يُمكِنُه اقتحامُ عقبةِ جهنَّم غداً.

واختار البخاريُّ قولَ مجاهدٍ: إنه لم يقتحم العقبةَ في الدنيا. قال ابن العربيِّ[١]: وإنَّما اختار ذلك لأجْلِ أنه قال بعد ذلك في الآيةِ الثانيةِ: «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»، ثم قال في الآيةِ الثالثة: «فَكُّ رَقَبةٍ»، وفي الآية الرابعة: «أوْ إطْعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يتيماً ذا مَقْرَبةٍ»، ثم قال في الآيةِ السادسةِ: «أو مسكيناً ذا مَتْرَبةٍ»، فهذه الأعمالُ إنَّما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأتِ في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوكَ العقبةِ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكُّها: خلاصُها من الأسْرِ. وقيل: من الرِّقِّ. وفي الحديث: «وفكُّ الرقبةِ أنْ تُعينَ في ثَمَنِها» من حديث البرَاء، وقد تقدَّم في سورة براءة[٢]. والفكُّ: هو حَلُّ القيدِ، والرِّقُّ قَيْدٌ. وسمِّي المرقوقُ رَقَبةً؛ لأنه بالرِّق كالأسيرِ المربوطِ في رقبته[٣]. وسُمِّي عتقُها فَكًّا [لأنه] كَفَكِّ الأسيرِ من الأسر؛ قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكْناه بلا ثَمَنٍ ... وجَزِّ ناصيةٍ كنَّا مَواليها[٤]

وروى عُقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أَعْتَقَ رقبةً مؤمنةً كانت فداءَه من النار»[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٢٦-١٩٢٧ ، وينظر صحيح البخاري قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٢) ١٠/٢٦٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٢٦ .

(٤) ديوان حسان ص٤٨٥ ، والكلام من النكت والعيون ٦/٢٧٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٣٢٦) و(١٧٣٥٧). ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٧٩ .

قال الماوَرْدِيُّ(١): ويحتمِلُ ثانياً: أنه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه، باجتناب المعاصي، وفِعْلِ الطاعات، ولا يمتنع(٢) الخبرُ من هذا التأويل، وهو أشْبهُ بالصَّواب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصبَغُ: الرقبةُ الكافرةُ ذاتُ الثَّمنِ أفضلُ في العِتق من الرقبةِ المؤمنةِ القليلةِ الثَّمنِ؛ لقول النبيِّ ﷺ وقد سُئل: أيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسُها عند أهلها»(٣). ابن العربيِّ(٤): والمرادُ في هذا الحديثِ: مِن المسلمين. بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أعْتَقَ امرأً مُسْلماً» و«مَن أعتقَ رقبةً مُؤمِنةً». وما ذكره أصبغُ وَهْلَةٌ(٥)، وإنَّما نَظَرَ إلى تنقيص المال، والنظرُ إلى تجريد المعتَقِ للعبادة، وتفريغِه للتوحيد، أَوْلَى.

الثالثة: العِتْقُ والصَّدقةُ من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفةَ: أنَّ العتقَ أفضلُ من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقةُ أفضلُ. والآيةُ أدلُّ على قولِ أبي حنيفةَ؛ لتقديم العتقِ على الصدقة. وعن الشعبيِّ في رجلٍ عنده فَضْلُ نفقةٍ: أيضَعُه في ذي قرابةٍ، أو يعتقُ رقبةً؟ قال: الرقبةُ أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن فكَّ رقبةً فكَّ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من النار»(٦).

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مَجاعةٍ. والسَّغَبُ: الجوع.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ .

(٢) في النكت والعيون: ولا يمنع.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٧ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٣٣١)، والبخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر ﷺ، وسلف ١٠/ ٥٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٨ .

(٥) أي: سهو وغلط، وَهَل فلان: سَها، ووَهِل عنه: غلط فيه ونسيه. المعجم الوسيط (وهل).

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وسلف الحديث عند تفسير الآية (١١) من هذه السورة.

والساغبُ: الجائع. وقرأ الحسن: «أو إطعامٌ في يومٍ ذا مَسْغَبةٍ» بالألف في «ذا»[(١)].
وأنشد أبو عبيدة[(٢)]:

فلَوْ كنتَ جاراً يا ابنَ قيس بنِ عاصمٍ   لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبا[(٣)]

وإطعامُ الطعامِ فضيلةٌ، وهو مع السَّغَبِ الذي هو الجوعُ أفضلُ. وقال النَّخَعيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يومٍ عزيزٍ فيه الطعامُ[(٤)]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن مُوْجِباتِ الرَّحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبان»[(٥)].

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قَرابةٍ. يقال: فلانٌ ذو قَرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلِّمكَ أنَّ الصَّدقةَ على القرابة أفضلُ منها على غيرِ القرابة، كما أنَّ الصَّدقة على اليتيم الذي لا كافلَ له أفضلُ من الصدقة على اليتيم الذي يجدُ مَن يَكْفلُه.

وأهلُ اللغةِ يقولون: سُمِّي يتيمًا لضَعْفِه. يقال: يَتُمَ الرجلَ يُتْماً: إذا ضَعُفَ. وذَكَروا أنَّ اليَتيمَ في الناس مِن قِبَلِ الأب، وفي البهائم مِن قِبَلِ الأمهات. وقد مضى في سورة البقرة مُستوفًى[(٦)]، وقال بعضُ أهلِ اللغةِ: اليتيمُ الذي يموتُ أبواه. وقال قيس بن الملوَّح:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٢، وستأتي.

(٢) في (ط): عبيد.

(٣) ذكره السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٣٠ برواية: ساغبُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.

(٥) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٤، والبيهقي في الشعب (٣٣٦٥) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ، وفي إسناده طلحة بن عمرو المكي، ضعفه ابن معين وغيره، وقال أحمد والنسائي: متروك، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء. الميزان ٢/ ٣٤٠.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٣٦٣) بإسناد آخر عن محمد بن المنكدر قوله، و(٣٣٦٤) عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه هناد في الزهد (٦٣٤) عن مجاهد قوله.

(٦) ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

إلى اللهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إِلَى اللهِ فَقْدَ الوالِدَيْنِ يَتِيمُ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ له، حتى كأنه قد لَصِقَ بالتُّراب من الفقر، ليس له مَأْوًى إلّا الترابُ. وقال ابن عباس: هو المطروحُ على الطريق، الذي لا بيتَ له. مجاهد: هو الذي لا يَقيه من التراب لِباسٌ ولا غيرُه. وقال قتادةُ: إنَّه ذو العيال[٢].

عكرمةُ: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ابن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ذو المَتْرَبَةِ: البعيدُ التُّرْبةِ، يعني الغريب البعيد عن وطنه[٣].

وقال أبو حامد الخارْزَنْجِيُّ: المَتْربةُ هنا: من التَّرِيب، وهي شدَّةُ الحالِ؛ يقال: تَرِبَ، إذا افتقرَ. قال الهُذَلِيُّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِماءَ البُدْنِ في تُرْبةِ الحالِ[٤]

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائيُّ: «فَكَّ» بفتحِ الكاف على الفعل الماضي، «رقبةً» نَصْباً لكونها مفعولاً، «أو أطْعَمَ» بفَتْحِ الهمزةِ ونَصْبِ الميم، من غيرِ ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: «ثم كان مِن الذين آمنوا»، فهذا أَشْكَلُ بـ«فكَّ» و«أطْعمَ».

وقرأ الباقون: «فَكُّ» رفعاً على أنَّه مصدرُ فَكَكْتُ، «رقبةٍ» خفض بالإضافة، «أو إطعامٌ» بكَسْرِ الهمزة وألفٍ ورفعِ الميم وتَنوينِها، على المصدر أيضاً[٥]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسيرٌ لقوله تعالى: «وما أدْرَاكَ ما العَقَبَةُ»، ثم أخْبَره فقال:

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص٢٤٤ .

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ ، وأخرجها الطبري ٢٤/ ٤٢٦ - ٤٣٠ .

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ ، وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٣ ، واللسان (حول) دون نسبة. قال ابن هشام: يعني بالحال: الطين الذي يخالطه الرمل.

(٥) السبعة ص٦٨٦ ، والتيسير ص٢٢٣ .

«فَكُّ رَقَبَةٍ. أو إِطْعَامٌ». المعنى: اقتحامُ العقبةِ: فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ومَن قرأ بالنَّصب فهو محمولٌ على المعنى، أي: ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذي[1] مَسْغَبة، فكيف يُجاوِزُ العَقَبة.

وقرأ الحسن وأبو رَجاء: «ذا مَسْغبةٍ» بالنَّصب على أنه مفعولُ «إطعامٌ»، أي: يُطْعِمون ذا مَسْغَبةٍ، و«يَتيماً» بدلٌ منه. الباقون: «ذِي مَسْغَبةٍ»، فهو صفةٌ لـ«يومٍ». ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ النَّصْبِ صفةً لموضعِ الجارِّ والمجرور؛ لأنَّ قوله: «في يومٍ» ظَرْفٌ منصوبُ الموضعِ، فيكونُ وصفاً له على المعنى دونَ اللَّفْظ[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: أنَّه لا يقتحمُ العقبةَ مَن فكَّ رقبةً، أو أطعمَ في يومٍ ذي[3] مَسْغَبةٍ، حتى يكون مِن الذين آمنوا، أي: صدَّقوا، فإنَّ شَرْطَ قَبولِ الطاعاتِ الإيمانُ بالله. فالإيمانُ بالله بَعْدَ الإنفاقِ لا ينفعُ، بل يجبُ أن تكونَ الطاعةُ مصحوبةً بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقالت عائشة: يا رسولَ الله، إنَّ ابنَ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الطعامَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويُعتِقُ الرقابَ، ويحملُ على إبله لله، فهل ينفعُه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين»[4].

وقيل: «ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنوا» أي: فَعَلَ هذه الأشياءَ وهو مؤمنٌ، ثم بقي على

---

(١) في (م): ذا.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٦٢ ، وسلفت القراءة في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) في (م): ذا.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١٦/ ٤٠ .

إيمانه حتى الوفاةِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأنَّ هذا نافعٌ لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتَى بهذه القُرَبِ لوجهِ الله، ثم آمَنَ بمحمدٍ ﷺ؛ وقد قال حكيم بنُ حزام بعدَ ما أسْلَم: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نَتحنَّثُ بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أسْلَمْتَ على ما أَسْلَفْتَ من الخير»(١).

وقيل: إنَّ «ثم» بمعنى الواو، أي: وكان هذا المُعْتِقُ الرقبةَ، والمُطْعِمُ في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي: أوْصَى بعضُهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرَّحمة على الخَلْق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيمَ والمسكين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يُؤْتَوْنَ كتبَهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ وغيرُه. وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامينُ على أنفسهم. زيد بن أسلم: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيمنِ. وقيل: لأنَّ منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهران.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: يأخذون كُتُبَهم بشَمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنَّهم مَشائيمُ على أنفسهم. زيد بن أسلم(٢): لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيسرِ. ميمون: لأنَّ منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمعُ هذه الأقوالَ أن يُقال: إنَّ أصحاب الميمنةِ أصحابُ الجنةِ، وأصحابَ المَشأمةِ أصحابُ النارِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨] وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢]. وما كان مِثْلَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣١٨)، والبخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، وسلف ١٠/ ٢٣٧ ، والتحنث: التعبُّد.

(٢) وقع في النسخ: ابن زيد، بدل: زيد بن أسلم، في الموضعين، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٨٠ ، والكلام منه، وسلف هذا القول عن زيد بن أسلم في تفسير الآية (٨) من سورة الواقعة.

ومعنى ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقة مُغْلَقَة، قال:

تَحِنُّ إلى أجبالِ مكةَ ناقتي ... ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ[1]

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخِلُها. وأهلُ اللُّغةِ يقولون: أَوْصَدْتُ البابَ وآصدْتُهُ، أي: أغلقتُه. فَمَن قال: أَوْصَدْتُ، فالاسمُ الوِصَاد، ومَن قال: آصَدْتُه، فالاسمُ الإصاد.

وقرأ أبو عمرو وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ، والشَّيزَريُّ عن الكسائيِّ: «مُؤصَدَة» بالهَمْزِ هنا وفي «الهُمَزة»[2]. الباقون بلا هَمْزٍ. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمامٌ يهمزُ «مُؤصَدَة»، فأشْتَهي أنْ أسُدَّ أذنيَّ إذا سمعتُه[3].

---

(١) إصلاح المنطق ص١٨٠ ، وأنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ عن الطستي.

(٢) السبعة ص٦٨٦ ، والتيسير ص٢٢٣ ، والنشر ١/ ٣٩٥ عن أبي عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف. والمشهور عن الكسائي: «موصدة» بغير همز.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٧ . قال السمين في الدر المصون ١١/ ١٢ : وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا تركَ الهمز، مع حِفْظِ حفص إياه (يعني الهمز) عنه.

سُورَةُ البَلَدِ

مكيَّةٌ، وآيُها عشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أقسمَ سبحانَهُ بالبلدِ الحرامِ، وقيَّدَهُ بحلولِ الرَّسولِ فيهِ إظهارًا لمزيدِ فضلهِ، وإشعارًا بأنَّ شرفَ المكانِ بشرفِ أهلهِ.

وقيل: ﴿حِلٌّ﴾: مُستحَلٌّ تعرُّضُك فيه كما يُستحَلُّ تعرُّضُ الصَّيدِ في غيرِه، أو: حلالٌ لكَ أن تفعلَ فيهِ ما تريدُ ساعةً من النَّهارِ، فهوَ وعدٌ بما أَحَلَّ لهُ عامَ الفتحِ.

(٣) ـ ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطفٌ على (هذا البلدِ)، والوالِدُ: آدمُ أو إبراهيمُ عليهما السَّلامُ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾: ذرِّيتُهُ، أو محمَّدٌ ﷺ، والتنكيرُ للتَّعظيمِ، وإيثارُ (ما) على (مَن) لِمَعنى التَّعجُّبِ، كما في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦].

(٤ ـ ٥) ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾: تعبٍ ومشقَّةٍ؛ مِن: كَبِدَ الرَّجلُ كَبَدًا: إذا وَجِعَت كَبِدُهُ، ومنهُ: المكابَدةُ، والإنسانُ لا يزالُ في شدائدَ مبدؤُها ظُلمةُ الرَّحمِ ومضيقُه، ومُنْتَهاها الموتُ وما بعدهُ، وهو تسليةٌ للرَّسولِ عليه السَّلامُ بما كانَ يكابدُهُ من قُريشٍ.

والضَّميرُ في ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضِهم الذي كانَ يكابدُ منهُ أكثرَ[١]، أو يغترُّ بقوتِهِ؛ كأبي الأشدِّ بن كَلدَةَ، فإنَّهُ كانَ يُبسَطُ تحتَ قدمهِ أديمٌ عُكاظِيٌّ ويجذبهُ عشرةٌ فينقطعُ ولا تَزِلُّ قدماهُ[٢]، أو لكلِّ أحدٍ منهم، أو للإنسانِ.

﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فينتقمَ منهُ.

(٦) ـ ﴿يَقُولُ﴾؛ أي: في ذلكَ الوقتِ ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾: كثيرًا، مِن تلبَّدَ الشَّيءُ: إذا اجتمعَ، والمرادُ: ما أنفقَهُ سُمعةً ومفاخرةً، أو مُعاداةً للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

(٧) ـ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حينَ كانَ يُنفقُ، أو بعدَ ذلكَ فيسألَهُ عنهُ، يعني: أنَّ اللهَ يراهُ فيُجازيهِ، أو يجدُهُ فيحاسِبُهُ عليهِ، ثمَّ قرَّرَ ذلكَ بقولِه:

(٨ ـ ٩) ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يُترْجِمُ بهِ عن ضَمائرِهِ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يَسْترُ بهما فاهُ، ويَستعينُ بهما على النُّطقِ والأكلِ والشُّربِ وغيرِها.

(١٠) ـ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: طريقَي الخيرِ والشَّرِّ، أو الثَّديينِ، وأصلهُ: المكانُ المُرتفِعُ.

(١١) ـ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾؛ أي: فلَمْ يَشْكُرْ تلكَ الأيادِيَ باقتحامِ العَقَبةِ، وهو الدُّخولُ في أمرٍ شديدٍ، والعَقَبةُ: الطَّريقُ في الجبلِ، استعارَها لِمَا فسَّرها بهِ من الفكِّ والإطعامِ، في قولِه:

(١٢ ـ ١٦) ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لِمَا فيهما مِن مجاهدةِ النَّفسِ، ولِتَعدُّدِ المرادِ بها

---

(١) «يكابد» الضمير المستتر للنبي ﷺ، و«منه» الهاء للبعض المذكور في قوله: «لبعضهم».

(٢) انظر: «أنساب الأشراف» للبلاذري (١٠/ ٢٥٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٢٩/ ٣٨٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٣٠). وجاء في بعض المصادر: أبو الأشدين.

حَسُنَ وُقوعُ (لا) موقعَ (لم)؛ فإنَّها لا تكادُ تقعُ إلا مكرَّرةً، إذِ المعنى: فلا فكَّ رَقبةً ولا أطعمَ يتيمًا أو مسكينًا.

والمَسْغَبَةُ والمَقْرَبَةُ والمَتْرَبَةُ: مَفْعَلَاتٌ؛ من سَغِبَ: إذا جاعَ، وقَرُبَ في النَّسبِ، وتَرِبَ: إذا افتقرَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ: ﴿فَكَّ رَقبَةً أو أَطْعَمَ﴾[1] على الإبدالِ من ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ اعتراضٌ معناهُ: إنَّكَ لم تَدْرِ[2] كُنْهَ صعوبَتِها وثوابِها.

(١٧) ـ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطَفَهُ على ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ أو ﴿فكَّ﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ لتَباعُدِ الإيمانِ عن العتقِ والإطعامِ في الرُّتبةِ؛ لاستقلالِهِ واشتراطِ سائرِ الطَّاعاتِ بهِ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: وأَوْصَى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾: بالرَّحمةِ على عبادهِ، أو بموجباتِ رحمةِ اللهِ.

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: اليمينِ أو اليُمْنِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بما نصَبْناهُ دليلًا على الحقِّ[3] من كتابٍ وحجَّةٍ، أو: بالقرآنِ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: الشِّمالِ، أو الشُّؤمِ، ولتكريرِ ذكرِ المؤمنينَ باسمِ الإشارةِ والكفَّارِ بالضَّميرِ شأنٌ لا يخفَى.

(٢٠) ـ ﴿عليهم نارٌ مُوصَدَةٌ﴾: مطبَقةٌ؛ مِن أوصدتُ البابَ: إذا أطبقْتَهُ وأغلقْتَه، وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ وحفصٌ بالهمزِ[4]؛ من آصَدْتُهُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢٣).

(٢) في نسخة التفتازاني: «تدرك».

(٣) في النسخ عدا نسخة التفتازاني: «حقٍّ».

(٤) وقرأ الباقون بغير همز. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢٣).

عـن النَّبـيِّ ﷺ: «مَن قـرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أعطـاهُ اللهُ الأمانَ مِـن غَضبهِ يومَ القيامةِ»(١).

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، والواحـدي فـي «الوسـيط» (٤/ ٤٨٨)، وابـن الجـوزي فـي «الموضوعـات» (١/ ١٧٣)، مـن حديث أبي بن كعـب رضي الله عنـه، وهو قطعة من الحديـث الموضـوع في فضائل السـور.

(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ
عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ ﴾

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة (أُم القرى) في حال كون الساكن فيها حلالاً، لينبّه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، قال مجاهد: ﴿ لا أُقسم بهذا البلد ﴾ لا، رد عليهم . أقسم بهذا البلد، وقال ابن عباس: ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ يعني مكة ﴿ وأنت حِلٌّ بهذا البلد ﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك، وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب »[1]. وفي لفظ آخر: « فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم »، وقوله تعالى: ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال ابن عباس: الوالد الذي يلد ﴿ وما ولد ﴾ العاقر الذي لا يولد له، وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: يعني بالوالد آدم ﴿ وما ولد ﴾ ولده، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن، وهو (آدم) أبو البشر وولده، واختار ابن جرير أنه عام في كل ولد وولده وهو محتمل أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس: يعني منتصباً، زاد ابن عباس: منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة، ومعنى هذا القول: لقد خلقناه سوياً مستقيماً، كقوله تعالى: ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ وقال ابن عباس ﴿ في كبد ﴾ في شدة خلق،

---

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: ﴿في كبد﴾ نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، يكبد في الخلق، وهو كانوله تعالى: ﴿حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ فهو يكابد ذلك، وقال سعيد بن جبير: ﴿في كبد﴾ في شدة وطلب معيشة، وقال قتادة: في مشقة، وقال الحسن: يكابد أمر الدنيا وأمر من الآخرة، وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

وقال تعالى: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال الحسن البصري: يعني يأخذ ماله، وقال قتادة: يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه، وقال السدي: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال: الله عزَّ وجلَّ يظن أن لن يقدر عليه ربه، وقوله تعالى: ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾ أي يقول ابن آدم: أنفقت ﴿مالاً لبداً﴾ أي كثيراً قاله مجاهد والحسن، ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ قال مجاهد: أي أيحسب أن لم يره الله عزَّ وجلَّ، وكذا قال غيره من السلف، وقوله تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي يبصر بهما ﴿ولساناً﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه. وقد روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال، قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، قد أنعمت عليك نعماً عظاماً، لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرمت عليك، فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً، فانطق بما أمرتك، وأحللت لك فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك، وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، يا ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي»[1]. ﴿وهديناه النجدين﴾: الطريقين، قال ابن مسعود: الخير والشر، وعن أبي رجاء قال: سمعت الحسن يقول: ﴿وهديناه النجدين﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس إنهما النجدان: نجد الخير، ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»[2]، وقال ابن عباس ﴿هديناه النجدين﴾ قال: الثديين، قال ابن جرير: والصواب القول الأول، نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

روى ابن جرير عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم﴾ أي دخل ﴿العقبة﴾ قال: جبل في جهنم، وقال كعب الأحبار: هو سبعون درجة في جهنم، وقال الحسن البصري: عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى، ﴿وما أدراك ما العقبة﴾؟ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فك رقبة *

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي.
(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.

أو إطعام﴾، وقال ابن زيد: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير، ثم بينها فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة * فك رقبة﴾، عن سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب - أي عضو - منها إرباً منه من النار حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»، فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي ابن الحسين لغلام له أفره غلمانه: ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه، قال: اذهب فأنت حر لوجه الله»[1]. وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم، وعن عمرو ابن عبسة أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[2]. وفي الحديث: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أعتق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها»[3]. وهذه أسانيد جيدة قوية ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة[4]، والسغب: هو الجوع، وقال النخعي: في يوم الطعامُ فيه عزيز، وقال قتادة: في يوم مشتهى فيه الطعام، وقوله تعالى: ﴿يتيماً﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة منه، كما جاء في الحديث الصحيح: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة»[5]. وقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي فقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً، قال ابن عباس: ذا متربة هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب. وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء، وقال عكرمة: هو الفقير المدين المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له، وقال قتادة: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى، وقوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً. «المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم»، كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[6]، وقوله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أخرجه أحمد أيضاً.

(٤) وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحّاك وقتادة وغيرهم.

(٥) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي وإسناده صحيح. (٦) أخرجه أبو داود.

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أي أصحاب الشمال، ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها. ولا خروج لهم منها، قال أبو هريرة ﴿ مؤصدة ﴾ أي مطبقة، وقال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب أي أغلقه، وقال الضحّاك: ﴿ مؤصدة ﴾ حيط لا باب له، وقال قتادة ﴿ مؤصدة ﴾: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد، وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان، وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا بالحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها، قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً[1].

[آخر تفسير سورة البلد . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة البلد

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ .

هذا قسم من الله عز وجل [١] بمكة أم القرى فى حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قَدرها فى حال إحرام أهلها .

قال خَصِيف ، عن مجاهد : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد .

وقال شَبِيب بن بشر ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعنى : مكة، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت ــ يا محمد ــ يحل لك أن تقابل به . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَير، وأبى صالح ، وعطية، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد .

وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك .

وقال قتادة : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت به من غير حَرَج ولا إثم .

وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار .

وهذا المعنى الذى قالوه قد ورَد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حَرَامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شجره ولا يختلى خلاه . وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» . وفى لفظ [آخر] [٢] : « فإن أحد تَرَخَّص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » [٣] .

وقوله: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾: قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن عطية ، عن شريك، عن خَصِيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله:﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ : الوالد : الذى يلد ، وما ولد: العاقر الذى لا يولد له .

---

(١) فى أ : « تعالى » .　　(٢) زيادة من م .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (١٠٤، ١٠٥، ١٨٣٢، ٤٢٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنه.

ورواه [ابن جرير و] (١) ابن أبى حاتم ، من حديث شريك ـ وهو ابن عبد الله القاضى ـ به .

وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والضحاك ، وسفيان الثورى ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، والحسن البصرى ، وخُصيف ، وشرحبيل بن سعد وغيرهم : يعنى بالوالد آدم ، وما ولد ولده .

وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسَنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده . وهو محتمل أيضا .

وقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ : رُوى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعى ، وخَيْثَمة ، والضحاك ، وغيرهم : يعنى منتصبا ـ زاد ابن عباس فى رواية عنه ـ فى (٢) بطن أمه .

والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ، ٧] ، وكقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

وقال ابن [أبى نجيحُ] (٣) جريج وعطاء(٤) ، عن ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدّة خُلق ، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه .

قال مجاهد : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق ـ قال مجاهد : وهو كقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك .

وقال سعيد بن جبير : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ : فى شدة وطَلَب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، سمعت محمد بن على أبا جعفر الباقر سأل رجلا من الأنصار عن قول الله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال : فى قيامه واعتداله . فلم يُنكر عليه أبو جعفر .

وروى من طريق أبى مودود : سمعت الحسن قرأ هذه الآية : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : يكابد أمرا من أمر الدنيا ، وأمرا من أمر الآخرة ـ وفى رواية : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى م ، أ : « منتصبا فى » . (٣) زيادة من م .

(٤) فى م ، أ : « عن عطاء » .

وقال ابن زيد : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : آدم خلق فى السماء ، فسمى ذلك الكَبَد.

واختار ابن جرير أن المراد [بذلك] (١) مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ : قال الحسن البصرى : يعنى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله .

وقال قتادة : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال : من أين اكتسبه ؟ وأين أنفقه ؟

وقال السدى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يقول أهلكت مالا لبدا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيرا . قاله مجاهد [والحسن] (٢) ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ : قال مجاهد : أى أيحسب أن لم يره الله عز وجل . وكذا قال غيره من السلف .

وقوله : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ ولسانا ﴾ أى : ينطق به ، فيُعبر عما فى ضميره ، ﴿ وشفتين (٣) ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى الربيع الدمشقى ، عن مكحول قال: قال النبى ﷺ: « يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، قد أنعمت عليك نعماً عظاما لا تحصى عددها ولا تطيق شكرها ، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما ، وجعلت لهما غطاءً ، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك ، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما . وجعلت لك لسانا ، وجعلت له غلافا ، فانطق بما أمرتك وأحللتُ لك ، فإن عَرَض لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك . وجعلت لك فرجا ، وجعلت لك سترا ، فأصب بفرجك ما أحللت لك ، فإن عَرَض لك ما حرمت عليك فَأرْخِ عليك سترك . يا ابن آدم ، إنك لا تحمل سخطى ، ولا تطيق انتقامى » (٤) .

﴿وهديناه النجدين ﴾: قال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زرّ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الخير والشر . وكذا رُوى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد، وعكرمة ، وأبى وائل ، وأبى صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى فى آخرين .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » (٥) .

---

(١) زيادة من م . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى م : ﴿ ولسانا وشفتين ﴾ .

(٤) تاريخ دمشق (١٩/٤٦ « المخطوط ») .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/٣٥٦) من طريق ابن وهب .

تفرد به سنان بن سعد ـ ويقال : سعد بن سنان ـ وقد وثقه ابن معين . وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه . وروى خمسة عشر حديثا منكرة كلها ، ما أعرف منها حديثا واحدا . يشبه حديثه حديثَ الحسن ـ يعنى البصرى ـ لا يشبه حديثَ أنس .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبى رجاء قال : سمعت الحسن يقول: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس ، إنهما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » [١] .

وكذا رواه حبيب بن الشهيد ، ويونس بن عبيد ، وأبو وهب ، عن الحسن مرسلا . وهكذا أرسله قتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا عيسى ابن عقال [٢] ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الثديين .

وروى عن الربيع بن خُثَيم [٣] ، وقتادة وأبى [٤] حازم ، مثل ذلك . ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن وكِيع ، عن عيسى بن عقَال ، به . ثم قال : والصواب القول الأول .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنى عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن عطية ، عن ابن عمر فى قوله : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل فى جهنم .

وقال كعب الأحبار : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ، قال: عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة [٥] : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى (١٢٨/٣٠) .

(٢) فى أ : « عفان » . (٣) فى أ : « خيثم » . (٤) فى م : « وابن » .

(٥) فى جميع النسخ : « وقال قتادة :وقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾».وحذفنا « وقوله » ليستقيم المعنى. مستفادا من هامش ط . الشعب .

وقال ابن زيد : ﴿ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أى : أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير . ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَة . فَكُّ رَقَبَة . أَوْ إِطْعَام ﴾ .

قرئ: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بالإضافة، وقُرئ على أنه فعل ، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا[١] القراءتين معناهما متقارب .

قال الإمام أحمد :حدثنا على[٢] بن إبراهيم،حدثنا عبد الله ــ يعنى ابن سعيد[٣] بن أبى هند ــ عن إسماعيل بن أبى حكيم ــ مولى آل الزبير ــ عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب منها إربا منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ، وبالفرج الفرج » . فقال على بن الحسين : أنتَ سَمعتَ هذا من أبى هُرَيرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له ــ أفْرَهَ غلمانه ــ : ادعُ مطْرَفاً . فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حُر لوجه الله.

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى،من طرق ، عن سعيد بن مرجانة ، به[٤]. وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على بن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن مَعدانَ بن أبى طلحة ، عن أبى نَجيح[٥] قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتقَ رَجُلا مسلما ، فإن الله جاعلٌ وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظما من عظامها من النار » .

رواه ابن جرير هكذا[٦] . وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عَبَسَةَ السلمى ، رضى الله عنه .

قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بقية ،حدثنى بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير بن مرة ، عن عمرو بن عَبَسَة[٧] : أنه حدثهم : أن النبى ﷺ قال : « من بنى مسجدا ليذكر الله فيه ، بنى الله له بيتا فى الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة ، كانت فديته من جهنم . ومن شاب شيبة فى الإسلام ، كانت له نورا يوم القيامة »[٨] .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا حَريز ؛ عن سُليم بن عامر : أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عَبَسَة[٩] : حَدِّثنا حديثاً ليس فيه تَزَيّد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار ، عُضْوا بعضو . ومن

(١) فى م : « وكلا » . (٢) فى م : « حدثنا مكى » . (٣) فى م : « سعد » .

(٤) المسند (٢/ ٤٢٢) وصحيح البخارى برقم (٢٥١٧، ٦٧١٥) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٩) وسنن الترمذى برقم (١٥٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٧٥) .

(٥) فى أ : « عن ابن أبى نجيح » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٩) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٨٧٩) من طريق قتادة .

(٧) فى أ : « ابن عنبسة » .

(٨) المسند (٤/ ٣٨٦) .

(٩) فى أ : « عنبسة » .

شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمعتق رقبة من بنى إسماعيل » (١) .

وروى أبو داود ، والنسائى بعضه (٢) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ،حدثنا لقمان ، عن أبى أمامة ، عن عمرو بن عَبَسَةَ (٣) : قال السلمى(٤) : قلت له : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وَهم . قال: سمعته يقول : « من وُلد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنْثَ ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامَة ، ومن رَمى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار ، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يدخله الله من أى باب شاء منها » (٥) .

وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد [والمنة] (٦) .

حديث آخر : قال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملى ، حدثنا ضَمْرة ، عن ابن أبى عَبلَة، عن الغريف بن الديلمى قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حَديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق فى بيته ،فيزيد وينقص. قلنا :إنما أردنا حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ .قال: أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا قد أوجب ـ يعنى النار ـ بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » .

وكذا رواه النسائى من حديث إبراهيم بن أبى عَبلة ، عن الغَريف بن عياش الديلمى ، عن واثلة، به(٧) .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامى ، عن عقبة بن عامر الجهنى: أن رسول الله ﷺ قال:« من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » (٨).

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر أن قيسا الجذامى حَدّث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهى فكاكه من النار » (٩) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا : حدثنا عيسى بن عبد

---

(١) المسند (٤/١١٣) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٨٥،٤٨٨٦) .

(٣) فى أ : « عنبسة » . (٤) فى م : « السلمى قال » .

(٥) المسند (٤/٣٨٦) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٩٠،٤٨٩١) .

(٨) المسند (٤/١٥٠) .

(٩) المسند (٤/١٤٧) .

الرحمن البجلى ــ من بنى بجيلة ــ من بنى سليم ــ عن طلحة ــ قال أبو أحمد : حدثنا طلحة بن مصرف ــ عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، علمنى عملا يدخلنى الجنة . فقال : « لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقد أعرضت المسألة . أعتق النسمة ، وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أو ليستا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها . والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ؛ فإن لم تُطق ذلك فأطعم الجائعَ ، واسقِ الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير »(١) .

وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾: قال ابن عباس : ذى مجاعة . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد . والسَّغَب : هو الجوع .

وقال إبراهيم النَّخَعِى : فى يومٍ الطعامُ فيه عزيزٌ .

وقال قتادة : فى يوم يُشتهى فيه الطعام .

وقوله : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أى : أطعم فى مثل هذا اليوم يتيما ، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى : ذا قرابة منه . قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك ،والسدى .كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا هشام ، عن حفصة بنت سيرين ،عن سليمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين (٢) صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة » .

وقد رواه الترمذى والنسائى (٣) ، وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيرا مُدقعاً لاصقا بالتراب ، وهو الدقعاء أيضا .

قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق (٤)، الذى لا بيت له ، ولا شىء يقيه من التراب ــ وفى رواية : هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شىء ــ وفى رواية عنه : هو البعيد التربة .

قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه .

وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج .

وقال سعيد بن جبير : هو الذى لا أحد له .

وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال .

وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا (٥) ﴾ أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة (٦) ،

---

(١) المسند (٤/٢٩٩) .

(٢) فى أ : « على المسلمين » .

(٣) المسند (٤/٢١٤) وسنن الترمذى برقم (٦٥٨) وسنن النسائى (٥/٩٢) وقال الترمذى : « حديث سلمان بن عامر حديث حسن » .

(٤) فى م : « بالطريق » . (٥) فى م : « آمنوا وعملوا الصالحات » . (٦) فى أ : « الظاهرة » .

مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية [1] [النحل:٩٧] .

وقوله : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » [2] . وفى الحديث الآخر : « لا يَرْحَم اللهُ من لا يَرْحَم الناس» [3] .

وقال أبو داود :حدثنا [أبو بكر] [4] بن أبى شيبة ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نَجيح ، عن ابن عامر[5]، عن عبد الله بن عَمْرو ــ يرويه ــ قال : « من لم يَرْحم صغيرنا ويَعرِف حَقَّ كبيرنا ،فليس منا » [6] .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظى ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة ــ قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه .

وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

وقال الضحاك :﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له .

وقال قتادة : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

وقال أبو عمران الجونى : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يَخاف الناس فى الدنيا شره ، فأوثقوا فى الحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ، ثم أوصدوها عليهم ، أى: أطبقوها ــ قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدا ، ولا والله لا تلتقى جفون أعينهم على غَمْض نوم أبدا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدا . رواه ابن أبى حاتم .

آخر تفسير سورة « البلد » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى م : « الآيات » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ١٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٩) من حديث جرير رضى الله عنه .

(٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « جابر » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٩٤٣) .

سورة البلد

مكيّة، وهي عشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أقسمَ سبحانه بالبلد الحرام وبما عُطِف عليه على أنّ الإنسان خُلق ممنوًّا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاقّ. واعتُرض بين القسم وجوابه بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إمّا لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم بجَعْل حُلوله عليه السلام به مَناطًا لإعظامه بالإقسام به، أو التنبيهِ[1] مِن أوّل الأمر على تحقّق مضمون الجواب بذِكر بعض موادّ المكابدة على نهج براعة الاستهلال، وبيانِ أنّه عليه السلام مع جلالة قدره وعِظَم حُرمته قد استحلّوه في هذا البلد الحرام وتعرّضوا له بما لا خيرَ فيه وهمّوا بما لم ينالوا. عن شُرحبيل: يُحرِّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضِدوا بها شجرةً ويستحلّون إخراجك وقتلَك.[2]

أو لتسليته[3] عليه السلام بالوعد بفتحه، على معنى: وأنت حلّ به في المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر، ٣٩/٣٠]، تصنع فيه ما تُريد مِن القتل والأسر.

وقد كان كذلك حيث أَحلّ له عليه السلام مكّة وفتحَها عليه وما فُتحت على أحد قبله ولا أُحِلَّت له، فأحلّ عليه السلام فيها ما شاء وحرّم ما شاء،

---

١ السياق: إمّا لتشريفه... أو التنبيه...

٢ القول في التفسير البسيط للواحدي، ٢٤/١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٧.

٣ السياق: أو التنبيه... أو لتسليته...

قَتَل ابن خَطَلٍ[١] وهو متعلِّق بأستار الكعبة ومِقْيَس بن ضُبابة[٢] وغيرهما وحرّم دار أبي سفيانَ، ثمّ قال: «إنّ الله حرّم مكّة يومَ خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحلّ لأحد قبلي ولن تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلّا ساعةً مِن نهار فلا يُعضَد شجرها ولا يُختلى خَلاها ولا يُنفَّر صيدها ولا تحِلّ لُقَطتُها إلّا لمُنشدٍ»، فقال العبّاس: «يا رسول الله، إلّا الإذْخِرَ فإنّه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا»، فقال عليه السلام: «إلّا الإذْخِرَ».[٣]

[٣٠٠و] / ﴿وَوَالِدٖ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ والمراد به إبراهيمُ وبقوله تعالى ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إسماعيلُ والنبيّ صلوات الله تعالى عليهم حسبما يُنبئ عنه المعطوف عليه، فإنّه حَرَمُ إبراهيمَ ومنشأ إسماعيلَ ومسقطُ رأس رسول الله عليهم السلام. والتعبير عنهما بـ﴿مَا﴾ دون "مَن" للتفخيم والتعظيم كتنكير ﴿وَالِدٖ﴾، وإيرادهم بعنوان الوِلادِ ترشيحٌ لمضمون الجواب وإيماءٌ إلى أنّه متحقِّق في حالتَي الوالديّة والولديّة. وقيل: آدمُ عليه السلام ونسلُه.[٤] وهو أنسبُ لمضمون الجواب مِن حيث شموله للكلّ إلّا أنّ التفخيم المستفاد مِن كلمة ﴿مَا﴾ لا بدّ فيه مِن اعتبار التغليب. وقيل: كلّ والد وولده.[٥]

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: تعب ومشقّة، فإنّه لا يزال يقاسي فنون الشدائد مِن وقت نفخ الروح إلى حين نزعها وما وراءه، يقال: "كَبَدَ الرجلُ كبدًا" إذا وجعت كبدُه، وأصله "كبَدَه" إذا أصاب كبِدَه، ثمّ اتُّسع فيه حتّى استُعمل في كلّ نصَب ومشقّة، ومنه اشتُقَّت "المكابدة"، كما قيل: كبَتَهُ بمعنى أهلَكَه، وهو تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا كان يكابده مِن كفّار قريش.

---

[١] هو عبد الله بن خَطَل، وقيل: هلال، وهو مِن بني تيم بن غالب بن فِهر، أمر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بقتله يوم الفتح، فقُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة. انظر: الروض الأنف للسُهيلي، ١٠٦/٧.

[٢] في م "ضُبابة" بالضاد المعجمة، والمشهور أنّه "صُبابة" بالصاد غير المعجمة، وقد يُضبط بالمعجمة. و"مِقيَس" بالسين، وهو عند بعضهم "مِقْيَص" بالصاد. انظر لذلك: المُغرِب للمُطرِّزي، «قيص».

[٣] صحيح البخاري، ٩٢/٢ (١٣٤٩)؛ صحيح مسلم، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣).

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٤.

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٤.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾

والضمير في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ لبعضهم الذي كان عليه السلام يُكابد منهم ما يُكابد كالوليد بن المُغيرة وأضرابه. وقيل: هو أبو الأشدّ بن كلدة الجُمَحيُّ وكان شديدَ القوّة مغترًّا بقوّته، وكان يُبسَط له الأديم العُكاظيُّ فيقوم عليه ويقول: «مَن أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطّع قطعًا ولا تزِلّ قدماه.[1] أي: أيظنّ هذا القويّ المارد المتضعِّفِ للمؤمنين ﴿أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ ﴿أَن﴾ مخفَّفة مِن "أنّ"، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، أي: أيحسب أنّه لن يقدر على الانتقام منه أحد.

﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ يريد كثرةَ ما أنفقه فيما كان أهل الجاهليّة يسمّونها مكارمَ ويدعونها معاليَ ومفاخرَ.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق وأنّه تعالى لا يسأله عنه ولا يُجازيه عليه.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ يُبصِر بهما ﴿وَلِسَانٗا﴾ يُترجِم به عن ضمائره / ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ [٣٠٠ظ]
يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي: طريقي الخير والشرّ، أو الثديين. وأصل النجد: المكان المرتفع.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أي: فلم يشكر تلك النِّعَم الجليلة بالأعمال الصالحة. وعُبِّر عنها بالعقبة التي هي الطريق في الجبل لصعوبة سلوكها.

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٣٠.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ أي: أيُّ شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: هو إعتاق رقبة ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ أي: مجاعة ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أي: قرابة ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: افتقار، وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور حَسُن دخول "لا" على الماضي، فإنّها لا تكاد تقع إلّا مكرَّرةً؛ إذ المعنى فلا فكَّ رقبةً ولا أطعَم يتيمًا أو مسكينًا.

و"المَسغَبَة" و"المَقرَبة" و"المَترَبة" مفعلات مِن "سَغِب" إذا جاع، و"قَرُب" مِن النسب، و"تَرِب" إذا افتقر. وقُرئ: "فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ"[1] على الإبدال مِن ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على المنفيّ بـ﴿لَا﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رُتبة الإيمان ورِفعة محلّه لاشتراط جميع الأعمال الصالحة به. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ بالرحمة على عباده أو بموجِبات رحمته تعالى مِن الخيرات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز صلته، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب المشار إليه للإيذان ببُعد درجتهم في الشرف والفضل، أي: أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: اليمين أو اليُمن.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بما نصبناه دليلًا على الحقّ مِن كتاب وحجّة، أو بالقرآن ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الشِّمال أو الشؤم، ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ مطبقة مِن "آصدتُ الباب" إذا أطبقتَه وأغلقتَه. وقُرئ: "مُوصَدَةٌ"[2] بغير همزة مِن "أَوْصدتُه".

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠١.

[2] قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وأبو بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أعطاه الله تعالى الأمان مِن عقبة يوم القيامة».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩/٣٧٨ (البلد، ٩٠/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٤٨٨ (البلد، ٩٠/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٧٠. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٩٠

سُورَةُ البَلَدِ

مكية، عشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿لا﴾: زائدةٌ ﴿أُقسِمُ بِهذا البَلَدِ﴾ مكّةَ ـ ٢ ـ ﴿وأنتَ﴾ يا مُحمّدُ ﴿حِلٌّ﴾: حلالٌ ﴿بِهذا البَلَدِ﴾ بأن يَحِلَّ لك فتُقاتِلَ فيه. وقد أنجز الله له هذا الوعدَ يوم الفتح. فالجملة اعتراض بين المُقسَم به وما عطف عليه ـ ٣ ـ ﴿ووالِدٍ﴾ أي: آدمَ ﴿وما وَلَدَ﴾ أي: ذُرِّيته. وما: بمعنى: مَن. ٤ ـ ﴿لَقَد خَلَقْنا الإنسانَ﴾ أي: الجِنسَ ﴿في كَبَدٍ﴾: نصَبٍ وشِدّة يُكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة.

٥ ـ ﴿أيَحسِبُ﴾، أي: أيظنّ الإنسانُ قويُّ قُريشٍ......................................

سُورَةُ البَلَدِ

قولُهُ: (اعتِرَاضٌ) أو أقسمَ سبحانَهُ بالبلدِ الحرامِ، وقيّدَهُ بحلولِ الرّسولِ فيه عليهِ السّلام، إظهاراً لمزيدِ فضلِ البلدِ، وإشعاراً بأنَّ شرفَ المكانِ بشرفِ المكينِ.

قولُهُ: (أي: آدَمَ) أو إبراهيمَ.

قولُهُ: (أي: ذُرِّيتِهِ) أو محمَّدٍ، والتّنكيرُ للتّعظيمِ، وإيثارُ ﴿مَا﴾ على من لمعنى التّعجُّبِ؛ أي: مولوداً عجيبَ الشّأنِ.

قولُهُ: (نَصَبٍ) أي: تعَبٍ ومشقّةٍ.

قولُهُ: (مَصَائِبَ الدُّنيَا) مبدأُها ظلمةُ الرَّحمِ ومضيقُهُ، ومُنتَهاها الموتُ وما بعدَه.

قولُهُ: (الإنسَانُ) أي: البَعضُ الذي كانَ يغترُّ بقوَّتِهِ.

وهو أبو الأشُدَّينِ كَلَدةُ ـ بقوّته ﴿أنْ﴾: مُخفَّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: أنّه ﴿لَن يَقدِرَ علَيهِ أحَدٌ﴾ واللهُ قادر عليه، ٦ ـ ﴿يَقولُ: أهلَكتُ﴾ على عداوة مُحمّد ﴿مالاً لُبَدًا﴾: كثيرًا بعضَه على بعض؟ ٧ ـ ﴿أيَحسِبُ أنْ﴾ أي: أنّه ﴿لَم يَرَهُ أحَدٌ﴾ فيما أنفقه فيعلمَ قدرَه؟ واللهُ عالم بقدره وأنه ليس ممّا يُتكثَّر به، ومُجازيه على فِعله السيّئ. ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ﴿ألَم نَجعَلْ﴾ ـ استفهامُ تقرير ـ أي: جعلنا ﴿لَهُ عَينَينِ، ولِسانًا وشَفَتَينِ، وهَدَيناهُ النَّجدَينِ﴾: بيّنّا له طريقَي الخير والشرّ؟

١١ ـ ﴿فلا﴾: فهلاّ ﴿اقتَحَمَ العَقَبةَ﴾: جازَها ـ ١٢ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمَك: ﴿ما العَقَبةُ﴾ التي يقتحمها؟ تعظيمٌ لشأنها، والجملة: اعتراض ـ وبَيَّنَ سبب جوازها بقوله: ١٣ ـ ﴿فَكُّ رَقَبةٍ﴾ من الرّقّ بأن أعتقها، ١٤ ـ ﴿أو أطعَمَ في يَومٍ ذِي مَسغَبةٍ﴾: مجاعةٍ ١٥ ـ ﴿يَتِيمًا ذا مَقرَبةٍ﴾: قرابة، ١٦ ـ ﴿أو مِسكِينًا ذا مَترَبةٍ﴾ أي: لُصوقٍ بالتراب لفقره ـ وفي قِراءةٍ بدلَ الفعلين مصدرانِ مرفوعان مُضافٌ الأوّلُ لرقبة، ومُنوّنٌ الثاني..

قولُهُ: (وهوَ أبو الأشُدَّينِ[١]) بفتحِ الهمزَةِ وضمِّ المعجمةِ وتشديدِ المهملةِ المفتوحَةِ، كان يُبسط تحتَ قدميهِ أديمٌ، ويجذبهُ عشرَة فيُقطَعُ ولا تزلُّ قَدَماهُ[٢]؛ أو المرادُ بالإنسانِ: الجنسُ.

قولُهُ: (بقُوَّتِهِ) الباءُ للسَّببيَّة مُتعلِّقٌ بـ﴿يظن﴾.

قولُهُ: (على عَدَاوَةِ مُحَمَّد) أو سمعةً ومفاخرةً.

قولُهُ: (طَريقتي الخَيرِ) أو الثَّديينِ.

قولُهُ: (فَهلَّا) لا يُعرفُ لا بمعنَى: (هَلا)، فالصَّوابُ: أنَّ لا نافيَةٌ، والمعنى: فلم يشكُرْ تلك النِّعمَ باقتحامِ العقبَةِ وهو الدُّخولُ في أمرٍ شديدٍ، والعقبَةُ: الطَّريقُ في الجبلِ، استعارَها لمَّا فسَّرَها به من الفكِّ والإطعامِ.

قولُهُ: (تَعظِيمٌ لشَأنِهَا) أي: أنَّك لم تَدرِ كُنْهَ صعوبَتِها وثوابِها.

قولُهُ: (وبَيَّنَ سَبَبَ جَوازِهَا) يعني: ﴿فَكُّ﴾ بدلٌ، أو عطفُ بيانٍ لقولِهِ: ﴿اقتَحَمَ﴾.

قولُهُ: (لفَقرِهِ) يؤيِّدُ القولَ بأنَّ المسكينَ أسوأ حالاً من الفقيرِ، وهو مذهَبُنا[٣].

قولُهُ: (وفي قِرَاءَة) لنافعٍ وشاميٍّ وعاصمٍ وحمزةَ[٤].

---

(١) هو: كلدة بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح أبو الأشدين، مات كافراً. «الإكمال في رفع الارتياب» لابن ماكولا (١/ ٦٦).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» (٢٩/ ٣٨٧)، و«معالم التنزيل» (٥/ ٢٥٥).

(٣) انظر: «المبسوط» (٣/ ٨).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٦).

فيُقدَّر قبل «العقبةُ»: «اقتحامُ». والقِراءة المذكورة بيانُه ـ ١٧ ـ ﴿ثُمَّ كانَ﴾: عطفٌ على «اقتحم» وثمّ: للترتيب الذِّكريّ، والمعنى: كان وقتَ الاقتحام ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَواصَوا﴾ أي: وصّى بعضُهم بعضًا ﴿بِالصَّبرِ﴾ على الطاعة وعن المعصية ﴿وتَواصَوا بِالمَرحَمةِ﴾: بالرحمة على الخلق. ١٨ ـ ﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات ﴿أصحابُ المَيمَنةِ﴾: اليمين، ١٩ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُم أصحابُ المَشْأَمةِ﴾: الشِّمال، ٢٠ ـ ﴿علَيهِم نارٌ مُؤصَدةٌ﴾، بالهمز وبالواو بدلَه: مُطْبَقة.

قولُهُ: (قَبلَ «العَقَبَةُ») أي: الثَّانيةِ.

قولُهُ: (اقتِحَامٌ) وهذا التَّقديرُ غيرُ ضروريٍّ.

قولُهُ: (للتَّرتِيبِ الذِّكرِيِّ) بل لتباعُدِ الإيمانِ عن العِتقِ والإطعامِ في الرُّتبةِ لاستقلالِهِ واشتراطِ سائِرِ الطَّاعاتِ به.

قولُهُ: (وعَنِ المَعصِيَةِ) وفي المصيبَةِ.

قولُهُ: (الرَّحمَةِ) فكانوا جامِعينَ بين التَّعظيمِ لأمرِ الله، والشَّفقَةِ على خَلقِ الله، والصَّالِحون القائمون بحقوقِ الله وحقوقِ العبادِ.

قولُهُ: (اليَمِينِ) أو اليُمنِ.

قولُهُ: (الشِّمَالِ) أو الشُّؤمِ، قالَ القاضِي[1]: ولتكريرِ ذكرِ المؤمنينَ باسمِ الإشارَةِ، والكفَّار بالضَّميرِ شأنٌ لا يخفَى، وهو أنَّ الإشارةَ تدلُّ على حضُورِهِم وقُربِهِم عند الله، وأنَّ الضَّميرَ يدلُّ على غيبتِهِم وبعدِهِم عن اللهِ تعالى، والله أعلم.

قولُهُ: (بالهَمزِ) أبو عَمرو وحَفصٌ، وكذا حمزةُ وقفاً[2].

قولُهُ: (بَدَلُهُ) بأنَّهما لغتانِ، أو الثَّاني بالإبدالِ، والله سبحانَهُ وتعالى أعلم.

* * *

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣١٤).

(٢) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٢٦).

سورة البلد

مكيةٌ في قول الجمهور بتمامها.

وقيل: مدنيةٌ بتمامها. وقيل: مدنيةٌ إلا أربعَ آيات من أولها. واعتُرض كلا القولين بأنه يأباهما قوله تعالى: (بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ) قيل: ولقوة الاعتراض ادَّعى الزمخشريُّ الإجماعَ على مكيتها[1]، وسيأتي إن شاء الله تعالى أنَّ في بعض الأخبار ما هو ظاهرٌ في نزول صَدْرها بمكة بعد الفتح.

وهي عشرون آيةً بلا خلاف، ولَمَّا ذمَّ سبحانه فيما قبلها مَنْ أَحَبَّ المالَ وأكلَ التراث أَكْلاً لَمَّا، ولم يحضَّ على طعام المسكين، ذَكَرَ جلَّ وعلا فيها الخصالَ التي تُطلَبُ من صاحب المال؛ من فَكِّ الرقبة، وإطعامٍ في يومٍ ذي مَسْغبة، وكذا لَمّا ذَكَرَ عزَّ وجلَّ النفسَ المطمئنَّة هناك، ذَكَرَ سبحانه هاهنا بعضَ ما يحصلُ به الاطمئنانُ فقال عزَّ قائلاً:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ أَقْسَمَ سبحانه بالبلد الحرام ـ أعني: مكة، فإنه المراد بالمشار إليه بالإجماع ـ وما عطف عليه على [أنَّ][2] الإنسانَ خُلِقَ مغموراً في مكابدة المشاقِّ ومعاناة الشدائد.

---

(1) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

(2) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٩/ ١٦٠.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ على ما اختاره في «الكشاف»[(١)] اعتراضٌ بين القَسَمِ وجوابه، وفيه تحقيقُ مضمونه بذِكْرِ بعض المكابدة على نهج براعة الاستهلال، وإدماجٌ لسوء صنيع المشركين ليُصرِّح بذمِّهم، على أنَّ الحِلَّ بمعنى المستَحَلّ ـ بزنة المفعول ـ الذي لا يُحتَرم، فكأنه قيل: ومن المكابدة أنَّ مثلَكَ على عِظَمِ حُرْمته يُستَحلُّ بهذا البلد الحرام ولا يُحتَرم، كما يُستَحَلُّ الصيدُ في غير الحرم. عن شُرَحبيل بن سعد: يُحرِّمون أن يقتلوا به صيداً، ويَعضِدوا شجرةً، ويستحلُّون إخراجَكَ وقتلَكَ.

وفي تأكيد كون الإنسان في كَبَدٍ بالقَسَم تثبيتٌ لرسول الله ﷺ، وبَعْثٌ على أنْ يُطَامِنَ نفسَه الكريمة على احتماله، فإنَّ ذلك قَدَرٌ محتومٌ.

وجُوِّزَ أن يكون الحِلُّ بمعنى الحلال ضدّ الحرام، قال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيره: وأنت يا محمدُ يَحِلُّ لك أنْ تقاتلَ به، وأما غيرك فلا[(٢)].

وقال مجاهد: أَحلَّه الله تعالى له عليه الصلاة والسلام ساعةً من نهار، وقال سبحانه له: ما صنعتَ فيه من شيءٍ فأنت في حِلٍّ لا تؤاخذ به.

وروي نحوُ ذلك عن أبي صالح، وقتادة، وعطية، وابن زيد، والحسن، والضحاك ولفظه: يقولُ سبحانه: أنت حِلٌّ بالحرم، فاقتلْ إن شئتَ أو دَعْ.

وذلك يوم الفتح، وقد قَتَلَ ﷺ يومئذ عبد الله بن خَطَل، وهو الذي كانت قريشٌ تُسمِّيه ذا القلبين، قدَّمه أبو برزة سعيد بن حرب الأسلمي، فضَرب بأمره ﷺ عنقَه. وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة، وكان قد أظهر الإسلام، وكتب لرسول الله ﷺ شيئاً من الوحي، فارتدَّ وشَنَّع على رسول الله ﷺ بأنَّ ما يُمليه من القرآن منه عليه الصلاة والسلام، لا من الله تعالى.

وقتل غيره أيضاً كما هو مذكورٌ في كتب السير.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى حرَّمَ مكة يوم خَلَقَ السماوات

---

(١) ٤/ ٢٥٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٣.

والأرض، فهي حرامٌ إلى أن تقومَ الساعة، لا تَحِلُّ لأحدٍ قبلي، ولن تَحِلَّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلا ساعةً من نهار، فلا يُعضَدُ شجرها، ولا يُختَلى خلاها، ولا يُنفَّر صيدُها، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلا لمنشدٍ» فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذْخِرَ، فإنه لِقُيوننا وقبورنا وبيوتنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «إلا الإذخِرَ»[1].

وتقديم المسند إليه على هذا للاختصاص كما أُشير إليه في خبر ابن عباس. و«حِلٌّ» على معنى الاستقبال بناءً على أنَّ نزولَ السورة قبل الهجرة التي هي قبل الفتح بكثيرٍ، وفي خبرٍ رواه عبد بن حميد[2] عن ابن جبير ما هو ظاهرٌ في أنَّ الآيَةَ نزلت بعد أن ضَرَبَ أبو برزةَ عُنُقَ ابن خَطَل يوم الفتح، فإن صحَّ لا يكون في معنى الاستقبال، لكنَّ الجمهورَ على الأول.

وفي تعظيم المُقْسَم به وتوكيد المُقْسَم عليه بالإقسام توكيدٌ لما سيق له الكلام، وهو ـ على ما ذُكر ـ أنَّ عاقبةَ الاحتمال والمكابدة إلى الفتح والظَّفَر، والغرضُ تسليته ﷺ، ثم ترشيحُها بالتصريح بما سيكون من الغَلَبة، وتعظيمُ البلد يدلُّ على تعظيم مَنْ أُحِلَّ له، وفي الإقسام به توطئةٌ للتسلية؛ لأنَّ تعظيمَ البلد تعظيمٌ للساكن فيه.

وجُوِّز أن يكون الحِلُّ على نحو ما ذُكِرَ في هذا الوجه، لكنَّ المعنى: وأنت حِلٌّ بهذا البلد مما يقترفه أهله من المآثم، مُتَحَرِّجٌ بريءٌ منها، والمعنى في الإقسام بالبلد تعظيمُهُ، وفي الاعتراض ترشيحُ التعظيم والتشريف بكون مثله ﷺ في جلالة القَدْر ومنصب النبوَّة ساكناً فيه مبايناً لِمَا عليه الغاغةُ والهمج، والفائدة فيه تأكيدُ المُقْسَم عليه بأنهم من أهل الطبع، فلا ينفعهم شَرَفُ مكان والمتمكّن فيه، كأنه قيل: أقسم بهذا البلد الطيب بنفسه وبمَنْ سَكَنَ فيه إنَّ أهله لفي مرضِ قلبٍ وشَكٍّ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣). والقُيون: جمع قَيْن، وهو الحداد والصائغ. النهاية ٤/ ١٣٥.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥١.

وقيل: الحِلُّ صفةٌ أو مصدرٌ بمعنى الحالّ، يقال: حَلَّ ـ أي: نَزَلَ ـ يَحِلُّ حِلًّا وحُلولاً، ويقال أيضاً: هو حِلٌّ بموضع كذا، كما يقال: حالٌّ به، والقولُ بأنَّ الصفةَ من الحلول حالٌّ لا حِلٌّ، ومصدر حَلَّ ـ بمعنى نزلَ ـ الحُلولُ والحَلُّ بفتح الحاء والحَلَلُ فقط = ناشئٌ من قِلَّة التتبُّع. والاعتراض لتشريفه ﷺ بجَعْل حُلوله عليه الصلاة والسلام مناطاً لإعظام البلد بالإقسام به.

وجَعَلَ بعضُ الأجِلَّة الجملةَ على هذا الوجه حالاً من «هذا البلد»، وكذا جَعَلَها بعضُهم حاليةً على الوجهين قبل، إلا أنَّ الحالَ على ثانيهما مقارِنةٌ، وعلى أولهما مقدَّرةٌ، أو مقارِنةٌ إن قيل: إنَّ النزولَ ساعةَ أُحِلَّتْ مكةُ، وجعلها ابنُ عطيةَ حالاً على الوجه الأول أيضاً، أعني: كونَ الحِلِّ بمعنى المستحلِّ، لكن قيَّده بكون «لا» نافيةً غير زائدة[1]، فتأمل.

وأيَّاما كان ففي الإشارة وإقامة الظاهر مقامَ الضمير من تعظيم البلد ما فيهما.

﴿وَوَالِدٍ﴾ عَطْفٌ على «هذا البلد» المُقْسَم به، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ والمراد بالأول آدمُ عليه السلام، وبالثاني جميعُ ولده على ما أخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس[2]، ورواهُ جماعةٌ أيضاً عن مجاهد وقتادة وابن جبير[3].

وقيل: المراد آدم عليه السلام والصالحونَ من ذريته.

وقيل: نوحٌ عليه السلام وذُرِّيَّتُه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمران أنهما إبراهيم عليه السلام وجميعُ ولده[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٣.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٧ عن مجاهد وقتادة.

(٤) تفسير ابن جرير ٢٤/ ٤٠٨، والدر المنثور ٦/ ٣٥٢.

وقيل: إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل عليه السلام والنبيُّ ﷺ. وادُّعي[1] أنه يُنبئُ عن ذلك المعطوفُ عليه، فإنه حَرَمُ إبراهيمَ ومنشأُ إسماعيل ومسقطُ رأس رسول الله صلى الله عليهم أجمعين.

وقال الطبريُّ والماوردي[2]: يحتملُ أن يكونَ «الوالد» النبيّ ﷺ؛ لتَقدُّم ذِكْره، و«ما ولد» أمَّتهُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد»[3]، ولقراءة عبد الله: «وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم»[4]، وفي القَسَم بذلك مبالغةٌ في شَرَفه عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وقيل: المراد كلُّ والدٍ وولده من العقلاء وغيرهم، ونُسِبَ ذلك لابن عباس.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق عكرمة عنه أنه قال: الوالد: الذي يلدُ، وما ولد: العاقرُ الذي لا يَلِدُ من الرجال والنساء[5]. ونُسِبَ إلى ابن جبير أيضاً. ف «ما» عليه نافيةٌ، فيحتاجُ إلى تقدير موصولٍ يصحُّ به المعنى الذي أُريد، كأنه قيل: ووالدٍ والذي ما ولد. وإضمارُ الموصول في مثله لا يجوز عند البصريين، ومع هذا هو خلاف الظاهر، ولعلَّ ظاهرَ اللفظ عدمُ التعيين في المعطوفين، وظاهرُ العَطْفِ على «هذا البلد» إرادةُ مَنْ له دخلٌ فيه وشهرة بنسبة البلد إليه، والمشهور في ذلك إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام.

وتنكيرُ «والد» على ما اختاره غيرُ واحدٍ للتعظيم، وإيثارُ «ما» على «مَنْ» بناءً على أنَّ المراد بـ «ما» ولد العاقل؛ لإرادة الوصف، فتفيدُ التعظيمَ في مقام المدح، وأنه مما لا يُكْتَنَهُ كُنْهه لشِدَّة إبهامها، ولذا أفادت التعجُّب أو التعجيب ـ وإن لم

---

(١) في (م): ادعى، دون واو.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥، وذكره عن الطبري أبو حيان في البحر ٨/ ٤٧٥، وعنه نقل المصنف، ولم نقف عليه في تفسير الطبري، وقد اختار الطبري أن الكلام عام في كل والد وكل مولود. تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود (٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٩.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٥٢، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٦.

تكن استفهاميةً ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: أيّ مولودٍ عظيمِ الشأن وضعتهُ، والتعظيمُ والتعجيبُ على تقدير أن يُراد بـ «ما ولد» ذريةُ آدم عليه السلام مثلاً، قيل: باعتبار التغليب. وقيل: باعتبار الكثرة وما خُصَّ به الإنسانُ من خواصِّ البشر كالعقل وحُسْن الصورة، ومَنْ تأمَّلَ في شؤون الإنسان من حيث هو إنسانٌ، يعلم أنه من تلك الحيثية مُعَظَّمٌ يُتَعجَّبُ منه.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في تَعَبٍ ومشقَّةٍ، فإنه لا يزال يُقاسي فنونَ الشدائد من وقت نَفْخِ الروح إلى حين نَزْعها وما وراءه، يقال: كَبِدَ الرجلُ كَبَداً فهو أَكبدُ، إذا وَجِعَتْهُ كَبِدُهُ وانتفختْ، فاتُّسِعَ فيه حتى استُعمِلَ في كلِّ تَعَبٍ ومشقَّةٍ، ومنه اشتُقَّتِ المكابدةُ؛ لمقاساة الشدائد، كما قيل: كَبَتَهُ بمعنى: أَهْلَكَهُ، وأَصلُهُ: كَبَدَهُ، إذا أصاب كَبِدَهُ، قال لبيد يرثي أخاه:

يا عينُ هلا بكيتِ أَرْبدَ إذ قُمنا وقام الخصومُ في كَبدِ[1]

أي: في شِدَّة الأمر وصعوبة الخَطْب.

وعن ابن عمر: يُكابد الشكرَ على السَّرَّاء، ويُكابد الصَّبرَ على الضَّرَّاء.

وعن ابن عباس وعبد الله بن شدَّاد وأبي صالح والضحاك ومجاهد أنهم قالوا: أي: خلقناه مُنتصِبَ القامة واقفاً، ولم نجعله مُنكبًّا على وجهه.

وقال ابن كيسان: أي: منتصباً رأسُهُ في بطن أمِّه، فإذا أُذِنَ له في الخروج قَلَبَ رأسَهُ إلى قَدَمَي أمِّه.

وهذه الأقوال كلُّها ضعيفةٌ لا يُعوَّلُ عليها بخلاف الأول، وقد رواه الحاكم وصححه وجماعةٌ عن ابن عباس[2]، وروي عن غير واحدٍ من السلف.

نعم جُوِّزَ أن يكون المعنى: لقد خلقناه[3] في مرضٍ شاقٍّ، وهو مرضُ القلب وفساد الباطن، وهذا بناءً على الوجه الثالث من الأوجه الأربعة السابقة في قوله

(١) ديوان لبيد ص١٦٠، وينظر قصة موت أربد فيما سلف ١٣/ ٧٢-٧٣.
(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٣، والدر المنثور ٦/ ٣٥٢.
(٣) في (م): خلفناه.

تعالى: (لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ) والمراد بالإنسان عليه: الذين عَلِمَ الله تعالى منهم حين خَلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. والظاهر أنَّ المرادَ على ما عداه جنسُ الإنسان مطلقاً. وقال ابن زيد: المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام، وبالكَبَد السماء، وشاعَ في وَسَطِ السماء[١] كالكُبَيداء والكُبيداةِ والكَبْداء والكَبْد، بفتحٍ فسكون. وليس بشيءٍ أصلاً. والضميرُ في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ على ما عدا ذلك راجعٌ إلى ما دلَّ عليه السياق ممن يكابد منه ﷺ ما يُكابد من كفار قريش، وينتهك حرمة البيت وحُرْمته عليه الصلاة والسلام، وعليه[٢]: للإنسان، والتهديدُ مصروفٌ لمن يستحقّه.

وقيل على إرادة البعض: هو أبو الأشد[٣] أسيد بن كَلْدة الجمحي، وكان شديدَ القوة مغترًّا بقوَّته، وكان يُبْسَطُ له الأديم العُكاظيُّ فيقوم عليه ويقول: مَنْ أزالني عنه فله كذا، فيجذبهُ عشرةٌ، فينقطعُ قِطَعاً ويبقى موضع قدميه.

وقيل: عمرو بن عبد وُدٍّ. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: أبو جهل بن هشام. وقيل: الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف. ويجوز أن يكون كلٌّ من هؤلاء سبب النزول فلا تغفل.

وجعل عصام الدين الاستفهامَ للتعجيب، على معنى: أيظنُّ ﴿أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: على الانتقام منه ومكافأته بما هو عليه ﴿أَحَدٌ﴾ مع أنه لا يتخلَّص من المكابدة ومقاساة الشدائد. و«أن» مخفَّفةٌ من الثقيلة، ولعلَّ في ذلك إدماجَ عدم الإيمان بالقيامة.

﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي: كثيراً، من تلبَّدَ الشيءُ: إذا اجتمع، أي: يقول ذلك وقتَ الاغترار فخراً ومباهاة وتعظُّماً على المؤمنين، وأراد بذلك ما أنفقه رياءً وسُمعةً، وعبّر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعلْ ذلك رجاءَ نَفْعٍ، فكأنه جعل المالَ الكثيرَ ضائعاً.

---

(١) أي: شاع في معنى الكَبَد أنه: وسطُ السماء. ينظر القاموس (كبد).

(٢) أي: على القول المذكور.

(٣) بالشين المعجمة، وضبطه بعضهم بالمهملة، ويقال أيضاً: أبو الأشدين. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٦٢.

وقيل: يقول ذلك إظهاراً لشِدَّة عداوته لرسول الله ﷺ، مريداً بالمال ما أنفقه في معاداته عليه الصلاة والسلام.

وقيل: يقول ذلك إيذاءً له عليه الصلاة والسلام، فعن مقاتل أنَّ الحارث بن نوفل كان إذا أذنبَ استفتى الرسول ﷺ، فيأمرُهُ عليه الصلاة والسلام بالكفارة، فقال: لقد أهلكتُ مالاً لُبَداً في الكفارات والتَّبِعات منذ أطعتُ محمداً ﷺ.

وقيل: المراد ما تقدَّم أولاً، إلا أنَّ هذا القول وقت الانتقام منه، وذلك يوم القيامة، والتعبيرُ عن الإنفاق بالإهلاك لما أنه لم ينفعه يومئذٍ.

وقرأ أبو جعفر: «لُبَّداً» بشَدِّ الباء[١]، وعنه وعن زيد بن علي: «لُبْداً» بسكون الباء[٢]. وقرأ مجاهد وابن أبي الزناد: «لُبُداً» بضمِّ اللام والباء[٣].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ أي: حين كان يُنفقُ ما ينفقُ رئاءَ الناس، أو حِرْصاً على معاداته ﷺ، يعني: أنَّ الله تعالى كان يراهُ، وكان سبحانه عليه رقيباً، فهو عزَّ وجلَّ يسأله عنه ويجازيه عليه، وفي الحديث: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع: عن عمره فِيمَ أفناه، وعن ماله مِمَّ جمعه وفِيمَ أنفقه، وعن عِلْمه ماذا عمل به»[٤].

وجُوِّزَ أن يكون المعنى: أن لم يجده أحد، على أنَّ المرادَ بالرؤية الوجدان اللازم له، و«لم» بمعنى «لن» وعبّر بها لتحقُّق الوقوع، يعني: أنه تعالى يجدهُ يوم القيامة فيحاسبه على ذلك.

وعن الكلبي أنَّ هذا القائل كان كاذباً لم ينفقْ شيئاً، فقال تعالى: أَيظنُّ أنَّ الله تعالى ما رأى ذلك منه، فَعَلَ أو لم يفعل، أنفقَ أو لم ينفق، بل رآه عزَّ وجلَّ وعَلِمَ منه خلافَ ما قال، وقرَّرَ سبحانه القدرةَ على مجازاته ومحاسبته والاطلاع على

---

(١) النشر ٢/ ٤٠١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٧٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤.

(٤) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٤١٦) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ، وقال: حسن صحيح.

حاله بقوله جلَّ وعلا: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يُبصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يُفصِحُ به عمّا في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يسترُ بهما فاهُ، ويستعينُ بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك. والمفرد شَفَةٌ، وأصلها شَفَهةٌ، حُذفت منها الهاء، ويدلُّ عليه شُفَيهةٌ وشِفاهٌ وشافهتُ، وهي مما لا يجوزُ جمعُهُ بالألف والتاء وإن كان فيه تاء التأنيث على ما في «البحر»[1].

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي: طريقَي الخير والشر كما أخرجه الحاكم وصححه، والطبراني وغيرهما عن ابن مسعود[2]. وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس[3]، وروي عن عكرمة والضحاك وآخرين، وأخرجه الطبرانيُّ[4] عن أبي أمامة مرفوعاً.

والنَّجْدُ مشهورٌ في الطريق المرتفع، قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ وآخرُ منهم قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[5]

وسُمِّيتْ نجدٌ به لارتفاعها عن انخفاض تهامة، والامتنانُ على[6] المحدَّث عنه بأنْ هداه سبحانه وبيَّن له تعالى شأنه ما إن سَلَكه نجا، وما إن سلكه هلك، ولا يتوقَّفُ الامتنانُ على سلوك طريق الخير، وقد جعل الإمام[7] هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وَوَصْفُ سبيل الخير بالرفعة والنجدية ظاهرٌ، بخلاف سبيل الشر، فإنَّ فيه هبوطاً من ذروة الفطرة إلى

---

(١) ٨/ ٤٧٣.
(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٣، والمعجم الكبير (٩٠٩٧).
(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٦.
(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣.
(٥) ديوان امرئ القيس ص٤٣. قوله: جازع بطن نخلة، يعني بستان ابن معمر، وهو مجتمع لواديين: نخلة الشامية ونخلة اليمانية، وكبكب: اسم جبل. يعني افترق الحيان بعد انقضاء المُرْتَبَع الذي كان يجمعهم، ورجع كل حيٍّ إلى مائه وموضع إقامته، فكانوا فرقتين، فمنهم آخذٌ سُفلاً، ومنهم آخذٌ علوّا. ينظر شرح الديوان، ومعجم البلدان ١/ ٤١٤ و٥/ ٢٧٧.
(٦) قوله: على، ليس في (م).
(٧) هو الرازي. ينظر تفسيره ٣١/ ١٨٤.

حضيض الشقاوة، فهو على التغليب، أو على توهُّم المتخيلة له صعوداً، ولذا استعمل الترقِّي في الوصول إلى كلِّ شيءٍ وتكميله. كذا قيل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرقٍ عن ابن عباس أنهما الثديان[١]. وروي ذلك عن ابن المسيب، أي: ثديي الأمِّ؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، والارتفاعُ فيهما ظاهرٌ، والبطنُ تحتهما كالغَوْر، والعربُ تُقسِم بثديي الأمِّ فتقول: أَمَا ونجديها ما فعلتُ. ونُسِبَ هذا التفسيرُ لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه أيضاً، والمذكور في «الدر المنثور» من رواية الفريابي وعبد بن حميد، وكذا في «مجمع البيان» أنه كرَّمَ الله تعالى وجهه [قيل له:] إن أناساً يقولون: إنَّ النجدين الثديان، فقال: لا، هما الخيرُ والشَّرُّ[٢]. ولعلَّ القائلَ بذلك رأى أنَّ اللفظ يحتمله مع ظهور الامتنان[٣] عليه جدًّا.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ الاقتحام: الدخول بسرعةٍ وضغطٍ وشِدَّةٍ، ويقال: قَحَم في الأمر قُحُوماً: رمى نفسه فيه من غير رويَّةٍ. والعقبةُ: الطريقُ الوَعرُ في الجبل. وفي «البحر»: هي ما صعبَ منه وكان صُعُوداً[٤]. والجمع عَقَبٌ وعِقابٌ، وهي هنا استعارةٌ لما فُسِّرتْ به من الأعمال الشاقة المرتفعة القَدْرِ عند الله تعالى، والقرينةُ ظاهرةٌ، وإثبات الاقتحام المرادِ به الفعلُ والكسبُ ترشيحٌ، ويجوز أن يكون قد جُعل فِعْلُ ما ذُكِرَ اقتحاماً وصعوداً شاقًّا، وذِكْرُهُ بعد النجدين جَعَلَ الاستعارةَ في الذروة العليا من البلاغة، والمراد ذَمُّ المحدَّث عنه بأنه مُقصِّرٌ مع ما أنعم الله تعالى به عليه من النِّعَم العِظام، والأيادي الجليلة الجِسام، كأنه قيل: فَقَصَّرَ ولم يشكرْ تلك النِّعم العظيمة، والأيادي الجسيمة، بِفِعْلِ الأعمال الصالحة، بل غَمَطَ النعمة وكَفَرَ بالمنعم، واتَّبع هوى نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما هي، تعظيمٌ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٩، والدر المنثور ٦/ ٣٥٤.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٥٣، ومجمع البيان ٣٠/ ١٤٤، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) في الأصل: أمر الامتنان.

(٤) البحر ٨/ ٤٧٦.

لشأن العقبة المفسَّرة بقوله سبحانه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ إلخ وتفسيرُها بذلك بناءً على الادِّعاء والمجاز، وهو مما لا شُبهة في صحته، وإن لم يتَّحدِ العقبةُ والفَكُّ حقيقةً، فلا حاجة إلى تقدير مضافٍ كما زعمه الإمام[١] ليصحَّ التفسيرُ، أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فَكُّ.. إلخ.

وقال بعضهم: يحتمل أن يُرادَ بالعقبة نفسُ الشكر، عبَّر بها عنه لصعوبته، ولا يأباهُ: «وما أدراك» إلخ، لأنه بمنزلة: ما أدراك ما الشكر، فكُّ رقبةٍ. وهو كما ترى.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن أبي شيبة عن ابن عمر أنَّ العقبة جبلٌ زلالٌ في جهنم[٢]. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنها النار[٤]. وفي رواية عبد بن حميد عنه[٥] أنها عقبةٌ بين الجنة والنار. وعن مجاهد والضحاك والكلبي أنها الصراطُ، وقد جاء في صفته ما جاء، ولعلَّ المراد: بعَقَبةٍ بين الجنة والنار.

هذا، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي رجاء أنه قال: بلغني أنَّ العقبةَ التي ذَكَرَ الله تعالى في القرآن مَطْلَعُها سبعةُ آلافِ سنة، ومَهْبِطُها سبعةُ آلاف سنة[٦].

وهذه الأقوال إن صحَّت يتعيَّنُ عليها أن يُراد بالاقتحام المرورُ والجوازُ بسرعة، وأن يُقدَّرَ المضافُ، أي: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة، فَكُّ.. إلخ، وجَعْلُ الفَكِّ وما عُطِفَ عليه نفسَ الاقتحام على سبيل المبالغة في سببيَّته له، حتى كأنه نفسه، ومآلُ المعنى: فلا فَعَلَ ما ينجو به ويجوزُ بسببه العَقَبَةَ الكؤود يوم

---

(١) في تفسيره ٣١/ ١٨٦.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٢٦، والدر المنثور ٦/ ٣٥٤.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٥٤.
(٥) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٤.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٣٥٤، ولم نقف عليه في مطبوع تفسير الطبري.

القيامة، وبهذا يندفعُ ما نقلهُ الإمامُ عن الواحديِّ بعد نقله تفسيرها بجبلٍ زلالٍ في جهنم، وبالصراط ونحو ذلك، وهو قوله: وفي هذا التفسير نظرٌ؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ هذا الإنسانَ وغيرَهُ لم يقتحموا عقبةَ جهنَّم ولا جاوزوها، فَحمْلُ الآية عليه يكونُ إيضاحاً للواضحات، ثم قال: ويدلُّ عليه أنه لما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ فسَّرها جلَّ شأنه بفَكِّ الرقبة والإطعام[١]. انتهى. نعم أنا لا أقول بشيءٍ من ذلك حتى تصحَّ فيه ـ تفسيراً للآية ـ روايةٌ مرفوعةٌ.

والفَكُّ تخليصُ شيءٍ من شيءٍ، قال الشاعر:

فيا رُبَّ مكروبٍ كَرَرْتُ وراءَهُ   وعانٍ فَكَكْتُ الغُلَّ منه ففدَّاني[٢]

وهو مصدرُ فكَّ، وكذا الفَكاك بفتح الفاء كما نصَّ عليه الفراء، والمشهور أنَّ المراد به هنا تخليصُ رقبةِ الرقيق من وَصْفِ الرِّقيَّة بالإعتاق، وأخرج أحمد وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن البراء رضي الله عنه[٣] أنَّ أعرابيًّا قال: يا رسول الله، علِّمني عملاً يدخلني الجنة؟ قال: «أعتقْ النَّسَمة، وفُكَّ الرقبة» قال: أَوَليسا بواحدٍ؟ قال: «لا، إنَّ عِتْقَ النَّسَمة أن تنفردَ بعتقها، وفَكَّ الرقبة أن تُعيْنَ في عتقها» الحديث. وعليه يكون نفيُ العتق عن المحدَّث عنه متحقِّقاً من بابٍ أَوْلى، ومن الفَكِّ بهذا المعنى إعطاءُ المكاتَبِ ما يصرفُهُ في جهة فَكاك نفسه، وجاء في فَضْلِ الإعتاق أخبارٌ كثيرةٌ، منها ما أخرجه أحمد والشيخان والترمذيُّ وغيرهم عن أبي هريرة[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتقَ رقبةً مؤمنةً، أعتقَ الله بكلِّ عضو منها عضواً منه من النار، حتى الفرجُ بالفرج» وهو أفضلُ من الصدقة عند أبي حنيفة رضي الله عنه، وعند صاحبيه الصدقةُ أفضلُ، والآيةُ ـ على ما قيل ـ أَدلُّ على قول الإمام؛ لمكان تقديم الفَكِّ على الإطعام، وعن الشعبي تفضيلُ العتق أيضاً على الصدقة على ذي القرابة فضلاً عن غيره، وقال الإمام: في الآية وجهٌ آخرُ حَسَنٌ، وهو أن يكون

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٥.
(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٩٠.
(٣) أحمد (١٨٦٤٧)، وابن حبان (٣٧٤)، والبيهقي ١٠/ ٢٧٢-٢٧٣.
(٤) أحمد (٩٤٤١)، والبخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١).

المرادُ أن يفكَّ المرءُ رقبةَ نفسهِ بما يُكلِّفهُ من العبادة التي يصيرُ بها إلى الجنة، فهي الحريةُ الكبرى[1]. وعليه قيل: يكون ما بعدُ من قبيل التخصيص بعد التعميم، وفيه بُعدٌ كما لا يخفى.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى السَّغَب، قال أبو حيان: وهو الجوعُ العامُّ، وقد يقال: سَغِبَ الرجلُ إذا جاع[2]. وقال الراغب: هو الجوعُ مع التعب، وربما قيل في العطش مع التعب[3]. وفسَّرهُ ابن عباس هنا بالجوع من غير قيد، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن إبراهيم أنه قال: في يوم فيه الطعام عزيزٌ[4]. وليس بتفسيرٍ بالمعنى الموضوع له.

وَوَصْفُ اليوم بذي مسغبةٍ نحو ما يقول النحويُّون في قولهم: هَمٌّ ناصبٌ: ذو نَصَبٍ، وليلٌ نائمٌ: ذو نومٍ، ونهارٌ صائمٌ: ذو صومٍ.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: قرابة، فهو مصدرٌ ميميٌّ أيضاً من قَرُبَ في النَّسَب، يقال: فلانٌ ذو قرابتي وذو مقربتي بمعنًى، قال الزجاج: وفلانٌ قرابتي قبيحٌ؛ لأنَّ القرابةَ مصدرٌ قال:

يبكي الغريبُ عليه ليس يَعرِفُه ... وذو قرابته في الحيِّ مسرورُ[5]

وفيه بحثٌ.

وفي إطعام هذا جمعٌ بين الصدقة والصِّلة، وفيهما من الأجر ما فيهما، وقيل: إنه لا يخصُّ القريبَ نسباً، بل يشمل مَنْ له قُرْبٌ بالجوار.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: افتقارٍ، وهو مصدرٌ ميميٌّ ـ كما تقدم ـ من تَرِبَ

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٧٣.
(٣) المفردات (سغب).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٣٥، وينظر الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ وإبراهيم هو النخعي.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٩-٣٣٠، والبيت اختلف في نسبته، وسلف عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأعراف.

إذا افتقر، ومعناه: التصقَ بالتراب، وأما أَتْرَبَ فاستغنى، أي: صار ذا مالٍ كالتراب[1] في الكثرة، كما قيل: أثرى.

وعن ابن عباس أنه فسَّره هنا بالذي لا يقيه من التراب شيءٌ.

وفي روايةٍ أخرى: هو المطروحُ على ظهر الطريق، قاعداً على التراب لا بيت له. وهو قريبٌ مما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً[2]: هو الذي مأواه المزابل. فإن صحَّ لا يُعدَلُ عنه.

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس: هو الذي يخرجُ من بيته، ثم يقلبُ وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال في ذلك: يعني بعيدَ التُّربة، أي: بعيداً من وطنه[3]. وهو بعيدٌ.

والصفةُ على بعض هذه التفاسير صفةٌ كاشفةٌ، وبعضٍ آخرَ مخصِّصة. و«أو» على ما في «البحر»[4] للتنويع.

وقد استشكل عدمُ تكرار «لا» هنا مع أنها دخلت على الماضي، وهم قالوا: يلزمُ تكرارها حينئذٍ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] وقول الحطيئة[5]:

وإن كانت النَّعماءُ فيهم جَزَوا بها ... وإن أَنعموا لا كدَّروها ولا كَدُّوا

وشذَّ قوله:

لاهُمَّ إنَّ الحارث بن جَبَلَهْ
جنى على أبيه ثم قَتَلَهْ

(١) في (م): كالتراث. والمثبت من الأصل والكشاف ٤/ ٢٥٧ والكلام منه.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.
(٤) ٨/ ٤٧٦.
(٥) ديوانه ص١٤٠.

وكــان فــي جــاراتــه لا عــهــد لــه
فــأيّ أمــرٍ ســيِّــئٍ لا فَــعَــلَــهْ[1]

وأجيب بأنَّ اللازمَ تكرارُها لفظاً أو معنًى، وهي هنا مكرَّرةٌ معنًى؛ لأنَّ تفسيرَ العَقَبة بما فُسِّرَتْ به من الأمور المتعدِّدة يلزمُ منه تفسيرُ الاقتحام، فيكون «فلا اقتحم العقبة» في معنى: فلا فكَّ رقبةً ولا أَطعم يتيماً.. إلخ، وقد يقال في البيت نحوُ ذلك، بأن يقال: إنَّ العمومَ فيه قائمٌ مقامَ التكرار.

ويلزمه على ما قيل جوازُ: لا جاءني زيدٌ وعمرو؛ لأنه في معنى: لا جاءني زيدٌ ولا جاءني عمرو. ومَنَعَهُ بعضُهم.

وقال الزجاج والفراء[2]: يجوز أن يكون منه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه عَطْفٌ على المنفيِّ، أعني «اقتحم»، فكأنه قيل: فلا اقتحمَ ولا آمنَ، ولا يلزمُ منه كونُ الإيمان غيرَ داخلٍ في مفهوم العقبة؛ لأنه يكفي في صِحَّة العَطْفِ والتكرار كونُه جزءاً أشرفَ خُصَّ بالذكر عَطْفاً، فجاءتْ صورةُ التكرار ضرورة؛ إذ الحملُ على غير ذلك مُفْسِدٌ للمعنى.

ويلزمه جوازُ: لا أَكَلَ زيدٌ وشَرِبَ، على العَطْفِ على المنفيِّ، والبعضُ المتقدِّمُ يمنعه.

وقيل: إنَّ «لا» للدعاء، والكلامُ دعاءٌ على ذلك الكافر أن لا يرزقه الله تعالى ذلك الخير.

وقيل: «لا» مخفَّفُ «ألا» للتحضيض كـ «هلّا»، فكأنه قيل: فهلّا اقتحمَ، أو الاستفهامُ محذوفٌ والتقدير: أفلا اقتحم، ونقل ذلك عن ابن زيد والجُبَّائي وأبي مسلم. وفيه أنه لم يُعرَفْ تخفيفُ «ألا» التحضيضية، وأنه كما قال المرتضى: يَقْبُحُ حَذْفُ حرفِ الاستفهام في مثل هذا الموضع، وقد عِيْبَ على عمر بن أبي ربيعة قوله:

(١) الرجز لابن العَيِّف العبدي، وهو في إصلاح المنطق ص١٧٣، والمستقصى ١/ ٣٧.
(٢) معاني القرآن للزجَّاج ٥/ ٣٢٩، وللفرَّاء ٣/ ٢٦٤.

ثم قالوا: تُحبُّها قلت: بَهْراً عَدَدَ الرَّملِ والحصى والتُّرابِ[(١)]

وقولهم: لو أُريد النفيُ لم يتَّصلِ الكلامُ، ليس بشيءٍ؛ لظهور «كان» تحت النفي، واتصال الكلام عليه.

قيل[(٢)]: الكلامُ إخبارٌ عن المستقبل، فليس مما يلزم فيه التكرير، أي: فلا يقتحم العقبة؛ لأنَّ ماضيه معلومٌ بالمشاهدة، فالأهمُّ الإخبارُ عن حاله في الاستقبال، لكن لتحقُّقِ الوقوع عبّر بالماضي.

ونقل الطيبيُّ عن أبي عليٍّ الفارسي عدمَ وجوب تكريرها، رادًّا على الزجاج في زَعْمه ذلك، وقال: هي كـ «لم»، والتكرُّرُ في نحو: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ لا يدلُّ على الوجوب كما في: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧] وعلى عدم التكرُّر جاء قول أميَّة السابق[(٣)]:

إن تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّا وأيُّ عبدٍ لك لا أَلمّا

والمتيقَّنُ عندي أكثريةُ التكرُّرِ، وأما وجوبه فليس بمتيقَّنٍ، والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير والنحويان: «فَكَّ» فعلاً ماضياً «رقبةً» بالنَّصب «أو أَطْعَمَ» فعلاً ماضياً أيضاً[(٤)]، وعلى هذه القراءة فـ «فكَّ» مُبْدَلةٌ من «اقتحم» وما بينهما اعتراضٌ، ومعناه: إنك لم تَدْرِ كُنْهَ صعوبتها على النفس، وكُنْهَ ثوابها عند الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ أبو رجاء كذلك، إلا أنه قرأ: «ذا مسبغة» بالألف، على أنَّ «ذا» منصوبٌ على المفعولية بـ «أطعم»، أي: أطعم في يومٍ من الأيام إنساناً ذا مسبغة، ويكون «يتيماً» بدلاً منه، أو صفةً له.

---

(١) أمالي المرتضى ٢/ ٢٨٩، والبيت في ديوان عمر ص٤٣١، وبهراً: مصدر بمعنى الغلبة، وكأنه قال: غلبني حبُّها واستولى علي غلباً عظيماً.

(٢) بعدها في الأصل: هو.

(٣) ص٢٨ من هذا الجزء.

(٤) التيسير ص٢٢٣، والنشر ٢/ ٤٠١.

وقرأ هو أيضاً والحسن: «أو إطعامٌ في يوم ذا» بالألف أيضاً[(١)] على أنه مفعولٌ به للمصدر.

وقرأ بعض التابعين: «فكُّ رقبة» بالإضافة، «أو أَطْعَمَ» فعلاً ماضياً[(٢)]، وهو معطوفٌ على المصدر لتأويله به.

والتراخي المفهومُ من «ثم» في قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ) إلخ رُتْبيٌّ، فالإيمان فوقَ جميع ما قبله؛ لأنه يَستقلُّ بكونه سبباً للنجاة، وشكراً بدون الأعمال، كما فيمَنْ آمنَ بشرطه ومات في يومه قبل أن يجبَ عليه شيءٌ من الأعمال، فإنَّ ذلك ينفعه ويُخلِّصه، بخلاف ما عداه، فإنه لا يُعتَدُّ به بدونه.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَطْفٌ على «آمنوا»، أي: أوصى بعضُهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو: بذلك والصبر على الطاعات، أو به والصبر عن المعاصي وعلى المِحَن التي يُبتلى بها الإنسان.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرحمة على عباده عزَّ وجلَّ، ومن ذلك الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، أو: تواصوا بأسباب رحمة الله تعالى وما يُؤدِّي إليها من الخيرات، على أنَّ المرحمةَ مجازٌ عن سببها، أو الكلامُ على تقدير مضافٍ.

وذُكِرَ أنَّ «تواصوا بالصبر» إشارةٌ إلى تعظيم أمر الله تعالى، و«تواصوا بالمرحمة» إشارةٌ إلى الشفقة على خَلْق الله تعالى، وهما أصلان عليهما مدارُ الطاعة، وهو الذي قاله بعضُ المحققين: الأصلُ في التصوُّفِ أمران: صِدْقٌ مع الحقِّ، وخُلُقٌ مع الخَلْق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حَيِّز صِلَته، وما فيه من معنى البعد ـ مع قُرْبِ المشار إليه ـ لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، أي: أولئك الموصوفون بالنُّعوت الجليلة المذكورة.

---

(١) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٢، والبحر ٨/ ٤٧٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٧٦.

﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: جهة اليمين التي فيها السُّعداء، أو اليُمْنُ لكونهم ميامين على أنفسهم وعلى غيرهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحقِّ من كتابٍ وحُجَّةٍ، أو بالقرآن.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: جهة الشمال التي فيها الأشقياء، أو الشُّؤْم على أنفسهم وعلى غيرهم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ﴾ عظيمةٌ ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَةٌ، من آصَدْتُ البابَ: إذا غلَّقته وأطبقته، وهي لغةُ قريش على ما روي عن مجاهد، وظاهرُ كلام ابن عباس عدمُ الاختصاص بهم، ومن ذلك قول الشاعر:

تَحِنُّ إلى أجبالِ مكةَ ناقتي ومِنْ دونها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصدهْ[1]

ويجوز أن يكون من أوصدتُ بمعنى: غلَّقتُ أيضاً، وهُمِزَ على حَدِّ مَنْ قرأ: «بالسؤق» مهموزاً[2].

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «موصدةٌ» بغير همز[3]، فيظهر أنه من «أَوصدتُ»، وقيل: يجوز أن يكون من «آصَدْتُ» وسُهِّلتِ الهمزةُ، وقال الشاعر:

قوماً يُعالج قُمَّلاً أبناؤهم وسلاسِلاً ملساً وباباً مُوصدا[4]

والمراد: مُغلَّقةٌ أبوابُها، وإنما أُغلقتْ لتشديد العذاب ـ والعياذ بالله تعالى ـ عليهم.

وصَرَّحَ بوعيدهم ولم يُصرِّحْ بوَعْدِ المؤمنين؛ لأنه الأنسبُ بما سِيقَ له الكلام، والأوفقُ بالغرض والمرام، ولذا جيءَ بضمير الفصل معهم لإفادة الحصر، واعتُبروا

---

(١) البيت في إصلاح المنطق ص١٨٠ دون نسبة، وأنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ عن الطستي.

(٢) في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٣] وهي قراءة قنبل كما في التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٣) التيسير ص٢٢٣، والنشر ١/ ٣٩٥ وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي، وشعبة عن عاصم، وحمزة إن وقف.

(٤) البيت للأعشى وهو في ديوانه ص٢٨١.

غُيَّباً كأنهم بحيثُ لا يصلحون بوجهٍ من الوجوه لأنْ يكونوا مُشاراً إليهم، ولم يسلكْ نحوَ هذا المسلك في الجملة الأولى التي في شأن المؤمنين.

ونُقل عن الشمني أنه قال: الحكمةُ في تَرْكِ ضمير الفصل في الأولين، والإتيان بَدَله باسم الإشارة، أنَّ اسمَ الإشارة يُؤتَى به لتمييز ما أُريد به أكملَ تمييز، كقوله:

هذا أبو الصقر فرداً في محاسنهِ ... من نسل شيبان بين الضَّالِ والسَّلَم[1]

ولا كذلك الضمير، فإنَّ اسمَ الإشارة البعيد يفيدُ التعظيمَ؛ لتنزيل رفعةِ محلِّ المشار به إليه منزلةَ بعد درجته، فاسمُ الإشارة للتعظيم، والإشارةُ إلى تمييزهم واستحقاقهم كمالَ الشهرة، بخلاف أصحاب المشأمة، والضميرُ لا يفيد ذلك. انتهى.

وفيه أنَّ اسمَ الإشارة كما يفيد التعظيمَ يُفيدُ التحقير، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] وكمالُ الشهرة كما يكون في الخير يكون في الشَّرِّ، فأيُّ مانعٍ من اعتبار استحقاقهم كمالَ الشهرة في الشَّرِّ؟ وبالجملة ما ذكره ليس بشيءٍ، ولعلَّ ما ذكرناه هو الأولى فتدبر.

(١) البيت لابن الرومي، وسلف ١٧/ ٩٩.

(٩١) سورة الشمس مكية وآياتها خمس عشرة

سورة الشمس مكية ، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما :
١ – موضوع النفس الإنسانية ، وما جبلها الله عليه من الخير والشر ، والهدى والضلال . ٢ – وموضوع الطغيان ممثلاً في « ثمود » الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا ، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه ، وبالليل إذا اغطَّى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمدٍ ، وبالنفس البشرية التي كمَّلها الله وزينها بالفضائل والكمالات ، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

● **ثم ذكر** تعالى قصة « ثمود » قوم صالح حين كذبوا رسولهم ، ، وطَغَوا وبغوا في الأرض ، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزةً لرسوله صالح عليه السلام ، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقي عبرةً لمن يعتبر ، وهو نموذج لكل كافر فاجرٍ مكذب لرسل الله .

● **وقد ختمت** السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، لأنه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

سورة الشمس

خمس عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾

قبل الخوض في التفسير لا بد من مسائل:

المسألة الأولى: المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي.

واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائمًا بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى.

المسألة الثانية: قد عرفت أن جماعة من أهل الأصول قالوا: التقدير: (ورب الشمس ورب سائر ما ذكره إلى تمام القسم)، واحتج قوم على بطلان هذا المذهب فقالوا: إن في جملة هذا القسم قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] وذلك هو الله تعالى فيلزم أن يكون المراد: ورب السماء وربها، وذلك كالمتناقض، أجاب القاضي عنه بأن قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى؛ لأن (ما) لا تُستعمل في خالق السماء إلا على ضرب من المجاز، ولأنه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه، ولأنه تعالى لا يكاد يُذكر مع غيره على هذا الوجه، فإذًا لا بد من التأويل وهو أن ﴿مَا﴾ مع ما بعده في حكم المصدر فيكون التقدير: والسماء وبنائها. اعترض صاحب (الكشاف) عليه فقال: لو كان الأمر على هذا الوجه لزم من عطف قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ [الشمس: ٨] عليه فساد النظم.

المسألة الثالثة: القراء مختلفون في فواصل هذه السورة وما أشبهها نحو: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] فقرءوها تارة بالإمالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالإمالة وبعضها بالتفخيم، قال الفراء: بكسر ضحاها، والآيات التي بعدها وإن كان أصل بعضها الواو نحو: تلاها، وطحاها ودحاها، فكذلك أيضًا. فإنه لما ابتدئت السورة بحرف الياء أتبعها بما هو من الواو لأن الألف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء، ألا ترى أن تلوت وطحوت ونحوهما قد يجوز في أفعالها أن تنقلب إلى الياء نحو: تلي ودحي، فلما حصلت هذه الموافقة استجازوا إمالته كما استجازوا إمالة ما كان من الياء، وأما وجه من ترك الإمالة مطلقًا فهو أن كثيرًا من العرب لا يميلون هذه الألفات ولا ينحون فيها نحو الياء، ويقوي ترك الإمالة للألف أن الواو في موسر منقلبة عن الياء، والياء في ميقات وميزان منقلبة عن الواو

ولـم يلزم من ذلك أن يحصل فيه ما يدل على ذلك الانقلاب، فكذا ههنا ينبغي أن تترك الألف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء، وأما إمالة البعض وترك إمال البعض كما فعله حمزة، فحسن أيضًا، وذلك لأن الألف إنما تمال نحو الياء لتدل على الياء إذا كان انقلابها عن الياء، ولم يكن في تلاها وطحاها ودحاها ألف منقلبة عن الياء، إنما هي منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت.

المسألة الرابعة: أن الله تعالى قد أقسم بسبعة أشياء إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس: ٩] وهو جواب القسم، قال الزجاج: المعنى لقد أفلح، لكن اللام حُذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضًا منها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ذكر المفسرون في ضحاها ثلاثة أقوال: قال مجاهد والكلبي: ضوؤها. وقال قتادة: هو النهار كله. وهو اختيار الفراء وابن قتيبة، وقال مقاتل: هو حر الشمس. وتقرير ذلك بحسب اللغة أن نقول: قال الليث: الضحو ارتفاع النهار، والضحى فويق ذلك، والضحاء ممدودًا امتد النهار، وقرب أن ينتصف. وقال أبو الهيثم: الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض وأصله الضحى، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقال: ضح، فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سُمي به الوقت الذي تشرق فيه الشمس، على ما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] فمن قال من المفسرين في ضحاها: ضوؤها فهو على الأصل، وكذا من قال: (هو النهار كله)، لأن جميع النهار هو من نور الشمس، ومن قال في الضحى: إنه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان، فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضوؤها وبالعكس، وهذا أضعف الأقوال. واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قال الليث: تلا يتلو إذا تبع شيئًا. وفي كون القمر تاليًا وجوه: **أحدها**: بقاء القمر طالعًا عند غروب الشمس، وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، فإذا القمر يتبعها في الإضاءة، وهو قول عطاء عن ابن عباس. **وثانيها**: أن الشمس إذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب، وهو قول قتادة والكلبي. **وثالثها**: قال الفراء: المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس، يقال: فلان يتبع فلانًا في كذا، أي يأخذ منه. **ورابعها**: قال الزجاج: تلاها حين استدار وكمل، فكأنه يتلو الشمس في الضياء والنور، يعني إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس في الإنارة، وذلك في الليالي البيض. **وخامسها**: أنه يتلوها في كبر الجِرم بحسب الحس، وفي ارتباط مصالح هذا العالم بحركته، ولقد ظهر في علم النجوم أن بينهما من المناسبة ما ليس بين الشمس وبين غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾

معنى التجلية الإظهار والكشف، والضمير في (جلاها) إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: **أحدهما**: وهو قول الزجاج: أنه عائد إلى الشمس وذلك لأن النهار عبارة عن نور الشمس. فكلما كان النهار أجلى ظهورًا كانت الشمس أجلى ظهورًا؛ لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها، كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي لا يخرجها. **الثاني**: وهو قول الجمهور أنه عائد إلى الظلمة، أو إلى الدنيا، أو إلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر، يقولون: (أصبحت باردة) يريدون الغداة، و(أرسلت) يريدون السماء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يعني يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها، وهذه الآية تقوي القول الأول في الآية التي قبلها من وجهين: **الأول**: أنه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال: النهار يجليها، على ضد ما ذكر في الليل. **والثاني**: أن الضمير في (يغشاها) للشمس بلا خلاف، فكذا في (جلاها) يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى ههنا للشمس، قال القفال: وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا بالشمس في الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة. **أولها**: الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار. وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش، ومنها: تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها، ومنها: تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار، ومنها: وجود خلاف ذلك بمجيء الليل، ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهي والتركب من الأجزاء، انتقل منه إلى عظمة خالقها، فسبحانه ما أعظم شأنه!!

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾ **فيه سؤالات**:

السؤال الأول: أن الذي ذكره صاحب (الكشاف) من أن ﴿وَمَا﴾ ههنا لو كانت مصدرية لكان عطف ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عليه يوجب فساد النظم- حق، والذي ذكره القاضي من أنه لو كان هذا قسمًا بخالق السماء، لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس، فهو إشكال جيد، والذي يخطر ببالي في الجواب عنه أن أعظم المحسوسات هو الشمس، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها، ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهي تدبيره سبحانه للسماء والأرض وللمركبات، ونبه على المركبات بذكر أشرفها وهي النفس، والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جِرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات على إثبات مبدئ لها، فحينئذٍ يحظى العقل ههنا بإدراك جلال الله وعظمته على ما يليق به، والحس لا ينازعه فيه. فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية، وبيداء كبرياء الصمدية، فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته!!

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾؟ **الجواب:** أنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الأربعة الدالة على عظمتها، أتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الأجرام السماوية، فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة، وذلك لأن الشمس والسماء متناهية، وكل متناه فإنه مختص بمقدار معين، مع أنه كان يجوز في العقل وجود ما هو أعظم منه وما هو أصغر منه، فاختصاص الشمس وسائر السماويات بالمقدار المعين لا بد وأن يكون لتقدير مقدر: وتدبير مدبر، وكما أن باني البيت يبنيه بحسب مشيئته، فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته، فقوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس وسائر السماويات.

السؤال الثالث: لِمَ قال: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ولم يقل: ومن بناها؟ **الجواب من وجهين الأول:** أن المراد هو الإشارة إلى الوصفية، كأنه قيل: والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. **والثاني:** أن (ما) تستعمل في موضع (مَن) كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢] والاعتماد على الأول.

السؤال الرابع: لِمَ ذكر في تعريف ذات الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة وهي السماء والأرض والنفس؟ **والجواب:** لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد، والشاهد ليس إلا العالم الجسماني، وهو قسمان بسيط ومركب، والبسيط قسمان: العلوية وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ والسفلية وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشمس: ٦] والمركب هو أقسام وأشرفها ذوات الأنفس وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما أخر هذا عن قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

المسألة الثانية: قال الليث: الطحو كالدحو وهو البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، والمعنى وسعها. قال عطاء والكلبي: بسطها على الماء.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ إن حملنا النفس على الجسد، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح، وإن حملناها على القوة المدبرة فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة، على ما يشهد به علم النفس. فإن قيل: لِمَ نُكرت النفس؟ **قلنا:** فيه وجهان: أحدهما: أن يريد به نفسًا خاصة من بين النفوس، وهي النفس القدسية النبوية، وذلك لأن كل كثرة فلا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس، فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان، والإنسان أنواع وأصناف

ورئيسها النبي، والأنبياء كانوا كثيرين، فلا بد وأن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق، فقوله: ﴿ وَنَفْسٍ﴾ إشارة إلى تلك النفس التي هي رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات. **الثاني**:أن يريد كل نفس، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]وذلك لأن الحيوان أنواع لا يُحصي عددها إلا الله، على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته، والخواص اللازمة لذلك الفصل، فمن الذي يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض، فضلاً عن التوغل في بحار أسرار الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

فالمعنى المحصل فيه وجهان: الأول: أن إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما، وهو كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]وهذا تأويل مطابق لمذاهب المعتزلة، قالوا: ويدل عليه قوله بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]وهذا الوجه مروي عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين. **والوجه الثاني**:أنه تعالى ألهم المؤمن المتقي تقواه وألهم الكافر فجوره، قال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها. وقال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور، واختار الزجاج والواحدي ذلك، قال الواحدي: التعليم والتعريف والتبيين غير والإلهام غير، فإن الإلهام هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئًا، وإذا أوقع في قلبه شيئًا فقد ألزمه إياه، وأصل معنى الإلهام من قولهم: (لهم الشيء، والتهمه) إذا ابتلعه، وألهمته ذلك الشيء، أي أبلغته، وهذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد؛ لأنه كالإبلاغ، فالتفسير الموافق لهذا الأصل قول ابن زيد، وهو صريح في أن الله تعالى خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر فجوره، وأما التمسك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فضعيف لأن المروي عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي أن المعنى قد أفلحَتْ وسعدَتْ نفس زكاها الله تعالى وأصلحها وطهرها، والمعنى وفقها للطاعة. هذا آخر كلام الواحدي وهو تام.

وأقول:قد ذكرنا أن الآيات الثلاثة ذُكرت للدلالة على كونه سبحانه مدبرًا للأجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة، فههنا لم يبق شيء مما في عالم المحسوسات إلا وقد ثبت بمقتضى ذلك التنبيه أنه واقع بتخليقه وتدبيره، بقي شيء واحد يختلج في القلب أنه هل هو بقضائه وقدره وهو الأفعال الحيوانية الاختيارية، فنبه سبحانه بقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على أن ذلك أيضًا منه وبه وبقضائه وقدره، وحينئذٍ ثبت أن كل ما سوى الله فهو واقع بقضائه وقدره، وداخل تحت إيجاده وتصرفه. ثم الذي يدل عقلاً على أن المراد من قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ هو الخذلان والتوفيق ما ذكرنا مرارًا أن الأفعال الاختيارية موقوفة على حصول الاختيارات،

فحصولها إن كان لا عن فاعل فقد استغنى المحدث عن الفاعل، وفيه نفي الصانع، وإن كان عن فاعل هو العبد لزم التسلسل، وإن كان عن الله فهو المقصود، وأيضًا فليجرب العاقل نفسه. فإنه ربما كان الإنسان غافلاً عن شيء فتقع صورته في قلبه دفعة، ويترتب على وقوع تلك الصورة في القلب ميل إليه، ويترتب على ذلك الميل حركة الأعضاء وصدور الفعل، وذلك يفيد القطع بأن المراد من قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا﴾ ما ذكرناه لا ما ذكره المعتزلة.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾

فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء، وفي الآية قولان: **أحدهما:** أنه قد أدرك مطلوبه مَن زكَّى نفسه بأن طهرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية. **والثاني:** قد أفلح من زكاها الله، وقبِل القاضي هذا التأويل، وقال: المراد منه أن الله حكم بتزكيتها وسماها بذلك، كما يقال في العرف: إن فلانًا يزكي فلانًا. ثم قال: والأول أقرب؛ لأن ذكر النفس قد تقدم ظاهرًا، فردُّ الضمير عليه أَوْلى من رده على ما هو في حكم المذكور لا أنه مذكور.

واعلم أنا قد دللنا بالبرهان القاطع أن المراد بألهمها ما ذكرناه، فوجب حمل اللفظ عليه. وأما قوله بأن هذا محمول على الحكم والتسمية فهو ضعيف؛ لأن بناء التفعيلات على التكوين، ثم إن سلَّمنا ذلك لكان ما حكم الله به يمتنع تغيره؛ لأن تغير المحكوم به يستلزم تغير الحكم من الصدق إلى الكذب، وتغير العلم إلى الجهل؛ وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال. أما قوله: (ذكر النفس قد تقدم)، قلنا: هذا بالعكس أَوْلى، فإن أهل اللغة اتفقوا على أن عود الضمير إلى الأقرب أَوْلى من عوده إلى الأبعد، وقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا﴾ أقرب إلى قوله: ﴿ وَمَا﴾ منه إلى قوله: ﴿ وَنَفْسٍ﴾ فكان الترجيح لما ذكرناه، ومما يؤكد هذا التأويل ما رواه الواحدي في البسيط عن سعيد بن أبي هلال أنه عليه السلام كان إذا قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقف وقال: «**اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها وأنت مولاها، وزكها أنت خير من زكاها**».

أما قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ فقالوا: ﴿ دَسَّىٰهَا﴾ أصله دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأُبدلت إحدى السينات ياء، فأصل دسى دسس، كما أن أصل تقضى البازي تقضض البازي، وكما قالوا: ألبت والأصل لببت، وملبي والأصل ملبب.

ثم نقول: أما المعتزلة فذكروا وجوهًا توافق قولهم: **أحدها:** أن أهل الصلاح يظهرون أنفسهم، وأهل الفسق يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية، كما أن أجواد العرب ينزلون الرُّبا حتى تشتهر أماكنهم ويقصدهم المحتاجون، ويوقدون النيران بالليل للطارقين. وأما اللئام فإنهم يخفون أماكنهم عن الطالبين **وثانيها:** ﴿ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم. **وثالثها:** ﴿ مَن دَسَّىٰهَا﴾ في المعاصي حتى انغمس فيها. **ورابعها:** ﴿ مَن دَسَّىٰهَا﴾ من دس في نفسه الفجور، وذلك بسبب مواظبته عليها ومجالسته مع أهلها. **وخامسها:** أن من أعرض عن

الطاعات واشتغل بالمعاصي صار خاملاً متروكًا منسيًا، فصار كالشيء المدسوس في الاختفاء والخمول. **وأما أصحابنا فقالوا:** المعنى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأفجرها وأبطلها وأهلكها، هذه ألفاظهم في تفسير ﴿دَسَّىٰهَا﴾ قال الواحدي رحمه الله: فكأنه سبحانه أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وخسار من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ⑪ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ⑫ ﴾

قال الفراء: الطغيان والطغوى مصدران، إلا أن الطغوى أشبه برؤوس الآيات فاختير لذلك وهو كالدعوى من الدعاء وفي التفسير وجهان: **أحدهما:** أنها فعلت التكذيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجراءته على الله تعالى، والمعنى أن طغيانهم حملهم على التكذيب به، هذا هو القول المشهور. **والثاني:** أن الطغوى اسم لعذابهم الذي أُهلكوا به، والمعنى كذبت بعذابها، أي لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به من العذاب، وهذا لا يبعد لأن معنى الطغيان في اللغة مجاوزة القدر المعتاد، فيجوز أن يسمى العذاب الذي جاءهم طغوى لأنه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد، أو يكون التقدير: كذبت بما أوعدت به من العذاب ذي الطغوى، ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤] أي بالعذاب الذي حل بها، ثم قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] فسمى ما أُهلكوا به من العذاب طاغية.

قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انبعث مطاوع بعث، يقال: بعثت فلانًا على الأمر فانبعث له، والمعنى أنه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث أشقاها، وهو عاقر الناقة، وفيه قولان: **أحدهما:** أنه شخص معين واسمه قدار بن سالف، ويضرب به المثل يقال: (أشأم من قدار)، وهو أشقى الأولين بفتوى رسول الله ﷺ **والثاني:** يجوز أن يكونوا جماعة، وإنما جاء على لفظ الوحدان لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، تقول: هذان أفضل الناس وهؤلاء أفضلهم، وهذا يتأكد بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] وكان يجوز أن يقال أشقوها كما يقال أفاضلهم.

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ⑭ ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الرسول صالح عليه السلام ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي أنه أشار إليه لما هموا بعقرها وبلغه ما عزموا عليه، وقال لهم هي: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ وآيته الدالة على توحيده وعلى نبوتي، فاحذروا أن تقوموا عليها بسوء، واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سقياها. وقد بينا في مواضع من هذا الكتاب أنه كان لها شِرب يوم ولهم ولمواشيهم شِرب يوم، وكانوا يستضرون بذلك في أمر

مواشيهم، فهَمُّوا بعقرها، وكان صالح عليه السلام يحذرهم حالاً بعد حال من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك، وكانت هذه الحالة متصورة في نفوسهم، فاقتصر على أن قال لهم: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ لأن هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدمة التي ذكرناها.

المسألة الثانية: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على التحذير، كقولك: (الأسدَ الأسدَ)، و(الصبيَّ الصبيَّ) بإضمار ذروا عقرها واحذروا سقياها، فلا تمنعوها عنها، ولا تستأثروا بها عليها.

ثم بيَّن تعالى أن القوم لم يمتنعوا عن تكذيب صالح، وعن عقر الناقة بسبب العذاب الذي أنذرهم الله تعالى به، وهو المراد بقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ ثم يجوز أن يكون المباشر للعقر واحدًا وهو قدار، فيضاف الفعل إليه بالمباشرة، كما قال: (فتعاطى فعقر) ويضاف الفعل إلى الجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد. قال قتادة: ذُكر لنا أنه أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكَرهم وأنثاهم. وهو قول أكثر المفسرين. وقال الفراء: قيل: إنهما كانا اثنين.

أما قوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ فاعلم أن في الدمدمة وجوهًا: **أحدها**: قال الزجاج: معنى دمدم أطبق عليهم العذاب، يقال: دمدمت على الشيء، إذا أطبقت عليه، ويقال: ناقة مدمومة، أي قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه. قال الواحدي: الدم في اللغة اللطخ، ويقال للشيء السمين: كأنما دم بالشحم دمًّا، فجعل الزجاج دمدم من هذا الحرف على التضعيف نحو كبكبوا وبابه، فعلى هذا معنى دمدم عليهم: أطبق عليهم العذاب وعمهم كالشيء الذي يُلطخ به من جميع الجوانب. **الوجه الثاني**: تقول للشيء يُدفن: دمدمت عليه، أي سويت عليه، فيجوز أن يكون معنى فدمدم عليهم: فسَوَّى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب. **الوجه الثالث**: قال ابن الأنباري: دمدم: غضب، والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. **ورابعها**: دمدم عليهم أرجف الأرض بهم، رواه ثعلب عن ابن الأعرابي، وهو قول الفراء.

أما قوله: ﴿ فَسَوَّىٰهَا﴾ يحتمل وجهين، وذلك لأنا إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم، كان معنى (فسَوَّى) الدمدمة عليهم وعمهم بها، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعًا، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وإن فسرناها بالتسوية، كان المراد فسوى عليهم الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

ففيه وجوه أولها: أنه كناية عن الرب تعالى إذ هو أقرب المذكورات، ثم اختلفوا فقال بعضهم: لا يخاف تبعة في العاقبة، إذ العقبى والعاقبة سواء، كأنه بيَّن أنه تعالى يفعل ذلك بحق، وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقًّا فإنه لا يخاف عاقبة فعله. وقال بعضهم: ذكر ذلك لا على وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل، أي هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة، والله تعالى

يجل أن يوصف بذلك . ومنهم من قال : المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب ، فإن كل ملك يخشى عاقبة فإنه يتقي بعض الاتقاء ، والله تعالى لما لم يخف شيئًا من العواقب ، لا جرم ما اتقى شيئًا . **وثانيها:** أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول ، أي ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم ، وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك . **وثالثها:** المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم ، كأنه قال : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها ، والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ، ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لايخاف ألبتة ، فنُسب في ذلك إلى الجهل والحمق ، وفي قراءة النبي عليه السلام : (ولم يخف) وفي مصاحف أهل المدينة والشام : (فلا يخاف) والله أعلم .

روي أن صالحًا لما وعدهم العذاب بعد ثلاث ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلموا فلنقتل صالحًا ، فإن كان صادقًا فأعجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته ! ! فأتوه ليبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ! ! ثم هَمُّوا به فقامت عشيرته دونه لبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه قد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقًا زدتم ربكم عليكم غضبًا ، وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون ! ! فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا وجوههم مصفرة فأيقنوا بالعذاب ، فطلبوا صالحًا ليقتلوه فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود وكان مشركًا فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ثم شغلهم عنه ما نزل بهم من العذاب ، فهذا هو قوله : ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة «الشمس»

وهي مكِّيةٌ باتِّفاقٍ، وهي خَمْسَ عَشْرةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾

قال مجاهد: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئِها وإشْراقِها. وهو قَسَمٌ ثانٍ. وأضاف الضُّحَى إلى الشمس؛ لأنه إنَّما يكون بارتفاعِ الشمس. وقال قتادةُ: نَهارها(٤). السُّدِّيُّ:

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، ووقع في (م): بهاؤها.

حرّها[١]. وروى الضحاك عن ابن عباس: «وضحاها»، قال: جَعَلَ فيها الضوءَ وجَعَلَها حارَّة[٢].

وقال اليزيديُّ: هو انبساطُها. وقيل: ما ظَهَر بها من كلِّ مخلوقٍ، فيكون القَسَمُ بها وبمخلوقاتِ الأرض كلِّها. حكاه الماوردِيّ[٣].

والضُّحَى: مؤنثةٌ. يقال: ارتفعت الضُّحى فوق الصُّخور. وقد تُذَكَّر. فَمَن أنَّث ذهب إلى أنها جمعُ ضَحْوَةٍ. ومَن ذَكَّر ذهب إلى أنه اسمٌ على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ. وهو ظرفٌ غيرُ متمكِّنٍ مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضحًى وضُحَى؛ إذا أردتَ به ضُحا يومِك لم تنوِّنه[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: الضُّحى هو النهار، كقول قتادة[٦]. والمعروفُ عند العرب: أنَّ الضُّحى إذا طلعت الشمسُ وبُعَيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحَاء بالمدِّ. ومَن قال: الضُّحى: النهارُ كلُّه، فذلك لدوامِ نورِ الشمس. ومَن قال: إنه نورُ الشمسِ أو حرُّها، فنورُ الشمسِ لا يكون إلَّا مع حرِّ الشمس. وقد استدلَّ مَن قال: إنَّ الضحى حرُّ الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي: لا يؤذيك الحرّ.

وقال المبرِّد: أصلُ الضُّحَى من الضّحِّ، وهو نورُ الشمسِ، والألفُ مقلوبةٌ من الحاءِ الثانية. تقول: ضَحوَة وضَحَوات[٧] وضُحَى، فالواوُ من ضَحْوَة مقلوبةٌ عن

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الحاكم ٢/ ٥٢٤ من طريق مجاهد عن ابن عباس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قال: ضوءها.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٤) الصحاح (ضحا)، وينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وتفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، وسلف قريباً.

(٧) بعدها في (م) و(ي): وضحوات. وكل اسم واحدة فَعْلة فإنَّ جَمعه على فَعَلات بفتح العين، فإن كان نعتاً فإنك تدع ثانيه ساكناً، مثل: ضَخْمَة، تجمعها: ضَخْمات، وربما سكنت العين في الأسماء، كما قال الشاعر: فتستريح النفس من زَفْراتها. ينظر تفسير الطبري ٣/ ٣٢ .

الحاء الثانية[١]، والألفُ في ضُحا مقلوبةٌ عن الواو.

وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظِّلِّ، وهو نورُ الشمسِ على وجه الأرض، وأصلُه: الضِّحْيُ، فاستَثْقَلوا الياءَ مع سكونِ الحاءِ، فقَلَبوها ألفاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾

أي: تَبِعَها، وذلك إذا سقطت رُئي الهلال. يقال: تَلَوْتُ فلاناً: إذا تَبِعته. قال قتادة: إنَّما ذلك ليلةَ الهلال، إذا سَقَطت الشمس رُئي الهلال[٣].

وقال ابن زيد: إذا غَرَبت الشمسُ في النصف الأول من الشهر، تلاها القمرُ بالطُّلوع، وفي آخِرِ الشهرِ يتلُوها بالغروب[٤].

الفرَّاء: «تلاها»: أخذ منها. يذهبُ إلى أنَّ القمر يأخذُ من ضوء الشمس[٥]. وقال قومٌ: «والقمرِ إذا تَلاَها» حين استوى واستدار، فكان مِثلَها في الضياء والنور؛ وقاله الزجَّاج[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾

أي: كَشَفَها. فقال قومٌ: جلَّى الظُّلْمةَ، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ، كما تقول: أضْحَتْ باردةً، تريد: أَضْحَتْ غَداتُنا باردةً. وهذا قولُ الفرّاءِ[٧] والكلبيِّ وغيرِهما. وقال قومٌ:

---

(١) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٧٨ لعله مختلَقٌ عليه؛ لأن المبرد أجلُّ من أن يذهب إلى هذا، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشتقُّ إحداهما من الأخرى.

(٢) كذا في النسخ، ومثله في تفسير الرازي ٣١/ ١٩٠ ، والذي في تهذيب اللغة ٣/ ٣٩٨ عن أبي الهيثم: ... فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فثقلوها؛ قالوا: ضِحّ. ومثلُه العبدُ القِنُّ، وأصله: قِنْي من القِنْية.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٢ بلفظ: في النصف الأول يتلوها، وتكون أمامه وهو وراءها، وإذا كان في النصف الأخير كان هو أمامها وهي وراءه، ونحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٣٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٣١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

الضمير في «جَلاَّها» للشمس، والمعنى: أنه يُبينُ بضوئه جرمَها. ومنه قولُ قيس بنِ الخَطِيم:

تَجَلَّت لنا كالشَّمسِ تحتَ غَمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ[(١)]

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر؛ لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً[(٢)]. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض، وإنْ لم يَجْرِ لها[(٣)] ذِكْرٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] على ما تقدَّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾

أي: يغشَى الشمس، فيَذهَبُ بَضوْئها عند سقوطها؛ قاله مجاهدٌ وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكنايةُ تَرْجعُ إلى غيرِ مذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾

أي: وبنيانها. فـ«ما» مَصْدَريةٌ، كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧] أي: بغفران ربِّي؛ قاله قتادة، واختاره المبرِّد.

وقيل: المعنى: ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد[(٤)]؛ وهو اختيارُ الطَّبَرِيِّ[(٥)]. أي: ومَن خَلَقَها ورَفَعَها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحان ما سَبَّحت له، أي: سبحان مَنْ سَبَّحت له[(٦)].

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٨، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ١٤٦، وديوان المعاني ١/ ٢٢٩، والحماسة البصرية ٢/ ٨٥، واللسان (حجب). وورد البيت في ديوان مجنون ليلى ص٧٥. قال صاحب اللسان: حاجب الشمس: ناحيةٌ منها.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢.

(٣) في (د) و (ز) و(ي): لهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢، وزاد المسير ٩/ ١٣٩.

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٤٣٧، قال: وبناؤه إياها تصييره إياها للأرض سقفاً.

(٦) ينظر ما سلف ٦/ ٢٦، وما سيأتي ص٣٢٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

أي: وطَحْوِها. وقيل: ومَن طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي: بَسَطَها؛ كذا قال عامَّةُ المفسِّرين، مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها واحدٌ[١]، أي: بَسَطَها من كل جانب. والطَّحْو: البَسْطُ؛ طَحَا يطحُو طحْواً، وطَحَى يَطحَى طَحْياً. وطَحَيْتُ: اضطجعتُ؛ عن أبي عمرو[٢].

وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها[٣]. وقيل: خَلَقها؛ قال الشاعر:

وما تَدْرِي جذيمةُ مَن طَحَاها ولا مَنْ ساكِنُ العَرْشِ الرَّفيعِ[٤]

الماوَرْديُّ[٥]: ويحتمل أنه ما خرج منها من نباتٍ وعيونٍ وكنوز؛ لأنه حياةٌ لِمَا خُلِق عليها.

ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمرِ الطَّاحِي، أي: المُشرِف المُشْرِق المرتفع[٦]. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبُه: إذا ذهب به في كلِّ شيء؛ قال علقمة:

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَروبُ بُعيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ[٧]

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾

قيل: المعنى: وتَسْوِيَتِها. «فما»: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى: ومَن سَوَّاها، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٣٩ بنحوه.

(٢) ذكره عنه الجوهري في الصحاح (طحا).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٦) تهذيب اللغة ٥/ ١٨٤ .

(٧) ديوان علقمة الفحل ص٣٣ ، والصحاح (طحا) والكلام منه. قال الأعلم شارح الديوان: قوله: طحا بك قلب، أي: اتَّسع بك في حب الحِسان، وذَهب بك كلَّ مذهب.

وفي النفس قولان: أحدهما آدمُ. الثاني: كلُّ نفسٍ منفوسة. وسوَّى: بمعنى هيَّأ. وقال مجاهد: سوَّاها: سَوَّى خَلْقَها وعَدَّل[١].

وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ على القَسَم؛ أقسمَ جلَّ ثناؤه بخَلْقِه لمَا فيه من عجائب الصَّنْعةِ الدالَّةِ عليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي: عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابنُ أبي نَجِيح عن مجاهد[٢]. أي: عرَّفها طريقَ الفجورِ والتقوى؛ وقاله ابن عباس[٣]. وعن مجاهدٍ أيضاً: عَرَّفها الطاعةَ والمعصية.

وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعَبْدِهِ خيراً، أَلْهمَه الخيرَ فَعَمِل به، وإذا أراد به السوءَ، أَلْهمَه الشرَّ فعمِل به.

وقال الفرَّاء[٤]: «فألهمها»، قال: عَرَّفها طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمنَ المتَّقيَ تقواه، وألْهَمَ الفاجرَ فُجورَه[٥].

وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فُجورَها وتقواها[٦]. والمعنى متقارب.

ورُوِي عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ فقال:

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٠-٤٤١، والوسيط ٤/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٢ ولفظه: علَّمها الطاعة والمعصية، وفي رواية: بيَّن لها طريق الخير والشر. وفي رواية: عرَّفها ما تأتي وما تتقي.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ١٩٣ دون نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

«اللهمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وَليُّها ومَولاها»[١].

ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآيةَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وأنت خيرُ مَن زَكَّاها»[٢].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي الأسود الدِّيْليِّ[٣] قال: قال لي عِمران بنُ حصين: أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ، ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى عليهم من قَدَرِ ما سَبَق، أو فيما يُسْتَقْبَلون به ممَّا أتاهم به نبيُّهم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فقلت: بل شيءٌ قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال: فقال: أفَلا يكونُ ظُلماً؟ قال: ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديداً، وقلت: كلُّ شيءٍ خَلْقُ الله ومِلْكُ يَدِه، فلا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألون. فقال لي: يرحمُكَ الله! إنِّي لم أُرِدْ بما سألتُك إلَّا لأَحْزِرَ عقلكَ، إنَّ رجلين من مُزَينة أتَيَا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسولَ الله، أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم مِن قَدرٍ قد سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به ممّا أتاهم به نبيُّهم، وثَبتَتِ الحجةُ عليهم؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى فيهم، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾»[٤]. والفجورُ والتقوى: مصدران في موضعِ المفعولِ به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَم، بمعنى: لقد أفْلَح. قال

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٨١)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفي إسناده يعقوب بن حميد المدني وهو ضعيف، وعبد الله بن عبد الله الأموي وهو مجهول.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٤، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. قال ابن كثير: وجويبر هذا هو ابن سعيد متروك الحديث، والضحاك لم يلقَ ابن عباس. اهـ. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١١٩١) بإسناد آخر عن ابن عباس به، وفيه ابن لهيعة وهو سيءُ الحفظ.

(٣) في (م): الدؤلي. قال الحافظ في التقريب: الدِّيْلي بكسر المهملة وسكون التحتانية، ويقال: الدُّؤَلي بالضم بعدها همزة مفتوحة، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٥٠)، وهو عند أحمد (١٩٩٣٦).

الزجَّاج: اللامُ حُذِفَتْ لأنَّ الكلام طال، فصار طولُه عِوضاً منها[١].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، أي: والشمسِ وكذا وكذا لَتُبْعثُنَّ.

الزمخشريُّ: تقديرُه: لَيُدَمْدِمنَّ الله عليهم، أي: على أهلِ مكة، لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذَّبوا صالحاً. وأمَّا «قد أفلح من زكَّاها» فكلامٌ تابعٌ لقوله[٢]: «فألهَمَها فجورَها وتقواها»، على سبيل الاستِطْرادِ، وليس من جواب القَسَمِ في شيء.

وقيل: هو على التقديم والتأخير بغيرِ حذفٍ، والمعنى: قد أَفْلَحَ مَن زَكَّاها، وقد خاب مَن دَسَّاها، والشمسِ وضحاها.

﴿أَفْلَحَ﴾ فاز ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن زكَّى اللهُ نفسَه بالطاعة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: خَسِرتْ نفسٌ دَسَّها الله عزَّ وجلَّ بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفسٌ أضَلَّها الله وأغْواها[٣].

وقيل: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه بطاعة الله وصالحِ الأعمال، وخاب مَن دسَّ نفسَه في المعاصي؛ قاله قتادةُ وغيره[٤].

وأصلُ الزكاة: النموُّ والزيادةُ، ومنه: زكا الزرع: إذا كَثُر رَيْعُه، ومنه تزكيةُ القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعُه بالتعديل وذِكْرِ الجميل. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل سورةِ البقرة مستوفًى[٥].

فمصْطَنِعُ المعروفِ والمبادِرُ إلى أعمال البِرِّ، شَهَر نفسَه ورفعَها. وكانت أجوادُ

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤١ ، ولم نقف على هذا الكلام في معاني القرآن للزجاج، وذكره ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٨ دون نسبة، ثم قال: والاختيار عندنا أن يكون جواب القسم محذوفاً لبيان معناه، يراد به: والشمس وضحاها لقد سعد أهل الطاعة وشقي أهل المعصية، فدل على المحذوف: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

(٢) قبلها في (م): لأوله، والمثبت والنسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢٥٩ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٥ بلفظ: قد خاب مَن دسَّ الله نَفْسَه فأضلَّه.

(٤) أخرجه عن قتادة بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٦ ، والطبري ٢٤/ ٤٤٤ و٤٤٦ .

(٥) ٢/ ٢٣ .

العربِ تنزلُ الرُّبا وارتفاعَ الأرضِ؛ ليَشْتَهِر مكانُها للمُعْتَفِين[١]، وتُوقِدُ النارَ في الليل للطَّارِقين. وكانت اللئامُ تنزلُ الأَوْلاجَ والأطرافَ والأهْضامَ[٢]، ليَخْفَى مكانُها عن الطَّالِبين. فأولئك عَلَّوْا أنفسَهم وزَكَّوْها، وهؤلاء أَخْفَوْا أنفسَهم ودَسّوها. وكذا الفاجِرُ أبداً خَفِيُّ المكان، زَمِرُ المروءةِ[٣]، غامِضُ الشَّخصِ، ناكِسُ الرأسِ بركوبِ المعاصي.

وقيل: دسَّاها: أغواها؛ قال:

وأنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحَتْ حلائلُهُ منه أرامِلَ ضُيَّعا[٤]

قال أهلُ اللغة: والأصل: دسَّسَهَا، من التدسيس، وهو إخفاءُ الشيءِ في الشيء، فأُبدلتْ سِينُه ياءً، كما يقال: قَصَّيْتُ أظفاري؛ وأصلهُ: قَصَّصْتُ أظفاري. ومثلُه قولهم في تَقَضَّضَ: تَقَضَّى[٥]. وقال ابن الأعرابيِّ: «وقدْ خَابَ من دَسَّاها» أي: دسَّ نفسَه في جملةِ الصالحين وليس منهم[٦].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بطُغْيانها، وهو خروجُها عن الحدِّ في

---

(١) المعتفي: الضيف، وكل طالب فضل أو رزق. القاموس (عفو).

(٢) الأولاج: جمع وَلَجة: كهف تستتر فيه المارة من مطر وغيره، ومَعْطِفُ الوادي. والأهضام: جمع هَضْم، وهو المطمئن من الأرض، وبطن الوادي. القاموس (ولج) و(هضم).

(٣) أي: قليل المروءة. القاموس (زمر).

(٤) جمهرة اللغة ٣/ ٢٤٢، وتهذيب اللغة ١٣/ ٤١، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٤، واللسان (دسا)، ووقع في التهذيب واللسان: نساؤهم منهم، بدل: حلائله منه. وفي النكت: حلائلهم فيهم. قال صاحب اللسان: عمرو قبيلة. وقال ابن دريد عن البيت: زعم أبو حاتم أنه مصنوع.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٧، وللزجاج ٥/ ٣٣٢-٣٣٣، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٣٠ وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١ و١٣/ ٤١، والصحاح (دسا).

(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١.

العصيان؛ قاله مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما.

وعن ابن عباس «بِطَغْواها» أي: بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان اسم العذابِ الذي جاءها: الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم.

وقال محمد بن كعب: «بِطغواها» بأَجْمَعِها[١].

وقيل: هو مصدرٌ، وخرج على هذا المخرج لأنَّه أَشْكَلُ برؤوسِ الآي[٢].

وقيل: الأصلُ: بطَغْياها، إلَّا أنَّ «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياءِ أُبدِلَتْ في الاسم واواً، لِيُفصَل بينَ الاسمِ والوصف[٣].

وقراءةُ العامَّة بفتح الطَّاء. وقرأ الحسن والجَحْدري وحماد بنُ سلمة بضم الطاء، على أنَّه مصدر كالرُّجْعَى والحُسْنى وشِبْهِهما في المصادر[٤]. وقيل: هما لغتان.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي: نهض. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ لعَقْرِ الناقة. واسمُه: قُدَار بنُ سالِف، وقد مضى في «الأعراف»[٥] بيانُ هذا. وهل كان واحداً أو جماعةً. وفي البخاريِّ عن عبد الله بن زَمَعةَ أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب، وذَكَر الناقةَ والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارِمٌ، منيعٌ في رَهْطِه مثلُ أبي زَمَعةَ» وذَكَر الحديث. خرَّجه مسلم أيضاً[٦].

وروى الضحَّاك عن عليٍّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أَتَدْري مَن أشْقَى الأوَّلِينَ» قلتُ: الله ورسولُه أَعْلَم. قال: «عاقرُ الناقةِ». قال: «أَتَدْري مَن أَشْقَى الآخِرين» قلتُ: الله

---

(١) أخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/ ٤٤٧-٤٤٨.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٨، وقال الفراء: ألا ترى أنه قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠] ومعناه: آخر دعائهم.

(٣) يعني: أنهم يقرُّون ياء فَعْلَى بالفتح صفةً نحو: امرأة خَزْيَا وصَدْيا، ويقلبونها في الاسم نحو: تقوى. ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣، والكشاف ٤/ ٢٥٩، والدر المصون ١١/ ٢٣.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٦٣، والكشاف ٤/ ٢٥٩، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٤.

(٥) ٩/ ٢٧٠-٢٧١.

(٦) صحيح البخاري (٤٩٤٢)، وصحيح مسلم (٢٨٥٥) وهو عند أحمد (١٦٢٢٢)، وسلف ٩/ ٢٧٠.

ورسولُه أَعلم. قال: «قاتِلُكَ»[(١)].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني صالحاً ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ «ناقةَ» منصوبٌ على التحذير؛ كقولك: الأسدَ الأسدَ، والصبيَّ الصبيَّ، والحِذارَ الحِذارَ. أي: احذَروا ناقةَ الله، أي: عَقْرَها. وقيل: ذَرُوا ناقةَ الله، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: ذَرُوها وشِرْبَها. وقد مضى في سورة الشعراء[(٢)] بيانُه والحمد للهِ. وأيضاً في سورة «اقتربت الساعة»[(٣)]. فإنَّهم لمَّا اقترحوا الناقةَ، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِرْبَ يومٍ من بئرهم، ولها شِرب يوم مكانَ ذلك، فشقَّ ذلك عليهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذَّبوا صالحاً عليه السلامُ في قوله لهم: إنَّكم تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عَقَرَها الأشقى، وأُضيفَ إلى الكلِّ لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنه لم يعقرها حتى تابَعَه[(٤)] صغيرُهم وكبيرهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم[(٥)].

وقال الفرَّاء[(٦)]: عَقَرَها اثنان، والعربُ تقولُ: هذان أفضلُ الناسِ، وهذان خيرُ الناسِ، وهذه المرأةُ أشْقَى القومِ، فلهذا لم يَقُلْ: أَشْقَياها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: أَهْلَكَهُم وأَطْبَقَ عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفرُ والتكذيبُ والعَقْر. وروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: «دَمْدم

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٩٥٣)، وروي بإسناد آخر عن علي ﷺ بنحوه عند عبد بن حميد في المنتخب (٩٢)، وأبي يعلى (٥٦٩)، والطبراني في الكبير (١٧٣). وله شاهد من حديث صهيب ﷺ عند أبي يعلى (٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٣١١). وآخر من حديث جابر بن سمرة ﷺ عند الطبراني في الكبير (٢٠٣٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٣٥ . وثالث من حديث عمار ﷺ عند أحمد (١٨٣٢١). وينظر مجمع الزوائد ٩/ ١٣٦-١٣٧ .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٤) منها.

(٣) عند تفسير الآيتان (٢٧) و(٢٨) منها.

(٤) في (د): بايعه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٠ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٨ .

عليهم»قال: دَمَّر عَلَيْهم ربُّهم بذنبهم[١]، أي: بجُرْمهم. وقال الفرَّاء[٢]: «دَمْدم» أي: أَرْجَفَ.

وحقيقةُ الدَّمْدمةِ: تَضْعيفُ العذابِ وترديدُه. ويقال: دَمَمْتُ[٣] على الشيء، أي: أَطْبقْت عليه، ودَمَم[٤] عليه القبرَ: أَطْبقَه. وناقةٌ مدمومةٌ: أُلْبِسَها الشَّحمُ. فإذا كرَّرْتَ الإطباقَ قلتَ: دَمْدَمْتُ.

والدمدمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ؛ قاله المؤرِّج[٥]. وفي «الصِّحاح»: ودَمْدَمْتُ الشيءَ: إذا أَلْزقته بالأرضِ وطَحْطَحْته. ودَمْدَمَ الله عليهم، أي: أَهْلَكَهم[٦].

القُشَيرِيُّ: وقيل: دَمْدَمتُ على الميِّتِ الترابَ، أي: سَوَّيْتُ عليه. فقولُه: «فدَمْدَمَ عليهم» أي: أهْلَكهم، فجعلهم تحتَ التراب، «فَسَوَّاها» أي: سَوَّى عليهم الأرضَ. وعلى الأولِ: «فسوَّاها»، أي: فسوَّى الدَّمدمةَ والإهلاكَ عليهم. وذلك أنَّ الصيحةَ أهلكتهم، فأَتتْ على صغيرهم وكبيرهم.

وقال ابن الأنباريِّ: دَمْدَمَ، أي: غَضِب. والدمدمةُ: الكلامُ الذي يزعجُ الرجلَ[٧]. وقال بعض اللغويين: الدمدمةُ: الإدامةُ؛ تقول العربُ: ناقةٌ مُدْموَمةٌ[٨]، أي: سمينة.

وقيل: «فسوَّاها» أي: فسوَّى الأمَّةَ في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وَضِيعهم وشَريفهم، ذَكَرهم وأُنْثاهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٤ عن عطاء ومقاتل.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٩ .
(٣) في (د) و(ظ): دمدمت، والمثبت من كتاب الغريبين للهروي (دمم)، والكلام منه.
(٤) في (د) و(ظ): ودمدم، والمثبت من الغريبين.
(٥) الوسيط ٤/ ٥٠٠ ، وزاد المسير ٩/ ١٤٣ .
(٦) الصحاح (دمدم).
(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٨١ .
(٨) في (د) و(م): مدمدمة.

وقرأ ابن الزُّبير: «فَدهْدَم»(١)، وهما لغتان، كما يقال: امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝﴾

أي: فعل الله ذلك بهم غيرَ خائفٍ أنْ تَلْحَقه تَبِعةُ الدَّمدمةِ من أحَدٍ؛ قاله ابنُ عباسٍ والحسن وقتادة ومجاهد(٢). والهاءُ في «عُقْباها» تَرْجعُ إلى الفعلة، كقوله: «مَن اغْتَسلَ يومَ الجمعة فبها ونعمتْ»(٣) أي: بالفِعْلةِ والخَصْلَة.

وقال السدِّيُّ والضحَّاك والكلبيُّ: ترجع إلى العاقِر، أي: لم يَخَفِ الذي عَقَرها عُقبَى ما صَنَع(٤). وقاله ابن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، مجازهُ: إذِ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقباها(٥).

وقيل: لا يخافُ رسول اللهِ صالحٌ عاقبةَ إهلاكِ قومِه، ولا يخشى ضرراً يعودُ عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجّاه الله تعالى حين أهْلَكَهم(٦).

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «فلا» بالفاء(٧)، وهو الأجودُ؛ لأنَّه يرجع إلى المعنى الأولِ، أي: فلا يخاف الله عاقبةَ إهلاكهم. الباقون بالواو، وهي أشبهُ بالمعنى الثاني، أي: ولا يخافُ الكافر عاقبةَ ما صنع. ورَوَى ابنُ وَهْبٍ وابنُ القاسم عن مالكٍ قالا: أخرج إلينا مالكٌ مصحفاً لجدِّه، وزعم أنه كتبه في أيامِ عُثمانَ بنِ عفان حين

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥١-٤٥٢ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٤)، والترمذي (٤٩٧)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩٤ من حديث سمرة بن جندب بلفظ: «مَن توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومَن اغتسل فالغسل أفضل» وقد سلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٨) من سورة الجمعة في المسألة العاشرة.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥٢-٤٥٣ عن الضحاك والسدي.

(٥) يعني: وهو لا يخاف عقباها. معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٨٥ .

(٧) السبعة ص٦٨٩ ، والتيسير ص٢٢٣ .

كتب المصاحف، وفيه: «ولا يخاف» بالواو[١]. وكذا هي في مصاحفِ أهلِ مكةَ والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتِّباعاً لمصحفهم.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٩ .

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكيَّةٌ، وآيُها خمسَ عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾: ضوئِها إذا أشرقَتْ، وقيلَ: (الضَّحْوةُ): ارتفاعُ النَّهارِ، و(الضُّحى): فوقَ ذلكَ، و(الضَّحاءُ) بالفتحِ والمدِّ: إذا امتدَّ النَّهارُ وكادَ يَنتصِفُ.

(٢) ـ ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾: تلا طلوعُهُ طلوعَ الشَّمسِ أوَّلَ الشَّهرِ، أو غروبَها ليلةَ البدرِ، أو: تَلاها في الاستدارةِ وكمالِ النُّورِ.

(٣) ـ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾: جلَّى الشَّمسَ؛ فإنَّها تَنجلِي إذا انبسطَ النَّهارُ، أو: الظُّلمةَ، أو: الدُّنيا، أو: الأرضَ، وإن لم يجرِ ذكرُها؛ للعلمِ بها.

(٤) ـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾: يغشَى الشَّمسَ فيغطِّي ضوءَها، أو: الآفاقَ، أو: الأرضَ.

ولَمَّا كانت واواتُ العطفِ نوائبَ للواوِ الأولى القَسَمِيَّةِ الجارَّةِ بنفسِها النائبةِ مَنابَ فعلِ القسمِ مِن حيثُ استلزمَتْ طرحَهُ معها = رَبطْنَ المجروراتِ والظُّروفَ بالمجرورِ والظَّرفِ المُقدَّمَينِ رَبْطَ الواوِ لِمَا بعدَها في قولِك: «ضربَ زيدٌ عَمْرًا وبكرٌ خالدًا» على الفاعلِ والمفعولِ مِن غيرِ عطفٍ على عاملينِ مختلفينِ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾: ومَن بَناهَا، وإنَّما أوثرَتْ على (مَن) لإرادةِ مَعنى الوصفيَّةِ، كأنَّهُ قيلَ: والشَّيءِ القادرِ الذي بناها، ودلَّ على وجودِهِ وكمالِ قُدرَتهِ بناؤُها، ولذلكَ أُفرِدَ ذكرُهُ، وكذا الكلامُ في قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾.

(٧ ـ ٨) ـ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وجعلُ الماءاتِ مصدريَّةً يُجرِّدُ الفعلَ عن الفاعلِ ويخلُّ بنظمِ قولِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بقولِهِ: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، إلَّا أن يُضمَرَ فيها اسمُ اللهِ للعلمِ بهِ.

وتنكيرُ (نفسٍ) للتَّكثيرِ، كما في قولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، أو للتَّعظيمِ، والمرادُ: نفسُ آدمَ عليهِ السَّلامُ، وإلهامُ الفجورِ والتَّقوى: إفهامُهما وتعريفُ حالِهما والتَّمكينُ مِن الإتيانِ بهما.

(٩) ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أنماها بالعِلْمِ والعَمَلِ، جوابُ القسمِ، وحُذفَ اللَّامُ للطُّولِ، وكأنَّهُ لَمَّا أرادَ بهِ الحثَّ على تكميلِ النَّفسِ والمبالغةَ فيهِ، أقسمَ عليهِ بما يدلُّهم على العلمِ بوجودِ الصَّانعِ ووجوبِ ذاتهِ وكمالِ صفاتِهِ الذي هو أقصى درجاتِ القوَّةِ النَّظريَّةِ، ويُذكِّرُهم عظائمَ آلائهِ ليَحمِلَهم على الاستغراقِ في شُكرِ نعمائِهِ الذي هو مُنتهَى كمالاتِ القوَّةِ العمليَّةِ.

وقيلَ: استطرادٌ بذكرِ بعضِ أحوالِ النَّفسِ، والجوابُ محذوفٌ تقديرُهُ: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ على كفارِ مكَّةَ لتكذيبِهِم رسولَهُ كما دَمْدمَ على ثمودَ لتكذيبِهِم صالحًا.

(١٠) ـ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: نَقَصَها وأخفاها بالجهالةِ والفُسوقِ، وأصلُ دسَّى: دسَّسَ؛ كـ«تقضَى وتَقَضَّضَ».

(١١) ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾: بسببِ طُغيانِها، أو: بما أُوعِدَتْ بهِ مِن عذابِها ذي الطَّغْوى؛ كقوله: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وأصلُهُ: طَغْيًا، وإنما قُلِبت ياؤُهُ واوًا تفرقةً بينَ الاسمِ والصِّفةِ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[١] كالرُّجْعَى.

(١٢) ـ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾: حينَ قامَ، ظرفٌ لـ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو (طغوى).

﴿أَشْقَىٰهَا﴾: أشقَى ثمودَ، وهو قُدارُ بن سالفٍ، أو هو ومَنْ مالأَهُ[٢] على قتلِ النَّاقةِ؛ فإنَّ أفعلَ التَّفضيلِ إذا أضفتَهُ صَلُحَ للواحدِ والجمعِ، وفَضَّلَ شَقاوَتَهُم لِتَوَلِّيهِمُ العَقْرَ.

(١٣) ـ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: أي: ذرُوا ناقةَ اللهِ واحذَرُوا عقرَها ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾: وسَقْيَها، فلا تذودُوها عنها.

(١٤) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذَّرهم منهُ مِن حُلولِ العذابِ إن فعلُوا ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾: فأَطبقَ عليهم العذابَ، وهو مِن تكريرِ قولهم: ناقةٌ مَدْمُومةٌ؛ إذا أُلْبِسَها الشَّحمُ.

﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾: بسببِهِ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فسوَّى الدَّمْدمَةَ بذنْبِهم[٣] أو عليهم، فلم يُفلِت منها صغيرٌ ولا كبيرٌ، أو ثمودَ بالإهلاكِ[٤].

---

(١) أي: (بطُغْواهَا) بضم الطاء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٦٣)، و«الكشاف» (٩/ ٦٠٢) عن الحسن.

(٢) في نسخة الخيالي: «والاه». وأشار إليها الشهاب في «حاشيته» قال: وهو بمعناه.

(٣) «بذنبهم» كذا في النسخ، وفي نسخة الشهاب: «بينهم» ولم يذكر فيها اختلافاً، وانظر التعليق الآتي.

(٤) قال الشهاب: «فسوى الدمدمة بينهم أو عليهم...» يعني: ضمير سواها إمّا للدمدمة فالمعنى أنه جعلها سواء بينهم أو جعلها عليهم سواء، أو الضمير لثمود والمعنى ما ذكر أيضاً.

(١٥) ـ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾؛ أي: عاقبـةَ الدَّمدَمَـةِ، أو عاقبةَ هـلاكِ ثمودَ وتَبِعَتَها فيُبْقـيَ بعـضَ الإبقـاءِ، والـواوُ للحـالِ، وقـرأ نافـعٌ وابـن عامـرٍ: ﴿فـلا﴾[1] علـى العطفِ.

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ فكأنَّما تصدَّقَ بكلِّ شيءٍ طَلَعتْ عليهِ الشَّمسُ والقمرُ»[2].

***

(١) وقرأ الباقون بالواو. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٩)، و«التيسير» (ص: ٢٢٣).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٩٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩١) سورة الشمس مكية
وآياتها خمس عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قال مجاهد ﴿والشمس وضحاها﴾ : أي وضوئها، وقال قتادة: ﴿وضحاها﴾ النهار كله . قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال مجاهد: تبعها، وقال ابن عباس: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رؤي الهلال . وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر ، ثم هي تتلوه وهو يتقدمها

في النصف الأخير من الشهر، وقوله تعالى: ﴿والنهار إذا جلاها﴾ قال مجاهد: أضاءها، وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وتأول بعضهم ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها[١]. (قلت): ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿والنهار إذا جلاها﴾ إنه كقوله تعالى: ﴿والنهار إذا تجلى﴾، وأما ابن جرير فاختار عود الضمير ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها، وقالوا في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق. وقال بقية: إذا جاء الليل قال الرب جلَّ جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل تهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب[٢]. وقوله تعالى: ﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن تكون (ما) ههنا مصدرية بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى (من) يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع كقوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد – أي بقوة – وإنا لموسعون﴾، وقوله تعالى: ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال مجاهد: ﴿طحاها﴾ دحاها، وقال ابن عباس: أي خلق فيها، وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: ﴿طحاها﴾ بسطها، وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته أي بسطته، وقوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي صحيح مسلم: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها، قال ابن عباس: بيّن لها الخير والشر، وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وفي الحديث: أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم»، قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ونفس وما سواها ۞ فألهمها فجورها وتقواها﴾[٣]

وقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها ۞ وقد خاب من دساها﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، كقوله: ﴿قد أفلح من تزكى ۞ وذكر اسم ربه فصلى﴾ ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي دسسها أي أخملها حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عزَّ وجلَّ، وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دسّى الله نفسه، كما قال ابن عباس[٤]. وروى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة

(١) ذكره ابن جرير عن بض أهل اللغة.
(٢) رواه ابن أبي حاتم.
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) هذا القول عن ابن عباس ورد به حديث مرفوع: «أفلحت نفس زكّاها الله عزّ وجلّ» أخرجه ابن أبي حاتم ولكن في إسناده ضعف.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[1]، وفي رواية عن عائشة أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[2].

حديث آخر: روى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها»[3]. قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ أي أشقى القبيلة وهو (قدار بن سالف) عاقر الناقة، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ الآية، وكان هذا الرجل عزيزاً شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما قال الإمام أحمد: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة»[4]. وروى ابن أبي حاتم، عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا -يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه» يعني لحيته[5]. وقوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ناقة الله﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وسقياها﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه فعقروها﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة، التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي غضب عليهم فدمّر عليهم، ﴿فسواها﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها، وقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة[6]. وقال الضحاك والسدي: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة والشمس وضحاها ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه أحمد.
(٣) أخرجه أحمد ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن زمعة.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٦) وكذا قال مجاهد والحسن وبكر المزني وغيرهم.

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهى مكية .

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾: النهار كله .

قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار (١) .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ : قال مجاهد : تبعها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ قال : يتلو النهار. وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلاهَا ﴾ ليلة الهلال ،إذا سقطت الشمس رؤى الهلال .

وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ : قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ : إذا غشيها النهار .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها .

قلت : ولو أن هذا القائل تأول [ذلك] (٢) بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح [تأويله فى] (٣) قول الله (٤) : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ٢] .

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٣٣) .

(٢، ٣) زيادة من م ، أ .

(٤) فى م ، أ : « قوله » .

وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجريان ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

وقال بَقِيَّة بن الوليد ، عن صفوان ، حدثنى يزيد بن ذى حمامة [١] قال : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشى عبادى خلقى العظيم ، فالليل يهابه ، والذى خلقه أحق أن يهاب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها . وهو قول قتادة ، ويحتمل أن تكون بمعنى « مَن » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع ، كقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أى : بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

وهكذا قوله : ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ : قال مجاهد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : دحاها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿وَمَا طَحَاهَا ﴾ أى : خلق فيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : قسمها .

وقال مجاهد ، وقتادة والضحاك ، والسُّدِّى ، والثورى ، وأبو صالح ،وابن زيد :﴿ طَحَاهَا ﴾: بسطها .

وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهرى: طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

أخرجاه من رواية أبى هريرة [٢] .

وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حُنَفَاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » [٣] .

وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها .

قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة، والضحاك ، والثورى .

---

(١) فى أ : « ذى حماية » .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا : حدثنا عَزْرَة بن ثابت ، حدثنى يحيى بن عقيل ، عن يحيى بن يَعْمَر ، عن أبى الأسود الدّيلى [(١)] قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدَر قد سبق ، أو فيما يُستَقبَلُون مما أتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شىء قضى [(٢)] عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شىء إلا وهو خَلقُه ومِلْك يَده ، لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر [(٣)] عقلك، إن رجلا من مُزَينة ــ أو جهينة ــ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدر قد سبق ، أم شىء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شىء قد قضى [(٤)] عليهم » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهَيِّئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » .

رواه أحمد ومسلم ، من حديث عَزْرَة بن ثابت به [(٥)] .

وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله ــ كما قال قتادة ــ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويُروَى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ ، ١٥] .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أى : دسسها ، أى : أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل .

وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه ، كما قال [(٦)] العوفى وعلى بن أبى طلحة ، عن ابن عباس .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى وأبو زُرْعَة قالا : حدثنا سهل [(٧)] بن عثمان ، حدثنا أبو مالك ــ يعنى عمرو بن هشام ــ عن جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قول الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ قال النبى ﷺ : « أفلحت نفس زكاها الله » [(٨)] .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى مالك ، به . وجويبر [هذا] [(٩)] : هو ابن سعيد ، متروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس .

---

(١) فى أ : « الديلمى » . (٢) فى أ : « شىء قد قضى » . (٣) فى م : « إنما سألتك لأختبر » .
(٤) فى م : « قضى الله » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٣٥) والمسند (٤/ ٤٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٠) .
(٦) فى م : « كما قاله » . (٧) فى أ : « سهيل » .
(٨) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٤٦٠٠) من طريق جويبر به .
(٩) زيادة من م .

وقال الطبراني :حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ وقف،ثم قال:«اللهم آت نفسى تقواها،أنت وليها ومولاها ،وخير من زكاها »[١] .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يعقوب بن حميد المدنى ، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموى ، حدثنا مَعْن بن محمد الغفارى ، عن حنظلة بن على الأسلمى ، عن أبى هريرة قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [٢] . لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن نافع ــ يعنى ابن عمر ــ عن صالح بن سُعَيد ، عن عائشة : أنها فَقَدت النبى ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت [٣] عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [٤] تفرد به .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من العجز والكَسَل والهرم ، والجُبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إنى أعوذ بك من قَلْب لا يخشع ، ومن نَفْس لا تشبع ، وعِلْم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن .

رواه مسلم من حديث أبى معاوية ، عن عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث ــ وأبى عثمان النهدى ، عن زيد بن أرقم ، به [٥] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى .

وقال محمد بن كعب : ﴿ **بِطَغْوَاهَا** ﴾ أى : بأجمعها .

والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به

---

(١) المعجم الكبير (١١/١٠٦) وزاد : « عن عمرو بن دينار وعطاء بن أبى رباح » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٣٨) : « إسناد حسن ».

(٢) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٣١٨) عن يعقوب بن حميد به .

(٣) فى م : « فوثبت » .

(٤) المسند (٦/٢٠٩) .

(٥) المسند (٤/٣٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٢) .

رسولهم من الهدى واليقين .

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر:٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه ، مثل زمعة » .

ورواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى صفة النار ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما [١] ، وكذا ابن جرير وابن أبى حاتم [من طرق] [٢] عن هشام بن عروة ، به [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى يزيد بن محمد بن خُثَيم [٤] ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن خُثَيم [٥] أبى يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟» . قال : بلى : قال : « رجلان ؛ أحيمر ثمود الذى عَقَر الناقة ، والذى يضربك يا علىّ عَلَى هذا ـ يعنى قَرنه ـ حتى تبتل منه هذه » يعنى : لحيته [٦] .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ﴾ أى: غضب عليهم ، فدمّر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء .

قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ،وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم [٧] فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ : وقرئ : « فلا يخاف عقباها » .

---

(١) فى م : « من سننيهما » .

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (٤/ ١٧) وصحيح البخارى برقم (٤٩٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٥) وتفسير الطبرى (٣٠/ ١٣٧) .

(٤،٥) فى أ : « خيثم » .

(٦) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (١/ ٧١) عن إبراهيم بن موسى به ، ورواه أبو نعيم فى الدلائل (ص٤٨٥) من طريق محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق به ، وقال البخارى : « هذا إسناد لا يعرف سماع يزيد من محمد ولا محمد بن كعب من ابن خثيم ولا ابن خثيم من عمار » .

(٧) فى م ، أ : « بذنبهم » .

قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم .

وقال الضحاك والسدى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف [1] الذى عقرها عاقبة ما صنع .

والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

آخر تفسير « والشمس وضحاها »

(١) فى أ : « لم يخف الله » .

[٣٠١و]

/ سورة الشمس

مكّيّة، وهي خمس عشرون[1] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك، والضَّحاءُ بالفتح والمدّ إذا امتدّ النهار وكاد ينتصف.[2]

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ بأن طلع بعد غروبها. وقيل: إذا تلا طلوعه طلوعَها.[3] وقيل: إذا تلاها في الاستدارة وكمال النور.[4]

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جلّى الشمس، فإنّها تتجلّى عند انبساط النهار، فكأنّه جلّاها مع أنّها التي تبسطه، أو جلّى الظُّلمة أو الدنيا أو الأرض، وإن لم يجرِ لها ذِكر للعِلم بها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: الشمسَ فيغطّي ضوءها أو الآفاقَ أو الأرضَ، وحيث كانت "الواوات" العاطفة نوائبَ لـ"الواو" الأولى القسَميّة القائمة مقامَ الفعل و"الباء" سادّةً مسدّهما معًا في قولك: "أقسم بالله" حُقِقنَ أن يعملنَ عملَ الفعل والجارّ جميعًا، كما تقول: "ضَرَب زيد عمرًا وبكرٌ خالدًا".

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومَن بناها. وإيثارُ "ما" على "مِن" لإرادة الوصفيّة تفخيمًا، كأنّه قيل: والقادر العظيم الشأنِ الذي بناها. وجعلُها مصدريّةً

---

[1] س: عشرة. | وهو الصحيح، وما في م سهو.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧١/٤.
[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٧/٣.
[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧١/٤.

مُخِلّ بالنظم الكريم. وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها مِن كلّ جانب كـ﴿دَحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٧٩/٣٠].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: أنشأها وأبدعَها مستعدّةً لكمالاتها. والتنكير للتفخيم، على أنّ المراد نفس آدمَ عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسبُ للجواب.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: أفهمَها إيّاهما وعرّفَها حالَهما مِن الحُسن والقُبح وما يؤدّي إليه كلّ منهما، ومكّنها مِن اختيار أيّهما شاءت. وتقديم "الفجور" لمراعاة الفواصل.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: فاز بكلّ مطلوب ونجا مِن كلّ مكروه مِن أنماها وأعلاها بالتقوى، وهو جواب القسم، وحذف "اللام" لطول الكلام.

وتكريرُ ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ لإبراز الاعتناء بتحقيق
[٣٠١ظ] مضمونه والإيذانِ بتعلُّق القسم به أيضًا أصالةً، / أي: خَسِر مَن نقَصها وأخفاها بالفجور. وأصل "دسّى" "دسّس" كـ"تقضّى" و"تقضّض". وقيل: هو كلام تابع لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[١] بطريق الاستطراد، وإنّما الجواب ما حُذف تعويلًا على دلالة قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ عليه، كأنّه قيل: لَيُدَمْدِمَنَّ الله تعالى على كفّار مكّة لتكذيبهم رسول الله عليه السلام كما دمدَم على ثمودَ لتكذيبهم صالحًا عليه السلام، وهو على الأوّل استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

والطَّغوى بالفتح: الطُّغيان، والباء للسببيّة، أي: فعلت التكذيب بسبب طغيانها، كما تقول: "ظلمني بجرأته على الله تعالى"، أو صلة للتكذيب، أي:

[١] في الآية الثامنة مِن هذه السورة.

كذّبت بما أُوعِدت به مِن العذاب ذي الطَّغوى، كقوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة، ٥/٦٩]. وقُرِئ: "بِطُغْوَاهَا"[١] بضمّ "الطاء" وهو أيضًا مصدر كـ"الرُّجعى".

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ منصوب بـ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو بالطَّغوى، أي: حين قام أشقى ثمودَ وهو قُدار بن سالف، أو هو ومَن تصدّى معه لعَقْر الناقة مِن الأشقياء، فإنّ "أفعَل" التفضيل إذا أضيفَ يصلح للواحد والمتعدِّد والمذكّر والمؤنَّث. وفضلُ شقاوتهم على مَن عداهم لمباشرتهم العَقْرَ مع اشتراك الكلّ في الرضى به.

﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ أي: لثمودَ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: صالح عليه السلام عُبّر عنه بعنوان الرسالة إيذانًا بوجوب طاعته وبيانًا لغاية عتوّهم وتماديهم في الطغيان، وهو السرّ في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذروا ناقةَ الله ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ ولا تذودوها عنها في نوبتها، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: في وعيده بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف، ٧٣/٧]. وقد جُوّز أن يكون ضمير ﴿لَهُمْ﴾ للأشقَين.[٢] ولا يُلائمه ذِكر ﴿سُقْيَٰهَا﴾. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الأشقى، والجمع على تقدير وحدته لرِضى الكلّ بفعله.

وقال قتادةُ: بلغنا أنّه لم يعقِرها حتّى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذَكَرهم وأُنثاهم.[٣] وقال الفرّاء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس.[٤]

/ ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ فأطبق عليهم العذاب، وهو مِن تكرير قولهم: "ناقة مدمومة" إذا ألبسها الشحم. ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم المحكي. والتصريحُ بذلك مع دلالة "الفاء" عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبِر به كلّ مذنِب. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: الدمدمةَ بينهم لم يُفلِت منهم أحد مِن صغير وكبير، أو فسوّى ثمودَ بالأرض، أو سوّاها في الإهلاك. [٣٠٢و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مجالد وابن نبهان وأبي عمرو أربعتهم عن عاصم، وابن عمرَ عن يحيى عن أبي بكر، وأبي الربيع، والزّهراني وحسين الجُعفي كلاهما عن حفص. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٢٨.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٣/٤.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٣٦٦/٢٠.

٤ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٦٨/٣؛ ونُقل عن الفرّاء في اللباب لابن عادل، ٣٦٦/٢٠.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾ أي: عاقبتَها وتبِعَتها، كما يخاف سائر المُعاقِبين مِن الملوك، فيُبقي بعضَ الإبقاء؛ وذلك أنّه تعالى لا يفعل فعلًا إلّا بحقّ، وكلّ مَن فعل بحقّ فإنّه لا يخاف عاقبةَ فعله، وإن كان مِن شأنه الخوف. و"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرئ: "فَلَا يَخَافُ"،[1] وقُرئ: "وَلَمْ يَخَفْ".[2]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ فكأنّما تصدَّق بكلّ ما طلعت عليه الشمس والقمر».[3]

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٢٨–١٩٢٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٤١٦/٢٩ (الشمس، ١/٩١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٤/٤ (الشمس، ١/٩١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩١

سورة الشمس

مكية، خمسَ عشْرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والشَّمسِ وضُحاها﴾: ضوئها، ٢ ـ ﴿والقَمَرِ إذا تَلاها﴾: تبعها طالعًا عند غُروبها، ٣ ـ ﴿والنَّهارِ إذا جَلاّها﴾ بارتفاعه، ٤ ـ ﴿واللَّيلِ إذا يَغشاها﴾: يُغطّيها بظُلمته ـ «وإذا» في الثلاثة لمُجرّد الظرفيّة، والعامل فيها فِعل القسم ـ ٥ ـ ٦ ـ ﴿والسَّماءِ وما بَناها، والأرضِ وما طَحاها﴾: بسَطَها، ٧ ـ ﴿ونَفسٍ﴾ بمعنَى: نُفوس ﴿وما سَوّاها﴾في الخِلقة ـ «وما» في الثلاثة: مصدريّة........

سورة الشمس

قولُهُ: (ضَوئِهَا) إذا أشرَقَت.

قولُهُ: (تَبِعَهَا) أي: تَلا طلوعُهُ غروبَها ليلَةَ البَدرِ، أو طلوعَها أوَّلَ الشَّهرِ، أو تلاهَا في الاستدارَةِ وكمالِ النُّورِ.

قولُهُ: (بارتِفَاعِهِ) يعني: جلَّى الشَّمسَ، فإنَّها تتجَلَّى إذا انبسَطَ النَّهارُ فيكونُ الإسنادُ مَجازيًّا، أو الظُّلمةَ أو الدُّنيا، أو الأرضَ وإن لم يجرِ ذكرُها للعِلمِ بها.

قولُهُ: (يُغَطِّيهَا) أي: يُغَطِّي ضوءَها، أو الآفاقَ، أو الأرضَ، ولعلَّ العدُولَ عن الماضِي مراعاةٌ للفَاصِلةِ.

قولُهُ: (بمَعنَى: نُفُوسٍ) يعني: التَّنكيرُ للتَّكثيرِ كما في قولِهِ: ﴿عَلِمَت نَفسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، أو للتَّعظيمِ، والمرادُ: نفسُ آدَم.

قولُهُ: (مَصدَرِيَّةٌ) فيه أنَّها تجرِّدُ الفعلَ عن الفاعلِ، وتُخلُّ بنَظمِ قولِهِ: ﴿فَأَلهَمَهَا﴾ بقولِهِ: ﴿ومَا سَوَّاهَا﴾، إلا أن يُضمرَ فيه اسمُ الله تعالى للعلمِ به.

أو بمعنى: مَن ـ ٨ ـ ﴿فألهَمَها فُجورَها وتَقواها﴾: بيَّنَ لها طريقَي الخير والشرّ ـ وأُخّر التقوى رِعايةً لرؤوس الآي ـ وجوابُ القسم: ٩ ـ ﴿قَد أفلَحَ﴾، حُذفتْ منه اللام لطُول الكلام، ﴿مَن زَكّاها﴾: طهّرها من الذنوب، ١٠ ـ ﴿وقَد خابَ﴾: خسر ﴿مَن دَسّاها﴾: أخفاها بالمَعصية. وأصله «دَسَّسَها» أُبدلت السين الثانية ألفًا تخفيفًا.

١١ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمودُ﴾ رسولَها صالحًا ﴿بِطَغواها﴾ بسبب طُغيانها، ١٢ ـ ﴿إذِ انبَعَثَ﴾: أسرع ﴿أشقاها﴾، واسمُه قُدارٌ إلى عَقر الناقة برِضاهم، ١٣ ـ ﴿فقالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ﴾ صالحٌ: ﴿ناقةَ اللهِ﴾، أي: ذَرُوها ﴿وسُقياها﴾: وشِربَها في يومها. وكان لها يوم ولهم يوم.

١٤ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ﴾ في قولِه ذلك عن الله المُرتّبِ عليه نُزولُ العذاب بهم، إن خالفوه، ﴿فعَقَرُوها﴾: قتلوها ليسلم لهم ماء شِربها، ﴿فدَمدَمَ﴾: أطبقَ ﴿علَيهِم رَبُّهُم﴾ العذابَ ﴿بِذَنبِهِم فسَوّاها﴾ أي: الدمدمةَ عليهم، أي: عَمّهم بها فلم يُفلِتْ منهم أحد، ١٥ ـ ﴿ولا﴾ ـ بالواو والفاء ـ ﴿يَخافُ﴾ تعالى ﴿عُقباها﴾: تَبِعَتَها.

قولُهُ: (أو بِمَعنَى مَنْ) وإنَّما أوثِرَت ﴿ما﴾؛ لإرادةِ مَعنى الوصفيَّةِ المنبئَةِ عن التَّعظيمِ، كأنَّه قيل: والشَّيءِ القادِرِ الذي بناها ودلَّ على وجودِهِ وكمالِ قدرَتِه بناؤُها.

قولُهُ: (رِعَايَةً) أو لأنَّ الغالبَ تأخُّرُ التَّقوى، أو للإشعارِ بأنَّ المدارَ على العاقبَةِ.

قولُهُ: (طَهَّرَهَا) أو أنماها بالعلمِ والعمَلِ.

قولُهُ: (بالمَعصِيَة) أو بالجهالَةِ والفسوقِ.

قولُهُ: (بسَبَبِ طُغيَانِهَا) وأصلُهُ: طَغياً، وإنَّما قلبَت ياؤُهُ واواً؛ تفرقَةً بين الاسمِ والصِّفةِ.

قولُهُ تَعالَى: (﴿إذِ انبَعَثَ﴾) أي: حينَ قامَ، ظَرف لـ﴿كَذَّبَت﴾.

قولُهُ: (بِرِضَاهُم) وفضلِ شَقاوَتِهِ لتولِّيهِ العقرَ.

قولُهُ: (ذَرُوهَا) واحذَروا عقرَها.

قولُهُ: (وشِربَهَا) ولا تمنَعُوها عنها.

قولُهُ: (أي: الدَّمدَمَةَ) أو ثمودَ بالإهلاكِ.

قولُهُ: (بالواوِ) للحالِ.

قولُهُ: (والفَاءِ) للعطفِ، نافعٌ وشاميٌّ[1].

قولُه: (تَبِعَتَهَا) أي: عاقبَةَ الدَّمدمَةِ، أو عاقبَةَ هَلاكِ ثمودَ، فيُبقيَ بعضَ الإبقاءِ، والله سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٩).

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكيةٌ بلا خلاف، وآيها سِتَّ عشرةَ آيةً في المكي والمدني الأول، وخمسَ عشرةَ في الباقية[1].

ولمَّا خَتم سبحانه السورة المتقدِّمة بذِكْر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، أعاد جلَّ شأنه في هذه السورة الفريقين على سبيل الفَذْلكة بقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

وفي هذه ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ وهو كالبيان لقوله تعالى في الأولى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ على أول التفسيرين.

وخَتَمَ سبحانه الأولى بشيءٍ من أحوال الكَفَرة في الآخرة، وخَتَمَ جَلَّ وعلا هذه بشيءٍ من أحوالهم في الدنيا، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ أي: ضوئها كما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس[2]، والمراد: إذا أشرقت وقامَ سُلْطانها.

وقال بعض المحققين: حقيقةُ الضُّحى تباعُدُ الشمس عن الأفق الشرقي المرئي، وبروزُها للناظرين، ثم صار حقيقةً في وقته، ثم إنه قيل لأول الوقت:

---

(١) في هامش الأصل: اختلافها «فعقروها» مكي والمدني الأول.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٤.

ضَحْوة، ولِما يليه: ضُحى، ولِمَا بعده إلى قريب الزوال: ضَحاء بالفتح والمدِّ، فإذا أُضيف إلى الشمس فهو مجازٌ عن إشراقها كما هنا.

ونُقِلَ عن المبرّد أنَّ الضُّحى مشتقٌّ من الضّحِّ، وهو نورُ الشمس، والألفُ مقلوبةٌ من الحاءِ الثانية، وكذلك الواو من ضحوة مقلوبةٌ منها.

وتعقبه أبو حيان بقوله: لعلَّه مُخْتَلَقٌ عليه؛ لأنَّ المبرّد أَجلُّ من أن يذهب إلى هذا، وهاتان مادَّتان مختلفتان، لا تُشتَقُّ إحداهما من الأخرى(١).

وأجيب بأنه لم يُرِد الاشتقاقَ الصغير، ولا يخفى حالُهُ على الصغير والكبير.

وعن مقاتلٍ: أنَّ ضُحَاها: حَرّها، وهو تفسيرٌ باللازم.

وعن قتادة(٢): المراد به النهار كلُّه، وفيه أنه تعالى أقسم به بُعَيدَ ذلك.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ أي: تَبِعها، فقيل: باعتبار طلوعه وطلوعها، أي: إذا تلا طلوعُهُ طلوعَها بأنْ طَلَعَ من الأفق الشرقي بعد طلوعها، وذلك أول الشهر، فإنَّ الشمسَ إذا طلعتْ من الأفق الشرقي أولَ النهار، يطلعُ بعدها القمر، لكن لا سلطانَ له، فيُرى بعد غروبها هلالاً، ومناسبةُ ذلك للقسم به لأنه وَصْفٌ له بابتداء أمره، فكما أنَّ الضُّحى كشباب النهار، فكذا غُرَّةُ الشهر كولادته.

وقيل: باعتبار طلوعه وغروبها، أي: إذا تلا طلوعُهُ غروبَها، وذلك في ليلة البدر رابعَ عَشَرَ الشهر، فإنه حينئذٍ في مقابلة الشمس، والبعدُ بينهما نصفُ دور الفلك، فإذا كانت في النصف الفوقاني منه ـ أعني ما يلي رؤوسنا ـ كان القمرُ في التحتاني منه، أعني ما يلي أقدامنا، فإذا غربتْ طَلَعَ من الأفق الشرقي. وهو المرويُّ عن قتادة، وقولهم: سُمِّيَ بدراً؛ لأنه يسبقُ طلوعُهُ غروبَ الشمس، فكأنه بَدَرَها بالطلوع، لا ينافيه؛ لأنه مبنيٌّ على التقريب، ومناسبةُ ذلك للقَسَم به لأنه وقتُ ظهور سلطانه، فيناسبُ تعظيم شأنه.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٨.

(٢) في الأصل و(م): مقاتل، وهو خطأ، والمثبت من البحر ٨/ ٤٧٨، والكلام منه.

وقال ابن زيد: تَبِعَها في الشهر كلِّه، ففي النصف الأول تَبِعَها بالطلوع، وفي الآخر بالغروب. ومراده ما ذُكِرَ في القولين.

وقيل: المراد تَبِعَها في الإضاءة بأن طَلَعَ وظهر مضيئاً عند غروبها، آخذاً من نورها، وذلك في النصف الأول من الشهر، فإنه فيه يأخذ كلَّ ليلةٍ منه قَدْراً من النور، بخلافه في النصف الثاني، وهو مرويٌّ عن ابن سلام، واختاره الزمخشري[١].

وقال الحسن والفراء كما في «البحر»[٢]: أي: تبعها في كلِّ وقتٍ؛ لأنه يستضيءُ منها، فهو يتلوها لذلك.

وأنكر بعضُ الناس ذهابَ أحدٍ من السلف إلى أنَّ نورَ القمر مستفادٌ من ضوء الشمس، وزَعَمَ أنه رأيُ المنجِّمين لا غير، وما ذُكِرَ حُجَّةٌ عليه، والحُجَّةُ عن أصل المسألة أظهرُ من الشمس، وهي اختلافُ تشكُّلاته النورية قُرْباً وبُعْداً منها، مع ذهاب نوره عند حَيلولة الأرض بينه وبينها، وكون الاختلاف لاحتمال أن يكونَ أحدُ نصفيه مضيئاً والنصفُ الآخر غيرَ مضيءٍ، وأنه يتحرَّكُ على محوره حركةً وَضْعيةً حتى يُرى كلُّ نصفٍ منهما تدريجاً، وكون ذهاب النور عند الحيلولة لاحتمال حيلولة جسمٍ كثيفٍ بيننا وبينه لا نراه، أضعفُ من حبال القمر كما لا يخفى.

وقال الزجاج[٣] وغيره: «تلاها» معناه: امتلأ واستدار، فكان تابعاً لها في الاستدارة وكمال النور.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ أي: جلَّى النهارُ الشمسَ، أي: أظهرها، فإنها تتجلَّى وتظهرُ إذا انبسطَ النهارُ ومضى منه مدَّة، فالإسنادُ مجازيٌّ كالإسناد في نحو: صامَ نهارُه.

---

(١) في الكشاف ٤/٢٥٨.
(٢) ٨/٤٧٨.
(٣) في معاني القرآن ٥/٣٣١.

وقيل: الضميرُ المنصوبُ يعودُ على الأرض.

وقيل: على الدنيا. والمراد بها وجهُ الأرض وما عليه.

وقيل: يعود على الظلمة، و«جلّاها» حينئذٍ بمعنى أزالها.

وعدمُ ذِكْرِ المرجع على هذه الأقوال للعلم به، والأولُ أولى لِذِكْرِ المرجع واتِّساق الضمائر.

وجَوَّزَ بعضُهم أن يكونَ الضميرُ المرفوعُ المستترُ في «جلّاها» عليه عائداً على الله عزَّ وجلَّ، كأنه قيل: والنهار إذا جلَّى اللهُ تعالى الشمسَ. فيكونُ قد أقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته، وهو كما ترى.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: الشمس، فيغطِّي ضوءَها، والإسنادُ كما مرَّ. وقيل: أي: الأرض. وقيل: أي: الدنيا.

وجيء بالمضارع هنا دون الماضي كما في السابق بأن يقال: إذا غَشِيَها، قال أبو حيان: رعايةً للفاصلة[١]. ولم يقل: غشَّاها؛ لأنه يحتاج إلى حَذْفِ أحد المفعولين لتعدِّيه إليهما، فإنه يقال: غَشَّيتُهُ كذا كما قال الراغب[٢]، كذا قيل.

وقال بعض الأجِلَّة: جيءَ بالمضارع للتنبيه على استواء الأزمنة عنده تعالى شأنه.

وقال الخفاجي: الأَوْلَى أن يقال: المراد بالليل الظلمةُ الحادثةُ بعد[٣] الضوء، لا العدمُ الأصليُّ والظلمةُ الأصلية، فإنَّ هذه أظهرُ في الدلالة على القدرة، وهي مستقبلةٌ بالنسبة لما قبلها، فلا بدَّ من تغيير التعبير ليدلَّ على المراد[٤].

واستصعب الزمخشريُّ الأمر في نَصْبِ «إذا» بأنَّ ما سوى الواو الأُولى إن كانت عاطفةً لَزِمَ العَطْفُ على معمولَي عاملين مختلفين، كعطف النهار مثلاً على

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٨.
(٢) في المفردات (غشي).
(٣) في (م): بعدم، وهو تصحيف.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٦٤.

الشمس المعمول لِحَرْفِ القَسَم، وعَطْفِ الظرف ـ أعني «إذا» في «إذا جلّاها» ـ على نظيرتها في «إذا تلاها» المعمولة لفعل القَسَم، وإن كانت قَسَميةً لَزِمَ اجتماعُ المقسَمات[١] المتعدِّدة على جوابٍ واحدٍ، وقد استكرهه الخليلُ وسيبويه، وأجاب باختيار الشَّقِّ الأول، ونفى ما لَزِمَه فقال: إنَّ واوَ القَسَمِ مُطَّرَحٌ معها إبرازُ الفعل اطِّراحاً كُلِّيًّا[٢]، فكان لها شأنٌ خلاف شأن الباء، حيث أُبرِزَ معها الفعلُ تارةً، وأُضمِرَ أخرى، فكانت الواو قائمةً مقامَ فعل القَسَم وبائه[٣] سادَّةً مسدَّهما معاً، والواواتُ والعواطفُ نوائبُ عن هذه الواو، فهي عاملةٌ الجرَّ وعاملةٌ النَّصْبَ، فالعطفُ من قبيل العَطْفِ على معمولَي عاملٍ واحدٍ، وهذا كما تقول: ضَرَبَ زيدٌ عَمْراً وبكرٌ خالداً، فترفعُ بالواو وتنصبُ لقيامها مقامَ «ضَرَب» الذي هو عاملهما[٤]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ أولَ الواوات العواطف هاهنا ليس معها ما تعملُ فيه النصب، فلعلَّه أراد أنها تعملُ ذلك إن كان هناك منصوبٌ، أو هي عاملةٌ باعتبار أنَّ معنى «والشمس وضحاها»: والشمس وضوئها إذا أشرقت.

وفيه أيضاً أنه لم يقلْ أحدٌ بأنَّ الحروفَ العواطفَ عواملُ.

وأيضاً الإشكالُ مبنيٌّ على امتناع العطف على معمولَي عاملين مطلقاً، حتى لو جُوِّزَ مطلقاً أو بشرطِ كون المعطوف مجروراً على ما ذهب إليه جمعٌ، كما في قولك: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ، لم يكن إشكالٌ.

وأيضاً هو مبنيٌّ على قبول هذا الاستكراه، وعدمِ إمكان التخلُّص من الاجتماع بتقدير جوابٍ لكلٍّ من المقسمات، حتى إذا لم يُقبلْ أو قُبِلَ وقُدِّرَ لكلٍّ جوابٌ لم يبقَ إشكالٌ.

---

(١) في الأصل: القسمات.
(٢) في هامش الأصل: وصرح ابن كيسان بجواز التصريح بفعل القسم مع الواو، فلا تغفل.
(٣) في (م): وباؤه.
(٤) في (م): عاملها. والمثبت من الأصل والكشاف ٤/ ٢٥٨.

وأيضاً هو مبنيٌّ على أنَّ «إذا» ظرفيةٌ، وهو ممنوعٌ؛ لجواز أن تكونَ قد تجرَّدت عن الظرفية، وحينئذٍ تكونُ بدلاً مما بعد الواو، كما قيل في قوله:

وبعد غدٍ يا لهفَ نفسي من غدٍ إذا راحَ أصحابي ولستُ برائح[(١)]

إنَّ «إذا» بدلٌ من «غد»، وعلى تسليم أنها ظرفيةٌ يجوزُ أن يُقدَّرَ مع كلِّ مضافٌ تعلَّقُ به، كأنْ يُقدَّر: وتُلُوِّ القمر إذا تلاها، وتجليةِ النهار إذا جلّاها، وغشيانِ الليل إذا يغشاها، أو تُجعلَ متعلِّقةً بمحذوفٍ وَقَعَ حالاً مقدَّرةً مما تليه، أي: أقسم بالقمر كائناً إذا تلاها، وبالليل كائناً إذا جلّاها، كما زعمه بعضهم. وفيه بحثٌ.

وأيضاً يَرِدُ على الزمخشري مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨] لأنَّ الواو هنالك عاطفةٌ، وقد تقدَّم صريحُ فعل القَسَم كما ذكره الشيخ ابن الحاجب، على أنَّ التحقيقَ ـ كما قال بعضُ المحققين ـ أنَّ الظرفَ ليس معمولاً لفعل القَسَم؛ لفساد المعنى إذ[(٢)] التقييدُ بالزمان غيرُ مرادٍ، حالاً كان أو استقبالاً، وإنما هو معمولُ مضافٍ مقدَّرٍ من نحو العَظَمة؛ لأنَّ الإقسامَ بالشيء إعظامٌ له، فكأنه أقسمَ بعَظَمة زمان كذا.

وما قيل عليه من أنَّ إقسامه تعالى بشيءٍ مستعارٌ لإظهار عَظَمته وإبانة شَرَفه، فيجوزُ تقييدُهُ باعتبار جزءِ المعنى المراد، يعني: الإظهار، وأيضاً إذا كان الإقسامُ إعظاماً لَغَا تقديرُهُ = فلو سُلِّم فالاستعارةُ إما تبعيةٌ أو تمثيليةٌ، وعلى كلِّ حالٍ فليس ثمةَ ما يكون متعلّقاً[(٣)] بحسب الصناعة والتقدير ليتعلق به وليظهر ما أُريد منه مؤكّداً، فلا لَغْوِيةَ.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ أي: ومَنْ بناها، وإيثارُ «ما» على «مَنْ» لإرادة الوصفية تفخيماً على ما تقدم في «وما ولد»، كأنه قيل: والقادرِ العظيم الشأن الذي بناها، ودلَّ على وجوده وكمال قدرته بناؤها[(٤)]، والمراد به إيجادها بحيث تدلُّ على ذلك،

---

(١) قائله أبو الطمحان القيني كما في حماسة المرزوقي ٣/ ١٢٦٦.

(٢) في (م): إذا، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٣٦٥، والكلام منه.

(٣) في حاشية الشهاب: متعلقاً به.

(٤) في (م): بناؤهما.

ويُستدلُّ بها عليه، وهو أولى من تفسيره ببانيها؛ لإشعاره بالمراد من البناء[١]، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ أي: بسطها من كلِّ جانب ووطأها كدحاها، ويكون طحا بمعنى ذهب، كقول علقمة:

طَحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ بُعيدَ الشباب عصرَ حانَ مشيبُ[٢]

وبمعنى أَشْرَف وارتفع، ومن أيمانهم: لا، والقمر الطاحي، ويقال: طَحَا يطحو طَحْواً، وطَحَى يَطْحَى طَحْياً.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ أي: أنشأها وأبدعها مستعدَّةً لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة، والتنكيرُ للتكثير، وقيل: للتفخيم، على أنَّ المرادَ بالنفس آدم عليه السلام. والأولُ أنسبُ بجواب القَسَم الآتي، ومَنْ ذهب إلى ذلك جعله من الاستخدام.

وذهب الفرَّاء والزجَّاج والمبرّد وقتادة وغيرهم إلى أنَّ «ما» في المواضع الثلاث مصدرية، أي: وبنائها وطَحْوِها وتسويتها[٣]. وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه ليس بالوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ وما يؤدِّي إليه من فساد النَّظْم[٤]. وذلك على ما في «الحواشي» لما يلزم من عَطْفِ الفعل على الاسم، وأنه لا يكون له فاعلٌ، لا ظاهرٌ - وهو ظاهرٌ - ولا مُضْمَرٌ لعدم مرجعه.

واعتُرض بأنَّ الأخيرَ منتقضٌ بالأفعال السابقة، أعني: «بناها»، «طحاها»، «سوّاها»، على أنَّ دلالةَ السياق كافيةٌ في صِحَّةِ الإضمار، وأما الأول ففيه أنَّ عَطْفَ الفعل على الاسم ليس بفاسدٍ وإن كان خلافَ الظاهر. على أنه عَطْفٌ على ما بعد «ما»، كأنه قيل: ونفسٍ وتسويتها، فإلهامها فجورَها وتقواها. واعتُرض هذا بأنَّ الفاءَ يدلُّ على الترتيب من غير مُهْلة، والتسويةُ قبل نفخ الروح، والإلهامُ بعد البلوغ.

---

(١) في هامش (م): وهو أنه ذكر للاستدلال.

(٢) ديوان علقمة بن عبدة ص ٣٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤، وللزجاج ٥/ ٣٣٢.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٨.

وأجيب بأنَّ التسويةَ تعديلُ الأعضاء والقوى، ومنها المفكرة، والإلهامُ عبارةٌ عن بيان كيفية استعمالها في النجدين في هذا المحلِّ، وهو غيرُ مفارقٍ عنه منذ سُوِّيَ، نعم يزدادُ بحَسَبِ ازدياد القوى كيفيةً لا وجوداً، على أنَّ المهلةَ في نحوها عُرفيٌّ، وقد يُعَدُّ متعقّباً دون تراخٍ، ثم إنه مشترك الإلزام، ولا معنى لقول الطيبي: النَّظْمُ السَّريُّ يُوجبُ موافقةَ القرائن، فلا يجوز: ونفسٍ وتسويتها، فألهمها الله فهي حاصلةٌ، وإنما ذلك بناءً على توهُّم أنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ جملةٌ. وبالجملة لا يلوحُ فسادُ هذا الوجه.

وأبى القاضي عبد الجبار إلا المصدريةَ دون الموصولية، قال: لما يلزمُ منها تقديمُ الإقسام بغير الله تعالى على إقسامه سبحانه بنفسه عزَّ وجلَّ.

وأجاب عنه الإمامُ بأنَّ أعظمَ المحسوساتِ الشمسُ، فَذَكَرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عِظَمها، ثم ذَكَرَ سبحانه ذاته المقدَّسة، وَوَصَفَها جلَّ وعلا بصفاتٍ ثلاثٍ ليحظى العقلُ بإدراك جلال الله تعالى وعَظَمته سبحانه كما يليق به جلَّ جلاله، ولا ينازعه الحسُّ، فكان ذلك طريقاً إلى جَذْبِ العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جلَّ شأنه(١).

وجُوِّزَ أن تكون «ما» عبارةً عن الأمر الذي له بنيت السماء وطحيت الأرض وسُوِّيت النفس من الحِكَم والمصالح التي لا تُحصى، ويكونُ إسنادُ الأفعال إليها مجازاً، وفاعلُ «ألهمها» يجوز أن يكونَ ذلك الأمر(٢) ويكون الإسناد مجازاً أيضاً، وهو كما ترى.

والفجور والتقوى على ما أخرج عبد بن حميد وغيره(٣) عن الضحاك: المعصيةُ والطاعةُ مطلقاً قَلْبيَّين كانا أو قالبيَّين، وإلهامُهما النفسَ ـ على ما أخرج هو وابن جرير(٤) وجماعة عن مجاهد ـ تعريفُهما إياها بحيث تُميِّزُ رُشْدها من ضلالها.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٩١-١٩٢.
(٢) في (م): أمر.
(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٦.
(٤) في تفسيره ٢٤/ ٤٣٥.

وروي ذلك عن ابن عباس كما في «البحر»[1]. وقريبٌ منه قول ابن زيد: «ألهمها فجورها وتقواها»: بيَّنهما لها. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهما نحوه عن قتادة[2].

والآيةُ على ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقُدِّمَ الفجورُ على التقوى لأنَّ إلهامه بهذا المعنى من مبادي تجنُّبه، وهو تخليةٌ، والتخليةُ مقدَّمةٌ على التحلية. وقيل: قُدِّمَ مراعاةً للفواصل.

وأُضيفا إلى ضمير النفس قيل: إشارةً إلى أنَّ الملهِمَ للنفس فجورٌ وتقوى قد استعدَّت لهما، فهما لها بحكم الاستعداد، وقيل: رعايةً للفواصل أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ جوابُ القَسَم على ما أخرجه الجماعة عن قتادة[3]، وإليه ذهب الزجاج[4] وغيره، وحَذْفُ اللام كثيرٌ لاسيَّما عند طول الكلام المقتضي للتخفيف، أو لِسَدِّهِ مَسَدَّها.

وفاعلُ «زكّاها» ضميرُ «مَنْ»، والضميرُ المنصوبُ للنفس، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ وتكريرُ «قد» فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه، والإيذانِ بتعلُّق القَسَم به أصالةً.

والتزكية: التنميةُ. والتدسيةُ: الإخفاء، وأصل دسّى: دَسَّسَ، فأُبدل من ثالث المتماثلات[5] ياء، ثم أُبدلتْ ألفاً لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، وأَطلقَ بعضُهم فقال: أبدل من ذلك حرف علة كما قالوا في تقضَّضَ: تقضَّى. ودَسَّسَ مبالغةٌ في دَسَّ بمعنى أخفى، قال الشاعر:

ودَسَسْتَ عَمْراً في التراب فأصبحتْ حلائلهُ منه أرامِلَ ضُيَّعا[6]

---

(١) ٨/ ٤٨١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٥٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٤، وينظر الدر المنثور ٦/ ٣٥٦.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٣١.
(٥) في (م): التماثلات.
(٦) البيت في الزاهر لابن الأنباري ١/ ٤٢٤، وتهذيب اللغة ١٣/ ٤١، وجمهرة اللغة ٣/ ٢٤٢،

وفي «الكشاف»: التزكيةُ: الإنماء والإعلاء، والتدسيةُ: النقص والإخفاء[١].
أي: لقد فاز بكلِّ مطلوبٍ ونجا من كلِّ مكروه، من أنمى نفسَهُ وأعلاها بالتقوى علماً وعملاً، ولقد خَسِرَ مَنْ نَقَصَها وأخفاها بالفجور جهلاً وفسوقاً.

وجُوِّزَ أن تُفَسَّرَ التزكيةُ بالتطهير من دَنَسِ الهَيُوْلَى، والتدسيةُ بالإخفاء فيه والتلوُّث به.

وأيَّاما كان ففي الوعد والوعيد المذكورين مع إقسامه تعالى عليهما بما أقسم به مما يدلُّ على العلم بوجوده تعالى ووجوب ذاته سبحانه وكمال صفاته عزَّ وجلَّ، ويذكِّر عظائِمَ آلائه وجلائل نعمائه جلَّ وعلا، من اللُّطف بعباده ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ استئنافٌ واردٌ لتقرير مضمون قوله تعالى: (وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)، وجعل الزمخشريُّ قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ) إلخ تابعاً لقوله تعالى: (فَأَلْهَمَهَا) إلخ على سبيل الاستطراد، وأبى أن يكونَ جوابَ القَسَم، وجَعَل الجواب محذوفاً مدلولاً عليه بهذا[٢]، كأنه قيل: لَيُدَمْدِمَنَّ الله تعالى على كفَّار مكة لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ كما دَمْدَمَ على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام[٣]. فقيل: إنَّ ذلك لما يلزمُ من حَذْفِ اللام، وأنه لا يليقُ بالنَّظْم المعجز أن يُجعَلَ أدنى الكمالين - أعني التزكية؛ لاختصاصها بالقوة العملية - المقصودَ بالإقسام، ويُعرَضُ عن أعلاهما، أعني: التحلية بالعقائد اليقينية التي هي لبُّ الألباب، وزبدةُ ما مخَّضَتْهُ الأحقاب، ولو سُلِّم عدمُ الاختصاص فهي مقدّمة التحلية في البابين، وأما حَذْفُ المقسَمِ عليه فكثيرٌ شائعٌ لاسيما في الكتاب العزيز.

وتُعقِّبَ بأنَّ حَذْفَ اللام كثيرٌ لاسيما مع الطول، وهو أسهلُ من حَذْفِ الجملة

= ومقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢٧٧، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣١٥، وهو في هذه المصادر برواية: وأنت الذي دسيت عمراً، وذكر رواية المصنف أبو حيان في البحر ٨/ ٤٧٧. وقال ابن دريد عن البيت: زعم أبو حاتم أنه مصنوع.

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٩.

(٢) في هامش الأصل: وقيل: هو محذوف تقديره: لتبعثن. وليس بشيء.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٩.

بتمامها، وقد ذكره في «قد أفلح المؤمنون»(١) فما عدا(٢) مما بدا، وأنَّ التزكية مراداً بها الإنماءُ لا اختصاصَ لها، وليست مقدَّمةً بل مقصودة بالذات، ولو سُلِّمَ فلا مانع من الاعتناء ببعض المقدِّمات أحياناً لتوقُّفِ المقاصد عليها، فتدبر.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال في «فألهمها»: ألزمها(٣). وأخرجه الديلميُّ عن أنسٍ مرفوعاً(٤). وعلى ذلك قال الواحديُّ(٥) وصاحب «المطلع»: الإلهام أن يُوقِعَ في القلب التوفيق والخذلان، فإذا أوقعَ سبحانه في قلب عبدٍ شيئاً منهما فقد ألزمه سبحانه ذلك الشيء.

ويزيد ذلك قوةً ما أخرجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين أنَّ رجلين من مزينة أتيا رسولَ الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيتَ ما يعملُ الناسُ ويَكدَحون فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم مِنْ قَدَرٍ قد سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به مما أتاهم به نبيُّهم وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا، بل شيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم، وتصديقُ ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾»(٦).

ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لقدرة العبد واختياره مدخلٌ في الفجور والتقوى بالكلية ـ وإن قيل: إنَّ مآله إلى خلق الله تعالى إياهما ـ ليقال: يأباه حينئذٍ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ إلخ حيث جُعل فيه العبدُ فاعلَ التزكية بالتقوى،

---

(١) لم نقف عليه.
(٢) في الأصل و(م): حدا، والمثبت هو الصواب، والكلام مَثَل مشهور، وهو: ما عدا مما بدا، ومعناه: ما مَنَعَك مما ظهر لك أولاً. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٩٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥٦.
(٤) الفردوس ٣/ ١٥٤، وفي إسناده مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي، قال عنه أبو حاتم: ضعيف. الميزان ٤/ ٢٢٩.
(٥) في الوسيط ٤/ ٤٩٥.
(٦) الحديث بهذا اللفظ في صحيح مسلم (٢٦٥٠)، وهو في صحيح البخاري (٦٥٩٦)، وصحيح مسلم (٢٦٤٩)، وسنن أبي داود (٤٧٠٩) بلفظ: قيل: يا رسول الله، أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم» قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال «كل ميسر لما خلق له» هذا لفظ مسلم وأبي داود، وفي البخاري: «كل سيعمل لما خُلق له، أو لما يُيَسَّر له».

والتدسية بالفجور؛ لأنَّ الإسنادَ يقتضي قيامَ المسنَدِ ويكفي فيه المدخليةُ المذكورةُ، ولا يتوقَّفُ صحةُ الإسناد حقيقةً إلى العبد على كون فعله الإيجاد، فالاستدلالُ بهذا الإسناد على كونه متمكِّناً من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى، وإيجاده إياه بقدرةٍ مستقلةٍ فيه على خلاف ما يقوله الجماعة، ليس بشيءٍ، على أنَّ الضميرَ المستترَ في «زكّاها» وكذا في «دسّاها» لله عزَّ وجلَّ، والبارزَ لـ «مَنْ» بتأويل النفس، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يقول الله تعالى: قد أفلحَ مَنْ زكّى اللهُ تعالى نفسَهُ فهداه، وقد خاب مَنْ دسَّى الله تعالى نفسَهُ فأضلَّه(١).

بل أخرج عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الآية: «أفلحَتْ نفسٌ زكّاها الله تعالى، وخابتْ نفسٌ خيَّبها الله تعالى من كلِّ خيرٍ»(٢).

وأخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة ومسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكّاها، أنت وَلِيُّها ومولاها»(٣).

وفي رواية الطبراني وغيره عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام إذا تلا هذه الآية وقف وقال ذلك(٤).

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٣، ٤٤٥، والدر المنثور ٦/ ٣٥٧.

(٢) الفردوس للديلمي ٣/ ٢١١، والدر المنثور ٦/ ٣٥٧.

(٣) أحمد (١٩٣٠٨)، وابن أبي شيبة ١٠/ ١٨٦، ومسلم (٢٧٢٢)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢٦٠.

(٤) المعجم الكبير (١١١٩١)، وجاء في هامش الأصل: وفيه: وهو عليه الصلاة والسلام في الصلاة. اهـ. وقد وردت هذه الزيادة في رواية أخرى أخرجها الشهاب في مسنده (١٤٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وإسناده ضعيف، وأخرج أحمد (٢٥٧٥٧) بإسناد رجاله ثقات من حديث عائشة ﵂ أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

ولهذه الأخبار ونحوها قال بعضُهم: إنَّ ذلك هو المرجَّح، ورجَّحه صاحب «الانتصاف»[(١)] بأنَّ الضمائرَ في «والسماء وما بناها» إلخ تكونُ عليه مُتَّسقةً عائدةً كلّها إلى الله تعالى، وبأنَّ قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا) أوفقُ به؛ لأنَّ «تزكَّى» مطاوعُ «زكَّى» فيكون المعنى: قد أفلح مَنْ زكَّاه الله تعالى فتزكَّى.

ومع هذا كلّه لا ينبغي أن يُنكَرَ أنَّ المعنى السابق هو السابقُ إلى الذهن، وما ذُكِرَ من الأخبار ليس نصًّا في تعيين المعنى الآخر، نعم هو نصٌّ في تكذيب الزمخشريِّ في زَعْمه أنه من تعكيس القدرية، يعني بهم أهلَ السنة والجماعة، فتأمل.

والطَّغوى مصدرٌ من الطغيان بمعنى تجاوزِ الحدِّ في العصيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فَعْلَى من بنات الياء بأن قلبوا الياءَ واواً في الاسم، وتركوا القلبَ في الصفة، فقالوا في الصفة: امرأةٌ صَدْيا وخَزْيا، وفي الاسم: تَقْوى وطَغْوى. كذا في «الكشاف»[(٢)] وغيره، وكلامُ الراغب[(٣)] يدلُّ على أنَّ «طغى» واويٌّ ويائيٌّ، حيث قال: يقال: طَغَوْتُ وطَغَيْتُ طُغْواناً وطُغْياناً. فلا تغفل.

والباء عند الجمهور للسببية، أي: فعلتِ التكذيبَ بسبب طُغيانها، كما تقول: ظلمني الخبيثُ بجرأته على الله تعالى، وجعلها الزمخشريُّ للاستعانة[(٤)]، والأمر سَهْلٌ.

وجُوِّزَ أن تكونَ صلةً للتكذيب، على معنى: كذَّبتْ بما أُوعِدَتْ به في لسان نبيِّها من العذاب ذي الطَّغوى، أي: التجاوز عن الحدِّ والزيادة، ويُوصَفُ العذابُ بالطغيان بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] وقد يُوصَفُ بالطَّغوى مبالغةً كما يُوصَفُ بسائر المصادر، لذلك فلا يكونُ هناك مضافٌ محذوفٌ.

---

(١) بهامش الكشاف ٤/ ٢٥٩.
(٢) ٤/ ٢٥٩.
(٣) في المفردات (طغى).
(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٩.

وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة: «طُغْواها» بضم الطاء[1]، وهو مصدرٌ أيضاً كالرُّجْعَى والحُسْنى في المصادر، إلا أنه قيل: كان القياس الطُّغيا كالسُّقيا؛ لأنَّ فُعْلى بالضَّمِّ لا يُفرَّقُ فيه بين الاسم والصفة، كأنهم شذُّوا فيه فقلبوا الياءَ واواً، وأنت تعلم أنَّ الواو عند مَنْ يقول: طَغَوْتُ، أصلية.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ متعلِّقٌ بـ «كذَّبتْ» أو بـ «طَغْوى»، و«انبعث» مطاوعُ: بَعَثَهُ بمعنى أرسله، والمراد: إذ ذهب لِعَقْرِ الناقة.

﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أي: أشقى ثمود وهو قُدار[2] بن سالف، أو هو ومَنْ تصدَّى معه لِعَقْرِها من الأشقياء: اثنان ـ على ما قال الفراء[3] ـ أو أكثر؛ فإنَّ أفعلَ التفضيل إذا أُضيف إلى معرفةٍ يصلحُ للواحد والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث. وفَضْلُ شقاوتهم على مَنْ عَدَاهم لمباشرتهم العَقْرَ مع اشتراك الكلِّ في الرضا به، ولخبائثَ غير ذلك يعلمها الله تعالى فيهم هي فوق خبائث مَنْ عداهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ أي: لثمود، أو لأشقاها على ما قيل بناءً [على][4] أنَّ المرادَ به جمعٌ، ولا يأباه «وسُقياها» كما لا يخفى.

﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هو صالح عليه السلام، وعبّر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عُتوِّهم وتماديهم في الطغيان، وهو السِّرُّ في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله سبحانه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ وهو نَصْبٌ على التحذير. وشَرْطُهُ ليس تكريرَ المحذَّر منه، أو كونه محذَّراً ممَّا بعده[5] فقط، ليقال: هو منصوبٌ بتقدير: ذروا،

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٣، والكشاف ٤/ ٢٥٩، والبحر ٨/ ٤٨١.
(٢) في هامش الأصل: بوزن غلام ومعناه الجزار.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٨.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) مثل: إياك والشر، والتكرير مثاله: الكذب الكذب، فالاسم المذكور في النوع الأول يكون محذَّراً، وما بعده محذَّراً منه، وفي النوع الثاني يكون محذَّراً منه، ويكون المحذَّر محذوفاً دائماً. ووقع في الأصل و(م): بما بعده، والمثبت هو الصواب. ينظر دستور العلماء للأحمدنَكِري ١/ ٢٧٧، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٦٧.

أو: احذروا، لا على التحذير = بل شرطه ذاك، أو العطفُ عليه كما هنا على ما نصَّ عليه مكيٌّ، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: احذروا عَقْرَ ناقة الله، أو المعنى على ذلك وإن لم يُقدَّرْ في نَظْمِ الكلام.

وجُوِّزَ أن يكونَ التقديرُ: عَظِّموا أو الزموا ناقةَ الله. وليس بشيءٍ.

﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾ أي: واحذروا سُقياها، فلا تتعرَّضوا بمنعها عنها في نوبتها، ولا تستأثروا بها عليها.

وقيل: الواو للمعية، والمراد: ذروا ناقةَ الله مع سُقْياها، ولا تَحُولوا بينهما. وهو كما ترى.

وقرأ زيد بن علي: «ناقةُ الله» بالرفع، فقيل: أي: هَمُّكم ناقةُ الله وسُقياها، فلا تعقروها، ولا تستأثروا بالسُّقيا عليها.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: في وعيده إياهم كما حكى عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] فالتكذيبُ لخبرٍ مقدَّرٍ، ويجوز أن يكونَ لخبرٍ تضمَّنه الأمرُ التحذيريُّ السابقُ، وهو الخبرُ بحلول العذاب إن فعلوا ما حذَّرهم منه.

وقيل: إنَّ ما قاله لهم من الأمر قاله ناقلاً له عن الله تعالى كما يُؤذِنُ بذلك التعبيرُ عنه عليه السلام بعنوان الرسالة، ومآلُ ذلك أنه قال لهم: إنه قال الله تعالى: ناقة الله وسقياها. فالتكذيبُ لذلك. وهو وجهٌ لا بأس به.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فنحروها، أو فقتلوها، وضميرُ الجمع للأشقى، وجَمْعُهُ على تقدير وَحْدته لرضا الكلِّ بفعله. قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرُهم وكبيرُهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم(١).

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ فأطبقَ عليهم العذاب، وقالوا: دمدم عليه القبر، أي: أطبقه، وهو مما تكرَّرَ فيه الفاء، فوزنه فَعْفَلَ، لا فَعْلَلَ، من قولهم: ناقةٌ مدمومةٌ،

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٠.

إذا لَبِسَها الشحمُ وغَطَّاها. وقال في «القاموس» معناه: أتمَّ العذابَ عليهم[١]. وقال مؤرِّج: الدمدمةُ: إهلاكٌ باستئصال. وفي «الصحاح»[٢]: دمدمتُ الشيءَ: ألزقته بالأرض وطحطحته.

وقرأ ابن الزبير: «فَدَهْدَمَ» بهاءٍ بين الدالين[٣]، والمعنى كما تقدم.

﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم المحكي، والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبرَ به كلُّ مذنب.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ الضمير للدمدمة المفهومة من دَمْدَمَ، أي: فجعل الدمدمةَ سواء بينهم، أو جعلها عليهم سواء فلم يُفلِتْ سبحانه منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، أو هو لثمود، والتأنيثُ باعتبار القبيلة كما في «طَغْواها» و«أشقاها» والمعنى ما ذُكِرَ أيضاً، أو: فسوَّاها بالأرض.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ أي: الربُّ عزَّ وجلَّ ﴿عُقْبَٰهَا﴾ أي: عاقبتها وتَبِعَتها كما يخاف المعاقِبون من الملوك عاقبةَ ما يفعلونه وتَبِعَته، وهو استعارةٌ تمثيليةٌ لإهانتهم وأنهم أذلّاءُ عند الله جلَّ جلاله، والواو للحال أو للاستئناف.

وجُوِّزَ أن يكون ضميرُ «لا يخاف» للرسول، والواو للاستئناف لا غير على ما هو الظاهر، أي: ولا يخاف الرسولُ عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذَّرهم.

وقال السديُّ والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي[٤]: الواو للحال، والضمير عائدٌ على «أشقاها» أي: انبعثَ لِعَقْرِها وهو لا يخافُ عُقبى فعله؛ لكفره وطغيانه. وهو أبعدُ مما قبله بكثير.

---

(١) ينظر القاموس (دمم)، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٦٧.

(٢) مادة (دمم).

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٩، والبحر ٨/ ٤٨٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣، والحجة لأبي علي ٦/ ٤٢٠، والكلام من البحر ٨/ ٤٨٢.

وقرأ أبيٌّ والأعرج ونافع وابن عامر: «فلا يخاف» بالفاء[١]، وقرئ: «ولم يخف» بواوٍ وفعلٍ مجزومٍ بـ «لم»[٢].

هذا واختلف في هؤلاء القوم، هل آمنوا ثم كفروا، أو لم يؤمنوا أصلاً، فالجمهور على الثاني، وذهب بعضٌ إلى أنهم آمنوا وبايعوا صالحاً مدَّةً، ثم كذَّبوه وكفروا، فأُهلكوا بما فُصِّلَ في موضعٍ آخر.

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ في «فصوصه»: إنهم وقومَ لوطٍ عليه السلام لا نجاةَ لهم يوم القيامة بوجهٍ من الوجوه. ولم يساو غيرَهم من الأمم المكذِّبة المُهْلَكة في الدنيا كقوم نوح عليه السلام بهم، ولكلامه قُدِّسَ سِرُّهُ أهلٌ يفهمونه فارجع إليهم في فهمه إن وجدتهم.

❋ ❋ ❋

وذكر بعضُ أهل التأويل أنَّ الشمسَ إشارةٌ إلى ذاتِ واجبِ الوجود سبحانه وتعالى، وضحاها: إشارةٌ إلى الحقيقة المحمدية، والقمر: إشارةٌ إلى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات، والنهار: إشارةٌ إلى العالم بسائر أنواعه الذي ظهرتْ به صفاتُ جمال الذات وجلاله وكماله، والليل: إشارةٌ إلى وجود ما يُشاهَدُ من أنواع الممكنات الساتر في أعين المحجوبين للوجود الحق، والسماء: إشارةٌ إلى عالَم العقل، والأرض: إشارةٌ إلى عالم الجسم، والنفسُ معلومةٌ، وناقةُ الله: إشارةٌ إلى راحلةِ الشوق الموصلة إليه سبحانه، وسقياها: إشارةٌ إلى مَشْرَبها من عين الذكر والفكر.

وقال بعضٌ آخرُ: الشمس إشارةٌ إلى الوجود الحقِّ الذي هو عينُ الواجب تعالى، فهو أظهرُ من الشمس ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال شيخُ مشايخنا البندنيجي قُدِّسَ سِرُّهُ:

ظاهرٌ أنتَ ولكن لا تُرى ... لعيونٍ حجبتها النقط

(١) التيسير ص٢٢٣، والنشر ٢/ ٤٠١ عن نافع وابن عامر، والكلام من البحر ٨/ ٤٨٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٤، والكشاف ٤/ ٢٦٠، والرازي ٣١/ ١٩٧.

وضحاها: إشارةٌ إلى أول التعينات بأيِّ اسم سمَّيته، والقمرُ إشارةٌ إلى الأعيان الثابتة المفاضَةِ بالفيض الأقدس، أو الشمسُ إشارةٌ إلى الذات، وضحاها إشارةٌ إلى وجودها، والإضافةُ للتغاير الاعتباري، والقمرُ إشارةٌ إلى أول التعيُّنات، والنهارُ إشارةٌ إلى الممكنات المفاضة بالفيض المقدَّس، والليلُ إشارةٌ إليها أيضاً باعتبار نظر المحجوبين، أو النهارُ إشارةٌ إلى صفة الجمال، والليلُ إشارةٌ إلى صفة القهر والجلال، والسماءُ إشارةٌ إلى عالم اللطافة، وذِكْرُ النفس بعدُ مع دخولها في هذا العالم للاعتناء بشأنها، والأرضُ إشارةٌ إلى عالم الكثافة، وناقةُ الله إشارةٌ إلى الطريقة، وسقياها مشربها من عين الشريعة.

وقيل غيرُ ذلك، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

(٩٢) سورة الليل مكية وآياتها إحدى وعشرون

● **سورة الليل** مكية ، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بالليـل إذا غشي الخليقة بظلامه ، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه ، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى ، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف ، وطريقهم متباين ﴿ والليلِ إذا يغشى . والنهارِ إذا تجلَّى . وما خَلَقَ الذكر والأُنثَى . إنَّ سَعْيكم لَشتَّى﴾ .

● **ثم وضحت** السورة سبيل السعادة ، وسبيل الشقاء ، ورسمت الخطَّ البياني لطالب النجاة ، وبينت أوصاف الأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ﴿ فأما من أعطى* واتقى . وصدَّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى﴾

● **ثم نبهت** إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها ، وثرواتهم التي كدسوها ، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئاً ، وذكَّرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردَّى ؟ إنَّ علينا لَلْهُدَى . وإنَّ لنا للآخرةَ والأولى﴾ .

● **ثم حذَّرت** أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ، ممن كذَّب بآياته ورسوله ، وأنذرهم من نار حامية تتوهج من شدة حرها ، لا يدخلها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي ، المعرض عن هداية الله ﴿ فأنذرتكم

ناراً تَلَظَّى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذَّب وتولَّى﴾ .

● **وختمت** السورة الكريمة بذكر نموذج للمؤمن الصالح ، الذي ينفق ماله في وجوه الخير ، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله ، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى﴾ .

سورة الليل

[١٠١٣] أخرج ابن أبي حاتم وغيره(١) من طريق الحكم بن إبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة ليأخذ منها التمرة فربما تقع تمرة فيأخذها صبيان الفقير فينزل من نخلته فيأخذ التمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرج التمرة من فيه فشكا ذلك الرجل إلى النبي [ﷺ] فقال: «اذهب» ولقي النبي [ﷺ] صاحب النخلة فقال له: «**أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة**» فقال الرجل: لقد أعطيت كذا وإن لي لنخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليَّ تمرة منها ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله [ﷺ] ومن صاحب النخلة فأتى رسول الله [ﷺ] فقال: أتعطيني يا رسول الله ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها؟ قال: نعم. فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل فقال له صاحب النخلة: أشعرت أن محمداً [ﷺ] أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له: لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها ولي نخل كثير ما فيه نخلة أعجب إلى ثمرة منها فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أعطي بها ما أريد ولا أظن أن أعطي قال: فكم مناك فيها؟ قال: أربعون نخلة قال: لقد جئت بأمر عظيم ثم سكت عنه فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة فاشهد لي إن كنت صادقاً فدعا قومه فاشهد له ثم ذهب إلى رسول الله [ﷺ] فقال له: يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي وهي لك فذهب رسول الله [ﷺ] إلى صاحب الدار فقال له: «**النخلة لك ولعيالك**» فأنزل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾(٢) إلى آخر السورة قال ابن كثير حديث غريب جداً.
وأخرج ابن أبي حاتم عن عنوة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧﴾(٣) إلى آخر السورة.

[١٠١٣] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٤) من طريق حفص بن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس مثله.
(٢) سورة الليل: الآية (١).
(٣) سورة الليل: الآية (١٧).

[١٠١٤] وأخرج الحاكم عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك يا بني فقال: يا أبت إني إنما أريد ما عند الله فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ (١) إلى آخر السورة.

[١٠١٥] وأخرج البزار عن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾ (٢) إلى آخرها في أبي بكر الصديق.

* * *

[١٠١٤] (١) سورة الليل: الآية (٥).

[١٠١٥] (٢) سورة الليل: الآية (١٩).

سورة الليل

إحدى وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ ﴾

قال القفال رحمه الله: نزلت هذه السورة في أبي بكر وإنفاقه على المسلمين، وفي أميةَ بن خلف وبخلهِ وكفره بالله، إلا أنها وإن كانت كذلك لكن معانيها عامة للناس، ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]ويروى عن علي عليهِ السلام أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺفي جنازة فقعد رسول الله ﷺوقعدنا حوله فقال: «مَا مِنْكُمْ نَفسٌ مَنْفُوسَةٌ إلاَّ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» فقلنا يا رسول اللهِ أفلا نتكل؟ فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥-٧]»[1] فبان بهذا الحديث عموم هذه السورة.

اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق عن الاضطراب، ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى؛ لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم، وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارًا لبطلت الراحة، لكن المصلحة كانت في تعاقبهما على ما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

أما قوله:﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فاعلم أنه تعالى لم يذكر مفعول (يغشى)، فهو إما الشمس من قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]وإما النهار من قوله: ﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣]وإما كل شيء يواريه بظلامه، من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]وقوله: ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل، أو ظهر وانكشف بطلوع الشمس.

وقوله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسيره وجوه: **أحدها:**أي والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وقيل: هما آدم وحواء. **وثانيها:**أي وخَلْقه الذكر والأنثى. **وثالثها:** (ما) بمعنى (مَن) أي ومَن خلق الذكر والأنثى، أي والذي خلق الذكر والأنثى.

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]) (٤/ ١٨٩٠) حديث رقم (٤٦٦١) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٤٠/ ٢٦٤٧) كلاهما من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي... به.

المسألة الثانية: قرأ النبي ﷺ (وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى)(١) وقرأ ابن مسعود: (وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) وعن الكسائي: (ومت خَلْق الذكر والأنثى) بالجر، ووجهه أن يكون معنى: (وما خلق) أي وما خلقه الله تعالى، أي مخلوق الله، ثم يجعل الذكر والأنثى بدلاً منه، أي ومخلوق الله الذكر والأنثى، وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم أنه لا خالق إلا هو.

المسألة الثالثة: القسَم بالذكَر والأنثى يتناول القسم بجميع ذوي الأرواح الذين هم أشرف المخلوقات؛ لأن كل حيوان فهو إما ذكر أو أنثى، والخنثى فهو في نفسه لا بد وأن يكون إما ذكرًا أو أنثى، بدليل أنه لو حلف بالطلاق أنه لم يلق في هذا اليوم لا ذكرًا ولا أنثى، وكان قد لقي خنثى فإنه يحنث في يمينه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

هذا جواب القسم، فأقسم تعالى بهذه الأشياء، أن أعمال عباده لشتى، أي مختلفة في الجزاء، وشتى جمع شتيت، مثل مرضى ومريض، وإنما قيل للمختلف شتى، لتباعد ما بين بعضه وبعضه، والشتات هو التباعد والافتراق، فكأنه قيل: إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلال وبعضه هدى، وبعضه يوجب الجنان وبعضه يوجب النيران، فشتان ما بينهما، ويقرب من هذه الآية قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] وقال: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٢١] قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أبي بكر وأبي سفيان.

ثم إنه سبحانه بيَّن معنى اختلاف الأعمال فيما قلناه من العاقبة المحمودة والمذمومة والثواب والعقاب، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وفي قوله ﴿أَعْطَىٰ﴾ وجهان: **أحدهما**: أن يكون المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم، كما كان يفعله أبو بكر، سواء كان ذلك واجبًا أو نفلاً، وإطلاق هذا كالإطلاق في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣] فإن المراد منه كل ذلك إنفاقًا في سبيل الله، سواء كان واجبًا أو نفلاً، وقد مدح الله قومًا فقال:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة) باب (مناقب عمار) (٣/ ١٣٦٨) حديث رقم (٣٥٣٣) من طريق المغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن أبي الدرداء... به، والطبراني في (الأوسط) (٦/ ١٦٩) حديث رقم (٦١٠٢) والخطيب في (تاريخ بغداد) (١٤/ ٣) كلاهما من طريق يونس بن محمد المؤدب، حدثنا هارون بن موسى الأعور عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن أبي الدرداء... به.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وقال في آخر هذه السورة: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢٠]، **وثانيهما**: أن قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ يتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى، يقال: فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة. وقوله: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ فهو إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي، وقد ذكرنا أنه هل من شرط كونه متقيًا أن يكون محترزًا عن الصغائر أم لا في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. **وقوله**: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالحسنى فيها وجوه: **أحدها**: أنها قول لا إله إلا الله، والمعنى: فأما من أعطى واتقى وصَدَّق بالتوحيد والنبوة، حصلت له الحسنى، وذلك لأنه لا ينفع مع الكفر إعطاء مال ولا اتقاء محارم، وهو كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤] إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] **وثانيها**: أن الحسنى عبارة عما فرضه الله تعالى من العبادات على الأبدان وفي الأموال، كأنه قيل: أعطى في سبيل الله واتقى المحارم وصَدَّق بالشرائع، فعلم أنه تعالى لم يشرعها إلا لما فيها من وجوه الصلاح والحسن. **وثالثها**: أن الحسنى هو الخلف الذي وعده الله في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩] والمعنى: أعطى من ماله في طاعة الله مصدقًا بما وعده الله من الخلف الحسن، وذلك أنه قال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] فكان الخلف لما كان زائدًا صح إطلاق لفظ الحسنى عليه، وعلى هذا المعنى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي لم يصدق بالخلف، فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود، كما قال بعضهم: (مَنْع الموجود سوء ظن بالمعبود) وروي عن أبي الدرداء أنه قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفًا وَكُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفًا**» **ورابعها**: أن الحسنى هو الثواب، وقيل: إنه الجنة، والمعنى واحد، قال قتادة: صَدَّق بموعود الله فعمل لذلك الموعود، قال القفال: وبالجملة أن الحسنى لفظة تسع كل خصلة حسنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] يعني النصر أو الشهادة، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣] فسمى مضاعفة الأجر حسنى، وقال: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وأما قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: في تفسير هذه اللفظة وجوه: **أحدها**: أنها الجنة. **وثانيها**: أنها الخير. وقالوا في العسرى: إنها الشرك. **وثالثها**: المراد منه أن يسهل عليه كل ما كُلف به من الأفعال والتروك، والمراد من العسرى تعسير كل ذلك عليه. **ورابعها**: اليسرى هي العود إلى الطاعة التي أتى بها أولاً، فكأنه قال فسنيسره لأن يعود إلى الإعطاء في سبيل الله. وقالوا في العسرى ضد ذلك، أي نيسره لأن يعود إلى البخل والامتناع من أداء الحقوق المالية، قال القفال: ولكل هذه الوجوه مجاز من اللغة، وذلك لأن الأعمال بالعواقب، فكل ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة وأمور محمودة، فإن ذلك من اليسرى، وذلك وصف كل الطاعات، وكل ما أدت عاقبته إلى عسر

وتعب فهو من العسرى، وذلك وصف كل المعاصي.

المسألة الثانية: التأنيث في لفظ اليسرى ولفظ العسرى فيه وجوه: **أحدها**: أن المراد من اليسرى والعسرى إن كان جماعة الأعمال، فوجه التأنيث ظاهر، وإن كان المراد عملاً واحدًا رجع التأنيث إلى الخلة أو الفعلة، وعلى هذا من جعل يسرى هو تيسير العود (ة) إلى ما فعله الإنسان من الطاعة، رجع التأنيث إلى العود (ة)، وكأنه قال: فسنيسره للعود (ة) التي هي كذا **وثانيها**: أن يكون مرجع التأنيث إلى الطريقة، فكأنه قال: للطريقة اليسرى والعسرى. **وثالثها**: أن العبادات أمور شاقة على البدن، فإذا علم المكلف أنها تفضي إلى الجنة سهلت تلك الأفعال الشاقة عليه، بسبب توقعه للجنة، فسمى الله تعالى الجنة يسرى، ثم علل حصول اليسرى في أداء الطاعات بهذه اليسرى وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ بالضد من ذلك.

المسألة الثالثة: في معنى التيسير لليسرى والعسرى وجوه؛ وذلك لأن من فسر اليسرى بالجنة فسَّر التيسير لليسرى بإدخال الله تعالى إياهم في الجنة بسهولة وإكرام، على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[الرعد: ٢٣-٢٤] وقوله: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣] وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤] وأما من فسر اليسرى بأعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على من أراد حتى لا يعتريه من التثاقل ما يعتري المرائين والمنافقين من الكسل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥] وقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾[النساء: ١٤٢] وقال: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[التوبة: ٣٨] فكان التيسير هو التنشيط.

المسألة الرابعة: استدل الأصحاب بهذه الآية على صحة قولهم في التوفيق والخذلان، فقالوا: إن قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ يدل على أنه تعالى خص المؤمن بهذا التوفيق، وهو أنه جعل الطاعة بالنسبة إليه أرجح من المعصية، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يدل على أنه خص الكافر بهذا الخذلان، وهو أنه جعل المعصية بالنسبة إليه أرجح من الطاعة، وإذا دلت الآية على حصول الرجحان لزم القول بالوجوب لأنه لا واسطة بين الفعل والترك، ومعلوم أن حال الاستواء يمتنع الرجحان، فحال المرجوحية أَوْلى بالامتناع، وإذا امتنع أحد الطرفين وجب حصول الطرف الآخر ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

أجاب القفال رحمه الله عن وجه التمسك بالآية من وجوه: **أحدها**: أن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾[الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الإنشقاق: ٢٤] فلما سمى الله فعل الألطاف الداعية إلى الطاعات تيسيرًا لليسرى، سمى ترك هذه الألطاف تيسيرًا للعسرى. **وثانيها**: أن يكون ذلك على جهة إضافة الفعل إلى المسبب له دون الفاعل، كما قيل في الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾[إبراهيم: ٣٦] **وثالثها**: أن يكون ذلك على سبيل الحكم به والإخبار عنه. والجواب عن الكل أنه عدول عن

الظاهر، وذلك غير جائز، لاسيما أنا بينا أن الظاهر من جانبنا متأكد بالدليل العقلي القاطع، ثم إن أصحابنا أكدوا ظاهر هذه الآية بما روي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلاَّ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» قُلْنَا: أفلا نتكل؟ قال: «لاَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[(١)] أجاب القفال عنه بأن الناس كلهم خُلقوا ليعبدوا الله، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] واعلم أن هذا ضعيف لأنه عليه السلام إنما ذكر هذا جوابًا عن سؤالهم، يعني اعملوا فكل ميسر لما وافق معلوم الله، وهذا يدل على قولنا: إن ما قدره الله على العبد وعلمه منه فإنه ممتنع التغيير، والله أعلم.

المسألة الخامسة: في دخول السين في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ وجوه: **أحدها:** أنه على سبيل الترفيق والتلطيف، وهو من الله تعالى قطع ويقين، كما في قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١] **وثانيها:** أن يُحمل ذلك على أن المطيع قد يصير عاصيًا، والعاصي قد يصير بالتوبة مطيعًا، فلهذا السبب كان التغيير فيه محالاً. **وثالثها:** أن الثواب لما كان أكثره واقعًا في الآخرة، وكان ذلك مما لم يأت وقته، ولا يقف أحد على وقته إلا الله، لا جرم دخله تراخ، فأدخلت السين لأنها حرف التراخي ليدل بذلك على أن الوعد آجل غير حاضر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾

فاعلم أن (ما) هنا يحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، ويحتمل أن يكون نفيًا. وأما ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ ففيه وجهان: **الأول:** أن يكون ذلك مأخوذًا من قولك: تردى من الجبل، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[المائدة: ٣] فيكون المعنى: تردى في الحفرة إذا قُبر، أو تردى في قعر جهنم، وتقدير الآية: إنا إذا يسرناه للعسرى - وهي النار - تردى في جهنم، فماذا يغني عنه ماله الذي بخل به وتركه لوارثه، ولم يصحب منه إلى آخرته، التي هي موضع فقره وحاجته شيئًا، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[الأنعام: ٩٤] وقال: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[مريم: ٨٠] أخبر أن الذي ينتفع الإنسان به هو ما يقدمه الإنسان من أعمال البر وإعطاء الأموال في حقوقها، دون المال الذي يخلفه على ورثته. **الثاني:** أن تردى تفعل من الردى وهو الهلاك، يريد الموت.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ فاعلم أنه تعالى لما عرَّفهم أن سعيهم شتى في العواقب وبيَّن ما للمحسن من اليسرى وللمسيء من العسرى، أخبرهم أنه قد قضى ما عليه من البيان والدلالة والترغيب والترهيب والإرشاد والهداية فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إن الذي يجب علينا في الحكمة إذا خلقنا الخلق للعبادة، أن نبين لهم وجوه التعبد وشرح ما يكون المتعبد به مطيعًا مما يكون به عاصيًا، إذ كنا إنما خلقناهم لننفعهم ونرحمهم ونعرضهم للنعيم المقيم، فقد فعلنا ما

---

(١) تقدم.

كان فعله واجبًا علينا في الحكمة. والمعتزلة احتجوا بهذه الآية على صحة مذهبهم في مسائل: **إحداها:** أنه تعالى أباح الأعذار وما كلف المكلف إلا ما في وسعه وطاقته، فثبت أنه تعالى لا يكلف بما لا يطاق وثانيها: أن كلمة (على) للوجوب، فتدل على أنه قد يجب للعبد على الله شيء. **وثالثها:** أنه لو لم يكن العبد مستقلاً بالإيجاد لما كان في وضع الدلائل فائدة. وأجوبة أصحابنا عن مثل هذه الوجوه مشهورة، وذكر الواحدي وجهًا آخر نقله عن الفراء فقال: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال. فترك الإضلال كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهي تقي الحر والبرد، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: يريد أُرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأَحُول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي. فذكر معنى الإضلال، قالت المعتزلة: هذا التأويل ساقط لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] فبيَّن أن قصد السبيل على الله، وأما جور السبيل فبيَّن أنه ليس على الله ولا منه. واعلم أن الاستقصاء قد سبق في تلك الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ ففيه وجهان: **الأول:** أن لنا كل ما في الدنيا والآخرة، فليس يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤكم، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم، ولو شئنا لمنعناكم من المعاصي قهرًا، إذ لنا الدنيا والآخرة، ولكننا لا نمنعكم من هذا الوجه؛ لأن هذا الوجه يخل بالتكليف، بل نمنعكم بالبيان والتعريف، والوعد والوعيد. **الثاني:** أن لنا ملك الدارين نعطي ما نشاء من نشاء، فيطلب سعادة الدارين منا. والأول أوفق لقول المعتزلة، والثاني أوفق لقولنا.

أما قوله تعالى ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تلظى، أي تتوقد وتتلهب وتتوهج، يقال: تلظت النار تلظيًا، ومنه سميت جهنم لظى، ثم بَيَّن أنها لمن هي بقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ قال ابن عباس: نزلت في أمية بن خلف وأمثاله الذين كذبوا محمدًا والأنبياء قبله، وقيل: إن الأشقى بمعنى الشقي، كما يقال: لست فيها بأوحد، أي بواحد، فالمعنى لا يدخلها إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كَذَّب بآيات الله، وتولى أي أعرض عن طاعة الله. واعلم أن المرجئة يتمسكون بهذه الآية في أنه لا وعيد إلا على الكفار، قال القاضي: ولا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها، ويدل على ذلك ثلاثة أوجه: **أحدها:** أنه يقتضي أن لا يدخل النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى، فوجب في الكافر الذي لم يكذب ولم يتول أن لا يدخل النار. **وثانيها:** أن هذا إغراء بالمعاصي؛ لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لمن صدق بالله ورسوله ولم يكذب ولم يتول: أي معصية أقدمت عليها، فلن تضرك. وهذا يتجاوز حد الإغراء

إلى أن تصير كالإباحة، وتعالى الله عن ذلك. **وثالثها:** أن قوله تعالى من بعد: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] يدل على ترك هذا الظاهر؛ لأنه معلوم من حال الفاسق أنه ليس بأتقى؛ لأن ذلك مبالغة في التقوى، ومن يرتكب عظائم الكبائر لا يوصف بأنه أتقى، فإن كان الأول يدل على أن الفاسق لا يدخل النار، فهذا الثاني يدل على أن الفاسق لا يجنب النار، وكل مكلف لا يجنب النار، فلا بد وأن يكون من أهلها، ولما ثبت أنه لا بد من التأويل، فنقول: فيه وجهان: **الأول:** أن يكون المراد بقوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ نارًا مخصوصة من النيران؛ لأنها دركات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء: ١٤٥] فالآية تدل على أن تلك النار المخصوصة لا يصلاها سوى هذا الأشقى، ولا تدل على أن الفاسق وغير من هذا صفته من الكفار لا يدخل سائر النيران. **الثاني:** أن المراد بقوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ النيران أجمع، ويكون المراد بقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي هذا الأشقى بها أحق، وثبوت هذه الزيادة في الاستحقاق غير حاصلة إلا لهذا الأشقى.

واعلم أن وجوه القاضي ضعيفة:

أما قوله أولاً: (يلزم في غير هذا الكافر أن لا يدخل النار) **فجوابه:** أن كل كافر لا بد وأن يكون مكذبًا للنبي في دعواه، ويكون متوليًا عن النظر في دلالة صدق ذلك النبي، فيصدق عليه أنه أشقى من سائر العصاة، وأنه كذب وتولى، وإذا كان كل كافر داخلاً في الآية سقط ما قاله القاضي.

وأما قوله ثانيا: (إن هذا إغراء بالمعصية) فضعيف أيضًا؛ لأنه يكفي في الزجر عن المعصية حصول الذم في العاجل وحصول غضب الله بمعنى أنه لا يكرمه ولا يعظمه ولا يعطيه الثواب، ولعله يعذبه بطريق آخر، فلم يدل دليل على انحصار طريق التعذيب في إدخال النار.

وأما قوله ثالثا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ فهذا لا يدل على حال غير الأتقى إلا على سبيل المفهوم، والتمسك بدليل الخطاب وهو ينكر ذلك فكيف تمسك به؟ والذي يؤكد هذا أن هذا يقتضي فيمن ليس بأتقى دخول النار، فيلزم في الصبيان والمجانين أن يدخلوا النار وذلك باطل.

وأما قوله رابعا: (المراد منه نار مخصوصة، وهي النار التي تتلظى) فضعيف أيضًا؛ لأن قوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ يحتمل أن يكون ذلك صفة لكل النيران، وأن يكون صفة لنار مخصوصة، لكنه تعالى وصف كل نار جهنم بهذا الوصف في آية أخرى، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦].

وأما قوله: (المراد إن هذا الأشقى أحق به) فضعيف لأنه ترك للظاهر من غير دليل، فثبت ضعف الوجوه التي ذكرها القاضي.

فإن قيل: فما الجواب عنه على قولكم، فإنكم لا تقطعون بعدم وعيد الفساق؟ **الجواب:** من وجهين: **الأول:** ما ذكره الواحدي وهو أن معنى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يلزمها في حقيقة اللغة، يقال: صلى الكافر النار، إذا لزمها مقاسيًا شدتها وحرها، وعندنا أن هذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر،

أما الفاسق فإما أن لا يدخلها أو إن دخلها تخلص منها. **الثاني:** أن يخص عموم هذا الظاهر بالآيات الدالة على وعيد الفساق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ معنى سيجنبها أي سيبعدها ويُجعل منها على جانب، يقال: جنبته الشيء، أي بعدته وجنبته عنه.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، ويقولون: إنها نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] فقوله: ﴿ ٱلْأَتْقَى﴾ إشارة إلى ما في الآية من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ ولما ذكر ذلك بعضهم في محضري قلت: أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر، وتقريرها: أن المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق، فإذا كان كذلك، وجب أن يكون المراد هو أبو بكر، فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود، إنما قلنا: (إن المراد من هذا الأتقى أفضل الخلق) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] والأكرم هو الأفضل، فدل على أن كل من كان أتقى وجب أن يكون أفضل، **فإن قيل:** الآية دلت على أن كل من كان أكرم كان أتقى، وذلك لا يقتضي أن كل من كان أتقى كان أكرم، **قلنا:** وصف كون الإنسان أتقى معلوم مشاهد، ووصف كونه أفضل غير معلوم ولا مشاهد، والإخبار عن المعلوم بغير المعلوم هو الطريق الحسن، أما عكسه فغير مفيد، فتقدير الآية كأنه وقعت الشبهة في أن الأكرم عند الله من هو؟ فقيل: هو الأتقى، وإذا كان كذلك كان التقدير أتقاكم أكرمكم عند الله، فثبت أن الأتقى المذكور ههنا لا بد وأن يكون أفضل الخلق عند الله، فنقول: لا بد وأن يكون المراد به أبا بكر لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله إما أبو بكر أو علي، ولا يمكن حمل هذه الآية على علي بن أبي طالب، فتعين حملها على أبي بكر، وإنما قلنا: (إنه لا يمكن حملها على علي بن أبي طالب) لأنه قال في صفة هذا الأتقى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ وهذا الوصف لا يصدق على علي بن أبي طالب؛ لأنه كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه وكان يطعمه ويسقيه، ويكسوه، ويربيه، وكان الرسول منعمًا عليه نعمة يجب جزاؤها، أما أبو بكر فلم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول عليه السلام، بل كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين، إلا أن هذا لا يُجزى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] والمذكور ههنا ليس مطلق النعمة بل نعمة تجزى، فعلمنا

أن هذه الآية لا تصلح لعلي بن أبي طالب، وإذا ثبت أن المراد بهذه الآية من كان أفضل الخلق وثبت أن ذلك الأفضل من الأمة إما أبو بكر أو علي، وثبت أن الآية غير صالحة لعلي، تعين حملها على أبي بكر رضي الله عنه، وثبت دلالة الآية أيضًا على أن أبا بكر أفضل الأمة.

وأما الرواية فهي أنه كان بلال (عبدًا) لعبد الله بن جدعان، فسلح على الأصنام فشكا إليه المشركون فعله، فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: (أحد، أحد) فمر به رسول الله، وقال: «ينجيك أحد، أحد». ثم أخبر رسول الله أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده!! فنزل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [1] وقال ابن الزبير وهو على المنبر: كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم. فقال له أبوه: يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك!! فقال: مَنْع ظهري أريد. فنزلت هذه الآية.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) في محل (يَتَزَكَّى) وجهان: إن جعلت بدلاً من يؤتي فلا محل له؛ لأنه داخل في حكم الصلة، والصلات لا محل لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يُؤۡتِي﴾ فمحله النصب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ مستثنى من غير جنسه وهو النعمة، أي ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه، كقولك: (ما في الدار أحدًا إلا حمارًا) وذكر الفراء فيه وجهًا آخر وهو أن يضمر الإنفاق على تقدير: ما ينفق إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، كقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى بَيّن أن هذا الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى - لا يؤتيه مكافأة على هدية أو نعمة سالفة؛ لأن ذلك يجري مجرى أداء الدين، فلا يكون له دخل في استحقاق مزيد الثواب، بل إنما يستحق الثواب إذا فعله لأجل أن الله أمره به وحثه عليه.

المسألة الثالثة: المجسمة تمسكوا بلفظة الوجه، والملحدة تمسكوا بلفظة (ربه الأعلى) وإن ذلك يقضي وجود رب آخر، وقد تقدم الكلام على كل ذلك.

المسألة الرابعة: ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (الإمامة) فقال: الآية الواردة في حق علي عليه السلام: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠] والآية الواردة في حق أبي بكر: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ فدلت

(١) أورده الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٣٤١) قال: وقال عطاء عن ابن عباس... فذكره.

الآيتان على أن كل واحد منهما إنما فعل ما فعل لوجه الله، إلا أن آية علي تدل على أنه فعل ما فعل لوجه الله وللخوف من يوم القيامة، على ما قال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وأما آية أبي بكر فإنها دلت على أنه فعل ما فعل لمحض وجه الله من غير أن يشوبه طمع فيما يرجع إلى رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب، فكان مقام أبي بكر أعلى وأجَلّ.

المسألة الخامسة: من الناس من قال: ابتغاء الله بمعنى ابتغاء ذاته. وهي محال، فلا بد وأن يكون المراد ابتغاء ثوابه وكرامته، ومن الناس من قال: لا حاجة إلى هذا الإضمار، وحقيقة هذه المسألة راجعة إلى أنه هل يمكن أن يحب العبد ذات الله، أو المراد من هذه المحبة محبة ثوابه وكرامته؟ وقد تقدم الكلام في هذه المسألة في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

المسألة السادسة: قرأ يحيى بن وثاب: (إلا ابتغاءُ وجه ربه) بالرفع على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمارًا، وأنشد في اللغتين، قوله:

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إلاَّ الْيَعَافِيرُ وَإلاَّ الْعِيسُ

أما قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ فالمعنى أنه وعد أبا بكر أن يرضيه في الآخرة بثوابه، وهو كقوله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وفيه عندي وجه آخر، وهو أن المراد أنه ما أنفق إلا لطلب رضوان الله، ولسوف يرضى الله عنه، وهذا عندي أعظم من الأول لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه، وبالجملة فلا بد من حصول الأمرين على ما قال: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «والليل»

مَكِّيَّةٌ، وقيل: مَدَنيَّةٌ. وهي إحدى وعشرون آيةً بإجماعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي: يُغَطّي. ولم يَذْكُر مفعولاً للعِلْم به. فقيل: يَغْشَى النهارَ. وقيل: الأرضَ. وقيل: الخلائقَ. وقيل: يغشى كلَّ شيءٍ بظُلْمتِه. وروى سعيد عن قتادة قال: أولُ ما خَلَق الله النورَ والظُّلْمةَ، ثم مَيَّز بينهما، فجعل الظُّلْمةَ ليلاً أسودَ مُظْلِماً، والنورَ نهاراً مضيئاً مبصراً.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: انكشفَ ووَضحَ وظَهرَ، وبانَ بضوئه عن ظلمةِ الليل.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قال الحسن: معناه: والذي خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى[٢]، فيكون قد أَقْسَم بنَفْسِه عزَّ وجلَّ.

وقيل: معناه: وخَلْقِ الذَّكَرَ والأنثى، فـ«ما» مَصْدَريةٌ على ما تقدَّم[٣]. وأهلُ مكة يقولون للرَّعْد: سُبحان ما سَبَّحْتَ له[٤]! فـ«ما» على هذا بمعنى «مَن»، وهو قولُ أبي

---

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٤٥٨، والكلام من النكت والعيون ٦/٢٨٦.

(٣) ينظر ما سلف من هذا الجزء ص٢٩١ و٣١٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/٤٥٨ عن أبي عمرو ضمن خبر الحسن السالف.

عبيدة[١] وغيرِه. وقد تقدَّم.

وقيل: المعنى: وما خَلَق مِن الذَّكر والأنثى، فتكون «مِن» مضمرةً، ويكونُ القَسَمُ منه بأهلِ طاعتِه من أنبيائه وأوليائه، ويكونُ قَسَمُه بهم تَكْرِمةً لهم وتشريفاً[٢].

وقال أبو عبيدة[٣]: «وما خلَق» أي: ومَن خَلَق. وكذلك قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، «ما» في هذه المواضع بمعنى مَنْ.

ورُوي عن ابن مسعودٍ أنَّه كان يقرأ: «والنهارِ إذا تجلَّى. والذَّكَرِ والأُنثى»، ويُسْقِطُ: «وما خَلَقَ». وفي «صحيح» مسلمٍ عن علقمةَ قال: قَدِمْنا الشامَ، فأتانا أبو الدرداءِ، فقال: فيكم أحدٌ يقرأ على قراءةِ عبدِ الله؟ فقلتُ: نعم، أنا. قال: فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأُ هذه الآية: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؟ قال: سمعتُه يقرأ: «والليلِ إذا يَغْشَى. والذَّكَرِ والأنثى» قال: وأنا والله هكذا سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها، ولكنْ هؤلاءِ يريدون أنْ أقرأ: «وما خَلَق»، فلا أُتابِعُهم[٤].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا محمد بن يحيى المروزيُّ، قال: حدَّثنا محمد، قال: حدَّثنا أبو أحمد الزبيريُّ، قال: حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: أَقْرأني رسولُ الله ﷺ: «إنِّي أنا الرَّازِقُ ذو القوَّةِ المتِين»[٥].

قال أبو بكر: كلٌّ من هذين الحديثين مردودٌ بخلافِ الإجماعِ له، وأنَّ حمزةَ وعاصماً يَرْوِيان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعةُ المسلمين، والبناءُ على سَنَدَيْن يوافقان الإجماعَ أوْلَى من الأخْذِ بواحدٍ يُخالِفُه الإجماعُ والأمَّةُ، وما يُبْنَى على روايةِ

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، وسيأتي.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٤) صحيح مسلم (٨٢٤)، وهو عند أحمد (٢٧٥٥٤)، والبخاري (٤٩٤٣).

(٥) أخرجه أحمد (٣٧٤١)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وقال: حسن صحيح.

واحدٍ إذا حاذاه روايةُ جماعةٍ تُخالفُه، أُخِذَ بروايةِ الجماعةِ وأُبْطِلَ نَقْلُ الواحد؛ لِمَا يجوزُ عليه من النسيان والإغفال.

ولو صحَّ الحديثُ عن أبي الدرداء وكان إسنادهُ مقبولاً معروفاً، ثم كان أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ ﷺ يخالفونه، لكان الحُكْمُ العملَ بما رَوَتْه الجماعةُ، ورَفْضَ ما يَحْكِيه الواحدُ المنفرِدُ، الذي يُسْرِعُ إليه من النسيان ما لا يُسْرِعُ إلى الجماعة وجميعِ أهلِ المِلَّة.

وفي المراد بالذَّكَر والأُنثى قولان:

أحدهما: آدمُ وحوَّاء؛ قاله ابنُ عباس والحسنُ والكلبيّ[(١)].

الثاني: يعني جميعَ الذُّكورِ والإناثِ من بني آدمَ والبهائمِ؛ لأنَّ الله تعالى خَلَق جميعَهم من ذكرٍ وأنثى من نوعهم.

وقيل: كلُّ ذَكَرٍ وأنثى من الآدميين دون البهائم؛ لاختصاصهم بولايةِ اللهِ وطاعتِه[(٢)].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جوابُ القَسَم. والمعنى: إنَّ عملكم لمختلِفٌ. وقال عكرمةُ وسائرُ المفسِّرين: السَّعْيُ: العمل[(٣)]، فَسَاعٍ في فَكاكِ نفسِه، وساعٍ في عَطَبها، يدلُّ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «الناسُ غادِيان: فبائعٌ نفسَه فمعْتِقُها، أو مُوْبِقُها»[(٤)].

وشتَّى: واحدُه شَتيت، مثل: مريض ومَرْضَى، وإنَّما قيل للمختلِفِ: شتَّى، لتَباعُدِ ما بينَ بعضِه وبعضِه. أي: إنَّ عملكم لمتباعِدٌ بعضُه من بعض؛ لأنَّ بعضَه

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٤ عن مقاتل والكلبي. والنكت والعيون ٦/ ٢٨٧ عن ابن عيسى.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٧.

(٣) أخرجه عن عكرمة ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٩٠٢)، ومسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري ﷺ ولفظه: «كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

ضلالةٌ وبعضه هدى[١]. أي: فمنكم مؤمنٌ وبَرٌّ، وكافرٌ وفاجِر[٢]، ومطيعٌ وعاصٍ.

وقيل: «لشتَّى»، أي: لمختلفُ الجزاءِ، فمِنكم مُثابٌ بالجنة، و[منكم] معاقَبٌ بالنار.

وقيل: أي: لمختلفُ الأخلاقِ؛ فمنكم راحِمٌ وقاسٍ، وحليمٌ وطائشٌ، وجوادٌ وبخيلٌ، وشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر ﷺ[٣]؛ وقاله عامَّةُ المفسِّرين. فرُوِي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يُعتِقُ على الإسلام عجائزَ ونساءً، قال: فقال له أبوه أبو قحافةَ: أي بُنيّ! لو أنَّك أعْتَقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبتِ، إنَّما أُريدُ ما يُريد[٤].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: بَذَلَ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: محارِمَ اللهِ التي نَهَى عنها. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخَلَفِ من الله تعالى على عطائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٩٩.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٢٨٧ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه): فمنكم مؤمنٌ وكافر وبرٌّ وفاجر.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٦، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٤) في (د): تريد. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤٨٧، ووقع عند الطبري: إنما أريد، أظنه قال: ما عند الله. وفي أسباب النزول إنما أريد ما أريد. وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٢) عن عبد الله بن الزبير ﷺ، وفيه: ...لو أعتقتَ مَن يمنع ظهرك، فقال: مَنْعَ ظهري أريد.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٦١-٤٦٢.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يومٍ يُصْبِحُ العبادُ فيه إلَّا وَمَلكانِ ينزلان، فيقولُ أحدُهما: اللهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخَرُ: اللهمَّ أعْطِ ممسكاً تَلَفاً»[١].

وروي من حديث أبي الدرداء: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما مِن يومٍ غَرَبَتْ شمسُه إلَّا بُعِثَ بجنَبَتَيها[٢] ملكان يناديان يَسْمَعُهما خَلْقُ اللهِ كلُّهم إلَّا الثَّقَلين: اللهم أعْطِ مُنْفقاً خَلَفاً، وأعْطِ ممسِكاً تلفاً» وأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ الآيات[٣].

وقال أهلُ التفسير: «فأمَّا مَن أعْطَى» المُعْسِرين. وقال قتادة: أعْطَى حقَّ اللهِ تعالى الذي عليه[٤]. وقال الحسن: أعْطَى الصِّدْقَ من قَلْبِه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلَّا اللهُ؛ قاله الضحَّاكُ والسُّلَميُّ وابنُ عباس أيضاً. وقال مجاهد: بالجنة، دليلُهَ قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية [يونس:٢٦]. وقال قتادةُ: بموعودِ اللهِ الذي وَعَدَه أنْ يُثيبه[٥]. زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم[٦]. الحسن: بالخَلَف من عطائه[٧]؛ وهو اختيارُ الطبريِّ[٨]. وتقدَّم عن ابن عباس، وكلُّه متقارِبُ المعنى؛ إذ كلُّه يرجعُ إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نُرشِدُه لأسبابِ الخيرِ والصَّلاح،

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٠)، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢)، وسلف ١/ ٣٨٠.

(٢) في (م): بجنبتها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦٥، وهو عند أحمد (٢١٧٢١) دون قوله: وأنزل الله...

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦١.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦١-٤٦٣ عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٨) في التفسير ٢٤/ ٤٦٥.

حتى يَسْهُلَ عليه فِعْلُها. وقال زيد بن أسلم: «لليسرى»: للجنة[١]. وفي الصحيحين والترمذيِّ عن عليٍّ ﷺ قال: كنَّا في جنازةٍ في البقِيع، فأتى النبيُّ ﷺ، فجلس وجَلَسْنا معه، ومعه عودٌ يَنْكُتُ به في الأرض، فرفَع رأسَه إلى السماء فقال: «ما مِن نَفْسٍ مَنفوسةٍ إلَّا [قد] كُتِب مَدْخَلُها» فقال القومُ: يا رسولَ الله، أفَلَا نَتَّكِلُ على كتابنا؟ فَمَن كان مِن أهل السعادةِ فإنه يعملُ للسعادة، ومَن كان مِن أهلِ الشقاءِ فإنَّه يعملُ للشقاء. قال: «بل اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّر؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السعادةِ فإنَّه يُيَسَّرُ لعملِ السعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشقاءِ فإنَّه ييسَّر لعملِ الشَّقاءِ ـ ثم قرأ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾» لفظُ الترمذيِّ. وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٢].

وسأل غلامان شابَّان رسولَ الله ﷺ فقالا: العملُ فيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ به المقاديرُ، أم في شيءٍ يُسْتَأْنَفُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل فيما جفَّتْ به الأقلامُ، وجَرَتْ به المقادير» قالا: ففيمَ العمل؟ قال: «اعمَلوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لعَمَله[٣] الذي خُلِقَ له» قالا: فالآنَ نَجِدُّ ونَعْمَلُ[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: ضَنَّ بما عنده، فلم يبذُلْ خيراً. وقد تقدَّم بيانُه وثمرتُه في الدنيا في سورة آل عمران[٥]. وفي الآخرة مَآلُه النارُ، كما في هذه الآية. روى الضحَّاكُ عن ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ قال: سوف أَحُولُ بينه وبينَ الإيمانِ بالله وبرسوله. وعنه عن ابن عباس قال: نزلت في أمية بنِ خلف[٦].

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٤)، وما سلف بين حاصرتين منه. وهو في صحيح البخاري (١٣٦٢) وصحيح مسلم (٢٦٤٧)، وأخرجه أحمد (١٠٦٧).

(٣) في (م): لعمل، وفي (ظ): للعمل.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٧٣ .

(٥) ٥/ ٤٣٨ .

(٦) لم نقف عليه عن ابن عباس وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٥٠ عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: يعني بذلك أمية وأُبيًّا ابني خلف.

وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يقول: بَخِل بمالِه، واستغنى عن ربِّه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالخَلَف(١).

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: «وكذب بِالحسنى» قال: بالجنة(٢). وبإسنادٍ آخرَ عنه قال: «بالحسنى»، أي: بلا إله إلا الله. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أي: نسهِّلُ طريقَه ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أي: للشَّر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي: فسنعسِّرُ عليه أسبابَ الخيرِ والصلاحِ حتى يصعب عليه فِعْلُها(٣). وقد تقدَّم أنَّ الملك ينادي صباحاً ومساءً: «اللهمَّ أعْطِ منفقاً خَلَفاً، وأعْطِ ممسِكاً تلفاً». رواه أبو الدَّرداء.

مسألة: قال العلماء: ثَبَتَ بهذه الآيةِ وبقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة: ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات، أنَّ الجودَ من مكارمِ الأخلاقِ، والبخلَ من أرْذَلها. وليس الجوادُ الذي يعطي في غيرِ موضعِ العطاء، ولا البخيلُ الذي يَمنعُ في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضعِ العطاء، والبخيل الذي يمنعُ في موضع العطاء، فكلُّ مَن استفاد بما يعطي أجراً وحَمْداً فهو الجوادُ. وكلُّ مَن استحقَّ بالمنع ذمًّا أو عقاباً فهو البخيل. ومَن لم يَسْتفِدْ بالعطاء أجراً ولا حَمْداً، وإنَّما استوجب به ذمًّا فليس بجواد، وإنَّما هو مُسْرِفٌ مذمومٌ، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوانَ الشياطين، وأوْجَبَ الحَجْرَ عليهم. ومَن لم يستوجبْ بالمنع عقاباً ولا ذمّاً، واستوجب به حَمْداً، فهو مِن أهلِ الرشدِ، الذين يستحقُّون القيامَ على أموالِ غيرِهم، بحُسْنِ تَدْبيرِهم وسَدَادِ رأيهم(٤).

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦٧-٤٦٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٨ ، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ .

(٤) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٤٠٤ .

الرابعة: قال الفرَّاء: يقول القائل: كيف قال: «فسنيسِّره للعُسْرَى»؟ وهل في العُسْرى تيسيرٌ؟ فيقالُ في الجواب: هذا في إجازته بمنزلةِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] والبِشارةُ في الأصل على المُفرِحِ والسارِّ، فإذا جُمع في كلامين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاءت البشارةُ فيهما، وكذلك التيسيرُ في الأصل على المفرح، فإذا جُمع في كلامين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاء(١) التيسيرُ فيهما جميعاً. قال الفرَّاء: وقولُه تعالى: «فسنيسِّره»: سَنُهيِّئُه. والعربُ تقول: قد يَسَّرَتِ الغنم: إذا وَلَدتْ أو تهيَّأَتْ للولادة؛ قال:

هما سيِّدانا يزعمان وإنَّما ... يَسُودانِنا أنْ يَسَّرتْ غَنماهما(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: مات. يقال: رَدِيَ الرجلُ يَرْدَى رَدًى: إذا هلك. قال:

صَرَفتُ الهوى عنهنَّ من خشيةِ الرَّدى(٣)

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: «إذا تردَّى» أي: سَقَطَ في جهنم(٤)؛ ومنه المتردِّية(٥). ويقال: رَدَى في البئر وتردَّى: إذا سقط في بئر، أو تهوَّر من جبل. يقال:

---

(١) في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧١: جاز.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧١، والبيت لأبي أسيدةَ الدُّبَيْري، كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ١/ ١٣٥، واللسان (يسر).

(٣) وعجزه: ولست بمَقْليِّ الخلالِ ولا قالِ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٥. قال الشارح: الخلال: المصادقة، والمعنى: صرفت الهوى عنهن لا لأنني قليتهن ولا لأنهن قَلَيْنني، ولكن خشية الافتضاح والعار.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٩، وأخرجه عن أبي صالح الطبري ٢٤/ ٤٧٤.

(٥) هي التي تطيح في بئر فتموت. تاج العروس (ردى).

ما أدري أين رَدَى؟ أي: أين ذهب[١].

و«ما»: يحتملُ أن تكون جَحْداً، أي: ولا يغني عنه مالُه شيئاً. ويَحتمِلُ أن تكون استفهاماً معناه التوبيخ، أي: أيُّ شيءٍ يغني عنه إذ هلك ووقع في جهنم!

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إنَّ علينا أن نُبَيِّن طريق الهُدَى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيانِ الأحكام؛ قاله الزجاج[٢]. أي: على الله البيانُ، بيانُ حلالِه وحرامه، وطاعتِه ومعصيته. وقاله قتادة[٣].

وقال الفرَّاء[٤]: مَن سلك الهُدى فعَلَى الله سبيلُه؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] يقولُ: مَن أراد الله فهو على السبيل القاصِد.

وقيل: معناه إنَّ علينا لَلهُدى والإضلالَ، فتَرَكَ الإضلالَ، كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وبيده كلُّ شيءٍ. وكما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهي تقي البردَ؛ عن الفرَّاء أيضاً[٥].

وقيل: أي: إنَّ علينا ثوابَ هُدَاه الذي هديناه.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ «لَلآخِرَةَ»: الجنة. «والأولى»: الدنيا. وكذا روى عطاءٌ عن ابن عباس، أي: الدنيا والآخرةُ لله تعالى.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] فمن طلبهما من غير مالِكِهما فقد أخطأ الطَّريق.

---

(١) الصحاح (ردى).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٣٦ دون قوله: فالهدى بمعنى بيان الأحكام.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٧٥ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ .

(٥) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: حذَّرتكم وخوَّفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تَلَهَّبُ وتتوقَّد. وأصلُه: تتلظَّى؛ وهي قراءةُ عُبيد بنِ عُمير، ويحيى بنِ يعمر، وطلحةَ بنِ مصرف[1].

﴿لَا يَصْلَاهَآ﴾ أي: لا يَجِدُ صَلاَها، وهو حرُّها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الشَّقيُّ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ نبيَّ اللهِ محمداً ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أَعْرضَ عن الإيمان.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: كلٌّ يدخُلُ الجنةَ إلَّا مَن أباها. قالوا: يا أبا هريرةَ، ومَن يأبى أن يدخلَ الجنة؟! قال: الذي كَذَّب وتَوَلَّى[2].

وقال مالك: صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز المغربَ، فقرأ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وقع عليه البكاءُ، فلم يَقْدِر[3] يتعدَّاها من البكاء، فتركها وقرأ سورةً أخرى.

وقال الفرَّاء[4]: «إلَّا الأشقى»: إلَّا مَن كان شقيًّا في عِلْم اللهِ جلَّ ثناؤه.

وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس قال: «لا يَصْلاها إلَّا الأشقَى» أميةُ بنُ خلف ونظراؤه الذين كذَّبوا محمداً ﷺ[5]. وقال قتادةُ: كذَّب بكتاب الله، وتولَّى عن طاعة الله[6].

وقال الفرَّاء[7]: لم يكن كذَّب بردٍّ ظاهِرٍ، ولكنَّه قصَّر عمَّا أُمِر به من الطاعة،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٧٧ .

(٣) قوله: يقدر، ليس في (ظ).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٢٠٣ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٠ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢ ، وذكره عنه أيضاً الطبري ٢٤/ ٤٧٧ .

فجُعِل تكذيباً، كما تقول: لقِي فلانٌ العدوَّ فكذَّب: إذا نَكَلَ ورجع عن اتِّباعه[١].
قال: وسمعتُ أبا ثروان[٢] يقول: إنَّ بني نُمَيْر ليس لِجدِّهم[٣] مكذوبةٌ. يقول: إذا لَقُوا صَدَقوا القتالَ، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢] يقول: هي حقٌّ.

وسمعتُ سلم بن الحسن يقول: سمعتُ أبا إسحاقَ الزجَّاج يقول: هذه الآيةُ التي مِن أجْلِها قال أهلُ الإرْجاءِ بالإرجاء، فزَعَموا أنه لا يدخلُ النارَ إلَّا كافرٌ؛ لقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وليس الأمرُ كما ظنُّوا، هذه نارٌ موصوفةٌ بعينها، لا يَصْلَى هذه النارَ إلَّا الذي كذَّب وتولَّى. ولأهلِ النارِ مَنازِلُ؛ فمنها أنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، واللهُ سبحانه كلُّ ما وَعَدَ عليه بجنسٍ من العذاب فجائزٌ[٤] أن يعذِّب به. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلو كان كلُّ مَن لم يُشْرِكْ لم يعذَّب، لم يكن في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدةٌ، وكان «يغفرُ ما دون ذلك» كلاماً لا معنى له[٥].

الزَّمَخْشريُّ[٦]: الآيةُ واردةٌ في الموازنة بين حالتي عظيمٍ من المشركين وعظيمٍ من المؤمنين، فأُريدَ أن يبالَغَ في صفتيهما المتناقِضَتين، فقيل: الأشقى، وجُعل

---

(١) قوله عن اتباعه، ليس في معاني القرآن للفراء وتفسير الطبري.

(٢) العُكْلي، وكان أعرابياً بدوياً فصيحاً، وله من الكتب: كتاب خلق الفرس، وكتاب معاني الشعر. معجم الأدباء ٧/ ١٤٨ .

(٣) اختلفت هذه الكلمة في المصادر، فوقع في بعضها: لجدهم، بالجيم كما هنا، وفي بعضها لحدهم بالحاء ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٧ ، والصحاح وأساس البلاغة واللسان (كذب).

(٤) في (ظ): فجدير.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٦ ، وسقط منه قوله: كلاماً لا معنى له. ولم نقف على القائل: سمعت سلم بن الحسن.

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٦٢ .

مختصًا بالصَّلْي، كأنَّ النار لم تُخْلَق إلَّا له. وقيل: الأَتْقى، وجُعل مختصًا بالجنة، كأنَّ الجنةَ لم تُخْلَق إلَّا له. وقيل: هما أبو جهلٍ أو أميةُ بن خلف، وأبو بكر ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يكون بعيداً منها. ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أي: التَّقيُّ الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر ﷺ[1]، يزحْزَحُ عن دخولِ النار. ثم وصفَ الأتْقى فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يطلبُ أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلبُ بذلك رياءً ولا سمعةً، بل يتصدَّقُ به مُبتغياً به وجهَ الله تعالى.

وقال بعضُ أهلِ المعاني: أراد بقوله: «الأتقى» و«الأشقى»، أي: التقيُّ والشقيُّ، كقول طَرَفة:

تـمـنَّـى رجـالٌ أن أمـوتَ وإن أمُـتْ فـتـلـك سـبـيـلٌ لَـسْـتُ فـيـهـا بـأوْحَـدِ[2]

أي: واحد ووحيد، وتوضع «أفْعَل» موضعَ فعيلٍ، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى: كبير، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] بمعنى: هين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ليس يتصدَّقُ ليُجازِيَ على نعمةٍ، وإنَّما يبتغي وجهَ ربِّه الأعلى، أي: المُتعالي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: بالجزاء. فروى عطاءٌ والضحاكُ عن ابن عباس قال: عَذَّب المشركون بلالاً، وبلالٌ يقول:

---

(١) أخرجه ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٠. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٩٢: لم يختلف أهل التأويل أن المراد بالأتقى إلى آخر السورة أبو بكر الصديق ﷺ، ثم هي تتناول كلَّ من دخل في هذه الصفات.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٧٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢، والبيت ليس في ديوان طرفة. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ لمالك بن القَيْن. وسلف ١٦/ ٤١٨. وهو في ديوان عبيد ابن الأبرص ص٦٨ برواية: تمنى مُرَيْءُ القيس موتي وإن أمت...

أحدٌ أحد؛ فمرَّ به النبيُّ ﷺ فقال: «أحدٌ ـ يعني الله تعالى ـ يُنجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر إنَّ بلالاً يعذَّبُ في الله» فعرَفَ أبو بكر الذي يريدُ رسولُ الله ﷺ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بنِ خلف، فقال له: أتبيعُني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلَّا لِيَدٍ كانت له عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ أي: عند أبي بكر ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾ أي: من يدٍ ومِنَّة ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ بل ابْتَغَى بما فَعَل وجْهَ ربِّه الأعلَى[١].

وقيل: اشترى أبو بكر من أميةَ وأبيّ بنِ خلف بلالاً ببردةٍ وعَشْرِ أَوَاقٍ، فأعتقه لله، فنزلت: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[٢].

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أنَّ أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبِيعُنِيه؟ فقال: نعم، أبيعُه بنِسطاس، وكان نِسْطاس عبداً لأبي بكر، صاحبَ عشرةِ آلافِ دينار، وغلمان وجَوَارٍ ومَواشٍ، وكان مشركاً، فحمَله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له مالُه، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فَعل أبو بكر ببلالٍ هذا إلَّا ليدٍ كانت لبلالٍ عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾[٣].

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ أي: لكن ابتغاءَ، فهو استثناءٌ منقطِعٌ؛ فلذلك نُصبت. كقولك: ما في الدار أحدٌ إلَّا حماراً. ويجوزُ الرفع. وقرأ يحيى بن وثاب: «إلا ابتغاءُ وجهِ ربِّه» بالرفع[٤]، على لغةِ مَن يقول: يجوزُ الرفعُ في المستثنى. وأنشد في اللغتين قول بشر ابنِ أبي خازم:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٨٨ .

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٦ عن ابن مسعود ﷺ، وزاد في آخره: سَعْيَ أبي بكر وأمية ابن خلف. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٧ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والكشاف ٤/ ٢٦٢ والكلام منه.

أضحتْ خَلاءً قِفاراً لا أنيسَ بها ... إلَّا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ[١]

وقول القائل:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلَّا اليعافيرُ وإلَّا العيسُ[٢]

وفي التنزيل: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وقد تقدَّم.

﴿وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: مَرْضاته وما يقرِّب منه. و«الأعلى» من نَعْتِ الربِّ الذي استَحَقَّ صفاتِ العُلُو.

ويجوزُ أن يكون «ابتغاءَ وجهِ ربِّه» مفعولاً له على المعنى؛ لأنَّ معنى الكلام: لا يؤتي مالَه إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّه، لا لمكافأةِ نِعَمِه[٣].

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: سوف يُعْطيهِ في الجنة ما يَرْضَى؛ وذلك أنَّه يعطيه أضعافَ ما أنفق. وروى أبو حَيّان التيميُّ عن أبيه عن عليٍّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله أبا بكر! زوَّجني ابنتَه، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله»[٤].

ولمَّا اشتراه أبو بكر قال له بلال: هل اشتريتَني لعَمَلك أو لعملِ الله؟ قال: بل لعملِ الله. قال: فذَرْني وعَمَلَ اللهِ، فأعتقه[٥].

---

(١) ديوان بشر ص١٥٨ ، والكشاف ٤/ ٢٦٢ ، ووقع في الديوان: الجوازئ، بدل: الجآذر، والجآذر جمع جُؤذُر ـ وتفتح الذال ـ وهو ولد البقر الوحشي. والجوازئ. الوحش. والظلمان جمع ظليم، وهو الذكر من النَّعام. القاموس (جذر) و(جزأ) و(ظلم).

(٢) البيت لِجرَان العَوْدِ النُّميري، وهو في ديوانه ص٩٧ ، والكتاب ٢/ ٣٢٢ ، والكشاف ٤/ ٢٦٢ ، وسلف ٦/٧ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٦٢ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٣٧١٤)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢١٠ ، وابن عدي ٦/ ٢٤٣٧ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٤١٠) من طريق المختار بن نافع عن أبي حيان التميمي به. قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والمختار بن نافع شيخ بصري كثير الغرائب. وقال ابن الجوزي: هذا الحديث يعرف بمختار، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: كان يأتي بالمناكير عن المشاهير حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك.

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٥) بلفظ: إن كنتَ إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعَمَلَ الله. وذكر الحافظ في الفتح ٧/ ٩٩ أن قوله ذلك لأبي بكر كان في خلافة أبي بكر، =

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أبو بكرٍ سيدُنا وأعْتقَ سيدّنا. يعني بلالاً ﷺ[١].

وقال عطاء ـ وروي عن ابن عباس ـ: إنَّ السورة نزلت في أبي الدَّحْداح، في النخلة التي اشتراها بحائطٍ له، فيما ذَكَر الثعلبيُّ عن عطاء ـ وقال القشيريُّ عن ابن عباس: بأربعين نخلةً، ولم يسمِّ الرجل[٢] ـ قال عطاء: كان لرجلٍ من الأنصار نخلةٌ يسقطُ مِن بَلَحِها في دارِ جارٍ له، فيتناولُهُ صبيانُه، فشكا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «تبيعُها بنخلةٍ في الجنة؟» فأبَى، فخرج فلَقِيه أبو الدَّحداحِ فقال: هل لك أن تَبيعَنيْها بـ«حُسْنَى» ـ حائطٍ له ـ فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحداحِ إلى النبيِّ ﷺ وقال يا رسول الله، اشْتَرِها منِّي بنخلةٍ في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده» فقال: هي لك يا رسول الله. فدعا النبيُّ ﷺ جارَ الأنصاريِّ، فقال: «خُذْها» فنزلت: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إلى آخِرِ السورة في بستان أبي الدَّحْداحِ وصاحبِ النخلة. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ يعني أبا الدَّحداح ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ يعني: الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يعني الأنصاريَّ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ يعني: جهنم ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: مات. إلى قوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ يعني: بذلك الخَزْرجيَّ؛ وكان منافقاً، فمات على نفاقه. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ يعني: أبا الدحداح ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ في ثمنِ تلك النخلةِ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ يكافئُه عليها، يعني أبا الدَّحداح. ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ إذا أدْخلَه الله الجنة[٣].

والأكثرُ أنَّ السورةَ نزلتْ في أبي بكرٍ ﷺ. ورُوي ذلك عن ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ وعبدِ الله بنِ الزبير وغيرِهم[٤]. وقد ذَكَرْنا خبراً آخرَ لأبي الدَّحْداحِ في سورة البقرة، عند قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الآية: ٢٤٥] والله تعالى أعلم.

= بدليل الرواية الأخرى: قال بلال لأبي بكر حين توفي رسول الله ﷺ، أخرجها ابن سعد ٣/ ٢٣٨.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٤).

(٢) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٠٢، وابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ وضعفه، وقال ابن كثير: وهو حديث غريب جداً.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٥ إلى قوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

(٤) أخرجه عن عبد الله بن الزبير ﷺ الطبري ٢٤/ ٤٧٩، وسلف قول ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾

مكيَّةٌ، وآيُها إحدى وعِشرونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ أي: يغشَى الشَّمسَ، أو النَّهارَ، أو كلَّ ما يُواريهِ بظَلامهِ.

(٢) ـ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾: ظهرَ بزوالِ ظُلْمَةِ اللَّيلِ، أو: تبيَّنَ بطُلوعِ الشَّمسِ.

(٣) ـ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والقادرِ الذي خلقَ صِنْفَي الذَّكرِ والأنثى مِن كلِّ نوعٍ لهُ توالدٌ، أو آدمَ وحواءَ، وقيل: (ما) مَصدريَّةٌ.

(٤) ـ ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾: إنَّ مَساعِيَكُم لَأشتاتٌ مختلفةٌ، جمعُ شَتيتٍ.

(٥ ـ ٧) ـ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تفصيلٌ مبيِّنٌ لتشتُّتِ المساعِي، والمعنى: مَن أعطى الطَّاعةَ واتَّقى المعصيةَ وصدَّقَ بالكلمةِ الحُسنى، وهي ما دلَّت على حقٍّ ككلمةِ التَّوحيدِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ فسنهيِّئُهُ للخَلَّةِ التي تؤدِّي إلى يُسرٍ[1] وراحةٍ كدُخولِ الجنَّةِ؛ من يسَّرَ الفرسَ: إذا هيَّأَهُ للرُّكوبِ بالسَّرجِ واللِّجامِ.

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أُمِرَ بهِ ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ بشَهواتِ الدُّنيا عن نعيمِ العُقبى ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بإنكارِ مَدلولِها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾: للخَلَّةِ المؤدِّيةِ إلى العُسْرِ والشِّدَّةِ، كدُخولِ النَّارِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «خير».

(١١) ـ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ نفيٌ، أو استفهامُ إنكارٍ ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾: هلكَ، تفعَّلَ من الرَّدى، أو: تردَّى في حفرةِ القبرِ، أو قعرِ جهنَّمَ.

(١٢) ـ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ لَلإرشادَ إلى الحقِّ بمُوجَبِ قضائِنا، أو بمُقتضَى حِكمَتِنا.

أو: إنَّ علينا طريقةَ الهدى؛ كقولهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

(١٣) ـ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فنُعطي في الدَّارَينِ ما نشاءُ لِمَن نشاءُ، أو ثوابَ الهدايةِ للمُهتدينَ.

أو: فلا يضرُّنا تركُكُم الاهتداءَ.

(١٤ ـ ١٦) ـ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾: تتلَّهبُ ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: لا يَلْزَمُها مُقاسِيًا شدَّتَها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾: إلَّا الكافرُ؛ فإنَّ الفاسقَ وإنْ دخلَها لم يلزَمْها، ولذلكَ سمَّاهُ: أشقَى، ووصفَهُ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: كذَّبَ الحقَّ وأعرضَ عن الطَّاعةِ.

(١٧) ـ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾: الذي اتَّقى الشِّركَ والمعاصيَ؛ فإنَّهُ لا يَدْخُلُها فضلًا أن يَدْخُلَها ويَصْلاها، ومفهومُ ذلكَ: أنَّ مَن اتَّقى الشِّركَ دونَ المعصيةِ لا يُجَنَّبُها، ولا يلزَمُ ذلكَ صُلِيَّها، فلا يخالفُ الحصرَ السَّابقَ.

(١٨) ـ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾: يَصْرِفُهُ في مَصارفِ الخيرِ، لقولِهِ: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ فإنَّهُ بدلٌ مِن ﴿يُؤْتِى﴾ أو حالٌ مِن فاعلِهِ.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فيَقصدَ بإيتائِهِ مجازاتَها ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ، أو مُتَّصِلٌ عَن محذوفٍ مثلَ: لا يُؤتي إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّهِ لا لِمُكافأةِ نعمةٍ.

(٢١) - ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وعدٌ بالثَّوابِ الذي يُرضيهِ.

والآياتُ نزلَتْ في أبي بكرٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ حينَ اشترى بلالًا في جماعةٍ يُؤذيهم[١] المشركونَ فأعتقَهُم[٢]، ولذلكَ قيلَ: المرادُ بـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: أبو جهلٍ أو أميَّةُ بنِ خلفٍ.

عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ أعطاهُ اللهُ حتَّى يرضى وعافاهُ من العسرِ ويسَّرَ لهُ اليسرَ»[٣].

* * *

---

(١) في بعض النسخ: «تولاهم»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته» قال: قوله: «تولاهم المشركون»؛ أي: كانوا موالي لهم، يعني: أنهم ملكوهم، وفي نسخة: «يؤذيهم المشركون».

(٢) رواه الآجري في «الشريعة» (٤/ ١٨٢٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤٥٨) عن سعيد بن المسيب، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤٣٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٠١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٢) سورة الليل مكية
وآياتها إحدى وعشرون

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ
أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ
بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

اقسم تعالى بالليل ﴿ إذا يغشى ﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه، ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي بضيائه وإشراقه، ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾، ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ بالمجازاة على ذلك أي بالثواب، وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ أي بالخُلْف، وقال الضحّاك: بلا إله إلا الله، وقال أُبيّ بن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: « الحسنى : الجنة »[1]. وقوله تعالى: ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة ، ﴿ وأما من بخل ﴾ أي بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عزّ وجلّ: ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي لطريق الشر، كما قال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عزّ وجلّ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة . روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار »، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »، ثم قرأ: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى – إلى قوله – للعسرى ﴾[1]، وفي رواية أخرى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: « ما منكم من أحد – أو ما من نفس منفوسة – إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء »، ثم قرأ: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ۝ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[2]. وعن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: « لأمر قد فرغ منه » فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: « كل عامل ميسر لعمله »[3]. وفي الحديث: « ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً » وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ۝ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[4]. وذكر أن هذه الآية نزلت في (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه كان يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت الآية: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ قال مجاهد: أي إذا مات، وقال زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

قال قتادة ﴿ إن علينا للهدى ﴾: أي نبيّن الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما، وقوله تعالى: ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ قال مجاهد: أي توهج، وفي الحديث: « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » أخرجه البخاري. وفي رواية

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري وبقية الجماعة.
(٣) رواه مسلم وابن جرير.
(٤) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.
(٥) أخرجه ابن جرير.

لمسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»[١]. وقوله تعالى: ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ أي لا يدخلها إلا الأشقى، ثم فسره فقال: ﴿الذي كذب﴾ أي بقلبه ﴿وتولى﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية»[٢]. وقال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٣]، وقوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي ليس بذله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً، وإنما دفعه ذلك ﴿ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإنه كان صدّيقاً تقياً، كريماً جواداً، بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، وكان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له (عروة بن مسعود) وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصدّيق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى ۝ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ۝ ولسوف يرضى﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة يا عبدالله هذا خير»، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم»[٤].

[آخر تفسير سورة الليل، ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه الشيخان.

تفسير سورة الليل[١]

وهى مكية .

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فهلا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ، و ﴿ اَللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪ ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقنى جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبى الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ ؟ قال علقمة : «والذكر والأنثى ». فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، فما زال هؤلاء حتى شككونى . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذى لا يعلمه أحد غيره ، والذى أجير من الشيطان على لسان النبى ﷺ ؟ [٢] .

وقد رواه البخارى هاهنا ومسلم ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبى الدرداء ، فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ،قال: أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة ، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ قال : «والذكر والأنثى ».قال : أشهد أنى سَمعت رسولَ الله ﷺ يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدونى أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ ، والله لا أتابعهم [٣] .

هذا لفظ البخارى:هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء ــ ورفعه أبوالدرداء ــ وأما الجمهور فقرؤوا ذلك كما هو مُثبت فى المصحف الإمام العثمانى فى سائر الآفاق :﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾،

---

(١) فى أ : « تفسير سورة والليل إذا يغشى » .

(٢) المسند (٦/ ٤٤٩) وتكملة الحديث « وصاحب الوساد : ابن مسعود ، وصاحب السر : حذيفة ، والذى أجير من الشيطان : عمار ».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٤) وصحيح مسلم برقم (٨٢٤) .

فأقسم تعالى بـ ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أى : إذا غَشىَ الخليقةَ بظلامه ، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أى : بضيائه وإشراقه ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾، كقوله : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النبأ:٨] ، وكقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات:٤٩] .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضادا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أى : أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة ، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره ، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالمجازاة على ذلك ــ قاله قتادة ، وقال خَصيف : بالثواب . وقال ابن عباس ، ومجاهد ،وعكرمة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالخلف . وقال أبو عبد الرحمن السلمى ، والضحاك : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بلا إله إلا الله . وفى رواية عن عكرمة : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بما أنعم الله عليه . وفى رواية عن زيد بن أسلم : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قال : الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا زُهَير بن محمد ، حدثنى مَن سَمِع أبا العالية الرياحى يُحدث عن أبى بن كعب قال : سألت رسولَ الله ﷺ عن الحسنى قال : « الحسنى : الجنة » [(١)] .

وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾:قال ابن عباس: يعنى للخير . وقال زيد بن أسلم :يعنى للجنة.

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة[(٢)] الحسنةُ بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ أى : بما عنده ، ﴿وَاسْتَغْنَى ﴾ : قال عكرمة ، عن ابن عباس : أى بخل بماله ، واستغنى عن ربه ، عز وجل . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أى : لطريق الشر، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠] ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ، عز وجل ، يُجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدّر ، والأحاديثُ الدالة على هذا المعنى كثيرة :

رواية أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عَيَّاش ، حدثنى العطاف بن خالد ، حدثنى رجل من أهل البصرة ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، عن أبيه قال : سمعت أبى يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال:« بل على أمر قد فُرغ منه».

---

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٦٩) ط ــ المعارف ، من طريق عمرو بن أبى سلمة عن زهير به .

(٢) فى أ : « عن ثواب الحسنى » .

قال : ففيم العملُ يا رسول الله ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » [١] .

رواية على ، رضى الله عنه : قال البخارى ، حدثنا أبو نعيم : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن سعد [٢] بن عبيدة ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على بن أبى طالب قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بَقيع الغَرْقَد فى جنازة ، فقال :« ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له». قال : ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ .وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ ،إلى قوله: ﴿ **لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [٣] .

وكذا رواه من طريق شعبة ووَكيع ، عن الأعمش ، بنحوه [٤] . ثم رواه عن عثمان بن أبى شيبة، عن جرير ، عن منصور ، عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن ، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ،فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخْصَرَةٌ فَنَكَسَ فجعل ينكُت بمخصرته ، ثم قال : « ما منكم من أحد ــ أو : ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل وندع العمل ؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء ؟ فقال : « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء » . ثم قرأ : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ .وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ الآية [٥] .

وقد أخرجه بقية الجماعة ، من طرق ، عن سعد بن عبيدة ، به [٦].

رواية عبد الله بن عمر : وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ،حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال : سمعتُ سالم بنَ عبد الله يُحدث عن ابن عُمرَ : قال : قال عمر : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ؟ أفى أمر قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : « فيما قد فُرِغَ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كُلا مُيَسَّر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء » .

ورواه الترمذى فى القدر ، عن بُندار ، عن ابن مَهْدِى ، به [٧] وقال : حسن صحيح .

حديث آخر من رواية جابر : قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو ابن الحارث ، عن أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله أنه قال : يا رسول الله ، أنعمل لأمر قد فرغ

---

(١) المسند (١/ ٥) .

(٢) فى م : « سعيد » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٥) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٦، ٤٩٤٧) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٨) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (٧٨) .

(٧) المسند (٢/ ٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢١٣٥) .

منه ، أو لأمر نستأنفه ؟ فقال : « لأمر قد فرغ منه » . فقال سراقة : ففيم العمل إذاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كل عامل مُيَسَّر لعمله » .

ورواه مسلم عن أبى الطاهر ، عن ابن وهب ، به [(١)] .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنى يونس ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن طلق ابن حبيب ، عن بشير [(٢)] بن كعب العدوى قال : سأل غلامان شابان النبى ﷺ فقالا : يارسول الله، أنعمل فيما جَفَّت به الأقلام وجَرَتْ به المقادير ، أو فى شىء يستأنف ؟ فقال : « بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير » . قالا : ففيم العمل إذاً ؟ قال : « اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذى خلق له » . قالا : فالآن نجد ونعمل [(٣)] .

رواية أبى الدرداء : قال الإمام أحمد : حدثنا هَيْثَم [(٤)] بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمى ، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبس ، عن أبى إدريس ، عن أبى الدرداء قال : قالوا : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل ، أمر قد فُرغ منه أم شىء نستأنفه ؟ قال : « بل أمر قد فرغ منه » . قالوا: فكيف بالعمل يا رسول الله ؟ قال : « كل امرئ مهيأ لما خلق له » [(٥)] .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنى الحسن بن سلمة بن أبى كَبْشَة ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، حدثنى خُلَيد العَصرى ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجَنْبَتَيْهَا ملكان يناديان بصوت يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً » . وأنزل الله فى ذلك القرآن : **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى .وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾** [(٦)] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبى كبشة ، بإسناده مثله .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنى أبو عبد الله الطهرانى ، حدثنا حفص بن عُمرَ العَدَانى، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رجلا كان له نخل ، ومنها نخلة فرعها إلى [(٧)] دار رجل صالح فقير ذى عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته ، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فنزل من نخلته فَنَزَعَ [(٨)] الثمرة من أيديهم ،وإن أدخل أحدهم

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٨) .

تنبيه : لم يقع ذكر سراقة فى رواية الطبرى ولا فى رواية أبى الطاهر فى صحيح مسلم ، وإنما وقع فى صحيح مسلم من طريق آخر .

(٢) فى أ : « بشر » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٤) .

(٤) فى أ : « حدثنا هشيم » .

(٥) المسند (٦/ ٤٤١) .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٢) .

(٧) فى م ، أ : « فى » .

(٨) فى أ : « فينزع » .

الثمرة فى فمه أدخل أصبعه فى حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه . فشكا ذلك الرجلُ إلى النبى ﷺ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبى ﷺ : « اذهب » . ولقى النبى ﷺ صاحب النخلة ، فقال له النبى ﷺ : « أعطنى نخلتك التى فرعها فى دار فلان ولك بها نخلة فى الجنة» فقال له : لقد أعطيت ، ولكن يعجبنى ثمرها ، وإن لى لنخلا كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلى ثمرة من ثمرها. فذهب النبى ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة . فقال الرجل : يا رسول الله ، إن أنا أخذت النخلة فصارت لى النخلة فأعطيتها أتعطينى بها ما أعطيته بها نخلة فى الجنة ؟ قال : « نعم » . ثم إن الرجل لقى صاحب النخلة ، ولكلاهما نخل، فقال له : أخبرك أن محمداً، [قد] (١) أعطانى بنخلتى المائلة فى دار فلان نخلة فى الجنة ، فقلت له : قد أعطيتُ ولكن يعجبنى ثمرها . فسكت عنه الرجلُ ، فقال له : أتُراك إذا بعتها ؟ قال: لا ، إلا أن أعطى بها شيئاً ، ولا أظننى أعطاه . قال : وما مناك بها (٢) ؟ قال : أربعون نخلة. فقال الرجل : لقد جئتَ بأمر عظيم،نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ؟! ثم سكتا وأنشأ فى كلام [آخر](٣) ، ثم قال: أنا أعطيتك أربعين نخلة ، فقال : أشهِدْ لى إن كنت صادقاً . فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أنى قد أعطيته من نخلى أربعين نخلة بنخلته التى فرعها فى دار فلان ابن فلان . ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت .ثم قال بعدُ : ليس بينى وبينك بيع لم تفترق قال(٤) له: قد أقالك الله ، ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة: قد رضيتُ على أن تعطينى الأربعين على ما أريد .قال : تعطينيها على ساق . ثم مكث ساعة، ثم قال : هى لك على ساق وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق ، فتفرقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن النخلة المائلة فى دار فلان قد صارت لى، فهى لك . فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النخلة لك ولعيالك » . قال عكرمة : قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ إلى قوله :﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ إلى آخر السورة (٥) .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، وهو حديث غريب جداً .

قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : حدثنى هارون ابن إدريس الأصم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جُلداَء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال: أىْ أبَت ، إنما أريد ــ أظنه قال ــ ما عند الله : قال : فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية

(١) زيادة من م . (٢) فى م ، أ : « فيها » .
(٣) زيادة من م . (٤) فى م : « فقال » .
(٥) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٥٣٢) وقال : « أخرج ابن أبى حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس » .

أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ : قال مجاهد : أى إذا مات . وقال أبو صالح ، ومالك عن زيد بن أسلم : إذا تردى فى النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ .

قال قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾أى : نبين الحلالَ والحرامَ . وقال غيره : من سَلَك طريق الهدى وَصَل إلى الله. وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ أى : الجميع ملكنا (٢)وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ : قال مجاهد : أى توهج .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سِماك بن حرب ، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يقول : « أنذركم النار [أنذرتكم النار، أنذرتكم النار] (٣) » حتى لو أن رجلا كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا. قال : حتى وقعت خَميصة كانت على عاتقه عند رجليه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ،حدثنى أبو إسحاق : سمعت النعمان ابن بشير يخطب ويقول : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منها دماغه » .

رواه البخارى (٥) .

وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ،عن أبى إسحاق ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يَغلى منهما دماغه كما يَغْلى المِرْجَل،ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً،وإنه لأهونهم عذابا»(٦) .

وقوله :﴿ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾ أى :لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسره فقال : ﴿الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أى : بقلبه ، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى : عن العمل بجوارحه وأركانه .

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٢) .

(٢) فى م : « ملكاً » .

(٣) زيادة من م ، أ ، والمسند .

(٤) المسند (٤/ ٢٧٢) .

(٥) المسند (٤/ ٢٧٤) وصحيح البخارى برقم (٦٥٦١،٦٥٦٢) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢١٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا عبد ربه[١] بن سعيد ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقى » . قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ،ولا يترك لله معصية » [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس وسُرَيج قالا : حدثنا فُلَيح، عن هلال بن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلامن أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » .

ورواه البخارى عن محمد بن سنان ، عن فُلَيح ،به [٣] .

وقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ أى : وسيُزَحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسره بقوله : ﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ؛ ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ أى :ليس بَذْله حاله [٤] فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها ،وأولى الأمة [٥] بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ ،ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريما جواداً بذالا لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم [٦] ودنانير [٧] بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده مِنّةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود ــ وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية ــ : أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجزك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دَعَته خَزَنَةُ الجنة : يا عبد الله ، هذا خير»، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : «نعم، وأرجو أن تكون منهم »[٨] .

آخر تفسير سورة « الليل » ولله الحمد والمنة [٩]

(١) فى أ : « حدثنا عبد الله » .
(٢) المسند (٢/ ٣٤٩) .
(٣) المسند (٢/ ٣٦١) وصحيح البخارى برقم (٧٢٨٠) .
(٤) فى أ : « ماله » .
(٥) فى أ : « الآية » .
(٦) فى م ، أ : « من درهم » .
(٧) فى أ : « ودينار » .
(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٤١) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٩) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل » .

سورة والَّيْلِ

مكيّة، وهي إحدى وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي: حين يغشى الشمسَ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس، ٤/٩١]، أو النهارَ، أو كلّ ما يُواريه بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهَر بزوال ظلمة الليل، أو تبيَّن وتكشَّف بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي: والقادر العظيم القدرةِ الذي خلَق صنفَي الذَّكر والأنثى مِن كلّ ما له توالد. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[١] وقُرئ: "وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى"،[٢] وقُرئ: "وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى".[٣] وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة.[٤]

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جواب القسم، و﴿شَتَّىٰ﴾ جمع شَتيت، أي: إنّ مساعيَكم لأشتاتٌ مختلفة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾... إلخ تفصيل لتلك المساعي المشتّتة وتبيين لأحكامها، أي: فأمّا مَن أعطى حقوق ماله، واتّقى محارم الله التي نهى عنها، وصدّق بالخصلة الحسنى وهي الإيمان، أو بالكلمة الحسنى

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعليّ وابن مسعود وأبي الدرداء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥١٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣١.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٠/٣.

وهي كلمة التوحيد، أو بالملّة الحسنى وهي ملّة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنّة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فسنُهيّئه للخصلة التي تؤدّي إلى يُسر وراحة، كدخول الجنّة ومباديه، مِن "يَسَّر الفرسَ للركوب" إذا أسرَجها وألجَمَها.

[٣٠٢ظ] / ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ أي: بماله فلم يبذله في سبيل الخير ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: زهِد فيما عنده تعالى كأنّه مستغنٍ عنه فلم يتّقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما ذُكر مِن المعاني المتلازمة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للخصلة المؤدّية إلى العُسر والشدّة، كدخول النار ومقدِّماته لاختياره لها.

ولعلّ تصديرَ القسمين بالإعطاء والبخل مع أنّ كلًّا منهما أدنى رتبةً ممّا بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى للإيذان بأنّ كلًّا منهما أصيل فيما ذُكر لا تتمّة لِما بعدهما مِن التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء.

وتفسير الأوّل بإعطاء الطاعة والثاني بالبخل بما أُمر به،[١] مع كونه خلاف الظاهر، يأباه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ أي: ولا يغني، أو أيُّ شيء يغني عنه ماله الذي يبخل به؟ ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: هَلَك، تفعّل مِن الردى الذي هو الهلاك، أو تردّى في الحفرة إذا قُبِر، أو تردّى في قعر جهنّم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله، أي: إنّ علينا بموجَب قضائنا المبنيّ على الحِكَم البالغة حيث خلقْنا الخَلْق للعبادة أن نبيِّن لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه مِن طريق الضلال وما يؤدّي إليه. وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنا حال مَن سَلَك كلا الطريقين ترغيبًا وترهيبًا، ومِن ههنا تبيَّن أنّ الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البغية لا الدلالة الموصلة إليها قطعًا.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التصرّف الكلّي فيهما كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء مِن الأفعال التي مِن جملتها ما وُعدنا مِن التيسير لليسرى والتيسير للعسرى. وقيل: إنّ لنا كلَّ ما في الدنيا والآخرة فلا يضرُّنا ترككم الاهتداءَ بهُدانا.[٢]

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٤٠-٥٤١. [٢] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٤١.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تتلظّى"، أي: تتلهّب. وقُرئ على الأصل.[1]

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ صُلِيًا لازمًا ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ إلّا الكافرُ، فإنّ الفاسق لا يصلاها صُلِيًا لازمًا. وقد / صرّح به قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذّب بالحقّ وأعرض عن الطاعة. [٣٠٣و]

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: سيُبعَد عنها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ المبالِغ في اتّقاء الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلًا عن دخولها أو صُلِيّها الأبديّ، وأمّا مَن دونه ممّن يتّقي الكفر دون المعاصي فلا يُبعَّد عنها هذا التبعيدَ، وذلك لا يستلزم صُلِيَّها بالمعنى المذكور، فلا يقدح في الحصر السابق. ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ يعطيه ويصرفه في وجوه البرّ والحسنات.

وقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ إمّا بدل مِن «يُؤْتِى» داخل في حُكم الصلة لا محلّ له، أو في حيّز النصب على أنّه حال مِن ضمير «يُؤْتِى»، أي: يطلب أن يكون عند الله تعالى زاكيًا ناميًا لا يريد به رياءً ولا[2] سُمعةً.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ استئناف مقرّر لكون إيتائه للتزكّي خالصًا لوجه الله تعالى، أي: ليس لأحد عنده نعمة مِن شأنها أن تُجزى وتُكافأ فيَقصِد بإيتاء ما يُؤتى مُجازاتَها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استثناء منقطِع مِن «نِعْمَةٍ». وقُرئ بالرفع[3] على البدل مِن محلّ «نِعْمَةٍ»، فإنّه الرفع إمّا على الفاعليّة أو على الابتداء،

---

١ قرأ بها رويس والبزي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٢، ٤٠١.

٢ س - لا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني ويحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣١.

و﴿مِن﴾ مزيدة. ويجوز أن يكون مفعولًا له؛ لأنّ المعنى: لا يُؤتي ماله إلّا ابتغاءَ وجه ربّه لا لمكافأة نعمةٍ.[1]

والآيات نزلت في حقّ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالًا في جماعة كان يُؤذيهم المشركون فأعتقهم، ولذلك قالوا: المراد بالأشقى أبو جهل أو أميّةُ بن خَلَف. وقد روى عطاءٌ والضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه عذّب المشركون بلالًا وبلالٌ يقول: «أَحَد أَحَد» فمرّ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أَحَدٌ، يعني الله تعالى، ينجيك»، ثمّ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «إنّ بلالًا يعذَّب في الله»، فعَرَف مراده عليه السلام، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلًا مِن ذهب ومضى به إلى أميّةَ بن خَلَف، فقال له: أتبيعني
[٣٠٣ظ] بلالًا؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، / فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلّا ليد كانت له عنده، فنزلت.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ جواب قسم مضمَر، أي: وبالله لسوف يرضى، وهو وعد كريم بنَيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقَّق الرِّضى. وقُرئ: "يُرْضَى"[3] مبنيًا للمفعول مِن "الإرضاء".

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أعطاه الله تعالى حتّى يرضى وعافاه مِن العسر ويسّر له اليُسر».[4]

---

[1] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٦/٤.

[2] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٧٩/٢٤-٤٨٠؛ في معالم التنزيل للبغوي، ٤٤٨/٨-٤٤٩؛ وبلفظه في اللباب لابن عادل، ٣٧٨/٢٠.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ٣٧٩/٢٠.

[4] س + والحمد لله ربّ العالمين. | الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣٨/٢٩ (الليل، ١/٩٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٤ (الليل، ١/٩٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٦/٤..وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٢

سورة والليل

مكية، وهي إحدى وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿واللَّيلِ إذا يَغشَى﴾ بظُلمته كُلّ ما بين السماء والأرض، ٢ ـ ﴿والنَّهارِ إذا تَجَلَّى﴾: تكشَّفَ وظهر ـ «وإذا» في الموضعين لمُجرّد الظرفيّة، والعاملُ فيها فعل القسم ـ ٣ ـ ﴿وما﴾ بمعنى: مَن أو مصدريّة ﴿خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثَى﴾ آدمَ وحواءَ أو كُلَّ ذكر وكُلَّ أُنثى ـ والخُنثى المُشكِلُ عِندنا: ذكرٌ أو أُنثى عِند الله تعالى. فيحنَثُ بتكليمه من حلف لا يُكلّم ذكرًا ولا أُنثى ـ ٤ ـ ﴿إنَّ سَعيَكُم﴾: عملكم ﴿لَشَتَّى﴾: مُختلِفٌ، فعامِلٌ للجنّة بالطاعة وعاملٌ للنار بالمعصية.

٥ ـ ﴿فأمّا مَن أعطَى﴾ حقَّ الله ـ تعالى ـ ﴿واتَّقَى﴾ اللهَ، ....

سُورَةُ اللَّيْلِ

قولُهُ: (كُلَّ ما) أي: كلَّ ما يوارِيه، أو الشَّمسَ أو النَّهارَ.

قولُهُ: (وظَهَرَ) بزوالِ ظلمَةِ اللَّيلِ، أو تبيَّنَ بطلوعِ الشَّمسِ.

قولُهُ: (بمَعنَى مَنْ) أي: والقادِرِ الذي خلقَ صنفَي الذَّكرِ والأنثى من كلِّ نوعٍ له توالُدٌ.

قولُهُ: (أو مَصدَرِيَّةٌ) أي: وخلقِ اللهِ الذَّكرَ والأنثى.

قولُهُ: (عَمَلَكُم) أي: مساعيَكُم.

قولُهُ: (مُختَلِفٌ) أي: لَأَشتاتٌ مُختلفَةٌ، جمعُ: شتيتٍ.

قولُهُ: (حَقَّ اللهِ) أو الطَّاعةَ.

قولُهُ: (اللهَ) أو المعصيةَ.

٦ ـ ﴿وصَدَّقَ بِالحُسنَى﴾ أي: بـ«لا إلـٰـهَ إلاّ اللهُ» في الموضعين، ٧ ـ ﴿فسَنُيَسِّرُهُ﴾: نهيّئه ﴿لِليُسرَى﴾: للجنّة، ٨ ـ ﴿وأمّا مَن بَخِلَ﴾ بحقّ الله ﴿واستَغنَى﴾ عن ثوابه، ٩ ـ ١٠ ـ ﴿وكَذَّبَ بِالحُسنَى، فسَنُيَسِّرُهُ﴾: نُهيِّئه ﴿لِلعُسرَى﴾: للنار، ١١ ـ ﴿وما﴾: نافية ﴿يُغنِي عَنهُ مالُهُ إذا تَرَدَّى﴾ في النار.

١٢ ـ ﴿إنَّ عَلَينا لَلهُدَى﴾: لَتبيينَ طريقِ الهُدى من طريق الضلال، ليُمتثل أمرُنا بسُلوك الأوّل ونهيُنا عن ارتكاب الثاني، ١٣ ـ ﴿وإنَّ لَنا لَلآخِرةَ والأُولَى﴾ أي: الدنيا. فمَن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ.

١٤ ـ ﴿فأنذَرتُكُم﴾: خوّفتكم، يا أهلَ مكّةَ، ﴿نارًا تَلَظَّى﴾ ـ بحذف إحدى التاءين من الأصل، وقُرئ بثبوتها ـ أي: تتوقّدُ، ١٥ ـ ﴿لا يَصلاها﴾: يدخلُها ﴿إلاّ الأشقَى﴾ بمعنى: الشقيّ، ١٦ ـ ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ النبيَّ ﴿وتَوَلَّى﴾ عن الإيمان. وهذا الحصر مُؤوّل لقوله تعالى: «ويَغفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشاءُ». فيكون المراد الصُّليَّ المُؤبّد.

قولُهُ: (أي: بِلا إلَهَ إلا اللهُ) يعني: بالكلمةِ الحسنى، ولعلَّ التَّرتيبَ الذكريَّ للتَّرقِّي.

قولُهُ: (للجَنَّةِ) أي: فسنهيِّئُهُ للخَلَّةِ التي تؤدِّي إلى يُسرٍ وراحَةٍ كدخولِ الجنَّةِ.

قولُهُ: (بحَقِّ اللهِ) أو بما أمرَ به.

قولُهُ: (عن ثَوَابِهِ) أي: بشهواتِ الدُّنيا عن نعيمِ العُقبى، أو استَغنى بمالِهِ عن التَّقوى.

قولُهُ: (نَافِيَةٌ) أو استفهاميَّةٌ إنكاريَّةٌ.

قولُهُ: (في النَّارِ) أي: سَقطَ فيها، أو في القَبرِ، أو هلكَ، تفعُّلٌ من الرَّدى؛ أي: الهلاكِ.

قولُهُ: (أي: الدُّنيَا) فنُعطِي في الدَّارينِ ما نشاءُ لمن نشاءُ.

قولُهُ: (فَقَد أَخطَأَ) أي: الطَّريقَ حيثُ طلبها من غيرِ مالكِها.

قولُهُ: (بثُبُوتِهَا) وقرأ البزِّي بتشديدِها وَصلاً[1].

قولُهُ: (أي: تَتَوَقَّدُ) وتتلهَّبُ.

قولُهُ: (بمَعنَى: الشَّقِي) أو أميَّةُ بنُ خَلَفٍ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ عن ابن مَسعودٍ[2]، وقيل: أبو جهلٍ، أو المعنى: لا يلزَمُها مقاسياً شدَّتَها إلا الكافِرُ، فإنَّ الفاسِقَ وإن دخلها لا يلزَمُها.

قولُهُ: (النَّبيَّ) أو الحَقَّ.

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) أو أعرَضَ عن الطَّاعَةِ.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٢٦).

(٢) ذكره السيوطي في «مفحمات الأقران» (ص: ١١٨).

١٧ ـ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: يُبعَدُ عنها ﴿الأتقى﴾ بمعنَى: التقيّ ١٨ ـ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾: مُتزكّيًا به عِند الله تعالى، بأن يُخرجه لله تعالى لا رِياءً ولا سُمعةً، فيكون زاكيًا عند الله تعالى ـ وهذا نزلَ في الصِّدِّيق ط لمّا اشترى بِلالاً المُعذَّب على إيمانه وأعتقَه، فقال الكُفّار: إنما فعل ذلك لِيدٍ كانت له عنده. فنزل ـ: ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿وما لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجزَى. إلاّ﴾: لكن فعلَ ذلك ﴿ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأعلَى﴾ أي: طلبَ ثوابِ الله. ٢١ ـ ﴿ولَسَوفَ يَرضَى﴾ بما يُعطَى من الثواب في الجنّة. والآية تشمل مَن فعل مِثل فِعله فيُبعَدُ عن النار ويُثاب.

قولُهُ: (بمَعنَى: التَّقِيِّ) أو الذي اتَّقى الشِّركَ والمعاصِي، فإنَّه لا يدخُلُها، فَضلاً عن أن يدخُلها ويَصلاها.

قولُهُ: (مُتَزَكِّياً) إشارَةٌ إلى أنَّ قوله: ﴿يَتَزَكَّى﴾ حالٌ من فاعِل: ﴿يُؤتِي﴾، وقيل: بدلٌ من: ﴿يُؤتِي﴾ قيلَ: الزُّهَّاد هم المتَّقونَ، والأتقى: من تَرَكها جملَةً وأعرَضَ عنها؛ كالصِّدِّيقِ أعطى الفانيَ وأبقَى لنفسِهِ الباقيَ.

قولُهُ: (بِلالاً) في جماعَةٍ يؤذِيهم[1] المشرِكونَ فأعتَقهُم.

قولُهُ: (لِيَد) أي: لمُكافأةِ نعمَةٍ، والله أعلمُ.

* * *

---

(١) في (م): «يعذبهم».

سُورَةُ اللَّيْلِ

لا خلافَ في أنها إحدى وعشرون آيةً، واختلف في مكيتها ومدنيتها، فالجمهورُ على أنها مكية، وقال عليّ بن أبي طلحة: مدنية. وقيل: بعضُها مكيٌّ وبعضها مدنيٌّ.

وكذا اختلف في سبب نزولها، فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق ﷺ، وروي ذلك بأسانيدَ صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما[1].

وقال السديُّ: إنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري، وذلك أنه كان في دارِ منافقٍ نخلةٌ يقعُ منها في دار يتامى في جواره بعضُ بلحٍ، فيأخذه منهم، فقال له ﷺ: «دعها لهم ولك بدلها محلٌّ في الجنة» فأبى، فاشتراها أبو الدحداح بحائطها، فقال للنبيّ ﷺ: أَهَبُها لهم بالنخلة التي في الجنة، فقال ﷺ: «افعل» فوهبها فنزلت[2]، وروى نحوه مطوّلاً مبهماً فيه أبو الدحداح ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس بسندٍ ضعيفٍ كما نص عليه الحافظ السيوطيُّ[3].

وذكر بعضُهم أنَّ قوله تعالى فيها: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلخ نزل في أبي بكر الصديق ﷺ، وسكت عمّا عداه، ونُقِلَ عن بعض المفسِّرين أنَّ هذا مُجمعٌ عليه، وإن زَعَمَ بعضُ الشيعة أنه نزل في الأمير كرم الله تعالى وجهه، وسيأتي إن شاء الله تعالى شرحُ ما له نزل.

---

(١) أخرجه عن ابن مسعود ابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ٦/٣٥٨، والواحدي في أسباب النزول ص٤٨٦، وذكره عن ابن عباس الواحدي أيضاً ص ٤٨٨.

(٢) ذكره عن السدي أبو حيان في البحر ٨/٤٨٣.

(٣) في الدر المنثور ٦/٣٥٧، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: وهو حديث غريب جدًا.

ولَمّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلها «قد أفلح» إلخ ذَكَرَ سبحانه فيها من الأوصاف ما يحصلُ به الفلاح، وما يحصل به الخيبة، ففيها نوعُ تفصيلٍ لذلك، لاسيما وقد عقَّبَ جلَّ وعلا ذلك بشيءٍ من أنواع الفلاح وأنواع الخيبة والعياذ بالله تعالى، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ أي: حين يغشى الشمسَ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو النهار كقوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] أو كلَّ ما يواريه في الجملة بظلامه، والمقسَمُ به في الأوجه الثلاثة الليلُ كلُّه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ ظَهَرَ بزوال ظُلْمة الليل، أو تبيَّن وانكشفَ بطلوع الشمس، والأولُ على تقدير كون المغشيِّ النهار، أو كلَّ ما يُوارَى؛ إذ مآلهما اعتبارُ وجود الظلام، والثاني على تقدير كونه الشمس؛ إذ مآله اعتبار غروبها، فيحسُنُ التقابلُ بين القرينتين على ذلك.

واختلافُ الفعلين مُضِيًّا واستقبالاً قد تقدم الكلام فيه.

وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: «تتجلى» بتاءين، على أنَّ الضميرَ للشمس، وقرئ: «تُجْلَى» بضم التاء وسكون الجيم، على أنَّ الضميرَ لها أيضاً[1].

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ أي: والقادرِ العظيمِ القدرةِ الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من الحيوان المتَّصف بذلك. وقيل: من بني آدم.

وقال ابن عباس والحسن والكلبي: المراد بالذَّكر آدمُ عليه السلام، وبالأنثى حواء رضي الله عنها.

وأيًّا ما كان فـ «ما» موصولةٌ بمعنى: «مَنْ»، وأُوثرت عليها لإرادة الوصفية على ما سمعتَ، وتحتملُ المصدريةَ وليس بذاك.

---

(١) القراءتان في البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

وقرئ: «والذي خلق»[(١)]، وقرأ ابن مسعود: «والذَّكر والأنثى»[(٢)] وتبعه ابن عباس كما أخرج ذلك ابن النجار في «تاريخ بغداد» من طريق الضحاك عنه[(٣)]، ونُسبت لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه[(٤)].

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرهم عن علقمةَ أنه قَدِمَ الشام فجلسَ إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، فقال له أبو الدرداء: ممن[(٥)] أنت؟ فقال: من أهل الكوفة. قال: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقرأ[(٦)]: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾. قال علقمة: «والذكر والأنثى». فقال أبو الدرداء: أشهدُ أني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني على أن أقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ والله لا أتابعهم.

وأنت تعلم أنَّ هذه قراءةٌ شاذَّةٌ منقولةٌ آحاداً لا تجوزُ القراءةُ بها، لكنها بالنسبة إلى مَنْ سَمِعها من النبيِّ عليه الصلاة والسلام في حُكْمِ المتواترة، تجوزُ قراءته بها.

وذكر ثعلبُ أنَّ من السلف مَنْ قرأ: «وما خَلَقَ الذكرِ» بجرِّ الراء، وحكاها الزمخشريُّ عن الكسائي[(٧)]، وخرَّجوا ذلك على البدل من «ما» بمعنى: وما خلقه الله، أي: ومخلوقِ الله الذَّكرِ والأنثى، قيل: وقد يُخرَّجُ على توهُّم المصدر بناءً على مصدرية «ما»، أي: وخَلْقِ الذكر والأنثى، كما في قوله:

---

(١) القراءة في الكشاف ٤/ ٢٦٠، والتفسير الكبير ٣١/ ١٩٩، منسوبة لابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٤.
(٣) عزاه له السيوطي في الدر ٦/ ٣٥٨ وجاء فيه أنه كان يقرأ على قراءة زيد بن ثابت إلا ثمانية عشر حرفاً، أخذها من قراءة عبد الله بن مسعود. وعدّ منها هذه القراءة.
(٤) المحتسب ٢/ ٣٦٤.
(٥) في (م): فمن.
(٦) كذا في الأصل و(م): والذي في المصادر: كيف سمعت عبد الله يقرأ. والحديث عند البخاري (٤٩٤٣)، ومسلم (٨٢٤)، والترمذي (٢٩٣٩)، والنسائي في الكبرى (١١٦١٢)، وأحمد (٢٧٥٣٥).
(٧) الكشاف ٤/ ٢٦٠-٢٦١، وذكرها عن الكسائي أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٤، وذكر كلام ثعلب ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٣٦٤.

تطوفُ العُفاة بأبوابه كما طافَ بالبِيعة الراهبِ[1]

بجَرِّ الراهب على توهُّم النطق بالمصدر، أي: كطواف الراهب بالبيعة[2].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ أي: مساعيكم، فإنَّ المصدرَ المضافَ يفيدُ العمومَ، فيكونُ جَمْعاً معنى، ولذا أُخبر عنه بجمعٍ، أعني: قوله تعالى: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ فإنه جَمْعُ شتيت بمعنى متفرِّق. ويجوز أن لا يُعتَبَر «سعيكم» في معنى الجمع، ويكون «شتى» مصدراً مؤنَّثاً كَذِكْرى وبُشْرى خبراً له بتقدير مضاف، أي: ذو شتَّى، أو بتأويله بالوصف، أي: شتيت، أو بجعله عينَ الافتراق مبالغةً.

وأيًّا ما كان فالجملةُ جوابُ القَسَم كما أخرجه ابن جرير عن قتادة[3]. وجُوِّزَ أن يكون الجوابُ مقدَّراً كما مرَّ غير مرَّة.

والمراد بتفرُّق المساعي اختلافُها في الجزاء، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ إلخ تفصيلٌ مبيِّنٌ لتفرُّقها واختلافها في ذلك.

وجُوِّزَ أن يُرادَ باختلافها كونُ البعض طالباً لليوم المتجلِّي، والبعض طالباً لِلَّيل الغاشي، وبعضها مستعاناً بالذَّكَر، وبعضها مستعاناً بالأنثى، فيكونُ الجوابُ شديدَ المناسبة بالقَسَم، ولا يخفى بُعْدُهُ وركاكته.

والظاهر أنَّ المرادَ بالإعطاء بذلُ المال، ومن هنا قال ابن زيد: المراد إنفاق ماله في سبيل الله تعالى. وقال قتادة: المعنى: أعطى حقَّ الله تعالى، وظاهرُهُ الحقوقُ المالية.

﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: واتَّقى اللهَ عزَّ وجلَّ كما قال ابن عباس، وفي معناه قولُ قتادة: واتقى ما نُهي عنه. وفي روايةٍ: محارمَ الله تعالى.

---

(١) الجمل في النحو للخليل ص ١٧٥، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٣، والأضداد لابن الأنباري ص ٨٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٣، والدر المصون ١١/ ٢٨.

(٢) وجعله الخليل من الجرِّ على الجوار، وقال السمين: والذي يظهر في تخريج البيت أن أصله: الراهبي بياء النسب، نسبة إلى الصفة، ثم خفِّف، وهو قليل. ينظر الجمل ص١٧٥، والدر المصون ١١/ ٢٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٦٠.

وقال مجاهد: واتقى البخلَ. وهو كما ترى.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي: بالكلمة الحسنى، وهي كما قال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره وروي ذلك عن ابن عباس: لا إله إلا الله، أو هي ما دلَّتْ على حقٍّ كما قال بعضهم، وتدخلُ كلمةُ التوحيد دخولاً أوليًّا.

أو بالملة الحسنى وهي مِلَّةُ الإسلام.

وقال عكرمة وجماعة وروي عن ابن عباس أيضاً: هي المثوبةُ بالخلف في الدنيا مع المضاعفة.

وقال مجاهدٌ: الجنةُ.

وقيل: المثوبةُ مُطلقاً.

ويترجَّحُ عندي أنَّ الإعطاءَ إشارةٌ إلى العبادة المالية، والاتِّقاءَ إشارةٌ إلى ما يشملُ سائرَ العبادات من فعل الحسنات وترك السيئات مطلقاً، والتصديقَ بالحسنى إشارةٌ إلى الإيمان بالتوحيد أو بما يعمُّهُ وغيره مما يجبُ الإيمان به، وهو تفصيلٌ شاملٌ للمساعي كلِّها.

وتقديمُ الإعطاء لما أنه سببُ النزول ظاهراً، فقد أخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر ﷺ: أراك تُعتِقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقيمون دونك. فقال: يا أبه، إنما أُريد ما أُريد. فنزلت: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ) إلى (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ)(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إنَّ أبا بكرٍ

---

(١) المستدرك ٢/٥٢٥، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٢)، وفيه: ... لو أعتقت مَن يمنع ظهرك. فقال: مَنْعَ ظهري أُريد. وأخرجه الطبري ٢٤/٤٦٦ عن عامر بن عبد الله بن الزبير به، ولم يقل: عن أبيه، وفيه: ... إنما أريد، أظنه قال: ما عند الله.

اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببُرْدةٍ وعشرة أواق، فأعتقه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾(١).

وكذا على القول بأنها نزلت في أبي الدحداح.

ولَمَّا كان الإيمانُ أمراً معتنًى به في نفسه، أُخِّرَ عن الاتقاء ليكون ذِكْرُهُ بعده من باب ذِكْرِ الخاصّ بعد العامِّ، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

وقيل: المراد: أعطى الطاعةَ، واتقى المعصيةَ، وصدَّقَ بالكلمة الدالة على الحقِّ ككلمة التوحيد. وفيه أنَّ المعروفَ في الإعطاء تعلُّقه بالمال خصوصاً، وقد وَقَعَ في مقابلة ذِكْرِ البخل والمال. وأَمْرُ تأخير الإيمان عليه بحاله، وقيل: أُخِّرَ لأنَّ من جملة إعطاء الطاعة الإصغاءَ لتعلُّم كلمة التوحيد التي لا يتمُّ الإيمان إلا بها، ومن جملة الاتقاءِ الاتقاءُ عن الإشراك، وهما متقدِّمان على ذلك. وليس بشيء.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ فسنهيِّئُهُ للخصلة التي تؤدِّي إلى يُسْرٍ وراحةٍ كدخول الجنة ومباديه. مِن يَسَّرَ الفرس للركوب: إذا أَسْرَجها وألجمها. وَوَصْفُها باليسرى إما على الاستعارة المصرِّحة، أو المجاز المرسل، أو التجوُّز في الإسناد.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله، فلم يبذله في سبيل الخير. وقيل: أي: بَخِلَ بفعلِ ما أُمر به. وفيه ما فيه.

﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: وزَهِدَ فيما عنده عزَّ وجلَّ، كأنَّه مستغنٍ عنه سبحانه، فلم يتَّقه جلَّ وعلا. أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العُقبى؛ لأنه في مقابلة «واتقى»، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾ في مقابلة «وصدق بالحسنى»، والمراد بالحسنى فيه ما مرَّ في الأقوال قبلُ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ أي: للخصلة المؤدِّية إلى العُسْر والشِّدَّةِ كدخول النار ومباديه، وَوَصْفُها بالعُسْرى على نحو ما ذُكر.

وأصل التيسير من اليُسْر بمعنى السهولة، لكن أُريد التهيئةُ والإعداد للأمر،

---

(١) تاريخ دمشق ٣٠/٦٩، وعزاه لهم السيوطي في الدر ٦/٣٥٨.

أعني: ما يُفضي إلى راحةٍ وما يُفضي إلى شِدَّةٍ. والسينُ في «سنيسِّره» قيل: للتأكيد، وقيل: للدلالة على أنَّ الجزاء الموعود معظمُه يكون في الآخرة التي هي أمرٌ منتظرٌ متراخٍ. وتقديمُ البخل فالاستغناءِ فالتكذيب يُعلَمُ وجهُهُ مما تقدَّم.

وفي «الإرشاد»: لعلَّ تصديرَ القَسَمين بالإعطاء والبخل مع أنَّ كلًّا منهما أدنى رتبةً مما بعدُ في استتباع التيسير لليسرى والتعسير للعسرى؛ للإيذان بأنَّ كلًّا منهما أصيلٌ فيما ذُكِرَ [لا تتمة] لِمَا بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء[١].

وقيل: التيسير أولاً بمعنى اللُّطْف، وثانياً بمعنى الخذلان، واليسرى والعسرى: الطاعة؛ لكونها أيسرَ شيءٍ على المتَّقي وأعسرَه على غيره، والمعنى: أمَّا مَن أَعْطَى.. إلخ[٢]، فسنلطفُ به ونوفِّقُهُ حتى تكونَ الطاعةُ عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وأما مَنْ بخل.. إلخ فسنخذله ونمنعهُ الألطاف حتى تكونَ الطاعةُ أعسرَ شيءٍ عليه وأشدّ، من قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وأصل هذا: فسنيسِّرهُ للطاعة العسرى، ثم أُريد ما ذُكِرَ على أنَّ الوصفَ هو المقصودُ بتعلُّقِ التيسير، أعني: التعسير، لا الموصوف أعني الطاعة، ومع هذا إطلاقُ التيسير للعُسرى مشاكلةٌ.

وجُوِّزَ أن يُرادَ باليسرى طريقُ الجنة، وبالعسرى طريق النار، وبالتيسير في الموضعين معنى الهداية، وهو في الآخرة وَعْداً ووعيداً، وأَمْرُ المشاكلة فيه على حاله.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالتيسير التهيئةُ والإعدادُ، واليسرى والعسرى: الطاعة والمعصية ومباديهما من الصفات المحمودة والمذمومة. وهو وجهٌ حَسَنٌ غيرُ بعيدٍ عن الأول، وكلاهما حَسَنُ الطِّباق؛ لما صحَّ في الأخبار، أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه وغيرهم عن عليٍّ بن أبي طالب

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٦٧ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) قوله: إلخ. ليس في (م).

كرم الله تعالى وجهه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فقال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعدهُ من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكلُ. فقال: «اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له، أمَّا مَن كان من أهل السعادة فَيُيسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فيُيسَّرُ لعمل أهل الشقاء» ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآيتين[1].

وكأن حاصلَ ما أراده ﷺ بقوله: اعملوا.. إلخ: عليكم بشأن العبودية وما خلقتم لأجله وأُمرتم به، وكِلُوا أمور الربوبية المغيبة إلى صاحبها، فلا عليكم بشأنها.

وأيًّا ما كان فالمراد بِمَنْ أعطى.. إلخ وبِمَنْ بخل.. إلخ: المتَّصفُ بعنوان الصلة مطلقاً وإن كان السببُ خاصًّا؛ إذ العبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، نعم هو قطعيُّ الدخولِ.

وقيل: «مَنْ أعطى» أبو بكر ﵁، و«مَنْ بَخِلَ» أميةُ بن خلف.

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر[2] عن ابن عباس أنَّ الأولَ أبو بكر ﵁، والثاني أبو سفيان بن حرب. ونحوه عن عبد الله بن أبي أوفى. وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ أبا سفيان أسلم وقوي إسلامه في آخر أمره عند أهل السنة، وفي رواية الطستي عنه: أنَّ «وأما من بخل» إلخ نزل في أبي جهل[3].

ولعلَّ كلَّ ما قيل من التخصيص فهو من باب التنصيص على بعض أفراد العامِّ لتحقُّقِ دخوله فيه عند مَنْ خَصَّصَ.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ أي: ولا يغني عنه، على أنَّ «ما» نافية. أو: أيّ شيءٍ يُغني عنه ماله الذي يبخل به، على أنها استفهامية.

---

(١) أحمد (١٠٦٧)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (١١٦١٤)، وابن ماجه (٧٨).

(٢) تاريخ دمشق ٣٠/ ٧٠، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣٥٨-٣٥٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥٩.

﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: هلك، تفعَّل من الرَّدى[١]، وهو الهلاكُ. قاله مجاهد.

وقيل: تردَّى في حفرة القبر.

وقال قتادة وأبو صالح: تردَّى في جهنم، أي: سقط[٢].

وقال قوم: تردَّى بأكفانه، من الرِّداء، وهو كنايةٌ عن موته وهلاكه.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، أي: إنَّ علينا بموجب قضائنا المبنيِّ على الحِكَم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أنْ ندلَّهم ونُرشدهم إلى الحقِّ، أو أن نُبيِّن لهم طريقَ الهدى وما يُؤدِّي إليه من طريق الضلال وما يُؤدِّي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، فلا يتمُّ الاستدلال بالآية على الوجوب عليه عزَّ وجلَّ بالمعنى الذي يزعمه المعتزلة.

وقيل: المراد أنَّ الهدى موكولٌ علينا لا على غيرنا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وليس المعنى أنَّ الهدى يجبُ علينا، حتى يكونَ بظاهره دليلاً على وجوب الأصلح عليه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. وفيه أنَّ تعلُّقَ الجارِّ بالكون الخاصِّ ـ أعني موكولاً ـ خلافُ الظاهر.

ومِثْلُه ما قيل: إنَّ المرادَ: ثم إنَّ علينا طريقة الهدى، على معنى أنَّ مَنْ سلك الطريقةَ المبيَّنةَ بالهدى والإرشاد إليها، يصلُ إلينا، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي: مَنْ سلك السبيلَ القَصْدَ ـ أي: المستقيم ـ وَصَلَ إليه سبحانه.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: التصرُّفَ الكُلِّيَّ فيهما كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء من الأفعال التي من جملتها ما ذكرنا فيمَن أَعْطَى وفيمَن بَخِلَ. أو: إنَّ لنا ذلك فنُثيب مَن اهتدى وأنجعَ فيه هدانا. أو: إنَّ لنا كلَّ ما في الدارين، فلا يضرُّنا تَرْكُكُم الاهتداءَ وعدمُ انتفاعكم بهدانا، أو فلا ينفعنا اهتداؤكم كما لا يضرُّنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَنْ ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها.

---

(١) في هامش الأصل: والثلاثي منه رَدِيَ كفرح، أي: هلك.
(٢) في هامش الأصل: ويقال: رَدَى كَرَمَى، أي: سقط.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ قيل: متفرِّعٌ على كون الهدى عليه سبحانه، أي: فهَدَيْتُكم بالإنذار وبالغتُ في هدايتكم.

وتلظَّى بمعنى تلتهب، وأصله: تتلظَّى بتاءين، فحذفتْ منه إحداهما، وقد قرأ بذلك ابن الزبير وزيد بن علي وطلحة وسفيان بن عُيينة وعبيد بن عمير(١).

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾ المراد به الكافر، فإنه أشقى من الفاسق، ويُفصِحُ بذلك وَصْفُهُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ أي: بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرضَ عن الطاعة.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: سيُبْعَدُ عنها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ المبالغُ في اتقاء الكفر والمعاصي، فلا يحومُ حولَها.

واستُشكل بأنَّ صَلْيَ النارِ دخولُها، أو مقاساة حرِّها، وهو لازمُ دخولها على المشهور، فالحصرُ السابق يقتضي أن لا يَصْلَى المؤمنُ العاصي النارَ؛ لأنه ليس داخلاً في عموم الأشقى الموصوفِ بما ذُكِرَ، وأنَّ «سيجنَّبها الأتقى» يقتضي بمفهومه أنَّ غيرَ الأتقى - أعني التقي في الجملة، وهو المؤمنُ العاصي - لا يُجنَّبها، بل يصلاها، فبَيْنَ الحصرين مخالفةٌ.

وأجيب بأنَّ الصَّلْيَ ليس مطلقَ دخول النار، ولا مطلقَ مقاساة حَرِّها، بل هو مقاساتُه على وجه الأشَدِّية(٢)، فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أنَّ الصَّلْيَ أن يحفروا حفيرة، فيجمعوا فيها جَمْراً كثيراً، ثم يَعْمَدوا إلى شاةٍ فيدسُّوها وَسْطَهُ بين أطباقه(٣). فالمعنى: لا يُعذَّبُ بين أطباقها، ولا يقاسي حَرَّها على وجه الأشدِّية إلا الأشقى، وسيُبْعَدُ عنها الأتقى، فلا يدخلها، فضلاً عن مقاساة ذلك، فيلزمُ من الأول أنَّ غيرَ الأشقى - وهو المؤمنُ العاصي - لا يُعذَّبُ من أطباقها، ولا يقاسي حَرَّها على وجه الأشدِّية، ولا يلزمُ منه أن لا يدخلها ولا يُعذَّبَ بها أصلاً، فيجوزُ أن يدخلها ويُعذَّب بها على وجهها عذاباً دون ذلك العذاب، ويلزمُ من الثاني أنَّ

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والبحر ٨/ ٤٨٤.
(٢) جاء في هامش الأصل: ومن هنا اعْتَبَر فيه بعضهم اللزوم.
(٣) الانتصاف ٤/ ٢٦٢.

غيرَ الأتقى لا يُجنَّبها، ولا يلزمُ منه أنَّ غيره ـ أعني التقي في الجملة وهو المؤمن العاصي ـ يصلاها ويُعذَّبُ بين أطباقها أشدَّ العذاب، بل غايتُهُ أنه لا يُجنَّبها، فيجوز أن يدخلها ويُعذَّبَ بها على وجهها عذاباً ليس بالأشدِّ، فلا مخالفةَ بين الحصرين.

واعتبر بعضُهم في الصَّلْي الأشدِّيَةَ؛ لمَا ذكر، واللزومُ هنا لمقابلته بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ كذا قيل. واستُحسن جَعْلُ السين للتأكيد؛ ليكونَ المعنى: يُجنَّبها الأتقى ولا بدَّ، فيفيدُ على القول بالمفهوم أنَّ غيرَهُ ـ وهو المؤمنُ العاصي ـ لا يُجنَّبها ولا بدَّ، على معنى أنه يجوزُ أن يُجنَّبها، ويجوزُ أن لا يُجنَّبها، بل يدخلها غيرَ صالٍ بها.

وقرَّرَ الزمخشريُّ الاستشكالَ بأنه قد عُلِم أنَّ كلَّ شقي يصلاها، وكلَّ تقي يُجنَّبها، لا يختصُّ الصَّلْي بأشقى الأشقياء، ولا التجنُّبُ والنجاةُ بأتقى الأتقياء، وظاهر الجملتين ذلك. وأجاب بما حاصله أنَّ الحصرَ حيثُ كانت الآيةُ واردةً للموازنة بين حالتي عظيمٍ من المشركين وعظيمٍ من المؤمنين ادِّعائيٌّ مبالغةً لا حقيقي، كأنَّ غيرَ هذا الأشقى غيرُ صالٍ، وغيرَ هذا الأتقى غيرُ مجنَّبٍ بالكلية[(١)]. واستحسنه في «الكشف» فقال: هو معنًى حَسَنٌ.

وأنت تعلم أنَّ مَبنَى ما قاله على الاعتزال وتخليدِ العصاة في النار.

وقال القاضي: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَنهَآ﴾ لا يدلُّ على أنه تعالى لا يُدخِلُ النارَ إلا الكافر كما يقول المرجئة، وذلك لأنه تعالى نكَّر «النار» فيها، فالمراد أنَّ ناراً من النيران لا يصلاها إلا مَنْ هذه حاله، والنارُ دركاتٌ على ما عُلِمَ من الآيات، فمن أين عُرِفَ أنَّ هذه النار لا يصلاها قومٌ آخرون[(٢)]؟

وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه ما يصنعُ عليه بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾؟ فقد عُلِمَ أنَّ أفسقَ المسلمين يُجنَّبُ تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصةً[(٣)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٢.

(٢) جاء في هامش الأصل: ونقل في التفسير الكبير عنه كلاماً أطول من هذا وضعَّفه فارجع إليه. اهـ، وينظر التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٦٢.

وأجيب بأنه لعلَّ هذا القائلَ لا يقول بمفهوم الصفة ونحوها، فلا تفيدُ الآية المذكورةُ عنده الحصرَ، ويكونُ تميزُ هذا الأتقى عنده بمجموع التجنُّب وما سيُذْكَرُ بعدُ، ولعلَّ كلَّ مَنْ لا يقولُ بالمفهوم لا يُشكِلُ عليه الأمر إلا أمر الحصر في «لا يصلاها» إلخ، فإنه كالنصِّ في بادئ النظر فيما يدَّعيه المرجئة؛ لِحَمْلِهِمُ الصَّلْيَ فيه على مطلق الدخول، وأيَّدوه بما أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النارَ إلا مَن شَقِيَ» قيل: ومَنِ الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل لله تعالى طاعة، ولا يترك لله تعالى معصية» وهذا الخبرُ ونحوه من الأخبار مما يستندون إليه في تحقيق دعواهم، وأهلُ السنة يُؤوِّلون ما صحَّ من ذلك؛ للنصوص الدالة على تعذيب بعضٍ ممن ارتكب الكبيرة على ما بُيِّنَ في موضعه.

وقيل في الجواب: إنَّ المراد بالأشقى والأتقى الشقيُّ والتقيُّ. وشاعَ أفعلُ في مثل ذلك، ومنه قول طرفة:

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ فإن أمت ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأَوْحَدِ[2]

فإنه أراد: بواحد.

واعتُرض بأنه لا يَحْسِمُ مادةَ الإشكال؛ إذ ذلك الشقي في الآية ليس إلا الكافرَ، فيلزمُ الحصرَ أن لا يدخلَ النارَ، أو لا يُعذَّبَ بها غيره، مع أنه خلافُ المذهب الحقّ، وأيضاً إنَّ ذلك التقي فيها قد وُصِفَ بما وُصِفَ، فعلى القول بالمفهوم يلزمُ أن لا يُجنَّبها التقيُّ الغيرُ الموصوف بذلك، كالتقيِّ الذي لا مال له، وكغير المكلَّفين من الأطفال والمجانين، مع أنَّ الحقَّ أنهم يُجنَّبونها. وقيل غير ذلك.

ولعلَّكَ بعد الاطِّلاع عليه وتدقيق النظر في جميع ما قيل، واستحضارِ ما عليه الجماعة في أهل الجمع تستحسنُ - إن قلت بالمفهوم - ما استحسنه صاحبُ

---

(١) أحمد (٨٥٩٤)، وابن ماجه (٤٢٩٨).

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٧٨، وليس في ديوان طرفة. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ لمالك بن القين. وهو في ديوان عبيد بن الأبرص ص٦٨ برواية: تمنى مُرَيءُ القيس موتي وإن أمت. . . .

«الكشف» مما مرَّ عن الزمخشري، وإن لم تكن ممن يقولُ بتخليد أهل الكبائر من المؤمنين، فتأمل.

وجنَّب يتعدَّى إلى مفعولين، فالضميرُ هاهنا المفعولُ الثاني، والأتقى المفعولُ الأول، وهو النائبُ عن الفاعل، ويقال: جنبَ فلانٌ خيراً وجنبَ شرًّا، وإذا أُطلقَ فقيلَ: جنبَ فلانٌ، فمعناه على ما قال الراغب[1]: أُبعِدَ عن الخير، وأصل جنبته كما قيل: جعلتُهُ على جانبٍ منه، وكثيراً ما يُرادُ منه التبعيدُ، ومنه ما هنا، ولذا قلنا: أي: سيُبْعَدُ عنها الأتقى.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ أي: يعطيه ويصرفه ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ طالباً أن يكون عند الله تعالى زاكياً نامياً، لا يريد به رياءً ولا سمعةً، أو متطهراً من الذنوب. فالجملةُ نَصْبٌ على الحال من ضمير «يؤتي».

وجُوِّزَ أن تكون بدلاً من الصلة، فلا محلَّ لها من الإعراب. وجُوِّز أيضاً أن يكون الفعل وحده بدلاً من الفعل السابق وحده.

واعتُرض كلا الوجهين بأنَّ البدلَ من قسم التابع المعرَّفِ بـ: كلّ ثانٍ أُعرب بإعراب سابقه، ولا إعرابَ للصلة حتى يثبتَ لها تابعٌ فيه، وسببُ الإعراب ـ وهو الرفعُ ـ في الفعل متوفرٌ مع قَطْعِ النظر عن التبعية، وهو على المشهور تجرُّدُهُ عن الناصب والجازم، فليس معرباً بإعراب سابقه لظهور ذلك في كون إعرابه للتبعية، وهو هنا ليس لها بل للتجرد.

وأجيب مع الإغماض عمّا في ذلك التعريف مما نبّه على بعضه الرضيُّ:

أما عن الأول: فبأنَّ المرادَ: أُعرب بإعرابِ سابقه إن كان له إعرابٌ، أو بأنَّ المرادَ: أُعرب بإعراب سابقه وجوداً وعَدَماً. وقيل: إطلاقُ التابع على ذلك ونحوه من الحرف والفعل الغير المعرب مجازٌ من حيث إنه مشابهٌ للتابع لموافقته لسابقه فيما له.

---

(١) في المفردات (جنب).

وأما عن الثاني: فبأنَّ الشيءَ قد يُقصَدُ لشيءٍ وإن كان متحقِّقاً قبل ذلك الشيء لأمرٍ آخر، كألف التثنية وواو الجمع، فإنه يُؤتَى بهما للدلالة على التثنية والجمع، فيتحقَّقان، ويأتي عاملُ الرفع على المثنَّى والمجموع، وهما فيهما قبله فيُقصَدان له.

وقال السيد عيسى[1]: المراد بقولهم: كلُّ ثان أُعرب.. إلخ: كلُّ ثانٍ أعرب لو لم يكن مُعرَباً. فتدبَّر ولا تغفل.

وجُوِّزَ أن يكون «يتزكَّى» بتقدير: لأَنْ يتزكَّى، متعلِّقاً بـ «يُؤتي» علَّة له، ثم حُذفتِ اللامُ، وحَذْفُها من «أنَّ» و«أنْ» شائعٌ، ثم حُذفتِ «أن» فارتفع الفعلُ أو بقي منصوباً، كما في قول طرفة:

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضـرُ الـوغـى[2]

فقد روي برفع «أحضرُ» وبنَصْبه، وقيل: إنه بتقدير: لأن، أو: عن أن أحضرَ، فصُنِعَ فيه نحو ما سمعت.

وأيًّا ما كان يدلُّ الكلامُ على أنَّ المرادَ بإيتائه صرفُهُ في وجوه البرِّ والخير.

وقرأ الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ: «يزَّكَّى» بإدغام التاء في الزاي[3].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما أفاده الكلام السابق من كون إيتائه للتزكِّي خالصاً لله تعالى، أي: ليس لأحدٍ عنده نعمةٌ من شأنها أن تُجزى وتكافأ، فيقصد بإيتاء ما يُؤتي مجازاتها. ويُعلَمُ مما ذُكِرَ أنَّ بناءَ «تُجزى» للمفعول

---

(١) لعله: عيسى بن محمد بن عبيد الله، أبو الخير، قطب الدين الحسني الحسيني الإيجي الشافعي الصوفي، المعروف بالصفوي نسبة إلى «صفي الدين» جدّه لأمه. له: تفسير جزء «عمّ»، وشرح الكافية لابن الحاجب، وغيرهما. (ت ٩٥٣هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٤٢٧، والأعلام ٥/ ١٠٨.

(٢) ديوان طرفة ص ٣٢، وسلف عند تفسير الآية (٨٣) من سورة البقرة.

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٤ وفيه: الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والكلام من البحر ٨/ ٤٨٤.

لأنَّ القَصْدَ ليس لفاعلٍ مُعيَّنٍ. وقيل: إنَّ ذلك لكونه فاصلةً، وأصله: يُجزيه إياها، أو يُجزيها إياه.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ منصوبٌ على الاستثناء المنقطعِ من «نعمة»؛ لأنَّ الابتغاءَ لا يندرجُ فيها، فالمعنى: لكنه فَعَلَ ذلك لابتغاء وجه ربِّهِ سبحانه، وطَلَبِ رضاه عزَّ وجلَّ، لا لمكافأة نعمه.

وقرأ يحيى بن وثاب: «ابتغاءُ» بالرفع[1] على البدل من محلِّ «من نعمة»، فإنه الرفع إما على الفاعلية، أو على الابتداء، و«من» مزيدةٌ، والرفع في مثل ذلك لغة تميم، وعليها قوله:

وبـلـدةٍ لـيـس بـهـا أنـيـسُ إلا الـيـعـافـيـرُ وإلا الـعِـيـسُ[2]

وروي بالرفع والنصب - على ما في «البحر»[3] - قولُ بشر بن أبي خازم:

أَضْـحَـتْ خَـلاءً قِـفـاراً لا أنـيـسَ بـهـا إلا الـجـآذر والـظُّـلْـمـان تـخـتـلـفُ[4]

وجُوِّزَ أن يكون نَصْبُهُ على أنه مفعولٌ له على المعنى؛ لأنَّ معنى الكلام: لا يُؤتي ماله لأجل شيءٍ من الأشياء إلا لأجل طَلَبِ رضا ربه عزَّ وجلَّ، لا لمكافأةِ نعمةٍ. فهو استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ العِلَل والأسباب، وإنما أوِّلَ لأنَّ الكلامَ - أعني «يُؤتي ماله» - مُوجبٌ، والاستثناءُ المفرَّغُ يختصُّ بالنفي عند الجمهور، لكنه لَمَّا عقَّب بقوله تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ) وقد قال سبحانه أولاً: (يَتَزَكَّىٰ) متضمِّناً نفيَ الرياء والسُّمعة، دلَّ على المعنى المذكور.

وقرأ ابن أبي عبلة: «إلا ابتغا» مقصورٌ[5]، وفيه احتمالُ النَّصب والرفع.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والبحر ٨/ ٤٨٤.
(٢) البيت لجران العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، وسلف ١٣/ ٢٦٣.
(٣) ٨/ ٤٨٤.
(٤) ديوان بشر ص١٥٨ ووقع فيه: الجوازئ، بدل: الجآذر، والجآذر: جمع جُؤذُر - وتفتح الذال - وهو ولد البقر الوحشي. والجوازئ: الوحش. والظلمان: جمع ظليم. وهو الذكر من النعام. القاموس (جذر) و(جزأ) و(ظلم).
(٥) القراءات الشاذة ص١٧٤، والبحر ٨/ ٤٨٤.

وهذه الآياتُ على ما سمعتَ نزلتْ في أبي بكر ﷺ؛ لِمَا أنه كان يعتِقُ رقاباً ضعافاً، فقال له أبوه ما قال، وأجابه هو بما أجاب، وقد أوضحتُ ما أبهمه ﷺ في قوله فيه: إنما أُريد ما أُريد[١]. وفي رواية ابن جرير وابن عساكر[٢] أنه قال: أيْ أَبَهْ، إنما أُريد ما عند الله تعالى. وفي رواية عطاء والضحاك عن ابن عباس أنه ﷺ اشترى بلالاً - وكان رقيقاً لأميةَ بن خلف يُعذِّبه لإسلامه - برِطْلٍ من ذهب، فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا لِيَدٍ كانت له عنده، فنزلت[٣]. وهو ﷺ أحدُ الذين عُذِّبوا لإسلامهم، فاشتراهم الصِّدِّيقُ وأعتقهم، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عروةَ أنَّ أبا بكرٍ ﷺ أعتقَ سبعةً كلّهم يُعذَّبُ في الله عزَّ وجلَّ: بلالٌ، وعامرُ بن فهيرة، والنهديةُ، وابنتها، ودنيرةُ، وأم عبيس، وأمةُ بني المؤمل. وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة[٤]، واستدلَّ بذلك الإمامُ[٥] على أنه ﷺ أفضلُ الأمة، وذكر أنَّ في الآيات ما يأبى قولُ الشيعة: إنها في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وأطالَ الكلام في ذلك، وأتى بما لا يخلو عن قيل وقال.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ جوابُ قَسَمٍ مُضْمَرٍ، أي: وبالله لسوف يرضى، والضميرُ فيه للأتقى المحدَّث عنه، وهو وَعْدٌ كريمٌ بنَيل جميعِ ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقَّقُ الرضا.

وجوَّز الإمام كونَ الضمير للربِّ تعالى، حيث قال بعد أن فَسَّر الجملةَ على رجوعه للأتقى: وفيه عندي وجهٌ آخر، وهو أنَّ المراد أنه ما أنفق إلا لِطَلَبِ رضوان الله تعالى، ولسوف يرضى الله تعالى عنه، وهذا عندي أعظمُ من الأول؛ لأنَّ رضا الله سبحانه عن عبده أكملُ للعبد من رضاه عن ربه عزَّ وجلَّ، وبالجملة فلا بدَّ من حصول الأمرين كما قال سبحانه: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٦] [الفجر: ٢٨] انتهى.

---

(١) لم يتكلم فيما سلف بشيء عن هذا، ينظر ص٨٣ من هذا الجزء.

(٢) ابن جرير ٢٤/ ٤٦٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠/ ٦٩.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٨٨.

(٤) عزاه له السيوطي في الدر ٦/ ٣٥٩، وفيه: زنيرة وأم عيسى، بدل: دنيرة وأم عبيس.

(٥) في تفسيره ٣١/ ٢٠٥.

(٦) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٧.

والظاهرُ هو الأولُ، وقد قرئ: «ولسوف يُرْضى» بالبناء للمفعول من الإرضاء[1]، وما أشار إليه في معنى «راضية مرضية» غيرُ متعيِّنٍ كما سمعتَ، وفي هذه الجملة كلامٌ يُعلَمُ مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٤.

(٩٣) سورة الضحى مكيّة وآياتها إحدى عشرة

● **سورة** الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الله رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة ﴿ والضُّحَى والَّليْلِ إِذَا سَجَى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى . وللآخرةُ خيرٌ لك من الأُولَى﴾ .

● **ثم بشرته** بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعدَّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها الشفاعة العظمى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾

● **ثم ذكَّرته** بما كان عليه في الصغر ، من اليتم ، والفقر ، والفاقة ، والضياع ، فآواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلاءته وعنايته ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟﴾ .

● **وختمت** السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ، ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿ فأمَّا اليتيم فلا تَقْهَرْ . وأَمَّا السائلَ فلا تَنْهَرْ . وأَمَّا بنعمةِ ربكَ فحَدِّثْ﴾ وهو ختمٌ يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان .

● ● ●

سورة الضحى

[١٠١٦] أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال اشتكى النبي [ﷺ] فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾(١).

[١٠١٧] ك.. وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال: أبطأ جبريل على النبي [ﷺ] فقال المشركون: قد ودع محمد فنزلت.

[١٠١٨] ك.. وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال مكث رسول الله [ﷺ] أياماً لا ينزل عليه جبريل فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾(٢) الآيات.

[١٠١٩] وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في مسنده والواحدي وغيرهم بسند فيه من لا يعرف عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمه عن أمها خولة وقد كانت خادم رسول الله [ﷺ] أن جرواً دخل بيت النبي [ﷺ] فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي [ﷺ] أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: «**يا خولة ما حدث في بيت رسول الله [ﷺ] جبريل لا يأتيني**» فقلت في نفسي: لو هيأت البيت فكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي [ﷺ] يرعد بجبته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾(٣) قال الحافظ ابن حجر قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح.

[١٠٢٠] ك.. وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن شداد أن خديجة قالت للنبي [ﷺ] ما أرى ربك إلا قد قلاك فنزلت.

[١٠١٦] (١) سورة الضحى: الآية (١و٢و٣) ـ والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٦).

[١٠١٨] (٢) سورة الضحى: الآية (١).

[١٠١٩] (٣) سورة الضحى: الآية (١و٥).

[١٠٢١] وأخرج أيضاً عن عروة قال: أبطأ جبريل على النبي [ﷺ] فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك فنزلت وكلاهما مرسل رواتهما ثقات قال الحافظ ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالته شماتة وخديجة قالته توجعاً.

[١٠٢٢] وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عرض على رسول الله [ﷺ] ما هو مفتوح على أمته فسر به فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾(١).

ك.. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله [ﷺ]: «**عُرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني**» فأنزل الله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾(٢) إسناده حسن.

* * *

[١٠٢٢] (١) سورة الضحى: الآية (٥).

(٢) سورة الضحى: الآية (٤).

سورة الضحى

إحدى عشرة آية مكية

وأنا على عزم أن أختم إلى تفسير هذه السورة ما فيها من اللطائف التذكارية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾

لأهل التفسير في قوله : ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ وجهان : **أحدهما:** أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها . **وثانيها:** الضحى هو النهار كله بدليل أنه جعل في مقابلة الليل كله .

وأما قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فذكر أهل اللغة في ﴿سَجَىٰ﴾ ثلاثة أوجه متقاربة : سكن وأظلم وغطى :

أما الأول: فقال أبو عبيد والمبرد والزجاج : سجى ، أي سكن ، يقال : ليلة ساجية ، أي ساكنة الريح ، وعين ساجية ، أي فاترة الطرف . وسجى البحر ، إذا سكنت أمواجه ، وقال في الدعاء :

يَا مَالِكَ الْبَحْرِ إِذَا الْبَحْرُ سَجَى

وأما الثاني: وهو تفسير سجى بأظلم – فقال الفراء : سجى ، أي أظلم وركد في طوله .

وأما الثالث: –وهو تفسير سجى بغطى– فقال الأصمعي وابن الأعرابي . سجى الليل : تغطيته النهار ، مثل ما يسجى الرجل بالثوب .

واعلم أن أقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس : غطى الدنيا بالظلمة . وقال الحسن : ألبس الناس ظلامه . وقال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير : إذا أقبل الليل غطى كل شيء . وقال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : سكن بالناس . ولسكونه معنيان : **أحدهما:** سكون الناس فنسب إليه ، كما يقال : ليل نائم ونهار صائم . **والثاني:** هو أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك .

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في أنه تعالى في السورة الماضية قَدَّم ذكر الليل ، وفي هذه السورة أخره؟ **قلنا:** فيه وجوه : **أحدها:** أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين ، والليل له فضيلة السبق لقوله : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وللنهار فضيلة النور ، بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، لا جرم قَدَّم هذا على ذاك تارة وذاك على هذا أخرى ،

ونظيره أنه تعالى قَدَّم السجود على الركوع في قوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾[آل عمران: ٤٣] ثم قدم الركوع على السجود في قوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾[الحج: ٧٧] **وثانيها:** أنه تعالى قَدَّم الليل على النهار في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبقه كفر، وههنا قَدَّم الضحى لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما سبقه ذنب. **وثالثها:** سورة والليل سورة أبي بكر، وسورة الضحى سورة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم ما جعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد وأبي بكر، فإذا ذكرت الليل أولاً وهو أبو بكر، ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد، وإن ذكرت (والضحى) أولاً وهو محمد، ثم نزلت وجدت بعده، (والليل) وهو أبو بكر؛ ليعلم أنه لا واسطة بينهما.

السؤال الثاني: ما الحكمة ههنا في الحلف بالضحى والليل فقط؟ **والجواب:** لوجوه: **أحدها:** كأنه تعالى يقول: الزمان ساعة، فساعة ساعة ليل، وساعة نهار، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى، بل للحكمة، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح، فمرة إنزال ومرة حبس، فلا كان الإنزال عن هوى، ولا كان الحبس عن قلى. **وثانيها:** أن العالم لا يؤثر كلامه حتى يعمل به، فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، لم يكن بد من أن يعمل به، فالكفار لما ادعوا أن ربه وَدَعه وقلاه، قال: هاتوا الحجة. فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ما ودعه ربه وما قلاه. **وثالثها:** كأنه تعالى يقول: انظروا إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر، بل الليل تارة يغلب وتارة يُغلب، فكيف تطمع أن تسلم على الخلق؟!

السؤال الثالث: لِمَ خص وقت الضحى بالذكر؟ **الجواب:** فيه وجوه: **أحدها:** أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش في زمان الليل، فبشروه أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي. **وثانيها:** أنها الساعة التي كلم فيها موسى ربه، وأُلقي فيها السحرة سجدًا، فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفًا، فكيف فاعل الطاعة؟! وأفاد أيضًا أن الذي أكرم موسى لا يدع إكرامك، والذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك.

السؤال الرابع: ما السبب في أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل بكليته؟ **الجواب:** فيه وجوه: **أحدها:** أنه إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل، كما أن محمدًا إذا وُزن يوازي جميع الأنبياء. **والثاني:** أن النهار وقت السرور والراحة، والليل وقت الوحشة والغم فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة والليل كذا ساعات، يروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء عن يساره، ونادت ماذا أمطر؟ فأجيبت أن أمطري الهموم والأحزان مائة سنة. ثم انكشفت فأُمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى تمام ثلاثمائة سنة، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت: ماذا أمطر؟ فأجيبت أن أمطري السرور ساعة. فلهذا السبب ترى الغموم والأحزان دائمة، والسرور قليلاً ونادرًا. **وثالثها:** أن وقت الضحى وقت حركة الناس وتعارفهم، فصارت نظير وقت الحشر، والليل إذا سكن نظير

سكون الناس في ظلمة القبور، فكلاهما حكمة ونعمة لكن الفضيلة للحياة على الموت، ولِما بعد الموت على ما قبله، فلهذا السبب قدَّم ذكر الضحى على ذكر الليل. **ورابعها:** ذكر الضحى حتى لا يحصل اليأس من رَوْحه، ثم عقبه بالليل حتى لا يحصل الأمن من مكره.

السؤال الخامس: هل أحد من المذكورين فسر الضحى بوجه محمد والليل بشعره؟ **والجواب:** نعم ولا استبعاد فيه، ومنهم من زاد عليه فقال: والضحى ذكور أهل بيته، والليل إناثهم، ويحتمل الضحى رسالته والليل زمان احتباس الوحي؛ لأن في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمن الاحتباس حصل الاستيحاش، ويحتمل والضحى نور علمه الذي به يعرف المستور من الغيوب، والليل عفوه الذي به يستر جميع العيوب. ويحتمل أن الضحى إقبال الإسلام بعد أن كان غريبًا والليل إشارة إلى أنه سيعود غريبًا، ويحتمل والضحى كمال العقل، والليل حال الموت، ويحتمل أُقسم بعلانيتك التي لا يرى عليها الخلق عيبًا، وبسرك الذي لا يعلم عليه عالم الغيب عيبًا.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عبيدة والمبرد: ودعك من التوديع كما يودع المفارق، وقرئ بالتخفيف، أي ما تركك، والتوديع مبالغة في الوداع؛ لأن من ودعك مفارقًا فقد بالغ في تركك. والقلى: البغض، يقال: قلاه يقليه قلى ومقلية، إذا أبغضه، قال الفراء: يريد (وما قلاك) وفي حذف الكاف وجوه: **أحدها:** حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى في ودعك، ولأن رءوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف. **وثانيها:** فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا (قلا) أحدًا من أصحابك ولا أحدًا ممن أحبك إلى قيام القيامة، تقريرًا لقوله: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ).

المسألة الثانية: قال المفسرون: أبطأ جبريل على النبي ﷺ. فقال المشركون: قد قلاه الله وودعه! فأنزلَ الله تعالى عليه هذه الآية[1]، وقال السدي: أبطأ عليه أربعين ليلة، فشكا ذلك إلى خديجة فقالت: لعل ربك نسيك أو قلاك. وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك. وروي عن الحسن أنه قال: أبطأ على الرسول ﷺ الوحي، فقال لخديجة: «إِنَّ رَبِّي وَدَّعَنِي وَقَلَانِي» يَشْكُو إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: كَلَّا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا ابْتَدَأَكَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ إِلاَّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُتِمَّهَا لَكَ!! فنزل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [2].

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التهجد) باب (ترك القيام للمريض) (١/ ٣٧٨) حديث رقم (١٠٧٣) ومسلم في (صحيحه) (٥/ ١٨٢) حديث رقم (٤٧٥٧) كلاهما من طريق سفيان عن الأسود بن قيس أنه سمع جندبًا يقول... فذكره وأورده القرطبي في (تفسيره) (٢٠/ ٩٢) والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٤٨٦) من طريق سفيان عن الأسود بن قيس سمع جندبا البجلي... فذكره.

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبري في (تفسيره) (٣٠/ ٢٣٢) من طريق وكيع... به، وجاء مرفوعًا من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خديجة، أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٦٧) حديث رقم (٤٢١٤) قال: حدثنا=

وطعن الأصوليون في هذه الرواية، وقالوا: إنه لا يليق بالرسول ﷺ أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه، بل يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة الله تعالى، ويعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة، وربما كان الصلاح تأخيره، وربما كان خلاف ذلك، فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام، ثم إن صح ذلك يُحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها، أو ليعرف الناس قدر علمها.

واختلفوا في قدر مدة انقطاع الوحي، فقال ابن جريج: اثنا عشر يومًا. وقال الكلبي: خمسة عشر يومًا. وقال ابن عباس: خمسة وعشرون يومًا. وقال السدي ومقاتل: أربعون يومًا. واختلفوا في سبب احتباس جبريل عليه السلام، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فقال: «سَأُخْبِرُكُمْ غَدًا» وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ[1] فاحتبس عنه الوحي، وقال ابن زيد: السبب فيه كون جرو في بيته للحسن والحسين، فلما نزل جبريل عليه السلام عاتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: «أَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ؟!»[2] وقال جندب بن سفيان: رمى النبي عليه الصلاة بحجر في إصبعه، فقال: «هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ»[3] فأبطأ عنه الوحي. وروي أنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار. **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: الروايات التي ذكرتم تدل على أن احتباس الوحي كان عن قلى. قلنا: أقصى ما في الباب أن ذلك كان تركًا للأفضل والأولى، وصاحبه لا يكون ممقوتًا ولا مبغضًا، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل: «مَا جِئْتَنِي حَتَّى اشْتَقْتُ إِلَيْكَ» فَقَالَ جِبْرِيلُ: كُنْتُ إِلَيْكَ أَشْوَقَ، وَلَكِنِّي عَبْد مَأْمُورا» وتلا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

السؤال الثاني: كيف يحسن من السلطان أن يقول لأعظم الخلق قربة عنده: (إني لا أبغضك) تشريفًا له؟ **الجواب:** أن ذلك لا يحسن ابتداء، لكن الأعداء إذا ألقوا في الألسنة أن السلطان

=أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبد الجبار... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه لإرسال فيه. والبيهقي في (دلائل النبوة) (٧/ ٤٤) حديث رقم (٣٠٤٤)، والدولابي في (الذرية الطاهرة) (١/ ٣٨) حديث رقم (٢٩) قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار... وفي إسناده انقطاع بين عروة وخديجة رضي الله عنها.

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بغير إسناد.

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة) باب (الجنب يؤخر الغسل) (١/ ٥٨) حديث رقم (٢٢٧) والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (في الجنب إذا لم يتوضأ) (١/ ١٥٤) حديث رقم (٢٦١) وابن ماجه في كتاب (اللباس) باب (الصور في البيت) (١/ ١٢٠٣) حديث رقم (٣٦٥٠) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٣٨) والدارمي في كتاب (الاستئذان) باب (لا تدخل الملائكة بيتًا فيه تصاوير) (٢/ ١٦٢) حديث رقم (٢٦٦٣) جميعًا عن شعبة عن علي بن المبارك... به، كلاهما (علي، الحارث) عن أبي زرعة... به.

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) باب (ما يجوز من الشعر والرجز) (٥/ ٢٢٧٦) حديث رقم (٥٧٩٤) ومسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤٢١/ ١٧٩٦) كلاهما من طريق الأسود بن قيس عن جندب بن سفيان... به.

يبغضه، ثم تأسَّف ذلك المقرب، فلا لفظ أقرب إلى تشريفه من أن يقول له: إني لا أبغضك ولا أدعك، وسوف ترى منزلتك عندي.

المسألة الثالثة: هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله، إذ لو كان من عنده لما امتنع.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾

واعلم أن في اتصاله بما تقدم وجوهًا: **أحدها:** أن يكون المعنى أن انقطاع الوحي لا يجوز أن يكون لأنه عزل عن النبوة، بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة، وذلك أمارة الموت، فكأنه يقال: انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت، لكن الموت خير لك، فإن ما لك عند الله في الآخرة خير وأفضل مما لك في الدنيا. **وثانيها:** لما نزل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] حصل له بهذا تشريف عظيم، فكأنه استعظم هذا التشريف فقيل له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي هذا التشريف وإن كان عظيمًا إلا أن ما لك عند الله في الآخرة خير وأعظم. **وثالثها ما يخطر ببالي:** وهو أن يكون المعنى: وللأحوال الآتية خير لك من الماضية. كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزًّا إلى عز، ومنصبًا إلى منصب، فيقول: لا تظن أني قليتك، بل تكون كل يوم يأتي فإني أزيدك منصبًا وجلالاً، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: بأي طريق يُعرف أن الآخرة كانت له خيرًا من الأولى؟ **الجواب:** لوجوه: **أحدها:** كأنه تعالى يقول له: إنك في الدنيا على خير لأنك تفعل فيها ما تريد، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل فيها ما نريد. **وثانيها:** الآخرة خير لك يجتمع عندك أمتك إذ الأمة له كالأولاد، قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو أب لهم، وأمته في الجنة فيكون كأن أولاده في الجنة، ثم سمى الولد قرة أعين، حيث حكى عنهم: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] **وثالثها:** الآخرة خير لك لأنك اشتريتها، أما هذه ليست لك، فعلى تقدير أن لو كانت الآخرة أقل من الدنيا لكانت الآخرة خيرًا لك؛ لأن مملوكك خير لك مما لا يكون مملوكًا لك، فكيف ولا نسبة للآخرة إلى الدنيا في الفضل. **ورابعها:** الآخرة خير لك من الأولى لأن في الدنيا الكفار يطعنون فيك، أما في الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم، وأجعلك شهيدًا على الأنبياء، ثم أجعل ذاتي شهيدًا لك، كما قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٨-٢٩] **وخامسها:** أن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ ولم يقل: خير لكم؟ **الجواب:** لأنه كان في جماعته من كانت الآخرة شرًّا له، فلو أنه سبحانه عمم لكان كذبًا، ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون. ولهذا السبب قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وأما محمد ﷺ فالذي كان معه لما كان من أهل السعادة قطعًا، لا جرم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] إذ لم يكن ثم إلا نبي وصِديق، وروي أن موسى عليه السلام خرج للاستسقاء،

ومعه الألوف ثلاثة أيام، فلم يجدوا الإجابة، فسأل موسى عليه السلام عن السبب الموجب لعدم الإجابة. فقال: لا أجيبكم ما دام معكم ساع بالنميمة. فسأل موسى من هو؟ فقال: (إني) أبغضه فكيف أعمل عمله؟! فما مضت مدة قليلة حتى نزل الوحي بأن ذلك النمام قد مات، وهذه جنازته في مصلى كذا. فذهب موسى عليه السلام إلى تلك المصلى، فإذا فيها سبعون من الجنائز، فهذا سَتْره على أعدائه فكيف على أوليائه؟! ثم تأمل فإن فيه دقيقة لطيفة، وهي أنه عليه السلام قال: «لَوْلاَ شُيُوخٌ رُكَّعٌ»[1] وفيه إشارة إلى زيادة فضيلة هذه الأمة، فإنه تعالى كان يرد الألوف لمذنب واحد، وهاهنا يرحم المذنبين لمطيع واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾

واعلم أن اتصاله بما تقدم من وجهين: الأول: هو أنه تعالى لما بَيَّن أن الآخرة خير له من الأولى ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أي حد يكون، فبَيَّن بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت، وهو أنه ينتهي إلى غاية ما يتمناه الرسول ويرتضيه. الوجه الثاني: كأنه تعالى لما قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]فقيل: ولمَ قلت: إن الأمر كذلك؟ فقال: لأنه يعطيه كل ما يريده وذلك مما لا تتسع الدنيا له، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى. واعلم أنه إن حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على المنافع، وقد يمكن حمله على التعظيم، أما المنافع، فقال ابن عباس: ألف قصر في الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، وفيها ما يليق بها. وأما التعظيم فالمروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس، أن هذا هو الشفاعة في الأمة، يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال: «إذًا لا أرضى وواحد من أمتي في النار».

واعلم أن الحمل على الشفاعة متعين، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** أنه تعالى أمَره في الدنيا بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة، ومن طلب شيئًا فلا شك أنه لا يريد الرد ولا يرضى به، وإنما يرضى بالإجابة، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول ﷺ هو الإجابة لا الرد، ودلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كل ما يرتضيه، علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة في حق المذنبين. **والثاني:** وهو أن مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول: لا أودعك ولا أبغضك بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلبًا لمرضاتك وتطييبًا لقلبك، فهذا التفسير أوفق لمقدمة الآية. **والثالث:** الأحاديث الكثيرة الواردة في الشفاعة دالة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام في

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٣٨٧) حديث رقم (٦٤٠٢) والبيهقي في (سننه الكبرى) (٣/ ٣٤٥) حديث رقم (٦١٨٣) والطبراني في (الأوسط) (٧/ ١٣٤) حديث رقم (٧٠٨٥) جميعًا من طريق إبراهيم بن خثيم بن عراك بن مالك عن أبيه عن جده عن أبي هريرة. . . به، وفي إسناده إبراهيم بن خثيم بن عراك، ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٢/ ٩٨) وقال: سألت أبا زرعة عنه فقال: منكر الحديث: وكذلك قال الذهبي في (ميزان الاعتدال) (١/ ١٤٩) قال النسائي: متروك.

العفو عن المذنبين، وهذه الآية دلت على أنه تعالى يفعل كل ما يرضاه الرسول، فتحصَّل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة، وعن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: رضاء جدي أن لا يدخل النار موحد. وعن الباقر: أهل القرآن يقولون: أرجى آية قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] وإنا أهل البيت نقول: أرجى آية قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ والله إنها الشفاعة ليعطاها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول: رضيت. هذا كله إذا حملنا الآية على أحوال الآخرة. أما لو حملنا هذا الوعد على أحوال الدنيا فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجًا، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، و(ما) هدم بأيديهم من ممالك الجبابرة، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في أهل الشرق والغرب من الرعب وتهييب الإسلام وفشو الدعوة، واعلم أن الأَوْلى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة، **وههنا سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ لم يقل: (يعطيكم) مع أن هذه السعادات حصلت للمؤمنين أيضًا؟ **الجواب:** لوجوه: **أحدها:** أنه المقصود وهم أتباع. **وثانيها:** أني إذا أكرمت أصحابك فذاك في الحقيقة إكرام لك؛ لأني أعلم أنك بلغت في الشفقة عليهم إلى حيث تفرح بإكرامهم فوق ما تفرح بإكرام نفسك، ومن ذلك حيث تقول الأنبياء: نفسي نفسي، أي أبدأ بجزائي وثوابي قبل أمتي؛ لأن طاعتي كانت قبل طاعة أمتي، وأنت تقول: أمتي أمتي، أي أبدأ بهم، فإن سروري أن أراهم فائزين بثوابهم. **وثالثها:** أنك عاملتني معاملة حسنة، فإنهم حين شجوا وجهك، قلت: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» وحين شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت: «**اللَّهُمَّ امْلأْ بُطُونَهُمْ نَارًا**» فتحملتَ الشجة الحاصلة في وجه جسدك، وما تحملت الشجة الحاصلة في وجه دينك، فإن وجه الدين هو الصلاة، فرجحت حقي على حقك، لا جرم فضلتك، فقلت: من ترك الصلاة سنين، أو حبس غيره عن الصلاة سنين لا أكفره، ومن آذى شعرة من شعراتك، أو جزء من نعلك أكفره.

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ ولمَ لم يقل: وسيعطيك ربك؟ **الجواب:** فيه فوائد: **إحداها:** أنه يدل على أنه ما قرب أجله، بل يعيش بعد ذلك زمانًا. **وثانيها:** أن المشركين لما قالوا: (ودعه ربه وقلاه) فالله تعالى رد عليهم بعين تلك اللفظة فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] ثم قال المشركون: (سوف يموت محمد)، فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

السؤال الثالث: كيف يقول الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾؟ **الجواب:** هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام جبريل عليه السلام معه؛ لأنه كان شديد الاشتياق إليه وإلى كلامه كما ذكرنا، فأراد الله تعالى أن يكون هو المخاطب له بهذه البشارات.

السؤال الرابع: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ **الجواب:** قال صاحب (الكشاف): هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: (ولأنت سوف يعطيك ربك) والدليل على ما قلنا أنها إما أن تكون لام القسم، أو لام الابتداء، ولام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك، فإن قيل: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلنا: معناه: أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: أن اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول: ألم يجدك يتيمًا؟ فقال الرسول: بلى يا رب. فيقول: انظر (أ) كانت طاعاتك في ذلك الوقت أكرم أم الساعة؟ فلا بد من أن يقال: بل الساعة. فيقول الله: حين كنت صبيًّا ضعيفًا ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفًا على شرفات العرش وقلنا لك: لولاك ما خلقنا الأفلاك، أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك؟!

المسألة الثانية: (ألم يجدك) من الوجود الذي بمعنى العلم، والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله، والمعنى ألم يَعلمك الله يتيمًا فآوى. **وذكروا في تفسير اليتيم أمرين: الأول:** أن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار توفي وأم رسول الله ﷺ حامل به، ثم وُلد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين، فكان مع جده، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين. وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة، فكان أبو طالب هو الذي يكفل رسول الله بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة، فقام بنصرته مدة مديدة، ثم توفي أبو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يُتم ألبتة، فأذكره الله تعالى هذه النعمة. روي أنه قال أبو طالب يومًا لأخيه العباس: ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه؟ فقال: بلى. فقال: إني ضممته إليَّ فكيف لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار؛ ولا أأتمن عليه أحدًا حتى أني كنت أنومه في فراشي، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي، فرأيت الكراهة في وجهه لكنه كره أن يخالفني، وقال: يا عماه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي. فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش، فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غُمس في المسك، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئًا، وكثيرًا ما كنت أفتقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فارجع. ولقد كنت كثيرًا ما أسمع منه كلامًا يعجبني وذلك عند مضي الليل، وكنا لا نسمي على

الطعام والشراب ولا نحمده بعده، وكان يقول في أول الطعام: باسم الله الأحد. فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله. فتعجبت منه، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكًا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون.

واعلم أن العجائب المروية في حقه من حديث بحيرى الراهب وغيره مشهورة.

التفسير الثاني لليتيم: أنه من قولهم: درة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحدًا في قريش عديم النظير فآواك؟ أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب؟ وقرئ: (فأوى) وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى آواه، وإما من أوى له، إذا رحمه **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمة، فيقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾؟ والذي يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] في معرض الذم لفرعون، فما كان مذمومًا من فرعون كيف يحسن من الله؟ **الجواب:** أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ويَعِده بدوام النعمة، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون؛ لأن امتنان فرعون محبط؛ لأن الغرض فما بالك لا تخدمني، وامتنان الله بزيادة نعمه، كأنه يقول: ما لك تقطع عني رجاءك ألستُ شرعتُ في تربيتك، أتظنني تاركًا لما صنعتُ؟! بل لا بد وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة. كما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ [البقرة: ١٥٠] أما علمت أن الحامل التي تسقط الولد قبل التمام معيبة تُرد، ولو أسقطت أو الرجل أسقط عنها بعلاج تجب الغرة وتستحق الذم، فكيف يحسن ذلك من الحي القيوم، فما أعظم الفرق بين مان هو الله وبين مان هو فرعون!! ونظيره ما قاله بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] في تلك الأمة، وفي أمة محمد: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فشتان بين أمة رابعهم كلبهم، وبين أمة رابعهم ربهم.

السؤال الثاني: أنه تعالى منّ عليه بثلاثة أشياء، ثم أمره بأن يذكر نعمة ربه، فما وجه المناسبة بين هذه الأشياء؟ **الجواب:** وجه المناسبة أن نقول: قضاء الدين واجب، ثم الدين نوعان: مالي وإنعامي، والثاني أقوى وجوبًا؛ لأن المالي قد يسقط بالإبراء، والثاني يتأكد بالإبراء، والمالي يقضى مرة فينجو الإنسان منه، والثاني يجب عليك قضاؤه طول عمرك، ثم إذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم؟! فكأن العبد يقول: إلهي أخرجتني من العدم إلى الوجود بشرًا سويًا، طاهر الظاهر نجس الباطن، بشارة منك أن تستر على ذنوبي بستر عفوك، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حد لها ولا حصر؟ فيقول تعالى: الطريق إلى ذلك أن تفعل في حق عبيدي ما فعلته في حقك، كنت يتيمًا فآويتك فافعل في حق الأيتام ذلك، وكنت ضالاً فهديتك فافعل في حق عبيدي ذلك، وكنت عائلاً فأغنيتك فافعل في حق عبيدي ذلك، ثم إن فعلت كل ذلك فاعلم أنك إنما فعلتها بتوفيقي لك ولطفي وإرشادي، فكن أبدًا ذاكرًا لهذه النعم والألطاف.

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾

فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافرًا في أول الأمر، ثم هداه الله وجعله نبيًّا، قال الكلبي: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ يعني كافرًا في قوم ضُلال فهداك للتوحيد. وقال السدي: كان على دين قومه أربعين سنة. وقال مجاهد: وجدك ضالاً عن الهدى لدينه. واحتجوا على ذلك بآيات أخر منها قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]فهذا يقتضي صحة ذلك منه، وإذا دلت هذه الآية على الصحة وجب حمل قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عليه. وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة، ثم قالت المعتزلة: هذا غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير. وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلاً لأنه جائز في العقول أن يكون الشخص كافرًا فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]ثم ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهًا كثيرة: **أحدها**:ما روي عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب: ووجدك ضالاً عن معالم النعمة وأحكام الشريعة غافلاً عنها فهداك إليها، وهو المراد من قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] **وثانيها**: ضل عن مرضعته حليمة حين أرادت أن ترده إلى جده حتى دخلت إلى هبل وشكت ذلك إليه فتساقطت الأصنام، وسمعت صوتًا يقول: إنما هلاكنا بيد هذا الصبي. وفيه حكاية طويلة. **وثالثها**: ما روي مرفوعًا أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**ضَلَلْتُ عَنْ جَدِّي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَنَا صَبِيٌّ ضَائِعٌ، كَادَ الْجُوعُ يَقْتُلُنِي، فَهَدَانِي اللَّهُ**» ذكره الضحاك، وذكر تعلقه بأستار الكعبة، وقوله:

يَا رَبِّ رُدَّ وَلَدِي مُحَمَّدَا ... ارْدُدْهُ رَبِّي وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فما زال يردد هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة وبين يديه محمد وهو يقول: لا ندري ماذا نرى من ابنك، فقال عبد المطلب: ولمَ؟ قال: إني أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة. كأن الناقة تقول: يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدي؟! وقال ابن عباس: رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه. **ورابعها**: أنه عليه السلام لما خرج مع غلام خديجة ميسرة أخذ كافر بزمام بعيره حتى ضل، فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام في صورة آدمي، فهداه إلى القافلة، وقيل: إن أبا طالب خرج به إلى الشأم فضل عن الطريق فهداه الله تعالى. **وخامسها**: يقال: ضل الماء في الليل، إذا صار مغمورًا، فمعنى الآية كنت مغمورًا بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى أظهرت دينه. **وسادسها**: العرب تسمي الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت، شجرة

فريدة في مفازة الجهل فوجدتك ضالاً فهديت بك الخلق، ونظيره قوله عليه السلام: «**الحكمة ضالة المؤمن**» **وسابعها**:وجدك ضالاً عن معرفة الله تعالى حين كنت طفلاً صبيًّا، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة، والمراد من الضال: الخالي عن العلم لا الموصوف بالاعتقاد الخطأ. **وثامنها**:كنت ضالاً عن النبوة ما كنت تطمع في ذلك ولا خطر شيء من ذلك في قلبك، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة في بني إسرائيل، فهديتك إلى النبوة التي ما كنت تطمع فيها ألبتة. **وتاسعها**:أنه قد يخاطب السيد، ويكون المراد قومه فقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي وجد قومك ضُلالاً، فهداهم بك وبشرعك. **وعاشرها**:وجدك ضالاً عن الضالين منفردًا عنهم مجانبًا لدينهم، فكلما كان بُعدك عنهم أشد كان ضلالهم أشد، فهداك إلى أن اختلطت بهم ودعوتهم إلى الدين المبين. **الحادي عشر**:وجدك ضالاً عن الهجرة، متحيرًا في يد قريش متمنيًا فراقهم، وكان لا يمكنك الخروج بدون إذنه تعالى، فلما أذن له ووافقه الصِّديق عليه وهداه إلى خيمة أم معبد، وكان ما كان من حديث سراقه، وظهور القوة في الدين، كان ذلك المراد بقوله: ﴿ فَهَدَىٰ﴾، **الثاني عشر**:ضالاً عن القبلة، فإنه كان يتمنى أن تجعل الكعبة قبلة له، وما كان يعرف أن ذلك هل يحصل له أم لا، فهداه الله بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال. **الثالث عشر**:أنه حين ظهر له جبريل عليه السلام في أول أمره ما كان يعرف أهو جبريل أم لا، وكان يخافه خوفًا شديدًا، وربما أراد أن يلقي نفسه من الجبل، فهداه الله حتى عرف أنه جبريل عليه السلام. **الرابع عشر**:الضلال بمعنى المحبة كما في قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]أي محبتك، ومعناه أنك محب فهديتك إلى الشرائع التي بها تتقرب إلى خدمة محبوبك. **الخامس عشر**:ضالاً عن أمور الدنيا لا تعرف التجارة ونحوها، ثم هديتك حتى ربحت تجارتك، وعظم ربحك حتى رغبت خديجة فيك، والمعنى أنه ما كان لك وقوف على الدنيا، وما كنت تعرف سوى الدين، فهديتك إلى مصالح الدنيا بعد ذلك. **السادس عشر**: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي ضائعًا في قومك؛ كانوا يؤذونك، ولا يرضون بك رعية، فقوَّى أمرك وهداك إلى أن صرت آمرًا واليًا عليهم. **السابع عشر**:كنت ضالاً ما كنت تهتدي إلى طريق السموات فهديتك إذ عرجت بك إلى السموات ليلة المعراج. **الثامن عشر**:ووجدك ضالاً أي ناسيًا لقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]فهديتك أي ذكرتك، وذلك أنه ليلة المعراج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ». **التاسع عشر**:أنه وإن كان عارفًا بالله بقلبه إلا أنه كان في الظاهر لا يظهر لهم خلافًا، فعبر عن ذلك بالضلال. **العشرون**:روى علي عليه السلام عن النبي ﷺأنه قال: «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ، فَإِنِّي قُلْتُ لَيْلَةً لِغُلَامٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ يَرْعَى مَعِي بِأَعْلَى

مَكَّةَ: لَوْ حَفِظْتَ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَسْمُرَ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الشُّبَّانُ. فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ حَتَّى أَتَيْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، فَسَمِعْتُ عَزْفًا بِالدُّفُوفِ وَالْمَزَامِيرِ، فَقَالُوا: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ يُزَوَّجُ بِفُلَانَةَ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ. قَالَ: «فَجِئْتُ صَاحِبِي»، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتُ شَيْئًا، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ. قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي فَمَا أَيْقَظَنِي إِلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: العائل هو ذو العيلة، وذكرنا ذلك عند قوله: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨] ثم أطلق العائل على الفقير، وإن لم يكن له عيال، **وههنا في تفسير العائل قولان:**

الأول: وهو المشهور أن المراد هو الفقير، ويدل عليه ما روي أنه في مصحف عبد الله: (ووجدك عديمًا) وقرئ (عَيِّلًا) كما قرئ (سَيِّحات) ثم في كيفية الإغناء وجوه: **الأول:** أن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه (الله) بمال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه (الله) بمال أبي بكر، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أمره بالجهاد، وأغناه بالغنائم، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع، روي أنه عليه السلام: (دخل على خديجة وهو مغموم، فقالت له مالك؟! فقال: الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحي منك، وإن لم أبذل أخاف الله. فدعت قريشًا وفيهم الصِّديق، قال الصِّديق: فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغًا لم يقع بصري على من كان جالسًا قدامي لكثرة المال، ثم قالت: اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه، وإن شاء أمسكه) **الثاني:** أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرًّا حتى قال عمر حين أسلم: أبرز، أتُعبد اللات جهرًا ونعبد الله سرًّا؟! فقال عليه السلام: «حَتَّى تَكْثُرَ الْأَصْحَابُ» فقال: حسبك الله وأنا. فقال تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فأغناه الله بمال أبي بكر، وبهيبة عمر. **الثالث:** أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب، لا تجد في قلبك سوى ربك، فربك غني عن الأشياء لا بها، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشيء لا به، ومن ذلك أنه عليه السلام خُير بين الغنى

(١) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) (١/ ١٣٠) حديث رقم (٣٨٩) تحت ترجمة محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة قال: قال لي شهاب: حدثنا بكر بن سليمان قال: أخبرنا ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن... به، والبزار في (مسنده) (٢) حديث رقم (٦٤٠) من طريق محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة... به، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢٨٠) من طريق يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة... به.

والفقر، فاختار الفقر. **الرابع**:كنت عائلاً عن البراهين والحجج، فأنزل الله عليك القرآن، وعَلَّمك ما لم تكن تعلم فأغناك.

القول الثاني في تفسير العائل:أنت كنت كثير العيال وهم الأمة، فكفاك. وقيل: فأغناهم بك لأنهم فقراء بسبب جهلهم، وأنت صاحب العلم، فهداهم على يدك. **وههنا سؤالات**:

السؤال الأول:ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها**:أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع. **وثانيها**:ليكون اليتيم مشاركًا له في الاسم فيكرم لأجل ذلك، ومن ذلك قال عليه السلام: «**إِذَا سَمَّيْتُمُ الْوَلَدَ مُحَمَّدًا فَأَكْرِمُوهُ، وَوَسِّعُوا لَهُ فِي الْمَجْلِسِ**». **وثالثها**:أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسُلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، فيصير في طفوليته متشبهًا بإبراهيم عليه السلام في قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، وكجواب مريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]. **ورابعها**:أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتم، ليتأمل كل أحد في أحواله، ثم لا يجدوا عليه عيبًا فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعنًا. **وخامسها**:جعله يتيمًا ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب، فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه. **وسادسها**:أن اليتم والفقر نقص في حق الخلق، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام مع هذين الوصفين أكرم الخلق، كان ذلك قلبًا للعادة، فكان من جنس المعجزات.

السؤال الثاني:ما الحكمة في أن الله ذكر هذه الأشياء؟ الجواب: الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع في العجب.

السؤال الثالث:روي عن رسول الله ﷺأنه قال: «**سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا، قُلْتُ: اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَسَخَّرْتَ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ كَذَا وَكَذَا، وَأَعْطَيْتَ فَلاَنًا كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالاً فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلاً فَأَغْنَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: أَلَمْ أَصْرِفْ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَمْ أُوتِ نَبِيًا قَبْلَكَ وَهِيَ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؟ أم أَتَّخِذْكَ خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً؟**»[(١)] فهل يصح هذا الحديث؟

(١) *صحيح*: أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (٨/ ١١١) حديث رقم (٢٩٩١) والطبراني في (الأوسط) (٤/ ٧٥) حديث رقم (٣٦٥١) والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٢٦) من طريق أحمد بن سلمة عن عبد الله بن الجراح عن حماد بن زيد... به وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وابن أبي حاتم في (التفسير) (١٢/ ٤٢٥) والواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٣٠٣) جميعًا من طريق حماد بن زيد، حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٣٨) وقال: صحيح، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٤٥٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط. وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

قلنا: طَعَن القاضي في هذا الخبر فقال: إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال، ويكون منه تعالى ما يجري مجرى المعاتبة؟!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾

وقرئ (فلا تكهر) أي لا تعبس وجهك إليه، والمعنى عامِله بمثل ما عاملتك به، ونظيره من وجه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] ومنه قوله عليه السلام: «اللَّهَ اللَّهَ فِيمَنْ لَيسَ لَهُ إِلاَّ اللَّهُ»(١) وروي أنها نزلت حين صاح النبي ﷺ على ولد خديجة، ومنه حديث موسى عليه السلام حِينَ قَالَ: «إِلَهِي بِمَ نِلْتُ مَا نِلْتُ؟ قَالَ: أَتَذْكُرُ حِينَ هَرَبَتْ مِنكَ السَّخْلَةُ، فَلَمَّا قَدَرْتَ عَلَيْهَا قُلْتَ: أَتْعَبْتِ نَفْسَكِ ثُمَّ حَمَلْتَهَا، فَلِهَذَا السَّبَبِ جَعَلْتُكَ وَلِيًا عَلَى الْخَلْقِ»(٢)، فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم؟ وإذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح أو العبوسية في الوجه، فكيف إذا أذله أو أكل ماله؟ عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا بَكَى الْيَتِيمُ وَقَعَتْ دُمُوعُهُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ، وَيَقُولُ تَعَالَى: مَنْ أَبْكَى هَذَا الْيَتِيمَ الَّذِي وَارَيْتُ وَالِدَهُ التُّرَابَ، مَنْ أَسْكَتَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾

يقال: نهره وانتهره، إذا استقبله بكلام يزجره، وفي المراد من السائل قولان: **أحدهما**: وهو اختيار الحسن أن المراد منه من يسأل العلم، ونظيره من وجه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] وحينئذٍ يحصل الترتيب؛ لأنه تعالى قال له أولاً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] ثم اعتبر هذا الترتيب، فأوصاه برعاية حق اليتيم، ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه. **والقول الثاني**: أن المراد مطلق السائل، ولقد عاتب الله رسوله في القرآن في شأن الفقراء في ثلاثة مواضع: أحدها: أنه كان جالسًا وحوله صناديد قريش، إذ جاء ابن أم مكتوم الضرير، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه، وقال: علِّمني مما علمك الله. فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن عدي في (الكامل) (٣/ ١٥٥) من طريق رشدين بن سعد عن إبراهيم بن نشيط عن ابن جحيرة الأكبر عن أبي هريرة. . . به، وأورده العجلوني في(كشف الخفا) (١/ ١٩١) وقال: ضعيف.

(٢) لم أجده.

(٣) منكر: رواه الخطيب في (تاريخ بغداد) (١٣/ ٤٢) وقال: هذا حديث منكر جدًا، لم أكتبه إلا بإسناده، ورجاله كلهم معروفون إلا موسى بن عيسى وأنه مجهول، وحديثه عندنا غير مقبول. وابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ١٦٨/ ١٦٩) كلاهما من طريق موسى بن عيسى البغدادي، حدثنا يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس. . . به، وقال: قال الخطيب: هذا حديث منكر جدًا، لم أكتبه إلا بإسناده، ورجاله كلهم معروفون إلا موسى بن عيسى فإنه مجهول عندنا غير مقبول.

[عبس: ١]، **والثاني:** حين قالت له قريش: لو جعلت لنا مجلسًا وللفقراء مجلسًا آخر فهَمَّ أن يفعل ذلك فنزل قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] **والثالث:** كان جالسًا فجاءه عثمان بعذق من ثمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب، فقال: رحم الله عبدًا يرحمنا. فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك، وأراد أن يأكله النبي عليه السلام فخرج واشتراه من السائل، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات، وكان يعطيه النبي عليه السلام إلى أن قال له النبي ﷺ: «أَسَائِلٌ أَنْتَ أَمْ بَائِعٌ؟» فنزل: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

وفيه وجوه: أحدها: قال مجاهد: تلك النعمة هي القرآن، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عليه السلام، والتحديث به أن يقرأه ويقرئ غيره ويبين حقائقه لهم. **وثانيها:** روي أيضًا عن مجاهد أن تلك النعمة هي النبوة، أي بلِّغ ما أنزل إليك من ربك. **وثالثها:** إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدِّث بها ليقتدي بك غيرك، ومنه ما روي عن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: إذا عملت خيرًا فحَدِّث إخوانك ليقتدوا بك، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به، ومن ذلك لما سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له: فحَدِّثنا عن نفسك. فقال: مهلًا، فقد نهى الله عن التزكية. فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ فقال: فإني أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت، وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني.

فإن قيل: فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل؟ **قلنا:** فيه وجوه: **أحدها:** كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أَوْلى. **وثانيها:** أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول. **وثالثها:** أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله، واختار قوله: ﴿فَحَدِّثۡ﴾ على قوله: (فخَبِّر) ليكون ذلك حديثًا عنده لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أورده النيسابوري في (تفسيره) (٧/ ٣٥٦).

سورة «الضُّحَى»

مكيةٌ باتِّفاق، وهي إحدى عَشْرَةَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قد تقدَّم القولُ في «الضحى»[(١)]، والمرادُ به النهارُ؛ لقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابَلَه بالليل، وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الآيتان: ٩٧-٩٨] أي: نهاراً.

وقال قتادةُ ومقاتلٌ وجعفرُ الصادقُ: أَقْسَم بالضُّحى الذي كلَّم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج.

وقيل: هي الساعةُ التي خرَّ فيها السَّحَرةُ سجَّداً، بيانُه قولُه تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقال أهلُ المعاني فيه وفي أمثاله[(٢)]: فيه إضمارٌ، مَجازُه: وربِّ الضُّحى.

و«سَجَا» معناه: سَكَن؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيدٍ وعكرمةُ[(٣)]. يقال: ليلةٌ ساجيةٌ، أي: ساكنةٌ. ويقال للعَيْنِ إذا سَكَن طَرْفُها: ساجية. يقال: سجا الليلُ[(٤)] يَسْجو سَجْواً: إذا سَكَن. والبحرُ إذا سجا: سَكَن؛ قال الأعشى:

---

(١) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة طه، والآية الأولى من سورة الشمس.

(٢) في النسخ الخطية: إقباله، والمثبت من (م) واللباب ٢٠/ ٣٨٠ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨ .

(٤) في (ظ) و(ي): الشيء.

فما ذَنْبُنا أن جاش بحرُ ابنِ عمِّكم وبحرُكَ ساجٍ ما يواري الدَّعَامِصا[١]

وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ السَّاجْ وطُرُقٌ مِثلُ مُلَاءِ النَّسَّاجْ[٢]

وقال جرير:

ولقد رمينَكَ يومَ رُحْنَ بأعينٍ ينظُرنَ من خَلَلِ السُّتورِ سَوَاجي[٣]

وقال الضحَّاك: «سجا»: غطَّى كلَّ شيء[٤]. قال الأصمعيُّ: سَجْوُ الليل: تَغْطِيتُه النهارَ، مثلما يُسَجَّى الرجلُ بالثوب[٥].

وقال الحسن: غَشِيَ بظلامه. وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظْلَمَ. وقال سعيد بن جبير: أَقْبَلَ. ورُوي عن قتادةَ أيضاً. ورَوَى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: «سجا»: استوى[٦].

والقولُ الأوّل أَشْهرُ في اللغة: «سجا»: سَكَن، أي: سَكَن الناسُ فيه. كما يقال: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ. وقيل: سكونُه: استقرارُ ظَلامِه واستواؤُه.

ويقال: «والضحى. والليل إذا سَجَا»: يعني عبادَه الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعبادَه الذين يعبدونه بالليل إذا أَظْلَم.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٠١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣ ، والصحاح (سجا). ووقع في الديوان: أتوعدني أن جاش بحر...، والدعامص: جمع دُعْموص: دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها. معجم متن اللغة (دعمص).

(٢) العين ٦/ ١٦١ ، ومجاز القرآن ٢/ ٣٠٢ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٧١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩ ، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٠ ، وأساس البلاغة (سجو).

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٧ . قال الشارح: خلل الستور: الفُرَجُ التي بينها. السواجي: الفواتر، وواحدها: ساجية. وفي العين ٦/ ١٦١ : عين ساجية، أي: فاترة النظر، يعتري الحسن في النساء.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٨ .

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ١٤١ .

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٩١ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨ .

ويقال: «الضحى»: يعني نور الجنةِ إذا تنوَّر. «والليل إذا سجا»: يعني ظُلمة الليلِ إذا أظْلَم.

ويقال: «والضحى»: يعني النور الذي في قلوب العارِفين كهيئة النهار. «والليلِ إذا سجا»: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأَقْسَمَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأشياء.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: هذا جوابُ القسم. وكان جبريلُ عليه السلام أبطأ على النبيِّ ﷺ، فقال المشركون: قَلَاه الله وودَّعه، فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احْتَبَس عنه الوحيُ اثني عَشَرَ يوماً. وقال ابن عباس: خمسةَ عَشَرَ يوماً. وقيل: خمسةً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً[١]. فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقَلاه، ولو كان أمرُه من الله لتابَعَ عليه، كما كان يفعل بمَن كان قَبْلَه من الأنبياء.

وفي البخاريِّ عن جُنْدُب بن سفيان قال: اشْتَكَى رسولُ اللهِ ﷺ، فلَمْ يَقُمْ ليلتين أو ثلاثاً، فجاءتِ امرأةٌ فقالت: يا محمدُ، إنِّي لأرجو أنْ يكونَ شيطانُك قد تَرَكَك، لمْ أرَه قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[٢].

وفي الترمذيِّ عن جُنْدُب البَجَليِّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في غارٍ فدَمِيتْ إصبعُه، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ أنْتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سَبيلِ الله مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريلُ فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمدٌ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ٤٩٨ ، والرازي ٣١/ ٢١١ ، وسلفت عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٠)، وهو عند أحمد (١٨٨٠١)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٥). وجندب بن سفيان هو جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي، ومَن قال: ابن سفيان، نسَبه إلى جدِّه، سكن الكوفة، ثم البصرة، قَدِمها مع مصعب بن الزبير، وروى عنه أهل المصرين. الإصابة ٢/ ١٠٤ .

قَلَىٰ﴾. هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. لم يذكر الترمذيُّ: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً»، أسْقَطه الترمذيُّ، وذكره البخاريُّ، وهو أصحُّ ما قيل في ذلك. والله أعلم.

وقد ذكره الثعلبيُّ أيضاً عن جندب بن سفيان البَجَليِّ، قال: رُميَ النبيُّ ﷺ في إصبعه بحجرٍ، فدَمِيَتْ، فقال: «هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيْتِ، وفي سبيل اللهِ ما لَقِيْتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقومُ الليل. فقالت له أمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ: ما أرى شيطانَك إلا قد تَرَكك، لم أرَه قَرِبَكَ منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فنزلت «والضُّحَى».

وروى عن أبي عمران الجَوْنيِّ قال: أبطأ جبريلُ على النبيِّ ﷺ حتى شَقَّ عليه، فجاءَه وهو واضعٌ جبهتَه على الكعبة يدعو، فنَكَتَ بين كَتِفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وقالت خولةُ ـ وكانت تخدُم النبيَّ ﷺ ـ: إنَّ جَرْواً دخل البيتَ، فدخل تحت السَّريرِ، فمات، فمكَثَ نبيُّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحيُ. فقال: «يا خولةُ، ما حَدَث في بيتي؟ جبريلُ لا يأتيني»! قالت خولة: فقلتُ: لو هيّأتُ البيتَ وكنستُه، فأهْوَيْتُ بالمِكْنسةِ تحت السريرِ، فإذا جَرْوٌ ميتٌ، فأخذتُه فألقيتُه خلفَ الجدارِ، فجاء نبيُّ الله تَرْعدُ لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحيُ استقبلته الرِّعدةُ ـ فقال: «يا خولةُ دثِّريني» فأنزل الله هذه السورة[٢].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٥)، وأخرجه مسلم مقطَّعاً (١٧٩٦): (١١٣) و(١٧٩٧): (١١٤). وأخرجه دون قوله: وأبطأ عليه جبريل...، أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٢)، وفيه: دَميتْ إصبع رسول الله ﷺ في بعض المشاهد فقال: «هل أنت. . .». قال القاضي عياض: قد يراد بالغار الجيش والجمع، لا واحد الغيران التي هي الكهوف، فيوافق قوله: في بعض المشاهد. إكمال المعلم ٦/ ١٧٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ وعنه نقل المصنف. قال الحافظ في الفتح ٨/ ٧١٠ : وجدت في الطبراني بإسناد فيه مَن لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره لم يشعر به النبي ﷺ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح. اهـ. وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سرير النبي ﷺ أخرجها أحمد (٢٥١٠٠)، ومسلم (٢١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجها البخاري (٥٩٦٠) مختصرة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولمَّا نزل جبريل، سأله النبيُّ ﷺ عن التأخُّر فقال: «أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صُورة»[١].

وقيل: لمَّا سألته اليهودُ عن الروح وذي القرنين وأصحابِ الكهفِ قال: «سأُخْبِرُكم غداً» ولم يقل: إنْ شاء الله. فاحتَبَس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣] فأخبره بما سُئل عنه. وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[٢].

وقيل: إنَّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالَكَ لا ينزلُ عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزلُ عليَّ وأنتم لا تُنقُّونَ رَوَاجِبَكم ـ وفي روايةٍ بَراجِمَكم ـ ولا تَقصُّون أَظْفارَكم، ولا تأخذون من شَوارِبِكم». فنزل جبريلُ بهذه السورة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما جِئْتَ حتى اشْتَقْتُ إليك» فقال جبريلُ: «وأنا كنتُ أشدَّ إليك شوقاً، ولكنِّي عبدٌ مأمور» ثم أنزل عليه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤][٣].

«ودَّعك» بالتشديد قراءةُ العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارِق. وروي عن ابن عباسٍ وابن الزبير أنهما قرأاه: «وَدَعك» بالتخفيف[٤]، ومعناه: تَركَكَ. قال:

وثم وَدَعْنا آلَ عَمْرٍو وعامرٍ فَرائسَ أطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ[٥]

واستعمالُه قليل. يقال: هو يَدَعُ كذا، أي: يتركُه. قال المبرِّد محمد بنُ يزيد: لا يكادون يقولون: وَدَعَ، ولا وَذَرَ؛ لضَعْفِ الواوِ إذا قدِّمَتْ، واستَغْنَوا عنها بتَرَكَ[٦].

---

(١) قطعة من حديث عائشة وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٠٨، والبغوي ٤/ ٤٩٧-٤٩٨، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٨١) إلى قوله: «شواربكم» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف. وسلف باقي الخبر بنحوه عن مجاهد ١٣/ ٤٨١. قال الجوهري في الصحاح (رجب): الراجبة في الإصبع واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٤.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٦٣، وذكره الحافظ في الفتح برواية: ونحن ودعنا...

(٦) سلف نحوه عن سيبويه ٨/ ٥٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبْغضَكَ ربُّك منذ أَحبَّك. وترك الكاف لأنه رأسُ آية. والقِلَى: البغضُ، فإنْ فتَحْتَ القافَ مَدَدْتَ؛ تقول: قَلاَه يَقْلِيه قِلًى وقَلاَءً. كما تقول: قَرَيْتُ الضعيفَ أَقْرِيه قِرًى وقَرَاءً. ويَقْلاَه لغةُ طيِّئ؛ وأنشد ثعلب:

أيـامَ أمِّ الـغَـمْـرِ لا نَـقْـلاهـا[1]

أي: لا نُبغضُها. ونَقْلَى، أي: نُبغض، وقال:

أَسِيئي بنا أو أَحْسِني لا ملومةٌ ... لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[3]

وتأويلُ الآية: ما ودَّعك ربُّك وما قَلاك، فترك الكاف لأنَّه رأسُ آية، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذَّاكِرَاتِ اللهَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

روى سَلمةُ عن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَلآخِرة خير لكَ مِنَ الأولى﴾ أي: ما عندي في مَرْجِعِكَ إليَّ يا محمدُ، خيرٌ لك مما عَجَّلْتُ لك من الكرامةِ في الدنيا[4]. وقال ابن عباس: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما يَفْتحُ الله على أُمَّته بَعْدَه، فسُرَّ بذلك، فنزل جبريلُ بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[5]. قال ابن إسحاق:

---

(١) الصحاح (قلا)، ووقع في النسخ: يا رب، بدل: أيام، والمثبت من الصحاح، واللسان (قلا)، وفيه بعده: ولو تشاء قبَّلتْ عيناها.

(٢) سلف ١٠/ ٢٣٦.

(٣) وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٣٥، وسلف ص٣٢٧ من هذا الجزء.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨.

الفَلْجُ[١] في الدنيا، والثوابُ في الآخرة. وقيل: الحوضُ والشفاعةُ.

وعن ابن عباس: ألفُ قَصْرٍ من لؤلؤٍ أبيضَ ترابُه المِسْكُ[٢]. رَفَعه الأَوْزاعيُّ، قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ عبيدِ الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمَّتِه، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله عزَّ وجلّ: «والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فتَرْضَى»، فأعطاه الله جلَّ ثناؤه ألفَ قصرٍ في الجنة، ترابُها المِسْكُ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٣].

وعنه قال: رِضا محمدٍ أَلَّا يدخل أحدٌ من أهلِ بيتِهِ النارَ. وقاله السُّدِّي[٤].

وقيل: هي الشفاعةُ في جميع المؤمنين. وعن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفِّعُني الله في أُمَّتي، حتى يقولَ الله سبحانه لي: أَرَضيتَ يا محمد؟ فأقول: يا ربِّ رضيتُ»[٥].

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقولَ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة:١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ أمَّتي أمَّتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى محمدٍ ـ وربُّك أعْلَم ـ فسَلْه ما يُبَكيكَ» فأتَى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى

(١) في (د) و(ي): الفلح، وفي (ظ): الفتح، والمثبت من (م) وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤١. والفَلْجُ ـ بالجيم ـ بوزن الفَلْس: الظَّفَر والفوز. والفَلَح ـ بالحاء ـ محركةً: الفوز والنجاة. القاموس (فلج) و(فلح).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٤، والطبري ٤/ ٤٨٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، والحاكم ٢/ ٥٥٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠. قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٥) من طريق سعيد بن جبير عنه بلفظ: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة.

(٥) أخرجه البزار في المسند (٦٣٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٩، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦١ لابن المنذر وابن مردويه.

محمدٍ، فقُل له: إنَّ الله يقولُ لك: إنَّا سنُرْضِيْكَ في أمَّتك ولا نَسُوءُك»[١].

وقال عليٌّ ﷺ[٢] لأهل العراق: إنَّكم تقولون: إنَّ أَرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣] قالوا: إنَّا نقولُ ذلك. قال: ولكنَّا أهلَ البيت نقولُ: إنَّ أرْجَى آيةٍ في كتاب الله قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وفي الحديث: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «إذاً واللهِ لا أرضَى وواحدٌ من أمتي في النار»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾

عدَّد سبحانه مِنَنَه على نبيِّه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أبَ لك، قد مات أبوك، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوًى تأوي إليه عند عمِّك أبي طالب، فكَفِلَك. وقيل لجعفر بن محمد الصَّادقِ: لمَ أُوتِمَ النبيُّ ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوقٍ عليه حقٌّ[٤].

وعن مجاهد: هو مِن قول العرب: درَّةٌ يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثْل[٥]. فَمَجازُ الآيةِ: أَلَم يجدك واحداً في شَرَفكَ لا نظيرَ لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾

أي: غافلاً عمَّا يرادُ بك من أمرِ النبوَّة، فهداك، أي: أرْشَدَك. والضلالُ هنا

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٢)، وسلف ٨/ ٣٠٦.

(٢) كذا في النسخ، والصواب أنه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، كما في الحلية ٣/ ١٧٩، والوسيط ٤/ ٥١٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٨، والدر المنثور ٦/ ٣٦١ عن ابن المنذر وابن مردويه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير الرازي ٣١/ ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٣ دون نسبة.

بمعنى الغَفْلةِ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] أي: لا يَغْفَلُ. وقال في حقِّ نبيِّه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

وقال قوم: «ضالًّا»: لم تكنْ تدري القرآنَ والشرائعَ، فهداك الله إلى القرآن، وشرائعِ الإسلام؛ عن الضَّحَّاك وشهر بنِ حوشب وغيرِهما. وهو معنى قولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢][١]، على ما بيَّنا في سورة الشورى.

وقال قوم: «ووجدك ضالًّا» أي: في قومٍ ضُلَّالٍ، فهداهم الله بك. هذا قولُ الكلبيِّ والفرَّاء[٢]. وعن السُّدِّيِّ نحوُه، أي: ووجد قومك في ضلالٍ، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: «ووجدك ضالًّا» عن الهجرة، فهداك إليها[٣].

وقيل: «ضالًّا» أي: ناسياً شأنَ الاستثناءِ حين سُئلْتَ عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح، فأَذْكَرَكَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقيل: ووجَدَكَ طالباً للقِبْلةِ فهداك إليها، بيانُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [البقرة:١٤٤]. ويكون الضَّلالُ بمعنى الطَّلبِ؛ لأنَّ الضَّالَّ طالبٌ.

وقيل: ووجدك متحيِّراً عن بيانِ ما نزل عليك، فهداك إليه، ويكونُ الضلالُ بمعنى التحيُّرِ؛ لأنَّ الضالَّ مُتحيِّرٌ.

وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليه، ويكون الضلالُ بمعنى الضَّيَاعِ.

وقيل: ووجدك مُحِبّاً للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلالُ بمعنى المحبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] أي: في مَحبَّتِك[٤]. قال الشاعر:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩-٣٤٠ دون نسبة، وذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٩٩ ، والرازي ٣١/ ٢١٦-٢١٧ عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب وابن كيسان.

(٢) بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

هذا الضَّلالُ أشابَ منِّي المَفْرِقا والعارِضَيْنِ ولم أكُنْ مُتَحقِّقا
عَجباً لعَزَّةَ في اختيار قطيعتي بعد الضلالِ فحَبْلُها قد أخلقا[(١)]

وقيل: «ضالًّا» في شِعابِ مكةَ، فهداك: ردَّك[(٢)] إلى جدِّك عبدِ المطَّلب؛ قال ابن عباس: ضلَّ النبيُّ ﷺ وهو صغيرٌ في شعابِ مكةَ، فرآه أبو جهل مُنْصَرِفاً عن أغنامه، فردَّه إلى جدِّه عبدِ المطلب[(٣)]. فمنَّ الله عليه بذلك، حين ردَّه إلى جدِّه على يدي عدوِّه.

وقال سعيد بن جبير: خرج النبيُّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليسُ بزمامِ الناقةِ في ليلةٍ ظَلماءَ، فعَدَلَ بها عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنَفَخَ إبليسَ نفخةً وقع منها إلى أرض الهند، وردَّه إلى القافلة؛ فمنَّ الله عليه بذلك[(٤)].

وقال كعب: إنَّ حَليمةَ لمَّا قَضَتْ حقَّ الرضاعِ، جاءت برسول الله ﷺ لتردَّه على عبد المطلب، فسَمِعَتْ عند بابِ مكةَ: هنيئاً لكِ يا بَطْحاءَ مكةَ، اليومَ يُردُّ إليك النورُ والدِّينُ والبهاءُ والجمال. قالت: فوضعتُه لأصلِح ثيابي، فسمعتُ هدَّةً شديدةً، فالتفتُّ فلمْ أرَه، فقلت: مَعْشَرَ الناسِ، أين الصبيُّ؟ فقالوا: لمْ نَرَ شيئاً، فصِحْتُ: وا محمداه! فإذا شيخٌ فانٍ يتوكَّأُ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإنْ شاء أنْ يردَّه عليك فَعَلَ. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبَّل رأسَه وقال: يا رب، لم تَزَلْ مِنَّتُكَ على قريش، وهذه السعدِيَةُ تزعم أنَّ ابنها قد ضلَّ، فرُدَّه إن شئت. فانْكَبَّ هُبَلُ على وجهه، وتَساقَطَتِ الأصنام، وقالت: إليكَ عنَّا أيها الشيخ، فهلاكُنا على يَدَيْ محمدٍ. فألقى الشيخ عصاه، وارْتَعَدَ وقال: إنَّ لابنِكِ ربًّا لا يضيعُه، فاطلُبيه على مَهَل.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٢) في (م): وردك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٩ وابن الجوزي ٩/ ١٥٩ عن سعيد بن المسيب، وفيهما: أرض الحبشة، بدل: أرض الهند.

فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يَجدِوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتَضَرَّع إلى الله أن يردَّه، وقال:

يـا ربِّ رُدَّ ولـدي مـحـمـدا ... ارْدُدْه ربِّي واتَّخِذْ عـنـدي يـدا

يـا ربِّ إنْ مـحـمـدٌ لـم يُـوجَـدا ... فـشَـمْـلُ قـومي كـلِّـهـم تـبـدَّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشِرَ الناس لا تَضِجُّوا، فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذلُه ولا يضيعُه، وإنَّ محمداً بوادي تِهامةَ، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بنُ نوفل، فإذا النبيُّ ﷺ قائمٌ تحت شجرةٍ يلعبُ بالأغصان وبالورق[1].

وقيل: «ووجدك ضالًا» ليلةَ المِعراج، حين انصرف عنك جبريلُ وأنت لا تعرفُ الطريقَ، فهداك إلى ساقِ العرش.

وقال أبو بكر الورَّاقُ وغيرُه: «ووجدك ضالًا»: تحبُّ أبا طالبٍ، فهداك إلى محبَّة ربِّك.

وقال بسام بن عبد الله: «ووجدك ضالًا» نَفْسَك[2] لا تدري من أنت، فعرَّفك بنفسِك وحالك.

وقال الجنيد: ووجدك متحيِّراً في بيان الكتاب، فعلَّمك البيانَ، بيانُه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [النحل: ٤٤]. ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال بعض المتكلِّمين: إذا وَجَدتِ العربُ شجرةً منفردةً في فلاةٍ من الأرض، لا شجرَ معها، سمَّوْها ضالَّة، فيهتدَى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: «ووجدك ضالًّا» أي: لا أحدَ على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فَهدَيتُ بك الخَلْقَ إليّ[3].

---

(١) أخرجه مطولاً ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٤٧٤-٤٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنفسك، والمثبت من (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧ ، قال الرازي: ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالَّة المؤمن».

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها حِسانٌ، ثم منها ما هو معنويٌّ، ومنها ما هو حِسِّيٌّ. والقولُ الأخيرُ أَعْجبُ إليَّ؛ لأنه يجمع الأقوالَ المعنوية.

وقال قومٌ: إنَّه كان على جملةِ ما كان القوم عليه، لا يُظهِرُ لهم خلافاً في ظاهر الحال، فأمَّا الشِّركُ فلا يُظَنَّ به، بل كان على مراسم القوم في الظَّاهِر أربعين سنة.

وقال الكلبيُّ والسدِّيُّ: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافراً والقومُ كفَّارٌ فهداك[١]. وقد مضى هذا القولُ والردُّ عليه في سورة الشورى[٢].

وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشِّرْكِ، فميَّزك عنهم؛ يقال: ضلَّ الماء في اللبن[٣]، ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: لَحِقْنا بالتراب عند الدَّفن، حتى كأنَّا لا نَتميَّز من جملته.

وفي قراءة الحسن: «ووجدك ضالٌّ فهُديَ» أي: وجدك الضالُّ فاهتَدَى بك[٤]، وهذه قراءةٌ على التفسير.

وقيل: «ووجدك ضالًّا» لا يهتدي إليك قومُك، ولا يعرفون قَدْرَك؛ فهدَى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

أي: فقيراً لا مالَ لك. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بخديجةَ رضي الله عنها؛ يقال: عالَ الرجلُ يَعِيلُ عَيْلَةً: إذا افْتقر؛ قال أُحَيحةُ بن الجُلاح:

فما يَدْري الفقيرُ متى غِناهُ ... وما يَدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[٥]

أي: يفتقر.

---

(١) ذكره عنهما الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) ديوان أحيحة بن الجلاح ص٧٤، وسلف ٦/ ٣٩.

وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق[١]. وقال الكلبيُّ: قنَّعك بالرزق.

وقال ابن عطاء: وجدك فقيرَ النَّفْسِ، فأغنَى قلبك.

وقال الأخفش[٢]: وجدك ذا عيالٍ، دليلُه: «فأغنى»، ومنه قولُ جرير:

اللهُ أنزلَ في الكتاب فريضةً لابنِ السبيلِ ولِلفقيرِ العائِلِ[٣]

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها[٤].

وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيريُّ: وفي هذا نَظَرٌ؛ لأنَّ السورة مكيةٌ، وإنَّما فُرِضَ الجهاد بالمدينة[٥].

وقراءةُ العامَّةِ: «عائلاً». وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «عَيِّلا» بالتشديد[٦]، مثل: طيِّب وهيِّن.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تَسَلَّطْ[٧] عليه بالظُّلم، ادفع إليه حقَّه، واذكُرْ يُتْمكَ؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى[٨]. وعن مجاهد «فلا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٢) قوله في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ديوان جرير ٢/ ٧٣٧ برواية: والله أنزل.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) وذكر الرازي ٣١/ ٢١٩ أن هذا وإن كان حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان معلوم الوقوع كان كالواقع.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٥.

(٧) في (ظ): تشط.

(٨) كذا وقعت هذه العبارة في هذا الموضع، وحقُّها أن تكون قبل ما سيأتي من قوله: والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وبعد ذكر قراءة «تكهر» بالكاف، وفي الصحاح (كهر): قال الكسائي: كَهَره وقَهَره بمعنى.

تَقْهَر»: فلا تَحْتَقِرْ[١].

وقرأ النخَعيُّ والأشهب العُقَيليُّ: «تَكْهَرْ» بالكاف، وكذلك هو في مصحفِ ابنِ مسعود[٢]. فعلى هذا يَحتمِلُ أن يكون نَهْياً عن قَهْرِه بظُلِمْه وأَخْذِ مالِه. وخصَّ اليتيم لأنَّه لا ناصرَ له غيرُ الله تعالى، فغلَّظ في أمره بتغليظ العقوبةِ على ظالِمه.

والعربُ تُعاقِبُ بينَ الكافِ والقاف؛ النحَّاس: وهذا غلطٌ، إنَّما يقال: كَهَره: إذا اشتدَّ عليه وغَلَّظ.

وفي «صحيح» مسلم من حديث معاويةَ بنِ الحكم السُّلَميِّ، حين تكلَّم في الصلاة بردِّ السلام، قال: فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث[٣]. وقيل: القَهْر: الغَلَبَة. والكَهْر: الزَّجْر.

الثانية: ودلَّتِ الآيةُ على اللُّطْفِ باليتيم، وبِرِّه والإحسانِ إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأبِ الرَّحيم. وروِي عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شَكَا إلى النبيِّ ﷺ قسوةَ قَلْبِه؛ فقال: «إنْ أردتَ أنْ يَلينَ، فامْسَحْ رأسَ اليتيم، وأَطْعِمِ المسكين»[٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافلُ اليتيمِ له أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبَّابة والوسطى[٥].

ومن حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمن، فيقولُ الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، مَن ذا الذي أبْكَى هذا اليتيمَ الذي غيَّبْتُ أباه في التراب. فتقول الملائكةُ: ربَّنا أنت أَعْلَمُ، فيقولُ الله تعالى لملائكته:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥ .

(٣) صحيح مسلم (٥٣٧) مطولاً، وهو عند أحمد (٢٣٧٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٥٧٦)، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٨٣)، وهو عند أحمد (٨٨٨١)، وسلف ٢/ ٢٣٠ .

يا ملائكتي، اشْهَدوا أنَّ مَن أسْكَتَه وأرضاه أنْ أُرْضِيَه يومَ القيامة»[١]. فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضمَّ يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونَتَه، كان له حجاباً من النار يومَ القيامة، ومَن مسح برأسِ يتيمٍ كان له بكلِّ شعرةٍ حسنةٌ»[٢].

وقال أكثم بنُ صَيفيّ: الأذلَّاء أربعةٌ: النمَّام، والكذَّاب، والمَدْيونُ، واليتيم.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تَزْجُزه. فهو نهيٌ عن إغلاظِ القول. ولكنْ رُدَّه ببَذْلٍ يَسيرٍ، أو ردٍّ جميل، واذكُر فَقْرَك؛ قاله قتادةُ وغيره[٣]. وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدُكم السائلَ، وأنْ يعطِيَه إذا سأل ولو رأى في يده قُلْبينِ من ذهب»[٤].

وقال إبراهيم بن أدهم: نِعْمَ القومُ السُّؤَّالُ؛ يحملون زادَنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: السائلُ بريدُ الآخرةِ، يَجيءُ إلى باب أحدِكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيءٍ.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رُدُّوا السائلَ ببَذْلٍ يسير، أو ردٍّ جميل، فإنَّه يأتيكم مَن ليس من الإنس ولا من الجنِّ، ينظرُ كيف صنيعُكم فيما خوَّلكم الله»[٥].

---

(١) أخرجه ابن عدي ٢/ ٧٢١، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٩٩ من طريق سعيد بن المسيب عن عمر ﷺ، وهو عند ابن عدي مختصر. وفي إسناده الحسن بن أبي جعفر الجُفْري وهو ضعيف الحديث، كما ذكر الحافظ في التقريب. وسعيد بن المسيب لم يسمع من عمر. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٦٤.

(٢) أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠٩٧، وفي إسناده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال عنه البخاري: متروك، وقال يحيى: معروف بوضع الحديث، وقال أحمد: كان يضع الحديث. الميزان ٢/ ٢١٦.

(٣) أخرجه عن قتادة ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ بلفظ: ردّ السائل برحمة ولين.

(٤) أخرجه البزار (٩٥٢ ـ كشف)، وابن عدي ٢/ ٧٣٣. قال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده الحسن بن علي الهاشمي، ضعفه أحمد والنسائي وأبو حاتم والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ١/ ٥٠٥. والقُلب: سوار المرأة. القاموس (قلب).

(٥) سلف ٤/ ٣٢٨، وذكرنا ثمة قول ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له.

وقيل: المرادُ بالسائل هنا: الذي يَسألُ عن الدِّين، أي: فلا تَنْهره بالغِلْظةِ والجَفْوة، وأجِبْه برفقٍ ولين؛ قاله سفيان[١]. قال ابن العربيِّ[٢]: وأمَّا السائلُ عن الدِّين فجوابُه فَرْضٌ على العالِم على الكفاية، كإعطاءِ سائلِ البِرِّ سواء. وقد كان أبو الدَّرْداءِ ينظرُ إلى أصحاب الحديث، ويبسطُ رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبَّةِ رسولِ الله ﷺ[٣].

وفي حديثِ أبي هارون العَبْديِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، قال: كنَّا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَبًا بوصيةِ رسولِ الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون، فإذا أتَوْكم فاستوصُوا بهم خيراً»[٤]. وفي روايةٍ: «يأتيكم رجالٌ مِن قِبْلِ المَشْرِقِ...» فذكره[٥].

و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده، وحقُّ المنصوبِ أن يكون بعد الفاءِ، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تَقْهرِ اليتيم، ولا تنهر السائل[٦].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سألتُ ربِّي مسألةً ودِدْتُ أنِّي لم أسألها، قلتُ: يا ربِّ، اتَّخذتَ إبراهيمَ خليلاً، وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وسخَّرتَ مع داود الجبالَ يسبِّحْنَ، وأعطيتَ فلاناً كذا، فقال عزَّ وجلَّ: ألَمْ أجِدْكَ يتيماً فآويتُك؟ ألم أجِدْكَ ضالًّا فهديتُك؟ ألم أجِدْكَ عائلاً فأغنيتُك؟ ألم أشْرَحْ لك صدركَ؟ ألم أُوتِكَ ما لم أُوْتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورةِ البقرة، ألم أتَّخذك خليلاً كما اتَّخذتُ إبراهيمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٥.

(٣) ذكره ابن بشكوال في الصلة ص٤١٢.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠)، وأبو هارون العبدي اسمه عمارة بن جُوَين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٥) سنن الترمذي (٢٦٥١)، وهو أيضاً من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٢٤.

خليلاً؟ قلتُ: بلى يا رب»(١).

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشُرْ ما أنْعمَ الله عليك بالشكر والثناء. والتحدُّثُ بنِعَم الله والاعترافُ بها شكرٌ. وروى ابنُ أبي نجِيح عن مجاهد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال: بالقرآن. وعنه قال: بالنبوّة(٢)، أي: بلِّغ ما أُرْسِلْتَ به. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والحُكْمُ عامٌّ له ولغيره.

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: إذا أَصَبْتَ خيراً، أو عملتَ خيراً، فحدِّثْ به الثِّقةَ من إخوانك(٣).

وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه مَن يثقُ به، يقول له: رَزَقَ الله من الصلاة البارحةَ كذا وكذا(٤).

وكان أبو فراسٍ عبدُ الله بنُ غالب(٥) إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحةَ كذا، قرأتُ كذا، وصلَّيتُ كذا، وذكرتُ الله كذا، وفعلتُ كذا. فيقال له: يا أبا فِراس، إنَّ مثلك لا يقولُ هذا! قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وتقولون أنتم: لا تحدّثْ بنعمة الله(٦)! ونحوه عن أيوبَ السختِيانيِّ وأبي رجاءٍ العُطارِديِّ ﷺ(٧).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٨٩)، والحاكم ٢/ ٥٢٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩١-٤٩٢، وفي الوسيط ٤/ ٥١١-٥١٢، والبغوي ٤/ ٤٩٩. وليس فيه عندهم: ألم أوتك... كما اتخذت إبراهيم خليلاً.

(٢) أخرج الأول عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وأخرج الثاني الطبري ٢٤/ ٤٩٠-٤٩١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وذكره الرازي ٣١/ ٢٢١ ثم قال: إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٥، والحاكم ٢/ ٥٢٧.

(٥) الحُدَّاني البصري العابد، توفي سنة (٨٣ هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠١.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٧.

(٧) ذكره عنهما ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٦.

وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «مَن أُعطِيَ خيراً فلم يُرَ عليه، سمِّي بغيضَ الله، مُعادياً لِنِعَم الله»(١).

وروى الشعبيُّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن لم يَشْكُرِ القليلَ لم يَشْكُرِ الكثير، ومَن لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله، والتحدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ، وتَرْكُه كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفُرْقةُ عذابٌ»(٢).

وروى النسائيُّ عن مالك بن نَضْلةَ الجُشَميِّ قال: كنتُ عند رسولِ الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثيابِ فقال: «أَلَكَ مالٌ؟» قلتُ: نعم يا رسول الله، مِن كلِّ المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثرُهُ عليك»(٣).

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ويحبُّ أن يرى أثَر نعمته على عبده»(٤).

فصل: يكبِّر القارئُ في روايةِ البزِّيِّ عن ابن كثير، وقد رواه مجاهدٌ عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ: إذا بلغ آخِرَ «والضُّحى» كبَّر بين كلِّ سورةٍ تكبيرةً، إلى أن يختم القرآن. ولا يَصِلُ آخِرَ السورةِ بتكبيرةٍ، بل يفصلُ بينهما بسكتة(٥). وكأنَّ المعنى في ذلك أنَّ الوحي تأخَّر عن النبيِّ ﷺ أياماً، فقال ناسٌ من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٣٦٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٨٤٤٩). وإسناده ضعيف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وقوله: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ١٨٠-١٨١.

(٤) أخرجه أبو يعلى (١٠٥٥)، وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف. ويشهد لجزئه الأول حديث ابن مسعود ﷺ عند أحمد (٣٧٨٩)، ومسلم (٩١). ويشهد لجزئه الثاني حديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي (٢٨١٩). قال الترمذي. حديث حسن.

(٥) وهذه رواية النقاش، عن أبي ربيعة، عن البزي، كما ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص٢٢٦، إلا أنه ذكر أن الأحاديث الواردة عن المكيين دالةٌ على أنه يَصِلُ التكبير بآخر السورة؛ قال: لأن فيها: «مع»، وهي تدل على الصحبة والاجتماع.

المشركين: قد ودَّعه صاحبُه وقَلاه، فنزلت هذه السورةُ، فقال: «الله أكبر»(١).

قال مجاهد: قرأتُ على ابنِ عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيٍّ، عن النبيِّ ﷺ.

ولا يكبِّر في قراءةِ الباقين؛ لأنَّها ذرِيعةٌ إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآنُ ثبتَ نقلاً متواتراً، سورُه وآياتُه وحروفُه؛ لا زيادةَ فيه ولا نقصان؛ فالتكبيرُ على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوبُ في المصحف بخطِّ المصحفِ ليس بقرآنٍ، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أمَا إنه ثبتَ سنَّةً بنقلِ الآحاد، فاستحبَّه ابنُ كثير، لا أنَّه أوْجَبه فخطَّأ مَن تَرَكه.

ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظُ في كتاب «المستدرك» له على البخاريِّ ومسلم: حدَّثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئُ الإمامُ بمكة في المسجد الحرام، قال: حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغُ، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزةَ: سمعتُ عكرمةَ بنَ سليمان يقول: قرأتُ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال لي: كبِّر عند خاتمةِ كلِّ سورة حتى تختم، فإنِّي قرأتُ على عبد الله بن كثير فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال: كبِّر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد [فأمره بذلك]، وأخبره مجاهدٌ أنَّ ابن عباس أمَره بذلك، وأخبره ابن عباس أنَّ أُبيّ ابنَ كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرِّجاه(٢).

---

(١) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥١٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠١ .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٠٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقد تعقبه الذهبي بقوله: البزي قد تُكُلِّم فيه. وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (١٧٤٤)، والداني في التيسير ص٢٢٧ ، وينظر جامع البيان للداني ٢/ ٥٠١-٥٠٥ . وذكره ابن كثير في بداية تفسير سورة الضحى وقال: فهذه سنَّةٌ تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزَّة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.

سُورَةُ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾

مكيَّةٌ، وآيُها إحدى عشرةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾: ووقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ، وتَخصيصُه لأنَّ النَّهارَ يَقْوَى فيه، أو لأنَّ فيه كلَّم موسى ربَّه وأُلْقِيَ السَّحَرةُ سُجَّدًا.

أو: النَّهارِ، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨] في مُقابلَةِ ﴿بَيَاتًا﴾ [الأعراف: ٩٧].

(٢) ـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: سكَنَ أهلُه، أو ركدَ ظَلامُه، مِن سَجَا البَحْرُ سُجُوًّا: إذا سكنَتْ أمواجُه، وتَقديمُ الليلِ في السُّورةِ المتقدمَةِ باعتبارِ الأصلِ، وتقديمُ النَّهارِ هاهنا باعتبارِ الشَّرَفِ.

(٣) ـ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: ما قطعَكَ قطعَ المودِّعِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[1] بمعنى: ما تركَكَ، وهو جوابُ القَسَمِ.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: وما أبغضَكَ، وحُذِفَ المفعولُ استغناءً بذكرِهِ مِن قبلُ، ومُراعاةً للفَواصلِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣٦٤)، عن النبي ﷺ وعروة بن الزبير.

رُوِيَ أنَّ الوَحْيَ تأخَّرَ عنه أيَّامًا لتركِهِ الاستثناءَ كما مرَّ في سورةِ الكهفِ[١]، أو لزَجْرِه سائِلًا مُلِحًّا[٢]، أو لأنَّ جَرْوًا مَيِّتًا كان تحتَ سَريرِه[٣]، أو لغيرِه، فقال المشركونَ: إنَّ مُحمَّدًا ودَّعَهُ ربُّه وقَلَاهُ، فنزلَتْ ردًّا عليهم[٤].

---

(١) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٧١٠): نقلًا عن «سيرة بن إسحاق»: أن المشركين لما سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين والروح وغير ذلك ووعدهم بالجواب ولم يستثن فأبطأ عليه جبريل اثنتي عشرة ليلة أو أكثر، فضاق صدره وتكلم المشركون فنزل جبريل بسورة والضحى وبجواب ما سألوا وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. قال الحافظ: «وذكرُ سورة الضحى هنا بعيد، لكن يجوز أن يكون الزمان في القصتين متقارباً فضم بعض الرواة إحدى القصتين إلى الأخرى وكل منهما لم يكن في ابتداء البعث وإنما كان بعد ذلك بمدة، والله أعلم».

قلت: رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول سورة الكهف، وقولهِ تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وليس فيه ذكر نزول سورة الضحى، وهكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق ابن إسحاق، وقد تقدم هذا عند تفسير الإسراء والكهف.

(٢) ذكره الداني في «جامع البيان» (٤/ ١٧٥٠)، وابن الجزري في «النشر» (٢/ ٤٠٦) عن ابن أبي بزة. وقال ابن الجزري: وهذا سياق غريب جدًّا، وهو مما انفرد به ابن أبي بزة أيضا، وهو معضل.

(٣) رواه ابن أبي شيبة كما في «المطالب العالية» لابن حجر (١٥/ ٤٣٧) برقم (٣٧٨١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٤٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٤٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٦١٠)، من حديث خولة خادم النبي ﷺ. قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٣٤): وليس إسناد حديثها في ذلك مما يحتج به. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٧١٠): «وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح». قلت: يريد ما رواه مسلم (٢١٠٤) عن عائشة من قصة احتباس الوحي بسبب جرو كلب تحت سريره ﷺ دون ذكر النزول.

(٤) وهذا هو الصحيح في نزول هذه السورة وهو ما رواه مسلم (١٧٩٧/ ١١٤) عن جُندبِ بنِ =

(٤) ـ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإنَّها باقيَةٌ خالصَةٌ عَن الشَّوائبِ، وهذه فانيَةٌ مَشوبَةٌ بالمضَارِّ، كأنَّه لَمَّا بيَّنَ أنَّه تعالى لا يزالُ يُواصِلُه بالوَحيِ والكرامةِ في الدُّنيا وعَدَ له ما هو أَعْلَى وأَجلُّ مِن ذلك في الآخرةِ.

أو: ولَنِهايَةُ أمرِكَ خيرٌ مِن بِدايَتِه؛ فإنَّه لا يَزالُ يَتصاعَدُ في الرِّفعَةِ والكَمالِ.

(٥) ـ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وعدٌ شاملٌ لِمَا أعطاهُ مِن كمالِ النَّفسِ وظُهورِ الأمرِ وإعلاءِ الدِّينِ، ولِمَا ادَّخر لهُ ممَّا لا يَعرِفُ كُنهَهُ سِواهُ.

واللامُ للابتداءِ، دخلَ الخبرَ بعدَ حذفِ المُبتدَأِ، والتَّقديرُ: ولأَنْتَ سوفَ يُعطيكَ، لا للقسمِ؛ فإنَّها لا تدخلُ على المضارعِ إلا مَع النُّونِ المؤكِّدةِ، وجمعُها مع ﴿سَوْفَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ العطاءَ كائنٌ لا محالةَ وإن تأخَّرَ لحكمةٍ.

(٦) ـ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ تعديدٌ لِمَا أنعمَ عليهِ تنبيهًا على أنَّه كما أحسنَ إليه فيما مَضى يُحسِنُ إليه فيما يُستقبَلُ، و﴿يَجِدْكَ﴾ مِن الوُجودِ بمعنى العلمِ، و﴿يَتِيمًا﴾ مفعولُه الثَّاني، أو المصادفةِ[1]، و﴿يَتِيمًا﴾ حالٌ.

(٧) ـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علمِ الحِكَمِ والأَحكامِ ﴿فَهَدَىٰ﴾: فعَلَّمَكَ بالوَحيِ والإِلهامِ والتَّوفيقِ للنَّظرِ.

= سفيانَ قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد ودِّع محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾.

وفي رواية عند البخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧) عن جُندبِ بنِ سفيانَ قالَ: اشتكى رسولُ اللهِ ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءَت امرأةٌ فقالَت: يا محمَّدُ، إنِّي لأرجو أن يكونَ شيطانُك قد تركَكَ، فإنِّي لم أرَه قَربَكَ منذُ ليلتين أو ثلاثٍ، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(١) قوله: «أو المصادفة» عطفٌ على «العلم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥١٤).

وقيـل: وجـدَكَ ضَـالًّا فـي الطَّريـقِ حيـنَ خرجَ بـك أبو طالـبٍ إلى الشَّـامِ، أو حيـنَ فَطَمَتْـكَ حليمـةُ وجاءَتْ بـك لتَرُدَّكَ علـى جدِّكَ، فـأزالَ ضلالَـكَ عَن عمِّكَ أو جَدِّكَ(١).

(٨) ـ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فقيـرًا ذا عيـالٍ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بمـا حصَّـلَ لـك مـن ربـحِ التِّجـارَةِ.

(٩ـ١١) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: فلا تَغلبْهُ على مالِهِ لضَعفِه، وقُرِئ: (فلا تَكْهَر)(٢)؛ أي: فلا تعبِسْ في وَجهِهِ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾: فلا تزجُرْ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإنَّ التَّحدُّثَ بها شُكرُها.

وقيل: المرادُ بالنِّعمَةِ النبوَّةُ، والتَّحدُّثُ بها تبليغُها.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ جعلَهُ اللهُ فيمَنْ يرضى لِمُحمَّدٍ أن يشفعَ له، وعشرَ حَسَناتٍ يكتبُها اللهُ له بعَددِ كلِّ يَتيمٍ وسائِلٍ»(٣).

***

---

(١) ذكرهما الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤٩٠، ٤٩٢ ـ ٤٩٦) الأول من رواية أبي الضحى عن ابن عباس، والثاني مطولًا من رواية كعب الأحبار.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٥) عن اليماني، و«الكشاف» (٩/ ٦١٨) عن ابن عباس.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤٦٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٠٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٣) سورة الضحى مكية
وآياتها إحدى عشرة

يستحب التكبير من آخر الضحى لآخر سورة الناس، وقد ذكر القراء أن ذلك سنّة مأثورة وذكروا في مناسبة التكبير من أول (سورة الضحى) أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾ السورة بتمامها كبّر فرحاً وسروراً(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد، عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾(٢). وفي رواية: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودع محمداً ربه، فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾، وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿والليل إذا سجى﴾ أي سكن فأظلم وادلهم، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ﴿وما قلى﴾ أي وما أبغضك، ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خيِّر عليه السلام في آخر عمره، بين الخلد في

---

(١) قال ابن كثير: لم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف فالله أعلم.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي.

الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عزَّ وجلَّ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية، روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[1]. وقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أُمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي. وروي عن ابن عباس أنه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أُمته من بعده كنزاً كنزاً فسرّ بذلك، فأنزل الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم[2]، وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، قال الحسن: يعني بذلك الشفاعة، ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ الآية، ومنهم من قال: إن المراد بهذا أن النبي ﷺ ضلّ في شعاب مكّة وهو صغير ثم رجع، وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقة في الليل، فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق، حكاهما البغوي، وقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[3]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[4]. ثم قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي كما كنت

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: إسناده صحيح، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) أخرجه مسلم.

يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وقال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد، قال ابن إسحاق: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي فلا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله، وقال قتادة: يعني ردّ المسكين برحمة ولين، ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها وأتمها علينا». وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها[1]، وفي الصحيحين عن أنَس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم»[2]. وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[3]. وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك، وفي رواية عنه: القرآن، وقال الحسن بن علي: ما عملت من خير فحدّث إخوانك، وقال ابن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة، فحدث بها واذكرها وادع إليها.

[آخر تفسير سورة الضحى ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه ابن جرير.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

تفسير سورة الضحى

وهى مكية .

روينا من طريق أبى الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بَزَةَ المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرنى أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عبَّاد ، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قالا لى: كَبِر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبى بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبى أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك (١).

فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إماماً فى القراءات ، فأما فى الحديث فقد ضَعَّفَه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلى قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى شرح الشاطبية عن الشافعى أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير فى الصلاة ، فقال له : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث .

ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ . وقال آخرون : من آخر ﴿ وَالضُّحَى ﴾ . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر .

وذكر الفراء فى مناسبة التكبير من أول سورة « الضحى » : أنه لما تأخر الوحى عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة [ثم](٢) جاءه الملك فأوحى إليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً . ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ

(١) ورواه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/ ١٤٥) ثم قال: « هذا حديث غريب ، وهو مما أنكر على البزى ، قال أبو حاتم : هذا منكر » .

(٢) زيادة من م .

(٣) والصواب أن هذا مما لم يصح فيه شيء عن النبى ﷺ ولا عن صحابته ، رضى الله عنهم ، وما روى فيها مما لا تقوم به الحجة ، وشيخ الإسلام ــ ابن تيمية ــ قد تكلم على هذا التكبير كلاماً شديداً فى الفتاوى (١٣/ ٤١٧ــ٤١٩) ، وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٣١٠) ومرويات دعاء ختم القرآن لبكر أبو زيد (ص٦) ومن كتابه استفدت هذا ، فجزاه الله خيراً .

ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سمعت جُنْدُبا يقول : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) .

رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن الأسود بن قيس ، عن جُنْدُب ــ هو ابن عبد الله البَجلى ثم العَلَقى (٢) به (٣) ، وفى رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس : سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون: وُدِّع محمد . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٤).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله (٥) الأودى قالا : حدثنا أبو أسامة ، حدثنى سفيان ، حدثنى الأسود بن قيس ، أنه سمع جندباً يقول : رمى رسول الله ﷺ بحجر فى أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت ؟

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك (٦) . فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . والسياق لأبى سعيد .

قيل : إن هذه المرأة هى : أم جميل امرأة أبى لهب ، وذكر أن إصبعه ، عليه السلام ، دميت . وقوله ــ هذا الكلام الذى اتفق أنه موزون ــ ثابت فى الصحيحين (٧)،ولكن الغريب هاهنا جعله سبباً لتركه القيام ، ونزول هذه السورة . فأما ما رواه ابن جرير :

حدثنا ابن أبى الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، عن عبد الله ابن شداد : أن خديجة قالت للنبى ﷺ:ما أرى ربك إلا قد قلاك . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وقال أيضا : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ ، فجزع جزعاً شديداً ، فقالت خديجة : إنى أرى ربك قد قلاك مما نَرى من جزعك. قال : فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ إلى آخرها (٨) .

(١) المسند (٤/ ٣١٢) .
(٢) فى أ : « العلقمى » .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٤،١١٢٥،٤٩٨٣، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٥٠) .
(٤) هذه الرواية فى مسلم والترمذى .
(٥) فى أ : « وعمرو بن عبد الله بن عبد الله الأودى » .
(٦) فى م : « قد تركك » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .
(٨) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٨) .

فإنه حديث مرسل من [هذين الوجهين] (١) ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً ،أو قالته على وجه التأسف والتحزن ، والله أعلم .

وقد ذكر بعض السلف ــ منهم ابن إسحاق ــ أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]. قال : قال له هذه السورة : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ .

قال العوفى ، عن ابن عباس : لما نَزَلَ على رسول الله ﷺ القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى : سكن فأظلم وادلَهَم . قاله مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ،وقال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى : ما تركك ، ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أى : وما أبغضك ، ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ﴾ أى : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم [بالضرورة] (٢) من سيرته . ولما خُيِّرَ ، عليه السلام ، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ،وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخعى ، عن علقمة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول الله ،ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ! ما أنا والدنيا ؟ ! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركتها (٣) » .

ورواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث المسعودى به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته ، وفيما أعدَّه له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه [من](٥) مسك أذفر ، كما سيأتى .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى ، عن

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) زيادة من م . (٣) فى أ : « وتركها » .
(٤) المسند (١/ ٣٩١) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٠٩) .
(٥) زيادة من أ .

على بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير [1] من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف .

وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا معاويةُ بن هشام ، عن على بن صالح ، عن زيد بن أبى زياد، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّا أهلُ بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ » [2] .

ثم قال تعالى يعدد نعَمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه تُوفّى وهو حَملٌ فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره ويُوقّره ، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره ، إلى أن تُوفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم أوَوه ونَصَرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكَلاءته وعنايته به .

وقوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ كقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ومنهم من قال [إن] [3] المراد بهذا أنه ، عليه السلام ، ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام ، وكان راكباً ناقة فى الليل ، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل ، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق . حكاهما البغوى .

---

(١) فى أ : « رواه ابن جرير وابن أبى حاتم » .

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/٢٤٨) من طريق ابن أبى شيبة فذكره دون الآية ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥/٢٣٦) بهذا الطريق ولم يذكر الآية ، ولعل ذكرها وقع فى كتاب التفسير ، ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤٠٨٢) عن عثمان بن أبى شيبة ، عن معاوية بن هشام به ، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٦٢) : « هذا إسناد فيه يزيد بن أبى زياد الكوفى مختلف فيه » .

(٣) زيادة من م .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وفى الصحيحين ــ من طريق عبد الرزاق ــ عن مَعْمَر ،عن همام بن مُنَبّه قال : هذا ما حَدّثنا أبو هُرَيرة قال :قال رسول الله ﷺ:« ليس الغنى عن كثرة العَرَض،ولكن (١) الغنى غنى النفس» (٢).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً ، وقنعه (٣) الله بما آتاه » (٤) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسنْ إليه ، وتلطف به .

قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم.

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى :وكما كنت ضالاً فهداك الله ،فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد .

قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فَحَّاشا ، ولا فَظّا على الضعفاء من عباد الله .

وقال قتادة : يعنى رَد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى:« واجعلنا شاكرين لنعمتك (٥) مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَية ، حدثنا سعيد بن إياس الجُرَيرى ، عن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا الجراح بن مَليح ، عن أبى عبد الرحمن ، عن الشعبى ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر . والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » (٦) إسناد ضعيف .

---

(١) فى م : « وإنما » .

(٢) لم أقع عليه فى الصحيحين من هذا الطريق ، وقد جاء فيهما من طرق أخر عن أبى هريرة ، انظر : صحيح البخارى برقم (٦٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥١) .

(٣) فى أ : « ومتعه » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٥) فى أ : « لنعمك » .

(٦) زوائد المسند (٤/ ٢٧٨) .

وفى الصحيحين ، عن أنس ، أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب الأنصار بالأجر كله . قال : « لا ، ما دعوتم الله لهم ، وأثنيتم عليهم » (١) .

وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد ، عن ابن المبارك ، عن الربيع بن مسلم (٢) ، وقال : صحيح .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن الجراح ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا بشر(٤) ، حدثنا عمارة بن غَزْيّة ، حدثنى رجل من قومى ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عَطاء فَوَجَد فَلْيَجزْ به ، فإن لم يجد فَلْيُثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » . قال أبو داود : ورواه يحيى بن أيوب ، عن عُمارة بن غَزِية ،عن شرحبيل عن جابر ـ كرهوه فلم يسموه . تفرد به أبو داود (٥).

وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك . وفى رواية عنه : القرآن .

وقال ليث ، عن رجل ، عن الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فَحَدث إخوانك .

وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك الله (٦) من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

آخر تفسير سورة « الضحى » [ولله الحمد] (٧)

---

(١) لم أقع عليه فى الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٢٠٠) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨١١) وسنن الترمذى برقم (١٩٥٤) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٨١٤) .
(٤) فى أ : « بشير » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨١٣) .
(٦) فى م : « ما جاءك من الله » .
(٧) زيادة من أ .

سورة والضُّحَى

مكيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ هو وقت ارتفاع الشمس وصدرُ النهار. قالوا: تخصيصه بالإقسام به؛ لأنّها الساعة التي كُلِّم فيها موسى عليه السلام وأُلقيَ فيها السحَرة سُجّدًا، لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه، ٥٩/٢٠]. وقيل: أريدَ به النهار، كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾ [الأعراف، ٩٨/٧] في مقابلة ﴿بَيَٰتٗا﴾ [الأعراف، ٩٧/٧].[١]

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: جنس الليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن أهله، أو ركد ظلامه مِن "سَجا البحر سُجُوًّا" إذا سكنتْ أمواجه، ونُقل عن قتادةَ ومقاتل وجعفر الصادق أنّ المراد بـ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ هو الضحى الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وبـ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ ليلة المِعراج.[٢]

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم، أي: ما قَطَعك قَطْعَ المودِّع. وقُرئ بالتخفيف،[٣] أي: ما تَرَكك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضَك. وحذفُ المفعول إمّا للاستغناء عنه بذِكره مِن قبلُ، أو للقصد إلى نفي صدورِ الفعل عنه تعالى بالكلّيّة، مع أنّ فيه مراعاةً للفواصل.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٧/٤.
٢ عنهم في اللباب لابن عادل، ٣٨٠/٢٠.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة وعروة بن الزُّبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٩٣٢.

رُوي أنّ الوحي تأخَّر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيّامًا لتركه الاستثناء، كما مرّ في سورة الكهف،[١] أو لزجره سائلًا مُلِحًّا، فقال المشركون: إنّ محمّدًا ودَّعه ربّه وقَلاه،[٢] فنزلت ردًّا عليهم وتبشيرًا له عليه السلام بالكرامة الحاصلة والمترقَّبة، كما يُشعِر به إيرادُ اسم الربّ المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام.

وحيثُ تضمَّن ما سبق مِن نفي التوديع والقِلى أنّه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بُشِّر عليه السلام بأنّ ما سنؤتيه في الآخرة أجلّ وأعظم مِن
[٣٠٤و] ذلك فقيل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ / لِما أنّها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق، وهذه فانية مَشوبة بالمضارّ، وما أوتي عليه السلام مِن شرف النبوّة وإن كان ممّا لا يُعادِله شرفٌ ولا يُدانيه فضل لكنّه لا يخلو في الدنيا مِن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام، مع أنّه عندما أُعِدّ له عليه السلام في الآخرة مِن السَّبْق والتقدّم على كافّة الأنبياء والرسل يوم الجمع ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين، ٦/٨٣] وكونِ أمّته شهداءَ على سائر الأمم ورفعِ درجات المؤمنين وإعلاءِ مراتبهم بشفاعته وغيرِ ذلك مِن الكرامات السنيّة التي لا تُحيط بها العبارة، بمنزلة[٣] بعض المبادي بالنسبة إلى المطالب. وقيل: المراد بـ﴿الْآخِرَةُ﴾ عاقبة أمره عليه السلام، أي: لَنهايةُ أمرِك خير مِن بدايته، لا يزال يتزايد قوّةً ويتصاعد رِفعةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ عِدَة كريمة شاملة لِما أعطاه الله تعالى في الدنيا مِن كمال النفس، وعلومِ الأوّلين والآخرين، وظهورِ الأمر وإعلاءِ الدِّين بالفتوح الواقعة في عصره عليه السلام وفي أيّام خلفائه الراشدين وغيرهم مِن الملوك الإسلاميّة، وفشوّ الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولِما ادّخر له مِن الكرامات التي لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ.

---

[١] في تفسير الآية الثالثة والعشرين منها.

[٢] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٨٦/٢٤-٤٨٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٥٤/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٧/٤.

[٣] السياق: مع أنّه... بمنزلة...

وقد أنبأ ابن عبّاس عن شمّة منها حيث قال له عليه السلام: «في الجنّة ألف قصر مِن لؤلؤ أبيضَ ترابُه المِسك».[١]

و"اللام" للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك... إلخ، لا للقسم؛ لأنّها لا تدخل على المضارع إلّا مع "النون" المؤكِّدة، وجمعُها مع ﴿سَوْفَ﴾ للدلالة على أنّ الإعطاء كائن لا محالةَ وإن تراخى لحكمة.

وقيل: هي للقسم، وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النُّحاة منها صورتين: إحداهما أن يُفصَل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس، كهذه الآية، وكقولك: "والله لَسَأُعطيك"، والثانية أن يُفصَل بينهما بمعمول الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران، ١٥٨/٣]. وقد قال / أبو علي الفارسي: [٣٠٤ظ] ليست هذه "اللام" هي التي في قولك: "إنّ زيدًا لَقائم"؛ بل هي التي في قولك: "لأقومنّ" ونابَتْ "سوف" عن إحدى نونَي التوكيد، فكأنّه قيل: "ولَيُعطينّك".[٢] وكذلك "اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾... إلخ.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ تعديد لِما أفاض عليه عليه السلام مِن أوّل أمره إلى ذلك الوقت مِن فنونِ النَّعماء العِظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقَّب الموعود فيطمئنّ قلبه وينشرح صدره. و"الهمزة" لإنكار النفي وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه، كأنّه قيل: قد وجدك... إلخ، والوجودُ بمعنى العِلم، و﴿يَتِيمًا﴾ مفعوله الثاني. وقيل: بمعنى المصادفة، و﴿يَتِيمًا﴾ حال مِن مفعوله.[٣]

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٨٨/٢٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٧٣/٢ (٣٩٤٣)؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٠٧/٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤.

٢ القول والآراء التي فيه مذكورة بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٣٨٥/٢٠.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٤/٣.

رُوي أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستّة أشهر، وماتت أمّه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمّه أبو طالب، وعطّفه الله تعالى عليه فأحسن تربيته،[١] وذلك إيواؤه. وقُرئ: "فَأَوَى"،[٢] وهو إمّا مِن "أَوَاهُ" بمعنى "آواه" أو مِن "أَوَى له" إذا رَحِمَه.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عطفٌ على ما يقتضيه الإنكار السابق، كما أشيرَ إليه، أو إلى المضارع المنفيّ بـ﴿لَمْ﴾ داخلٌ في حُكمه، كأنّه قيل: أما وَجَدك يتيمًا فآوى ووَجَدك غافلًا عن الشرائع التي لا يهتدي إليها العقول، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الشورى، ٥٢/٤٢].

وقيل: ضلّ في صباه في بعض شِعاب مكّة فردّه أبو جهل إلى عبد المطّلب.[٣] وقيل: ضلّ مرّةً أخرى وطلبوه فلم يجدوه، فطاف عبد المطّلب بالكعبة سبعًا وتضرّع إلى الله تعالى، فسمعوا مناديًا ينادي مِن السماء: يا معشر الناس لا تضجّوا فإنّ لمحمّد ربًّا لا يخذله ولا يُضيّعه، وإنّ محمّدًا بوادي تِهامة عند شجر السَّمُر، فسار عبد المطّلب وورقةُ بن نوفل فإذا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق.[٤] وقيل: أضلّته مرضعتُه حليمةُ عند باب مكّة حين فطمَتْه وجاءت به لتردّه على عبد المطّلب.[٥] وقيل: ضلّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. يُروى أنّ إبليسَ أخذ بزمام ناقته في ليلة ظلماء فعَدَل به عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنفخ إبليسَ نفخةً وَقَع منها / إلى أرض الهند، وردّه إلى القافلة.[٦] [٣٠٥و]

﴿فَهَدَىٰ﴾ فهداك إلى مناهج الشرائع المنطوية في تضاعيف ما أوحيَ إليك مِن الكتاب المبين، وعلّمك ما لم تكن تعلم، أو أزال ضلالك عن جدّك وعمّك.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ وقال ابن حجَر في الكافي الشاف، ص ١٨٥: «لم أجِد هذا»، وذكر له تفصيلًا؛ وفي المستدرك للحاكم، ٦٦١/٢ (٤١٩١): «توفّي أبوه وأمّه حبلى به»؛ وفي الروض الأنف للسهيلي، ١٦٠/٢: «وأكثر العلماء على أنّه كان في المهد».

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤، واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤، واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي: فقيرًا. وقُرئ: "عَيِّلًا"،[١] وقُرئ: "عَدِيمًا".[٢] ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجةَ، أو بما حصل لك مِن ربح التجارة، أو بما أفاء عليك مِن الغنائم، قال عليه السلام: «جُعل رزقي تحت ظلّ رُمحي».[٣] وقيل: قنّعك وأغنى قلبك.[٤]

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله. وقال مجاهدٌ: لا تحتقر.[٥] وقُرئ: "فَلَا تَكْهَرْ"،[٦] أي: فلا تعبِس في وجهه.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجر ولا تُغلِظ له القول؛ بل رُدَّه ردًّا جميلًا. قال إبراهيمُ بن أدهمَ: نِعم القوم السُّؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيمُ النخَعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وقيل: المراد بالسائل ههنا الذي يسأل عن الدين.[٧]

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها، أريدَ بها ما أفاضه الله تعالى عليه صلّى الله عليه وسلّم مِن فنون النِّعَم التي مِن جملتها النِّعَم المعدودة الموجودة منها والموعودة، والمعنى أنّك كنتَ يتيمًا وضالًّا وعائلًا فآواك الله وهداك وأغناك، فمهما يكن مِن شيء فلا تنسَ حقوق نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث، واقتدِ بالله، وأحسن كما أحسن الله إليك، فتعطّف على اليتيم فآوِه، وترحّم على السائل وتفقّده بمعروفك ولا تزجره عن بابك، وحدِّث بنعمة الله كلّها، وحيث كان معظمها نعمة النبوّة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه السلام للضلّال وتعليمُه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عزّ وجلّ وعلّمه مِن الكتاب والحِكمة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٣.

٣ طرف حديث في مسند أحمد، ١٢٣/٩ (٥١١٤)؛ وصحيح البخاري، ٤٠/٤ (٢٩١٤)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٧٩/٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٩/٤.

٥ معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٧/٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وحفصة وجعفر بن محمّد وقتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٤.

٧ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٩٣/٢٠.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمّد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله تعالى له بعدد كلّ سائل ويتيم».[1]

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٦/٢٩ (الضحى، ١/٩٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٧/٤ (الضحى، ١/٩٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٣

سورة والضُّحى

مكية، إحدى عشْرةَ آيةً.

ولمّا نزلتْ كبَّر ﷺ آخِرَها، فسُنَّ التكبيرُ آخِرَها،.......................

سُورَةُ الضُّحَى

قولُهُ: (ولَمَّا نَزَلَت كَبَّرَ ﷺ في آخِرِهَا) قالَ الجعبَريُّ[١]: وسببُ التَّكبيرِ ما روَينا عن أبي الحسنِ البزِّي بإسنادِه أنَّ النَّبي ﷺ أهدِيَ له قطفُ عنبٍ قبلَ أوانِهِ فجاءَهُ سائلٌ فقالَ: أطعمُوني من فضلِ ما رَزقَكُم الله، فأعطاهُ العُنقُودَ، ثمَّ اشتراهُ آخَرُ وأهداهُ له عليهِ السَّلام، ثمَّ عادَ السَّائلُ فأعطاه، ثمَّ اشتراهُ آخَرُ وأهداهُ له، ثمَّ عادَ السَّائلُ فانتهَرَهُ وقال: «مُلِحٌّ» فانقطَعَ الوحيُ أربعِينَ صَباحاً، فقالَ المنافِقُون: قَلَى مُحمَّداً ربُّهُ؛ أي: أبغَضَهُ وهجَرَهُ، فجاءَ جبرِيلُ عليهِ السَّلامُ إلى النَّبي ﷺ وألقى عليهِ: ﴿والضُّحَى﴾ إلى آخرِها، فقال النَّبي ﷺ: «الله أكبرُ»[٢] تصدِيقاً لما كانَ ينتظِرُ الوحيَ وتكذيباً للكُفَّارِ، فكان تكبيرُهُ آخرَ قراءةِ جبرِيلَ وأوَّلَ قراءتِهِ عليهما السَّلام، ومن هاهُنا انشعَبَ الخِلافُ لاحتِمالِ أن يكونَ لاحِقاً أو سابِقاً أو مُستَقبلاً.

قولُهُ: (فَسُنَّ التَّكبِير) أي: من طريقِ المكيِّينَ، وعملَ به الشَّافعيَّةُ على عمومِ قراءَةِ القرَّاءِ خارجَ الصَّلاةِ وداخِلها، ومذهَبُنا ومذهَبُ القرَّاءِ أنَّه من مُختصَّاتِ قراءَةِ ابن كثيرٍ[٣]، وأنَّ الظَّاهِرَ تقييدُهُ بخارِجِ الصَّلاةِ على

---

(١) هو: إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري، أبو محمد، ولد بقلعة جعبر على نهر الفرات سنة (٦٤٠هـ)، محقق حاذق ثقة كبيرة، عالم بالقراءات، من فقهاء الشافعية، تلقى العلم ببغداد، ورحل لمدينة الخليل وبقي فيها إلى أن مات، له التصانيف في القراءات والحديث والأصول والعربية والتاريخ. من كتبه: «كنز المعاني شرح حرز الأماني». شرح للشاطبية. ت: (٧٣٢هـ). ينظر: «غاية النهاية في طبقات القراء» (١/ ٢١)، و«بغية الوعاة» (١/ ٤٢٠).
وانظر: «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص: ٧٣٦).

(٢) ذكره ابن الجزري في «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٦) فقال: وروى أحمد بن فرح قال: حدثني ابن أبي بزة بإسناد أن النبي ﷺ، ثم ساقه، ثم قال: وهذا سياق غريب جداً، وهو مما انفرد به ابن أبي بزة أيضاً، وهو معضل.

(٣) قال أبو عمرو الداني في «جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٧٤١): قال موسى بن هارون: وقال أحمد بن محمد بن أبي =

ورُوي الأمرُ به خاتمتَها وخاتمةَ كُلّ سورة بعدها. وهو «الله أكبر»، أو «لا إلـٰـهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبرُ».

بسم الله الرحمن الرحيم

منوالِ ما وَرَد(١).

قولُهُ: (ورُوِيَ الأَمرُ بِهِ) فقد أخرَجَ الحاكِمُ وصحَّحَهُ وابنُ مردَويهِ والبيهَقيُّ في «شُعبِ الإيمانِ» مِن طريقِ أبي الحَسنِ البزِّي المقرئ قالَ: سمعتُ عكرمَةَ بن سُليمانَ يقول: قرأتُ على إسماعيلَ بنَ قسطَنطين فلمَّا بلَغتُ: ﴿والضُّحَى﴾ قال: كبِّر عند خاتمَةِ كلِّ سورَةٍ حتَّى تختِمَ، فإنِّي قرأتُ على عبدِ الله بن كثيرٍ فلمَّا بلغتُ ﴿والضُّحَى﴾ قالَ: كَبِّر حتَّى تختمَ، وأخبرَهُ عبدُ الله بنُ كثيرٍ أنَّه قرأَهُ على مُجاهدٍ فأمرَهُ بذلك، وأخبرَهُ مُجاهِدٌ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ أخبرَهُ بذلك، وأخبرَهُ ابنُ عبَّاسٍ أنَّ أُبيَّ بن كعبٍ أمرَهُ بذلك، وأخبرَهُ أُبيٌّ أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَهُ بذلك(٢)، أوردهُ المصنِّفُ(٣) في «الدُّرِّ المنثُور»(٤).

قولُهُ: (خَاتِمَتَهَا) وهو المعتمَدُ، وقال بعضُهُم: من سابِقَتِها، وهي خاتمَةُ اللَّيلِ(٥).

قولُهُ: (وهُوَ اللهُ أَكبَرُ) وهذا هو المشهورُ عندَ القُرَّاءِ عن البزِّي(٦)، ونُقِلَ عنهُ أنَّه زادَ قَبلَها: لا إله إلا الله، فقولُ المصنِّفِ: (ولا إله إلا اللهُ، والله أكبَرُ)، ينبغي أن يُحملَ على أنَّ الواوَ بمعنَى: (أو)، أو هو سهوُ قلمٍ من نسخِ الكتابِ، والله أعلمُ بالصَّواب.

= بزة، قال لي أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: إن تركت التكبير تركت سنة من سنن نبيك ﷺ. ثم قال أبو عمرو: وهذا أتم حديث روي في التكبير وأصح خبر جاء فيه.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٢٣) بعد أن ذكر روايات في التكبير في هذه السورة، قال: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «شرح الشاطبية» عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.

(١) سيأتي في الحديث التالي.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩١٣)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. واعترض عليه الذهبي فقال: البزي قد تكلم فيه.

(٣) المصنف السيوطي من حيث العموم، وإلا فهذا القسم من تأليف المحلي كما هو معروف.

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٣٩).

(٥) انظر: «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص: ٧٣٨).

(٦) انظر: «الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٦).

١ ـ ﴿والضُّحَى﴾ أي: أوّلِ النهار أو كُلِّه، ٢ ـ ﴿واللَّيلِ إذا سَجا﴾: غطّى بظلامه أو سكنَ، ٣ ـ ﴿ما وَدَّعَكَ﴾: تركك ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿رَبُّكَ وما قَلَى﴾: أبغَضَك ـ نزل هذا لمّا قال الكُفّار عِند تأخر الوحي عنه خمسةَ عشرَ يومًا: إنّ ربّه ودَّعه وقَلاه ـ ٤ ـ ﴿ولَلآخِرةُ خَيرٌ لَكَ﴾ لِما فيها من الكرامات لك ﴿مِنَ الأُولَى﴾ الدنيا، ٥ ـ ﴿ولَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الخيرات عطاءً جزيلاً، ﴿فتَرضَى﴾ به. فقال ﷺ: «إذن لا أرضَى وواحِدٌ مِن أُمّتِي في النّارِ». إلى هنا تمّ جواب القسم بمُثبتَينِ بعد منفِيَّين.

٦ ـ ﴿أَلَم يَجِدْكَ﴾ ـ استفهامُ تقرير ـ أي: وجدك ﴿يَتِيمًا﴾ بفقد أبيك قبل وِلادتك أو بعدها.......

قولُهُ: (أي: أوَّلِ النَّهارِ) أو وقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ، وتخصيصُهُ؛ لأنَّ النَّهارَ يَقوى فيه.

قولُهُ: (غَطَّى) سَجَى ـ بالتَّخفيفِ ـ لازِمٌ، وإنَّما التَّسجيَةُ بمعنى: التَّغطيَةِ.

قولُهُ: (أو سَكَنَ) أي: أهلُهُ، قيل: الضُّحى مقامُ العينِ، واللَّيل مقامُ الغَينِ.

قولُهُ: (تَرَكَك) أي: تَرْكَ القاطِعِ.

قولُهُ: (لمَا فِيهَا) فإنَّها باقيةٌ خالصَةٌ عن الشَّوائبِ، وهذه فانيَةٌ مشوبَةٌ بالمصائبِ، أو وَلَنِهايَةُ أمرِكَ خيرٌ من بدايتِهِ، قال يحيى بن مُعاذٍ: الدُّنيا لا تُنالُ إلَّا بالمشقَّة، والآخرةُ لا تُنالُ إلَّا بالمشقَّة، فاطلُب لنفسِكَ أبقاهُما، وقال الجُنَيد: تركُ الدُّنيا شديدٌ، وفوتُ الآخرةِ أشدُّ[(١)].

ويمكنُ أن يكونَ المعنى: والحالُ الآخِرَةُ خيرٌ لك من الأولى؛ يعني: أنتَ دائماً في التَّرقِّي.

قولُهُ: (فِي الآخِرَةِ) أو أعَمَّ.

قولُهُ: (مِن أُمَّتِي) أي: أمَّةَ الإجابَةِ، وجمعِ اللَّامِ مع سوفَ للدَّلالَةِ على أنَّ العطاءَ كائنٌ لا محالَةَ وإن تأخَّرَ لحكمَةٍ، ولعلَّ المرادَ بالرِّضا: كمالُهُ الذي لا مَزيدَ عليه، فإنَّهُ راضٍ عن الله تعالى دائماً.

قولُهُ: (بفَقدِ أَبِيكَ) إضافَةٌ إلى المفعولِ.

قولُهُ: (قَبلَ وِلادَتِكَ) وذلك أنَّ أباهُ ماتَ وهو جنينٌ قد أتَت عليه ستَّةُ أشهُرٍ، وماتت أمُّه وهو ابنُ ثمانِ سنينَ[(٢)]،..

---

(١) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٤٠٠).

(٢) وفي حاشية «الانتصاف على تفسير الزمخشري» لابن المنير الإسكندري (٤/ ٧٦٧): قال السهيلي في «الروض»: أكثر العلماء على أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو في المهد، كما ذكره الدولابي وغيره، وقال ابن سعد: لا يثبت أنه مات أبوه وهو حمل، ورواه الحاكم من طريق ابن إسحاق: حدثني مطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده أنه ذكر ولادة رسول الله ﷺ، فقال: توفى أبوه وأمه حبلى به، وبذلك جزم ابن إسحاق، وأما سنه عند ما ماتت أمه فجزم ابن إسحاق أنها ماتت =

﴿فآوَى﴾ بأن ضمّك إلى عمّك أبي طالب، ٧ ـ ﴿ووَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عمّا أنت عليه الآن من الشريعة ﴿فهَدَى﴾ أي: هداك إليها، ٨ ـ ﴿ووَجَدَكَ عائلاً﴾: فقيرًا ﴿فأغنَى﴾: أغناك بما قنّعك به من الغنيمة وغيرها؟ وفي الحديث: «لَيسَ الغِنَى عَن كَثرةِ العَرَضِ، ولكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

٩ ـ ﴿فأمّا اليَتِيمَ فلا تَقهَرْ﴾ بأخذ ماله أو غير ذلك، ١٠ ـ ﴿وأمّا السّائلَ فلا تَنهَرْ﴾: تزجُرْه لفقره، ١١ ـ ﴿وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ عليك بالنبوّة وغيرها ﴿فحَدِّثْ﴾: أخبِرْ. وحُذف ضميره ﷺ في بعض الأفعال رِعايةً للفواصل.

كذا في «الكَشَّاف»[1].

قولُهُ: (فَقِيراً) ذا عيالٍ.

قولُهُ: (لفَقرِهِ) ولعَلَّ الأولى أن يكونَ السَّائلُ أعَمَّ من أن يسأَلَ العلمَ أو المالَ، فيكونَ التَّفصيلُ مطابِقاً للتَّعديدِ.

قولُهُ: (أَخبِر) فإنَّ التَّحدُّثَ بها شكرُها.

قولُهُ: (وحُذِفَ ضَمِيرُهُ) أي: الضَّميرُ المنصوبُ الرَّاجعُ إليه ﷺ.

قولُهُ: (فِي بَعضِ الأَفعَالِ) وهي: قَلى وآوى وهَدى وأغنى.

قولُهُ: (رِعَايَةً) أو استِغناءً بذكرِهِ من قَبلُ، والله أعلمُ.

❊ ❊ ❊

= وهو ابن ست سنين. وقال ابن حبيب: وهو ابن ثمان سنين.

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٦٧).

سورة الضحى

مكِّيَّةٌ، وآيُها إحدى عشرةَ آية بلا خلافٍ. ولَمَّا ذكر سبحانه فيما قبلَها: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل: ١٧] وكان سيِّدَ الأتقين رسولُ الله ﷺ عقَّبَ سبحانه ذلك بذكر نعمه عزَّ وجلَّ عليه ﷺ.

وقال الإمام(١): لما كانت الأُولَى سورة أبي بكر رضي الله عنه، وهذه سورةُ رسول الله ﷺ، عقَّب جلَّ وعلا بها، ولم يجعل بينهما واسطةً؛ ليُعْلَم أن لا واسطةَ بين رسوله ﷺ والصديق رضي الله عنه.

وتقديمُ سورة الصديق على سورته عليه الصلاة والسلام لا يدلُّ على أفضليَّته منه ﷺ، ألا ترى أنَّه تعالى أقسمَ أوَّلاً بشيءٍ من مخلوقاته سبحانه، ثم أقسم بنفسه عزَّ وجلَّ في عِدَّة مواضع، منها السورةُ السابقة على ما علمت، والخدمُ قد تتقدَّم بين يدي السادة، وكثيرٌ من السُّنَن أُمِرَ بتقديمه على فروض العبادة، ولا يضرُّ النَّوْرَ تأخُّره عن أغصانه، ولا السِّنَان كونه في أطراف مُرَّانه(٢). ثمَّ إنَّ ما ذكره زهرةُ ربيعٍ لا تتحمَّل الفركَ كما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ تقدَّم الكلام فيه، والمراد به هنا وقتُ ارتفاع الشمس الذي يلي وقتَ بروزها للناظرين، دون ضوئها وارتفاعها؛ لأنَّه أنسبُ بما بعد. وتخصيصُه

---

(١) في التفسير الكبير ٣١/٢٠٩.

(٢) المران: الرماح. مختار الصحاح (مرن).

بالإقسام به لأنَّه شبابُ النهار، وقُوَّتُه[١] فيه قوَّةٌ غيرُ قريبةٍ من ضِدِّها، ولذا عُدَّ شرفاً يوميًّا للشمس وسعداً، ولأنَّه ـ على ما قالوا ـ الساعةُ التي كلَّم الله تعالى فيها موسى عليه السلام، وأُلقي فيه السحرةُ سُجَّداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] ففيه مناسبةٌ للمقسَم عليه، وهو أنَّه تعالى لم يترك النبيَّ ﷺ، ولم تفارقه ألطافُه تعالى وتكليمُه سبحانه.

وقيل: المراد به النهار، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٨].

واعتُرِض بالفَرْق، فإنَّه وقع هناك في مقابلة البيات، وهو مطلقُ الليل، وهنا في مقابلة الليل مقيَّداً معنًى باشتداد ظلمته، فالمناسب أن يُراد به وقتُ ارتفاعه وقوَّة إضاءته.

وأُجيبَ بمنع دلالة القيد على الاشتداد، وستسمعُ إن شاء الله تعالى ما في ذلك.

وأيًّا ما كان، فالظاهرُ أنَّ المراد الجنس، أي: وجنس الضحى.

﴿وَٱلَّيْلِ﴾ أي: وجنس الليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن أهلُه، على أنَّه من السجو، وهو السكونُ مطلقاً كما قال غيرُ واحد، والإسنادُ مجازيٌّ، أو هو على تقدير المضاف كما قيل، ونحوه ما رُوي عن قتادةَ، أي: سكنَ الناس والأصوات فيه. وهذا يكون في الغالب فيما بين طرفيه، أو بعد مُضِيٍّ برهةٍ من أوَّله.

أو: ركد ظلامه، من سجا البحر: سكنت أمواجه، قال الأعشى:

وما ذنبنا أن جاشَ بحرُ ابن عمِّكم وبحركَ ساجٍ لا يُوَاري الدَّعامِصا[٢]

فالسجو ـ قيل ـ على هذا في الأصل: سكون الأمواج، ثم عَمَّ. والمراد

---

(١) في (م): وقوله، وهو تصحيف.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصُّه: جمع دعموص، وهو دودة سوداء تتحرك دائماً على وجه الماء. اهـ منه.
والبيت في ديوان الأعشى ص٢٠١، وفيه: أتوعدني. بدل: وما ذنبنا.

بسكون ظلامه عدمُ تغيُّره بالاشتداد والتنَزُّل، أي: فيما يحسُّ ويظهر، وذلك إذا كمل حسًّا بوصول الشمس إلى سَمْتِ القدم وقُبيلَه وبُعيدَه، وصرَّح باعتبار الاشتداد ابنُ الأعرابيِّ حيث قال: سجا الليل: اشتدَّ ظلامُه.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن ابن جبير أنَّه قال: أي: إذا أقبل فغطَّى كلَّ شيء[١].

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفيِّ عن ابن عباس تفسير «سجا» بـ: أقبل[٢]، بدون ذكر التغطية، وأخرجا هما وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه قال: «إذا سجا»: إذا ذهب[٣].

وكلا التفسيرين خلافُ المشهور.

وشاعَ: ليلٌ ساكن أو ساجٍ، لِمَا لا ريح فيه، ووصفُه بذلك ـ أعني السكون ـ قيل: على الحقيقة، كما إذا قيل: ليلٌ لا ريح فيه، ولا يقال: إنَّ الساكن هو الريح بالحقيقة؛ لأنَّ السكونَ عليها حقيقةً محالٌ؛ لأنَّه هواءٌ متحرِّكٌ، ثمَّ إنَّهم يقولونه لِمَا لا ريحَ فيه، لا لما سكن ريحُه.

والتحقيق أن يقال: إنَّ السكونَ على تفسيريه ـ أعني: عدم الحركة عمَّا من شأنه الحركة، أو كونين في حيِّزٍ واحد ـ لا يصحُّ على الليل؛ لأنَّه زمانٌ خاصٌّ، لكن لَمَّا كان سكونُ الهواء بمنزلة عَدَمٍ له في العرف العامِّيِّ؛ لعدم الإحساس، أو لتضمُّنه عدم الريح لا الهواء، قيل: ليلٌ ساجٍ وساكنٌ، وصف الليل على الحقيقة، أي: لا إسنادَ فيه إلى غير ملائم، على أنَّه يحتملُ أن يجعل السكونُ بهذا المعنى حقيقةً عرفيَّةً، وجُوِّزَ حملُ ما في الآية على هذا الشائع، ولعلَّ التقييد بذلك لأنَّ الليلَ الذي لا ريحَ فيه أبعدُ عن الغوائل.

وقد ذكر بعض الفقهاء أنَّ الريحَ الشديدةَ ليلاً عذرٌ من أعذار الجماعة.

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦١. وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٠-٣٦١، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٦١، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢.

ونُقل عن قتادة ومقاتل أنَّ المرادَ بالضحى هو الضحى الذي كَلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وبالليل ليلة المعراج.

ومن الناس من فسَّر الضحى بوجهه ﷺ، والليل بشَعره عليه الصلاة والسلام، كما ذكر الإمام، وقال: لا استبعاد فيه[١]. وهو كما ترى، ومثله ما قيل: الضحى ذكورُ أهل بيته عليه الصلاة والسلام، والليل إناثهم.

وقال الإمام: يحتمل أن يقال: الضحى رسالتُه ﷺ، والليل زمانُ احتباس الوحي فيه؛ لأن في حال النزول حصلَ الاستئناس، وفي زمان الاحتباس حصل الاستيحاش[٢]، أو الضحى نورُ علمه تعالى الذي يعرف [به] المستور من الغيوب، والليل عفوه تعالى الذي به يسترُ جميع العيوب، أو الضحى إقبالُ الإسلام بعد أنْ كان غريباً، والليل إشارةٌ إلى أنَّه سيعود غريباً، أو الضحى كمالُ العقل، والليلُ حال الموت، أو الضحى علانيته عليه الصلاة والسلام التي لا يَرى الخلقُ عليها عيباً، والليل سرُّه ﷺ لا يعلم عالمُ الغيب عليها عيباً[٣]. انتهى.

ولا يخفى أنَّه ليس من التفسير في شيء، وبابُ التأويل والإشارة يدخلُ فيه أكثرُ من ذلك.

وتقديمُ الضحى على الليل - بناءً على ما قلنا أوَّلاً - لرعاية شرفه لما فيه من ظهور زيادةِ النور، وللنور شرفٌ ذاتيٌّ على الظلمة لكونه وجوديًّا، أو لكثرة منافعه، أو لمناسبته لعالم الملائكة، فإنَّها نورانيَّةٌ، وتقديمُ الليل في السورة السابقة لما فيه من الظلمة التي هي لعدميتها أصلٌ للنور الحادث بإزالتها لأسبابٍ حادثة.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٠.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: اختلف في أمر الليل والنهار، فقيل: النهار أفضل بدليل أنَّ فيه ثلاث صلوات مفروضات، وقيل: الليل أفضل بدليل أن فيه كان المعراج. وقيل: إنَّ الله تعالى جَمَع ما في الجنة من ظلمةٍ، فخلق منها الليل، ولذا يستراحُ فيه، وجَمَعَ ما في النار من ضياءٍ، فخلق منه النهار، ولذا يُكَدُّ ويتعبُ فيه، فالليل لذلك أفضلُ من النهار. وهو كما ترى ولا يكاد يصح. اهـ منه.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٠. وما سلف بين حاصرتين منه.

وقيل: تقديمه هناك؛ لأنَّ السورةَ في أبي بكر، وهو قد سبقَه كُفْرٌ، وتقديم الضحى هنا لأنَّ السورة في رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو ﷺ لم يسبقهُ ذلك.

وتخصيصه تعالى الوقتين بالإقسام، قيل: ليشيرَ سبحانه بحالهما إلى حال ما وَقع له عليه الصلاة والسلام، ويؤيِّدَ عزَّ وجلَّ نفيَ ما تُوهِّم فيه، فكأنَّه تعالى يقول: الزمانُ ساعةٌ فساعة، ساعةٌ ليلٌ وساعةٌ نهار، ثمَّ تارةً تزدادُ ساعات الليل وتنقصُ ساعاتُ النهار، وأخرى بالعكس، فلا الزيادةُ لهوًى ولا النقصان لقِلًى، بل كلٌّ لحكمةٍ، وكذا أمرُ الوحي: مرةً إنزال، وأخرى حبس، فلا كان الإنزالُ عن هوًى ولا الحبسُ عن قِلًى، بل كلٌّ لحكمةٍ.

وقيل: ليسلِّي عزَّ وجلَّ بحالهما حبيبَه عليه الصلاة والسلام، كأنَّه سبحانه يقولُ: انظر إلى هذين المتجاورين، لا يسلمُ أحدهما من الآخر، بل الليلُ يغلبُ تارةً، والنهارُ أخرى، فكيف تطمعُ أن تَسْلَمَ من الخلق.

والقولان مبنيَّان على أنَّ المراد بالضحى النهارُ كلُّه، وبالليل إذا سجى جميعُ الليل. وتخصيصُ الضحى على ما سمعت أوَّلاً لما سمعت، وتخصيصُ الليل بناءً على أنَّ المرادَ وقتُ اشتداد الظلمة، قيل: لأنَّه وقتُ خلوِّ المحبِّ بالمحبوب، والأمنِ من كلِّ واشٍ ورقيب.

وقال الطيبيُّ طيَّبَ الله تعالى ثراه في ذلك: إنَّه تعالى أقسمَ له ﷺ بوقتين فيهما صَلاتُه عليه الصلاة والسلام التي جُعِلت قرَّةَ عينه، وسببَ مزيد قربه وأنسه؛ أمَّا الضحى، فلِمَا رواه الدارقطنيُّ في «المجتبى»[1] عن ابن عباس مرفوعاً: «كتب عليَّ النحرُ ولم يُكتَب عليكم، وأُمِرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها»[2]. وأمَّا الليل فلقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] إرغاماً لأعدائه

---

(١) واسمه: «المجتبى من السنن المأثورة» وأخرجه الدارقطني أيضاً في السنن كما سيرد.

(٢) سنن الدارقطني (٤٧٥١)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٩١٧)، وفي إسناده جابر الجعفي، وهو ضعيف. وينظر التلخيص الحبير ٣/ ١١٨.

وتكذيباً لهم في زعم قِلاه وجفائه، فكأنَّه قيل: وحقِّ قربكَ لَدَيْنَا، وزلفاك عندنا، إنَّا اصطفيناك وما هجرناك وقليناك، فهو كقوله:

وثنايـاكِ إنَّهـا إغريضُ(١)

وهو ممَّا تستطيبه أهلُ الأذواق.

ويمكن أنْ يكون الإقسام بالليل - على ما نقل عن قتادة - من باب: وثناياك، أيضاً، وكذا الإقسامُ بهما على بعض الأوجه المارَّة كما لا يخفى.

وعلى كون المراد بالضحى الوقت المعروف من النهار، وبالليل جميعَه؛ قيل: إنَّ التفرقةَ للإشارة إلى أنَّ ساعةً من النهار توازي جميع الليل، كما أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوازي جميعَ الأنبياء عليهم السلام، وللإشارة لكون النهار وقت السرور، والليل وقت الوحشة والغمّ(٢)، إلى أنَّ هموم الدنيا وغمومها أدومُ من سرورها، وقد رُوي أنَّ الله تعالى لَمَّا خلقَ العرشَ أظلَّت عن يساره غمامةٌ، فنادت: ماذا أُمطر؟ فأمرت أن تمطرَ الغُموم والأحزان، فأمطرت مئة سنة، ثم انكشفت، فأمرت مرةً أخرى بذلك، وهكذا إلى إتمام ثلاث مئة سنة، ثم أظلَّت عن يمين العرش غمامةٌ بيضاء، فنادت: ماذا أمطر؟ فأُمرت أن تمطر السرورَ ساعةً. فلذا ترَى الغُموم والأحزانَ أدومَ من المسارِّ في الدنيا(٣)، والله تعالى أعلمُ بصحَّة الخبر، وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ إلخ جوابُ القسم، وودَّع من التوديع، وهو في الأصل من الدَّعَة، وهو أنْ تدعو للمسافر بأنْ يدفعَ الله تعالى عنه كآبةَ السفر، وأنْ

---

(١) هو لأبي تمام، وسلف عند تفسير الآية (٣) من سورة سبأ.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: وما أشجى ما قيل:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... لي الليلُ هزَّتني إليكِ المضاجعُ

أقضي نهاري بالحديث وبالمُنى ... ويجمعُني بالليل والهمُّ جامعُ

اهـ. منه.

والبيتان لمجنون ليلى وهما في ديوانه ص١٨٥ برواية: ويجمعني والهمَّ بالليل....

(٣) أورده الرازي في تفسيره ٣١/ ٢٠٩-٢١٠.

يبلِّغه الدَّعَةَ وخفضَ العيش، كما أنَّ التسليمَ دعاءٌ له بالسلامة، ثم صار متعارفاً في تشييع المسافر وتركه، ثم استُعمل في الترك مطلقاً، وفسر به هنا، أي: ما تركَكَ ربُّك.

وفي «البحر» و«الكشاف»: التوديعُ: التوديعُ: مبالغةٌ في الودع، أي: الترك؛ لأنَّ مَنْ وَدَعَكَ مفارقاً فقد بالغَ في تركك[1]. قيل: وعليه يلزم أنْ يكونَ المنفيُّ التركَ المبالَغَ فيه دونَ أصل الترك، مع أنَّ الظاهرَ نفيُ ذلك، فلا بدَّ من أن يقال: إنَّه إنَّما نَفَى ذلك لأنَّه الواقعُ في كلام المشركين الذي نزلت له الآية، أو أنَّ المبالغةَ تعود إلى[2] النفي، فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة، وقد ذكروا نظيرَ هذين الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فتدبَّر.

وقيل: إنَّ المعنى: ما قطعَك قطعَ المُودَّع، على أنَّ التوديعَ مستعارٌ استعارةً تبعيَّةً للترك، وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإنَّ الوداعَ إنما يكون بين الأحباب ومن تعزُّ مفارقته، كما قال المتنبي:

حشاشةُ نفسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعوا ... فلم أدرِ أيَّ الظاعِنَين أشيِّعُ[3]

وحقيقةُ التوديع المتعارَف غيرُ متصوَّرةٍ هاهنا.

وتعقِّبَ بأنَّه على هذا لا يكونُ ردًّا لما قاله المشركون؛ لأنَّهم لم يقولوا: ودَّعَه ربُّه، على هذا المعنى، كيف وهم بمعزلٍ عن اعتقاد كونِه عليه الصلاة والسلام بالمحلِّ الذي هو ﷺ فيه من ربِّه سبحانه؟

وقيل في الجواب: إنَّه يجوز أنْ يدلَّ: ودَّعه ربُّه، على ذلك، إلَّا أنَّهم ـ قاتلهم الله تعالى ـ قالوه على سبيل التهكُّم والسخرية، وحين ردَّ عليهم قصد ما يُشعرُ به اللفظُ على التحقيق.

وقيل: إنَّ الترك مطلقٌ في كلامهم، والظاهر من حالهم أنَّهم لم يريدوا الماهيةَ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٥، والكشاف ٤/ ٢٦٣.

(٢) في (م): على.

(٣) ديوان المتنبي ٢/ ٣٤٤.

من حيث هيَ، ولا من حيث تحقُّقها في ضمن ما لا يخلُّ بشريفِ مقامه عليه الصلاة والسلام، بل الماهيةَ من حيث تحقُّقُها في ضمن ما يخلُّ بذلك، ولَمَّا كان المقصودُ إيناسَه ﷺ، وإزالةَ وحشته عليه الصلاة والسلام؛ جيءَ بما يتضمّن نفيَ ما زعموه على أبلغ وجهٍ، كأنَّه قيل: إنَّ هذا النوعَ الغيرَ المخلَّ بمقامك من الترك لم يكن، فضلاً عمَّا زعموه من الترك المخلِّ بعزيز مقامك.

وعندي أنَّ الظاهرَ أنّ ذلك القول بأيِّ معنًى كان صادرٌ على سبيل التهكُّم، إذا كان المرادُ بالربِّ هو الله عزَّ وجلَّ، وكان القائلُ من المشركين، كما لا يخفى على المتأمِّل.

وقرأ عروةُ بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: «ما وَدَعَك» بالتخفيف(١)، وهي على ما قال ابن جنِّي قراءةُ النبيِّ ﷺ(٢)، وخُرِّجَت على أنَّ «وَدَع» مخفَّفُ وَدَّعَ، ومعناه معناه، قال في «القاموس»: وَدَعه - كوضَعه - وودَّع بمعنى(٣).

وقيل: ليس بمخفَّفِه، بل هو فعلٌ برأسه بمعنى تَرَكَ، وإنَّه يعكِّر على قول النحاة: أماتت العربُ ماضيَ يَدع ويَذر، ومصدرهما، واسم فاعلهما، واسم مفعولهما، واستغنوا بما لـ «ترك» من ذلك، وفي «المغرب»(٤): أنَّ النحاة زعموا أنَّ العربَ أماتت ذلك، والنبيُّ ﷺ أفصحُهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجماعات»(٥)، وقرأ(٦): «ما وَدَعك». وقال أبو الأسود:

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الحبِّ حتى وَدَعَه(٧)

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٥، وذكرها المطرّزي في المُغْرِب في ترتيب المُعرِب مادة (ودع) عن عروة ومجاهد.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٦٤. وكذا نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٥ للنبيِّ ﷺ.

(٣) القاموس (ودع).

(٤) مادة (ودع) ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٧١.

(٥) أخرجه مسلم (٨٦٥)، وأحمد (٢١٣٢) من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة ﷺ.

(٦) يعني النبي ﷺ كما في المحتسب ٢/ ٣٦٤، وزاد نسبتها لعروة بن الزبير.

(٧) الخصائص لابن جني ١/ ٩٩، والبحر ٨/ ٤٨٥، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٧١، والخزانة ٥/ ١٥٠.

ومثله قول آخر:

وثَـمَّ وَدَعْـنـا آل عـمـرٍو وعـامـرٍ فرائسَ أطرافِ المثقَّفةِ السُّمرِ[(١)]

وهو دليلٌ أيضاً على استعمال وَدَع، وهو بمعنى ترك المتعلِّق بمفعولين، فلا تغفل.

وفي الحديث: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم، ودَعوا الحبشة ما وَدَعوكم»[(٢)].

وفي «المستوفى»[(٣)]: أنَّ كلَّ ذلك قد ورد في كلام العرب، ولا عبرةَ بكلام النحاة، وإذا جاء نهرُ الله بطلَ نهرُ معقل. نعم ورودُه نادر، وقال الطيبيُّ بعد أنْ ذكرَ ورودَه نظماً ونثراً: إنما حَسَّن هذه القراءةَ الموافقةُ بين الكلمتين، يعني هذه وما بعدها، كما في حديث التُّرك والحبشة؛ لأنَّ رَدَّ العجُزِ على الصَّدْر وصنعة الترصيع قد جبرا منه.

وقيل: إنَّ القائلين إنَّما قالوا: وَدَعَه ربُّه، بالتخفيف، فنزلت، فيكون المحسِّنَ له قصدُ المشاكلة لما قالوه، وهم تكلَّموا بغير المعروف طِيَرَةً منهم، كأنَّ غيرَ المعروف من اللفظ مِمَّا يتشاءم به من الفأل الرديء، أو أنَّهم لَمَّا قصدوا السخرية حَسُنَ استعمالُ اللفظ، وقد قالوا: يحسنُ استعمالُ الألفاظ الغريبة ونحوها في الهجاء، فلا يبعد أنْ يكونَ في السخرية كذلك.

والحقُّ أنَّه بعد ثبوت وروده لا يحتاجُ إلى تكلُّفِ محسِّنٍ له.

والظاهرُ أنَّ المراد بالربِّ هو الله عزَّ وجلَّ، وفي التعبير عنه بعنوان الربوبيَّة وإضافتِه إلى ضميره ﷺ من اللطف ما لا يخفى، فكأنَّه قيل: ما تركك المتكفِّلُ بمصلحتك، والمبلِّغُ لك على سبيل التدريج كمالَك اللائقَ بك.

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٦٣، والقرطبي في تفسيره ٢٢/ ٣٣٩، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٤٨٥، وابن حجر في الفتح ١٣/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٣-٤٤ من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) المستوفى في النحو لأبي سعد كمال الدين علي بن مسعود الفرغاني. كشف الظنون ٢/ ١٦٧٥، ونقل المصنف كلامه عن حاشية الشهاب ٨/ ٣٧١.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضَك، وحذف المفعول لئلَّا يواجَه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى، وإن كانت في كلامٍ منفيٍّ لطفاً به ﷺ، وشفقةً عليهِ عليه الصلاة والسلام، أو لنفي صدوره عنه عزَّ وجلَّ بالنسبة إليه ﷺ، ولأحدٍ من أصحابه ومن أحبَّه عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، أو للاستغناء عنه بذكرِه من قَبْل، مع أنَّ فيه مراعاةً للفواصل.

واللغة المشهورة في مضارع قَلى: يقلي، كـ: يرمي، وطيِّئٌ تقول: يَقْلَى بفتح العين، كيرضى، وتفسير القِلَى بالبغض شائعٌ، وفي «القاموس»: من الواوي: قلا زيداً قِلاً وقَلَاءً: أبغضَه. ومن اليائي: قلاه كرماه ورضيه، قِلًى وقِلَاءً ومَقْلِيَةً: أبغضَه وكرهه غايةَ الكراهة فتركه، أو قَلاه في الهجر، وقَلِيَهُ في البُغْض[1].

وفي «مفردات» الراغب: القِلَى شدَّةُ البغض، يقال: قَلَاه يقلُوه ويقلِيه. فمن جعله من الواويّ فهو من القَلْو، أي: الرمي، من قولهم: قَلَتِ الناقةُ براكبها قَلْواً، وقَلَوتُ بالقُلَّة، فكأنَّ المقلوَّ هو الذي يقذفُه القَلْبُ من بغضه فلا يقبله، ومن جعله من اليائيّ، فمِن قَلَيْتُ البُسْر والسَّوِيق على المِقلاة[2]. انتهى.

وبينهما مخالفةٌ لا تخفى، وعلى اعتبار شِدَّة البغض، فالظاهر أنَّ ذلك في الآية ليس إلَّا لأنَّه الواقعُ في كلامهم، قال المفسرون: أبطأ جبريلُ عليه السلام على النبيِّ ﷺ، فقال المشركون: قد قلاه ربُّه وودعه، فأنزل الله تعالى ذلك.

وأخرج الحاكمُ عن زيد بن أرقم قال: لما نزلت: (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ) إلخ، قيل لامرأة أبي لهب أمِّ جميل: إنَّ محمداً ﷺ قد هجاك، فأتته عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ جالسٌ في الملأ، فقالت: يا محمد، علامَ تهجوني؟! قال: «إنِّي والله ما هجوتُك، ما هجاك إلَّا الله تعالى» فقالت: هل رأيتني أحملُ حطباً، أو في جيدي حبلاً من مسد؟ ثم انطلقت، فمكثَ رسول الله ﷺ لا ينزل عليه، فأتته فقالت: ما أرى صاحبك إلَّا قد ودعك وقلاك. فأنزل الله تعالى ذلك[3].

---

(١) القاموس (قلا).

(٢) المفردات (قلى).

(٣) المستدرك ٢/ ٥٢٦.

وأخرج الترمذيُّ وصحَّحه، وابن أبي حاتم ـ واللفظ له ـ عن جندب البجليّ قال: رمي ﷺ بحجرٍ في أصبعه فقال: «ما أنت إلَّا إصبعٌ دميت، وفي سبيل الله ما لقيتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأةٌ: ما أرى شيطانَك إلَّا قد تركك[1].

وفي رواية للترمذيِّ أيضاً والإمام أحمد والبخاريِّ ومسلم والنسائيِّ وجماعةٍ بلفظ: اشتكى النبيُّ ﷺ فلم يَقم ليلتين أو ثلاثاً، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2]. وليس فيه حديث المرأة ولا الحجر والرَّجَز[3]، وذلك لا يطعنُ في صحَّته.

وقال جمعٌ من المفسرين: إنَّ اليهودَ سألوه عليه الصلاة والسلام عن أصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصَّة ذي القرنين، فقال عليه الصلاة والسلام: سأخبركم غداً، ولم يستثنِ، فاحتبسَ عنه الوحيُ، فقال المشركون ما قالوا، فنزلت[4].

وقيل: إنَّ عثمان أهدى إليه ﷺ عنقودَ عنب ـ وقيل: عِذْق تمر ـ فجاء سائلٌ فأعطاه، ثم اشتراه عثمانُ بدرهمٍ، فقدَّمه إليه عليه الصلاة والسلام ثانياً، ثم عاد السائل فأعطيه، وهكذا ثلاث مرات، فقال عليه الصلاة والسلام ملاطفاً لا غضبان: «أسائلٌ أنت يا فلان أم تاجر»، فتأخر الوحي أيَّاماً، فاستوحشَ فنزلت[5]، ولعلَّهم أيضاً قالوا ما قالوا.

وأخرج ابن أبي شيبة في «مسنده» والطبرانيُّ وابن مردويه من حديث

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٠، وهو بنحوه في سنن الترمذي (٣٣٤٥)، وأخرج القسم الأول منه إلى نهاية الرجز البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦)، والقسم الثاني منه أخرجه مسلم (١٧٩٧): (١١٤).

(٢) مسند أحمد (١٨٨٠١)، والبخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦١٧). ولم نقف على هذه الرواية في مطبوع سنن الترمذي.

(٣) بل وقع ذكر المرأة عندهم، ولكن لم يُذكر اسمها.

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٥٠٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٧-٤٩٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٣٩.

(٥) لم نقف عليه هكذا، وأخرج الطبراني في الكبير (١٣٠٦٧) قصةً شبيهةً بأول هذه القصة جرت بين نافع وابن عمر رضي الله عنهما.

خولة ـ وكانت تخدمُ رسول الله ﷺ ـ أنَّ جرواً دخل تحت سرير رسول الله ﷺ، فمات ولم نشعر به، فمكثَ رسول الله ﷺ أربعةَ أيَّام لا ينزلُ عليه الوحي، فقال: «يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ جبريل لا يأتيني» فقلت: يا نبيَّ الله، ما أتى علينا يومٌ خيرٌ منَّا اليوم، فأخذ بُرْدَه فلبسه وخرج، فقلت في نفسي: لو هيَّأتُ البيت وكنستُه، فأهويتُ بالمِكنسة تحت السرير، فإذا بشيءٍ ثقيل، فلم أزل به حتى بدا لي الجروُ ميتاً، فأخذتُه بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء النبيُّ ﷺ ترعدُ لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخَذَتْهُ الرِّعدة، فقال: «يا خولة دثِّريني» فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾[1].

وهذه الرواية تدلُّ على أنَّ الانقطاع كان أربعةَ أيام، وعن ابن جريج أنَّه كان اثني عشر يوماً، وعن الكلبيّ: خمسة عشر يوماً. وقيل: بضعة عشر يوماً، وعن ابن عباس: خمسة وعشرين يوماً، وعن السديِّ ومقاتل: أربعين يوماً. وأنت تعلم أنَّ مثل ذلك مِمَّا يتفاوت العلم بمبدئه، ولا يكادُ يعلم على التحقيق إلَّا منه عليه الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

وفي بعض الروايات ما يدلُّ على أنَّ قائل ذلك هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام، فعن الحسن أنَّه قال: أبطأ الوحيُ على رسول الله ﷺ، فقال لخديجة: «إنَّ ربي وَدعني وقلاني» يشكو إليها، فقالت: كلَّا والذي بعثَك بالحقِّ، ما ابتدأكَ الله تعالى بهذه الكرامة إلَّا وهو سبحانه يريدُ أن يتمَّها لك. فنزلت[2].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦١، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/(٦٣٦)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠، وليس في الأخيرين عدَّة الأيام التي انقطع فيها الوحي.
قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧١٠: وجدت في الطبراني بإسنادٍ فيه مَن لا يُعْرف أنَّ سببَ نزولها وجودُ جرو كلب تحت سريره لم يشعر به النبيُّ ﷺ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذٌّ مردودٌ بما في الصحيح. اهـ. وقصة إبطاء جبريل بسبب وجود الكلب تحت سرير النبي ﷺ أخرجها أحمد (٢٥١٠٠)، ومسلم (٢١٠٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجها البخاري (٥٩٦٠) مختصرة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أورده الرازي في تفسيره ٣١/ ٢١٠.

واستشكل هذا بأنَّه لا يليقُ بالرسول ﷺ أنْ يَظُنَّ أنَّ الله تعالى شأنُه وَدعه وقلاه، وهل [هذا] إلَّا نحوٌ من العزل؟! وعزلُ النبيِّ عن النبوة غير جائزٍ في حكمته عزَّ وجلَّ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام أعلمُ بذلك، ويعلمُ ﷺ أيضاً أنَّ إبطاءَ الوحي وعكسه لا يخلو كلٌّ منهما عن مصلحةٍ وحكمة.

وأجيب بأنَّ مرادَه عليه الصلاة والسلام - إن صح - أن يُجَرِّبَها ليعرف قَدْرَ علمها، أو ليعرفَ الناسُ ذلك، فقال ما قال ﷺ بضربٍ من التأويل، كأن يكون قد قصد: إنَّ ربي ودعني وقلاني بزعم المشركين، أو: إن معاملته سبحانه إيَّاي بإبطاء الوحي تشبهُ صورة معاملة المودِّع والقالي.

وأنت تعلمُ أنَّ هذه الرواية شاذَّةٌ لا يعوَّلُ عليها، ولا يلتفتُ إليها، فلا ينبغي إتعابُ الذهن بتأويلها. ونحوُها ما دلَّ على أنَّ قائلَ ذاك خديجة رضي الله عنها، أخرج ابنُ جرير وابن المنذر عن عروة قال: أبطأ جبريلُ عليه السلام على[1] النبيِّ ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: أرى ربَّك قد قلاك مِمَّا أرى من جَزعك، فنزلت: (وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ) إلى آخرها[2].

والقول بأنَّها رضي الله عنها أرادت أنَّ هذا الجزع لا ينبغي أنْ يكون إلَّا من قِلى ربِّك إيَّاك، وحاشا أن يقلاك، فما هذا الجزع = بعيدٌ غايةَ البعد، والمعوَّل ما عليه الجمهور وصحَّت به الأخبار أنَّ القائل هم المشركون، وأنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما أحزنه بمقتضى الطبيعة البشرية تعييرهم، وعدم رؤية جبريل عليه السلام، مع مزيد حبِّه إيَّاه، وفي بعض الآثار أنَّه ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما جئتني حتى اشتقتُ إليك» فقال جبريل عليه السلام: كنت أنا إليك أشوق، ولكني عبدٌ مأمور، وتلا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[3] [مريم: ٦٤]، وفي رواية: أنَّه عاتبه عليهما الصلاة والسلام، فقال: أمَا علمتَ أنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة. وراوي هذا

(١) في (م): عن.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٧. وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٩-٤٩٠.
(٣) سلف ١٦/ ١٣٠.

يروي أنَّ السببَ في إبطاء الوحي وجودُ جروٍ في بيته عليه الصلاة والسلام[(١)]. والروايات في ذلك مختلفة.

وجَوَّزَ بعضُهم أن يكون الإبطاء لتجمُّع الأسباب.

ثمَّ إنَّه قد زعم بعضٌ ـ بناءً على بعض الروايات السابقة ـ جوازَ أن يكون المرادُ بـ «ربِّك» في «ما ودَّعك ربُّك» دون ما بعدُ: صاحبَك، والمراد به جبريل عليه السلام. وهو كما ترى.

وحيث تضمَّن ما سبق من نفي التوديع والقِلى أنَّه عزَّ وجلَّ لا يزالُ يواصله عليه الصلاة والسلام بالوحي والكرامة في الدنيا، بُشِّر ﷺ بأنَّ ما سيؤتاه في الآخرة أجلُّ وأعظم من ذلك، فقيل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ لما أنَّها باقيةٌ صافيةٌ عن الشوائب على الإطلاق، وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارّ، وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوَّة، وإن كان مِمَّا لا يعادلُه شرفٌ، ولا يدانيه فضلٌ، لكنَّه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام، مع أنَّه عند ما أُعدَّ له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبقِ والتقدُّم على كافَّة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يوم الجَمْع، يومَ يقومُ الناس لربِّ العالمين، وكونِ أمَّته ﷺ شهداءَ على سائر الأمم، ورفعِ درجات المؤمنين، وإعلاءِ مراتبهم بشفاعته ﷺ، وغير ذلك من الكرامات السَّنيَّة التي لا تحيطُ بها العباراتُ وتقصُرُ دونها الإشارات = بمنزلة بعض المبادي بالنسبة إلى المطالب، كذا في «الإرشاد»[(٢)].

والاختصاص الذي تقتضيه اللام، قيل: إضافيٌّ على معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بخيريَّة الآخرة دون مَن آذاه وشمتَ بتأخير الوحي عنه ﷺ، ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين، كيف وقد عُلِم بالضرورة أنَّ الخيرَ المعدَّ له عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم مطولاً (٢١٠٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٦٩-١٧٠.

والسلام خيرٌ من المعدِّ لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاصُ المقام المحمود به ﷺ، على أنَّ اختصاصَ اللام ليس قصريًّا، كما قُرِّر في موضعه.

وحملُ الآخرة على الدار الآخرة المقابِلة للدنيا، والأُولى على الدار الأولى، وهي الدنيا = هو الظاهرُ المرويُّ عن أبي إسحاق[١] وغيره.

وقال ابن عطية وجماعة: يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره ﷺ وبدايته[٢]، فاللام فيهما للعهد، أو عوضٌ عن المضاف إليه، أي: لَنهاية أمرك خيرٌ من بدايته، لا تزال تتزايدُ قوَّةً وتتصاعدُ رفعةً.

وفي بعض الأخبار المرفوعة ما هو أظهرُ في الأوَّل، أخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمَّتي بعدي، فسرَّني، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾»[٣].

ثمَّ إنَّ ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي سمعت هو ما اختاره غيرُ واحد من الأجلَّة.

وجُوِّز أنْ يقال فيه: إنَّه لَمَّا نزل: «ما ودَّعك ربُّك وما قلى» حصلَ له عليه الصلاة والسلام به تشريفٌ عظيمٌ، فكأنَّه ﷺ استعظمَ ذلك، فقيل له: «وللآخرة خيرٌ لك من الأولى» على معنى أنَّ هذا التشريف وإنْ كان عظيماً، إلَّا أنَّ ما لَكَ عند الله تعالى في الآخرة خيرٌ وأعظم.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٤٠، والبحر ٨/ ٤٨٥.

(٢) نص عبارة ابن عطية كما في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٣-٤٩٤: يحتمل أن يريد حالَيْهِ في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالى على هذا التأويل بالنصر والظهور.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٥٧٢)، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٦١. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٤٨٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته... إلخ، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

وجُوِّزَ أيضاً أنْ يكون المعنى أنَّ انقطاعَ الوحي لا يجوز أن يكون لما يتوهمون؛ لأنَّه عزلٌ عن النبوة، وهو مستحيلٌ في الحكمة، بل أقصى ما في الباب أنْ يكون ذلك لأنَّه حصل الاستغناءُ عن الرسالة، وذلك أمارةُ الموت، فكأنَّه تعالى قال: انقطاعُ الوحي متى حصل دلَّ على الموت، لكنَّ الموت خيرٌ لك، فإنَّ ما لَكَ عند الله تعالى في الآخرة أفضلُ مِمَّا لك في الدنيا. وهذا كما ترى دون ما قبله بكثير.

والمتبادِرُ مِمَّا قرَّروه أنَّ الجملة مستأنفةٌ، واللام فيها ابتدائيَّة، وقد صرَّح جمعٌ بأنها كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ وقالوا: فائدتها تأكيدُ مضمون الجملة، وبعدَها مبتدأ محذوف، أي: ولأنتَ سوف يعطيك.. إلخ.

وأورِد عليه أنَّ التأكيدَ يقتضي الاعتناء، والحذفُ ينافيه، ولذا قال ابنُ الحاجب: إنَّ المبتدأ المؤكَّد باللام لا يحذف، وإنَّ اللام مع المبتدأ كـ «قد» مع الفعل و«إنَّ» مع الاسم، فكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما، كذلك لا يحذف المبتدأ وتبقى اللام.

وأنَّه يلزم التقدير، والأصل عدمه.

وأنَّ اللامَ لتخلِّص المضارع الذي في حيِّزها للحال، كتأكيد مضمون الجملة، وهو هنا مقرونٌ بحرف التنفيس والتأخير، فيلزم التنافي(١).

ورُدَّ بأنَّ المؤكَّد الجملةُ لا المبتدأ وحده حتى ينافي تأكيده حذفَه، وكلام ابن الحاجب ليس حجَّةً على الفارسيِّ وأمثاله، و«إنَّ» يحذف معها الاسم كثيراً، كما ذكره النحاة، وكذا «قد» يحذفُ بعدها الفعل، كقوله:

أزِفَ الترحُّلُ غيرَ أنَّ ركابَنا ... لَمَّا تَزُلْ برحالنا وكأنْ قَدِ(٢)

مع أنَّه لو سُلِّم فقد يُفرَّق ـ كما قال الطيبيُّ ـ بين «إنَّ» و«قد» وهذه اللام بأنَّهما يؤثِّران في المدخول عليه مع التأكيد، بخلاف هذه اللام فإنَّ مقتضاها أنْ تؤكِّد

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: إلى غير ذلك مما هو مع ما فيه في المغني. اهـ منه. وينظر المغني ص ٣٠٢.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٨، وفيه: أفد. بدل: أزف.

مضمونَ الجملة لا غير، وهو باقٍ وإن حُذِف المبتدأ، فالقياس قياسٌ مع الفارق، والنحويون يقدِّرون كثيراً في الكلام، كما قدروا المبتدأ في نحو: قمت وأصكُّ عَيْنَه، وهو لأجل الصناعة دون المعنى، كما فيما نحن فيه.

واللام المؤكِّدة لا نسلِّم أنَّها لتخليص المضارع للحال أيضاً، بل هي لمطلق التأكيد فقط، ويفهم معها الحالُ بالقرينة؛ لأنَّه أنسبُ بالتأكيد، وعلى تسليم أنَّها لتخليصه للحال أيضاً يجوزُ أنْ يقال: إنَّها تجرَّدت للتأكيد هنا، بقرينة ذكر «سوف» بعدها، والمرادُ تأكيد المؤخَّرِ ـ أعني الإعطاء ـ لا تأكيد التأخير، فالمعنى: إنَّ الإعطاء كائنٌ لا محالة وإنْ تأخَّرَ لحكمة، وعلى تسليم أنَّها للأمرين ولا تجرد يجوزُ أن يقال: نزِّل المستقبل ـ أعني: الإعطاء الذي يعقُبه الرضى ـ لتحقُّق وقوعه منزلةَ الواقع الحالي، نظيرَ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤].

وقيل: يحسنُ هذا جدًّا فيما نحن فيه، على القول بأنَّ الإعطاء قد شُرِع فيه عند نزول الآية؛ بناءً على أحد أوجهها الآتية بعدُ إن شاء الله تعالى.

وذهب بعضُهم بأنَّ اللامَ الأولى للقسم، وكذا هذه اللام. وبقسَمَيتها جزَمَ غيرُ واحد، فالواو عليه للعطف، فكِلَا الوعدين داخلٌ في المقسَم عليه، ويكون الله تعالى قد أقسم على أربعة أشياء: اثنان منفيان، واثنان مثبتان. وهو حسنٌ في نظري.

واعترض بأنَّ لام القسم لا تدخل على المضارع إلَّا مع النون المؤكِّدة، فلو كانت للقسم لقيل: لسوف يعطينَّك ربُّك.

ولا يخفى أنَّ هذا أحدُ مذهبين للنحاة، والآخر أنَّه يستثنى ما قُرِن بحرف تنفيس، كما هنا، ففي «المغني» أنَّه تجبُ اللام وتمتنع النون فيه(١)، كقوله:

فوربِّي لسوف يُجزى الذي أسلفَ المرءُ سيئاً أو جميلَا(٢)

---

(١) مغني اللبيب ص٣٠٣.

(٢) أورده الخفاجي في حاشيته ٨/ ٣٧٢.

وكذا مع فصل معمول الفعل بين اللام والفعل، نحو: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، ومع كون الفعل للحال، نحو «لأقسم»(١)، وقد يمتنعان، وذلك مع الفعل المنفي، نحو: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا﴾ [يوسف: ٨٥] وقد يَجِبان، وذلك فيما بقي، نحو: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وعليه لا يتَّجهُ الاعتراضُ، مع أنَّ الممنوع بدون النون في جواب القسم، لا في المعطوف عليه كما هنا، فإنَّه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، وإنَّما ذكرت اللام تأكيداً للقسم وتذكيراً به، وبالجملة هذا الوجهُ أقلُّ دغدغةً من الوجه السابق، ولا يحتاجُ فيه إلى توجيه جمع اللام مع «سوف»، إذ لم يقل أحدٌ من علماء العربية بأنَّ اللام القسمية مخلِّصةٌ المضارعَ للحال، كما لا يخفى على مَن تتبَّع كتبهم، وظاهر كلام الفاضل الكلنبوي أنَّ كلًّا من اللامين موضوعٌ للدلالة على الحال، ووجهُ الجمع على تقدير كونها في الآية قسميَّةً بأنَّها محمولةٌ على معناها الحقيقيِّ، و«سوف» محمولةٌ على تأكيد الحكم، ولذا قامت مقام إحدى النونين عند أبي عليٍّ الفارسيّ. وقد أطال رحمه الله تعالى الكلامَ فيما يتعلَّق بهذا المقام، وأتى ـ على غزارة فضله ـ بما يُستبعَدُ صدورُه من مثله.

وقال عصام الدين: الأظهرُ أنَّ جملةَ «ما ودَّعك» حاليَّةٌ، أي: ما ودَّعك ربُّك وما قلاك، والحال أنَّ الآخرةَ خيرٌ لك من الأولى، وأنت تختارُها عليها، ومَن حالُه كذلك لا يتركُه ربُّه، ففيه إرشادٌ للمؤمنين إلى ما هو ملاكُ قرب العبد إلى الربِّ عزَّ وجلَّ، وتوبيخٌ للمشركين بما هم فيه من التزام أمر الدنيا والإعراضِ عن الآخرة، وحينئذٍ معنى قوله سبحانه: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ) أنَّه سوف يعطيك الآخرة، ولا يخفى حينئذٍ كمالُ اشتباك الجمل. انتهى.

وفيه أنَّ دخول اللام عليها مع دخوله على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعدُ الحاليَّةَ جداً، وأيضاً المعنى [الذي](٢) ذكره على تقديرها غيرُ ظاهرٍ من

---

(١) الآية الأولى من سورة القيامة، وهي قراءة قنبل عن ابن كثير، وكذا في رواية عن البزي. انظر التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٢٨٢. وسلف الكلام فيها في أول تفسير سورة القيامة.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

الآية، وكان الظاهر عليه: عندك، بدل: لك، كما لا يخفى عليك.

واختلف في قوله تعالى: «ولسوف» إلخ، فقيل: هو عِدَةٌ كريمةٌ شاملةٌ لما أعطاه الله عزَّ وجلَّ في الدنيا، من كمال النفس، وعلوم الأوَّلين والآخرين، وظهور الأمر، وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره ﷺ، وفي أيَّام خلفائه عليه الصلاة والسلام، وغيرهم من الملوك الإسلاميَّة، وفشوِّ الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولِما ادَّخرَ جلَّ وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلَّا هو جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

وقيل: عِدَةٌ بما أعطاه سبحانه وتعالى في الدنيا من فتح مكَّة وغيره.

والجمهور على أنَّه عِدَةٌ أخرويَّةٌ، فأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه قال: هي الشفاعة[1]. ورُوي نحوه عن بعضِ أهل البيت ﵃؛ أخرج ابنُ المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن عليِّ بن الحسين ـ على جدِّهم وعليهم الصلاةُ والسلام ـ: أرأيتَ هذه الشفاعة التي يتحدَّثُ بها أهلُ العراق، أحقٌّ هي؟ قال: إي والله، حدثني محمد بن الحنفية عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَشْفَعُ لأمَّتي حتى ينادي ربِّي: أرضيتَ يا محمد، فأقول: نعم يا ربِّ رضيت». ثم أقبل عليَّ فقال: إنَّكم تقولون يا معشر أهل العراق: إنَّ أرجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] قلت: إنَّا لنقول ذلك. قال: فكلُّنا أهلَ البيت نقول: إنَّ أرجى آيةٍ في كتاب الله تعالى: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ)، وقال: هي الشفاعة[2].

وقيل: هي أعمُّ من الشفاعة وغيرها ويرشدُ إليه ما أخرجه العسكريُّ في

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦١.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦١، وهو في الحلية ٣/ ١٧٩، وأخرجه أيضاً البزار (٦٣٨ - البحر الزخار)، والطبراني في الأوسط (٢٠٦٢).
ووقع عند البزار والطبراني: حرب بن سريج. وهو الصواب. انظر تهذيب الكمال ٥/ ٥٢٢.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٧: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن أحمد بن زيد المداري، ولم أعرفه، وبقية رجاله وثِّقوا على ضعف في بعضهم.

«المواعظ» وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: دخلَ رسول الله ﷺ على فاطمة وهي تطحنُ بالرحاء، وعليها كساءٌ من جلد الإبل، فلمَّا نظر إليها قال: يا فاطمة، تعجَّلي مرارةَ الدنيا بنعيم الآخرة غداً» فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[1].

وقال أبو حيان: الأولَى العموم لما في الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعه[2].

والخبر المذكور لو سُلِّم صحته لا يأبى ذلك، نعم عطايا الآخرة أعظمُ من عطايا الدنيا بكثير، فقد رَوى الحاكم وصحَّحه وجماعةٌ عن ابن عباس أنَّه قال: أعطاهُ الله تعالى في الجنَّة ألفَ قصر من لؤلؤ، ترابه المسك، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخَدَم[3].

وأخرج ابن جرير عنه أنَّه قال في الآية: من رِضَى محمدٍ ﷺ أن لا يدخل أحدٌ من أهل بيته النار[4].

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عنه أنَّه قال: رضاه ﷺ أنْ يدخلَ أمَّته كلّهم الجنة[5].

وفي رواية الخطيب في «تلخيص المتشابه» من وجهٍ آخر عنه: لا يَرضى محمدٌ ﷺ وأحدٌ من أمَّته في النار[6].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦١، وأخرجه أيضاً ابن لال في مكارم الأخلاق، وإسناده ضعيف كما قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء على هامش الإحياء ٤/ ٢٣٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦.

(٣) المستدرك ٢/ ٥٢٦، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٤، والطبري ٢٤/ ٤٨٨، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠-٤٩١، والبيهقي في الدلائل ٧/ ٦١، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، والأوسط (٥٧٢).

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٨.

(٥) شعب الإيمان (١٤٤٥).

(٦) تلخيص المتشابه ١/ ١٧٣. وجاء في هامش الأصل ما نصُّه:

ألم يرضكَ الرحمنُ في سورة الضحى ... فحاشاك أن ترضَى وفينا معذبُ

اهـ منه.

وهذا ما تقتضيه شفقته العظيمة عليه الصلاة والسلام على أمَّتِه، فقد كان ﷺ حريصاً عليهم، رَؤوفاً بهم، مهتمًّا بأمرهم. وقد أخرج مسلم ـ كما في «الدر المنثور» ـ عن ابن عمرو أنَّه ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقوله تعالى في عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨] فرفعَ عليه الصلاة والسلام يديه، وقال: «اللهمَّ أُمَّتي أمَّتي» وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل، اذهب إلى محمدٍ فقل له: إنَّا سنرضيك في أمَّتِك ولا نسوءك[1].

وفي إعادة اسم الربِّ مع إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى أيضاً من اللُّطف به ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ تعديدٌ[2] لما أفاض عليه ﷺ من أوَّل أمره إلى وقت النزول من فنون النَّعماءِ العظام؛ ليستشهد بالخاصِّ الموجود على المترقَّبِ الموعود، فيزدادَ قلبُه الشريفُ وصدرُه الرحيب طمأنينةً وسروراً وانشراحاً وحبوراً، ولذا فُصِلت الجملة. والهمزةُ لإنكار النفي وتقرير المنفيِّ[3] على أبلغ وجه، كأنَّه قيل: قد وجدَك.. إلخ.

ووجدتُه ـ على ما قال الرضيّ ـ بمعنى: أصبته على صفةٍ، ويرادُ بالوجود فيه العلمُ مجازاً بعلاقة اللزوم، وفي «مفردات» الراغب: الوجود أَضْرُب: وجودٌ بالحواسِّ الظاهرة، ووجودٌ بالقوى الباطنة، ووجودٌ بالعقل، وما نُسِب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد، إذْ كان الله تعالى منزَّهاً عن الوصف بالجوارح والآلات[4].

وقد فسَّره بعضهم هنا بالعلم، وجعلَ مفعولَه الأول الضمير، ومفعولَه الثاني «يتيماً»، وبعضُهم بالمصادفة، وجعلَه متعدِّياً لواحد، و«يتيماً» حالاً، وأنت تعلم أنَّ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦١، وهو في صحيح مسلم (٢٠٢).
(٢) في (م): تعديل. وهو تصحيف.
(٣) في (م): النفي.
(٤) المفردات (وجد).

المصادفة لا تصحُّ في حقِّه تعالى؛ لأنَّها ملاقاةُ ما لم يكن في علمه سبحانه وتقديرِه جلَّ شأنه، فلا بدَّ من التجوُّز بها عن تعلُّق علمه عزَّ وجلَّ بذلك.

واليتمُ: انقطاعُ الصبيِّ عن أبيه قبلَ بلوغه، والإيواءُ: ضمُّ الشيء إلى آخر، يقال: آوى إليه فلاناً، أي: ضمَّه إلى نفسه، أي: ألم يَعلمكَ طفلاً لا أبا لك، فضمَّك إلى من قام بأمرك.

روي أنَّ عبدَ المطلب بعثَ ابنَه عبد الله أبا رسول الله ﷺ يمتارُ تمراً من يثرب، فتوفي ورسولُ الله ﷺ جنينٌ قد أتت عليه ستَّةُ أشهر، فلمَّا وضَعَتْهُ كان في حجرِ جدِّه مع أمِّه، فماتت وهو عليه الصلاة والسلام ابنُ ستِّ سنين، ولَمَّا بلغَ عليه الصلاة والسلام ثمانيَ سنين ماتَ جدُّه، فكفلَه عمُّه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصيَّةٍ من أبيه عبد المطلب، وأحسنَ تربيتَه ﷺ.

وفي «الكشاف»: ماتت أمُّه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين، فكفله عمُّه[1]، وكان شديدَ الاعتناء بأمره إلى أنْ بعثَهُ الله تعالى، وكان يَرى منه ﷺ في صغره ما لم يرَ من صغير؛ روي أنَّه قال يوماً لأخيه العباس: ألا أخبركَ عن محمدٍ بما رأيتُ منه، فقال: بلى، قال: إنِّي ضممتُه إليَّ، فكنتُ لا أفارقُه ساعةً من ليلٍ ولا نهار، ولم أئتمن عليه أحداً، حتى إنِّي كنتُ أنوِّمه في فراشي، فأمرتُه ليلةً أنْ يخلع ثيابَه وينامَ معي، فرأيتُ الكراهية في وجهه، وكرهَ أنْ يخالفني، فقال: يا عمَّاه اصرفْ وجهَك عني حتى أخلع ثيابي، إنِّي لا أحبُّ أن تنظُر إلى جسدي، فتعجَّبتُ من قوله، وصرفتُ بصري حتى دخل الفراشَ، فلمَّا دخلتُ معه الفراش، إذا بيني وبينه ثوبٌ، والله ما أدخلتُه في فراشي، فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنَّه غُمِس في المسك، فجهدتُ لأنظر إلى جسده، فما كنتُ أرى شيئاً، وكثيراً ما كنت أفقدُه من فراشي، فإذا قمتُ لأطلبَه ناداني: ها أنا يا عمّ فارجع، وكنت كثيراً ما أسمعُ منه كلاماً يعجبني، وذلك عندما مضى بعض الليل، وكنَّا لا نسمِّي على الطعام والشراب ولا نحمدُ، وكان يقول في أول الطعام: بسم الله الأحد، فإذا فرغ

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٤.

من طعامه قال: الحمدُ لله، فكنت أعجبُ منه، ولم أرَ منه كِذْبَةً، ولا ضحكاً، ولا جاهليةً، ولا وقفَ مع الصبيان وهم يلعبون[(١)]. وهذا لعمري غيضٌ من فيض:

في المهد يُعرِبُ عن سعادة جدِّه أثرُ النجابةِ ساطعَ البرهان[(٢)]

وقيل: المعنى: ألم يجدك يتيماً أبَتْكَ المراضعُ فآواك من مرضعةٍ تحنو عليك، بأنْ رزقَها بصحبتك الخيرَ والبركةَ، حتى أحبَّتك وتكفَّلتك.

والأوّل هو الظاهر، وقيل غير ذلك مِمَّا ستعلمُه بعدُ إن شاء الله تعالى.

ومن بدع التفاسير ـ على ما قال الزمخشريُّ ـ أنَّ «يتيماً» من قولهم: دُرَّةٌ يتيمةٌ، والمعنى: ألم يجدكَ واحداً في قريشٍ، عديمَ النظير فآواك[(٣)]. والأولَى عليه أنْ يقال: ألم يجدك واحداً عديمَ النظير في الخليقة، لم يحوِ مثلَك صدفُ الإمكان، فآواك إليه، وجعلَك في حُقِّ[(٤)] اصطفائه.

وقرأ أبو الأشعث: «فأوى» ثلاثيًّا[(٥)]، فجوز أن يكون من أوَاه بمعنى آواه، وأن يكون من أوى له، أي: رحمه، ومصدره: أيًا وإيَّةً ومأوِيَةً[(٦)] ومأواة[(٧)]، وتحقيقُه ـ على ما قال الراغب ـ أي: رجع إليه بقلبه، ومنه قوله:

أراني[(٨)] ولا كفران لله أيَّةً[(٩)]

---

(١) أورده الرازي في تفسيره ٣١/ ١٩٤.
(٢) لا يعرف قائله، وسلف ٢٠/ ١١٨.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٦٤.
(٤) الحقُّ: وعاءٌ صغيرٌ ذو غطاء، يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما. المعجم الوسيط (حقق).
(٥) كذا في الأصل و(م)، ووقع في مطبوع البحر ٨/ ٤٨٦: أبو الأشهب العقيلي، والصواب: الأشهب العقيلي، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير الثعلبي ١٠/ ٢٢٦.
(٦) ضبطت في الأصل بتشديد الياء، والصواب التخفيف، كما في الصحاح والتاج (أوى).
(٧) في الأصل و(م): ومأوية، والمثبت من كتب اللغة. ينظر العين ٨/ ٤٣٨، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٦٧، ومفردات الراغب والصحاح، واللسان والقاموس (أوى). وذُكر من مصادره أيضاً: أوْيَة. ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٤٦٧، والصحاح واللسان والقاموس (أوى)، وجاء في المفردات بدلاً منها: أويًا.
(٨) في الأصل و(م)، أو أني، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٩) الخصائص ١/ ٣٣٧، ومغني اللبيب ص٥١٥، واللسان (أوى)، وعجزه: لنفسي قد طالبتُ =

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ عطفٌ على ما يقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه، أو على المضارع المنفيِّ بـ «لم» داخلٌ في حكمه، كأنَّه قيل: أما وجدك يتيماً فآوى، ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تَهتدي إليها العقول، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقولِه سبحانه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فهداك إلى مناهجها في تضاعيف ما أوحَى إليك من الكتاب المبين، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، وعلى هذا ـ كما قال الواحديُّ[1] ـ أكثرُ المفسِّرين، وهو اختيار الزجَّاج[2].

ورَوى سعيد بن المسيب أنَّه ﷺ سافر مع عمِّه أبي طالب إلى الشام، فبينما هو راكبٌ ناقةً ذات ليلةٍ ظلماء وهو نائم، جاءه إبليس، فأخذ بزمام الناقة، فعدلَ به عن الطريق، فجاءه جبريلُ عليه الصلاة والسلام، فنفخ إبليس نفخةً وقع منها بالحبشة[3]، وردَّه إلى القافلة. فما في الآية إشارةٌ إلى ذلك على ما قيل.

وقيل: إشارة إلى ما رُوي عن ابن عباس من أنَّه ﷺ ضلَّ وهو صغيرٌ عن جدِّه في شعاب مكَّة، فرآه أبو جهلٍ منصرفاً من أغنامه، فردَّه لجدِّه وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة يتضرَّعُ إلى الله تعالى في أن يردَّ إليه محمَّداً، وذكر له أنَّه لَمَّا رآه أناخ الناقة وأركبه من خلفه، فأبت أن تقوم، فأركبه أمامَه فقامت، فكانت الناقةُ تقول: يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدي؟

وفي إرجاعه عليه الصلاة والسلام إلى أهله على يد أبي جهل، وقد علم سبحانه منه أنَّه فرعونه، [ما] يشبه إرجاع موسى عليه السلام إلى أمِّه على يد فرعون.

= غيرَ مُنيلٍ. وفيه اعتراض بجملتين، إحداهما: ولا كفران لله، والأخرى: آيَّة، أي: أويت لنفسي أيّة، أي: رحمتها. وآيَّة أصله: أوْية، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء. شرح أبيات المغني للبغدادي ٦/ ٢٢٥-٢٢٦.

(١) في الوسيط ٤/ ٥١١.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقيل إلى أرض الهند. اهـ منه.

وقيل: ضلَّ عليه الصلاة والسلام مرَّةً أخرى وطلبوه فلم يجدوه، فطاف عبدُ المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرَّع إلى الله تعالى، فسمعوا منادياً ينادي من السماء: يا معشر الناس لا تضجُّوا؛ فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذله ولا يضيِّعه، وإنَّ محمداً بوادي تهامة عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل، فإذا النبيُّ ﷺ قائمٌ تحت شجرةٍ يلعب بالأغصان والأوراق.

وقيل: أضلَّته مرضعتُه حليمة عند باب مكَّة حين فطمته، وجاءت به لتردَّه على عبد المطلب(١).

ف «ضالًّا» على هذه الروايات مِن ضلَّ في طريقه: إذا سلكَ طريقاً غير موصلةٍ لمقصده. وضُعِّفَ حملُ الآية على ذلك بأنَّ مثلَه بالنسبة إلى ما تقدَّم لا يعدُّ من نِعَمِ الله تعالى على مثل نبيِّه ﷺ التي يمتنُّ سبحانه بها عليه.

وقيل: الضالُّ: الشجرةُ المنفردة في البيداء ليس حولها شجر، والمراد: أما وجدَك وحدك ليس معك أحدٌ فهدى الناس إليك ولم يتركك منفرداً.

وقال الجنيد قُدِّس سره: أي: وجدك متحيِّراً في بيان الكتاب المنزل عليك، فهداك لبيانه. وفيه قربٌ ما من الأول.

وقال بعضهم: وجدك غافلاً عن قَدْرِ نفسك، فأطلعك على عظيم محلِّك.

وقيل: وجدك ضالًّا عن معنى محض المودَّة، فسقاك كأساً من شراب القربة والمودة، فهداك به إلى معرفته عزَّ وجلَّ.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: كنتَ ضالًّا عن محبتي لك في الأزل، فمننتُ عليك بمعرفتي. وهو قريبٌ من سابقه.

وقال الجريري: أي: وجدك متردِّداً في غوامض معاني المحبة، فهداك لها. وهو أيضاً كذلك.

---

(١) تنظر هذه الأخبار في تفسير الثعلبي ١٠/ ٢٢٦، وتاريخ ابن عساكر ٣/ ٤٧٤-٤٧٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٤٤-٣٤٥، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٧١.

وكلٌّ ذلك منزعٌ صوفيٌّ، ورأى أبو حيَّان في منامه أنَّ الكلام على حذف مضاف، والمعنى: ووجد رهطك ضالًّا فهدى بك[١]. وهو كما ترى في يقظتك.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ على نمط سابقه، والعائلُ: المفتقر، من عَال يعيل عيلاً وعَيْلةً وعُيُولاً ومَعِيلاً: افتقر، أي: وجدكَ عديم المقتنيات فأغناك بما حصلَ لك من ربحِ التجارة، وذلك في سفره ﷺ مع ميسرة إلى الشام، وبما وهبته لكَ خديجة رضي الله عنها من المال، وكانت ذا مالٍ كثير، فلمَّا تزوَّجها عليه الصلاة والسلام وهبته جميعه له ﷺ؛ لئلَّا يقول قائلٌ ما يَثْقُل على سمعِه الشريف عليه الصلاة والسلام، وبمالِ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، وكان أيضاً ذا مالٍ، فأتى به كلِّه رسولَ الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتَ لعيالك؟»، فقال: تركتُ الله تعالى ورسوله ﷺ[٢].

وقيل: بما أفاء عليك من الغنائم. وفيه أنَّ السورةَ مكِّيَّة، والغنائم إنَّما كانت بعد الهجرة.

وقيل: المراد: قنَّعك وأغنى قلبك[٣]، فإنَّ غنى القلب هو الغنى، وقد قيل: مَن عَدِمَ القناعة لم يُفِدْهُ المال غِنًى.

وقيل: أغناك به عزَّ وجلَّ عمَّا سواه، وهذا الغنى بالافتقار إليه تعالى، وفي الحديث: «اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك»[٤]، وبهذا ألَمَّ بعضُ الشعراء فقال:

ويعجبني فقري إليك ولم يكن ... ليعجبني لولا محبَّتُك الفقرُ[٥]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وهو مقتضى قول مقاتل: رضاك بما أعطاك. اهـ منه.

(٤) كذا ذكره مرفوعاً الراغب في المفردات (فقر)، وذكره الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٢٧١ على أنه من دعاء عمرو بن عبيد.

(٥) البيت للبحتري، وهو في ديوانه ٢/ ٨٤٧.

وشاع حديث: «الفقر فخري»[1]، وحُمِل الفقرُ فيه على هذا المعنى، وهو - على ما قال ابن حجر - باطلٌ موضوعٌ، وأشدُّ منه وضعاً وبطلاناً ما يذكرهُ بعض المتصوِّفة: إذا تمَّ الفقرُ فهو الله. سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً، وقد خاضوا في بيان المرادِ به بما لا يدفعُ بشاعتَه، بل لا يقتضي استقامتَه.

وقيل: «عائلاً»، أي: ذا عيالٍ، من عال يعول عولاً وعيالةً: كثُر عياله.

ويحتملُ المعنيين قولُ جرير:

الله نــزَّل فــي الــكــتــاب فــريــضــةً لابـن الـسـبـيـل ولـلـفـقـيـر الـعـائـلِ[2]

ولعلَّ الثاني فيه أظهر، ورُجِّح الأول في الآية بقراءة ابن مسعود: «عديماً»[3]، وأنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيالٍ في أوَّل أمره ﷺ.

وقرأ اليمانيُّ: «عَيِّلاً» كسيِّد، بشدِّ الياء المكسورة[4].

هذا، وذكر عصام الدين في هذه الآيات أنَّه يحتملُ أن يُراد باليتيم فاقدُ المعلِّم، فإنَّ الآباءَ ثلاثةٌ؛ مَن علَّمك، ومَن زوَّجك، ومَن وَلَدَكَ، ويناسبه حملُ الضلال على الضلال عن العلم، وحملُ العيال - أي: على تفسير عائلاً بـ: ذا عيال - على عيال الأمَّة الطالبة منه معرفةَ مصالح الدين، مع احتياجه إلى المعرفة، فأغناه الله تعالى بالوحي إليه عليه الصلاة والسلام. ولا يخفى ما فيه.

وحذف المفعول في الأفعال الثلاثة لظهور المراد، مع رعاية الفواصل. وقيل: ليدلَّ على سعة الكرم، والمراد: آواك وآوى لك وبك، وهداك ولك وبك، وأغناك ولك وبك، وظاهرُ الفاء مع تلك الأفعال تأبى ذلك.

---

(١) وهو باطل موضوع، وسلف ١٠/ ٣٨١.

(٢) ديوان جرير ٢/ ٧٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٨-٢١٩، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٥ دون نسبة، وجاء في مطبوع القراءات الشاذة ص١٧٥ عن ابن مسعود: غريماً.

(٤) القراءات الشاذة ص ٣٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٦.

وأطال الإمام الكلام في الآيات، وأتى فيه[1] بغثٍّ وسمين[2]، ولولا خشيةُ الملل لذكرنا ما فيه.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ فلا تستذلَّه، كما قال ابن سلام، وقريبٌ منه قولُ مجاهد: لا تحتقره. وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، وفي معناه ما قيل: لا تغلبه على ماله. ولعلَّ التقييد لمراعاة الغالب، والأولَى حملُ القهر على الغلبة والتذليل معاً، بأن يُراد به التسلُّط بما يؤذي، أو باستعمالِ المشترك في معنييه على القول بجوازه. وفي «مفردات» الراغب: القهر: الغلبةُ والتذليلُ معاً، ويستعملُ في كلٍّ واحدٍ منهما[3].

وقرأ ابن مسعود والشعبيُّ وإبراهيم التيميُّ: «فلا تكهر» بالكاف بدل القاف[4]، ومعناه على ما في «البحر»: فلا تقهر، وفي «تهذيب» الأزهريّ: الكهر: القهر، والكهر: عبوس الوجه، والكهر: الشتم[5]، واختارَ بعضُهم هنا أوسطَها، فالمعنى: فلا تعبس في وجهه، وهو نهيٌ عن الشتم والقهر على ما سمعت من معناه من باب الأولى.

وأيًّا ما كان، ففي الآية دلالةٌ على الاعتناء بشأن اليتيم، وعن ابن مسعود مرفوعاً: «من مسح على رأسِ يتيم كان له بكلِّ شعرةٍ تَمرُّ عليها يدُه نورٌ يوم القيامة»[6].

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً: «إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غُيِّبَ أبوه في

---

(١) في (م): فيها.

(٢) انظر تفسير الرازي ٣١/ ٢١٨-٢٢٠.

(٣) المفردات (قهر).

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٦.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ١٢.

(٦) أخرجه الربعي في وصايا العلماء ص ٧١ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي إسناده الجارود بن يزيد، قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال أبو حاتم: كذاب. الميزان ١/ ٣٨٤.

التراب؟ فيقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي إنِّي أشهدكم أنَّ عليَّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[١]، فكان عمر ﷺ إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً.

ولم يصحّ في كيفية مسحه شيء، والرواية عن ابن عباس في ذلك قد قيل فيها ما قيل[٢].

وروي عنه ﷺ أنَّه قال: «أنا وكافلُ اليتيم كهاتين، إذا اتقى الله عزَّ وجلَّ» وأشار بالسبابة والوسطى[٣]. إلى غير ذلك من الأخبار.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ أي: فلا تزجره، ولكن تفضَّل عليه بشيءٍ، أو رُدَّه بقولٍ جميل، وأريد به عند جمعٍ: السائلُ المستَجْدي الطالبُ لشيءٍ من الدنيا، وتدلُّ الآية على الاعتناء بشأنه أيضاً.

وعن إبراهيم بن أدهم: نِعْمَ القومُ السُّؤَّال، يحملونَ زادنا إلى الآخرة.

وعن إبراهيم النخعي: السائل يريدُ الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم، فيقول: أتبعثونَ إلى أهليكم بشيء.

وشاع حديث: «للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس»[٤]، وقد قال فيه الإمام أحمد

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٢١-٧٢٢، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٩٩ من طريق سعيد بن المسيب عن عمر ﷺ، وهو عند ابن عدي مختصر، وقال ابن عدي: وهذا لا أعرفه إلا من هذا الطريق. اهـ. وهو مرسل فابن المسيب لم يسمع من عمر. انظر مراسيل ابن أبي حاتم ص٦٤، وفي إسناده الحسن بن أبي جعفر الجُفري، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٧٣، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢٩١، من طريق محمد بن سليمان عن أبيه عن جده الأكبر يعني ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «امسح رأس اليتيم هكذا، إلى مقدم رأسه، ومن له أب هكذا إلى مؤخر رأسه».
وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٥٧٢ في ترجمة محمد بن سليمان بن علي أمير البصرة. وقال: هذا موضوع.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند مسلم (٢٩٨٣) دون قوله: «إذا اتقى الله»، وكذا أخرجه البخاري (٥٣٠٤) من حديث سهل بن سعد ﷺ، وسلف ٢/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٠) من حديث الحسين بن علي ﷺ، وإسناده ضعيف، وسلف ٣/ ١٠٠.

كما في «تمييز الطيب من الخبيث»: لا أصل له. وأخرجه أبو داود عن الحسين بن علي رضي الله عنهما موقوفاً[١]، وسكت عنه، وقال العراقيُّ: سنده جيد. وتبعه غيره. وقال ابن عبد البر: إنَّه ليس بالقوي[٢]. وعَوَّل كثيرٌ على ما قال الإمام أحمد، وفي معناه احتمالان، كلٌّ منهما يؤذنُ بالاهتمام بأمر السائل.

وروي من طرقٍ عن عائشة وغيرها: «لو صَدَق السائل ما أفلح مَن ردَّه»[٣]. وهو أيضاً ـ على ما قال ابن المديني ـ لا أصل له، وقال ابنُ عبد البر: جميعُ أسانيده ليست بالقوية. نعم أخرج الطبرانيُّ في «الكبير» عن أبي أمامة مرفوعاً ما يقرب منه، وهو: «لولا أنَّ المساكين يكذبون ما أفلح من ردَّهم»[٤]. ولم أقف على مَن تعقَّبه.

ثمَّ النهيُ عن النَّهْر ـ على ما قالوا ـ إذا لم يلحَّ في السؤال، فإن ألحَّ ولم ينفع الردُّ اللَّيِّن فلا بأس بالزجر.

وقال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم: المرادُ بالسائل هنا السائلُ عن العلم والدين، لا سائل المال.

ولعلَّ النهيَ عن زجره على القول الأول يُعلَم بالأولَى، ويشهدُ للأولوية أنَّه لا وعيدَ على ترك إعطاء المستجدي لمن يجدُ ما يستجديه، بخلاف ترك جواب سائلِ العلم لمن يعلم، ففي الحديث: «من سُئل عن علمٍ فكتمه ألجمَ بلجامٍ من نار»[٥].

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما قيل من أنَّ الظاهر الثاني من القولين.

---

(١) كذا في الأصل و(م). والصواب: مرفوعاً. انظر سنن أبي داود (١٦٦٥)، ومسند أحمد (١٧٣٠)، وانظر أيضاً كشف الخفاء ٢/ ١٩٣.

(٢) الاستذكار ٢٧/ ٤٠٤.

(٣) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٧٥، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٥٧ وقال: هذا حديث لا يصح. ثم نقل عن العقيلي قوله: لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء.

(٤) المعجم الكبير (٧٩٦٧)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٨٦٦)، وفي إسناده جعفر بن الزبير، وهو متروك الحديث كما في الموضوعات، وأخرجه بإسناد آخر ابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٧٠، وابن الجوزي في الموضوعات (٨٦٥) وفيه عمر بن موسى الوجيهي. وهو متروك الحديث.

(٥) حديث صحيح، وسلف ٣/ ٥٧-٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ فإنَّ التحدُّث بها شكرٌ لها، كما قال عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والفضيل بن عياض، وأخرج البخاريُّ في «الأدب» وأبو داود والترمذيُّ وحسَّنه وأبو يعلى وابنُ حبان والبيهقيُّ والضياء عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «مَن أُعطيَ عطاءً فوجد فَلْيَجْزِ به، فإن لم يَجِدْ فَلْيُثْنِ به، فمَن أَثْنَى به فقد شَكَرَه، ومَن كَتَمَه فقد كَفَرَه، ومَن تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبَي زور»[١].

ولذا استحبَّ بعض السلف التحدُّث بما عملَه من الخير إذا لم يُرِد به الرياءَ والافتخار، وعَلِمَ الاقتداءَ به، بل بعضُ أهل البيت ﷺ حمل الآية على ذلك، أخرج ابن أبي حاتم عن مقسم قال: لقيتُ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأرضاهما، فقلت: أخبرني عن قول الله تعالى: «وأمَّا بنعمة ربِّك فحدِّث» فقال: الرجلُ المؤمنُ يعملُ عملاً صالحاً فيخبرُ به أهلَ بيته.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه رضي الله عنه أنه قال فيها: إذا أصبتَ خيراً فحدِّث إخوانك[٢].

والظاهرُ أنَّ المراد بالنعمة ما أفاضَه الله تعالى على نبيِّه ﷺ من فنون النعم التي من جملتها ما تقدَّم.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوَّة[٣]، ورووا عنه أيضاً تفسيرها بالقرآن[٤].

ووافقه في الأول محمدُ بن إسحاق، وفي الثاني الكلبيُّ، وعليهما المرادُ بالتحديث التبليغُ. ولا يخفى أنَّ كلا التفسيرين غيرُ مناسبٍ لما قَبْلُ.

وهذه الجملُ الثلاث مرتَّبةٌ على ما قبلها، فقيل: على اللفِّ والنشر

---

(١) الأدب المفرد (٢١٥)، وسنن أبي داود (٤٨١٣)، وسنن الترمذي (٢٠٣٤)، ومسند أبي يعلى (٢١٣٧)، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٨٢، وشعب الإيمان (٩١٠٨).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٦٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٩٠-٤٩١.

(٤) أخرجه عن مجاهد عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢.

المشوَّش، وحاصل المعنى: إنَّك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً، فآواك وهداك وأغناك، فمهما يكن من شيءٍ فلا تنسَ نعمةَ الله تعالى عليك في هذه الثلاث، واقتدِ بالله تعالى؛ فتعطَّف على اليتيم، وترحَّم على السائل، فقد ذقتَ اليُتْمَ والفقر، وقوله تعالى: «وأمَّا بنعمة» إلخ في مقابلة قوله سبحانه: «وجدك ضالًّا فهدى»؛ لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم.

ولم يراع الترتيب؛ لتقديم حقوق العباد على حقِّه عزَّ وجلَّ فإنَّه سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العالمين، وقيل: لتقديم التخلية على التحلية، أو للترقِّي، أو لمراعاة الفواصل. ونُظِر في كلٍّ ذلك.

وقال الطيبيُّ: الظاهرُ أنَّ المراد بالسائل طالبُ العلم، لا المستجدي. وعليه لا مانعَ من كون التفصيل على الترتيب، فيقال: إنَّه تعالى ذكرَ أحواله ﷺ على وفق الترتيب الخارجيِّ بأن يُراد بهدايته عليه الصلاة والسلام ما يعمُّ توفيقَه للنظر الصحيح في صباه، فقد كان ﷺ موفَّقاً لذلك، ولذا لم يَعبد عليه الصلاة والسلام صنماً، أو يراد بإغنائه ما كان بعد البعثة، ثم فصَّل سبحانه على ذلك الترتيب، فجعلَ عدمَ قهر اليتيم في مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام في يتمه، وعدمَ زجر السائل طالبِ العلم والمتعلِّم منه في مقابلة هدايتِه له، والتحدُّثَ بالنعمة في مقابلة الغنى، وإن كانت النعمة شاملةً له ولغيره.

وآثر سبحانه: «فحدّث» على: فخبِّر، قيل: ليكونَ ذكرُ النعمة منه عليه الصلاة والسلام حديثاً لا ينساه، ويوجدُه ساعةً غبَّ ساعة. والله تعالى أعلم.

ونُدب التكبيرُ عند خاتمة هذه السورة الكريمة، وكذا ما بعدَها إلى آخر القرآن العظيم، فقد أخرج الحاكمُ وصحَّحه وابن مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» من طريق أبي الحسن البزيِّ المقرئ قال: سمعت عكرمةَ بن سليمان يقول: قرأتُ على إسماعيل بن قسطنطين، فلمَّا بلغتُ: «والضحى» قال: كبِّر عندَ خاتمةِ كلِّ سورةٍ حتى تختم، فإنِّي قرأتُ على عبد الله بن كثير، فلما بلغت: «والضحى» قال: كبِّر

حتى تختم، وأخبره عبدُ الله بن كثير أنَّه قرأ على مجاهدٍ، فأمرَه بذلك، وأخبره أنَّ ابنَ عباسٍ ﷺ أمرَه بذلك، وأخبره أنَّ أبيَّ بن كعب ﷺ أمرَه بذلك، وأخبرهُ أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَه بذلك[1]. وكأنَّ ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحاً بنزول الوحي بعد تأخُّره وبطئِه، حتى قيل ما قيل، هذا وعلى ذلك عملُ الناس اليوم. والحمد لله رب العالمين.

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٠، وهو في المستدرك ٣/ ٣٠٤، والشعب (٢٠٧٨)، وتعقبَ الذهبيُّ تصحيح الحاكم بقوله: البزيُّ قد تكلم فيه.
وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (١٧٤٤)، والداني في التيسير ص٢٢٧.
قال ابن كثير في أول تفسير هذه السورة: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزَّة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فضعَّفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «شرح الشاطبية» عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبِّر هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أَحْسَنْتَ وأَصَبْتَ السنَّة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.

(٩٤) سورة الشرح مكية وآياتها ثمان

● **سورة** الإنشراح مكية ، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة ، ومقامه الرفيع عند الله تعالى ، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار ، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿ ألم نشرحْ لك صدرك؟ ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك﴾ .

● **ثم تحدثت** عن إعلاء منزلة الرسول ، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة ، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿ ورفعنا لك ذكرك﴾ .

● **وتناولت** السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين ، فآنسته بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿ فإنَّ مع العُسْر يُسراً . إنَّ مع العسر يُسراً﴾ .

● **وختمت** بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله ، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة ، شكراً لله على ما أولاه مع النعم الجليلة ﴿ فإذا فرغَت فانصبْ . وإلى ربك فارغبْ﴾ .

سورة ألم نشرح لك

[١٠٢٣] قال نزلت لما عير المشركون المسلمين بالفقر.

[١٠٢٤] وأخرج ابن جرير(١) عن الحسن قال لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾(٢) قال رسول الله [ﷺ]: **«أبشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين»**

* * *

[١٠٢٤] (١) تفسير الطبري (٣٠/١٥١).

(٢) سورة الشرح: الآية (٦).

سورة الشرح

ثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، **وفي شرح الصدر قولان:**

الأول: ما روي أن جبريل عليه السلام أتاه، وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علمًا وإيمانًا، ووضعه في صدره.

واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه: **أحدها:** أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته. **وثانيها:** أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر. **ثالثها:** أنه لا يصح أن يملأ القلب علمًا، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم. **والجواب عن الأول:** أن تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا، وذلك هو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول عليه السلام كثير. وأما الثاني والثالث: فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظبًا على الطاعات محترزًا عن السيئات، فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصومًا، وأيضًا فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والقول الثاني: أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنه عليه السلام لما بُعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغر عنده كل شيء احتمله من المشاق، وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم، وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد، فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال، ولا يبالي بما يتوجه إليه من إيذائهم، حتى صاروا في عينه دون الذباب، لم يجبن خوفًا من وعيدهم، ولم يمل إلى مالهم، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة، ونظيره قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وروي أنهم قالوا: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: «نَعَمْ»، قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «التَّجَافِي عَنِ الْغُرُورِ،

وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْإِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ» وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت. **وثانيها:** أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كُلف به، والشرح التوسعة، ومعناه الإراحة من الهموم، والعرب تسمي الغم والهم ضيق صدر كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: ٩٧]، **وههنا سؤالات: الأول:** لمَ ذكر الصدر ولم يذكر القلب؟ **والجواب:** لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب، وقال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصده الشيطان، فالشيطان يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب، فإذا وجد مسلكًا أغار فيه ونزل جنده فيه، وبث فيه من الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذٍ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ولم يقل ألم نشرح صدرك؟ **والجواب من وجهين: أحدهما:** كأنه تعالى يقول لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] فأنا أيضًا جميع ما أفعله لأجلك. **وثانيها:** أن فيها تنبيهًا على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام، كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي.

السؤال الثالث: لمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ولم يقل ألم أشرح؟ **والجواب:** إن حملناه على نون التعظيم، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها، وإن حملناه على نون الجميع، فالمعنى كأنه تعالى يقول: لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي، فكنتَ ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جوابًا، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبنًا فيهم، وانشراح صدرك ضيقًا فيهم!!

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المبرد: هذا محمول على معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ لا على لفظه؛ لأنك لا تقول (ألم وضعنا) ولكن معنى (ألم نشرح) قد شرحنا، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ؛ لأنه لو كان معطوفًا على ظاهره لوجب أن يقال: ونضع عنك وزرك.

المسألة الثانية: معنى الوزر ثقل الذنب، وقد مر تفسيره عند قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وهو كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وأما قوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فقال علماء اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سُمع له نقيض أي صوت خفي، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أو البعير إذا أثقله الحمل، فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أوزاره.

المسألة الرابعة: احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبياء عليهم السلام. **والجواب عنه من وجهين: الأول**: أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها، لا يقال: إن قوله: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يدل على كونه عظيمًا، فكيف يليق ذلك بالصغائر؟! لأنا نقول: إنما وصف ذلك بإنقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبي ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه، وأما إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى. هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة، وفيه إشكال، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضي، والله تعالى ذكر هذه الآية في معرض الامتنان، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز. **الوجه الثاني**: أن يُحمل ذلك على غير الذنب، وفيه وجوه: **أحدها**: قال قتادة: كانت للنبي ﷺ ذنوب سلفت منه في الجاهلية قبل النبوة، وقد أثقلته فغفرها له. **وثانيها**: أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له. **وثالثها**: الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل. وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قَوَّاه الله، وقال له: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]. **ورابعها**: أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأمنه من العذاب في العاجل، ووعد له الشفاعة في الآجل. **وخامسها**: معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى العصمة وضعًا مجازًا، فمن ذلك ما روي أنه حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد. **وسادسها**: الوزر ما أصابه من الهيبة والفزع في أول ملاقاة جبريل عليه السلام، حين أخذته الرعدة، وكاد يرمي نفسه من الجبل، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرمي بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه. **وسابعها**: الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه، و(هو) يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي». **وثامنها**: لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة، فلقد كان فراقهما عليه وزرًا عظيمًا، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياه فارتفع له الذكر، فلذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ **وتاسعها**: أن المراد من الوزر والثقل الحيرة التي كانت له قبل البعثة، وذلك أنه بكمال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه، حيث أخرجه

من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم، ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء؛ لأنه عليه السلام كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه، فلما جاءته النبوة والتكليف وعرف أنه كيف ينبغي له أن يطيع ربه، فحينئذٍ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الأحوال، فإن اللئيم لا يستحي من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة، والإنسان الكريم النفس إذا كثر الإنعام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة، فإنه يثقل ذلك عليه جدًّا، بحيث يميته الحياء، فإذا كلفه المنعم بنوع خدمة سهل ذلك عليه وطاب قلبه.

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾

واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات، اسمه مكتوب على العرش، وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه خُتمت به النبوة، وأنه يُذكر في الخُطب والأذان ومفاتيح الرسائل وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقرونًا بذكره: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣] و﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤] ويناديه باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضًا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويُصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة، فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك، وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] لا تأنف السلاطين من أتباعك، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يُبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باقٍ إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر، ويقولون: إن كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى، جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة. فشق ذلك على رسول الله ﷺ حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيرًا حقيرًا عندهم، فعدَّد الله تعالى عليه منته في هذه السورة، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢] أي ما كنت فيه من أمر الجاهلية، ثم وعده بالغنى

في الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذي بسبب أنهم عيروه بالفقر، والدليل عليه دخول الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كأنه تعالى قال: لا يحزنك ما يقول وما أنت فيه من القلة، فإنه يحصل في الدنيا يسر كامل.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: يقول الله تعالى: خلقت عسرًا واحدًا بين يسرين، فلن يغلب عسر يسرين. وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(1) وقرأ هذه الآية، وفي تقرير هذا المعنى وجهان: **الأول**: قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالألف واللام، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئًا واحدًا. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر، وزيف الجرجاني هذا وقال: إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفًا، إن مع الفارس سيفًا، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية. **الوجه الثاني**: أن تكون الجملة الثانية تكريرًا للأولى، كما كرر قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ١٠] ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، كما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد. والمراد من اليسرين: يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما حسن الظفر وحسن الثواب، فالمراد من قوله: (لن يغلب عسر يسرين) هذا، وذلك لأن عمر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ويسر الآخرة كالمغمور القليل، **وههنا سؤالان**:

الأول: ما معنى التنكير في اليسر؟ **جوابه**: التفخيم، كأنه قيل: إن مع اليسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا عظيمًا، وأي يسر.

السؤال الثاني: اليسر لا يكون مع العسر؛ لأنهما ضدان فلا يجتمعان. **الجواب**: لما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل، كان مقطوعًا به فجعل كالمقارن له.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عَدَّد عليه نعمه السالفة، ووعدهم بالنعم الآتية، لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي فاتعب، يقال: نصب ينصب، قال قتادة والضحاك ومقاتل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك، وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك. وقال مجاهد: إذا فرغت من أمر دنياك فانصب وصلِّ، وقال عبد الله: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وقال الحسن: إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وقال علي بن أبي

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٧٥) من طريق معمر عن أيوب عن الحسن... به مرسلاً ومراسيل الحسن ضعيفة، وكذلك قاله الألباني في (الضعيفة) (٤٣٤٢).

طلحة : إذا كنت صحيحًا فانصب، يعني اجعل فراغك نصبًا في العبادة. يدل عليه ما روي أن شريحًا مر برجلين يتصارعان فقال: الفارغ ما أُمر بهذا إنما قال الله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض، وأن لا يخلي وقتًا من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى.

وأما قوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ ففيه وجهان: **أحدهما:** اجعل رغبتك إليه خصوصًا ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. **وثانيها:** ارغب في سائر ما تلتمسه دينًا ودنيا ونصرة على الأعداء إلى ربك، وقرئ (فرغِّب) أي رغِّب الناس إلى طلب ما عنده.

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «ألم نشرح»

مكيةٌ في قول الجميع. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾

شَرْحُ الصَّدْرِ: فَتْحُه، أي: أَلَمْ نَفْتَحْ صدرَكَ للإسلام. وروى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: أَلَمْ نُلَيِّن لك قلبكَ. وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، أَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ؟ قال: «نعم، ويَنْفَسِحُ». قالوا: يا رسولَ الله، وهل لذلك علامةٌ؟ قال: «نَعَم، التَّجَافي عن دارِ الغرورِ، والإنابةُ إلى دارِ الخلود، والاعتدادُ للموتِ قَبْلَ نزولِ الموت»[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الآية: ٢٢].

ورُوي عن الحسن قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: مُلِئَ حكماً وعِلماً[٢].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «فبينما أنا عند البيتِ بينَ النائمِ واليقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدٌ [بين] الثلاثةِ، فأُتِيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ، فيها ماءُ زمزمَ، فشُرِحَ صدري إلى كذا وكذا» قال قتادة: قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفلِ بطني، قال: «فاستُخْرِجَ قلبي، فغُسِلَ قلبي بماءِ زمزمَ، ثم أُعيدَ مكانَه، ثم حُشِيَ إيماناً وحِكْمةً». وفي الحديث قِصة [طويلة][٣].

---

(١) الوسيط ٤/ ٥١٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٩٦ ، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣ .

(٣) صحيح مسلم (١٦٤)، وسنن الترمذي (٣٣٤٦)، واللفظ له، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه أحمد (١٧٨٣٣) و(١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧). وهو من طريق قتادة عن أنس به.

وروي عن النبيِّ ﷺ قال: «جاءني مَلَكان في صورةِ طائرٍ، معهما ماءٌ وثلجٌ، فشَرَحَ أحدُهما صدري، وفَتَحَ الآخَرُ بمنقاره فيه فغَسَلَه»[١].

وفي حديثٍ آخر قال: «جاءني مَلَكٌ فشَقَّ عن قلبي، فاستخرج منه عذرة[٢]، وقال: قَلبُكَ وَكيعٌ، وعيناك بصيرتان، وأُذناك سميعتان، أنت محمدٌ رسولُ الله، لسانُكَ صادِقٌ، ونَفْسُكَ مُطْمَئِنَّةٌ، وخُلقُكَ قُثَم، وأنت قيِّم»[٣]. قال أهلُ اللغةِ: قولُه: «وكيع» أي: يَحفَظُ ما يُوْضَعُ فيه. يقال: سِقاءٌ وكيع، أي: قويٌّ يحفظُ ما يوضَعُ فيه. واستَوْكَعتْ مَعدتُه، أي: قويت. وقولُه: «قُثَم» أي: جامع. يقال: رجلٌ قَثوم للخير، أي: جامعٌ له.

ومعنى «أَلَم نَشْرَحْ»: قد شَرَحْنا، الدليلُ على ذلك قولُه في النَّسق عليه: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، فهذا عطفٌ على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنَّه لو كان على التنزيل لقال: ونَضَعْ عنكَ وِزْرَكَ. فدلَّ هذا على أنَّ معنى «ألم نشرح»: قد شَرَحنا. و«لم» حَجْدٌ، وفي الاستفهام طَرَفٌ من الجحد، وإذا وقع حَجْدٌ، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] ومعناه: اللهُ أَحْكَمُ الحاكِمين، وكذا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]. ومثلُه قولُ جرير يَمْدَحُ عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خيرَ مَن ركبَ المطايا ... وأَنْدَى العالَمين بطونَ راحِ[٤]

المعنى: أنتم كذا.

---

(١) هو في السير والمغازي لابن إسحاق ص٥١ من رواية يونس بن بكير، عن أبي سنان الشيباني، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى بن جعدة قال: قال رسول الله ﷺ...، وذكره، وهو حديث مرسل.

(٢) في (د) و(ي): غدرة، ولم نقف على هذا اللفظ عند غير القرطبي، وجاء في خبر آخر: فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣.

(٣) أخرجه الدارمي (٥٣) عن عبد الرحمن بن غنم قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ فشق بطنه، ثم قال جبريل: قلب وكيع..، وذكره.

(٤) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ٤/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: حَطَطْنا عنكَ ذَنْبكَ. وقرأ أنس: «وحَلَلْنا»، «وحَطَطْنا»[١]. وقرأ ابن مسعود: «وحَلَلْنا عنكَ وِقْرَك»[٢].

وهذه الآيةُ مثلُ قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. قيل: الجميعُ كان قَبْلَ النبوَّة. والوِزْرُ: الذَّنْبُ، أي: وَضَعْنا عنكَ ما كنتَ فيه من أمر الجاهلية؛ لأنَّه كان ﷺ في كثيرٍ من مذاهب قومه، وإنْ لم يكن عبَدَ صنماً ولا وَثناً. قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبيِّ ﷺ ذنوبٌ أثْقلَتْه، فغَفَرها الله له[٣].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقلَه حتى سُمِعَ نقيضُه، أي: صوتُه. وأهلُ اللغةِ يقولون: أنْقضَ الحِملُ ظَهْرَ الناقةِ: إذا سَمِعْتَ له صريراً من شدَّة الحمل. وكذلك: سمعتُ نقيضَ الرَّحْلِ، أي: صَريرَه. قال جميل[٤]:

وحتى تَداعَتْ بالنَّقيضِ حِبَالُه ... وهَمَّتْ بَوَاني زَوْرِه أنْ تَحَطَّما

«بَواني زَوْرِه»: أي: أُصولُ صَدْرِه. فالوِزْرُ: الحملُ الثقيل.

قال المحاسِبيُّ: يعني ثِقَلَ الوِزْرِ لو لم يَعْفُ الله عنه، «الذي أنْقَضَ ظهرَكَ» أي: أثْقَلَه وأوْهَنه. قال: وإنَّما وُصِفَتْ ذنوبُ الأنبياءِ بهذا الثِّقلِ ـ مع كونها مغفورةً ـ لشدَّةِ اهتمامِهم بها، ونَدَمِهم منها، وتحسُّرِهم عليها.

وقال السُّدِّي: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، أي: وحَطَطْنا عنك ثِقْلَكَ[٥]. وهي في

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥، والنكت والعيون ٦/ ٢٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.

(٣) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٣.

(٤) كذا في النسخ، والصواب أنه لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٧/ ٣٦٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

قراءةِ عبدِ الله بن مسعود: «وحَطَطْنا عنكَ وِقْرَك». أي[١]: حَطَطْنا عنك ثقلَ آثامِ الجاهلية.

قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأَ والسَّهْوَ. وقيل: ذنوبَ أمَّتِك، أضافَها إليه لاشتغالِ قلبِه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدةَ: خفَّفْنا عنكَ أعباءَ النبوّةِ والقيام بها، حتى لا تَثْقُلَ عليك[٢].

وقيل: كان في الابتداء يَثْقلُ عليه الوحيُ، حتى كاد يرمي نفسَه من شاهقِ الجبل، إلى أن جاءه جبريلُ وأَراه نَفْسَه، وأُزيلَ عنه ما كان يخاف من تغيُّرِ العقل.

وقيل: عصمناك عن احتمالِ الوِزر، وحَفِظْناكَ قبلَ النبوَّةِ في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحيُ وأنت مُطَهَّرٌ من الأدناس[٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغَرُّ عليه للنبوّةِ خاتَمٌ ... من الله مشهودٌ يَلوحُ ويُشْهَدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِه ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشْهدُ[٤]

ورَوَى الضحاكُ عن ابن عباس قال: يقولُ له: لا ذُكِرتُ إلَّا ذُكِرتَ معي في الأذان والإقامةِ والتشهُّدِ، ويومَ الجمعةِ على المنابر، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ الأضحى، وأيامَ التَّشْريق، ويومَ عَرَفةَ، وعند الجِمارِ، وعلى الصفا والمروةِ، وفي خطبة النكاح، وفي مشارقِ الأرض ومَغارِبِها. ولو أنَّ رجلاً عَبَدَ الله جلَّ ثناؤه، وصدَّق

---

(١) قبلها في (ظ) و(م): وقيل. وتنظر قراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧ عن أبيٍّ ﷺ.

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ٥٠٢.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

(٤) ديوان حسان ص١٣٤.

بالجنةِ والنارِ وكلِّ شيء، ولم يَشْهَدْ أنَّ محمداً رسولُ الله، لم يَنْتَفِع بشيءٍ وكان كافراً[(١)].

وقيل: أي: أَعْلَيْنا ذِكْرَكَ، فذَكَرْناكَ في الكتب المنزلةِ على الأنبياء قَبْلَكَ، وأمَرناهم بالبشارة بك، ولا دِينَ إلَّا ودِينُك يَظْهَرُ عليه.

وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكةِ في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفعُ في الآخرةِ ذِكْرَكَ بما نُعْطيكَ من المقام المحمود، وكَرائمِ الدرجات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

أي: إنَّ مع الضِّيْقَةِ والشدَّةِ يُسْراً، أي: سعةً وغِنًى. ثم كَرَّر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فقال قومٌ: هذا التكريرُ تأكيدٌ للكلام، كما يقال: ارْمِ ارْمِ، اعْجَلْ اعْجَلْ؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]. ونظيره في تكرارِ الجوابِ: بلَى بلَى، لا لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفرّاء. ومنه قولُ الشاعر:

هَممتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم فأَوْلَى لنفسيَ أَوْلَى لها[(٢)]

وقال قومٌ: إنَّ من عادةِ العربِ إذا ذَكَروا اسماً معرَّفا ثم كرَّروه، فهو هو. وإذا نكَّروه ثم كَرَّروه فهو غيرُه. وهما اثنان؛ ليكونَ أقوى للأمل، وأَبْعثَ على الصَّبر؛ قاله ثعلب[(٣)].

وقال ابن عباس: يقولُ الله تعالى خلقتُ عُسراً واحداً، وخلقتُ يُسْرَيْنِ، ولن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين[(٤)].

---

(١) الوسيط ٤/٥١٦ من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٢) البيت للخنساء، وهو في ديوانها ص١٢١ ، والنكت والعيون ٦/٢٩٨ ، والكلام منه، ورواية الديوان: هممت بنفسي كلَّ الهموم...

(٣) بنحوه في النكت والعيون ٦/٢٩٨ ، والوسيط ٤/٥١٨ .

(٤) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/٢٧٥ مختصراً بلفظ: لا يغلبُ يُسْرَيْن عسرٌ واحد.

وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ في هذه السورة أنه قال: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١).

وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ، لطلبه اليُسْرُ حتى يدخلَ عليه؛ ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن(٢).

وكتب أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح إلى عمر بن الخطاب يذكُر له جموعاً من الروم، وما يتخوَّفُ منهم؛ فكتب إليه عمرُ رضي الله عنهما: أمَّا بعدُ، فإنه مهما ينزلُ بعبدٍ مؤمنٍ من مَنزلِ شِدَّةٍ، يجعلُ الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلبَ عسرٌ يسرين، وإنَّ الله تعالى يقولُ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠](٣).

وقال قومٌ منهم الجُرْجانيُّ: هذا قولٌ مدخولٌ؛ لأنَّه يجبُ على هذا التدريجِ إذا قال الرجل: إنَّ مع الفارسِ سيفاً، إنَّ مع الفارس سيفاً، أن يكون الفارسُ واحداً والسيفُ اثنان. والصحيحُ أن يقال: إنَّ الله بعث نبيَّه محمداً ﷺ مُقِلًّا مُخِفًّا، فعيَّره المشركون بفَقْرِه، حتى قالوا: نجمع لك مالاً، فاغتمَّ وظنَّ أنهم كذَّبوه لفقره؛ فعزَّاه الله، وعدَّدَ نِعمَه عليه، ووَعَدَه الغنَى بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: لا يَحْزُنكَ ما عيَّروك به من الفقر؛ فإنَّ مع ذلك العُسْرِ يسراً عاجلاً، أي: في الدنيا. فأنْجزَ له ما وَعَدَه؛ فلم يَمُتْ حتى فَتَح عليه الحجازَ واليمن، ووسَّع ذاتَ يَدِه، حتى كان يعطي الرجلَ المئتين من الإبل، ويَهَبُ الهباتِ السَّنِيَّةَ، ويُعِدُّ لأهله قوتَ سنةٍ. فهذا الفضلُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٦ عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه عمر ﷺ... وهذا أصح طرقه. اهـ. وسيأتي خبر عمر ﷺ لاحقاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠-٣٨١، والطبري ٢٤/ ٤٩٦.

(٣) الموطأ ٢/ ٤٤٦.

كلُّه في أمر الدنيا، وإنْ كان خاصًّا بالنبيِّ ﷺ، فقد يدخلُ فيه بعضُ أمَّتِه إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلاً آخَرَ من الآخرة، وفيه تأسِيةٌ وتَعْزِيةٌ له ﷺ، فقال مبتدئاً: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهو شيءٌ آخَرُ. والدليلُ على ابتدائه، تَعرِّيهِ من فاءٍ أو واوٍ وغيرهما من حروفِ النَّسقِ التي تدلُّ على العطف. فهذا وعدٌ عامٌّ لجميع المؤمنين، لا يخرجُ أحدٌ منه، أي: إنَّ مع العُسْرِ في الدنيا للمؤمنين يُسْراً في الآخرة لا مَحالةَ. وربَّما اجتمع يُسْرُ الدنيا ويُسْرُ الآخرة. والذي في الخبر: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنَّما يغلبُ أحدَهما إنْ غلبَ، وهو يُسْرُ الدنيا، فأمَّا يُسْرُ الآخرةِ فكائنٌ لا مَحالةَ، ولن يَغْلِبَه شيء[(١)].

ويقال: «إنَّ مع العسر» وهو إخراجُ أهلِ مكةَ النبيَّ ﷺ من مكةَ، «يسراً» وهو دخولُه يومَ فَتْحِ مكةَ مع عشرةِ آلاف رجلٍ، مع عِزٍّ وشَرَف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادةُ: فإذا فَرَغْتَ من صلاتك ﴿فَٱنصَبْ﴾ أي: بالِغْ في الدعاء وسَلْه حاجتك[(٢)].

وقال ابن مسعود: إذا فَرغْتَ من الفرائض فانصَبْ في قيام الليل[(٣)].

وقال الكلبيُّ: إذا فَرغْتَ من تبليغ الرسالةِ «فانصَبْ» أي: استَغْفِرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات[(٤)].

وقال الحسن وقتادةُ أيضاً: إذا فَرغْتَ من جهادِ عدوِّكَ، فانْصَبْ لعبادةِ رِّبك[(٥)].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٥١٩ ، والبغوي ٤/ ٥٠٣ بنحوه عن كتاب النظم للجرجاني.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٤٩٧-٤٩٨ . وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٨ ، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٣ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٩ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٩٨ عن الحسن وابن زيد. قال ابن عطية في =

وعن مجاهد: «فإذا فَرغْتَ» من دنياك، «فانْصَبْ» في صلاتك[١]. ونحوه عن الجنيد[٢]؛ قال الجنيد: إذا فَرغْتَ من أمرِ الخَلْقِ، فاجتَهِدْ في عبادة الحقِّ.

قال ابن العربيّ[٣]: ومن المُبتدعةِ مَن قرأ هذه الآيَةَ: «فانْصِبْ» بكَسْرِ الصَّاد والهمز من أوَّله[٤]، وقالوا: معناه: انْصِبِ الإمامَ الذي تستخلفُه. وهذا باطلٌ في القراءة، باطلٌ في المعنى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسْتَخْلِفْ أحداً. وقرأها بعضُ الجُهَّالِ: «فانْصَبَّ» بتشديدِ الباءِ، معناه: إذا فَرغْتَ من الجهاد، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك. وهذا باطلٌ أيضاً قراءةً؛ لمخالفةِ الإجماعِ، لكنَّ معناه صحيحٌ؛ لقوله ﷺ: «السَّفَرُ قطعةٌ من العذاب، يَمنعُ أحدَكم نومَه وطعامَه وشرابَه، فإذا قضَى أحدُكم نَهْمَتَه، فَلْيُعجِّلِ الرُّجوعَ إلى أهْلِه»[٥]. وأشدُّ الناسِ عذاباً وأسوأهم مَبَاءً ومآباً، مَن أخذَ معنًى صحيحاً، فركَّب عليه مِن قِبَلِ نَفْسِه قراءةً أو حديثاً، فيكون كاذباً على الله، كاذباً على رسوله، ومَن أَظْلَمُ ممَّن افترى على الله كذباً.

قال المَهْدَوِيُّ: ورُوي عن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: «ألم نشرحَ لك صدرك» بفتحِ الحاء[٦]، وهو بعيدٌ، وقد يؤوَّلُ على تقدير النونِ الخفيفة، ثم أُبْدِلَتْ النونُ ألفاً في الوَقْفِ، ثم حُمِلَ الوصلُ على الوقف، ثم حذفَ الألف، وأنشد عليه:

اضْربَ عنك الهمومَ طارِقَها   ضَرْبَكَ بالسَّوط قَوْنَسَ الفَرسِ[٧]

= المحرر الوجيز ٥/٢٩٧ : ويعترض هذا التأويل بأن الجهاد فرض في المدينة.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٤٦)، والطبري ٢٤/٤٩٩ .

(٢) في (م): الحسن.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٩٣٧-١٩٣٨ .

(٤) يعني همزة الوصل، والقراءة ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٩٨ ، والزمخشري في الكشاف ٤/٢٦٧ ، وأبو حيان في البحر ٨/٤٨٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٢٥)، والبخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/٣٦٦ .

(٧) النوادر في اللغة ص١٣ ، والمحتسب ٢/٣٦٦ ، وأساس البلاغة (قنس). قال ابن جني: ويقال: إنه مصنوع. ا هـ. وقونس الفرس: ما بين الأذنين. أساس البلاغة (قنس).

أراد: اضِربَنْ. ورُوي عن أبي السَّمَّالِ: «فإذا فَرِغْتَ» بكَسْرِ الراء[١]، وهي لغةٌ فيه. وقرئ: «فرغِّب»[٢] أي: فرغِّب الناسَ إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربيّ[٣]: روي عن شُريح أنه مرَّ بقومٍ يلعبون يومَ عِيدٍ، فقال: ما بهذا أُمِر الفارغُ[٤]. وفيه نَظَرٌ، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدَّرَقِ والحِرَابِ في المسجد يومَ العيد، والنبيُّ ﷺ ينظُرُ. ودخل أبو بكر في بيتِ رسولِ الله ﷺ على عائشةَ رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصارِ تغنِّيانِ، فقال أبو بكر: أبمزمورِ الشيطانِ في بيتِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: «دَعْهُما يا أبا بكر، فإنه يومُ عيدٍ»[٥]. وليس يلزمُ الدُّؤوبُ على العمل، بل هو مكروهٌ للخَلْق.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٢) يعني: «وإلى ربك فرغِّب»، وهي في القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٨ .

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد لأحمد ص٢٦٢ ، وبنحوه أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦ ، وهناد في الزهد (٦٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٣٤ . ووقع في (م) ومطبوع أحكام القرآن: الشارع، بدل: الفارغ، والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه مع قصة لعب الحبشة بالدرق أحمد (٢٤٥٤١)، والبخاري (٩٤٩) و(٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

سُورَةُ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾

مكيَّةٌ، وآيُها ثمانٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: ألم نفسِّحْهُ حتى وَسِعَ مُناجاةَ الحقِّ ودعوةَ الخلقِ، فكان غائبًا حاضرًا، أو: ألم نُفسِّحْهُ بما أودَعْنا فيه مِن الحِكَمِ وأَزَلْنَا عنه ضيقَ الجَهلِ، أو: بما يسَّرْنا لك تلقِّيَ الوحيِ بعدَما كان يَشُقُّ عليك.

وقيل: إنَّه إشارةٌ إلى ما رُوِيَ أنَّ جبريلَ أتى رسولَ اللهِ ﷺ في صِباهُ ـ أو يومَ الميثاق ـ فاستخرجَ قلبَهُ فغسَلَهُ ثمَّ مَلَأَهُ إيمانًا وعِلْمًا[1].

ولعلَّهُ إشارةٌ إلى نحوِ ما سبقَ، ومَعْنى الاستفهامِ: إنكارُ نفيِ الانشراحِ مُبالغَةً في إثباتِه ولذلك عُطِفَ عليه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[2]: عِبئَكَ الثَّقيلَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: الذي حملَهُ على النَّقيضِ، وهو صوتُ الرَّحْلِ عند الانتقاضِ مِن ثقلِ الحِمْلِ،

---

(١) روى القصة مسلم (١٦٢/ ٢٦١) عن أنس رضي الله عنه، وفيه أن الحادثة وقعت وهو غلام. وروي ذلك أيضاً في قصة الإسراء رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، عن أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما، ورواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) عن أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، والعلماء على أن حادثة شق الصدر قد تكررت. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٢٠٥).

(٢) أي: استُفهِمَ عن انتِفاء الشَّرْح على وَجْهِ الإنْكارِ فَأفادَ إثْباتَ الشَّرْح وإيجَابَهُ؛ فكأنَّه قيل: شرَحْنَا لكَ صَدْرَك، ولِذلك عُطِف عَلَيْه: ﴿وضَعْنَا﴾ اعتِباراً للمَعْنَى. انظر: «الكشاف» (٩/ ٦٢١).

وهو: ما ثَقُلَ عليه مِن فَرَطاتِه قبلَ البِعثَةِ، أو جهلُه[١] بالحِكَمِ والأحكامِ، أو حيرتُهُ، أو تلقِّي الوحيِ، أو ما كان يَرَى مِن ضَلالِ قَومِهِ معَ العَجزِ عَن إرشادِهِم، أو مِن إصرارِهِم وتَعدِّيهِم[٢] في إيذائِه حينَ دَعاهُم إلى الإيمانِ.

(٤) ـ ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ بالنبـوَّةِ وغيرِهـا، وأيُّ رفـعٍ مثـلُ أَنْ قَرنَ اسـمَهُ باسـمِهِ تعالـى فـي كَلِمَتي الشَّـهادةِ، وجعـلَ طاعتَهُ طاعتَهُ، وصلَّـى عليه فـي مَلائكتِه، وأمَرَ المُؤمنيـنَ بالصَّـلاةِ، وخاطبَهُ بالألقـابِ، وإنَّما زادَ ﴿لَكَ﴾ ليكـونَ إبهامًا قبلَ إيضاحٍ فيفيـدَ مُبالغَةً.

(٥) ـ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ﴾ كضيقِ الصَّدرِ، والوزرِ المُنْقِضِ للظَّهرِ، وضلالِ القَوْمِ وإيذائِهِم ﴿يُسۡرًا﴾ كالشَّرحِ والوَضعِ، والتَّوفيقِ للاهتداءِ والطَّاعةِ، فلا تَيْأَسْ مِن رَوْحِ اللهِ إذا عراكَ ما يغمُّكَ، وتنكيرُهُ للتَّعظيمِ، والمَعنِيُّ بما في (إنَّ مع) مِن المصاحبَةِ: المبالغةُ في مُعاقبَةِ اليُسْرِ للعُسْرِ، واتِّصالِه به اتِّصالَ المتقارنَيْنِ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ تكريـرٌ للتَّأكيـدِ، أو اسـتئنافٌ وعِدَةٌ بأنَّ العُسْـرَ مَشـفوعٌ بيُسـرٍ آخرَ كثـوابِ الآخرةِ، كقولـك: «إنَّ للصَّائمِ فرحَـةً إنَّ للصَّائمِ فرحَـةً»؛ أي[٣]: فرحـةً عنـدَ الإفطـارِ وفرحَـةً عنـدَ لقاءِ الـرَّبِّ، وعليـهِ قولُه عليـهِ الصَّلاةُ والسَّـلامُ: «لـن يغلـبَ عسـرٌ يُسْـرَيْنِ»[٤]، فإنَّ العُسْـرَ مُعـرَّفٌ فـلا يتعـدَّدُ سـواءٌ كانَ للعَهدِ أو

---

(١) قوله: «أو جهله» مع تالياته عطفٌ على «ما ثقل عليه». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥١٦).

(٢) في نسخة الفاروقي: «وإفراطهم».

(٣) في نسخة الخيالي: «كقولك: إن للصائم فرحتين».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٦٤٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٥٠)، عن الحسن البصري عن النبي ﷺ مرسلاً. قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٦): «وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف». =

للجنسِ، واليُسْـرَ مُنكَّـرٌ، فيحتمِـلُ أنْ يـرادَ بالثَّانـي فـردٌ يُغايِرُ ما أريـدَ بالأوَّلِ.

(٧) ـ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ مِن التَّبليغِ ﴿فَٱنصَبْ﴾: فاتعَبْ في العِبادَةِ شُكْرًا لِمَا عدَدْنا عليكَ مِن النِّعَمِ السَّالِفَةِ ووَعَدْنا بالنِّعَمِ الآتيةِ.

وقيل: فإذا فرغتَ مِن الغَزوِ فانصَبْ في العِبادَةِ.

أو: فإذا فرغتَ مِن الصَّلاةِ فانصَبْ بالدُّعاءِ.

(٨) ـ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ بالسُّؤالِ، ولا تسأَلْ غيرَهُ فإنَّهُ القادِرُ وحدَهُ على إسعافِه.

وقُرِئَ: (فرَغِّبْ)[١]؛ أي: رَغِّب النَّاسَ إلى طلبِ ثَوابِه.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ فكأنَّما جاءَني وأنا مُغْتَمٌّ ففرَّجَ عنِّي»[٢].

***

= ورواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٤٦)، وابن المبارك في «الجهاد» (٢١٧)، وابن ابي شيبة في «المصنف» (١٩٤٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٧٦)، من قول عمر رضي الله عنه.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٦) عن بعضِهم.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٥٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥١٥)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٤) سورة الشرح مكية
وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

يقول تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني قد شرحنا لك صدرك أي نورناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً سمحاً سهلاً ، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق ، وقيل: المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ شرح صدره ليلة الإسراء، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الاسراء ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الحسي الشرح المعنوي أيضاً، وقوله تعالى : ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ بمعنى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ الإنقاض الصوت أي أثقلك حمله، وقوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال مجاهد: لا اذكر إلا ذكرت معي «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، روى ابن جرير عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[1]. وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان، يعني ذكره فيه ، كما قال حسان بن ثابت :

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته، فلا يذكر الله إلا ذكر معه .

---

(١) رواه ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسراً ۝ إن مع العسر يسراً ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر، بقوله ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾، قال الحسن: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين، وعن قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشّر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عسر يسرين»[1]، ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر، فتعدّد، ولهذا قال: «لن يغلب عسر يسرين» يعني قوله: ﴿ فإن مع العسر يسراً ۝ إن مع العسر يسراً ﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدّد، ومما يروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا		من راقب الله في الأمور نجا
من صدّق الله لم ينله أذى		ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال الشاعر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى		ذرعاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها		فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقوله تعالى: ﴿ فإذا فرغت فانصب ۝ وإلى ربك فارغب ﴾ أي إذا فرغت من أُمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة، قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك. وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وفي رواية عنه ﴿ فانصب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال ابن عباس ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ يعني في الدعاء، وقال الضحّاك ﴿ فإذا فرغت ﴾ أي من الجهاد ﴿ فانصب ﴾ أي في العبادة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عزّ وجلّ.

[آخر تفسير سورة ألم نشرح . ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) رواه ابن جرير

تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني : أما شرحنا لك صدرك ، أي : نورناه وجعلناه فَسيحاً رحيباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعاً سمحاً سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة (١) ، وقد أورده الترمذي هاهنا . وهذا وإن كان واقعاً ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً ، والله أعلم .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني محمد بن عبد الرحيم (٢) أبو يحيى البزاز(٣) ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي بن كعب ، حدثني أبي محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة كان جريّـاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : « لقد سألتَ يا أبا هريرة ، إني لفي الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال:نعم] (٤) فاستقبلاني بوجوه لم أرها [لخلق] (٥) قط ،وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدي ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعاني بلا قَصْر ولا هَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ،فقال له : أخرج الغِلّ والحَسَد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) في أ : « محمد بن عبد الرحمن » .

(٣) في م ، أ : « البزار » .

(٤، ٥) زيادة من المسند .

إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم. فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير » [١] .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ : الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلك حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ :قال مجاهد: لا أُذكرُ إلا ذُكِرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه فى الدنيا والآخرة ،فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، عن دَراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتانى جبريل فقال : إنّ ربى وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم . قال : إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معى » ، وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لَهيعة ، عن درَّاج[٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا أبو عُمر الحَوضى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربى مسألة وَدَدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح [٣] ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قال : قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح[٤] لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » [٥] .

وقال أبو نعيم فى « دلائل النبوة » : حدثنا أبو أحمد الغطريفى ، حدثنا موسى بن سهل الجَوْنى، حدثنا أحمد بن القاسم بن بَهْرام الهيتى ، حدثنا نصر بن حماد ،عن عثمان بن عطاء ، عن الزهرى ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما فرغت مما أمرنى الله به من أمر السموات والأرض قلت : يا رب ، إنه لم يكن نبى قبلى إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لى ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أنى لا أذكر إلا ذُكْرتَ معى ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ،ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشى : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [٦] .

---

(١) زوائد المسند (٥/ ١٣٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٥١) .

(٣) فى أ : « البحر » . (٤) فى أ : « ألم نشرح » .

(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٢٦) من طريق أحمد بن سلمة ، عن عبد الله بن الجراح ، عن حماد بن زيد به ، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٦) وذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٦/ ٢٨٨) ثم قال : « وهذا إسناد فيه غرابة ، ولكن أورد له شاهداً من طريق أبى القاسم بن منيع البغوى ، عن سليمان بن داود المهرانى ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه ».

وحكى البغوى ، عن ابن عباس ومجاهد : أن المراد بذلك : الأذان . يعنى :ذكره فيه ، وأورد من شعر حسان بن ثابت :

أغَرّ ، عَلَيه للنبوة خاتَم مِنَ الله من نُور يَلوحُ وَيشْهَد
وَضمَّ الإلهُ اسم النبى إلى اسمه إذا قَالَ فى الخَمْس المؤذنُ : أشهدُ
وَشَقّ لَهُ مِن اسمه ليُجلَّه فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ[(١)]

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ،ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أممهم [(٢)] بالإيمان به ، ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وما أحسن ما قال الصرصرى ، رحمه الله :

لا يَصِحُّ الأذانُ فى الفَرْضِ إلا باسمِهِ العَذْب فى الفم المرْضى

وقال أيضاً :

[ألَم تَر أنَّا لاَ يَصحُّ أذانُنَا وَلا فَرْضُنا إنْ لم نُكَرره فيهما] [(٣)]

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا حُميد بن حماد بن خَوَار أبو الجهم ، حدثنا عائذ بن شُريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى ﷺ جالساً [(٤)] وحياله حجر ، فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَإِن [(٥)] مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [(٦)] .

ورواه أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مَعْمَر ، عن حُميد بن حماد ،به ولفظه : « لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه » ثم قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح [(٧)] .

قلت : وقد قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة، عن رجل ، عن عبد الله بن مسعود موقوفا .

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٤٦٤) .

(٢) فى أ : « أمتهم » . (٣) زيادة من م ، أ . (٤) فى أ : « جالسٌ » وهو خطأ .

(٥) كذا فى م ، أ ، هـ : « إن » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٥٥) من طريق محمود بن غيلان به ، وقال الحاكم : « هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » . وقال الذهبى : « تفرد حميد بن حماد ،عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٨٨) « كشف الأستار » ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤١٦) من طريق محمد بن معمر به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو قَطَن[١]، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن [٢] ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن قال : خرج النبى ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ، وهو يقول : « لن يَغْلِب عُسْر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن [٣] مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

وكذا رواه من حديث عوف الأعرابى ويونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلا [٤] .

وقال سعيد ، عن قتادة : ذُكِرَ لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومعنى هذا : أن العسر معرف فى الحالين ، فهو مفرد ،واليسر منكر فتعدد ؛ ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين» ، يعنى قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، فالعسر الأول عين[٥] الثانى ، واليسر تعدد .

وقال الحسن بن سفيان : حدثنا يزيد بن صالح ،حدثنا خارجة ،عن عباد بن كثير ، عن أبى الزناد ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « نزل [٦] المعونة من السماء على قدر المؤونة ،ونزل الصبر على قدر المصيبة » [٧] .

ومما يروى عن الشافعى ،رضى الله عنه ، أنه قال :

صَبرا جَميلا ما أقرَبَ الفَرجا ... مَن رَاقَب الله فى الأُمور نَجَا
مَن صَدَق الله لَم يَنَلْه أذَى ... وَمَن رَجَاه يكون حَيثُ رَجَا

وقال ابن دُرَيد : أنشدنى أبو حاتم السجستانى :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ ... وضاق لما به الصدر الرحيبُ
وأوطأت المكاره واطمأنت ... وأرست فى أماكنها الخطوبُ
ولم تر لانكشاف الضر وجها ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ

(١) فى أ : « مطر » . (٢) فى أ : « حدثنا أبو » .
(٣) كذا فى م ، أ ، هـ : « إن » وهو خطأ . من ابن جرير (٣٠/ ١٥١) .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٥١) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣٠٩) عن معمر ، عن الحسن به مرسلاً ، وقد جاء موقوفاً على ابن مسعود ، رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣٠٩) من طريق ميمون عن إبراهيم النخعى عنه ، وجاء مرفوعاً عن جابر، رواه ابن مردويه فى تفسيره ، وقال الحافظ ابن حجر: « إسناده ضعيف ».
(٥) فى م : « هو » .
(٦) فى أ : « نزلت » .
(٧) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٠٦) « كشف الأستار » وابن عدى فى الكامل (٤/ ١١٥) من طريق عبد العزيز الدراوردى عن طارق وعباد بن كثير ، عن أبى الزناد به . وقال البزار : « لا نعلمه عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد » . وقال ابن عدى : « وطارق بن عمار يعرف بهذا الحديث » . والحديث معلول . انظر : العلل لابن أبى حاتم (٢/ ١٢٦،١٣٣) والكامل لابن عدى (٦/ ٢٣٨،٢/ ٤٠٢،٢/ ٣٧،٤/ ١١٥) .

أتاك على قُنوط منك غَوثُ يمن به اللطيف المستجيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

وَلَرُب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا ،وعند الله منها المخرج
كملت ، فلما استحكمت حلقاتها فرجت ، وكان يظنها لا تفرج

وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فَرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : « لا صلاة بحضرة طعام ،ولا وهو يدافعه الأخبثان » [١]. وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعَشَاء » [٢] .

قال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة ، فانصب لربك ،وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك ،وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى : فى الدعاء .

وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ أى: فى العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ : قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

آخر تفسير سورة « ألم نشرح » ولله الحمد

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٦٠) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٦٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

سورة أَلَمْ نَشْرَحْ

مكّيّة، وهي ثمان آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾

/ ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ لمّا كان الصدر محلًّا لأحوال النفس ومخزنًا لسرائرها مِن العلوم والإدراكات والمَلَكات والإرادات وغيرها عُبّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرّفاتها بتأييدها بالقوّة القدسيّة وتحليتها بالكمالات الأنسيّة، أي: ألم نفسحه حتّى حوى عالمَي الغيب والشهادة وجَمَع بين ملكتَي الاستفادة والإفادة، فما صدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانيّة عن اقتباس أنوار المَلَكات الروحانيّة وما عاقك التعلُّقُ بمصالح الخَلْق عن الاستغراق في شئون الحقّ. وقيل: أريدَ به ما رُوي أنّ جبريلَ[1] أتى رسول الله صلّى الله عليهما وسلّم في صباه أو يوم المِيثاق فاستخرج قلبه فغسله ثمّ ملأه إيمانًا وعِلمًا.[2] [٣٠٥ظ]

ولعلّه تمثيلٌ لِما ذُكر، أو أنموذج جسماني ممّا سيظهر له عليه السلام مِن الكمال الروحاني. والتعبيرُ عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاري عن انتفائه للإيذان بأنّ ثبوته مِن الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير "بلى".

وزيادة الجارّ والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الشرح مِن منافعه عليه السلام ومصالحه مسارعةً إلى إدخال المَسرّة في قلبه عليه السلام وتشويقًا له إلى ما يعقبه ليتمكّن عنده وقتَ وروده فضلَ تمكّن.

---

١ س + عليه السلام.

٢ الحديث بمعناه في مسند أحمد، ٤٥٥/٢١ (١٤٠٦٩)؛ وصحيح مسلم، ١٤٧/١ (٢٦١)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ عطفٌ على ما أشيرَ إليه مِن مدلول الجملة السابقة كأنّه قيل: قد شرحنا صدرك ووضعنا... إلخ، و﴿عَنكَ﴾ متعلِّق بـ﴿وَضَعْنَا﴾، وتقديمُه على المفعول الصريح مع أنّ حقّه التأخّر عنه لِما مرّ آنفًا مِن القصد إلى تعجيل المَسرّة والتشويق إلى المؤخَّر، ولِما أنّ في وصفه نوعَ طولٍ، فتأخيرُ الجارّ والمجرور عنه مخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم، أي: حططنا عنك عِبأك الثقيل.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: حَمَلَه على النقيض وهو صوت الانقضاض والانفكاك، كما يُسمع مِن الرحل المتداعي إلى الانتقاض مِن ثِقَل الحِمْل، مُثِّل به حالُه عليه السلام ممّا كان يثقل عليه ويغمّه مِن فرطاته قبل النبوّة، أو مِن عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، أو مِن تهالكه على إسلام المعانِدين مِن قومه وتلهُّفه، ووضعُه عنه مغفرتَه وتعليمَ الشرائع وتمهيدَ عذرِه بعد أن بلّغ / وبالغَ. [٣٠٦و]

وقُرئ: "وَحَطَطْنَا"[١] و"حَلَلْنَا"[٢] مكان ﴿وَضَعْنَا﴾، وقُرئ: "وَحَلَلْنَا عَنْكَ وِقْرَكَ".[٣]

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بعنوان النبوّة وأحكامها أيّ رفع، حيث قُرن اسمه باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة، وجُعل طاعتُه طاعتَه تعالى، وصلّى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وسُمّي رسولَ الله ونبيَّ الله. والكلام في العطف وزيادة ﴿لَكَ﴾ كالذي سلف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تقرير لِما قبله ووعدٌ كريم بتيسير كلّ عسير له عليه السلام وللمؤمنين، كأنّه قيل: خوّلناك ما خوّلناك مِن جلائل النِّعَم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه، فإنّ مع العسر يسرًا كثيرًا. وفي كلمة ﴿مَعَ﴾ إشعارٌ بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنّه مقارن للعسر.

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكرير للتأكيد، أو عِدَة مستأنَفة بأنّ العسر مشفوع بيسر آخرَ كثواب الآخرة، كقولك: "إنّ للصائم فرحةً إنّ للصائم فرحةً"، أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

فرحةٌ عند الإفطار وفرحةٌ عند لقاء الربّ، وعليه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لن يغلب عسرٌ يسرين»،[١] فإنّ المعرّف إذا أعيدَ يكون الثاني عينَ الأوّل سواء كان معهودًا أو جنسًا، وأمّا المنكّر فيحتمل أن يراد بالثاني فردٌ مغاير لِما أريدَ بالأوّل.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: مِن التبليغ. وقيل: مِن الغَزْو[٢] ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاجتهد في العبادة واتعب شكرًا لِما أوليناك مِن النِّعَم السالفة ووعدناك مِن الآلاء الآنفة. وقيل: فإذا فرغت مِن صلاتك فاجتهد في الدعاء.[٣] وقيل: إذا فرغت مِن دنياك فانصَب في صلاتك.[٤]

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحدَه ﴿فَٱرْغَب﴾ بالسؤال، ولا تسأل غيره، فإنّه القادر على إسعافه لا غيره. وقُرئ: "فَرَغِّبْ"،[٥] أي: فرغِّب الناس إلى طَلَب ما عنده.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، فكأنّما جاءني وأنا مغتمّ ففرج عنّي».[٦]

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٩٥/٢٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٧٥/٢ (٣٩٤٩)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٥٩/١٢ (٩٥٣٨)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨.

٢ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٩٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٩٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٤ مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٤٩٩/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٤/٢٩ (الضحى، ١/٩٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥١٥/٤ (الضحى، ١/٩٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٤

سورة ألم نشرح

مكية، ثمانُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿أَلَم نَشرَحْ﴾ ـ استفهامُ تقرير ـ أي: شَرَحنا ﴿لَكَ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿صَدرَكَ﴾ بالنبوّة وغيرها، ٢ ـ ٣ ـ ﴿ووَضَعْنا﴾: حَطَطنا ﴿عنكَ وِزرَكَ، الَّذِي أنقَضَ﴾: أثقل ﴿ظَهرَكَ﴾ ـ وهذا كقوله تعالى: «لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ» ـ ٤ ـ ﴿ورَفَعْنا لَكَ ذِكرَكَ﴾ بأن تُذكَر مع ذكري في الأذان والإقامة والتشهّد والخُطبة وغيرها؟

٥ ـ ﴿فإنَّ مَعَ العُسْرِ﴾: الشِّدّةِ ﴿يُسْرًا﴾:..

سورةُ الانشراحِ

قولُهُ: (استِفهَامُ تَقريرٍ) تحقيقُهُ: أنَّ الاستفهامَ لإنكارِ نفيِ الانشِراحِ مُبالغَةٌ في إثباتِه.

قولُهُ: (أي: شَرَحْنَا) يعني: فَسَحْنا حتى وسعَ مُناجاةَ الحقِّ ومُناداةَ الخَلقِ، فكانَ غائباً حاضِراً[١]، وبائناً كائِناً، وعَرشيًّا فَرشيًّا.

قولُهُ: (أثقَلَ) قال القاضِي: هـو ما ثَقُلَ عليهِ من فَرطاتِهِ قبلَ البعثةِ، أو ما كان يَرى من ضلالِ قومِهِ مع العجزِ عن إرشادِهِم.

قولُهُ: (وغَيرِهَا) وأيُّ رَفعٍ مثلُ أن قُرِنَ اسمُهُ باسمِه في كلمَتي الشَّهادةِ، وجعلَ طاعتَهُ طاعَتَه، قالَ القاضِي[٢]: وإنَّما زادَ ﴿لكَ﴾ ليكونَ إبهاماً قبلَ إيضاحٍ؛ فيفيدَ مُبالغَةً، قلت: والأظهَرُ أنَّ اللَّامَ للاختِصاصِ.

قولُهُ: (الشِّدَّة) كضيقِ الصَّدرِ، والوِزرُ: المنقِضُ للظَّهر.

---

(١) جاء في «حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي» (٨/ ٣٧٢): فلجمعه ﷺ بين كمال الأمرين كان حاضراً مع الناس بجسده الشريف غائباً عنهم بروحه، وحاضراً عن الحق في مقام مناجاته غائباً عنه بحسب الظاهر لمن يدعوه.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٢١).

سُهولَةً، ٦ ـ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. والنبيّ ﷺ قاسَى من الكُفّار شِدّة ثمّ حصل له اليُسر بنصره عليهم. ٧ ـ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الصلاة ﴿فَانصَبْ﴾: اتعبْ في الدُّعاء، ٨ ـ ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: تضرّعْ.

قولُهُ: (سُهُولَةً)كالشَّرحِ والوَضعِ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

قولُهُ: (ثمَّ حَصَلَ) فالتَّكريرُ للتَّأكيدِ، أو استئنافٌ، وعدَهُ بأنَّ العُسرَ مشفوعٌ بيُسرٍ آخرَ كثوابِ الآخرَةِ، وعليهِ قولُهُ ﷺ: «لَن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ»[1]، فإنَّ المعرفَةَ إذا أُعيدَت تكونُ عينَ الأولى بخلافِ النَّكرَةِ.

قولُهُ: (منَ الصَّلاةِ) أو التَّبليغِ.

قولُهُ: (في الدُّعَاءِ) أو في العِبادَةِ.

قولُهُ: (تَضَرَّع) بالسُّؤالِ، ولا تَسأل غيرَهُ، فإنَّهُ القادِرُ وحدَهُ على إسعافِهِ، والله أعلمُ.

* * *

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٦٤٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٥٠)، والواحدي في «الوسيط» (١٣٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤١) عن الحسن مرسلاً.

سورة ألم نشرح

وتُسمَّى سورة الشرح، وهي كما روي عن ابن الزبير وعائشة مكِّيَّةٌ، وأخرج ذلك ابنُ الضريس والنحَّاس والبيهقيُّ وابن مردويه عن ابن عباس[1]، وفي روايةٍ عنه زيادة: نزلت بعد الضحى.

وزعم البقاعيُّ أنَّها عنده مدنيَّة[2].

وفي حديثٍ طويل أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما هو ظاهرٌ في أنَّ قوله تعالى فيها: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ نزل بالمدينة، لكن في صحَّة الحديث توقُّفٌ.

وآيها ثمان بالاتفاق، وهي شديدةُ الاتِّصال بسورة الضحى، حتى إنَّه روي عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان: هما سورةٌ واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعلى ذلك الشيعة، كما حكاه الطبرسيُّ منهم[3].

قال الإمام: والذي دعا إلى ذلك هو أنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ كالعطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦] وليس كذلك؛ لأنَّ الأوَّل كان عند اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفرة، وكانت الحالةُ حال محنةٍ وضيقِ صدر، والثاني يقتضي أن يكون حالَ النزول منشرحَ الصدر طيِّبَ القلب، فأنَّى يجتمعان[4]؟!

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٣، وهو في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٤.

(٢) نظم الدرر ٢٢/ ١١٦.

(٣) مجمع البيان ٣٠/ ١٧١.

(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢.

وفيه نظر، والحقُّ أنَّ مدارَ مِثْلِ ذلك الروايةُ لا الدرايةُ، والمتواتر كونهما سورتين، والفصلُ بينهما بالبسملة، نعم هما متصلتان معنًى جدًّا، ويدلُّ عليه ما في حديث الإسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم أنَّ الله تعالى قال له عليه الصلاة والسلام: يا محمد ألم أجدكَ يتيماً فآويت، وضالًّا فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرَك، وحططتُ عنكَ وزركَ، ورفعتُ لك ذكرك، فلا أُذكرُ إلَّا ذكرتَ معي. الحديث[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ الشرحُ في الأصل: الفسح والتوسعة، وشاع استعماله في الإيضاح، ومنه شَرَحَ الكتاب: إذا أوضحَه؛ لما أنَّ فسح الشيء وبسطَه مستلزمٌ لإظهار باطنه وما خفيَ منه، وكذا شاعَ في سرور النفس، حتى لو قيل: إنَّه حقيقةٌ عرفيَّةٌ فيه لم يبعد، وذلك إذا تعلَّق بالقلب، كأنْ قيل: شَرَحَ قلبه بكذا، أي: سرَّه به؛ لما أنَّ القلبَ كالمنزلِ للنفس، ويلزمُ عادةً مِن فَسْحِ المنزل وتوسعتِه سرورُ النازل فيه، وكذا إذا تعلَّق بالصدر الذي هو محلُّ القلب، وربما يؤذِن ذلك بسعَة القلب؛ لما أنَّ العادة كالمطَّردة في أنَّ توسعةَ ما حوالي المنزل إنَّما تكون إذا كان المنزلُ واسعاً، فيوسَّع ما حواليه لتحصيل زيادة بهجةٍ ونحوها فيه، فينتقل منه إلى سرورِ النفس بالواسطة، وقد يراد به إذا تعلَّق بالقلب أو الصدر أيضاً تكثيرُ ما فيه من المعلومات، فقيل: يتخيَّل أنَّها تحتاجُ إلى فضاءٍ تكون فيه، وأنَّ ذلك محلٌّ لها، فمتى كانت كثيرةً اقتضت أنْ يكون محلُّها واسعاً ليسعها، وقد يراد به تكثيرُ ما في النفس من ذلك، فقيل أيضاً بتخيل أنَّ تكثير معلوماتها يستدعي توسيعَها، وتوسيعُها يستدعي توسيعَ ذلك لتنزيله منزلة محلِّها، وقد يراد به تأييد النفس بقوَّةٍ قدسيَّةٍ وأنوارٍ إلهيَّةٍ، بحيثُ تكون ميداناً لمواكب المعلومات، وسماءً لكواكب الملَكَات، وعرشاً لأنواع التجلِّيات، وفَرْشاً لسوائم الواردات، فلا يشغلُه شأنٌ عن شأن، ويستوي لديه يكون وكائن وكان.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٤.

ووجه نسبته إلى الصدر على نحو ما مرّ، وإرادةُ القلب من الصدر والنفسِ من القلب بعلاقة المحلِّية ونحوِها[١]، مِمَّا لا تميلُ إليه النفس. وإرادةُ كلٍّ مِمَّا ذكر بقرينة المقام، والأنسبُ بمقام الامتنان هنا إرادةُ هذا المعنى الأخير، وجُوِّزَ غيرُه، فالمعنى: ألم نفسح صدرك حتى حوى عالمي الغيب والشهادة، وجَمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فما صدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانيَّة عن اقتباس أنوار الملَكَات الروحانيَّة، وما عاقكَ التعلُّق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحقّ.

وقيل: المعنى: ألم نُزِل همَّكَ وغمَّك بإطلاعك على حقائق الأمور وحقارة الدنيا، فهان عليك احتمالُ المكاره في الدعاء إلى الله تعالى.

ونقل عن الجمهور أنَّ المعنى: ألم نفسحه بالحكمة، ونوسِّعه بتيسيرنا لك تلقِّيَ ما يُوْحَى إليك بعدما كان يشقُّ عليك.

وعن ابن عباس وجماعة أنَّه إشارةٌ إلى شقِّ صدره الشريف في صباه عليه الصلاة والسلام، وقد وقع هذا الشقُّ ـ على ما في بعض الأخبار ـ وهو عند مرضعته حليمة، فقد روي عنها أنَّها قالت في شأنه عليه الصلاة والسلام: لم نزل نتعرَّفُ من الله تعالى الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه، وفصلتُه، فكان يشِبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً، فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيءٍ على بقائه عندنا لِمَا نرى من بركته، فقلنا لأمِّه: لو تركتيه عندنا حتى يَغْلُظَ، فإنَّا نخشى عليه وباءَ مكَّة، فلم نزل بها حتى ردَّته معنا، فرجعنا به، فوالله إنَّه لبعد مقدمنا به بشهرٍ أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفي بَهْم لنا خلفَ بيوتنا، جاء أخوه يشتدُّ فقال: ذاك أخي القرشيُّ، قد جاءه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاه وشقَّا بطنَه. فخرجتُ أنا وأبوه نشتدُّ نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنُك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاني فشقَّا بطني، ثم استخرَجا منه شيئاً فطرحاه، ثم ردَّاه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أصيبَ، فانطلقي فردِّيه

(١) وقع فوقها في الأصل: عطف على المحلية. منه.

إلى أهله قبل أنْ يظهر به ما نتخوَّفه. قالت: فاحتملناه إلى أمِّه، فقالت: ما ردَّكُما به، فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا: نخشى الاختلاف والأحداث. فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شأنكما. فلم تَدَعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، لا والله، ما للشيطان عليه سبيل، وإنَّه لكائنٌ لابْنِي هذا شأن، فدعاه عندكما.

وفي حديث لأبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر ما يدلُّ على تكرُّر وقوع ذلك له عليه الصلاة والسلام وهو عند حليمة(١).

وقد وقعَ له ﷺ أيضاً بعدَ بلوغه ﷺ، ففي «الدر المنثور»: أخرج عبد الله بنُ أحمد في «زوائد المسند»(٢) عن أبيٍّ بن كعب أنَّ أبا هريرة قال: يا رسول الله ما أوَّلُ ما رأيت من أمر النبوَّة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألتَ أبا هريرة! إنِّي لفي صحراءَ ابن عشرين سنة(٣) وأشهر، إذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا رجلٌ يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوهٍ لم أرها بخَلْقٍ قطُّ، وأرواحٍ لم أجدها من خَلْقٍ قطُّ، وثيابٍ لم أجدها على أحدٍ قطُّ، فأقبلا إليَّ يمشيان، حتى إذا دَنَيا أخذَ كلٌّ واحدٍ منهما بعضُدي، لا أجدُ لأخذهما مَسًّا، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دمٍ ولا وجع، فقال له: أخرج الغِلَّ والحَسَد، فأخرج شيئاً كهيئة العَلَقَة، ثمَّ نبذها،

---

(١) مسند أبي يعلى (٧١٦٣)، ودلائل النبوة ١/ ١٣٣-١٣٦، وتاريخ دمشق ٣/ ٨٨-٩٠. وهو عندهم من حديث حليمة السعدية، ولفظه قريب مما ذكره المصنف عن ابن عباس، وليس فيه ما يشير إلى تكرر وقوع ذلك وهو عند حليمة، وإن كان شق صدره عليه الصلاة والسلام قد تكرر كما سيرد لاحقاً، وينظر تفصيل ذلك في فتح الباري ٧/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) برقم (٢١٢٦١)، ومن طريق عبد الله أخرجه الضياء في المختارة (١٢٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٦٣-٤٦٤، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الدلائل (١٦٦)، ووقع في مطبوع الدر المنثور ٦/ ٣٦٣: زوائد الزهد.

(٣) كذا في الدر المنثور، والذي في مسند أحمد: عشر سنين. ومثله في باقي المصادر. وجاء في شرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/ ١٥٣: وروي شق صدره وهو ابن عشرين سنة فيما قيل، ولا تثبت، فلا تذكر إلا مقرونة ببيان عدم الثبوت.

فقال له: أدخل الرأفةَ والرحمةَ، فإذا مثلُ الذي أخرجَ شبهَ الفِضَّة، ثم هزّ[1] إبهامَ رجلي اليمنى، وقال: اغدُ واسْلَم، فرجعتُ أغدو بها رأفةً على الصغير ورحمةً على الكبير».

والذي رأيته في «شرح الهمزية» لابن حجر المكّي روايةُ هذا الخبر بلفظٍ آخر، وفيه: «إنِّي لفي صحراءَ واسعة، ابنُ عشر حجج، إذا أنا برجلين فوق رأسي، يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ إلى آخر ما فيه»[2]. فيكون الشقُّ عليه قبل البلوغ أيضاً، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّه على الروايتين ليس نصًّا على نفي وقوع شقٍّ قبله؛ لجواز أن يكون الذي استشعرَ منه النبوَّةَ هو هذا لا ما قبله، ووقعَ له عليه الصلاةُ والسلام أيضاً عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، ومِمَّن روى ذلك الطيالسيُّ والحارث في «مسنديهما» وكذا أبو نعيم، ولفظه: أنَّ جبريلَ وميكائيل عليهما السلام شقَّا صدرَه وغسلاه، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات[3].

ووقع أيضاً مَرَّةً أخرى تواترت بها الروايات ـ خلافاً لمن أنكرها ـ ليلةَ الإسراء به ﷺ، روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبيِّ ﷺ قال: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، فأُتيت بطَسْتٍ من ذهبٍ فيها ماءُ زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا»[4]. قال قتادة: قلت ـ يعني لأنس ـ ما تعني؟ قال: إلى أسفل بطني. قال: «فاستُخرِجَ قلبي، فغسِل بماء زمزم، ثم أعيدَ مكانه، ثم حُشِيَ إيماناً وحكمةً[5]، ثم أتى بدابَّةٍ

---

(١) في (م): حز.

(٢) شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي ص١٤٨.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي (١٦٤٣)، ومسند الحارث (٩٢٨ - بغية الباحث)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٦٣).

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: وفي رواية في البخاري: «فشق من النحر إلى مراقِّ البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم مُلئ حكمةً وإيماناً». وروي بغير ذلك. اهـ.

(٥) إلى هنا بلفظ الترمذي. وهي نهاية الرواية عنده.

دونَ البغل وفوق الحمار، البراق، فانطلقتُ مع جبريل عليه السلام حتى أتينا السماء الدنيا» الحديث[1].

وطعن القاضي عبدُ الجبار في ذلك بما حاصله أنَّه يلزمُ على وقوعه في الصغر وقبل النبوَّة تقدُّمُ المعجزة على النبوة، وهو لا يجوز، ووقوعُه بعد النبوَّة - وإن لم يلزم عليه ما ذكر - إلّا أنَّ ما ذُكر معه من حديث الغَسْل، وإدخال الرأفة والرحمة، وحشوِ الإيمان والحكمة، يرِدُ عليه أنَّ الغَسْلَ مِمَّا لا أثرَ له في التكميل الروحاني، وإنَّما هو لإزالة أمرٍ جسمانيٍّ، وأنَّه لا يصحُّ إدخالُ ما ذُكر وحشوُه، فإنَّما هو شيءٌ يخلقُه الله تعالى في القلب.

وليس بشيءٍ؛ فإنَّ تقدُّم الخارق على النبوَّة جائزٌ عندنا، ونسميه إرهاصاً، والأخبارُ كثيرةٌ في وقوعه له عليه الصلاة والسلام قبلَ النبوة، والغسلُ بالماء كان لإزالة أمرٍ جسمانيٍّ، ولا يبعدُ أنْ يكون إزالتُه وغَسْلُ المحلِّ بماءٍ مخصوصٍ - كماء زمزم، على ما صحَّ في بعض الروايات، ولذا قال البلقينيُّ[2]: إنَّه أفضلُ من ماءِ الكوثر - موجباً لتبديل المزاج، وهو مِمَّا له دخلٌ في التكميل الروحانيّ، ولذا يأمرُ المشايخُ السالكين لديهم بالرياضة التي يحصلُ بها تبديل المزاج، ويرشدُ إلى ذلك تغيُّر أحوال النفس وأخلاقها صباً وكهولةً وشيخوخةً، والمراد من إدخال الرأفة وحشو الإيمان مثلاً إدخالُ ما به يحصلُ كمال ذلك، وكثيراً ما يسمَّى المسبَّب باسم السبب مجازاً، ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسُّم المعاني جائز.

وقال العارف بن أبي جمرة[3] - كما في «المواهب اللدنية» للقَسْطَلَّاني[4] - ما حاصله: إنَّ ما دلَّ كلامُ النبيِّ ﷺ على جوهريَّته وجسميَّته من أعيان المخلوقات التي ليس للحواسِّ إلى إدراكها سبيلٌ هو كما دلَّ عليه كلامُه عليه الصلاة والسلام

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤)، وسنن الترمذي (٣٣٤٦)، والمجتبى للنسائي ١/ ٢١٧.

(٢) كما في المواهب اللدنية للقسطلاني ٦/ ٣١.

(٣) هو عبد الله بن أبي جمرة المحدث المقرئ العارف بالله، له مختصر البخاري، وشرحه بهجة النفوس. توفي سنة (٦٩٩هـ). شجرة النور الزكية ص١٩٩.

(٤) في الأصل و(م): للعسقلاني، والصواب ما أثبتناه.

في نفس الأمر، وإنَّ الحكمَ من المتكلم أو نحوه عليها بالعَرَضيَّة إنَّما هو باعتبار ما ظهرَ له بعقله، وللعقل حدٌّ يقفُ عنده، والحقيقة في الحقيقة: ما دلَّ عليه خبر الشارع المؤيَّدُ بالوحي الإلهيِّ والنور القدسيِّ، المحلّقُ بجناحيهما في جوِّ الحقائق إلى حيثُ لا يُسمع لنحلة العقل دندنةٌ ولا للرواة عنه عنعنة، فالإيمان والحكمة ونحوهما مِمَّا دلَّ[1] كلامُ النبيِّ ﷺ على جوهريتها جواهرُ محسوسةٌ لا معان، وإنْ حَسِبَها مَن حَسِبَها كذلك. انتهى.

والأمر فيه اعتقاداً وإنكاراً إليك، ولا ألزمُك الاعتقاد، فما أريد أن أشقَّ عليك.

وقال بعضُ الأجلَّة: لعلَّ ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيلُ المعاني قد وقع كثيراً، كما مُثِّل له عليه الصلاة والسلام الجنَّةُ والنار في عرض حائطِ مسجده الشريف[2]، وفائدتُه كشفُ المعنويِّ بالمحسوس.

وهو ميلٌ إلى عدم الوقوع حقيقةً، وقد قال غير واحدٍ: جميعُ ما وردَ من الشقِّ وإخراج القلب وغيرهما يجبُ الإيمان به، وإن كان خارقاً للعادة، ولا يجوز تأويله[3] لصلاحية القدرة له، ومن زَعم ذلك وقع في هوَّة المعتزلة في تأويلهم نصوصَ سؤال الملكين وعذاب القبر ووزن الأعمال والصراط وغير ذلك بالتشهِّي، وأمَّا حكمةُ ذلك مع إمكان إيجاد ما ترتَّب عليه بدونه، فقد أطالوا الكلام في بيانها في موضعه.

نعم، حملُ الشرح في الآية على ذلك الشقِّ ضعيفٌ عند المحققين. والتعبيرُ عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاريِّ عن انتفائه للإيذان بأنَّ ثبوتَه من الظهور بحيثُ لا يقدر أحدٌ أن يجيبَ عنه بغير: بلى.

---

(١) بعدها في (م): عليه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وفي صحيح مسلم عن أنس أنه رأى أثر الشقِّ في صدره الشريفِ ﷺ. اهـ منه. وحديث أنس في صحيح مسلم برقم (١٦٢): (٢٦١) بلفظ: وقد كنت أرى أثر المِخْيَطِ في صدره.

وإسنادُ الفعل إلى ضمير العظمة للإيذان بعظمته وجلالة قدره، وزيادةُ الجارِّ والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله؛ للإيذان من أوَّل الأمر بأنَّ الشرحَ من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه؛ مسارعةً إلى إدخال المسرَّة في قلبه الشريف ﷺ، وتشويقاً له عليه الصلاة والسلام إلى ما يعقُبه؛ ليتمكَّن عندَه وقتَ وروده فضلَ تمكُّن.

وقرأ أبو جعفر المنصور: «ألم نشرحَ» بفتح الحاء[1]، وخرَّجَهُ ابن عطيَّة[2] وجماعةٌ على أنَّ الأصل: ألم نشرحَنْ بنون التأكيد الخفيفة، فأبدلَ من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً، كما في قوله:

إِضْرِبَ عنك الهمومَ طارقَها ضربَك بالسَّيف قونسَ الفرسِ[3]

ولا يخفى أنَّ الحذف هنا أضعفُ مِمَّا في البيت؛ لأنَّ ذلك في الأمر، وهذا في النفي، ولهذا رَوى ابن جني في المنتفي عن ابن[4] مجاهد أنَّه غيرُ جائز أصلاً، فنون التوكيد أشبه شيءٍ به الإسهاب والإطناب، لا الإيجاز والاختصار، والبيتُ يقال: إنه مصنوعٌ، والأولَى في التمثيل ما أنشده أبو زيد في «نوادره»[5]:

من أيِّ يوميَّ من الموت أفرّ أيومَ لم يقدَرَ أم يوم قُدِرْ[6]

وقال غيرُ واحد: لعلَّ أبا جعفر بيَّنَ الحاء وأشبعَها في مخرجها، فظنَّ السامع أنَّه فتحها.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٦٦، والكشاف ٤/ ٢٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٦.
(٣) البيت لطرفة، وسلف عند تفسير الآية (٢٤) من سورة «ص».
(٤) في الأصل و(م): أبي. والمثبت من المحتسب ٢/ ٣٦٦.
(٥) ص١٣.
(٦) نوادر أبي زيد ص ١٣، والبيت ينسب لعلي بن أبي طالب ؓ كما في ديوانه ص٤٣، وحماسة البحتري ص٤٥، والعقد الفريد ١/ ١٠٥، وشرح شواهد العيني ٤/ ٤٤٧-٤٤٨، وهو دون نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٧٥، والخصائص ٣/ ٩٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٦، والخزانة ١١/ ٤٥١.

وفي «البحر» أنَّ لهذه القراءة تخريجاً أحسن مِمَّا ذُكر، وهو أنَّ الفتحَ على لغة بعض العرب من النصب بـ «لم»، فقد حكى اللحيانيُّ في «نوادره» أنَّ منهم من ينصبُ بها، ويجزم بـ «لن»، عكسَ المعروف عند الناس، وعلى ذلك قولُ عائشة بنت الأعجم تمدحُ المختار بن أبي عبيد:

في كلِّ ما هَمَّ أَمْضَى رأيَه قُدُماً ولم يُشاورَ في الأمر الذي فعلا(١)

وخرَّجها بعضُهم على أنَّ الفتحَ لمجاورة ما بعدها، كالكسر في قراءة: «الحمدِ لله» بالجرِّ(٢)، وهو لا يتأتَّى في بيت عائشة، ويتأتَّى فيما عداه مِمَّا مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ عطفٌ على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة، كأنَّه قيل: قد شرحنا لك صدرَك ووضعنا.. إلخ. و«عنك» متعلِّقٌ بـ «وضعنا»، وتقديمه على المفعول الصريح؛ لما مرَّ من القَصْدِ إلى تعجيل المسرَّة والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولما أنَّ في وصفه(٣) نوعَ طولٍ، فتأخير الجارِّ والمجرور عنه مخلٌّ بتجاوب أطراف النظم الكريم.

والوزر: الحملُ الثقيل، أي: وحططنا عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي: حَملَه على النقيض، وهو صوتُ الانتقاض والانفكاك، أعني: الصرير، ولا يختصُّ بصوت المَحَامل والرجال، بل يضافُ إلى المفاصل، فيقال: نقيض المفاصل، ويراد صوتها، فنقيض الظهر: ما يسمعُ من مفاصله من الصوت لثقل الحمل، وعليه قول عباس بن مرداس:

وأنقضَ ظهري ما تطوَّيتُ منهم وكنتُ عليهم مشفقاً متحنِّناً(٤)

---

(١) البحر المحيط ٨/٤٨٨، والشطر الثاني فيه، وفي الدر المصون ١١/٤٤، وفي اللباب ٢٠/٣٩٧:

ولم يشاور في إقدامه أحداً

(٢) هي قراءة الحسن البصري ورؤبة كما في القراءات الشاذة ص٧.

(٣) في الأصل: وضعه، وهو خطأ. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٩/١٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٤٩٧، والبحر المحيط ٨/٤٨٨، والدر المصون ١١/٤٥، واللباب ٢٠/٣٩٩.

وإسنادُ الإنقاض للحمل إسنادٌ للسبب الحامل مجازاً، والمراد بالحمل المنقِضِ هنا ما صدر منه ﷺ قبلَ البعثة مِمَّا يشقُّ عليه ﷺ تذكُّره؛ لكونه في نظره العالي دون ما هو عليه عليه الصلاة والسلام بعدُ، أو غفلتُه عن الشرائع ونحوها مِمَّا لا يُدْرَك إلَّا بالوحي، مع تطلُّبه ﷺ له، أو حيرتُه عليه الصلاة والسلام في بعض الأمور، كأداءِ حقِّ الرسالة، أو الوحي وتلقِّيه، فقد كان يثقل عليه ﷺ في ابتداء أمره جدًّا، أو ما كان يَرى ﷺ من ضلال قومِه مع العَجز عن إرشادهم؛ لعدم طاعتهم له وإذعانهم للحق، أو ما كان يرى من تعدِّيهم في إيذائه عليه الصلاة والسلام، أو همُّه عليه الصلاة والسلام من وفاة أبي طالب وخديجة بناءً على نزول السورة بعد وفاتهما.

ويراد بوضعه على الأول: مغفرتُه، وعلى الثاني: إزالةُ غفلته عليه الصلاة والسلام عنه بتعليمه إيَّاه بالوحي ونحوه، وعلى الثالث: إزالةُ ما يؤدِّي للحيرة، وعلى الرابع: تيسيرُه له ﷺ بتدرُّبه واعتياده له، وعلى الخامس: توفيقُ بعضهم للإسلام كحمزة وعمر وغيرهما، وعلى السادس: تقويتُه ﷺ على التحمُّل، وعلى السابع: إزالةُ ذلك برفعه إلى السماء حتى لقيَه كلُّ ملكٍ وحيَّاه، وفوزُه بمشاهدة محبوبه الأعظم ومولاه عزَّ وجلَّ.

وأيًّا ما كان ففي الكلام استعارةٌ تمثيليَّةٌ، والوضعُ ترشيح لها. وليس فيه دليلٌ لنا في العصمة، كما لا يخفى.

واختار أبو حيَّان كونَ وضع الوزر كنايةً عن عصمته ﷺ عن الذنوب، وتطهيره من الأدناس، عبَّر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعتُ عنك مشقَّة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارةٌ، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه له(١).

والتمثيلُ عليه بحاله على ما قيل. وقيل: المراد: وزر أمتك، وإنَّما أُضيف إليه ﷺ لاهتمامه بشأنه وتفكُّره في أمره، والمراد بوضعه رفع غائلته في الدنيا من

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨.

العذاب العاجل ما دام ﷺ فيهم، وما داموا يستغفرون، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ولا يخفى بعدُ هذا الوجه.

وقرأ أنس: «وحططنا»، «وحللنا» مكان: «ووضعنا»(١).

وقرأ ابن مسعود: «وحللنا عنك وقرك»(٢).

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ بالنبوّة وغيرها، وأيُّ رفعٍ مثل أنْ قرن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه عزَّ وجلَّ في كلمتي الشهادة، وجعلَ طاعتَه طاعته، وصلَّى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وخاطبه بالألقاب، ك: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ)، وذكره سبحانه في كتب الأوَّلين، وأخذ على الأنبياء عليهم السلام وأممهم أنْ يؤمنوا به ﷺ.

وروي عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وغيرهم أنَّهم قالوا في ذلك: لا أُذكَر إلا ذُكرتَ معي، وفيه حديثٌ مرفوع، أخرج أبو يعلى وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريلُ عليه السلام فقال: إنَّ ربَّك يقول: أتدري كيف رفعتُ ذكرَك؟ قلتُ: الله تعالى أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»(٣). وكأنَّ ذلك من الاقتصار على ما هو أعظمُ قدراً من إفراد رفع الذكر، ويشير إلى عظم قدره قول حسان:

أغرُّ عليه للنبوَّة خاتمٌ ... من الله مشهودٌ يلوح ويُشهَدُ
وضمَّ الإله اسمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشهدُ(٤)

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥، والكشاف ٤/ ٢٦٦، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٥٧.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٢، والكشاف ٤/ ٢٦٦، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.
(٣) مسند أبي يعلى (١٣٨٠)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٥، وصحيح ابن حبان (٣٣٨٢)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٦٤.
(٤) ديوان حسان ص١٣٤.

ولا يخفى لطفُ ذكر الرفع بعد الوضع، والكلامُ في العطف وزيادة «لك» كالذي سلف.

والفاء في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ على ما في «الكشاف» فصيحةٌ، والكلام وعدٌ له ﷺ مسوقٌ للتسلية والتنفيس، قال: كان المشركون يعيِّرون رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضِّيقة، حتى سبق إلى ذهنه الشريف عليه الصلاة والسلام أنَّهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّره سبحانَه ما أنعم به عليه من جلائل النعم، ثم قال تعالى شأنه: «إنَّ مع العسر يسراً» كأنَّه قال سبحانه: خوَّلناك ما خوَّلناك، فلا تيأس من فضل الله تعالى، فإنَّ مع العسر الذي أنتم فيه يسراً[1].

وهو ظاهرٌ في أنَّ «أل» في «العسر» للعهد، وأمَّا التنوين في «يسراً» فللتفخيم، كأنَّه قيل: إنَّ مع العسر يسراً عظيماً، وأيّ يسر، والمراد به ما تيسَّر لهم من الفتوح في أيَّام رسول الله ﷺ، أو يسرُ الدنيا مطلقاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ يحتملُ أن يكون تكريراً للجملة السابقة لتقرير معناها في النفوس وتمكينِها في القلوب، كما هو شأن التكرير، ويَحتملُ أنْ يكون وعداً مستأنفاً، و«أل» والتنوين على ما سبق، بيد أنَّ المراد باليسر هنا ما تيسَّر لهم في أيام الخلفاء، أو يسر الآخرة.

واحتمال الاستئناف هو الراجحُ؛ لما عُلِم من فضل التأسيس على التأكيد، كيف وكلامُ الله تعالى محمولٌ على أبلغ الاحتمالين وأوفاهما، والمقام كما تقدَّمَ مقامُ التسلية والتنفيس، والاستئنافُ نحويٌّ، وتجرُّده عن الواو أكثرُ من أنْ يحصى، ولا يحتاج إلى بيان نكتة؛ لأنَّه الأصل.

وقال عصام الدين: لا يبعد أنْ تكون نكتةُ الفصل كونَه في صورة التكرير، فاحفظه فإنَّه من البدائع. وتعقَّبَ بنحو ما ذكرنا.

وكان الظاهر ـ على ما سمعت من المراد باليسر ـ تعريفَه، إلَّا أنَّه أوثر التنكير

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٧.

للتفخيم[1]، وقد يقال: إنَّ فائدتَه الظهور في التأسيس؛ لأنَّ النكرةَ المعادةَ ظاهرُها التغايرُ والإشعارُ بالفرق بين العسر واليسر.

ويظهر مِمَّا ذكر وجهُ ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقيُّ عن الحسن قال: خرج رسولُ الله عليه الصلاة والسلام فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسرٌ يسرين، إنَّ مع العسر يسراً، إنَّ مع العسر يسراً»[2].

وأفاد بعض الأجلَّة أنَّ الكلامَ تقريرٌ لما قبله، وعِدَةٌ له ﷺ بتيسير كلِّ عسرٍ[3]، فالفاء قيل: سببيَّةٌ، ودخلت على السبب، وإن تعارفَ دخولُها على المسبَّب؛ لتسبب ذكره عن ذكره، فإنَّ ذكر أحدهما يستدعي ذكرَ الآخر، و«أل» في «العسر» للاستغراق، فيدخل فيه سببُ النزول، والتنوين في «يسراً» على ما سبق، كأنَّه قيل: فعلنا لك كذا وكذا؛ لأنَّ مع كلِّ عسرٍ كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر والخمول يسراً عظيماً كالشرح والوضع ورفع الذكر، فلا تيأس من رَوْح الله تعالى إذا عَرَاك ما يغمُّك.

وقال بعضهم: الفاء للتفريع، وهو من قبيل تفريع الحكم على الدليل في صورة الاستدلال بالجزئيِّ على الكليِّ، وذلك كما تقول: أمَا تَرى إلى الإنسان والفرس والغنم كلُّها تحرِّك الفكَّ الأسفل عند المضغ؟ فاعلم بذلك أنَّ كلَّ حيوان يفعلُ كذلك. فتدبَّر.

وفي الجملة الثانية الاحتمالان السابقان، والاستئنافُ أيضاً هو الراجح؛

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وذكر بعضهم أنَّ في تعريف العسر وتنكير اليسر إشارةً لطيفةً إلى أن الدنيا دار العسر، فالعسر عند السامع معهود، واليسر مبهم. منه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٤، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٨٠، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٩٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨، والبيهقي في الشعب (١٠٠١٣). وهو مرسل. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من طريق عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ﷺ، وهذا أصح طرقه. اهـ، وسيرد خبر عمر قريباً.

(٣) في (م): عسير.

لما تقدَّم، وعلى اتِّحاد العسر وتعدُّد اليسر يكون الحاصلُ من الجملتين أنَّ مع كلِّ عسرٍ يسرين عظيمين، والظاهر أنَّ المرادَ بذينك اليسرين يسرٌ دنيويٌّ ويسرٌ أخرويٌّ.

وقيل: الظاهرُ أنَّ الجملةَ الثانية تكريرٌ للأولى وتأكيدٌ لها، فاليسرُ فيها عينُ اليسر في الأولى، كما أنَّ العسرَ كذلك، والكلام نظيرُ قولك: إنَّ مع الفارس رمحاً، إنَّ مع الفارس رمحاً، وهو ظاهرٌ في وحدة الفارس والرمح، و«لن يغلب عسرٌ يسرين» ليس نصًّا في الحمل على الاستئناف، إذ يصحُّ على التأكيد أيضاً بأن يكون مبنيًّا على كون التنوين في «يسراً» للتفخيم، فحُمل ـ لقوَّة الرجاء ـ على يسر الدارين، وذلك يسران في الحقيقة، ويشهدُ لذلك أنَّه ليس في مصحف ابن مسعود الجملةُ الثانية(١)، مع أنَّه جاء عنه أيضاً: لن يغلبَ عسرٌ يسرين(٢).

وقيل: يمكن أن يُحمَل الخبرُ على أنَّه لن يَغلب فردٌ من أفراد العسر ذِكْرَ اليُسْرِ مرتين، وتكريرَه في مقام الوعد. وهو كما ترى.

والمشهور على جميع الأوجه أنَّه شُبِّه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ «مع» لمعنى بَعْدَ، وذلك للمبالغة في معاقبة اليسرِ العسرَ واتِّصالِه به.

واستشكل أمرُ الاستغراق بأنَّ من العسر ما لا يعقبه يسرٌ دنيويٌّ، كالفقر والمرض الدائمين إلى الموت، ولا أراك ترضَى القول بأنَّ الموتَ يسرٌ دنيويٌّ. وأنَّ من العسر ما لا يعقبه يسرٌ أخرويٌّ أيضاً، كعسر الكافر.

والجوابُ بأنَّ الحكم بالنسبةِ للمؤمنين، كما يقتضيه مقام التسلية والتنفيس، ويشعرُ به ما رواه مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم قال: كتبَ أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب ﷺ يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوَّفُ منهم، فكتبَ إليه عمر ﷺ: أمَّا بعد، فإنَّه مهما ينزل بعبدٍ مؤمنٍ شدَّةٌ، يجعل الله تعالى بعده فرجاً، ولن يغلبَ عسرٌ يسرين(٣) = لا يحسمُ الإشكال، إذ يبقى معه أنَّ من عسر المؤمن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٨٠-٣٨١، والطبري ٢٤/ ٤٩٦.

(٣) الموطأ ٢/ ٤٤٦.

ما لا يعقُبه يسرٌ دنيويٌّ، كما هو ظاهر، بل منه ما لا يعقُبه يسرٌ أخرويٌّ أيضاً، وذلك كعسر المؤمن الجازع، فإنَّه لا يثابُ عليه في الآخرة، والظاهر من اليسر الأخرويِّ هو الثوابُ فيها على ذلك العسر، وإرادةُ المؤمن الصابر يبقى معها أنَّ مِنْ عسره أيضاً ما لا يعقبه اليسرُ الدنيويُّ.

وأجاب بعضٌ على وجه التأكيد بأنَّ الاستغراقَ عرفيٌّ، ويكفي فيه أنَّ العسرَ في الغالب يعقبُه يسرٌ، وعلى وجه التأسيس بهذا، مع كون الحكم بالنسبة للمؤمن الصابر.

وآخرُ بأنَّ الحكمَ مشروطٌ بمشيئته تعالى، وإن لم تذكر. قيل: ويشعر بذلك ما أخرجه عبدُ بن حميد وابنُ جرير عن قتادة في الآية قال: ذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ بشَّرَ بهذه الآية أصحابَه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لن يَغْلِبَ عسرٌ - إن شاء الله تعالى - يسرين»(١).

ويفهمُ من كلام بعض الأفاضل أنَّه يجوزُ على وجه التأكيد أنْ تكونَ «مع» على ظاهرها، والتنوين في «يسراً» للنوعية، ولا إشكال في الاستغراق، إذ لا يخلو المرءُ في حال العسر عن نوعٍ من اليسر، وأقلُّه دفعُ ما هو أعظم مِمَّا أصابه عنه، ويجوز أنْ يكون التنوينُ للتفخيم أيضاً، ويكون اليسرُ العظيمُ المقارنُ للعسر هو دفعُ ذلك الأعظم، وما من عسر إلَّا وعند الله تعالى أعظمُ منه وأعظم، وأنَّه لا يأبى ذلك: «لن يغلب عسرٌ يسرين»، إمَّا لأن المعنى: لن يغلب فردٌ من أفراد العسر، ذِكْرَ اليسرِ مرتين في مقام التسلية، أو لأنَّ الآيةَ أفادت أنَّ مع العسر يسراً، وقد علم أنَّ بعده آخرُ على ما جرت به العادة الغالبة، أو فهم من قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] إن كان نزوله متقدِّماً.

وذكر بعضهم أنَّ المعية على حقيقتها عند الخاصة، على معنى أنَّ كلَّ ما فَعَلَ المحبوبُ محبوبٌ، كما يشير إليه قول الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سره:

وتعذيبكم عذبٌ لديَّ وجورُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكُمُ عدلُ(٢)

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٤٩٦.

(٢) البيت لابن الفارض، وسلف ٢/١٥٠.

وقول الآخر:

بَرْ جانَم اَزْ تُو هَرْچِه رَسَدْ جاي مِنَّتَ اسْتْ كَرْ ناوَكِ جَفَا سْت وكَرْ خَنْجَرِ سِتَمْ(١)

وتسمية ذلك عسراً؛ لأنَّه في نفسه وعند العامة كذلك، لا بالنسبة إلى مَن أصابه من المحبِّين المستعذِبين له. والكلُّ كما ترى.

ثم إنه يُبعِدُ إرادةَ المعيَّة الحقيقية ما أخرجَه البزَّار وابن أبي حاتم والطبرانيُّ في «الأوسط» والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ جالساً وحياله جُحْرٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جاء العسرُ فدخل هذا الجُحر لجاء اليسر حتى يدخلَ عليه فيخرجَه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إلخ، ولفظ الطبرانيِّ: وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٢).

وإرادةُ العهد أَسْلَمُ من القيل والقال، وكأنَّ مَن اختاره اختاره لذلك، مع الاستئناس له بسبب النزول، لكن الذي يقتضيه الظواهر ومقاماتها الخطابية الاستغراق، فإذا قيل به فلا بدَّ من التقييد بكون من أصابه العسرُ واثقاً بالله تعالى، حَسَنَ الرجاء به عزَّ وجلَّ، منقطعاً إليه سبحانه، أو بنحو ذلك من القيود فتدبَّر، والله تعالى الميسِّر لكل ما يتعسَّر.

وقرأ ابن وثَّاب وأبو جعفر وعيسى: «العسُر» و«يسُرا» في الموضعين بضم السين(٣).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من عبادة كتبليغ الوحي ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاتعب في عبادةٍ أخرى

---

(١) المعنى: كل ما أصابني من طَرَفك (منك) فهو في مقام الامتنان، سواء كان سهم الجفا أو خنجر الظلم.

(٢) البزار (٢٢٨٨ - كشف الأستار)، والطبراني في الأوسط (١٥٢٥)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٥، والبيهقي في الشعب (١٠٠١٣). قال الحاكم: هذا حديث عجيب، غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٩: رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه عائذ بن شريح، وهو ضعيف.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨.

شكراً لما عدَّدنا عليك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة، كأنَّه عزَّ وجلَّ لَمَّا عدَّد عليه ما عدَّد، ووعده ﷺ بما وعد، بعثَه على الشكر والاجتهاد في العبادة، وأنْ لا يخليَ وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغَ من عبادةٍ أتبعَها بأخرى.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَٱرْغَب﴾ فاحرص بالسؤال، ولا تسأل غيرَه تعالى، فإنَّه القادرُ على الإسعاف لا غيره عزَّ وجلَّ.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه من طرقٍ عن ابن عباس أنَّه قال: أي: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء[1]. ورُوي نحوه عن الضحَّاك وقتادة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود: أي: إذا فرغتَ من الفرائض فانصب في قيام الليل[2].

وعن الحسن: أي: إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم نحوه.

وأخرج ابن نصر وجماعة عن مجاهد: أي: إذا فرغت من أسباب نفسك - وفي لفظ: من دنياك - فصلِّ[3]. وفي روايةٍ أخرى عنه نحو ما روي عن ابن عباس.

والأنسبُ حمل الآية على ما تقدَّم، وأمَّا قول ابن عباس ومن معه فهو تخصيصٌ لبعض العبادات فراغاً وشغلاً؛ إمَّا مثالاً - لا أنَّ اللفظ خاص - وهو الأظهر، وكذا يقال فيما رُوي عن ابن مسعود، وإمَّا لأنَّ الصلاةَ أمُّ العبادات البدنيَّة، والدعاءَ مخُّ العبادة، فهما هما.

وقول الحسن لَحِظَ فيه ما شاعَ من قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[4]، وهو قريبٌ، إلَّا أنَّه قيل عليه: إنَّ السورة مكِّيَّة، والأمرَ بالجهاد

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (١١٤٦)، والطبري ٢٤/ ٤٩٩.
(٤) حديث ضعيف، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة النساء.

بعد الهجرة، ولعلَّه يقول بمدنيتها، أو مدنية هذه الآية، أو أنَّها مِمَّا تأخَّر حكمُه عن نزولِه، كآيات أُخَر.

وقول مجاهد نَظَر فيه إلى أنَّ الفراغَ أكثرُ ما يستعمل في الخلوِّ عن الأشغال الدنيويَّة، كما في قوله ﷺ: «اغتنم فراغَكَ قبل شُغلك»[1]. وهو أضعفُ الأقوال لبعده عمَّا يقتضيه السياق، وتؤذنُ به الفاء.

وقال عصام الدين: الأنسب أن يراد: «فإذا فرغت» من يسرٍ «فانصب» بعسرٍ آخر، طلباً لليسرين، فإذا كنت كذلك، فكنْ راغباً إلى ربِّك، يعني لا تتحمَّل عسرَ الدنيا طمعاً في يسرين فيها، بل تحمَّل عسرَ طلبِ الربِّ وقربِه جلَّ شأنه لليسرين. انتهى.

ولعَمري إنَّه خلافُ ما يفهمه مَن لا سقم في ذهنه من اللفظ.

وأشعرت الآيةُ بأنَّ اللائقَ بحال العبد أن يستغرقَ أوقاته بالعبادة، أو بأن يَفْرَغَ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه، على ما سمعتَ من قول مجاهد فيها، وذكروا أنَّ قعودَ الرجل فارغاً من غير شُغْلٍ، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه، من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة، وعن عمر رضي الله عنه: إنِّي لأكره أنْ أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته[2].

وروي أنَّ شريكاً مرَّ برجلين يصطرعان، فقال: ما بهذا أُمِرَ الفارغ.

وقرأ أبو السمَّال: «فَرِغت» بكسر الراء[3]، وهي لغةٌ قال الزمخشريُّ: ليست بفصيحة[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٦، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٤٨). وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٤٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٢٩)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٧٠) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٦٧، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: لم أجده. اهـ، وأخرجه بنحوه من قول ابن مسعود وكيع في الزهد (٣٦٩)، وهناد في الزهد (٦٧٦).

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٦٧.

وقرأ قومٌ: «فانصبَّ» بشدِّ الياء مفتوحة[1] من الانصباب، والمراد: فتوجَّه إلى عبادةٍ أخرى كلَّ التوجُّه.

ونُسب إلى بعض الإماميَّة أنَّه قرأ: «فانصِب» بكسر الصاد[2]، فقيل: أي: «فإذا فرغتَ» من النبوَّة «فانصِب» عليًّا للإمامة. وليس في الآية دليلٌ على خصوصيَّة المفعول، فللسُّنيِّ أن يقدِّرهُ أبا بكر ﷺ، فإنِ احتجَّ الإماميُّ بما وقع في غديرِ خُمّ[3]، منعَ السُّنِّيُّ دلالته ـ على ما ثبتَ عنده ـ على النصب، وصحَّته على ما يرويه الإماميُّ، واحتجَّ لِمَا قدَّره بقوله ﷺ: «مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[4]، وقال: إنَّه أوفق بـ «إذا فرغت» لما أنَّه صدر منه عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته قبيل وفاته ﷺ، بخلاف ما كان في الغدير، فإنَّه لا يظهرُ أنَّ زمانه زمانُ فراغٍ من النبوَّة ظهورَ كون زمان الأمر كذلك، وإن رجع وقال: المراد: فإذا فرغت من الحجِّ فانصِب عليًّا، وَرَدَ عليه أمرُ مكِّيَّة السورة مع ما لا يخفى.

وقال في «الكشاف»: لو صحَّ ذلك للرافضيِّ لصحَّ للناصبيِّ أن يقرأ هكذا، ويجعلَه أمراً بالنصب الذي هو بغضُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وعداوتُه[5]. وفيه نظر.

ومن الناس من قدَّرَ المفعولَ: خليفةً، والأمرُ فيه هيِّن.

وقال ابن عطية: إنَّ هذه القراءةَ شاذَّةٌ ضعيفةُ المعنى، لم تثبت عن عالم[6].

وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: «فرغِّب»، أمرٌ من رغَّبَ بشدِّ العَيْن[7]، أي: فرغِّب الناسَ إلى طلب ما عنده عزَّ وجلَّ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦١، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٣) سلف ٧/ ٣٦.
(٤) أخرجه البخاري (٧١٢)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة ﵂.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٦٧-٢٦٨.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨.
(٧) القراءات الشاذة ص١٧٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٩.

(٩٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّة
وآياتها ثمان

● سورة التين مكية ، وهي تعالج موضوعين بارزين وهما :

الأول : تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

الثاني : موضوع الإيمان بالحساب والجزاء .

● أقسم بالبقاع المقدسة ، والأماكن المشرفة ، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على رسله وأنبيائه ، وهي « بيت المقدس » مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ، و « جبل الطور » الذي نودي عليه موسى ، و « مكة المكرمة » التي ولد وبعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ، أقسم على أنه كرَّم الإنسان وخلقه في أجمل صورة وأكمل شكل ، ثم إذا لم يشكر النعمة ردَّه إلى أسفل دركات جهنم ، منكوس الخلق والصورة إلا من آمن واهتدى وقدَّم لآخرته العمل الصالح ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقديم﴾ الآيات .

● **ثم وبَّخ** الكافر على عدم إيمانه ، وإنكاره للبعث والجزاء ، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة الله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّينِ﴾ ؟

● **وختم السورة** الكريمة ببيان عدل الله جل وعلا بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بأحكمِ الحاكمين﴾ ؟ وفيه تقرير للجزاء ، وإثباتٌ للمعاد .

● ● ●

سورة التين

[١٠٢٥] أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾[1] قال هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله [ﷺ] فسئل عنهم حين سفهت عقولهم فأنزل الله عذرهم إن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم.

* * *

[١٠٢٥] (١)سورة التين: الآية (٥).

سورة التين

وهي ثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ ﴾

اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة، فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان:

الأول: أن المراد من التين والزيتون هذان الشيئان المشهوران، قال ابن عباس: هو تينكم وزيتونكم هذا. **ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء:**

أما التين فقالوا: إنه غذاء وفاكهة ودواء، أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة، يلين الطبع ويخرج الترشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال -وهو خير الفواكه وأحمدها، وروى أنه أهدي لرسول الله ﷺ طبق من تين فأكل منه، ثم قال لأصحابه: «كُلُوا فَلَوْ قُلْتُ: إِنَّ فَاكِهَةً نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ لَقُلْتُ هَذِهِ؛ لِأَنَّ فَاكِهَةَ الْجَنَّةِ بِلاَ عَجَمٍ، فَكُلُوهَا فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الْبَوَاسِيرَ وَتَنْفَعُ مِنَ النِّقْرِسِ» وعن علي بن موسى الرضا عليهما السلام: التين يزيل نكهة الفم، ويطول الشعر، وهو أمان من الفالج. وأما كونه دواء، فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن.

واعلم أن لها بعدما ذكرنا خواص: أحدها: أن ظاهرها كباطنها، ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر، بل نقول: إن من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه، كالجوز والبطيخ، ومنه ما يطيب ظاهره دون باطنه كالتمر والإجاص. أما التين فإنه طيب الظاهر والباطن. **وثانيها:** أن الأشجار ثلاثة: شجرة تعد وتخلف وهي شجرة الخلاف، وثانية تعد وتفي وهي التي تأتي بالنَّوْر أولاً بعده بالثمر كالتفاح وغيره، وشجرة تبذل قبل الوعد، وهي التين لأنها تخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد، بل لو غيرت العبارة لقلت: هي شجرة تُظهر المعنى قبل الدعوى، بل لك أن تقول: إنها شجرة تُخرج الثمرة قبل أن تلبس نفسها بورد أو بورق، والتفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها، ثم بغيرها، أما شجرة التين فإنها تهتم بغيرها قبل اهتمامها بنفسها، فسائر الأشجار كأرباب المعاملة في قوله عليه السلام: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ» وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فإنْ فَضَل صَرَفه إلى نفسه، بل من الذين أثنى الله عليهم في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، **وثالثها:** أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا اسقطت الثمرة من موضعها لم تعد في تلك السنة، إلا التين فإنه يعيد البذر

وربما سقط ثم يعود مرة أخرى. **ورابعها:** أن التين في النوم رجل خير غني، فمن نالها في المنام نال مالاً وسعة، ومن أكلها رزقه الله أولادًا. **وخامسها:** روي أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تسَتَّر بورق التين، وروى أنه لما نزل وكان متزرًا بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغَيَّر دمها مسكًا، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما أعجبها، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك، وذلك لأن الأولى جاءت لآدم لا لأجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سرًا وإلى آدم ظاهرًا، فلا جرم غير الظاهر دون الباطن.

وأما الزيتون: فشجرته هي الشجرة المباركة، فاكهة من وجه وإدام من وجه ودواء من وجه، وهي في أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس، ثم لا تقتصر منفعتها على غذاء بدنك، بل هي غذاء السراج أيضًا وتولدها في الجبال التي لا توجد فيها شيء من الدهنية البتة، وقيل: من أخذ ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى، وقال مريض لابن سيرين: رأيت في المنام كأنه قيل لي: كل اللامين تُشفَ. فقال: كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية. ثم قال المفسرون: التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما من هذه المصالح والمنافع.

القول الثاني: أنه ليس المراد هاتين الثمرتين، ثم ذكروا وجوهًا: **أحدها:** قال ابن عباس: هما جبلان من الأرض المقدسة، يقال لهما بالسريانية طور تينًا، وطور زيتا؛ لأنهما منبتا التين والزيتون، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام، والزيتون: الشأم مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل، والطور مبعث موسى عليه السلام، والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ، فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم. **وثانيها:** أن المراد من التين والزيتون مسجدان، ثم قال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس. وقال آخرون: التين مسجد أصحاب أهل الكهف، والزيتون مسجد إيليا. وعن ابن عباس: التين مسجد نوح المبني على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس. والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة، فلما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التين والزيتون، لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون **وثالثها:** المراد من التين والزيتون بلدان، فقال كعب: التين دمشق والزيتون بيت المقدس. وقال شهر بن حوْشب: التين الكوفة، والزيتون الشام. وعن الربيع: هما جبلان بين همدان وحلوان. والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركي قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد، فالله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها، أو يقال: إن دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا، والطور ومكة فيهما نعم الدين.

أما قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ فالمراد من الطور: الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه، واختلفوا في (سينين) والأَوْلى عند النحويين أن يكون سينين وسينا اسمين للمكان الذي حصل فيه الجبل أو أضيفا إلى ذلك المكان، وأما المفسرون فقال ابن عباس في رواية عكرمة: الطور: الجبل وسينين: الحسن بلغة الحبشة، وقال مجاهد: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ المبارك. وقال الكلبي: هو الجبل المشجر ذو الشجر. وقال مقاتل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط قال الواحدي: والأَوْلى أن يكون سينين اسمًا للمكان الذي به الجبل، ثم لذلك سمي سينين أو سينا لحسنه أو لكونه مباركًا، ولا يجوز أن يكون سينين نعتًا للطور لإضافته إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فالمراد مكة، والأمين: الآمن، قال صاحب «الكشاف»: من أمن الرجل أمانة فهو أمين، وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل، كما وُصف بالأمن في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾[العنكبوت: ٦٧] يعني ذا أمن، وذكروا في كونه أمينًا وجوهًا: **أحدها:** أن الله تعالى حفظه عن الفيل، على ما يأتيك شرحه إن شاء الله تعالى. **وثانيها:** أنها تحفظ لك جميع الأشياء فمباح الدم عند الالتجاء إليها آمن من السباع، والصيود تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء إليها. **وثالثها:** ما روى أن عمر كان يقبل الحجر ويقول: إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. فقال له علي عليه السلام: أما أنه يضر وينفع إن الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه في رق أبيض، وكان لهذا الركن يومئذٍ لسان وشفتان وعينان، فقال: افتح فاك فألقمه ذلك الرق وقال: تشهد لمن وافاك بالموافاة إلى يوم القيامة. فقال عمر: لا بقيتُ في قوم لست فيهم يا أبا الحسن(١).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾

المراد من الإنسان هذه الماهية، والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، يقال: قومته تقويمًا فاستقام وتقوَّم، وذكروا في شرح ذلك الحسن وجوهًا: **أحدها:** أنه تعالى خلق كل ذي روح مكبًا على وجهه إلا الإنسان، فإنه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده. وقال الأصم: في أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان. والحاصل أن القول الأول راجع إلى الصورة الظاهرة، والثاني إلى السيرة الباطنة، وعن يحيى بن أكثم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة، فإنه حكى أن ملك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة، فقال: إن لم تكوني أحسن

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا:** الحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٢٨) حديث رقم (١٦٨٢) والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٤٥١) حديث رقم (٤٠٤٠) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٢/ ٤٠٥) والأزرقي في (أخبار مكة) (١/ ٤٧١) حديث رقم (٣٩١) جميعًا من طريق عبد العزيز بن عبد الصمد الأعمى عن أبيه عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري... به، وفي إسناده عمارة بن جوين أبو هارون العبدي، قال الحافظ: متروك ومنهم من كَذَّبه.

من القمر فأنت كذا. فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال: لا يحنث. فقيل له: خالفت شيوخك: فقال: الفتوى بالعلم ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى فإنه يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وكان بعض الصالحين يقول: إلهنا أعطيتنا في الأولى أحسن الأشكال، فأعطنا في الآخرة أحسن الفعال، وهو العفو عن الذنوب، والتجاوز عن العيوب.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۞ ﴾

ففيه وجهان: الأول: قال ابن عباس: يريد أرذل العمر، وهو مثل قوله: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، قال ابن قتيبة: السافلون هم الضعفاء والزمنى، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلاً، يقال: سَفَل يَسفَل فهو سافل وهم سافلون، كما يقال: علا يعلو فهو عالٍ وهم عالون، أراد أن الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقلُّ حيلته ويعجز عن عمل الصالحات، فيكون أسفل الجميع. وقال الفراء: ولو كانت (أسفل سافل) لكان صوابًا، لأن لفظ الإنسان واحد، وأنت تقول: (هذا أفضل قائم) ولا تقول: أفضل قائمين، إلا أنه قيل: (سافلين) على الجمع لأن الإنسان في معنى جمع فهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] وقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ [الشورى: ٤٨].

والقول الثاني: ما ذكره مجاهد والحسن: ثم رددناه إلى النار، قال علي عليه السلام: وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض، فيبدأ بالأسفل فيملأ وهو أسفل سافلين. وعلى هذا التقدير فالمعنى: ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلى النار.

أما قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فاعلم أن هذا الاستثناء على القول الأول منقطع، والمعنى: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إياهم بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تخاذل نهوضهم، وأما على القول الثاني فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال.

أما قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ففيه قولان: **أحدهما:** غير منقوص ولا مقطوع. **وثانيهما:** أجر غير ممنون، أي لا يمن به عليهم، واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب؛ لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصًا بالمنة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۞﴾ **وفيه سؤالان:**

الأول: من المخاطب بقوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾؟ **الجواب فيه قولان: أحدهما:** أنه خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، والمراد من قوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أن كل من أخبر عن الواقع بأنه لا يقع فهو كاذب، والمعنى: فما الذي يلجئك إلى هذا الكذب؟ **والثاني:** وهو اختيار الفراء أنه خطاب مع محمد ﷺ، والمعنى: فمن يكذبك يا أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل بالدين؟!

السؤال الثاني: ما وجه التعجب؟ **الجواب:** أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشرًا سويًا وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر -دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر والنشر، فمن شاهد هذه الحالة ثم بقي مُصرًا على إنكار الحشر فلا شيء أعجب منه.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسيره وجهين: **أحدهما:** أن هذا تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر، يقول الله تعالى: أليس الذي فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنعًا وتدبيرًا، وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]. **والثاني:** أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل.

المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم، فإنه لو كان الفاعل لأفعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب في سفه، فهو من الله تعالى، ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء، كما أنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب في الحكمة إلا من الله تعالى، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء، ولما ثبت في حقه تعالى الأمران لم يكن وصفه بأنه أحكم الحكماء أَوْلى من وصفه بأنه أسفه السفهاء، ولما امتنع هذا الوصف في حقه تعالى علمنا أنه ليس خالقًا لأفعال العباد. **والجواب:** المعارضة بالعلم والداعي، ثم نقول: السفيه من قامت السفاهة به لا من خلق السفاهة، كما أن المتحرك والساكن من قامت الحركة والسكون به لا من خلقهما.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «والتين»

مكيةٌ في قولِ الأَكْثَرِ. وقال ابن عباسٍ وقتادةُ: هي مدنية[1]. وهي ثماني آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قال ابنُ عباس والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةُ وإبراهيمُ النخعيُّ وعطاء بنُ أبي رباح وجابر بنُ زيد ومقاتلٌ والكلبيُّ: هو تينكُم الذي تأكلون، وزيتونُكم الذي تعصرون منه الزيت[2]؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وقال أبو ذرٍّ: أُهْدِيَ للنبيِّ ﷺ سَلُّ تِين؛ فقال: «كُلُوا» وأَكَلَ منه. ثم قال: «لو قلتُ: إنَّ فاكهةً نزلت من الجنة، لقلتُ هذه؛ لأنَّ فاكهةَ الجنةِ بلا عَجَمٍ، فكُلوها فإنَّها تقطعُ البواسِيرَ، وتنفعُ من النِّقْرِس»[3].

وعن معاذ: أنه استاك بقضيبِ زيتونٍ، وقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «نِعْمَ السِّواكُ الزيتونُ، من الشجرة المباركة، يُطيِّبُ الفم، ويذهبُ بالحَفَر، وهي سِواكي وسِواكُ الأنبياءِ مِن قَبْلي»[4].

---

(١) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠١-٥٠٣ عن الحسن وعكرمة ومجاهد وإبراهيم والكلبي. وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٥٢٨.

(٣) الوسيط ٤/ ٥٢٣، والفردوس بمأثور الخطاب (٤٧١٦)، والكشاف ٤/ ٢٦٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩. وأخرجه أبو نعيم في الطب والثعلبي، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦، وقال: وفي إسناده مَن لا يعرف.

(٤) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٦)، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٦٨. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: إسناده واه. والحَفَر: صفرة تعلو الأسنان. القاموس (حفر).

وروي عن ابن عباس أيضاً: التينُ: مسجِدُ نوحٍ عليه السلامُ الذي بُنيَ على الجوديِّ، والزيتونُ: مسجدُ بيتِ المَقْدِس[١].

وقال الضحاك: التينُ: المسجدُ الحرام، والزيتونُ: المسجدُ الأقصى.

ابن زيد: التين: مسجدُ دمشقَ، والزيتون: مسجدُ بيتِ المَقْدِس. قتادةُ: التين: الجبلُ الذي عليه دمشق، والزيتونُ: الجبلُ الذي عليه بيتُ المقدس[٢].

وقال محمد بن كعب: التينُ: مسجدُ أصحابِ الكَهْفِ، والزيتونُ: مسجدُ إيلياءَ[٣].

وقال كعبُ الأحبارِ وقتادةُ أيضاً وعكرمةُ وابنُ زيد: التينُ: دمشق، والزيتونُ: بيتُ المقدس[٤]. وهذا اختيارُ الطَّبريِّ[٥].

وقال الفرَّاء: سمعتُ رجلًا من أهلِ الشام يقول: التينُ: جبال ما بين حُلْوانَ إلى هَمَذان، والزيتونُ: جبالُ الشامِ[٦].

وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما: طورُ زَيْتَا وطورُ تِينا بالسريانية، سمِّيا بذلك لأنهما يُنْبِتانِهما[٧]. وكذا رَوَى أبو مَكينٍ عن عكرمة، قال: التينُ والزيتونُ: جبلان بالشام[٨]. وقال زهير[٩]:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٤ .

(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/٥٠٣ ، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٠١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٤ . وإيلياء هي بيت المقدس.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ عن كعب وابن زيد.

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي قاله الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٠٤ : والصواب من القول عندنا قولُ مَن قال: التين هو التين الذي يؤكل، والزيتون هو الزيتون الذي يعصر منه الزيت.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٦ ، وفيه: سمعت رجلاً من أهل الشام وكان صاحب تفسير يقول...

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٥٣٢ . وطور زيتا: بيت المقدس، وطور تينا: دمشق. ينظر الدر المنثور ٦/ ٣٦٦ .

(٨) الوسيط ٤/ ٥٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٤ دون قوله: بالشام. وأبو مكين هو نوح بن ربيعة الأنصاري مولاهم، البصري. من رجال التهذيب.

(٩) كذا في النسخ، والصواب أنه للنابغة، على ما يأتي.

أَتَيْنَ التِّينَ عَنْ عُرُضٍ[(١)]

وهذا اسمُ موضعٍ. ويجوزُ أن يكون ذلك على حذفِ مضافٍ، أي: ومَنابِتِ التِّينِ والزيتون. ولكنْ لا دليلَ على ذلك من ظاهرِ التنزيل، ولا مِن قولِ مَن لا يَجوزُ خلافُه؛ قاله النَّحَّاس[(٢)].

الثانية: أصحُّ هذه الأقوالِ الأوّلُ؛ لأنَّه الحقيقةُ، ولا يُعدلُ عن الحقيقة إلى المَجازِ إلَّا بدليلٍ. وإنَّما أَقْسَمَ الله بالتين؛ لأنه كان سِترَ آدمَ في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وكان ورقَ التِّين[(٣)].

وقيل: أَقْسمَ به ليبينَ وَجْهَ المِنَّةِ العُظْمَى فيه؛ فإنَّه جميلُ المنظر، طيِّبُ المَخْبَرِ، نَشِرُ الرائحة، سهلُ الجَنْي، على قَدْرِ المضغة، وقد أَحْسنَ القائل فيه:

انظُرْ إلى التِّين في الغصون ضُحًى ... ممزَّقَ الجِلدِ مائلَ العُنُقِ
كأنَّه ربُّ نِعمةٍ سُلِبتْ ... فعاد بعدَ الجديدِ في الخَلَقِ
أصغرُ ما في النهودِ أكبرُه ... لكنْ يُنَادَى عليه في الطُّرقِ[(٤)]

وقال آخَرُ:

التينُ يَعْدِلُ عندي كلَّ فاكهةٍ ... إذا انْثَنَى مائلاً في غُصْنِه الزَّاهي
مُخمَّشُ الوجهِ قد سالتْ حلاوتُه ... كأنَّه راكعٌ مِن خشيةِ اللهِ

وأَقسَمَ بالزيتون لأنه مثَّل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] وهو أكثرُ أُدُمِ أهلِ الشامِ والمغرب؛ يَصْطَبِغون به[(٥)]، ويستعملونه

---

(١) ديوان النابغة ص ١٠٢، وتمامه:

صُهْبَ الظِّلالِ أَتَيْنَ التِّين عن عُرُضٍ ... يُزجينَ غيماً قليلاً ماؤه شَبِما

يصف سحائب لا ماء فيها. والتين المذكور في هذا البيت هو جبل بنجد لبني أسد، أو جبل في دار غطفان. ينظر معجم ما استعجم ١/ ٣٣١، ومعجم البلدان ٢/ ٦٩، واللسان (تين).

(٢) وقاله أيضاً الطبري ٢٤/ ٥٠٤.

(٣) ذكره الرازي ٣٢/ ٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٣٩.

(٥) أي: يأتدمون به. القاموس (صبغ).

في طبيخهم، ويَسْتَصْبِحون به، ويُداوَى به أدواءُ الجوفِ والقُروح والجراحات، وفيه منافعُ كثيرةٌ. وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلوا الزيتَ وادَّهِنوا به؛ فإنَّه من شجرةٍ مبارَكةٍ». وقد مضى في سورة «المؤمنون» القولُ فيه[١].

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٢]: ولامتنان البارئ سبحانه، وتعظيمِ المِنَّةِ في التين، وأنَّه مُقْتاتٌ مدَّخَر، قلنا بوجوبِ الزكاةِ فيه. وإنَّما فرَّ كثيرٌ من العلماء من التصريح بوجوب الزكاةِ فيه، تَقيَّةَ جَوْرِ الولاةِ؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مَغْرَماً، حَسْبَ ما أنذر به الصادقُ ﷺ. فكره العلماءُ أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مالٍ آخَرَ[٣] يتشطَّطون فيه، ولكنْ ينبغي للمرء أن يخرج عن نِعمةِ ربِّه، بأداءِ حقِّه. وقد قال الشافعيُّ لهذه العِلَّةِ وغيرِها: لا زكاةَ في الزيتون. والصحيحُ وجوبُ الزكاةِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾

روى ابن أبي نَجيحٍ عن مجاهدٍ: «وطور» قال: جبل. «سِينِين» قال: مبارك، بالسريانية[٤]. وعن عكرمةَ عن ابن عباس قال: «طور» جبلٌ، و«سينين» حَسَن[٥]. وقال قتادةُ: «سينين» هو المبارَكُ الحَسَن[٦].

وعن عكرمةَ قال: الجبل الذي نادى الله جلَّ ثناؤه منه موسى عليه السلام[٧].

وقال مقاتلٌ والكلبيُّ: «سِينِين»: كلُّ جبلٍ فيه شجرٌ مثمِرٌ، فهو سِنين وسِيناء،

(١) ١٥/ ٣٣. وقوله: مثل به إبراهيم، هو على قول مَن قال: إن الشجرة المباركة هي إبراهيم عليه السلام، سماه الله مباركاً لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٩.

(٣) في النسخ الخطية: أحد، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٧ دون قوله: بالسريانية، وكذلك هو في تفسير مجاهد ٢/ ٧٦٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٦ عن عكرمة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سينين هو الحسن بلغة الحبشة. الدر المنثور ٦/ ٣٦٦.

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٢، والطبري ٢٤/ ٥٠٧ بلفظ: جبل بالشام مبارك حسن.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠١ عن كعب الأحبار. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩: لم يُختَلَف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى، ومنه نودي.

بلُغةِ النَّبَط(١).

وعن عمرو بن ميمون قال: صلَّيتُ مع عمر بنِ الخطاب العشاءَ بمكةَ، فقرأ: «والتين والزيتون وطورِ سَيناء. وهذا البلدِ الأمين» قال: وهكذا هي في قراءةِ عبد الله، ورفع صوته تعظيماً للبيت. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ جَمَعَ بينهما. ذكره ابنُ الأنباريّ(٢). النَّحّاس: وفي قراءة عبد الله: «سِيناء» بكسر السين، وفي حديثِ عمرو بن ميمون عن عُمر بفتح السين.

وقال الأخفش: «طُور» جبل. و«سِينِينَ» شجرٌ، واحدتُه: سِينِينة(٣).

وقال أبو عليّ: «سِينِين» فِعلِيل، فكُرِّرت اللّامُ التي هي نونٌ فيه، كما كُرِّرتْ في زِحْلِيل: للمكان الزَّلِق، وكِرْدِيدَة: للقطعةِ من التمر، وخِنذيذ: للطويل. ولم يَنْصَرِف «سينين» كما لم ينصرفْ سِيناء؛ لأنه جُعِل اسماً لبقعةٍ أو أرضٍ، ولو جُعِل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسمَ مذكَّرٍ لانْصَرفَ؛ لأنَّك سمَّيْتَ مذكَّراً بمذكَّرٍ(٤).

وإنَّما أَقْسَم بهذا الجبلِ لأنه بالشام والأرضِ المقدَّسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾

يعني مكةَ. سمَّاه أميناً لأنه آمِنٌ، كما قال: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] فالأمين: بمعنى الآمِن؛ قاله الفرَّاءُ وغيرُه، قال الشاعر:

أَلَمْ تَعلَمي يا أَسْمُ ويْحَكِ أَنَّني ... حَلَفْتُ يَميناً لا أَخُون أَمِيني(٥)

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ١٧٠ عن مقاتل.

(٢) في كتاب المصاحف، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد. الدر المنثور ٦/ ٣٦٦ . وقراءة: «سيناء» عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص ١٧٦ .

(٣) ذكره عن الأخفش البكري في معجم ما استعجم ٣/ ٨٩٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩ ، وهو في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤٠ مختصراً بلفظ: «وطور سينين» واحدها السِّينينة.

(٤) بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٦ ، وذكره أيضاً ابن الأنباري في الأضداد ص٣٤ ، والطبري ٢٤/ ٥٠٨ ، والجوهري في الصحاح (أمن).

يعني: آمِني. وبهذا احتجَّ مَن قال: إنه أراد بالتِّين دمشقَ، وبالزيتونِ بيتَ المقدِسِ. فأقسمَ الله بجبلِ دِمَشْقَ؛ لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبلِ بيتِ المقدسِ؛ لأنه مُقَامُ الأنبياءِ عليهم السلامُ، وبمكةَ لأنها أَثَرُ إبراهيمَ ودارُ محمدٍ صلى الله عليهما وسلم[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هذا جوابُ القسمِ. وأراد بالإنسان: الكافر؛ قيل: هو الوليد بنُ المُغيرة[(٢)]. وقيل: كَلَدة بنُ أسيد[(٣)]. فعلى هذا نزلتْ في مُنْكري البعث. وقيل: المرادُ بالإنسان آدمُ وذرِّيتُه.

﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهو اعتدالُه واستواءُ شبابِه؛ كذا قال عامَّةُ المفسِّرين، وهو أحسنُ ما يكون؛ لأنه خَلَق كلَّ شيء مُنْكَبًّا على وجهه، وخَلَقه هو مستويًا، وله لسانٌ ذَلِق، ويدٌ وأصابعُ يقبضُ بها.

وقال أبو بكر بن طاهر: مزيَّناً بالعقل، مؤدِّياً للأمر، مَهْديًّا بالتمييز، مديدَ القامةِ؛ يتناولُ مأكولَه بيده.

ابن العربيّ[(٤)]: ليس للهِ تعالى خَلْقٌ أحسنُ من الإنسان؛ فإنَّ الله خَلَقَه حيًّا عالِماً، قادراً مريداً متكلِّماً، سميعاً بصيراً، مدبِّراً حكيماً. وهذه صفاتُ الربِّ سبحانه، وعنها عبَّر بعضُ العلماء، ووقع البيانُ بقوله: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . وقال الرازي ٣٢/ ٩ : فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٧١ عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٠٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٧١ عن ابن عباس.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٤٠ .

صُورته»[(١)] يعني على صفاته التي قدَّمْنا ذِكْرَها. وفي روايةٍ: «على صورةِ الرحمن»[(٢)]، ومِن أين يكون للرحمن صورةٌ متشَخِّصةٌ؟ فلَمْ يَبْقَ إلّا أن تكون معانيَ. وقد أَخبرَنا المباركُ بنُ عبد الجبار الأزْديُّ قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بنُ أبي عليٍّ القاضي المحسّن عن أبيه قال: كان عيسى بنُ موسى الهاشميُّ يحبُّ زوجته حبًّا شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إنْ لم تكوني أحسنَ من القمر، فنهضتْ واحْتَجبتْ عنه، وقالت: طلَّقتني! وبات بليلةٍ عظيمة، فلمَّا أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبرَ، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستَحْضَر الفقهاءَ واستَفْتاهم. فقال جميعُ مَن حضر: قد طلقتْ، إلّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنَّه كان ساكتاً، فقال له المنصور: مالَكَ لا تتكلَّم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يا أمير المؤمنين، فالإنسانُ أَحْسنُ الأشياءِ، ولا شيءَ أحسنُ منه. فقال المنصورُ لعيسى بنِ موسى: الأمرُ كما قال الرجلُ، فأَقْبِلْ على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجته: أن أطيعي زوجَكِ ولا تَعْصِيه، فما طلَّقك[(٣)].

فهذا يَدلُّك على أنَّ الإنسان أَحسنُ خَلْقِ اللهِ باطنًا وظاهراً، جمالَ هيئةٍ، وبديعَ تركيبٍ: الرأسُ بما فيه، والصدرُ بما جَمَعَه، والبطنُ بما حَوَاه، والفَرْجُ وما طَوَاه،

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ٦/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الحارث (٨٧٢ - بغية الباحث)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٣١٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٥١٧)، وابن خزيمة في التوحيد ص ٣٨ ، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠) من طريق الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. وقد أعله ابن خزيمة بأن الثوري خالف الأعمش في إسناده، فأرسل ولم يقل: عن ابن عمر، وأعله أيضاً بتدليس الأعمش وقد عنعن، وكذلك حبيب بن أبي ثابت وقد عنعن. ولكن الذهبي في الميزان ٢/ ٤٢٠ نقل عن إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل تصحيحهما لهذا الحديث. وينظر الفتح ٥/ ١٨٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٠ ، وهو في كتاب الفرج بعد الشدة ٤/ ٣٧٧ للقاضي أبي علي المحسّن بن علي التنوخي البصري الأديب، المتوفى سنة (٣٨٤هـ). السير ١٦/ ٥٢٤ .

واليدان وما بَطَشتاه، والرِّجلان وما احْتَمَلَتاه. ولذلك قالت الفلاسفةُ: إنَّه العالَمُ الأصغَرُ؛ إذ كلُّ ما في المخلوقات جُمِعَ فيه(١).

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى أَرْذلِ العمرِ، وهو الهَرَمُ بعد الشباب، والضَّعفُ بعد القوّة، حتى يصير كالصبيِّ في الحال الأوّل؛ قاله الضَّحاك والكلبيُّ وغيرُهما(٢).

وروى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ» إلى النار، يعني الكافرَ. وقاله أبو العالية(٣).

وقيل: لمَّا وَصَفَه الله بتلك الصفاتِ الجليلةِ التي رُكِّب الإنسانُ عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وحين عَلم الله هذا مِن عَبْدِه، وقضاؤه صادرٌ(٤) من عنده، رَدَّه أَسْفَل سافِلين، بأنْ جَعَله مملوءًا قَذَرًا، مشحونًا نجاسةً، وأخرجها على ظاهره إخراجاً مُنْكراً، على وجه الاختيارِ تارةً، وعلى وجه الغَلَبةِ أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رَجَع إلى قَدْره(٥). وقرأ عبد الله: «أسفلَ السَّافِلينَ»(٦).

وقال: «أسفلَ سافِلِين» على الجمع؛ لأنَّ الإنسان في معنى جمعٍ، ولو قال: أسفلَ سافلٍ جاز؛ لأنَّ لفظَ الإنسانِ واحدٌ. وتقول: هذا أفضلُ قائمٍ. ولا تقولُ: أفضلُ قائِمين؛ لأنَّك تُضْمِرُ لواحدٍ، فإنْ كان الواحدُ غيرَ مُضْمَرٍ له، رجع اسمُه بالتوحيد والجمع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤١.

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٢، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥١٣ - ٥١٤ عن ابن عباس وعكرمة وإبراهيم وقتادة.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٠٢، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٥١٥.

(٤) في (د) و(ي): صار.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤١.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٤، والكشاف ٤/ ٢٦٩.

﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقد قيل: إنَّ معنى «رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سافلينَ»، أي: ردَدْناه إلى الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إلَّا هؤلاء، فلا يُردُّون إلى الهرم[(١)]. والاستثناءُ على قولِ مَن قال: «أسفلَ سافلينَ»: النار، متَّصِلٌ. ومَن قال: إنه الهَرَم، فهو مُنْقطِعٌ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّه تكتبُ لهم حسناتُهم، وتُمْحَى عنهم سيئاتُهم، قاله ابن عباس. قال: وهم الذين أَدْرَكهم الكِبَر، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم[(٣)].

وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبدُ في شبابه كثيرَ الصلاةِ كثيرَ الصيام والصَّدقةِ، ثم ضَعُف عمَّا كان يعمل في شبابه، أَجْرَى الله عزَّ وجلَّ له ما كان يعمل في شبابه[(٤)].

وفي الحديث: قال النبيُّ ﷺ: «إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللهُ له مثلَ ما كان يَعمَلُ مُقيماً صحيحاً»[(٥)].

---

(١) في (م): إلى ذلك. بدل قوله: إلى الهرم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الأنسب بسياق الكلام بعده. وقد وقع هذا الكلام في النسخ الخطية متأخراً عن موضعه هنا، وينظر التعليق التالي.

(٢) من قوله: وقال أسفل سافلين على الجمع... إلى هذا الموضع، وقع في النسخ الخطية بعد قوله الآتي: ويكتب له ذلك. قبل تفسير قوله: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٥١٨ ، وفي آخره زيادة: وهم هرمَى لا يعقلون.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/٥١٨ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد (١٩٦٧٩)، والبخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وقيل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه لا يَخْرَفُ ولا يَهْرَمُ، ولا يذهبُ عقلُ مَن كان عالِماً عاملاً به. وعن عاصمٍ الأحولِ عن عكرمةَ قال: مَن قرأ القرآنَ لم يُرَدَّ إلى أَرْذلِ العمر(١).

ورُوي عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «طُوْبَى لِمَن طال عمرُه وحَسُنَ عملُه»(٢).

ورُوي: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا ماتَ أَمَرَ الله مَلَكَيْهِ أنْ يتعبَّدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال الضحاك: أجرٌ بغيرِ عملٍ(٤). وقيل: غيرُ مقطوعٍ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾

قيل: الخطابُ للكافر؛ توبيخاً وإلزاماً للحجَّة. أي: إذا عَرَفْتَ أيها الإنسانُ أنَّ الله خَلَقَك في أحسنِ تقويمٍ، وأنه يردُّكَ إلى أرذلِ العمر، وينقلُك من حالٍ إلى حال، فما يحملُكَ على أنْ تُكذِّب بالبعثِ والجزاء وقد أخبرك محمدٌ ﷺ به؟

وقيل: الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أي: اسْتَيْقِنْ مع ما جاءك من الله عزَّ وجلَّ أنَّه أحكم الحاكمين. رُوِي معناه عن قتادة(٥).

وقال قتادةُ أيضاً والفرَّاء: المعنى: فَمَن يكذِّبُك أيُّها الرسولُ بعد هذا البيانِ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥١٧.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٢. وأخرجه بنحوه أحمد (١٧٦٨٠) من حديث عبد الله بن بُسر ﷺ، و(٢٠٤١٥) من حديث أبي بكر ﷺ، وسلف ٥/ ٩٧ و٢٦٤.

(٣) ذكره بنحوه مطولاً أبو الليث ٣/ ٤٩٢.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٢٤.

«بالدِّين» واختاره الطبريُّ(١). كأنه قال: فَمَن يَقْدِرُ على ذلك، أي: على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما ظَهَر من قدرتنا على خَلْقِ الإنسان والدِّين والجزاء. قال الشاعر:

دِنَّا تميماً كما كانتْ أوائلُنا ... دانَتْ أوائلَهمْ في سالِفِ الزَّمنِ(٢)

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

أي: أَتْقَن الحاكِمينَ صُنْعاً في كلِّ ما خَلَق. وقيل: «بأحكم الحاكمين» قضاءً بالحقِّ، وعَدْلاً بينَ الخَلْقِ. وفيه تقريرٌ(٣) لمن اعْتَرَفَ من الكفار بصانعٍ قديم. وألفُ الاستفهامِ إذا دخلتْ على النَّفْي وفي الكلام معنى التوقيفِ صار إيجاباً، كما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطايا(٤)

وقيل: «فما يُكَذِّبُك بعدُ بِالدِّينِ. أليسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِين»: منسوخةٌ بآيةِ السَّيف(٥). وقيل: هي ثابتةٌ؛ لأنَّه لا تَنَافيَ بينهما.

وكان ابنُ عباس وعلي بنُ أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا «أليس الله بأحكم الحاكمين» قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهِدِين. فيُختارُ ذلك(٦)، والله أعلم.

ورواه الترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: مَن قرأ سورةَ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فقرأ: ﴿أَلَيْسَ

(١) في تفسيره ٢٤/ ٥٢٤ ، وقول الفراء بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٧ .

(٢) البيت للطرماح، وهو في ديوانه ص ١٧٢ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٠٣ . ورواية الديوان: في سالف الأبد.

(٣) في النسخ عدا (ظ): تقدير، والمثبت من (ظ)، والنكت والعيون ٦/ ٣٠٣ ، والكلام منه.

(٤) وعجزه: وأندى العالمين بطون راح. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٨٩ ، وسلف ٤/ ٣١٢ ، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

(٥) زاد المسير ٩/ ١٧٤ .

(٦) في (ظ): فنختار ذلك. والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٠٣ دون ذكر ابن عباس، وقد أخرجه بنحوه عن ابن عباس عبد الرزاق ٢/ ٣٨٣ ، والطبري ٢٤/ ٥٢٦ .

ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقُلْ: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهِدِين[١]. والله أعلم.

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧) وهو من طريق إسماعيل بن أمية، عن أعرابيٍّ، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي عن أبي هريرة، ولا يسمَّى.

وذكر ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٩٠ عن أبي زرعة قوله: الصحيح إسماعيل بن أمية عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبي هريرة موقوفاً.

سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾

مختلفٌ فيها[1]، وآيُها ثمانٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ خصَّهُما مِن الثِّمارِ بالقَسَمِ لأنَّ التِّينَ فاكِهَةٌ طيِّبةٌ لا فَضْلَ له، وغِذاءٌ لطيفٌ سريعُ الهضمِ، ودواءٌ كثيرُ النَّفعِ؛ فإنَّهُ يُلَيِّنُ الطَّبعَ، ويُحلِّلُ البلغمَ، ويُطهِّرُ الكُلْيتينِ، ويُزيلُ رملَ المثانةِ، ويفتحُ سُدَدَ الكبدِ والطِّحالَ، ويُسمِّنُ البدنَ، وفي الحديثِ أنه: «يقطعُ البواسيرَ، وينفَعُ مِن النِّقْرِسِ»[2].

والزَّيتونَ فاكهةٌ وإِدامٌ ودواءٌ، وله دُهنٌ لطيفٌ كثيرُ المنافعِ، مع أنَّه قد يَنبتُ حيثُ لا دُهنيَّةَ فيه كالجبالِ.

وقيل: المرادُ بهما جَبَلانِ مِن الأرضِ المُقدَّسةِ، أو مَسْجِدا دِمشقَ وبيتِ المقدسِ، أو البَلَدانِ.

(٢) ـ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني: الجبلَ الذي ناجَى عليه مُوسى ربَّهُ، و(سينينَ) و(سيناءَ) اسمانِ للمَوضِعِ الذي فيه.

---

(١) في «النكت والعيون» (٦/ ٣٠٠): مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٠)، وأبو نعيم في «الطب النبوي» (٤٦٧). قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٦): وفي إسناده من لا يُعرف.

(٣) ـ ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾؛ أي: الآمِنِ، مِن أَمُنَ الرَّجُلُ أمانةً فهو أَمِينٌ، أو: المأمونِ فيهِ، يأمَنُ فيه مَن دخلَهُ، والمرادُ به مكَّةُ عظَّمها الله.

(٤) ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريدُ به الجنسَ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: تعديلٍ، بـأَنْ خُصَّ بانتصابِ القامةِ، وحُسْنِ الصُّورَةِ، واستِجماعِ خواصِّ الكائناتِ، ونظائرِ سائرِ المُمكناتِ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بأَنْ جعلناهُ مِن أهلِ النَّارِ، أو: إلى أسفَلِ السَّافلينَ وهو النَّارُ، وقيل: إلى أرذلِ العمرِ، فيكونُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُنقَطِعًا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: لا ينقطِعُ، أو: لا يُمَنُّ به عليهم، وهـو على الأوَّلِ حُكْمٌ مُرتَّبٌ على الاستثناءِ مُقرِّرٌ له.

(٧) ـ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾: فأيُّ شيءٍ يكذِّبُكَ يا محمَّدُ[1]، دلالةً أو نطقًا ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾: بالجزاءِ بعدَ ظُهورِ هذهِ الدَّلائلِ، وقيل: (ما) بمعنَى (مَن).

وقيل: الخطابُ للإنسانِ على الالتفاتِ، والمعنى: فما الذي يَحمِلُكَ على هـذا الكذبِ؟

(٨) ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تحقيقٌ لِمَا سبقَ، والمعنى: أليس الذي فعلَ ذلك مِن الخَلْقِ والرَّدِّ بأحكمِ الحاكمينَ صُنْعًا وتدبيرًا، ومَن كان كذلكَ كانَ قادرًا على الإعادةِ والجزاءِ، على ما مرَّ مِرارًا.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أعطاهُ اللهُ العافيةَ واليقينَ ما دامَ حيًّا، فإذا ماتَ أعطاهُ مِن الأجرِ بعَدَدِ مَن قرَأَ هذهِ السُّورةَ»[2].

---

(١) قوله: «فأيُّ شيءٍ يكذِّبُكَ يا محمَّدُ» يعني أن (ما) استفهامية لإنكار الوقوع، أي: لا شيء يكذِّبك، أي: ينسبك إلى الكذب، على أن صيغة التفعيل للنسبة مثل: «فسَّقته»؛ نسبته إلى الفسق، والباء في ﴿بِٱلدِّينِ﴾ للسببية؛ أي: بسبب إنبائك بالدين، وفيه مبالغة؛ لأنه يفيد أن الجماد إذا كان لا يقدر أن ينسبك إلى الكذب فكيف بالعقلاء؟ انظر: «حاشية القونوي» (٢٠/ ٣٤٢).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٥) سورة التين مكية وآياتها ثمان

روى مالك عن البراء بن عازب قال: « كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه » أخرجه الجماعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين دمشق، وقيل: الجبل الذي عندها، وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف، وروي عن ابن عباس: أنه مسجد نوح الذي على الجودي، وقال مجاهد: هو تينكم هذا ﴿والزيتون﴾ قال قتادة: هو مسجد بيت المقدس، وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون، ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني مكة[1]، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار. (**فالأول**) محلة التين والزيتون وهي (بيت المقدس) التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام، (**والثاني**) طور سينين وهو (طور سيناء) الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، (**والثالث**) مكة وهو (البلد الأمين) الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم

(١) هو قول جمهور المفسرين، قال ابن كثير: ولا خلاف في ذلك.

الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما، وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل؛ منتصب القامة، سويّ الأعضاء حسنها. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى النار[1]. أي بعد هذا الحسن والنضارة، مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقال بعضهم: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى أرذل العمر[2]. واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، ثم قال: ﴿فما يكذبك﴾ أي يا ابن آدم ﴿بعد بالدين﴾؟ أي بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البدأة وعرفت أن من قدر على البدأة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى:، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ روى ابن أبي حاتم عن منصور قال، قلت لمجاهد: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال: «معاذ الله» عنى به الإنسان[3]، وقوله تعالى: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه، وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً: فإذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

[آخر تفسير سورة التين والزيتون، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) قاله مجاهد والحسن وأبو العالية وابن زيد.

(٢) وروي هذا القول عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

تفسير سورة والتين والزيتون

وهى مكية .

قال مالك وشعبة ، عن عدى بن ثابت ، عن البراء بن عازب : كان النبى ﷺ يقرأ فى سَفَر فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة فى كتبهم (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ .

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هى نفسها. وقيل : الجبل الذى عندها .

وقال القرطبى : هو مسجد أصحاب الكهف (٢) .

وروى العَوفى ، عن ابن عباس : أنه مسجد نوح الذى على الجودى .

وقال مجاهد : هو تينكم هذا .

﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ : قال كعب الأحبار ،وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس .

وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذى تعصرون .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ : قال كعب الأحبار وغير واحد : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى .

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ يعنى : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعِى ، وابن زيد ، وكعب الأحبار . ولا خلاف فى ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه مَحَالٌ ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم . والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٥٢) وصحيح مسلم برقم (٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (١٢٢١) وسنن الترمذى برقم (٣١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٨٣٤،٨٣٥) .

(٢) تفسير القرطبى (٢٠/ ١١١) عن محمد بن كعب .

قالوا : وفى آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء ــ يعنى الذى كلم الله عليه موسى [بن عمرن] (١) ـ وأشرق من ساعيرَ ـ يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعنى : جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً ـ فذكرهم (٢) على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ،ثم بالأشرف منهما .

وقوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سَوِىّ الأعضاء حسنها .

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين ﴾ أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم . ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

وقال بعضهم : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين ﴾ أى : إلى أرذل العمر . رُوى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ــ حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك ؛ لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم ،وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ . إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ـ٣].

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، كما تقدم .

ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعنى : يا ابن آدم ﴿ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ؟ أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البدأة ، وعرفت أن من قدر على البدأة ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن منصور قال: قلت لمجاهد : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ عنى به النبى ﷺ قال: مَعَاذ الله ! عنى به الإنسان . وهكذا قال عكرمة وغيره .

وقوله : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عَدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه . وقد قدمنا فى حديث أبى هريرة مرفوعاً : « فإذا قرأ أحدكم ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ فأتى على آخرها :﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِ ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » (٣).

آخر تفسير [سورة] (٤) « والتين والزيتون» ، ولله الحمد

---

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « مخبراً عنهم » .
(٣) انظر : تفسير الآية الأخيرة من سورة القيامة .
(٤) زيادة من م ، أ .

سورة والتّين

مكّيّة، وهي ثمان آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾

/ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ هما هذا التين وهذا الزيتون خصّهما الله سبحانه مِن بين الثمار بالإقسام بهما لاختصاصهما بخواصّ جليلةٍ، فإنّ التين فاكهة طيّبة لا فضلَ له، وغذاءٌ لطيف سريع الهضم، ودواءٌ كثير النفع؛ يُليّن الطبع ويُحلّل البلغم ويُطهّر الكليتين ويُزيل ما في المثانة مِن الرمل ويُسمّن البدن ويفتح سُدَد الكبِد والطِّحال. [٣٠٦ظ]

وروى أبو ذرّ أنّه أُهديَ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم سَلٌّ مِن تين، فأكل منه وقال لأصحابه: «كُلوا فلو قلتُ: إنّ فاكهةً نزلت مِن الجنّة لقلتُ: هذا؛ لأنّ فاكهة الجنّة بلا عَجَم، فكلوها فإنّها تقطع البواسير وتنفع مِن النِّقْرِس».[١]

وعن عليّ بن موسى الرِّضا:[٢] التينُ يُزيل نكهةَ الفم، ويطوِّل الشَّعر، وهو أمان مِن الفالج، وأمّا الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء، ولو لم يكن له سوى اختصاصه

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٣٠؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٤٤/٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٢ هو عليّ الرضى بن موسى الكاظم الهاشمي العلوي، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٨م). الإمام السيّد المدني ثاني الأئمة الاثني عشر عند الإماميّة، ومِن أجلّاء السادة أهل البيت وفضلائهم. كان أسودَ اللون وأمّه حبشيّة. وكان مِن الدِّين والعلم والسؤدد بمكان. أحبّه المأمون وزوّجه ابنته وضرب اسمه على الدرهم والدينار، وغيّر مِن أجله الزيّ العبّاسي، وصيّره وليّ عهده لكنّه مات في عهد المأمون. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٨/٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٦/٥.

بدُهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنيّة فيها لكفى به فضلًا، وشجرته هي الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل.[١]

ومرّ معاذُ بن جبل بشجرة الزيتون، فأخذ منها قضيبًا واستاكَ به وقال: سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «نِعمَ السِّواك الزيتونُ مِن الشجرة المباركة، يطيِّب الفم ويذهب بالحفَرة»،[٢] وسمعتُه يقول: «هو سواكي وسواكُ الأنبياء قبلي».[٣]

وقيل: هما جبلان مِن الأرض المقدَّسة يقال لهما بالسُّريانيّة: "طور تينا" و"طور زيتا"؛ لأنهما منبتا التين والزيتون. وقيل: ﴿ٱلتِّينِ﴾ جبال ما بين حُلوان[٤] وهَمْدان،[٥] ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ جبال الشام؛ لأنّهما منابتهما، كأنّه قيل: ومنابتِ التين والزيتون.[٦]

وقال قتادةُ: ﴿ٱلتِّينِ﴾ الجبل الذي عليه دمشقُ ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الجبل الذي عليه بيت المَقدِس.[٧] وقال عكرمةُ وابن زيد: ﴿ٱلتِّينِ﴾ دمشقُ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ بيت المَقدِس.[٨] وهو اختيار الطبري.[٩]

وقال محمد بن كعب: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد أصحاب الكهف، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ مسجد إيليا.[١٠] وعن ابن عبّاس: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي،

---

١ القول في تفسير الرازي، ٢١٠/٣٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٠٦/٢٠.

٢ الحَفَر: أن يحفر القَلَح أصول الأسنان بين اللِّثة وأصل السنّ مِن ظاهر وباطن. لسان العرب لابن منظور، «حفر».

٣ المعجم الأوسط للطبراني، ٢١٠/١ (٦٧٨)؛ والطبّ النبوي لابي نُعيم، ٦٣٦/٢ (٦٨٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٤ حُلوان بالضمّ: حُلوان العراق، وهي آخر حدود السواد ممّا يلي الجبال في بغداد. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٩٠/٢.

٥ همدان: قبيلة يمانيّة، ولعلّ المصنِّف قَصَد بلاد همدان. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ٩٩-١٠٠.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٧ جامع البيان للطبري، ٥٠٣/٢٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٨ جامع البيان للطبري، ٥٠٣/٢٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٩ هذه العبارة في اللباب لابن عادل، ٤٠٦/٢٠. والذي في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٤: أنّه اختار الوجه الأوّل، وهو أنّ التين هو التين الذي يؤكل والزيتون هو الزيتون الذي يُعصَر، ثمّ جوَّز الوجه المذكور ههنا، وذكر أنّه ليس في صحّة الوجه الأوّل.

١٠ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ مسجد بيت المقدس.[١] / وقال الضحّاك: ﴿ٱلتِّينِ﴾ المسجد الحرام، [٣٠٧و]
﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ المسجد الأقصى.[٢]

والصحيح هو الأوّل، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت». وبه قال مجاهدٌ وعكرمةُ وإبراهيمُ النخَعي وعطاءٌ وجابر بن زيد[٣] ومقاتلٌ والكلبي.[٤]

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى ربّه، و﴿سِينِينَ﴾ وسيناءُ عَلَمان للموضع الذي هو فيه، ولذلك أضيفَ إليهما، وسِينون كـ"يبرون"[٥] في جواز الإعراب بـ"الواو" و"الياء" والإقرارِ على "الياء" وتحريك "النون" بالحركات الإعرابيّة.[٦]

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ أي: الآمن مِن "أَمُنَ الرجلُ أمانةً" فهو أمين، وهو مكّة شرّفها الله تعالى، وأمانتُها أنّها تحفظ مَن دخلها كما يحفظ الأمين ما يُؤتمَن عليه. ويجوز أن يكون فعيلًا بمعنى "مفعول" مِن "أمنه"، لأنّه مأمونُ الغوائل، كما وُصف بـ"الآمن" في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص، ٥٧/٢٨]، بمعنى "ذي أمن".

ووجهُ الإقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدِّين غنيٌّ عن الشرح والتبيين.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: جنسَ الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ أي: كائنًا في أحسن ما يكون مِن التقويم والتعديل صورةً ومعنًى، حيث برَأه تعالى مستويَ القامة،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٤.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٤٠٦/٢٠؛ وعن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨: أنّها مسجدان بالشام.

٣ هو جابر بن زيد الأزدي البصري، أبو الشعثاء (ت. ٩٣هـ/٧١٢م). تابعي فقيه، مِن الأئمّة، مِن أهل البصرة، أصله مِن عُمان. صحب ابن عبّاس، وهو مِن بحور العلم ويعدّ مع الحسن وابن سيرين. نفاه الحجّاج إلى عُمان. قال قتادة عند موته: اليوم مات أعلم أهل العراق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨١/٤؛ والأعلام للزركلي، ١٠٤/٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٥٠١/٢٤-٥٠٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٥ يَبرين، وأَبرين لغة فيه: اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء مِن بني سعد بالبحرين. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٢٧/٥، ٧١/١.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

متناسبَ الأعضاء، متّصفًا بالحياة والعِلم والقدرة والإرادة والتكلّم والسمع والبصر وغير ذلك مِن الصفات التي هي أنموذجات مِن الصفات السبحانيّة وآثارٌ لها، وقد عبَّر بعض العلماء[١] عن ذلك بقوله: «خلق آدمَ على صورته»،[٢] وفي رواية «على صورة الرحمن»،[٣] وبنى عليه تحقيق معنى قوله: «مَن عرَف نفسه فقد عرف ربّه»، وقال: إنّ النفس الإنسانيّة مجرّدةٌ ليست حالّةً في البدن ولا خارجةً عنه، متعلّقةٌ به تعلُّقَ التدبير والتصرّف، تستعمله كيفما شاءت، فإذا أرادت فعلًا مِن الأفاعيل الجسمانيّة تُلقيه إلى ما في القلب مِن الروح الحيوانيّ الذي هو أعدل الأرواح وأصفاها، وأقربُها منها، / وأقواها مناسبةً إلى عالم [٣٠٧ظ] المجرَّدات إلقاءً روحانيًا، وهو يُلقيه بواسطة ما في الشرايين مِن الأرواح إلى الدِّماغ الذي هو منبَت الأعصاب التي فيها القوى المحرِّكة للإنسان، فعند ذلك يحرِّك مِن الأعضاء ما يليق بذلك الفعل مِن مباديه البعيدة والقريبة، فيصدُر عنه ذلك بهذه الطريقة، فمَن عرَف نفسه على هذه الكيفيّة مِن صفاتها وأفعالها تسنّى له أن يترقّى إلى معارج معرفة ربّ العزّة عزّ سلطانه، ويطّلعَ على أنّه سبحانه منزَّه عن كونه داخلًا في العالم أو خارجًا منه، يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد بواسطة ما رتَّبه فيه مِن الملائكة الذين يُستَدلّ على شئونهم بما ذُكر مِن الأرواح والقوى المرتَّبة في العالم الإنسانيّ الذي هو نسخة للعالم الأكبر وأنموذج منه.[٤]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعلناه مِن أهل النّار الذين هم أقبح مِن كلّ قبيح، وأسفل مِن كلّ سافل، لعدم جريانه على موجَب ما خلقناه عليه مِن الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى علّيّين. وقيل: رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس، ٣٦/٦٨].[٥] وأيًّا ما كان فـ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾

---

١ وفي هامش م: هو الإمام حُجّة الإسلام محمّد الغزّالي رحمه الله.

٢ مسند أحمد، ١٢/٢٧٥ (٧٣٢٣)؛ صحيح ابن حبّان، ١٢/٤٢٠ (٥٦٠٥).

٣ المعجم الكبير للطبراني، ١٢/٤٣٠ (١٣٥٨٠).

٤ الكلام بمعناه في ميزان العمل للغزّالي، ص ٦٩-٧١.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٥.

إمّا حال مِن المفعول، أي: رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمكان محذوف، أي: رددناه مكانًا أسفلَ سافلين، والأوّل أظهر. وقُرئ: "أَسْفَلَ السَّافِلِينَ".[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ضمير ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، فإنّه في معنى الجمع، وعلى الثاني منقطع، أي: لكنّ الذين كانوا صالحين مِن الهرمى. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير منقطِع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاقّ، والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم، أو غيرُ ممنون به عليهم. وهذه الجملة على الأوّل / مقرِّرة لِما يفيده الاستثناء مِن خروج المؤمنين عن حكم الردّ، [٣٠٨و]
ومبنيّة لكيفيّة حالهم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ للرسول عليه السلام، أي: فأيُّ شيء يكذِّبك دلالةً أو نطقًا بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به؟ وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن". وقيل: الخطاب للإنسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت، أي: فما يجعلك كاذبًا بسبب الدِّين وإنكاره بعد هذا الدليل؟[٢] والمعنى أنّ خَلْق الإنسان مِن نطفة وتقويمَه بشرًا سويًّا وتحويلَه مِن حال إلى حال كمالًا ونقصانًا مِن أوضح الدلائل على قدرة الله عزّ وجلّ على البعث والجزاء، فأيُّ شيء يضطرُّك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذبًا بسبب تكذيبه أيّها الإنسان؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أليس الذي فعل ما ذُكر بأحكم الحاكمين صنعًا وتدبيرًا حتّى يُتوهَّم عدمُ الإعادة والجزاء، وحيث استحال عدم كونه أحكمَ الحاكمين تعيَّن الإعادة والجزاء، فالجملةُ تقرير لِما قبلها. وقيل: الحُكم بمعنى القضاء، فهي وعيد للكفّار، وأنّه يحكم عليهم بما يستحقّونه مِن العذاب.[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٥.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٥.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٤١١.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أنّه كان إذا قرأها يقول: بلى، وأنا على ذلك مِن الشاهدين».[١] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أعطاه الله تعالى الخصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله تعالى مِن الأجر بعدد مَن قرأ هذه السورة».[٢]

---

١ مسند أحمد، ٣٥٣/١٢ (٧٣٩١)؛ سنن أبي داود، ١٦٣/٢ (٨٨٧)؛ سنن الترمذي، ٤٤٣/٥ (٣٣٤٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٠ (الضحى، ١/٩٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢٢/٤ (الضحى، ١/٩٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٥

سورة والتِّين

مكية أو مدنية، ثمانُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والتِّينِ والزَّيْتُونِ﴾ أي: المأكولَين، أو جبلَينِ بالشام يُنبِتان المأكولَين، ٢ ـ ﴿وطُورِ سِينِينَ﴾: الجبلِ الذي كلّم الله ـ تعالى ـ موسى عليه، ومعنى سينين: المباركُ أو الحَسَن بالأشجار المُثمرة، ٣ ـ ﴿وهذا البَلَدِ الأمِينِ﴾: مكّةَ لِأمنِ الناس فيها جاهليّة وإسلامًا، ٤ ـ ﴿لَقَد خَلَقْنا الإنسانَ﴾ الجِنسَ ﴿في أحسَنِ تَقوِيمٍ﴾: تعديل لصورته، ٥ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ﴾ في بعض أفراده ﴿أسفَلَ سافِلِينَ﴾: كناية عن الهَرَم والضعف، فينقص عمل المُؤمن عن زمن الشباب، ويكون له أجره، لقوله تعالى: ٦ ـ ﴿إلاّ﴾ أي: لكنّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فلَهُم أجرٌ غَيرُ مَمنُونٍ﴾: مقطوعٍ. وفي الحديث: «إذا بَلَغَ المُؤمِنُ مِنَ الكِبَرِ ما يَعجِزُ عَنِ العَمَلِ كُتِبَ لَهُ ما كانَ يَعمَلُ».

٧ ـ ﴿فما يُكَذِّبُكَ﴾ ـ أيها الكافر ـ ﴿بَعدُ﴾: ....

سورةُ والتِّينِ

قولُهُ: (أي: المَأكُولَين) خصَّهُما مِن الثِّمارِ بالقسَمِ؛ لكَثرةِ فوائِدِهما.

قولُهُ: (يُنبِتَان) فيكونُ من بابِ ذكرِ الحالِّ وإرادةِ المحَلِّ، أو أطلَقَا عليهما مبالَغةً، وقيل: مَسجِدا دمَشقَ وبيتِ المقدِسِ، أو البَلدانِ.

قولُهُ: (مَكّةَ) أي: المأمونِ فيه.

قولُهُ: (وإسلاماً) أي: في الدُّنيا، وسبَبُ الأمنِ من عَذابِ العُقبى لمن جاوَرَها وماتَ فيها بالتَّقوى.

قولُهُ: (كِنَايَةٌ) أي: صَيَّرناهُ أعجَزَ العاجِزينَ.

قولُهُ: (مِن الكِبَرِ) وكذا المرَضُ والسَّفرُ.

قولُهُ: (أي: الكَافِرُ) الأظهَرُ: أيُّها الكافِرُ، وقيل: الخطابُ للإنسانِ.

بعدَ ما ذُكر من خلقِ الإنسان في أحسن صُورة، ثمّ ردِّه إلى أرذل العُمر الدالِّ على القُدرة على البعث، ﴿بِالدِّينِ﴾: بالجزاء المسبوق بالبعث والحِساب؟ أي: ما يَجعلك مُكذِّبًا بذلك ولا جاعل له؟
٨ـ ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحكَمِ الحاكِمِينَ﴾؟ أي: هو أقضى القاضين، وحُكمه بالجزاء من ذلك. وفي الحديث: «مَن قَرأَ والتِّينِ إلى آخِرِها فلْيَقُلْ: بَلَى، وأنا علَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

قولُهُ: (أي: مَا يَجعَلُكَ) أي: أيُّ شَيءٍ.

قولُهُ: (مِن ذَلِكَ) كان حقُّهُ أن يقولَ: وقد حكَمَ بالجزاءِ فلا يكونُ لكَ إلا ذلكَ.

قولُهُ: (إلى آخِرِهَا) المرادُ: من قرأَ آخرَ التِّينِ، والله أعلمُ.

* * *

سُورَةُ وَٱلتِّينِ

ويقال لها: سورة التين، بلا واو، مكِّيَّة في قول الجمهور، وعن قتادة أنَّها مدنيَّةٌ، وكذا عن ابن عباس على ما في «البحر»[1] و«مجمع البيان» برواية المعدّل[2]. وأخرج عنه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقيُّ[3] ما يوافقُ قولَ الجمهور، ويؤيِّدهُ إشارة الحضور في قوله تعالى: «وهذا البلد الأمين»، فإنَّ المراد به مكَّة بإجماع المفسرين فيما نعلم.

وآيُها ثمان آياتٍ في قولهم جميعاً.

ولَمَّا ذكر سبحانه في السورة السابقة حالَ أكمل النوع الإنسانيّ بالاتفاق، بل أكملِ خلق الله عزَّ وجلَّ على الإطلاق، ﷺ، ذكر عزَّ وجلَّ في هذه السورة حالَ النوع وما ينتهي إليه أمرُه، وما أعدَّ سبحانه لمن آمن منه بذلك الفرد الأكمل، وفخرِ هذا النوع المفضَّلِ، صلى الله تعالى عليه وسلَّمَ وشرَّف وعظَّم وكرَّم، فقال عزَّ قائلاً:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ إقسامٌ ببقاعٍ مباركةٍ شريفةٍ، على ما ذهب إليه كثير، فأمَّا «البلد الأمين» فمكَّة ـ حماها الله

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.

(٢) مجمع البيان ٣٠/ ١٧٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥، وهو في فضائل القرآن لابن لضريس (١٧)، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٣.

تعالى - بلا خلافٍ، وجاء في حديثٍ مرفوع[١]، وهو مكانُ البيت الذي هو هدًى للعالمين، ومولدُ رسول الله ﷺ ومبعثُه.

و«الأمين» فعيل، إمَّا بمعنى فاعل، أي: الآمن، من أمُن الرجل - بضمِّ الميم - أمانةً، فهو أمين، وجاء أُمَّانٌ أيضاً، كما جاء كريم وكُرَّام، ولم يسمع آمن اسم فاعل، وسُمع على معنى النسب، كما في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧] بمعنى ذي أمن، وأمانتُه أن يَحفظ مَن دَخَله، كما يَحفظ الأمين ما يؤتمنُ عليه، ففيه تشبيهُه[٢] بالرجل الأمين. وإمَّا بمعنى مفعول، أي: المأمون، مِن أمِنَه، أي: لم يَخَفْه، ونسبتُه إلى البلد مجازيَّة، والمأمون حقيقةً الناس، أي: لا تخافُ غوائلَهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال، أي: المأمون فيه من الغوائل. وإقحام اسم الإشارة للتعظيم.

وأمَّا «طور سينين» فالجبل الذي كلَّم الله تعالى شأنه موسى عليه السلام عليه، ويقال له: طور سيناء، بكسر السين والمد، وبفتحها والمد، وقد قرأ بالأول هنا بدل «سينين» عمرُ بن الخطاب وعبد الله وطلحة والحسن، وبالثاني عمر أيضاً وزيد بن عليّ[٣].

و«طور سَينين» بفتح السين، وهي لغةُ بكرٍ وتميم، وقد قَرأ بها ابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء[٤].

وفي «البحر» أنَّه لم يُختلَفْ في أنَّه جبلٌ بالشام[٥].

وتعقَّبه الشهابُ بأنَّه خلافُ المشهور، فإنَّ المعروفَ اليوم بطور سينا ما هو بقرب التِّيْه بين مصر والعَقَبة[٦].

---

(١) ينظر حديث أنس رضي الله عنه في الموضوعات لابن الجوزي (٢٦٠).
(٢) في (م): تشبيه.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٦، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٠.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٩-٤٩٠، وفي القراءات الشاذة ص١٧٦ أنَّ عمرو بن ميمون وابن أبي إسحاق قرأا: سِنِين، بلا ياء كما قال ابن خالويه.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٣٧٦.

وسينين قيل: اسمٌ للبقعة[1] التي فيها الجبل أضيف إليه الطُّور، ويُعامَل في الإعراب معاملة بَيْرون ونحوه، فيعرب بالواو والياء، ويقرُّ على الياء وتحرك النون بحركات الإعراب.

وقال الأخفش: سينين جمعٌ بمعنى شجر، واحده[2]: سينة[3]، فكأنَّه قيل: طور الأشجار.

وأخرج ابن أبي حاتم وابنُ المنذر وعبدُ بن حميد عن ابن عباس أنَّه قال: «سينين» هو الحَسَن. وأخرج عبد بن حميد نحوه عن الضحاك، وكذلك أخرج هو وجماعةٌ عن عكرمة بزيادة: بلسان الحبشة[4]. وأخرج هو أيضاً وابن جرير وابن عساكر وغيرهما عن قتادة أنَّه قال: «سينين»: مباركٌ حَسَنٌ ذو شجر[5]. والإضافة على ما ذُكر من إضافة الصفة إلى الموصوف.

وأمَّا التين والزيتون فرَوى جماعةٌ عن قتادة أنَّ الأوَّلَ منهما الجبل الذي عليه دمشق، والثاني الجبل الذي عليه بيت المقدس[6]، ويقال ـ على ما أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن أبي حبيب الحارث بن محمد ـ للأوَّل: طور تينا، وللثاني: طور زيتا[7]. وذلك لأنَّهما منبتا التين والزيتون. وكأنَّ الكلامَ على هذا إمَّا على حذف مضاف، أو على التجوُّز بأن يكون قد تجوّزَ بالتين والزيتون عن منبتيهما، وشاع ذلك.

---

(١) في الأصل: للعقبة.

(٢) في (م): واحدته.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤٠ أن واحدها: السينينة. ومثله في معجم ما استعجم ٣/ ٨٩٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٠، والدر المصون ١١/ ٥١.

(٤) تنظر هذه الآثار في الدر المنثور ٦/ ٣٦٦، وأخرج قول عكرمة الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٠٦، والزيادة المذكورة وردت في الدر المنثور في خبر ابن عباس أيضاً.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦٦، وهو في الطبري ٢٤/ ٥٠٧، وتاريخ ابن عساكر ١/ ٢١٦.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٨٢، والطبري ٢٤/ ٥٠٣.

(٧) الدر المنثور ٦/ ٣٦٦.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الله الفارسيّ أنَّ التينَ مسجدُ دمشق، والزيتونَ بيتُ المقدس[١]. ولعل إطلاقهما عليهما لأنَّ فيهما شجراً من جنسهما.

وعن كعب الأحبار أنَّهما دمشق وإيلياء بلدُ بيت المقدس. وكأنَّ تسميتها بذلك من تسمية المحلِّ باسم الحالِّ فيه.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنَّهما مسجدُ أصحاب الكهف، ومسجد إيلياء.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنَّهما مسجدُ نوحٍ عليه السلام الذي بُني على الجودي، وبيت المقدس[٢].

وعن شهر بن حوشب أنَّهما الكوفة والشام.

وتعقِّب بأنَّ الكوفة بلدةٌ إسلاميَّة مصَّرها سعدُ بن أبي وقاص في أيّام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ولعلَّه أراد الأرض التي تسمَّى اليوم بالكوفة، فقد كانت ـ كما في «القاموس»[٣] وغيره ـ منزلَ نوحٍ عليه السلام.

وقال بعضهم: إنَّ الكوفة بلدٌ كانت قبلُ، لكنَّها خربت، فجدِّدت[٤] أيامَ عمر رضي الله عنه، وهو المراد بكونها إسلامية[٥].

وقيل: هما جبال ما بين حُلْوان وهَمَذان[٦] وجبال الشام؛ لأنَّهما منابتهما. وأيًّا ما كان، فالمتعاطفات متناسبةٌ في أنَّ المرادَ بها أماكن مخصوصةٌ.

---

(١) تنظر هذه الأخبار في الدر المنثور ٦/ ٣٦٦، وخبر ابن عباس في تفسير الطبري ٢٤/ ٥٠٤.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٥، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٤.
(٣) مادة (كوف).
(٤) بعدها في (م): في.
(٥) قوله: وهو المراد بكونها إسلامية. ليس في (م).
(٦) في الأصل: هَمَدان. والمثبت هو الصواب، أمَّا هَمْدان، بسكون الميم وبالمهملة، فهي قبيلة باليمن، وجميع ما في الصحابة والرواة ومصنفات الحديث فهو نسبة لهذه القبيلة، أما هَمَذان البلد، فلا ينسب إليها أحد من الرواة لا في الصحيحين ولا في غيرهما من كتب الحديثِ الستّة. انظر القاموس (همد) و(همذ) وما جاء في هامش الموضعين.

وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أنَّه قال: التين والزيتون: الفاكهةُ التي يأكلُها الناس[1]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد نحوه[2]. وحكاه في «البحر» أيضاً عن إبراهيم النخعيّ وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبيّ وعكرمة والحسن[3].

وخصَّهما الله تعالى ـ على هذا القول ـ بالإقسام بهما من بين الثمار؛ لاختصاصهما بخواصَّ جليلة، فإنَّ التينَ فاكهةٌ طيِّبةٌ[4] لا فضلَ لها، وغذاءٌ لطيفٌ سريعُ الانهضام، بل قيل: إنَّه أصحُّ الفواكه غذاءً إذا أُكل على الخلاء ولم يُتبَع بشيء، وهو دواءٌ كثيرُ النفع؛ يفتح السدد، ويقوي الكبد، ويذهبُ الطحالَ، وعسرَ البول، وهزال الكلى والخفقان، والربوَ، وعسر النَّفس، والسعال، وأوجاعَ الصدر، وخشونة القصبة، إلى غير ذلك.

وعن علي الرضا بن موسى الكاظم ـ على جدِّهما وعليهما السلام ـ أنَّه يزيلُ نكهةَ الفم، ويطوِّلُ الشعرَ، وهو أمانٌ من الفالج.

وروى أبو ذرٍّ أنَّه أهديَ إلى النبيِّ ﷺ طبقٌ من تين، فأكلَ منه وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت: إنَّ فاكهةً نزلت من الجنة لقلت هذه؛ لأنَّ فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنَّها تقطعُ البواسير، وتنفع من النِّقْرِس»[5].

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٦، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٢٥٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٦، وأخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٤/ ٥٠٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩.
(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: وهو معتدلٌ في الحرارة، رطب في الثالثة، أو هو حارٌّ في الأولى فإذا جفَّ كان حارًّا في الثانية رطباً في الأولى. اهـ منه.
(٥) الوسيط ٤/ ٥٢٣، والفردوس بمأثور الخطاب (٤٧١٦)، والكشاف ٤/ ٢٦٨، وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٨٦: أخرجه أبو نعيم في الطب، والثعلبيُّ من حديث أبي ذر، وفي إسناده من لا يعرف. اهـ. والعجم بفتحتين: النوى، وكلُّ ما كان في جوف مأكول كالزبيب ونحوه. مختار الصحاح (عجم).

ولم أقف للمحدِّثين على شيءٍ في هذا الحديث، لكن قال داود الطبيب[١] بعد سرد نبذةٍ من خواصِّ التين: وفي نفعه من البواسير حديثٌ حسن، وذكرَ أنَّ نفعه من النِّقْرِس إذا دُقَّ مع دقيق الشعير أو القمح أو الحُلْبَة[٢]، وذكر أنَّه حينئذٍ ينفعُ من الأورام الغليظة وأوجاع المفاصل، وله مفرداً ومركّباً خواصُّ أخرى كثيرةٌ.

وكذا لشجرته كما لا يخفى على من راجع كتب الطب. وما أشبهَ شجرتَه بمُؤْثِرٍ على نفسه، وبِكَرِيمٍ يفعلُ ولا يقول.

وأمَّا الزيتونُ فهو إدامٌ ودواءٌ وفاكهةٌ[٣]، فيما قيل، وقالوا: إنَّ المكلَّس منه لا شيءَ مثلُه في الهضم والتسمين وتقويةِ الأعضاء، ويكفيه فضلاً دهنه الذي عمَّ الاصطباح به في المساجد ونحوها، مع ما فيه من المنافع، كتحسين الألوان، وتصفية الأخلاط، وشدِّ الأعصاب، وكفتح السدد، وإخراج الدود، والإدرار، وتفتيتِ الحصى، وإصلاح الكلى، شرباً بالماء الحارِّ، وكقلع البياض، وتقوية البصر اكتحالاً، إلى غير ذلك.

وشجرته هي[٤] الشجرة المباركة المشهودُ لها في التنزيل، وإذا تتبعتَ خواصَّ أجزائها ظهر لك أنَّها أجدى من تفاريق العصا.

وعن معاذ بن جبل أنَّه مرَّ بشجرةِ زيتون، فأخذَ منها سواكاً، فاستاكَ به، وقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «نعم السِّواكُ الزيتون من الشجرة المباركة، يطيِّب الفمَ، ويَذهبُ بالحَفْرة»، وسمعته عليه الصلاة والسلام يقول: «هو سواكي وسواكُ الأنبياء عليهم السلام قبلي»[٥].

---

(١) هو داود بن عمر الأنطاكي نزيل القاهرة، له كتب في الطب منها: استقصاء الملل ومشافي الأمراض والعلل، وبغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج، وكفاية المحتاج في علم العلاج، وغيرها. توفي سنة (١٠٠٨هـ). هدية العارفين ١/ ٣٦٢. وكلامه في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ١٠٠.

(٢) الحلبة: نبات عشبيٌّ من فصيلة القرنيات، يؤكل ويعالج به. المعجم الوسيط (حلبَ).

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وهو إن لم ينضج فبارد يابس في الثانية، وإن نضج فكورقه حار يابس في الثانية. اهـ منه.

(٤) في (م): من.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٧٨)، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٨٦: أخرجه =

وقال بعضهم: إنَّ تفسيرهما بما ذُكر هو الصحيح، وكأن المراد عليه تينُ تلك الأماكن المقدسة وزيتونُها. والغرضُ من القَسَم بتلك الأشياء الإبانةُ عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها[١] من الخير والبركة، ويرجعُ إلى القَسَم بالأرض المباركة وبالبلد الأمين، وفيه رمزٌ إلى فضلِ البلد، كما يشعر به كلامُ صاحب «الكشاف»[٢]، وبيَّن ذلك في «الكشف» بقوله: وذلك أنَّه فصَّل بَركتي الأرض المقدسة الدنيوية والدينية بذكر الشجرتين أو ثمرتيهما، والطورِ الذي نودي منه موسى عليه السلام، ونابَ المجموعُ منابَ: والأرض المباركة، على سبيل الكناية، فظهر التناسبُ في العطف على وجهٍ بيِّنٍ، إذ عطفُ البلد على مجموع الثلاثة؛ لأنَّها كالفرد بهذا الاعتبار، كأنَّه قيل: والأرض التي باركنا فيها ديناً ودُنيا، والبلدِ الآمنِ مَنْ دخلَه في الدارين، وذلك بركةٌ يتضاءلُ دونَها كلُّ بركةٍ[٣]. ويتضمَّن ذلك أنَّ شرفَ تلك البقاع بمناجاة موسى عليه السلام ربَّه عزَّ وجلَّ أيَّاماً معدودةً، وكم قد[٤] نوجيت في البلد الأمين. ثم قال: والحملُ على الظاهر - أريدَ المنابتُ أو الشَّجَران - يفوته المناسبةُ بين الأوَّلَين والبلدِ الأمين؛ لأنَّ مناسبةَ طورسينين للبلد غيرُ مناسبته لهما، والكلام مسوقٌ للأوَّل. انتهى. فتأمَّل فإنَّه دقيقٌ.

وأيًّا ما كان فجوابُ القسم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلخ، وأريدَ بـ «الإنسان» الجنس، فهو شاملٌ للمؤمن والكافر، لا مخصوصٌ بالثاني، واستدلَّ عليه بصحَّة الاستثناء، وأنَّ الأصلَ فيه الاتصال.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في موضع الحال من «الإنسان» أي: كائناً في تقويم أحسنِ تقويم، والتقويم: التثقيفُ والتعديل، وهو فعلُ الله عزَّ وجلَّ، فمعنى

= الطبراني في الأوسط والثعلبي من حديث البراء بن عازب، وإسناده واه. اهـ. والحفر: صفرة تعلو الأسنان. القاموس (حفر).

(١) في الأصل: منها.

(٢) ٤/ ٢٦٩.

(٣) تكرر بعدها في (م) قوله: يتضاءل دونها كل بركة.

(٤) لفظة: قد. ليست في (م).

كون الإنسان كائناً في ذلك ـ على ما قيل ـ أنَّه ملتبسٌ به، نظير قولك: فلانٌ في رضى زيد، بمعنى أنَّه مرضيٌّ عنه.

وقال الخفاجيُّ[١]: هو مؤوَّل بمعنى القوام أو المقوَّم، أو فيه[٢] مضاف مقدَّر، أي: قوامٍ أحسن تقويم، أو «في» زائدة، وما بعدَها في موضع المفعول المطلق، وقد نابَ فيه عن المصدر صفتُه، والتقدير: قوَّمناه تقويماً أحسنَ تقويم. والمرادُ بذلك جَعْلُه على أحسن ما يكون صورةً ومعنًى، فيشمل ما له من انتصاب القامة، وحُسْن الصورة، والإحساس، وجودة العقل، وغير ذلك.

ومن أمْعَنَ نظرَه في أمره، وأجال فكره في دقائق ظاهره وسرِّه؛ رآه ـ كما قال بعض الأجلَّةِ ـ مجمع بَحْرَي[٣] الغيب والشهادة، ومطلعَ نيِّري فَلَكَي الإفادة والاستفادة، والنسخةَ الجامعة لما في رسائل إخوان الصفا وسائر المتون، والشارح بسطورٍ طروسَ العجائب الإلهية المودعةِ فيه لِمَا كان وسيكون، وظهرَ له صدقُ ما قيل ـ ونسب لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه ـ:

دواؤك فيك ولا تشعر وداؤك منك وما تبصرُ
وتزعم أنَّك جرم صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[٤]

ومما يدلُّ على أحسنيَّة تقويمه أنَّ الله تعالى رَسَم فيه من الصفات ما تذكِّره صفاتَه عزَّ وجلَّ، وتدلُّه عليها، فجعله عالِماً، مريداً، قادراً، إلى غير ذلك. وقال[٥]: «تخلَّقوا بأخلاق الله»[٦] لئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّ ما للسيِّد على العبد حرام، ويكفي في هذا الباب ـ وهو القول الفصل ـ أنَّ الله تعالى خلقَه بيديه، وأمرَ سبحانه ملائكته

(١) في حاشيته ٨/ ٣٧٧.
(٢) في الأصل و(م): وفيه، والمثبت من حاشية الشهاب.
(٣) في (م): مجرى.
(٤) سلفا ١/ ٢٧٢-٢٧٣.
(٥) بعدها في الأصل و(م): تعالى، وهو خطأ واضح.
(٦) روي على أنه حديث عن النبي ﷺ، ولا يعرف له أصل في شيء من كتب السنة. ينظر مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٢٤١، وشرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٨١.

عليهم السلام بالسجود له، وهم المكرمون لديه، وجاء: «إنَّ الله تعالى خلقَ آدم على صورته»، وفي رواية: «على صورة الرحمن»[١]، وهي تأبى احتمالَ عود الضمير على آدم على معنى خلقِه غير متنقِّلٍ في الأطوار كَبَنِيْه.

ولكونه النسخةَ الجامعة قال يحيى بن معاذ الرازي: مَن عرف نفسه فقد عرف ربَّه. والناسُ يزعمونه حديثاً، وليس ـ كما قال النوويُّ ـ بثابت[٢].

وعن يحيى بن أكثم وبعض الحنفيَّة أنَّهما أفتيَا من قال لزوجته: إن لم تكوني أحسنَ من القمر فأنت طالق، بعدم وقوع الطلاق، واستدلَّا بهذه الآية في قصَّةٍ مشهورةٍ[٣]، وللشعراء في تفضيل معشوقيهم على القمر ليلةَ تمِّه ما يضيقُ عنه نطاقُ الحصر. والحقُّ أنَّ الفرقَ مثلُ الصبح ظاهر.

و«ثمَّ» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝﴾ للتراخي الزمانيِّ أو الرتبيِّ، والردُّ إمَّا بمعنى الجعل، فيَنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، كما في قوله:

فردَّ شعورهنَّ السودَ بيضاً ورَدَّ وجوههنَّ البيضَ سُوْدا[٤]

فـ «أسفل» مفعولٌ ثانٍ له هنا، والمعنى: ثمَّ جعلناه من أهل النار الذين هم أقبحُ من كلِّ قبيحٍ وأسفلُ من كلِّ سافل خلقاً وتركيباً؛ لعدم جريه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات.

وجُوِّزَ أنْ يكون المرادُ بالردِّ تغييرَ الحال، فهو متعدٍّ لواحد، و«أسفل» حالٌ من المفعول، أي: رددناه حال كونه أقبحَ من قَبُح صورةً وأشوهَه خلقةً، وهم أصحاب النار.

وأن يكونَ الردُّ بمعناه المعروف، و«أسفل» منصوبٌ بنزع الخافض، وجُعِل الأسفلُ عليه صفةً لمكان، وأريد بالسافلين الأمكنةُ السافلة، أي: رددناه إلى مكانٍ

---

(١) سلفت الروايتان ٢/ ٩٠-٩١.

(٢) فتاوى النووي ص٢٤٨.

(٣) تنظر هذه القصة في الفرج بعد الشدة للتنوخي ٤/ ٣٧٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٠، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٩.

(٤) البيت لعبد الله بن الزبير الأسدي، وسلف ٤/ ٣٥٨.

أسفل الأمكنة السافلة، وهو جهنم، أو الدرك الأسفل من النار. ويعكِّر على هذا جمعُها جمعَ العقلاء. وكونُه للفاصلة أو التنزيلِ منزلةَ العقلاء ليس مما يهتشُّ له، ولعلَّ الأَوْلَى على ذلك أن يُراد: إلى أسفل مَن سَفُلَ مِن أهل الدركات.

وقال عكرمة والضَّحَّاك والنخعيُّ، وقتادة في رواية: المرادُ بذلك رَدُّه إلى الهرم وضَعْفِ القوى الظاهرة والباطنة، أي: ثمَّ رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفلَ من سفل في حسن الصورة والشكل، حيث نكسناه في خلقه، فقوِّس ظهرُه بعد اعتداله، وابيضَّ شعرُه بعد سواده، وتشنَّن جلده وكان بضًّا، وكَلَّ سمعُه وبصره وكانا حديدين، وتغيَّر كلُّ شيءٍ منه، فمشيه دليف، وصوته خفات، وقوَّته ضعف، وشهامته خَرَف. والآيةُ على هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾[1] [الحج: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] وهو باعتبار الجنس، فلا يلزمُ أن يكون كلُّ إنسانٍ[2] كذلك. وفي إعراب «أسفل» قيل الأوجُه السابقة، والأوجَه منها غيرُ خفيٍّ. ثمَّ المتبادر من السياق الإشارةُ إلى حال الكافر يوم القيامة وأنَّه يكونُ على أقبح صورةٍ وأبشعها بعد أنْ كان على أحسن صورةٍ وأبدعِها؛ لعدم شكره تلك النعمة وعملِه بموجبها، وإرادةُ ما ذكر لا يلائمه، ومن هنا قيل: إنَّه خلافُ الظاهر، والظاهرُ ما لاءم ذلك، كما هو المرويُّ عن الحسن ومجاهد وأبي العالية وابن زيد وقتادة أيضاً[3].

وقرأ عبد الله: «السافلين» مقروناً بـ «أل»[4].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على ما تقدَّم استثناءٌ متَّصلٌ من ضمير «رددناه» العائد على الإنسان، فإنَّه في معنى الجمع، فالمؤمنون لا يُرَدُّون أسفلَ سافلين يومَ القيامة، ولا تقبح صورُهم، بل يزدادون بهجةً إلى بهجتهم،

---

(١) وقع في الأصل و(م): ثم يردُّ إلى أرذل العمر.

(٢) في (م): الإنسان.

(٣) وهو قولهم: أسفل سافلين في النار على كفره. البحر ٨/ ٤٩٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٤، والكشاف ٤/ ٢٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٠.

وحسناً إلى حسنهم، وقولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ـ أي: غير مقطوعٍ، أو غيرُ ممنونٍ به عليهم ـ مقرِّرٌ لما يفيده الاستثناءُ من خروجهم عن حكم الردِّ، ومبيِّنٌ لكيفيَّة حالهم.

وعلى الأخير(١) الاستثناء منقطع، والموصولُ مبتدأ، وجملة «لهم أجر» خبرُه، والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، والكلامُ على معنى الاستدراك، كأنَّه قيل: لكن الذين آمنوا لهم أجرٌ. . إلخ، وهو لدفع ما يتوهَّم من أنَّ التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره، فلا يَرِدُ أنَّه: كيف يكون منقطعاً، والمؤمنون داخلون في المردودين إلى أرذل العمر، غيرُ مخالفين لغيرهم في الحكم؟

وقال بعض المحققين: الانقطاع لأنَّه لم يقصد إخراجهم من الحكم، وهو مدار الاتصال والانقطاع ـ كما صُرِّح به في الأصول ـ لا الخروج والدخول، فلا تغفل.

وحمل غيرُ واحدٍ هؤلاء المؤمنين على الصالحين من الهرمى، كأنَّه قيل: لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى لهم ثوابٌ دائمٌ غيرُ منقطع، أو غير ممنون به عليهم؛ لصبرهم على ما ابتلوا به من الهرم والشيخوخة المانعَين إيَّاهم عن النهوض لأداء وظائفهم من العبادة. أخرج أحمد والبخاريُّ وابن حبان عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرضَ العبدُ أو سافر كتبَ الله تعالى له من الأجر مثلَ ما كان يعملُ صحيحاً مقيماً»(٢). وفي روايةٍ عنه: ثم قرأ ﷺ: (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(٣).

أخرج الطبرانيُّ عن شدَّاد بن أوس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليتُ عبداً من عبادي مؤمناً، فحمدني على ما ابتليته، فإنَّه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمُّه مِن الخطايا، ويقول الربُّ عزَّ وجلَّ: إنِّي أنا

(١) يعني على القول بأن المراد الردُّ إلى الهرم وضعف القوى.
(٢) صحيح البخاري (٢٩٩٦)، ومسند أحمد (١٩٦٧٩)، وصحيح ابن حبان (٢٩٢٩).
(٣) أخرجها ابن مردويه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٧.

قيَّدتُ عبدي هذا وابتليته، فأَجْرُوا له ما كنتم تُجْرُون له قبل ذلك وهو صحيح»[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: إذا كَبِر العبد، وضَعُف عن العمل، كُتِب له أجرُ ما كان يعملُ في شبيبته[2].

ومن الناس مَن حَمَلَهم على قرَّاء القرآن، وجعل الاستثناءَ متَّصلاً مُخْرِجاً لهم عن حكم الردِّ إلى أرذل العمر، بناءً على ما أخرجَ الحاكمُ وصححه والبيهقي في «الشعب» عن الحبر قال: مَن قرأ القرآن لم يردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله تعالى: (ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) قال: إلَّا الذين قرؤوا القرآن[3].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه[4]، وفيه أنَّه لا ينزل تلك المنزلةَ ـ يعني الهرم كي لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً ـ أحدٌ من قرَّاء القرآن.

ولا يخفى أنَّ تخصيصَ «الذين آمنوا» بما خصص به خلافُ الظاهر، وفي كون أحدٍ من القرَّاء لا يردُّ إلى أرذل العمر توقُّفٌ فليتتبع.

والخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ عند الجمهور[5] للإنسان[6]، على طريقة الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت، والفاء لتفريع التوبيخ عن البيان السابق، والباء للسببيَّة، والمراد بالدين الجزاءُ بعدَ البعث، أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الجزاء وإنكاره بعد هذا الدليل. والمعنى: إنَّ خلقَ الإنسان من نطفةٍ، وتقويمَه على وجهٍ يبهرُ الأذهان ويَضيقُ عنه نطاقُ البيان، أو هذا مع

---

(١) المعجم الكبير (٧١٣٦)، والأوسط (٤٧٠٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧١١٨)، وتنظر شواهده في حاشية المسند.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٧.

(٣) المستدرك ٢/ ٥٢٨-٥٢٩، وشعب الإيمان (٢٧٠٦).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٦٧، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥١٧.

(٥) جاء في هامش الأصل ما نصه: حتى إنَّ مجاهداً سُئل: هل الخطاب في ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: معاذ الله تعالى، إنَّما عَنى به الإنسان. أخرجه جماعة. اهـ منه.

(٦) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي باعتبار الجنس، فلا تغفل. اهـ منه.

تحويله من حالٍ إلى حال، من أوضح الدلائل على قدرة الله عزَّ وجلَّ على البعث والجزاء، فأيُّ شيءٍ يضطرك أيُّها الإنسان بعد هذا الدليل القاطع إلى أنْ تكون كاذباً بسبب تكذيبه، فإنَّ كلَّ مكذِّبٍ بالحقِّ فهو كاذب.

وقال قتادة والأخفش والفرَّاء: الخطابُ للرسول ﷺ[1]، أي: فأيُّ شيءٍ يكذِّبُك بالجزاء بعد ظهور دليله، وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذِّبين، أي: إنَّه لا يكذِّبُك شيءٌ ما بعدَ هذا البيان بالجزاء، لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله تعالى، ولا يرفعون بها رأساً، فالاستفهام لنفي التكذيب وإفادةِ أنَّه عليه الصلاة والسلام ـ لاستمرارِ الدلائل وتعاضُدِها ـ مستمرٌّ على ما هو عليه من عدم التكذيب. وفيه من اللطف ما ليس في الأوَّل.

وجُوِّزَ على هذا الوجه كونُ الباء بمعنى «في»، وكونها للسببية، وتقديرُ مضاف عليهما، والمعنى: أيُّ شيء ينسبُك إلى الكذب في إخبارك بالجزاء، أو بسبب إخبارك به، بعد هذا الدليل.

وكونُها صلةَ التكذيب، و«الدين» بمعناه، والمعنى: أيُّ شيءٍ يجعلُك مكذِّباً بدين الإسلام، وروي هذا عن مجاهد وقتادة، والاستفهام على ما سمعت. وجُوِّزَ كونُ الدين بمعناه على الوجه الأول أيضاً.

وبعضُ من ذهب إلى كون الخطاب لسيِّد المخاطبين ﷺ جَعَل «ما» بمعنى «مَن»؛ لأنَّ المعنى عليه أظهر.

وضُعِّف بأنَّه خلافُ المعروف في «ما»، فلا ينبغي ارتكابُه مع صحَّة بقائها على المعروف فيها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ أي: أليس الذي فعل ما ذُكِر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً، حتى يتوهَّم عدم الإعادة والجزاء، وحيثُ استحال عدم كونه سبحانه أحكمَ الحاكمين تعيَّن الإعادة والجزاء. والجملة تقريرٌ لما قبلَها.

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٧، وللأخفش ٢/ ٧٤٠، والبحر ٨/ ٤٩٠، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٧٧.

وقيل: الحكم بمعنى القضاء، فهي وعيدٌ للكفار، وأنه عزَّ وجلَّ يحكمُ عليهم بما هم أهلُه من العذاب.

وأيًّاما كان، فالاستفهام على ما قيل: تقريرٌ بما بعد النفي، ويدلُّ على ذلك ما أخرجه الترمذيُّ وأبو داود وابنُ مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم «والتين والزيتون» فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

وجاء في بعض الروايات أنَّه ﷺ كان يقول: إذا أتى على هذه الآية: «سبحانك فبلى»[2]، وقد تقدَّم ما يتعلَّق بهذا في تفسير سورة «لا أقسم بيوم القيامة» فتذكَّر.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٧)، وسنن أبي داود (٨٨٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣٩١)، وهو من طريق إسماعيل بن أمية، عن أعرابي، عن أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي عن أبي هريرة ولا يسمى. اهـ، وقال أبو زرعة كما في العلل لابن أبي حاتم ٢/ ٩٠: الصحيح: إسماعيل بن أمية عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبي هريرة موقوفاً.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٧ عن صالح أبي الخليل عن النبي ﷺ، وهو مرسل. وصالح هو ابن أبي مريم الضُّبعي مولاهم، البصري، روى عن أبي قتادة الأنصاري وعن أبي موسى مرسلاً. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧٩.

(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة

سورة العلق مكية ، وهي تعالج الأمور الآتية :

أ – موضوع الوحي وبدء نزول القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين .

ب – موضوع طغيان الإنسان بالمال ، وتمرده بسبب النعمة على أوامر ربه .

جـ – حادثة « أبي جهل » ونهيه للرسول عليه الصلاة والسلام عن الصلاة في المسجد الحرام وتوعده له .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ وهو يتعبد ربه في غار حراء ، وتذكيره بأول النعماء الفائضة على قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام ، وإظهار بديع قدرة الله في خلق هذا الإنسان ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾

● **ثم تحدثت** عن تكبر الإنسان وتمرده على أوامر الله ، وطغيانه في هذه الحياة بسبب نعمة الغِنى ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه لا أن يجحد بنعمائه ، وذكَّرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كلاَّ إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إنَّ إلى ربك الرجعى﴾ .

● **ثم ذكرت** قصة ذلك الكافر الشقي « أبي جهل » الذي كان يتوعد الرسول ﷺ ويتهدده إن رآه يصلي ، وكان ينهاه عن الصلاة انتصاراً لكرامة آلهته من الأوثان ﴿ أرأيتَ الذي ينهي عبداً إذا صلى ؟

أرأيتَ إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ؟ أرأيتَ إن كذَّب وتولَّى . ألم يعلم بأن الله يرى ؟) .

وختمت **السورة** الكريمة بوعيد ذلك الشقي بأشدِ أنواع العذاب ، إن استمر على ضلاله وطغيانه ، وأمرت الرسول عليه السلام بالجهر بصلاته وعبادته ، وعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندعوا الزبانية . كلالا تطعه واسجد واقترب﴾ .

سورة العلق

[١٠٢٦] أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾(١) الآيات.

[١٠٢٧] ك.. وأخرج ابن جرير(٢) عن ابن عباس قال كان رسول الله [ﷺ] يصلي فجاءه أبو جهل فنهاه فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(٣).

[١٠٢٨] وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: كان النبي [ﷺ] يصلي فجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا فزجره النبي [ﷺ] فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾(٤) قال الترمذي حسن صحيح.

* * *

[١٠٢٦] (١)سورة العلق: الآية (٦).

[١٠٢٧] (٢)رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٧) من طريق أبو سعيد الأشج عن عبد العزيز بن هند عن ابن عباس.

(٣)سورة العلق: الآية (٩و١٦).

[١٠٢٨] (٤)سورة العلق: الآية (١٧و١٨).

سورة العلق

تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾

زعم المفسرون: أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون: الفاتحة أول ما نزل ثم سورة العلق.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ اعلم أن في الباء من قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قولين: **أحدهما:** قال أبو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى: اقرأ اسم ربك، كما قال الأخطل:

هُنَّ الحَرَائِرُ لاَ رَبَّاتُ أَخْمِرَةٍ سُودُ المَحَاجِرِ لاَ يَقْرَأْنَ بِالسُّوَرِ[1]

ومعنى اقرأ اسم ربك، أي أذكر اسمه. **وهذا القول ضعيف لوجوه: أحدها:** أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول: ما أنا بقارئ، أي لا أذكر اسم ربي. **وثانيها:** أن هذا الأمر لا يليق بالرسول؛ لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله، فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولاً به أبدًا. **وثالثها:** أن فيه تضييع الباء من غير فائدة.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿اقْرَأْ﴾ أي اقرأ القرآن، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] وقال: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجوهًا: **أحدها:** أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير: اقرأ القرآن مفتتحًا باسم ربك، أي قل: باسم الله ثم اقرأ. وفي هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية في ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به، وفي هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجبًا ولا يبتدئ بها. **وثانيها:** أن يكون المعنى (اقرأ القرآن مستعينًا باسم ربك) كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا، نظيره: (كتبت بالقلم) وتحقيقه أنه لما قال له: ﴿اقْرَأْ﴾ فقال له: لست بقارئ، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي استعن باسم ربك واتخذه آلة في تحصيل هذا الذي عسر عليك. **وثالثها:** أن قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله، كما تقول: بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله، فإن العبادة إذا صارت لله تعالى، فكيف يجترئ الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى؟ **فإن قيل:** كيف يستمر هذا التأويل في قولك: قبل الأكل بسم الله، وكذا قبل كل فعل

---

(١) تقدمت ترجمة الأخطل.

مباح؟ **قلنا:** فيه وجهان: **أحدهما:** أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك، فقد روي أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في ذلك الطعام. **والثاني:** أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة، فيصح ذلك التأويل فيه.

أما قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ **ففيه سؤالان:**

احدها: وهو أن الرب من صفات الفعل، والله من أسماء الذات، وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب، ثم إنه تعالى قال ههنا: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: اقرأ باسم الله، كما قال في التسمية المعروفة: بسم الله الرحمن الرحيم. **وجوابه:** أنه أمر بالعبادة، وبصفات الذات، وهو لا يستوجب شيئًا، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع، فقال: هو الذي رباك فكيف يفزعك؟ فأفاد هذا الحرف معنيين: **أحدهما:** ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل. **والثاني:** أن الشروع ملزم للإتمام، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك؟! أي حين كنت علقًا لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقًا نفيسًا موحدًا عارفًا بي كيف أضيعك؟

السؤال الثاني: ما الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه، فقال: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟ **الجواب:** تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية، ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، نظيره قوله عليه السلام: «عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ» كأنه تعالى يقول: هو لي وأنا له. يقرره قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أو نقول: إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه، إذ قد علم في الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر، يقول: (هو ابني فحسب) لِما أنه ينال منه المنفعة، فيقول الرب تعالى: المنفعة تصل مني إليك، ولم تصل منك إليَّ خدمة ولا طاعة إلى الآن، فأقول: أنا لك ولا أقول أنت لي، ثم إذا أتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسي فقلت: أنزل على عبده ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣].

السؤال الثالث: لم ذكر عقيب قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؟ **الجواب:** كأن العبد يقول: ما الدليل على أنك ربي؟ فيقول: لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدومًا. ثم صرت موجودًا فلا بد لك في ذاتك وصفاتك من خالق، وهذا الخلق والإيجاد تربية، فدل ذلك على أني ربك وأنت مربوبي.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾

أما قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه: **احدها:** أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لا

يُقدر له مفعول، ويكون المعنى أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه. **والثاني:** أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق؛ لأنه مطلق، فليس حمله على البعض أَوْلى من حمله على الباقي، كقولنا: (الله أكبر) أي من كل شيء، ثم قوله بعد ذلك: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات، إما لأنّ التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض. **والثالث:** أن يكون قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبهمًا ثم فسره بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ تفخيمًا لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى، قالوا: لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها. قالوا: وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هي القدرة على الاختراع، ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣] قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء: ٢٦] والربوبية إشارة إلى الخالقية التي ذكرها ههنا، وكل ذلك يدل على قولنا.

المسألة الثالثة: اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى، أو النظر في معرفة الله، أو القصد إلى ذلك النظر، على الاختلاف المشهور فيما بينهم، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولاً إلى المشركين، لو قال له: (اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له) لأبوا أن يقبلوا ذلك منه، لكنه تعالى قَدَّم لذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به، كما يحكى أن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه، فرجع إلى أبي حنيفة وأخبره بذلك، فقال: إنك لم تعرف طريق التبليغ، لكن ارجع إليهم، واذكر في المسألة أقاويل أئمتهم ثم بيِّن ضعفها، ثم قل بعد ذلك: ههنا قول آخر، واذكر قولي وحجتي، فإذا تمكّن ذلك في قلبهم، فقل: (هذا قول أبي حنيفة) لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون. فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول: إن هؤلاء عباد الأوثان، فلو أثنيتَ عليَّ وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خُلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره، ثم قل: (ولا بد للفعل من فاعل) فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه، فبهذا التدريج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧] ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية وحصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهًا، فلهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧]. ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل؛ لأن المؤثر فيه إن كان حادثًا افتقر إلى مؤثر آخر، وإن كان قديمًا فإما أن يكون موجبًا أو قادرًا، فإن كان موجبًا لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة.

المسألة الرابعة: إنما قال: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[العصر: ٢].

قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: اقرأ أولاً لنفسك، والثاني للتبليغ. أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم. أو اقرأ في صلاتك والثاني خارج صلاتك.

المسألة الثانية: الكرم إفادة ما ينبغي لا لعوض، فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم، ومن أعطى ثم طلب عوضًا فهو ليس بكريم، وليس يجب أن يكون العوض عينًا بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض، ولهذا قال أصحابنا: إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلاً لغرض لأنه لو فعل فعلاً لغرض لكان حصول ذلك الغرض أَوْلى له من لا حصوله، فحينئذٍ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية، فيكون ناقصًا بذاته مستكملاً بغيره، وذلك محال. **ثم ذكروا في بيان أكرميته تعالى وجوهًا: أحدها**: أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية، لكنه لا يبقى إحسانه على الوجه الذي كان قبل الجناية، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية، ومنه قول القائل:

مَتَى زِدْتُ تَقْصِيرًا تَزِدْ لِي تَفَضُّلاَ   كَأَنِّي بِالتَّقْصِيرِ أَسْتَوْجِبُ الْفَضْلاَ[1]

وثانيها: إنك كريم لكن ربك أكرم، وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعًا إما مدحًا أو ثوابًا أو يدفع ضررًا، أما أنا فالأكرم إذ لا أفعله إلا لمحض الكرم. **وثالثها**: أنه الأكرم لأن له الابتداء في كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير. **ورابعها**: يحتمل أن يكون هذا حثًّا على القراءة، أي هذا الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشرًا أو حثًّا على الإخلاص، أي لا تقرأ لطمع ولكن لأجلي ودع عليَّ أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك ما لا يخطر ببالك، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحدًا، فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك.

المسألة الثالثة: أنه سبحانه وصف نفسه بأنه خلق الإنسان من علق وثانيًا بأنه علقة وهي بالقلم، ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة وهي أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالمًا بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات، فكأنه تعالى يقول: انتقلتَ من أخس المراتب إلى أعلى المراتب، فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة. ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، كأنه تعالى يقول: الإيجاد والإحياء والإقدار والرزق كرم وربوبية، أما الأكرم

---

(١) البيت للشاعر محمود الوراق وهو محمود بن حسن الوراق أبو الحسن(؟ - ٢٢٠هـ/ ؟ - ٨٤٠م) شاعر عباسي مشهور من شعراء القرنين الثاني والثالث المرموقين، وقد ذكر أنه كان مولى لبني زهرة وهو شاعر من بغداد لذلك علق به لقب البغدادي، وأكثر شعره في المواعظ والحكم، وقد اشتهر بلقبين أحدها الوراق والآخر النخاس، فأما الوراق فهو الناسخ بالأجرة ولعلها مهنة عمل بها، وأما اللقب الآخر (النخاس) فقد جاء من المهنة كذلك، قال البغدادي: وقد كان نخاسًا يبيع الرقيق وكان له رقيق.

فهو الذي أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية في الشرف.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة، وقوله: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثاني إلى النبوة، وقدَّم الأول على الثاني تنبيهًا على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ وجهان: **أحدهما**: أن المراد من القلم الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة، وجعل القلم كناية عنها. **والثاني**: أن المراد علَّم الإنسان الكتاب بالقلم. وكلا القولين متقارب، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتًا عن الكلام فقال: ريح لا يبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة. فالقلم صياد يصيد العلوم يبكي ويضحك، بركوعه تسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والأيام، نظيره قول زكريا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] أخفى وأسمع، فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منورًا، كما أنه جعلك بالسواد مبصرًا، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين، ولا تقل القلم نائب اللسان، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم، التراب طهور، ولو إلى عشر حجج، والقلم بدل (عن اللسان) ولو (بُعث) إلى المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾

فيحتمل أن يكون المراد علَّمه بالقلم وعلَّمه أيضًا غير ذلك، ولم يذكر واو النسق، وقد يجري مثل هذا في الكلام، تقول: (أكرمتك أحسنت إليك) (ملَّكتك الأموال وليتك الولايات) ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحدًا ويكون المعنى: علَّم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه. فيكون قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ بيانًا لقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٤].

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل، ثم منهم من قال: نزلت السورة من ههنا إلى آخرها في أبي جهل. وقيل: نزلت من قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا﴾ [العلق: ٩-١٠] إلى آخر السورة في أبي جهل. قال ابن عباس: كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم أني أكثر أهل الوادي ناديًا. فأنزل الله تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨][1] قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله. فكأنه تعالى لما عَرَّفه أنه مخلوق

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٤٤) حديث رقم (٣٣٤٩) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٥١٨) حديث رقم (١١٦٨٤) كلاهما من طريق أبي خالد عن داود=

من علق فلا يليق به التكبر، فهو عند ذلك ازداد طغيانًا وتعززًا بماله ورياسته في مكة. ويروى أنه قال: ليس بمكة أكرم مني. ولعله لعنه الله قال ذلك ردًّا لقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ٣] ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل ما نزل. ومنهم من قال: يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولاً، ثم نزلت البقية بعد ذلك في شأن أبي جهل، ثم أمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. **القول الثاني:** أن المراد من الإنسان المذكور في هذه الآية جملة الإنسان، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر؛ لأنه تعالى بيَّن أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقة، وأنعم عليه بالنعم التي قدمنا ذكرها، إذ أغناه، وزاد في النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد في المعاصي واتباع هوى النفس، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] أي إلى حيث لا مالك سواه، فتقع المحاسبة على ما كان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَلَّآ﴾ [العلق: ٦] فيه وجوه: **أحدها:** أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه، وإن لم يُذكر لدلالة الكلام عليه. **وثانيها:** قال مقاتل: كلا، لا يعلم الإنسان إن الله هو الذي خلقه من العلقة وعلَّمه بعد الجهل، وذلك لأنه عند صيرورته غنيًّا يطغى ويتكبر، ويصير مستغرق القلب في حب الدنيا، فلا يتفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها. **وثالثها:** ذكر الجرجاني صاحب (النظم) أن كلا ههنا بمعنى حقًّا لأنه ليس قبله ولا بعده شيء تكون ﴿كَلَّآ﴾ ردًا له، وهذا كما قالوه في ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢] فإنهم زعموا أنه بمعنى: إي والقمر.

المسألة الثالثة: الطغيان هو التكبر والتمرد، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة، بحيث يبعد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها، أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك. **فإن قيل:** إن فرعون ادعى الربوبية، فقال الله تعالى في حقه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] وههنا ذكر في أبي جهل: ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾ فأكده بهذه اللام، فما السبب في هذه الزيادة؟ **قلنا:** فيه وجوه: **أحدها:** أنه قال لموسى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ وذلك قبل أن يلقاه موسى، وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وقبل أن يدعي الربوبية. وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد

=ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس... به، والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٥٢٥) من طريق الحكم بن جميع قال: حدثنا علي بن مسهر جميعًا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس... به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٧٥).

عليه أقبح الرد. **وثانيها:** أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول، وما كان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه. وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي ﷺ وإيذاءه. **وثالثها:** أن فرعون أحسن إلى موسى أولاً، وقال آخرًا: (أمنتُ). وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه، وقال في آخر رمقه: بلِّغوا عني محمدًا أني أموت ولا أحد أبغض إليَّ منه. **ورابعها:** أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده، بل يصون عينه باليد، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر.

قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

أما قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الأخفش: (لأن رآه) فحذف اللام، كما يقال: إنكم لتطغون أن رأيتم غناكم.

المسألة الثانية: قال الفراء: إنما قال: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ ولم يقل: (رأى نفسه) كما يقال: (قتل نفسه) لأن رأى من الأفعال التي تستدعي اسمًا وخبرًا نحو الظن والحسبان، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فنقول: رأيتني وظننتني وحسبتني فقوله: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ من هذا الباب.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ وجهان: **أحدهما:** استغنى بماله عن ربه، والمراد من الآية ليس هو الأول؛ لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعًا كسليمان عليه السلام، فإنه كان يجالس المساكين ويقول: (مِسْكِينٌ جَالَسَ مِسْكِينًا) وعبد الرحمن بن عوف ما طغى مع كثرة أمواله، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره؛ لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه، وأما حال الغنى فإنه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه، وفي الآية وجه ثالث: وهو أن سين ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ سين الطالب والمعنى أن الإنسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد، لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه، وهذا جهل وحمق، فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعًا، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم.

المسألة الرابعة: أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال، وكفى بذلك مرغبًا في الدين والعلم ومنفرًا عن الدنيا والمال.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدًا له وتحذيرًا من عاقبة الطغيان.

المسألة الثانية : ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ المرجع والرجوع، وهي بأجمعها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعًا ومرجعًا ورجعى، على وزن فُعْلى، وفي معنى الآية وجهان: **أحدهما**: أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قلب من له قدم صدق، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل. **والقول الثاني**: أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت، كما رده من النقصان إلى الكمال، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الذل إلى العز، فما هذا التعزز والقوة؟!

المسألة الثالثة: روي أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أتزعم أن من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة ذهبًا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى، فندع ديننا ونتبع دينك!! فنزل جبريل وقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاء عليهم.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي عن أبي جهل لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فوالذي يُحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه! ثم إنه رأى رسول الله ﷺ في الصلاة فنكص على عقبيه، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟! فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً شديدًا[(١)]. وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد في هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره، فلذلك قالوا: إنه ورد في أبي جهل، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلي، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل، ثم يعم في الكل، لكن ما بعده يقتضي أنه في رجل بعينه.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب مع الرسول على سبيل التعجب، ووجه التعجب فيه أمور: **أحدها**: أنه عليه السلام قال: (اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر) فكأنه تعالى قال له: كنتُ تظن أنه يعز به الإسلام، أمثله يُعز به الإسلام، وهو ينهى عبدًا إذا صلى؟! **وثانيها**: أنه كان يلقب بأبي الحكم، فكأنه تعالى يقول: كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان؟! **وثالثها**: أن ذلك الأحمق يأمر وينهى، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته، مع أنه ليس بخالق ولا رب، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق، ألا يكون هذا غاية الحماقة؟!

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٨/ ١٣٠/ ٧٢٤٣) وأحمد في (مسنده) (١٤/ ٤٢٥) حديث رقم (٨٨٣١) كلاهما من طريق نعيم بن أبي هند عن أبي حازم عن أبي هريرة. . . به.

المسألة الثالثة: قال: ﴿يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا﴾ ولم يقل: ينهاك، وفيه فوائد: **أحدها**: أن التنكير في عبدًا يدل على كونه كاملاً في العبودية، كأنه يقول: إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته، يروى في هذا المعنى أن يهوديًا من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته فقال: أخبرني عن أخلاق رسولكم، فقال عمر: اطلبه من بلال فهو أعلم به مني. ثم إن بلالاً دله على فاطمة، ثم فاطمة دلته على علي عليه السلام، فلما سأل عليًا عنه قال: صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه. فقال الرجل: هذا لا يتيسر لي. فقال علي: عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فكيف أصف أخلاق النبي وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فكأنه تعالى قال: ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية، وذلك عين الجهل والحمق. **وثانيها**: أن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى. **وثالثها**: أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة، روي عن علي عليه السلام أنه رأى في المصلى أقوامًا يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ فلم يصرح بالنهي عن الصلاة، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حيث قال له أبو يوسف: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي؟ قال: (يقول: ربنا لك الحمد ويسجد) ولم يصرح بالنهي. **ورابعها**: أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي لا أجد ساجدًا غيره، إن محمد عبد واحد، ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا وهم دائمًا في الصلاة والتسبيح. **وخامسها**: أنه تفخيم لشأن النبي عليه السلام، يقول: إنه مع التنكير معرف، نظيره الكناية في سورة القدر حُملت على القرآن ولم يسبق له ذكر ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الكهف: ١] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب لمن؟ فيه وجهان: **الأول**: أنه خطاب للنبي عليه السلام، والدليل عليه أن الأول وهو قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا﴾ للنبي ﷺ والثالث وهو قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ١٣] للنبي عليه الصلاة والسلام، فلو جعلنا الوسط لغير النبي لخرج الكلام عن النظم الحسن، يقول الله تعالى: يا محمد أرأيت إن كان هذا الكافر - ولم يقل: (لو كان) إشارة إلى المستقبل - كأنه يقول: أرأيت إن صار على الهدى، واشتغل بأمر نفسه، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة، فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى، أما كان ذلك خيرًا له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته؟! كأنه تعالى يقول: تلهف عليه كيف فوَّت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنيئة.

القول الثاني: أنه خطاب للكافر ؛ لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم، وكالمولى الذي قام بين يديه عبدان، وكالحاكم الذي حضر عنده المدعي والمدعى عليه، فخاطب هذا مرة، وهذا مرة، فلما قال للنبي : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠] التفت بعد ذلك إلى الكافر، فقال: أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمرًا بالتقوى أتنهاه مع ذلك؟!

المسألة الثانية : **ههنا سؤال:** وهو أن المذكور في أول الآية هو الصلاة وهو قوله : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ والمذكور ههنا أمران، وهو قوله : ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ في فعل الصلاة، فلمَ ضم إليه شيئًا ثانيًا، وهو قوله : ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾؟ **جوابه من وجوه: أحدها:** أن الذي شق على أبي جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله، فلا جرم ذكرهما ههنا . **وثانيها:** أن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا في أحد أمرين : إما في إصلاح نفسه وذلك بفعل الصلاة أو في إصلاح غيره، وذلك بالأمر بالتقوى . **وثالثها:** أنه عليه السلام كان في صلاته على الهدى وآمرًا بالتقوى؛ لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وفيه قولان:

القول الأول: أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن الدلائل التي ذكرها في أول هذه السورة جلية ظاهرة، وكل أحد يعلم ببديهة عقله أن منع العبد من خدمة مولاه فِعل باطل وسفه ظاهر، فإذن كل من كَذَّب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه - يعلم بعقله السليم أنه على الباطل، وأنه لا يفعل ذلك إلا عنادًا، فلهذا قال تعالى لرسوله : أرأيت يا محمد إن كَذَّب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة، وتولى عن خدمة خالقه، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة . **والثاني:** أنه خطاب للكافر، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذبًا أو متوليًا، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهي بل احتاج إلى نهيك؟!

أما قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى : المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه، فيكون هذا تخويفًا شديدًا للعصاة، وترغيبًا عظيمًا لأهل الطاعة .

المسألة الثانية : هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل، فكل من نهى عن طاعة الله فهو

شريك أبي جهل في هذا الوعيد، ولا يَرد عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة؛ لأن المنهي عنه غير الصلاة وهو المعصية، ولا يرد عليه المولى يمنع عبده عن قيام الليل وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف؛ لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضًا لعبادة ربه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ وفيه وجوه: **أحدها:** أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات. **وثانيها:** كلا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمدًا أو يطأ عنقه، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره. **وثالثها:** قال مقاتل: كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم، لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي عما هو فيه: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في قوله: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ وجوه: **أحدها:** لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة، وهو كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[الرحمن: ٤١] **وثانيها:** السفع: الضرب، أي لنلطمن وجهه. **وثالثها:** لنسودن وجهه، قال الخليل: تقول للشيء إذا لفحته النار لفحًا يسيرًا يغير لون البشرة: قد سفعته النار. قال: والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر، سميت بذلك لسوادها. قال: والسفعة سواد في الخدين. وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والإهانة. **ورابعها:** لنَسِمَنَّه، قال ابن عباس في قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[القلم: ١٦]: إنه أبو جهل. **خامسها:** لنذلنه.

المسألة الثانية: قرئ (لنسفعن) بالنون المشددة، أي الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة، كما قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التحريم: ٤] وقرأ ابن مسعود: (لأسعفن) أي يقول الله تعالى: يا محمد أنا الذي أتولى إهانته، نظيره: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾[الأنفال: ٦٢]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾[الفتح: ٤].

المسألة الثالثة: هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار في الآخرة، وأن يكون المراد منه في الدنيا، وهذا أيضًا على وجوه: **أحدها:** ما روي أن أبا جهل لما قال: (إن رأيته يصلي لأطأن عنقه) فأنزل الله هذه السورة، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبي جهل ويخر لله ساجدًا في آخرها ففعل، فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعًا، فقيل له: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه فحلاً فاغرًا فاه، لو مشيت إليه لالتقمني. وقيل: كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه في صورة الأسد. **والثاني:** أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكّن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه إلى القتل إذا عاد إلى النهي، فلما عاد لا جرم مكنهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر، روي أنه لما نزلت سورة

(الرحمن علم القرآن) قال عليه السلام لأصحابه: «**من يقرؤها منكم على رؤساء قريش؟**» فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله. فأجلسه عليه السلام، ثم قال: «**من يقرؤها عليهم؟**» فلم يقم إلا ابن مسعود، ثم ثالثًا كذلك إلى أن أذن له، وكان عليه السلام يُبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغمومًا، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكًا مستبشرًا، فقال: «**يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي؟!**» فقال: ستعلم. فلما ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه، فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه، ولعل هذا معنى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه، فارتقى إليه بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعبًا، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فقال أبو جهل: بلِّغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إليَّ منه في حياتي ولا أبغض إليَّ منه في حال مماتي. فروي أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال: «فِرْعَوْنِي أَشَدُّ مِنْ فِرْعَوْنِ مُوسَى فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ءَامَنتُ﴾ وَهُوَ قَدْ زَادَ عُتُوًّا» ثم قال لابن مسعود: اقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أَحَدّ وأقطع. فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفًا لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه: **أحدها:** أنه كلب والكلبُ يجر. **والثاني:** لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن. **والثالث:** لتحقيق الوعيد المذكور بقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ فتجر تلك الرأس على مقدمها، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك، ويقول: يا محمد أُذن بأُذن لكن الرأس ههنا مع الأذن! فهذا ما روي في مقتل أبي جهل نقلته معنى لا لفظًا، الخاطىء معنى قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ .

المسألة الرابعة: الناصية شعر الجبهة، وقد يسمى مكان الشعر الناصية، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية، ولعل السبب فيه أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها، وربما كان يهتم أيضًا بتسويدها، فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه.

المسألة الخامسة: أنه تعالى عَرَّف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول: الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها، ناصية وأي ناصية كاذبة قولاً خاطئة فعلاً، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذبًا على الله تعالى في أنه لم يرسل محمدًا وكاذبًا على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي، وقيل: كذبه أنه قال: أنا أكثر أهل هذا الوادي ناديًا، ووَصْف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٧] والفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ معاقب مؤاخذ والمخطئ غير

مؤاخذ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣].

المسألة السادسة: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة؛ لأنها وُصفت فاستقلت بفائدة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

المسألة السابعة: قرئ (ناصية) بالرفع والتقدير هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات، قال: يا محمد بمن تهددني وإني لأكثر هذا الوادي ناديًا!! فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد مر تفسير النادي عند قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]قال أبو عبيدة: ناديه، أي أهل مجلسه، وبالجملة فالمراد من النادي أهل النادي، ولا يسمى المكان ناديًا حتى يكون فيه أهله، وسمي ناديًا لأن القوم يندون إليه ندًا وندوة، ومنه دار الندوة بمكة، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور، وقيل: سمي ناديًا لأنه مجلس الندى والجود، ذُكر ذلك على سبيل التهكم، أي: اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة والمبرد: واحد الزبانية زبنية، وأصله من زبنته إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال: فلان زبنية عفرية، وقال الأخفش: قال بعضهم: واحده الزباني. وقال آخرون: الزابن. وقال آخرون: هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة الغرب مثل أبابيل وعباديد، وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤوسهم في السماء، وقال قتادة: الزبانية هم الشُّرَط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار، أي يدفعونهم في جهنم.

المسألة الثالثة: في الآية قولان: الأول: أي فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباطلة محمد، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم، قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة. وقيل: هذا إخبار من الله تعالى بأنه يُجر في الدنيا كالكلب وقد فُعل به ذلك يوم بدر. وقيل: بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار. القول الثاني: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، أي لنسفعًا بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة، فليدع هو ناديه حينئذٍ فليمنعوه.

المسألة الرابعة: الفاء في قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ تدل على المعجزب لأن هذا يكون تحريضًا للكافر على دعوة ناديه وقومه، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية، فلما لم يجترئ

الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ.

المسألة الخامسة: قرئ: (ستدعى) على المجهول، وهذه السين ليست للشك [(١)] أما عسى من الله واجب الوقوع، وخصوصًا عند بشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام: «**لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**».

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾

ثم قال: ﴿ كَلَّا ﴾ وهو ردع لأبي جهل، وقيل: معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه، ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك، ويحتمل: لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة، وقيل معناه: ألا لا تطعه.

ثم قال: ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ وهو كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صلِّ وتوفر على عبادة الله تعالى فعلاً وإبلاغًا، وليقِلّ فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك، وقال بعضهم: بل المراد الخضوع. وقال آخرون: بل المراد نفس السجود في الصلاة.

ثم قال: ﴿ وَاقْتَرِب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك، وفي الحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد**» وقال بعضهم: المراد: اسجد يا محمد، واقترب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك. فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر، كقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفر كان يمنعه من القيام، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم، ثم قال عند ذلك: واقترب منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه. وهذا تهكم به واستحقار لشأنه.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) السين من معانيها التأكيد للوعد والوعيد، نحو قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] ونحو (سأنتقم منك) ولم أقف على أنها للشك، ولعل الإمام أراد التأكيد بنفي مقابله وهو الشك؛ لأن أبا جهل كان شاكًا في الآخرة.

سورة «العَلَق»

وهي مكِّيةٌ بإجماعٍ، وهي أوّلُ ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشةَ رضي الله عنهما[٢]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾

هذه السورةُ أوّلُ ما نزل من القرآن في قولِ مُعْظَمِ المفسِّرين. نزل بها جبريلُ على النبيِّ ﷺ وهو قائمٌ على حِراءٍ، فعلَّمه خمسَ آياتٍ من هذه السورة.

وقيل: إنَّ أول ما نزل «يا أيُّها المُدَّثِّر»؛ قاله جابر بنُ عبد الله، وقد تقدَّم[٣].

وقيل: فاتحةُ الكتابِ أوّلُ ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرةَ الهَمْدانيّ[٤].

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: أوّلُ ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١][٥].

والصحيحُ الأوّل؛ قالت عائشة: أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله ﷺ الرؤيا الصادقةُ،

(٢) سيأتي قولهما قريباً.

(٣) في بداية تفسير سورة المدثر ٢١/ ٣٥٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠١ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢ ، وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢ .

فجاءه المَلَكُ فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾. خرَّجه البخاريّ[(١)].

وفي الصحيحين عنها قالت: أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصادقةُ في النوم، فكان لا يَرَى رؤيا إلّا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثم حُبِّب إليه الخَلاءُ، فكان يخلو بغارِ حراءٍ، يتحنَّثُ فيه اللَّياليَ ذواتِ العددِ [قبلَ أَنْ يَرْجع إلى أَهلِه]، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلها؛ حتى فَجِئه الحقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئٍ» قال: «فأَخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأَخَذني فغطَّني الثانيةَ حتى بَلَغَ منِّي الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِي فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأَخَذَني فغطَّني الثالثةَ حتى بلغ منِّي الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» الحديثَ بكماله[(٢)].

وقال أبو رجاء العُطارِدِيُّ: وكان أبو موسى الأشعريُّ يطوفُ علينا في هذا المسجد ـ مسجدِ الْبَصْرةِ ـ فيُقعِدُنا حِلَقاً فيقرِئُنا القرآن، فكأنِّي أنظرُ إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذتُ هذه السورةَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. وكانت أوّلَ سورةٍ أنزلها الله على محمدٍ ﷺ[(٣)].

وروتْ عائشةُ رضي الله عنها أنها أوّلُ سورةٍ أُنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها «ن والقلم»، ثم بعدها «يا أيها المدثر»، ثم بعدها «والضحى». ذَكَره الماوَرْدِيّ[(٤)].

---

(١) برقم (٤٩٥٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٣)، وصحيح مسلم (١٦١)، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩).

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٤)، والطبري ٢٤/ ٥٣١، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٣٠٤، وأخرجه ابن الأنباري في المصاحف، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٨.

وعن الزُّهريِّ: أولُ ما نزل سورةُ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِقَ الجبالِ، فأتاه جبريلُ فقال: إنَّك نبيُّ الله، فرجع إلى خديجةَ وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارِدًا»، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[١].

ومعنى «اقرأ باسمِ ربِّك» أي: اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مُفْتتِحاً باسمِ ربِّك، وهو أنْ تذكر التَّسمية في ابتداءِ كلِّ سورةٍ. فمحلُّ الباءِ من «باسم ربِّك» النصبُ على الحال. وقيل: الباءُ بمعنى على، أي: اقرأ على اسمِ ربِّك. يقال: فَعَلَ كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروءُ محذوفٌ، أي: اقرأ القرآن، وافْتَتِحْه باسْمِ الله.

وقال قومٌ: اسم ربِّك هو القرآنُ، فهو يقول: «اقرأ باسم ربك»، أي: اسمَ ربِّك، والباءُ زائدةٌ، كقوله تعالى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ المَحاجِر لا يَقْرأْنَ بالسُّوَرِ[٢]

أراد: لا يقرأنَ السُّوَرَ.

وقيل: معنى «اقرأ باسم ربِّك»، أي: اذْكُر اسمَه. أَمَره أن يبتدئ القراءةَ باسم الله[٣].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني ابنَ آدَمَ ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقةُ: الدَّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: «مِنْ عَلَق» فذَكَره بلَفْظِ الجَمْعِ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمعَ، وكلُّهم خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقَةُ: قطعةٌ من دمٍ رَطْبٍ، سمِّيتْ بذلك لأنها تَعْلَقُ لرطوبتها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكن

(١) الكشاف ٤/ ١٨٠ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٧ ، والبخاري في آخر الحديث (٦٩٨٢)، والطبري ٢٣/ ٤٠٣ ، وينظر فتح الباري ١٢/ ٣٥٩ .

(٢) وصدره: هن الحرائر لا ربَّاتُ أَحْمِرةٍ، والبيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٢٢ ، وسلف ١/ ١٠٧ .

(٣) والباء على هذا القول زائدة أيضاً، كما ذكر الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٢٨ ، والبغوي ٤/ ٥٠٧ .

عَلَقَةً؛ وقال الشاعر:

تـركـنـاه يَـخِـرُّ عـلـى يـديـه يـمـجُّ عـلـيـهـما عَـلَـق الـوَتِـيـنِ[١]

وخَصَّ الإنسانَ بالذِّكْرِ تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبيِّن قَدْرَ نعمتِه عليه، بأنْ خَلقَه مِن عَلَقةٍ مَهِينةٍ، حتى صار بشراً سَوِيًّا، وعاقلاً مميِّزاً.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيدٌ، وتمَّ الكلام، ثم استأنفَ فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: الكريم. وقال الكلبيُّ: يعني الحليم عن جَهْلِ العباد، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم[٢]. والأوّلُ أَشْبَهُ بالمعنى؛ لأنه لمَّا ذَكَر ما تقدَّم من نِعَمِه، دلَّ بها على كَرَمه.

وقيل: «اقرأ وربُّك» أي: اقرأ يا محمدُ وربُّك يُعِينُك ويُفْهِمُك، وإنْ كنتَ غيرَ القارئ. و«الأكرمُ» بمعنى: المتجاوِزُ عن جَهْلِ العباد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني الخطَّ والكتابة، أي: علَّم الإنسانَ الخطَّ بالقلم. ورَوى سعيدٌ عن قتادةَ قال: القلمُ نعمةٌ من الله تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يَصْلُحْ عيشٌ[٣]. فدلَّ على كمالِ كرمِه سبحانه، بأنه عَلَّم عبادَه ما لم يَعْلَموا، ونَقَلَهم من ظُلْمةِ الجَهْلِ إلى نور العلم، ونَبَّه على فَضْلِ عِلْمِ الكتابة، لِمَا فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيطُ بها إلَّا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطتْ أخبارُ الأوَّلين ومقالاتُهم، ولا كُتُبُ اللَّهِ المُنْزَلةُ، إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامتْ أمورُ الدِّينِ والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنَّه يُقْلَم، أي: يُقْطَع، ومنه تقليمُ الظفرِ. وقال بعضُ الشعراءِ المحدثين يصفُ القلم:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥.

(٢) الوسيط ٤/ ٥٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٢٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

فكأنه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوَصْلِ خَرِيدةٍ[(١)] يَتَصَنَّعُ
لِمَ لا[(٢)] ألاحظُه بعينِ جَلالةٍ وبه إلى الله الصَّحائفُ تُرفعُ

وعن عبد الله بن عمرو[(٣)] قال: يا رسولَ الله، أأكتبُ ما أسمعُ منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتبْ، فإنَّ الله عَلَّم بالقلم»[(٤)].

وروى مجاهدٌ عن ابن عمر قال: خَلَقَ الله عزَّ وجلَّ أربعةَ أشياءَ بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن، فكان. القلمَ، والعَرْشَ، وجنةَ عَدْنٍ، وآدمَ عليه السلام[(٥)].

وفيمَن علَّمه بالقلم ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها: أنَّه آدمُ عليه السلام؛ لأنه أوّلُ مَن كَتَب؛ قاله كعبُ الأحْبار.

الثاني: إدريسُ، وهو أولُ مَن كتب؛ قاله الضحاك.

الثالث: أنه أَدْخَل كلَّ مَن كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلَّا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك [بينَ] نعمتِه عليه في خَلْقه، وبينَ نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه[(٦)].

الثانية: صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال: لمَّا خَلَق الله الخَلْقَ كَتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ : «إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي»[(٧)].

---

(١) هي البكر لم تُمسَسْ. القاموس (خرد).

(٢) في النسخ: ألا، بدل: لم لا، والمثبت من زهر الآداب للقيرواني ١/ ٥١٨، وقد ذكر البيتين ضمن قصيدة في وصف المحبرة والقلم، ولم ينسبها.

(٣) في النسخ: عمر، والمثبت هو الصواب.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ القزويني في أخبار قزوين ٢/ ٣٧، وأخرجه أحمد (٦٩٣٠) بلفظ: ... أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: في الرضا والسخط؟ قال: «نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقًّا».

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧٢٩) و(٧٣٠). وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٥، وفيهما: لسائر الخلق، بدل: لسائر الحيوان.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) أخرجه أحمد (٨٩٥٨)، والبخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أوّلُ ما خَلَقَ الله: القلمُ، فقال له: اكتُبْ، فكَتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذِّكر فوقَ عَرْشِه»(١).

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: [أنه](٢) سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولحمها وعَظْمَها، ثم يقول: يا ربّ، أَذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء ويكتب المَلَك، ثم يقول: يا ربّ أَجَلُه، فيقول ربُّك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقُه، فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتبُ المَلك، ثم يخرج الملكُ بالصحيفة في يده، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنْقُصُ» وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

قال علماؤنا: فالأقلامُ في الأصل ثلاثةٌ:

القلمُ الأوّل: الذي خَلقَه اللهِ بيده، وأَمَره أن يكتب.

والقلم الثاني: أقلامُ الملائكةِ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقاديرَ والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلامُ الناسِ، جَعَلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويَصِلُون بها [إلى] مآرِبهم(٣). وفي الكتابة فضائلُ جَمَّةٌ. والكتابةُ من جملةِ البيان، والبيانُ مما اختُصَّ به الآدميُّ.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العربُ أقلَّ الخَلْقِ معرفةً بالكتابة، وأقلُّ العربِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤ ، وهذه قطعة من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩) دون قوله: فهو عنده في الذكر فوق عرشه. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، والحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري، وليس عن ابن مسعود كما ذكر المصنف. وهو في صحيح مسلم (٢٦٤٥)، ومسند أحمد (١٦١٤٢)، وسلف ١٤/ ٣١٤ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤ ، وما بين حاصرتين منه.

معرفةً به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن عِلْمِه، ليكون ذلك أَثْبَتَ لمعجزته، وأقوى في حجته[١]، وقد مضى هذا مبيَّناً في سورة العنكبوت[٢].

وروى حَمَّاد بنُ سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفِهْرِيِّ، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءَكم الغُرَفَ، ولا تعلِّموهنَّ الكتابةَ»[٣]. قال علماؤنا: وإنَّما حذَّرهم النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ في إسكانهنَّ الغُرَفَ تطلُّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تحصينٌ لهنَّ ولا تستُّرٌ. وذلك أنهنَّ لا يَملِكْنَ أنفسهنَّ حتى يُشْرِفْنَ على الرجال، فتَحْدُث الفتنةُ والبلاء، فحذَّرهم أن يجعلوا لهنَّ غُرَفاً ذريعةً إلى الفتنة[٤]. وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساءِ خيرٌ لهنَّ مِن ألَّا يراهنَّ الرجالُ، ولا يَرَيْنَ الرجالَ»[٥]. وذلك أنَّها خُلِقَتْ من الرجل، فهمَّتها[٦] في الرجل، والرجلُ خُلِقتْ فيه الشهوةُ، وجُعِلَتْ سَكَناً له، فغيرُ مأمونٍ كلٌّ واحدٍ منهما في صاحبه.

وكذلك تعليمُ الكتابةِ ربَّما كانتْ سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابةَ كَتَبتْ إلى مَن تَهوَى. والكتابةُ عينٌ من العيون، بها يُبْصِرُ الشاهِدُ الغائبَ، والخطُّ هو آثارُ يده،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٣ - ١٧٤ من حديث ابن عباس وعائشة، وذكره عن ابن مسعود الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، والكلام منه، وقد سلف الحديث ٥/ ٤٤ ، وينظر الكلام عليه ثَمة.

(٤) العبارة في نوادر الأصول ص ٢٧١ (والكلام منه): فحذرهم من أن يجعلوا لها ذريعة إلى الفتنة.

(٥) أخرجه البزار (٥٢٦)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤١ من حديث علي ﷺ، وفيه أن فاطمة رضي الله عنها هي التي قالت هذا القول، فذكر علي ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنما فاطمة بضعة مني». وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في مختصر زوائد البزار ١/ ٥٦٧ . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٠ من حديث أنس ﷺ. وفي مسألة نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي خلاف بين العلماء، وينظر في ذلك ما ذكره الحافظ في الفتح ٩/ ٣٣٦ .

(٦) في (د) و(م): فنهمتها، وفي (ظ): فتهمتها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في نوادر الأصول.

وفي ذلك تعبيرٌ عن الضمير بما لا يَنْطِق[١] به اللسان، فهو أَبْلغُ من اللسان. فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يَقْطَعَ[٢] عنهنَّ أسبابَ الفتنة؛ تحصيناً لهنَّ، وطهارةً لقلوبهنّ.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

قيل: «الإنسان» هنا آدمُ عليه السلامُ؛ علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، حَسْبَ ما جاء به القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فلم يَبْقَ شيءٌ إلَّا وعلَّم سبحانه آدمَ اسمَه بكلِّ لغةٍ، وذَكَره آدمُ للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظَهَر فضلُه، وتبيَّن قَدْرُه، وثبَتَتْ نبوَّتُه، وقامت حجةُ اللهِ على الملائكة وحجتُه[٣]، وامتثلتِ الملائكةُ الأمرَ لِمَا رأتْ من شَرَفِ الحال، ورأتْ من جلالِ القدرةِ، وسمعتْ من عظيم الأمر. ثم توارثَتْ ذلك ذرِّيتُه خَلَفاً بعدَ سَلَفٍ، وتَناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة البقرة مستوفًى[٤]، والحمد لله.

وقيل: «الإنسانُ» هنا: الرسولُ محمدٌ ﷺ، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «علَّمك» المستقبلُ؛ فإنَّ هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عامٌّ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنَّه نزل في أبي جَهْلٍ. وقيل: نزلت السورةُ كلُّها في أبي جهل؛ نَهَى النبيَّ ﷺ عن الصلاة، فأمر الله نبيَّه ﷺ أنْ يُصلِّيَ في المسجد ويقرأ باسم الربِّ، وعلى هذا فليست السورةُ من أوائل ما نزل.

---

(١) في (م): ينطلق، والمثبت من النسخ الخطية ونوادر الأصول.

(٢) في النسخ: ينقطع، والمثبت من نوادر الأصول.

(٣) قوله: وحجته، ليس في (د) و(ي).

(٤) ١/ ٤٢٠.

ويجوزُ أن يكون خمسُ آياتٍ من أوَّلها أوّلَ ما نزلت، ثم نزلت البقيةُ في شأن أبي جهل، وأُمر النبيُّ ﷺ بضمِّ ذلك إلى أوَّل السورة؛ لأنَّ تأليفَ السُّوَرِ جرى بأمرِ من الله. أَلَا ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخِرُ ما نَزل، ثم هو مضمومٌ إلى ما نزل قَبْلَه بزمانٍ طويل(١).

و«كَلَّا» بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيءٌ. والإنسانُ هنا: أبو جهل. والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في العصيان.

﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي: لأنْ رأى نفسَه استغْنَى، أي: صار ذا مالٍ وثروةٍ. وقال ابن عباس في روايةِ أبي صالحٍ عنه، قال: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهلٍ فقال: يا محمدُ، تزعمُ أنه مَن استغنى طغَى! فاجْعَلْ لنا جبالَ مكَّةَ ذهباً، لعلَّنا نأخذُ منها فنَطْغى، فندع ديننَا ونتَّبع دينك. قال: فأتاه جبريلُ عليه السلامُ فقال: يا محمدُ خيِّرهم في ذلك، فإنْ شاؤوا فعلْنا بهم ما أرادوه، فإنْ لم يُسْلموا فَعَلْنا بهم كما فَعَلْنا بأصحابِ المائدة. فعلم رسولُ الله ﷺ أنَّ القوم يَقْبَلون(٢) ذلك، فكفَّ عنهم إبقاءً عليهم(٣).

وقيل: «أَنْ رَآه اسْتَغْنَى» بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله: «أن رأه»، كما يقال: إنكم لَتَطْغَون أن رأيتُم غِناكم(٤). وقال الفرَّاء: لم يقل: رأى نفسَه، كما قيل: قَتَل نفسَه؛ لأنَّ رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً، نحو الظنِّ والحِسبان، فلا يُقْتَصر فيه على مفعولٍ واحد. والعربُ تطرحُ النفسَ من هذا الجنس تقول: رأيتُني وحَسِبتُني، ومتى تَرَاكَ خارجاً، ومتى تظنُّك خارجاً(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٨ .

(٢) في (م): لا يقبلون.

(٣) ذكره بنحوه الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٧١ ، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٦ : لم أجده.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ١٩ عن الأخفش.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٩ .

وقرأ مجاهدٌ وحميد، وقنبل عن ابن كثير: «أن رَأَهُ اسْتَغنَى» بقَصْر الهمزة[١]. الباقون: «رآه» بمدِّها، وهو الاختيارُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

أي: مَرْجِعَ مَن هذا وَصْفُه، فيجازيه. والرُّجْعَى والمَرْجِعُ والرُّجوع مصادِرُ؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجِعاً، ورُجْعَى على وزن فُعْلى.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ وهو أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ وهو محمدٌ ﷺ. فإنَّ أبا جهل قال: إنْ رأيتُ محمداً يصلِّي لأَطَأَنَّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرةَ. فأنزل الله هذه الآياتِ تعجُّباً منه[٢].

وقيل: في الكلام حذفٌ، والمعنى: أَمِنَ هذا الناهي عن الصلاةِ مِن العقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾

أي: أَرأيتَ يا أبا جهلٍ إنْ كان محمدٌ على هذه الصِّفة، أليس ناهِيْهِ عن التقوى والصلاةِ هالكاً؟!

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

يعني أبا جهلٍ كذَّب بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وأَعْرَضَ عن الإيمان. وقال الفرَّاء: المعنى: «أرأيتَ الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى» وهو على الهدى، آمرٌ[٣] بالتقوى، والناهي مكذِّبٌ مُتَولٍّ عن الذِّكر، أي: فما أَعْجبَ هذا! ثم يقول: وَيْلَه! أَلَمْ يعلم أبو جهلٍ بأنَّ الله يرى[٤]، أي: يراه ويعلمُ فِعْلَه، فهو تقريرٌ وتوبيخٌ.

---

(١) السبعة ص ٦٩٢، والتيسير ص ٢٢٤ عن قنبل.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٨٨٣١)، ومسلم (٢٧٩٧).

(٣) في (م): وآمر، وفي (ظ): أو آمر.

(٤) الوسيط ٤/ ٥٢٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٨، والكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

وقيل: كلٌّ واحدٍ من «أرأيت» بَدَلٌ من الأوّل، و«أَلَمْ يعلم بأنَّ الله يَرَى» الخبرُ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: أبو جهلٍ عن أذاكَ يا محمدُ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخُذَنْ ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلَنُذِلَّنه. وقيل: لنأخذنَّ بناصيته يومَ القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرحُ في النار، كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. فالآيةُ ـ وإن كانت في أبي جهلٍ ـ فهي عِظةٌ للناس، وتهديدٌ لمن يمتنعُ أو يمنعُ غيرَه عن الطاعة. وأهلُ اللغة يقولون: سَفَعْتُ بالشيء: إذا قبضت عليه وجَذَبته جذباً شديداً، ويقال: سَفَع بناصية فرسِه؛ قال:

قَومٌ إذا كَثُر الصياحُ رأيتَهمْ ... مِن بينِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ[1]

وقيل: هو مأخوذٌ من سَفَعَتْه النارُ والشمسُ: إذا غيَّرْت وجهَه إلى حالِ تَسْويدٍ، كما قال:

أثافيَّ سُفعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... ونُؤْيٍ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمَ خاشِعِ[2]

---

(١) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٥٠٣ لعمرو بن معد يكرب، وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/٣١١، وتهذيب اللغة ٢/١٠٨، والصحاح (سفع)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٢٩، وأساس البلاغة (سفع).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح المعلقات للنحاس ١/١٠١، وللتبريزي ص ١٢٨، برواية: ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم، ورواية الديوان ص ٧: ونؤيًا كحوض الجُدِّ لم يتثلم. قال النحاس: الأثافي: الحجارة التي تجعل عليها القدر، الواحدة: أُثْفيَّة. والسُّفْع السود. والمعرَّس هنا: الموضع الذي يكون فيه المِرْجل، وكل موضع يقام فيه يقال له: معرَّس. والمرجل: كل قِدْرٍ يطبخ فيها. والنؤي: حاجز يجعل حول الخباء يمنع من السيل. وقال شارح الديوان: جذم الحوض: حرفه وأصله. لم يتثلم: يعني النؤي، قد ذهب أعلاه ولم يتثلم ما بقي منه. ونصب أثافيّ بما قبله، وهو قوله: فلَأْياً عرفت الدار بعد توهُّم، أراد: بعد تَوهمي أثافيَّ سُفْعاً. وعجز البيت الذي عند المصنف جاء في قصيدة للنابغة في ديوانه ص ٧٩ برواية:

رمادٌ ككحلِ العينِ لأياً أبينُه ... ونؤيٌ كجذم الحوض أثلمُ خاشعُ

والخاشع: اللاصق بالأرض.

والناصية: شعرُ مقدَّمِ الرأس. وقد يعبَّر بها عن جملةِ الإنسان، كما يقال: هذه ناصيةٌ مباركَةٌ؛ إشارةً إلى جميع الإنسان[١]. وخصَّ الناصيةَ بالذِّكرِ على عادة العربِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه أخذوا بناصيته.

وقال المبرِّد: السَّفع: الجذبُ بشدَّةٍ؛ أي: لَنَجُرَّنَّ بناصيته إلى النار.

وقيل: السَّفْعُ: الضَّرْبُ، أي: لنلطُمَنَّ وجهَه. وكلُّه متقارِبُ المعنى. أي: يُجمَعُ عليه الضربُ عند الأَخْذِ، ثم يجرُّ إلى جهنم.

ثم قال على البدَلِ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهلٍ كاذبة في قولها، خاطئة في فِعْلِها. والخاطئُ معاقَبٌ مأخوذٌ. والمخطئُ غيرُ مأخوذٍ.

ووصفُ الناصيةِ بالكاذبةِ الخاطئة، كوَصْفِ الوجوهِ بالنَّظَرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]. وقيل: أي: صاحبُها كاذبٌ خاطِئٌ، كما يقال: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائم، أي: هو صائمٌ في نهاره، قائمٌ في ليله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: أهلَ مجلسِه وعشيرته، فليَسْتَنْصِرْ بهم. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكةَ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ عن ابن عباس وغيره[٣]. واحدُهم زِبْنيٌّ؛ قاله الكسائيُّ[٤]. وقال الأخفش[٥]: زابِنٌ. أبو عبيدةَ: زِبْنِيَة[٦]. وقيل: زَبَانيّ. وقيل: هو اسمٌ للجمع، كالأبابيل والعباديد[٧].

---

(١) النكت والعيون ٦/٣٠٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٤٥.

(٣) ذكره الزجاج ٥/٣٤٦ دون نسبة، وابن الجوزي ٩/ ١٧٩ عن عطاء.

(٤) ذكره عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٠.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٧٤١.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٤.

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤١.

وقال قتادةُ: هم الشُّرَطُ في كلام العرب[١]. وهو مأخوذٌ من الزَّبْن وهو الدَّفْعُ، ومنه المُزابنةُ في البيع[٢].

وقيل: إنَّما سُمُّوا الزبانيةَ لأنَّهم يعملون بأرْجُلِهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقنديُّ رحمه الله، قال: ورُوِي في الخبر أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قرأ هذه السورةَ، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عنِّي ربَّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. فلمَّا سمع ذِكْرَ الزبانيةِ رجع فزِعاً، فقيل له: خَشِيتَ منه؟! قال: لا، ولكنْ رأيتُ عنده فارساً فهدَّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانيةُ؟ ومالَ إليَّ الفارس، فخشِيتُ منه أن يأكلني[٣].

وفي الأخبار أنَّ الزبانيةَ رؤوسُهم في السماء وأرجلُهم في الأرض[٤]، فهم يدفعون الكفارَ في جهنم.

وقيل: إنَّهم أعظمُ الملائكةِ خَلْقًا، وأشدُّهم بطشاً. والعربُ تُطْلِق هذا الاسمَ على مَن اشتدَّ بطشُه، قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مَطاعينُ في الوَغَى زَبـانـيـةٌ غُـلْـبٌ عِـظـامٌ حـلُـومُـهـا[٥]

وعن عكرمةَ عن ابن عباس: «سَنَدْع الزَّبانِية» قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً يصلِّي لأطأنَّ على عنقه. فقال النبيُّ ﷺ: «لو فعل لأخَذَتْه الملائكةُ عِياناً». قال

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٤.

(٢) المزابنة: بيع الرُّطَب على رؤوس النخل بالتمر كيلاً، وكذلك كل ثمر بيع على شجرة بثمر كيلاً، ونهي عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة، ولأن البيِّعَيْن إذا وقفا فيه على الغبن أراد المغبون أن يفسخ البيع، وأراد الغابن أن يمضيه، فتزابنا فتدافعا واختصما. ينظر اللسان (زبن).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤٠ عن عبد الله بن أبي الهذيل قوله.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٠٨ - ٣٠٩، والبيت لابن الزِّبَعْرى، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣١٢، وفيه المَقْرَى، بدل: القصوى. الغُلْب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة، وهم يَصِفون السادة بغلظ الرقبة وطولها. اللسان (غلب).

أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ(١).

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس قال: مرَّ أبو جهل بالنبيِّ ﷺ وهو يصلِّي عند المَقام، فقال: أَلَمْ أَنْهكَ عن هذا يا محمد! فأَغْلَظَ له رسولُ الله ﷺ، فقال أبو جهل: بأيِّ شيءٍ تهدِّدني يا محمد! والله إنِّي لأكثرُ أهلِ الوادي هذا ناديًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأَخَذَتْه زبانيةُ العذابِ من ساعته. أخرجه الترمذيُّ بمعناه، وقال: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ(٢).

والنادي في كلام العرب: المجلسُ الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون، والمرادُ: أهلُ النادي، كما قال جرير:

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أَذِلَّةٌ(٣)

وقال زهير:

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوهُهم(٤)

وقال آخر:

واسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيبُ المجلِسُ(٥)

وقد ناديتُ الرجلَ أُنادِيه: إذا جالسته؛ قال زهير:

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٨)، وهو عند أحمد (٢٢٢٥)، والبخاري (٤٩٥٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٣٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٠)، والطبري ٥٣٧/٢٤ .

(٣) وعجزه: سواسيةٌ أحرارُها وعبيدها، والبيت لذي الرمة في ديوانه ١٢٣٥/٢ ، وليس لجرير كما ذكر المصنف نقلاً عن الكشاف ٢٧٢/٤ ، على أن الزمخشري ذكره في أساس البلاغة (جلس) ونسبه لذي الرمة. قال شارح الديوان: قوله: صهب السبال، أي: هم عجم، ليسوا بعرب، ولا يقال: سواسية، إلا في الهجاء. أما في الخير فيقال: سواء. اهـ. والسبال جمع سَبَلة، وهي ما على الشارب من الشعر، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية. والصَّهَب: حمرة أو شقرة في الشعر، والأعداء صُهْب السبال وإن لم يكونوا كذلك. القاموس (صهب) و(سبل).

(٤) ديوان زهير ص ١١٣ ، والكشاف ٢٧٢/٤ ، وعجزه: وأندية ينتابها القول والفعل. وسلف ٣٧٤/٢ .

(٥) وصدره: نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوْقِدَتْ، والبيت للمهلهل بن ربيعة، وسلف ٢٣٩/١ .

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي   أمامَ الحيِّ عَقْدُهما سَواءُ[(١)]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنُّه أبو جهل. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه مِن تَركِ الصلاة. ﴿وَاسْجُدْ﴾ أي: صلِّ لِله ﴿وَاقْتَرِب﴾ أي: تقرَّبْ إلى الله جلَّ ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدتَ فاقتربْ من الله بالدعاء؛ روى عطاءٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبد من ربِّه، وأحبُّه إليه، ما كانت جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله»[(٢)].

قال علماؤنا: وإنما ذلك لأنَّها نهايةُ العبوديةِ والذِّلَّة، ولله غايةُ العِزَّة، وله العزةُ التي لا مِقْدارَ لها، فكلَّما بَعُدْتَ من صِفَتِه، قربتَ مِن جنَّته، ودَنَوْت من جِوَاره في دارِه[(٣)]. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أمَّا الركوعُ فعظِّموا فيه الربَّ. وأمَّا السجودُ فاجتهِدوا في الدعاء، فإنه قَمِنٌ أن يُسْتجابَ لكُم»[(٤)]. ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلتِ الرقابُ تواضُعًا   منَّا إليك فعِزُّها في ذلِّها[(٥)]

وقال زيد بن أسلم: اسجُدْ أنت يا محمدُ مصلِّياً، واقترِبْ أنت يا أبا جهلٍ من النار[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ﴾ هذا السجودُ يحتملُ أن يكون بمعنى السجودِ في الصلاة، ويحتملُ أن يكون سجودَ التلاوةِ في هذه السورة. قال ابن العربيّ: والظاهِرُ أنه سجودُ

---

(١) ديوان زهير ص ٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٦٩٠، وذكره المزي في تهذيب الكمال ٧/ ٣٧٣، وفي إسناده حميد بن أبي سويد المكي، قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول. اهـ. واللفظ الصحيح عند مسلم (٤٨٢) وهو: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» وقد سلف ١٢/ ٢٦٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ١/ ٢٦٥.

(٥) البيت لأبي إسحاق الصابي، وسلف ١١/ ١٢٩.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٩.

الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، لولا ما ثبت في الصَّحيح من روايةِ مسلمٍ وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدتُ مع رسولِ الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ سجدتين. فكان هذا نصًّا على أنَّ المراد سجودُ التلاوة[1].

وقد رَوى ابنُ وهبٍ، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: عزائمُ السجودِ أربع: «ألم» و«حم. تنزيل من الرحمن الرحيم» و«النجم» و«اقرأ باسم ربك»[2]. وقال ابن العربيِّ[3]: وهذا إنْ صحَّ يلزمُ عليه السجودُ الثاني من سورة الحج وإنْ كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه: اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود. وقد قال ابن نافع ومطَرِّفٌ: وكان مالكٌ يسجدُ في خاصةِ نَفْسِه بخاتمةِ هذه السورة من «اقرأ باسم ربِّك» وابنُ وهبٍ يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن نافع، عن ابن عمر قال: لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتُبْها يا معاذ» فأخذ معاذٌ اللوحَ والقلم والنونَ ـ وهي الدواةُ ـ فكتبها معاذ، فلمَّا بلغ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ سجد اللوحُ، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهمَّ ارْفَعْ به ذِكراً، اللهمَّ احْطُطْ به وِزراً، اللهم اغفِرْ به ذنباً. قال معاذ: سجدتُ، وأخبرتُ رسولَ الله ﷺ فسجد[4].

خُتمت السورةُ، والحمد لله على ما فَتَحَ ومَنَحَ وأَعْطَى. وله الحمدُ والمِنَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨، والحديث في صحيح مسلم (٥٧٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٩ من طريق سفيان عن عاصم به. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥٨٤) بإسناد آخر عن علي ﷺ.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٤٨.

(٤) ذكره الحافظ في لسان الميزان ١/ ١٠٠، وفي إسناده إبراهيم بن محمد الآمدي الخواص، قال عنه ابن طاهر: أحاديثه موضوعة. وينظر الميزان ١/ ٦٢.

سُورَةُ العَلَق

مكيَّةٌ، وآيُها تسعَ عشرةَ، وهي أوَّلُ سُورةٍ نزَلَتْ، وقيل: الفاتحةُ ثمَّ هذهِ(1).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: اقرَأْ القرآنَ مُفتتِحًا باسمِه أو مُستعينًا به ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ أي: الذي له الخلقُ.

أو: الذي خلقَ كلَّ شيءٍ، ثمَّ أفردَ ما هو أشرَفُ وأظهَرُ صنعًا وتَدبيرًا، وأدلُّ على وُجوبِ العبادةِ المقصودةِ مِن القراءةِ فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾.

أو: الذي خلقَ الإنسانَ، فأَبهمَ أولًا ثمَّ فسَّرَ تفخيمًا لخلقِه، ودلالةً على عجيبِ فِطرَتِه.

﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ جمَعَهُ لأنَّ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في معنى الجمعِ، ولَمَّا كانَ أَوَّلُ الواجباتِ مَعرفَةَ اللهِ تَعالى نَزَّلَ أَوَّلًا ما يدلُّ على وُجودِه وفَرْطِ قُدرَتِه وكمالِ حِكمَتِه.

---

(1) ادعى الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٦٣٣) أن هذا قول أكثر المفسرين، وهو كلام مردود لم يوافقه عليه أحد، ولعله اعتمد فيه على خبر رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٥٨) عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل وهو من كبار التابعين، وفيه ما يدل على أن أول ما نزل هو الفاتحة، وقال البيهقي عقبه: فهذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. وقال النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٨): الصواب أن أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وأما قول مَن قال من المفسرين: أول ما نزل (الفاتحة)؛ فبطلانُه أظهر من أن يُذكَر، والله أعلم.

(٣) ـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تكريرٌ للمُبالغَةِ، أو الأوَّلُ مُطلَقٌ والثَّاني للتَّبليغِ، أو في الصَّلاةِ، ولعلَّه لَمَّا قيلَ له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فقال: ما أنا بقارئٍ، فقيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ الزَّائدُ في الكرمِ على كلِّ كريمٍ؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى يُنعِمُ بلا غرضٍ، ويَحلُمُ[1] مِن غيرِ تخوُّفٍ، بل هو الكريمُ وحدَهُ على الحقيقةِ.

(٤) ـ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾؛ أي: الخطَّ بالقلمِ، وقد قُرِئَ به[2]، ليُقيَّدَ به العلومُ ويُعلَّمَ به البعيدُ.

(٥) ـ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ بخلقِ القُوَى ونصبِ الدَّلائلِ وإنزالِ الآياتِ، فيعلِّمُكَ القراءةَ وإن لم تكُن قارئًا.

وقد عدَّدَ سُبحانَه مبدأَ أمرِ الإنسانِ ومُنتهاهُ إظهارًا لِمَا أنعمَ عليه مِن أنْ نَقَلَهُ مِن أخسِّ المراتبِ إلى أعلاها، تَقريرًا لرُبوبيَّته وتحقيقًا لأكرميَّتِه، وأشارَ أوَّلًا إلى ما يدلُّ على مَعرِفَتِه عقلًا، ثمَّ نبَّه على ما يدلُّ سمعًا.

(٦ ـ ٧) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لِمَن كفَرَ بنعمةِ اللهِ لطُغْيانِه، وإن لم يُذكَرْ لدلالةِ الكلامِ عليه.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾؛ أي: رأى نفسَهُ و﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ مفعولُه الثَّاني؛ لأنَّه بمعنى: (عَلِم)، ولذلك جازَ أن يكونَ فاعلُه ومفعولُه ضَمِيرَيْنِ لواحدٍ. وقرأ قنبلٌ بقَصْرِ الهمزة[3].

(٨) ـ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ الخطابُ للإنسانِ على الالتفاتِ تهديدًا وتحذيرًا مِن عاقبَةِ الطُّغيانِ، و﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ مصدرٌ كالبُشْرَى.

---

(١) في نسخة الخيالي: «غرض ويحكم» وفي نسخة التفتازاني والطبلاوي: «عوض ويحكم».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٦)، و«الكشاف» (٩/ ٦٣٤) عن ابن الزبير.

(٣) أي: ﴿رأه﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٣).

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ نزلَتْ في أبي جهلٍ، قال: لو رأيتُ مُحمَّدًا ساجدًا لوطئتُ عنقَهُ، فجاءَهُ ثمَّ نكصَ على عقبيهِ، فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينَهُ لخندقًا من نارٍ وهَوْلًا وأجنحةً، فنزلَتْ[1].

ولفظُ العبدِ وتنكيرُه للمُبالغةِ في تقبيحِ النَّهيِ، والدلالةِ على كمالِ عبوديَّةِ المنهيِّ.

(١١ ـ ١٤) ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تكريرٌ للأوَّلِ، وكذا الذي في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ والشَّرطيَّةُ مفعولُه الثَّاني، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ الشَّرطِ الثَّاني الواقعُ مَوقِعَ القسيمِ له، والمعنى: أخبرني عمَّن ينهَى بَعضَ عبادِ اللهِ عَن صلاتِه إن كانَ ذلك النَّاهي على هُدًى فيما يَنهَى عنه أو آمرًا بتُقًى فيما يأمرُ بهِ مِن عبادةِ الأوثانِ كما يَعتَقِدُه، أو إنْ كانَ على التَّكذيبِ للحَقِّ والتَّولِّي عَن الصَّوابِ كما تقول أنت ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويَطَّلِعُ على أحوالِه مِن هُداهُ وضَلالِه.

وقيل: المعنى: أرأَيْتَ الذي ينهى عَبْدًا يُصلِّي، والمَنهيُّ على الهُدَى آمرٌ بالتَّقوَى، والنَّاهِي مُكذِّبٌ مُتوَلٍّ فما أعجبُ مِن ذا؟!

وقيل: الخطابُ في الثَّانيةِ مع الكافرِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ وتعالى كالحاكمِ الذي حضرَهُ الخصمانِ يخاطِبُ هذا مرةً والآخرَ أخرى، وكأنه قال: يا كافِرُ! أخبرني إِنْ كانَ صلاتُه هدًى ودعاؤُه إلى اللهِ أمرًا بالتَّقوى أتنهاهُ؟

ولعلَّهُ ذكرَ الأمرَ بالتَّقوى في التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ ولم يتعرَّضْ له في النَّهيِ؛ لأنَّ النَّهيَ كانَ عَن الصَّلاةِ والأمرِ بالتَّقوى فاقتصرَ على ذكرِ الصَّلاةِ لأنَّه دعوةٌ بالفعلِ،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أو لأنَّ نهيَ العبدِ إذا صلَّى يحتمِلُ أنْ يكونَ لها ولغيرِها، وعامَّةُ أحوالِها مَحصورةٌ في تَكميلِ نَفسِهِ بالعِبادَةِ وغيرِه بالدَّعوةِ.

(١٥) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للنَّاهي ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عمَّا هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: لَنأخُذنْ بناصِيَتِه ولَنسحبنَّه بها إلى النَّارِ، والسَّفْعُ: القبضُ على الشَّيءِ وجَذبهُ بشِدَّةٍ، وقُرِئَ: (لنسفعنَّ) بنونٍ مُشدَّدةٍ[١]، و: (لأَسْفَعَن)[٢]، وكِتبَتُه في المصحفِ بالألفِ على حكمِ الوقفِ، والاكتفاءُ باللامِ عَن الإضافةِ للعِلْمِ بأنَّ المُرادَ ناصيَةُ المَذكورِ.

(١٦) ـ ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدلٌ مِن (النَّاصيةِ)، وإنَّما جازَ لوَصفِهَا.

وقُرِئَتْ بالرَّفعِ على: هي ناصيَةٌ، والنَّصبِ على الذَّمِّ[٣]، ووَصفُها بالكذبِ والخَطأِ وهما لصاحبِها على الإسنادِ المَجازيِّ للمُبالغَةِ.

(١٧) ـ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ أي: أهلَ ناديهِ ليُعِينوهُ، وهو المجلسُ الذي يَنتَدِي فيه القومُ.

رُوِيَ أنَّ أبا جهل مرَّ برسولِ اللهِ ﷺ وهو يُصلِّي فقال: ألم أنهَكَ؟ فأغلظَ له رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: أتهدِّدُني وأنا أكثرُ أهلِ الوادي ناديًا؟ فنزلَتْ[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٦) وهي رواية محبوب عن أبي عمرو.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٦)، و«الكشاف» (٩/ ٦٣٨) عن ابن مسعود.

(٣) بالرفعِ رويت عن الكسائي، وبالنصبِ عن آخرين. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٦).

(٤) رواه بنحوه الترمذي (٣٣٤٩) وصححه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٠٩)، من حديث ابن عباس. وأصله عند البخاري (٤٩٥٨).

(١٨) ـ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ليَجُرُّوهُ إلى النَّارِ، وهو في الأصلِ: الشُّرَطُ؛ واحدُها زِبْنِيَةٌ كعِفْرِيَةٍ، مِن الزَّبْنِ وهو الدَّفعُ، أو زِبْنِيٌّ على النَّسَبِ، وأصلُها زَبَانِيٌّ، والتَّاءُ مُعوَّضةٌ عن ياءٍ.

(١٩) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ أيضًا للنَّاهي ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ واثبُتْ أنتَ على طاعَتِك ﴿وَٱسْجُدْ﴾: ودُمْ على سُجودِك ﴿وَٱقْتَرِب﴾: وتقرَّبْ إلى ربِّكَ. وفي الحديث: «أقرَبُ ما يكونُ العَبْدُ إلى ربِّهِ إذا سجَدَ»(١).

عَن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ العلقِ أُعْطِيَ مِن الأَجرِ كأنَّما قرأَ المُفَصَّلَ كلَّهُ»(٢).

***

(١) رواه مسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٦) سُورَةُ العَلَق مكيّة
وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عن عائشة قالت : أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي، وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ – قال – فأخذني فغطّني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق – حتى بلغ – ما لم يعلم » .
قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: « زمّلوني زمّلوني » ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال: يا خديجة: « مالي » ؟! وأخبرها الخبر، وقال: « قد خشيت على نفسي » . فقالت له: « كلّا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق »، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل) بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة : أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجيّ هم ؟ » فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي »[1] .
فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد واللفظ له .

الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز بـه أبو البرية آدم على الملائكة؛ والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان[1]، ذهني، ولفظي، ورسمي، فلهذا قال: ﴿ اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾، وفي الأثر: من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يكن يعلم.

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه ذو أشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفتـه، عن عبدالله بن مسعود قال: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأمـا صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، قال، ثم قرأ عبدالله: ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾، وقال للآخر: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[2]، ثم قال تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلّى﴾ نزلت في (أبي جهل) لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعلـه ﴿أو أمر بالتقوى﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؟ ولهذا قال: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾؟ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء، ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً ﴿كلا لئن لم ينته﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بالناصية﴾ أي لنسمنّها سواداً يوم القيامة، ثم قال: ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ يعني ناصية (أبي جهل) كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها، ﴿فليدع ناديه﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سندع الزبانية﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب، أحزبنا أو حزبه؟ روى البخاري عن ابن عباس قال، قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة»[3]. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرّ بـه أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعدّه فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله: ﴿فليـدع

(١) في الأثر: قيدوا العلم بالكتابة.
(٢) خرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه البخاري.

ناديه ✽ سندعُ الزبانية﴾ وقال ابن عباس: لودعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[١] وروى ابن جرير، عن أبي هريرة قال؛ قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلاوهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة! قال، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: وأنزل الله: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾[٢] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿كلا لا تطعه﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تبالِه، فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس، ﴿واسجد واقترب﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٣]. وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إذا السماء انشقت﴾ و ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

[آخر تفسير سورة اقرأ . ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

✽ ✽ ✽

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال حسن صحيح.
(٢) رواه أحمد والنسائي وابن جرير واللفظ له.
(٣) رواه مسلم في صحيحه.

تفسير سورة اقـرأ

وهى أول شىء نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ــ وهو : التعبد ــ الليالى ذواتَ العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فَتُزَوِّد [١] لمثلها حتى فَجَأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » . قال : «فأخذنى فَغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال: اقرأ . فقلت :ما أنا بقارئ . فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال: **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾** حتى بلغ :**﴿ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾** » قال : فرجع بها تَرجُف بَوادره [٢] حتى دخل على خديجة فقال: « زملونى زملونى ». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال : يا خديجة ، ما لى : فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على » . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَة بن نوفل بن أسَد بن عبد العُزى ابن قُصى ــ وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية من الإنجيل [٣] ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِىَ ــ فقالت خديجة : أىّ ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابنَ أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى [٤] ، ليتنى [٥] فيها جَذَعا أكونُ حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجىَّ هُم ؟ » . فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به [٦] إلا عودى ، وإن يُدركنى يومك أنصرُكَ نصراً مُؤزراً . [ثم] [٧] لم ينشَب وَرَقة أن تُوُفِّى ، وفَتَر الوحى فترة حتى حَزِن رسول الله ﷺ ــ فيما بلغنا ــ حزناً غدا منه مرارا كى يَتَردى من رؤوس شَوَاهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له

(١) فى م ، أ : « فتزوده » . (٢) فى أ : « يرجف فؤاده » . (٣) فى م ، : « وكتب من الإنجيل بالعربية » .
(٤) فى أ : « على عيسى » . (٥) فى م : « يا ليتنى » . (٦) فى أ : « بمثل ما جئت به » .
(٧) زيادة من م ، أ ، والمسند .

جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتَقَرُّ نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تَبَدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى (١) ، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه فى أول شرحنا للبخارى مستقصى ، فمن أراده فهو هناك محرر ، ولله الحمد والمنة .

فأول شىء [نزل] (٢) من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات (٣) ، وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون فى الأذهان ، وتارة يكون فى اللسان ، وتارة يكون فى الكتابة بالبنان ، ذهنى ولفظى ورسمى ، والرسمى يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ . وفى الأثر : قيدوا العلم بالكتابة (٤) . وفيه أيضاً : « من عمل بما علم رزقه (٥) الله علم ما لم يكن [يعلم] (٦) » .

﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)** ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تَهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ **إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ** ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟

قال ابن أبى حاتم : حدثنا زيد بن إسمٰعيل الصائغ ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو عُمَيس، عن عون قال : قال عبد الله : مَنهومان لا يشبعان ، صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ،

---

(١) المسند (٦/ ٢٣٢) وصحيح البخارى برقم (٣، ٤، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢، ٤٩٥٥، ٣٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٠) .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى م : « المباركة » .

(٤) جاء عن عمر ـ رضى الله عنه ـ موقوفاً ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) وابن أبى شيبة فى المصنف (٩/ ٤٩) والدارمى فى السنن برقم (٥٠٣) . وعن أنس موقوفاً ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) والرامهرمزى فى المحدث الفاصل (ص٣٦٨) ، وجاء مرفوعاً من حديث أنس ، رواه الخطيب فى تقييد العلم (ص٧٠) والرامهرمزى فى المحدث الفاصل (ص٣٦٨) . ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) وابن عبد البر فى جمع بيان العلم (١/ ٧٣) والموقوف أصح.

(٥) فى م : « أورثه » . (٦) زيادة من م ، أ .

فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان . قال : ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ . وقال للآخر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] .

وقد رُوى هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ:«منهومان لا يشبعان: طالب علم،وطالب دنيا » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ : نزلت فى أبى جهل ،لعنه الله ، توعد النبى ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هى أحسن أولا ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال :﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء .

ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أى : لَنَسِمَنَّها سوادا يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعنى : ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعَالها .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلبُ : أحزبُنا أو حزبه .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن عبد الكريم الجَزَرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عُنُقه . فبَلَغَ النبى ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . ثم قال : تابعه عمرو بن خالد ، عن عبيد الله ــ يعنى ابن عمرو ــ عن عبد الكريم (٢) .

وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما من طريق عبد الرزاق ، به (٣) . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن زكريا بن عَدِىّ ، عن عبيد الله بن عمرو ، به (٤) .

وروى أحمد ، والترمذى (٥) ، وابن جرير ــ وهذا لفظه ــ من طريق داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ ــ وَتَوعَّده ــ فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال :يا محمد ،

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٩٢) من طريق قتادة ، عن أنس به مرفوعاً ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٢٣) من طريق زيد بن وهب ، عن ابن مسعود به مرفوعاً ، وفى إسناده ضعيف .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٥٨) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٥) .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) .

(٥) فى م ، أ : « والترمذى والنسائى » .

بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته (١). وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد ،حدثنا فُرَات ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » (٢) .

وقال ابن جرير أيضا :حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح ، أخبرنا يونس بن أبى إسحاق، عن الوليد بن العيزار ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلى عند المقام لأقتلنه . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . [خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ] (٣) ﴾ ، حتى بلغ هذه الآية: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾. فجاء النبى ﷺ فصلى(٤) فقيل : ما يمنعك ؟ قال : قد اسودّ ما بينى وبينه من الكتائب . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، حدثنا نعيم بن أبى هند ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيرة قال : قال أبو جهل :هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته (٦) ، ولأعفِّرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خَنْدقا من نار وهَولا وأجنحة. قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله ــ لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا ــ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ إلى آخر السورة .

وقد رواه أحمد بن حنبل ،ومسلم، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، من حديث معتمر بن سليمان، به (٧) .

وقوله : ﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ ﴾ يعنى : يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصلِّ حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح ــ عند مسلم ــ من طريق عبد الله بن وهب ، عن

(١) المسند (١/ ٣٢٩) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٩) وتفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٤) .
(٢) المسند (١/ ٢٤٨) .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « يصلى » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) .
(٦) فى م : « على عنقه » .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) والمسند (٢/ ٣٧٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٣) .

عمرو بن الحارث ، عن عمارة بن غزية ، عن سُمَىّ ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » [(١)] .

وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « اقرأ » [(٢)]

(١) صحيح مسلم برقم (٤٨٢) .

(٢) فى م ، أ : « آخر تفسيرها » .

سورة العَلَق

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً. قيل: هي أوّل سورة نزلت،
والأكثرون على أنّ "الفاتحة" أوّلُ ما نزل، ثمّ هذه.[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أي: ما يُوحى إليك، فإنّ الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعًا، وحيث لم يُعيَّن وَجَب أن يكون ذلك ما يتّصل بالأمر حتمًا سواءً كانت السورة أوّلَ ما نزل أو لا. والأقربُ أنّ هذا إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[2] أوّلُ ما نزل عليه عليه السّلام، كما ينطق به حديث الزُّهري المشهور.[3]

وقوله تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ / متعلِّق بمضمر هو حال مِن ضمير الفاعل، أي: [٣٠٨ظ]
اقرأ ملتبِسًا باسمه تعالى، أي: مبتدئًا به لتتحقَّق مقارنته لجميع أجزاء المقروء. والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبِئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية مِن الكمالات البشريّة بإنزال الوحي المتواتر.

ووصفُ الربّ بقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لتذكير أوّلِ النَّعماء الفائضة عليه منه تعالى والتنبيهِ على أنّ مَن قدَر على خَلْق الإنسان، على ما هو عليه مِن الحياة وما يتبعها مِن الكمالات العِلميّة والعمليّة مِن مادّة لم يشَمّ رائحة الحياة

[1] س - قيل: هي أوّل سورة نزلت، والأكثرون على أنّ "الفاتحة" أوّلُ ما نزل، ثمّ هذه.

[2] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.

[3] يعني حديث بدء الوحي. انظره في صحيح البخاري، ١/ ٧ (٣)؛ وصحيح مسلم، ١/ ١٣٩ (٢٥٢)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/ ٥٢٨-٥٢٩.

فضلًا عن سائر الكمالات، قادرٌ[١] على تعليم القراءة للحيّ العالم المتكلِّم، أي: الذي أنشأ الخلق واستأثر به، أو خَلَق كلّ شيء.

وقوله تعالى:[٢] ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ على **الأوّل** تخصيصٌ لخَلْق الإنسان بالذِّكر مِن بين خلق سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصُّنع والتدبير، وعلى **الثاني** إفرادٌ للإنسان مِن بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيمٌ لشأنه؛ إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل، وهو المأمور بالقراءة.

ويجوز أن يُراد بالفعل الأوّل أيضًا خَلْقُ الإنسان، ويُقصَد بتجريده عن المفعول الإبهامُ ثمّ التفسيرُ رَومًا لتفخيم فطرته.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: دم جامدٍ لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة مِن التبايُن البيِّن. وإيرادُه بلفظ الجمع بناءً على أنّ الإنسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل، ولعلّه هو السرّ في تخصيصه بالذِّكر مِن بين سائر أطوار الفطرة الإنسانيّة، مع كون النُّطفة والترابِ أدلَّ منه على كمال القدرة لكونهما أبعدَ منه بالنسبة إلى الإنسانيّة.

ولمّا كان خَلْق الإنسان أوّلَ النِّعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدمَ الدلائل الدالّة على وجوده عزّ وجلّ وكمالِ قدرته وعِلمه وحكمته وصفَ[٣] ذاته تعالى بذلك أوّلًا ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له مِن القراءة، ثمّ كرَّر الأمر / بقوله **[٣٠٩و]**
تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أي: افعل ما أُمِرتَ به تأكيدًا للإيجاب وتمهيدًا لِما يعقبه مِن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾... إلخ، فإنّه كلام مستأنَف واردٌ لإزاحة ما بيَّنه عليه السلام مِن العُذر بقوله عليه السلام: «ما أنا بقارئ»،[٤] يريد أنّ القراءة شأنُ مَن يكتب ويقرأ وأنا أمّي، فقيل: له: وربّك الذي أمرك بالقراءة مبتدئًا باسمه هو الأكرم.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي: علّم ما علّم بواسطة القلم لا غيرِه، فكما علّم القارئ بواسطة الكتابة والقلم يعلِّمك بدونها. وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

---

١ السياق: أنّ مَن قدَر... قادرٌ...
٢ س - تعالى.
٣ السياق: ولمّا كان... وصف...
٤ **صحيح البخاري**، ١/٧ (٣)؛ **صحيح مسلم**، ١/١٣٩ (٢٥٢).

بدل اشتمال مِن ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علّمه به وبدونه مِن الأمور الكليّة والجزئيّة والجليّة والخفيّة ما لم يخطر بباله. وفي حذف المفعول أوّلًا وإيرادِه بعنوان عدمِ المعلوميّة ثانيًا مِن الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمالِ كرمه والإشعارِ بأنّه تعالى يعلِّمه مِن العلوم ما لا تحيط به العقول ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لمَن كفر بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يسبق ذِكره للمبالغة في الزجر. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: ليُجاوز الحدّ ويستكبر على ربّه، بيانٌ للمردوع والمردوع عنه. قيل: هذا إلى آخر السورة نزَل في أبي جهل بعد زمان.[1] وهو الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مفعول له، أي: يطغى لأنّ رأى نفسه مستغنيًا، على أنّ ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مفعول ثان لـ﴿رَّءَا﴾ لأنه بمعنى "علِم"، ولذلك ساغ كون فاعلِه ومفعولِه ضميرَيْ واحدٍ كما في "علِمتُني"، وإن جوّزه بعضهم في الرؤية البصريّة أيضًا وجَعَل مِن ذلك قولَ عائشةَ رضي الله عنها: «لقد رأيتُنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما لنا طعام إلّا الأسودان».[2] وتعليلُ طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى، ٢٧/٤٢]، للإيذان بأنّ مدار طغيانه زعمُه الفاسد.

رُوي أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتزعم أنّ / مَن استغنى طغى؟ فاجعل لنا جبال مكّة فضّةً وذهبًا لعلّنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتّبع دينك»، فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: «إن شئت فعلنا ذلك، [٣٠٩ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.

٢ نقل ذلك ابن عادل في اللباب، ٤١٧/٢٠-٤١٨، عن السمين الحلبيّ في الدرّ المصون، ٥٧/١١. والحديث بلفظ قريب في مسند أحمد، ٢٨٥/٤١ (٢٤٧٦٨).

ثمّ إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة»، فكفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الدّعاء إبقاءً[1] عليهم.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ تهديد للطاغي وتحذيرٌ له مِن عاقبة الطغيان. والالتفات للتشديد في التهديد. و﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى الرُّجوع كـ"البُشرى"، وتقديم الجارّ والمجرور عليه لقصره عليه، أي: إنّ إلى مالك أمرِك رجوعَ الكلّ بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فسترى حينئذ عاقبةَ طغيانك.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تقبيح وتشنيعٌ لحاله وتعجيبٌ منها، وإيذانٌ بأنّها مِن الشّناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية ويقضيَ منها العجبَ. رُوي أن أبا جهل قال في ملأ مِن طُغاة قريش: «لئن رأيتُ محمّدًا يصلّي لأطأنّ عنقه»، فرآه عليه السلام في الصلاة فجاءه ثمّ نكَص على عقبَيه، فقالوا: «ما لك؟» قال: «إن بيني وبينه لخندقًا مِن نار وهولًا وأجنحةً»، فنزلت.[3] ولفظُ "العبد" وتنكيرُه لتفخيمه صلّى الله عليه وسلّم واستعظامِ النهي وتأكيدِ التعجيب منه.

والرؤية ههنا بصريّة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فقلبيّة، معناه "أخبرني"، فإنّ الرؤية لمّا كانت سببًا للإخبار عن المرئيّ أُجري الاستفهام عنها مُجرى الاستخبار عن متعلّقها، والخطاب لكلّ مَن صلح للخطاب.

ونظمُ "الأمر" و"التكذيب" و"التولّي" في سِلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمِه ليس باعتبار أنفس الأفعال المذكورة ومِن حيث صدورُها عن الفاعل، [٣١٠و] / فإنّ ذلك ليس في حيّز التردّد أصلًا؛ بل باعتبار أوصافها التي هي كونها أمرًا بالتقوى وتكذيبًا وتولّيًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت، ٤١/٥٢] كما مرّ.

---

[1] في هامش م: رحمةً.

[2] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٧؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٤١٨.

[3] بمعناه في صحيح مسلم، ٤/٢١٥٤ (٢٧٩٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/٥٣٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٧.

والمفعول الأوّل لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ محذوف، وهو ضميرٌ يعود إلى الموصول، أو اسمُ إشارة يُشار به إليه، ومفعولُه الثاني سدّ مسدّه الجملة الشرطيّة بجوابها المحذوف، فإنّ المفعول الثاني لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لا يكون إلّا جملةً استفهاميّةً أو قسميّةً، والمعنى: أخبِرني ذلك الناهي إن كان على الهدى فيما ينهى عنه مِن عبادة الله تعالى، أو آمرًا بالتقوى فيما يأمر به مِن عبادة الأوثان كما يعتقده، أو مُكذِّبًا للحقّ معرِضًا عن الصواب، كما نقول نحن: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: يطّلع على أحواله فيُجازيه بها حتّى اجترأ على ما فعل.

وإنّما أُفرِد "التكذيب" و"التولّي" بشرطيّة مستقلّة مقرونة بالجواب مصدَّرة باستخبار مستأنَف، ولم يُنظما في سِلك الشرط الأوّل بعطفهما على ﴿كَانَ﴾ للإيذان باستقلالهما بالوقوع في نفس الأمر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب، وأمّا القسم الأوّل فأمرٌ مستحيل قد ذُكر في حيّز الشرط لتوسيع الدائرة، وهو السرّ في تجريد الشرطيّة الأولى عن الجواب والإحالةِ به على جواب الثانية.

هذا، وقد قيل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأوّل بمعنى "أخبِرني"، مفعوله الأوّل الموصول ومفعوله الثاني الشرطيّة الأولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطيّة الثانية عليه، و﴿أَرَءَيْتَ﴾ في الموضعين تكرير للتأكيد، ومعناه أخبرني عمّن ينهى بعضَ عباد الله تعالى عن صلاته، إن كان ذلك النّاهي على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادةَ الله تعالى، أو كان آمرًا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به مِن عبادة الأوثان كما يعتقده، وكذلك إن كان على التكذيب للحقّ والتولّي عن الدِّين الصحيح، كما نقول نحن: ألم يعلم بأنّ الله يرى ويطّلع على أحواله مِن هُداه وضلاله فيُجازيه على حسب ذلك.[١] فتأمّلْ.

وقيل: المعنى أرأيتَ الذي ينهى عبدًا يصلّي، والمَنهيُّ عن الهدى آمرٌ بالتقوى والناهي مكذِّب متولٍّ، فما أعجبُ مِن ذا؟ / وقيل: الخطاب الثاني للكافر، فإنّه تعالى [٣١٠ظ] كالحاكم الذي حضره الخصمان يُخاطب هذا مرّةً والآخرَ أخرى، وكأنّه قال: يا كافر أخبِرني إن كان صلاته هدًى ودعاؤه إلى الله تعالى أمرًا بالتقوى أتنهاه؟[٢]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.
٢ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥٢/٣.

وقيل: هو أميّةُ بن خَلَف، كان ينهى سلمانَ عن الصلاة.[١]

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي اللعين وخَسْءٌ له. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ موطِّئة للقسم، أي: والله لئن لم ينته عمّا هو عليه ولم ينزجر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذنّ بناصيته ولنَسحبَنّه بها إلى النّار. والسَّفع: القبض على الشيء وجذبُه بعُنف وشِدّة. وقُرئ: "لَنَسْفَعَنَّ"[٢] بـ"النون" المشدَّدة، وقُرئ: "لَأَسَفَعَنْ"،[٣] وكِتبتُه في المصحف بـ"الألف" على حُكم الوقف، والاكتفاءُ بلام العهد عن الإضافة لظهور أنّ المراد ناصية المذكور.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل مِن ﴿النَّاصِيَةِ﴾، وإنّما جاز إبدالها عن المعرفة وهي نكرة لوصفها. وقُرئت بالرفع[٤] على "هي ناصية"، وبالنصب،[٥] وكلاهما على الذمّ والشتم. ووصفُها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها، وفيه مِن الجزالة ما ليس في قولك: ناصيةُ كاذبٍ خاطئ.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل ناديه ليُعينوه، وهو المجلس الّذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون. رُوي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلّي فقال: «ألم أنهَك؟» فأغلظ له رسول الله، فقال: «أتُهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا؟»، فنزلت.[٦]

---

[١] مرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن محبوب وخالد وعَدي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٦.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وأبي البَرَهسم وعُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٨.

[٦] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٦٤/٤؛ وسنن الترمذي، ٤٤٤/٥ (٣٣٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٧/٢٤-٣٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ليَجرُّوه إلى النار. والزَّبانية: الشُّرَط، الواحدة "زِبْنِية" كـ"عِفْرِيَة"[١] مِن الزَّبْن وهو الدّفع، وقيل: "زَبَنيّ"، وكأنّه نُسِب إلى "الزَّبْن" ثمّ غُيِّر كـ"إمسيّ"، وأصلها "زَبانيّ"، فقيل: "زَبانِيَة" بتعويض "التاء" عن "الياء"، والمراد ملائكة العذاب. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لو دعا ناديَه لأخذته الزبانية عِيانًا».[٢]

/ ﴿كَلَّا﴾ ردع بعد ردع، وزجر إثر زجر ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: دُم على ما أنت عليه مِن معاصاته ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك غيرَ مكترث به ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾ وتقرَّب بذلك إلى ربّك. وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبدُ إلى ربّه إذا سجد».[٣] [٣١١و]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة العلق أعطي مِن الأجر كأنّما قرأ المفصّل كلّه».[٤]

---

١ س: كعفريته.

٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٦٤/٤؛ وسنن الترمذي، ٤٤٤/٥ (٣٣٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٧/٢٤-٣٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

٣ صحيح مسلم، ٣٥٠/١ (٤٨٢)؛ سنن أبي داود، ١٥٥/٢ (٨٧٥)؛ بلفظ «وهو ساجد» مكان «إذا سجد»، وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

٤ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢/٣٠ (العلق، ١/٩٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢٧/٤ (العلق، ١/٩٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٦

سورة اقرأ

مكيـة، تسـعَ عشْـرةَ آيـةً. صدرُهـا إلى «مـا لَم يعلـمْ» أوّلُ مـا نزل مـن القـرآن وذلك بغـارِ حِراءٍ. رواه البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿اقرَأْ﴾: أَوجِدِ القِراءة مُبتدئًا ﴿بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الخلائقَ، ٢ ـ ﴿خَلَقَ الإنسانَ﴾ الجِنس ﴿مِن عَلَقٍ﴾: جمع عَلَقة، وهي القِطعة اليسيرة من الدم الغليظ، ٣ ـ ﴿اقرَأْ﴾: تأكيدٌ للأوّل، ﴿وربُّكَ الأكرَمُ﴾ الذي لا يُوازيه كريم، حالٌ من الضمير في «اقرأ»، ٤ ـ ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الخطّ ﴿بِالقَلَمِ﴾ ـ......

سورَة اقرأ

وفي نُسخَة: العَلَق

قولُهُ: (أَوجِدْ القِرَاءَة) فيه أنَّ الإيجادَ فعلُ الله تعالى حقيقَةً، فيحمَلُ قولُهُ على المجازِ؛ أي: اقرأ القُرآنَ، كما قالَهُ القاضِي[1]، فالمفعولُ مقدَّرٌ.

قولُهُ: (مُبتَدِئاً) ومُفتَتِحاً، ومُستَعيناً.

قولُهُ: (الجِنسَ) فخرُوجُ بعضِ الأفرادِ كآدمَ وحوَّاءَ لا يضُرُّ، وهو تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ دلالَةً على عجيبِ فطرَتِهِ.

قولُهُ: (جَمعُ: عَلقَة) جمعَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ في معنى الجمعِ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) يعني: أنَّه تكريرٌ للمُبالغَةِ، أو الأوَّلُ مطلقٌ، والثَّاني للتَّبليغِ، أو في الصَّلاة.

قولُهُ: (كَرِيمٌ) بل هو الكَريمُ وحدهُ على الحقيقَةِ.

قولُهُ: (الخَطَّ) وقد قرئَ به[2]؛ ليُفيدَ به العلومَ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٢٥).

(٢) أي: (علم الخطَّ بالقلم)، وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن الزبير، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٧٦).

وأوّلُ من خطّ به إدريسُ عليه السلام ـ ٥ ـ ﴿عَلَّمَ الإنسانَ﴾ الجِنسَ ﴿ما لَم يَعلَمْ﴾ قبلَ تعليمه من الهُدى والكِتابة والصِّناعة وغيرها.

٦ ـ ٧ ـ ﴿كَلاّ﴾: حقًّا، ﴿إنَّ الإنسانَ لَيَطغَى، أن رَآهُ﴾ أي: نفسَه ﴿استَغنَى﴾ بالمال. نزلَ في أبي جهل. ورأى: عِلميّةٌ. واستغنى: مفعول ثان. وأن رآه: مفعول له. ٨ ـ ﴿إنَّ إلَى رَبِّكَ﴾ ـ يا إنسانُ ـ ﴿الرُّجعَى﴾: الرجوعَ ـ تخويفٌ له ـ فيُجازي الطاغيَ بما يستحقّه.

٩ ـ ﴿أرَأيتَ﴾ ـ في مواضعها الثلاثة للتعجّب ـ ﴿الَّذِي يَنهَى﴾ هو أبو جهل ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿عَبدًا﴾ هو النبيّ ﷺ ﴿إذا صَلَّى؟ أرَأيتَ إن كانَ﴾ المنهيُّ ﴿علَى الهُدَى أو﴾: للتقسيم ﴿أمَرَ بِالتَّقوَى؟ أرَأيتَ إن كَذَّبَ﴾ أي: الناهي النبيَّ ﴿وتَوَلَّى﴾ عن الإيمان؟ ١٤ ـ ﴿ألَم يَعلَمْ بِأنَّ اللهَ يَرَى﴾ ما صدر منه؟ أي: يعلمُه فيُجازيه عليه. أي: اعجبْ منه ـ يا مُخاطبُ ـ من حيثُ نهيُه عن الصلاة ومن حيثُ إنّ المنهيَّ على الهُدى آمرٌ بالتقوى ومن حيثُ إنّ الناهيَ مُكذِّب مُتولٍّ عن الإيمان.

قولُهُ: (والصِّيَاغَةِ) وفي نُسخةٍ بالنُّونِ والعينِ المهملةِ، وهو الصَّحيحُ.

قولُهُ: (حَقًّا) أو ردعٌ لمن كفرَ بنعمَةِ الله تعالى لطُغيانِهِ، وإن لم يُذكَر لدلالةِ الكلامِ عليه.

قولُهُ: (عِلمِيَّةٌ) ولذلك جازَ أن يكونَ فاعلهُ ومفعولُهُ ضميرَينِ لواحِدٍ.

قولُهُ: (يا إِنسَانُ) خاطَبَ الإنسانَ على الالتفاتِ تهديداً وتحذيراً من عاقبَةِ الطُّغيانِ.

قولُهُ: (أي: الرُّجُوعَ) يعني: ﴿الرُّجعَى﴾ مصدرُهُ كالبُشرى.

قولُهُ: (هُو أَبُو جَهلٍ) قال: لو رأيتُ محمَّداً ساجِداً لوطِئتُ عُنقَه فجاءَهُ، ثمَّ نكصَ على عقبَيهِ فقيلَ له: ما لك؟ إنَّ بيني وبينَهُ لخَندَقاً من نارٍ، وهَولاً وأجنحَةً، فنزلَتْ(١).

قولُهُ: (هُوَ النَّبِيُّ) ولفظُ العَبدِ وتنكيرُهُ للمُبالغَةِ في تقبيحِ النَّهي، والدَّلالَةِ على كَمالِ عبوديَّةِ المنتَهي.

قولُهُ: (للتَّقسِيمِ) أي: لتَقسيمِ الأوقاتِ.

قولُهُ: (النَّبيَّ) مَفعولُ: ﴿كَذَّبَ﴾.

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) أو الطَّاعَةِ.

قولُهُ: (يَا مُخَاطَبُ) الأظهَر: أيُّها المخاطَبُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٥ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ له ﴿لَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ عمّا هو عليه من الكُفر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: لنَجُرَّنْ بناصيته إلى النار، ١٦ ـ ﴿نَاصِيَةٍ﴾: بدلُ نكرة من معرفة، ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. وصفُها بذلك مَجاز، والمُراد صاحبُها. ١٧ ـ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهلَ ناديه. وهو المَجلس يُنتدَى: يَتحدّث فيه القوم. وكان قال للنبيّ ﷺ لمّا انتهره حيثُ نهاه عن الصلاة: لقد علمتَ: ما بها رجل أكثرُ ناديًا منّي. لأملأنَّ عليك هذا الوادي، إن شئتُ، خيلاً جُردًا ورِجالاً مُردًا.

١٨ ـ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾: الملائكةَ الغِلاظ الشِّداد لإهلاكه. في الحديث: «لَو دَعا نادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ الزَّبانِيَةُ عِيانًا». ١٩ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ له ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ في ترك الصلاة ﴿وَاسْجُدْ﴾: صلِّ لله ﴿وَاقْتَرِب﴾ منه بطاعته.

قولُهُ: (رَدعٌ لَهُ) أي: للنَّاهي.

قولُهُ: (منَ الكُفرِ) أو منَ النَّهيِ.

قولُهُ: (لنَجُرَّنْ) بالنُّونِ الخفيفة، وكِتَبَتُهُ في المصحَفِ بالألِفِ على حُكمِ الوَقفِ.

قولُهُ: (بنَاصِيَتِهِ) الاكتِفاءُ باللَّام عن الإضافَةِ للعِلمِ بأنَّ المرادَ ناصيةُ المذكُورِ.

قولُهُ: (بَدَلُ نكِرَة) وإنَّما جازَ لوصفِها.

قولُهُ: (بذَلكَ) أي: بالكذبِ والخَطأ، وهما لصاحِبِها على الإسنادِ المجازيِّ للمُبالَغَة.

قولُهُ: (وهوَ) أي: النَّادي.

قولُهُ: (يَنتَدِي) أي: يُنادي بعضُهُم بَعضاً.

قولُهُ: (يَتَحدَّثُ) بَدلٌ، أو تفسيرٌ.

قولُهُ: (لَمَّا انتهَرَهُ) وأغلَظَ له رَسولُ اللهِ ﷺ.

قولُهُ: (لإهلَاكِهِ) أو جرِّهِ إلى النَّار.

قولُهُ: (في تَركِ الصَّلاةِ) واثبُت على طاعَتِك.

قولُهُ: (صَلِّ لِلَّه) هذا تكرارٌ، فالأولى: دُم على سُجودِكَ.

قولُهُ: (مِنهُ) أي: وتقرَّب إلى ربِّكَ، وفي الحديثِ: «أَقرَبُ ما يَكُونُ العَبدُ لِرَبِّهِ وهو ساجِدٌ» رواهُ مُسلِم[1]، والله سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. بلفظ (من ربه).

سورة العلق

وتسمَّى سورة: اقرأ، لا خلاف في مكِّيتها، وإنَّما الخلافُ في عدد آيها، ففي الحجازيِّ عشرون آية، وفي العراقيِّ تسع عشرة، وفي الشاميِّ ثماني عشرة. وفي أنَّها أولُ نازلٍ أَوْ لا، فذهب كثيرٌ إلى أنَّها أولُ نازلٍ، فقد أخرج الطبرانيُّ في «الكبير»[1] بسنده على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطارديّ قال: كان أبو موسى الأشعريُّ يقرئنا، فيُجْلِسنا حلقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: «اقرأ باسم ربك» قال: هذه أَوَّلُ سورةٍ أُنزِلت على محمدٍ رسول الله ﷺ.

وقد أخرج الحاكم في «المستدرك» والبيهقيُّ في «الدلائل» وصحَّحاه عن عائشةَ نحوه[2].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهد قال: أَوَّلُ ما نزلَ من القرآن: «اقرأ باسم ربِّك»، ثم «نٓ والقلم»[3].

وروى الشيخان[4] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألتُ جابر بن عبد الله: أيُّ القرآن أُنزِل أَوَّلاً؟ قال: «يا أيها المدثر». قلت: يقولون: «اقرأ باسم ربك». قال: أحدِّثُكم بما حدَّثنا به رسول الله ﷺ. فساق الحديث مستدلًّا به على ما ادَّعاه.

---

(١) كما في الإتقان ١/ ٧٧. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٤٢، وابن الضريس في فضائل القرآن (٢٤)، والطبري ٢٤/ ٥٣١، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٩، ودلائل النبوة ٢/ ١٥٥، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٥٣٠.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٥٤١، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٣١.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٢٢)، وصحيح مسلم (١٦١): (٢٥٧).

وأجاب عنه الأوَّلون بعدَّة أجوبةٍ مرَّ ذكرها.

وقيل: الفاتحة، واحتجَّ له بحديث مرسلٍ[(١)] رجاله ثقات، أخرجَه البيهقيُّ في «الدلائل» والواحديُّ من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو[(٢)] عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل[(٣)].

وأجيب عنه بأنَّ ما فيه يحتملُ أن يكون خبراً عمَّا نزل بعدَ «اقرأ» و«يا أيُّها المدثر»، مع أنَّ غيره أقوى منه روايةً.

وجزم جابرُ بن زيدٍ بأنَّ أوَّلَ ما نزل «اقرأ» ثمَّ «نٓ» ثمَّ «يا أيُّها المزمل» ثمَّ «يا أيُّها المدثر» ثمَّ «الفاتحة».

وقيل: أوَّل ما نزل صدرُها إلى «ما لم يعلم» في غار حراء، ثم نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى، وهو ظاهرُ ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وعبدُ بن حميد وعبد الرزاق وغيرهم من طريق ابن شهاب عن عروةَ بن الزبير عن عائشة في حديث بدءِ الوحي، وفيه: «فأخذني فغطَّني الثالثة، حتى بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسَلَني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، فرجع بها رسولُ الله ﷺ ترجفُ بوادره» إلى أنْ قالت: ثم لم ينشَبْ ورقةُ أنْ توفي، وفتر الوحي[(٤)].

وفي آخر ما رووا قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي، إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراءٍ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَرُعِبتُ منه، فرجعت فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ

(١) قوله: مرسل، ساقط من الأصل، والمثبت من (م)، والإتقان ١/ ٧٩، وعنه نقل المصنف.
(٢) في الأصل و(م): عمر، والمثبت من المصادر.
(٣) الإتقان ١/ ٧٩، والخبر في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٨.
(٤) أخرجه أحمد (٢٥٩٥٩)، والبخاري (٣) و(٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩).

﴿فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]، فحمي الوحيُ وتتابعَ[١].

ويعلم منه ضعفُ الاستدلال على كون سورة المدثر أوَّلَ نازلٍ من القرآن على الإطلاق بما روي أوَّلاً عن جابر المذكور، كما لا يخفى على الواقف عليه، وقد ذكرنَاه صدر الكلام في سورة المدثر، لقوله فيه: وهو يحدث عن فترة الوحي، وقولِه: «فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء» وقولِه: «فحمي الوحي وتتابع»، أي: بعد فترته.

وبالجملة: الصحيح ـ كما قال البعض، وهو الذي أختاره ـ أنَّ صدرَ هذه السورة الكريمة هو أوَّل ما نزل من القرآن على الإطلاق، كيف، وقد وردَ حديثُ بدءِ الوحي المرويُّ عن عائشة من أصحِّ الأحاديث، وفيه: فجاءه الملَكُ فقال: اقرأ، فقال: «قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد» إلخ.

والظاهر أنَّ «ما» فيه نافيةٌ، بل قال النوويُّ: هو الصواب[٢]، وذلك إنَّما يتصوَّر أوَّلاً[٣]، وإلَّا لكان الامتناعُ من أشدِّ المعاصي، ويطابقه ما ذكره الأئمةُ في باب تأخير البيان، وسنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وفي «الكشف»: الوجهُ حمل قول جابر على السُّورة الكاملة، وفي «شرح صحيح مسلم»: الصواب أنَّ أوَّلَ ما نزل «اقرأ»، أي: مطلقاً، وأوَّل ما نزل بعد فترةِ الوحي: «يا أيها المدثر»[٤]، وأمَّا قول من قال من المفسرين أوَّل ما نزل «الفاتحة»، فبطلانُه أظهرُ من أنْ يُذكر. انتهى.

وتمامُ الكلام في هذا المقام يطلبُ من محلِّه، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٠٣٥)، والبخاري (٤) و(٤٩٥٤)، ومسلم (١٦١)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٩٩. وجاء في هامش: وجعلها بعضهم استفهامية لرواية بعضهم: «ما أقرأ»، ولا يخفى أنها في هذا لا يتعين كونها نافية كما قال النووي عليه الرحمة. اهـ منه.

(٣) أي: قبل نزول شيء من القرآن.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢٠٧.

ولَمَّا ذكر سبحانه في سورة التين خلقَ الإنسان في أحسن تقويم، بيَّن عزَّ وجلَّ هنا أنَّه تعالى خَلَقَ الإنسان من عَلَقٍ، فكان ما تقدَّم كالبيان للعلَّة الصُّوريَّة، وهذا كالبيان للعلَّة الماديَّة، وذكرَ سبحانه هنا أيضاً من أحواله في الآخرة ما هو أبسطُ مِمَّا ذكرَه عزَّ وجلَّ هناك، فقال سبحانه وتعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أي: ما يُوحى إليك من القرآن، فالمفعولُ مقدَّرٌ بقرينة المقام كما قيل، وليس الفعلُ منزَّلاً منزلةَ اللازم، ولا أنَّ مفعولَه قولُه تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ على أنَّ الباءَ زائدة، كما قال أبو عبيدة، وزعم أنَّ المعنى: اذكر ربَّك[1]، بل هي أصليَّةٌ، ومعناها الملابسة، وهي متعلِّقةٌ بما عندها، أو بمحذوفٍ وقع حالاً كما روي عن قتادة، والمعنى: اقرأ مبتدئاً أو مفتتحاً باسم ربك، أي: قل: بسم الله، ثم اقرأ، وهو ظاهرٌ في أنَّه لو افتتحَ بغير اسمه عزَّ وجلَّ لم يكن ممتثلاً.

واستُدِلَّ بذلك على أنَّ البسملةَ جزءٌ من كلِّ سورةٍ، وفيه بحثٌ، وكذا الاستدلالُ به على أنَّها ليست من القرآن للمقابلة؛ إذ لقائلٍ أنْ يقول: إنَّها تخصِّصُ «القرآن» المقدَّرَ مفعولاً بغيرها.

وبعضهم استدلَّ على أنَّها ليست بقرآن في أوائل السور بأنَّها لم تُذْكر فيما صحَّ من أخبار بدء الوحي الحاكية لكيفيةِ نزول هذه الآيات، كذا أفادَه النوويُّ عليه الرحمة، ثمَّ قال: وجوابُ المثبتين أنَّها لم تنزل أوَّلاً، بل نزلت في وقتٍ آخر، كما نزلَ باقي السورة كذلك[2]. وهذا خلافُ ما أخرجَ الواحديُّ عن عكرمة والحسن أنَّهما قالا: أوَّلُ ما نزل من القرآن: «بسم الله الرحمن الرحيم» وأوَّلُ سورةٍ «اقرأ»[3]، وكذا خلافُ ما أخرجَه ابنُ جرير وغيره من طريق الضحَّاك عن ابن

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٤.
(٢) المجموع ٣/ ٢٩٣، ٢٩٨.
(٣) أسباب النزول ص٨.

عباس أنَّه قال: أولَ ما نزل جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ قال: يا محمد، استعذ ثم قل: «بسم الله الرحمن الرحيم»(١).

وقد عُدَّ القولُ بأنَّها أولُ ما نَزَل أحدَ الأقوال في تعيين أوَّل مُنْزَلٍ من القرآن، وقال الجلال السيوطيُّ: إنَّ هذا القولَ لا يُعَدُّ عندي قولاً برأسه، فإنَّه من ضرورة نزول السورة نزولُ البسملة معها، فهي أوَّل آيةٍ نزلت على الإطلاق(٢).

وفيه منعٌ ظاهر كما لا يخفى.

وجُوِّزَ كون الباء للاستعانة متعلِّقةً بما عندها، أو بمحذوفٍ وقع حالاً، ورُجِّحت الملابسة بسلامتها عن إيهام كون اسمه تعالى آلةً لغيره، وقد تقدَّم ما يتعلَّق بذلك أوَّلَ الكتاب(٣).

ثم إنَّه ليس في الأمر المذكور تكليفٌ بما لا يطاق، سواءٌ دلَّ الأمرُ على الفور أم لا؛ لأنَّه ﷺ علم أنَّ ما أوحي قرآنٌ، فهو المكلَّفُ بقراءته عليه الصلاة والسلام، ولا محذورَ في كون «اقرأ» إلخ مأموراً بقراءته؛ لصدق المأمور بقراءته عليه، وهذا كما تقول لشخصٍ: اسمع ما أقول لك، فإنَّه مأمورٌ بسماع هذا اللفظ أيضاً، وقد ذكرَ جمعٌ من الأصوليين أنَّ هذا بيانٌ للمأمور به في قول جبريل عليه السلام: اقرأ، المذكور في حديث بدء الوحي المتَّفق عليه(٤).

قال الآمديُّ عند ذكر أدلَّة جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، الذي ذهب إليه جماعةٌ من الحنفيَّة وغيرهم: ومن الأدلَّة ما رويَ أنَّ جبريل عليه السلام قال للنبيِّ ﷺ: اقرأ، قال: «وما أقرأ؟»، كرَّرَ عليه ثلاث مرات ثم قال له: «اقرأ باسم

(١) تفسير الطبري ١/ ١١١، وأورده ابن كثير في تفسيره ١/ ١١٣ وقال: وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً.

(٢) الإتقان ١/ ٨٠.

(٣) ينظر ما سلف ١/ ٢٠٢.

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد سلف قريباً.

ربِّك الذي خلق»[(١)]، فأخَّر بيانَ ما أمرهُ به أوَّلاً مع إجمالِه إلى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل عليه السلام، وسؤالِ النبيِّ ﷺ، مع إمكان بيانه أوَّلاً، وذلك دليلُ جواز التأخيرِ. إلى آخر ما قال سؤالاً وجواباً لا يتعلَّق بهما غرضُنا[(٢)].

ولا يخفى أنَّ كونَ هذا بياناً للمراد على الوجه الذي ذكرناه ظاهرٌ، وكونَه كذلك بجعل «اقرأ باسم ربك» إلى آخر ما نزل، أو «بسم الله الرحمن الرحيم. اقرأ» إلخ ـ على ما ادعاه الجلال ـ معمولاً لـ «اقرأ» المكرر في كلام جبريل عليه السلام = مِمَّا لا أظنُّ أنَّ أصوليًّا يقول به، ومثله كونه كذلك بحملِ الآية على ما سمعت عن أبي عبيدة.

وأمَّا بناءُ الاستدلال على ما في بعض الآثار من أنَّ جبريلَ عليه السلام جاء إلى النبيِّ ﷺ وهو بحراء بنمطٍ من ديباج مكتوبٍ فيه: «اقرأ باسم ربك» إلى «ما لم يعلم»، فقال له: اقرأ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أنا بقارئ» قال: «اقرأ باسم ربك»[(٣)] بأنْ يكون «اقرأ» إلخ بياناً وتلاوةً من جبريل عليه السلام لما في النمط المنزَّل ـ لعدم العلم بما فيه وإنْ كان مشاهداً ـ منزلة المجمل الغير المعلوم، فلا يخفى حاله فتأمَّل.

ثم إنَّ في كلام الآمديِّ من حيثُ روايةُ الخبر ما فيه، فلا تغفل.

والتعرُّض لعنوان الربوبيَّة المنبئةِ عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ؛ للإشعار بتبليغه عليه الصلاةُ والسلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية، بإنزال الوحي المتواتر.

ووصفُ الربِّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لتذكيره عليه الصلاة والسلام أوَّلَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٢٩٢، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٢٩-٥٣٠ من حديث عبد الله بن شداد ﷺ.

(٢) إحكام الأحكام ٣/ ٥٢.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٢٩ من حديث جابر ﷺ. قال الحاكم: فسمعت أبا علي الحافظ يقول: ذكر جابر في إسناده وهم.
وقال الذهبي في التلخيص: صوابه مرسل، ليس فيه جابر.

النعماء الفائضةِ عليه ﷺ منه سبحانه، مع ما في ذلك من التنبيه على قدرته تعالى على تعليم القراءة بألطف وجهٍ.

وقيل: لتأكيد عدم إرادة غيره تعالى من الربِّ، فإنَّ العرب كانت تسمِّي الأصنام أرباباً، لكنهم لا ينسبونَ الخلق إليها.

والفعل إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: الذي له الخلق، أو مقدَّرٌ مفعوله عامًّا، أي: الذي خلق كلَّ شيءٍ، والأوَّل يفيدُ العمومَ أيضاً، فعلى الوجهين يكونُ وجه تخصيص الإنسان بالذكر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أنَّه أشرفُ المخلوقات، وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه، فهو أدلُّ على وجوب العبادة المقصودة من القراءة، مع أنَّ التنزيلَ إليه.

ويجوزُ أن يرادَ: خلق الإنسان، إلَّا أنَّه لم يُذكر أولاً، وذُكر ثانياً قصداً لتفخيمه بالإبهام ثم التفسير.

وعن الزمخشريِّ أنَّ المناسبَ أن يراد: خلق الإنسان، بعدَ الأمر بقراءة القرآن؛ تنبيهاً على أنَّه تعالى خلقه للقراءة والدراية، كما أنَّ ذِكْرَ خلقِ الإنسان عقيبَ تعليم القرآن أوَّل سورة الرحمن لنحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: دم جامدٍ؛ لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بينَ حالتيه الأولى والآخرة من التباين البيِّن، وأتى به دالًّا على الجمع[1]؛ لأنَّ الإنسان مرادٌ به الجنس، فهو في معنى الجمع، فأتى بما خُلِق منه كذلك ليطابقه مع ما في ذلك من رعاية الفواصل، ولعلَّه ـ على ما قيل ـ السرُّ في تخصيص هذا الطَّور من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة والتراب أدلَّ على كمال القدرة؛ لكونهما أبعدَ منه بالنسبة إلى الإنسانية.

وفي «البحر»: لم يذكر سبحانه مادَّة الأصل ـ يعني آدم عليه السلام ـ وهو التراب؛ لأنَّ خلقَه من ذلك لم يكن متقرِّراً عند الكفار، فذَكر مادَّة الفرع وخَلْقَه

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وهو جمع علقة كما في «البحر» [٨/ ٤٩٢]، واسم جنس جمعي كما صرح به الشهاب [في حاشيته ٨/ ٣٧٩]. اهـ منه.

منها، وتَركَ مادَّة أصل الخلقة؛ تقريباً لأفهامهم[1]. وهو على ما فيه لا يحسم مادَّة السؤال.

وقيل: خَصَّ هذا الطَّور تذكيراً له عليه الصلاة والسلام لما وقع من شرح الصدر قبلَ النبوَّة، وإخراجِ العلق منه؛ ليتهيَّأ تهيُّؤاً تامًّا لما يكون له بعد، فكأنَّه قيل: الذي خلق الإنسان من جنس ما أخرجه من صدرك الشريف؛ ليهيِّئك بذلك لمثل ما يُلقَى إليك الآن، وبهذا تَقْوَى مناسبةُ هذه السورة لسورة الشرح قبلها أتمَّ مناسبةٍ، لاسيما على تفسير الشرح بالشقِّ، فتدبره.

ومن الناس من زعم أنَّ المرادَ بالإنسان آدمُ عليه السلام، وأنَّ المعنى: خلقَ آدم من طينٍ يعلقُ باليد. وهو مِمَّا لا تعلَقُ به يدُ القَبول.

ولَمَّا كان خلقُ الإنسان أوَّلَ النعم الفائضة عليه منه تعالى، وأقدمَ الدلائل الدالَّة على وجوده عزَّ وجلَّ، وكمالِ قدرته وعلمه وحكمته سبحانه، وصف ذاتَه تعالى بذلك أوَّلاً ليَستشهدَ عليه الصلاة والسلام به على تمكينه تعالى له من القراءة، ثمَّ كرَّر جلَّ وعلا الأمرَ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أي: افعل ما أمرتَ به، تأكيداً للإيجاب، وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ إلخ، فإنَّه كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لإزاحة ما بيَّنه ﷺ من العذر بقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام حين قال له: اقرأ: «ما أنا بقارئ» يريدُ أنَّ القراءةَ شأنُ من يكتب ويقرأ، وأنا أمِّيٌّ، فقيل: وربُّك الذي أمرَك بالقراءة مفتَتِحاً ومبتدِئاً باسمه الأكرم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ أي: عَلَّم ما علَّم بواسطة القلم، لا غيرُه تعالى، فكما علَّم سبحانه القارئَ بواسطة الكتابة بالقلم، يعلِّمُك بدونها، وحقيقةُ الكرم إعطاءُ ما ينبغي لا لغرض، فهو صفةٌ لا يشاركه تعالى في إطلاقها أحدٌ، فـ: أفعل للمبالغة.

وجوِّزَ أنْ لا يكون «اقرأ» هذا تأكيداً للأوَّل، وإنَّما ذُكر ليوصِل به ما يزيحُ العذرَ، فجملة «وربُّك» إلخ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ بدلُ اشتمال من «علَّم بالقلم»، أي:

---

(١) البحر ٨/ ٤٩٢.

علَّمه به وبدونه من الأمور الكليَّة والجزئيَّة والجليَّة والخفيَّة ما لم يخطر بباله، وفي حذف المفعول أوّلاً، وإيرادِه بعنوان عدمِ المعلوميَّة ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال كرمه عزَّ وجلَّ، والإشعارِ بأنَّه تعالى يعلِّمه عليه الصلاة والسلام من العلوم ما لا يحيطُ به العقول = ما لا يخفى، قاله في «الإرشاد»(١).

وقدَّر بعضُهم مفعول «علَّم»: الخطَّ، وجعل «بالقلم» متعلِّقاً به، وأُيِّد بقراءةِ ابن الزبير: «الذي عَلَّم الخطَّ بالقلم»(٢) حيث صرَّح فيها بذلك.

وقال الجبائيُّ: إنَّ «اقرأ» الأول أمرٌ بالقراءة لنفسه ـ وقيل: مطلقاً ـ والثاني أمرٌ بالقراءة للتبليغ(٣). وقيل: في الصلاة المشارِ إليها فيما بعد، وجملة «وربُّك» إلخ تحتملُ الحاليَّة والاستئنافيَّة، وحاصلُ المعنى على إرادة القراءة للتبليغ في قول: بلِّغ قومَك وربُّك الأكرم الذي يثيبُك على عملك بما يقتضيه كرمُه، ويقوِّيك على حفظ القرآن لتبلِّغه.

وأولى الأوجه وأظهرُها التأكيد، وأبعدَ بعضُهم جدًّا، فزعم أنَّ «بسم» في البسملة متعلِّق بـ «اقرأ» الأول، و«باسم ربك» متعلِّق بـ «اقرأ» الثاني؛ ليفيد التقديمُ اختصاصَ اسم الله تعالى بالابتداء.

وجُوِّزَ أيضاً أنْ يبقَى «باسم الله» على ما هو المشهور فيه، و«اقرأ» أمرٌ بإحداث القراءة، و«باسم ربِّك» متعلِّق بـ «اقرأ» الثاني لذلك.

ولا يخفى أنَّ الظاهرَ تعلُّقُ «باسم ربك» بما عنده، وتقديمُ الفعل هاهنا أوقع؛ لأنَّ السورةَ المذكورةَ ـ على ما سبق من التصحيح ـ أوَّلُ سورةٍ نزلت، فالقراءةُ فيها أهمّ نظراً للمقام.

وقيل: إنَّه لو سُلِّم كونُ غيرها نازلاً قبلها، لا يضرُّ في حسن تقديم الفعل؛ لأنَّ

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٧٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٧، والكشاف ٤/ ٢٧١، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٣.

(٣) ذكره عن الجبائي الطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ١٨٦، وليس فيه: وقيل مطلقاً.

المعنى ـ كما سمعت عن قتادة ـ: اقرأ مفتتحاً باسم ربك، أي: قل: باسم الله ثم اقرأ، فلو افتتح بغير البسملة لم يكن ممتثلاً، فضلاً عن أنْ يفتتحَ بما يضادُّها من أسماء الأصنام، ولو قدّم الجارُّ أفاد معنًى آخر، وهو أنَّ المطلوب عند القراءة أنْ يكون الافتتاحُ باسم الله تعالى، لا باسم الأصنام، ولا تكونُ القراءة في نفسها مطلوبةً؛ لما عُلِمَ أنَّ مقتضَى التقديم أنْ يكون أصلُ الفعل مسلَّماً على ما هو عليه من زمانٍ؛ طلباً كان أو خبراً.

وأجاب من علَّقَ الجارَّ بالثاني بأنَّ مطلوبيَّة القراءة في نفسها استفيدت من «اقرأ» الأول، فلا تغفل.

والظاهر أنَّ المعلَّم بالقلم غيرُ معيَّن. وقيل: هو كلُّ نبيٍّ كتب. وقال الضحاك: هو إدريس عليه السلام، وهو أوَّلُ من خطَّ. وقال كعب: هو آدم عليه السلام، وهو أوَّل من كتب، وقد نسبوا لآدمَ وإدريس عليهما السلام نقوشاً مخصوصةً في كتابة حروف الهجاء، والذي يغلب على الظنِّ عدمُ صحَّة ذلك.

وقد أدمجَ سبحانه وتعالى التنبيهَ على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، ونيل الرتب الفخيمة، ولولاه لم يقم دينٌ ولم يصلحْ عيشٌ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره سبحانه دليلٌ إلَّا أمر القلم والخطِّ لكفى به، وقد قيل فيه:

لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُهُ وأرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أيدٍ عَوَاسِلُ[1]

ومما نسبه الزمخشريُّ في ذلك لبعضهم، وعنى على ما قيل نفسه:

ورواقمٍ رُقْشٍ كمثل أراقم قُطْف الخُطى نَيَّالة أقصى المَدى
سود القوائم ما يجدُّ مسيرُها إلا إذا لعبت بها بيضُ المُدى[2]

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ص١٢٣، والأريُ: ما لزق من العسل في جوف الخلية، والجنى: العسل، واشتارته: استخرجته، يقال: شار فلانٌ العسل شوراً وشياراً وشيارة: إذا استخرجه، وكذلك أشاره واشتاره. والعواسل: جمع عاسلة، أي: مستخرجة العسل، والعاسل: مشتار العسل من موضعه. انظر خزانة الأدب ١/ ٤٤٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧١. والرواقم: جمع راقم، والرَّقْمُ: الكتابة، أي: ربَّ أقلامٍ رواقمٍ، فرواقم =

ولهم في هذا الباب كلامٌ فصلٌ يضيقُ عنه الكتاب.

وظاهر الآثار أنَّ الكتابةَ في الأمم غير العرب قديمةٌ، وفيهم حادثة، لاسيما في أهل الحجاز، وذَكر غيرُ واحدٍ أنَّ الكتابةَ نُقلت إليهم من أهل الحيرة، وأنَّهم أخذوها من أهل الأنبار، وذكرَ الكلبيُّ والهيثم بن عديّ أنَّ الناقلَ للخطِّ العربيِّ من العراق إلى الحجاز حربُ بنُ أميَّة، وكان قد قدِم الحيرة، فعاد إلى مكَّة به، وأنَّه قيل لابنه أبي سفيان: مِمَّن أخذَ أبوك هذا الخطَّ، فقال: من أسْلَم بن أسدرة، وقال: سألتُ أسلم مِمَّن أخذتَ هذا الخط؟ فقال: من واضعِه مرامر بن مُرَّة.

وقيل: كان لحمير كتابةٌ يسمُّونها المسند، منفصلة غير متصلة، وكان لها شأنٌ عندهم، فلا يتعاطاها إلَّا مَنْ أُذِن له في تعلُّمها.

وأصنافُ الكتابة كثيرةٌ، وزعمَ بعضُهم أنَّ جُلَّ كتابات الأمم اثنا عشر صنفاً؛ العربيَّة، والحميريَّة، والفارسيَّة، والعبرانيَّة، واليونانيَّة، والروميَّة، والقبطيَّة، والبربريَّة، والأندلسيَّة، والهنديَّة، والصِّينيَّة، والسُّريانيَّة، ولعلَّ هذا ـ إنْ صحَّ ـ باعتبار الأصول، وإلَّا فالفروع توشكُ أن لا يحصيها قلم كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

ولم يَرَ بعضُ العلماء من الأدب وصفَ غيره تعالى بالأكرم، كما يفعلُه كثيرٌ من الناس في رسائلهم، فيكتبون: إلى فلان الأكرم، ومع هذا يَعدُّونه وصفاً نازلاً، ويستهجنونه بالنسبة للملوك ونحوهم من الأكابر، وقد يصفونَ به اليهوديَّ والنصرانيَّ ونحوهما، مع أنَّه تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فعلى العبد أن يراعي الأدب مع مولاه، شاكراً كرمه الذي أولاه.

= صفة لمحذوف، والرقش كالنقش، يقال: حية رَقْشَاء، لترقيشٍ في ظهرها. وقوله: كمثل، خبر. وأراقم جمع أرقم، وهي الحية التي فيها سواد وبياض. وقوله: قطف، القطوف من الدواب: البطيء المشي. ونيّالة: صيغة مبالغة من نال بمعنى أصاب، وأقصى: مفعولُه. والمدى في آخر البيت الأول بالفتح: الغاية، وفي آخر البيت الثاني بالضم جمع مُدية. شرح شواهد الكشاف في آخر الكشاف ٤/ ٥٦٥، وقد ذكر فيه الشارح محب الدين أفندي كلاماً طويلاً ينظر ثمة.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه، وإن لم يذكر؛ لدلالة الكلام عليه، وذلك لأنَّ مفتتحَ السورة إلى هذا المقطع يدلُّ على عظيم منَّته تعالى على الإنسان، فإذا قيل: «كلا»، كان ردعاً للإنسان الذي قابلَ تلك النعم الجلائل بالكفران والطغيان، وكذلك التعليلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: ليتجاوزُ الحدَّ في المعصية واتباعِ هوى النفس، ويستكبرُ على ربِّه عزَّ وجلَّ.

وقال الكلبيُّ: أي: لَيَرتَفِعُ عن منزلةٍ إلى منزلةٍ في اللباس والطعام وغيرهما. وليس بذاك.

وقَدَّر بعضُهم بعد قوله تعالى: (مَا لَمْ يَعْلَمْ): لِيَشْكرَ تلك النعمَ الجليلة فطغى وكفر كلّا.

وقيل: «كلّا» بمعنى حقًّا؛ لعدم ما يتوجَّه إليه الردع والزجرُ ظاهراً، فقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ) إلخ بيانٌ لما أريد إحقاقه.

وهذا إلى آخر السورة قيل: نزل في أبي جهل بعدَ زمانٍ من نزول الآيات السابقة، وهو الظاهر، ومع نزوله في ذلك اللعين المرادُ بالإنسان الجنس.

وقوله سبحانه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ مفعولٌ من أجله، أي: يطغى لِأَنْ رأى نفسَه مستغنياً، على أنَّ جملة «استغنى» مفعولٌ ثانٍ لـ «رأى»؛ لأنَّه بمعنى عَلِمَ، ولذلك ساغَ كونُ فاعله ومفعوله ضميري واحدٍ، نحو عَلِمْتُني، فقد قالوا: إنَّ ذلك لا يكون في غير أفعال القلوب وفَقَدَ وعَدِمَ.

وذهب جماعةٌ إلى أنَّ رأى البصريَّة قد تُعطَى حكم القلبيَّة في ذلك، وجَعلُوا منه قولَ عائشة: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعامٌ إلَّا الأسودان(١)، وأنشدوا:

ولقد أراني للرِّماح دريَّةً(٢) ... من عن يميني تارةً وأمامي(٣)

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عن عائشة أبو عبيد في غريب الحديث ٤/٣١٨، وأخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) بألفاظ قريبة.

(٢) في (م): دريئة. قال التبريزي في شرح الحماسة ١/٦٨: الدريئة تهمز ولا تهمز، فتجعل من الدرء، وهو الدفع، ومن الدري، وهو الختل.

(٣) هو لقطري بن فجاءة، كما في ديوان الحماسة ١/٦٨، وخزانة الأدب ١٠/١٥٨.

فإذا جعلت «رأى» هنا بصريَّةً، فالجملة في موضع الحال.

وتعليلُ طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، للإيذان بأنَّ مدارَ طغيانه زعمُه الفاسدُ على الأول، ومجرَّد رؤيتِهِ ظاهرَ الحال من غيرِ رويَّة وتأمُّلٍ في حقيقته على الثاني، وعلى الوجهين المرادُ بالاستغناء: الغنى بالمال، أعني مقابل الفقر المعروف.

وقيل: المرادُ: أنْ رأى نفسَه مستغنياً عن ربِّه سبحانه بعشيرته وأمواله وقوَّته. وهو خلاف الظاهر، ويبعده ظاهرُ ما روي أنَّ أبا جهلٍ قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أنَّ مَن استغنى طغَى، فاجعل لنا جبالَ مكَّة ذهباً وفضَّة، لعلَّنا نأخذُ منها فنطغى، فندع ديننا ونتبع دينك، فنزلَ جبريلُ عليه السلام فقال: إنْ شئتَ فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة. فكفَّ رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم(١).

وقرأ قنبل بخلافٍ عنه: «أن رأه» بحذف الألف التي بعد الهمزة(٢)، وهي لام الفعل. ورَوى ذلك عنه ابن مجاهد، وغلَّطَهُ فيه، وقال: إنَّ ذلك حذفٌ لا يجوز(٣). وفي «البحر»: ينبغي أنْ لا يغلِّطَه، بل يتطلَّب له وجهاً، وقد حُذِفت الألف في نحوِ من هذا، قال:

وصَّانيَ العجَّاجُ فيمن وَصَّني(٤)

يريد: وصَّاني، فحذف الألفَ، وهي لام الفعل، وقد حذفت في مضارع «رأى» في قولهم: أصاب الناسَ جهدٌ، لو ترَ أهل مكَّة، وهو حذفٌ لا ينقاس، لكن إذا

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، كان إذا أصابه مالٌ زاد في ثيابه ومركبه وطعامه، فذلك طغيانه. وهذا ليس بشيء كما لا يخفى. اهـ منه.
(٢) التيسير ص٢٢٤، والنشر ٢/ ٤٠١.
(٣) انظر السبعة ص٦٩٢.
(٤) البيت لرؤبة كما في خزانة الأدب ١/ ١٣١، وهو في ملحقات ديوان رؤبة ص١٨٧. وفيهما: فيما. بدل: فيمن.

صحَّتِ الرواية وجب القبول، فالقراءات جاءت على لغة العرب قياسِها وشاذِّها[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ تهديدٌ للطاغي، وتحذيرٌ له من عاقبة الطغيان، والخطاب ـ قيل ـ للإنسان، والالتفاتُ للتشديد في التهديد.

وجُوِّزَ أن يكون الخطابُ لسيِّد المخاطبين ﷺ، والمراد أيضاً تهديدُ الطاغي وتحذيره، ولعلَّه الأظهر نظراً إلى الخطابات قبله.

و«الرجعى» مصدرٌ بمعنى الرجوع، كالبُشرى، والألفُ فيها للتأنيث، وتقديمُ الجارِّ والمجرور عليه للقَصْرِ، أي: إنَّ إلى ربِّك رجوع الكلِّ بالموت والبعث، لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً، فتُرى حينئذٍ عاقبةُ[٢] الطغيان.

وفي هذه الآيات ـ على ما قيل ـ إدماجُ التنبيه على مذمَّة المال، كما أنَّ في الآيات الأُوَل إدماجَ التنبيه على مدح العلم، وكفى ذلك مرغِّباً في الدين والعلم، ومنفِّراً عن الدنيا والمال.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ ذكرٌ لبعض آثار الطغيان، ووعيدٌ عليها، ولم يختلف المفسرون ـ كما قال ابن عطية[٣] ـ في أنَّ العبدَ المصلِّيَ هو رسولُ الله ﷺ، والناهيَ هو اللعين أبو جهل، فقد أخرجَ أحمد ومسلم والنسائيُّ وغيرهم عن أبي هريرة أنَّ أبا جهل حلفَ باللَّات والعُزَّى؛ لئن رأى رسولَ الله ﷺ يصلِّي ليطَأَنَّ على رقبته، وليعفرنَّ وجهَه، فأتى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلِّي ليفعل، فما فجأهم منه إلَّا وهو ينكصُ على عقبيه، ويتَّقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهَولاً وأجنحةً. فقال رسول الله ﷺ: «لو دَنا منِّي لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً»، وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى آخر السورة[٤].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٣.
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: فترى بالبناء للمفعول، وعاقبة نائب الفاعل. اهـ منه.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٢.
(٤) مسند أحمد (٨٨٣١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٧)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦١٩) و(١١٩٤٨).

وقولُ الحسن: هو أمية بن خلف، كان ينهى سلمانَ عن الصلاة. لا يكادُ يصحُّ؛ لأنَّه لا خلافَ في أنَّ إسلامَ سلمان ﷺ كان بالمدينة بعد الهجرة، كما أنَّه لا خلافَ في أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ. نعم، حكم الآية عامٌّ، فإن كان ما حكيَ عن أميَّةَ واقعاً، فحُكْمُها شاملٌ له.

والصلاة التي أشارت إليها الآيةُ كانت ـ على ما حَكَى أبو حيَّان ـ صلاةَ الظهر، وحكى أيضاً أنَّها كانت تُصَلَّى جماعةً، وهي أوَّلُ جماعةٍ أقيمت في الإسلام، وأنه كان معه عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعليٌّ ﷺ، فمرَّ أبو طالب ومعه ابنُه جعفر، فقال له: يا بنيَّ، صلْ جناح ابن عمك، وانصرفَ مسروراً وأنشأ يقول:

إنَّ عليًّا وجعفراً ثقتي عند ملمِّ الزمان والكُرَبِ
والله لا أخذلُ النبيَّ ولا يَخذله مَن يكون مِن حَسَبي
لا تخذلا وانصرا ابن عمِّكما أخي لأمي من بينهم وأبي(١)

وفي هذا نظر؛ لأنَّ الصلاةَ فُرِضَت ليلةَ الإسراء بلا خلاف، وادَّعى ابنُ حزمٍ الإجماعَ على أنَّه كان قبل الهجرة بسنة، وجَزم ابنُ فارس بأنَّه كان قبلَها بسنةٍ وثلاثة أشهر، وقال السُّدِّيُّ: بسنةٍ وخمسةِ أشهر، وموتُ أبي طالبٍ كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين؛ لأنَّه كانَ قبلَ وفاة خديجة بثلاثة، وقيل: بخمسة أيَّام، وكانت وفاتُها بعد البعثة بعشر سنين على الصحيح، فأبو طالبٍ على هذا لم يدرك فرضيَّةَ الصلاة.

نعم، حكى القاضي عياض(٢) عن الزهريِّ ـ ورجَّحه النوويُّ والقرطبيُّ(٣) ـ: أنَّ الإسراءَ كان بعد البعث بخمس سنين، لكن قيل عليه ما قيل فليراجع.

والنهيُ قيل: بمعنى المنع، وعبَّر به إشارةً إلى عدم اقتدار اللعين على غير ذلك، وفي بعضِ الأخبار ما ظاهره أنَّه حصلَ منه نهيٌ لفظيٌّ، فقد أخرج أحمدُ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٣. والأبيات في ديوان أبي طالب ص٦٧ بألفاظ قريبة.
(٢) في إكمال المعلم ١/ ٤٩٧.
(٣) شرح النووي على مسلم ٢/ ٢٠٩-٢١٠، والمفهم لأبي العباس القرطبي ١/ ٣٨٦.

والترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ يصلِّي، فجاء أبو جهلٍ فقال: ألم أنهكَ عن هذا، ألم أنهك عن هذا؟ الحديث[1].

والتعبيرُ بما يفيدُ الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لنوعِ غرابةٍ، والرؤيةُ قيل: قلبية، وكذا في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ والمفعولُ الأوَّلُ للأوَّل الموصولُ، وللثاني والثالث محذوفٌ، وهو ضميرٌ يعودُ عليه، أو اسمُ إشارة يشار به إليه، والمفعول الثاني للثالث قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ والأوَّلان متوجِّهان إليه أيضاً، وهو مقدَّرٌ عندهما، وتُرك إظهارُه اختصاراً، ونظير ذلك: أخبرني عن زيد إنْ وفدتَ عليه، أخبرني عنه إن استخبرتَه، أخبرني عنه إن توسَّلت إليه، أمَا يوجبُ حقِّي. وليس ذلك من التنازع؛ لأنَّ الجملَ لا يصحُّ إضمارها، وإنَّما هو من الطلب المعنويِّ والحذفِ في غير التنازع.

وجواب الشرط في الجملتين محذوفٌ لدلالة «ألم يعلم» عليه، ويقدَّر حسبما تقتضيه الصناعة. وقيل: يدلُّ عليه «أرأيت» مراداً به ما سيذكر قريباً إنْ شاء الله تعالى، ويقدَّر كذلك، والكلام عليه أيضاً نظيرُ ما مرَّ آنفاً.

والضمائر المستترة في «كان» وما بعدُ من الأفعال للناهي.

والمراد من «أرأيت»: أخبرني، فإنَّ الرؤيةَ لَمَّا كانت سبباً للعلم أُجري الاستفهامُ عنها مجرى الاستخبار عن متعلَّقها، والاستفهامُ الواقع موقعَ المفعول الثاني هو متعلَّق الاستخبار هنا، وهذا الإجراءُ على ما يفهم من كلام بعضِ الأئمَّة يكونُ مع الرؤية البصريَّة والرؤية القلبيَّة، وللنحاة فيه قولان.

والخطابُ في الكلِّ ـ على ما اختاره جمعٌ ـ لكلِّ من يصلحُ أن يكون مخاطباً مِمَّن له مُسْكة. وقيل: للإنسان، كالخطاب في «إلى ربك».

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٩)، ومسند أحمد (٢٣٢١). وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٦٢٠).

وتنوين «عبداً» على ما هو ظاهرُ كلام البعض للتنكير، وتقييد النهي بالظرف يشعرُ بأنَّ النهي عن الصلاة حالَ التلبُّس بها.

وفَصَل بين الجمل للاعتناء بأمر التشنيع والوعيد، حيث أشعرَ أنَّ كلَّ جملةٍ مقصودةٌ على حيالها؛ فشنَّع سبحانه على الناهي أوَّلاً بنهيه عن الصلاة، وأوعدَ عليه مطلقاً بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾ إلخ، أي: أخبرني يا مَن له أدنى تمييزٍ ـ أو: أيُّها الإنسان ـ عمَّن ينهى عن الصلاة بعضَ عبادِ الله تعالى، ألم يعلم بأنَّ الله تعالى يرى ويطَّلع، فيجازيه على ذلك النهي؟

وشَنَّع سبحانه عليه ثانياً بنهيه عن ذلك وأَوْعَده عليه أيضاً، على تقدير أنَّه ـ على زعمه ـ على هدًى ورشدٍ في نفس النهي، أو أنَّه أَمَرَ بواسطته بالتقوى؛ لأنَّ النهيَ عن الشيء أمرٌ بضدِّه، أو مستلزمٌ له، فقال تعالى شأنه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ إلخ، أي: أخبرني عن ذلك الناهي، ألم يعلم أنَّ الله يطَّلعُ فيجازيه إن كان على هدًى ورشدٍ في نفس النهي، أو كان آمراً بواسطته بالتقوى كما يزعم؟

وشنَّع جلَّ شأنه عليه ثالثاً بذلك وأوعده عليه أيضاً ـ على تقدير أنَّه في نفس الأمر وفيما يقوله تعالى مكذِّباً بحقِّيَّة الصلاةِ، متولياً عنها، معرضاً عن فعلها ـ بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ إلخ، أي: أخبرني عن ذلك الناهي، ألم يعلم بأنَّ الله تعالى يطَّلع على أحواله إن كذَّب بحقِّية ما نُهي عنه، وأعرضَ عن فعله على ما نقول نحن؟

والحاصل أنَّه تعالى شنَّع وأوعدَ على النهي عن الصلاة بدون تعرُّضٍ لحال الناهي الزعميِّ أو الحقيقيِّ، ثم شنَّع وأوعدَ جلَّ وعلا عليه مع التعرُّض لحاله الزعميِّ، ثمَّ شنَّع عزَّ وجلَّ وأوعدَ عليه مع التعرُّض لحاله الحقيقيِّ، وهذا كالترقِّي في التشنيع.

والجمهور على عدم تقييد ما في حيِّز الشرطيتين بما ذكرنا، حيث قالوا: إنْ كان على طريقةٍ سديدةٍ فيما يَنهى عنه من عبادة الله تعالى، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمرُ به من عبادة الأوثان، كما يزعم، وإن كان مكذِّباً للحقِّ ومتولِّيًا عن الصواب كما نقول.

وذُكِر أنَّ الشرطَ الثاني تكرارٌ للأوَّل؛ لأنَّ معنى الأوَّل أنَّه ليس على الهدى، وأوضحَ بأنَّ إدخال حرف الشرط في الأول لإرخاء العنان صورةً، والتهكُّم حقيقةً، إذ لا يكون في النهي عن عبادته تعالى والأمرِ بعبادة الأصنام هدًى البتَّة، وفي الثاني لذلك والتهكُّم على عكس الأول، إذ لا شكَّ أنَّه مكذِّبٌ متولٍّ؛ فمآلهما إلى واحد.

وقيل: إنَّ الرؤية في الجملة الأولى بصريَّة، فلا تحتاج إلى مفعولٍ ثانٍ، وفي الثانية والثالثة قلبيَّة، والمفعولُ الأوَّل على ما تقدَّم، والمفعول الثاني سدَّ مسدَّه الجملةُ الشرطية بجوابِها، وهو في الأخيرة: «ألم يعلم» إلخ المذكور، وفيما قبلها محذوفٌ دلَّ هو عليه. ولم تعطف الأخيرة على ما قبلها؛ للإيذان باستقلالها بالوقوع في نفس الأمر، وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب، وأمَّا ما قبلها فأمرُ الشرط فيه ليس إلَّا لتوسيع الدائرة، وهو السرُّ في تجريده عن الجواب والإحالة به على جواب الشرطيَّة بعده، والخطاب في الكلِّ لمن يصلحُ له. والتنوين في «عبداً» لتفخيمه عليه الصلاة والسلام واستعظامِ النهي وتأكيدِ التعجيب منه. والمعنى: أخبرني عن ذلك الناهي إن كان على الهدى فيما يَنهى عنه من عبادة الله تعالى إلى آخر ما ذُكر آنفاً، ألم يعلم أنَّ الله يرى ويطَّلع على أحواله، فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل.

وقيل: إنَّ «أرأيت» في الجمل الثلاث من الرؤية القلبيَّة، والمفعولُ الأوَّل للأولى الموصولُ، ومفعولها الثاني الجملةُ الشرطيَّة الأولى بجوابها المحذوف اكتفاءً عنه بجواب الشرطيَّة الثانية، إذ عُلِمَ من ضرورة التقابل، و«أرأيت» الثانية تكرارٌ[(١)] للأولى، و«أرأيت» الثالثةُ ـ ومفعولُها الأوَّلُ محذوفٌ للقرينة ـ مستقلَّةٌ؛ لأنها تقابلُ الأولى للتقابل بين الشرطين، يعني قوله تعالى: «إن كان» إلخ، وقوله سبحانه: «إن كذَّب» إلخ، وفي الإتيان بالجملة الأخيرة من دون العطف ترشيحٌ للكلام المبكِّت، وتنبيهٌ على حقِّيَّة الشرط، ولهذا صرَّح بجوابه ليتمحَّض وعيداً، والخطاب على ما تقدَّم أوَّلاً، والكلامُ من قبيل الكلام المنصف وإرخاء العنان،

(١) في (م): تكراراً.

ولذا قيل: «عبداً»، ولم يقل: نبيًّا مجتبًى، فكأنَّه قيل: أخبرني يا من له أدنى تمييزٍ عن حال هذا الذي ينهَى بعض عباد الله تعالى ـ فضلاً عن النبيِّ المجتبى ـ عن صلاته، إنْ كان ذلك الناهي على هدًى فيما يَنهى عنه من عبادة الله تعالى، أو كان آمراً بالتقوى فيما يأمرُ به من عبادة الأصنام كما يزعم، وكذلك إنْ كان على التكذيب للحقِّ والتولِّي عن الدين الصحيح ـ كما تقول[1] ـ ألم يعلم.. إلخ.

وقيل: «أرأيت» في الجملتين الثانية والثالثة تكرارٌ للأولى، والشرطيتان بجوابهما سادَّتان مسدَّ المفعول الثاني للأولى، و«ألم يعلم» إلخ جوابُ الشرط الثاني، وجوابُ الأول محذوفٌ لدلالته عليه، ولم يقل: أو إن كذَّب.. إلخ؛ لأنَّه ليس بقسيمٍ لما قبله على ما قيل، والمعنى على نحو ما سمعت.

وأُورد على جميع هذه الأقوال أنَّ في تجويز الإتيان بالاستفهام في جزاء الشرط من غير الفاء ـ وإنْ صرَّح به الزمخشريُّ في «كشافه»[2]، وارتضاه الرضيّ، واستشهدَ له بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧] ـ بحثاً؛ لأنَّ ظاهرَ نقل الزمخشريِّ نفسِه في «المفصّل» ونقلِ غيره: وجوبُ الفاء إذا كان الجزاءُ جملةً إنشائيَّةً[3]، والاستفهامُ وإن لم يبق على الحقيقة لم يخرج ـ على ما في «الكشف» ـ من الإنشاء.

وقال أبو حيان: إنَّ وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء لا أعلمُ أحداً أجازه، بل نصُّوا على وجوب الفاء في كلِّ ما اقتضى طلباً بوجهٍ ما، ولا يجوزُ حذفها إلَّا في ضرورةٍ أو شعر[4].

وقال الدمامينيُّ في «شرح التسهيل»: إنَّ جَعْلَ (هَلْ يُهْلَكُ) جزاءً مشكلٌ؛ لعدم اقترانه بالفاء، والاقترانُ بها في مثل ذلك واجبٌ.

---

(١) في (م): تقول. وكلاهما صواب، فإن كان بالنون، فهي نون العظمة، وإن كان بالتاء فالخطاب للنبي ﷺ. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٨١.

(٢) ٤/ ٢٧١.

(٣) ينظر شرح المفصل ٩/ ٢، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٨٠.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٩٥.

واعترض أيضاً جعلُ الجملة الشرطيَّة في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيت» بأنَّ مفعولها الثاني لا يكونُ إلَّا جملة استفهاميَّة، كما نصَّ عليه أبو حيان[١] وجماعة، أو قسميَّة، كما في «الإرشاد»[٢].

وقال الخفاجيّ: إنَّ جعل الشرطية في موقع المفعول، والجملة الاستفهامية في موقع جواب الشرط، إمَّا على ظاهره، أو على أنَّهما لدلالتهما على ذلك جُعِلا كأنَّهما كذلك؛ لسدِّهما مسدَّ المفعول والجواب، وبما ذُكر صَرَّح الرضيُّ والدمامينيُّ في «شرح التسهيل» في باب اسم الإشارة، فما قيل من أنَّ المفعول الثاني لـ «أرأيت» لا يكون إلَّا جملة استفهاميَّةً مخالفٌ لما صرَّحوا بأنَّه مختارُ سيبويه، فلا يُلتفت إليه[٣].

ولم يجعلوا فيما ذكر الخطاب للنبيِّ ﷺ، ولا للكافر الناهي؛ لأنَّ السياقَ مقتضٍ لخروج الناهي والمنهيِّ عن مورد الخطاب، واستظهَر في «البحر»[٤] جَعْلَه للنبيِّ ﷺ، وجوَّز غيرُه جَعْلَه للكافر، والمراد تصويرُ الحال بعنوانٍ كلِّيٍّ. وهو كما ترى.

وقيل: الضميران في «إن كان» و«أَمَر» للعبد المصلِّي، والضمائر في «كذَّب» و«تولَّى» و«يعلم» للذي يَنهى، وحاصلُ المعنى على ما قال الفراء: أرأيتَ الذي ينهَى عبداً يُصلِّي، والمنهيُّ على الهدى وآمرٌ بالتقوى، والناهي مكذِّبٌ متولٍّ، فما أعجبُ من ذا؟[٥].

والظاهر أنَّ جوابَ الشرط عليه محذوفٌ، وهو: فما أعجب من ذا، بقرينة «أرأيت» فإنَّه يفيدُ التعجُّب، والرؤية فيه قيل: عِلْميَّةٌ، والمفعول الثاني محذوفٌ، نحو هذا الجواب، وقيل: بصريَّة، و«ألم يعلم» إلخ جملةٌ مستأنَفةٌ لتقرير ما قبلها وتأكيده، و«أو» تقسيميَّةٌ بمعنى الواو.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٤.
(٢) إرشاد العقل السليم ٩/ ١٧٩.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٠.
(٤) ٨/ ٤٩٣.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨.

وقيل: الخطاب في «أرأيت» الثانية للكافر، وفي الثالثة[1] للنبيِّ ﷺ، فهو عزَّ وجلَّ كالحاكم الذي حضره الخصمان، يخاطبُ هذا مرَّةً والآخرَ أخرى، وكأنَّه سبحانه قال: يا كافر، أخبرني إن كانت صلاتُه هدًى ودعاؤه إلى الله تعالى أمراً بالتقوى، أتنهاه؟ وأخبرني أيُّها الرسول إن كان الناهي مكذِّباً بالحقِّ، متولِّياً عن الدين الصحيح، ألم يعلم أن الله تعالى يجازيه؟

وسكت هذا القائلُ عن الخطاب في «أرأيت» الأول، فقيل: لكلِّ من يصلح له، وقيل: للإنسان، وقيل: للنبيِّ ﷺ، كالخطاب في الثالث.

وقوله: أتنهاه، يحتملُ أنَّه جعله مفعولاً لـ «رأيت» ويحتملُ أنَّه جوابُ الشرط. و«أو» كما في سابقه.

ولعلَّ ذكر الأمر بالتقوى في الجملة الثانية؛ لأنَّ النهيَ ـ على ما قيل ـ كان عن الصلاة والأمرِ بها، وكان الظاهرُ عليه أن يذكر في الجملة الأولى أيضاً بأن يقال: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى، لكنَّه حذف اكتفاءً بذكره في الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة، ولم يعكس؛ لأنَّ الأمر بالتقوى دعوةٌ قوليَّةٌ، والصلاة دعوةٌ فعليَّةٌ، والفعلُ أقوى من القول، وإنما كانت دعوةً وأمراً؛ لأنَّ المقتدى به إذا فعل فعلاً كان في قوَّة قوله: افعلوا هذا.

وقيل: المذكور أوَّلاً ليس النهيَ عن الصلاة، بل النهي حين الصلاة، وهو محتملٌ أن يكون لها أو لغيرها، وعامَّةُ أحوالِ الصلاة لِمَّا انحصرت في تكميل نفس المصلِّي بالعبادة، وتكميلِ غيره بالدعوة، فنهيُه في تلك الحالة يكونُ عن الصلاة والدعوة معاً، فلذا ذُكرا في الجملة الثانية. انتهى فلا تغفل.

وجَوَّزَ الإمامُ كونَ الخطاب في الكلِّ له عليه الصلاة والسلام، وقال في بيان معنى «أرأيت إن كان» إلخ: أرأيت إنْ صار على الهدى، واشتغلَ بأمر نفسه، أمَا كان يليقُ به ذلك، إذ هو رجلٌ عاقلٌ ذو ثروة، فلو اختار الرأيَ الصائبَ والاهتداءَ والأمرَ بالتقوى، أمَا كان ذلك خيراً له من الكفر بالله تعالى والنهي عن خدمته

---

(١) في (م): الثانية.

سبحانه وطاعته عزَّ وجلَّ؟! كأنَّه تعالى يقول: تلهَّفْ عليه، كيف فوَّتَ على نفسه المراتب العليَّة، وقنع بالمراتب الرديَّة(١)؟!

واعتبر عصامُ الدين هذه الجملة توبيخاً على تفويت ما ينفعُ، وما بعدها توبيخاً على كسب ما يضرُّ، فقال: إنَّ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾ إلخ استشهادٌ لطغيان الإنسان إن رآه مستغنياً، والرؤيةُ بمعنى الإبصار، أي: أشاهدتَ الذي ينهى عبداً إذا صلَّى، وعرفتَ طغيان الإنسان المستغني، وأنَّه لا يكتفي بكفرانه، ويتجاوزُ إلى تكليف العبدِ الذي أرسل للمنع عن الكفران بالكفران؟ وقولُه سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ إلخ توبيخٌ له على فوتِ ما لا يعلم كنهَه، بفوتِ الهدى والأمر بالتقوى، يعني: أعلمتَ أنَّه على أيِّ فوزٍ إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ وقوله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ إلخ توبيخٌ له بما كسب من استحقاق العذاب، والبعد عن ربِّ الأرباب، أي: أعلمت أنَّه على أيِّ عقوبةٍ ومؤاخَذةٍ؟ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ إلخ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ، بعد التوبيخ على كسبِ حالِ الشقيِّ وفوت حال السعيد. انتهى، وهو كما ترى.

فتأمَّل جميعَ ما تقدَّم والله تعالى بمراده أعلم.

ثم إنَّ الآيةَ، وإن نزلت في أبي جهلٍ ـ عليه اللعنة ـ لكن كلُّ من نَهى عن الصلاة ومنعَ منها فهو شريكه في الوعيد، ولا يلزمُ على ذلك المنعُ عن النهي عن الصلاة في الدار المغصوبة، والأوقات المكروهة؛ لأنَّ المنهيَّ عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها، بل عن وَصْفِها المقارِن، ولشدَّة الاحتياط تحاشى بعضُهم عن النهي مطلقاً، فروي عن أمير المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه رأى في المصلَّى أقواماً يصلُّون قبلَ صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك. فقيل له رضي الله عنه: ألا تنهاهم؟ فقال رضي الله عنه: أخشى أنْ أدخلَ تحت وعيد قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾. وفي روايةٍ: لا أحبُّ أن أنهى عبداً إذا صلى، ولكن أحدِّثُهم بما رأيتُ من رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٢١.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٠٣ وقال: رواه البزار، وقال: لا يروى عن عليٍّ إلا بهذا الإسناد، قلت ـ القائل الهيثمي ـ: وفيه من لم أعرفه.

وقد سلك نحو هذا المسلك أبو حنيفة عليه الرحمة، فقد رُويَ أنَّ أبا يوسف قال له: أيقول المصلِّي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهمَّ اغفر لي؟ فقال: يقول: ربنا لك الحمد ويسجد. ولم يصرِّح بالنهي.

ويقاس على النهي عن الصلاة النهيُ عن غيرها من أنواع العبادة، ولا فرقَ بين النهي القاليِّ والنهي الحاليِّ، ومنه أنْ يشغلَ المرءُ المرءَ عن ذلك، وقد ابتلي به كثيرٌ من الناس.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للناهي اللعين وزجرٌ له، واللام في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ موطِّئةٌ للقسم، أي: والله لئن لم يَنْتَهِ عمَّا هو عليه ولم ينزجر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذنَّ بناصيته ولنسحبنَّه بها إلى النَّار يومَ القيامة، والسفعُ، قال المبرِّد: الجذبُ بشدَّة، وسفع بناصية فرسه: جذب، قال عمرو بن معد يكرب:

قومٌ إذ كَثُرَ الصياحُ[1] رأيتهم ... ما بينِ ملجمِ مُهْرِه أو سَافِعِ[2]

وقال مؤرِّج: السفعُ: الأخذُ، بلغة قريش.

والناصيةُ: شعر الجبهة، وتُطْلَقُ على مكان الشَّعر، و«أل» فيها للعهد، واكتفي بها عن الإضافة، وهو معنى كونها عوضاً عن المضاف إليه في مثله، والكلامُ كنايةٌ عن سحبه إلى النار، وقول أبي حيان: إنَّه عبَّر بالناصية عن جميع الشخص[3]، لا يخفى ما فيه.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: في الرواية المشهورة: إذا نقع الصريخ، أي: ارتفع الصوت. اهـ منه.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣، والبحر ٨/ ٤٩١.
ونسبه العيني في شرح الشواهد ٤/ ١٤٦، والسيوطي في شواهد المغني ١/ ٢٠٠-٢٠١ لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١١١ (الزيادات). وورد دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ٣١١، وتهذيب اللغة ٢/ ١٠٨، والصحاح، وأساس البلاغة (سفع)، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٩.
وانظر شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/ ٥٣-٥٤.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٩٥.

وقيل: المراد: لنسحبنَّه على وجهه في الدنيا يوم بدر، وفيه بشارةٌ بأنَّه تعالى يمكِّنُ المسلمين من ناصيته حتى يجرُّوه إن لم يَنْتَهِ، وقد فعلَ عزَّ وجلَّ، فقد رُويَ أنَّه لما نزلت سورة الرحمن قال ﷺ: «من يقرؤها على رؤساء قريش»، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله، فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام لضعفه وصغر جثَّته، حتى قالها ثلاثاً، وفي كلِّ مرَّةٍ كان ابن مسعود يقول: أنا يا رسول الله، فأذن له ﷺ، فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فشرع في القراءة، فقام أبو جهل فلطمَه، وشقَّ أذنَه، وأدماه، فرجع وعيناه تدمعان، فنزل جبريل عليه السلام ضاحكاً، فقال له ﷺ في ذلك، فقال عليه السلام: ستعلم. فلمَّا كان يوم بدر، قال عليه الصلاة والسلام: «التمسوا أبا جهلٍ في القتلى» فرآه ابن مسعودٍ مصروعاً يخور، فارتقى على صدره، ففتح عينَه فعرفه، فقال: لقد ارتقيت مرتقًى صعباً يا رُوَيْعِيَّ الغنم. فقال ابن مسعود: الإسلامُ يعلو ولا يعلى عليه. فعالجَ قطعَ رأسه، فقال اللعين: دونك فاقطعه بسيفي. فقطعه، ولم يقدر على حمله، فشقَّ أذنَه وجعل فيها خيطاً، وجعل يجرُّه حتى جاء به إلى رسول الله ﷺ، فجاء جبريل عليه السلام يضحك، ويقول: يا رسول الله أذنٌ بأذن، والرأس زيادة[(١)].

وكأنَّ تخصيصَ الناصية بالذكر لأنَّ اللعينَ كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها، أو لأنَّ السفعَ بها غايةُ الإذلال عند العرب، إذ لا يكون إلَّا مع مزيد التمكُّن والاستيلاء، ولأنَّ عادتهم ذلك في البهائم.

وقرأ محبوبٌ وهارون كلاهما عن أبي عمرو: «لنسفعنَّ» بالنون الشديدة[(٢)].

وقرأ ابنُ مسعود: «لأسفعنَّ» كذلك[(٣)]، مع إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وحدَه.

وكتبت النون الخفيفة في قراءة الجمهور ألفاً اعتباراً بحال الوقف، فإنَّه يوقفُ

---

(١) انظر تفسير الرازي ٣٢/ ٢٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٥، وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٦، والكشاف ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣.

عليها بالألف تشبيهاً لها بالتنوين، وقاعدةُ الكتابة مبنيَّةٌ على حال الوقف والابتداء، ومن ذلك قوله:

ومهما تشأ منه فزارةُ تمنعا(١)

وقوله:

يحسبُهُ الجاهلُ ما لم يعلما(٢)

وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدلٌ من «الناصية»، وجازَ إبدالُها عن المعرفة وهي نكرة؛ لأنَّها وُصفت بقوله سبحانه: ﴿كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فاستقلَّت بالإفادة، وقد ذكر البصريون أنَّه يشترطُ لإبدال النكرة من المعرفة الإفادةُ لا غير، ومذهب الكوفيين أنَّها تبدلُ منها بشرطين: اتِّحاد اللفظ، ووصف النكرة. وابنُ أبي الربيع(٣) اشترط الثاني دون الأوَّل؛ لئلَّا يكون المقصودُ أنقصَ من غيره.

وعن ابن الحاجب: سُئلت عن وجه الجمع بين «الناصية» و«ناصية»، وأجبت: أنَّ الأولى ذُكرت للتنصيص على ناصية الناهي، والثانية ذكرت تنبيهاً على علَّة السفع(٤)، وليشملَ بظاهره كلَّ ناصية هذه صفتها(٥)، وهذا مما يتأتَّى على سائر المذاهب.

---

(١) عجز بيت صدره: فمهما تشأ منه فزارة تعطكم، أورده سيبويه في الكتاب ٣/ ٥١٥ ونسبه لابن الخرع. قال البغدادي في الخزانة ١١/ ٣٨٩: والبيت غير موجود في ديوان ابن الخرع، وإنما هو من قصيدة للكميت بن ثعلبة، أوردها أبو محمد الأعرابي في ضالة الأديب...، وسلف ١٩/ ٣٩٢.

(٢) الرجز في الكتاب ٣/ ٥١٦ دون نسبة، ونسب لابن جنابة اللص، ومساور العبسي، والعجاج، وأبي حيان الفقعسي، وعبد بني عبس. انظر أمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٥، وخزانة الأدب ١١/ ٤٠٩، ٤١٨.

(٣) في الملخص في ضبط قوانين العربية ١/ ٥٦٤. وابن أبي الربيع هو أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الإشبيلي، إمام أهل النحو في زمانه، وله: شرح كتاب سيبويه، وشرح الجمل، والإفصاح في شرح الإيضاح، وغيرها، وكلها في النحو، توفي سنة (٦٨٨هـ). بغية الوعاة ٢/ ١٢٥.

(٤) من قوله: ابن أبي الربيع... إلى هنا ساقطٌ من (م)، وضرب عليه في النسخة النعمانية (ب).

(٥) أمالي ابن الحاجب ص٢٨٠.

ووصفُ الناصية بما ذُكر ـ مع أنَّه صفةُ صاحبها ـ للمبالغة، حيثُ يدلُّ على وصفه بالكذب والخطأ بطريق الأَوْلى، ويفيدُ أنَّه لشدَّة كذبه وخطئه كأنَّ كلَّ جزءٍ من أجزائه يكذبُ ويخطئ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقولِهم: وجهُها يصفُ الجمال، فالإسناد مجازيٌّ، من إسناد ما للكلِّ إلى الجزء.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيدُ بن علي: «ناصيةً كاذبةً خاطئةً» بنصب الثلاثة على الشتم، والكسائيُّ في رواية برفعها[١]، أي: هي ناصيةٌ.. إلخ.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ النادي: المجلس الذي يَنتدي فيه القوم، أي: يجتمعون للحديث، ويُجْمَع على أندية، والكلام على تقدير المضاف، أي: فليدعُ أهلَ ناديه، والإسناد[٢] فيه مجازيٌّ، أو أطلق اسمُ المحلِّ على مَن حلَّ فيه، ومِثْلُه في هذا: المجلسُ ونحوُه، كما قال جرير أو ذو الرمَّة:

لهم مجلسٌ صُهْبُ السبال[٣] أذلَّةٌ ... سواسيةٌ أحرارُها وعبيدها[٤]

وقال زهير:

وفيهم مقاماتٌ[٥] حسانٌ وجوههم ... وأنديةٌ ينتابها القولُ[٦] والفعل[٧]

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص ١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٥.

(٢) في الأصل و(م): أو الإسناد، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٢.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: أريد به العدو. وقال الجوهري [في الصحاح (صهب)]: أصله في الروم؛ لأن الصهوبة فيهم، وهم أعداء العرب. اهـ منه.

(٤) نسبه لجرير الزمخشريُّ في الكشاف ٤/ ٢٧٢ والقرطبي في تفسيره ٢٢/ ٣٨٧، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٤٩٥، ونسبه لذي الرمة الزمخشريُّ أيضاً في أساس البلاغة (جلس)، وهو في ديوان ذي الرمة ٢/ ١٢٣٥، قال الشارح: قوله: صهب السبال، أي: هم عجم ليسوا بعرب، ولا يقال: سواسية، إلا في الهجاء، أما في الخير فيقال: سواء. اهـ. والسِّبال جمع سَبَلة، وهي ما على الشارب من الشعر، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية. والصهب حمرة أو شقرة في الشعر، والأعداء صهب السبال وإن لم يكونوا كذلك. القاموس (صهب) و(سبل).

(٥) جاء في هامش الأصل ما نصه: المقامة: المجلس. اهـ منه.

(٦) جاء في هامش الأصل ما نصه: انتاب فلانٌ القوم: أتاهم مرَّةً بعد أخرى، افتعل من النوبة. اهـ منه.

(٧) ديوان زهير ص١١٣، والكشاف ٤/ ٢٧٢.

وهذا إشارةٌ إلى ما صحَّ من أنَّ أبا جهلٍ مرَّ برسول الله ﷺ وهو يصلِّي، فقال: ألم أَنْهَكَ؟ فأَغْلَظَ عليه الصلاة والسلام له، فقال: أتُهدِّدني وأنا أكثرُ[١] أهل الوادي نادياً[٢].

والأمرُ على ما في «البحر»[٣] للتعجيز والإشارةِ إلى أنَّه لا يقدرُ على شيء.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ أي: ملائكةَ العذاب ليجرُّوه إلى النار، وهو في الأصل: الشُّرَط، أي: أعوان الولاة، واختلفَ فيه، فقيل: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كعباديد، وقال أبو عبيدة: واحدُه: زِبْنِيَة بكسر فسكون، كعِفْرِيَة[٤].

وقال الكسائيُّ: واحدُه: زِبْنيّ بالكسر، كأنَّه نُسبَ إلى الزَّبْن بالفتح، وهو الدفع، ثم غُيِّر للنسب وكُسِر أوله، كإمسيّ[٥]، وأصل الجمع زبانيّ، فقيل: زبانية بحذف إحدى ياءيه وتعويض التاء عنها.

وقال عيسى بن عمر والأخفش: واحده زابن[٦]، والعربُ قد تطلق هذا الاسم على من اشتدَّ بطشُه، وإن لم يكن من أعوان الولاة، ومنه قوله:

مطاعيم[٧] في القُصْوى مَطاعينُ في الوغى ... زبانيةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حُلُومُها[٨]

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: بالثاء المثلثة، وبعض يقول: أكبر، بالباء الموحدة. اهـ منه.
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢١)، والترمذي في سننه (٣٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.
(٣) ٨/ ٤٩٥.
(٤) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٤. ووقع فوقها في الأصل: ريش على قفا الديك. اهـ منه.
(٥) وقع في (م) ومطبوع البحر المحيط ٨/ ٤٩١: كإنسي. والمثبت من الأصل، والكشاف ٤/ ٢٧٢، والدر المصون ١١/ ٦١. وقوله: إمْسيّ: نسبة إلى الأمس على غير قياس. اللسان (أمس).
(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٩١، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٤١.
(٧) في الأصل و(م): مطاعم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٨) هو لابن الزبعرى، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣١٢، وفيها: المَقْرَى. بدل: القصوى، ودون نسبة برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ٣٠٨-٣٠٩، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٨٦.
والغُلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة، وهم يصفون السادة بغلظ الرقبة وطولها. اللسان (غلب).

وسَمَّى ملائكة العذاب بذلك؛ لدفعهم مَن يعذبونه إلى النار، وهذا الدعاء في الدنيا بناءً على ما روي من أنَّه «لو دعا ناديَه لأخذته الزبانية عياناً»(١).

والظاهر أنَّ «سَنَدْع» مرفوعٌ لتجرُّده عن الناصب والجازم، ورسم في المصاحف بدون واو؛ لإتْباع الرسم للَّفظ، فإنَّها محذوفةٌ فيه عند الوصل لالتقاء الساكنين، أو لمشاكلةِ «فليدع».

وقيل: إنَّه مجزومٌ في جواب الأمر. وفيه نظرٌ.

وقرأ ابن أبي عبلة: «سيُدْعى الزبانيةُ» بالبناء للمفعول ورفع الزبانية(٢).

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لذلك اللعين بعد ردعٍ، وزجرٌ له إثر زجر ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: دُمْ على ما أنت عليه من مُعَاصاته ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وواظب غير مكترثٍ به على سجودك، وهو على ظاهره، أو مجازٌ عن الصلاة ﴿وَٱقْتَرِب﴾ وتقرَّب بذلك إلى ربك.

وفي «صحيح مسلم» وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء»(٣).

وفي «الصحيح» وغيره أيضاً من حديث ثوبان مرفوعاً: «عليك بكثرة السجود، فإنَّه لا تسجدُ لله تعالى سجدةً إلَّا رفعكَ الله تعالى بها درجةً، وحَطَّ عنك بها خطيئةً»(٤).

ولهذه الأخبار ونحوها ذهبَ غيرُ واحدٍ إلى أنَّ السجودَ أفضلُ أركان الصلاة، ومن الغريب أنَّ العزَّ بن عبد السلام ـ من أجلَّةِ أئمَّة الشافعيَّة ـ قال بوجوب الدعاء فيه.

وفي «البحر»: ثبتَ في الصحيحين أنَّه عليه الصلاة والسلام سجدَ في «إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٨) من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٥.
(٣) صحيح مسلم (٤٨٢)، وسلف ٤/ ١٨٦.
(٤) صحيح مسلم (٤٨٨).

السماء انشقت» وفي هذه السورة[١]، وهي من العزائم عند عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وكان مالكٌ يسجدُ فيها في خاصَّة نفسه[٢]. والله تعالى الموفِّق.

(١) أخرجه مسلم (٥٧٨): (١٠٨)، (١٠٩). وهو في صحيح البخاري (٧٦٦)، (٧٦٨)، (١٠٧٤)، (١٠٧٨) دون ذكر السجود في سورة العلق.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩٥.

(٩٧) سورة القدر مكية
وآياتها خمس

سورة القدر مكية ، وهي تتحدث عن بدء نزول القرآن العظيم ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وعن فضل ليلة القدر على سائر ليالي العمر ، وما فيها من الأنوار ، والتجليات القدسية ، والنفحات الربانية ، التي يفيضها الله على عباده المؤمنين ، تكريماً لنزول القرآن المبين ، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأطهار في تلك الليلة المباركة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، ويا لها من ليلةٍ عظيمة القدر ، حافلةٍ بالفضائل والمفاخر !! ولذلك كانت أفضل من ألف شهر ، وهي – على الأصح – في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك ، لأن الله قال هنا « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقال في سورة البقرة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فدلّ على أن ليلة القدر في شهر رمضان ، والله اعلم

● ● ●

سورة القدر

[١٠٢٩] ك.. أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي قال إن النبي [ﷺ] رأى بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾(١) ونزلت: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾(٢) تملكها بعدك بنو أمية قال القاسم الحراني: فعددنا وإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص قال الترمذي: غريب وقال المزني وابن كثير: منكر جداً.

وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد أن رسول الله [ﷺ] ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾(٣) التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله.

[١٠٣٠] ك.. وأخرج ابن جرير(٤) عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾(٥) عملها ذلك الرجل.

* * *

[١٠٢٩] (١) سورة الكوثر: الآية (١).
(٢) سورة القدر: الآية (١و٣).
(٣) سورة القدر: الآية (١و٣).
[١٠٣٠] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٨).
(٥) سورة القدر: الآية (٣).

سورة القدر

خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أجمع المفسرون على أن المراد: إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، ولكنه تعالى ترك التصريح بالذكر؛ لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه: **أحدها:** أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصًا به دون غيره. **والثاني:** أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل ولم يخف على أحد لاشتهاره، وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] لم يذكر الموت لشهرته، فكذا ههنا. **والثالث:** تعظيم الوقت الذي أنزل فيه.

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في بعض المواضع: ﴿إِنِّى﴾ كقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وفي بعض المواضع: ﴿إِنَّآ﴾ كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

واعلم أن قوله: ﴿إِنَّآ﴾ تارة يراد به التعظيم، وحَمْله على الجمع محال لأن الدلائل دلت على وحدة الصانع، ولأنه لو كان في الآلهة كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الإلهية؛ لأنه لو كان كل واحد منهم قادرًا على الكمال لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم، وكونه مستغنى عنه نقص في حقه فيكون الكل ناقصًا، وإن لم يكن كل واحد منهم قادرًا على الكمال كان ناقصًا، فعلمنا أن قوله: ﴿إِنَّآ﴾ محمول على التعظيم لا على الجمع.

المسألة الثالثة: إن قيل: ما معنى إنه أنزل في ليلة القدر، مع العلم بأنه أنزل نجومًا؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدهما:** قال الشعبي: ابتدأ بإنزاله ليلة القدر لأن البعث كان في رمضان. **والثاني:** قال ابن عباس: أنزل إلى سماء الدنيا جملة ليلة القدر، ثم إلى الأرض نجومًا، كما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] وقد ذكرنا هذه المسألة في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] لا يقال: فعلى هذا القول لمَ لم يقل: أنزلناه إلى السماء؟ لأن إطلاقه يوهم الإنزال إلى الأرض؛ لأنا نقول: إن إنزاله إلى السماء كإنزاله إلى الأرض؛ لأنه لم يكن ليشرع في أمر ثم لا يتمه، وهو كغائب جاء إلى نواحي البلد، يقال: جاء فلان، أو يقال: الغرض من تقريبه

وإنزاله إلى سماء الدنيا أن يشوقهم إلى نزوله، كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لوالده أو أمه، فإنه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال:

وَأَبْـرَحُ مَـا يَـكُـونُ الـشَّـوْقُ يَـوْمًـا إِذَا دَنَـتِ الـدِّيَـارُ مِـنَ الـدِّيَـارِ[1]

وهذا لأن السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة، فهي لهم مسكن ولنا سقف وزينة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] فإنزاله القرآن هناك كإنزاله ههنا **والوجه الثالث في الجواب: أن التقدير:** أنزلنا هذا الذكر في ليلة القدر، أي في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها.

المسألة الرابعة: القدر مصدر قدرت أقدر قدرًا، والمراد به ما يمضيه الله من الأمور، قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] والقَدَر والقَدْر واحد إلا أنه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم، قال الواحدي: القدر في اللغة بمعنى التقدير، وهو جُعل لشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان. واختلفوا في أنه لمَ سميت هذه الليلة ليلة القدر على وجوه: **أحدها:** أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام، قال عطاء، عن ابن عباس: إن الله قدر ما يكون في كل تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة، فإنه تعالى قَدَّر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، بل المراد إظهار تلك الليلة المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ، وهذا القول اختيار عامة العلماء. **الثاني:** نُقل عن الزهري أنه قال: ليلة القدر ليلة العظمة والشرف، من قولهم: لفلان قدر عند فلان، أي منزلة وشرف، ويدل عليه قوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾ [القدر: ٣] ثم هذا يحتمل وجهين: **أحدهما:** أن يرجع ذلك إلى الفاعل، أي من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف. **وثانيهما:** إلى الفعل أي الطاعات لها في تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد، وعن أبي بكر الوراق: سميت ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان ملك ذي قدر، على أمة لها قدر. ولعل الله تعالى إنما ذكر لفظة القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب.

والقول الثالث: ليلة القدر، أي الضِّيق، فإن الأرض تضيق عن الملائكة.

المسألة الخامسة: أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه: **أحدها:** أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى غضب في المعاصي ليحتزوا عن الكل، وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل، وأخفى الإجابة في

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة لابن الأبار وهو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي أبو عبد الله. (٥٩٥ - ٦٥٨هـ/ ١١٩٩ - ١٢٦٠م) من أعيان المؤرخين، أديب من أهل بلنسية بالأندلس، ومولده بها، رحل عنها لما أحتلها الإفرنج واستقر بتونس، فقربه صاحب تونس السلطان أبو زكريا، وولاه كتابة (علامته) في صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعاده. ومات أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذا مكانته، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه، وعزيت إليه أبيات في هجائه، فأمر به فقتل قصعًا بالرماح في تونس، وله شعر رقيق.

الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان.
وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك. روي أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائمًا، فقال: «يا علي نبهه ليتوضأ» فأيقظه عليّ، ثم قال علي: يا رسول الله إنك سباق إلى الخيرات، فلمَ لم تنبهه؟ قال: «لِأَنَّ رَدَّهُ عَلَيْكَ لَيْسَ بِكُفْرٍ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ لِتَخِفَّ جِنَايَتُهُ لَوْ أَبَى»[(١)]، فإذا كان هذا رحمة الرسول، فقس عليه رحمة الرب تعالى، فكأنه تعالى يقول: إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر، ودفع العقاب أَوْلى من جلب الثواب. **وثالثها:** أني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها، فيكتسب ثواب الاجتهاد. **ورابعها:** أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته، يقول: كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء، فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلتها معلومة له؟! فحينئذٍ يظهر سر قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

المسألة السادسة: اختلفوا في أن هذه الليلة هل تستتبع اليوم؟ قال الشعبي: نعم يومها كليلتها، ولعل الوجه فيه أن ذكر الليالي يستتبع الأيام، ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين ألزمناه بيوميهما، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢] أي اليوم يخلف ليلته وبالضد.

المسألة السابعة: هذه الليلة هل هي باقية؟ قال الخليل: من قال: إن فضلها لنزول القرآن فيها يقول: (انقطعت وكانت مرة) والجمهور على أنها باقية، وعلى هذا هل هي مختصة برمضان أم لا؟ روي عن ابن مسعود أنه قال: من يقم الحول يصبها. وفسرها عكرمة بليلة البراءة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] والجمهور على أنها مختصة برمضان واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان لئلا يلزم التناقض، وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية أقوال، فقال ابن رزين: ليلة القدر هي الليلة الأولى من رمضان. وقال الحسن البصري: السابعة عشرة. وعن أنس مرفوعًا: التاسعة عشرة. وقال محمد بن إسحاق: الحادية والعشرون. وعن ابن عباس: الثالثة والعشرون. وقال ابن مسعود: الرابعة والعشرون، وقال أبو ذر الغفاري: الخامسة والعشرون. وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة: السابعة والعشرون. وقال بعضهم: التاسعة والعشرون.

---

(١) لم أجده.

أما الذين قالوا: إنها الليلة الأولى (فقد) قالوا: روى وهب أن صحف إبراهيم أُنزلت في الليلة الأولى من رمضان، والتوراة لست ليالٍ مضين من رمضان بعد صحف إبراهيم بسبعمائة سنة، وأنزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بخمسمائة عام، وأُنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، بعد الزبور بستمائة عام وعشرين عامًا، وكان القرآن ينزل على النبي ﷺ في كل ليلة قدر من السنة إلى السنة، كان جبريل عليه السلام ينزل به من بيت العزة من السماء السابعة إلى سماء الدنيا، فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهرًا في عشرين سنة، فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذي حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة، لا جرم كان في غاية الشرف والقدر والرتبة، فكانت الليلة الأولى منه ليلة القدر. وأما الحسن البصري فإنه قال: هي ليلة سبعة عشر؛ لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر، وأما التاسعة عشرة فقد روى أنس فيها خبرًا، وأما ليلة السابع والعشرين فقد مال الشافعي إليه لحديث الماء والطين، والذي عليه المعظم أنها ليلة السابع والعشرين، وذكروا فيه أمارات ضعيفة: **أحدها:** حديث ابن عباس أن السورة ثلاثون كلمة، وقوله: ﴿هِىَ﴾ هي السابعة والعشرون منها. **وثانيها:** روي أن عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس: غص يا غواص. فقال زيد بن ثابت: أحضرتَ أولاد المهاجرين وماأحضرت أولادنا. فقال عمر: لعلك تقول: إن هذا غلام، ولكن عنده ما ليس عندكم. فقال ابن عباس: أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر أحب الوتر إليه السبعة، فذكر السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع ودركات النار وعدد الطواف والأعضاء السبعة، فدل على أنها السابعة والعشرون. **وثالثها:** نقل أيضًا عن ابن عباس أنه قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تسعة أحرف، وهو مذكور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين. **ورابعها:** أنه كان لعثمان بن أبي العاص غلام، فقال: يا مولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر، قال: إذا كانت تلك الليلة، فأعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان. وأما من قال: (إنها الليلة الأخيرة) قال: لأنها هي الليلة التي تتم فيها طاعات هذا الشهر، بل أول رمضان كآدم وآخره كمحمد، ولذلك روي في الحديث: «يُعْتَقُ فِي آخِرِ رَمَضَانَ بِعَدَدِ مَا أُعْتِقَ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ» بل الليلة الأولى كمن وُلد له ذكر، فهي ليلة شكر، والأخيرة ليلة الفراق، كمن مات له ولد، فهي ليلة صبر، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ يعني ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، ثم إنه تعالى بيَّن فضيلتها من ثلاثة أوجه:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسير الآية وجوه: **أحدها:** أن العبادة فيها خير من ألف شهر ليس فيها هذه الليلة؛ لأنه كالمستحيل أن يقال: إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فيها هذه الليلة، وإنما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير. **وثانيها:** قال مجاهد: كان في بني إسرائيل

رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي، فَعَل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله ﷺ والمسلمون من ذلك، فأنزل الله هذه الآية، أي: ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر. **وثالثها:** قال مالك بن أنس: أُري رسول الله ﷺ أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم. **ورابعها:** روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن علي عليه السلام: يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له؟! يعني معاوية، فقال: إن رسول الله ﷺ رأى في منامه بني أمية يطؤون منبره واحدًا بعد واحد، وفي رواية: ينزون على منبره نزو القردة [1]، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني ملك بني أمية. قال القاسم: فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر.

طعن القاضي في هذه الوجوه فقال: ما ذكر من ألف شهر في أيام بني أمية بعيد؛ لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة، وأيام بني أمية كانت مذمومة.

واعلم أن هذا الطعن ضعيف، وذلك لأن أيام بني أمية كانت أيامًا عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يمتنع أن يقول الله تعالى: إني أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية.

المسألة الثانية: هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير، ولم يبين قدر الخيرية، وهذا كقوله عليه السلام لمبارزة علي عليه السلام مع عمرو بن عبد ود (العامري) «**أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» [2] فلم يقل: (مثل عمله) بل قال: (أفضل) كأنه يقول: حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف.

واعلم أن من أحياها فكأنما عبد الله تعالى نيفًا وثمانين سنة، ومن أحياها كل سنة فكأنه رزق أعمارًا كثيرة، ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنه أحيا ثلاثين قدرًا، يروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيلي الذي عبد الله أربعمائة سنة، ويجاء برجل من هذه الأمة، وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر، فيقول الإسرائيلي: أنت العدل، وأرى ثوابه أكثر. فيقول: إنكم كنتم تخافون

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٨٣) من طريق محمد بن الحسن بن زبالة قال: حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد قال: حدثني أبي عن جدي... به، وذكره السيوطي في (تاريخ الخلفاء) (١/ ١٨) وقال: إسناده ضعيف، (قلت): وعلته محمد بن الحسن بن زبالة قال الحافظ في التقريب: كذبوه. وقال الذهبي في الكشاف: متروك وشيخه عبد المهيمن ضعيف.

(٢) **موضوع**: رواه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٥٠/ ٣٣٣) والخطيب في (تاريخ بغداد) (١٣/ ١٨) كلاهما من طريق محمد بن سنان الحنظلي حدثني إسحاق بن بشر القرشي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي... به، قال ابن تيمية في (الأحاديث والآثار) (١/ ٤٢): (رواه أخطب خوارزم كما قال الرافضي) وقال: ليس هو من علماء الحديث، وهذا الحديث من المكذوبات.

العقوبة المعجلة فتعبدون، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]ثم إنهم كانوا يعبدون، فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثوابًا. وأما التهديد فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار، وأن إحياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق بتطفيف حبة واحدة، فلهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذنب والمعصية.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَجْرُكَ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكَ» (١) ومن المعلوم أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة، فكيف يعقل استواؤهما؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة إليه، ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بكذا درجة، مع أن الصورة قد تنتقض فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة، وأيضًا فأنت تقول لمن يرجم: إنه إنما يرجم لإنه زان فهو قول حسن، ولو قلته للنصراني فقذف يوجب التعزير، ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد، فقد اختلفت الأحكام في هذه المواضع، مع أن الصورة واحدة في الكل، بل لو قلته في حق عائشة كان كفرًا، ولذلك قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]وذلك لأن هذا طعن في حق عائشة التي كانت رحلة في العلم؛ لقوله عليه السلام: «خُذُوا ثُلُثَيْ دِينِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَاءِ» (٢) وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بدريًا، وطعن في كافة المؤمنين لأنها أم المؤمنين، وللولد حق المطالبة بقذف الأم وإن كان كافرًا، بل طعن في النبي الذي كان أشد خلق الله غيرة، بل طعن في حكمة الله إذ لا يجوز أن يتركه حتى يتزوج بامرأة زانية، ثم القائل بقوله: (هذا زان) فقد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال، فقد ثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها، فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعات الكثيرة. **والوجه الثاني في الجواب:** أن مقصود الحكيم سبحانه أن يجر الخلق إلى الطاعات، فتارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين، فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]ومرة عشرًا، ومرة سبعمائة، وتارة بحسب الأزمنة، وتارة بحسب الأمكنة، والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال

(١) تقدم مرارًا.

(٢) موضوع: أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ١٠٠) وقال: قال شيخنا: لا أعرف له إسنادًا ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في نهاية ابن الأثير وإلا في الفردوس بغير إسناد ولفظه: (خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء) وسئل المزي والذهبي فلم يعرفاه. وأورده السخاوي في (المقاصد الحسنة) (١/ ٣٢١) وقال: قال شيخنا في تخريج ابن الحاجب من إملائه: لا أعرف له إسنادًا ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير. ذكره في مادة (ح م ر) ولم يذكر من خرجه، ورأيته أيضًا في كتاب الفردوس لكن بغير لفظه، وذكره من حديث أنس بغير إسناد أيضًا ولفظه (خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء) وبيض له صاحب مسند الفردوس فلم يخرج له إسنادًا وذكر الحافظ عماد الدين بن كثير أنه سأل الحافظين المزي والذهبي عنه فلم يعرفاه، وأورده الخراشي في (أحاديث لا تصح) (١/ ٥/ ٦١) وقال: قال ابن حجر: (لا أعرف له إسنادًا) وقال ابن القيم: كل حديث فيه: (يا حميراء)، أو ذكر: (الحميراء)؛ فهو كذب مختلق.

بالدنيا، فتارة يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد، وتارة يفضل رمضان على سائر الشهور، وتارة يفضل الجمعة على سائر الأيام، وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالي، والمقصود ما ذكرناه. **الوجه الثاني من فضائل هذه الليلة:**

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن نظر الملائكة على الأرواح، ونظر البشر على الأشباح، ثم إن الملائكة لما رأوا روحك محلاً للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ما قبلوك، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسك الدماء؟! وأبواك لما رأوا قبح صورتك في أول الأمر حين كنت منيًّا وعلقة ما قبلوك أيضًا، بل أظهروا النفرة، واستقذروا ذلك المني والعلقة، وغسلوا ثيابهم عنه، ثم كم احتالوا للإسقاط والإبطال، ثم إنه تعالى لما أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك، فكذا الملائكة لما رأوا في روحك الصورة الحسنة وهي معرفة الله وطاعته، أحبوك فنزلوا إليك معتذرين عما قالوه أولاً، فهذا هو المراد من قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فإذا نزلوا إليك رأوا روحك في ظلمة ليل البدن وظلمة القوى الجسمانية، فحينئذٍ يعتذرون عما تقدم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

المسألة الثانية: أن قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقتضي ظاهره نزول كل الملائكة، ثم الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتمل كلهم الأرض، فلهذا السبب اختلفوا، **فقال بعضهم:** إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا، فإن قيل: الإشكال بعد باقٍ لأن السماء مملوءة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك، فكيف تسع الجميع سماء واحدة؟ قلنا: يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد، كيف والمروي أنهم ينزلون فوجًا فوجًا، فمن نازل وصاعد كأهل الحج، فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج، ولهذا السبب مُدت إلى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ: ﴿تَنَزَّلُ﴾ الذي يفيد المرة بعد المرة.

والقول الثاني: وهو اختيار الأكثرين أنهم ينزلون إلى الأرض وهو الأَوْجه؛ لأن الغرض هو الترغيب في إحياء هذه الليلة، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون في سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين، فلأن يحصل ذلك في هذه الليلة مع علو شأنها أَوْلى، ولأن النزول المطلق لا يفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض.

ثم اختلف من قال: (ينزلون إلى الأرض) على وجوه: **أحدها:** قال بعضهم: ينزلون ليروا عبادة البشر وحدهم واجتهادهم في الطاعة. **وثانيها:** أن الملائكة قالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فهذا يدل على أنهم كانوا مأمورين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة.

وأما هذه الآية وهو قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولاً فأذنوا، وذلك يدل على غاية المحبة، لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا، لكن كانوا ينتظرون الإذن، فإن قيل: قوله:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]ينافي قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قلنا:نصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين. **وثالثها:**أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]فههنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسليم والزيارة، روى عن علي عليه السلام: «**أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ لِيُسَلِّمُوا عَلَيْنَا وَلِيَشْفَعُوا لَنَا فَمَنْ أَصَابَتْهُ التَّسْلِيمَةُ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**». **ورابعها:**أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض، فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثوابًا، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثوابًا، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة. **وخامسها:**أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة، فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد. **وسادسها:**أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة، وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي، فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها، ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين، ينزلون مع جبريل ليلة القدر، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لا يدع أحدًا من الناس إلا صافحهم، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه، فإن ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام، من قال فيها ثلاث مرات: (لا إله إلا الله) غُفر له بواحدة، ونجاه من النار بواحدة، وأدخله الجنة بواحدة، وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من تلك الليلة، ثم يدعو ملكًا ملكًا، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين، ولمن صام رمضان احتسابًا، فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقًا حلقًا، فتجمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة، حتى يقولوا: ما فعل فلان وكيف وجدتموه؟ فيقولون: وجدناه عام أول متعبدًا، وفي هذا العام مبتدعًا، وفلان كان عام أول مبتدعًا، وهذا العام متعبدًا. فيكفون عن الدعاء للأول، ويشتغلون بالدعاء للثاني، ووجدنا فلانًا تاليًا، وفلانًا راكعًا، وفلانًا ساجدًا. فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية، وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة فتقول لهم السدرة: يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقًا، وإني أحب من أحب الله. فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة، فتقول الجنة: اللهم عجلهم إليَّ. والملائكة وأهل السدرة يقولون: آمين آمين.

إذا عرفت هذا فنقول: كلما كان الجمع أعظم، كان نزول الرحمة هناك أكثر، ولذلك فإن أعظم الجموع في موقف الحج، لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر، فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين، فلا جرم كان نزول الرحمة أكثر.

المسألة الثالثة: ذكروا في الروح أقوالاً: **أحدها:** أنه ملك عظيم، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة. **وثانيها:** طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد. **وثالثها:** خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون، ليسوا من الملائكة ولا من الإنس، ولعلهم خدم أهل الجنة. **ورابعها:** يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه، ثم إنه ينزل في موافقة الملائكة ليطلع على أمة محمد وخامسها: أنه القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[الشورى: ٥٢] **وسادسها:** الرحمة قرئ: (لا تيأسوا من رُوح الله) بالرفع، كأنه تعالى يقول: الملائكة ينزلون ورحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. **وسابعها:** الروح أشرف الملائكة. **وثامنها:** عن أبي نجيح: الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون، فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح. والأصح أن الروح ههنا جبريل. وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول: الملائكة في كفة والروح في كفة.

أما قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ فقد ذكرنا أن هذا يدل على أنهم كانوا مشتاقين إلينا، **فإن قيل:** كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة معاصينا؟ **قلنا:** إنهم لا يقفون على تفصيل المعاصي، روي أنهم يطالعون اللوح، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا يرونها، فحينئذٍ يقول: سبحان من أظهر الجميل، وستر على القبيح.

ثم قد ذكرنا فوائد في نزولهم ونذكر الآن فوائد أخرى، وحاصلها أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات: **أحدها:** أن الأغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجعلونه ضيافة للفقراء، والفقراء يأكلون طعام الأغنياء ويعبدون الله، وهذا نوع من الطاعة لا يوجد في السموات. **وثانيها:** أنهم يسمعون أنين العصاة وهذا لا يوجد في السموات. **وثالثها:** أنه تعالى قال: «**لَأَنِينُ الْمُذْنِبِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ زَجَلِ الْمُسَبِّحِينَ**»(١) فقالوا: تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتًا هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا. وكيف لا يكون أحب وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين، وأنين العصاة إظهار لغفارية رب الأرض والسموات **(وهذه هي المسألة الأولى).**

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على عصمة الملائكة، ونظيرها قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ﴾[مريم: ٦٤] وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[الأنبياء: ٢٧] وفيها دقيقة وهي أنه تعالى لم يقل: مأذونين بل قال: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ وهو إشارة إلى أنهم لا يتصرفون تصرفًا ما إلا بإذنه، ومن ذلك

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣٠٥) حديث رقم (٨٠٥) ولم أجد له إسنادًا ولعله من كلام الصوفية كما قال بعض العلماء.

قول الرجل لامرأته: (إن خرجت إلا بإذني) فإنه يعتبر الإذن في كل خرجة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿رَبِّهِم﴾ يفيد تعظيمًا للملائكة وتحقيرًا للعصاة، كأنه تعالى قال: كانوا لي فكنت لهم، ونظيره في حقنا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال لمحمد عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ونظيره ما روي أن داود لما مرض مرض الموت قال: إلهي كن لسليمان كما كنت لي. فنزل الوحي وقال: قل لسليمان فليكن لي كما كنتَ لي. وروي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه فقد الضيف أيامًا، فخرج بالسفرة ليلتمس ضيفًا فإذا بخيمة، فنادى: أتريدون الضيف؟ فقيل: نعم. فقال للمضيف: أيوجد عندك إدام لبن أو عسل؟ فرفع الرجل صخرتين فضرب إحداهما بالأخرى فانشقا فخرج من إحداهما اللبن ومن الأخرى العسل، فتعجب إبراهيم وقال: إلهي أنا خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام، فما له؟ فنزل الوحي: يا خليلي كان لنا فكنا له.

أما قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فمعناه تنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر، والمعنى أن كل واحد منهم إنما نزل لمهم آخر، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **أحدها**: أنهم كانوا في أشغال كثيرة فبعضهم للركوع، وبعضهم للسجود، وبعضهم للدعاء، وكذا القول في التفكر والتعليم، وإبلاغ الوحي، وبعضهم لإدراك فضيلة الليلة أو ليسلموا على المؤمنين. **وثانيها**: -وهو قول الأكثرين- من أجل كل أمر قُدر في تلك السنة من خير أو شر، وفيه إشارة إلى أن نزولهم إنما كان عبادة، فكأنهم قالوا: ما نزلنا إلى الأرض لهوى أنفسنا، لكن لأجل كل أمر فيه مصلحة المكلفين. وعم لفظ الأمر ليعم خير الدنيا والآخرة بيانًا منه أنهم ينزلون بما هو صلاح المكلف في دينه ودنياه، كأن السائل يقول: من أين جئت؟ فيقول: مالك وهذا الفضول؟! ولكن قل: لأي أمر جئت لأنه حظك. **وثالثها**: قرأ بعضهم: (من كل امرئ) أي من أجل كل إنسان، وروي أنهم لا يلقون مؤمنًا ولا مؤمنة إلا سلَّموا عليه، **فإن قيل**: أليس أنه قد روي أنه تقسم الآجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان، والآن تقولون: إن ذلك يكون ليلة القدر؟ **قلنا**: عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ الْمَقَادِيرَ فِي لَيْلَةِ الْبَرَاءَةِ، فَإِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ يُسَلِّمُهَا إِلَى أَرْبَابِهَا**»[١] وقيل: يقدر ليلة البراءة الآجال والأرزاق، وليلة القدر يقدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة، وقيل: يقدر في ليلة القدر ما يتعلق به إعزاز الدين، وما فيه النفع العظيم للمسلمين، وأما ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويُسلم إلى ملك الموت.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

الوجه الثالث من فضائل هذه الليلة: قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: في قوله ﴿سَلَٰمٌ﴾ وجوه: **أحدها**: أن ليلة القدر إلى طلوع الفجر سلام، أي

---

(١) لم أجده.

تسلم الملائكة على المطيعين، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجًا فوجًا من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر، فترادف النزول لكثرة السلام. **وثانيها**: وصفت الليلة بأنها سلام، ثم يجب أن لا يستحقر هذا السلام لأن سبعة من الملائكة سلموا على الخليل في قصة العجل الحنيذ، فازداد فرحه بذلك على فرحه بمُلك الدنيا، بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمروذ عليه ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] أفلا تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا بردًا وسلامًا، لكن ضيافة الخليل لهم كانت عجلاً مشويًا وهم يريدون منا قلبًا مشويًا، بل فيه دقيقة، وهي إظهار فضل هذه الأمة، فإن هناك الملائكة نزلوا على الخليل، وهاهنا نزلوا على أمة محمد ﷺ. **وثالثها**: أنه سلام من الشرور والآفات، أي سلامة، وهذا كما يقال: (إنما فلان حج وغزو) أي هو أبدًا مشغول بهما، ومثله:

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ(١)

وقالوا: تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالخيرات والسعادات، ولا ينزل فيها من تقدير المضار شيء، فما ينزل في هذه الليلة فهو سلام، أي سلامة ونفع وخير. **ورابعها**: قال أبو مسلم: سلام، أي الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق إلى ما شابه ذلك. **وخامسها**: سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءًا. **وسادسها**: أن الوقف عند قوله: (من كل أمر سلام) فيتصل السلام بما قبله ومعناه أن تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم إلى طلوع الفجر، وهذا الوجه ضعيف. **وسابعها**: أنها من أولها إلى مطلع الفجر سالمة في أن العبادة في كل واحد من أجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالي في أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللعبادة النصف وللدعاء السحر، بل هي متساوية الأوقات والأجزاء. **وثامنها**: سلام هي، أي جنة هي لأن من أسماء الجنة دار السلام، أي الجنة المصوغة من السلامة.

المسألة الثانية: المَطلع الطلوع، يقال: طلع الفجر طلوعًا ومطلعًا، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى طلوع الفجر، ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع، وكذا مكان الطلوع مطلع، قاله الزجاج، أما أبو عبيدة والفراء وغيرهما فإنهم اختاروا فتح اللام لأنه بمعنى المصدر، وقالوا: الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع هاهنا، بل إن حُمل على ما ذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح، قال أبو علي: ويمكن حمله على المصدر أيضًا؛ لأن من المصادر التي ينبغي أن تكون على المفعل ما قد كسر، كقولهم علاء المكبر والمعجز، قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فكذلك كسر المطلع جاء شاذًا عما عليه بابه.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) هذا شطر بيت للخنساء، وتقدمت ترجمتها.

سورة «القَدْر»

وهي مَدَنيةٌ في قولِ أكثرِ المفسِّرين؛ ذكره الثعلبيُّ. وحكى الماوَرْدِيُّ عكسَه[1].

قلت: وهي مدنيةٌ في قول الضحَّاك، وأحدِ قولي ابنِ عباس[2]. وذكر الواقِدِيُّ أنها أوّلُ سورةٍ نزلت بالمدينة[3]. وهي خمسُ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآنَ وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ في هذه السورة؛ لأنَّ المعنى معلوم، والقرآنُ كلُّه كالسورة الواحدة. وقد قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ١-٣]، يريد: في[4] ليلة القَدْرِ. وقال الشعبيُّ: المعنى: إنَّا ابتدأنا إنزالَه في ليلة القدر[5].

وقيل: بل نزل به جبريلُ عليه السلام جملةً واحدةً في ليلة القَدْرِ من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيتِ العزة، وأملاه جبريلُ على السَّفَرة، ثم كان جبريل يُنزلُه على النبيِّ ﷺ نُجوماً نجوماً. وكان بين أوَّله وآخِره ثلاثٌ وعشرون سنةً؛ قاله ابن عباس، وقد تقدَّم في سورة البقرة[6].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١١ ، وحكى قول الثعلبي ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٨١ .

(٢) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٤ ، وعن الضحاك الماوردي ٦/ ٣١١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١١ .

(٤) قوله: في، ليس في (ظ).

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٤٣ .

(٦) ينظر ٣/ ١٦٠ - ١٦١ ، وكذلك ١/ ٩٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٤٢ .

وحكى الماوَرْدِيُّ[(١)] عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهرِ رمضانَ، وفي ليلة القدر، في ليلةٍ مباركةٍ، جملةً واحدةً من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرامِ الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السفرةُ الكرامُ الكاتبون على جبريل عشرين سنةً، ونجَّمه جبريل على النبيِّ ﷺ عشرين سنة. قال ابن العَرَبيّ[(٢)]: وهذا باطلٌ؛ ليس بين جبريلَ وبين الله واسطةٌ، ولا بين جبريلَ ومحمدٍ عليهما السلام واسطةٌ.

قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحُكْم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قال: ليلة الحكم[(٣)]. والمعنى: ليلة التقدير، سمِّيتْ بذلك لأنَّ الله تعالى يقدِّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مِثْلِها من السنة القابِلَةِ؛ من أمر الموتِ والأَجَلِ والرِّزقِ وغيره. ويُسْلِمُه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعةٌ من الملائكة: إسرافيلُ، وميكائيلُ، وعزرائيلُ، وجبريلُ، عليهم السلام[(٤)].

وعن ابن عباس قال: يُكْتَب من أمِّ الكتاب ما يكونُ في السنةِ من رزقٍ ومطرٍ وحياةٍ وموت، حتى الحاجُّ[(٥)]. قال عكرمةُ: يُكتبُ حاجُّ بيتِ الله تعالى في ليلة القَدْرِ بأسمائهم وأسماءِ آبائهم، ما يُغادَر منهم أحدٌ، ولا يُزادُ فيهم[(٦)]. وقاله سعيد بن جبير[(٧)]. وقد مضى في أوّل سورة الدخان هذا المعنى[(٨)].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٣١٢ .

(٢) في أحكام ا لقرآن ٤/ ١٩٥٠ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦ ، وابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥ ، والطبري ٢٤/ ٥٤٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٦٩ ، ويشير إلى خبر عبد الرحمن بن سابط الذي سلف عند تفسير الآية (٥) من سورة السجدة، والآية (٥) من سورة النازعات.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ ، وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم، وسلف ١٩/ ١٠٢ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ ، وعزاه لابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن المنذر.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤٤ .

(٨) ١٩/ ١٠٢ .

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الله تعالى يقضي الأقضيةَ في ليلةِ نصف شعبان، ويُسْلمُها إلى أربابها في ليلة القَدْرِ[(١)].

وقيل: إنَّما سمِّيت بذلك لِعظَمِها وقَدْرِها وشَرَفها؛ من قولهم: لفلانٍ قَدْرٌ، أي: شرفٌ ومنزلة. قاله الزُّهرِيُّ وغيرُه[(٢)].

وقيل: سُمِّيتْ بذلك لأنَّ للطاعات فيها قَدْراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

وقال أبو بكر الورَّاق: سمِّيت بذلك لأنَّ مَن لم يكن له قَدْرٌ ولا خطرٌ يصير في هذه الليلة ذا قَدْرٍ إذا أحياها[(٣)].

وقيل: سمِّيتْ بذلك لأنه أَنزل فيها كتاباً ذا قدرٍ، على رسولٍ ذي قَدْرٍ، على أمةٍ ذاتِ قَدْرٍ.

وقيل: لأنه ينزلُ فيها ملائكةٌ ذوو قَدْرٍ وخَطَر.

وقيل: لأنَّ الله تعالى ينزلُ فيها الخيرَ والبركةَ والمغفرة.

وقال سهل: سمِّيتْ بذلك لأنَّ الله تعالى قدَّر فيها الرحمةَ على المؤمنين.

وقال الخليل: لأنَّ الأرضَ تَضيقُ فيها بالملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضُيِّق[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾

قال الفرَّاء[(٥)]: كلُّ ما في القرآن من قوله تعالى: «وما أَدْرَاكَ» فقد أدراه، وما كان من قوله: «وما يُدْرِيك» فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدَّم[(٦)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ ، وزاد المسير ٩/ ١٨٢ عن الزهري، والنكت والعيون ٦/ ٣١٢ عن ابن عيسى.

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٨٢ .

(٤) زاد المسير ٩/ ١٨٢ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٦) عند تفسير الآية (٣) من سورة الحاقة، والآية (٣) من سورة الطارق.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ بيَّنَ[١] فَضْلَها وعِظَمَها. وفضيلةُ[٢] الزمانِ إنَّما تكونُ بكَثْرةِ ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلةِ يُقْسَمُ الخيرُ الكثيرُ الذي لا يوجدُ مثلُه في ألفِ شهرٍ. والله أعلم.

وقال كثيرٌ من المفسِّرين: أي: العملُ فيها خيرٌ من العمل في ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلةُ القدرِ، وقال أبو العالية: ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ لا تكونُ فيه ليلةُ القَدْرِ[٣].

وقيل: عنَى بألفِ شهرٍ جميعَ الدهر؛ لأنَّ العرب تذكُر الألْفَ في غاية الأشياء، كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة:٩٦] يعني جميعَ الدهر.

وقيل: إنَّ العابد كان فيما مضى لا يسمَّى عابداً حتى يعبدَ الله ألفَ شهرٍ؛ ثلاثاً وثمانين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، فجعل الله تعالى لأمةِ محمدٍ ﷺ عبادةَ ليلةٍ خيراً من ألفِ شهرٍ كانوا يعبدونها.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان مُلْكُ سليمان خمسَ مئةِ شهرٍ، وملكُ ذي القرنين خمسَ مئة شهرٍ، فصار مُلْكُهما ألفَ شهرٍ، فجعل الله تعالى العملَ في هذه الليلةِ لمَن أدركها خيراً من مُلْكِهما[٤].

وقال ابن مسعود: إنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَر رجلاً من بني إسرائيلَ لَبِسَ السلاح في سبيل الله ألفَ شهر، فعَجِبَ المسلمون من ذلك، فنزلت: «إِنَّا أَنْزَلْنَاه» الآية، «خَيْرٌ مِن أَلفِ شَهرٍ»، التي لبِس فيها الرجلُ سلاحَه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس[٥].

وهب بن منبه: إنَّ ذلك الرجلَ كان مسلماً، وإنَّ أمَّه جعلته نَذْراً لله، وكان من قريةِ قومٍ يعبدون الأصنامَ، وكان يسكنُ قريباً منها، فجعل يغزوهم وحدَه، ويقتلُ

---

(١) في (ظ): من.

(٢) في (ظ): وكثرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦، والطبري ٢٤/ ٥٤٦ عن قتادة واختاره، ولم نقف عليه عن أبي العالية.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٣ دون نسبة.

(٥) الوسيط ٤/ ٥٣٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٢، وزاد المسير ٩/ ١٩١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البيهقي ٤/ ٣٠٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم نقف عليه عن ابن مسعود ﷺ.

ويَسْبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلَّا بِلَحْيَيْ بعيرٍ، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش، انفجر له من اللَّحيين ماءٌ عَذْبٌ، فيشربُ منه، وكان قد أُعطِي قوّةً في البطش، لا يُوجِعُه حديدٌ ولا غيره، وكان اسمُه شَمْسُون.

وقال كعبُ الأحبارِ: كان رجلاً ملِكاً في بني إسرائيل، ففعل خَصْلةً واحدةً، فأوحَى الله إلى نَبيٍّ زمانهم: قل لفلانٍ يتمنَّى. فقال: يا رب، أتمنَّى أن أُجاهد بمالي وولدي ونَفْسي، فرزَقه الله ألفَ ولدٍ، فكان يُجهِّز الولد بماله في عسكرٍ ويُخْرِجُه مجاهداً في سبيل الله، فيقومُ شهراً ويُقتلُ ذلك الولد، ثم يجهِّزُ آخَرَ بماله في عسكر، فكان كلُّ ولدٍ يقتل في الشهر، والملِكُ مع ذلك قائمُ الليلِ، صائمُ النهار، فقُتِل الأَلْفُ وَلدٍ في ألفِ شهر، ثم تقدَّم فقاتل فقُتِل. فقال الناس: لا أحدَ يدركُ منزلةَ هذا الملك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله.

وقال علي بن عروة[١]: ذكر النبيُّ ﷺ أربعةً من بني إسرائيلَ، فقال: «عَبَدوا الله ثمانينَ سنة، لم يَعْصُوه طرفةَ عينٍ»؛ فذَكَر أيوبَ، وزكرِيّا، وحِزقيل بن العجوز، ويُوشَع بن نون، فعَجِبَ أصحابُ النبيِّ ﷺ من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمدُ، عَجِبَتْ أمَّتك من عبادةِ هؤلاء النَّفَرِ ثمانين سنةً لم يعصوا الله طرفةَ عين، فقد أنزل الله عليك خيرًا من ذلك، ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾. فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ.

وقال مالكٌ في «الموطَّأ» من رواية ابن القاسم وغيره: سمعتُ مَن أَثِقُ به يقول: إنَّ رسول الله ﷺ أُرِي أعمارَ الأُمم قبلَه، فكأنه تقاصَرَ أعمارَ أمَّتِه ألَّا يبلغوا من العمل مثلَ ما بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلةَ القدرِ، وجعلها خيراً من ألفِ شهرٍ[٢].

---

(١) في النسخ: وقال علي وعروة، والمثبت من تفسير ابن كثير عند هذه الآية، والدر المنثور ٦/ ٣٧١، وقد عزاه ابن كثير والسيوطي لابن أبي حاتم، وهو من طريق مسلمة بن علي عن علي بن عروة، وهما متروكان، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٠، والخبر في الموطأ ١/ ٣٢١. قال ابن عبد البر في التمهيد =

وفي الترمذيِّ عن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ أُرِي بني أميةَ على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يعني نهراً في الجنة. ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ . لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكُها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحُدَّانيُّ: فعدَدْناها، فإذا هي ألفُ شهرٍ، لا تزيدُ يوماً، ولا تنقُص يوماً. قال: حديثٌ غريب[1].

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تهبطُ من كلِّ سماءٍ، ومن سِدْرةِ المنتهى، ومسكنُ جبريلَ على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمِّنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر، فذلك قولُه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: جبريلُ عليه السلام. وحكى القُشَيرِيُّ: أنَّ الرُّوح صِنفٌ من الملائكة، جُعِلوا حفظَةً على سائرهم، وأنَّ الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة.

وقال مقاتل: هم أشرفُ الملائكةِ وأقربُهم من الله تعالى.

وقيل: إنَّهم جندٌ من جند الله عزَّ وجلَّ من غيرِ الملائكة. رواه مجاهدٌ عن ابن عباس مرفوعًا؛ ذكره الماوَرْدِيُّ[2].

وحكى القشيريُّ: قيل: هم صِنفٌ من خَلْقِ الله يأكلون الطعام، ولهم أَيْدٍ وأرجلٌ؛ وليسوا ملائكةً.

وقيل: «الرُّوح»: خَلْقٌ عظيمٌ يقومُ صفًّا، والملائكةُ كلُّهم صفًّا.

= ٢٤/ ٣٧٣: لا أعلم هذا الحديث يروى مسنداً من وجه من الوجوه، ولا أعرفه في غير الموطأ مرسلاً ولا مسنداً، وهذا أحد الأحاديث التي انفرد بها مالك.

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٠) والقاسم بن الفضل هو أحد رجال الإسناد. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا الحديث منكر جدًّا.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣١٣، وقد سلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة عم.

وقيل: «الرُّوح»: الرحمةُ ينزل بها جبريلُ عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها، دليله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] أي: بالرحمة[١].

﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلةِ القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي: بكلِّ أمرٍ قدَّره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابلٍ؛ قاله ابن عباس[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمرِ الله.

وقراءةُ العامَّة: «تَنَزَّلُ» بفتح التاء، إلَّا أنَّ البزِّيَّ شدَّد التاء[٣]. وقرأ طلحةُ بن مُصرِّف وابن السَّميفَع بضمِّ التاءِ على الفعل المجهول[٤].

وقرأ عليٌّ وابنُ عباس وعِكرمةُ والكلبيُّ: «مِن كلِّ امْرِئٍ»[٥]. وروي عن ابن عباس أنَّ معناه: من كلِّ مَلَكٍ[٦]. وتأوَّلها الكلبيُّ على أنَّ جبريل ينزلُ فيها مع الملائكة، فيسلِّمون على كلِّ امرئٍ مسلمٍ، فـ«مِن» بمعنى على[٧]. وعن أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا كان ليلة القَدْرِ نزلَ جبريلُ في كَبْكبةٍ من الملائكة، يُصَلُّون ويسلِّمون على كلِّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكُر الله تعالى»[٨].

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

قيل: إنَّ تمامَ الكلامِ: «مِنْ كُلّ أَمْرٍ»، ثم قال: «سلام»؛ رُوِي ذلك عن نافعٍ

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٤ .

(٢) ذكره ابن الجوزي ٩/ ١٩٣ عن المفسرين.

(٣) أي: في حال الوصل. التيسير ص ٨٣ .

(٤) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٧٦ عن ابن عباس، والمحتسب ٢/ ٣٦٨ عن ابن عباس وعكرمة والكلبي.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٦ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣١٤ ، وزاد المسير ٩/ ١٩٣ ، قال ابن الجوزي: هي كقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ [الأنبياء: ٧٧].

(٨) أخرجه مطولاً البيهقي في الشعب (٣٧١٧). وفي إسناده أصرم بن حوشب، قال عنه يحيى: كذاب خبيث، وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك. وقال الدارقطني: منكر الحديث. الميزان ١/ ٢٧٢ .

وغيره، أي: ليلةُ القدرِ سلامةٌ وخيرٌ كلُّها لا شرَّ فيها، «حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ» أي: إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدِّرُ الله في تلك الليلةِ إلَّا السلامةَ، وفي سائرِ الليالي يقضي بالبلايا والسلامة[(١)].

وقيل: أي: هي سلامٌ، أي: ذاتُ سلامةٍ من أنْ يؤثِّر فيها شيطانٌ في مؤمنٍ ومؤمنةٍ. وكذا قال مجاهد: هي ليلةٌ سالمةٌ، لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعمل فيها سوءاً ولا أذًى[(٢)]. وروي مرفوعًا[(٣)].

وقال الشعبيُّ: هو تسليمُ الملائكةِ على أهلِ المساجد، من حينِ تغيبُ الشمسُ إلى أنْ يطلعَ الفجر، يمرُّون على كلِّ مؤمنٍ، ويقولون: السلامُ عليك أيُّها المؤمن[(٤)].

وقيل: يعني سلامَ الملائكةِ بعضِهم على بعضٍ فيها.

وقال قتادةُ: «سَلَامٌ هي» خيرٌ هي، «حتى مَطْلَعِ الفجرِ» أي: إلى مطلع الفجر[(٥)].

وقرأ الكسائيُّ وابنُ مُحَيصِنٍ: «مَطلِع» بكسرِ اللَّامِ، الباقونَ بالفتح[(٦)]. والفتحُ والكسرُ لغتان في المصدر. والفتحُ الأصلُ في فَعَلَ يَفْعُلُ، نحو المَقْتَل والمَخْرَج. والكسرُ على أنه ممَّا شذَّ عن قياسه، نحو المَشْرِق والمَغْرِب والمَنْبِت والمَسْكِن والمَنْسِك والمَحْشِر والمَسْقِط والمَجْزِر. حكي في ذلك كلِّه الفتحُ والكسر، على أنْ يُراد به المصدرُ لا الاسم.

وهنا ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: في تعيينِ ليلة القدر، وقد اختلف العلماءُ في ذلك. والذي عليه المُعْظَمُ أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين؛ لحديثِ زِرّ بنِ حُبَيْش قال: قلتُ لأبيّ بنِ كعب: إنَّ أخاك

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٥١٢ دون قوله: وفي سائر الليالي...

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥١٢ . وأخرجه سعيد بن منصور، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) سيأتي ص٤٠٣ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه بنحوه سعيد بن منصور، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦ ، والطبري ٤/ ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٦) السبعة ص ٦٩٣ ، والتيسير ص ٢٢٤ عن الكسائي.

عبدَ الله بنَ مسعودٍ يقول: مَن يَقُمِ الحَوْلَ يُصِبْ ليلةَ القدر. فقال: يَغفِرُ الله لأبي عبدِ الرحمن! لقد عَلِم أنها في العَشْرِ الأواخِر من رمضان، وأنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين، ولكنَّه أراد ألَّا يَتَّكِلَ الناس، ثم حلف لا يستثني: أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين. قال: قلت: بأيِّ شيءٍ تقولُ ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أَخْبرَنا بها رسولُ الله ﷺ - أو بالعلامة - أنَّ الشمسَ تَطْلُعُ يومئذٍ لا شُعاعَ لها. قال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيح. وخرَّجه مسلم(١).

وقيل: هي في شهرِ رمضانَ دونَ سائرِ العام؛ قاله أبو هريرةَ وغيرُه(٢).

وقيل: هي في ليالي السنةِ كلِّها. فَمَن علَّق طلاقَ امرأتِه أو عِتْقَ عبدِه بليلةِ القدرِ، لم يقع العِتقُ والطلاقُ إلَّا بعد مُضِيِّ سنةٍ من يوم حَلَف(٣)؛ لأنه لا يجوزُ إيقاعُ الطلاقِ بالشكِّ، ولم يَثْبتِ اختصاصُها بوقتٍ؛ فلا ينبغي وقوعُ الطلاقِ إلَّا بمضيِّ حَوْلٍ(٤)، وكذلك العِتقُ وما كان مِثلَه من يمينٍ أو غيره. وقال ابن مسعود: مَن يَقُمِ الحولَ يُصِبْها، فبلغ ذلك ابنَ عمر، فقال: يرحمُ الله أبا عبدِ الرحمن! أمَا إنَّه عَلِم أنها في العشر الأواخِرِ من شهر رمضان، ولكنَّه أراد ألَّا يتَّكِلَ الناس(٥). وإلى هذا القولِ ذهب أبو حنيفةَ: أنَّها في جميع السنة(٦). وقيل عنه: أنها رُفِعَتْ - يعني ليلةَ القدر - وأنها إنَّما كانت مرةً واحدة. والصحيحُ أنَّها باقيةٌ(٧).

---

(١) برقم (٧٦٢)، ص ٨٢٨ ، وهو عند الترمذي (٣٣٥١)، وأخرجه أحمد (٢١١٩٣).

(٢) أخرجه عن أبي هريرة عبد الرزاق في المصنف (٧٧٠٧)، وأخرجه (٧٧٠٨) عن ابن عباس، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٠٨ عن ابن عمر وأبي ذر وأبي هريرة وابن عباس.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠ ، ومجمع البيان ٣٠/ ١٩٣ ، وقد سلف قريباً قول ابن مسعود في حديث أبيٍّ أيضاً.

(٦) ذكره الجوزجاني عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد، كما في التمهيد ٢/ ٢٠٨ .

(٧) وذكر القول عن أبي حنيفة ابن عطية في المحرر ٥/ ٥٠٥ وقال: هذا قول مردود، وإنما رفع تعيينها.

وروي عن ابن مسعود أيضاً: أنَّها إذا كانت في يومٍ من هذه السنة، كانت في العام المقبلِ في يومٍ آخر.

والجمهورُ على أنَّها في كلِّ عامٍ من رمضانَ، ثم قيل: إنها الليلةُ الأولى من الشهر؛ قاله أبو رَزِين العُقَيليّ[(١)]. وقال الحسن وابنُ إسحاقَ وعبد الله بن الزُّبير: هي ليلةُ سبعَ عَشْرَة من رمضان، وهي الليلةُ التي كانت صبيحتَها وقعةُ بدْر. كأنهم نزعوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وكان ذلك ليلةَ سَبْعَ عَشْرةَ[(٢)]، وقيل: هي ليلةُ التاسعِ عَشَر[(٣)].

والصحيحُ المشهورُ: أنها في العَشْرِ الأواخِر من رمضان، وهو قولُ مالكٍ والشافعيِّ والأوزاعيِّ وأبي ثور وأحمدَ[(٤)]. ثم قال قومٌ: هي ليلةُ الحادي والعشرين. ومال إليه الشافعيُّ ﷺ، لحديثِ الماءِ والطينِ؛ رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ، خرَّجه مالك وغيرُه[(٥)].

وقيل: ليلة الثالثِ والعشرين؛ لِمَا رواه ابنُ عمر: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، إنِّي رأيتُ ليلةَ القدرِ في سابعةٍ تبقى. فقال النبيُّ ﷺ: «أرى رؤياكم قد تَواطَأَتْ على

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٣ . وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٠٦ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٦٩٦) عن علي ﷺ، أنه كان يتحرى ليلة القدر ليلة تسع عشرة، وإحدى وعشرين، وثلاث وعشرين.

(٤) ذكر قولهم ابن عبد البر في الاستذكار ١٠/ ٣٣٨ ، والقاضي عياض في إكمال المعلم ٤/ ١٤٣ ، وأبو العباس في المفهم ٣/ ٢٥١ : أنها في العشر الأواخر، وأنها متنقلة فيه. قال أبو العباس: وبهذا يجتمع شتات الأحاديث الواردة في تعيينها.

(٥) موطأ مالك ١/ ٣١٩ ، وهو عند أحمد (١١٠٣٤)، والبخاري (٢٠٢٧)، ومسلم (١١٦٧)، وفيه: «... وقد رأيت هذه الليلة ثم أُنسيتُها، وقد رأيتُني أسجد من صبحها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كلِّ وتر» قال أبو سعيد: فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد. قال أبو سعيد: فأبصرت عيناي رسول الله ﷺ انصرف وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين، من صبح ليلة إحدى وعشرين.

ثلاثٍ وعشرين، فَمَن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليَقُمْ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين». قال معمر: فكان أيوبُ يغتسلُ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين ويَمَسُّ طِيْباً[١]. وفي «صحيح» مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنِّي رأيتُ أنِّي أسجدُ في صبيحتها في ماءٍ وطين». قال عبد الله بن أنيس: فرأيتُه في صبيحةِ ليلةِ ثلاثٍ وعشرين [سجد] في الماء والطين، كما أخبر رسولُ الله ﷺ[٢].

وقيل: ليلة خمسٍ وعشرين؛ لحديثِ أبي سعيد الخدرِيِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «التمِسوها في العشر الأواخِر في تاسعةٍ تَبْقَى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى». رواه مسلم[٣]، قال مالك: يريدُ بالتاسعة ليلةَ إحدى وعشرين، والسابعةِ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين، والخامسةِ ليلةَ خمسٍ وعشرين[٤].

وقيل: ليلة سبعٍ وعشرين. وقد مضى دليلُه، وهو قولُ عليٍّ ﷺ وعائشةَ ومعاويةَ وأبيّ بنِ كعب[٥]. ورَوَى ابنُ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن كان متحرِّياً ليلةَ القدرِ، فلْيَتَحرَّها ليلةَ سبعٍ وعشرين»[٦].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ١٩٣ - ١٩٤ ، ومختصراً ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٨٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٧٦٨٨).

(٢) بنحوه في صحيح مسلم (١١٦٨)، ونقله المصنف عن ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) كذا نقل المصنف عن ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٤ ، وهذا اللفظ الذي ذكره هو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٢٠٥٢)، والبخاري (٢٠٢٢). وحديث أبي سعيد عند مسلم (١١٦٧): (٢١٧)، وفيه: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

(٤) المدونة ١/ ٢٣٩ .

(٥) قول أبيٍّ ﷺ سلف، وذكره البغوي ٤/ ٥١١ ، وابن الجوزي ٩/ ١٨٧ عن علي وعائشة رضي الله عنهما، وأخرج أبو داود (١٣٨٦) من حديث معاوية ﷺ مرفوعاً: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

(٦) أخرجه أحمد (٤٨٠٨).

وقال أبيّ بنُ كعب: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليلةُ القدرِ ليلةُ سبعٍ وعشرين»(١).

وقال أبو بكر الورَّاق: إنَّ الله تعالى قَسَم لياليَ هذا الشهرِ - شهرِ رمضانَ - على كلماتِ هذه السورة، فلمَّا بلغ السابعةَ والعشرين أشار إليها فقال: هي. وأيضاً فإنَّ ليلةَ القدرِ كُرِّر ذِكْرُها ثلاثَ مرَّاتٍ، وهي تسعةُ أحرفٍ، فتجيءُ سبعاً وعشرين(٢).

وقيل: هي ليلةُ تسعٍ وعشرين؛ لِمَا رُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ليلةُ القدرِ التاسعةُ والعشرون، أو السابعةُ والعشرون، وإنَّ الملائكةَ في تلك الليلةِ بعدد الحصى»(٣).

وقد قيل: إنَّها في الأشفاع؛ قال الحسن: ارتقبتُ الشمسَ ليلةَ أربعٍ وعشرين عشرين سنةً، فرأيتُها تطلعُ بيضاءَ لا شعاعَ لها(٤). يعني من كثرةِ الأنوارِ في تلك الليلة.

وقيل: إنها مستورةٌ في جميع السنة؛ ليجتهد المرءُ في إحياءِ جميعِ الليالي.

وقيل: أخفاها في جميعِ شهرِ رمضان؛ ليجتهدوا في العمل والعبادةِ لياليَ شهرِ رمضانَ؛ طمعاً في إدراكها، كما أَخْفَى الصلاةَ الوسطى في الصلوات، واسمَه الأعظمَ في أسمائه الحُسْنى، وساعةَ الإجابةِ في ساعات الجمعةِ وساعاتِ الليل، وغضبَه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيامَ الساعةِ في الأوقات، والعبدَ الصالحَ بين العباد؛ رحمةً منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أنَّ الشمس تطلعُ صبيحةَ يومها(٥) بيضاءَ لا شعاعَ لها.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٩٢ . وجاء في بعض رواياته عند أحمد (٢١١٩٠): ... هي الليلة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، ليلة سبع وعشرين...، وعند مسلم (٧٦٢): ... هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين...

(٢) زاد المسير ٩/ ١٨٨ .

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٣٤). وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا بأس به.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧٦٩٨).

(٥) في (م): أن تطلع الشمس في صبيحتها.

وقال الحسن قال النبيُّ ﷺ في ليلة القدر: «إنَّ من أَمَاراتها: أنَّها ليلةٌ سَمْحَةٌ بَلْجَة، لا حارَّةٌ ولا باردةٌ، تطلع الشمسُ صبيحتَها ليس لها شعاعٌ»[١]. وقال عبيد بن عمير: كنتُ ليلةَ السابعِ والعشرين في البحر، فأخذتُ من مائه، فوجدتُه عذباً سَلِساً[٢].

الثالثة: في فضائلها. وحَسْبُك بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾. وفي الصحيحين: «مَنْ قام ليلةَ القَدْرِ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تَقَدَّم من ذَنْبه» رواه أبو هريرة[٣].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا كان ليلةُ القدْرِ، تَنَزَّلُ الملائكةُ الَّذِينَ هم سُكَّانُ سِدْرة المُنْتَهى، منهم جبريلُ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواءٌ على بيتِ المقدِسِ، ولواءٌ على المسجدِ الحرام، ولواءٌ على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنةً إلَّا تُسَلِّم عليه، إلَّا مُدْمِنَ الخمرِ، وآكِلَ الخِنزيرِ، والمتَضَمِّخ بالزعفران»[٤].

وفي الحديث: «إنَّ الشيطانَ لا يخرجُ في هذه الليلة حتّى يُضيءَ فَجْرُها، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحداً بخَبْلٍ ولا شيءٍ من الفساد، ولا ينفذُ فيها سحرُ ساحرٍ»[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١١، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٣/ ٧٧، وأخرج نحوه أحمد (٢٢٧٦٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وابن خزيمة (٢١٩٠) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٢٧٧٧) عن عبدة بن أبي لبابة. وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٦٩١) عن أيوب بن خالد. وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢١٥ - ٢١٦ عن زهرة بن معبد. ولم نقف عليه عن عبيد بن عمير.

(٣) صحيح البخاري (١٩٠١)، وصحيح مسلم (٧٦٠)، وهو عند أحمد (٨٥٧٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) قوله: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها» قطعة من حديث أخرجه ابن خزيمة (٢١٩٠)، وابن حبان (٣٦٨٨) عن جابر ﷺ.

وقال الشعبيُّ: وليلُها كَيَوْمِها، ويومُها كَلَيْلِها[١].

وقال الفرَّاءُ: لا يقدِّر اللهُ في ليلة القَدْرِ إلَّا السعادةَ والنِّعم، ويقدِّر في غيرها البلايا والنِّقَم، وقد تقدَّم عن الضحَّاك[٢]. ومثلُه لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوعٌ. والله أعلم.

وقال سعيد بن المسيب في «الموطأ»[٣]: [مَنْ شهِد العشاءَ من ليلةِ القدْرِ، فقد أَخَذَ بحظِّه منها]، ومثلُه لا يُدْرَك بالرأي.

وقد رَوَى عُبَد الله بن عامر بن ربيعة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن صلَّى صلاةَ المغربِ والعشاءِ الآخرةِ من ليلةِ القدرِ في جماعةٍ فقد أَخَذَ بحظِّه من ليلةِ القَدْر» ذكره الثعلبيُّ في تفسيره[٤].

وقال عائشةُ رضي الله عنها: قلتُ: يا رسولَ الله إنْ وافقتُ ليلةَ القَدرِ فما أقولُ؟ قال: «قُولي: اللهمَّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعْفُ عنِّي»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥ .

(٢) ص٣٩٧ من هذا الجزء، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له.

(٣) ١/ ٣٢١ وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٠٧) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥ عن سعيد بن المسيب قوله.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣) وقال: حسن صحيح.

سُورَةُ القَدْرِ

مختلفٌ فيها، وآيُها خَمسٌ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الضَّميرُ للقرآنِ، فخَّمَه بإضمارِهِ مِن غيرِ ذكرٍ شهادةً له بالنَّباهةِ المُغْنِيَةِ عَن التَّصريحِ، كما عظَّمَه بأنْ أسندَ إنزالَهُ إليه، وعظَّمَ الوقتَ الذي أنزِلَ فيه بقولِه:

(٢ ـ ٣) ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وإنزالُه فيها بأَنِ ابتدأَ بإنزالِه فيها[2]، أو أنزلَهُ جُملَةً مِن اللوحِ إلى السَّماءِ الدُّنيا على السَّفَرةِ، ثمَّ كان جبريلُ يُنزلُه على رسولِ اللهِ ﷺ نُجومًا في ثلاثٍ وعِشرينَ سنةً[3].

وقيل: المعنى: أنزلناه في فضلِها.

وهي في أوتارِ العَشرِ الأخيرِ مِن رمضانَ، ولعلَّها السَّابعَةُ منها، والدَّاعي إلى إخفائِها: أن يُحيِيَ مَن يريدُها لياليَ كثيرةً.

---

(١) اختلفَ في عددِ آياتها هل هو خمسٌ أو ستٌّ، وفي مكيتها ومدنيتها. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥٤٣) عن الشعبي بلفظ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قال: نزل أول القرآن في ليلة القدر.

(٣) رواه بنحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٢٥)، من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وتَسمِيَتُها بذلك لشَرَفِها، أو لتقديرِ الأمورِ فيها؛ لقولِه تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وذكرُ الألْفِ إمَّا للتَّكثيرِ، أو لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ ذكرَ إسرائيليًا لبسَ السِّلاحَ في سبيلِ اللهِ ألفَ شهرٍ، فعَجِبَ المؤمنونَ وتقاصرَتْ إليهم أعمالَهُم، فأُعْطُوا ليلةً هي خيرٌ مِن مُدَّةِ ذلك الغازي[1].

(٤) ـ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بيانٌ لِمَا له فُضِّلَتْ على ألفِ شهرٍ، وتَنَزُّلُهم إلى الأرضِ أو السَّماءِ الدُّنيَا، أو تَقرُّبُهم إلى المؤمنينَ.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: مِن أَجلِ كُلِّ أمرٍ قُدِّرَ في تلك السَّنةِ، وقُرِئَ: (مِنْ كلِّ امرئٍ)[2]؛ أي: مِن أجلِ كلِّ إنسانٍ.

(٥) ـ ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: ما هيَ إلا سَلامةٌ؛ أي: لا يُقدِّرُ اللهُ فيها إلَّا السَّلامةَ، ويَقضي في غيرِها السَّلامةَ والبلاءَ، أو: ما هيَ إلا سَلامٌ لكثرةِ ما يُسلِّمونَ فيها على المؤمنينَ.

﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ أي: وقتِ مَطلَعِه؛ أي: طلوعِه، وقرَأَ الكِسائيُّ بالكسرِ[3] على أنَّه كالمرجِعِ، أو اسمُ زمانٍ على غيرِ قياسٍ كالمَشرِقِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ القَدْرِ أُعطِيَ مِن الأجرِ كمَنْ صامَ رمضانَ وأحيا ليلةَ القدرِ»[4].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٤/ ١٩٣)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٤٩٠)، من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جدًّا. وروى نحوه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٨)، والبيهقي في «سننه» (٤/ ٣٠٦)، عن مجاهد وقال: هذا مرسل.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٦٨)، عن ابن عباس. وزاد بن جني: عكرمة والكلبي.

(٣) أي: بكسر اللامِ، والباقونَ بفتحها، انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٤).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٥٦ ـ ٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٣٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٧) سورة القدر مكية
وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ﴿ليلة القدر﴾ وهي الليلة المباركة التي قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، قال ابن عباس: أنزل

الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾. روى ابن أبي حاتم، عن مجاهد أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[١]، وروى ابن جرير، عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل»[٢]. وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وعن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر، وقال عمرو بن قيس: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب، كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»[٣]. وفي الحديث الصحيح في فضائل رمضان قال عليه السلام: «فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم»[٤] ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٥]. وقوله تعالى: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له، وأما الروح فقيل: المراد به ههنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل: هم ضرب من الملائكة كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿من كل أمر﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر، وقال سعيد بن منصور عن مجاهد في قوله: ﴿سلام هي﴾ قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾. وروى أبو داود الطيالسي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[٦]. وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سلام هي﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر، وأمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر، والشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير عن مجاهد موقوفاً.

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) أخرجه أحمد والنسائي.

(٥) أخرجه الشيخان.

(٦) رواه الطيالسي.

في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء»(١)، وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر/فأنسيتها وهي في العشر الأواخر من لياليها وهي طلقة بلجة لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».

فصل

اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة؟ فقال الزهري: حدثنا مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أريَ أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر(٢)، وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقيل: إنها كانت في الأمم الماضين كما هي في امتنا، ثم هي باقية إلى يوم القيامة وفي رمضان خاصة لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة، وترتجى في جميع الشهور على السواء، وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: (باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان)، ثم روى بسنده عن عبدالله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر؟ فقال: هي في كل رمضان»(٣)، وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله رواية أنها ترتجى في كل شهر رمضان وهو وجه حكاه الغزالي.

فصل

ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة، وهو قول الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري، ووجهوه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: (يوم الفرقان). وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود، وقيل: ليلة إحدى وعشرين لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتا جبريل فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء»، وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة، فمطرنا فصلّى بنا النبي ﷺ، حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه في صبح إحدى وعشرين»(٤). قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات، وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري عن عبدالله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من

---

(١) أخرجه الطيالسي.
(٢) أخرجه مالك.
(٣) أخرجه أبو داود.
(٤) أخرجه الشيخان.

رمضان في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى »[١] فسره كثيرون بليالي الاوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع . **وقيل**: إنها تكون ليلة سبع وعشرين ، لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين، قال الإمام أحمد : عن زر : سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر ، قال: يرحمه الله لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك ؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لاشعاع لها يعني الشمس[٢] . وهو قول طائفة من السلف، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً، **وقيل**: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين، روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: « في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة »[٣] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى »[٤] . **وقيل**: إنها تكون في آخر ليلة لما تقدم من هذا الحديث آنفاً ، ولما رواه الترمذي والنسائي من حديث عيينة بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: « في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر »[٥] . وفي المسند من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في ليلة القدر : « إنها آخر ليلة » .

فصل

قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له: أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول: « نعم » ، وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل، وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر ؛ وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة هو الأشبه، والله اعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها، فليتحرها في السبع الأواخر »[٦] . وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان »[٧] . ويحتج الشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر بما رواه البخاري في صحيحه

---

(١) خرجه البخاري .

(٢) خرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه .

(٣) خرجه أحمد .

(٤) خرجه أحمد .

(٥) أخرجه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٦) أخرجاه في الصحيحين .

(٧) أخرجه الشيخان ، واللفظ للبخاري .

عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[١]، وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط، وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقوله: «فرفعت» أي رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزَّ وجلَّ، ثم اعتكف أزواجه بعده. عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[٢]. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وشد المئزر، ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، وهذا معنى قولها وشد المئزر، وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما رواه الإمام أحمد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه، وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى، والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن بريدة أن عائشة قالت: يا رسول الله: إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[٣].

[آخر تفسير سورة ليلة القدر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

تفسير سورة القدر[١]

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ .

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣] وهى ليلة القدر ، وهى من شهر رمضان ، كما قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة:١٨٥] .

قال ابن عباس وغيره :أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ . ٦

ثم قال تعالى مُعَظِّما لشأن ليلة القدر ، التى اختصها بإنزال القران العظيم فيها ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدّانى [٢] ، عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن على بعد ما بايع معاوية فقال : سَوّدتَ وجوهَ المؤمنين ـ أو : يا مسود وجوه المؤمنين ـ فقال : لا تؤنبنى ،رحمك الله ؛ فإن النبى ﷺ أرىَ بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ يا محمد ، يعنى نهراً فى الجنة ،ونزلت: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، يملكها بعدك بنو أمية يا محمد . قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر ، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً [٣] .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدى. قال : وشيخه يوسف بن سعد ـ ويقال : يوسف بن مازن ـ رجل مجهول ، ولا نعرف هذا الحديث ، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه .

وقد روى هذا الحديث الحاكم فى مستدركه ، من طريق القاسم [٤] بن الفضل ، عن يوسف بن

(١) فى أ : « سورة ليلة القدر » .
(٢) فى أ : « الجذامى » .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٠) .
(٤) فى أ : « من حديث الحاكم ».

مازن ، به [١] . وقول الترمذى : إن يوسف هذا مجهول ــ فيه نظر ؛ فإنه قد روى عنه جماعة ، منهم : حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد . وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور، وفى رواية عن ابن معين [قال] [٢] : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل ، عن عيسى بن مازن ، كذا قال ، وهذا يقتضى اضطراباً فى هذا الحديث ، والله أعلم . ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزّى : هو حديث منكر .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحُدّانى [٣] : إنه حسب مُدّة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ، ليس بصحيح ؛ فإنّ معاويةَ بن أبى سفيان ، رضى الله عنه ، استقل بالملك حين سَلّم إليه الحسن بن على الإمرة سنَة أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية ، وسمى ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها ، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير فى الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، لكن لم تَزُل يدهم عن الإمرة بالكلية ، بل عن بعض البلاد ، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر ، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير ، وعلى هذا فتقارب ما قاله للصحة فى الحساب ، والله أعلم .

ومما يدلّ على ضَعف هذا الحديث أنَّه سِيقَ لذم دولة بنى أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذَم أيامهم، فإنّ ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية التى هى مذمومة ، بمقتضى هذا الحديث ، وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَم تَرَ أنّ السيف ينقُصُ قَدْرُه   إذا قِيل إنّ السيف أمضَى مِن العَصَا

وقال آخر :

إذا أنتَ فَضَّلتَ امـرأ ذا بَرَاعَة   عَلَى نَـاقص كَـانَ المديحُ منَ النَّقص

ثم الذى يفهم من ولاية [٤] الألف شهر المذكورة فى الآية هى أيام بنى أمية ، والسورة مكية ، فكيف يحال على ألف شهر هـى دولة بنى أمية ، ولا يـدل عليها لفظ الآيـة ولاَ معنـاها ؟! والمنبـر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله ممـا يـدل على ضعـف هذا الحـديث ونكارته ، والله أعلم [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا مسلم ــ يعنى ابن خالد ــ عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد : أن النبى ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لَبس السلاح فى

(١) المستدرك (٣/ ١٧٠) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٥٠٩) .
(٢) زيادة من م .
(٣) فى أ : « الجذامى » .
(٤) فى م : « ثم من الذى يفهم من الآية أن » .
(٥) وانظر : البداية والنهاية (٦/ ٢٤٣، ٢٤٤) فقد توسع أيضا فى الكلام على هذا الحديث .

سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعَجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ التى لبس ذلك الرجل السلاح فى سبيل الله ألف شهر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكّام بن سَلْم ، عن المثنى بن الصباح ، عن مجاهد قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسى ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنى مسلمة بن عُلَىّ ، عن على بن عروة قال : ذكر رسول الله ﷺ يوما أربعة من بنى إسرائيل ، عبدوا الله ثمانين عاماً ، لم يَعْصوه طرفة عين : فذكر أيوب ، وزكريا ، وحزْقيل بن العجوز ، ويوشع بن نون ــ قال : فعجب (٣) أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يَعْصُوه طرفة عين ؛ فقد أنزل الله خيراً من ذلك . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك . قال : فَسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ والناس معه (٤) .

وقال سفيان الثورى : بَلَغنى عن مجاهد : ليلةُ القدر خير من ألف شهر . قال : عَمَلها ، صيامها وقيامها خير من ألف شهر .رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس فى تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعى ، وغير واحد .

وقال عمرو بن قيس الملائى : عمل فيها خير من عمل ألف شهر .

وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ــ وليس فيها ليلة القدر ــ هو اختيارُ ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله ﷺ : « رِباطُ ليلة فى سبيل الله خَيْر من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » . رواه أحمد (٥) . وكما جاء فى قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : « أنه يُكتَبُ له عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها » إلى غير ذلك من المعانى المشابهة لذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن أبى قِلابَة ، عن أبى هُريرة قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله

(١) ورواه الثعلبى فى تفسيره والواحدى فى أسباب النزول كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٤/ ٢٥٣) من طريق مسلم بن خالد ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد به مرسلاً .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٧) .

(٣) فى أ : « فتعجب » .

(٤) وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٥٦٩) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٥) المسند (١/ ٦٢) من حديث عثمان ، رضى الله عنه .

عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرَها فقد حُرم » .

ورواه النسائى ، من حديث أيوب ، به (١) .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه » (٢) .

وقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى : يكثر تَنَزُّلُ الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .

وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل ، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة . كما تقدم فى سورة « النبأ ». والله أعلم .

وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : قال مجاهد : سلام هى من كل أمر .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا الأعمش ، عن مجاهد فى قوله : ﴿سَلامٌ هِيَ ﴾ قال : هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان (٣) أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى :﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] .

وقوله : ﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ : قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْم ، عن أبى إسحاق ، عن الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ . سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ: « من كل امرئ . سلام هى حتى مطلع الفجر » .

وروى البيهقى فى كتابه « فضائل الأوقات » عن علىٍّ أثراً غريباً فى نزول الملائكة ، ومرورهم على المصلين ليلة القدر ، وحصول البركة للمصلين .

وروى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار أثراً غريباً عجيباً مطولاً جداً ، فى تنزل الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل ، عليه السلام ، إلى الأرض ، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات (٤) .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا عمران ــ يعنى القطان ــ عن قتادة ، عن أبى ميمونة ، عن أبى هُريرة : أن رسول الله ﷺ قال فى ليلة القدر : « إنها ليلة سابعة ــ أو : تاسعة ــ وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى » (٥) .

---

(١) المسند (٢/ ٢٣٠) وسنن النسائى (٤/ ١٢٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩٠١) وصحيح مسلم برقم (٧٦٠) .

(٣) فى أ : « الشياطين » .

(٤) سيأتى إيراد الأثر عند تفسير آخر السورة .

(٥) مسند الطيالسى برقم (٢٥٤٥) .

وقال الأعمش ، عن المِنهَال ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى فى قوله : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ ﴾ قال : لا يحدث فيها أمر .

وقال قتادة وابن زيد فى قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ يعنى [١] : هى خير كلها ، ليس [٢] فيها شر إلى مطلع الفجر . ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا حَيْوَة [٣] بن شُرَيح ، حدثنا بَقِيَّة ، حدثنى بَحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدَان ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ قال : « ليلة القدر فى العشر البواقى ، من قامهن ابتغاء حسبتهن ، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهى ليل وتر : تسع أو سبع ، أو خامسة ، أو ثالثة ، أو آخر ليلة » . وقال رسول الله ﷺ : « إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة ، كأن فيها قمراً ساطعاً ، ساكنة سجية ، لا برد فيها ولا حر ، ولا يحل لكوكب يُرمَى به فيها حتى تصبح . وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ » [٤] .

وهذا إسناد حسن ، وفى المتن غرابة ، وفى بعض ألفاظه نكارة .

وقال أبو داود الطيالسى ، حدثنا زَمْعَة ، عن سلمة بن وَهْرام ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فى ليلة القدر : « ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس [٥] صبيحتها ضعيفة حمراء » [٦] .

وروى ابن أبى عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنى رأيت ليلة القدر فأنسيتها ، وهى فى العشر الأواخر ، من لياليها ليلة [٧] طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضىء فجرها » [٨] .

فصل

اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى : حدثنا مالك :أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أُرى أعمار الناس قبله ـ أو : ما شاء الله من ذلك ـ فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر[٩] . وقد أسند من وجه آخر .

---

(١) فى م : « قال » . (٢) فى م : « لا تحدث » . (٣) فى أ : « حدثنا عبدة » .

(٤) المسند (٥/ ٣٢٤) .

(٥) فى م : « وتصبح شمسها » .

(٦) مسند الطيالسى برقم (٢٦٨٠) وفيه : « صفيقة » بدل : « ضعيفة » .

(٧) فى أ : « لياليها وهى ليلة » .

(٨) عزاه إليه صاحب الكنز (٨/ ٥٤٠) برقم (٢٤٠٦٩) ولم أقع عليه فى السنة ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢١٩٠) من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر بنحوه .

(٩) الموطأ برواية الزهرى برقم (٨٨٩) .

وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العُدَّة » أحد أئمة الشافعية من جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع [ونقله الرافعى جازماً به عن المذهب] (١) ، والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عكرمة بن عمار : حدثنى أبو زُمَيل سِمَاك الحَنَفى : حدثنى مالك بن مَرْثَد بن عبد الله ، حدثنى مَرْثَد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال : « بل هى إلى يوم القيامة » . قلت : فى أى رمضان هى ؟ قال : « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حَدّثَ رسولُ الله ﷺ وحَدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرين هى ؟ قال : « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » . ثم حدّث رسول الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب علىّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته ، وقال : « التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » .

ورواه النسائى عن الفلاس ، عن يحيى بن سعيد القطان ، به (٢) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ،وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة [بعد النبى ﷺ] (٣)، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعدُ من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص (٤) وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما رُوى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترجى فى جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود فى سننه على هذا فقال : « باب بيان أن ليلة القدر فى كل رمضان » : حدثنا حُمَيد بن زَنْجُويه النسائى (٥) ، أخبرنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير، حدثنى موسى بن عقبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عمر قال : سُئِل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر ، فقال : « هى فى كل رمضان » (٦) .

وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال : رواه شعبة وسفيان عن أبى إسحاق فأوقفاه .

وقد حكى عن أبى حنيفة ، رحمه الله ، رواية أنها ترجى (٧) فى جميع شهر رمضان . وهو وجه [حكاه] (٨) الغزالى ، واستغربه الرافعى جداً .

---

(١) زيادة من م .
(٢) المسند (٥/ ١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٣٤٢٧) .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى م : « مختص » .
(٥) فى م : « الشامى » .
(٦) سنن أبى داود برقم (١٣٨٧) .
(٧) فى م : « أنها ترتجى » .
(٨) زيادة من م ، أ .

فصل

ثم قد قيل : إنها فى أول ليلة من شهر رمضان ، يحكى هذا عن أبى رَزِين . وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة . وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود . وروى موقوفاً عليه ، وعلى زيد بن أرقم ، وعثمان بن أبى العاص .

وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعى ، ويحكى عن الحسن البصرى . ووجهوه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هى السابعة عشرة (١) من شهر رمضان ، وفى صبيحتها كانت وقعة بدر ، وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقيل : ليلة تسع عشرة ، يحكى عن على وابن مسعود أيضاً ، رضى الله عنهما .

وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسولُ الله ﷺ [فى] (٢) العشر الأوَل من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : [إن] (٣) الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها (٤) فى العشر الأواخر فى وِتْر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء ». وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نَرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قَزَعَة فَمُطرنا ، فصلى بنا النبى ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفى لفظ : « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس (٦) فى « صحيح مسلم » (٧) وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : ليلة أربع وعشرين ، قال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة ، عن الجُرَيرى ، عن أبى نَضْرَة ، عن أبى سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ليلة القدر ليلة أربع وعشرين » (٨) . إسناده رجاله ثقات .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن يزيد بن أبى حَبِيب ، عن أبى الخير، عن الصنابحى ، عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ :« ليلة القدر ليلة أربع وعشرين » (٩).

---

(١) فى أ : « فى السابع عشر » .
(٢) زيادة من م .
(٣) زيادة من م ، أ .
(٤) فى م : « ثم إنها » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١١٦٧) .
(٦) فى أ : « أويس » .
(٧) صحيح مسلم برقم (١١٦٨) .
(٨) مسند الطيالسى برقم (٢١٦٧) .
(٩) المسند (٦/ ١٢) .

ابن لهيعة ضعيف . وقد خالفه ما رواه البخارى عن أصبغ ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن أبى عبد الله الصنابحى قال : قال : أخبرنى بلال ـ مؤذنُ رسول الله ﷺ ـ أنها أول السبع من العشر الأواخر ، فهذا الموقوف أصح ، والله أعلم . وهكذا رُوى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن وهب: أنها ليلة أربع وعشرين . وقد تقدم فى سورة « البقرة » (١) حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: « إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين » .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » . فَسَّره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبى سعيد ، أنه حمله على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان : سمعت عبدة وعاصماً ، عن زرّ : سألت أبىّ بن كعب قلت: أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِم الحَولَ يُصبْ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال: بالعلامة ــ أو : بالآية ــ التى أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس (٢) .

وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعى ، عن عبدة ، عن زرّ ، عن أبى ، فذكره ، وفيه : فقال : والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان ــ يحلف بما يستثنى ــ والله إنى لأعلم أى ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها ، هى ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (٣) .

وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم (٤) ، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجَادّة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حُكىَ عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبرى ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة وعاصم : أنهما سمعا عكرمة يقول : قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب

---

(١) عند تفسير الآية : ١٨٥ .
(٢) المسند (٥/ ١٣٠) .
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٢) .
(٤) وانظر هذه الأحاديث وغيرها فى : الدر المنثور للسيوطى (٨ / ٥٧٠ ــ ٥٨٠) .

أصحاب محمد [(١)] ﷺ ، فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا على أنها فى العشر الأواخر . قال ابن عباس : فقلت لعمر : إنى لأعلم ــ أو: إنى لأظن ــ أى ليلة القدر هى ؟ فقال عمر : أى ليلة هى؟ [فقلت] [(٢)] : سابعة تمضى ــ أو : سابعة تبقى ــ من العشر الأواخر . فقال عمر : ومن أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس : فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، وإن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع . . . لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له . وكان قتادة يَزيد عن ابن عباس فى قوله : ويأكل من سبع ، قال : هو قول الله تعالى : ﴿ **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا [وَقَضْبًا]** [(٣)] ﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨] [(٤)] .

وهذا إسناد جيد قوى ، ونصٌ [(٥)] غريب جداً ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون فى ليلة تسع وعشرين . قال أحمد بن حنبل :

حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا سعيد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن عُمرَ بن عبد الرحمن ، عن عبادة بن الصامت : أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ، فقال رسول الله ﷺ : « فى رمضان ، فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فإنها فى وتْر إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، [أو تسع وعشرين] [(٦)] ، أو فى آخر ليلة» [(٧)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ــ وهو : أبو داود الطيالسى ــ حدثنا عمران القطان، عن قتادة ، عن أبى ميمونة [(٨)]، عن أبى هريرة. أن رسول الله ﷺ قال فى ليلة القدر:«إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى » [(٩)] .

تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

وقيل : إنها تكون فى آخر ليلة ،لما تقدم من هذا الحديث آنفاً [(١٠)]، ولما رواه الترمذى والنسائى، من حديث عُيينة بن عبد الرحمن،عن أبيه ،عن أبى بكرة ،أن رسول الله ﷺ قال:«فى تسع يبقين ، أو سبع يبقين ، أو خمس يبقين ، أو ثلاث ، أو آخر ليلة » . يعنى : التمسوا ليلة القدر [(١١)] .

---

(١) فى أ : « أصحاب رسول الله » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) زيادة من المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٢) .

(٤) المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٢) .

(٥) فى م : « ومتن » .

(٦) زيادة من أ ، والمسند .

(٧) المسند (٥/ ٣٢١) .

(٨) فى أ : « عن أبى معاوية » .

(٩) المسند (٢/ ٥١٩) .

(١٠) فى أ : « أيضاً » .

(١١) سنن الترمذى برقم (٧٩٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٣٤٠٤) .

وقال الترمذى :حسن صحيح . وفى المسند من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ فى ليلة القدر : « إنها آخر ليلة » (١) .

فصل

قال [الإمام] (٢) الشافعى فى هذه الروايات: صدرت من النبى ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : ألتمس ليلة القدر فى الليلة الفلانية ؟ يقول : « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنة : لا تنتقل . نقله الترمذى عنه بمعناه . وروى عن أبى قِلابَة أنه قال : ليلة القدر تنتقل فى العشر الأواخر (٣) .

وهذا الذى حكاه عن أبى قلابة نص عليه مالك ، والثورى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو ثور ، والمزنى ، وأبو بكر بن خُزَيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعى ــ نقله القاضى عنه ، وهو الأشبه ــ والله أعلم .

وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن عُمر : أن رجالاً من أصحاب النبى ﷺ أروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان مُتحريها فَلْيَتَحرها فى السبع الأواخر » (٤) .

وفيها أيضاً عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » (٥) . ولفظه للبخارى .

ويحتج للشافعى أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخارى فى صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فَتَلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فَرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة » (٦) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها فى كل سنة، إذا (٧) لو كانت تنتقل لما علموا تَعيُّنها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع ، وكما جاء فى الحديث : « إن العبد ليُحْرَم الرزقَ بالذَّنْب يُصيبه » .

وقوله : « فرفعت » أى : رفع علم تَعينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله

---

(١) لم أقع عليه فى المسند ، وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٥٧٢) وعزاه لأحمد ، ولعلى أستدركه فيما بعد .

(٢) زيادة من أ .

(٣) سنن الترمذى (٣/ ١٥٩) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٠١٥) وصحيح مسلم برقم (١١٦٥) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠١٧) وصحيح مسلم برقم (١١٦٩) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٣) .

(٧) فى أ : « إذ » .

جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة » .

وقوله : « وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا [١] عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر [٢] أكثر . ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجهُ من بعده . أخرجاه من حديث عائشة [٣] .

ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان [٤] .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر . أخرجاه [٥] .

ولمسلم عنها [٦]: كان رسول الله ﷺ يجتهد فى العشر ما لا يجتهد فى غيره [٧] .

وهذا معنى قولها : « وشد المئزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا سُرَيج ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شَدَّ مئزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد [٨] .

وقد حكى عن مالك ، رحمه الله ، أن جميع ليالى العشر فى تطلب ليلة القدر على السواء ، لا يترجح منها ليلة على أخرى : رأيته فى شرح الرافعى ، رحمه الله .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عنى » ؛ لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ــ هو ابن هارون ــ حدثنا الجريرى [٩] ــ وهو سعيد بن إياس ــ عن عبد الله بن بُريدة ، أن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى » [١٠] .

---

(١) فى أ : « إذا عملوا » .
(٢) فى أ : « الأخير » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٦) وصحيح مسلم برقم (١١٧٢) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٥) وصحيح مسلم برقم (١١٧١) .
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٤) وصحيح مسلم برقم (١١٧٤) .
(٦) فى م : « عنهما » .
(٧) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) .
(٨) المسند (٦/ ٦٦) .
(٩) فى م : « الجوهرى » .
(١٠) المسند (٦/ ١٨٢) .

وقد رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، من طريق كَهْمَس بن الحسن ، عن عبد الله بن بريدة ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمْتُ أى ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : «قولى : اللهم ، إنك عَفُو تحب العفو ، فاعف عنى » (١) .

وهذا لفظ الترمذى ، ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : « هذا صحيح على شرط الشيخين » (٢) . ورواه النسائى أيضاً من طريق سفيان الثورى ، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن سليمان بن بُرَيدة عن عائشة قالت : يا رسول الله ، أرأيتَ إن وافقتُ ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : « قولى : اللهم ، إنك عَفُو تحب العفو ، فاعف عنى » (٣) .

ذكر أثر غريب ونبأ عجيب ، يتعلق بليلة القدر ، رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم ، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد القَطوانى ، حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا موسى بن سعيد ــ يعنى الراسبى ــ عن هلال أبى جبلة ، عن أبى عبد السلام ، عن أبيه ، عن كعب أنه قال : إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة ، مما يلى الجنة ، فهى على حَدّ هواء الدنيا وهواء الآخرة ، عُلوها فى الجنة ، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسى ، فيها ملائكة لا يعلم عدّتهم (٤) إلا الله ، عز وجل ، يعبدون الله ، عز وجل ، على أغصانها فى كل موضع شعرة منها ملك . ومقام جبريل، عليه السلام ، فى وسطها ، فينادى الله جبريل أن ينزل فى كل ليلة قَدْر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى ، وليس فيهم ملك إلا قد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ، فينزلون على(٥) جبريل فى ليلة القدر ، حين تغرب الشمس ، فلا تبقى بقعة فى ليلة القدر إلا وعليها ملك ، إما ساجد وإما قائم، يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة ، أو بيت نار أو وثن ، أو بعض أماكنكم التى تطرحون فيها الخَبَث ، أو بيت فيه سكران ، أو بيت فيه مُسكر ، أو بيت فيه وثن منصوب ، أو بيت فيه جرس مُعَلّق ، أو مبولة ، أو مكان فيه كساحة البيت ، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من المؤمنين (٦) إلا صافحه ، وعلامة ذلك مَن اقشعر جلدهُ ورقّ قلبه ودَمعَت عيناه ، فإن ذلك من مصافحة جبريل .

وذكر كعب أنه من قال فى ليلة القدر : « لا إله إلا الله » ، ثلاث مرات ، غَفَر الله له بواحدة، ونجا من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . فقلنا لكعب الأحبار : يا أبا إسحاق ، صادقاً ؟ فقال كعب (٧) : وهل يقول : « لا إله إلا الله » فى ليلة القدر إلا كل صادق ؟ والذى نفسى بيده ، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق ، حتى كأنها على ظهره جبل ، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر. فأول من يصعد جبريل حتى يكون فى وجه الأفق الأعلى من الشمس،فيبسط جناحيه ــ

(١) سنن الترمذى برقم (٣٥١٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٥٠) .
(٢) المستدرك (١/ ٥٣٠) .
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧١٣) .
(٤) فى م ، أ : « عددهم » . (٥) فى أ : « مع » . (٦) فى أ : « من الناس » .
(٧) فى م : « كعب الأحبار » .

وله جناحان أخضران ، لا ينشرهما إلا فى تلك الساعة ـ فتصير الشمس لا شعاع لها ، ثم يدعو مَلَكاً (١) فيصعد ، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحى جبريل ، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة ، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك ، فى دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، ولمن صام رمضان احتساباً ، ودعا لمن حَدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله . فإذا أمسوا (٢) دخلوا السماء الدنيا ، فيجلسون حلقاً [حلقا] (٣) ، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا ، فيسألونهم عن رجل رجل ، وعن امرأة امرأة (٤) ، فيحدثونهم حتى يقولوا : ماذا فعل فلان ؟ وكيف وجدتموه العامَ ؟ فيقولون : وجدنا فلانا عام أول فى هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعا ، ووجدنا فلانا مبتدعاً ووجدناه العام عابداً قال : فيكفون عن الاستغفار لذلك ، ويقبلون على الاستغفار لهذا ، ويقولون : وجدنا فلانا وفلانا يذكران الله ، ووجدنا فلاناً راكعاً ، وفلاناً ساجداً، ووجدناه تاليا لكتاب الله . قال : فهم كذلك يومهم وليلتهم ، حتى يصعدون إلى السماء الثانية ، ففى كل سماء يوم وليلة ، حتى ينتهوا مكانهم من (٥) سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : يا سكانى ، حدثونى عن الناس وسموهم لى . فإن لى عليكم حقاً ، وإنى أحبُّ من أحبَّ الله . فذكر كعب أنهم يَعدُون لها ، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول : أخبرنى بما أخبرك (٦) سكانك من الملائكة . فتخبرها ، قال : فتقول الجنة: رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، اللهم عجِّلهم إلىَّ ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم ، فيلهمه الله فيقول : وجدت فلاناً ساجداً فاغفر له . فيغفر له ، فيسمعُ جبريلُ جميعَ حملة العرش فيقولون: رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، ومغفرته (٧) لفلان ، ويقول(٨) : يا رب ، وجدت عبدك فلاناً الذى وجدته عام أول على السُنّة والعبادة ، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى عما أمر به . فيقول الله : يا جبريل ، إن تاب فأعتبنى قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له . فيقول جبريل: لك الحمد إلهى ، أنت أرحم من جميع خلقك ، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم ، قال : فيرتج العرش وما حوله ، والحجب والسموات ومن فيهن ، تقول : الحمد لله الرحيم ، الحمد لله الرحيم .

قال : وذكر كعب أنه من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصى الله ، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب .

آخر تفسير سورة « ليلة القدر » [ولله الحمد والمنة] (٩)

---

(١) فى م : « ملكا ملكا » . (٢) فى أ : « فإذا استووا » . (٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « عن رجل عن رجل وعن امرأة عن امرأة » . (٥) فى أ : « فى » .
(٦) فى أ : « بما أخبروك » . (٧) فى م : « ومغفرة » . (٨) فى أ : « ويقولون » .
(٩) زيادة من م .

سورة القَدْر

مختلَف فيها، وهي خمس آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم، وإجلالٌ لمحلّه بإضماره المُؤذِن بغاية نباهته المُغنية عن التصريح به، كأنّه حاضر في جميع الأذهان، وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به، وبتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ لِما فيه مِن الدلالة على أنّ علوّ قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يَدريها ولا يُدرِيها إلّا علّام الغيوب، كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فإنّه بيان إجمالي لشأنها إثر تشويقه عليه السلام إلى درايتها، فإنّ ذلك مُعرِب عن الوعد بإدرائها، وقد مرّ بيان كيفيّة إعراب الجملتين. وفي إظهار ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ في الموضعين مِن تأكيد التفخيم ما لا يخفى.

والمراد بإنزاله فيها إمّا إنزال كلِّه إلى السماء الدنيا، كما رُوي أنّه أنزل جملةً واحدةً في ليلة القدر مِن اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وأملاه جبريلُ عليه السلام على السَّفَرة، ثمّ كان يُنزِّله على النبيّ عليه السلام نجومًا في ثلاث وعشرين سنةً،[١] وإمّا ابتداء إنزاله فيها، كما نُقل عن الشعبي.[٢]

---

[١] بمعناه في المستدرك للحاكم، ٢٤٢/٢ (٢٨٧٨)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٢٣/٣ (٢٠٥٣)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٢/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٤٣/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.

وقيل: المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وفضلها،[١] كما في قول عمرَ رضي الله عنه: «خشيتُ أن ينزل فيّ قرآن»،[٢] وقول عائشةَ رضي الله عنها: «لَأنا أحقرُ في نفسي مِن أن ينزل فيّ قرآن»،[٣] فالأنسبُ أن يُجعل الضمير حينئذ للسورة التي هي جزء مِن القرآن، لا للكلّ.

واختلفوا في وقتها، فأكثرهم على أنّها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر الأقوال أنّها / السابعة منها، ولعلّ السرَّ في إخفائها تعريض [٣١١ظ] مَن يريدها للثواب الكثير بإحياء الليالي الكثيرة رجاءً لموافقتها.[٤]

وتسميتها بذلك إمّا لتقدير الأمور وقضائها فيها لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان، ٤٤/٤]، أو لخَطَرها وشرفها على سائر الليالي.

وتخصيص "الألْف" بالذِّكر إمّا للتكثير، أو لِما رُوي أنّه عليه السلام ذَكَر رجلًا مِن بني إسرائيلَ لبس السلاح في سبيل الله ألفَ شهر، فعجِب المؤمنون منه، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأُعطوا ليلةً هي خير مِن مدّة ذلك الغازي.[٥] وقيل: إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له: "عابد" حتّى يعبد الله تعالى ألفَ شهر، فأُعطوا ليلةً إن أحيَوها كانوا أحقّ بأن يُسمَّوا عابدين مِن أولئك العُبّاد.[٦] وقيل: أُريَ النبيّ عليه السلام أعمارَ الأمم كافّةً فاستقصر أعمار أمّته فخاف أن لا يبلغوا مِن العمل مثلَ ما بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيرًا مِن ألف شهر لسائر الأمم.[٧] وقيل: كان مُلك سليمانَ خمسمائة شهرٍ، ومُلك ذي القرنين خمسمائة شهرٍ، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمَن أدركها خيرًا مِن مُلكهما.[٨]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥٤/٣.
٢ صحيح البخاري، ١٢٦/٥ (٤١٧٧).
٣ صحيح البخاري، ١٧٣/٣ (٢٦٦١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس ومجاهد في تفسير ابن أبي حاتم، ٣٤٥٢/١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٩٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٦ القول في الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٧ ما وجدته في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ٤٢٨/٢٠.
٨ القول عن أبي بكر الورّاق في اللباب لابن عادل، ٤٢٨/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ استئناف مبيّن لمناط فضلها على تلك المدّة المتطاولة. قد سبق في سورة النبأ[1] ما قيل في شأن الروح على التفصيل. وقيل: هم خَلْق مِن الملائكة لا يراهم الملائكة إلّا تلك الليلة،[2] أي: تتنزّل الملائكة والروح في تلك الليلة مِن كلّ سماء إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متعلّق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أو بمحذوف هو حال مِن فاعله، أي: ملتبِسين بإذن ربّهم، أي: بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: مِن أجل كلّ أمر قضاه الله عزّ وجلّ لتلك السنة إلى قابل، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان، ٤٤/٤]. وقُرئ: "مِنْ كُلِّ امْرِئٍ"،[3] أي: مِن أجل كلّ إنسان. قيل: لا يلقَون فيها مؤمنًا ولا مؤمنةً إلّا سلّموا عليه.[4]

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي: ما هي إلّا سلامة، أي: لا يقدِّر الله تعالى فيها إلّا السلامة والخير، وأمّا في غيرها / فيقضي سلامةً وبلاءً، أو ما هي إلّا سلام لكثرة ما [٣١٢و]
يسلِّمون فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: وقت طلوعه. وقُرئ بالكسر[5] على أنّه مصدر كـ"المَرجِع"، أو اسم زمان على غير قياس كـ"المَشرِق". و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلِّقة بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ على أنّها غاية لحُكم التنزّل، أي: لمكثهم في محلّ تنزُّلهم، أو لنفس تنزُّلهم بأن لا ينقطع تنزُّلهم فوجًا بعد فوج إلى طلوع الفجر. وقيل: متعلِّقة بـ﴿سَلَٰمٌ﴾ بناءً على أنّ الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفَر في الجارّ.[6]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القدر أعطي مِن الأجر كمَن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».[7]

---

[1] في الآية الثامنة والثلاثين منها.

[2] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٨٩/٤.

[3] س - أي: مِن أجل كلّ أمر قضاه الله عزّ وجلّ لتلك السنة إلى قابل، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وقُرئ: "مِنْ كلِّ امْرِئٍ". | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة والكلبي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٣٩.

[4] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٠/٤.

[5] قرأ بها الكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

[6] القول في **اللباب** لابن عادل، ٤٣٠/٢٠.

[7] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٧/٣٠ (القدر، ١/٩٧)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٢/٤ (القدر، ١/٩٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٧

سُورَةُ القَدْرِ

مكية أو مدنية، خمسُ أو ستُّ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القُرآنَ جُملة واحِدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿فِي لَيلَةِ القَدْرِ﴾ أي: الشرف والعِظَم، ٢ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلمَكَ يا مُحمّدُ: ﴿ما لَيلَةُ القَدْرِ﴾؟ تعظيمٌ لشأنها وتعجيب منه. ٣ ـ ﴿لَيلَةُ القَدْرِ خَيرٌ مِن ألفِ شَهرٍ﴾ ليس فيها ليلةُ القدر. فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها.

سُورَةُ القَدْرِ

قولُهُ: (أي: القُرآنَ) فخَّمَهُ بإضمارِهِ من غيرِ ذِكرٍ شهادَةً له بالنَّباهَة المغنيَةِ عن التَّصريحِ، كما عظَّمَهُ بأن أسنَدَ إنزالَهُ إليه مع صيغَةِ التَّعظيمِ، وعظَّمَ الوَقتَ الذي أُنزلَ فيه.

قولُهُ: (جُملَةً وَاحِدَةً) أو ابتدأَ إنزالَهُ فيها.

قولُهُ: (إلى سَمَاءِ الدُّنيَا) على السَّفرَةِ، ثمَّ كان جبريلُ يُنزِّلُه مُنجَّماً في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً.

قولُهُ: (الشَّرَفِ والعِظَمِ) أي: تسميتُهُا بذلك لشَرَفِها كقولِهِ تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، أو لتقديرِ الأمورِ لقولِهِ: ﴿فِيهَا يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، وتُسلَّمُ للحفظَةِ ليلَةَ النِّصفِ، أو بالعَكسِ.

قولُهُ: (في أَلفِ شَهرٍ) قيل: ذِكرُ الألفِ للتَّكثيرِ، وقيل: للتَّحديدِ؛ لما رويَ أنَّه عليهِ السَّلام ذكرَ إسرائيليًّا لبِسَ سِلاحاً في سَبيلِ الله ألفَ شَهرٍ فعجِبَ المؤمنونَ وتقاصَرَت إليهم أعمالُهُم فأعطُوا ليلَةً هي خيرٌ من مُدَّةِ ذلك الغازِي[1].

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٣٠/ ١٠٥) (٣٥٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٥٢٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦١) عن مجاهد مرسلاً.

٤ ـ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ـ بحذف إحدى التاءين من الأصل ـ ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي: جبريلُ ﴿فِيهَا﴾: في الليلة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: بأمره ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قضاه الله فيها لتلك السنة إلى قابلٍ. ومِن: سببيّة بمعنى الباء. ٥ ـ ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: خبرٌ مُقدّم ومُبتدأ ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ بفتح اللام وكسرها: إلى وقت طُلوعه. جُعلت سلامًا لكثرة السلام فيها من الملائكة، لا تمرّ بمُؤمن ولا مُؤمنة إلاّ سلّمتْ عليه.

وفيها أقوالٌ كثيرَةٌ تزيدُ على الأربَعينَ، وحاصِلُها أقوالٌ عشرَةٌ: ليالي العَشرِ الأخيرِ، وليلَةُ أوَّلِ الشَّهرِ، ونصفُهُ، والسَّابعَةَ عَشَر، وثلاثٌ يَليهَا، ونصفُ شَعبانَ، وقيلَ: بالإبهامِ، والتَّنَقُّلِ في كلِّ عامٍ في كُلِّ رمضانَ، أو في كُلِّ السَّنَةِ، فهذِهِ عشرُونَ قَولاً[1]، كذا ذُكِرَ في «المبهمات»[2]، والرَّاجِحُ أوتارَ العشرِ الأخيرِ من رَمضانَ، والجمهورُ على أنَّها السَّابعَةُ والعُشرونَ[3].

قولُهُ: (في اللَّيلَةِ) وتنزلُهُم إلى الأرضِ، أو إلى سماءِ الدُّنيا، أو تَقَرُّبُهُم إلى المؤمنينَ.

قولُهُ: (بِمَعنَى البَاءِ) أو التَّقديرُ: من أجلِ كلِّ أمرٍ قدِّرَ.

قولُهُ: (خَبرٌ مُقَدَّمٌ) ولذا قالَ القاضِي[4]: ما هيَ إلا سلامَةٌ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) كسائيٌّ[5].

قولُهُ: (لكَثرَةِ السَّلامِ) أو لأنَّ الله تعالى لا يقدِّرُ فيها إلا السَّلامَةَ، ويقضِي في غيرِها السَّلامَةَ والبَلاءَ، والله أعلمُ.

***

---

(١) كذا في الأصول، وتقدم أنها عشرة أقوال.

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٩).

(٣) انظر تفصيلها والراجح: «فتح الباري» لابن حجر (٤/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٢٧).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٩٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٢٤).

سورة القدر

قال أبو حيَّان: مدنيَّة في قول الأكثر، وحَكى الماورديُّ عكسَه، وذكر الواحديُّ أنَّها أوَّل سورةٍ نزلت بالمدينة(١).

وقال الجلال في «الإتقان»: فيها قولان، والأكثر على أنَّها مكِّيَّة، ويستدلُّ لكونها مدنيَّةً بما أخرجه الترمذيُّ والحاكم عن الحسن بن عليٍّ ﵄، أنَّ النبيَّ ﷺ أُريَ بني أميَّة على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: «إنَّا أعطيناك الكوثر» ونزلت «إنَّا أنزلناه في ليلة القدر» الحديث(٢). وهو كما قال المزنيّ(٣): حديثٌ منكر. انتهى.

وقد أخرجَ الجلالُ هذا الحديث في «الدر المنثور» عن ابن جرير والطبرانيِّ وابن مردويه والبيهقيِّ في «الدلائل» أيضاً من رواية يوسف بن سعد، وذكر فيه أنَّ الترمذيَّ أخرجَهُ وضعَّفه(٤). . . . .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٦، وقول الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١١.

(٢) سنن الترمذي (٣٣٥٠)، ومستدرك الحاكم ٣/ ١٧٠-١٧١.

(٣) كذا في الأصل و(م). والصواب: المزي، كما في الإتقان ١/ ٤١، ونقل قول المزي أيضاً ابن كثير في تفسيره ٨/ ٤٤٢.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٧١، وفيه بدل: يوسف بن سعد: يوسف بن مازن، ومثله في المعجم الكبير (٢٧٥٤)، والدلائل ٦/ ٥٠٩، وهو عند الترمذي من طريق القاسم بن الفضل عن يوسف بن سعد كما عند المصنف، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل، وقد قيل: عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن، والقاسم بن الفضل الحدَّاني هو ثقة، ويوسف بن سعد رجل مجهول، ولا نعرف هذا الحديث على هذا اللفظ: إلا من هذا الوجه.

قال المزي في تهذيب الكمال ٣٢/ ٤٢٧ في ترجمة يوسف بن سعد الجمحي: قال الترمذي: ويقال: يوسف بن مازن، وقال غيره: هما اثنان. اهـ. وانظر ميزان الاعتدال ٥/ ١٩١ (طبعة مؤسسة الرسالة).

=

وأنَّ الخطيبَ أخرجَ عن ابن عباس نحوَه[١]. وكذا عن ابن المسيب بلفظ: قال نبيُّ الله ﷺ: أُرِيتُ بني أميَّة يصعدُون منبري، فشقَّ ذلك عليَّ، فأنزلت: «إنَّا أنزلناه في ليلة القدر»[٢]. ففي قول المزنيّ[٣]: هو منكرٌ، تردُّدٌ عندي[٤].

وأيًّاما كان فقد استُشْكِل وجهُ دلالته على كون السورة مدنيَّةً، وأجيبَ بأنَّه يحتملُ أنْ يكون ذلك لقوله فيه: على منبره، والظاهر أنْ يكون المنبر موجوداً زمنَ الرؤيا، وهو لم يُتَّخذ إلَّا في المدينة.

وآيها ستٌّ في المكّيّ والشاميّ[٥]، وخمسٌ فيما عداهما.

وجاء في حديث أخرجَه محمد بن نصر عن أنس مرفوعاً أنَّها تعدلُ ربع القرآن[٦].

وذكر غيرُ واحدٍ من الشافعية أنَّه يسنُّ قراءتها بعد الوضوء، وقال بعض أئمَّتهم ثلاثاً[٧].

= وقال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٤٤٢ بعد أن ذكر الاختلاف في اسم يوسف بن سعد: وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، والله أعلم، ثم هذا الحديث على كل تقدير مضطرب جداً. اهـ.

(١) تاريخ بغداد ٩/ ٢٠٦ (طبعة دار الغرب الإسلامي). وأخرجه من طريق الخطيب البغداديِّ ابنُ الجوزي في العلل المتناهية (٤٧٣)، وقال: هذا حديث لا يصح. وأعلَّه بأحمد بن محمد بن سعيد، الملقب بابن عقدة، وبأن أكثر رجال إسناده مجاهيل.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٤، وهو من طريق علي بن زيد عن ابن المسيب. وعلي بن زيد ضعيف، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩: فيه ضعف وإرسال.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: المزي، كما أشرنا إليه.

(٤) لعل كلام المصنف هذا لما رآه في الدر المنثور من طرق للحديث، وهي ـ كما رأيت في التعليقات السالفة ـ طرقٌ لا يُفرحُ بها؛ لضعفها ونكارتها. وقال ابن القيم في المنار المنيف ص١١٧: كلُّ حديثٍ في ذمِّ بني أميَّة فهو كذب. اهـ.
ثم إن المصنف سيذكر قريباً ترجيحَه ضعف الخبر.

(٥) جاء في هامش الأصل ما نصه: اختلافها ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الثالث، مكي شامي. اهـ منه.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٣٧٧.

(٧) انظر حاشية الجمل على شرح المنهاج ١/ ١٣٤. واستُدلَّ على ذلك بحديث: «من قرأ في إثر وضوئه «إنا أنزلناه في ليلة القدر» مرَّة واحدة كان من الصديقين، ومن قرأها مرتين كتب =

ووجهُ مناسبتها لما قبلها أنَّها كالتعليل للأمر بقراءة القرآن المتقدِّم فيه، كأنَّه قيل: اقرأ القرآن لأنَّ قدرَه عظيمٌ وشأنه فخيمٌ.

وقال الخطابيُّ: المراد بالكناية[1] في قوله تعالى فيها: «إنَّا أنزلناه» الإشارة إلى قوله تعالى: «اقرأ»، ولذا وضعت بعدُ، وارتضاه القاضي أبو بكر بن العربي، وقال: هذا بديعٌ جدًّا.

والظاهرُ أنَّه أرادَ أنَّ الضميرَ المنصوب في ذاكَ لـ «اقرأ» إلخ، على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى، وكونُه أرادَ أنَّه للمقروء المفهوم من «اقرأ» فيكون في معنى رجوعه للقرآن: خلافُ الظاهر، فلا تغفل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ الضميرُ عند الجمهور للقرآن، وادَّعى الإمام فيه إجماعَ المفسِّرين[2]، وكأنَّه لم يَعتدَّ بقول من قال منهم برجوعه لجبريل عليه السلام أو غيره؛ لضعفه.

قالوا: وفي التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدُّم ذكره تعظيمٌ له، أي: تعظيمٌ لما أنَّه يشعِرُ بأنَّه لعلوِّ شأنه كأنَّه حاضرٌ عند كلِّ أحد، فهو في قوَّة المذكور، وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين، وتأكيدِ الجملة.

وأشار الزمخشريُّ[3] إلى إفادة الجملة اختصاصَ الإنزالِ به سبحانه بناءً على أنَّها من باب: أنا سعيتُ في حاجتك، مِمَّا قُدِّم فيه الفاعلُ المعنويُّ على الفعل.

= في ديوان الشهداء، ومن قرأها ثلاثاً حشره الله محشر الأنبياء». قال الهيتمي في الفتاوى الكبرى الفقهية ١/ ٥٦-٥٧: رواه الديلمي وفي سنده مجهول. وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٥٥: ولا أصل له.

(١) في (م): بالكتابة، وجاء في الإتقان ٢/ ٩٨٩، وتناسق الدرر ص٩٩ (وكلاهما للسيوطي) نقلاً عن الخطابي: بهاء الكناية.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٢٧.

(٣) في الكشاف ٤/ ٢٧٣.

وتُعقِّب بأنَّ ما ذكروه في الضمير المنفصل دون المتَّصل، كما في اسم «إنَّ» هنا. نعم، الاختصاصُ يفهم من سياق الكلام. وفيه أنَّهم لم يُصرِّحُوا باشتراطِ ما ذُكر.

وكذا في تفخيم[1] وقتِ إنزاله بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ لما فيه من الدلالة على أنَّ علوَّها خارجٌ عن دائرة دراية الخلق، لا يَعْلَم ذلك ولا يُعْلِم به إلَّا علَّام الغيوب، كما يشعر به قوله سبحانه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ فإنَّه بيانٌ إجماليٌّ لشأنها إثر تشويقه عليه الصلاة والسلام إلى درايتها، فإنَّ ذلك مُعْرِبٌ عن الوعد بإدرائها، وعن سفيان بن عيينة أنَّ كلَّ ما في القرآن من قوله تعالى: «ما أدراك» أعلمَ الله تعالى به نبيَّه ﷺ، وما فيه من قوله سبحانه: «وما يدريك» لم يعلِمه عز وجلَّ به، وقد مرَّ بيان كيفية إعراب الجملتين.

وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التعظيم والتفخيم ما لا يخفى.

والمراد بإنزاله فيها إنزالُه كلِّه جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فقد صحَّ عن ابن عباس أنَّه قال: أنزل القرآن في ليلة القدر جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله تعالى ينزله على رسوله ﷺ بعضَه في إثر بعض[2].

وفي روايةٍ بدل: وكان بمواقع.. إلخ: ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة[3].

وفي روايةٍ أخرى عنه أيضاً: أنزل القرآن جملةً واحدة، حتى وُضِع في بيت العزَّة في السماء الدنيا، ونزل به جبريلُ عليه السلام على محمدٍ ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم[4].

---

(١) يريد: وكذا التعظيم في تفخيم...

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٢٥)، والطبري ٢٤/ ٥٤٣.

(٣) أخرجه الطبري ٣/ ١٩٠ و٢٤/ ٥٤٢-٥٤٣ بلفظ: وكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣٨٢).

وفي أخرى: أنَّه أنزل في رمضان ليلة القدر جملةً واحدة، ثمَّ أنزلَ على مواقع النجوم رَسَلاً في الشهور والأيام[١].

وكون النزول بعدُ في عشرين سنةً قولٌ لهم، وقال بعضهم ـ وهو الأشهر ـ: في ثلاث وعشرين. وقال آخر: في خمس وعشرين. وهذا للخلافِ في مدة إقامته ﷺ بمكَّة بعد البعث.

وقال الشعبيُّ[٢]: المراد: ابتدأنا بإنزاله فيها. والمشهور أنَّ أوَّلَ ما نزل من الآيات «اقرأ»، وأنَّه كان نزولها بحراء نهاراً.

نعم، في «البحر»: روي أنَّ نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان[٣].

فإنَّ صحَّ، وكان المراد: كان ليلاً، فذاك، وإلَّا فظاهرُ كلام الشعبيِّ غيرُ مستقيم، اللهمَّ إلَّا أن يقال إنَّه أراد ابتداء إنزاله إلى السماء الدنيا فيها، ولا يلزم أن يتحد ذلك وابتداء إنزاله عليه ﷺ في الزمان. ثمَّ إنَّ في «أنزلناه» على ما ذُكِر تجوُّزاً في الإسناد؛ لأنَّه أسندَ فيه ما للجزء إلى الكلِّ، أو مجازاً في الطرف، أو تضميناً.

وقيل: المراد إنزالُه من اللوح إلى السماء الدنيا مفرَّقاً في ليالي قَدْرٍ، على أنَّ المراد بـ «ليلة» الجنس، فقد قيل: إنَّ القرآن أُنزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلةِ قَدْرٍ، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، وكان ينزلُ في كلِّ ليلةٍ ما يقدِّرُ اللهُ تعالى إنزالَه في كلِّ السَّنة، ثم ينزله سبحانَه منجَّماً في جميع السنة.

وهذا القول ذكرهُ الإمام احتمالاً[٤]، ونقله القرطبيُّ[٥] ـ كما قال ابنُ كثير[٦] ـ عن

---

(١) أخرجه الطبري ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٢) جاء فوقها في الأصل: أي: وغيره، كما في البحر. اهـ منه. وهو كذلك في البحر ٨/ ٤٩٦.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩٦.

(٤) تفسير الرازي ٥/ ٩٤.

(٥) في تفسيره ٣/ ١٦١.

(٦) في تفسيره ١/ ٥٠٢.

مقاتل، لكنَّه مِمَّا لا يعوَّل عليه، والصحيحُ المعتمدُ عليه كما قال ابنُ حجر في شرح البخاريِّ أنَّه أنزلَ جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا[١]، بل حكى بعضُهم الإجماعَ عليه.

نعم، لا يَبْعُدُ القول بأنَّ السَّفرةَ هناك نجَّموه لجبريل عليه السلام في الليالي المذكورة، وقد رُوي هذا عن الحبْرِ؛ أخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحَّاك عنه أنَّه قال: نزل القرآن جملةً واحدةً من عند الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمه السفرة على جبريل عليه السلام في عشرين ليلة - أي: من ليالي القدر، كما يدلُّ عليه كلام الجلال[٢] - ونجَّمه جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ[٣].

هذا، واستُشكِل كونُ الضمير للقرآن كلِّه بأنَّ من جملته: «إنا أنزلناه»، فيلزم الإخبارُ عن الشيء بنفسه، لأنَّه قد أخبر بلفظ: «إنا أنزلناه» عن لفظ «إنا أنزلناه»؛ لأنه من القرآن المخبر عنه[٤].

وأجاب السيد عيسى الصفويُّ بأنَّه لا محذورَ في ذلك بناءً على جواز مثل: أتكلم، مخبراً به عن التكلُّم بقولك: أتكلم. وفي ذلك اختلافٌ بين الدوانيِّ وغيره ذكره في رسالته التي ألَّفها في الجواب عن مسألة الجذر الأصمِّ.

أو يقال: يرجعُ الضمير للقرآن باعتبارِ جملته وقطعِ النظر عن أجزائه، فيخبر عن الجملة: بـ «إنَّا أنزلناه»، وإنْ كانَ من جملته: «إنَّا أنزلناه» المندرجُ في جملته من غير نظرٍ[٥] له بخصوصه.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٤.
(٢) في الإتقان ١/ ١٣١-١٣٢.
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الإتقان ١/ ١٣١، وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٠: وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة.
(٤) من قوله: وقد روي هذا عن الحبر... إلى هنا ساقطٌ من (م). وهو في النسخة النعمانية (ب) مضروباً عليه.
(٥) في (م): نظير، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٣٨٢، وعنه نقل المصنف.

وقد ذكروا أنَّ الجزءَ من حيث هو مستقلٌّ مغايرٌ له من حيث هو في ضمن الكلّ.

وفي «الإتقان» عن أبي شامة: فإنْ قلت: «إنَّا أنزلناه» إن لم يكن من جملة القرآن الذي نَزَل جملةً، فما نزل جملةً، وإنْ كان من الجملة، فما وجه هذه العبارة؟

قلت: لها وجهان: أحدهما: أنْ يكون المعنى: إنَّا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينا به وقدَّرناه في الأزل.

والثاني: أنَّ لفظ «أنزلنا»[1] ماضٍ، ومعناه على الاستقبال، أي: ننزله جملةً في ليلة القدر[2]. انتهى.

ولم يظهر لي في كلا وجهيه رحمه الله تعالى شامةُ حسنٍ، فأجِل في ذلك نظراً، فلعلك ترى.

وقيل: المعنى: إنَّا أنزلناه في فضلِ ليلة القدر، أو في شأنها وحقِّها، فالكلام على تقدير مضاف، أو الظرفيةُ مجازيةٌ، كما في قول عمر رضي الله عنه: خشيتُ أن ينزل فيَّ قرآنٌ[3]، وقول عائشة رضي الله عنها: لَأَنَا أحقرُ في نفسي من أن ينزلَ فيَّ قرآن[4]. وجعل بعضُهم «في» في ذلك للسببية. والضمير قيل: للقرآن، بالمعنى الدائر بين الكلِّ والجزء، وقيل: بمعنى السورة، ولا يأباه كونُ «إنَّا أنزلناه» فيها لما مرَّ آنفاً، فلا حاجةَ إلى أن يقال: المرادُ بها ما عدا «إنا أنزلناه في ليلة القدر» وقيل: يجوز أن يراد به المجموع؛ لاشتماله على ذلك.

وأيًّاما كان، فحملُ الآية على هذا المعنى غيرُ معوَّلٍ عليه، وإنَّما المعوَّلُ عليه ما تقدَّم، والمراد بالإنزال إظهارُ القرآن من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو إثباتُه لدى السفرة هناك، أو نحو ذلك مِمَّا لا يُشْكِلُ نسبتُه إلى القرآن.

---

(١) في (م): أنزلناه.

(٢) الإتقان ١/ ١٣٢-١٣٣. وكلام أبي شامة في المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ص٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٧٧).

(٤) قطعة من حديث عائشة الطويل في الإفك، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٦١).

واختلفوا في تلك الليلة، فقيل: إنَّها رُفعت لخبرٍ في ذلك، وهو ـ كما قال الكرمانيُّ ـ غلط؛ لأنَّ آخرَ الخبر يردُّه[1]، والمراد رفع تعيينها فيه.

وعن عكرمة أنَّها ليلةُ النصف من شعبان. وهو قولٌ شاذٌّ غريب، كما في «تحفة المحتاج»، وظاهر ما هنا مع ظاهر قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] يردُّه.

وعن ابن مسعود أنَّها تنتقل[2] في ليالي السنة، فتكون في كلِّ سنةٍ في ليلةٍ، ونسبه النوويُّ[3] إلى أبي حنيفة وصاحبيه.

والأكثرون على أنَّها في شهر رمضان، فعن أبي رزين[4] أنَّها الليلة الأولى منه.

وعن الحسن البصريّ: السابعة عشر؛ لأنَّ وقعةَ بدر كانت في صبيحتها، وحكي عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً.

وعن أنسٍ مرفوعاً: التاسعة عشر[5]، وحُكي موقوفاً على ابن مسعود أيضاً.

وعن محمد بن إسحاق: الحادية والعشرون؛ لما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «قد رأيت هذه الليلة ـ يعني ليلة القدر ـ ثمَّ نُسِّيتُها، وقد رأيتني أسجدُ من صبيحتها في ماء وطين». قال أبو سعيد: فمطرت السماء من تلك الليلة، فوكف المسجد،

---

(١) يشير إلى ما أخرجه البخاري (٤٩) و(٢٠٢٣) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلانٌ وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، التمسوها في السبع والتسع والخمس».

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: وراعى بعضهم هذا فقال: لا يقع طلاقُ مَن علَّق الطلاق بليلة القدر حتى تمضي سنة، والمشهور اعتبار رمضان في ذلك. اهـ منه.

(٣) في شرح مسلم ٨/ ٥٧.

(٤) في الأصل و(م): ابن رزين، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في تفسير البغوي ٤/ ٥١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٣٩٩.

(٥) لم نقف عليه.

فأبصرَتْ عينايَ رسولَ الله وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين(١).

وفي مسلم: «من صبيحة ثلاث وعشرين»(٢).

ومنه مع ما قبله مال الشافعيُّ عليه الرحمة إلى أنَّها الليلة الحادية أو الثالثة والعشرون.

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أنيس أنَّه سُئِل عن ليلة القدر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلةَ» وتلك الليلةُ ليلة ثلاث وعشرين(٣).

وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وغيرهم عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلةُ القدر ليلة أربع وعشرين»(٤).

وفي «الإتقان» وغيره أنَّها الليلةُ التي أنزلَ فيها القرآن(٥).

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي ذرٍّ أنَّه سُئِل عن ليلة القدر، فقال: كان عمر وحذيفة وناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ لا يَشُكُّون أنَّها ليلة سبع وعشرين(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨) و(٢٠٢٧)، وصحيح مسلم (١١٦٧).

(٢) صحيح مسلم (١١٦٨) وهو من حديث عبد الله بن أنيس، وأوله قريب من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) مسند أحمد (١٦٠٤٦)، وسلف في التعليق السابق تخريجه عند مسلم.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨٩٠)، والبزار (١٣٧٦) من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير الصنابحي عن بلال.
قال البزار: ولا نعلم روى الصنابحي عن بلال إلا هذا الحديث، ولا نعلم له طريقاً إلا هذا الطريق. اهـ.
وقال ابن حجر في فتح الباري ٤/ ٢٦٤: وقد أخطأ ابن لهيعة في رفعه فقد رواه عمرو بن الحارث عن يزيد بهذا الإسناد موقوفاً بغير لفظه. اهـ. ولم نقف عليه في سنن أبي داود وتفسير الطبري، ولكن أخرج أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٢٨١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه نحوه.

(٥) الإتقان ١/ ١٣٣.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٣، ٣/ ٧٤.

وأخرج ابن نصر وابن جرير في «تهذيبه» عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا ليلةَ القدر في آخر ليلةٍ من رمضان»(١).

وفي رواية أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنَّها آخر ليلة»(٢).

وقيل: هي في العشر الأوسط، تنتقل فيه، وقيل: في أوتاره، وقيل: في أشفاعه.

وأخرج أحمدُ والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحرَّوا ليلةَ القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان»(٣).

وفي حديث أخرجه أحمد وجماعةٌ عن عبادة بن الصامت مرفوعاً(٤)، وحديثين أخرجهما ابن جرير وغيره عن جابر بن سمرة(٥) وعن عبد الله بن جابر(٦) كذلك ما يدلُّ على ما ذكر أيضاً، بل الأخبارُ الصحيحة الدالَّة عليه كثيرةٌ.

وبالجملة الأقوال فيها مختلفةٌ جدًّا، إلَّا أنَّ الأكثرين على أنَّها في العشر الأواخر لكثرة الأحاديث الصحيحة في ذلك، وأكثرهم على أنَّها في أوتارها لذلك أيضاً، وكثيرٌ منهم ذهب إلى أنَّها الليلة السابعة من تلك الأوتار، وصحَّ من رواية الإمام أحمد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم أنَّ زرَّ بن حُبيش سأل أبيَّ بن كعب عنها، فحلف لا يستثني أنَّها ليلةُ سبع وعشرين، فقال له: بِمَ تقول ذلك يا أبا المنذر، فقال: بالآية والعلامة التي قال رسول الله ﷺ: «إنَّها

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٥. وأخرجه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه (٢١٨٩).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٧٢، ولم نقف عليه في مسند أحمد، بل وقع فيه برقم (٧٩١٧) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «... ويغفر لهم في آخر ليلة» قيل: يا رسول الله، أهي ليلة القدر؟ قال: «لا، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله».

(٣) مسند أحمد (٢٥٦٩٠)، وصحيح البخاري (٢٠١٧)، وصحيح مسلم (١١٦٩)، وسنن الترمذي (٧٩٢).

(٤) مسند أحمد (٢٢٧١٣).

(٥) وأخرجه أحمد (٢٠٨٠٩)، ولفظه: «التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر».

(٦) لم نقف عليه عن عبد الله بن جابر، وأخرجه ابن جرير في تهذيبه، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٢.

تُصبحُ من ذلك اليوم، تطلعُ الشمس ليس لها شعاع»[١].

وبعض الأخبار عن ابن عباس ظاهرةٌ في ذلك، وفي بعضها الاستئناسُ له بما يدلُّ على جلالة شأن السبعةِ التي قالوا فيها أنَّها عددٌ تامٌّ من كون السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والأيام سبعاً، والجمار سبعاً، والطواف بالبيت سبعاً، والسجود على سبع، إلى غير ذلك مِمَّا ذكره واستأنس له أيضاً بأنَّ لفظة «هي» الراجعة لليلة القدر في السورة وقعت سابعة وعشرين من كلماتها التي هي ثلاثون كلمة[٢]، وبأنَّ لفظ ليلة القدر ذكر فيها ثلاث مرات، مع أنَّ الظاهر في الموضعين الأخيرين الضمير، وهو تسعة أحرف، فكان في ذكرها ثلاثاً رمزاً إلى أنَّها السابعة والعشرون.

والذي أميل إليه أنها في العشر الأخير[٣]؛ لما علمتَ من الأخبار الصحيحة المتضافرة، وهو زمانُ ضعف البدن وفيه يزيد أجرُ العمل، ووقتُ قوَّة الاستعداد للتجليات لمزيد التصفية، وأنَّها في الأوتار أرجى للأحاديث أيضاً، مع أنَّ الله تعالى وترٌ يحبُّ الوتر.

وقال ابنُ حجر الهيتميُّ: اختارَ جمعٌ أنها لا تلزم ليلة بعينها من العشر الأواخر، بل تنتقلُ في لياليه، فعاماً أو أعواماً تكون وتراً؛ إحدى أو ثلاثاً أو غيرهما، وعاماً أو أعواماً شفعاً؛ اثنتين أو أربعاً أو غيرهما، قالوا: ولا تجتمع الأحاديثُ المتعارضة فيها إلَّا بذلك، وكلام الشافعيِّ رضي الله عنه في الجمع بين الأحاديث يقتضيه. انتهى.

ولا يخفَى أنَّ الجمع بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها مطلقاً مِمَّا لا يتسنَّى، وإنَّما يتسنَّى الجمعُ بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها بالنظر إلى العشر.

وقيل في الجمع مطلقاً: إنَّها تنتقل، وما صحَّ من التعيين في الجملة أو على التحقيق محمولٌ على ليلة قدر في شهر رمضان مخصوص، بأنْ يكونَ قد علم ﷺ

---

(١) مسند أحمد (٢١١٩٣)، وصحيح مسلم (٧٦٢) ص٨٢٨، وسنن أبي داود (١٣٧٨)، وسنن الترمذي (٣٣٥١)، والسنن الكبرى للنسائي (٣٣٩٢)، وصحيح ابن حبان (٣٦٩٠).

(٢) قال أبو حيان في البحر ٨/٤٩٧: ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس، وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى.

(٣) من قوله: واستأنس له... إلى هنا ساقط من (م)، ومضروب عليه في النسخة النعمانية (ب).

أنَّها في أَوَّلِ شهرِ رمضان فُرِضَ ليلةُ كذا، فقال عليه الصلاة والسلام: هي ليلة كذا، أي: في هذا الشهر رمضانَ المخصوص، وعلم عليه الصلاة والسلام أنَّها في شهر رمضان بعدَه ليلةُ كذا، غير تلك الليلة التي ذكرها قبل، فقال ﷺ: هي ليلة كذا، وعَلم ﷺ أنَّها في آخر في العشر الأخير منه، فقال: هي في العشر الأخير، أي: من هذا الشهر المخصوص، وهكذا. وهو كما ترى.

وعلى القول بانتقالها ادَّعى بعضُهم أنَّه إذا كان أولُ الشهر ليلةَ كذا، فهي الليلة السابعة والعشرون، وإن كانت ليلة كذا، فهي الليلة الحادية والعشرون، إلى آخر ما قال. وقد ذكرناه مع نظمه في «الطراز المذهب»، وليس في ذلك ما يقوم حجَّةً على الغير.

وفي بعض الأخبار ذكرُ علامات لها، ففي حديث الإمام أحمد والبيهقي وغيرهما عن عبادة بن الصامت: «من أماراتها أنها ليلةٌ بَلْجَةٌ صافيةٌ ساكنةٌ، لا حارةٌ ولا باردةٌ، كأنَّ فيها قمراً ساطعاً لا يُرْمَى فيها بنجمٍ حتى الصباح»(١).

وأخرجَ نحواً منه ابنُ جرير في «تهذيبه» وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً(٢).

وحَمْلُ ذلك - إنْ صحَّ - على ليلة قدرٍ من شهر رمضان مخصوصٍ كالمتعيِّن لعدم اطراده ولا أغلبيته(٣) فيما يظهر.

والحكمة في إخفائها أنْ يَجتَهد مَنْ يطلبها في العبادة في غيرها ليصادفها، كأنْ يُحييَ ليالي شهر رمضان كلَّها، كما كان دأبُ السلف، وللإمام في هذا المقام كلامٌ يجلُّ مثله عن التكلُّم بمثله، ولعمري لقد سها فيه سهواً بيِّناً، وأتى فيه بما يوشك أن يدلَّ على جهله(٤).

---

(١) مسند أحمد (٢٢٧٦٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٣٦٩٤).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٧٢.
(٣) بعدها في الأصل: على.
(٤) انظر تفسير الرازي ٣٢/ ٢٨-٢٩، ولعلَّ الكلام المذكور أعلاه ليس من كلام الرازي نفسه، بل من كلام تلميذه شمس الدين أحمد الخويي المتوفى سنة(٦٣٧هـ)، أو من كلام العلامة =

ومعنى ليلة القدر: ليلة التقدير، وسمِّيت بذلك لما رُوي عن ابن عباس وغيره أنَّه يُقَدَّرُ فيها ويُقْضَى ما يكون في تلك السنة من مطرٍ ورزقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ إلى السنة القابلة.

والمراد إظهارُ تقديره تعالى ذلك للملائكة عليهم السلام المأمورين بالحوادث الكونية، وإلَّا فتقديره تعالى جميعَ الأشياء أزليٌّ قبل خلق السماوات والأرض، لكن قال بعض الأجلَّة: كونُ التقدير في هذه الليلة يشكلُ عليه قولُ كثيرٍ: إنه ليلة النصف من شعبان، وهي المراد بالليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وأجاب بأنَّ هاهنا ثلاثة أشياء:

الأوَّل: نفسُ تقدير الأمور، أي: تعيين مقاديرها وأوقاتها، وذلك في الأزل.

والثاني: إظهار تلك المقادير للملائكة عليهم السلام، بأنْ تُكْتَب في اللوح المحفوظ، وذلك في ليلة النصف من شعبان.

والثالث: إثباتُ تلك المقادير في نُسخٍ، وتسليمها إلى أربابها من المدبِّرات، فتدفَعُ نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل عليه السلام، ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل عليه السلام، ونسخةُ الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام، ونسخةُ المصائب إلى ملك الموت، وذلك في ليلة القدر.

وقيل: يقدَّرُ في ليلة النصف الآجال والأرزاق، وفي ليلة القدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة.

وقيل: يقدَّر في هذه ما يتعلَّق به إعزاز الدين، وما فيه النفع العظيم للمسلمين، وفي ليلة النصف يكتبُ أسماء من يموت، ويسلَّم إلى ملك الموت. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

= نجم الدين القمولي المصري المتوفى سنة (٧٢٧هـ)، حيث كتب كلاهما تتمة لتفسير الرازي، ينظر تفصيل المسألة في كتاب «النحو وكتب التفسير» لإبراهيم رفيدة ٢/ ٨٢٧-٨٤٣، حيث جزم بهذه التتمة بما يشبه اليقين.

وقال الزهريُّ: المعنى: ليلة العظمة والشرف، من قولهم: رجلٌ له قَدْرٌ عند فلان، أي: منزلةٌ وشرفٌ، وسمِّيت بذلك لأنَّ من أتى بفعل الطاعات فيها صار ذا قَدْرٍ وشرفٍ عند الله عزَّ وجلَّ، أو لأنَّ الطاعات لها فيها ذلك.

وقيل: لأنَّه نزل فيها كتابٌ ذو قدرٍ، بواسطة مَلَكٍ ذي قَدْر، على رسولٍ ذي قدر، لأمَّةٍ ذات قَدْرٍ.

وقيل: لأنَّه يتنزَّل فيها ملائكةٌ ذوات قدر.

وقال الخليل بن أحمد: المعنى: ليلة الضيق، مِن قَدَر عليه رزقَه: ضيَّقَ، وسُمِّيت بذلك لأنَّ الأرض تضيقُ فيها بالملائكة عليهم السلام.

وخيريَّتُها من ألف شهر باعتبار العبادة عند الأكثرين، على معنى أنَّ العبادةَ فيها خيرٌ من العبادة في ألف شهر، ولا يَعلم مقدار خيريَّتها منها إلَّا هو سبحانه وتعالى، وهذا تفضُّلٌ منه تعالى، وله عزَّ وجلَّ أنْ يَخُصَّ ما شاء بما شاءَ، ورُبَّ عملٍ قليلٍ خيرٌ من عملٍ كثير، ولا ينافي هذا قاعدةَ أنَّ كلَّ ما كَثُر وشقَّ كان أفضل؛ لخبر مسلم أنَّه ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «أجرُك على قَدْرِ نصبك»(١)؛ لأنَّها أغلبيَّةٌ على ما قال غيرُ واحد، ولا شكَّ أنَّ العملَ القليلَ قد يَفضُلُ الكثيرَ باعتبار الزمان، وباعتبار المكان، وباعتبار كيفيَّة الأداء، كصلاة واحدة أُدِّيَت بجماعة، فإنَّها تعدلُ خمساً وعشرين مرةً صلاةً مثلها أُدِّيت على الانفراد، إلى غير ذلك. نعم هذه الأفضليَّة قد تُعقَلُ في بعضٍ، وقد لا، كما فيما نحن فيه، ولا حجر على الله عز وجل، ولا يَعلم ما عنده سبحانه إلَّا هو جلَّ شأنُه.

وتخصيصُ الألْفِ بالذكر، قيل: إمَّا للتكثير، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وكثيراً ما يراد بالأعداد ذلك. وفي «البحر» حكاية أنَّ المعنى عليه: خيرٌ من الدهر كلِّه(٢). أو لِمَا أخرجَ ابنُ المنذر وابن

---

(١) صحيح مسلم (١٢١١): (١٢٦) بنحوه، وأخرجه بنحوه أيضاً البخاري (١٧١٧). وسلف عند تفسير الآية (١٩) من سورة «ص».

(٢) البحر المحيط ٨/٤٩٦.

أبي حاتم والبيهقيُّ في «سننه» عن مجاهد أنَّ النبيَّ ﷺ ذكرَ رجلاً من بني إسرائيل لبسَ السلاح في سبيل الله تعالى ألفَ شهر، فعجبَ المسلمون من ذلك، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأنزل الله تعالى السورة(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليِّ بن عروة قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً أربعةً من بني إسرائيل، عبدوا الله تعالى ثمانينَ عاماً لم يعصوه طرفةَ عينٍ، فذكر أيوبَ، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع بن نون، فعجبَ أصحابُ رسول الله ﷺ من ذلك، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد عَجِبَتْ أمَّتُك من عبادة هؤلاء النفر ثمانينَ سنةً، فقد أنزل الله تعالى عليك خيراً من ذلك، فقرأ عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ إلخ، ثم قال: هذا أفضلُ مما عَجِبْتَ أنتَ وأمَّتُك منه. فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ(٢).

وقيل: إنَّ الرجلَ فيما مضى ما كان يقال له عابدٌ حتَّى يعبدَ الله تعالى ألف شهر، فأُعطوا ليلةً إنْ أحيَوها كانوا أحقَّ بأنْ يسمَّوا عابدين من أولئك العباد.

وقال أبو بكر الوراق: كان مُلْكُ كلٍّ من سليمان وذي القرنين خمس مئة شهر، فجعل الله تعالى العملَ في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّه إن أُريد بذي القرنين الأوَّل، فهو على القول به قد ملكَ أكثرَ من ذلك بكثير، وإن أريد به الثاني، أعني قاتِلَ دارا، فهو قد ملكَ أقلَّ من ذلك بكثير.

وقيل: أُرِيَ ﷺ أعمارَ الأمم كافَّةً، فاستقصرَ أعمار أمَّته، فخاف عليه الصلاة والسلام أنْ لا يبلُغوا من العمل مثلَ ما بلغ غيرُهم في طُوْل العمر، فأعطاه الله تعالى ليلةَ القدر، وجعلَها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم، وذكره الإمام مالك في «الموطأ»(٣).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧١، وأخرجه البيهقي في سننه ٤/ ٣٠٦، وقال: هذا مرسل.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٧١، وأورده ابن كثير في تفسيره ٨/ ٤٤٣ وهو من طريق مسلمة بن عُلَيّ عن علي بن عروة، وهما متروكان كما قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب.

(٣) ١/ ٣٢١. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٧٣: لا أعلم هذا الحديث يروى مسنداً من وجه من الوجوه، ولا أعرفه في غير الموطأ مرسلاً ولا مسنداً، وهذا أحد الأحاديث التي انفرد بها مالك.

وقد سمعتَ ما يدلُّ على أنَّ الألفَ إشارةٌ إلى مُلكِ بني أميَّة، وكان ـ على ما قال القاسم بن الفضل ـ ألف شهرٍ لا يزيدُ يوماً ولا ينقص يوماً، وعلى ما قيل ثمانين سنةً، وهي ألف شهر تقريباً؛ لأنَّها ثلاثةٌ وثمانون سنةً وأربعةُ أشهر، ولا يعكِّر على ذلك مُلكهم في جزيرة الأندلس بعد؛ لأنَّه ملكٌ يسيرٌ في بعض أطراف الأرض، وآخرِ عمارة العرب، ولذا لم يعدّ مَن مَلَك منهم هناك من خلفائهم، وقالوا بانقراضهم بهلاك مروان الحمار.

وطعن القاضي عبد الجبار في كون الآية إشارةً لما ذُكرَ بأنَّ أيام بني أميَّة كانت مذمومةً ـ أي: باعتبار الغالب ـ فيبعدُ أنْ يقال في شأن تلك الليلة: إنَّها خيرٌ من ألف شهر مذمومة:

ألم تر أنَّ السيفَ ينقصُ قدره إذا قيل إنَّ السيفَ خيرٌ من العصا(١)

وأجيبَ بأنَّ تلكَ الأيام كانت عظيمةً بحسب السعادات الدنيويَّة، فلا يَبْعُدُ أن يقول الله تعالى: إنِّي أعطيتك ليلةً هي في السعادات الدينيَّة أفضل من تلك في السعادات الدنيوية(٢).

وقيل: الأمرُ مبنيٌّ على زَعْمِ أنَّ في تلك الأيام خيراً، ومثلُه في القرآن كثير.

وزعم بعضهم أنَّه يُبْعِدُ صحَّةَ الخبر أنَّه تُشعر القصَّةُ عليه بأنَّه ليس لبني أمية من خيريَّةِ ليلة القدر نصيبٌ، وألَّا يجتمع لهم الخيران، فلا تبقى فائدةٌ في التسلية.

والتزامُ أنْ لا نصيب لهم لا يخفى حاله، وفيه نظر، ويترجَّح عندي ضعف ذلك الخبر، وقد سمعت ما قيل فيه(٣).

---

(١) لا يعرف قائله، وسلف ٨/ ٨٨.

(٢) بعدها في (م): فلا تبقى فائدة.

(٣) ومما يرد على هذا المعنى: أنَّ السورة مكيَّةٌ، فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها؟! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة الهجرة، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارته. والله أعلم. قاله ابن كثير في تفسيره ٨/ ٤٤٢، وينظر ما سلف في بداية تفسير هذه السورة.

وذهب المُعْظَم إلى أنَّ المراد: خيرٌ من ألف شهر ليس فيها ليلةُ قدر، حتى لا يلزمَ تفضيلُها على نفسها.

وقيل: إذا كان المراد بذلك المبالغة في تفضيلها على غيرها مطلقاً، لا يحتاج إلى ما ذكر، فتأمَّله.

ثمَّ الظاهرُ أنَّ تلك الشهور غيرُ معينةٍ، بل هي ألف شهرٍ، أيِّ شهر كان. وقال أبو العالية: المراد: خيرٌ من ألف شهر رمضان ليس فيها ليلة القدر. وهو خلافُ الظاهر جداً(١).

واختلف في أنَّ تلك الليلةَ هل تستتبعُ يومَها أم لا؟

فقال الشعبيُّ: نعم، يومُها مثلها. وقيل: لعلَّ الوجه فيه أنَّ ذكرَ الليالي يستتبعُ الأيَّام، ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين لزمتاه بيومَيْهما.

والكثير: لا. لكن قيل: يسنُّ الاجتهادُ في يومها، كما يسنُّ فيها، ولذا جاء في وصفها: «إن الشمسَ تطلع صبيحتَها وليس لها شعاع» كما تقدَّم، أي: لعظم أنوار الملائكة الصاعدين والنازلين فيها، فإنَّه لا فائدةَ فيه سوى معرفة يومها، ولا فائدةَ فيها لو لم يُسنَّ الاجتهاد فيه.

ومنع بأنَّه يجوزُ أنْ تكون الفائدة معرفتها نفسها؛ ليجتَهد فيها مِن قَابِل، بناءً على أنَّها لا تنتقل.

وظاهرُ الآية أنَّها أفضلُ من ليلة الجمعة، والمسألةُ خلافيَّةٌ، وأكثرُ الأئمة على أنَّها أفضل منها للآية، ولأنَّ الله تعالى أنزلَ فيها القرآن، وهو هو، ولم ينزله في غيرها، ولأنَّه سبحانَه أمر بطلبها، فعن ابن عباس أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]: ليلة القدر، ولأنَّه عزَّ وجل جعلَها ليلة الفَرْق والحكم، فقال جلَّ شأنُه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وسَمَّاها جلَّ وعلا ليلةَ القدر، أي: التقدير، ولما رُوي عن كعب أنَّه قال: إنَّ الله تعالى اختارَ

---

(١) من قوله: وقيل: الأمر... إلى هنا ساقط من (م). وضرب عليه في النسخة النعمانية (ب).

الساعات، فاختارَ ساعات أوقات الصلاة، واختار الأيام، فاختار يوم الجمعة، واختار الشهور، فاختار[(١)] رمضان، واختار الليالي، فاختار ليلة القدر، فهي أفضلُ ليلةٍ في أفضل شهر. ولأنَّ النبيَّ ﷺ حثَّ على العمل فيها، فقد صحَّ: «من قام ليلةَ القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[(٢)]. وفي رواية: «وما تأخَّر»[(٣)]. ونهى[(٤)] عليه الصلاة والسلام أنْ يخصَّ ليلة الجمعة بقيامٍ ويومَها بصيام[(٥)]، ولأنَّه سبحانه وتعالى أخفاها ولم يعيِّنها، كما أخفى سبحانه أعظمَ أسمائه عزَّ وجلَّ، وكما أخفى جلَّ شأنُه أفضلَ الصلوات، وهي الصلاة الوسطى، إلى غير ذلك.

وذهب أكثر الحنابلة كأبي الحسن الجزريّ[(٦)] وأبي عبد الله بن بطَّة[(٧)] وأبي حفص البرمكيّ[(٨)] وغيرهم إلى أنَّ ليلة الجمعة أفضل[(٩)]؛ لما أخرجَ مقاتلٌ عن الضحَّاك

---

(١) بعدها في (م): شهر.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجها النسائي في الكبرى (٢٥٢٣). قال ابن عبد البر في التمهيد ٧/ ١٠٥: وزيادة «وما تأخر» زيادة منكرة. وانظر التعليق على الحديث (٧٢٨٠) في مسند أحمد.

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: إن ذلك لئلا يضعف المرء عن صلاة الجمعة، أو يغلبه النوم عنها لسهرة في ليلتها، فلا دلالة فيه على المقصود. اهـ منه.

(٥) أخرجه مسلم (١١٤٣): (١٤٨) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصُّوا يوم الجمعة بصيامٍ من بين الأيام، إلَّا أن يكون في صومٍ يصومه أحدكم».

(٦) بغدادي، له قدم في المناظرة ومعرفةِ الأصول والفروع، تخصص بصحبة أبي علي النجَّاد، وصحب غيره، وله اختيارات. طبقات الحنابلة ٢/ ١٧٦. وقيل: هو عبد العزيز بن أحمد الخرزي (كذا)، المتوفى سنة (٣٩١هـ). انظر تسهيل السابلة ١/ ٤٤٥، وانظر ما علقه المعلمي في تحقيقه لأنساب السمعاني ٥/ ٨٢.

(٧) هو عبيد الله بن محمد العكبري الحنبلي، صاحب كتاب الإبانة الكبرى. توفي سنة(٣٨٧هـ). طبقات الحنابلة ٢/ ١٤٤، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٢٩.

(٨) هو عمر بن أحمد بن إبراهيم البرمكي، من الفقهاء الأعيان النساك. من مصنفاته: المجموع، وشرح بعض مسائل الكوسج، توفي سنة (٣٣٧هـ). مختصر طبقات الحنابلة للنابلسي ص٣٤٩.

(٩) والمعتمد الصحيح من المذهب ـ كما قال المرداوي في الإنصاف ٧/ ٥٥٨ـ أنَّ ليلة القدر أفضل الليالي.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يغفرُ الله تعالى ليلةَ الجمعةِ لأهل الإسلام أجمعين»(١)، وهذه فضيلةٌ لم تجئ لغيرها، ونحوه ما رُوي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ليلة جمعةٍ إلَّا وينظرُ الله تعالى إلى خلقه ثلاث مرات، فيغفر لمن لا يشرك بالله تعالى شيئاً»(٢).

ولأنَّه رَوى ابن بشكوال بسنده إلى عمر ﷺ أنَّه ﷺ قال: «أكثروا الصلاةَ عليَّ في الليلة الغرَّاء واليوم الأزهر»(٣)، ليلة الجمعة ويوم الجمعة، والغُرَّةُ من الشيء خيارُه.

ولأنَّه قد رَوى كثيرون ـ منهم الإمام أحمد ـ أنَّ يومها سيِّدُ الأيَّام وأعظمُها، وأعظمُ عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى(٤).

وصحَّح ابنُ حبان خبر: «لا تطلع الشمسُ ولا تغرب على يومٍ أفضلَ من يوم الجمعة»(٥)، فهي لذلك سيِّدةُ الليالي وأعظمُها وأفضلها.

ولأنَّها معيَّنةٌ مشهودةٌ يشهدها الخاصُّ والعامُّ من ذكرٍ وأنثى، وصغيرٍ وكبيرٍ، وبصيرٍ وضرير، وتصل بركتُها إلى الأحياء والأموات، وليلة القدر غير معيَّنةٍ، فلا ينتفعُ بها إلَّا قليلٌ. إلى غير ذلك.

وأجاب هؤلاء عن الآية بأنَّه لَمَّا أريد فيها أنَّها خيرٌ من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ـ كما قال قتادة وغيره ـ فليُرَدْ أيضاً أنَّها خيرٌ من ألف شهر ليس فيها ليلةُ جمعة، ويدلُّ للأمرين أنَّ أكثر أسباب النزول السابقة تدلُّ على أنَّ المراد بالشهور شهورُ مَن تقدَّمَنا، وهي ليس فيها ليلةُ قَدْرٍ، ولا ليلة جمعة، أي: لم يكونا فيها

---

(١) لم نقف عليه، ومقاتل ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٨٩ وذكر أن ابن بشكوال أخرجه بسند ضعيف. اهـ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٦٩ : فيه عبد المنعم بن بشير الأنصاري، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٤٨) من حديث أبي لبابة البدري مرفوعاً.

(٥) صحيح ابن حبان (٢٧٧٠).

بوصف الفضل المعروف، وهذا معنى كونهما من خصائصنا[1].

وعن سائر[2] المستندات بأنَّ بعضها معارَضٌ، وبعضها لا يدلُّ على أكثر من فضلها، وهو مِمَّا[3] لم ينكره أحدٌ.

والأوَّلون أجابوا عن مستنداتهم بنحو ما أجابوا، وللتعارض قال أحمد بن الحسين بن يعقوب بن قاسم المقري من الحنابلة: إنَّ القولين في المسألة قولان شائعان بين الأصحاب، ولكلٍّ دلائلُ تدلُّ على صوابيته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يُطلق الخطأ على قائل كلٍّ منهما.

وأنت بعد التأمُّل في أدلَّة الطرفين، والوقوف على أحوالها يتعيَّنُ عندك أفضليَّةُ ليلة القدر تعيُّنَ ليلة الجمعة.

وهاهنا قولٌ متوسِّطٌ بين القولين، حكى القاضي أبو يعلى أنَّ أبا الحسن التميميَّ[4] من الحنابلة أيضاً كان يقول: ليلةُ القدر التي أنزل فيها القرآن أفضلُ من ليلة الجمعة؛ لما حصل فيها من الخير الكثير الذي لم يحصل في غيرها، فأمَّا أمثالُها من ليالي القدر فليلةُ الجمعة أفضل منها.

وقيل نظيره في ليلة المعراج مع ليلة الجمعة ونحوها.

ثم إنَّ ظاهر كلام بعض الحنفيَّة كصاحب «الجوهرة» أنَّ ليلة النحر أفضلُ من ليلة القدر وسائرِ ليالي السنة. ويرِدُ عليه ظاهر الآية أيضاً، ولعله يجيبُ بنحو ما سبق آنفاً.

ونقل الطحطاويُّ عليه الرحمة في «حواشي الدرِّ المختار» عن بعض الشافعية أنَّ أفضل الليالي ليلةُ مولده عليه الصلاة والسلام، ثمَّ ليلة القدر، ثمَّ ليلةُ الإسراء

---

(١) من قوله: أي: لم يكونا... إلى هنا ليس في (م)، وضرب عليها في النسخة النعمانية (ب).

(٢) معطوف على قوله: وأجاب هؤلاء....

(٣) في (م): ما.

(٤) هو عبد العزيز بن الحارث بن أسد، صاحب تصانيف في الأصول والفروع والفرائض. توفي سنة (٣٧١هـ). طبقات الحنابلة ٢/ ١٣٩.

والمعراج، ثمَّ ليلة عرفة، ثمَّ ليلة الجمعة، ثمَّ ليلة النصف من شعبان، ثمَّ ليلة العيد[١].

وأنا لا أرى أنَّ له ما يعوِّل عليه في ذلك. والله تعالى أعلم.

وما أشير إليه من كونها من خصائص هذه الأمة هو الذي يقتضيه أكثرُ الأخبار الواردة في سبب النزول، وصرح به الهيتميُّ[٢] وغيره، وقال القسطلانيُّ: إنه معترَضٌ بحديث أبي ذرٍّ عند النسائي، حيث قال فيه: يا رسول الله، أتكون مع الأنبياء، فإذا ماتوا رُفِعَت. قال: «بل هي باقية»[٣]، ثمَّ ذكر أنَّ عمدةَ القائلين بذلك الخبرُ الذي قدَّمناه في سبب النزول من رؤيته ﷺ تقاصُرَ أعمار أمَّته عن أعمار الأمم، وتعقَّبه بقوله: هذا محتمِلٌ للتأويل، فلا يَدْفَعُ الصريحَ في حديث أبي ذرٍّ، كما قاله الحافظان ابنُ كثير في «تفسيره» وابن حجر في «فتح الباري». انتهى[٤].

والحقُّ الأوَّل، والصراحة في حيِّز المنع، وقد أخرجَ الديلميُّ عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى وهبَ لأمَّتي ليلةَ القدر، ولم يعطها من كان قبلَهم»[٥]. فتأمَّل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لمناط فضلها على تلك المدَّة المديدة، فضميرُ «فيها» لـ «ليلة»، وزعم بعضهم أنَّ الجملةَ صفةٌ لـ «ألف شهر»، والضمير لها. وليس بشيء.

وجوَّزَ بعضُهم كونَ الضمير للملائكة، على أنَّ «الروحَ» مبتدأ، لا معطوفٌ على

(١) حاشية الطحطاوي ١/ ٥٠٥.

(٢) المنهاج القويم ص٣٨٤.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٣٤١٣)، وهو عند أحمد (٢١٤٩٩).

(٤) المواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٨/ ١٣٩. وانظر تفسير ابن كثير ٨/ ٤٤٥-٤٤٦، وفتح الباري ٤/ ٢٦٣.

(٥) الفردوس ١/ ١٧٣. ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير. قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٦٩: وفيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي، قال الذهبي في الضعفاء عن الدارقطني: ممن يضع الحديث.

«الملائكة»، و«فيها» خبره، و«فيها» خبره، لا متعلِّق بـ «تَنَزَّلُ»، والجملة حالٌ من «الملائكة». وهو خلاف الظاهر.

و«الروح» عند الجمهور هو جبريل عليه السلام، وخُصَّ بالذكر؛ لزيادة شرفه، مع أنَّه النازل بالذكر.

وقيل: مَلَكٌ عظيمٌ، لو التقمَ السماوات والأرض كان ذلك له لقمةً واحدةً. وذكر في «التيسير» من وصفه ما يُبهر العقول، والله تعالى أعلم بصحة الخبر.

وقال كعب ومقاتلٌ: الروحُ طائفةٌ من الملائكة، لا تراهم الملائكة إلَّا تلك الليلة، كالزُّهاد الذين لا نراهم إلَّا يوم العيد أو الجمعة.

وقيل: حفظة على الملائكة، كالملائكة الحفظة علينا.

وقيل: خلقٌ من خلق الله تعالى يأكلون ويلبسون، ليسوا من الملائكة ولا من الإنس ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ولعلَّهم ـ على ما قيل ـ خدمُ أهل الجنة.

وقيل: هو عيسى عليه السلام، ينزلُ لمطالعة هذه الأُمَّة، وليزورَ النبيَّ ﷺ.

وقيل: أرواحُ المؤمنين، ينزلون لزيارة أهليهم.

وقيل: الرحمة، كما قرئ: «لا تيأسوا من رُوْح الله» [يوسف: ٨٧] بالضمِّ[1].

وعلى الأول المعوَّل.

والظاهرُ الذي تشهدُ له الأخبار أنَّ التنزُّل إلى الأرض، فقيل: إنَّ ذلك لِمَا ذكر الله تعالى بعدُ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه.

وقيل: ينزلون إليها للتسليم على المؤمنين.

وقيل: لأنَّ الله تعالى جعلَ فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض، فهم ينزلون إليها لتصير طاعاتهم أكثر ثواباً، كما أنَّ الرجلَ منَّا يذهبُ

---

(١) هي قراءة عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة كما سلف ٤٦٩/١٢.

إلى مكَّة لتصير طاعتُه كذلك، فيكون المقصود من الإخبار بذلك ترغيبَ الإنسان في الطاعة.

وقال عصام الدين: يحتملُ أن يكون تنزُّلهم لإدراكها، إذ ليس في السماء ليلٌ، والجملة حينئذٍ مقرِّرةٌ لما سبق، لا مبيِّنةٌ لمناط الفضل. وفيه نظرٌ لا يخفى.

وقيل غيرُ ذلك ممَّا سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى.

وقيل: المرادُ تنزُّلُهم إلى السماء الدنيا. وهو خلاف المتبادر، وأنْزَلُ منه بكثيرٍ كونُ المراد بتنزُّلهم تنزُّلهم عن مراتبهم العليَّةِ من الاشتغال بالله تعالى والاستغراقِ بمطالعة جلاله عزَّ وجلَّ ليسلِّموا على المؤمنين.

واستُظهر أنَّ المرادَ بالملائكة عليهم السلام جميعُهم، واستُشكِل بأنَّ لهم كثرةً عظيمةً لا تتحمَّلُها الأرض وكذا السماء الدنيا؛ لأنَّها قبلَ نزولهم مملوءةٌ؛ «أطَّتِ السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضعُ قدمٍ إلَّا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ أو راكعٌ أو قائم»(١).

وأجيبَ بأنَّهم ينزلون فوجاً فوجاً، فمِن نازلٍ وصاعد، كالحُجَّاج، فإنَّهم على كثرتهم يدخلون الكعبةَ مثلاً بأسرهم، لكنْ لا على وجه الاجتماع، بل هم بين داخلٍ وخارج، وفي التعبير بـ «تنزَّل» المفيد للتدريج دون: تَنْزِل، رمزٌ إليه.

وقيل: إنَّهم لكونهم أنواراً لا تزاحُمَ بينهم، فالنورُ إذا ملأ حجرةً ـ مثلاً ـ لا يمنع من إدخال ألف نورٍ عليه. وهو كما ترى.

ومن الناس مَن خَصَّ الملائكة ببعض فرقهم، وهم سكانُ سدرة المنتهى، أو بعضٍ منهم، وفي «الغنية» للقطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلانيّ قُدِّس سره: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا كان ليلة القدر، يأمر الله تعالى جبريلَ عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى، سبعون ألف ملك، ومعهم ألويةٌ من نور، فإذا هبطوا إلى الأرض رَكز جبريل عليه السَّلام لواءَه والملائكةُ عليهم السلام

(١) سلف ٢/ ٨٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ألويتَهم في أربعة مواطن، عند الكعبة، وقبر النبيِّ ﷺ، ومسجد بيت المقدس، ومسجد طور سيناء، ثم يقول جبريل عليه السلام: تفرَّقوا، فيتفرَّقون، ولا يبقى دارٌ ولا حجرٌ ولا بيتٌ ولا سفينةٌ فيها مؤمنٌ أو مؤمنةٌ إلَّا دخلته الملائكة عليهم السلام، إلَّا بيتاً فيه كلبٌ، أو خنزيرٌ، أو خمرٌ، أو جُنُبٌ من حرام، أو صورةُ تماثيل، فيسبِّحون، ويقدِّسون، ويهلِّلون، ويستغفرون لأمَّة محمدٍ ﷺ، حتى إذا كان وقت الفجر، ثمَّ يصعدون إلى السماء، فيستقبلهم سكان السماء الدنيا، فيقولون لهم: من أين أقبلتم؟ فيقولون: كنَّا في الدنيا؛ لأنَّ الليلةَ ليلةُ القدر لأمَّةِ محمَّد ﷺ، فيقول سكان السماء الدنيا: ما فعلَ الله تعالى بحوائج أمَّة محمدٍ ﷺ؟ فيقول جبريل عليه السلام: إنَّ اللهَ تعالى غفرَ لصالحهم، وشفَّعهم في طالحهم، فترفعُ ملائكة السماء الدنيا أصواتَهم بالتسبيح والتقديس والثناء على ربِّ العالمين؛ شكراً لما أعطى الله تعالى هذه الأمَّة من المغفرة والرضوان، ثم تشيِّعهم ملائكةُ السماء الدنيا إلى الثانية كذلك، وهكذا إلى السابعة، ثمَّ يقول جبريل عليه السلام: يا سكان السماوات، ارجعوا. فيَرجعُ ملائكةُ كلِّ سماءٍ إلى مواضعهم، فإذا وصلُوا إلى سدرة المنتهى، يقول لهم سكانها: أين كنتم؟ فيجيبونهم مثل ما أجابوا أهل السماوات، فيَرفعُ سكانُ سدرة المنتهى أصواتهم بالتسبيح والتهليل والثناء، فتسمعُ جنَّة المأوى، ثمَّ جنَّة النعيم، وجنَّة عدن، والفردوس، ويسمعُ عرش الرحمن، فيَرفعُ العرشُ صوتَه بالتسبيح والتهليل والثناء على ربِّ العالمين؛ شكراً لما أعطى هذه الأمَّة، ويقول: إلهي، بَلَغني عنك أنَّك غفرتَ البارحةَ لصالحي أمَّة محمدٍ ﷺ، وشفَّعتَ صالحها في طالحها، فيقول الله عز وجل: صدقتَ يا عرشي، ولِأُمَّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام عندي من الكرامة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر(١).

وفي رواية عن كعب: نزولُ جميعِ ملائكة سدرة المنتهى مع جبريل عليهم السلام، ولا يعلم عددهم إلَّا الله تعالى، وإنَّ جبريلَ عليه السلام لا يدعُ أحداً من الناس إلَّا صافحه.

---

(١) الغنية ٢/ ١٤.

وفي رواية: لا يدع مؤمناً ولا مؤمنةً إلَّا سلَّم عليه إلَّا مدمن الخمر، وآكل لحم الخنزير، والمتضمِّخُ بالزعفران، وإنَّ علامةَ مصافحته عليه السلام اقشعرارُ الجلد، ورقَّة القلب، ودمع العينين.

ورُوي في نزوله مع الملائكة عليهم السلام وعروجِه معهم غيرُ ذلك، وقد ذكَرَ بعضاً من ذلك الإمام[1] وغيره، ونسأل الله تعالى صحَّة الأخبار.

وذكر بعضهم أنَّ جبريل عليه السلام يقسمُ تلك الليلة ما ينزلُ من رحمة الله تعالى، حتى يستغرقَ أحياء المؤمنين، فيقول: يا ربِّ، بقي من الرحمة كثير، فما أصنع به؟ فيقول الله عزَّ وجلَّ: قسِّم على أموات أمَّة محمد ﷺ، فيقسم حتى يستغرقهم، فيقول: يا رب، بقي من الرحمة كثير، فما أصنعُ به؟ فيقول سبحانه وتعالى: قسِّمْه على الكفار، فيقسمه عليهم، فمن أصابه منهم شيءٌ من تلك الرحمة ماتَ على الإيمان.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ متعلِّق بـ «تَنَزَّلُ»، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعله، أي: مُلْتَبِسين بإذن ربِّهم، أي: بأمره عزَّ وجلَّ. والتقييد بذلك لتعظيم أمر تنزُّلهم، وقيل: للإشارة إلى أنَّهم يرغبون في أهل الأرض من المؤمنين، ويشتاقون إليهم، فيستأذنون فيؤذنُ لهم. وفيه نوعُ ترغيبٍ في الاجتهاد في الطاعة.

واستشكل أمرُ هذه الرغبة مع كثرة المعاصي.

وأجيبَ بأنَّهم غير واقفين على تفاصيلها، أو لم يعتبروها مانعةً من ذلك؛ لأنَّهم يرون من أنواع الطاعات ما لا يرونه في السماء، أو ليسمعوا أنينَ العصاة التائبين، ففي الحديث القدسيِّ: «لأنينُ المذنبين أحبُّ إليَّ من زجلِ المسبِّحين»[2]، أو ليجتمعوا مع مَن بينه وبينهم مناسبةٌ من الصديقين؛ أداءً لمراسم المحبة، فإنَّ أرواحَ

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٣٣-٣٤.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥١) عن أبي علي صاحب عبيد الله الحبلي يقول: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: أنين المذنبين أحبُّ إليَّ من صراخ الصديقين. وأورده العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣٠٥ وقال بعده: لينظر.

الصديقين المتجرِّدةَ عن جلابيب الأبدان لم تَزَلْ تزور الملائكة عليهم السلام في مواضعهم بعروجها إليهم، فناسبَ أن تزورَهم الملائكةُ عليهم السلام في زواياهم، وإن اقتضى ذلك الاجتماعَ مع غيرهم ممَّن ليسوا كذلك، فإنَّه أمرٌ تبعيٌّ:

ولِأَجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تكرَمُ[1]

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: من أجل كلِّ أمرٍ تعلَّق به التقدير في تلك السنة إلى قابل، وأظهرَه سبحانه وتعالى لهم، قاله غيرُ واحد، فـ «من» بمعنى اللام التعليليَّة متعلِّقةٌ بـ «تنزَّل».

قال عصام الدين: فإن قلت: المقدَّراتُ لا تُفْعلُ في تلك الليلة، بل في تمام السنة، فلماذا تنزلُ الملائكة عليهم السلام فيها لأجل تلك الأمور.

قلت: لعلَّ تنزُّلهم لتعيين إنفاذ تلك الأمور لهم، وتنزُّلهم لأجل كلِّ أمرٍ ليس على معنى تنزُّلِ كلِّ واحدٍ لأجل كلِّ أمرٍ، ولا تنزُّلِ كلِّ واحدٍ لأمر، بل على معنى تنزُّل الجميع لأجل جميع الأمور، حتى يكون في الكلام تقسيمُ العلل على المعلولات. انتهى.

وأقول: يمكنُ أن يكون تنزُّلهم لإعداد القوابل لقَبول ما أمروا به، وأشار بما ذكره من التقسيم إلى أنَّه يجوزُ أن يكونَ نزولُ الواحد منهم لعدَّة أمور.

وقولهم: من أجل كلِّ أمرٍ تعلَّق.. إلخ، قد تقدَّم ما فيه من البحث فتذكَّر.

وقال أبو حاتم: «من» بمعنى الباء، أي: تَنَزَّلُ بكلِّ أمر، فقيل: أي: من الخير والبركة، وقيل: من الخير والشرِّ، وجُعِلت الباءُ عليه للسببيَّة، فيرجع المعنى إلى نحو ما مرَّ، ومنهم من جعلَها للملابسة، والمراد بملابستهم له ملابستهم للأمر به، فكأنَّه قيل: تنزَّل الملائكةُ وهم مأمورون بكلِّ أمرٍ يكون في السنة، وكونُهم يتنزَّلون وهم كذلك لا يستدعي فعلَهم جميعَ ما أُمروا به في تلك الليلة.

والظاهرُ ـ على ما قالوا ـ أنَّ المراد بالملائكة المدبِّرات، إذ غيرُهم لا تعلُّق له

---

(١) هو للشاب الظريف، وسلف بتمامه ١/ ٢٧٧.

في الأمور التي تعلَّق بها التقدير ليتنزَّلوا لأجلها على المعنى السابق، وهو خلاف ما تدلُّ عليه الآثار من عدم اختصاصهم بالمدبِّرات، فتدبَّر. وكأنَّه لذلك قيل: إنَّ «من كلِّ أمر» متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ وهو مصدرٌ بمعنى السلامة، خبرٌ مقدَّمٌ، وقوله تعالى: ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، أي: هي سلامٌ من كلِّ أمرٍ مخوف، وتعلُّقُه بذلك على التوسُّع في الظرف، وإلَّا فمعمول المصدر لا يتقدَّم عليه في المشهور.

وقيل: هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ مقدَّمٍ يفسِّره المذكور، ومَن وقف على كلام العلامة التفتازانيِّ في أوائل «شرح التلخيص» في مثل ذلك استغنى عما ذُكر.

وقيل: «من كلِّ أمر» متعلِّقٌ بـ «تَنَزَّلُ»، لكن على معنى: تنزل إلى الأرض منفصلةً من كلِّ أمرٍ لها في السماء، وتاركةً له. وفيه إشارةٌ إلى مزيد الاهتمام بالتنزُّل إلى الأرض، وفيه من البُعد ما فيه.

وتقديمُ الخبر للحصر، كما في: تميميٌّ أنا، والإخبار بالمصدر للمبالغة، أي: ما هي إلَّا سالمةٌ جدًّا، حتَّى كأنَّها عينُ السلامة.

قال الضَّحَّاك في معنى ذلك: إنَّه تعالى لا يُقَدِّر ولا يقضي فيها إلَّا السلامة. قيل: أي: لا يَنفذُ تقديره تعالى ويَتعلَّق قضاؤه إلَّا بذلك[(١)]. وحاصله: لا يوجد إلَّا ذلك.

وقال مجاهد: إنَّها سالمةٌ من الشيطان وأذاه، وروي أنَّ الشيطان لا يخرجُ في ليلة القدر حتى يضيء فجرُها[(٢)]، ولا يستطيع أنْ يصيبَ فيها أحداً بخبلٍ أو داءٍ أو ضربٍ من ضروب الفساد، ولا يَنفذُ فيها سحرُ ساحرٍ.

ولعلَّ ما يصدرُ من المعاصي ـ على هذا ـ من النفس الأمَّارة بالسوء، لا بواسطة الشيطان.

واستشكل كلامُ الضَّحَّاك ـ بناءً على ما قيل فيه ـ بأنَّه لا تَخلو ليلةٌ من الشرِّ

---

(١) بعدها في الأصل: هو.

(٢) قوله: أن الشيطان لا يخرج... إلى هذا الموضع أخرجه ابن خزيمة (٢١٩٠)، وابن حبان (٣٦٨٨) من حديث جابر ﷺ.

والأمر المَخُوف، ولا مُوْجِدَ إلَّا الله عزَّ وجلَّ، فلعلَّه أرادَ ما تقدَّم نقلُه غيرَ بعيدٍ من أنَّ الله تعالى إنَّما يقدِّرُ في هذه الليلة السلامةَ والخير، أي: لا يُظهِر سبحانَه للملائكة عليهم السلام إلَّا تقديره عزَّ وجلَّ ذلك.

وقيل: ما هي إلَّا سلامةٌ، على نحو: ما رسولُ الله ﷺ إلَّا رحمة، والمراد أنَّها سببٌ تامٌّ للسلامة والنجاة من المهالك يومَ القيامة، حيث إنَّ مَن قامها إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه.

وقيل: السلام مصدرٌ بمعنى التسليم، أي: ما هي إلَّا تسليمٌ؛ لكثرة التسليم والمسلِّمين من الملائكة على المؤمنين فيها، وروي ذلك عن الشعبيِّ ومنصور. وجَعْلُها عينَ التسليم للمبالغة أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ غايةٌ تبيِّنُ تعميمَ السلامة أو التسليم كلَّ الليل(١)، فالجارُّ متعلِّقٌ بـ «سلامٌ»، و«مطلع» اسم زمان، وقد صرَّحوا أنَّه مِن يَفْعُلُ، ويَفْعِل بفتح العين وضمِّها، على مفعَل مفتوح العين. وجُوِّزَ كونُه مصدراً ميميًّا، بمعنى الطلوع، ويحتاج إلى تقدير مضافٍ قبلَه هو: وقت، أو ما في معناه؛ لتتَّحِد الغايةُ والمغيَّا، فيكونان من جنسٍ واحد.

وصَحَّ تعلُّق الجارِّ بذلك مع الفصل؛ لأنَّه ليس بمصدرٍ نظراً للحقيقة.

وأفاد الطبرسيُّ وغيره أنَّه لابدَّ من تأويله بـ : سالمة، أو: مسلِّمة؛ ليصحَّ التعلُّق، أمَّا لو أبقي على مصدريَّته، فلا يصحُّ؛ للزوم الفصل بين الصلة والموصول(٢).

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الفصلَ بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفرٌ.

وجُوِّز أن تتعلَّق الغايةُ بـ «تَنَزَّل»، على معنى أنَّه لا ينقطعُ تنزُّلهم فوجاً بعد فوج إلى وقت طلوع الفجر.

---

(١) في (م): الليلة.
(٢) مجمع البيان ٣٠/ ١٩١.

وتُعقِّبَ بأنَّه تعسُّفٌ؛ لأنَّ «سلامٌ هي» أجنبيٌّ وليس باعتراض، فلا يحسن الفصلُ به. وجعلُه حالاً عن[1] الضمير المجرور في قوله تعالى: «فيها»، أي: ذات سلامة، أو سلام، لا يخفى حاله.

وقيل: يجوزُ أنْ يكون الوقف على «سلام»، وهو خبرٌ لمحذوف، و«من كلِّ أمر» متعلِّقٌ به، و«هي» مبتدأ، و«حتى مطلع الفجر» خبره.

ولم يجوِّز ذلك الطيبيُّ والطبرسيُّ وغيرهما؛ قالوا: لعدم الفائدة بالإخبار عنها بأنَّها حتى مطلع الفجر، إذ كلُّ ليلةٍ بهذه الصفة[2].

وأجيب بأنَّه لمَّا أَخبرَ عنها بأنَّها خيرٌ من ألف شهر، وفَهِّم أنَّها مخالفةٌ لسائر الليالي في الصفة، وكان ذلك مظنَّةَ توهُّم أنَّ ذاتَها في المقدار مغايرةٌ لذوات الليالي فيه أيضاً، دفعَ ذلك بقوله تعالى: ﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: لم تخالف سائرَ الليالي في ذلك، وإنْ خالفَتْهَا في الفضل والخيريَّة.

وقرأ ابن عباس وعكرمة والكلبيُّ: «من كلِّ امرئ» بهمزٍ في آخره[3]، أي: تنزَّلُ من أجل كلِّ إنسانٍ، أي: من أجل ما يتعلَّق به ممَّا قُدِّر في تلك الليلة، ويرجعُ إلى نحو ما تقدَّم، أو من أجل مصلحته من الاستغفار له ونحوه، على أنَّ المرادَ بذلك كلُّ امرئ مؤمنٍ، على ما قيل.

وقيل: الجارُّ متعلِّقٌ بـ «سلام»، والمراد بـ «كلِّ امرئٍ» الملائكةُ عليهم السلام، أي: سلامٌ وتحيَّةٌ هي على المؤمنين من كلِّ مَلَك.

وأنكر ـ كما قال ابن جنِّي ـ هذه القراءةَ أبو حاتم[4].

وقرأ أبو رجاء والأعمش وابن وثَّاب وطلحة وابن محيصن والكسائيُّ،

---

(١) في (م): من.
(٢) مجمع البيان ٣٠/ ١٩٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٧٦، والمحتسب ٢/ ٣٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٧.
(٤) المحتسب ٢/ ٣٦٨.

وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «مَطْلِع» بكسر اللام[١]، على أنَّه مصدرٌ، كالمرجِع، ويقدَّر مضافٌ كما سمعتَ، أو اسمُ زمانٍ على غير قياس، كالمشرِق، فإنَّ مفعِلاً بالكسر قياس يَفْعِلُ مكسور العين.

وفي «البحر»: قيل: مطلَع ومطلِع بالفتح والكسر مصدران في لغة تميم، وقيل: المصدر بالفتح، وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز[٢]. انتهى. وإرادة الموضع هاهنا لا موضعَ لها كما لا يخفى هذا.

واعلم أنَّه يُسَنُّ الدعاء في هذه الليلة المباركة، وهي أحدُ أوقات الإجابة، وأخرج الإمام أحمد، والترمذيُّ وصححه، والنسائيُّ، وابن ماجه وغيرهم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: إنْ وافقتُ ليلةَ القدر، فما أقول؟ قال: «قولي: اللهمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني»[٣].

ويجتهد فيها بأنواع العبادات من صلاة وغيرها.

وقال سفيان الثوريُّ: الدعاء في تلك الليلة أحبُّ من الصلاة، ثم أفاد أنَّه إذا قرأ ودعا كان حسناً، وكان ﷺ يجتهدُ في ليالي شهر رمضان، ويقرأ فيها قراءةً مرتَّلةً، لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلَّا سأل، ولا بآية عذابٍ إلَّا تعوَّذ[٤].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧، وقراءة الكسائي في التيسير ص٢٢٤، والنشر ٢/ ٤٠٣، وهي قراءة خلف من العشرة. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.

(٣) مسند أحمد (٢٥٣٨٤)، وسنن الترمذي (٣٥١٣)، والسنن الكبرى للنسائي (٧٦٦٥)، وسنن ابن ماجه (٣٨٥٠).

(٤) أخرج الإمام مسلم في صحيحه (٧٧٢) من حديث حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة... يقرأ مترسِّلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ.

وأخرجه أبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢) و(٢٦٣)، والنسائي ٢/ ١٧٦-١٧٧، وابن ماجه (١٣٥١)، وأحمد (٢٣٢٤٠) بنحوه.

وليس فيها تعيين أن تدبُّرَ النبيِّ كان في ليالي رمضان، بل هو شأن النبي ﷺ في جميع لياليه.

وذكر ابن رجب[١] أنَّ الأكملَ الجمعُ بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكُّر. وقد كان عليه الصلاة والسلام يفعلُ ذلك كلَّه لاسيما في العشر الأواخر.

ويحصلُ قيامها ـ على ما قال البعض ـ بصلاة التراويح، وأخرج البيهقيُّ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى المغربَ والعشاءَ في جماعةٍ حتَّى ينقضي شهرُ رمضان، فقد أصاب من ليلة القدر بحظٍّ وافر»[٢].

وأخرج مالك وابن أبي شيبة وابن زنجويه والبيهقيُّ عن سعيد بن المسيب قال: من شهدَ العشاء ليلة القدر في جماعةٍ، فقد أخذَ بحظِّه منها[٣].

وفي «تحفة المحتاج» لابن حجر الهيتميِّ عليه الرحمة: يسنُّ لرائيها كتمُها، ولا ينالُ فضلَها ـ أي: كمالَه ـ إلَّا من أَطْلَعه اللهُ تعالى عليها. انتهى.

والظاهر أنَّه عنى برؤيتها رؤيةَ ما يحصلُ به العلم له بها ممَّا خُصَّتْ به من الأنوار وتنزُّلِ الملائكة عليهم السلام، أو نحواً من الكشف المفيد للعلم ممَّا لا يَعْرِفُ حقيقتَه إلَّا أهلُه، وهو كالنصِّ في أنَّها يراها مَن شاء الله تعالى من عباده.

وقال أبو حفص بن شاهين[٤] ـ على ما حكاه ابن رجب ـ: إنَّ الله تعالى لم يكشفها لأحدٍ من الأوَّلين والآخرين، ولا النبيين والمرسلين، في يومٍ ولا ليلةٍ، إلَّا نبينا ﷺ، فإنَّه لمَّا أنزلَها عليه، وعرَّفَهُ قَدْرَها، أراه عليه الصلاة والسلام إيَّاها في منامه، وعرَّفه في أيِّ ليلةٍ تكون، فأصبح عالماً بها، وأراد أنْ يُخبرَ بها الناس لسروره، فتَلاحى بين يديه رجلان، فأُنسِيها ﷺ، وأمر بطلبها في ليالي العشر الأواخر؛ لأنَّهم لا يرونَها مكاشفةً أبداً، ولا يراها أحدٌ بعدَه ﷺ أصلاً، فأُمِروا بذلك ليلتمس فضلها في الليالي المسماة. انتهى.

---

(١) في لطائف المعارف ص٢١٧.

(٢) شعب الإيمان (٣٧٠٧).

(٣) الموطأ ١/ ٣٢١، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥، وشعب الإيمان (٣٧٠٤).

(٤) هو عمر بن أحمد بن محمد بن حسن بن شاهين، الشيخ المسند، توفي سنة (٤٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٧.

وحديثُ أنَّه ﷺ رآها ونُسِّيَها قد رواه الإمام مالك والإمام أحمد والبخاريُّ ومسلم وغيرهم(١)، وهو مما لا تردُّدَ في صحَّته، لكنَّ في دلالته على أنَّه لم يَعلم عليه الصلاة والسلام بها ولم يَرها بعدُ ولا يَراها أحدٌ من أمَّته ﷺ أبداً تردُّداً، ولعلَّ الأمر بالتماسها في العشر الأواخر مثلاً يشيرُ إلى رجاء رؤيتها فيها، إذ ما لا يُرجى في زمانٍ أو مكانٍ لا يَحْسُنُ أن يؤمرَ أحدٌ بالتماسه فيه عادةً، وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ رؤيتَها مناماً وقعتْ لغيره ﷺ، ففي «صحيح مسلم» وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالاً من أصحاب النبيِّ ﷺ أُرُوا ليلةَ القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمَن كان متحرِّيها فليتحرَّها في السبع الأواخر»(٢).

وحُكي نحو قولِ ابن شاهين عن غيره أيضاً وغُلِّط، ففي «شرح الصحيح» للنوويِّ: اعلم أنَّ ليلةَ القدر موجودةٌ، وأنَّها تُرى، ويتحقَّقُها مَنْ شاء اللهُ تعالى من بني آدم كلَّ سنةٍ في رمضان، كما تظاهرت عليه الأحاديث، وإخبار الصالحين بها، ورؤيتُهم لها أكثرُ من أن تحصى، وأمَّا قول القاضي عياض عن المهلب بن أبي صُفرة: لا يمكن رؤيتها حقيقةً، فغلطٌ فاحشٌ، نَبَّهْتُ عليه لئلَّا يُغتَرَّ به(٣). انتهى.

بقيَ في الكلام على هذه الليلة بحثٌ مهمٌّ، وهو أنَّه على قولِ المعتبِرين لاختلاف المطالِع يلزمُ القول بتعدُّدها في رمضان، وكونها وتراً من لياليه عند قومٍ وشفعاً عند آخرين، فلا يصحُّ إطلاقُ القول بأحدهما، وكذا لا يصحُّ إطلاقُ القول بأنَّها ليلةُ كذا، كليلة السابع والعشرين أو الحادي والعشرين مثلاً من الشهر، على ذلك أيضاً، بل لا يصحُّ إطلاقُ القول بأنَّ وقت التقديرِ وتنزُّلِ الملائكة ليلٌ، فالليلةُ عند قومٍ نهارٌ في الجهة المسامتة لأقْدَامهم، وهي قد تكون مسكونةً ولو بواسطة

---

(١) الموطأ ١/ ٣١٩، ومسند أحمد (١١٠٣٤) و(١١١٨٦)، وصحيح البخاري (٢٠١٨) و(٢٠٢٧)، وصحيح مسلم (١١٦٧)، وسلف ص١٩٨-١٩٩ من هذا الجزء، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (١١٦٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ٦٦، وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٤/ ١٤٨.

سفينةٍ تمرُّ فيها، وربَّما يكونُ زمانُ الليل عندَ قومٍ بعضه ليلاً وبعضُه نهاراً عند آخرين، كأهل بعض العُرُوض البعيدة عن خطِّ الاستواء، بل قد تنقضي أشهرٌ بليلٍ ونهارٍ على قومٍ، ولم ينقض يومٌ واحد في بعض العُرُوض، بل لا يَصِحُّ أيضاً إطلاقُ القول بأنَّها في رمضان وأنَّها الليلة الأولى أو الأخيرة منه، إذ الشهرُ دخولاً وخروجاً مختلفٌ بالنسبة إلى سكان البسيطة.

وأجاب بعضٌ بالتزام أنَّ ما أُطلِق من القول فيها ليس على إطلاقه؛ فيكون القولُ بوتريتها بالنسبةِ إلى قومٍ وبشفعيتها بالنسبة إلى آخرين، وهكذا القولُ بأنَّها ليلةُ كذا من الشهر، وبالتزام أنَّها ليلةٌ بالنسبة إلى قوم نهارٌ بالنسبة إلى آخرين، وأنَّ التعبير بالليلة لرعاية مكان المنزَلِ عليه القرآنُ عليه الصلاة والسلام وغالبِ المؤمنين به، فإنَّ ما هو سمتُ أقدامهم ممَّا ليلهم نهاره لم يُعْمَر بالمسلمين، بل لا يكادُ يعمَرُ بهم حتى يرثَ الله تعالى الأرض ومن عليها.

وقال: إنَّها حيثُ كانت نهاراً عند قومٍ لا يبعدُ أنْ يعطي الله تعالى أجرَها مَن اجتهدَ من غيرهم في ليلة ذلك النهار، وأنْ يعطي سبحانَه ذلك أيضاً من اجتهدَ منهم ليلاً وهي عندهم نهار، وعلى نحو هذا يقال في الصُّوَر التي ذكرت في البحث. وادَّعى أنَّ هذا نوعٌ من الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وأنَّ في قولهم: يسنُّ الاجتهاد في يومها، رمزاً مَّا لشيءٍ من ذلك. وهو كما ترى.

وأجاب آخَرُ بما يستحي القلمُ مِن ذِكْرِه، ويرى تَرْكَه هو الحَرِيَّ بقَدْرِه.

وسمعت من بعض أحبابي أنَّ الشيخ إسماعيل العجلوني[1] عليه الرحمة تعرَّض فيما شرح من «صحيح البخاريِّ» لشيءٍ من هذا البحث والجوابِ عنه، ولم أقف عليه.

وعندي أنَّ البحثَ قويٌّ، والأمرَ ممَّا لا مجالَ لعقلي فيه.

---

(١) هو إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء، محدث الشام في وقته، له «كشف الخفا»، و«الفيض الجاري في شرح صحيح البخاري»، توفي سنة (١١٦٢هـ). الأعلام ١/ ٣٢٥.

ومثلُ ليلة القدر فيما ذُكر وقتُ نزوله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا من الليل، كما صحَّت به الأخبار[1]، وكذا ساعة الإجابة من يوم الجمعة[2]، إلى أمثال أُخر، وللشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى كلامٌ طويلٌ في الأوَّل لم يحضرني منه الآن ما يروي الغليل[3]، ولغيره كابن حجر كلامٌ مختصرٌ في الثاني[4]، وهو مشهور.

وربما يقال: إنها لِكلِّ قوم ليلتهم، وإن اختلفت دخولاً وخروجاً بالنسبة إلى آفاقهم كسائر لياليهم، فتدخلُ الليلة مطلقاً في بغداد مثلاً عند غروب الشمس فيها، وبعد نحو نصف ساعةٍ منه تدخلُ في إسلامبول مثلاً، وذلك أول وقتِ الغروب فيها، وهكذا، والخروج على عكس ذلك، فكأنَّ الليلةَ راكبٌ يسيرُ إلى جهة، فيصلُ إلى كلِّ منزلٍ في وقت، ويُلْتَزمُ أنَّ تنزُّلَ الملائكة حَسبَ سيرها، ولا يبعدُ أن يتنزَّل عند كلِّ قوم ما شاء الله تعالى منهم عند أوَّل دخولها عندهم، ويعرجونَ عند مطلع فجرها عندهم أيضاً، أو يبقى المتنزِّل منهم هناك إلى أن تنقضيَ الليلةُ في جميع المعمورة، فيعرجون معاً عند انقضائها، ويلتزمُ القول بتعدُّد التقدير حسبَ السير أيضاً بأن يقدِّر الله تعالى في أيِّ جزءٍ شاء سبحانه منها بالنسبة إلى مَن هي عندهم أموراً تتعلَّق بهم، ومناطُ الفضل لكلِّ قومٍ تحقُّقها بالنسبة إليهم، وقيامهم فيها، ومثل هذه الليلة فيما ذكر سائرُ أوقات العبادة، كوقت الظهر والعصر وغيرهما.

وهذا غايةُ ما يخطر بالبال فيما يتعلَّق بهذا الإشكال، وأمرُ ما يعكِّرُ عليه من أخبار الآحاد سهلٌ، على أنَّ الكثيرَ منها في صحَّته مقالٌ، فتأمَّل في ذاك، والله عز وجل يتولَّى هداك.

ثم إنَّ ليلةَ القدر عند السادة الصوفيَّة ليلةٌ يختصُّ فيها السالك بتجلٍّ خاصٍّ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) ينظر مجموع الفتاوى ٥/ ٤٦٧ وما بعدها.

(٤) ينظر فتح الباري ٢/ ٤٢٢.

يَعْرِفُ به قَدْرَه ورتبتَه بالنسبة إلى محبوبه، وهي وقتُ ابتداء وصول السالك إلى عينِ الجمع ومقامِ البالغين في المعرفة، وما ألطفَ قول الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سره:

وكلُّ الليالي ليلةُ القدر إنْ دَنَتْ كما كلُّ أيَّامِ اللِّقا يومُ جمعةِ[1]

هذا واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

(١) ديوان ابن الفارض ص٨٠.

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

سورة البيّنة مدنية ، وهي تتحدث عن اليهود والنصارى ، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق ، وسطعت أنواره ، ومع ذلك كفروا وعاندوا .. كما تتحدث عن عنصر « الإخلاص » الذي أُمر به أهل الأديان جميعاً ، وهو إخلاص العبادة لله جل وعلا ، وإفراده سبحانه بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال لوجهه الكريم دون سواه ، كما تتحدث عن مصير أهل الإجرام – من كفرة أهل الكتاب والمشركين – إلى نار الجحيم ، وعن مصير أهل الإيمان والإخلاص إلى جنان النعيم ، ، مع الفضل ، والإحسان ، والإنعام في جوارِ ربٍّ رحيم .

سورة البينة

وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ④﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظمًا وتفسيرًا، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء. ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول: وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة (حتى) لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن. **والجواب عنه من وجوه: أولها:** وأحسنها الوجه الذي لخصه صاحب الكشاف، وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد عليه السلام، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى. فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقًا فيقول واعظه: لم تكن منفكًا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار يُذكره ما كان يقوله توبيخًا وإلزامًا، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد، وهو أن قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ مذكورة حكاية

عنهم . وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذي وقع كان على خلاف ما ادعوا . **وثانيها:** أن تقدير الآية . لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة . وعلى هذا التقدير يزول الإشكال ، هكذا ذكره القاضي إلا أن تفسير لفظة (حتى) بهذا ليس من اللغة في شيء . **وثالثها:** أنا لا نحمل قوله : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل ، والمعنى : لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة . قال ابن عرفة : أي حتى أتتهم ، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي ، وهو كقوله تعالى : ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي ما تلت ، والمعنى أنهم ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولاً آخر رديًا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] والقول المختار في هذه الآية هو الأول . وفي الآية وجه رابع : وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ، وكلمة (حتى) تقتضي أن يكون الحال بعد ذلك بخلاف ما كان قبل ذلك ، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا ، فمنهم من صار مؤمنًا ، ومنهم من صار كافرًا ، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبل مجيئه ، كفى ذلك في العمل بمدلول لفظ (حتى) . **وفيها وجه خامس:** وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد في كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته ، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول ، بل بقوا شاكّين متحيرين في ذلك الدين وفي سائر الأديان ، ونظيره قوله : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] والمعنى أن الدين الذي كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم ، فاليهودي كان جازمًا في يهوديته ، وكذا النصراني وعابد الوثن ، فلما بُعث محمد عليه الصلاة والسلام اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقالته ، وقوله : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ مُشعر بهذا لأن انفكاك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه ، فمعناه أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها ، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة .

المسألة الثانية : الكفار كانوا جنسين : **أحدهما:** أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى ، وكانوا كفارًا بإحداثهم في دينهم ما كفروا به ، كقولهم : ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] و : ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وتحريفهم كتاب الله ودينه . **والثاني:** المشركون الذين كانوا لا يُنسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل ، وهو قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين ، فهذا يقتضي أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس

بكافر، ومعلوم أن هذا ليس بحق. **والجواب من وجوه: أحدها:** كلمة (مِن) ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] **وثانيها:** أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين، فإدخال كلمة (مِن) لهذا السبب. **وثالثها:** أن يكون قوله: ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أيضًا وصفًا لأهل الكتاب، وذلك لأن النصارى مُثلِّثة واليهود عامتهم مُشبِّهة، وهذا كله شرك، وقد يقول القائل: (جاءني العقلاء والظرفاء) يريد بذلك قومًا بأعيانهم يصفهم بالأمرين. وقال تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢] وهذا وصف لطائفة واحدة، وفي القرآن من هذا الباب كثير، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفًا لموصوف واحد.

السؤال الثاني: المجوس هل يدخلون في أهل الكتاب؟ **قلنا:** ذكر بعض العلماء أنهم داخلون في أهل الكتاب لقوله عليه السلام: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» وأنكره الآخرون قالوا: لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان في بلاد العرب، وهم اليهود والنصارى، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦] والطائفتان هم اليهود والنصارى.

السؤال الثالث: ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين؟ حيث قال: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؟ **الجواب:** أن الواو لا تفيد الترتيب، ومع هذا ففيه فوائد: **أحدها:** أن السورة مدنية فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر. **وثانيها:** أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم، فكان إصرارهم على الكفر أقبح. **وثالثها:** أنهم لكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم، فكان كفرهم أصلًا لكفر غيرهم؛ فلهذا قُدموا في الذكر. **ورابعها:** أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقُدموا في الذكر.

السؤال الرابع: لِمَ قال: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ولم يقل: من اليهود والنصارى؟ **الجواب:** لأن قوله: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يدل على كونهم علماء، وذلك يقتضي إما مزيد تعظيم، فلا جرم ذُكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى، أو لأن كونه عالمًا يقتضي مزيد قبح في كفره، فذُكروا بهذا الوصف تنبيهًا على تلك الزيادة من العقاب.

المسألة الثالثة: هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع: **أحدها:** أنه تعالى فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين، فهذا يقتضي كون الكل واحدًا في الكفر، فمن ذلك قال العلماء: الكفر كله ملة واحدة، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس. **والثاني:** أن العطف أوجب المغايرة، فلذلك نقول: الذمي ليس بمشرك، وقال عليه السلام: «غَيْرَ نَاكِحِي نِسَائِهِمْ وَلاَ آكِلِي ذَبَائِحِهِمْ» فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك. **الثالث:** نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم إذ قد حدث في أهل القرآن مثل ما حدث في الأمم الماضية.

المسألة الرابعة: قال القفال: الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء، وأصله من الفك وهو

الفتح والزوال، ومنه فككت الكتاب، إذا أزلت ختمه ففتحته، ومنه فكاك الرهن، وهو زوال الانغلاق الذي كان عليه، ألا ترى أن ضد قوله: انفك الرهن، ومنه فكاك الأسير وفكه، فثبت أن انفكاك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثًا قويًا لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة، أما البينة فهي الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق من الباطل، فهي من البيان أو البينونة لأنها تبين الحق من الباطل.

وفي المراد من البينة في هذه الآية أقوال:

الأول: أنها هي الرسول، ثم ذكروا في أنه لمَ سمي الرسول بالبينة وجوهًا: **الأول:** أن ذاته كانت بينة على نبوته، وذلك لأنه عليه السلام كان في نهاية الجد في تقرير النبوة والرسالة، ومن كان كذابًا متصنعًا فإنه لا يتأتى منه ذلك الجد المتناهي، فلم يبق إلا أن يكون صادقًا أو معتوهًا والثاني معلوم البطلان لأنه كان في غاية كمال العقل، فلم يبق إلا أنه كان صادقًا. **الثاني:** أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغًا إلى حد كمال الإعجاز، والجاحظ قرر هذا المعنى، والغزالي رحمه الله نصره في كتاب المنقذ، فإذًا لهذين الوجهين سمي هو في نفسه بأنه بينة. **الثالث:** أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت في غاية الظهور، وكانت أيضًا في غاية الكثرة، فلاجتماع هذين الأمرين جُعل كأنه عليه السلام في نفسه بينة وحجة، ولذلك سماه الله تعالى سراجًا منيرًا.

واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فهو رفع على البدل من البينة، وقرأ عبد الله: (رسولاً) حال من البينة قالوا: والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ للتعريف، أي هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى، أو يقال: إنها للتفخيم أي هو ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي لا مزيد عليها، أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا في حق الرسول عليه السلام، فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم ثنى بالتنكير فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هو رسول وأي رسول، ونظيره ما ذكره الله تعالى في الثناء على نفسه فقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] ثم قال: ﴿فَعَّالٌ﴾ [البروج: ١٦] فنكَّر بعد التعريف.

القول الثاني: أن المراد من البينة مطلق الرسل، وهو قول أبي مسلم، قال: المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلو عليهم صحفًا مطهرة. وهو كقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: ١٥٣] وكقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

القول الثالث: -وهو قول قتادة وابن زيد-: البينة هي القرآن. ونظيره قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] ثم قوله بعد ذلك: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لا بد فيه من مضاف محذوف والتقدير: وتلك البينة وحي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

أما قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهي ظرف للمكتوب،

وفي المطهرة وجوه: **أحدها:** مطهرة عن الباطل، وهي كقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: ٤٢] وقوله: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾[عبس: ١٤]، **وثانيها:** مطهرة عن الذكر القبيح فإن القرآن يُذكر بأحسن الذكر ويُثنى عليه أحسن الثناء. **وثالثها:** أن يقال: مطهرة أي ينبغي أن لا يمسها إلا المطهرون، كقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٨، ٧٩]. واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتًا للصحف في الظاهر فهي نعت لما في الصحف وهو القرآن.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه قولان: **أحدهما:** المراد من الكتب: الآيات المكتوبة في الصحف. **والثاني:** قال صاحب النظم: الكتب قد يكون بمعنى الحكم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾[المجادلة: ٢١] ومنه حديث العسيف: «**لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ**» أي بحكم الله، فيحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي أحكام قيمة. **أما القيمة ففيها قولان: الأول:** قال الزجاج: مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل، من قام يقوم كالسيد والميت، وهو كقولهم: (قام الدليل على كذا) إذا ظهر واستقام. **الثاني:** أن تكون القيمة بمعنى القائمة، أي هي قائمة مستقلة بالحجة والدلالة، من قولهم: قام فلان بالأمر يقوم به، إذا أجراه على وجهه، ومنه يقال للقائم بأمر القوم: (القيم) **فإن قيل:** كيف نُسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أميًّا؟ **قلنا:** إذا تلا مثلاً المسطور في تلك الصحف كان تاليًا ما فيها، وقد جاء في كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام: كان يقرأ من الكتاب وإن كان لا يكتب، ولعل هذا كان من معجزاته ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في هذه الآية سؤال، وهو أنه تعالى ذكر في أول السورة أهل الكتاب والمشركين، وههنا ذكر أهل الكتاب فقط، فما السبب فيه؟ **وجوابه من وجوه: أحدها:** أن المشركين لم يُقَروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل، بخلاف أهل الكتاب الذين يُقَرون على كفرهم ببذل الجزية. **وثانيها:** أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد ﷺ بسبب أنهم وجدوها في كتبهم، فإذا وُصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

المسألة الثانية: قال الجبائي: هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا: إن الناس تفرقوا في الشقاوة والسعادة في أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة. **والجواب:** أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل في الأزل، أما ظهوره من المكلف فإنما وقع بعد الحالة المخصوصة.

المسألة الثالثة: قالوا: هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ثم قال: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أن الله وملائكته آتاهم ذلك. فالخير والتوفيق مضاف إلى الله، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم.

المسألة الرابعة: المقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ أي لا يغمنك تفرقهم، فليس ذلك

لقصور في الحجة بل لعنادهم، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل إلا من بعد ما جاءتهم البينة، فهي عادة قديمة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: (وما أُمروا) وجهان: **أحدهما:** أن يكون المراد: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعًا في حقهم فهو مشروع في حقنا. **وثانيها:** أن يكون المراد: وما أُمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء. وهذا أَوْلى لثلاثة أوجه: **أحدها:** أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعًا جديدًا وحَمْل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أَوْلى **وثانيها:** وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم. **وثالثها:** أنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ فحكم بكون ما هو متعلق هذه الآية دينًا قيمًا، فوجب أن يكون شرعًا في حقنا، سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بيانًا لشرع محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا قول مقاتل.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دقيقة وهي أن هذه اللام لام الغرض، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلاً لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض، فلو فعل الله فعلاً لكان ناقصًا لذاته مستكملاً بالغير وهو محال؛ لأن ذلك الغرض إن كان قديمًا لزم من قدمه قدم الفعل، وإن كان محدثًا افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال، ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة فهو عاجز، وإن كان قادرًا عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثًا، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل. ثم قال الفراء: العرب تجعل اللام في موضع (أنْ) في الأمر والإرادة كثيرًا، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ [الصف: ٨] وقال في الأمر: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١] وهي في قراءة عبد الله: (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله) فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين. والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منويًا، ثم قالت الشافعية: الوضوء مأمور به في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منويًا، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منويًا. وأما المعتزلة فإنهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض، لا جرم

أجروا الآية على ظاهرها فقالوا: معنى الآية: وما أُمروا بشيء إلا لأجل أن يعبدوا الله. والاستدلال على هذا القول أيضًا قوي؛ لأن التقدير: وما أُمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين في ذلك الشيء. وهذا أيضًا يقتضي اعتبار النية في جميع المأمورات. **فإن قيل:** النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه؛ لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه. قلنا: هب أنه خص عموم الآية في هذه الصورة بحكم الدليل العقلي الذي ذكرتم فيبقى في الباقي حجة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أُمِرُوٓا۟﴾ مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] قالوا: فيه وجوه: **أحدها**: كأنه تعالى يقول: العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وذكر في الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملاً يقول له أولاً: ينبغي أن تفعل هذا. ولا يأمره صريحًا، لأنه ربما يَردّ عليه فتعظم جنايته، فههنا أيضًا لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد. **وثانيها**: أنا على القول بالحسن والقبح العقليين نقول: كأنه تعالى يقول: لست أنا الآمر للعبادة فقط، بل عقلك أيضًا يأمرك لأن النهاية في التعظيم لمن أوصل إليك (أن) نهاية الإنعام واجبة في العقول.

المسألة الرابعة: اللام في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبد وهو رب، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب ألبتة، ثم أمرك بالعبادة وجبت لمحض العبودية. وفيها أيضًا إشارة إلى أنه مَن عبد الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، ونعِم ما قيل: مَن آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول.

المسألة الخامسة: العبادة هي التذلل، ومنه طريق معبد أي مذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام، وما أطاعوهم، ولكن في الشرع صارت اسمًا لكل طاعة لله، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم، واعلم أن العبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحدًا في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية، فإن كان مثل لم يجز أن يصرف إليه النهاية في التعظيم، ثم نقول: لا بد في كون الفعل عبادة من شيئين: **أحدهما**: غاية التعظيم، ولذلك قلنا: إن صلاة الصبي ليست بعبادة؛ لأنه لا يعرف عظمة الله، فلا يكون فعله في غاية التعظيم. **والثاني**: أن يكون مأمورًا به، ففعل اليهودي ليس بعبادة، وإن تضمن نهاية التعظيم؛ لأنه غير مأمور به، والنكتة الوعظية فيه أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم، وفعل اليهودي ليس بعبادة لفقد الأمر، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم؟

المسألة السادسة: الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصًا لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، والنكت الوعظية فيه من وجوه: **أحدها**: كأنه تعالى يقول: عبدي لا تسع في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأني ما بذلت كل مقدوري لك حتى أطلب منك كل مقدورك، بل بذلت لك البعض، فأطلب منك البعض نصفًا من العشرين، وشاة من الأربعين، لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك، فلا ترد بطاعتك سواي، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك، فمن ذلك المباح الذي يوجد منك في الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص، وأما الالتفات المكروه فذا حظ الشيطان. **وثانيها**: كأنه تعالى قال: يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه، وأنا حكيم لا أفعل ذلك ألبتة، فإذًا لا تريد إلا ما أريد، ولا أريد إلا ما تريد، ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن، فكأنه تعالى بفضله قال: الملك لا يخدم الملك لكن (لكي) نصطلح أجعل جميع ما أفعله لأجلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] فاجعل أنت أيضًا جميع ما تفعله لأجلي: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

واعلم أن قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ نصب على الحال، فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، فيأتي بالفعل لوجهه مخلصًا لربه، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضًا آخر، بل قالوا: لا يجعل طلب الجنة مقصودًا ولا النجاة عن النار مطلوبًا، وإن كان لا بد من ذلك، وفي التوراة: ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غير وجهي فكثيره قليل. وقالوا: من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير، مثل الواجب من الأضحية شاة، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك، وإن زدت في الخشوع لأن الناس يرونه لم يجز، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة أخرى، فكيف ولو خلطت بها محظورًا مثل أن تتقدم على إمامك، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص؟

وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ قال بعضهم: مقرين له بالعبادة. وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة. وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره. ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

أما قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، **ففيه أقوال**:

الأول: قال مجاهد: متبعين دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وهذا التفسير فيه لطيفة، كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستولٍ على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية، ولم يستجز التعويل على

التقليد أيضًا بالكلية، فلا جرم ذكر قومًا أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم، وهو إبراهيم ومن معه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فكأنه تعالى قال: إن كنت تقلد أحدًا في دينك، فكن مقلدًا إبراهيم، حيث تبرأ من الأصنام، وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلَّمها إلى النيران، ومن ما له حين بذله للضيفان، ومن ولده حين بذله للقربان، بل روي أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه، ولم ير شخصًا فاستعاده، فقال: أما بغير أجر فلا، فبذل كل ما ملكه فظهر له جبريل عليه السلام، وقال: حُق لك حيث سماك خليلاً فخذ مالك، فإن القائل كنت أنا. بل انقطَع إلى الله حتى عن جبريل حين قال: (أما إليك فلا) فالحق سبحانه كأنه يقول: إن كنت عابدًا فاعبد كعبادته، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم، فاجتهد في متابعة ولده الصبي، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره، فمد عنقه لحكم الرؤيا، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل، وهو أم الذبيح، كيف تجرعت تلك الغصة، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنتين يقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة والإرث، والرقيقة نصف الحرة، بدليل أن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل، ثم انظر كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة في أولادها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة في جبال مكة بلا ماء ولا زاد، وانصرف، لا يكلمها ولا يعطف عليها، قالت: آلله أمرك بهذا؟ فأومأ برأسه نعم، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق.

والقول الثاني: المراد من قوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مستقيمين، والحنف هو الاستقامة، وإنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل، كقولنا للأعمى (بصير) وللمهلكة (مفازة)، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

والقول الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: حجاجًا، وذلك لأنه ذكر العبادة أولاً ثم قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ وإنما قدم الحج على الصلاة لأن في الحج صلاة وإنفاق مال. **الرابع:** قال أبو قلابة: الحنيف الذي آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحدًا منهم، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفًا؟! **الخامس:** حنفاء أي جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين، قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ» (١). **السادس:** قال قتادة: هي الختان وتحريم نكاح المحارم، أي مختونين محرمين لنكاح الأم والمحارم، فقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ إشارة إلى النفي، ثم أردفه بالإثبات وهو قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **السابع:** قال أبو مسلم: أصله من الحنف في الرِّجل، وهو إدبار

---

(١) أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٦٦) حديث رقم (٢٢٦٤٧)، والطبراني في (الكبير) (١/ ٢١٦) حديث رقم (٧٨٦٨) كلاهما من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة . . . به، وقال الهيثمي (٥/ ٢٧٩): فيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف، ورواه الروياني في (مسنده) (٣/ ٤٦١) حديث رقم (١٢٦٦) من طريق عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة . . . به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٩٢٤).

إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهام الأخرى، فيكون الحنيف هو الذي يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام. **الثامن:** قال الربيع بن أنس: الحنيف الذي يستقبل القبلة بصلاته، وإنما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا. وأما الكلام في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مرارًا كثيرة.

ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال المبرد والزجاج: ذلك دين الملة القيمة، فالقيِّمة نعت لموصوف محذوف، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة، وقد ذكرنا هذين القولين في قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وقال الفراء: هذا من إضافة النعت إلى المنعوت، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥] والهاء للمبالغة كما في قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

المسألة الثانية: في هذه الآية لطائف: **إحداها:** أن الكمال في كل شيء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معًا، فقوم أطنبوا في الأعمال من غير إحكام الأصول، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات، ولكنهم ما حصَّلوا الدين الحق، وقوم حصَّلوا الأصول وأهملوا الفروع، وهم المرجئة الذين قالوا: (لا يضر الذنب مع الإيمان) والله تعالى خطَّأ الفريقين في هذه الآية، وبيَّن أنه لا بد من العلم والإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ومن العمل في قوله: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المجموع كله هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي البينة المستقيمة المعتدلة، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد، كذا هذا المجموع دين واحد، فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه، فكأنه سبحانه يقول: القائم بتحصيل مصالحك عاجلاً وآجلاً هو هذا المجموع، ونظيره قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[الأنعام: ١٦١] وقوله في القرآن: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾[الكهف: ٢] لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق، ويؤيده قوله عليه السلام: «مَنْ كَانَ فِي عَمَلِ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ فِي عَمَلِهِ» وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: (يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَكِ فَاسْتَخْدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَنِي فَاخْدِمِيهِ)، **وثانيها:** أن المحسنين في أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبيده والملائكة، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح لخالقهم فالإحسان من الله لا من الملائكة، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهيًا بهم: ملائكتي هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا، بل في بعض الأفعال أمثالي أحسنوا وتصدقوا، ثم إني أكرمكم يا ملائكتي بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظموني بمجرد ما فعلت من الإحسان، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين؛ أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين، فتتعجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة، فلهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] أفلا يكون هذا الدين قيمًا؟! **وثالثها:** أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلا قدرة كالزمن العاجز، والقادرة بلا علم مجنونة، فإذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة، فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة، فإذا اجتمعتا سُمي الدين قيمة. **ورابعها:** وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء، وهو القول والاعتقاد فقال: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ثم لما أجابوه زاده، فسألهم الصلاة التي بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال: (لاَ زَكَاةَ فِي مَالٍ يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ) ثم لما ذكر الكل قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

المسألة الثالثة: احتج من قال: الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية، فقال: مجموع القول والفعل والعمل هو الدين، والدين هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان فإذًا مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان؛ لأنه تعالى ذكر في هذه الآية مجموع الثلاثة، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا: إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وإنما قلنا: إن الإسلام هو الإيمان لوجهين: الأول: أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولاً عند الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] لكن الإيمان بالإجماع مقبول عند الله، فهو إذًا عين الإسلام. **والثاني:** قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] فاستثناء المسلم من المؤمن يدل على أن الإسلام يصدق عليه، وإذا ثبتت هذه المقدمات، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة -أعني القول والفعل والعمل- هو الإيمان. وحينئذٍ يبطل قول من قال: الإيمان اسم لمجرد المعرفة، أو لمجرد الإقرار أو لهما معًا. والجواب: لمَ لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى الإخلاص فقط؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لا نحتاج إلى الإضمار أولى، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار، فتقولون: المراد وذلك المذكور، ولا شك أن عدم الإضمار أولى، سَلَّمنا أن قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم، فلمَ قلتم: إن ذلك المجموع هو الدين، وذلك لأن الدين غير، والدين القيم، فالدين هو الدين الكامل المستقل بنفسه، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلاً، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضًا، وهي الصلاة والزكاة، وإذا لم يوجد هذا المجموع، لم يكن الدين القيم حاصلاً، لكن لمَ قلتم: إن أصل الدين لا يكون حاصلاً والنزاع ما وقع إلا فيه؟ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولاً في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] ثم ذكر ثانيًا حال المؤمنين في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥] أعاد في آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين، فبدأ أيضًا بحال الكفار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين: **أحدهما:** الخلود في نار جهنم. **والثاني:** أنهم شر الخلق، **وههنا سؤالات:**

السؤال الأول: لمَ قدم أهل الكتاب على المشركين في الذكر؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال: «**اللَّهُمَّ امْلأْ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**» فكأنه عليه السلام قال: كانت الضربة ثم على وجه الصورة، وفي يوم الخندق على وجه السيرة التي هي الصلاة، ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال: كما قدمتَ حقي على حقك فأنا أيضًا أقدم حقك على حق نفسي، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شعرة من شعراتك يكفر. إذا عرفت ذلك فنقول: أهل الكتاب ما كانوا يطعنون في الله بل في الرسول، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون في الله، فلما أراد الله تعالى في هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولاً في النكاية بذكر من طعن في محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب، ثم ثانيا بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون. **وثانيها:** أن جناية أهل الكتاب في حق الرسول عليه السلام كانت أعظم؛ لأن المشركين رأوه صغيرًا ونشأ فيما بينهم، ثم سَفَّه أحلامهم وأبطل أديانهم، وهذا أمر شاق، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه، فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد.

السؤال الثاني: لم ذكر: ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ **والجواب:** تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا عُلى عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة.

السؤال الثالث: أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون القيامة، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد ﷺ، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين في العذاب؟ **والجواب:** يقال: بئر جهنام، إذا كان بعيد القعر، فكأنه تعالى يقول: تكبَّروا طلبًا للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين، ثم إن الفريقين وإن اشتراكا في ذلك لكنه لا ينافي اشتراكهم في هذا القدر تفاوتهم في مراتب العذاب، واعلم أن الوجه في حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين: إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك، وهذا القسم الثاني هو أقبح القسمين، والإحسان أيضًا على قسمين: إحسان إلى من أحسن إليك، وإحسان إلى من أساء إليك، وهذا أحسن القسمين، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان، وإساءتهم وكفرهم

أقبح أنواع الإساءة، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع، وبالزنا رجم، وبالقتل قصاص، بل شتم المماثل يوجب التعزير، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل، فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنايات، لا جرم استحقوا أعظم العقوبات، وهو نار جهنم، فإنها نار في موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه ألبتة، ثم كأنه قال قائل: هب أنه ليس هناك رجاء الفرار، فهل هناك رجاء الإخراج؟ فقال: لا بل يبقون خالدين فيها، ثم كأنه قيل: فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم؟ فقال: لا بل يذمونهم ويلعنونهم لأنهم شر البرية.

السؤال الرابع: ما السبب في أنه لم يقل ههنا: (خالدين فيها أبدًا)، وقال في صفة أهل الثواب: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾[البينة: ٨] ؟**والجواب من وجوه: أحدها:** التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه. **وثانيها:** أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل. **وثالثها:** روى حكاية عن الله أنه قال: يا داود حببني إلى خلقي. قال: وكيف أفعل ذلك؟ قال: اذكر لهم سعة رحمتي. فكان هذا من هذا الباب.

السؤال الخامس: كيف القراءة في لفظ البرية؟**الجواب:** قرأ نافع: (البريئة) بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، وهو من برأ الله الخلق، والقياس فيها الهمز إلا أنه تُرك همزه، كالنبي والذرية والخابية، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك في الاستعمال، كما أن من همز النبي كان كذلك، وترك الهمز فيه أجود، وإن كان الهمز هو الأصل؛ لأن ذلك صار كالشيء المرفوض المتروك. وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال: إنه من البرا الذي هو التراب.

السؤال السادس: ما الفائدة في قوله: ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ ؟**الجواب:** أنه يفيد النفي والإثبات، أي هم دون غيرهم، واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها، شر من السراق؛ لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ، وشر من قطاع الطريق؛ لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف؛ لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح.

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد.

السؤال السابع: هذه الآية هل هي مجراة على عمومها؟**الجواب:** لا بل هي مخصوصة بصورتين: **إحداهما:** أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد. **والثانية:** قال بعضهم: لا يجوز أن يدخل في الآية من مضى من الكفار؛ لأن فرعون كان شرًا منهم، فأما الآية الثانية وهي الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر؛ لأنهم أفضل الأمم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الوجه في حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه: **أحدها:** أن الوعيد كالدواء،

والوعد كالغذاء، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقيًّا انتفع بالغذاء، فإن البدن غير النقي كلما غذوته زدته شرًّا، هكذا قاله بقراط في كتاب (الفصول) **وثانيها:** أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحًا للمدارس والخف، أما قبله فلا، ولذلك فإن الإنسان متى وقع في محنة أو شدة رجع إلى الله، فإذا نال الدنيا أعرض، على ما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] **وثالثها:** أن فيه بشارة، كأنه تعالى يقول: لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذي هو بشارة مني في أني أختم أمرك بالخير، ألست كنت نجسًا في مكان نجس، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهرًا، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهرًا؟!

المسألة الثانية: احتج من قال: إن الطاعات ليست داخلة في مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة في هذه الآية على الإيمان، والمعطوف غير المعطوف عليه.

المسألة الثالثة: قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يقل: (إن المؤمنين) إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله، ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]ولفظة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي فعلوا الإيمان مرة.

واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب، والذي يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب، فعلمنا أنه ما صدر الإيمان عنه في الحقيقة قبل ذلك.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ من مقابلة الجمع بالجمع، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ.

المسألة الخامسة: احتج بعضهم بهذه الآية في تفضيل البشر على الملك، قالوا: روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ مَنْزِلَةِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنْزِلَةُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ من ذلك، واقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾».

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه: أحدها: ما روي عن يزيد النحوي أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة. **وثانيها:** أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك. **وثالثها:** أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل، قالوا: وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هي مسكن الشياطين، وأيضًا فمصالحنا منتظمة بهم ورزقنا في يد البعض وروحنا في يد البعض، ثم هم العلماء ونحن المتعلمون، ثم انظر إلى عظيم همتهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢٩]أي

لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية، وأنت أبدًا عبد البطن والفرج، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبي لأنه تعالى مدح النبي بإحياء ثلثي الليل وقال فيهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ومرة: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وتمام القول في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف في مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقًا من المحن والآفات، فصاغه من أنجس شيء في أضيق مكان إلى أن خرج باكيًا لا للفراق ولكن مشتكيًا من وحشة الحبس ليرحم، كالذي يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم، ثم لم يرحم بل شُدته القابلة ولم يكن مشدودًا في الرحم، ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوه في المهد وشدوه بالقماط، ثم لم يمض قليل حتى أسلموه إلى أستاذ يحبسه في المكتب ويضربه على التعليم، وهكذا إلى أن بلغ الحلم، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف، ثم إن المكلف يصير كالمتحير، يقول: من الذي يفعل فيَّ هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عني جناية؟! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل، فوجده عالمًا لا يشبه العالمين، وقادرًا لا يشبه القادرين، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة، لكن حقيقته محض الكرم والرحمة، فترك الشكاية وأقبل على الشكر، ثم وقع في قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة، فجعل قلبه مسكنًا سلطان عرفانه، فكأن الحق قال: عبدي أنزل معرفتي في قلبك حتى لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك. فيقول العبد: يا رب أنزلت حب الثدي في قلبي ثم أخرجته، وكذا حب الأب والأم، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل، أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي. ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة في أرض القلب انفجر من هذا الينبوع أنهار وجداول، فالجدول الذي وصل إلى العين حصل منه الاعتبار، والذي وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم، وهكذا في جميع الأعضاء والجوارح، فيقول الله: عبدي جعلت قلبك كالجنة لي وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة، فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا، فأنا أَوْلى بالجود والكرم والرحمة فجنة بجنة، فلهذا قال: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بل كأن الكريم الرحيم يقول: عبدي أعطاني كل ما ملكه، وأنا أعطيته بعض ما في ملكي، وأنا أَوْلى منه بالكرم والجود، فلا جرم جعلت هذا البعض منه موهوبًا دائمًا مخلدًا، حتى يكون دوامه وخلوده جابرًا لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية.

المسألة الثانية: الجزاء اسم لما يقع به الكفاية، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن

الماء، فهذا يفيد معنيين: **أحدهما:** أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص. **والثاني:** أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلاً، على ما قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١].

المسألة الثالثة: قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ فأضاف الجزاء إليهم، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥] **والجواب:** أما أهل السنة فإنهم يقولون: إنه لو قال الملك الكريم: (من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار) فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي، فقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ يكفي في صدقه هذا المعنى. وأما المعتزلة فإنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥]: إن كلمة (مِن) لابتداء الغاية، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان إنما حصل بسبب فضلك السابق فإنك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف، وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة. **فإن قيل:** فإذا كان لا حق لأحد عليه في مذهبكم، فما السبب في التزام مثل هذا الإنعام؟ **قلنا:** أتسأل عن إنعامه الأمسى حال عدمنا؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف؟ أو عن إنعامه في غد القيامة؟ فإن سألت عن الأمسي فكأنه يقول: أنا منزه عن الانتفاع والمائدة مملوءة من المنافع، فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع، فكما أن من له مال ولا عيال له فإنه يشتري العبيد والجواري لينتفعوا بماله، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه، كما روى: (الخلق عيال الله) وأما اليومي فالنعمان يوجب الإتمام بعد الشروع. فالرحمن أولى، وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك؟!

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لطائف:

أحدها: قال بعض الفقهاء: لو قال: لا شيء لي على فلان فهذا يختص بالديون وله أن يدعي الوديعة، ولو قال: (لا شيء لي عند فلان) انصرف إلى الوديعة دون الدين، ولو قال: (لا شيء لي قِبل فلان) انصرف إلى الدين والوديعة معًا، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنه وديعة والوديعة عين، ولو قال: (لفلان عليّ) فهو إقرار بالدين، والعين أشرف من الدين فقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد، فإن قيل: الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون. قلنا: المضمون خير إذا تُصور الهلاك فيه، وهذا في حق الله تعالى محال، فلا جرم قلنا: الوديعة هناك خير من المضمون.

وثانيها: إذا وقعت الفتنة في البلدة، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك، وحينئذٍ تخاف الشياطين من أن يغيروا عليها، فضع وديعة أمانتك عندي فإني أكتب لك به كتابًا يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة. وهو قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة.

وثالثها: أنه قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفيه بشارة عظيمة، كأنه تعالى يقول: أنا الذي ربيتك أولاً حين كنت معدومًا صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء، فحين كنت مطلقًا أعطيتك هذه الأشياء، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئًا وجعلته وديعة عندي فأنا أضيعها؟! كلا إن هذا مما لا يكون.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ﴾، فيه قولان:

أحدهما: أنه قابل الجمع بالجمع، وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، كما لو قال لامرأتيه أو عبديه: إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا، فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما دارًا على حدة، وعن أبي يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين. وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين، ودليل القول الأول: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]فعلى القول الأول بيَّن أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات، كذا روي مرفوعًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات، كما روي عن أبي يوسف وعليه يدل القرآن، لأنه قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦]ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]فذكر أربعًا للواحد، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان، اثنان دون الاثنين، فاستحق جنتين دون الجنتين، فحصلت له أربع جنات، لسكبه البكاء من أربعة أجفان، ثم إنه تعالى قَدَّم الخوف في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦]وأخر الخوف في هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وفيه إشارة إلى أنه لا بد من دوام الخول، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلاف، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة.

المسألة السادسة: قوله: ﴿عَدْنٍ﴾ يفيد الإقامة: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]يقال: عدن بالمكان، أقام، وروي أن جنات عدن وسط الجنة، وقيل: عدن من المعدن، أي هي معدن النعيم والأمن والسلامة، قال بعضهم: إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجُنة أو الجنين، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة يطوفون العالم في ساعة واحدة، فكأنه تعالى قال: إنها في إيصال المكلف إلى مشتهياته في غاية الإسراع مثل حركة الجن، مع أنها دار إقامة وعدن، وإما من الجنون فهو أن الجنة بحيث لو رآها العاقل يصير كالمجنون، لولا أن الله بفضله يثبته، وإما من الجُنة فلأنها جنة واقية تقيك من النار، أو من الجنين فلأن المكلف يكون في الجنة في غاية التنعم، ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

المسألة السابعة: قوله: ﴿تَجْرِي﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد، ومن ذلك النظر إلى الماء الجاري يزيد نورًا في البصر، بل كأنه تعالى قال: طاعتك كانت جارية ما دمت حيًّا على ما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]فوجب أن تكون أنهار إكرامي جارية

إلى الأبد، ثم قال: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إشارة إلى عدم التنغيص، وذلك لأن التنغيص في البستان إما بسبب عدم الماء الجاري فذكر الجري الدائم، وإما بسبب الغرق والكثرة، فذكر من تحتها، ثم الألف واللام في الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن، وهي نهر الماء واللبن والعسل والخمر، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء، فلا تسمى الساقية نهرًا، بل العظيم هو الذي يسمى نهرًا بدليل قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[إبراهيم: ٣٢] فعطف ذلك على البحر.

المسألة الثامنة: اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانيًا، وروي أنه عليه السلام قال: «**إِنَّ الْخُلُودَ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرِضَا اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ**».

أما الصفة الأولى: وهي الخلود، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل.

وأما الصفة الثانية: وهي الرضا، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله، ثم إنه قدم رضا الله عنهم على قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر في المحدث، والمحدث لا يؤثر في الأزلي.

المسألة التاسعة: إنما قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ولم يقل رضي الرب عنهم ولا سائر الأسماء لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله؛ لأنه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها، أعني صفات الجلال وصفات الإكرام، فلو قال: (رضي الرب عنهم) لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المربي قد يكتفي بالقليل، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة، فقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة.

المسألة العاشرة: اختلفوا في قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فقال بعضهم: معناه رضي أعمالهم، وقال بعضهم: المراد رضي بأن يمدحهم ويعظمهم. قال: لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله. وهذا هو الأقرب.

وأما قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فالمراد أنهم رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الخوف في الطاعة حال حسنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ولعل الخشية أشد من الخوف؛ لأنه تعالى ذكره في صفات الملائكة مقرونًا

بالإشفاق الذي هو أشد الخوف فقال: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والكلام في الخوف والخشية مشهور.

المسألة الثانية: هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلاً على فضل العلم والعلماء، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية، وهذه الآية وهي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة، فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهي إلى حد يصير معه آمنًا لا بأن يعلم أنه من أهل الجنة، وجعل هذه الآية دالة عليه. وهذا المذهب غير قوي، لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَعْرَفُكُمْ بِاللَّهِ أَخْوَفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَا أَخْوَفُكُمْ مِنْهُ».

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «لم يكن»

وهي مكِّيةٌ في قولِ يحيى بنِ سلام. ومدنيةٌ في قول ابنِ عباس والجمهور[١]. وهي تسعُ آيات.

وقد جاء في فَضْلِها حديثٌ لا يصحُّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرميِّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهبْ إلى الهيثم[٢] الخشَّاب فاكتُبْ عنه فإنه قد كَتَب، فذهبت إليه، فقال: حدَّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ، فتعلَّموها» فقال رجلٌ من خزاعةَ: وما فيها من الأجر يا رسولَ الله؟ قال: «لا يقرؤها منافقٌ أبداً، ولا عبدٌ في قلبه شكٌّ في الله. والله إنَّ الملائكةَ المقرَّبين يقرؤونها مُنذُ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ وما يَفْتُرُون من قراءتها. وما مِن عبدٍ يقرؤها إلَّا بعث الله إليه ملائكةً يحفظونه في دينه ودنياه، ويَدْعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضْرميُّ: فجئتُ إلى أبي عبدِ الرحمن بن نُمير، فألقيتُ هذا الحديثَ عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونَتَه، فلا تَعُدْ إليه[٣].

قال ابن العربيِّ[٤]: روى إسحاقُ بنُ بشرٍ الكاهليُّ عن مالك بن أنس، عن يحيى ابن سعيد، عن ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، عن النبيِّ ﷺ: «لو يَعْلَمُ الناسُ ما في

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٥ ، وأخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧ .

(٢) في النسخ: أبي الهيثم، والمثبت من المحدث الفاصل ص ٣١٥ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) يعني أن رواية مثل هذا الحديث تبين حال راويه؛ لأنه حديث باطل لا أصل له. قاله الخطيب، كما ذكر الحافظ في اللسان ٦/ ٢٠٦ في ترجمة الهيثم بن خالد الكوفي الخشاب.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٧ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

[لم يكن] الذين كفروا، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ ولتعلَّموها»[١]. حديثٌ باطلٌ، وإنَّما الحديثُ الصحيحُ ما روي عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأبيّ بنِ كعب: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك: «لم يكن الذين كفروا» قال: وسمَّاني لك!؟ قال: «نعم»، فبَكَى.

قلت: خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٢]. وفيه من الفقهِ قراءةُ العالِم على المتعلِّم. قال بعضُهم: إنَّما قرأ النبيُّ ﷺ على أُبيٍّ، ليعلِّم الناسَ التواضُعَ؛ لئلَّا يأنَفَ أحدٌ من التعلُّم والقراءةِ على مَن دونَه في المنزلة.

وقيل: لأن أُبيًّا كان أسرعَ أخذًا لألفاظِ رسولِ اللهِ ﷺ، فأراد بقراءته عليه أن يأخذه ألفاظَه ويقرأ كما سمع منه، ويعلِّم غيرَه. وفيه فضيلةٌ عظيمةٌ لأبيٍّ؛ إذ أَمَر اللهُ رسولَه أن يقرأ عليه.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بنُ الهيثم بن خالد، قال: حدَّثنا علي بن الجعد، قال: حدَّثنا عكرمةُ، عن عاصم، عن زِرّ بن حُبيش قال: في قراءةِ أبيّ بن كعب: ابنُ آدمَ لو أُعطِيَ واديًا من مال لالتمسَ ثانيًا، ولو أُعطي واديَيْنِ من مالٍ لالتمسَ ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب[٣]. قال عكرمةُ: قرأ عليّ عاصم: «لم يَكُنْ» ثلاثين آيةً، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطلٌ عند أهلِ العلم؛ لأنَّ قراءَتَي ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو متَّصِلَتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكورُ في «لم يكن» ممَّا هو معروفٌ في حديثِ رسولِ الله ﷺ، على أنَّه من كلامِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، لا يَحْكيه عن ربِّ العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماعُ أَثْبتُ ممَّا يَحْكيه واحدٌ مخالِفاً[٤] مذهبَ الجماعةِ.

---

(١) أخرجه بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣٨ ، وسقط قوله: عن أبي الدرداء، من مطبوع أحكام القرآن.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠٩)، وصحيح مسلم (٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٢٣٢٠)، وسلف ١٧/ ١٦٢ .

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) من طريق شعبة، عن عاصم، عن زر، عن أبي بن كعب ﷺ. وينظر ما سيأتي ص٤٥٠ من هذا الجزء.

(٤) في (د) و(م): مخالف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كذا قراءةُ العامَّة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود: «لم يَكُنِ المشركون وأهلُ الكتابِ مُنْفَكِّين»[١] وهذه قراءةٌ على التفسير؛ قال ابن العربيّ[٢]: وهي جائزةٌ في مَعْرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة، فقد قرأ النبيُّ ﷺ في روايةِ الصحيح: «فَطَلِّقُوهنَّ لقُبُل عِدَّتهنَّ»[٣] وهو تفسيرٌ؛ فإنَّ التلاوةَ هو ما كان في خطِّ المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اليهودَ والنصارى. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفاً على «أهل الكتاب». قال ابن عباس: «أهلُ الكتابِ»: اليهودُ الذين كانوا بيثرِبَ، وهم قُرَيظَةُ والنَّضِيرُ وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكةَ وحَوْلَها، والمدينةِ والذين حولَها، وهم مشركو قريش. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: مُنْتَهين عن كفرهم، زائلين[٤] عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: محمدٌ ﷺ.

وقيل: الانتهاءُ: بلوغُ الغاية، أي: لم يكونوا لِيَبلُغوا نهايةَ أعمارِهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينةُ. فالانفكاكُ على هذا بمعنى الانتهاء.

وقيل: «مُنفكِّين»: زائلين، أي: لم تكن مدتُهم لتزولَ حتى يأتيهم رسولٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٦ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٧ ، وما قبله منه.

(٣) صحيح مسلم (١٤٧١): (١٤) من حديث ابن عمر ﷺ، وفيه: «... فطلقوهن في قبل عدَّتهن». وينظر ما سلف ٢١/ ٣٣ عند تفسير الآية الأولى من سورة الطلاق.

(٤) في (م): مائلين.

والعربُ تقول: ما انفكَكْتُ أفعلُ كذا، أي: ما زِلْتُ. وما انفكَّ فلان قائماً: أي: ما زال قائماً.

وأصلُ الفَكِّ: الفتحُ؛ ومنه: فكُّ الكتاب(١)، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم. قال طَرَفة:

فآلَيْتُ لا يَنفَكُّ كَشْحي بطانةً لِعَضْبٍ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ(٢)

وقال ذو الرُّمة:

حَراجِيجُ ما تَنْفكُّ إلَّا مُناخةً على الخَسْفِ أَوْ نَرْمي بها بلداً قَفْرا(٣)

يريد: ما تنفكُّ مُناخةً، فزاد «إلَّا»(٤).

وقيل: «منفكِّين»: بارِحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا ويُفارِقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهلُ الكتابِ تارِكينَ صفةَ محمدٍ ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث، فلمَّا بُعث حَسَدوه وجَحَدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وعلى هذا فقولُه: «والمُشْرِكينَ»، أي: ما كانوا يسيئون القولَ في محمدٍ ﷺ حتى بُعِث؛ فإنَّهم كانوا يُسمُّونه الأمين، حتى أتتهم البينةُ على لسانه وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه.

---

(١) وهو إزالةُ ختمه وفتحُه. تفسير الرازي ٣٢/ ٤١ .

(٢) ديوان طرفة ص ٣٧ . قوله: آليت، أي: حلفت. لا ينفك: لا يزال. والكشح: الجنب، والمعنى: لا يزال جنبي لاصقاً بالسيف. والعَضْب: السيف القاطع، وشفرتاه: حدَّاه. ومهند: منسوب إلى الهند. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٨٩ ، وللتبريزي ص ١١٦ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤١٩ . قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: حراجيج: ضُمْرٌ (يعني النوق). ما تنفك: ما تزال. والخسف: الجوع، وهو أن تبيت على غير علف.

(٤) ضرائر الشعر لابن عصفور ص ٧٥ - ٧٦ ، وهي في قول بعض النحويين ليست زائدة، فقدَّر في «تنفك» التمام، ونصب مناخة على الحال، والمعنى: ما تنفصل عن جهد ومشقة إلا في حال إناختها على الخسف، ورَمْي البلد القفر بها، أي: تنتقل من شدة إلى شدة. أمالي ابن الشجري ٢/ ٣٧٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨١ .

وقال بعض اللُّغويين: «مُنْفَكِّينَ»: هالكين، من قولهم: انفكَّ صَلَا المرأةِ[١] عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتَهلك. المعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين، إلَّا بعد قيامِ الحجةِ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقال قومٌ في «المشركين»: إنَّهم من أهل الكتاب؛ فمِن اليهود من قال: عزيرٌ ابنُ الله. ومن النصارى مَن قال: عيسى هو الله. ومنهم مَن قال: هو ابنه. ومنهم مَن قال: ثالثُ ثلاثةٍ.

وقيل: أهلُ الكتابِ كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: «والمُشْرِكِينَ».

وقيل: المشركون وصفُ أهلِ الكتابِ أيضاً؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثةٌ، وعامَّةُ اليهودِ مُشَبِّهةٌ، والكلُّ شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاءُ والظُّرفَاء، وأنتَ تريد أقوامًا بأعيانهم[٢]، تَصِفُهم بالأمرين. فالمعنى: مِن أهلِ الكتابِ المشركين.

وقيل: إنَّ الكفر هنا هو الكفرُ بالنبيِّ ﷺ، أي: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ من اليهود والنصارى، الذين هم أهلُ الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين؛ قال القشيرِيُّ: وفيه بعدٌ؛ لأنَّ الظاهر من قوله: «حتى تأتيهم البينةُ. رسولٌ مِن اللهِ» أنَّ هذا الرسول هو محمدٌ ﷺ. فيبعُدُ أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ منفكِّين حتى يأتيهم محمد، إلَّا أنْ يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآنَ بمحمدٍ؛ وقد[٣] كانوا من قبلُ

---

(١) كذا نقل المصنف عن البغوي ٤/ ٥١٣ ، ومثله في البحر ٨/ ٤٩٨ . وذكر أبو عبيد في الغريب المصنف ١/ ٦٨ عن الأصمعي: انهكَّ صلا المرأة انهكاكاً، ومثله في تهذيب اللغة ٥/ ٣٤١ ، ومجمل اللغة ٣/ ٨٩١ ، والصحاح (هكك)، واللسان (هكك). والصلا: وسط الظهر، أو ما انحدر من الوَرِكين. القاموس (صلو).

(٢) في النسخ الخطية: بعينهم.

(٣) في (م): وإن.

مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيِّن لهم الآيات، فحينئذٍ يؤمنُ قوم.

وقرأ الأعمشُ وإبراهيم: «والمشركُونَ» رفعاً، عطفاً على «الذين»[١]. والقراءةُ الأولى أَبْيَنُ؛ لأنَّ الرفع يصير فيه الصِّنفان كأنهم من غير أهل الكتاب.

وفي حرفِ أبيٍّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكِّين»[٢]. وفي مصحفِ ابنِ مسعود: «لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين». وقد تقدَّم[٣].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: حتى أتتهم. والبيِّنَةُ: محمدٌ ﷺ. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بَعيثٌ من الله جلَّ ثناؤه. قال الزَّجَّاج[٤]: «رسولٌ» رفع على البدل من «البينة». وقال الفرَّاء: أي: هي رسولٌ من الله، أو: هو رسولٌ من الله؛ لأنَّ البينة قد تذكَّر فيقال: بيِّنتي فلان. وفي حرفِ أُبيٍّ وابن مسعود: «رَسُولًا» بالنصب على القطع[٥].

﴿يَتْلُوا۟﴾ أي: يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوةً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرفُ المكتوب. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزُّور والشكِّ والنفاق والضَّلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب والشُّبُهات والكفر، والمعنى واحد. أي: يقرأ ما تتضمَّنُ الصحفُ من المكتوب، ويدلُّ عليه أنه كان يتلو عن ظَهْرِ قلبِه لا عن كتاب؛ لأنه كان أمِّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ.

و«مُطَهَّرَةً»: مِن نَعْتِ الصُّحف، وهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣]، فالمطهرةُ نعتٌ للصُّحفِ في الظاهر، وهي نعتٌ لمَا في الصُّحف من القرآن.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٤٩٨ دون نسبة.

(٢) ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٦ بلفظ: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».

(٣) في بداية تفسير هذه الآية.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٩ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ ، والقراءات الشاذة ص ١٧٦ ، والكشاف ٤/ ٢٧٤ .

وقيل: «مطهرة» أي: ينبغي ألَّا يَمَسَّها إلَّا المطهَّرون، كما قال في سورة الواقعة حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه(١).

وقيل: الصُّحف المطهَّرة: هي التي عند الله في أمِّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. قال الحسن: يعني الصُّحفَ(٢) المطهَّرةَ في السماء.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمةٌ مستويةٌ مُحْكَمةٌ، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح.

وقال بعضُ أهلِ العلم: الصحفُ هي الكتب، فكيف قال: في صحفٍ فيها كُتب؟

فالجواب: أنَّ الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى: حَكَم. وقال ﷺ: «والله لأقضِينَّ بينكما بكتابِ الله» ثم قضى بالرَّجم(٣)، وليس ذِكْرُ الرَّجْمِ مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحُكْمِ الله تعالى، وقال الشاعر:

ومالَ(٤) الولاءُ بالبلاءِ فمِلْتُمُ   وما ذاكَ قال اللهُ إذ هو يَكْتُبُ(٥)

وقيل: الكتبُ القيِّمة: هي القرآن، فجعله كتباً لأنه يشتملُ على أنواعٍ من البيان.

(١) عند تفسير الآية (٧٩) منها.

(٢) في (ز) و(ظ): بالصحف، وفي (د): في الصحف، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٦٩٥ ، ٢٦٩٦)، ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، وسلف ٦/ ١٤٥ و٧/ ٢٥١ . والكلام بنحوه في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٤ ، وغريب الحديث له ١/ ٧٠ .

(٤) في النسخ: وما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ لابن قتيبة، وغريب الحديث له ١/ ٧٠ ، ونسبه ابن قتيبة للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٠ برواية:

ومال الولاء بالبلاء فملتم   علينا وكان الحقُّ أن تتقربوا

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى. خصَّ أهلَ الكتابِ بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم عِلْمٌ، فإذا تفرَّقوا كان غيرهم ممَّن لا كتابَ له أَدْخَلُ في هذا الوصف.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البيِّنةُ الواضحة. والمعنيُّ به محمدٌ ﷺ، أي: بالقرآن[1] موافقاً لمَا في أيديهم من الكتاب بنَعْتِه وصِفَتِه. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوَّته، فلمَّا بُعِث جحدوا نبوَّته وتفرَّقوا، فمنهم مَن كفر بغياً وحسداً، ومنهم مَن آمَن، كقوله تعالى: ؛ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وقيل: «البينة»: البيانُ الذي في كتبهم أنه نبيٌّ مرسَلٌ. قال العلماء: مِن أوّل السورة إلى قوله «قَيِّمَةٌ»: حكمها فيمَن آمَن مِن أهل الكتاب والمشركين. وقوله: «وما تفرق»: حُكْمُه فيمَن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيامِ الحجج.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: وما أُمِر هؤلاء الكفارُ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: ليوحِّدوه. واللامُ في «لِيعبدوا» بمعنى «أنْ»، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أنْ يبيِّن، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وفي حرفِ عبدِ الله: «وما أُمِروا إلَّا أنْ يَعبدوا اللهَ»[2].

---

(١) في (م): القرآن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ .

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادةَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وفي هذا دليلٌ على وجُوب النيةِ في العبادات؛ فإنَّ الإخلاص مِن عَمَلِ القلب، وهو أن[١] يرادَ به وجهُ الله تعالى لا غيره.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: «حنفاء»: على دين إبراهيمَ عليه السلام[٢]. وقيل: الحَنِيف: مَن اخْتَتَن وحج؛ قاله سعيد بن جبير[٣]. قال أهلُ اللغةِ: وأصلُه أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام، أي: مالَ إليه.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطوها عند مَحِلِّها ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدينُ الذي أُمِروا به دِينُ القَيِّمة، أي: الدينُ المستقيم. وقال الزجَّاج[٤]: أي: ذلك دِينُ المِلَّةِ المستقيمة، و«القيِّمة» نعتٌ لموصوفٍ محذوف. أو يقال: دِينُ الأمةِ القَيِّمة بالحق، أي: القائمةِ بالحقّ.

وفي حرف عبد الله: «وذلك الدِّينُ القَيِّمة»[٥]. قال الخليل: «القَيِّمة» جمعُ القيِّم، والقيم والقائم واحد[٦].

وقال الفرَّاء: أضاف الدِّين إلى القيمة وهو نعتُه؛ لاختلاف اللَّفْظَين. وعنه أيضاً:

---

(١) في (م): وهو الذي، والمثبت من النسخ الخطية، والكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١.

(٢) ذكره الرازي ٣٢/ ٤٦ عن مجاهد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٠.

(٥) في النسخ: القيم، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والكشاف ٤/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، قال أبو حيان: فالهاء على هذه القراءة للمبالغة، أو أنث على أن عنَى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت، يريد: ما هذه الصيحة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٤.

هو من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى نفسه، ودخلت الهاءُ للمدح والمبالغة[١]. وقيل: الهاءُ راجعةٌ إلى الملَّة أو الشريعة.

وقال محمد بن الأشعث الطَّالقانيُّ[٢]: «القَيِّمة» هاهنا: الكتبُ التي جرى ذِكْرها، والدِّينُ مضافٌ إليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «المشركين»: معطوفٌ على «الَّذين»، أو يكونُ مجروراً معطوفاً على «أهل». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع وابن ذَكوان بالهمز على الأصل في الموضعين[٣]، من قولهم: بَرَأ الله الخَلْقَ، وهو البارئُ الخالق، وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [الحديد: ٢٢].

الباقون بغير همزٍ، وشدِّ الياءِ عِوضاً منه. قال الفَرَّاء[٤]: إنْ أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصلُه غيرُ الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللهُ يبرُوه بَرْوًا، أي: خَلَقه.

قال القُشَيْرِيُّ: ومَن قال البَرِية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخلُ الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّة: مِن بَرَيْت القلَم، أي: قدَّرته، فتدخل فيه الملائكة. ولكنَّه قولٌ ضعيف؛ لأنَّه يجب منه تخطئةُ مَن هَمَز.

وقولُه: «شرُّ البَرِيَّة» أي: شرُّ الخليقة؛ فقيل: يحتملُ أن يكون على التعميم. وقال

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٤، وتفسير الرازي ٣٢/ ٤٧.

(٢) قوله في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٣) السبعة ص ٦٩٣، والتيسير ص ٢٢٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (برا).

قومٌ: أي: هم شرُّ البريةِ الذين كانوا في عصر النبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] أي: على عالَمِي زمانِكم. ولا يبعدُ أن يكون في كفار الأمم قبلَ هذا مَن هو شرٌّ منهم، مثل فرعون وعاقرِ ناقةِ صالح. وكذا «خَيْرُ البَرِيَّة»: إمَّا على التعميم، أو خير بَرِيةِ عصرِهم.

وقد استدلَّ بقراءة الهمز مَن فضَّل بني آدمَ على الملائكة، وقد مضى في سورة البقرة القولُ فيه[١]. وقال أبو هريرةَ ﷺ: المؤمنُ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ من بعض الملائكة الذين عنده[٢].

قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالِقهم ومالِكهم ﴿جَنَّاتُ﴾ أي: بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة. والمفسِّرون يقولون: «جَناتُ عَدْنٍ» بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي: وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن عُدُوناً: أقام. ومَعْدِنُ الشيء: مَرْكزُه ومُسْتقَرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُسْتَضافوا إلى حُكْمِه ... يُضافوا إلى راجِحٍ قد عَدَنْ[٣]

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضِيَ أعمالَهم؛ كذا قال ابن عباس[٤]. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رَضُوا هم بثوابِ الله عزَّ وجلَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجنة ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: خاف ربَّه، فتناهَى عن المعاصي.

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه موقوفاً البيهقي في الشعب (١٥٢)، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٤٧)، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٩٩ من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، والموقوف والمرفوع في إسناديهما يزيد بن سنان أبو المهزِّم، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك.

(٣) ديوان الأعشى ص ٦٩ برواية: يضافوا إلى هادنٍ قد رَزَنْ، وهو في اللسان (وزن) برواية: عادلٍ قد وَزَنْ.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٥٦ دون نسبة.

سُورَةُ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾

مُختلَفٌ فيها، وآيُها ثمانٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليَهودِ والنَّصارى؛ فإنَّهُم كفَرُوا بالإلحادِ في صفاتِ اللهِ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: وعَبَدةِ الأصنامِ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عمَّا كانوا عليه مِن دينِهم، أو الوعدِ باتِّباعِ الحَقِّ(١) إذا جاءَهُم الرَّسُولُ.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾: الرَّسولُ أو القرآنُ؛ فإنَّه مُبيِّنٌ للحقِّ، أو مُعْجِزٌ: الرَّسولُ بأَخلاقِه، والقُرآنُ بإفحامِه مَن تَحَدَّى به(٢).

(٢) ـ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ بنَفسِه، أو بتَقديرِ مُضافٍ(٣)، أو مُبتدأٌ.

---

(١) قوله: «أو الوعد باتباع الحق» عطفٌ على «ما كانوا عليه» أو على «دينهم»، ووَعْدُهم كان كاذبًا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٢٧).

(٢) قوله: «فإنه مبين للحق» توجيه لإطلاق البينة على كل منهما بأنها صفة بمعنى اسم الفاعل، وقوله: «أو معجز..» تفسير آخر على أنّ البنية بمعناها المعروف، وهو المثبت للمدَّعَى، فالمراد بها حينئذ: الأمر المعجز، وهو إمَّا في ذات الرسول عليه الصلاة والسلام بأخلاقه وصفاته كلها، أو مجموعها الخارق للعادة، و«معجز» بالتنوين، و«الرسول» مبتدأ خبره قوله: «بأخلاقه»، و«القرآن» مبتدأ خبره «بإفحامه» أي إعجازه وإسكاته و«مَن» مفعوله. عن الشهاب.

(٣) قوله: «أو بتقدير مضاف»؛ أي: بيـِّنة رسول. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٢٧).

﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صِفتُه، أو خبرُهُ[1]، والرَّسولُ وإن كانَ أُمِّيًّا لكنَّهُ لَمَّا تلا مثلَ ما في الصُّحُفِ كان كالتَّالي لها.

وقيل: المرادُ جبريلُ.

وكَوْنُ الصُّحُفِ مُطهَّرَةً: أنَّ الباطلَ لا يأتي ما فيها، وأنَّها لا يَمسُّهَا إلَّا المُطهَّرُونَ.

(٣) ـ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مكتوباتٌ مُستقيمَةٌ ناطقَةٌ بالحَقِّ.

(٤) ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عمَّا كانوا عليه بأَنْ آمَنَ بَعضُهُم أو تردَّدَ في دينِه، أو عن وعدِهِم بالإصرارِ على الكُفْرِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فيكونُ كقَوْلِه: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وإفرادُ أهلِ الكتابِ بعدَ الجَمعِ بينَهُم وبين المُشركينَ للدَّلالةِ على شناعةِ حالِهم، وأنَّهُم لَمَّا تفرَّقُوا مَع علمِهِم كانَ غَيرُهُم بذلكَ أَوْلَى.

(٥) ـ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾؛ أي: في كُتبِهِم بما فيها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يُشرِكُونَ به ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلينَ عَن العقائدِ الزَّائغَةِ ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولكنَّهُم حَرَّفُوه وعَصَوا ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: دينُ المِلَّةِ القَيِّمةِ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، أو: في الحالِ لِمُلابسَتِهِم ما يوجِبُ ذلك، واشتراكُ الفريقينِ في جنسِ العَذابِ لا يُوجِبُ اشتراكَهُما في نوعِه، فلعلَّهُ يختَلِفُ لتفاوُتِ كُفرِهِما.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ أي: الخليقةِ، وقرأ نافعٌ: ﴿البَرِيئة﴾ بالهمزِ[2] على الأصلِ.

---

(١) قوله: «صفته أو خبره» أي: صفته إن كان بدلًا، وخبره إن كان مبتدأً، ففيه لف ونشر مرتب.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٤)، عن نافع وابن ذكوان.

(٧ ـ ٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ فيه مُبالغاتٌ: تقديمُ المَدْحِ، وذِكرُ الجزاءِ المُؤذِنِ بأنَّ ما مُنِحُوا في مُقابلَةِ ما وُصِفُوا به، والحكمُ عليه بأنَّه مِن عندِ ربِّهم، وجَمعُ ﴿جَنَّٰتُ﴾، وتَقييدُها إضافَةً ووَصْفًا[٣] بما تزدادُ لها نعيمًا[٤]، وتأكيدُ الخُلودِ بالتَّأبيدِ.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ استئنافٌ بما يكونُ لهم زيادَةً على جَزائِهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ لأنَّه بلَّغَهُم أقصى أمانيِّهم ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكورُ مِن الجزاءِ والرِّضوانِ ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ فإنَّ الخشيةَ مِلاكُ الأمرِ والباعِثُ على كلِّ خيرٍ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ كان يومَ القِيامَةِ مَع خيرِ البريَّةِ مَساءً ومَقيلًا»[٥].

* * *

---

(٣) في نسخة التفتازاني: «ووصفها»، وهو موافق لما في «حاشيي القونوي» (٢٠/ ٣٨٥).

(٤) قوله: «بما تزداد لها نعيما»؛ أي: بصفة تزداد الجنة «لها»؛ أي: لأجلها -أي: لأجل الوصف بهذه الصفة أو لأجل الاتصاف بها- نعيماً.

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٣٨)، بلفظ: «...مع خير البرية مسافراً ومقيماً»، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

عن أنس بن مالك قال؛ قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ »قال: وسماني لك؟ قال: «نعم»، فبكى(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، قال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن. ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فسر البينة بقوله: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة ۞ مرفوعة مطهرة ۞ بأيدي سفرة ۞ كرام بررة﴾. وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة. ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عزَّ وجلَّ، قال قتادة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر. ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد: ﴿فيها كتب قيمة﴾ مستقيمة معتدلة. وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا. بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كبيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدونِ﴾، ولهذا قال: ﴿حنفاء﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته هاهنا، ﴿ويقيموا الصلاة﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أولئك هم خير البرية﴾، ثم قال تعالى: ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم القيم ﴿ورضوا عنه﴾ فيما منحهم من الفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، «ألا أخبركم بخير البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله ولا يعطي به»[1].

[آخر تفسير سورة البينة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.

تفسير سورة لم يكن

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ــ وهو ابن سلمة ــ أخبرنا على ــ هو ابن زيد ــ عن عمار بن أبى عمار قال : سمعت أبا حَيَّة البدرى ــ وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى ــ قال : لما نزلت : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ إلى آخرها ،قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَياً . فقال النبى ﷺ لأُبى : « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » . قال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبى [(١)] .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث شعبة ، به [(٢)].

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقرى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبْزَى ، عن أبيه ، عن أبى بن كعب قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنى أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يا رسول الله ، وقد ذُكرتُ هناك ؟ قال : « نعم» . فقلت له : يا أبا المنذر ، فَفَرحت بذلك . قال : وما يمنعنى والله يقول : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس:٥٨] . قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة فى الحديث؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه [(٣)] .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بَهْدَلَة ، عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن » . قال : فقرأ : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه [(٤)] ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه [(٥)] لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره .

---

(١) المسند (٣/٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) وصحيح البخارى (٤٩٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/١٢٣) .

(٤ ، ٥) فى أ : « فأعطيته » .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، به [١]. وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن خليد الحلبى ،حدثنا محمد بن عيسى الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبى بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن » . قال : بالله آمنت ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبى ﷺ القول . [قال] [٢] : فقال : يارسول الله ، أذكرت هناك ؟ قال : « نعم ، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى » . قال : فاقرأ إذاً يارسول الله [٣] .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبى ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه ــ كما رواه أحمد والنسائى ،من طريق أنس ، عنه[٤]، ورواه أحمد وأبو داود ، من حديث سليمان بن صُرَد عنه [٥] ، ورواه أحمد عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت ، عنه [٦]، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عنه [٧] ، كان قد أنكر على إنسان ،وهو : عبد الله بن مسعود ، قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبى ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : « أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : فَفِضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت :« أسأل الله معافاته ومغفرته ». فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿ **رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، والله أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» . قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ، ومُطوِّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبى ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ **لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ الآية [الفتح:٢٧] ، كما تقدم .

وروى الحافظ أبو نُعَيم فى كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفرى المدنى:

(١) المسند (٥/ ١٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٣) .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) المعجم الكبير (١/ ٢٠٠) .
(٤) المسند (٥/ ١٢٢) وسنن النسائى (٢/ ٥٤) .
(٥) المسند (٥/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٧) .
(٦) المسند (٥/ ١١٤).
(٧) المسند (٥/ ١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (٢/ ١٥٣) .

حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبى حكيم المدنى ، حدثنى فُضَيل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فيقول : أبشر عبدى، فوعزتى لأمكننه (١) لك فى الجنة حتى ترضى » .

حديث غريب جداً . وقد رواه الحافظ أبو موسى المدينى وابن الأثير ، من طريق الزهرى ، عن إسماعيل بن أبى حكيم ، عن نَظير المزنى ـ أو : المدنى ـ عن النبى ﷺ: « إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ويقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾ .

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعنى: منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة.

﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى :﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٣ـ ١٦] .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة : عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .

قال قتادة : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء.

وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) فى م : « لأملأن » ، وفى أ : « لأمكنن » .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير (٥٤٩/٤) وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٥٢٨/٣) من طريق أبى موسى ، وهى من طريق محمد بن إسماعيل بن جعفر ، عن عبد الله بن سلمة ، عن الزهرى به ، وقال: « عبد الله بن سلمة واهى الحديث » .

كالَّذينَ تفرَّقُوا واخْتَلفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبيِّنَاتُ وأُولَئكَ لهُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » (١).

وقوله : ﴿ ومَا أُمرُوا إلاَّ ليَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلصينَ لَهُ الدّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْه أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنبُوا الطَّاغُوت ﴾ [النحل:٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام» (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

﴿ وَيُقيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهى أشرف عبادات البدن، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء (٣) والمحاويج . ﴿ وَذَلكَ دينُ الْقَيِّمَة ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمرُوا إلاَّ ليَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلصينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَاءَ وَيُقيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلكَ دينُ الْقَيِّمَة ﴾ .

﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَالْمُشْرِكينَ فى نَارِ جَهَنَّمَ خَالدينَ فيهَا أُوْلَئكَ هُمْ شَرُّ الْبَريَّة (٦) إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات أُوْلَئكَ هُمْ خَيْرُ الْبَريَّة (٧) جَزَاؤُهُمْ عندَ رَبّهمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى من تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا أَبَدًا رَّضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلكَ لمَنْ خَشيَ رَبَّهُ (٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة ﴿ فى نَارِ جَهَنَّمَ خَالدينَ فيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَئكَ هُمْ شَرُّ الْبَريَّة ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها .

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ــ الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ــ بأنهم خير

(١) جاء هذا الحديث من حديث أبى هريرة ، وأنس ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن عوف المزنى ، وعوف بن مالك ، وأبى أمامة ، وجابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهم ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هو حديث صحيح مشهور » وانظر : تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/٤٤٧ ــ ٤٥٠) .

(٢) عند تفسير الآية : ١٦١ .

(٣) فى أ : « الفقير » .

البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية [١] على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر ، عن أبى وهب ـ مولى أبى هريرة ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما كانت هَيْعَة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل فى ثُلَّة من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ألا أخبركم بشر[٢] البرية ؟ » . قالوا: بلى . قال : « الذى يَسأل بالله، ولا يُعطى به » [٣] .

آخر تفسير سورة « لم يكن » [٤]

(١) فى أ : « من البشر » . (٢) فى أ : « بخير » .
(٣) المسند (٢/٣٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٧٩) : « أبو معشر ـ نجيح ـ ضعيف ، وأبو معشر (كذا فيه ، والصواب : أبو وهب) مولى أبى هريرة لم أعرفه » .
(٤) فى م : « آخر تفسيرها » .

سورة البيّنة[1]

مدنيّة،[2] وهي ثماني آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنّصارى. وإيرادُهم بذلك العنوان للإشعار بعلّة ما نُسب إليهم مِن الوعد باتّباع الحقّ، فإنّ مناط ذلك وجدانهم له في كتابهم. وإيرادُ الصلة فعلًا لِما أنّ كفرهم حادث بعد أنبيائهم. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبدةِ الأصنام، وقُرئ: "وَالمُشْرِكُونَ"[3] عطفًا على الموصول ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: عمّا كانوا عليه مِن الوعد باتّباع الحقّ والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان والعزم على إنجازه.

وهذا الوعد مِن أهل الكتاب ممّا لا ريبَ فيه، حتّى إنّهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللّهمّ افتح علينا وانصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم مِن المشركين: قد أظلّ زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قَتْل عاد وإرَم، وأمّا مِن المشركين فلعلّه قد وقع مِن متأخِّريهم بعد ما شاع ذلك مِن أهل الكتاب، واعتقدوا صحّته بما شاهدوا مِن نصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنّهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هل هو المذكور في كتابهم، وكانوا يغرُّونهم بتغيير نعوته عليه السلام.

---

١ س: القيّمة.

٢ س: مكّيّة، وقيل مدنيّة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤١.

وانفكاك الشيء مِن الشيء أن يُزايله بعد التحامه، كالعَظْم إذا انفكّ مِن مفصله، وفيه إشارة إلى كمال وَكَادة وعدهم، أي: لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور؛ بل كانوا مُجمعين عليه، عازمين على إنجازه.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي كانوا قد جعلوا إتيانها مِيقاتًا لاجتماع الكلمة والاتّفاق على الحقّ، فجعلوه مِيقاتًا للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد. والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حالِ المحكيّ لا باعتبار حال الحكاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة، ١٠٢/٢] أي: تلَت.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، عُبِّر عنه عليه السلام بالبيّنة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: رسول وأيّ رسول كائن منه تعالى؟

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ﴾ صفة أخرى له، أو حال مِن الضمير في متعلَّق الجارّ. ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: منزَّهةً مِن الباطل، لا يأتيه مِن بين يديه ولا مِن خلفه، ومِن أن يمسّه غيرُ المطهَّرين. ونسبةُ تلاوتها إليه عليه السلام مِن حيث إنّ تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ صفة لـ﴿صُحُفًا﴾ أو حال مِن ضميرها في ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، ويجوز أن يكون الصفةُ أو الحالُ الجارَّ والمجرورَ فقط و﴿كُتُبٌ﴾ مرتفعًا به على الفاعلية.[١] ومعنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحقّ والصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾... إلى آخره، كلام مسوق لغاية تشنيعِ أهل الكتاب خاصّة وتغليظِ جناياتهم، ببيان أنّ ما نُسِب إليهم مِن الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ ما في الأمر؛ بل كان بعد وضوح الحقّ وتبيُّن الحال وانقطاعِ الأعذار بالكلّيّة، وهو السرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكُّنهم مِن مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه مِن الأحكام والأخبار التي مِن جملتها

---

[١] الوجه في اللباب لابن عادل، ٤٣٨/٢٠.

نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد ذِكرهم فيما سبَق بما هو جارٍ مَجرى اسم الجنس للطائفتين.

/ ولمّا كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتّفاقهم على الرأي المذكور في حُكم [٣١٢ظ] فريق واحد عُبّر عمّا صدر عنهم عَقيب الاتّفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفيّة وقوعه بالتفرّق اعتبارًا لاستقلال كلٍّ مِن فريقَي أهل الكتاب، وإيذانًا بأنّ انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس[1] بطريق الاتّفاق على رأي آخر؛ بل بطريق الاختلاف القديم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرَّقوا في وقت مِن الأوقات إلّا مِن بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة الدالّة على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو الموعود في كتابهم دلالةً جليّةً لا ريبَ فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [آل عمران، ١٩/٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة حاليّة مفيدة لغاية قبح ما فعلوا، أي: والحال أنّهم ما أُمِروا بما أُمِروا في كتابهم إلّا لأجل أن يعبدوا الله. وقيل: "اللام" بمعنى "أن"، أي: إلّا بأن يعبدوا الله، ويعضده قراءة "إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ".[2]

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصًا له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصةً له تعالى في الدِّين. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إن أُريدَ بهما ما في شريعتهم مِن الصلاة والزكاة فالأمرُ ظاهر، وإن أُريدَ ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أنّ أمرهم باتّباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما مِن جملتها.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار / بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته. ﴿دِينُ [٢٨٢ظ] ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دِين المِلّة القيِّمة. وقُرئ: "الدِّينُ القَيِّمَةُ"[3] على تأويل الدِّين بالمِلّة.

---

[1] س – ليس.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١-٥٩٢. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١.

هذا، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ حكايةٌ لِما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام: مِن أنّهم لا ينفكُّون مِن دِينهم إلى مبعثه، ويعِدون أن ينفكّوا منه حينئذ، ويتّفقوا على الحقّ.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾... إلى آخره، بيان لإخلافهم الوعدَ، وتعكيسهم الأمرَ، بجَعْلهم ما هو سبب لانفكاكهم مِن دينهم الباطل حسبما وعدوه سببًا لثباتهم عليه وعدمِ انفكاكهم منه. / ومُثِّل ذلك بأن يقول [٣١٣و]
الفقير الفاسق لمَن يعِظه: "لا أنفكّ ممّا أنا فيه حتّى أستغنيَ"، فيستغني فيزداد فِسقًا، فيقول له واعظه: "لم تكن منفكًّا عن الفِسق حتّى توسِر، وما عكفتَ على الفسق إلّا بعد اليسار".[2]

وأنت خبير بأنّ هذا إنّما يتسنّى بعد اللّتيّا والتي،[3] على تقدير أن يُراد بالتفرّق تفرُّقُهم عن الحقّ، بأن يقال: "التفرّق عن الحقّ مستلزمٌ للثبات على الباطل"، فكأنّه قيل: وما أجمعوا على دينهم إلّا مِن بعد ما جاءتهم البيّنة. وأمّا على تقدير أن يُراد به تفرُّقهم فِرقًا فمنهم مَن آمَن، ومنهم مَن أنكر، ومنهم مَن عرف وعاند، كما جوّزه القائل، فلا. فتأمَّل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، وذِكرُ المشركين لئلّا يُتوهَّم اختصاص الحُكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدةِ شواهد النبوّة في الكتاب بهم، ومعنى كونهم فيها أنّهم يصيرون إليها يوم القيامة.

---

١ القول بمعناه في اللباب لابن عادل، ٤٣٤/٢٠.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩١/٤.

٣ اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

وإيراد الجملة الاسميّة للإيذان بتحقّق مضمونها لا محالةَ، أو أنّهم فيها الآن إمّا على تنزيل مُلابستهم لِما يُوجِبها منزلة ملابستهم لها، وإمّا على أنّ ما هم فيه مِن الكفر والمعاصي عينُ النار إلّا أنّها ظهرت في هذه النشأة بصور عرضيّة، وستخلعها في النشأةِ الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقيّة، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٩/٤٩]، وفي سورة الأعراف.[١]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال مِن المستكنّ في الخبر، واشتراكُ الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفيّة، فإنّ جهنّم دركاتٌ وعذابَها ألوانٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بما هم فيه مِن القبائح المذكورة، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخليقة، أي: أعمالًا، وهو الموافق لِما سيأتي في حقّ المؤمنين، فيكون في حيّز التعليل لخلودهم في النار، أو شرُّهم مقامًا ومصيرًا، فيكون تأكيدًا لفظاعة حالهم. وقُرئ بـ"الهمز"[٢] على الأصل.

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثرَ [٣١٣ظ]
بيان سوء حال الكفرة جريًا على السنّة القرآنيّة مِن شفع الترهيب بالترغيب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية مِن الشرف والفضيلة مِن الإيمان والطاعة ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقُرئ: "خِيَارُ البَرِيَّةِ"،[٣] وهو جمع "خيّر"، نحو "جيّد" و"جِيَاد".

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بمقابلة ما لهم مِن الإيمان والطاعات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إن أريدَ بالجنّات الأشجار الملتفّة الأغصان كما هو الظاهر، فجريان الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن أريدَ بها مجموع الأرض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر، وأيًّا ما كان فالمراد جريانها بغير أُخدُودٍ.

---

١ وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٧/٨]. «منه».

٢ قرأ بها نافع وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٧، ٢/٤٠٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبد الواحد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ متنعِّمين بفنون النِّعم الجسمانيّة والروحانيّة. وفي تقديم مدحِهم بخيريّة البريّة، وذِكرِ الجزاء المؤذِن بكون ما منحوه في مقابلة ما وُصفوا به، وبيانِ كونه مِن عنده تعالى، والتعرّضِ لعنوان الربوبيّة المنبئة عن التربية، والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم، وجمعِ الجنّات وتقييدها بالإضافة، وبما يزيدها نعيمًا، وتأكيدِ الخُلودِ بالأُبود، مِن الدلالة[1] على غاية حُسن حالهم ما لا يخفى.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف مبيّن لِما يتفضّل عليهم زيادةً على ما ذُكر مِن أجزيَة أعمالِهم. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ حيث بلغوا مِن المطالب قاصيتَها، ومَلَكوا مِن المآرب ناصيتَها، وأتيحَ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإنّ الخشية التي هي مِن خصائص العلماء بشئون الله عزّ وجلّ مناطٌ لجميع الكمالات العِلميّة والعمليّة المستتبِعة للسعادة الدينيّة والدنيويّة. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المعربة عن المالكيّة والتربية للإشعار بعِلّة الخشية والتحذير مِن الاغترار بالتربية.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ كان يوم القيامة مع خير البريّة مساءً ومقيلًا».[2]

---

[1] السياق: وفي تقديم... ما لايخفى...

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٤/٣٠ (البينة، ١/٩٨)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٨/٤ (البينة، ١/٩٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٨

سورة ﴿لَم يَكُن﴾

مكية أو مدنية، ثمانُ أو تسعُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿لَم يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾ ـ للبيان ـ ﴿أهلِ الكِتابِ والمُشرِكِينَ﴾ أي: عَبَدةِ الأصنام، عطفٌ على «أهل»، ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبرُ «يكن» أي: زائلين عمّا هم عليه ﴿حَتَّى تأتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿البَيِّنَةُ﴾ أي: الحُجّة الواضحة، ٢ ـ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾: بدلٌ من: البيّنة ـ وهو النبيّ محمدٌ ـ ﴿يَتلُو صُحُفًا مُطَهَّرةً﴾ من الباطل، ٣ ـ ﴿فِيها كُتُبٌ﴾: أحكام مكتوبة ﴿قَيِّمةٌ﴾: مستقيمة، أي: يتلو مضمونَ ذلك ـ وهو القُرآن ـ فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

٤ ـ ﴿وما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ في الإيمان به ﷺ ﴿إلاّ مِن بَعدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ﴾.........

سورَة ﴿لَم يَكُن﴾

وفي نُسخة: سُورَةُ البَيِّنَة

قولُهُ: (عَمَّا هُم عَلَيهِ) من دينِهم، أو من الوَعدِ باتِّباعِ الحقِّ إذا جاءَهُم الرَّسولُ.

قولُهُ: (الوَاضِحَةُ) أو المبيِّنَةُ للحقِّ.

قولُهُ: (وهوَ النَّبِيُّ) أو القُرآنُ.

قولُهُ: (مِنَ البَاطِلِ) أو لأنَّها لا يمسُّهما إلا المطهَّرونَ.

قولُهُ: (مُستَقِيمَةٌ) ناطقَةٌ بالحقِّ.

قولُهُ: (فَمِنهُم) أي: من أهلِ الكِتابِ والمشرِكينَ، أو من المتلوِّ عليهِم.

قولُهُ: (مِنَ الإِيمَانِ) وفي نُسخةٍ: «في»، وهو الظَّاهرُ، والمعنى: ما تفرَّقوا عمَّا كانوا عليهِ بأن آمَنَ بعضُهُم، أو عن وعدِهِم بالإصرارِ على الكُفرِ.

أي: هو ﷺ أو القُرآنُ الجائي به مُعجزةً له، وقبل مجيئه ﷺ كانوا مُجتمعين على الإيمان به إذا جاء، فحسَدَه مَن كفر به منهم، ٥ ـ ﴿وما أُمِرُوا﴾ في كتابَيهم التوراةِ والإنجيل ﴿إلا لِيَعبُدُوا اللهَ﴾ أي: أن يعبدوه ـ فحُذفت «أن» وزِيدت اللام ـ ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿حُنَفَاءَ﴾: مستقيمين على دين إبراهيمَ، ودين محمدٍ إذا جاء، فكيف كفروا به؟ ﴿ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ. وذلِكَ دِينُ﴾ المِلّةِ ﴿القَيِّمةِ﴾: المستقيمة.

٦ ـ ٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشرِكِينَ في نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها﴾: حالٌ مُقدَّرة، أي: مُقدَّرًا خلودُهم فيها من الله ـ تعالى ـ ﴿أُولئِكَ هُم شَرُّ البَرِيَّةِ. إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُم خَيرُ البَرِيَّةِ﴾: الخليقة، ٨ ـ ﴿جَزاؤُهُم عِندَ رَبِّهِم جَنّاتُ عَدنٍ﴾: إقامة، ﴿تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا، رَضِيَ اللهُ عَنهُم﴾ بطاعته ﴿ورَضُوا عَنهُ﴾ بثوابه. ﴿ذلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ﴾: خاف عِقابه فانتهى عن معصيته.

قولُهُ: (فحَسَدَه) فيكونُ كقولِهِ: ﴿وكَانُوا من قَبلُ يَستَفتِحُونَ على الذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، وإفرادُ أهلِ الكِتابِ بعدَ الجمعِ بينهم وبينَ المشرِكينَ؛ للدَّلالَةِ على شَناعَةِ حالِهِم، وأنَّهم لمَّا تفرَّقوا مع علمِهِم كان غيرُهُم بذلك أولى.

قولُهُ: (أَن يَعبُدُوهُ) أي: بعبادَتِه.

قولُهُ: (مُستَقِيمِينَ) مائلِينَ عن الأديانِ الزَّائغَةِ.

قولُهُ: (المِلَّةِ) وإنَّما احتيجَ إلى تقديرِها رعايَةً لمذهبِ البصريِّينَ(١).

قولُهُ: (الخَلِيقَةِ) الأولى تفسيرُ الموضِعِ الأوَّل، وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوانَ بالهَمزِ على الأصلِ في الموضِعَين(٢).

قولُهُ: (بطَاعَتِهِ) أو بفَضلِهِ.

قولُهُ: (بثَوَابِهِ) أو بقضائِهِ.

قولُهُ: (خَافَ عِقَابَهُ) الخَشيَة: خَوفٌ مع التَّعظيمِ.

قولُهُ: (فانتَهَى عَن مَعصِيَتِه) وامتثَلَ طاعَتَهُ، أو الثَّاني مُندرِجٌ في الأوَّلِ، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ الخشيَةَ التي لا تُورِثُ الانتِهاءَ عن المعصيَةِ غيرُ مُعتبرَةٍ، بل هي أُمنيَّةٌ وغرَّةٌ، والله تعالى أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٩).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٢٤).

سُورَةُ البَيِّنَةِ

وتسمَّى: سورةَ القيامة، وسورةَ البلد، وسورةَ المنفكِّين، وسورة البَرِيَّة، وسورة لم يكن.

قال في «البحر»: مكيةٌ في قول الجمهور، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار: مدنية؛ قاله ابن عطية. وفي كتاب «التحرير»: مدنية، وهو قول الجمهور. ورَوَى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية[1]، واختاره يحيى بن سلام[2]. انتهى.

وقال ابن الفرس[3]: الأشهر أنها مكية. ورواه ابن مردويه[4] عن عائشة.

وجزم ابن كثير[5] بأنها مدنيةٌ، واستَدَلَّ على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد وابن قانع في «معجم الصحابة» والطبرانيُّ وابن مردويه عن أبي حبَّةَ[6] البدريِّ قال: لَمَّا نزلت: (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ) إلى آخرها قال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، إنَّ ربك يأمرك أن تُقْرِئها أُبَيًّا. فقال النبيُّ ﷺ لأُبيٍّ ﵁: «إنَّ جبريل عليه السلام أمرني أن أُقْرِئكَ هذه السورةَ» فقال أبيٌّ: أَوَقَد ذُكرتُ ثَمَّ يا رسول الله؟! قال: «نعم»، فبكى[7]. وهذا هو الأصح.

---

(١) جاء في هامش الأصل: وروى ابن مردويه عنه أنها مدنية.

(٢) البحر ٨/ ٤٩٨، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٣) كما في الإتقان ١/ ٤١.

(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧.

(٥) عند تفسير هذه السورة، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإتقان ١/ ٤١.

(٦) في الأصل و(م): خيثمة، وهو تصحيف، وأبو حبة اختلف في اسمه، ينظر توضيح المشتبه ٣/ ٨٠.

(٧) مسند أحمد (١٦٠٠٠)، ومعجم الصحابة ٣/ ٤٨، والمعجم الكبير ٢٢/ (٨٢٣). وله شاهد من حديث أنس ﵁ عند البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩): (٢٤٦).

وآيُها تسعٌ في البصري وثمان في غيره[١].

وجاء في فضلها ما أخرجه أبو موسى المدينيُّ[٢] في «المعرفة» عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن نُظَير[٣] المزني أو المدني، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يسمع قراءة (لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) فيقول: أبشر عبدي، فَوَعِزَّتي لا أنساك[٤] على حالٍ من أحوال الدنيا والآخرة، ولأُمكِّنَنَّ لك في الجنة حتى ترضى»[٥].

ووَجْهُ مناسبتها لِمَا قبلها: أنَّ قوله تعالى فيها: (لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ) إلخ كالتعليل لإنزال القرآن، كأنه قيل: إنَّا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكِّين عن كفرهم حتى يأتيهم رسولٌ يتلو صحفاً مطهَّرةً وهي ذلك المنزل، فلا تغفل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنصارى، وإيرادُهم بذلك العنوان؛ قيل: لإعظام شناعة كفرهم. وقيل: للإشعار بعلَّةِ ما نُسب إليهم من الوعد باتِّباع الحق، فإنَّ مناط ذلك وجدانُهم له في كتابهم، وهو مبنيٌّ على وجهٍ يأتي إن شاء الله تعالى في الآية بعدُ. وإيرادُ الصلة فعلاً لِمَا أنَّ كفرهم حادثٌ بعد أنبيائهم عليهم السلام بالإلحاد في صفات الله عز وجل.

و«من» للتبعيض كما قال عَلَمُ الهدى الشيخُ أبو منصور الماتُريديُّ في «التأويلات»[٦] لا للتبيين؛ لأنَّ منهم مَن لم يكفر بعدَ نبيِّه، وكان على الاعتقاد

---

(١) في هامش الأصل: اختلافها ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بصري.

(٢) كما في أسد الغابة ٥/ ٣٢٥، وتفسير ابن كثير، والإصابة ١٠/ ١٥٦، والدر المنثور ٦/ ٣٧٧، وعنه نقل المصنف.

(٣) في الأصل و(م) والدر: مطر، والمثبت من باقي المصادر، وهو الصواب.

(٤) في الأصل و(م): أسألك، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٥) حديث ضعيف، في إسناده عبد الله بن سلمة، وهو واهي الحديث كما ذكر الحافظ في الإصابة ١٠/ ١٥٧.

(٦) ٥/ ٤٩٩.

الحقِّ حتى تَوفَّاه الله تعالى، وعُدَّ من ذلك الملكانية من النصارى؛ فقيل: إنهم كانوا على الحقِّ قبل بعثة رسول الله ﷺ، والتبيينُ يقتضي كفرَ جميعهم قبل البعث، والظاهرُ خلافُه.

وأيِّد إرادةُ التبعيض بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنَّ المراد بأهل الكتاب اليهودُ الذين كانوا بأطراف المدينة من بني قريظة والنضير وبني قينقاع.

وقال بعضٌ: لا نسلِّم أنَّ التبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث؛ لجوازِ أن يكون التعبير عنهم بـ «الذين كفروا» باعتبارِ حالِهم بعد البعثة، كأنه قيل: لم يكن هؤلاء الكفرةُ، وبُيِّنوا بأهل الكتاب ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهم مَن اعتقدوا لله سبحانه شريكاً صنماً أو غيرَه، وخصَّهم بعضٌ بعَبَدةِ الأصنام لأنَّ مشركي العرب الذين بمكة والمدينة وما حولها كانوا كذلك، وهم المقصودون هنا على ما روي عن الحبر.

وأيًّا ما كان فالعطفُ على «أهل الكتاب»، ولا يلزم على التبعيض أن لا يكون بعضهم كافرين ليجب العدولُ عنه للتبيين؛ لأنهم بعضٌ من المجموع كما أفاده بعض الأجلَّة.

واحتمالُ أن يراد بالمشركين أهلُ الكتاب، وشركُهم لقولهم: المسيح ابن الله، وعزيرٌ ابن الله، تَعالَى الله عن ذلك علوًّا كبيراً، والعطفُ لمغايرة العنوان = ليس بشيء.

وقرئ: «والمشركون» بالرفع عطفاً على الموصول[1]. وحَمْلُ قراءة الجمهور على ذلك، واعتبارُ أنَّ الجرَّ للجوار، لا يَخْفَى حالُه.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من ضمير «كفروا»، وقولُه تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبر «يكن». والانفكاكُ في الأصل: افتراقُ الأمور الملتحمة بنوعِ مزايلةٍ، وأُريدَ به المفارقةُ لِمَا كانوا عليه مما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

فالوصف اسمُ فاعلٍ من «انفكَّ» التامةِ دون الناقصةِ الداخلةِ على المبتدأ

(١) تفسير القرطبي ٤٠٩/٢٢ عن الأعمش وإبراهيم، وهي في البحر ٤٩٨/٨ دون نسبة.

والخبر، وزعم بعض النحاة أنه وصفٌ منها والخبرُ محذوف، أي: واعِدينَ اتِّباعَ الحقِّ، أو نحوه. وتعقِّب ـ مع كونه خلاف الظاهر ـ بأنَّ خبر «كان» وأخواتها لا يجوز حذفه في السعة لا اقتصاراً ولا اختصاراً، وحين ليس مجيرٌ ـ أي: في الدنيا ـ ضرورةٌ(١).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ متعلِّقٌ بـ «منفكِّين»، و«البينة» صفةُ اسم الفاعل، أي: المبينُ للحقِّ، أو هي بمعناها المعروف: وهو الحجةُ المثبِتة للمدَّعَى، ويراد بها المعجِزُ.

وعلى الوجهين فقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بدلٌ منها بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو خبرٌ لمقدَّرٍ، أي: هي رسولٌ، وتنوينُه للتفخيم، والمراد به نبيُّنا ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة له مفيدٌ للفخامة الإضافية، فهو مؤكِّدٌ لِمَا أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صفةٌ أخرى له، أو حالٌ من الضمير في صفته الأولى كما أن قوله سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ «صحفاً» أو حالٌ من الضمير في صفتها الأولى، أعني «مطهَّرة»، ويجوز أن يكون الصفةُ أو الحال هنا الجارَّ والمجرورَ فقط، و«كُتُبٌ» مرتفعاً على الفاعلية.

وإطلاق البينة عليه عليه الصلاة والسلام على المعنى الأول ظاهرٌ، وعلى المعنى الأخير باعتبارِ أن أخلاقه وصفاته ﷺ كانت بالغةً حدَّ الإعجاز كما قال الغزالي في «المنقذ من الضلال»(٢)، وأشار إليه البوصيريُّ بقوله:

كفاك بالعلم في الأميِّ معجزةً ... في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتْمِ

ويُعلم منه حكمةُ جَعْلِه عليه الصلاة والسلام يتيماً. أو باعتبارِ كثرةِ معجزاته ﷺ غير ما ذكر وظهورِها.

---

(١) يشير إلى البيت الذي سلف عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الكهف، وهو:

لهفي عليك كلهفةٍ من خائف ... يبغي جوارك حين ليس مُجيرُ

(٢) ينظر ما ورد فيه ص١٦٤.

وجوِّز أن يراد بالبيِّنة القرآنُ لأنه مبينٌ للحق، أو معجزٌ مثبِتٌ للمدَّعَى، وروي ذلك عن قتادة وابن زيد، و«رسول» عليه قيل: بدلُ اشتمالٍ، أو بدلُ كلٍّ من كلٍّ أيضاً بتقدير مضافٍ، أي: بينةٌ أو وحيٌ أو معجزٌ أو كتابُ رسولٍ، أو هو خبرُ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هي رسولٌ، ويقدَّر معه مضافٌ كما سمعتَ.

وجوِّز أن يكون «رسول» مبتدأً لوَصْفِه، وخبرُه جملةُ «يتلو» إلخ، وجملةُ المبتدأ وخبرِه مفسِّرةٌ للبيِّنة، وقيل: اعتراضٌ لمدحها. وقيل: صفةٌ لها مراداً بها القرآنُ، ويراد بالصحف المطهَّرة البينة[1]، وقد وُضعت موضعَ ضميرها فكانت الرابطَ.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله: «رسولاً» بالنصب على الحالية من «البينة»[2].

والصحف جمعُ صحيفةٍ، وكذا الصِّحاف: القراطيس التي يُكتب فيها، وأصلها: المبسوطُ من الشيء، والمراد بتطهيرها: تنزيهُها عن الباطل على سبيل الاستعارة المصرِّحة، ويجوز أن يكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ. أو: تطهيرُ مَن يمسُّها على التجوُّز في النسبة، فكأنه قيل: صحفاً لا يمسُّها إلا المطهَّرون.

والمراد بالكتب: المكتوبات، وبالقيِّمة: المستقيمة، واستقامتُها نُطقُها بالحق. وفي «التيسير»: هي كتب الأنبياء عليهم السلام، والقرآنُ مصدِّقٌ لها، فكأنها فيه.

ووَصْفُه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة ـ بناءً على المشهور من أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ الكتاب، كما أنه ﷺ لم يكن يكتب[3] ـ من باب التجوُّز في النسبة إلى المفعول؛ لأنه ﷺ لَمَّا قرأ ما فيها فكأنه قرأها. وقيل: على تقدير مضافٍ، أي: مثلَ صحفٍ.

---

(١) في هامش الأصل: قال الراغب: قيل: جعل القرآن صحفاً فيها كتبٌ من أجل تضمُّنه لزيادةٍ على ما في كتب الله تعالى المتقدمة.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، والكشاف ٤/ ٢٧٤، والبحر ٨/ ٤٩٨.

(٣) في هامش الأصل: مقابِلُه قولُ أنه كان يقرأ ولا يكتب، وقول أنه عليه الصلاة والسلام كان كِلا الأمرين له في آخر الأمر.

وقيل: في ضمير «يتلو» استعارةٌ مكنيةٌ بتشبيهه عليه الصلاة والسلام ـ لتلاوته مِثْلَ ما فيها ـ بتاليها، أو الصحفُ مجازٌ عما فيها بعلاقة الحلول، ففي ضمير «فيها» استخدامٌ[1]؛ لعَوْده على الصحف بالمعنى الحقيقي.

وقيل: المراد بالرسول جبريل عليه السلام، وبالصحف صحفُ الملائكة عليهم السلام المنتَسخةُ من اللوح المحفوظ، وبتطهيرها ما سبق، والمراد بتلاوته عليه الصلاة والسلام إياها ظاهرٌ، وجَعْلُها مجازاً عن وَحْيِهِ إياها غيرُ وجيهٍ.

والأولى حَمْلُ الرسول على النبيِّ ﷺ، وهو المرويُّ عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما.

وقد اختلفوا في المعنى المراد بالآية اختلافاً كثيراً، حتى قال الواحديُّ في كتاب «البسيط»[2]: إنها من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً. وبُيِّن ذلك[3] ـ بناءً على أنَّ الكفر وصفٌ لكلٍّ من الفريقين قبل البعثة ـ بأنَّ الظاهر أنَّ المعنى: لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكِّين عمَّا هم عليه من الكفر حتى يأتيهم الرسول ﷺ، و«حتى» لانتهاء الغاية، فتقتضي أنهم انفكُّوا عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ، وهو خلافُ الواقع، ويناقضُه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ فإنه ظاهرٌ في أنَّ كفرهم قد زاد عند ذلك.

فقال جار الله: كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث: لا ننفكُّ عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث الله تعالى النبيَّ الموعود الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، وهو محمدٌ ﷺ، فحَكَى الله تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ، يعني أنهم كانوا يَعِدُون اجتماعَ الكلمة والاتِّفاقَ على الحقِّ إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرَّقهم عن الحق وأقرَّهم على الكفر إلا مجيئُه، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يَعِظُه: لستُ بمنفكٍّ مما أنا فيه حتى يرزقني الله

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) كما في تفسير الرازي ٣٢/ ٣٨، وقاله أيضاً في الوسيط ٤/ ٥٣٩.

(٣) المبيِّن هو الرازي في تفسيره ٣٢/ ٣٨.

تعالى الغِنَى. فيرزقُه الله عز وجل ذلك فيزدادُ فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكًّا عن الفسق حتى تُوْسِرَ، وما غمستَ رأسك في الفسق إلا بعد اليسار. يذكِّرُه ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً[(١)].

وحاصله: أنَّ الأول من باب الحكاية لزَعْمِهم، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ إلزامٌ عليهم؛ حَكَى الله تعالى كلامهم على سبيل التوبيخ والتعيير، فقال: هذا هو الثمرةُ، وظاهره أنه أراد بتفرُّقهم: تفرُّقَهم عن الحق، وحُمِلَ على الثبات على الكفر والباطل لاستلزامه إياه. وعدمُ التعرُّضِ للمشركين في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ لعِلْمِ حالهم من حال الذين أوتوا الكتاب بالأَوْلَى.

وقيل[(٢)] ـ وهو قريبٌ من ذاك من وجه، وفيه إيضاحٌ له من وجه ـ: أي: لم يكونوا منفكِّين عما كانوا عليه من الوعد باتِّباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتاً للاجتماع والاتفاق، فجعلوه[(٣)] ميقاتاً للانفكاك والافتراق، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ. وفي التعبير بـ «منفكين» إشارةٌ إلى وكادة وعدهم، وهو من أهل الكتاب مشهورٌ، حتى إنهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبيِّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: وقد أَظلَّ زمانُ نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرمَ. ومن المشركين لعله وقع من متأخِّريهم بعدما شاع [ذلك] من أهل الكتاب واعتقدوا صحته مما شاهدوا ـ مثلاً ـ من بعض مَن يوثَقُ به بينهم من قومهم كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد كان يتطلَّب نبيًّا من العرب، ويقول: قد أظلَّ زمانُه، وأنه من قريش، بل من بني هاشم، بل من بني عبد المطلب. ويشهد لذلك أنهم قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام سمَّى منهم غيرُ واحدٍ ولدَه بمحمد رجاء أن يكون النبيَّ المبعوث، والله أعلم حيث يجعل رسالته. والتعبيرُ عن إتيانه بصيغة المضارع باعتبار حال المحكيِّ لا باعتبار حال الحكاية كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٧٤.

(٢) هو قول أبي السعود في تفسيره ٩/ ١٨٤، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في الأصل و(م): فاجعلوه، والمثبت من تفسير أبي السعود، وهو الصواب.

ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: تَلَتْ، وقوله تعالى: (وَمَا تَفَرَّقَ) إلخ كلامٌ مسوقٌ لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصةً ببيانِ أنَّ ما نُسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ في الأمر، بل بعد وضوح الحقِّ وتبيُّنِ الحال وانقطاعِ الأعذار بالكلِّية، وهو السرُّ في وَصْفِهم بإيتاء الكتاب المُنْبِئ عن كمالِ تمكُّنهم من مطالعته والإحاطةِ بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبارِ التي من جملتها ما يتعلَّق بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وصحةِ بعثته، بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جارٍ مجرى اسم الجنس للطائفتين، ولَمَّا كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأي المذكور في حكم فريقٍ واحدٍ عبَّر عمَّا صَدَرَ عنهم[1] عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك، وعند بيانِ كيفيةِ وقوعه بالتفرُّق، اعتباراً لاستقلال كلٍّ من فريقي أهل الكتاب، وإيذاناً بأنَّ انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأي آخَرَ، بل بطريق الاختلاف القديم.

وتعقِّب التقريران بأنه ليس في الكلام ما يدلُّ على أنه حكايةٌ، ولا على إرادة: منفكِّين عن الوعد باتِّباع الحق.

وقال القاضي عبد الجبار: المعنى: لم يكن الذين كفروا منفكِّين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة. وتعقَّبه الإمام: بأنَّ تفسير لفظِ «حتى» بما ذُكر ليس من اللغة في شيء[2].

ولعله أراد أنَّ المراد استمرارُ النفي، وأنَّ في الكلام حذفاً، أي: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم في وقتٍ من الأوقات حتى وقت أن تأتيهم البينةُ، إلا أنه عبر بما ذكر لأنه أَخْصَرُ، وفيه أيضاً ما لا يخفى.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن ذكر الرسول ﷺ بالمناقب والفضائل إلى أن أتاهم، فحينئذٍ تفرَّقوا فيه وقال كلٌّ منهم فيه عليه الصلاة والسلام قولاً زُوراً. وتعقِّب بأنه لا دلالة على إرادة ما قدِّر متعلَّقَ الانفكاك.

---

(١) في (م): منهم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٣٩.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ﷺ، فلما جاءهم تفرَّقوا فمنهم مَن آمن ومنهم مَن أصرَّ على كفره، ويكفي ذلك في العمل بموجب «حتى».

وتعقِّب بأنَّ ظاهر «وما تفرَّق» إلخ ذمٌّ لجميعهم وتشنيعٌ عليهم، ويؤيِّده قوله سبحانه بعدُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ، ويَبعُدُ ذلك على حمل التفرُّق على إيمانِ بعضٍ وإصرارِ بعضٍ.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم بأن يتردَّدوا فيه، بل كانوا جازمين به معتقدين حقِّيته إلى أن أتاهم رسول الله ﷺ، فعند ذلك اضطربت خواطرُهم وأفكارهم، وتشكَّك كلٌّ في دينه ومقالته. وفيه ما لا يخفى.

وقيل: معنى «منفكين»: هالكين، من قولهم: انفك صَلَا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم، والمعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقريبٌ منه معنًى ما قيل: لم يكونوا منفكِّين عن الحياة بأن يموتوا ويهلكوا حتى تأتيهم البينة. وهو كما ترى.

وقيل: المراد أنهم لم ينفكوا عن دينهم حقيقةً إلى مجيء الرسول التالي للصحف المبيِّنةِ نَسْخَه وبطلانه، ولَمَّا جاء وتبيَّن ذلك انفكُّوا عنه حقيقةً وإن بقُوا عليه صورةً. وفيه ما فيه.

وقال أبو حيان: الظاهر أنَّ المعنى: لم يكونوا منفكِّين، أي: منفصلاً بعضُهم عن بعضٍ، بل كان كلٌّ منهم مُقِرًّا الآخَرَ على ما هو مما اختاره لنفسه، هذا من اعتقاده بشريعته، وهذا من اعتقاده بأصنامه، وحاصلُه أنه اتصلت مودَّتُهم واجتمعت كلمتهم إلى أنْ أتتهم البينة، «وما تفرق الذين أوتوا» أي: من المشركين، وانفصل بعضُهم من بعض، فقال كلٌّ ما يدلُّ عنده على صحة قوله، «إلا من بعد ما جاءتهم البينة» وكان يقتضي عند مجيئها أن يجتمعوا على اتِّباعها[1].

---

(١) البحر ٨/٤٩٨.

ولا يَخْفَى أن قوله: بل كان كلٌّ منهم. . إلخ، في حيِّز المنع، وأيضاً حَمْلُ «وما تفرَّق» على ما حَمَلَه عليه غيرُ ظاهرٍ.

وقال ابن عطية: هاهنا وجهٌ بارعُ المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القومُ منفكِّين من أمر الله تعالى وقدرتِه ونظرِه سبحانه حتى يبعث عزَّ وجلَّ إليهم رسولاً منذراً يُقيم تعالى عليهم به الحجةَ، ويتمُّ على مَن آمن به النعمة، فكأنه قال: ما كانوا ليُتْركوا سدًى، ولهذا نظائرُ في كتاب الله جلَّ جلاله[١].

هذا ما ظفرنا[٢] به سؤالاً وجواباً، وجرحاً وتعديلاً.

ثم إنِّي أقول: ما تقدَّم في تقرير الإشكال مبنيٌّ على مذهب القائلين بمفهوم الغاية، وهم أكثر الفقهاء، وجماعةٌ من المتكلِّمين كالقاضي أبي بكر والقاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري وغيرهم، دون مذهب الغير القائلين به، وهم أصحاب الإمام أبي حنيفة وجماعةٌ من الفقهاء والمتكلِّمين، واختاره الآمدي، واستدلَّ عليه بما استدلَّ، وردَّ ما يعارضه من أدلة المخالف[٣].

وعليه يمكن أن يقال: إنه سبحانه وتعالى بيَّن أولاً حالَ الذين كفروا من الفريقين إلى وقت إتيان الرسول ﷺ بقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: عمَّا هم عليه من الدِّين حَسبَ اعتقادهم فيه إلى أن يأتيهم الرسول. ولَمَّا لم يتعرَّض في ذلك على ذلك المذهب لحالهم بعد إتيان الرسول عليه الصلاة والسلام بيَّنه سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلخ، أي: وما تفرَّقوا فعرف بعضٌ منهم الحقَّ وآمَنَ، وعرفه بعضٌ آخَرُ منهم وعانَدَ فلم يؤمن، في وقتٍ من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم البينةُ، وطَوَى سبحانه ذِكْرَ حال المشركين لعلمه بالأَوْلى من حالهم، ثم إنه تعالى ذكر بعدُ حالَ كلٍّ من الفريقين المؤمنِ والكافر وما له في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلخ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٥٠٧.

(٢) في الأصل: ظفرت.

(٣) الإحكام للآمدي ٣/١٠١-١٠٣.

والذي أميلُ إليه مما تقدَّم كونَ الانفكاك عن الوعد باتِّباع الحق، ولعل القرينة على اعتباره حالية.

ويحتمل نحواً آخر من التوجيه، وذلك بأنْ يُجعل الكلام من باب الإعمال، فيقال: إن «منفكِّين» يقتضي متعلِّقاً هو المنفكُّ عنه، و«تأتيهم» يقتضي فاعلاً، وليس في الكلام سوى «البينة»، فكلٌّ منهما يقتضيه، فأُعْمِلَ فيه «تأتيهم» وحُذف معمول «منفكِّين» لدلالته عليه، فكأنه قيل: لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكِّين عن البينة حتى تأتيهم البينةُ، وحيث كان المراد بالبينة الرسولَ كان الكلامُ في قوةِ: لم يكونوا منفكِّين عن الرسول حتى يأتيهم، ويراد بعدم الانفكاك عن الرسول حيث لم يكن موجوداً إذ ذاك عدمُ الانفكاك عن ذكره والوعدِ باتِّباعه، ويكون باقي الكلام في الآية على نحو ما سبق على تقدير إرادة: منفكِّين عما كانوا عليه من الوعد باتِّباع الحق.

وإن شئتَ قلتَ في قوله تعالى: (وَمَا تَفَرَّقَ) إلخ: إنه على معنى: وما تفرق الذين أوتوا الكتاب عن الرسول وما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلا من بعد ما جاءهم.

فتأمَّل جميعَ ما أتيناك به، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة حالية مفيدةٌ لغاية قبح ما فعلوا، والمراد بالأمر مطلقُ التكليف، ومتعلِّقه محذوفٌ، واللام للتعليل، والكلام في تعليلِ أفعاله تعالى شهيرٌ، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، أي: والحالُ أنهم ما كلِّفوا في كتابهم بما كلِّفوا به لشيء من الأشياء إلا لأَجْلِ عبادة الله تعالى[(١)].

وقال الفرَّاء: العرب تجعل اللام موضع «أنْ» في الأمر، كـ: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١] وكذا في الإرادة كـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] فهي هنا بمعنى «أن»، أي: إلا بأنْ يعبدوا الله، وأيّد بقراءة عبد الله: «إلا أن يعبدوا»[(٢)] فيكون عبادة الله تعالى هي المأمور بها، والأمرُ على ظاهره.

---

(١) جاء في هامش الأصل: ومثله ما قيل من أن اللام زائدة، فلا تغفل.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢.

والأول هو الأظهر، وعليه قال علم الهدى أبو منصور الماتريدي: هذه الآية عُلم منها معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: إلا لأمرهم بالعبادة فيُعْلَمُ المطيع من العاصي[١]. وهو كما قال الشهاب كلامٌ حسنٌ دقيق[٢].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: جاعلينَ دينَهم خالصاً له تعالى فلا يُشْرِكون به عز وجل، فـ «الدِّين» مفعولٌ لـ «مخلصين»، وجوِّز أن يكون نصباً على إسقاط الخافض ومفعولُ «مخلصين» محذوف، أي: جاعلين أنفسهم خالصةً له تعالى في الدين. وقراءة الحسن: «مخلَصين» بفتح اللام[٣]، وحينئذٍ يتعيَّن هذا الوجهُ في «الدين» ولا يتسنَّى الأول، نعم جوِّز أن يكون نصباً على المصدر والعاملُ «ليعبدوا»، أي: ليَدِينوا اللهَ تعالى بالعبادة الدينَ.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام، وفيه من تأكيد الإخلاص ما فيه، فالحَنَفُ: الميلُ إلى الاستقامة، وسمِّي مائلُ الرِّجْلِ إلى الاعوجاج أحنفَ للتفاؤل، أو مجازٌ مرسلٌ بمرتبتين.

وعن ابن عباس تفسير «حنفاء» هنا بـ : حُجَّاجاً.

وعن قتادة بـ : مختتنين محرِّمين لنكاح الأمِّ والمحارم.

وعن أبي قِلَابةَ بـ : مؤمنين بجميع الرسل عليهم السلام.

وعن مجاهد بـ : متَّبعين دينَ إبراهيم عليه السلام.

وعن الربيع بن أنس بـ : مستقبلين القبلة بالصلاة.

وعن بعضٍ بـ : جامعينَ كلَّ الدِّين.

وحالُ الأقوال لا يَخْفَى.

---

(١) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٠٠-٥٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٨٦.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٦.
(٣) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٤٩٩.

﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إنْ أريدَ بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة فالأمر بهما ظاهرٌ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أَمْرِهم بهما في كتابهم أنَّ أمرهم باتِّباع شريعتنا أمرٌ لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وما فيه من البعد للإشعار بعلوِّ رتبته وبُعْدِ منزلته في الشرف.

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الكتبِ القيِّمة، فـ «أل» للعهد إشارة إلى ما تقدم في قوله تعالى: (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) وإليه ذهب محمد بن الأشعث الطالقانيُّ(١).

وقال الزجَّاج أي: الأمة القيِّمة، أي: المستقيمة(٢).

وقال غير واحد: أي: الملَّةِ القيِّمة، والتغايرُ الاعتباريُّ بين الدِّين والملَّة يصحِّح الإضافة.

وبعضُهم لم يقدِّر موصوفاً، ويجعلُ «القيِّمة» بمعنى الملَّة. وقيل: أي: الحجج القيِّمة.

وقرأ عبد الله رضي الله عنه: «الدِّين القيِّمة»(٣) فقيل: التأنيثُ على تأويل الدِّين بالملَّة. وقيل: الهاء للمبالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾(٤) قيل: بيانٌ لحال الفريقين في الآخرة بعد بيانِ حالهم في الدنيا، وذكر «المشركين» لئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحكم بأهل الكتاب حَسبَ اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب

---

(١) كما في تفسير الثعلبي ١٠/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، واسمه كما ذكر الثعلبي: محمد بن محمد بن الأشعث، أبو سهل، ولم نقف له على ترجمة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٠، وفيه: أي: وذلك دين الأمة القيمة بالحق، فيكون ذلك دين الملة المستقيمة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والبحر ٨/ ٤٩٩.

(٤) جاء في هامش الأصل: جوز عطف «المشركين» هنا على الموصول، والظاهر عطفه على «أهل الكتاب».

بهم، فالمراد بهؤلاء الذين كفروا هم المتقدمون في صدر السورة، وفي ذلك احتمالٌ أشرنا إليه فلا تغفل.

ومعنى كونهم في نار جهنم: أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، لكنْ لتحقُّق ذلك لم يصرَّح به وجيء بالجملة اسميةً، أو يقدَّر متعلَّق الجارِّ بمعنى المستقبل، أو أنهم فيها الآن على إطلاق نار جهنم على ما يوجبها من الكفر مجازاً مرسلاً بإطلاق اسم المسبَّب على السبب، وجوِّزت الاستعارة.

وقيل: إن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عينُ النار، إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورةٍ عرضيةٍ، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهرُ بصورتها الحقيقية، وقد مرَّ نظيره غيرَ مرةٍ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ من المستكنِّ في الخبر، واشتراكُ الفريقين في دخول النار بطريق الخلود لا ينافي تفاوتَ عذابهما في الكيفية، فإنَّ جهنم ـ والعياذُ بالله تعالى ـ دركاتٌ، وعذابُها ألوان، فيُعذَّب أهل الكتاب في دركٍ منها نوعاً من العذاب، والمشركون في دركٍ أسفلَ منه بعذابٍ أشدَّ؛ لأن كفرهم أشدُّ من كفر أهل الكتاب.

وكونُ أهل الكتاب كفروا بالرسول ﷺ مع علمهم بنعوته الشريفة وصحةِ رسالته من كتابهم، ولم يكن للمشركين علمٌ بذلك كعلمهم، لا يوجب كونَ عذابهم أشدَّ من عذاب المشركين ولا مساوياً له، فإنَّ الشرك ظلم عظيم وقد انضمَّ إليه من أنواع الكفر في المشركين مما ليس عند أهل الكتاب.

وقد استُدلَّ بالآية على خلود الكفار مطلقاً في النار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة، وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك البُعَداءُ المذكورون ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي: الخليقة. وقيل: أي: البشر.

والمراد: قيل: هم شرُّ البرية أعمالاً، فتكون الجملة في حيِّز التعليل لخلودهم في النار. وقيل: شرُّها مقاماً ومصيراً، فتكون تأكيداً لفظاعة حالهم. ورجِّح الأول بأنه الموافقُ لِمَا سيأتي إن شاء الله تعالى في حقِّ المؤمنين.

وأيًّا ما كان فالعمومُ ـ على ما قيل ـ مشكلٌ؛ فإنَّ إبليس وجنودَه شرٌّ منهم أعمالاً ومقاماً، وكذا المشركون المنافقون، حيث ضَمُّوا إلى الشرك النفاقَ، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال بعضٌ: لا يبعد أن يكون في كفار الأمم مَن هو شرٌّ منهم كفرعون وعاقر الناقة. وأجاب بأن المراد بـ «البَرِيَّة»: المعاصرون لهم. ولا يَخْفَى أنه يبقى معه الإشكالُ بإبليس ونحوه.

وأُجيبَ بأن ذلك إذا كان الحصر حقيقيًّا، وأمَّا إذا كان إضافيًّا بالنسبة إلى المؤمنين بحسب زعمهم فلا إشكالَ؛ إذ يكون المعنى: أولئك هم شرُّ البرية لا غيرُهم من المؤمنين كما يزعمون قالاً أو حالاً.

وقيل: يراد بـ «البرية»: البشر، ويراد بشرِّيتهم: شرِّيتُهم بحسب الأعمال، ولا يبعُدُ أن يكونوا بحَسَبِ ذلك هم شرَّ جميع البرية؛ لِمَا أنَّ كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ومشاهدةِ معجزاته الذاتية والخارجية ووَعْدِ الإيمان به عليه الصلاة والسلام، ومع إدخالِهم به الشبهةَ في قلوب مَن يأتي بعدهم، وتسبُّبِهم به ضلالَ كثيرٍ من الناس، إلى غير ذلك مما تضمَّنه واستَلْزَمَه من القبائح = شرَّ كفرٍ وأقبحَه لا يتسنَّى مثلُه لأحدٍ من البشر إلى يوم القيامة، وكذا سائر أعمالهم: من تحريف الكَلِم عن مواضعه، وصدِّ الناس عنه ﷺ، ومحاربتهم إياه عليه الصلاة والسلام، وكونُ كفرِ فرعونَ وعاقر الناقة وفِعْلِهما بتلك المثابة غيرُ مسلَّمٍ، ويلتزم دخولُ المنافقين في عموم الذين كفروا، أو كونُ كفرهم وأعمالهم دون كفرِ وأعمالِ المذكورين. وفيه شيءٌ لا يَخْفَى فتأمَّل.

وقيل: ليس المراد بأولئك الذين كفروا أقواماً مخصوصين وهم المحدَّث عنهم أولاً، بل الأعمَّ الشاملَ لهم ولغيرهم من سالف الدهر إلى آخره. وهو على ما فيه لا يتمُّ بدون حمل «البَرِيَّة» على البشر، فلا تغفل.

وقرأ الأعرج وابنُ عامر ونافع: «البريئة» هنا وفيما بعدُ بالهمزة(١)، فقيل: هو

(١) التيسير ص٢٢٤، والنشر ١/ ٤٠٧ عن نافع وابن ذكوان، والكلام من البحر ٨/ ٤٩٩.

الأصل، من بَرَأَهم الله تعالى بمعنى: ابتدأهم واخترَعَ خَلْقَهم، فهي فعيلةٌ بمعنى مفعولة، لكنَّ عامة العرب إلا أهلَ مكة التزموا تسهيلَ الهمزة بالإبدال والإدغام، فقالوا: البريَّة، كما قالوا: الذريَّة والخابِيَة[١].

وقيل: ليس بالأصل، وإنما «البرية» بغير همزٍ من البَرَى المقصورِ يعني التراب، فهو أصلٌ برأسه، والقراءتان مختلفتان أصلاً ومادةً ومتفقتان معنًى في رأي، وهو أن يكون المراد عليهما البَشَر، ومختلفتان فيه أيضاً في رأي آخَرَ، وهو أن يكون المراد بالمهموز الخليقةَ الشاملةَ للملائكة والجنِّ كالبشر، وبغير المهموز البشرَ المخلوقون من التراب فقط.

وأيًّاما كان فليست القراءة بالهمز خطأً، كيف وقد نُقلت عمَّن ثبتت عصمتُه؟ مع أنَّ الهمز لغةُ قومِ مَن أُنزل عليه الكتابُ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيانِ سوء حال الكفرة، جرياً على السنَّةِ القرآنية مِن شَفْعِ الترهيب بالترغيب، أو هو على ما أشرنا إليه سابقاً.

وقال عصام الدين: إن قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) إلخ كالتأكيد لقوله تعالى: (وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ) إذ لا تحقيقَ لكونها الملةَ القيِّمةَ فوق أن يكون جزاءُ المُعْرِضِ هذا وجزاءُ الممتثلِ ذلك، إلا أنَّ ذلك اقتضى قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) إلخ، وكأنه فُصل لتخييل عدم المناسبة بين الجملتين، لا في المسنَد إليه ولا في المسند.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بما هو الغايةُ القاصيةُ من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد: «هم خيار البرية»[٢] وهو جمع خير كجياد وجيد.

(١) الخابية: الجرة الكبيرة، وأصلها: الخابئة بالهمز، وربما جرت على الأصل فهمزت. ينظر معجم متن اللغة (خبأ) و(خبي)، والدر المصون ١/ ٤٠٠.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٧، والبحر ٨/ ٤٩٩.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بمقابلةِ ما لهم من الإيمان والطاعات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ تقدَّمت نظائره.

وفي تقديم مَدْحِهم بخير البرية، وذِكْرِ الجزاء المؤذِنِ بكونِ ما مُنح في مقابلةِ ما وُصفوا به، وبيانِ كونه من عنده تعالى، والتعرُّضِ لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم، وجَمْعِ الجنات وتقييدِها بالإضافة وبما يزيدها نعيماً، وتأكيدِ الخلود بالأُبود = من الدلالة على غاية حُسْنِ حالهم ما لا يخفى.

والظاهر أنَّ جملة «هم خير البرية» خبرُ اسم الإشارة، وكذا ما بعدُ، وزعم بعض الأجلَّة أنَّ الأنسب بالعديل السابق أن تُجعلَ معترضةً، ويكونَ الخبر ما بعدها، وفيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ نحويٌّ، وإخبارٌ عمَّا تفضَّل عز وجل به زيادةً على ما ذكر من أجزية أعمالهم، ويجوز أن يكون بيانيًّا جواباً لمن يقول: ألهم فوق ذلك أمرٌ آخرُ؟ وجوِّز أن يكون خبراً بعد خبرٍ، أو حالاً بتقدير «قد» أو بدونه.

وجوِّز أن يكون دعاءً لهم من ربِّهم، وهو مجازٌ عن الإيجاد مع زيادةِ التكريم. وهو خلافُ الظاهر، ويُبْعِدُه عطفُ قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ عليه. وعلَّل رضاهم بأنهم بلغوا من المطالب قاصيتَها، ومن المآرب ناصيتَها، وأُتيح لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ فإنَّ الخشية ملاكُ السعادة الحقيقية والفوزِ بالمراتب العَلِيَّة؛ إذ لولاها لم تترك المناهي والمعاصي، ولا استُعِدَّ ليوم يؤخذ فيه بالأقدام والنواصي، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مجرد الإيمان والعملِ الصالح ليس موصلاً إلى أقصى المراتب، ورضوانٌ من الله أكبر، بل الموصِلُ له خشيةُ الله تعالى، وإنما يخشى الله من عباده العلماءُ، ولذا قال الجنيد قدس سره: الرضا على قَدْرِ قوة العلم والرسوخِ في المعرفة.

وقال عصام الدين: الأظهر أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى ما يترتَّب عليه الجزاء

والرضوان من الإيمان والعمل الصالح. وتعقِّب بأنَّ فيه غفلةً عما ذكر، وعن أنه لا يكون حينئذ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلخ كبيرُ فائدةٍ.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية المُعرِبةِ عن المالكية والتربية؛ للإشعارِ بعلة الخشية، والتحذيرِ من الاغترار بالتربية.

واستُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ على أنَّ البشر أفضلُ من المَلَك؛ لظهورِ أنَّ المراد بـ «الذين آمنوا»: المؤمنون من البشر، وفي الآثار ما يدلُّ على ذلك؛ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً: «أتعجبون لمنزلة الملائكة من الله تعالى، والذي نفسي بيده لمنزلةُ العبد المؤمنِ عند الله تعالى يوم القيامة أعظمُ من منزلة المَلَك، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»[1].

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، مَن أكرمُ الخَلْقِ على الله تعالى؟ قال: «يا عائشة أمَا تقرئين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»[2].

وأنت تعلم أنَّ هذا ظاهرٌ في أنَّ المراد بالبرية الخليقةُ مطلقاً ليتمَّ الاستدلالُ، ثم إنه يحتاج أيضاً إلى إدخال الأنبياء عليهم السلام في عموم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» بأنْ لا يرادَ بهم قومٌ بخصوصهم؛ إذ لو لم يدخلوا لزم تفضيلُ عوامِّ البشر - أي: الذين ليسوا بأنبياء منهم - على خواصِّ الملائكة، أعني رسلَهم عليهم السلام، وذلك مِمَّا لم يذهب إليه أحدٌ من أهل السنَّة، بل هم يكفِّرون مَن يقول به، فليُتَفَطَّنْ.

والإمام قد ضعَّف الاستدلال في تفسيره[3] بما لا يخلو عن بحثٍ.

ولعل الأبعدَ عن القيلِ والقالِ جَعْلُ الحصر إضافيًّا بالنسبة إلى ما يزعمه أهل

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ٣٢/ ٥٢.

الكتاب والمشركون قالاً أو حالاً من أنهم هم خيرُ البرية، وكذا يُجْعَلُ الحصر السابق بالنسبة إلى ما يزعمونه من أن المؤمنين هم شرُّ البرية، وصحةُ ما سبق من الآثار في حيِّز المنع.

ثم الظاهرُ أنَّ المراد بـ «الذين آمنوا» إلخ مقابل «الذين كفروا» لا قومٌ من الذين اتَّصفوا بما في حيِّز الصلة بخصوصهم، وزعم بعضٌ أنهم مخصوصون؛ فقد أخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ هم أنت وشيعتُك، وموعدي وموعدُكم الحوضُ إذا جَثَتِ الأمم للحساب تُدعَون غرًّا محجَّلين»(١).

ورَوَى نحوَه الإماميةُ عن يزيد بن شراحيل الأنصاريِّ كاتبِ الأمير كرم الله تعالى وجهه، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك له عند الوفاة، ورأسُه الشريفُ على صدره رضي الله عنه(٢).

وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه وكرم وجهه: «هو أنت وشيعتُك يوم القيامة راضين مرضيِّين»(٣). وذلك ظاهر في التخصيص.

وكذا ما ذكره الطبرسيُّ الإماميُّ في «مجمع البيان» عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس أنه قال في الآية: نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأهلِ بيته(٤). وهذا ـ إن سلِّمتْ صحتُه ـ لا محذورَ فيه؛ إذ لا يستدعي التخصيصَ بل الدخولَ في العموم، وهم بلا شبهةٍ داخلون فيه دخولاً أوليًّا، وأمَّا ما تقدَّم فلا تسلَّم صحته، فإنه يلزم عليه أن يكون عليٌّ كرم الله تعالى وجهه خيراً من

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩.

(٢) مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٣.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩، وعزاه في منهاج السنة ٧/ ٢٥٨ لأبي نعيم، وقال: هذا مما هو كذب موضوع باتفاق العلماء وأهل المعرفة بالمنقولات.

(٤) مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٣ ومقاتل ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

رسول الله ﷺ، والإماميةُ وإن قالوا إنه رضي الله عنه خيرٌ من الأنبياء حتى أولي العزم عليهم السلام، ومن الملائكة حتى المقرَّبين عليهم السلام، لا يقولون بخيريته من رسول الله ﷺ.

فإنْ قالوا بأنَّ «البرية» على ذلك مخصوصةٌ بمن عَدَاه عليه الصلاة والسلام للدليل الدالِّ على أنه ﷺ خيرٌ منه كرم الله تعالى وجهه.

قيل: إنها مخصوصةٌ أيضاً بمن عدا الأنبياء والملائكة، ومَن قال أهلُ السنَّة بخيريته؛ للدليل الدالِّ على خيريتهم.

وبالجملة لا ينبغي أن يُرتاب في عدم تخصيص «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» بالأمير كرم الله تعالى وجهه وشيعتِه، ولا به رضي الله عنه وأهلِ بيته، وإنَّ دون إثبات صحة تلك الأخبار خَرْطُ القتاد، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ الروايات في أنَّ هذه السورةَ قد نُسخ منها كثيرٌ كثيرةٌ، منها ما أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ والحاكم وصحَّحاه(١) عن أبيٍّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقرأ فيها: «ولو أنَّ ابن آدم سأل وادياً من مالٍ فأُعْطِيَه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأُعْطِيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله على مَن تاب، وإنَّ الدين عند الله الحنيفيةُ، غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية، ومَن يفعل ذلك(٢) فلن يُكْفَره»(٣).

وفي بعض الآثار أنَّ النبي ﷺ أقرأه هكذا: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكِّين حتى تأتيهم البينة، رسولٌ من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتبٌ قيِّمة، إنَّ أَقْوَمَ الدِّينِ الحنيفيةُ مسلمةً غيرَ مشركةٍ ولا يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ،

---

(١) في الأصل و(م): وصححه، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٢) كذا في الأصل و(م) والدر، والذي في مصادر التخريج: خيراً.

(٣) مسند أحمد (٢١٢٠٢)، وسنن الترمذي (٣٧٩٣)، والمستدرك ٢/ ٢٢٤ و٥٣١، وأخرجه أيضاً الضياء في المختارة (١١٦٣). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومَن يعمل صالحاً فلن يُكْفَره، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينةُ، إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لَمَّا جاءهم أولئك عند الله شرُّ البرية، ما كان الناس إلا أمةً واحدةً ثم أرسل الله النبيين مبشِّرين ومنذرين يأمرون الناس، يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده، أولئك عند الله خيرُ البرية، جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه» أخرج ذلك ابن مردويه عن أبيٍّ رضي الله عنه[1]، وهو مخالفٌ لِمَا صحَّ عنه، فلا يعوَّلُ عليه كما لا يَخْفَى على العارفِ بعِلْمِ الحديث.

(١) الدر المنثور ٦/٣٧٨، وسلف ١/١٤٨-١٤٩.

(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

سورة الزلزلة مدنية ، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية ، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة ، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، حيث يندك كل صرحٍ شامخ ، وينهار كل جبل راسخ ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان ، كإخراج الأرض ما فيها من موتى ، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهبٍ وفضة ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول : عملتَ يوم كذا ، كذا وكذا ، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب ، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار ، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد .

● ● ●

سورة الزلزلة

[١٠٣١] أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[(١)] الآية كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ويقولون إنما وعد الله النار على الكبائر فأنزل الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[(٢)].

* * *

[١٠٣١] (١) سورة الإنسان: الآية (٨).
(٢) سورة الزلزلة: الآية (٧و٨).

سورة الزلزلة

وهي ثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾

ههنا مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهًا: **أحدها**: أنه تعالى لما قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة: ٨] فكأن المكلف قال: ومتى يكون ذلك يا رب؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فالعالمون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمنًا فيه، كما قال: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] **وثانيها**: أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزل؟! نظير قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ثم ذكر الطائفتين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٧] ثم جمع بينهم في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿إِذَا﴾ بحثان: **أحدهما**: أن لقائل أن يقول: ﴿إِذَا﴾ للوقت فكيف وجه البداية بها في أول السورة؟ **وجوابه من وجوه: الأول**: كانوا يسألونه متى الساعة؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ كأنه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولكني أعينه بحسب علاماته. **الثاني**: أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

البحث الثاني: قالوا كلمة: (إنْ) في المجوز، و(إذا) في المقطوع به، تقول: (إن دخلتِ الدار فأنت طالق) لأن الدخول يجوز، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعًا لا تقول: (إن) بل تقول: إذا (نحو إذا) جاء غد فأنتِ طالق لأنه يوجد لا محالة. هذا هو الأصل، فإن استعمل على خلافه فمجاز، فلما كان الزلزال مقطوعًا به قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾.

المسألة الثالثة: قال الفراء: الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم، وقد قرئ بهما، وكذلك الوسواس هو الاسم، أي اسم الشيطان الذي يوسوس إليك، والوسواس بالكسر المصدر، والمعنى: حُركت حركةِ شديدة، كما قال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤] وقال

قوم: ليس المراد من زُلزلت حُركت، بل المراد: تحركت واضطربت، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر، ولأن هذا أدخل في التهويل كأنه تعالى يقول: إن الجماد ليضطرب لأوائل القيامة، أما آن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك؟ ويقرب منه: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]واعلم أن (زل) للحركة المعتادة، و(زلزل) للحركة الشديدة العظيمة؛ لما فيه من معنى التكرير، وهو كالصرصر في الريح، ولأجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

المسألة الرابعة: قال مجاهد: المراد من الزلزلة المذكورة في هذه الآية النفخة الأولى، كقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]أي تزلزل في النفخة الأولى، ثم تزلزل ثانيًا فتُخرج موتاها وهي الأثقال، وقال آخرون: هذه الزلزلة هي الثانية بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها أنها تُخرج الأرض أثقالها، وذلك إنما يكون في الزلزلة الثانية.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بالإضافة وجوه: **أحدها**:القدر اللائق بها في الحكمة، كقولك: أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. **والثاني**: أن يكون المعنى زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه، والمعنى أنه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل. **والثالث**:زلزالها الموعود أو المكتوب عليها إذا قدرت تقدير الحي، تقريره ما روي أنها تزلزل من شدة صوت إسرافيل لما أنها قُدرت تقدير الحي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الأثقال قولان: **أحدهما**:أنه جمع ثقل وهو متاع البيت ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها، قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها. وقيل: سمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها. ثم قال: المراد من هذه الزلزلة: الزلزلة الأولى، يقول: أخرجت الأرض أثقالها، يعني الكنوز فيمتلئ ظهر الأرض ذهبًا ولا أحد يلتفت إليه، كأن الذهب يصيح ويقول: أما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلي؟! أو تكون الفائدة في إخراجها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٥]ومن قال: المراد من هذه الزلزلة الثانية وهي بعد القيامة، قال: تخرج الأثقال يعني الموتى أحياء كالأم تلده حيًا، وقيل: تلفظه الأسرار، ولذلك قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فتشهد لك أو عليك.

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في صفة الأرض: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥]ثم صارت بحال ترميك، وهو تقرير لقوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ [عبس: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما لها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الأموات.

المسألة الثانية: قيل: هذا قول الكافر وهو كما يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] فأما المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] وقيل: بل هو عام في حق المؤمن والكافر، أي الإنسان الذي هو كنود جزوع ظلوم الذي من شأنه الغفلة والجهالة – يقول: ما لها وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب، لِما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الآذان. ولا تطلَّق بها لسان، ولهذا قال الحسن: إنه للكافر والفاجر معًا.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿مَا لَهَا﴾ على غير المواجهة لأنه يعاتب بهذا الكلام نفسه، كأنه يقول: يا نفس ما للأرض تفعل ذلك؟! يعني يا نفس أنت السبب فيه فإنه لولا معاصيك لما صارت الأرض كذلك. فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: ٣٤].

أما قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ فاعلم أن ابن مسعود قرأ: (تنبئ أخبارها) وسعيد بن جبير (تنبِّئ) **ثم فيه سؤالات:**

الأول: أين مفعولا ﴿تُحَدِّثُ﴾؟ **الجواب:** قد حذف أولهما والثاني أخبارها، وأصله تحدث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيمًا.

السؤال الثاني: ما معنى تحديث الأرض؟ قلنا: **فيه وجوه: أحدها:** –وهو قول أبي مسلم– يومئذٍ يتبين لكل أحد جزاء عمله، فكأنها حدثت بذلك، كقولك: (الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت. **والثاني:** –وهو قول الجمهور– أن الله تعالى يجعل الأرض حيوانًا عاقلاً ناطقًا ويعرفها جميع ما عمل أهلها، فحينئذٍ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى، قال عليه السلام: «**إِنَّ الْأَرْضَ لَتُخْبِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ عَمَلٍ عُمِلَ عَلَيْهَا**» ثم تلا هذه الآية، وهذا على مذهبنا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطًا لقبول الحياة، فالأرض مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها يخلق الله فيها الحياة والنطق، والمقصود كأن الأرض تشكو من العصاة وتشكر من أطاع الله، فنقول: إن فلانًا صلى وزكى وصام وحج فيَّ، وإن فلانًا كفر وزنى وسرق وجار، حتى يود الكافر أن يساق إلى النار، وكان علي عليه السلام إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول: لتشهدن أني ملأتك بحق وفرغتك بحق. **والقول الثالث:** –وهو قول المعتزلة– أن الكلام يجوز خلقه في الجماد، فلا يبعد أن

يخلق الله تعالى في الأرض حال كونها جمادًا أصواتًا مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى.

السؤال الثالث: (إذا) و(يومئذ) ما ناصبهما؟ **الجواب:** (يومئذ) بدل من إذا وناصبهما تُحَدث.

السؤال الرابع: لفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لا استئناس فما وجه هذا اللفظ؟ **الجواب:** أن الأرض كأنها تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته.

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾

أما قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: بم تعلقت الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾؟ **الجواب:** بتُحَدث، ومعناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها.

السؤال الثاني: لمَ لم يقل أوحى إليها؟ **الجواب:** فيه وجهان: **الأول:** قال أبو عبيدة: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أوحى إليها، وأنشد العجاج:

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ[1]

الثاني: لعله إنما قال (لها) أي فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفي من العصاة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الصدور ضد الورد، فالوارد: الجائي والصادر: المنصرف، وأشتاتًا متفرقين، فيحتمل أن يردوا الأرض، ثم يصدرون عن الأرض إلى عرصة القيامة، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للمحاسبة ثم يصدرون عنها إلى موضع الثواب والعقاب، فإن قوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ أقرب إلى الوجه الأول ولفظة الصدر أقرب إلى الوجه الثاني، وقوله: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أقرب إلى الوجه الأول لأن رؤية أعمالهم مكتوبة في الصحائف أقرب إلى الحقيقة من رؤية جزاء الأعمال، وإن صح أيضًا أن يحمل على رؤية جزاء الأعمال، وقوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ فيه وجوه: **أحدها:** أن بعضهم يذهب إلى الموقف راكبًا مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادي ينادي بين يديه: هذا ولي الله، وآخرون يُذهب بهم سود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال والمنادي ينادي بين يديه: هذا عدو الله. **وثانيها:** ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي كل فريق مع شكله، اليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني. **وثالثها:** أشتاتًا من أقطار الأرض من كل ناحية، ثم إنه سبحانه ذكر المقصود وقال: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قال بعضهم: ليروا صحائف أعمالهم؛ لأن الكتابة يوضع بين يدي الرجل فيقول: هذا طلاقك وبيعك هل تراه والمرئي وهو

---

(١) تقدمت ترجمة العجاج.

الكتاب. وقال آخرون: ليروا جزاء أعمالهم، وهو الجنة أو النار، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه الجزاء وفاق، فكأنه نفس العمل بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة، وفي قراءة النبي ﷺ: ﴿لِيَرَوْا﴾ بالفتح.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي زنة ذرة، قال الكلبي: الذرة أصغر النمل. وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب مثقال ذرة، فليس من عبد عمل خيرًا أو شرًّا قليلاً أو كثيرًا إلا أراه الله تعالى إياه.

المسألة الثانية: في رواية عن عاصم: (يُرَهُ) برفع الياء وقرأ الباقون: (يَرَهُ) بفتحها وقرأ بعضهم: (يَرَهْ) بالجزم.

المسألة الثالثة: في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرة من الخير والشر؟

واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه: أحدها: قال أحمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة وليس له فيها شيء. وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام قال لأبي بكر: **«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا رَأَيْتَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ فَبِمَثَاقِيلِ ذَرِّ الشَّرِّ، وَيَدَّخِرُ اللَّهُ لَكَ مَثَاقِيلَ الْخَيْرِ حَتَّى تُوَفَّاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(١) **وثانيها:** قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرًا أو شرًّا إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته. **وثالثها:** أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحًا في عموم الآية. **ورابعها:** أن تخصص عموم قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ونقول: المراد فمن يعمل

---

(١) **ضعيف:** رواه العقيلي في (الضعفاء الكبير) (٩/ ١٦٦) حديث رقم (٢١٥١) من طريق الهيثم بن الربيع قال: حدثنا سماك بن عطية، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، قال: بينا أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ . . . فذكره، ورواه يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء: بينا أبو بكر قاعد مع رسول الله ﷺ . . . فذكره. وقال حماد بن زيد، عن أيوب، قال: وجدت في بعض كتب أبي قلابة، وقال وهيب والثقفي، عن أيوب قال: وجدت في كتاب أبي قلابة، عن أبي إدريس، وحديث وهيب والثقفي أولى، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٢٩٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى بن سهل، والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف.

من السعداء مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شرًّا يره.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: إذا كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم؟**والجواب:** هذا هو الكرم؛ لأن المعصية وإن قلَّت ففيها استخفاف، والكريم لا يحتمله، وفي الطاعة تعظيم وإن قل فالكريم لا يضيعه، وكأن الله سبحانه يقول: لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيرًا، فإنك مع لؤمك وضعفك لم تضيع مني الذرة، بل اعتبرتها ونظرت فيها، واستدللت بها على ذاتي وصفاتي واتخذتها مركبًا به وصلت إليَّ، فإذا لم تضيع ذرتي أفأضيع ذرتك؟! ثم التحقيق أن المقصود هو النية والقصد، فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب، وإن كان العمل كثيرًا والنية دائرة فالمقصود فائت.

ومن ذلك ما روى عن كعب: لا تحقروا شيئًا من المعروف، فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت المقدس فدخلت الجنة. وعن عائشة: (كان بَيْنَ يَدَيْهَا عِنَبٌ فَقَدَّمَتْهُ إِلَى نِسْوَةٍ بِحَضْرَتِهَا، فَجَاءَ سَائِلٌ فَأَمَرَتْ لَهُ بِحَبَّةٍ مِنْ ذَلِكَ الْعِنَبِ، فَضَحِكَ بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ فِيمَا تَرَوْنَ مَثَاقِيلَ الذَّرَّةِ! وَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ) ولعلها كان غرضها التعليم، وإلا فهي كانت في غاية السخاوة. روي (أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ بَعَثَ إِلَيْهَا بِمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي غِرَارَتَيْنِ، فَدَعَتْ بِطَبَقٍ وَجَعَلَتْ تَقْسِمُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: يَا جَارِيَةُ فُطُورِي هَلُمِّي. فَجَاءَتْ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ، فَقِيلَ لَهَا: أَمَا أَمْسَكْتِ لَنَا دِرْهَمًا نَشْتَرِي بِهِ لَحْمًا نُفْطِرُ عَلَيْهِ؟! فَقَالَتْ: لَوْ ذَكَّرْتِينِي لَفَعَلْتُ ذَلِكَ)[1] وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، ويقول: ما هذا بشيء، وإنما نؤجر على ما نعطي! وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: لا شيء عليَّ من هذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر. فنزلت هذه الآية ترغيبًا في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر، وتحذيرًا من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر، ولهذا قال عليه السلام: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[2].

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رواه ابن سعد في (الطبقات) (٨/ ٦٦) من طريق هشام بن عروة عن ابن المنكدر عن أم ذرة، وفيها أن ابن الزبير بعث بالمائة ألف إلى عائشة . . . به، وأم ذرة قال ابن حجر في التقريب: مقبولة وقال في (تهذيب التهذيب) (١٢/ ٤٦٧) وذكرها ابن حبان في (الثقات) وقال العجلي: تابعية مدنية ثقة. اهـ.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة) باب: (اتقوا النار ولو بشق تمرة) (٣/ ٣٤٧) حديث رقم (١٤١٧) ومسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٣/ ٦٨/ ٧٠٤) جميعًا من طريق عدي بن حاتم . . . به.

سورة «الزَّلْزَلَة»

مدنيةٌ في قول ابنِ عباسٍ وقتادة(١). ومكّيةٌ في قول ابنِ مسعودٍ وعطاءٍ وجابر(٢). وهي تسعُ آياتٍ.

قال العلماء: وهذه السورةُ فَضْلُها كثير(٣)، وتحتوي على عظيم. رَوَى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عُدِلَتْ له بنصفِ القرآن. ومَن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عُدِلَتْ له بربعِ القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلَتْ له بثُلُثِ القُرْآن». قال: حديثٌ غريبٌ، وفي الباب عن ابن عباس(٤).

ورُوِي عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ، كان كَمَن قرأ القرآنَ كلَّه»(٥).

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لمَّا نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بكى أبو بكر، [فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: أبكتني هذه السورة] فقال النبيُّ ﷺ: «لولا أنَّكم تُخْطِئُون وتُذْنِبون ويغفِرُ اللهُ لكم، لَخَلَق أمةً يُخْطئون ويُذْنبون فيغفرُ لهم، إنَّه هو الغفورُ الرَّحيم»(٦).

---

(١) أخرجه عنهما ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٩ ، وقول ابن عباس أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ ، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٥٣ .

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٠١ .

(٣) في (ظ): كبير.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩٣)، وحديث أنس في إسناده الحسن بن سَلم، وهو مجهول كما ذكر الحافظ في التقريب. وحديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضاً (٢٨٩٤) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. اهـ. ويمان بن المغيرة ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) أخرجه الثعلبي، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٧ ، قال الحافظ: لكنه من رواية أبي القاسم الطائي، وهو ساقط. اهـ. وله شاهد من حديث أنس ﷺ عند أحمد (١٢٤٨٨)، وفي إسناده سلمة بن وردان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٨ ، والطبراني (٨٧ - قطعة من الجزء ١٣)، والواحدي في أسباب النزول =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾

أي: حرِّكَتْ من أصْلِها. كذا رَوى عِكْرمةُ عن ابن عباس[١]، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلُها ـ وقاله مجاهدٌ ـ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦] ثم تُزلْزَلُ ثانيةً فتُخرِجُ مَوْتاها، وهي الأثقال[٢]. وذُكِر المصدرُ للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض، كقولك: لأُعطينَّك عَطِيَّتك، أي: عَطيَّتي لك. وحَسُنَ ذلك لموافقة رؤوس الآيِ بعدها.

وقراءةُ العامَّةِ بكسر الزاي من الزلزال، وقرأ الجحدريُّ وعيسى بنُ عمر بفَتْحِها[٣]، وهو مصدرٌ أيضاً، كالوَسواس والقَلقال والجَرْجار. وقيل: الكسرُ المصدرُ، والفتحُ الاسم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقلٌ لها. وإذا كان فوقها، فهو ثِقلٌ عليها[٥]. وقال ابن عباس ومجاهد: «أثقالها»: موتاها[٦]،

= ص٤٩٦، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر. وأخرج مسلم (٢٧٤٨) وأحمد (٢٣٥١٥) من حديث أبي أيوب ﷺ: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قوماً يذنبون، فيغفرُ لهم».

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٠.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٥٨ عن مجاهد.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٧.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٥) تفسير الرازي ٣٢/ ٥٨، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٦.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٥٥٩.

تُخرجُهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثَّقَلان. وقالت الخنساء:

أَبَعْدَ ابنِ عمرٍو مِن آلِ الشَّرِيـــدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها[١]

تقول: لمَّا دُفن عمرو صار حِليةً لأهل القبور من شرفه وسُؤْدُدِه. وذَكَر بعضُ أهلِ العلمِ قال: كانت العربُ تقول إذا كان الرجلُ سفَّاكاً للدماء: كان ثِقلاً على ظهر الأرض، فلمَّا مات حَطَّتِ الأرض عن ظهرها ثِقْلَها.

وقيل: «أَثْقَالَها»: كنوزَها، ومنه الحديثُ: «تَقيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها أمثالَ الأُسْطُوانِ من الذَّهب والفضة...»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: ابنُ آدم الكافر. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بنُ عبد الأسد. وقيل: أراد كلَّ إنسانٍ يشاهدُ ذلك عند قيامِ الساعةِ في النفخة الأولى؛ مِن مؤمن وكافر. وهذا قولُ مَن جَعَلَها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنَّهم لا يعلمون جميعاً [أنها] مِن أشراط الساعةِ في ابتداءِ أمرِها، حتى يتحقَّقوا عُمومَها؛ فلذلك سأل بعضُهم بعضاً عنها. وعلى قولِ مَن قال: إنَّ المراد بالإنسان الكفارُ خاصةً، جعلها زلزلةَ القيامة؛ لأنَّ المؤمن معترفٌ بها، فهو لا يَسأل عنها، والكافر جاحدٌ لها، فلذلك يَسأل عنها[٣].

ومعنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي: مالَها زُلزِلتْ. وقيل: مالها أَخْرَجَتْ أثقالها، وهي كلمةُ تعجُّبٍ[٤]، أي: لأيِّ شيءٍ زُلزلت. ويجوزُ أن يُحييَ الله الموتى بعد وقوعِ النفخةِ

---

(١) ديوان الخنساء ص ١٢٠ والكامل للمبرد ٣/ ١٤١٥ ، والبيت من قصيدة ترثي بها أخاها معاوية بن عمرو، وقيل: ترثي بها صخراً. قال المبرد: حلَّت من الحَلْي، تقول: زينت به الأرض الموتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٠١٣) عن أبي هريرة ﷺ. والأُسْطُوان بضم الهمزة والطاء: جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود، وشبهه بالأسطوان لِعظمه وكثرته. شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٩٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م): تعجيب.

الأولى، ثم تتحرَّك الأرض فتُخرج المَوْتَى وقد رأوا الزلزلةَ وانشقاقَ الأرضِ عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: مالَهَا؟!

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ «يومئذٍ» منصوبٌ بقوله «إذا زلزلت». وقيل: بقوله: «تُحدِّثُ أخْبارها»، أي: تُخبر الأرضُ بما عُمِل عليها من خيرٍ أو شرٍّ يومئذٍ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: مِن قول الإنسان، أي: يقولُ الإنسان: مالَها تحدِّث أخبارها، متعجِّبًا.

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرُون ما أخبارُها ـ قالوا: اللهُ ورسولُه أعْلَم، قال: فإنَّ أخبارها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِل على ظهرها، تقول: عَمِل يومَ كذا، كذا وكذا. قال: فَهَذِه أَخْبارُها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب[1].

قال الماوَرْديُّ[2]: قولُه: «يومَئذٍ تُحَدِّث أخبارَها»: فيه ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: «تُحَدِّثُ أخبارَها» بأعمالِ العبادِ على ظهرها؛ قاله أبو هريرةَ، ورواه مرفوعاً[3]. وهو قولُ مَن زعم أنها زَلْزلةُ القيامة.

الثاني: تُحَدِّث أخبارَها بما أَخْرجتْ من أثقالها؛ قاله يحيى بنُ سلام. وهو قولُ مَن زَعم أنَّها زَلزلةُ أشراطِ الساعة[4].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٣)، وقوله: غريب، ليس في (م) ومطبوع سنن الترمذي، والمثبت من النسخ الخطية وتحفة الأشراف ٩/ ٥٠١ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٢٨٦ . وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٧)، وسلف ص١٨٢-١٨٣ من هذا الجزء.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣١٩ .

(٣) سلف قريباً.

(٤) سقط هذا القول من مطبوع النكت والعيون.

قلت: وفي هذا المعنى حديثٌ رواه ابن مسعودٍ عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إذا كان أَجَلُ العبدِ بأرضٍ، أَوْثَبَتْه الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أَقْصَى أثرِه قَبَضَه الله، فتقولُ الأرض يومَ القيامة: رَبِّ هذا ما استَوْدَعْتَني». أخرجه ابن ماجه في سُنَنه. وقد تقدَّم[1].

الثالث: أنَّها تُحَدِّثُ بقيام الساعةِ إذا قال الإنسان: مالَها؟ قاله ابن مسعود[2]. فتخبرُ أنَّ أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرةِ قد أَتَى. فيكونُ ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيدًا للكافر، وإنذارًا للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها: أنَّ الله تعالى يَقْلِبها حيواناً ناطقًا؛ فتتكلَّمُ بذلك.

الثاني: أنَّ الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيانٌ يقومُ مقامَ الكلام[3].

قال الطبريُّ[4]: تُبين أخبارها بالرجَّةِ والزلزلةِ وإخراجِ الموتى. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ أي: إنَّها تحدِّث أخبارَها بوحيِ اللهِ «لها»، أي: إليها. والعربُ تضعُ لامَ الصِّفةِ موضعَ «إلى»؛ قال العجَّاج يَصِفُ الأرض:

أَوْحَى لها القَرَارَ فاستَقرَّتِ وشَدَّها بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ[5]

وهذا قول أبي عبيدة: «أَوْحَى لها» أي: إليها[6].

---

(١) عند تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان، وهو في سنن ابن ماجه (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٥٨ عن سعيد قال: زُلزلت الأرض على عهد عبد الله، فقال لها: مالَكِ؟ أمَا إنها لو تكلَّمت قامت الساعة. قال الطبري ص ٥٦٠: وتحديثُها أخبارَها على القول الذي ذكرناه عن عبد الله ابن مسعود، أن تتكلَّم فتقول: إن الله أمرني بهذا، وأوحَى إليَّ به، وأذن لي فيه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٢٠.

(٤) في التفسير ٢٤/ ٥٦٠.

(٥) ديوان العجاج ص ٢٦١، وسلف ٥/ ١٣٠.

(٦) زاد المسير ٩/ ٢٠٤، وتفسير الرازي ٣٢/ ٦٠، وبنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٦.

وقيل: «أوْحَى لها»، أي: أَمَرَها؛ قاله مجاهد[١]. وقال السدّيُّ: «أَوْحَى لها»، أي: قال لها[٢]. وقيل: سخَّرها.

وقيل: المعنى: يومَ تكونُ الزلزلةُ، وإخراجُ الأرضِ أثقالَها، تحدِّثُ الأرضُ أخبارَها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عُمِلَ على ظهرِها من خيرٍ وشرٍّ. ورُوِي ذلك عن الثوريِّ وغيرِه[٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: فِرقًا؛ جمع شَتٍّ. قيل: عن موقف الحساب؛ فريقٌ يأخذ جهةَ اليمين إلى الجنة، وفريقٌ آخرُ يأخذ جهةَ الشمالِ إلى النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]. وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فَراغِهم من الحساب. ﴿أَشْتَاتًا﴾ يعني فِرقًا فِرقًا. ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ يعني ثوابَ أعمالِهم. وهذا كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما مِن أحدٍ يومَ القيامةِ إلَّا وَيَلُومُ نفسَه، فإنْ كان مُحسِناً يقولُ: لم لا ازدَدْتُ إحساناً؟ وإن كان غيرَ ذلك يقولُ: لم لا نَزَعْتُ عن المعاصي؟» وهذا عند مُعاينةِ الثوابِ والعقاب[٤].

وكان ابن عباس يقول: «أشْتاتًا» متفرِّقين على قَدْرِ أعمالِهم؛ أهلُ الإيمانِ على حِدَة، وأهلُ كلِّ دينٍ على حِدَة[٥].

وقيل: هذا الصُّدور، إنَّما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتاً من القبور، فيُصار بهم إلى موقف الحساب، ليُروا أعمالَهم في كتبهم، أو لِيُروا جزاءَ أعمالِهم؛ فكأنهم وَرَدوا القبورَ فدُفِنوا فيها، ثم صَدَروا عنها. والوارد: الجائي. والصادر: المُنْصَرِف.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٠ - ٥٦١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٢٠ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦١ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٥) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥٤٢ .

«أشتاتا» أي: يُبعثون من أقطار الأرض.

وعلى القول الأول[١] فيه تقديمٌ وتأخير؛ مَجازُه: تحدِّث أخبارها، بأنَّ ربَّك أَوْحَى لها، ليُرَوْا أعمالَهم. واعتَرض قولُه: «يَوْمَئذٍ يَصْدُر الناسُ أَشْتَاتًا» متفرِّقين عن موقف الحساب[٢].

وقراءة العامة: «لِيُرَوا» بضمِّ الياءِ، أي: لِيُريهم اللهُ أعمالَهم. وقرأ الحسن والزهريُّ وقتادةُ والأعرجُ ونصر بنُ عاصم وطلحةُ بفَتْحِها، وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ[٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ كان ابن عباس يقول: مَن يعمَلْ مِن الكفار مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ في الدنيا، ولا يُثابُ عليه في الآخرة، ومَن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ من شرٍّ عُوقب عليه في الآخرة مع عقابِ الشرك، ومَن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ من شرٍّ من المؤمنين يَرَهُ في الدنيا، ولا يعاقَب عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوَزُ عنه، وإن عمل مثقالَ ذرَّةٍ من خيرٍ يُقْبلْ منه، ويضاعفْ له في الآخرة[٤]. وفي بعض الحديث: الذرَّةُ لا زِنةَ لها[٥].

وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى: أنَّه لا يُغْفِلُ مِن عملِ ابنِ آدمَ صغيرةً ولا كبيرةً. وهو مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. وقد تقدَّم الكلامُ هناك في

(١) يعني القول بأن ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ معناه: عن موقف الحساب.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وزاد المسير ٩/ ٢٠٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١١ .

(٤) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥١١ ، والرازي ٣٢/ ٦١ .

(٥) سلف ٦/ ٣٢١ عن يزيد بن هارون قوله.

الذرّ، وأنَّه لا وزنَ له(١).

وذَكَر بعضُ أهلِ اللغةِ أنَّ الذرَّ: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما عَلِق بها من التراب فهو الذَّرُّ. وكذا قال ابن عباس: إذا وضعتَ يدك على الأرض ورَفَعْتَها، فكلُّ واحدٍ ممَّا لزق به من التراب ذَرَّة(٢).

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: فَمَن يَعْمَلْ مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خيرٌ. ومَن يعمل مثقالَ ذرّةٍ من شرٍّ من مُؤمنٍ، يرى عُقوبتَه في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرٌّ(٣). دليلُه ما رواه العلماءُ الأثباتُ من حديثِ أنس: أنَّ هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خيرٍ وشرٍّ(٤)؟ قال: «أرأيتَ ما تَكْره(٥)، فهو مثاقيلُ ذرِّ الشرِّ، ويُدَّخر لكم مثاقيلُ ذَرِّ الخير حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة». قال أبو إدريس: إنَّ مِصْداقَه من(٦) كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠](٧).

وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنَّه لـمَّا نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدُهم يأتيه السائل، فيَسْتَقِلُّ أن يعطِيه التمرةَ والكِسْرةَ والجوزة. وكان الآخَر يتهاوَنُ بالذَّنْبِ اليسير، كالكَذْبة والغِيبة والنظرة، ويقول: إنَّما أَوْعَدَ الله النارَ على الكبائر، فنزلت ترغِّبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه؛ فإنَّه يوشِكُ أن

(١) ٦/ ٣٢١.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٦١، وأخرجه هناد في الزهد (١٩٣).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٤.

(٤) في (ظ): أو شر.

(٥) في (م): ما رأيت مما تكره.

(٦) في (م): في.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٤ - ٥٦٦، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٩.

يكثر، وتحذِّرُهم اليسيرَ من الذنب، فإنَّه يوشِكُ أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإِثمُ الصغير في عين صاحبه يومَ القيامة أعظمُ من الجبال، وجميعُ محَاسِنِه أقلُّ في عينه من كلِّ شيء[١].

الثانية: قراءةُ العامَّةِ: «يَرَه» بفتح الياء فيهما. وقرأ الجَحْدريُّ والسُّلَميُّ وعيسى بنُ عمر وأبان عن عاصم: «يُرَهْ» بضمِّ الياء[٢]، أي: يُريه اللهُ إياه. والأُولى الاختيارُ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠]. وسكَّن الهاءَ في قوله: «يَرَه» في الموضعين هشام[٣]. وكذلك رواه الكسائيُّ عن أبي بكر[٤] وأبي حَيْوة والمغيرة. واختلس يعقوبُ والزهريُّ والحجدرِيُّ وشيبة[٥]. وأَشْبَعَ الباقون.

وقيل: «يَرَه»، أي: يرى جزاءَه؛ لأنَّ ما عَمِلَه قد مضى وعُدِمَ فلا يُرَى. وأنشدوا:

إنَّ مَن يَعْتدي ويَكْسِبُ إثْماً وَزْنَ مِثْقالِ ذَرَّةٍ سَيَرَاهُ
ويُجازَى بفِعْلِه الشرَّ شرًّا وبِفِعْلِ الجميلِ أيضاً جزاه
هكذا قولُه تَبارَكَ رَبِّي في إذا زُلزلتْ وجَلَّ ثَنَاهُ

الثالثة: قال ابن مسعود: هذه أحكمُ آيةٍ في القرآن[٦]، وصَدَق. وقد اتَّفق العلماءُ على عموم هذه الآيةِ، القائلون بالعموم ومَن لم يقل به. وروي [عن][٧] كعبِ الأحبارِ أنه قال: لقد أنزل الله على محمدٍ آيتين أحْصَتَا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١٦ ، دون قوله: وقاله سعيد بن جبير. وأخرجه عن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨١ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٧٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٢ . وذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ٦٩٤ عن أبان عن عاصم، والمشهور عن عاصم بفتح الياء.

(٣) السبعة ص ٦٩٤ ، والتيسير ص ٢٢٤ .

(٤) ذكرها عن الكسائي عن أبي بكر ابن مجاهد في السبعة ص ٦٩٤ ، والمشهور عنهما: «يرهُ» بإشباع الضم.

(٥) النشر ١/ ٣١١ عن يعقوب.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٦ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٧) زيادة يقتضيها السياق.

والصُّحُف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(١).

قال الشيخ أبو مَدْين في قوله تعالى: «فمن يعمل مِثقالَ ذرةٍ خيرًا يره» قال: في الحالِ قبلَ المآل(٢).

وكان النبيُّ ﷺ يسمِّي هذه الآيةَ: الآية الجامعة الفاذَّة، كما في الصَّحيح لمَّا سُئل عن الحُمُر وسكَتَ عن البغال، والجوابُ فيهما واحدٌ؛ لأنَّ البغل والحمارَ لا كَرَّ فيهما ولا فَرَّ، فلمَّا ذَكَر النبيُّ ﷺ ما في الخيل من الأجر الدَّائم، والثوابِ المستمرِّ، سأل السائلُ عن الحُمُر؛ لأنَّهم لم يكن عندهم يومئذٍ بَغْلٌ، ولا دَخَل الحجازَ منها إلَّا بغلةُ النبيِّ ﷺ «الدُّلْدُل»، التي أهداها له المقوقِس، فأفتاه في الحَمِير بعمومِ الآية، وأنَّ في الحمار مثاقيلَ ذرٍّ كثيرةً؛ قاله ابنُ العربيِّ(٣).

وفي «الموطأ»: أنَّ مِسْكيناً استَطْعَم عائشةَ أمَّ المؤمنين وبين يديها عِنَب، فقالت لإنسان: خُذْ حبةً فأَعْطِه إياها. فجعل ينظرُ إليها ويَعْجَبُ، فقالت: أتَعْجَبُ! كم ترى في هذه الحَبةِ من مثقال ذرّة(٤).

وروي عن سعد بن أبي وَقَّاص: أنَّه تَصَدَّق بتمرتين، فقبض السائلُ يدَه، فقال للسائل: ويَقْبلُ الله منَّا مناقيلَ الذرّ، وفي التمرتين مثاقيلُ ذرٍّ كثيرة(٥).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٣، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٥٩ - ١٩٦٠.

(٢) من قوله: قال الشيخ أبو مدين، إلى هذا الموضع من (م) وليس في النسخ الخطية. وأبو مدين لعله شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد، شيخ أهل المغرب، توفي في نحو سنة (٥٩٠هـ). وهناك شيخ آخر يكنى أبا مدين، وهو شعيب بن يحيى بن أحمد القيرواني ثم الإسكندراني التاجر، توفي سنة (٦٤٥هـ). السير ٢١/٢١٩ و٢٣/٢٦٨.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٩٦٠، والحديث الذي ذكره أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١) ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة ﷺ، وسلفت قطعة منه ٥/٥٢.

(٤) الموطأ ٢/٩٩٧ وفيه: قال مالك: بلغني أن مسكيناً استطعم عائشة...، وقد أخرجه بنحوه متصلاً أبو عبيد في الأموال (٩١١).

(٥) أخرجه بنحوه أبو عبيد في الأموال (٩١٠)، وذكره ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/٤٠٨.

وروى المُطَّلبُ بن حَنْطَب: أنَّ أعرابيّاً سمع النبيَّ ﷺ يَقرؤُها، فقال: يا رسولَ الله، أمِثْقالُ ذرّةٍ! قال: «نعم» فقال الأعرابيُّ: واسَوْأَتاه! مِراراً، ثم قام وهو يقولُها، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد دَخَلَ قلبَ الأعْرابيِّ الإيمانُ»[١].

وقال الحسن: قَدِم صعصعةُ عمُّ الفَرَزْدقِ على النبيِّ ﷺ، فلمَّا سمع ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيات، قال: لا أُبالي ألّا أسمعَ من القرآن غيرَها، حَسْبي، فقد انتهت الموعظة[٢]؛ ذكره الثعلبيُّ. ولَفْظُ الماورديّ[٣]: ورُوي أنَّ صعصعةَ بنَ ناجية جدَّ الفرزدقِ أتى النبيَّ ﷺ يستقرئُه، فقرأ عليه هذه الآيةَ، فقال صعصعةُ: حسبي حسبي؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذَرَّةٍ [خيراً رأيتُه، وإن عملتُ مثقال ذرةٍ] شَرًّا رأيتُه.

ورَوَى مَعمر عن زيد بن أسلم: أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: عَلِّمني ممَّا علَّمك الله. فدَفَعه إلى رجلٍ يعلِّمه، فعلَّمه: «إذا زُلزلت ـ حتى إذا بلغ ـ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرةٍ خَيراً يَرَه. ومَن يعمل مِثقالَ ذرةٍ شرًّا يَرَه» قال: حسبي. فأُخبر النبيُّ ﷺ فقال: «دَعُوهُ فإنَّه قد فَقُه»[٤].

ويُحكى أنَّ أعرابيًّا أخَّر «خَيْرًا يَرَهُ» فقيل: قدَّمْتَ وأخَّرْتَ. فقال:

خذا بطنَ هَرْشَى أو قَفاها فإنهُ ... كِلا جانبيْ هَرْشَى لهنَّ طريقُ[٥]

(١) أخرجه سعيد بن منصور، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٣٠)، وابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٢١-٢٢. وقد أخرجه الطبراني في الكبير (٧٤١١)، والحاكم ٣/ ٦١٣، والمزي في ترجمة صعصعة بن معاوية من تهذيب الكمال ١٣/ ١٧٣ - ١٧٤، ووقع عندهم: عن الحسن عن صعصعة بن معاوية عم الأحنف ابن قيس، وهو ما صوَّبه ابن الأثير والمزي والحافظ في الإصابة ٥/ ١٤١ - ١٤٢، وذكروا أنه ليس للفرزدق عم اسمه صعصعة، لكن جده اسمه صعصعة بن ناجية، وذكروا له صحبة. وينظر حاشية الحديث في مسند أحمد.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ٣٢١ - ٣٢٢، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨، وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٤٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٧٧، والكشاف ٤/ ٢٧٦، والكلام منه. والخبر أخرجه مطولاً صاحب الأغاني ١٢/ ٢٦١، والبيت لعقيل بن عُلَّفة من شعراء الدولة الأموية، كما في الأغاني، وطبقات فحول =

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مُختلَفٌ فيها، وآيُها تِسعٌ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: اضطرابَها المُقدَّرَ لها عند النَّفخةِ الأُولى أو الثَّانيةِ، أو الممكِنَ لها، أو اللائقَ بها في الحكمَةِ.

وقُرِئَ بالفَتحِ[2] وهو اسمُ الحركةِ، وليس في الأبنيةِ فَعْلَالٌ بالفتح إلَّا في المضاعَفِ.

(٢) ـ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: ما في جوفِها مِن الدَّفائنِ أو الأمواتِ، جمعُ ثَقَلٍ وهو مَتاعُ البيتِ.

(٣) ـ ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ لِمَا يَبهَرُهُم مِن الأمرِ الفَظيعِ.

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: الكافرُ؛ فإنَّ المُؤمِنَ يعلَمُ ما لها.

(٤) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تُحدِّثُ الخلقَ بلسانِ الحالِ ﴿أَخْبَارَهَا﴾: ما لأَجلِه زلزالُها وإخراجُها.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٨٣): هي ثمان آيات في المدني الأول والكوفي وتسع في عدد الباقين.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٧) عن الجحدري.

وقيل: يُنطِقُها اللهُ فتُخبِرُ بما عُمِلَ عليها.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذَا﴾، وناصِبُهُما ﴿تُحَدِّثُ﴾، أو أصلٌ و﴿إِذَا﴾ مُنتَصِبٌ بمُضمَرٍ[1].

(٥) ـ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾؛ أي: تحدِّثُ بسببِ إيحاءِ ربِّكَ لها بأَنْ أحدثَ فيها ما دلَّتْ به[2] على الأخبارِ أو أنطقَهَا بها، ويجوزُ أن يكونَ بدلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، إذ يقال: حدَّثْتُه كذا وبكذا.

واللامُ بمعنى (إلى)، أو على أصلِها إذ لها في ذلك تَشَفٍّ مِن العُصاةِ[3].

(٦) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن مَخارِجِهم مِن القبورِ إلى الموقفِ ﴿أَشْتَاتًا﴾: مُتفرِّقينَ بحسبِ مَراتبِهم ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: جزاءَ أعمالِهم. وقُرِئَ بفتحِ الياءِ[4].

---

(١) قوله: «أو أصل» معطوف على قوله: «بدل»؛ أي: غير تابع، فهو منصوب بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ أصالة، و﴿إِذَا﴾ منصوب بمقدر على الظرفية كـ: تقوم الساعة، ويحشر الناس، أو بـ: «اذكر» على أنه مفعول به فهي خارجة عن الظرفية والشرطية، ويجوز أن تكون شرطية منصوبة بالجواب المقدر؛ أي: يكون مالاً يدرك كنهه ونحوه. قاله الشهاب.

(٢) في نسخة الفاروقي: «ما دل».

(٣) قوله: «واللام بمعنى إلى» لأنّ المعروف تعدِّي الوحي بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أو هي لام التعليل أو المنفعة من غير تأويل بـ(إلى) لأنّ الأرض بتحدّثها مع العصاة يحصل لها تشف من العصاة لتفضيحها لهم بذكر قبائحهم فهي منتفعة بذلك. قاله الشهاب.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٧) عن النبي ﷺ وجماعة، ونسبها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٥١١) للحسن والأعرج وحماد والزهري وأبي حيوة.

(٧ ـ ٨) ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تفصيلٌ لـ﴿يُرَوْا﴾، ولذلك قُرِئَ: (يُرَه) بالضم[١]، وقرأ هشامٌ بإسكانِ الهاء[٢].

ولعلَّ حَسَنةَ الكافرِ وسيِّئةَ المُجتنِبِ عن الكبائرِ تؤثِّرانِ في نقصِ الثَّوابِ والعِقابِ.

وقيل: الآيةُ مَشروطَةٌ بعدمِ الإحباطِ والمغفرَةِ، أو (مَن) الأولى مَخصوصَةٌ بالسُّعداءِ والثَّانيةُ بالأشقياءِ؛ لقولِه: ﴿أَشْتَاتًا﴾.

والذرَّةُ: النَّملَةُ الصَّغيرةُ، أو الهَباءُ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ كان كمَنْ قرَأَ القرآنَ كُلَّهُ»[٣].

***

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٧) عن ابن عباس وعلي بن الحسين، وهارون عن عاصم، وذكرها في «المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٢) من رواية أبان عن عاصم، وزاد نسبتها لأبي حيوة، وحميد بن الربيع عن الكسائي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٤).

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٧): أخرجه الثعلبي [«تفسيره» (٣٠/ ١٤٠)] من حديث عليٍّ بإسناد أهل البيت، لكنه من رواية أبي القاسم الطائي وهو ساقط، وشاهِدُه عند ابن أبي شيبة والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعا: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن».
قلت: لم أجده عند ابن أبي شيبة، وهو قطعة من حديث سلمة بن وردان عن أنس عند الترمذي (٢٨٩٥)، والبزار (٢٣٠٨ ـ كشف الأستار)، و«الشعب» للبيهقي (٢٥١٥)، ولم ترد هذه القطعة في رواية البزار. وحسنه الترمذي، لكن قال البيهقي: سلمة بن وردان ليس بقوي في الحديث.

(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

روى **الترمذي** عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن»[1]. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن»[2]. وعن أنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت، يا فلان؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج، قال: «أليس معك قل هو الله أحد؟» قال: بلى، قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك قل يا أيها الكافرون؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك إذا زلزلت الأرض؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن، تزوج»[3]

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

قال ابن عباس ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾: أي تحركت من أسفلها ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى، كقوله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، وكقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾، وفي الحديث: «تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: غريب.

(٣) أخرجه الترمذي أيضاً، وقال: حديث حسن.

فلا يأخذون منه شيئاً ﴾[١]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها أي تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قـد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها، من الزلزال الذي لا محيد لهـا عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أي تحدث بمـا عمل العاملون على ظهرها، عن أبي هريرة قـال: قرأ رسول الله ﷺ هـذه الآية: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال: « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإن أخبارهـا أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها »[٢]. وفي معجم الطبراني: « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة »[٣] وقوله تعالى: ﴿ بأن ربك أوحى لهـا ﴾ قال البخاري: أوحى لهـا، وأوحى إليها، ووحى لهـا، ووحى إليها، وكذا قال ابن عباس ﴿ أوحى لها ﴾ أي أوحى إليها، والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها، وقال ابن عباس: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال، قال لهـا ربها قولي، فقالت؛ وقال مجاهد ﴿ أوحى لهـا ﴾ أي أمرها، وقال القرظي: أمرها أن تنشق عنهم، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب ﴿ أشتاتاً ﴾ أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي ﴿ أشتاتاً ﴾ فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ أي ليجازوا بمـا عملوه في الدنيا من خير وشر، ولهذا قال: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» الحديث. فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر ؟ فقال: « ما أنزل الله فيهـا شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ »[٤]. وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال: حسبي أن لا أسمع غيرها[٥]، وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: « اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة »، وله أيضاً في الصحيح: « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط »[٦]. وفي الصحيح أيضاً: « يا معشر نسـاء المؤمنات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[٧] يعني ظلفها، وفي الحديث الآخر: « ردوا السائل ولو بظلف محرق ». وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان »[٨]. وروي عن عائشة أنهـا تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة، وروى ابن جرير

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.
(٤) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.
(٥) أخرجه أحمد والنسائي.
(٦) أخرجه البخاري.
(٧) أخرجه البخاري أيضاً.
(٨) أخرجه أحمد.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر»؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»(١).

وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾ (٢) يعني وزن أصغر النمل ﴿خيراً يره﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً بكل واحدة عشراً ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة. وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها(٣)

[آخر تفسير سورة إذا زلزلت. ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن جرير

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

تفسير سورة إذا زلزلت

وهى مكية.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا عياش بن عباس ، عن عيسى ابن هلال الصَّدفى ،عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئنى يا رسول الله . قال [١] له : « اقرأ ثلاثا من ذات الر » . فقال له الرجل : كبر سنى واستد [٢] قلبى ، وغَلُظ لسانى . قال : « فاقرأ من ذات [٣] حم » ،فقال مثل مقالته الأولى . فقال : « اقرأ ثلاثا من المسبحات » ، فقال مثل مقالته . فقال الرجل : ولكن أقرئنى ــ يا رسول الله ــ سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجلُ : والذى بعثك بالحق ، لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل ،فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ! أفلح الرويجل ! » ثم قال : «عَلَىّ به » . فجاءه فقال له : « أمرْتُ بيوم الأضحى جعله الله عيدا لهذه الأمة » . فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا مَنيحَة أنثى فأضحى بها ؟ قال : « لا ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله ، عز وجل » .

وأخرجه أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عبد الرحمن المقرئى [٤] ، به [٥] .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن موسى الحَرَشى البصرى : حدثنا الحسن بن سلْم [٦] بن صالح العجلى ،حدثنا ثابت البُنانى ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ:« من قرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ ،عدلَت له بنصف القرآن» . ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن سَلْم [٧] [٨] .

وقد رواه البزار عن محمد بن موسى الحرشى ، عن الحسن بن سلم [٩]، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ تَعدلُ ثلث القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تَعدلُ ربع القرآن » . هذا لفظه .

وقال الترمذى أيضا : حدثنا على بن حُجْر ، حدثنا يزيد بن هارون ،حدثنا يمان بن المغيرة العنزى، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تَعْدلُ نصف القرآن،و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون ﴾ تعدل ربع القرآن » . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة [١٠] .

---

(١) فى م : « فقال » . (٢) فى م : « واشتد » . (٣) فى أ : « من ذوات » .
(٤) فى أ : « المقبرى » .
(٥) المسند (٢/١٦٩) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٩) وسنن النسائى (٧/ ٢١٢) .
(٦) فى أ : « مسلم » . (٧) فى م ، أ : « مسلم » .
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٣) .
(٩) فى م ، أ : « مسلم » .
(١٠) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٤) .

وقال أيضاً : حدثنا عقبة بن مُكَرَّم العَمّى البصرى ، حدثنى ابن أبى فُدَيْك ، أخبرنى سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجت يا فلان؟» قال : لا ، والله يا رسول الله ، ولا عندى ما أتزوج ؟! قال: « أليس معك ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد** ﴾؟ ». قال: بلى . قال: « ثلث القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ؟ ». قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون** ﴾ ؟». قال : بلى . قال : « ربع القرآن ». قال : « أليس معك ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ** ﴾ ؟ ». قال : بلى . قال : « ربع القرآن » تزوج ، [تزوج] (١) » . ثم قال : هذا حديث حسن (٢) .

تفرد بهن ثلاثتهن الترمذى ، لم يروهن غيره من أصحاب الكتب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا** ﴾ أى : تحركت من أسفلها . ﴿ **وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ يعنى : ألقت ما فيها من الموتى .قاله غير واحد من السلف . وهذه كقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحج:١] ، وكقوله : ﴿ **وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** ﴾ [الانشقاق:٣، ٤] .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن فُضَيل ، عن أبيه ، عن أبى حازم ،عن أبى هُرَيرة قال:قال رسول الله ﷺ : « تَقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : فى هذا قَتَلْتُ ، ويجيء القاطع فيقول : فى هذا قَطَعتُ رحمى ، ويجيء السارق فيقول : فى هذا قُطعت يدى ، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً » (٣) .

وقوله : ﴿ **وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا** ﴾ أى : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** ﴾ أى : تحدث بما عمل العاملون على ظهرها .

---

(١) زيادة من سنن الترمذى .

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٥) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠١٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك ــ وقال الترمذى وأبو عبد الرحمن النسائى، واللفظ له : حدثنا سُوَيد بن نصر ، أخبرنا عبد الله ــ هو ابن المبارك ــ عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن أبى سليمان ، عن سعيد المقْبُرى ، عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها » (١) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وفى معجم الطبرانى من حديث ابن لَهيعة : حدثنى الحارث بن يزيد ــ سمع ربيعة الجُرَشى ــ : أن رسول الله ﷺ قال : « تحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً ، إلا وهى مُخبرة » (٢) .

وقوله : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ : قال البخارى : أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٣). وكذا قال ابن عباس : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أوحى إليها .

والظاهر أن هذا مُضَمَّن [بمعنى] (٤) أذن لها .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت .

وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القُرَظى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن مواقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .

قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم .

وقال السُّدِّى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ .

قال البخارى : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى مالك عن يزيد بن أسلم ، عن أبى صالح السَّمان عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ؛ فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طِيَلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شَرَفا أو

(١) المسند (٢/ ٣٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٣) .

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٤١) : « وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف » .

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٧٢٦) « فتح » .

(٤) زيادة من م ، أ .

شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يَسقَى به كان ذلك حسنات له ، وهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تَغَنيا وتعففا ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ،فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورئاء ونواء ، فهى على ذلك وزر » .فسئُل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ، فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ **فَمَن** [١] **يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه** ﴾.

ورواه مسلم ، من حديث زيد بن أسلم ، به [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا جرير بن حازم ، حدثنا الحسن ، عن صعصعة بن معاوية ــ عم الفرزدق ــ : أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه** ﴾ ، قال : حسبى ! لا أبالى ألا أسمع غيرها [٣] .

وهكذا رواه النسائى فى التفسير ،عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدب ، عن أبيه ، عن جرير ابن حازم ، عن الحسن البصرى قال : حدثنا صعصعةُ عم الفرزدق ، فذكره [٤] .

وفى صحيح البخارى ، عن عَدى مرفوعا : « اتقوا النار ولو بِشِقٍّ تمرة ،ولو بكلمة طيبة»[٥] . وفى الصحيح :« لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » [٦] . وفى الصحيح أيضاً : « يا نساء [٧] المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة » [٨] يعنى : ظلفها . وفى الحديث الآخر : « ردوا السائل ولو بظلْف مُحَرق»[٩].

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا كثير بن زيد ، عن المطلب بن عبد الله ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمرة ،فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان » . تفرد به أحمد [١٠] .

ورُوِىَ عن عائشة أنها تصدقت بعنبة ، وقالت : كم فيها من مثقال ذرة [١١] .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا سعيد بن مسلم ، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير :

(١) فى م ، أ : « من » وهو خطأ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٢) وصحيح مسلم برقم (٩٨٧) .

(٣) المسند (٥/ ٥٩) .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٤) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥١٢) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٦) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه .

(٧) فى م : « يا معشر نساء » ، وفى أ : « معشر النساء » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٥٦٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٨١) وأبو داود فى السنن برقم (١٦٦٧) والترمذى فى السنن برقم (٦٦٥) من حديث أم بجيد الأنصارية ، رضى الله عنها . وقال الترمذى : « حديث أم بجيد حديث حسن صحيح ».

(١٠) المسند (٦/ ٧٩) .

(١١) هو فى الموطأ (٢/ ٩٩٧) بلاغاً عن عائشة .

حدثنى عوف بن الحارث بن الطفيل : أن عائشة أخبرته : أن النبى ﷺ كان يقول : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » .

ورواه النسائى وابن ماجة ، من حديث سعيد بن مسلم بن بَانَك ، به(١) .

وقال ابن جرير : حدثنى أبو الخطاب الحسانى ، حدثنا الهيثم بن الربيع ، حدثنا سماك بن عطية، عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن (٢) يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ ، فرفع أبو بكر يده وقال : يا رسول الله ، إنى أُجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : « يا أبا بكر ، ما رأيت فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذَر الخير حتى تُوفَاه يوم القيامة » (٣) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه [عن] (٤) أبى الخطاب ، به . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الوهاب ،حدثنا أيوب قال : فى كتاب أبى قِلابة ، عن أبى إدريس: أن أبا بكر كان يأكل مع النبى ﷺ ،فذكره (٥) .

ورواه أيضاً عن يعقوب ، عن ابن عُلَيَّة ، عن أيوب ،عن أبى قلابة : أن أبا بكر ، وذكره .

طريق أخرى: قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى حُيَى ابن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما نزلت : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قاعد ، فبكى حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ:« ما يبكيك يا أبا بكر ؟ » . قال : يبكينى هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ: « لولا أنكم تخطئون وتذنبون ، فيغفر الله لكم ، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»(٦).

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة وعلى بن عبد الرحمن بن [محمد بن] (٧) المغيرة ــ المعروف بعلان المصرى ــ قالا : حدثنا عمرو بن خالد الحرَّانى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، أخبرنى هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قلت : يا رسول الله ، إنى لراء عملى؟ قال : « نعم » . قلت : تلك الكبار الكبار ؟ قال : « نعم» . قلت : الصغار الصغار ؟ قال: « نعم » . قلت : وا ثُكلَ أُمى . قال : « أبشر يا سعيد ؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها ــ يعنى إلى

(١) المسند (٦/ ١٥١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٣) .

(٢) فى أ : « من » وهو خطأ .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٧٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤١٨) « مجمع البحرين » من طريق أبى الخطاب ، به ، وقال : «لم يروه عن أيوب إلا سِمَاك ، ولا عنه إلا الهيثم . تفرد به زيادة » . قلت : الهيثم بن الربيع ضعيف .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٧٤) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٧١٠٣) والطبرانى فى المعجم الكبير برقم (٨٧) « القطعة المفقودة » من طريق ابن وهب ، به .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٧٥) .

(٧) زيادة من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٣/ ١/ ١٩٥) .

سبعمائة ضعف ـ ويضاعف الله لمن يشاء ، والسيئة بمثلها أو يغفر الله ، ولن ينجو أحد منكم بعمله». قلت : ولا أنت يا رسول الله (١) ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة » (٢).
قال أبو زُرْعَة : لم يرو هذا غير ابن لَهِيعة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى (٣) عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ ، وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [الإنسان:٨] ، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشىء القليل الذى أعطوه ، فيجىء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجَوْزة ونحو ذلك ، فيردونه ويقولون : ما هذا بشىء . إنما نُؤجَر على ما نعطى ونحن نحبه . وكان آخرون يَرَون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ، يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر . فرغبهم فى القليل من الخير أن يعملوه ، فإنه يوشك أن يكثر ،وحذرهم اليسير من الشر ، فإنه يوشك أن يكثر ، فنزلت : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ يعنى : وزن أصغر النمل ﴿ **خَيْرًا يَرَهُ** ﴾ يعنى : فى كتابه ،ويَسُرُّه ذلك . قال : يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة .وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً ، بكل واحدة عشر ، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة ، دخل الجنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن عبد ربه ، عن أبى عياض ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » . وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا ، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صَنِيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سوادا ، وأجّجوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها (٤) .

[آخر تفسير سورة « إذا زلزلت »] (٥) [ولله الحمد والمنة] (٦)

---

(١) فى أ : « يا نبى الله » .
(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٥٩٤) وعزاه لابن أبى حاتم ،ولآخره شاهد فى الصحيح من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه .
(٣) فى م : « عن » .
(٤) المسند (١/ ٤٠٢) .
(٥) زيادة من م ، أ .
(٦) زيادة من أ .

/ سورة الزلزلة [٣١٤و]

مختلَف فيها، وهي تسع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: حُرِّكت تحريكًا عنيفًا متكرِّرًا متداركًا ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ أي: الزلزالَ المخصوص بها على مقتضى المشيئة الإلهيّة المبنيّة على الحِكم البالغة، وهو الزلزال الشديد الذي لا غايةَ وراءه، أو زلزالَها العجيب الذي لا يُقادَر قَدْره، أو زلزالَها الداخل في حيّز الإمكان. وقُرئ بفتح "الزاء"،[1] وهو اسم، وليس في الأبنية "فَعْلال" بالفتح إلّا في المضاعَف،[2] وقولُهم: "ناقة خَزْعال" نادرٌ.[3] وقد قيل: "الزَّلزال" بالفتح أيضًا، مصدر كـ"الوَسواس" و"الجَرجار" و"القَلقال".[4]

وذلك عند النفخة الثانية لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ أي: ما في جوفها مِن الأموات والدفائن، جمع "ثِقْل"، وهو متاع البيت. وإظهارُ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في موقع الإضمار لزيادة التقرير، أو للإيماء إلى تبدُّل الأرض غيرَ الأرض، أو لأنّ إخراج الأثقال حالُ بعض أجزائها.

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: كلّ فرد مِن أفراده، لِما يدهَمهم مِن الطامّة التامّة ويبهرهم مِن الدّاهية العامّة. ﴿مَا لَهَا﴾ زُلزِلت هذه المرتبة الشديدة مِن الزلزال،

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٧.

[2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

[3] نقله الجوهري في الصحاح، «خزعل»، عن الفرّاء، وفيه: «ناقة بها خَزعال، أي: ظَلَع».

[4] الكلام في تفسير القرطبي، ١٤٧/٢٠؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٤٤٥/٢٠.

وأخرجت ما فيها مِن الأثقال، استعظامًا لِما شاهدوه مِن الأمر الهائل، وقد سُيّرت الجبال في الجوّ وصُيّرت هباءً. وقيل: هو قول الكافر؛ إذ لم يكن مؤمنًا بالبعث.[١] والأظهر هو الأوّل، على أنّ المؤمنَ يقوله بطريق الاستعظام، والكافرَ بطريق التعجّب.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا﴾، وقوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ عامل فيهما، ويجوز أن يكون ﴿إِذَا﴾ منتصبًا بمضمر، أي: يوم إذ زُلزِلت الأرض تُحدِّث الخلقَ أخبارَها إمّا بلسان الحال حيث تدلّ دلالةً ظاهرةً على ما لأجله زِلزالُها وإخراجُ أثقالها، وإمّا بلسان المقال حيث يُنطقها الله تعالى فتُخبِر بما عُمل عليها مِن خير وشرّ. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أنّها تشهد على كلّ أحد بما عَمِل على ظهرها».[٢] وقُرئ: "تُنَبِّئُ أَخْبَارَهَا"[٣] وقُرئ: "تُنْبِئُ"[٤] مِن الإنباء.

[٣١٤ظ] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: تُحدِّث أخبارها بسبب إيحاء ربّك لها / وأمرِه إيّاها بالتحديث، على أحد الوجهين، ويجوز أن يكون بدلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، كأنّه قيل: تحدِّث بأخبارها بأنّ ربّك أوحى لها؛[٥] لأنّ التحديث يُستعمل بـ"الباء" وبدونها، وأوحى لها بمعنى أوحى إليها.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذُكر ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن قبورهم إلى موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرّقين بحسب طبقاتهم: بيضَ الوجوه آمنين، وسودَ الوجوه فزعين، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ، ١٨/٧٨]. وقيل: يصدرون عن الموقف أشتاتًا: ذات اليمين إلى الجنّة، وذات الشمال إلى النار.[٦] ﴿لِيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أجزية أعمالهم خيرًا كان أو شرًّا. وقُرئ: "لَيَرَوا"[٧] بالفتح.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٢ مسند أحمد، ٤٥٥/١٤ (٨٨٦٧)؛ سنن الترمذي، ٦١٩/٤-٦٢٠ (٢٤٢٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٣.

٤ س - "تنبئ". | قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٣.

٥ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٤/٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وقتادة والزّعفراني وحمّاد بن سلمة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٤.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تفصيل ﴿لِيُرَوْا﴾. وقُرئ: "يُرَهْ".[١] والذرّة: النملة الصغيرة. وقيل: ما يُرى في شعاع الشمس مِن الهَباء.[٢] وأيًا ما كان فمعنى رؤية ما يعادلها مِن خير وشرّ إمّا مشاهدة جزائه، فـ﴿مَن﴾ الأولى مختصّة بالسُّعداء والثانية بالأشقياء، كيف لا، وحسنات الكافر مُحبَطة بالكفر، وسيّئات المؤمن المجتنِب عن الكبائر معفوّة.

وما قيل: مِن أنّ حسنة الكافر تؤثّر في نقص العقاب يردّه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣]. وأمّا مشاهدة نفسه مِن غير أن يعتبَر معه الجزاء ولا عدمه؛ بل يفوَّض كلّ منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنِب عن الكبائر وإثابته لجميع حسناته، وبحبوط حسناتِ الكافر ومعاقبتِه لجميع معاصيه، فالمعنى ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ليس مِن مؤمن ولا كافر عَمِل خيرًا أو شرًّا إلّا أراه الله تعالى إيّاه، أمّا المؤمن فيغفر له سيّئاته ويُثيبه بحسناته، وأمّا الكافر فيردّ حسناته تحسُّرًا ويعاقب بسيّئاته».[٣]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربع مرّات كان كمَن قرأ القرآن كلّه».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن وزيد بن عليّ وأبان بن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٢٠.

٢ **القول في الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٩٤.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٢٤/٥٦٣؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٨/٥٠٢-٥٠٣.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٠/١٤٠ (البينة، ٩٩/١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٥٤٢ (البينة، ٩٩/١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٩٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٩٩

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مكية أو مدنية، تسعُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا زُلزِلَتِ الأرضُ﴾: حُرّكتْ لقيام الساعة ﴿زِلزالَها﴾: تحريكَها الشديد المُناسب لعِظَمها، ٢ ـ ﴿وأخرَجَتِ الأرضُ أثقالَها﴾: كُنوزها وموتاها فألقتها على ظهرها، ٣ ـ ﴿وقالَ الإنسانُ﴾ أي: الكافر بالبعث: ﴿ما لَها﴾؟ إنكارًا لتلك الحالة، ٤ ـ ﴿يومَئِذٍ﴾: بدلٌ من «إذا» وجوابها: ﴿تُحَدِّثُ أخبارَها﴾: تُخبرُ بما عُمل عليها من خير وشرّ ٥ ـ ﴿بِأنَّ﴾: بسبب أنّ ﴿رَبَّكَ أوحَى لَها﴾ أي: أمرَها بذلك. في الحديث «تَشهَدَ على كُلِّ عَبدٍ أو أمةٍ بكُلِّ ما عَمِلَ على ظَهرِها».

٦ ـ ﴿يومَئِذٍ يَصدُرُ النّاسُ﴾: ينصرفون من موقف الحِساب ﴿أشتاتًا﴾: مُتفرّقين، فآخذٌ ذاتَ اليمين إلى الجنّة وآخذٌ ذاتَ الشِّمال إلى النار، ﴿لِيُرَوا أعمالَهُم﴾ أي: جزاءها من الجنّة أو النار. ٧ ـ ﴿فمَن يَعمَلْ مِثقالَ ذَرّةٍ﴾: زِنَةَ نملةٍ صغيرة ﴿خيرًا يَرَهُ﴾:........................

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قولُهُ: (لِعظَمِهَا) أي: السَّاعَة؛ أي: اللّائِقَ بها في الحِكمَةِ، أو المقدَّرَ لها عندَ النَّفخةِ الثَّانيَةِ.

قولُهُ: (الكَافِرُ) فإنَّ المؤمِنَ يعلَمُ ما لها، أو الجنس؛ لما يبهَرُهم من الأمرِ الفظيعِ.

قولُهُ: (وجَوابُهَا) وناصِبُها: ﴿تُحدِّثُ﴾.

قولُهُ: (أي: أمرَهَا) واللَّامُ بمَعنى: إلى.

قولُهُ: (مُتفَرِّقِينَ) بحسَبِ مراتِبِهِم.

يرَ ثوابه، ٨ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾: يرَ جزاءه.

قولُهُ: (يرَ ثَوابَه) أي: في الجنَّةِ، وقالَ الإمامُ جعفرٌ[1]: ﴿فَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّة خَيراً يَرَه﴾ في الدُّنيا إذا كانَ مُشرِكاً ﴿ومَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ في الدُّنيا إن كانَ مُسلِماً.

قالَ الواسطِيُّ[2]: إذا كانَ من أصلِ الإسلامِ أنَّ الأعراض لا تُرى ولا تَبقى وَقتَينِ، فكيفَ يجوزُ أن يُرى؟ قيل: القُرآنُ صفةُ الله، وإنَّ الصِّفةَ لا تَبِينُ من الموصُوف، وهو يُرى في الأرضِ مَكتوباً؛ فكذا الأعمالُ ذكرَهُ في «نَفائسِ العَرائِس»، والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) وانظر: «عرائس البيان» (٣/ ٥٢٢).

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٤١٤)، و«عرائس البيان» (٣/ ٥٢٢).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

ويقال: سورة: إذا زُلْزِلَت. وهي مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاء، ومدنيةٌ في قول قتادة ومقاتل(١)، واستدلَّ له في «الإتقان» بما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: لَمَّا نزلت: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلخ قلتُ: يا رسول الله، إني لراءٍ عملي؟ قال: «نعم». قلت: تلك الكبارَ الكبارَ؟ قال: «نعم». قلت: الصغارَ الصغارَ؟ قال: «نعم». قلتُ: وا ثُكلَ أمي. قال: «أبشِر يا أبا سعيد، فإنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالها» الحديث. وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة، ولم يبلغ إلا بعد أُحُد(٢).

وآيها ثمان في الكوفي والمدني الأوَّل، وتسعٌ في الباقية(٣).

وصحَّ في حديث الترمذيِّ والبيهقيِّ وغيرهما عن ابن عباس مرفوعاً: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تَعدِل نصفَ القرآن(٤). وجاء في حديثٍ آخر تسميتُها رُبعاً(٥).

---

(١) البحر ٨/ ٥٠٠، وورد في هامش الأصل: وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة. اهـ. وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٧٩.

(٢) الإتقان ١/ ٤١، والحديث ذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه السورة عن ابن أبي حاتم بإسناده، وفيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ، وهشام بن سعد وهو ضعيف.

(٣) ورد هنا في هامش الأصل: اختلافها: ﴿أَشْتَاتًا﴾ [الآية: ٦] غير الكوفي والمدني الأول. اهـ. وهو في مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٤.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩٤)، وشعب الإيمان (٢٥١٤)، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. اهـ. ويمان ضعيف كما في التقريب. وقد أخرج هذا الحديث الترمذي (٢٨٩٣)، والبيهقي في الشعب (٢٥١١) عن أنس أيضاً. وفي إسناده الحسن بن سلم بن صالح العجلي، قال البيهقي: مجهول.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥١٥) عن أنس ﷺ، قال
=

ووجه ما في الأول بأنَّ أحكام القرآن تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة إجمالاً وزادت على «القارعة» بإخراج الأثقال وبحديث الأخبار.

وما في الآخر بأنَّ الإيمانَ بالبعث الذي قرَّرته هذه السورةُ ربعُ الإيمان في الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يؤمنُ عبدٌ حتى يُؤمنَ بأربعٍ: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحقِّ، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعدَ الموت، ويؤمن بالقدر»(١). وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بهذا المقام.

وكأنه لَمَّا ذكر عز وجل في السورة السابقة جزاءَ الفريقَين المؤمنين والكافرين كان ذلك كالمحرِّك للسؤال عن وقته، فبيَّنه جلَّ شأنه في هذه السورة فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: حُرِّكت تحريكاً عنيفاً متدارِكاً متكرِّراً ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أي: الزلزالَ المخصوصَ بها الذي تقتضيه بحسب المشيئة الإلهية المبنية على الحِكَم البالغة، وهو الزلزالُ الشديد الذي ليس بعده زلزالٌ، فكأنَّ ما سواه ليس زلزالاً بالنسبة إليه. أو: زلزالَها العجيبَ الذي لا يقادَر قدرُه. فالإضافة على الوجهين للعهد.

ويجوز أن يراد الاستغراقُ؛ لأنَّ زلزالاً مصدرٌ مضافٌ فيعمُّ، أي: زلزالَها كلَّه، وهو استغراقٌ عُرفي قُصد به المبالغة، وهو مرادُ مَن قال(٢): أي: زلزالَها الداخلَ في حيِّز الإمكان، أو عنى بذلك العهدَ أيضاً.

= الترمذي: هذا حديث حسن. اهـ. وفيه سلمة بن وردان، قال البيهقي: ليس بقوي في الحديث.

(١) سنن الترمذي (٢١٤٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٥٨)، وهو من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ١٨٨.

وقرأ الجحدريُّ وعيسى: «زَلْزَالَها» بفتح الزاي[(١)]، وهو عند ابن عطية مصدرٌ كالزِّلزال بالكسر[(٢)]، وقال الزمخشري: المكسورُ مصدرٌ، والمفتوحُ اسمٌ للحركة المعروفة، وانتصب هاهنا على المصدر تجوُّزاً لسدِّه مسدَّ المصدر. وقال أيضاً: ليس في الأبنية فَعْلَالٌ بالفتح إلا في المضاعف[(٣)].

وذكروا أنه يجوز في ذلك الفتحُ والكسرُ، إلا أنَّ الأغلب فيه إذا فُتح أن يكون بمعنى اسم الفاعل، كصَلصال بمعنى مُصلصِل، وقَضْقاض بمعنى مُقَضْقِض[(٤)]، ووَسواس بمعنى مُوَسْوِس. وليس مصدراً عند ابن مالك[(٥)]. وأما في غير المضاعف فلم يُسمع إلا نادراً سواء كان صفةً أو اسماً جامداً، وبَهْرَام وبَسْطَام معرَّبان إن قيل بصحَّة الفتح فيهما. ومن النادر «خَزْعَال» بمعجمتين، وهو الناقة التي بها ظَلْع، ولم يُثبِت بعضُهم غيرَه. وزاد ثعلب: قَهْقَار[(٦)]، وهو الحجر الصلب. وقيل: هو جمعٌ. وقيل: هو لغة ضعيفة، والفصيحة: قَهْقَرٌ، بتشديد الراء. وزاد آخر: قَسْطالاً[(٧)]، وهو الغبارُ.

وهذا الزلزال على ما ذهب إليه جمعٌ عند النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾، فقد قال ابن عباس: أي: موتاها[(٨)]. وقال النقاش والزَّجَّاج ومنذر بن سعيد: أي: كنوزَها وموتاها[(٩)]. ورُوي عن ابن عباس أيضاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٧، والبحر ٨/ ٥٠٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥١٠.

(٣) الكلام في الكشاف ٤/ ٢٧٥ باختصار.

(٤) القضقاض: الأسد يُقَضْقِضُ فريستَه. والقَضْقَضَةُ: صوت كسر العظام. الصحاح (قضض).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٨٨، وكلام ابن مالك في «التسهيل» ظاهر في إجازة المصدر، حيث قال ص٢٠٦: ومصدر فَعْلَلَ والملحق به بزيادة هاء التأنيث في آخره، أو بكسر أوله وزيادة ألفٍ قبل آخره. وفَتحُ أول هذا إن كان كالزلزال جائزٌ، والغالب أن يراد به حينئذٍ اسم الفاعل. اهـ. وينظر أوجز المسالك ص٤٣٩.

(٦) تحرف في (م) إلى: قهقاز.

(٧) وزاد في القاموس (خزعل): خرطال. وينظر تاج العروس (خزعل) فثمَّة ألفاظ أخر.

(٨) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٥٩.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٠.

وهذه الكنوزُ على هذا القول غيرُ الكنوز التي تخرج أيامَ الدجال على ما وردت به الأخبار، وذلك بأن تُخرِج بعضاً في أيامه وبعضاً عند النفخة الثانية، ولا بُعدَ في أن تكون بَعد الدجال كنوزٌ أيضاً فتُخرجها مع ما كان قد بقي يومئذٍ.

وقيل: هو عند النفخة الأولى، و«أَثْقَالَها»: ما في جوفها من الكنوز، أو منها ومن الأموات، ويعتبر الوقتُ ممتدًّا.

وقيل: يحتمل أن يكون إخراجُ الموتى كالكنوز عند النفخة الأولى، وإحياؤها في النفخة الثانية، وتكون على وجه الأرض بين النفختين. وأنت تعلم أنه خلافُ ما تدلُّ عليه النصوصُ.

وقيل: إنها تُزلْزَلُ عند النفخة الأولى فتُخرِج كنوزها، وتُزَلزل عند الثانية فتُخرِج موتاها. وأريد هنا بوقت الزلزال ما يعمُّ الوقتين.

واقتصر بعضهم على تفسير الأثقال بالكنوز مع كون المراد بالوقت وقتَ النفخة الثانية، وقال: تُخرج الأرض كنوزَها يومَ القيامة ليراها أهلُ الموقف، فيتحسَّر العصاةُ إذا نظروا إليها حيث عصوا الله تعالى فيها ثم تركوها لا تُغني عنهم شيئاً. وفي الحديث: «تُلقي الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها أمثالَ الأسطوانات من الذهب والفضة، فيجيء القاتلُ فيقول: مِن هذا قَتلتُ. ويجيء القاطعُ فيقول: في هذا قَطعتُ رحمي. ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعت يَدِي. ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً»[١].

وقيل: إنَّ ذلك لتُكوى بها جباهُ الذين كَنَزوا وجنوبُهم وظهورُهم.

وأيَّاما كان فالأثقال جمعُ ثَقَلٍ بالتحريك، وهو على ما في «القاموس»: متاعُ المسافر، وكلُّ نفيسٍ مَصُون[٢]. وتُجوِّز به هاهنا على سبيل الاستعارة عن الثاني.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٣)، والترمذي (٢٢٠٨) عن أبي هريرة ﷺ. وعندهما: «تقيءُ»، بدل: تُلقي، ومعناهما واحد. و«الأسطوان»، بدل: الأسطوانات، وكلاهما جمع أسطوانةٍ، وهي السارية والعمود. ينظر الديباج على مسلم للسيوطي ٣/ ٨٥، ومعجم متن اللغة (سطن).

(٢) القاموس (ثقل).

ويجوز أن يكون جمعَ ثِقْل بكسر فسكون، بمعنى حَمْل البطن، على التشبيه والاستعارة أيضاً كما قال الشريف المرتضى في «الدرر»، وأشار إلى أنه لا يُطلَق على ما ذُكر إلا بطريق الاستعارة(١).

ومنهم مَن فسَّر الأثقال هاهنا بالأسرار، وهو مع مخالفته للمأثور بعيدٌ.

وإظهار «الأرض» في موقع الإضمار لزيادة التقرير. وقيل: للإيماء إلى تبديل الأرض غيرَ الأرض. أو لأنَّ إخراج الأثقال حالُ بعض أجزائها.

والظاهر أنَّ إخراجها ذلك مسبَّب عن الزلزال كما يُنفَض البساط ليخرُج ما فيه من الغبار ونحوه، وإنما اختيرت الواوُ على الفاء تفويضاً لذهن السامع. كذا قيل، ولعلَّ الظاهر أنَّه لم تُرَد السببيةُ والمسبَّبية، بل ذُكر كلٌّ مما ذكر من الحوادث من غير تعرُّضٍ لتسبُّبِ شيء منها على الآخر.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: كلُّ فردٍ من أفراد الإنسان لِمَا يَبهَرهم من الطامَّة التامَّة، ويَدْهَمهم من الداهية العامَّة: ﴿مَا لَهَا﴾ تَزلزلت هذه المرتبةَ من الزلزال، وأخرجت ما فيها من الأثقال؟! استعظاماً لِمَا شاهدوه من الأمر الهائل وقد سُيِّرت الجبالُ في الجوِّ وصُيِّرت هباءً.

وذهب غير واحد إلى أنَّ المراد بالإنسان الكافرُ غير المؤمن بالبعث، والأظهر هو الأول على أنَّ المؤمن يقول ذلك بطريق الاستعظام والكافر بطريق التعجُّب.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من «إذا»، وقولُه تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ـ أي: الأرضُ، واحتمالُ كون الفاعل المخاطَبَ كما زعم الطبرسيُّ(٢) لا وجهَ له ـ عاملٌ فيهما.

وقيل: العاملُ مضمَر يدلُّ عليه مضمونُ الجمل بعدُ، والتقديرُ: يُحشَرون إذا زلزلت، و«يومئذ» متعلِّقٌ بـ «تُحدِّث»، و«إذا» عليه لمجرَّد الظرفية.

---

(١) أمالي الشريف المرتضى المسماة غرر الفوائد ودرر القلائد ١/ ٩٥.

(٢) في مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٧.

وقيل: هي نصبٌ على المفعولية لـ: اذْكُرْ، محذوفاً، أي: اذْكُر ذلك الوقتَ، فليست ظرفيةً ولا شرطيةً.

وجوِّز أن تكون شرطيةً منصوبةً[1] بجوابٍ مقدَّر، أي: يكون ما لا يُدرَك كُنْهه. أو نحوه.

والمراد: يومَ إذ[2] زُلزلت زلزالَها، وأخرجت أثقالَها، وقال الإنسان: ما لها؟ تُحدِّث الخلقَ ما عندها من الأخبار، وذلك بأنَّ يَخلُق الله تعالى فيها حياةً وإدْراكاً وتتكلَّم حقيقةً فتشهد بما عُمِل عليها من طاعة أو معصية. وهو قول ابن مسعود والثوريِّ وغيرهما، ويشهد له الحديثُ الحسنُ الصحيحُ الغريب؛ أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) ثم قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ أخبارَها أن تشهد على كلِّ عبد وأَمَة بما عَمِل على ظهرها، تقول: عَمِل يومَ كذا كذا، فهذه أخبارُها»[3].

والباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ للسببيَّة، أي: تُحدِّث بسببِ إيحاء ربِّك لها وأمرِه سبحانه إياها بالتحديث، واللام بمعنى «إلى»، أي: أوحى إليها؛ لأنَّ المعروف تَعدِّي الوحْي بها كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] لكن قد يتعدَّى باللام كما في قول العجاج يصف الأرض:

أوحى لها القَرارَ فاستَقرَّتِ   وشدَّها بالراسياتِ الثُّبَّتِ[4]

ولعلَّ اختيارَها لمراعاةِ الفواصل.

---

(١) في الأصل و(م): منصوب. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٨، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): إذا، والمثبت من البحر ٨/ ٥٠٠، والدر المصون ١١/ ٧٤، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٨٨.

(٣) مسند أحمد (٨٨٦٧)، وسنن الترمذي (٢٤٢٩) و(٣٣٥٣). قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ غريب صحيح. اهـ. وفيه يحيى بن أبي سليمان، قال الحافظ في التقريب: لين الحديث.

(٤) ديوان العجاج ص٢٦١، وهو في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٦، والنكت والعيون ٦/ ٣٢٠، والبحر ٨/ ٥٠١.

وجوَّز أن تكون اللام للتعليل أو المنفعة؛ لأنَّ الأرض بتحديثها بعمل العُصاة يحصل لها تشفٌّ منهم بفضحها إياهم بذكر قبائحهم، والموحَى إليه هي أيضاً.

والوحي يحتمل أن يكون وحْيَ إلهام، وأن يكون وحْيَ إرسالٍ، بأن يُرسِل سبحانه إليها رسولاً من الملائكة بذلك. وقال الطبري وقوم: التحديثُ استعارةٌ أو مجازٌ مرسَلٌ لمطلق دلالة حالها، والإيحاءُ إحداثُ ما تدلُّ به، فيُحدِث عزَّ وجلَّ فيها من الأحوال ما يكون به دلالةٌ تقوم مقامَ التحديث باللسان، حتى ينظر مَن يقول: ما لها، إلى تلك الأحوال فيَعلم لِمَ زُلزِلت ولم لَفَظت الأمواتَ، وأنَّ هذا ما كانت الأنبياء عليهم السلام يُنذِرونه ويُحذِّرون منه. وما يُعلم هو أخبارُها(١).

وقيل: الإيحاء ـ على تقدير كون التحديث حقيقيًّا أيضاً ـ مجازٌ عن إحداث حالةٍ يُنطِقها سبحانه بها كإيجاد الحياة وقوَّةِ التكلُّم، والأخبارُ على ما سمعتَ آنفاً.

وقال يحيى بن سلام: تُحدِّث بما أخرجت من أثقالها(٢). ويشهد له ما في حديث ابن ماجه في سننه: «تقول الأرض يومَ القيامة يا ربِّ، هذا ما استودعتَني»(٣).

وعن ابن مسعود: تحدِّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان: ما لها، فتُخبر أنَّ أمرَ الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك جواباً لهم عند سؤالهم(٤).

وقال الزمخشري: يجوز أن يكون المعنى: تُحدِّث بتحديث أنَّ ربك أوحى لها أخبارَها، على أنَّ تحديثَها بأنَّ ربك أوحى لها تحديثٌ بأخبارها، كما تقول: نصحتَني كلَّ نصيحة بأن نصحتَني في الدين(٥). فأخبارُها عليه هو أنَّ ربَّك أوحى لها. والباءُ تجريديةٌ، مثلها في قولك: لئن لَقِيتَ فلاناً لتَلقَيَنَّ به رجلاً متناهياً في

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦٠، والكشاف ٤/ ٢٧٦، والبحر ٨/ ٥٠١.
(٢) البحر ٨/ ٥٠١.
(٣) سنن ابن ماجه (٤٢٦٣) وهو من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤٩: إسناده صحيح ورجاله ثقات.
(٤) النكت والعيون ٦/ ٣١٩.
(٥) الكشاف ٤/ ٢٧٦.

الخير. وكان الظاهرُ: تُحدِّث بخبرها، بالإفراد، وكذا على ما قبله من الوجهين، لكن جُمع للمبالغة كما يُشير إليه المثالُ، ونحوُه قولُ الشاعر:

فأنالَني كلَّ المُنَى بزيارةٍ كانت مخالسةً كخِطفة طائرِ
فلو استطعتُ [إذاً] خَلَعْتُ على الدُّجَى لتطولَ ليلتُنا سوادَ الناظرِ[1]

ولا يخفى بعدُه. وبالغ أبو حيان في الحطِّ عليه فقال: هو عفش ينزَّه القرآن عنه[2]. وأراد بالعفش ـ بعين مهملة وفاء وشين معجمة ـ: ما يدنِّس المنزلَ من الكناسة، وهي كلمة تستعملها في ذلك عوامُّ أهل المغرب، وليس كما قال.

وجوَّز أيضاً أن يكون (بِأَنَّ رَبَّكَ) إلخ بدلاً من (أَخْبَارَهَا)، كأنه قيل: يومئذٍ تحدِّث بأنَّ ربك أوحى لها؛ لأنك تقول: حدَّثته كذا، وحدَّثته بكذا. فيصحُّ إبدال «بأنَّ» إلخ من «أخبارَها» وأنَّ أحدَهما مجرورٌ والآخرَ منصوبٌ؛ لأنه يحلُّ محلَّه في بعض الاستعمالات، وليس ذلك في الامتناع ـ خلافاً لأبي حيان[3] ـ ك : استغفرتُ الذنبَ العظيمِ، بنصب الذنب وجرِّ العظيم على أنَّه نعتٌ له باعتبار قولهم: استغفرتُ من الذنبِ = لأنَّ البدلَ هو المقصود فهو في قوة عاملٍ آخر، بخلاف النعت. نعم هو أيضاً خلافُ الظاهر.

وبعد كلِّ ذلك اللائقُ أن لا يُعدل عن المأثور، لاسيَّما إذا صحَّ عن رسول الله ﷺ.

بقي هاهنا بحثٌ وهو أنهم اختلفوا في نحو: حدَّث، هل هو متعدٍّ إلى مفعولٍ واحد أو إلى أكثر، فذهب الزمخشريُّ[4] وغيرُه ـ ونُقل عن سيبويه[5] ـ إلى الثاني، وهو عندهم ملحقٌ بأفعال القلوب، فينصب مفعولين ك : حدَّثتُ زيداً الخبرَ. أو ثلاثةً ك : حدَّثته عَمْراً قائماً. ف «أخبارها» عليه هو المفعولُ الثاني، والمفعول

---

(١) البيتان في فيض القدير ٢/ ٤٦٣ دون نسبة، وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر ٨/ ٥٠١.
(٣) حيث منع ذلك في البحر ٨/ ٥٠١.
(٤) في الكشاف ٤/ ٢٧٦، وهو قول ابن مالك كما في أوضح المسالك ص٢٢٧.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٩.

الأول محذوفٌ كما أشرنا إليه، ولم يُذكر لأنه لا يتعلَّق بذكره غرضٌ إذ الغرض تهويلُ اليوم وأنه مما ينطِق فيه الجمادُ، بقطع النظر عن المحدِّث كائناً مَن كان.

وقال الشيخ ابن الحاجب: إنما هو متعدٍّ لواحد، وما جاء بعده لتعيين المفعول المطلق، فـ «عَمْراً قائماً» في نحو: حدَّثتُ زيداً عَمْراً قائماً، منصوبٌ لوقوعه موقع المصدر، لا لكونه مفعولاً ثانياً وثالثاً، ولا يقال: كيف يصحُّ أن يقع ما ليس بفعلٍ في المعنى ـ أعني: عمراً قائماً ـ مصدراً؟ لأنه لم يكن مصدراً باعتبار كونه عمراً قائماً، ولكن باعتبار كونه حديثاً مخصوصاً، فالوجه الذي صحَّح الإخبارَ به عن الحديث إذا قلتَ: حديثُ زيدٍ عمرٌو قائمٌ، هو الذي صحَّح وقوعَه مصدراً، فـ «أخبارها» عليه في موقع المفعول المطلق[١]، والمفعولُ به محذوفٌ؛ لِمَا تقدَّم، بل قال بعضهم: إنك إذا قلتَ: حدَّثتُه حديثاً، أو: خبراً، فلا نزاعَ في أنه مفعولٌ مطلقٌ. والظاهر أنَّ الأخبارَ في زعمه كذلك.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» بأنَّ ما ذكره الشيخُ غير مسلَّم، فإنَّه لم يفرِّق بين التحديث والحديث، والأول هو المفعول المطلق، كيف وهو يُجرُّ بالباء فتقول: حدَّثتُه الخبرَ، و: بالخبر؟ ومعلومٌ أنَّ ما دخل عليه الباءُ لا يجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً.

وقد يقال: كونُ الشيخ لم يفرِّق في حيِّز المنع، وكيف يخفى مثلُ ذلك على مثله؟ لكنَّه قائلٌ بأنَّ أثر المصدر ومتعلِّقه قد سدَّ مسدَّه فيما ذُكر، كما سدَّ مسدَّه آلتُه في نحو: ضربته سَوْطاً، ولعلَّ ما قرَّره في غير ما دخلته الباء.

وقال الطيبي: يمكن أن يقال: إنَّ حَدَّثَ وأخواتها متعدِّياتٌ إلى مفعولٍ واحد حقيقةً، وجَعْلُها متعدِّياتٍ إلى ثلاثة أو إلى اثنين تجوُّزٌ أو تضمينٌ لمعنى الإعلام. واستأنَسَ له بكلامٍ نقلَه عن «المفصَّل»[٢]، وكلامٍ نقله عن صاحب «الإقليد». فتأمَّل.

---

(١) لفظة: المطلق، سقطت من (م).

(٢) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٦٥-٦٦.

وقرأ ابن مسعود: «تُنَبِّئُ أَخْبَارَها»[١]، وسعيد بن جبير: «تُنْبِئُ» بالتخفيف[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يقع ما ذُكر، وهو ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ يَخرُجون من قبورهم بعد أن دُفنوا فيها إلى موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرِّقين بحسب طبقاتهم: بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فَزِعين، ورَاكبين وماشين، ومقيَّدين بالسلاسل وغير مقيَّدين.

وعن بعض السلف: مفترقين[٣] إلى سعيد وأسعد، وشقيٍّ وأشقى. وقيل: إلى مؤمنٍ وكافرٍ.

وعن ابن عباس: أهلُ الإيمان على حدة، وأهل كلِّ دين على حدة.

وجوِّز أن يكون المرادُ: كلَّ واحدٍ وحدَه لا ناصرَ له ولا عاضدَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقيل: متفرقين بحسب الأقطار.

﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ليُبصِروا جزاءَ أعمالهم خيراً أو شرًّا، فالرؤية بصريةٌ، والكلام على حذف مضاف، أو على أنَّه تجوُّزٌ بالأعمال عما يتسبَّب عنها من الجزاء. وقدَّر بعضُهم: كُتُبَ، أو: صَحَائفَ.

وقال آخر: لا حاجةَ إلى التأويل والأعمالُ تجسَّم نورانية وظلمانية بل يجوز رؤيتها مع عرضيَّتها. وهو كما ترى.

وقيل: المراد: ليعرفوا أعمالَهم ويُوقَفوا عليها تفصيلاً عند الحساب. فلا يحتاج إلى ما ذكر أيضاً.

وقال النقاش: الصدورُ مقابل الورود، فيَرِدُون المحشرَ ويَصدُرون منه متفرِّقين، فقومٌ إلى الجنة وقومٌ إلى النار؛ ليُرَوا جزاءَ أعمالهم من الجنة والنار. وليس بذاك.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٤، والكشاف ٤/ ٢٧٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦٠، والقراءات الشاذة ص١٧٧.

(٣) في (م): متفرقين.

وأيًّاما كان فقولُه تعالى: (لِّيُرَوۡاْ) متعلِّق بـ «يَصْدُر». وقيل: هو متعلِّق بـ «أوحى لها» وما بينهما اعتراضٌ.

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وحماد بن سلمة والزهريُّ وأبو حيوة وعيسى ونافع في رواية: «لِيَرَوا» بفتح الياء(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ تفصيلٌ لـ «يُرَوا». والذرَّة: نملةٌ صغيرةٌ حمراء رقيقة. ويقال: إنها تجري إذا مضى لها حولٌ. وهي عَلَمٌ في القلَّة؛ قال امرؤ القيس:

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دبَّ مُحْوِلٌ ... من الذرِّ فوقَ الإتْبِ منها لأثَّرَا(٢)

وقيل: الذرُّ: ما يُرى في شعاع الشمس من الهباء.

وأخرج هناد عن ابن عباس أنه أدخل يدَه في التراب ثم رفعها، ثم نفخ فيها وقال: كلُّ واحدةٍ من هؤلاء مثقالُ ذرَّةٍ(٣).

وانتصابُ «خيراً» و«شرًّا» على التمييز، لأنَّ «مثقالَ ذرَّةٍ» مقدارٌ. وقيل: على البدلية من «مثقال».

والظاهر أنَّ «مَن» في الموضعين عامَّة للمؤمن والكافر، وأنَّ المرادَ من رؤيةِ ما يُعادِل مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ أو شرٍّ مشاهدةُ جزائه بأن يحصل له ذلك.

واستشكل بأنَّ ذلك يقتضي إثابة الكافر بحسناته وما يفعله من الخير، مع أنهم

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥١١، والبحر ٨/ ٥٠١-٥٠٢، والمشهور عن نافع بضم الياء كقراءة الجماعة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٦٨. وقد سلف البيت ٢٣/ ٨٩ برواية: الأنف، بدلَ: الإتب. وجاء في هامش الأصل: الإِتب بالكسر: بُرْدٌ يشَقُّ فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمَّين، ودرعُ المرأة، وما قصر من الثياب فنَصَفَ الساقَ، أو سراويل بلا رجلين، أو قميص بلا كمين. اهـ. وهو منقول من القاموس (أتب). والمُحْوِل: الذي أتى عليه الحول. القاموس (حول).

(٣) الزهد لهناد بن السري (١٩٣).

قالوا: أعمالُ الكَفَرَة مُحبَطة. وادَّعى في «شرح المقاصد» الإجماعَ على ذلك(١)، كيف وقد قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]؟ وكونُ خيرهم الذي يرونه تخفيفَ العذاب يدفعه قولُه تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦] وقولُه سبحانه: ﴿زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ويقتضي أيضاً عقابَ المؤمن بصغائره إذا اجتنب الكبائرَ، مع أنهم قالوا إنها مكفَّرةٌ حينئذٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وقول ابن المنير(٢): إنَّ الاجتنابَ لا يوجب التكفيرَ عند الجماعة، بل التوبةُ أو مشيئةُ الله تعالى = ليس بشيء؛ لأنَّ التوبة والاجتنابَ سواءٌ في حكم النصِّ، ومشيئةُ الله تعالى هي السببُ الأصيل.

فالتزم بعضُهم كونَ المراد بـ «مَن» الأولى السعداءُ، وبـ «من» الثانية الأشقياءُ، بناءً على أنَّ (فَمَن يَعْمَلْ) إلخ تفصيلٌ لـ (يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا) وكان مفسَّراً بما حاصله: فريق في الجنة وفريق في السعير، فالمناسب أن يرجع كل فقرةٍ إلى فرقة ليطابق المفصَّلُ المجملَ، ولأنَّ ظاهرَ قولِهِ سبحانه: (فَمَن يَعْمَلْ) (وَمَن يَعْمَلْ) بتكرير أداة الشرط يقتضي التغايُرَ بين العامِلين.

وقال آخرون بالعموم، إلا أنَّ منهم مَن قال: في الكلام قيدٌ مقدَّر تُرك لظهوره والعلم به من آياتٍ أُخَر، فالتقدير: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره إن لم يُحبَط، ومن يعمَلْ مثقالَ ذرة شرًّا يره إن لم يكفَّر. ومنهم مَن جعلَ الرؤية أعمَّ مما تكون في الدنيا وما تكون في الآخرة، فالكافر يرى جزاءَ خيرِه في الدنيا وجزاءَ شرِّه في الآخرة، والمؤمن يرى جزاءَ شرِّه في الدنيا وجزاء خيره في الآخرة، فقد روى البغويُّ وابن جرير وابن المنذر وغيرُهم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: فمن

---

(١) ينظر شرح المقاصد ٥/ ١٤٣.

(٢) في الانتصاف ٤/ ٢٧٧.

يعمل مثقالَ ذرَّة من خيرٍ وهو كافرٌ فإنه يرى ثوابَ ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله، حتى يبلغَ الآخرة وليس له فيها خير، ومَن يعمل مثقال ذرَّةٍ من شرٍّ وهو مؤمن كُوفِئَ ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله، حتى يبلغ الآخرةَ وليس عليه فيها شرٌّ(١).

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» وابن أبي حاتم وجماعة عن أنس قال: بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع النبيِّ ﷺ إذ نزلت عليه: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) الآية، فرفع أبو بكر يدَه وقال: يا رسول الله، إني لراءٍ ما عملتُ من مثقال ذرَّةٍ من شرٍّ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكر، أرأيتَ ما ترى في الدنيا مما تكره فَبِمَثاقيل ذَرِّ الشرِّ، ويُدَّخَرُ لك مثاقيلُ ذرِّ الخير حتى تُوفَّاه يومَ القيامة»(٢).

وفي رواية ابن مردويه عن أبي أيوب أنَّه ﷺ قال له إذ رفع يَده: «مَن عَمِل منكم خيراً فجزاؤه في الآخرة، ومَن عَمِل منكم شرًّا يره في الدنيا مصيباتٍ وأمراضاً، ومَن يكن فيه مثقالُ ذرة من خيرٍ دَخَل الجنة»(٣).

ومنهم من قال: المراد مِن رؤيةِ ما يُعادِل ذلك من الخير والشرِّ مشاهدةُ نفسه من غيرِ أن يُعتبر معه الجزاءُ ولا عدمُه، بل يُفوَّض كلٌّ منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفوِ صغائر المؤمن المجتنِب عن الكبائر وإثابته بجميع حسناته، وبحبوط

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٦٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨١، وهو في تفسير عبد الرزاق ٣/ ٣٨٨.

(٢) المعجم الأوسط (٨٤٠٢)، وشعب الإيمان (٩٨٠٩)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر وغيرهم السيوطي في الدر ٦/ ١٨٠، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦٤-٥٦٥، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٢-٥٣٣ وصححه، وهو مرسل كما قال الذهبي في التلخيص.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٨١، وفيه أن الذي أمسك يده عن الطعام هو رسول الله ﷺ، ليس أبا بكر. وجاء في هامش الأصل: وفي رواية لابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني أنه عليه الصلاة والسلام قال: «وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. اهـ. وهو في الدر المنثور ٦/ ٣٨١.

حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه. وبه يُشعر ما أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس من قوله في الآية: ليس مؤمنٌ ولا كافرٌ عَمِل خيراً وشرًّا في الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه، فأمَّا المؤمن فيرى حسناتِه وسيئاتِه، فيَغفِر له من سيئاته ويُثيبه بحسناته، وأما الكافر فيُرِيه حسناتِه وسيئاتِه فيردُّ حسناتِه ويعذِّبه بسيئاتِه[1].

واختار هذا الطيبيُّ فقال: إنه يُساعده النظمُ والمعنى والأسلوب:

أمّا النظم: فإنَّ قوله تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ) إلخ تفصيلٌ لِمَا عقَّب به من قوله سبحانه: (يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ)، فيجب التوافق، والأعمالُ جمعٌ مضافٌ يُفيد الشمولَ والاستغراقَ، و(يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ) مقيَّدٌ بقوله عز وجل: (أَشْتَاتًا) فيُفيد أنهم على طرائقَ شتَّى للنزول في منازلهم من الجنة والنار بحسب أعمالهم المختلفة، ومن ثَمَّ كانت الجنة ذاتَ درجات والنارُ ذاتَ دَرَكات.

وأمَّا المعنى: فإنها وردت لبيان الاستقصاء في عرض الأعمال والجزاء عليها كقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأما الأسلوب: فإنها من الجوامع الحاوية لفوائد الدين أصلاً وفرعاً؛ روينا عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة: سُئِل رسول الله ﷺ عن الحُمُر - أي: عن صدقتها - قال: «لم ينزل عليَّ فيها شيءٌ إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة» - أي: المتفرِّدة في معناها - فتلاها عليه الصلاة والسلام[2].

وروى الإمام أحمد[3] عن صعصعة بن معاوية عمِّ الفرزدق أنه أتى النبيَّ ﷺ،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦٣، والبعث والنشور (٥٩)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨١.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٧١)، وصحيح مسلم (٩٨٧)، وقد رواه أيضاً مالك ٢/ ٤٤٤، وأحمد (٧٥٦٣)، والنسائي ٦/ ٢١٦-٢١٧.

(٣) جاء في هامش الأصل: ورواه أيضاً النسائي والطبراني وابن المبارك في الزهد وغيرهم. اهـ منه.

فقرأ عليه الآيةَ، فقال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمعَ من القرآن غيرَها[1]. انتهى.

وأقول: الظاهر عمومُ «مَن» وكونُ المراد رؤيةَ الجزاء كما تقدَّم، وكذا الظاهرُ كونُ ذلك في الآخرة ولا إشكال، وذلك لأنَّ الفقرة الأولى وعدٌ، والثانية وعيدٌ، ومذهبنا أن الوعد لازمُ الوقوع تفضُّلاً وكرماً، والوعيد ليس كذلك، فيفوَّضُ أمر الشرِّ في الثانية على الدلائل، وهي ناطقةٌ بأنه إن كان كفراً لا يُغْفر، وإن كان صغيرةً مِن مؤمنٍ مجتنِبِ الكبائر يكفَّر، وإن كان كبيرةً من مؤمنٍ أو صغيرةً منه وهو غيرُ مجتنبِ الكبائر فَتَحْتَ المشيئةِ، وخبرَا أنسٍ وأبي أيوب السابقان لا يأبيان ذلك بعد التأمُّل، ولا يبعُد فيما أرى أن يكون ما عدا الكُفْرَ من الكافر كذلك.

وأما أمرُ الخير فباقٍ على ما يقتضيه الظاهر وهو بالنسبة إلى المؤمن ظاهر، وأما بالنسبة إلى الكافر فتخفيفُ العذاب؛ للأحاديث الصحيحة؛ فقد ورد أنَّ حاتماً يخفِّف الله تعالى عنه لكرمه[2]، وأنَّ أبا لهب كذلك لسروره بولادة النبيِّ ﷺ وإعتاقِه لجاريته ثُوَيبةَ حين بشَّرته بذلك[3]، والحديثُ في تخفيف عذاب أبي طالب

(١) مسند أحمد (٢٠٥٩٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٣٠)، والمعجم الكبير (٧٤١١)، والزهد لابن المبارك (٨٠)، والمستدرك ٣/ ٦١٣. وجاء عند ابن المبارك: عم الفرزدق أو جدُّه. وعند الطبراني والحاكم: عم الأحنف بن قيس، وهو ما صوَّبه ابن الأثير في أُسْد الغابة ٣/ ٢١-٢٢، والمزيُّ في تهذيب الكمال ١٣/ ١٧٤-١٧٥، والحافظ في الإصابة ٥/ ١٤١-١٤٢. وذكروا أنه ليس للفرزدق عمٌّ اسمه صعصعة، ولكن جده صعصعة بن ناجية، وهو صحابي.
وجاء في هامش الأصل: وفي رواية لابن المبارك وعبد الرزاق عن الحسن: أنه سمعها لما نزلت رجلٌ من المسلمين فقال: انتهت الموعظة. اهـ منه. وهو في الزهد لابن المبارك (٨٢)، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨.

(٢) ذكر أحمد بن غنيم النفراوي في الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ١/ ٨١ أنه لما أسلم عدي بن حاتم قال له رسول الله ﷺ: «إن الله رفع عن أبيك العذاب الأليم بسبب سخائه». اهـ. ولم نقف عليه في كتب الحديث. وجاء في حديث لابنِ عباس: «إن الله تعالى يأمر بالكافر السخي إلى جهنم، فيقول لمالك خازن جهنم: عذِّبه، وخفِّف عنه العذابَ على قدر سخائه الذي كان في دار الدنيا». مسند الفردوس (٥٥٤)، وعزاه في كنز العمال (١٦٢١١) لأبي الشيخ في «الثواب».

(٣) أخرج البخاري (٥١٠١) عن عروة قال: وثويبة مولاة أبي لهب، كان أبو لهب أعتقها،
=

مشهورٌ[(١)]، وما يدلُّ على عدم تخفيف العذاب فالعذابُ فيه محمولٌ على عذاب الكفر بحسب مراتبه، فهو الذي لا يخفَّف، والعذابُ الذي دلَّت الأخبارُ على تخفيفه غيرُ ذلك.

ومعنى إحباط أعمال الكفار أنها لا تُنجيهم من العذاب المخلَّد كأعمال غيرهم، وهو معنى كونها سراباً وهباءً، ودعوى الإجماع على إحباطها بالكلية غيرُ تامَّةٍ، كيف وهم مخاطَبون بالتكاليف في المعاملات والجنايات اتفاقاً، والخلافُ إنما هو في خطابهم في غيرها من الفروع، ولا شكَّ أنه لا معنى للخطاب بها إلا عقاب تاركها وثواب فاعلها، وأقلُّه التخفيف، وإلى هذا ذهب العلامة شهاب الدين الخفاجي عليه الرحمة[(٢)]، ثم قال:

وما في «التبصرة»[(٣)] و«شرح المشارق» و«تفسير الثعلبي» من أنَّ أعمالَ الكَفَرَة الحسنة التي لا يشترط فيها الإيمانُ كإنجاء الغريق وإطفاء الحريق وإطعام ابن السبيل يُجزَون عليها في الدنيا ولا تُدَّخر لهم في الآخرة كالمؤمنين بالإجماع؛ للتصريح به في الأحاديث، فإن عَمِل أحدُهم في كفره حسناتٍ ثم أسلم اختلف فيه: هل يُثاب عليها في الآخرة أم لا؟ بناءً على أنَّ اشتراطَ الإيمان في الاعتداد بالأعمال وعدم إحباطها هل هو بمعنى وجود الإيمان عند العمل، أو وجودِه ولو بعدُ؛ لقوله ﷺ في الحديث: «أسلمتَ على ما سَلَفَ لك من خير»[(٤)] = غير مسلَّم، ودعوى الإجماع فيه غيرُ صحيحة؛ لأنَّ كون وقوع جزائهم في الدنيا دون الآخرة كالمؤمنين مذهبٌ لبعضهم. وذهب آخرون إلى الجزاء بالتخفيف، وقال الكرماني:

= فأرضعت النبيَّ ﷺ، فلما مات أبو لهب أُرِيَه بعضُ أهله بِشَرِّ حِيبَةٍ، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألقَ بعدكم غير أني سُقيت في هذه بِعَتَاقَتي ثُويبة. اهـ. وزاد في رواية عبد الرزاق (١٣٩٥٥): وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه.

(١) ينظر في ذلك حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠). وحديث ابن عباس عند مسلم (٢١٢).

(٢) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٨/ ٣٩٠.

(٣) لعله تبصرة الأدلة في علم الكلام لأبي المعين ميمون بن محمد النسفي المتوفى (٥٠٨هـ). كشف الظنون ١/ ٣٣٧.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٢٠) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

إنَّ التخفيف واقعٌ لكنه ليس بسبب عملهم، بل لأمرٍ آخر كشفاعة النبيِّ ﷺ ورجائه. ومنه ما يكون لأبي لهب كما قال الزركشيُّ[(١)]. انتهى.

ولقائل أن يقول: إنَّ الشفاعةَ من آثار عَمَل المشفوعِ الخيرَ أيضاً. فتأمَّل.

وسبب نزول الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لَمَّا نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل إذا أَعْطَوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلُّون أن يعطوه التمرة والبسرةَ، فيردُّونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نُؤجَر على ما نعطي ونحن نحبُّه. وكان آخرون يَرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله تعالى النارَ على الكبائر. فنزلت الآية تُرغِّبهم في القليل من الخير أن يعملوه، وتحذِّرهم اليسيرَ من الشرِّ أن يعملوه[(٢)]. وفيها من دلالة الخطاب ما لا يخفى، وقد كان الصحابة ﷺ بعدها يتصدَّقون بما قلَّ وكثر؛ فقد رُوي أنَّ عائشة ﷺ بعث إليها ابنُ الزبير بمئة ألفٍ وثمانينَ ألفَ درهم في غرارتين، فدَعَت بطبقٍ وجعلت تَقسمها بين الناس، فلما أمست قالت لجاريتها: هَلُمِّي. وكانت صائمةً، فجاءت بخبزٍ وزيت، فقالت: ما أمسكتِ لنا درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه. فقالت: لو ذكَّرتيني لفعلتُ[(٣)].

وجاء في عدَّة روايات أنها أعطَت سائلاً يوماً حبَّة من عنبٍ، فقيل لها في ذلك، فقالت: هذه أثقل من ذرٍّ كثيرٍ. ثم قرأت الآية[(٤)]. ورُوي نحوُ هذا عن عمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك ﷺ[(٥)]، وكان غرضُهم تعليمَ الناس أنَّه

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٠، وينظر شرح البخاري للكرماني ٢٥/ ٥٥.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/ ٣٨١.
(٣) أخرجه هناد في الزهد (٦١٩)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٧.
(٤) أخرجه أبو عبيد في الأموال (٩١٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٤٩٠، والبيهقي في الشعب (٣٤٦٦).
(٥) أخرجه عن عمر ﷺ عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٢. وأخرجه عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أبو عبيد في الأموال (٩٠٨)، والبيهقي في الشعب (٣٤٦٧). وأخرجه عن سعد ﷺ أبو عبيد في الأموال (٩٠٩).

لا بأسَ بالتصدُّق بالقليل، ولهم بذلك أسوةٌ برسول الله ﷺ فقد أخرج الزجاجي في أماليه عن أنس بن مالك أنَّ سائلاً أتى النبيَّ ﷺ فأعطاه تمرةً فقال السائلُ: نبيٌّ من الأنبياء يتصدَّق بتمرة؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «أما علمتَ فيها مثاقيلُ ذرٍّ كثيرةٍ»(١).

وجاء أنه عليه الصلاة والسلام قال: «اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ» ثم قرأ الآية(٢).

وتقديم عمل الخير لأنَّه أشرفُ القسمين، والمقصود بالأصالة لا يخفى حسنُ موقعه، ويُعلم منه أنَّ هذا الإحصاء لا ينافي كرمَه عز وجل المطلق، وما يُحكى من أنَّ أعرابيًّا أخَّر (خَيْرًا يَـرَهُۥ) فقيل له: قدَّمتَ وأخَّرتَ. فقال:

خُذا بطنَ هَرشى أو قَفاها فإنَّه ... كِلَا جَانِبَيْ هَرشَى لهنَّ طريقُ(٣)

فغفلةٌ عن اللطائف القرآنية، أو لعلَّه أراد أنه فيما يتعلَّق بالعمل لا بأسَ به قُدِّم أو أُخِّر، لا أنَّ القراءةَ به جائزة.

وقرأ الحسين بن علي ـ على جدِّه وعليهما الصلاة والسلام ـ وابن عباس رضي الله عنهما وعبد الله بن مسلم وزيد بن علي وأبو حيوة والكلبي وخليد بن نشيط وأبان عن عاصم والكسائيُّ في روايةِ حميد بن الربيع عنه: «يُرَه» بضم الياء في الموضعين(٤).

---

(١) عزاه للزجاجي السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٢-٣٨٣، ولم نقف عليه في أماليه. وقد أخرجه البيهقي في الشعب (٩١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) (٦٧) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، وقد سلف ٤/ ٤٤٨. وليس فيه ذكر قراءة الآية. ورواية المصنف أخرجها ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٢ من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: ثم قرأت، بدل: ثم قرأ.

(٣) أخرجه الأصبهاني في الأغاني ١٢/ ٢٦٠-٢٦١ عن عقيل بن عُلَّفة من شعراء الدولة الأموية. وهو في القراءات الشاذة ص١٧٧، والكشاف ٤/ ٢٧٦. وهَرشى: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يُرى منها البحر، ولها طريقان فكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضعٍ واحد. معجم البلدان (هرش). والشطر الثاني من البيت مَثَلٌ يُضرب للأمرين يستويان من أيِّ مأخذٍ أخذتَهما. قاله الأصمعي كما في جمهرة الأمثال ٢/ ١٤٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٢، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٢.

وقرأ هشام وأبو بكر: «يَرَهْ» بسكون الهاء فيهما[(١)]. وأبو عمرو بضمها مُشبَعةً، وباقي السبعة بالإشباع في الأول والسكون في الثاني[(٢)]. والإسكانُ في الوصل لغةٌ حكاها الأخفش ولم يَحكها سيبويه، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل[(٣)].

وقرأ عكرمة: «يراه» بالألف فيهما[(٤)]، وذلك على لغةِ مَن يرى الجزمَ بحذف الحركة المقدَّرة على حرف العلة كما حكى الأخفش، أو على ما يقال في غير القرآن من تَوهُّم أنَّ «مَن» موصولةٌ لا شرطيةٌ، كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] في قراءةِ مَن أثبت ياءَ «يَتَّقي» وجَزَمَ (وَيَصْبِرْ)[(٥)]. وجُوِّز أن تكون الألف للإشباع، والوجه الأول أولى. والله تعالى أعلم.

---

(١) التيسير ص٢٢٤، والنشر ١/ ٣١١ عن هشام، والكلام من البحر ٨/ ٥٠٢.

(٢) البحر ٨/ ٥٠٢، وفي التيسير ص٢٢٤، والإتحاف ص٥٩٤، والبدور الزاهرة ص٣٤٦ أن قراءة السبعة سوى هشام عن ابن عامر بضم الهاء موصولة بالواو وصلاً، وبإسكانها وقفاً، وقال السمين في الدر المصون ١١/ ٧٧-٧٨: وسكون الثانية لأجل الوقف على آخر السورة غالباً، أما لو وصلوا آخرها بأول «العاديات» كان الحكم الإشباع. هذا مقتضى أصولهم، وهو المنقول.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥١٢، والبحر ٨/ ٥٠٢.

(٤) البحر ٨/ ٥٠٢.

(٥) هي قراءة قنبل عن ابن كثير كما في التيسير ص١٣١، وهي على توهُّم أن «مَن» شرطية لا موصولة، فجُزِمَ «ويصبرْ» عطفاً على التوهُّم. البحر ٨/ ٥٠٢، وعنه نقل المصنف.

(١٠٠) سورة العاديات مكية
وآياتها إحدى عشرة

سورة العاديات مكية ، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله ، حين تغير على الأعداء ، فيسمع لها عند عَدْوها بسرعة صوتٌ شديد ، وتقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار ، وتثير التراب والغبار ، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة – إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله – على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ، جحودٌ لآلائه وفيوض نعمائه ، وهو معلنٌ لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله ، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان ، وحبه الشديد للمال ، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه ، وإنما ينفع العمل الصالح .

سورة العاديات

[١٠٣٢] أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم[١] عن ابن عباس قال: بعث رسول الله [ﷺ] خيلاً ولبث شهراً لا يأتيه عنها خبر فنزلت: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾[٢].

* * *

[١٠٣٢] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٩) من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس.
(٢) سورة العاديات: الآية (١).

سورة العاديات

إحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝﴾

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نَفَس، **ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين:**

الأول: ما روي عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل، وهو قول إبراهيم والقرظي، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي رَجُلٌ فَسَأَلَنِي عَنِ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَفَسَّرْتُهَا بِالْخَيْلِ، فَذَهَبَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَهُوَ تَحْتَ سِقَايَةِ زَمْزَمَ فَسَأَلَهُ وَذَكَرَ لَهُ مَا قُلْتُ، فَقَالَ: ادْعُهُ لِيْ فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ: تُفْتِي النَّاسَ بِمَا لاَ عِلْمَ لَكَ بِهِ؟! وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لأَوَّلَ غَزْوَةٍ فِي الإِسْلاَمِ بَدْرٌ وَمَا كَانَ مَعَنَا إِلاَّ فَرَسَانِ، فَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ، وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا الإِبِلُ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى مُزْدَلِفَةَ، وَمِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى، يَعْنِي إِبِلَ الْحَاجِّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَرَجَعْتُ عَنْ قَوْلِي إِلَى قَوْلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ) وَيَتَأَكَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِمَا رَوَى أُبَيٌّ فِي فَضْلِ السُّورَةِ مَرْفُوعًا: (مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ بَاتَ بِالْمُزْدَلِفَةِ وَشَهِدَ جَمْعًا) وعلى هذا القول: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أن الحوافر ترمي بالحجر من شدة العَدْو فتضرب به حجرًا آخر فتورى النار، أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ الإغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يعني غبارًا بالعَدْو. وعن محمد بن كعب: النقع ما بين المزدلفة إلى منى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥] يعني مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم به من وجوه:

أحدها: ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ [الغاشية: ١٧] **وثانيها:** كأنه تعريض بالآدمي الكنود، فكأنه تعالى يقول: إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي.

وثالثها: الغرض بذكر إبل الحج الترغيب في الحج، كأنه تعالى يقول: جعلت ذلك الإبل مقسمًا به، فكيف أضيع عملك؟! وفيه تعريض لمن يرغب الحج، فإن الكنود هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

القول الثاني: قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء وأكثر المحققين: أنه الخيل، وروى ذلك مرفوعًا. قال الكلبي: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى أناس من كنانة، فمكث ما

شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر، فتخوف عليها، فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها[١]، فإن جعلنا الألف واللام في: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾ للمعهود السابق، كان محل القسم خيل تلك السرية، وإن جعلناهما للجنس كان ذلك قسمًا بكل خيل عدت في سبيل الله.

واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضًا فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ لأنه بالخيل أسهل منه بغيره، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية؛ لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة، وهو الذي قاله الكلبي، إذا عرفت ذلك، **فههنا مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننت أن المصلحة في الهرب قدرت على أشد العدو، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسكه لا للزينة والتفاخر، بل لهذه المنفعة، وقد نبه تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] فأدخل لام التعليل على الركوب وما أدخله على الزينة، وإنما قال: ﴿ضَبْحًا﴾ لأنه أمارة يظهر به التعب وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب، فكأنه تعالى يقول: إنه مع ضعفه لا يترك طاعتك، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضًا كذلك.

المسألة الثانية: ذكروا في انتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ وجوهًا: **أحدها:** قال الزجاج: والعاديات تضبح ضبحًا. **وثانيها:** أن يكون ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾ في معنى والضابحات، لأن الضبح يكون مع العَدْو، وهو قول الفراء وثالثها: قال البصريون: التقدير: والعاديات ضابحة، فقوله: ﴿ضَبْحًا﴾ نصب على الحال.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾

فاعلم أن الإيراء إخراج النار، والقدح الصك، تقول: قدح فأورى وقد فأصلد، ثم في تفسير الآية وجوه: **أحدها:** قال ابن عباس: يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار، مثل الزند إذا قدح، وقال مقاتل: يعني الخيل تقدحن بحوافرهن في الحجارة نارًا كنار الحباحب[٢] والحباحب اسم رجل كان بخيلاً لا يوقد النار إلا إذا نام الناس، فإذا انتبه أحد أطفأ ناره لئلا ينتفع

---

(١) لم أجده، والكلبي هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، قال الحافظ: متهم بالكذب ورمي بالرفض.

(٢) ويقال: الحباحب: طائر صغير كالذبابة، يضيء ليلاً فيظنه الرائي نارًا.

بها أحد، فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع، ومن الناس من يقول: إنها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار. والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنابك نفسها كالحديد. **وثالثها:** قال قوم: هذه الآيات في الخيل، ولكن إيراؤها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[المائدة: ٦٤] ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حمي الوطيس. **وثالثها:** هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ هم الجماعة من الغزاة. **ورابعها:** إنها هي الألسنة توري نار العداوة لعظم ما تتكلم به. **وخامسها:** هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة، روي ذلك عن ابن عباس، ويقال: لأقدحن لك ثم لأورين لك، أي لأهيجن عليك شرًّا وحربًا. وقيل: هو المكر إلا أنه مكر بإيقاد النار ليراهم العدو كثيرًا، ومن عادة العرب عند الغزو إذا قربوا من العدو أن يوقدوا نيرانًا كثيرة، لكي إذا نظر العدو إليهم ظنهم كثيرًا. **وسادسها:** قال عكرمة: الموريات قدحًا: الألسنة. **وسابعها:** ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي فالمنجحات أمرًا، يعني الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو والحج، ويقال للمنجح في حاجته: وروي زنده، ثم يرجع هذا إلى الجماعة المنجحة، ويجوز أن يرجع إلى الخيل ينجح ركبانها، قال جرير:

وَجَدْنَا الأَزْدَ أَكْرَمَهُمْ جَوَادَا ... وَأَوْرَاهُمْ إِذَا قَدَحُوا زِنَادَا[1]

ويقال: فلان إذا قدح أورى، وإذا منح أورى، واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإيراء حقيقة في إيراء النار، وفي غيره مجاز، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾

أما قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ يعني الخيل تغير على العدو وقت الصبح، وكانوا يغيرون صباحًا لأنهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئًا، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة، أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد. وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل، قالوا: المراد هو الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسُّنة أن لا تغير حتى تصبح، ومعنى الإغارة في اللغة الإسراع، يقال: أغار، إذا أسرع، وكانت العرب في الجاهلية تقول: أشرِق ثبير كيما نغير. أي نسرع في الإفاضة.

أما قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في النقع قولان: **أحدهما:** أنا هو الغبار. وقيل: إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع، فالغبار يسمى نقعًا لارتفاعه، وقيل: هو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار غاص فيه، كما يغوص الرجل في الماء. **والثاني:** النقع: الصباح، من قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) تقدمت ترجمة جرير.

«مَا لَمْ يَكُنْ نَقْعٌ وَلاَ لَقْلَقَةٌ» أي فهيجن في المغار عليهم صياح النوائح، وارتفعت أصواتهن، ويقال: ثار الغبار والدخان، أي ارتفع وثار القطا عن مفحصه، وأثرن الغبار، أي هيجنه، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه: **أحدها:** وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه، والموضع الذي تقع فيه الإغارة، لأن في قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ دليلاً على أن الإغارة لا بد لها من وضع، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجز ذكره بالتصريح كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] **وثانيها:** إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة، أي فأثرن في ذلك الوقت نقعًا. **وثالثها:** وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو، أي فأثرن بالعدو نقعًا. وقد تقدم ذكر العدو في قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾.

المسألة الثالثة: فإن قيل: على أي شيء عطف قوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ قلنا: على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، والتقدير واللائي عدون فأورين، وأغرن فأثرن.

المسألة الرابعة: قرأ أبو حيوة: (فَأَثَّرْنَ) بالتشديد بمعنى فأظهرن به غبارًا؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار، أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الليث: وسطت النهر والمفازة أسطها وسطًا وسطة، أي صرت في وسطها، وكذلك وسطتها وتوسطتها، ونحو هذا قال الفراء، والضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ إلى ماذا يرجع؟ فيه وجوه: **أحدها:** قال مقاتل: أي بالعدو، وذلك أن العاديات تدل على العدو، فجازت الكناية عنه، وقوله: ﴿جَمْعًا﴾ يعني جمع العدو، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو، ومن حمل الآيات على الإبل، قال: يعني جمع منى. **وثانيها:** أن الضمير عائد إلى النقع أي: وسطن بالنقع الجمع. **وثالثها:** المراد أن العاديات وسطن ملبسًا بالنقع جمعًا من جموع الأعداء.

المسألة الثانية: قرئ: (فَوَسَّطْنَ) بالتشديد للتعدية، والباء مزيدة للتوكيد كقوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥] وهي مبالغة في وسطن، واعلم أن الناس أكثروا في صفة الفرس، وهذا القدر الذي ذكره الله أحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ»(١)، وقال أيضًا:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) (٦/ ٦٧/ ٦٨) حديث رقم (٢٨٥٠) من طريق حصين وابن أبي السفر عن الشعبي... به، ومسلم في كتاب (الإمارة) باب (الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) (٧/ ٢٢) (٩٩/ نووي) من طريق حصين عن الشعبي... به، جميعًا (زكريا، حصين، ابن أبي السفر) عن الشعبي... به.

«ظَهْرُهَا حِرْزٌ وَبَطْنُهَا كَنْزٌ»[(١)] واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به، ذكر المقسم عليه وهو أمور ثلاثة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

قال الواحدي: أصل الكنود منع الحق والخير والكنود الذي يمنع ما عليه، والأرض الكنود هي التي لا تنبت شيئًا. ثم للمفسرين عبارات، فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة: الكنود هو الكفور. قالوا: ومنه سمي الرجل المشهور كندة لأنه كند أباه ففارقه. وعن الكلبي: الكنود بلسان كندة العاصي، وبلسان بني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور، وروى أبو أمامة عن النبي ﷺأن: الكنود هو الكفور الذي يمنع رفده، ويأكل وحده، ويضرب عبده[(٢)]، وقال الحسن: الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصائب، وينسى النعم والراحات، وهو كقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفرًا أو فسقًا، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس، فلا بد من صرفه إلى كافر معين، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك، والأول قول الأكثرين قالوا: لأن ابن عباس قال: إنها نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، وأيضًا فقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]لا يليق إلا بالكافر؛ لأن ذلك كالدلالة على أنه منكر لذلك الأمر.

الثاني من الأمور التي أقسم الله عليها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وفيه قولان: **أحدهما:** أن الإنسان على ذلك -أي على كنوده- لشهيد يشهد على نفسه بذلك، إما لأنه أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحده، أو لأنه يشهد على نفسه بذلك في الآخرة ويعترف بذنوبه. **القول الثاني:** المراد وإن الله على ذلك لشهيد قالوا: وهذا أولى لأن الضمير عائد إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا هو لفظ الرب تعالى، ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عن المعاصي من حيث إنه يحصي عليه أعماله، وأما الناصرون للقول الأول فقالوا: إن قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الضمير فيه عائد إلى الإنسان، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائدًا إلى الإنسان ليكون النظم أحسن.

الأمر الثالث مما أقسم الله عليه: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ الخير: المال، من قوله تعالى:

---

(١) ذكره ابن عادل في (اللباب) (١٦/ ٤٣٠) ولم أجد له إسنادًا.

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٦٨) وابن معين في (تاريخه) (٤/ ٤٨٥) كلاهما من طريق حريز بن عثمان عن ابن هانئ عن أبي أمامة. . . فذكره وقال الألباني في (تعليقه على كتاب الأدب المفرد) (١/ ٦٨) حديث رقم (١٦٠) قال: ضعيف موقوفًا، وروي عنه مرفوعًا بسند واهٍ جدًا.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١] وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيرًا، كما أنه تعالى سمى ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءًا في قوله: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] والشديد: البخيل الممسك، يقال: فلان شديد ومتشدد، قال طرفة:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ(١)

ثم في التفسير وجوه: أحدها: أنه لأجل حب المال لبخيل ممسك. **وثانيها:** أن يكون المراد من الشديد القوي، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف، تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له، وإذا كان مطيقًا له ضابطًا.

وثالثها: أراد أنه لحب الخيرات غير هني منبسط ولكنه شديد منقبض. **ورابعها:** قال الفراء: يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب، يعني أنه يحب المال، ويحب كونه محبًّا له، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني، كما قال: ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [ابراهيم: ١٨] أي في يوم عاصف الريح، فاكتفى بالأولى عن الثانية. **وخامسها:** قال قطرب: أي إنه شديد حب الخير، كقولك: (إنه لِزيد ضروب) أي أنه ضروب زيد.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝﴾

واعلم أنه تعالى لما عد عليه قبائح أفعاله خوَّفه، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: القول في: ﴿بُعْثِرَ﴾ مضى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] وذكرنا أن معنى: ﴿بُعْثِرَتْ﴾ بُعث وأثير وأُخرج، وقرئ (بحثر).

المسألة الثانية: لقائل أن يسأل: لمَ قال: ﴿بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ولم يقل: بعثر من في القبور؟ ثم إنه لما قال: ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾، فلم قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ ولم يقل: إن ربها بها يومئذ لخبير؟

الجواب عن السؤال الأول: هو أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو يقال: إنهم حال ما يُبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال أبو عبيدة: أي مُيز ما في الصدور. وقال الليث: الحاصل من كل شيء ما بقي وثبت وذهب سواه، والتحصيل تمييز ما يحصل والاسم الحصيلة، قال لبيد:

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ إِذَا حَصِلَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَصَائِلُ(٢)

(١) تقدمت ترجمة طرفة بن العبد.

(٢) تقدمت ترجمة لبيد.

وفي التفسير وجوه: أحدها: معنى حصل جمع في الصحف، أي أظهرت محصلاً مجموعًا. **وثانيها:** أنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد ومنه قيل للمنخل: المحصل. **وثالثها:** أن كثيرًا ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن، كما قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

واعلم أن حظ الوعظ منه أن يقال: إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه، فتبني المقبرة وتشتري التابوت، وتفصل الكفن، وتغزل العجوز الكفن، فيقال: هذا كله للديدان، فأين حظ الرحمن؟! بل المرأة إذا كانت حاملاً فإنها تعد للطفل ثيابًا، فإذا قلت لها: لا طفل لك فما هذا الاستعداد؟ فتقول: أليس يبعثر ما في بطني؟ فيقول الرب لك: ألا يبعثر ما في بطن الأرض، فأين الاستعداد؟! وقرئ (وَحَصَلَ) بالفتح والتخفيف بمعنى ظهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

اعلم أن فيه سؤالات:

الأول: أنه يوهم أن علمه بهم في ذلك اليوم إنما حصل بسبب الخبرة، وذلك يقتضي سبق الجهل وهو على الله تعالى محال: **الجواب من وجهين: أحدهما:** كأنه تعالى يقول: إن من لم يكن عالمًا، فإنه يصير بسبب الاختبار عالمًا، فمن كان لم يزل عالمًا أن يكون خبيرًا بأحوالك! **وثانيهما:** أن فائدة تخصيص ذلك الوقت في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع كونه عالمًا لم يزل أنه وقت الجزاء، وتقريره لمن المُلك؟ كأنه يقول: لا حاكم يروج حكمه ولا عالم تروج فتواه يومئذٍ إلا هو، وكم عالم لا يعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك، فكأنه تعالى يقول: لست كذلك.

السؤال الثاني: لمَ خص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وأهمل ذكر أعمال الجوارح؟ **الجواب:** لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب. فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل في الذم فقال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] والأصل في المدح فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

السؤال الثالث: لمَ قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: وحُصل ما في القلوب؟ **الجواب:** لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته، إنما المنازع في هذا الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر؛ ولذلك قال: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢] فجعل الصدر موضعًا للإسلام.

السؤال الرابع: الضمير في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ عائد إلى الإنسان وهو واحد. **والجواب:** الإنسان في معنى الجمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣] ولولا أنه للجمع وإلا لما صح ذلك.

واعلم أنه بقي من مباحث هذه الآية مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على كونه تعالى عالمًا بالجزئيات الزمانيات؛ لأنه تعالى نص على كونه عالمًا بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم فيكون منكره كافرًا.

المسألة الثانية: نُقل أن الحَجاج سبق على لسانه (أنّ) بالنصب، فأسقط اللام من قوله: ﴿لَّخَبِيرٌۢ﴾ حتى لا يكون الكلام لحنًا، وهذا يذكر في تقرير فصاحته، فزعم بعض المشايخ أن هذا كفر لأنه قصد لتغيير المنزل. ونُقل عن أبي السمائل أنه قرأ على هذا الوجه.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «والعادِيات»

وهي مكّيةٌ في قول ابنِ مسعودٍ وجابر والحسن وعكرمةَ وعطاء. ومدنِيةٌ في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة(١). وهي إحدى عَشْرة آيةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي: الأفراس تَعْدو. كذا قال عامَّةُ المفسِّرين وأهل اللغة، أي: تعدو في سبيل الله فَتَضْبَحُ. قال قتادة: تَضْبَحُ إذا عَدَتْ، أي: تُحمحِم(٢). وقال الفرَّاء: الضَّبْح: صوتُ أنفاسِ الخيلِ إذا عَدَوْن(٣). ابن عباس: ليس شيءٌ من الدوابِّ يضْبَحُ غير الفرسِ والكلبِ والثعلب(٤). وقيل: كانت تُكْعَمُ(٥) لئلَّا تَصْهَلَ، فيعلم العدوُّ بهم؛ فكانت تتنفَّس في هذه الحال بقوّة.

قال ابن العربيّ: أَقسم الله بمحمدٍ ﷺ فقال: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وأَقْسَم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، وأَقسم بخيله وصهيلها وغُبارِها، وقَدْحِ حوافرِها النارَ من الحجر، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الآياتِ الخمس(٦). وقال أهلُ اللغةِ:

= الشعراء٢/ ٧١٤ ، ومعجم البلدان ٥/ ٣٩٧ - ٣٩٨ . قال ياقوت: هرشى: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة. يُرى منها البحر، ولها طريقان فكل مَن سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد.

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٠٦ ، وذكر ابن الجوزي مقاتلاً بدل أنس بن مالك.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ ، والطبري ٢٤/ ٥٧١ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٤ ، وتهذيب اللغة ٤/ ٢١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ ، والطبري ٢٤/ ٥٧٢ دون قوله: والثعلب.

(٥) كَعَم البعيرَ: شدَّ فاه، وما يكعَم به: كَعَامٌ. القاموس (كعم).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦١ .

وَطَعْنَةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَهْ طَعَنْتُها عندَ صُدُورِ العَادِيَهْ[(١)]

يعني الخيل. وقال آخر:

والعادياتُ أَسابِيُّ الدِّماءِ بها كأنَّ أعناقَها أنصابُ تَرْجيبِ[(٢)]

يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيلُ تَعْلَمُ حين تَضْـ ـبَحُ في حِياضِ الموتِ ضَبْحَا[(٣)]

وقال آخر:

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانيِّ إنْ لَمْ تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العراقِ[(٤)]

وقال أهلُ اللغة: وأصلُ الضَّبْحِ والضُّبَاح للثعالب، فاستُعيرَ للخيل. وهو من قول العرب: ضَبَحَتْه النار: إذا غيَّرتْ لونَه ولم تُبالِغْ فيه، وقال الشاعر:

فَلَمَّا أَنْ تَلَهْوَجْنا شِواءً به اللَّهَبانُ مَقهورًا ضَبِيحا[(٥)]

وانضبح لونُه: إذا تغيَّر إلى السواد قليلاً؛ وقال:

عُلِّقْتُها قَبلَ انْضِباحِ لَوْني[(٦)]

---

(١) البيت لناجية بن جندب الأسلمي ﷺ، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣١١ ، والخزانة ٦/ ٢٠٦ . قوله: ذات رشاش، الرشاش: ما تَرشَّش من الدم والدمع. الصحاح (رشش).

(٢) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص ٩٨ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٦٧ . قال ابن قتيبة: الأسابي: طرائق الدم، واحدها: إسباءة. أنصاب ترجيب: جمع نصب، وهو الذي ينصب لذبح رجب؛ شبَّه أعناقها ـ لمَا عليها من الدم ـ بالحجارة التي كانوا يذبحون عليها.

(٣) الصحاح (ضبح)، واللسان (ضبح).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) البيت لمضَرِّس الأسدي، كما في اللسان (ضبح)، ودون نسبة في تهذيب اللغة ٥/ ٣٩٥ ، والصحاح (ضبح)، وأساس البلاغة (قهر)، واللسان (قهر). قال صاحب اللسان: المُلَهْوَج من الشواء: الذي لم يتم نضجه. واللَّهَبان اتِّقَادُ النار واشتعالُها. وقهر اللحم: إذا أخذتْه النار وسال ماؤه.

(٦) وبعده: وجُبْتُ لمَّاعاً بعيدَ البَوْنِ، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧٤ ، وتهذيب اللغة ٤/ ٢١٨ ، والصحاح (ضبح) والكلام منه. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٤٣٣ : عُلِّق فلانٌ امرأة: إذا أحبها. وجُبْتُ: قطعتُ وخرقت. واللمَّاع: المكان الذي يلمع فيه السراب، وإنما يريد القَفْرَ من الأرض. والبَوْن: المسافة البعيدة.

وإنَّما تَضْبَحُ هذه الحيواناتُ إذا تغيَّرتْ حالُها من فَزَعٍ أو تعبٍ أو طمع. ونصب «ضَبْحاً» على المصدر، أي: والعاديات تضبحُ ضَبْحًا[١]. والضَّبْحُ أيضاً: الرَّماد[٢]. وقال البَصْرِيون: «ضَبْحًا» نصب على الحال[٣]. وقيل: مصدرٌ في موضع الحال.

قال أبو عبيدة[٤]: ضَبَحَتِ الخيلُ ضَبْحًا مثل ضَبَعَتْ، وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضَّبْحُ والضَّبْعُ: بمعنى العَدْوِ والسَّيْر[٥]. وكذا قال المبرِّد: الضَّبْحُ مدُّ أضباعِها[٦] في السَّيْر.

ورُوي أنَّ رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً إلى أناسٍ من بني كِنانَة، فأبطأ عليه خبرُها، وكان استَعْمَل عليهم المنذرَ بنَ عمرو الأنصاريَّ، وكان أحدَ النقباءِ، فقال المنافقون: إنَّهم قُتلوا، فنزلت هذه السورةُ إخباراً للنبيِّ ﷺ بسلامتها، وبشارةً له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم[٧].

وممَّن قال: إنَّ المراد بالعاديات الخيلُ، ابنُ عباس وأنسٌ والحسنُ ومجاهد[٨]. والمراد: الخيلُ التي يغزو عليها المؤمنون. وفي الخبر: «مَن لم يَعْرِفْ حُرْمَة فرسٍ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٣ .

(٢) الصحاح (ضبح)، وقيده صاحب القاموس (ضبح): الضِّبح بالكسر.

(٣) والتقدير: والعاديات ضابحة. تفسير الرازي ٣٢/ ٦٤ .

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (ضبح)، ووقع في النسخ الخطية: أبو عبيد.

(٥) وعلى هذا القول تكون «ضبحاً» مصدراً مؤكِّداً لاسم الفاعل «العاديات»؛ لأن الضبح نوع من السير والعَدْو، فهو منصوب باسم الفاعل. البحر ٨/ ٥٠٣ ، والدر المصون ١١/ ٨١ .

(٦) وهي أعضادها. الصحاح (ضبع).

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٢ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٩٨ ، وزاد المسير ٩/ ٢٠٧ عن مقاتل. وأخرج نحوه البزار (٢٢٩١ ـ كشف) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٢ : فيه حفص بن جميع، وهو ضعيف. وقال ابن كثير عند تفسير هذه السورة: وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً غريباً جدًّا...، وذكره.

(٨) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٠ - ٥٧٢ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٢٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٧ .

الغازي، ففيه شُعبةٌ من النفاق»[١].

وقول ثان: أنَّها الإبل؛ قال أبو صالح[٢]: نازعتُ فيها عكرمةَ فقال عكرمةُ: قال ابن عباس: هي الخيل. وقلتُ: قال عليٌّ: هي الإبل في الحج، ومولاي أَعْلَمُ من مولاك[٣].

وقال الشعبيُّ: تَمارى عليٌّ وابن عباس في العاديات، فقال عليٌّ: هي الإبِلُ تعدو في الحج. وقال ابن عباس: هي الخيل، أَلَا تَراه يقول: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، فهل تثيرُ إلَّا بحوافرها! وهل تَضْبَحُ الإبل! فقال عليٌّ: ليس كما قلت، لقد رأيتُنا يومَ بدرٍ وما معنا إلَّا فرسٌ أبلقُ للمقداد، وفرسٌ لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد[٤]. ثم قال له عليٌّ: أَتُفْتِي الناسَ بما لا تعلم! والله إن كانت لَأَوَّلَ غزوةٍ في الإسلام، وما معنا إلَّا فرسان: فرسٌ للمقداد، وفرسٌ للزُّبير، فكيف تكون العادياتِ ضبحًا! إنَّما العادياتُ الإبلُ من عَرَفَةَ إلى المزدَلِفَةِ، ومن المزدلِفةِ إلى منى[٥]، قال ابن عباس: فرجعتُ إلى قولِ عليٍّ[٦]. وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسُّدِّي[٧]. ومنه قولُ صفِيةَ بنتِ عبد المطلب:

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أبو صالح هو مولى أم هانئ، ووقع في النسخ بدلاً منه: مسلم، وهو خطأ.

(٣) ذكره أبو الليث ٣/ ٥٠٢، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ - ٣٩١، وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣.

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣ - ٣٨٤، وما سيأتي بعده ورد في رواية أخرى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، على ما يأتي.

(٥) في النسخ: إلى عرفة، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٣ - ٥٧٤، والحاكم ٢/ ١٠٥، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣ لابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٣ - ٥٧٤ عن ابن مسعود وعبيد بن عمير، وأخرجه عن محمد بن كعب عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤.

فلا والعادياتِ غَداةَ جَمْعٍ ... بأيديها إذا سَطَعَ الغُبارُ[(١)]

يعني الإبل. وسمِّيت العادياتُ لاشتقاقها من العَدْوِ، وهو تباعُدُ الأرجلِ في سرعة المشي[(٢)]. وقال آخر:

رأى صاحبي في العادياتِ نَجِيبةً ... وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِسِ[(٣)]

ومَن قال: هي الإبلُ، فقولُه: «ضَبْحاً» بمعنى ضَبْعاً، فالحاءُ عنده مُبْدَلةٌ من العين؛ لأنه يقال: ضَبعتِ الإبلُ، وهو أن تَمُدَّ أعناقها في السير. وقال المبرِّد: الضَّبْعُ مدُّ أضباعها في السير. والضَّبْحُ أكثرُ ما يُستَعمَلُ في الخيل. والضَّبْعُ في الإبل. وقد تُبْدَلُ الحاءُ من العين.

أبو صالح: الضَّبْحُ من الخيل: الحمحمةُ، ومن الإبلِ: التنفُّس[(٤)].

وقال عطاء: ليس شيءٌ من الدوابِّ يَضْبَحُ إلَّا الفرسُ والثعلبُ والكلب[(٥)]. ورُوي عن ابن عباس[(٦)]. وقد تقدَّم عن أهل اللغةِ أنَّ العرب تقول: ضَبَح الثعلب، وضَبَح في غير ذلك أيضًا؛ قال تَوْبة:

ولو أنَّ ليلَى الأخيلِيةَ سَلَّمَتْ ... عَلَيَّ ودوني تُرْبةٌ[(٧)] وصفائِحُ

لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقَا ... إليها صَدًى من جانب القبرِ ضابحُ[(٨)]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٣ ، وقال الزركشي في البرهان ٣/ ٣١٢ : أنشده الغرنوي في العامريات لصفية رضي الله عنها.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٢٤ .

(٣) الصحاح (عدا)، واللسان (عدا) و(وضع) وفيه: إبل عادية: ترعى الخُلَّة ولا ترعى الحمضَ. وناقة واضع وواضعة، ونوق واضعات: ترعى الحمض حول الماء. والخلة: ما حلا من المرعى، والحمض منه: ما كانت فيه ملوحة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٥ من طريق أبي علي عن صالح ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧١ ، وليس فيه: والثعلب.

(٦) سلف ص٤٢٦ من هذا الجزء.

(٧) في (ظ): جندل، وهي رواية في البيت.

(٨) ديوان توبة ٤٧ - ٤٨ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٤٦ ، والأضداد لابن الأنباري ص ٣٢٥ ، وأمالي =

زَقا الصَّدى يزقو زُقَاءً، أي: صاح. وكلُّ زاقٍ صائحٌ. والزَّقْيَةُ: الصَّيحة[١].

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قال عكرمةُ وعطاءٌ والضحَّاك: هي الخيلُ حين تُورِي النارَ بحوافرها[٢]، وهي سَنابِكُها. ورُوي عن ابن عباس[٣].

وعنه أيضاً: أَوْرَتْ بحوافرها غُبارًا. وهذا يخالفُ سائرَ ما رُوي عنه في قَدْحِ النار، وإنَّما هذا في الإبل. ورَوى ابنُ أبي نَجيحٍ عن مجاهد: «والعادياتِ ضَبْحًا. فالمُورِياتِ قَدْحًا» قال: قال ابن عباس: هو في القتال، وهو في الحج[٤].

ابن مسعود: هي الإبلُ تطأ الحصى، فتخرج منها النار[٥].

وأصلُ القَدْحِ الاستخراج، ومنه قَدَحْتُ العينَ: إذا أخرجت منها الماءَ الفاسد. واقْتَدَحْتُ الزَّنْدَ. واقْتَدَحْتُ المرقَ: غَرَفْته. ورَكيٌّ قَدُوح: تُغْتَرَفُ باليد. والقَديح: ما يبقَى في أسفل القِدْرِ، فيُغْرَفُ بجهدٍ. والمِقْدَحةُ: ما تُقْدَحُ به النار. والقَدَّاحةُ والقَدَّاح: الحجرُ الذي يُورِي النار[٦]. يقال: وَرَى الزَّنْدُ ـ بالفتح ـ يَري وَرْياً: إذا خَرَجَتْ نارُه. وفيه لغةٌ أخرى: وَرِيَ الزَّندُ ـ بالكسر ـ يَرِي فيهما[٧]. وقد مضى هذا في سورة الواقعة[٨]. و«قَدْحًا» انْتَصَب بما انْتَصَب به «ضَبْحًا».

= القالي ١/ ٨٧، والأغاني ١١/ ٢٤٤، والحيوان ٢/ ٢٩٩، وزهر الآداب ٢/ ٩٣٥، والحماسة البصرية ٢/ ١٠٨، ومنتهى الطلب ١/ ٢٣٠، ووقع في جميع هذه المصادر: صائح، بدل: ضابح.

(١) الصحاح (زقا).

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٤٤، وهو قطعة من حديث أخرجه البزار (٢٢٩١ - كشف) وقد سلف الكلام عليه قريباً.

(٤) كذا في النسخ، والذي أخرجه عبد بن حميد ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤ عن مجاهد قال: قال ابن عباس: في القتال، وقال ابن مسعود: في الحج، وكذا أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٠ و٥٧٤ مقطعاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٨.

(٦) الصحاح (قدح).

(٧) الصحاح (ورى).

(٨) عند تفسير الآية (٧١) منها.

وقيل: هذه الآياتُ في الخيل؛ ولكنَّ إيراءَها: أنْ تُهيجَ الحرب بين أصحابها وبين عدوِّهم. ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوَطِيسُ. ومنه قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤][١]. وروي معناه عن ابن عباس أيضًا، وقاله قتادة[٢].

وعن ابن عباس أيضًا: أنَّ المراد بالمُوريات قَدْحًا: مَكْرُ الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهدٌ وزيد بنُ أسلم. والعربُ تقول إذا أراد الرجل أن يمكُر بصاحبه: واللهِ لأَمْكُرنَّ بك، ثم لَأُوْرِيَنَّ لك[٣].

وعن ابن عباس أيضًا: هم الذين يغزُون، فيُوْرون نيرانَهم بالليل لحاجتهم وطعامهم[٤].

وعنه أيضاً: أنَّها نيرانُ المجاهدين إذا كَثُرتْ نارُها إرهاباً[٥]. وكلُّ مَن قَرُبَ من العدوِّ يُوقدُ نيراناً كثيرةً ليظنَّهم العدوُّ كثيراً. فهذا إقسامٌ بذلك. قال محمد بن كعب: هي النارُ تجمع.

وقيل: هي أفكارُ الرجالِ تُورِي نارَ المكرِ والخديعة[٦].

وقال عكرمة: هي أَلْسنةُ الرجالِ تُوْرِي النارَ مِن عظيمِ ما تتكلَّم به ويَظْهرُ بها من الحُجج وإقامةِ الدلائل، وإيضاحِ الحقِّ وإبطالِ الباطل[٧].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥.

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٥٧٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧ عن مجاهد وزيد بن أسلم، وأخرجه عن مجاهد الفريابي، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤، ووقع فيهما: لأقدحنَّ لك ثم لأورينَّ لك. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ بلفظ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قال: هو مكر الرجل.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٢٤.

(٦) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥.

(٧) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٤، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٤/ ٥٧٧.

وروى ابن جُريج عن بعضهم قال: فالمُنْجِحاتِ أَمْراً وعملاً، كنجاحِ الزَّنْدِ إذا أُوْرِي.

قلت: هذه الأقوالُ مَجازٌ، ومنه قولهم: فلانٌ يُورِي زِنادَ[1] الضلالة. والأوّل الحقيقةُ، وأنَّ الخيل من شِدَّة عَدْوِها تَقْدَحُ النارَ بحوافرها. قال مقاتل: العربُ تسمِّي تلك النارَ نارَ أبي حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخاً من مُضَر في الجاهلية، من أَبْخلِ الناس، وكان لا يُوقدُ ناراً لخبزٍ ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِدُ نُوَيْرةً تَقِدُ مرةً وتَخمدُ أخرى، فإن استيقظ لها أحدٌ أطفأها، كراهيةَ أن ينتفع بها أحد. فشبَّهت العربُ هذه النارَ بنارِه؛ لأنَّه لا يُنتفع بها[2]. وكذلك إذا وقع السيفُ على البيضة فاقْتَدَحَتْ نارًا، فكذلك يسمُّونها، قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ مِن قِراع الكتائبِ
تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه ... وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[3]

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾

الخيلُ تُغِير على العدوِّ عند الصُّبح؛ عن ابن عباس وأكثرِ المفسِّرين[4]. وكانوا إذا أرادوا الغارةَ سَرَوْا ليلاً، ويأتون العدوَّ صبحاً؛ لأنَّ ذلك وقتُ غَفْلةِ الناس. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]. وقيل: لِعزِّهم أغاروا نهارًا، و«صُبْحًا» على هذا، أي: علانيةً؛ تشبيهاً بظهور الصبح.

وقال ابن مسعود وعليٌّ رضي الله عنهما: هي الإبلُ تدفع بركبانها يومَ النَّحْرِ من

---

(١) في (ظ): نار.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣، وتفسير الرازي ٣٢/ ٦٥، وذكر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٤ نحوه عن الكلبي.

(٣) ديوان النابغة ص ١١، وسلف البيت الأول ١٠/ ٣٠٤، والثاني ١١/ ٢١٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٨ - ٥٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٧.

جَمْعٍ إلى منًى[(١)]، والسُّنةُ ألَّا تدفعَ حتى تصبح. وقاله القُرَظِيُّ[(٢)]. والإغارةُ: سرعةُ السيرِ، ومنه قولُهم: أشرِقْ ثَبِير، كيما نُغِير[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾

أي: غبارًا، يعني الخيلَ تثيرُ الغبارَ بشدَّةِ العَدْوِ في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة:

عَـدِمْـتُ بُـنـيَّـتـي إنْ لـم تَـرَوْهـا ... تُـثِـيـرُ الـنَّـقْـعَ من كَـنَـفَـيْ كَـداءِ[(٤)]

والكنايةُ في «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا عُلِم المعنى جاز أن يُكْنَى عمَّا لم يَجْرِ له ذِكْرٌ بالتصريح، كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

وقيل: «فأثرن به»، أي: بالعَدْو «نَقْعًا». وقد تقدَّم ذِكْرُ العَدْو.

وقيل: النقع: ما بين مزدلِفةَ إلى مِنًى؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ. وقيل: إنَّه طريق الوادي، ولعله يرجع إلى الغبار المثارِ من هذا الموضع[(٥)].

وفي الصحاح[(٦)]: النَّقْع: الغبار، والجمع: نِقَاع والنَّقْعُ: مَحْبِسُ الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه. وفي الحديث: أنه نَهى أن يُمنع نقعُ البئر[(٧)]. والنقعُ: الأرضُ

---

(١) في النسخ: من منى إلى جمع، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧ عن محمد بن كعب، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٩ - ٥٨٠ عن ابن مسعود، وينظر ما سلف عن علي ﷺ ص٤٢٩ من هذا الجزء.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥ ، وسلف ٣/ ٣٥١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ ، ولم نقف عليه عن عبد الله بن رواحة، ونسب لحسان كما في ديوانه ص٦٠ ، وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٢ ، ومنتهى الطلب ٦/ ٢٧٠ ، والخزانة ٩/ ٢٣١ برواية:

عَـدِمْـنـا خـيـلـنـا إن لـم تـروهـا ... تـثـيـر الـنـقـع مـوعـدُهـا كـداءُ

قال البغدادي: كَداء: الثنية التي في أصلها مقبرة مكة، ومنها دخل الزبير يومئذ (يعني يوم الفتح).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ .

(٦) مادة: (نقع).

(٧) أخرجه أحمد (٢٥٠٨٧)، وابن ماجه (٢٤٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحُرَّةُ الطِّينِ يَستنقعُ فيها الماءُ، والجمع: نِقاعٌ وأَنْقُعٌ، مثل: بحر وبِحار وأبْحُر.

قلت: وقد يكونُ النقعُ رفعَ الصوت، ومنه حديثُ عمرَ حين قيل له: إنَّ النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد، فقال: وما على نساء بني المغِيرة أن يَسْفِكْنَ من دموعهنَّ وهنَّ جلوسٌ على أبي سليمان، ما لَمْ يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَة[1]. قال أبو عبيد[2]: يعني بالنقع رَفْعَ الصوت، على هذا رأيتُ قولَ الأكثرين من أهل العلم، ومنه قولُ لبيد:

فمتى ينقَعْ صُراخٌ صادِقٌ … يُحْلِبوها ذاتَ جَرْس وزَجَلْ[3]

ويُروى: يَحْلِبوها أيضاً. يقول: متى سمعوا صراخاً[4] أَحْلَبوا الحرب، أي: جمعوا لها. وقولُه: يَنْقَع صُراخ: يعني رفعَ الصوت.

وقال الكسائيُّ: قولُه: نَقْعٌ ولا لقلقةٌ، النَّقْعُ: صنعةُ الطعام، يعني في المَأْتم. يقال منه: نقعْتُ أَنقَع نَقْعاً. قال أبو عبيد[5]: ذهب بالنقع إلى النَّقيعة، وإنَّما النقيعةُ عند غيره من العلماء: صنعةُ الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم.

وقال بعضُهم: يريد عمر بالنقع: وَضْعَ الترابِ على الرأس. يذهبُ إلى أنَّ النقع هو الغبار. ولا أَحْسَبُ عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهنَّ، وكيف يبلغ خوفُه ذا وهو يكره لهنَّ القيام، فقال: يَسْفِكْنَ من دموعهنَّ وهُنَّ جلوسٌ. قال بعضهم: النقع: شقُّ الجيوب، وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث[6] ولا أعرفُه، وليس النقعُ عندي في

(١) علقه البخاري بنحوه قبل الحديث (١٩٢١)، ووصله عبد الرزاق (٦٦٨٥)، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٧٣ .

(٢) في غريب الحديث ٣/ ٢٧٥ .

(٣) ديوان لبيد ص ١٩١ ، وغريب الحديث ٣/ ٢٧٥ . ورواية الديوان: يُحلبوه، قال شارحه: أي: يمدُّوه ويُعينوه بحلائب الخيل. والجرس: الصوت. والزجل كذلك، إلا أنَّ فيه تطريباً. أراد: كتيبة ذات جرس وزجل. والمعنى: أنهم إذا ارتفع صوت الصريخ هبوا للنجدة بكتيبة هذا حالها.

(٤) في غريب الحديث: صارخاً.

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٧٤ ، وما قبله منه.

(٦) قوله: من الحديث، ليس في غريب الحديث.

هذا الحديث إلَّا الصوتُ الشديد، وأمَّا اللقلقةُ: فشِدَّةُ الصوت، ولم أسمع فيه اختلافًا.

وقرأ أبو حَيْوة: «فَأَثَّرْنَ» بالتشديد[١]، أي: أَرَتْ آثارَ ذلك. ومَن خفَّف فهو مِن أثار: إذا حرَّك، ومنه: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

«جَمْعًا» مفعولٌ بـ «وَسَطْن»، أي: فوسَطْنَ بركبانهن العدوَّ، أي: الجمع الذي أغاروا عليهم. وقال ابن مسعود: «فَوَسَطْن بِهِ جمعاً» يعني مُزْدلِفة[٢]. وسمِّيت جمعاً لاجتماع الناس بها. ويقال: وسَطْتُ القومَ أَسِطُهم وَسْطًا وسِطَةً، أي: صِرتُ وَسْطَهم.

وقرأ عليٌّ ﷺ: «فَوَسَّطْن» بالتشديد[٣]، وهي قراءةُ قتادةَ وابنِ سيرين[٤] وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسطْتُ القومَ ـ بالتشديد والتخفيف ـ وتَوَسَّطْتُهُمْ، بمعنًى واحد[٥]. وقيل: معنى التشديد: جَعْلُها الجمعَ قسمين. والتخفيف: صِرْنَ في وسيط الجمع[٦]، وهما يرجعان إلى معنى[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾

هذا جوابُ القسم، أي: طُبع الإنسان على كُفْران النعمة. قال ابن عباس: «لَكَنُودٌ»: لكفورٌ جَحُودٌ لنعم الله. وكذلك قال الحسن، وقال: يذكُر المصائبَ وينسى

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٧٠ ، قال ابن جني: هذا كقولك: أَرَيْنَ وأَبْدَيْن.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٧٠ .

(٤) في (م): وابن مسعود.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٥ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٨٢ .

(٦) المحتسب ٢/ ٣٧٠ .

(٧) بعدها في (م): الجمع.

النعم[١]. أَخَذَه الشاعر فنَظَمه:

يـا أَيُّـهـا الـظـالـمُ فـي فِـعْـلِـهِ والـظُّـلْـمُ مـردودٌ عـلـى مَـن ظَـلَـمْ
إلـى مـتـى أَنْـتَ وحَـتَّـى مـتـى تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم![٢]

وروى أبو أُمامة الباهِليُّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَنُود هو الذي يأكلُ وحدَه، ويَمنعُ رِفْدَه، ويضربُ عَبْدَه»[٣]. وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَا أُنبِّئُكم بشرارِكُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن نَزَل وحدَه، ومَنَع رِفْدَه، وجَلَدَ عبدَه»[٤]. خرَّجهما الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٥].

وقد روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: الكَنودُ بلسانِ كِنْدَة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربِيعةَ ومُضَرَ: الكفور. وبلسان كِنانَة: البخيلُ السَّيِّءُ المَلَكة. وقاله مقاتل[٦]. وقال الشاعر:

كَـنـودٌ لِـنَـعـمـاء الـرجـالِ ومَـنْ يـكـن كَـنـودًا لـنـعـمـاء الـرجـال يُـبَـعَّـدِ[٧]

أي: كفور. ثم قيل: هو الذي يكفُر اليسيرَ، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحدُ

(١) أخرج قول ابن عباس والحسن الطبري ٢٤/ ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٢) سلف البيتان ١٧/ ٣٩٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٦ ، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢١٢ ، والطبراني في الكبير (٧٩٥٨)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. وفي إسناده جعفر بن الزبير، وهو متروك كما ذكر ابن كثير. وأخرجه الطبراني (٧٧٧٨) بإسناد آخر عن أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٢ : رواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف، وفي الآخر مَن لم أعرفه. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٦٠)، والطبري ٢٤/ ٥٨٧ عن أبي أمامة ﷺ موقوفاً.

(٤) قطعة من حديث طويل أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص٣٥٩ .

(٥) ص ٢٦٧ ، وليس في مطبوعه ذكر إسناديهما، وخبر أبي أمامة فيه موقوف مختصر.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ عن الكلبي، وتفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣ عن مقاتل.

(٧) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٥٠٣ ، والسمين في الدر المصون ١١/ ٨٩ ، والألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢١٨ .

للحق. وقيل: إنَّما سمِّيتْ كِنْدَةُ كِندَة؛ لأنَّها جحدتْ أباها. وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ الشاعر:

دعِ البخلاءَ إنْ شَمخُوا وصَدُّوا ... وذِكْرى بُخْلِ غانيةٍ كَنودِ[(١)]

وقيل: الكَنود: مِن كَنَدَ إذا قَطَع، كأنَّه يقطَعُ ما ينبغي أنْ يُواصِلَه من الشكر. ويقال: كَنَد الحبلَ: إذا قطعه؛ قال الأعشى:

أَميطي تُميطي بصُلْبِ الفؤادِ ... وَصُولِ حِبالٍ وكَنَّادِها[(٢)]

فهذا يدلُّ على القطع. ويقال: كَنَدَ يكْنِدُ كُنودًا، أي: كَفَر النعمةَ وجَحدَها، فهو كَنود. وامرأة كَنودٌ أيضاً، وكُنُدٌ مِثله[(٣)]. قال الأعشى:

أَحْدِثْ لها تُحْدِثْ لوَصْلِكَ إنَّها ... كُنُدٌ لوصلِ الزائرِ المعتادِ[(٤)]

أي: كَفورٌ للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسانُ هنا الكافر، يقول: إنه لكفور[(٥)]. ومنه: الأرضُ الكنودُ التي لا تُنْبِتُ شيئًا. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة[(٦)].

قال المبرِّد: الكنود: المانعُ لمَا عليه. وأنشد لكثير:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان إبراهيم بن هرمة، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٢٥، ووقع في مطبوعه: إبراهيم بن زهير، بدل: إبراهيم بن هرمة.

(٢) ديوان الأعشى ص ١١٩، والصحاح (كند)، واللسان (ميط). ورواية الديوان واللسان: فميطي تميطي...، قال صاحب اللسان: ماط عني مَيْطاً ومَيَطاناً وأماط: تنحَّى وبَعُد وذهب. اهـ. وجاء في شرح البيت في الديوان: يذكر الأعشى صاحبته فيقول: لتذهب حيث تريد، فإنه لصلب الفؤاد، إنْ وَصَل حبل الود فهو خليق أن يقطعه.

(٣) الصحاح (كند).

(٤) ديوان الأعشى ص ١٧٩. قال الشارح: تجدَّد لها وصلاً، فتجدد في وصلك قطيعة.

(٥) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٢٦.

أَحْدِثْ لـهـا تُـحْـدِثْ لـوَصْـلِـكَ إنـهـا كُـنُـدٌ لِـوَصـلِ الـزائـرِ الـمـعـتـادِ[١]

وقال أبو بكر الواسطيُّ: الكنود: الذي ينفق نِعَم الله في معاصي الله.

وقال أبو بكر الورَّاق: الكنودُ: الذي يرى النعمةَ من نفسه وأعوانه.

وقال الترمذي: الذي يرى النعمةَ ولا يرى المنعِم.

وقال ذو النون المصريُّ: الهَلوعُ والكَنود: هو الذي إذا مسَّه الشرُّ جَزوعٌ، وإذا مسَّه الخيرُ مَنوعٌ.

وقيل: هو الحقودُ الحسود. وقيل: هو الجَهولُ لقَدْرِه. وفي الحكمة: مَن جهل قَدْرَه هتك[٢] سِتره.

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها تَرجِعُ إلى معنى الكُفْرانِ والجحود. وقد فسَّر النبيُّ ﷺ معنى الكَنودِ بخصالٍ مذمومةٍ، وأحوالٍ غيرِ محمودةٍ[٣]، فإنْ صحَّ فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحدٍ معه مَقال.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

أي: وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ثناؤه على ذلك من ابن آدمَ لَشَهيد. كذا روى منصورٌ عن مجاهد، وهو قولُ ابنِ عباس[٤].

وقال الحسن وقتادةُ ومحمد بن كعب: «وإنَّه»، أي: وإنَّ الإنسان لشاهدٌ على نفسه بما يصنع. ورُوي عن مجاهد أيضًا[٥].

---

(١) ليس في ديوان كثير، وقد سلف عن الأعشى.

(٢) في (ظ): كشف.

(٣) سلف ص٤٣٧ من هذا الجزء.

(٤) ذكره عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٤٥ ، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٧ - ٥٨٨ عن قتادة وسفيان.

(٥) أخرجه عن محمد بن كعب ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ ، وذكره عن الحسن ومجاهد ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسانَ من غيرِ خلافٍ. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقال عديّ:

ماذا تُرَجِّي النفوسُ من طلب الـ ـخَيْرِ وحُبُّ الحياةِ كارِبُها[1]

﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لَقَويٌّ في حبِّه للمال. ويقال: «الشدِيد»: لبخيل. ويقال للبخيل: شديدٌ ومتشدِّد؛ قال طَرَفة:

أرَى الموتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفي عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ[2]

يقال: اعْتَامَه واعْتَمَاه، أي: اختاره. والفاحِشُ: البخيل أيضًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل.

قال ابن زيد: سمَّى الله المالَ خيرًا، وعسى أن يكون شرًّا وحراماً، ولكنَّ الناس يَعُدُّونه خيراً، فسمَّاه الله خيراً لذلك. وسمَّى الجهادَ سُوءاً، قال: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسمِّيه الناس[3].

قال الفرَّاء: نَظْمُ الآيةِ أن يقال: وإنَّه لَشديدُ الحبِّ للخير[4]؛ فلمَّا تقدَّم الحبُّ قال: شديد، وحذف مِن آخِرِه ذكر الحبِّ؛ لأنَّه قد جرى ذِكْرُه، ولرؤوس الآي، كقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعُصُوف للريح لا للأيام، فلمَّا جرى ذِكْرُ الريح قبل اليوم، طرح من آخِرِه ذِكْر الريح، كأنه قال: في يومِ عاصِفِ الريح[5].

---

(١) الأغاني ٢/ ١٤٧.

(٢) ديوان طرفة ص ٣٤. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٨٣: يصطفي: يأخذ صفوته وهو خيرته. وعقيلة المال: أكرمه وأنفسه عند أهله.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٩.

(٤) العبارة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٥: وإنه للخير لشديد الحب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: ابنُ آدمَ ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي: أُثير وقُلِب وبُحِث، فأُخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بَعْثَرْتُ المتاع: جعلت أسفلَهُ أعلاه[١]. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يُبْعَثون[٢]. الفرَّاء: سمعتُ بعضَ أعرابِ بني أسد يقرأ: «بُحْثِر» بالحاء مكانَ العين[٣]، وحكاه الماورديُّ عن ابن مسعود[٤]، وهما بمعنى.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مُيِّز ما فيها من خيرٍ وشر؛ كذا قال المفسِّرون. وقال ابن عباس: أُبرِز[٥].

وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم: «وحَصَل» بفتح الحاء وتخفيفِ الصاد وفتحِها[٦]، أي: ظهر.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ لا يَخْفَى عليه منهم خافيةٌ. وهو عالمٌ بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: أنه يجازيهم في ذلك اليوم.

وقوله: «إذا بُعثِر»، العاملُ في «إذا»: «بُعْثِر»، ولا يعملُ فيه «يَعْلَمُ»؛ إذ لا يرادُ به العِلْمُ من الإنسان ذلك الوقت، إنَّما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأنَّ ما بعد «إنَّ» لا يعملُ فيما قبلها. والعاملُ في «يَوْمَئِذٍ»: «خَبِيرٌ»، وإنْ فَصَلَتِ اللَّامُ بينهما؛ لأنَّ موضع اللام الابتداء. وإنَّما دخلت في الخبر لدخول «إنَّ» على المبتدأ[٧]. ويُروى أنَّ

(١) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٨، وقال أبو عبيدة أيضاً ٢/ ٣٠٨: «بعثر ما في القبور»: أُثير فأخرج.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦، وقال الفراء: وهما لغتان: بحثر وبعثر.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٢٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩٠.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٧٨ عن يحيى.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٣٦ - ٨٣٧.

الحجَّاجَ قرأ هذه السورة على المنبر يحضُّهم على الغزو، فجرى على لسانه: «أَنَّ ربَّهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خَبير» بغيرِ لامٍ[(١)]. ولولا اللامُ لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَنَّ رَبَّهم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ»[(٢)]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) ذكره بنحوه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٦٠ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٩ .

سورة ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾

مختلفٌ فيها، وآيُها إحدى عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ أقسَمَ بخيلِ الغُزاةِ تَعْدُو فتَضْبَحُ ضَبْحًا، وهو صوتُ أَنفاسِها عندَ العَدْوِ، ونَصْبُه بفعلِه المحذوفِ، أو بـ(العادياتِ) فإنَّها تدلُّ بالالتزامِ على الضَّابحاتِ. أو ﴿ضَبۡحٗا﴾ حالٌ بمَعْنى: ضَابحةً.

(٢) ـ ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾: فالتي تُورِي النَّارَ، والإيراءُ: إخراجُ النَّارِ، يقال: قَدَحَ الزَّنْدَ فأَوْرَى.

(٣) ـ ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ﴾ يُغِيرُ أهلُها على العَدُوِّ ﴿صُبۡحٗا﴾؛ أي: في وَقتِه.

(٤) ـ ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ﴾: فهيَّجْنَ بذلك الوقتِ ﴿نَقۡعٗا﴾: غبارًا، أو: صياحًا.

(٥) ـ ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ﴾: فتَوسَّطْنَ بذلك الوقتِ، أو بالعَدْوِّ[١]، أو بالنَّقعِ[٢]؛ أو مُلتَبِساتٍ به[٣] ﴿جَمۡعًا﴾ مِن جُموعِ الأعداءِ.

---

(١) أي: بالعَدْوِ الَّذي دلَّ عليه ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾.

(٢) قوله: «أو بالنقع»؛ أي: وَسَطْنَ بالنقع الجمعَ، أي: جَعَلْنَ الغبارَ وسطَ الجمع، فالباءُ للتعدية. انظر: «الدر المصون» (١١/ ٨٧).

(٣) قوله: «أو ملتبسات به»؛ أي: توسطن الجمع ملتبسات بالنقع، فقوله: «ملتبسات به» راجع للأخير.

رُوِيَ أَنَّه عليه السَّلامُ بعثَ خيلًا فمضَى شَهرٌ لم يأتِه مِنْهُم خَبَرٌ فنزلَتْ[1].

ويحتملُ أَنْ يكونَ القسمُ بالنُّفوسِ العادِيَةِ إثرَ كمالهنَّ، المُورياتِ بأفكارهنَّ أنوارَ المعارفِ، والمغيراتِ على الهوى والعاداتِ إذا ظهرَ لهن مَبدأُ أنوارِ القدسِ، فأثَرْنَ بهِ شوقًا، فوسَطْنَ بهِ جمعًا مِن جُموعِ العِلِّيِّينَ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: لكَفُورٌ، مِن كَنَدَ النِّعمَةَ كُنودًا، أو: لَعَاصٍ بلُغَةِ كِندَةَ، أو: لبَخِيلٌ بلُغَةِ بني مالكٍ، وهو جوابُ القسمِ.

(٧) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾: وإنَّ الإنسانَ على كُنودِه ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهَدُ على نفسِهِ لظُهورِ أثرِهِ عليه،

أو: إنَّ اللهَ على كُنودِهِ لشَهيدٌ، فيكونُ وَعيدًا.

(٨) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾: المالِ، مِن قولِه[2]: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] ﴿لَشَدِيدٌ﴾: لبَخِيلٌ، أو: لقَوِيٌّ مُبالِغٌ فيه.

(٩) ـ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾: بُعِثَ ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ مِن الموتى.

وقُرِئَ: (بُحْثِرُ)[3]، و: (بُحِثَ)[4].

---

(١) رواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» (٢٢٩١)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٤/ ٦٠٨ ـ ٦١٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦٣). قال ابن أبي حاتم: «سألت أبا زرعة عنه فقال: هذا حديث منكر، والصحيح: عن عكرمة فقط». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٢): فيه حفص بن جميع وهو ضعيف.

(٢) في نسخة التفتازاني: «المال كقوله».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٨٦) عن ابن مسعود، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٩)، و«البحر» (٢١/ ٤٥٤)، عن الأسود بن يزيد.

(١٠) ـ ﴿وَحُصِّلَ﴾: جُمِعَ مُحَصَّلًا في الصُّحُفِ، أو: مُيِّزَ ﴿مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وتخصيصُهُ لأنَّه الأصلُ.

(١١) ـ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يومُ القيامَةِ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾: عالمٌ بما أعلَنُوا وما أسرُّوا فمُجازيهِمْ[1].

وإنَّما قال: ﴿مَا﴾ ثمَّ قال: ﴿بِهِمْ﴾ لاختلافِ شأنِهم في الحالينِ.

وقُرِئَ: (أنَّ) و(خبيرٌ) بلا لامٍ[2].

عَن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرَأَ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أُعْطِيَ مِن الأَجرِ عشرَ حَسناتٍ بعَدَدِ مَن باتَ بالمزدلفةِ وشَهِدَ جمعَها»[3].

***

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فمجازيهم».

(٢) قرأ بها أبو السَّمالِ: (أنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ خبيرٌ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٨ ـ ١٧٩).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٤٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٠) سورة العاديات مكية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ
بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله، فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو، ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر، فتقدح منه النار، ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان، فإن سمع أذاناً وإلا أغار، وقوله تعالى: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول، ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع، روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: بينا أنا في الحجر جالساً جاءني رجل فسألني عن: ﴿العاديات ضبحاً﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحاً، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقف على رأسه، قال: أتفتي الناس بما لا علم لك؟ والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وفي لفظ: إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران»[١]، فذهب ابن عباس أنها الخيل[٢]، وقال (علي) إنها الإبل. قال عطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب، وقال عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح، وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وإلى قول ابن عباس ذهب جمهور المفسرين، منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة واختاره ابن جرير.

بحوافرها، وقيل: أسعرت الحرب بين ركبانهن، وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل، وقيل: المراد بذلك نيران القبائل، قال ابن جرير: والصواب الأول: الخيل حين تقدح بحوافرها، وقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إغارة الخيل صبحاً في سبيل الله، وقال: من فسرها بالإبل هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى، وقالوا كلهم في قوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ هو المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو، وقوله تعالى: ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال ابن عباس وعطاء: يعني جمع الكفار من العدو. ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعاً ويكون منصوباً على الحال المؤكدة، وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود، قال ابن عباس ومجاهد: الكنود الكفور. قال الحسن: الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه، وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة والثوري: وإن الله على ذلك لشهيد، ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله كما قال تعالى: ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لحب الخير وهو المال ﴿لشديد﴾، وفيه مذهبان: (**أحدهما**): أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال، (**والثاني**) وإنه لحريص بخيل من محبة المال، وكلاهما صحيح، ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور؟﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وحصّل ما في الصدور﴾ يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

[آخر تفسير سورة العاديات : ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

تفسير سورة العاديات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾ .

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت فى سبيله فَعَدت وضَبَحت ، وهو : الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى : اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار .

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ يعنى : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويتسمّع [(١)] أذانا ، فإن سمع [(٢)] وإلا أغار .

[وقوله] [(٣)] : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ يعنى : غباراً فى [مكان] [(٤)] معترك الخيول .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أى : توسطن ذلك المكان كُلُّهن جُمعَ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا عبدة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبد الله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ قال : الإبل .

وقال على : هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ عليا قولُ ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك فى سرية بعثت .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى أبو صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس حدثه ، قال : بينا أنا فى الحِجْر جالساً ، جاءنى رجل فسألنى عن : ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عنى فذهب إلى على ، رضى الله عنه ، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقال :سألت عنها أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله . قال : اذهب فادعه لى . فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله لئن كان أولَ غزوة فى الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فَرَسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحا من عرفة

---

(١) فى أ : « ويستمع » . (٢) فى م : « فإن سمع أذاناً » . (٣،٤) زيادة من م ، أ .

إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى .

قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذى قال على ، رضى الله عنه (١) .

وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال : قال على : إنما ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران .

وقال العَوفى عن ابن عباس : هى الخيل .

وقد قال بقول على : إنها الإبل جماعة . منهم : إبراهيم ، وعبيد بن عمير وبقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

قال ابن عباس ، وعطاء : ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب .

وقال ابن جُرَيْج (٢) ، عن عطاء سمعت ابن عباس يصف الضبح : أح أح .

وقال أكثر هؤلاء فى قوله : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى : بحوافرها . وقيل : أسعَرْنَ الحرب بين رُكبانهن . قاله قتادة .

وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى : مكر الرجال .

وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل .

وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل .

وقال من فسرها بالخيل : هو إيقاد النار بالمزدلفة .

وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله : ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صبحاً فى سبيل الله .

وقال من فسرها بالإبل : هو الدفع صبحا من المزدلفة إلى منى .

وقالوا كلهم فى قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو .

وقوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال العَوفى ، عن ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جَمع الكفار من العدو .

ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جَميعهُن ، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة .

وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً [غريباً جداً] (٣) فقال : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حفص بن جُمَيع ، حدثنا سِمَاك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٧٦) .
(٢) فى أ : « جرير » .
(٣) زيادة من م ،أ .

فأشهرت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، ضبحت بأرجلها ، ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ : قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ، ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ : صبّحت القوم بغارة ، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ : أثارت بحوافرها التراب ، ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال : صبحت القوم جميعاً (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ :هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه لنعم ربه لجحود كفور .

قال ابن عباس ، ومجاهد وإبراهيم النَّخعي ، وأبو الجوزاء ، وأبو العالية ، وأبو الضحى ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن قيس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد: الكنود : الكفور . قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ، قال : «الكفور الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده » (٢) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من طريق جعفر بن الزبير ــ وهو متروك ــ فهذا إسناد ضعيف . وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حريز بن عثمان ، عن حمزة بن هانئ ، عن أبى أمامة موقوفاً (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ : قال قتادة وسفيان الثورى : وإن الله على ذلك لشهيد .

ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظى ، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً (٤) لشهيد ، أى : بلسان حاله ، أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى :﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أى:وإنه لحب الخير ــ وهو:المال ــ لشديد. وفيه مذهبان :

أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .

والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح .

ثم قال تعالى مُزَهِّدًا فى الدنيا ، ومُرَغِّباً في الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، مجازيهم (٥) عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

آخر [تفسير] (٦) سورة « والعاديات » ولله الحمد [والمنة ، وحسبنا الله] (٧)

(١) مسند البزار برقم (٢٢٩١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤٢) : « فيه حفص بن جميع وهو ضعيف » .
(٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/ ١٨٠) عن أبى كريب ، به .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٨٠) .
(٤) فى م : « لكنودا » . (٥) فى أ : « ويجازيهم » . (٦، ٧) زيادة من م .

سورة والعادِيات

مختلَف فيها،[1] وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أقسم سبحانه بخيل الغُزاة التي تعدو نحوَ العدوّ. وقولُه تعالى: ﴿ضَبْحًا﴾ مصدرٌ منصوب إمّا بفعله المحذوف الواقع حالًا منها، أي: تضبَح ضَبْحًا، وهو صوت أنفاسها عند عَدْوها، أو بـ﴿ٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ فإنّ العَدْو مستلزِم للضبح، كأنّه قيل: "والضابحاتِ"، أو حالٌ على أنّه مصدر / بمعنى الفاعل، أي: ضابحاتٍ. [٣١٥و]

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ الإيراء: إخراج النار، والقدح: الصكّ. يقال: قدح فأورى، أي: فالتي تُورى النار مِن حوافرها. وانتصابُ ﴿قَدْحًا﴾ كانتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ على الوجوه الثلاثة.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ أسند الإغارة -التي هي مباغتة العدوّ للنهب أو القتل أو الأسر- إليها، وهي حالُ أهلِها، إيذانًا بأنّها العُمدة في إغارتهم. ﴿صُبْحًا﴾ أي: في وقت الصبح، وهو المعتاد في الغارات، يعدُون ليلًا لئلّا يشعر بهم العدوّ،[2] ويهجمون عليهم صباحًا ليَروا ما يأتون وما يذرون.

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ عطفٌ على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل؛ إذ المعنى: واللاتي عدونَ فأورينَ فأغرنَ فأثرنَ به، أي: فهيَّجنَ بذلك الوقت.

---

[1] س - مختلف فيها.

[2] وفي هامش م: يطلق "العدوّ" على الواحد والجمع. «منه».

﴿نَقْعًا﴾ أي: غبارًا، وتخصيصُ إثارته بالصبح؛ لأنّه لا يثور، أو لا يظهر ثَوَرانه بالليل. وبهذا ظهر أنّ الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله درُّ شأن التنزيل. وقيل: النقع: الصياح والجَلَبة.[1] وقُرئ: "فَأَثَّرْنَ"[2] بالتشديد، بمعنى فأظهرنَ به غُبارًا؛ لأنّ التأثير فيه معنى الإظهار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي: توسَّطن بذلك الوقت، أو توسَّطن ملتبِسات بالنقع. ﴿جَمْعًا﴾ مِن جموع الأعداء، والفاءات للدلالة على ترتّب ما بعد كلٍّ منها على ما قبلها، كما في قوله:

يا لهفَ زَيّابةَ للحارث الصَّـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[3]

فإنّ توسّط الجمع مترتِّب على الإثارة المترتِّبة على الإغارة المترتِّبة على الإيراء المترتِّب على العَدْو.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي: لكفور، مِن كَنَد النعمة كُنودًا. جواب القسم. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بعضُ أفراده.

رويَ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث إلى أناس مِن بني كِنانة سَريّةً، واستعمل عليها المنذِر بنَ عمرو الأنصاري،[4] وكان أحدَ النُّقباء، فأبطأ عليه عليه السلام خبرُها شهرًا، فقال المنافقون: «إنّهم قُتلوا»، فنزلت[5] السورة إخبارًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بسلامتها، وبشارةً له / بإغارتها على القوم، ونعيًا على المرجِفين في حقّهم ما هم فيه مِن الكُنود. وفي تخصيص خيل الغُزاة بالإقسام بها مِن البراعة ما لا مزيد عليه، كأنّه قيل: وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت، وقد أرجف هؤلاء في حقّ أربابها ما أرجفوا إنّهم مبالغون في الكفران. [٣١٥ظ]

---

[1] جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٥/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٨.

[3] البيت لابن زَيّابة. ومضى بتخريجه في تفسير النازعات، ٧٩/١.

[4] هو المنذر بن عمرو بن خنيس الأنصاري الخزرجي الساعدي (ت. ٤هـ/٦٢٥م). أحد نقباء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاثني عشر، وأحد السبعين الذين بايعوا النبيّ، شهد العقبة وبدرًا، واستشهد يوم بئر معونة. وكان في الجاهليّة يكتب بالعربيّة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٤٤٩/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٢١٧/٦؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٤/٧.

[5] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/٣٠؛ وتفسير القرطبي، ١٥٥/٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٤٥٧/٢٠.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: وإنّ الإنسان على كُنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه بالكُنود لظهور أثره عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة، ١٨٠/٢]. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: قويّ مُطيق مُجدٌّ في طلبه وتحصيلِه متهالكٌ عليه، يقال: هو شديد لهذا الأمر وقويّ له إذا كان مطيقًا له ضابطًا. وقيل: الشديد: البخيل،[١] أي: إنّه[٢] لأجل حبّ المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسِك. ولعلّ وصفَه بهذا الوصف القبيح بعد وَصْفه بالكنود للإيماء إلى أنّ مِن جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حبَّ المال؛ لأنّهم بما يظهرون مِن الإيمان يعصمون أموالهم ويحوزون مِن الغنائم نصيبًا.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾... إلى آخره، تهديدٌ ووعيد، و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيفعل ما يفعل مِن القبائح؟ أو ألا يُلاحظ فلا يعلم حالَه إذا بُعث مَن في القبور مِن الموتى؟ وإيرادُ ﴿مَا﴾ لكونهم إذ ذاك بمَعزِل مِن رتبة العقلاء. وقُرئ: "بُحْثِرَ"،[٣] و"بُحِثَ"،[٤] و"بَحْثَرَ"،[٥] و"بَحَثَ"،[٦] على بنائهما للفاعل.

﴿وَحُصِّلَ﴾ أي: جُمع محصّلًا، أو ميّز خيره مِن شرّه. وقُرئ: "حَصَّلَ"[٧] مبنيًا للفاعل، و"حَصَلَ"[٨] مخففًا. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مِن الأسرار الخفيّة التي مِن جملتها ما يُخفيه المنافقون مِن الكفر والمعاصي فضلًا عن الأعمال الجليّة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٢ س – إنّه.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأسود بن يزيد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم ومحمّد بن مَعْدان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ أي: المبعوثين، كُنّيَ عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ما عُبّر عنهم قبل ذلك بـ﴿مَا﴾ بناءً على تفاوتهم في الحالين كما فُعل نظيرُه بعد الإحياء الأوّل حيث التُفِتَ إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [النحل، ٧٨/١٦] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة، ٩/٣٢] إيذانًا بصلاحيّتهم / للخطاب بعد نفخ الروح وبعدمها قبله، كما أشيرَ إليه هناك. [٣١٦و]

﴿بِهِمْ﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ يكون ما ذُكر مِن بَعْث ما في القبور وتحصيلِ ما في الصدور ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالم بظواهر ما عمِلوا وبواطنه عِلمًا موجِبًا للجزاء متّصلًا به، كما ينبئ عنه تقييده بذلك اليوم، وإلّا فمطلَق عِلمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون، وقوله تعالى: ﴿بِهِمْ﴾ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّقان بـ﴿خَبِيرٌ﴾ قدّما عليه لمراعاة الفواصل، و"اللام" غيرُ مانعة مِن ذلك، وقرأ ابن السّمّال: "إِنّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ".[١]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أعطيَ مِن الأجر عشرَ حسنات بعدد مَن بات بمزدلفةَ وشهِد جمعًا».[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٨-١٧٩.

٢ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٨/٣٠ (العاديات، ١/١٠٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٤/٤ (العاديات، ١/١٠٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٠

سورة والعاديات

مكية أو مدنية، إحدى عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والعادِياتِ﴾: الخيلِ تعدو في الغزو وتَضبحُ ﴿ضَبْحًا﴾ هو صوت أجوافها إذا عَدَت، ٢ ـ ﴿فالمُورِياتِ﴾: الخيلِ تُوري النار ﴿قَدْحًا﴾ بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحِجارة بالليل، ٣ ـ ﴿فالمُغِيراتِ صُبْحًا﴾: الخيلِ تُغير على العدوّ وقت الصبح بإغارة أصحابها، ٤ ـ ﴿فأثَرْنَ﴾: هيّجْنَ ﴿بِهِ﴾: بمكان عدوِهن، أو بذلك الوقت، ﴿نَقْعًا﴾ أي: غبارًا بشِدّة حركتهنّ، ٥ ـ ﴿فوَسَطْنَ بِهِ﴾: بالنقع ﴿جَمْعًا﴾ من العدوّ، ....

سُورَةُ العَادِيَاتِ

قولُهُ: (الخَيلِ) قالهُ ابنُ عبَّاسٍ، أو إبلِ الحاجِّ، قالهُ عليٌّ[1]، والأوَّلُ أظهَرُ.

قولُهُ: (تَضبَحُ) أي: نصبَهُ بفعلِهِ، أو ﴿ضَبحًا﴾ حالٌ بمعنى: ضابِحَة.

قولُهُ: (أَجوَافِهَا) أو أنفاسِها.

قولُهُ: (النَّارَ) والإيراءُ: إخراجُ النَّار.

قولُهُ: (وَقتَ الصُّبحِ) أي: نصبُهُ على الظَّرفيَّةِ.

قولُهُ: (بالنَّقعِ) أي: فتوَسَّطنَ مُلتَبساتٍ به.

قولُهُ: (مِنَ العَدُوِّ) أي: من جُموعِ الأعداءِ، رويَ أنَّه ﷺ بَعثَ خَيلاً فمضَتْ شَهراً لم يأتِهِ منهم خبَرٌ، فنزلَتْ، رواهُ الدَّارقُطنيُّ وغيره[2].

---

(١) جاء القولان فيما رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٠٧)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٣٠/ ١٧٤) (٣٦٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. واعترض عليه الذهبي فقال: بل هو خبر منكر.

(٢) رواه البزار في «كشف الأستار» (٢٢٩١) والدارقطني في «الثاني من الأفراد» (٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. =

أي: صِرْنَ وسْطَه ـ وعُطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل، أي: واللآتي عدَونَ فأورَينَ فأغرْنَ ـ ٦ ـ ﴿إِنَّ الإنسانَ﴾ الكافرَ ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾: لكَفورٌ يجحد نعمَه ـ تعالى ـ ٧ ـ ﴿وإنَّهُ علَى ذلِكَ﴾ أي: كُنودِه ﴿لَشَهِيدٌ﴾: يشهد على نفسه بصُنعه، ٨ ـ ﴿وإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لشديدُ الحبِّ له، فيبخل به.

٩ ـ ﴿أفلا يَعلَمُ، إذا بُعثِرَ﴾: أُثيرَ وأُخرج ﴿ما في القُبُورِ﴾ من الموتى أي: بُعثوا ١٠ ـ ﴿وحُصِّلَ﴾: بُيِّنَ وأُفرِزَ ﴿ما في الصُّدُورِ﴾: القُلوب من الكُفر والإيمان، ١١ ـ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِم يَومَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾: لَعالِمٌ، فيُجازيهم على كُفرهم؟ أُعيد الضمير جمعًا نظرًا لِمعنى الإنسان. وهذه الجُملة دلّت على مفعول «يعلمُ» أي: أنّا نجازيه وقت ما ذُكر. وتعلّقَ خبير بـ «يومئذ»، وهو ـ تعالى ـ خبير دائمًا، لأنه يوم المُجازاة.

قولُهُ: (لَكَفُورٌ) وهو جوابُ القَسَمِ.

قولُهُ: (بصُنعِهِ) لظهورِ أثرِهِ عليه.

قولُه: (أي: المَالِ) من قولِهِ: ﴿إِن تَرَكَ خَيراً﴾ [البقرة: ١٨٠].

قولُهُ: (أُفرِزَ) أي: مُيِّز.

قولُهُ: (القُلُوبِ) وتخصيصُهُ؛ لأنَّه الأصلُ.

قولُهُ: (لمَعنَى الإِنسَانِ) قالَ القاضِي(١): وإنَّما قال: ﴿مَا في القُبُورِ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿بِهِم﴾ لاختِلافِ شأنِهِم في الحالَينِ.

قولُهُ: (دَلَّت) بل هي المفعولُ، وإنَّما كسرَتْ ﴿إن﴾ لوجودِ اللَّامِ في خبَرِها، وقرئَ: (أَن) و(خَبِير) بلا لامٍ(٢)، والله تعالى أعلمُ.

***

= قال الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٧/ ١٤٢): فيه حفص بن جميع، وهو ضعيف.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٣١).

(٢) وهي قراءات شاذة، ونسبت للضحاك والحجاج بن يوسف، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٢١).

سورة العاديات

مكيةٌ في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، مدنيةٌ في قول أنس وقتادة وإحدى الروايتين عن ابن عباس[1]؛ وقد أخرج عنه البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه أنه قال: بَعَث رسول الله ﷺ خَيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبرٌ، فنزلت: (وَٱلْعَٰدِيَٰتِ) إلخ[2].

وآيها إحدى عشرة بلا خلاف.

وأخرج أبو عبيد في فضائله من مرسل الحسن أنها «تُعدل بنصف القرآن»[3].

وأخرج ذلك محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس مرفوعاً[4]، ولم أقف على سرِّه.

ولَمَّا ذكر سبحانه فيما قبلها الجزاء على الخير والشرِّ أَتْبَعَ ذلك فيها بتعنيفِ مَن آثر دنياه على آخرته ولم يستعدَّ لها بفعل الخير، ولا يخفى ما في قوله تعالى هناك: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وقوله سبحانه هنا: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] من المناسبة والعلاقة على ما سمعتَ من أنَّ المراد بالأثقال ما في جوفها من الأموات أو ما يعمُّهم والكنوزَ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٣، والبحر ٨/ ٥٠٣.

(٢) مسند البزار (٢٢٩١ - كشف)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني وابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٣، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٢: فيه حفص بن جميع وهو ضعيف.

(٣) فضائل القرآن ص١٤١.

(٤) عزاه لمحمد بن نصر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٣.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ الجمهورُ على أنَّه قسمٌ بخيل الغزاة في سبيل الله تعالى التي تَعْدُو، أي: تجري بسرعةٍ نحو العدوِّ. وأصل «العاديات»: العادِوَات بالواو، فقلبت ياءً لانكسارِ ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿ضَبْحًا﴾ مصدرٌ منصوبٌ بفعله المحذوف، أي: تَضْبَحُ ـ أو: يَضْبحن ـ ضبحاً، والجملةُ في موضع الحال، وضَبحُها: صوتُ أنفاسِها عند عَدْوِها؛ وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: الخيلُ إذا عَدَت قالت: أحْ أحْ، فذلك ضبحُها[1].

وأخرج ابن جرير عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: الضَّبْحُ من الخيل الحَمْحَمَة، ومن الإبل التنفُّس[2].

وفي «البحر»[3]: تصويتٌ جهيرٌ عند العدْوِ الشديد، ليس بصهيلٍ ولا رُغاءٍ ولا نُباح، بل هو غيرُ الصوت المعتاد من صوت الحيوان الذي يُنسب هو إليه، وعن ابن عباس: ليس يضبَح من الحيوان غيرُ الخيل والكلاب[4]، ولا يصحّ عنه فإن العرب استعملت الضبْحَ في الإبل والأسْوَد من الحيات والبوم والأرنب والثعلب، وربما تُسنِده إلى القوس؛ أنشد أبو حنيفة في صفتها:

حَنَّانَةٌ مِن نَشَمٍ أو تَألَبِ ... تَضْبَحُ في الكفِّ ضُباحَ الثعلَبِ[5]

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٤.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٥.

(٣) ٨/ ٥٠٢.

(٤) أخرجه عنه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠، والطبري ٢٤/ ٥٧٢.

(٥) البيت في المحرر الوجيز ٥/ ٥١٣، واللسان (ضبح)، والبحر ٨/ ٥٠٢، والكلام منه. والحنَّانة: المصوِّتة من القوس؛ من حَنَّت تَحِنّ. ونَشَم: شجرٌ للقسِيِّ. والتألَب: شجر. القاموس (حنن) و(نشم) و(ألب).

وذكر بعضهم أنَّ أصلَه للثعلب فاستعير للخيل كما في قول عنترة:

والخيلُ تكدَح حين تَضْـ ... ـبَحُ في حِياض الموت ضَبْحَا[١]

وأنَّه من: ضَبَحَتْه النارُ: غيَّرت لونَه ولم تُبالغ فيه، ويقال: انضبح لونُه: تغيَّر إلى السواد قليلاً.

وقال أبو عبيدة: الضبْحُ وكذا الضَّبْعُ بمعنى العَدْو الشديد[٢]. وعليه قيل: إنَّه مفعولٌ مطلقٌ لـ «العاديات»، وليس هناك فعلٌ مقدَّرٌ. وجوِّز على تفسيره بما تقدَّم أن يكون نصباً على المصدرية به أيضاً، لكن باعتبار أنَّ العدْوَ مستلزم للضَّبْح، فهو في قوة فعل الضبح.

ويجوز أن يكون نصباً على الحال مؤوَّلاً باسم الفاعل، بناءً على أنَّ الأصلَ فيها أن تكون غير جامدةٍ، أي: والعاديات ضَابِحاتٍ.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ الإيراء: إخراجُ النار، والقدحُ هو الضربُ والصكُّ المعروف، يقال: قَدَحَ فأوْرَى: إذا أخرج النارَ. وقَدَحَ فأصْلَد: إذا قَدَحَ ولم يُخرجها. والمرادُ بها الخيلُ أيضاً، أي: فالتي تُورِي النارَ من صَدْمِ حوافرها للحجارة. وتسمَّى تلك النارُ نارَ الحُباحِب، وهو اسم رجلٍ بخيلٍ كان لا يُوقِد إلا ناراً ضعيفة مخافةَ الضيفان[٣]، فضربوا بها المثل حتى قالوا ذلك لِمَا تقدَحه الخيل بحوافرها والإبلُ بأخفافها.

وانتصابُ «قدحاً» كانتصابِ «ضبحاً» على ما تقدَّم. وجوِّز كونه على التمييز المحوَّل عن الفاعل، أي: فالمُورِي قدحُها. ولعلها أَمْيَزُ وأبعدُ عن القدح.

---

(١) الصحاح (ضبح)، والكشاف ٤/ ٢٧٧، واللسان (ضبح)، والبحر ٨/ ٥٠٣.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٧، والكلام من البحر ٨/ ٥٠٣.

(٣) وقيل: إنه كان لا يوقد ناراً لخبز أو غيره حتى تنام العيون، فيوقد نويرة تَقِدُ مرة وتخمد أخرى، فإن استيقظ أحد أطفأ كراهية أن ينتفع بها أحد. ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٤، وتفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣، وتفسير الرازي ٣٢/ ٦٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٣٣.

وعن قتادة: الموريات مجازٌ في الخيل تُوري نارَ الحرب وتُوقِدها[1]. وهو خلاف الظاهر.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ مِن: أغار على العدوِّ: هجم عليه بغتةً بخيله لنهبٍ أو قتلٍ أو إسارٍ. فالإغارةُ صفةُ أصحاب الخيل، وإسنادها إليها إما بالتجوُّز فيه أو بتقدير المضاف، والأصل: فالمُغِير أصحابُها، أي: فالتي يُغير أصحابُها [على] العدوِّ عليها، وقيل: بسببها.

﴿صُبْحًا﴾ أي: في وقت الصبح، فهو نصبٌ على الظرفية، وذلك هو المعتاد في الغارات، كانوا يَغْدُون ليلاً لئلا يشعُر بهم العدوُّ، ويهجمون صباحاً ليَروا ما يأتون وما يذرون، وكانوا يتحمَّسون بذلك، ومنه قولُه:

قومي الذين صبَّحوا الصباحا
يومَ النخيلِ غارةً مِلحَاحَا[2]

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ من الإثارة، وهي التهييج وتحريكُ الغبار ونحوِه، والأصل: أَثْوَرْنَ، نُقلت حركة الواو إلى ما قبلها وقُلبت ألفاً، وحُذفت لاجتماع الساكنين.

والفعل عطفٌ على الاسم قبلُ وهو «العاديات» أو ما بعده؛ لأنه اسم فاعل وهو في معنى الفعل، خصوصاً إذا وقع صلةً، فكأنه قيل: فاللاتي عَدَون فأوْرَيْنَ فأغَرْنَ فأثَرْنَ. ولا شذوذَ في مثله؛ لأنَّ الفعل تابعٌ فلا يلزم دخولُ «أل» عليه، ولا حاجة إلى أن يقال: هو معطوفٌ على الفعل الذي وُضع اسمُ الفاعل موضعَه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٥٧٦.

(٢) الرجز لليلى الأخيلية، كما في الخزانة ٦/٢٤، وهو في نوادر أبي زيد ص ٤٧ منسوب لأبي حرب بن الأعلم، شاعر جاهلي. والرواية المشهورة فيه: اللذون، بدل: الذين. ينظر مغني اللبيب ص٥٣٥، وشرح ابن عقيل ١/١٤٤، والخزانة ٦/٢٣، والنخيل: بالتصغير، عينُ ماء قربَ المدينة، وموضعٌ من نواحي الشام. والغارة: اسم من الإغارة على العدو. وملحاحاً: صفة غارة، أي: ذات إلحاح. الخزانة ٦/٢٣-٢٤.

والحكمة في مجيء هذا فعلاً بعد اسم فاعل ـ على ما قال ابن المنير ـ تصويرُ هذه الأفعال في النفس، فإنَّ التصوير يحصل بإيراد الفعل بعدَ الاسم لِما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي(١)، كقول ابن معد يكرب:

بأني قد لقيتُ الغولَ يهوي   بشهب كالصحيفة صَحْصَحَانِ
فآخذه فأضربه فخَرَّت   صَريعاً لليدَينِ وللجِرَانِ(٢)

وخُصَّ هذا المقام من الفائدة ـ على ما قال الطيبي ـ أنَّ الخيل وُصف بالأوصاف الثلاثة ليُرتَّب عليها ما قُصد من الظفر بالفتح، فجيء بهذا الفعل الماضي وما بعده مسبَّبَينِ عن أسماء الفاعِلينَ، فأفاد ذلك أنَّ تلك المداوَمة أنتجت هاتين البُغيتَينِ. ويُفهم منه أنَّ الفاء لتفريعِ مَا بعدها عما قبلها وجَعْلِه مسبَّباً عنه، وسيأتي الكلام فيها قريباً إن شاء الله تعالى.

وضميرُ «به» للصُّبح، والباء ظرفيةٌ، أي: فهَيَّجْنَ في ذلك الوقت ﴿نَقۡعٗا﴾ أي: غباراً، وتخصيصُ إثارته بالصبح لأنَّه لا يثور أو لا يظهر ثورانُه بالليل، وبهذا يظهر أنَّ الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقعٌ في الليل، وفي ذكر إثارة الغبار إشارةٌ ـ بلا غبارٍ ـ إلى شدَّة العَدْوِ وكثرةِ الكرِّ والفرِّ، وكثيراً ما يشيرون به إلى ذلك، ومنه قول ابن رواحة:

عدمتُ بُنيَّتي إن لم تروها   تُثير النقْعَ من كَنَفَيْ كَداءِ(٣)

---

(١) في (م): المضارع. وهو خطأ.

(٢) الانتصاف ٤/٢٧٨. ونُسب البيتان في الأغاني ٢١/١٢٩-١٣٤، والكشاف ٣/٣٠٢، وتفسير القرطبي ١٧/٣٥٢، والبحر ٨/٣٠٢ لتأبّط شرًا، وكذا سلف عند المصنف ٨/٣١٦، وهما في ديوانه ص٢٢٤-٢٢٥. وصدر البيت الثاني عندهم عدا الانتصاف: فأضْرِبُها بلا دهَش فخرَّت. وكذا: بسَهْب، بدل: بشهب. وعزاهما البصري في حماسته ٢/٣٩٧، والبغدادي في الخزانة ٦/٤٣٨ لأبي البلاد الطهوي باختلاف يسير. والسَّهْب بالفتح: الفلاة، وبالضم: المستوي من الأرض في سهولة. والصحصحان: المستوي من الأرض. والجِرَان: مقدَّم العنق. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٣) النكت والعيون ٦/٣٢٤-٣٢٥، وتفسير القرطبي ٢٢/٤٣٤، والبحر ٨/٥٠٣. والصواب أن =

وقال أبو عبيد[(١)]: النقع: رفعُ الصوت، ومنه قول لبيد:

فــمــتــى يَــنْــقَــعْ صُــراخٌ صــادقٌ يُــحــلِــبــوه[(٢)] ذاتَ جَــرْس وزَجَــلْ[(٣)]

وقولُ عمر رضي الله عنه ـ وقد قيل له يوم تُوفِّي خالد بن الوليد: إنَّ النساء قد اجتمعن يبكين على خالد ـ: ما على نساء بني المغيرة أن يَسفِكن على أبي سليمان دموعَهنَّ وهُنَّ جلوس، ما لم يكن نَقْعٌ ولا لقلقة[(٤)].

والمعنى عليه: فهيَّجْنَ في ذلك الوقت صياحاً، وهو صياحُ مَن هُجم عليه وأُوقع به. والمشهور المعنى الأول.

وجوِّز كونُ ضمير «به» للعَدْوِ الدالِّ عليه «العاديات»، أو للإغارة الدالِّ عليها «المغيرات»، والتذكير لتأويلها بالجَرْي ونحوه. والباء للسببية أو للملابسة[(٥)]،

= قائله حسان بن ثابت كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢١، وأخبار مكة للفاكهي ٤/ ١٨٠، وتهذيب الآثار (مسند عمر بن الخطاب) ٢/ ٦٦٤، وجمهرة اللغة ٣/ ٢٤٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٨، وتاريخ الإسلام ١/ ٣٥٩، والخزانة ٩/ ٢٣١، وهو في ديوان حسان ص٦٠، ورواية سيرة ابن هشام والجمهرة والخزانة والديوان:

عَــدِمــنــا خــيــلَــنــا إن لــم تــروهــا تــثــيــر الــنَّــقْــع مــوعــدُهــا كــداءُ

قال البغدادي: كداء: الثنية التي في أصلها مقبرة مكة، ومنها دخل الزبير يومئذ (يعني يوم الفتح).

(١) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٥٠٣: أبو عبيدة. والمثبت من تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٣٥، والدر المصون ١١/ ٨٦، والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧٥.

(٢) ورد هنا في هامش الأصل حاشية: أي: يعينوه، من: أحلبتُ الرجلَ: إذا أعنته. ويقال للقوم إذا جاؤوا للنصرة من كل أوب: قد أحْلبوا. وكان معناه: أتوا بالحلبة، وهي خيل تجمع للسباق من كل أوب، لا تخرج من إصطبل واحد. اهـ منه.

(٣) ديوان لبيد ص١٩١، وغريب الحديث ٣/ ٢٧٥. قال شارح الديوان: الجرس: الصوت. والزجل كذلك، إلّا أن فيه تطريباً. أراد: كتيبة ذات جرس وزَجَل. والمعنى: أنهم إذا ارتفع صوت الصريخ هبُّوا للنجدة بكتيبة هذه حالها.

(٤) غريب الحديث ٣/ ٢٧٤، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٦٨٥). وجاء في هامش الأصل: فسِّر النقع بالصوت، واللقلقةُ نحوه. وقيل: اللقلقة: صوت النائحة باللسان، والنقع: وضع التراب على الرأس، من النقيع: الغبار المرتفع. وقيل: شق الجيوب. اهـ منه.

(٥) ورد في هامش الأصل: وهي تصريح بما تقتضيه الفاء على ما سمعتَ عن الطيبي، فلا تغفل. اهـ منه.

وجوِّز كونها ظرفيةً أيضاً والضميرُ للمكان الدالِّ عليه السياقُ، والأول أظهر وألطف، ومثلُه ضميرُ «به» في قوله عز وجل: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي: فتوسَّطن في ذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، وجوِّز فيه وفي بائه نحوُ ما تقدَّم في «به» قبله، وجوِّز أيضاً كونُ الضمير للنَّقْع والباء للملابسة، أي: فتوسَّطن ملتبساتٍ بالنقع جمعاً. أو هي ـ على ما قيل ـ للتعدية إن أريد أنَّها وَسَّطت الغبارَ.

والفاءات كما في «الإرشاد» للدلالة على ترتُّب[1] ما بعد كلٍّ منها على ما قبله، فتوسُّط الجمع مترتِّب على الإثارة المترتِّبة على الإيراء المترتِّب على العدْوِ[2].

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: «فأثَّرْنَ» و: «فوسَّطْنَ» بتشديد الثاء والسين[3]. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى الأولَ كالجمهور، والثاني كذين[4].

والمعنى على تشديد الأول: فأظهرن به غباراً، لأنَّ التأثير فيه معنى الإظهار. وعلى تشديد الثاني على نحو ما تقدَّم، فقد نقلوا أنَّ «وَسطَ» مخفَّفاً ومثقَّلاً بمعنًى واحدٍ، وأنهما لغتان، وقال ابن جنِّي: المعنى: ميَّزْنَ به جمعاً، أي: جعلْنه شطرين، أي: قسمين وشقَّين[5].

وقال الزمخشري[6]: التشديد فيه للتعدية والباءُ مزيدة للتوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥] في قراءة، وهي مبالغة في «وَسَطْن» وجوّز أن يكون قُلِبَ ثوَّرن إلى وثَّرن، ثم قُلبت الواو همزةً، فالمعنى على ما مرَّ، وهو تمحُّل مستغنًى عنه.

وعن السديِّ ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير أنهم قالوا: «العاديات» هي الإبل

---

(١) في (م): ترتيب. وهو تصحيف.
(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ١٩٠-١٩١.
(٣) القراءات الشاذة ص١٧٨، والمحتسب ٢/ ٣٧٠، والبحر ٨/ ٥٠٤. والكلام منه.
(٤) المصادر السابقة.
(٥) المحتسب ٢/ ٣٧٠.
(٦) في الكشاف ٤/ ٢٧٨.

تَعدُو ضَبْحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى. ونسب إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب «الأضداد» وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجلٌ فسألني عن: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾؟ فقلتُ: الخيل حين تُغِير في سبيل الله تعالى ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامَهم ويُورُون نارَهم. فانفتل عني فذهب إلي عليٍّ بن أبي طالب ﷺ وهو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾؟ فقال: سألتَ عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ عنها ابنَ عباس. فقال: هي الخيل حين تُغير في سبيل الله تعالى. فقال: اذهب فادْعه لي. فلمَّا وقفتُ على رأسه قال: تُفتي الناسَ بما لا علمَ لك به، والله إن كانت لأوَّلَ غزوة في الإسلام بدرٌ[1]، وما كان معنا إلا فَرَسان، فرسٌ للزبير ﷺ وفرسٌ للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟! إنما العاديات ضبحاً الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة، فإذا آوَوْا إلى المزدلفة أَوْرَوا النيرانَ، والمغيرات صبحاً من المزدلفة إلى منى فذلك جمعٌ، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ فهو نقْعُ الأرض حين تَطؤها بخِفافها. قال ابن عباس: فنزعتُ عن قولي إلى قول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورضي الله عنه[2].

واستشكل ردُّه كرم الله تعالى وجهه كونَ المراد بها الخيلَ بما كان من أمر غزوة بدر بأنَّ ابنَ عباس لم يَدَّعِ أنَّ «أل» في «العاديات» للعهد، وأنها إشارةٌ إلى عاديات بدر، ولا أنَّ السورة نزلت في شأن تلك الغزوة ليلزم تحقُّق ذلك فيها ودخولُها تحتَ العموم، بل ظاهرُ كلامه حملُ ذلك على جنس الخيل التي تعدو في سبيل الله عز وجل. وإن حُملت على العهد، وقيل: إن المعهود هو الخيلُ التي بعثها عليه الصلاة والسلام للغزو على ما سمعتَ صدرَ السورة، وكذا على ما رُوي من أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى أناس من بني كنانة سريةً واستعمل عليها المنذرَ بن

---

(١) في (م): لبدر.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٣-٥٧٤، والأضداد ص٣٦٤-٣٦٣، والمستدرك ٢/ ١٠٥. وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٣. وهو من طريق أبي صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وسيأتي الكلام على هذا الإسناد قريباً.

عمرو الأنصاريَّ وكان أحد النقباء، فأبطأ عليه ﷺ خَبَرُها شهراً، فقال المنافقون: إنَّهم قُتِلوا. فنزلت السُّورة إخباراً له عليه الصلاة والسلام بسلامتها وبشارةً له ﷺ بإغارتها على القوم(١) = لم يَبْعُد.

وأجيب بأنه كرم الله تعالى وجهه أراد أنَّ غزوة بدر هي أفضلُ غزوات الإسلام، وبدرُها الذي ليس فيه انثلامٌ، ولم يكن فيها ما يصحُّ أن يكون مصداقاً لهذه الآية على ذلك التأويل، وما غيرها من الغزوات بالنسبة إليها حتى يكون حريًّا بمثل هذا التعظيم والتبجيل(٢)؟ فيتعيَّن أن لا يكون المراد ذلك، ويُسلك في الآية ما يناسبها من المسالك.

ولا يخفى أن هذا الجواب لا يتحمَّل ـ لمزيدِ ضَعْفِه ـ الإغارةَ عليه وإطلاقَ أعنَّةِ عادياتِ الأفكار إليه، والأحرى أنَّ الخبر لا صحَّة له، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه عند أهل الأثر بكثرة التساهل فيه، وأنه غيرُ معتبَرٍ(٣). ثم إنَّ النقلَ عنه ﷺ في المراد بالعاديات متعارضٌ، فما تقدَّم أنه إبل الحُجَّاج، ونقل صاحب «التأويلات» أنه كرَّم الله تعالى وجهَه فسَّرها بإبل بدر، وأنَّ ابنَ مسعود هو الذي فسَّرها بإبل الحُجَّاج(٤).

ويرجِّح إرادةَ الخيل أنَّ إثارة النقع فيها أظهرُ منها في الإبل.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢، وأسباب النزول للواحدي ص٤٩٨، وزاد المسير ٩/ ٢٠٧، وعزوه لمقاتل. وأورده ابن الأثير في أسد الغابة ٥/ ١٧٨، والحافظ في الإصابة ٩/ ٢٠٧ عن مقاتل أيضاً، لكن فيه أن الأمير على السرية هو المسيّب بن عمرو.

(٢) قوله: ولم يكن فيها ما يصح... إلى هنا ساقط من (م).

(٣) قال الحاكم في المستدرك ٢/ ١٠٥ عقب حديث علي ﷺ: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، فقد احتجا بأبي صخر وهو حميد بن زياد الخراط المصري، وبأبي معاوية البجلي، وهو والد عمار بن أبي معاوية الدهني الكوفي. اهـ. فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله، ولا ذكر لأبي معاوية في الكتب الستة، ولا احتج البخاري بأبي صخر، والخبر منكر. وقال في الميزان ٤/ ٥٧٥: أبو معاوية البجلي، يقال: هو والد عمار الدهني، فيه جهالة، روى عنه أبو صخر حميد بن زياد وآخر.

(٤) جاء في تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٠٨: قال علي كرم الله وجهه وعبد الله ﷺ: هي الإبل. غير أن عليًّا ﷺ قال: ذلك يوم بدر، وقال ابن مسعود ﷺ ذلك. اهـ. كذا فيه، ولعل في المطبوع سقطاً. وأخرج الطبري عن ابن مسعود أنه قال: هي الإبل. وفي رواية قال: هو في الحج. تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٤.

ثم إنَّ ذلك الخبر يقتضي أنَّ المقسَمَ[١] به نوعان: الخيلُ أو الإبلُ، وجماعةُ الغزاةِ أو الحُجَّاج الموقدةُ ناراً لطعامها أو نحوه، وفي بعض الآثار عن ابن عباس ما هو أصرح مما تقدَّم في تفسير «الموريات» بما يُغايِر «العاديات» بالذات، ففي «البحر» عنه أنَّها الجماعة التي تُوري نارَها بالليل لحاجتها وطعامها. وفي رواية أخرى عنه: تلك جماعةُ الغزاة تُكثِر النارَ إرهاباً[٢].

ورُويت المغايرةُ عن آخرين أيضاً، فعن مجاهد وزيد بن أسلم وهي رواية أخرى عن ابن عباس: هي الجماعة تمكر في الحرب[٣]، فالعرب تقول إذا أرادت المكر بالرجل: والله لأُورِيَنَّ له.

ومن الغريب ما روي عن عكرمة أنها ألسنةُ الرجال، تُوري النارَ من عظيم ما تتكلَّم به وتظهر من الحُجَج والدلائل وإظهار الحقِّ وإبطال الباطل[٤]. وهو كما ترى.

❁ ❁ ❁

ومن البطون والإشارات أن يكون المقسَمُ به النفوسَ العادِيَة إثْر كمالهنَّ، «الموريات» بأفكارهنَّ أنوارَ المعارف، و«المغيرات» على الهوى، و«العاديات»[٥] إذا ظهر لهنَّ مثل أنوار القدس، «فأَثَرْنَ به» شوقاً، «فوسطن» بذلك الشوق «جمعاً» من جموع العلِّيين.

ومثله ما قيل: إنَّ ذلك قَسَمٌ بالهِمَم القالبية التي تعدو في سبيل الله تعالى خارجاً من جوف اشتياقها صوتُ الدعاء من شدَّة العدْو وغايةِ الشوق، بحيث يَسمَع الروحانيُّون ضجيجَ دعائها وتضرُّعِها والتماسِها تسهيلَ سلوك الطريق الوعرِ الذي يتعلَّق بجبال القالَب، «الموريات» بحوافر الذكر نارَ الهداية المستكنَّة في حجر القالب وقتَ تخمير اللطيفة، و«المغيراتِ» بعدَ سلوكها فى جبال القالب الراسيةَ في

---

(١) في (م): للقسم. وهو تصحيف.
(٢) البحر ٨/ ٥٠٣، والنكت والعيون ٦/ ٤٢٤.
(٣) أخرج هذه الرواية عن ابن عباس ومجاهد الطبريُّ في تفسيره ٢٤/ ٥٧٧.
(٤) زاد المسير ٩/ ٢٠٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٧ مختصراً.
(٥) في الأصل و(م): والعادات، والمثبت من تفسير البيضاوي ٨/ ٣٩١، والكلام منه.

ظلام الليل القالبيِّ، وعبورِها عنها إلى أفق عالم النفس وتنفُّسِ صُبح النَّفَس، على الخواطر النفسية وشؤونها، فهيَّجْنَ بذلك الجري غبارَ الخواطر وأثَرْنه لئلا يختفي خاطرٌ من الخواطر، «فوَسَطْن» بذلك «جمعاً» من جنود القُوى القلبية وحزبِ الخواطر الذكرية التي هي حزب الرحمن في وسط عالم النفس.

ولهم في هذا الباب غير ذلك.

❁ ❁ ❁

وأيًّاما كان فالمقسمَ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ أي: لكفورٌ جحودٌ، من كَنَدَ النعمة: كَفَرَها ولم يشكرها، وأنشدوا:

كَنودٌ لنعماءِ الرِّجال ومَن يكُنْ كَنوداً لنعماء الرجال يُبَعَّدِ[1]

وعن ابن عباس ومقاتل: الكَنُود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور، وبلسان كنانة: البخيلُ السيِّئُ المَلَكَة، ومنه الأرضُ الكَنُود التي لا تُنبِت شيئاً[2].

وقال الكلبيُّ نحوه، إلا أنه قال: وبلسان بني مالك البخيلُ. ولم يذكر حضرَموت بل اقتصر على كندة[3].

وتفسيره بالكَفور هنا مرويٌّ عن ابن عباس والحسن[4]، وأخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[5].

وفي رواية أخرى عن الحسن أنه قال: هو اللائم لربِّه عز وجل، يعدُّ السيئات وينسى الحسنات[6]. وقال الفضيل: هو الذي تُنسيه سيئةٌ واحدة حسناتٍ كثيرة،

(١) البيت في تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٣٧، والبحر ٨/ ٥٠٣، والدر المصون ١١/ ٨٩، واللباب ٢٠/ ٤٦٤.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٣٧، والبحر ٨/ ٥٠٣.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٧٨، والبحر ٨/ ٥٠٣.

(٤) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٨٤-٥٨٥.

(٥) عزاه لابن عساكر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٤ وينظر ما سيرد قريباً من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٧٨.

ويعامل الله تعالى على عَقْدِ عِوَضٍ.

وقال عطاء: هو الذي لا يعطي في النائبات مع قومه(١). وإرادته هنا غير ظاهرة(٢).

وروى الطبراني وغيره بسند ضعيف عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الكنود»؟ قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال: «هو الكفور الذي يضرب عبدَه ويمنع رِفْدَه ويأكل وحده»(٣).

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» والحكيم الترمذي وغيرُهما تفسيرَه بالذي يمنع رِفْدَه، وينزل وحدَه، ويضرب عبدَه، موقوفاً على أبي أمامة(٤).

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن قتادة والحسن أنهما قالا: الكَنود: الكَفورُ للنعمة، البخيلُ بما أُعطي، الذي يَمْنَعُ رِفدَه، ويُجيع عبدَه، ويأكل وحدَه، ولا يُعطي لنائبةٍ تكون في قومه. ولا يكون كَنُوداً حتى تكون هذه الخِصالُ فيه(٥).

والجمهور على تفسيره بالكَفُوْر، وكلٌّ مما ذُكر لا يخلو عن كفران، والكفرانُ المبالَغُ فيه يجمع صُنوفاً منه.

و«أل» في «الإنسان» للجنس، والحكم عليه بما ذُكر باعتبار بعض الأفراد.

---

(١) قول الفضيل وعطاء في تفسير البغوي ٤/ ٥١٨، والبحر ٨/ ٥٠٤-٥٠٥، والكلام منه.

(٢) الكلام من: وقال الفضيل.... إلى هنا ساقط من (م).

(٣) المعجم الكبير (٧٩٥٨)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٨٦، والمجروحين لابن حبان ١/ ٢١٢. وهو من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة به. وجعفر بن الزبير متروك، وقال ابن حبان: روى عنه القاسم نسخة موضوعة. وذكر منها هذا الحديث.

(٤) الأدب المفرد (١٦٠)، ونوادر الأصول ص ٢٦٧، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٨٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٨٥، والذي في مطبوع شعب الإيمان (٤٦٢٨) أنَّ تفسير «كنود» بالكفور هو من قول قتادة والحسن ﵄، وأما الكلام الذي بعده فهو فيه من قول الكلبي، وهو الأشبه؛ لأنه قد روي تفسير «كَنود» بالكَفور من قول قتادة والحسن دون أن تذكر تلك الزيادة فيه. ينظر تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٩١، وتفسير الطبري ٢/ ٣٩١، والنكت والعيون ٦/ ٣٢٥، وزاد المسير ٩/ ٢١١.

وقيل: المراد به كافرٌ معيَّن؛ رُوي عن ابن عباس أنها نزلت في قُرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشيِّ[١]، وأيِّد بقوله تعالى بعدُ: (أَفَلَا يَعْلَمُ) إلخ؛ لأنه لا يليق إلا بالكافر. وفي الأمرين نظرٌ.

وقيل: المراد به كلُّ الناس، على معنى أنَّ طبعَ الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله تعالى بلطفه وتوفيقه من ذلك. واختاره عصام الدين، وقال: فيه مدحٌ للغُزاة لسَعْيهم على خلاف طبعهم.

و«لربِّه» متعلِّقٌ بـ «كنود»، واللامُ غيرُ مانعةٍ من ذلك، وقدِّم للفاصلة مع كونه أهمَّ من حيث إنَّ الذمَّ البالغ إنَّما هو على كُنُود نعمتِه عز وجل. وقيل: للتخصيص على سبيل المبالغة.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان، كما قال الحسن ومحمد بن كعب ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: على كُنُوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ لظهور أثره عليه، فالشهادةُ بلسان الحال الذي هو أفصحُ من لسان المقال. وقيل: هي بلسان المقال لكن في الآخرة.

وقيل: «شهيد» من الشهود لا من الشهادة، بمعنى أنه كَفورٌ مع علمه بكفرانه، وعَمَلُ السوء مع العلم به غايةُ المذمَّة. والظاهر الأول.

وقال ابن عباس وقتادة: ضميرُ «إنَّه» عائدٌ على الله تعالى، أي: وإنَّ ربَّه سبحانه شاهدٌ عليه، فيكون الكلام على سبيل الوعيد، واختاره التبريزيُّ فقال: هو الأصح؛ لأنَّ الضميرَ يجب عودُه إلى أقرب مذكورٍ قبله[٢].

وفيه أنَّ الوجوبَ ممنوعٌ، واتساقُ الضمائر وعدمُ تفكيكها يرجِّح الأولَ، فإنَّ الضمير السابق ـ أعني ضميرَ «لربه» ـ للإنسان ضرورةً، وكذا الضميرُ اللاحقُ أعني الضميرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المالِ، وورد بهذا المعنى في

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٧، وهو في تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣، وزاد المسير ٩/ ٢٠٩ عن مقاتل.

(٢) نقله المصنف من البحر ٨/ ٥٠٥.

القرآن كثيراً حتى زعم عكرمة أنَّ «الخيرَ» حيث وقع في القرآن هو المالُ[١]، وخصَّه بعضهم بالمال الكثير، وفسِّر به في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وإطلاقُ كونه «خيراً» باعتبار ما يراه الناس، وإلا فمنه ما هو شرٌّ يومَ القيامة.

واللامُ للتعليل، أي: إنه لأجل حبِّ المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لبخيلٌ، كما قيل. وكما يقال للبخيل: شديدٌ، يقال له: متشدِّدٌ، كما في قول طرفة:

أرى الموتَ يَعتامُ الكرامَ ويَصْطفي عَقِيلةَ مالِ الفاحش المتشدِّدِ[٢]

وشديدٌ فيه[٣] يجوز أن يكون بمعنى مفعول، كأنَّ البخيلَ شُدَّ عن الإفضال. ويجوز أن يكون بمعنى فاعل، كأنَّه شَدَّ صرَّتَه فلا يُخرج منها شيئاً.

وجوَّز غيرُ واحد أن يراد بالشديد القويُّ، ولعله الأظهر. وكأنَّ اللامَ عليه بمعنى «في»، أي: وإنَّه لقويٌّ مبالغ في حُبِّ المال، والمراد قوةُ حبِّه له. وقال الزمخشري: المعنى: وإنَّه لحبِّ المال وإيثارِ الدنيا وطلبها قويٌّ مُطيق، وهو لحبِّ عبادة الله تعالى وشُكر نعمته سبحانه ضعيفٌ مُتقاعِس؛ تقول: هو شديدٌ لهذا الأمر وقويٌّ له: إذا كان مُطيقاً له ضابطاً[٤].

وجعل النيسابوريُّ[٥] اللامَ على هذا التعليل، وليس بظاهر. فتأمَّل.

وقال الفراء: يجوز أن يكون المعنى: وإنه لحبِّ الخير لشديدُ الحبِّ، يعني:

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥، وهو في البحر ٨/ ٥٠٥ عن قتادة. وأخرجه الطبري ٣/ ١٣٥ عن مجاهد.
(٢) ديوان طرفة ص٣٤. والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٤٠، والبحر ٨/ ٥٠٥، وفي تفسير الطبري ٢٤/ ٥٨٨: النفوس. بدل: الكرام. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٨٣: يعتام: يختار. ويصطفي: يأخذ صفوته وهو خيرته. وعقيلة المال: أكرمه وأنفسه عند أهله.
(٣) قوله: فيه، أي: في البخيل.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٧٩.
(٥) في غرائب القرآن ٣٠/ ١٦٢.

إنه يحبُّ المالَ ويحبُّ كونَه محِبًّا له، إلا أنه اكتفي بالحبِّ الأول عن الثاني كما قال تعالى: ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] أي: في يومٍ عاصف الريح، فاكتفي بالأولى عن الثانية(١).

وقال قطرب: أي: إنه شديدٌ لحبِّ الخير، كقولك: إنَّه لزيدٍ ضَروبٌ، في: إنه ضَروبٌ لزيدٍ(٢).

وظاهر التمثيل أنَّه اعتبر «حُبّ الخير» مفعولاً به لـ «شديد»، وأنَّ «شديد» اسمُ فاعل جيء به على فعيل للمبالغة، وأنَّ اللام في «لحبِّ» للتقوية. وفيه ما فيه. وقيل: يجوز أن يعتبر أنَّ شديداً صفةٌ مشبهةٌ كانت مضافةً إلى مرفوعها وهو «حبُّ» المضاف إلى «الخير» إضافةَ المصدر إلى مفعوله، ثم حوِّل الإسنادُ وانتصب المرفوعُ على التشبيه بالمفعول به، ثم قدِّم وجُرَّ باللام. وفيه ـ مع قطع النظر عن التكلُّف ـ أنَّ تقدُّم معمول الصفة عليها لا يجوز، وكونه مجروراً في مثل ذلك لا يُجدي نفعاً، إذ ليس هو فيه نحوَ: زيدٌ بك فَرِح، كما لا يخفى.

وجوَّز ابن عطية(٣) أن يرادَ بالخير الخيرُ الدنياويُّ من مالٍ وصحة وجاهٍ عند الملوك، ونحوِ ذلك ممَّا يَعُدُّه الجهَّالُ خيراً، والمعنى على نحوِ ما سمعتَ عن الزمخشري(٤). ويُفهم من كلامه في «الكشاف» جوازُ أن يراد به ما هو عنده تعالى من الطاعات، على أنَّ المعنى: إنه لحبِّ الخيراتِ غيرُ هشٍّ منبسطٍ ولكنَّه شديدٌ منقبضٌ(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ إلخ تهديدٌ ووعيدٌ، والهمزة للإنكار، والفاءُ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقامُ، ومفعول «يَعْلَم» محذوفٌ، وهو

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.
(٢) ذكره عن قطرب الرازيُّ في تفسيره ٣٢/ ٦٨ بلفظ: أي: إنه شديدُ حبِّ الخير، كقولك: إنه لزيدٍ ضروبٌ، أي: إنه ضروبُ زيدٍ. ومثله في تفسير النيسابوري ٣٠/ ١٦٢.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥.
(٤) قوله: وجوز ابن عطية... إلى هنا ليست في (م)، وضرب عليه في النعمانية (ب).
(٥) الكشاف ٤/ ٢٧٩.

العامل في «إذا»، وهي ظرفية، أي: أيفعل ما يفعل من القبائح، أو: ألا يلاحِظ فلا يعلم الآنَ مآلَه إذا بُعثِر مَن في القبور مِن الموتى؟! وإيرادُ «ما» لكونهم إذ ذاك بمعزلٍ من رتبة العقلاء.

وقال الحوفي: العاملُ في «إذا» الظرفيةِ «يَعْلم»(١).

وأُورِد عليه أنه لا يُراد به العلم في ذلك الوقت، بل العلم في الدنيا.

وأجيب بأنَّ هذا إنما يَرِد إذا كان ضمير «يعلم» راجعاً إلى «الإنسان»، وذلك غيرُ لازم على هذا القول؛ لجواز أن يرجع إليه عز وجل، ويكون مفعولا «يعلم» محذوفَين، والتقدير: أفلا يَعْلَمهم الله تعالى عاملين بما عملوا إذا بُعثر؟ على أن تكون العلمُ كنايةً عن المُجازاة، والمعنى: أفلا يجازيهم إذا بُعثر؟ وتكون الجملة المؤكَّدة بعدُ تحقيقاً وتقريراً لهذا المعنى. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ «إذا» مفعولٌ به لـ «يَعْلم» على معنى: أفلا يعلم ذلك الوقتَ ويعرف تحقُّقَه.

وقيل: إنَّ العامل فيها «بُعثر» بناءً على أنَّها شرطيةٌ غيرُ مضافة. وقيل: ما دلَّ عليه خبر «إنَّ»، أي: أفلا يعلم إذا بعثر الموتى جُوزُوا. والجملة الشرطية سادَّةٌ مسدَّ مفعولَي «يَعْلم»(٢).

قالوا: ولم يجوَّز أن يعمل فيها «لخبير» لأنَّ ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبلها.

وأوجَهُ الأوجُه ما قدَّمناه، وتعدِّي العلم ـ إذا كان بمعنى المعرفة ـ لواحد شائعٌ، وتقدَّم تحقيقُ معنى البعثرة فتذكَّر(٣).

وقرأ عبد الله: «بُحْثِر» بالحاء والثاء المثلثةِ(٤).

---

(١) البحر ٨/ ٥٠٥.
(٢) الكلام من: وقيل: ما دلَّ عليه... إلى هنا ليس في (م)، وضرب عليه في النسخة النعمانية.
(٣) ينظر ٣٠/ ٦٣.
(٤) القراءات الشاذة ص١٧٨، والبحر ٨/ ٥٠٥. ونُسب إلى مصحفه: «بُحِث»، كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٥.

وقرأ الأسود بن يزيد: «بُحِثَ» بهما بدون راء(١).

وقرأ نصر بن عاصم: «بَحْثَرَ» كقراءة عبد الله، لكن بالبناء للفاعل(٢).

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ أي: جُمع ما في القلوب من العزائم المصمَّمة وأُظهر كإظهار اللُّبِّ من القشر وجَمْعِه، أو: ميِّز خيرُه من شرِّه، فقد استُعمِل: حصَّل الشيءَ، بمعنى: ميَّزه من غيره، كما في «البحر»(٣).

وأصل التحصيل إخراجُ اللُّبِّ من القشر كإخراج الذهب من حَجَر المعدن والبُرِّ من التبن.

وتخصيصُ ما في القلوب لأنه الأصل لأعمال الجوارح، ولذا كانت الأعمال بالنيات، وكان أول الفكر آخر العمل، فجميعُ ما عَمِل تابعٌ له، فيدلُّ على الجميع صريحاً وكنايةً.

وقرأ ابن يعمر ونصر بن عاصم ومحمد بن أبي معدان: «وحَصَّلَ» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره عز وجل.

وقرأ ابن يعمر ونصر أيضاً: «حَصَلَ» مبنيًّا للفاعل خفيفَ الصاد(٤)، فـ «ما» عليه هو الفاعل.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ أي: المبعوثين، كني عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ما عبِّر عنهم قبل ذلك بـ «ما» بناءً على تفاوُتهم في الحالين.

﴿بِهِمْ﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكون ما عُدَّ مِن بَعْثِ ما في القبور وتحصيلِ ما في الصدور، والظرفان متعلِّقان بقوله تعالى: ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالِمٌ بظواهر ما عملوا وبواطنه علماً مُوجباً للجزاء متَّصلاً

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٨، والبحر ٨/ ٥٠٥، والدر المصون ١١/ ٩١، ووقع في الأصل و(م) ومطبوع البحر: زيد، بدل: يزيد، وهو تصحيف.

(٢) البحر ٨/ ٥٠٥، وهي في القراءات الشاذة ص ١٨٧ بالعين بدل الحاء.

(٣) ٨/ ٥٠٨.

(٤) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٧٨، والبحر ٨/ ٥٠٥.

به، كما ينبئ عنه تقييدُه بذلك اليوم، وإلا فمطلَقُ علمه عز وجل بما كان وما سيكون.

وقرأ أبو السمال والحجاج: «أنَّ ربهم بهم يومئذٍ خبيرٌ» بفتح همزة «أنَّ» وإسقاط لام التأكيد[1]، فـ «أنَّ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ معمولٍ لـ «يعلم» على ما استظهره بعضهم[2]، وأيِّد به كون «يعلم» معلَّقةً عن العمل في: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ إلخ على قراءة الجمهور لمكان اللام، و«إذا» على هذا لا يجوز تعلُّقها بـ «خبير» أيضاً؛ لكونه في صلة «أنَّ» المصدرية، فلا يتقدَّم معمولُه عليها. ويُعلم أمره مما تقدَّم.

وقيل: الكلام على تقدير لام التعليل وهي متعلِّقة بـ «حُصِّل»، كأنه قيل: وحُصِّل ما في الصدور لأنَّ ربَّهم بهم يومئذ خبيرٌ. والأول أظهر. والله تعالى أعلم وأخبر.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٨، والبحر ٨/ ٥٠٥.

(٢) هو أبو حيان في البحر ٨/ ٥٠٥.

(١٠١) سورة القارعة مكية وآياتها إحدى عشرة

سورة القارعة مكية ، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وشدائدها ، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام ، كخروج الناس من القبور ، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير ، المنتشر هنا وهناك ، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم ، وكنسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث المتطاير في الهواء ، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض ، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف ، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب ؟ وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس ، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها ، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها .

سورة القارعة

إحدى عشرة آية مكية

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ فكأنه قيل: وما ذلك اليوم؟ فقيل: هي القارعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾

اعلم أن فيه مسائل:

المسألة الأولى: القرع: الضرب بشدة واعتماد، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] ومنه قولهم: العبد يُقرع بالعصا، ومنه المِقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب، وتقارعوا: تضاربوا بالسيوف. واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة، واختلفوا في لمية هذه التسمية على وجوه: **احدها:** أن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق، لأن في الصيحة الأولى تذهب العقول، قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وفي الثانية تموت الخلائق سوى إسرافيل، ثم يميته الله ثم يحييه، فينفخ الثالثة فيقومون. وروي أن الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقبة معلومة، فيحيي الله كل جسد بتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقبة المعينة، والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩] ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] **وثانيها:** أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان اصطكاكًا شديدًا عند تخريب العالم، فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة. **وثالثها:** أن القارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والإفزاع، وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكور، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، وهو قول الكلبي. **ورابعها:** أنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال، وهو قول مقاتل، قال بعض المحققين: وهذا أولى من قول الكلبي لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

المسألة الثانية: في إعراب قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وجوه: **احدها:** أنه تحذير وقد جاء التحذير بالرفع والنصب، تقول: الأسد الأسد، فيجوز الرفع والنصب وثانيها: وفيه إضمار أي ستأتيكم القارعة على ما أخبرت عنه في قوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] **وثالثها:** رفع بالابتداء وخبره: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وعلى قول قطرب الخبر. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ فإن قيل: إذا أخبرت عن شيء بشيء فلا بد وأن تستفيد منه علمًا زائدًا، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يفيد كونه جاهلًا

به فكيف يعقل أن يكون هذا خبرًا؟ قلنا: قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد؛ لأنا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع، فبهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع في الهول والشدة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ فيه وجوه: **أحدها:** معناه لا علم لك بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وَهْم أحد ولا فهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار، ولذلك قال في آخر السورة: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾[القارعة: ١١] تنبيهًا على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية، وصار آخر السورة مطابقًا لأولها من هذا الوجه. **فإن قيل:** ههنا قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ وقال في آخر السورة: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ [القارعة: ٩، ١٠] ولم يقل: (وماأدراك ما هاوية) فما الفرق؟ **قلنا:** الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس، أما كونها هاوية فليس كذلك، فظهر الفرق بين الموضعين. **وثانيها:** أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بإخبار الله وبيانه؛ لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾[الحاقة: ١-٣] ثم قال المحققون: قول: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ أشد من قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: ١-٢] لأن النازل آخرًا لا بد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى، وأما بالنظر إلى المعنى، فالحاقة أشد لكونه راجعًا إلى معنى العدل، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾

قال صاحب الكشاف: الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة، أي تقرع يوم يكون الناس كذا.

واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين: **الأول:** كون الناس فيه كالفراش المبثوث، قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره، ثم إنه تعالى شَبَّه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر. أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، والمبثوث المفرق، يقال: بثه، إذا فرقه. وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة. قال الفراء: كغوغاء الجراد يَركب بعضه بعضًا، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شَبَّه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنهم لما بُعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش، ويتأكد ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾[النبأ: ١٨] وقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المطففين: ٦] وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾[الكهف: ٩٩] **فإن قيل:** الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معًا؟ **قلنا:**

شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين، أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى. وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع. ويحتمل أن يقال: إنها تكون كبارًا أولاً كالجراد، ثم تصير صغارًا كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهًا أخرى: **أحدها:** ما روى أنه عليه السلام قال: «النَّاسُ عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ، وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ رَعَاعٌ» فجعلهم الله في الأخرى كذلك جزاء وفاقًا. **وثانيها:** أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه فقال: ﴿كَالْفَرَاشِ﴾ لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش؛ لأن الفراش لا يعذب، وهؤلاء يعذبون، ونظيره: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم: قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ العهن: الصوف ذو الألوان، وقد مر تحقيقه عند قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩] والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض، وفي قراءة ابن مسعود: كالصوف المنفوش.

واعلم أن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان، على ما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها، فيصير ذلك مشابهًا للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشًا، **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها؟! فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه، ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حمرتها.

المسألة الثانية: قد وصف الله تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه: **أولها:** أن تصير قطعًا، كما قال: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] **وثانيها:** أن تصير كثيبًا مهيلاً، كما قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ثم تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذر تدخل من كوة البيت لا تمسها الأيدي، ثم قال في الرابع: تصير سرابًا، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

المسألة الثالثة: لم يقل: يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ لأن التكوير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾

واعلم أنه تعالى لما وصف يوم القيامة، قسم الناس فيه إلى قسمين فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ واعلم أن في الموازين قولين: **أحدهما:** أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وهذا قول الفراء، قال: ونظيره يقال: عندي درهم بميزان درهمك ووزن درهمك وداري بميزان دارك ووزن دارك، أي بحذائها. **والثاني:** أنه جمع ميزان، قال ابن عباس:

الميزان له لسان وكفتان، لا يوزن فيه إلا الأعمال، فيؤتى بحسنات المطيع في أحسن صورة، فإذا رجح فالجنة له، ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فيخف وزنه فيدخل النار. وقال الحسن في الميزان: له كفتان ولا يوصف. قال المتكلمون: إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنهما، خصوصًا وقد اقضيا، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة، فيظهر بذلك الثقل والخفة، وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سرورًا، وظهور حال صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق.

أما قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فالعيشة مصدر بمعنى العيش، كالخيفة بمعنى الخوف، وأما الراضية فقال الزجاج: معناه، أي عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها، وهي كقولهم: (لابن وتامر) بمعنى ذو لبن وذو تمر، ولهذا قال المفسرون: تفسيرها مرضية، على معنى يرضاها صاحبها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي قلَّت حسناته فرجحت السيئات على الحسنات، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفًا. وقال مقاتل: إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف.

قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

أما قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ ففيه وجوه: **أحدها:** أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيدًا، والمعنى فمأواه النار، وقيل للمأوى أم على سبيل التشبيه بالأم التي لا يقع الفزع من الولد إلا إليها وثانيها: فأم رأسه هاوية في النار، ذكره الأخفش والكلبي وقتادة، قال: لأنهم يهوون في النار على رؤوسهم. **وثالثها:** أنهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا: (هوت أمه) لأنه إذا هوى، أي سقط وهلك فقد هوت أمه حزنًا وثكلاً، فكأنه قيل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فقد هلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ قال صاحب الكشاف: (هِيَهْ) ضمير الداهية التي دل عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ في التفسير الثالث: أو ضمير (هَاوِيَةٌ): والهاء للسكت فإذا وصل جاز حذفها، والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه، وذكرنا الكلام في هذه الهاء عند قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ والمعنى أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب، ونسأله التوفيق وحسن المآب: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

تفسير سورة «القارعة»

وهي مكيةٌ بإجماع[٣]. وهي عَشْرُ آياتٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: القيامةُ والساعة، كذا قال عامَّةُ المفسِّرين. وذلك أنَّها تقرعُ الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها. وأهلُ اللغةِ يقولون: تقولُ العرب: قَرَعَتْهُمُ القارِعةُ، وفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة: إذا وقع بهم أمرٌ فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعةٍ مِنَ الأيامِ لولا ... سبيلُهُمُ لزاحَتْ عنك حِينا[٤]

وقال آخر:

متى تَقْرَعْ بمَرْوتِكُم نَسُؤْكُمْ ... ولم تُوقَدْ لَنا في القِدْرِ نارُ[٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] وهي الشديدةُ من شدائد الدَّهر.

---

(٣) زاد المسير ٩/٢١٣، والمحرر الوجيز ٥/٥١٨.

(٤) اللسان (عزز)، ووقع في (ظ): لراحت.

(٥) النكت والعيون ٦/٣٢٧.

قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استفهامٌ، أي: أيُّ شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كلمةُ استفهامٍ على جهةِ التعظيمِ والتفخيم لشأنها، كما قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾

«يوم» منصوبٌ على الظَّرف، تقديرُه: تكونُ القارعةُ يومَ يكونُ الناسُ كالفراش المبثوث. قال قتادة: الفراشُ: الطيرُ الذي يتساقطُ في النار والسِّراج[1]. الواحدةُ فراشة، وقاله أبو عبيدة[2]. وقال الفرَّاء[3]: إنه الهَمَجُ الطائرُ من بَعوضٍ وغيرِهِ، ومنه الجراد. ويقال: هو أطيشُ من فراشة؛ قال:

طُوَيِّشٌ مِن نَفَرٍ أَطْياشِ أَطْيشُ من طائرةِ الفَراشِ[4]

وقال آخر:

وقدْ كانَ أقوامٌ رَدَدْتُ قُلوبَهُمْ عليهم وكانوا كالفَراشِ من الجَهْلِ[5]

وفي «صحيح» مسلم عن جابر[6]، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومثَلُكُمْ كَمثَلِ رجلٍ أَوْقَدَ ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تَفَلَّتون مِن يَدي». وفي الباب عن أبي هريرة[7].

والمبثوثُ: المتفرِّقُ. وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]. فأوَّلُ

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٣ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٩ ، وفيه: طير لا بعوض ولا ذباب، هو الفراش.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٨ .

(٤) ذكره ابن عادل في اللباب ٢٠/ ٤٧١ .

(٥) البيت للفرزدق، وهو في النقائض ١/ ١٣٠ ، ومنتهى الطلب ٥/ ٣١١ برواية:

وحولكَ أقوامٌ رددتُ قلوبَهم عليهم فكانوا كالفراش من الجهل

(٦) برقم (٢٢٨٥)، وسلف ١٧/ ٦١ .

(٧) أخرجه أحمد (٧٣٢١) و(٨١١٧)، والبخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤)، وسلف ١٧/ ٦١ .

حالِهم كالفَراش لا وجهَ له، يَتَحيَّر في كلِّ وجهٍ، ثم يكونون كالجراد؛ لأنَّ لها وجهاً تقصِدُه.

والمبثوث: المتفرِّقُ المنتشِر، وإنَّما ذكَّر على اللَّفظ، كقوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠] ولو قال: المبثوثةِ [فهو][1] كقوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧].

وقال ابن عباس والفرَّاء: «كالفراشِ المبثوثِ»: كغَوغاء الجراد، يركبُ بعضُها بعضاً. كذلك الناسُ يجولُ بعضُهم في بعضٍ إذا بُعثوا[2].

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾

أي: الصوف الذي يُنْفشُ باليد، أي: تَصيرُ هباءً وتزول، كما قال جلَّ ثناؤه في موضعٍ آخَرَ: ﴿هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٦]. وأهلُ اللغة يقولون: العِهنُ: الصوفُ المصبوغ. وقد مضى في سورة «سَأَلَ سائلٌ»[3].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

قد تقدَّم القولُ في المِيزان في «الأعراف والكهف والأنبياء»[4]. وأنَّ له كِفَّةً ولساناً توزنُ فيه الصُّحفُ المكتوبُ فيها الحسناتُ والسَّيئات[5]. ثم قيل: إنه ميزانٌ واحدٌ بيد جبريل يَزِنُ أعمالَ بني آدم، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. وقيل: موازين،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦، وسلف عنه قريباً بنحوه، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) عند تفسير الآية (٨) منها.

(٤) ينظر ٩/ ١٥٦، و١٣/ ٣٩٣، و١٤/ ٢١٢.

(٥) قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥: وأمور الآخرة لا تعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان.

كما قال:

فـلِـكـلِّ حـادِثـةٍ لَـهَـا مِـيـزانُ

وقد ذكرناه فيما تقدَّم(١). وذكرناه أيضًا في كتاب «التذكِرة»(٢).

وقيل: إنَّ الموازين: الحُجَجُ والدلائل؛ قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قَـد كُـنـتُ قـبـلَ لـقـائـكـم ذا مِـرَّةٍ عِـنـدي لـكُـلِّ مـخـاصِـمٍ مِـيـزانُـهُ(٣)

ومعنى «عِيشةٍ راضِيةٍ»، أي: عيشٍ مَرْضيٍّ، يرضاه صاحبُه.

وقيل: «عيشةٍ راضِيةٍ» أي: فاعلة للرضا، وهو اللِّينُ والانقيادُ لأهلها. فالفعلُ للعيشة لأنها أعطت الرضا مِن نفسِها، وهو اللِّينُ والانقياد. فالعيشةُ كلمةٌ تجمع النِّعَم التي في الجنة، فهي فاعلةٌ للرضا، كالفُرُش المرفوعة، وارتفاعُها مقدارُ مئةِ عام، فإذا دنا منها وليُّ اللهِ اتَّضَعتْ حتى يستويَ عليها، ثم ترتفعُ كهيئتها، ومثل الشجرة فروعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا اشتهى وليُّ اللهِ ثمرتَها تَدلَّتْ إليه، حتى يتناولها وليُّ الله قاعداً وقائماً، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]. وحيثما مشى أو تَنقَّل من مكانٍ إلى مكان، جرى معه نهرٌ حيث شاء، عُلُوًّا وسُفْلًا، وذلك قولُه تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]. فيُروَى في الخبر: أنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدودٍ حيث شاء من قصوره وفي مجالسه(٤). وهذه(٥) الأشياءُ كلُّها عيشةٌ قد أَعْطَتِ الرِّضا من نفسها، فهي فاعلةٌ للرضا، وهي انذلَّتْ وانقادَتْ بذْلاً وسماحة.

---

(١) ١٤/٢١١، وصدره: ملك تقوم الحادثات لعدله.

(٢) ص ٣٢٠.

(٣) سلف ١٢/١٩١، والكلام من النكت والعيون ٦/٣١٨ - ٣١٩.

(٤) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٣٣٩.

(٥) في (م): فهذه.

ومعنى ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني جَهَنَّم. وسمَّاها أُمًّا، لأنَّه يأوي إليها كما يأوي إلى أمِّه؛ قاله ابن زيد[١]. ومنه قولُ أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

فالأرضُ مَعْقِلُنا وكانتْ أُمَّنا فيها مَقابِرُنا وفيها نُولَدُ[٢]

وسمِّيتِ النارُ هاوية، لأنه يهوِي فيها مع بُعْدِ قَعْرِها. ويُروَى أنَّ الهاوية اسمُ البابِ الأسفلِ من النار.

وقال قتادة: معنى «فأمُّه هاوِية»: فمصيرُه إلى النار[٣]. عكرمةُ: لأنه يهوي فيها على أمِّ رأسه[٤]. الأخفش: «أمُّه»: مستَقَرُّه، والمعنى متقارِبٌ. وقال الشاعر:

يا عمرو لو نالَتْكَ أرماحُنا كنتَ كَمَن تهوي به الهاوِيَهْ[٥]

والهاوية: المَهْواة. وتقول: هَوَتْ أمُّه، فهي هاوية، أي: ثاكِلَة، قال كعب بن سعد الغَنَوِيُّ:

هَوَتْ أُمُّه ما يبعثُ الصبحُ غاديا وماذا يؤدِّي الليلُ حين يَؤُوبُ[٦]

والمهوى والمَهْوَاة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك. وتهاوَى القومُ في المَهْواة: إذا سقط بعضُهم في إثر بعض[٧].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٩ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٦ .

(٢) ديوان أمية ص ٥٢ ، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٢٩ .

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٥ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٩ . وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ .

(٥) البيت لعمرو بن مِلْقَط شاعر جاهلي، كما في النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٦٢ ، والخزانة ٩/ ٢١ ، وبلا نسبة في الصحاح (هوى). ووقع في النوادر والخزانة: يا أوس لو نالتك... وأوس هو ابن حارثة بن لأم الطائي، كما ذكر البغدادي.

(٦) الأصمعيات ص ٩٥ ، وأمالي القالي ٢/ ١٥٠ ، والصحاح (هوى)، والكلام منه، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٥٤ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٩٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٣٥ . والبيت من قصيدة في رثاء أبي المغوار الغنوي، وقوله: ما يبعث الصبح...، يريد أن هذين الوقتين يجددان ذكره ويثيران الحزن عليه؛ لأن الصباح وقت الغارة، والليل وقت طروق الضيفان. سمط اللآلي ٢/ ٧٧٣ .

(٧) الصحاح (هوى).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ الأصلُ: «ما هي»، فدخلت الهاءُ للسَّكْت. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ وابن مُحيصن: «ما هيَ» بغير هاءٍ في الوصل، ووقفوا بها[1]. وقد مضى في سورة الحاقَّةِ بيانُه[2].

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: شديدةُ الحرارة. وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نارُكم هذه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعين جزءًا من حرِّ جهنَّم» قالوا: والله إنْ كانت لكافيةً يا رسول الله! قال: «فإنَّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستِّين جزءًا، كلُّها مثلُ حرِّها»[3].

وروي عن أبي بكرٍ ﷺ أنه قال: إنَّما ثَقُلَ ميزانُ مَن ثَقُلَ ميزانُه، لأنَّه وُضع فيه الحقُّ، وحُقَّ لميزانٍ يكونُ فيه الحقُّ أن يكون ثقيلاً. وإنَّما خفَّ ميزانُ مَن خفَّ ميزانُه، لأنَّه وُضع فيه الباطلُ، وحُقَّ لميزانٍ يكون فيه الباطلُ أن يكون خفيفاً.[4]

وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ الموتى يَسألون الرجلَ يأتيهم عن رجلٍ مات قَبْلَه، فيقول: ذلك مات قبلي، أمَا مرَّ بكم؟ فيقولون: لا والله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية، فبِئْسَتِ الأمُّ، وبئستِ المُرَبِّيةُ». وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة»[5]، والحمد لله.

---

(١) التيسير ص ٢٢٥ ، والنشر ٢/ ١٤٢ عن حمزة ويعقوب، والمشهور عن الكسائي إثبات الهاء في الحالين.

(٢) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٣)، وهو عند أحمد (٨١٢٦)، والبخاري (٣٢٦٥)، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الواقعة.

(٤) قطعة من وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، والخبر أخرجه بنحوه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٩١٤)، وهناد في الزهد (٤٩٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) ص٥٥ ، وأخرجه الثعلبي كما ذكر المصنف ثمة. وفي الباب عن أبي أيوب ﷺ عند ابن المبارك في الزهد (٤٤٣).

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكيَّةٌ، وآيُها عشرٌ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ سبقَ بَيانُه في الحاقَّةِ.

(٤) ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ في كَثْرَتِهم وذِلَّتِهم وانتِشَارِهِم واضطِرَابِهم، وانتصابُ ﴿يَوْمَ﴾ بمُضْمَرٍ دلَّتْ عليهِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٥) ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾: كالصُّوفِ ذي الألوانِ ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: المَنْدُوفِ؛ لتفرُّقِ أَجزائِها وتطايُرِها في الجوِّ.

(٦ ـ ٧) ـ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأَنْ تَرجَّحَتْ مَقاديرُ أَنْواعِ حَسَناتِهِ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ﴾: في عيشٍ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: ذاتِ رِضًا، أي: مَرضيَّةٍ[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «مكية وهي عشر آيات»، وفي نسخة الطبلاوي: «وآيها عشر آيات». قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٨٥): هي ثمان آيات في البصري والشامي وعشر في المدنيين والمكي وإحدى عشرة في الكوفي.

(٢) قال الشهاب: قوله: «ذات رضا» على أنها للنسب كلابن وتامر فلذا فسرها بقوله: «أي مرضية» لأنّ المرضية ذاتُ رضاً، وفي نسخة: «أو مرضية» فهو إشارة إلى أنه إسناد مجازي أو استعارة مكنية وتخييلية كما قرِّر في كتب المعاني، أو هي بمعنى المفعول على التجوُّز في الكلمة نفسها.

(٨) ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأَنْ لَمْ يَكُن لهُ حسنَةٌ يُعبأُ بها، أو ترجَّحَتْ سَيِّئاتُه على حسناتِه.

(٩ ـ ١١) ـ ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾: فمأواه النَّارُ، والهاوِيَةُ مِن أَسمائِها، ولذلك قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾: ذاتُ حَمًى.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ القارعةَ ثقَّلَ اللهُ بها مِيزانَهُ يومَ القيامَةِ»[١].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٩٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٤٦)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ مَكِّيَّة
وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك. ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها ﴿وما أدراك ما القارعة﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾، وقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد: ﴿العهن﴾ الصوف، ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة والاهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ يعني في الجنة، ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته، ﴿فأمه هاوية﴾ **قيل**: معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعبّر عنه بأمه يعني (دماغه)، قال قتادة: يهوي في النار على رأسه، **وقيل**: معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها ﴿هاوية﴾ وهي اسم من أسماء النار، قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ومأواهم النار﴾. وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾، روى ابن جرير عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: روّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا. قال: ويسألونه ما فعل فلان؟ فيقول: مات أوما جاءكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية[١]، وقوله تعالى: ﴿نار حامية﴾ أي حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»[٢]. وفي رواية: «كلهن مثل حرها». وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»[٣]. وروى الترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[٤]. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»[٥]. وفي الصحيحين: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم».

[آخر تفسير سورة القارعة. ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم بنحوه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجة.
(٥) أخرجاه في الصحيحين.

تفسير سورة القارعة

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ .

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ : من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة ، والطامة ، والصاخة ،والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال معظماً أمرها ومهولا لشأنها : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ؟ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث [١] ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧].

وقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ يعنى : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذى قد شَرَع فى الذهاب والتمزق .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ،والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك ، والسدى : ﴿الْعِهْنِ ﴾ : الصوف .

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ، بحسب أعمالهم ، فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُه ﴾ أى : رجحت حسناته على سيئاته ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يعنى : فى الجنة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه ﴾ أى : رجحت سيئاته على حسناته .

وقوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه : فهو ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم . وَعَبَّر عنه بأمه ــ يعنى [٢] دماغُه ــ رُوى نحو هذا عن ابن عباس ،وعكرمة ،وأبى صالح ، وقتادة ــ قال قتادة : يهوى فى النار على رأسه [٣] . وكذا قال أبو صالح : يهوون فى النار على رؤوسهم .

وقيل : معناه : ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وهى اسم من أسماء النار .

قال ابن جرير : وإنما قيل : للهاوية أمه ؛ لأنه لا مأوى له غيرها [٤] .

---

(١) فى أ : « منتشر » . (٢) فى م : « وهو » . (٣) فى م : « على رؤوسهم » .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/١٨٣) .

وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هى أمه ومأواه التى يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١] .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن قتادة أنه قال : هى النار ، وهى مأواهم . ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى : حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ، فيقولون : رَوِّحُوا أخاكم ، فإنه كان فى غَمّ الدنيا . قال : ويسألونه : ما فعل فلان [(١)] ؟ فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية [(٢)] .

وقد رواه ابن مَرْدَوَيْه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً ، بأبسط من هذا . وقد أوردناه فى كتاب صفة النار ، أجارنا [(٣)] الله منها بمنه وكرمه [(٤)] .

وقوله : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهيب والسعير .

قال أبو مصعب ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال: « نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فُضّلَت عليها بتسعة وستين جُزءاً » [(٥)] .

ورواه البخارى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن مالك . ورواه مسلم عن قُتيبة ، عن المغيرة ابن عبد الرحمن ، عن أبى الزّناد ، به[(٦)] . وفى بعض ألفاظه : « إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرّها » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ،حدثنا حماد ــ وهو ابن سلمة ــ عن محمد بن زياد ــ سمع [(٧)] أبا هريرة يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « نار بنى آدم التى توقدون ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقال رجل : إن كانت لكافية . فقال : « لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حَراً فحرا » [(٨)] .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم .

---

(١) فى م ، أ : « بفلان » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٨٢) .

(٣) فى أ : « أعاذنا » .

(٤) قال السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٦٠٦) : « وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه: ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة؟ فإن كان مات ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية بئست الأم وبئست المربية حتى يقولوا : ما فعل فلان هل تزوج ؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ فيقولون : دعوه فيستريح فقد خرج من كرب الدنيا » .

(٥) الموطأ برواية الزهرى برقم (٢٠٩٨) وهو فى رواية يحيى (٢/ ٩٩٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٧) فى م ، أ : « سمعت » .

(٨) المسند (٢/ ٤٦٧) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا سفيان ، عن أبي الزياد [١] ، عن الأعرج ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي ﷺ ـ وعمرو ، عن يحيى بن جَعْدة ـ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت [٢] بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» [٣] .

وهذا على شرط الصحة [٤] ، ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم فى صحيحه من طريق [ابن أبى الزناد] [٥] [٦] .

ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ، وأبى سعيد الخدرى : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً » [٧] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا [٨] عبد العزيز ـ هو ابن محمد الدراوردى ـ عن سُهَيل عن أبيه ،عن أبى هُريرة ،عن النبى ﷺ قال : « هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » [٩] .

تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم أيضا .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنا مَعْن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عَمّه أبى سُهَيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » [١٠].

وقد رواه أبو مصعب ، عن مالك ، ولم يرفعه . وروى الترمذى وابن ماجة ، عن عباس الدَّورىّ ، عن يحيى ابن أبى بُكَيْر : حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة » [١١] .

وقد روى هذا من حديث أنس [١٢] وعمر بن الخطاب .

(١) فى أ : « عن أبى الزناد » . (٢) فى أ : « وضرمت » .
(٣) المسند (٢/ ٢٤٤) .
(٤) فى م ، أ : « على شرط الصحيحين » . (٥) زيادة من م .
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .
(٧) أما حديث ابن مسعود ، فهو فى مسند البزار برقم (١٨٦٤) من طريق عبيد بن إسحاق ، عن زهير ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو ابن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه ، وقال البزار : « هكذا رواه زهير ولا نعلم رواه عن زهير إلا عبيد بن إسحاق . ورواه عمرو بن ثابت ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو الأصم ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ نحوه ، ورواه غير عمرو ابن ثابت ، عن أبى إسحاق ، عمرو الأصم ، عن عبد الله موقوفاً » . وأما حديث أبى سعيد ، فقد رواه أيضاً الترمذى فى السنن برقم (٢٥٩٠) من طريق فراس ، عن عطية ، عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ وقال الترمذى : «هذا حديث حسن غريب » .
(٨) فى أ : « بن » .
(٩) المسند (٢/ ٣٧٩) .
(١٠) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٣) « مجمع البحرين » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٧) : « رجاله رجال الصحيح » .
(١١) سنن الترمذى برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذى : « حديث أبى هريرة فى هذا موقوف أصح ، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن بكير عن شريك » .
(١٢) حديث أنس رواه ابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً ، وقد تقدم عند تفسير الآية : ٨١ من سورة التوبة .

وجاء فى الحديث ــ عند الإمام أحمد ــ من طريق أبى عثمان النَّهدى ، عن أنس ــ وأبى نضرة العَبْدىّ ، عن أبى سعيد وعَجْلان مولى المُشْمَعّل ، عن أبى هريرة ــ عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلى منهما دماغه » (١) .

وثبت فى الصحيح (٢) أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنَفَسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف . فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرها » (٣) .

وفى الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فَيح جَهَنم » (٤) .

آخر تفسير سورة « القارعة »

(١) حديث أبى سعيد فى المسند (٣/١٣) وحديث أبى هريرة فى المسند (٢/٤٣٢) .

(٢) فى م : « فى الصحيحين » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٣٣) وصحيح مسلم برقم (٦١٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

سورة القارِعة

مكّيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ القرع هو الضرب بشدّة واعتمادٍ بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق كما مرّ في سورة التكوير،[2] سُمّيت بها لأنّها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال، وتُخرج جميع الأجرام العُلويّة والسفليّة مِن حال إلى حال: السماءَ بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض والجبال بالدكّ والنسف.

وهي مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبر و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ، لا بالعكس لِما مرّ غيرَ مرة أنّ محطّ الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريبَ في أنّ مدار إفادةِ الهَول والفخامة ههنا هو كلمة ﴿مَا﴾، لا ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أي: أيّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، وقد وُضِع الظاهر موضعَ الضمير تأكيدًا للتهويل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تأكيد لهَولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، على معنى أنّ عِظَم شأنها ومدى شدّتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتّى يُدريك بها، وما في حيّز الرفع على الابتداء، و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ هو الخبر، ولا سبيلَ إلى العكس ههنا.

---

[1] س: وهي ثمان آيات.

[2] في تفسير الآية الرابعة عشرة منها.

[٣١٦ظ] و﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ جملة كما مرّ محلُّها النصب على نزع الخافض؛ / لأنّ "أدرى" يتعدّى إلى المفعول الثاني بـ"الباء"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٦]، فلمّا وقعت الجملة الاستفهاميّة معلَّقةً له كانت في موقع المفعول الثاني له، والجملة الكبيرة[١] معطوفة على ما قبلها مِن الجملة الواقعة خبرًا للمبتدأ الأول، أي: وأيُّ شيء أعلمكَ ما شأن القارعة؟

ولمّا كان هذا منبِئًا عن الوعد الكريم بإعلامها أُنجِز ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، على أنّ ﴿يَوْمَ﴾ مرفوعٌ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وحركته الفتح لإضافته إلى الفعل، وإن كان مضارعًا كما هو رأي الكوفيّين،[٢] أي: هي يومٌ يكون الناس فيه كالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار والضعف والذلّة والاضطراب والتطايُر إلى الداعي كتطاير الفراش إلى النار، أو منصوبٌ[٣] بإضمار "اذكُرْ"، كأنّه قيل: بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه السلام إلى معرفتها: اذكُرْ يومَ يكون الناس... إلخ، فإنّه يُدريك ما هي.

هذا وقد قيل: إنّه ظرف، ناصبُه مضمر يدلّ عليه ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أي: تقرع يوم يكون... إلخ.[٤] وقيل: تقديره ستأتيكم القارعة يوم يكون... إلخ.[٥]

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: كالصوف المُلوَّن بالألوان المختلفة المندوف في تفرّق أجزائها وتطايرها في الجوّ حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٢٧/٨٨]، وكلا الأمرين مِن آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حَشْر الخلق، يبدِّل الله عزّ وجلّ الأرض غيرَ الأرض، ويغيِّر هيئاتها، ويسيِّر الجبال عن مقارّها، على ما ذُكر مِن الهيئة الهائلة، ليُشاهدها أهل المحشَر، وهي وإن اندكّت وتصدّعت عند النفخة الأولى لكنّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا

---

[١] س: الكبير.
[٢] انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ١/٢٤٩.
[٣] السياق: مرفوعٌ... أو منصوبٌ...
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩٧.
[٥] القول في اللباب لابنْ عادل، ٢٠/٤٧٠.

وَلَآ أَمۡتٗا ۝ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٥-١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٨]، فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيلُ عليه السلام وبروزَ الخَلْق لله سبحانه لا يكون إلّا بعد البعث قطعًا، وقد مرّ تمام الكلام في سورة النمل.[١]

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾... إلخ بيانٌ إجمالي لتحزّب الناس إلى حزبين، وتنبيهٌ على كيفيّة الأحوال الخاصّة بكلّ منهما إثرَ بيان الأحوال الشاملة للكلّ. والموازين: إمّا جمع المَوزون، وهو العمل الذي له وزنٌ وخَطَر عند الله تعالى،[٢] كما قاله الفرّاء،[٣] أو جمع "مِيزان"، قال ابن عبّاس: إنّه ميزان له لسان وكفّتان، لا يوزن فيه إلّا الأعمال.[٤] قالوا: تُوضَع فيه صحائف الأعمال، فينظر إليه الخلائق إظهارًا للمعدلة، وقطعًا للمعذرة. وقيل: الوزن عبارة عن القضاء السويّ، والحكم العادل، وبه قال مجاهدٌ والأعمشُ والضحّاك، واختاره كثير مِن المتأخِّرين.[٥]

قالوا: إنّ المِيزان لا يتوصّل به إلّا إلى معرفة مقادير الأجسام، فكيف يمكن أن يُعرَف به مقاديرُ الأعمال التي هي أعراض متقضِّية. وقيل: إن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرَضيّة تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهريّة مناسبة لها في الحُسن والقبح،[٦] وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه يُؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيّئة على صور قبيحة،

---

١ في تفسير الآية الثامنة والثمانين منها.
٢ س - تعالى.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٤٧٢؛ ولم أقف عليه في معاني القرآن.
٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٠/٦٩ (الأعراف، ٨/٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١/٤٤٧ (٢٧٧)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٣٥٠ (الأعراف، ٨/٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٢١٤ (الأعراف، ٨/٧).
٥ الكلام بلفظ جدّ قريب في تفسير الرازي، ١٤/٢٠٢ (الأعراف، ٨/٧)؛ ونقله عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٦/٣٣٠ (الأعراف، ٨/٧).
٦ الكلام بمعناه في تفسير الرازي، ١٤/٢٠٢ (الأعراف، ٨/٧).

فتُوضَع في المِيزان،[١] أي: فمَن ترجّحت مقادير حسناته ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضًى، أو مرضيّة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن لم يكن لها حسنة يُعتدّ بها، أو ترجَّحت سيّئاته على حسناته ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: فمأواه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ هي مِن أسماء النار، سُمّيت بها لغاية عُمقها وبُعد مهواها.[٢] رُوي أنّ أهل النار يهوي فيها سبعين خريفًا.[٣]

[٣١٧ظ] / وقيل: إنّها اسم للباب الأسفل منها، وعُبِّر عن المأوى بـ"الأمّ"؛ لأنّ أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمّه. وعن قتادةَ وعكرمةَ والكلبيّ أنّ المعنى: فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنّم؛ لأنّه يُطرَح فيها منكوسًا.[٤]

والأوّل هو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ فإنّه تقرير لها بعد إبهامها. والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل، وهي ضمير الهاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها. وقيل: حقّه ألّا يدرج لئلّا يُسقطها الإدراج؛ لأنّها ثابتة في المصحف، وقد أُجيزَ إثباتها مع الوصل.[٥]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القارعة ثقّل الله تعالى بها ميزانه[٦] يوم القيامة».[٧]

---

١ لم أجِده في مظانّه. وهو في تفسير الرازي، ٢٠٢/١٤ (الأعراف، ٨/٧).

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٤٩/١٢ (٧٢١٥)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٤)؛ وسنن الترمذي، ٥٥٧/٤ (٢٣١٤).

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٩٦/٢٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٦٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥١٤/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

٦ م س: ميزانها ["صح" في هامش م].

٧ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٤/٣٠ (القارعة، ١/١٠١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٦/٤ (القارعة، ١/١٠١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠١

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكية، إحدى عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿القارِعةُ﴾ أي: القِيامةُ التي تقرع القُلوب بأهوالها، ٢ ـ ﴿ما القارِعةُ﴾؟ تهويلٌ لشأنها. وهما مُبتدأ وخبرٌ: خبرُ القارعة. ٣ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلمَكَ: ﴿ما القارِعةُ﴾؟ زيادةُ تهويل لها. و«ما» الأُولى: مبتدأ وما بعدها خبره، و«ما» الثانية وخبرها: في محلّ المفعول الثاني لـ «أدرى».

٤ ـ ﴿يَومَ﴾: ناصبُه دلّ عليه «القارعةُ» أي: تَقرعُ، ﴿يَكُونُ النّاسُ كالفَراشِ المَبثُوثِ﴾: كغَوغاء الجراد المُنتشر يموج بعضهم في بعض للحَيرة إلى أن يُدعَوا للحِساب، ٥ ـ ﴿وتَكُونُ الجِبالُ كالعِهنِ المَنفُوشِ﴾: كالصوف المندوف في خِفّة سيرها حتّى تستوي مع الأرض:........................

سُورَةُ القَارِعَةِ

قولُهُ: (و﴿مَا﴾ الأُولَى) سبقَ بيانُهُ في الحاقَّةِ[1].

قولُهُ: (كَغَوغَاءِ الجَرَادِ) الغَوغاءُ: الجَرادُ بعد أن ينبُتَ شعرُهُ[2]، يعني: في كثرَتِهِم وذِلَّتِهِم وانتشارِهِم واضطِرابِهِم.

قولُهُ: (كالصُّوفِ) ذي الألوانِ.

قولُهُ: (المَندُوفِ) لتفرُّقِ أجزائِها، وتطايُرِها في الجوِّ.

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة: ٣].

(٢) الصواب: ينبت جناحه، انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٨٦)، و«تاج العروس» (٢٢/ ٥٤١).

٦ ـ ﴿فأمّا مَن ثَقُلَتْ موازِينُهُ﴾ بأن رَجَحتْ حسناته على سيّئاته ٧ ـ ﴿فهُوَ في عِيشةٍ راضِيةٍ﴾ في الجنّة، أي: ذاتِ رِضًا بأن يرضاها أو مَرْضيّةٍ له، ٨ ـ ﴿وأمّا مَن خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ بأن رَجَحت سيّئاته على حسناته ٩ ـ ١٠ ـ ﴿فأُمُّهُ﴾: فمَسكنُه ﴿هاوِيةٌ. وما أدراكَ: ماهِيَهْ﴾ أي: ما هاوية؟ ١١ ـ هي ﴿نارٌ حامِيةٌ﴾: شديدة الحرارة. وهاء «هِيه» للسكت تثبتُ وصلاً ووقفًا، وفي قِراءةٍ تُحذف وصلاً.

قولُهُ: (حَسنَاتُهُ) أي: مقاديرُ أنواعِ حسناتِهِ.

قولُهُ: (أي: ذَاتِ رِضَىً) فاعِلَةٍ للنِّسبَة.

قولهُ: (أي: مَرضِيَّةٍ) الظَّاهرُ: أو، فاعِلةٍ بمعنى: مفعولِةٍ.

قولُهُ: (بأَن رَجَحَت) أو لم يكُنْ له حسَنةٌ يُعبَأ بها.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزَةَ[1]، والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٤٥).

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكيةٌ بلا خلاف. وآيُها إحدى عَشْرةَ آيةً في الكوفي، وعشرةٌ في الحجازي، وثمانٍ في البصريِّ والشاميِّ[1]. ومناسبتها لِمَا قبلها أظهر من أن تذكر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ الجمهور على أنَّها القيامة نفسُها، ومبدؤُها النفخة الأولى، ومنتهاها فصلُ القضاء بين الخلائق.

وقيل: صوتُ النفخة.

وقال الضحاك: هي النار ذات التغيُّظ والزَّفير. وليس بشيء.

وأيًّاما كان فهي من القَرْع، وهو الضرب بشدَّة بحيث يحصل منه صوتٌ شديدٌ. وقد تقدَّم الكلامُ فيها، وكذا ما يُعلم منه إعراب ما ذكر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2] [الحاقة: ١-٣].

وقرأ عيسى: «القارعةَ» بالنصب. وخُرِّج على أنه بإضمار فعلٍ، أي: اذكر القارعةَ[3].

---

(١) في هامش الأصل: اختلافها ثلاث: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ الأولى كوفي. ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ و﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ كلتاهما حجازي كوفي. كذا في «المجمع». اهـ. وهو في مجمع البيان ٢١٦/٣٠.

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير هذه الآيات.

(٣) البحر ٥٠٦/٨.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ قيل أيضاً: منصوبٌ بإضمار: اذكر، كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها: اذْكُر يومَ يكون الناس.. إلخ، فإنَّه يُدريك ما هي.

وقال الزمخشريُّ: ظرفٌ لمضمَر دلَّت عليه «القارعة»، أي: تَقْرَع يوم[1].

وقال الحوفي: ظرفُ «تَأتِي» مقدَّراً[2]. وبعضهم قدَّر هذا الفعل مقدَّماً على «القارعة»، وجَعَلها فاعلاً له أيضاً.

وقال ابن عطية: ظرفٌ لـ «القارعة» نفسها من غير تقديرٍ[3]. ولم يبيِّن أيَّ القوارع أراد. وتعقَّبه أبو حيان بأنه إن أراد اللفظَ الأول ورد عليه الفصلُ بين العامل - وهو في صلة «أل» - والمعمول بالخبر، وهو لا يجوز، وإن أراد الثاني أو الثالثَ فلا يلتئم معنى الظرف معه[4]. ولذا لا يجوز التعلُّق بـ «القارعة» إذا كانت عَلَماً للقيامة.

وقال بعض الأجلة[5]: إذا تعلَّق بالثاني وقيل ما بينهما اعتراض لم يمنع منه مانع، ودعوى عدمِ الالتئام غيرُ مسلَّمة. وكأنه لم يعتبر العلَّمية.

وقال في «الإرشاد»[6]: هو مرفوعٌ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، والفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين، أي: هي يوم يكون.. إلخ[7]. وأيِّد بقراءة زيد بن علي: «يومُ» بالرفع على ذلك[8]، وقدّر بعضهم المبتدأ: وَقْتُها.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٧٩.
(٢) البحر ٨/ ٥٠٦.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥١٦.
(٤) البحر ٨/ ٥٠٦.
(٥) القائل هو الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٩٣.
(٦) ٩/ ١٩٣.
(٧) الكلام من: ولذا لا يجوز التعلق... إلى هنا، ساقط من (م).
(٨) البحر ٨/ ٥٠٦.

و«الفَراش» قال في «الصحاح»: جمعُ فَراشة؛ التي تطير وتَهافَتُ في النار[١]. وهو المرويُّ عن قتادة[٢].

وقيل: هو طيرٌ رقيقٌ يقصد النارَ ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق.

وقال الفراء: هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب بعضُه بعضاً من الهَوْل[٣].

وقال صاحب «التأويلات»: اختلفوا في تأويله على وجوه، لكن كلُّها ترجع إلى معنًى واحدٍ، وهو الإشارة إلى الحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم[٤].

واختار غير واحد ما روي عن قتادة، وقالوا: شُبِّهوا في الكثرة والانتشار والضَّعف والذِّلة، والمجيء والذهابِ على غير نظام، والتطايُرِ إلى الداعي من كلِّ جهة حين يدعوهم إلى المحشر، بالفراش المتفرِّق المتطاير؛ قال جرير[٥]:

إنَّ الفرزدقَ ما علمتَ وقومَه ... مثلُ الفَرَاش غَشِين نارَ المُصْطَلي

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: الصوفِ مطلقاً، أو المصبوغِ كما قيَّده الراغب به[٦]، وقد تقدَّم الكلام فيه في «المعارج»[٧]. و«كان» بمعنى: صار، أي: وتَصِير جميعُ الجبال كالعِهْن ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ المفرَّق بالأصبع ونحوها في تفرُّق أجزائها وتطايُرِها في الجوِّ حسبما ينطق به غير آية.

---

(١) الصحاح (فرش).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٩٣.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٧٦.
(٤) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥١١.
(٥) البيت في الكشاف ٤/ ٢٧٩، والبحر ٨/ ٥٠٦، والدر المصون ١١/ ٩٥، وفتح الباري ٨/ ٧٢٨، وهو في ديوان جرير ص٩٢٣، والشطر الأول فيه برواية: أزرى بحلمكم الفِياش فأنتم. والفِياش: بالكسر: الرخاوة والضَّعف. تاج العروس (فيش).
(٦) في المفردات (عهن).
(٧) عند تفسير الآية (٩).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ إلى آخره بيانٌ إجماليٌّ لتحزُّبِ الناس حزبَين، وتنبيهٌ على كيفية الأحوال الخاصَّة بكلٍّ منهما إثرَ بيان الأحوال الشاملة للكلِّ. وهذا إشارةٌ إلى وزن الأعمال، وهو مما يجب الإيمان به حقيقةً ولا يكفَّر منكره، ويكون بعد تطايُر الصُّحُف وأخذِها بالأيمان والشمائل وبعد السؤال والحساب ـ كما ذكره الواحديُّ وغيره، وجزم به صاحب «كنز الأسرار» ـ بميزانٍ له لسانٌ وكفَّتان كإطباق السماوات والأرض، والله تعالى أعلم بماهيته، وقد رُوي القول به عن ابن عباس والحسن البصري[1]، وعزاه في «شرح المقاصد» لكثير من المفسرين[2]. ومكانُه بين الجنة والنار كما في «نوادر الأصول»[3]، وذَكَر: يتقبَّل به العرش[4]، يأخذ جبريل عليه السلام بعموده ناظراً إلى لسانه، وميكائيل عليه السلام أمينٌ عليه[5].

والأشهر الأصحُّ أنه ميزانٌ واحد كما ذكرنا لجميع الأمم ولجميع الأعمال، فقوله تعالى: (مَوَٰزِينُهُۥ) ـ وهو جمعُ ميزان، وأصله: مِوْزَان بالواو لكن قُلبت ياءً لسكونها وانكسارِ ما قبلها ـ قيل: للتعظيم، كالجمع في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] في وجهٍ، أو باعتبارِ أجزائه نحو: شابت مفارقه. أو باعتبار تعدُّد الأفراد للتغايُر الاعتباريِّ كما قيل في قوله:

لَمَعَانُ بَرقٍ أو شعاعُ شُمُوسِ[6]

وقيل: لكلِّ أمة ميزانٌ.

وقيل: لكلِّ مكلَّفٍ ميزان.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٨، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٢٣.
(٢) شرح المقاصد للتفتازاني ٥/ ١٢١.
(٣) لم نقف عليه في مطبوع نوادر الأصول.
(٤) أي: يجعل تجاه العرش، كما ورد ١٧/ ١١٣.
(٥) ينظر في صفة الميزان ما سلف عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف، وقال ابن حزم في الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٦٥: وأمور الآخرة لا تعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ. ولم يأت عنه عليه السلام شيء يصحُّ في صفة الميزان.
(٦) وصدره: حمي الحديد عليهم فكأنهم، والبيت للأشتر النخعي، وسلف ١٩/ ٩٣.

وقيل: لكلٍّ موازينُ بعدد أنواع حسناته وأنواع سيئاته. وما هنا ظاهر في ذلك.

وهل هو موجود اليوم أو لا؟ توقَّفَ بعضهم، وبعضُ الأخبار ظاهرٌ في الأول.

وتوزن كتبُ الأعمال على ما ذهب إليه أبو المعالي[١] وجمهور المفسرين، ويؤيِّده حديثُ البطاقة والسجلات[٢]. وزعم الرازي على ما نُقل عنه أنَّ فيه حديثاً مرفوعاً[٣].

وقال آخرون: يوزن نفس الأعمال، فتصوَّر الصالحة بصورٍ حسنةٍ نورانيةٍ ثم تُطرح في كفَّة النور، وهي اليمنى المعدَّةُ للحسنات، فتثقل بفضل الله تعالى، وتصوَّر الأعمال السيئة بصُوَر قبيحة ظلمانية ثم تُطرح في كفَّة الظلمة وهي الشمال، فتخفُّ بعدل الله تعالى. وامتناع قلب الحقائق في مقام خرق العادات ممنوعٌ، أو مقيَّدٌ ببقاء آثار الحقيقة الأولى.

وقد ذهب بعضهم إلى أنَّ الله تعالى يخلق أجساماً على عدد تلك الأعمال من غير قلبٍ لها، وادَّعى أنَّ فيه أثراً.

والظاهر أنَّ الثقلَ والخفَّةَ مثلهما في الدنيا فما ثَقُل نزل إلى أسفل ثم يرتفع إلى علِّيِّين، وما خفَّ طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجِّين. وبه صرَّح القرطبيُّ[٤].

وقال بعض المتأخرين: هما على خلافِ ما في الدنيا، وإنَّ عمل المؤمن إذا رَجَحَ صَعِدَ، وثَقُلت سيئاته، وإنَّ الكافر تثقُل كفَّته لخلوِّ الأخرى من الحسنات، ثم تلا: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وفي كونه دليلاً نظرٌ.

وذكر بعضهم أنَّ صفة الوزن أن يجعل جميعُ أعمال العباد في الميزان مرة واحدة، الحسنات في كفَّة النور عن يمين العرش جهةَ الجنة، والسيئات في كفة

---

(١) في الإرشاد ص ٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤) والترمذي (٢٦٣٩) عن عبد الله بن عمرو ﵄، وسلف ٩/ ٢٤.

(٣) أورد الرازي في تفسيره ١٤/ ٣٥ حديثاً: سئل رسول الله ﷺ عما يوزن يوم القيامة؟ فقال: «الصحف». اهـ. ولم نقف عليه في المصادر الحديثية.

(٤) في التذكرة ص٣١٢.

الظلمة جهةَ النار، ويخلق الله تعالى لكلِّ إنسان عِلْماً ضروريًّا يُدرك به خفةَ أعماله وثقلَها.

وقيل نحوه، إلا أنَّ علامةَ الرجحان عمودٌ من نورٍ يَثُور من كفَّة الحسنات حتى يكسو كفَّة السيئات، وعلامة الخفَّة عمودُ ظلمةٍ يثور من كفة السيئات حتى يكسو كفَّةَ الحسنات.

فالكيفياتُ أربعٌ، وستظهر حقيقة الحال بالعيان.

وهو، قال القرطبي[١]: لا يكون في حقِّ كلِّ أحد لِمَا في الحديث الصحيح فيقال: «يا محمد، أَدْخِل الجنةَ مِن أمتك مَن لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن» الحديث[٢]، وأحرى الأنبياء عليهم السلام، وقولِه سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] وإنما يبقى الوزن لمن شاء الله تعالى من الفريقين.

وذكر القاضي منذر بن سعيد البلوطي أنَّ أهل الصبر لا توزن أعمالُهم، وإنما يصبُّ لهم الأجر صبًّا[٣].

وذهب بعضهم إلى أنَّ أعمالَ الكفار لا توزن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٤] [الفرقان: ٢٣]، والظاهر أنه يُدرَج المنافق في الكافر.

والحقُّ أنَّ أعمالهم مطلقاً توزن؛ لظواهر الآيات والأحاديث الكثيرة، والمراد في الآية الأولى: وزناً نافعاً، وفي الثانية: فجعلناه كالهباء في عدم النفع أصلاً، أو المخلص من الخلود في النار[٥].

---

(١) في التذكرة ص٢٦٣، وقوله: وهو، أي: الوزن.
(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) ينظر ما سلف ١٧/ ١١٥.
(٤) الكلام من: وذهب بعضهم... إلى هنا ساقط من (م).
(٥) الكلام من: وفي الثانية... إلى هنا ساقط من (م).

والصحيح أنَّ الجنَّ مؤمنهم وكافرهم كالإنس في هذا الشأن، كما قُرِّر في محلِّه، والتقسيم فيما نحن فيه على ما سمعتَ عن القرطبي بالنسبة إلى مَن توزن أعمالُه، لا بالنسبة إلى الناس مطلقاً.

وأنكر المعتزلة الوزنَ حقيقةً وجماعةٌ من أهل السنة والجماعة، منهم مجاهد والضحاك والأعمش قالوا: إنَّ الأعمال أعراضٌ، إن أمكن بقاؤُها لا يمكن وزنُها، فالوزن عبارةٌ عن القضاء السويِّ والحكم العادل. وجوَّزوا فيما هنا أن تكون الموازين جمعَ مَوْزون، وهو العمل الذي له وزنٌ وخَطرٌ عند الله تعالى، وأنَّ معنى ثقلها رجحانُها[١]. ورُوي هذا عن الفراء، أي: فمن ترجَّحت مقادير حسناته ورُتَبُها ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ المشهور جَعْلُ ذلك من باب النَّسب، أي: ذات رضاً، وجوِّز أن تكون «راضية» بمعنى المفعول، أي: مَرْضِيَّة، على التجوُّز في الكلمة نفسها، وأن يكون الإسناد مجازيًّا، وهو حقيقةٌ إلى صاحب العِيْشة. وجوِّز أن يكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ وتخييليةٌ على ما قرِّر في كتب المعاني.

لكن ذَكَر بعض الأجلَّة هاهنا كلاماً نفيساً[٢]، وهو أنَّ ما كان للنسب يؤوَّل بذي كذا، فلا يؤنَّث؛ لأنه لم يَجْر على موصوفٍ فأُلحِق بالجوامد، ونَقَل عن السيرافي أنَّه قال: [إنه] يقدَح فيما علَّلوا به [عدم] سقوط الهاء في «عيشة راضية»، وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى أنها رَضِيَتْ أهلَها[٣]، فهي ملازِمةٌ لهم راضيةٌ بهم. والآخر: أن تكون الهاء للمبالغة كعلَّامة وراوية. ووجِّه بأنَّ الهاء لزمت لئلا تسقُط الياء فيخلّ بالبِنية، كناقةٍ مُسْلية[٤]، وكلبة مُجرِيةٍ[٥]، وهم يقولون: ظبيةٌ مُطفِلٌ ومُشْدِنٌ[٦]،

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٧، وتفسير الرازي ٣٢/ ٧٣.
(٢) هو الشهاب في حاشية البيضاوي ٨/ ٣٩٣ وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٣) في (م): راضية أهلها، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.
(٤) في الأصل و(م): مشلية. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٣.
(٥) كتبت فوقها في الأصل: ذات جَرْو.
(٦) في الأصل و(م): ومشدان، وهو خطأ، والمثبت من حاشية الشهاب، وظبية مُشْدِن، أي: شَدَن ولدها، أي: قوي وطلع قرناه، واستغنى عن أمه، والمطفِل: هي الظبية مع طفلها وهي قريبة عهد بالنتاج، وكذلك الناقة. الصحاح (شدن) و(طفل).

وبابُ مِفعَل ومِفعَال لا يؤنَّث، وقد أدخلوا الهاءَ في بعضه كمِصَكَّة[١]. انتهى.

ثم قال[٢]: إنَّ هذا حقيقٌ بالقبول، ومحصّله: الجوابُ بوجوه:

أحدها: أنَّ «راضية» هنا[٣] ليس من باب النسب، بل هو اسم فاعل أُرِيدَ به لازمُ معناه؛ لأنَّ مَن شاء شيئاً ورضي به لازَمَه، فهو مجازٌ مرسَلٌ أو استعارةٌ، ويجوز أن يراد أنه مجازٌ في الإسناد، وما ذُكر بيانٌ لمعناه.

الثاني: أنَّ الهاء للمبالغة، ولا تختصُّ بـ «فعَّال»، ولذا مثَّل بـ «راوية» أيضاً.

والثالث: أنه يجوز إلحاقُ الهاء في المعتلِّ لحفظ البنية، و«مِصَكّة» إمَّا شاذٌّ أو لتشبيه المضاعف بالمعتلِّ[٤]. انتهى. فاحفظه فإنه نفيسٌ خلا عنه أكثرُ الكتب.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ بأن لم يكن له حسنةٌ يعتدُّ بها، أو ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: فمأواه، كما قال ابن زيد وغيره[٥] ﴿هَاوِيَةٌ﴾ أريد بها النار، كما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾، فإنَّه تقريرٌ لها بعد إبهامها، والإشعارُ بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل.

وذُكر أنَّ إطلاقَ ذلك عليها لغاية عمقها وبُعدِ مهواها؛ فقد رُوي أنَّ أهل النار تهوي فيها سبعين خريفاً[٦]. وخصَّها بعضهم بالباب الأسفل من النار.

وعبَّر عن المأوى بالأمِّ على التشبيه بها، فالأمُّ مفزع الولد ومأواه، وفيه تهكُّم به.

---

(١) جاء في هامش الأصل: من الصَّكَّة: شدة الهاجرة. اهـ منه.

(٢) القائل هو الشهاب.

(٣) في (م) زيادة: فيه.

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٨/ ٣٩٣.

(٥) أخرجه عن ابن زيد وقتادة الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٩٥-٥٩٦.

(٦) أخرج الترمذي (٢٣١٤)، وابن حبان (٥٧٠٦) عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة ما يرى بها بأساً، يَهْوِي بها في النار سبعين خَريفاً».

وقيل: شبَّه النارَ بالأمِّ في أنها تُحيط به إحاطة رَحِم الولد بالأمِّ[١].

وعن قتادة وأبي صالح وعكرمة والكلبي وغيرهم: المعنى: فأمُّ رأسِه هاويةٌ في قعر جهنم؛ لأنه يُطرَح فيها منكوساً.

وفي رواية أخرى عن قتادة: هو من قولهم إذا دَعَوا على الرجل بالهلَكَة: هوت أمُّه؛ لأنه إذا هوى ـ أي: سقط وهلك ـ فقد هَوت أمُّه ثكلاً وحُزْناً[٢]، ومن ذلك قولُ كعب بن سعد الغنوي[٣]:

هوت أمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غاديا وماذا يردُّ الَّليلُ حينَ يَؤُوبُ[٤]

وفي «الكشف»: إنَّ هذا أحسن؛ ليطابق قولَه سبحانه: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وما فيه من المبالغة. وقال الطيبي: إنه الأظهر. وللبحث فيه مجال، والضمير أعني «هي» عليه للداهية التي دلَّ عليها الكلام، وعلى ما قدَّمنا لـ «هاوية»، وعلى الوجه الثاني لِمَا يُشعر به الكلام، كأنه قيل: فأمُّ رأسه هاويةٌ في نار، وما أدراك ما هيه.. إلخ.

والهاء الملحَقة في «هِيَه» هاء السكت، وحَذَفَها في الوصل ابن أبي إسحاق والأعمش وحمزة[٥]، وأثبتها الجمهور.

ورفع «نارٌ» على أنَّها خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي نار. و«حامية» نعتٌ لها،

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: إحاطة رحم الأم بالولد.

(٢) البحر ٨/ ٥٠٧ دون نسبة، ومثله في تفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٥، وزاد المسير ٩/ ٢١٥ عن قتادة.

(٣) في هامش الأصل: يرثي أخاه أبا المغوار.

(٤) البيت في الأصمعيات ص ٩٥، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٠٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٨١، والصحاح (هوى)، وأمالي القالي ٢/ ١٥٠، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٥٤، والكشاف ٤/ ٢٨٠، والبحر ٨/ ٥٠٧، والخزانة ١٠/ ٤٣٥. قوله: ما يبعث الصبح. . .، يريد أن هذين الوقتين يجدِّدان ذكره، ويثيران الحزن عليه، لأن الصباح وقت الغارة، والليل وقت طروق الضِّيفان. سمط اللآلي للبكري ٢/ ٧٧٣.

(٥) التيسير ص٢٢٥ عن حمزة، والكلام من البحر ٨/ ٥٠٧.

وهو من الحَمْي: اشتداد الحرِّ؛ قال في «القاموس»[١]: حَمِي الشمسُ والنارُ حَمْياً وحُمِيًّا وحُمُوًّا: اشتدَّ حرُّهما.

وجعله بعضهم ـ على ما قيل ـ من: حَميتُ القِدْرَ فهي مَحْمِيَّةٌ، ففسَّره بـ: ذات حَمْيٍ، وهو كما ترى.

وقرأ طلحة: «فإمُّه» بكسر الهمزة[٢]، قال ابن خالويه: وحكى ابن دريد أنها لغة، وأما النحويون فيقولون: لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدَّمها كسرةٌ أو ياءٌ[٣].

والله تعالى أعلم.

(١) مادة (حمي).
(٢) المحرر الوجيز ٥/٥١٧، والبحر ٨/٥٠٧.
(٣) نقله عن ابن خالويه في البحر ٨/٥٠٧.

(١٠٢) سورة التكاثر مكية وآياتها ثمان

سورة التكاثر مكية ، وهي تتحدث عن انشغال الناس بالدنيا وشهواتها عن طاعة الله ، وعن تكالبهم على جمع حطام الحياة ، حتى يبغتهم الموتُ ويقطع عليهم متعتهم ، وينقلهم من القصور إلى القبور ، وقد تكرر الزجر والتهديد في هذه السورة الكريمة «كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون» لبيان خطأ الناس في اشتغالهم بالفانية عن الباقية ، ونسيانهم لما أمامهم من المخاطر والأهوال ، التي لا يجوزها ولا ينجو منها إلاَّ من قدَّم صالح الأعمال .

سورة التكاثر

[١٠٣٣] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان ومثل فلان يشيرون إلى القبور وتقول الأخرى مثل ذلك فأنزل الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[١].

[١٠٣٤] ك.. وأخرج ابن جرير عن علي قال كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ إلى ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ في عذاب القبر[٢].

* * *

[١٠٣٣] (١) سورة التكاثر: الآية (١و٢).

[١٠٣٤] (٢) سورة التكاثر: الآية (١و٤).

سورة التكاثر

ثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الإلهاء: الصرف إلى اللهو. واللهو: الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي الإعراض عن غيره، فلهذا قال أهل اللغة: ألهاني فلان عن كذا أي أنساني وشغلني، ومنه الحديث: «أَنَّ الزُّبَيْرَ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ لَهَى عَنْ حَدِيثِهِ» أي تركه وأعرض عنه، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه. والتكاثر: التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب، يقال: تكاثر القوم تكاثرًا إذا تعادلوا ما لهم من كثرة المناقب، وقال أبو مسلم: التكاثر تفاعل عن الكثرة، والتفاعل يقع على أحد وجوه، ثلاثة: يحتمل أن يكون بين الاثنين فيكون مفاعلة، ويحتمل تكلف الفعل، تقول: تكارهت على كذا، إذا فعلته وأنت كاره، وتقول: تباعدت عن الأمر، إذا تكلفت العمى عنه وتقول: تغافلت، ويحتمل أيضًا الفعل بنفسه كما تقول: تباعدت عن الأمر، أي بعدت عنه، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من إثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤] ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾[الحديد: ٢٠].

المسألة الثانية: اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعًا من أنواع السعادة لنفسه، وأجناس السعادة ثلاثة: فأحدها: في النفس والثانية: في البدن والثالثة: فيما يطيف بالبدن من خارج: أما التي في النفس فهي العلوم والأخلاق الفاضلة، وهما المرادان بقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الشعراء: ٨٣] وبهما ينال البقاء الأبدي والسعادة السرمدية. وأما التي في البدن فهي الصحة والجمال وهي المرتبة الثانية. وأما التي تطيف بالبدن من خارج فقسمان: أحدهما: ضروري وهو المال والجاه والآخر غير ضروري وهو الأقرباء والأصدقاء، وهذا الذي عددناه في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن، بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له.

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية، فإنه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية. إذا عرفت هذا فنقول: العاقل ينبغي أن يكون سعيه في تقديم الأهم على المهم، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات، والاشتغال به يمنع الإنسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل، فيكون ذلك ترجيحًا لأخس المراتب في السعادات على أشرف المراتب فيها، وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق؛ فلهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ يحتمل أن يكون إخبارًا عنهم، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى التوبيخ والتقريع، أي أألهاكم، كما قرئ (أنذرتهم) و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، و(إذا كنا عظامًا) و﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

المسألة الرابعة: الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم، والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم، ومن ذلك ما روي من تفاخر العباس بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال علي عليه السلام: وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلمتم. فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] الآية وذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] أنه يجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة هو المحمود، وهو أصل الخيرات، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق، بل للمعهود السابق، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته، ولما كان ذلك مقررًا في العقول ومتفقًا عليه في الأديان، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه.

المسألة الخامسة: في تفسير الآية وجوه: **أحدها:** ألهاكم التكاثر بالعدد، روي أنها نزلت في بني سهم وبني عبد مناف، تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم: عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم. ففعلوا فزاد بنو سهم، فنزلت الآية، وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يدل على أنه أمر مضى، فكأنه تعالى يُعَجبهم من أنفسهم، ويقول: هب أنكم أكثر منهم عددًا فماذا ينفع؟! والزيارة إتيان الموضع، وذلك يكون لأغراض كثيرة، وأهمها وأولاها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا، فإن مشاهدة القبور تورث ذلك، على ما قال عليه السلام: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلاَ فَزُورُوهَا فَإِنَّ فِي زِيَارَتِهَا تَذْكِرَةً**»(١) ثم إنكم زرتم القبور بسبب قساوة القلب والاستغراق في

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الجنائز) باب (استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه) (٢/ ٦٧٢/ ١٠٧)=

حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية، لا جرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب.

والقول الثاني: أن المراد هو التكاثر بالمال: واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه، أنه عليه السلام كان يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ وقال ابن آدم يقول: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، والمراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى متم، وزيارة القبر عبارة عن الموت، يقال لمن مات: زار قبره وزار رمسه، قال جرير للأخطل:

زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ فَأَصْبَحَ أَلْأَمَ زُوَّارِهَا[(١)]

أي مات فيكون معنى الآية: ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت، وأنتم على ذلك. يقال: حَمْله على هذا الوجه مشكل من وجهين: **الأول:** أن الزائر هو الذي يزور ساعة ثم ينصرف، والميت يبقى في قبره، فكيف يقال: إنه زار القبر؟ **والثاني:** أن قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إخبار عن الماضي، فكيف يحمل على المستقبل؟ **والجواب عن السؤال الأول:** أنه قد يمكث الزائر، لكن لا بد له من الرحيل، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب.

والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: أحدها: يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفًا على الموت بسبب الكِبَر، ولذلك يقال فيه: إنه على شفير القبر. **وثانيها:** أن الخبر عمن تقدمهم وعظًا لهم، فهو كالخبر عنهم؛ لأنهم كانوا على طريقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٢١] **وثالثها:** قال أبو مسلم: إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرًا للكفار، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور.

القول الثالث: ألهاكم الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت، ثم تقول في تلك الحالة: أوصيت لأجل الزكاة بكذا، ولأجل الحج بكذا.

القول الرابع: ألهاكم التكاثر فلا تلتفتون إلى الدين، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر ألبتة إلا إذا زرتم المقابر، هكذا ينبغي أن تكون حالكم، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار. ونظيره قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] أي لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر.

المسألة السادسة: أنه تعالى لم يقل: ألهاكم التكاثر عن كذا، وإنما لم يذكره لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع، أي: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر، أو نقول:

=وأبو داود في كتاب (الجنائز) باب (في زيارة النساء القبور) (٣/ ١٤٠٧) حديث رقم (٣٢٣٥) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (زيارة القبور) (٤/ ٣٩٤) حديث رقم (٢٠٣١) من طريق محارب بن دثار . . . به.

(١) تقدمت ترجمة جرير والأخطل.

إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى: ألهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى ألهاكم التكاثر فنسيتم القبر حتى زرتموه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده، أما الأول، فعلى وجه الرد والتكذيب، أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأولاد. وأما اتصاله بما بعده، فعلى معنى القسم، أي حقًّا سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائبًا، والكافر مسلمًا، والحريص زاهدًا، ومنه قول الحسن: لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، وتقريره: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ [عبس: ٣٤] و ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] و ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وهذا يمنعك عن التكاثر. وذكروا في التكرير وجوهًا: **أحدها:** أنه للتأكيد، وأنه وعيد بعد وعيد، كما تقول: للمنصوح: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل. **وثانيها:** أن الأول عند الموت حيث يقال له: لا بشرى، والثاني في سؤال القبر: من ربك؟ والثالث عند النشور حين ينادي المنادي: فلان شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبدًا. وحين يقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ [يس: ٥٩] **وثالثها:** عن الضحاك: سوف تعلمون أيها الكفار، ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون. وكان يقرؤها كذلك، فالأول وعيد والثاني وعد. **ورابعها:** أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق، لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها، ثم إنه تعالى يقول: سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فمهما حصلت زيادة لذة، ازداد علمًا، وكذا في جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحواس، فعند المعاينة يزداد، ثم عند البعث، ثم عند الحساب، ثم عند دخول الجنة والنار، فلذلك وقع التكرير. **وخامسها:** أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة، كما روي عن أبي ذر أنه قال: كنت أشك في عذاب القبر، حتى سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إن هذه الآية تدل على عذاب القبر. وإنما قال: ﴿ثُمَّ﴾ لأن بين العالمين والحياتين موتًا.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اتفقوا على أن جواب (لو) محذوف، وأنه ليس قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب (لو) ويدل عليه وجهان: **أحدهما:** أن ما كان جواب (لو) فنفيه إثبات وإثباته نفي، فلو كان قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جوابًا للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية، وذلك باطل، فإن هذه الرؤية واقعة قطعًا، فإن قيل: المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب في الدنيا، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا: ترك الظاهر خلاف الأصل. **والثاني:** أن قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

[التكاثر: ٨] إخبار عن أمر سيقع قطعًا، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح في النظم، واعلم أن ترك الجواب في مثل هذا المكان أحسن، يقول الرجل للرجل: لو فعلت هذا أي لكان كذا، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩] ولم يجئ له جواب وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في جواب (لو) وجوهًا: **أحدها:** قال الأخفش: لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم التكاثر. **وثانيها:** قال أبو مسلم: لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأي أمر خُلقتم لاشتغلتم به. **وثالثها:** أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل أعظم، وكأنه قال: لو علمتم علم اليقين لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه، ولكنكم ضُلال وجهلة. وأما قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وأن ما أوعدو به مما لا مدخل فيه للريب، وكرره معطوفًا بثم تغليظًا للتهديد وزيادة في التهويل.

المسألة الثانية: أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو للزجر، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر، كأنه تعالى قال: لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا، لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضررًا آخر، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضي عندهم، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع بمعنى حقًّا، كأنه قيل: حقًّا لو تعلمون علم اليقين.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ وجهان: **أحدهما:** أن معناه علمًا يقينًا فأضيف الموصوف إلى الصفة، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] وكما يقال: مسجد الجامع وعام الأول. **والثاني:** أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة، وقد سمي الموت يقينًا في قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين وزال الشك، فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة، لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله، وقد يقول الإنسان: أنا أعلم علم كذا، أي أتحققه، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب؛ لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال: علمت علم كذا.

المسألة الرابعة: العلم من أشد البواعث على العمل، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعدًا وعظة، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فحينئذٍ يكون حسرة وندامة، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات (وجد خرزا)، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز، فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر، ثم الأخذون كانوا في الغم، أي لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا، والذين لم يأخذوا كانوا أيضًا في الغم، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة.

المسألة الخامسة: في الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر، وهذا يقتضي أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلاً، له فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً ثم الويل له.

المسألة السادسة: في تكرار الرؤية وجوه: أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضًا لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك، ونون للتأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم. وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار. وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها. قيل: هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ [التكاثر: ٨] والسؤال يكون قبل الدخول. ورابعها: الرؤية الأولى للوعد والثانية المشاهدة. وخامسها: أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة، فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم، فكأنه قيل لهم على جهة الوعيد: لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فتزول عنكم الشكوك. وهو كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣، ٤] بمعنى لو أعدت النظر فيها ما شئت لم تجد فطورًا. ولم يُرد مرتين فقط، فكذا ههنا، إن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهبًا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة.

المسألة السابعة: قراءة العامة (لَتَرَوُنَّ) بفتح التاء، وقرئ بضمها من رأيته الشيء، والمعنى أنهم يُحشرون إليها فيرونها، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي، كأنهما أرادا لترونها فترونها، ولذلك قرأ الثانية: (ثُمَّ لَتَرَوُنَّها) بالفتح، وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عددناها، واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين: الأول: قال الفراء: قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ، فلا ينبغي أن الجحيم لفظه الثاني: قال أبو علي: المعنى في ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ لترون عذاب الجحيم، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضًا بدلالة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وإذا كان كذلك كان الوعيد في رؤية عذابها لا في رؤية نفسها، يدل على هذا قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النحل: ٨٥] وهذا يدل على أن (لَترون) أرجح من (لَتُرون).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

فيه قولان:

المسألة الأولى: في أن الذي يُسأل عن النعيم من هو؟ فيه قولان:

أحدها: -وهو الأظهر- أنهم الكفار، قال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار. ويدل عليه وجهان: الأول: ما روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية، قال: يا رسول الله، أرأيت أكلة

أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما ذلك للكفار»، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] (١) **والثاني:** وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سببًا لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم في الآخرة.

والقول الثاني: أنه عام في حق المؤمن والكافر. واحتجوا بأحاديث، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ النَّعِيمِ فَيُقَالُ لَهُ: أَلَمْ نُصَحِّحْ لَكَ جِسْمَكَ وَنَرْوِكَ من المار الْبَارِدِ؟»** (٢) وقال محمود بن لبيد: لما نزلت هذه السورة قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نُسأل؟ إنما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسأل؟ قال: **«إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»** (٣) وروي عن عمر أنه قال: أي نعيم نُسأل عنه يا رسول الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ فقال ﷺ: **«ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار»** وقريب منه: **«مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ وَعِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»** (٤) وروي أن شابًا أسلم في عهد رسول الله ﷺ فعلَّمه رسول الله سورة (ألهاكم) ثم زوَّجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال: لا أريد ذلك. فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عنه فقال: ألست

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٤٨) حديث رقم (٣٣٥٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. والضحاك هو ابن عبد الرحمن بن عزرت ويقال ابن عرزم وابن عزرم أصح، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٥٣) حديث رقم (٧٢٠٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٥٨٥) جميعًا من طريق شبابة بن سوار قال: حدثني عبد الله بن العلاء أبو زرين الشامي قال: حدثنا الضحاك بن عزرم قال: سمعت أبا هريرة... فذكره.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٧/ ٣٥٦) حديث رقم (٣٣٥٦) وأيضًا في (٥/ ٤٤٨) حديث رقم (٣٣٥٧) من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... به، وقال أبو عيسى: وحديث ابن عيينة عن محمد بن عمرو أصح من هذا، سفيان بن عيينة أحفظ وأصح حديثًا من أبي بكر بن عياش. اهـ. من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن عمرو بن علقمة عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن الزبير بن العوام عن أبيه... به وقال: هذا حديث حسن، والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٥٨٥) من طريق محمد بن عمرو عن صفوان بن سليم عن محمد بن محمود بن لبيد... به والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٢٠٢) من طريق محمد بن عمر عن صفوان بن سليم عن محمود بن لبيد... به.

(٤) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٤) حديث رقم (٢٣٤٦) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٨٧) حديث رقم (٤١٤١) والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١١٢) حديث رقم (٣٠٠) والحميدي في (مسنده) (١/ ٢٠٨) حديث رقم (٤٣٩) جميعًا من طريق سلمة بن عبيد الله بن محصن عن أبيه... به.

علمتني: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (١) وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك. وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال: هل عليَّ من النعمة شيء؟ قال: الظل والنعلان والماء البارد. .. وأشهر الأخبار في هذا ما روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال: «ما أخرجك يا أبا بكر؟» قال: الجوع. قال: «والله ما أخرجني إلا الذي أخرجك» ثم دخل عمر فقال مثل ذلك، فقال: «قوموا بنا إلى منزل أبي الهيثم» فدق رسول الله ﷺ الباب وسلَّم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله ﷺ فخرجت امرأته تصيح: كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك. فقال لها خيرًا، ثم قالت: بأبي أنت وأمي إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقًا وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام: «هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ» (٢) وروى أيضًا: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَشَبَابِهِ وَعَمَلِهِ» (٣) وعن معاذ عن النبي ﷺ: «أَنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعِهِ وَعَنْ لَمْسِ ثَوْبِ أَخِيهِ» (٤).

واعلم أن الأَوْلى أن يقال: السؤال يعم المؤمن والكافر، لكن سؤال الكافر توبيخ لأنه ترك

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٢/ ٤٤٨) قال: حدثنا أبو زرعة حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقري قال: حدثنا عبد الله بن عيسى... به، وقال ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٥٤٦) بعد أن عزاه إلى ابن أبي حاتم: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢٣/ ٣٢٤) حديث رقم (٥٢٥٢) من طريق هلال بن بشير قال: حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسي... به والضياء في (المختاره) (١/ ٢٨٩) حديث رقم (١٧٩) من طريق زكريا بن يحيي الخزاز قال حدثنا عبد الله بن عيسى... به والضياء في المختار (١/ ٢٨٩) حديث رقم (١٧٩) من طريق زكريا بن يحيى الخزاز قال: حدثنا عبد الله بن عيسى... به، وقال: لهذا الحديث شاهد في الصحيح من حديث أبي حازم عن أبي هريرة. اهـ، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٢١٤) حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الله بن عيسى... به ولم يذكر فيه عن ابن عباس أنه قال: سمع عمر... فذكره، والطبراني في (الكبير) (١٩/ ٢٥٣) حديث رقم (٥٦٨) من طريق عبد الله بن عيسى... به والبزار في (مسنده) (١) حديث رقم (٢٠٥) من طريق عبد الله بن عيسى... به ورواه العقيلي في (الضعفاء) (٢/ ٢٨٦) حديث رقم (٨٥٦) وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٣١٧) في ترجمة عبد الله بن عيسى وقال لا يتابع على أكثر حديثه وقال: رواه البزار وأبو يعلى باختصار بقية الكلام، والطبراني كذلك وفي أسانيدهم كلها عبد الله بن عيسى أبو خلف وهو ضعيف، وقال أبو يعلى والطبراني: أم الهيثم. وقال البزار: أم أبي الهيثم. اهـ.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب (في القيامة) (٤/ ٦١٢) حديث رقم (٢٤١٧) من طريق الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو برزة الأسلمي اسمه فضلة بن عبيد رضي الله عنه، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٩٤٦).

(٤) إسناده ضعيف: ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٩/ ٧٣) حديث رقم (١٣٣٠٥) من طريق يونس الحذاء عن أبي حمزة الشيباني عن معاذ بن جبل... به، وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٥٥١) وقال: حديث غريب جدًا، في إسناده نظر وفي صحته.

الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع.

المسألة الثانية: ذكروا في النعيم المسئول عنه وجوهًا: **أحدها:** ما روي أنه خمس: شبع البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق. **وثانيها:** قال ابن مسعود: إنه الأمن والصحة والفراغ. **وثالثها:** قال ابن عباس: إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب. **ورابعها:** قال بعضهم: الانتفاع بإدراك السمع والبصر. **وخامسها:** قال الحسن بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن. **وسادسها:** قال ابن عمر: إنه الماء البارد. **وسابعها:** قال الباقر: إنه العافية، ويروى أيضًا عن جابر الجعفي قال: دخلت على الباقر فقال: ما تقول أرباب التأويل في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؟ فقلت: يقولون: الظل والماء البارد. فقال: لو أنك أدخلت بيتك أحدًا وأقعدته في ظل وأسقيته ماء باردًا أتمن عليه؟ فقلت: لا، قال: فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه. فقلت: ما تأويله؟ قال: النعيم هو رسول الله ﷺ أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. **القول الثامن:** إنما يُسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن. **والتاسع وهو الأولى:** أنه يجب حمله على جميع النعم، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** أن الألف واللام يفيدان الاستغراق. **وثانيها:** أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي، لاسيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى. **وثالثها:** أنه تعالى قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى، فكذا ههنا. **ورابعها:** أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاض وأعضاء، فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل، كما أن الترياق اسم للمعجون المركب من الأدوية الكثيرة، فإذا ذُكر الترياق فقد دخل الكل فيه.

واعلم أن النعم أقسام، فمنها ظاهرة وباطنة، ومنها متصلة ومنفصلة، ومنها دينية ودنيوية، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن، على ما قاله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] واستعن في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء، ثم هم أشد الخلق غفلة، وفي معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين، وهم أشد الناس جهلاً بالصانع، وفي معرفة سلطان الله بالملوك، ثم هم أجهل الخلق، وأما الذي يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمعناه هذا من جملته، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود، ومنه قول ابن السماك للرشيد: أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء في فلاة، أكنت تبذل فيه نصف الملك؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين؛ أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره، قال تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أو لأن السورة نزلت في المترفين، وهم المختصون بالماء البارد والظل، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن

جميع النعيم، سواء كان مما لا بد منه (أو لا)، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون مصروفًا إلى طاعة الله لا إلى معصيته، فيكون السؤال واقعًا عن الكل، ويؤكده ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ» فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذا السؤال أين يكون:

فالقول الأول: أن هذا السؤال إنما يكون في موقف الحساب، **فإن قيل**: هذا لا يستقيم لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم؟ **قلنا**: المراد من قوله: ﴿ثُمَّ﴾ أي ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة، وهو كقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٣ - ١٧].

القول الثاني: أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخًا لهم، كما قال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨] وقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] ولا شك أن مجيء الرسول نعمة من الله، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار، أو يقال: إنهم إذا صاروا في الجحيم وشاهدوها، يقال لهم: إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم في دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات، فيكون ذلك من الملائكة سؤالاً عن نعيمهم في الدنيا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «التكاثر»

وهي مكيةٌ في قولِ جميعِ المفسِّرين[١]، ورَوَى البخارِيُّ أنَّها مدنية[٢]. وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ «ألهاكم»: شَغَلَكم؛ قال:

فَأَلْهَيْتُها عن ذي تَمائم مُغْيِلِ[٣]

أي: شَغَلكم المباهاةُ بكثرة المالِ والعددِ عن طاعة الله، حتى مِتُّم ودُفنتُم في المقابر. وقيل: «أَلْهاكُمْ»: أنساكم، «التكاثُرُ» أي: من الأموال والأولاد؛ قاله ابن عباس والحسن[٤].

وقال قتادة: أي: التفاخرُ بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي: ألهاكم التشاغلُ بالمعاش والتجارة[٥].

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٨، والكشاف ٤/ ٢٨٠، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠، وتفسير الرازي ٣٢/ ٧٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢، ويشير ابن العربي إلى حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب...» فذكر أنس عن أُبيٍّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر. صحيح البخاري (٦٤٣٩) و(٦٤٤٠)، وسيأتي قريباً.

(٣) وصدره: فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعاً، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٢، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة صٓ، و ص٢٠٢ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٠ عن الحسن، وأخرجه عن ابن عباس ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧.

(٥) ذكر القولين الماوردي ٦/ ٣٣٠، وقول قتادة أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣، والطبري ٢٤/ ٥٩٨.

يقال: لَهِيتُ عن كذا ـ بالكسر ـ أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْيَانًا: إذا سَلَوْت عنه، وتركت ذِكْرَه، وأَضْربت عنه. وأَلْهاه: أي شَغَله. ولهَّاه به تلهيةً، أي: عَلَّله[١]. والتكاثر: المُكاثَرة. قال مقاتل وقتادةُ وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثرُ من بني فلان، وبنو فلانٍ أكثرُ من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالا[٢].

وقال ابن زيد: نزلت في فخذٍ من الأنصار.

وقال ابن عباس ومقاتلٌ والكلبيُّ: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتَكاثَروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلُّ حيٍّ منهم: نحن أكثرُ سيداً، وأعزُّ عزيزاً، وأَعْظَمُ نَفَراً، وأكثرُ عائذًا، فَكَثَرَ بنو عبد منافٍ سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فَكَثَرَتْهُمْ سَهْم، فنزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣] بأحيائكم، فلم ترضَوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ مفتخِرينَ بالأموات.

وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون: نحن أكثرُ من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كلَّ يومٍ[٤] يتساقطون إلى آخرهم، واللهِ ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم.

وعن عمرو بن دينار: حلف أنَّ هذه السورةَ نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادةَ قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآيةُ تَعُمُّ جميعَ ما ذُكر وغيره. وفي «صحيح» مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي!

---

(١) الصحاح (لها).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن قتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن مقاتل والكلبي. وذكره الماوردي ٦/ ٣٣١ عن الكلبي وقتادة.

(٤) في النسخ الخطية: قوم، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في كتاب الورع لأحمد ص ١٨٩ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٨ .

وهل لكَ يا ابنَ آدمَ مِن مالكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ»[١]، «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتارِكُه للناس»[٢].

وروى البخاريُّ عن ابن شهاب: أخبرني أنس بنُ مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ لابنِ آدمَ وادياً من ذهب، أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يَمْلأَ فاه إلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ»[٣]. قال ثابت عن أنس عن أبيٍّ: كنَّا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٤]. قال ابن العربيِّ: وهذا نصٌّ صحيحٌ مَليحٌ، غاب من أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا، والحمدُ لله على المعرفة[٥].

وقال ابن عباس: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «تكاثُرُ الأموالِ: جَمْعُها من غير حقِّها، ومَنْعُها من حقِّها، وشدُّها في الأوعية»[٦].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أتاكم الموتُ فصِرْتُم في المقابر زُوَّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائرِ إلى منزله من جنةٍ أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبرَه.

وقيل: أي: ألهاكم التكاثرُ حتى عَدَدتُم الأموات، على ما تقدَّم.

وقيل: هذا وعيدٌ، أي: اشتغلتُم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتَرَوْا ما

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٨)، وهو عند أحمد (١٦٣٠٦). قوله: فأمضيت، أي: أنفذت فيه عطاءك، ولم تتوقف فيه. النهاية (مضا). ووقع في (ظ): فأبقيت، بدل: فأمضيت، وهي رواية في الحديث. ينظر الورع لأحمد ص ١٨٨ ، والدر المنثور ٦/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٢) قوله: وما سوى ذلك...، ورد في آخِر حديثِ أبي هريرة عند مسلم (٢٩٥٩)، وأوله نحوُ حديث مطرف عن أبيه.

(٣) صحيح البخاري (٦٤٣٩)، وهو عند أحمد (١٢٧١٧)، ومسلم (١٠٤٨).

(٤) صحيح البخاري (٦٤٤٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢ ، وإنما عقب ابن العربي بهذا الكلام على الحديث للرد على المفسرين الذين قالوا إن هذه السورة مكية، وينظر ما سلف في بداية تفسير هذه السورة.

(٦) لم نقف عليه.

ينزل بكم من عذاب الله عزَّ وجلّ.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة، بفتْحِ الباءِ وضمِّها. والقبور: جمع القبر[١]؛ قال:

أَرَى أَهْلَ القُصُور إذا أُمِيتُوا بَنَوْا فوق المقابرِ بالصُّخورِ
أَبَوْا إلّا مُباهاةً وفَخْرًا على الفقراءِ حتّى في القُبورِ[٢]

وقد جاء في الشعر: المَقْبَر؛ قال:

لكلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائهم فَهُمْ يَنقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ[٣]

وهو المَقْبُريُّ والمقْبَريُّ: لأبي سعيد المقبريِّ؛ وكان يسكنُ المقابر[٤]. وقَبَرْتُ المَيتَ أَقْبِرهُ وأَقبُرُه[٥] قَبْرًا، أي: دفنته. وأَقْبَرتُه، أي: أمرتُ بأن يُقْبَر. وقد مضى في سورة «عَبَس» القولُ فيه[٦]. والحمد لله.

الرابعة: لم يأتِ في التنزيل ذِكْرُ المقابرِ إلّا في هذه السورة. وزيارتُها مِن أعظمِ الدواءِ للقلب القاسي؛ لأنَّها تذكِّر الموتَ والآخرة. وذلك يَحمل على قِصَر الأمل، والزهدِ في الدنيا، وتَرْكِ الرغبة فيها. قال النبيُّ ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، فزوروا القبورَ، فإنّها تزهِّد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه[٧]. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي هريرة: «فإنَّها تذكِّر الموتَ»[٨].

---

(١) الصحاح (قبر).

(٢) البيتان ليحيى بن الحكم البكري الجياني، كما في نفح الطيب ٢/ ٢٥٦ .

(٣) البيت لعبد الله بن ثعلبة الحنفي، كما في الصحاح (قبر) ـ والكلام منه ـ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٩١ .

(٤) واسمه كيسان، وهو مولى أم شريك، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة؛ وقال: توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك. التهذيب ٣/ ٤٧٨ .

(٥) وبابه ضرب ونصر. مختار الصحاح (قبر)، والكلام من الصحاح (قبر).

(٦) ص٨٠-٨١ من هذا الجزء.

(٧) في سننه (١٥٧١)، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٣١٩).

(٨) صحيح مسلم (٩٧٦)، وهو عند أحمد (٩٦٨٨).

وفي الترمذيِّ عن بُرَيْدة: «فإنَّها تذكِّر الآخرة». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١].

وفيه عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ لعن زوَّاراتِ القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباسٍ وحسان بنِ ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد رأى بعضُ أهلِ العلم أنَّ هذا كان قبل أن يرخِّص النبيُّ ﷺ في زيارة القبور، فلمَّا رَخَّص دخل في رخصته الرجالُ والنساء. وقال بعضهم: إنَّما كره زيارةَ القبورِ للنساء لقلةِ صَبْرِهنَّ، وكَثْرةِ جَزَعِهنّ[٢].

قلت: زيارةُ القبورِ للرجال متَّفقٌ عليه عند العلماء، مختلفٌ فيه للنساء. أمَّا الشَّوَابُّ فحرامٌ عليهنَّ الخروج، وأمَّا القواعدُ فمباحٌ لهنَّ ذلك. وجائزٌ لجميعهنَّ ذلك إذا انفَرَدْنَ بالخروج عن الرجال، ولا يُختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قولُه: «زوروا القبورَ» عامًّا. وأمَّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشَى فيه الفتنةُ من اجتماع الرجالِ والنساء، فلا يَحِلُّ ولا يجوز. فبينما الرجل يخرجُ ليعتبر، فيقع بصره على امرأةٍ فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كلٌّ واحدٍ من الرجال والنساء مأزوراً غيرَ مأجورٍ. والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاجَ قلبِه وانقيادَه بسلاسل القهر إلى طاعة ربِّه، أن يُكْثِرَ مِن ذِكْرِ هاذِمِ[٣] اللذَّات، ومفرِّقِ الجماعات، ومُوتمِ البنينَ والبنات، ويواظبَ على مشاهدةِ المحتَضَرِين، وزيارةِ قبورِ أمواتِ المسلمين. فهذه ثلاثةُ أمورٍ ينبغي لمن قسا قلبُه، ولزمه ذَنْبُه، أن يستعين بها على دواءِ دائه، ويستصرخَ بها على فتن الشيطانِ وأعوانه[٤]، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانْجَلَتْ به قساوةُ قلبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ القلبِ، واستحكمتْ فيه دواعي الذنب؛ فإنَّ

(١) سنن الترمذي (١٠٥٤)، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٩٥٨)، ومسلم (٩٧٧).

(٢) سنن الترمذي (١٠٥٦)، والحديث عند أحمد (٨٤٤٩).

(٣) في (د) و(ظ): هادم. قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٨٦ : هاذم بالذال المعجمة: قاطع، وبالمهملة: مزيل.

(٤) في (ظ): وإغوائه.

مشاهدة المحتَضَرين، وزيارةَ قبورِ أمواتِ المسلمين، تَبلُغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأنَّ ذِكْر الموت إخبارٌ للقلب بما إليه المصير، وقائمٌ له مقامَ التخويفِ والتحذير. وفي مشاهدةِ مَن احتُضِر، وزيارةِ قبرِ مَن مات مِن المسلمين مُعايَنَةٌ ومشاهَدةٌ؛ فلذلك كان أبلغَ من الأوّل؛ قال ﷺ: «ليس الخبرُ كالمُعايَنَةِ». رواه ابن عباس[1]. فأمَّا الاعتبارُ بحالِ المحتَضَرين فغيرُ مُمْكِنٍ في كلِّ الأوقات، وقد لا يتَّفقُ لمن أراد علاجَ قلبه في ساعة من الساعات. وأمَّا زيارةُ القبورِ فوجودُها أسرعُ، والانتفاعُ بها أَلْيَقُ وأَجْدَر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدَّب بآدابها، ويُحضِرَ قلبَه في إتيانها، ولا يكون حظُّه منها التَّطْوافَ على الأجداث فقط؛ فإنَّ هذه حالةٌ تشاركُه فيها بهيمةٌ، ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصدُ بزيارته وجهَ اللهِ تعالى، وإصلاحَ فسادِ قلبِه، أو نَفْعَ الميتِ بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنَّب المشيَ على المقابر والجلوسَ عليها، ويُسلِّم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتِه الذي يعرفه سلَّم عليه أيضًا، وأتاه مِن تِلْقاءِ وَجْهِه؛ لأنَّه في زيارته كمخاطبته حيًّا، ولو خاطبه حيًّا لكان الأدبُ استقبالَه بوجهه، فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمَن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوشَ والعساكر، ونافَسَ الأصحابَ والعشائر، وجَمَعَ الأموالَ والذخائر؛ فجاءه الموتُ في وقتٍ لم يَحْتَسِبْه، وهولٍ لم يَرتَقِبْه. فليتأمَّل الزائرُ حالَ مَن مضى من إخوانه، ودَرَج من أقرانه الذين بلَغوا الآمال، وجَمَعوا الأموال، كيف انقطعت آمالُهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوهِهم، وافترقَتْ في القبور أجزاؤُهم، وتَرَمَّلَ مِن بَعْدِهم نساؤُهم، وشَمِلَ ذلُّ اليُتْم أولادَهم، واقتَسم غيرُهم طريفَهم وتِلادهم[2]. وليتذكَّر تردُّدَهم في المآرِب، وحرصَهم على نَيْلِ المطالب، وانْخِداعَهم لمواتاةِ الأسباب، وركونَهم إلى الصِّحة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢) و(٢٤٤٧)، وسلف ٤/ ٣٠٩ .

(٢) في (ي): طريقهم وتلادهم، وفي (د): طريقهم وبلادهم. والطريف: هو الحديث من المال، وهو خلاف التالد والتليد، ويقولون: ما لَه طريف ولا تليد، فالطريف ما استحدَثْتَ من المال، والتليد ما ورثْتَه من الآباء. تاج العروس (طرف).

والشباب. ولْيَعْلَم أنَّ ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغَفْلَتَه عمَّا بين يديه من الموت الفظيع، والهلاكِ السريع، كغَفْلَتِهم، وأنه لا بدَّ صائرٌ إلى مصيرهم، ولْيُحضِر بقلبه ذِكْرَ مَن كان متردِّداً في أغراضه، وكيف تهدَّمت رجلاه. وكان يتلذَّذُ بالنظر إلى ما خُوِّلَه، وقد سالت عيناه. ويصولُ ببلاغة نُطْقِه، وقد أَكَلَ الدودُ لسانَه. ويضحكُ لمواتاةِ دَهْره، وقد أَبْلَى الترابُ أسنانَه. ولْيتحقَّقْ أنَّ حالَه كحاله، ومآلَه كمآلِه. وعند هذا التذكُّرِ والاعتبارِ تزولُ عنه جميعُ الأغيارِ الدنيوية، ويُقْبِلُ على الأعمال الأخروية، فيزهدُ في دنياه، ويُقبل على طاعةِ مولاه، ويَلينُ قلبُه، وتَخْشَعُ جوارِحُه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرَّاء: أي: ليس الأمرُ على ما أنتم عليه من التفاخُرِ والتكاثُر[١]، والتمامُ على هذا.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون عاقبةَ هذا .﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعِيدٌ بعدَ وعيد؛ قاله مجاهد[٢]. ويحتملُ أن يكون تكرارُه على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قولُ الفرَّاء[٣].

وقال ابن عباس: «كلَّا سوف تعلمون» ما ينزلُ بكم من العذاب في القبر، «ثم كلَّا سوف تعلمون» في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب[٤]. فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرارُ للحالتين.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون» عند المعاينة، أنَّ ما دعوتُكم إليه حقٌّ. «ثم كلا سوف تعلمون»: عند البعث، أنَّ ما وعدتُكم به صدق[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٧ دون قوله: من التفاخر...

(٢) الوسيط ٤/ ٥٤٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن الحسن ومقاتل.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧ .

(٤) ذكره المصنف في كتاب التذكرة له ص ١٣٣ ، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز بنحوه ٥/ ٥١٩ عن علي ﷺ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٣١ .

وروى زِرّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليٍّ ﷺ، قال: كنَّا نَشُكُّ في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة[١]. فأشار إلى أنَّ قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعني في القبور.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون»: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتُم قبورَكم، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير، وحاط بكم هولُ السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمَّنت السورةُ القولَ في عذاب القبر. وقد ذَكَرنا في كتاب «التذكرة» أنَّ الإيمانَ به واجبٌ، والتصديقَ به لازمٌ، حَسْبَما أخبرَ به الصادق، وأنَّ الله تعالى يُحيي العبدَ المكلَّفَ في قبره بردِّ الحياة إليه، ويجعلُ له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليَعْقِلَ ما يُسألُ عنه، وما يجيبُ به، ويفهمَ ما أتاه من ربِّه، وما أُعدَّ له في قبره من كرامةٍ وهوانٍ. وهذا هو مذهبُ أهلِ السُّنةِ، والذي عليه الجماعةُ من أهل المِلَّة. وقد ذكرناه هناك مستوفًى[٢]، والحمد لله.

وقيل: «كَلَّا سوف تعلمون» عند النشورِ أنَّكم مبعوثون، «ثم كلا سوف تعلمون» في القيامة أنَّكم معذَّبون[٣]. وعلى هذا تضمَّنتْ أحوالَ القيامةِ من بعثٍ وحَشْرٍ، وسؤالٍ وعَرْضٍ، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها، حَسْبَ ما ذكرناه في «كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمورِ الآخرة».

وقال الضحَّاك: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون» يعني الكفار، «ثم كَلَّا سوف يعلمون» قال: المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها؛ الأولى بالتاء والثانية بالياء[٤].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أعاد «كَلَّا» وهو زجرٌ وتنبيه؛ لأنه عَقَّب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥)، والطبري ٢٤/ ٦٠٠ . قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) التذكرة ص ١٢٤ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣١ .

(٤) في (ظ): الأولى بالياء والثانية بالتاء، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ ، والكلام منه، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠١ دون قوله: الأولى بالتاء...

كلَّ واحدٍ بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا فإنَّكم تندمون، لا تفعلوا فإنَّكم تستوجبون العقاب. وإضافةُ العلمِ إلى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وقيل: اليقينُ هاهنا: الموت؛ قاله قتادة[١]. وعنه أيضاً: البعث[٢]؛ لأنه إذا جاء زال الشكُّ، أي: لو تعلمون عِلْمَ البعث. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لو تعلمون اليومَ من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخةُ الصور، وانشقَّت اللُّحودُ عن جُثثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا.

وقيل: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ» أي: لو قد تطايرتِ الصحف، فشقيٌّ وسعيدٌ.

وقيل: إنَّ «كَلَّا» في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «أَلَا»؛ قاله أبو حاتم[٣]. وقال الفرَّاء: هي بمعنى «حَقًّا»[٤]. وقد تقدَّم الكلامُ فيها مستوفًى[٥].

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هذا وعيدٌ آخَرُ. وهو على إضمارِ القسم، أي: لترونَّ الجحيم في الآخرة. والخطابُ للكفار الذين وَجَبَتْ لهم النار. وقيل: هو عامٌّ، كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكفار دارٌ، وللمؤمنين ممَرٌّ. وفي الصحيح: «فيمرُّ أوَّلُهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديثَ. وقد مضى في سورة مريم[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٢.

(٣) في النسخ: قاله ابن أبي حاتم، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٣١، والكلام منه. وكذا ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٥٣٨ عن أبي حاتم وقال: قال أبو حيان: لم يسبقه إلى ذلك أحد، وتابعه جماعة منهم الزجاج.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣١.

(٥) ١٣/ ٥١٠.

(٦) ١٣/ ٤٩٤، وهو في صحيح البخاري (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٣)، وأخرجه أحمد (١١١٢٧)، وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقرأ الكسائيُّ وابنُ عامر: «لَتُرَوُنَّ» بضمِّ التاء[١]، من أَرَيْتُه الشيءَ، أي: تُحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء هي قراءةُ الجماعة، أي: لتَرُونَّ الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدةً. وقيل: هو إخبارٌ عن دوام مُقامِهم في النار، أي: هي رؤيةٌ دائمةٌ متَّصلةٌ. والخطابُ على هذا للكفار.

وقيل: معنى «لو تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقينِ» أي: لو تعلمون اليومَ في الدنيا عِلْمَ اليقين فيما أمامكم ممَّا وصفتُ، «لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ» بعيون قلوبكم؛ فإنَّ عِلْمَ اليقينِ يُريكَ الجحيم بعينِ فؤادك، وهو أنْ تَتَصَوَّر لك تاراتُ[٢] القيامةِ، وقَطْعُ مسافاتها، «ثم لَترونها عينَ اليقينِ» أي: عند المعاينةِ بعينِ الرأس، فتراها يقيناً لا تغيبُ عن عينك، «ثم لَتُسْأَلُنَّ يَومَئِذٍ عن النَّعِيم»: في موقف السؤال والعرض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه[٣] عن أبي هريرة، قال: خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أَخْرجَكما من بُيوتِكما هذه الساعَةَ؟» قالا: الجوعُ يا رسولَ الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأَخرجَني الذي أَخْرجَكما، قُوموا» فقاموا[٤] معه، فأَتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته المرأة قالت: مَرْحَبًا وأهلاً. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: [ذهب] يَسْتعذِبُ لنا من الماء. إذ جاء الأنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيهِ، ثم قال: الحمدُ لله! ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً منِّي. قال: فانْطَلَقَ، فجاءهم بِعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلوا من هذه. وأخذ المُدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم، فأكلوا من

---

(١) السبعة ص ٦٩٥، والتيسير ص ٢٢٥.

(٢) في (ظ): أمارات.

(٣) برقم (٢٠٣٨)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م) و(ي): قوموا فقاما، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

الشَّاة ومن ذلك العِذق، وشربوا، فلمّا أنْ شَبِعوا وَرَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليوم يومَ القيامة[١]، أَخْرَجكم من بُيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرْجِعوا حتَّى أصابكم هذا النعيم». خرَّجه الترمذيُّ وقال: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يومَ القيامة: ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ بارد» وكَنى الرجلَ الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بنُ التَّيِّهان. وذكر قصَّته[٢].

قلت: اسمُ هذا الرجلِ الأنصاريِّ مالك بنُ التَّيِّهان[٣]، ويُكْنَى أبا الهيثم. وفي هذه القصةِ يقول عبد الله بن رواحة يمدحُ بها أبا الهيثم بن التَّيِّهان[٤]:

فلم أرَ كالإسلامِ عِزًّا لأمَّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيِّ مَعْشَرَا
نبيٌّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمَّةٍ ... وخيرُ بَني حوَّاءَ فرعاً وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ[٥] ... وكان قضاءُ الله قَدراً مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بِجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جوداً ومجداً ومَفْخَرا
وفارِسِ خلقِ اللهِ في كلِّ غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا
فَفَدَّى وحَيَّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلم يَقْرِهِمْ إلّا سَميناً مُتَمَّرا[٦]

وقد ذكر أبو نُعيمٍ الحافظُ، عن أبي عَسِيبٍ مولى رسولِ الله ﷺ، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ ليلاً، فدعاني فخرجتُ إليه، ثم مرَّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ

---

(١) في صحيح مسلم: لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٦٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) بفتح المثناة .الفوقانية مع كسر الياء، آخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها. الإصابة ١٢/ ٨٣ .

(٤) ذكر هذا الشعر ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٤١ ، والاستذكار٢٦/ ٣٢٧ .

(٥) في التمهيد والاستذكار: فوافق للميقات قدر قضية.

(٦) التتمير: تقطيع اللحم صغاراً، ووقع في التمهيد والاستذكار: معمرا.

بعمرَ فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنا بُسْراً»، فجاء بعِذْقٍ فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماءٍ فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمرُ العِذْق، فضرب به الأرضَ حتى تناثر البسرُ نحوَ وجهِ رسولِ الله ﷺ، [ثم] قال: يا رسولَ الله، إنَّا لمسؤولون عن هذا يومَ القيامة؟ قال: «نعم، إلَّا مِن ثلاثٍ: كِسْرةٍ يَسُدُّ بها جَوْعَته، أو ثوبٍ يسترُ به عَوْرَته، أو جُحْرٍ يأوي فيه من الحرِّ والقُرِّ»[(١)].

واختلف أهلُ التأويلِ في النعيم المسؤولِ عنه على عَشَرَةِ أقوالٍ:

أحدها: الأمنُ والصِّحةُ؛ قاله ابن مسعود. الثاني: الصحةُ والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير[(٢)]. وفي البخاريِّ عنه عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ»[(٣)].

الثالث: الإدراكُ بحواسِّ السمع والبصر؛ قاله ابن عباس؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][(٤)]. وفي الصحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يومَ القيامة، فيقول [الله] له: أَلَمْ أَجْعَلْ لك سَمْعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديثَ. خرَّجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[(٥)].

الرابع: مَلاذُّ المأكولِ والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاريّ[(٦)]. وحديث

---

(١) الحلية ٢/ ٢٧ - ٢٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٧٦٨)، والطبري ٢٤/ ٦٠٧ ، وابن عدي ٢/ ٨٤٧ .

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٣ .

(٣) صحيح البخاري (٦٤١٢)، وهو عند أحمد (٢٣٤٠)، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٠٤ .

(٥) سنن الترمذي (٢٤٢٨)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وروي بمعناه حديث مرفوع عن جابر ﷺ، أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٤٦ ، والطبري ٢٤/ ٦٠٥ .

أبي هريرةَ يدلُّ عليه.

الخامس: أنه الغداءُ والعشاءُ؛ قاله الحسن[١].

السادس: قولُ محكولٍ الشاميّ: أنَّه شِبَعُ البطون، وباردُ الشراب، وظلالُ المساكنِ، واعتدالُ الخُلُقِ، ولذَّةُ النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: يعني: عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماورديُّ[٢]، وقال: وهذا السؤالُ يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، إلَّا أنَّ سؤالَ المؤمنِ تبشيرٌ بأنْ يجمع له بين نعيمِ الدنيا ونعيمِ الآخرة. وسؤال الكافرِ تقريعٌ أنْ قابلَ نعيمَ الدنيا بالكفر والمعصية.

وقال قومٌ: هذا السؤالُ عن كلِّ نعمةٍ، إنَّما يكون في حقِّ الكفار، فقد رُوي أنَّ أبا بكرٍ لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال: يا رسول الله، أرأيتَ أكْلةً أكَلْتُها معك في بيت أبي الهيثم بنِ التَّيِّهان، من خبزِ شعيرٍ ولحمٍ، وبُسرٍ قد ذَنَّب، وماءٍ عَذْبٍ، أتخافُ علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك للكُفار» ثم قرأ: ﴿وهل يُجازَى إلا الكفور﴾ [سبأ: ١٧][٣]. ذكره القشيريُّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلَّا أهلُ النار[٤]. قال القشيريُّ: والجمعُ بين الأخبار: أنَّ الكلَّ يُسْألون، ولكن سؤال الكافر توبيخ؛ لأنَّه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمنِ سؤالُ تَشْريفٍ؛ لأنه شَكَر. وهذا النعيمُ في كلِّ نعمةٍ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع فيه: عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٧، وتفسير الرازي ٣٢/ ٨٠ - ٨١، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٩٦) من طريق الكلبي عن الشعبي عن الحارث عن ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٩: وفيه الكلبي وهو كذاب. قوله: قد ذنَّب، المذنِّب من البسر: الذي بدا فيه الإرطاب من قِبَل ذنبه. النهاية (ذنب).

(٤) الوسيط ٤/ ٥٤٩.

قلت: هذا القولُ حسنٌ؛ لأنَّ اللفظ يَعُمّ. وقد ذكر الفِرْيابيُّ قال: حدَّثنا ورقاءُ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: كلُّ شيءٍ من لذَّة الدنيا[١]. وروى أبو الأحوص، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى لَيُعَدِّدُ نِعمَه على العبد يومَ القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوِّجَكَها ـ فيُسمِّيها باسمها ـ فزوَّجْتُكَها»[٢].

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلت هذه الآيةُ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسولَ الله، عن أيِّ النعيم نُسْأَل؟ فإنَّما هما الأسودان، والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفُنا على عواتقنا. قال: «إنَّ ذلك سيكون»[٣].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوّلَ ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ ـ يعني العبدَ ـ أنْ يقال له: أَلَمْ نُصِحَّ لك جسمَكَ، ونرويكَ من الماء البارد» قال: حديثٌ غريب[٤].

ورُوي من حديثِ ابنِ عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامةِ دعا الله بعبدٍ من عباده، فيوقفُه بين يديه، فيسألُه عن جاهه كما يسألُه عن ماله»[٥]. والجاهُ من نعيم الدنيا لا محالةَ.

وقال مالك رحمه الله: إنَّه صحةُ البدنِ، وطِيْبُ النفس[٦]. وهو القولُ السابع.

---

(١) الورع لأحمد ص١٨٧ ، والتمهيد ٢٤/ ٣٤٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) أخرجه ابن فضيل الضبي في كتاب الدعاء (١٤١)، وله شاهد من حديث عبد الله بن سلام ﷺ أخرجه البيهقي موقوفاً ومرفوعاً في الشعب (٤٦١٠) و(٤٦١١).

(٣) سنن الترمذي (٣٣٥٧). وأخرجه أحمد (١٤٠٥)، والترمذي (٣٣٥٦) من حديث الزبير ﷺ، وقال الترمذي عن حديث الزبير: حديث حسن. وأخرجه أحمد (٢٣٦٤٠) من حديث محمود بن لبيد ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٥٨).

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٣٧ ، والطبراني في الصغير (١٨)، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٢٨ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٣٤). قال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من كلام النبي ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٣ .

وقيل: النومُ مع الأمنِ والعافية.

وقال سفيان بنُ عيينة: إنَّ ما سَدَّ الجوعَ وسَتَر العورةَ من خَشِنِ الطعامِ واللباسِ، لا يُسألُ عنه المرءُ يومَ القيامة، وإنَّما يُسألُ عن النَّعيم، قال: والدليلُ عليه: أنَّ الله تعالى أَسْكَنَ آدمَ الجنةَ، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩][١]. فكانت هذه الأشياءُ الأربعةُ ـ ما يَسدُّ به الجوعَ، وما يَدفعُ به العطشَ، وما يَستَكِنُّ فيه من الحرِّ، وما يَسْتُر به عَورتَه ـ لآدمَ عليه السلامُ بالإطلاق[٢]، لا حسابَ عليه فيها؛ لأنَّه لا بدَّ له منها.

قلت: ونحوُ هذا ذكره القشيريُّ أبو نصر، قال: إنَّ ممَّا لا يُسألُ عنه العبدُ: لباساً يُواري سوأتَه، وطعاماً يُقيمُ صُلْبَه، ومكاناً يُكِنُّه من الحرِّ والبرد.

قلت: وهذا منتزعٌ من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابنِ آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يُواري عورتَه، وجِلْفِ الخبزِ والمَاء» خرَّجه الترمذيُّ[٣]. وقال النضر بن شُميل: جِلْفُ الخبز: ليس معه إدام.

وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمدٍ ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤][٤].

وقال الحسن أيضاً والمفضَّل[٥]: هو تخفيفُ الشرائع، وتيسيرُ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

---

(١) التمهيد ٢٤/ ٣٤٠.

(٢) في (د): لازم عليه بالإطلاق، بدل: لآدم عليه السلام بالإطلاق.

(٣) في سننه (٢٣٤١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢.

(٥) في (ظ): والفضل، وليست في (ز)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، والكلام منه، وذكره البغوي ٤/ ٥٢٢، والرازي ٣٢/ ٨٢، وفيهما: وقال الحسين بن الفضل، وينظر ما سيأتي ص٥٢١ من هذا الجزء.

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكلٌّ هذه نِعمٌ، فيُسأل العبدُ عنها: هل شَكَرَ ذلك أم كَفَر. والأقوالُ المتقدِّمةُ أَظْهَر. والله أعلم.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مُختلَفٌ فيها، وآيُها ثَمانٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: شَغَلكُم، وأصلُهُ: الصَّرفُ إلى اللهوِ، مَنْقُولٌ مِن لَهِيَ: إذا غَفَل.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: التَّباهي بالكثرةِ.

(٢) ـ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: إذا استوعَبْتُم عددَ الأحياءِ صِرْتُم إلى المقابرِ فتكاثَرْتُم بالأمواتِ، عبَّرَ عَن انتِقَالِهم إلى ذكرِ الموتى بزيارةِ المَقابرِ.

رُوِيَ أنَّ بني عَبدِ مَنافٍ وبني سَهْمٍ تَفاخَرُوا بالكثرةِ، فكَثَرَهُمْ بنو عبدِ منافٍ، فقالَ بنو سهمٍ: إنَّ البَغْيَ أهلَكَنا في الجاهليَّةِ فعادُّونَا بالأحياءِ والأمواتِ، فكَثَرَتْهُم بنو سهمٍ[1].

وإنَّما حُذِفَ الملهيُّ عنه ـ وهو ما يَعنيهِم مِن أمرِ الدِّينِ ـ للتَّعظيمِ والمبالغةِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٩). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٠٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦٤)، عن مقاتل والكلبي. وذكره دون عزو الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨٧). وعن ابن بريدة نحوه لكن في قبيلتين من الأنصار، رواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٥٩).

وقيل: معناهُ: ألهاكُم التَّكاثرُ بالأموالِ والأولادِ إلى أن متُّمْ وقُبِرتُم مضيعينَ أعمارَكُم في طلبِ الدُّنيا عمَّا هو أهمُّ لَكُم وهو السَّعيُ لأخراكُم، فيكونُ زيارةُ القبورِ عبارةً عَن الموتِ.

(٣) ـ ﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ وتَنبيهٌ على أنَّ العاقلَ يَنبَغِي له أن لا يكونَ جميعُ همِّهِ ومُعظَمُ سَعْيِه للدُّنيا؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك وَبالٌ وحسرَةٌ.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ خطأُ رأيِكُم إذا عايَنْتُم ما وَراءَكُم، وهو إنذارٌ ليَخافوا ويتنبَّهُوا مِن غَفلَتِهِم.

(٤) ـ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، وفي ﴿ ثُمَّ ﴾ دلالَةٌ على أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ، أو الأوَّلُ عندَ المَوتِ أو في القبرِ، والثَّاني عندَ النُّشورِ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾؛ أي: لو تعلمونَ ما بينَ أيديكُم علمَ الأَمرِ اليَقينِ ـ أي: كعِلْمِكُم ما تَسْتيقِنُونَهُ ـ لشَغَلَكُم ذلك عَن غيرِهِ، أو: لَفَعَلْتُم ما لا يُوصَفُ ولا يُكتَنَهُ، فحُذِفَ الجَوابُ للتَّفخيمِ.

ولا يجوزُ أن يكونَ قَوْلُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جوابًا لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، بل هو جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ أكَّدَ به الوعيدَ وأوضحَ به ما أنذرَهُم منه بعدَ إبهامِه تَفْخِيمًا.

وقرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء[1].

(٧) ـ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، أو الأُولى إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ، والثَّانيةُ إذا وَرَدُوها، أو المرادُ بالأُولى المعرفَةُ وبالثَّانيةِ الإبصارُ.

﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي: الرُّؤيـةَ التـي هـي نفسُ اليَقينِ، فـإنَّ عِلمَ المُشـاهدَةِ أَعْلَى مَراتـبِ اليَقينِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

(٨) ـ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الذي ألهاكُمْ. والخطابُ مَخصوصٌ بكُلِّ مَن ألهاهُ دُنْيَاهُ عَن دينِهِ، والنَّعيمُ مخصوصٌ بما يَشغلُهُ؛ للقرينةِ والنُّصوصِ الكثيرةِ كقـولِه: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، و: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقيل: يَعُمَّانِ، إذ كلٌّ يسألُ عَن شُكرِهِ.

وقيل: الآيةُ مَخصوصَةٌ بالكُفَّارِ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ لم يُحاسِبْهُ اللهُ بالنَّعيمِ الذي أنعمَ بهِ عليه في دارِ الدُّنيا، وأُعْطِيَ مِن الأجرِ كأنَّما قرأَ ألفَ آيةٍ»[1].

* * *

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٠١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٤٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٢) سورة التكاثر مكيّة
وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها، عن زيد بن أسلم قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ عن الطاعة، ﴿حتى زرتم المقابر﴾ حتى يأتيكم الموت[1]. وقال الحسن البصري: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ في الأموال والأولاد، وعن أُبيّ بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب»[2]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»[3]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[4]. وروى البخاري عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله[5]. وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»[6]. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) رواه البخاري في الرقاق.
(٣) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.
(٤) تفرد به مسلم.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.
(٦) أخرجاه في الصحيحين.

وقال ابن بريدة: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار (بني حارثة) و (بني الحارث) تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان، وقال الآخرون: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين، تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان. وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾(١) لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل، وقال قتادة: كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، حتى صاروا من أهل القبور كلهم، والصحيح أن المراد بقوله: ﴿ زرتم المقابر ﴾ أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال « لا بأس طهور إن شاء الله »، فقال، قلت: طهور، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: « فنعم إذن ». وعن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر ﴾ فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، يعني أن يرجع إلى منزله أي إلى جنة أو إلى نار، وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ فقال: بعث اليوم ورب الكعبة، أي أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿ كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون ﴾ قال الحسن البصري هذا وعيد بعد وعيد، وقال الضحّاك ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني أيها الكفار، ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يعني أيها المؤمنون، وقوله تعالى: ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ثم قال: ﴿ لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿ كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار، التي إذا زفرت زفرة واحدة، خرّ كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أي ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. روى ابن جرير، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: « ما اجلسكما ههنا ؟ »، قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: « والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره »، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: « أين فلان ؟ » فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: « ألا كنت اجتنيت »، فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال له النبي ﷺ: « إياك والحلوب » فذبح لهم يومئذ، فأكلوا فقال النبي ﷺ: « لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم »(٢). وروى الإمام أحمد عن جابر ابن عبدالله قال: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: « هذا من النعيم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة بنحوه.

الذي تسألون عنه »[1]. وروى الإمام أحمد عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»[2]

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه العبد من النعيم، أن يقال له ألم نصحّ لك بدنك، ونروك من الماء البارد»[3]؟ وروى ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن الزبير قال، قال الزبير: لمّا نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قالوا: يا رسول الله لأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «إن ذلك سيكون»[4]. وفي رواية عن عكرمة: قالت الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى إلى نبيّه ﷺ: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم. وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الأمن والصحة». وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ يعني شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق ولذة النوم. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء، وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال، وقال ابن عباس: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار. يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾. وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[5]. ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

[آخر تفسير سورة التكاثر . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أخرجه الترمذي وابن حيان.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن ماجة.

(٥) أخرجه البخاري.

تفسير سورة التكاثر

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾ .

يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ،وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟!

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن يحيى الوَقَار المصرى ، حدثني خالد بن عبد الدايم ، عن ابن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ عن الطاعة ، ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : حتى يأتيكم الموت» (١) .

وقال الحسن البصرى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فى الأموال والأولاد .

وفى صحيح البخارى ، فى « الرقاق » منه : وقال لنا أبو الوليد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعنى : « لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت قتادة يحدث عن مُطَرِّف ــ يعنى ابن عبد الله بن الشِّخِّير ــ عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من طريق شعبة ، به (٢).

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا سُوَيد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« يقول العبد : مالى مالى ؟ وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى (٣)، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .تفرد به مسلم (٤) .

---

(١) وهذا معضل ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .

(٢) المسند (٤/ ٢٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٤) وسنن النسائى (٦/ ٢٣٨) .

(٣) فى أ : « فأبقى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩) .

وقال البخارى : حدثنا الحُمَيدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، سمع أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثةٌ ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ، به (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس : أن النبى ﷺ قال : «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة الأحنف بن قيس (٣) ـــ واسمه الضحاك ـــ أنه رأى فى يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لى . فقال : إنما هو لك إذا أنفقته فى أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر :

أنتَ للمال إذا أمسكتَه فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثنى عن ابن بريدة فى قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار ،فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا (٤) بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر ـــ ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان(٥) ، ونحن أعَدُّ من بنى فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ،والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » . فقال : قلت : طَهُور ؟! بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ! قال : «فَنَعَم إذاً » (٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، أخبرنا حكام بن سلم الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن الحجاج ، عن المنْهال ، عن زر بن حُبَيْش ، عن على قال: ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٢٠٦٤) .
(٢) المسند (٣/ ١١٥) وصحيح البخارى برقم (٦٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٤٧) .
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٤٤٣ « المخطوط ») .
(٤) فى م : « وتفاخروا » . (٥) فى أ : « من بنى إسرائيل » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٦٦٢،٥٦٥٦،٧٤٧٠) .

ورواه الترمذى عن أبى كُرَيب ، عن حكّام بن سلم [١] ، [به] [٢]، وقال : غريب [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سلمة بن داود العُرضى [٤] ، حدثنا أبو المليح الرقى ، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز ،فقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ .حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هُنَيهة [٥] فقال : يا ميمون ، ما أرى المقابر إلا زيارة ، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله .

قال أبو محمد : يعنى أن يرجع إلى منزله ــ إلى جنة أو نار . وهكذا ذُكرَ أن بعضَ الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فقال : بُعثَ اليوم [٦] ورَب الكعبة . أى : إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره .

وقوله : ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى : هذا [٧] وعيد بعد وعيد .

وقال الضحاك : ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ،حتى صرتم إلى المقابر .

ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَوعَّدَهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار [٨] ، التى إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى فى ذلك .

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز [٩] المقرى ،حدثنا عبد الله ابن عيسى أبو خالد الخزاز ،حدثنا يونس بن عبيد ، عن عكرمة ،عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة ، فوجد أبا بكر فى المسجد فقال : « ما أخرجك هذه الساعة ؟ » قال : أخرجنى الذى أخرجك يا رسول الله . قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : «ما أخرجك يا ابن الخطاب ؟ » قال أخرجنى الذى أخرجكما . قال : فقعد عمر ، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما ، ثم قال : « هل بكما من قوة ، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً

---

(١) فى أ : « سليم » .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٥) .
(٤) فى أ : « العرمى » .
(٥) فى أ : « هنية » .
(٦) فى أ : «القوم » .
(٧) فى أ : « هو » .
(٨) فى م : « أهل النار » .
(٩) فى أ : « الجزار » .

وظلا؟» قلنا : نعم . قال : « مُروا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبى الهيثم الأنصارى » . قال : فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا ، فسلم واستأذن ــ ثلاث مرات ــ وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم ، فقالت : يا رسول الله ، قد ــ والله ــ سمعت تسليمك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك . فقال لها رسول الله ﷺ : « خيراً » . ثم قال : « أين أبو الهيثم ؟ لا أراه » . قالت : يا رسول الله ، هو قريب ذهب يَستعذبُ الماء ، ادخلوا فإنه يأتى الساعة إن شاء الله ،فبسطت ــ بساطا تحت شجرة ، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم ، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ يا أبا الهيثم » . قال : يا رسول الله ،تأكلون من بُسره ، ومن رطبه ، ومن تَذْنُوبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه ، فقال رسول الله ﷺ: « هذا من النعيم الذى تسألون عنه»(١) . هذا غريب من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنى الحُسَين بن على الصدائى ، حدثنا الوليد بن القاسم ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى ﷺ فقال: « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : والذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ،فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب (٢) لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد شىء أفضل من شىء (٣) زارنى اليوم . فعلق قِرْبَتَه بكرب نخلة (٤) ،وانطلق فجاءهم بعذْق ، فقال النبى ﷺ : « ألا كنت اجتنيت » ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبى ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى ﷺ : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » (٥) .

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان ، به (٦) .ورواه أبو يعلى وابن ماجة ، من حديث المحاربى، عن يحيى بن عُبيد الله ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن أبى بكر الصديق ، به (٧) . وقد رواه أهل السنن الأربعة ، من حديث عبد الملك بن عمير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، بنحو من هذا السياق وهذه القصة (٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا حشرج ، عن أبى نُصرة ، عن أبى عسيب ــ يعنى

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/٢٥٣) من طريق زكريا بن يحيى ، عن عبد الله بن عيسى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣١٧) : « فيه عبد الله بن عيسى ــ أبو خلف ــ وهو ضعيف » .

(٢) فى م : « ليستعذب » . (٣) فى م : « من نبى » . (٤) فى أ : « بكور نخلته » .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٨٥) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٠٣٨) .

(٧) مسند أبى يعلى (١/ ٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٨١) .

(٨) سنن أبى داود برقم (٥١٢٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٢٢) ، (٢٣٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٥) .

مولى رسول الله ــ قال : خرج رسول الله ﷺ ليلا فمر بى، فدعانى فخرجت إليه ،ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى أتى [١] حائطا لبعض الأنصار ،فقال لصاحب الحائط : « أطعمنا » . فجاء بِعذْق فوضعه ،فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة » . قال : فأخذ عُمَرُ العذْقَ فضَرب به الأرض ، حتى تناثر البُسرُ قبل رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله ، إنا لمسؤول [٢] عن هذا يوم القيامة ؟ قال : « نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف بها الرجل عورته ، أو كسرة سَدَّ بها جوعته ، أو جحر تَدخَّل فيه من الحر والقر » [٣] . تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ، حدثنا عمار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً ، وشربوا ماء ،فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه » .

ورواه النسائى ، من حديث حماد بن سلمة [عن عمار بن أبى عمار عن جابر] [٤] ، به [٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد بن عمرو ،عن صفوان بن سليم، عن محمود [٦] بن الربيع قال : لما نزلت :﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا : يا رسول الله ، عن أى [٧] نعيم نُسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر ،وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال [٨] : « أما إن ذلك سيكون » [٩] .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، عبد الملك بن عمرو ،حدثنا عبد الله بن سليمان ، حدثنا معاذ ابن عبد الله بن حُبَيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبى ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ،فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ،فقال رسول الله ﷺ : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

ورواه ابن ماجة، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن خالد بن مخلد، عن عبد الله بن سليمان، به[١٠] .

وقال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا شبابة ،عن عبد الله بن العلاء ، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعرى قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال النبى ﷺ : « إن أول ما يسأل عنه ــ يعنى يوم القيامة ــ العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحّ لك جسمك ، ونُروِكَ من الماء البارد ؟ » .

---

(١) فى أ : «حتى دخل » . (٢) فى م ، أ : « إنا لمسؤولون » .
(٣) المسند (٥/ ٨١) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) المسند (٣/ ٣٥١) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٦) .
(٦) فى أ : « عن محمد » . (٧) فى م : « أى يوم » . (٨) فى م : « فقال » .
(٩) المسند (٥/ ٤٢٩) .
(١٠) المسند (٥/ ٣٧٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٥٨) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

تفرد به الترمذى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، به [(١)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن يحيى بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ [ثُمَّ] [(٢)] لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا: يا رسول الله ، لأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال: « إن ذلك سيكون » . وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث سفيان ــ هو ابن عيينة ــ به [(٣)] . ورواه أحمد عنه [(٤)] ، وقال الترمذى : حسن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ، عن الحكم ابن أبان ، عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالت الصحابة : يا رسول الله ، وأى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ : قل لهم : أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهانى، عن ابن أبى ليلى ــ أظنه عن عامر ــ عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ [ثُمَّ] [(٥)] لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : « الأمن والصحة » [(٦)] .

وقال زيد بن أسلم ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعنى : شبع البطون، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . رواه ابن أبى حاتم بإسناده المتقدم ، عنه فى أول السورة .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قِلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد ابن أبى هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان برقم (٧٣٢٠) « الإحسان » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٥٨) .
(٤) المسند (١/ ١٧٤) .
(٥) زيادة من أ .
(٦) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد برقم (٨٥٥) من طريق محمد بن سليمان الأصبهانى ، به .

الناس : الصحة والفراغ »[١] .

ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزى ، حدثنا على بن الحسن ابن شقيق ، حدثنا أبو حمزة ، عن ليث ، عن أبى فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « ما فوق الإزار ، وظل الحائط ، وخُبْز ، يحاسب به العبد يوم القيامة ، أو يسأل عنه »[٢] ، ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْزٌ وعفان قالا : حدثنا حماد ـ قال عفان فى حديثه : قال إسحاق ابن عبد الله ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل ـ قال عفان : يوم القيامة ـ : يابن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تَرْبَع[٣] وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ »[٤] . تفرد به من هذا الوجه .

آخر تفسير سورة « التكاثر »[٥] [ولله الحمد والمنة][٦]

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٣٠٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٧٠) .

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٤٣) « كشف الأستار » وليث بن أبى سليم ضعيف .

(٣) فى أ : « ترتع » .

(٤) المسند (٢/٤٩٢) .

(٥) فى م : « ألهاكم » .

(٦) زيادة من أ .

سورة التكاثر[1]

مكّيّة،[2] وهي ثماني[3] آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها. رُوي أنّ بني عبد مَناف وبني سهم تفاخروا وتعادّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلّ مِن الفريقين: نحن أكثر منكم سيّدًا، وأعزّ عزيزًا، وأعظم نفرًا، فكَثَرهم[4] بنو عبد مَناف، فقال بنو سهم:[5] إنّ البغيَ أفنانا في الجاهليّة، فعادُّونا بالأحياء والأموات، فكَثَرهم بنو سهم.[6]

والمعنى أنكم تكاثرتم بالأحياء ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أي: حتّى إذا استوعبتُم عددهم صرتُم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات، فعُبِّر عن بلوغهم ذِكر الموتى بزيارة القبور تهكُّمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، يفتخرون بذلك. وقيل: المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متُم، وقُبرتم، مضيّعين أعماركم في طلب الدنيا، معرِضين عمّا يهمّكم

---

[1] س: أَلۡهَىٰكُمُ.

[2] س − مكّيّة.

[3] س: تسع.

[4] س: فكثُرهم. | وفي هامش م: أي: غلَبهم.

[5] بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، بطن مِن بطون قريش في زمن الإسلام، كان له مِن الولد سعد وسعيد، فمِن بني سعد بن سهم قيس بن عديّ، ومِن بني سعيد بن سهم العمرين. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١٤١.

[6] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٩/٤.

مِن السعي لأخراكم، فيكون زيارة القبور عبارةً عن الموت.[١] وقُرئ: "أَأَلْهَاكُمْ"[٢] على / الاستفهام التقريري. [٣١٨و]

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنّ العاقل ينبغي ألّا يكون معظم همّه مقصورًا على الدنيا، فإنّ عاقبة ذلك وخيمة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء مغبّة ما أنتم عليه إذا عاينتُم عاقبته.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الثانيَ أبلغُ مِن الأول، أو الأوّل عند الموت، أو في القبر، والثاني عند النشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أي: كعلمكم ما تستيقنونه، لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه، فحُذف الجواب للتهويل.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواب قسم مضمَر أكِّد به الوعيد، وشدِّد به التهديد، وأُوضِح به ما أُنذروه بعد إبهامه تفخيمًا.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأتهم مِن مكان بعيد، والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة والمعاينة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإنّ عِلم المشاهدة أقصى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدِّين وتكاليفه، فإنّ الخطاب مخصوص بمَن عكف هِمّته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلّا ليأكل الطيّب ويلبَس الليّن، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعِلم والعمل، ولا يُحمِّل نفسه مشاقّهما، فأمّا مَن تمتّع بنعمة الله تعالى، وتقوّى بها على طاعته، وكان ناهضًا بالشكر، فهو مِن ذلك بمَعزِل بعيد. وقيل: الآية مخصوصة بالكفّار.[٣]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا، وأُعطيَ مِن الأجر كأنّما قرأ ألف آية».[٤]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٩/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٥١.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٦٥/٣.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٣٠-٢٠٢ (التكاثر، ١/١٠٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٨/٤ (التكاثر، ١/١٠٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٢

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية، ثمانُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿أَلْهَاكُمُ﴾: شَغلَكم عن طاعة الله ﴿التَّكَاثُرُ﴾: التفاخُر بالأموال والأولاد والرجال ٢ ـ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بأن مُتّم فدُفنتم فيها، أو عددتمُ الموتى تكاثُرًا. ٣ ـ ٤ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سُوءَ عاقبةِ تفاخُركم عِند النزع ثمّ في القبر. ....

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١)

قولُهُ: (شَغلَكُم) وأصلُهُ: الصَّرفُ إلى اللَّهوِ، منقُولٌ مِن: لَها؛ إذا غَفِل.

قولُهُ: (التَّفاخُرُ) أي: التَّباهي بالكَثرَةِ.

قولُهُ: (والرِّجَالِ) أي: بالأنسابِ، أو الخَدَمِ والحَشَم.

قولُهُ: (بأَن مُتُّم) فيكونُ زيارَةُ القبورِ عبارَةً عن الموتِ، أو وصَلتُم إلى أهلِ المقابِرِ.

قولُهُ: (أو عَدَدتُم المَوتَى) فعبَّرَ عن انتقالِهِم إلى ذكرِ الموتى بزيارَةِ المقابِرِ، وإنَّما حَذفَ المَلهيَّ عنه، وهو ما يعنيهِم من أمرِ الدِّينِ؛ للتَّعظيمِ والمبالغَةِ.

قولُهُ: (رَدْعٌ) وتنبيهٌ على أنَّ العاقِلَ ينبَغي له أن لا يكونَ جميعُ همِّهِ، ومُعظمُ سعيِهِ للدُّنيا؛ فإنَّ عاقبَةَ ذلك وَبالٌ وحسرَةٌ.

قولُهُ: (عِندَ النَّزعِ) أو في القَبرِ.

قولُهُ: (ثمَّ في القَبرِ) أو عندَ النُّشورِ.

---

(١) في (م): «سورة ألهاكم».

٥ ـ ﴿كَلَّا﴾: حقًّا ﴿لَو تَعلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ﴾: عِلمًا يقينًا عاقبةَ التفاخُر ما اشتغلتم به.

٦ ـ ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ﴾: النارَ، جوابُ قسم محذوف ـ وحُذف منه لام الفعل وعينه وأُلقيَ حركتُها على الراء ـ ٧ ـ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها﴾: تأكيدٌ ﴿عَينَ اليَقِينِ﴾: مصدرٌ لأن: رأى وعاينَ، بمعنًى واحد، ٨ ـ ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ﴾ ـ حُذف منه نونُ الرفع لتوالي النونات وواوُ الضمير لالتقاء الساكنين ـ ﴿يَومَئِذٍ﴾: يومَ تَروُنَّها ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾: ما التُذَّ به في الدنيا من الصِّحّة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك.

قولُهُ: (عَاقِبَةَ التَّفَاخُرِ) أو ما بينَ أيديكُم لَشغَلَكُم ذلك عن غيرِه.

قولُهُ: (مَا اشتَغَلتُم) جوابُ: ﴿لَو﴾.

قولُهُ: (مَحذُوفٍ) أكّد به الوعيدَ، ولا يجوزُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ﴾ جَواباً؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوقوعِ فلا يعلَّقُ.

قولُهُ: (لامُ الفِعلِ) وهي الياءُ.

قولُهُ: (وعَينُهُ) وهي الهمزَةُ.

قولُهُ: (حَرَكَتُهَا) أي: العَين، وبقيّةُ إعلالِه يُذكَرُ في: ﴿لَتُسأَلُنَّ﴾، وقرأَ الكسائيُّ بضمِّ التَّاءِ في الأولى[1].

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) والأُولَى: ﴿إِذَا رَأَتهُم مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، والثَّانيةُ إذا ورَدُوها.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلكَ) منَ النَّعيمِ الذي ألهاكُم، والخِطابُ مخصوصٌ بكلِّ من ألهاهُ دينهُ عن دُنياه، والنَّعيمُ مخصوصٌ بما يشغلُهُ للقرينَةِ والنُّصوصِ الكثيرَةِ كقولِهِ تعالَى: ﴿مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقيل: يَعُمّانِ؛ إذ كلٌّ يسأَلُ عن شُكرِهِ، والله سُبحانَه وتعالى أعلم.

***

---

(١) ومثله قراءة ابن عامر، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٩٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٢٥).

سورة التكاثر

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ ـ كما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال ـ يسمُّونها المقبرة(١).

وهي مكية، قال أبو حيان(٢): عند جميع المفسرين. وقال الجلال السيوطي(٣): على الأشهر، ويدلُّ لكونها مدنيةً ـ وهو المختارُ ـ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن بريدة(٤) فيها قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار: في بني حارثة وبني الحارث، تفاخَروا وتكاثَروا، فقالت إحداهما: فيكم مثلُ فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثلُ فلان ـ تشير إلى القبر ـ ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلخ.

وأخرج البخاري وابن جرير عن أبيٍّ بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن: «لو أنَّ لابن آدم واديين من مال لتمنَّى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا الترابُ، ثم يتوبُ الله على مَن تاب» حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلخ(٥).

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن علي كرم الله تعالى

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٨٦، وتحرف في الأصل و(م) سعيد إلى: سعد. وهو سعيد بن أبي هلال الليثي مولاهم، أبو العلاء المصري، من رجال التهذيب.

(٢) في البحر ٨/ ٥٠٧.

(٣) في الإتقان ١/ ٤١.

(٤) في الأصل و(م): أبي بريدة، وهو خطأ، والمثبت من الإتقان.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٣٩) و(٦٤٤٠)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٩.

وجهه: ما زلنا نَشُكُّ في عذاب القبر حتى نزلت: (أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ)[١].

وعذابُ القبر لم يذكر إلا في المدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية[٢]. انتهى.

ولقوة الأدلة على مدنيتها قال بعض الأجلة[٣]: إنه الحقُّ.

وآيها ثمان بالاتفاق، وهي تعدل ألفَ آية من القرآن؛ أخرج الحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدُكم أن يقرأ ألفَ آية في كلِّ يوم»؟ قالوا: ومَن يستطيع أن يقرأ ألفَ آية؟ قال: «أما يستطيع أحدُكم أن يقرأ: (أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ)؟»[٤].

وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» والديلمي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألفَ آية لقي الله تعالى وهو ضاحكٌ في وجهه». فقيل: يا رسول الله، مَن يَقْوَى على ألف آية؟ فقرأ سورة (أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ) إلى آخرها؛ ثم قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنها لتعدِلُ ألفَ آيةٍ»[٥].

وذكر ناصر الدين بن الميلق[٦] في سرِّ ذلك: أنَّ القرآن ستةُ آلافٍ ومئتا آيةٍ وكسر، فإذا تركنا الكسرَ كان الألف سُدُسَ القرآن، وهذه السورة تشتمل على سُدُس من مقاصد القرآن فإنها[٧] على ما ذكره الغزالي ستة:

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٥)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٠٠، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وغيرهما السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٧.

(٢) صحيح البخاري (١٣٧٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) هو الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٩٤.

(٤) المستدرك ١/ ٥٦٦-٥٦٧، وشعب الإيمان (٢٥١٨).

(٥) المتفق والمفترق ١/ ٤٠١، وفي إسناده محمد بن جعفر الأنصاري، قال الخطيب: مجهول، والحديث غير ثابت. اهـ.

(٦) هو محمد بن عبد الدائم الشاذلي ناصر الدين ابن بنت الميلق، اعتنى بالعلم. وعانى طريق التصوف، وقال الشعر الرائق، كان واعظاً بليغاً، ولي القضاء وتوفي سنة (٧٩٧هـ). إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٧١-٢٧٢.

(٧) أي: مقاصد القرآن.

ثلاثة مهمَّة: وهي تعريفُ المدعوِّ إليه، وتعريفُ الصراط المستقيم، وتعريفُ الحال عند الرجوع إليه عز وجل.

وثلاثة مُتِمَّة: وهي تعريف أحوال المطيعين، وحكاية أقوال الجاحدين، وتعريفُ منازل الطريق.

وأحدُها معرفة الآخرة المشارُ إليه بـ: تعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى، المشتمل عليه السورة، والتعبير على هذا المعنى بألفِ آية أفخم وأجلُّ من التعبير بالسدس. انتهى. والأمرُ ـ والله تعالى أعلم ـ وراءَ ذلك.

ومناسبتها لِمَا قبلَها ظاهرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شَغَلَكم، وأصلُ اللهو الغَفْلةُ، ثم شاع في كلِّ شاغل، وخصَّه العرفُ بالشاغل الذي يسرُّ المرءَ، وهو قريبٌ من اللعب، ولذا وَرَد بمعناه كثيراً، وقال الراغب(١): اللهو ما يشغلك عما يَعني ويُهِمُّ.

وقيل ـ وليس بذاك ـ: المراد به هنا الغفلةُ، والمعنى: جعلكم لاهين غافلين.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: التباري في الكثرة والتباهي بها بأن يقول هؤلاء: نحن أكثرُ. وهؤلاء: نحن أكثر.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ حتى إذا استَوْعَبْتُم عددَ الأحياء صرتم إلى المقابر وانتقلتم إلى ذكْرِ مَن فيها، فتكاثرتُم بالأموات. فالغاية داخلة في المغيَّا، وقد تقدَّم مِن سبب النزول ما يوضح ذلك.

وعن الكلبيِّ ومقاتل أنَّ بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيُّهم أكثرُ عدداً،

(١) في المفردات (لهي).

فكَثَرَتْهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إنَّ البغي أهلَكَنا في الجاهلية، فعادُّونا بالأحياء والأموات. فكَثَرَتْهم بنو سهم[١].

وزيارة المقابر على ما تقدَّم على ظاهرِها، وأما على هذا فقد عبّر بها عن بلوغهم ذكرَ الموتى كنايةً أو مجازاً، واستُحسن جعلُه تمثيلاً.

وفي «الكشاف»[٢]: عبِّر بذلك عما ذُكر تهكُّماً بهم. ووجَّهه بعضٌ بأنَّه كأنَّه قيل: أنتم في فعلكم هذا كمن يزور القبورَ مِن غير غرضٍ صحيح. وبعضٌ آخرُ بأنَّ زيارةَ القبور للاتعاظ وتذكُّر الموت، وهم عَكَسوا فجعلوها سبباً للغفلة. وهذا أولى[٣]، والمعنى: ألهاكم ذلك، وهو لا يَغْنِيكم ولا يُجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يَعْنيكم من أمر الدين الذي هو أهمُّ وأَعْنَى من كلِّ مهمٍّ.

وحذف المُلهَى عنه للتعظيم المأخوذ من الإبهام بالحذف، والمبالغةِ[٤] في الذمِّ، حيثُ أشار إلى أنَّ ما يُلهي مذمومٌ فضلاً عن المُلهِي عن أمر الدين.

وقيل: المراد: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن مُتم وقُبِرتم مُنفِقين أعمارَكم في طلب الدنيا والاشتياقِ إليها والتهالكِ عليها إلى أن أتاكم الموتُ لا هَمَّ لكم غيرُها، عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعملِ لآخرتكم.

وصدره[٥] قد أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس، وهو وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن الحسن[٦]. وزيارة المقابر عليه عبارةٌ عن الموت، كما قال الشاعر:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠. وفي هامش الأصل زيادة: وقال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان. اهـ. وقول قتادة في المصدرين السابقين.

(٢) ٤/ ٢٨١.

(٣) في هامش الأصل: ومما يفرَّق به بين الوجهين أن المُلهي في هذا مما يهمُّ أيضاً، وإن كان المُلْهَى عنه أهمّ، ولوحظ في الأول عدم أهمية المُلهي أصلاً. اهـ.

(٤) قوله: والمبالغة، معطوف على قوله: للتعظيم.

(٥) في الأصل فوق هذه الكلمة: إلى: إلى أن مُتم.

(٦) قول ابن عباس عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٧، وقول الحسن في مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٠.

إنـي رأيـتُ الـضَّـمْـدَ(١) شـيـئـاً نُـكْـرَا
لـن يُـخـلِـصَ الـعـامَ خـلـيـلٌ عِـشْـرَا
ذاقَ الـضـمـادَ أو يـزورَ الـقَـبْـرَا(٢)

وقال جرير:

زار الـقـبـورَ أبـو مـالـك فـأصـبـح أَلْأَمَ زُوَّارِهـا(٣)

وفي ذلك إشارةٌ إلى تحقُّق البعث، يُحكى أنَّ أعرابيًّا سمع ذلك فقال: بُعِث القومُ للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرفٌ لا مقيمٌ(٤).

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لا بدَّ لمن زار أن يَرجع إلى جنةٍ أو نارٍ(٥).

وفيه أيضاً إشارةٌ إلى قِصَر زمن اللبث في القبور، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، أو لتغليبِ مَن مات أولاً، أو لجعل موتِ آبائهم بمنزلةِ موتهم. ومما يُقضى منه العجبُ قولُ أبي مسلم: إنَّ الله عز وجل يتكلَّم بهذه السورة يومَ القيامة تعييراً للكفَّار، وهم في ذلك الوقت قد تقدَّمت منهم زيارةُ القبور(٦).

وقيل: هذا تأنيبٌ على الإكثار من زيارة القبور تكثُّراً بمن سلف ومباهاةً

---

(١) جاء في هامش الأصل: في الفائق: ضَمْدُ المرأة: جمعها خليلين. اهـ. وينظر الفائق للزمخشري ٢/ ٣٤٨.

(٢) جمهرة اللغة ٣/ ٤٧٧-٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٨١، وقال ابن دريد: الضَّمْد أن يصادق الرجل امرأتين أو ثلاثاً، وكذلك المرأة، وعِشْراً: يعني المعاشرة، يقول: من ذاق الضماد واعتاده لم يُخلص معاشرةَ صديقٍ أبداً. اهـ. والأبيات في تهذيب اللغة ١٢/ ٦، واللسان وتاج العروس (ضمد) لمُدرِك بن حصن. وروايتهم: ذات الضماد. وعندهم وعند ابن دريد: لا يُخلصُ الدهرَ.

(٣) ديوان جرير ص٢٣٥.

(٤) البحر ٨/ ٥٠٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، والدر المنثور ٦/ ٣٨٧ بلفظ: ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله. وزاد ابن كثير: قال أبو محمد: يعني: أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو نار.

(٦) تفسير الرازي ٣٢/ ٧٧.

وتفاخراً به، لا اتِّعاظاً وتذكُّراً للآخرة كما هو المشروع. ويُشير إليه خبرُ أبي داود: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزُوروها فإنَّها تُذكِّركم الآخرة»[١].

ولا يخفى أنَّ الآية بمعزل عن ذلك، نعم لا كلامَ في ذمِّ زيارة القبور للتفاخر بالمَزُورِ أو للتباهي بالزيارة كما يفعل كثيرٌ من الجهلة المنتسبين إلى المتصوِّفة في زياراتهم لقبور المشايخ عليهم الرحمة، هذا مع ما لهم فيها من منكراتٍ اعتقدوها طاعاتٍ، وشنائعَ اتخذوها شرائعَ، إلى أمورٍ تضيق عنها صدورُ السطور.

وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة: «آلهاكم» بالمدِّ على الاستفهام[٢].

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في روايةٍ: «أألهاكم» بهمزتين[٣]. والاستفهامُ للتقرير.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الاشتغال بما لا يعنيه عمَّا يعنيه، وتنبيهٌ على الخطأ فيه لأنَّ عاقبتَه وخيمةٌ.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوءَ مغبَّةِ ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبتَه. والعلمُ بمعنى المعرفة المتعدِّية لواحد.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ تكريرٌ للتأكيد، و«ثم» للدلالة على أنَّ الثاني أبلغُ، كما يقول العظيم لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل. قيل: ولكونه أبلغَ نزل منزلةَ المغايِر[٤] فعُطف، وإلا فالمؤكِّد لا يعطف على المؤكَّد لِمَا بينهما من شدَّة الاتصال. وأنتَ تعلم أنَّ المنع هو رأي اللُّغويين، وقد صرَّح المفسِّرون والنحاة بخلافه.

---

(١) سنن أبي داود (٣٢٣٥)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٠٥٤) وقال: حديث حسن صحيح، وهو من حديث بريدة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٩٧٧) دون قوله: «فإنها تذكركم...».

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢٤، والبحر ٨/٥٠٨.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) في (م): المغايرة.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: الأول في القبور[(١)]، والثاني في النشور. فلا تكرير، والتراخي على ظاهره، ولا كلام في العطف.

قال الضحاك: الزجر الأول ووعيدُه للكافرين، وما بعدُ للمؤمنين[(٢)]. وهو خلاف الظاهر.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: لو تعلمون مابين أيديكم علمَ الأمر المتيقَّنِ، أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور. فالعلم مضافٌ للمفعول، و«اليقين» بمعنى المتيقَّن صفةٌ لمقدَّر. وجوَّز أبو حيان[(٣)] كون الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: العلمَ اليقينَ. وفائدةُ الوصف ظاهرةٌ بناءً على أنَّ العلم يُطلَق على غير اليقين.

وجواب «لو» محذوفٌ للتهويل، أي: لو تعلمون كذلك لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكْتَنَه، أو: لشَغَلَكم ذلك عن التكاثُر وغيره. أو نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جوابُ قَسَمٍ مضمَرٍ أُكِّد به الوعيد وشدِّد به التهديد، وأوضح به ما أُنذِرُوه بعد إبهامه تفخيماً، ولا يجوز أن يكون جواب «لو» الامتناعية؛ لأنه محقَّق الوقوع، وجوابها لا يكون كذلك.

وقيل: يجوز، ويكون المعنى: سوف تعلمون الجزاءَ، ثم قال سبحانه: لو تعلمون الجزاءَ علمَ اليقين الآن لترون الجحيمَ، يعني تكون الجحيم دائماً في نظركم لا تغيب عنكم. وهو كما ترى.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكريرٌ للتأكيد، و«ثم» للدلالة على الأبلغية. وجوِّز أن تكون الرؤيةُ الأولى إذا رأتهم من بعيد، والثانية[(٤)] إذا وردوها أو إذا دخلوها. أو الأولى إذا وردوها، والثانية إذا دخلوها. أو الأولى المعرفة، والثانيةُ المشاهدة والمعاينة.

---

(١) في الأصل فوق هذه الكلمة ما نصه: وقيل: عند الموت. اهـ منه. وقول علي ﷺ في البحر ٨/ ٥٠٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠.

(٣) في البحر ٨/ ٥٠٨.

(٤) في (م): الثاني. وهو تصحيف.

وقيل: يجوز أن يكون المراد: لترونَّ الجحيمَ غيرَ مرةٍ. إشارةً إلى الخلود، وهذا نحو التثنية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإنَّ الانكشافَ بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحقُّ بأن يكون عينَ اليقين، فـ «عين» بمعنى النفس، مثله في نحو: جاء زيدٌ نفسُه. وهو صفةُ مصدر مقدَّر، أي: رؤيةً عينَ اليقين، والعامل فيه «لَتَرَوُنَّها». وجوِّز أن يكون متنازعاً فيه للفعلين قبله، وفي إطلاقه كلامٌ لا أظنه يخفى عليك.

واليقين في اللغة على ما قال السيد السند[١]: العِلْم الذي لا شكَّ فيه. وفي الاصطلاح: اعتقادُ الشيء أنَّه كذا مع اعتقادِ أنه لا يمكن إلا كذا اعتقاداً مطابقاً للواقع غيرَ ممكن الزوال.

وقال الراغب: اليقين من صفة العلم فوقَ المعرفة والدراية وأخواتهما، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين. وهو سكونُ النفس مع ثبات الفهم[٢].

وفسَّر السيِّد اليقينَ بما سمعتَ، ونَقَل عن أهل الحقيقة عدةَ تفسيرات فيه، وعلمَ اليقين بـ: ما أعطاه الدليل من إدراك الشيء على ما هو عليه. وعينَ اليقين بـ: ما أعطاه المشاهدة والكشف، وجَعَلَ وراء ذلك حقَّ اليقين[٣]، وقال على سبيل التمثيل: علمُ كلِّ عاقل بالموت علمُ اليقين، وإذا عايَنَ الملائكة عليهم السلام فهو عين اليقين، وإذا ذاقَ الموتَ فهو حقُّ اليقين[٤].

ولهم غير ذلك، ومَبْنَى أكثرِ ما قالوه على الاصطلاح فلا تغفل.

وقرأ ابن عامر والكسائي: «لَتُرَوُنَّ» بضم التاء[٥].

---

(١) هو الجرجاني، وكلامه في كتابه التعريفات ص٣٣٢.
(٢) المفردات (يقن)، وفيه: .... وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم.
(٣) جاء في الأصل: وفسَّره بفناء العبد في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، وهو اصطلاح صوفي. اهـ منه. والكلام في التعريفات ص١٢٠.
(٤) ينظر التعريفات ص٢٠١، ٢٠٦، ١٢٠-١٢١.
(٥) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٣.

وقرأ علي كرم الله وجهه وابن كثير في رواية وعاصم كذلك بفتحها في «لَتَرَوُنَّ» وضمِّها في «لَتُرَوُنَّها». ومجاهد وأشهب وابن أبي عبلة بضمها فيهما(١).

وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلافٍ عنهما أنهما همزا الواوين(٢)، ووُجِّه بأنَّهم استثقلوا الضمَّة على الواو فهمزوا للتخفيف كما همزوا في ﴿أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١] وكان القياس ترك الهمز؛ لأنَّ الضمة حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتدُّ بها، لكنْ لَمَّا لزمت الكلمةَ بحيث لا تزول أَشْبَهتِ الحركةَ الأصلية فهمزوا، وقد همزوا من الحركة العارضة التي تزول في الوقف نحو «اشْتَرَؤُا الضلالة»(٣)، فالهمز من هذه أولى.

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ قيل: الخطاب للكفار، وحُكي ذلك عن الحسن ومقاتل، واختاره الطيبيُّ، والنعيم عامٌّ لكلِّ ما يتلذَّذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب، وكذا قيل في الخطابات السابقة. وقد رُوي عن ابن عباس أنَّه صرَّح بأنَّ الخطاب في ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦﴾ للمشركين، وحملوا الرؤية عليه على رؤية الدخول، وحملوا السؤال هنا على سؤال التقريع والتوبيخ لِمَا أنهم لم يشكروا ذلك بالإيمان به عز وجل.

والسؤال قيل: يجوز أن يكون بعدَ رؤية الجحيم ودخولها، كما يُسألون كذلك عن أشياء أُخَر على ما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] وقوله سبحانه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] وذلك لأنَّه إذ ذاك أشدُّ إيلاماً وأدعى للاعتراف بالتقصير، فـ «ثمّ» على ظاهرها. وأن يكون في موقف الحساب قبل الدخول، فتكون «ثمَّ» للترتيب الذِّكْريِّ.

وقيل: الخطاب مخصوصٌ بكلِّ مَن ألهاه دنياه عن دينه، والنعيمُ مخصوصٌ

---

(١) زاد المسير ٩/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٥٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٥٠٨.

(٣) البحر ٨/ ٥٠٨، وقراءة الهمز أجازها الكسائي كما في القراءات الشاذة ص٢، والدر المصون ١/ ١٥١، وهي لغة قيس كما في المحتسب ١/ ٥٥، وضعفها ابن جني، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٢-١٩٣، وأبو البقاء في الإملاء ١/ ٦٠.

بما شغله عن ذلك؛ لظهور أنَّ الخطاب في (أَلْهَنكُمُ) إلخ للمُلْهين فيكون قرينةً على ما ذُكِر، وللنصوص الكثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] و﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] وهذا أيضاً يحمل السؤالَ على سؤال التوبيخ، ويدخل فيما ذُكر الكفارُ وفَسَقَةُ المؤمنين.

وقيل: الخطاب عامٌّ، وكذا السؤال يعمُّ سؤالَ التوبيخ وغيرَه، والنعيمُ خاصٌّ، واختلف فيه على أقوال:

فأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن ابن مسعود مرفوعاً: «هو الأمن والصحة»(١).

وأخرج البيهقي عن الأمير عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: «النعيم»: العافية(٢).

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً: «أكلُ خبز البرِّ، والنومُ في الظلِّ، وشرب ماء الفرات مبرَّداً»(٣).

وأخرج ابن جرير عن ثابت البنانيِّ مرفوعاً: «النعيم المسؤولُ عنه يوم القيامة كسرةٌ تقوته، وماءٌ يرويه، وثوبٌ يواريه»(٤).

وأخرج الخطيب عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يفسِّره قال: «الخصاف والماء وفِلَقُ الكِسَر»(٥). ورُوي عنه وعن جابر أنه ملاذُّ المأكول والمشروب(٦).

وقال الحسين بن الفضل: هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن(٧).

---

(١) الزهد ص٤٦٧.
(٢) شعب الإيمان (٤٦١٢).
(٣) أورده أيضاً عن أبي الدرداء الديلميُّ في مسند الفردوس (٢٥٤٦).
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠٩، والحديث مرسل.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٩١، وهو في تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ١٢.
(٦) قول جابر في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وقول ابن عباس في التفسير الكبير ٣٢/ ٨٢، وروي بمعناه حديث مرفوع عن جابر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، والطبري ٢٤/ ٦٠٥.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٢، وتفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.

ويروى عن جابرِ الجُعْفيِّ من الإمامية قال: دخلتُ على الباقر رضي الله عنه، فقال: ما يقول أربابُ التأويل في قوله تعالى: (لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ)؟ فقلت: يقولون: الظلُّ والماء البارد. فقال: لو أنك أدخلتَ بيتَك أحداً وأقعدتَه في ظلٍّ وسقيتَه، أتمُنُّ عليه؟ قلتُ: لا. قال: فالله تعالى أكرم من أن يُطعِم عبدَه ويَسقيه ثم يسأله عنه. قلتُ: ما تأويله؟ قال: النعيم هو رسولُ الله ﷺ أنعم الله تعالى به على أهل العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾(١) [آل عمران: ١٦٤].

ومن رواية العياشي من الإمامية أيضاً أنَّ أبا عبد الله رضي الله عنه قال لأبي حنيفة رضي الله عنه في الآية: ما النعيم عندك يا نعمان؟ فقال: القوت من الطعام، والماء البارد. فقال أبو عبد الله: لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كلِّ أكلةٍ أكلتَها أو شربةٍ شربتَها ليطولَنَّ وقوفُك بين يديه. فقال أبو حنيفة: فما النعيم؟ قال: نحن أهلَ البيت النعيمُ، أنعم الله تعالى بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا أَلَّف الله تعالى بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم إلى الإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله تعالى سائلُهم عن حقِّ النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته عليه وعليهم الصلاة والسلام(٢).

وكِلَا الخبرين لا أرى لهما صحةً، وفيهما ما ينادي على عدم صحتهما كما لا يخفى على مَن ألقى السمع وهو شهيد.

والحقُّ عموم الخطاب والنعيم، بيدَ أن المؤمن لا يثرَّب عليه في شيء ناله منه في الدنيا، بل يُسأل غيرَ مثرَّب، وإنما يثرَّب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه الطبراني عن ابن مسعود(٣).

ويدلُّ على عموم الخطاب ما أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.

(٢) مجمع البيان ٣٠/ ٢٢٤.

(٣) في المعجم الكبير (١٠٤٩٦)، وفيه محمد بن السائب الكلبي، وهو كذاب. ينظر مجمع الزوائد ١٠/ ١١٩.

ماجه وآخرون عن أبي هريرة قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «ما أَخرَجَكُما مِن بُيوتِكُما هذه السَّاعةَ»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «والذي نَفْسِي بيدِه لأَخْرَجَني الذي أَخْرَجَكُما، فقُوموا» فقاموا معه عليه الصلاة والسلام، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته ﷺ المرأة قالت: مرحباً. فقال النبي ﷺ: «أين فلانٌ»؟. قالت: انطَلَقَ يَستعذِب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى النبي ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني. فانطلق فجاء بعِذقٍ فيه بُسر وتمرٌ، فقال: كلوا من هذا. وأخذ المديةَ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحَلوبَ» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلمَّا شبعوا ورَوُوْا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتُسأَلُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة»[1].

وفي رواية ابن حبان وابن مردويه عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ وصاحبيه انطلقوا إلى منزل أبي أيوب الأنصاريِّ، فقالت امرأته: مرحباً بنبي الله ﷺ ومَن معه. فجاء أبو أيوب فقطع عذقاً، فقال النبي ﷺ: «ما أردتُ أن تقطع لنا هذا، ألا جنيتَ من تمره؟» قال: أحببتُ يا رسولَ الله أن تأكلوا منه تمره وبُسره ورُطَبه. ثم ذبح جَدْياً فشَوَى نصفَه وطبخ نصفَه، فلمَّا وضع بين يدي النبيِّ ﷺ أخذ من الجَدْي، فجعله في رغيفٍ، وقال: «يا أبا أيوب، أبلِغْ هذا فاطمةَ - رضي الله عنها - فإنها لم تُصِب مثلَ هذا منذ أيام». فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة رضي الله عنها، فلما أكلوا وشبعوا قال النبيُّ ﷺ: «خبزٌ ولحمٌ، وتَمْر وبُسْرٌ ورُطَبٌ - ودَمَعَتْ عيناه عليه الصلاة والسلام - والذي نفسي بيده إن هذا لهو النعيمُ الذي تُسأَلون عنه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهذا النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة». فكَبُر ذلك على أصحابه، فقال عليه الصلاة والسلام: «بلى، إذا أصبتُم مثلَ هذا فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله.

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٨)، وسنن الترمذي (٢٣٦٩)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٣٣)، وسنن ابن ماجه (٣١٨٠) و(٣١٨١). وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر ٦/٣٨٩، ولم نقف عليه في سننه.

فإذا شبِعتُم فقولوا: الحمد لله الذي أشبَعَنا وأنعَمَ علينا وأفضل. فإنَّ هذا كفافٌ بذاك»[١].

وليس المراد في هذا الخبر حصرَ النعيم مطلقاً فيما ذُكر، بل حصر النعيم بالنسبة إلى ذلك الوقت الذي كانوا فيه جياعاً، وكذا فيما يصحُّ من الأخبار التي فيها الاقتصار على شيء أو شيئين أو أكثر، فكلُّ ذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خُصَّت بالذكر لأمر اقتضاه الحالُ، ويؤيِّد ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في غير رواية عند ذكر شيء من ذلك: «هذا من النعيم الذي تُسألون عنه» بـ «من» التبعيضية.

وفي «التفسير الكبير»: الحقُّ أنَّ السؤال يعمُّ المؤمنَ والكافرَ عن جميع النِّعَم، سواءٌ كان ما[٢] لا بدَّ منه أو لا؛ لأنَّ كلَّ ما يَهَبُ الله تعالى يجب أن يكون مصروفاً إلى طاعته سبحانه لا إلى معصيته عز وجل، فيكون السؤالُ واقعاً عن الكلِّ، ويؤكِّده قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما العبد حتى يُسأَل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عَمِل به»[٣]، لأنَّ كلَّ نعيم داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام[٤].

ويُشْكِلُ عليه ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» والديلميُّ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يُحاسَب بهنَّ العبدُ: ظلُّ خُصٍّ يَستظلُّ به، وكسرةٌ يَشُدَّ بها صلبَه، وثوبٌ يُواري به عورتَه»[٥].

وأجيب بأنَّه إن صحَّ فالمراد: لا يناقشُ الحسابَ بهنَّ. وقيل: المراد: ما يضطرُّ العبد إليه من ذلك لحياته. فتأمَّل.

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٢١٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٩.

(٢) في التفسير الكبير: مما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، وقد سلف عند تفسير الآية (٢٤) من سورة الصافات.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢-٨٣.

(٥) الزهد ص١٨، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٦٨)، ولم نقف عليه عند الديلمي.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ الطعام الذي يُؤكل مع اليتيم لا يُسأَل عنه، وكأنَّ ذلك لأنَّ في الأكل معه جبراً لقلبه وإزالةً لوحشته، فيكون ذلك بمنزلة الشكر، فلا يُسأل عنه سؤالَ تقريع. وفي القلب من صحَّة ذلك شيء. والله تعالى أعلم.

(١٠٣) سُورَةُ العَصْرِ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا ثَلَاثٌ

سورة العصر مكية ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان ، لتوضيح سبب سعادة الإنسان وخسارته ، ونجاحه في هذه الحياة أو دماره. أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان ، على أن هذا النوع البشري في خسارةٍ وهلاك إلا من انصف بالأوصاف الأربعة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فمن باع آخرته بدنياه فهو في غاية الخسران ، وأي خسران أعظم ممن خسر دنياه وآخرته !! وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : « لو لم ينزل الله على الناس سوى هذه السورة لكفتهم » .

● ● ●

سورة العصر

ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالاً:

الأول: أَنَّهُ الدهر، واحتج هذا القائل بوجوه: **أحدها:** ما روي عن النبي ﷺ أنه أقسم بالدهر(١)، وكان عليه السلام يقرأ: (والعصر ونوائب الدهر) إلا أنا نقول: هذا مفسد للصلاة، فلا نقول: إنه قرأه قرآنًا بل تفسيرًا، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره في: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ [الإنسان: ١] ردًّا على فساد قولهم بالطبع والدهر. **وثانيها:** أن الدهر مشتمل على الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم، فإنه مجزأ مقسم بالسنة، والشهر، واليوم، والساعة، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة، وكونه ماضيًا ومستقبلاً، فكيف يكون معدومًا؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة، والماضي والمستقبل معدومان، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود؟ **وثالثها:** أن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيعت ألف سنة، ثم تُبتَ في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد، فعلمت حينئذٍ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] **ورابعها:** وهو أن قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] إشارة إلى المكان والمكانيات، ثم قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات، وقد بينا هناك أن الزمان أعلى وأشرف من المكان، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسمًا بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته. **وخامسها:** أنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان. **وسادسها:** أنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عين

(١) لم أجده.

الخسران، ولذلك قال: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ ومنه قول القائل:

إنَّـا لَـنَـفْـرَحُ بِـالأَيَّـام نَـقْـطَـعُـهَـا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الأَجَلِ(١)

فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر.

والقول الثاني وهو قول أبي مسلم: المراد بالعصر أحد طرفي النهار، والسبب فيه وجوه أحدها: أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعًا من دلائل القدرة، فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين، وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسرًا، فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر. **وثانيها:** قال الحسن رحمه الله: إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهًا على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ما هو حقه، فحينئذٍ تخجل فتكون من الخاسرين، فكذا نقول: والعصر، أي عصر الدنيا، قد دنت القيامة و(أَنْتَ) بعد لم تستعد، وتعلم أنك تُسأل غدًا عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك، وتُسأل في معاملتك مع الخلق، وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك فإذا أنت خاسر، ونظيره: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، **وثالثها:** أن هذا الوقت معظم، والدليل عليه قوله عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بَعْدَ الْعَصْرِ كَاذِبًا لاَ يُكَلِّمُهُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢) فكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح وبشَّر الرسول أن أمره إلى الإقبال، وههنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعض النهار باق فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة، وعن بعض السلف: تعلمت معنى السورة من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله. فقلت: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر.

القول الثالث وهو قول مقاتل: أراد صلاة العصر، وذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنه تعالى أقسم

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة للشاعر نافع الخفاجي وهو نافع بن الجوهري بن سليمان بن حسن مصطفي الخفاجي التلباني ١٢٥٠ - ١٣٣٠ هـ/ ١٨٣٤ - ١٩١٢م فاضل، كثير النظم، من أهل (تلبانة) من قرى المنصورة بمصر، تعلم في الأزهر، وعاد إلى قريته وتوفي بها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الشرب والمساقاة) باب (إثم من منع ابن السبيل من الماء) (٥/ ٤٢) حديث رقم (٢٣٥٨) ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان غلظ تحريم إسبال الإزار) (١/ ١٧٣/ ١٣) كلاهما من طريق الأعمش. . . به بلفظ: (ورجل حلف على سلعة بعد العصر كاذبًا. . .) وابن منده في (الإيمان) (٢/ ٦٥١) حديث رقم (٦٢٢) وأبو عوانة في (مستخرجه) (١/ ٥٩) حديث رقم (٩٥) وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٣/ ٥٧) حديث رقم (٣٧٧٧) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . بلفظه.

بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله: (الصلاة الوسطى، صلاة العصر) في مصحف حفصة وقيل في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦]: إنها صلاة العصر. **وثانيها:** قوله عليه السلام: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»(١) **وثالثها:** أن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم. **ورابعها:** روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول: دلوني على النبي ﷺ! فرآها رسول الله ﷺ فَسَأَلَهَا: «مَاذَا حَدَثَ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي غَابَ عَنِّي فَزَنَيْتُ فَجَاءَنِي وَلَدٌ مِنَ الزِّنَا، فَأَلْقَيْتُ الْوَلَدَ فِي دَنٍّ مِنَ الْخَلِّ حَتَّى مَاتَ، ثُمَّ بِعْنَا ذَلِكَ الْخَلَّ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَّا الزِّنَا فَعَلَيْكِ الرَّجْمُ، أَمَّا قَتْلُ الْوَلَدِ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، وَأَمَّا بَيْعُ الْخَلِّ فَقَدِ ارْتَكَبْتِ كَبِيرًا، لَكِنْ ظَنَنْتُ أَنكِ تَرَكْتِ صَلَاةَ صَلَاةَ الْعَصْرِ»(٢) ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة. **وخامسها:** أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال، فكما تجب الوصية بالتوبة، كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها، فأقسم بهذه الصلاة تفخيمًا لشأنها، وزيادة توصية المكلف على أدائها، وإشارة منه أنك إن أديتها على وجهها عاد خسرانك ربحًا، كما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٧] **وسادسها:** قال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ -[عَدَّ] مِنْهُمْ- رَجُلٌ حَلَفَ بَعْدَ الْعَصْرِ كَاذِبًا»(٣) فإن قيل: صلاة العصر فعلنا، فكيف يجوز أن يقال: أقسم الله تعالى به؟ والجواب: أنه ليس قسمًا من حيث إنها فعلنا، بل من حيث إنها أمر شريف تعبَّدنا الله تعالى بها.

القول الرابع: أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام: «إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الظُّهْرِ بِقِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ بِقِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ؟ فَعَمِلْتُمْ أَنْتُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ أَجْرًا! فَقَالَ اللَّهُ: وَهَلْ نَقَصْتُ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَهَذَا فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ. فَكُنْتُمْ أَقَلَّ عَمَلًا وَأَكْثَرَ أَجْرًا»(٤) فهذا الخبر دل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأمته، فلا جرم أقسم الله به، فقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي والعصر الذي أنت فيه. فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم حال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (مواقيت الصلاة) باب (إثم من فاتته العصر) (٢/ ٣٧) حديث رقم (٥٥٢) من طريق مالك عن نافع... به ومسلم في كتاب (المساجد) باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (١/ ٢٠٠/ ٤٣٥) من طريق مالك... به وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٤) من طريق عبيد الله... به، كلاهما (عبيد الله، مالك) عن نافع... به.

(٢) لم أجده. (٣) تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الإجارة) باب (الإجارة إلى نصف النهار) (٢/ ٧٩١) حديث رقم (٢١٤٨) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٦) حديث رقم (٤٥٠٨) كلاهما من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر... به.

الظرف فقس حال المظروف، ثم وجه القسم، كأنه تعالى يقول: أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم، وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك، فما أعظم خسرانهم وما أجل خذلانهم!!

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الألف واللام في الإنسان يحتمل أن تكون للجنس، وأن تكون للمعهود السابق، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين: **الأول:** أن المراد منه الجنس، وهو كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان. **والقول الثاني:** المراد منه شخص معين، قال ابن عباس: يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب. وقال مقاتل: نزلت في أبي لهب، وفي خبر مرفوع: إنه أبو جهل، وروي أن هؤلاء كانوا يقولون: إن محمدًا لفي خسر، فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما يتوهمون.

المسألة الثانية: الخسر: الخسران، كما قيل: الكفر في الكفران، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال، ثم فيه تفسيران، وذلك لأنا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله؛ لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء، فحينئذٍ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ ولم يقل: (لفي الخسر) لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير أخرى، فإن حملنا على الأول كان المعنى: إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم، وإن حملناه على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان، وفيه بشارة أن في خلقي من هو أعصى منك، والتأويل الصحيح هو الأول.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيد التوحيد، مع أنه في أنواع من الخسر. **والجواب:** أن الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه، وأما البواقي وهو الحرمان عن الجنة والوقوع في النار، فبالنسبة إلى الأول كالعدم، وهذا كما أن الإنسان في وجوده فوائد، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي لما كان هذا المقصود أجَلّ المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم.

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر: **أحدها:** قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران، وأنه أحاط به من كل جانب. **وثانيها:** كلمة (إنَّ)، فإنها للتأكيد. **وثالثها:** حرف اللام في ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾.

وههنا احتمالان:

الأول: في قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في طريق الخسر، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] لما كانت عاقبته النار.

الاحتمال الثاني: أن الإنسان لا ينفك عن خسر؛ لأن الخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضًا حاصل، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنًا من أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائمًا، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وتَرْك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران، فثبت أن الإنسان لا ينفك ألبتة عن نوع خسران.

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب؛ فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في الخسران والبوار، **فإن قيل:** إنه تعالى قال في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين: ٤، ٥] فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاء إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال، فكيف وجه الجمع؟ **قلنا:** المذكور في سورة التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مرارًا، **ثم ههنا مسائل:**

المسألة الأولى: احتج من قال: العمل غير داخل في مسمى الإيمان، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان، ولو كان عمل الصالحات داخلاً في مسمى الإيمان لكان ذلك تكريرًا، ولا يمكن أن يقال: هذا التكرير واقع في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[الأحزاب: ٧] وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[البقرة: ٩٨] لأنا نقول هناك: إنما حسن لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلي، وعمل الصالحات

ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان، فبطل هذا التأويل. قال الحليمي: هذا التكرير واقع لا محالة؛ لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات، لكن قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشتمل على الإيمان، فيكون قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مغنيًا عن ذكر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأيضًا فقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشتمل على قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فوجب أن يكون ذلك تكرارًا، أجاب الأولون وقالوا: إنا لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد، لكن الأصل عدمه، وهذا القدر يكفي في الاستدلال.

المسألة الثانية: احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية، قالوا: الآية دلت على أن الإنسان في الخسارة مطلقًا، ثم استثنى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما، فعلمنا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة، لا بد وأن يكون في الخسار في الدنيا وفي الآخرة، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين في غاية القلة، وكان الخسار لازمًا لمن لم يكن مستجمعًا لهما، كان الناجي أقل من الهالك، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيمًا حتى لا تكون أنت من القليل، كيف والناجي أقل؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشد؟!

المسألة الثالثة: أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة: **أحدها:** أنه تسلية للمؤمن من فوت عمره وشبابه؛ لأن العمل قد أوصله إلى خير من عمره وشبابه. **وثانيها:** أنه تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الصلاح، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد. **وثالثها:** قالت المعتزلة: تسمية الأعمال بالصالحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على ما يقوله الأشعرية، لكن الأمر إنما ورد لكونها في أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح. وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر.

المسألة الرابعة: لسائل أن يسأل فيقول: إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب، وفي جانب الربح ذكر السبب، وهو الإيمان والعمل الصالح، ولم يذكر الحكم فما الفرق؟ **قلنا:** إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل، وهو الإقدام على المعصية، يحصل بالترك، وهو عدم الإقدام على الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل، وفي جانب الربح فصَّل وبيَّن، وهذا هو اللائق بالكرم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ .

فاعلم أنه تعالى لما بيَّن في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر، وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضًا سببًا لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون

عليه أهل الدين، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب، وفي اجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية فيها وعيد شديد، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتيًا بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وإنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ﴾ [لقمان: ١٧]وقال عمر: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ ولم يقل: (ويتواصون) لئلا يقع أمرًا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل.

المسألة الرابعة: قرأ أبو عمرو: (بالصبر) بشم الباء شيئًا من الحرف، لا يشبع، قال أبو علي: وهذا مما يجوز في الوقف، ولا يكون في الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وهذا لا يكاد يكون في القراءة، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ: (والعصِر) بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفَس أو لعارض منعه من إدراج القراءة، وعلى هذا يُحمل لا على إجراء الوصل مجرى الوقف.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «والعصر»

وهي مكيةٌ، وقال قتادةُ: مدنِية. وروي عن ابن عباس[١]. وهي ثلاث آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ①﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي: الدهر؛ قاله ابنُ عباس وغيرُه[٢]. فالعصرُ مِثلُ الدهر، ومنه قولُ الشاعر:

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهَوَى غَمْرُ ... ويَوْمُ الهَوَى شَهْرٌ وشَهْرُ الهوى دَهْرُ[٣]

أي: عصر.

أقسم الله به عزَّ وجلَّ؛ لِمَا فيه من التنبيه بتصرُّفِ الأحوال وتبدُّلها، وما فيها من الدلالةِ على الصانع.

وقيل: العصر[٤]: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

ولَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ يَومٌ ولَيلةٌ ... إذا طَلَبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّما[٥]

---

(١) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٧ .

(٤) في الصحاح (عصر) والكلام منه: العصران.

(٥) ديوان حميد بن ثور ص٨ ، وإصلاح المنطق ص ٤٣٧ ، والصحاح (عصر). قوله: يومٌ وليلةٌ، هو =

والعصران أيضاً: الغَدَاةُ والعَشيُّ؛ قال:

وأَمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلَّني ويَرْضَى بِنِصْفِ الدَّينِ والأنْفُ راغِمُ[١]

يقول: إذا جاءني أولَ النهار وَعَدْتُه آخِرَه.

وقيل: إنه العشيُّ، وهو ما بين زوالِ الشمسِ وغروبِها؛ قاله الحسن وقتادةُ، ومنه قولُ الشاعر:

تَرَوَّحْ بنا يا عمرو قد قَصُرَ العَصْرُ وفي الرَّوْحةِ الأُولَى الغنيمةُ والأَجْرُ[٢]

وعن قتادة أيضاً: هو آخرُ ساعةٍ من ساعات النهار[٣].

وقيل: هو قَسَمٌ بصلاةِ العصر، وهي الوسطى؛ لأنَّها أفضلُ الصلوات؛ قاله مقاتل[٤]. يقال: أُذِّن للعصر، أي: لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر، أي: صلاةُ العصر. وفي الخبر الصحيح: «الصلاةُ الوسْطَى: صلاةُ العصر». وقد مضى في سورة البقرة بيانُه[٥].

وقيل: هو قسمٌ بعصر النبيِّ ﷺ، لفَضْلِه بتجديد النبوَّةِ فيه[٦]. وقيل: معناه: وربِّ العصر.

= بدل من العصرين، يقول: إذا طلبا شيئاً بَلَغاه وأدركاه، لا يفوتهما شيءٌ. وتيمما: قصدا، جعل الهلاك الذي يقع فيهما كأنه من فِعْلهما، وبقَصْدهما يقع. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٥٩٤ .

(١) إصلاح المنطق ص ٤٣٧ ، والأضداد لابن الأنباري ص ٢٠٢ ، والصحاح (عصر) والكلام منه، وهو في ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٧ برواية: ويرضى ببعض الدَّين في غير نائلِ. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٩٥ : يقول: أَمْطُل غريمي؛ إذا جاءني في أول النهار وعدته آخر النهار، وإذا جاءني في آخر النهار وعدته في أول اليوم الذي يأتي بعده.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والكلام منه، واللسان (عصر)، وصدره في تهذيب اللغة ٢/ ١٤ ، ووقع في (د) و(ز) و(ي): يروح بنا عمرو وقد...، وهو موافق لرواية البيت في العين ١/ ٢٩٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٤ بلفظ: ساعة من ساعات النهار.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والوسيط ٤/ ٥٥١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) ٤/ ١٧٧ ، وهو في سنن الترمذي (١٨١) من حديث ابن مسعود ﷺ، و(١٨٢) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ .

الثانية: قال مالك: مَن حلَف ألَّا يكلِّم رجلاً عَصْراً لم يكلِّمه سنةً. قال ابن العربيِّ[١]: إنَّما حمل مالكٌ يمينَ الحالِفِ ألَّا يكلِّمَ امرَأً عَصْراً على السنة؛ لأنَّه أكثرُ ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيُّ: يَبَرُّ بساعةٍ، إلَّا أن تكون له نيةٌ، وبه أقول، إلَّا أن يكون الحالفُ عربيّاً، فيقال له: ما أَرَدْتَ؟ فإذا فسَّره بما يحتملُه قُبِل منه، وإن كان الأقل[٢]، ويجيءُ على مذهب مالكٍ أن يُحملَ على ما يفسِّر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

هذا جوابُ القسم. والمرادُ به الكافر؛ قاله ابن عباسٍ في روايةِ أبي صالح[٣]. وروى الضحاك عنه قال: يريدُ جماعةً من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّى، والأسود بن عبد يغوث[٤].

وقيل: يعني بالإنسان جِنْسَ الناس[٥].

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: لفي غَبْن. وقال الأخفش: هَلَكَةٍ. الفرَّاء[٦]: عقوبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]. ابن زيد: لفي شرٍّ[٧]. وقيل: لفي نَقْصٍ. والمعنى متقارب.

وروي عن سلام: «والعَصِر» بكَسْرِ الصَّاد[٨]. وقرأ الأعرجُ وطلحةُ وعيسى الثَّقَفيُّ: «خُسُرٍ» بضم السين. ورَوى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم[٩]. والوجهُ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٧ .

(٢) في النسخ: إلا أن يكون الأقل، والمثبت من أحكام القرآن.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٨٦ .

(٥) قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٥٩ : هو كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، تريد: الدراهم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٩ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٣٤ عن زيد بن أسلم.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٧٩ .

(٩) المصدر السابق.

فيهما الإِتْباع. ويقال: خُسْر وخُسُر، مثل عُسْرٍ وعُسُر[(١)].

وكان عليٌّ يقرؤها: «والعَصْرِ ونَوائبِ الدَّهْر، إنَّ الإنسان لفي خُسْر. وإنَّه فيه إلى آخِر الدهر»[(٢)].

وقال إبراهيم: إنَّ الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم، لفي نَقْصٍ وضَعْفٍ وتراجُعٍ، إلَّا المؤمنين، فإنَّهم تُكتبُ لهم أجورُهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. قال: وقراءتُنا: «والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ، وإنَّه في آخِرِ الدَّهر»[(٣)]. والصحيحُ ما عليه الأمةُ والمصاحفُ. وقد مضى الردُّ في مقدِّمة الكتابِ على مَن خَالفَ مصحفَ عثمان، وأنَّ هذا ليس بقرآنٍ يُتلى؛ فتأمَّلْه هناك[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناءٌ من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناسِ على الصحيح. قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أدَّوا الفرائضَ المفترَضَة عليهم، وهم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ.

قال أبيّ بنُ كعب: قرأتُ على رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم قلتُ: ما تفسيرُها يا نبيَّ الله؟ قال: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قَسَمٌ من الله، أَقْسَمَ ربُّكم بآخِرِ النهار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى

---

(١) نقل الجوهري في الصحاح (عصر) عن عيسى بن عمر قال: كل اسم على ثلاثة أحرف، أوله مضموم وأوسطه ساكن، فمِن العرب مَن يثقِّله، ومنهم مَن يخفِّفه. وقال السمين في الدر المصون ٢/ ٢٨٥ : اختلف النحاة؛ هل الضم أصل والسكون تخفيف، أو الأصل السكون والضم للإتباع؟ والأول أظهر لأنه المفهوم في كلامهم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦١٣ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد بلفظ: «والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر». الدر المنثور ٦/ ٣٩٢ .

(٤) ١/ ١٢٦ .

﴿خُسْرٍ﴾ أبو جهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أبو بكر ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عليّ» رضي الله عنهم أجمعين[1]. وهكذا خَطبَ ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه.

ومعنى ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي: تَحابُّوا؛ أوصى بعضُهم بعضاً، وحثَّ بعضُهم بعضًا. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس. وقال قتادة: «بِالحقِّ» أي: بالقرآن. وقال السدِّيُّ: الحقُّ هنا هو اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله عزَّ وجلَّ، والصبرِ عن معاصيه[2]. وقد تقدَّم[3]. والله أعلم.

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٥١.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٤.

(٣) ص٣٠٦ من هذا الجزء.

سُورَةُ العَصر

مكيَّةٌ، وآيُها ثلاثٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ أقسَمَ بصَلاةِ العَصرِ لفَضلِها[1]، أو بعصرِ النبوَّةِ، أو بالدَّهرِ لاشتِمالِهِ على الأعاجيبِ والتَّعريضِ بنفي ما يضافُ إليه مِن الخُسرانِ.

(٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾: إنَّ النَّاسَ لفي خسرانٍ في مَساعيهِم وصَرْفِ أَعمارِهِم في مَطالِبِهِم، والتَّعريفُ للجنسِ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

(٣) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّهُم اشتَرَوا الآخرةَ بالدُّنيا ففازُوا بالحياةِ الأَبديَّةِ والسَّعادَةِ السَّرمديَّةِ.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾: بالثَّابتِ الذي لا يَصِحُّ إنكارُهُ مِن اعتقادٍ أو عَمَلٍ.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ عَنِ المَعاصِي، أو على الحقِّ، أو ما يبلو اللهُ بهِ عِبادَه، وهذا مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ للمُبالغَةِ، إلَّا أن يُخَصَّ العَمَلُ بما يكونُ مَقْصُورًا على كمالِه.

ولعلَّهُ سُبحانَهُ إنَّما ذكرَ سببَ الرِّبحِ دونَ الخُسْرانِ اكتِفاءً ببيانِ المَقصودِ،

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لفضله».

وإشـعارًا بـأنَّ مـا عدا ما عُـدَّ[١] يُؤدِّي إلى خسـرٍ ونقـصِ حـظٍّ، وتكرُّمًا؛ فـإنَّ الإبهامَ في جانـبِ الخسـرِ كَرَمٌ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ العَصرِ غفرَ اللهُ له وكانَ ممَّنْ تواصَى بالحقِّ وتواصَى بالصَّبرِ»[٢].

***

(١) في نسخة الخيالي: «بأن ما عداه».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٣٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥١)، بلفظ: «من قرأ سورة والعصر ختم الله له بالصبر، وكان مع أصحاب الحق يوم القيامة»، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٣) سورة العصر مكية
وآياتها ثلاث

ذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال زيد بن أسلم: هو العصر. والمشهور الأول، فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وتواصوا بالحق﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي، ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

[آخر تفسير سورة العصر، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة العصر

وهى مكية.

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب [لعنه الله] [(١)] ، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ قال [(٢)]: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هى ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . ففكر مسيلمة هُنَيهة ثم قال : وقد أنزل على مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وَبْر يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصَدْر ، وسائرك حفز نَقْز . ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو :والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب [(٣)] .

وقد رأيت أبا بكر الخرائطى أسند [(٤)] فى كتابه المعروف بـ « مساوى الأخلاق » ، فى الجزء الثانى منه ،شيئاً من هذا أو قريباً منه [(٥)] .

والوبْر : دويبة تشبه الهر ، أعظم شىء فيه أذناه ، وصدره وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان فى ذلك الزمان .

وذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الله بن حصن [أبى مدينة] ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر [(٦)] .

وقال الشافعى ، رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة ، لوسعتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى م : « فقال » .

(٣) وفى صحة هذه القصة نظر ؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة ، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر من الهجرة، وكان قد وفد على النبى ﷺ مع قومه سنة عشرة من الهجرة ، كما فى السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٤) . وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما فى الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٢) . ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٢٢٥) : أن عمراً بن العاص أرسله رسول الله ﷺ إلى البحرين وتوفى رسول الله ﷺ وهو هناك وأنه مرَّ على مسيلمة وأنه أعطاه الأمان ثم قال له : إن محمداً أرسل فى جسيم الأمر وأرسلت فى المحقرات . . .فذكر نحو القصة ، وعزاه لابن شاهين فى الصحابة ، فعلى هذا يكون ما جاء هنا بعد إسلام عمرو بن العاص وليس قبل إسلامه ، والله أعلم .

(٤) فى أ : « استدل » .

(٥) لم أقف عليه فى المطبوع من مساوئ الأخلاق ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن ابن شاهين وصل هذه القصة من طريق الليث عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : « أن قرة بن هبيرة قدم على رسول الله . . . ثم ذكر أن رسول الله أرسل عمراً إلى البحرين ، فذكر نحو القصة » . انظر : الإصابة (٣/ ٢٢٥).

(٦) المعجم الأوسط برقم (٥٠٩٧) « مجمع البحرين » .

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ .

العصر : الزمان الذى يقع فيه حَركاتُ بنى آدم ، من خير وشر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو العَشى ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر ، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

آخر تفسير سورة « العصر » ولله الحمد والمنة

سورة العصر

مكّيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ أقسمَ سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر،[1] أو بالعشيّ الذي هو ما بين الزوال والغروبِ، كما أقسمَ بالضحى، أو بعصر النبوّة لظهور فضله على سائر الأعصار، أو بالدهر لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي: خسران في متاجرهم ومساعيهم، وصَرْف أعمارهم في مباغيهم. والتعريف للجنس، والتنكير للتفخيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنّهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس، واشترَوا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها مِن صفقة ما أربَحَها. وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾... إلى آخره، بيان لتكميلهم لغيرهم، أي: وصّى بعضهم بعضًا بالأمر الثابت الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، ولا زوالَ في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كلّه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ، واتّباع كتبه ورسله في كلّ عقد وعمل.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي: عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحُكم الجِبلّة البشريّة، وعلى الطاعات التي يشقّ عليها أداؤها، أو على ما يبلو[2] الله عزّ وجلّ به عباده.

---

[1] وفي هامش م: وهي المرادة بالصلاة الوسطى، أي: الفُضلى. «منه».

[2] س ي: يتلو.

وتخصيصُ هذا التواصي بالذِّكر مع اندراجه تحت التواصي بالحقّ لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأنّ الأوّل عبارة عن رُتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبوديّة التي هي الرِّضى بما فعل الله تعالى، فإنّ المراد بالصبر ليس مجرّد حبس النفس عمّا تَتُوق إليه مِن فعل وتَرْك؛ بل هو تلقّي ما ورد منه تعالى بالجميل والرِّضى به ظاهرًا وباطنًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة العصر غفر الله تعالى له، وكان ممّن تواصى بالحقّ وتواصى بالصبر».[1]

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٣

سورة والعصر

مكية أو مدنية، ثلاثُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والعَصْرِ﴾: الدهر، أو ما بعد الزوال إلى الغروب أو صلاةِ العصر، ٢ ـ ﴿إنَّ الإنسانَ﴾ الجِنسَ ﴿لَفِي خُسرٍ﴾ في تِجارته، ٣ ـ ﴿إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ فليسوا في خُسرانٍ، ﴿وتَواصَوا﴾: أوصى بعضهم بعضًا ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: الإيمان، ﴿وتَواصَوا بِالصَّبرِ﴾ على الطاعة وعن المعصية.

سُورَةُ العَصْرِ

قولُهُ: (الدَّهرِ) لاشتِمالِهِ على الأعاجيبِ، أو عصرِ النُّبوَّةِ لفضلِهِ.

قولُهُ: (في تِجَارَتِه) أي: في مَساعيهِم وصَرفِ أعمارِهِم في مَطالِبِهِم.

قولُهُ: (فَلَيسُوا) فإنَّهم اشتَروا الآخِرَةَ بالدُّنيا، ففازوا بالحياةِ الأبديَّةِ والسَّعادةِ السَّرمَديَّةِ.

قولُهُ: (أي: بالإيمَانِ) أو بالثَّابتِ الذي لا يصِحُّ إنكارُهُ من اعتِقادٍ أو عمَلٍ، وقيلَ: باللهِ.

قولُهُ: (وعَنِ المَعصِيَةِ) أو على الحقِّ، أو على المصيبَةِ، وهذا تَخصيصٌ بعد تَعميمٍ للمُبالَغَة، والله تعالى أعلمُ.

* * *

سُورَةُ العَصْرِ

مكيةٌ في قول ابن عباس وابن الزبير والجمهور، ومدنيةٌ في قول مجاهد وقتادة ومقاتل[١].

وآيها ثلاث بلا خلاف، وهي على قصرها جَمَعتْ من العلوم ما جَمَعتْ؛ فقد رُوي عن الشافعي عليه الرحمة أنَّه قال: لو لم ينزل غيرُ هذه السورة لكفت الناس[٢]؛ لأنَّها شملت جميعَ علوم القرآن.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب» عن أبي مدينة[٣] ـ وكانت له صحبة ـ قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورةَ «والعصر»، ثم يسلِّم أحدُهما على الآخر.

وفيها إشارة إلى حالِ مَن لم يُلهِه التكاثُر، ولذا وُضعت بعد سورته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ①﴾ قال مقاتل: أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها؛ لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى،

---

(١) البحر ٨/ ٥٠٩.

(٢) حاشية الشهاب ٩/ ٣٩٥، وفي مفتاح دار السعادة ١/ ٥٦: قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكَفَتْهم. ومثله في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) في الأصل و(م): حذيفة، وفي الدر المنثور ٦/ ٣٩٢: مليكة الدارمي، وجاء في شعب الإيمان (٩٠٥٧): الدارمي، ولم يذكر الكنية، والمثبت من المعجم الأوسط (٥١٢٠)، والإصابة ٦/ ٥٧، وقال الطبراني: قال علي بن المديني: اسم أبي مدينة عبد الله بن حصن. اهـ.

صلاةِ العصر»[١]. ولما في مصحف حفصة: «والصلاة الوسطى صلاةِ العصر»[٢]. وفي الحديث: «مَن فاتته صلاةُ العصر فكأنما وُتِر أهلَه ومالَه»[٣]. ورُوي أنَّ امرأةً كانت تصيح في سكك المدينة: دلُّوني على رسول الله ﷺ. فرآها عليه الصلاة والسلام فسألها: «ماذا حدث»؟ فقالت: يا رسول الله، إنَّ زوجي غاب، فزنيت فجاءني ولدٌ من الزنى فألقيتُ الولدَ في دَنِّ خَلٍّ فمات، ثم بعت ذلك الخلّ، فهل لي من توبة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما الزنى فعليكِ الرَّجْمُ بسببه، وأما القتلُ فجزاؤه جهنمُ، وأما بيع الخلِّ فقد ارتكبتِ كبيراً، لكن ظننتُ أنكِ تركتِ صلاةَ العصر». ذكر ذلك الإمام[٤]، وهو لعمري إمامٌ في نقل مثل ذلك مما لا يعوَّل عليه عند أئمة الحديث، فإياك والاقتداءَ به.

وخُصَّت بالفضل لأنَّ التكليفَ في أدائها أشقُّ؛ لتهافُتِ الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخرَ النهار، واشتغالهم بمعايشهم.

وقيل: أقسم عز وجل بوقت تلك الصلاة لفضيلة صلاته، أو لخلق آدم أبي البشر عليه السلام فيه من يوم الجمعة، والى هذا ذهب قتادة؛ فقد رُوي عنه أنه قال: العصرُ العشيُّ، أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة[٥].

وقال الزجَّاج: العصر اليوم، والعصر الليلة. وعليه قولُ حميد بن ثور:

ولم يلبَثِ العصران يومٌ وليلةٌ   إذا طَلَبَا أن يُدرِكا ما تَيمَّمَا[٦]

وقيل: العصر بُكرةٌ، والعصر عشِيَّةٌ. وهما الأبردان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٦)، ومسلم (٦٢٧) من حديث علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٣٤٨، وأخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٣٩ برواية: «وصلاة العصر» بالواو، وهي أصح إسناداً من الأولى كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٢٨٣.

(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة محمد.

(٤) في التفسير الكبير ٣٢/ ٨٥، ولم نقف عليه عند غيره.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣، والبحر ٨/ ٥٠٩.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٩، والبيت في إصلاح المنطق ص٤٣٧، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٦٣، والبحر ٨/ ٥٠٩، وديوان حميد بن ثور، ورواية الديوان: يوماً وليلةً. بالنصب. والمعنى: إذا طلب العصران شيئاً بلغاه وأدركاه، لا يفوتهما شيءٌ. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٥٩٤.

وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غيرِ معيَّن.

وقيل: المراد به عصرُ النبوَّة. وكأنه عنى به وقتَ حياته عليه الصلاة والسلام، فإنه أشرفُ الأعصار؛ لتشريف النبيِّ ﷺ.

وقيل: هو زمان حياته ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة، ومقدارُه فيما مضى من الزمان مقدارُ وقت العصر من النهار، ويُؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»(١). وشرفُه لكونه زمانَ النبيِّ ﷺ وأمتِه التي هي خيرُ أمة أخرجت للناس، ولا يضرُّه تأخيرُه كما لا يضُرُّ السنانَ تأخُّره عن أطراف مُرَّانه، والنَّورَ تأخُّرُه عن أطراف أغصانه.

وقال ابن عباس: هو الدهر، أقسم عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب، ولذا قيل له: أبو العَجَب، وكأنَّه تعالى يذكِّر بالقسم به ما فيه من النِّعَم وأضدادِها لتنبيه الإنسان المستعدِّ للخسران والسعادة، ويعرِّض عز وجل لِمَا في الإقسام به من التعظيم بنفي أن يكون له خسرانٌ أو دخلٌ فيه كما يزعمه من يُضيف الحوادثَ إليه، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان إشعارٌ بأنه صفةٌ له، لا للزمان، كما قيل:

يَعيبون الزمانَ وليس فيه   معايبُ غيرَ أهلٍ للزمان

وتُعقِّب بأنَّ استعمالَ العصر بذلك المعنى غيرُ ظاهر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ أي: خسرانٍ في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها في الآخرة، بل ربما تضرُّ بهم إذا حَلُّوا الساهرةَ.

والتعريفُ للاستغراق بقرينة الاستثناء، والتنكير قيل: للتعظيم، أي: في خُسرٍ عظيمٍ. ويجوز أن يكون للتنويع، أي: بنوعٍ من الخُسرِ غير ما يعرفه الإنسان.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٧).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيسَ، واستبدلوا الباقياتِ الصالحاتِ بالغاديات الرائحاتِ، فيا لها من صفقةٍ ما أربَحَها، ومنفعةٍ جامعةٍ للخير ما أوضحها.

والمراد بالموصول كلُّ مَن اتصف بعنوان الصلة، لا عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وسلمان الفارسيُّ رضي الله عنه فقط، كما يُتوهَّم مِن اقتصار ابن عباس رضي الله عنهما في الذكر عليهما[1]، بل هما داخلان في ذلك دخولاً أوليًّا، ومثل ذلك اقتصارُه في الإنسان الخاسر على أبي جهل[2]، وهو ظاهر.

وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إلخ بيانٌ لتكميلهم لغيرهم، أي: وصَّى بعضُهم بعضاً بالأمر الثابتِ الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، ولا زوالَ في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كلُّه من الإيمان بالله عز وجل واتباع كُتُبه ورُسُله عليهم السلام في كلِّ عقد وعمل.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلَّة البشرية، وعلى الطاعات التي يشقُّ عليها أداؤُها، وعلى ما يبتلي الله تعالى به عبادَه من المصائب[3].

والصبرُ المذكور داخلٌ في الحقِّ، وذُكر بعدَه مع إعادة الجارِّ والفعلِ المتعلِّق هو به لإبراز كمال العناية به، ويجوز أن يكون الأولُ عبارةَ رتبةِ العبادة التي هي فعلُ ما يُرضِي اللهَ تعالى، والثاني عبارةَ رتبةِ العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى، فإنَّ المراد بالصبر ليس مجرَّدَ حَبْس النفس عما تَتُوق إليه من فعلٍ أو تركٍ، بل هو تلقِّي ما وَرَدَ منه عز وجل بالجميل، والرضا به باطناً وظاهراً.

وقرأ سلَّام وهارون وابن موسى عن أبي عمرو: «والعَصِر» بكسر الصاد، و«الصَّبِر» بكسر الباء[4]، قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢ لابن مردويه.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في هامش الأصل: واستظهر أن المراد: وتواصوا بالصبر على الحق. اهـ منه.
(٤) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٥٠٩.

الحركة، ورُوي عن أبي عمرو: «بالصَّبِر» بكسر الباء إشماماً، وهذا كما قال: لا يكون أيضاً إلا في الوقف[(١)]. وقال صاحب «اللوامح»: قرأ عيسى البصرة: «بالصَّبِرْ» بنقل حركة الراء إلى الباء[(٢)]؛ لئلا يُحتاجَ إلى أن يُؤتَى ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يُسكَّن فيُجمع بين ساكنين، وذلك لغةٌ شائعةٌ وليست بشاذَّةٍ، بل مستفيضةٌ، وذلك دلالةٌ على الإعراب، وانفصالٌ من التقاء الساكنين، وتأديةُ حقِّ الموقوف عليه من السكون. انتهى، ومِن هذا كما في «البحر» قولُه:

أنـا جـريـرٌ كـنـيـتـي أبـو عَـمِـرْو أضربُ بالسيف وسعدٌ في القَصِرْ[(٣)]

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه كان يقرأ: «والعَصْرِ ونَوَائبِ الدَّهْر، إنَّ الإنسانَ لفي خُسْر، وإنَّه لَفِيه إلى آخِرِ الدهر»[(٤)].

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي داود في «المصاحف» عن ميمون بن مهران أنه قرأ: «والعصر، إن الإنسانَ لفي خُسْر، وإنه لفيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا...» إلخ وذكَر أنها قراءة ابن مسعود[(٥)].

هذا واستدلَّ بعضُ المعتزلة بما في هذه السورة على أنَّ مرتكِبَ الكبيرة مخلَّد في النار؛ لأنه لم يستثن فيها عن الخُسرِ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٥٠٩.
(٢) البحر ٨/ ٥٠٩، والكلام وما بعده منه.
(٣) البحر ٨/ ٥٠٩، وعنه نقل المصنف كلام صاحب اللوامح، والرجز في أخبار القضاة ٣/ ٧٠، وتاريخ الطبري ٣/ ٥٧٧ و٥٨٠، والقراءات الشاذة ص ١٧٩، والبدء والتاريخ ٥/ ١٧٦، وتاريخ مدينة دمشق ٢٠/ ٣٥٣، والإنصاف ٢/ ٧٣٣. وجرير: هو ابن عبد الله البجلي، أنشد الرجز يوم القادسية. وسعد: هو ابن أبي وقاص ﷺ. ووقع في الأصل و(م)، والقراءات الشاذة والبحر: العصر، بدل: القصر. وهو خطأ.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٣، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٤، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٩٢.
(٥) المصاحف ١/ ٢٩٧ عن ميمون بن مهران، وأخرجه عبد بن حميد عن إبراهيم وسعيد بن جبير كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر مِن كون غير المستثنى في خُسرٍ، وأما على كونه مخلَّداً في النار فلا، كيف والخُسرُ عامٌّ، فهو إمَّا بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً ولم يُغفَر، وإمَّا بفَوت الدرجات العاليات إن غُفِر.

وهو جوابٌ حسن، وللشيخ الماتريدي رحمه الله تعالى في التفصِّي عن ذلك تكلُّفاتٌ مذكورة في «التأويلات»[1] فلا تغفل.

وفي السورة من الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يُحِبَّ المرءُ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ما لا يخفى.

(١) ٥/٥١٧.

(١٠٤) سورة الهمزة مكية وآياتها تسع

سورة الهمزة مكية ، وقد تحدثت عن فريق من الناس ، يعيبون البشر ، ويأكلون أعراضهم ، ووصفتهم بذلك الخُلُق الذميم « الهمز واللمز » كما يشتغلون بجمع الأموال وتكديس الثروات ، كأنهم مخلدون في هذه الحياة ، يظنون لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم ، أن المال سيتركهم مخلدين في الدنيا لا يموتون ، وقد ذكرت السورة خلودهم في النار التي تحطم من يلقى فيها من البشر ، وهم بين أطباقها يعذبون ، وهي عليهم مغلقة مطبقة .

● ● ●

سورة الهمزة

[١٠٣٥] ك.. أخرج ابن أبي حاتم عن عثمان وابن عمر قالا: ما زلنا نسمع أن ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾(١) نزلت في أُبي بن خلف.

[١٠٣٦] ك.. وأخرج عن السدي قال نزلت في الأخنس بن شريق.

[١٠٣٧] وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر الجمحي.

[١٠٣٨] وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: كان أُمية بن خلف إذا رأى رسول الله [ﷺ] همزه ولمزه فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾(٢) السورة كلها.

* * *

[١٠٣٥] (١) سورة الهمزة: الآية (١).

[١٠٣٨] (٢) سورة الهمزة: الآية (١).

سورة الهمزة

تسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الويل لفظة الذم والسخط، وهي كلمة كل مكروب يتولّون فيدعو بالويل وأصله وي لفلان، ثم كثرت في كلامهم فوُصلت باللام، وروي أنه جبل في جهنم. **إن قيل**: لَمَ قال ههنا: ﴿وَيْلٌ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ [الأنبياء: ١٨]؟ **قلنا**: لأن ثمة قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤] فقال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ وههنا نكّر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله، وقيل في (ويل) إنها كلمة تقبيح، و(ويس) استصغار و(ويح) ترحُّم، فنبه بهذا على قبح هذا الفعل.

واختلفوا في الوعيد الذي في هذه السورة هل يتناول كل من يتمسك بهذه الطريقة في الأفعال الرديئة أو هو مخصوص بأقوام معينين: أما المحققون فقالوا: إنه عام لكل من يفعل هذا الفعل كائنًا من كان وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ وقال آخرون: إنه مختص بأناس معينين. ثم قال عطاء والكلبي: نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه، وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف. قال الفراء: وكون اللفظ عامًا لا ينافي أن يكون المراد منه شخصًا معينًا، كما أن إنسانًا لو قال لك: (لا أزورك أبدًا) فتقول أنت: (كل من لم يزرني لا أزوره) وأنت إنما تريده بهذه الجملة العامة، وهذا هو المسمى في أصول الفقه بتخصيص العام بقرينة العرف.

المسألة الثانية: الهمز: الكسر، قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ﴾ [القلم: ١١] واللمز: الطعن، والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] وبناء فُعَلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضري بها، ونحوهما اللُّعنة والضحكة، وقرئ: (ويل لكل همزة لمزة) بسكون الميم وهي المسخرة التي تأتي بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم. **وللمفسرين ألفاظ: أحدها**: قال ابن عباس: الهُمَزة المغتاب، واللُّمَزة العياب. **وثانيها**: قال أبو زيد: الهمزة باليد واللمزة باللسان. **وثالثها**: قال أبو العالية: الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب. **ورابعها**: الهمزة جهرًا واللمزة سرًّا بالحاجب والعين. **وخامسها**: الهمزة واللمزة الذي

يلقب الناس بما يكرهون، وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك، لكنه لا يليق بمنصب الرياسة إنما ذلك من عادة السقاط، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا. وقد حكى الحكم بن العاص مشية النبي ﷺ فنفاه عن المدينة ولعنه. **وسادسها:** قال الحسن: الهمزة الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه. **وسابعها:** عن أبي الجوزاء قال: قلت لابن عباس: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل؟! فقال: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب.

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ثم هذا على قسمين، فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك، وكل واحد من القسمين إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشي أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر وقد يكون لغائب، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما، وكل ذلك داخل تحت النهي والزجر، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا، فما كان اللفظ موضوعًا له كان منهيًّا بحسب اللفظ، وما لم يكن اللفظ موضوعًا له كان داخلًا تحت النهي بحسب القياس الجلي، ولما كان الرسول أعظم الناس منصبًا في الدين، كان الطعن فيه عظيمًا عند الله، فلا جرم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من (كل) أو نصب على ذم، وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي وابن عامر: (جَمَّع) بالتشديد والباقون بالتخفيف، والمعنى في جمع وجمع واحد متقارب، والفرق أن (جَمَّع) بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا، وأنه لم يجمعه في يوم واحد ولا في يومين، ولا في شهر ولا في شهرين، يقال: فلان يجمع الأموال، أي يجمعها من ههنا وههنا، وأما (جَمَع) بالتخفيف، فلا يفيد ذلك، وأما قوله: ﴿مَالًا﴾ فالتنكير فيه يحتمل وجهين: **أحدهما:** أن يقال: المال اسم لكل ما في الدنيا، كما قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فمال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير، فكيف يليق به أن يفتخر بذلك القليل. **والثاني:** أن يكون المراد منه التعظيم، أي: مال بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات، فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به؟

أما قوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه مأخوذ من العدة وهي الذخيرة، يقال: أعددت الشيء لكذا وعددته، إذا أمسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر. وثانيها: عدده، أي أحصاه، وجاء التشديد لكثرة المعدود، كما يقال: فلان يعدد فضائل فلان، ولهذا قال السدي: وعدده، أي أحصاه، يقول: هذا لي. وهذا لي يلهيه ماله بالنهار، فإذا جاء الليل كان يخفيه. وثالثها: عدده، أي كثره، يقال: في بني فلان عدد، أي كثرة. وهذان القولان الأخيران راجعان إلى معنى العدد، والقول الثالث إلى معنى العدة، وقرأ بعضهم (وعَدَده) بالتخفيف وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى جمع المال وضبط عدده وأحصاه. وثانيهما: جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عَدد وعُدد، إذا كان له عدد وافر من الأنصار، والرجل متى كان كذلك كان أدخل في التفاخر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝﴾

ثم وصفه تعالى بضرب خر من الجهل فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

واعلم أن أخلده وخلده بمعنى واحد، ثم في التفسير وجوه: أحدها: يحتمل أن يكون المعنى طوَّل المال أمله حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن ماله تركه خالدًا في الدنيا لا يموت وإنما قال: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ ولم يقل: (يخلده) لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت، وكأنه حُكْم قد فُرغ منه، ولذلك ذكره على الماضي. قال الحسن: ما رأيت يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت. وثانيها: يعمل الأعمال المحكمة كتشييد البنيان بالآجر والجص، عمل من يظن أنه يبقى حيًّا أو لأجل أن يُذكر بسببه بعد الموت. وثالثها: أحب المال حبًّا شديدًا حتى اعتقد أنه إن انتقص مالي أموت. فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حيًّا، وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل. ورابعها: أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخرة في النعيم المقيم.

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه ردع له عن حسبانه، أي ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده، بل العلم والصلاح، ومنه قول علي عليه السلام: مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر. والقول الثاني: معناه حقًّا ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ واللام في: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جواب القسم المقدر، فدل ذلك على حصول معنى القسم في كلا.

أما قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ فإنما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة؛ لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة، وقرئ (لينبذان) أي هو وماله و(لينبذُن) بضم الذال، أي هو وأنصاره، وأما ﴿ٱلْحُطَمَةُ﴾ فقال المبرد: إنها النار التي تحطم كل من وقع فيها، ورجل حُطَمة، أي شديد الأكل يأتي على زاد القوم، وأصل الحَطْم في اللغة الكسر، ويقال: شر الرعاء الحطمة، يقال: راع حُطَمة وحُطَم، بغير هاء، كأنه يحطم الماشية، أي يكسرها عند

سَوْقها لعنفه، قال المفسرون: الحطمة اسم من أسماء النار، وهي الدركة الثانية من دركات النار. وقال مقاتل: هي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الْمَلَكَ لَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَكْسِرُهُ عَلَى صُلْبِهِ، كَمَا تُوضَعُ الْخَشَبَةُ عَلَى الرُّكْبَةِ فَتُكْسَرُ ثُمَّ يُرْمَى به في النار».

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۞ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۞﴾

واعلم أن الفائدة في ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه: **أحدها**: الاتحاد في الصورة، كأنه تعالى يقول: إن كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة. **والثاني**: أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض، فيقول تعالى: وراءك الحطمة، وفي الحطم كسر، فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم، لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب، أما الحطمة فإنها تكسر كسرًا لا تبقي ولا تذر. **الثالث**: أن الهماز اللماز يأكل لحم الناس، والحطمة أيضًا اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم، ويمكن أن يقال: ذكر وصفين الهمز واللمز، ثم قابلهما باسم واحد وقال: خذ واحدًا مني بالاثنين منك فإنه يفي ويكفي، فكأن السائل يقول: كيف يفي الواحد بالاثنين؟ فقال: إنما تقول هذا لأنك لا تعرف هذا الواحد فلذلك قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ فالإضافة للتفخيم، أي هي نار لا كسائر النيران: ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ التي لا تخمد أبدًا أوالموقدة بأمره أو بقدرته، ومنه قول علي عليه السلام: عجبًا ممن يعصي الله على وجه الأرض والنار تسعر من تحته. وفي الحديث: «أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ الْآنَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»(١).

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ فاعلم أنه يقال: طلع الجبل واطلع عليه، إذا علاه، ثم في تفسير الآية وجهان: **الأول**: أن النار تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألمًا منه بأدنى أذى يماسه، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه؟! ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات، وهذا هو المراد من قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] ومعنى الاطلاع هو

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٧١٠) حديث رقم (٢٥٩١) من طريق عباس الدوري البغدادي حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا شريك عن عاصم هو ابن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال. . . فذكره، ثم قال: حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن شريك عن عاصم عن أبي صالح أو رجل آخر عن أبي هريرة نحوه ولم يرفعه، قال أبو عيسى حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحدًا يحيى بن أبي بكير عن شريك وابن ماجه في (سننه) حديث رقم (٤٣٢٠) من طريق شريك عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . به وابن رجب في (التخويف من النار) (١/ ٦٦) من طريق عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . به، وأورده الألباني في (السلسلة الضعيفة) (٣/ ٤٧٠) حديث رقم (١٣٠٥).

أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد . **والثاني:** أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة، واعلم أنه روي عن النبي ﷺ أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت . ثم إن الله تعالى يعيد لحمهم وعظمهم مرة أخرى .

أم قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ فقال الحسن : مؤصدة ، أي مطبقة ، من أصدت الباب وأوصدته ، لغتان ، ولم يقل : مطبقة لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة ، والإطباق لا يفيد معنى الباب .

واعلم أن الآية تفيد المبالغة في العذاب من وجوه : **أحدها:** أن قوله : ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾[الهمزة: ٤] يقتضي أنه موضع له قعر عميق جدًّا كالبئر . **وثانيها:** أنه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يُذكرهم الخروج ، فيزيد في حسرتهم . **وثالثها:** أنه قال : ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ولم يقل : مؤصدة عليهم لأن قوله : ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يفيد أن المقصود أولاً كونهم بهذه الحالة ، وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول .

قوله تعالى: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى : قرئ (في عُمُد) بضمتين و(عُمْد) بسكون الميم و(عَمَد) بفتحتين ، قال الفراء : عُمُد وعمْد وعَمَد مثل الأديم والأدْم والأَدَم والإهاب والأهْب والأَهَب ، والعقيم والعقْم والعَقَم وقال المبرد وأبو علي : العمد جمع عمود على غير واحد ؛ أما الجمع على واحد فهو العُمُد مثل زبور وزبر ورسول ورسل .

المسألة الثانية : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء ، يقال : عمود البيت ، للذي يقوم به البيت .

المسألة الثالثة : في تفسير الآية وجهان : **الأول:** أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب ، كنحو ما تُغلق به الدروب ، وفي بمعنى الباء ، أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مُدت عليها ، ولم يقل : بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها . **والقول الثاني:** أن يكون المعنى : إنها عليهم مؤصدة حال كونهم موثقين فى عمد ممدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص ، اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين .

تفسير سورة «الهمزة»

مكيةٌ بإجماعٍ، وهي تسعُ آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

قد تقدَّم القولُ في الويل في غير موضع، ومعناه: الخِزيُ والعذابُ والهَلَكة. وقيل: وادٍ في جهنم.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال ابن عباس: هم المشَّاؤون بالنميمة، المفرِّقون[٤] بين الأحبَّة، الباغون للبُرَآء العيبَ[٥]، فعَلَى هذا هما بمعنى. وقال النبيُّ ﷺ: «شِرارُ عبادِ

(٤) في (د) و(م): المفسدون.

(٥) أخرجه وكيع في الزهد (٤٤٧)، وهناد في الزهد (١٢١٤)، والطبري ٢٤/٢١٧ . ووقع عند وكيع وهناد: العنت، بدل العيب.

اللهِ تعالى المَشَّاؤون بالنميمة، المُفْسِدون بين الأحبَّةِ، الباغون للبُرآء العيبَ»[(١)].

وعن ابن عباس أنَّ الهُمَزَة: القَتَّات، واللُّمزة: العيَّاب[(٢)].

وقال أبو العالية والحسنُ ومجاهدٌ وعطاء بن أبي رَباح: الهمزةُ: الذي يغتابُ ويَطْعنُ في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابُه مِن خَلْفِه إذا غاب[(٣)]، ومنه قولُ حسان:

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بذُلِّ نفسٍ   بقافيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ[(٤)]

واختار هذا القولَ النحَّاس[(٥)]؛ قال: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:٥٨].

وقال مُقاتل ضدَّ هذا الكلام: أنَّ الهُمَزَةَ: الذي يَغتابُ بالغَيْبة[(٦)]، واللُّمَزة: الذي يغتاب في الوجه[(٧)].

وقال قتادة ومجاهد: الهُمَزَة: الطَّعَّان في الناس، واللُّمَزة: الطَّعَّان في أنسابهم[(٨)].

وقال ابن زيد: الهامِزُ: الذي يهمز الناسَ بيده ويضربُهم، واللُّمزَة: الذي يَلْمِزهم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها. وفيهما: العنت، بدل: العيب.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٥ ، وزاد المسير ٩/ ٢٢٧ ، وفيهما: المغتاب، بدل: القتات. والقتات: النمام. القاموس (قتت).

(٣) ينظر قولهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٧ - ٦١٨ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢١ ، وزاد المسير ٩/ ٢٢٧ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٧ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٦ . قوله: بقافية، القافية: وراء العنق. القاموس (قفا).

(٥) ينظر إعراب القرآن له ٥/ ٢٨٧ .

(٦) في (ظ): في الغيبة.

(٧) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٢٨ .

(٨) زاد المسير ٩/ ٢٢٨ عن مجاهد.

بلسانه ويَعيبُهم[١].

وقال سفيان الثوريُّ: يَهْمزُ بلسانه، ويَلمِزُ بعينيه[٢].

وقال ابن كيسان: الهُمَزَةُ: الذي يؤذي جُلَساءَه بسوءِ اللَّفْظِ، واللُّمَزةُ: الذي يكسرُ عينَه على جليسه، ويُشير بعينِه ورأسِه وبحاجبيه[٣]. وقال مرةً: هما سواء، وهو القَتَّاتُ الطَّعَّان للمرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تُدْلي بِوُدِّي إذا لاقيتَني كَذِبًا وإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامزُ اللُّمَزَهْ[٤]

وقال آخر:

إذا لَقِيتُكَ عن شَحْطٍ تُكاشِرُني وإن تَغيَّبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ[٥]

الشَّحْطُ: البعد. والهُمَزَةُ: اسمٌ وضع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سُخَرَةٌ وضُحَكَة: للذي يَسخَر ويَضْحك بالناس.

وقرأ أبو جعفر محمد بن علِيٍّ والأعرجُ: «هُمْزةٍ لُمْزةٍ» بسكون الميم فيهما[٦]، فإنْ صح ذلك عنهما، فهي في معنى المفعول، وهو الذي يتعرَّضُ للناس حتى يَهْمزوه ويضحكوا منه، ويَحمِلُهم على الاغتياب.

وقرأ عبد الله بن مسعودٍ وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ والأعمش: «ويْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦١٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٢٨ .

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٥٢٣ ، وقال الرازي ٣٢/ ٩٢ : اعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٣١١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦١٦ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦١ ، وجمهرة اللغة ٣/ ١٨ ، وأساس البلاغة (لمز)، واللسان (همز)، وعزاه ابن دريد لزياد الأعجم أيضاً. ووقع في معاني القرآن: كره، بدل: شحط. قوله: تكاشرني، كاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه. اللسان (كشر).

(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨٣ ، والرازي ٣٢/ ٩١ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٩ ، والقراءات الشاذة ص ١٧٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢١ . ووقع في القراءات الشاذة: ويل للهمزة واللمزة. وفي المحرر: ويل الهمزة اللمزة.

وأصلُ الهمزِ: الكَسْرُ، والعَضُّ على الشيء بعنفٍ، ومنه هَمْزُ الحرف. ويقال: هَمزْتُ رأسَه. وهمزتُ الجوزَ بكفِّي: كَسَرته. وقيل لأعرابيٍّ: أتهمِزون الفأرةَ؟ فقال: إنَّما تَهمِزُها الهِرَّة. الذي في «الصحاح»: وقيل لأعرابي: أتهمِزُ الفأرة؟ فقال: السِّنَّوْرُ يهمزُها[1]. والأوّلُ قاله الثعلبيُّ. وهو يدلُّ على أنَّ الهِرَّ يسمَّى الهُمَزة. قال العجَّاج:

ومَـنْ هَـمَـزْنَـا رأسَـهُ تَـهَـشَّـمـا[2]

وقيل: أصلُ الهَمْزِ واللَّمْزِ: الدفعُ والضربُ؛ لَمَزَهُ يَلْمِزه[3] لَمْزًا: إذا ضَرَبه ودَفَعه. وكذلك هَمَزَهُ، أي: دَفَعه وضَرَبَه، قال الراجز:

ومَـن هَـمَـزْنَـا عِـزَّهُ تَـبَـرْكَـعَـا   عـلـى اسْـتِـه زَوْبَـعَـةً أو زَوْبَـعَـا[4]

البركعة: القيامُ على أربع. وبَرْكَعهُ فتبركع، أي: صَرَعَه فوقع على اسْتِه؛ قاله في «الصحاح»[5].

والآيةُ نزلت في الأخنس بنِ شريق، فيما رَوَى الضحاك عن ابن عباس[6]. وكان يَلْمِزُ الناسَ ويَعيبهم مُقْبِلين ومُدْبِرين.

---

(١) الصحاح (همز).

(٢) نسب للعجاج في العين ١/ ٨٩ ، وفيه: تلعلعا، بدل: تهشما، والتلعلع: التكسر. وتهذيب اللغة ١/ ١٦٢ ، وفيه: تخرَّعا، ومعناها: زال عن موضعه. وهو برواية المصنف في الصحاح (همز)، وتهذيب اللغة ٦/ ١٦٥ دون نسبة، وذُكر بهذه الرواية في ملحقات ديوان رؤبة ص١٨٤ .

(٣) وبابه: ضرب ونصر، مختار الصحاح (لمز)، والكلام من الصحاح (لمز).

(٤) الصحاح (همز)، والكلام منه، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ٦٣ ، ومجالس ثعلب ص٦٤ ، وأمالي القالي ١/ ١٠٥ ، والاشتقاق لابن دريد ص ٣١٢ واللسان (بركع)، ووقع في بعض المصادر: روبعة أو روبعا، وهو الصواب فيما نقل صاحب اللسان (بركع) عن ابن بري، قال: وكذلك هو في شعر رؤبة، وفسِّر بأنه القصير الحقير، وقيل: الضعيف، وقيل: القصير العرقوب، وقيل: الناقص الخَلْق. اهـ. ورواية الديوان:

ومـن هـمـزنـا رأسـه تـلـعـلـعـا   ومـن أبـحـنـا عـزَّه تـبـركـعـا
عـلـى اسـتـه روبـعـة أو روبـعـا

(٥) مادة (بركع).

(٦) ذكره ابن الجوزي ٩/ ٢٢٦ من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره البغوي ٤/ ٥٢٣ عن الكلبي.

وقال ابن جُرَيج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتابُ النبيَّ ﷺ من ورائه، ويَقْدحُ فيه في وجهه[١].

وقيل: نزلت في أُبَيّ بنِ خَلَف[٢]. وقيل: في جميل بن عامر الثقفيّ[٣].

وقيل: إنَّها مُرْسَلةٌ على العموم من غيرِ تخصيص؛ وهو قولُ الأكثرين؛ قال مجاهد: ليست بخاصَّةٍ لأحد، بل لكلِّ مَن كانت هذه صفتُه[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: يجوزُ أن يُذْكَر الشيءُ العامُّ ويقصَد به الخاصُّ قَصْدَ الواحدِ، إذا قال: لا أزورُك أبداً، فتقول: مَن لم يَزُرْني فلستُ بزائرِه، يعني ذلك القائل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾

أي: أَعَدَّه ـ زَعَم ـ لنوائب الدهر؛ مثل كَرَّم وأَكْرَم. وقيل: أحصى عدَدَه؛ قاله السُّديّ. وقال الضحاك: أي: أعدَّ ماله لمن يرثُه من أولاده. وقيل: أي: فاخَر بعددِه وكَثْرتِه[٦]. والمقصودُ الذمُّ على إمساك المالِ عن سبيل الطاعة، كما قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ن: ١٢]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

وقراءةُ الجماعة: «جَمَع» مخفَّف الميم. وشدَّدها ابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ على التكثير[٧]. واختاره أبو عُبيد؛ لقوله: «وعَدَّدَه».

وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية: «جَمَع» مخفَّفًا، «وعَدَدَه» مخفَّفًا

(١) الوسيط ٤/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٤ عن مقاتل، وذكره عن ابن جريج الماوردي ٦/ ٣٣٦ دون قوله: وكان يغتاب النبي...

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٩، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٦، وفيهما: الجمحي، بدل: الثقفي.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٠.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٩.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٦.

(٧) السبعة ص٦٩٧، والتيسير ص٢٢٥.

أيضًا[١]، فأَظْهَروا التضعيفَ؛ لأنَّ أصله: عَدَّه، وهو بعيد؛ لأنَّه وقع في المصحف بدالين. وقد جاء مثلُه في الشعر؛ لمَّا أَبْرَزوا التضعيفَ خفَّفوه، قال:

مَهْلاً أُمامةُ قد جَرَّبْتِ من خُلُقي ... أنِّي أَجُودُ لِأقْوامٍ وإنْ ضَنِنُوا[٢]

أراد: ضَنُّوا وبَخِلوا، فأَظْهَر التضعيف؛ لكنَّ الشعرَ موضعُ ضرورةٍ. قال المَهْدَوِيُّ: مَن خفَّف «وعدَّده» فهو معطوفٌ على المال، أي: وجَمَع عَدَدَه، فلا يكونُ فعلاً على إظهار التضعيف؛ لأنَّ ذلك لا يُستعمل إلَّا في الشعر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أي: يظنُّ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يبقيه حيًّا لا يموت؛ قاله السُّدِّيُّ. وقال عكرمة: أي: يزيدُ في عمره[٣]. وقيل: أحياه فيما مضى. وهو ماضٍ بمعنى المستقبل؛ يقال: هَلَكَ واللهِ فلانٌ ودَخَل النار، أي: يدخل.

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ لِمَا تَوهَّمه الكافر، أي: لا يَخْلُد ولا يَبقَى له مال. وقد مضى القولُ في «كَلَّا» مستوفى[٤]. وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة: إذا سمعتَ الله عزَّ وجلَّ يقول: «كَلَّا» فإنَّه يقولُ: كذبت[٥].

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي: ليُطْرَحَنَّ ولَيُلْقَينَّ. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧٩ عن الحسن. قال الطبري ٢٤/ ٦٢١ : المعنى: جمع مالاً، وجمع عشيرته وعَدَدَه، وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها.

(٢) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما في الكتاب ٣/ ٥٣٥ ، والخصائص ١/ ١٦٠ ، والحماسة البصرية ٢/ ٧٦ ، ومختارات ابن الشجري ١/ ٧ ، وبلا نسبة في المقتضب ١/ ٢٥٣ . ونسبه ثعلب إلى طيسلة الفزاري كما ذكر البصري. وروايته في هذه المصادر: مهلاً أعاذل قد جربت...

(٣) القولين في النكت والعيون ٦/ ٣٣٦ .

(٤) ١٣/ ٥١٠ .

(٥) ذكره السمعاني في التفسير ٦/ ٤٧ . وعمر بن عبد الله هو أبو حفص المدنيُّ، توفي سنة (١٤٥هـ). التهذيب ٣/ ٢٣٨ .

ومجاهد وحُميد وابن محيصن: «لَيُنْبَذانِّ» بالتثنية، أي: هو وماله[١].

وعن الحسن أيضًا: «لَيُنْبَذَنَّهُ»[٢] على معنى: لَيُنْبَذَنَّ ماله. وعنه أيضاً بالنون: «لَنَنْبِذَنَّه»[٣] على إخبارِ اللهِ تعالى عن نفسه، أنه[٤] يَنْبِذُ صاحبَ المال. وعنه أيضاً: «لَيُنْبَذُنَّ» بضمِّ الذَّال[٥]، على أنَّ المراد الهُمَزةُ واللُّمزةُ والمالُ وجامِعُه.

﴿فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي نارُ الله؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَكْسِرُ كلَّ ما يُلْقى فيها وتَحْطِمُه وتَهْشِمُه؛ قال الراجز:

إنَّا حَطَمْنا بالقَضيبِ مُصْعَبا ... يومَ كَسَرْنا أَنْفَه لِيَغْضَبا[٦]

وهي الطَّبقةُ السادسةُ من طبقات جهنم. حكاه الماوَرْديُّ عن الكلبيِّ[٧]. وحَكى القشيريُّ عنه: «الحُطَمة»: الدَّرَكةُ الثانيةُ من دَرَكِ النار.

وقال الضحاك: هي الدركُ الرابع. ابن زيد: اسمٌ من أسماء جهنم[٨].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيمِ لأمْرِها. ثم فسَّرها ما هي، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: التي أوقد عليها ألف عامٍ، وألف عامٍ، وألف عامٍ، فهي غيرُ خامدةٍ، أعدَّها الله للعصاة.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكلُ النارُ جميعَ ما في أجسادهم،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٤ عن الحسن.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٧٩، والكشاف ٤/ ٢٨٤.

(٣) ذكرها الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢٣١ عن أبي عمرو.

(٤) في (د) و(م): وأنه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٢، والكشاف ٤/ ٢٨٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، والبيت لصخير بن أبي الجهم، كما في المنمق لابن حبيب ص ٣٦٦، وتاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٥، وفيهما: نحن خطمنا...، ومصعب هو ابن عبد الرحمن بن عوف، كما ذكر ابن حبيب. ومعنى خطمه: ضرب أنفه. القاموس (خطم).

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧.

(٨) المصدر السابق.

حتى إذا بلغت إلى الفؤاد خُلِقوا خَلْقاً جديدًا، فرجعت تأكُلهم[١]. وكذا رَوى خالد بنُ أبي عمران عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ النارَ تأكلُ أهلَها، حتى إذا اطَّلعتْ على أفئدتهم انتهتْ، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قولُه تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾»[٢].

وخصَّ الأفئدةَ لأنَّ الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبُه. أي: إنَّه في حالِ مَن يموتُ وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] فهم إذًا أحياءٌ في معنى الأموات.

وقيل: معنى «تَطَّلِعُ على الأفئِدةِ»، أي: تعلمُ مقدارَ ما يَسْتَحِقُّه كلُّ واحدٍ منهم من العذاب، وذلك بما استَبْقاه الله تعالى من الأمارة الدالَّةِ عليه؛ يقال: اطَّلعَ فلان على كذا: أي: عَلِمَه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فوَصَفَها بهذا، فلا يَبْعُد أن تُوصَفَ بالعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾

أي: مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحَّاك[٣]. وقد تقدَّم في سورة البَلَد القولُ فيه[٤].

وقيل: مُغْلَقة؛ بلُغةِ قريش، يقولون: آصَدْتُ الباب: إذا أغلقته؛ قاله مجاهد. ومنه قولُ عُبيد الله بنِ قيس الرقيَّات:

إنَّ في القصرِ لو دخلنا غَزالاً ... مُصْفَقًا مُوصَدًا عليهِ الحِجابُ[٥]

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ الفاءُ بمعنى الباء، أي: موصدة بعمدٍ ممدَّدة؛ قاله ابن مسعود؛ وهي في قراءته: «بِعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ»[٦].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦ ـ زوائد نعيم).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، وأخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٦٢٣، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً.

(٤) ص٣٠٧ من هذا الجزء.

(٥) ديوان عبيد الله بن قيس ص ٨٤، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٧، والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٧٩ عن الأعمش.

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «ثم إنَّ الله يَبْعَثُ إليهم ملائكةً بأطباقٍ من نار، ومساميرَ من نارٍ، وعَمَدٍ من نار، فتُطْبِقُ عليهم بتلك الأطباق، وتَشُدُّ عليهم بتلك المسامير، وتمدُّ بتلك العَمَد، فلا يَبْقَى فيها خَلَلٌ يدخل فيه رَوْحٌ، ولا يخرج منه غمٌّ، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغلُ أهلُ الجنةِ بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطعُ الكلام، فيكونُ كلامُهم زَفِيرًا وشهيقًا، فذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾»[١].

وقال قتادةُ: عَمَد يعذَّبون بها. واختاره الطبريُّ[٢].

وقال ابن عباس: إنَّ العَمَد الممدَّدة أغلالٌ في أعناقهم. وقيل: قيودٌ في أرْجُلِهم؛ قاله أبو صالح[٣].

وقال القشيريُّ: والمُعْظَمُ على أنَّ العَمَد أوتادُ الأطباقِ التي تُطْبقُ على أهل النار، وتُشَدُّ تلك الأطباقُ بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمُّها وحرُّها، فلا يدخلُ عليهم رَوْحٌ.

وقيل: أبوابُ النارِ مُطْبقةٌ عليهم وهم في عَمَد، أي: في سلاسلَ وأغلالٍ مُطَوَّلةٍ، وهي أَحْكَمُ وأَرْسخُ من القصيرة.

وقيل: هم في عمدٍ ممدَّدة، أي: في عذابها وآلامها يُضْربون بها.

وقيل: المعنى: في دهرٍ ممدود، أي: لا انقطاعَ له.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم: «في عُمُدٍ» بضم العين والميم[٤]، جمع عمود. وكذلك «عَمَد» أيضاً. قال الفرَّاء[٥]: والعَمَد والعُمُد: جمعان صحيحان

---

(١) قطعة من خبر طويل ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٣٩ .

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٦٢٦ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٩٥ ، والطبري ٢٤/ ٦٢٥ - ٦٢٦ .

(٣) القولين في النكت والعيون ٦/ ٣٣٧ .

(٤) السبعة ص٦٩٧ ، والتيسير ص ٢٢٥ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٩١ .

لعمود، مثل: أدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق وأَفَق وأُفُق.

أبو عُبيدة: «عمد» جمعُ عِماد، مثل إهاب[١]. واختار أبو عُبيد «عَمَد» بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢] وأجمعوا على فَتْحِها.

قال الجوهريُّ[٢]: العمود: عمودُ البيت، وجمع القلة: أَعْمِدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد، وقرئ بهما قولُه تعالى: «في عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ».

وقال أبو عبيدةَ: العمودُ كلُّ مستطيلٍ من خشبٍ أو حديد، وهو أصلٌ للبناء مثل العِماد[٣]. عَمَدْتُ الشيءَ فانْعَمَد، أي: أَقَمْتَه بِعِمادٍ يعتمِدُ عليه. وأَعْمَدْتُه: جعلت تحته عَمَدًا[٤]. والله أعلم.

(١) يعني أن «عَمَد» و«عُمُد» كلاهما جمع عماد. مجاز القرآن ٢/ ٣١١ ، والوسيط ٤/ ٥٥٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٤ .

(٢) في الصحاح (عمد).

(٣) ذكره الرازي ٣٢/ ٩٥ دون نسبة.

(٤) الصحاح (عمد).

سُورَةُ الهُمَزَةِ

مكيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهَـمْزُ: الكَسْرُ؛ كالهَـزْمِ، واللَّـمزُ: الطَّـعنُ؛ كاللَّهْزِ، فشاعا في الكَسْرِ مِن أعراضِ النَّاسِ والطَّعنِ فيهم، وبناءُ فعلِه يدلُّ على الاعتيادِ، فلا يُقالُ: «ضُحَكَةٌ» و«لُعَنَةٌ» إلا للمُكثرِ المُتعوِّدِ.

وقُرِئَ: (هُمْزَة) و(لُمْزَة) بالسُّكونِ[١] على بناءِ المفعولِ، وهو المَسْخَرَةُ الذي يأتي بالأضاحيكِ فيُضْحَكُ منه ويُشتمُ.

ونزولُها في الأخنَسِ بنِ شَرِيقٍ[٢]؛..................................

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣٠/ ٢٥٣)، وفيه: وروي عن أبي جعفر والأعرج بسكون الميم فيهما، فإن صحت القراءة فهي بمعنى المفعول، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه ويضحكوا منه، ويحملهم على الاغتياب.

(٢) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٦/ ٢٨٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصرح ابن الجوزي أنه من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (٨/ ٥٣٠) عن الكلبي، فتكون رواية ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه، وهذا إسناد واهٍ. ووردت أيضاً من رواية الضحاك عن ابن عباس كما في «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٤٧٠)، وإسناده منقطع أيضاً. =

فإنَّه كانَ مِغْيابًا، أو في الوليدِ بنِ المُغيرَةِ واغتيابِهِ رسولَ اللهِ ﷺ[١].

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ بدلٌ مِن (كلِّ)، أو ذَمٌّ مَنصوبٌ أو مَرفوعٌ، وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ بالتَّشديدِ[٢] للتَّكثيرِ.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: وجعلَهُ عُدَّةً للنَّوازلِ، أو: عدَّهُ مرَّةً بعدَ أُخرى، ويؤيِّدُه أنه قُرِئَ: (وعَدَدَه)[٣] على فكِّ الإدغامِ.

(٣) ـ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ تركَهُ خالدًا في الدُّنيا فأحبَّهُ كما يُحِبُّ الخُلودَ، أو حبُّ المالِ أغفلَهُ عن الموتِ، أو طَوَّلَ أملَهُ حتى حسبَ أنَّه مخلَّدٌ فعَمِلَ عملَ مَن لا يَظنُّ الموتَ، وفيه تعريضٌ بأنَّ المُخْلِدَ هو السَّعْيُ للآخرةِ.

(٤) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن حِسْبانِه ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: ليُطْرحنَّ ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: في النَّارِ التي مِن شَأنِها أن تَحْطِمَ كلَّ ما يطرحُ فيها.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾: ما النَّارُ التي لها هذه الخاصيَّةُ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لها ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: التي أوقدَهَا اللهُ، وما أوقدَهُ لا يقدرُ أَنْ يُطفِئَهُ غيرُه.

(٧) ـ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: تعلو أوساطَ القُلوبِ وتشتَمِلُ عليها، وتَخصيصُها بالذِّكرِ لأنَّ الفُؤادَ ألطَفُ ما في البدنِ وأَشدُّهُ تَألُّمًا، أو لأنَّه مَحلُّ العقائدِ الزَّائفَةِ ومَنشأُ الأعمالِ القَبيحَةِ.

= ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٦٢٣) من قول السدي.

وقد روى الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦١٩) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في مشرك معيَّن لكنه لم يسمه. وعطية ضعيف.

(١) هو قول ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٦).

(٢) أي: ﴿جمَّعَ﴾، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٠) عن الحسن.

(٨) ـ ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾: مُطْبَقةٌ، مِن أَوْصَدْتُ البابَ: إذا أطبقْتَهُ؛ قال:

تَحِنُّ إلى جِبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُوصَدَةْ[١]

(٩) ـ ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾؛ أي: موثَّقِينَ في أَعمِدَةٍ مَمدودَةٍ مثل المَقاطِرِ التي تُقطَّرُ فيها اللصوصُ، وقرأ الكوفِيُّونَ غيرَ حفصٍ بضَمَّتينِ[٢].

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرَأَ سُورةَ الهُمَزةِ أَعطاهُ اللهُ عشرَ حَسناتٍ بعَدَدِ مَن استهزَأَ بمُحمَّدٍ وأَصحابِه»[٣].

* * *

(١) دون نسبة في «إصلاح المنطق» (ص: ١٢٢)، وأنشده ابن عباس لنافع ابن الأزرق كما روى الطستي في «مسائله». انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٢٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٤) سورة الهمزة مكية وآياتها تسع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعني يزدري الناس وينتقص بهم، قال ابن عباس: ﴿همزة لمزة﴾ طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة: يهمزه في وجهه، واللمزة: من خلفه، وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان، ثم قال بعضهم: المراد بذلك (الأخنس بن شريق)، وقال مجاهد: هي عامة. وقوله تعالى: ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾ أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده كقوله تعالى: ﴿وجمع فأوعى﴾ قال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة، وقوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، ثم قال تعالى: ﴿لينبذن في الحطمة﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده ﴿في الحطمة﴾ وهي اسم من أسماء النار، لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿وما أدراك ما الحطمة؟ نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده، وقوله تعالى: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقوله تعالى: ﴿في عمد ممددة﴾ أي عمد من حديد، وقال السدي: من نار، قال ابن عباس: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني الأبواب هي الممددة، وعنه: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل، فسدت بها الأبواب[1]، وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني القيود الثقال.

[آخر تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة. ولله الحمد والمنة]

---

(١) هذه رواية العوفي عن ابن عباس والأولى رواية عكرمة عنه.

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ .

الهماز : بالقول ، واللماز : بالفعل . يعنى : يزدرى بالناس (١) وينتقص بهم . وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم:١١] .

قال ابن عباس : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ : طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهُمَزة ، يهمزه فى وجه ، واللمزة (٢) من خلفه . وقال قتادة : يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ،ويأكل لحوم الناس،ويطعنُ عليهم.

وقال مجاهد : الهمزة : باليد والعين ، واللمزةُ : باللسان . وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك، عن زيد بن أسلم : هُمَزة لحوم الناس .

ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شَرِيق . وقيل غيره . وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ أى : جمعه (٣) بعضه على بعض ،وأحصى عدده كقوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ [المعارج:١٨] . قاله السدى ، وابن جرير .

وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ : ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى(٤) هذا ، فإذا كان الليل ، نام كأنه جيفة .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أى : يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ؟ ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى: ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالاً فعدده (٥) فى الحطمة وهى اسم من أسماء النار صفة ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البنانى : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى .

---

(١) فى م : « على الناس » . (٢) فى م : « ولمزه » . (٣) فى م : « أى جمع » .
(٤) فى م : « فى » . (٥) فى م : « فعده » .

وقال محمد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده حَذْوَ حلقه ترجع على جسده .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقال ابن مَرْدُويه : حدثنا عبد الله بن محمد ،حدثنا على بن سراج ، حدثنا عثمان بن خَرزَاذ ، حدثنا شجاع بن أشرس ، حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قال : « مطبقة » .

وقد رواه أبو بكر بن أبى شيبة ، عن عبد الله بن أسيد ، عن إسماعيل بن خالد [1] ، عن أبى صالح ، قوله ، ولم يرفعه .

﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ : قال عطية العوفى : عمد من حديد . وقال السُّدِّى : من نار . وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ يعنى : الأبواب هى الممدوة [2] .

وقال قتادة فى قراءة عبد الله بن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممدة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : أدخلهم فى عَمَد فمدت عليهم بعماد ، وفى أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب .

وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار . واختاره ابن جرير .

وقال أبو صالح : ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ ، يعنى القيود الطوال .

آخر تفسير سورة « ويل لكل همزة لمزة »

---

(١) فى أ : « إسماعيل بن أبى خالد » .

(٢) فى أ : « هى الممددة » .

سورة الهُمَزة

مكّيّة، وهي تسع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾

﴿وَيۡلٞ﴾ مبتدأ، خبره[1] ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، وساغ الابتداء به مع كونه نكرةً؛ لأنّه دعاء عليهم بالهَلَكة، / أو بشدّة الشرّ، والهَمْز: الكسر كـ"الهَزْم"، واللَّمْز: الطعن كـ"اللهز"، شاعا في الكسر مِن أعراض الناس والطعن فيهم. وبناء "فُعَلَة" للدلالة على أنّ ذلك منه عادة مستمرّة قد ضَري بها، وكذلك اللُّعنة والضُّحكة. وقُرئ: "لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُمْزَةٌ"[2] بسكون الميم، وهو المسخَرة الذي يأتي بالأضاحيك فيُضحك منه ويُستهزأ به. [٣١٩و]

وقيل: نزلت في الأخنس بن شَريق، فإنّه كان ضاريًا بالغِيبة والوقيعة.[3] وقيل: في أميّةَ بن خَلَف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وغضِّه مِن جنابه الرفيع.[4] واختصاصُ السبب لا يستدعي خصوصَ الوعيد بهم؛ بل كلّ مَن اتّصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثلَ ذنوبهم.

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا﴾ بدل مِن ﴿كُلِّ﴾، أو منصوب، أو مرفوع على الذمّ. وقُرئ: "جَمَّعَ"[5] بالتشديد للتكثير، وتنكير ﴿مَالٗا﴾ للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى:

---

١ س: وخبر.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٣ القول في جامع البيان للطبري، ٦١٩/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٤ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وروح. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾. وقيل: معنى ﴿عَدَّدَهُۥ﴾ جَعَله عدّةً لنوائب الدهر.[١] وقُرئ: "وَعَدَدَهُ"،[٢] أي: جَمَع المال وضبط عَدَدَه، أو جمع ماله وعدَدَه الذين ينصرونه، مِن قولك: "فلان ذو عَدَدٍ وعُدَدٍ" إذا كان له عَدَدٌ وافر مِن الأنصار والأعوان. وقيل: هو فعل ماضٍ بفكّ الإدغام.[٣]

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ أي: يعمل عملَ مَن يظنّ أنّ ماله يبقيه حيًّا، والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقرير. وقيل: طوّل المالُ أمله ومنّاه الأمانيّ البعيدة حتّى أصبح لفرط غفلته وطولِ أمله يحسب أنّ المال تَرَكه خالدًا في الدنيا لا يموت. وقيل: هو تعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا، وأنّه هو الذي أخلد صاحبه في الحياة الأبديّة والنعيم المقيم، فأمّا المال فليس بخالد ولا بمخلِّد. ورُوي أنّ الأخنس كان له أربعة آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف.[٤] والجملة مستأنَفة أو حال مِن فاعل ﴿جَمَعَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جوابُ قسم مقدَّر، والجملة استئناف مبيِّن لعِلّة الردع، أي: والله ليُطرحَنّ بسبب تعاطيه للأفعال / المذكورة. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي: في النار التي شأنها أن تحطِم وتكسِر كلَّ ما يلقى فيها، كما أنّ شأنه كسرُ أعراض الناس وجمعُ المال. [٣١٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ لتهويل أمرها ببيان أنّها ليست مِن الأمور التي تنالها عقول الخلق.

وقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملةُ بيان لشأن المسئول عنها، أي: هي نار الله ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عزّ سلطانه، وفي إضافتها إليه سبحانه ووصفها بالإيقاد مِن تهويل أمرها ما لا مزيدَ عليه. ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي: تعلو أوساط القلوب وتغشاها. وتخصيصُها بالذِّكر لِما أنّ الفؤاد ألطفُ ما في الجسد وأشدّه تألُّمًا بأدنى أذى يمسّه، أو لأنّه محلّ العقائد الزائغة والنيّات الخبيثة، ومنشأ الأعمال السيّئة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٠.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

٤ هذه الأقوال كلُّها في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبَقة، مِن "أوصدتُ البابَ وآصدتُه"، أي: أطبقته. ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ إمّا حال مِن الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِم﴾، أي: كائنين ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، أي: موثَقين فيها مثل المقاطر التي يقطَّر فيها اللصوص، أو خبرُ مبتدأ مضمر، أي: هم في عَمَد، أو صفةٌ لـ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾، قاله أبو البقاء.[1] أي: كائنةٌ في عَمَد ممدَّة، بأن تُوصَد عليهم الأبواب، وتمدَّد على الأبواب العَمَد استيثاقًا في استيثاقٍ. اللّهمّ أجرنا منها يا خيرَ مستجار. وقُرِئ: "عُمُدٍ"[2] بضمّتين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الهُمَزة أعطاه الله[3] عشرَ حسنات بعَدَد مَن استهزأ بمحمّد عليه السلام وأصحابه».[4]

---

١ انظر: التبيان للعكبري، ١٣٠٤/٢.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.
٣ س + تعالى.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٠/٣٠ (الهمزة، ١/١٠٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٢/٤ (الهمزة، ١/١٠٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٤

سُورَةُ الهُمَزَةِ

مكية أو مدنية، تسعُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿وَيلٌ﴾: كلمةُ عذابٍ أو وادٍ في جهنّم ﴿لِكُلِّ هُمَزةٍ لُمَزةٍ﴾ أي: كثيرِ الهَمْز واللَّمْز، أي: الغِيبةِ ـ نزلتْ فيمن كان يغتاب النبيَّ والمؤمنين، كأُميّة بن خلف والوليد ابن المُغيرة وغيرهما ـ ٢ ـ ﴿الَّذي جَمَعَ﴾، بالتخفيف والتشديد، ﴿مالاً وعَدَّدَهُ﴾: أحصاه وجعله عُدّة لحوادث الدهر، ٣ ـ ﴿يَحسِبُ﴾ لجهله ﴿أنَّ مالَهُ أخلَدَهُ﴾: جعلَه خالدًا لا يموت.

سُورَةُ الهُمَزَةِ

قولُهُ: (أي: كَثِيرِ الهَمزِ) أي: الطَّعنِ؛ لأنَّ بناءَ فُعَلَةٍ يدُلُّ على الاعتيادِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) كأخنَسَ بن شريقٍ[١]، وجَميلِ بن فُلانٍ[٢].

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) للتَّكثيرِ، شاميٌّ وحمزَةُ والكسائيُّ[٣].

قولُهُ: (أَحصَاهُ) أي: عدَّهُ مرَّةً بعد أخرى، ويؤيِّدُهُ أنَّه قرئَ في الشَّواذِّ: (وَعَدَدَهُ)[٤] بالفكِّ.

قولُهُ: (لا يَمُوتُ) فأحبَّهُ كما يحبُّ الخُلودَ، وقالَ بعضُهُم: يظنُّ أنَّ مالَهُ يوصِلهُ إلى مقامِ الخُلدِ، أو يعمَلُ من تشييدِ البُنيانِ الموثَّقِ بالصَّخرِ والآجُرِّ، وغَرسِ الأشجارِ، وعمارَةِ الأرضِ؛ عمَلَ من يظنُّ أنَّ مالَهُ أبقاهُ حيًّا.

---

(١) جاء في «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨) فيه ستة أقوال.

(٢) في «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٧): هو جميل بن عامر الجُمَحِي.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٩٧).

(٤) ونسبت للحسن والكلبي، انظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٤١)، و«الدر المصون» (١١/ ١٠٦).

٤ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾: جوابُ قسم محذوف، أي: ليُطرَحَنَّ ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ التي تَحطِم كُلّ ما أُلقي فيها. ٥ ـ ٦ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمكَ: ﴿ما الحُطَمَةُ؟ نارُ اللهِ المُوقَدةُ﴾: المُسعَّرة ٧ ـ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ﴾: تُشرِف ﴿عَلَى الأَفئِدَةِ﴾: القُلوبِ فتُحرقها، وألمُها أشدّ من ألم غيرها للُطفها.

٨ ـ ﴿إِنَّها عليهِم﴾ ـ جُمِعَ الضميرُ رِعايةً لمعنى «كُلّ» ـ ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾، بالهمز وبالواو بدلَه: مُطبَقةٌ، ٩ ـ ﴿فِي عُمُدٍ﴾، بضمّ الحرفين وبفتحهما، ﴿مُمَدَّدةٍ﴾: صفةٌ لما قبله. فتكون النار داخلَ العُمُد.

قولُهُ: (رَدْعٌ) له عن حِسبانِه.

قولُهُ: (المُسَعَّرَةُ) أي: التي أوقَدَها اللهُ تعالى، وما أوقَدَهُ لا يَقدِرُ أن يُطفئَهُ غيره.

قولُهُ: (تُشرِفُ) وتَعلو.

قولُهُ: (القُلُوبِ) أو وساطِها، وتخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّ الفؤادَ ألطَفُ ما في البدَنِ وأشَدُّ تألُّماً، أو لأنَّه محَلُّ العقائدِ الزَّائغةِ، ومنشَأ الأفعالِ القبيحَةِ.

قولُهُ: (رِعَايَةً) ويمكِنُ أن يرجِعَ إلى أصحابِ الأفئدَةِ.

قولُهُ: (بالهَمزِ) تقَدَّم[1].

قولُهُ: (مُطبَقَةٌ) مُغلَقَةٌ.

قولُهُ: (بضَمِّ الحَرفَينِ) حمزَةُ والكِسائيُّ وشُعبةُ[2].

قولُهُ: (صِفَةٌ لِمَا قَبلَهَا) أي: مُوثَّقينَ في أعمدَةٍ ممدودَةٍ مثلَ المقاطِرِ التي تُقْطَرُ فيها اللُّصوصُ، والله أعلمُ.

***

---

(١) في قوله تعالى: ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ [البلد: ٢٠].

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٩٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٩٥).

سُورَةُ الهُمَزَةِ

مكيةٌ، وآيُها تسعٌ بلا خلافٍ في الأمرَين.

ولمَّا ذكر سبحانه فيما قبلَها أنَّ الإنسان سوى مَن استثنَى في خُسرٍ بيَّن عز وجل فيها أحوالَ بعضِ الخاسرين، فقال عز مِن قائل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ تقدَّم الكلامُ على إعراب مثل هذه الجملة[1]. والهَمزُ الكَسْرُ كالهَزْمِ، واللَّمزُ الطَّعْنُ كاللَّهزِ، شاعا في الكسر من أعراض الناس والغضِّ منهم واغتيابهم والطَّعن فيهم، وأصلُ ذلك كان استعارةً؛ لأنَّه لا يُتصوَّر الكسرُ والطَّعنُ الحقيقيَّان [إلا] في الأجسام، فصار حقيقةً عرفيَّة [في] ذلك[2].

وبناءُ فُعَلَة يدلُّ على الاعتياد، فلا يقال: ضُحَكَة ولُعَنَة إلَّا للمُكْثِرِ المتعوِّد، قال زياد الأعجم:

إذا لقيتُك عن شَحْطٍ تُكاشِرُني ... وإنْ تغيَّبْتُ كنتَ الهامزَ اللُّمَزَه[3]

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وجماعة عن ابن عباس أنَّه سُئِل عن ذلك فقال:

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، وقوله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٧، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ديوان زياد الأعجم ص١٢٧، ومجاز القرآن ١/ ٢٦٣، وجمهرة اللغة ٣/ ١٨، وهو دون نسبة في تفسير الطبري ١١/ ٥٠٥، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦١، والقرطبي ٢٢/ ٤٦٩، ولسان العرب، وتاج العروس (لمز). ورواية الديوان:

إذا لقيتُك تُبْدي لي مكاشرة ... وإنْ أغِب فَلأَنْتَ الهامز اللُّمَزَهْ

هو المشَّاءُ بالنميمةِ، المفرِّقُ بين الجمع، المُغري بين الإخوان[١].

وأخرج ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهما عن مجاهد: الهُمَزَة: الطَّعَّان في الناس، واللُّمَزَة: الطَّعَّان في الأنساب.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية: الهَمْزُ في الوجه، واللَّمْزُ في الخلف[٢].

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن ابن جريج: الهَمْزُ بالعين والشِّدْق واليد، واللَّمْزُ باللسان[٣]. وقيل غير ذلك، وما تقدَّمَ أجمعُ.

وقرأ الباقر رضي الله عنه: «لكل هُمْزة لُمْزَة» بسكون الميم فيهما[٤] على البناء الشائع في معنى المفعول، وهو المَسْخَرة الذي يأتي بالأضاحيك فيُضْحَك منه ويُشتَم ويُهْمَز ويُلْمَز.

ونزل ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في أُبي بن خلف[٥].

وعلى ما أخرج عن السدي في أُبيِّ بن عمر الثقفي الشهير بالأخنس بن شَرِيق، فإنَّه كان مِغْتاباً كثيرَ الوقيعة[٦].

وعلى ما قال ابن إسحاق: في أُمية بن خلف الجُمَحي، وكان يهمزُ النبيَّ ﷺ ويَعِيبُه[٧].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٦-٦١٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢، وأخرجه أيضاً وكيع في الزهد (٤٤٧)، وهناد في الزهد (١٢١٤).

(٢) الأثران في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢، وأخرجهما الطبري ٢٤/ ٦١٧-٦١٨.

(٣) شعب الإيمان (٦٧٥٢).

(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٦٩، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠.

(٥) أسباب النزول للسيوطي ص ٤٤٢، والدر المنثور ٦/ ٣٩٠، ووقع في مطبوع الدر: جميل بن عامر، بدل: أبي بن خلف.

(٦) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

(٧) السيرة النبوية ١/ ٣٥٦.

وعلى ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد: في جميل بن عامر[١].

وعلى ما قيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابِهِ لرسول الله ﷺ وغَضِّه منه.

وعلى قولٍ: في العاص بن وائل.

ويجوزُ أن يكونَ نازلاً في جميع مَن ذُكر، لكن استُشكِلَ نزولها في الأخنس بأنَّه على ما صحَّحه ابنُ حجر في «الإصابة» أسلم[٢]، وكان من المؤلَّفة قلوبُهم، فلا يتأتَّى الوعيدُ الآتي في حقِّه، فإمَّا أنْ لا يصحَّ ذلك، أو لا يصحَّ إسلامُه.

وأيضاً استُشكلَت قراءةُ الباقر رضي الله عنه بناءً على ما سمعتَ في معناها وكونِ الآية نازلةً في الوليد بن المغيرة ونحوه من عظماء قريش.

وأُجيبَ بأنَّ ما تقدَّم فيها أصلُ وضعِ اللفظ، ثم عمَّ لكلِّ مَن يُكثِرُ الغيبة والطَّعن وإنْ لم يكن يُضْحَك منه ويُشتم.

ثم إنَّ العموم هو المراد على جميع الأقوال، أي: ويلٌ لكلِّ هُمَزة لمزة، كافراً كان أو مؤمناً، والقصد إلى نهي الإنسان عن ذَيْنك الفعلَين وتقبيحِهما وإن كان النزول على الكفار، وهذا شاهدٌ بيِّنٌ على أنَّ الكافر مكلَّفٌ بالفروع مؤاخذٌ بها[٣]، وبه اندفَع ما في «التأويلات» مِن أنَّه كيف عِيبَ الكافرُ بهذَين الفعلَين مع أنَّ فيه حالاً أقبحَ منهما[٤] وهو الكفر؟ وأمَّا ما أجابَ به مِن أنَّ الكفرَ غيرُ قبيحٍ لنفسه بخلافهما[٥]، فلا يخفَى ضعفُه؛ لأنَّ فَوْتَ الاعتقادِ الصحيح أقبحُ من كلِّ شيء قبيح.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ بدلٌ من «كلِّ» بدلَ كلٍّ، وقيل: بدلَ بعضٍ من كلّ. وقال الجاربردي: يجوزُ أنْ يكونَ صفةً له لأنَّه معرفةٌ، على ما ذكره

---

(١) كذا ذكر، والصواب أن الطبري أخرجه من كلام رجل من أهل الرقة. تفسير الطبري ٦١٩/٢٤، وأسباب النزول للسيوطي ص ٤٣٨.

(٢) الإصابة ٣٦/١.

(٣) من قوله: وأجيب بأن ما تقدم... إلى قوله: مؤاخذ بها، ليس في (م).

(٤) في الأصل: منها.

(٥) تأويلات أهل السنة ٥١٨/٥.

الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] إذ جعل جملة «معها سائق» حالاً من «كل نفس» لذلك[١]. ولا يخفى ما فيه.

ويجوزُ أنْ يكون منصوباً أو مرفوعاً على الذمِّ.

وتنكير «مالاً» للتفخيم والتكثير، وقد كان عند القائلين إنَّها نزلَت في الأخنس أربعةَ آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف.

وجوَّزَ أن يكونَ للتحقير والتقليل باعتبار أنَّه عند الله تعالى أقلُّ وأحقرُ شيء.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والأخوان: «جمَّع» بشدِّ الميم[٢] للتكثير، وهو أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: عدَّه مرةً بعد أخرى حبًّا له وشَغَفاً به.

وقيل: جَعَله أصنافاً وأنواعاً كعَقَار ومَتَاع ونقود، حكاه في «التأويلات»[٣].

وقال غيرُ واحدٍ: أي: جعله عُدَّةً ومدَّخراً لنوائب الدهر ومصائبه.

وقرأ الحسن والكلبي: «وَعَدَدَه» بالتخفيف[٤]، فقيل: معناه: وَعَدَّه، فهو فعلٌ ماضٍ فُكَّ إدغامُه على خلاف القياس كما في قوله:

مَهْلاً أعاذلَ هل جَرَّبتِ مِن خُلُقي ... أنِّي أَجُودُ لِأَقوامٍ وإنْ ضَنِنُوا[٥]

وقيل: هو اسمٌ بمعنى العدد المعروف، معطوفٌ على مالِه، أي: جمع مالَه وضبط عدَدَه وأحصاه، وليس ذلك على ما في «الكشف» من باب:

علفْتُها تبناً وماءً باردا[٦]

---

(١) الكشاف ٤/ ٧.

(٢) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٣ عن أبي جعفر وابن عامر والأخوين (حمزة والكسائي)، وهي قراءة خلف ويعقوب برواية روح. وقراءة الحسن في البحر المحيط ٨/ ٥١٠.

(٣) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥١٩، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٩٧.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠.

(٥) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما في الكتاب ٣/ ٥٣٥، والخصائص ١/ ١٦٠، والحماسة البصرية ٢/ ٧٦، ومختارات ابن الشجري ١/ ٧، واللسان (ضنن). وجاء في المصادر: قد جرّبت، بدل: هل جرّبت.

(٦) سلف عند تفسير الآية (٣) من سورة النساء.

لأنَّ جمْعَ العدد عبارةٌ عن ضَبْطه وإحصائه، فلا يحتاجُ إلى تكلُّف.

وعلى الوجهَين أيِّد بالقراءة المذكورة المعنى الأولُ لقراءة الجمهور.

وقيل: هو اسم بمعنى الأتباع والأنصار؛ يقال: فلانٌ ذو عَدَدٍ وعُدَد، إذا كان له عَدَدٌ وافرٌ من الأنصار وما يُصلحُهم، وهو معطوف على مالِه أيضاً، أي: جمع مالَه وقومَه الذين ينصرونه.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ جملةٌ حالية أو استئنافيةٌ، و«أخلده» وخلَّده بمعنًى، أي: تركه خالداً، أي: ماكثاً مُكثاً لا يتناهَى، أو مكثاً طويلاً جدًّا، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية، والمرادُ أنَّ المالَ طوَّل أملَه ومنَّاه الأمانيَّ البعيدةَ، فهو يعملُ مِن تشييد البنيانِ، وغرسِ الأشجار، وكَرْي الأنهار، ونحو ذلك، عَمَلَ مَن يظنُّ أنَّ[1] مالَه أبقاه حيًّا.

والإظهارُ في مقام الإضمار لزيادة التقرير، والتعبيرُ بالماضي للمبالغة في المعنى المراد.

وجوِّز أنْ يُراد أنَّه حاسِبٌ ذلك حقيقةً لفَرْط غرورِه واشتغاله بالجمع والتكاثر عما أمامَه من قوارع الآخرة، أو لِزَعْمِه أنَّ الحياة والسلامةَ عن الأمراض والآفات تدورُ على مراعاة الأسباب الظاهرة، وأنَّ المال هو المحورُ لكرَّتها، والملكُ المطاع في مدينتها.

وقيل: المرادُ أنَّه يحسب المالَ من المخلِّدات، ولا نظر فيه إلى أنَّ الخلودَ دنيوي أو أُخرَوي ذكراً أو عيناً، إنما النظرُ في إثبات هذه الخاصة للمال، والغرضُ منه التعريضُ بأنَّ ثَمَّ مخلِّداً ينبغي للعاقل أنْ يَكُبَّ عليه، وهو السعي للآخرة. وهو بعيدٌ جدًّا، ولذا لم يجعل بعضُ الأجلة التعريضَ وجهاً مستقلًّا. وزعم عصامُ الدين أنَّه يحتمل أن يكونَ فاعلُ «أخلد» الحاسبُ، ومفعوله المال، أي: يظنُّ أنْ يَحفَظ مالَه أبداً، ولا يعرف أنَّه معرَّضٌ للحوادث أو للمفارقة بالموت، كما قيل: بشِّرْ مالَ البخيل بحادث أو وارث. وهو لعمري مما لا عصام له.

---

(١) في (م): أنه ماله.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن ذلك الحسبان الباطلِ، أو عنه وعن جمع المال وحبِّه المفرط على ما قيل. واستُظهر أنَّه ردعٌ عن الهمز واللَّمز، وتُعقِّب بأنَّه بعيدٌ لفظاً ومعنًى.

وأنا لا أرى بأساً في كون ذلك ردعاً له عن كلِّ ما تضمَّنته الجملُ السابقة من الصفات القبيحة.

وقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جوابُ قسم مقدَّر، والجملةُ استئنافٌ مبيِّنٌ لعلة الردع، أي: والله لَيُطْرَحَنَّ بسبب أفعاله المذكورة ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي: في النار التي من شأنها أنْ تحطِمَ كلَّ مَن يُلقَى فيها. وبناء فُعَلَة لتنزيل الفعل ـ لكونه طبيعيًّا ـ منزلةَ المعتاد.

والحَطْم: كسر الشيء، كالهَشْم، ثم استُعمل لكلِّ كسر متناهٍ، وأنشدوا:

إنَّـا حَـطَـمـنـا بـالـقَـضـيـب مُـصـعَـبَـا   يـومَ كَـسَـرنـا أَنْـفَـه لِـيـغـضَـبَـا[1]

ويقال: رجلٌ حُطَمَة، أي: أكول، تشبيهاً له بالنار، ولذا قيل في أكول:

كــأنَّـمــا فــي جــوفــه تَــنُّــور[2]

وفسَّر الضحاك «الحطمة» هنا بالدَّرك الرابع من النار.

وقال الكلبي: هي الطبقةُ السادسةُ من جهنم. وحكى القشيري عنه: أنَّها الدرك الثاني.

وقال الواحدي: هي بابٌ من أبواب جهنَّم[3].

وزعم أبو صالح أنَّها النار التي في قبورهم. وليس بشيءٍ.

---

(١) البيت لصخير بن أبي الجهم، كما في المنمَّق لابن حبيب ص٣٦٦، وتاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٥، وفيهما: نحن خطمنا...، ومصعب هو ابن عبد الرحمن بن عوف، كما قال ابن حبيب. ومعنى خطمه: ضرب أنفه. القاموس (خطم).

(٢) البيت في المفردات للأصفهاني، مادة (حطم).

(٣) الأقوال السالفة في البحر المحيط ٨/ ٥١٠.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ لتهويل أمرها ببيان أنَّها ليسَت من الأمور التي تنالُها عقولُ الخلق.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والحسن بخلافٍ عنه وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو: «لَيُنْبذانِّ» بضمير الاثنين[١] العائد على «الهُمَزَة» وماله.

وعن الحسن أيضاً: «لينبذُنَّ» بضم الذال[٢] وحذف ضمير الجمع، فقيل: هو راجعٌ «لكل همزة» باعتبار أنَّه متعدِّد، وقيل: له ولعدَدِه، أي: أتباعه وأنصاره بناءً على ما سمعتَ في قراءته هناك.

وعن أبي عمرو: «لَنَنْبِذَنَّه» بنون العظمة وهاء النصب ونون التأكيد[٣].

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: «في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة»[٤].

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ لبيان شأن المسؤول عنها، أي: هي نارُ الله ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عز وجل. وفي إضافتها إليه سبحانه ووَصْفها بالإيقاد من تهويل أمرها ما لا مزيدَ عليه.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ أي: تعلُو أوساطَ القلوب وتغشاها، وتخصيصُها بالذكر لِمَا أنَّ الفؤادَ ألطفُ ما في الجسد وأشدُّه تألُّماً بأدنى أذى يمسُّه، أو لأنَّه محلُّ العقائد الزائغةِ والنيات الخبيثةِ والملكات القبيحة، ومنشَأ الأعمال السيئة، فهو أنسبُ بما تقدَّم من جميع أجزاء الجسد.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنَّه قال في الآية:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٢، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٧٢-٤٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠، وينظر القراءات الشاذة ص ١٧٩، وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠.

(٣) نسبها القرطبي في تفسيره ٢٢/ ٤٧٣ للحسن، وقراءة أبي عمرو في القراءات الشاذةص١٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠: لينبذنَّه.

(٤) البحر ٨/ ٥١٠، ودون نسبة في القراءات الشاذة ص١٧٩.

تأكلُ كلَّ شيءٍ منه حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلَغَت فؤادَه ابتدأ خَلْقُه[١].

وجوِّز أنْ يراد الاطِّلاعُ العلمي، والكلام على سبيل المجاز، وذلك أنَّه لَمَّا كان لكلٍّ من المعذَّبين عذابٌ من النار على قَدْرِ ذنبه المتولِّد من صفات قلبه قيل: إنَّها تُطالع الأفئدة التي هي معادن الذنوب، فتَعلَم ما فيها، فتُجازي كلًّا بحَسَب ما فيه من الصفة المقتضية للعذاب.

وأرباب الإشارة يقولون: إنَّ ما ذكر إشارةٌ إلى العذاب الروحاني الذي هو أشدُّ العذاب.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي: مطبقة، وتمام الكلام مرَّ في سورة البلد[٢].

﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع عمود، كما قال الراغب[٣] والفراء[٤]، وقال أبو عبيدة[٥]: جمع عماد. وفي «البحر»[٦]: وهو اسم جمعٍ، الواحدُ عمود.

وقرأ الأخوان وأبو بكر: «عُمُد» بضمَّتين[٧]. وهارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم[٨]. وهو في القراءَتَين جمع عمود بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ صفةُ «عمد» في القراءات الثلاث، أي: طوال.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من الضمير المجرور في «عليهم» أي: كائنين في عمد ممددة، أي: موثَّقين فيها مثلَ المقاطر، وهي خُشُبٌ أو جذوعٌ كبارٌ فيها خُروقٌ يُوضَع فيها أَرْجُلُ المحبوسين من اللصوص ونحوهم.

أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هم كائنون في عمد موثَّقون فيها.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩٣.
(٢) آية رقم (٢٠).
(٣) في مفرداته (عمد).
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٩١.
(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٣١١.
(٦) ٨/ ٥١٠-٥١١.
(٧) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٣، وهي قراءة خلف.
(٨) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠.

وهي ـ والعياذ بالله تعالى ـ على ما روي عن ابن زيد: عمد من حديد. وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنَّها من نار[١].

واستظهر بعضُهم أنَّ العمد تُمدَّدُ على الأبواب بعد أنْ تُوصَد عليهم تأكيداً ليأسهم واستيثاقاً في استيثاق، وفي حديث طويل أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنَّ الله تعالى بعد أنْ يُخرجَ من النار عصاةَ المؤمنين، وأطولُهم مكثاً فيها مَن يمكُث سبعةَ آلافِ سنةٍ، يبعثُ عز وجل إلى أهل النار ملائكةً بأطباق من نارٍ ومساميرَ من نار وعمدٍ من نار، فيطبَقُ عليهم بتلك الأطباق ويُشَدُّ بتلك المسامير وتمدَّد تلك العمد، ولا يبقَى فيها خَلَلٌ يدخل فيه رَوحٌ، ولا يخرج منه غمٌّ، وينساهم الجبار عز وجل على عَرْشه، ويتشاغَلُ أهلُ الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطعُ الكلام فيكونُ كلامهم زفيراً وشهيقاً» وفيه: «فذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۞ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾»[٢]. اللهم أجرنا من النار يا خيرَ مستجار.

وعلى هذا يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بـ «مؤصدة»، حالاً من الضمير فيها، كما قاله صاحب «الكشف»، وحكاه الطيبي.

وفي «الإرشاد» عن أبي البقاء أنَّه صفةٌ لـ «مؤصدة»[٣].

وقال بعضٌ: لا مانعَ عليه أنْ يكون صلةَ «مؤصدة»، على معنى أنَّ الأبواب أُوصِدَت بالعُمُد وسُدَّت بها، وأُيِّدَ بما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: أدخلَهم في عمد وتمدَّدَت عليهم في أعناقهم السلاسل، فسُدَّت بها الأبواب[٤].

ثم إنَّ ما ذُكر ـ لإشعاره بالخلود وأشدِّية العذاب ـ يُناسبُ كونَ المحدَّث عنهم كفاراً هَمَزُوا ولمزوا خيرَ البشر ﷺ، وما تقدَّم من حمل العمد على المقاطر قيل:

---

(١) عزاه لابن جرير السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٣.

(٢) نوادر الأصول ص١٣٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٩/ ١٩٩، وقول أبي البقاء في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٤٨٣.

(٤) الطبري ٢٤/ ٦٢٥.

يُناسب العمومَ؛ لأنَّ المغتاب كأنَّه سارقٌ من أعراض الناس، فيناسب أنْ يعذَّب بالمقاطر كاللصوص، فلا يلزمُ الخلود.

وقد يقال: من تأمَّل في هذه السورة ظهر له العجَبُ العجاب من التناسب، فإنَّه لَمَّا بُولِغَ في الوصف في قوله تعالى: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قيل: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ للتعادل، ولَمَّا أفاد ذلك كسر الأعراض قوبل بكسر الأضلاع المدلول عليه بـ «الحطمة»، وجيء بالنبذ المنبئ عن الاستحقار في مقابلة ما ظنَّ الهامز اللَّامز بنفسه من الكرامة، ولَمَّا كان منشأُ جمع المال استيلاءَ حبِّه على القلب جيء في مقابله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، ولَمَّا كان من شأن جامع المال المحبِّ له أنْ يأصد عليه، قيل في مقابله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ولَمَّا تضمَّن ذلك طولَ الأمل قيل: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ وقد صرَّح بذلك بعضُ الأجلة، فليتأمل والله تعالى أعلم.

(١٠٥) سورة الفيل مكية وآياتها خمس

سورة الفيل مكية ، وهي تتحدث عن « قصة أصحاب الفيل » وكيف أهلك الله الطغاة الظالمين ، لما قصدوا هدم الكعبة المشرفة ، وردَّ كيدهم في نحورهم ، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم ، وفي ذلك أعظم العظة والعبرة لأهل مكة بدفع أعدائهم عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه ، وفيها مع ذلك عجائب من قدرة الله تعالى ، وشدة عقابه ، حيث أرسل على « أبرهة الأشرم » وجنوده أضعف مخلوقاته ، وهي الطيور، التي تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة ، ولكنها أشدُّ من الرصاصات فتكاً وتدميراً ، حتى أبادهم الله وأهلكهم عن آخرهم ، وكان ذلك الحدث العظيم في عام مولد رسول الله السعيد ، من أعظم الإرهاصات الدالة على نبوته ﷺ .

● ● ●

سورة الفيل

خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝﴾

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم مَلِك اليمن من قِبل أصحمة النجاشي - بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب نارًا، فحملتها الريح فأحرقتها، فحلف ليهدمن الكعبة، فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قويًّا عظيمًا، وثمانية أخرى، وقيل: اثنا عشر، وقيل: ألف، فلما بلغ قريبًا من مكة، خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه، وقدم الفيل، فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا، وقيل: هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة. فلما ذكر حاجته، قال: سقطتَ من عيني جئتُ لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذ لك؟! فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه. ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول:

لا هُمَّ إنَّ الـمَـرْءَ يَـمْـنَـعُ حِـلَّـهُ فَـامْـنَـعْ حَـلاَلَـكْ[(١)]
وانـصـر عـلـى آل الـصـلـيـب وَعَـابِـدِيـهِ الْـيَـوْمَ آلَـكْ
لاَ يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ وَمِـحَـالُـهُـمْ عـدوًا مـحـالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وكـعـبـتـنـا فَـأْمُـرْ مَـا بَـدَا لَـكْ

ويقول:

يَـا رَبِّ لاَ أَرْجُـو لَـهُـمْ سِـوَاكَـا يَـا رَبِّ فَـامْـنَـعْ عَـنْـهُـمْ حِـمَـاكَـا

(١) هذا البيت قاله عبد المطلب بن هاشم وهو جد النبيﷺ لأبيه، وهو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحارث. ١٢٧- ٤٥ق. هـ/ ٥٠٠- ٥٧٩م، زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب ومقدميهم، مولده في المدينة ومنشأة بمكة، كان عاقلاً، ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة. قال (سيديو) في خلاصة تاريخ العرب: (مارس الحكومة العظمى بمكة من سنة ٥٢٠ إلى سنة ٥٧٩م، وخلّص وطنه من غارة الحبشة) وهو حد رسول اللهﷺ قيل: اسمه شيبة و(عبد المطلب) لقب غلب عليه، وقيل: هو أول من خضب بالسواد من العرب، كان أبيض مديد القامة، مات بمكة عن نحو ثمانين عامًا أو أكثر.

فالتفت وهو يدعو، فإذا هو بطير من نحو اليمن، فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية!! وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، فهلكوا في كل طريق ومنهل، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة، فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتًا بين يديه. وعن عائشة قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان، **ثم في الآية سؤالات:**

الأول: لمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل؟ **الجواب:** المراد من الرؤية العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًا مساويًا في القوة والجلاء للرؤية، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] لا يقال: فلمَ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] لأنا نقول: الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادرًا، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ولم يقل: ألم تر ما فعل ربك؟ **الجواب:** لأن الأشياء لها ذوات، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها، وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦] ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسًا لنبوتهم وإرهاصًا لها، ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله، وعند المعتزلة أن ذلك لا يجوز، فلا جرم زعموا أنه لا بد وأن يقال: كان في ذلك الزمان نبي (أو خطيب) كخالد بن سنان أو قس بن ساعدة. ثم قالوا: ولا يجب أن يشتهر وجودهما، ويبلغ إلى حد التواتر؛ لاحتمال أنه كان مبعوثًا إلى جمع قليلين، فلا جرم لم يشتهر خبره. واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدًا؛ لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم - أعذارًا ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار؛ لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن تُقبل طير معها حجارة، فتقصد قومًا دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفًا لشافهوه بالتكذيب، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه.

السؤال الثالث: لمَ قال: ﴿فَعَلَ﴾ ولم يقل: جعل ولا خلق ولا عمل؟ **الجواب:** لأن (خلَق) يستعمل لابتداء الفعل، و(جَعَل) للكيفيات، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] و(عَمِل) بعد الطلب و(فَعَل) عام فكان أَوْلى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظ البيت، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظًا يشمل الكل.

السؤال الرابع: لمَ قال: ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقل: الرب؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** كأنه تعالى قال: إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة، فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الانتقام، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل، فأقول: ربك، أي أنا لك ولستُ لهم بل عليهم. **وثانيها:** كأنه تعالى قال: إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيمًا لك وتشريفًا لمَقْدِمك، فأنا كنت مربيًا لك قبل قومك، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك؟ ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر.

السؤال الخامس: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ مذكور في معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة، فما السبب لهذا التعجب؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** أن الكعبة تبع لمحمد ﷺ، وذلك لأن العلم يؤدى بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف، ثم الرسول الذي هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه، فكأنه تعالى يقول: إن الملك العظيم لما طعن في المسجد هزمته وأفنيته، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أفنيه وأعدمه! إن هذا لعجيب. **وثانيها:** أن الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء، أفلا تسعى في حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي؟!

السؤال السادس: لمَ قال: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ولم يقل: أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ **الجواب:** لأن الصاحب يكون من الجنس، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل، بل فيه دقيقة، وهي: أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين، فيقال للأدون: إنه صاحب الأعلى، ولا يقال للأعلى: إنه صاحب الأدون، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام: إنهم الصحابة، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالاً وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه، كأنه كان يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عزمي حميد فلا أتركه. وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالاً منهم.

السؤال السابع: أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة، فلمَ سلط الله العذاب على من قصد التخريب، ولم

يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان؟ **والجواب:** لأن وضع الأوثان فيها تعَدٍّ على حق الله تعالى، وتخريبها تعَدٍّ على حق الخلق، ونظيره قاطع الطريق، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة، وإن كانوا كفارًا؛ لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق.

السؤال الثامن: كيف القول في إعراب هذه الآية؟ **الجواب:** قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بفعل لا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لأن كيف من حروف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝﴾

واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، **إن قيل:** فلمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟ **قلنا:** نعم، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر؛ لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته، كقوله: الصوم لي. **والجواب:** أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فلمَ لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقًا لإرادتهم واختيارهم؟

المسألة الثالثة: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي في تضييع وإبطال، يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضالاً ضائعًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] وقيل لامرئ القيس الملك الضليل، لأنه ضلل مُلك أبيه، أي ضيعه، بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه، ثم كادوه ثانيًا بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم، ومعنى حرف (فى)الظرف كما يقال: سَعْي فلان في ضلال، أي سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلالا وخطأ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: لمَ قال: ﴿طَيْرًا﴾ على التنكير؟ **والجواب:** إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو للتفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل.

السؤال الثاني: ما الأبابيل؟ **الجواب:** أما أهل اللغة قال أبو عبيدة: أبابيل جماعة في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل أبابيل، من ههنا وههنا. وهل لهذه اللفظة واحد أم لا؟ **فيه قولان:**

الأول: -وهو قول الأخفش والفراء- أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد، لا وحد لها.

والثاني: أنه له واحد، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه: **أحدها:** زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأمونًا أنه سمع واحدها إبالة، وفي أمثالهم: (ضِغث على إبالة) وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة. **وثانيها:** قال الكسائي: كنت أسمع النحويين يقولون: إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل وثالثها: قال الفراء: ولو قال قائل: واحد الأبابيل إيبالة كان صوابًا، كما قال: دينار ودنانير.

السؤال الثالث: ما صفة تلك الطير؟ **الجواب:** روى ابن سيرين عن ابن عباس قال: كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب. وروى عطاء عنه قال: طير سود جاءت من قبل البحر فوجًا فوجًا، ولعل السبب أنها أُرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية. وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار. ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها، والبياض ضد السواد، وقيل: كانت خضرًا ولها رءوس مثل رءوس السباع. وأقول: إنها لما كانت أفواجًا، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر، فكل أحد وصف ما رأى، وقيل: كانت بلقاء كالخطاطيف.

قوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو حيوة: (يَرْمِيهِمْ) أي الله، أو الطير لأنه اسم جمع مذكر، وإنما يؤنث على المعنى.

المسألة الثانية: ذكروا في كيفية الرمي وجوهًا: **أحدها:** قال مقاتل: كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه، يقتل كل واحد رجلاً، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره. **وثانيها:** روى عكرمة عن ابن عباس قال: لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري. وهو قول سعيد بن جبير، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة، وأكبرها مثل الحمصة.

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك، وقال: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليًا عن الثقل وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات، فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس، وكل ذلك محال. واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

المسألة الثالثة: ذكروا في السجيل وجوهًا: **أحدها:** أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كُتب

فيه عذاب الكفار، كما أن سجينًا علم لديوان أعمالهم، كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال، ومنه السجل: الدلو المملوء ماء، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كُتب فيه العذاب، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فقوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب. **وثانيها:** قال ابن عباس: سجيل معناه سنك وكل، يعني بعضه حجر وبعضه طين. **وثالثها:** قال أبو عبيدة: السجيل الشديد. **ورابعها:** السجيل اسم لسماء الدنيا. **وخامسها:** السجيل حجارة من جهنم، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير العصف وجوهًا ذكرناها في قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] وذكروا ههنا وجوهًا: **أحدها:** أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي. **وثانيها:** قال أبو مسلم: العصف: التبن لقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه وثالثها: قال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل. **ورابعها:** هو الحب الذي أُكل لبه وبقي قشره.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير المأكول وجوهًا: **أحدها:** أنه الذي أُكل، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان: **أحدهما:** أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب، ثم ألقته روثًا، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن، كقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وهو قول مقاتل وقتادة وعطاء عن ابن عباس. **والاحتمال الثاني على هذا الوجه:** أن يكون التشبيه واقعًا بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال، وهو أن يأكله الدود.

الوجه الثاني في تفسير قوله: ﴿مَّأْكُولٍ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أُكل حبه وبقي تبنه، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: كعصف مأكول الحب، كما يقال: فلان حسن، أي حسن الوجه، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أُكل حبه لأن هذا المعنى معلوم، وهذا قول الحسن.

الوجه الثالث في التفسير: أن يكون معنى مأكول أنه مما يؤكل، يعني تأكله الدواب، يقال لكل شيء يصلح للأكل: هو مأكول. والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب. وهو قول عكرمة والضحاك.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: إن الحَجاج خرب الكعبة، ولم يحدث شيء من ذلك، فدل

على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة . **والجواب**: أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصًا لأمر محمد ﷺ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه ، أما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك .

والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تفسير سورة «الفيل»

وهي مكية بإجماع(١). وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: أَلَم تخبَرْ. وقيل: أَلَم تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظُ استفهامٌ، والمعنى تقرير. والخطابُ للنبيِّ ﷺ ولكنَّه عامٌّ، أي: ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصْحَابِ الفيل، أي: قد رأيتُم ذلك، وعرفتُم موضعَ مِنَّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ «فَعَلَ رَبُّك» لا بـ «ألم تر» [لأن] «كيف» من معنى الاستفهام(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الفيلُ معروفٌ، والجمعُ أفيالٌ وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تَقُلْ أَفْيِلة. وصاحبُه فيَّال. قال سيبويه: يجوزُ أن يكون أصلُ فِيل فُعْلاً، فكُسِر من أَجْلِ الياء، كما قالوا: أبيضُ وبيضٌ. وقال الأخفش: هذا لا يكونُ في الواحد، إنَّما يكون في الجمع. ورجلٌ فِيلُ الرأي، أي: ضعيف الرأي، والجمعُ أفيال. ورجلٌ فالٌ، أي: ضعيفُ الرأي، مخطئُ الفِراسةِ. وقد فال الرأيُ يَفِيلُ فُيولة، وفَيَّل رأيَه تفييلاً، أي: ضعَّفه، فهو فَيِّل الرأي(٣).

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٣١ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لأن كيف من حروف الاستفهام. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤ : ولا يعمل فيه «تر» لأن فيه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه ما قبله.

(٣) الصحاح (فيل)، وقول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٩١ ، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٩٢ .

الثالثة: في قصة أصحابِ الفيل، وذلك أنَّ أبرهةَ بنى القُلَّيْسَ بصنعاء، وهي كنيسةٌ لم يُر مِثلُها في زمانها بشيءٍ من الأرض، وكان نصرانيًّا، ثم كتب إلى النجاشيِّ: إنِّي قد بَنَيْتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ[1] مثلُها لملِك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حجَّ العربِ.

فلمَّا تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلك إلى النجاشيِّ، غضب رجلٌ من النَّسَأة[2]، فخرج حتى أتى الكنيسةَ، فقعد فيها ـ أي: أَحْدَثَ ـ ثم خرج فلَحِقَ بأرضه، فأُخْبِر بذلك أبرهةُ، فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: صَنَعه رجلٌ من أهلِ هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكة، لمَّا سمِع قولكَ: أَصْرِفُ إليها حجَّ العرب، غضب، فجاء فقعد فيها، أي: أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهةُ، وحلف ليَسِيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانةَ يدعوهم إلى حجِّ تلك الكنيسة، فقتَلَتْ بنو كنانةَ ذلك الرجلَ، فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقًا.

ثم أمر الحبشةَ فتهيَّأتْ وتجهَّزتْ، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعتْ بذلك العرب، فأَعْظَموه وفَظِعوا به، ورأَوْا جهادَه حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هَدْمَ الكعبةِ بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجلٌ من أشرافِ أهلِ اليمنِ وملوكِهم يقال له: ذو نَفْر، فدعا قومه ومَن أجابه مِن سائر العرب إلى حربِ أبرهةَ وجهادِه عن بيت الله الحرام، وما يريد مِن هَدْمِه وإخرابه، فأجابه مَن أجابه إلى ذلك، ثم عَرَضَ له فقاتَلَه، فهُزِم ذو نَفْرٍ وأصحابُه، وأُخِذ له ذو نفرٍ فأُتي به أسيراً، فلمَّا أراد قَتْلَه قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتُلْني، فإنَّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي. فتركه من القتل، وحَبَسه عنده في وَثاق، وكان أبرهةُ رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهةُ على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمَ

---

(١) في (ظ): لم ير.

(٢) بعدها في سيرة ابن هشام ١/ ٤٣ : أحد بني فقيم بن عدي بن عامر...، والنسأة: الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب في الجاهلية.

عَرَضَ له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيُّ في قبيلَتيْ خثعم: شَهرانَ وناهِسٍ، ومَن تَبِعه من قبائل العرب، فقاتَلَه فهزمه أبرهةُ، وأُخِذ له نُفيل أسيراً، فأُتي به، فلمَّا همَّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإنِّي دليلُك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهِس ـ بالسمع والطاعة. فخلَّى سبيلَه. وخرج به معه يدلُّه. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالٍ من ثَقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنَّما نحن عبيدُك، سامعون لك مُطيعون، ليس عندنا لك خلافٌ، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذي تريد ـ يعنون اللَّاتَ ـ إنَّما تريدُ البيتَ الذي بمكة، ونحن نبعثُ معك مَن يَدُلُّك عليه. فتجاوَزَ عنهم، وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمَّس[1] فلمَّا أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبرَه العرب، فهو القبرُ الذي يرجمُ الناسُ بالمغمَّس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُمُ قبرَه في كلِّ عامٍ كَرجْمِ الناسِ قبرَ أبي رِغال[2]

فلمَّا نزل أبرهةُ بالمغمَّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكةَ، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامةَ من قريش وغيرِهم، وأصاب فيها مئتي بعيرٍ لعبد المطَّلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبيرُ قريشٍ وسيدُها، فهمَّتْ قريشٌ وكنانةُ وهُذَيْلٌ ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقةَ لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِميريَّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد هذا البلد وشريفِهم، ثم قل له: إنَّ الملك يقول: إنِّي لَمْ آتِ لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تَعرضوا لي بحربٍ، فلا حاجةَ لي بدمائكم. فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فأْتني به. فلمَّا دخل حُناطةُ مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب

(١) بتشديد الميم وفتحها، وقيل: بكسرها، موقع قرب مكة في طريق الطائف. ينظر معجم البلدان ٥/ ١٦١، والروض الأنف ١/ ٦٨.

(٢) البيت لمسكين الدارمي، كما في الحيوان ٦/ ١٥٧، وثمار القلوب لأبي منصور الثعالبي ص١٣٦.

ابنُ هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك منه طاقة[١]، هذا بيتُ الله الحرامُ، وبيتُ خليله إبراهيمَ عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإنْ يمنعْه منه فهو حَرمُه وبيتُه، وإن يُخلِّ[٢] بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حُناطة: فانطلِقْ إليه؛ فإنَّه قد أمرني أنْ آتيَه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان صديقاً له ـ حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر: وما غَنَاءُ رجلٍ أسيرٍ بيدي ملكٍ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيًّا! ما عندي غَناءٌ في شيءٍ ممَّا نزل بك، إلَّا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأرسلُ إليه وأُوصِيه بك، وأُعْظِمُ عليه حقَّكَ، وأسألُه أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حَسْبي. فبعث ذو نفْر إلى أُنَيس فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش، وصاحبُ عَيْن[٣] مكةَ، يطعمُ الناسَ بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فاسْتَأْذِنْ له عليه، وانْفَعْه عنده بما استطعت. فقال: أَفْعَلُ. فكلَّم أُنيسٌ أبرهةَ، فقال له: أيها الملك، هذا سيدُ قريشٍ ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحبُ عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فليكلِّمْك[٤] في حاجته. قال: فأْذِن له أبرهة.

وكان عبد المطَّلب أَوسَمَ الناس وأعظمَهم وأجملَهم، فلمَّا رآه أبرهةُ أَجَلَّه وأَعْظَمَه عن أن يُجلسه تحته، فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جَنْبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك[٥]؟ فقال له ذلك التُّرجُمان، فقال:

---

(١) في تفسير الطبري ٢٤/٦٣٨ : وما لنا بذلك من طاقة.

(٢) في (ظ): وإن لم يحل.

(٣) في تفسير الطبري: عير، في الموضعين.

(٤) في (د): يكلمك، وفي (م) والسيرة: فيكلمك، والمثبت من باقي النسخ وتفسير الطبري.

(٥) في (د) وتفسير الطبري: ما حاجتك. والمثبت من باقي النسخ والسيرة.

حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مئتي بعيرٍ أصابها لي. فلمَّا قال له ذلك، قال أبرهة لتَرْجُمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمني في مئتي بعيرٍ أَصَبْتُها لك، وتتركُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمُني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إنِّي أنا ربُّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعُه. قال: ما كان لِيمتنعَ منِّي! قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبلَه.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزِ في شَعَف الجبال والشِّعاب؛ تخوُّفاً عليهم مَعَرَّةَ الجيش[1]. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقةِ بابِ الكعبة، وقام معه نَفَرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهةَ وجندِه، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقةِ بابِ الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُمْ ... ومِحالُهُمْ عَدْوًا مِحالَكْ
إنْ كنتَ تارِكَهم وبلـ ... ـدتنا[2] فأمرٌ ما بدا لك[3]

يقول: أي شيء ما بدا لك لم تكن تفعلُه بنا[4]. والحِلال: جمع حِلّ[5]. والمِحال: القوَّة. وقيل: إنَّ عبد المطلب لمَّا أخذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ قال:

---

(١) أي: شدته. وقوله: وشعف الجبال، أي: رؤوسها، والشعاب: المواضع الخفية بين الجبال. الإملاء المختصر ١/ ٨٨.

(٢) في النسخ عدا (د): إن يدخلوا البلد الحرام، والمثبت من (د). وجاء في سيرة ابن هشام: إن كنت تاركهم وقبلتنا. وفي السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٢:

إن يدخلوا البلد الحرام ... غداً فأمر ما بدا لك

(٣) قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. ووقع في (د) زيادة: جروا جميع جيوشهم والفيل كي يسبوا عيالك قصدوا حماك بكيدهم عدواً وما رقبوا جلالك. وهذه الزيادة ذكرها ابن الجوزي ٩/ ٢٣٤ باختلاف يسير.

(٤) السير والمغازي ص ٦٢، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١٩.

(٥) وذكر أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٨٨ أن الحِلال - بكسر الحاء - جمع حِلَّة، وهي جماعة البيوت. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠: الحلال في هذا البيت: القوم الحلولُ في المكان، والحلال أيضاً: متاع البيت، وجائز أن يستعيره ههنا.

يـا رَبِّ لا أرجُـو لَـهـمْ سِـواكـا يـا ربِّ فـامـنـعْ مـنـهـمُ حِـمـاكـا
إنَّ عـدوَّ الـبـيـتِ مَـن عـاداكـا إنَّـهـمُ لـن يَـقْـهَـروا قُـوَاكـا[١]

وقال عكرمةُ بن عامر بنِ هاشم بنِ عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لاهُـمَّ أخْـزِ الأسـودَ بـن مـقـصـود الآخِـذَ الـهَـجْـمَـةَ فـيـهـا الـتَّـقْـلِـيـدْ
بـيـن حـراءٍ وثَـبِـيـرٍ فـالـبِـيـدْ يـحـبـسـهـا وهـي أولاتُ الـتَّـطْـريـدْ
فـضَـمَّـهـا إلـى طَـمـاطِـمٍ سُـودْ قَـدْ أَجْـمَـعُـوا أَلَّا يـكـون مَـعْـبُـودْ
ويـهـدمـوا الـبـيـتَ الـحـرامَ الـمَـعْـمُـودْ والـمـرْوَتَـيـنِ والْـمَـشَـاعـرَ الـسُّـودْ
أَخْـفِـرْه يـا ربِّ وأنـت مـحـمـودْ[٢]

قال ابن إسحاق: ثم أَرسل عبد المطلب حَلْقَةَ بابِ الكعبة، ثم انطلق هو ومَن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكةَ إذا دخلها. فلمَّا أصبح أبرهةُ تهيَّأ لدخول مكةَ، وهيَّأ فيلَه، وعبَّأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدم البيت، ثم الانصرافِ إلى اليمن. فلمَّا وجَّهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جَنْبِ الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابْرُكْ محمودُ، وارجع راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أُذُنَه، فبرك الفيل[٣]. وخرج نُفيل بن حبيب يشتدُّ، حتى أَصْعدَ في الجبل. وضربوا الفيلَ

(١) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤١ ، والبيت الأخير فيه برواية: امنعهم أن يخربوا قراكا.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٩ ، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٥١ دون قوله: قد أجمعوا... السود.
الهجمة: القطعة من الإبل، قيل: ما بين الخمسين إلى الستين. وقوله: فيها التقليد، أي: في أعناقها قلائد. وحراء وثبير جبلان بمكة. والبيد جمع بيداء، وهي القفر. والطماطم: الأعاجم، واحدهم: طُمْطُمان. وقوله: أخفره، أي: انقض عهده، فلا تؤمِّنه. ينظر الروض الأنف ١/ ٧١ ، والإملاء المختصر ١/ ٨٩ .

(٣) قال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧١ : قوله: فبرك الفيل، فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه: سقوطه إلى الأرض لمَا جاءه من أمر الله سبحانه، ويحتمل أن يكون فَعَلَ فِعْلَ البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح، فعبَّر بالبروك عن ذلك.

ليقومَ فأبى، فضربوا في رأسه بالطَّبرزِين[١] ليقوم فأَبى؛ فأدخلوا محاجِنَ[٢] لهم في مرَاقِّه فبَزَغوه بها[٣] ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَروِلُ، ووجَّهوه إلى الشام ففَعَلَ مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المَشْرِق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثالَ الخطاطيفِ والبَلَسان[٤]، مع كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملها: حجرٌ في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدَس، لا تصيبُ منهم أحداً إلَّا هلك، وليس كلَّهم أصابتْ. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ التي جاؤوا منها، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بنُ حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نِقْمَتِه:

أيـن الـمَـفَـرُّ والإلـهُ الـطَّـالـبُ ... والأَشْرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضاً:

حَـمِـدْتُ الـلـه إذ أَبْـصَـرْتُ طَـيْـراً ... وخِـفْـتُ حِـجـارَةً تُـلْـقَـى عـلـيـنـا

فـكـلُّ الـقـومِ يـسـألُ عـن نُـفَـيـلٍ ... كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشـان دَيْـنـا

فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريق، ويهلِكون على كلِّ سَهْل[٥]، وأُصيب أَبرهةُ في جسده، وخرجوا به معهم يسقطُ أنملةً أنملةً، كلَّما سقطت منه أنملةٌ أَتْبَعتْها منه مِدَّةٌ تمثُّ قيحاً ودمًا[٦]؛ حتى قدموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخ الطائر، فما مات حتى انْصَدَع

(١) آلةٌ مُعَقَّفةٌ من حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٢) جمع مِحْجَن، وهي عصاً معوجَّةٌ، وقد يجعل في طرفها حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٣) أي: شرطوه بالحديد الذي في تلك المحاجن. وقوله: في مراقِّه، يعني في أسفل بطنه. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٤) ضَرْبان من الطير. الإملاء المختصر ١/ ٨٩ - ٩٠.

(٥) في سيرة ابن هشام وتفسير الطبري: منهل، ووقع في السيرة: ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ص ٩٠: المنهل موضع ورود الماء، وجمعه مناهل.

(٦) قوله: تمث، أي: تسيل، وقيل: ترشح. الإملاء المختصر ١/ ٩٠. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٣: تمُث وتمِث بالضم والكسر، فعلى رواية الضم يكون الفعل متعدياً، ونصب قيحاً على المفعول. وعلى رواية الكسر يكون غير متعدٍّ، ونصب قيحاً على التمييز في قول أكثرهم.

صدرُه عن قلبه، فيما يزعمون.

وقال الكلبيُّ ومقاتل بنُ سليمان ـ يزيدُ أحدُهما وينقص ـ: سببُ الفيلِ ما رُوي أنَّ فِتْيةً من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيِّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعةٍ للنصارى، تسمِّيها النصارى الهَيْكل، فأَوْقَدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارْتَحَلوا، فهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ على النار فأضرمت[١] البِيعةَ ناراً فاحْتَرقتْ، فأتى الصَّرِيخُ إلى النجاشيِّ فأخبره، فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهةُ بنُ الصَّبَّاح وحُجْر بن شراحيل[٢] وأبو يَكْسوم الكِنْديون؛ وضَمِنوا له إحراقَ الكعبةِ وسَبْيَ مكة. وكان النجاشيُّ هو الملك، وأبرهةُ صاحبُ الجيش، وأبو يكسوم نديمُ الملك، وقيل: وزيره[٣]، وحُجْر بن شراحيل من قوَّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهةُ بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيلٌ واحد. وقال الضحاك: هي ثمانيةُ فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز[٤]، واستاقوا سَرْحَ مكةَ، وفيها إبلُ عبدِ المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا وصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيشِ والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجَّه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختُلِف في النجاشيِّ، هل كان معهم؟ فقال قوم: كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم.

وبصُر[٥] أهلُ مكةَ بالطير قد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إنَّ هذه الطيرَ غريبةٌ بأرضنا، وما هي بنَجْديةٍ ولا تِهاميةٍ ولا حجازية، وإنَّها أشباهُ

---

(١) في (ظ): فاضطرمت.

(٢) في (م): شرحبيل، وفي (د): سرجيل، في الموضعين.

(٣) في النسخ: وزير، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٠، والكلام منه.

(٤) موضع سوق على ناحية كبكب، على فرسخ من عرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) في (د) و(م): ونظر.

اليَعاسيب[١]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارةٌ، فلمَّا أطلَّت[٢] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشيةً، فباتت، ثم صبَّحَتْهم بالغَداةِ فرمَتْهم[٣].

وقال الكلبيُّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْفِ، أمامَ كلِّ فرقةٍ طائرٌ يقودُها، أحمرُ المِنقار، أسودُ الرأس، طويلُ العنق. فلمَّا جاءت عَسْكَرَ القومِ وتَوافَتْ، أَهالَتْ ما في مناقيرها على مَن تحتَها، مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ صاحبِهِ المقتولِ به. وقيل: كان على كلِّ حجر مكتوبٌ: مَن أطاع الله نجا، ومَن عصاه غَوَى. ثم انصاعت راجعةً من حيث جاءت.

وقال العَوفيُّ: سألتُ عنها أبا سعيد الخُدْرِيَّ، فقال: حمامُ مكةَ منها[٤].

وقيل: كان يقع الحجرُ على بيضة أحدِهم فيخرقها ويقع في دِماغه، ويخرقُ الفيلَ والدابَّة. ويغيب الحجر في الأرض من شدَّة وَقْعِه.

وكان أصحابُ الفيل ستِّين ألفاً، لم يرجع منهم أحدٌ إلَّا أميرُهم، رجع ومعه شِرذمةٌ لطيفة. فلمَّا أخبَروا بما رَأَوْا هَلَكوا.

وقال الواقديُّ: أبرهةُ جدُّ النجاشيِّ الذي كان في زمان رسولِ الله ﷺ[٥].

وأبرهةُ هو الأشرمُ، سمِّي بذلك لأنَّه تَفَاتَنَ مع أرياط، حتى تَزاحَفا، ثم اتَّفقا على أن يلتقيا بشَخْصَيْهما، فَمَن غَلَب فله الأمرُ. فتبارزا، وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربةٌ، وأبرهةُ قصيراً حادِراً[٦]، حليماً ذا دينٍ في النصرانية، ومع أبرهةَ وزيرٌ

---

(١) اليعسوب: أمير النحل. القاموس (عسب).

(٢) في (د): أقبلت.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، والكشاف ٤/ ٢٨٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٩ وزاد: وآمن به.

(٦) الحادر: السمين. اللسان (حدر).

له يقال له: عتودة، فلمَّا دَنَوْا ضرب أرياط بحربته رأسَ أبرهة، فوقعت على جبينه، فشَرَمَتْ عينَه وأنفه وجبِينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عتودةُ على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشةُ لأبرهة، فغضب النجاشيُّ، وحلف لَيَجُزَّنَّ ناصيةَ أبرهةَ، ويَطَأنَّ بلادَه. فجزَّ أبرهةُ ناصيته، وملأ مِزودًا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيِّ، وقال: إنَّما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أَقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززتُ ناصيتي، وبعثتُ إليك بترابِ أرضي لتطأه وتبرَّ في يمينك، فرضي عنه النجاشيّ(١). ثم بنى أبرهةُ كنيسةً بصنعاء ليَصْرِفَ إليها حجَّ العرب؛ على ما تقدَّم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عامُ الفيلِ قبلَ مولدِ النبيِّ ﷺ بأربعين سنةً. وقال الكلبيُّ وعُبيد بن عمير: كان قبل مولدِ النبيِّ ﷺ بثلاثٍ وعشرين سنة(٢). والصحيحُ ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وُلدتُ عامَ الفِيلِ». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفِيل». حكاه الماوَرْدِيُّ في التفسير له(٣). وقال في كتاب «أعلام النبوّة(٤)»: ولِد رسولُ الله ﷺ يومَ الاثنين الثاني عَشَر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيلِ بخمسين يومًا. ووافق من شهورِ الروم العشرين من أشباط(٥)، في السنة الثانية عَشْرَة من ملكِ هُرْمُز بن أنوشروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبريُّ(٦) أنَّ مولد النبيِّ ﷺ كان لاثنتين وأربعين

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤١ - ٤٢، وعرائس المجالس ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) عرائس المجالس ص ٤٤٩، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٨، وأخرج الرواية الأولى البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٧٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠١ إلا أن فيه: يوم الفيل، وهي الرواية الثانية، وزاد ابن سعد: يعني عام الفيل. وقد ثبتت ولادة النبي ﷺ في عام الفيل عن غير واحد من الصحابة وغيرهم، ينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠ - ١٠١، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٥ - ٧٩. وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٦/ ٢٢٥: لا خلاف بين العلماء بالسير والآثار أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل.

(٤) ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٥) في أعلام النبوة: شباط، وكلاهما صواب، وكذلك سُباط بالسين. ينظر التاج (سبط)، وصبح الأعشى ٢/ ٣٩٢.

(٦) في تاريخه ٢/ ١٥٤.

سنةً من ملك أنوشروان.

وقد قيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام حملتْ به أمُّه آمنةُ في يوم عاشوراءَ من المحرَّم، وولد يومَ الاثنين لاثنتي عَشْرةَ ليلةً خَلَتْ من شهر رمضان(١)، فكانت مدَّةُ حملِه ثمانيةَ أشهرٍ كَمَلاً ويومين من التاسع.

وقيل: إنَّه ولد يومَ عاشوراءَ من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص(٢)، في «فضائلِ يومِ عاشوراءَ» له.

ابن العربيّ(٣): قال ابن وهب عن مالك: وُلد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمَةَ: ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل(٤). وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألَّا يُخْبِر بسنِّه؛ لأنَّه إنْ كان صغيرًا استَحْقَروه وإنْ كان كبيراً استَهْرَموه. وهذا قولٌ ضعيف؛ لأنَّ مالكاً لا يُخبِرُ بسنِّ رسولِ الله ﷺ ويكتم سِنَّه، وهو من أعظم العلماءِ قدوةً به. فلا بأسَ بأن يخبر الرجلُ بسنِّه كان كبيراً أو صغيراً.

وقال عبد الملك بن مروان لقَبَاث بنِ أَشْيَم(٥): أنت أكبرُ أم النبيُّ ﷺ؟ فقال: النبيُّ ﷺ أكبرُ منِّي، وأنا أسنُّ منه؛ وُلد النبيُّ ﷺ عامَ الفيل، وأنا أدركتُ سائسَه وقائدَه أَعْمَيَيْن مُقْعَدين يستطعمان الناس(٦).

وقيل لبعض القضاة: كم سنُّك؟ قال: سنُّ عَتَّاب بنِ أَسيد حين ولَّاه النبيُّ ﷺ

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٦٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ، صاحب التفسير الكبير، توفي سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/ ٤٣١.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٩١)، والترمذي (٣٦١٩) وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٥) في النسخ: لعتاب بن أسيد، والمثبت من المصادر - على ما يأتي - وهو الصواب.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والثاني (٩٢٧)، والطبراني في الكبير ١٩/ (٧٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٨٤)، والبيهقي في الدلائل ١/ ٧٨، ووقع في هذه المصادر: وتنبئ على رأس أربعين من الفيل، بدل قوله: وأنا أدركت سائسه...، وقد روي هذا عن عائشة رضي الله عنها كما سيرد.

مكةَ. وكان سنُّه يومئذٍ دون العشرين[١].

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصةُ الفيلِ فيما بعدُ من معجزات النبيِّ ﷺ، وإن كانت قبلَه وقبل التحدِّي؛ لأنَّها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولمَّا تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكةَ عددٌ كثيرٌ ممن شهد تلك الوَقْعةَ؛ ولهذا قال: «ألم تر»، ولم يكن بمكةَ أحدٌ إلَّا وقد رأى قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميين يتكفَّفان الناس. وقالت عائشةُ رضي الله عنها مع حَداثةِ سنِّها: لقد رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميَيْن يستطعمان الناس[٢].

وقال أبو صالح: رأيتُ في بيتِ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططةً بحُمْرةٍ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطالٍ وتضييعٍ؛ لأنَّهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيتَ بالتخريبِ والهَدْمِ. فحُكي عن عبد المطلب أنَّه بعث ابنَه عبدَ الله على فرسٍ له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القومُ مُشَدَّخون[٤] جميعاً، فرجع يركضُ فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: إنَّ ابني هذا أفرسُ العرب، وما كَشَفَ عن فخذه إلَّا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعُهم الصوتَ، قالوا: ما وراءك؟ قال: هَلَكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه، فأخذوا أموالَهم. وكانت أموالُ بني عبدِ المطَّلبِ منها، وبها تَكامَلَتْ رياسةُ عبدِ المطَّلب؛ لأنَّه احْتَمَلَ ما شاء من صفراءَ وبيضاء، ثم خرج أهلُ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٦٨ .

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥ ، والبزار (١١٧٦ ـ كشف). وهو في سيرة ابن هشام ١/٥٧ . ووقع في هذه المصادر: وسائسه، بدل: وسائقه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٣٤٣ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٦ لابن مردويه وأبي نعيم.

(٤) في النسخ: مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.

مكة بعده ونهبوا[١].

وقيل: إنَّ عبد المطلب حَفَر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعودٍ الثقفيِّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختَرْ أيَّهما شئت. ثم أصاب الناسُ من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً[٢]، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ والأَفْيالا وقد رَعَوا بمكةَ الأَجْبالا

وقد خَشِينا منهمُ القِتالا وكلَّ أمرٍ لهمُ مِعضَالَا

شُكْرًا وحَمْدًا لك ذا الجلالا[٣]

قال ابن إسحاق: ولمَّا ردَّ الله الحَبَشةَ عن مكةَ عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم] أهلُ الله، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تُدْنِسِ أنت حَبَسْتَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ

من بعد ما هَمَّ بشرٍّ مُبْلِس حَبَسْتَه في هيئة المُكَرْكَسِ

وما لهم من فَرَجٍ ومنفسِ[٥]

والمكَرْكَس: المنكوس المطروح.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلُها[٦].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، وهو قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٨، والبغوي ٤/٥٢٨ عن مقاتل مطولاً.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (٨٦)، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٢. ووقع في (د) و(ز) و(ظ) والدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٧٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢.

وروى جويبِر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّها طيرٌ بين السماءِ والأرضِ تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ»[(١)].

وعن ابن عباس: كان لها خراطيمُ كخراطيم الطير، وأَكُفٌّ كأكُفِّ الكلاب[(٢)].

وقال عِكرمةُ: كانت طيراً خُضْرًا، خرجت من البحر، لها رؤوسٌ كرؤوسِ السِّباع، ولم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعده[(٣)]. وقالت عائشةُ رضي الله عنها: هي أَشْبَهُ شيءٍ بالخطاطيف[(٤)]. وقيل: بل كانت أشباهَ الوطاويط، حمراءَ وسوداء[(٥)].

وعن سعيد بن جبير أيضًا: هي طيرٌ خُضْرٌ لها مَناقيرُ صُفْرٌ[(٦)]. وقيل: كانت بِيضًا.

وقال محمد بن كعب: هي طيرٌ سودٌ بَحْريَّةٌ، في مناقيرها وأظفارِها الحجارة[(٧)]. وقيل: إنَّها العنقاءُ المُغْرِبُ التي تُضْرَبُ بها الأمثالُ؛ قاله عِكرمة[(٨)].

«أبابِيل» أي: مجتمعة. وقيل: مُتتابعة، بعضُها في إثْرِ بعضٍ؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: مختلفة متفرِّقة، تَجيءُ من كلِّ ناحيةٍ، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش[(٩)].

قال النحاس: وهذه الأقوالُ مُتَّفِقةٌ، وحقيقةُ المعنى: أنَّها جماعاتٌ عِظامٌ؛

---

(١) المصدر السابق، وجويبر ضعيف جدًّا، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٦٣٠ و٦٣١ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ دون قوله: لم تر قبل ذلك ولا بعده.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

(٥) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ عن عبيد بن عمير.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وهو بنحوه عن عكرمة في تفسير مجاهد ٢/ ٧٨٤ . والعنقاء المُغرب: طائر عظيم معروفُ الاسم مجهول الجسم لم يره أحد. النهاية (عنق).

(٩) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وأخرجها عدا قول الأخفش الطبري ٢٤/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

يقال: فلانٌ يؤبِّلُ على فلان، أي: يعظمُ عليه ويُكْثِر، وهو مشتقٌّ من الإبل.

واختلف في واحدِ «أبابيل»؛ فقال الجوهريُّ: قال الأخفش: يقال: جاءت إبلُكَ أبابيل، أي: فِرقًا، وطيرٌ أبابيل. قال: وهذا يجيءُ في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحدَ له. وقال بعضُهم: واحدُه إبَّوْل، مثل: عِجَّوْل. وقال بعضهم[1]: إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أَجِدِ العربَ تعرِفُ له واحدًا.

في غير «الصحاح»: وقيل في واحدِه: إبَّال. وقال رؤبةُ بن العجَّاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بِهِمْ أبابيلْ فصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مأكُولْ[2]

وقال الأعشى:

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصولُهُ عليه أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ[3]

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ[4]

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الدَّاعي سِرَاعًا كأنَّهُمْ أبابيلُ طَيرٍ تَحْتَ دَجْنٍ مُسَجَّنِ[5]

قال الفرَّاء: لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وزعم الرُّؤاسيُّ [لي][6] - وكان ثقةً - أنه سمع

---

(١) بعدها في (م): وهو المبرد، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الصحاح (أبل)، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٢ .

(٢) سيأتي قريباً.

(٣) ديوان الأعشى ص ٢٥١ . قوله: وجبار، الجبار هو النخلة الطويلة الفتية، وتضم. القاموس (جبر). وقال شارح الديوان: ونخلك الطويل المرتفع الضخمُ الجذوعِ، تحط عليه من الطيور أسراب، تتجاوب أصواتها بالتنعاب.

(٤) سلف ٥/ ٤٢٠ .

(٥) في (د) و(ي) و(م): مسخن، والمثبت من (د) و(ظ) وفتح القدير ٥/ ٤٩٦ . وهو في مجمع البيان ٢٣٨/٣٠ برواية: تحت داجن مدَجَّن، ونسبه الطبرسي لامرئ القيس، ولم نقف عليه في ديوانه. قوله: دجن، الدَّجْن هو إلباس الغيم السماء، والمطرُ الكثير. الصحاح (دجن).

(٦) ما بين حاصرتين زيادة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢ ، والرؤاسي هو أبو جعفر الكوفي النحوي أستاذ الكسائي. إنباه الرواة ٤/ ٩٩ .

في واحدها «إِبَّالة» مشدَّدة. وحكى الفرَّاء: «إِبَالة» مخفَّفًا. قال: وسمعتُ بعضَ العرب يقول: ضِغْثٌ علَى إبَّالة. يريد: خِصْباً على خِصْبٍ[(١)]. قال: ولو قال قائل: إيبالة، كان صواباً، مثل: دينار ودنانير.

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذٌ من الإبل المؤبَّلة، وهي الأقاطيع[(٢)].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

في «الصحاح»: «حجارة من سِجِّيل» قالوا: حجارة من طين، طُبِخَتْ بنارِ جهنَّم، مكتوب فيها أسماءُ القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣][(٣)].

وقال عبد الرحمن ابن أَبْزَى: «مِن سِجِّيل»: من السماء، وهي الحجارةُ التي نزلت على قومِ لوط[(٤)].

وقيل: من الجحيم، وهي «سِجِّين» ثم أُبْدِلت اللامُ نونًا، كما قالوا في أَصَيْلان: أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَرْباً تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينَا[(٥)]

---

(١) كذا شرحه الفراء. وذكر أبو عبيد في الأمثال ص ٢٦٤ عن الأصمعي قال: الإبَّالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجرزة التي فوقها، يقول: هي بلية على أخرى كانت قبلها. ومثله في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٩، وقال الميداني: وبعضهم يقول: إبَالة مخففاً. وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٦، والمستقصى ٢/ ١٤٨: يضرب لمن حمَّلك مكروهاً، ثم زادك عليه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٢٩. والأقاطيع جمع على غير قياس للقطيع، وهو الطائفة من الغنم والنعم. القاموس (قطع).

(٣) الصحاح (سجل).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٥ إلا أنه فيه عن عبد الرحمن بن زيد، وزاد فيه: والسماء الدنيا اسمها سجيل. قال الطبري: وهذا القول لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا نقل ولا لغة.

(٥) وصدره: ورجلة يضربون البَيْضَ عن عُرُضٍ. وهو في ديوان ابن مقبل ص ٣٣٣، وسلف ١١/ ١٨٨.

وإنَّما هو: سِجِّيلاً. وقال الزجاج: «مِن سِجِّيل» أي: مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به، مشتقٌّ من السِّجِلِّ[(١)]. وقد مضى القولُ في سِجِّيل في «هود» مستوفًى[(٢)].

قال عِكرمةُ: كانت ترميهم بحجارةٍ معها، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ منها خرج به الجُدَرِيُّ، لم يُر قبلَ ذلك اليوم[(٣)]. وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة.

وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جِلْدُه، فكان ذلك أوَّلَ الجُدرِيِّ[(٤)].

وقراءةُ العامَّةِ: «تَرْمِيهِمْ» بالتاء؛ لتأنيثِ جماعةِ الطير. وقرأ الأعرج وطلحة: «يَرْمِيهم» بالياء[(٥)]، أي: يرميهم الله، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]. ويجوزُ أن يكون راجعًا إلى الطير؛ لخلوِّها من علامات التأنيث، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أي: جعل الله أصحابَ الفيلِ كورقِ الزرعِ إذا أَكَلَتْه الدوابُّ فرَمَتْ به من أسفل. شبَّه تَقَطُّعَ أوصالِهم بتفرُّقِ أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيرِه[(٦)]. وقد مضى القولُ في العَصْف في سورة الرحمن[(٧)]. وممَّا يدلُّ على أنَّه ورقُ الزَّرعِ قولُ علقمةَ:

تَسْقي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها ... حُدورُها من أَتيِّ الماءِ مَطْمُومُ[(٨)]

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١ . وقال الزجاج ٥/ ٣٦٤ عند شرح هذه الآية: من سجيل، أي: من شديدِ عذابه، والعرب إذا وصفت المكروه بالسجيل كأنها تعني به الشدة.

(٢) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٣ ، والبيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٧) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٨) ديوان علقمة ص ٥٥ . وفيه: قد زالت عصيفتها...، قال الأعلم الشنتمري شارح الديوان: قوله: =

وقال رؤبة بن العجاج:

وَمَسَّهُمْ ما مَسَّ أصْحابَ الفيلْ　　تَرْمِيهِمُ حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبَتْ طَيرٌ بِهِمْ أبابيلْ　　فَصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأكُولْ[١]

العَصْف: جمع، واحدتُه: عَصْفة وعُصافة وعَصِيفة. وأدخل الكافَ في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][٢].

ومعنى «مأكول»: مأكولٌ حَبُّه. كما يقال: فلان حسن، أي: حَسَنٌ وجهُه.

وقال ابن عباس: «فجعلهم كعَصْفٍ مأكول» إنَّ المراد به قشرُ البرِّ، يعني الغِلافَ الذي تكون فيه حبةُ القمح[٣]. ويُروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيُخرِجُ كلَّ ما في جوفه، فيبقى كقِشْرِ الحنطةِ إذا خرجت منه الحبة.

وقال ابن مسعود: لمَّا رمت الطيرُ بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارةَ فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحدٍ إلَّا هلك، ولم يسلَم منهم إلَّا رجلٌ من كِندة، فقال:

فَإنَّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَرِيهِ[٤]　　لدى[٥] جنبِ المُغَمّسِ ما لَقِينا
خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَثَّ طيراً　　وظِلَّ سحابةٍ مَرَّتْ علينا

= قد زالت عصيفتها، أي: تفرق ورقُها، وانفتحت وتباينت من الريِّ. والعصيفة: الورق. والمذانب: مسايل الماء. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأتيُّ: الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥، والخزانة ١٠/ ١٨٩، والأبيات في ملحقات ديوان رؤبة ص ١٨١، والبيت الأخير نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٤٠٨ لحميد الأرقط، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ١٤١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦.

(٢) أي: أنه أكد الشَّبَه بزيادة الكاف، إلا أنه في الآية أدخل الحرف على الاسم، وفي البيت أدخل الاسم وهو «مثل» على الحرف وهو الكاف، والتقدير: فصُيِّروا مثلَ مثلِ عصفٍ مأكول. ينظر سر صناعة الإعراب ١/ ٣٩٦، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٢٣٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في النسخ: ولو ترانا، بدل: ولم تريه، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، والكلام منه.

(٥) في النسخ الخطية: لذي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

وبـاتـتْ كـلُّـهـا تـدعـو بِـحَـقٍّ كـأنَّ لـهـا عـلـى الـحُـبْـشـانِ دَيْـنَـا

ويُروى أنَّها لم تُصِبْهم كلَّهم، لكنَّها أصابت مَن شاء اللهُ منهم. وقد تقدَّم أنَّ أميرهم رجع وشِرْذمةً لطيفةً معه، فلمَّا أَخبروا بما رَأَوْا هلكوا. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق[1]: لمَّا ردَّ الله الحبشةَ عن مكة، عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

---

(١) سلف قوله ص٤٨٩ من هذا الجزء.

سُورَةُ الفِيلِ

مكيَّةٌ، وآيُها خمسٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ الخِطابُ للرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ، وهو وإن لم يَشْهَدْ تلك الوَقْعةَ، لكن شاهدَ آثارَها وسَمِعَ بالتَّواتُرِ أخبارَها فكأنَّهُ رآها.

وإنَّما قال: ﴿كَيۡفَ﴾، ولم يَقُل: (ما)؛ لأنَّ المرادَ تَذكيرُ ما فيها مِن وُجوهِ الدَّلالةِ على كمالِ علمِ اللهِ تَعالى وقُدرَتِه وعزَّةِ بيتِه وشَرَفِ رَسولِه؛ فإنَّها مِن الإرهاصاتِ، إذ رُوِيَ أنَّها وقَعَتْ في السَّنَةِ التي وُلِدَ فيها الرَّسولُ عليه السَّلامُ.

وقِصَّتُها: أنَّ أبرهَةَ بنَ الصَّبَّاحِ الأشرَمَ مَلِكَ اليمنِ مِن قِبَلِ أَصحمَةَ النَّجاشيِّ بنى كنيسةً بصَنعاءَ وسمَّاها القُلَّيْسَ، وأرادَ أن يصرفَ إليها الحاجَّ، فخرجَ رجلٌ مِن كنانةَ فقعَدَ فيها ليلًا(١)، فأغضبَهُ ذلك فحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ، فخرجَ بجَيشِهِ ومعه فيلٌ قويٌّ اسمهُ محمودٌ، وفِيَلَةٌ أُخرى، فلَمَّا تهيَّأَ للدُّخولِ وعبَّأَ(٢) جيشَهُ وقدَّمَ الفيلَ، فكان كلَّمَا وَجَّهوهُ إلى الحرمِ بَرَكَ ولم يَبْرَح، وإذا وَجَّهُوه إلى اليَمَنِ أو إلى جهةٍ

(١) قوله: «فقعد فيها ليلًا» كناية؛ أي: قضى حاجته.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وهيأ».

أُخْرَى هَرْوَل، فأرسلَ اللهُ تَعالى طيرًا كلٌّ في مِنقارِه حَجَرٌ وفي رجليهِ حجرانِ أكبرُ مِن العَدَسةِ وأصغرُ مِن الحِمِّصةِ فرمَتْهُم، فيقَعُ الحجرُ في رأسِ الرَّجُلِ فيخرجُ مِن دُبرِه، فهَلَكُوا جميعًا[١].

وقُرِئَ: (أَلَمْ تَرْ)[٢] جِدًّا في إظهارِ أثرِ الجازمِ.

و﴿كَيْفَ﴾ نَصْبٌ بفعلٍ لا بـ﴿تَرَ﴾ لِمَا فيه مِن معنى الاستفهامِ.

(٢) ـ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تعطيلِ الكَعبةِ وتَخريبِها ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾: في تضييعٍ وإبطالٍ بأَنْ دَمَّرَهُم وعظَّمَ شأنَها.

(٣) ـ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: جماعاتٍ، جمعُ إِبَّالَةٍ وهي الحزمةُ الكبيرةُ، شُبِّهَت بها الجماعةُ مِن الطَّيرِ في تَضامِّها، وقيل: لا واحِدَ لها؛ كعَبادِيدَ وشَماطِيطَ.

(٤) ـ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ وقُرِئَ بالياءِ[٣] على تذكيرِ الطَّيرِ لأنَّه اسمُ جَمْعٍ، أو إسنادِه إلى ضميرِ ﴿رَبُّكَ﴾.

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: مِن طينٍ مُتحجِّرٍ، مُعرَّبُ (سَنْكَ كِلْ)[٤].

---

(١) تنظر القصة مطولة في «السير والمغازي» لابن إسحاق (ص: ٦١ ـ ٦٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٣ ـ ٥٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٣٥ ـ ٦٤٢). وهي في هذه المصادر من رواية ابن إسحاق. ورواها الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٦٦) فقال: «قال محمد بن إسحاق: كان من قصة أصحاب الفيل فيما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس، وعمَّن لقي من علماء أهل اليمن وغيرهم...» وذكر القصة.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٧٣) عن أبي عبد الرحمن، وهو السلمي.

(٣) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦٦٣) و«الكشاف» (٩/ ٦٨١) عن أبي حنيفة، وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٠) عن عيسى وابن يعمر.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد بعضهم فيه: (حجر وطين).

وقيل: مِن السَّجْلِ وهو الدَّلوُ الكبيرُ، أو الإسجالِ وهو الإرسالُ، أو مِن السِّجلِّ ومعناه: مِن جملَةِ العَذابِ المَكتوبِ المُدَوَّنِ.

(٥) ـ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾: كورقِ الزَّرعِ الذي وقعَ فيه الأُكَالُ، وهو أن يأكلَهُ الدُّودُ، أو أُكِلَ حبُّه فبقي صِفْرًا منهُ، أو كتِبْنٍ أكلَتْهُ الدَّوابُ وراثَتْهُ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ الفيلِ أعفاهُ اللهُ أيَّامَ حَياتِه مِن الخسفِ والمسخِ»[1].

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٦٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ مَكِّيَّةٌ وآياتُها خمسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيا صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة ، هذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار . يروى أن أبرهة الأشرم بنى كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء عالية الفِناء مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب (القليس) لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش، لذلك غضباً شديداً، حتى قصَدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها، فأحدث فيها وكرّ راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم (أبرهة) وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً، وذكر مقاتل أن فتية من قريش دخلوها، فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت، فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له (محمود)، ويقال: كان معه اثنا عشر فيلاً غيره، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً . ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) فدعا قومه إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له (نفيل بن حبيب) الخثعمي في قومه فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات ، فأكرمهم وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به. وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها.

فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحِمْيَري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجلّه – وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر – ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتهالك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيب رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

اللهم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم أبداً محالك

ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. وذكر مقاتل أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة، برك الفيل، وخرج (نفيل بن حبيب) يشتد حتى صعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فنزعوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن (نفيل) ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش، وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وذكر **الواقدي بإسناده**: أنهم لما تعبأوا لدخول الحرم، وهيأوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم، وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون، وماذا

يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ﴿طيراً أبابيل﴾ أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، وجاءت فحلّقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا، قال عطاء: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً، وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم، قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ، كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ إلى قوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾، وقوله: ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم * رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾. قال ابن هشام: «الأبابيل» الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة قال: وأما «السجيل» فأخبرني يونس النحوي أنه عند العرب الشديد الصلب. «والعصف» ورق الزرع الذي لم يقضب واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقال ابن عباس والضحّاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً، وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة، وقال مجاهد «أبابيل» شتى متتابعة مجتمعة، وقال ابن زيد: «الأبابيل» المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان، وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع.

وعن ابن عباس ومجاهد: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب، وقال عبيد بن عمير: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين في رجليه وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً. وقال ابن عباس ﴿حجارة من سجيل﴾ قال: طين في حجارة.

وقوله تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة هبور، وقال ابن عباس: العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة، وقال ابن زيد: العصف ورق الزرع، وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً، المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم، لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما يروى لأمية بن أبي الصلت ابن ربيعة قوله:

إن آيات ربنا باقيات ... ما يماري فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... صار يحبو كأنه معقور
خلّفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دِين يوم القيامة عند الله إلا دِين الحنيفة بور

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط بـه على قريش بركت ناقته ، فزجرها فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أي حرنت ، فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها » ، ثم زجرها فقامت[1] . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فيبلغ الشاهد الغائب » .

[آخر تفسير سورة الفيل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري .

تفسير سورة الفيل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ .

هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ،ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم ـ يا معشر قريش ـ على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد ، صلوات الله وسلامه عليه [(١)] ، خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم فى قصة أصحاب الأخدود [(٢)]: أن ذا نُوَاس ــ وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً ــ هو الذى قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ،فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام ــ وكان نصرانياً ــ فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة ؛ لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم [(٣)] ، فى جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ،وهلك ذو نواس غريقاً فى البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرياط وأبرهة ، فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر ، استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخَلْفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله ،ورجع أبرهة جريحاً ،فداوى جرحه فَبَرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب[(٤)] إليه النجاشى يلومه على ما كان منه ،ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ،وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ، ويقول فى كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه،

(١) فى أ : « ﷺ » .
(٢) عند تفسير الآية : ٤ من سورة البروج .
(٣) فى أ : « أبا يكشوم » .
(٤) فى أ : « فأرسل » .

وهذه ناصيتى قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ،ورضى عنه ،وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشى : إنى سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع فى بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمتها العرب القُلَّيس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يُحَج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك فى مملكته ،فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرّ راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث ، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذى ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً ،وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار فى جيش كثيف عَرَمرم ؛لئلا يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود ، وكان قد بعثه إليه النجاشى ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال . وقيل : اثنا عشر فيلاً . وقيل غيره ، والله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة ،بأن يجعل السلاسل فى الأركان ، وتوضع فى عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة [١] دون البيت، ورَدّ من أراده بكيد . فخرج إليه رجل [كان] [٢] من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له «ذو نَفْر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريده الله ، عز وجل ، من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذو نُفْر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم ، عَرَض له نُفَيل بن حَبيب الخَشْعمى فى قومه : شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ،وأسر نُفَيل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله فى بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذى عندهم ، الذى يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رغَال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمْس ــ وهو قريب من مكة ــ نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان فى السرح [٣] مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذى أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَفْصود» فهجاه بعض العرب ــ فيما ذكره ابن إسحاق [٤] ــ وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدُوه عن البيت . فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ،هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته

---

(١) فى أ : المحاجة » . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « فى السراح » .
(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١) .

وحرمه ، وإن يخلى بينه وبينه ، فو الله ما عندنا دَفْع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معى إليه. فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ،وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : حاجَتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟! فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ،والتحصن فى رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ،وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ،وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ [(١)] إنَّ المرء يمـ ـنَعُ رَحْلَه فامْنع حلالَك
لا يغلبنَّ صَلِيبُهم ومحَالُهم غدواً مِحَالك

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال [(٢)].

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة ، لعل بعض الجيش [(٣)] ينال منها شيئا بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ـــ وكان اسمه محموداً ـــ وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « أبرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ،فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا فى رأسه بالطَّبرزين[(٤)] وأدخلوا محاجن لهم فى مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك .ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعَدسَ ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ،ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا . ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة،وجعل نفيل يقول :

(١) فى أ : « اللهم » .
(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٥٢/١) .
(٣) فى م ، أ : « بعض الحبشة » .
(٤) فى أ : « بالطورين من الآلات » .

أينَ المَفَرُّ ؟ والإلهُ الطَّالب [١] والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب [٢]

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيل فى ذلك أيضاً :

ألا حُيِّيت عنا يا رُدَينا نَعمْناكُم مَعَ الإصبَاح عَينَا
رُدَينةُ ، لَو رأيت ـ ولا تَرَيْه لَدَى جَنْب المحصّب ـ ما رَأينَا
إذا لَعَذَرتنى وَحَمَدت أمْرى وَلَم تأسى عَلىَ مَا فات بَيْنَا
حَمدتُ الله إذ أبصَرتُ طيراً وَخفتُ حَجارة تُلقَى عَلَينا
فَكُلّ القوم يَسألُ عَن نُفَيل كَأنَّ علىّ للحُبْشَان دَينَا !

وذكر الواقدى بأسانيده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب [فيها] [٣] ، فإذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح . وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم [٤] المطعم بن عدى ، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود [بن عمرو] [٥] الثقفى ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قطَعاً قطَعاً صفرا دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاث أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فَرَبض ، وأما الآخر فَشَجُع [٦] فحُصِب .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان معهم فيلة ، فأما محمود ـ وهو فيل الملك ـ فربض ، ليقتدى به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تَشَجّع فحصب ، فهربت بقية الفيلة .

وقال عطاء بن يَسَار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب فى الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل [٧] ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنْمُلة أنْمُلة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن [٨] قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة .

---

(١) فى م : « الغالب » .
(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٣) وتفسير الطبرى (٣٠/ ١٩٦) .
(٣) زيادة من م ، أ . (٤) فى م ، أ : « فيهم » . (٥) زيادة من م ، أ .
(٦) فى أ : « فخشع » . (٧) فى م : « كل سهل » . (٨) فى أ : « من » .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب بن عُتْبَة : أنه حدث (١) أن أول ما رؤيت الحَصبة والجُدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى به مَرائر الشجر الحَرْمل ، والحنظل والعُشر ، ذلك العام(٢) .

وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدا ﷺ كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمَته (٣) عليهم وفضله ، ما رَدّ عنهم من أمر الحبشة ،لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ . ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [سورة قريش] أى : لئلا يغير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سَنْج وجل يعنى بالسنج : الحجر ،والجِل : الطين. يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين .قال: والعصفُ : ورقُ الزرع الذى لم يُقضب، واحدته عصفه . انتهى ما ذكره (٤) .

وقد قال حماد بن سلمة : عن عاصم، عن زر، عن عبد الله ــ وأبو سلمة بن عبد الرحمن ــ: ﴿ **طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ قال : الفرق (٥) .

وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبابيل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيلُ : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل : المختلفة، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان .

وقال الكسائى : سمعت [النحويين يقولون: أبُول مثل العجول . قال : وقد سمعت] (٦) بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل : إبيل .

وقال ابن جرير : [حدثنا ابن المثنى] (٧) ، حدثنى عبد الأعلى ، حدثنى داود ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ؛ أنه قال فى قوله : ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ هى : الأقاطيع ، كالإبل المؤبلة .

---

(١) فى أ : « أنه حدثه » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤) .

(٣) فى أ : « من بعثه » .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٥) .

(٥) فى أ : « الغرق » .

(٦،٧) زيادة من تفسير الطبرى (٣٠/ ١٩١) .

وحدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

وحدثنا يعقوب ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا حصين عن عكرمة فى قوله : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيراً خضرا خرجت من البحر ، لها رؤوس كرؤوس السباع .

وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن مهدى ، عن سفيان ،عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن عبيد ابن عمير : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال :هى طير (١) سود بحرية ،فى منقارها (٢) وأظافيرها الحجارة .

وهذه أسانيد صحيحة .

وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضرا لها مناقير صفر ، تختلف عليهم .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التى يقال لها عنقاء مُغْرب . رواه عنهم ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر ، أمثال الخطاطيف . كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزَعة : حجرين فى رجليه وحجراً فى منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما فى أرجلها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقال السُّدِّى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ حِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : طين فى حجارة : «سَنْك ــ وكل » وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ : قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى .

وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد :العصف :ورق الزرع ،وورق البقل ، إذا أكلته البهائم فراثته ، فصار دَرِينا (٣) .

والمعنى : أن الله،سبحانه وتعالى ،أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ،فإنه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بها (٤) جرى لهم ، ثم مات. فملك بعده ابنه

(١) فى م : « هى طيور » . (٢) فى أ : « فى مناقيرها » . (٣) فى م : « دوناً ».
(٤) فى م : « بما » .

يكسُوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة[١] . ثم خرج سيف بن ذى يَزَن الحميرى إلى كسرى فاستغاثه [٢] على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب للتهنئة .

وقد قال محمد بن إسحاق : حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد ابن زرارة ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقعَدَين ، يستطعمان [٣] . ورواه الواقدى ، عن عائشة مثله . ورواه أيضا عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : كانا مقعدين يستطعمان الناس ، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم .

قلت : كان اسم قائد الفيل : أنيساً .

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى كتاب « دلائل النبوة » من طريق ابن وهب ، عن ابن لَهِيعة عن عقيل بن خالد ، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل ،ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له :شمر بن مفصود ، وكان الجيش عشرين ألفاً ، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً ، فأصبحوا صرعى .

وهذا السياق غريب جداً ، وإن كان أبو نُعيْم قد قواه ورَجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشى قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روى ابن لَهِيعة ، عن الأسود، عن عُرْوَة : أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل ، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ، ولعل ابن مفصود كان على مقدمة الجيش ، والله أعلم .

ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب ،فيما كان من قصة أصحاب الفيل ، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعرى :

تَنكَّلُوا عن بطن مكَّةَ إنها ... كانتْ قديماً لا يُرام حَريمها
لم تُخلَق الشِّعرَى ليالى حُرِّمتْ ... إذ لا عزيزَ من الأنام يَرُومها
سائل أميرَ الجيش عنها ما رأى؟ ... فلسوفَ يُنبى الجاهلين عليمها
ستونَ ألفاً لم يَؤُوبوا أرَضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانتْ بها عادٌ وجُرْهُم قبلهم ... واللهُ من فوق العباد يُقيمها[٤]

وقال أبو قيس[٥] بن الأسلت الأنصارى المرى [٦]:

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١، ٦٢) .
(٢) فى م : « فاستعانه » .
(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧) .
(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٨) .
(٥) فى م : « أبو القيس » .
(٦) فى م ، أ : « المدنى » .

ومن صُنْعه يوم فيل الحُبُو ش ، إذ كل ما بَعَثُوه رزَمْ
محاجنهم تحت أقرابه وقد شرَموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مغولاً إذا يَمَّمُوه قفَاه كُليم
فَسوَّل(١) أدبر أدراجه وقد باء بالظلم من كان ثَمّ
فأرسل من فوقهم حاصباً يَلُفهُم مثلَ لَفُ القزُم
تحث على الصَّبر أحبارُهم وَقَد ثأجُوا كَثؤاج الغَنَم

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، ويروى لأمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة :

إن آيات رَبِّنا بَاقياتٌ مَا يُمَارى فيهنَّ إلا الكفورُ
خَلَقَ الليلُ والنهارُ فكُلّ مستبينٌ حسابُه مَقْدُورُ
ثم يجلو النَّهارَ ربٌ رحيمٌ بمهاة شُعَاعها منشورُ
حُبِسَ الفيلُ بالمغُمَّس حَتَى صار يَحْبُو ، كأنه معقورُ
لازماً حَلقُه الجرانَ كما قُطِّر من ظَهْر كَبْكَب مَحدُورُ
حَوله من مُلُوك كندَة أَبطالُ مَلاويثُ فى الحُرُوب صُقُورُ
خَلَّفُوه ثم ابذَعرّوا جَميعاً، كُلُّهم عَظْمُ ساقه مكْسُورُ
كُلّ دين يَومَ القِيَامَة عندَ الـ ـله إلا دِينُ الحَنيفَة بورُ

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحَّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أى : حَرَنت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال: « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله ، إلا أجبتهم إليها » . ثم زجرها فقامت . والحديث من أفراد البخارى (٢) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسَلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»(٣).

آخر تفسير سورة « الفيل »

(١) فى م ، أ : « فولى و » .
(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٦ من سورة الفتح ، وهو فى صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

سورة الفيل

مكّيّة، وهي خمس آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ① أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ② وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ③ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ④ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ⑤﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ الخِطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و"الهمزة" لتقرير رؤيته عليه السلام بإنكار عدمها، و﴿كَيۡفَ﴾ معلّقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها، والرؤية عِلميّة، أي: ألم تعلم عِلمًا رصينًا متاخمًا للمشاهدة والعِيان باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة. وتعليقُ الرؤية بكيفيّة فعله عزّ وجلّ لا بنفسه، بأن يقال: ألم ترَ ما فعل / ربّك... إلخ، لتهويل [٣٢٠و]
الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفيّة هائلة، وهيئة عجيبة دالّة على عظيم قدرة الله تعالى، وكمالِ علمه وحِكمته، وعزّةِ بيته، وشرفِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

فإنّ ذلك مِن الإرهاصات، لِما رُوي أنّ القصّة وقعت في السّنة التي وُلد فيها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتفصيلُها أنّ أبرهةَ بن الصبّاح الأشرمَ[1] مَلِك اليمن مِن قبل أصحمةَ النجاشي[2] بنى بصنعاءَ كنيسةً وسمّاها القُلَّيس، وأراد أن يصرِف إليها الحاجّ، فخرج رجل مِن كنانةَ فقعد فيها ليلًا فأغضبه ذلك. وقيل:

---

١ أبو يكسوم أبرهة الأشرم الحبشي (ت. ٥٧٠م [؟])، هو أوّل ملك مِن الحبشة افتتح اليمن وملكها، وهو الذي أراد هدم البيت. أنظر: التيجان للحميري، ص ٣١٤.

٢ النجاشي لقب كلّ ملك مِن ملوك الحبشة، ولعلّ أمير أبرهة المذكور ليس أصحمة النجاشي، بل نجاشي قبله، وأصحمة النجاشي معدودٌ في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممّن حسُن إسلامه، وقصّته مشهورة في المغازي بإحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. مات في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فصلّى عليه بالناس صلاة الغائب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/٤٢٨؛ والإصابة لابن حجر، ١/٢٠٥.

أجَّجت رُفقة مِن العرب نارًا فحملتها الريح فأحرقَتها، فحلف ليهدمنّ الكعبةَ، فخرج مع الحبشة ومعه فيل له اسمه محمود- وكان قويًّا عظيمًا- واثنا عشرَ فيلًا غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: ألف فيل، وقيل: كان معه وحدَه. فلمّا بلغ المُغمَّس[١] خرج إليه عبد المطّلب، وعَرَض عليه ثلث أموال تهامةَ ليَرجع فأبى. وعبّأ جيشه، وقدّم الفيلَ، فكان كلّما وجّهوه إلى الحرَم برك ولم يبرح، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى غيره مِن الجهات هرول.

فأرسل الله تعالى طيرًا سُودًا، وقيل: خضرًا، وقيل: بيضًا، مع كلّ طائر حَجَر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أكبر مِن العدسة وأصغر مِن الحمّصة، فكان الحَجَر يقع على رأس الرجل ويخرج مِن دبره، وعلى كلّ حجر اسم مَن يقع عليه، ففرّوا فهَلَكوا في كلّ طريق ومنهل. ودَوِيَ أبرهةُ فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتّى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يُحلِّق فوقه حتّى بلغ النجاشيَّ فقصّ عليه القصّة، فلمّا أتمّها وَقَع عليه الحَجَر فخرّ ميّتًا بين يديه.[٢]

وقيل: إنّ أبرهة أخذ لعبد المطّلب مائتي بعير، فخرج إليه في شأنها، فلمّا رآه أبرهةُ عظُم في عينه، وكان رجلًا وسيمًا جسيمًا، وقيل: هذا سيّد قريش، وصاحب عِير مكّة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، فنزل أبرهةُ عن سريره وجلس على بساطه، وقيل: أجلسه معه على سريره، ثم قال لترجمانه: «قل له: ما حاجتُك؟» فلمّا ذَكَر حاجته قال: «سقطتَ مِن عيني حيث جئتُ لأهدمَ البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتُكم وشرفُكم في / قديم [٣٢٠ظ] الدهر، لا تكلِّمني فيه، ألهاك عنه ذَودٌ أخذتُ لك». فقال عبد المطّلب: «أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًّا يحميه»، ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر مِن قريش يدعون الله عزّ وجلّ، فالتفت وهو يدعو، فإذ هو بطيرٍ مِن نحو اليمن،

---

[١] المُغَمَّس: موضع قربَ مكّة في طريق الطائف. معجم البلدان للحمَوي، ١٦١/٥.

[٢] الخبر بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٥/٨-٥٣٨.

فقال: «والله إنّها لَطير غريبة، ما هي ببحريّة ولا تِهاميّة»، فأرسل حلقة الباب، ثمّ انطلق مع أصحابه ينتظرون ما يفعل أبرهةُ، فأرسل الله تعالى عليهم الطير، فكان ما كان.[١]

وقيل: كان أبرهةُ جدَّ النجاشي الذي كان في زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: رأيتُ قائد الفيل وسائسه أعميين مُقعَدين يستطعمان.[٣] وقُرئ: "أَلَمْ تَرْ" بسكون "الراء"[٤] للجدّ في إظهار أثر الجازم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾... إلخ، بيانٌ إجمالي لِما فعل الله تعالى بهم، و"الهمزة" للتقرير كما سبق، ولذلك عُطف على الجملة الاستفهاميّة ما بعدها، كأنّه قيل: قد جُعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها في تضييع وإبطال، بأن دمّرهم أشنعَ تدمير.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: حزائقَ وجماعاتٍ، جمع "إِبّالة"، وهي الحزمة الكبيرة شُبّهت بها الجماعة مِن الطير في تضامّها، وقيل: ﴿أَبَابِيلَ﴾ مثل "عبابيد" و"شماطيط"، لا واحدَ لها.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ صفة لـ﴿طَيْرًا﴾. وقُرئ: "يَرْمِيهِمْ"[٥] بالتذكير؛ لأنّ الطير اسم جمع وتأنيثه باعتبار المعنى. ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجّر، معرّب "سنك كل".[٦] وقيل: كأنّه عَلَم للديوان الذي كُتب فيه عذاب الكفّار، كما أنّ سِجّينًا عَلَم للديوان الذي يكتب فيه أعمالهم، كأنّه قيل: بحجارة مِن جملة العذاب المكتوب المدوّن. واشتقاقه مِن الإسجال وهو الإرسال.[٧]

---

١ القول بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٤-٦٠٥؛ وهو بمعناه في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥٣٦/٨-٥٣٧.

٢ القول بلفظه في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٣ بلفظ قريب في **أخبار مكّة** للأزرقي، ١٤٨/١-١٤٩؛ ومسند البزّار، ٢٥٧/١٨ (٣٠٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٣/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٥٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر ويحيى بن يعمر وأبي نهيك وأبي حنيفة، وابن المغيرة وابن واصل وابن منصور والفارسي أربعتهم عن الكسائي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٨٠؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٥٨.

٦ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦٣٣/٢٤؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٥/٤. و"سنك كل" معناها بالفارسيّة: الحجر والطين. انظر لتفصيل الكلام عليه والأقوال فيه: **المُعرَّب** للجواليقي، ص ٣٦٤-٣٦٦، وحواشي مُحقِّقه.

٧ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٥/٤.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورق زرع وقع فيه الأُكَال، وهو أن يأكله الدُّود، أو أُكل حبُّه فبقيَ صِفْرًا منه، أو كتِبْنٍ أكلته الدوابّ وراثَته، أشيرَ بأولّ حاله.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيّام حياته مِن الخسف والمسخ».[١]

[١] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٣٠ (الفيل، ١/١٠٥)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٤/٤ (الفيل، ١/١٠٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٥

سُورَةُ الفِيلِ

مكية، خمسُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: استفهامُ تعجيب، أي: اعجَبْ: ﴿كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحابِ الفِيلِ﴾؟ هو محمودٌ. وأصحابه أبرهةُ ملك اليمن وجيشُه، بنى بصنعاءَ كنيسة ليصرف إليها الحاجَّ عن مكّة، فأحدثَ رجل من كِنانة فيها، ولطّخ قِبلتها بالعَذِرة احتقارًا بها، فحلف أبرهةُ، ليَهدِمَنَّ الكعبة، فجاء مكّةَ بجيشه على أفيال مُقدَّمُها محمودٌ.

فحين توجّهوا لهدم الكعبة أرسل الله عليهم ما قَصّه في قوله:.............................

سُورَةُ الفِيلِ

قولُهُ: (اعْجَب) والخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وهو وإن لم يشهَدْ تلك الواقعَةَ، لكن شاهَدَ آثارَها، وسمعَ بالتَّواتُرِ أخبارَها فكأنَّه رآها.

قولُهُ: (مَلِكُ اليَمَنِ) أي: من قِبَلِ أصحمةَ النَّجاشيِّ، فلا يُنافي ما أخرجَهُ ابنُ جريرٍ عن قتادَةَ: أنَّ قائدَ الجيشِ اسمُهُ: أبرهَةُ الأشرَمِ من الحبشَةِ[1]، قيلَ: إنَّ هذا النَّجاشيَّ جدُّ النَّجاشيِّ الذي كانَ في زمنِهِ ﷺ بعدَ المبعَثِ.

قولُهُ: (فَأَحْدَثَ) أي: لَيلاً.

قولُـهُ: (فَحِيـنَ تَوَجَّهُـوا) كلَّمـا وجَّهوهُ إلـى الحرَمِ برَكَ ولـم يَبرَح، وإذا وجَّهُـوهُ إلى اليمـنِ، أو إلى جهَةٍ أخرى أسرَعَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦١٥).

٢ ـ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ أي: جَعَلَ ﴿كَيْدَهُمْ﴾ في هدم الكعبة ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: خَسار وهلاك، ٣ ـ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: جماعاتٍ جماعات ـ قيل: لا واحد له كأساطيرَ. وقيل: واحده: إبَّول أو إبَّال أو إبِّيل كعِجَّول ومِفتاح وسِكِّين ـ ٤ ـ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: طينٍ مطبوخ، ٥ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: كورَقِ زرع أكلته الدوابّ وداسته وأفنته؟ أي: أهلكهم الله ـ تعالى ـ كُلَّ واحد بحجره المكتوبِ عليه اسمُه، وهو أكبر من العدسة وأصغر من الحِمّصة، يخرق البيضة والرَّجُل والفيل ويصل إلى الأرض. وكان هذا عامَ مولدِ النبيّ ﷺ.

قولُهُ: (خَسَارَةٍ) وتضييعٍ وإبطالٍ بأن دمَّرهُم وعظَّمَ شأنَها.

قولُهُ: (قِيلَ: لا وَاحِدَ لَهُ) فيكونُ اسمَ جمعٍ.

قولُهُ: (كعَجُوزٍ) وفي نُسخَةٍ: كِعجَّول، وهو الأصحُّ، إذ جمعُهُ: عجاجيلُ[1].

قولُهُ: (ومِفتَاحٍ) يعني: في الحرَكاتِ والسَّكَناتِ، وإلَّا فإبَّالٍ فعَّال، ومِفتاح مِفعال، وأخرجَ ابنُ أبي حاتِمٍ عن مُجاهِدٍ وعكرِمَة وغيرِهِما: أنَّها العَنقاءُ، كذا في «المبهمات»[2].

قولُهُ: (مَطبُوخٍ) مُتحجِّرٍ مُعرَّب: سَنْكَ كِلٍ.

قولُهُ: (أَكَلَتهُ الدَّوَابُّ) وراثَتْه، أو أكلَهُ الدُّودُ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (وكَانَ هَذَا) فهذا أوَّلُ خَيرٍ بَدا، ولذا عُدَّ من الإرهاصاتِ، والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «الصحاح» (٥/ ١٧٥٩).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٢٠).

سُورَةُ الفِيلِ

مكيةٌ، وآيُها خمس بلا خلاف فيهما.

وكأنَّه لَمَّا تضمَّن الهمز واللمز من الكفرة نوعَ كيدٍ له عليه الصلاة والسلام عقَّب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أنَّ عقبَى كيدهم في الدنيا تدميرُهم، فإنَّ عنايةَ الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى وأتمُّ من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورةُ مشيرةٌ إلى مآلهم في الدنيا إثْرَ بيان مآلهم في الأخرى.

ويجوز أن تكونَ كالاستدلال على ما أُشيرَ إليه فيما قبلها من أنَّ المالَ لا يُغني من الله تعالى شيئاً، أو على قدرته عز وجل على إنفاذ ما توعَّد به أولئك الكفرةَ في قوله سبحانه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ إلخ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ الظاهرُ أنَّ الخطاب لرسول الله ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها، وهي بصرية تُجوِّز بها عن العلم على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل لأنَّها سببيَّة، ويجوز جعلُها علميةً من أول الأمر، إلا أنَّ ذاك أبلغُ، وعِلْمُه ﷺ بذلك لِمَا أنَّه سمعَه متواتراً.

و«كيف» في محلِّ نصب على المصدرية بـ «فَعَل»، والمعنى: أيَّ فِعْلٍ فَعَل. وقيل: على الحالية من الفاعل، والكيفية حقيقة للفعل، لا بـ «ألم تَرَ» لمكان الاستفهام، والجملةُ سادَّةٌ مسدَّ المفعولَين لـ «تَرَ».

وجوّز بعضُهم نصبَ «كيف» بـ «تَرَ» لانسلاخ معنى الاستفهام عنه كما في «شرح المفتاح» الشريفي، وصرَّح أبو حيان بامتناعه لأنَّه يراعَى صدارتُه إبقاءً لحكم أصله.

وتعليقُ الرؤية بكيفيَّة فعله تعالى شأنه، لا بنفسه بأنْ يقال: ألم تَرَ ما فعل ربك.. إلخ لتهويل الحادثةِ، والإيذانِ بوقوعها على كيفيَّة هائلةٍ، وهيئة عجيبةٍ دالَّةٍ على عِظَم[(١)] قدرة الله تعالى، وكمالِ علمه وحكمته، وعِزِّ بيته[(٢)]، وشرفِ رسوله ﷺ، فإنَّ ذلك ـ كما قال غيرُ واحد ـ من الإرهاصات؛ لِمَا روي أنَّ القصة وقعَت في السنة التي ولد فيها النبيُّ ﷺ[(٣)]. قال إبراهيم بن المنذر شيخُ البخاري: لا يَشُكُّ في ذلك أحدٌ من العلماء، وعليه الإجماعُ، وكلُّ ما خالفه وهمٌ، أي: من أنَّها كانت قبلُ بعشر سنينَ، أو بخمسَ عشرةَ سنةً، أو بثلاثٍ وعشرينَ سنة، أو بثلاثين سنة، أو بأربعين سنة، أو بسبعين سنة، الأقوال المذكورة في كتب السِّيَر.

وعلى الأول المرجَّحِ الذي عليه الجمهور قيل: ولادتُه عليه الصلاة والسلام في اليوم الذي بَعَث الله تعالى فيه الطيرَ على أصحاب الفيل من ذلك العام، وهو المذكورُ في تاريخ ابن حبان[(٤)]، وهو ظاهرُ قولِ ابن عباس: ولد عليه الصلاة والسلام يومَ الفيل[(٥)].

وذهب السهيلي أنَّه ﷺ وُلد بعدها بخمسين يوماً، وكانت[(٦)] في المحرَّم، والولادةُ في شهر ربيع الأول[(٧)].

وقال الحافظ الدمياطي: بخمسةٍ وخمسين يوماً. وقيل: بأربعين. وقيل: بشهر. والمشهور ما ذهب إليه السهيلي.

---

(١) في الأصل: عظيم.
(٢) تصحف في (م) إلى: غُريبته.
(٣) جاء في هامش الأصل: وذلك بعد مضي ستة آلاف سنة من هبوط آدم عليه السلام. اهـ منه.
(٤) وهو كتاب الثقات له، والكلام فيه ١/ ١٤.
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٠١، وزاد: يعني عام الفيل.
(٦) أي: حادثة الفيل.
(٧) الروض الأنف ١/ ١٨٤.

وفي قوله تعالى: (رَبُّكَ) نوعُ رمزٍ إلى الإرهاص. وكونُ ذلك لشرفِ البيت ودعوةِ الخليل عليه السلام لا ينافي الإرهاصَ، وكذا لا ينافيه قولُه ﷺ في الحديبية لَمَّا بركَت ناقتُه، وقال الناس: خلأت، أي: حَرَنَت: «ما خلأَت، ولكنْ حَبَسها حابسُ الفيل»[1]، إذ لم يُدَّعَ أنَّ ما كان للإرهاص لا غير، ومثلُ هذه العلل لا يضرُّ تعدُّدها، ويُؤيِّد الإرهاصَ قصةُ القرامطة وغيرهم.

وتفصيل القصة: أنَّ أَبْرهةَ الأشرم بن الصَّبَّاح الحبشي، كما قال ابن إسحاق وغيرُه[2]، وهو الذي يُكْنَى بأبي يَكسوم بالسين المهملة[3]، ولا يأباه التسمية بأبرهة بناءً على أنَّ معناه بالحبشية الأبيضُ الوجهِ كما لا يخفى، وقيل: إنَّه الحِمْيري = خرجَ على أرياط ملك اليمن من قِبَلِ أصحمة النِّجاشي بكسر النون بعد سنَتين من سلطانه، فتبارَزَا، وقد أرصَدَ الأشرمُ خلفَه غلامَه عَتْوَدة[4]، فحمل عليه أرياط بحربة فضَرَبه يريدُ يافوخَه، فوقعت على جبهته فشَرَمَت حاجبَه وأنفَه وعينَه وشَفَتَه، ولذا سُمِّي الأشرم، فحمل عَتْوَدة من خلف أبرهة فقتَلَه وملك مكانه، فغَضِب النجاشيُّ، فاسترضاه فرضي فأثبَتَه.

ثم إنَّه بنَى بصنعاء كنيسةً لم يُرَ مثلُها في زمانها سمَّاها القُلَّيس بقافٍ مضمومةٍ ولامٍ مفتوحةٍ مشدَّدةٍ كما في «ديوان الأدب»[5] أو مخفَّفةً كما قيل، وبعدَها ياء مثناة سفلية ثم سين مهملة، وكان ينقل إليها الرُّخامَ المُجزَّع والحجارة المنقوشة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) السير والمغازي ص٦١ وما بعد، والسيرة النبوية ١/ ٤١ وما بعد، وتنظر قصة الفيل في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٣٥ وما بعد، وفي تاريخه ٢/ ١٢٨ وما بعد، والقرطبي ٢٢/ ٤٧٨ وما بعد، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٣٧ وما بعد.

(٣) جاء في هامش الأصل: ويقال: إنه جد النجاشي الذي كان في زمانه عليه الصلاة والسلام. اهـ منه، ونسَب القولَ القرطبيُّ في تفسيره ٢٢/ ٤٨٥ للواقدي.

(٤) في الأصل و(م): عتورة، والمثبت من المصادر، والعتودة: الشدة. الروض الأنف ١/ ٦٢.

(٥) كتاب في اللغة لإسحاق بن إبراهيم الفارابي المتوفى تقريباً سنة (٣٥٠هـ). وهو كتاب معتبر، قسمه على خمسة أقسام، عرّفه بقوله: هو ميزان اللغة ومعيار الكلام. كشف الظنون ١/ ٧٧٤-٧٧٥، والأعلام ١/ ٢٩٣.

بالذهب ـ على ما يقال ـ من قَصْر بلقيسَ زوجِ سليمان عليه السلام، وكتب إلى النجاشي: إنَّني قد بنَيت لك أيُّها الملك كنيسةً لم يُبنَ مثلُها قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب.

فلما تحدَّثَت العربُ بكتابه ذلك غضب رجلٌ من النَّسَأة أحدُ بني فُقَيْم بن عدي من كنانةَ، فخرج حتى أتاها فقعَدَ فيها ـ أي: أحدَثَ ولطخ قبلَتها بحدَثه ـ ثم خرج ولَحِقَ بأرضه، فأُخبِرَ أبرهةُ فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكةَ، غَضِبَ لَمَّا سمع قولَك: أصرفُ إليها حجَّ العرب، ففعل ذلك. فاستشاط أبرهةُ غضباً، وحلَفَ ليَسيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمَه.

وقيل: أَجَّجَت رفقةٌ من العرب ناراً حولها، فحملتها الريحُ فأحرَقَتها[(١)].

فغضِب لذلك فأمرَ الحبشةَ فتهيَّأت وتجهَّزَت، فخرجت في ستين ألفاً ـ على ما قيل ـ منهم، ومعه فيلٌ اسمه محمود، وكان قويًّا عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيره. وقيل: ثمانيةً. وروي ذلك عن الضحاك. وقيل: ألف فيل، وقيل: معه محمود فقط. وهو قولُ الأكثرين الأوفقُ بظاهر الآية، فسمعَت العربُ بذلك فأعظموه وقلقوا به، ورأَوا جهادَه حقًّا عليهم، فخرج إليه رجلٌ من أشراف اليمن وملوكهم يقال له: ذو نَفْر، بمن أطاعَه من قومه وسائر العرب، فقاتَله فهُزِمَ وأُخِذ أسيراً، فأراد قتلَه فقال: أيها الملك لا تقتلني فعسى أنْ يكونَ بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه وحبسه عنده.

حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرَضَ له نُفَيْل بن حبيب الخَثْعَمي بمن معه من قومه وغيرهم، فقاتله فهُزِم وأُخِذ أسيراً، فهمَّ بقتله فقال نحوَ ما سبق فخلَّى سبيله، وخرَجَ به يدلُّه.

حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعودُ بن مُعَتِّب[(٢)] بن مالك الثَّقَفي في رجال من ثَقيف فقال له: أيها الملكُ إنما نحن عبيدُك سمَّاعون لك مطيعون، ليس لك

(١) عزاه القرطبي ٢٢/ ٤٨٤ للكلبي ومقاتل بن حيان بنحوه.
(٢) في الأصل و(م): معيب، والمثبت من المصادر.

عندنا خلاف، وليس بيتُنا هذا الذي تريد، يعنون بيت اللات، إنما تريدُ البيت الذي بمكة، ونحن نبعَثُ معك من يدلُّك عليه، فتجاوَزَ عنهم، فبعثُوا معه أبا رِغال[1]، فخرج ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس كمعظَّم، موضعٌ بطريق الطائف معروف، فلمَّا نَزَلَه ماتَ أبو رِغال ودُفِنَ هناك، فرجَمَت قبرَه العربُ كما قال ابن إسحاق[2].

وقيل: القبرُ الذي هناك لأبي رِغال رجل من ثمود، وهو أبو ثقيف، كان بالحرم يَدفَعُ عنه، فلمَّا خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومَه بالمغمَّس فدُفِن فيه، واختارَه صاحب «القاموس» ذاكراً فيه حديثاً رواه أبو داود في «سننه» وغيرُه عن ابن عمر[3] مرفوعاً، وقال فيما تقدَّم بعد نَقْلِه عن الجوهري[4]: ليس بجيد.

وجمع بعضٌ بجواز أن يكون قبران لرجلَين كلٌّ منهما أبو رغال[5].

ثم إنَّ أبرهة بَعثَ وهو بالمغمَّس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود حتى انتهى إلى مكة، فساقَ أموالَ أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مئتَي بعير؛ وقيل: أربع مئة بعير، لعبد المطلب وكان يومئذ سيدَ قريش، فهمَّت قريش وكِنانة وهُذَيل ومَن كان بالحرم بحربه، فعرفوا أنْ لا طاقةَ لهم به فكفُّوا.

وبعث أبرهةُ حياطة[6] الحميري إلى مكة وقال: قل لسيد أهلِ هذا البلدِ إنَّ الملكِ يقول: إنِّي لم آت لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تعرضُوا دونه بحربٍ فلا حاجةَ لي بدمائكم، فإنْ هو لم يُرد حربي فأْتني به. فلمَّا دخل حياطةُ دُلَّ على عبد المطلب فقال له ما أُمِرَ به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربَه وما لنا

---

(١) جاء في هامش الأصل: بالغين المعجمة بوزن كتاب. اهـ منه.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٤٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والقاموس (رغل). والذي في سنن أبي داود (٣٠٨٣)، ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٩٧: ابن عمرو، وهو الصواب. ينظر تحفة الأشراف ٦/ ٢٨١.

(٤) في الصحاح (رغل).

(٥) تاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٣.

(٦) كذا في الأصل و(م)، والذي في المصادر: حناطة.

به طاقة، هذا بيتُ الله الحرام وبيتُ خليله إبراهيم عليه السلام، فإنْ يمنَعْهُ منه فهو بيتُه وحرمُه، وإنْ يُخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفْعٌ عنه.

ثم انطلَق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بَنِيْه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقَه، فدخل عليه فقال له: هل عندك من غَنَاءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: وما غَناءُ رجل أسيرٍ بيدَي ملك، ينتظر أنْ يقتلَه غُدُوًّا وعَشيًّا، ما عندي غَنَاءٌ في شيء مما نزل بك إلا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيل سأُرسِل إليه فأُوصيه بك وأُعْظِمُ عليه حقَّك، وأسألُه أنْ يستأذنَ لك على الملك فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفَعَ لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حسبي. فبعَثَ إليه فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش وصاحبُ عين[1] مكة، ويُطعمُ الناس بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملكُ له مئتَي بعير، فاستأذِنْ له عليه وانفَعْه عنده بما استطعتَ. فقال: أفعلُ. فكلَّم أبرهةَ وَوَصَفَ عبد المطلب بما وصفه به ذو نفر، فأَذِنَ له.

وكان عبد المطلب أوسمَ الناس وأجملَهم، فلما رآه أكرَمه عن أنْ يجلسَ تحته، وكره أنْ تراه الحبشةُ يُجلسُه معه على سرير ملكه، فنزل عن سريره فجلَس على بساطه وأجلَسَه معه عليه إلى جنبه.

والقولُ بأنَّه أعظمَه لِمَا رأى من نور النبوَّة الذي كان في وجهه[2] ضعيفٌ، لِمَا فيه من الدلالة على كون القصة قبلَ ولادة عبد الله، وهو خلافُ ما علمتَ من القول المرجَّح، اللهم إلا أنْ يقال إنَّه تجلَّى فيه ذلك النور، وإنْ كان قد انتقَلَ.

ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتُك؟ فقال: حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك إبلي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنتَ أعجبتَني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتَني في مئتَي بعير أصبتُها لك، وتَترُكُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك قد جئتُ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٨٠، وسبل الهدى والرشاد ١/ ٢٥٢، وفي تاريخ الطبري ٢/ ١٣٣، وتفسيره ٢٤/ ٦٣٩، والسيرة النبوية ١/ ٤٩، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٤: عير.

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١/ ٢٥٣.

لهدمه فلا تكلِّمني فيه. فقال عبد المطلب: إني ربُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. قال: ما كان ليُمنَع منِّي. قال: أنت وذاك.

وفي رواية: أنَّه دخل عليه مع عبد المطلب [يعمر بن] نفاثة[١] بن عدي سيِّد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيِّد هذيل، فعرضا عليه ثلثَ أموالِ أهل تهامة على أنْ يرجعَ ولا يهدم البيت فأبَى.

فردَّ الإبل على عبد المطلب، فانصرف إلى قريش فأخبرهم الخبرَ، فتحرَّزوا في شَعَف الجبال تخوُّفاً من معرَّة الجيش[٢]، ثم قام فأخذ بحلْقة باب الكعبة ومعه نَفَرٌ من قريش يدعون الله عز وجل ويستنصرونه، فقال وهو آخذٌ بالحلقة:

لاهُمَّ إنَّ المرءَ يمـ ... ـنع رَحْلَهُ فامنع حِلالك[٣]
وانصُر على آل الصليـ ... ـب وعابديه اليومَ آلكْ[٤]
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُم ... ومحالهم غَدواً[٥] مِحالكْ
جَرُّوا جموعَ بلادهم ... والفيلَ كي يَسبُوا عِيالَك
عَمَدُوا حِمَاك بكيدهم ... جَهْلاً وما رَقَبُوا جلالَك
إنْ كنتَ تاركهم وكعـ ... ـبَتَنَا فأمْرٌ ما بدا لك

وقال أيضاً:

---

(١) في الأصل: ثغانة، وفي (م): ثفانة، والمثبت من السيرة النبوية ١/ ٥٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٠، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٥، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) أي: شدته، وقوله: شَعَف الجبال، أي: رؤوسها. الإملاء المختصر لأبي ذر الخشني ١/ ٨٨.

(٣) جاء في هامش الأصل: بكسر الحاء جمع حِلّة: المحل الذي ينزله، والقوم النازلون فيه، ويُروى: رحالك جمع رحل: المنزل، وجُمع تعظيماً للحرم، أو جعل كل موضع منهم رحلاً. اهـ منه.

(٤) هذا البيت لم يرد في المصادر، وأشار إلى ذلك السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: غدواً بالغين المعجمة بمعنى الغدو، أريد به تقريب الزمان، ويُروى: عدواً بالمهملة، أي: ظلماً. اهـ منه.

يـا رب لا أرْجُـو لـهـم سـواكـا يـا رب فـامْـنَـعْ عـنـهـمُ حـمـاكـا
إنَّ عـدوَّ الـبـيـت مَـن عـاداكـا امْـنَـعْـهـمُ أنْ يُـخـرِبُـوا فَـنَـاكـا[١]

ثم أرسل الحَلْقة وانطلَق هو ومَن معه إلى شَعَف الجبال ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها.

فلمَّا أصبح تهيَّأ للدخول وعبَّى[٢] جيشَه وهيَّأ الفيل، فلمَّا وجَّهَوه إلى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه فأخذ بأُذُنِه فقال: ابرُك محمود وارجِع[٣] راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسلَ أُذنَه فبَرَك، أي: سقط، وخرج نُفَيل يشتَدُّ حتى أصعدَ في الجبل، وضربوا الفيلَ وأَوجَعُوه ليقوم فأبَى، ووجَّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يُهرول، وإلى الشام ففعل مثل ذلك، فوجَّهوه إلى مكة فبرك، فسقوه الخمرَ ليذهب تمييزُه فلم يَنْجَع ذلك.

وقيل: إنَّ عبد المطلب هو الذي عَرَك أذنه وقال له ما ذُكر، وكان ذلك عند وادي مُحَسِّر، وأرسل الله تعالى طيراً من البحر قيل: سوداً، وقيل: خضراً، وقيل: بيضاً[٤]، مثل الخطاطيف، مع كلِّ طائر منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملُها، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمَّص والعَدَس، لا تُصيب أحداً منهم إلا هلَك، ويُروَى أنَّه يُلقيها على رأس أحدهم فتخرجُ من دُبُره، ويتساقط لحمه، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاؤوا، يسألون عن نُفَيل ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما نزل بهم:

أيـن الـمـفـرُّ والإلـه الـطـالـبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضاً:

---

(١) جاء في هامش الأصل: وفي رواية: قراكا. اهـ منه. وهي رواية الطبري في تفسيره ٢٤/٦٤١، وفي تاريخه ٢/١٣٤.
(٢) تعبية الجيش: تهيئته في مواضعه. القاموس (عبي).
(٣) في السيرة لابن هشام ١/٥٣، والروض الأنف ١/٧١: أو ارجع.
(٤) في الأصل: قيل سوداء، وقيل خضراء، وقيل بيضاء.

أَلا حُـيِّـيـتِ عـنَّـا يـا رُدَيْـنَـا نَـعِـمْـنـاكـم عـن الإصـبـاح عَـيْـنـا
رُدَيْـنَـةُ لـو رأيـتِ ولا تُـرَيْـه لـدى جَـنْـب الـمُـحـصَّـب مـا رأيـنـا
إذاً لـعـذرتـنِـي وحَـمِـدتِ أمـري ولا تـأسَـي عـلـى مـا فـاتَ بَـيْـنـا
فـكـل الـقـوم يـسـألُ عـن نُـفَـيـل كـأنَّ عـلـيـه لـلـحُـبْـشـان دَيْـنـا

وجعلوا يتساقطون بكلِّ طريقٍ، ويهلكون في كل مَنْهَل، وأُصيبَ أبرهةُ في جسده، وخرجُوا به معهم تسقُطُ [أنامله][(١)] أُنْمُلَةً أُنملةً، كلما سقطَت أُنْملةٌ تَبِعَها منه مِدَّةٌ ثم دَمٌ وقيح[(٢)]، حتى قدموا به صنعاء وهو مثلُ فَرْخ الطائر، فما مات حتى انصدَعَ صدرُه عن قلبه.

وقد أشار إلى ذلك ابنُ الزِّبَعْرَى بقوله من أبيات يذكرُ فيها مكة:

سائِلْ أميرَ الحُبْشِ عنها[(٣)] ما ترى ولـسوف يُنبي الـجاهـلـينَ عـليـمُـهـا
ستُّـون ألـفـاً لـم يَـؤوبـوا أرضَـهـم بـل لـم يَـعِـشْ بـعـد الإيـاب سـقـيـمُـهـا

ولهم في ذلك شعرٌ كثير، ذكر ابنُ هشام جملةً منه في سِيَرِه[(٤)]، وفيها: أنَّ الطيرَ لم تُصب كلَّهم[(٥)]. وذَكر بعضُهم أنَّه لم ينجُ منهم غيرُ واحدٍ[(٦)]، دخل على النجاشي فأخبَرَه الخبرَ والطيرُ على رأسه، فلمَّا فرَغَ ألقَى عليه الحجَرَ فخرَقَت البناء ونزلَت على رأسه فألحقَتْه بهم.

---

(١) ما بين حاصرتين من تاريخ الطبري ٢/ ١٣٦، وتفسيره ٢٤/ ٦٤٢، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٨.
(٢) المِدَّة: القيح، القاموس المحيط (مدّ)، وجاءت العبارة في سيرة ابن هشام ١/ ٥٤: مِدَّة تمثُّ قيحاً ودماً. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٩٠: تمث: تسيل، وقيل: ترشح.
(٣) في (م): عنا، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الديوان ص٥٠، والسيرة النبوية ١/ ٥٧.
(٤) ١/ ٥٧ وما بعد.
(٥) السيرة النبوية ١/ ٥٣.
(٦) في هامش الأصل: ذكر في الكشاف أن هذا وزيره وكناه بأبي يكسوم، والله تعالى أعلم. اهـ. ينظر الكشاف ٤/ ٢٨٥.

وقيل: إنَّ سائسَ الفيل وقائدَه تخلَّفا في مكة فسَلِمَا، فعَن عائشةَ أنَّها قالت: أدركتُ قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أعمَيَين مُقعَدَين يَستطعِمان الناس[١].

وعن عكرمة: أنَّ مَن أصابَه الحجَرُ جَدَرَتْه، وهو أوَّل جدَري ظهَرَ، أي: بأرض العرب. فعن يعقوب بن عتبة أنَّه حُدِّث أنَّ أول ما رُئيت الحصبةُ والجدَري بأرض العرب ذلك العام، وأنَّه أول ما رُئي بها مرائرُ الشجر: الحرملُ والحنظلُ والعشر ذلك العام أيضاً[٢].

ويُرَوى أنَّ عبد المطلب لَمَّا ذهب إلى شَعَف الجبال بمن معه بقي ينتظر ما يَفعلُ القوم وما يُفعَل بهم، فلمَّا أصبح بعَثَ أحدَ أولاده على فَرَس له سريعٍ ينظرُ ما لقوا، فذهب فإذا القومُ مُشدَّخون[٣] جميعاً فرجع رافعاً رأسه كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: ألا إنَّ ابني أفرسُ العرب، وما كشف عن عورته إلا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه إليهم فأخذوا أموالهم وقال عبد المطلب:

أنتَ منعتَ الحُبْشَ والأفيالا
وقد رَعَوا بمكةَ الأجبالا
وقد خَشِينا منهم القتالا
وكلَّ أمرٍ منهم مِعْضالا
شكراً وحَمْداً لك ذا الجلالا[٤]

هذا ومن أراد استيفاءَ القصة على أتمّ مما ذكر فعليه بمطوَّلات كُتب السِّيَر.

---

(١) أخرجه ابن اسحاق في السير والمغازي ص٦٥، والبزار (١٧٦ - كشف)، وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٧.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٥٤.
(٣) في الأصل و(م): مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.
(٤) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة، وهي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢، والقرطبي ٢٢/ ٤٨٩، وجاء في الدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

وقرأ السلمي: «ألم ترْ» بسكون الراء[١] جدًّا في إظهار أثر الجازم؛ لأنَّ جَزْمه بحذف آخره، فإسكانُ ما قبل الآخر للاجتهاد في إظهار أثر الجازم، قيل: والسرُّ فيه هنا الإسراعُ إلى ذكر ما يهمُّ من الدلالة على أمر الألوهية والنبوَّة. أو الإشارة إلى الحثِّ في الإسراع بالرؤية إيماءً إلى أنَّ أمرَهم على كثرتهم كان كلَمْح البصر، مَن لم يُسارع إلى رؤيته لم يُدركْه حقَّ إدراكه.

وتُعقِّبَ هذا بأنَّ تقليل البُنْيَة يدلُّ على قلَّة المعنى - وهو الرؤية - لا على قلَّة زمانه.

وقيل: لعلَّ السرَّ فيه الرمزُ من أول الأمر إلى كثرة الحذف في أولئك القوم. فتدبر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ إلخ بيانٌ إجماليٌّ لِمَا فعل الله تعالى بهم، والهمزةُ للتقرير كما سبَقَ، ولذلك عطَفَ على الجملة الاستفهامية ما بعدها، كأنَّه قيل: قد جعل كيدَهم في تعطيل الكعبة وتخريبها وصَرْفِ شَرَفِ أهلها لهم في تضييع وإبطال بأنْ دمَّرهم أشنَعَ تدمير.

وأصل التضليل مِن ضلَّ عنه: إذا ضاع، فاستُعير هنا للإبطال، ومنه قيل لامرئ القيس: الضِّلِّيل؛ لأنَّه ضلَّل مُلكَ أبيه وضيَّعه.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي: جماعات. جمع إبَّالة بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحَّدة. وحكى الفراء: إِبَالة مخفَّفاً، وهي حِزْمةُ الحطب الكبيرة، شُبِّهت بها الجماعة من الطير في تضامِّها، وتستعمل أيضاً في غيرها، ومنه قوله:

كادَتْ تُهَدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالتِ الأرض بالجُرْد الأبابيلِ[٢]

وقيل: واحدُه إبَّوْل مثل عجَّوْل. وقيل: إبِّيل مثل سِكِّين. وقيل: إبَّال.

وقال أبو عبيدة والفراء: لا واحدَ له من لفظه[٣]. كعَبَاديد: الفِرَق من الناس الذاهبون في كل وَجْه، والشَّماطِيْط: القطع المتفرِّقة. وجاءت هذه الطير على ما روي عن جمع من جهة البحر، ولم تكن نجديةً ولا تهاميةً ولا حجازيةً. وزعم

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٢.

(٢) البيت لمعبد الخزاعي، وسلف ٥/ ١٣٤.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٣١٢، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢.

بعضٌ أنَّ حمام الحرم من نسلها، ولا يصحُّ ذلك، ومثله ما نقل عن «حياة الحيوان» من أنَّها تُعشِّشُ وتفرِّخُ بين السماء والأرض(١). وقد تقدَّم الخلافُ في لونها.

وعن عكرمة: كأنَّ وجوهها مثلُ وجوه السباع، لم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعدهُ.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ صفة أخرى لـ «طير». وعبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ واستحضارِ تلك الصورة البديعة.

وقرأ أبو حنيفة وابن(٢) يعمر وعيسى وطلحة في رواية: «يَرْمِيهم» بالياء التحتية(٣). والضميرُ المستتر للطير أيضاً، والتذكيرُ لأنَّه اسمُ جمع، وهو على ما حكى الخفاجي: لازمُ التذكير، فتأنيثُه لتأويله بالجماعة(٤). وقيل: يجوزُ الأمران، وهو ظاهرُ كلام أبي حيان(٥).

وقيل: الضميرُ عائدٌ على «ربك». وليس بذاك.

ونسبة القراءة المذكورة لأبي حنيفة رضي الله عنه حكاها في «البحر»، وعن صاحب «النشر» أنَّه رضي الله عنه لا قراءةَ له، وأنَّ القراءات المنسوبة له موضوعة(٦).

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ صفة «حجارة» أي: كائنةٌ من طينٍ متحجِّرٍ، معرَّب: سَنْك كِل.

وقيل: هو عربي من السِّجل بالكسر(٧)، وهو الدلو الكبير(٨). ومعنى كونِ الحجارة من الدلو أنَّها متتابعةٌ كثيرةٌ، كالماء الذي يُصَبُّ من الدلو، ففيه استعارةٌ مكنية وتخييلية.

---

(١) حياة الحيوان ١/ ١٧.
(٢) في الأصل و(م): وأبو. والمثبت هو الصواب.
(٣) القراءات الشاذة ص١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٢.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١٢.
(٦) النشر ١/ ١٦، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.
(٧) وضبطها صاحب المصباح المنير (السجل) بوزن: فَلْس. وكذا ضبطت ضبط قلم في أكثر المعاجم.
(٨) في (م): الكبيرة.

وقيل: من الإسجال بمعنى الإرسال، والمعنى: مِن مثل شيءٍ مرسَل.

و«مِن» في جميع ذلك ابتدائية.

وقيل: من السِّجلّ وهو الكتاب، أُخِذَ من السجِّين، وجُعِل علماً للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، والمعنى: من جملة العذاب المكتوب المدوَّن، فـ «مِن» تبعيضية.

واختلف في حجم تلك الطير، وكذا في حجم تلك الحجارة، فمرَّ[1] أنَّها مثل الخطاطيف، وأنَّ الحجارة أمثال الحِمَّص والعدس، وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الدُّئلي[2] أنَّه قال: رأيتُ الحصَى التي رُمي بها أصحابُ الفيل، حصًى مثل الحمص وأكبر من العدس، حُمْرٌ مُخَتَّمةٌ[3] كأنَّها جَزْع ظَفار[4]. وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس أنَّه قال: حجارةٌ مثل البندق. وفي رواية ابن مردويه عنه: مثل بَعْر الغنم[5].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير أنَّه قال في الآية: هي طيرٌ خرجَت من قبلة البحر، كأنَّها رجالُ السِّنْد، معها حجارةٌ أمثال الإبل البوارك وأصغرُها مثلُ رؤوس الرجال، لا تريد أحداً منهم إلا أصابَتْه، ولا أصابَته إلا قتلَته[6].

---

(١) في (م): فمن، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل و(م): نوفل بن أبي معاوية الديلمي. وفي الدر المنثور ٦/ ٣٩٦: نوفل بن معاوية الديلمي. والمثبت من الدلائل (٨٨)، والإصابة لابن حجر ١٠/ ١٩٥. والدُّئلي: بضم الدال وكسر الهمزة، وفيها لغات أخر. ينظر توضيح المشتبه ٤/ ٦٣-٦٦.

(٣) كتب فوقها في الأصل: بالضم: السواد. وجاء في (م): بخُتْمَة، وفي هامشها: قوله بخُتْمة بالضم: السواد. اهـ منه.

(٤) دلائل النبوة (٨٨)، والدر المنثور ٦/ ٣٩٦ والكلام منه. والجَزْع: الخرز اليماني، وظَفَار: اسم مدينة لحِمير باليمن. النهاية (جزع) و(ظفر).

(٥) ذكر الأثرَين السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٦) عزاه محمد بن يوسف الصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد ١/ ٢٥٦ للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

والمعوَّل عليه أنَّ الطير في الحجم كالخطاطيف، وأنَّ الحجارة منها ما هو كالحِمصة ودوينَها وفويقَها.

وروى ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح: أنَّه مكتوبٌ على الحجر اسمُ مَن رُمي به واسمُ أبيه، وأنَّه رأى ذلك عند أمِّ هانئ[١].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ كورَق زَرْع وَقَع فيه الأُكَال[٢]، وهو أنْ يأكلَه الدودُ، أو أُكل حبُّه فبقي صِفراً منه. والكلامُ على هذا على حَذْف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، أو على الإسناد المجازي، والتشبيهُ بذلك لذهاب أرواحهم وبقاء أجسادِهم، أو لأنَّ الحجَرَ بحرارته يحرقُ أجوافَهم.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ المعنى: كتِبْنٍ أكَلَتْه الدوابُّ وراثَتْه، والمرادُ كَرَوْثٍ، إلا أنَّه لم يُذكَر بهذا اللفظ لهجنته، فجاء على الآداب القرآنية، فشُبِّه تقطُّعُ أوصالهم بتفرُّق أجزاء الروث، ففيه إظهارُ تشويهِ حالهم.

وقيل: المعنى: كتِبْنٍ تأكلُه الدوابُّ وتروثُه، والمرادُ جعلُهم في حكم التِّبْن الذي لا يُمنع عنه الدوابُّ، أي: مبتذَلين ضائعين لا يلتفِتُ إليهم أحدٌ، ولا يجمَعُهم ولا يدفنُهم، كتبنٍ في الصحراء تفعلُ به الدوابُّ ما شاءت لعدم حافظٍ له، إلا أنَّه وضع «مأكول» موضع: أكَلَته الدوابُّ، لحكاية الماضي في صورة الحال. وهو كما ترى.

وكأنَّه لِمَا أنَّ مجيئَهم لهدم الكعبة ناسَبَ إهلاكهم بالحجارة، ولِمَا أنَّ الذي أثار غضبَهم عَذِرة الكِنانيِّ شبَّهَهُم فيما فعل سبحانه بهم على القول الأخير بالروث، أو لِمَا أنَّ الذي أثاره احتراقُها بما حملَته الريحُ من نار العرب ـ على ماسمعْتَ ـ شبَّهَهُم عز وجل فيما فعل جل شأنه بهم بعصفٍ أُكِلَ حبُّه على ما أشرنا إليه أخيراً.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩٦.

(٢) بالضم والكسر كغُراب وكتاب، وهو التآكل. حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.

وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه: «مَأْكُول» بفتح الهمزة إتْباعاً لحركة الميم[١]، وهو شاذٌّ، وهذا كما أتبعوا في قولهم[٢]: «مَحَموم» بفتح الحاء لحركة الميم. والله تعالى أعلم.

(١) القراءات الشاذة ص ١٨٠، والبحر ٨/ ٥١٢.
(٢) قوله: في قولهم، ليس في الأصل.

(١٠٦) سورة قريش مكية وآياتها أربع

سورة قريش مكية ، وهي تتحدث عن نعم الله الجليلة على أهل مكة ، فقد كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانت قبيلة قريش متفرقين في غير الحرم ، فأكرمهم الله تعالى بجوار بيته ، وجمعهم بعد التشتت في البلاد ، ولذلك ذكَّرهم الله بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغِنَى واليسار « فليعبدوا ربَّ هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

سورة قريش

[١٠٣٩] أخرج الحاكم وغيره[1] عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: قال رسول الله [ﷺ]: **«فضل الله قريشاً بسبع خصال»** الحديث وفيه نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾[2].

* * *

[١٠٣٩] (١) المستدرك (٢/٥٣٦) ورواه البخاري في التاريخ الكبير (١/٣٢١)، والواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٩).

(٢) سورة قريش: الآية (١).

سورة قريش

وهي اربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ **اعلم أن ههنا مسائل:**

المسألة الأولى: اللام في قوله: ﴿لِإِيلَافِ﴾ تحتمل وجوهًا ثلاثة، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التي قبلها أو بالآية التي بعدها، أو لا تكون متعلقة لا بما قبلها ولا بما بعدها:

أما الوجه الأول -وهو أن تكون متعلقة بما قبلها- **ففيه احتمالات:**

الأول: وهو قول الزجاج وأبي عبيدة أن التقدير: فجعلهم كعصف مأكول لإلف قريش، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. **فإن قيل:** هذا ضعيف لأنهم إنما جُعلوا كعصف مأكول لكفرهم ولم يُجعلوا كذلك لتأليف قريش، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه: **أحدها:** أنا لا نسلِّم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[غافر: ١٧] وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥] ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار، بل إنما فعل ذلك بهم ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم. **وثانيها:** هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافي كون شيء آخر مقصود حتى يكون الحكم واقعًا بمجموع الأمرين معًا. **وثالثها:** هب أنهم أُهلكوا لكفرهم فقط، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش، جاز أن يقال: أُهلكوا لإيلاف قريش، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] وهم لم يلتقطوه لذلك، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يمهد عليه الالتقاط.

الاحتمال الثاني: أن يكون التقدير: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، كأنه تعالى قال: كل ما فعلنا بهم فقد فعلناه لإيلاف قريش، فإنه تعالى جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرًا أبابيل، حتى صاروا كعصف مأكول، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش.

الاحتمال الثالث: أن تكون اللام في قوله: ﴿لِإِيلَافِ﴾ بمعنى (إلى) كأنه قال: فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم: رحلة الشتاء والصيف. تقول: نعمة الله نعمة ونعمة لنعمة سواء في المعنى، هذا قول الفراء:

فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه، **وبقي من مباحث هذا القول أمران:**

الأول: أن للناس في تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين: **أحدهما:** أن جعلوا السورتين سورة واحدة، واحتجوا عليه بوجوه: **أحدها:** أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقًا بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة. **وثانيها:** أن أُبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة. **وثالثها:** ما روي أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١] وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ معًا، من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم. **القول الثاني:** وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه؛ لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضًا ويبين بعضها معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عند من يقول به، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] متعلق بما قبله من ذكر القرآن، وأما قوله: إن أُبيًّا لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين.

البحث الثاني فيما يتعلق بهذا القول: بيان أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سببًا لإيلاف قريش؟ **فنقول:** لا شك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع، على ما قال تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وهم إنما كانوا يربحون في أسفارهم، ولأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة. حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة، لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يُتخطفون من كل جانب ويُتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ . . . ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾. **والوجه الثاني فيما يدل على صحة هذا القول:** أن قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ﴾ [قريش: ٣، ٤] إشارة إلى أول سورة الفيل، كأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم، لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتبًا على إيصال المنفعة، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة.

القول الثاني: وهو أن اللام في: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ [قريش: ٣] وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش، أي: ليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة واعترافًا بها، **فإن قيل:** فلمَ دخلت الفاء في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾؟ **قلنا:** لما في الكلام من معنى الشرط، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى، فكأنه قيل: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة.

القول الثالث: أن تكون هذه اللام غير متعلقة، لا بما قبلها ولا بما بعدها، قال الزجاج: قال قوم: هذه اللام لام التعجب، كأن المعنى: اعجبوا لإيلاف قريش، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غيًّا وجهلاً وانغماسًا في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه، ونظيره في اللغة قولك لزيد وما صنعنا به، ولزيد وكرامتنا إياه وهذا اختيار الكسائي والأخفش والفراء.

المسألة الثانية: ذكروا في الإيلاف ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن الإيلاف هو الإلف، قال علماء اللغة: ألفت الشيء وألفته إلفًا وإلافًا وإيلافًا بمعنى واحد، أي لزمته، فيكون المعنى لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا، وقرأ أبو جعفر: (لِإِلْفِ قُرَيْشٍ). وقرأ الآخرون: (لِإِلَافِ قُرَيْشٍ)، وقرأ عكرمة (لِيلَافِ قُرَيْشٍ). **وثانيها:** أن يكون هذا من قولك: لزمت موضع كذا وألزمنيه الله، كما تقول: ألفت كذا، وألفنيه الله، ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف، ألف بنفسه إلفًا وآلفه غيره إيلافًا، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله وهو كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وقال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقد تكون المسرة سببًا للمؤانسة والاتفاق، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش، فيكون المصدر ههنا مضافًا إلى المفعول، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشًا ملازمين لرحلتيهم. **وثالثها:** أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز، وهو قول الفراء وابن الأعرابي فيكون المصدر على هذا القول مضافًا إلى الفاعل، والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا، وقرأ أبو جعفر (لِيلَافِ) بغير همز فحذف همزة الإفعال حذفًا كليًّا وهو كمذهبه في ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥] وقد مر تقريره.

المسألة الثالثة: التكرير في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ هو أنه أطلق الإيلاف أولاً ثم جعل المقيد بدلاً لذلك المطلق تفخيمًا لأمر الإيلاف وتذكيرًا لعظيم المنة فيه، والأقرب أن يكون قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ عامًّا يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم، ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم كما في قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة، تقول العرب: ألفت كذا، أي لزمته، والإلزام ضربان: إلزام بالتكليف والأمر، وإلزام بالمودة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئًا لزمه، ومنه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] كما أن

الإلجاء ضربان: أحدهما: لدفع الضرر كالهرب من السبع، والثاني: لطلب النفع العظيم، كمن يجد مالاً عظيمًا ولا مانع من أخذه لا عقلاً ولا شرعًا ولا حسًّا، فإنه يكون كالمُلجأ إلى الأخذ، وكذا الدواعي التي تكون دون الإلجاء، مرة تكون لدفع الضرر وأخرى لجلب النفع، وهو المراد في قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ .

المسألة الرابعة: اتفقوا على أن قريشًا ولد النضر بن كنانة، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّا بَنِي النَّضرِ بْنِ كِنَانَةَ لا نَقْفُو أُمَّنَا وَلاَ نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا» وذكروا في سبب هذه التسمية وجوهًا: **أحدها:** أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن، ولا تنطلق إلا بالنار، وعن معاوية أنه سأل ابن عباس: بِمَ سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل، تعلو ولا تعلى. وأنشد:

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ البَحْـ ... ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا(١)

والتصغير للتعظيم، ومعلوم أن قريشًا موصوفون بهذه الصفات لأنها تلي أمر الأمة، فإن الأئمة من قريش. **وثانيها:** أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم في البلاد. **وثالثها:** قال الليث: كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قُصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوها مسكنًا، فسموا قريشًا لأن التقرش هو التجمع، يقال: تقرش القوم، إذا اجتمعوا، ولذلك سمي قصي مجمعًا، قال الشاعر:

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعًا ... بِهِ جَمَّعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ(٢)

ورابعها: أنهم كانوا يسدون خلة محاويج الحاج، فسموا بذلك قريشًا؛ لأن القرش التفتيش، قال ابن حرة:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُقَرِّشُ عَنَّا ... عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ

قوله تعالى: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ ، فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الليث: الرحلة اسم الارتحال من القوم للمسير، وفي المراد من هذه الرحلة قولان: **الأول:** وهو المشهور، قال المفسرون: كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشأم. وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب في ذلك هو أن قريشًا إذا أصاب واحدًا منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف، وكان سيد قومه، وكان له ابن يقال له: أسد،

---

(١) هذا البيت للأخضر اللهبي وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من قريش. ؟ - ٩٥هـ/ ؟ - ٧١٣م، شاعر من فصحاء بني هاشم، كان معاصرًا للفرزدق والأحوص، وله معهما أخبار. ومدح عبد الملك بن مروان، وهو أول هاشمي مدح أمويًا بعد ما كان بينهما، فأكرمه، وكان شديد السمرة، جاءته من جدته وكانت حبشية، ويقال له (الأخضر) لذلك، واللهبي نسبة إلى أبي لهب، في شعره رقة، وهو دون الطبقة الأولى من معاصريه، توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك.

(٢) هذا البيت للأخضر اللهبي وتقدمت ترجمته في البيت السابق.

وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه، فشكا إليه الضرر والمجاعة، فدخل أسد على أمه يبكي فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أيامًا، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيبًا في قريش، فقال: إنكم أجدبتم جدبًا تقلون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع. قالوا: نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف. فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، قال الشاعر فيهم:

الْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ ... حَتَّى يَكُونَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي[1]

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا، لترك أهل الأقطار تعظيمهم، وأيضًا لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] واجتماع القبيلة الواحدة في مكان واحد أدخل في النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والألفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ١٩٧] والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة.

القول الثاني: أن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة، فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفًا، وموسم منافع مكة يكون بهما، ولو كان يتم لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة.

المسألة الثانية: نصب الرحلة بلإيلافهم مفعولاً به، وأراد رحلتي الشتاء والصيف، فأفرد لأمن الإلباس كقوله: كلوا في بعض بطنكم، وقيل: معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وقرئ (رُحلة) بضم الراء وهي الجهة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين: **أحدهما:** دفع الضرر، والثاني: جلب النفع، والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع (فإنه) غير واجب، فلهذا السبب بَيَّن تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾، **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: ذكرنا أن العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون. ثم قال بعضهم: أراد فليوحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذي حفظ البيت دون الأوثان، ولأن التوحيد مفتاح العبادات. ومنهم من قال: المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح. ثم ذكر كل قسم

(١) هذا البيت للشاعر عبد الله بن الزبعرى، وتقدمت ترجمته.

من أقسام العبادات، والأولى حمله على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرجه الدليل، وفي الآية وجه آخر، وهو أن يكون معنى (فليعبدوا) أي فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف، ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة: إن للبيت ربًّا سيحفظه، ولم يعولوا في ذلك على الأصنام، فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه، كأنه يقول: لما عولتم في الحفظ عليَّ فاصرفوا العبادة والخدمة إليَّ.

المسألة الثانية: الإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم، فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾[العنكبوت: ٥٦] وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾[البقرة: ١٦٣] كذا في البيت (تارة) يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[البقرة: ١٢٥]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وفي هذا الإطعام وجوه: **أحدها:** أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم في رحلتيهم كان ذلك سبب إطعامهم بعدما كانوا فيه من الجوع.

ثانيها: قال مقاتل: شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام في الشتاء والصيف لطلب الرزق، فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام في السفن إلى مكة فحملوه، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالإبل والخمر، ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين، وتتابع ذلك، فكفاهم الله مؤونة الرحلتين. **ثالثها:** قال الكلبي: هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمدًا ﷺ دعا عليهم فقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»(١) فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا: يا محمد ادع الله فإنا مؤمنون، فدعا رسول الله ﷺ فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط، فذاك قوله: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، **ثم في الآية سؤالات:**

السؤال الأول: العبادة إنما وجبت لأنه تعالى أعطى أصول النعم، والإطعام ليس من أصول النعم، فلمَ علل وجوب العبادة بالإطعام؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة، وبيَّن أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم، ثم أمرهم بالعبادة، فكأن السائل يقول: لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذي يطعمنا؟ فقال: الذي أطعمهم من جوع قبل أن يعبدوه، ألا يطعمهم إذا عبدوه؟! **وثانيها:** أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه، ثم إنه يطعمهم مع ذلك، فكأنه تعالى يقول: إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحي من إحساني إليك

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) باب (تسمية الولد) (١٠/ ٥٩٦) حديث رقم (٦٢٠٠) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين عن سفيان، ولم يذكر أنها الركعة الثانية. ومسلم في كتاب (المساجد) باب (استحباب القنوت في جميع الصلاة) (١/ ٢٩٤/ ٤٦٦) من طريق ابن وهب عن يونس... به، وذكر فيه أنه يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة... به، كلاهما (سفيان، يونس) عن الزهري... به.

بعد إساءتك؟! **وثالثها:** إنما ذكر الإنعام لأن البهيمة تطيع من يعلفها، فكأنه تعالى يقول: لستَ دون البهيمة.

السؤال الثاني: أليس أنه جعل الدنيا ملكًا لنا بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] فكيف تحسن المنة علينا بأن أعطانا ملكنا؟ **الجواب:** انظر في الأشياء التي لا بد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتهيأ، وفي الأشياء التي لا بد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول، فإنك تعلم أنه لا بد من الأفلاك والكواكب، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام، ولا بد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام، وحينئذٍ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة.

السؤال الثالث: المنة بالإطعام لا تليق بمن له شيء من الكرم، فكيف بأكرم الأكرمين؟ **الجواب:** ليس الغرض منه المنة، بل الإرشاد إلى الأصلح؛ لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة، بل تقوية البنية على أداء الطاعات، فكأن المقصود من الأمر بالعبادة ذلك.

السؤال الرابع: ما الفائدة في قوله: ﴿مِّن جُوعٍ﴾؟ **الجواب:** فيه فوائد: **أحدها:** التنبيه على أن أمر الجوع شديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨] وقوله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ...»(١) الحديث. **وثانيها:** تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة. **وثالثها:** التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة لأنه لم يقل: وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع، أما الإشباع فإنه يورث البطنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ **ففي تفسيره وجوه: أحدها:** أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد، ولا يغير عليهم أحد لا في سفرهم، ولا في حضرهم، وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة في السفر والحضر، وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] **ثانيها:** أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل. **وثالثها:** قال الضحاك والربيع: وآمنهم من خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام. **ورابعها:** آمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم **وخامسها:** آمنهم بالإسلام، فقد كانوا في الكفر يتفكرون، فيعلمون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به. **وسادسها:** أطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحي، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى، كأنه تعالى يقول: يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تُسَمَّون جهال العرب وأجلافهم، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب، ثم أنزلتُ الوحي على نبيكم، وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تُسَمَّون أهل العلم والقرآن، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى، ثم إطعام الطعام الذي يكون غذاء

---

(١) تقدم تخريجه.

الجسد يوجب الشكر، فإطعام الطعام الذي هو غذاء الروح ألا يكون موجبًا للشكر؟! **وفي الآية سؤالات:**

السؤال الأول: لمَ لم يقل: عن جوع وعن خوف؟ **قلنا:** لأن معنى (عن) أنه جعل الجوع بعيدًا عنهم، وهذا يقتضي أن يكون ذلك التبعيد مسبوقًا بمقاساة الجوع زمانًا، ثم يصرفه عنه، و(من) لا تقتضي ذلك، بل معناه أنهم عندما يجوعون يطعمون، وحين ما يخافون يؤمنون.

السؤال الثاني: لمَ قال: من جوع، من خوف على سبيل التنكير؟ **الجواب:** المراد من التنكير التعظيم، أما الجوع فلما روينا: أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة. وأما الخوف، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير، يكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم في ذلك الجوع القليل والخوف القليل، فكيف يجوز في كرمه لو عبدوه أن يهمل أمرهم؟! ويحتمل أن يكون المراد أنه: أطعمهم من جوع دون جوع: وآمنهم من خوف دون خوف، ليكون الجوع الثاني، والخوف الثاني مذكرًا ما كانوا فيه أولاً من أنواع الجوع والخوف، حتى يكونوا شاكرين من وجه، وصابرين من وجه آخر، فيستحقوا ثواب الخصلتين.

السؤال الثالث: أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أما في الإطعام فهو قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٦] وأما الأمان فهو قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وإذا كان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين؟ **والجواب:** أن الله تعالى لما قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فقال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فنادى إبراهيم بهذا الأدب، فحين قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] قيده بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾ فقال الله: لا حاجة إلى هذا التقييد، بل ومن كفر فأمتعه قليلاً، فكأنه تعالى قال: أما نعمة الأمان فهي دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقيًا، وأما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح، وإن كان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع وأمانه من الخوف إنعامًا من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم، فزال السؤال.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «قريش»

مكيةٌ في قولِ الجمهور. ومدنيةٌ في قولِ الضحاكِ والكلبيّ[٢]، وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾

قيل: إنَّ هذه السورةَ متَّصلةٌ بالتي قبلها في المعنى؛ يقول: أهلكتُ أصحابَ الفيلِ لإيلاف قريش؛ أي: لتأتَلفَ قريش، أو لتتَّفقَ قريش، أو لكي تأمَن قريشٌ فتُؤْلِف[٣] رحلتيها. وممن عدَّ السورتين واحدةً أبيّ بن كعب، ولا فَصْلَ بينهما في مُصْحَفِه[٤]. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمامٌ لا يَفْصِلُ بينهما، ويقرؤهما معا.

وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيُّ: صلَّينا المغربَ خَلْفَ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[٥].

---

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٣٨ .

(٣) يعني تَألَف؛ يقال: أَلِفَ يَأْلَفُ، وآلَفَ يؤلِف، وسيأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٩ .

(٥) سلف ص٣٦٧ من هذا الجزء. قال الرازي ٣٢/ ١٠٤ : أما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين. وأما القول أن أبيًّا لم يفصل بينهما فهو معارَضٌ بإطباق الكل على الفصل بينهما.

وقال الفرَّاء: هذه السورةُ متّصلةٌ بالسورة الأولى؛ لأنه ذكَّر أهلَ مكةَ عظيمَ نعمتِه عليهم فيما فَعَلَ بالحبشة، ثم قال: «لإيلاف قُريش» أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمةً منَّا على قريش[١].

وذلك أنَّ قريشًا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغارُ عليها ولا تُقْرَبُ في الجاهلية. يقولون: هم أهلُ بيتِ اللهِ جلَّ وعزَّ، حتى جاء صاحبُ الفيلِ ليهدمَ الكعبة، ويأخذَ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُجُّ الناس إليه، فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ، فذكَّرهم نِعْمتَه، أي: فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألَفوا الخروجَ ولا يُجْتَرأ عليهم، وهو معنى قولِ مجاهدٍ، وابنِ عباس في رواية سعيد بن جبير عنه؛ ذكره النحاس: حدَّثنا أحمد بن شُعيب، قال: أخبرني عمرو بن عليٍّ، قال: حدَّثني عامر بنُ إبراهيم - وكان ثقةً من خيار الناس - قال: حدَّثني خطاب بنُ جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدَّثني أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلافِ قريشٍ» قال: نعمتي على قريشٍ إيلافُهُمْ رحلةَ الشتاءِ والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف[٢]. وعلى هذا القولِ يجوزُ الوقفُ على رؤوس الآي وإنْ لم يكن الكلام تامًّا، على ما نبيِّنه أثناء السورة.

وقيل: ليست بمتَّصلةٍ؛ لأنَّ بين السورتين: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وذلك دليلٌ على انقضاء السورةِ وافتتاح الأخرى، وأنَّ اللامَ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «فلْيعبدوا»، أي: فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف للامتيار.[٣] وكذا قال الخليل: ليست متَّصلةً، كأنه قال: آلَف الله قريشًا إيلافًا فليعبدوا ربَّ هذا البيت[٤]. وعَمِل ما بعدَ الفاء فيما قَبْلَها لأنَّها زائدةٌ غيرُ عاطفةٍ،

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٣٥)، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٨ مختصراً عن عمرو بن علي به.

(٣) أي: لجلب الطعام. القاموس (مير). والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٥ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥ ، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٧ .

كقولك: زيداً فاضْرِبْ.

وقيل: اللامُ في قوله تعالى: «لإيلافِ قريش» لامُ التعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قريش [رحلةَ الشتاء والصيف، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البيت]؛ قاله الكسائيُّ والأخفش[١]. وقيل: بمعنى إلى[٢].

وقرأ ابن عامر: «لإلافِ قريشٍ» مهموزاً مختلَساً بلا ياء[٣]. وقرأ أبو جعفر والأعرج: «لِيْلَافِ»[٤] بلا همزٍ طَلَباً للخفَّة. الباقون: «لإيلاف» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً، من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً؛ قال الشاعر:

المُنْعِمِينَ إذا النجومُ تغيَّرتْ والظَّاعنينَ لرحلةِ الإِيلافِ[٥]

ويقال: أَلِفْتُه إلْفاً وإلَافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لإِلْفِ قُرَيشٍ»[٦] وقد جمعهما مَن قال:

زَعَمْتُمْ أنَّ إخوتَكُمْ قُرَيشٌ لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ[٧]

قال الجوهريُّ[٨]: وفلانٌ قد أَلِفَ هذا الموضعَ ـ بالكسر ـ يَأْلَفُه إلْفًا، وآلَفَه إياه

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٩، وما بين حاصرتين منه، وذكر هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٢٣٩ عن الكسائي والأعمش، وهو دون نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٣، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٦.

(٢) والمعنى: ففَعَلْنا بأصحاب الفيل هذا الفعلَ نعمةً منا على أهل هذا البيت، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف. ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٣، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٧.

(٣) السبعة ص ٦٩٨، والتيسير ص ٢٢٥.

(٤) النشر ٢/ ٤٠٣.

(٥) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٦ و١٧٨.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨٧، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٠٥.

(٧) البيت لمسَاوِر بن هند، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، والخزانة ١١/ ٤١٩، ودون نسبة في دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٣٦، وثمار القلوب للثعالبي ص ١١٧، والكشاف ٤/ ٢٨٧، والكلام منه. والشعر في هجاء بني أسد، قال التبريزي: يقول: زعمتم أنكم مثل قريش، وكيف تكونون مثلهم ولهم تجارة اليمن والشام وليس لكم ذلك.

(٨) في الصحاح (ألف).

غيرُه. ويقال أيضاً: آلفتُ الموضعَ أُولِفه إيلافًا. وكذلك: آلَفْتُ الموضعَ أؤالفُه مُؤالفةً وإلافًا، فصار صورةُ أَفْعلَ وفاعَلَ في الماضي واحدةً.

وقرأ عِكرمةُ: «لِيَأْلَفْ» بفتح اللامِ على الأمر - وكذلك هو في مصحفِ ابن مسعود - وفتحُ لامِ الأمرِ لغةٌ حكاها ابنُ مجاهدٍ وغيره[١]. وكان عكرمةُ يَعيبُ على مَن يقرأ: «لإيلاف قريش»[٢].

وقرأ بعضُ أهلِ مكة: «إلاف قريش» واسْتَشْهَد بقولِ أبي طالبٍ يوصي أخاه أبا لهبٍ برسول الله ﷺ:

فَلا تُتْرِكَنْه ما حَيِيْتَ لِمُعْظَمٍ   وكُنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ
تَذودُ العِدا عن عُصْبةٍ هاشميةٍ   إلَافُهم في الناس خيرُ إلَافِ[٣]

وأمَّا قريشٌ فهم بنو النَّضْر بنِ كنانَة بنِ خزيمةَ بنِ مدرِكَة بن إلياسَ بنِ مُضَر. فكلُّ مَن كان مِن وَلدِ النضرِ فهو قرشيٌّ، دون بني كِنانَة ومَن فوقه. وربَّما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياسُ؛ قال الشاعر:

بكلِّ قُرَيْشِيٍّ عليه مَهابةٌ[٤]

فإنْ أردتَ بقريشٍ الحيَّ صَرَفْتَه، وإنْ أردتَ به القبيلةَ لم تَصْرِفْه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها[٥]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٨٠، دون قوله: وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦، وسلفت القراءة عن ابن عامر، والبيتان ذكرهما ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٢٠٨، وفيه أن أبا طالب قالهما في مدح عتبة بن ربيعة حين رد على أبي جهل فقال: ما تنكِرُ أن يكون محمد نبيًّا.

(٤) وعجزه: سريعٍ إلى داعي الندى والتكرُّم. وهو في الكتاب ٣/ ٣٣٧، والصحاح (قرش) والكلام منه، والحلل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ص ٣٣٨، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٣٥٠، وشرح المفصل ٦/ ١١. ووقع في الكتاب: بكل قريشي إذا ما لقيته...، وقال البطليوسي: لا أعلم قائله.

(٥) وصدره: غلب المساميحَ الوليدُ سماحة، كما في الصحاح (قرش)، والكلام منه، والبيت لعدي بن الرقاع، كما في الكامل للمبرد ٢/ ١٠٤٦، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٤٦٠، والخزانة ١/ ٢٠٣، ودون نسبة في الكتاب ٣/ ٢٥٠. والبيت في: مدح الوليد بن عبد الملك كما ذكر الشنتمري وقال: والمساميح جمع سَمْح على غير قياس.

والتَّقْريش: الاكتساب، وتَقَرَّشوا، أي: تَجمَّعوا. وقد كانوا متفرِّقين في غير الحرم، فجمعهم قُصَيّ بنُ كلاب في الحرم، حتى اتَّخذوه مَسْكناً؛ قال الشاعر:

أبونا قُصَيٌّ كان يُدْعَى مَجَمِّعًا به جَمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهرِ[١]

وقد قيل: إنَّ قريشاً بنو فِهْر بنِ مالك بن النَّضر. فكلُّ مَن لم يَلِدْه فِهْرٌ فليس بقرشيٍّ. والأوّلُ أصحُّ وأَثْبتُ. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّا ولدُ النضرِ بنِ كنانَة لا نَقْفو أُمَّنا، ولا نَنْتفي من أبينا»[٢]. وقال واثلةُ بنُ الأسْقَعِ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفى كِنَانةَ مِن وَلَدِ إسماعيلَ، واصْطَفَى من بني كنانةَ قريشاً، واصْطَفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». صحيحٌ ثابتٌ، خرَّجه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما[٣].

واختُلِف في تَسْمِيتهم قريشاً على أقوال: أحدها: لتَجمُّعِهم بعد التفرُّقِ، والتقرُّش: التجمُّع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُريُّ:

إخوةٌ قَرَّشُوا الذنوبَ علينا في حديثٍ مِن دَهْرِهِمْ وقديمِ[٤]

الثاني: لأنَّهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقرُّش: التكسُّب[٥]. وقد قَرَشَ يَقْرِشُ قَرْشاً، إذا كسب وجمع. قال الفرَّاء: وبه سمِّيت قُريش[٦].

الثالث: لأنَّهم كانوا يفتِّشون الحاجَّ عن[٧] ذي الخَلَّةِ، فيسدُّون خَلَّته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر:

---

(١) نسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٢٥٠ ، والأوائل للعسكري ١/ ١٣ . ونسبه محمد بن حبيب في المنمق ص ٨٤ لحذافة بن غانم. ونسبه صاحب الخزانة ١/ ٢٠٣ للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ١٢٦ ، والاشتقاق ص ١٥٥ ، ووقع في بعض المصادر: أبوكم قصي، وفي أخرى: قصي أبوكم، وفي السيرة: قصي لعمري.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ، وسلف ١٣/ ٧٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٢٧٦)، وهو عند أحمد (١٦٩٨٦)، وليس في صحيح البخاري، وسلف ١٠/ ٤٤٠ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٩٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٦) الصحاح (قرش).

(٧) في (م): من، والمثبت من النسخ الخطية، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

أَيُّها الشامتُ المقرِّشُ عنا عند عمرو فهلْ له إبقاءُ[١]

الرابع: ما روي: أنَّ معاوية سأل ابن عباس: لم سُمِّيتْ قريشٌ قريشاً؟ فقال: لدابَّةٍ في البحر من أقوى دوابِّه، يقال لها: القِرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعْلَى. وأنشد قولَ تُبَّع:

وقريشٌ هي التي تسكنُ البحـ ـرَ بها سُمِّيتْ قريشٌ قريشا
تأكلُ الغثَّ[٢] والسمِينَ ولا تتـ ـرك فيها لذي جناحين رِيشا
هكذا في البلاد حيُّ قُريشٍ يأكلون البلادَ أكلاً كمِيشا
ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ يُكْثِرُ القتلَ فيهم والخُموشا[٣]

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾

قرأ مجاهدٌ وحميد: «إلْفِهم» ساكنةَ اللامِ بغيرِ ياءٍ. وروي نحوُه عن ابن كثير[٤]. وكذلك روتْ أسماءُ أنَّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقرأ: «إلفِهم»[٥]. وروي عن ابن عباس وغيره.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والبيت من معلقة الحارث بن حلِّزة اليشكري، وهو في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٧٢ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٢٢ ، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٣ ، وللتبريزي ص ٢٩٩ ، وللزوزني ص ١٥٨ ، وروايته في هذه المصادر: أيها الناطق... وهل لذاك بقاء، ووقع في شروح المعلقات والمعاني الكبير: المرقِّش، والمقرِّش رواية أبي عمرو كما ذكر ابن قتيبة، وقال: هو المحرش. وقال التبريزي: المرقِّش: المزيِّن القولَ بالباطل، ويقال: إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم، ومعنى وهل لذاك بقاء: أن الباطل لا يبقى.

(٢) في النسخ: الرث، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٨٩)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٥٥٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ونسب المرزباني الشعر في معجم الشعراء ص ٤٣٦ للمُشَمْرج بن عمرو الحميري، قال: وقد روي لغيره. وذكر ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧ هذا الخبر مختصراً وقال: وهذا الوجه عندي بارد، والشعر مصنوع جامد.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٥) أخرجه حفص الدوري في قراءات النبي ﷺ (١٣٣)، والطبري ٢٤/ ٦٤٧ ، وذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠ ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب وهما ضعيفان.

وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوَةَ: «إلَافِهم» مهموزًا مختلَساً بلا ياءٍ[١].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «إئْلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورةٌ والثانيةُ ساكنة. والجمعُ بين الهمزتين في الكلمتين شاذٌّ[٢].

الباقون: «إيلافهم» بالمدِّ والهمز، وهو الاختيارُ، وهو بدلٌ من الإيلاف الأوّلِ للبيان. وهو مصدرُ آلَفَ: إذا جَعَلْته يَألَفُ. وأَلِفَ هو إلْفًا؛ على ما تقدَّم ذِكْرُه من القراءة، أي: وما قد أَلِفوه من رحلةِ الشتاءِ والصيف.

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: «إيلافِهم رِحلةَ الشتاء والصيف» قال: لا يشُقُّ عليهم رحلةُ شتاءٍ ولا صيفٍ، منَّة منه على قريش[٣].

وقال الهَرَوِيُّ وغيره: وكان أصحابُ الإيلافِ أربعةَ إخوةٍ: هاشمٌ، وعبدُ شمسٍ، والمطَّلبُ، ونوفلٌ، بنو عبد مناف. فأمَّا هاشمٌ فإنَّه كان يُؤلفُ مَلِك الشام[٤]؛ أي: أخذ منه حبلاً وعهداً يأمنُ به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبدُ شمسٍ كان يُؤلفُ إلى الحَبشة. والمطَّلبُ إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤلفُ: يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّوْن المُجِيرين. فكان تجارُ قريش يختلفون إلى الأمصار بحَبْلِ هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّضُ لهم[٥].

قال الأزهريُّ: الإيلاف: شبهُ الإجازةِ بالخَفَارة[٦]؛ يقال: آلَفَ يُؤْلِف وأَلَّف

---

(١) النشر ٢/ ٤٠٣.

(٢) قال ابن مجاهد في السبعة ص٦٩٨: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «لإئلاف قريش إئلافهم» بهمزتين الثانية ساكنة، ثم رجع عنه فقرأ مثل حمزة بهمزة واحدة. اهـ. وقراءة حمزة: «لإيلاف قريش إيلافهم». والقراءة بهمزتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠.

(٣) ذكره البخاري معلقاً قبل الحديث (٤٩٦٤)، ووصله الطبري ٢٤/ ٦٤٨.

(٤) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩ (والكلام فيه بنحوه): يؤلف إلى الشام.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩.

(٦) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقاله الصَّغاني في العباب (ألف)، ووقع في (ظ) و(م) و(ي): الإجارة، بدل: الإجازة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في العباب والقاموس والتاج (ألف). والخَفَارة: الأمان. المعجم الوسيط (خفر).

يؤلِّف: إذا أجاز[١] الحمائل بالخَفارة. والحمائل: جمع حَمولة[٢]. قال[٣]: والتأويل: أنَّ قُريشاً كانوا سكَّان الحرم، ولم يكن لهم زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناسُ يُتَخَطَّفون مِن حولهم، فكانوا إذا عَرَض لهم عارِضٌ قالوا: نحن أهلُ حَرَمِ الله، فلا يَتَعَرَّضُ الناسُ لهم.

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره[٤]: حدَّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطيِّ، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: «لإيلافِ قُرَيْش إلفِهم رحلةَ الشتاء والصيف»: وذلك أنَّ قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصةٌ، جرى هو وعيالُه إلى موضعٍ معروف، فضربوا على أنفسهم خِباءً فماتوا، حتى كان عمرو بنُ عبد منافٍ، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له: أَسَد، وكان له تِرْبٌ من بني مخزوم يحبُّه ويلعبُ معه. فقال له: نحن غداً نَعْتَفِد[٥]. قال ابن فارس: هذه لفظةٌ في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء، فإنْ كانت بالراء فلعلَّها من العَفَر، وهو التراب، وإن كانت بالدَّال، فما أدري معناها، وتأويلُه على ما أظنُّه: ذهابُهم إلى ذلك الخباءِ، وموتُهم واحداً بعد واحدٍ[٦].

قال: فدخل أسدٌ على أمِّه يبكي، وذَكَر ما قاله تِرْبُه. قال: فأرسلتْ أمُّ أسدٍ إلى أولئك بشحمٍ ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إنَّ تِرْبَه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نَعتفِد[٧]، فدخل أسدٌ على أبيه يبكي، وخبَّره خَبَرَ تِرْبِه، فاشتدَّ ذلك على عمرو بن عبد مناف،

---

(١) في النسخ عدا (د): أجار، والمثبت من (د).

(٢) وهي ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه، والأحمالُ بعينها. القاموس (حمل).

(٣) هو الصَّغاني في العباب (ألف).

(٤) واسمه: جامع التأويل في تفسير القرآن، كما في طبقات المفسرين للداودي ١/ ٦٠ .

(٥) في النسخ الخطية: نعتفر، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، وأساس البلاغة (عفد).

(٦) وذكر هذا المعنى ـ في نعتفد ـ الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، والزمخشري في أساس البلاغة (عفد).

(٧) في النسخ الخطية (نعتفر).

فقام خطيباً في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنَّكم أَحْدَثْتُم حَدَثاً تَقِلُّون فيه وتكثرُ العرب، وتَذِلُّون وتَعِزُّ العرب، وأنتم أهلُ حرمِ اللهِ جلَّ وعزَّ، وأشرفُ ولدِ آدَمَ، والناسُ لكم تَبَعٌ، ويكاد هذا الاعتفادُ يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تَبَعٌ. قال: ابتدئوا بهذا الرجل - يعني أبا تِرْبِ أسد - فأَغْنُوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنَّه نحر البُدْنَ، وذبح الكِبَاشَ والمَعْزَ، ثم هَشَم الثَّرِيد، وأطعم الناس، فسمِّي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَم الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ[1]

ثم جمع كلَّ بني أبٍ على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغنيُّ قَسَمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرُهم كغنيِّهم، فجاء الإسلامُ وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبٍ أكثرَ مالاً ولا أعزَّ من قريش، وهو قولُ شاعرِهم:

والخالطون فقيرَهم بغنيِّهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي[2]

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسولَه محمداً ﷺ، فقال: «فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أَطعمهم مِن جوع[3] وآمنهم مِن خوفٍ» أنْ تكثُر العربُ ويَقِلُّوا.

قوله تعالى: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ «رِحلَةَ» نصب بالمصدر، أي: ارتحالهم رِحلةَ، أو بوقوع «إيلافهم» عليه. أو على الظرف. ولو جعلتَها في محلِّ الرفع، على

---

(١) سلف ٩/ ٣٠٤ عن عبد الله بن الزبعرى، وهو في ملحقات ديوانه ص ٥٣ ، ونسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمق لابن حبيب ص ١٢ ، والاشتقاق ص ١٣ . وأسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

(٢) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة هشام ١/ ١٧٨ ، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٦٨ ، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ ، وقال البصري: ويروى لابن الزبعرى، والأول أكثر. وهو في ملحقات ديوان ابن الزبعرى ص ٥٤ . وقد ذكر هذا الخبر بنحوه عن ابن عباس الرازي ٣٢/ ١٠٧ ، وأخرجه الزبير بن بكار بنحوه أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٧ .

(٣) بعدها في (م): بصنيع هاشم.

معنى: هما رِحلةُ الشتاءِ والصيف، لجاز. والأوّل أولى.

والرحلةُ: الارتحالُ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرحلةُ الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنَّها بلادٌ باردة[1].

وعن ابن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكةَ لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف لهوائها[2]. وهذه من أجلِّ النعم أن يكون للقوم ناحيةُ حرٍّ تدفعُ عنهم بردَ الشتاء، وناحيةُ بردٍ تدفع عنهم حرَّ الصيف، فذكَّرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتي بمكةَ نَعْمَةً ومَصِيفُها بالطَّائِف[3]

وهنا أربعُ مسائل:

الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ[4] وغيرُه من العلماء أنَّ قولَه تعالى: «لإيلافِ» متعلِّقٌ بما قبله. ولا يجوزُ أن يكون متعلِّقاً بما بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنَّه متعلِّقٌ بالسورة الأخرى ـ وقد قُطع عنه بكلامٍ مبتدأ، واستئنافِ بيانٍ، وسطرِ «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ فقد تبيَّن جوازُ الوقفِ في القراءة للقرَّاء قبل تمامِ الكلام، وليست المواقفُ التي ينزعُ[5] بها القُرَّاء شرعاً عن النبيِّ ﷺ مرويًّا، وإنَّما أرادوا به تعليمَ الطلبةِ المعانيَ، فإذا عَلِموها وقفوا حيث شاؤوا. فأمَّا الوقفُ عند انقطاع النَّفَسِ فلا خلافَ فيه، ولا تُعِدْ ما قبلَه إذا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٢ عن الكلبي وابن زيد، وذكره ابن عطية بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سلف ص٤٩٦ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨، والبيت لمحمد بن عبد الله النميري، كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٣٤٢، وأخبار النساء لابن الجوزي ص ٢٤، ومعجم البلدان ٤/ ١٢، ووقع في هذه المصادر عدا النكت والعيون: تشتو بمكة...، قال السمين في عمدة الحفاظ ٢/ ١٣٠٤: الظاهر أن لامه واو، فيقال: شتا يشتو، وقد ذكره الهروي في مادة (شتو)، وإن كان الراغب قد ذكره في مادة (شتي).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٩.

(٥) في النسخ: ينتزع، والمثبت من أحكام القرآن.

اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك[١] نَفَسُك. هذا رأيي فيه، ولا دليلَ على ما قالوه بحالٍ، ولكنّي أعتمِدُ الوقفَ على التمام، كراهيةَ الخروجِ عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءةُ النبيِّ ﷺ: «الحمد لِلهِ رب العَالَمِين» ثم يقف، «الرحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف. وقد مضى في مُقَدِّمة الكتاب[٢].

وأجمع المسلمون أنَّ الوقف عند قوله: «كَعَصْفٍ مَأكولٍ» ليس بقبيح. وكيف يقال إنَّه قبيحٌ وهذه السورةُ تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخلَّلُها مع قطعِ القراءةِ أركانٌ؟ وليس أحدٌ من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلَّةُ فيه إلَّا أنَّ قوله تعالى: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ» انتهاءُ آية. فالقياسُ على ذلك: ألَّا يمتنعَ الوقفُ عند أعجازِ الآياتِ سواءٌ كان الكلامُ يتم، والغرضُ ينتهي، أولايتم، ولا ينتهي. وأيضًا فإنَّ الفواصل حِليةٌ وزِينةٌ للكلام المنظوم، ولولاها لم يَتَبَيَّن المنظومُ من المنثور. ولا خفاءَ أنَّ الكلام المنظومَ أحسن، فثبت بذلك أنَّ الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فَمَن أَظْهَرَ فواصلَه[٣] بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنَه، وتركُه[٤] الوقوفَ يُخفي تلك[٥] المحاسن، ويُشَبِّه المنظوم بالمنثور، وذلك إخلالٌ بحقِّ المقروء.

الثانية: قال مالك[٦]: الشتاءُ نصفُ السنة، والصيفُ نصفُها، ولم أَزَلْ أرى ربيعةَ ابنَ أبي عبد الرحمن ومَن معه لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريَّا، وهو يومُ التاسع

(١) في النسخ الخطية: به، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.
(٢) ١/ ١٩.
(٣) في (د) و(ز) و(ي): مواصلة.
(٤) في (م): وترك.
(٥) في (ز) و(ظ) و(ي): ذلك، وفي (د): على ذلك.
(٦) من هذا الموضع إلى آخر المسألة الرابعة نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

عَشَرَ من بشنس[١]، وهو يومُ خمسةٍ وعشرين من عددِ الرومِ أو الفرس. وأراد[٢] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأنَّ طلوع الثريا أوّلُ الصيفِ ودُبُر الشتاء. وهذا ممَّا لا خلافَ فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهبُ وحده: إذا سقَطَتِ الهَقْعَة[٣] نقصَ الليل.

فلمَّا جُعل طلوعُ الثريا أوّلَ الصيف، وَجَبَ أن يكون له في مُطْلَقِ السنةِ[٤] ستةُ أشهرٍ، ثم يُستقبل الشتاءُ من بعد ذهاب الصيف ستةَ أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمَّن حلف ألَّا يكلِّم امْرَأً حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلِّمه حتى يَمضيَ سبعةَ عَشَرَ من هتور[٥]. ولو قال: حتى يدخل الصيف، لم يكلِّمه حتى يمضي سبعةَ عَشَرَ من بشنس. قال القُرْطيُّ[٦]: أمَّا ذِكْرُ هذا عن محمد في بشنس[٧] فهو سهوٌ، إنَّما هو تسعة عشر من بشنس؛ لأنَّك إذا حسبتَ المنازل على ما هي عليه، من ثلاثَ عَشْرَةَ ليلةً كل منزلة، علمت أنَّ ما بين تسع عشرةَ من هتور[٨] لا تنقضي منازلُه إلَّا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة: قال قومٌ: الزمانُ أربعةُ أقسام: شتاءٌ، وربيعٌ، وصيفٌ، وخرِيف.

---

(١) في النسخ الخطية: بشانس، والمثبت من (م) وأحكام القرآن، وهو من شهور القبط، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ٣٨٧ : ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها.

(٢) في النسخ: وأرى: وهو موافق لإحدى نسخ أحكام القرآن مذكورة في الحاشية، والمثبت من مطبوع أحكام القرآن.

(٣) منزل من منازل القمر، وهي رأس الجوزاء، وصورتها ثلاثة أنجم صغار مثفَّاة، وهي آخر أنواء الخريف. ينظر العمدة ٢/ ٢٥٦ ، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٨ ، وينظر كذلك ما سلف ١٧/ ٤٤٦ .

(٤) في مطبوع أحكام القرآن: وجب أن يكون له شطر السنة.

(٥) في (م): هاتور، وهو من شهور القبط، ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول، وآخره الخامس والعشرون من تشرين الثاني. صبح الأعشى ٢/ ٣٨٤ .

(٦) في (ظ) و(م): القرطي، وهو تصحيف. والقُرْطيُّ هو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي. ينظر الأنساب ١٠/ ١٠٠ ، والديباج المذهب ٢/ ١٩٤ .

(٧) من قوله: قال القرطي، إلى هذا الموضع ليس في مطبوع أحكام القرآن.

(٨) في (م): هاتور.

وقال قومٌ: هو شتاءٌ، وصيفٌ، وقَيظٌ، وخريف. والذي قاله مالكٌ أصح؛ لأنَّ قسمة اللهِ للزمان[(١)] قسمين ولم يجعل لهما ثالثًا.

الرابعة: لمَّا امتنَّ الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفاً، على ما تقدَّم، كان فيه دليلٌ على جوازِ تصرُّفِ الرجلِ في الزمانين بين محلَّين، يكون حالُهما في كلِّ زمانٍ أنعمَ من الآخر، كالجلوس في المجلس البَحْريِّ في الصيف، وفي القِبْليِّ في الشتاء، وفي اتِّخاذ البادَهنجات[(٢)] والخيشِ للتبريد، واللبدِ واليانوسةِ للدِّفْء.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأَجْلِ إيلافِهم رحلتين. ودخلت الفاءُ لأَجْلِ ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: إمَّا لا فلْيعبدوه لإيلافهم، على معنى أنَّ نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى، فإنْ لم يعبدوه لسائرِ نعمه، فليعبدوه لشأنِ هذه الواحدة، التي هي نعمةٌ ظاهرة[(٣)].

والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسِه لهم بأنَّه ربُّ هذا البيتِ وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثانٌ فميَّز نفسَه عنها. الثاني: لأنَّهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذَكَر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته[(٤)].

وقيل: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: ليألَفوا عبادةَ ربِّ الكعبة، كما كانوا يألَفون الرحلتين[(٥)]. قال عكرمة: كانت قريشٌ قد أَلِفوا رحلةً إلى بُصْرَى ورحلةً إلى اليمن، فقيل لهم: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: يقيموا بمكة[(٦)]. رحلةُ الشتاءِ إلى

---

(١) في أحكام القرآن: لأجل قسمة الله الزمان. وفي اللباب ٥٠٩/٢٠ نقلاً عن القرطبي: لأن الله قسم الزمان.

(٢) البادهنج معرب بادخون أو باكير وهو نافذة تفتح في السقف لعبور الهواء، أو المنفذ الذي يجيء منه الريح، وسماه بعضهم: راووق النسيم. والراووق: المصفاة. ينظر شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ص٧٠ ، والمعجم الذهبي ص٩١ و٩٢ .

(٣) الكشاف ٢٨٧/٤ .

(٤) في النكت والعيون ٣٤٨/٦ (والكلام منه): بنعمته.

(٥) النكت والعيون ٣٤٨/٦ ، وأخرجه الطبري ٦٥٣/٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ٦٥١/٢٤ .

اليمن، والصيف إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعدَ جوع ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، قال ابن عباس: وذلك بدعوةِ إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦][١].

وقال ابن زيد: كانت العرب يُغِيرُ بعضُها على بعضٍ، ويَسْبي بعضُها من بعضٍ، فأَمِنتْ قُرَيشٌ من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧][٢].

وقيل: شقَّ عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشَةِ أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه، فخافت قريشٌ منهم، وظنُّوا أنهم قَدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين، فإذا هم قد جَلَبوا إليهم الطعامَ، وأعانوهم[٣] بالأقوات[٤]. فكان أهلُ مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين.

وقيل: هذا الإطعامُ هو أنَّهم لمَّا كذَّبوا النبيَّ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنِينَ كَسِنيِّ يُوسفَ»[٥] فاشتدَّ القَحْطُ، فقالوا: يا محمدُ، ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون. فدعا فأخصبَتْ تَبَالةُ وجُرَشُ من بلاد اليمن، فحملوا الطعامَ إلى مكة، وأَخْصَبَ أهلها.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٣ و٦٥٤ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٥ .

(٣) في (م): وأغاثوهم.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨ ، وأولُه: أن جوعاً أصابهم في الجاهلية فألقى الله في قلوب الحبشة...

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٤/ ٣٠٤ .

وقال الضحَّاك والربيع وشَرِيكٌ وسفيان: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الجُذام، لا يصيبُهم ببلدهم الجُذام[١].

وقال الأعمش: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الحَبَشَةِ مع الفيل[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: وآمنهم مِن أن تكون الخلافةُ إلَّا فيهم[٣].

وقيل: أي: كفاهم أخذَ الإيلافِ من الملوك. فالله أعلم، واللفظُ يعم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣١ ، وأخرجه الطبري عن الضحاك وسفيان.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩ . وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩ . قال الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢٤١ : وهذا من البطلان بمكان لا يخفَى.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكيَّةٌ، وآيُها أربَع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ والفاءُ لِمَا في الكلامِ مِن مَعنى الشَّرطِ، إذ المعنى: أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهم لا تُحْصى، فإنْ لم يَعْبُدوهُ لسائرِ نِعَمِه فليعبدوهُ لأجلِ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ وأراد بالرحلتين: الرحلةَ في الشِّتاءِ إلى اليمنِ وفي الصَّيفِ إلى الشَّامِ، فيمتارونَ ويتَّجِرُونَ.

أو بمَحذوفٍ مثل: اعْجَبُوا.

أو بما قبلَهُ كالتَّضمينِ في الشِّعرِ؛ أي: جعلَهُم كعصفٍ مَأكولٍ لإيلافِ قُرَيشٍ، ويؤيِّدُه أنَّهُما في مصحفِ أبيٍّ سُورَةٌ واحدةٌ(١)، وقُرِئَ: (ليَأْلَفْ قُرَيشٌ إِلْفَهُم رحلةَ الشِّتاءِ والصَّيف)(٢).

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣٠/ ٣٠٩). ورده الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٢٩٥) بقوله: أمَّا القول: إن أُبيًّا لم يفصل بينهما، فهو معارَضٌ بإطباقِ الكلِّ على الفصل بينهما.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٠)، و«النكت والعيون» (٦/ ٣٤٦)، «الكشاف» (٩/ ٦٨٨) عن عكرمة. وذكر أبو حيان في ضبطها وجوها، فقال في «البحر»: وعن عكرمة: (لِيَأْلَفَ قريشٌ) وعنه أيضًا: (لِتَأْلَفْ قُرَيْشٌ) على الأمر، وعنه وعن هلالِ بن فِتْيانَ بفتح لام الأمر.

وقُرَيشٌ ولدُ النَّضرِ بنِ كنانَةَ، مَنقولٌ مِن تَصغيرِ قِرْشٍ، وهـو دابَّةٌ عظيمَةٌ في البحرِ تعبثُ بالسُّفُنِ ولا تُطَاقُ إلا بالنَّارِ، فشُبِّهوا بها لأنَّها تأكُلُ ولا تُؤكَلُ، وتَعْلُو ولا تُعْلَى، وصُغِّرَ الاسمُ للتَّعظيمِ.

وإطلاقُ الإيلافِ ثمَّ إبدالُ المقيَّدِ عنهُ للتَّفخيمِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿لإلافِ﴾ بغيرِ ياءٍ بعدَ الهمزَةِ[١].

(٣ ـ ٤) ـ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾؛ أي: بالرِّحلَتيـنِ، والتَّنكيـرُ للتَّعظيـمِ.

وقيل: المرادُ به شدَّةٌ أَكَلوا فيها الجِيَفَ والعظامَ.

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: خوفِ أصحابِ الفيلِ، أو التَّخَطُّفِ في بلَدِهِم ومَسايرِهِم، أو الجذامِ فلا يصيبُهُم ببَلَدِهِم.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أعطاهُ اللهُ عشرَ حسناتٍ بعدَدِ مَن طافَ بالكعبَةِ واعتكفَ بهَا»[٢].

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٨)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٥)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» (٣/ ١١٢٤)، و«الفوائد المجموعة» (ص: ٢٩٦).

(١٠٦) سورة قريش مكية
وآياتها أربع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله ﴿لإيلاف قريش﴾ أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، **وقيل**: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم ومن سار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ بدل من

الأول ومفسر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ وقال ابن جرير : الصواب أن اللام لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان، ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أي فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ وقوله تعالى: ﴿ الذي أطعمهم من جوع﴾ أي هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وآمنهم من خوف﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ . عن أُسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف »[1] .

[آخر تفسير سورة لإيلاف قريش . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) قال ابن كثير : صوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن (أُم سلمة) الأنصارية رضي الله عنها ، لا عن أُسامة بن زيد ولعله وقع خطأ في النسخة أو في أصل الرواية .

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهى مكية .

ذكر حديث غريب فى فضلها : قال البيهقى فى كتاب « الخلافيات » : حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفى بمرو ، حدثنا أحمد بن عُبَيد الله النرسى (١) ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شرحبيل ، حدثنى عثمان بن عبد الله [بن] (٢) أبى عتيق ، عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة ، عن أبيه ، عن جدته أم هانئ بنت أبى طالب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فضل الله قريشاً بسبع خلال : أنى منهم (٣)، وأن النبوة فيهم ، والحجابة ، والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله ، عز وجل ، عشر سنين لا يعبده غيرهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن » ثم تلاها رسول الله : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . لِإِيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ .

هذه السورة مفصولة عن التى قبلها فى المصحف الإمام ،كتبوا بينهما سطر ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ وإن كانت متعلقة بما قبلها . كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ** ﴾ أى : لائتلافهم واجتماعهم فى بلدهم آمنين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين فى أسفارهم ؛ لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عَرَفهم احترمهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم . هذا (٥) حالهم فى أسفارهم ورحلتهم فى شتائهم وصيفهم . وأما فى حال إقامتهم فى البلد ، فكما قال الله : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ** ﴾ ، بدل من الأول ومفسر له . ولهذا قال : ﴿ **إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** ﴾ .

---

(١) فى م ، أ ، هـ : « الزينبى » وهو خطأ . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « أنى فيهم » .

(٤) ورواه البيهقى فى مناقب الشافعى (١/ ٣٤) وهو فى المستدرك (٢/ ٥٣٦) وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »،وتعقبه الذهبى فقال : « فيه يعقوب بن محمد الزهرى ضعيف ، وإبراهيم صاحب مناكير هذا أنكرها » وقد حسن الحافظ العراقى هذا الحديث . وللشيخ ناصر الدين الألبانى مبحث حول هذا الحديث فى السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) ذهب إلى تحسينه ، والله أعلم .

(٥) فى م : « وهذا » .

وقال ابن جرير : الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتى عليهم فى ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان [(١)] .

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** ﴾ أى : فليوحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النمل: ٩١] .

وقوله : ﴿ **الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ** ﴾ أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ **وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص[(٢)] ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَعَ الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد الله بن عمرو العَدَنى ، حدثنا قَبيصة ،حدثنا سفيان ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ويل أمكم ، قريش ، لإيلاف قريش » [(٣)]. ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا المؤَمَّل بن الفضل الحرانى ، حدثنا عيسى ـ يعنى ابن يونس ـ عن عُبَيد الله ابن أبى زياد ، عن شهر بن حوشب ، عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف » .

هكذا رأيته عن أسامة بن زيد ، وصوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن ، أم سلمة الأنصارية ، رضى الله عنها [(٤)]. فلعله وقع غلط فى النسخة أو فى أصل الرواية ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة « لإيلاف قريش »

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٩٨) .

(٢) فى أ : « والترخص » .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨) من طريق قبيصة بن عقبة ، عن سفيان ، به .

(٤) وكذا فى رواية الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٤٦٠) عن على بن يحيى ، عن عيسى بن يونس ، عن عبد الله بن أبى زياد ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد عن النبى ﷺ .

سورة قريش

مكيّة، وهي أربع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، و"الفاء" لِما في الكلام مِن معنى الشّرط؛ إذ المعنى أنّ نِعَم الله تعالى عليهم غيرُ محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نِعَمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. وقيل: بمضمر، تقديره: فعلنا ما فعلنا مِن إهلاك أصحاب الفيل ﴿لِإِيلَٰفِ﴾... إلخ. وقيل: تقديره: اعجبوا لإيلاف. وقيل: بما قبله مِن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل، ١٠٥/٥]، ويؤيِّده أنّهما في مصحف أُبيّ سورةٌ واحدة بلا فصل.[١]

والمعنى أهلك مَن قصدهم مِن الحبشة ليتسامع الناس بذلك فيتهيَّبوا لهم زيادة تهيُّب، ويحترموهم فضلَ احترامٍ، / حتّى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترئ عليهم أحد. وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتّجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنّهم أهل حَرَم الله تعالى وولاةُ بيته العزيز، فلا يُتعرَّض لهم، والناس بين متخطَّف ومنهوب. [٣٢١و]

والإيلاف مِن قولك: "آلفتُ المكان إيلافًا" إذا أَلِفتَه، وقُرئ: "لِإلَافِ قُرَيشٍ"،[٢] أي: لمُوَالَفَتهم. وقيل: يقال: "ألفتُه إلْفًا وإلَافًا"، وقُرئ: "لِإلْفِ قُرَيشٍ".[٣] وقريش ولد النضر بن كِنانة، سُمّوا بتصغير القِرْش، وهو دابّة عظيمة في البحر

---

١ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٦/٤.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، نسبها الزمخشري في الكشّاف، ٦٠٦/٤، إلى أبي جعفر، والصحيح عن أبي جعفر فيها مِن غير همز، فالظاهر أنّها مِن المروي عنه في غير الصحيح.

تعبث بالسُّفن ولا تطاق إلّا بالنار، والتصغير للتعظيم، وقيل: مِن القَرْش، وهو الكسب؛ لأنّهم كانوا كسّابين بتجاراتهم وضَرْبهم في البلاد.

وقوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ بدل مِن الأوّل، و﴿رِحۡلَةَ﴾ مفعول لـ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾، وإفرادُها مع أنّ المراد "رحلتي الشتاء والصيف" لأمن الإلباس، وفي إطلاق الإيلاف عن المفعول أوّلًا وإبدال هذا منه تفخيم لأمره، وتذكيرُ تعظيم النعمة فيه. وقُرئ: "لِيَأْلَفَ قُرَيشٌ إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ"،[1] وقُرئ: "رُحْلَةَ"[2] بالضمّ، وهي الجهة التي يُرحَل إليها.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾ بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكّنوا منهما بواسطة كونهم مِن جيرانه. ﴿مِّن جُوعٖ﴾ شديد كانوا فيه قبلهما. وقيل: أُريدَ به القحط الذي أكلوا فيه الجِيَف والعِظام.[3] ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ عظيم لا يُقادَر قَدْره وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطّف في بلدهم ومسائرهم. وقيل: خوفُ الجذّام، فلا يصيبهم في بلدهم.[4]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة قريش أعطاه الله عشرَ حسنات بعدد مَن طاف بالكعبة واعتكف بها».[5]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٨١.

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٠٤/٣٠ (قريش، ١/١٠٦)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٥٥/٤ (قريش، ١/١٠٦)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٦

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية أو مدنية، أربع آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿لِإِيلافِ قُرَيشٍ إيلافِهِم﴾: تأكيدٌ ـ وهو مصدرُ: آلَفَ، بالمدّ ـ ﴿رِحلةَ الشِّتاءِ﴾ إلى اليمن ﴿و﴾ رِحلة ﴿الصَّيفِ﴾ إلى الشام في كُلّ عام، يستعينون بالرِّحلتَين للتجارة على الإقامة بمكّة لخِدمة البيت الذي هو فخرُهم ـ وهم ولد النَّضر بن كِنانة ـ ٣ ـ ٤ ـ ﴿فلْيَعبُدُوا﴾ تعلّق به «لإيلاف»، والفاء: زائدة، ﴿رَبَّ هذا البَيتِ الَّذِي أطعَمَهُم مِن جُوعٍ﴾ أي: من أجله، ﴿وآمَنَهُم مِن خَوفٍ﴾ أي: من أجله. وكان يُصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكّة وخافوا جيش الفيل.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

قولُـهُ: (بالمَـدِّ) أي: آلَفَهُـم الله، أو آلَفـوا أنفسَـهُم، وقـرأ ابـنُ عامـرٍ: (لِئِـلافِ) بغيرِ يـاءٍ بعدَ الهمـزَةِ[١]، وهـو مَصـدَرُ آلـفَ فاعـل، أو أَلِفَ.

قولُهُ: (للتِّجَارَةِ) والميرَةِ.

قولُهُ: (والفَاءُ زَائِدَةٌ) أو لما في الكَلامِ من مَعنى الشَّرطِ؛ إذ المعنَى: أنَّ نعَمَ الله تعالى عليهِم لا تُحصى، فإن لـم يَعبُدوهُ لسائرِ النِّعَمِ، فليَعبُدوا لهذا.

قولُهُ: (جَيشَ الفِيلِ) أو التَّخطُّفَ في بلدِهِم ومَسائِرِهم، أو الجُذامَ فلا يصيبُهُم ببَلَدِهِم، والله تعالى أعلَمُ.

***

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٩٥).

سورة قريش

ويقال: سورة لإيلاف قريش. وهي مكيةٌ في قول الجمهور، مدنيةٌ في قول الضحاك وابن السائب. وآيُها خمسٌ في الحجازي، وأربعٌ في غيره[1].

ومناسبتها لِمَا قبلها أظهرُ من أنْ تخفَى، بل قالت طائفةٌ: إنَّهما سورةٌ واحدةٌ، واحتجُّوا عليه بأنَّ أُبيَّ بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة[2]، وبما[3] روي عن عمرو بنِ ميمون الأودي[4] قال: صلَّيتُ المغربَ خلفَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فقرأ في الركعة الأولى «والتين» وفي الثانية «ألم تر» و«لإيلاف قريش» من غير أن يفصلَ بالبسملة[5].

وأُجيبَ بأنَّ جمعاً أثبتُوا الفصل في مصحف أُبيٍّ، والمثبِت مقدَّم على النافي، وبأنَّ خبرَ ابن ميمون إنْ سلِّمَت صحتُه محتملٌ لعدم سماعه، ولعلَّه قرأها سرًّا.

ويدلُّ على كونها سورةً مستقلةً ما أخرج البخاري في «تاريخه» والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الخلافيات» عن أمِّ هانئ بنت أبي طالب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فضَّل الله تعالى قُريشاً بسبع خصالٍ، لم يُعْطَها أحدٌ قبلَهم، ولا يُعطَاها أحدٌ بعدهم: أنِّي فيهم ـ وفي لفظ: النبوَّة فيهم ـ والخلافةُ فيهم، والحجابةُ فيهم، والسقايةُ فيهم، ونُصِروا على الفيل، وعَبَدوا الله تعالى سبْعَ

(١) في هامش الأصل: اختلافها آية ﴿مِّن جُوعٍ﴾ حجازي. اهـ منه.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٩، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٩٥.

(٣) في الأصل و(م): بما، والصواب ما أثبتناه، وينظر تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٩٥.

(٤) في الأصل و(م): الأزدي، والصواب ما أثبتناه، وقال عنه الحافظ في التقريب: مخضرم مشهور، ثقة عابد.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٦ لعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف.

سنينَ ـ وفي لفظ: عشرَ سنينَ ـ لم يعبُدْه سبحانه أحدٌ غيرهم، ونزلَت فيهم سورةٌ من القرآن لم يُذكر فيها أحدٌ غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾»[١] وجاء نحو هذا الأخير في خبرَين آخرَين أحدهما عن الزبير بن العوام يرفعه[٢]، والثاني عن سعيد بن المسيب عنه ﷺ[٣]. ويُؤيِّد الاستقلالَ كونُ آيها ليسَت على نَمَط آيِ ما قبلها. وأنت تعلم أنَّه بعد ثبوتِ تواتر الفصل لا يحتاج إلى شيء مما ذكر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ الإيلاف على ما قال الخفاجي: مصدرُ أَلِفْتُ الشيءَ وآلَفْتُه من الإلف[٤]. وهو كما قال الراغب: اجتماعٌ مع التئام[٥]. وقال الهروي في «الغريبَين»: الإيلافُ عهودٌ بينهم وبين الملوك، فكان هاشم يؤالفُ ملك الشام، والمطلب كسرى، وعبدُ شمس ونوفل يُؤالفان ملك مصر والحبشة، قال: ومعنى يؤالف يعاهِدُ ويصالح، وفعلُه: آلَفَ، على وزن فاعل، ومصدره: إلاف، بغير ياء بِزِنَة: قِتَال. أو: أَلَفَ الثلاثي كـ: كَتَبَ كتاباً. ويكون الفعلُ منه أيضاً [آلَفَ] على وزن أَفْعَلَ مثل آمَنَ، ومصدرُه إيلاف كإيمان[٦].

وحملُ الإيلاف على العهود خلافُ ما عليه الجمهور، كما لا يخفَى على المتتبِّع.

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٣٢١، والمعجم الكبير ٢٤/ (٩٩٤)، والمستدرك ٢/ ٥٣٦، وعزاه لابن مردويه والبيهقي السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٣٩٦، ٣٩٧.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤: وفيه من لم أعرفه. اهـ. وفي سند الحديث: إبراهيم بن محمد بن ثابت، قال الذهبي في تلخيص المستدرك: وإبراهيم صاحب مناكير هذا أَنْكَرُها.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩١٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٤/ ١٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤: وفيه من ضُعِّف ووثقهم ابن حبان.

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ١٩٥.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٠.

(٥) مفردات الراغب (ألف).

(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٠، وما بين حاصرتين منه.

وفي «البحر»: إيلاف: مصدر آلَفَ رباعيًّا، وإلاف: مصدرُ أَلِفَ ثلاثيًّا، يقال: أَلِف الرجلُ الأمر إلْفاً وإلافاً، وآلَفَ غيرَه إياه، وقد يأتي آلف متعدِّياً لواحد كأَلِفَ ومنه قوله:

من المُؤْلِفَات الرملَ أدماءُ حُرَّةٌ شُعاعُ الضُّحى في جِيدها يتوضَّحُ[1]

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما في ذلك من القراءات.

وقريش وَلَدُ النَّضر[2] بن كنانة، وهو أصحُّ الأقوال وأثبتُها عند القرطبي[3]، قيل: وعليه الفقهاء؛ لظاهر ما روي أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئل: مَن قريشٌ؟ فقال: «مِن وَلَدِ النَّضر»[4].

وقيل: وَلَد فِهْر بنِ مالك بن النضر، وحُكي ذلك عن الأكثرين، بل قال الزبير بن بكَّار: أجمع النَّسَّابون من قريش وغيرهم على أنَّ قريشاً إنما تفرَّقت عن فِهْر، واسمُه عند غيرِ واحدٍ قريش، وفِهْر لَقبُهُ، ويُكنَى بأبي غالب.

وقيل: وَلَدُ مخلد[5] بن النضر. وهو ضعيف، وفي بعض السير أنَّه لا عقب للنضر بن كنانة إلا مالك، وأضعفُ من ذلك ـ بل هو قولُ رافضيٍّ يُريدُ به نَفْي حَقِّيَّة خلافةِ الشيخَين ـ أنَّهم وَلَدُ قصي بن حكيم، وقيل: عروة، المشهور بلقبه كلاب لكثرة صيدِه، أو لمكالبته، أي: مواثَبته في الحرب للأعداء، نعم قصي جمَّع قريشاً في الحرم حتى اتَّخذوه مسكناً، بعد أن كانوا متفرِّقين في غيره، وهذا الذي عناه الشاعر بقوله:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١٤، والبيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١١٩٧، وفي المصدرَين: مَتْنِها، بدل: جيدها.

(٢) جاء في هامش الأصل: بالفتح والسكون، واسمُه قيس، لُقِّب به لنضارته وحسنه. اهـ منه.

(٣) في تفسيره ٢٢/ ٤٩٨-٤٩٩.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ.

(٥) كذا في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٨/ ٤٠٠، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣٣، وجمهرة أنساب العرب ص١١: يخلد.

أبـونـا قُـصَـيٌّ كـان يُـدعَـى مُـجَـمِّـعـا ... بـه جَـمَّـع الله الـقـبـائـل مِـن فِـهْـرِ[1]

فلا يدلُّ على ما زعمه أصلاً.

وهو في الأصل تصغير «قَرش» بفتح القاف[2]، اسمٌ لدابَّة في البحر، أقوى دوابِّه، تأكل ولا تُؤكل، وتَعلُو ولا تُعلَى، وبذلك أجاب ابنُ عباس معاويةَ لَمَّا سأله: لِمَ سُمِّيت قُريشٌ قُريشاً؟ وتلك الدابة تسمَّى قَرشاً[3]، كما هو المذكور في كلام الحبر، وتسمَّى قُريشاً، وعليه قولُ تُبَّع كما حكاه عنه أبو الوليد الأزرقي، وأنشده أيضاً الحبر لمعاويةَ إلا أنَّه نسبَه للجمحي:

وقـريشٌ هـي الـتـي تـسـكـنُ الـبـحـ ... ـرَ بـهـا سُـمِّـيـت قـريـشٌ قُـريـشـا

تـأكـلُ الـغـثَّ والـسـمـيـنَ ولاتـتـ ... ـرُك يـومـاً لـذي جـنـاحَـيـن رِيـشـا

هـكـذا فـي الـبـلاد حـيُّ قُـرَيـشٍ ... يـأكـلـون الـبـلادَ أكـلاً كـمِـيـشـا

ولـهـم آخـرَ الـزمـان نـبـيٌّ ... يُـكـثِـرُ الـقـتـلَ فـيـهـم والـخُـمـوشـا[4]

وقال الفراء: هو من التقرُّش بمعنى التكسُّب[5]، سُمُّوا بذلك لتجارتهم.

وقيل: من التقرِيْش وهو التفتيش، ومنه قول الحارث بن حلِّزة:

أيـهـا الـشـامـتُ الـمـقـرِّشُ عـنَّـا ... عـنـد عـمـرو فـهـلْ لـنـا[6] إبـقـاءُ

---

(١) نُسب البيت لمطرود بن كعب الخزاعي كما في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٢٥٠، والأوائل للعسكري ١/ ١٣، وتاج العروس (قرش). ونسبه محمد بن حبيب في المنمّق ص٨٤ لحذافة بن غانم. ونسبه صاحب الخزانة ١/ ٢٠٣ للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ١٢٦، والاشتقاق ص١٥٥، ووقع في بعض المصادر: أبوكم قصي، وفي أخرى: قصي أبوكم، وفي السيرة: قصي لعمري.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٠، وفي حياة الحيوان ٢/ ٢٤٧: بكسر القاف.

(٣) بفتح القاف، والعامة تكسره. حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٠.

(٤) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٠٩، وأخرج خبر ابن عباس الطبراني في الكبير (١٠٥٨٩)، ونُسبت الأبيات للمُشَمرج الحميري كما في معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣٦، وتاج العروس (قرش)، وذكر ياقوت في معجم البلدان (قريش) هذا الخبر مختصراً وقال: وهذا الوجه عندي بارد، والشعر مصنوع جامد.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١٣.

(٦) جاء في هامش الأصل: له، في بعض النسخ. اهـ. وهو رواية حاشية الشهاب ٨/ ١٠٠ =

سُمُّوا بذلك لأنَّ أباهم كان يُفتِّش عن أرباب الحوائج ليقضيَ حوائجَهم، وكذا كانوا هم يفتشون على ذي الخَلَّة من الحاجِّ ليسُدُّوها.

وقيل: من التقرُّش وهو التجمُّع، ومنه قوله:

إخوةٌ قَرَّشُوا الذنوبَ علينا في حديثٍ مِن دَهْرِهِمْ وقديمِ[1]

سُمُّوا ذلك لتجمُّعهم بعد التفرُّق.

والتصغير إذا كان من المزيد تصغيرُ ترخيم، وإذا كان من ثلاثيٍّ مجرَّد فهو على أصله، وأيًّاما كان فهو للتعظيم، مثلُه في قوله:

وكلُّ أناسٍ سوف تَدخُلُ بينَهم دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ[2]

والنسبةُ إليه قُرَشي وقُرَيْشي كما في «القاموس»[3].

وأجمعوا على صَرْفه هنا، راعَوا فيه معنى الحيِّ، ويجوزُ منعُ صَرْفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة، للعَلَمِيَّة والتأنيث، وعليه قوله:

وكَفَى قُريشَ المعضِلاتِ وسادَها[4]

وعن سيبويه أنَّه قال في نحو مَعَدٍّ وقُريشٍ وثَقيفٍ: هذه للأحياء أكثرُ، وإن

= والكلام منه. والبيت في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٧٢، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٢٢، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٣، وللتبريزي ص٢٩٩، وللزوزني ص١٥٨، برواية: أيها الناطق... وهل لذاك بقاء، ووقع في شروح المعلقات والمعاني الكبير: المرقِّش، قال ابن قتيبة: والمقرش رواية أبي عمرو. وقال التبريزي: المرقش: المزيِّن القولَ بالباطل، ويقال: إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم، ومعنى: وهل لذاك بقاء: أن الباطل لا يبقى.

(١) البيت لأبي جِلدةَ اليشكري كما في سيرة ابن هشام ١/ ٩٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٩٩، ودون نسبة في البحر المحيط ٨/ ٥١٣.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص٢٥٦، وسلف ٢/ ١٩٩.

(٣) مادة (قرش).

(٤) وصدرُه: غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً، وهو لعدي بن الرقاع، كما في الكامل للمبرد ٢/ ١٠٤٦، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص٤٦٠، والخزانة ١/ ٢٠٣، ودون نسبة في الكتاب ٣/ ٢٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤ والكلام منه. والبيت في مدح الوليد بن عبد الملك، والمساميح: جمع سَمْح على غير قياس. قاله الشنتمري.

جُعِلَت أسماءً للقبائل فجائزٌ حسن[١].

واللام في «لإيلاف» للتعليل، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ عند الخليل[٢] بقوله: «فليعبدوا»، والفاء لِمَا في الكلامِ من معنى الشرطِ، إذ المعنى: إنَّ نِعَمَ الله غيرُ محصورةٍ، فإنْ لم يعبدوا لسائرِ نعَمِهِ سبحانه فليعبدوا لهذه النعمةِ الجليلة، ولَمَّا لم تكن في جواب شرط محقَّق كانت في الحقيقة زائدةً، فلا يمتنعُ تقديمُ معمولِ ما بعدَها عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾ بدلٌ من «إيلاف قريش»، و«رحلة» مفعولٌ به لـ «إيلافهم» على تقدير أنْ يكون من الألفة، أمَّا إذا كانت من المؤالفة بمعنى المعاهدة فهو منصوبٌ على نَزْع الخافض، أي: معاهدتهم على، أو: لأجل رحلة.. إلخ. وإطلاقُ الإيلاف ثم إبدال[٣] المقيَّد منه للتفخيم.

وروي عن الأخفش أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بمضمر، أي: فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف قريش[٤]. وقال الكسائي والفراء كذلك إلا أنَّهما قدَّرا الفعلَ بدلالة السياق «اعجبوا»، كأنَّه قيل: اعجبوا لإيلاف قريش رحلةَ الشتاء والصيف، وتركِهِم عبادةَ الله تعالى الذي أعزَّهم ورزَقَهم وآمنهم، فلذا أَمَرهم بعبادة ربِّهم المنعمِ عليهم بالرزق والأمن عَقبه، وقَرَنه بالفاء التفريعية[٥].

وعن الأخفش أيضاً أنَّه متعلِّقٌ بـ «جَعَلَهم كعصف» في السورة قبله، والقرآن كلُّه كالسورة الواحدة، فلا يضرُّ الفصل بالبسملة خلافاً لجمع، والمعنى: أهلَكَ سبحانه مَن قصَدَهم من الحبشة ولم يسلِّطْهم عليهم، ليبقَوا على ما كانوا عليه من إيلافهم

(١) الكتاب ٣/ ٢٥٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٨/ ٥١٤.

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ١٢٦-١٢٧، والبحر ٨/ ٥١٤.

(٣) في (م): إطلاق لإيلاف ثم أبدل، والعبارة في تفسير أبي السعود ٩/ ٢٠٢: وإطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً ثم إبدال هذا منه تفخيمٌ لأمره.....

(٤) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤، وذكر القول الشهاب دون نسبة في حاشيته ٨/ ٤٠٠، والكلام منه.

رحلةَ الشتاء والصيف، أو: أهلَكَ عز وجل مَن قصَدَهم ليعتبرَ الناسُ ولا يجترئ عليهم أحدٌ، فيتمَّ لهم الأمنُ في رحلتهم. ولا ينافي هذا كون إهلاكهم لكُفْرهم باستهانة البيتِ؛ لجواز تعليلِهِ بأمرَين، فإنَّ كلًّا منهما ليس علةً حقيقيةً ليمتنع التعدُّد.

وقال غيرُ واحد: إنَّ اللام للعاقبة، وكان لقريشٍ رحلتان، رحلةٌ في الشتاء إلى اليمن، ورحلةٌ في الصيف إلى بصرى من أرض الشام، كما روي عن ابن عباس، وكانوا في رحلتَيهم آمنين؛ لأنَّهم أهلُ حَرَمِ الله تعالى وولاةُ بيتِهِ العزيز، فلا يُتعرَّض لهم، والناسُ بين متخَطَّفٍ ومَنْهُوب. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّهم كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماءُ والظلُّ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائرِ أغراضهم.

وأُفرِدَت الرحلةُ مع أنَّ المراد رحلتا الشتاء والصيف، لأمْن اللَّبس وظهورِ المعنى، ونظيره قوله:

حمامةَ بطْنِ الوادِيَين ترنَّمي[(١)]

حيث لم يقل: بطنَي الوادِيَيْن، وقوله:

كلوا في بعض بَطْنكم تعفُّوا   فإنَّ زمانَكم زَمَنٌ خَمِيص[(٢)]

حيث لم يقل: بطونكم، بالجمع لذلك. وقولُ سيبويه: إنَّ ذلك لا يجوزُ إلا في الضرورة[(٣)]، فيه نظر.

وقال النقَّاش: كانت لهم أربعُ رحلٍ. وتعقَّبه ابن عطية بأنَّه قولٌ مردودٌ[(٤)].

وفي «البحر»[(٥)]: لا ينبغي أنْ يُرَدَّ، فإنَّ أصحابَ الإيلاف كانوا أربعةَ إخوةٍ،

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٤) من سورة التحريم.
(٢) الكتاب ١/ ٢١٠، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٥١٥، وسلف ١/ ٣٩٩.
(٣) الكتاب ١/ ٢٠٩، ونقله بواسطة البحر ٨/ ٥١٥.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦.
(٥) ٨/ ٥١٥.

وهم بنو عبد مناف هاشم، كان يؤالف ملكَ الشام، أخذَ منه خيْلاً[١] فأمِن به في تجارته إلى الشام؛ وعبد شمس يؤالف إلى الحبشة، والمطَّلبُ إلى اليمن، ونوفَل إلى فارس، فكان هؤلاء يُسمَّون المتَّجرين[٢]، فيختلفُ تَجْر قريش بخَيْل[٣] هؤلاء الإخوة، فلا يُتعرَّض لهم. قال الأزهري: الإيلافُ شبه الإجارةِ بالخَفَارة، فإنْ كان كذلك جاز أنْ يكونَ لهم رحلٌ أربعٌ باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجارةُ في خفارة[٤] هؤلاء الأربعة فيها، فيكون «رحلة» هنا اسمَ جنسٍ يصلح للواحد وللأكثر، وفي هؤلاء الإخوة يقول الشاعر:

يا أيها الرجلُ المحوِّلُ رَحْلَهُ ... هلَّا نزلْتَ بآل عبدِ منافِ
الآخذونَ العهدَ مِن آفاقها ... والراحلون لرحلةِ الإيلاف
والرائشون وليسَ يوجد رائشٌ ... والقائلون هلمَّ للأضياف
والخالطون غنيَّهم بفقيرهم ... حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي[٥]

انتهى. وفيه مخالفةٌ لِمَا نقلناه سابقاً عن الهروي، ثم إنَّ إرادةَ ما ذكر من الرحل الأربع غيرُ ظاهرة كما لا يخفى.

وقرأ ابن عامر: «لإلاف قريش» بلا ياء[٦]، ووجْهُ ذلك ما[٧] مرَّ، ولم تختلف السبعةُ في قراءة «إيلافهم» بالياء كما اختلفَت في قراءة الأول، ومع هذا رُسِم الأول

---

(١) كذا في الأصل و(م) والبحر، والصواب: حبلاً، ينظر تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٠١، وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩، والقاموس واللسان (ألف)، وجاء في تفسير القرطبي: حبلاً وعهداً.
(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩: المجيرين.
(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر: بحبل، وهو الصواب كما ذكرنا، وجاء في تهذيب اللغة: بحبال.
(٤) الخفارة: الأمان. المعجم الوسيط (خفر).
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١٥، والأبيات بنحوها لمطرود بن كعب الخزاعي في سيرة ابن هشام ١/ ١٧٨، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٦٨، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥، وقال البصري: ويروى لابن الزبعرى.
(٦) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٣.
(٧) في الأصل: مما.

في المصاحف العثمانية بالياء، ورُسِم الثاني بغير ياء كما قاله السمين، وجعَلَ ذلك أحَدَ الأدلةِ على أنَّ القراء يتقيَّدون بالرواية سماعاً دون رَسْم المصحفِ، وذكر في وَجْه ذلك أنَّها رُسِمَت في الأول على الأصل وتركت في الثاني اكتفاءً بالأول[1]، وهو كما ترى فتدبر.

وروي عن أبي بكر عن عاصم أنَّه قرأ بهمزتَين فيهما الثانية ساكنة[2]، وهذا شاذٌّ وإنْ كان الأصل، وكأنَّهم إنَّما أبدلوا الهمزة التي هي فاء الكلمة لِثِقَل اجتماع همزتَين، وروى محمد بن داود النقَّار عن عاصم: «إئيلافهم» بهمزتَين مكسورتَين بعدَهما ياءٌ ساكنة[3] ناشئةٌ عن حركة الهمزة الثانية لَمَّا أُشْبِعَت، والصحيحُ رجوعُه عن القراءة بهمزتَين وأنَّه قرأ كالجماعة[4].

وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشريُّ: «لإلْفِ قريش»[5]. وقرأ فيما حكى ابن عطية: «إلْفِهم»[6]، وحُكِيَتْ عن عكرمة وابن كثير[7]، وأنشدوا:

زعمتُم أنَّ إخوتَكم قُريشٌ ... لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ[8]

وعن أبي جعفر أيضاً وابن عامر: «إلَافهم» على وزن فِعَال[9].

---

(١) الدر المصون ١١/ ١١٢.
(٢) السبعة ص٦٩٨، وجامع البيان للداني ٢/ ٤٩٤، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨٠ القراءة في الثانية فقط.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥١٤.
(٤) السبعة ص٦٩٨، وجامع البيان للداني ٢/ ٤٩٤-٤٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤.
(٥) الكشاف ٤/ ٢٨٧، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤، وهو خلاف المشهور عن أبي جعفر.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٥، وهو أيضاً خلاف المشهور عنه.
(٧) تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤.
(٨) البيت لمسَاوِر بن هند، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، والخزانة ١١/ ٤١٩، ودون نسبة في دلائل الإعجاز للجرجاني ص٢٣٦، والكشاف ٤/ ٢٨٧، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤.
(٩) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٤٠٣، وقراءة ابن عامر في البحر المحيط ٨/ ٥١٤ وهي خلاف المشهور عنه.

وعن أبي جعفر أيضاً: «لِيْلَافِ» بياء ساكنة بعد اللام[١]، ووُجِّه بأنَّه لَمَّا أبدلَ الثانية ياءً حَذَفَ الأُولى حذفاً على غير قياس.

وعن عكرمة: «ليألَفَ قريشٌ» على صيغة المضارع المنصوب بـ «أنْ» مضمرة بعد اللام ورفع «قريش» على الفاعلية[٢]، وعنه أيضاً: «لِيألَفْ» على الأمر، وعنه وعن هلال بنِ فتيان بفَتْح لام الأمر[٣]. والظاهرُ أنَّ «إيلافهم» على جميع ذلك منصوبٌ على المصدرية، ولم أرَ مَن تعرَّض له.

وقرأ أبو السمال: «رُحلة» بضم الراء، وهي حينئذٍ بمعنى الجهةِ التي يُرحَل إليها، وأما مكسورُ الراء فهو مصدرٌ على ما صرَّح به في «البحر»[٤].

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ هو الكعبةُ التي حُمِيَت من أصحاب الفيل. وعن عمر أنَّه صلى بالناس بمكة عند الكعبة، فلمَّا قرأ (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) جعل يُوْمي بإصبَعه إليها وهو في الصلاة بين يدي الله تعالى.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم﴾ بسبب تَيْنك الرحلتَين اللَّتَين تمكَّنوا منهما بواسطة كونهم من جيرانه[٥] ﴿مِّن جُوعٍ﴾ شديدٍ كانوا فيه قبلهما. وقيل: أُريدَ به القحطُ الذي أكلُوا فيه الجِيَف والعظام.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ عظيمٍ لا يُقادَر قَدْرُه، وهو خوفُ أصحابِ الفيل، أو خوفُ التخطُّف في بلدهم ومَسَايِرِهم، أو خوفُ الجذام كما أخرج ذلك ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس[٦]، فلا يصيبُهم في بلدهم فضلاً منه تعالى، كالطاعون.

---

(١) النشر ٢/ ٤٠٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٤.

(٣) القراءتان في البحر المحيط ٨/ ٥١٤، والثانية منهما ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠، والقرطبي في تفسيره ٢٢/ ٤٩٨ وقال: وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

(٤) ٨/ ٥١٤، وقراءة أبي السمال فيه.

(٥) في الأصل و(م): جيرانهم، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ٢٠٢، والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٥٦.

وعنه أيضاً أنَّه قال: «أطعمَهم من جوع» بدعوة إبراهيمَ عليه السلام، حيث قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] و«آمنهم مِن خَوفٍ» حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[1] [البقرة: ١٢٦].

و«مِن» قيل: تعليليةٌ، أي: أنعمَ عليهم وأطعمَهم لإزالة الجوعِ عنهم، ويقدَّر المضافُ لتظهرَ صحةُ التعليل، أو يقالُ: الجوعُ علَّةٌ باعثةٌ ولا تقدير.

وقيل: بدليَّة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وحكى الكرماني في «غرائب التفسير»[2]: أنَّه قيل في قوله تعالى: (وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ): إنَّ الخلافةَ لا تكون إلا فيهم، وهذا من البطلان بمكان كما لا يخفى.

وقرأ المسيِّبي عن نافع: «من خوف» بإخفاء النون في الخاء[3]، وحُكي ذلك عن سيبويه، وكذا إخفاؤها مع العين نحو: مِنْ عَلي[4]، مثلاً. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٣-٦٥٤.

(٢) ويسمى الغرائب، وعجائب القرآن، والعجائب في تفسير القرآن الكريم، وهو لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني توفي بعد (٥٠٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١١٩٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٥.

(٤) ينظر الكتاب ٤/ ٤٥٤، ونقله بواسطة البحر المحيط ٨/ ٥١٥.

(١٠٧) سورة الماعون مكية وآياتها سبع

سورة الماعون مكية ، وهي تتحدث بإيجاز عن فريقين من الناس هما :

أ - الكافر الجاحد لنعم الله ، المكذب بيوم الجزاء والحساب .

ب - والمنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله ، بل يرائي في صلاته وعبادته . أما الفريق الأول فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة ، أنهم يدفعون اليتيم دفعاً عنيفاً بغلظةٍ وشدة ، ولا يعملون الخير ولا يفعلون المعروف ، ولا يحسنون إلى عباد الله حتى ولو بالتذكير بحق الفقير والمسكين ، أو بإعارة ما ينتفع به من الأشياء ، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه . وأما الفريق الثاني فهم المنافقون ، الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، ويراءون في عبادتهم . وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، وقد ذَمت الفريقين وشنعت عليهم أعظم تشنيع ، بأسلوب التعجب من ذلك الصنيع .

● ● ●

سورة الماعون

[١٠٤٠] ك.. أخرج ابن المنذر عن طريف بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [١] الآية قال نزلت في المنافقين كانوا يراؤن المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية.

* * *

[١٠٤٠] (١)سورة الماعون: الآية (٤).

سورة الماعون

سبع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ بعضهم (أَرَيْتَ) بحذف الهمزة، قال الزجاج: وهذا ليس بالاختيار؛ لأن الهمزة إنما طُرحت من المستقبل، نحو يرى وأرى وترى، فأما رأيت فليس يصح عن العرب فيها ريت، ولكن حرف الاستفهام لما كان في أول الكلام سهل إلغاء الهمزة، ونظيره:

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الْعِلَابِ [1]

وقرأ ابن مسعود: (أَرَأَيْتَكَ) بزيادة حرف الخطاب، كقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

المسألة الثانية: قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ﴾ معناه هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو، فإن لم تعرفه فهوالذى يَدعُّ اليتيم.

واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك: أرأيت فلانًا ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه؟ ثم قيل: إنه خطاب للرسول ﷺ وقيل: بل خطاب لكل عاقل، أي أرأيت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني؟!

المسألة الثالثة: في الآية قولان: **أحدهما**: أنها مختصة بشخص معين، وعلى هذا القول ذكروا أشخاصًا، فقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، كان ينحر جزورين في كل أسبوع، فأتاه يتيم فسأله لحمًا فقرعه بعصاه. وقال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأفعال القبيحة. وقال السدي: نزلت في الوليد بن

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة للشاعر إسماعيل بن يسار، وهو إسماعيل بن يسار النسائي؟ - ١٣٠هـ/ ؟ - ٧٤٨م أصله من سبي فارس، اشتهر بشعوبيته وشدة تعصبه للعجم، يفتخر بهم في شعره على العرب، كنيته أبو فايد وكان من موالي بني تيم بن مَرة (تيم قريش) وانقطع إلى آل الزبير، ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، وفد إليه مع عروة بن الزبير ومدحه. ومدح الخلفاء من ولده بعده، وعاش عمرًا طويلاً إلى أن أدرك آخر أيام بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية.

المغيرة، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل، وروي أنه كان وصيًّا ليتيم، فجاءه وهو عريان يسأله شيئًا من مال نفسه، فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبي، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك. وكان غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك، فجاء إلى النبي ﷺ والتمس منه ذلك، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجًا، فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فعيَّره قريش، فقالوا: صبوتَ؟! فقال: لا والله ما صبوت، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ!! وروي عن ابن عباس أنها نزلت في منافق جمع بين البخل والمراءاة. **والقول الثاني:** أنه عام لكل من كان مكذبًا بيوم الدين، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب، فإذا كان منكرًا للقيامة لم يترك شيئًا من المشتهيات واللذات، فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي.

المسألة الرابعة: في تفسير الدين وجوه: **أحدها:** أن يكون المراد من يكذب بنفس الدين والإسلام، إما لأنه كان منكرًا للصانع، أو لأنه كان منكرًا للنبوة، أو لأنه كان منكرًا للمعاد أو لشيء من الشرائع، **فإن قيل:** كيف يمكن حمله على هذا الوجه، ولا بد وأن يكون لكل أحد دين: **والجواب من وجوه: أحدها:** أن الدين المطلق في اصطلاح أهل الإسلام والقرآن هو الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] أما سائر المذاهب فلا تسمى دينًا إلا بضرب من التقييد كدين النصارى واليهود. **وثانيها:** أن يقال: هذه المقالات الباطلة ليست بدين؛ لأن الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب إنما هي خضوع للشهوة أو للشبهة. **وثالثها:** وهو قول أكثر المفسرين أن المراد (أرأيت الذي يكذب بالحساب والجزاء) قالوا: وحمله على هذا الوجه أَوْلى لأن من ينكر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مقرًّا بالقيامة والبعث، أما المقدم على كل قبيح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامة.

قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾

واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب الدين وصفين: **أحدهما:** من باب الأفعال وهو قوله: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ **والثاني:** من باب التروك وهو قوله: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والفاء في قوله ﴿ فَذَٰلِكَ﴾ للسببية، أي لما كان كافرًا مكذبًا كان كفره سببًا لدع اليتيم، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عمن يكذب بالدين ليس إلا ذلك؛ لأنا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل، كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثالاً واحدًا تنبيهًا بذكره على سائر القبائح، أو لأجل أن هاتين الخصلتين، كما أنهما قبيحان منكران بحسب الشرع فهما أيضًا مستنكران بحسب المروءة والإنسانية.

أما قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ فالمعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة، كقوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] وحاصل الأمر في دع اليتيم أمور: **أحدها:** دَفْعه عن حقه وماله بالظلم. **والثاني:** ترك المواساة معه، وإن لم تكن المواساة واجبة، وقد يذم المرء بترك النوافل لاسيما إذا أسند إلى النفاق وعدم الدين. **والثالث:** يزجره ويضربه ويستخف به، وقرئ: (يَدَعُ) أي يتركه ولا يدعوه بدعوة، أي يدعو جميع الأجانب ويترك اليتيم، مع أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَا مِنْ مَائِدَةٍ أَعْظَمُ مِنْ مَائِدَةٍ عَلَيْهَا يَتِيمٌ» وقرئ: (يدعو اليتيم) أي يدعوه رياء ثم لا يطعمه وإنما يدعوه استخدامًا أو قهرًا أو استطالة.

واعلم أن في قوله: ﴿يَدُعُّ﴾ بالتشديد فائدة، وهي أن يَدَعّ بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وُجد منه ذلك وندم عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] سمى ذنب المؤمن لممًا لأنه كالطيف والخيال يطرأ ولا يبقى؛ لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم، إنما المكذب هو الذي يصر على الذنب.

أما قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ ففيه وجهان: **أحدهما:** أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين، وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين، فكأنه منع المسكين مما هو حقه، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه. **والثاني:** لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يعتقد في ذلك الفعل ثوابًا، والحاصل أنه تعالى جعل عَلَم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك، فموضع الذنب هو التكذيب بالقيامة، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول: أليس قد لا يحض المرء في كثير من الأحوال ولا يكون آثمًا؟ **الجواب:** لأن غيره ينوب منابه أو لأنه لا يقبل قوله أو لمفسدة أخرى يتوقعها، أما ههنا فذكر أنه لا يفعل ذلك (إلا) لما أنه مكذب بالدين.

السؤال الثاني: لمَ لم يقل: ولا يطعم المسكين؟ **والجواب:** إذا منع اليتيم حقه فكيف يطعم المسكين من مال نفسه، بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، فلأن يكون بخيلاً بمال نفسه أَوْلى، وضده في مدح المؤمنين: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]

قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: **أحدها:** أنه لا يفعل إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام دليلاً على النفاق، فالصلاة لا مع الخضوع والخضوع أَوْلى أن تدل على النفاق؛ لأن الإيذاء والمنع من النفع معاملة مع المخلوق، أما الصلاة فإنها خدمة للخالق،

وثانيها: كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض، كأن سائلاً قال: أليس إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فقال له: الصلاة كيف تنهاه عن هذا الفعل المنكر وهي مصنوعة من عين الرياء والسهو؟! وثالثها: كأنه يقول: إقدامه على إيذاء اليتيم وتركه للحض - تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله، وسهوه في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله، فلما وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقاوته، فلهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ واعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ويروى أن كل أحد ينوح في النار بحسب جريمته، فقائل يقول: ويلي من حب الشرف. وآخر يقول: ويلي من الحمية الجاهلية، وآخر يقول: ويلي من صلاتي. فلهذا يستحب عند سماع مثل الآية أن يقول المرء: ويلي إن لم يغفر لي.

المسألة الثانية: الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور: احدها: السهو عن الصلاة. وثانيها: فعل المراءاة. وثالثها: منع الماعون، وكل ذلك من باب الذنوب، ولا يصير المرء به منافقًا فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال؟ ولأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون فيه وجوهًا: أحدها: أن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي فويل للمصلين من المنافقين الذين يأتون بهذه الأفعال. وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع، وهو يدل على صحة قول الشافعي: إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع. وهذا الجواب هو المعتمد. وثانيها: ما رواه عطاء عن ابن عباس أنه لو قال الله: (في صلاتهم ساهون) لكان هذا الوعيد في المؤمنين لكنه قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ والساهي عن الصلاة هو الذي لا يتذكرها ويكون فارغًا عنها. وهذا القول ضعيف لأن السهو عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسرًا بترك الصلاة؛ لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وأيضًا فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقًا ولا كفرًا فيعود الإشكال، ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مضلين نظرًا إلى الصورة، وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظرًا إلى المعنى، كما قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسيًا لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة، وهذا لا يصدر إلا عن المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة، أما المسلم الذي يعتقد فيها فائدة عينية - يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزاء الصلاة، بل قد يحصل له السهو في الصلاة بمعنى أنه يصير ساهيًا في بعض أجزاء الصلاة، فثبت أن السهو في الصلاة من أفعال المؤمن والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر. وثالثها: أن يكون معنى: ﴿سَاهُونَ﴾ أي لا يتعهدون أوقات صلواتهم ولا شرائطها، ومعناه أنه لا يبالي، سواء صلى أو لم يصلِّ، وهو قول سعد بن أبي وقاص ومسروق والحسن ومقاتل.

المسألة الثالثة: اختلفوا في سهو الرسول عليه الصلاة والسلام في صلاته، فقال كثير من العلماء: إنه عليه الصلاة والسلام ما سها، لكن الله تعالى أذن له في ذلك الفعل حتى يفعل ما يفعله الساهي، فيصير ذلك بيانًا لذلك الشرع بالفعل، والبيان بالفعل أقوى، ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على أقسام: أحدها: سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنن والنوافل. والثاني: ما يكون في الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات. والثالث: الترك لا إلى قضاء والإخراج عن الوقت، ومن ذلك صلاة المنافق وهي شر من ترك الصلاة لأنه يستهزئ بالدين بتلك الصلاة.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ فاعلم أن الفرق بين المنافق والمرائي؛ أن المنافق هو المُظهر للإيمان المُبطن للكفر، والمرائي المُظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين، أو تقول: المنافق لا يصلي سرًّا والمرائي تكون صلاته عند الناس أحسن.

اعلم أنه يجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة لأنها شعائر الإسلام، وتاركها مستحق للعن، فيجب نفي التهمة بالإظهار، إنما الإخفاء في النوافل إلا إذا أظهر النوافل ليقتدى به، وعن بعضهم أنه رأى في المسجد رجلاً يسجد للشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك!! لكن مع هذا قالوا: لا يترك النوافل حياء ولا يأتى بها رياء، وقلما يتيسر اجتناب الرياء، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «الرِّيَاءُ أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ في اللَّيلَةِ الظَّلْمَاءِ عَلَى الْمَسْحِ الأَسْوَدِ» فإن قيل: ما معنى المراءاة؟ قلنا هي مفاعلة من الإراءة؛ لأن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرونه الثناء عليه والإعجاب به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

واعلم أن قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يفيد أمرين: إخراجها عن الوقت، وكون الإنسان غافلاً فيها، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ يفيد المراءاة، فظهر أن الصلاة يجب أن تكون خالية عن هذه الأحوال الثلاثة.

ثم لما شرح أمر الصلاة أعقبه بذكر الصلات فقال: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وفيه أقوال: الأول: - وهو قول أبي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك - هو الزكاة، وفي حديث أُبي: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ (أَرَأَيْتَ) غَفَرَ اللَّهُ لَهُ إِنْ كَانَ لِلزَّكَاةِ مُؤَدِّيًا» وذلك يوهم أن الماعون هو الزكاة، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة. والقول الثاني: -وهو قول أكثر المفسرين- أن الماعون اسم لما لا يُمنع في العادة ويسأله الفقير والغني، ينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة، كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم، ويدخل فيه الملح والماء والنار، فإنه روي: «ثَلَاثَةٌ لاَ يَحِلُّ مَنْعُهَا: الْمَاءُ وَالنَّارُ وَالْمِلْحُ» ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك، أو يضع متاعه عندك يومًا أو

نصف يوم. وأصحاب هذا القول قالوا: الماعون فاعول من المعن، وهو الشيء القليل، ومنه: ما له سغتة ولا معنة، أي كثير و(لا) قليل، وسميت الزكاة ماعونًا لأنه يؤخذ من المال ربع العشر، فهو قليل من كثير، ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعونًا، وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة، فإن البخل بها يكون في نهاية الدناءة والركاكة، والمنافقون كانوا كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾[النساء: ٣٧] وقال: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾[القلم: ١٢] قال العلماء: ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على الواجب. **والقول الثالث:** قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون هو الماء وأنشدني فيه:

يَمُجُّ بَعِيرُهُ الْمَاعُونَ مَجًّا

ولعله خصه بذلك لأن أعز مفقود وأرخص موجود، وأول شيء يسأله أهل النار الماء، كما قال: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[الأعراف: ٥٠] وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء، كما قال: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾[الإنسان: ٢١] . **القول الرابع:** الماعون حسن الانقياد، يقال: رُض بعيرك حتى يعطيك الماعون، أي حتى يعطيك الطاعة.

واعلم أن الأَوْلى أن يحمل على كل طاعة يخف فعلها لأنه أكثر فائدة.

ثم قال المحققون في الملاءمة بين قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾ وبين قوله: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾: كأنه تعالى يقول: الصلاة لي والماعون للخلق، فما يجب جعله لي يعرضونه على الخلق وما هو حق الخلق يسترونه عنهم، فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس. فإن قِيلَ: لـِمَ لم يذكر الله اسم الكافر بعينه؟ فإن قلت: للستر عليه، قلت لـِمَ لم يستر على آدم بل قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] ؟ **والجواب:** أنه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقرونًا بالتوبة ليكون لطفًا لأولاده، أنه أُخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطمعون في الدخول مع الكبيرة؟! وأيضًا فإن وصف تلك الزلة رفعة له، فإنه رجل لم يصدر عنه إلا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة.

ولنختم تفسير هذه السورة بالدعاء: إلهنا، هذه السورة في ذكر المنافقين والسورة التي بعدها في صفة محمد ﷺ فنحن وإن لم نصل في الطاعة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أصحابه، لم نصل في الأفعال القبيحة إلى هؤلاء المنافقين، فاعف عنا بفضلك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «الماعون»

وهي مكيةٌ في قول عطاءٍ وجابرٍ وأحدِ قولي ابنِ عباس، ومدنيةٌ في قولٍ له آخرَ، وهو قولُ قتادةَ وغيرِه(٤). وهي سبعُ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: بالجزاء والحساب في الآخرة، وقد تقدَّم في «الفاتحة»(٥). و«أرَأَيت» بثباتِ(٦) الهمزةِ الثانية؛ إذ لا يُقال في

---

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٥٠ دون ذكر قول ابن عباس الأول، وأخرج هذا القول عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٩.

(٥) ١/ ٢٢١.

(٦) في (م): بإثبات.

رأيت: رَيْت، ولكنَّ ألفَ الاستفهامِ سهَّلَت إلقاء الهمزة[١]؛ ذكره الزجاج. وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: أرأيتَ الذي يكذِّب بالدين: أَمُصيبٌ هو أم مُخْطئ.

واختُلِف فيمَن نزل هذا فيه؛ فذَكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلتْ في العاص بن وائل السَّهْمِيِّ؛ وقاله الكلبيُّ ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجلٍ من المنافقين.

وقال السُّديُّ: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ.

قال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كلِّ أسبوعٍ جَزُوراً، فطلب منه يتيمٌ شيئاً، فقَرَعه بعصاه، فأنزل الله هذه السورة[٢].

و﴿يَدُعُّ﴾ أي: يدفع، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] وقد تقدَّم. وقال الضحَّاك عن ابن عباس: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعُه عن حقِّه[٣]. قتادة: يقهرُه ويظلمُه[٤]. والمعنى متقارِب. وقد تقدَّم في سورة النساء أنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساءَ ولا الصغار، ويقولون: إنَّما يحوزُ المالَ مَن يَطْعنُ بالسِّنان، ويَضربُ بالحُسام[٥]. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن ضمَّ يتيماً من المسلمين حتى يَسْتَغْنِيَ، فقد وَجَبتْ له الجنة»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٧].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٠ ، وأسباب النزول للواحدي ص٥٠٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣١ ، وزاد المسير ٩/ ٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٠ ، وأسباب النزول للواحدي ص٥٠٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣١ ، وزاد المسير ٩/ ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥١ عن الضحاك، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٨ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٨ .

(٥) ينظر ما سلف ٦/ ٧٨ .

(٦) أخرجه أحمد (١٩٠٢٥)، واختلف في اسم الصحابي راوي الحديث، والراجح أنه أبيّ بن مالك، فيما ذكر الحافظ في الإصابة ٩/ ٦٠ في ترجمة مالك بن عمرو، وينظر التعليق على الحديث في حاشية المسند.

(٧) ينظر ٢/ ٢٣٢ و ص٣٤٩ من هذا الجزء.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يأمرُ به، من أَجْلِ بخلِه وتكذيبِه بالجزاء. وهو مِثلُ قولِه تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الآية: ٣٤] وقد تقدَّم. وليس الذَّمُّ عامًّا حتى يتناولَ مَن تَركَه عجزاً، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، فنزلت هذه الآيةُ فيهم، وتَوجَّه الذمُّ إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إنْ قَدَرُوا، ولا يحثُّون عليه إنْ عسِروا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: عذابٌ لهم. وقد تقدَّم في غير مَوضع[1]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هو المصلِّي الذي إنْ صلَّى لم يَرْجُ لها ثواباً، وإنْ تَركَها لم يخشَ عليها عقابًا[2]. وعنه أيضًا: الذين يؤخِّرونها عن أوقاتها[3]. وكذا رَوى المغيرةُ عن إبراهيم، قال: سَاهونَ بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلُّونها لِمَواقيتِها، ولا يُتِمُّون ركوعَها ولا سجودَها.

قلت: ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩] حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة مريم عليها السلام.

وروي عن إبراهيم أيضاً: أنه الذي إذا سجد قال[4] برأسه هكذا ملتفتاً[5].

وقال قطرب: هو ألَّا يقرأَ ولا يَذْكرَ الله[6]. وفي قراءةِ عبد الله: «الذين هم عن صلاتهم لاهُون»[7].

---

(١) ينظر ٢/ ٢٢٠.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٥١ عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري ٤/ ٦٦٠.

(٤) في (د) و(م): قام.

(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٦ بنحوه عن أبي العالية.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٥٢.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٨١.

وقال سعد بن أبي وقَّاص: قال النبيُّ ﷺ: «فَوَيْل للمُصَلِّينَ الذين هم عن صلاتِهم ساهون» قال: «الذينَ يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تَهاوُناً بها»[١].

وعن ابن عباس أيضاً: هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا، ويصلُّونها علانية[٢]. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ الآية [النساء: ١٤٢]. ويدلُّ على أنَّها في المنافقين قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، وقاله ابن وهب عن مالك[٣]. قال ابن عباس: ولو قال: في صلاتهم ساهون، لكانت في المؤمنين[٤].

وقال عطاء: الحمدُ لله الذي قال: «عن صلاتهم» ولم يقل: في صلاتهم[٥]. قال الزمَخْشَرِيُّ[٦]: فإن قلتَ: أيُّ فرقٍ بين قوله: «عن صلاتهم»، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلتُ: معنى «عن»: أنَّهم ساهون عنها سَهْوَ تَرْكٍ لها، وقلةِ الْتِفاتٍ إليها، وذلك فِعْلُ المنافقين، أو الفَسَقةِ الشُّطَّارِ[٧] من المسلمين. ومعنى «في» أنَّ السهو يعتريهم فيها، بوسوسةِ شيطانٍ، أو حديثِ نفسٍ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسولُ الله ﷺ يقعُ له السَّهوُ في صلاته، فَضْلاً عن غيره، ومِن ثَمَّ أثبت الفقهاءُ بابَ سجودِ السَّهوِ في كتبهم.

---

(١) أخرجه البزار (٣٩٢ ـ كشف)، وأبو يعلى (٨٢٢)، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٧٧، وابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٨٧. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٠ عن سعد ﷺ موقوفاً. وليس في هذه المصادر قوله: تهاوناً بها. قال البزار: لا نعلم أحداً أسنده إلا عكرمة [بن إبراهيم] وهو لين الحديث، وقد رواه الثقات الحفاظ عن سعد موقوفاً. وقال العقيلي: والموقوف أولى.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦١ – ٦٦٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ١١٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٤، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨٩ عن أنس ﷺ.

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٨٩.

(٧) في النسخ الخطية: الشياطين، والمثبت من (م) والكشاف. والشاطر: مَن أعيا أهلَه خبثاً. القاموس (شطر).

قال ابن العربيِّ[١]: لأنَّ السلامة عن[٢] السَّهوِ مُحالٌ، وقد سها رسولُ الله ﷺ في صلاته والصحابةُ. وكلُّ مَن لا يسهو في صلاته، فذلك رجلٌ لا يتدبَّرُها، ولا يعقِلُ قراءتَها، وإنَّما همُّه في أعدادِها، وهذا رجلٌ يأكل القشور ويرمي اللُّبّ. وما كان النبيُّ ﷺ يسهو في صلاته إلَّا لفِكْرتِه في أعظم منها؛ اللهم إلَّا أنه قد يسهو في صلاته مَن يُقْبِلُ على وسواسِ الشيطانِ إذا قال له: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لِمَا لم يكن يذكر، حتى يضِلَّ الرجل أنْ يدريَ كم صلَّى.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يُرِي الناسَ أنَّه يصلِّي طاعةً وهو يصلِّي تَقِيَّةً، كالفاسق، يُري أنه يصلِّي عبادةً، وهو يصلِّي ليقال: إنه يصلِّي. وحقيقةُ الرياءِ: طلبُ ما في الدنيا بالعبادة، وأصلُه: طلبُ المنزلةِ في قلوب الناس.

وأوَّلُها: تحسينُ السَّمْتِ[٣]، وهو من أجزاء النبوّة، ويريد بذلك الجاهَ والثناء.

وثانيها: الرياءُ بالثيابِ القِصَار والخَشِنة؛ ليأخذ بذلك هيئةَ الزُّهدِ في الدنيا.

وثالثها: الرياءُ بالقول، بإظهارِ التَّسخُّطِ على أهل الدنيا؛ وإظهارِ الوَعْظِ والتأسُّفِ على ما يفوتُ من الخير والطاعة.

ورابعها: الرياءُ بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأَجْلِ رؤيةِ الناس. وذلك يطول، وهذا دليله؛ قاله ابن العربي[٤].

قلت: قد تقدَّم في سورةِ النساء وهود وآخر الكهف، القولُ في الرياء وأحكامِه وحقيقتِه بما فيه كفايةٌ[٥]. والحمد لله.

الخامسة: ولا يكونُ الرجلُ مُرائياً بإظهار العملِ الصالح إنْ كان فريضةً، فمِن

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧١ .

(٢) في (م): من.

(٣) السمت: هيئة أهل الخير. القاموس (سمت).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٢ .

(٥) ينظر ٦/ ٢٩٩ و١١/ ٨٤ و١٣/ ٣٩٩ .

حقِّ الفرائضِ الإعلانُ بها وتشهيرُها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ولا غُمَّةَ في فرائضِ الله»[(١)] لأنَّها أعلامُ الإسلام، وشعائر الدِّين، ولأنَّ تارِكَها يستحقُّ الذمَّ والمَقْتَ؛ فوجب إماطةُ التهمةِ بالإظهار، وإن كان تَطَوُّعاً فحقُّه أن يُخْفَى؛ لأنَّه مما لا يُلامُ بتَرْكِه ولا تُهْمَةَ فيه، فإنْ أَظْهَرَه قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنَّما الرياء أنْ يقصد بالإظهار أن تراه الأعينُ، فتثني عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدةَ الشكرِ فأطالها، فقال: ما أحسنَ هذا لو كان في بيتك. وإنَّما قال هذا لأنه توسَّم فيه الرياءَ والسُّمعة[(٢)]. وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [الآية:٢٧١]، وفي غيرِ موضعٍ. والحمد لله على ذلك.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ فيه اثنا عشر قولاً: الأول: أنه زكاة أموالِهم. كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس. ورُوِي عن عليٍّ ﷺ مثلُ ذلك[(٣)]، وقال مالك: والمرادُ[(٤)] به المنافق يمنعُها. وقد رَوَى أبو بَكْر بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ . ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ . وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ قال: إنَّ المنافق إذا صلَّى صلَّى رياءً، وإنْ فاتته لم ينْدَمْ عليها، «ويمنعون الماعون» الزكاةَ التي فَرَضَ الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خَفِيتْ لهم الصلاةُ كما خَفِيتْ لهم الزكاةُ ما صلُّوا[(٥)].

---

(١) قطعة من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٢٨١ ، وذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ١٧٢ . والكلام من الكشاف ٤/ ٢٩٠ . قوله: ولا غمة، أي: لا تُستَر ولا تُخفى فرائضه، وإنما تُظهر وتُعلن ويُجهر بها. النهاية (غمم).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٢٠٣ - ٢٠٤ ، والطبري ٢٤/ ٦٦٦ - ٦٧٠ عن علي والضحاك وابن عمر وغيرهم، وذكره عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٧ .

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ (والكلام منه): وقال مالك هي الزكاة والمراد...

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ .

القول الثاني: أنَّ «الماعون»: المالُ بلسان قريش؛ قاله ابنُ شهابٍ وسعيد بنُ المسيِّب(١).

وقولٌ ثالثٌ: أنَّه اسمٌ جامعٌ لمنافع البيتِ كالفأس والقِدْرِ والنار وما أشبهَ ذلك؛ قاله ابن مسعود، وروي عن ابن عباس أيضاً(٢). قال الأعشى:

بِأَجْودَ منه بماعونِهِ إذا ما سماؤُهُم لَمْ تَغِمْ(٣)

الرابع: ذكر الزجَّاج وأبو عُبيد والمبرِّد أنَّ الماعون في الجاهلية: كلُّ ما فيه منفعةٌ، حتى الفأسُ والقِدْرُ والدَّلْوُ والقدَّاحة، وكلُّ ما فيه منفعةٌ من قليلٍ وكثيرٍ، وأنشدوا بيتَ الأعشى. قالوا: والماعونُ في الإسلام: الطاعةُ والزكاة؛ وأنشدوا قولَ الراعي:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمنِ إنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلَا
عَرَبٌ نَرَى لِلهِ من أموالنا حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلَا
قَومٌ على الإسلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا ما عُونَهمْ ويُضَيِّعُوا التَّهليلا(٤)

يعني الزكاة.

الخامس: أنَّه العارِيَّة؛ روي عن ابن عباس أيضاً(٥).

السادس: أنه المعروفُ كلُّه الذي يتعاطاه الناسُ فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ(٦).

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٧٨، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٧١ - ٦٧٧. وتفسير البغوي ٤/ ٥٣٢.
(٣) ديوان الأعشى ص ٨٩.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٨، وذكر القول أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٣، وليس فيهما سوى البيت الثالث، والأبيات الثلاثة في ديوان الراعي ص ٢٢٩ - ٢٣٠، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٣، ورواية الأول في الديوان: أَوَليَّ أمرِ الله إنا معشر...، والقصيدة في مدح عبد الملك بن مروان.
(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٧٥ و٦٧٦.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٢، وأخرجه عن محمد بن كعب الطبري ٢٤/ ٦٧٨.

السابع: أنه الماء والكَلأ[١].

الثامن: الماءُ وحدَه؛ قال الفرَّاء: سمِعتُ بعضَ العربِ يقول: الماعون: الماء، وأنشدني فيه:

يَمجُّ صَبِيرُه الماعونَ صَبَّا[٢]

الصَّبير: السحاب.

التاسع: أنَّه مَنْعُ الحقِّ؛ قاله عبد الله بن عمر[٣].

العاشر: أنه المستغَلُّ من منافعِ الأموال؛ مأخوذٌ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريُّ وابن عيسى[٤]. قال قطرب: أصلُ الماعونِ من القلَّة. والمَعْنُ: الشيءُ القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنةٌ ولا معنةٌ، أي: شيء قليل. فسمَّى الله تعالى الزكاةَ والصدقةَ ونحوَهما من المعروف ماعوناً؛ لأنَّه قليلٌ من كثيرٍ[٥].

ومِن الناس مَن قال: الماعون: أصلُه مَعُونة، والألفُ عوضٌ من الهاء؛ حكاه الجوهريّ[٦].

ابن العربيّ[٧]: الماعون: مفعولٌ مِن أعانَ يُعينُ، والعَوْن: هو الإمدادُ بالقوّة

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٣ . قال الفراء: ولست أحفظ أوله. وقد ذكره صاحب اللسان مع بيت آخر صدراً لبيت عجزه: إذا نَسَمٌ من الهَيْف اعتراه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٨ .

(٤) في النسخ الخطية: وابن عباس، والمثبت موافق لما في النكت والعيون ٦/ ٣٥٣ ، والكلام منه، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٢ . والمثل ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٢٧١ ، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٣١ . قال الميداني: قال ابن الأعرابي: السعنة: الكثرة من الطعام وغيره، والمعنة: القلة من الطعام وغيره، ومعنى المثل: ما لَه قليل ولا كثير.

(٦) في الصحاح (معن).

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٢ .

والآلاتِ والأسبابِ الميسِّرةِ للأمر(١).

الحادي عشر: أنَّه الطاعةُ والانقيادُ؛ حكى الأخفشُ عن أعرابيٍّ فصيحٍ: لو قد نزلنا لصنعتُ بناقتكَ صنيعًا تعطيكَ الماعون، أي: تنقادُ لك وتُطيعُك(٢). قال الراجز.

مَـتَـى تُـصـادِفْـهُـنَّ فـي الْـبَـرِيـنِ يَـخْـضَـعْـنَ أو يُـعـطِـيْـنَ بـالـمـاعـونِ(٣)

وقيل: هو ما لا يَحِلُّ مَنْعُه، كالماء والملح والنار؛ لأنَّ عائشة رضوانُ الله عليها قالت: قلتُ: يا رسول الله، ما الشيءُ الذي لا يَحِلُّ مَنْعُه؟ قال: «الماءُ والنارُ والملحُ» قلت: يا رسول الله، هذا الماء، فما بالُ النارِ والملح؟ فقال: «يا عائشةُ مَن أَعْطَى ناراً فكأنَّما تصدَّق بجميعِ ما طُبخَ بتلك النار، ومَن أَعْطَى مِلْحاً فكأنَّما تَصَدَّق بجميع ما طُيِّبَ به ذلك الملحُ، ومَن سَقَى شَربةً من الماء حيث يوجد الماء، فكأنَّما أَعْتَقَ ستين نسمةً. ومَن سَقَى شربةً من الماء حيث لا يوجد، فكأنَّما أحيا نَفْساً، ومَن أحياها فكأنَّما أحيا الناسَ جميعًا». ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره»، وخرَّجه ابنُ ماجه في «سننه». وفي إسناده لِين(٤)؛ وهو القولُ الثاني عشر.

الماورديُّ(٥): ويحتمِلُ: أنه المعونةُ بما خَفَّ فِعْلُه وقد ثَقَّله الله. والله أعلم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ . وذكر السمين في الدر المصون ١١/ ١٢٣ - ١٢٤ أن هذا الوجه فيه شذوذ من وجوه، منها: أن مفعول جاء من أفعل، وحقُّه أن يكون على مُفْعَل كمكرَم، فيقال: مُعان، وأما مفعول فاسم مفعولِ الثلاثي.

(٢) الصحاح (معن).

(٣) الرجز للحذلمي، كما في اللسان (أرن) برواية:

مـتـى يُـنـازِعْـهـن فـي الأريـن يَـذْرَعْـنَ أو يـعـطـيـن بـالـمـاعـون

وذكره أيضاً صاحب اللسان (معن) برواية: يخضعن أو يعطين..، والأرين: النشاط. والبرين بضم الباء وفتحها جمع بُرَة، وهي الحلقة في أنف البعير. اللسان (أرن) و(برا).

(٤) بنحوه في سنن ابن ماجه (٢٤٧٤)، وتهذيب الكمال ٩/ ٤١٩ - ٤٢٠ ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. وفيه أيضاً زهير بن مرزوق، قال ابن معين: لا أعرفه، وقال البخاري: منكر الحديث مجهول. ينظر مصباح الزجاجه ٢/ ٥٥ ، وتهذيب الكمال ٩/ ٤١٩ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٣ .

وقيل لِعكرمةَ مولى ابنِ عباس: مَن منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن مَن جَمَع ثلاثتهن فله الويل، يعني: تَرْكَ الصلاةِ، والرياءَ، والبُخْلَ بالماعون[١].

قلت: كونُها في المنافقين أشبهُ، وبهم أَخْلقُ؛ لأنَّهم جمعوا الأوصافَ الثلاثة: تَرْكَ الصلاةِ، والرياءَ، والبخلَ بالمال؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذه أحوالُهم، ويَبْعدُ أنْ توجدَ من مسلمٍ محقِّقٍ، وإن وُجد بعضُها فيلحقُه جزءٌ من التوبيخ، وذلك في مَنْع الماعون إذا تعيَّن، كالصلاةِ والزكاة[٢] إذا تَرَكَها، والله أعلم. إنَّما[٣] يكون مَنْعُها قبيحاً في المروءة في غيرِ حالِ الضرورة[٤]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٥٩.

(٢) قوله: والزكاة، ليس في (م).

(٣) في (ز) و(ي): بما.

(٤) المعنى في هذه الجملة الأخيرة يعود على الفأس والقدر والدلو وغيرها التي ذكرت في معنى الماعون، حيث قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٩٠: وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة.

سُورَةُ المَاعُونِ

مُختلَفٌ فيها، وآيُها سَبْعٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ استفهامٌ معناهُ التَّعجُّبُ، وقُرِئَ: ﴿أَرَيۡتَ﴾ بلا همزٍ[(١)] إلحاقًا بالمُضارعِ، ولعلَّ تَصديرَها بحرفِ الاستفهامِ سهَّلَ أمرَها، و: (أرأيتَكَ) بزيادةِ الكافِ[(٢)].

﴿ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: بالجزاءِ أو الإسلام، و﴿ٱلَّذِي﴾ يحتمِلُ الجنسَ والعهدَ، ويؤيِّدُ الثَّانيَ قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾: يدفعُه دفعًا عنيفًا.

وهو أبو جهلٍ؛ كان وَصِيًّا ليَتيمٍ فجاءَهُ عريانًا يسألُ مِن مالِ نفسهِ فدفعَهُ[(٣)].

أو: أبو سفيانَ نحرَ جَزُورًا فسألَهُ يَتيمٌ لحمًا فقرعَهُ بعَصاهُ[(٤)].

أو: الوليدُ بن المغيرةِ[(٥)].

---

(١) قرأ بها الكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٧)، و«النشر» (٢/ ٣٩٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨١)، و«الكشاف» (٩/ ٦٩١) عن ابن مسعود.

(٣) نزولها في أبي جهل دون القصة ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٥٠)، والقصة ذكرها الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٣٠١) بأتم من هذا.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٥٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦٥). ولا يصح لأن أبا سفيان رضي الله عنه قد أسلم وحسن إسلامه.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣١) عن السدي ومقاتل بن حيان وابن كيسان..

أو: مُنافِقٌ بخيلٌ.

وقُرِئَ: (يَدَعُ)[١]؛ أي: يتركُ.

(٣) ـ ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أهلَه وغيرَهُم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ لعدمِ اعتِقادِه بالجزاءِ، ولذلك رتَّبَ الجُملةَ على ﴿يُكَذِّبُ ﴾ بالفاءِ.

(٤ ـ ٧) ـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾: غافِلُونَ غيرُ مُبالينَ بها ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾: يُرون النَّاسَ أعمالَهم ليُرُوهم الثَّناءَ عليهِم ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾: الزَّكاةَ، أو ما يُتعاوَرُ في العادةِ.

والفاءُ جَزائيَّةٌ، والمعنى: إذا كان عدمُ المبالاةِ باليتيمِ مِن ضَعفِ الدِّينِ والموجبَ للذَّمِّ والتَّوبيخِ، فالسَّهْوُ عَن الصَّلاةِ التي هي عمادُ الدِّين، والرِّياءُ الذي هو شُعبَةٌ مِن الكُفرِ، ومنعُ الزَّكاةِ التي هي قنطرَةُ الإسلامِ= أحقُّ بذلك، ولذلك رتَّبَ عليها الويلَ.

أو للسَّببيَّةِ على معنى: فوَيْلٌ لهم، وإنَّما وضعَ (المُصلِّينَ) مَوضِعَ الضَّميرِ للدلالةِ على مُعاملَتِهم مع الخالقِ والخلقِ[٢].

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سورةَ ﴿أَرَءَيْتَ ﴾ غُفِرَ له إن كانَ للزَّكاةِ مُؤدِّيًا»[٣].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٠)، و«المحتسب» (٢/ ٣٧٤)، عن أبي رجاء. زاد ابن خالويه: عليًّا رضي الله عنه واليماني والحسن.

(٢) قوله: «وإنما وضع المصلين موضع الضمير...» وهو ما أشار إليه بقوله: «لهم» وفيه إشارة إلى اتحاد المصلين والمكذبين، وهذا على السببية أو على الوجهين، ومعاملتهم مع الخالق من السهو والرياء ومنع الزكاة، ومع الخلق بِدَعِّ اليتيم وعدم الحض. قاله الشهاب.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٧) سورة الماعون مكية
وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : ﴿ أرأيت ﴾ يا محمد ﴿ الذي يكذب بالدين ﴾ وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿ **فذلك** الذي يدع

اليتيم﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ولا يطعمه ولا يحسن إليه ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ كقوله ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾، ثم قال تعالى: ﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عباس: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿للمصلين﴾ الذين هم من أهل الصلاة ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، أو يخرجها عن وقتها، وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل ﴿في صلاتهم ساهون﴾ فيؤخرونها إلى آخر الوقت، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1]. فهذا أخَّر صلاة العصر التي هي الوسطى - كما ثبت به النص - إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية، قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿الذين هم يراؤون﴾، وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربعمائة مرة، أعدّ ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد: لحامل كتاب الله، وللمصدق في غير ذات الله، وللحاج إلى بيت الله، وللخارج في سبيل الله»[2] وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبدالله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وحقّره وصغّره»[3]. ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الذين هم يراؤون﴾ أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء، لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فدخل عليّ رجل، فأعجبني ذلك فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»[4]. وفي رواية عنه قال، قال رجل: يا رسول الله! الرجل يعمل العمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال، قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية»[5]. وعن سعد بن أبي و قاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[6]. قلت: وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً، أو تأخيرها عن أول الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى. وقد قال مجاهد ﴿الماعون﴾ الزكاة، وقال الحسن البصري: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله. وقال

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) أخرجه الحافظ الموصلي.
(٥) أخرجه الترمذي والطيالسي وأبو يعلى الموصلي.
(٦) أخرجه ابن جرير الطبري.

زيد بن أسلم: هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها . وسئل ابن مسعود عن الماعون ؟ فقال: هو ما يتعاطاه النـاس بينهم من الفأس والقدر والدلو وأشباه ذلك، وقال ابن جرير ، عن عبد الله قال: « كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو والفأس والقدر لا يستغنى عنهن » ، ولفظ النسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر ، وعن ابن عباس: ﴿ويمنعون الماعون﴾ يعني متاع البيت، وكذا قال مجاهد والنخعي انها العارية للأمتعة ، وقد اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال: يمنعون الطـاعة، ومنهم من قال: يمنعون العارية، وعن علي: الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو ، وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة، وهذا الذي قـاله عكرمة حسن ، فـإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحـد، وهو ترك المعاونة بمـال أو منفعة، ولهذا جاء في الحديث: « كل معروف صدقة » .

[آخر تفسير سورة الماعون . ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير السورة التى يذكر فيها الماعون

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ .

يقول تعالى : أرأيت ـ يا محمد ـ (١) الذى يكذب بالدين ؟ وهو : المعاد والجزاء والثواب ، ﴿فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أى : هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ،ولا يطعمه ولا يحسن إليه ، ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر:١٧، ١٨] يعنى : الفقير الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته .

ثم قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، قال ابن عباس ، وغيره : يعنى المنافقين ، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر .

ولهذا قال : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ،كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله مسروق ، وأبو الضحى .

وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال : ﴿ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، ولم يقل : فى صلاتهم ساهون .

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به . وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل هذا كله ، ولكل من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك ، فقد تم نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى . كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس ، حتى إذا كانت بين قَرْنَى الشيطان قام فَنَقَرَ أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (٢). فهذا آخر صلاة العصر التى هى الوسطى ، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها ،وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب ، لم يطمئن ولا خَشَع فيها أيضا ؛ ولهذا قال : « لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس ، لا ابتغاء وجه

---

(١) فى م : « يا محمد أرأيت » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٢٢) ولم أقع عليه فى صحيح البخارى ، ولم يعزه المزى له فى تحفة الأشراف .

الله ، فهو إذاً لم يصل بالكلية . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

وقال الطبرانى: حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبدويه [(١)] البغدادى ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، عن يونس ، عن الحسن ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « إن فى جهنم لوادياً [(٢)] ، تستعيذ جهنم من ذلك الوادى فى كل يوم أربعمائة مرة ، أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد : لحامل كتاب الله ، وللمصَّدِّق فى غير ذات الله ، وللحاج إلى بيت الله ، وللخارج فى سبيل الله » [(٣)].

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوساً عند أبى عبيدة فذكروا الرياء ،فقال رجل يكنى بأبى يزيد : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سَمَّع الناس بعمله ، سَمَّع الله به سامعَ خلقه ، وحَقَّره وصَغَّره » [(٤)] .

ورواه أيضا عن غُنْدَر ويحيى القطان ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن رجل ، عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبى ﷺ ، فذكره [(٥)].

ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ : أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس ، فأعجبه ذلك ، أن هذا لا يعد رياء ،والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا مخلد بن يزيد ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : كنت أصلى ، فدخل علىَّ رجل ، فأعجبنى ذلك ، فذكرته لرسول الله ﷺ ،فقال : « كتب لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » [(٦)] .

قال أبو على هارون بن معروف : بلغنى أن ابن المبارك قال : نعم الحديثُ للمرائين .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وسعيد بن بشير متوسط ، وروايته عن الأعمش عزيزة . وقد رواه غيره عنه .

قال أبو يعلى أيضا : حدثنا محمد بن المثنى بن موسى ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو سِنان ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل يَسُرُّه ، فإذا اطُّلِعَ عليه أعجبه . قال : قال رسول الله ﷺ : « له أجران : أجر السر

---

(١) فى م ، أ : « عبد ربه » . (٢) فى م ، أ : « لواد » .

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ١٧٥) ، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٦٧) : « رفع حديث ابن عباس غريب، ولعله موقوف ، والله أعلم » .

(٤) المسند (٢/ ٢١٢) .

(٥) المسند (٢/ ١٦٢) .

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٤٩) « مجمع البحرين » ، وقال الطبرانى : « لم يروه عن سعيد إلا محمد بن معاذ ، ومحمد بن بكار » . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٠) :« رجاله ثقات ». قلت : سعيد بن بشير ضعفه الأئمة .

وأجر العلانية » (١) .

وقد رواه الترمذى عن محمد بن المثنى ، وابن ماجة عن بُنْدَار ، كلاهما عن أبى داود الطيالسى، عن أبى سنان الشيبانى(٢) ــ واسمه : ضرار بن مرة . ثم قال الترمذى : غريب ، وقد رواه الأعمش وغيره . عن حبيب ، عن [النبى ﷺ] (٣) ، مرسلا .

وقد قال أبو جعفر بن جرير : حدثنى أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن شيبان النحوى، عن جابر الجعفى ، حدثنى رجل ، عن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون ﴾ قال : « الله أكبر ، هذا خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يَرْجُ خير صلاته ،وإن تركها لم يخف ربه » (٤) .

فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف ،وشيخه مُبهم لم يُسَم ، والله أعلم .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنى زكريا بن أبان المصرى ، حدثنا عمرو بن طارق ، حدثنا عِكْرِمة بن إبرهيم ، حدثنى عبد الملك بن عمير (٥)، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون ﴾ قال : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (٦) .

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ، أو صلاتها بعد وقتها شرعا ، أو تأخيرها عن أول الوقت [سهواً حتى ضاع] (٧) الوقت .

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى عن شيبان بن فَرُّوخ ، عن عكرمة بن إبراهيم ، به . ثم رواه عن أبى الربيع ، عن جابر ، عن عاصم ، عن مصعب ، عن أبيه موقوفاً (٨) . وهذا أصح إسناداً ، وقد ضعف البيهقى (٩) رفعه ، وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم .

وقوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى . وقد قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : قال على : الماعون : الزكاة . وكذا رواه السدى ، عن أبى صالح ، عن على . وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر . وبه يقول محمد بن الحنفية،وسعيد بن جبير ، وعكْرِمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وعطية العوفى ،والزهرى ،والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

---

(١) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٤٣٠) .

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٨٥) ، وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٢٦) .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « عن أبى صالح » ، والمثبت من تحفة الأحوذى ، مستفادا من هامش ط . الشعب .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٢) .

(٥) فى أ : « بن عمر » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٢) .

(٧) زيادة من م ، أ .

(٨) مسند أبى يعلى (٢/ ٦٣) .

(٩) السنن الكبرى (٢/ ٢١٤) .

وقال الحسن البصرى : إن صلى راءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفى لفظ: صدقة ماله .

وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ،وضَمنَت الزكاة فمنعوها .

وقال الأعمش وشعبة ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار : أن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس ، والقدر ، [والدلو] (١).

[وقال المسعودى ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن أبى العُبَيدين : أنه سُئِل ابنُ مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم ، من الفأس والقدر] (٢) ، والدلو ، وأشباه ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبيد المحاربى ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن أبى العُبَيدين وسعد بن عياض ، عن عبد الله قال : كنا أصحاب رسول الله(٣) ﷺ نتحدث أن الماعون الدلوُ ، والفأس ، والقدر ، لا يستغنى عنهن .

وحدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شُمَيْل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق قال : سمعت سعدَ بن عياض يحدث عن أصحاب النبى ﷺ مثله (٤) .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيْد ، عن عبد الله : أنه سئل عن الماعون ، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم : الفأس والدلو ،وشبهه .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على الفلاس ، حدثنا أبو داود ــ هو الطيالسى ــ حدثنا أبو عَوانَة ، عن عاصم بن بَهْدَلَة ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ ونحن نقول : الماعون : منع الدلو وأشباه ذلك (٥) .

وقد رواه أبو داود والنسائى ، عن قتيبة ، عن أبى عوانة بإسناده ، نحوه (٦) .ولفظ النسائى عن عبد الله قال : كل معروف صدقة ، كنا (٧) نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عاريَّة الدلو والقدر.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم ، عن زر، عن عبد الله قال : الماعون : العَوارى : القدر ،والميزان ، والدلو .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس :﴿ **وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون** ﴾ يعنى : متاع البيت . وكذا قال مجاهد وإبراهيم النَّخعى،وسعيد بن جبير،وأبو مالك ،وغير واحد : إنها العاريَّة للأمتعة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد (٨)، عن ابن عباس : ﴿ **وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون** ﴾ قال : لم يجئ أهلها بعد.

(١، ٢) زيادة من م ، أ .
(٣) فى م : « كنا أصحاب محمد » .
(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٥) .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٦) .
(٦) سنن أبى داود برقم (١٦٥٧) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠١) .
(٧) فى م : « وكنا » .
(٨) فى م : « ومجاهد » .

وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون﴾ قال : اختلف الناس فى ذلك ، فمنهم من قال : يمنعون الزكاة . ومنهم من قال : يمنعون الطاعة . ومنهم من قال : يمنعون العارية . رواه ابن جرير . ثم روى عن يعقوب بن إبراهيم ،عن ابن عُلَيَة ، عن ليث بن أبى سليم ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : الماعون : منع الناس الفأس ، والقدر ، والدلو .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاةُ المال ،وأدناه المنخل ،والدلو ،والإبرة . رواه ابن أبى حاتم .

وهذا الذى قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ،وترجع كلها إلى شىء واحد . وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون ﴾ قال : المعروف . ولهذا جاء فى الحديث : « كل معروف صدقة » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وَكِيع ، عن ابن أبى ذئب ، عن الزهرى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون ﴾ قال : بلسان قريش : المال .

وَرَوَى هاهنا حديثاً غريباً عجيباً فى إسناده ومتنه ، فقال: حدثنا أبى ،وأبو زُرْعَة قالا: حدثنا قيس ابن حفص الدارمى ، حدثنا دلهم بن دَهثم العجلى، حدثنا عائذ بن ربيعة النَميرى ، حدثنى قرة بن دُعُموص النَميرى : أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ما تعهد إلينا ؟ قال : «لا تمنعوا الماعون » . قالوا : يا رسول الله ، وما الماعون ؟ قال : « فى الحَجَر ، وفى الحديدة ، وفى الماء » . قالوا : فأى حديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذى تمتهنون به » . قالوا: وما الحَجَر ؟ قال : « قدوركم الحجارة » [١] .

غريب جدا ، ورفعه منكر ، وفى إسناده من لا يعرف ، والله أعلم .

وقد ذكر ابنُ الأثير فى الصحابة ترجمة « على النميرى » ، فقال : روى ابن قانع بسنده إلى عائذ ابن ربيعة بن قيس النميرى ، عن على بن فلان النميرى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المسلم أخو المسلم . إذا لقيه حَيَّاه بالسلام ، ويرد عليه ما هو خير منه ، لا يمنع الماعون » . قلت : يا رسول الله ، ما الماعون ؟ قال : « الحَجَر ، والحديد ، وأشباه ذلك »[٢].

آخر تفسير سورة « الماعون »

(١) ورواه ابن مردويه أيضاً ، كما فى الدر المنثور (٦٤٤) .
(٢) أسد الغابة (٣/ ٦٢٤) .

/ سورة الدِّين[1] [٣٢١ظ]

مكّيّة،[2] وهي سبع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ استفهام أريدَ به تشويقُ السامع إلى معرفة مَن سيق له الكلام والتعجيبُ منه. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: لكلّ عاقل. والرؤية بمعنى المعرفة.[3] وقُرئ: "أَرَأَيْتَكَ"[4] بزيادة حرف الخطاب.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف على أنّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ والموصول خبره، والمعنى: هل عرفتَ الذي يكذِّب بالجزاء أو بالإسلام؟ إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا، ويزجره زجرًا قبيحًا. ووضعُ اسم الإشارة المتعرِّض لوصف المشار إليه موضعَ الضمير للإشعار بعلّة الحُكم، والتنبيهِ بما فيه مِن معنى البعد على بُعد منزلته في الشرّ والفساد.

وقيل: هو أبو جهل، كان وصيًّا ليتيم فأتاه عُريانًا يسأله مِن مال نفسه فدفعه دفعًا شنيعًا.[5] وقيل: أبو سفيان نحَر جزورًا فسأله يتيم لحمًا فقرعه بعصاه.[6]

---

[1] س: أرأيتَ.

[2] س + وقيل مدنيّة.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٠٨/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٢.

[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[6] القول مرويّ عن ابن جُريج في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٩٣؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

وقيل: هو الوليد بن المغيرة.[١] وقيل: هو العاص بن وائل السهمي.[٢] وقيل: هو رجل بخيل مِن المنافقين.[٣] وقيل: الموصول على عمومه.[٤] وقُرِئ: "يَدَعُ اليَتِيمَ"،[٥] أي: يتركه ويجفوه.

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: أهلَه وغيرَهم مِن المُوسِرين ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ وإذا كان حال مَن تَرَك حثّ غيره على ما ذُكر فما ظنّك بحال مَن تَرَك ذلك مع القدرة عليه؟

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾... إلخ، إمّا لربط ما بعدها بشرط محذوف، كأنّه قيل: إذا كان ما ذُكر مِن عدم المبالاة باليتيم والمسكين مِن دلائل التكذيب بالدِّين وموجِبات الذمّ والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ غافلون غيرَ مبالين بها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يُرُون الناسَ أعمالهم ليُرُوهم الثناءَ عليها، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: الزكاة، أو ما يُتعاور عادةً، فإنّ عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان كما ذُكر فعدمُ المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين، والرياءُ الذي هو شعبة مِن الكفر، ومنعُ الزكاة التي هي قنطرة الإسلام، / وسوءُ المعاملة مع الخلق، أحقُّ بذلك. [٣٢٢و]

وإمّا[٦] لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذُكر مِن قبائحهم. ووَضْعُ "المصلين" موضع ضميرهم ليُتوسَّل بذلك إلى بيان أنّ لهم قبائحَ أخرَ غيرَ ما ذُكر.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الدِّين غُفر له إن كان للزكاة مؤدِّيا».[٧]

---

١ مرويّ عن السدّي ومقاتل وابن كَيسان في معالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

٢ مرويّ عن مقاتل في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٩٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

٣ مرويّ عن عطاء عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه واليماني وأبي رجاء والزّعفراني، وعمران عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٢.

٦ السياق: إمّا لربط ما بعدها... وإمّا...

٧ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٠/٣٠ (الماعون، ١/١٠٧)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٨/٤ (الماعون، ١/١٠٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٧

سُورَةُ المَاعُونِ

مكية أو مدنية، أو نصفها ونصفها، ستٌّ أو سبعُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: الجزاءِ والحِساب؟ أي: هل عرفتَه؟ إن لم تعرفه ٢ ـ ﴿فذلِكَ﴾ بتقدير «هو» بعد الفاء ﴿الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعُنف عن حقّه، ٣ ـ ﴿ولا يَحُضُّ﴾ نفسَه ولا غيره ﴿علَى طَعامِ المِسكِينِ﴾ أي: إطعامه...

سُورَةُ المَاعُونِ

قولُهُ: (الجزَاءِ) و﴿الذي﴾ يحتمِلُ الجِنسَ والعَهدَ، والثَّاني: أظهَرُ.

قولُهُ: (هَل عَرَفتَهُ) استِفهامٌ معناهُ التَّعَجُّب، وقالَ القاضِي[١]: وقُرِئَ: (أَرَيتَ) بلا همزَة إلحاقاً بالمضارِعِ، والحالُ أنَّه قرأ الكَسائيُّ به في جَميعِ القُرآنِ[٢].

قولُهُ: (إن لَم تَعرِفهُ) فتكونُ الفاءُ فصيحَةً في جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ.

قولُهُ: (بتَقدِيرِ هُو) إنَّما قدَّرهُ ليكونَ نصًّا في كونِ الجزاءِ جملةً فهو بمنزلةِ الفصلِ، ولذا قدَّرهُ بعضُهُم بعد ذلك، ولئلا يُتوهَّمَ عطفُهُ على الذي قبلَهُ.

قولُهُ: (ولا غَيرَهُ) أي: أهلَهُ وغيرهُم.

قولُهُ: (أي: إطعَامِهِ) أو بَذلِهُ فضلاً أن يبذُلَ من مالِهِ؛ لعدمِ اعتقادِهِ بالجزاءِ، أو لكَمالِ بُخلِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٥٧).

نزلتْ في العاص بن وائل أو الوليد بن المُغيرة.

٤ ـ ٥ ـ ﴿فوَيلٌ لِلمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُم عَن صَلاتِهِم ساهُونَ﴾: غافلون يُؤخّرونها عن وقتها، ٦ ـ ﴿الَّذِينَ هُم يُراؤُونَ﴾ في الصلاة وغيرها ٧ ـ ﴿ويَمنَعُونَ الماعُونَ﴾ كالإبرة والفأس والقِدر والقَصعة.

قولُهُ: (أو الوَلِيدِ) أو أبي جَهلٍ، كان وصيًّا ليتيمٍ فجاءَهُ عُرياناً يَسألُهُ من مالِ نفسِهِ فدفعَهُ[1]، أو أبي سُفيانَ نَحَرَ جَزوراً فسألَهُ يتيمٌ لحماً فقرعَهُ بعَصاهُ[2].

قولُهُ: (غَافِلُونَ) لا يُبالي صلَّى أم لا، وقيل: يُصلِّي رياءً ويترُكُ خَلاءً، وقيل: يلتفِتُ فيها تهاوُناً، وقيلَ: لا يذكُرُ الله ولا يَقرَأُ فيها، وقيل: يترُكُها، وفي الخبَرِ: «يُؤَخِّرُونَها عن وَقتِها بِلا عُذرٍ»[3] كذا في «عَينِ المعانِي»[4]، ويمكنُ أن يقالَ: عن قدرِ صلاتِهِم غافِلونَ، إذ لو عَرَفوا مقدارَها لما أخَّروها وما راءَوا بها، ولِذا قالَ بعضُهُم: الحَمدُ للَّهِ حيثُ قالَ: ﴿عَن صَلاتِهِم﴾، ولم يقُل: في صلاتِهِم.

قولُهُ: (والقَصْعَةِ) وغَيرِها ممَّا يُستَعارُ في العادَةِ، عن ابنِ مَسعودٍ[5]: كالقِدرِ والدَّلوِ والمقدحَةِ وغَيرِها، وعن عائشةَ[6]: الماءُ والنَّارُ والملحُ، وقد يكونُ منعُ هذه الأشياءِ مَحظوراً: إذا استُعيرَت عن اضطِرارٍ، وقَبيحاً في المروءَةِ في غيرِ حالَةِ الضَّرورَةِ، كذا في «الكَشَّاف»[7]، والله أعلمُ.

---

(١) ذكره البيضاوي في «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤١).

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٣٠/ ٣٣١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦٥) عن ابن جريج.

(٣) رواه البزار في «مسنده» (١١٤٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٧٦)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨٢٢) من حديث مصعب بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه.

قال البزار: وهذا الحديث قد رواه الثقات الحفاظ، عن عبد الملك بن عمير، عن مصعب بن سعد، عن أبيه موقوفاً، ولا نعلم أسنده إلا عكرمة بن إبراهيم، عن عبد الملك بن عمير، وعكرمة لين الحديث.

(٤) هو كتاب «عين المعاني في تفسير السبع المثاني» لمحمد بن طيفور السجاوندي الغزنوي، انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٢).

وقال القفطي في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (٣/ ١٥٣): ذكر فيه النحو وعلل القراءات والأبيات ومعانيها واللغة إلى غير ذلك من معانى التفسير فى مجلدات، أعدادها قليلة وفوائدها كثيرة جليلة، واختصر ولده هذا التفسير، وسماه: «إنسان العين».

(٥) رواه أبو داود (١٦٥٧)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٧١١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٦١٧)، والبزار في «مسنده» (١٧١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٥٨٩) بألفاظ متقاربة.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٣): رجال الطبراني رجال الصحيح.

(٦) رواه ابن ماجه (٢٤٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٣٣): فيه زهير بن مرزوق قال البخاري: مجهول منكر الحديث.

(٧) انظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠٦).

سورة الماعون

وتُسمَّى سورةُ «أرأيت» و«الدين» و«التكذيب». وهي مكيةٌ في قول الجمهور، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير كما في «الدر المنثور»[(١)].

وفي «البحر»: أنَّها مدنيةٌ في قول ابن عباس وقتادة[(٢)]، وحُكي ذلك أيضاً عن الضحاك.

وقال هبةُ الله المفسِّر الضرير: نزل نصفُها بمكة في العاص بن وائل، ونصفُها في المدينة في عبد الله بن أبيٍّ المنافق[(٣)].

وآيُها سبعٌ في العراقي وستٌّ في الباقية[(٤)].

ولما ذكر سبحانه في سورة قريش: (أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ) ذمَّ عز وجل هنا مَن لم يحضَّ على طعام المسكين، ولما قال تعالى هناك: (فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ) ذمَّ سبحانه هنا مَن سَهَا عن صلاته، أو لَمَّا عدَّد نِعَمَه تعالى على قريش وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء، أَتْبعَ سبحانه امتنانَه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه، فقال عزَّ قائلاً:

---

(١) ٦/ ٣٩٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٦.

(٣) الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص ١٠٣-١٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ٥١٦، وسلفت ترجمة هبة الله المفسر ٦/ ١١٥.

(٤) جاء في هامش الأصل: اختلافها «يراؤون» عراقي. اهـ منه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ استفهامٌ أُريدَ به تشويقُ السامع إلى تعرُّف المكذِّب، وأنَّ ذلك مما يجب على المتَدَيِّن ليحترزَ عنه وعن فعله، وفيه أيضاً تعجيبٌ منه. والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يَصلُح له.

والرؤية بمعنى المعرفة المتعدية لواحد، وقال الحوفي: يجوزُ أنْ تكونَ بصريةً. وعلى الوجهَين يجوزُ أنْ يُتجَوَّز بذلك عن الإخبار، فيكون المرادُ بـ «أرأيت»: أخبرني، وحينئذٍ تكون متعدِّيةً لاثنَين: أوَّلهما الموصولُ، وثانيهما محذوف تقديرُه: مَن هو، أو: أليس مُستحقًّا للعذاب. والقولُ بأنَّه لا تكون الرؤيةُ المتجوَّزُ بها إلا بصريةً فيه نظرٌ، وكذا إطلاقُ القول بأنَّ كاف الخطاب لا تلحَقُ البصريةَ، إذ لا مانعَ من ذلك بعد التجوُّزِ، فلا يرجِّح كونَها علميةً قراءةُ عبد الله: «أرأيتك» بكاف الخطاب[1] المزيدةِ لتأكيد التاء.

والدينُ: الجزاء، وهو أحدُ معانيه، ومنه: «كما تَدين تُدان»[2]، وفي معناه قول مجاهد: الحساب.

أو: الإسلام، كما هو الأشهر، ولعلَّه مرادُ مَن فسَّره بالقرآن، وكذا مَن فسَّره ـ كابن عباس ـ بحكم الله عز وجل.

وقرأ الكسائي: «أَرَيْتَ» بحذف الهمزة[3]، كأنَّه حمل الماضي في حَذْف همزته على مضارعه المطَّرد فيه حذفُها، وهذا كما أُلحقَ تَعِدُ بـ: يَعِدُ في الإعلال، ولعلَّ تصديرَ الفعل هنا بهمزة الاستفهام سهَّلَ أمر الحذفِ فيه، لمشابَهَتِه للفظ المضارع المبدوء بالهمزة، ومِن هنا كانت هذه القراءةُ أقوى توجيهاً مما في قوله:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٨١، والبحر ٨/ ٥١٦-٥١٧.
(٢) قطعة من حديث مرسل سلف ١/ ٢٨٣.
(٣) النشر ٢/ ٣٩٨.

صاحِ هَل رَيْتَ أو سَمِعْتَ بِراعٍ ردَّ في الضَّرْعِ ما قَرَى في العِلاب(١)

وقيل: أُلحِقَ بعدَ همزةِ الاستفهام بـ: أَرَى ماضي الإفعال لشدَّة مشابهته به، وعدمِ التفاوت إلا بفتحةٍ هي لخفَّتها في حكم السكون. وليس بذاك وإنْ زعم أنَّه الأوجه.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ قيل: للسببية، وما بعدَها مسبَّب عن التشويق الذي دلَّ عليه الكلام السابق.

وقيل: واقعةٌ في جواب شرطٍ محذوفٍ، على أنَّ «ذلك» مبتدأ والموصولُ خبرُه، والمعنى: هل عرفْتَ الذي يُكذِّب بالجزاء، أو بالإسلام، إنْ لم تعرِفْهُ فذلك الذي يُكذِّب بذلك هو الذي يدعُّ اليتيم، أي: يدفَعُه دفعاً عنيفاً ويزجُرُه زجراً قبيحاً.

ووضع اسم الإشارة موضعَ الضمير للدلالة على التحقير. وقيل: للإشعار بعلَّة الحكم أيضاً. وفي الإتيان بالموصول من الدلالة على تحقُّق الصلةِ ما لا يخفى.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والحسن وأبو رجاء واليماني: «يَدَع» بالتخفيف(٢)، أي: يترك اليتيم لا يُحسِنُ إليه ويجفوه.

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: ولا يبعثُ أحداً من أهله وغيرِهم من الموسِرين ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: بذل طعام المسكين، وهو ما يُتَناوَل من الغذاء.

والتعبير بالطعام دون الإطعام مع احتياجه لتقدير المضافِ كما أشرنا إليه، للإشعار بأنَّ المسكينَ كأنَّه مالكٌ لِمَا يُعطَى له، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. فهو بيانٌ لشدَّة الاستحقاق. وفيه إشارةٌ للنهي عن الامتنان.

---

(١) البيت لإسماعيل بن يسار كما في الأغاني ٤/ ٤١١، والصحاح (رأى)، وتاج العروس (رأى). ودون نسبة في الكشاف ٤/ ٢٨٨، والدر المصون ١١/ ١١٩، واللسان (رأى)، وخزانة الأدب ٩/ ١٧٢. وجاء في الأغاني: صاح أبصرت، بدل: صاح هل ريت. ووقع في مطبوع الصحاح وتاج العروس في نسبته: إسماعيل بن بشار، ولعله تصحيف، وتنظر أخباره في الأغاني ٤/ ٤٠٨. وقَرَى، أي: جمع، والعلاب: جفان تحلب فيها الناقة. التاج (قرى) و(علب).

(٢) القراءات الشاذة ص١٨١، والمحتسب ٢/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٥١٧.

وقيل: الطعامُ هنا بمعنى الإطعام، وكلامُ الراغب محتملٌ لذلك[١]، فلا يحتاجُ إلى تقدير المضاف.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «ولا يحاضُّ»[٢] مضارع حاضَضْتُ.

وهذه الجملة عَطْفٌ على جملة الصلة، داخلةٌ معها في حيِّز التعريف للمكذِّب، فيكون سبحانه وتعالى قد جَعَل علامتَه الإقدامَ على إيذاء الضعيف وعدم بذل المعروف، على معنى: إنَّ ذلك من شأنه ولوازمِ جنسهِ.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: غافلون غير مُبالين بها حتى تفوتَهم بالكلِّية، أو يخرجَ وقتُها. أو: لا يُصلُّونها كما صلَّاها رسول الله ﷺ والسلف، ولكن يَنقُرونها نَقْراً ولا يخشعون، ويُنْجِدُون فيها ويُتْهِمُون، وفي كلِّ وادٍ من الأفكار الغير المناسبةِ لها يَهيمون، فيُسلِّم أحدُهم منها ولا يدري ما قرأ فيها، إلى غير ذلك مما يدُلُّ على قلَّة المبالاة بها.

وللسلف أقوالٌ كثيرةٌ في المراد بهذا السَّهْو، ولعلَّ كلَّ ذلك من باب التمثيل: فعن أبي العالية: هو الالتفاتُ عن اليمين واليسار.

وعن قتادة: عدمُ مبالاة المرء أصلَّى أم لم يُصلِّ.

وعن ابن عباس وجماعةٍ: تأخيرُها عن وقتها. وفيه حديثٌ أخرجه غيرُ واحد عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً، وقال الحاكم والبيهقي: وقْفُه أصحُّ[٣].

وعن أبي العالية: هو أنْ لا يدري المرءُ عن كم انصرَفَ، عن شَفْعٍ أم عن وتر.

---

(١) مفردات الراغب (طعم).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٧.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٠٠، وأخرجه مرفوعاً البزار (٣٩٢ - كشف)، وأبو يعلى (٨٢٢)، والطبري ٢٤/ ٦٦٣، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٧٧، وابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٨٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢١٤-٢١٥. وأخرجه موقوفاً أبو يعلى (٧٠٤) و(٧٠٥)، والطبري ٢٤/ ٦٦٠، والعقيلي ٣/ ٣٧٧، والبيهقي ٢/ ٢١٤ وقوله فيه، وقول الحاكم لم نقف عليه. وقال البزار: لا نعلم أحداً أسنده إلا عكرمة بن إبراهيم وهو لين الحديث، وقد رواه الثقات الحفاظ عن سعد موقوفاً. اهـ. وقال العقيلي: الموقوف أولى.

وفسَّر بعضُهم السهوَ عنها بتركها، وقال: المرادُ بالمصلين المتَّسِمُون[١] بسِمَة أهلِ الصلاة إنْ أُريدَ بالترك التركُ رأساً وعدمُ الفعل بالكلية، أو المصلُّون[٢] في الجملة إنْ أُريدَ بالترك الترك أحياناً.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ الناسَ فيعملون حيث يروا الناس ويَرَوْنهم طلباً للثناء عليهم[٣].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ أي: الزكاة، كما جاء عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابنِهِ محمد بنِ الحنفية وابن عباس وابن عمر وزيد بنِ أسلم والضحاك وعكرمة، ومنه قولُ الراعي:

أخَلِيفَةَ الرحمن إنَّا مَعشَرٌ ... حُنفاءُ نَسجُدُ بُكرةً وأصيلا
عَرَبٌ نرى لله مِن أموالنا ... حقَّ الزكاة مُنزَّلاً تنزيلا
قومٌ على الإسلام لَمَّا يمنعوا ... ماعونَهم ويُضيِّعوا التهليلا[٤]

وعن محمد بن كعب والكلبي: المعروف كله[٥].

وأخرج جماعة عن ابن مسعود تفسيرَه بما يتعاوَرُه الناسُ بينهم من القِدْر والدَّلو والفأس ونحوها من متاع البيت[٦]. وجاء ذلك عن ابن عباس أيضاً في خبر رواه

---

(١) في الأصل: المتسمين.
(٢) في الأصل: المصلين.
(٣) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، وجاء في تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٨/ ٤٠٢، وتفسير أبي السعود ٩/ ٢٠٤: يُرُون الناس أعمالهم ليُرُوهم الثناء عليها.
(٤) ديوان الراعي ص٢٢٩-٢٣٠. والقرطبي ٢٢/ ٥١٥، والبحر المحيط ٨/ ٥١٨، وذكر البيت الثالث فقط أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٣، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٦٨، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٩٠.
ورواية البيت الأول في الديوان: أَوَليَّ أمرِ الله إنا معشرٌ...، والقصيدة في مدح عبد الملك بن مروان.
(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٧٨.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٢٠٢-٢٠٣، والطبري ٢٤/ ٦٧١-٦٧٢، والحاكم ٢/ ٣٦١، والبيهقي ٦/ ٨٨.

عنه الضياء في «المختارة»، والحاكم وصحَّحه، والبيهقي، وغيرهم[١]، ورَوَوا فيه عدَّة أحاديث مرفوعة[٢].

ومنعُ ذلك قد يكون محظوراً في الشريعة، كما إذا استُعِيرَ عن اضطرارٍ، وقبيحاً في المروءة كما إذا استُعير في غير حالِ الضرورة.

وهو على ما أخرج ابن أبي شيبة عن الزهري: المال بلسان قريش[٣].

وقال أبو عبيدة والزجّاج والمبرد: هو في الجاهلية كلُّ ما فيه منفعةٌ من قليل أو كثير، وأُريدَ به في الإسلام الطاعة[٤].

واختلف في أصله؛ فقال قطرب: أصلُه فاعول، من المَعْن: وهو الشيءُ القليل، وقالوا: ما لَه مَعْنةٌ، أي: شيءٌ قليل.

وقيل: أصلُه معونةٌ، والألفُ عِوضٌ عن الهاء، فوزنُه مَفْعُل في الأصل كـ : مَكْرُم، فتكون الميمُ زائدةً، ووزنُه بعدَ زيادةِ الألف عِوضاً: مافُعْل. وقيل: هو اسم مفعول من أعانَ يُعينُ، وأصلُه مَعْوُوْن[٥]، فقلب فصَارَت عينُه مكانَ فائه فصارَ مَوْعُون، ثم قُلِبَت الواو ألفاً فصار ماعوناً، فوزنُه معفُول بتقديم العين على الفاء.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ﴾ إلخ جزائيةٌ، والكلامُ تَرَقٍّ مِن ذلك المعرَّف إلى مُعرِّفٍ أقوى، أي: إذا كان دَعُّ اليتيم والحضُّ بهذه المثابة فما بال المصلِّي الذي هو ساهٍ عن صلاته ـ التي هي عمادُ الدين، والفارقُ بين الإيمان والكفر ـ مرتكبٌ للرياء في أعماله الذي هو شعبةٌ مِن الشِّرك، ومانعٌ للزكاة التي هي شقيقةُ الصلاة وقَنْطرةُ الإسلام، أو مانعٌ لإعارة الشيء الذي تعارفَ الناس إعارتَه، فضلاً عن

---

(١) المستدرك ٢/ ٥٣٦، والسنن الكبرى للبيهقي ٤/ ١٨٣ و٦/ ٨٨، وعزاه للضياء في المختارة السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٤٠١، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٧٥-٦٧٦.

(٢) ينظر الدر المنثور ٦/ ٤٠٠.

(٣) المصنف لابن أبي شيبة ٣/ ٢٠٤ و١٠/ ٤٦٩-٤٧٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٦٧٨.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٣١٣، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٨، وقول المبرد في تفسير القرطبي ٢٢/ ٥١٥.

(٥) في الأصل: معروف، والمثبت من (م)، وينظر الدر المصون ١١/ ١٢٣.

إخراج الزكاة من ماله، فذاك العَلَم على التكذيب الذي لا يخفَى، والمعرَّف له الذي لا يوفى. والغرضُ التغليظُ في أمر هذه الرذائل التي ابتُليَ بها كثيرٌ من الناس، وأنَّها لَمَّا كانت من سيماء المكذِّب بالدين كان على المؤمن المعتقِدِ له أنْ يَبْعُدَ عنها بمراحلَ، ويَتَبيَّنَ أنَّ أمَّ كلِّ معصيةٍ التكذيبُ بالدين.

والمرادُ بالمكذِّب على هذا الجنسُ، والإشارةُ لا تمنعُ منه كما لا يخفى.

وقيل: هو أبو جهل وكان وصيًّا ليتيمٍ، فأتاه عُرياناً يسألُه من مال نفسِه، فدفَعَه دفعاً شنيعاً. وقال ابن جريج: هو أبو سفيان، نَحَر جزوراً فسأله يتيمٌ لحماً فقرَعَه بعصاه. وقيل: الوليدُ بن المغيرة. وقيل: العاص بن وائل. وقيل: عمرو بن عائذ. وقيل: منافق بخيلٌ.

وعلى جميع هذه الأقوالِ يكونُ معيَّناً، وحينئذٍ فالقولُ بأنَّ الساهين عن الصلاة المرائين أيضاً معرَّفٌ، قال صاحب «الكشف»: غيرُ ملائم، بل يكون شِبْهَ استطرادٍ مستفادٍ من الوصف المعرَّف، أعني: دعَّ اليتيم، على معنى أنَّ الدَّعَّ إذا كان حاله أنَّه عَلَمُ المكذِّب، فما حال السَّهو عن الصلاة وما عُطِفَ عليه، وهما أشدُّ من ذلك وأشدُّ؟ وإنما جُعل شِبْهَ استطرادٍ ـ على ما قال ـ لأنَّ الكلام في التكذيب لا في التحذير من الدَّعِّ بالأصالة.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ في موضع نصبٍ عطفاً على «الذي يكذِّب» عَطْفَ صفة على صفة، على أنَّ الكلامَ استخبارٌ عن حال المكذِّبِ الموصوف بالدعِّ: أَحَسَنٌ هو أم قبيح[1]؟ والمرادُ الجنسُ الصادقُ بالجمع ـ وكونُ ذلك تكلُّفاً واضحاً كما قيل غيرُ واضحٍ ـ فكأنَّه قيل: أخبرني وما تقولُ[2] فيمَن يكذِّبون بالدِّين، وفيمَن يُؤذُون اليتيم، أَحَسَنٌ حالُهم وما يصنعون أم قبيح؟ والغرضُ بَتُّ القول بالقبح على أسلوب قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] ثم قيل: «فويلٌ للمصلِّين» على معنى: إذا عُلِمَ أنَّ حالَهم قبيحٌ فويلٌ

---

(١) من قوله: وجوز الزمخشري، إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٢) في (م): ما تقول، والمثبت من الأصل والكشاف.

لهم، فوضع «المصلين» موضع الضمير دلالة على أنَّهم مع الاتِّصاف بالتكذيب متَّصفون بهذه الأشياء أيضاً[١].

وجعل بعضُهم الفاءَ في «فويل» على العطف المذكور للسببية، وهذا الوجهُ يقتضي اتِّحادَ المصلِّين والمكذبين، وعليه قيل: المرادُ بهم المنافقون، بل روي إطلاقُ القول بأنَّهم المرادون عن ابن عباس ومجاهد والإمام مالك، وقال في «البحر»: يدلُّ عليه: «الذين هم يراؤون»[٢].

ويصحُّ أن يراد بـ «المصلين» على الاتِّحاد: المكلَّفون بالصلاة ولو كفاراً غيرَ منافقين، وبسهوهم عن الصلاة: تركُهم إياها بالكلية. ويلتزم القول بأنَّ الكفارَ مكلَّفون بالفروع مطلقاً.

واعترض أبو حيان ذلك الوجه بأنَّ التركيبَ عليه تركيبٌ غريب، وهو كقولك: أكرمتُ الذي يزورُني، فذاك الذي يُحسن إليَّ، والمتبادر إلى الذهن منه أنَّ «فذلك» مرفوعٌ بالابتداء، وعلى تقدير النصب بالعطف يكونُ التقديرُ: أكرمتُ الذي يزورني فأكرمتُ ذلك الذي يُحسِنُ إلي. واسمُ الإشارةِ فيه غيرُ متمكِّن تمكُّنَ ما هو فصيح، إذ لا حاجةَ إليه، بل الفصيحُ: أكرمتُ الذي يزورني فالذي يُحسن إليَّ، أو: أكرمتُ الذي يزورني فيُحسِنُ إليَّ[٣].

وقيل: إنَّ اسمَ الإشارةِ هنا مقحَمٌ للإشارة إلى بُعْدِ المنزلةِ في الشرِّ والفساد، فتأمل.

وجوِّز أيضاً أنْ يكون العطفُ عطفَ ذاتٍ على ذاتٍ، فالاستخبار عن حال المكذِّبين وحال الدَّاعِّين: أَحسَنٌ هو أم قبيحٌ؟ على قياس ما مرَّ.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٨٩ بنحوه، وقوله: وكون ذلك تكلفاً واضحاً كما قيل غير واضح، هو من كلام المصنف يردُّ به على أبي حيان، حيث إنه تعقب قول الزمخشري: إن «الذي يكذب» معناه الجمع لأن المراد به الجنس، فوُضع «المصلين» موضع ضميره، فقال في البحر ٨/ ٥١٨: هذا تكلف واضح، ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلا على ما يقتضيه ظاهر التركيب.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٧.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٥١٨.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا يلائم المقامَ رجوعُ الضمير إلى الطائفتَين حتى يُوضَع موضع «المصلِّين». فافهم.

وقرأ ابن [أبي] إسحاق والأشهب: «يُرَؤُّون» بالقصر وتشديد الهمزة، وفي رواية أخرى عن ابن [أبي] إسحاق أنَّه قرأ بالقصر وتَرْك التشديد[1]. والله تعالى أعلم.

(١) المحرر الوجيز ٥/٥٢٧، والبحر المحيط ٨/٥١٨، وما بين حاصرتين منهما.

(١٠٨) سورة الكوثر مكية
وآياتها ثلاث

سورة الكوثر مكية ، وهي تتحدث عن فضل الله العظيم على رسوله الكريم ، حيث خصه بأنواع الخيرات والفضائل ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من المرسلين ، ومنها نهر الكوثر ، وهو كما ثبت في الصحيح « نهرٌ في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدُّرِّ والياقوت ، تربته أطيبُ من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيضُ من الثلج ، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً » وغير ذلك من الخير العظيم العميم ، وقد ردَّ على أعدائه أشنع ردّ ، ووصف مبغضه بأنه الذليل الحقير المنقطع من كل خير .

• • •

سورة الكوثر

[١٠٤١] ك. . أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المتصبر المتبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة قال: أنتم خير منه فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾(١).

ك. . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحى إلى النبي [ﷺ] قالت قريش: بتر محمد منا فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾(٢).

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان فلما مات ولد النبي [ﷺ] قال العاصي بن وائل: بتر محمد فنزلت.

وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي وسمي الولد القاسم.

وأخرج عن مجاهد قال: نزلت في العاصي بن وائل وذلك أنه قال: أنا شانيء محمد.

ك. . وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله [ﷺ] مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابىء قد بتر الليلة فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾(٣) إلى آخر السورة.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾(٤) قال: نزلت يوم الحديبية أتاه جبريل فقال: انحر واركع فقام فخطب خطبة الفطر والنحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها قلت: فيه غرابة شديدة.

[١٠٤١] (١) سورة الكوثر: الآية (٣).
(٢) سورة الكوثر: الآية (٣).
(٣) سورة الكوثر: الآية (١).
(٤) سورة الكوثر: الآية (٢).

[١٠٤٢] ك.. وأخرج عن شمر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول أنه لا يبقى للنبي [ﷺ] ولد وهو ابتر فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾(١).

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن إبراهيم ولد النبي [ﷺ] لما مات قالت قريش أصبح محمد أبتر فغاظه ذلك فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾(٢) تعزية له.

* * *

[١٠٤٢] (١) سورة الكوثر: الآية (٣).

(٢) سورة الكوثر: الآية (١).

سورة الكوثر

ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف: **إحداها**: أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة وَصَف الله تعالى المنافق بأمور أربعة: أولها: البخل وهو المراد من قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢، ٣] الثاني: ترك الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] والثالث: المراءاة في الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٦] والرابع: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧] فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة، فذكر في مقابلة البخل قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي إنا أعطيناك الكثير، فأعط أنت الكثير ولا تبخل، وذكر في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ أي دم على الصلاة، وذكر في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، وذكر في مقابلة ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة، ثم ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل.

والوجه الثاني في لطائف هذه السورة: أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات: أعلاها: أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله. **وثانيها**: أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية. **وثالثها**: أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة، فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ إشارة إلى المقام الأول وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف. أمابالكم فلأنها أكثر مقدمات، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالاً من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح، وأما قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فهو إشارة إلى المرتبة الثانية، وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ إشارة إلى المرتبة الثالثة، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جارٍ مجرى النحر والذبح، ثم قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ومعناه أن النفس التي تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة، أنها دائرة فانية، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك، وهي السعادات الروحانية والمعارف

الربانية التي هي باقية أبدية.

ولنشرع الآن في التفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **اعلم أن فيه فوائد:**

الفائدة الأولى: أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور.

أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور، فلأن الله تعالى جعل سورة والضحى في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته: **أولها:** قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]، **وثانيها:** قوله: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] **وثالثها:** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦-٨].

ثم ذكر في سورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١] أنه شرفه بثلاثة أشياء: **أولها:** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] **وثانيها:** ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣]، **وثالثها:** ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

ثم إنه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف: **أولها:** أنه أقسم ببلده وهو قوله: ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، **وثانيها:** أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٦]، **وثالثها:** وصولهم إلى الثواب وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

ثم شرَّفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات: **أولها:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] أي اقرأ القرآن على الحق مستعينًا باسم ربك. **وثانيها:** أنه قهر خصمه بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨]، **وثالثها:** أنه خصه بالقربة التامة وهو ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وشرَّفه في سورة القدر بليلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة: **أولها:** كونها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، **وثانيها:** نزول ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] **وثالثها:** كونها ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وشرفه في سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ [البينة: ١] بأن شرَّف أمته بثلاثة تشريفات: **أولها:** أنهم ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] **وثانيها:** أن ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ﴾ [البينة: ٨]، **وثالثها:** رضي الله عنهم.

وشرَّفه في سورة إذا زلزلت بثلاثة تشريفات: **أولها:** قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية. **والثاني:** قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] وذلك يدل على أنه تُعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور. **وثالثها:** قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها.

ثم شرَّفه في سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته، فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ [العاديات: ١-٣].

ثم شَرَّف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة: **أولها**:فمن ثقلت موازينه. **وثانيها**:أنهم في عيشة راضية. **وثالثها**:أنهم يرون أعداءهم في نار حامية.

ثم شَرَّفه ثم سورة ألهاكم بأن بَيَّن أن المُعْرِضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه: **أولها**:أنهم يرون الجحيم. **وثانيها**:أنهم يرونها عين اليقين. **وثالثها**:أنهم يُسألون عن النعيم.

ثم شَرَّف أمته في سورة والعصر بأمور ثلاثة: **أولها**:الإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٦]، **وثانيها**:﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: ٦] **وثالثها**:إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ثم شَرَّفه في سورة (الهمزة) بأن ذكر أن من همز ولمز فله ثلاثة أنواع من العذاب: **أولها**:أنه لا ينتفع بدنياه البتة، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا﴾ [الهمزة: ٣، ٤] **وثانيها**:أنه يُنبذ في الحطمة. **وثالثها**:أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج، وهو قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨].

ثم شَرَّفه في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه: **أولها**:جعل كيدهم في تضليل. **وثانيها**:أرسل عليهم طير أبابيل. **وثالثها**:جعلهم كعصف مأكول.

ثم شَرَّفه في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه: **أولها**:جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش. **وثانيها**:أطعمهم من جوع. **وثالثها**:أنه آمنهم من خوف.

وشَرَّفه في سورة الماعون بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة: **أولها**:الدناءة واللؤم، وهو قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٣] **وثانيها**:ترك تعظيم الخالق، وهو قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. **وثالثها**:ترك انتفاع الخلق، وهو قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦].

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة، قال بعدها: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشتغِل أنت بعبادة هذا الرب، وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم، أما عبادة الرب فإما بالنفس وهو قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وإما بالمال، وهو قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم، فهو قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾ [الكافرون: ١-٢]فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور. وأما أنها كالأصل لما بعدها، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يُكفر جميع أهل الدنيا بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢]ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم، فلا جرم كان الطعن في مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب ما

لا يثير سائر المطاعن، فلما أمره بأن يُكفر جميع أهل الدنيا ويُبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يُقدم عليه، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف كان يخاف من فرعون وعسكره، وأما ههنا فإن محمدًا عليه السلام لما كان مبعوثًا إلى جميع أهل الدنيا، كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيرًا لطيفًا، وهو أنه قَدَّم على تلك السورة هذه السورة فإن قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه: **أحدها**: أن قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير في الدنيا والدين، فيكون ذلك وعدًا من الله إياه بالنصرة والحفظ، وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤] ومَن كان الله تعالى ضامنًا لحفظه، فإنه لا يخشى أحدًا. **وثانيها**: أنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة، والخُلْف في كلام الله تعالى محال، فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه، ولا يقهرونه، ولا يصل إليه مكرهم، بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة. **وثالثها**: أنه عليه السلام لما كَفَّرهم وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان، اجتمعوا عنده وقالوا: إن كنتَ تفعل هذا طلبًا للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيسًا على أنفسنا. فقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة، فلا تغتر لمالهم ومراعاتهم. **ورابعها**: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة، فهذا يقوم مقام قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى، بل يفيده قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس، فقَدَّم هذه السورة على سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم، وإظهار البراءة عن معبودهم، فلما امتثلتَ أمري، فانظر كيف أنجزتُ لك الوعد، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع، إن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجًا. ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن، وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصورًا على الدنيا، أو يكون طالبًا للآخرة، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان، ثم يكون مصيره إلى النار، وهو المراد من سورة تبت، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات، وقد ثبت في العلوم العقلية أن

طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين: منهم من عرف الصانع، ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور.

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقين، فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله، وهو سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية، وعند ذلك ختم الكتاب، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة في كتابه الكريم!!

الفائدة الثانية في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هي أن كلمة: ﴿إِنَّآ﴾ تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم.

أما الأول: فقد دل على أن الإله واحد، فلا يمكن حمله على الجمع، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون، حين سأل إبراهيم إرسالك فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال موسى: (رب اجعلني من أمة أحمد) وهو المراد من قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] وبشَّر بك المسيح في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

وأما الثاني: وهو أن يكون ذلك محمولاً على التعظيم، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض، والموهوب منه هو المشار إليه بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ والهبة هي الشيء المسمى بالكوثر، وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب، فيا لها من نعمة ما أعظمها، وما أجلها، ويا له من تشريف ما أعلاه!!

الفائدة الثالثة: أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المُهدِي العظيم تصير عظيمة، ولذلك فإن المَلِك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يُعد ذلك إكرامًا عظيمًا، لا لأن لذة الهدية في نفسها، بل لأن صدورها من المهدي العظيم يوجب كونها عظيمة، فههنا الكوثر وإن كان في نفسه في غاية الكثرة، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالاً.

الفائدة الرابعة: أنه لما قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها، وذلك لأن من مذهب أبي حنيفة أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه، فإن أخذ عوضًا وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع، لأن من وهب شيئًا يساوي ألف دينار إنسانًا، ثم طلب منه مشطًا يساوي فلسًا فأعطاه، سقط حق الرجوع، فههنا لما قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع.

الفائدة الخامسة: أنه بنى الفعل على المبتدأ، وذلك يفيد التأكيد، والدليل عليه أنك لما ذكرت

الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصبر مشتاقًا إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه، فإذا ذكر ذلك الخبر قَبِله قَبول العاشق لمعشوقه، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة، ومن ههنا تعرف الفخامة في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] فإنه أكثر فخامة مما لو قال: فإن الأبصار لا تعمى، ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له: أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بأمرك. وذلك إذا كان الموعود به أمرًا عظيمًا. قلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك في الوفاء به، فإذا أسند إلى المتكفل العظيم، فحينئذٍ يزول ذلك الشك، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شيء عظيم، قلما تقع المسامحة به. فلما قَدَّم المبتدأ، وهو قوله: ﴿إِنَّآ﴾ صار ذلك الإسناد مزيلاً لذلك الشك ودافعًا لتلك الشبهة.

الفائدة السادسة: أنه تعالى صَدَّر الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم، وكلام الصادق مصون عن الخُلف، فكيف إذا بالغ في التأكيد.

الفائدة السابعة: قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل: (سنعطيك) لأن قوله: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلاً في الماضي، وهذا فيه أنواع من الفوائد: **إحداها:** أن من كان في الزمان الماضي أبدًا عزيزًا مرعي الجانب مقضي الحاجة - أشرف ممن سيصير كذلك، ولهذا قال عليه السلام: «**كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ**»(١) **وثانيها:** أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار - ليس أمرًا يحدث الآن، بل كان حاصلاً في الأزل. **وثالثها:** كأنه يقول: إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود، فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية؟! **ورابعها:** كأنه تعالى يقول: نحن ما اخترناك وما فضلناك لأجل طاعتك، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والإحسان منا إليك من غير موجب، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**قَبِلَ مَنْ قَبِلَ لاَ لِعِلَّةٍ، وَرَدَّ مَنْ رَدَّ لاَ لِعِلَّةٍ**».

الفائدة الثامنة: قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع؛ لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف، فلما قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ عُلم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلاً، بل هي محض الاختيار والمشيئة، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢] ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

الفائدة التاسعة: قال أولاً: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ثم قال ثانيًا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٦٦) والشيباني في (الآحاد والمثاني) (٥/ ٣٤٧) حديث رقم (٢٩١٨) كلاهما من طريق حماد عن خالد الحذاء . . . به، وابن أبي عاصم في (السنة) (١/ ١٧٩) حديث رقم (٤١٠) من طريق بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر . . . به، والروياني في (مسنده) (٢/ ٤٩٦) حديث رقم (١٥٢٧) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٢٩٢) حديث رقم (٣٧٧٠٨) جميعًا من طريق خالد عن عبد الله بن شقيق . . . به.

وطاعتنا له صفتنا، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق، إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق، ولهذا نُقل عن الواسطي أنه قال: لا أعبد ربًّا يرضيه طاعتي ويسخطه معصيتي. ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتي ومعصيتي محدثتان، والمحدث لا أثر له في قديم، بل رضاه عن العبد هو الذي حمله على طاعته فيما لا يزال، وكذا القول في السخط والمعصية.

الفائدة العاشرة: قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ولم يقل: (آتيناك الكوثر) والسبب فيه أمران: **الأول**: أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجبًا وأن يكون تفضلاً، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يعني هذه الخيرات الكثيرة وهي الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل في الدنيا والآخرة - محض التفضل منا إليك، وليس منه شيء على سبيل الاستحقاق والوجوب، وفيه بشارة من وجهين: **أحدهما**: أن الكريم إذا شرع في التربية على سبيل التفضل، فالظاهر أنه لا يبطلها، بل كان كل يوم يزيد فيها. **الثاني**: أن ما يكون سبب الاستحقاق، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق، وفعل العبد متناهٍ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهيًا، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله، وكرم الله غير متناهٍ، فيكون تفضله أيضًا غير متناهٍ، فلما دل قوله: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبدًا. **فإن قيل**: أليس قال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]؟ **قلنا**: الجواب من وجهين: **الأول**: أن الإعطاء يوجب التمليك، والملك سبب الاختصاص، والدليل عليه أنه لما قال سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]: فقال ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] ولهذا السبب مَن حَمَل الكوثر على الحوض قال: الأمة تكون أضيافًا له، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك، فلهذا قال في القرآن: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ فإنه لا يجوز للنبي أن يكتم شيئًا منه. **الثاني**: أن الشركة في القرآن شركة في العلوم ولا عيب فيها، أما الشركة في النهر فهي شركة في الأعيان وهي عيب. **الوجه الثاني في بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء**: هو أن الإعطاء يستعمل في القليل والكثير، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] أما الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠] والأتيّ السيل المنصب. إذا ثبت هذا فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يفيد تعظيم حال محمد ﷺ من وجوه: **أحدها**: يعني هذا الحوض كالشيء القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة، فهو يتضمن البشارة بأشياء هي أعظم من هذا المذكور. **وثانيها**: أن الكوثر إشارة إلى الماء، كأنه تعالى يقول: الماء في الدنيا دون الطعام، فإذا كان نعيم الماء كوثرًا، فكيف سائر النعيم؟! **وثالثها**: أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء. **ورابعها**: كأنه تعالى يقول: هذا الذي أعطيتك وإن كان كوثرًا لكنه في حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك، وفي العادة أن المُهدِي إذا كان عظيمًا فالهدية وإن كانت عظيمة، إلا أنه يقال: (إنها حقيرة) أي هي حقيرة بالنسبة إلى عظمة المُهدى له، فكذا ههنا. **وخامسها**: أن نقول: إنما قال فيما أعطاه من الكوثر: (أعطيناك) لأنه دنيا، والقرآن إيتاء لأنه دين. **وسادسها**: كأنه يقول: جميع

ما نلت مني عطية وإن كانت كوثرًا إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرًا وخصمك أبتر، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر، أما الذِّكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي فاعبد لي وسل الظفر بعد العبادة فإني أوجبت على كرمي أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة. كذا روي في الحديث المسند، فحينئذٍ أستجيب فيصير خصمك أبتر وهو الإيتاء. فهذا ما يخطر بالبال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾. **أما الكوثر:** فهو في اللغة فوعل من الكثرة، وهو المفرط في الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. أي بالعدد الكثير، ويقال للرجل الكثير العطاء: كوثر، قال الكميت:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا بنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْفَضَائِلِ كَوْثَرَا (١)

ويقال للغبار إذا سطع وكثر (كوثر) هذا معنى الكوثر في اللغة. **واختلف المفسرون فيه على وجوه:**

الأول: -وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف- أنه نهر في الجنة، روى أنس عن النبي ﷺ قال: «**رَأَيْتُ نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَجْرَى الْمَاءِ فَإِذَا أَنَا بِمِسْكٍ أَذْفَرَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ**» (٢) وفي رواية أنس: «**أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ خُضْرٌ، لَهَا أَعْنَاقٌ كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، مَنْ أَكَلَ مِنْ ذَلِكَ الطَّيْرِ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ فَازَ بِالرِّضْوَانِ**» (٣) ولعله إنما سمي ذلك النهر كوثرًا إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيرًا، أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة، كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جارٍ، أو لكثر الذين يشربون منها، أو لكثرة ما فيها من المنافع، على ما قال عليه السلام: «**إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي، فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ**» **القول الثاني:** أنه حوض، والأخبار فيه مشهورة، ووجه التوفيق بين هذا القول والقول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع. **والقول الثالث:** الكوثر أولاده، قالوا: لأن هذه السورة إنما نزلت ردًّا على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قُتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يُعبأ به، ثم أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس

---

(١) تقدمت ترجمة الكميت.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود ي كتاب (السنة) باب (في الحوض) (٤/ ٢٠٢٨) حديث رقم (٤٧٤٨) والترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (٨٩ من سورة الكوثر) (٥/ ٤١٨) حديث رقم (٣٣٥٩) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح من طريق قتادة عن أنس. . . به.

(٣) **إسناده حسن**: أحمد في (مسنده) (٣/ ٢٣٦) حديث رقم (١٣٥٠٥) والطبري في (تفسيره) (٣٠/ ٣٢٤) والضياء في (المختارة) (٦/ ٢٤٣) حديث رقم (٢٢٥٩) والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٥٢٣) حديث رقم (١١٧٠٣) والآجرى في (الشريعة) (٣/ ٢٠١) حديث رقم (١٠٧٣) جميعًا من طريق عبد الله بن مسلم بن شهاب عن أنس بن مالك. . . به.

الزكية وأمثالهم. **القول الرابع:** الكوثر علماء أمته، وهو لعمري الخير الكثير لأنهم كأنبياء بني إسرائيل، وهم يحبون ذكر رسول الله ﷺ وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق، ثم الفضيلة من وجهين: **أحدهما:** أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبي ويتبعه أمته، فربما يجيء الرسول ومعه الرجل والرجلان، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول، فربما يزيد عدد متبعي بعض العلماء على عدد متبعي ألف من الأنبياء. **الوجه الثاني:** أنهم كانوا مصيبين لأتباعهم النصوص المأخوذة من الوحي، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد، أو على قول البعض: إن كان بعضهم مخطئًا لكن المخطئ يكون أيضًا مأجورًا. **القول الخامس:** الكوثر هو النبوة، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية ولهذا قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨] وهو شطر الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى؛ لأن معرفة النبوة لا بد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته، ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذٍ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخيرية والوجدانية على قول بعضهم، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة؛ لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم، ثم هو مبعوث إلى الثقلين، وهو الذي يُحشر قبل كل الأنبياء، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه.

وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى. ولنذكر ههنا قليلاً منها، فنقول:

إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات، على ما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ٣٧] وكتاب إبراهيم أيضًا كان كلمات، على ما قال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٢٤] وكتاب موسى كان صحفًا، كما قال: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] أما كتاب محمد عليه السلام، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل، قال: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨] وأيضًا فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنثورة ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] وأما نوح عليه السلام، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء، وفعل في محمد ﷺ ما هو أعظم منه، روي أن النبي عليه الصلاة والسلام كَانَ عَلَى شَطِّ مَاءٍ وَمَعَهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَادْعُ ذَلِكَ الْحَجَرَ الَّذِي هُوَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ فَلْيَسْبَحْ وَلاَ يَغْرَقْ. فَأَشَارَ الرَّسُولُ إِلَيْهِ، فَانْقَلَعَ الْحَجَرُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ مَكَانِهِ وَسَبَحَ حَتَّى صَارَ بَيْنَ يَدَي الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَشَهِدَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَكْفِيكَ هَذَا؟» قَالَ: حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ. فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ[1]، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه بردًا

(١) لم أجده.

وسلامًا، وفعل في حق محمد أعظم من ذلك، عن محمد بن حاطب قال: كُنْتُ طِفْلاً فَانْصَبَّ الْقِدْرُ عَلَيَّ مِنَ النَّارِ، فَاحْتَرَقَ جِلْدِي كُلُّهُ، فَحَمَلَتْنِي أُمِّي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَتْ: هَذَا ابْنُ حَاطِبٍ احْتَرَقَ كَمَا تَرَى!! فَتَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جِلْدِي وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى الْمُحْتَرِقِ مِنْهُ، وَقَالَ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ»، فَصِرْتُ صَحِيحًا لاَ بَأْسَ بِي. وأكرم موسى ففلق له البحر في الأرض، وأكرم محمدًا ففلق له القمر في السماء، ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض، وفجّر له الماء من الحجر، وفجّر لمحمد أصابعه عيونًا، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام، وكذا أكرم محمدًا بذلك فكان الغمام يظلله، وأكرم موسى باليد البيضاء، وأكرم محمدًا بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم، الذي وصل نوره إلى الشرق والغرب، وقلب الله عصا موسى ثعبانًا، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين، فانصرف مرعوبًا.

وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه، وكان داود إذا مسك الحديد لان، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمدًا بالبراق.

وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته، وأبرأ الأكمه والأبرص، روي أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء، وشكت ذلك إلى الرسول ﷺ فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أُحد فرفعها وجاء بها إلى رسول الله ﷺ، فردَّها إلى مكانها، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس في بيوتهم، والرسول عرف ما أخفاه عمه مع أم الفضل، فأخبره فأسلم العباس لذلك. وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة، وفعل ذلك أيضًا للرسول حين نام ورأسه في حِجر عليّ فانتبه وقد غربت الشمس، فردها حتى صلى، وردها مرة أخرى لعلي فصلى العصر في وقته، وعلَّم سليمان منطق الطير، وفعل ذلك في حق محمد، روي أن طيرًا فُجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال: «أيكم فجع هذه بولدها؟» فقال رجل: أنا. فقال: «اردد إليها ولدها» وكلام الذئب معه مشهور، وأكرم سليمان بمسيره غدوة شهرًا وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في ساعة، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجيء به، وقد شكوا إليه من ناقة أنها أغيلت، وأنهم لا يقدرون عليها، فذهب إليها، فلما رأته خضعت له، وأرسل معاذًا إلى بعض النواحي، فلما وصل إلى المفازة، فإذا أسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجر (ئ) أن يرجع، فتقدم وقال: (إني رسول رسول الله) فتبصبص، وكما انقاد الجن لسليمان، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام، وحين جاء الأعرابي بالضب. وقال: لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب. فتكلم الضب معترفًا برسالته، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة وحنت الحنانة لفراقه، وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار، قالت: كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتني

عنه؟! وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل!! ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد[(١)]، فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[الأحزاب: ٧] فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثرًا، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **القول السادس:** الكوثر هو القرآن، وفضائله لا تحصى، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾[لقمان: ٢٧] ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾[الكهف: ١٠٩] **القول السابع:** الكوثر الإسلام، وهو لعمري الخير الكثير، فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة. وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة، وكيف لا والإسلام عبارة عن المعرفة، أو ما لا بد فيه من المعرفة، قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] وإذا كان الإسلام خيرًا كثيرًا فهو الكوثر، **فإن قيل:** لمَ خصه بالإسلام، مع أن نعمه عمت الكل؟ **قلنا:** لأن الإسلام وصل منه إلى غيره، فكان عليه السلام كالأصل فيه.

القول الثامن: الكوثر كثرة الأتباع والأشياع، ولا شك أن له من الأتباع ما لا يحصيهم إلا الله، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أَنَا دَعْوَةُ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَا بُشْرَى عِيسَى، وَأَنَا مَقْبُولُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَبَيْنَا أَكُونُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ تَظْهَرُ لَنَا أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ فَنَبْتَدِرُهُمْ بِأَبْصَارِنَا، مَا مِنَّا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ تَكُونَ أُمَّتَهُ، فَإِذَا هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَظْهَرُ لَنَا مِثْلُ مَا ظَهَرَ أَوَّلاً فَنَبْتَدِرُهُمْ بِأَبْصَارِنَا، مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَيَرْجُو أَنْ تَكُونَ أُمَّتَهُ، فَإِذَا هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ فَأَقُولُ: أُمَّتِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يُرْفَعُ لَنَا ثَلَاثَةُ أَمْثَالِ مَا قَدْ رُفِعَ فَنَبْتَدِرُهُمْ. وَذَكَرَ كَمَا ذَكَرَ فِي الْمَرَّةِ الْأَوْلَى وَالثَّانِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: (لَيَدْخُلَنَّ) ثَلَاثُ فِرَقٍ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ**»[(٢)] ولقد قال عليه الصلاة والسلام: «**تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ بِالسِّقْطِ**»[(٣)] فإذا

---

(١) بفضل الله وكرمه ومنّه قمت بتجميع جزء لطيف في معجزاته ﷺ سميته (الآيات المبهرات فيم صح عن النبي ﷺ من المعجزات) وطبعته دار الحديث بالقاهرة، فهو يغني عما كُتب في هذه الصفحة من معجزاته ﷺ لأن فيها أحاديث ضعيفة بل وموضوعة، والكلام عنها سيطول، وبالله التوفيق.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ٢٦٢) حديث رقم (٢٢٣١٥) من طريق الفرج بن فضالة... به وابن الجعد في (مسنده) (١/ ٤٩٢) حديث رقم (٣٤٢٨) من طريق... به، والطبراني في (الكبير) (٨/ ١٧٥) حديث رقم (٧٧٢٩) من طريق فرج بن فضالة... به، وقال الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٢٢) من حديث أبي أمامة رواه أحمد وإسناده حسن وله شواهد تقويته ورواه الطبراني. قلت: وفي إسناد الحديث فرج بن فضالة وهو منكر الحديث ولكن له شواهد تقويه كما ذكرها شيخنا الألباني رحمه الله في (صحيحته) (١٥٤٦).

(٣) ضعيف: أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣٨٠) حديث رقم (١٠٢١) وقال: رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً بلفظ «تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة» قال في المقاصد: جاء معناه عن جماعة من الصحابة، فأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن معقل بن يسار مرفوعا «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» ولأحمد وسعيد بن منصور والطبراني في الأوسط والبيهقي وآخرين عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهي عن التبتل نهيًا شديدًا ويقول «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وصححه ابن حبان والحاكم، ولابن ماجه عن أبي هريرة رفعه «انكحوا فإني مكاثر بكم» قال وقد=

كان يباهي بمن لم يبلغ حد التكليف، فكيف بمثل هذا الجم الغفير؟! فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **القول التاسع:** الكوثر: الفضائل الكثيرة التي فيه، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء، قال المفضل بن سلمة: يقال: رجل كوثر، إذا كان سخيًّا كثير الخير، وفي (صحاح اللغة): الكوثر: السيد الكثير الخير، فلما رزق الله تعالى محمدًا هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **القول العاشر:** الكوثر: رفعة الذكر، وقد مر تفسيره في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤] **القول الحادي عشر:** أنه العلم، قالوا: وحمل الكوثر على هذا أَوْلى لوجوه: **أحدها:** أن العلم هو الخير الكثير قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] وأمره بطلب العلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤] وسمى الحكمة خيرًا كثيرًا فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] **وثانيها:** أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة، أو على نعم الدنيا، والأول غير جائز لأنه قال: أعطينا، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، داخلة في العلم، فوجب حمل اللفظ على العلم.

وثالثها: أنه لما قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قال عقيبه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ والشيء الذي يكون متقدمًا على العبادة هو المعرفة، ولذلك قال في سورة النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[النحل: ٢] وقال في طه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[طه: ١٤] فقدم في السورتين المعرفة على العبادة، ولأن فاء التعقيب في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم. **القول الثاني عشر:** أن الكوثر هو الخُلُق الحَسَن، قالوا: الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل، فأما الانتفاع بالعلم فهو مختص بالعقلاء، فكان نفع الخلق الحسن أعم، فوجب حمل الكوثر عليه، ولقد كان عليه السلام كذلك، كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفي مهمهم، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه، قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» **القول الثالث عشر:** الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة، فقال في الدنيا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال: ٣٣] وقال في الآخرة: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»(١) وعن أبي هريرة قال عليه

=جمعت الإشارة في جزء انتهى وقال في المواهب: لم صليت عليه وقال النجم، ورواه أحمد عن ابن عمر بلفظ (انكحوا العالمين الأولاد فإني أباهي بهم يوم القيامة) وفي الباب أيضًا ما تقدم في تزوجوا، وضَعّفه الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٢٣٣).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد) باب (في المشيئة والإرادة) (١٣/ ٤٥٦) حديث رقم (٤٧٤٧) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته) (١/ ٣٣٤/ ١٨٨) من طريق مالك... به، كلاهما عن الزهري... به.

السلام: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً، وَإِنِّي خَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» **القول الرابع عشر:** أن المراد من الكوثر هو هذه السورة، قال: وذلك لأنها مع قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه: **أولها:** أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع، أو على كثرة الأولاد، وعدم انقطاع النسل، كان هذا إخبارًا عن الغيب، وقد وقع مطابقًا له، فكان معجزًا. **وثانيها:** أنه قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر، وقد وقع، فيكون هذا أيضًا إخبارًا عن الغيب. **وثالثها:** قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزًا. **ورابعها:** أنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها، فثبت أن وجه الإعجاز في كمال القرآن إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أَوْلى، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة، وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع، وتقرر الدين والإسلام، وتقرر أن القرآن كلام الله، وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة، فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد، فكانت صغيرة في الصورة كبيرة في المعنى، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهي أنها ثلاث آيات، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهي بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز، وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة. **القول الخامس عشر:** أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام، وهو المنقول عن ابن عباس؛ لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أَوْلى من حملها على الباقي فوجب حملها على الكل، وروي أن سعيد بن جبير، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة. فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. وقال بعض العلماء ظاهر قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه في حال نزول هذه السورة بمكة، ويمكن أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضيعة له، يصح أن يقال: إنه أعطاه تلك الضيعة، مع أن الصبي في تلك الحال لا يكون أهلاً للتصرف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ وجوه: **الأول:** أن المراد هو الأمر بالصلاة، **فإن قيل:**

اللائق عند النعمة الشكر، فلمَ قال: فصلِّ ولم يقل: فاشكر؟ **الجواب من وجوه: الأول:** أن الشكر عبارة عن التعظيم، وله ثلاثة أركان: أحدها: يتعلق بالقلب، وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره. والثاني: باللسان وهو أن يمدحه. والثالث: بالعمل، وهو أن يخدمه ويتواضع له، والصلاة مشتملة على هذه المعاني وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن. **وثانيها:** أنه لو قال: (فاشكر) لكان ذلك يوهم أنه ما كان شاكرًا لكنه كان من أول أمره عارفًا بربه مطيعًا له شاكرًا لنعمه، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحي، قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] **الثالث:** أنه في أول ما أمره بالصلاة قال محمد عليه الصلاة والسلام: «**كيف أصلي ولست على الوضوء؟!**»(١)، فقال الله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك: ﴿فَصَلِّ﴾، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة، فكأنه قال: أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات، وأشرفها الصلاة فصلِّ لربك. **القول الثاني:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي فاشكر لربك، وهو قول مجاهد وعكرمة، وعلى هذا القول ذكروا في فائدة الفاء في قوله ﴿فَصَلِّ﴾ وجوهًا: **أحدها:** التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي. **وثانيها:** أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة إلى ما قرره بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم إنه خص محمدًا ﷺ في هذا الباب بمزيد مبالغة، وهو قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ولأنه قال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أي فعليك بأخرى عقيب الأولى، فكيف بعد وصول نعمتي إليك، ألا يجب عليك أن تشرع في الشكر عقيب ذلك؟ **القول الثالث:** ﴿فَصَلِّ﴾ أي فادع الله؛ لأن الصلاة هي الدعاء، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول: قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك بالكوثر فكيف بعد سؤالك: لكن (سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)(٢) وذلك لأنه كان أبدًا في هَم أمته، واعلم أن القول الأول أَوْلى لأنه أقرب إلى عرف الشرع.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ **قولان:**

الأول: -وهو قول عامة المفسرين- أن المراد هو نحر البدن. **والقول الثاني:** أن المراد بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فعل يتعلق بالصلاة إما قبلها أو فيها أو بعدها، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** قال الفراء: معناها استقبل القبلة. **وثانيها:** روى الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه السورة قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل: «**مَا هَذِهِ النَّحِيرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي؟ قَالَ لَيسَتْ بِنَحِيرَةٍ وَلَكِنَّهُ يَأْمُرُكَ إِذَا تَحَرَّمْتَ لِلصَّلَاةِ أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ إِذَا كَبَّرْتَ وَإِذَا رَكَعْتَ وَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ وَإِذَا سَجَدْتَ، فَإِنَّهُ صَلَاتُنَا وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ السَّبعِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ**

---

(١) لم أجده.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في (صحيحه) (٥/ ٢٤٠١) حديث رقم (٦١٩٧) ومسلم في (صحيحه) (١/ ١٨٠/ ١٩٣) كلاهما من طريق قتادة عن أنس... به.

زِينَةٌ، وَزِينَةُ الصَّلاَةِ رَفْعُ الْيَدَيْنِ عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ» (١) **وثالثها:** روي عن علي بن أبي طالب أنه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر في الصلاة، وقال: رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع. **ورابعها:** قال عطاء: معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك. **وخامسها:** روي عن الضحاك وسليمان التيمي أنهما قالا: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحرك. قال الواحدي: وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذي هو الصدر، يقال لمذبح البعير: (النحر) لأن منحره في صدره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر، فمعنى النحر في هذا الموضع هو إصابة النحر، كما يقال: رأسه وبطَنه، إذا أصاب ذلك منه. وأما قول الفراء: (إنه عبارة عن استقبال القبلة) فقال ابن الأعرابي: النحر: انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب، وهو أن ينصب نحره بإزاء القبلة، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً. وقال الفراء: منازلهم تتناحر، أي تتقابل. وأنشد:

أَبَا حَكَمٍ هَلْ أَنْتَ عَمُّ مُجَالِدٍ وَسَيِّدُ أَهْلِ الأَبْطَحِ الْمُتَنَاحِرِ

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول: الكعبة بيتي وهي قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتي ونظر عنايتي، فلتكن القبلتان متناحرتين. قال الأكثرون: حمله على نحر البدن أَوْلى لوجوه: **احدها:** هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة في كتابه ذكر الزكاة بعدها. **وثانيها:** أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقيل له: فصل وانحر لربك. **وثالثها:** أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشيء على جميعه. **ورابعها:** أن قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله، وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين. **وخامسها:** أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله في سائر الوجوه المذكورة، فيجب حمل كلام الله عليه. **وإذا ثبت هذا فنقول:** استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر، ولا بد وأن يكون قد فعله؛ لأن ترك الواجب عليه غير جائز، وإذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وأصحابنا قالوا: الأمر بالمتابعة مخصوص بقوله: «ثَلاَثٌ كُتِبَتْ عَلَيَّ وَلَمْ تُكْتَبْ عَلَيْكُمْ: الضُّحَى وَالأَضْحَى وَالْوِتْرُ».

المسألة الثالثة: اختلف من فسر قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ بالصلاة على وجوه: **الأول:** أنه أراد بالصلاة

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ٧٥) حديث رقم (٢٣٥٧) والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٨٦) حديث رقم (٣٩٨١) والخطيب في (تاريخ بغداد) (١٤/ ٤٢٢) حديث رقم (٧٧٧٢) جميعًا من طريق إسرائيل بن حاتم عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب... به، وأورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (١/ ٢٧٣) وقال: إسناده ضعيف جدًا واتهم به ابن حبان في الضعفاء إسرائيل بن حاتم وقال الذهبي في تعليقه التلخيصي: إسرائيل صاحب عجائب لا يُعتمد عليه وأصبغ شيعي متروك عند النسائي.

جنس الصلاة، لأنهم كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمره أن لا يصلي ولا ينحر إلا لله تعالى، واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بيّن كيفية هذه الصلاة. أجاب أبو مسلم. وقال: أراد به الصلاة المفروضة، أعني الخمس، وإنما لم يذكر الكيفية لأن الكيفية كانت معلومة من قبل. **القول الثاني:** أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية. قال المحققون: هذا قول ضعيف لأن عطف الشيء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب. **القول الثالث:** عن سعيد بن جبير: صلِّ الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى. والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تُحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر.

المسألة الرابعة: اللام في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، **فيها فوائد:**

الفائدة الأولى: هذه اللام للصلاة كالروح للبدن، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم إنما يكون حسنًا ممدوحًا إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتًا فيكون مرميًا، كذا الصلاة والركوع والسجود، وإن حسنت في الصورة وطالت، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية، وهو المراد من قوله تعالى لموسى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقيل: إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له: لتكن صلاتك ونحرك لله.

الفائدة الثانية: كأنه تعالى يقول: ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءاة فصلِّ أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص.

المسألة الخامسة: الفاء في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ تفيد سببية أمرين: **أحدهما:** سببية العبادة كأنه قيل: تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية. **والثاني:** سببية ترك المبالاة، كأنهم لما قالوا له: (إنك أبتر) فقيل له: كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم.

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب، والفاء في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم، لا جرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١) ولقد صلى حتى تورمت قدماه، فقيل له: أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»(٢)

---

(١) **حسن صحيح:** أخرجه النسائي في كتاب (عشرة النساء) باب (حُب النساء) (٣/ ٧٢٩) حديث رقم (٣٩٤٩) من طرق عفان بن مسلم... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٢٨) من طريق أبي عبيدة... به، كلاهما (أبو عبيدة، عفان) عن سلام أبي المنذر... به.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التهجد) باب (قيام النبي ﷺ) (٣/ ١٩) حديث رقم (١١٣٠) من طريق أبي نعيم عن مسعر... به، ومسلم في كتاب (صفات المنافقين) باب (إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة) (٤/ ٩٨/ ٢١٧١) من طريق قتيبة عن أبي عوانة... به، كلاهما (مسعر، أبو عوانة) عن زياد... به.

فقوله: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!» إشارة إلى أنه يجب عليَّ الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾.

المسألة السادسة: كان الأليق في الظاهر أن يقول: (إن أعطيناك الكوثر، فصل لنا وانحر) لكنه ترك ذلك إلى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ لفوائد: **إحداها**: أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة. **وثانيها**: أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين. **وثالثها**: أن قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره، وأيضًا كلمة ﴿إِنَّآ﴾ تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلو قال: صلِّ لنا، لنفى ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ، وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحًا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.

المسألة السابعة: قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قوله: (فصلِّ لله) لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه.

المسألة الثامنة: في الآية سؤالان: **أحدهما**: أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة، فلمَ كان المذكور ههنا هو النحر؟ **والثاني**: لمَ لم يقل: (ضحِّ) حتى يشمل جميع أنواع الضحايا؟

والجواب عن الأول: أما على قول من قال: المراد من الصلاة صلاة العيد، فالأمر ظاهر فيه، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة، فلوجوه: **أحدها**: أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان، فقيل له: اجعلهما لله. **وثانيها**: أن من الناس من قال: إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا، بل كان يملك بقدر الحاجة، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه، أما النحر فقد كان واجبًا عليه لقوله: «**ثَلاَثٌ كُتِبَتْ عَلَيَّ وَلَمْ تُكْتَبْ عَلَى أُمَّتِي: الضُّحَى وَالأَضْحَى وَالْوِتْرُ**»(١) **وثالثها**: أن أعز الأموال عند العرب هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى

---

(١) أورده ابن حجر في (التلخيص) (٢/ ٤٥) حديث رقم (٥٣٠) وقال: لم أجده هكذا ثم قال روي أنه ﷺ قال «كتب عليَّ الوتر وهو لكم سنة وكُتبت عليَّ ركعتا الضحى وهما لكم سنة» أحمد والدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس بلفظ: «ثلاث هن عليَّ فرائض ولكم تطوع: النحر والوتر وركعتا الضحى» لفظ أحمد وفي رواية للدارقطني (وركعتا الفجر) بدل (وركعتا الضحى) وفي رواية لابن عدي (الوتر والضحى وركعتا الفجر) ومداره على أبي جناب الكلبي عن عكرمة وأبو جناب ضعيف ومدلس أيضًا وقد عنعنه، وأطلق الأئمة على هذا الحديث الضعف كأحمد والبيهقي وابن الصلاح وابن الجوزي والنووي وغيرهم، وخالف الحاكم فأخرجه في مستدركه لكن لم يتفرد به أبو جناب بل تابعه أضعف منه وهو جابر الجعفي، رواه أحمد والبزار وعبد بن حميد من طريق إسرائيل عنه عن عكرمة عنه بلفظ: «أمرت بركعتي الفجر والوتر ولم تكتب عليكم» وله متابع آخر من رواية وضاح بن يحيى عن مندل بن علي عن يحيى بن سعيد عن عكرمة، قال ابن حبان في الضعفاء: وضاح لا يحتج به، كان يروي الأحاديث التي كأنها=

تنبيهًا على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها، روي أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب، فنحر هو عليه السلام حتى أعيا، ثم أمر عليًّا عليه السلام بذلك [(١)]، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله، فلما أخذ عليّ السكين تباعدت منه.

والجواب عن الثاني: أن الصلاة أعظم العبادات البدنية، فقرن بها أعظم أنواع الضحايا، وأيضًا فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل.

المسألة التاسعة: دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر، لا لأن الواو توجب الترتيب، بل لقوله عليه السلام: «**ابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**».

المسألة العاشرة: السورة مكية في أصح الأقوال، وكان الأمر بالنحر جاريًا مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في سبب النزول وجوهًا: **أحدها:** أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد، والعاص بن وائل السهمي يدخل، فالتقيا فتحدثا وصناديد قريش في المسجد، فلما دخل قالوا: من الذي كنت تتحدث معه؟ فقال: ذلك الأبتر. وأقول: إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض، مع أن الله تعالى أظهره، فحينئذٍ يكون ذلك معجزًا، وروي أيضًا أن العاص بن وائل كان يقول: إن محمدًا أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره!! واسترحم منه، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير. **القول الثاني:** روي عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ فقال: بل أنتم خير منه. فنزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ونزل أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] **والقول الثالث:** قال عكرمة وشهر بن حوشب: لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشًا إلى الإسلام، قالوا: بُتر

=معمولة ومندل أيضًا ضعيف، وروى الدارقطني من وجه آخر من حديث أنس ما يعارض هذا ولفظه: (أُمرت بالوتر والأضحى) ولم يعز على لكنه من رواية عبد الله بن محرر وهو ضعيف جدًا. قلت: أخرجه أحمد (١/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤) والدارقطني في (سننه) (٢/ ٢١) كتاب (الوتر) باب (صفة الوتر وأنه ليس بفرض) حديث رقم (١) والحاكم في (المستدرك) (١/ ٣٠٠) كتاب (الوتر)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٢/ ٤٦٨) كتاب (الصلاة) باب (جمع أبواب صلاة التطوع وقيام شهر رمضان) من طريق أبي بدر عن أبي جناب الكلبي عن عكرمة عن ابن عباس: قال الذهبي في (تلخيص المستدرك): سكت عنه الحاكم وهو غريب منكر، ويحيى ضعفه النسائي والدارقطني. وقال البيهقي: أبو جناب الكلبي اسمه يحيى بن أبي حية ضعيف، وكان يزيد بن هارون يصدقه ويرميه بالتدليس.

(١) تقدم.

محمد! أي خالفنا وانقطع عنا، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون. **القول الرابع:** نزلت في أبي جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل: إني أبغضه لأنه أبتر. وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فإن موت الابن لم يكن مراده. **القول الخامس:** نزلت في عمه أبي لهب فإنه لما شافهه بقوله: (تبًّا لك) كان يقول في غيبته: (إنه أبتر) **والقول السادس:** أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط، وإنه هو الذي كان يقول ذلك. واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فإنهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول؛ فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه.

المسألة الثانية: الشنآن هو البغض والشانئ هو المبغض، وأما البتر فهو في اللغة استئصال القطع، يقال: بترته أبتره بترًا، وبُتر أي صار أبتر وهو مقطع الذنَب، ويقال للذي لا عقب له: أبتر، ومنه الحمار الأبتر، الذي لا ذنَب له، وكذلك لمن انقطع عنه الخير.

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بيَّن تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه، فإنك إذا قلت: (زيد هو العالم) يفيد أنه لا عالم غيره. إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام: (إنه أبتر) لا شك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه.

ثم ذلك إما أن يُحمل على خير معين، أو على جميع الخيرات: **أما الأول فيحتمل وجوهًا:** **أحدها:** قال السدي: كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده: بُتر، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا: (بُتر فليس له من يقوم مقامه) ثم إنه تعالى بيَّن أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة، فإنا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو، وهكذا يكون إلى قيام القيامة. **وثانيها:** قال الحسن: عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله تعالى بيَّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين، وصارت رايات الإسلام عالية، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة. **وثالثها:** زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب. **ورابعها:** الأبتر هو الحقير الذليل، روي أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف، ثم قال: قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلاً حقيرًا. فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطًا، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام واقفًا كالجبل، ثم بعد ذلك رماه النبي ﷺ على أقبح وجه، فلما رجع أخذه باليد اليسرى؛ لأن اليسرى للاستنجاء، فكان نجسًا فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هذه الواقعة. **وخامسها:** أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف، قيل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي الذي قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى، وأما المدح الذي ذكرناه فيك، فإنه باقٍ على

وجه الدهر. **وسادسها:** أن رجلاً قام إلى الحسن بن علي عليهما السلام، وقال: سودت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية!! فقال: لا تؤذيني يرحمك الله، فإن رسول الله رأى بني أمية في المنام يصعدون منبره رجلاً فرجلاً فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فكان ملك بني أمية كذلك، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين.

المسألة الثالثة: الكفار لما شتموه، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم، وذكر مثل ذلك في مواضع حين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧-٨] فقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨] وحين قالوا: هو مجنون أقسم ثلاثًا ثم قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ و[القلم: ٢] ولما قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣] أجاب فقال: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ١-٣] وحين قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦] رد عليهم وقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] فصدقه، ثم ذكر وعيد خصمائه وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨] وحين قال حاكيًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩] ولما حكى عنهم قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] سماهم كاذبين بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤] ولما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] أجابهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فما أجلَّ هذه الكرامة!!

المسألة الرابعة: اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة، وعلم تعالى أن النعمة لا تهنأ إلا إذا صار العدو مقهورًا، لا جرم وعده بقهر العدو، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وفيه لطائف: **إحداها:** كأنه تعالى يقول: لا أفعله لكي يرى بعض أسباب دولتك، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ. **وثانيها:** وصفه بكونه شانئًا، كأنه تعالى يقول: هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك، والمبغض إذا عجز عن الإيذاء، فحينئذٍ يحترق قلبه غيظًا وحسدًا، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو. **وثالثها:** أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبتر لأنه كان شانئًا له ومبغضًا، والأمر بالحقيقة كذلك، فإن من عادى محسودًا فقد عادى الله تعالى، لاسيما من تكفل بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته. **ورابعها:** أن العدو وصف محمدًا عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة، ونفسه بالكثرة والدولة، فقلب الله الأمر عليه، وقال: العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام، والأبترية والدناءة والذلة للعدو، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف.

المسألة الخامسة: اعلم أن من تأمل في مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التي ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر.

روي عن مسيلمة أنه عارضها فقال: إنا أعطيناك الجماهر، فصلِّ لربك وجاهر، إن مبغضك رجل كافر، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه: **أحدها**: أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة، وهذا لا يكون معارضة. **وثانيها**: أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها، وكالأصل لما بعدها، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالاً لأكثر لطائف هذه السورة. **وثالثها**: التفاوت العظيم الذي يقر به من له ذوق سليم بين قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وبين قوله: (إن مبغضك رجل كافر) ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر، فوصفه بأنه لا ولد له، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر، فالله سبحانه مدحه مدحًا أدخل فيه كل الفضائل، وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشيء دون شيء، لا جرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات؛ لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب، أما طاعة البدن فأفضله شيئان، لأن طاعة البدن هي الصلاة، وطاعة المال هي الزكاة، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله، واللام في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ يدل على هذه الحالة، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن، فقدم طاعة البدن في الذكر وهو قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهًا على فساد مذهب أهل الإباحة في أن العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة، وعلى أنه لا بد من الإخلاص، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله في المعاد، كأنه يقول: كنت ربيتك قبل وجودك، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات؟ ثم كما تكفل أولاً بإفاضة النعم عليه تكفل في آخر السورة بالذب عنه وإبطال قول أعدائه، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم، والآخر بتكميل النعم في الدنيا والآخرة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تفسير سورة «الكوثر»

وهي مكيةٌ في قولِ ابن عباسٍ والكلبيِّ ومقاتلٍ[1]. ومدنِيةٌ في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومجاهدٍ وقتادة[2]. وهي ثلاثُ آيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قراءةُ العامة: «إِنَّا أَعْطيناك» بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: «أَنْطَيْنَاكَ» بالنون؛ ورَوَتْه أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ[3]؛ وهي لغةٌ في العطاء؛ أنطيتُه: أعطيته.

و«الكوثر»: فَوْعَل من الكثرة، مثل: النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعربُ تسمِّي كلَّ شيءٍ كثيرٍ في العدد والقَدْرِ والخَطَرِ كوثراً[4]. قال سفيان: قيل لعجوزٍ رجع ابنُها من السفر: بِمَ آبَ ابنُكِ؟ قالت: بكوثر، أي: بمالٍ كثير[5]. والكوثرُ من الرجال: السيدُ الكثيرُ الخيرِ؛ قال الكُميت:

وأنـت كـثـيـرٌ يـا ابـنَ مَـرْوانَ طَـيِّـبٌ ... وكـان أبـوك ابـنُ الـعـقـائِـلِ كَـوْثـرا[6]

والكوثر: العددُ الكثيرُ من الأصحاب والأشياع. والكوثرُ من الغبار: الكثير، وقد تَكَوْثَر؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠١ .

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٤٧ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٨١ والكشاف ٤/ ٢٩٠ ، وحديث أم سلمة أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ (٨٦٢). وفي إسناده عمرو بن عبيد، قال عنه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٨ : واهي الحديث.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩٠ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٢٤ .

(٦) ديوان الكميت ص ١٧٧ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٨ ، والصحاح (كثر) والكلام منه.

وقد ثارَ نَقْعُ الموتِ حتى تَكَوْثَرا[١]

الثانية: واختلف أهلُ التأويل في الكوثر الذي أُعطِيَه النبيُّ ﷺ على ستةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنَّه نهرٌ في الجنة؛ رواه البخاريُّ عن أنس والترمذيُّ أيضاً[٢]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣].

وروى الترمذيُّ أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثرُ نهرٌ في الجنة، حافَتَاه من ذهب، ومَجْراهُ على الدرِّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أَحْلَى من العسل وأبيضُ من الثلج». هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٤].

الثاني: أنَّه حوضُ النبيِّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء[٥]. وفي «صحيح» مسلم[٦] عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أَغْفَى[٧] إغفاءةً، ثم رفع رأسَه مُتبَسِّماً، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ» فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ. قال: «فإنَّه نهرٌ وَعَدَنيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ، آنِيتُهُ عددُ النُّجُوم، فيُخْتلَجُ العبدُ منهم، فأقولُ: إنَّه من أُمَّتي، فيقال: إنَّك لا تَدْري ما أَحْدَثَ بَعْدَكَ».

---

(١) الصحاح (كثر)، وصدر البيت: أبَوْا أن يبيحوا جارَهم لعدوهم، وقائله حسان بن نُشْبَةَ التيمي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ٣٣٨، وأساس البلاغة (كثر)، واللسان (كثر). وذكر التبريزي في شرح ديوان الحماسة ١/ ١٧٦ عن ابن الأعرابي أن الصواب في اسمه: جِسّاس مثل عِساس.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٨١) و(٧٥١٧)، وسنن الترمذي (٣٣٥٩)، وهو عند أحمد (١٢٠٠٨) و(١٢٩٨٩).

(٣) ص ٤٤٦.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦١)، وهو عند أحمد (٥٣٥٥).

(٥) أخرجه عنه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨، والطبري ٢٤/ ٦٨٥.

(٦) برقم (٤٠٠)، وهو عند أحمد (١١٩٩٦).

(٧) في صحيح مسلم: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهُرِنا إذ أغفى...

والأخبارُ في حوضه في الموقف كثيرةٌ، ذكرناها في كتاب «التذكرة»[١]، وأنَّ على أركانه الأربعةِ خُلَفاءَه الأربعة رضوانُ الله عليهم، وأنَّ مَن أَبْغَضَ واحدًا منهم لم يَسْقِه الآخَر[٢]؛ وذكرنا هُناكَ مَن يُطْرَد عنه[٣]. فَمَن أراد الوقوفَ على ذلك تأمَّلَه هناك.

ثم يجوزُ أن يسمَّى ذلك النهرُ أو الحوضُ كوثراً، لكثرة الواردةِ والشَّارِبةِ من أمّةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام هناك. ويسمَّى به لمَا فيه من الخيرِ الكثير والماء الكثير.

الثالث: أنَّ الكوثر النبوةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة[٤].

الرابع: القرآن؛ قاله الحسن.

الخامس: الإسلام؛ حكاه المغيرة.

السادس: تيسيرُ القرآن وتخفيفُ الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل.

السابع: هو كثرةُ الأصحابِ والأمةِ والأشياعِ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب.

الثامن: أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان[٥].

التاسع: أنه رِفْعةُ الذِّكر. حكاه الماوَرْديّ[٦].

---

(١) ص٣٠٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٦٣)، وابن الجوزي في العلل (٤٠٨) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) وردت في هذا أحاديث، منها ما سلف آنفاً من حديث أنس ﷺ عند مسلم، ومنها ما أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها. ومنها حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عند البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧). ومنها حديث سهل بن سعد عند البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠)، وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩١). وجميعها بنحو ما ورد في حديث أنس السالف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨ ، والطبري ٢٤/ ٦٨٤ . ووقع عند ابن أبي شيبة: النبوة والإسلام.

(٥) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ .

(٦) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

العاشر: أنه نورٌ في قلبكَ دلَّك عَليَّ، وقَطَعَكَ عمَّا سوايَ [قاله جعفر الصادق] وعنه: هو الشفاعةُ[(١)]، وهو الحادي عشر.

وقيل: معجزاتُ الربِّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابةِ لدعوتك؛ حكاه الثعلبيُّ، وهو الثاني عشر.

الثالث عشر: قال هلال بنُ يِسَاف: هو لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسول الله[(٢)].

وقيل: الفقهُ في الدين. وقيل: الصلواتُ الخمس؛ وهما الرابعُ عَشَرَ والخامسُ عشر.

وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر، وذكر بيتَ لَبِيد:

وصاحبُ مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفَقْدِهِ وعِندَ الرُّداعِ بيتُ آخرَ كَوْثرِ[(٣)]

أي: عظيم.

قلت: أصحُّ هذه الأقوالِ الأوّلُ والثاني؛ لأنَّه ثابتٌ عن النبيِّ ﷺ نصٌّ في الكوثر. وسمِع أنسٌ قوماً يتذاكرون الحوضَ فقال: ما كنتُ أرى أنْ أعيشَ حتى أرى أمثالكم يَتَمَارَوْن في الحوض، لقد تركتُ عجائزَ خَلْفي، ما تصلِّي امرأةٌ منهنَّ إلَّا سألتِ اللهَ أنْ يسقِيهَا من حوضِ النبيِّ ﷺ. وفي حوضِه يقولُ الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا وأنتَ حَقًّا حبيبُ بارِيكَا[(٤)]

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعطِيَه رسولُ الله ﷺ زيادةً على حوضه،

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ بلفظ: هو التوحيد.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٤ ، وديوان لبيد ص ٥٢ . وفيهما: فجعنا بيومه. وملحوب: اسم ماء لبني أسد ابن خزيمة. ورُداع بالضم ـ وقيل: بالكسر ـ ماء لبني الأعرج بن كعب. معجم البلدان ٥/ ١٩١ و٣/ ٣٩ . قال ابن هشام: صاحب ملحوب عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب؛ مات بملحوب. وقوله: وعند الرداع...، يعني شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، مات بالرداع.

(٤) لم نقف عليه.

صلى الله عليه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي: أَقِمِ الصلاةَ المفروضةَ عليك؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس(١).

وقال قتادةُ وعطاءٌ وعِكرمةُ: «فصلِّ لِربِّك» صلاةَ العيدِ يومَ النحر، «وانْحَرْ» نُسُكَك(٢). وقال أنس: كان النبيُّ ﷺ ينحر ثم يصلِّي، فأُمِر أنْ يُصَلِّي ثم يَنْحر(٣).

وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجَمْعٍ، وانْحرِ البُدْنَ بمِنًى(٤). وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَة حين حُصِر النبيُّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحرَ البُدْنَ وينصرف، ففعل ذلك(٥). قال ابن العربيّ(٦): أمَّا مَن قال: إنَّ المراد بقوله تعالى: «فَصَلِّ»: الصلواتُ الخمسُ؛ فلِأنَّها ركنُ العباداتِ، وقاعدةُ الإسلامِ، وأعظمُ دعائمِ الدِّين. وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الصبحِ بالمزدَلِفة؛ فلأنَّها مقرونةٌ بالنَّحر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاةَ فيه قبلَ النَّحرِ غيرها، فخصَّها بالذِّكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنَّحْر.

قلت: وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ العيد، فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكةَ صلاةُ عيدٍ بإجماعٍ، فيما حكاه أبو عمر(٧).

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٣ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) تفسير البغوي ٤/٥٣٤، وأخرج قولهم الطبري ٢٤/٦٩٣ - ٦٩٤.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٢، وجمع هي المزدلفة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٥ - ٦٩٦، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٩٧٥.

(٦) في أحكام القرآن ٤/١٩٧٥.

(٧) في (د) و(م): ابن عمر.

قال ابن العربيِّ[١]: فأمَّا مالكٌ فقال: ما سمعتُ فيه شيئًا، والذي يقع في نفسي أنَّ المراد بذلك صلاةُ يومِ النحرِ، والنحرُ بعدها.

وقال عليٌّ ﷺ ومحمد بن كعب: المعنى: ضَعِ اليُمْنَى على اليسرى حِذاءَ النَّحرِ في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً[٢].

وروي عن عليٍّ أيضًا: أن يرفع يديه في التكبير إلى نَحْرِه[٣]. وكذا قال [أبو] جعفر بن عليٍّ: «فَصَلِّ لربِّكَ وانحر» قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر[٤]. وعن عليٍّ ﷺ قال: لمَّا نزلت: «فَصَلِّ لربِّك وانحر» قال النبيُّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النَّحِيرةُ التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليستْ بنحيرةٍ، ولكنَّه يأمرك إذا تحرَّمْتَ للصلاة، أنْ ترفع يديكَ إذا كَبَّرت، وإذا رفعتَ رأسك من الركوع، وإذا سجدتَ، فإنَّها صلاتُنا وصلاةُ الملائكةِ الذين هم في السماوات السبع، وإنَّ لكلِّ شيءٍ زينةً، وإنَّ زينةَ الصلاةِ رفعُ اليدين عند كلِّ تكبيرة»[٥].

وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: استَقْبِلِ القبلةَ بنَحْرِكَ؛ وقاله الفرَّاء والكلبيُّ وأبو الأحوص، ومنه قول الشاعر:

أبا حَكَمٍ ما أَنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ وسَيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المُتَناحِرِ[٦]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ عن علي وابن عباس، وأخرجه عن علي عبد الرزاق ٢/ ٤٠١ ، والطبري ٢٤/ ٦٩٠ - ٦٩١ ، والدارقطني (١٠٩٩). وعن ابن عباس أخرجه إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٤٣ ، والبيهقي ٢/ ٣١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٢ ، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٧٧ ، والحاكم ٢/ ٥٣٧ ، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: حديث منكر جدًّا. اهـ. وقال ابن حبان: هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه. اهـ. وسيأتي الكلام في رفع اليدين في المسألة الخامسة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٦ ، وأخرج القول عن أبي الأحوص ابن =

أي: المتقابل. قال الفرَّاء: سمعتُ بعضَ العربِ يقول: منازلنا تتناحر ـ أي: تتقابل ـ نحرُ[١] هذا بنحر هذا، أي: قُبالته. وقال ابن الأعرابيّ: هو انتصابُ الرجلِ في الصلاةِ بإزاءِ المِحراب؛ من قولهم: منازلُهم تتناحَر، أي: تتقابل[٢].

ورُوي عن عطاء قال: أَمَره أن يستويَ بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره.

وقال سليمان التَّيمِيُّ: يعني: وارْفَعْ يدَكَ بالدعاء إلى نحرك.

وقيل: «فَصَلِّ» معناه: فاعبُدْ. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ يقول: إنَّ ناساً يصلُّون لغير الله، وينحرون لغير الله، وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتُك ولا نَحْرُك إلَّا لِله[٣].

قال ابن العربيّ[٤]: والذي عندي أنه أراد: اعبُدْ ربَّك، وانْحَرْ له، فلا يكن عملك إلَّا لمَن خصَّك بالكوثر، وبالْحَرَى[٥] أن يكون جميعُ العملِ يوازي هذه الخُصوصيةَ من الكوثر، وهو الخيرُ الكثير الذي أعطاكَه الله، أو النهرُ الذي طِينُه مسكٌ، وعددُ آنيتِه نجومُ السماء، أمَّا أنْ يوازِيَ هذا صلاةُ يومِ النَّحر، وذبحُ كبشٍ أو بقرةٍ أو بَدَنةٍ، فذلك يبعدُ في التقدير والتدبير، وموازنة الثوابِ للعبادة. والله أعلم.

الثانية: قد مضى القولُ في سورة الصَّافّات في الأُضحِية وفَضْلِها ووقتِ ذَبْحِها[٦]؛ فلا معنَى لإعادةِ ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة الحج جملةً من أحكامها[٧].

= أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣ . ووقع عند الفراء: أبا حكم ها أنت...، وفي النكت والعيون: هل أنت.

(١) قوله: نحر، ليس في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ .

(٢) بنحوه في تهذيب اللغة ٥/ ١١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٥ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ ، والبغوي ٤/ ٥٣٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٦ .

(٥) الحَرَى: الخليق، كقولك: بالحَرَى أن يكون ذلك، وإنه لحَرًى بكذا وحَرٍ وحَرِيٌّ. اللسان (حري).

(٦) عند تفسير الآية (١٠٧)، في المسألة الثامنة وما بعد .

(٧) ينظر ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.

قال ابن العربيِّ[(١)]: ومن عجيب الأمر أنَّ الشافعيَّ قال: إنَّ مَن ضحَّى قبل الصلاةِ أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيُّ ﷺ ـ في البخاريِّ وغيره[(٢)]، عن البراء بن عازب قال ـ: «أوّلُ ما نَبْدَأ به في يومنا هذا أن نُصَلِّيَ، ثم نَرْجِعَ فننحرَ، مَن فَعَلَ فقد أصاب نُسُكنا[(٣)]، ومَن ذَبَح قبلُ، فإنَّما هو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُّسُك في شيءٍ». وأصحابُه ينكرونه، وحبَّذا الموافقة.

الثالثة: وأمَّا ما روي عن عليٍّ عليه السلام: «فصلِّ لِربك وانحر» قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. خرَّجه الدارَقُطْنيّ[(٤)]، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأوّل: لا توضع في فريضةٍ ولا نافلة؛ لأنَّ ذلك من باب الاعتماد، ولا يجوزُ في الفرض، ولا يستحبُّ في النفل.

الثاني: لا يفعلُها في الفريضة، ويفعلُها في النافلة استعانةً؛ لأنَّه موضعُ ترخُّصٍ.

الثالث: يفعلُها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيحُ؛ لأنَّه ثبت أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حُجْرٍ وغيرِه[(٥)]. قال ابن المنذر: وبه قال مالك وأحمدُ وإسحاقُ، وحُكي ذلك عن الشافعيِّ. واستَحَبَّ ذلك أصحابُ

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٨ .

(٢) صحيح البخاري (٩٦٥)، وهو عند أحمد (١٨٤٨١)، ومسلم (١٩٦١): (٧)، وسلف ١٤/ ٣٦٧ .

(٣) في مصادر التخريج: سنَّتنا، والمثبت من النسخ وأحكام القرآن.

(٤) في سننه (١٠٩٩)، وسلف في المسألة الأولى.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٨ . وحديث وائل بن حجر أخرجه أحمد (١٨٨٦٦)، ومسلم (٤٠١). وأخرج أحمد (٢٢٨٤٩)، والبخاري (٧٤٠) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة. قال أبو حازم: لا أعلمه إلا يَنْمي ذلك إلى النبي ﷺ.

الرأي. ورأت جماعةٌ إرسالَ اليد. وممَّن روينا ذلك عنه ابن الزبير(١) والحسن البصريُّ وإبراهيم النخعِيّ(٢).

قلت: وهو مَرْوِيٌّ أيضاً عن مالك. قال ابن عبد البرّ(٣): إرسالُ اليدين، ووضعُ اليمنى على الشمال، كلٌّ ذلك من سنَّة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضعُ عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السُّرَّة. وقال: لا بأسَ إن كانت تحت السرَّة. وقالت طائفةٌ: توضع تحت السرَّة. وروي ذلك عن عليٍّ وأبي هُريرةَ والنخعيِّ(٤) وأبي مجلَز. وبه قال سفيان الثوريُّ وإسحاق(٥).

الخامسة: وأمَّا رفعُ اليدين في التكبير عند الافتتاحِ والركوعِ والرفعِ من الركوع والسجودِ، فاختُلف في ذلك؛ فروى الدَّارقطنيُّ من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفعُ يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسَه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلَّا عبدُ الوهاب الثقفيُّ. والصَّوابُ: مِن فِعْلِ أنس(٦).

وفي الصَّحيحين من حديثِ ابنِ عمر، قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا قام إلى

---

(١) في (د) و(م): ابن المنذر، وهو تصحيف. وقول ابن المنذر الذي قاله في كتاب الإقناع ١/ ٩٣ هو ما ذكره أولاً من وضع اليمنى على اليسرى. أما ابن الزبير رضي الله عنهما فقد قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٧٤: روي عن ابن الزبير أنه كان يرسل يديه إذا صلى، وقد روي عنه خلافه. اهـ. قلنا: أخرج أبو داود (٧٥٤) عن ابن الزبير قال: صفُّ القدمين ووضع اليد على اليد من السنة.

(٢) التمهيد ٢٠/ ٧٦: وفيه: روي عن الحسن وإبراهيم أنهما كانا يرسلان أيديهما في الصلاة. قال ابن عبد البر: وليس هذا بخلاف؛ لأن الخلاف كراهية ذلك، وقد يرسل العالِم يديه ليري الناس أن ليس ذلك بحتم واجب.

(٣) في الكافي ١/ ٢٠٦.

(٤) قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٧٥ (والكلام منه): ولا يثبت ذلك عنهم. اهـ. وقد أخرجه عن علي وأبي هريرة أبو داود (٧٥٦) و(٧٥٧).

(٥) التمهيد ٢٠/ ٧٥.

(٦) سنن الدارقطني (١١١٩).

الصلاة رفع يديه حتى تكونا حَذْوَ مَنْكِبيه، ثم يكبِّر، وكان يفعلُ ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعلُ ذلك حين يرفعُ رأسَه من الركوع، ويقولُ: «سمِع الله لمن حَمِدَه» ولا يفعلُ ذلك حين يرفع رأسه من السجود[١].

قال ابن المنذر: وهذا قولُ الليثِ بنِ سعد، والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور. وحكى ابن وهب عن مالك هذا القولَ. وبه أقولُ؛ لأنَّه الثابتُ عن رسولِ الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفعُ المصلِّي يديه حين يفتتحُ الصلاةَ، ولا يرفعُ فيما سوى ذلك. هذا قولُ سفيان الثوريِّ وأصحابِ الرأي[٢].

قلت: وهو المشهورُ من مذهبِ مالكٍ؛ لحديثِ ابنِ مسعود؛ خرَّجه الدَّارقطنيُّ من حديث إسحاقَ بن أبي إسرائيل، قال: حدَّثنا محمد بن جابر، عن حماد، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ ومع أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، فلم يرفعوا أيديَهم إلَّا أوَّلاً عند التكبيرةِ الأولى في افتتاح الصلاة. قال إسحاقُ: به نأخذُ في الصلاة كلِّها. قال الدَّارقطنيُّ: تفرَّد به محمد بن جابر - وكان ضعيفاً - عن حماد، عن إبراهيم. وغيرُ حمادٍ يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله مِن فِعْله، غيرَ مرفوعٍ إلى النبيِّ ﷺ؛ وهو الصَّواب[٣].

وقد روى يزيد بنُ أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البَرَاء: أنَّه رأى النبيَّ ﷺ حين افتتح الصلاةَ رَفَعَ يديه حتى يُحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يَعُدْ إلى شيءٍ من ذلك حتى فرغ من الصلاة[٤]. قال الدَّارقطنيُّ[٥]: [وإنَّما] لقِّن يزيد في آخر عمره: ثم لَم يَعُدْ بعدُ، فتَلَقَّنه وكان قد اخْتَلَط.

وفي «مختصر ما ليس في المختصر» عن مالك: لا يرفع اليدين في شيءٍ من

(١) صحيح البخاري (٧٣٦)، وصحيح مسلم (٣٩٠).

(٢) الأوسط لابن المنذر ٣/ ١٣٦ - ١٥١ .

(٣) سنن الدارقطني (١١٣٣).

(٤) سنن الدراقطني (١١٢٩).

(٥) إثر الحديث (١١٣١)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الصلاة[١]. قال ابن القاسم: ولم أرَ مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليَّ تَرْكُ رَفْعِ اليدين عند الإحرام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

أي: مبغِضك، وهو العاص بنُ وائل[٢]. وكانت العربُ تسمِّي مَن كان له بنونَ وبناتٌ، ثم مات البنونَ وبقي البناتُ: أبتر. فيقال: إنَّ العاص وقف مع النبيِّ ﷺ يكلِّمه، فقال له جمعٌ من صناديد قريش: مع مَن كنتَ واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبدُ الله بنُ رسولِ الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٣]، أي: المقطوعُ ذِكْرُه من خير الدنيا والآخرة.

وذَكَر عكرمةُ عن ابن عباس قال: كان أهلُ الجاهليةِ إذا مات ابنُ الرجلِ قالوا: بُتِر فلان. فلمَّا مات إبراهيم ابنُ النبيِّ ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بُتِر محمد؛ فأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٤] يعني بذلك أبا جهل.

وقال شمر بن عطية: هو عقبةُ بنُ أبي مُعَيط[٥].

وقيل: إنَّ قريشاً كانوا يقولون لمَن مات ذكورُ ولدِه: قد بُتِر فلان. فلمَّا مات لرسول الله ﷺ ابنُه القاسمُ بمكة، وإبراهيمُ بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له مَن يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدِّيُّ وابن زيد[٦].

---

(١) وهذا أضعف الأقوال وأشَذُّها، كما ذكر أبو العباس في المفهم ٢/ ١٩ . وقال ابن المنذر في الأوسط ٣/ ١٣٧ : أجمع كل مَن نحفظ عنه من أهل العلم على أن النبي ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وأن من السنة أن يرفع المرء يديه إذا افتتح الصلاة. اهـ . وكتاب مختصر ما ليس في المختصر لأبي إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان، وكُتُبُ ابن شعبان فيها غرائب من قول مالك، وأقوال شاذة عن قوم لم يشتهروا بصحبته، ليست مما رواه ثقات أصحابه، واستقر من مذهبه. الديباج المذهب ٢/ ١٠٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٧ - ٦٩٩ عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٥٠٣ .

(٤) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٠ عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦ .

وقيل: إنَّه جوابٌ لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لمَّا قدم مكة: نحن أصحابُ السقايةِ والسِّدانةِ والحِجابةِ واللِّواء، وأنت سيدُ أهلِ المدينة، فنحن خيرٌ أم هذا الصُّنَيْبير المنبتر[(١)] من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خيرٌ، فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٥١]. ونزلت في قريشٍ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ قاله ابنُ عباسٍ أيضاً وعكرمة[(٢)].

وقيل: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا أَوْحَى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انْبَتَر منَّا محمد، أي: خالَفَنا وانقطع عنَّا. فأخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أنَّهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمةُ وشَهْر بن حَوْشَب[(٣)].

قال أهلُ اللغةِ: الأبترُ من الرجال: الذي لا وَلَدَ له، ومن الدوابِّ: الذي لا ذَنَبَ له. وكلُّ أمرٍ انقطعَ من الخير أثرُه، فهو أبتر. والبَتْر: القَطْعُ. بَتَرْتُ الشيءَ بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيفُ القاطِع. والأَبْتَر: المقطوعُ الذَّنَب. تقول منه: بَتِر ـ بالكسر ـ يَبْتَرُ بَتَراً[(٤)]. وفي الحديث «ما هذه البُتَيراء»[(٥)].

وخطب زياد خُطبتَه البتراء؛ لأنَّه لم يحمد الله فيها، ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ. ابن السكيت[(٦)]: الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال: سمِّيا أبتَرَيْنِ لقلَّةِ خيرِهما. وقد أبتره الله، أي: صيَّره أبترَ. ويقال: رجلٌ أُباتر ـ بضم الهمزة ـ: الذي يقطعُ رَحِمَه. قال الشاعر:

---

(١) في (م): الصنيبر الأبيتر.

(٢) أخرجه عن ابن عباس إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٣٥، والبزار (٢٢٩٣ ـ كشف)، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، والطبري ٧/ ١٤٢ و١٤٥ و٢٤/ ٧٠٠، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥). وأخرجه عن عكرمة سعيد بن منصور (٦٤٨ ـ تفسير)، والطبري ٧/ ١٤٣ و٢٤/ ٦٩٩ - ٧٠٠. ووقع في بعض المصادر: الصنبور، بدل: الصنيبير، وهو تصغير الصنبور، وسيأتي شرحه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٧٠٠.

(٤) بابه: طَرِب. مختار الصحاح (بتر)، والكلام من الصحاح (بتر).

(٥) ذكره ابن الأثير في النهاية (بتر): أن سعداً ﷺ أوتر بركعة، فأنكر عليه ابن مسعود ﷺ وقال: ما هذه البتيراء.

(٦) في إصلاح المنطق ص ٤٤٠، والكلام من الصحاح (بتر).

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِهِ خُنْزُوانَةٌ على قَطْعِ ذي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ[(١)]

والبُتْرِيَّة: فِرقةٌ من الزيدية؛ نُسبوا إلى المغيرة بنِ سعد، ولقبُه الأبتر[(٢)].

وأمَّا الصُّنبورُ فلفظٌ مشترك. قيل: هو النخلةُ تبقى منفردةً، ويَدِقُّ أسفلُها ويتقشَّر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة. وقيل: هو الرجلُ الفَرْدُ الذي لا وَلَدَ له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَبُ[(٣)] الحوضِ خاصَّةً؛ حكاه أبو عبيد، وأنشد:

ما بين صُنْبورٍ إلى الإزاءِ[(٤)]

والصُّنبور: قَصَبةٌ تكون في الإداوة من حديدٍ أو رصاصٍ يُشرب منها. حكى جميعَه الجوهريُّ[(٥)] رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (بتر)، وأساس البلاغة (خنز). الخنزوانة: الكبر، يقال: فيه خنزوانة، وفي أنفه خنزوانة. والأحَذُّ: السريع القطع. جمهرة الأمثال ٢/ ٩٩، وأساس البلاغة (حذذ) و(خنز).

(٢) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بتر)، والصواب أن الأبتر هو لقب كثير النواء، وإليه ينسب البترية، وهي طائفة تزعم أن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالبيعة، وأن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأن عليًّا ترك ذلك لهما، ويقفون في عثمان ﷺ وأمره وحاله، ويسمَّون أيضاً الصالحية لأنهم ينسبون إلى الحسن بن صالح بن حيٍّ الفقيه.

أما المغيرة بن سعد ـ ويقال: ابن سعيد ـ فأتباعه يسمَّون المُغيرية، وذكر ابن الأثير في الكامل ٥/ ٢٠٧ في حوادث سنة ١١٩ أن المغيرة هذا كان ساحراً، وكان يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك لفعلت، ولما بلغ خبره خالد بن عبد الله القسري أحرقه. ينظر مقالات الإسلاميين ١/ ٦٩ و١٤٤، والفرق بين الفرق ص٢٤، والملل والنحل ص١٦١ و١٧٦ والأنساب ٢/ ٧٤، ومنهاج السنة النبوية ٢/ ٥٠٣ و٣/ ١١.

(٣) في النسخ الخطية: مبعث، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الصحاح (صبر) والكلام منه، والمثعب: مجرى الماء من الحوض وغيره. المعجم الوسيط (ثعب).

(٤) تهذيب اللغة ١٣/ ٢٨٣، والصحاح (صبر)، والكلام منه. ونقل الأزهري عن الأصمعي قال: الإزاء مصب الماء في الحوض.

(٥) في الصحاح (صبر). والإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء. اللسان (أدا).

سُورَةُ الكَوْثَرِ

مكيَّةٌ، وآيُها ثلاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ وقُرِئَ: (أَنْطَيْنَاك)[١] ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: الخيرَ المُفْرِطَ الكثرةِ مِن العلمِ والعَمَلِ وشَرفِ الدَّارينِ.

ورُوِيَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنه: «نهرٌ في الجنَّةِ وَعَدنيهِ ربِّـي فيه خيرٌ كثيرٌ»[٢]، «أحلى مِن العَسَلِ، وأبيَضُ مِن اللبنِ، وأبرَدُ مِن الثَّلجِ، وألْيَنُ مِن الزبدِ»[٣]، «حافَتاهُ الزَّبرجدُ»[٤] و«أوانيه مِن فِضَّةٍ»[٥]، «لا يظمَأُ مَن شَرِبَ منه»[٦].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٢) و«الكشاف» (٩/ ٦٩٧) عن النبي ﷺ.

(٢) رواه مسلم (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٩٨٠٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٥) من حديث أبي برزة رضي الله عنه وقال: على شرط مسلم. وروى بعضه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٦٧)، والترمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣)، من حديث ثوبان رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه.

(٤) رواه ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ٢٠٤).

(٥) ورد في رواية الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٦٩٨)، وقد نقل المصنف هذا الحديث بتمامه عنه.

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٦٧)، والترمذي (٢٤٤٤)، ابن ماجه (٤٣٠٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وقيل: حوضٌ فيها.

وقيل: أولادُه وأتباعُه[١]، أو عُلَماءُ أمَّتِه، أو القرآنُ.

(٢) ـ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: فدُمْ على الصَّلاةِ خالِصًا لوجهِ اللهِ ـ خلافَ السَّاهي عنها المُرائي فيها ـ؛ شكرًا لإنعامِه؛ فإنَّ الصَّلاةَ جامِعَةٌ لأقسامِ الشُّكرِ.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ البُدْنَ التي هي خيارُ أَموالِ العَرَبِ، وتَصدَّقْ على المحاويجِ خلافًا لِمَن يَدُعُّهم ويمنَعُ منهم الماعونَ، فالسُّورةُ كالمقابِلَةِ للسُّورةِ المُتقدِّمَةِ.

وقد فُسِّرَت الصَّلاةُ بصَلاةِ العيدِ، والنَّحرُ بالتَّضحِيَةِ.

(٣) ـ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: إنَّ مَن أبغضَكَ لِبُغضِهِ لك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقبَ له؛ إذ لا يبقى منه[٢] نسلٌ ولا حُسْنُ ذكرٍ، وأما أنتَ فتَبْقَى ذريَّتُك وحُسْنُ صيتِكَ وآثارُ فَضلِكَ إلى يومِ القيامةِ، ولك في الآخرةِ ما لا يدخلُ تحتَ الوَصفِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرأَ سُورةَ الكَوثَرِ سَقاهُ اللهُ مِن كلِّ نهرٍ له في الجنَّةِ، ويكتب له عشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ كلِّ قُرْبانٍ قرَّبَهُ العبادُ في يومِ النَّحرِ»[٣].

* * *

(١) في نسخة الفاروقي: «أو أتباعه».

(٢) في نسخة الخيالي: «له»، وفي نسخة التفتازاني: «عنه».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٥٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٦٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(١٠٨) سورة الكوثر مكية وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «لقد أنزلت عليَّ آنفاً سورة» فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[1]، وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، فأما قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فقد

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة، وقد رواه الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال، قال رسول الله: «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي في تربته، فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ»[1]. وعن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[2]. وروى ابن جرير، عن أنس بن مالك قال: لما أسري برسول الله ﷺ مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من اللؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ترابه، فإذا هو مسك، قال: «يا جبريل ما هذا النهر؟» قال: هو الكوثر الذي خبأ لك ربك، وفي رواية عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر؟ فقال: «هو نهر أعطانيه الله تعالى في الجنة ترابه مسك، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر»، قال أبو بكر: يا رسول الله إنها لناعمة؟ قال: «آكلها أنعم منها». وقال البخاري: حدَّثنا خالد بن يزيد الكاهلي. حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم»[3]. وعن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف، وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء، وعن مسروق قال، قلت لعائشة: يا أُم المؤمنين حدِّثيني عن الكوثر؟ قالت: نهر في بطنان الجنة، قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت[4]

وقال البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[5]. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر الخير الكثير، وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لإن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: عن ابن عباس قال: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل». وعن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل[6]. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»[7]. وروى ابن جرير عن عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار ما قال سعيد بن جبير في الكوثر. قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه ابن جرير.
(٥) أخرجه البخاري.
(٦) أخرجه الترمذي موقوفاً.
(٧) رواه الترمذي وبن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

صدق الله إنه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله ﷺ: « الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت » . وهكذا روي عن أنَس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فصلِّ لربك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك نحر البدن ونحوها، **وقيل**: المراد بقوله: ﴿ وانحر ﴾ وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر، **وقيل**: ﴿ وانحر ﴾ أي استقبل بنحرك القبلة، والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » الحديث. قال ابن جرير: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً، دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقوله تعالى: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي إن مبغضك يا محمد . ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع والنور المبين ﴿ هو الأبتر ﴾ الأقل الأذل المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في العاص ابن وائل، وقال يزيد بن رومان: قال، كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة، **وقيل**: نزلت في عقبة بن أبي معيط، وقال عطاء: نزلت في (أبي لهب) وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ، فذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾، وعن ابن عباس: نزلت في (أبي جهل) وعنه ﴿ إن شانئك ﴾ يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم. وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل، قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ، قالوا: بتر محمد، فأنزل الله: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾، وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد .

[آخر تفسير سورة الكوثر . ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

تفسير سورة الكوثر

وهى مدنية ، وقيل : مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ③ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فُلْفُل ، عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت علىَّ آنفا سورة » . فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾، حتى ختمها ،قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : « هو نهر أعطانيه ربى ، عز وجل ، فى الجنة ، عليه خير كثير ، تردُ عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب، يُخْتَلَج العبد منهم فـأقول : يا رب ، إنه من أمتى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » [(١)] .

هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثى ، وهذا السياق .

وقد ورد فى صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَب فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر ، وأن عليه آنية عددَ نجوم السماء . وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائى ، من طريق محمد بن فضيل ، وعلى بن مُسْهِر ، كلاهما عن المختار بن فُلْفُل ، عن أنس . ولفظ مسلم قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « أنزلت على آنفا سورة » ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ . ثم قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال: « فإنه نهر وَعَدَنيه ربى ، عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض تَرِدُ عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم [(٢)] ، فَيختلجُ العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتى . فيقول : إنك لا تدرى ما أحدث بعدك » [(٣)] .

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فقد تقدم فى هذا الحديث أنه نهر فى الجنة . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى ، عن أنس فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا ثابت ،

---

(١) المسند (٣/١٠٢) .

(٢) فى م ، أ : « عدد نجوم السماء » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٧٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٢) .

عن أنس أنه قرأ هذه الآية [١] : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر ﴾ .قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيتُ الكوثر ، فإذا هو نهر يجرى ، ولم يُشقْ شقاً ،وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى تربته ، فإذا مسْكه ذَفَرة ، وإذا حصاه اللؤلؤ » [٢].

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن حميد ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء ، فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله ، عز وجل »[٣].

ورواه البخارى فى صحيحه ،ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال :لما عُرِجَ بالنبى ﷺ إلى السماء قال :« أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف [٤] ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » . وهذا لفظ البخارى [٥]، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع ، أخبرنا ابن وهب ، عن سليمان بن هلال ، عن شريك بن أبى نمر ، قال : سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل فى[٦] السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يَشمّ تُرَابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خَبَأ لك ربك » [٧].

وقد تقدم [فى] [٨] حديث الإسراء فى سورة « سبحان » ، من طريق شريك عن أنس [عن النبى ﷺ] [٩] . وهو مخرج فى الصحيحين [١٠].

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا أسير فى الجنة إذ عَرَض لى نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ مُجَوف ، فقال الملك الذى معه : أتدرى ما هذا ؟ هذا الكوثر الذى أعطاك الله . وضرب بيده إلى أرضه ، فأخرج من طينه المسك »[١١]. وكذا رواه سليمان بن طِرْخان، ومعمر وهَمَام وغيرهم ، عن قتادة ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج [١٢] ، حدثنا أبو أيوب العباسى ، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنى محمد بن عبد الله ، ابن أخى ابن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس قال : سُئل رسول

---

(١) فى م : « هذه السورة » .
(٢) المسند (٢/ ٢٤٧) .
(٣) المسند (٣/ ١٠٣) .
(٤) فى م ، أ : « المجوفة » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٦) .
(٦) فى م : « إلى » .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) .
(٨ ، ٩) زيادة من م .
(١٠) انظر : تفسير أول سورة الإسراء .
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/ ٢٠٨) عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، به .
(١٢) فى أ : « شريح » .

الله ﷺ عن الكوثر ، فقال : « هو نهر أعطانيه الله فى الجنة ، ترابه مسك، [ماؤه] (١) أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنها لناعمة؟ قال : « أكلها أنعم منها » (٢) .

وقال أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عبد الوهاب ، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب ،عن أنس ،أن رجلاً قال : يا رسول الله ،ما الكوثر ؟ قال : « نهر فى الجنة أعطانيه ربى ، لهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة ؟ قال : « أكلها أنعم منها يا عمر »(٣) .

رواه (٤) ابن جرير ، من حديث الزهرى ، عن أخيه عبد الله ، عن أنس : أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكوثر ، فذكر مثله سواء (٥) .

وقال البخارى : حدثنا خالد بن يزيد الكاهلى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قالت : نهر [عظيم] (٦) أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئاه عليه دُرّ مجوف ،آنيته كعدد النجوم (٧) .

ثم قال البخارى : رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف ، عن أبى إسحاق .

ورواه أحمد والنسائى ، من طريق مُطرّف ، به (٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قالت : الكوثر نهر فى الجنة ، شاطئاه در مُجَوف . وقال إسرائيل : نهر فى الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء .

وحدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا يعقوب القُمى (٩) ، عن حفص بن حميد، عن شَمِر بن عطية ، عن شقيق (١٠) أو مسروق قال : قلت لعائشة : يا أم المؤمنين ، حدثينى عن الكوثر . قالت: نهر فى بطنان الجنة . قلت : وما بطنان الجنة ؟ قالت : وسطها ،حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت ،ترابه المسك،وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن أبى جعفر الرازى ، عن ابن أبى نجيح ، عن عائشة

---

(١) زيادة من أ .
(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٩) .
(٣) المسند (٣/ ٢٢٠) .
(٤) فى م : « ورواه » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٩) .
(٦) زيادة من أ .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٥) .
(٨) المسند (٦/ ٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٥) .
(٩) فى أ : « العمى » .
(١٠) فى أ : « سفيان » .

قالت: من أحب أن يسمع خرير الكوثر ، فَلْيَجعل أصبعيه فى أذنيه [١] .

وهذا منقطع بين ابن أبى نجيح وعائشة ، وفى بعض الروايات : « عن رجل ، عنها » .ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك ، لا أنه يسمعه نفسه ، والله أعلم .

قال السهيلى : ورواه الدارقطنى مرفوعاً ، من طريق مالك بن مِغْوَل [٢] ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ [٣].

ثم قال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يَزْعُمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه [٤] .

ورواه أيضا من حديث هُشَيم ، عن أبى بشر وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير [٥].

[وقال الثورى ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير] [٦] .

وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحارب بن دِثَار ، والحسن بن أبى الحسن البصرى . حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة .

وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا ، فقال ابن جرير :

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عمر بن عبيد ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر أنه قال : الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الدر

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) ، ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٦٧) من طريق محمد بن ربيعة ، عن أبى جعفر الرازى ، عن مجاهد ، عن عائشة مرفوعاً .

(٢) فى م : « يزيد بن مغول » .

(٣) الروض الأنف للسهيلى (١/ ٢٤١) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٦) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٧٨) .

(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) .

والياقوت، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

وكذا رواه الترمذى عن ابن حميد ، عن جرير ، عن عطاء بن السائب ، به مثله [(١)] ،موقوفا . وقد روى مرفوعا فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن حفص ،حدثنا ورقاء قال . . . وقال عطاء [بن السائب] [(٢)] عن محارب بن دِثار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ،والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ».

وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجة ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب ، به مرفوعا [(٣)] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَّية ، أخبرنا عطاء بن السائب قال : قال لى محارب بن دثار : ما قال سعيد بن جبير فى الكوثر ؟ قلت : حَدَثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير . فقال : صدق ،والله إنه للخير الكثير .ولكن حدثنا ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت » [(٤)].

وقال ابن جرير : حدثنى ابن البرقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير، أخبرنى حَرَام بن عثمان ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أسامة بن زيد : أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوما فلم يجده ، فسأل امرأته عنه ــ وكانت من بنى النجار ــ فقالت : خرج يا نبى الله آنفا عامداً نحوك ، فأظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار ، أو لا تدخلُ يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حَيْساً ، فأكل منه ، فقالت : يا رسول الله ، هنيئا لك ومريئا ،لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهْنيك وأمْريك ؛ أخبرنى أبو عمارة أنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر . فقال : « أجل ، وعرضه ــ يعنى أرضه ــ ياقوت ومرجان ، وزبرجد ولؤلؤ » [(٥)].

حَرَام بن عثمان ضعيف . ولكن هذا سياق حسن ، وقد صح أصل هذا ، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث ،وكذلك أحاديث الحوض [ولنذكرها هاهنا] [(٦)].

وهكذا رُوى عن أنس ، وأبى العالية ، ومجاهد ، وغير واحدٍ من السلف : أن الكوثر : نهر فى الجنة . وقال عطاء : هو حوض فى الجنة .

وقوله : ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٧) ولم يقع لى فى سنن الترمذى من هذا الطريق ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف.

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (٢/١٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٤) وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٠) .

(٤ ، ٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٠) .

(٦) زيادة من أ، وكذا قال الحافظ ، ولم يقع فى النسخ ذكر أحاديث الحوض ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير فى كتابه (النهاية فى الفتن والملاحم ١/ ٣٧٤ ــ ٤١٢) ولولا خشية الإطالة لذكرناها هاهنا فلتراجع هناك .

النهرُ الذى تقدم صفته ــ فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، قال ابن عباس، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البُدْن ونحوها . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، والربيع ،وعطاء الخراسانى ، والحكم ، وإسماعيل (١) بن أبى خالد ، وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يُروَى هذا عن على ، ولا يصح. وعن الشعبى مثله .

وعن أبى جعفر الباقر : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ يعنى : ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة .

وقيل : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ أى : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا منكرا جدا فقال : حدثنا وهب بن إبراهيم الفامى (٢) ــ سنة خمس وخمسين ومائتين ــ حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزى ،حدثنا مقاتل بن حيان ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ، قال رسول الله : « يا جبريل ، ما هذه النَّحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ » فقال: ليست بنحيرة ، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت ،وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

وهكذا (٣)رواه الحاكم فى المستدرك ، من حديث إسرائيل بن حاتم ، به (٤) .

وعن عطاء الخراسانى : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ أى : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل ،وأبرز نحرك ، يعنى به الاعتدال . رواه ابن أبى حاتم .

[كل هذه الأقوال غريبة جدا] (٥) . والصحيح القول الأول ، أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد (٦) ، ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ،ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له ». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول

---

(١) فى م : « وسعيد » . (٢) فى أ : « العامى » . (٣) فى م : « وقد » .

(٤) المستدرك (٢/ ٥٣٧) ، ورواه من طريق البيهقى فى السنن (٢/ ٧٥) ، ورواه ابن حبان فى المجروحين (١/ ١٧٧) من طريق إسرائيل بن حاتم ، به . وقال ابن حبان : « هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه ، وهذا خبر رواه عمر بن صبح ، عن مقاتل بن حيان ، وعمر بن صبح يضع الحديث فظفر عليه إسرائيل بن حاتم فحدث به عن مقاتل » .

(٥) زيادة من م ، أ . (٦) فى م : « يصلى يوم العيد » .

الله ، إنى نَسكتُ شاتى قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم . قال : « شاتك شاة لحم». قال : فإن عندى عناقا هى أحب إلىَّ من شاتين ، أفتجزئ عنى ؟ قال : « تجزئك ، ولا تجزئ أحداً بعدك » [(١)].

قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة [(٢)] ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذى لا كِفَاء له ، وخصك به [(٣)].

وهذا الذى قاله فى غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظى ،وعطاء .

وقوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾ أى : إن مبغضك ــ يا محمد ــ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت فى العاص بن وائل .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة .

وقال شَمِر بن عطية : نزلت فى عقبة بن أبى مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضا ، وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

وقال البزار : حدثنا زياد بن يحيى الحَسَّانى ، حدثنا ابن أبى عدى ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبر [(٤)] المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ،ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾ .

هكذا رواه البزار [(٥)]،وهو إسناد صحيح .

وعن [(٦)] عطاء : نزلت فى أبى لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله فى ذلك : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

وعن ابن عباس : نزلت فى أبى جهل . وعنه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ يعنى : عدوك . وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر ، وغيرهم .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث البراء ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « والأولاد » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٢) .

(٤) فى م : « هذا الضبر » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٩٣) « كشف الأستار » ووقع فيه : « حدثنا الحسن بن على الواسطى ، حدثنا يحيى بن راشد ، عن داود فذكر مثله ، ورواه أيضاً النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧٠٧) .

(٦) فى م : « وقال » .

وقال عكرمة : الأبتر : الفرد . وقال السُّدِّى : كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا : بُتر . فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد [1] ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

آخر تفسير سورة « الكوثر » ، ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « والتناد » .

سورة الكوثر

مكّيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ وقُرئ: "أَنْطَيْنَاكَ"[1] ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير المفرط، الكثرة مِن شرف النبوّة الجامعة لخيرَي الدارين، والرياسة العامّة المستتبعة لسعادة الدنيا والدِّين، "فَوْعَل" مِن الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنّة.[2]

وعن النبيّ عليه السلام أنّه قرأها فقال: «أتدرون ما الكوثرُ؟ إنّه نهر في الجنّة وعدنِيه ربّي، فيه خيرٌ كثير».[3] ورُوي في صفته: «أحلى مِن العسل، وأشدُّ بياضًا مِن اللبن، وأبردُ مِن الثلج، وألينُ مِن الزُّبد، حافتاه الزَّبرجد، وأوانيه مِن فِضّة عددَ نجوم السماء».[4] ورُوي: «لا يظمأ مَن شرب منه أبدًا، أوّل وارديه فقراء المهاجرين الدَّنسو الثياب، الشُّعث الرءوس، الذين لا يُزوَّجون المُنعَّمات، ولا تُفتَح لهم أبواب السُّدَد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره، لو أقسم على الله لأبرّه».[5]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه فسّر ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ بالخير الكثير، فقال له سعيد بن جُبير: «فإنّ ناسًا يقولون: "هو نهر في الجنّة"»، فقال: «هو مِن الخير

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين، والحسن والزّعفراني وابن مُحيصن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٤.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

[3] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٣/١٩ (١١٩٩٥)؛ وصحيح مسلم، ٣٠٠/١ (٤٠٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٨٢/٢٤-٦٨٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

[4] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٤٥/١٠ (٥٩١٣)؛ وسنن الترمذي، ٤٤٩/٥ (٣٣٦١)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٧٩/٢٤-٦٨٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

[5] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٠/٣٩ (٢٢٣٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٦٢٩/٤ (٢٤٤٤)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

الكثير».[١] وقيل: هو حوض فيها. وقيل: هو وأولاده وأتباعه أو علماء أمّته، أو القرآن الحاوي لخير الدنيا والدِّين.[٢]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ إعطاءه تعالى إيّاه عليه السلام ما ذُكر مِن العطيّة التي لم يعطِها ولن يعطيَها أحدًا مِن العالمين مستوجب للمأمور به أيّ استيجاب، أي: فدُمْ على الصلاة / لربّك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا تُضاهيها [٣٢٢ظ] نعمة خالصةً لوجهه خلافَ الساهين عنها المُرائين فيها، أداءً لحقوق شكرها، فإنّ الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر. وانحر البُدن التي هي خِيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدَّق على المحاويج خلافًا لمن يدُعُّهم ويمنع منهم الماعون.

وعن عطيّة: هي صلاة الفجر بجَمْع، والنحر بمنًى.[٣] وقيل: صلاة العيد والتضحية. وقيل: هي جنس الصلاة. والنحر: وضعُ اليمين على الشمال.[٤] وقيل: هو أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره، وهو المرويّ عن النبيّ عليه السلام. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: استقبِل القبلة بنحرك، وهو قول الفرّاء والكلبي وأبي الأحوص.[٥]

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مُبغِضك كائنًا مَن كان ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقبَ له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسنُ ذِكر، وأمّا أنت فتبقى ذرّيّتك وحُسن صيتك

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٧٨/٦ (٤٩٦٦)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٨٢/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

٢ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٥/٣.

٣ مرويّ عن عطاء في جامع البيان للطبري، ٦٩٢/٢٤.

٤ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وأبي الجوزاء في جامع البيان للطبري، ٦٩٠/٢٤-٦٩١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥٩/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٢/٤.

٥ اللباب لابن عادل، ٥٢٢/٢٠. | هو سلام بن سليم الحنفي مولاهم، أبو الأحوص (ت. ١٧٩هـ). الإمام الثقة الحافظ قرأ القرآن على حمزة. وكان حديثه نحو أربعة آلاف حديث وكان صالحًا فيه. مات في الكوفة في خلافة هارون. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٠٠/٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٨١/٨-٢٨٣.

وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان. وقيل: نزلت في العاص بن وائل،[١] وأيًّا ما كان فلا ريبَ في عموم الحكم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى مِن كلّ نهر في الجنّة، ويُكتب له عشر حسنات بعدد كلّ قربان قرّبه العباد في يوم النحر».[٢]

١ مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في **جامع البيان** للطبري، ٢٤/٦٩٧-٦٩٨؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٨/٥٦٠.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٠/٣٥٠ (الكوثر، ١٠٨/١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٥٦٠ (الكوثر، ١٠٨/١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٦١٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

١٠٨

سُورَةُ الكَوثَر

مكية أو مدنية، ثلاثُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إنّا أعطَيناكَ﴾ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿الكَوثَرَ﴾ هو نهر في الجنّة، ....

سُورَةُ الكَوثَر

قولُهُ: (يَا مُحَمَّدُ) وقرئ: (أَنطَينَاكَ)[١].

قولُهُ: (هُوَ نَهرٌ) في «المبهمات»[٢]: فُسِّر الكوثَرُ في الأحاديثِ الصَّحيحَةِ المتواترةِ بأنَّه نهرٌ في الجنَّةِ، انتهى، وفي حديثٍ رواهُ مسلمٌ: «إنَّه نَهرٌ في الجنَّةِ وعَدَنِيهِ رَبِّي فيه خيرٌ كثيرٌ، أحلَى منَ العسَلِ وأبيَضُ من اللَّبنِ، وأبرَدُ من الثَّلجِ، وألينُ من الزُّبدِ، حافَتَاهُ الزَّبَرجَد، وأوانِيهِ مِن فضَّةٍ، لا يظمَأُ مَن شَرِبَ منهُ»[٣].

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي والحسن وابن مسعود، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٢٥).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٢١).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ عند مسلم، وإنما رواه (٤٠٠) من حديث أنس، بلفظ: ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم».
وروى مسلم (٢٣٠٠) عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض قال: «والذي نفس محمد بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل».
وروى الحاكم في «المستدرك» (٢٥٥) من حديث أبي برزة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «حوضي من أيلة إلى صنعاء عرضه كطوله، فيه ميزابان يصبان من الجنة، أحدهما ورق، والآخر ذهب أحلى من العسل، وأبرد من الثلج وأشد بياضاً من اللبن، وألين من الزبد، فيه أباريق عدد نجوم السماء من شرب منه لم يظمأ حتى يدخل الجنة». وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

هو حوضه تَرِدُ عليه أُمته، أوِ الكوثر: الخير الكثير من النبوّة والقُرآن والشفاعة ونحوها. ٢ ـ ﴿فصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ صلاةَ عِيد النحر ﴿وانحَرْ﴾ نُسكَكَ. ٣ ـ ﴿إنَّ شانِئَكَ﴾: أي: مُبغِضَك ﴿هُوَ الأبتَرُ﴾: المُنقطع عن كُلِّ خير، أو المُنقطعُ العقبِ. نزلت في العاص بن وائل، سمَّى النبيَّ ﷺ أبترَ عند موت ابنه القاسم.

قولُهُ: (هوَ) أي: منه.

قولُهُ: (حَوضُهُ) أي: في القيامَةِ بعد الصِّراطِ، أو قبلهُ.

قولُهُ: (تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتُهُ) في «الكشاف»[1]: رويَ: أنَّ أوَّلَ من يردُهُ فقراءُ المهاجِرينَ، الدُّنسُ الثِّيابِ، الشُّعثُ الرُّؤوسِ، الذين لا يُزوَّجونَ المنعَّماتِ، ولا يُفتحُ لهم أبوابُ السُّدَدِ، يموتُ أحدُهُم، وحاجَتُهُ تتلجلَجُ في صَدرِهِ، لو أقسَمَ على الله لأبرَّهُ[2].

قولُهُ: (أو الكَوثَرُ) إنَّما وضَعَ الظَّاهِرَ موضِعَ الضَّميرِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ عطفُ ما بعدَهُ على حوضِهِ.

قولُهُ: (الخَيرُ الكَثِيرُ) فَوْعَلٌ من الكثرَةِ، وهو: المفرطُ للكثرَةِ من العِلمِ والعملِ وشرفِ الدَّارَينِ.

قولُهُ: (ونَحوِهَا) من الأولادِ والأتباعِ، أو عُلماءِ أمَّتِهِ، وقالَ جعفرٌ[3]: نوراً في قلبكَ، دلَّكَ عليَّ، وقطعَكَ عمَّا سوايَ.

قولُهُ: (صَلاةَ عِيدِ النَّحرِ) أو فدُم على الصَّلاةِ خالِصاً لوَجهِ الله؛ شُكراً لإنعامِهِ، فإنَّ الصَّلاةَ جامعَةٌ لأقسامِ الشُّكرِ من القَلبيِّ والأركانيِّ واللِّسانيِّ.

قولُهُ: (نُسُكَكَ) أي: أُضحِيَّتَك، أو البُدن: التي هي خَيارُ أموالِ العَرَب.

قولُهُ: (أو المُنقَطِعُ العَقِبِ) إذ لا يَبقى منه نَسلٌ ولا حُسنُ ذِكرٍ، وأمَّا أنتَ فتبقى ذرِّيَّتُكَ وحُسنُ صيتِكَ، وآثارُ فضلِكَ إلى يومِ القيامَةِ، ولك في الآخِرَةِ ما لا يدخُلُ تحتَ الوَصفِ.

قولُهُ: (في العَاصِ) أو أبي جَهلٍ، أو غيرِهِما، والله سُبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٣٦٧) بنحوه من حديث ثوبان رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) وانظر: «عرائس البيان» (٣/ ٥٢٩).

سُورَةُ الكَوْثَر

وتسمَّى - كما قال البقاعي - سورةَ النحر[(١)].

وهي مكيةٌ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، ونُسِبَ في «البحر» إلى الجمهور[(٢)]. مدنيةٌ في قول الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد، وفي «الإتقان» أنَّه الصواب[(٣)]، ورجَّحه النووي عليه الرحمة في «شرح صحيح مسلم»[(٤)] لِما أخرجَ الإمامُ أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في سننه وغيرُهم عن أنس بن مالك قال: أغفَى رسولُ الله ﷺ إغفاءَةً فرفَعَ رأسَهُ مُتَبَسِّماً فقال: «إنَّه أُنزِلَ عليَّ آنفاً سورةٌ» فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾» حتى خَتَمها[(٥)]. الحديث.

وفي أخبار سبب النزول ما يقتضي كلًّا من القولَين، وستَسمعُ بعضاً منها إن شاء الله تعالى، ومن هنا استُشكِلَ أمرُها، وذكر الخفاجيُّ أنَّ لبعضهم تأليفاً صحَّح فيه أنَّها نَزَلَت مرَّتَين، وحينئذٍ فلا إشكالَ[(٦)].

وآيُها ثلاثٌ بلا خلاف، وليس في القرآن كما أخرج البيهقي عن ابن شبرمة سورةٌ آيُها أقلُّ من ذلك[(٧)]، بل قد صرَّحوا بأنَّها أقصرُ سورة في القرآن.

---

(١) نظم الدرر ٢٢/ ٢٨٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٩.

(٣) الإتقان ١/ ٤٢.

(٤) ينظر شرح مسلم ٤/ ١١٣، والإتقان ١/ ٤٢ والكلام منه.

(٥) المسند (١١٩٩٦)، وصحيح مسلم (٤٠٠) و(٢٣٠٤)، وسنن أبي داود (٧٨٤) و(٤٧٤٧)، وسنن النسائي (المجتبى) ٢/ ١٣٣-١٣٤، والسنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣.

(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٣.

(٧) السنن الكبرى ٣/ ٢٠-٢١.

وقال الإمام: هي كالمقابِلة للتي قبلها؛ لأنَّ السابقة وَصَف الله تعالى فيها المنافقَ بأربعة أمورٍ: البخلِ، وتَرْكِ الصلاة، والرياء، ومنعِ الزكاة، فذكر عزَّ وجل في هذه السورة في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخيرَ الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: ﴿فَصَلِّ﴾ أي: دُمْ على الصلاة، وفي مقابلة الرياء: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ وأراد به سبحانه التصدُّق بلحوم الأضاحي، ثم قال: فاعتبر هذه المناسبةَ العجيبة[1]. انتهى فلا تغفل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ وقرأ الحسن وطلحةُ وابن محيصن والزعفراني: «أنطيناك» بالنون[2]، وهي على ما قال التبريزي: لغةُ العرب العرباء من أُولَى قريش[3]، وذكر غيرُه أنَّها لغةُ بني تميم وأهل اليمن، وليست من الإبدال الصناعي في شيء، ومن كلامه ﷺ: «اليد العليا المُنْطِيَة واليد السفلى المُنْطاة»[4]، وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل: «أَنْطُوا الثَّبَجَة»[5] أي: الوسط في الصدقة.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ فيه أقوالٌ كثيرةٌ، فذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّه نهرٌ في الجنة؛ لقوله ﷺ في آخر الحديث المتقدم آنفاً، المرويِّ عن الإمام أحمد ومسلم ومَن معهما: «هل تَدْرونَ ما الكوثرُ»؟ قالوا: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم. قال: «هو نهرٌ

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/١١٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١٨١، والمحرر الوجيز ٥/٥٢٩، والكشاف ٤/٢٩٠، والبحر المحيط ٨/٥١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/٥١٩.
(٤) قطعة من حديث أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/ ٤٣٠، وعبد الرزاق في المصنف ١١/١٠٨، والحاكم في المستدرك ٤/٣٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/١٩٨.
(٥) قطعة من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/٢٨١، وذكره القاضي عياض في الشفا ١/١٧٢، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٩٠.

أعطانيه ربِّي في الجنَّةِ عليه خيرٌ كثيرٌ، تَرِدُ عليه أُمتي يومَ القيامةِ، آنيتُهُ عدَدُ الكواكبِ، يُختَلَجُ العبدُ منهم فأقول: يا ربِّ إنَّه من أمتي، فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدَثَ بعدَك».

وقوله عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه الإمام أحمدُ والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه وآخرون عن أنس عنه ﷺ: «دخلتُ الجنةَ فإذا أنا بنهرٍ حافَتَاهُ خيامُ اللؤلؤ، فضَرَبْتُ بيَدي إلى ما يَجْري فيه الماءُ، فإذا مِسكٌ أَذْفَرُ، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أَعطَاكَهُ الله تعالى»(١).

وجاء في حديثٍ عن أنس أيضاً قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «قد أُعطيتُ الكوثرَ» قلتُ: يا رسول الله، وما الكوثرُ؟ قال: «نهرٌ في الجنة عَرْضُه وطولُه ما بين المشرقِ والمغرب، لا يشربُ منه أحدٌ فيظمأ، ولا يتوضأ منه أحدٌ فيَشْعَث أبداً، لا يشربُ منه مَن أخفَرَ ذِمتي، ولا مَن قَتَل أهل بيتي»(٢).

وروي عن عائشة أنَّها قالت: هو نهرٌ في الجنة عمقُه سبعونَ ألفَ فَرسَخ، ماؤُه أشدُّ بياضاً مِن اللبن، وأحلى من العسل، شاطِئاهُ الدرُّ والياقوتُ والزَّبرْجَدُ، خَصَّ الله تعالى به نبيَّه محمد ﷺ من بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام(٣).

وقالت: ليس أحدٌ يُدخِلُ أصبُعَيه في أُذنَيه إلا سَمِع خَرِيرَ ذلك النهرِ(٤). وهو على التشبيه البليغ.

---

(١) المسند (١٢٠٠٨)، وصحيح البخاري (٧٥١٧)، وسنن الترمذي (٣٣٥٩)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٤٢)، وعزاه لمسلم وابن ماجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٢، وفي سنن ابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٨٧) من طريق حماد بن المختار، عن عطية العوفي، عن أنس به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٠: حماد بن يحيى بن المختار مجهول، وعطية ضعيف.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الآجري في الشريعة (١٠٨٥)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ص ١٤٨، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٢، جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو موقوف.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٨٠-٦٨١.

وقيل: هو حوضٌ له عليه الصلاة والسلام في المحشر، وهو كما في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «مسيرةُ شهرٍ، وزواياه سواءٌ، ماؤه أبيضُ من اللبن، وريحُه أطيبُ من المسك، وكيزانُه أكثرُ من نجوم السماء، مَن شَرِبَ منه لا يظمأُ أبداً»(١).

وجاءت رواياتٌ أُخَرُ في تحديده، وليس ذلك من الاضطراب الموجبِ للضعف كما قال بعضُ القاصرين، لإمكان الجمعِ بما هو مذكورٌ في محلِّه، ومنه قولُ النوويِّ: ليس في ذكر المسافة القليلةِ ما يدفعُ المسافةَ الكثيرة، فالأكثر ثابتٌ بالحديث الصحيح، فلا معارضة(٢)، وقولُ بعضهم: الاختلافُ في الروايات سببُه ملاحظةُ اختلافِ سرعة السير وعدمها، وهو قبلَ الميزان والصراط عند بعضٍ، وبعدَهما قريباً من باب الجنة حيث يُحبَس أهلُها من أمته ﷺ ليتحالَلُوا من المظالم التي بينَهم عند آخرين، ويكونُ على هذا في الأرض المبدلة.

وقيل: له ﷺ حوضان، حوضٌ قبل الصراط، وحوضٌ بعده، ويُسمَّى كلٌّ منهما على ماحكاه القاضي زكريا كوثراً، وصحَّح رحمه الله تعالى أنَّه بعد الصراط، وأنَّ الكوثر في الجنة، وأنَّ ماءَه ينصبُّ فيه ولذا يُسمَّى كوثراً، وليس هو من خواصِّه عليه الصلاة والسلام كالنهر السابق، بل يكونُ لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يَرِدُه مؤمنو أممهم، ففي حديث الترمذي: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضاً، وإنَّهم يتباهَون أيُّهم أكثرُ واردةً، وإني أرجو أنْ أكونَ أكثرَهم واردةً» وهو كما قال: حديث حسن غريب(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٩٢)، وهو عند أحمد (١٥١٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، والكيزان جمع الكوز. القاموس (كوز).

(٢) شرح مسلم للنووي ١٥/ ٥٨.

(٣) سنن الترمذي (٢٤٤٣) عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم يذكر فيه: عن سمرة، وهو أصح. اهـ. ولم يرد كلمة حسن في مطبوع السنن ولا في تحفة الأشراف ٤/ ٧٣، وورد في تحفة الأحوذي ٧/ ١٣٤.

وهذه الحياض لا يجبُ الإيمان بها كما يجبُ الإيمان بحوضه عليه الصلاة والسلام عندنا ـ خلافاً للمعتزلة النافينَ له ـ لكون أحاديثِهِ بلغَت مبلَغَ التواتر بخلاف أحاديثها فإنَّها آحادٌ، بل قيل: لا تكادُ تبلغُ الصحةَ.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ الكوثرَ هو النهرُ الذي ذكره أولاً وهو الحوض، وهو على ظهر مَلَكٍ عظيم يكونُ مع النبي ﷺ حيث يكون، فيكونُ في المحشر إذ يكونُ عليه الصلاة والسلام فيه، وفي الجنة إذ يكون عليه الصلاة والسلام فيها، ولا يُعْجِزُ الله تعالى شيءٌ.

وقيل: هو أولاده عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ السورةَ نزلَت ردًّا على مَن عابه ﷺ، وهم ـ والحمد لله تعالى ـ كثيرون قد ملؤوا البسيطة.

وقال أبو بكر بن عياش(١) ويمان بن رئاب(٢): أصحابُه وأشياعُه ﷺ إلى يوم القيامة.

وقيل: علماءُ أمته ﷺ، وهم أيضاً كثيرون في كلِّ قطرٍ، وإنْ كانوا اليومَ في بعض الأقطار ـ والأمرُ لله تعالى ـ أقلَّ قليلٍ.

وعن الحسن: إنَّه القرآن وفضائلُه لا تُحصَى.

وقال الحسين بن الفضل: هو تيسيرُ القرآن وتخفيفُ الشرائع.

وقيل: هو الإسلام.

وقال هلال(٣): هو التوحيدُ.

وقال عكرمة: هو النبوَّة.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: هو نورُ قلبه ﷺ.

---

(١) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٥١٩ (والكلام منه): عباس، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٢١، واللباب لابن عادل الحنبلي ٢٠/ ٥٢١.

(٢) في الأصل و(م) ومطبوع البحر: وثاب، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير القرطبي واللباب.

(٣) هو ابن يساف، كما في تفسير القرطبي والبحر واللباب.

وقيل: هو العلمُ والحكمة.

وقال ابن كيسان: هو الإيثار.

وقيل: هو الفضائلُ الكثيرة المتصف بها عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المقام المحمود.

وقيل غير ذلك، وقد ذكر في «التحرير» ستةً وعشرين قولاً فيه، وصحَّح في «البحر» قولَ النهر(١)، وجماعةٌ أنَّه الخيرُ الكثير والنِّعَم الدنيوية والأُخروية من الفضائل والفواضل، ورواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد(٢)، وهو المشهورُ عن الحِبر ابن عباس رضي الله عنهما؛ وقد أخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بِشْر عن سعيد بن جبير عنه رضي الله عنهما أنَّه قال: «الكوثرُ» الخيرُ الذي أعطاه الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام. قال أبو بِشْر قلتُ لسعيد: فإنَّ ناساً يزعمون أنَّه نهرٌ في الجنة، قال: النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله عز وجل إياه ﷺ(٣).

وحكي هذا الجوابُ عن ابن عباس نفسِه أيضاً، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما صحَّ في الأحاديث من تفسيره ﷺ إياه بالنهر مِن باب التمثيل والتخصيصِ لنكتة، وإلا فبعد أنْ صحَّ الحديثُ في ذلك بل كاد يكونُ متواتراً، كيف يُعدَل عنه إلى تفسيرٍ آخَرَ، وكذا يقال في سائر ما في الأقوال السابقة وغيرها.

وهو فَوْعَل من الكثرة صيغةُ مبالغةِ الشيء الكثير كثرةً مفرطةً، قيل لأعرابيَّة رَجع ابنُها من السفر: بِمَ آبَ ابنُك؟ قالت: بكوثر. وقال الكُميت:

وأنت كثيرٌ يا ابنَ مروانَ طيِّبٌ وكان أبوك ابنَ العقائلِ كَوْثرا(٤)

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١٩، وفيه: والصحيح ما فسَّر به رسول الله ﷺ فقال: «هو نهرٌ في الجنة...» الحديث.

(٢) الطبري ٢٤/ ٦٨٣-٦٨٤، وعزاه لابن عساكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٦٦) و(٦٥٧٨)، والطبري ٢٤/ ٦٨٢-٦٨٣، والمستدرك ٢/ ٥٣٧.

(٤) ديوان الكميت ص١٧٧، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٨، والصحاح (كثر).

وفي حذف موصوفِهِ ما لا يخفَى من المبالغة على ما أشار إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية[١]، وفي إسناد الإعطاء إليه دون الإيتاء إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إيتاءٌ على جهة التمليك، فإنَّ الإعطاء دونه كثيراً ما يُستعمَل في ذلك، ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] بعد قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥].

وقيل: فيه إشارةٌ إلى أنَّ المعطَى ـ وإنْ كان كثيراً في نفسه ـ قليلٌ بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام، بناءً على أنَّ الإيتاء لا يُستعمَل إلا في الشيء العظيم كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠] و﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والإعطاء يُستعمَل في القليل والكثير كما قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما فيه.

وقيل: التعبيرُ بذلك لأنَّه بالتفضُّل أشبَهُ، بخلاف الإيتاء فإنَّه قد يكونُ واجباً، ففيه إشارةٌ إلى الدوام والتزايد أبداً؛ لأنَّ التفضُّل نتيجةُ كرم الله تعالى الغيرِ المتناهي.

وفي جعل المفعول الأول ضميرَ المخاطب دون الرسول أو نحوه إشعارٌ بأنَّ الإعطاء غيرُ معلَّل، بل هو من مَحْض الاختيار والمشيئةِ، وفيه أيضاً من تعظيمه عليه الصلاة والسلام بالخطاب ما لا يخفى.

وفي جَعْل الفاعل ضميرَ العظمة إشارةٌ إلى تعظيم أمر الإعطاء، وفيه تعظيمُ أمر العطية، ولعل في الكلام حينئذٍ الإشارةَ إلى أنَّ ما أُعْطِيَه عليه الصلاة والسلام عظيم كمًّا وكيفاً[٢].

وجوَّز أنْ يكونَ في إسناد الإعطاء إلى «نا» إشارةٌ إلى أنَّه مما سعَى فيه الملائكةُ والأنبياءُ المتقدِّمون عليهم السلام، وهو كما ترى[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٢٩.

(٢) من قوله: وفي جعل الفاعل ضمير، إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٣) قوله: وهو كما ترى، ليس في (م).

وفي التعبير بالماضي قيل: إشارة إلى تحقُّق الوقوعِ. وقيل: إشارة إلى تعظيم الإعطاء، وأنَّه أمرٌ مَرْعيٌّ لم يُترَك إلى أنْ يُفعَل بعد.

وقيل: إشارة إلى بِشارة أخرى، كأنَّه قيل: إنَّا هيَّأنا أسبابَ سعادتك قبل دخولك في الوجود، فكيف نُهمل أمرَك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية.

وقيل: إشارة إلى أنَّ حكم الله تعالى بالإغناء والإفقار والإسعاد والإشقاء ليس أمراً محدثاً، بل هو حاصلٌ في الأزل.

وبُني الفعل على المبتدأ للتأكيد والتقوّي، وجوّز أنْ يكون للتخصيص على بعض الأقوال السابقةِ في الكوثر.

وفي تأكيد الجملة بـ «إنَّ» ما لا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر. وقيل: لردِّ استبعادِ السامعِ الإعطاءَ، لِمَا أنَّه لم يُعلَّل والمعطَى في غاية الكثرة. وجوّز أنْ يكون لردِّ الإنكار على بعض الأقوال في الكوثر أيضاً.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها؛ فإنَّ إعطاءه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام ما ذكر من العطية التي لم يُعطِها أحداً من العالمين مستوجبٌ للمأمور به أيَّ استيجاب، أي: فدُمْ على الصلاة لربِّك الذي أفاضَ عليك ما أفاض من الخير خالصاً لوجهه عز وجل، خلافَ الساهين عنها المرائين فيها، أداءً لحقِّ شُكره تعالى على ذلك، فإنَّ الصلاة جامعةٌ لجميع أقسام الشكر ـ ولذا قيل: «فَصَلِّ»، دون: فاشكر ـ وانحر البُدن التي هي خيارُ أموال العرب باسمه تعالى، وتصدَّق على المحاويج خلافاً لمن يَدُعُّهم ويمنَعُ منهم الماعون، كذا قيل، وجَعَل السورةَ عليه كالمقابِلة لما قبلها كما فعل الإمام. ولم يذكروا مقابل التكذيب بالدين؛ وقال الشهاب الخفاجي: إنَّ الكوثرَ بمعنى الخير الكثيرِ الشامل للأخروي يقابلُ ذلك لِمَا فيه من إثباته ضِمْناً، وكذا إذا كان بمعنى النهر والحوض، والأمرُ على تفسيره بالإسلام وتفسير الدين به أيضاً في غاية الظهور[1].

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٤.

والمراد بالصلاة عند أبي مسلم: الصلاةُ المفروضة، وأخرج ذلك ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك(١)، وأخرجَه الأولُ وابن المنذر عن ابن عباس(٢).

وذهب جمعٌ إلى أنَّها جنس الصلاة.

وقيل: المرادُ بها صلاةُ العيد، وبالنحر التضحية، أخرج ابنُ جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: كانت هذه الآيةُ يومَ الحديبية، أتاه جبريلُ عليهما الصلاة والسلام فقال: انْحَر وارْجِع، فقام رسول الله ﷺ فخطَبَ خطبة الأضحى، ثم ركَعَ ركعتَين ثم انصرَف إلى البُدن فنحَرها، فذلك قولُه تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ)(٣) واستُدلَّ به على وجوب تقديمِ الصلاة على التضحية، وليس بشيء.

وأخرج عبد الرزاق وغيرُه عن مجاهد وعطاء وعكرمة أنَّهم قالوا: المرادُ صلاةُ الصبح بمزدلفة، والنحرُ بمنى(٤).

والأكثرون على أنَّ المرادَ بالنحر نحرُ الأضاحي، واستَدَلَّ به بعضُهم على وجوب الأُضحيةِ؛ لمكان الأمر مع قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأجيب بالتخصيص(٥) بقوله ﷺ: «ثلاثٌ كُتبَت عليَّ ولم تُكتَب عليكم: الضحى والأُضحية والوِتْر»(٦).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص أنَّه قال: «وانحر» أي: استقبل القبلة بنحرك(٧). وإليه ذهب الفراءُ وقال: يقال: منازلُهم تَتَناحر، أي: تتقابل، وأنشد قوله:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠٣، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.
(٢) الطبري ٢٤/ ٦٩٣، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣.
(٣) الطبري ٢٤/ ٦٩٥-٦٩٦، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣.
(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٠١، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٦٩٢.
(٥) في (م): بالتخصص.
(٦) أخرجه أحمد (٢٠٥٠) و(٢٠٦٥) و(٢٠٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٦٨ من حديث ابن عباس ﵄، قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٨: وأطلق الأئمة على هذا الحديث الضَّعْفَ، كأحمد والبيهقي وابن الصلاح وابن الجوزي والنووي وغيرهم.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٤٠٣.

أبـا حَـكَـم هـل أنـتَ عـمُّ مـجـالِـدٍ وسيـدُ أهـلِ الأبـطَـحِ الـمـتَـنَـاجِـرِ(١)

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: لَمَّا نزلَت هذه السورةُ على النبي ﷺ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ إلخ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام: «ما هذه النحيرةُ التي أمرني بها ربِّي؟ فقال: إنَّها ليسَت بنحيرةٍ، ولكنْ يأمرُك إذا تحرَّمت للصلاة أنْ ترفَعَ يدَيك إذا كبرتَ، وإذا ركعْتَ، وإذا رفعتَ رأسَك من الركوع، فإنَّها صلاتُنا وصلاةُ الملائكة الذين هم في السماوات السبع، وإنَّ لكلِّ شيءٍ زينةً، وزينةُ الصلاة رفعُ اليدَين عند كلِّ تكبيرة»(٢). وأخرج ابن جرير عن أبي جعفر رضي الله عنه أنَّه قال في ذلك: ترفع يدَيك أول ما تكبِّر في الافتتاح(٣). وأخرج البخاري في «تاريخه» والدارقطني في «الأفراد» وآخرون عن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: ضَعْ يدَكَ اليمنَى على ساعد اليسرى ثم ضَعْهما على صدرك في الصلاة(٤). وأخرج نحوه أبو الشيخ والبيهقي في «سننه» عن أنس مرفوعاً(٥)، ورواه جماعةٌ عن ابن عباس(٦).

وروي عن عطاء أنَّ معناه: اقعُدْ بين السجدَتَين حتى يبدُوَ نحرُك.

وعن الضحاك وسليمان التيمي أنَّهما قالا: معناه: ارفَع يدَيْكَ عقيبَ الصلاة عند الدعاء إلى نحرك.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/٢٩٦، وذكر البيت الطبري ٢٤/٦٩٦، والقرطبي ٢٢/٥٢٤.

(٢) المستدرك ٢/٥٣٧، والسنن الكبرى ٢/٧٥-٧٦، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٣. وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/١٧٧ وقال: هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه. والحديث من الموضوعات كما في اللآلئ المصنوعة للسيوطي ٢/١٨، والفوائد المجموعة ص ٢٩-٣٠. وسيرد مزيد كلام عليه قريباً.

(٣) الطبري ٢٤/٦٩٢.

(٤) التاريخ الكبير ٦/٤٣٧، وعزاه للدارقطني في الأفراد السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٣، وهو في سنن الدارقطني (١٠٩٩)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/٦٩١.

(٥) الدر المنثور ٦/٤٠٣، وهو في سنن البيهقي ٢/٣١، وفي إسناده رجل مبهم.

(٦) أخرجه من قول ابن عباس إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/٤٤٣، والبيهقي ٢/٣١.

ولعلَّ في صحة الأحاديث عند الأكثرين مقالاً، وإلا ما[1] قالوا الذي قالوا. وقد قال الجلال السيوطي في حديث عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه الأولِ: إنَّه أخرجَه ابنُ أبي حاتم والحاكم في «المستدرك» بسند ضعيف. وقال فيه ابنُ كثير: إنَّه حديثٌ منكرٌ جدًّا[2]. بل أخرجه ابنُ الجوزي في «الموضوعات»[3]. وقال الجلال في الحديث الآخر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه: أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم بسند لا بأس به[4].

ويُرجِّح قولَ الأكثرين ـ إنْ لم يصحَّ عن النبيِّ ﷺ ما يخالفه ـ أنَّ الأشهرَ استعمالُ النحر في نحر الإبل دون تلك المعاني، وأنَّ سُنَّةَ القرآن ذكرُ الزكاةِ بعد الصلاة، وما ذكر بذلك المعنى قريبٌ منها، بخلافه على تلك المعاني، وأنَّ ما ذكروه من المعاني يرجعُ إلى آداب الصلاة أو أبعاضها، فيدخل تحت «فَصَلِّ لربك» ويَبعدُ عَطْفُه عليه دونَ ما عليه الأكثر مع أنَّ القوم كانوا يُصلُّون ويَنحرون للأوثان، فالأنسبُ أنْ يُؤمَرَ ﷺ في مقابلتهم بالصلاة والنحر له عز وجل.

هذا واعتبارُ الخلوص في «فصلِّ» إلخ كما أشرنا إليه لدلالة السياق عليه، وقيل: لدلالة لام الاختصاص، وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الربِّ مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ لترغيبه ﷺ في أداء ما أُمِرَ به على الوجه الأكمل.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مُبغِضَك كائناً مَن كان ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عَقِبَ له، حيث لا يبقَى منه نسلٌ ولا حُسْنُ ذِكرٍ، وأما أنت فتبقَى ذرِّيتُك وحُسنُ صيتك وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يندرجُ تحت البيان.

وأصل البتر: القطعُ، وشاعَ في قطع الذَّنب. وقيل لمن لا عَقِبَ له: أبتر، على الاستعارة، شبَّه الولدُ والأثر الباقي بالذَّنب لكونه خَلْفَه، فكأنَّه بعده وعدمُه بعدمه.

---

(١) في (م): فما.
(٢) تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.
(٣) برقم (٧٧٠).
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص ٣٠٠.

وفسَّره قتادة بالحقير الذليل، وليس بذاك كما يُفصِحُ عنه سبب النزول. وفيها عليه دلالة على أنَّ أولادَ البناتِ من الذُّرِّية كما قال غيرُ واحدٍ.

واسمُ الفاعل ـ أعني «شانئ» ـ هاهنا قيل: بمعنى الماضي ليكونَ معرفةً بالإضافة، فيكون «الأبتر» خبرَه، ولا يُشكلُ ذلك بمن كان يُبغضُه عليه الصلاة والسلام قبل الإيمان من أكابر الصحابة ﵃، ثم هداهُ الله تعالى للإيمان وذاق حلاوته، فكان ﷺ أحبَّ إليه من نفسه وأعزَّ عليه مِن روحه، ولم يكن أبتر لِمَا أنَّ الحكم على المشتقِّ يُفيدُ عِلِّيَّة مأخذه، فيفيدُ الكلام أنَّ الأبترية معلَّلَةٌ بالبغض فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر ﵃، واختار بعضُهم في دفع ذلك حَمْلَ اسمِ الفاعل على الاستمرار، فهم لم يستمرُّوا على البغض.

والظاهرُ أنَّه انقطع نسلُ كلِّ مَن كان مُبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقةً، وقيل: انقطعَ حقيقةً أو حكماً؛ لأنَّ من أسلم مِن نسل المبغضين انقطَعَ انتفاعُ أبيه منه بالدعاء ونحوه؛ لأنَّه لا عصمةَ بين مسلم وكافر.

وما أشرنا إليه من أنَّ «هو» ضميرُ فصل هو الأظهر، وجوِّز أنْ يكونَ مبتدأً خبرُه «الأبتر» والجملةُ خبر «شانئك»، وحينئذ يجوزُ صناعةً أنْ يكون بمعنى الحال أو الاستقبال.

وحَمْلُ «شانئك» على الجنس هو الظاهرُ، وخَصَّه بعضُهم بمن جاء في سبب النزول واحداً أو متعدِّداً، وفيه روايات:

أخرج ابنُ سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبرُ ولدِ رسول الله ﷺ القاسمَ ثم زينبَ ثم عبدَ الله ثم أمَّ كلثوم ثم فاطمةَ ثم رقيَّةَ، فمات القاسمُ عليه السلام، وهو أولُ ميتٍ مِن ولده عليه الصلاة والسلام بمكةَ، ثم مات عبدُ الله عليه السلام، فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطَعَ نسله فهو أبتر. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1].

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٣٣، وتاريخ دمشق ٣/ ١٢٥-١٢٦.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شِمْر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي مُعَيْط يقول: إنَّه لا يبقَى للنبيِّ ﷺ عقب، وهو أبتر، فأنزل الله تعالى فيه: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ)(١).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال: لَمَّا مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ مشَى المشركون بعضُهم إلى بعض فقالوا: إنَّ هذا الصابئ قد بُتِرَ الليلةَ، فأنزل الله تعالى: (إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ) السورة(٢).

وأخرج عبدُ بن حميد وغيره عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: هو أبو جهل. أي: لأنَّها نزلَت فيه(٣)، وهذا المقدارُ في الرواية عن ابن عباس لا بأس به، وحكايةُ أبي حيان عنه أنَّه لَمَّا مات إبراهيم بنُ رسول الله ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بُتِرَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ)(٤)، لا تكاد تصحُّ لأنَّ هلاكَ اللعين أبي جهل على التحقيق قبلَ وفاةِ إبراهيمَ عليه السلام.

وعن عطاء أنَّها نزلَت في أبي لهب. والجمهورُ على نزولها في العاص بنِ وائل.

وأيًّاما كان فلا ريبَ في ظهور عمومِ الحكم، والجملةُ كالتعليل لِمَا يُفهِمُه الكلامُ، فكأنَّه قيل: إنَّا أعطيناك ما لا يَدخُل تحت الحصر من النعم، فصلِّ وانحَر خالصاً لوجه ربِّك، ولا تكترِث بقول الشانئ الكريهِ، فإنَّه هو الأبتر لا أنت، وتأكيدُها قيل: للاعتناء بشأن مضمونها. وقيل: هو مثلُه في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] وذلك لمكان: فلا تكترث.. إلخ، المفهومِ من السياق.

---

(١) الطبري ٢٤/ ٢٩٩، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤.
(٢) المعجم الكبير (٤٠٧١)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٣: وفيه واصل بن السائب وهو متروك.
(٣) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، دون أن يعزوه.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٢٠، وذكر هذه الرواية أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٠، والقرطبي في تفسيره ٢٢/ ٥٢٩.

وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفَى من المبالغة، وعمَّم هذا الشيخ عليه الرحمة كلًّا من جزأَي الجملة فقال: إنَّه سبحانه يَبترُ شانئَ رسول الله ﷺ مِن كلِّ خيرٍ، فيبترُ أهلَه ومالَه، فيخسرُ ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفِعُ بها ولا يتزوَّد فيها صالحاً لمعاده، ويبترُ قلبَه فلا يعي الخيرَ ولا يُؤهِّله لمعرفته تعالى ومحبَّتِهِ والإيمانِ برسله عليهم السلام، ويبتر أعمالَه فلا يستعملُه سبحانه في طاعته، ويبترُه من الأنصار فلا يجدُ له ناصراً ولا عوناً، ويبترُه من جميع القُرَبِ فلا يذوقُ لها طعماً ولا يجدُ لها حلاوةً، وإن باشرها بظاهره فقلبُه شاردٌ عنها. وهذا جزاءُ كلِّ مَن شنأ ما جاء به الرسولُ ﷺ لأجل هواهُ، كمَن تأوَّل آيات الصفات أو أحاديثَها على غير مرادِ الله تعالى ومرادِ رسوله عليه الصلاة والسلام، أو تمنَّى أنْ لا تكونَ نزلَت أو قيلَت، ومن أقوى العلامات على شَنَآنه نَفْرَتُه عنها إذا سمعَها حين يَستدلُّ بها السَّلفيُّ على ما دلَّت عليه من الحق، وأيُّ شنآن للرسول عليه الصلاة والسلام أعظمُ من ذلك. وكذلك أهلُ السماع الذين يَرقصُون على سماع الغناء والدفوف والشَّبَّابات، فإذا سمعُوا القرآن يُتلَى أو قُرئ في مجلسهم استَطالُوه واستثقلوه. وكذلك مَن آثر كلامَ الناس وعلومَهم على القرآن والسنة، إلى غير ذلك، ولكلٍّ نصيبٌ من الانبتار على قَدْر شنآنه[1]. انتهى، وفي بعضه نظرٌ لا يخفى.

وقرأ ابنُ عباس: «شنيك» بغير ألف[2]، فقيل مقصورٌ من: شاني، كما قالوا: برد، في بارد، وبَرٌّ في بارّ، وجوز أنْ يكون بناءً على فَعِل.

هذا واعْلَم أنَّ هذه السورةَ الكريمة على قِصَرها وإيجازها قد اشتملَت على ما ينادي على عظيم إعجازها، وقد أطال الإمام[3] فيها الكلامَ، وأتَى بكثير مما يَستحسِنُه ذَوُو الأفهام، وذكر أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ متضمِّنٌ الإخبارَ بالغيب،

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٢٦-٢٢٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٠.

(٣) في تفسيره ٣٢/١١٧ وما بعد.

وهو سعةُ ذاتِ يدِه ﷺ وأمته[١]، وقيل: مثلُه في ذلك ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، وذكر أنَّه روي أنَّ مسيلمة الكذاب عارضَها بقوله: إنَّا أعطيناك الزماجر، فصلٍّ لربك وهاجر[٢]، إنَّ مُبغضَك رجلٌ كافر. ثم بيَّن الفرقَ من عدَّة أوجهٍ، وهو لَعَمري مثلُ الصبح ظاهرٌ، ومَن أراد الاطلاع على أزيدَ مما ذُكر فليرجع إلى تفسير الإمام، والله تعالى وليُّ التوفيق والإنعام.

---

(١) في الأصل: أَمْنه، والمثبت الصواب ينظر مفاتيح الغيب ٣٢/١٢٨.

(٢) الذي في مفاتيح الغيب ٣٢/ ١٣٥: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر....

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا سِتّ

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال ، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة ، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فنزلت السورة تفصل النزاع بين الفريقين والطائفتين : طائفة أهل الإيمان ، وطائفة عبدة الأوثان ، وتردُّ على المشركين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال ﴿قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ..﴾ الآيات . وقطعت العلاقة بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ولهذا تسمى سورة البراءة .

• • •

سورة الكافرون

[١٠٤٣] أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله [ﷺ] إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا: هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة قال: «**حتى أنظر ما يأتيني من ربي**» فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾[1] إلى آخر السورة وأنزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ٦٤﴾[2].

[١٠٤٤] وأخرج عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي [ﷺ] إن سرك أن تتبعنا عاماً ونرجع إلى دينك عاماً فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾[3] إلى آخر السورة.

وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن جريج.

[١٠٤٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن مينا قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله [ﷺ] فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾[4] إلى آخر السورة.

* * *

[١٠٤٣] (١) سورة الكافرون: الآية (١).
(٢) سورة الزمر: الآية (٦٤).
[١٠٤٤] (٣) سورة الكافرون: الآية (١).
[١٠٤٥] (٤) سورة الكافرون: الآية (١).

سورة الكافرون

ست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞﴾

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة، وروي أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعا للقرآن، والله أعلم.

اعلم أن قوله تعالى ﴿قُلْ﴾: فيه فوائد: **أحدها**: أنه عليه السلام كان مأمورًا بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ثم كان مأمورًا بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ولما كان الأمر كذلك، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون، فكانوا يقولون: كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق؟! فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أني ذكرته من عند نفسي. فكان المراد من قوله: ﴿قُلْ﴾ تقرير هذا المعنى. **وثانيها**: أنه لما قيل له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهو كان يحب أقرباءه لقوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأُمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له: ﴿قُلْ﴾. **وثالثها**: أنه لما قيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] فأُمر بتبليغ كل ما أُنزل عليه، فلما قال الله تعالى له: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته، كأنه قال: إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أُنزل عليَّ والذي أُنزل عليَّ هو مجموع قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فأنا أيضًا أبلغه إلى الخلق هكذا. **ورابعها**: أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم، على ما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] والعبد يتحمل من مولاه ما لا يتحمله من غيره، فلو أنه عليه السلام قال ابتداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد، فلعلهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه. أما لما سمعوا قوله: ﴿قُلْ﴾ علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به. **وخامسها**: أن قوله: ﴿قُلْ﴾ يوجب كونه رسولاً من عند الله، فكلما قيل له: ﴿قُلْ﴾ كان ذلك كالمنشور الجديد في

ثبوت رسالته، وذلك يقتضي المبالغة في تعظيم الرسول، فإن المَلِك إذا فوض مملكته إلى بعض عبيده، فإذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشورًا جديدًا، دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيمًا وتشريفًا. **وسادسها:** أن الكفار لما قالوا: نعبد إلهك سنة، وتبعد آلهتنا سنة. فكأنه عليه السلام قال: «اسْتَأْمَرْتُ إِلَيْهِ فِيهِ»[1]. فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **وسابعها:** الكفار قالوا فيه السوء، فهو تعالى زجرهم عن ذلك، وأجابهم وقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وكأنه تعالى قال: حين ذكروك بسوء، فأنا كنت المجيب بنفسي، فحين ذكروني بالسوء وأثبتوا لي الشركاء، فكن أنت المجيب: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **وثامنها:** أنهم سموك أبتر، فإن شئت أن تستوفي منهم القصاص، فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقًا فيه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيبهم بما هو فعلهم. **وتاسعها:** أن بتقدير أن تقول: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه، والكفار يقولون: هذا كلام ربك أم كلامك؟ فإن كان كلام ربك فربك يقول: أنا لا أعبد هذه الأصنام، ونحن لا نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك: إني لا أعبد هذه الأصنام، فلمَ قلت: إن ربك هو الذي أمرك بذلك؟ أما لما قال: ﴿قُلْ﴾ سقط هذا الاعتراض لأن قوله: ﴿قُلْ﴾ يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها. **وعاشرها:** أنه لو أنزل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكان يقرؤها عليهم لا محالة، لأنه لا يجوز أن يخون في الوحي إلا أنه لما قال: ﴿قُلْ﴾ كان ذلك كالتأكيد في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم. فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذي قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر في غاية القبح ونهاية الفحش. **الحادي عشر:** كأنه تعالى يقول: كانت التقية جائزة عند الخوف، أما الآن لما قوينا قلبك بقولنا: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وبقولنا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثاني عشر:** أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم، ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار أنه تعالى لا يكلمهم، فلو قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكان ذلك من حيث إنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء، فينجبر الإيذاء بالإكرام، أما لما قال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فحينئذٍ يرجع تشريف المخاطبة إلى محمد ﷺ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار، فيحصل فيه تعظيم الأولياء، وإهانة الأعداء، وذلك هو النهاية في الحسن. **الثالث عشر:** أن محمدًا عليه السلام كان منهم، وكان في غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب، والأب الذي يكون في غاية الشفقة بولده،

---

(١) أورده ابن حجر في (الفتح) (٨/ ٧٣٣) وقال: رواه ابن أبي حاتم، وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى وهو ضعيف.

ويكون في نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم، فالولد إن كان عاقلاً يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقته عليه إلا لصدقه في ذلك ولأنه بلغ مبلغًا لا يقدر على إخفائه، فقال تعالى: (قل يا محمد لهم: أيها الكافرون) ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب، فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة، فربما يصير ذلك داعيًا لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها. **الرابع عشر:** أن الإيذاء والايحاش من ذوي القربى أشد وأصعب من الغير، فأنت من قبيلتهم، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم: (يا أيها الكافرون) فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم، فيصير ذلك داعيًا لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر. **الخامس عشر:** كأنه تعالى يقول: ألسنا بيّنا في سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ١-٣] وفي سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وأتيت بالإيمان والأعمال الصالحات، بمقتضى قولنا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] بقي عليك التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وذلك هو أن تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله، فقل: قل يا أيها الكافرون. **السادس عشر:** كأنه تعالى يقول: يا محمد أنسيت أنني لما أخرت الوحي عليك مدة قليلة، قال الكافرون: إنه ودعه ربه وقلاه، فشق عليك ذلك غاية المشقة، حتى أنزلت عليك السورة، وأقسمت بالضحى والليل إذا سجى أنه ما ودعك ربك وما قلى. فلما لم تستجز أن أتركك شهرًا ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه ما ودعك ربك وما قلى، أفتستجيز أن تتركني شهرًا وتشتغل بعبادة آلهتهم، فلما ناديت بنفي تلك التهمة، فنادِ أنت أيضًا في العالم بنفي هذه التهمة وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع عشر:** لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئًا، لا لأنه جوَّز في قلبه أن يكون الذي قالوه حقًّا، فإنه كان قاطعًا بفساد ما قالوه، لكنه عليه السلام توقف في أنه بماذا يجيبهم؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذابًا، فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا: إن محمدًا مال إلى ديننا!! فكأنه تعالى قال: يا محمد إن توقفك عن الجواب في نفس الأمر حق، ولكنه أوهم باطلاً، فتدارَكْ إزالة ذلك الباطل، وصَرِّح بما هو الحق وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثامن عشر:** أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج: (أثنِ عليَّ) استولى عليه هيبة الحضرة الإلهية فقال: لا أحصي ثناء عليك. فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن، فكأنه قيل له: إن سكتَّ عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فأطلق لسانك في مذمة الأعداء وقل يا أيها الكافرون حتى يكون سكوتك لله وكلامك لله، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار. **التاسع عشر:** لو قال له: (لا تعبد ما يعبدون) لم يلزم منه أن يقول بلسانه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أما لما أمره بأن يقول بلسانه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار

كلامه كذبًا، فثبت أنه لما قال له: قل: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فلزمه أن يكون منكرًا لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه. ولو قال له: (لا تعبد ما يعبدون) لزمه تركه، أما لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه في نفسه وأنكره بلسانه فقوله له: ﴿قُلۡ﴾ يقتضي المبالغة في الإنكار، فلهذا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، **العشرون:** ذِكر التوحيد ونفي الأنداد جنة للعارفين ونار للمشركين، فاجعل لفظك جنة للموحدين ونارًا للمشركين و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الحادي والعشرون:** أن الكفار لما قالوا: (نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة) سكت محمد فقال: إن شافهتهم بالرد تأذوا، وحصلت النفرة عن الإسلام في قلوبهم، فكأنه تعالى قال له: يا محمد لمَ سكت عن الرد؟! أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك، فلا حاجة بك في هذا المعنى إليهم، فإنا أعطينك الكوثر، وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك الخوف بقولنا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فلا تلتفت إليهم، ولا تبال بكلامهم، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثاني والعشرون:** أنسيت يا محمد أني قدمت حقك على حق نفسي، فقلت: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البينه: ١] فقدمت أهل الكتاب في الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين فيَّ، فقدمت حقك على حق نفسي وقدمت أهل الكتاب في الذم على المشركين، وأنت أيضًا هكذا كنت تفعل، فإنهم لما كسروا سنك قلت: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي»(١) ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت: «اللَّهُمَّ املأْ بُطُونَهُمْ نَارًا»(٢) فهٰهنا أيضًا قَدِّم حقي على حق نفسك، وسواء كنت خائفًا منهم أو لست خائفًا منهم، فأظهر إنكار قولهم: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثالث والعشرون:** كأنه تعالى يقول: قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة، ثم إنني هناك ما رضيت منك أن تضمر في قلبك شيئًا ولا تظهره بلسانك، بل قلت لك على سبيل العتاب: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فإذا كنتُ لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار، وترك المبالاة بأقوال الناس، فكيف أرضى منك في هذه المسألة، وهي أعظم المسائل خطرًا بالسكوت؟! قل بصريح لسانك: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الرابع والعشرون:** يا محمد ألست قلت لك: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥١] ثم إني مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت في العالمين بأني لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف) (٣/ ١٢٨٢) حديث رقم (٣٢٩٠) قال: حدثنا عمرو بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش. . . به، ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة أحد) (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢) قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش. . . به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (الدعاء على المشركين بالزلزال) (٦/ ١٢٤) حديث رقم (٢٩١٣) من طريق عيسى. . . به، ومسلم في كتاب (المساجد) باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (١/ ٢٠٢/ ٤٣٦) من طريق أبي أسامة. . . به، جميعًا (عيسى، أبو أسامة، يزيد بن هارون) عن هشام بن حسان. . . به.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلاً أن يشاركني غيري في المعبودية أَوْلى أن تنادي في العالمين بنفي هذه الشركة، فقل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الخامس والعشرون:** كأنه تعالى يقول: القوم جاؤوك وأطمعوك في متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكتَّ عن الإنكار والرد، ألستُ أنا جعلتُ البيعة معك بيعة معي حيث قلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وجعلتُ متابعتك متابعة لي حيث قلت: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ثم إني ناديت في العالمين وقلت: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] فصَرِّح أنت أيضًا بذلك، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السادس والعشرون:** كأنه تعالى يقول: ألست أرأف بك من الولد بولده، ثم العري والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات، وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى، فقد جربتني، ألم أجدك يتيمًا وضالاً وعائلاً، ألم نشرح لك صدرك، ألم أعطك بالصِّديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة، وبعلي علمًا، ألم أكُفّ أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك، ألم أكْفِ أسلافك رحلة الشتاء والصيف، ألم أعطك الكوثر، ألم أضمن أن خصمك أبتر، ألم يقل جدك في هذه الأصنام بعد تخريبها: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] فصرح بالبراءة عنها وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع والعشرون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد ألستُ قد أنزلت عليك: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] ثم إن واحدًا لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه، حتى قلت: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أُولَدْ مِنْ سِفَاحٍ» فإذا لم تسكت عند التشريك في الولادة، فكيف سكت عند التشريك في العبادة؟! بل أظهِر الإنكار، وبالِغ في التصريح به، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثامن والعشرون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد ألست قد أنزلت عليك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فحكمت بأن مَن سَوَّى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد في المعبودية لا يكون عاقلاً بل يكون مجنونًا، ثم إني أقسمت وقلت: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] والكفار يقولون: إنك مجنون، فصَرِّح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتي عن عيب الشرك، وبراءتك عن عيب الجنون وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **التاسع والعشرون:** أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة، والمشاركة في الاسم لا توجب المشاركة في المعنى، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان في الإنسانية حقيقة، ثم القيمية كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق في القيمية، فمن لا قدرة له ولا علم ألبتة كيف يكون له حق في القيومية؟! بل ههنا شيء آخر: وهو أن امرأة لو ادعاها رجلان فاصطلحا عليها لا يجوز، ولو أقام كل واحد منهما بينة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين، ولا أمة بين موليين في حل الوطء، فكيف

يعقل عابد واحد بين معبودين؟! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحل الزوجة لأحدهما شهرًا، ثم الثاني شهرًا آخر، كان كافرًا، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافرًا فكأنه تعالى يقول لرسوله: إن هذه المقالة في غاية القبح فصَرِّح بالإنكار وقل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثلاثون**: كأنه تعالى يقول: أنسيت أني لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩] ثم خشيتَ من عائشة أن تختار الدنيا، فقلتَ لها: لا تقولي شيئًا حتى تستأمري أبويك. فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة!! فناقصة العقل ما توقفت فيما يخالف رضاي، أتتوقف فيما يخالف رضاي وأمري مع أني جبار السموات والأرض: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الحادي والثلاثون**: كأنه تعالى يقول: يا محمد ألست أنت الذي قلت: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوقَفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَم»، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذي يريد أن يفارقه: لا تخاف السلطان. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه يوقع الناس في أحد الخطأين: إما أن يعتقدوا أن السلطان متدين؛ لأنه يخالطه العالم الزاهد، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله، وكلاهما خطأ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يا محمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك، لاسيما وقد سبق أن الشيطان ألقى فيما بين قراءتك (تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى) فأزل عن نفسك هذه التهمة وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثاني والثلاثون**: الحقوق في الشاهد نوعان: حق من أنت تحت يده وهو مولاك، وحق من هو تحت يدك وهو الولد، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد، فإذا كان حق المولى المَجازي مقدمًا، فبأن يكون حق المولى الحقيقي مقدمًا كان أَوْلى، ثم روي أن عليًّا عليه السلام استأذن الرسول ﷺ في التزوج بابنة أبي جهل فضجر وقال: «**لا آذن، لا آذن، لا آذن، إن فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، ويسرني ما يسرها، والله لا يجمع بين بنت عدو الله، وبنت حبيب الله**»(١)، فكأنه تعالى يقول: صرحتَ هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد، فههنا أَوْلى أن تصرح بالرد وتكرره رعاية لحق المولى فقل: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولا أجمع في القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العدو. **الثالث والثلاثون**: يا محمد ألست قلت لعمر: رأيتُ قصرًا في الجنة، فقلت: لمن؟ فقيل: لفتى من قريش، فقلت: من هو؟ فقالوا: عمر. «**فخشيت غيرتك فلم أدخلها**» حتى قال عمر: أو أغار عليك يا رسول الله(٢)، فكأنه تعالى قال: خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره، أفما تخشى غيرتي في أن تدخل قلبك طاعة غيري، ثم هناك

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح) باب (ذب الرجل عن ابنته) (٩/ ٢٣٨) حديث رقم (٥٢٣٠) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) (٤/ ٩٣/ ١٩٠٢) جميعًا من طريق الليث... به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) باب (الوضوء في المنام) (٦/ ٢٥٧٧) حديث رقم (٦٦٢٢) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٥) كلاهما من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة... به.

أظهرت الامتناع، فههنا أيضًا أظهِر الامتناع وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الرابع والثلاثون:** أترى أن نعمتي عليك دون نعمة الوالدة، ألم أربك؟ ألم أخلقك؟ ألم أرزقك؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق؟ ثم حين كنتَ طفلاً عديم العقل وعرفت تربية الأم، فلو أخذتك امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت، ولو أعطتك الثدي لسددت فمك تقول: لا أريد غير الأم؛ لأنها أول المنعم عليَّ، فههنا أَوْلى أن تُظهر النفرة فتقول: لا أعبد سوى ربي لأنه أول منعم عليَّ فقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ **الخامس والثلاثون:** نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب لا ينسيان نعمة الإطعام ولا يميلان إلى غير من أطعمها، فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد والإحسان، فكيف في حق أفضل الخلق: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **السادس والثلاثون:** مذهب الشافعي أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة، فإذا لم تجد من الأنصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلاً بها، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا؟ فبتقدير أن كنت متصلاً بها، كان يجب أن تنفصل عنها وتتركها، فكيف وما كنت متصلاً بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع والثلاثون:** هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة في الإلهية كالكثرة في المال يزيد به الغنى، وليس الأمر كذلك، بل هو كالكثرة في العيال تزيد به الحاجة فقل يا محمد: لي إله واحد أقوم له في الليل وأصوم له في النهار، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه، فكيف ألتزم عبادة آلهة كثيرة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الثامن والثلاثون:** أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨] فاستعاذت أن تميل إلى جبريل دون الله، أفتستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام؟! ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **التاسع والثلاثون:** مذهب أبي حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة، يقول: لأنه كان قيمًا فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب، فالحق سبحانه يقول: كنت قيمًا ولم أتعيب، فكيف يجوز الإعراض عني: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الأربعون:** هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠] فكأنه تعالى يقول: هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل؛ لأن البذر مني والتربية والسقي مني، والحفظ مني، فأي شيء للصنم، أو شركة الوجوه وذلك أيضًا باطل أترى أن الصنم أكثر شهرة وظهورًا مني؟! أو شركة الأبدان وذلك أيضًا باطل؛ لأن ذلك يستدعي الجنسية، أو شركة العنان، وذلك أيضًا باطل؛ لأنه لا بد فيه من نصاب، فما نصاب الأصنام، أو يقول: ليس هذه من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيبًا من الملك، فكأن الرب يقول: ما أشد جهلكم إن هذا الصنم أكثر عجزًا من الذبابة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ [الحج:

٧٣] فأنا أخلق البذر ثم ألقيه في الأرض، فالتربية والسقي والحفظ مني، ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيبًا مني، ما هذا بقول يليق بالعقلاء: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الحادي والأربعون:** أنه لا ذرة في عالم المحدثات إلا وهي تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات، وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام، ولما كان كل بق وبعوضة داعيًا إلى معرفة الذات والصفات قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم الله، وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله، فكأنه تعالى يقول: مثل هذا الشيء كيف يتسحيا منه؟! روي أن عمر رضي الله عنه كان في أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشًا وحمله بنفسه، فرآه علي من بعيد فتنكب علي عن الطريق فاستقبله عمر وقال له: لمَ تنكبت عن الطريق؟ فقال علي: حتى لا تستحي. فقال: وكيف أستحي من حمل ما هو غذائي؟! فكأنه تعالى يقول: إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذي هو غذاؤه في الدنيا، فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذي يعطيك غذاء دينك؟! ثم كأنه تعالى يقول: يا محمد إن نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم، أفلا تصرح بالرد عليهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وإن فرعون لما ادعى الإلهية فجبريل ملأ فاه من الطين، فإن كنتَ ضعيفًا فلستَ أضعف من بعوضة نمروذ، وإن كنت قويًّا فلست، أقوى من جبريل، فأظهر الإنكار عليهم و: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثاني والأربعون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد قل بلسانك: (لا أعبد ما تعبدون) واتركه قرضًا عليَّ فإني أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه، ألا ترى أن النصراني إذا قال: (أشهد أن محمدًا رسول الله) فأقول: أنا لا أكتفي بهذا ما لم تصرح بالبراءة عن النصرانية، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك، فأنتَ أيضًا أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيري فقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثالث والأربعون:** أن موسى عليه السلام كان في طبعه الخشونة، فلما أُرسل إلى فرعون قيل له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وأما محمد عليه السلام فلما أُرسل إلى الخلق أُمر بإظهار الخشونة تنبيهًا على أنه في غاية الرحمة، فقيل له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ قد تقدم القول فيها في مواضع، والذي نزيده ههنا أنه روي عن علي عليه السلام أنه قال: (يا) نداء النفس و(أي) نداء القلب، و(ها) نداء الروخ، وقيل: (يا) نداء الغائب و(أي) للحاضر، و(ها) للتنبيه، كأنه يقول: أدعوك ثلاثًا ولا تجيبني مرة، ما هذا إلا لجهلك الخفي. ومنهم من قال: إنه تعالى جمع بين (يا) الذي هو للبعيد، و(أي) الذي هو

للقريب، كأنه تعالى يقول: معاملتك معي وفرارك عني يوجب البعد البعيد، لكن إحساني إليك ووصول نعمتي إليك توجب القرب القريب: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وإنما قدم (يا) الذي يوجب البعد على (أي) الذي يوجب القرب، كأنه يقول: التقصير منك والتوفيق مني، ثم ذكرها بعد ذلك لأن (يا) يوجب البعد الذي هو كالموت و(أي) يوجب القرب الذي هو كالحياة، فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت، وتلك الحالة هي النوم، والنائم لا بد وأن ينبه و(ها) كلمة تنبيه، فلهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف.

المسألة الثانية: روي في سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف - قالوا لرسول الله: تعالَ حتى نعبد إلهك مدة، وتعبد آلهتنا مدة، فيحصل مصلحة بيننا وبينك، وتزول العداوة من بيننا، فإن كان أمرك رشيدًا أخذنا منه حظًا، وإن كان أمرنا رشيدًا أخذت منه حظًا. فنزلت هذه السورة ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر، واعلم أن الجهل كالشجرة، والكفر كالثمرة، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه،

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: لمَ ذكرهم في هذه السورة بالكافرين، وفي الأخرى بالجاهلين؟ **الجواب:** لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم، فلا بد وأن تكون المبالغة ههنا أشد، وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق، سواء كان مطلقًا أو مقيدًا، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم، كقوله عليه السلام في علم الأنساب: «**عِلْمٌ لاَ يَنْفَعُ وَجَهْلٌ لاَ يَضُرُّ**».

السؤال الثاني: لمَ قال تعالى في سورة (لم تحرم): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧]، ولم يذكر قل، وههنا ذكر قل، وذكره باسم الفاعل. **والجواب:** الآية المذكورة في سورة (لمَ تحرم) إنما تقال لهم يوم القيامة، وثمة لا يكون الرسول رسولاً إليهم، فأزال الواسطة، وفي ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين. فلذلك ذكره بلفظ الماضي، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر، وكان الرسول رسولاً إليهم، فلا جرم قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

السؤال الثالث: قوله ههنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خطاب مع الكل أو مع البعض؟ **الجواب:** لا يجوز أن يكون قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ خطابًا مع الكل؛ لأن في الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى، فلا يجوز أن يقول لهم: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ولا يجوز أيضًا أن يكون قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ خطابًا مع الكل؛ لأن في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله، فإذن وجب أن يقال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة. والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص، ولو حملنا على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك، فكان حمل الآية على هذا المحمل أَوْلى.

قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان: **أحدهما:** أنه لا تكرار فيها. **والثاني:** أن فيها تكرارًا.

أما الأول فتقريره من وجوه: أحدها: أن الأول للمستقبل، والثاني للحال، والدليل على أن الأول للمستقبل أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، أن ترى أن لن تأكيد فيما ينفيه لا، وقال الخليل في لن: أصله لا أن. إذا ثبت هذا فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أنتم في الحال بعابدين لمعبودي. **الوجه الثاني:** أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثاني للاستقبال، والدليل على أن قول: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا: (أنا عابد ما عبدتم) ولا شك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال: (أنا قاتل زيدًا) فُهم منه الاستقبال. **الوجه الثالث:** قال بعضهم: كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال، ولكنا نخص أحدها بالحال، والثاني بالاستقبال دفعًا للتكرار، فإن قلنا: إنه أخبر عن الحال ثم عن الاستقبال، فهو الترتيب، وإن قلنا: أخبر أولاً عن الاستقبال، فلأنه هو الذي دعوه إليه، فهو الأهم فبدأ به، **فإن قيل:** ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلومًا أنه ما كان يعبد الصنم، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله في بعض الأحوال؟ **قلنا:** أما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سرًّا خوفًا منها أو طمعًا إليها، وأما نفيه عبادتهم فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً **الوجه الرابع وهو اختيار أبي مسلم:** أن المقصود من الأولين المعبود و(ما) بمعنى الذي، فكأنه قال: لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله، وأما في الأخيرين فـ(ما) مع الفعل في تأويل المصدر، أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون عبادتي المبنية على اليقين، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهي، كان ذلك باطلاً لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم فهو منهي عنه، وغير مأمور به. **الوجه الخامس:** أن تُحمل الأولى على نفي الاعتبار الذي ذكروه، والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات، فكأنه أولاً قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ رجاء أن تعبدوا الله: ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم، ثم قال: ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض، ومقصود من المقاصد ألبتة بوجه من الوجوه، ولا أنتم عابدون ما أعبد بوجه من الوجوه، واعتبار من الاعتبارات، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعيم، فيقول: لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلا لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض.

القول الثاني وهو أن نسلّم حصول التكرار: وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه: **الأول:** أن

التكرير يفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير أحسن، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع؛ لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ في هذا المعنى مرارًا، وسكت رسول الله عن الجواب، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل، فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال. **الوجه الثاني:** أنه كان القرآن ينزل شيئًا بعد شيء، وآية بعد آية جوابًا عما يسألون فالمشركون قالوا: استلم بعد آلهتنا حتى نؤمن بإلهك. فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهرًا ونعبد إلهك شهرًا فانزل الله: ﴿وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضرًا ألبتة. **الوجه الثالث:** أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين: تعبد آلهتنا شهرًا ونعبد إلهك شهرًا وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة.

فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم، وهو ضرب من التهكم، فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافًا به واستحقارًا لقوله.

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أن كلمة: (ما) لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ (ما) لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؟ أجابوا عنه من وجوه: **أحدها:** أن المراد منه الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق. **وثانيها:** أن (ما) مصدرية في الجملتين، كأنه قال: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل. ثم قال ثانيًا لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال. **وثالثها:** أن يكون (ما) بمعنى الذي وحينئذٍ يصح الكلام. **ورابعها:** أنه لما قال أولاً: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ حمل الثاني عليه ليتسق الكلام كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

المسألة الثالثة: احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ والخبر الصدق عن عدم الشيء يضاد وجود ذلك الشي، فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين.

واعلم أنه بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: أليس أن ذكر الوجه الذي لأجله تقبح عبادة غير الله كان أَوْلى من هذا التكرير؟ **الجواب:** بل قد يكون التأكيد والتكرير أَوْلى من ذكر الحجة، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة، أو لأجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فالمناظرة في مسألة الجبر والقدر حسنة، أما القائل بالصنم فهو إما مجنون يجب شده أو عاقل معاند فيجب قتله، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية.

السؤال الثاني: أن أول السورة اشتمل على التشديد، وهو النداء بالكفر والتكرير، وآخرها على

اللطف والتساهل، وهو قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكيف وجه الجمع بين الأمرين؟ **الجواب:** كأنه يقول: إني قد بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح وما قصرت فيه، فإن لم تقبلوا قولي، فاتركوني سواء بسواء.

السؤال الثالث: لما كان التكرار لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغي أن يقول: لن أعبد ما تعبدون؛ لأن هذا أبلغ، ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ﴾ [الكهف: ١٤] **والجواب:** المبالغة إنما يحتاج إليها في موضع التهمة، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع، فكيف يعبده بعد ظهور الشرع؟! بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له، **فإن قيل:** فهل يقال: إنه أذن لهم في الكفر. **قلنا:** كلا فإنه عليه السلام ما بُعث إلا للمنع من الكفر فكيف يأذن فيه، ولكن المقصود منه أحد أمور: **أحدها:** أن المقصود منه التهديد، كقوله ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] **وثانيها:** كأنه يقول: إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فاتركوني ولا تدعوني إلى الشرك. **وثالثها:** ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ فكونوا عليه إن كان الهلاك خيرًا لكم ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ لأني لا أرفضه. **القول الثاني في تفسير الآية:** أن الدين هو الحساب، أي لكم حسابكم ولي حسابي، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة. **القول الثالث:** أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني. وحسبهم جزاء دينهم وبالاً وعقابًا كما حسبك جزاء دينك تعظيمًا وثوابًا. **القول الرابع:** الدين: العقوبة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] يعني الحد، فلكم العقوبة من ربي، ولي العقوبة من أصنامكم، لكن أصنامكم جمادات، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض. **القول الخامس:** الدين: الدعاء، فادعو الله مخلصين له الدين، أي لكم دعاؤكم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ [فاطر: ١٤] ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم، بل يوم القيامة يجدون لسانًا فيكفرون بشرككم، وأما ربي فيقول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٢٦] ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] **القول السادس:** الدين العادة، قال الشاعر:

يَقُولُ لَهَا وَقَدْ دَارَتْ وَضِينِي ... أَهَذَا دِينُهَا أَبَدًا وَدِينِي (١)

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الوافر للشاعر المثقب العبدي وهو العائذ بن محصن بن ثعلبة، من بني عبد القيس، من ربيعة، ٠٠٠- ٣٦ق.هـ/ ٥٥٣- ٥٨٧م، شاعر جاهلي، من أهل البحرين، اتصل بالملك عمرو ابن هند، وله فيه مدائح، ومدح النعمان بن المنذر، في شعره حكمة ورقة.

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين، ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي، ثم يبقى كل واحد منا على عادته، حتى تلقوا الشياطين والنار، وألقى الملائكة والجنة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ يفيد الحصر، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم، ولي ديني لا لغيري، وهو إشارة إلى قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] أي أنا مأمور بالوحي والتبليغ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول، فأنا لمافعلت ما كُلفت به خرجت من عهدة التكليف، وأما إصراركم على كفركم فذلك مما لا يرجع إليَّ منه ضرر ألبتة.

المسألة الثانية: جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليُتمثل به بل ليُتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه.

والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا، وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «الكافرون»

وهي مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِيةٌ في أحدِ قولي ابنِ عباسٍ وقتادةَ والضحَّاك[1]. وهي ستُّ آياتٍ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أنسٍ: «أنَّها تَعْدِلُ ثلثَ القرآن»[2]. وفي كتاب «الرد» لأبي بكر الأنباريِّ: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدَّثنا يوسف، قال: حدَّثنا القعنبيُّ وأبو نعيم، عن موسى بن وَرْدان، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعدِلُ ربعَ القرآن»[3]. ورواه موقوفاً عن أنس.

وخرَّج الحافظ أبو محمد عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد عن ابن عمر قال: صلَّى النبيُّ ﷺ بأصحابه صلاةَ الفجرِ في سفر، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأتُ بكم ثلثَ القرآنِ ورُبعَه»[4].

وروى جُبير بن مُطعِم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ سفَرًا أن تكون من أَمْثَلِ أصحابِك هيئةً وأكثرِهم زاداً»؟ قلتُ: نعم. قال: «فاقرأ هذه السورَ الخمسَ؛ من أوّل «قل يا أيها الكافرون ـ إلى ـ قل أعوذُ بربِّ الناس»، وافتتِحْ قراءتَك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنتُ غنيًّا[5] كثير المالِ، إذا سافرتُ أكونُ أَبَذَّهم هَيئةً، وأقلَّهم زاداً، فمذ قرأتهنَّ صرتُ مِن أحسنهم هيئةً، وأكثرِهم زاداً، حتى أرجعَ من سفري ذلك[6].

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ: قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٥٧ .

(٢) لم نقف على هذا الحديث، والذي في سنن الترمذي: ربع القرآن، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) و(٢٨٩٥)، وسلف ص ١٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٥٨ و٢٦٠ .

(٥) في النسخ: غير، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٧٤١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٤ : رواه أبو يعلى وفيه مَن لم أعرفهم. وذكره الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٨ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٦ ونسباه لأبي يعلى.

منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره[١].

وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقِشتان، أي: أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال لِلقَرح والجُدَريّ إذا يبِس وتقرَّف، وللجَرَب في الإبل إذا قَفَل: قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

ذكر ابن إسحاقَ وغيره عن ابن عباس: أن سببَ نزولها أن الوليدَ بن المغيرة، والعاصَ بن وائل، والأسودَ بن المُطَّلب[٣]، وأُميةَ بن خَلَف؛ لَقُوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلتعبدْ ما نعبد، ونَعْبد ما تَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلِّه، فإن كان الذي جئتَ به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأَخذنا بحظِّنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنتَ قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذتَ بحظِّك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو اسْتَلَمْتَ بعضَ هذه الآلهة لَصدَّقناك، فنزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذَوه، وآذَوا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي بعد الحديث (٣٤٠٣) بنحوه. والرجل الذي قال النبي ﷺ: أوصني، هو نوفل الأشجعي أبو فروة رضي الله عنهما.

(٢) الصحاح (قشش).

(٣) في النسخ والنكت والعيون ٦/ ٣٥٧ (والكلام منه دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما): الأسود بن عبد المطلب، والخبر في السيرة النبوية ١/ ٣٦٢ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٥٠٥ ـ دون نسبة ـ وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٠٣ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٣٧ ونسبه لسعيد بن مينا. والمثبت من هذه المصادر.

أصحابَه[١]. والألفُ واللامُ ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفةً لأيّ؛ لأنها مُخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفره، فهي من الخُصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماورديّ[٢]: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمَنَ فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كُفره، وهم المُخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ مَن طعن في القرآن: «قُلْ لِلذين كَفَروا لا أَعْبد ما تَعْبُدون» وزعَم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراءٌ على ربِّ العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطالُ ما قصده الله من أن يُذِلَّ نبيُّه المشركين[٣] بخطابه إيَّاهم بهذا الخطاب الزرِيّ[٤]، وإلزامهم ما يأنَفُ منه كلُّ ذي لُبٍّ وحِجًا. وذلك أن الذي يدَّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفِهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون، دليلُ صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أَقْبِلْ إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيدُ، أَقْبِلْ إلينا. فقد وقعت قراءتُنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسنُ لفظٍ وأبلغُ معنى؛ إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا[٥] يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكُفر، ويُدخَلوا في جُملة أهله إلَّا وهو محروسٌ ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يَدٌ، أو تقع به من جهتهم أَذِية. فمن لم يقرأ «قُلْ يا أيُّها الكافرون» كما أنزلها الله، أسقط آيةً لرسول الله ﷺ. وسبيلُ أهل الإسلام ألا يُسارعوا إلى مِثْلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إيَّاها، وشرَّفه بها.

وأما وجهُ التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قَطْع أطماعهم؛ كما تقول: والله، لا

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر - كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤ - وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٣٥ دون نسبة.
(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٧.
(٣) في (م): للمشركين، والمثبت من النسخ الخطية.
(٤) في (د): الرديء.
(٥) قوله: لا، ليس في (د) و(م).

أَفعلُ كذا، ثم والله لا أَفعلُه.

قال أكثرُ أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التَّكرار إرادةَ التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادةَ التخفيف والإيجاز[(١)]؛ لأن خُروجَ الخطيب والمتكلِّم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: اِرْمِ اِرْمِ، اعجَلْ اعجَلْ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «فلا آذنُ، ثم لا آذنُ، إنما فاطمةُ بَضْعةٌ مني» خرَّجه مسلم[(٢)].

وقال الشاعر:

هلا سألتَ جموعَ كِنْـ ... ـدَةَ يومَ ولَّوْا أَيْنَ أَيْنَا[(٣)]

وقال آخر:

يا لَبَكْرٍ أَنْشِروا لي كُلَيْباً ... يا لَبَكْرٍ أَينَ أَينَ الفِرارُ[(٤)]

وقال آخر:

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ ... خيرَ تميمٍ كُلِّها وأَكْرَمَهْ[(٥)]

وقال آخر:

يا أَقرعُ بنَ حابسٍ يا أَقْرَعُ ... إنكَ إنْ يُصْرَع أخوكَ تُصْرَعُ[(٦)]

وقال آخر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٥ .

(٢) في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٨٩٢٦).

(٣) البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢ .

(٤) البيت لمهلهِل، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٥ ، والخزانة ٢/ ١٦٢ .

(٥) لم نقف على قائله، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ١٣٣ .

(٦) سلف ٥/ ٢٨٢ .

أَلَا يا اسلَمي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمي ثَـلاثُ تَـحِـيَّـاتٍ وإنْ لَـمْ تَـكَـلَّـمـي[١]

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلِهَتنا ونعبدُ إلهَكَ، ثم تعبد آلِهَتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدًا سَنَةً وسنة. فأُجيبوا عن كل ما قالوه بضِدِّه؛ أي: إنَّ هذا لا يكون أبداً.

قال ابن عباس: قالت قريش للنبيِّ ﷺ: نحن نُعطيك من المال ما تكون به أغنَى رجلٍ بمكة، ونزوِّجك مَنْ شئت، ونطأ عَقِبَك ـ أي: نمشي خَلْفَك ـ وتَكُفُّ عن شَتْم آلهتنا، فإنْ لم تفعل فنحن نَعْرِضُ عليك خَصْلةً واحدة هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهَتنا: اللاتَ والعُزّى سنةً، ونحن نعبدُ إلهكَ سنةً؛ فنزلت السورة[٢]. فكان التكرار في «لا أعبدُ ما تعبدون»؛ لأن القوم كرَّروا عليه مقالَهم مرةً بعد مرة. والله أعلم.

وقيل: إنما كرَّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي: «لا أعبدُ» الساعةَ «ما تعبدون. ولا أنتم عابدون» الساعةَ «ما أَعبدُ». ثم قال: «ولا أنا عابِدٌ» في المستقبل «ما عبدتم. ولا أنتم» في المستقبل «عابِدون ما أَعبدُ». قاله الأخفش والمبرّد[٣].

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملُّوا وَثَنًا، وسَئِموا العبادةَ له رَفَضوه، ثم أخذوا وَثَناً غيرَه بشهوةِ نُفوسهم، فإذا مرُّوا بحجارة تُعجبهم أَلْقَوا هذه، ورفعوا تلك، فعظَّموها ونصبوها آلهةً يعبدونها، فأُمِر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم: «لا أعبدُ ما تعبدون» اليومَ من هذه الآلهةِ التي بين أيديكم. ثم قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وانما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» أي: بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتُم على هذه. «ولا أنتم عابدون ما أعبد» فإني أَعبدُ إلهي.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «لا أَعبدُ ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أَعبدُ» في الاستقبال. وقوله: «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتُم» على نَفْي العبادة منه لِمَا عَبَدوا في

(١) البيت لحُميد بن ثور الهلالي، وهو في يوانه ص ١٣٣ ، وفيه: بلى فاسلمي، بدل: ألا يا اسلمي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٧٠٣ .

(٣) قول الأخفش ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣٥٨ ، وأبو حيان في البحر ٨/٥٢١ . وقول المبرد ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/٣٠١ .

الماضي. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أَعبد» على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يُوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عَبدتُ، فعدلَ عن لفظ عَبدتُ إلى أعبدُ، إشعاراً بأنَّ ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدُهما موقعَ الآخر. وأكثرُ ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل.

وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أعبدُ؛ لِيقابل به «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» وهي أصنامٌ وأوثان، ولا يصلحُ فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمل الأوّل على الثاني، لِيتقابل الكلام ولا يتنافى[1]. وقد جاءت «ما» لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخركنَّ لنا.

وقيل: إنَّ معنى الآيات وتقديرَها: قل: يا أيها الكافرون، لا أَعبدُ الأصنامَ التي تعبدُونها، ولا أنتم عابدون اللهَ عز وجل الذي أَعبدُه؛ لإشراكِكم به، واتِّخاذكم الأصنام، فإنْ زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبدُ ما عبدتُم، أي: مثلَ عبادتكم، فـ «ما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» مصدرية أيضاً؛ معناه: ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي التي هي توحيده سبحانه وتعالى، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] أي: إنْ رَضِيتُم بدينكم، فقد رَضِينا بديننا. وكان هذا قبلَ الأمر بالقتال، فَنُسِخَ بآية السيف. وقيل: السورة كلُّها منسوخة. وقيل: ما نُسِخَ منها شيء لأنها خبر[2]. ومعنى «لكم دِينكم» أي: جزاءُ دينكم، ولي جزاءُ ديني. وسمّى دينَهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وَتَوَلَّوه. وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء.

وفتح الياء من «ولِيَ دِينِ» نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٥٤ - ١٥٥ ، وزاد المسير ٩/ ٢٥٤ .

ابن عامر، وحفص عن عاصم[١]. وأثبت الياء في «ديني» في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب[٢]؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠] ونحوه، اكتفاءً بالكسرة، واتباعاً لخطّ المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

(١) السبعة ص ٦٩٩ ، والتيسير ص ٢٢٥ .

(٢) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٤٠٤ .

سُورَةُ الكَافِرُون

مكيَّةٌ، وآيها سِتٌّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني: كَفَرةً مَخصوصينَ قَدْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُم أَنَّهُم لا يُؤمِنُونَ.

رُوِيَ أنَّ رهطًا مِن قُرَيشٍ قالوا: يا مُحمَّدُ! تعبدُ آلهتَنَا سَنَةً ونَعبدُ إلهك سنَةً، فنزلَتْ(١).

(٢) ـ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: فيما يُستقبَلُ؛ فإنَّ (لا) لا تدخلُ إلَّا على مُضارعٍ بمَعنى الاستقبالِ، كما أنَّ (ما) لا تدخلُ إلا على مُضارعٍ بمعنى الحالِ.

(٣) ـ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أي: فيما يستقبلُ؛ لأنَّهُ في قِرَانِ لا أعبدُ(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٠٣) والطبراني في «المعجم الصغير» (٧٥١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٧٣٣): في إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى، وهو ضعيف. ورواه الطبري أيضاً عن سعيد بن مينا مولى البختري، وذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٩٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦٧). وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٥٧) عن ابن إسحاق.

(٢) قوله: «لأنه في قران..» بكسر القاف وفتح الراء، أي: صحبته، يقال: قارنته قرانًا: صاحبته، وقرنت الشيء بالشيء: وَصَلته به. انظر: «حاشية الأنصاري»: (٥/ ٥٥٠).

(٤ ـ ٥) ـ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ أي: في الحالِ، أو فيما سلفَ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؛ أي: وما عبَدْتُم في وقتٍ مَّا ما أنا عابِدُه. ويجوزُ أَنْ يكونا تأكِيدَيْنِ على طريقَةٍ أبلغَ.

وإنَّما لم يَقُل: ما عَبَدتُ؛ ليُطابِقَ ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، لأنَّهُم كانوا موسومينَ قبلَ المبعثِ بعِبادَةِ الأصنامِ، وهو لم يَكُن حينئذٍ مَوسومًا بعبادةِ اللهِ.

وإنَّما قال: (ما) دون (مَن) لأنَّ المرادَ الصِّفَةُ، كأنَّه قال: لا أعبدُ الباطلَ ولا تَعبدونَ الحَقَّ، أو للمُطابقَةِ، وقيل: إنَّها مَصدريَّةٌ، وقيل: الأُولَيانِ بمعنى (الذي)، والأُخْرَيانِ مَصدريَّتانِ.

(٦) ـ ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الذي أنتُمْ عليه لا تتركونَهُ ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الذي أنا عليهِ لا أرفضُهُ، فليس فيه إذنٌ في الكُفْرِ ولا منعٌ عَن الجهادِ ليكونَ مَنْسُوخًا بآيةِ القتالِ، اللهمَّ إلا إذا فُسِّرَ بالمتارَكَةِ وتقريرِ كلٍّ مِن الفريقينِ الآخرَ على دينِهِ.

وقد فُسِّرَ الدِّينُ بالحِسابِ والجَزاءِ والدُّعاءِ والعِبادَةِ.

وقرأ نافعٌ وحفصٌ وهشامٌ بفتح الياء[١].

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرأَ سُورةَ الكافرون فكأنَّما قرأَ ربعَ القرآنِ، وتباعَدَتْ عنه مَرَدةُ الشَّياطينِ، وبَرِئَ مِن الشِّركِ»[٢].

***

---

(١) وقرأ بها أيضاً البزي بخلف عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٩)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٦٤)، ورواه ابن مردويه في «تفسيره» كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ٣٠٩) بلفظ: «ويعافى من فزع اليوم». وعلى كل فهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٣/ ١١٢٩ ـ ١١٣٠)، و«الفوائد المجموعة» (ص: ٢٩٦).

والجملة الأولى رواها الترمذي (٢٨٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه وقال: حديث حسن.

(١٠٩) سورة الكافرون مكية
وآياتها ست

ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد، في ركعتي الطواف[1]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يختمها[2]، وعن الحارث بن جبلة قال، قلت: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿يا أيها الكافرون﴾ فإنها براءة من الشرك»[3]، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هذه سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، فقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن الموجهون بهذا الخطاب هم (كفار قريش) دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة. ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ يعني من الأصنام والأنداد، ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وهو الله وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ۞ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه، في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الطبراني
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، ولهذا قال: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، وقال: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾. وقال البخاري ﴿لكم دينكم﴾ الكفر. ﴿ولي دين﴾ الإسلام، ولم يقل: ديني، لأن الآيات بالنون فحذف الياء. كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ ﴿ويشفين﴾. وقال غيره: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ الآن ولا أجيبكم بما بقي من عمري ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ فهذه ثلاثة أقوال: **أولها**: ما ذكرناه أولاً. **الثاني**: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل. **الثالث**: أن ذلك تأكيد محض. وثمّ قول رابع: نصره ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الإسمية آكد، فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة قل يا أيها الكافرون. ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهى مكية [١].

ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ،وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى ركعتى الطواف [٢] .

وفى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب،بضعا وعشرين مرة ــ أو: بضع عشرة مرة ــ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [٣] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رمقت النبى ﷺ أربعاً وعشرين ــ أو : خمسا وعشرين ــ مرة ، يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ،والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [٤] .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ــ هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيرى ــ حدثنا سفيان ــ هو الثورى ــ عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمَقتُ النبى ﷺ شهراً ، وكان يقرأ فى الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث أبى أحمد الزبيرى [٥] . وأخرجه النسائى من وجه آخر ، عن أبى إسحاق ، به [٦] . وقال الترمذى :هذا حديث حسن .

وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم [٧] بن القاسم ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، عن فروةَ ابن نَوفل ــ هو ابن معاوية ــ عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال له : « هل لك فى ربيبة لنا تكفلها؟» قال : أراها زينب . قال : ثم جاء فسأله النبى ﷺ عنها ، قال : « ما فعلت الجارية ؟» قال: تركتها عند أمها . قال : « فمجىء ما جاء بك ؟» قال : جئت لتعلمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك». تفرد به أحمد[٨] .

---

(١) بعدها فى م : البسملة .
(٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث طويل وهو منسك جابر المشهور .
(٣) المسند (٢/ ٢٤) .
(٤) المسند (٢/ ٩٩) .
(٥) المسند (٢/ ٩٤) وسنن الترمذى برقم (٤١٧) وسنن ابن ماجة برقم (١١٤٩) .
(٦) سنن النسائى (٢/ ١٧٠) .
(٧) فى أ : « هشيم » .
(٨) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥/ ٤٢٥) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عَمرو القطراني ، حدثنا محمد بن الطفيل ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن جبلة بن حارثة ــ وهو أخو زيد بن حارثة ــ أن النبي ﷺ قال : «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك» (١). [والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل] (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل ، عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئا أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعَك من الليل فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، فإنها براءة من الشرك » (٣) .

وروى الطبراني من طريق شريك ، عن جابر (٤) ، عن معقل الزبيدي ، عن [عباد أبي الأخضر عن خباب] (٥)، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى يختمها(٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥ ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين(٧) بهذا الخطاب هم كفارُ قريش.

وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد ، ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، وهو الله وحده لا شريك له. فـ « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم ، أي : لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم:٢٣] ، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده ، وعبادة (٨)

(١) المعجم الكبير (٢/٢٨٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٢١) : « رجاله وثقوا » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) لم أقع عليه في المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٢/ ٢٢٠) .

(٤) وقع في المعجم الكبير : « عن شريك وجابر » مقروناً وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٥) زيادة من المعجم الكبير (٤/٨١) .

(٦) المعجم الكبير (٤/٨١) ورواه البزار في مسنده برقم (٣١١٣) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٢١) : « وفيه جابر الجعفي ، وهو ضعيف » .

(٧) في أ : « ولكن المواجهون » .

(٨) في م : « وعبادته » .

يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أي : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [القصص: ٥٥] .

وقال البخاري : يقال : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ** ﴾: الكفر ، ﴿ **وَلِيَ دِينِ** ﴾ : الإسلام. ولم يقل : « ديني» لأن الآيات بالنون، فحذف الياء ، كما قال: ﴿**فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿**يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: ٨٠] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقي من عمري ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ **وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾ [المائدة: ٦٤] . انتهى ما ذكره (١) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦]، وكقوله: ﴿ **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٦ ، ٧] . وحكاه بعضهم ــ كابن الجوزي ، وغيره ــ عن ابن قتيبة ، فالله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثاني : ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ : في الماضي ، ﴿ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ : في المستقبل. الثالث : أن ذلك تأكيد محض .

وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تَيمية في بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ : نفي الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ : نفي قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الإسمية آكد فكأنه نفي الفعل ، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا . وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة تُورثه (٢) اليهود من النصارى ، وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ــ ما عدا الإسلام ــ كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

آخر تفسير سورة « قل يا أيها الكافرون » ولله الحمد والمنة

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٧٣٣) « فتح » .

(٢) في م : « فورث » .

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ١٩٥) وأبو داود في السنن برقم (٢٩١١) .

سورة الكافرون[1]

مكّيّة، وهي ستُّ آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ هم كفرة مخصوصون قد عَلِم الله تعالى أنّه لا يتأتّى منهم الإيمان أبدًا. رُوي أنّ رهطًا مِن عتاة قريش قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً»، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره». فقالوا: «فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك»، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ مِن قريش، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا.[2]

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل؛ لأنّ ﴿لَا﴾ لا تدخل غالبًا إلّا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أنّ "ما" لا تدخل إلّا على مضارع في معنى الحال، والمعنى لا أفعل / في المستقبل ما تطلبونه منّي مِن عبادة آلهتكم. [٣٢٣و]

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم مِن عبادة إلهي.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: وما كنت قطّ عابدًا فيما سلف ما عبدتُم فيه، أي: لم يُعهَد منّي عبادة صنم في الجاهليّة، فكيف تُرجى منّي في الإسلام.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: وما عبدتُم في وقت مِن الأوقات ما أنا على عبادته. وقيل: هاتان الجملتان لنفي العبادة حالًا، كما أنّ الأوّلين لنفيها استقبالًا.

---

١ س: الكافرين.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٧٠٣/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٦٣/٨؛ وبلفظه بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤.

وإنّما لم يقل: "ما عبدت" لتوافق ﴿مَا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنّهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسومًا بعبادة الله تعالى.

وإيثار ﴿مَا﴾ في ﴿أَعْبُدُ﴾ على "مَن" لأنّ المراد هو الوصف، كأنّه قيل: ما أعبد مِن المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادَر قَدْر عظمته. وقيل: إنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا أعبده عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي. وقيل: الأوّليان بمعنى "الذي"، والأخريان مصدريّتان. وقيل: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ثانيًا تأكيد لمثله المذكور أوّلًا.[1]

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والمعنى أنّ دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضًا كما تطمعون فيه، فلا تعلِّقوا به أمانيّكم الفارغة، فإنّ ذلك مِن المحالات، وأنّ ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضًا؛ لأنكم علّقتموه بالمحال[2] الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي إيّاها، ولأنّ ما وعدتموه عين الإشراك.

وحيث كان مبنى قولهم: تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً على شركة
[٣٢٣ظ] الفريقين في / كلتا العبادتين، كان القصر المستفاد مِن تقديم المسند قصرَ إفراد حتمًا. ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة، ١٣٤/٢].[3] وقيل: المعنى إنّي نبيّ مبعوث إليكم لأدعوَكم إلى الحقّ والنجاة، فإذا لم تقبلوا منّي ولم تتبعوني فدعوني كفافًا، ولا تدعوني إلى الشِّرك.[4] فتأمّل.

---

[1] هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ٥٢٢/٢٠؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤-٦١٤.

[2] س: بالمجال.

[3] س - ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكافرين فكأنّما قرأ رُبع القرآن، وتباعدت عنه مرَدة الشياطين، وبرئ مِن الشِّرك، وتعافى مِن الفزع الأكبر».[1]

---

[1] س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩٧/٣٠ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٤/٤ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١٠٩

سُورَةُ الكَافِرُون

مكية أو مدنية، ستُّ آيات.

نزلتْ لمّا قال رهطٌ من المُشركين للنبيِّ ﷺ: تعبدُ آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿قُلْ: يا أَيُّها الكافِرُونَ، لا أعبُدُ﴾ في الحال ﴿ما تَعبُدُونَ﴾ من الأصنام، ٣ ـ ﴿ولا أنتُم عابِدُونَ﴾ في الحال ﴿ما أعبُدُ﴾ ـ وهو الله تعالى وحده ـ ٤ ـ ٥ ـ ﴿ولا أنا عابِدٌ﴾ في الاستقبال ......

سُورَةُ الكَافِرُون

قولُهُ تعالى: (﴿قُل يا أَيُّهَا الكَافِرُون﴾) يعني: كفَرَةً مخصوصِينَ، قد علِمَ الله منهم أنَّهم لا يؤمنونَ، في «المبهمات»[(١)]: أنَّها نزلَتْ في الوَليدِ بن المغيرَةِ، والعاصِ بن وائلٍ، والأسوَدِ بن المطَّلبِ، وأميَّةَ بنِ خَلفٍ.

قولُهُ: (في الحَالِ) الصَّحيحُ في الاستقبالِ؛ فإنَّ ﴿لا﴾ لا تدخُلُ إلا على مُضارعٍ بمَعنى الاستقبالِ، كما أنَّ ﴿ما﴾ لا تدخُلُ إلا على مُضارعٍ بمَعنى الحالِ، كذا قالَهُ القاضي[(٢)]، وفي «المغني»[(٣)]: ويتخلَّصُ المضارعُ بـ﴿لا﴾ النَّافيةِ للاستِقبالِ عند الأكثَرينَ، وخالَفَهُم ابنُ مالكٍ.

قولُهُ: (فِي الحَالِ) أو فيما يُستَقبَل؛ لأنَّه في قِرانِ: ﴿لا أَعبُدُ﴾.

قولُهُ: (فِي الاستِقبَالِ) أو في الحالِ، أو فيما سَلفَ على مذهَبِ الكسائيِّ[(٤)] أنَّ اسمَ الفاعِلِ بمعنى الماضي يَعمَل.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٢١). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦٦٢) عن سعيد بن مينا مولى البختري.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤٣).

(٣) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٣٢٢).

(٤) انظر: «شرح ألفية ابن مالك» للشاطبي (٤/ ٢٦٣).

﴿ما عَبَدتُّم، ولا أنتُم عابِدُونَ﴾ في الاستقبال ﴿ما أعبُدُ﴾. علمَ اللهُ منهم أنهم لا يُؤمنون، وإطلاقُ «ما» على الله على جهة المُقابلة. ٦ ـ ﴿لَكُم دِينُكُم﴾ الشِّرك ﴿ولِي دِينِ﴾ الإسلامُ. وهذا قبل أن يُؤمر بالحرب. وحَذفَ ياءَ الإضافةِ السبعةُ وقفًا ووصلاً، وأثبتَها يعقوب في الحالينِ.

قولُهُ: (في الاستِقبَالِ) أو وما عبَدتُّم في وَقتٍ ما أنا عابِدُه.

قولُهُ: (على جِهَةِ المُقَابَلَةِ) وقيل: إنَّها مصدَريَّةٌ.

قولُهُ: (الشِّركُ) أي: الذي أنتُم عليه لا تترُكونَهُ.

قولُهُ: (الإسلامُ) أي: الذي أنا عليه لا أرفُضُه.

قولُهُ: (قَبلَ أنْ يُؤمَرَ) فيه أنَّه ليسَ فيه إذنٌ في الكُفرِ، ولا مَنْعَ عن الجهادِ ليكونَ منسوخاً، وفُسِّرَ الدِّينُ بالحسابِ والجزاءِ والدُّعاءِ والعبادَةِ.

قولُهُ: (يَعقُوبُ) من العَشَرَة، وفتَحَ ياء ﴿لي﴾ نافِعٌ وهِشامٌ وحَفصٌ والبزِّيُ بخلافٍ عنه[1]، والله سُبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٧٢٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٤).

سُورَةُ الكَافِرُونَ

وتسمَّى المقشقِشة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى[١]، وهو من قَشْقَشَ المريضُ: إذا صَحَّ وبَرِئَ، أي: المُبرئة من الشرك والنفاق، وتسمَّى أيضاً ـ كما في «جمال القرّاء»[٢] ـ سورة العبادة، وكذا تسمَّى سورةَ الإخلاص.

وهي عند ابن عباس والجمهور مكية، وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن الزبير أنَّها مدنية، وحكاه في «البحر» عن قتادة[٤] على خلاف ما في «مجمع البيان» من أنه قائلٌ بمكيتها[٥]، وأيًّاما كان فقولُ الدواني: إنها مكيةٌ بالاتفاق، ليس في محلِّه.

وآيُها سِتٌّ بلا خلاف، وفيها إعلان ما فُهِمَ مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة له عزَّ وجلَّ، ويكفي ذلك في المناسبة بينهما.

وتُسَنُّ قراءتها عند النوم؛ فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه[٦] وغيرهم عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله، علّمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي. قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نَمْ على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[٧].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠٤.

(٢) ١/ ٢٠٢.

(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤.

(٤) البحر ٨/ ٥٢١.

(٥) مجمع البيان ٣٠/ ٢٥٤.

(٦) أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٠٢)، والحاكم ١/ ٥٦٥.

(٧) من قوله: وتُسَنُّ. . إلى هنا ليس في (م)، وضُرب عليه في النعمانية (ب).

وقال رسول الله ﷺ لجبلةَ بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة ـ وقد قال له عليه الصلاة والسلام: علِّمني شيئاً أقوله عند منامي ـ نحوَ ذلك، كما في حديثٍ أخرجه الإمام أحمد والطبرانيُّ في «الأوسط»(١).

وأَمَرَ ﷺ أنساً بأن يقرأها عند منامه أيضاً معلِّلاً لذلك بما ذُكر كما أخرجه البيهقيُّ في «الشعب»(٢).

وأمَرَ عليه الصلاة والسلام خبَّاباً بذلك أيضاً كما في حديثٍ أخرجه البزار وابن مردويه(٣).

وأخرج أبو يعلى والطبراني(٤) عن ابن عباس مرفوعاً: «ألا أَدلُّكم على كلمةٍ تُنجيكم من الإشراك بالله تعالى، تقرؤون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند منامكم».

وروى الديلميّ عن عبد الله بن جراد قال: قال رسول الله ﷺ: «المنافقُ لا يُصلِّي الضحى، ولا يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»(٥).

ويُسَنُّ قراءتها أيضاً مع سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي سنَّة الفجر التي هي عند الأكثرين أفضلُ السنن الرواتب، وكذا في الركعتين بعد المغرب، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ وحسَّنه، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم(٦) عن ابن

---

(١) أحمد (٢٤٠٠٩/ ٥)، والمعجم الأوسط (٨٨٨).

(٢) برقم (٢٥٢٢)، وفيه أن المأمور بذلك هو معاذ رضي الله عنه، وقال البيهقي: هو بهذا الإسناد منكر.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٠٥-٤٠٦، وهو في كشف الأستار (٣١١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٢١: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٠٥، وهو في المعجم الكبير (١٢٩٩٣). قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٢١: فيه جبارة بن المغلس، وهو ضعيف جداً. اهـ، وفيه أيضاً الحجاج بن تميم، قال عنه الذهبي في الميزان ١/ ٤٦١: ضعفه الأزدي وغيره، وأحاديثه تدل على أنه واه. ثم ذكر له أحاديث منها هذا الحديث.

(٥) مسند الفردوس ٤/ ٢٠٣، ورمز له السيوطي بالضعف كما في فيض القدير ٦/ ٢٧٦، وقال المناوي: فيه يعلى بن الأشدق، قال البخاري: لا يكتب حديثه.

(٦) أحمد (٥٦٩١)، والترمذي (٤١٧)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧٠، وابن ماجه (١١٤٩)، وابن حبان (٢٤٥٩).

عمر رضي الله عنهما قال: رَمَقْتُ النبيَّ ﷺ خمساً وعشرين مرَّةً ـ وفي لفظٍ: شهراً ـ فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وفي حديثٍ أخرجه ابن ماجه وابن حبان عن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «نِعْمَ السورتان مما يقرأان في الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[١].

إلى غير ذلك من الأخبار[٢]، وهي حُجَّةٌ على مَنْ قال من الأئمة[٣]: إنه لا يُسَنُّ في سنة الفجر ضَمُّ سورةٍ إلى الفاتحة.

وجاء في حديثٍ أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط»[٤] عن ابن عمر مرفوعاً، وفي آخر أخرجه في «الصغير»[٥] عن سعد بن أبي وقاص كذلك أنها تَعدِلُ ربعَ القرآن[٦].

وَوَجَّهَ ذلك الإمام[٧] بأنَّ القرآن مشتملٌ على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرَّمات، وكلٌّ منهما إما أن يتعلَّقَ بالقلب أو بالجوارح، فيكونُ أربعة أقسام، وهذه السورةُ مشتملةٌ على النهي عن المحرَّمات المتعلِّقة بالقلب، فتكونُ كربع القرآن.

وتعقب بأنَّ العبادة أعمُّ من القلبية والقالبية، والأمرُ والنهيُ المتعلِّقان بها لا يختصّان بالمأمورات والمنهيات القلبية والقالبية، وأنَّ مقاصدَ القرآن العظيم لا تنحصرُ في الأمر والنهي المذكورين، بل هو مشتملٌ على مقاصدَ أخرى،

---

(١) ابن ماجه (١١٥٠)، وابن حبان (٢٤٦١)، وهو عند أحمد (٢٦٠٢٢).
(٢) من قوله: فقد أخرج... إلى هنا ليس في (م).
(٣) في هامش الأصل: وأظنه الإمام مالكاً.
(٤) برقم (١٨٦).
(٥) برقم (١٦٥).
(٦) وأخرجه الترمذي (٢٨٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: حديث حسن.
(٧) في تفسيره ٣٢/١٣٦.

كأحوال المبدأ والمعاد، ومن هنا قيل: لعلَّ الأقربَ أن يقال: إنَّ مقاصدَ القرآن: التوحيدُ، والأحكام الشرعية، وأحوالُ المعاد، والتوحيدُ عبارةٌ عن تخصيص الله تعالى بالعبادة، وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولاً وبالذات(١)، والتخصيصُ إنما يحصلُ بنفي عبادة غيره تعالى، وعبادةِ الله عزَّ وجلَّ؛ إذ التخصيصُ له جزآن: النفيُ عن الغير، والإثباتُ للمخصَّص به، فصارت المقاصدُ بهذا الاعتبار أربعة، وهذه السورةُ تشتملُ على ترك عبادة غيره سبحانه والتبرِّي منها، فصارت بهذا الاعتبار ربعَ القرآن، ولكونها ليس فيها التصريحُ بالأمر بعبادة الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ فيها التصريحَ بترك عبادة غيره تعالى، لم تكن كنصف القرآن.

وقيل: إنَّ مقاصدَ القرآن: صفاته تعالى، والنبوّات، والأحكام، والمواعظ. وهي مشتملةٌ على أساس الأول وهو التوحيد، ولذا عَدَلَتْ رُبْعَهُ.

وذَكَرَ بعضُ أَجلَّة أحبابي المعاصرين أوجهاً في ذلك أحسنها فيما أرى أنَّ الدين الذي تضمَّنه القرآن أربعة أنواع: عباداتٌ ومعاملاتٌ وجناياتٌ ومناكحاتٌ، والسورةُ متضمِّنةٌ للنوع الأول، فكانت ربعاً.

وتُعقِّبَ بأنه أراد: فكانت ربعاً من القرآن، فلا نُسلِّم صحةَ تفريعه على كون الدين الذي تضمَّنه القرآن أربعةَ أنواع، وإن أراد: فكانت ربعاً من الدين، فليس الكلامُ فيه، إنما الكلامُ في كونها تعدِلُ ربعاً من القرآن؛ إذ هو الذي تُشعِرُ به الأخبار على اختلاف ألفاظها، والتلازمُ بينهما غيرُ مُسَلَّمٍ، على أنَّ المقابلةَ الحقيقيةَ بين ما ذُكِرَ من الأنواع غير تامة.

وأجيب باحتمال أنه أراد أنَّ مقاصدَ القرآن هي تلك الأربعة التي هي الدين، ولا يبعدُ أن يكون ما تضمَّنَ واحداً منها عَدَلَ القرآنَ كلَّه مقاصده وغيرها، ولا يَرِدُ على الحصر أنَّ من مقاصده أحوال المبدأ والمعاد؛ لدخول(٢) ذلك في العبادات

---

(١) في (م): بالذات.
(٢) في (م): فبدخول.

بنوع عناية، وعدمُ التقابل الحقيقي لا يضرُّ؛ إذ يكفي في الغرض عدُّ أهل العرف تلك الأمورَ متقابلةً ولو بالاعتبار، فتأمل جميعَ ذلك، والله تعالى الهادي لأَقْوَمِ المسالك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ قال أَجِلَّةُ المفسِّرين: المرادُ بهم كَفَرَةٌ من قريش مخصوصون، قد عَلِمَ الله تعالى أنهم لا يتأتَّى منهم الإيمان أبداً، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» عن سعيد بن مينا مولى أبي البَخْتَريّ قال: لقي الوليدُ بن المغيرة والعاصي بن وائل والأُسود بن المطلب وأمية بن خلف[1] رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلتعبدْ ما نعبدُ، ونعبد ما تعبد، ونشتركُ نحنُ وأنت في أمرنا كلِّه، فإنْ كان الذي نحن عليه أصحَّ من الذي أنت عليه، كنتَ قد أخذتَ منه حظًّا، وإن كان الذي أنت عليه أصحَّ من الذي نحن عليه، كنّا قد أخذنا منه حظًّا. فأنزل الله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) حتى انقضت السورة[2].

وفي روايةٍ: أنَّ رهطاً من عُتاةِ قريش قالوا له ﷺ: هلمَّ فاتَّبع ديننا ونتَّبع دينك، تعبدُ آلهتنا سنةً ونعبدُ إلهك سنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «معاذ الله تعالى أن أشرك بالله سبحانه غيره» فقالوا: فاستلم بعضَ آلهتنا نُصدِّقك ونعبُد إلهك. فنزلت، فعدا ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام عليه الصلاة والسلام على رؤوسهم فقرأها عليهم، فأَيسوا.

ولعلَّ نداءهم بـ «يا أيها» للمبالغة في طلب إقبالهم لئلّا يفوتهم شيءٌ مما يُلقَى إليهم، وبـ «الكافرون» دون «الذين كفروا» لأنَّ الكفر كان دينَهم القديم ولم يتجدَّد لهم، أو لأنَّ الخطابَ مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر؛ فهو كاللازم لهم، أو للمسارعة إلى ذِكْر ما يقال لهم لشِدَّة الاعتناء به، وبه دون: المشركين - مع أنهم

(١) في هامش الأصل: وزاد بعضهم أبا جهل وأبي بن خلف وابني الحجاج. منه.
(٢) ابن جرير ٢٤/ ٧٠٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٧١.

عَبَدَةُ أصنامٍ، والأكثر التعبيرُ عنهم بذلك ـ لأنَّ ما ذُكِرَ أنكى لهم، فيكونُ أبلغَ في قَطْعِ رجائهم الفارغ.

وقيل: هذا للإشارة إلى أنَّ الكفر كلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، ولا يبعد أن يكون في هذه الإشارة إنكاءٌ لهم أيضاً.

وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديهم ومكان بَسْطة أيديهم دليلٌ على عدم اكتراثه عليه الصلاة والسلام بهم؛ إذ المعنى: قلْ يا محمد ـ والمراد حقيقةُ الأمر خلافاً لصاحب «التأويلات»[1] ـ للكافرين: يا أيها الكافرون.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ يتراءى أنَّ فيه تكراراً للتأكيد، فالجملةُ الثالثةُ المنفيةُ ـ على ما في «البحر»[2] ـ توكيدٌ للأولى على وجهٍ أبلغ؛ لاسمية المؤكِّدة، والرابعةُ توكيدٌ للثانية، وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفرَّاء وقال: إنَّ القرآنَ نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرارُ الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى، والممتنع: لا لا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤] وأنشد قوله:

كائنٌ وكم عندي لهم من صنيعةٍ ... أيادي سنوها عليَّ وأوجبوا[3]

وقوله:

نعقَ الغرابُ ببينِ ليلى غدوةً ... كم كم وكم بفراق ليلى ينعقُ[4]

وقوله:

هلّا سألتَ جموع كنـ ... ـدةَ يومَ ولَّوا أين أينا[5]

---

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٥/ ٥٢٩.
(٢) ٨/ ٥٢١.
(٣) لم نقف عليه.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) البيت لعبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص١٤٢.

وهو كثيرٌ نَظْماً ونثراً، وفائدةُ التأكيد هاهنا قطعُ أطماع الكفار، وتحقيقُ أنهم باقون على الكفر أبداً.

واعترض بأنَّ تأكيدَ الجمل لا يكون مع العاطف إلا بـ «ثم». وكأنَّ القائل بذاك قاسَ الواو على «ثم». والظاهرُ أنَّ مَنْ قال بالتأكيد جَعَلَ الجملةَ الرابعةَ معطوفةً على الثالثة، وجَعَلَ المجموع معطوفاً على مجموع الجملتين الأوليين، فهناك مجموعان متعاطفان يؤكِّدُ ثانيهما أوَّلَهما، ولمغايرة الثاني للأول بما فيه من الاستمرار عُطِفَ عليه بالواو، فلا يَرِدُ ما ذُكِرَ، ويتضمَّنُ ذلك معنى تأكيد الجزء الأول من الثاني للجزء الأول من الأول، وتأكيدِ الجزء الثاني من الثاني للجزء الثاني من الأول، وإلا فظاهرُ ما في «البحر» مما لا يكاد يجوزُ كما لا يخفى.

والذي عليه الجمهورُ أنه لا تكرارَ فيه، لكنهم اختلفوا، فقال الزمخشريُّ: «لا أعبد» أُريد به نفيُ العبادة فيما يُستقبل؛ لأنَّ «لا» لا تدخل إلا على مضارعٍ في معنى الاستقبال، كما أنَّ «ما» لا تدخلُ إلا على مضارعٍ في معنى الحال، والمعنى: لا أفعلُ في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أَطلب منكم من عبادة إلهي، وما كنتُ عابداً قَطُّ فيما سَلَفَ ما عبدتم فيه، وما عبدتم في وقتٍ ما أنا على عبادته(١).

والظاهر أنه اعتبر في الجملة الأخيرة استمرارَ النفي، وأنه حَمَلَ المضارعَ فيها على إفادة الاستمرار والتصوير، وفي الثانية استغراق(٢) النفي للأزمنة الماضية.

وقال الطيبي: إنه جعل القرينتين الأوليين للاستقبال والأخريين للماضي.

واعتُرض عليه بأنَّ الحصرين اللَّذَين ذكرهما في «لا» و«ما» غيرُ صحيحٍ، وإن كانا يُشعِرُ بهما ظاهرُ كلام سيبويه.

وقال الخفاجي: ما ذُكِرَ أغلبيٌّ، أو مُقيَّدٌ بعدم القرينة القائمة على ما يخالفه، أو هو كُلِّيٌّ ولا حَجْرَ في التجوُّزِ والحملِ على غيره لمقتضٍ كدفع التكرار هنا(٣).

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٩٢-٢٩٣.
(٢) في (م): استغرق.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٥.

واعترض أيضاً بأنَّ فيه إعمالَ اسم الفاعل بمعنى الماضي النصبَ، وهو لا يجوِّزه كالكسائي وهشام(١). وكونُه اعتبر النصبَ بفعلٍ مقدَّرٍ مستأنف بعيدٌ من كلامه، وأبعدُ منه كون ذلك من حكاية الحال [الماضية](٢) كما في: ﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨](٣) وإن قيل بتحقُّق الاستغراب على القول باشتراطه في الحكاية في «عابد» الأول، وعدمِ ضررِ فَقْدِه في الثاني؛ لأنَّ النصبَ به للمشاكلة.

وقيل: القرينتان الأوليان للاستقبال كما مرَّ، والأُخريان للحال، واختاره أبو حيان(٤)، أي: ولستُ في الحال بعابدٍ معبوديكم، ولا أنتم في الحال بعابدي معبودي. وقيل بالعكس، وعليه كلامُ الزجاج ومحيي السنة(٥).

وقيل: الأوليان للماضي، والأخريان للمستقبل. نقله ابن كثير عن حكاية البخاري وغيره. ونَقَلَ أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) نفي الفعل؛ لأنها جملةٌ فعليةٌ، وبقوله تعالى: (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) نفي قبوله ﷺ لذلك بالكلية؛ لأنَّ النفيَ بالجملة الاسمية آكدُ، فكأنه نفى الفعل وكونَه عليه الصلاة والسلام قابلاً لذلك، ومعناه نفيُ الوقوع ونفيُ إمكانه الشرعي(٦).

ونوقش في إفادة الجملة الاسمية نفيَ القبول، ولا يبعد أن يقال: إنَّ معنى الجملة الفعلية نفي الفعل في زمانٍ معيَّنٍ، والجملةُ الاسمية معناها نفيُ الدخول

---

(١) أي: ليس مذهبُ الزمخشري في اسم الفاعل مذهبَ الكسائي وهشام من جواز إعماله ماضياً. البحر ٨/ ٥٢٢، وهو صاحب هذا الاعتراض.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٥، وقال الشهاب: معنى حكاية الحال الماضية أن تقدِّر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان، أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن، وفسرها الزمخشري بأن تقدِّر أن ذلك الفعل الماضي واقع حال التكلم، وقال: إنما يُفعل هذا في الماضي المستغرب يحضر في تصور المخاطب ليتعجب منه.

(٣) من قوله: واعترض... إلى هنا ليس في (م).

(٤) في البحر ٨/ ٥٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٧١، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٠٨.

تحت هذا المفهوم مطلقاً من غير تعرُّضٍ للزمان، كأنه قيل: أنا مِمَّنْ لا يصدُقُ عليه هذا المفهوم أصلاً، وأنتم ممن لا يَصْدُقُ عليه ذلك المفهوم، فتدبر.

وقيل: الأوليان لنفي الاعتبار الذي ذكره الكافرون، والأخريان للنفي على العموم، أي: لا أعبدُ ما تعبدون رجاءَ أن تعبدوا الله تعالى، ولا أنتم عابدون رجاءَ أن أعبدَ صنمكم. ثم قيل: ولا أنا عابدٌ صَنَمَكُمْ لغرضٍ من الأغراض، بوجهٍ من الوجوه، وكذا أنتم لا تعبدون الله تعالى لغرضٍ من الأغراض.

وإيثار «ما» في «ما أعبد» ـ قيل: على جميع الأقوال السابقة ـ على «مَنْ» لأنَّ المراد الصفة، كأنه قيل: ما أعبدُ من المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادَرُ قَدْرُ عظمته. وجُوِّزَ أن يقال: لَمَّا أُطلقتْ «ما» على الأصنام أولاً ـ وهو إطلاقٌ في محزِّه ـ أُطلقت على المعبود بحقٍّ للمشاكلة. ومَنْ يقول: إنَّ «ما» يجوز أن تقع على مَنْ يعلم ـ ونُسِبَ إلى سيبويه ـ لا يحتاجُ إلى ما ذُكِرَ.

وقال أبو مسلم: «ما» في الأوليين بمعنى «الذي» مفعولٌ به، والمقصودُ المعبود، أي: لا أعبد الأصنامَ، ولا تعبدون الله تعالى، وفي الأخريين: مصدريةٌ، أي: ولا أنا عابدٌ مثلَ عبادتكم المبنية على الشَّكِّ ـ وإن شئتَ قلتَ: على الشرك ـ المخرِجِ لها عن كونها عبادةً حقيقة، ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي المبنية على اليقين، وإن شئتَ قلتَ: على التوحيد والإخلاص. وعليه لا يكون تكرارٌ أيضاً.

وقال بعض الأجلة في هذا المقام: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ إما كلاهما نفيُ الحال، أو كلاهما نفي الاستقبال، أو أحدهما للحال والآخر للاستقبال، وعلى التقادير فلَفْظُ «ما» إما مصدريةٌ في الموضعين، وإما موصولةٌ أو موصوفةٌ فيهما، وإما مصدريةٌ في أحدهما، وموصولةٌ أو موصوفةٌ في الآخر، وهذه ستةُ احتمالاتٍ حاصلة من ضَرْبِ الثلاثة في الاثنين، ولم يُلْتَفَتْ إلى تقسيم صورة الاختلاف إلى الفرق بين الأولى والأخرى، ولا إلى الفرق بين الموصولة والموصوفة؛ لتكثرَ الأقسام؛ لأنَّ صُوَرَ الاختلاف متساوية

الأقدام في دفع التكرار، ومؤدَّى الموصولة والموصوفة متقاربان، فيكتفى بإحداهما، وكذا الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في الموضعين، ومعلومٌ أنه لا تكرار في صورة الاختلاف، سواءٌ كان باعتبار الحال أو الاستقبال[1]، أو باعتبار كون ما في أحدهما موصولة أو موصوفة، وفي الآخر مصدرية، ونَفَى عبادتَهم في الحال أو الاستقبال معبودَهُ عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراك المحبِطِ لها، وجَعْلها هباءً منثوراً كما قيل:

إذا صافى صديقك مَن تُعادي فقد عاداك وانقطع الكلام[2]

وقيل: إنَّ عبادتهم الحالية أو الاستقبالية لم تكن لمن هو في نفس الأمر معبوده ﷺ - أعني الله جل جلاله - بل لمعبودٍ توهَّموه وحسبوا أنه الله عزَّ وجلَّ في نفس الأمر، حسبما قامَ عليه البرهانُ العقليُّ، فهم إنما يعبدون مَنْ وَصَفوه بصفاتٍ قام البرهانُ على امتناع اتصاف الواجب بها، فليس ذلك هو الله تعالى في نفس الأمر[3].

ومن هنا قال بعض الأفاضل في إخراج الآية عن التكرار: يحتمل أن يكون المرادُ من قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي عبادة الأصنام، ومن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفي عبادة الله تعالى من غير تعرُّضٍ لشيءٍ آخر، ولَمَّا كان مظنَّة أن يقولوا لغفلةٍ عن المراد أو نحوها: كيف يسوغُ لك أن تنفيَ عنك عبادةَ ما نعبد، وعنَّا عبادةَ ما تعبد، ونحن أيضاً نعبدُ الله تعالى، غايةُ ما في الباب أنّا نعبد معه غيره، أَرْدَفَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إلخ للإشارة إلى أنهم ما عبدوا الله حقيقةً، وإنما عبدوا شيئاً قالوا: إنه الله، والله عزَّ وجلَّ وراءَ ذلك، أي: ولا أنا عابدٌ في وقتٍ من الأوقات الإله الذي عبدتم؛ لأنكم عبدتم شيئاً تخيَّلتموه، وذلك بعنوان ما تخيَّلتم ليس بالإله الذي أعبده، ولا أنتم عابدون

---

(١) في (م): والاستقبال.

(٢) البيت في غرر الخصائص الواضحة ص٤٣٢، ونفحة البرحانة ٤/ ١٧٧، وسلف ٨/ ٧٤.

(٣) من قوله: وقيل... إلى هنا ليس في (م).

في وقتٍ من الأوقات ما أنا على عبادته؛ لأني إنما أعبدُ الإله المتَّصفَ بالصفات التي قام البرهان على أنها صفاتُ الإله النفسِ الأمري.

ويُعلَمُ منه وجهٌ غير ما تقدَّم للتعبير بـ «الكافرون» دون: المشركون، وكأنه لم يُؤتَ بالقرينتين الأوليين بهذا المعنى، ويكتفى بهما عن الأخريين لأنهما أوفقُ بجوابهم، مع أنَّ هذا الأسلوبَ أنكى لهم، فلا تغفل.

ومن الناس مَن اختار كونَ «ما» في القرينتين الأوليين موصولةً مفعولاً به لما قبلها، والمراد بها أولاً آلهتهم، وثانياً إلهه عليه الصلاة والسلام، والمراد نفي العبادة ملاحَظاً معها التعلُّقُ بما تعلَّقتْ به من المفعول، بل هو المقصودُ ومحطُّ النظر كما يقتضي ذلك وقوعُ القرينتين في الجواب، ويُعتَبرُ الاستقبالُ رعايةً للغالب في استعمال «لا» داخلةً على المضارع، مع كونه أوفقَ بالجواب أيضاً، ويكون قد تمَّ بهما، فكأنه قيل: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال من الآلهة، أي: لا أُحدِثُ ذلك حَسْبَما تطلبونه مني وتَدْعوني إليه، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبدُ في الحال. وكونَها[1] في الأُخريين مصدريةً مؤولةً مع ما بعدها بمصدرٍ وَقَعَ مفعولاً مطلقاً لما قبلُ، كما فعل أبو مسلم؛ ليتضمَّنَ الكلامُ الإشارةَ إلى بيان حال العبادة في نفسها من غير نظرٍ إلى تعلُّقها بالمفعول - وإن كانت لا تخلو عنه في الواقع - إثرَ الإشارة إلى بيان حالها مع ملاحظة تعلُّقها بالمفعول، ويُرادُ استمرارُ النفي في كلتيهما كما في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وفي ذلك من إنكائهم ما ليس في الاقتصار على ما تمَّ به الجوابُ، فكأنه قيل: ولا أنا عابدٌ على الاستمرار عبادةً مثلَ عبادتكم التي أذهبتم بها أعماركم؛ لأنَّ عبادتي مأمورٌ بها، وعبادتكم منهيٌّ عنها، ولا أنتم عابدون على الاستمرار عبادةً مثل عبادتي التي أنا مستمرٌّ عليها؛ لأنكم الذين خَذَلهم الله تعالى وخَتَمَ على قلوبهم، وإني الحبيبُ المبعوثُ بالحقِّ، فلا زلتم في عبادةٍ منهيٍّ عنها، ولا زلتُ في عبادةٍ مأمورٍ بها. ولك أن تعتبرَ الفرقَ بين العبادتين بوجهٍ آخرَ. واعتبارُ الاستمرار في «ما أعبد» يُشعِرُ به العدولُ عن: ما عبدت، الذي يقتضيه «ما عبدتم» قبله إليه.

---

(١) عطف على «كون» في قوله: ومن الناس مَن اختار كونَ.

وذكر بعض الأجلة أنَّ الظاهر أن يقال في الجملة الثانية: ولا تعبدون ما أعبد، لتناسب ما قبلها من قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وفي الجملة الرابعة: ولا أنتم عابدون ما عبدتُ، لتكون أوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾. وأُجيب عن العدول في الثانية إلى ما في النظم الجليل لأنَّ الخطاب مع مَنْ عُلِمَ أنهم لا يؤمنون أصلاً، فأتى بما يفيد الاستمرار بمعونة المقام[1]، وعن العدول في الثانية إلى ذلك؛ لأنَّ أنواعَ عبادته عليه الصلاة والسلام لم تكن تامةً بعد، بل كانت تتجدَّدُ لها أنواعُ أُخَرُ، فأتى بما يفيدُ الاستمرارَ التجدُّديَّ للإشارة إلى حَقِّيَّةِ جميع ما يأتي به ﷺ من ذلك.

وقال الزمخشريُّ: لم يقل: ما عبدتُ، كما قيل: «ما عبدتم»؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث، وهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يعبدُ الله تعالى في ذلك الوقت[2].

وتعقِّب بأنَّ فيه نظراً؛ لما ثبتَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحنَّثُ في غار حراء قبل البعثة. ونصَّ أبو الوفاء عليُّ بن عقيل على أنه ﷺ كان متديِّناً قبل بعثه بما يصحُّ عنه أنه من شريعة إبراهيم عليه السلام، وأما بعد البعث فقال ابن الجوزي في كتاب «الوفا»[3]: فيه روايتان عن الإمام أحمد: إحداهما: أنه كان متعبِّداً بما صحَّ من شرائع مَنْ قبله بطريق الوحي، لا من جهتهم ولا نقلهم[4] ولا كتبهم المبدَّلة. واختارها أبو الحسن التميمي، وهو قولُ أصحاب أبي حنيفة.

الثانية: أنه لم يكن متعبِّداً إلا بما يوحَى إليه من شريعته، وهو قولُ المعتزلة والأشعرية.

ولأصحاب الشافعي وجهان كالروايتين.

---

(١) من قوله: وذكر بعض الأجلة... إلى هنا ليس في (م).
(٢) الكشاف ٤/ ٢٩٣.
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ص ١٣٦.
(٤) في مطبوع الوفا: ولا بعلمهم.

والقائلون بأنه عليه الصلاة والسلام متعبِّدٌ بشَرْعِ مَنْ قبله اختلفوا في التعيين، فقيل: كان متعبِّداً بشريعة إبراهيم عليه السلام، وعليه أصحاب الشافعي. وقيل: بشريعة موسى عليه السلام إلا ما نُسِخَ في شرعنا.

وظاهرُ كلام أحمد أنه ﷺ كان متعبِّداً بكلِّ ما صحَّ أنه شريعةٌ لنبيٍّ قبله ما لم يثبتْ نَسْخُه؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال ابن قتيبة: لم تزلِ العربُ على بقايا دين إسماعيل عليه السلام كالحجِّ والختان وإيقاع الطلاق الثلاث والدية والغسل من الجنابة وتحريم المحرَم بالقرابة والصهر، وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله تعالى والعمل بشرائعهم. انتهى.

والمعتزلة لم يُجوِّزوا ذلك لزعمهم أنَّ فيه مفسدةً، وهو إيجابُ النُّفْرة، نعم من أصولهم وجوبُ التعبُّد العقليِّ بالنظر في آيات الله تعالى، وأدلة توحيده سبحانه، ومعرفته عزَّ وجلَّ، ولا يمكنُ أن يُخِلَّ ﷺ بذلك.

وفي «الكشف»: العبادةُ قد تُطلَقُ على أعمال الجوارح الواقعة على سبيل القربة، فالإيمانُ والنيةُ والإخلاصُ شروطٌ، ومنه: «لفَقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»[1]، واختلف أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبِّداً بهذا المعنى قبل نبوَّته بشَرْعٍ أو لا، فميلُ الإمام فخر الدين وجماعةٍ من الشافعية وأبي الحسين البصري وأتباعه إلى أنه ﷺ لم يكن متعبِّداً، وأجابوا عن الطواف والتحنُّثِ وغيرهما من المكارم أنها لا تُحرَّمُ من غير شرعٍ حتى يقال: الآتي بها لا بدَّ أن يكون متعبِّداً، بل هي من اقتضاء العادات المستمرَّة والمكارم الغريزية، دون نظرٍ إلى قربة. والزمخشريُّ اختارَ ذلك القول، وعليه بنى تفسيرَهُ، وقد ظهرَ أنه لم يخالفْ أصله في وجوب التعبُّد العقليِّ بالنظر في الآيات وأدلة التوحيد والمعرفة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث غريب.

ثم قال: والظاهرُ حَمْلُ «ما أعبد» على إفادة الاستمرار والتصوير على أنهم ما كانوا ينكرون ما كان عليه ﷺ فيما مضى عبادةً كانت أو لا، بل كانوا يُعظِّمونه ويُلقِّبونه بالأمين، إنما كان المنكَر ما كان عليه بعد النبوة، فلذلك قيل ثانياً: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» إذ لو قيل: ما عبدتُ، لم يُطابق المقام. وفيه أنَّ ما كانوا يتوهَّمونه من موافقته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة لم يكن صحيحاً، بل إنما كان ذلك لأنه لم يكن ﷺ مأموراً بالدعوة. انتهى، فتدبَّرْه.

وزعم بعضُهم أنَّ تغايرَ الأساليب في هذه السورة لتغاير أحوال الفريقين، وليس بشيء.

وفي تكليف مثل هؤلاء المخاطَبين بما ذُكِرَ ـ على القول بإفادته الاستمرارَ على الكفر ـ بالإيمان بحثٌ مذكورٌ في كتب الأصول، إن أردته فارجع إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة (تَبَّتْ) إشارةٌ مّا إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ هو عند الأكثرين تقريرٌ لقوله تعالى: (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى: (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ عندهم تقريرٌ لقوله تعالى: (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والمعنى: إنَّ دينكم ـ وهو الإشراك ـ مقصورٌ على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي[1] كما تطمعون فيه، فلا تُعلِّقوا به أمانيكم الفارغة، فإنَّ ذلك من المحالات، وإنَّ ديني ـ الذي هو التوحيدُ ـ مقصورٌ على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً؛ لأنَّ الله تعالى قد خَتَمَ على قلوبكم لسوء استعدادكم، أو لأنكم علَّقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم، أو استلامي لها، أو لأنَّ ما وَعَدْتُموه عينُ الإشراك، وحيث إنَّ مقصودهم شِرْكَةُ الفريقين في كلتا العبادتين كان القَصْرُ المستفاد من تقديم المسند قَصْرَ إفرادٍ حتماً، وجُوِّزَ أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى: (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والآيةُ على ما ذُكِرَ محكمةٌ غيرُ منسوخةٍ كما لا يخفى.

(١) قوله: لي. ليس في (م).

أو المراد المتارَكةُ، على معنى: إني نبيٌّ مبعوثٌ إليكم لأدعوكم إلى الحقِّ والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتَّبعوني فدَعوني كفافاً، ولا تَدْعوني إلى الشرك. فهي على هذا كما قال غيرُ واحدٍ منسوخةٌ بآية السيف.

وفُسِّرَ الدينُ بالحساب، أي: لكم حسابكم ولي حسابي، لا يرجعُ إلى كلٍّ منّا مِن عَمَلِ صاحبه أثرٌ. وبالجزاء، أي: لكم جزاؤكم ولي جزائي.

قيل: والكلامُ على الوجهين استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما يكون إذا بقينا على عبادة آلهتنا، وإذا بقيتَ على عبادة إلهك، فقيل: لكم.. إلخ، والمراد: يكون لهم الشَّرُّ ويكون له عليه الصلاة والسلام الخيرُ، لكن أتى باللام في «لكم» للمشاكلة، وعليه لا نَسْخَ أيضاً.

ويحتمل أن يكونَ المرادُ غير ذلك مما تكونُ عليه الآية منسوخةً، ولعلَّه لا يخفى.

وقد يُفَسَّرُ الدين بالحال كما هو أحدُ معانيه حسبما ذكره القالي في «أماليه»[1] وغيره، أي: لكم حالُكُم اللائقُ بكم الذي يقتضيه سوءُ استعدادكم، ولي حالي اللائقُ بي الذي يقتضيه حُسْنُ استعدادي. والجملةُ عليه كالتعليل لما تضمَّنه الكلامُ السابقُ، فلا نَسْخَ.

والأَولى أن تُفسَّرَ بما لا تكونُ عليه منسوخة؛ لأنَّ النَّسْخَ خلافُ الظاهر، فلا يُصارُ إليه إلا عند الضرورة.

وللإمام الرازي أوجهٌ في تفسيرها لا يخلو بعضُها عن نظرٍ، وذكر عليه الرحمة أنه جرتِ العادةُ بأنَّ الناسَ يتمثَّلون بهذه الآية عند المتاركة، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ القرآنَ ما أُنزل ليُتَمَثَّلَ به، بل ليُهتَدَى به[2]. وفيه مَيلٌ إلى سَدِّ باب الاقتباس، والصحيحُ جوازه، فقد وَقَعَ في كلامه عليه الصلاة والسلام وكلام كثيرٍ من الصحابة

---

(١) ٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٤٧-١٤٨.

والأئمة والتابعين، وللجلال السيوطي رسالةٌ وافيةٌ كافيةٌ في إزالة الالتباس عن وجه جواز الاقتباس[1]، وما ذُكِرَ من الدليل فأظهر من أن يُنبَّه على ضعفه.

وقرأ سلام ويعقوب: «ديني» بياء وَصْلاً وَوَقفاً[2]، وحَذَفها القراءُ السبعة، والله تعالى أعلم.

---

(١) وهي المسماة: رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس. كشف الظنون ١/ ٩١٠، ومكتبة الجلال السيوطي لأحمد الشرقاوي ص٣٤١، وهي رسالة مطبوعة ضمن الحاوي للفتاوي ١/ ٣٩٩-٤٤١.

(٢) النشر ٢/ ٤٠٤ عن يعقوب، وذكرها عن سلام أبو حيان في البحر ٨/ ٥٢٢.

(١١٠) سورة النصر مدنية وآياتها ثلاث

سورة النصر مدنية ، وهي تتحدث عن الفتح الأعظم « فتح مكة » الذي عزَّ به دين الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ، وانتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية ، وتقلمت أظافر الكفر والضلال ، وكان الإخبار بفتح مكة والمدائن والقصور قبل وقوعه إخباراً بالغيب ، وقد حصل كما أخبر القرآن حيث فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وغيرها بعدها وهذا من أعلام نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام .

سورة النصر

[١٠٤٦] أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله [ﷺ] مكة عام الفتح بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم فدخلوا في الدين فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾(١) حتى ختمها.

* * *

[١٠٤٦] (١) سورة النصر: الآية (١) - والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٦١) من طريق عبدالله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس.

سورة النصر

وهي ثلاث آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ﴾

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ **في الآية لطائف:**

إحداها: أنه تعالى لما وعد محمدًا بالتربية العظيمة بقوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١] لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال: يا محمد لمَ يضيق قلبك، ألستَ حين لم تكن مبعوثًا لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل، وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن أزيد فأقول: إني أكون ناصرًا لك بذاتي: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ فقال: إلهي إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني. فقال: ﴿ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقال: إلهي لكن القوم إذا خرجوا، فأي لذة في ذلك فقال: ﴿ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ ثم كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة؟ إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١] وهذا يشتمل على أمور ثلاثة: **أولها:** نصرتني بلسانك فكان جزاؤه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ **وثانيها:** فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله، ﴿ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ **والثالث:** أدخلت رعية جوارحك وأعضائك في طاعتي وعبوديتي، فأنا أيضًا أدخلت عبادي في طاعتك. وهو المراد من قوله: ﴿ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخِلع الثلاثة فابعث إلى حضرتي بثلاثة أنواع من العبودية؛ تهادوا تحابوا: إن نصرتك فسبح، وإن فتحت مكة فاحمد، وإن أسلموا فاستغفر. وإنما وضع في مقابلة: نصر الله تسبيحه لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات، يعني تشاهد أنه نصرك، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر، بل اعتقد كونه منزهًا عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئًا، ثم جعل في مقابل فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد، ثم جعل في مقابلة دخول الناس في الدين الاستغفار، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] أي كثرة الأتباع مما يشغل القلب بلذة الجاه والقَبول، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر، فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر. **الوجه الثاني:** أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة

فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فقيل: يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نظيره: (زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ) يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء: ١] بل أزيد على هذا فأُفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا، فإذا بقي الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الشعراء: ٩٠] **الوجه الثالث:** كأنه سبحانه قال: يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها، فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا: (اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك) فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال: (أبشر فقد جاء نصر الله) فلما استبشر قال: الرحيل الرحيل، أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال، فاستغفره أيها الإنسان، لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف، ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّ[١]

إلهي لم فعلت كذلك؟ قال: حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبدًا على جناح الارتحال والسفر. **الوجه الرابع:** لما قال في آخر السورة المتقدمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكأنه قال: إلهي وما جزائي؟ فقال: نصر الله. فيقول: وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد: ١] **فإن قيل:** فلمَ بدأ بالوعد قبل الوعيد؟ **قلنا:** لوجوه: **إحدها:** لأن رحمته سبقت غضبه. **والثاني:** ليكن الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو النصر كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦]، **وثالثها:** الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة، وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره. **الوجه الخامس:** أن في السورة المتقدمة لم يذكر شيئًا من أسماء الله، بل قال: ما أعبد بلفظ (ما) كأنه قال: لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم، وفي هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها مُنزلة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم، فكأنه سبحانه قال: لا تذكر اسمي مع الكافرين حتى لا يهينوه، واذكره مع الأولياء حتى يكرموه. **الوجه السادس:** قال النحويون: (إذا) منصوب بسبِّح، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله، كأنه سبحانه يقول: جعلت الوقت ظرفًا لما تريده وهو النصر والفتح والظفر، وملأت ذلك الظرف من هذه الأشياء، وبعثته إليك فلا ترده عليَّ فارغًا، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى: (تَهَادُوا تَحَابُّوا) فكأن محمدًا عليه السلام قال: بأي شيء أملأ ظرف هديتك وأنا فقير!!

---

(١) هذا البيت منسوب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو هكذا:

إذا تَمَّ مَرٌ بَدا نَقصُهُ ... تَوَقَّ زَوالاً إذا قيلَ تَمّ

فيقول الله في المعنى: إن لم تجد شيئًا آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار. فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا، لا جرم حصلت المحبة، فلهذا كان محمد حبيب الله. **الوجه السابع:** كأنه تعالى يقول: إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس في دينك، فاشتغل أنت أيضًا بالتسبيح والحمد والاستغفار، فإني قلت: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سببًا لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة، ولا تزال تكون في الترقي حتى يصير الوعد بقولي: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ **الوجه الثامن:** أن الإيمان إنما يتم بأمرين: بالنفي والإثبات وبالبراءة والولاية، فالنفي والبراءة قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات والولاية قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة.

واعلم أن في الآية أسرارًا، وإنما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقًا، وظاهره أن النصر كالسبب الفتح، فلهذا بدأ يذكر النصر وعطف الفتح عليه. **وثانيها:** يحتمل أن يقال: النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] **وثالثها:** النصر هو الظفر في الدنيا على المنى، والفتح بالجنة، كما قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب.

السؤال الثاني: أن رسول الله ﷺ كان أبدًا منصورًا بالدلائل والمعجزات، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة؟ **والجواب من وجهين: أحدهما:** المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر المخصوص؛ لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] **وثانيهما:** لعل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذي حكم به لأنبيائه، كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

السؤال الثالث: النصر لا يكون إلا من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] **فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ والجواب: معناه نصر لا يليق إلا بالله و**لا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته، ويقال: (هذا صنعة زيد) إذا كان زيد مشهورًا بإحكام الصنعة، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا ههنا، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فيقول: هذا الذي سألتموه.

السؤال الرابع: وصف النصر بالمجيء مجاز، وحقيقته إذا وقع نصر الله، فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز؟ **الجواب فيه إشارات: إحداها:** أن الأمور مربوطة بأوقاتها، وأنه سبحانه قدَّر

لحدوث كل حادث أسبابًا معينة وأوقاتًا مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل، فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، **وثانيها:** أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد ﷺ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقًّا له بحكم الوعد، فالمقتضى كان موجودًا إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق، فإن ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة، فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد ﷺ. **وثالثها:** أن عالَم العدم عالَم لا نهاية له وهو عالم الظلمات، إلا أن في قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده، ثم انشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت في السيلان، وسيلانها يقتضي في كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين، فبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة في السيلان من الأزل، فكأنه قيل: يا محمد قرب وصولها إليك ومجيئها إليك، فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار، فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] **السؤال الخامس:** لا شك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافًا إلى الله؟ **الجواب:** هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر، وذلك لأن فعلهم فعل الله، وتقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما في قلوبهم من الدواعي والصوارف، وتلك الدواعي والصوارف أمور حادثة، فلا بد لها من محدث وليس هو العبد، وإلا لزم التسلسل، فلا بد وأن يكون الله تعالى، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد، فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى، **فإن قيل:** فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد مفرعًا على فعل الله تعالى، وهذا يخالف النص؛ لأنه قال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فجعل نصرنا له مقدمًا على نصره لنا. **والجواب:** أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل، فيصير ذلك سببًا لصدور فعل عنا، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية.

السؤال السادس: كلمة: (إذا) للمستقبل، فههنا لما ذكر وعدًا مستقبلاً بالنصر، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ فذكر ذاته باسم الله، ولما ذكر النصر الماضي حين قال: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ [العنكبوت: ١٠] فذكره بلفظ الرب، فما السبب في ذلك؟ **الجواب:** لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار ربًّا، وقبله ما كان ربًّا لكن كان إلهًا.

السؤال السابع: أنه تعالى قال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإن محمدًا عليه السلام

نصر الله حين قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فكان واجبًا بحكم هذا الوعد أن ينصره الله، فلا جرم قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فهل تقول بأن هذا النصر كان واجبًا عليه؟
الجواب: أن ما ليس بواجب قد يصير واجبًا بالوعد، ولهذا قيل: وعد الكريم ألزم من دين الغريم، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده، وعلى المولى نصرة عبده، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحدًا اتفاقًا، وإن كان مشغولاً بصلاة نفسه، ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى، فوعده مع الكرم وهو أرأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولي بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة، وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثاني له، فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده؛ فلهذا قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ .

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ ، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: نُقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة، وهو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح، روي أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة وكانوا في عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه، ثم قال: «**أَمَا إِنَّ هَذَا الْعَارِضَ لَيُخْبِرُنِي أَنَّ الظَّفَرَ يَجِيءُ مِنَ اللَّهِ**» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**انظُرُوا فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ يَجِيءُ وَيَلْتَمِسُ أَنْ يُجَدِّدَ الْعَهْدَ**» فَلَمْ تَمْضِ سَاعَةٌ أَنْ جَاءَ الرَّجُلُ مُلْتَمِسًا لِذَلِكَ، فَلَمْ يُجِبْهُ الرَّسُولُ وَلاَ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ، فَالْتَجَأَ إِلَى فَاطِمَةَ فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ آيِسًا وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسِيرِ لِمَكَّةَ.

ثُمَّ يُرْوَى أَنَّ سَارَةَ مَوْلاَةَ بَعْضِ بَنِي هَاشِمٍ أَتَتِ الْمَدِينَةَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَهَا: «**جِئْتِ مُسْلِمَةً؟**» قَالَتْ: لاَ، لَكِنْ كُنْتُمُ الْمَوَالِيَ وَبِي حَاجَةٌ. فَحَثَّ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَكَسَوْهَا وَحَمَلُوهَا وَزَوَّدُوهَا، فَأَتَاهَا حَاطِبٌ بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ، وَاسْتَحْمَلَهَا كِتَابًا إِلَى مَكَّةَ، نُسْخَتُهُ: اعْلَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يُرِيدُكُمْ فَخُذُوا حِذْرَكُمْ. فَخَرَجَتْ سَارَةُ وَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْخَبَرِ. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَعَمَّارًا فِي جَمَاعَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْكِتَابَ وَإِلاَّ فَاضْرِبُوا عُنُقَهَا، فَلَمَّا أَدْرَكُوهَا جَحَدَتْ وَحَلَفَتْ، فَسَلَّ عَلِيٌّ عليه السلام سَيْفَهُ وَقَالَ: اللهِ مَا كُذِبْنَا!! فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عَقِيصَةِ شَعْرِهَا، وَاسْتَحْضَرَ النَّبِيُّ حَاطِبًا وَقَالَ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ؟**» فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ أَحْبَبْتُهُمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، لَكِنْ كُنْتُ غَرِيبًا فِي قُرَيْشٍ، وَكُلُّ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ أَهَالِيَهُمْ، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا!! فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فَفَاضَتْ عَيْنَا عُمَرَ[١] .

ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (غزوة الفتح) (٧/ ٥٩٢) حديث رقم (٤٢٧٤) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضائل بدر) (٤/ ١٦١/ ١٩٤١) كلاهما من طريق عمرو بن دينار . . . به.

لعمه خاصة، فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعًا وعطشًا!! فرقَّ قلبه، فأذن له وقال له: «ألم يأن أن تسلم وتوحد؟» فقال: أظن أنه واحد، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا. فقال: «ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟» فقال: إن لي شكًّا في ذلك. فقال العباس: أسلِم قبل أن يقتلك عمر. فقال: وماذا أصنع بالعزى؟! فقال عمر: لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك. فقال: يا محمد أليس الأَوْلى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصالح قومك وعشيرتك، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك، و(لا) تعرضهم للشن والغارة. فقال عليه السلام: «هَؤُلاَءِ نَصَرُونِي وَأَعَانُونِي وَذَبُّوا عَنْ حَرِيمِي، وَأَهْلُ مَكَّةَ أَخْرَجُونِي وَظَلَمُونِي، فَإِنْ هُمْ أُسِرُوا فَبِسُوءِ صَنِيعِهِمْ» وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر، فكانت الكتيبة تمر عليه فيقول: من هذا؟ فيقول العباس: هو فلان من أمراء الجند. إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يُرى منها إلا الحدق، فسأل عنهم فقال العباس: هذا رسول الله. فقال: لقد أوتي ابن أخيك ملكًا عظيمًا. فقال العباس: هو النبوة. فقال هيهات النبوة. ثم تقدم ودخل مكة، وقال: إن محمدًا جاء بعسكر لا يطيقه أحد. فصاحت هند وقالت: اقتلوا هذا المبشر!! وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعًا شديدًا، وسأل العباس فأخبره بأمر الصلاة. ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعًا وشكرًا، ثم التمس أبو سفيان الأمان، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فقال: ومن تسع داري؟! فقال: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال: ومن يسع المسجد؟! فقال: «من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن؟! أغلق بابه فهو آمن»، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد، وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» فأعتقهم[١]، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ومن ذلك كان علي عليه السلام يقول لمعاوية: أنى يستوى المولى والمعتق يعني أعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل: اذهبوا فأنتم معتقون، بل قال: الطلقاء؛ لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق، والمطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء، والمطلقة تجلس في البيت للعدة، وهم أُمروا

(١) ضعيف: أورده الألباني في (الدفاع عن الحديث النبوي) (١/ ٣٢) وقال: هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت، وهو عند ابن هشام معضل، وقد ضعفه الحافظ العراقي. وكذا أورده في السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٠٧) حديث رقم (١١٦٣) وقال: رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣١، ٣٢) وعنه الطبري في التاريخ (٣/ ١٢٠) قال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة... وذكره ثم قال: وهذا إسناد ضعيف مرسل؛ لأن شيخ ابن إسحاق فيه لم يُسمَّ فهو مجهول، ثم هو ليس صحابيًا لأن ابن إسحاق لم يدرك أحدًا من الصحابة، بل هو يروي عن التابعين وأقرانه، فهو مرسل أو معضل. اهـ.

بالجلوس بمكة كالنسوان، ثم إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، روي أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات: أربعة صلاة الضحى، وأربعة أخرى شكرًا لله نافلة، فهذه هي قصة فتح مكة.

والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقرونًا بالنصر، وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر، والفتح دون النصر كإجلاء بني النضير، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم. **القول الثاني:** أن المراد فتح خيبر، وكان ذلك على يد علي عليه السلام، والقصة مشهورة، روي أنه استصحب خالد بن الوليد، وكان يساميه في الشجاعة، فلما نصب السلم قال لخالد: أتتقدم؟ قال: لا. فلما تقدم علي عليه السلام سأله: كم صعدت؟ فقال: (لا أدري) لشدة الخوف، وروي أنه قال لعلي عليه السلام، ألا تصارعني؟ فقال: ألست صرعتك؟ فقال: نعم لكن ذاك قبل إسلامي. ولعل عليًّا عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يمتنع عنه علي، أو كان علي يقول: صرعتك حين كنت كافرًا، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك. **القول الثالث:** أنه فتح الطائف وقصته طويلة. **والقول الرابع:** المراد النصر على الكفار، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق، وهو قول أبي مسلم. **والقول الخامس:** أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم، ومنه قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوقًا بانشراح الصدر وصفاء القلب، وذلك هو المراد من قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ويمكن أن يكون المراد بنصر الله إعانته على الطاعة والخيرات، والفتح هو انتفاع عالم المعقولات والروحانيات.

المسألة الثانية: إذا حملنا الفتح على فتح مكة، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان: **أحدهما:** أن فتح مكة كان سنة ثمان، ونزلت هذه السورة سنة عشر، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يومًا، ولذلك سميت سورة التوديع. **والقول الثاني:** أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۢ﴾ [القصص: ٨٥] وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يقتضي الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء وإذا وقع، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وُجد مخبره بعد حين مطابقًا له، والإخبار عن الغيب معجز. **فإن قيل:** لم ذكر النصر مضافًا إلى الله تعالى، وذكر الفتح بالألف واللام؟ **الجواب:** الألف واللام للمعهود السابق، فينصرف إلى فتح مكة.

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: (رَأَيْتَ) يحتمل أن يكون معناه أبصرت، وأن يكون معناه علمت، فإن كان

معناه أبصرت كان (يدخلون) في محل النصب على الحال، والتقدير: ورأيت الناس حال دخولهم في دين الله أفواجًا. وإن كان معناه علمت كان ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ مفعولاً ثانيًا لعلمت، والتقدير: علمت الناس داخلين في دين الله.

المسألة الثانية: ظاهر لفظ الناس للعموم، فيقتضي أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود، مع أن الأمر ما كان كذلك. **الجواب من وجهين: الأول**: أن المقصود من الإنسانية والعقل، إنما هو الدين والطاعة، على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمن أعرض عن الدين الحق وبقي على الكفر، فكأنه ليس بإنسان، وهذا المعنى هو المراد من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] وسئل الحسن بن علي عليه السلام: من الناس؟ فقال: نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النسناس. فقبله علي عليه السلام بين عينيه، وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته!! **فإن قيل**: إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم؟ **قلنا**: هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه، ويمدحه هذا المدح العظيم، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان: أتيت وإن كنت قد أبيت. ويروى أنه عليه السلام قال: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الضَّالِّ الْوَاجِدِ، وَالظَّمْآنِ الْوَارِدِ**» والمعنى كأن الرب تعالى يقول: ربيته سبعين سنة، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار، فحينئذٍ يضيع إحساني إليه في سبعين سنة، فكلما كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولاً. **الوجه الثاني في الجواب**: روي أن المراد بالناس أهل اليمن، قال أبو هريرة: لما نزلت هذه السورة، قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ، قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْفِقْهُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**» وَقَالَ: «**أَجِدُ نَفَسَ رَبِّكُمْ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ**»(١).

المسألة الثالثة: قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمون: إن إيمان المقلد صحيح. واحتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام، ولو لم يكن إيمانهم صحيحًا لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعًا أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهًا عن الجسمية والمكان والحيز، ولا إثبات كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد ﷺ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح،

---

(١) **ضعيف**: الطبراني في (مسند الشاميين) (٢/ ١٤٩) حديث رقم (١٠٨٣) من طريق علي بن عياش الحمصي حدثنا حريز بن عثمان عن شبيب أبي روح عن أبي هريرة. . . به. وأورده القاري في (المطبوع) (١/ ٦٩) حديث رقم (٧٠) وقال: قال العراقي: لم أجد له أصلاً. وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٠٩٧) وقال: شبيب لم تُعرف له عدالة.

ولا يقال: إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل، لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالمًا بهذه التفاصيل؛ لأنا نقول: إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركبًا من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، وكان في المقدمة العاشرة مقلدًا كان في النتيجة مقلدًا لا محالة لأن فرع التقليد أَوْلى أن يكون تقليدًا، وإن كان عالمًا بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل؛ لأن تلك الزيادة إن كانت جزًّا معتبرًا في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية، وإن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمرًا منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة والنقصان، فأما أن يقال: إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة، وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك. فحينئذٍ ثبت أنهم كانوا مقلدين، ومما يؤكد ما ذكرنا ما روي عن الحسن أنه قال: لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وكل من أرادهم بسوء. ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال، هذا ما رواه الحسن، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد، فعلمنا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين.

المسألة الرابعة: دين الله هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩] ولقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران: ٨٥] وللدين أسماء أخرى، منها الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] ومنها الصراط، قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣] ومنها كلمة الله، ومنها النور: ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾[الصف: ٨] ومنها الهدى لقوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[الأنعام: ٨٨] ومنها العروة: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[لقمان: ٢٢] ومنها الحبل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٠٣] ومنها صبغة الله، وفطرة الله، وإنما قال: ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: في دين الرب، ولا سائر الأسماء لوجهين: **الأول:** أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات، فكأنه يقول: هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول. **والثاني:** لو قال: دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك وأحسن إليك، وحينئذٍ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع، فلا يكون الإخلاص حاصلاً، فكأنه يقول: أخلِص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك.

المسألة الخامسة: الفوج: الجماعة الكثيرة، كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما

يبكيك؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا» نعوذ بالله من السلب بعد العطاء.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار.

ولهذا الترتيب فوائد:

الفائدة الأولى: اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمدًا كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلمَ لا تنصرني ولمَ سلطت هؤلاء الكفرة عليَّ؟! فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أُمر بالتسبيح، أما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئًا، بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية، فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء، ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئًا، وأما على قول المعتزلة: ما فائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي فحينئذٍ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر، ثم حينئذٍ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه. **الوجه الثاني:** أن للسائرين طريقين، فمنهم من قال: (ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده) ومنهم من قال: (ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله) ولا شك أن هذا الطريق أكمل، أما بحسب المعالم الحكمية فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجَلّ مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل، وإذا ثبت هذا فنقول: الآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين، وذلك لأنه قَدَّم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس، فذكر أولاً من الخالق أمرين: **أحدهما التسبيح والثاني:** التحميد، ثم ذكر في المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق.

واعلم أن صفات الحق محصورة في السلب والإيجاب والنفي والإثبات، والسلوب مقدمة على الإيجابات، فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لواجب الوجود وهي صفات الجلال، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له، وهي صفات الإكرام، ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس، وفيه رؤية جود الحق، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس، ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله

يبقى محرومًا عن مطالعة حضرة جلال الله، فلهذه الدقيقة أخَّر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد. **الوجه الثالث:** أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية، وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل: آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية، ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقوله ههنا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وقوله ههنا: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لأنهم فسروا قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك، والاستغفار يرجع معناه أيضًا إلى تقديس النفس، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدي ورأوا ذلك من أنفسهم، وأما أنت فسبح بحمدي واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك، بل يجب أن تراها من توفيقي وإحساني، ويحتمل أن يقال: الملائكة كما قالوا في حق أنفسهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال الله في حقهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] فأنت يا محمد استغفر للذين جاؤوا أفواجًا، كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] **الوجه الرابع:** التسبيح هو التطهير، فيحتمل أن يكون المراد طهِّر الكعبة من الأصنام وكسِّرها. ثم قال: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أن ينبغي أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك وإعانته وتقويته، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغي أن ترى نفسك آتيًا بالطاعة اللائقة به، بل يجب أن ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته. **والوجه الخامس:** كأنه تعالى يقول: يا محمد إما أن تكون معصومًا أو لم تكن معصومًا: فإن كنت معصومًا فاشتغل بالتسبيح والتحميد، وإن لم تكن معصومًا فاشتغل بالاستغفار. فتكون الآية كالتنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف في العبودية كما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

المسألة الثانية: في المراد من التسبيح وجهان: **الأول:** أنه ذكر الله بالتنزه، سئل رسول الله ﷺ عنه فقال: «**تنزيه الله عن كل سوء**» وأصله من سبح، فإن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه، والتشديد للتبعيد لأنك تسبحه أي تبعده عما لا يجوز عليه، وإنما حسن استعماله في تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات والفعل نفيًا وإثباتًا لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة، فكذا الحق سبحانه لا يقبل ما لا ينبغي ألبتة، فاللفظ يفيد التنزيه في الذات والصفات والأفعال. **والقول الثاني:** أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠] والذي يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل، وكان عليه السلام في آخر مرضه يقول: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» جعل يلجلجها في صدره وما يقبض بها لسانه، ثم قال بعضهم: عنى به صلاة الشكر، صلاها يوم الفتح ثمان ركعات. وقال آخرون: هي صلاة

الضحى. وقال آخرون: صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة الضحى، وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لا تنفك عنه، وفيه تنبيه على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص في الأقوال والأفعال.

واحتج أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك، روت عائشة: كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يُكثر أن يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[١]، وقالت أيضًا: كان الرسول يقول كثيرًا في ركوعه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» وعنها أيضًا. كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ تُكْثِرُ مِنْ قولِكَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ قَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِهَا»، وقرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وعن ابن مسعود: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ» وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٢].

المسألة الثالثة: الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح، ولِمَ لا يكون كذلك وقوله: «الصَّوْمُ لِي»[٣] من أعظم الفضائل للصوم فإنه أضافه إلى ذاته، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساويًا للصوم في هذا التشريف: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وكيف لا يكون كذلك والثناء عليه مما مدحه معلوم عقلاً وشرعًا، أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جُعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير. **فإن قيل**: عدم وجوب التسبيحات يقتضي أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة. **قلنا**: الجواب عنه من وجوه: **أحدها**: أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب، أما التسبيح والتهليل فالعقل داعٍ إليه والروح عاشق عليه، فاكتفى بالحب الطبيعي ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، **وثانيها**: أن قوله:

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (السهو) باب (نوع آخر من الذكر بعد التسليم) (٢/ ١٧٢) حديث رقم (١٣٤٣) والنسائي أيضًا في كتاب (عمل اليوم والليلة) (٣٠٩) حديث رقم (٤٠٠) من طريق أبي بكر بن إسحاق... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٧٧) كلاهما (أبو بكر بن إسحاق، أحمد بن حنبل) قالا: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، وأورده ابن حجر العسقلاني في ختام كتابه العظيم فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣١/ ٥٥٦) بإسناده ولفظه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا جزء من حديث قدسي من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل: (الصوم لي وأنا: اجزي به...) الحديث وهو متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾[الفتح:١٥] (٦/ ٢٧٢٣) حديث رقم (٧٠٥٤) ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٨٠٧/ ١١٥١) كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي هريرة... به.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء، ومن قال: (الأمر المطلق للندب) قال: إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار، والاستغفار واجب، ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه. **وثالثها:** أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهارًا لمزيد تعظيمها، فترك الإيجاب خوفًا من هذا المحذور.

المسألة الرابعة: أما الحمد فقد تقدم تفسيره، وأما تفسير قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** قال صاحب (الكشاف): أي قل: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» متعجبًا مما أراك من عجيب إنعامه، أي اجمع بينهما، تقول: (شربت الماء باللبن) إذا جمعت بينهما خلطًا وشربًا. **وثانيها:** أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد؛ لأن الثناء عليه والشكر له لا بد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص؛ لأنه لا يكون مستحقًّا للثناء إلا إذا كان منزهًا عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال: الحمد لله الذي نصر عبده، ولم يفتتح كلامه بالتسبيح، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه سبحه بواسطة أن تحمده، أي سبحه بهذا الطريق. **وثالثها:** أن يكون حالاً، ومعناه (سبح حامدًا) كقولك: (اخرج بسلاحك) أي متسلحًا. **ورابعها:** يجوز أن يكون معناه (سبِّح مقدرًا أن تحمد بعد التسبيح) كأنه يقول: لا يتأتى لك الجمع لفظًا فاجمعهما نية، كما أنك يوم النحر تنوي الصلاة مقدرًا أن تنحر بعدها، فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة، كذا ههنا. **وخامسها:** أن تكون هذه الباء هي التي في قولك: (فعلت هذا بفضل الله) أي سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه لا بحمد غيره، ونظيره في حديث الإفك قول عائشة: (بِحَمْدِ اللَّهِ لاَ بِحَمْدِكَ) والمعنى: فسبحه بحمده، فإنه الذي هداك دون غيره، ولذلك روي أنه عليه السلام كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ»(١). **وسادسها:** روى السدي: (بحمد ربك)، أي بأمر ربك. **وسابعها:** أن تكون الباء صلة زائدة، ويكون التقدير: سبح حمد ربك، ثم فيه احتمالات: **أحدها:** اختر له أطهر المحامد وأزكاها. **والثاني:** طهِّر محامد ربك عن الرياء والسمعة والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة. **والثالث:** طهِّر محامد ربك عن أن تقول: (جئت بها كما يليق به) وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] **وثامنها:** أي ائت بالتسبيح بدلاً عن الحمد الواجب عليك، وذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم، ونعم الله علينا غير متناهية، فحمدها لا يكون في وسع البشر، ولذلك قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فكأنه تعالى يقول: أنت عاجز عن الحمد، فأت بالتسبيح والتنزيه بدلاً عن الحمد. **وتاسعها:** فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمران لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني، ولا يتصور أيضًا أن يؤتى بهما معًا، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب، وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ليقعا معًا، فيصير حامدًا مسبحًا في وقت واحد معًا. **وعاشرها:** أن يكون المراد سبح قلبك، أي طهر قلبك

---

(١) لم أجده.

بواسطة مطالعة حمد ربك، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ إشارة إلى نفي ما سوى الله تعالى، وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وجوه: **أحدها**: لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه، ويسأل الله أن ينصره، فلما سمع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استبشر، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمَره بأن يستغفر للداخلين، لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام؛ لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول: إن قبول التوبة حرفته، فكل من طلب منه التوبة أعطاه، كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التي عنده، فكل من طلب منه شيئًا من تلك الأمتعة باعه منه، سواء كان المشتري عدوًّا أو وليًا، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة، سواء كان التائب مكيًّا أو مدنيًّا، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له: (أخ كريم وابن أخ كريم) قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] أي أمرني أن أستغفر لكم فلا يجوز أن يردني. **وثالثها**: أن قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك: فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا: فمن قال: (صدرت المعصية) عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهًا: **أحدها**: أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة. **وثانيها**: لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار. **وثالثها**: لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابرًا للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً. وأما من قال: (ما صدرت المعصية عنه) فذكر في هذا الاستغفار وجوهًا: **أحدها**: أن استغفار النبي جارٍ مجرى التسبيح، وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار. **وثانيها**: تعبَّده الله بذلك ليقتدي به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار، فكيف من دونه؟! **وثالثها**: أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل. **ورابعها**: أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة، فليستغفر الله لأجل ذلك. **وخامسها**: الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية، ثم تجاوز عنه، فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصرًا فيستغفر الله عنه، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية، لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية. أما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد (واستغفره لذنب أمتك) فهو أيضًا ظاهر؛ لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم، وهكذا إذا قلنا: المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته.

المسألة السادسة: في الآية إشكال، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح؛ لأن الحمد يكون بسبب الإنعام، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكورًا على العكس من هذا الترتيب؟ **وجوابه من وجوه: أولها**: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس، تنبيهًا على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق. **وثانيها**: فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه. **وثالثها**: التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله)، والأول كالصلاة، والثاني كالزكاة، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا ههنا.

المسألة السابعة: الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار، وذلك من وجوه: **أحدها**: أنه عليه الصلاة والسلام كان مأمورًا بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواترًا، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض. **وثانيها**: أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة. **وثالثها**: أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر، فأمَر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائمًا، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره، ثم قال: (واستغفره) حين نُعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك.

المسألة الثامنة: في الآية سؤالات: **أحدها**: وهو أنه قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل. **وثانيها**: هلا قال: (غفارًا) كما قاله في سورة نوح؟ **وثالثها**: أنه قال: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فلمَ لم يقل: (بحمد الله) بل قال: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

والجواب: عن الأول من وجوه: **أحدها**: أن هذا أبلغ، كأنه يقول: ألست أثنيت عليكم بأنكم خير أمة أُخرجت للناس، ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة، وفلق البحر ونتق الجبل، ونزول المن والسلوى -عصوا ربهم وأتوا بالقبائح، فلما تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم؟ **وثانيها**: منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان، فكيف في كرم الرحمن؟ **وثالثها**: كنت توابًا قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار؟ **ورابعها**: كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم، أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتي، والجناية؟ مصيبة للجاني، والمصيبة إذا عمدت خفت. **وخامسها**: كأنه نظير ما يقال:

لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى ... كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِي[1]

(١) يُنسب هذا البيت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: أحدها: لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار، ويقال: (تواب) إذا كان آتيًا بالتوبة، فيقول تعالى: كنتَ لي سميًّا من أول الأمر أنت مؤمن وأنا مؤمن، وإن كان المعنى مختلفًا فتب حتى تصير سميًّا لي آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب ثم إن التواب في حق الله هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيرًا، فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيرًا. **وثانيها:** إنما قيل: توابًا لأن القائل قد يقول: (أستغفر الله) وليس بتائب، ومنه قوله: «**الْمُسْتَغْفِرُ بِلِسَانِهِ الْمُصِرُّ بِقَلْبِهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ**» **إن قيل:** فقد يقول: (أتوب) وليس بتائب. **قلنا:** فإذًا يكون كاذبًا؛ لأن التوبة اسم للرجوع والندم، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذبًا فيه، فصار تقدير الكلام: (واستغفره بالتوبة) وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمال، وروي أنه لم يجلس مجلسًا إلا ختمه بالاستغفار.

والجواب عن السؤال الثالث: أنه تعالى راعى العدل، فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين أحدهما الرب والثاني التواب، ولما كانت التربية تحصل أولاً والتوابية آخرًا، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخرًا.

المسألة التاسعة: الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ روي أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» فقال: نعيت إليك نفسك! فقال: «**الأمر كما تقول**»(١)، وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا الْغُلَامُ عِلْمًا كَثِيرًا**»(٢) روي أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر، فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله؟! فقال: لأنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وكأنه ما سألهم إلا من أجلي، فقال بعضهم: أمَر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلومونني عليه بعدما ترون؟!(٣)، وروي أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ لِقَائِهِ وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ**».

فقال السائل: وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير. **وثانيها:** أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا، دل ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال، كما قيل:

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ دَنَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّْ(٤)

---

(١) أرده الزيلعي في (تخريجه للكشاف) (٤/ ٣١٩) وقال: ذكره الثعلبي من قول مقاتل.

(٢)، (٣) انظر سابقه. (٤) تقدم.

وثالثها: أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا، واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر، الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز. **ورابعها:** قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول: قرب الوقت ودنا الرحيل، فتأهب للأمر. ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة. **وخامسها:** كأنه قيل له: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله تعالى وعدك بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقِل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية.

المسألة العاشرة: ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأما الذين قالوا: إنها نزلت بعد فتح مكة، فذكر الماوردي أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يومًا مستديمًا للتسبيح والاستغفار. وقال مقاتل: عاش بعدها حولاً ونزل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعده ثمانين يومًا، ثم نزل آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يومًا، ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحد عشر يومًا، وفي رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام، والله أعلم كيف كان ذلك.

تفسير سورة «النصر»

وهي مدنِية بإجماع. وتُسمَّى سورة «التوديع»[٣]. وهي ثلاثُ آيات. وهي آخرُ سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في «صحيح» مسلم[٤].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾

النصر: العَوْن؛ مأخوذٌ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ: إذا أعان على نَباتها، ومَنَعَ[٥] من قَحْطِها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهرُ الحرامُ فودِّعي بلادَ تميمٍ وانْصُري أرضَ عامِرِ[٦]

ويُروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي بلادَ تميم وانصُري أرضَ عامِرِ[٧]

يقال: نصره على عدوِّه ينصره نصراً، أي: أعانه. والاسم النُّصْرة. واستنصره على عدوِّه: أي: سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضُهم بعضاً.

---

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٥٥ .

(٤) الحديث (٣٠٢٤).

(٥) لفظ: ومنع، ليس في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ .

(٦) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٣٣ ، وسلف ٢/ ٨٠ .

(٧) هذه رواية الجوهري في الصحاح (نصر) والكلام منه.

ثم قيل: المراد بهذا النصر نصرُ الرسول ﷺ على قريش؛ قاله[١] الطبريّ[٢]. وقيل: نَصْره على مَن قاتله من الكفار؛ فإنَّ عاقبةَ النصر كانت له. وأما الفتحُ فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: هو فتحُ المدائن والقصور. وقيل: فتحُ سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم.

و«إذا» بمعنى قد، أي: قد جاء نصرُ الله؛ لأن نزولَها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العرب وغيرهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعاتٍ، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظَفِرَ محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[٣]. فكانوا يُسْلِمون أفواجاً؛ أمّةً أمّةً[٤]. قال الضحاك: والأُمّة: أربعون رجلاً[٥]. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين طائعين[٦]. بعضهم يُؤَذِّنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وعباس[٧].

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قرأ: «﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وجاء أهلُ اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنَةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[٨].

---

(١) لفظ: قاله، ليس في (م).

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٧٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وما بعده منه.

(٣) اليد: القوة والقدرة والسلطان. القاموس (يدي).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٠.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٧) في (د) و(م): وابن عباس. وسيأتي خبرهما في تفسير الآية التالية.

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣) بنحوه.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن، هم أضعفُ قلوباً، وأرقُّ أفئدةً. الفِقهُ يَمانٍ، والحِكْمة يَمَانِية»[1]. ورُوي أنه ﷺ قال: «إني لأجدُ نَفَس ربِّكم مِن قِبلِ اليَمَنْ»[2] وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفَرَج؛ لِتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني: معناه: أن الله سبحانه وتعالى نَفَّس الكرب عن نبيِّه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماورديّ[3]، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار: حدّثني جارٌ لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم، فجعل يبكي ويقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسَيَخْرُجُونَ من دينِ اللهِ أفْواجًا»[4].

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُۚ﴾ أي: إذا صَليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سَبِّح: صَلِّ؛ عن ابن عباس[5]. «بِحَمْدِ ربك» أي: حامداً له على ما آتاك من الظَّفَر والفتح. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفران. وقيل: «فسبِّح» المراد به: التنزيهُ؛ أي: نَزِّهه عما لا يجوز عليه مع شُكرك له. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفْران مع مُداومةِ الذِّكر. والأوّل أظهر.

روى الأئمة ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما صلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه سورةُ «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ» إلا يقول:

---

(١) صحيح مسلم (٥٢): (٨٤)، وأخرجه أحمد (٧٢٠٢)، والبخاري (٤٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأَجِدُ نَفَسَ ربكم من قبل اليمن..».

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠، وتخريج حديث جابر ﷺ في التعليق التالي.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٩٦)، وإسناده ضعيف لجهالة جار جابر ﷺ.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

«سبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمْدِك، اللهمَّ اغفِرْ لي»[١].

وعنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سُبحانكَ اللهمَّ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغفِرْ لِي»، يتأوّل القرآن[٢].

وفي غير الصحيح: وقالت أُمُّ سَلَمة: كان النبيّ ﷺ آخرَ أمرِه لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سبحان اللهِ وبحمِدِه، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه»، قال: «فإنّي أُمِرت بها»، ثم قرأ: «إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ» إلى آخرها[٣].

وقال أبو هريرة: اجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها، حتى تَوَرَّمَت قدماه. ونَحَل جسمه، وقلَّ تَبَسُّمه، وكَثُرَ بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، ففرِحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكِيكَ يا عَمّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً[٤].

وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداع[٥]، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إنَّ هذا يومُ فرح، فقالا: بل فيه نَعْيُ النبيِّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي».

وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال: كان عمرُ بن الخطاب يَأْذَن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فَوجَدَ بعضُهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مِثْله! فقال لهم عمر: إنه مَنْ قد علمتم. قال: فأَذِنَ لهم ذاتَ يوم، وأَذِنَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٥٩٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١١ بنحوه، وأورده ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: غريب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٥، والنكت والعيون ٥/ ٣٦١ - ٣٦٢، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٩: ذكره الثعلبي عن مقاتل، وسنده إليه دون الكتاب.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لي معهم، فسألهم عن هذه السورة «إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح» فقالوا: أمر الله جلّ وعزّ نبيَّه ﷺ إذا فُتِحَ عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر اللهُ نبيَّه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامةُ موتك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقال عمر ﷺ: تلومونني عليه؟! وفي البخاريّ: فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول[١].

ورواه الترمذيّ، قال: كان عمرُ يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف: أتسألُه ولنا بنون مِثْلُه؟ فقال له عمر: إنه مِنْ حيثُ نعلم. فسأله عن هذه الآية: «إذا جاء نصر اللهِ والفتح». فقلت: إنما هو أجلُ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَه إيَّاه، وقرأ السورةَ إلى آخرها. فقال له عمر: والله، ما أعلمُ منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢].

فإن قيل: فماذا يغفر للنبيّ ﷺ حتى يُؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتِي وجَهْلِي، وإسْرافي في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلمُ به مني. اللهم اغفِرْ لي خَطَئي وعَمْدِي، وجَهْلِي وهَزْلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المُقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير»[٣]. فكان ﷺ يستقصر نَفْسَه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قُصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوباً[٤].

ويَحتمِلُ أن يكون بمعنى: كُنْ مُتعلِّقًا به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ، يجب إتيانُه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيهٌ لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٧٠)، وأخرجه أحمد (٣١٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٦٢)، وهو عند البخاري (٣٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٤٨٩) و(١٩٧٣٨)، والبخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٠ .

الاستغفار. وقيل: «واستغفره» أي: استغْفِر لأُمتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أي: على المسبحين والمستغفرين، يتوبُ عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتَهم. وإذا كان عليه الصلاة والسلام وهو معصومٌ يؤمر بالاستغفار، فما الظنُّ بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثر من قول: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ، أَستغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ». قالت: فقلت: يا رسولَ الله، أراك تُكثِرُ من قول: «سبحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَستغفر اللهَ وأتوبُ إليه؟» فقال: «خَبَّرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأَيتها أكثرتُ من قول سُبْحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»[1].

وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوَداع، ثم نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة [النساء: ١٧٦]، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزلت ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً[2]. وقال مقاتل: سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[3]، والحمد لله.

---

(١) صحيح مسلم (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٥).

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ دون ذكر آية الكلالة، ولم ينسبه وقول مقاتل الذي بعده منه.

(٣) ٤/ ٤٢١.

سُورَةُ النَّصرِ

مدنيَّةٌ، وآيُها ثلاثٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: إظهارُهُ إيَّاكَ على أعدائِك ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾: وفَتْحُ مَكَّةَ.

وقيل: المرادُ جِنسُ نَصرِ اللهِ المؤمنينَ، وفتحُ مكَّةَ وسائرِ البلادِ عليهم، وإنما عبَّرَ عَن الحُصولِ بالمجيء تجوُّزًا؛ للإشعارِ بأنَّ المقدَّراتِ مُتوجِّهَةٌ مِن الأزلِ إلى أوقاتِها المعيَّنةِ لها فتَقْرُبُ منها شيئًا فشيئًا، وقد قَرُبَ النَّصرُ مِن وَقتِه فكُنْ مُترَقِّبًا لوُرودِه مُستعِدًّا لشُكرِه.

(٢) ـ ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾: جماعاتٍ كثيفةً، كأهلِ مكَّةَ والطَّائفِ واليَمَنِ وهوازنَ وسائرِ قبائلِ العَرَبِ.

و﴿يَدۡخُلُونَ﴾ حالٌ على أنَّ (رَأَيتَ) بمعنى: أَبصَرْتَ، أو مفعولٌ ثانٍ على أنَّه بمعنى: عَلِمْتَ.

(٣) ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾: فتَعجَّبْ لتَيسيرِ اللهِ ما لم يخطُرْ ببالِ أحدٍ حامدًا له عليه، أو: فصَلِّ له حامدًا على نِعَمِه.

رُوِيَ: أنَّه لَمَّا دخلَ مَكَّةَ بدأَ بالمسجدِ فدخلَ الكعبةَ وصلَّى ثمانِ ركعاتٍ[1].

---

(١) رواه البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦) من حديث أمِّ هانئ رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، فصلَّى ثماني ركعات. ليس فيه: «فدخل الكعبة».

أو: فنَزِّهْهُ عمَّا كانت الظَّلَمةُ يقولونَ، حامدًا له على أن صَدَقَ وعدَهُ.

أو: فأثنِ على اللهِ بصِفَاتِ الجَلالِ حامدًا له على صفاتِ الإكرامِ.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هَضْمًا لنَفسِكَ، واستِقْصَارًا لعمَلِكَ، واستدراكًا لِمَا فَرَطَ مِنْكَ بالالتفاتِ إلى غيرِه، وعنه عليهِ السَّلامُ: «إنِّي أستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ مئةَ مرَّةٍ»(١).

وقيل: استغفِرْهُ لأُمَّتِكَ.

وتقديمُ التَّسبيحِ ثمَّ الحَمدِ على الاستغفارِ على طريقةِ النُّزولِ مِن الخالقِ إلى الخلقِ، كما قيل: ما رأيتُ شَيْئًا إلَّا ورأَيْتُ اللهَ قبلَهُ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لِمَن استغفرَ مُذْ خلَقَ المكلَّفينَ.

والأكثرُ على أنَّ السُّورةَ نزلَتْ قبلَ فتحِ مكَّةَ، وأنَّه نَعيٌ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، لأنَّه لَمَّا قرَأَها بكى العَبَّاسُ فقال عليهِ السَّلامُ: «ما يبكيكَ؟» قال: نُعِيَت إليك نفسُكَ، قال: «إنَّها لَكَما تَقولُ»(٢).

ولعلَّ ذلك لدلالَتِها على تمامِ الدَّعوةِ وكمالِ أمرِ الدِّينِ، فهي كقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، أو لأنَّ الأمرَ بالاستغفارِ تَنبيهٌ على دنوِّ الأجلِ، ولهذا سُمِّيَتْ: سُورةَ التَّوديعِ.

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ ﴿إِذَا جَآءَ﴾ أُعْطِيَ مِن الأجرِ كمَنْ شَهِدَ مع محمَّدٍ يومَ فتحِ مكَّةَ»(٣).

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه دون قوله: «والليلة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨) عن مقاتل وهو في «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠٥).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٠٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(١١٠) سورة النصر مدنية وآياتها ثلاث

روى **الحافظ أبو بكر البزار**، عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة(١)، وروى الحافظ البيهقي، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نعيت إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه، فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾

روى **البخاري**، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر بن الخطّاب: لا أعلم منها إلا ما تقول(٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعيت إليَّ نفسي»، وأنه مقبوض في تلك السنة، وهكذا قال مجاهد والضحّاك وغير واحد إنها أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختم السورة قال: نعيت

---

(١) أخرجه البزار والبيهقي.

(٢) أخرجه البيهقي ورواه النسائي بنحوه بدون ذكر فاطمة. (٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح ونصر الله، وجاء أهل اليمن»، فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان»[1]، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا»[2]، فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون، أن نحمد الله ونشكره ونسبّحه، يعني نصلّي له ونستغفره، معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، وأعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فللآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

روى البخاري، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن[3]، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾»[4]. والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي[5]. الحديث. وقال الإمام أحمد بسنده: حدَّثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني (جابر بن عبد الله) فسلم عليَّ، فجعلت أحدِّثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً»[6]

[آخر تفسير سورة النصر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الطبراني والنسائي.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) أخرجه البخاري وبقية الجماعة إلا الترمذي.
(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.
(٥) أخرجه البخاري.
(٦) أخرجه الإمام أحمد.

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح[(١)]

وهى مدنية .

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال النسائى : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر ، عن أبى العُمَيس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العُمَيس ، عن عبد المجيد بن سهيل[(٢)]، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لى ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت [(٣)] ؟ قلت : نعم ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قال : صدقت [(٤)] .

وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى ، من حديث موسى بن عبيدة الرّبذى [(٥)] ، عن صدقة بن يَسَار ، عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فَرحلت ، ثم قام فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة [(٦)] .

وقال الحافظ البيهقى : أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا الأسفاطى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ فاطمة [(٧)] وقال : «إنه قد نُعيت إلىّ نفسى » ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نُعيت إليه نفسُه فبكيت ، ثم قال : «اصبرى فإنك أول أهلى لحاقاً بى » فضحكت [(٨)].

وقد رواه النسائى ـ كما سيأتى ـ بدون ذكر فاطمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾ .

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد فى نفسه ، فقال:

---

(١) فى م : « تفسير سورة النصر » . (٢) فى أ : « سهل » . (٣) فى م : « نزلت من القرآن » .
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٣) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٣٠٢٤) من طريق جعفر بن عون به.
(٥) فى أ : « الزبيرى » .
(٦) سنن البيهقى الكبرى (٥/١٥٢) ، وموسى بن عبيدة ضعيف .
(٧) فى أ : « فاطمة ابنته » .
(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٧/١٦٧) .

لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن علمتم [١] . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رُؤيتُ أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون فى قول الله ، عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخارى [٢] .

وروى ابن جرير ، عن محمد بن حُمَيد ، عن مِهْران ، عن الثورى ، عن عاصم ، عن أبى رَزِين ، عن ابن عباس ، فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فُضَيل ، حدثنا عطاء ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نَزَلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « نُعِيَت إلىّ نفسى » . . بأنه مقبوض فى تلك السنة . تفرد به أحمد [٤] .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، مثله . وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله ﷺ نُعِى إليه .

وقال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفى[٥] ، عن مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أبى حازم ، عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ فى المدينة إذ قال: « الله أكبر ، الله أكبر ! جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ». قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » [٦] .

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، عن عكرمة ، مرسلا .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو كامل الجَحْدَرىّ ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن هلال بن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، حتى ختم السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت ، قال : فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً فى أمر الآخرة . وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتحُ ونصر الله ، وجاء أهل اليَمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يَمان ، والفقه يمان » [٧] .

---

(١) فى م : « ممن قد علمتم » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٠) .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٥) .
(٤) المسند (١/ ٢١٧) .
(٥) فى أ : « الثقفى » .
(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٥) .
(٧) المعجم الكبير (١١/ ٣٢٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبى ﷺ أنه قد نُعِيت إليه نفسه ، فقيل : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، السورة كلها (١) .

حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين : أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : لما نزلت نُعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عُمَر الوكيعى ، حدثنا أبى ، حدثنا جَعفر بن عون ، عن أبى العُمَيس ، عن أبى بكر بن أبى الجهم ، عن عُبَيد الله بن عَبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى البَخترى الطائى (٤) ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابى حيز» . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مَرْوان : كذبت ــ وعنده رافع بن خَديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير ــ فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالا : صدق (٥) .

تفرد به أحمد ، وهذا الذى أنكره مروان على أبى سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما (٦) .

فالذى فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، رضى الله عنهم أجمعين ، مِنْ أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره ــ معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبى ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ،فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يَنْوِ الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات .

(١) المسند (١/ ٣٤٤) .

(٢) المسند (١/ ٣٥٦) .

(٣) المعجم الكبير (١٠/ ٣٦٩) .

(٤) فى أ : « عن أبى البخترى عن الطائى » .

(٥) المسند (٣/ ٢٢) .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤، ١٣٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) .

وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين ، كما ورد فى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر ، رضى الله عنهما ، من أن هذه السورة نُعِى فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه [1] الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة ـ وهى قريتك التى أخرجتك ـ ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .

قال النسائى : أخبرنا عمرو بن منصور ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال ابن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، إلى آخر السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسُه حين أنزلت ، فأخذ فى أشدّ ما كان اجتهاداً فى أمر الآخرة ، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لَيِّنة قلوبهم ، الإيمان يَمانٍ ، والحكمة يمانية ، والفقه يمان » [2] .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جَرير ، عن منصور ، عن أبى الضحَى ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن .

وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى ، من حديث منصور ، به [3] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابا ، فقد رأيتها : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ » .

ورواه مسلم من طريق داود ـ وهو ابن أبى هند ـ به [4] .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم ، عن الشعبى ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجىء ، إلا قال: « سبحان الله وبحمده » . فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجىء ، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : سبحان الله وبحمده ؟ قال : « إنى أمرت بها » ، فقال:

---

(١) فى م : « روحه » .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٨) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) وسنن أبى داود برقم (٨٧٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٨٩) .

(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، إلى آخر السورة [١] .

غريب ، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه فى جزء مُفرد ، فيكتب هاهنا[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عُبَيدة ، عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ،كان يكثر إذا قرأها ـ وركَعَ ـ أن يقول: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثا [٣] .

تفرد به أحمد . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مُرّة ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق، به .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى . الحديث [٤] . وقد حَرّرنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله ، فسلمَ علىّ [٥] ، فجعلت أحدّثهُ عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكى ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » [٦] .

[آخر تفسير سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » ولله الحمد والمنة] [٧]

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٦) .

(٢) سبق ذكر أحاديث كفارة المجلس وذكر طرقها فى آخر تفسير سورة الصافات .

(٣) المسند (١/٣٨٨) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٣٠٢) .

(٥) فى م : « يسلم على » .

(٦) المسند (٣/٣٤٣) .

(٧) زيادة من أ .

سورة النصر

مدنيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إعانته تعالى وإظهاره إيّاك على عدوّك ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ أي: فتح مكّة، وقيل: جنس نصر الله تعالى ومطلَق الفتح،[1] فإنّ فتح مكّة لمّا كان مِفتاحَ الفتوح ومناطها كما أنّ نفسها أمّ القرى وإمامها جُعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح، وعُلِّق به أمره عليه السلام بالتسبيح والحمد.

والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للإيذان بأنّهما متوجّهان نحوه عليه السلام، وأنّهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب. رُوي أنّها نزلت قبل الفتح،[2] وعليه الأكثر. وقيل: في أيّام التشريق بمنًى في حجّة الوداع،[3] فكلمة ﴿إِذَا﴾ حينئذٍ باعتبار أنّ بعض ما في حيّزها -أعني رؤية دخول الناس... إلخ- غير منقضٍ بعد.

وكان فتح مكّة لعشر مضين مِن شهر رمضان سنة ثمان، ومع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عشرةُ آلاف مِن المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمسَ عشرةَ ليلةً، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثمّ قال: «لا إلهَ إلّا الله وحدَه لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحدَه». ثمّ قال: «يا أهل مكّة ما تُرَون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم،

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٥.

٢ اللباب لابن عادل، ٢٠/٥٣٨.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٥.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقد كان الله عزّ وعلا أمكَنَه مِن رقابهم عُنوةً، وكانوا له فيئًا، ولذلك سُمّي أهل مكّة الطلقاءَ، ثمّ بايعوه على الإسلام، ثمّ خرج إلى هَوازن.[٢]

[٣٢٤و] / ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أبصرتهم أو علِمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: ملّة الإسلام التي لا دينَ يضاف إليه تعالى غيرُها، والجملة على الأوّل حال مِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وعلى الثاني مفعول ثانٍ لـ﴿رَأَيْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال مِن فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾، أي: يدخلون فيه جماعاتٍ كثيفةً كأهل مكّة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدًا واحدًا، واثنين اثنين.

رُوي أنّه عليه الصلاة السلام لمّا فتح مكّة أقبلت العرب بعضُها على بعض، فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرَم فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم مِن أصحاب الفيل، وعن كلّ مَن أرادهم، فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجًا مِن غير قتال. وقُرئ: "فَتْحُ اللهِ وَالنَّصْرُ".[٣] وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[٤] على البناء للمفعول.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله، حامدًا له، أي: فتعجّب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد، مِن أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم، واحمَده على جميل صنعه. هذا على الرواية الأولى ظاهر، وأمّا على الثانية، فلعلّه عليه السلام أُمِر بأن يداوم على ذلك استعظامًا لنعمته، لا بإحداث التعجّب لِما ذُكر، فإنّه إنّما يُناسِب حالة الفتح؛ أو فاذكره مسبِّحًا حامدًا زيادةً في عبادته والثناء عليه، لزيادة إنعامه عليك، أو فصلِّ له حامدًا على نعمه. رُوي أنّه لمّا فُتح باب الكعبة صلّى صلاة الضحى، ثماني ركعات؛[٥] أو فنزّهه عمّا يقوله الظلَمة

---

[١] بلفظ قريب في السنن الكبرى للبيهقي، ٢٠٠/٩ (١٨٢٧٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٧٤/٨.

[٢] هوازن: هم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَفصة بن قيس بن عيلان، ومنها بنو غزية وبنو صعصعة، قيل: منازلهم بالسروات بين تهامة ونجد. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١١٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

[٥] بمعناه في صحيح البخاري، ٨٠/١ (٣٥٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٩٨/١ (٣٣٦).

حامدًا له على أن صدق وعدَه؛ أو فاثنٍ على الله تعالى بصفات الجلال، حامدًا له على صفات الإكرام.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ هضمًا لنفسك، واستقصارًا لعملك، واستعظامًا لحقوق الله تعالى، واستدراكًا لِما فرط منك مِن تَرْك الأولى. عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنّه كان عليه السلام يُكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك، استغفرك وأتوب إليك».[1] / وعنه عليه السلام: «إنّي لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرّة».[2] [٣٢٤ظ]

ورُوي أنّه لمّا قرأها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه استبشروا، وبكى العبّاس، فقال عليه السلام: «ما يبكيك يا عمّ؟» فقال: «نُعيت إليك نفسك»، قال عليه السلام: «إنّها لَكَما تقول»، فلم يُرَ عليه السلام بعد ذلك ضاحكًا مستبشرًا.[3] وقيل: إنّ ابن عبّاس هو الذي قال ذلك،[4] فقال عليه السلام: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»،[5] ولعلّ ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة، وتكامل أمر الدين، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة، ٥/٣].

ورُوي أنّها لمّا نزلت خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ عبدًا خيّره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى»، فعلِم أبو بكر رضي الله عنه فقال: «فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا».[6] وعنه عليه السلام أنّه دعا فاطمةَ رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه، إنّه نُعيت إليّ نفسي» فبكَت، فقال:

---

[1] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٣٥١/١ (٤٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧١٠/٢٤.

[2] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٧/٨ (٦٣٠٧)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢).

[3] بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤. وهو بمعناه في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧٠٩.

[4] بمعناه عن ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧١٠.

[5] ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

[6] بلفظ قريب في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٢٣٩/١ (٢٩٥)؛ وصحيح البخاري، ٥٧/٥ (٣٩٠٤)؛ وسنن الترمذي، ٦٠٦/٥ (٣٦٦٠).

«لا تبكي، فإنّكِ أوّل أهلي لحوقًا بي».[١] وعن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمّى سورة التوديع.[٢] وقيل: هو أمرٌ بالاستغفار لأمّته.[٣]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ منذ خلق المكلّفين، أي: مبالغًا في قبول توبتهم، فليكن كلّ تائب مُستغفِرًا متوقّعًا للقَبول.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النصر أعطيَ مِن الأجر كمَن شهد مع محمّد عليه السلام يوم فتح مكّة».[٤]

---

١ بمعناه في مسند أحمد، ٩/٤٤ (٢٦٤١٣)؛ وصحيح مسلم، ١٩٠٥/٤ (٢٤٥٠).

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

٣ ورد ذلك في حديث ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٨/٣٠ (النصر، ١/١١٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٦/٤ (النصر، ١/١١٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١١٠

سُورَةُ النَّصرِ

مدنية، ثلاثُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا جاءَ نَصرُ اللهِ﴾ نبيَّه ﷺ على أعدائه ﴿والفَتحُ﴾: فتحُ مكّة، ٢ ـ ﴿ورأيتَ النّاسَ يَدخُلُونَ في دِينِ اللهِ﴾ أي: الإسلامِ ﴿أفواجًا﴾: جماعات بعدما كان يدخل فيه واحد بعد واحد ـ وذلك بعد فتح مكّة، جاءه العرب من أقطار الأرض طائعين ـ ٣ ـ ﴿فسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ أي: مُلتبسًا بحمده ﴿واستَغفِرْهُ. إنَّهُ كانَ تَوّابًا﴾..

سُورَةُ النَّصرِ

قولُهُ: (نَبيَّهُ) الظَّاهرُ أن يقالَ: إذا جاءَكَ؛ ليلائِمَ عطفَ: ﴿ورَأيتَ﴾ ولعلَّهُ حُذفَ؛ لأنَّ مجيءَ النَّصرِ عامٌّ له ولأصحابِهِ، والرُّؤيةُ خاصَّةٌ، ثمَّ رأيتُ أنَّه قُرِئَ: (إذَا جَاءَكَ منَ الله الفَتحُ والنَّصر)[1].

قولُهُ: (فَتحُ مَكَّةَ).

قولُهُ: (جَمَاعَاتٍ) كثيرَةً كأهلِ مكَّةَ والطَّائِفِ واليمَنِ وهوازنَ وسائرِ قبائلِ العرَبِ.

قولُهُ: (أي: مُلتَبِساً) أي: نزِّههُ عمَّا لا يليقُ به، وأثْبِتْ له ما يليقُ به، أو فتعجَّبْ لتيسيرِ الله تعالى لكَ ما لا يخطُرُ ببالِ أحَدٍ حامِداً له عليه.

قولُهُ تعالى: (﴿واستَغفِرُوهُ﴾) هَضماً لنَفسِكَ، واستِقصاراً لعمَلِكَ، واستِدراكاً لما فرَطَ منكَ بالالتِفاتِ إلى غيره، وقيلَ: استَغفِره لأمَّتِكَ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت ليزيد بن قطيب، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٢٥).

كان ﷺ بعد نُزول هذه السورة يُكثر من قول: «سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِهِ، أستَغفِرُ اللهَ، وأتُوبُ إلَيهِ»، وعَلِمَ بها أنه قد اقترب أجلُه. وكان فتح مكّةَ في رمضانَ سنةَ ثمانٍ، وتوفِّي ﷺ في ربيعِ الأولِ سنةَ عشرٍ.

قولُهُ: (وعَلِمَ بِهَا) قالَ القاضِي(١): الأكثرُ على أنَّ السُّورَةَ نزلَتْ قبلَ فتحِ مكَّةَ وأنَّه نعيٌ لرسولِ الله ﷺ قيلَ: ولعلَّ ذلك لدلالتِها على تمامِ الدَّعوَةِ، وكمالِ أمرِ الدِّينِ، فهي كقولِهِ تعالَى: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم﴾ [المائدة: ٣].

أقولُ: ولعلَّ الفرقَ بينَ الآيتينِ أنَّ الأولى لتَمامِ الدَّعوَةِ وظُهورِ النُّصرَةِ، والثَّانيَةَ لكمالِ أمورِ الشَّريعَةِ.

قولُهُ: (في رَمَضَانَ) لعَشرٍ مضينَ منه، ومع رسولِ الله ﷺ عشرَةُ آلافٍ من المهاجِرينَ والأنصارِ وطوائفِ العرَبِ(٢)، والله سُبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤٤).

(٢) قال ابن أبي خيثمة في «تاريخه» (٢/ ٢١): والصواب: ما قال ابن إدريس وإبراهيم بن سعد، في حديثهما أنه خرج لعشر؛ لأن إبراهيم حكى عن ابن إسحاق: أن الفتح كان لعشر ليال بقين من شهر رمضان.

وروى البخاري (٤٢٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف.

سُورَةُ النَّصرِ

وتُسمَّى سورة «إذا جاء»، وعن ابن مسعود: أنها تُسمَّى سورةَ «التوديع»؛ لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصلاة والسلام وتوديعه الدنيا وما فيها، وجاء في عِدَّة رواياتٍ عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ قال حين نزلت: «نُعِيتْ إليَّ نفسي»[1].

وفي روايةٍ للبيهقي عنه: أنه لَمَّا نزلت دعا عليه الصلاة والسلام فاطمةَ رضي الله عنها وقال: «إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، فقيل لها، فقالت: أخبرني أنه نُعِيَتْ إليه نفسُهُ فبكيت، ثم أخبرني بأنك أولُ أهلي لحاقاً بي فضحكت[2].

وقد فَهِمَ ذلك منها عمر رضي الله عنه[3]، وكان يفعلُ عليه الصلاة والسلام بعدها فِعْلَ مُودِّعٍ.

وهي مدنيةٌ على القول الأصح في تعريف المدني، فقد أخرج الترمذيُّ في مسنده[4]، والبيهقيُّ من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار[5] وصدقة بن بشار عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هذه السورةُ نزلتْ على رسول الله ﷺ أوسطَ أيام التشريق بمنى[6] وهو في حَجَّة الوداع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ حتى ختمها،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٦٧، وأخرجه أيضاً الدارمي (٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٧٠)، وفيه قصة.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وليس للترمذي كتاب اسمه المسند، ولم نقف عليه في سننه، فنسبته للترمذي وهمٌ من المصنف رحمه الله.

(٥) في الأصل و(م): موسى بن عبيدة وعبد الله بن دينار، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) في (م): بمعنى، وهو تصحيف.

الخبر، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وغيرهما[(١)]، لكن قال الحافظ ابن رجب بعد أن أخرجه عن الأولَين: إنَّ إسناده ضعيفٌ جدًّا، وموسى بن عبيدة قال أحمد: لا تَحِلُّ الروايةُ عنه. وعليه إن صحَّ يكون نزولها قريباً جدًّا من زمان وفاته ﷺ، فإنَّ ما بين حجَّةِ الوداع وإجابته عليه الصلاة والسلام داعيَ الحقِّ ثلاثة أشهر ونيف.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر[(٢)] عن قتادة أنه قال: والله ما عاش ﷺ بعد نزول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا قليلاً، سنتين ثم توفِّي عليه الصلاة والسلام.

وفي «البحر»: أنَّ نزولها عند منصرفه ﷺ من خيبر[(٣)].

وأنت تعلم أنَّ غزوةَ خيبر كانت في سنة سبعٍ أواخرَ المحرَّم، فيكونُ ما في البين أكثرَ من سنتين.

ويدلُّ على مدنيَّتها أيضاً ما أخرجه مسلم وابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: آخرُ سورةٍ نزلتْ من القرآن جميعاً ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾[(٤)].

وآيها ثلاثٌ بالاتفاق، وفيها إشارةٌ إلى اضمحلال مِلَّةِ الأصنام وظهور دين الله عزَّ وجلَّ على أتمِّ وجهٍ، وهو وجهُ مناسبتها لما قبلها، ويحتمل غير ذلك، وهي على ما أخرج الترمذيُّ وغيره من حديث أنس: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ربع القرآن[(٥)]. ولم أظفرْ بوجه ذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّقُ به.

---

(١) مسند عبد بن حميد (٨٥٨)، وسنن البيهقي ٥/ ١٥٢، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٦/ ٤٠٦، وأخرجه أيضاً البزار (١١٤١ - كشف).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٠٦، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١٢.

(٣) البحر ١٠/ ٥٢٣.

(٤) صحيح مسلم (٣٠٢٤)، ومصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١٠٤.

(٥) سنن الترمذي (٢٨٩٥)، وقال: حديث حسن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوِّك، وهذا معنى النصر المعدَّى بـ «على»، وفُسِّر به لأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾. وجُوِّزَ أن يُراد به المعدَّى بـ «مِنْ» ومعناه: الحفظُ، والفتحُ يتضمَّنُ النصرَ بالمعنى الأول، فحينئذٍ يكون الكلامُ مشتملاً على إفادة النصرين، والأولُ هو الظاهر.

و«إذا» منصوبٌ بـ «سبِّح»، والفاءُ غيرُ مانعةٍ على ما عليه الجمهور في مثل ذلك، وأبو حيان[1] على أنها معمولةٌ للفعل بعدها، وليست مضافةً إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى قولٌ آخرُ.

والمراد بهذا النصر ما كان في أمر مكة من غلبته عليه الصلاة والسلام على قريش، وذكر النقاش عن ابن عباس أنَّ النصرَ هو صلحُ الحديبية، وكان في آخر سنة سِتٍّ، وأما الفتح فقد أخرج جماعةٌ عنه وعن عائشةَ أنَّ المراد به فتحُ مكة، وروي ذلك عن مجاهدٍ وغيره، وصحَّحه الجمهور، وكان في السنة الثامنة. وقال ابن شهاب: لثلاث عشرةَ بقيتْ من شهر رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة، وخَرَجَ عليه الصلاة والسلام ـ على ما أخرجه أحمدُ بسندٍ صحيح عن أبي سعيد ـ لليلتين خلتا من شهر رمضان[2]، وفي روايةٍ أخرى عن أحمد: لثمانِ عشرةَ[3]، وفي أخرى: لثنتي عشرة[4]. وعند مسلم: لِسِتَّ عشرةَ[5].

---

(١) في البحر ٨/ ٥٢٣.

(٢) مسند أحمد (١١٨٢٥).

(٣) مسند أحمد (١٧١١٢) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

(٤) مسند أحمد (١١٤١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (١١١٦).

وقال الواقديُّ: خرج ﷺ يومَ الأربعاء لعشرٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد العصر[١]. وضعَّفه القسطلاني[٢].

وكان المسلمون في تلك الغزوة عشرة آلافٍ من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب، وفي «الإكليل» اثني عشر ألفاً[٣]. وجُمع بأنَّ العشرة خَرَجَ بها عليه الصلاة والسلام من المدينة، ثم تلاحق الألفان.

والأولى أن يُحمَلَ النصر على ما كان مع الفتح المذكور، فإن كانت السورةُ الكريمةُ نازلةً قبل ذلك فالأمرُ ظاهرٌ، وتتضمَّنُ الإعلام بذلك قبل كونه، وهو من أعلام النبوَّة، وإذا كانت نازلةً بعده فقال الماتريدي في «التأويلات»: إنَّ «إذا» بمعنى «إذ» التي للماضي، ومجيئها بهذا المعنى كثيرٌ في القرآن[٤]. وعليه تكون متعلِّقةً بمقدَّرٍ كـ: كَمُلَ الأمرُ، أو: أتمّ النعمةَ على العباد، أو نحو ذلك، لا بـ «سبِّح»؛ لأنَّ الكلامَ حينئذٍ نحو: أَضْرِبُ زيداً أمس.

وقال بعضُ الأجِلَّة: هي لما يُستقبل كما هو الأكثرُ في استعمالها، وحينئذٍ لم يكن بُدٌّ من أن يُجعل شيءٌ من ذلك مستقبلاً مترقَّباً باعتبار أنَّ فتحَ مكة كان أمَّ الفتوح، والدستورَ لما يكون من بعده، فهو مترقَّبٌ باعتبار ما يدلُّ عليه، وإن كان متحقِّقاً باعتباره في نفسه.

وجُوِّزَ أن يكون الاستقبالُ باعتبار مجموع ما في حَيِّز «إذا»، فمنه ما هو مستقبلٌ وهو ما تضمَّنه قوله سبحانه: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ ولو باعتبارِ آخِرِ داخلٍ، وهو مما لا بأسَ به إن لم يكن النزولُ بعد تمام الدخول.

وقيل: المراد جنسُ نصرِ الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠١.

(٢) في المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني) ٢/ ٢٩٩.

(٣) هو: الإكليل في الحديث للحاكم النيسابوري، ونقله المصنف عنه بواسطة القسطلاني في المواهب ٢/ ٢٩٨.

(٤) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤٠٦، وجاء في التأويلات: «إن» بدل «إذ».

وجنسُ الفتح، فيعمُّ ما كان في أمر مكة ـ زادها الله شرفاً ـ وغيرَه، وأَمْرُ الاستقبال عليه ظاهرٌ.

وأيًّا ما كان فالمرادُ بالمجيء الحصولُ، وهو حقيقةٌ فيه على ما يقتضيه ظاهرُ كلام الراغب[1]. وقال القاضي: مجاز، وتُجوِّزَ به عنه للإشعار بأنَّ المقدَّرات متوجهةٌ من الأزل إلى أوقاتها المعيَّنةِ لها، فتقرُبُ منها شيئاً فشيئاً بحسب الاستعداد والأسباب العادية[2]. وقال عصام الدين: يمكن أن يقال: التعبيرُ بالمجيء للإشارة إلى أنَّ حصولَ نصرته تعالى بمجيء جندٍ يكون بهم النصرُ والفتحُ[3].

والظاهرُ أنَّ الخطابَ في «رأيت» للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والرؤيةُ بصريةٌ، أو علميةٌ متعدِّيةٌ لمفعولين.

و«الناس»: العربُ، و«دين الله»: ملَّةُ الإسلام التي لا دينَ له تعالى يُضافُ إليه غيرها. و«الأفواجُ» جمعُ فَوْجٍ، وهو على ما قال الراغبُ: الجماعةُ المارَّةُ المسرِعةُ[4]. ويُرادُ به مطلقُ الجماعة. قال الحوفي: وقياس جمعه أَفْوُجٌ، ولكن استُثقلتِ الضمةُ على الواو، فَعُدِلَ إلى أفواج.

وفي «البحر»[5]: قياس «فَعْلٍ» صحيحِ العين أن يُجْمَعَ على «أَفْعُل» لا على «أفعال»، ومعتلّ العين بالعكس، فالقياسُ فيه «أفعالٌ» كحوضٍ وأحواض، وشَذَّ فيه «أَفْعُلٌ» كثوبٍ وأَثْوُب.

ونصب «أفواجاً» على الحال من ضمير «يدخلون». وأما جملة «يدخلون» فهي حالٌ من «الناس» على الاحتمال الأول في الرؤية، ومفعولٌ ثانٍ على الاحتمال الثاني فيها.

---

(١) في مفرداته (جاء).
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٦.
(٣) من قوله: وتجوز به... إلى هنا ليس في (م).
(٤) المفردات (فوج).
(٥) ٨/ ٥٢٣.

وكونُها حالاً أيضاً بجَعْلِ «رأيت» بمعنى عرفت كما قال الزمخشريُّ[١]، تعقَّبه أبو حيان بقوله: لا نعلمُ أنَّ «رأيت» جاءت بمعنى عرفت، فيحتاج في ذلك إلى استثباتٍ[٢].

والمراد بدخول الناس في دينه تعالى أفواجاً ـ أي: جماعاتٍ كثيرة ـ: إسلامُهم من غير قتال، وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته عليه الصلاة والسلام، وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين، أخرج البخاريُّ[٣] عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتحُ بادرَ كلُّ قومٍ بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياءُ تتلوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة، فيقولون: دعوه وقومَهُ، فإن ظهرَ عليهم فهو نبيٌّ.

وعن الحسن قال: لما فتحَ رسول الله ﷺ مكةَ قالت الأعراب: أما إذ ظفر بأهل مكة وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً[٤].

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لم يُتوفَّ رسولُ الله ﷺ وفي العرب رجلٌ كافرٌ، بل دخل الكلُّ في الإسلام بعد حُنين والطائف، منهم مَنْ قَدِمَ، ومنهم من قَدِمَ وافدُهُ[٥].

وتأوَّلَ ذلك ابن عطية فقال: المراد والله تعالى أعلم العربُ عَبَدَةُ الأوثان، فإنَّ نصارى بني تغلب ما أراهم أسلموا في حياة رسول الله ﷺ، ولكن أعطوا الجزية[٦].

ونصَّ بعضُهم على أنهم لم يسلموا إذ ذاك، فالمراد بالناس عَبَدَةُ الأوثان من العرب، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن ونحوهم.

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٩٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٣.
(٣) في صحيحه (٤٣٠٢).
(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٤. واليدان: القدرة والطاقة. يقال: مالي بهذا الأمر يدٌ ولا يدان. النهاية ٥/ ٢٩٣.
(٥) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ١١/ ٢١٠.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢.

وقال عكرمة ومقاتل: المراد بالناس أهلُ اليمن، وَفدَ منهم سبع مئة رجلٍ وأسلموا. واحتُجَّ له بما أخرجه ابن جرير من طريق الحسين[1] بن عيسى عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن ابن عباس[2] قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر الله أكبر، جاء نصرُ الله والفتح، وجاء أهل اليمن» قيل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبهم، لَيِّنةٌ طاعتهم، الإيمانُ يمانٍ، والفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانية»[3]. وأخرجه أيضاً من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلاً[4].

وفيه أنه لا دلالة لذلك على أنَّ المراد بالناس هم أهل اليمن لا غير، وهو ظاهر[5].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمان يمانٍ» جاء في حديثٍ أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ[6] عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «أتاكم أهل اليمن، هم أَرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوباً، الإيمانُ يمانٍ، والحكمةُ يمانية».

فقيل: قال رسول الله ﷺ ذلك لأنَّ مكةَ يمانيةٌ، ومنها بُعِثَ ﷺ وفشا الإيمان.

وقيل: أراد عليه الصلاة والسلام مَدْحَ الأنصار لأنهم يمانون، وقد تبوَّؤوا الدار والإيمان، وقول ابن عباس في الخبر: في المدينة، يُعارضُ قولَ مَنْ قال: إنَّ ذلك إنما قاله ﷺ بتبوك، وكان بينه وبين اليمن مكةُ والمدينة، وهما دارا الإيمان ومظهراه، ويحتمل تكرُّر القول.

والظاهرُ أنه ثناءٌ على أهل اليمن لإسراعهم إلى الإيمان، وقبولهم له بلا سيف،

---

(١) تصحف في (م) إلى: الحصين.
(٢) تصحف في (م) إلى: أبي عباس.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/٧٠٦، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٧٢٩٩)، وهو حديث صحيح لغيره إسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية صحيح ابن حبان.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/٧٠٧.
(٥) من قوله: وفيه... إلى هنا ليس في (م).
(٦) البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٥٢)، والترمذي (٣٩٣٥)، وهو عند أحمد (٧٢٠٢).

ويشملُ الأنصار من أهل اليمن وغيرهم، فكأنَّ الإيمان كان في سِنْخِ[1] قلوبهم فقبلوه كما أُنهي إليهم، كمن يجدُ ضالَّته، ومِثْلُه في الثناء عليهم قولُه عليه الصلاة والسلام: «أجِدُ نَفَسَ ربِّكم من قِبَلِ اليمن»[2].

وللشيخ الأكبر قُدِّس سِرُّه في هذا الخبر كلامٌ طويلٌ على ما هو المعروف من مشربه قُدِّسَ سِرُّه[3].

وقال عصام الدين: يحتملُ أن يكونَ الخطابُ في «رأيت الناس» عامًّا لكلِّ مؤمن، ثم قال: ومما يختلجُ في القلب أنَّ المناسبَ بقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أن يُحمَلَ قوله سبحانه: ﴿وَالْفَتْحُ﴾ على فتح باب الدين عليهم. انتهى، وكِلَا الأمرين كما ترى.

وقرأ ابن عباس كما أخرج أبو عبيد[4] وابن المنذر عنه: «إذا جاء فتح الله والنصر»[5].

وقرأ ابن كثير في رواية: «يُدْخَلون» بالبناء للمفعول[6].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فنزِّهه تعالى بكلِّ ذِكْرٍ يدلُّ على التنزيه، حامداً له جلَّ وعلا زيادةً في عبادته والثناء عليه سبحانه؛ لزيادة إنعامه سبحانه عليك، فالتسبيحُ التنزيهُ، لا التلفُّظ بكلمة «سبحان الله» والباءُ للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، و«بحمد»[7] مضافٌ إلى المفعول، والمعنى على الجمع بين تسبيحه تعالى - وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به عليه عزَّ وجلَّ من النقائص - وتحميده، وهو إثباتُ ما يليقُ به تعالى من المحامد له، لِعِظَمِ ما أنعم سبحانه به عليه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) السِّنْخُ: المنبت. القاموس المحيط (سنخ).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) من قوله: وللشيخ... إلى هنا ليس في (م) وضرب عليها في النعمانية (ب).

(٤) في (م): أبو عبيدة. وهو تصحيف.

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٩، والدر المنثور ٦/ ٤٠٦، وعنه نقل المصنف.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٩٤، والبحر ٨/ ٥٢٣.

(٧) في (م): والحمد.

وقيل: أي: نزِّهْهُ تعالى عن العجز في تأخير ظهور الفتح، واحمده على التأخير، وَصِفْهُ تعالى بأنَّ توقيتَ الأمور من عنده ليس إلا لحكمةٍ لا يعرفها إلا هو عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى.

ويجوز أن يراد بالتسبيح التلفُّظ بكلمة «سبحان الله» أو «ربي» مثلاً، أي: فقل سبحان الله حامداً له(١). وأيِّدَ ذلك بما في «الصحيحين» عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوَّلُ القرآنَ(٢). تعني هذا مع قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أي: اطلب منه أن يغفر لك.

وكذا كما في «مسند» الإمام أحمد، و«صحيح» مسلم(٣) عن عائشة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إنَّ ربي كان أخبرني أنْ سأرى علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أُسبِّحَ بحمده وأستغفره» إلخ.

وروى ابن جرير(٤) من طريق حفص بن عاصم عن الشعبي عن أمِّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلا قال: «سبحان الله وبحمده» قال: «إني أُمرتُ بها» وقرأ السورة. وهو غريب.

وفي «المسند» عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: (إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ) كان يُكثِرُ إذا قرأها وركع أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثاً(٥).

وجُوِّزَ أن تكون الباء للاستعانة، والحمدُ مضافٌ إلى الفاعل، أي: سَبِّحهُ

(١) من قوله: ويجوز... إلى هنا ليس في (م).
(٢) صحيح البخاري (٤٩٦٨)، وصحيح مسلم (٤٨٤).
(٣) أحمد (٢٤٠٦٥)، ومسلم (٤٨٤).
(٤) في تفسيره ٢٤/ ٧١١.
(٥) مسند أحمد (٣٦٨٣).

بما حَمِدَ سبحانه به نفسه. قال ابن رجب: إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ، فتسبيحُ المعتزلة يقتضي تعطيل كثيرٍ من الصفات، وقد كان بشرٌ المريسي يقول: سبحان ربي الأسفل. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. والظاهر الملابسة.

وجُوِّز أن يكون التسبيحُ مجازاً عن التعجُّب بعلاقة السببية، فإنَّ مَنْ رأى أمراً عجيباً قال: سبحان الله، أي: فتعجَّبْ لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبالِ أحدٍ من أن يَغلبَ أحدٌ على أهل الحرم، واحمده تعالى على صنعه. وهذا التعجُّبُ تعجُّبُ متأملٍ شاكرٍ يصحُّ أن يُؤمَرَ به، وليس الأمرُ بمعنى الخبر بأنَّ هذه القصة من شأنها أن يتعجَّبَ منها كما زعم ابن المنير(١)، والتعليلُ بأنَّ الأمرَ في صيغة التعجُّبِ ليس أمراً بيِّن السقوطِ، نعم هذا الوجه ليس بشيءٍ، والأخبارُ دالةٌ على أنَّ ذلك أمرٌ له ﷺ بالاستعداد للتوجُّه إلى ربه تعالى، والاستعداد للقائه بعدما أكمل دينه، وأدَّى ما عليه من البلاغ، وأيضاً ما ذكرناه من الآثار آنفاً لا يساعدُ عليه.

وقيل: المراد بالتسبيح الصلاةُ لاشتمالها عليه، ونقله ابن الجوزي(٢) عن ابن عباس، أي: فَصَلِّ له تعالى حامداً على نعمه، وقد روي أنه ﷺ لَمَّا دخل مكة صلّى في بيت أمِّ هانئ ثمانِ ركعات(٣). وزَعَمَ بعضُهم أنه صلّاها داخلَ الكعبة، وليس بالصحيح.

وأيَّاما كان فهي صلاةُ الفتح، وهي سنَّةٌ، قد صلّاها سعدٌ يوم فتح المدائن(٤). وقيل: صلاةُ الضحى. وقيل: أربعٌ منها للفتح، وأربعٌ للضحى. وعلى كلٍّ ليس فيها دليلٌ على أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة، والأخبار أيضاً تساعد على خلافه.

واستغفاره ﷺ قيل: لأنه كان دائماً في الترقِّي، فإذا ترقَّى إلى مرتبةٍ استغفرَ لما قبلها.

وقيل: مما هو في نظره الشريف خلافُ الأولى بمنصبه المنيف.

---

(١) في الانتصاف ٤/ ٢٩٤.

(٢) في زاد المسير ٩/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٨٨٧)، والبخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦).

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ١٦، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣.

وقيل: عمَّا كان من سهوٍ ولو قبل النبوَّة.

وقيل: لتعليم أمته ﷺ.

وقيل: هو استغفارٌ لأمته عليه الصلاة والسلام أي: واستغفره لأمتك.

وجوَّزَ بعضُهم كونَ الخطاب في «رأيت» عامًّا، وقال هاهنا: يجوز حينئذٍ أن يكون الأمر بالاستغفار لمن سواه عليه الصلاة والسلام، وإدخاله ﷺ في الأمر تغليبٌ. وهذا خلافُ الظاهر جدًّا، وأنت تعلم أنَّ كلَّ أحدٍ مقصِّرٌ عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله جلَّ جلاله وعظمته سبحانه، وإنما يؤدِّيها على قَدْرِ ما يعرفُ، والعارفُ يعرفُ أنَّ قَدْرَ الله عزَّ وجل أعلى وأجلُّ من ذلك، فهو يستحي من عمله، ويرى أنه مقصِّرٌ، وكلّما كان الشخصُ بالله تعالى أَعْرَفَ، كان له سبحانه أَخْوفَ، وبرؤية تقصيره أَبْصَرَ، وقد كان كَهْمَس[1] يُصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعة، فإذا صلَّى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كلِّ سوء، فوالله ما رضيتك لله عزَّ وجلَّ طَرْفَةَ عين.

وعن مالك بن دينار: لقد هممتُ أن أوصي إذا متُّ أن يُنْطَلَق بي كما يُنطَلَقُ بالعبد الآبق إلى سيِّده، فإذا سألني قلت: يا ربِّ إني لم أرضَ لك نفسي طَرْفَةَ عين.

فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لما يَعرِفُ من عظيم جلال الله تعالى وعظمته سبحانه، فيرى أنَّ عبادته ـ وإن كانت أجلّ من عبادة جميع العابدين ـ دونَ ما يليقُ بذلك الجلال وتلك العَظَمة التي هي وراءَ ما يخطرُ بالبال، فيستحيي ويهرعُ إلى الاستغفار.

وقد صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يستغفرُ الله في اليوم والليلة أكثرَ من سبعين مرة[2].

---

(١) ابن الحسن التميمي الحنفي البصري العابد، أبو الحسن، من كبار الثقات، حدث عن الحسن البصري وجماعة، وحدث عنه ابن المبارك ومعتمر ووكيع وخلق كثير. توفي سنة (١٤٩هـ). سير أعلام النبلاء ٦/٣١٦.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧٩٣)، والبخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وللإشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليقُ بجلال المعبود وإن بذلَ المجهودَ، شُرِعَ الاستغفارُ بعد كثيرٍ من الطاعات، فذكروا أنه يُشرَعُ لمصلِّي المكتوبة أن يستغفرَ عَقِبَها ثلاثاً، وللمتهجِّدِ في الأسحار أن يستغفرَ ما شاء الله تعالى، وللحاجِّ أن يستغفرَ بعد الحجِّ، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وروي أنه يُشرَعُ لختم الوضوء. وقالوا: يُشرَعُ لختم كلِّ مجلسٍ، وقد كان ﷺ يقول إذا قام من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»(١).

ففي الأمر بالاستغفار رمزٌ من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فُهِمَ من النَّعي، والمشهورُ أنَّ ذلك للدلالة على مُشارفة تمام أمر الدعوة، وتكامل أمر الدين، والكلامُ وإن كان مشتملاً على التعليق لكنَّ ذلك واقعٌ في معرِض الوعد، ووعدُ الكريم يدلُّ على قُرْبِ الموعود به، لأنَّ أهنى البرِّ عاجله، ولذا قال البلغاء: جعل الله عُمُرَ عِدَاتك، كعمر عُدَاتِكَ(٢).

وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار، قيل: على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق، كما قيل: ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله تعالى قبله؛ لأنَّ جميع الأشياء مرايا لِتَجلِّيه جلَّ جلاله، وذلك لأنَّ في التسبيح والحمد توجُّهاً بالذات لجلال الخالق وكماله، وفي الاستغفار تَوَجُّهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته.

ويجوز أن يكون تأخيرُ الاستغفار عنهما لما أشرنا إليه في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار. وقيل: في تقديمها عليه تعليمُ أدب الدعاء، وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه(٣).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي: منذ خَلَقَ المكلَّفين، أي: مبالغاً في قبول توبتهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) من قوله: لكن ذلك واقع... إلى هنا ليس في (م). والعداة بكسر العين جمع العِدَة مصدر وَعَد، والعُداة بضمها جمع العادي بمعنى العدو. ينظر القاموس (وعد) و(عدا).

(٣) في الأصل: المسؤول عنه.

فليكنِ المستغفرُ التائبُ متوقِّعاً للقبول، فالجملةُ في موضع التعليل لما قبلها، واختيارُ «توَّاباً» على «غفَّاراً» مع أنه الذي يستدعيه «استَغْفِره» ظاهراً للتنبيه ـ كما قال بعض الأجِلَّةِ ـ على أنَّ الاستغفار إنما ينفعُ إذا كان مع التوبة، وذكر ابن رجب أنَّ الاستغفارَ المجرَّدَ: هو التوبةُ مع طَلَبِ المغفرة بالدعاء، والمقرونَ بالتوبة ـ ك: أستغفر[1] الله تعالى وأتوب إليه سبحانه ـ هو طلبُ المغفرة بالدعاء فقط.

وقال أيضاً: إنَّ المجرَّدَ طلبُ وقايةِ شَرِّ الذنب الماضِي بالدعاء والندم عليه، ووقاية شَرِّ الذنب المتوقَّع بالعزم على الإقلاع عنه. وهذا الذي يمنعُ الإصرارَ كما جاء: «ما أصرَّ مَن استغفرَ ولو عاد في اليوم سبعين مرَّةً»[2]، و: «لا صغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[3]، والمقرون بالتوبة مختصٌّ بالنوع الأول، فإنْ لم يصحبهُ الندمُ على الذنب الماضي فهو دعاءٌ محضٌ، وإن صَحِبَهُ نَدَمٌ فهو توبة. انتهى.

والظاهر أنَّ ذلك الدعاء المحضَ غيرُ مقبولٍ، وفيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه.

وقال بعض الأفاضل: إنَّ في الآية احتباكاً[4]، والأصل: واستغفره إنه كان غفَّاراً، وتُبْ إليه إنه كان توَّاباً. وأُيِّدَ بما قدَّمناه من حديث الإمام أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

وحَمْلُ الزمان الماضي على زمان خَلْقِ المكلَّفين هو ما ارتضاه غيرُ واحدٍ[5].

---

(١) في (م): فاستغفر.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وفي إسناده أبو شيبة الخراساني، قال عنه الذهبي في الميزان ٤/ ٥٣٧: أتى بخبر منكر. ثم ذكر له هذا الحديث. وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.
وجاء في هامش الأصل: أخرجهما ابن أبي الدنيا.

(٤) هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٥) منهم البيضاوي وأبو السعود، وقيل: إنه ردٌّ لما سيأتي من كلام الماتريدي. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٧.

وقال الماتريدي في «التأويلات»[1] أي: لم يزلْ توّاباً، لا أنه سبحانه توَّابٌ بأمرٍ اكتسبه وأحدثه على ما يقوله المعتزلة من أنه سبحانه صارَ توّاباً إذ أنشأ الخلقَ فتابوا فَقَبِلَ توبتهم، فأما قبل ذلك فلم يكن تواباً.

وَرُدَّ عليه بأنَّ قبول التوبة من الصفات الإضافية، ولا نزاعَ في حدوثها.

واختار بعضُهم ما ذهب إليه الماتريدي، على أنَّ المرادَ أنه تعالى لم يزلْ بحيثُ يقبلُ التوبةَ، ومآله قِدَمُ منشأ قبولها من الصفات اللائقة به جلَّ شأنه، وفي ذلك ممَّا يقوِّي الرجاءَ به عزَّ وجلَّ ما فيه. وصَحَّ: «لو لم تذنبوا لَذَهَبَ الله تعالى بكم ولجاءَ بقومٍ يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»[2].

وفي الاستغفار خيرُ الدنيا والآخرة، أخرج الإمام أحمد من حديث عطيةَ عن أبي سعيدٍ مرفوعاً: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيوم وأتوبُ إليه، غَفَرَ [اللهُ] له ذنوبه وإن كانت مثل زَبَدَ البحر، وإن كانت مثلَ رَمْلِ عالج، وإن كانت عَدَدَ وَرَقِ الشجر»[3].

وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس: «مَنْ أكثرَ من الاستغفار جَعَلَ الله تعالى له من كلِّ همٍّ فَرَجاً»[4].

وأنا أقولُ: سبحان الله وبحمده، أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه، وأسأله أن يجعلَ لي من كلِّ همٍّ فَرَجاً، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، بحُرْمة كتابه وسَيِّد أحبابه ﷺ.

---

(١) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤٠٧.
(٢) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، ومسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) مسند أحمد (١١٠٧٤). وما بين حاصرتين استدرك منه.
(٤) مسند أحمد (٢٢٣٤).

(١١١) سُورَةُ المَسَدِ مَكِّيَّة
وآياتها خمس

سورة تَبَّتْ مكية ، وتسمى سورة اللَّهب ، وسورة المَسَد ، وهي تتحدث عن حادثة واقعية حدثت للرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه « عبد العُزَّى بن عبد المطلب » الذي يكني بـ « أبي لهب » وكان شديد المعاداة لرسول الله ﷺ يترك عمله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته ، ويصد الناس عن دينه ، ولما نزل قوله تعالى « وأنذرْ عشيرتك الأقربين » صعد رسول الله على الصفا ، ونادى بأعلى صوته : يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال لهم : « إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد » ثم أنذرهم عموماً وخصوصاً فقال له أبو لهب : تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله يرد على ذلك الكافر السفية « تبت يدا أبي لهب وتبَّ » ونزلت السورة مناصرة لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم .

● ● ●

سورة المسد

[١٠٤٧] أخرج البخاري وغيره[١] عن ابن عباس قال صعد رسول الله [ﷺ] ذات يوم على الصفا فنادى «**يا صباحاه**» فاجتمعت إليه قريش قال «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني**» قالوا بلى قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[٢] إلى آخرها.

[١٠٤٨] ك.. وأخرج ابن جرير من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد بن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي [ﷺ] الشوك فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ إلى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾[٣] وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله.

* * *

[١٠٤٧] (١) صحيح البخاري (٦/ ١٥٣)، والطبري (١٩/ ٧٣)، ورواه الترمذي في سننه (٣٣٦٣)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٨١)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٥/ ٤٣١) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٦١).

(٢) سورة المسد: الآية (١).

[١٠٤٨] (٣) سورة المسد: الآية (١و٤).

سورة المسد

خمس آيات مكية بالاتفاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اعلم أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ثم بين في سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١] أن محمدًا عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفي عبادة الشركاء والأضداد، وأن الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد، فكأنه قيل: إلهنا ما ثواب المطيع، وما عقاب العاصي؟ فقال: ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستيلاء في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، كما دل عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر:١] وأما عقاب العاصي فهو الخسار في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى، كما دلت عليه سورة ﴿تَبَّتْ﴾ ونظيره قوله تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام:١٦٥] فكأنه قيل: إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز، فما السبب في هذا التفاوت؟ فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فكأنه قيل: إلهنا فإذا كان العبد مذنبًا عاصيًا فكيف حاله؟ فقال في الجواب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأنعام:١٦٥] وإن كان مطيعًا منقادًا كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفورًا لسيئاته في الدنيا رحيمًا كريمًا في الآخرة.

وذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوهًا:

أحدها: قال ابن عباس: كان رسول الله يكتم أمره في أول المبعث، ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] فصعد الصفا ونادى: «يَا آلَ غَالِبٍ» فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ غَالِبُ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذِهِ غَالِبٌ قَدْ أَتَتْكَ فَمَا عِنْدَكَ؟ ثُمَّ نَادَى: «يَا آلَ لُؤَيٍّ» فَرَجَعَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ لُؤَيٍّ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذِهِ لُؤَيٌّ قَدْ أَتَتْكَ فَمَا عِنْدَكَ؟ ثُمَّ قَالَ: «يَا آلَ مُرَّةَ» فَرَجَعَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مُرَّةَ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذِهِ مُرَّةُ قَدْ أَتَتْكَ فَمَا عِنْدَكَ؟ ثُمَّ قَالَ: «يَا آلَ كِلَابٍ»، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: «يَا آلَ قُصَيٍّ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذِهِ قُصَيٌّ قَدْ أَتَتْكَ فَمَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِينَ، وَأَنْتُمُ الأَقْرَبُونَ، اعْلَمُوا أَنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا وَلاَ مِنَ الآخِرَةِ نَصِيبًا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَأَشْهَدُ بِهَا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ عِنْدَ ذَلِكَ: تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا؟! فنزلت السورة.

وثانيها: روى أن رسول الله ﷺ صعد الصفا ذات يوم وقال: «يَا صَبَاحَاه» فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبُو لَهَبٍ مَا قَالَ. فنزلت السورة.

وثالثها: أَنَّهُ جَمَعَ أَعْمَامَهُ وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ طَعَامًا فِي صَحْفَةٍ فَاسْتَحْقَرُوهُ وَقَالُوا: إِنَّ أَحَدَنَا يَأْكُلُ كُلَّ الشَّاةِ!! فَقَالَ: «كُلُوا» فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَلَمْ يَنْقُصْ مِنَ الطَّعَامِ إِلاَّ الْيَسِيرُ، ثُمَّ قَالُوا: فَمَا عِنْدَكَ؟ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلاَمِ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ مَا قَالَ، وروي أنه قال أبو لهب: فَمَا لِي إِنْ أَسْلَمْتُ؟ فَقَالَ: «مَا لِلْمُسْلِمِينَ»، فَقَالَ: أَفَلاَ أُفَضَّلُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: «بِمَاذَا تُفَضَّلُ؟» فَقَالَ: تَبًّا لِهَذَا الدِّينِ يَسْتَوِي فِيهِ أَنَا وَغَيْرِي.

ورابعها: كَانَ إِذَا وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ وَفْدٌ سَأَلُوا عَمَّهُ عَنْهُ وَقَالُوا: أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ. فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُ سَاحِرٌ. فَيَرْجِعُونَ عَنْهُ وَلاَ يَلْقَوْنَهُ، فَأَتَاهُ وَفْدٌ فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالُوا: لاَ نَنْصَرِفُ حَتَّى نَرَاهُ. فَقَالَ: إِنَّا لَمْ نَزَلْ نُعَالِجُهُ مِنَ الْجُنُونِ فَتَبًّا لَهُ وَتَعْسًا. فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَحَزِنَ وَنَزَلَتِ السُّورَةُ.

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

اعلم أن قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ **فيه أقاويل: أحدها:** التباب: الهلاك، ومنه قولهم شَابَّة؟ أم تابة أي هالكة من الهرم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي في هلاك، والذي يقرر ذلك أن الأعرابي لما واقع أهله في نهار رمضان قال: هلكت وأهلكت، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك، فدل على أنه كان صادقًا في ذلك، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلاً في الإيمان، أو إن كان داخلاً لكنه أضعف أجزائه، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك، ففي حق أبي لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل، وحصل وجود الاعتقاد الباطل، والقول الباطل، والعمل الباطل، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك؟! فلهذا قال: ﴿تَبَّتْ﴾ **وثانيها:** تبت خسرت، والتباب هو الخسران المفضي إلى الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي تخسير، بدليل أنه قال في موضع آخر: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] **وثالثها:** تبت: خابت، قال ابن عباس: لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله: (إنه ساحر) فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يُتهم، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهمًا، فلم يُقبل قوله في الرسول بعد ذلك، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه، فيقول: انصرف راشدًا فإنه مجنون!! فإن المعتاد أن من يصرف إنسانًا عن موضع وَضَع يده علي كتفه ودفعه عن ذلك الموضع. **ورابعها:** عن عطاء: تبت أي غُلبت لأنه كان يعتقد أن يده هي العليا وأنه يُخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه. **وخامسها:** عن ابن وثاب: صفرت يداه على كل خير. **وإن قيل:** ما فائدة ذكر اليد؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** ما يروى أنه أخذ حجرًا ليرمي به رسول الله، روي عن طارق المحاربي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا» وَرَجُلٌ خَلْفَهُ يَرْمِيهِ بالحِجَارةِ وَقَدْ أَدْمَى عَقِبَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: لاَ تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ وَعَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ. **وثانيها:** المراد من اليدين:

الجملة كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ومنه قولهم: (يداك أوكتا) وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] وهذا التأويل متأكد بقوله: ﴿تَبَّ﴾ **وثالثها:** تبت يداه، أي دينه ودنياه، أولاه وعقباه، أو لأن بإحدى اليدين تجر المنفعة، وبالأخرى تدفع المضرة، أو لأن اليمنى سلاح والأخرى جُنة **ورابعها:** روي أنه عليه السلام لما دعاه نهارًا فأبى، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستنًّا بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهارًا، فلما دخل عليه قال له: جئتني معتذرًا. فجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال: «**إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الْعَارُ فَأَجِبْنِي فِي هَذَا الْوَقْتِ وَاسْكُتْ**» فَقَالَ: لاَ أُومِنُ بِكَ حَتَّى يُؤْمِنَ بِكَ هَذَا الْجَدْيُ. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لِلْجَدْيِ: «مَنْ أَنَا؟» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ. وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ يُثْنِي عَلَيْهِ، فَاسْتَوْلَى الْحَسَدُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ، فَأَخَذَ يَدَيِ الْجَدْيِ وَمَزَّقَهُ وَقَالَ: تَبًّا لَكَ أَثَّرَ فِيكَ السِّحْرُ!! فَقَالَ الْجَدْيُ: بَلْ تَبًّا لَكَ فنزلت السورة على وفق ذلك: تبت يدا أبي لهب لتمزيقه يدي الجدي. **وخامسها:** قال محمد بن إسحاق: يروى أن أبا لهب كان يقول: يعدني محمد أشياء، لا أرى أنها كائنة، يزعم أنها بعد الموت، فلم يضع في يدي من ذلك شيئًا. ثم ينفخ في يديه ويقول: تبًّا لكما ما أرى فيكما شيئًا!! فنزلت السورة.

أما قوله تعالى: ﴿تَبَّ﴾ **ففيه وجوه: أحدها:** أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] والثاني مخرج الخبر، أي كان ذلك وحصل، ويؤيده قراءة ابن مسعود: (وقد تب) **وثانيها:** كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه، ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين. **وثالثها:** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ يعني ماله، ومنه يقال: ذات اليد ﴿تَبَّ﴾ هو بنفسه، كما يقال: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر: ١٥] وهو قول أبي مسلم. **ورابعها:** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ يعني نفسه: ﴿تَبَّ﴾ يعني ولده عتبة، على ما روي أن عتبة بن أبي لهب خرج إلى الشأم مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم عتبة: بلِّغوا محمدًا عني أني قد كفرت بالنجم إذا هوى. وروي أنه قال ذلك في وجه رسول الله وتفل في وجهه، وكان مبالغًا في عداوته، فقال: «**اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلاَبِكَ**» فَوَقَعَ الرُّعْبُ فِي قَلْبِ عُتْبَةَ وَكَانَ يَحْتَرِزُ، فَسَارَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، فَلَمَّا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الصُّبْحِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلَكَتِ الرِّكَابُ. فَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى نَزَلَ وَهُوَ مَرْعُوبٌ وَأَنَاخَ الإِبِلَ حَوْلَهُ كَالسُّرَادِقِ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الأَسَدَ وَأَلْقَى السَّكِينَةَ عَلَى الإِبِلِ، فَجَعَلَ الأَسَدُ يَتَخَلَّلُ حَتَّى افْتَرَسَهُ وَمَزَّقَهُ». **فإن قيل:** نزول هذه السورة كان قبل هذه الوقعة، وقوله: ﴿تَبَّ﴾ إخبار عن الماضي، فكيف يُحمل عليه؟ **قلنا:** لأنه كان في معلومه تعالى أنه يحصل ذلك. **وخامسها:** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ حيث لم يعرف حق ربه ﴿تَبَّ﴾ حيث لم يعرف حق رسوله. **وفي الآية سؤالات:**

السؤال الأول: لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب، وأيضًا فالتكنية من باب التعظيم؟ **والجواب عن الأول:** أن التكنية قد تكون اسمًا، ويؤيده قراءة من قرأ (تَبَّتْ يَدَا أَبُو لَهَبٍ)

كما يقال: علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان، فإن هؤلاء أسماؤهم كناهم، **وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه: أحدها:** أنه لما كان اسمًا خرج عن إفادة التعظيم. **والثاني:** أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته. **والثالث:** أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته، فكان جديرًا بأن يُذكر بها، ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر، للشرير وأبو الخير، للخيِّر. **الرابع:** كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما، فيجوز أن يُذكر بذلك تهكمًا به واحتقارًا له.

السؤال الثاني: أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان نبي الرحمة والخلق العظيم، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد، وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله: (يا أبت يا أبت) وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد، ولما قال له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] مع أن جُرم فرعون كان أغلظ من جُرم أبي لهب، كيف ومِن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يُقتل بابنه قصاصًا ولا يقيم الرجم عليه، وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله: (إنه مجنون) والناس ما كانوا يتهمونه؛ لأنه كان كالأب له، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة، فصار بسبب تلك العداوة متهمًا في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام، فلم يُقبل قوله فيه بعد ذلك. **وثانيها:** أن الحكمة في ذلك أن محمدًا لو كان يُداهن أحدًا في الدين ويسامحه فيه، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحدًا في شيء يتعلق بالدين أصلاً. **وثالثها:** أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض، فإن كونه عمًّا يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة، لا جرم استحق التغليظ العظيم.

السؤال الثالث: ما السبب في أنه لم يقل (قل تبت يدا أبى لهب وتب* وقال في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟ **الجواب من وجوه: الأول:** لأن قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له: (قل) ذلك لئلا يكون مشافهًا لعمه بالشتم، بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعمامًا له. **الثاني:** أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى: يا محمد أجب عني: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي هذه السورة طعنوا في محمد، فقال الله تعالى: اسكت أنت فإني أشتمهم: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ **الثالث:** لما شتموك، فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب

عنك، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتًا، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول، فقال أبو بكر: ما السبب في ذلك؟ قال: «لِأَنَّكَ حِينَ كُنتَ سَاكِتًا كَانَ الْمَلَكُ يُجِيبُ عَنْكَ، فَلَمَّا شَرَعْتَ فِي الْجَوَابِ انْصَرَفَ الْمَلَكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ».

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذابًا عنه وناصرًا له ومعينًا.

السؤال الرابع: ما الوجه في قراءة عبد الله بن كثير المكي حيث كان يقرأ: (أبي لَهْب) ساكنة الهاء؟ **الجواب:** قال أبو علي: يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر، وأجمعوا في قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] على فتح الهاء، وكذا قوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المراسلات: ٣١] وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان. وقال غيره: إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوفاق الفواصل.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ يحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، ويحتمل أن يكون نفيًا، وعلى التقدير الأول يكون المعنى: أي تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه؟ فإنه لا أحد أكثر مالاً من قارون فهل دفع الموت عنه؟ ولا أعظم مُلكًا من سليمان فهل دفع الموت عنه؟ وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخبارًا بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك.

المسألة الثانية: (مَا كَسَبَ) مرفوع و(ما) موصولة أو مصدرية يعني مكسوبه أو كسبه، يروى أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وأولادي!! فأنزل الله تعالى هذه الآية، ثم ذكروا في المعنى وجوهًا: **أحدها:** لم ينفعه ماله وما كسب بماله، يعني رأس المال والأرباح. **وثانيها:** أن المال هو الماشية وما كسب من نسلها، ونتاجها، فإنه كان صاحب النعم والنتاج. **وثالثها:** ﴿مَالُهُۥ﴾ الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه. **ورابعها:** قال ابن عباس: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولده، والدليل عليه قوله عليه السلام: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»(١) وقال عليه السلام: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»(٢) وروي أن بني أبي لهب احتكموا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في الرجل يأكل من مال ولده) (٣/ ١٥٢٨) حديث رقم (٣٥٢٨) والنسائي في كتاب (البيوع) باب (الحث على الكسب) (٧/ ٢٧٦) حديث رقم (٤٤٦١) والترمذي في كتاب (الأحكام) باب (أن الوالد يأخذ من مال ولده) (٣/ ٦٣٩) حديث رقم (١٣٥٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (التجارات) باب (ما للرجل من مال ولده) (٢/ ٧٦٨) حديث رقم (٢٢٩٠) والدارمي في كتاب (البيوع) باب (الكسب وعمل الرجل) (٢/ ٣٢١) حديث رقم (٢٥٣٧) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٣١) جميعًا من طريق عمارة... به.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في الرجل يأكل من مال ولده) (٣/ ١٥٢٩) حديث=

إليه فاقتتلوا، فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع فغضب فقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث!! **وخامسها:** قال الضحاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث، يعني كيده في عداوة رسول الله. **وسادسها:** قال قتادة: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي عمله الذي ظن أنه منه على شيء، كقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان: ٢٣] **وفي الآية سؤالات:**

السؤال الأول: قال ههنا: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ وقال في سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١] فما الفرق؟ **الجواب:** التعبير بلفظ الماضي يكون آكد، كقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨] وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

السؤال الثاني: ما أغنى عنه ماله وكسبه فيماذا؟ **الجواب:** قال بعضهم: في عداوة الرسول فلم يغلب عليه. وقال بعضهم: بل لم يغنيا عنه في دفع النار ولذلك قال: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾

وفيه مسائل

المسألة الأولى: لما أخبر تعالى عن حال أبي لهب في الماضي بالتباب وبأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه، أخبر عن حاله في المستقبل بأنه سيصلى نارًا.

المسألة الثانية: (سيصلى) قرئ بفتح الياء وبضمها مخففًا ومشددًا.

المسألة الثالثة: هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه: **أحدها:** الإخبار عنه بالتباب والخسار، وقد كان كذلك. **وثانيها:** الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وقد كان كذلك. روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام دخل بيتنا، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ أنا، وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه، وكان أبو لهب تخلَّف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلًا آخر، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا في أنفسنا قوة، وكنت رجلًا ضعيفًا وكنت أعمل القداح ألحيها في حجرة زمزم، فكنت جالسًا هناك وعندي أم الفضل جالسة، وقد سَرَّنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه، فجلس على طنب الحجرة وكان ظهري إلى ظهره، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فقال له أبو لهب: كيف الخبر يا بن أخي؟ فقال: لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا، وايم الله مع ذلك تأملت الناس، لقيَنا رجال بيض على خيل بُلْق بين السماء والأرض!! قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة، ثم قلت: أولئك والله الملائكة. فأخذني وضربني على الأرض، ثم برك عليَّ فضربني وكنت رجلًا ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى

=رقم (٣٥٣٠) وابن ماجه في كتاب (التجارات) باب (ما للرجل من مال ولده) (٢/ ٧٦٩) حديث رقم (٢٢٨٢) وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٧٩) جميعًا من طريق عمرو بن شعيب... به.

عمود فضربته على رأسه وشجته، وقالت: تستضعفه أن غاب سيده؟! والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة، وقد صدق فيما قال!! فانصرف ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة فقتلته، ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثًا ما يدفناه حتى أنتن في بيته، وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها كما يتقي الناس الطاعون، وقالوا: نخشى هذه القرحة. ثم دفنوه وتركوه. فهذا معنى قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ **وثالثها:** الإخبار بأنه من أهل النار، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر.

المسألة الرابعة: احتج أهل السنة على وقوع تكليف ما لا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار، فقد صار مكلفًا بأنه يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال. وأجاب الكعبي وأبو الحسين البصري بأنه لو آمن أبو لهب لكان لهذا الخبر خبرًا بأنه آمن، لا بأنه ما آمن، وأجاب القاضي عنه فقال: متى قيل: لو فعل الله ما أخبر أنه لا يفعله فكيف يكون؟ فجوابنا: أنه لا يصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم.

واعلم أن هذين الجوابين في غاية السقوط: أما الأول: فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع، والخبر الصدق عن عدم إيمانه ينافيه وجود الإيمان منافاة ذاتية ممتنعة الزوال، فإذا كان كلفه أن يأتي بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين.

وأما الجواب الثاني: فأركُّ من الأول لأنا لسنا في طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقًا، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفًا بالجمع بين الضدين، وهذا الإشكال قائم، سواء ذكر الخصم بلسانه شيئًا أم بقي ساكتًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَمُرَيْئَتُهُ) بالتصغير وقرئ (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) بالنصب على الشتم، قال صاحب الكشاف: وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل وقرئ بالنصب والتنوين والرفع.

المسألة الثانية: أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية، وكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ.

وذكروا في تفسير كونها حمالة الحطب وجوهًا: أحدها: أنها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق رسول الله، **فإن قيل:** إنها كانت من بيت العز فكيف يقال: إنها حمالة الحطب؟ **قلنا:** لعلها كانت مع كثرة مالها خسيسة، أو كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها

الشوك والحطب؛ لأجل أن تلقيه في طريق رسول الله. **وثانيها**: أنها كانت تمشي بالنميمة، يقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم النائرة، ويقال للمكثار: هو حاطب ليل. **وثالثها**: قول قتادة: أنها كانت تعير رسول الله بالفقر، فعيرت بأنها كانت تحتطب. **والرابع**: قول أبي مسلم وسعيد بن جبير: أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول؛ لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشي وعلى ظهره حمل، قال تعالى: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقال تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

المسألة الثالثة: (امْرَأَتُهُ) إن رفعته، ففيه وجهان: **أحدهما**: العطف على الضمير في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾، أي سيصلى هو وامرأته. و﴿فِي جِيدِهَا﴾ في موضع الحال. **والثاني**: الرفع على الابتداء، وفي جيدها الخبر.

المسألة الرابعة: عن أسماء لما نزلت ﴿تَبَّتْ﴾ جاءت أم جميل ولها ولولة وبيدها حجر، فدخلت المسجد، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا قَلَيْنَا
وَدِينَهُ أَبَيْنَا
وَحُكْمَهُ عَصَيْنَا

فقال أبو بكر: يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك! فقال عليه السلام: «إِنَّهَا لاَ تَرَانِي»(1) وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] وقالت لأبي بكر: قد ذُكر لي أن صاحبك هجاني! فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: (قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا).

وفي هذه الحكاية أبحاث:

الأول: كيف جاز في أم جميل أن لا ترى الرسول، وترى أبا بكر والمكان واحد؟ **الجواب**: أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل؛ لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزًا لا واجبًا، فإن خَلَق الله الإدراك رأى وإلا فلا، وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها**: لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاها ظهره، ثم إنها كانت لغاية غضبها لم تفتش، أو لأن الله ألقى في قلبها خوفًا، فصار ذلك صارفًا لها عن النظر. **وثانيها**: لعل الله تعالى ألقى شبه إنسان آخر على الرسول، كما فعل ذلك بعيسى. **وثالثها**: لعل الله تعالى حَوَّل شعاع بصرها عن ذلك السمت حتى أنها ما رأته.

---

(1) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٣) حديث رقم (٣٣٧٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأبو يعلى في (مسنده) (٥٣/ ٥٣) والحميدي في (مسنده) (١/ ١٥٣) حديث رقم (٣٢٣) جميعًا من طريق سفيان، حدثنا الوليد بن كثير عن بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر... به.

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثة لازم؛ لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشيء حاضرًا ولا نراه، وإذا جوزنا ذلك فلمَ لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات، ولا نراها ولا نسمعها؟!

البحث الثاني: أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك، وهذا من باب المعاريض؛ لأن القرآن لا يسمى هجوًا، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول، فدلت هذه الحكاية على جواز المعاريض.

بقي من مباحث هذه الآية سؤالان:

السؤال الأول: لمَ لم يكتف بقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ بل وصفها بأنها حمالة الحطب؟ **الجواب:** قيل: كان له امرأتان سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة.

السؤال الثاني: أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة، فكيف يليق ذكرها بكلام الله، ولا سيما امرأة العم؟ **الجواب:** لما لم يستبعد في امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين، فلأن لا يستبعد في امرأة كافرة زوجها رجل كافر أَوْلى.

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

قال الواحدي: المسد في كلام العرب الفتل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا، إذا أجاد فتله، ورجل ممسود، إذا كان مجدول الخلق، والمسد. ما مُسد، أي فُتل من أي شيء كان، فيقال لما فُتل من جلود الإبل، ومن الليف والخوص: مسد. ولما فُتل من الحديد أيضًا مسد.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر المفسرون وجوهًا: **أحدها:** في جيدها حبل مما مُسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، والمقصود بيان خساستها تشبيهًا لها بالحطابات إيذاء لها ولزوجها. **وثانيها:** أن يكون المعنى أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفي جيدها حبل من سلاسل النار.

فإن قيل: الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبدًا في النار؟ **قلنا:** كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبدًا في النار. ومنهم من قال: ذلك المسد يكون من الحديد، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ؛ لأن المسد هو المفتول، سواء كان من الحديد أو من غيره.

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

سورة «تبت»

وهي مكية بإجماع، وهي خمس آيات

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ في «الصحيحين» وغيرهما - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخلَصين[١]، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِد الصَّفَا، فهتَفَ: يا صَباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بَني فُلان، يا بني فلان، يا بني فُلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطَّلِب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تَبًّا لَكَ، أما جمعتنا إلَّا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقَدْ تب» كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة[٢].

زاد الحُميدي وغيره: فلما سمعت امرأتُه ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها فِهْر[٣] من حجارة، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرَها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إنَّ صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُه لَضربتُ بهذا الفِهْر فاه، والله إني لشاعرة:

مُذَمَّماً عَصَيْنَا ... وأمرَهُ أَبَيْنَا ... وَدِينَه قَلَيْنا

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٣/ ٨٢ : ظاهر هذه العبارة أن قوله: ورَهْطك منهم المخلصين كان قرآناً أُنزل، ثم نُسخت تلاوته.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٠٨)، وهو في مسند أحمد (٢٥٤٤). وسلف ١٧/ ٣٣٠ .

(٣) الفِهْر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر مطلقاً. النهاية (فهر).

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتْك؟ قال: «ما رأتني، لقد أخذ اللهُ بصرَها عني»[(١)]. وكانت قريش إنما تُسمِّي رسولَ الله ﷺ مُذَمَّماً؛ يسبُّونه، وكان يقول: «ألا تعجبون لِما صرفَ الله عني من أذى قريش، يَسُبّون ويهجون مُذمَّماً وأنا محمد».

وقيل: إن سببَ نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد: أن أبا لهب أتى النبيَّ ﷺ فقال: ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد؟ فقال: «كما يُعْطَى المسلمون» قال: ما لي عليهم فضل؟!. قال: «وأيُّ شيء تَبْغِي؟» قال: تَبًّا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[(٢)].

وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبيِّ ﷺ وفدٌ انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلمُ به منا. فيقول لهم أبو لهب: إنه كَذَّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يَلْقَوْنه. فأتى وفد، فَفَعَل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمعَ كلامه. فقال لهم أبو لهب: إنا لم نَزَلْ نُعالجه فتَبًّا له وتَعْسًا. فأُخبِر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى: «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ» السورة[(٣)].

وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرميَ النبي ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتبَّ» للمنع الذي وقع به.

ومعنى: «تَبَّتْ»: خَسِرَتْ؛ قاله قتادة. وقيل: خابت؛ قاله ابن عباس. وقيل: ضلَّت؛ قاله عطاء. وقيل: هلكت؛ قاله ابن جُبير. وقال يمان بن رِئاب: صَفِرتْ من كل خير.

حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء: أنه لما قُتل عثمان رحمه الله سمع

---

(١) مسند الحميدي (٣٢٣) بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨١ وما بعده منه، وينظر السيرة النبوية ١/ ٣٥٦ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤ .

الناسُ هاتفاً يقول:

لـقـد خَـلَّـوْكَ وانْـصَـرَفُـوا فـمـا آبُـوا ولا رَجَـعُـوا
ولـم يُـوفُـوا بـنَـذْرِهِـمُ فـيـا تَـبًّـا لِـمَـا صَـنَـعُـوا[١]

وخصَّ اليدين بالتَّباب؛ لأن العمل أكثرُ ما يكون بهما، أي: خَسِرتا وخَسِرَ هو. وقيل: المراد باليدين نَفْسه. وقد يُعبَّر عن النَّفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] أي: نفسك[٢]. وهذا مَهْيَع[٣] كلامِ العرب؛ تُعبِّر ببعض الشيء عن كلِّه؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويدُ الرزايا والمنايا، أي: أصابه كلُّ ذلك. قال الشاعر:

لَـمَّـا أَكَـبَّـتْ يَـدُ الـرَّزايـا عـلـيـهِ نـادَى ألا مُـجِـيـرُ[٤]

﴿وَتَبَّ﴾ قال الفرّاء[٥]: التبُّ الأول: دعاء، والثاني خبر؛ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبيّ: «وَقَدْ تَبَّ»[٦].

وأبو لهب اسمه عبد العُزَّى، وهو ابن عبد المطلب، عمُّ النبيّ ﷺ. وامرأتُه العوراء أمُّ جميل، أخت أبي سفيان بن حرب[٧]، وكلاهما كان شديدَ العداوة للنبيّ ﷺ.

قال طارق بن عبد الله المحاربيّ: إني بسوق ذي المَجاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، تُفْلِحُوا»، وإذا رجلٌ خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعُرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذابٌ، فلا تُصدقوه. فقلت: مَن هذا؟

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ .

(٣) طريق مهيع: واضح واسع بيِّن. اللسان (هيع).

(٤) لم نهتد إلى قائله.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ .

(٦) سلفت في أول السورة من قراءة الأعمش.

(٧) التعريف والإعلام ص ١٨٨ .

فقالوا: محمد، زعم أنه نبيٌّ. وهذا عمُّه أبو لهب يزعُم أنه كذاب[١].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سَحَركم محمد، إن أحدَنا ليأكل الجَذَعة، ويشرب العُسَّ من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فَخِذ شاة، وأَرواكم من عُسِّ لبن[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ قيل: سُمِّي باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظنَّ قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كَنَاه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعانٍ أربعة:

الأول: أنه كان اسمه عبدَ العُزَّى، والعُزَّى: صنم، ولم يُضف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

الثاني: أنه كان بكنيته أشهرَ منه باسمه؛ فصرَّح بها.

الثالث: أن الاسم أشرفُ من الكنية، فحطَّه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحدٍ منهم. ويدلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسَمَّى ولَا يُكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكُنية إليه، لتقدُّسه عنها.

الرابع: أن الله تعالى أراد أن يُحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها؛ تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطِّيَرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كُنيته. فكان أهله يُسمُّونه أبا لهب، لِتلهُّب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يُضيفوه إلى لَهَب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار، ثم حقَّق ذلك بأن يجعلها مَقَرَّه[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٢ ، وله شاهد من حديث ربيعة بن عِبَاد الدِّيلي عند أحمد (١٦٠٢٣).

(٢) أخرج نحوه ابن سعد في طبقاته ١/ ١٨٧ من حديث علي ﷺ. والعُسُّ: القدح الكبير. القاموس (عسس).

(٣) الكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٢ .

وقرأ مجاهد وحُميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن: «أَبِي لَهْبٍ» بإسكان الهاء[١]. ولم يختلفوا في «ذَاتَ لَهَبٍ» أنه مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي.

الثالثة: قال ابن عباس: لمَّا خلق اللهُ عزَّ وجلَّ القلم قال له: اكتُبْ ما هو كائن، وكان فيما كتب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[٢]. وقال منصور: سُئِلَ الحسنُ عن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ هل كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألَّا يصلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألَّا يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه.

ويُؤيِّده قولُ موسى لآدم: أنت الذي خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأَسْجَدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ الناس، وأخْرَجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقَ الله السماواتِ والأرضَ. قال النبيّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ مُوسَى»، وقد تقدّم هذا[٣].

وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى: «بِكَمْ وجدتَ اللهَ كَتَبَ التوراةَ قبلَ أنْ يَخْلُقَني»؟ قال: «بألفي عام» قال: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: «نعم» قال: «أفتلومني على أمر كتب اللهُ عليَّ أن أفعله من قبل أن أُخلق بألفي عام». فحَجَّ آدمُ موسى[٤]. وفي حديث طاووس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة: «بأربعين عاماً»[٥].

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٧٠٠، والتيسير ص ٢٢٥، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)، بنحوه، وسلف ١٤/ ١٥٣، وينظر ما بعده.

(٤) لم نقف على قوله: «بألفي عام» من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد أخرجه ابن النجار في تاريخه - كما في الدر المنثور ١/ ٥٥ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما - والذي في صحيح مسلم (٢٦٥٢): «أربعين سنة» كما سيأتي بعده.

(٥) حديث طاووس عند أحمد (٧٣٨٧)، والبخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢): (١٣)، وحديث ابن هرمز والأعرج عند مسلم (٢٦٥٢): (١٥). وسلف ٥/ ٣٧٥.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

أي: ما دَفعَ عنه عذابَ الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد[١]؛ ووَلد الرجل مِن كَسْبه. وقرأ الأعمش: «وَمَا اكْتَسَبَ» ورواه عن ابن مسعود[٢].

وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس، فاقتتلوا، فقام لِيحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ابن عباس، وقال: أَخرجوا عني الكَسْبَ الخبيثَ[٣]؛ يعني ولدَه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِن كَسْبه، وإنَّ ولدَه من كَسْبه». خرّجه أبو داود[٤].

وقال ابن عباس: لمَّا أنذر رسولُ الله ﷺ عشيرتَه بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقًّا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[٥].

و«ما» في قوله: «مَا أَغْنَى»: يجوز أن تكون نفيًا، ويجوز أن تكون استفهامًا؛ أي: أيُّ شيء أغنى؟ و«ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، أي: ما أغنى عنه مالُه وكَسْبه[٦].

قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾

أي: ذات اشتعال وتلهُّب. وقد مضَى في سورة «المرسلات» القولُ فيه[٧].

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٧٩٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١٧.

(٤) في سننه (٣٥٢٨)، وأخرجه أحمد (٢٤٠٣٢).

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٥١.

(٧) ٢١/ ٥٠٨.

وقراءة العامة: «سَيَصْلَى» بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم[١]، ورُويت عن الحسن. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو سَمَّال العَدَويّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «سَيُصَلَّى» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام[٢]؛ ومعناها: سَيُصَلِّيه الله؛ من قوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]. والثانية من الإصلاء؛ أي: يُصليه الله؛ من قوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠]. والأُولَى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أم جميل. وقال ابن العربيّ[٣]: العوراء أم قبيح، وكانت عَوْراء. ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس[٤]؛ تقول العرب: فلان يَحْطِب على فلان: إذا وَرَّشَ عليه[٥]. قال الشاعر:

إن بـنـي الأَدْرَمِ حَـمَّـالـو الـحَـطَـبْ هـم الـوُشـاةُ في الـرِّضَـا وفي الـغَـضَـبْ
عَـلـيـهِـمُ الـلَّـعـنَـةُ تَـتْـرَى والـحَـرَبْ[٦]

وقال آخر:

مِنَ البِيض لم تُصْطَدْ على ظَهْرِ لَأْمةٍ ولم تَمْشِ بين الحيّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[٧]

---

(١) وهي غير المشهورة عن ابن كثير وعاصم.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨٢ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٢٠ عن عكرمة ومجاهد وقتادة.

(٥) التوريش: التحريش، وهو الإغراء بين القوم. وتهييج بعضهم على بعض. ينظر اللسان (ورش) و(حرش).

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ ، والكشاف ٤/ ٢٩٧ .

يعني: لم تمشِ بالنمائم، وجعل الحطب رَطْباً لِيدلَّ على التدخين، الذي هو زيادة في الشرّ. وقال أكثم بن صَيْفِي لِبنيه: إيَّاكُمْ والنَّميمةَ، فإنها نارٌ مُحْرِقَة، وإنّ النمَّام ليَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَلُ الساحر في شهر[1]. أخذه بعضُ الشعراء فقال:

إنَّ النميمةَ نارٌ وَيْك مُحْرِقَةٌ فَفِرَّ عنها وجانبْ مَنْ تَعاطاها[2]

ولذلك قيل: نارُ الحقد لا تخبو. وثَبَتَ عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلم: «لا يَدْخُلُ الجنةَ نَمَّام»[3]. وقال: «ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيهاً»[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «مِنْ شَرِّ الناسِ ذُو الوَجْهَين: الذي يَأتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ، وهؤلاءِ بوَجْهٍ»[5].

وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحطٌ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاثَ مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا. فقال موسى: «إلهي عبادُكَ» فأوحى الله إليه: «إني لا أَستجيب لك ولا لمن معك، لأن فيهم رجلاً نمَّاماً، قد أَصَرَّ على النميمة». فقال موسى: «يا رَبِّ مَن هو حتى نُخرجه من بيننا»؟ فقال: «يا موسى، أَنهاكَ عن النميمةِ وأكون نمَّاماً» قال: فتابوا بأجمعهم، فَسُقوا[6].

والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض: ثلاثٌ تهدُّ العملَ الصالح، ويفطرن الصائم، وَينقُضْن الوضوء: الغِيبة، والنميمة، والكذب.

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبيّ قولَ النبيِّ ﷺ: «لا يسكنُ مكةَ[7] سافكُ دمٍ، ولا مشَّاء بنميمة، ولا تاجرٌ يُرْبي» فقلت: يا أبا عمرو، قَرَن النمَّام بالقاتل وآكلِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٠، والبيهقي في الشعب (١١١١٤) من قول يحيى بن أبي كثير بلفظ: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٢٥)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، وسلف ١٨/ ٣٣٢.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر الحديث التالي.

(٥) أخرجه أحمد (٩٩٩٧)، والبخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) ص ٢٠١١ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) في (د) و(م): لا يدخل الجنة.

الربا؟ فقال: وهل تُسفك الدماء، وتُنتَهَبُ الأموال، وتهيج الأمور العِظام، إلا من أجل النميمة[(١)].

وقال قتادة وغيره: كانت تُعَيِّر رسولَ الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كَثْرة مالها تحمل الحطب على ظهرها؛ لِشدَّة بُخلها، فُعيِّرَتْ بالبخل[(٢)]. وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ وقاله ابن عباس. قال الربيع: فكان النبيِّ ﷺ يَطَؤُه كما يطأُ الحرير.

وقال مُرَّة الهَمْدانيّ: كانت أمُّ جميل تأتي كل يوم بإبالة من الحَسَك[(٣)]، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذاتَ يوم حُزْمةً أَعْيَتْ، فقعدت على حجر لِتستريح، فجذبها المَلَكُ من خلفها فأهلكها. وقال سعيد بن جُبير: حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[(٤)].

وقيل: المعنى: حمالة الحطب في النار؛ وفيه بُعْد.

وقراءة العامة: «حَمَّالَةُ» بالرفع، على أن يكون خبراً «وامرأته» مبتدأ. ويكون «في جِيدِها حبلٌ من مَسَد» جملةً في موضع الحال من المضمر في «حَمالة». أو خبراً ثانياً. أو يكون «حمالة الحطب» نعتاً لامرأته. والخبر «في جيدِها حبْلٌ مِنْ مَسَد»، فيوقف على هذا على «ذات لهبٍ». ويجوز أن يكون «وامرأتُهُ» معطوفة على المضمر في «سيصلى» فلا يُوقف على ذات لهب ويُوقف على «وامرأته» وتكون «حَمَّالة الحَطَبِ» خبر ابتداء محذوف[(٥)].

---

(١) أخرج المرفوع منه هناد في الزهد (١٢١٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٢٢٤) عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً، وأخرج قصة عطاء والشعبي هناد (١٢١١).

(٢) النكت والعيون ٦/٣٦٧ بنحوه.

(٣) الإبالة: الحزمة. اللسان (أبل)، والحسك: جمع حسكة، وهي شوكة صلبة. النهاية (حسك).

(٤) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/٥٤٣ - ٥٤٤ بنحوها ما عدا قول الربيع، وقول مرة الهمداني نسبه للضحاك.

(٥) الكلام بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٩٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/٣٠٦ .

وقرأ عاصم: «حمالةَ الحَطَب» بالنصب على الذم[١]، كأنها اشتَهَرَتْ بذلك، فجاءت الصِّفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾. وقرأ أبو قِلابة: ﴿حامِلة الحَطَب﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عُنُقِها. وقال امرؤُ القيس:

وجِيدٍ كجيدِ الرِّيمِ ليس بفاحشٍ ... إذا هي نَصَّتهُ ولا بِمُعَطَّلِ[٣]

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي: من لِيف؛ قال النابغة:

مُقْذُوفَةٍ بدَخِيس النَّحْض بازِلُها ... له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ[٤]

وقال آخر:

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوَّذْ مِنّي ... إنْ كُنْتُ لَدْناً لَيِّناً فإنِّي
ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ[٥]

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيانِقِ ... ليس بِأَنْيَابٍ ولَا حَقَائِقِ[٦]

---

(١) السبعة ص٧٠٠، والتيسير ص٢٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٦. وسلف صدره ٣/ ١٤، والبيت من معلقته المشهورة، وقال شارح الديوان: قوله: نصَّته: مدَّته وأبرزته. والمعطَّل: الذي لا حلي عليه.

(٤) ديوان النابغة ص ٣١، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ١٦١: المقذوفة: المَرْميّة، يصف شدَّتها واكتنازها، أي: هي مرميَّة باللحم، والدخيس: الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرته واكتنازه، والنحض: اللحم، والبازل: الكبير، والصريف: الصياح، والقَعْو: ما يَضُمُّ البكرة إذا كان خشباً.

(٥) الرجز في إصلاح النطق ص ٥٩، والصحاح (مسد). المقسئن: الكهل الشديد الذي لم تَنْقُص السنُّ منه شيئاً. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص١٥٥ و١٥٧.

(٦) الرجز في الصحاح (مسد)، واللسان (مسد). وفيه: ومسد فُتل من أيانق: جمع أَيْنُق، وأَيْنُق جمع ناقة، والأنياب، جمع ناب، وهي الهرمة، والحقائق جمع حُقَّة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة. والرجز أنشده الأصمعي لعمارة بن طارق، وقال أبو عُبيد: هو لعقبة الهُجيمي، كما في اللسان.

وجمع الجيد أجياد، والمسد أمساد. أبو عُبيدة: هو حَبْل يكون من ضروب[١]. قال الحسن: هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تُسمَّى المَسَد، وكانت تُفْتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تُعَيِّرُ النبيَّ ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها اللهُ جلّ وعزَّ به فأهلكها، وهو في الآخرة حَبْل من نار[٢].

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: سِلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعاً؛ وقاله مجاهد وعروة بن الزبير: تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائرُها على عُنقها. وقال قتادة: «حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: قِلادة من وَدَع[٣]. الوَدَع: خرز بيضٌ تخرج من البحر، تتفاوت في الصِّغَرِ والكِبَر. قال الشاعر:

والحِلم حِلْمُ صَبِيٍّ يَمْرِث الوَدَعَهْ[٤]

والجمع: وَدَعات: الحسن: إنما كان خَرَزاً في عُنقها. سعيد بن المسيَّب: كانت لها قِلادة فاخرةٌ من جوهر، فقالت: واللَّاتِ والعُزَّى لأُنفِقنَّها في عداوة محمد، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يومَ القيامة. وقيل: إن ذلك إشارةٌ إلى الخِذْلان، يعني أنها مربوطةٌ عن الإيمان بما سبق لها من الشَّقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد[٥].

والمَسْد: الفَتْل. يقال: مَسَد حَبْلَه يَمْسُده مَسْدًا، أي: أجاد فَتْلَه. قال:

يَمْسُدُ أَعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ

يقول: إن البقل يُقوِّي ظهرَ هذا الحمار ويشده[٦].

---

(١) في (م): صوف، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٤٤ بنحوه، وقول الحسن نسبه لابن زيد.

(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٧٢٣ - ٧٢٥، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٤) الصحاح (ودع).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٦) الصحاح (مسد)، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ١٨٦.

ودابة مَمْسودة الخَلْق: إذا كانت شديدةَ الأَسْر. قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ صُهْبٍ عِتَاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
لَسْنَ بأنيابٍ ولَا حَقَائِقِ[١]

ويروى:

ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِق[٢]

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مُكْفأ[٣]. يقول: بل مُخُّهُنَّ مُكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد: ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ. كما لا يجوز أن تقول: مررتُ برجل أبوه قائمٍ؛ بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب؛ كأنه قال: ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ، ثم ردَّ الزاهق على الضِّعاف.

ورجل ممسود: أي: مجدول الخَلْق. وجارية حسنة المَسْد والعَصْبِ والجَدْلِ والأَرْم؛ وهي ممسودةٌ ومعصوبة ومجدولة ومأرومة. والمِساد على فِعال: لغة في المِسَاب، وهي نِحْيُ السَّمن، وسِقاءُ العسل. قال جميعه الجوهريّ[٤].

وقد اعْتُرِض فقيل: إن كان ذلك حبلَها الذي تحتطب به، فكيفَ يبقى في النار؟ وأُجيب عنه بأن الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على تجديده كلما احترق.

والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروطٌ ببقائهما على الكفر إلى الموافاة، فلما ماتا على الكفر صدق الإخبارُ عنهما. ففيه معجزةٌ للنبي ﷺ. فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة[٥] بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن

(١) سلف الرجز قريباً.

(٢) ذكرها الجوهري في الصحاح (زهق)، وما بعده منه.

(٣) الإكفاء في الشعر: هو اختلاف حرف الرَّوي في قصيدة واحدة، وأكثر ما يقع ذلك في الحروف المتقاربة المخارج. الكافي في العروض والقوافي للتبريزي ص ١٦١ .

(٤) في الصحاح (مسد).

(٥) العدسة: هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون. النهاية (عدس).

شَجَّتْه أمُّ الفضل[1]. وذلك أنه لما قَدِمَ الحَيْسُمَانُ مكةَ يُخبر خبرَ بدر، قال له أبو لهب: أَخْبرني خبرَ الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لَقِينا القومَ، فمنحناهم أكتافَنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس. لقِينا رجالاً بِيضًا على خيل بُلْق، لا والله ما تُبْقي منا؛ يقول: ما تُبْقي شيئاً. قال أبو رافع: وكنتُ غلاماً للعباس أنحِت الأقداح في صُفَّةِ زمزم، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، فرفعتُ طُنُبَ الحُجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضَرْبةً مُنْكرة، وثَاوَرْتُهُ، وكنت رجلاً ضعيفاً، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبَرَك على صدري يَضْربني. وتقدَّمت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة، فتأخذه وتقول: استضعَفتَه أن غاب عنه سيده؟ وتضربه بالعمود على رأسه فتَفلِقُه شَجَّة مُنْكَرة. فقام يجرُّ رجليه ذليلاً، ورماه الله بالعَدَسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غَسَّلُوه بالماء، قَذْفاً من بعيد، مخافَة عَدْوَى العَدَسة. وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة. فأسندوه إلى جدار، ثم رضَموا عليه الحجارة[2].

---

(١) هي امرأة العباس رضي الله عنهما، واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية، وهي لبابة الكبرى. الإصابة ١٣/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩١٢)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢ ، وعندهما أن الذي جاء بخبر المشركين أبو سفيان بن الحارث.

سورة ﴿تَبَّتْ﴾

مكيَّةٌ، وآيُها خمسٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿تَبَّتْ﴾: هَلَكَتْ، أو خَسِرَت، والتَّبابُ: خسرانٌ يؤدِّي إلى الهلاكِ.

﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾: نفسُه؛ كقوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقيل: إنَّما خُصَّتَا لأنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا نزلَ عليه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ جمعَ أقاربَه فأنذرَهُم، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك ألهذا دَعَوْتَنا! وأخذَ حجرًا ليرميَهُ به، فنزلَتْ[1].

وقيل: المرادُ بهما: دُنْيَاهُ وأُخرَاهُ، وإنَّما كنَاه والتَّكنِيَةُ تَكرِمَةٌ؛ لاشتِهارِه بكُنيتِه، ولأنَّ اسمَهُ عبدُ العُزَّى فاستكرَهَ ذكرَهُ، ولأنَّه لَمَّا كان مِن أَصحابِ النَّارِ كانت الكُنيَةُ أوفقَ بحالِه، وليُجانسَ قولَه: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

وقُرِئَ: (أبو لهبٍ)[2] كما قيلَ: عليُّ بن أبو طالبٍ.

وقرأَ ابن كثيرٍ بإسكانِ هاءِ ﴿لَهْب﴾[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨)،)، عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) حكاها أبو معاذ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٧٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

﴿وَتَبَّ﴾ إخبارٌ بعدَ دعاءٍ(١)، والتَّعبيرُ بالماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه، كقولِه:

جَـزَانِـي جَـزَاهُ اللهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ جَزَاءَ الـكِلَابِ العَاوِيَـاتِ وَقَـدْ فَعَلْ(٢)

ويَدلُّ عليه أنه قُرِئَ: (وقد تبَّ)(٣)، أو الأوَّلُ إخبارٌ عمَّا كسبَتْ يداهُ والثَّاني عن نفسِهِ.

(٢) ـ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ نفيٌ لإغناءِ المالِ عنه حين نزلَ به التَّبابُ، أو استفهامُ إنكارٍ له، ومحلُّها النَّصبُ.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾: وكسبُهُ، أو: مَكْسوبُه بما له مِن النَّتائجِ والأرباحِ والوجاهةِ والأتباعِ، أو: عمَلُه الذي ظنَّ أنَّه ينفَعُه، أو: ولدُه عتبَةُ وقد افترسَهُ أسدٌ في طريقِ الشَّامِ وقد أحدقَ به العيرُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بعد إخبار». والذي اختاره الجمهور: إخبار بعد دعاء.

(٢) كذا ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٧١١) بهذا اللفظ، وهو ـ والله أعلم ـ مصطنع من بيتين: فصدره من بيت لعبد العزَّى بن امرئ القيس، وهو قوله:

جزانـي جـزاهُ اللهُ شـرَّ جزائـه جزاءَ سِـنِمَّارٍ ومـا كان ذا ذنبِ

انظر: «الأغاني» (٢/ ١٣٨)، و«معجم ما استعجم» للبكري (٢/ ٥١٦).

وعجزه من بيت نسب للنابغة الذبياني، ولأبي الأسود الدؤلي، ولعبد الله بن همام. وهو قوله:

جزى ربُّـه عنِّي عـديَّ بن حاتم جزاءَ الكلاب العاوياتِ وقد فَعَل

ويروى:

جزى اللهُ عبساً عبسَ آلِ بَغيض جزاءَ الكلاب العاوياتِ وقد فَعَل

انظر: «ديوان النابغة» (ص: ١٩١)، و«ملحقات ديوان أبي الأسود» (ص: ١٢٤)، و«الخصائص» لابن جني (١/ ٢٩٤)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١١٨)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٧٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٨) و«الكشاف» (٩/ ٧١٢) عن ابن عباس.

وماتَ أبو لهبٍ بالعدسَةِ[١] بعدَ وقعَةِ بدرٍ بأيَّامٍ مَعْدودةٍ، وتُرِكَ ثلاثًا حتى أَنْتَنَ ثمَّ استأْجَرُوا بعضَ السُّودانِ حتَّى دفَنُوهُ، فهو إخبارٌ عن الغيبِ طابقَهُ وُقوعُه.

(٣) ـ ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾: اشتعالٍ، يـريدُ: نارَ جهنَّمَ، وليس فيهِ ما يدلُّ على أنَّه لا يؤمِنُ؛ لجَوازِ أن يكونَ صُلِيُّها للفسقِ.

وقُرِئَ: (سيُصْلى) بالضمِّ مُخففًا ومُشدَّدًا[٢].

(٤) ـ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ عطفٌ على المُستكنِّ في ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾، أو مُبتدأٌ، وهـي أمُّ جميلٍ أختُ أبي سُفيانَ.

﴿حمالةُ الحَطَبِ﴾ يعني: حطـبَ جهنَّمَ؛ فإنَّها كانَتْ تَحمِلُ الأوزارَ بمُعاداةِ الرَّسولِ، وتَحمِلُ زوجَها على إيذائِه.

أو: النَّميمةَ؛ فإنَّها توقِدُ نارَ الخُصومَةِ.

أو: حزمةَ الشَّوكِ والحسكِ؛ كانت تحمِلُها فتنثرُهَا بالليلِ في طريقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وقرأَ عاصِمٌ بالنَّصبِ[٣] على الشَّتمِ.

(٥) ـ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾؛ أي: ممَّا مُسِدَ؛ أي: فُتِلَ، ومنه: رَجُلٌ مَمسُودُ الخَلْقِ؛ أي: مَجْدُولُه، وهو تَرشِيحٌ للمَجازِ، أو تَصويرٌ لها بصورةِ الحَطَّابةِ التي تحمِلُ الحزمةَ وتربطُها في جيدِها تحقيرًا لشأنِها، أو بيانًا لحالِها في نارِ جهنَّمَ، حيثُ يكونُ على ظهرِهَا حزمةٌ مِن حطبِ جهنَّمَ كالزَّقُّومِ والضَّريعِ، وفي جيدِها سِلسلَةٌ مِن النَّارِ.

---

(١) العَدَسة: بَثْرة تخرج، وَهِي جِنْس من الطَّاعُون، وقلَّما يُسْلَم منها. انظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٤٢).

(٢) قرأ بضمِّها مخففاً ابن أبي عبلة والحسن وابن أبي إسحاق، وبضمِّها مُشددًا عبد الله. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٢).

(٣) والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٧٠٠) و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

والظَّرفُ في مَوضعِ الحالِ أو الخبرِ، و﴿حَبْلٌ﴾ مُرتَفِعٌ به.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قَرَأَ سُورَةَ ﴿تَبَّتْ﴾ رَجَوْتُ أن لا يُجمعَ بينَهُ وبينَ أبي لهبٍ في دارٍ واحدَةٍ»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٥٦)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(١١١) سُورَةُ المَسَد مكيّة وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

روى البخاري، عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش، فقال: « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا: نعم، قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك، فأنزل الله: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخرها[1]. وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه (عبد العزى بن عبد المطلب) وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والتنقص له ولدينه، روى الإمام أحمد عن أبي الزناد قال: أخبرني رجل يقال له (ربيعة بن عباد) من بني الديل وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إلّه إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب »[2]. وقال محمد بن إسحاق، عن ربيعة بن عباد قال: إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: « يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به »، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا ؟ قال

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أحمد.

عمه أبو لهب[1]. فقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه، ﴿وتبّ﴾ أي وقد تبّ تحقق خسارته وهلاكه.

وقوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال ابن عباس: ﴿وما كسب﴾ يعني ولده، يروى أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾. وقوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد، ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي (أم جميل) واسمها (أروى بنت حرب بن أمية) وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، هي مهيأة لذلك مستعدة له، ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ قال مجاهد: من مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة ﴿حمالة الحطب﴾ كانت تمشي بالنميمة[2]. وقال ابن عباس والضحّاك: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار، والمسد الليف، **وقيل**: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، قال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص، وقال مجاهد: ﴿حبل من مسد﴾ أي طوق من حديد، أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لمّا نزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمّماً أبيْنا – ودينه قليْنا – وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلتْ وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم[3]. وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم ترمى إلى أسفلها، ثم لا تزال كذلك دائماً.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوّة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب • وامرأته حمالة الحطب • في جيدها حبل من مسد﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوّة الظاهرة.

[آخر تفسير سورة المسد . ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني. (٢) واختاره ابن جرير. (٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

تفسير سورة تبت

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ .

قال البخارى : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ،عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إنْ حَدثتكم أن العدوّ مُصبحكم أو مُمْسيكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، إلى آخرها [(١)] .

وفى رواية : فقام ينفض يديه ،وهو يقول : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [(٢)].

الأول دعاء عليه ، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله [(٣)] ﷺ واسمه : عبد العُزّى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عُتبة . وإنما سمى « أبا لهب » لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبى العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه قال : أخبرنى رجل ــ يقال له : ربيعة بن عباد ، من بنى الديل ، وكان جاهلياً فأسلم ــ قال : رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ،قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحولُ ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب[(٤)].

ثم رواه عن سُرَيج ، عن ابن أبى الزناد ، عن أبيه ، فذكره ــ قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزفر القربة . تفرد به أحمد [(٥)].

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى حُسَين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ــ ووراءه

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٢) .
(٢) صحيح البخارى برقم (١٣٩٤، ٤٨٠١، ٣٥٢٥) .
(٣) فى م : « أعمام النبى » .
(٤) المسند (٤/ ٣٤١) .
(٥) المسند (٤/ ٣٤١) .

رجل أحول وضيء ، ذو جُمَّة ـ يَقفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به » . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أُقَيْش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب (١) .

رواه أحمد أيضا ، والطبراني بهذا اللفظ (٢) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي : وقد تَبَّ تحققُ خسارته وهلاكه .

وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني: ولده. ورُوي عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين ، مثله .

وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إذا كان ما يقول ابن أخي حقا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي : أم جميل ،واسمها أروى بنتُ حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَوناً عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه ، وهي مُهَيَّأة لذلك مستعدة له .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ : قال مجاهد ، وعروة : من مَسد النار .

وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، والسدي : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾: كانت تمشي بالنميمة ، [واختاره ابن جرير] (٣) .

وقال العوفي عن ابن عباس ، وعطية الجدلي ، والضحاك ، وابن زيد : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب ، فعيرت بذلك .

كذا حكاه ، ولم يعزه إلى أحد . والصحيح الأول ، والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، يعني : فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٢٣) .

(٢) المسند (٣/ ٤٩٢) والمعجم الكبير (٥/ ٦٣) .

(٣) زيادة من م .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وكيع ، عن سليم [١] مولى الشعبى ، عن الشعبى قال : المسد : الليف .

وقال عروة بن الزبير : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً .

وعن الثورى : هى قلادة من نار ، طولها سبعون ذراعاً .

وقال الجوهرى : المَسَدُ : الليف . والمَسَد أيضا : حبل من ليف أو خوص ، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها ، ومسدت الحبل أمسدُهُ مَسْداً : إذا أجْدتُ فَتله [٢] .

وقال مجاهد : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكْرة مَسَداً ؟

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى وأبو زُرْعة قالا : حدثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيدى ، حدثنا سُفيان ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن ابن تدرس ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مُذَمَّماً أبَيْنَا ودينَه قَلَينا وأَمْرَه عَصَينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى ». وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء:٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرتُ أن صاحبك هجانى ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . قال : وقال الوليد فى حديثه أو غيره : فعثَرَت أم جميل فى مِرْطها وهى تطوف بالبيت ، فقالت : تَعس مُذَمَّم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إنى لحصانٌ فما أكلَّم ، وثَقَافُ فما أعلَّم ، وكلنا من بنى العم ،وقريش بعد أعلم [٣] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار :حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ،جاءت امرأة أبى لهب ورسول الله ﷺ جالسٍ ، ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تَنَحَّيت لا تُؤذيك بشىء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيُحال بينى وبينها » . فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر فقالت : يا أبا بكر، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ، ورب هذه البنية ما نَطَق بالشعر ولا يتفوه به .فقالت : إنك لمصدق ، فلما ولت قال أبو بكر ، رضى الله عنه : ما رأتك ؟ قال : « لا ، ما زال ملك يسترنى حتى ولت » .

---

(١) فى أ : « سليمان » .

(٢) الصحاح للجوهرى ، مادة « مسد » (١/ ٥٣٥) .

(٣) مسند الحميدى (١/ ١٥٣) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١/ ٥٣) من طريق سفيان به ، وسبق تخريجه عند تفسير الآية : ٤٥ من سورة الإسراء .

ثم قال البزار : لا نعلمه يُروَى بأحسنَ من هذا الإسناد ، عن أبى بكر ، رضى الله عنه [١] .

وقد قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار [جهنم] [٢] تُرفَع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائما .

قال أبو الخطاب بن دَحْية فى كتابه التنوير [٣]ـ وقد روَى ذلك ـ : وعُبر بالمسد عن حبل الدلو، كما قال أبو حنيفة الدينورى فى كتاب « النبات » : كلّ مَسَد : رشاء ، وأنشد فى ذلك :

وبَكْرَةً ومِحْوَراً صِرَاراً وَمَسَداً مِنْ أبق مُغَاراً

قال : والأبقُ : القنَّبُ .

وقال الآخر :

يا مَسَدَ الخُوص تَعوّذْ منى إنْ تَكُ لَدْناً لَيّنا فإنى

ما شئتَ مِنْ أشْمَطَ مُقْسَئِنّ

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

[آخر تفسير « تبت » ولله الحمد والمنة] [٤]

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٩٤) « كشف الأستار » ، ورواه أبو يعلى فى مسنده (١/ ٣٣) من طريق عبد السلام بن حرب به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤٤) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) التنوير فى مولد السراج المنير لابن دحية الكلبى ، عمله لملك إربل . انظر : وفيات الأعيان (٣/ ١٢٢) .

(٤) زيادة من م ، أ .

سورة تبّتْ

مكّيّة، وهي خمس آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾

﴿تَبَّتْ﴾ أي: هلكت ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ هو عبد العُزّى بن عبد المطّلب. وإيثارُ التّباب على الهلاك وإسنادُه إلى يديه لِما رُوي أنّه لمّا نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢١٤] رقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصّفا وجمع أقاربه فأنذرهم، فقال أبو لهب: «تبًّا لك، ألهذا دعوتنا؟» وأخذ حجرًا ليرميه عليه السلام به.[١] ﴿وَتَبَّ﴾ أي: وهلك كلّه، وقيل: المراد بالأوّل هلاك جملته، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ٢/١٩٥]. ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقول مَن قال:

جزاني جزاه الله شرَّ جزائهِ   جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فعلْ[٢]

ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "وَقَدْ تَبَّ".[٣] / وقيل: الأوّل إخبار عن هلاك عمله؛ [٣٢٥و]
لأنّ الأعمال تُزاول غالبًا بالأيدي، والثاني إخبار عن هلاك نفسه. وقيل: كلاهما دعاء عليه بالهلاك. وقيل: الأوّل دعاء، والثاني إخبار.[٤] وذِكر كُنيته للتعريض بكونه جهنّميًا ولاشتهاره بها، ولكراهة ذِكر اسمه القبيح. وقُرئ: "أَبُو لَهَبٍ"[٥] كما قيل: "عليّ بن أبو طالب"، وقُرئ: "أَبِي لَهْبٍ"[٦] بسكون "الهاء".

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/١١١ (٤٧٧٠)؛ وصحيح مسلم، ١/١٩٣ (٣٥٥).

٢ بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٨٢. وله روايات أخرى، انظر لها: خزانة الأدب للبغدادي، ١/٢٨٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢٦.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٨٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٦ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٤.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝﴾

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لم يُغن عنه حين حلّ به التباب -على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، أو أيّ شيء أغنى عنه على أنّها استفهاميّة في معنى الإنكار منصوبة بما بعدها- أصلُ ماله وما كَسَبه به مِن الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع، أو مالُه الموروث مِن أبيه والذي كَسَبه بنفسه أو عملِه الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو عملِه الذي ظنّ أنّه منه على شيء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما كَسَب ولده».[١] ورُوي أنّه كان يقول: «إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي، فأستخلص منه».[٢] وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمنّاه، فافترس وَلَده عتبةَ أسدٌ في طريق الشام بين العِير المكتنفة به، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم دعا عليه وقال: «اللّٰهمّ سلّط عليه كلبًا مِن كلابك»،[٣] وهَلَك نفسُه بالعدسة[٤] بعد وقعة بدر لسبع ليالٍ، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريش تتّقيها كالطاعون، فبقي ثلاثًا حتّى أنتَنَ، ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن.

﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ بفتح "الياء"، وقُرئ بضمّها وفتح اللام بالتخفيف[٥] والتشديد،[٦] و"السين" لتأكيد الوعيد وتشديده، أي: سيدخل لا محالةَ بعد هذا العذاب العاجل

---

[١] مروي عن ابن عبّاس ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/٧١٧-٧١٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٩.

[٢] الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٥٨٢.

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٨ (الكهف، ١٨/١٨)؛ تفسير ابن كثير، ٧/٤٤٦ (النجم، ٥٣/٧).

[٤] العدسة: بَثْرة صغيرة شبيهة بالعَدَسة تخرج بالبدن مفرّقة كالطاعون، تقتل غالبًا. تاج العروس للزّبيدي، «عدس».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والحسن وابن أبي إسحاق وابن نبهان وابن مجالد، والضحّاك عن عاصم، والجُعفي، والبُرجمي عن أبي بكر عنه، والأزرق عن حمزة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٩.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود، والأزرق عن أبي بكر، والحسن عن طريق عبّاد، وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٧٠.

في الآخرة. ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: نارًا عظيمةً ذات اشتعال وتوقُّد، وهي نار جهنّم، وليس هذا نصًّا في أنّه لا يؤمن أبدًا حتّى يلزَم مِن تكليفه الإيمانُ بالقرآن أن يكون مكلَّفًا[1] بأن يؤمن بأنّه لا يؤمن أبدًا، / فيكونَ مأمورًا بالجمع بين [٣٢٥ظ] النقيضين كما هو المشهور، فإنّ صليّ النار غيرُ مختصّ بالكفّار، فيجوز أن يفهم أبو لهب مِن هذا أنّ دخوله النار لفِسقه ومعاصيه، لا لكفره، فلا اضطرار إلى الجواب المشهور مِن أنّ ما كُلِّفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إجمالًا، لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن، حتّى يلزَم أن يُكلَّف الإيمانَ بعدم إيمانه المستمرّ.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستكنّ في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ لمكان الفصل بالمفعول، وهي أمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل حُزمةً مِن الشَّوك والحسَك والسَّعدان فتنثرها بالليل في طريق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير.[2] وقيل: كانت تمشي بالنميمة،[3] ويقال لمَن يمشي بالنمائم، ويُفسِد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي: يوقِد بينهم النائرةَ.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ بالنصب على الشتم والذمّ. وقيل: على الحاليّة بناءً على أنّ الإضافة غيرُ حقيقيّة؛ إذ المراد أنّها تحمل يوم القيامة حزمةً مِن حطب جهنّم كالزقّوم والضريع. وعن قتادةَ أنّها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدّة بُخلها، فعُيِّرت بالبخل،[4] فالنصب حينئذ على الشتم حتمًا. وقُرئ بالرفع[5] على أنّه خبر، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ مبتدأ. وقُرئ: "حَمَّالَةٌ لِلحَطَبِ" بالتنوين نصبًا[6] ورفعًا،[7] وقُرئ: "مُرَيَّتُهُ"[8] بالتصغير للتحقير.

---

١ وفي هامش م: على تضمين التكليف معنى الأمر. «منه».

٢ مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس والضحّاك وابن زيد في جامع البيان للطبري، ٧١٩/٢٤-٧٢٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١٩/٤.

٣ مرويّ عن عكرمة ومجاهد وقتادة وسفيان في جامع البيان للطبري، ٧٢٠/٢٤-٧٢١.

٤ في اللباب لابن عادل، ٥٥٥/٢٠.

٥ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٦١٩/٤.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٦١٩/٤.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ جملة مِن خبر مقدَّم ومبتدأ مؤخَّر، والجملة حالية. وقيل: الظرف خبر لـ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾، وحبل مرتفع به على الفاعلية. وقيل: هو حال مِن ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾، على تقدير عطفها على ضمير ﴿سَيَصْلَىٰ﴾، و﴿حَبْلٌ﴾ فاعل كما ذكر.[١]

والمسد ما يُفتَل مِن الحبال فتلًا شديدًا مِن لِيف المقل، وقيل: مِن أيّ ليف كان، وقيل: مِن لِحاء شجر باليمن، وقد يكون مِن جلود الإبل وأوبارها،[٢] والمعنى: في عنقها حبل ممّا مُسِد مِن الحبال، وأنّها تحمل تلك الحزمة مِن الشوك، وتربطها في جيدها كما يفعل الحطّابون تخسيسًا بحالها، وتصويرًا لها بصورة بعض الحطّابات مِن المواهن، لتمتعض مِن ذلك، ويتمعّض بعلُها، وهما في بيت العزّ والشرف.

[٣٢٦و] / قال مرّة الهَمْداني:[٣] كانت أمّ جميل تأتي كلّ يوم بإبّالة[٤] مِن حَسَك[٥] فتطرحها على طريق المسلمين، فبينا هي ذات ليلة حاملة حزمةً أعيت فقعدت على حَجَر لتستريح، فجذبها المَلَك مِن خلفها فاختنقت بحبلها.[٦]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿تَبَّتْ﴾ رجوتُ ألّا يُجمَع بينه وبين أبي لَهَب في دار واحدة».[٧]

---

١ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٥٥٦/٢٠.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٥٦/٢٠.

٣ هو مُرّة الطيّب بن شراحيل الهمداني الكوفي، ويقال له: "مُرّة الخير" لعبادته وعلمه وخيره، مخضرم كبير الشأن. روى عن عليّ وعمر وعبد الله، ولم يكد يتفرّغ لنشر العِلم، ولهذا لم تكثر روايته. مات بالكوفة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٣٦/٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٧/٤-٧٥.

٤ الإبّالة: الحزمة مِن الحشيش والحطب. لسان العرب لابن منظور، «أبل».

٥ الحسك: نبات له شوك وثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. لسان العرب لابن منظور، «حسك».

٦ مرويّ عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨٣/٨.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥٦/٣٠ (المسد، ١١١/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٨/٤ (المسد، ١١١/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١١١

سورة تبّتْ

مكية، خمسُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

لمّا دعا ﷺ قومَه، وقال: «إنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَديدٍ»، فقال عمّه أبو لهَبٍ: «تبًّا لكَ. ألهذا دعوتَنا»؟ نزلَ: ١ ـ ﴿تَبَّتْ﴾: خَسِرَتْ ﴿يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: جُملتُه. وعُبّر عنها باليدين مجازًا لأنّ أكثر الأفعال تُزاوَلُ بهما، وهذه الجملة دُعاءٌ. ﴿وتَبَّ﴾: خَسِرَ هو. وهذه الجملة خبرٌ، كقولهم: أهلكه الله، وقد هَلَكَ.

ولمّا خوَّفه النبيُّ بالعذاب، فقال: «إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإنّي أفتدي منه بمالي وولدي»، نزلَ: ٢ ـ ﴿ما أَغنَى عَنهُ مالُهُ وما كَسَبَ﴾: وكَسْبُه، أي: ولدُه. «وأغنى» بمعنى: يُغني.

سورَةُ تبَّت

قولُهُ: (قَومَهُ) أي: أقاربَهُ بعد قولِهِ تعالَى: ﴿وأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقرَبِين﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قولُهُ: (أي: جُملَتُهُ) يعني: نفسَه، وقيل: المرادُ بهما: دنياهُ وأخراهُ، وإنَّما كنَّاهُ والتَّكنيَةُ تكرمَةٌ للاشتِهارِ بكُنيتِهِ، أو لأنَّ اسمَهُ عبدُ العُزَّى فاستُكرِهَ ذكرُهُ، كذا قال القاضِي(١).

قلتُ: أو مخافَةَ كونِهِ تَقريراً، أو لأنَّه لمَّا كانَ من أهلِ النَّارِ كانت الكنيَةُ أوفَقَ بحالِهِ، وليُجانِسَ قوله: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

قولُهُ: (وهذِهِ خَبَر) أو أخبارٌ بعدَ إخبارٍ، والتَّعبيرُ بالمضيِّ لتحقُّقِ وقوعِهِ، أو الأوَّلُ إخبارٌ عمَّا كسَبَت يَداهُ، والثَّاني عن نفسِهِ.

قولُهُ: (كَسْبُه أي ولده) أو مَكسوبُهُ، أو عمَلُهُ.

قولُهُ: (بمَعنَى: يُغني) و﴿مَا﴾ نافيَةٌ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤٥).

٣ ـ ﴿سَيَصلَى نـارًا ذاتَ لَهَـبٍ﴾ أي: تلهّـبٍ وتوقّـد ـ فهـي مـآل تكنيته لتلهّـب وجهه إشـراقًا وحُمرة ـ ٤ ـ ﴿وامرأتـهُ﴾: عطـفٌ علـى ضميـر «يصلـى»، سـوّغهَ الفصـل بالمفعـول وصفتِه، وهـي أُمّ جميلٍ ﴿حَمّالـةُ﴾ ـ بالرفع ـ ﴿الحَطَبِ﴾: الشـوكِ والسَّـعدانِ تُلقيـه في طريق النبـيّ ﷺ، ٥ ـ ﴿في جِيدِها﴾: عُنقهـا ﴿حَبـلٌ مِـن مَسَـدٍ﴾ أي: ليـفٍ. وهـذه الجملـة حـال مـن «حمّالـة الحطـب» الـذي هـو نعتٌ لـ «امرأته» أو خبرُ مُبتدأ مُقدّر.

قولُهُ: (تَلَهُّبٍ) أي: اشتِعال.

قولُهُ: (عَطفٌ) أو مُبتَدأ.

قولُهُ: (أُمُّ جَمِيلٍ) العَوراءُ، أختُ أبي سُفيانَ بن حَربٍ.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) للجُمهورِ، وبالنَّصبِ لعاصمٍ[1]، على الشَّتمِ.

قولُهُ: (والسَّعْدَانُ) بالضَّمِّ؛ أي: الحَسَك.

قولُهُ: (تُلقِيهِ) باللَّيلِ.

قولُهُ: (أي: لِيفٍ) أي: ممَّا مُسِدَ؛ أي: فُتِلَ مُحكماً، والله سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٧٠٠).

سورة تبت

وتُسمَّى سورةَ المسد، وهي مكيةٌ، وآيها خمسٌ بلا خلافٍ في الأمرين.

ولَمَّا ذكر سبحانه فيما قبلُ دخولَ الناس في ملَّةِ الإسلام، عَقَّبه سبحانه بذِكْرِ هلاك بعضٍ ممن لم يدخل فيها وخسرانه:

على نفسه فليبكِ من ضاع عمرُهُ　　وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ[1]

كذا قيل في وجه الاتصال.

وقيل: هو من اتصال الوعيد بالوعد، وفي كلٍّ مسرَّةٌ له عليه الصلاة والسلام.

وقال الإمام في ذلك: إنه تعالى لَمَّا قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكأنه ﷺ قال: إلهي، فما جزائي؟ فقال الله تعالى: لك النصرُ والفتحُ. فقال: فما جزاءُ عمِّي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: تبَّتْ يداه. وقدَّمَ الوعدَ على الوعيد ليكونَ النصرُ متَّصلاً بقوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ والوعيد راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ على حَدِّ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] فتأمل هذه المجانسةَ الحاصلةَ بين هذه السور، مع أنَّ سورَة النصر من آخر ما نزل بالمدينة، و«تبَّت» من أوائل ما نزل بمكة، لتعلم أنَّ ترتيبها من الله تعالى وبأمره عزَّ وجلَّ.

ثم قال: ووجهٌ آخرُ، وهو أنه لمَّا قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكأنه قيل: إلهي ما جزاءُ المطيع؟ قال: حصولُ النصر والفتح. ثم قيل: فما جزاءُ العاصي؟ قال: الخسارُ في الدنيا، والعقاب في العقبى، كما دلَّت عليه سورة «تبت». انتهى[2]، وهو كما ترى.

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٤٣.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٠.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ﴾ أي: هلكت، كما قال ابن جبير وغيره، ومنه قولهم: أشابَّة أم تابَّة، يريدون: أم هالكة من الهرم والتعجيز.

أو[1]: خسرت كما قال ابن عباس[2] وابن عمر وقتادة.

وعن الأول أيضاً: خابت.

وعن يمان بن وثّاب[3]: صَفِرَتْ من كلِّ خير.

وهي على ما في «البحر» أقوالٌ متقاربة[4].

وقال الشهاب: إنَّ مادةَ التَّباب تدورُ على القَطْع، وهو مؤدٍّ إلى الهلاك، ولذا فُسِّرَ به. وقال الراغب: هو الاستمرارُ في الخسران، ولتضمُّنه الاستمرارَ قيل: استتبَّ لفلانٍ كذا، أي: استمرَّ[5]. ويرجعُ هذا المعنى إلى الهلاك.

﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ، وكان شديدَ المعاداة والمناصبة له عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما في «المجمع» عن طارق المحاربي قال: بينا أنا بسوقِ ذي المجاز، إذا أنا برجلٍ حديث السِّنِّ يقول: «أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجلٌ خَلْفَهُ يرميه، قد أدمى ساقيه وعُرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس إنه كذَّابٌ فلا تُصدِّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد ﷺ يزعُمُ أنه نبيٌّ، وهذا عمُّهُ أبو لهب يزعُمُ أنه كذَّاب[6].

---

(١) في (م): أي.

(٢) في هامش الأصل: قاله في الدر المنثور.

(٣) في الأصل و(م): وثاب، وهو تصحيف، والمثبت من البحر ٨/ ٥٢٥، والكلام منه.

(٤) البحر ٨/ ٥٢٥.

(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٨، ومفردات الراغب (تبب).

(٦) مجمع البيان ٣٠/ ٢٦٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٢، وله شاهد من حديث ربيعة بن عباد الدِّيلي عند أحمد (١٦٠٢٣).

وأخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فِهْر، يا بني عَدي» لبطونِ قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجلُ إذا لم يستطع أن يخرجَ أرسلَ رسولاً لينظرَ ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتَكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم، أكنتم مُصَدِّقيَّ»؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صِدْقاً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ الأيام، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت[1].

ويُروى أنه مع ذلك القول أخذَ بيديه حجراً ليرمي بها رسولَ الله ﷺ، ومن هذا يُعلَمُ وجهُ إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم، وإسنادِه إلى يديه، وكذا مما روى البيهقيُّ في «الدلائل»[2] عن ابن عباس أيضاً أنَّ أبا لهبٍ قال لَمَّا خرج من الشِّعْب وظاهرَ قريشاً: إنَّ محمداً يَعِدُنا أشياءَ لا نراها كائنةً، يزعُمُ أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يديَّ[3]؟! ثم نفخ في يديه ثم قال: تبًّا لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد، ﷺ، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

ومما رُويَ عن طارقٍ يُعلَمُ وجهُ الثاني فقط، فاليدان على المعنى المعروف، والكلامُ دعاءٌ بهلاكهما، وقوله سبحانه: ﴿وَتَبَّ﴾ دعاء بهلاك كلِّه. وجُوِّزَ أن يكونا إخبارين بهلاك ذَينك الأمرين، والتعبيرُ بالماضي في الموضعين لتحقُّقِ الوقوع.

وقال الفراء: الأولُ دعاءٌ بهلاك جملته، على أنَّ اليدين إما كنايةٌ عن الذات والنفس لما بينهما من اللزوم في الجملة، أو مجازٌ من إطلاق الجزء على الكلِّ كما قال محيي السنة[4]. والقول في رَدِّهِ: إنه يُشترطُ أن يكون الكلُّ يُعدَمُ بعَدَمه

---

(١) أحمد (٢٥٤٤)، والبخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣).

(٢) كذا نسبه المصنف للبيهقي، والصواب أنه لأبي نعيم في دلائله ١/٣٦٦ كما في الدر المنثور ٦/٤٠٨، وعنه نقل المصنف.

(٣) في (م): يديه.

(٤) تفسير البغوي ٤/٥٤٣.

كالرأس والرقبة، واليدُ ليست كذلك = غيرُ مُسَلَّم؛ لتصريح فحولٍ بخلافه هنا وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. أو المراد ـ على ما قيل ـ بذلك الشرط: يُعدَمُ حقيقةً أو حكماً كما في إطلاق العين على الربيئة، واليد على المعطي، أو المتعاطي لبعض الأفعالِ، فإنَّ الذاتَ من حيث اتصافُها بما قُصِدَ اتصافُها به تُعْدَمُ بعَدَمِ ذلك العضو. والثاني إخبارٌ بالحصول[1]، أي: وكان ذلك وحصل، كقول النابغة:

جـزانـي جـزاه الله شـرَّ جـزائـه جزاءَ الكلاب العاويات وقد فعلْ[2]

واستُظهر أنَّ هذه الجملةَ حاليةٌ، و«قد» مقدَّرةٌ على المشهور كما قرأ به ابن مسعود[3]. وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث ابن عباس في سبب النزول: فنزلت هذه السورة: «تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وقد تبَّ»[4]، وعلى هذه القراءة يمتنعُ أن يكون ذلك دعاءً؛ لأنَّ «قد» لا تدخلُ على أفعال الدعاء.

وقيل: الأولُ إخبارٌ عن هلاك عمله، حيث لم يُفِدْهُ ولم ينفعه؛ لأنَّ الأعمال تُزاوَلُ بالأيدي غالباً[5]. والثاني: إخبارٌ عن هلاكِ نفسه.

وفي «التأويلات»: اليدُ بمعنى النعمة، وكان يُحسِنُ إلى النبيِّ ﷺ وإلى قريشٍ ويقول: إن كان الأمرُ لمحمدٍ فلي عنده يدٌ، وإن كان لقريشٍ فكذلك، فأُخبر أنه خَسِرَتْ يدُهُ التي كانت عند النبيِّ ﷺ بعناده له، ويده التي عند قريش أيضاً بخُسْران

(١) قوله: والثاني...، عطف على قوله: الأول دعاء...، وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨، ولفظه: الأول دعاء والثاني خبر.

(٢) البيت بهذه الرواية دون نسبة في الكشاف ٤/ ٢٩٦، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٩، والبحر ٨/ ٥٢٥، وهو في ديوان النابغة ص١٣٠ بلفظ:

جـزى ربُّـهُ عـنـي عـدي بـن حـاتـم جزاء الـكـلاب الـعـاويـات وقـد فـعـل

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٨، والكشاف ٤/ ٢٩٦، والبحر ٨/ ٥٢٥.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

(٥) جاء في هامش الأصل: ولعل من قال: المراد باليدين الدنيا والآخرة، حمل اليد على العمل أولاً لأنها آلته وسببه، ثم حمل اليدين على ما ذكر لأن العمل إما للدنيا أو للآخرة، فتدبر.

قريشٍ وهلاكهم في يد النبيِّ عليه الصلاة والسلام[١]. فهذا معنى «تبت يدا أبي لهب» والمراد بالثاني الإخبار بهلاكه نفسه.

وذُكِرَ بكنيته لاشتهاره بها، وقد أُريد تشهيرُهُ بدعوة السوء وأن تبقى سمةً له، وذِكْره بأشهر عَلَميهِ أوفقُ بذلك[٢]، ويؤيد ذلك قراءةُ مَنْ قرأ: «يدا أبو لهب»[٣] كما قيل: عليّ بن أبو طالب، ومعاويةُ بن أبو سفيان؛ لئلّا يُغيَّرَ منه شيءٌ فيُشكِل على السامع، أو لكراهة ذِكْر اسمه القبيح، أو لأنه كما روي عن مقاتلٍ كان يكنى بذلك لِتَلَهُّبِ وَجْنَتيه وإشراقهما، فذُكِرَ ذلك تهكُّماً به وبافتخاره بذلك، أو ليجانس «ذات لهب» ويوافقه لفظاً ومعنًى، والقولُ بأنه ليس بتجنيسٍ لفظيٍّ لأنه ليس في الفاصلة = وَهْمٌ، فإنهم لم يشترطوه فيه، أو لِجَعْلِهِ كناية عن الجهنَّميِّ، فكأنه قيل: تبَّتْ يدا جهنميٍّ، وذلك لأنَّ انتسابه إلى اللَّهب كانتساب الأب إلى الولد، يدلُّ على ملابسته له وملازمته إياه، كما يقال: هو أبو الخير وأبو الشر، وأخو الفضل وأخو الحرب؛ لمن يلابسُ هذه الأمور ويلازمها، وملازمته لذلك تستلزمُ كونه جهنَّميًّا لزوماً عرفيًّا، فإنَّ اللَّهبَ الحقيقيَّ هو لَهَبُ جهنمَ، فالانتقالُ من «أبي لهب» إلى «جهنَّميٍّ» انتقالٌ من الملزوم إلى اللازم، أو بالعكس على اختلاف الرأيين في الكناية، فإنَّ التلازمَ بينهما في الجملة متحقِّقٌ في الخارج والذهن، إلَّا أنَّ هذا اللزومَ إنما هو بحَسَبِ الوضع الأول ـ أعني الإضافي ـ دون الثاني، أعني العَلَميّ، وهم يعتبرون في الكُنى المعاني الأصلية، فأبو لهب باعتبار الوضع العَلَميِّ مستَعْمَلٌ في الشخص المعيَّن، وينتقلُ منه باعتبار وَضْعِهِ الأصلي إلى مُلابِسِ اللَّهب ومُلازمه، لينتقلَ منه إلى أنه جهنَّميٌّ، فهو كنايةٌ عن الصفة بالواسطة، وهذا ما اختاره العلامة الثاني.

وقال السيد السند: أبو لهب معناه الأصلي: مُلابس اللهب ملابسة لازمة؛ لأنَّ لفظ الأب هاهنا مستعملٌ في معنى الملابس دون معناه الحقيقي، فأطلق أبو لهب

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٥/ ٥٣٤.
(٢) جاء في هامش الأصل: وقيل: إن لهباً لقب أحد أولاده كان يكنى به.
(٣) القراءات الشاذة ص١٨٢، والكشاف ٤/ ٢٩٦.

على الشخص المسمَّى به، ولوحظ معه معناه الأصلي ـ أعني ملابس اللهب ـ لينتقل منه إلى ملزومه، وهو كونه جهنميًّا[1]. انتهى.

فعنده كنايةٌ بلا واسطة؛ لأنَّ معناه الأصلي ـ أعني ملابس اللهب ـ ملحوظٌ مع معناه العَلَمي، والحقُّ مع العلامة؛ لأنَّ «أبا لهب» يُستعملُ في الشخص المعيَّن، والمتكلِّم بناءً على اعتبارهم المعاني الأصلية في الكنى ينتقل منه إلى المعنى الأصلي، ثم ينتقلُ منه إلى الجهنَّميِّ، ولا يُلاحظُ معه معناه الأصلي، وإلا لكان لفظ أبي لهب في الآية مجازاً، سواء لوحِظَ معه معناه الأصلي بطريق الجزئية أو التقييد؛ لكونه غيرَ موضوعٍ للمجموع.

وما قيل: إنَّ المعنى الحقيقي لا يكون مقصوداً في الكناية، وإنَّ مناطَ الفائدة والصدق والكذب فيها هو المعنى الثاني، وهاهنا قُصِدَ الذاتُ المعيَّنُ = فليس بشيءٍ؛ لأنَّ الكنايةَ لفظٌ أُريد به لازمُ معناه، مع جواز إرادته معه، فيجوزُ هاهنا أن يكون كِلَا المعنيين مراداً، وفي «المفتاح» تصريحٌ بأنَّ المرادَ في الكناية هو المعنى الحقيقي ولازمه جميعاً.

وزَعَمَ السيد أيضاً أنَّ الكنايةَ في أبي لهب لأنه اشتهر بهذا الاسم، وبكونه جهنَّميًّا، فدلَّ اسمُهُ على كونه جهنميًّا دلالة حاتم على أنه جواد، فإذا أطلق وقُصِدَ به الانتقالُ إلى هذا المعنى، يكون كنايةً عنه.

وفيه أنه يلزمُ منه أن تكونَ الكنايةُ في مثله موقوفةً على اشتهار الشخص بذلك العَلَم، وليس كذلك، فإنهم ينتقلونَ من الكُنية إلى ما يلزم مُسمَّاها باعتبار الأصل من غير توقُّفٍ على الشهرة، قال الشاعر:

قصدتُ أبا المحاسنِ كي أراه ... لشوقٍ كاد يجذبني إليه
فلما أن رأيت رأيتُ فرداً ... ولم أرَ مِن بَنِيه ابناً لديه[2]

على أنَّ فيه بَعْدُ ما فيه.

---

(١) من قوله: وقال السيد... إلى هنا ليس في (م).

(٢) البيتان في المحاضرات في الأدب واللغة لليوسي ١/ ٢٤ بدون نسبة. وفيه:

فلما أن أتيت رأيت فرداً

وقرأ ابن محيصن وابن كثير: «أبي لَهْب» بسكون الهاء[1]، وهو من تغيير الأعلام على ما في «الكشاف»[2]. وقال أبو البقاء: الفتحُ والسكون لغتان[3]. وهو قياسٌ على المذهب الكوفي.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ أي: لم يُغْنِ عنه مالُهُ حين حلَّ به التباب، على أنَّ «ما» نافيةٌ، ويجوز أن تكون استفهاميةً في محلِّ نَصْبٍ بما بعدها، على أنها مفعولٌ به، أو مفعولٌ مطلقٌ، أي: أيَّ إغناء، أو: أيَّ شيءٍ أغنى عنه ماله.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي: والذي كَسَبَهُ[4]، على أنَّ «ما» موصولةٌ، وجُوِّزَ أن تكون مصدرية، أي: وكَسْبه. وقال أبو حيان: إذا كان «ما» الأولى استفهامية، فيجوز أن تكون هذه كذلك، أي: وأيَّ شيءٍ كَسَبَ، أي: لم يَكْسَبْ شيئاً[5].

وقال عصام الدين: يحتملُ أن تكونَ نافيةً، والمعنى: ما أبعد[6] عنه مالُهُ مضرَّةً، وما كَسَبَ منفعةً. وظاهره أنه جَعَلَ فاعلَ «كَسَبَ» ضمير المال، وهو كما ترى.

واستظهر في «البحر»[7] موصوليَّتَها، فالعائدُ محذوفٌ، أي: والذي كَسَبَهُ به من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع، أو: ما أغنى عنه ماله الموروث من أبيه، والذي كَسَبَهُ بنفسه، أو ماله والذي كَسَبه من عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبيِّ ﷺ كما قال الضحاك، أو: من عمله الذي يظنُّ[8] أنه منه على شيءٍ كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] كما قال قتادة.

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٤، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤.
(٢) ٤/ ٢٩٦.
(٣) الإملاء ٤/ ٤٨٦.
(٤) في (م): كسب.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٢٥.
(٦) تصحف في (م) إلى: أعبد.
(٧) ٨/ ٥٢٥.
(٨) في الأصل: يزعم.

وعنِ ابن عباس ومجاهد: ما كَسَبَ من الولد، أخرج أبو داود[١] عن عائشة مرفوعاً: «إنَّ أطيبَ ما يأكلُ الرجلُ من كَسْبِهِ، وإنَّ ولده من كَسْبه».

وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقًّا، فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي[٢]، وكان له ثلاثةُ أبناء: عُتْبة ومُعتِّب، وقد أسلما يومَ الفتح وسُرَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بإسلامهما، ودعا لهما، وشهدا حُنيناً والطائف، وعُتيبةُ بالتصغير، ولم يُسلمْ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الألباء[٣]:

كـرهـتُ عُـتـيـبـة إذ أجـرمـا ... وأحـبـبـتُ عُـتْـبـة إذ أسـلـمـا
كـذا مُـعـتِّـبٌ مـسـلـمٌ فـاحـتـرز ... وخَـفْ أن تـسـبَّ فـتًـى مـسـلـمـا

وكانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند عُتيبة، ورقيةُ أختها عند أخيه عُتْبة، فلما نزلتِ السورةُ قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرامٌ إن لم تُطلِّقا ابنتي محمد ﷺ، فطلَّقاهما، إلا أنَّ عُتيبة ـ المُصَغَّر ـ كان قد أراد الخروجَ إلى الشام مع أبيه، فقال: لآتينَّ محمداً (عليه الصلاة والسلام) وأُوذيَّنه، فأتاه فقال: يا محمد، إني كافرٌ بالنَّجْم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى، ثم تَفَلَ تجاه رسول الله ﷺ ولم يُصبْهُ عليه الصلاة والسلام شيءٌ، وطلَّقَ ابنته أمّ كلثوم، فأغضبه عليه الصلاة والسلام بما قال وفعل، فقال ﷺ: «اللهمَّ سَلِّطْ عليه كلباً من كلابك»، وكان أبو طالب حاضراً، فكَرِهَ ذلك. وقال له: ما أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة، فرجع إلى أبيه، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأَشْرف عليهم راهبٌ من دَيْرٍ وقال لهم: إنَّ هذه أرضٌ مَسْبَعَةٌ. فقال أبو لهب: أغيثوني يا معشرَ قريش في هذه الليلة، فإني أخافُ على ابني دعوةَ محمدٍ ﷺ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولَهم خوفاً من الأسد، فجاء أسدٌ يتشمَّمُ وجوههم، حتى أتى عُتيبة فقتله، وفي ذلك يقول حسان:

مَـن يـرجـعُ الـعـامَ إلـى أهـلـه ... فـمـا أَكـيـلُ الـسـبـع بـالـراجـع[٤]

---

(١) في سننه (٣٥٢٨)، وهو عند أحمد (٢٤٠٣٢).
(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٣ عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) البيتان في حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٩ وفيه أن اسم الكتاب: الألباب.
(٤) تنظر القصّة في الذرية الطاهرة للدولابي (٧٤)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٣٨٠) و(٣٨١)، =

وهلكَ أبو لهبٍ نفسُهُ بالعَدَسة[1] بعد وقعة بدر لسَبْعِ ليالٍ، فاجتنبه أهله مخافةَ العدوى، وكانت قريشٌ تتَّقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتنَ، فلما خافوا العارَ استأجروا بعضَ السُّودان، فاحتملوه ودفنوه. وفي رواية: حفروا له حفرةً ودفعوه بعودٍ حتى وَقَعَ فيها، فقذفوه بالحجارة حتى واروه. وفي أخرى: إنهم لم يحفروا له وإنما أَسندوه لحائطٍ، وقذفوا عليه الحجارةَ من خَلْفِهِ حتى توارى. فكان الأمرُ كما أخبر به القرآن.

وقرأ عبد الله: «وما اكتسب» بتاء الافتعال[2].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ سيدخلها لا محالةَ في الآخرة، ويُقاسي حَرَّها، والسينُ لتأكيد الوعيد، والتنوينُ للتعظيم، أي: ناراً عظيمة.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذاتَ اشتعالٍ وتوقُّدٍ عظيم، وهي نارُ جهنم.

وجملة «ما أغنى» إلخ قال في «الكشف»: استئنافٌ جواباً عمَّا كان يقول: أنا أفتدي بمالي، ويتوهَّم من صِدْقه، وفيه تحسيرٌ له وتهكُّمٌ بما كان يفتخرُ به من المال والبنين، وهذه الجملةُ تصويرٌ للهلاك بما يظهرُ معه عدمُ إغناء المال والولد، وهو ظاهرٌ على تفسير «ما كَسَبَ» بالولد.

وقال بعض الأفاضل: الأُولى إشارةٌ لهلاك عمله، وهذه إشارةٌ لهلاك نفسه، وهو أيضاً على بعض الأوجه السابقة، فتذكَّرْ ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عَطْفٌ على المستكنِّ في «سيصلى» لمكان الفصل بالمفعول.

وقوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ نَصْبٌ على الشتم والذم. وقيل: على الحالية بناءً على أنَّ الإضافةَ غيرُ حقيقيةٍ للاستقبال على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى، وهي أمُّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، أخرج ابنُ عساكر عن جعفر الصادق عن أبيه

= ومعجم الصحابة لابن قانع ٣/ ٢٠٧، والمستدرك ٢/ ٥٣٩، وسلفت ٧/ ٤٠.

(١) العدسة: بثرةٌ تخرج بالبدن فتقتل. القاموس المحيط (عدس).

(٢) القراءات الشاذة ص١٨٢، والبحر ٨/ ٥٢٥.

محمد الباقر رضي الله عنه أنَّ عقيلَ بن أبي طالب دخلَ على معاويةَ، فقال معاوية له: أين ترى عمَّكَ أبا لهبٍ من النار؟ فقال له عقيل: إذا دخلتَها فهو على يسارك، مفترشٌ عمَّتَكَ حمالةَ الحطب، والراكبُ خيرٌ من المركوب(١). ولا أظنُّ صحةَ هذا الخبر عن الصادق؛ لأنَّ فيه ما فيه.

وكانت ـ على ما في «البحر»(٢) ـ عوراء. وَوُسِمَتْ بذلك لأنها ـ على ما أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد ـ كانت تأتي بأغصانِ الشوك تطرحُها بالليل في طريق رسول الله ﷺ(٣).

وقيل: كانت تحملُ حُزْمةَ الشوك والحَسَك والسَّعْدان، فتنشرها بالليل في طريقه عليه الصلاة والسلام، وكان رسول الله ﷺ يطؤه كما يطأُ الحرير.

وروي عن قتادة أنها مع كَثْرةِ مالِها كانت تحملُ الحَطَبَ على ظهرها لِشِدَّةِ بخلها، فَعُيِّرتْ بالبخل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه وعن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة(٤)، وأخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن أيضاً(٥)، وروي عن ابن عباس والسدي، ويقال لمن يمشي بها: يحملُ الحَطَبَ بين الناس، أي: يُوقد بينهم النائرة، ويورث الشَّرَّ، فالحطبُ مُستعارٌ للنميمة، وهي استعارةٌ مشهورةٌ، ومن ذلك قوله:

من البيض لم تُصْطَدْ على ظهرِ لَأْمةٍ ... ولم تمشِ بين الحيِّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ(٦)

وجعله رَطْباً ليدلَّ على التدخينِ الذي هو زيادةٌ في الشَّرِّ، ففيه إيغالٌ حَسَنٌ(٧)،

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٣.
(٢) ٨/ ٥٢٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٢٠، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/ ٤٠٩.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٢٠، والدر المنثور ٦/ ٤٠٩.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٠٩.
(٦) البيت في الكشاف ٤/ ٢٩٧، والبحر ٨/ ٥٢٦.
(٧) جاء في هامش الأصل: كما في قول امرئ القيس:

حملت ردينيًا كأن سنانه ... سنا لهب لم يتصل بدخان

=

وكذا قولُ الراجز:

إنَّ بـنـي الأَدْرَمِ حـمَّـالـو الـحَـطَـبْ
هـم الـوُشـاةُ فـي الـرِّضـاء والـغـضـبْ[1]

وقال ابن جبير[2]: حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلانٌ يحطبُ على ظهره، إذا كان يكتسب الآثامَ والخطايا.

والظاهرُ أنَّ الحَطَبَ عليه مستعارٌ للخطايا، بجامع أنَّ كلًّا منهما مبدأ للإحراق.

وقيل: الحَطَبُ جمعُ حاطِبٍ كحارس وحَرَسٍ، أي: تحملُ الجناةَ على الجنايات. وهو محملٌ بعيدٌ.

وقرأ أبو حيوة وابن مقسم: «سَيُصَلَّى» بضمِّ الياء وفتح الصاد وشَدِّ اللام «ومَرِيئته» بالتصغير والهمز[3].

وقرئ: «ومُرَيَّتُهُ» بالتصغير وقلب الهمزة ياءً وإدغامها[4].

وقرأ الحسن وابن إسحاق: «سيُصْلى» بضم الياء وسكون الصاد[5].

واختلسَ حركةَ الهاء في «امرأته» أبو عمرو في روايةٍ[6].

وقرأ أبو قلابة: «حاملةَ الحطب» على وزن فاعلة مضافاً[7].

= اهـ منه. والإيغال: ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال، إذ الرسول مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. الإتقان ٢/ ٨٦٩.

(١) البيت في النكت والعيون ٦/ ٣٦٧.

(٢) في (م): ابن جرير. والمثبت من الأصل والبحر المحيط ٨/ ٥٢٦ والكلام منه.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٩٧، والبحر ٨/ ٥٢٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٨٢، والكشاف ٤/ ٢٩٧.

(٥) القراءات الشاذة ص١٨٢، والكشاف ٤/ ٢٩٧.

(٦) القراءات الشاذة ص١٨٢، والبحر ٨/ ٥٢٦.

(٧) القراءات ص١٨٢، والبحر ٨/ ٥٢٦، وضبطت في القراءات بالضم.

وقرأ الأكثرون: «حمالةُ الحطب» بالرفع والإضافة[١].

وقُرئ: «حمالة للحَطَب» بالتنوين رَفْعاً ونَصْباً، وبلامِ الجرِّ في «الحطب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ جملةٌ من خبرٍ مقدَّم ومبتدأ مؤخَّرٍ في موضع الحال من الضمير في «حمّالة»، وقيل: من «امرأته» المعطوف على الضمير. وقيل: الظرفُ حالٌ منها، و«حبلٌ» مرتفعٌ به على الفاعلية. وقيل: هو خبرٌ لـ : امرأته، وهي مبتدأٌ، لا معطوفةٌ على الضمير، و«حبلٌ» فاعلٌ.

وعلى قراءة «حمالةُ» بالرفع قيل: «امرأته» مبتدأٌ و«حمالةُ» خبرٌ، و«في جيدها حبل» خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من ضمير «حمالة» أو الظرفُ كذلك، و«حبلٌ» مرتفعٌ به على الفاعلية. أو «امرأته» مبتدأٌ و«حمالةُ» صفته؛ لأنه للماضي، فيتعرَّفُ بالإضافة، والخبرُ على ما سمعتَ. أو «امرأته» عَطْفٌ على الضمير، و«حمالةُ» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي حمالةُ، وما بعدُ خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من ضمير «حمالة» على نظير ما مرَّ.

وفي التركيب غيرُ ذلك من أَوْجُهِ الإعراب سيُذْكَر إن شاء الله تعالى، وبعضُ ما ذكرناه هاهنا غيرُ مُطَّرِدٍ على جميع الأوجه في معنى الآية، كما لا يخفى عند الاطِّلاع عليها على المتأمل.

والمَسَدُ: ما مُسِدَ ـ أي: فُتل من الحبال فَتْلاً شديداً ـ من ليف المُقْلِ على ما قال أبو الفتح، ومن أيِّ ليفٍ على ما قيل. وقيل: من لحاء شجرٍ باليمن يُسمَّى المَسَدِ، وروي ذلك عن ابن زيد، وقد يكون كما في «البحر»[٣] من جلود الإبل أو أوبارها، ومنه قولُه:

ومَسَدٍ أُمِرَّ من أَيانِقِ
ليست بأنيابٍ ولا حقائقِ[٤]

---

(١) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٤، ولم يقرأ بالنصب سوى عاصم.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٧٥، والكشاف ٤/ ٢٩٧، والبحر ٨/ ٥٢٦.
(٣) ٨/ ٥٢٤.
(٤) الرجز في الصحاح واللسان (مسد)، وفيه: ومسد فُتل من أيانق: جمع أينُق، وأينُق =

أي: في عنقها حبلٌ مما مُسِدَ من الحبال، والمراد تصويرُها بصُوَرِ الحطَّابة التي تحمِلُ الحُزْمة وتربطُها في جيدها تخسيساً لحالها وتحقيراً لها؛ لتمتعضَ من ذلك، ويمتعضَ بعلُها؛ إذ كانا في بيت العِزِّ والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة، ولقد عَيَّرَ بعضُ الناس الفضلَ بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أردتَ إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعيِّر من حمالة الحطب
غرَّاءُ شادخةٌ[1] في المجد غُرَّتها كانت سليلةَ شيخٍ ثاقبِ الحَسَب[2]

وقد أغضبها ذلك، فيُروى أنها لما سمعت السورةَ أتت أبا بكر رضي الله عنه وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد، وبيدها فِهْرٌ[3]، فقالت: بلغني أنَّ صاحبَكَ هجاني، ولأفعلنَّ وأفعلنَّ، وإن كان شاعراً فأنا مثله أقول:

مُذمَّماً أبينا
ودينه[4] قلينا
وأَمره عصينا

وأعمى الله تعالى بَصَرها عن رسول الله ﷺ، فروي أنَّ أبا بكرٍ قال لها: هل تري معي أحداً؟ فقالت: أتهزأ بي، لا أرى غيرَكَ. فسكت أبو بكر ومضت وهي

= جمع ناقة، والأنياب جمع ناب، وهي الهرمة، والحقائق جمع حُقَّة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة. والرجز أنشده الأصمعي لعمارة بن طارق، وقال أبو عبيد: هو لعقبة الهُجيمي.
وجاء في هامش الأصل: أوله:
إن سرَّك الإرعاء غير سائق فاعْجَلْ بغَرْبٍ مثل غَرْبِ طارقِ
والغرب: الدلو العظيمة، وطارق: اسم رجل. اهـ منه.

(١) جاء في هامش الأصل: شدوخ الغرة اتساعها إلى الأنف من غير إصابة العينين ويكون في العتاق. اهـ منه.
(٢) البيتان في الأغاني ١٦/ ١٧٧ و١٨٤، والمستقصى ١/ ١٠١.
(٣) الفِهْر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر مطلقاً. النهاية (فهر).
(٤) في (م): ورينه.

تقول: قريشٌ تعلمُ أني بنتُ سيِّدها. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لقد حجبني عنها ملائكةٌ فما رأتني، وكفى الله تعالى شرَّها»[(١)].

وقيل: إنَّ ذلك ترشيحٌ للمجاز، بناءً على اعتباره في حمالة الحطب.

وفي «الكشاف»[(٢)]: يحتملُ أن يكون المعنى: تكونُ في نار جهنمَ على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحملُ حُزْمةَ الشوك، فلا تزالُ على ظهرها حُزْمةٌ من حَطَبِ النار من شجرة الزقوم، أو من الضريع، وفي جيدها حبلٌ مما مُسِدَ من سلاسل النار، كما يُعذَّبُ كلُّ مجرمٍ بما يُجانس حاله في جُرْمه.

وعليه فالحبلُ مستعارٌ للسلسلة، وروي هذا عن عروةَ بن الزبير ومجاهد وسفيان، وأَمْرُ الإعراب على ما في «الكشف»: أنه إنْ نصبَ «حمالة» يكون حالاً هو والجملة ـ أعني «في جيدها حبلٌ» ـ عن المعطوف على ضمير «سيَصْلَى»، أي: ستَصْلَى امرأتُهُ على هذه الحالة، أو يكونُ «حمالةَ» نَصْباً على الذَّمِّ، والجملةُ وحدها حالاً، أو «امرأته في جيدها حبلٌ» جملةٌ وقعتْ حالاً عن الضمير، ويحتملُ عَطْفَ الجملة على الجملة على ضَعْفٍ. وعلى الرفع يحتملُ أن تكونَ الجملةُ حالاً، وأن يكون «امرأته» عَطْفاً على الفاعل، و«حمالة الحطب في جيدها» جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب وقعتْ بياناً لكيفية صَلْيها، أي: هي حمالةُ الحطب. انتهى، فتأمل ولا تغفل.

وعلى جميع الأوجه والاحتمالات إنما لم يقلْ سبحانه: في عنقها، والمعروفُ أنْ يُذْكَرَ العنقُ مع الغُلِّ ونحوِه مما فيه امتهانٌ، كما قال تعالى: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨] والجِيْد مع الحَلْي كقوله:

وأحسن من جِيْد المليحة حَلْيها[(٣)]

---

(١) مسند الحميدي (٣٢٣) بنحوه، وينظر السيرة النبوية ١/ ٣٥٦.

(٢) ٤/ ٢٩٧.

(٣) ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/ ١١٣، والشهاب في الحاشية ٨/ ٤١٠ بلفظ:

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولو قال: عنقها، كان غثًّا من الكلام = قال في «الروض الأنف»: لأنه تهكُّمٌ نحو: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] أي: لا جِيْدَ لها فيُحلَّى، ولو كان لكانت حُلْيتُهُ هذه، ولتحقيرها قيل: امرأته، ولم يقل: زوجه[1]. انتهى.

وهو بديعٌ جدًّا، إلا أنه يُعكِّرُ على آخره قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ [هود: ٧١] ولعلَّهُ استعانَ هاهنا على ما قال بالمقام.

وعن قتادة أنه كان في جيدها قلادةٌ من وَدَعٍ، وفي معناه قول الحسن: من خَرَزٍ. وقال ابن المسيب: كانت قلادةً فاخرةً من جوهرٍ، وأنها قالت: واللات والعُزَّى لأُنفقنَّها على عداوة محمد ﷺ، ولعلَّ المراد على هذا أنها تكونُ في نار جهنَّم ذاتَ قلادةٍ من حديد ممسودٍ بدلَ قلادتها التي كانت تقولُ فيها: لأُنفقنَّها.. إلخ، وعلى ما قبله تهجينُ أمرِ قلادتها لتأكيد ذَمِّها بالبُخْل الدالِّ عليه قوله تعالى: (حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ) على ما نقلناه سابقاً عن قتادة. ويحتملُ غير ذلك، ووجهُ التعبير بالجِيد على ما ذُكِرَ مما لا يخفى.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّ الكلامَ يحتملُ أن يكون دعاءً عليها بالخَنْقِ بالحبل، وهو عن الذهن مناطُ الثريا، نعم ذُكِرَ أنها ماتت يومَ ماتت مخنوقة بحبلٍ حملتْ به حُزْمَةَ حطب، لكنَّ هذا لا يستدعي حَمْلَ ما ذُكِرَ على الدعاء.

هذا واستشكل أمرُ تكليفِ أبي لهبٍ بالإيمان مع قوله تعالى: (سَيَصْلَىٰ) إلخ بأنه بعد أن أخبرَ الله تعالى عنه بأنه سيصلى النار، لا بدَّ أن يصلاها، ولا يصلاها إلا الكافرُ، فالإخبار بذلك يتضمَّنُ الإخبارَ بأنه لا يؤمنُ أصلاً، فمتى كان مكلَّفاً بالإيمان بما جاء به النبيُّ ﷺ ـ ومنه ما ذُكِرَ ـ لَزِمَ أن يكون مكلَّفاً بأن يؤمنَ بأن لا يؤمن أصلاً، وهو جَمْعٌ بين النقيضين، خارجٌ عن حَدِّ الإمكان.

وأجيب عنه بأنَّ ما كُلِّفه هو الإيمانُ بجميع ما جاء به النبيُّ عليه الصلاة والسلام إجمالاً، لا الإيمانُ بتفاصيل ما نطقَ به القرآن الكريم، حتى يلزمَ أن يكلَّفَ الإيمانَ بعدم إيمانه المستمرِّ، ويقال نحو هذا في الجواب عن تكليف الكافرين

---

(١) الروض الأنف ٢/ ١١٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٤١٠.

المذكورين في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلخ بالإيمان بناءً على تعيُّنهم مع قوله تعالى ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ إلخ بناءً على دلالته على استمرار عدم عبادتهم ما يَعبدُ عليه الصلاة والسلام.

وأجاب بعضُهم بأنَّ قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ إلخ ليس نصًّا في أنه لا يؤمنُ أصلاً، فإنَّ صَلْيَ النار غيرُ مختصٍّ بالكفار، فيجوزُ أن يَفْهَمَ أبو لهبٍ منه أنَّ دخولَهُ النارَ لفِسْقِهِ ومعاصيه، لا لكُفْره، ولا يجري هذا في الجواب عن تكليف أولئك الكافرين بناءً على فهمهم من[1] السورة إرادةَ الاستمرار.

وأجاب بعضٌ آخرُ بأنَّ مَنْ جاء فيه مثلُ ذلك، وعَلِمَ به، مكلَّفٌ بأن يؤمنَ بما عداه مما جاء به ﷺ.

وأجاب الكعبيُّ وأبو الحسين البصري، وكذا القاضي عبد الجبار بغير ما ذُكِرَ مما ردَّهُ الإمام[2]. وقيل في خصوص هذه الآية: إنَّ المعنى: سيصلى ناراً ذات لهبٍ، ويخلدُ فيها إن مات ولم يؤمن. فليس ذلك مما هو نصٌّ في أنه لا يؤمنُ.

وما لهذه الأجوبة وما عليها يُطلَبُ من مطوَّلات كتب الأصول والكلام.

واستُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ على صِحَّة أنكحةِ الكفار، والله تعالى أعلم.

---

(١) قوله: من، ليس في (م).
(٢) في تفسيره ٣٢/ ١٧١.

(١١٢) سورة الإخلاص مكية
وآياتها أربع

سورة الإخلاص مكية ، وهي تعلن التوحيد الخالص ، وتنزيه الباري جل وعلا وتقديسه عن النظير ، والشبيه ، والمثيل ، وتقيم البراهين القاطعة على وحدانيته جل وعلا ، فهي سورة التوحيد ، وسورة الإخلاص ، وهي ترد على مذاهب أهل الضلال الذين نسبوا لله الذرية والولد ، وقد جاء في الحديث « أنها تعدل ثلث القرآن » وذلك لأن علوم القرآن ثلاثة : توحيد ، وأحكام ، وقصص ، وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد فهي ثلث القرآن .

• • •

سورة الإخلاص

[١٠٤٩] أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله [ﷺ] أنسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾(١) إلى آخرها.

وأخرج الطبراني وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبدالله فاستدل بها على أن السورة مكيّة.

[١٠٥٠] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي [ﷺ] منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾(٢) إلى آخرها.

[١٠٥١] وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله فاستدل بهذا على أنها مدنيّة.

[١٠٥٢] ك.. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: قال قتادة قالت الأحزاب أنسب لنا ربك فأتاه جبريل بهذه السورة وهذا المراد بالمشركين في حديث أُبي فتكون السورة مدنية كما دلّ عليه حديث ابن عباس وينتفي التعارض بين الحديثين، لكن أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال: أتت يهود خيبر إلى النبي [ﷺ] فقالوا يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك فلم يجبهم فأتاه جبريل بهذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾(٣).

[١٠٤٩] (١) سورة الإخلاص: الآية (١).
[١٠٥٠] (٢) سورة الإخلاص: الآية (١).
[١٠٥٢] (٣) سورة الإخلاص: الآية (١).

سورة الإخلاص

اربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾

قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول:

الفصل الأول: روى أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَآمَنَ بِاللَّهِ»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مَرَّةً وَاحِدَةً، أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مِائَةِ شهيد» وروى أَنَّهُ كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُو ذَرٍّ قد أقبَلَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَوَ تعرِفُونَه؟» قَالَ: هُوَ أَشْهَرُ عِنْدَنَا مِنْهُ عِنْدَكُمْ. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بِمَاذَا نَالَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ؟» قَالَ: لِصِغَرِهِ فِي نَفْسِهِ وَكَثْرَةِ قِرَاءَتِهِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. وروى أنس قال: كُنَّا في تبوك فطلعت الشمس ما لها شُعَاعٌ وَضِيَاءٌ وَمَا رَأَيْنَاهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ فَعَجِبَ كُلُّنَا، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ فَيُصَلُّوا عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ ثُمَّ ضَرَبَ بِجَنَاحِهِ الأَرْضَ فَأَزَالَ الْجِبَالَ، وَصَارَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَأَنَّهُ مُشْرِفٌ عَلَيْهِ فَصَلَّى هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «بِمَ بَلَغَ مَا بَلَغَ؟» فَقَالَ جِبْرِيلُ: كَانَ يُحِبُّ سُورَةَ الإِخْلَاصِ وروى أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَسَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو وَيَقُولُ: أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ يَا أَحَدُ يَا صَمَدُ، يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ! فَقَالَ: غَفَرَ لَكَ غَفَرَ لَكَ غَفَرَ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وعن سهل بن سعد: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَشَكَا إِلَيْهِ الْفَقْرَ فَقَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ إِنْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ فَسَلِّمْ عَلَى نَفْسِكَ، وَاقْرَأْ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مَرَّةً وَاحِدَةً» فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَأَدَرَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقًا حَتَّى أَفَاضَ عَلَى جِيرَانِهِ. وعن أنس: أَنَّ رَجُلًا كَانَ

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما جاءت الروايات بأن (قل هو الله أحد) تعادل ثلث القرآن: صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل: قل هو الله أحد) (٨/ ٦٧٦) حديث رقم (٥٠١٣) وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في سورة الصمد) (٢/ ٦٣٤) حديث رقم (١٤٦١) والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (الفضل في قراءة: قل هو الله أحد) (٢/ ٥١٢) حديث رقم (٩٩٤) ومالك في (الموطأ) باب (ما جاء في قراءة: قل هو الله أحد وتبارك) (١/ ٢٠٨) حديث رقم (١٧) وأحمد في (مسنده) (٣/ ٩٣) جميعًا من طريق مالك . . . به.

يَقْرَأُ فِي جَمِيعِ صِلاَتِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَسَأَلَهُ الرَّسُولُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ» (١) وقيل: من قرأها في المنام أعطي التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله، وكان مستجاب الدعوة.

الفصل الثاني في سبب نزولها، وفيه وجوه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك: إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا: شققت عصانا، وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيرًا أغنيناك، وإن كنت مجنونًا داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها. فقال عليه الصلاة والسلام: «**لَسْتُ بِفَقِيرٍ، ولا مجنون، ولا هويت المرأة، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ أَدْعُوكُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَى عِبَادَتِهِ**» فأرسلوه ثانية وقالوا: قل له بيِّن لنا جنس معبودك، أمِن ذهب أو فضة. فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له: ثلثمائة وستون صنمًا لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ١-٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا: بيِّن لنا أفعاله. فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] **الثاني:** أنها نزلت بسبب سؤال اليهود، روى عكرمة عن ابن عباس أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكّنه، وقال: اخفض جناحك يا محمد. فنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما تلاه عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف عضده؟ وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] **الثالث:** أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس قال: قدم وفد نجران فقالوا: صف لنا ربك، أمِن زبرجد، أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: «**إِنَّ رَبِّي لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ لِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ**» فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا: هو واحد وأنت واحد. فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، قالوا: زدنا من الصفة. فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج. فقالوا: زدنا فنزل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما وُلد عيسى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يريد نظيرًا من خلقه.

الفصل الثالث في أساميها: اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه: فأحدها: سورة التفريد. **وثانيها:** سورة التجريد. **وثالثها:** سورة التوحيد. **ورابعها:** سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال، ولأن من اعتقده كان مخلصًا في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار، ولأن ما قبله خلص

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، حديث رقم (٧٧٤) والترمذي موصولاً عن البخاري في كتاب (فضائل القرآن) باب (سورة الإخلاص) (٥/ ١٥٦) حديث رقم (٢٩٠١) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب صحيح من طريق مدرك بن فضالة... به.

في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب . **وخامسها:** سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا، وعن النار في الآخرة . **وسادسها:** سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله، ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه، فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة . **وسابعها:** سورة النسبة لما روينا أنه ورد جوابًا لسؤال من قال: انسب لنا ربك، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم: «يَا أَخَا بَنِي سُلَيم اسْتَوْصِ بِنِسْبَةِ اللَّهِ خَيْرًا»(١) وهو من لطيف المباني؛ لأنهم لما قالوا: انسب لنا ربك. فقال: (نسبة الله هذا) والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبة الله في هذه السورة أَوْلى بالمحافظة عليها. **وثامنها:** سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ: (قل هو الله أحد) فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن هذا عبد عرف ربه» فسميت سورة المعرفة لذلك. **وتاسعها:** سورة الجَمَال، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»(٢) فسألوه عن ذلك فقال: أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحدًا عديم النظير، جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. **وعاشرها:** سورة المقشقشة، يقال: تقشيش المريض مما به، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التوبة: ١٠] **الحادي عشر:** المعوذة، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها، ثم قال: «تَعَوَّذْ بِهِنَّ، فَمَا تَعَوَّذْتَ بِخَيْرٍ مِنْهُنَّ»(٣) **والثاني عشر:** سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى. **والثالث عشر:** سورة الأساس، قال عليه الصلاة والسلام: «أُسِّسَتِ السَّمواتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ عَلَىٰ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»(٤) ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ [مريم: ٩٠] فوجب أن يكون التوحيد سببًا لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٥/ ٥) من طريق حمدان بن عبد المروزي عن عبد الله بن سعيد عن عبد الله بن زيد العمي عن هشام بن عامر عن الشعبي عن مسروق عن عائشة . . . به .

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ٩٣/ ٩١) من طريق إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود . . . به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٩٩) حديث رقم (٣٧٨٩) من طريق يحيى بن جعدة عن ابن مسعود . . . به .

(٣) لم أجده من رواية عثمان بن مظعون، وإنما جاء عن عثمان بن عفان وإسناده ضعيف، أخرجه البيهقي في (الدعوات الكبير) (٢/ ٩٨) حديث رقم (٤٩٤) والخطيب في (تاريخ بغداد) (١٣/ ٢٨٦)كلاهما من طريق حفص بن سليمان حدثنا علقمة بن مرثد عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان بن عفان . . . به، وفي إسناده حفص بن سليمان الأسدي قال الحافظ في التقريب: متروك الحديث مع إمامته في القراءة .

(٤) أخرجه الدينوري في المجالسة (٨/ ١٥٦) رقم (٣٤٥٨)، وأبو الحسن الخلعي في الفوائد (٥٣/ ٢) كما في السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني (٢/ ٥٨) رقم (٥٩٢) والحديث موضوع، فيه موسى بن محمد الدمياطي البلقاوي أبو طاهر، وأورده الذهبي في الميزان (٦/ ٥٥٩) ترجمة (٨٩٢٢) وحكم بوضعه الغماري في المغير (ص٢١).

﴿لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] **الرابع عشر**: سورة المانعة، روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به: أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة، تمنع عذاب القبر ولفحات النيران. **الخامس عشر**: سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت. **السادس عشر**: المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها. **السابع عشر**: البراءة لأنه روي أنه عليه السلام رأى رجلاً يقرأ هذه السورة، فقال: «**أما هذا فقد برئ من الشرك**» وقال عليه السلام: «**من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار**» **الثامن عشر**: سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد، فقراءة السورة كالوسمة، تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه. **التاسع عشر**: سورة النور، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فهوالمنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك، وقال عليه السلام: «**إِنَّ لِكلِّ شَيْءٍ نُورًا وَنُورُ الْقُرْآنِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**»(١) ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان. **العشرون**: سورة الأمان، قال عليه السلام: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي**»(٢).

الفصل الرابع في فضائل هذه السورة، وهي من وجوه: الأول: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة ذات الله ومعرفة صفاته، ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فهي معادلة لربع القرآن؛ لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك، وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح، فالأقسام أربعة، وسورة ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسامي، فهما المقشقشتان والمبرئتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله، أو من حيث إن ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به. **الوجه الثاني**: وهو أن ليلة القدر لكونها صدقًا للقرآن كانت خيرًا من

---

(١) لم أجده.

(٢) ضعيف: رواه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٥/ ٤٦٢) والشجريه في (الأمالي) (١/ ٣١) وابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة) (٢/ ٥٩٥) جميعًا من طريق أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب. . . به وقال المناوي (٤/ ٤٩٠) قال: الحافظ العراقي: إسناده ضعيف. وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٨٤٧٨) وقال: ضعيف.

ألف شهر، فالقرآن كله صدف، والدر هو قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة. **الوجه الثالث:** وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيرًا بنور جلال الله وكبريائه، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة، فكانت هذه السورة أعظم السور، فإن قيل: فصفات الله أيضًا مذكورة في سائر السور. **قلنا:** لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول، فيكون ذكر جلال الله حاضرًا أبدًا بهذا السبب، فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل. **ولنرجع الآن إلى التفسير:**

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة، إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه، ولا كان القبر سجنًا على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل، فصارت جنة مطلقة، **وبيان ما قلنا:** أن العقل يريد أمينًا تودع عنده الحسنات، والشهوة تريد غنيًّا يطلب منه المستلذات، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غني، فإنه ينشط للانتجاع إليه، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية، والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المتربصة، فلما عرفاه كما أراده عالمًا وغنيًّا تعلقا بذيله، فقال العقل: لا أشكر أحدًا سواك. وقالت الشهوة: لا أسأل أحدًا إلا إياك. ثم جاءت الشبهة فقالت: يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً؟ ويا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا بابًا آخر؟ فبقي العقل متحيرًا وتنغصت عليه تلك الراحة، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين، فكأن الحق سبحانه قال: كيف أنغص على عبدي لذة الاشتغال بخدمتي وشكري؟! فبعث الله رسوله وقال: لا تقله من عند نفسك، بل قل هو الذي عرفته صادقًا يقول لي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فعرفك الوحدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام: قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع، وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته، كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما عُلم بالعقل جواز وقوعه، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معًا، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئي... إلى غيرهما، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوحدانية في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

المسألة الثانية: اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ من (قل) وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ (قل) في سورة ﴿تَبَّتْ﴾ وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، فالقراءة المشهورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ أُبي وابن مسعود بغير قل، هكذا: ﴿هُوَ اللَّهُ

﴿أَحَدٌ﴾ وقرأ النبي ﷺ بدون (قُلْ هُوَ) هكذا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝﴾ فمن أثبت (قل) قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له. ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلومًا للنبي عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثالثة: اعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهًا: **أحدها**: أن (هو) كناية عن اسم الله، فيكون قوله: (الله) مرتفعًا بأنه خبر مبتدأ، ويجوز في قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ ما يجوز في قولك: زيد أخوك قائم. **الثاني**: أن (هو) كناية عن الشأن، وعلى هذا التقدير يكون الله مرتفعًا بالابتداء وأحد خبره، والجملة تكون خبرًا عن (هو) والتقدير الشأن والحديث هو أن الله أحد، ونظيره قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] إلا أن هي جاءت على التأنيث؛ لأن في التفسير اسمًا مؤنثًا، وعلى هذا جاء: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] **والثالث**: قال الزجاج: تقدير هذه الآية أن هذا الذي سألتم عنه هو الله أحد.

المسألة الرابعة: في (أحد) وجهان: **أحدهما**: أنه بمعنى واحد، قال الخليل: يجوز أن يقال: أحد، اثنان، وأصل أحد وحد إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف، وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة والمكسورة كقولهم: وجوه وأجوه وسادة وأسادة. **والقول الثاني**: أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين، قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد، أي فرد به، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء. ثم ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهًا: **أحدها**: أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه. **وثانيها**: أنك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان، بخلاف الأحد، فإنك لو قلت: فلان لا يقاومه أحد، لا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان. **وثالثها**: أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي، تقول في الإثبات: رأيت رجلاً واحدًا، وتقول في النفي: ما رأيت أحدًا. فيفيد العموم.

المسألة الخامسة: اختلف القراء في قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا (أحدنِ الله) وهو القياس الذي لا إشكال فيه، وذلك لأن التنوين من (أحد) ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة، ولما التقى ساكنان حُرك الأول منهما بالكسر، وعن أبيَ عمرو: (أحد الله) بغير تنوين، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزاد كما يزدن، فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك، نحو غزا القوم ويغزو القوم، ويرمي القوم، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحو: ﴿لَمْ يَكُ﴾ [الأنفال: ٥٣] ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ [هود: ١٧] فكذا ههنا حذفت في (أحد الله) لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف. وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وروي أيضًا عن أبي عمرو: (أحدْ الله) وقال: أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلاً على السكون. قال

أبو علي: قد تجري الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف، وعلى هذا قال من قال: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ﴾ [القارعة: ١٠-١١] لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم، وقرأ الأعمش: (قل هو الله الواحد) فإن قيل: لماذا؟ قيل: أحد على النكرة، قال الماوردي: فيه وجهان: أحدهما: حذف لام التعريف على نية إضمارها، والتقدير قل: هو الله الأحد. والثاني: أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم.

المسألة السادسة: اعلم أن قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألفاظ ثلاثة، وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين: **فالمقام الأول:** مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجودًا سوى الله؛ لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده، وأما ما عداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدومًا، فهؤلاء لم يروا موجودًا سوى الحق سبحانه، وقوله: ﴿هُوَ﴾ إشارة مطلقة، والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معينًا انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين، فلا جرم كان قولنا: (هو) إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز؛ لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط؛ فلهذا السبب كانت لفظة ﴿هُوَ﴾ كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء، **المقام الثاني:** وهو مقام أصحاب اليمين، وهو دون المقام الأول، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجودًا وشاهدوا الخلق أيضًا موجودًا، فحصلت كثرة في الموجودات، فلا جرم لم يكن هو كافيًا في الإشارة إلى الحق، بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق، فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة هو، فقيل: لأجلهم (هو الله) لأن الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه، ويستغني هو عن كل ما عداه. **والمقام الثالث:** وهو مقام أصحاب الشمال، وهو أخس المقامات وأدونها، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد، فقرن لفظ الأحد بما تقدم ردًا على هؤلاء وإبطالاً لمقالاتهم فقيل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

وههنا بحث آخر أشرف وأعلى مما ذكرناه: وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية فكقولنا: (عالم، قادر، مريد، خلاق) وأما السلبية فكقولنا: (ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعَرَض) والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات وثانيًا على النوع الثاني منها، وقولنا: (الله) يدل على مجامع الصفات الإضافية، وقولنا: (أحد) يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تامًّا في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية. وإنما قلنا: إن لفظ (الله) يدل على مجامع الصفات الإضافية، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبدًا بالإيجاد والإبداع، والاستبداد

بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفًا بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، وهذه مجامع الصفات الإضافية.

وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، فكل مركب فهو ممكن لذاته، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكنًا، فهو في نفسه فرد أحد، وإذا ثبتت الأحدية، وجب أن لا يكون متحيزًا لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزًا، وإذا لم يكن متحيزًا لم يكن في شيء من الأحياز والجهات، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء؛ لأنه مع محله لا يكون أحدًا، ولا يكون محلاً لشيء؛ لأنه مع حاله لا يكون أحدًا، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيرًا ألبتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة، وأيضًا إذا كان أحدًا وجب أن يكون واحدًا إذ لو فُرض موجودان واجبًا الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحدًا يستلزم كونه واحدًا. **فإن قيل:** كيف يعقل كون الشيء أحدًا، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاث لا أحد؟ **الجواب:** أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة، فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب، وتمام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وجهين الأول: أنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه، إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، قال الشاعر:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدِ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ[1]

وقال أيضًا:

عَلَوْتُهُ بِحُسَامِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُ ... خُذْهَا حُذَيْفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ[2]

---

(١) هذا البيت قصيدة من البحر الطويل لهند بنت معبد وهي شاعرة جاهلية، من بني أسد، كان جدها من ندماء النعمان، سكر النعمان ذات يوم فأمر بقتله ومعه عمرو بن مسعود فقتلا، فكان لها في ذلك شعر، كما أن لها أبياتًا في رثاه ابن عم لها يدعى خالد بن حبيب.

(٢) انظر سابقه.

والدليل على صحة هذا التفسير ما روى ابن عباس أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: مَا الصَّمَدُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ»[1] وقال الليث: صمدت صمد هذا الأمر، أي قصدت قصده. **والقول الثاني:** أن الصمد هو الذي لا جوف له، ومنه يقال لسداد القارورة، الصماد، وشيء مصمد، أي صُلب ليس فيه رخاوة. وقال قتادة: وعلى هذا التفسير: الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة: الصمد هو الأملس من الحجر الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء.

واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحدًا ينافي جسمًا فمقدمة هذا الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة، وتعالى الله عن ذلك، فإذن يجب أن يُحمل ذلك على مجازه، وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير، وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجبًا لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوي في هذه الآية.

وأما المفسرون: فقد نقل عنهم وجوه، بعضها يليق بالوجه الأول، وهو كونه تعالى سيدًا مرجوعًا إليه في دفع الحاجات، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية، وبعضها بالوجه الثاني وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته ممتنع التغير فيهما، وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعًا للوجهين.

أما النوع الأول فذكروا فيه وجوهًا: الأول: الصمد هو العالم بجميع المعلومات، لأن كونه سيدًا مرجوعًا إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك. **الثاني:** الصمد هو الحليم لأن كونه سيدًا يقتضي الحلم والكرم. **الثالث:** وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. **الرابع:** قال الأصم: الصمد هو الخالق للأشياء، وذلك لأن كونه سيدًا يقتضي ذلك. **الخامس:** قال السدي: الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب. **السادس:** قال الحسين بن الفضل البجلي: الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه. **السابع:** أنه السيد المعظم. **الثامن:** أنه الفرد الماجد لا يقضى في أمر دونه.

وأما النوع الثاني وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوهًا: الأول: الصمد هو الغني، على ما قال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الحديد: ٢٤] **الثاني:** الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام: ١٨] ولا يخاف من فوقه، ولا يرجو من دونه، تُرفع الحوائج إليه. **الثالث:** قال قتادة: لا يأكل ولا يشرب ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤] **الرابع:** قال قتادة: الباقي بعد فناء

---

(١) **إسناده ضعيف:** رواه الطبراني في (الكبير) (١٠/ ٢٤٨) حديث رقم (١٠٦١٩) من طريق عبيد الله بن عياش وموسى بن يزيد الحرانيان، قالا حدثنا جويبر بن الضحاك بن مزاحم الهلالي قال... فذكره ضمن حديث طويل، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٣٠٣) وقال: رواه الطبراني في حديث طويل، وفي إسناده جويبر وهو متروك.

خلقه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] **الخامس:** قال الحسن البصري: الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال، كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي، وهو الآن كما كان. **السادس:** قال يمان وأبو مالك: الذي لا ينام ولا يسهو. **الثامن:** قال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد. **التاسع:** قال مقاتل بن حبان: هو الذي لا عيب فيه. **العاشر:** قال الربيع بن أنس: هو الذي لا تغتريه الآفات. **الحادي عشر:** قال سعيد بن جبير: إنه الكامل في جميع صفاته، وفي جميع أفعاله. **الثاني عشر:** قال جعفر الصادق: إنه الذي يغلب ولا يُغلب. **الثالث عشر:** قال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد. **الرابع عشر:** قال أبو بكر الوراق: إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته. **الخامس عشر:** هو الذي لا تدركه الأبصار. **السادس عشر:** قال أبو العالية ومحمد القرظي: هو الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا وسيموت. **السابع عشر:** قال ابن عباس: إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد. **الثامن عشر:** أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات، وعن أن يكون موردًا للتغيرات والتبدلات، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات.

وأما الوجه الثالث: وهو أن يُحمل لفظ الصمد على الكل فهو محتمل، لأنه بحسب دلالته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب، وبحسب دلالته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع النعوت الإلهية.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله، وإذا كان الصمد مفسرًا بالمصمود إليه في الحوائج، أو بما لا يقبل التغير في ذاته، لزم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد، فقوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إشارة إلى كونه واحدًا، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ إشارة إلى كونه واحدًا، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد. **وبقي في الآية سؤالان:**

السؤال الأول: لم جاء ﴿أَحَدٌ﴾ منكرًا، وجاء ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ معرفًا؟ **الجواب:** الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم، فإذًا ما لا يكون منقسمًا لا يكون خاطرًا ببال أكثر الخلق، وأما الصمد فهو الذي يكون مصمودًا إليه في الحوائج، وهذا كان معلومًا للعرب بل لأكثر الخلق، على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق، لا جرم جاء لفظ (أحد) على سبيل التنكير ولفظ (الصمد) على سبيل التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تكرير لفظة (الله) في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؟ **الجواب:** لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا، إما نكرتين أو معرفتين، وقد

بينا أن ذلك غير جائز، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ (أحد) منكرًا ولفظ (الصمد) معرفًا.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾

فيه سؤالات:

السؤال الأول: لمَ قَدَّم قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ مع أن في الشاهد يكون أولاً مولودًا، ثم يكون والدًا؟ **الجواب:** إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد لأنهم ادعوا أن له ولدًا، وذلك لأن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود عزير ابن الله. وقالت النصارى المسيح ابن الله. ولم يدع أحد أن له والدًا فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كأنه قيل: الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره.

السؤال الثاني: لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ولم يقل: لن يلد؟ **الجواب:** إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جوابًا عن قولهم (ولد الله) والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي، لا جرم وردت الآية على وفق قولهم.

السؤال الثالث: لمَ قال ههنا: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]؟ **الجواب:** أن الولد يكون على وجهين: **أحدهما:** أن يتولد منه مثله، وهذا هو الولد الحقيقي. **والثاني:** أن لا يكون متولدًا منه ولكنه يتخذه ولدًا ويسميه هذا الاسم، وإن لم يكن ولدًا له في الحقيقة، والنصارى فريقان: منهم من قال: عيسى ولد الله حقيقة، ومنهم من قال: إن الله اتخذه ولدًا تشريفًا له، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفًا له، فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إشارة إلى نفي القسم الثاني، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] لأن الإنسان قد يتخذ ولدًا ليكون ناصرًا ومعينًا له على الأمر المطلوب، ولذلك قال في سورة أخرى: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة.

السؤال الرابع: نفي كونه تعالى والدًا ومولودًا، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا؟ **الجواب:** نفي كونه تعالى والدًا مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم، ونفي كونه تعالى مولودًا مستفاد من العلم بأنه تعالى قديم، والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية. بقي أن يقال: فلما لم يكن استفادتهما من السمع، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة؟ قلنا: قد بينا أن المراد من كونه أحدًا كونه سبحانه في ذاته وماهيته

منزهًا عن جميع أنحاء التراكيب، وكونه تعالى صمدًا معناه كونه واجبًا لذاته ممتنع التغير في ذاته وجميع صفاته، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية، لا جزم ذكر هذين الحكمين، فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما.

السؤال الخامس: هل في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية؟ **قلنا:** فيه فوائد كثيرة، وذلك لأن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزهًا عن التركيب، وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال، وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان وبين الفلاسفة، إلا أن مِن بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة، فإن الفلاسفة قالوا: إنه يتولد عن واجب الوجود عقل، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحته، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه، فالحق سبحانه وتعالى نفى الوالدية أولاً، كأنه قيل: إنه لم يلد العقول والنفوس، ثم قال: والشيء الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولودًا من شيء آخر، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

فيه سؤالان:

السؤال الأول: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله ورد مقدمًا في أفصح الكلام؟ **والجواب:** هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف، وتقديم الأهم أَوْلى؛ فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقًا للتقديم.

السؤال الثاني: كيف القراءة في هذه الآية؟ **الجواب:** قرئ: (كفوًا) بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طُنُب وطُنْب وعُنُق وعُنْق، وقال أبو عبيدة: يقال كفو وكفء وكفاء، كله بمعنى واحد وهو المثل.

وللمفسرين فيه أقاويل: أحدها: قال كعب وعطاء: لم يكن له مثل ولا عديل، ومنه المكافأة في الجزاء لأنه يعطيه ما يساوي ما أعطاه. **وثانيها:** قال مجاهد: لم يكن (له) صاحبة، كأنه سبحانه وتعالى قال: لم يكن أحد كفوًا له فيصاهره، ردًا على من حكى الله عنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ **وثالثها وهو التحقيق:** أنه تعالى لما بيَّن أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله: ﴿لَمْ

﴿يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ على ما بيناه، فحينئذٍ ختم السورة بأن شيئًا من الموجودات يمتنع أن يكون مساويًا له في شيء من صفات الجلال والعظمة، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي، وأما سائر الحقائق، فإنها قابلة للعدم، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالي ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل، وعلوم المحدثات كذلك، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان.

واعلم أن هذه السورة أربع آيات، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد:

الفائدة الأولى: أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسنًا و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ على أنه غني على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر، بل بمحض الإحسان وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات.

الفائدة الثانية: نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد، ونفى المعلولية والعلية ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ونفى الأضداد والأنداد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة، والنصارى في التثليث، والصابئين في الأفلاك والنجوم، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقًا سوى الله لأنه لو وُجد خالق آخر لما كان الحق مصمودًا إليه في طلب جميع الحاجات، والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، والمشركين في أن الملائكة بنات الله، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء.

الفائدة الرابعة: أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول، لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: (إنه أبتر لا ولد له) وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدًا، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿قُلْ﴾ حتى تكون ذابًا عني، وفي سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذابًا عنك والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَبْلَ الْخَوْضِ فِي التَّفْسِيرِ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ فَصْلَيْنِ:

الْفَصْلُ الأَوَّلُ: سَمِعْتُ بَعْضَ الْعَارِفِينَ فَسَّرَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ عَلَى وَجْهٍ عَجِيبٍ فَقَالَ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا شَرَحَ أَمْرَ الإِلَهِيَّةِ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ، ذَكَرَ هَذِهِ السُّورَةَ عَقِيبَهَا فِي شَرْحِ مَرَاتِبِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ فَقَالَ أَوَّلاً: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ [الفلق: ١] وَذَلِكَ لِأَنَّ ظُلُمَاتِ الْعَدَمِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي فَلَقَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ بِنُورِ التَّكْوِينِ وَالإِيجَادِ وَالإِبْدَاعِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ [الفلق: ١] ثُمَّ قَالَ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ [الفلق: ٢] وَالْوَجْهُ فِيهِ أَنَّ عَالَمَ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى قِسْمَيْنِ: عَالَمُ الأَمْرِ وَعَالَمُ الْخَلْقِ، عَلَى مَا قَالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَعَالَمُ الأَمْرِ كُلُّهُ خَيْرَاتٌ مَحْضَةٌ بَرِيئَةٌ عَنِ الشُّرُورِ وَالآفَاتِ، أَمَّا عَالَمُ الْخَلْقِ وَهُوَ عَالَمُ الأَجْسَامِ وَالْجُسْمَانِيَّاتِ، فَالشَّرُّ لاَ يَحْصُلُ إِلاَّ فِيهِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ عَالَمُ الأَجْسَامِ وَالْجُسْمَانِيَّاتِ بِعَالَمِ الْخَلْقِ لِأَنَّ الْخَلْقَ هُوَ التَّقْدِيرُ، وَالْمِقْدَارُ مِنْ لَوَاحِقِ الْجِسْمِ، فَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لاَ جَرَمَ قَالَ: أَعُوذُ بِالرَّبِّ الَّذِي فَلَقَ ظُلُمَاتِ بَحْرِ الْعَدَمِ بِنُورِ الإِيجَادِ وَالإِبْدَاعِ مِنَ الشُّرُورِ الْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ الْخَلْقِ وَهُوَ عَالَمُ الأَجْسَامِ وَالْجُسْمَانِيَّاتِ، ثُمَّ مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ الأَجْسَامَ إِمَّا أَثِيرِيَّةٌ أَوْ عُنْصُرِيَّةٌ وَالأَجْسَامُ الأَثِيرِيَّةُ خَيْرَاتٌ؛ لِأَنَّهَا بَرِيئَةٌ عَنِ الاخْتِلَالِ وَالْفُطُورِ، عَلَى مَا قَالَ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝﴾ [الملك: ٣] وَأَمَّا الْعُنْصُرِيَّاتُ فَهِيَ إِمَّا جَمَادٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ، أَمَّا الْجَمَادَاتُ فَهِيَ خَالِيَةٌ عَنْ جَمِيعِ الْقُوَى النَّفْسَانِيَّةِ، فَالظُّلْمَةُ فِيهَا خَالِصَةٌ وَالأَنْوَارُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ زَائِلَةٌ، وَهِيَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾ [الفلق: ٣] وَأَمَّا النَّبَاتُ فَالْقُوَّةُ الْعَادِيَةُ النَّبَاتِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَزِيدُ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمْقِ مَعًا، فَهَذِهِ النَّبَاتِيَّةُ كَأَنَّهَا تَنْفُثُ فِي الْعُقَدِ الثَّلَاثَةِ، وَأَمَّا الْحَيَوَانُ فَالْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةُ هِيَ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ وَالْحَوَاسُّ الْبَاطِنِيَّةُ وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ، وَكُلُّهَا تَمْنَعُ الرُّوحَ الإِنْسَانِيَّةَ عَنِ الانْصِبَابِ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ، وَالاشْتِغَالِ بِقُدْسِ جَلَالِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق: ٥] ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ السُّفْلِيَّاتِ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ سِوَى النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَهِيَ الْمُسْتَعِيذَةُ، فَلاَ تَكُونُ مُسْتَعَاذًا مِنْهَا، فَلاَ جَرَمَ قَطَعَ هَذِهِ السُّورَةَ وَذَكَرَ بَعْدَهَا فِي سُورَةِ النَّاسِ مَرَاتِبَ دَرَجَاتِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ فِي التَّرَقِّي، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا بِأَصْلِ فِطْرَتِهَا مُسْتَعِدَّةٌ لأن تنتقش بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّتِهِ إِلاَّ أَنَّهَا تَكُونُ أَوَّلَ الأَمْرِ خَالِيَةً عَنْ هَذِهِ الْمَعَارِفِ بِالْكُلِّيَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ يَحْصُلُ فِيهَا عُلُومٌ أَوَّلِيَّةٌ بَدِيهِيَّةٌ يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ بِهَا إِلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، ثُمَّ فِي آخِرِ الأَمْرِ تِلْكَ الْمَجْهُولَاتِ الْفِكْرِيَّةِ مِنَ

الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ١] إِشَارَةٌ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْ مَرَاتِبِ النفس الإنسانية وَهِيَ حَالُ كَوْنِهَا خَالِيَةً مِنْ جَمِيعِ الْعُلُوم الْبَدِيهِيَّةِ وَالْكَسْبِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ فِي تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ تَحْتَاجُ إِلَى مُرَبٍّ يُرَبِّيهَا وَيُزَيِّنُهَا بِتِلْكَ الْمَعَارِفِ الْبَدِيهِيَّةِ، ثُمَّ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ عِنْدَ حُصُولِ هَذِهِ الْعُلُوم الْبَدِيهِيَّةِ يَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةٌ مِنَ الانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى اسْتِعْلَامِ الْعُلُومِ الْفِكْرِيَّةِ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ٢] ثُمَّ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ وَهِيَ عِنْدَ خُرُوجِ تِلْكَ الْعُلُوم الْفِكْرِيَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ يَحْصُلُ الْكَمَالُ التَّامُّ لِلنَّفْسِ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ٣] فَكَأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يُسَمِّي نَفْسَهُ بِحَسَبِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَا يَلِيقُ بِتِلْكَ الْمَرْتَبَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ٤] وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْقُوَّةُ الْوَهْمِيَّةُ، وَالسَّبَبُ فِي إِطْلَاقِ اسْمِ الْخَنَّاسِ عَلَى الْوَهْمِ أَنَّ الْعَقْلَ وَالْوَهْمَ قَدْ يَتَسَاعَدَانِ عَلَى تَسْلِيمِ بَعْضِ الْمُقَدِّمَاتِ، ثُمَّ إِذَا آلَ الْأَمْرُ إِلَى النَّتِيجَةِ فَالْعَقْلُ يُسَاعِدُ عَلَى النَّتِيجَةِ، وَالْوَهْمُ يَخْنَسُ، وَيَرْجِعُ وَيَمْتَنِعُ عَنْ تَسْلِيمِ النَّتِيجَةِ فَلِهَذَا السَّبَبِ يُسَمَّى الْوَهْمُ بِالْخَنَّاسِ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ ضَرَرَ هَذَا الْخَنَّاسِ عَظِيمٌ عَلَى الْعَقْلِ، وَأَنَّهُ قَلَّمَا يَنْفَكُّ أَحَدٌ عَنْهُ، فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَرَاتِبَ الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ وَنَبَّهَ عَلَى عَدُوِّهَا، وَنَبَّهَ عَلَى مَا بِهِ يَقَعُ الِامْتِيَازُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَبَيْنَ الْوَهْمِ، وَهُنَاكَ آخِرُ دَرَجَاتِ مَرَاتِبِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا جَرَمَ وَقَعَ خَتْمُ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ.

الْفَصْلُ الثَّانِي: ذَكَرُوا فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ وُجُوهًا: أَحَدُهَا: رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاهُ وَقَالَ: إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ يَكِيدُكَ. فَقَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ السُّورَتَيْنِ. وَثَانِيهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُمَا عَلَيْهِ لِيَكُونَا رُقْيَةً مِنَ الْعَيْنِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ قُرَيْشًا قَالُوا: تَعَالَوْا نَتَجَوَّعْ فَنَعِينُ مُحَمَّدًا فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَتَوْهُ وَقَالُوا مَا أَشَدَّ عَضُدَكَ وَأَقْوَى ظَهْرَكَ وَأَنْضَرَ وَجْهَكَ!! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُعَوِّذَتَيْنِ. وَثَالِثُهَا: -وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ- أَنَّ لَبِيدَ بْنَ أَعْصَمَ الْيَهُودِيَّ سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ فِي إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً وَفِي وَتَرٍ دَسَّهُ فِي بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا ذِرْوَانُ؛ فَمَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَنَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ لِذَلِكَ، وَأَخْبَرَهُ جِبْرِيلُ بِمَوْضِعِ السِّحْرِ فَأَرْسَلَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَلْحَةَ وَجَاءَا بِهِ، وَقَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ: حِلَّ عُقْدَةً، وَاقْرَأْ آيَةً. فَفَعَلَ، وَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَكَانَ يَجِدُ بَعْضَ الْخِفَّةِ وَالرَّاحَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ بِأَسْرِهِمْ، قَالَ الْقَاضِي: هَذِهِ الرِّوَايَةُ بَاطِلَةٌ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِصِحَّتِهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وَلِأَنَّ تَجْوِيزَهُ يُفْضِي إِلَى الْقَدْحِ فِي النُّبُوَّةِ، ولأَنَّهُ لَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الضَّرَرِ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَقَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، وَلِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُعَيِّرُونَهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، فَلَوْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ لَكَانَ الْكُفَّارُ صَادِقِينَ فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ، وَلَحَصَلَ فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ الْعَيْبُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ.

قَالَ الأَصْحَابُ: هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ صَحَّتْ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ النَّقْلِ، وَالْوُجُوهُ الْمَذْكُورَةُ قَدْ سَبَقَ الْكَلامُ عَلَيْهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، أَمَّا قَوْلُهُ: (الْكُفَّارُ كَانُوا يَعِيبُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، فَلَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَكَانَ الْكُفَّارُ صَادِقِينَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ) فَجَوَابُهُ: أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُرِيدُونَ بِكَوْنِهِ مَسْحُورًا أَنَّهُ مَجْنُونٌ أُزِيلَ عَقْلُهُ بِوَاسِطَةِ السِّحْرِ؛ فَلِذَلِكَ تَرَكَ دِينَهُمْ، فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مَسْحُورًا بِأَلَمٍ يَجِدُهُ فِي بَدَنِهِ فَذَلِكَ مِمَّا لاَ يُنْكِرُهُ أَحَدٌ، وَبِالْجُمْلَةِ فَاللَّهُ تَعَالَى مَا كَانَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ لاَ شَيْطَانًا وَلاَ إِنْسِيًّا وَلاَ جِنِّيًّا يُؤْذِيهِ فِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ وَنُبُوَّتِهِ، فَأَمَّا فِي الإِضْرَارِ بِبَدَنِهِ فَلاَ يَبْعُدُ، وَتَمَامُ الْكَلاَمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ ولنرجع إلى التفسير.

سورة الإخلاص

مكِّيَّةٌ في قول ابن مسعود والحسنِ وعطاءٍ وعكرمةَ وجابر. ومدنيةٌ في أحد قولي ابن عباس وقتادةَ والضَّحَّاك والسُّدِّي[1]. وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الواحدُ الوِترُ، الذي لا شبيهَ له، ولا نظيرَ ولا صاحبة، ولا ولدَ ولا شريك. وأصل «أَحَدٌ»: وَحَدٌ، قُلِبت الواو همزة. ومنه قولُ النابغة:

بِذي الجَليلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ[2]

وقد تقدَّم في سورة البقرة الفرقُ بين واحِد وأَحَدٍ، وفي كتاب «الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى»[3] أيضاً مُسْتَوفًى. والحمدُ لله.

و«أَحَدٌ» مرفوع، على معنى: هو أَحَدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمرُ والشأن اللهُ أَحَد. وقيل: «أَحَد» بدلٌ من قوله: «الله»[4].

وقرأ جماعة: «أَحَدُ اللهُ» بلا تنوين[5]، طلباً للخِفَّة، وفراراً من التقاء الساكنين،

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦٩ ، وزاد المسير ٩/ ٢٦٤ .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٣١ ، وهذا عجز البيت، وصدره: كأن رحلي وقد زال النهار بنا. وذو الجَليل: واد قرب مكة. معجم البلدان ٢/ ١٥٨ . والمستأنِس هو الناظر بعينيه.

(٣) ص ١٦٤ و١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) ذكر هذا الوجه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦ .

(٥) ذكر ابن مجاهد في السبعة ص ٧٠١ أنها قراءة أبي عمرو في رواية هارون عنه، وهي غير المشهورة عنه.

ومنه قولُ الشاعر:

ولا ذاكِـرَ الـلَّـهَ إلَّا قَـلِـيـلا[١]

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ أي: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات. كذا رَوَى الضَّحاك عن ابن عباس، قال: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات[٢]، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. قال أهل اللغة: الصَّمد: السَّيد الذي يُصْمد إليه في النوازل والحوائج[٣]. قال:

أَلَا بَكَّـرَ الـنـاعِـي بِـخَـيـرِ بَـنـي أَسَـدْ بعمرِو بن مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[٤]

وقال قوم: الصَّمَدُ: الدائم الباقي، الذي لم يَزَل ولا يزال[٥].

وقيل: تفسيره ما بعده: «لَمْ يلِدْ ولم يُوْلَدْ». قال أُبَيُّ بنُ كَعْب: الصَّمَدُ: الذي لا يلِدُ ولا يُولَد؛ لأنه ليس شيء يولد[٦] إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورث[٧].

وقال عليٌّ وابنُ عباس أيضاً وأبو وائل شقِيقُ بنُ سَلَمةَ وسفيان: الصَّمَد: هو السَّيِّد الذي قد انتهى سُؤدَدُه في أنواع الشَّرف والسُّؤدَد[٨]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) سلف ٣/ ١٥ ، وصدره: فألفيته غير مُسْتَعْتِب.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٥ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٩/ ٢٦٧ .

(٣) الصحاح (صمد).

(٤) أورده برواية المصنف أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٦ ونسبه للأسدي، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص٥٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦ ولم ينسباه. وذكره برواية: بخيري، بدل: بخير، الطبري ٢٤/ ٧٣٧ ، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٧٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ولم ينسبوه، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٢٦٩ ونسبه لبنت معبد بن نضلة.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ونسبه للحسن.

(٦) لفظة: يولد، ليست في (م).

(٧) سيأتي تخريجه قريباً عند ذكر المصنف له مطولاً.

(٨) أخرجه عن ابن عباس وأبي وائل الطبري ٢٤/ ٧٣٥ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٨) و(٩٩). وقول سفيان في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ .

عَلَوتُهُ بِحُسامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ[١]

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كلِّ أحد[٢]، والمحتاجُ إليه كلُّ أحد.

وقال السدِّيُّ: إنه المقصودُ في الرغائب، والمستعانُ به في المصائب.

وقال الحسين بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال مقاتل: إنه الكاملُ الذي لا عيبَ فيه[٣]، ومنه قول الزِّبرِقان:

سِيروا جميعاً بِنِصفِ الليلِ واعتمِدُوا ولا رَهِينَةَ إلَّا سَيِّدٌ صَمَدُ[٤]

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جُبير: الصَّمَد: المُصْمَتُ الذي لا جَوْف له[٥]، قال الشاعر:

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه عَوَابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُصَمَّدا[٦]

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مُبيَّنةً في الصَّمَد، في كتاب «الأَسنَى» وأنَّ الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق، وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي.

وقد أسقط مِن هذه السورة مَن أبعده الله وأخزاه، وجَعَل النار مَقامه ومثواه، وقرأ: «اللهُ الواحدُ الصَّمَدُ» في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَطَ: «قُلْ هو»، وزعم أنه ليس من القرآن. وغيَّر لفظَ «أَحَدٍ»، وادَّعى أنَّ هذا هو الصواب، والذي عليه

---

(١) أورده أبو علي القالي في أماليه ٢/ ٢٨٨، والجوهري في الصحاح (صمد)، وابن فارس في مجمل اللغة ٢/ ٥٤١، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ولم ينسبوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٧٢، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٨١.

(٣) قول السُّدِّي والحسين بن الفضل ومقاتل في النكت والعيون ٦/ ٣٧٢، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٨١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٧١ وفيه: ساروا، بدل: سيروا. وألَّا، بدل: ولا. والسيد الصمد، بدل: سيد صمد. وأورد الشطر الثاني براوية المصنف أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٦، والطبري ٢٤/ ٧٣٧.

(٥) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٧٣٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦: وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الجسم في غاية البعد عن صفات الله تعالى.

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١، والشَّكيم جمع شكيمة: وهو الحديدة المعترضة في فم الفرس. القاموس (شكم).

الناسُ هو الباطل والمحال، فأبطل معنى الآية؛ لأن أهلَ التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشِّرك لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: «قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ»(١). ففي «هُوَ» دلالةٌ على موضع الردِّ، ومكانِ الجواب، فإذا سقط بَطَلَ معنى الآية، وصحَّ الافتراء على الله عزَّ وجلَّ، والتكذيبِ لرسوله ﷺ(٢).

وروى الترمذيُّ عن أُبيِّ بن كعب أنَّ المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربَّك، فأنزل الله عز وجل: «قل هُوَ الله أحد . الله الصمد». والصَّمَد: الذي لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شيءٌ يُولَد إلَّا سيموت، وليس شيءٌ يموت إلا سيورَث، وإنَّ الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(٣) قال: لم يكن له شبيهٌ ولا عِدْل، وليس كمثله شيء(٤).

ورُويَ عن أبي العالية أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا رَبَّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة «قُلْ هُوَ الله أحد»، فذكره نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيِّ بن كعب، وهذا أصحُّ. قاله الترمذيّ(٥).

قلت: ففي هذا الحديث إثباتُ لفظ «قل هو الله أحد» وتفسيرُ الصَّمَد، وقد تقدَّم. وعن عكرمةَ نحوه. وقال ابن عباس: «لَمْ يَلِدْ» كما وَلَدَتْ مَرْيَم، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ. وهو ردٌّ على النصارى، وعلى مَن قال: عُزَيرٌ ابن الله.

«ولم يكن له كفواً أحد» أي: لم يكن له مِثْلاً أحد. وفيه تقديمٌ وتأخير، تقديره: ولم يكن له كُفُواً أحد(٦)، فقدَّم خبر كان على اسمها، لِينساقَ أواخرُ الآي على نظم واحد.

---

(١) سلف ١/١٣٣ .

(٢) ذكر المصنف هذا الكلام في سورة البقرة ١/١٢٨ و١٣٣ .

(٣) وقع في (ظ): كفؤاً، بالهمز. وسنذكر قريباً الأوجه فيها وصاحب كل وجه.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦٤)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢١٢١٩) مختصراً، وفي إسنادهما أبو سعد محمد بن مُيَسَّر الصاغاني، وأبو جعفر الرازي وهو عيسى بن عبد الله بن ماهان، وهما ضعيفان. كما في التقريب.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٦٥) وفيه أيضاً أبو جعفر الرازي وهو ضعيف كما بينا.

(٦) كذا في النسخ، والصواب أن يقول: تقديره: ولم يكن له أحدٌ كفواً. وينظر تفسير البغوي ٤/٥٤٥ .

وقُرِئَ: «كُفْواً» بضمِّ الفاء وسكونها[١]. وقد تقدَّم في «البقرة»[٢] أنَّ كلَّ اسم على ثلاثة أحرف أوّلُه مضموم، فإنه يجوز في عينه الضمُّ والإسكان؛ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] لِعِلَّة تقدَّمت. وقرأ حفص: «كُفُواً» مضمومَ الفاء غيرَ مهموز. وكلُّها لغاتٌ فصيحة.

القولُ في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة، وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في «صحيح» البخاريِّ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: «قُلْ هو الله أحد» يردِّدها، فلمَّا أصبح جاء إلى النبيِّ ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يَتَقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن»[٣].

وعنه قال: قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «أيعجِز أحدُكم أن يقرأ ثُلُث القرآن في ليلة» فشَقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أيُّنا يُطِيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «اللهُ الواحدُ الصَّمد ثُلُث القرآن»[٤]. خرَّجه مسلم من حديث أبي الدرداء ﷺ بمعناه[٥].

وخرَّج عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «احْشِدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلثَ القُرْآن». فحشدَ مَنْ حَشَد، ثم خرج نبيُّ الله ﷺ فقرأ: «قُلْ هُوَ الله أحد» ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاكَ الذي أَدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثُلُث القرآن، أَلَا إنَّها تَعْدِل ثُلُثَ القرآن»[٦].

---

(١) قرأ حفص: «كُفُواً» بضم الفاء وفتح الواو من غير همز، وسيذكرها المصنف قريباً. وقرأ حمزة بإسكان الفاء مع الهمز في الوصل، فإذا وقف أبدل الهمزة واواً مفتوحة اتباعاً للخط. وقرأ الباقون بضم الفاء مع الهمزة. التيسير ص ٢٢٦، وينظر السبعة ص ٧٠١ - ٧٠٢.

(٢) ٢/ ١٨٠.

(٣) صحيح البخاري (٥٠١٣)، وهو عند أحمد (١١٣٠٦). وقوله: يتقالُّها: أصله يتقاللها، أي: يعتقد أنها قليلة، والمراد استقلال العمل لا التنقيص. فتح الباري ٩/ ٦٠.

(٤) صحيح البخاري (٥٠١٥)، وهو عند أحمد (١١٠٥٣).

(٥) صحيح مسلم (٨١١): (٢٥٩)، وهو عند أحمد (٢١٧٠٥).

(٦) صحيح مسلم (٨١٢): (٢٦١)، وهو عند أحمد (٩٥٣٥).

قال بعض العلماء: إنها عَدَلَتْ ثُلُثَ القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو «الصَّمَد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السُّور. وكذلك «أَحَدٌ».

وقيل: إنَّ القرآن أُنزِل أثلاثاً، ثُلُثاً منه أحكام، وثُلُثاً منه وعدٌ ووعيد، وثلثاً منه أسماءٌ وصفات، وقد جَمَعتْ «قُل هو الله أحد» الثُّلُثَ[1]، وهو الأسماء والصِّفات. ودلَّ على هذا التأويل ما في «صحيح» مسلم من حديث أبي الدَّرداء ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله جلَّ وعزَّ جزَّأ القرآن ثلاثةَ أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن»[2]. وهذا نَصٌّ، وبهذا المعنى سُمِّيت سورةَ الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ «قل هو الله أحد»، فلمَّا رجعوا، ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «سَلُوهُ لأيِّ شيءٍ يصْنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفةُ الرَّحمن، فأنا أحِبُّ أَنْ أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُحِبُّه»[3].

وروى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قُباء، وكان كلَّما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها[4]، افتتح بـ«قل هو الله أحد»، حتى يفرُغ منها، ثم قرأ سورة[5] أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كلِّ ركعة؛ فكلَّمه أصحابه، فقالوا: إنَّك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تُجزئُك حتى تقرأ بسُورة أخرى، فإمَّا أن تقرأ بها، وإمَّا أن تدعَها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أَؤُمَّكم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يَرَوْنَه أفضلَهم،

(١) في النسخ عدا (ز): الأثلاث، والمثبت من (ز).

(٢) صحيح مسلم (٨١١): (٢٦٠)، وهو عند أحمد (٢٧٤٩٨).

(٣) صحيح (٨١٣)، وهو عند البخاري (٧٣٧٥).

(٤) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٨/ ٢١٢ - ٢١٣: الظاهر أن في قوله: يقرأ بها (كذا وقعت عنده) تكراراً فتفكَّر.

(٥) في (م) وسنن الترمذي: ثم يقرأ بسورة.

وكرهوا أن يَؤُمَّهم غيره؛ فلمَّا أتاهم النبيُّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنُعك ما يأمرك به[١] أصحابك؟ وما يحملُك أن تقرأ هذه السورة في كلِّ ركعة»؟ فقال: يا رسول الله، إنِّي أحبُّها، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حُبَّها أدْخَلَكَ الجَنَّة». قال: حديث حسنٌ غريب صحيح[٢].

قال ابن العربيِّ[٣]: فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تَكرار سورة في كلِّ ركعة. وقد رأيتُ على باب الأسباط[٤] فيما يَقْرُب منه، إماماً ـ من جملة الثمانيةِ والعشرينَ إماماً ـ كان يصلِّي فيه التراويح في رمضان بالأتراك، فيقرأ في كلِّ ركعة «الحمد للَّه»، و«قل هو الله أحد» حتى يتمَّ التراويح، تخفيفاً عليه، ورغبةً في فضلها، وليس من السنة خَتْمُ القرآن في رمضان.

قلت: هذا نصُّ قولِ مالك، قال مالك: وليس خَتْمُ القرآن في المساجد بسنة[٥].

الثالثة: روى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: أقبلتُ مع النبيِّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: «قل هو الله أحد»، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». قال: هذا حديث حسن صحيح[٦].

قال الترمذيُّ: حدَّثنا محمد بنُ مرزوق البصريُّ، قال: حدَّثنا حاتم بنُ ميمون أبو سهلٍ، عن ثابتٍ البُنانيِّ، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن قرأ كلَّ يوم مئتي مرَّةٍ: «قل هو الله أحد»، مُحيَ عنه ذنوبُ خمسينَ سنةً، إلَّا أن يكون عليه دَين».

---

(١) في (م) وسنن الترمذي: مما يأمر به.

(٢) سنن الترمذي (٢٩٠١)، وأورده البخاري تعليقاً قبل حديث (٧٧٥).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨٣ .

(٤) باب الأسباط أحد أبواب المسجد الأقصى. ينظر معجم البلدان ٥/ ١٧٠ .

(٥) المدونة ١/ ٢٢٣ .

(٦) سنن الترمذي (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ لا من حديث أنس كما ذكر المصنف، وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً أحمد (٨٠١١)، والنسائي ٢/ ١٧١ . ووقع في سنن الترمذي وعارضة الأحوذي ١١/ ٢٥ : حديث حسن غريب، بدل: حديث حسن صحيح. وفي تحفة الأحوذي ٨/ ٢٠٩ ، وتفسير ابن كثير ٨/ ٥٢٣ نقلاً عن الترمذي: حسن صحيح غريب.

وبهذا الإسناد عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ: قُل هُوَ اللهُ أحد، مئةَ مرَّةٍ، فإذا كان يومُ القيامة يقول له الربُّ: يا عبدي، ادخلْ على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريبٌ من حديث ثابت عن أنس(١).

وفي مسند أبي محمدٍ الدارميِّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» خمسين مرَّةً، غفرتُ له ذنوب خمسينَ سنة»(٢).

قال: وحدَّثنا عبد الله بن يزيد قال: حدَّثنا حَيْوة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيدَ بنَ المسيَّب يقول: إنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» عَشْرَ مرَّاتٍ بنُي له قصرٌ في الجنة. ومَن قرأها عشرين مرَّةً، بُني له بها قصران في الجنة. ومَن قرأها ثلاثين مرَّةً، بُني له بها ثلاثةُ قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: واللهِ يا رسولَ الله إذًا لَنُكْثِرَنَّ قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك». قال أبو محمد: أبو عقيل زُهْرة بن مَعْبَد، وزعموا أنه كان من الأبدال(٣).

وذكر أبو نُعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بنِ عبد الله بنِ الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: «قل هو الله أحد» في مرضه الذي يموت فيه، لم يُفتَن في قَبره. وأَمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يومَ القيامة بأكُفِّها، حتى تُجيزَه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرَّد به نصر بن حمادٍ البَجَليّ(٤).

---

(١) أخرج هذين الحديثين الترمذي (٢٨٩٨)، وهما ضعيفان لضعف حاتم بن ميمون، قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، وقال ابن عدي: يروي عن ثابت ما لا يتابع عليه. ينظر ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩، وتقريب التهذيب.

(٢) مسند الدارمي (٣٤٣٨)، قال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٢٤ : إسناده ضعيف.

(٣) مسند الدارمي (٣٤٢٩) وهو مرسل.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢١٣ دون قوله: هذا حديث غريب...، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٥٧٨١). قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٥ : رواه الطبراني في الأوسط، وقال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، وفيه نصر بن حماد الورَّاق، وهو متروك. اهـ. ونصر بن حماد هذا قال عنه مسلم: ذاهب الحديث، وقال ابن معين: كذاب. ميزان الاعتدال ٤/ ٢٥٠ - ٢٥١ .

وذكر أبو بكر أحمدُ بن عليٍّ بن ثابتٍ الحافظُ، عن عيسى بنِ أبي فاطمةَ الرازي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس اشتدَّ غضب الرحمن، فتنزلُ الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون: «قل هو الله أحد» حتى يسكُنَ غضبُه جلَّ وعزَّ[(١)].

وخَرَّج من حديث محمد خالدِ الجَندِيِّ، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمرَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دخل يومَ الجمعة المسجد، فصلَّى أربع رَكَعات، يقرأ في كلِّ ركعة بفاتحة الكتاب و«قل هو الله أحد» خمسينَ مرَّةً، فذلك مئتا مرَّةٍ في أربع رَكَعات، لم يَمُتْ حتى يَرى منزله في الجنة أو يُرَى له»[(٢)].

وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البَجَليِّ، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» حين يدخل منزله، نَفَت الفَقْر عن أهل ذلك المنزلِ وعن الجيران»[(٣)].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» مرَّةً، بُورِك عليه، وَمن قرأها مرَّتين، بُورِك عليه وعلى أهله، ومَن قرأها ثلاثَ مرات، بُورِك عليه وعلى جميع جيرانه، ومَن قرأها اثنتي عَشْرة بنى الله له اثني عَشَرَ قصراً في الجنة، وتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مئة مرَّةٍ، كفَّر الله عنه ذنوب خمسينَ سنة، ما خلا الدِّماءَ والأموال، فإن قرأها أربعَ مئةِ مرَّةٍ، كفَّر الله عنه

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤١٣ وعزاه للطبراني من طريق أبي بكر البرذعي عن أبي زرعة وأبي حاتم عن عيسى بن أبي فاطمة، به. ولم نقف عليه عند الطبراني.

(٢) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من طريق عبد الله بن وصيف الجندي عن علي بن زياد اللخمي عن محمد بن خالد الجندي، به. وقال: لا يصح هذا، وعبد الله بن وصيف مجهول. وذكره الخطيب في الرواة عن مالك من غير هذا الوجه، وقال: غريب جداً، لا أعلم له وجهاً إلا هذا. لسان الميزان ٣/ ٣٧٤ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١٩) من طريق أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جرير مرفوعاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه السورة: إسناده ضعيف. اهـ. ووقع في (ز) و(ظ) و(ي): أبو عمرو مولى جرير.

ذنوب مئة سنةٍ، فإن قرأها ألف مرَّةٍ، لم يمت حتى يَرَى مكانه في الجنة أو يُرى له»[١].

وعن سهل بن سعدٍ الساعديِّ قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفَقْر وضيقَ المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلتَ البيت، فسلِّمْ إن كان فيه أحد، وإن لم يكن به أحد فسلم عليَّ، واقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرَّةً واحدة». ففعل الرجل، فأدرَّ الله عليه الرِّزق، حتى أفاض على جيرانه[٢].

وقال أنس: كنَّا مع رسول الله ﷺ بتَبُوكَ، فطلعتْ الشَّمس بيضاءَ لها شعاعٌ ونور، لم أَرَها فيما مضى طلعتْ قطُّ كذلك، فأتى جبريلُ، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريلُ، مالي أرى الشَّمس طلعتْ بيضاءَ بشعاع لم أرها طلعتْ كذلك فيما مضى قطُّ؟» فقال: «ذلك لأن معاويةَ بنَ معاويةَ اللَّيثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عليه». قال: «ومِمَّ ذلك؟» قال: «كان يكثر قراءة: «قل هو الله أحد» آناء الليل وآناءَ النهار، وفي ممشاه وقيامِه وقعودِه، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلِّي عليه؟»». قال: «نعم». فصلَّى عليه، ثم رجع[٣]. ذكره الثعلبيُّ، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٥/ ١٩٠ بنحوه، وفيه أبان بن أبي عيَّاش، وهو متروك، كما قال ابن حجر في التقريب.

(٢) أورده الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٤ وفيه: وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، بدل... فسلم عليَّ. ولم نقف عليه في مصادر التخريج.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٢٦٧)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٤٥ ، وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة ١٠/١٥٣ - ١٥٤ . وفيه العلاء بن زيد، وقيل: ابن زَيْدَل، قال ابن حجر في الإصابة ٢٣٨/٩ - ٢٣٩ بعد أن أورده من طريقه: والعلاء أبو محمد هو ابن زيد الثقفي واهٍ. وقال الذهبي في الميزان ٩٩/٣ : تالف، قال ابن المديني: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: روى عن أنس نسخة موضوعة، منها: الصلاة بتبوك صلاة الغائب على معاوية بن معاوية الليثي. اهـ. ووقع في مسند أبي يعلى: فبعث الله ألف ملك، بدل: فبعث الله سبعين ألف ملك.

سورة الإخلاص

مختلفٌ فيها، وآيُها أربَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضَّميرُ للشَّأنِ؛ كقولِك: هو زَيدٌ مُنطَلِقٌ، وارتفاعُه بالابتداءِ، وخبرُهُ الجُملَةُ، ولا حاجةَ إلى العائدِ لأنَّها هي هو.

أو: لِمَا سُئِلَ عنه؛ أي: الذي سَألْتُم عنه هو اللهُ، إذ رُوِيَ أنَّ قُرَيشًا قالوا: يا مُحَمَّدُ! صِفْ لنا رَبَّك الذي تدعونا إليه، فنزلَتْ(١).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٢٨).

وروى الترمذي (٣٣٦٤) من طريق أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العاليَة، عن أبيِّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُب لنا ربَّك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. ثم رواه الترمذي من طريق أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيع، عن أبي العالية، وقال: هذا أصح. قلنا: وكلاهما ضعيف لضعف الرازي.

وفي الباب عن جابر مثل حديث أبيٍّ، رواه الطبري (٢٤/ ٧٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٥٦٨٧)، وإسناده ضعيف أيضاً لضعف مجالد بن سعيد.

وروى نحوه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٠٨) عن جابر، وفيه أن السائل أعرابي. وفي إسناده مجالد بن سعيد أيضاً.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٥٠٢) عن ابن عباس دون سند، وفيه أن السائل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة.

و﴿أَحَدٌ﴾ بدلٌ، أو خبرٌ ثانٍ يدلُّ على مَجامعِ صِفاتِ الجَلالِ كما دلَّ اللهُ على جميعِ صفاتِ الكمالِ(١)، إذ الواحدُ الحَقيقيُّ ما يكونُ مُنزَّهَ الذَّاتِ عن أنحاءِ التَّركيبِ والتَّعدُّدِ وما يستلزِمُ أحدَهُما كالجسميَّةِ والتَّحيُّزِ، والمشاركةِ في الحقيقةِ وخواصِّها، كوُجوبِ الوُجودِ والقدرةِ الذَّاتيَّةِ والحكمَةِ التَّامَّةِ المُقتضيَةِ للأُلوهيَّةِ.

وقُرِئَ: (هو الله) بلا (قل)(٢)، مع الاتِّفاقِ على أنَّه لا بُدَّ مِنْهُ في ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ولا يجوزُ في (تبَّت)، ولعلَّ ذاك لأنَّ سورةَ الكافرينَ مشاقَّةُ الرَّسولِ ومُوادعَتُه لهم، و(تبت) معاتبَةُ عَمِّهِ؛ فلا يناسِبُ أن يكونَ منه، وأمَّا هذا فتوحيدٌ يقولُ بهِ تارةً ويُؤمَرُ بأن يَدْعُوَ إليه أُخْرَى.

(٢) - ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: السَّيِّدُ المَصمودُ(٣) إليه في الحوائجِ، مِن صَمَد: إذا قُصِدَ، وهو الموصوفُ به على الإطلاقِ؛ فإنَّه يَستغني عَن غيرِه مطلقًا، وكلُّ ما عَداهُ مُحتاجٌ إليه في جميعِ جِهَاتِه.

وتعريفُه لعلمِهم بصَمديَّتِه بخلافِ أَحَديَّتِه.

وتكريرُ لفظِ (الله) للإشعارِ بأنَّ مَن لَمْ يَتَّصِف به لم يَستَحِقَّ الأُلوهيَّةَ.

وإخلاءُ الجملَةِ عَن العاطفِ لأنَّها كالنَّتيجةِ للأولى أو الدَّليلِ عليها.

(٣) - ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ لأنَّه لم يُجانِسْ، ولم يَفْتَقِر إلى ما يُعِينُه أو يَخلفُ عنه؛ لامتناعِ الحاجةِ والفناءِ عليه.

ولعلَّ الاقتصارَ على لفظِ الماضي لوُرودِهِ ردًّا على مَن قال: الملائكةُ بَناتُ اللهِ،

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الإكرام».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٣)، و«الكشاف» (٩/ ٧٢٠) عن عبد الله وأبيّ.

(٣) في نسخة الفاروقي والخيالي: «المقصود».

أو: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، أو ليطابِقَ قولَه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنَّه لا يفتقِرُ إلى شيءٍ ولا يسبِقُه عدمٌ.

(٤) ـ ﴿ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أحدٌ﴾؛ أي: ولم يَكُن أحدٌ يُكافِئُه؛ أي[1]: يماثِلُه مِن صاحبَةٍ وغيرِها، وكان أصلُهُ أَنْ يُؤخَّرَ الظَّرفُ لأنَّه صِلَتُه[2]، لكنْ لَمَّا كانَ المقصودُ نفيَ المُكافأَةِ عَن ذاتِه تعالى قُدِّمَ تقديمًا للأهمِّ.

ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن المُستكنِّ في ﴿كُفُوًا﴾، أو خبرًا ويكونُ ﴿كُفُوًا﴾ حالًا مِن ﴿أَحَدٌ﴾.

ولعلَّ ربطَ الجُمَلِ الثَّلاثِ بالعطفِ لأنَّ المُرادَ مِنْها نفيُ أقسامِ الأمثالِ[3]، فهي كجُمْلَةٍ واحدَةٍ منبِّهٍ[4] عليها بالجُمَلِ.

وقرأَ حمزَةُ ويَعقوبُ ونافعٌ في روايةٍ: ﴿كُفْؤا﴾ بالتَّخفيفِ، وحفصٌ: ﴿كُفُوًا﴾ بالحركةِ وقلبِ الهمزةِ واوًا[5].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أو».

(٢) أي: صلة: ﴿كُفُوًا﴾.

(٣) قوله: «ولعل ربط الجمل...»؛ أي: وقوعَ الجمل الثلاث، وهي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا﴾ متعاطفة دون ما عداها من هذه السورة لأنها سيقت لمعنًى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه، وهذه أقسامها لأن المماثل إمّا ولد أو والد أو نظير، فلتغاير الأقسام واجتماعِها في المقسم لزم العطف فيها بالواو كما هو مقتضى قواعد المعاني. قاله الشهاب.

(٤) قوله: «منبه» اسم فاعل من التنبيه، وفي نسخة: «مبيِّنة» اسم فاعل من البيان، وعُدِّي بـ«على» لتضمنه معنى الدلالة، وفي بعضها: «مَبْنِيَّة» من البناء والأولى أولى. المصدر السابق، والنسخ الثلاث مذكورة في نسخة الفاروقي.

(٥) قرأ حفص بضم الفاء وفتح الواو من غير همز، وحمزة وخلف ويعقوب بإسكان الفاء مع الهمز، =

ولاشتمالِ هذه السُّورَةِ مع قِصَرِها على جميعِ المَعارِفِ الإلهيَّةِ والرَّدِّ على مَن ألحدَ فيها جاءَ في الحديثِ أنَّها تعدلُ ثلثَ القُرآنَ[1]؛ فإنَّ مَقاصِدَهُ مَحصورةٌ في بيانِ العَقائدِ والأحكامِ والقصصِ، ومَن عدلَها بكلِّهِ اعتبرَ المقصودَ بالذَّاتِ مِن ذلك.

وعن النَّبيِّ ﷺ أنه سَمِعَ رَجُلًا يقرَؤُها فقال: «وَجَبَتْ» قيلَ: يا رسولَ الله! وما وَجبَتْ؟ قال: «وجَبَتْ له الجنَّةُ»[2].

***

= والباقون بضم الفاء مع الهمز. انظر: «السبعة» (ص: ٧٠٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٦) و«النشر» (٢/ ٢١٦).

(١) رواه البخاري (٥٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٧)، والنسائي (٩٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(١١٢) سُورَةُ الإِخْلاصِ مَكِّيَّة وآياتها أربع

(ذكر سبب نزولها وفضلها)

عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل هو الله أحدٌ ۞ الله الصمدُ ۞ لم يلد ولم يولدْ ۞ ولم يكن له كفواً أحدٌ﴾[1] ، زاد ابن جرير والترمذي، قال: ﴿ الصمد﴾ الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت. وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عزَّ وجلَّ لا يموت ولا يورث، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء .

حديث آخر في فضلها : روى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك النبي ﷺ فقال : « سلوه لأي شيء يصنع ذلك » ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبّه »[2] .

حديث آخر : قال البخاري في كتاب الصلاة، عن أَنَس رضي الله عنه قال :كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ بـه، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أُخْرَى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأُخْرَى، فقال : ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال: يا فلان « ما يمنعك أن تفعل ما يأمركَ به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة » ؟ قال: إني أحبها، قال: « حبك إياها أدخلك الجنة »[3]

حديث آخر : قال البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة » ؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال: « الله الواحد الصمد ثلث القرآن »[4] .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه البخاري .

حديث آخر : قال أحمد، عن أُبيّ بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ بقل هو الله أحد فكأنما قرأ بثلث القرآن »[١]

حديث آخر : عن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجز أحـدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله نحن أضعف من ذلك وأعجز ، قال : « فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فقل هو الله أحد ثلث القرآن »[٢] .

حديث آخر : عن عبد الله بن حبيب قال : أصابنا عطش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قُلْ » فسكت، قال : « قُلْ » ، قلت : ما أقول ؟ قال : « قل هو الله أحد والمعوذتين حـين تمسي ، وحين تصبح ثلاثاً . تكفيك كل يوم مرتين »[٣]

حديث آخر : عن سهل بن معاذ بن أنَس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ قُل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة » ، فقال عمر : إذاً نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكثر وأطيب »[٤]

حديث آخر ، في فضلها مع المعوذتين : عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ ، فابتدأته ، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن ؟ قال : « يا عقبة أخرس لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك عـلى خطيئتك » قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني ، فأخـذ بيدي فقال: « يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خـير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم » ؟ قال، قلت : بلى، جعلني الله فداك، قال : فأقرأني: ﴿ قل هو الله أحد – وقل أعوذ برب الفلق – وقل أعوذ برب الناس﴾، ثم قال: « يا عقبة لا تنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن » قال : فما نسيتهن منذ قال لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده ، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال: « يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك »[٥]

حديث آخر : في الاستشفاء بهن، قال البخاري، عن عائشة، ان النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما: ﴿ قل هو الله أحد﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[٦]

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) رواه أحمد والدارمي .

(٥) رواه أحمد والترمذي .

(٦) أخرجه البخاري وأهل السنن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

قال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير بن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح بن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا شبيه ولا عديل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، وقال الأعمش ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً ﴿الصمد﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وهو تفسير جيد، وقال ابن مسعود والضحّاك والسدي: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، وقال مجاهد ﴿الصمد﴾ المصمت الذي لا جوف له، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب. وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجلَّ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه، وقال البيهقي نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، قال مجاهد: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يعني لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، قال تعالى: ﴿وقالوا: اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾. وفي صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»(١). وفي الحديث القدسي: «كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»(٢).

[آخر تفسير سورة الإخلاص. ولله الحمد والمنة]

(١) أخرجه البخاري. (٢) أخرجه البخاري أيضاً.

تفسير سورة الإخلاص

وهى مكية .

ذكر سبب نزولها وفضيلتها [(١)]

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعد محمد بن مُيَسّر الصاغانى ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبىّ بن كعب : أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[(٢)] .

وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع ـ زاد ابن جرير : ومحمود بن خدَاش ـ عن أبى سعد محمد بن مُيَسّر به [(٣)] ـ زاد ابن جرير والترمذى ـ قال : ﴿ الصَّمَدُ﴾ : الذىَ لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾: ولم يكن له شبه [(٤)] ولا عدل ، وليس كمثله شىء.

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث أبى سعد [(٥)] محمد بن مُيَسّر ، به . ثم رواه الترمذى عن عبد ابن حميد ، عن عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، فذكره مرسلا ولم يذكر « أخبرنا » . ثم قال الترمذى : هذا أصح من حديث أبى سعد [(٦)] .

حديث آخر فى معناه : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا سُرَيج [(٧)] بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر : أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ ، فقال: انسب لنا ربك . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ،إلى آخرها . إسناده مقارب [(٨)] .

وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن سُرَيج [(٩)] فذكره [(١٠)] . وقد أرسله غير واحد من السلف .

وروى عُبيد بن إسحاق العطار ، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد﴾ .

---

(١) فى م ، أ : « وفضلها » .

(٢) المسند (٥/١٣٣) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٦٤) وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢١، ٢٢٣) .

(٤) فى م ، أ : « له شبيه » .

(٥) فى م ، أ : « سعيد » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٣٦٥) .

(٧) فى أ : « شريح » .

(٨) فى م : « إسناده متقارب » .

(٩) فى أ : « شريح » .

(١٠) مسند أبى يعلى (٤/٣٨، ٣٩) وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢١) ، ومجالد ضعيف فى روايته عن الشعبى عن جابر .

قال الطبرانى : رواه الفريابى وغيره ، عن قيس ، عن أبى عاصم ، عن أبى وائل ، مرسلا [(١)].
ثم رَوَى الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفى ، عن الوازع بن نافع ، عن أبى سلمة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شىء نسبة ، ونسبة الله : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد** [**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ » ، والصمد ليس بأجوف] [(٢)] [(٣)] .

حديث آخر فى فضلها : قال البخارى : حدثنا محمد ــ هو الذّهلىّ ــ حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو ، عن ابن أبى هلال : أن أبا الرجال مُحمد بن عبد الرحمن حَدثه ، عن أمه عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن ــ وكانت فى حجْر عائشة زوج النبى ﷺ ــ عن عائشة : أن النبى ﷺ بعث رجلاً على سَرِيَّة ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد** ﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « سلوه : لأىّ شىء يصنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبى ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » .

هكذا رواه فى كتاب « التوحيد » [(٤)] . ومنهم من يسقط ذكر « محمد الذّهلى » . ويجعله من روايته عن أحمد بن صالح . وقد رواه مسلم والنسائى أيضاً من حديث عبد الله بن وهب ،عن عمرو ابن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال ، به [(٥)] .

حديث آخر : قال البخارى فى كتاب الصلاة : « وقال عُبَيد الله [(٦)] ، عن ثابت ، عن أنس قال: كان رجل من الأنصار يَؤمَهم فى مسجد قُبَاء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به ، افتتح بـ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد** ﴾ حتى يَفرُغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة . فكلَّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجزئُك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتَقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يَرَونَ أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يَؤمهم غيره . فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : « يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ » . قال : إنى أحبها . قال : « حُبك إياها أدخلك الجنة » [(٧)] .

هكذا رواه البخارى تعليقاً مجزوماً به . وقد رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه ، عن البخارى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردى ، عن عُبَيد الله بن عمر ، فذكر بإسناده مثله سواء [(٨)] ، ثم قال الترمذى : غريب من حديث عبيد الله ، عن ثابت . قال : وروى

---

(١) ورواه الطيالسى عن قيس ، عن عاصم ، عن أبى وائل مرسلاً ،ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٩) .
(٢) زيادة من أ .
(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٢٣) « مجمع البحرين » من طريق عبد الرحمن بن نافع ، عن على بن ثابت ، عن الوازع ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة به ، وقال : « لايروى عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عبد الرحمن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٧٥) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٨١٣) ، وسنن النسائى (٢/ ١٧٠) .
(٦) فى أ : « وقال عبد الله » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٧٤) .
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٩٠١) .

مُبارك بن فَضالة ، عن ثابت ، عن أنس ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إنى أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ . قال : « إن حُبَّك إياها أدخلك الجنة » .

وهذا الذى علقه الترمذى قد رواه الإمام أحمد فى مسنده متصلاً ، فقال :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى أحب هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « حبك [١] إياها أدخلك الجنة » [٢] .

حديث فى كونها تعدل ثلث القرآن: قال البخارى: حدثنا إسماعيل، حدثنى مالك، عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صَعْصَعَة ، عن أبيه ، عن أبى سعيد . أن رجلاً سمع رَجُلاً يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ، يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبى [٣] ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » . زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : أخبرنى أخى قتادة بن النعمان ، عن النبى ﷺ [٤] .

وقد رواه البخارى أيضا عن عبد الله بن يوسف ، والقَعْنَبِىّ . ورواه أبو داود عن القعنبى ، والنسائى عن قتيبة ، كلهم عن مالك ، به [٥] . وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائى من طريقين، عن إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، به [٦] .

حديث آخر : قال البخارى : حدثنا عُمَر بن حفص ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقىّ ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : «الله الواحد الصمد ثلث القرآن » [٧] .

تفرد بإخراجه البخارى من حديث إبراهيم بن يزيد النَّخعى والضحاك بن شُرَحبيل الهمدانى المشرقى ، كلاهما عن أبى سعيد ، قال القَرَبْرِىّ : سمعت أبا جعفر محمد بن أبى حاتم وراقُ أبى عبد الله قال : قال أبو عبد الله البخارى : عن إبراهيم مرسل ، وعن الضحاك مسند [٨] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعَة ، عن الحارث بن يزيد ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿ قُلْ هُوَ

(١) فى م : « إن حبّك » .
(٢) المسند (٣/ ١٤١) .
(٣) فى م : « فقال رسول الله » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٧٤) .
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠١٣، ٦٦٤٣) وسنن أبى داود برقم (١٤٦١) وسنن النسائى (٢/ ١٧١) .
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٩) وبرقم (١٠٥٣٦) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠١٥) .
(٨) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٦٠) : « والمراد أن رواية إبراهيم النخعى عن أبى سعيد منقطعة ، ورواية الضحاك عنه متصلة »

اللَّهُ أَحَد ﴾، فذكر ذلك للنبى ﷺ، فقال: « والذى نفسى بيده ، لَتَعدلُ نصف القرآن ، أو ثلثه » (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا حُيىّ بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو : أن أبا أيوب الأنصارى كان فى مجلس وهو يقول : ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة ؟ فقالوا : وهل يستطيع ذلك أحد ؟ قال : فإن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ثلث القرآن . قال : فجاء النبى ﷺ وهو يسمع أبا أيوب ، فقال : « صدق أبو أيوب » (٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسَان ، أخبرنى أبو حَازم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشُدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ . ثم دخل فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . إنى لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » .

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه ، عن محمد بن بشار ، به (٣) . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب ، واسم أبى حازم سلمان .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن زائدة بن قُدَامة ، عن منصور ، عن هلال بن يَساف ، عن الربيع بن خُثَيم (٤) ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، عن امرأة من الأنصار ، عن أبى أيوب ، عن النبى ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فإنه من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَد ﴾ فى ليلة ، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن » .

هذا حديث تُسَاعىّ الإسناد للإمام أحمد. ورواه الترمذى والنسائى، كلاهما عن محمد بن بشار (٥) بندار ـ زاد الترمذى وقتيبة ـ كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدى ، به (٦) . فصار لهما عُشَاريا . وفى رواية الترمذى : « عن امرأة أبى أيوب ، عن أبى أيوب » ، به [وحسنه] (٧) . ثم قال : وفى الباب عن أبى الدرداء ، وأبى سعيد ، وقتادة بن النعمان ، وأبى هريرة ، وأنس ، وابن عمر ، وأبى مسعود . وهذا حديث حسن ، ولا نعلم أحداً رَوَى هذا الحديث أحسن من رواية « زائدة » . وتابعه على روايته إسرائيل ، والفضيل بن عياض . وقد رَوَى شُعبةُ وغيرُ واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه .

---

(١) المسند (٣/ ١٥) .

(٢) المسند (٢/ ١٧٣) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٨١٢) .

(٤) فى أ : « بن خيثم » . (٥) فى أ : « يسار » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٦) وسنن النسائى (٢/ ١٧٢) .

(٧) زيادة من م ، أ .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا هُشَيم ، عن حُصَين ، عن هلال بن يَسَاف ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب ــ أو : رجل من الأنصار ــ قال : قال رسول الله ﷺ :« من قرأ بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن » [(١)] .

ورواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث هُشَيم ، عن حُصَين ، عن ابن أبى ليلى ، به[(٢)] . ولم يقع فى روايته : هلال بن يساف .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن أبى قيس [(٣)] ، عن عمرو بن ميمون ،عن أبى مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ تعدلُ ثلث القرآن » [(٤)] .

وهكذا رواه ابن ماجة ،عن على بن محمد الطَّنافسى ، عن وَكِيع ، به [(٥)] . ورواه النسائى فى «اليوم والليلة » من طرق أخر ، عن عمرو بن ميمون ، مرفوعاً وموقوفاً [(٦)] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا بَهْز ، حدثنا بُكَير بن أبى السَّميط [(٧)] ، حدثنا قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن مَعْدَان بن أبى طلحة ، عن أبى الدّرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : «أيعجزُ أحدُكم أن يَقرأ كلّ يوم ثلث القرآن ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز . قال : « فإن الله جَزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ثلث القرآن » .

ورواه مسلم والنسائى ، من حديث قتادة ، به [(٨)] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم ــ ابن أخى ابن شهاب ــ عن عمه الزهرى ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ــ هو ابن عوف ــ عن أمه ــ وهى : أم كلثوم بنت عقبة [(٩)] بن أبى مُعَيط ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ تَعدلُ ثُلُثَ القرآن » .

وكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، عن عمرو بن على ، عن أمية بن خالد ، به [(١٠)] . ثم رواه من طريق مالك ، عن الزهرى ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ، قوله [(١١)] . ورواه النسائى أيضا فى « اليوم والليلة » من حديث محمد بن إسحاق ، عن الحارث بن الفُضَيل الأنصارى ، عن الزهرى، عن حُمَيد بن عبد الرحمن : أن نَفَراً من أصحاب محمد ﷺ حَدثوه عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) المسند (٥/١٤١) .
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٢١) .
(٣) فى م : « إسحاق » .
(٤) المسند (٤/١٢٢) .
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٨٩) .
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٢٩،١٠٥٢٥، ١٠٥٢٨) .
(٧) فى أ : « حدثنا بكر بن أبى السمط » .
(٨) المسند (١/٤٤٧) وصحيح مسلم برقم (٨١١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٣٧) .
(٩) فى م : « عتبة » .
(١٠) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٣١) .
(١١) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٣٣) .

« ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ تَعدلُ ثُلُثَ القرآن لمن صلى بها » [١] .

حديث آخر فى كون قراءتها توجب الجنة : قال الإمام مالك بن أنس ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن ، عن عُبيد بن حُنَين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبى ﷺ ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ،فقال رسول الله ﷺ: « وَجَبَتْ ». قلت : وما وَجَبت ؟ قال: « الجنة » .

ورواه الترمذى والنسائى ، من حديث مالك [٢] . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث مالك .

وتقدم حديث : « حُبّك إياها أدخلك الجنة » .

حديث فى تكرار قراءتها : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا قَطن بن نُسير ، حدثنا عيسى ابن ميمون القرشى ،حدثنا يزيد الرقاشى،عن أنس قال :سمعت رسول الله [٣] ﷺ يقول:« أما يستطيع أحدكم أن يقرأ:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ثلاث مرات فى ليلة [٤]،فإنها تعدلُ ثلث القرآن ؟» [٥] .

هذا إسناد ضعيف ، وأجود منه حديث آخر ، قال عبد الله ابن الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن أبى بكر المُقَدمى ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن أسيدُ ابن أبى أسيد ، عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب ، عن أبيه قال : أصابنا طَش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلى لنا ، فخرج فأخذ بيدى ، فقال : « قل » . فسكت . قال : « قل » . قلت : ما أقول ؟ قال:«﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد﴾ ،والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً ،تكفك كل يوم مرتين» .

ورواه أبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث ابن أبى ذئب ، به [٦] . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقد رواه النسائى من طريق أخرى ، عن معاذ بن عبد الله بن خبيب، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، فذكره [ولفظه : « يكفك كل شىء »] [٧] [٨] .

حديث آخر فى ذلك : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث بن سعد ، حدثنى الخليل بن مرة ، عن الأزهر بن عبد الله ، عن تميم الدارى قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال : لا إله إلا الله واحداً أحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، ولم يكن له كفوا أحدا ، عشر مرات ، كُتب له أربعون ألف ألف حسنة » .

تفرد به أحمد[٩] ، والخليل بن مُرّة : ضعفه البخارى وغيره بمرّة .

حديث آخر : قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعَة ، حدثنا زَبّان بن

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٣٢) .

(٢) الموطأ (٢/٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩٧) وسنن النسائى (٢/ ١٧١) .

(٣) فى م : « سمعت نبى الله » . (٤) فى أ : « فى كل ليلة » .

(٥) مسند أبى يعلى (٨/ ١٥٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٤٧) : « فيه عبيس ، وهو متروك » .

(٦) زوائد المسند (٥/ ٣١٢) وسنن أبى داود برقم (٥٠٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٥٧٥).وسنن النسائى (٨/ ٢٥٠) .

(٧) زيادة من م .

(٨) سنن النسائى (٨/ ٢٥١) .

(٩) المسند (٤/١٠٣) .

فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال :« من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها ، عشر مرات ، بنى الله له قصراً في الجنة » . فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال ﷺ : « الله أكثر وأطيب » . تفرد به أحمد (١) .

ورواه أبو محمد الدارمي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد ــ قال الدارمي : وكان من الأبدال ــ أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله ﷺ قال : « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عشر مرات ، بنى الله له قصراً في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة ». فقال عمر بن الخطاب : إذن لتكثر قصورنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أوسع من ذلك » (٢) . وهذا مرسل جيد .

حديث آخر : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا نصر بن علي ، حدثني نوح بن قيس ، أخبرني محمد العطار ، أخبرتني أم كثير الأنصارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خمسين مرة غُفرت له (٣) ذنوب خمسين سنة » (٤) . إسناده ضعيف .

حديث آخر : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا حاتم بن ميمون ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ في يوم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائتي مرة ، كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة إلا أن يكون عليه دين » (٥) . إسناده ضعيف ، حاتم بن ميمون : ضعفه البخاري وغيره . ورواه الترمذي ، عن محمد بن مرزوق البصري ، عن حاتم بن ميمون ، به . ولفظه : «من قرأ كل يوم ، مائتي مرة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، محي عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دَين » .

قال الترمذي : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « من أراد أن ينام على فراشه ، فنام على يمينه، ثم قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب ، عز وجل : يا عبدي، ادخُل على يمينك الجنة » (٦) . ثم قال : غريب من حديث ثابت ، وقد رُوي من غير هذا الوجه، عنه .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا حَبّان بن أغلب ، حدثنا أبي ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائتي مرة ، حط الله عنه ذنوب مائتي سنة » (٧). ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا الحسن بن أبي جعفر ، والأغلب بن

---

(١) المسند (٣/٤٣٧) .

(٢) سنن الدارمي برقم (٣٤٢٩) .

(٣) في م ، أ : « غفر الله له » .

(٤) ورواه الدارمي في السنن برقم (٣٤٣٨) : حدثنا نصر بن علي بمثله سواء .

(٥) مسند أبي يعلى (٦/١٠٣) .

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٨) .

(٧) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (٢٦٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/١٨٧) من طريق الحسن بن أبي جعفر ،عن ثابت به .

تميم، وهما متقاربان فى سوء الحفظ .

حديث آخر فى الدعاء بما تضمنته من الأسماء : قال النسائى عند تفسيرها : حدثنا عبد الرحمن بن خالد ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى مالك بن مِغْول ، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة ، عن أبيه : أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلى ، يدعو يقول : اللهم ، إنى أسألك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . قال : « والذى نفسى بيده ، لقد سأله باسمه الأعظم ، الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » [١] .

وقد أخرجه بَقِيَّة أصحاب السنن من طُرُق ، عن مالك بن مِغْول ، عن عبد الله بن بُرَيدة ، عن أبيه ، به[٢] . وقال الترمذى : حسن غريب .

حديث آخر فى قراءتها عشر مرات بعد المكتوبة : قال الحافظ أبو يعلى [الموصلى] [٣] : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن منصور ، عن عمر بن نبهان[٤] ، عن أبى شداد ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من جاء بِهِنّ مع الإيمان دَخَل من أىّ أبواب الجنة شاء ، وزُوِّج من الحور العين حيث شاء : من عفا عن قاتله ، وأدى دينا خفيا ، وقرأ فى دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ » . قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال: « أو إحداهن » [٥] .

حديث فى قراءتها عند دخول المنزل : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر السراج العسكرى ، حدثنا محمد بن الفرج ، حدثنا محمد بن الزبرقان ، عن مروان بن سالم، عن أبى زُرْعَة بن [٦] عمرو بن جرير ، عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ حين يدخل منزله ، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران » [٧]. إسناده ضعيف .

حديث فى الإكثار من قراءتها فى سائر الأحوال : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن إسحاق المسيبى ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن العلاء بن[٨] محمد الثقفى قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم نرها طلعت فيما مضى

---

(١) سنن النسائى الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٢/ ٩٠) .

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٥٧) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م ، أ ، هـ : « عمر بن شيبان » .

(٥) مسند أبى يعلى (٣/ ٣٣٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٠٢) :« فيه عمر بن نبهان وهو متروك » .

(٦) فى م ، أ ، هـ : « عن » .

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٠) .

(٨) كذا ترجمه البخارى فى التاريخ (٦/ ٥٠٧) ، وابن حبان فى المجروحين (٢/ ١٨١) ، وترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح (٦/ ٣٥٥)، والذهبى فى الميزان (٣/ ١٠٦) ، كذا : « العلاء بن يزيد ، أبو محمد الثقفى » وكأن هذا هو الراجح ، لكن أثبتنا الأول لكونه وقع فى النسخ هكذا ، وكذلك فى مسند أبى يعلى ، أما الدلائل فقد وقع فيه على الكنية فأثبتناه كما هو فيه .

بمثله ، فأتى جبريل النبى ﷺ فقال [١]: « يا جبريل ، مالى أرى الشمس طلعت اليوم [٢] بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت بمثله فيما مضى ؟ » . قال : إن ذلك معاوية بن معاوية الليثى ، مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه. قال: « وفيم ذلك ؟» قال : كان يكثر قراءة: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فى الليل وفى النهار ، وفى ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلى عليه ؟ قال : « نعم » . فصلى عليه .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى [كتاب] [٣] « دلائل النبوة » من طريق يزيد بن هارون ، عن العلاء أبى [٤] محمد [٥] ـ وهو متهم بالوضع ـ فالله أعلم.

طريق أخرى : قال أبو يعلى : حدثنا محمد بن إبراهيم الشامى أبو عبد الله ، حدثنا عثمان بن الهيثم ـ مؤذن مسجد الجامع بالبصرة عندى ـ عن محمود أبى عبد الله [٦] ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس قال : نزل جبريل على النبى ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثى ، فتحب أن تصلى عليه ؟ قال: « نعم » . فضرب بجناحه الأرض ، فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه ، فكبر عليه وخلفه صفان من الملائكة ، فى كل صف سبعون ألف ملك ، فقال النبى ﷺ : « يا جبريل ، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى؟ ». قال بحبه :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وقراءته إياها ذاهباً وجائياً قائماً [٧] وقاعداً ، وعلى كل حال [٨] .

ورواه البيهقى ، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن ، عن محبوب بن هلال ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس ، فذكره . وهذا هو الصواب [٩] ، ومحبوب بن هلال قال أبو حاتم الرازى : «ليس بالمشهور » [١٠] . وقد روى هذا من طرق أخر ، تركناها [١١] اختصاراً ، وكلها ضعيفة .

حديث آخر فى فضلها مع المعوذتين : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ ، فابتدأته فأخذتُ بيده ، فقلت : يا رسول الله ، بم نجاة المؤمن ؟ قال : « يا عقبة ، احْرُسْ لسانك وليسَعَك بيتُك ، وابْكِ على خطيئتك » . قال : ثم لقينى رسول الله ﷺ ، فابتدأنى فأخذ بيدى ، فقال : « يا عقبة بن عامر ، ألا أعلمك خير ثلاث سُوَر أنزلت فى التوراة ، والإنجيل ،

---

(١) فى م : « فقال لى » . (٢) فى م : « يومئذ » .
(٣) زيادة من م . (٤) فى أ : « العلاء بن محمد » .
(٥) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٥٦) ودلائل النبوة (٥/ ٢٤٥) .
(٦) وقع فى أصل مسند أبى يعلى : « محمود بن عبد الله » ووقع هنا : « محمود أبى عبد الله » ـ كما ترى ـ والصواب : « محبوب ابن هلال » كما فى رواية البيهقى ، والله أعلم .
(٧) فى م : « وقائماً » .
(٨) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٥٨) .
(٩) دلائل النبوة (٥/ ٢٤٦) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢٧٢) ،من طريق محبوب بن هلال به، وساقه المؤلف فى البداية والنهاية من رواية البيهقى (٥/ ١٤) ، وقال : « منكر من هذا الوجه » .
(١٠) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٨/ ٣٨٩) .
(١١) فى م : « تركنا ذكرها » .

والزبور ، والقران العظيم ؟ » . قال: قلت : بلى ، جعلنى الله فداك . قال : فأقرأنى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم قال : « يا عقبة ، لا تَنْسَهُن ولا تبُتْ ليلة حتى تقرأهن » . قال : فما نسيتهن منذ قال :« لا تنسهن » ، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة ، ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرنى بفواضل الأعمال . فقال :« يا عقبة، صِلْ من قطعك، وأعْطِ من حَرَمَك، وأعرض [١] عمن ظلمك » [٢] .

روى الترمذى بعضه فى « الزهد » ، من حديث عُبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد وقال : هذا حديث حسن [٣] . وقد رواه أحمد من طريق آخر :

حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن عياش ، عن أسيد بن عبد الرحمن الخَثْعَمى ، عن فرْوَة بن مجاهد اللخمى ، عن عقبة بن عامر ، عن النبى ﷺ ، فذكر مثله سواء . تفرد به أحمد [٤] .

حديث آخر فى الاستشفاء بهن : قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا المفضل ، عن عُقَيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كُل ليلة جمع [٥] كفيه ، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

وهكذا رواه أهل السنن ، من حديث عُقَيل ، به [٦] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ .

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عُزيرَ ابن الله . وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان ــ أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

يعنى : هو الواحد الأحد ،الذى لا نظير له ولا وزير ،ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلَق

(١) فى م : « واعف » .

(٢) المسند (٤/١٤٨) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٤٠٦) ، وفى إسناده عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم كلهم ضعفاء ، قال ابن حبان فى عبيد الله بن زحر : « يروى الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن على بن يزيد أتى الطامات ، وإذا اجتمع فى إسناده خبر عبيد الله ، وعلى ابن يزيد ، والقاسم ــ أبو عبد الرحمن ــ لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم » .

(٤) المسند (٤/١٥٨) .

(٥) فى م : « ليلة جمعة » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠١٧) وسنن أبى داود برقم (٥٠٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٤٠٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٢٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٧٥) .

هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله ، عز وجل؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ، قال عكرمة ، عن ابن عباس : يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته [1] . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شىء، سبحان الله الواحد القهار .

وقال الأعمش ، عن شقيق [2] ، عن أبى وائل : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد الذى قد انتهى سؤدده ، ورواه عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، مثله .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقى بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿الصَّمَدُ﴾: الذى لم يخرج منه شىء ولا يطعم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيراً له ، وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، وهو تفسير جيد . وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير ، عن أبى بن كعب فى ذلك ، وهو صريح فيه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بُريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى، والضحاك ، والسدى: ﴿الصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له .

قال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : المصمت الذى لا جوف له .

وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقال عبد الله بن بُرَيدة [3] أيضاً : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : نور يتلألأ .

روى ذلك كلَّه وحكاه : ابن أبى حاتم ، والبيهقى والطبرانى ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده ، وقال :

حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا محمد بن عمرو بن رومى ، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، حدثنى صالح بن حيان ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال ـ لا أعلم إلا قد رفعه ـ قال : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لا جوف له .

وهذا غريب جداً ، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة .

(١) فى م : « فى حكمه » . (٢) فى أ : « سفيان » . (٣) فى أ : « يزيد » .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني فى كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال فى تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا ، عز وجل ، وهو الذى يُصمَد إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك [أيضاً] (١) (٢) .

وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ أى : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة .

قال مجاهد : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ يعنى : لا صاحبة له .

وهذا كما قال تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١] أى : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٨٨ ـ ٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦ ، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥٨ ، ١٥٩].
وفى الصحيح ـ صحيح البخارى ـ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » (٣) .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله ، عز وجل : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يُعيدَنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً . وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

ورواه أيضا من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه ، عن أبى هريرة ، مرفوعاً بمثله . تفرد بهما من هذين الوجهين (٤) .

آخر تفسير سورة « الإخلاص »

(١) زيادة من م ، أ .
(٢) وقد أطنب شيخ الإسلام ابن تيمية فى بيان معنى الصمد فى الفتاوى (١٧/ ٢١٤) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) من حديث أبى موسى ، رضى الله عنه .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) وبرقم (٤٩٧٥) .

سورة الإخلاص

مكيّة،[1] وهي أربع آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن، ومدار وضعه موضعَه مع عدم سَبْق ذِكره الإيذانُ بأنّه مِن الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كلّ أحد، وإليه يُشير كلّ مُشير، وإليه يعود كلّ ضمير، كما ينبئ عنه اسمُه الذي أصله القصدُ، أُطلِق على المفعول مبالغةً، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه الجملة بعده، ولا حاجةَ إلى الرابط؛ لأنّها عين الشأن الذي عُبّر عنه بالضمير.

والسرُّ في تصدير الجملة به التنبيهُ مِن أوّل الأمر على فخامة مضمونها وجلالةِ حيّزها مع ما فيه مِن زيادة تحقيق وتقرير، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مُبهَم له خطرٌ جليل فيبقى الذهن مترقّبًا لِما أمامه ممّا يفسّره ويزيل إبهامه، فيتمكّن عند وروده له فضلَ تمكُّن.

وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ مُبدَلة مِن "الواو"، وأصله "وَحَدٌ" لا كهمزة ما يُلازم النفي ويُراد به العموم كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة، ٤٧/٦٩]، وما في قوله عليه السلام: «ما أُحِلّت الغنائم لأحد سُودِ الرءوس غيرِكم»،[2] فإنّها أصليّة.[3]

وقال مكّي: أصل ﴿أَحَدٌ﴾ واحد، فأُبدِلت الواو همزةً فاجتمع ألفان؛ لأنّ "الهمزة" تشبِه "الألف"، فحُذفت إحداهما تخفيفًا.[4] وقال ثعلب: إنّ "أحدًا"

---

[1] س + وقيل مدنيّة.

[2] سنن الترمذي، ٣١٨/٥ (٣٠٨٥)؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٣٠/٤ (البقرة، ٢٨٥/٢).

[3] السياق: لا كهمزة... فإنّها أصليّة...

[4] انظر: التبيان للعكبري، ١٣٠٩/٢؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٥٥٩/٢٠.

لا يبنى عليه العدد ابتداءً، فلا يقال: "أحد واثنان" كما يقال: "واحد واثنان"، ولا يقال: "رجلٌ أحدٌ" كما يقال: "رجلٌ واحدٌ"، ولذلك اختصّ به تعالى.[١]

أو هو لِما سئل عنه، أي: الذي سألتُم عنه هو الله؛ إذ روي أنّ قريشًا قالوا: «صِفْ لنا ربّك الذي تدعونا إليه، وانْسُبْهُ»، فنزلت.[٢] فالضمير مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾
[٣٢٦ظ] خبره، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه، أو خبر ثان، / أو خبر مبتدأ محذوف.

وقُرئ: "هُوَ اللهُ أَحَدٌ"[٣] بغير ﴿قُلْ﴾، وقُرئ: "اللهُ أَحَدٌ"[٤] بغير ﴿قُلْ هُوَ﴾، وقُرئ: "قُلْ هُوَ الوَاحِدُ".[٥]

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فعل بمعنى مفعول، مِن "صمَد إليه" إذا قصَده، أي: هو السيِّد المصمود إليه في الحوائج، المستغني بذاته، وكلّ ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته. وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: الذي يفعل ما يشاء، ويحكُم ما يُريد، وتعريفُه لعِلمهم بصمديّته، بخلاف أحديّته.[٦]

وتكريرُ الاسم الجليل للإشعار بأنّ مَن لم يتَّصف بذلك فهو بمَعزِل مِن استحقاق الألوهيّة، وتعريةُ الجملة عن العاطف؛ لأنّها كالنتيجة للأولى، بُيِّن أوّلًا ألوهيّته عزّ وجلّ المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثمّ أحديّتُه الموجِبة لتنزهُّه عن شائبة التعدّد والتركّب بوجه مِن الوجوه وتوهُّمِ المشاركة في الحقيقة وخواصّها، ثمّ صمديّتُه المقتضية لاستغنائه الذاتي عمّا سواه وافتقارِ جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها تحقيقًا للحقّ وإرشادًا لهم إلى سَننه الواضح.

ثمّ صُرِّح ببعض أحكام جزئيّة مندرِجة تحت الأحكام السابقة فقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تنصيصًا على إبطال زَعْم المفترين في حقّ الملائكة والمسيح، ولذلك

---

١ الكلام عنه في اللباب لابن عادل، ٥٥٩/٢٠-٥٦٠.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٧٢٧/٢٤-٧٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢١/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٦ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٦١/٢٠.

ورَد النفيُ على صيغة الماضي، أي: لم يصدر عنه ولد؛ لأنّه لا يُجانسه شيء ليمكن أن يكون له مِن جنسه صاحبة فيتوالدا، كما نطق به قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام، ١٠١/٦]، ولا يفتقر إلى ما يُعينه أو يخلُفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: لم يصدر عنه شيء لاستحالة نسبة العدم سابقًا أو لاحقًا، والتصريح به مع كونهم معترفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقِه بالإشارة إلى أنّهما متلازمان؛ إذ المعهودُ أنّ ما يلِد يُولَد، وما لا فلا، ومِن قضيّة الاعتراف بأنّه لم يُولَد الاعتراف بأنّه لا يلِد، فهو قريب مِن عطف ﴿لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس، ٤٩/١٠] على ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ كما مرّ تحقيقه.[1]

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: لم يُكافئه أحد، ولم يُماثله ولم يُشاكله مِن صاحبة وغيرها، و﴿لَهُۥ﴾ صلة لـ﴿كُفُوًا﴾ قُدِّمت عليه مع أنّ حقّها التأخّر عنه للاهتمام بها؛ لأنّ المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى، وقد جُوِّز أن يكون خبرًا لا صلة، ويكون ﴿كُفُوًا﴾ حالًا مِن ﴿أَحَدٌ﴾،[2] وليس بذاك. وأمّا تأخير اسم "كان" فلمراعاة الفواصل. ووجهُ الوصل بين هذه الجمل غنيّ عن البيان. وقُرئ بضمّ "الكاف" و"الفاء" مع تسهيل "الهمزة"،[3] وبضمّ "الكاف" وكسرها مع سكون "الفاء".[4]

هذا، ولانطواء السورة الكريمة مع تقارب قُطريها على أشتات المعارف الإلهيّة والردّ على مَن ألحَد فيها ورَدَ في الحديث النبويّ أنّها تعدل ثُلث القرآن،[5] فإنّ مقاصده منحصرةٌ في بيان العقائد والأحكام والقصص، ومَن عدَلها بكلِّه اعتبر المقصود بالذات منه.

[٣٢٧و] / رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «أُسِّست السماواتُ السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»،[6] أي: ما خلقت إلّا لتكون دلائلَ

---

١ في تفسير يونس، ٤٩/١٠.

٢ الوجه في التبيان للعكبري، ١٣٠٩/٢.

٣ قرأ بها حفص. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢.

٤ قرأ بضمّ "الكاف" مع سكون "الفاء" حمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢. وبكسر "الكاف" مع سكون "الفاء" قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن سليمان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٧٤.

٥ انظر: صحيح البخاري، ١٨٩/٦ (٥٠١٣)؛ وصحيح مسلم، ٥٥٦/١ (٨١١).

٦ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٢/٤؛ وقال عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٦٤١/١٦: «لم أجد الحديث في الأصول المعتبرة».

على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التي نُطقت بها هذه السورة. وعنه عليه السلام أنّه سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «وجبتْ»، فقيل: وما وجبتْ يا رسول الله؟ قال: «وجبتْ له الجنّة».[١]

[١] س + تمّ. | مسند أحمد، ٣٨٦/١٣ (٨٠١١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢٢/٤.

١١٢

سُورَةُ الإخلاص

مكية أو مدنية، أربعُ أو خمسُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئل النبيّ ﷺ عن ربّه، فنزل: ١ ـ ﴿قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. فاللهُ: خبرُ «هو»، وأحدٌ: بدلٌ منه، أو خبرٌ ثانٍ.

سُورَةُ الإخلاص

قولُهُ: (عَن رَبِّه) رويَ أنَّ قريشاً قالوا: يا محمَّدُ صِف لنا ربَّكَ الذي تَدعونا إليه[١].

قولُهُ: (خَبَرُ هُو) والضَّميرُ لما سُئلَ عنه؛ أي: الذي سُئِلَ عنه هو اللهُ تعالى.

قولُهُ: (وَأَحَد) قيلَ: إنَّه بمعنى واحِد؛ أي: غيرُ مُتعَدِّدٍ، وعندَ المحقِّقينَ: أنَّ الأحَديَّةَ لتفرُّدِ الذَّاتِ، والواحِدِيَّةَ لنفيِ المشارَكَةِ في الصِّفات.

قولُهُ: (بَدَلٌ مِنهُ) بدل النَّكِرَةِ من المعرِفَةِ من غيرِ تخصيصِهِ بصفَةٍ مُختَلَفٌ فيه، واختارَ الرَّضيُّ[٢] و«الكشاف»[٣] جوازَهُ إذا استُفيدَ من البَدَلِ ما ليسَ في المبدَلِ منه.

قولُهُ: (أو خَبَرٌ ثَانٍ) ونُكِّر مع أنَّ مُقارنَهُ معرفَةٌ؛ لأنَّ حقَّ الخَبرِ أن يكونَ نكرَةً، كما أنَّ حقَّ المبتَدَأ أن يكونَ معرفَةً.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢١٢١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٨٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٠٧).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» (١/ ١٠٨٢)، و«فتوح الغيب» (١٦/ ٦٣٣).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٨١٧).

٢ ـ ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾: مُبتدأٌ وخبرٌ، أي: المقصود في الحوائج على الدوام، ٣ ـ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لِانتفاء مُجانسته ﴿ولَم يُولَدْ﴾ لِانتفاء الحُدوث عنه، ٤ ـ ﴿ولَم يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: مُكافئًا ومُماثلاً. فله: مُتعلِّق بـ «كفوًا»، وقُدِّم عليه لأنه مَحطُّ القصد بالنفي، وأُخِّر «أحد» ـ وهو اسم «يكن» ـ عن خبرها رِعاية للفاصلة.

قولُهُ: (أي: المَقصُودُ) أي: إليه، وهو الموصوفُ بِهِ على الإطلاقِ، فإنَّه يستَغني عن غيره مطلَقاً، وكلُّ ما عَداهُ مُحتاجٌ إليه في جميعِ وُجوهِه.

قولُهُ: (لانتِفَاءِ مُجَانِسهِ) وعَدمِ افتقارِهِ إلى ما يعينُهُ، أو يخلُفُ عنه لامتِناعِ الحاجَةِ والفَناءِ عليه.

قولُهُ: (لانتِفَاءِ الحُدُوثِ) عنه وعدَمِ افتقارِهِ إلى شيءٍ.

قولُهُ: (ومُمَاثِلاً) عَطفُ تَفسيرٍ.

قولُهُ: (عَن خَبَرِهَا) أي: ﴿يَكُن﴾، وهو مُتعلِّقٌ بأُخِّرَ، والله أعلمُ.

* * *

سُورَةُ الإخلاص

وسُمِّيتْ بها لما فيها من التوحيد، ولذا سُمِّيت أيضاً بالأساس، فإنَّ التوحيدَ أصلٌ لسائر أصول الدين. وعن كعب كما قال الحافظ ابن رجب: أُسِّستِ السماواتُ السبعُ والأرضون السبع على هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. ورواه الزمخشريُّ عن أُبيٍّ وأنسٍ مرفوعاً[1]، ولم يذكره أحدٌ من المحدِّثين المعتبَرين كذلك، وكيف كان فالمرادُ به كما قال: ما خُلقتِ السماواتُ والأرضونَ إلا لتكونَ دلائلَ على توحيد الله تعالى، ومعرفة صفاته التي تضمَّنتها هذه السورة.

وقيل: معنى تأسيسها عليها أنها إنما خُلقتْ بالحقِّ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] وهو العدلُ والتوحيدُ، وهو إن لم يرجعْ إلى الأول لا يخلو عن نظر.

وقيل: المراد أنَّ مُصحِّحَ إيجادهما ـ أي: بَعْدَ إمكانهما الذاتي ـ ما أشارت إليه السورةُ من وَحْدته عزَّ وجلَّ، واستحالة أن يكونَ له سبحانه شريكٌ؛ إذ لولا ذلك لم يمكن وجودهما؛ لإمكان التمانُع كما قرَّره بعضُ الأجلة في توجيه برهانية قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وفيه بُعْدٌ.

وتسمَّى أيضاً سورةَ «قل هو الله أحد» كما هو مشهورٌ، ويشير إليه الأثرُ أيضاً.

والمقشقشةُ لما سمعتَ في تفسير سورة الكافرون[2]، وسورةَ التوحيد، وسورةَ

---

(١) الكشاف ٤/٢٩٩. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٩٠: لم أجده مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن من رواية عبد الله بن غيلان الثقفي عن كعب الأحبار موقوفاً.

(٢) ص٣٧٤ من هذا الجزء.

التفريـ ـ سورةَ التجريد، وسورةَ النجاة، وسورةَ الولاية، وسورةَ المعرفة؛ لأنَّ معرفةَ الله تعالى إنما تتمُّ بمعرفة ما فيها، وفي أثرٍ أنَّ رجلاً صلى فقرأها، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا عبدٌ عَرَفَ ربَّه»(١).

وسورةَ الجمال، قيل: لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال» فسألوه ﷺ عن ذلك فقال: «أحدٌ صَمَدٌ، لم يلدْ ولم يولد»(٢). ولا أظنُّ صحةَ الخبر.

وسورةَ النسبة؛ لورودها جواباً لمن قال: انسبْ لنا ربَّك(٣)؟ على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى. وقيل: لما أخرجه الطبرانيُّ من طريق عثمان بن عبد الرحمن الطّرائفيّ عن الوازع بن نافع عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ شيءٍ نسبةٌ، ونسبةُ الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(٤) وهو كما قال الحافظ ابن رجب: ضعيفٌ جدًّا، وعثمانُ يروي المناكير. وفي «الميزان» أنه موضوعٌ(٥).

وسورةَ الصمد وسورةَ المعوِّذة؛ لما أخرج النسائيُّ والبزارُ وابن مردويه بسندٍ صحيحٍ(٦) عن عبد الله بن أنيس قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ وَضَعَ يدهُ على صدري، ثم قال: «قل» فلم أدرِ ما أقول. ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقلت حتى فرغت منها.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٩٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأخرجه ابن حبان (٢٤٦٠) بلفظ: «هذا عبد آمن بربِّه».

(٢) أخرج الشطر الأول منه أحمد (٣٧٨٩)، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولم نقف على سؤالهم لرسول الله ﷺ في كتب الحديث وذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٦.

(٣) وتمامه: فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤) من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه. وفي إسناده أبو سعد محمد بن مُيسَّر الصاغاني، وأبو جعفر الرازي وهو عيسى بن عبد الله بن ماهان، وهما ضعيفان كما في التقريب.

(٤) المعجم الأوسط (٧٣٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٦: فيه الوازع بن نافع، وهو متروك.

(٥) لم نقف عليه في الميزان للذهبي، ونقله المصنف عن الشهاب في الحاشية ٨/ ٤١١.

(٦) كما في الدر المنثور ٦/ ٤١٥، وهو في سنن النسائي الكبرى (٧٧٩٦).

ثم قال: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) فقلت حتى فرغتُ منها. ثم قال: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ) فقلت حتى فرغت منها. فقال رسول الله ﷺ: «هكذا فتعوَّذْ، وما تَعوَّذَ المتعوِّذونَ بمثلهنَّ قطُّ».

وسورةَ المانعة، قيل: لما روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيِّه ﷺ حين عرجَ به: أعطيتكَ سورةَ الإخلاص، وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعةُ، تمنعُ كُرُبات القبر، ونفحات النيران(١). والظاهرُ عدمُ صحة هذا الخبر، ويعارضه ما أخرجه ابن الضُّريس(٢) عن أبي أمامة: أربعُ آياتٍ نزلت من كنز العرش، لم ينزلْ منه غيرهنَّ: أمُّ الكتاب، وآيةُ الكرسي، وخاتمةُ سورة البقرة، والكوثر. وحُكْمُه حكم المرفوع، بل أخرجه أبو الشيخ ابن حيان(٣) والديلميُّ وغيرهما بالسند عن أبي أمامةَ مرفوعاً(٤).

وسورةَ المحضر قيل: لأنَّ الملائكةَ عليهم السلام تحضُرُ لاستماعها إذا قُرئت.

وسورةَ المنفِّرة، قيل: لأنَّ الشيطان ينفرُ عند قراءتها.

وسورةَ البراءة قيل: لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يقرؤها فقال: «أما هذا فقد برئَ من الشرك»(٥)، ولم أدْرِ مَنْ روى ذلك، نعم روى أبو نعيم من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة عن مهاجر قال: سمعتُ رجلاً يقول: صحبتُ النبيَّ ﷺ في سَفَرٍ، فسَمِعَ رجلاً يقرأ: (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) فقال: «قد بَرئَ من الشرك» وسَمِعَ آخر يقرأ: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقال: «غُفِرَ له»(٦)، وعليه فألحق بهذا الاسم سورة الكافرون، ولعلَّ الأَولى أن يقال: سُمِّيتْ بذلك لما في حديث

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٦.
(٢) في فضائل القرآن (١٤٨).
(٣) في الأصل و(م): أخرجه الشيخ بن حبان، والصواب ما أثبتناه، وقد أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥، وينظر التعليق الذي بعده.
(٤) عزاه السيوطي في الدر ١/ ٥ لأبي الشيخ والطبراني وابن مردويه والديلمي، وهو في المعجم الكبير (٧٩٢٠)، وإسناده ضعيف، ينظر فيض القدير ١/ ٤٦٩.
(٥) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٦.
(٦) أخرجه أحمد (١٦٦١٧).

الترمذيّ عن أنسٍ: «مَنْ أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه ثم قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مئة مرة، كَتَبَ الله تعالى له براءةً من النار»(١).

وسورةَ المذكِّرة؛ لأنها تُذكِّر خالصَ التوحيد.

وسورةَ النور، قيل: لما روي من قوله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ نوراً، ونورُ القرآن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٢).

وسورةَ الإيمان؛ لأنه لا يتمُّ بدون ما تضمَّنته من التوحيد، وقد ذَكَرَ معظمَ هذه الأسماء الإمام الرازي(٣)، وبيَّنَ وجهَ التسمية بها بما بيَّنَ، والرجلُ رحمه الله تعالى ليس بإمامٍ في معرفة أحوال المرويّات، لا يُميِّزُ غثَّها من سمينها، أو لا يبالي بذلك، فيكتبُ ما ظفر به، وإن عرفَ شِدَّةَ ضَعْفِهِ.

وهي مكيةٌ في قول عبد الله والحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة، مدنيةٌ في قول ابن عباس ومحمد بن كعب وأبي العالية والضحاك؛ قاله في «البحر»(٤)، وخبرُ ابن عباس السابق ـ إن صحَّ ـ ظاهرٌ في أنها عنده مكية، وفي «الإتقان»(٥): فيها قولان؛ لحديثين في سبب نزولها متعارضين، وجَمَعَ بعضُهم بينهما بتكرُّرِ نزولها، ثم ظَهَرَ لي ترجيحُ أنها مدنية.

وعلى ما في الكتابين لا يخفى ما في قول الدواني: إنها مكيةٌ بالاتفاق، من الدلالة على قِلَّة الاطّلاع.

وآيها خمسٌ في المكّي والشامي، أربعٌ في غيرهما(٦).

وَوُضِعَتْ هنا، قيل: للوزان في اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة المسد.

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٩٨)، وفي إسناده حاتم بن ميمون، وهو ضعيف كما في التقريب.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٦.
(٣) في تفسيره ٣٢/ ١٧٥ وما بعدها.
(٤) ٨/ ٥٢٧.
(٥) ١/ ٤٢.
(٦) في هامش الأصل: اختلافها «لم يلد» مكي شامي.

وقيل وهو الأولى: إنها مُتَّصلةٌ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في المعنى، فهما بمنزلة كلمة التوحيد في النفي والإثبات، ولذا يُسمَّيان المقشقشتين، وقُرن بينهما في القراءة في صلواتٍ كثيرةٍ على ما قاله بعضُ الأئمة، كركعتي الفجر والطواف والضُّحى وسنَّة المغرب وصُبْح المسافر ومغرب ليلة الجمعة، إلا أنه فُصِلَ بينهما بالسورتين لما تقدم من الوجه ونحوه. وكأنَّ في إيلائها سورةَ «تبَّت» ردًّا على أبي لهبٍ بخصوصه.

وجاء فيها أخبارٌ كثيرةٌ تدلُّ على مزيد فضلها، منها ما تقدم آنفاً، وفي صحيحي البخاري ومسلم[(١)] من حديث عائشة: أن النبيَّ ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم، فكان يختم بـ «قل هو الله أحد» فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأيِّ شيءٍ يصنع ذلك» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأها. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أخبروه أنَّ الله تعالى يحبُّه»[(٢)].

وروى مباركُ بن فضالة عن أنسٍ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إني أُحِبُّ هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال: «إنَّ حُبَّكَ إياها أدخلكَ الجنة»[(٣)]. وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»[(٤)] عن أبي النضر عن مبارك المذكور عن أنس، وذكر البخاريُّ أنَّ حُبَّها يُوجِبُ دخولَ الجنة تعليقاً[(٥)].

وروى مالك عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا هريرةَ يقول: أقبلتُ مع النبيِّ ﷺ، فسَمِعَ رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٧٥)، وصحيح مسلم (٨١٣).
(٢) من قوله: وفي صحيحي... إلى هنا ليس في (م)، وضُرب عليه في النعمانية (ب).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٠١)، وأخرجه أيضاً ضمن خبر طويل من طريق عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت. وجاء في هامش الأصل عند هذا الموضع: ومنها: أنَّ من قرأها في مرض موته فهو من الشهداء.
(٤) برقم (١٢٤٣٢).
(٥) قبل الحديث (٧٧٥).

«وجبت» قلت: وما وَجَبَتْ؟ قال: «الجنة» وأخرجه النسائيُّ والترمذيُّ وقال: حديثٌ صحيحٌ، لا نعرفه إلا من حديث مالك[(١)].

وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذيُّ[(٢)] ـ وقال: حسنٌ غريبٌ ـ عن بريدةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ سَمِعَ رجلاً يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنتَ الله لا إله إلا أنت الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكنْ له كفواً أحد. فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد سألَ الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى».

وفي «المسند» عن مِحْجَن بن الأدرَع أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ المسجد، فإذا هو برجلٍ قد قضى صلاته، وهو يتشهَّدُ ويقول: إني أسألكَ يا الله الواحدُ الأحدُ الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفرَ لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم. فقال نبيُّ الله ﷺ ثلاثَ مرات: «قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له»[(٣)].

وأخرج البخاريُّ ومالك وأبو داود والنسائيُّ عن أبي سعيدٍ أنَّ رجلاً سَمِعَ رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردِّدها، فلما أصبحَ جاء إلى النبيِّ ﷺ، فَذَكَرَ ذلك له، وكأنَّ الرجلَ يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدلُ ثلثَ القرآن»[(٤)].

---

(١) مالك في الموطأ ١/ ٢٠٨، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧١، والترمذي (٢٨٩٧)، وهو عند أحمد (٨٠١١). ووقع في مطبوع سنن الترمذي، وعارضة الأحوذي ١١/ ٢٥: حديث حسن غريب، بدل: حديث صحيح. وفي تحفة الأحوذي ٨/ ٢٠٩، وتفسير ابن كثير ٨/ ٥٢٣ نقلاً عن الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٢) أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وهو عند أحمد (٢٢٩٦٥).

(٣) مسند أحمد (١٨٩٧٤).

(٤) البخاري (٥٠١٣)، ومالك ١/ ٢٠٨، وأبو داود (١٤٦١)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧١، وهو عند أحمد (١١٣٠٦).

وقوله: يتقالها، أصله يتقاللها، أي: يعتقد أنها قليلة، والمراد استقلال العمل لا التنقيص. فتح الباري ٩/ ٦٠.

وأخرج أحمد والنسائيُّ في «اليوم والليلة»[(١)] من طريق هُشَيم عن أُبيٍّ بن كعب، أو رجلٍ من الأنصار، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فكأنما قرأ بثلث القرآن».

وفي رواية يوسف بن عطية الصَّفَّار بسنده عن أُبيٍّ مرفوعاً: «مَن قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فكأنما قرأ ثُلُثَ القرآن، وكُتِبَ له من الحسنات بعَدَدِ مَنْ أشرك بالله تعالى وآمن به»[(٢)].

وجاء أنها تعدلُ ثُلُثَ القرآن في عِدَّة أخبارٍ مرفوعةٍ وموقوفةٍ، وفي «المسند»[(٣)] من طريق ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ قال: باتَ قتادةُ بن النعمان يقرأ الليل[(٤)] كلَّه بـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدلُ نصفَ القرآن أو ثُلُثَهُ». وحُمِلَ على الشَّكِّ من الراوي[(٥)].

والروايات تُعيِّنُ الثلث، واختلف في المراد بذلك؛ فقيل: المراد أنها باعتبار معناها ثلثٌ من القرآن المجزَّأ إلى ثلاثة، لا أنَّ ثوابَ قراءتها ثلثَ ثواب القرآن. وإلى هذا ذهب جماعةٌ، لكنهم اختلفوا في بيان ذلك:

فقيل: إنَّ القرآنَ يشتملُ على قصصٍ، وأحكامٍ، وعقائدَ، وهي كلُّها مما يتعلَّقُ بالعقائد، فكانت ثُلُثاً بذلك الاعتبار.

وقال الغزاليُّ في «الجواهر» ما حاصله: هي عِدْلُ ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة، التي هي أمُّ ما في القرآن: عِلْمُ المبدأ، وعِلْمُ المعاد، وعِلْمُ ما بينهما، أعني الصراطَ المستقيم.

---

(١) أحمد (٢١٢٧٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٨٥).
(٢) أخرجه الخلال في فضائل سورة الإخلاص (٢٦)، وذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٤.
(٣) برقم (١١١١٥).
(٤) في (م): الليلة.
(٥) قال ابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ٢٢٨: أو نصفه، شكٌّ من المحدّث، لا يجوز أن يكون شكًّا من النبي ﷺ، على أنها لفظة غير محفوظة في هذا الحديث ولا في غيره، والمحفوظ الثابت الصحيح في هذا الحديث وغيره أنها تعدل ثلث القرآن دون شك.

وقال الجوني: المطالب التي في القرآن معظمها الأصول الثلاثة التي بها يصحُّ الإسلام ويحصلُ الإيمان، وهي: معرفة الله تعالى، والاعترافُ بصِدْق رسوله ﷺ، واعتقادُ القيام بين يديه، وهذه السورةُ تفيدُ الأصلَ الأولَ، فهي ثُلُثُهُ من هذا الوجه.

وقيل: القرآنُ قسمان: خبرٌ وإنشاءٌ، والخبرُ قسمان: خبرٌ عن الخالق، وخبرٌ عن المخلوق، فهذه ثلاثةُ أثلاثٍ، وسورةُ الإخلاص أخلصتِ الخبرَ عن الخالق، فهي بهذا الاعتبار ثُلُثٌ، وهذا كما ترى.

وأيًّاما كان قيل: لا تَنَافيَ بين رواية الثلث ورواية «عِدْل القرآن كلِّه» المذكورة في «الكشاف»[1] على تقدير ثبوتها؛ لجواز أن يقال: هي عِدْلُ القرآن باعتبار أنَّ المقصودَ التوحيد، وما عداه ذرائعُ إليه.

ويؤيِّدُ اعتبارَ الأجزاء أنفسها دون الثواب ما في «صحيح مسلم»[2] من طريق قتادة عن أبي الدرداء أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أيعجزُ أحدكم أن يقرأ كلَّ يوم ثُلُثَ القرآن» قالوا: نعم. قال: «فإنَّ الله تعالى جزَّأ القرآنَ ثلاثةَ أجزاء فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُلُثُ القرآن».

وقيل: المراد: تعدِلُ الثلثَ ثواباً لظواهر[3] الأحاديث. وضعَّفَ ذلك ابنُ عقيل، وقال: لا يجوز أن يكونَ المعنى: فله أجرُ ثُلُثِ القرآن؛ لقوله ﷺ: «من قرأ القرآنَ فله بكلِّ حرفٍ عشر حسنات»[4]، فيكونُ ثوابُ قراءة القرآن بتمامه أضعافاً مضاعفةً بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة. والدوانيُّ أورَد هذا إشكالاً على هذا القول، ثم أجابَ بأنَّ للقارئ ثوابين تفصيليًّا بحَسَب قراءة الحروف، وإجماليًّا بسبب ختمه القرآن، فثواب «قل هو الله أحد» يَعدِلُ ثُلُثَ ثواب الختم الإجمالي

---

(١) ٤/ ٢٩٨، وأخرج هذه الرواية أبو يعلى (١٤٨١) عن أنس رضي الله عنه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٣٤ و٧/ ١٤٧: رواه أبو يعلى، وفيه عبيس بن ميمون، وهو متروك.

(٢) برقم (٨١١)، وهو عند أحمد (٢٧٥٢٢).

(٣) في (م): بالظواهر.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، والطبراني في الكبير (٨٦٤٦)، والحاكم ١/ ٥٥٥ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

لا غيره، ونظيره إذا عيَّنَ أحدٌ لمن يبني له داراً في كلِّ يومٍ دنانير، وعيَّنَ له إذا أتمَّهُ جائزةً أخرى غيرَ أجرته اليومية. وعلى هذا يقاس ما ورد في سائر السور من أنها تعدل ربع القرآن أو أقلّ أو أكثر(١).

وفي «شرح البخاري» للكرماني: فإن قلتَ: المشقَّةُ في قراءة الثلث أكثرُ منها في قراءتها، فكيف يكون حكمه حكمها؟ قلتُ: يكون ثوابُ قراءة الثلث بعَشْرٍ، وثوابُ قراءتها بقَدْرِ ثواب مرَّةٍ منها؛ لأنَّ التشبيهَ في الأصل دون الزائد، وتِسْعٌ منها في مقابلة زيادة المشقة.

وقال الخفاجيُّ - بعد أن قال: ليس فيما ذُكِرَ ما يُثلِجُ الصدرَ ويطمئنُّ له البال -: والذي عندي في ذلك أنَّ للناظر في معنى كلام الله تعالى المتدبِّر لآياته ثواباً، وللتالي له وإن لم يفهمه ثوابٌ آخرُ، فالمراد أنَّ مَنْ تلاها مراعياً حقوقَ أدائها، فاهماً دقيقَ معانيها، كانت تلاوته لها مع تأملها وتدبُّرها تعدِلُ ثوابَ تلاوة ثلثِ القرآن من غيرِ نظرٍ في معانيه، أو ثلثٍ ليس فيه ما يتعلَّقُ بمعرفة الله تعالى وتوحيده، ولا بدعَ في أشرف المعاني إذا ضُمَّ لبعضٍ من أشرف الألفاظ أن يَعْدِلَ من جنس تلك الألفاظ مقداراً كثيراً، كلوح ذهبٍ زِنَتُهُ عشرةُ مثاقيل مُرَصَّع بأنفس الجواهر، يساوي ألفَ مثقالٍ ذهباً فصاعداً(٢). انتهى.

ولا أرى له كثيرَ امتيازٍ على غيره مما تقدم، والذي أختاره أن يقال: لا مانع من أن يخصَّ الله عزَّ وجلَّ بعضَ العبادات التي ليس فيها كثيرُ مشقَّةٍ بثوابٍ أكثرَ من ثواب ما هو من جنسها وأشقَّ منها بأضعافٍ مضاعفة، وهو سبحانه الذي لا حَجْرَ عليه، ولا يتناهى جُوده وكرمه، فلا يبعدُ أن يتفضَّلَ جلَّ وعلا على قارئ القرآن بكلِّ حرفٍ عشرَ حسنات، ويزيد على ذلك أضعافاً مضاعفةً جدًّا لقارئ الإخلاص، بحيث يعدِلُ ثوابُه ثوابَ قارئ ثُلُثٍ منه غير مشتملٍ على تلك السورة، ويُفوَّضُ حكمة التخصيص إلى علمه سبحانه، وكذا يقال في أمثالها، وهذا مرادُ مَنْ جَعَلَ

---

(١) من قوله: وعلى هذا... إلى هنا ليس في (م)، وكلام الدواني ذكره أيضاً الشهاب في الحاشية ٨/ ٤١٤.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٤١٤.

ذلك من المتشابه الذي استأثرَ الله تعالى بعلمه، وليس هذا بأبعدَ ولا أبدعَ من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة المتَّحدة الماهية بأنَّ للعبادة فيه[١] ـ ولو قليلةً ـ من الثواب ما يزيدُ أضعافاً مضاعفة على ثواب العبادة في مجاوره ـ مثلاً ـ ولو كثيرة، بل قد خصَّ سبحانه بعضَ الأزمنة والأمكنة بوجوب العبادة فيه، وبعضَها بحُرْمتها فيه، وله سبحانه في كلِّ ذلك من الحِكَمِ ما هو به أعلمُ.

وقال ابن عبد البر[٢]: السكوتُ في هذه المسألة أفضلُ من الكلام فيها وأَسْلَمُ. ثم ذَكَرَ عن الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه أنهما ـ وهما إمامان بالسُّنَّة ـ ما قاما ولا قعدا في هذه المسألة وقد سئلا عنها. ومراده من ذلك تأييدُ ما ادَّعى من أنَّ السكوتَ أسلمُ، وهو كذلك، لكنْ على الوجه الذي قرَّرناه.

وقد وَرَدَ في تكرار قراءتها خمسينَ مرةً أو أكثر من ذلك، وعشرَ مراتٍ عقيبَ كلِّ صلاةٍ أحاديثُ كثيرةٌ، فيها كما قال الحافظ ابن رجب ضَعْفٌ[٣]، وكذلك حديثُ معاوية بن معاوية الليثي الذي افتتح به الإمامُ[٤] الكلامَ في هذه السورة الكريمة، خرَّجه الطبرانيُّ وأبو يعلى من طُرُقٍ كلُّها ضعيفة[٥]، والأحاديثُ الصحيحةُ

---

(١) في (م): منه.

(٢) في الاستذكار ٨/١١٧-١١٨.

(٣) من قوله: ثم ذكر. . . . إلى هنا ليس في (م)، وضرب عليه في النعمانية (ب).
وقد جاء في فضل تكرارها خمسين مرة حديث أخرجه الدارمي في مسنده (٣٤٣٨) أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: قل هو الله أحد خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة».
قال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٣٤: إسناده ضعيف.
وفي فضل قراءتها عشر مرات ما أخرجه أحمد (١٥٦١٠) من حديث معاذ بن أنس الجهني، وإسناده ضعيف، وأخرج الدارمي (٣٤٢٩) من طريق سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ: قل هو الله أحد عشر مرات بُني له بها قصرٌ في الجنة، ومن قرأها عشرين مرة بني له بها قصران في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور في الجنة» قال ابن كثير: وهذا مرسل جيد.

(٤) في تفسيره ٣٢/ ١٧٤.

(٥) أخرجه أبو يعلى (٤٢٦٧) من حديث أنس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٧٨: رواه أبو يعلى، وفيه العلاء بن زيدل أبو محمد الثقفي، وهو متروك.

الواردةُ فيها تكفي في فضلها، بل قيل لذلك: إنها أفضلُ سورةٍ في القرآن، ومنهم من استدلَّ عليه بما روى الدارميُّ في «مسنده» عن أبي المغيرة عن صفوان [عن أَيْفَعَ بن عبد] الكَلَاعِيِّ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أيُّ سُوَرِ القرآن أعظمُ؟ قال: «قل هو الله أحد»(١).

وفي «المسند»(٢) من طريقي معان(٣) بن رفاعة وأَسيد بن عبد الرحمن، عن عقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُعلِّمكَ خيرَ ثلاثِ سُوَرٍ أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم»؟ قلت: بلى. قال: فأقرأني (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم قال: «يا عقبةُ، لا تنساهنَّ(٤)، ولا تَبِتْ ليلةً حتى تقرأهنَّ» وروى الترمذيُّ(٥) بعضَ هذا الحديث وحسَّنه، ولا يدلُّ على أنها أفضلُ سُوَرِ القرآن مطلقاً، بل على أنها من الأفضل.

واعلم أنَّ(٦) في هذا المطلب كلاماً، فقد اختلف الناسُ: هل في القرآن شيءٌ أفضلُ من شيءٍ؟ فذهب الأشعريُّ وأبو بكر الباقلاني وابن حبان(٧) إلى منع أن يقال في شيءٍ منه: إنه أفضلُ من شيءٍ آخر منه، وروي ذلك عن مالك؛ لأنَّ الكلَّ كلامُ الله تعالى، ولئلّا يُتوهَّمَ نقصُ المفضَّل عنه. وقال ابن حبان(٨) في «أعظم» فيما تقدم: إنه أُريد به: أعظم في الأجر.

---

(١) سنن الدارمي (٣٣٨٠) وما سلف بين حاصرتين منه، وهو حديث مرسل، كما في الإصابة ١/ ٢٢٢.

(٢) مسند أحمد (١٧٣٣٤) و(١٧٤٥٢).

(٣) في الأصل و(م): معاذ. والصواب ما أثبتناه.

(٤) كذا جاء الفعل بإثبات الألف، والجادة حذفها؛ لأن الفعل مجزوم بـ «لا» الناهية، وقد يخرج هنا على أن الألف للإشباع، كما فعل السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٦١ في تخريج قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ على القول بأن «لا» ناهية.

(٥) في سننه (٢٩٠٢)، (٢٩٠٣).

(٦) من قوله: واعلم أنَّ... إلى هنا ليس في (م).

(٧) في صحيحه إثر الحديث (٧٧٤)، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإتقان ٢/ ١١٣١.

(٨) في صحيحه إثر الحديث (٧٧٧)، والكلام من الإتقان.

وذهب آخرون إلى التفضيل؛ لظواهر الأحاديث، منهم إسحاق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وحجة الإسلام الغزالي. وقال القرطبيُّ(١): إنه الحق، ونقله عن جماعة من العلماء والمتكلِّمين(٢).

وقال ابن الحصار(٣): العَجَبُ ممن يذكرُ(٤) الاختلافَ في الفضل مع كثرة النصوص الواردة فيه.

واختلف القائلون بالتفضيل، فقال بعضُهم: الفضلُ راجعٌ إلى عِظَمِ ومضاعفة الثواب بحَسَبِ انتقالات النفس وخشيتها وتدبُّرها عند أوصاف العُلا.

وقيل: بل يرجعُ لِذَات اللفظ، فإنَّ ما(٥) تضمَّنته سورةُ الإخلاص مثلاً من الدلالة على الوحدانية وصفاته تعالى، ليس موجوداً في «تبَّت» مثلاً، فالتفضيلُ إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها.

ونقل البيهقيُّ عن الحليميِّ(٦) أنَّ معنى التفضيل بين الآيات والسور يرجعُ إلى أشياءَ:

أحدها: أن يكون العملُ بها أولى من العمل بأُخرى وأَعْوَدَ على الناس، وعلى هذا يقال في آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد: خيرٌ من آيات القصص؛ لأنه إنما أُريد بها تأكيدُ الأمر والنهي والإنذار والتبشير، ولا غنى للناس عن هذه الأمور، وقد يستغنونَ عن القصص، فكان ما هو أَعودُ عليهم وأنفعُ لهم مما يجري مجرى الأصول خيرٌ لهم مما يُجْعَلُ تبعاً لما لا بدَّ منه.

---

(١) في تفسيره ١/ ١٧٠، والكلام من الإتقان.
(٢) من قوله: واعلم أن، إلى هذا الموضع ليس في (م).
(٣) في (م): الحصاد، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير القرطبي والإتقان، وابن الحصار هو عبد الرحمن بن أحمد القرطبي المالكي، المتوفى سنة (٤٢٢هـ). ينظر السير ١٧/ ٤٧٣.
(٤) في الأصل و(م): ينكر، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير القرطبي والإتقان.
(٥) قوله: ما، ليس في (م)، والمثبت من الأصل والإتقان.
(٦) في الأصل و(م): ونقل الحليمي عن البيهقي، والصواب ما أثبت، بدليل أن العبارة في الإتقان: وقال الحليمي ونقله عنه البيهقي. ولأن وفاة البيهقي متأخرة عن الحليمي، وكلامهما في المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ٢٤٤، وشعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٥١٥.

الثاني: أن يقال: الآياتُ التي تشتملُ على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته، والدلالة على عظمته عزَّ وجلَّ أفضلُ، بمعنى أنها أسنى وأجلُّ قدراً مما لا تشتملُ على ذلك.

الثالث: أن يقال: سورةٌ خيرٌ من سورةٍ، أو آيةٌ خيرٌ من آيةٍ، بمعنى أنَّ القارئَ يتعجَّلُ له بقراءتها فائدةٌ سوى الثواب الآجل، ويتأدَّى منه بتلاوتها عبادةٌ كآية الكرسي والإخلاص والمعوّذتين، فإنَّ قارئها يتعجَّلُ بقراءتها الاحترازَ مما يخشى، والاعتصامَ بالله تعالى، ويتأدّى بتلاوتها عبادةُ الله سبحانه؛ لما فيها من ذِكْره تعالى بالصفات العُلا على سبيل الاعتقاد لها، وسكون النفس إلى فضل ذلك الذكر وبركته، وأما آياتُ الحُكم فلا يقعُ بنفس تلاوتها إقامةُ حُكْمٍ، وإنما يقعُ بها عِلْمٌ.

وقد يقال: إنَّ سورةً أفضلُ من سورةٍ؛ لأنَّ الله تعالى جعلَ قراءتها كقراءة أضعافها مما سواها، وأوجبَ بها من الثواب ما لم يوجب سبحانه لغيرها، وإن كان المعنى الذي لأجله بلغَ بها هذا المقدار لا يظهرُ لنا، وهذا نظيرُ ما يقال في تفضيل الأزمنة والأمكنة بعضها على بعض على ما سمعت آنفاً.

وبالجملة التفضيلُ بأحد هذه الاعتبارات لا ينافي كونَ الكلِّ كلامَ الله عز وجل ومتَّحد النسبة إليه سبحانه كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ المشهورُ أنَّ «هو» ضمير الشأن، ومحلُّه الرفعُ على الابتداء، خبرُهُ الجملةُ بعده، ومثلُها لا يكون لها رابطٌ؛ لأنها عينُ المبتدأ في المعنى، والسِّرُّ في تصديرها به التنبيهُ من أول الأمر على فخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير، فإنَّ الضميرَ لا يُفهَمُ منه من أول الأمر إلا شأنٌ مُبهَمٌ له خطرٌ جليلٌ، فيبقى الذهنُ مترقِّباً لما أمامه مما يفسِّره ويزيلُ إبهامه، فيتمكَّنُ عند وروده له فَضْلَ تمكُّنٍ، وقولُ الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز»[1] إنَّ له مع

(١) ص٣١٧.

«إنَّ» حُسْناً بل لا يصحُّ بدونها. غيرُ مسلَّمٍ، نعم قال الشهابُ القاسميُّ[1]: إنَّ هاهنا إشكالاً؛ لأنه إن جُعلَ الخبرُ مجموعَ معنى الجملة المبيَّن في باب القضية، أعني: مجموع «الله» ومعنى «أحد» والنسبة بينهما، ففيه أنَّ الظاهرَ أنَّ ذلك المجموعَ ليس هو الشأنُ، وإنما الشأنُ مضمونُ الجملة الذي هو مُفردٌ، أعني: الوحدانية، وإن جُعِلَ مضمونَ الجملة الذي هو مفردٌ، فتخصيصُ عدم الرابط بالجملة المخبَرِ بها عن ضمير الشأن غيرُ متَّجهٍ؛ إذ كلُّ جملةٍ كذلك؛ لأنَّ الخبَر لا بدَّ من اتحاده بالمبتدأ بحسب الذات، ولا يتَّحدُ به كذلك إلا مضمون الجملة الذي هو مُفرَدٌ.

وأجيب باختيار الشّقِّ الأول كما يُرشِدُ إليه تعبيرهم عن هذا الضمير أحياناً بضمير القصة، ضرورةَ أنَّ مضمونَ الجملة الذي هو مُفرَدٌ ليس بقصة، وإنما القصَّةُ معناها المبيّنُ في بابِ القضية، وأيضاً هم يعدُّون مثل قوله ﷺ: «أَحَقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبدٌ: لا مانعَ لما أَعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجدّ»[2] من الجمل التي هي عينُ المبتدأ في المعنى، الغير المحتاجة إلى الضمير لذلك، ومن المعلوم أنَّ ما يقال ليس المضمونَ الذي هو مفردٌ، بل هو الجملةُ بذلك المعنى، ولذا تراهم يُوجبون كَسْرَ همزة «إنَّ» بعد القول، وكذا تمثيلهم لها بـ : نطقي الله حسبي وكفى، أي: منطوقي الذي أَنطقُ به ذلك؛ إذ من الظاهر أنَّ ما نطقَ به هو الجملةُ بالمعنى المعروف، وقد دلَّ كلامُ ابن مالك في «التسهيل» على أنَّ المراد بكون[3] الجملة التي لا تحتاج إلى رابطٍ عينَ المبتدأ أنها وقعت خبراً عن مُفرَدٍ مدلولُهُ جملةٌ[4]. وهو ظاهرٌ فيما قلنا أيضاً، وكونُ ذلك

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، شهاب الدين، أبو العباس بن أبي القاسم الحميري المالكي، الفاسي الأصل، القسنطيني المولد، ويعرف بالخلُّوف، له: «نظم المغني» في النحو، و«نظم التلخيص» في المعاني والبيان، و«تحرير الميزان» في العروض، وله ديوان شعر، توفي سنة (٨٩٩هـ). الضوء اللامع ٢/ ١٢٢، ومعجم المطبوعات ص ٩٩، والأعلام ١/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٢٨)، ومسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) في (م): على المراد يكون.

(٤) التسهيل ص٤٨ بنحوه.

شأناً ـ أي: عظيماً من الأمور ـ باعتبار ما تضمَّنه، وَوَصْفُ الكلام بالعِظَمِ ومقابله بهذا الاعتبار شائعٌ ذائعٌ.

وقال العلامة أحمد الغنيمي(١): إن أُريد أنها عينُهُ بحَسَبِ المفهوم، فهو مُشكِلٌ؛ لعدم الفائدة، وإن أُريد عينُهُ بحسب المصدّق مع التغاير في المفهوم كما هو شأنُ سائر الموضوعات مع محمولاتها، فقد يقال: إنه مشكلٌ أيضاً؛ إذ ما صدق ضمير الشأن أعمّ من «الله أحد»، والخاصُّ لا يُحمَلُ على العامِّ في القضايا الكلية، ودعوى الجزئية في هذا المقام ينبو عنه تصريحهم بأنَّ ضميرَ الشأن لا يخلو عن إبهام، وبعبارةٍ أخرى: وهي أنَّ ما صدق عليه ضميرُ الشأن مُفْرَدٌ، وما صدق الجملة مُرَكَّبٌ، ولا شيءَ من المفرد بمركَّبٍ، ولذا تراهم يُؤوِّلون الجملةَ الواقعةَ خبراً بمفردٍ صادقٍ على المبتدأ؛ ليصحَّ وقوعها خبراً، والتزام ذلك في الجملة الواقعة خبراً عن ضمير الشأن ينافيه تصريحهم بأنها غيرُ مُؤَوَّلةٍ بالمفرد، وإن كانت في موقعه.

وأُجيب بأنَّ معنى قولهم: هو ضميرُ الشأن، أنه ضميرٌ راجعٌ إليه، وموضوعٌ موضعه، وإن لم يسبقْ له ذِكْرٌ؛ للإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيثُ يستحضرهُ كلُّ أحدٍ، وإليه يُشير كلُّ مشير، وعليه يعودُ كلُّ ضمير. وقولهم في عَدِّ الضمائر التي ترجعُ إلى متأخِّر لفظاً ورتبةً: منها ضميرُ الشأن، فإنه راجعٌ إلى الجملة بعده = مسامحةٌ ارتكبوها؛ لأنَّ بيانَ الشأن وتعيينَ المراد به بها، فما صدق الضمير هو بعينه ما صدق الشأن الذي عادَ هو عليه، فيختارُ الشقَّ الثاني، فإما أن يُرادَ بالشأن الشأنُ المعهود ادِّعاءً، وتُجعَلَ القضيةُ شخصيةً نظيرَ: هذا زيدٌ، وإما أن يُرادَ المعنى الكلي وتُجعل القضيةُ مهملةً، وهي في قوة الجزئية، كأنه قيل: بعضُ الشأن الله أحد.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن علي، شهاب الدين، الخزرجي الأنصاري، المصري الحنفي، نحوي متكلم، له شروح وحواشٍ في الأصول والعربية، وله تعليقات على تفاسير البيضاوي والزمخشري وأبي السعود، جمعها في كتاب سمي «حاشية الغنيمي في التفسير»، توفي سنة (١٠٤٤هـ). هدية العارفين ١/١٥٨، والأعلام ١/٢٣٧.

وجاء الإبهامُ الذي ادَّعى تصريحهم به من عَدَمِ تعيُّنِ البعض قبل ذِكْرِ الجملة، وحَمْلِها عليه، وما صدق عليه الشأن كما يكون مفرداً يكونُ جملةً، فليكن هنا كذلك، واستمجد الأول، واحتمال الكلية مبالغةً ـ نحو: كل الصَّيد في جوف الفَرَا[1] ـ كما ترى، فليتأمل.

وجوَّزوا أن يكون «هو» ضمير المسؤول عنه، أو المطلوب صفته أو نسبته، فقد أخرج الإمام أحمد في «مسنده»، والبخاريُّ في «تاريخه»، والترمذيُّ، والبغويُّ في «معجمه»، وابن [أبي] عاصم في «السنة»، والحاكم وصححه، وغيرهم، عن أُبيِّ بن كعب أنَّ المشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمد، انسبْ لنا ربَّك؟ فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) السورة[2].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانيُّ في «الأوسط» والبيهقيُّ بسندٍ حَسَنٍ وآخرون عن جابر قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: انسبْ لنا ربك؟ فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) إلخ[3].

وفي «المعالم»[4] عن ابن عباس أنَّ عامرَ بن الطفيل وأَربدَ بن ربيعة أتيا النبيَّ ﷺ، فقال عامر: إلامَ تدعونا يا محمد؟ قال: «إلى الله» قالا: صِفْهُ لنا: أمِنْ ذهبٍ هو، أم من فضة، أو من حديدٍ، أو من خشب؟ فنزلت هذه السورة، فأهلك الله تعالى أربدَ بالصاعقة، وعامراً بالطاعون.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»[5] عن ابن عباس أنَّ

---

(١) الفَرَأ: حمار الوحش، وهو في المثل بغير همز؛ لأن الأمثال موضوعة على الوقف، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٤) من سورة لقمان.

(٢) أحمد (٢١٢١٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٤٥، والترمذي (٣٣٦٤)، والسنة لابن أبي عاصم (٦٦٣)، والحاكم ٢/ ٥٤٠. وإسناده ضعيف كما سلف في بداية تفسير هذه السورة.

(٣) ابن جرير ٢٤/ ٧٢٨، والطبراني في الأوسط (٥٦٨٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٨)، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٤١٠.

(٤) معالم التنزيل للبغوي ٤/ ٥٤٤.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٤١٠، وهو في الأسماء والصفات (٦٠٦).

اليهودَ جاءت إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام منهم كعبُ بن الأشرف وحُيي بن أَخطب، فقالوا: يا محمدُ، صِفْ لنا ربَّكَ الذي بعثكَ؟ فأنزل الله تعالى السورة.

وكون السائلين اليهود مرويٌّ عن الضحاك وابن جبير وقتادة ومقاتل، وهو ظاهرٌ في أنَّ السورةَ مدنيةٌ.

وجاز رجوعُ الضمير إلى ذلك للعلم به من السؤال، وجَرْيِ ذِكْرِهِ فيه، وهو عليه مبتدأٌ والاسم الجليلُ خبرُهُ، و«أحدٌ» خبرٌ بعد خبر، وأجاز الزمخشريُّ(١) أن يكون بدلاً من الاسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو أحدٌ.

وأجاز أبو البقاء(٢) أن يكونَ الاسمُ الأعظمُ بدلاً من «هو»، و«أحدٌ» خبرُه.

و«الله» تعالى وتَقدَّسَ: عَلَمٌ على الذات الواجب الوجود كما ذهب إليه جمهور الأشاعرة وغيرهم، خلافاً للمعتزلة، حيث قالوا: العَلَمُ في حَقِّهِ سبحانه مُحالٌ؛ لأنَّ أحداً لا يعلمُ ذاته تعالى المخصوص بخصوصيةٍ حتى يُوضَع له، وإنما يُعلَمُ بمفهوماتٍ كُلِّيةٍ منحصرةٍ في فَرْدٍ، فيكونُ اللفظُ موضوعاً لأمثال تلك المفهومات الكلية، فلا يكونُ عَلَماً.

وَرُدَّ بأنه تعالى عالمٌ بخصوصية ذاته، فيجوز أن يضعَ لَفْظاً بإزائه بخصوصه، فيكونُ عَلَماً، وهذا على مذهب القائلين بأنَّ الواضعَ هو الله تعالى ظاهرٌ، إلا أنه يلزمُ أن يكونَ ما يُفهَمُ من لفظ «الله» غيرَ ما وضِعَ له؛ إذ لا يعلمُ غيره تعالى خصوصيةَ ذاته تعالى التي هي الموضوعُ له على هذا التقدير، والقولُ بأنه يجوزُ أن يكونَ المفهوم الكليُّ آلةً للوضع، ويكون الموضوع له هو الخصوصية التي يَصْدُقُ عليها المفهوم الكُلِّيُّ كما قيل في هذا ونظائره، يلزمُ عليه أيضاً أن يكونَ وَضْعُ اللفظ لما لا يُفهَمُ منه، فإنَّا لا نفهمُ من أسمائه تعالى إلا تلك المفهومات الكُلِّية، والظاهرُ أنَّ الملائكةَ عليهم السلام كذلك؛ لاحتجاب ذاته عزَّ وجلَّ عن غيره سبحانه، ومن

(١) في الكشاف ٤/ ٢٩٨.
(٢) في الإملاء ٤/ ٤٨٧.

هنا استظهر بعضُ الأَجِلَّةِ ما نُقِلَ عن حُجَّة الإسلام أنَّ الأشبهَ أنَّ الاسمَ الجليلَ جارٍ - في الدلالة على الموجود الحقِّ الجامعِ لصفات الإلهية، المنعوتِ بنعوت الربوبية، المتفردِ بالوجود الحقيقي - مجرى الأعلام[1]. أي: وليس بعَلَمٍ.

وقد مرَّ ما يتعلَّقُ بذلك أولَ الكتاب فارجع إليه.

بقي في هذا المقام بحثٌ، وهو أنَّ الأعلامَ الشخصيةَ كزيدٍ إما أن يكون كلٌّ منها موضوعاً للشخص المعيَّن كما هو المتبادر المشهور، فإذا أُخبر أحدٌ بتولُّدِ ابنٍ له فسمَّاه زيداً مثلاً من غير أن يبصره، يكون ذلك اللفظُ اسماً للصورة الخيالية التي حصلتْ في مخيِّلته؛ وحينئذٍ إذا لم يكن المولودُ بهذه الصورة[2]، لم يكن إطلاقُ الاسم عليه بحَسَبِ ذلك الوضع، ولو قيل بكونه موضوعاً للمفهوم الكُلِّيِّ المنحصر في ذلك الفردِ لم يكن عَلَماً كما سبق، ثم إذا سمعنا عَلَماً من تلك الأعلام الشخصية، ولم نبصرْ مسمَّاه أصلاً، فإنَّا لا نفهمُ الخصوصيةَ التي هو عليها، بل ربما تخيَّلناه عل غير ما هو عليه من الصور.

وإما أن يكون جميعُ تلك الصور الخيالية موضوعاً له، فيكون من قبيل الألفاظ المشتركة بين معانٍ غيرِ محصورة.

وإما أن يكون الموضوعُ له هو الخصوصيةَ التي هو عليها فقط، فيكونُ غيرُها خارجاً عن الموضوع له، فيكونُ فَهْمُ غيرها من الخصوصيات منه غَلَطاً، فإما أن يتركَ دعوى كون تلك الأعلام جزئياتٍ حقيقية، ويقال: إنها موضوعاتٌ للمفهوماتِ الكلية المنحصرة في الفرد، أو يُلتزمَ أحدُ الاحتمالات الأُخر، وكلا الوجهين محلُّ تأملٍ كما ترى، فتأمل.

و«أحدٌ»: قالوا: همزته مبدَلةٌ من الواو، وأصله: وَحَدٌ، وإبدالُ الواو المفتوحة همزةً قليلٌ، ومنه قولهم: امرأةٌ أناةٌ، يريدون وناةٌ؛ لأنه من الوَنى، وهو الفُتور. وهذا بخلاف: أَحدٍ، الذي يُلازمُ النفيَ ونحوه، ويراد به العموم كما في قوله

---

(١) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للغزالي ص٦١. وجاء في (م): المنفرد، بدل: المتفرد.

(٢) في (م): السورة.

تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي»[١]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦] فإنَّ همزته أصلية. وقيل: الهمزةُ فيه أصليةٌ كالهمزة في الآخر.

والفرقُ بينهما قال الراغب: إنَّ المختصَّ بالنفي منهما[٢] لاستغراق جنس الناطقين، ويتناولُ القليلَ والكثيرَ على طريق الاجتماع والافتراق، نحو: ما في الدار أحدٌ، أي: لا واحدٌ ولا اثنانِ فصاعداً، لا مجتمعين ولا مفترقين، ولهذا لم يصحَّ استعماله في الإثبات؛ لأنَّ نفيَ المتضادَّين يصحُّ، ولا يصحُّ إثباتهما، فلو قيل: في الدار أحدٌ، لكان فيه إثباتُ واحدٍ منفردٍ، مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومفترقين، وذلك ظاهرُ الإحالة، ولتناوُلِ ذلك ما فوق الواحد يصحُّ أن يقال: ما من أحدٍ فاضِلينَ، وعليه الآية المذكورةُ آنفاً.

والمستعملُ في الإثبات على ثلاثة أوجه: الأول: أن يُضَمَّ إلى العشرات نحو: أحدَ عشرَ، وأحدَ وعشرون. والثاني: أن يُستعملَ مضافاً، أو مضافاً إليه بمعنى الأول، كما في قوله تعالى: ﴿أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] وقولهم: يومُ الأحدِ، أي: يومُ الأولِ. والثالث: أن يُستعملَ مطلقاً وَصْفاً، وليس ذلك إلا في وَصْفِ الله تعالى، وهو وإن كان أصلُهُ «وَحَداً» إلا أنَّ «وَحَداً» يُستعملُ في غيره سبحانه، نحو قول النابغة:

كـأنَّ رَحْـلـي وقـد زال الـنـهـارُ بـنـا ... بذي الجليلِ على مُستأنسٍ وَحِدِ

انتهى[٣].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، وأحمد (١٤٢٦٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) في هامش الأصل: قال بعض الأفاضل: إنه لم يرد إلا في النفي أو مع كلمة «كل» فلا تغفل.

(٣) المفردات (أحد)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣١. وذو الجليل: وادٍ قرب مكة. معجم البلدان ٢/ ١٥٨. وقد سلف الكلام عن هذه المسألة مع قول الراغب عند تفسير الآية (٣٢) من سورة الأحزاب.

وقال مكي: أصلُ «أَحدٍ»: واحِدٌ، فأَبدلوا الواوَ همزةً، فاجتمعَ أَلِفان؛ لأنَّ الهمزةَ تُشبه الألفَ، فحذفت إحداهما تخفيفاً(١).

وفرَّق ثعلبٌ بين: أحدٍ وواحدٍ، بأنَّ «أحداً» لا يُبنى عليه العددُ ابتداءً، فلا يقال: أحدٌ واثنانِ، كما يقال: واحدٌ واثنان، ولا يقال: رجلٌ أحدٌ، كما يقال: رجلٌ واحدٌ، ولذلك اختصَّ به سبحانه.

وصرَّح بالاختصاص الأزهريُّ أيضاً في تفسير «أسماء الله تعالى الحسنى» فقال: الأحد من صفات الله تعالى التي استأثرَ سبحانه بها، فلا يشركه عزَّ وجلَّ فيها شيءٌ، ولا يُوصَفُ شيءٌ بالأحد غير الله تعالى، فلا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا: درهمٌ أحدٌ، وإنما يقال: رجلٌ أو درهمٌ واحدٌ(٢).

وفرَّقَ بعضُهم بينهما أيضاً بأنَّ الأحد في النفي نصٌّ في العموم، بخلاف الواحد، فإنه محتملٌ للعموم وغيره، فيقال: ما في الدار أحدٌ، ولا يقال: بل اثنان، ويجوز أن يقال: ما في الدار واحدٌ، بل اثنان.

ونُقل عن بعض الحنفية أنه قال في التفرقة بينهما: إنَّ الأحديةَ لا تحتملُ الجزئيةَ والعدديةَ بحالٍ، والواحديةَ تحتملهما لأنه يقال: مئةُ واحدةٍ، وألفُ واحدٍ، ولا يقال: مئة أحدٍ، ولا: ألفُ أحدٍ، وبنى على ذلك مسألة الإمام محمد بن الحسن التي ذكرها في «الجامع الكبير»(٣) إذا كان لرجلٍ أربعُ نسوةٍ، فقال: والله لا أقربُ واحدةً منكنَّ. صار مُولِياً منهنَّ جميعاً، ولم يجزْ أن يقربَ واحدةً منهنَّ إلا بكفارة، ولو قال: والله لا أَقربُ إحداكنَّ. لم يصرْ مُولياً إلا من إحداهنَّ، والبيان إليه.

وفرَّق الخطّابيُّ بأنَّ الأحدية لتفرُّدِ الذات، والواحدية لنفي المشاركة في الصفات. ونُقل عن المحقِّقين التفرقةُ بعكس ذلك. ولَمَّا لم ينفكَّ في شأنه تعالى أحدُ الأمرين من الآخر قيل: الواحدُ الأحد، في حُكم اسمٍ واحدٍ.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٥٣.

(٢) من قوله: وصرح. . . . إلى هنا ليس في (م).

(٣) وذكرها أيضاً في المبسوط ٧/ ٢٦.

وفسَّر الأحد هنا ابن عباس وأبو عبيدة ـ كما قال ابن الجوزي[(١)] ـ بالواحد، وأُيِّدَ بقراءة الأعمش: «قل هو الله الواحد»[(٢)]، وفُسِّرَ بما لا يتجزّأ ولا ينقسمُ.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ الواحدَ مقولٌ على ما تحته بالتشكيك، فالمراد به هنا حيث أُطلق: المتَّصفُ بالواحدية التي لا يمكنُ أن يكونَ أزيد منها ولا أكمل، فهو ما يكون منزَّهَ الذات عن أنحاء التركيب[(٣)] والتعدُّد خارجاً وذهناً، وما يستلزم أحدَهما كالجسمية والتحيُّز والمشاركة في الحقيقة وخواصِّها[(٤)]، كوجوب الوجود، والقدرة الذاتية، والحكمة التامة المقتضية للألُوهية.

وهو مأخوذٌ من كلام الرئيس أبي علي بن سينا في تفسيره السورةَ الجليلةَ حيث قال: إنَّ «أحداً» دالٌّ على أنه تعالى واحدٌ من جميع الوجوه، وأنه لا كثرةَ هناك أصلاً لا كثرةً معنويةً، وهي كثرةُ المقوِّمات والأجناس والفصول، وكثرة الأجزاء الخارجية[(٥)] المتمايزة عقلاً كما في المادة والصورة، والكثرة الحسية بالقوة أو بالفعل كما في الجسم، وذلك يتضمَّنُ لكونه سبحانه منزَّهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما يثلمُ الوحدة الكاملة والبَساطة الحقَّةَ اللائقةَ بكرم وجهه عزَّ وجلَّ عن أن يشبهه شيءٌ أو يساويه سبحانه شيءٌ.

وقال ابن عقيل الحنبلي: الذي يصحُّ لنا من القول مع إثبات الصفات أنه تعالى واحدٌ في إلهيَّته لا غير.

وقال غيره من السلفيين كالحافظ ابن رجب: هو سبحانه الواحدُ في إلهيَّته وربوبيته، فلا معبودَ ولا ربَّ سواه عزَّ وجلَّ. واختار بعد وَصْفه تعالى بما وَرَدَ له

---

(١) في زاد المسير ٩/ ٢٦٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٨٢، والكشاف ٤/ ٢٩٨.

(٣) أي: أقسامه، وهو جمع نَحْوٍ بمعنى طريق، فتجوَّز به عما ذكر. حاشية الشهاب ٨/ ٤١١.

(٤) قوله: كالجسمية والتحيز، مثالٌ لما يستلزم التركيب، وما بعده لما يستلزم التعدد. حاشية الشهاب ٨/ ٤١٢.

(٥) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، وصوابها: ولا كثرة حسية، وهي كثرة الأجزاء الخارجية... إلخ، كما جاء في التحرير والتنوير عند تفسير هذه السورة نقلاً عن ابن سينا.

سبحانه من الصفات أنَّ المرادَ الواحديةُ الكاملةُ، وذلك على الوجهين: كون الضمير للشأن، وكونه للمسؤول عنه، ولا يصحُّ أن يُرادَ الواحدُ بالعدد أصلاً؛ إذ يخلو الكلامُ عليه من الفائدة.

وذكر بعضُهم أنَّ الاسمَ الجليلَ يدلُّ على جميع صفات الكمال، وهي الصفاتُ الثبوتيةُ، ويقال لها صفاتُ الإكرام أيضاً، والأحدُ يدلُّ على جميع صفات الجلال، وهي الصفاتُ السلبيةُ، ويتضمَّنُ الكلامُ على كونهما خبرين الإخبارَ بكون المسؤول عنه متَّصفاً بجميع الصفات الجلالية والكمالية.

وتُعقِّبَ بأنَّ الإلهيةَ جامعةٌ لجميع ذلك، بل كلُّ واحدٍ من الأسماء الحسنى كذلك؛ لأنَّ الهويةَ الإلهية لا يمكنُ التعبيرُ عنها لجلالتها وعَظَمتها إلا بأنه هو هو، وشَرْحُ تلك الهوية بلوازمَ منها ثبوتيةٌ ومنها سلبيةٌ، واسمُ الله تعالى متناولٌ لهما جميعاً، فهو إشارةٌ إلى هويته تعالى، والله سبحانه كالتعريف لها، فلذا عقّب به، وكلامُ الرئيس ينادي بذلك، وسنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وبعضهم أنكر استجماع لفظ الله للصفات السلبية وقال: إنه مستجمعٌ للصفات الثبوتية لا غير. ونسب ذلك للإمام، واستدلَّ بما فيه نظر.

والحقُّ عندي أنْ لا دلالة بالذات إلا على الذات والإشعار باعتبار اللزوم والاشتهار بالجميع(١).

وقرأ عبد الله وأُبيّ: «هو الله أحد» بغير «قل»(٢). وقد اتفقوا على أنه لا بدَّ منها في «قل يا أيها الكافرون»، ولا تجوز في «تبَّت» فقيل: لعلَّ ذلك لأنَّ سورةَ «الكافرين» مشاقَّةُ الرسول ﷺ، أو موادعته عليه الصلاة والسلام لهم، ومثل ذلك يناسب أن يكون من الله تعالى؛ لأنه ﷺ مأمورٌ بالإنذار والجهاد. وسورة «تبَّت» معاتبةٌ لأبي لهب، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام على خُلُقٍ عظيمٍ وأدبٍ جسيمٍ، فلو أُمر بذلك لزمَ مواجهته به، وهو عمُّه ﷺ. وهذه السورةُ توحيدٌ، وهو يناسب أن

---

(١) من قوله: وبعضهم أنكر... إلى هنا ليس في (م).

(٢) القراءات الشاذة ص١٨٢، والكشاف ٤/٢٩٨.

يقول به تارةً ويُؤمَرَ بأن يدعوَ إليه أخرى.

وقيل في وجه «قل» في سورة «الكافرون»: إنَّ فيها ما لا يصحُّ أن يكون من الله تعالى ك: «لا أعبد ما تعبدون» فلا بدَّ فيها من ذكر «قل».

وفيه نظرٌ؛ لأنه لا يلزمُ ذكره بهذا اللفظ، فافهم.

وقال الدواني في وجه ترك «قل» في «تبَّت»: لا يبعدُ أن يقال: إنَّ القولَ بمعاتبة أبي لهبٍ إذا كان من الله تعالى، كان أدخلَ في زجره وتفضيحه.

وقيل: فيه رمزٌ إلى أنه لكونه ـ على العلّات ـ عمَّه ﷺ، لا ينبغي أن يُهينه بمثل هذا الكلام إلا الذي خلقه؛ إذ لا يبعدُ أن يتأذّى مسلمٌ من أقاربه لو سَبَّه أحدٌ غيرُهُ عزَّ وجلَّ، فقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنهما قال: مرَّتْ دُرَّةُ ابنةُ أبي لهبٍ برجلٍ، فقال: هذه ابنةُ عدوِّ الله أبي لهب. فأقبلت عليه فقالت: ذَكَرَ الله تعالى أبي بنباهته[1] وشَرَفه، وتَرَكَ أباكَ لجهالته. ثم ذكرتْ ذلك للنبيِّ ﷺ، فخطب فقال: «لا يُؤذَيَنَّ مسلمٌ بكافر»[2].

ثم إنَّ إثباتَ «قل» على قراءة الجمهور في المصحف، والتزامَ قراءتها في هذه السورة ونظائرها، مع أنه ليس من دأب المأمور بـ «قل» أن يتلفَّظَ في مقام الائتمار إلا بالمقول، قال الماتريديُّ في «التأويلات»[3]: لأنَّ المأمورَ ليس المخاطَبَ به فقط، بل كلُّ أحدٍ ابتلي بما ابتلي به المأمورُ، فأُثبتَ ليبقى على مرِّ الدهور مَنًّا على العباد.

وقيل: يمكن أن يقال: المخاطب بـ «قل» نفسُ التالي، كأنه تعالى أعلمَ به أنَّ كلَّ أحدٍ عند مقام هذا المضمون ينبغي أن يأمرَ نفسه بالقول به وعدم التجاوز عنه، فتأمل والله تعالى الموفق.

---

(١) في الدر المنثور ٦/ ٤٠٩: لنسابته.

(٢) ابن أبي الدنيا في الحلم (١١٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ١٧٢. وهو مع إرساله فيه علي بن أبي علي اللهبي، قال عنه أحمد: له مناكير. وقال يحيى: ليس بشيء. وقال أبو حاتم والنسائي: متروك. الميزان ٣/ ١٤٧-١٤٨.

(٣) ٥/ ٥٣٧ بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ مبتدأٌ وخبرٌ. وقيل: الصمدُ: نعتٌ، والخبرُ ما بعده. وليس بشيء.

والصمد: قال ابن الأنباريِّ: لا خلافَ بين أهل اللغة أنه السَّيِّدُ الذي ليس فوقه أحدٌ، الذي يَصْمُدُ إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السُّؤددُ، ويُصْمَدُ إليه، أي: يقصدهُ كلُّ شيء، وأنشدوا:

لقد بكَّر الناعي بخيرِ بني أسدْ
بعمرو بن مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[(١)]

وقوله:

عَلَوتُهُ بحسامٍ ثمَّ قلتُ له خُذْها خُزِيْتَ فأنت السَّيِّدُ الصَّمَدُ[(٢)]

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السيدُ الذي قد كَمُلَ في سُؤدده، والشريفُ الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيمُ الذي قد كَمُلَ في عَظَمته، والحليمُ الذي قد كَمُلَ في حِلْمه، والعليمُ الذي قد كَمُلَ في عِلْمه، والحكيمُ الذي قد كَمُلَ في حِكْمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع الشَّرف والسُّؤدد[(٣)].

وعن أبي هريرة: هو المستغني عن كلِّ أحدٍ، المحتاجُ إليه كلُّ أحدٍ.

وعن ابن جبير: هو الكاملُ في جميع صفاته وأفعاله.

وعن الربيع: هو الذي لا تعتريه الآفاتُ.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٧٨، والبيت لهند بنت معبد بن نضلة، تَبكي عمَّيها اللذين قتلهما المنذر بن ماء السماء، وهو في البيان والتبيين ١/ ١٨٠، والأغاني ٢٢/ ٩٢، ومعجم ما استعجم ٣/ ٩٩٦، والخزانة ١١/ ٢٦٩. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٦ لسبرة بن عمرو الأسدي.

(٢) البيت في الأمالي للقالي ٢/ ٢٨٨، والصحاح (صمد)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٤١، والبحر ٨/ ٥٢٧. وجاء في المصادر عدا البحر: حذيف، بدل: خزيت.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣٦.

وعن مقاتل ابن حيان: هو الذي لا عَيْبَ فيه.

وعن قتادة: هو الباقي بعد خَلْقه. ونحوه قولُ مَعْمَرٍ: هو الدائمُ، وقولُ مُرَّةَ الهمدَاني: هو الذي لا يبلى ولا يفنى، وعنه أيضاً: هو الذي يحكمُ ما يريدُ، ويفعلُ ما يشاء، لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم[(١)] عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ـ قال: لا أعلمه إلا قد رفعه ـ قال: الصَّمَدُ: الذي لا جَوْفَ له. وروي عن الحسن ومجاهد، ومنه قوله:

شهابُ حُروبٍ لا تزال جيادُهُ عوابسَ يَعْلُكْنَ الشَّكيمَ المُصَمَّدا[(٢)]

وعن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود قال: الصَّمَدُ: الذي ليس له أحشاء[(٣)]. وهو روايةٌ عن ابن عباس.

وعن عكرمة: هو الذي لا يطعم. وفي رواية أخرى: الذي لم يخرجْ منه شيءٌ. وعن الشعبي: هو الذي لا يأكلُ ولا يشربُ.

وعن طائفةٍ منهم أُبيُّ بن كعب والربيعُ بن أنس: إنه الذي لم يلد ولم يولد. كأنهم جعلوا ما بعده تفسيراً له.

والمعوَّلُ عليه تفسيره[(٤)] بالسيد الذي يصمدُ إليه الخلق في الحوائج والمطالب، وتفسيرُهُ بالذي لا جوفَ له وما عداهما إما راجعٌ إليهما، أو هو مما لا تساعد عليه

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٣٣، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا غريب جدًّا، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة.
قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦: وفي هذا التفسير نظر؛ لأنَّ الجسم في غاية البعد عن صفات الله تعالى.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١، والقرطبي ٢٢/ ٥٥٩. والشكيم: جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس. القاموس المحيط (شكم).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٢٢٠ـ من طريق مندل بن علي، عن أبي روق عطية بن الحارث، عن أبي عبد الرحمن السلمي به. ومندل بن علي ضعيف كما في التقريب.

(٤) في (م): تفسيراً.

اللغة، وهو على الثاني إشارةٌ على ما زعمَ الرئيسُ وشارحُ كلامه إلى نفي الماهية، فإنَّ كلَّ ماله ماهيةٌ كان له جوفٌ وباطنٌ، وهو تلك الماهية، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجوب الوجود من جميع الجهات؛ لأنَّ ما لا باطنَ له وهو موجودٌ، فهو لا جهةَ له ولا اعتبارَ في ذاته إلا الوجود، وكلُّ ما لا اعتبار له إلا الوجود فهو غيرُ قابلٍ للعدم، ضرورةَ أنَّ الموجودَ من حيثُ هو موجودٌ لا يقبله(١). وجعل معنى كونه تعالى سَيِّداً أنه مبدأُ الكلِّ، وفي معناه تفسيرُهُ بالغني المطلق المحتاج إليه ما سواه، وقال: يحتمل أن يكون كلا المعنيين مراداً، فيكونُ وَصْفاً له تعالى بمجموع السَّلْب والإيجاب، وهو ظاهرٌ في جواز استعمال المشترك في كلا معنييه كما ذهب إليه الشافعيُّ.

والذي أختاره تفسيرُهُ بالسَّيِّد الذي يصمدُ إليه الخلقُ، وهو فعلٌ بمعنى مفعول، من صَمَدَ بمعنى قَصَدَ، فيتعدَّى بنفسه وباللام، وإطلاقُ الصَّمَدِ بمعنى السيد عليه تعالى مما لا خلافَ فيه، وإن كان في إطلاق السيد نفسه خلافٌ، والصحيحُ إطلاقه عليه عزَّ وجلَّ كما في الحديث: «السيد الله»(٢).

وقال السهيليُّ(٣): لا يُطلَقُ عليه تعالى مضافاً، فلا يقال: سَيِّدُ الملائكة والناس مثلاً.

وقَصْدُ الخلق إياه تعالى بالحوائج أعمُّ من القصد الإرادي والقصد الطبيعي والقصد بحَسَبِ الاستعداد الأصلي الثابت لجميع الماهيَات؛ إذ هي كلُّها متوجِّهةٌ إلى المبدأ تعالى في طلب كمالاتها منه عزَّ وجلَّ.

وتعريفُهُ دون أحدٍ قيل: لعلمهم بصمديَّته تعالى دون أحديَّته.

وتُعقِّبَ بأنه لا يخلو عن كَدَرٍ؛ لأنَّ عِلْمَ المخاطَبِ بمضمون الخبر لا يقتضي

---

(١) من قوله: وهو على الثاني... إلى هنا، ليس في (م).
(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود (٤٨٠٦) من حديث مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه.
(٣) في الروض الأنف ٣/ ٢٩٨.

تعريفه، بل إنما يقتضي أن لا يُلْقَى إليه إلا بعد تنزيله منزلةَ الجاهل؛ لأنَّ إفادةَ لازمِ فائدةِ الخبر بمعزلٍ عن هذا المقام، فالأَولى أن يقال: إنَّ التعريفَ لإفادة الحَصْرِ، كقولك: زيدٌ الرجلُ، ولا حاجةَ إليه في الجملة السابقة بناءً على أنَّ مفهومَ «أحد» المنزَّه عن أنحاء التركيب والتعدُّدِ مطلقاً إلى آخر ما تقدَّم، مع أنهم لا يعرفون أحديَّته تعالى، ولا يعترفون بها.

واعتُرِض بأنه يقتضي أنَّ الخبرَ إذا كان معلوماً للمخاطَبِ، لا يُخبَرُ به إلا بتنزيله منزلةَ الجاهل، أو إفادته لازمَ الخبر، أو إذا قُصِدَ الحصرُ، وهو ينافي ما تقرَّرَ في المعاني من أنَّ كونَ المبتدأ والخبر معلومين لا ينافي كونَ الكلام مفيداً للسامع فائدةً مجهولةً؛ لأنَّ ما يستفيدُهُ السّامعُ من الكلام هو انتسابُ أحدهما للآخر، وكونُه هو هو، فيجوز أن يقال هنا: إنهم يعرفونه تعالى بوجهٍ ما، ويعرفون معنى المقصود، سواءٌ كان هو الله سبحانه أو غيره عندهم، ولكن لا يعرفون أنه هو سواءٌ كان بمعنى الفرد الكامل أو الجنس، فعيَّنه الله تعالى لهم.

وقيل: إنَّ «أحد» في غير النفي والعدد لا يُطلَقُ على غيره تعالى، فلم يحتجْ إلى تعريفه، بخلاف «الصَّمد»، فإنه جاء في كلامهم إطلاقُهُ على غيره عزَّ وجلَّ، أي: كما في البيتين السابقين، فلذا عُرِّفَ.

وتكرارُ الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير قيل: للإشعار بأنَّ مَنْ لم يتَّصفْ بالصَّمَدية لم يستحقَّ الأُلوهية، وذلك على ما صرَّحَ به الدوانيُّ مأخوذٌ من إفادة تعريف الجزأين الحصرَ، فإذا قلتَ: السلطانُ العادلُ، أَشْعَرَ بأنَّ مَنْ لم يتَّصفْ بالعدل لم يستحقَّ السلطنة.

وقيل: ذلك لأنَّ تعليقَ الصَّمَد باللهِ يُشعِرُ بعِلِّيَّةِ الأُلوهية للصمدية، بناءً على أنه في الأصل صفة، وإذا كانت الصمديةُ نتيجةً للأُلوهية، لم يستحقَّ الألوهيةَ مَنْ لم يتَّصفْ بها.

وبُحِثَ فيه بأنَّ الألوهية ـ فيما يظهرُ ـ للصمدية؛ لأنه إنما يُعبَدُ لكونه محتاجاً إليه دون العكس، إلا أن يقال: المرادُ بالأُلوهية مبدؤها وما تترتَّبُ عليه، لا كونه

معبوداً بالفعل. وإنما لم يكتف بمسنَدٍ إليه واحدٍ لـ «أحد»، و«الصمد» هو الاسم الجليل، بأن يقال: اللهُ الأحدُ الصمدُ؛ للتنبيه على أنَّ كلًّا من الوصفين مستقلٌّ في تعيين الذات. وتَرْكُ العاطف في الجملة المذكورة؛ لأنها كالدليل عليه، فإنَّ مَنْ كان غنيًّا لذاته محتاجاً إليه جميعُ ما سواه، لا يكون إلا واحداً، وما سواه لا يكون إلا ممكناً محتاجاً إليه، أو لأنها كالنتيجة لذلك بناءً على أنَّ الأحديةَ تستلزمُ الصمدية والغنى المطلق، وبالجملة: هذه الجملةُ من وجهٍ تُشبهُ الدليلَ، ومن وجهٍ تُشبه النتيجة، فهي مستأنفةٌ أو مؤكِّدةٌ.

وقرأ أبان بن عثمان وزيد بن علي ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وأبو عمرو في رواية يونس ومحبوب والأصمعي واللؤلؤي وعبيد: «أحدُ الله»[1] بحذف التنوين، لالتقائه مع لام التعريف، وهو موجودٌ في كلام العرب، وأكثرُ ما يوجدُ في الشعر، كقول أبي الأسود الدؤلي:

فألفيته[2] غيرَ مُستعتبٍ ... ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلا[3]

وقول الآخر:

عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لضيفه ... ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عجافُ[4]

والجيِّدُ هو التنوينُ، وكسره لالتقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إلخ على نحو ما سبق، ونفيُ ذلك عنه تعالى لأنَّ الولادة تقتضي انفصالَ مادةٍ منه سبحانه، وذلك يقتضي التركيبَ المنافي للصَّمَدية

(١) القراءات الشاذة ص٧٠١، والكشاف ٤/ ٢٩٨، والبحر ٨/ ٥٢٨.

(٢) في هامش الأصل: أوله:

فذكَّرْتُه ثم عاتبته ... عتاباً رفيقاً وقولاً جميلا

فألفيته ....

(٣) البيت في الكتاب ١/ ١٦٩، والخزانة ١١/ ٣٧٤.

(٤) نسب لعبد الله بن الزبعرى، وهو في ملحقات ديوانه ص٥٣، ونسب أيضاً لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمق لابن حبيب ص ١٢، والاشتقاق ص ١٣. وأسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

والأَحدية، أو لأنَّ الولد من جنس أبيه، ولا يُجانسه تعالى أحدٌ؛ لأنه سبحانه واجبٌ وغيرُهُ ممكنٌ، ولأنَّ الولدَ على ما قيل يطلبهُ العاقلُ إما لإعانته، أو ليخلفه بعده، وهو سبحانه دائمٌ باقٍ غيرُ محتاجٍ إلى شيءٍ من ذلك.

والاقتصار على الماضي دون أن يقال: لن يلدَ؛ لوروده ردًّا على مَنْ قال: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله سبحانه، أو: المسيح ابنُ الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. ويجوز أن يكون المرادُ استمرارَ النفي، وعُبِّر بالماضي لمشاكلة قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو لا بدَّ أن يكون بصيغة الماضي.

ونفي المولودية عنه سبحانه لاقتضائها المادة، فيلزمُ التركيبُ المنافي للغنى المطلق، والأحديةِ الحقيقية، أو لاقتضائها سَبْقَ العَدَم ولو بالذات، أو لاقتضائها المجانسةَ المستحيلةَ على واجب الوجود.

وقُدِّمَ نفيُ الولادة لأنه الأهمُّ؛ لأنَّ طائفةً من الكفار توهَّموا خلافه، بخلاف نفي المولودية، أو لكثرة متوهِّمي خلافِ الأول دون خلاف الثاني، بناءً على أنَّ النصارى يلزمهم بواسطة دعوى الاتحاد القول بالولادة والمولودية فيمن يعتقدونه إلهاً، وذلك على ما تضمَّنته كُتُبهم أنهم يقولون: الأبُ هو الأقنوم الأول من الثالوث، والابنُ هو الثاني الصادرُ منه صدوراً أزليًّا مساوياً بالأزلية له، وروحُ القدس هو الثالثُ الصادرُ عنهما كذلك، والطبيعةُ الإلهيةُ واحدةٌ، وهي لكلٍّ من الثلاثة، وكلٌّ منها مُتَّحدٌ معها، ومع ذلك هم ثلاثةُ جواهرَ، لا جوهرٌ واحدٌ، فالأبُ ليس هو الابن، والابنُ ليس هو الأب، وروحُ القدس ليس هو الأب ولا الابن، وهما ليسا روح القدس، ومع ذا هم إلهٌ واحدٌ؛ إذ لهم لاهوتٌ واحدٌ، وطبيعةٌ واحدةٌ، وجوهرٌ واحدٌ، وكلٌّ منهم مُتَّحدٌ مع اللاهوت، وإن كان بينهم تمايزٌ، والأولُ هو الوجودُ الواجبُ الجوهريُّ، والثاني هو العقلُ الجوهريُّ، ويقال له العلم، والثالثُ هو الإرادة[1] الجوهرية، ويقال لها: المحبة.

فالله ثلاثةُ أقانيم جوهرية، وهي على تمايزها تمايزاً حقيقيًّا، وقد يطلقون عليه

(١) في (م): الإدارة.

إضافيًّا ـ أي: بإضافة بعضها إلى بعضٍ ـ جوهرٌ وطبيعةٌ واحدةٌ هو الله، وليس يُوجدُ فيه غيرهُ، بل كلُّ ما هو داخلٌ فيه عينُ ذاته.

ويقولون: إنَّ فيه ـ تعالى عمَّا يقولون ـ أربعَ إضافاتٍ:

أُولاها: فاعليةُ التعقُّل[1] في الأقنوم الأول.

ثانيتها: مفعوليةُ التعقُّل في الأقنوم الثاني الذي هو صورةُ عَقْلِ الأب.

ثالثتها: فاعليةُ الانبثاق في الأقنوم الأول والثاني اللَّذين لهما الإرادة.

رابعتها: مفعولية هذا الانبثاق في الأقنوم الثالث الذي هو حُبُّ الإرادة الإلهية التي للأقنوم الأول والثاني.

وزعموا أنَّ التعبيرَ بالفاعلية والمفعولية في الأقانيم الإلهية على سبيل التوسُّع، وليست الفاعليةُ في الأب نحوَ الابن إلا الأبوَّةَ، وفيه وفي الابن نحو روح القدس، ليست إلا بدء صدوره منهما، وليست المفعوليةُ في الابن وروح القدس إلا البنوة في الابن والانبثاق في الروح، ويقولون: كلُّ ذلك مما يجبُ الإيمانُ به، وإن كان فوق الطّور البشري.

ويزعمونَ أنَّ لتلك الأقانيم أسماء تلقَّوها من الحواريين، فالأقنوم الأول في الطبع الإلهي يُدعى أباً. والثاني ابناً وكلمةً وحِكْمةً ونوراً وضياءً وشعاعاً. والثالث روحَ القدس ومُعَزِّياً، وهو معنى قولهم باليونانية: أراكليط[2].

وقالوا في بيان وجه الإطلاق: إنَّ ذلك لأنَّ الأقنوم الأولَ بمنزلة ينبوعٍ ومبدأ، أَعطى الأقنومَ الثاني الصادرَ عنه بفعلٍ يقتضي شِبْهَ فاعله ـ وهو فعلُ العقل ـ طبيعتَهُ وجوهرَهُ كلَّه، حتى إنَّ الأقنوم الثاني الذي هو في صورة الأولِ الجوهرية الإلهية مساوٍ له كمالَ المساواة، وحدُّ الإيلاد هو صدورُ حيٍّ من حيٍّ بآلةٍ ومبدأ مقارنٍ يقتضي شِبْهَ طبيعته، وهنا كذلك، بل أبلغُ؛ لأنَّ للثاني الطبيعيةَ الإلهيةَ نفسَها،

(١) في (م): التعقيل.
(٢) في هامش الأصل: ويقال: فارقليط. وجاء في (م): ومغرياً، بدل: ومعزياً.

فلا بدع إذا سُمِّيَ الأولُ أباً والثاني ابناً، وإنما قيل للثاني كلمةٌ؛ لأنَّ الإيلادَ ليس على نحو إيلاد الحيوان والنبات، بل بفعل[1] العقل، أي: بتصوُّرِ[2] الأبِ لاهوتَه وفَهْمِه ذاتَه، ولا شكَّ أنَّ تلك الصورة كلمةٌ؛ لأنها مفهوميةُ العقل ونُطْقه، وقيل لها: حكمةٌ؛ لأنه كان مولوداً من الأب بفعل عقله الإلهي الذي هو حكمة، وقيل له: نورٌ وشعاعٌ[3] وضياءٌ؛ لأنه حيث كان حكمةً كان به معرفةُ حقائق الأشياء وانكشافها، كالمذكورات، وقيل للثالث: روح القُدُس[4]؛ لأنه صادرٌ من الأب والابن بفعل الإرادة التي هي واحدةٌ للأب والابن، ومنبثقٌ منهما بفعلٍ هو كهيجان الإرادة بالحبِّ نحو محبوبها، فهو حُبُّ الله، والله نفسُهُ هو الروحُ الصِّرْفُ والتقدُّسُ عينُهُ، ولكلٍّ من الأول والثاني وجهٌ لأنْ يُدْعى روحاً؛ لمكان الاتحاد، لكن لَمَّا دُعي الأولُ باسمٍ يدلُّ على رتبته وإضافته إلى الثاني، والثاني كذلك، اختصَّ الثالثُ بالاسم المشاعِ، ولم يُدْعَ ابناً، وإن كان له طبيعةُ الأب وجوهرُهُ كالابن؛ لأنه لم يصدرْ من الأب بفعلٍ يقتضي شِبْهَ فاعله، يعني بفعلِ العقل، بل صَدَرَ منه بفعل[5] الإرادة، فالثاني من الأول كهابيلَ من آدم، والثالثُ كحواءَ منه، والكلُّ حقيقةٌ واحدةٌ، لكن يقال لهابيل: ابنٌ، ولا يقال لها: بنتٌ. وقيل له: مُعزِّي[6]، لأنه كان عتيداً لأن يأتي الحواريين فيغريهم لفقد المسيح عليه السلام.

وزعموا أنَّ هذه الأسماء إنما تدلُّ على تمايز الأقانيم بإضافة بعضها إلى بعضٍ، لا على امتياز أحدها فضلاً على الآخر، أما الإضافة فلأنَّ النظرَ إليها من حيثُ هي إضافةٌ، وهي من تلك الحيثية لا دلالة فيها على أفضليةٍ ومفضوليةٍ[7]. وأما الفاعلية والمفعولية فلأنهما غيرُ موجودين حقيقةً، والأبوةُ والبنوةُ هاهنا لا تقتضيهما كما في

(١) في (م): يفعل.
(٢) في (م): يتصور.
(٣) في الأصل: نوراً وشعاعاً.
(٤) في (م): روح قدس.
(٥) في (م): فعل.
(٦) في (م): مغزى.
(٧) من قوله: وزعموا... إلى هنا ليس في (م).

المحدثات، ولذا لا يقال هنا للأب: عِلّةٌ وسببٌ لابنه، وإن قيل هناك، فالثلاثةُ متساويةٌ في الجوهر والذات واستحقاقِ العبادة والفضل من كلِّ وجهٍ.

ثم إنهم زعموا تجسُّدَ الأقنوم الثاني وهو الكلمةُ، واتحادَهُ بأشرف أجزاء البتول من الدم بقوة روح القدس، فكان المسيحُ عليه السلام المركَّبُ من الناسوت والكلمةِ، والكلمةُ مع اتحادها لم تخرجْ عن بساطتها ولم تتغيَّر؛ لأنها الحدُّ الذي ينتهي إليه الاتحادُ، فلا مانعَ في جهتها من الاتحاد، وكذا لا مانعَ في جانب الناسوت منه، فلا يتعاصى اللهَ تعالى شيءٌ.

و زعموا(١) أنَّ المسيحَ عليه السلام كان إلهاً تامًّا وإنساناً تامًّا، ذات طبيعتين ومشيئتين قائمتين بأقنومٍ إلهي، وهو أقنوم الكلمة، ومن ثَمَّ تُحمَلُ عليه الصفات الإلهية والبشرية معاً، لكن من حيثيَّتين.

ثم إنهم زادوا في الطنبور رَنَّةً وقالوا: إنَّ المسيحَ أَطعمَ يوماً الحوارِيِّينَ خبزاً، وسقاهم خمراً، فقال: أكلتمْ لحمي وشربتمْ دمي، فاتَّحدتمْ معي، وأنا مُتَّحِدٌ مع الأب. إلى رنَّاتٍ أُخَرَ هي أشهرُ من أن تُذْكَرَ.

ويُعلَمُ مما ذكرنا أنه لا فَرْقَ عندهم بين أن يقال: إنَّ الله تعالى هو المسيحُ، وبين أن يقال: إنَّ المسيحَ ابنه، وبين أن يقال: إنه سبحانه ثالثُ ثلاثةٍ، ولذا جاء في التنزيل كلٌّ من هذه الأقوال منسوباً إليهم، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ كلِّ قولٍ لقومٍ منهم كما قال غيرُ واحدٍ من المفسِّرين والمتكلِّمين.

ثم لا يخفى منافاة ما ذكروه للأحدية والصَّمدية. وقولهم: إنَّ الأقانيمَ ـ مع كونها ثلاثةَ جواهر متمايزةً تمايزاً حقيقيًّا ـ جوهرٌ واحدٌ = لبداهةِ بطلانه لا يُسمِنُ ولا يغني، وما يذكرونه من المثال لإيضاح ذلك فهو عن الإيضاح بمعزلٍ، وبعيد عن المقصود بألفِ ألفِ منزل.

وكنّا ذكرنا في ضمن هذا الكتاب ما يتعلَّقُ ببعضِ عقائدهم مع رَدِّهِ، إلا أنه كان قبل النظر في كتبهم، وقد اعتمدنا فيه ما ذكرهُ المتكلِّمون عنهم، واليومَ لنا عَزْمٌ على

(١) في (م): زعموا. بدون واو.

تأليف رسالةٍ تتضمَّنُ تحريرَ اعتقاداتهم في الواجب تعالى، وذِكْرَ شُبَهِهم العقلية والنقلية التي يستندون إليها ويُعوِّلون في التثليث عليها حسبما وقفنا عليه في كتبهم، مع رَدِّها على أكمل وجهٍ إن شاء الله تعالى، ونسأل الله تعالى التوفيق لذلك، وأن يسلكَ سبحانه بنا في جميع أمورنا أقومَ المسالك، فهو سبحانه الجوادُ الأجود، الذي لم يجْبَهْ مَن توجَّه إليه بالرَّدّ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي: لم يكافئه أحدٌ، ولم يماثله، ولم يشاكله، من صاحبةٍ وغيرها.

وقيل: هو نفيٌ للكفاءة المعتبرة بين الأزواج. وهو كما ترى.

و«له» صلة «كفواً» على ما ذهب إليه المبرد وغيره، والأصل أن يُؤخَّرَ إلا أنه قُدِّمَ للاهتمام؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ المكافأة عن ذاته عزَّ وجلَّ، وللاهتمام أيضاً قُدِّمَ الخبرُ، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

وعن سيبويه أنه اختار أن لا يقدَّم الظرف إذا لم يكن خبراً[1].

وفي شرح «الكتاب» للسيرافي: إن قال قائلٌ: قد اختار سيبويه أن لا يُقدَّمَ الظرفُ إذا لم يكن خبراً، وكتابُ الله تعالى أولى بأفصح اللغات[2]؟

قيل له: إنَّ الظرفَ هنا ـ وإن لم يكن خبراً ـ مبطلٌ سقوطُه معنى الكلام؛ لأنك لو قلت: لم يكن كفواً أحدٌ، لم يكن له معنًى، فلما احتيجَ إليه صارَ بمنزلة الخبر، فَحَسُنَ ذلك.

وقال أبو حيان[3]: كلام سيبويه في الظرف الذي يصلح أن يكونَ خبراً، وهو الظرفُ التامُّ، وما هنا ليس كذلك.

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٥٥-٥٦، والبحر ٨/ ٥٢٨-٥٢٩. وقوله: وعن سيبويه، إلى هذا الموضع ليس في الأصل.
(٢) من قوله: وفي شرح... إلى هنا، ليس في (م).
(٣) في البحر المحيط ٨/ ٥٢٩.

وقال ابن الحاجب: قُدِّمَ الظرفُ للفواصل ورعايتها، ولم يُقدَّمْ على «أحد» لئلّا يفصل بين المبتدأ وخبره. وفيه نظرٌ ظاهرٌ.

وجُوِّزَ أن يكونَ الظرفُ حالاً من «أحد» قُدِّمَ عليه رعايةً للفاصلة، ولئلّا يلتبسَ بالصفة أو الصلة، وأن يكون خبراً لـ «يكن»، ويكونُ «كفواً» حالاً من «أحدٍ» قُدِّمَ عليه لكونه نكرةً، أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً. وهذا الوجه نقله أبو عليٍّ في «الحُجَّة» عن بعض النحاةِ[١]، وَرُدَّ بأنَّه ـ كما سمعتَ آنفاً عن أبي حيان ـ ظرفٌ ناقصٌ، لا يصحُّ أن يكون خبراً، فإن قُدِّرَ له متعلِّقٌ خاصٌّ، وهو: مماثلٌ ونحوه مما تتمُّ به الفائدة، يكون «كفواً» زائداً.

ولعلَّ وقوعَ الجمل الثلاث متعاطفةً دون ما عداها من هذه السورة؛ لأنها سِيقتْ لمعنًى وغرضٍ واحدٍ، وهو نفيُ المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجهٍ من الوجوه، وما تضمَّنته أقسامها[٢]، لأنَّ المماثِلَ إما ولدٌ أو والدٌ أو نظيرٌ غيرهما، فلتغايرِ الأقسام واجتماعها في المُقسَم، لَزِمَ العطفُ فيها بالواو كما هو مقتضى قواعد المعاني.

وفي «كفواً» لغاتٌ: ضَمُّ الكاف وكَسْرُها وفَتْحُها مع سكون الفاء، وضَمُّ الكاف مع ضَمِّ الفاء[٣].

وقرأ حمزة ويعقوب ونافعٌ في روايةٍ: «كُفْؤاً» بالهمز والتخفيف[٤]، وحفصٌ بالحركة وإبدال الهمزة واواً[٥]، وباقي السبعة بالحركة مهموزاً[٦]. وسهَّلَ الهمزةَ الأعرجُ وأبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ في روايةٍ[٧]، وفي أخرى عنه: «كُفًى» من غير

---

(١) الحجة ٦/ ٤٦٢، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤١٣.

(٢) أي: وما تضمنته الجمل الثلاث هو أقسام المماثلة.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٢٨.

(٤) التيسير ص٢٢٦، والنشر ٢/ ٢١٥، عن حمزة ويعقوب، وهي خلاف المشهور عن نافع، والكلام من البحر ٨/ ٥٢٨.

(٥) التيسير ص ٢٢٦، والنشر ٢/ ٢١٥.

(٦) التيسير ص٢٢٦، والنشر ٢/ ٢١٥، وهذه هي المشهورة عن نافع.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٧، والبحر ٨/ ٥٢٨.

همزٍ، نَقَلَ حركةَ الهمزة إلى الفاء وحَذَفَ الهمزةَ[١].

وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: «كِفاءً» بكَسْرِ الكاف وفتح الفاء والمدِّ[٢]، كما في قول النابغة:

لا تـقـذِفَـنِّـي بـرُكْـنٍ لا كِـفـاءَ لـه[٣]

أي: لا مِثْلَ له كما قال الأعلم.

وهذه السورةُ الجليلةُ قد انطوتْ مع تقارب قُطْرِها على أشتاتِ المعارف الإلهية والعقائد الإسلامية، ولذا جاء فيها ما جاء من الأخبار، وَوَرَدَ ما وَرَدَ من الآثار.

وقال الشيخ الرئيس: انظر إلى كمال حقائق هذه السورة، أشار سبحانه أولاً إلى هويته المخصوصة التي لا اسم لها غير أنه هو، ثم عقَّبه بذِكْر الإلهية التي هي أقربُ اللوازم لتلك الحقيقة وأشدّها تعريفاً، ثم عقَّبه تعالى بذِكْر الأحدية لفائدتين:

الأولى: لئلّا يقال: إنه تركَ التعريفَ الكاملَ بذِكْر المقوِّمات، وعَدَل إلى ذِكْرِ اللوازم.

الثانية: ليدلَّ على أنه تعالى فردٌ واحدٌ من جميع الوجوه.

ورتَّبَ الأحديةَ على الإلهية ولم يعكسْ لأنَّ الإلهية عبارةٌ عن استغنائه تعالى عن الكلِّ، واحتياج الكلِّ إليه، وما كان كذلك كان واحداً مطلقاً، وإلا لكان محتاجاً إلى أجزائه، فالإلهيةُ من حيثُ هي تقتضي الوحدة، والوحدةُ لا تقتضي الإلهية.

ثم عقَّبَ ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[٤]، ودلَّ على تحقيق معنى الإلهية بالصَّمَدية التي معناها وجوبُ الوجود، أو المبدئية لوجود كلِّ ما عداه من الموجودات.

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) صدر بيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٦، وعجزه: وإنْ تأثَّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَد. قوله: تأثفك، أي: اجتمعوا حولك كالأثافي. والرِّفَد: جمع رفدة، أي: يرفد بعضهم بعضاً.

(٤) من قوله: وقال الشيخ... إلى هنا ليس في (م).

ثم عقَّبَ ذلك ببيان أنه لا يتولَّدُ عنه غيره؛ لأنه غيرُ متولِّدٍ عن غيره، وبيَّنَ أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات، فيَّاضاً للوجود عليها، فلا يجوز أن يفيضَ الوجودُ على مثله، كما لم يكن وجودُهُ من غيره.

ثم عَقَّبَ ذلك ببيان أنه ليس في الوجود ما يساويه في قوةِ الوجود، فمِنْ أول السورة إلى «الصمد» في بيان ماهيته تعالى ولوازم ماهيته، وَوَحْدةِ حقيقته، وأنه غيرُ مُرَكَّبٍ أصلاً، ومن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إلى ﴿أَحَدٌ﴾ في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه، لا بأن يكون سبحانه متولِّداً، ولا بأن يكون متولِّداً عنه، ولا بأن يكون موازياً في الوجود، وبهذا المبلغ يحصلُ تمامُ معرفة ذاته عزَّ وجلَّ. انتهى.

وأشار فيه إلى أنَّ «ولم يولد» كالتعليل لما قبله، وكأنْ قد قال قبلُ: إنَّ كلَّ ما كان مادِّيًا أو كان له علاقةٌ بالمادة، يكون متولِّداً من غيره، فيصيرُ تقديرُ الكلام: لم يلد؛ لأنه لم يتولَّد، والإشارةُ إلى دليله بـ «هو» أول السورة، فإنه لَمَّا لم يكن له ماهيةٌ واعتبارٌ سوى أنه هو لذاته، وَجَبَ أن لا يكونَ متولِّداً عن غيره، وإلا لكانت هُويَّته مستفادة عن غيره، فلا يكون هو لذاته، وظاهرُ العَطْفِ يقتضي عدمَ اعتبار ما أشار إليه من العِلِّيَّةِ، وقد علمتَ فيما سبقَ وجه ذِكْره.

وجَعَلَ بعضُهمُ العَطْفَ فيه قريباً من عَطفِ «لا يستقدمون» على «لا يستأخرون».

وأشار بعضُ السلف إلى أنَّ ذِكْرَ ذلك لأنه جاءَ في سبب النزول أنهم سألوا النبيَّ ﷺ عن ربِّه سبحانه: من أيِّ شيءٍ هو، أَمِنْ كذا أم من كذا؟ ومِمَّنْ وَرِثَ الدنيا ولمن يُورثها؟.

وقال الإمام: إنَّ «هو الله أحدٌ» ثلاثةُ ألفاظٍ، وكلٌّ واحدٍ منها إشارةٌ إلى مقامٍ من مقامات الطالبين، فالمقامُ الأولُ مقامُ المقرَّبين، وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله تعالى، وهؤلاء نظروا بعيون عقولهم إلى ما هيّأت الأشياء وحقائقها من حيثُ هي، فما رأوا موجوداً سوى الحقّ؛ لأنه الذي يجبُ وجودُهُ لذاته، وما عداه ممكنٌ لذاته، فهو من حيثُ ذاتُهُ ليس، فقالوا: «هو» إشارةٌ إلى الحقِّ إذ ليس هناك

في نظرهم موجودٌ يرجع إليه سواه عزَّ وجلَّ ليحتاجَ إلى التميز.

والمقام الثاني لأصحاب اليمين، وهؤلاء شاهدوا الحقَّ سبحانه موجوداً، وكذا شاهدوا الخلقَ، فحصلت كثرةٌ في الموجودات في نظرهم، فلم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحقِّ بل لا بدَّ من مُميِّزٍ، فاحتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة «الله» بلفظِ، فقيل لأجلهم: «هو الله».

والمقام الثالث، مقامُ أصحاب الشمال الذين يُجوِّزونَ أن يكونَ واجبُ الوجود أكثرَ من واحدٍ، والإله كذلك، فجِيءَ بـ «أحد» ردًّا عليهم وإبطالاً لمقالتهم[1]. انتهى.

وبعض الصوفية عَدَّ لفظةَ «هو» من عداد الأسماء الحسنى، بل قال: إن هاء الغيبة هي اسمُهُ تعالى الحقيقيُّ؛ لدلالته على الهوية المطلقة، مع كونه من ضروريات التنفُّس الذي به بقاءُ حياة النفس، وإشعارِ رَسْمه بالإحاطة، ومرتبتِه من العدد إلى دوامه وعدم فنائه.

ونقل الدوانيُّ عن الإمام أنه قال: علَّمني بعضُ المشايخ يا هو، يا من هو، يا من لا إله إلا هو[2]. وعلى ذلك اعتقادُ أكثر المشايخ اليوم، ولم يَرِدْ ذلك في الأخبار المقبولة عن المحدِّثين، والله تعالى أعلم.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٧٩-١٨٠.
(٢) التفسير الكبير ١/ ١٥٢، وفيه: يا مَن لا هو إلا هو، بدل: يا مَن هو.

(١١٣) سُورَةُ الفَلَقِ مَكِّيَّة
وآياتها خمس

سورة الفَلَق مكية ، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوّذ نفسه بهما ، فقد ثبت في الصحيح أنه عليه السلام «كان إذا أوى إلى فراشه ، جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ « قل هو الله أحد » والمعوذتين ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده » وفي هذه السورة الكريمة تعليمٌ للعباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته ، ليدفع عنهم شر الأشرار وكيد الفجار ، ومن شر الليل إذا أظلم وهو الغاسق ، لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ، ولهذا قالوا في المثل « الليلُ أخفى للويل » ومن شر السحرة الذين ينفثون في العقد ، ومن شر كل حاسد يكره أن يرى نعمة الله على غيره ويحب أن تزول عنه .

● ● ●

سورة الفلق

خمس آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿قُلْ﴾ فوائد: **أحدها**: أنه سبحانه لما أُمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهًا له عما لا يليق به في ذاته وصفاته، وكان ذلك من أعظم الطاعات، فكأن العبد قال: إلهنا هذه الطاعة عظيمة جدًّا لا أثق بنفسي في الوفاء بها، فأجاب بأن قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي استعذ بالله، والتجئ إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه. **وثانيها**: أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته، فكأن الرسول عليه السلام قال: كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لا يليق بك؟! فقال الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي استعذ بي حتى أصونك عن شرهم. **وثالثها**: كأنه تعالى يقول: من التجأ إلى بيتي شرَّفته وجعلته آمنًا فقلت: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فالتجىء أنت أيضًا إليَّ حتى أجعلك آمنًا فقل أعوذ برب الفلق.

المسألة الثانية: اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا؟ **منهم قال**: إنه يجوز. واحتجوا بوجوه: **أحدها**: ما روي أن رسول الله ﷺ اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام، فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، والله يشفيك. **وثانيها**: قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء: «**بِاسْمِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ شَرِّ كُلِّ عِرْقٍ نَعَّارٍ، وَمِنْ شَرِّ حَرِّ النَّارِ**» (١) **وثالثها**: قال عليه السلام: من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك (سبع مرات) شفي. **ورابعها**: عن علي عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مريض قال: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ**

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٤٠٥) حديث رقم (٢٠٧٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وإبراهيم يضعف في الحديث ويروى (عرق يعار) اهـ، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١١٦٥) حديث رقم (٣٥٢٦) والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٤٥٩) حديث رقم (٨٢٧٤) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠٠) حديث رقم (٢٧٢٩) جميعًا من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس... به.

رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شَافِيَ إِلاَّ أَنْتَ»(١) .**وخامسها:** عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوذ الحسن والحسين يقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ»(٢) ويقول: «هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ ابنيه إسماعيل وإسحاق» .**وسادسها:** قال عثمان بن أبي العاص الثقفي: قدمت على رسول الله وبي وجع قد كاد يبطلني، فقال رسول الله ﷺ: «اجْعَلْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَيْهِ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ سَبْعَ مَرَّاتٍ»(٣) ففعلت ذلك فشفاني الله .**وسابعها:** روي أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول: «يَا أَرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْكِ، وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوِدٍ وَحَيَّةٍ وَعَقْرَبٍ، وَمِنْ شَرِّ سَاكِنِي الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»(٤) . **وثامنها:** قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى شيئًا من جسده قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها المكان الذي يشتكي. ومن الناس من منع من الرقى لما روي عن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، وقال عليه السلام: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لاَ يَكْتَوُونَ

---

(١) **حسن لغيره:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٥٦١) حديث رقم (٣٥٦٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن وأحمد في (مسنده) (١/ ٧٦) حديث رقم (٥٦٥) وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٥٢) حديث رقم (٦٦) جميعًا من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن علي رضي الله عنه. . . به، وفي إسناده الحارث الأعور ضعيف، ولكن يشهد له حديث عائشة وهو متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب (الطب) باب (رقية النبي ﷺ) (٥/ ٢١٦٨) حديث رقم (٥٤١١) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٢٢/ ٢١٩١) كلاهما من طريق مسروق، عن عائشة، قال: كان رسول الله ﷺ يُعوذ بهذه الكلمات. . . فذكره.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (رقم ١٠) (٦/ ٤٧٠) حديث رقم (٣٣٧١) وأبو داود في كتاب (السنة) باب (في القرآن) (٤/ ٢٠٢٣) حديث رقم (٤٧٣٧) والترمذي في كتاب (الطب) باب (رقم ١٨) (٣٤٦) حديث رقم (٢٠٦٠) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الطب) باب (ما عوذ به النبي ﷺ) (٢/ ١١٦٤) حديث رقم (٣٥٢٥) والإمام أحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٦) جميعًا من طريق منصور. . . به.

(٣) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (الطب) باب (كيف الرقى) (٤/ ١٦٧٥) حديث رقم (٣٨٩١) والترمذي في كتاب (الطب) باب (٢٩) (٤/ ٣٥٥) حديث رقم (٢٠٨٠) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٥٠) حديث رقم (٩٩٩) وابن ماجه في كتاب (الطب) باب (ما عوذ به النبي ﷺ وما عُوذ به) (٢/ ١١٦٣) حديث رقم (٣٥٢٢) ومالك في (الموطأ) في كتاب (العين) باب (التعوذ والرقية في المرض) (٢/ ٩٤٢) حديث رقم (٩) وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢١) جميعًا من طريق يزيد بن خصيفة، عن عمر بن عبد الله بن كعب، عن نافع، عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، قال: قدمت على رسول الله ﷺ وبي وجع قد كاد يبطلني، فقال لي رسول الله ﷺ: «اجعل يدك اليمني عليه، ثم قل. . .» فذكره.

(٤) **إسناده ضعيف:** أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (ما يقول الرجل إذا نزل المنزل) (٣/ ١١٢٧) حديث رقم (٢٦٠٣) وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٣٣) حديث رقم (٦١٦١) وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٥٢) حديث رقم (٢٥٧٢) من طريق صفوان. . . به، وأشار إليه الحافظ ابن حجر في التهذيب وقال: روى له أبو داود والنسائي حديثًا واحدًا. فذكره وقال في التقريب: مقبول.

،وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(١) وقال عليه السلام: «لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ مَنِ اكْتَوَى وَاسْتَرْقَى»(٢) وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهي عن الرقى المجهولة التي لا تُعرف حقائقها، فأما ما كان له أصل موثوق، فلا نهي عنه. **واختلفوا في التعليق:** فروي أنه عليه السلام قال: «مَنْ عَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»(٣) وعن ابن مسعود: أنه رأى على أم ولده تميمة مربوطة بعضدها، فجذبها جذبًا عنيفًا فقطعها. ومنهم من جوزه، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه، **واختلفوا في النفث أيضا:** فروي عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده، فلما اشتكى رسول الله ﷺ وجعه الذي توفي فيه، طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها على نفسه. وعنه عليه السلام: (أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ فِي يَدَيْهِ وَقَرَأَ فِيهِمَا بِالْمُعَوِّذَاتِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ)(٤) ومنهم من أنكر النفث، قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد. وعن إبراهيم قال: كانوا يكرهون النفث في الرقى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجيع، فقلت: ألا أعوذك يا أبا

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما جاء بلفظ: (سبعون ألفًا يدخلون الجنة لا حساب عليهم، الذين لا يكتوون ولا يسترقون . . .) الحديث، صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٤٢٠) حديث رقم (٣٩٨٧) من طريق هشام عن قتادة عن الحسن . . . به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٢١) حديث رقم (٨٧٢١) من طريق سعيد عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود . . . به وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه السياقة. وأبو يعلى في (مسنده) (٩/ ٢٣١) حديث رقم (٥٣٣٩) من طريق شيبان عن قتادة عن الحسن . . . به وجاء أيضًا من طريق هشام عن الحسن عن عمران بن حصين . . . فذكره، وليس فيه ابن مسعود، أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٤٣٦) والبزار في مسنده (٩/ ٤٥) حديث رقم (٣٥٦٥) والروياني في (مسنده) (١/ ١٠٠) حديث رقم (٧٤) والطبراني في (الكبير) (١٨/ ١٦٩) حديث رقم (٣٨٠) جميعًا من طريق هشام عن الحسن . . . به.

(٢) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٥٣) حديث رقم (١٨٢٤٢) من طريق مجاهد عن حسان بن أبي وجزء عن عفار بن المغيرة بن شعبة عن أبيه . . . به.

(٣) رواه الترمذي في (سننه) (٤/ ٤٠٣) حديث رقم (٢٠٧٢) وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣١٠/ ٣١١) والطبراني في (الكبير) (٢٢/ ٣٨٥) حديث رقم (٩٦٠) وابن قانع في (معجم الصحابة) (٢/ ١١٧) حديث رقم (٥٧٥) من طريق بن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الله بن عكيم . . . به، ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٢١/ ٤٤) حديث رقم (٦٣٧٤) جميعًا من طريق ابن أبي ليلى عن عيسى عن أبي معبد الجهني . . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ١٧٦) حديث رقم (٨٤٠٠) وقال: رواه الطبراني في ترجمة أبي معبد الجهني فى الكنى قال: وقد قيل: إنه عبد الله بن عكيم. قلت: فإن كان هو فقد ثبتت صحته بقوله (سمعت) وفي إسناده محمد بن أبي ليلى وهو سيىء الحفظ وبقية رجاله ثقات، وأورده الألباني في (صحيح الترغيب) (٣٤٥٦) وقال: (حسن لغيره) ثم قال: رواه أبو داود والترمذي إلا أنه قال فقلنا ألا تعلق شيئًا؟ فقال: الموت أقرب من ذلك. اهـ.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل المعوذات) (٨/ ٦٧٩) حديث رقم (٥٠١٧) وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (ما يقال عند النوم) (٤/ ٢١٥٢) حديث رقم (٥٠٥٦) والترمذي في كتاب (الدعوات) باب (ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام) (٥/ ٤٤١) حديث رقم (٣٤٠٢). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وأحمد في (مسنده) (٦/ ١١٦/ ١٥٤) جميعًا من طريق عقيل . . . به.

محمد؟ قال: بلى ولكن لا تنفث. فعوذته بالمعوذتين. قال الحليمي: الذي روي عن عكرمة أنه ينبغي للراقي أن لا ينفث ولا يمسح ولا يعقد، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ منه، فوجب أن يكون منهيًا عنه، إلا أن هذا ضعيف لأن النفث في العقد إنما يكون مذمومًا إذا كان سحرًا مضرًّا بالأرواح والأبدان، فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون حرامًا.

المسألة الثالثة: أنه تعالى قال في مفتاح القراءة: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٢٠٠] وقال ههنا: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[المؤمنون: ٩٧] وجاء في الأحاديث: (أعوذ بكلمات الله التامات) ولا شك أن أفضل أسماء الله هو الله، وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره، قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾[يوسف: ٣٩] فما السبب في أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل: (أعوذ بالله) بل قال: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؟ **وأجابوا عنه من وجوه: أحدها:** أنه في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[النحل: ٩٨] إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن، وإنما أمره بالاستعاذة ههنا في هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر، والمهم الأول أعظم، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم. **وثانيها:** أن الشيطان يبالغ حال منعك من العبادة أشد مبالغة في إيصال الضر إلى بدنك وروحك، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا. **وثالثها:** أن اسم الرب يشير إلى التربية، فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له في الزمان الآتي، أو كان العبد يقول: التربية والإحسان حرفتك فلا تهملني، ولا تخيب رجائي. **ورابعها:** أن بالتربية صار شارعًا في الإحسان، والشروع ملزم وخامسها: أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيهًا على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته وإحسانه، **فإن قيل:** إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ قلنا: فيه لطيفة وهي كونه تعالى قال: قل أعوذ بمن هو ربي ولكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالأب المشفق الذي يقول: ارجع عند مهماتك إلى أبيك المشفق عليك الذي هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية. **وسادسها:** كأن الحق قال لمحمد عليه السلام: قلبك لي فلا تُدخل فيه حب غيري، ولسانك لي فلا تذكر به أحدًا غيري، وبدنك لي فلا تشغله بخدمة غيري، وإن أردت شيئًا فلا تطلبه إلا مني، فإن أردت العلم فقل: رب زدني علمًا وإن أردت الدنيا فاسأل الله من فضله، وإن خفت ضررًا فقل: (أعوذ برب الفلق) فإني أنا الذي وصفت نفسي بأني خالق الإصباح. وبأني فالق الحَب والنوى، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك، فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك، أفلا أصونك عن الآفات والمخافات؟!

المسألة الرابعة: ذكروا في: الفلق وجوهًا: **أحدها:** أنه الصبح، وهو قول الأكثرين، قال الزجاج: لأن الليل يُفلق عنه الصبح ويُفرق، فَعَل بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح ومن فَرَق الصبح. وتخصيصه في التعوذ لوجوه: **الأول:** أن القادر على إزالة هذه الظلمات

الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضًا أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه. **الثاني:** أن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظرًا لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقبًا لطلوع صباح النجاح. **الثالث:** أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان في الظلام يكون كلحم على وَضَم، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشَّر بالفرج؛ فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في وقت السحر، فالحق سبحانه يقول: قل أعوذ برب يعطي إنعام فلق الصبح قبل السؤال، فكيف بعد السؤال؟! **الرابع:** قال بعضهم: إن يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب وجعت ركبته وجعًا شديدًا فبات ليلته ساهرًا، فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بإذن الله يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال: (يا جبريل ادع أنت وأؤمن أنا) فدعا جبريل وأمَّن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر، فلما طاب وقت يوسف قال لجبريل: (وأنا أدعو أيضًا وتؤمن أنت) فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل، وروي أن دعاءه في الجب: يا عُدتي في شدتي ويا مؤنسي في وحشتي ويا راحم غربتي ويا كاشف كربتي ويا مجيب دعوتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارحم صغر سني وضعف ركني وقلة حيلتي، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام. **الخامس:** لعل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم. **السادس:** يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور، ثم منهم من يخرج من داره مفلسًا عريانًا لا يُلتفت إليه، ومنهم من كان مديونًا فيُجر إلى الحبس، ومنهم من كان ملكًا مطاعًا فتُقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه، كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عارٍ عن لباس التقوى يُجر إلى الملك الجبار، ومن عبد كان مطيعًا لربه في الدنيا فصار ملكًا مطاعًا في العقبى يقدم إليه البراق. **السابع:** يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المطففين: ٦] والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة، قوله: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾[السجدة: ١٢] والسجود في الصلاة يُذكر قوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم: ٤٢] والقعود يذكر قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[الجاثية: ٢٨] فكأن العبد يقول: إلهي كما خلصتني من ظلمة الليل فخلِّصني من هذه الأهوال. وإنما خص وقت صلاة الصبح لأن لها مزيد شرف، على ما قال: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء: ٧٨] أي تحضرها ملائكة الليل والنهار الثامن: أنه وقت الاستغفار والتضرع، على ما قال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧] . **القول الثاني في الفلق:** أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[الأنعام: ٩٥] والجبال عن العيون: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة: ٧٤] والسحاب عن الأمطار والأرحام عن

الأولاد والبيض عن الفرخ والقلوب عن المعارف، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود، وثبت أنه كان الله في الأزل ولم يكن معه شيء ألبتة، فكأنه سبحانه هو الذي فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع، فهذا هو المراد من الفلق. **وهذا التأويل أقرب من وجوه: أحدها:** هو أن الموجود إما الخالق وإما الخلق، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال: قل أعوذ برب جميع الممكنات، ومكون كل المحدثات والمبدعات. فيكون التعظيم فيه أعظم، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى. **وثانيها:** أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته، والممكن لذاته يكون موجودًا بغيره، معدومًا في حد ذاته، فإذن كل ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ويبقيه حال بقائه، فإن الممكن حال بقائه يفتقر إلى المؤثر والتربية، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء، فكأنه يقول: إنك لست محتاجًا إلى حال الحدوث فقط بل في حال الحدوث وحال البقاء معًا في الذات وفي جميع الصفات، فقوله: ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتي الحدوث والبقاء في الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات، وسر التوحيد لا يصفو عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعاني. **وثالثها:** أن التصوير والتكوين في الظلمة أصعب منه في النور، فكأنه يقول: أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء، ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

القول الثالث: أنه واد في جهنم أو جُبّ فيها، من قولهم لِما اطمأن من الأرض (الفلق) والجمع فلقان، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال: لا أبالي، أليس من ورائهم الفلق؟ فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فُتح صاح جميع أهل النار من شدة حره. وإنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه، فكأنه يقول: يا صاحب العذاب الشديد، أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأكمل وأتم وأسبق وأقدم من عذابك.

قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية وجوه: **أحدها:** قال عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس خاصة؛ لأن الله تعالى لم يخلق خلقًا هو شر منه، ولأن السورة إنما نزلت في الاستعاذة من السحر، وذلك إنما يتم بإبليس وبأعوانه وجنوده. **وثانيها:** يريد جهنم، كأنه يقول: قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها. **وثالثها:** ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذيني من الجن والإنس أيضًا

ووصف أفعالها بأنها شر، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة (ما) لأن الغلبة لمَّا حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه لأن العبرة بالأغلب أيضًا، ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة وشرور الماء والنار، **فإن قيل:** الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء، على قول أكثر المتكلمين، أو متولدة من قوى خلقها الله تعالى في هذه الأجرام، على ما هو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين، وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمَر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله، فما معناه؟ **قلنا:** وأي بأس بذلك، ولقد صرح عليه السلام بذلك فقال: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»(1) **ورابعها:** أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات.

وزعم الجبائي والقاضي أن هذا التفسير باطل؛ لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر، قالوا: ويدل عليه وجوه: **الأول:** أنه يلزم على هذا التقدير أن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمرنا أن نتعوذ به، وذلك متناقض. **والثاني:** أن أفعال الله كلها حكمة وصواب، وذلك لا يجوز أن يقال: إنه شر. **والثالث:** أن فعل الله لو كان شرًّا لوُصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك. **والجواب عن الأول:** أنا بينا أنه لا امتناع في قوله أعوذ بك منك؟ **وعن الثاني:** أن الإنسان لما تألم به فإنه يعد شرًا، فورد اللفظ على وفق قوله، كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] **وعن الثالث:** أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، ثم الذي يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ [المعارج: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١] وكان عليه السلام يقول: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»(2).

---

(1) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (القنوت في الوتر) (٢/ ٦٥) حديث رقم (١٤٢٧) من طريق موسى بن إسماعيل... به، والترمذي في كتاب (الدعوات) باب (في دعاء الوتر) (٥/ ٥٢٤) حديث رقم (٣٥٦٦) من طريق أحمد بن منيع عن يزيد بن هارون... به، والنسائي في كتاب (قيام الليل وتطوع النهار) باب (الدعاء في الوتر) (٢/ ٣٩٦) حديث رقم (١٧٤٦) وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (ما جاء في القنوت في الوتر) (٣/ ٣٧٣) حديث رقم (١١٧٩) من طريق حفص أبي عمر عن بهز بن أنس... به، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث على، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمة، ثلاثتهم (موسى، يزيد، بهز) عن حماد عن هشام، عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن علي، قال: إن النبي ﷺ كان يقول في آخر وتره... فذكره.

(2) أخرجه الطبراني في (الكبير) (٤/ ١١٤) حديث رقم (٣٨٣٨) من طريق المسيب بن واضح عن مضمر بن سليمان عن حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزني عن أبي العالية عن خالد بن الوليد... به، ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٤/ ١٧٥) حديث رقم (٤٧١٠) من طريق معمر عن قتادة عن أبي رافع أن خالد بن الوليد... فذكره، وعبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٣٥) حديث رقم (١٩٨٣١) وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ١٧٦) وقال: رواه الطبراني وفيه المسيب بن واضح وقد وثقه غير واحد وضعفه جماعة، وكذلك الحسن بن علي العمري، وبقية رجاله رجال الصحيح، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٣٧) حديث رقم (١٠٧٩٢) من طريق يحيى بن سعيد قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد عن عياش الشامي عن عبد الله بن مسعود... به، ورواه=

المسألة الثانية: طَعَن بعض الملحدة في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من وجوه: **أحدها:** أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله وقدره، أو لا بقضاء الله ولا بقدره؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعيذ بالله منه، وذلك لأن ما قضى الله به وقدره فهو واقع، فكأنه تعالى يقول: الشيء الذي قضيتُ بوقوعه، وهو لا بد واقع فاستعذ بي منه حتى لا أوقعه. وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح في مُلك الله وملكوته. **وثانيها:** أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له، فلا فائدة في الاستعاذة، وإن كان معلوم اللاوقوع، فلا حاجة إلى الاستعاذة. **وثالثها:** أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المكلف في طلب دفعه ومنعه؟ وإن كان مفسدة فكيف خلقه وقدره؟! واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات. أن يقال إنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقد تكرر هذا الكلام في هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾

ذكروا في الغاسق وجوهًا أحدها: أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه، من قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ومنه غسقت العين، إذا امتلأت دمعًا، وغسقت الجراحة، إذا امتلأت دمًا، وهذا قول الفراء وأبي عبيدة، وأنشد ابن قيس:

إنَّ هَـذَا الـلَّـيـلَ قَـدْ غَـسَـقَـا ... وَاشْـتَـكَـيْـتُ الْـهَـمَّ وَالْأَرَقَـا[1]

وقال الزجاج: الغاسق في اللغة هو البارد، وسمي الليل غاسقًا لأنه أبرد من النهار، ومنه قوله: إنه الزمهرير. **وثالثها:** قال قوم: الغاسق والغساق هو السائل، من قولهم: غسقت العين تغسق غسقًا، إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقًا لانصباب ظلامه على الأرض. **أما الوقوب:** فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين، يقال: وقب يقب وقوبًا، إذا دخل، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء، والإيقاب: إدخال الشيء في الوقبة، هذا ما يتعلق باللغة. **وللمفسرين في الآية أقوال: أحدها:** أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل، وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث، ولذلك لو شهر (معتد) سلاحًا على إنسان ليلاً فقتله، المشهور عليه لا يلزمه قصاص، ولو كان نهارًا يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث، وقال قوم: إن في الليل تنتشر الأرواح

=الطبراني في (الدعاء) (١/ ٣٢٢) حديث رقم (١٠٥٨) من طريق إبراهيم بن طُريف عن يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن مسعود... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ١٧٧) من حديث ابن مسعود، وقال: رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفه.

(١) هذا البيت لعبيد الله بن الرقيات وهو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، من بني عامر بن لؤي، ابن قيس الرقيات. ؟ - ٨٥هـ/ ؟ - ٧٠٤م، شاعر قريش في العصر الأموي، كان مقيمًا في المدينة خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد الله) فأقام، سنة وقصد الشام فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فسأل عبد الملك في أمره فأمّنه، فأقام إلى أن توفي.

المؤذية المسماة بالجن والشياطين، وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم، أما في الليل فيحصل لهم نوع استيلاء. **وثانيها:** أن الغاسق إذا وقب هو القمر، قال ابن قتيبة: الغاسق: القمر سُمي به لأنه يكسف فيغسق، أي يذهب ضوؤه ويسود، (و) وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأشار إلى القمر، وقال: «**اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّهُ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**» (١) قال ابن قتيبة: ومعنى قوله: (تعوذي بالله من شره إذا وقب) أي إذا دخل في الكسوف، وعندي فيه وجه آخر: وهو أنه صح أن القمر في جرمه غير مستنير بل هو مظلم، فهذا هو المراد من كونه غاسقًا، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر الشهر، والمنجمون يقولون: إنه في آخر الشهر يكون منحوسًا قليل القوة، لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته، ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض في هذا الوقت، وهذا مناسب لسبب نزول السورة، فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبي ﷺ لأجل التمريض. **وثالثها:** قال ابن زيد: الغاسق إذا وقب يعني الثريا إذا سقطت. قال، وكانت الأسقام تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقًا؛ لانصبابه عند وقوعه في المغرب، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين. **ورابعها:** قال صاحب الكشاف: يجوز أن يراد بالغاسق: الأسود من الحيات، ووقوبه: ضربه ونقبه، والوقب والنقب واحد، واعلم أن هذا التأويل أضعف الوجوه المذكورة. **وخامسها:** الغاسق: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ هو الشمس إذا غابت، وإنما سميت غاسقًا لأنها في الفلك تسبح فسمي حركتها وجريانها بالغسق، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية قولان: **الأول:** أن النفث: النفخ مع ريق، هكذا قاله صاحب الكشاف، ومنهم من قال: إنه النفخ فقط، ومنه قوله عليه السلام: «**إِنَّ جِبْرِيلَ نَفَثَ فِي رُوعِي**» والعُقَد جمع عقدة، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطًا، ولا يزال يعقد عليه عقدًا بعد عقد وينفث في تلك العقد، وإنما أنث النفاثات لوجوه: **أحدها:** أن هذه الصناعة إنما تُعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٥٢) حديث رقم (٣٣٦٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٨٩) حديث رقم (٣٩٨٩) وقال: صحيح الإسناد. والطيالسي في (مسنده) (١/ ٢٠٨) حديث رقم (١٤٨٦) وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٤٣٩) حديث رقم (١٥١٧) والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٧٠٤) والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٨٢) حديث رقم (١٠١٣٧) والطحاوي في (مشكل الآثار) (٤/ ٣١٧) حديث رقم (١٥٢٧) جميعًا من طرق عن ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة. . . به.

وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى، قال أبو عبيدة: النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي، سحرن النبي ﷺ. **وثانيها:** أن المراد من: النفاثات النفوس. **وثالثها:** المراد منها الجماعات، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد. **القول الثاني وهو اختيار أبي مسلم:** ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أي النساء في العقد، أي في عزائم الرجال وآرائهم، وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن، كقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] فلذلك عظَّم الله كيدهن فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. واعلم أن هذا القول حسن، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين.

المسألة الثالثة: أنكرت المعتزلة تأثير السحر، وقد تقدمت هذه المسألة، ثم قالوا: سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه: **أحدها:** أن يستعاذ من إثم عملهن في السحر. **والثاني:** أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن. **والثالث:** أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكنَّ من ذلك بالحيل لفعل؛ فلذلك أمر الله بالتعوذ منه، وقد دخل في هذه السورة كل شر يُتوقى ويُتحرز منه دينًا ودنيا، فلذلك لما نزلت فَرِح رسول الله ﷺ بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة في التعوذ لكل أمر، ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره. **بقي هنا سؤالان:**

السؤال الأول: قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عام في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد؟ **الجواب:** تنبيهًا على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر.

السؤال الثاني: لمَ عَرَّف بعض المستعاذ منه ونكَّر بعضه؟ **الجواب:** عَرَّف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكَّر غاسقًا لأنه ليس كل غاسق شريرًا، وأيضًا ليس كل حاسد شريرًا، بل رُب حسد يكون محمودًا وهو الحسد في الخيرات.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «الفلق»

وهي مكية؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنِية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وهي خمس آيات.

وهذه السورة وسورة «الناس» و«الإخلاص» تعوَّذ بهنَّ رسول الله ﷺ حين سَحَرته اليهود؛ على ما يأتي. وقيل: إن المُعَوِّذتين كان يقال لهما: المُقشقِشتان، أي: تُبْرئان من النِّفاق. وقد تقدَّم(١). وزعم ابن مسعود أنهما دعاءٌ تعوَّذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماعَ من الصحابة وأهل البيت(٢).

قال ابن قتيبة: لم يَكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوِّذتين؛ لأنه كان يسمع رسولَ الله ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بهما، فقدَّر أنهما بمنزلة: «أُعيذُكما بكلماتِ الله التامَّةِ، من كلِّ شيطانٍ وهامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة»(٣).

قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا مردودٌ على ابن قتيبة؛ لأن المعوِّذتين من كلام رب العالمين المُعجز لجميع المخلوقين، و«أُعيذكما بكلماتِ الله التامَّة» من قول البشريين(٤). وكلامُ الخالق الذي هو آيةٌ لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وحُجَّةٌ له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناسِ الكلام، وأفانين القول.

وقال بعض الناس: لم يكتب عبدُ الله المعوِّذتين لأنه أَمِنَ عليهما من النسيان،

---

(١) ص٥٣٣ من هذا الجزء.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٧٣. وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه البزار في مسنده (١٥٨٦) ولفظه: كان عبد الله يحكُّ المعوذتين من المصحف، ويقول: إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوَّذ بهما، وكان عبد الله لا يقرأ بهما. وأخرجه بمعناه أحمد (٢١١٨١) والبخاري (٤٩٧٧) وينظر ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٤١ - ٧٤٣ في هذه المسألة.

(٣) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (م) البشر بيِّنٌ.

فأسقطهما وهو يحفظهما؛ كما أسقط فاتحةَ الكتاب من مصحفه، وما يُشَكُّ في حفظه وإتقانه لها. فردّ هذا القول على قائله، واحتجَّ عليه بأنه قد كتب: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهن يجرين مجرى المعوِّذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرعُ، ونسيانُهن مأمون، وكلهنَّ يُخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها. وسبيل كل ركعة أن تكون المقدَّمة فيها قبل ما يُقْرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف، على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يُسْلك به طريقها. وقد مضى هذا المعنى في سورة «الفاتحة»[(١)] والحمد لله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

فيه تسعة مسائل:

الأولى: روى النسائيّ عن عقبة بن عامر، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو راكب، فوضعتُ يدي على قدمه، فقلت: أَقرئني سورةَ يوسف. فقال لي: «ولَنْ تَقرأ شيئاً أبلغَ عند الله من ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾»[(٢)]. وعنه قال: بينا أنا أَسير مع النبيّ ﷺ بين الجُحْفَة والأَبْواءِ، إذ غَشِيَتْنَا ريح مُظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوّذ بـ «أعوذ برب الفلق»، و«أعوذ برب الناس»، ويقول: «يا عقبة، تعوَّذ بهما، فما تعوّذ مُتعوِّذ

---

(١) ١/١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٥٤ ، وأخرجه أحمد (١٧٣٤١).

بمثلهما». قال: وسمعتُه يقرأ بهما في الصلاة[١].

وروى النَّسائي عن عبد الله قال: أصابنا طَشٌّ وظُلْمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يخرج[٢]، ثم ذكر كلاماً معناه: فخرج رسولُ الله ﷺ [لِيصلِّي بنا]، فقال: «قُلْ». فقلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تمسي وحين تُصبح ثلاثاً، يكفِك كل شيء»[٣].

وعن عقبة بن عامر الجُهَنِي قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلْ». قلت: ما أقول؟ قال: «قل: قل هو الله أحد. قل أعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب الناس» فقرأهُنَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «لم يتعوَّذ الناسُ بمثلهنَّ» أو «لا يتعوَّذ الناس بمثلهنَّ»[٤].

وفي حديث ابن عابس[٥]: «قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتين السورتين». وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نَفْسه بالمُعوِّذتَيْنِ ويَنْفِثُ، فلما اشتدَّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاءَ بركتها[٦]. النَّفْث: النفخ ليس معه ريق.

الثانية: ثبت في «الصحيحين»[٧] من حديث عائشة أن النبيّ ﷺ سَحَره يهوديٌّ من يهود بني زُرَيْق، يقال له لَبِيدُ بن الأَعْصم، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٣).

(٢) لفظ: يخرج، من (د) و(م)، وفي سنن النسائي: ليصلِّي بنا.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٥٠ - وما بين حاصرتين منه - وأخرجه أحمد (٢٢٦٦٤)، وعبد الله: هو ابن خُبيب ﷺ، وقوله: طشّ، أي: مطر خفيف. قاله السندي كما في حاشية المسند.

(٤) أخرجه النسائي ٨/ ٢٥١.

(٥) في النسخ: ابن عباس، وهو خطأ، والحديث أخرجه أحمد (١٧٢٩٧)، والنسائي ٨/ ٢٥١ - ٢٥٢.

(٦) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، وصحيح مسلم (٢١٩٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٣١)، وسلف قسم منه ٢/ ٢٧٦.

(٧) صحيح البخاري (٥٧٦٣)، وصحيح مسلم (٢١٨٩)، وهو في مسند أحمد (٢٤٣٠٠).

يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ـ في غير الصحيح: سنة[١] ـ ثم قال: «يا عائشة، أَشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان، فجلس أحدُهما عند رأسي، والآخر عند رِجلي، فقال [أحدهما لصاحبه][٢]: ما شأن الرجل؟ قال: مطْبوب[٣]. قال: ومَنْ طَبَّهُ؟ قال: لَبيدُ بن الأعصم. قال: في ماذا؟ قال: في مُشْط ومُشاطة وجُفّ طلعةِ ذكر[٤]، تحت راعوفة في بئر ذي أَرْوَان». فجاء البئر واستخرجه. انتهى الصحيح.

وقال ابن عباس: «أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي». ثم بعث عَلِيًّا والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماءَ تلك البئر كأنه نُقاعة الحِنَّاء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة ـ صخرة تُترَكُ أسفلَ البئر يقوم عليها المائح[٥] ـ وأخرجوا الجُفَّ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان، وأسنان من مُشْط، وإذا وتر معقودٌ فيه إحدى عشرةَ عقدةً مغرزةً بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد، وأُمر أن يَتَعَوَّذُ بهما؛ فجعل كلما قرأ آيةً انحلَّت عقدة، ووجد النبيُّ ﷺ خِفَّةً، حتى انحلَّت العقدةُ الأخيرة، فكأنما أُنْشِطَ من عِقال، وقال: ليس به بأس. وجعل جبريل يَرْقي رسول الله ﷺ فيقول: «بسم الله أَرْقِيك، من كل شيء يُؤذيك، من شرِّ حاسدٍ وعَيْن، والله يَشْفِيك». فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتلُ الخبيثَ. فقال:

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٠/٢٢٦: قال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظَفِرتُ به في جامع معمر عن الزهري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولاً بإسناد الصحيح، فهو المعتمد. اهـ.

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح البخاري.

(٣) أي: مسحور. فتح الباري ١٠/٢٢٦.

(٤) قال السندي كما في حاشية المسند: قوله: جُفّ طلعة ذكر: هو الغشاء الذي على طلع النخل، ويطلق النخل على الذكر والأنثى، ولذا قيَّده بالذكر.

(٥) المائح: الذي يكون في أسفل البئر يملأ الدلو. أما الماتح: فهو المستقي من البئر بالدلو من أعلى البئر. النهاية (متح).

«أمّا أنا فقد شفانِي الله، وأكره أن أُثيرَ على الناس شَرًّا»[١].

وذكر القشيري في «تفسيره» أنه ورد في الصِّحاح: أن غلاماً من اليهود كان يخدمُ النبيّ ﷺ، فدسَّتْ إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أَخَذَ مُشاطة رأس النبيّ ﷺ. ـ والمُشاطة، بضم الميم: ما يسقُط من الشعر عند المَشْط[٢] ـ وأخذ عدّةً من أسنان مُشْطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وكان الذي يتولى ذلك لَبيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ. وذكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس.

الثالثة: تقدّم في البقرة القول في السحر وحقيقته، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر[٣]؛ فلا معنى لإعادته.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: سجن في جَهنم؛ قاله ابن عباس. وقال أُبَيُّ بن كعب: بيت في جهنم إذا فُتح صاح أهلُ النار من حره. وقال الحُبُليّ أبو عبد الرحمن: هو اسمٌ من أسماء جهنم. وقال الكلبي: وادٍ في جهنم. وقال عبد الله بن عمر: شجرة في النار. سعيد بن جُبير: جُبٌّ في النار.

النحاس: يقال لما اطمأنَّ من الأرض: فَلَق؛ فعلى هذا يَصِحُّ هذا القول. وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظيّ وابن زيد: الفَلَق: الصُّبْح. وقاله ابن عباس[٤]. تقول العرب: هو أبينُ من فَلَقِ الصُّبْح، وفَرَق

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس وعائشة ﵄، كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٨ . قال الحافظ ابن كثير: هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم.

وقوله منه: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين اللهُ يشفيك» وأن جبريل رقى بهذه الكلمات النبي ﷺ أخرجه أحمد (١١٢٢٥) و(٢٥٢٧٢)، ومسلم (٢١٨٦) و(٢١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري وعائشة رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٥/ ٥٧٢ .

(٣) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٤) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٧٤١ - ٧٤٤ .

الصبح[١]. وقال الشاعر:

يـا لـيـلـةً لـم أنَـمْـهَـا بِـتُّ مُـرْتَـفِـقـاً أَرْعَـى الـنـجـومَ إلـى أنْ نَـوَّرَ الـفـلَـقُ[٢]

وقيل: الفلق: الجبال والصخور تنفلق بالمياه، أي: تتشقق.

وقيل: هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل. قال زهير:

مـا زِلْـتُ أَرْمُـقُـهُـمْ حـتـى إذا هَـبَـطَـتْ أيدِي الرِّكابِ بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا[٣]

الراكس: بطن الوادي. وكذلك هو في قول النابغة:

أتـانـي ودُونـي راكِـسٌ فـالـضَّـواجِـعُ[٤]

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البَيْدَر، تدور عليه الثّيران في الدِّياسة[٥].

وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان. وقيل: إنه كلُّ ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبحِ والحَبّ والنَّوَى، وكل شيء من نبات وغيره؛ قاله الحسن وغيره. قال الضحاك: الفَلَقُ الخَلْق كُلُّه[٦]؛ قال:

وَسْـوَسَ يَـدْعُـو مُـخْـلِـصًـا رَبَّ الـفَـلَـقْ سِـرًّا وقَـدْ أَوَّنَ تَـأْوِيـنَ الـعُـقُـقْ[٧]

قلت: هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفَلْق الشَّق، فَلَقْت الشيء فَلْقاً، أي:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣١٣.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٤. وما بعده منه.

(٣) ديوان زهير ص ٣٥.

(٤) ديوان النابغة ص ٧٩، وصدره: وعيدُ أبي قابوس في غير كنهه. والضواجع: منحنى الوادي. القاموس (ضجع)

(٥) الصحاح (ركس).

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٧٤.

(٧) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ١٠٨. والتأوين: امتلاء البطن، والعُقُق: جمع عَقوق، وهي الحامل. والراجز يصف أُتُناً وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها. اللسان (أون).

شققته. والتفليق مثله. يقال: فَلَقْته فانفلق وتَفَلَّق. فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوًى وماء فهو فَلَق؛ قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] قال: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وقال ذو الرُّمّة يصف الثورَ الوَحْشِيّ:

حَتَّى إذَا ما انجَلَى عن وجهِه فَلَقٌ   هادِيهِ في أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ[١]

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق أيضاً: المطمئنُّ من الأرض بين الرَّبوتين، وجمعه: فُلْقان، مثل خَلَق وخُلْقان. وربما قالوا: كان ذلك بفالق كذا وكذا، يريدون المكانَ المنحدر بين الربوتين. والفَلَق أيضًا مِقطرة[٢] السَّجان. فأما الفِلْق ـ بالكسر ـ: فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجلُ وافتلق. وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلْق. والفِلْق أيضاً: القضيب يُشَقُّ باثنين، فيعمل منه قَوْسان؛ يقال لكل واحدة منهما: فِلْق. وقولهم: جاء بعُلَقَ فُلَقَ ـ وهي الداهية ـ لا تُجْرى[٣]. يقال منه: أعلقت وأفلقت، أي: جئت بعُلَق فُلَقَ. ومرَّ يفتلق في عَدْوِه، أي: يأتي بالعجب من شدَّتِه[٤].

وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قيل: هو إبليس وذُرِّيته. وقيل: جهنم. وقيل: هو عامٌّ، أي: من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ خلقَه الله عزَّ وجلَّ[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغَسَق: أولُ ظُلمةِ الليل؛ يقال منه: غَسَقَ الليلُ يَغْسِق، أي: أظلم[٦]. قال ابن قيس الرقيات:

إنَّ هــذا الـلـيـلَ قــد غَـسَـقـا   واشْـتَـكَـيْـتُ الـهَـمَّ والأَرَقـا[٧]

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٢ ، وفيه: حتى إذا ما جلا.. وهي الرواية الصحيحة فيما قاله ابن بري، كما في اللسان (فلق). وقوله: هاديه، أي: أوله. شرح الديوان لأبي نصر الباهلي.

(٢) المِقْطرة: خشبة فيها خروق تُدخَل فيها أرجل المحبوسين. الصحاح (قطر).

(٣) أي: لا تنصرف.

(٤) الصحاح (فلق).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٧٤ .

(٦) الصحاح (غسق).

(٧) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيَّات ص ١٨٧ .

وقال آخر:

يا طيفَ هندٍ لقد أبْقَيت لي أَرَقاً إذْ جِئتَنا طارِقًا والليلُ قَدْ غَسَقَا[(١)]

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّي وغيرِهم. و«وَقَبَ» على هذا التفسير: أظلم؛ قاله ابن عباس. والضحاك: دَخَلَ. قتادة: ذَهَبَ. يَمانُ بن رِئاب: سَكَن. وقيل: نزل؛ يقال: وَقَبَ العذابُ على الكافرين: نَزَلَ؛ قال الشاعر:

وَقَبَ العذابُ عليهمُ فكأنَّهُمْ لَحِقَتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا[(٢)]

وقال الزجاج[(٣)]: قيل: الليل غاسق لأنه أبردُ من النهار. والغاسق: البارد. والغَسَق: البرد؛ ولأن في الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوامُّ من أماكنها، وينبعث أهلُ الشرِّ على العيث والفساد. وقيل: الغاسق: الثُّريَّا؛ وذلك أنها إذا سقطت كَثُرتِ الأسقامُ والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وقيل: هو الشمس إذا غربت؛ قاله ابن شهاب.

وقيل: هو القمر[(٤)]. قال القُتَبِيّ[(٥)]: «إذا وقب» القمر: إذا دخل في ساهوره، وهو كالغلاف له، وذلك إذا خُسِفَ به. وكلُّ شيء أسودُ فهو غَسَق. وقال قتادة: «إذا وقَبَ»: إذا غابَ. وهو أصحُّ؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة: أن النبيّ ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا هو الغاسقُ إذا وقَبَ». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(٦)].

وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٥ ، والأقوال التي بعده منه.

(٢) ذكره السمين في الدر المصون ١١/ ١٥٩ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٧٩ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٧٥ .

(٥) في تفسير غريب القرآن ص ٥٤٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٨ .

(٦) سنن الترمذي (٣٣٦٦)، وأخرجه أحمد (٢٥٨٠٢).

أهل الرِّيب يتَحيَّنون وَجبة القمر، وأنشد:

أراحني اللهُ مِن أشياءَ أكرهُها ... منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ

هذا يبوحُ وهذا يستضاءُ به ... وهذه ضِمْرِزٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ(١)

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وكأن الغاسق نابُها؛ لأن السمَّ يغسق منه، أي: يسيل. ووقب نابها: إذا دخل في اللَّدِيغ. وقيل: الغاسق: كل هاجم يضرّ، كائناً ما كان؛ من قولهم: غسقت القرحة: إذا جرى صديدُها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِين عليها، شبه النفخ كما يعمل مَن يرقي. قال الشاعر:

أُعوذُ بِربِّي مِنَ النَّافِثَا ... تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِهِ(٢)

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة:

نَفَثْت في الخيطِ شَبِيهَ الرُّقَى ... مِن خشيةِ الجِنَّة والحاسِدِ(٣)

وقال عنترة:

فإنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُث عَلَيهِ ... وإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ له الفُقُودُ(٤)

السابعة: روى النَّسائي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من عَقَدَ عُقدة ثم نَفَثَ فيها، فقد سَحَر، ومَن سَحَرَ فقد أَشْرَكَ، ومَنْ تَعَلَّق شيئاً وُكِل إليه»(٥).

---

(١) ذكرهما الجاحظ في المحاسن والأضداد ص ١٧٢، وابن الجوزي في أخبار النساء ص ١٤٩، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) ذكره الماوردي النكت والعيون ٦/ ٣٧٥، والعِضَه: السِّحر، والعاضه: الساحر. اللسان (عضه) والبيت فيه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٥.

(٤) ديوان عنترة ص ٤٢. وسلف ١٣/ ١٥٩.

(٥) سنن النسائي ٨/ ١١٢. وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعّفه أحمد ويحيى، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨: هذا الحديث لا يصح للينِ عبّاد وانقطاعه. اهـ. وقوله: «تعلّق شيئاً» أي: من علّق على نفسه شيئاً من التعاويذ والتمائم معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع ضرًّا. النهاية (علق).

واختلِف في النفْث عند الرُّقَى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد. قال إبراهيم: كانوا يكرهون النَّفث في الرُّقَى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وَجِعٌ، فقلت: ألا أُعَوِّذكَ يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوَّذتُه بالمعوذتين. وقال ابنُ جريج: قلت لعطاء: القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ؟ قال: لا شيء من ذلك، ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: انفُث إن شئت. وسُئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال: لا أَعلم بها بأساً[١]. وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السُّنة؛ روت عائشة أن النبيّ ﷺ كان ينفث في الرُّقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفي «سُبْحان»[٢].

وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتَتْ به أُمُّه النبيَّ ﷺ، فجعل ينفُث عليها ويتكلَّم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه[٣]. وقال محمد بن الأشعث: ذُهِب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء، فرقَتْني وَنَفَثَت[٤].

وأما ما رُوي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث في العُقَد مما يُستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة. وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العُقَد إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عُقد مذموماً. ولأن النفث في العُقَد إنما أُريد به السحر المُضِرّ بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يُقاس ما ينفع بما يضر[٥]. وأما كراهة عكرمة المسحَ فخلاف السنة. قال علي ﷺ: اشتكيت، فدخل عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا أقول: اللهمَّ إنْ كان أجلي قد حَضَر فأرِحني، وإن كان متأخِّراً فاشفني وعافني، وإن كان بلاءً فصبِّرني. فقال النبيّ ﷺ:

---

(١) الاستذكار ٢٧/ ٣٠ - ٣١ ، ما عدا قول ابن جريج.

(٢) ١٣/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٤٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٤ وفيه: قيس بن محمد بن الأشعث بدل: محمد بن الأشعث.

(٥) التمهيد ٨/ ١٣٣ بنحوه.

«كيف قلت»؟ فقلت له. فَمَسحني بيده، ثم قال: «اللهم اشْفِه» فما عاد ذلك الوجع بعد[١].

وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورُويس عن يعقوب: «ومِن شرِّ النافثاتِ» في وزن فاعلات. ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما[٢]. ورُوي أن نساءً سَحَرْنَ النبيَّ ﷺ في إحدى عشرة عقدةً؛ فأنزل الله المعوِّذتين إحدى عشرة آية. قال ابن زيد: كُنَّ من اليهود؛ يعني السواحر المذكورات. وقيل: هنّ بنات لَبِيد بن الأعصم[٣].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قد تقدم في سورة «النساء» معنى الحسد[٤]، وأنه تمنِّي زوالِ نعمة المحسود وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلُها. والمنافسة هي تمني مثلَها وإن لم تزل. فالحسدُ شرٌّ مذموم. والمنافسة مباحةٌ، وهي الغِبطة. وقد روي أن النبيَّ ﷺ قال: «المؤمن يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسُد»[٥]. وفي «الصحيحين»: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين»[٦] يريد: لا غِبْطَةَ. وقد مضى في سورة «النساء»[٧] والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسدُه بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسدُ على إيقاع الشرِّ بالمحسود، فيَتْبع مساوئه ويطلب عَثَراته. قال ﷺ: «إذا

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٥٧).

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٣٩ ، وهي غير المشهورة عن رويس.

(٣) تفسير البغوي ٥/ ٥٤٧ ، وزاد المسير ٩/ ٢٧٥ .

(٤) ٦/ ٤١٥ وما بعدها، وتقدم أيضاً في البقرة ٢/ ٣١٣ وما بعدها.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٧٦ - ٣٧٧ ، والحديث ذكره ملا علي القاري في المصنوع (٢٦٨) من كلام الفضيل بن عياض.

(٦) صحيح البخاري (٧٣)، وصحيح مسلم (٨١٦)، وأخرجه أحمد (٣٦٥١)، وفي الباب عن عدد من الصحابة تنظر في مسند أحمد.

(٧) سلف في سورة النساء الكلام عن الحسد ـ كما ذكر المصنف قريباً ـ دون ذكر الحديث.

حَسَدت فلا تَبْغِ» الحديث. وقد تقدم[١]. والحسد أوّلُ ذنب عُصِي الله به في السماء، وأولُ ذنب عُصِي به في الأرض، فحسَدَ إبليس آدمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ. والحاسدُ ممقوتٌ مَبْغوض مطرود ملعون. ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تَنَفَّسَ طَعْنةً ... يا ظالِمًا وكأنهُ مَظْلُومُ[٢]

التاسعة: هذه سورة دالَّةٌ على أن الله سبحانه خالقُ كلِّ شرٍّ، وأمر نبيَّه ﷺ أن يتعوَّذ من جميع الشرور. فقال: «مِنْ شرِّ ما خَلَقَ». وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على عِظمه، وكثرة ضرره. والحاسد عدوُّ نعمة الله.

قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه: أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها: أنه ساخطٌ لِقسمة ربِّه، كأنه يقول: لِمَ قسمتَ هذه القسمة. وثالثها: أنه ضادَّ فعلَ الله، أي: إنَّ فضلَ الله يُؤتِيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خِذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها: أنه أعان عدوَّه إبليس.

وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامةً، ولا ينال عند الملائكة إلا لَعنةً وبَغْضاء، ولا ينال في الخَلْوة إلا جَزَعاً وغمًّا، ولا ينال في الآخرة إلا حُزْناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بُعداً ومَقْتاً.

ورُوي أن النبيَّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُستجاب دعاؤهم: آكلُ الحرام، ومُكثِرُ الغِيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حَسَدٌ للمسلمين»[٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ١٩/٣٩٨، والحديث ضعيف، وينظر تخريجه فيما سلف.

(٢) قائله ابن المعتز، وهو في ديوانه ص ٣٦٤، وفيه: صعدة، بدل: طعنة.

(٣) لم نقف عليه.

سُورَةُ الفَلَق

مُختَلَفٌ فيها، وآيُها خمسٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ما يُفلَقُ عنه؛ أي: يُفرَقُ عنه؛ كالفَرَقِ، فَعَلٌ بمَعْنَى مَفعولٍ، وهو يعمُّ جميعَ المُمْكِناتِ؛ فإنَّه تعالى فلقَ ظُلْمَةَ العدمِ بنُورِ الإيجادِ عَنْها، سِيَّمَا ما يخرجُ مِن أصلٍ كالعُيُونِ والأمطارِ والنَّباتِ والأولادِ، ويُخَصُّ عُرفًا بالصُّبحِ، ولذلك فُسِّرَ به، وتخصيصُهُ لِمَا فيه مِن تَغيُّرِ الحالِ، وتبدُّلِ وحشةِ الليلِ بسُرُورِ النُّورِ، ومحاكاةِ فاتحَةِ يومِ القيامةِ، والإشعارِ بأنَّ مَن قدرَ أَنْ يُزيلَ به ظلمةَ الليلِ عن هذا العالمِ قدرَ أَنْ يزيلَ عن العائذِ ما يخافهُ.

ولفظُ الرَّبِّ هنا أوقَعُ مِن سائرِ أسمائهِ تعالى؛ لأنَّ الإعاذةَ مِن المضارِّ تربيَةٌ.

(٢) ـ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خصَّ عالَمَ الخلقِ بالاستعاذةِ منه لانحصارِ الشَّرِّ فيه؛ فإنَّ عالمَ الأمرِ خيرٌ كلُّه، وشَرُّهُ اختياريٌّ لازمٌ ومُتعَدٍّ كالكُفْرِ والظُّلمِ، وطَبْعيٌّ كإحراقِ النَّارِ وإهلاكِ السُّمومِ.

(٣) ـ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾: ليلٍ عَظيمٍ ظَلامُهُ؛ مِن قولِه: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

وأصلُه: الامتلاءُ، يقال: غَسَقَت العينُ: إذا امتلأَتْ دمعًا، وقيل: السَّيَلانُ، وغسقُ الليلِ: انصبابُ ظَلامِه، وغَسَقُ العَيْنِ: سيلانُ دَمعِه.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾: دخلَ ظَلامُه في كلِّ شيءٍ، وتخصيصُه لأنَّ المضارَّ فيه تكثرُ ويَعسُرُ الدَّفعُ، ولذلك قيل: الليلُ أَخْفَى للوَيْلِ.

وقيل: المرادُ به القَمَرُ؛ فإنه يَكسِفُ فيغسِقُ، ووقوبُهُ: دخولُهُ في الكُسوفِ.

(٤) - ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: ومِن شَرِّ النُّفوسِ - أو النِّساءِ السَّواحرِ - اللاتي يَعقِدنَ عُقَدًا في خيوطٍ وينفُثْنَ عليها، والنَّفْثُ: النَّفخُ مع ريقٍ.

وتخصيصُهُ لِمَا رُوِيَ أنَّ يَهودِيًّا سحرَ النَّبيَّ ﷺ في إحدى عشرةَ عُقدَةً في وَتَرٍ دسَّهُ في بئرٍ، فمَرِضَ النبيُّ عليهِ السَّلامُ ونزلَتِ المُعوِّذتانِ، وأخبرَهُ جبرئيلُ بمَوْضِعِ السِّحرِ فأرسلَ عليّاً رضيَ اللهُ تعالى عنه فجاءَ بِهِ فقرَأَهُما عليه، فكانَ كُلَّمَا قرأَ آيةً انحلَّتْ عُقدَةٌ ووجدَ بعضَ الخفَّةِ[1].

ولا يوجبُ ذلك صدقَ الكفَرَةِ في أنَّه مَسحورٌ؛ لأنَّهُم أرادوا بِهِ أنَّه مجنونٌ بواسِطَةِ السِّحرِ.

وقيل: المرادُ بالنَّفثِ في العُقَدِ: إبطالُ عَزائمِ الرِّجالِ بالحِيَلِ؛ مُستعارٌ مِن تَلْيينِ

---

(١) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (١٠٩٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٩٢ - ٩٤)، من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٩٨) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٤٨)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكر القصة الواحدي (ص: ٤٧٣) عن المفسرين، وكلها ضعيفة وقد صح الحديث دون ذكر نزول المعوذتين كما في البخاري (٦٣٩١)، ومسلم (٢١٨٩)، عن عائشة، وإلى ذلك أشار البيهقي عقب حديث عائشة.

العُقدَةِ بنَفْثِ الرِّيقِ ليَسهُلَ حَلُّه، وإفرادُهَا بالتَّعريفِ لأنَّ كلَّ نفَّاثةٍ شرِّيرةٌ، بخلافِ كلِّ غاسقٍ وحاسِدٍ.

(٥) ـ ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾: إذا ظهرَ حَسَدُه وعَمِلَ بمقتضاه؛ فإنَّه لا يعودُ ضَرَرُه منه قبلَ ذلك إلى المَحْسودِ، بل يُخصُّ به لاغتمامِهِ بسُرورِه[1]، وتخصيصُهُ لأنَّه العُمدَةُ في إضرارِ الناس بل الحيوانِ غيرَه.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالغاسقِ: ما يخلو عن النُّورِ وما يُضاهيهِ كالقُوَى، وبالنفَّاثاتِ: النَّباتاتُ؛ فإنَّ قُواهَا النَّباتيَّةَ مِن حَيْثُ إنَّها تزيدُ في طُولِها وعرضِها وعُمْقِها كأنَّها تنفثُ في العُقَدِ الثَّلاث، وبالحاسدِ: الحيوانُ؛ فإنَّه إنما يَقصِدُ غيرَهُ غالبًا طمعًا فيما عندَه، ولعلَّ إفرادَها مِن عالمِ الخلقِ لأنَّها الأَسبابُ القريبَةُ للمَضرَّةِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «لقد أُنزلَت عليَّ سُورتانِ ما أُنْزِلَ مِثلُهُما»[2]، وإنَّه «لَنْ تَقرَأَ سُورَتينِ أحبَّ ولا أَرْضى عندَ اللهِ مِنْهُما»[3]، يعني: المعوِّذتينِ.

***

(١) في نسخة الخيالي: «بسرور غيره» وفي نسخة التفتازاني: «بسرور». وقال الأنصاري في «الحاشية» (٥/ ٥٥٩): «يخص به»؛ أي: بالحاسد؛ «لاغتمامه بسروره»؛ أي: بسرور المحسود.

(٢) رواه مسلم (٨١٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٨٤٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(١١٣) سورة الفلق مكية وآياتها خمس

عن عقبة بن عامر قال، قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾»(١). وروى الإمام احمد، عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: «يا عقبة ألا تركب؟» قال، فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ، وركبت هنية، ثم ركب، ثم قال: «يا عقب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: «كيف رأيت يا عقب، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت»(٢).

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، وروى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه رجاء بركتها(٣). وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما(٤).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قال ابن عباس ﴿الفلق﴾: الصبح، وقال ابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فالق الأصباح﴾. وقال

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.
(٣) أخرجه مالك ورواه البخاري وأبو داود والنسائي.
(٤) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ابن عباس : ﴿ الفلق﴾ الخلق، أمر الله نبيّه أن يتعوذ من الخلق كله، وقال كعب الأحبار : ﴿ الفلق﴾ بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، قال ابن جرير : والصواب القول، إنه فلق الصبح، وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري رحمه الله تعالى، ﴿ من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات، قال الحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق، ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال مجاهد ﴿ غاسق﴾ الليل ﴿ إذا وقب » غروب الشمس[١] ، وقال الحسن وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه، وقال الزهري: الشمس إذا غربت، وعن عطية وقتادة : ﴿ إذا وقب﴾ الليل إذا ذهب، وقال أبو هريرة ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الكوكب، قال ابن جرير . وقال آخرون: هو القمر . قالت عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع ، وقال: « تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب »[٢] ، ولفظ النسائي: « تعوذي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب » ، قال الأولون: هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة : يعني السواحر ، قال مجاهد : إذا رقين ونفثن في العقد ، وفي الحديث : أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال اشتكيت يا محمد ؟ فقال: « نعم » ، فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك . ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم .

روى البخاري في كتاب الطب من صحيحه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن . قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: « يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال الذي عند رأسي للآخر : ما بال الرجل ؟ قال: مطبوب، قال : ومن طبه ؟ قال (لبيد بن أعصم) رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم ؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين ؟ قال: في جف طلعة ذكر ، تحت راعوفة في بئر ذروان، ، قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: « هذه بئر التي أُريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رؤوس الشياطين »، قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تنشَّرت ؟ فقال: « أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً »[٣] . وروى الثعلبي في تفسيره . قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ . فدبت إليه اليهود . فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ . وعدة من أسنان مشطه . فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له (ابن أعصم) ثم دسها في بئر لبني زريق، يقال له ذروان، فرض رسول الله ﷺ، وانتثر شعر رأسه ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يذوب، ولا يدري ما عراه، فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند

---

(١) حكاه البخاري عنه وهو قول ابن عباس والضحّاك .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد بمثله .

رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طبٌّ، قال: وما طب؟ قال: سحر، قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة، قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان، والجف قشر الطلع، والراعوفة حجر في أسفل البئر ناتىء يقوم عليه الماتح، فانتبه رسول الله ﷺ: مذعوراً، وقال: «يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي»، ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر، كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنا عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين، الله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن يثير على الناس شراً»(١)

* * *

(١) قال ابن كثير: هكذا أورده الثعلبي بدون إسناد وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم.

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عاصم بن بَهْدَلَة ، عن زر بن حُبَيش قال : قلت لأبى بن كعب : إن ابن مسعود [كان] (١) لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ؟ فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرنى أن جبريل ، عليه السلام ، قال له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فقلتها، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فقلتها . فنحن نقول ما قال النبى ﷺ (٢) ، (٣).

ورواه أبو بكر الحُميدى فى مسنده ، عن سفيان بن عيينة ،حدثنا عبدة بن أبى لُبَابة وعاصم بن بهدلة ، أنهما سمعا زر بن حبيش قال : سألتُ أبى بن كعب عن المعوذتين ، فقلت : يا أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يَحُكهما من المصحف . فقال : إنى سألت رسول الله ﷺ ، فقال : « قيل (٤) لى : قل ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ (٥) .

وقال أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زر قال : سألتُ ابنَ مسعود عن المعوذتين فقال : سألتُ النبى ﷺ عنهما فقال : « قيل لى ، فقلت لكم ، فقولوا » . قال أبى : فقال لنا النبى ﷺ فنحن نقول (٦) .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ،حدثنا سفيان ، حدثنا عَبَدَةُ بن أبى لُبَابة ، عن زر بن حُبَيش ــ وحدثنا عاصم عن زر ــ قال : سألت أبى بن كعب فقلت : أبا المنذر ،إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إنى سألت النبى ﷺ فقال : « قيل لى ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ (٧).

ورواه البخارى أيضاً والنسائى ، عن قتيبة ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبدة وعاصم بن أبى النجود ، عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب ، به (٨) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الأزرق بن على ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا الصَّلْت بن بَهرَام ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : كان عبد الله يَحُك المعوذتين من المصحف ، ويقول : إنما

---

(١) زيادة من المسند .
(٢) فى م : « عليه السلام » .
(٣) المسند (٥/ ١٢٩) .
(٤) فى م : « قال » .
(٥) مسند الحميدى (١/ ١٨٥) .
(٦) المسند (٥/ ١٢٩) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٧) .
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٦) .

أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما ، ولم يكن عبد الله يقرأ بهما [١] .

ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن [٢] بن يزيد قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه،ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله ــ قال الأعمش: وحدثنا عاصم،عن زر بن حبيش ،عن أبي بن كعب قال : سألنا عنهما رسول الله ﷺ ، قال : «قيل لي ، فقلت » [٣].

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء : أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ ، ولم يتواتر عنده ، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة ، رضي الله عنهم ، كتبوهما [٤] في المصاحف الأئمة ،ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن بيان ، عن قيس بن أبي حَازم ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » [٥] .

ورواه أحمد ، ومسلم أيضا ،والترمذي ،والنسائي ، من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عقبة ، به [٦]. وقال الترمذي : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، عن القاسم أبي عبد الرحمن ، عن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نَقب من تلك النقاب ، إذ قال لي : « يا عقبة ، ألا تَركب ؟ » . قال : [فَأَجْلَلْتُ رسول الله ﷺ أن أركب مركبه . ثم قال : «يا عُقيب ، ألا تركب ؟ ».قال] [٧] فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة ، ثم ركب ، ثم قال : « يا عُقيب ، ألا أُعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ ». قلت : بلى يا رسول الله . فأقرأني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : « كيف رأيت يا عقيب [٨]،اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت » .

ورواه النسائي من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك ، كلاهما عن ابن جابر، به [٩].

---

(١) ورواه البزار في مسنده برقم (٢٣٠١) ، من طريق محمد بن أبي يعقوب ، عن حسان بن إبراهيم به ، وقال البزار : « وهذا لم يتابع عبد الله عليه أحد من الصحابة ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتتا في المصحف ».

(٢) في م : « عن عبد الله » .

(٣) زوائد المسند (٥/١٢٩) .

(٤) في م : « أتبعوهما » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨١٤) .

(٦) المسند (٤/١٤٤) وصحيح مسلم برقم (٨١٤) ، وسنن الترمذي برقم (٢٩٠٢) وسنن النسائي (٢/١٥٨) .

(٧) زيادة من المسند .

(٨) في م : « يا عقب » .

(٩) المسند (٤/١٤٤) وسنن النسائي (٨/٢٥٣) .

ورواه أبو داود والنسائي أيضاً ، من حديث ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن عقبة ،به (١) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني يزيد ابن عبد العزيز الرعيني وأبو مرحوم ، عن يزيد بن محمد القرشي ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي،من طرق،عن علي بن رباح (٢). وقال الترمذي : غريب.

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا يحيى (٣) بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن مشرَح بن هاعان ، عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ بالمعوذتين ، فإنك لن تقرأ بمثلهما». تفرد به أحمد (٤).

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا حيوة بن شُرَيْح ، حدثنا بَقيَّة ، حدثنا بَحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن جُبَير بن نُفَير ، عن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ (٥) : « اقرأ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ » . فأعادها له حتى قرأها ،فعرف أني لم أفرح بها جداً ، فقال : « لعلك تهاونت بها ؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها » .

ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان ، عن بقية ، به (٦). ورواه النسائي أيضاً من حديث الثوري، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر: أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين ، فذكر نحوه (٧) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، سمعت النعمان ، عن زياد أبي الأسد ، عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » (٨).

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ،عن ابن عجلان ،عن سعيد المقبري ، عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال : « يا عقبة ، قل » . فقلت : ماذا أقول ؟ فسكت عني ، ثم قال : « قل » . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ فسكت عني ، فقلت : اللهم ، أردده علي .فقال : « يا عقبة ، قل » . قلت:ماذا أقول يا رسول الله؟ فقال :« ﴿ قُلْ أَعُوذُ

---

(١) سنن النسائي (٨/ ٢٥٢،٢٥٣) وسنن أبي داود برقم(١٤٦٢) .

(٢) المسند (٤/ ١٥٥) وسنن أبي داود برقم (١٥٢٣) ، وسنن الترمذي برقم (٢٩٠٣) وسنن النسائي (٣/ ٦٨) .

(٣) في م ، أ : « حدثنا محمد » .

(٤) المسند (٤/ ١٤٦) .

(٥) في م ، أ : « فقال رسول الله ﷺ لعقبة » .

(٦) المسند (٤/ ١٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٤٣،٧٨٤٤) .

(٧) سنن النسائي (٨/ ٢٥٢) .

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٥٦) .

بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ »، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ،ثم قال : « قل » . قلت : ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ »، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ،ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: « ما سأل سائل بمثلهما ، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما » (١) .

طريق أخرى : قال النسائى: أخبرنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ،حدثنا معاوية ، عن العلاء بن الحارث،عن مكحول ،عن عقبة بن عامر :أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى صلاة الصبح(٢) .

طريق أخرى : قال النسائى : أخبرنا قتيبة ،حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى عمران أسلم ، عن عقبة بن عامر قال : اتبعت (٣) رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدى على قدمه (٤) فقلت : أقرئنى سورة هود أو سورة يوسف . فقال : « لن تقرأ شيئاً أنفع (٥) عند الله من ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ » (٦) .

حديث (٧) آخر : قال النسائى : أخبرنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبى عبد الله ، عن ابن عائش(٨) الجهنى : أن النبى ﷺ قال له : « يا ابن عائش ، ألا أدلك ــ أو : ألا أخبرك ــ بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ » . قال : بلى ، يا رسول الله . قال : « ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ،هاتان السورتان» (٩).

فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين فى الحديث .

وقد تقدم فى رواية صُدَىّ بن عجلان ، وفَرْوَةَ بن مُجَاهد ، عنه : « ألا أعلمك ثلاثَ سُوَر لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان (١٠) مثلهن؟ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ».

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا الجريرى ، عن أبى العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ،والناس يعتقبون ، وفى الظهر قلة ، فحانت نَزْلَة رسول الله ﷺ ونزلتى ، فلحقنى فضرب [من بعدى] (١١) منكبى، فقال: « ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ »، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه ،ثم قال : «﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾» ، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه، فقال : « إذا صليت فاقرأ بهما » (١٢) .

---

(١) سنن النسائى (٨/ ٢٥٣) .
(٢) سنن النسائى (٨/ ٢٥٢) .
(٣) فى م : « أتيت » .
(٤) فى م ، أ : « على قدميه » .
(٥) فى م : « أبلغ » .
(٦) سنن النسائى (٨/ ٢٥٤) .
(٧) فى أ : « طريق » .
(٨) فى أ : « عباس » .
(٩) سنن النسائى (٨/ ٢٥١) .
(١٠) فى أ : « فى القرآن » .
(١١) زيادة من المسند .
(١٢) المسند (٥/ ٢٤) .

الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر ، والله أعلم .

ورواه النسائى عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن علية ، به[(١)] .

حديث آخر : قال النسائى : أخبرنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثنى يزيد بن رومان ، عن عقبة بن عامر ، عن عبد الله الأسلمى ـ هو ابن أنيس ـ : أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال : « قل » . فلم أدر ما أقول ، ثم قال لى : « قل » . قلت : ﴿ **هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ . ثم قال لى : « قل » . قلت : ﴿ **أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ ، حتى فرغت منها ، ثم قال لى : « قل » . قلت : ﴿ **أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ ، حتى فرغت منها . فقال رسول الله ﷺ :« هكذا فَتَعَوَّذْ [(٢)]، ما تعوذَ المتعوذون بمثلهن قط »[(٣)].

حديث آخر : قال النسائى : أخبرنا عمرو بن على أبو حفص ، حدثنا بَدَل ، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة ، عن سعيد الجُرَيرى ، حدثنا أبو نَضْرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ يا جابر » . قلت : وما أقرأ بأبى أنت وأمى ؟ قال : « اقرأ ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ﴾ و ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ ». فقرأتهما ، فقال : « اقرأ بهما ، ولن تقرأ بمثلهما » [(٤)] .

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن ، وينفث فى كفيه ،ويمسح بهما رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده .

وقال الإمام مالك:عن ابن شهاب ، عن عُرْوَة ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه،رجاء بركتها .

ورواه البخارى عن عبد الله بن يوسف ، ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن القعنبى ، والنسائى عن قتيبة ــ ومن حديث ابن القاسم ، وعيسى بن يونس ــ وابن ماجة من حديث معن وبشر بن عُمَر،ثمانيتهم عن مالك ،به [(٥)].

وتقدم فى آخر سورة : ﴿**ن**﴾، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان ،فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)** ﴾ .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٨٥٩) .

(٢) فى م : « فتعوذوا » .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٨٤٥) .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٨٥٤) .

(٥) الموطأ (٢/ ٩٤٢) وصحيح البخارى برقم (٥٠١٦) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٢) وسنن أبى داود برقم (٣٩٠٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٥٤٩،٧٥٤٤،١٠٨٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٢٩) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا حسن بن صالح ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : الفلق : الصبح .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الصبح . ورُوى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، وابن زيد ، ومالك عن زيد بن أسلم ، مثل هذا .

قال القرظى ، وابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام:٩٦] .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الخلق . وكذا قال الضحاك : أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله .

وقال كعب الأحبار : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : بيت فى جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، ورواه ابن أبى حاتم ، ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا سهيل بن عثمان ، عن رجل سماه ، عن السدى ، عن زيد بن على ، عن آبائه أنهم قالوا : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : جب فى قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منا (١) نار تصيح منه جهنم ، من شدة حر ما يخرج منه .

وكذا رُوى عن عمرو بن عَبَسَةَ (٢)، والسدى ، وغيرهم . وقد ورد فى ذلك حديثٌ مرفوع منكر، فقال ابن جرير :

حدثنى إسحاق بن وهب الواسطى ، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطى ، حدثنا نصر ابن خزيمة الخراسانى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هُريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : جُبّ فى جهنم مغطى » (٣) إسناده (٤) غريب ولا يصح رفعه .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ :من أسماء جهنم .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول ، أنه فلق الصبح . وهذا هو الصحيح ،وهو اختيار البخارى ، رحمه الله ، فى صحيحه (٥) .

وقوله : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البنانى ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ، قال مجاهد : غاسقُ الليلُ إذا وقبَ غُروبُ الشمس . حكاه البخارى عنه . ورواه ابن أبى نَجِيح ، عنه . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، وخُصَيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه .

(١) فى م ، أ : « خرجت منه » . (٢) فى أ : « عنبسة » .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢٥) .
(٤) فى م : « إسناد » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢٥) وصحيح البخارى (٨/ ٧٤١) « فتح » .

وقال الزهرى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وقب الليل : إذا ذهب . وقال أبو المهزم ، عن أبى هريرة : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ :كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكان[١] الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير :ولهؤلاء من الأثر ما حدثنى : نصر بن على ، حدثنى بكار بن عبد الله ــ ابن أخى همام ــ حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن أبى سلمة ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ : « ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال : النجم الغاسق» [٢].

قلت : وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبى ﷺ .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هو القمر .

قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود الحَفرى ، عن ابن أبى ذئب ، عن الحارث ،عن أبى سلمة قال : قالت عائشة ، رضى الله عنها : أخذ رسول الله ﷺ بيدى ، فأرانى القمر حين يطلع ، وقال : « تَعوَّذِى بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب » .

ورواه الترمذى والنسائى ، فى كتابى التفسير من سننيهما ، من حديث محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذئب ، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن ،به [٣]. وقال الترمذى:حسن صحيح . ولفظه : « تعوذى بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب » . ولفظ النسائى : « تعوَّذى بالله من شر هذا ، هذا الغاسق إذا وقب » .

قال أصحاب القول الأول وهو أنه الليل إذا ولج ــ : هذا لا ينافى قولنا ؛ لأن القمر آيةُ الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ،وكذلك النجوم لا تضىء ، إلا فى الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ، قال مجاهد ، وعكرمة ،والحسن ، وقتادة والضحاك: يعنى : السواحر ــ قال مجاهد : إذا رقين ونفثن فى العقد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : ما من شىء أقرب من [٤] الشرك من رقية الحية والمجانين[٥] .

وفى الحديث الآخر : أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : «نعم». فقال :باسم الله أرْقيك ،من كل داء يؤذيك،ومن شر كل حاسد وعين ،الله يشفيك [٦].

(١) فى م : « وكانت » .
(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢٧) .
(٣) المسند (٦/ ٦١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠١٣٨) .
(٤) فى أ : « إلى » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٢٧) .
(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٨٦) من حديث أبى سعيد ، رضى الله عنه .

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرَة الحسَّاد من اليهود فى رؤوسهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوما من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن حَيَّان ، عن زيد بن أرقم قال : سحر النبى ﷺ رجلٌ من اليهود ، فاشتكى لذلك أياما ، قال : فجاءه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ،عقد لك عُقَداً فى بئر كذا وكذا ، فَأرْسِل إليها من يجىء بها . فبعث رسول الله ﷺ [علياً ، رضى الله تعالى عنه] (١) فاستخرجها ، فجاء بها فحللها (٢) ، قال : فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودى ولا رآه فى وجهه [قط] (٣) حتى مات .

ورواه النسائى عن هَنَّاد ، عن أبى معاوية محمد بن حَازم الضرير (٤) .

وقال البخارى فى « كتاب الطب » من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد قال : سمعت سفيان ابن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابنُ جُرَيْج ، يقول : حدثنى آل عُرْوَة ، عن عروة ، فسألت هشاما عنه ، فحدثَنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سُحر ، حتى كان يُرَى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ــ قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا ــ فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيتُه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب .قال : ومن طَبَّه ؟ قال: لَبيد بن أعصم ــ رجل من بنى زُرَيق حَليف ليهُودَ ، كان منافقاً ــ قال : وفيم ؟ قال : فى مُشط ومُشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جُف طَلْعَة ذكر تحت رعوفة فى بئر ذَرْوَان » . قالت : فأتى [النبى ﷺ] (٥) البئر حتى استخرجه فقال : « هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نُقَاعة الحنَّاء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » . قال : فاستخرج (٦) . [قالت] (٧). فقلت : أفلا ؟ أى : تَنَشَّرْتَ؟ فقال : « أمَّا اللهُ فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » (٨) .

وأسنده من حديث عيسى بن يونس ، وأبى ضَمْرة أنس بن عياض ، وأبى أسامة ، ويحيى القطان وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله » . وعنده : « فأمر بالبئر فدفنت » . وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبى الزِّناد والليث بن سعد (٩) .

وقد رواه مسلم ، من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير . ورواه أحمد ، عن

(١) زيادة من المسند .

(٢) فى م : « فحلها » .

(٣) زيادة من المسند .

(٤) المسند (٤/ ٣٦٧) وسنن النسائى (٧/ ١١٢) .

(٥) زيادة من صحيح البخارى .

(٦) فى أ : « فاستخرجه » .

(٧)زيادة من صحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٧٦٥) .

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٧٦٦،٦٣٩١،٥٨٦٣) .

عفان ، عن وُهَيب (١) ، عن هشام ، به (٢) .

ورواه الإمام أحمد أيضاً عن إبراهيم بن خالد ، عن رباح ، عن مَعْمَر ، عن هشَام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يُرى أنه يأتى ولا يأتى ، فأتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، وذكر تمام الحديث (٣).

وقال الأستاذ المفسر الثعلبى فى تفسيره : قال ابن عباس وعائشة ، رضى الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبَّت إليه اليهود ،فلم يزالوا به حتى أخذ مُشَاطة رأس النبى ﷺ وعدة أسنان من مُشطه ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها . وكان الذى تولى ذلك رجل منهم ــ يقال له : [لبيد] (٤) بن أعصم ــ ثم دسها فى بئر لبنى زُرَيق ، يقال لها : ذَرْوان ، فمرض رسول الله ﷺ وانتثر شعر رأسه ،ولبث سته أشهر يُرَى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ،وجعل يَذُوب ولا يدرى ما عراه. فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فَقَعَد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طُبَّ . قال : وما طُبَّ ؟ قال : سحر . قال : ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودى . قال : وبم طَبَّه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : فى جُفَّ طلعة تحت راعوفة فى بئر ذَرْوَان ــ والجف : قشر الطلع ، والراعوفة : حجر فى أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح ــ فانتبه رسول الله ﷺ مذعوراً ، وقال : « يا عائشة ، أما شعرت أن الله أخبرنى بدائى ؟ » . ثم بعث رسول الله ﷺ عليا والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء البئر كأنه نُقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ،وأخرجوا الجف ،فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود ، فيه اثنتا عشرة (٥) عقدة مغروزة بالإبر . فأنزل الله تعالى السورتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الآخيرة ، فقام كأنما نَشطَ من عقال ، وجعل جبريل ، عليه السلام ،يقول : باسم الله أرْقِيك ، من كل شر يؤذيك ، من حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نأخذ الخبيث نقتله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أما أنا فقد شفانى الله ، وأكره أن يثير على الناس شراً » (٦) .

هكذا أورده بلا إسناد ، وفيه غرابة ، وفى بعضه نكارة شديدة ، ولبعضه شواهد مما تقدم ، والله أعلم .

(١) فى م : « وهب » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٩) والمسند (٦/ ٩٦) .

(٣) المسند (٦/ ٦٣) .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٥) فى م ، أ : « فيه اثنا عشر » .

(٦) الكشف والبيان للثعلبى (ق١٩٤ المحمودية » .

سورة الفلق

مدنيّة،[1] وهي خمس آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾ الصّبح كـ"الفَرَق"؛ لأنّه يُفلَق عنه الليل ويُفرَق، "فَعَلٌ" بمعنى "مفعول"، فإنّ كلّ واحد مِن المفلوق والمفلوق عنه مفعول. وقيل: هو ما انفلق مِن عموده. وقيل: هو كلّ ما يُفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الأمطار والحبّ والنّوى عمّا يخرج منهما، وغيرِ ذلك.[2]

وفي تعليق العياذ باسم الربّ المضاف إلى الفَلَق المنبئ عن النور عَقيب الظلمة والسَّعة بعد الضيق والفَتْق بعد الرَّتْق عِدَةٌ كريمة بإعاذة العائذ ممّا يعوذ منه وإنجائه منه، وتقويةٌ لرجائه بتذكير بعضِ نظائره، ومزيدُ ترغيب له في الجِدّ والاعتناءِ بقَرْع باب الالتجاء إليه تعالى. وأمّا الإشعارُ بأنّ مَن قدَر أن يزيل ظلمةَ الليل مِن هذا العالم قدَر أن يُزيل عن العائذ ما يخافه كما قيل،[3] فلا؛ إذ لا ريبَ للعائذ في قدرته تعالى على ذلك حتّى يحتاج إلى التنبيه عليها.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: مِن شرّ ما خَلَقه مِن الثقلين وغيرهم كائنًا ما كان مِن ذوات الطبائع والاختيار، وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور. فمَن توهّم أنّ الاستعاذة ههنا مِن المضارّ البدنيّة، وأنّها تعمّ الإنسان وغيره ممّا ليس بصدَد الاستعاذة،

---

[1] س: مختلف فيها.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

[3] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٥/٣.

ثمّ جَعَل عمومها مدارًا لإضافة الربّ إلى ﴿ٱلْفَلَقِ﴾،[١] فقد نأى عن الحقّ بمراحل. وإضافة "الشرّ" إليه لاختصاصه بعالم الخَلْق المؤسَّس على امتزاج الموادّ المتباينة، وتفاعل كيفيّاتها المتضادّة المستتبعة للكون والفساد، وأمّا عالم الأمر فهو خير محض منزَّه عن شوائب الشرّ بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذِّكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأنّ تعيين المستعاذ منه أدلّ على الاعتناء بالاستعاذة / وأدعى إلى الإعاذة، أي: ومِن شرّ ليل معتكر [٣٢٧ظ] ظلامُه، مِن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء، ٧٨/١٧]، وأصل الغَسَق الامتلاء، يقال: "غَسَقت العين" إذا امتلأت دمعًا. وقيل: هو السيلان.[٢] وغسَقُ الليل: انصبابُ ظلامه. وغسَقُ العين: سيلانُ دمعها، وإضافةُ الشرّ إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه.

وتنكيرُه لعدم شمول الشرّ لجميع أفراده، ولا لكلّ أجزائه، وتقييده بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: دخل ظلامه في كلّ شيء؛ لأنّ حدوثه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب وأعسرُ، ولذلك قيل: «الليل أخفى للويل»،[٣] وقيل: الغاسقُ هو القمر إذا امتلأ.[٤] ووقوبُه دخوله في الخسوف واسوداده، لِما رُوي عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنّها قالت: أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيدي فأشار إلى القمر، فقال: «تعوذي بالله مِن شرّ هذا، فإنّه الغاسق إذا وقب».[٥]

وقيل: التعبير عن القمر بالغاسق؛ لأنّ جِرمه مظلِم، وإنّما يستنير بضوء الشمس، ووقوبُه المَحاق في آخر الشهر، والمنجّمون يعدونه نحسًا، ولذلك لا يشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلّا في ذلك الوقت. قيل: وهو المناسب لسبب النزول. وقيل: الغاسق الثُّريّا، ووقوبها: سقوطها؛ لأنّها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين. وقيل: هو كلّ شر يعتري الإنسان، ووقوبه هجومه.[٦]

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٦/٣.

٣ مِن أمثال العرب. وهو في مجمع الأمثال للميداني، ١٩٣/٢؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٤٣/١.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

٥ بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٤٥٢/٥ (٣٣٦٦)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٨٩/٢ (٣٩٨٩)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤-٦٢٤.

٦ هذه الأقوال الأربعة بلفظ قريب في تفسير الرازي، ٣٧٤/٣٢.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ أي: ومِن شرّ النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقِدن عَقَدًا في خيوط وينفثن عليها. والنفث: النفخ مع رِيق. وقيل: بدون رِيق.[1] وقُرئ: "النَّافِثَاتِ"،[2] كما قُرئ: "النَّفِثَاتِ"[3] بغير ألف. وتعريفها إمّا للعهد أو للإيذان بشمول الشرّ لجميع أفرادهنّ وتمحّضهنّ فيه.

وتخصيصُه بالذِّكر لِما روى ابن عبّاس وعائشةُ رضي الله تعالى عنهما: أنّه كان غلام مِن اليهود يخدم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان عنده أسنان مِن مُشطه عليه السلام، فأعطاها اليهودَ فسحروه عليه السلام فيها، وتولّاه لبيد بن الأعصم اليهودي[4] وبناتُه، وهنّ النافثات في العقد، فدفنها في بئر أريس، فمرض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزل جبريلُ / عليه السلام بالمعوِّذتين، وأخبره بموضع السحر وبمَن سحره وبمَ سحره، فأرسل عليه السلام عليًا -كرّم الله تعالى وجهه- والزُّبيرَ وعمّارًا فنزحوا ماء البئر، فكأنّه نقاعة الحنّاء، ثمّ رفعوا راعُوفةَ البئر -وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر- فأخرجوا مِن تحتها الأسنان ومعها وَتَر قد عُقِد فيه إحدى عشرةَ عقدةً مُغْرَزَةً بالإبر، فجاءوا بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فجعل يقرأ المعوِّذتين عليها، فكان كلّما قرأ آيةً انحلّت عقدة، ووَجَد عليه السلام خِفّةً، حتّى انحلّت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام عليه السلام كأنّما أُنشِط مِن عِقال فقالوا: «يا رسول الله، أفلا نقتل الخبيثَ؟» فقال عليه السلام: «أمّا أنا فقد عافاني الله عزّ وجلّ، وأكره أن أُثيرَ على الناس شرًّا».[5] قالت عائشةُ رضي الله عنها: «ما غَضِب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غضبًا ينتقم لنفسه قطّ إلّا أن يكون شيئًا هو لله تعالى، فيغضب لله وينتقِم».[6] [٣٢٨و]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧٣/٢٠.

٢ قرأ بها رُويس بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢-٤٠٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي الربيع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢٨.

٤ لبيد بن الأعصم مِن يهودِ بني زريق، وهو الذي سحر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والقصّة مذكورة في كتب السيرة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٧٥/٢؛ والروض الأنف للسُهيلي، ٣٩٨/٤.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥٩٣/٨-٥٩٤؛ وبعضه بمعناه في مسند أحمد، ٣٤٣/٤٠ (٢٤٣٠٠)؛ وصحيح البخاري، ١٣٦/٧ (٥٧٦٣)؛ وصحيح مسلم، ١٧١٩/٤ (٢١٨٩).

٦ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٧/٤٣ (٢٥٨٧١)؛ وصحيح البخاري، ١٦٠/٨ (٦٧٨٦).

وقيل: المراد بالنفث في العُقَد إبطالُ عزائم الرجال بالحِيَل، مستعارٌ مِن تليين العقدة بنَفْث الرِّيق ليسهُل حلُّها.[١]

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر ما في نفسه مِن الحسد، وعمل بمقتضاه بترتيب مقدّمات الشرّ، ومبادي الإضرار بالمحسود قولًا أو فعلًا. والتقييدُ بذلك لِما أنّ ضَرَر الحسد قبله إنّما يحيق بالحاسد لا غيرُ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ المعوِّذتين فكأنّما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى».[٢]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٦/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٤/٣٠ (الفلق، ١/١١٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٢/٤ (الفلق، ١/١١٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

١١٣

سُورَةُ الفَلَق

مكية أو مدنية، خمسُ آيات.

نزلت هذه السورة والتي بعدها لمّا سَحَرَ لبيدٌ اليهوديُّ النبيَّ ﷺ في وَتَرٍ به إحدى عشْرةَ عُقدةً، فأعلمَه الله بذلك وبمحلّه، فأُحضِر بين يديه ﷺ، وأُمر بالتعوّذ بالسورتين، فكان كُلّما قرأ آية منها انحلّتْ عُقدة ووجدَ خِفّةً حتّى انحلّتِ العُقد كُلّها، وقام كأنما نُشِطَ من عِقال.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الفَلَق

قولُهُ: (لَبِيد) كقَتِيل.

قولُهُ: (وَتَر) بفتحتَين، شِرعَةِ القَوسِ[1]، دسَّهُ في بئرٍ فمرِضَ النَّبيُّ ﷺ.

قولُهُ: (وبمَحَلِّهِ) أي: بموضِعِ السِّحرِ بواسطَةِ جِبريلَ.

قولُهُ: (فَأُحْضِرَ) أي: أحضَرَهُ عليٌّ رضي الله عَنهُ بإرسالِهِ ﷺ[2].

قولُهُ: (مِن عِقَالٍ) بالكَسرِ؛ أي: قَيدٍ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٤٩٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٢٦٧)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٥١٣)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٢٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥/ ١٨٠) (٥٠١٦) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وروى البخاري (٥٧٦٣) خلافه: من حديث عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله: أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرًّا».

١ ـ ﴿قُلْ: أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾: الصبح، ٢ ـ ﴿مِن شَرِّ ما خَلَقَ﴾ من حيوانٍ مُكلّف وغير مُكلّف وجمادٍ كالسمّ وغير ذلك، ٣ ـ ﴿ومِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ﴾ أي: الليلِ إذا أظلم أو القمرِ إذا غاب، ٤ ـ ﴿ومِن شَرِّ النَّفّاثاتِ﴾: السَّواحرِ تنفثُ ﴿في العُقَدِ﴾ التي تعقدها في الخيط، تنفخ فيها بشيء تقوله من غير رِيق ـ وقال الزمخشري: معه ـ كبناتِ لبيدِ المذكور، ٥ ـ ﴿ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾: أظهرَ حسده وعمِلَ بمقتضاه كلبيد المذكور من اليهود الحاسدين للنبي ﷺ، وذِكرُ الثلاثةِ الشاملِ لها «ما خَلَقَ» بعده لشِدّة شرِّها.

قولُهُ: (الصُّبحِ) تخصيصُهُ لما فيه من تغيُّرِ الحالِ، وتبدُّلِ وحشَةِ اللَّيلِ بسُرورِ النَّهارِ، وللإشعارِ بأنَّ من قدَرَ أن يزيلَ به ظُلمَةَ اللَّيلِ عن هذا العالَمِ قدَرَ أن يُزيلَ عن العائِذِ ما يخافُهُ.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) والشَّرُّ إمَّا اختياريٌّ، وهو لازِمٌ ومُتعدٍّ، كالكُفرِ والظُّلمِ، أو طبيعِيٌّ: كإحراقِ النَّارِ، وإغراقِ الماءِ، وإهلاكِ السُّمومِ.

قولُهُ: (إِذَا أَظلَمَ) أي: مَلأَ الدُّنيا ظُلمَةً.

قولُهُ: (إِذَا غَابَ) وفُسِّرَ في حديثٍ مرفوعٍ بالقمَرِ إذا طلعَ، أخرجَهُ التِّرمذيُّ من حديثِ عائشَةَ[1]، وقيل: وقُوبُهُ: دُخولُهُ في الكُسوفِ.

قولُهُ: (السَّوَاحِرِ) أي: النُّفوسِ، أو النِّساءِ السَّواحِرِ.

قولُهُ: (تَعقِدُهَا) أي: العَقد، (وقَالَ الزَّمَخشَرِيُّ[2]) وتبعَهُ القاضي[3].

قولُهُ: (مَعهُ) أي: مع الرِّيقِ، وفي «الاقتِطافِ»[4]: يُقالُ: بزَقَ ثمَّ تفَلَ، ثمَّ نفثَ، ثمَّ نفَخَ، وفي «القامُوسِ»[5]: النَّفثُ كالنَّفخِ، أقلُّ من التَّفلِ.

قولُهُ: (أَظهَرَ حَسَدَهُ) هذا حَلُّ المعنى؛ إذ لم يَظهَر معنى التَّعديَةِ فالأولى: ظَهرَ حسدُهُ، فإنَّهُ لا يَعودُ ضررٌ منه قبلَ ذلك إلى المحسودِ، بل يُخَصُّ بالحاسِدِ لاغتمامِهِ بسُرورِهِ، والله تعالى أعلمُ.

***

---

(١) روى الترمذي (٣٣٦٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٣٢٣) عن عائشة: أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٨٢١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٤٨).

(٤) انظر: «اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر» (ص: ٩٥).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٧٧).

سُورَةُ الفَلَق

مكيةٌ في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر ورواية كريب عن ابن عباس، مدنية في قول ابن عباس في رواية أبي صالح وقتادة وجماعة[1]، وهو الصحيح؛ لأنَّ سببَ نزولها سحر اليهود كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وهم إنما سَحَروه عليه الصلاة والسلام بالمدينة كما جاء في الصحاح[2]، فلا يُلتفت لمن صحَّح كونَها مكيةً. وكذا في الكلام في سورة الناس.

وآيها خمس بلا خلاف. ولَمَّا شرح أمر الإلهية في السورة قبلها جيء بها بعدها شرحاً لِمَا يُستعاذ منه بالله تعالى من الشرِّ الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً كما في «الدلائل» للبيهقي[3]، فلذلك قُرِنَتا، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوِّذتَينِ، ومن الافتتاح بـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾.

وقال الجلال السيوطي: عقَّب بهما سورةَ الإخلاص لأنَّ الثلاثة سُمِّيت في الحديث بالمعوِّذات، وبالقواقل[4]. وأنت قد سمعتَ في حديث عقبة بن عامر أنها خير ثلاث سورٍ أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦٩، والبحر ٨/ ٥٣٠.

(٢) ينظر صحيح البخاري (٣٢٧٨)، وصحيح مسلم (٢١٨٩)، ومسند أحمد (٢٤٣٠٠).

(٣) دلائل النبوة ٦/ ٢٤٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعَّف الحافظ سنده في الفتح ١٠/ ٢٢٥، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٩٨-١٩٩ بطريق آخر، وسنده منقطع كما في الفتح.

(٤) تناسق الدرر للسيوطي ص ١٠٥، وينظر في تسميتها بالمعوذات حديث عائشة عند البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢)، وينظر كذلك فتح الباري ٩/ ٦٠. وأما تسميتها بالقواقل فقد وردت فيه أخبار كلها باطلة. ينظر الميزان ٣/ ٦٥٢، واللسان ٢/ ٩٧ و٣٤٨.

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ الليلةَ آياتٌ لم أرَ مثلَهنَّ قطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

وأخرج البخاري وأبو داود والنسائيُّ وابنُ ماجه عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشِه كلَّ ليلة جَمَع كفَّيه، ثمَّ نَفَثَ فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يَمْسَح بهما ما استطاعَ من جسده، يبدأ بهما على رَأسه وعلى وجهه وما أقْبَلَ من جسده، يفعلُ ذلك ثلاثَ مرات[2].

وأخرج النسائي وغيره عن ابن عابس[3] الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا ابن عابس[4]، ألَا أُخْبِرُكَ بأفضلِ ما تَعوَّذَ به المتعوِّذون»؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وهما المعوذتان»[5].

وجاء في الحديث أنَّ مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يُمسي، وثلاثاً حين يُصبح كفَتْه مِن كلِّ شيءٍ[6]. وفي فضلهما أخبارٌ كثيرةٌ غيرُ ما ذكر.

وعن ابن مسعود أنَّه أنكر قُرآنِيَّتَهما؛ أخرج الإمام أحمد والبزَّار والطبرانيُّ وابن مردويه من طُرق صحيحةٍ عنه: أنَّه كان يَحُكُّ المعوِّذتَين من المصحف ويقول:

---

(١) صحيح مسلم (٨١٤)، وسنن الترمذي (٢٩٠٢)، وسنن النسائي ٢/ ١٥٨، وهو عند أحمد (١٧٣٧٠).

(٢) صحيح البخاري (٥٠١٧)، وسنن أبي داود (٥٠٥٦)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٥٥٦)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٨٥٣)، والترمذي (٣٤٠٢).

(٣) في الأصل: أبي حابس، وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج على ما يأتي.

(٤) في الأصل: يا أبا حابس، والمثبت من المصادر.

(٥) من قوله: وأخرج النسائي وغيره، إلى هذا الموضع، ساقط من (م). والحديث في سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٥١-٢٥٢، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٢٩٧).

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٦٦٤)، وأبو داود (٥٠٨٢)، والنسائي ٨/ ٢٥٠ من حديث عبد الله بن خبيب رضي الله عنه.

لا تخلطُوا القرآنَ بما ليس منه، إنهما ليستَا من كتاب الله تعالى، إنما أمر النبيُّ ﷺ أنْ يتعوَّذ بهما. وكان ابنُ مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابنَ مسعود أحدٌ من الصحابة، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قرأ بهما في الصلاة، وأُثبِتَتا في المصحف[١].

وأخرج الإمام أحمد والبخاريُّ والنسائيُّ وابن حبَّان وغيرهم عن زِرِّ بن حُبيش قال: أتيتُ المدينةَ فلقيتُ أُبيَّ بن كعب، فقلت له: يا أبا المنذر إنِّي رأيتُ ابنَ مسعود لا يكتبُ المعوذتَين في مصحفه؟ فقال: أمَا والذي بعَثَ محمداً ﷺ بالحقِّ لقد سألتُ رسول الله ﷺ عنهما، وما سألني عنهما أحدٌ منذُ سألتُ غيرَك، فقال: «قيل لي: قل، فقلتُ، فقولوا» فنحن نقولُ كما قال رسول الله ﷺ[٢].

وبهذا الاختلاف قدَحَ بعضُ الملحدين في إعجاز القرآن؛ قال: لو كانت بلاغةُ ذلك بلغَت حدَّ الإعجاز لتميَّزَ به عن غير القرآن، فلم يُختَلَف في كونه منه.

وأنت تعلم أنَّه قد وقعَ الإجماع على قرآنِيَّتهما، وقالوا: إنَّ إنكار ذلك اليوم كفرٌ، ولعل ابنَ مسعود رجَعَ عن ذلك.

وفي «شرح المواقف»: إنَّ اختلافَ الصحابة في بعض سور القرآن مرويٌّ

---

(١) مسند البزار (١٥٨٦)، والخبر في مسند أحمد (٢١١٨٦) من زوائد ابنه عبد الله، والمعجم الكبير (٩١٥٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٤١٦، وعنه نقل المصنف.

(٢) مسند أحمد (٢١١٨٢)، وصحيح البخاري (٤٩٧٧)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٥٣)، وصحيح ابن حبان (٧٩٧)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٤١٦، ولفظ البخاري مختصر.

وقد ذهب جمع إلى تكذيب ما روي عن ابن مسعود وبطلانه، منهم ابن حزم في المحلى ١/ ١٣، والنووي في المجموع ٣/ ٣٩٦، والفخر الرازي في تفسيره ١/ ٢١٨، ولم يرتض ذلك ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٤٣، حيث قال: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل. اهـ. وجاء في كتاب الانتصار للقرآن للإمام الباقلاني: باب الكلام في المعوذتين، والكشف عن ظهور نقلهما وقيام الحجة بهما، وإبطال ما يدَّعونه من إنكار عبد الله بن مسعود لكونهما قرآناً منزلاً، وتأويل ما روي في إسقاطهما من مصحفه وحكِّه إياهما... ثم أفاض في الكلام على ذلك، ينظر الانتصار ١/ ٣٠٠-٣٣٠، والفتح ٨/ ٧٤٢-٧٤٣.

بالآحاد المفيدة للظنِّ، ومجموعُ القرآن منقولٌ بالتواتر المفيدِ لليقين الذي يَضْمَحِلُّ الظنُّ في مقابلته، فتلك الآحادُ مما لا يُلتَفَتُ إليه، ثم إنْ سلَّمنا اختلافَهم فيما ذكر قلنا: إنَّهم لم يختلفوا في نزوله على النبيِّ ﷺ، ولا في بلوغه في البلاغة حدَّ الإعجاز، بل في مجرَّد كونِهِ من القرآن، وذلك لا يضرُّ فيما نحن بصدده[١]. انتهى.

وعكسُ هذا القول في السورتَين المذكورتَين قيل في سورتَي الخلْعِ والحفْدِ، وفي ألفاظهما رواياتٌ منها ما يَقْنُتُ به الحنفية، فقد روي أنَّهما في مصحف أُبيٍّ بن كعب وفي مصحف ابن عباس وفي مصحف ابن مسعود، فهما إنْ صحَّ أنَّهما كلامُ الله تعالى منسوخا التلاوة وليسا من القرآن كما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي: ألتجئُ وأعتصمُ وأتحرَّز ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَعَل بمعنى مفعول، صفةٌ مشبَّهة كقَصَص بمعنى مقصوص، مِن فَلَقَ: شَقَّ وفَرقَ، وهو يعمُّ جميعَ الموجودات الممكنة، فإنَّه تعالى فَلَق [ظلمة العدم][٢] بنورِ الإيجادِ عنها[٣]، سيما ما يخرج مِن أصلٍ، كالعيون من الجبال، والأمطار من السحاب، والنباتِ من الأرض، والأولادِ من الأرحام، وخُصَّ عرفاً بالصبح، وإطلاقُهم المفلوقَ عليه مع قولهم: فَلَق الله تعالى الليلَ عن الصبح، على نحو إطلاق المسلوخ على الشاة مع قولهم: سلختُ الجلدَ من الشاة.

وتفسيرُه بالمعنى العامِّ أخرجَه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولفظه: «الفَلَقُ»: الخلق[٤].

---

(١) شرح المواقف للجرجاني ٨/ ٢٥٠-٢٥١.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٤.
(٣) أي: عن الموجودات الممكنة. حاشية الشهاب ٨/ ٤١٤.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٤٥، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/ ٤١٨.

وأخرج الطستي عنه أنَّه فسَّره بالصبح، وأنشد رضي الله عنه قول زهير:

الفارجُ الهمَّ مَسْدُولاً عساكرُه كما يفرِّجُ غَمَّ الظُّلمةِ الفَلَقُ[١]

وهو مرويٌّ عن جابر بن عبد الله ومجاهدٍ وقتادةَ وابن جبير والقرطبيِّ[٢] وابن زيد، وعليه فتعليقُ العياذ باسم الربِّ المضاف إلى الفلق المُنْبِئ عن النور عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفَتْقِ بعد الرَّتْقِ، عِدَةٌ كريمةٌ بإعاذة العائذ مما يعوذ منه، وإنجائه منه، وتقويةٌ لرجائه بتذكير بعض نظائره، ومزيدُ ترغيبٍ له في الجِدِّ والاعتناءِ بقَرْعِ باب الالتجاء إليه عز وجل.

وقيل: إنَّ في تخصيص[٣] الفلق بالذكر لأنه أنموذجٌ من يوم القيامة، فالدُّورُ كالقبور، والنومُ أخو الموت، والخارجون من منازلهم صباحاً منهم مَن يذهب لنضرةٍ وسرور، ومنهم مَن يكون ـ من مطالبةِ ديونٍ ـ في غموم وشرور، إلى أحوالٍ أُخَرَ تكون للعباد هي أشبهُ شيءٍ بما يكون لهم في المعاد.

وتعقِّب بأن هذا لا يلائم المقام؛ لأن القصد الاستعاذة لا الدلالةَ والإشارة إلى أحوال يوم القيامة، إلا أن يقال: إن ذلك يدل على قدرة مَن لجأ المستعيذُ إليه، ففيه تبشيرٌ بأنه يُعيذه، وفيه بعدٌ كما ترى[٤].

وفي «تفسير القاضي»: أن لفظ الربِّ هاهنا أَوْقَعُ من سائر الأسماء ـ أي: التي يجوز إضافتُها إلى «الفلق» على ما قيل ـ لأنَّ الإعاذة من المضارِّ تربيةٌ[٥]. وهو على تعميم «الفلق» ظاهرٌ؛ لشموله للمستعيذ والمستعاذِ منه، وعلى تخصيصه بالصبح قيل: لأنه مشعرٌ بأنه سبحانه قادرٌ مغيِّرٌ للأحوال مقلِّبٌ للأطوار، فيزيلُ الهمومَ والأكدار.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤١٨، وأخرجه من طريق الطستي السيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٤، ولم نقف عليه في ديوان زهير، وهو دون نسبة في العين ٦/ ١٠٩، وأساس البلاغة (فرج).

(٢) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٨/ ٥٣٠، والصواب: القرظي، كما في تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٧١، وتفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو محمد بن كعب القرظي، وأخرجه عنه وعن الأئمة المذكورين الطبري ٢٤/ ٧٤٣-٧٤٤.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: إن تخصيص، بحذف كلمة «في».

(٤) من قوله: وتعقب، إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٥.

وقال الرئيس ابن سينا بعد أن حمل «الفلق» على ظلمة العدم المفلوقةِ بنور الوجود: إنَّ في ذكر الربِّ سرًّا لطيفاً من حقائق العلم، وذلك أن المربوب لا يستغني في شيءٍ من حالاته عن الربِّ، كما يشاهَدُ في الطفل ما دام مربوباً، ولَمَّا كانت الماهِيَاتُ الممكنةُ غيرَ مستغنيةٍ عن إفاضة المبدأ الأول، لا جَرَمَ ذُكِرَ لفظُ الربِّ للإشارة إلى ذلك.

وفيه إشارةٌ أخرى من خفيَّات العلوم، وهو أنَّ العوذ والعياذ في اللغة عبارةٌ عن الالتجاء إلى الغير، فلما أمر بمجرَّد الالتجاء إلى الغير وعبّر عنه بالربِّ، دلَّ ذلك على أنَّ عدم الحصول ليس لأمرٍ يرجع إلى المستعاذ به المُفيضِ للخيرات، بل لأمرٍ يرجع إلى قابِلها، فإنَّ من المقرَّر أنه ليس شيءٌ من الكمالات وغيرها مبخولاً به من جانب المبدأ الأول سبحانه، بل الكلُّ حاصلٌ موقوفٌ على أن يَصْرِفَ المستعدُّ جهةَ قبوله إليه، وهو المعنيُّ بالإشارة النبوية: «إنَّ لربِّكم في أيام دهركم نفحاتٍ من رحمته، ألَا فتعرَّضوا لها»(١)، بيَّن أنَّ نفحات الألطاف دائمةٌ وإنما الخَلَلُ من المستعدِّ. انتهى.

وفي رواية عن ابن عباس أيضاً وجماعةٍ من الصحابة والتابعين أن «الفلق» جُبٌّ في جهنَّم(٢).

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ قال: «هو سجنٌ في جهنَّمَ يُحْبَسُ فيه الجبَّارون والمتكبِّرون، وإنَّ جهنم لتعوذُ بالله تعالى منه»(٣).

وأخرج ابن مردويه(٤) عن عمرو بن عَبَسة(٥) قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ

---

(١) سلف ١٢/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤١ عن ابن عباس والسدي، وخبر ابن عباس بلفظ: «الفلق»: سجن في جهنم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤١٨، وهو في مسند الفردوس للديلمي ٣/ ٢١٧.

(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٤١٨، وعنه نقل المصنف.

(٥) في الأصل و(م): عنبسة، في الموضعين، والصواب ما أثبتناه.

فقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقال: «يا ابن عَبَسة، أتدري ما الفلق»؟ قلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «بئرٌ في جهنم، فإذا سعِّرت البئر فمنها تسعَّرُ جهنم، وإن جهنم لتتأذَّى منه كما يتأذَّى ابنُ آدم من جهنم».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن كعب قال: «الفلق» بيتٌ في جهنم إذا فُتح صاح أهلُ النار من شدَّة حرِّه[١].

وعن الكلبيِّ: أنه وادٍ في جهنَّم.

وقيل: هو جهنمُ.

وهو[٢] ـ على ما في «الكشاف» ـ من قولهم لِمَا اطمأنَّ من الأرض: الفلق، والجمعُ: فُلْقان[٣]، كخَلَق وخُلْقان. وتخصيصُه بالذكر قيل: لأنه مسكنُ اليهود، فعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دُورَ أهل الذمة وما هم فيه من خَفْضِ العيش وما وسِّع عليهم من دنياهم، فقال: لا أبالي، أليس مِن ورائهم الفلق. وفسّر بما روي آنفاً عن كعب[٤]. ومنهم الذي سحر النبيَّ ﷺ، ففي تعليق العياذ بالربِّ مضافاً إليه عِدَةٌ كريمةٌ بإعاذته ﷺ من شرِّهم. ولا يَخْفَى أنَّ هذا مما لا يُثْلِجُ الصدرَ، وأظنُّ ضَعْفَ الأخبار السالفة، ويترجَّحُ في نظري المعنى الأول للفلق.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: من شرِّ الذي خَلَقه من الثقلين وغيرهم كائناً ما كان من ذواتِ الطباع والاختيار. والظاهرُ عمومُ الشرِّ للمضارِّ البدنية وغيرِها، وزعم بعضهم أن الاستعاذة هاهنا من المضارِّ البدنية، وأنها تعمُّ الإنسانَ وغيرَه مما ليس بصدد الاستعاذة، ثم جُعل عمومها مدارَ إضافة الربِّ إلى الفلق بالمعنى العامِّ. وهو كما ترى، نعم الذي يتبادر إلى الذهن أنَّ عمومه لشرور الدنيا.

وقال بعض الأفاضل: هو عامٌّ لكلِّ شرٍّ في الدنيا والآخرة، وشرِّ الإنس والجنِّ

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٤٢، وعزاه لابن أبي حاتم ابن كثير عند تفسير هذه الآية.
(٢) يعني على القول بأنه وادٍ في جهنم أو جبٌّ فيها، كما في الكشاف ٤/ ٣٠٠.
(٣) الكشاف ٤/ ٣٠٠.
(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤٢.

والشياطين، وشرِّ السباع والهوامِّ، وشرِّ النار، وشرِّ الذنوب والهوى، وشرِّ النفس، وشر العمل. وظاهرُه تعميمُ «ما خلق» بحيث يشمل نفس المستعيذ، ولا يأبى ذلك نزولُ السورة ليستعيذ بها رسول الله ﷺ.

وجوَّز بعضهم جَعْلَ «ما» مصدريةً مع تأويل المصدر باسم المفعول، وهو تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

وإضافة الشرِّ إلى «ما خلق» قيل: لاختصاصه بعلم الخلق المؤسَّس على امتزاج الموادِّ المتباينة المستتبعة للكون والفساد، وأمَّا عالَمُ الأمر الذي أُوجِدَ بمجرد أمرِ «كن» من غيرِ مادةٍ فهو خيرٌ محضٌ منزَّهٌ عن شوائب الشَّرِّ بالمرَّة. والظاهر أنه عنى بعالَم الأمر عالَمَ المجرَّدات، وهم الملائكةُ عليهم السلام.

وأُورِدَ عليه ـ بعد غضِّ الطَّرْفِ عن عدم ورود ذلك في لسان الشرع ـ أنَّ منهم مَن يَصْدُرُ منه شرٌّ، كخسف البلاد، وتعذيبِ العباد.

وأجيب بأنَّ ذلك بأمره تعالى، فلم يَصْدُر إلا لامتثالِ الأمر، لا لقَصْدِ الشرِّ من حيث هو شرٌّ، فلا إيرادَ.

نعم يَرِدُ أنَّ كونهم مجرَّدين خلافُ المختار الذي عليه سَلَفُ الأمة ومَن تبعهم، بل هم أجسامٌ لطيفةٌ نوريةٌ، ولو سلِّم تجرُّدهم قلنا بعدم حَصْرِ المجرَّدات فيهم، كيف وقد قال كثيرٌ بتجرُّد الجنِّ، فقالوا: إنها ليست أجساماً ولا حالَّةً فيها، بل هي جواهرُ مجرَّدةٌ قائمةٌ بأنفسها، مختلفةٌ بالماهية، بعضُها خيِّرةٌ وبعضُها شرِّيرةٌ، وبعضها كريمةٌ حرةٌ مُحِبَّةٌ للخيرات، وبعضُها دَنِيَّةٌ خسيسةٌ مُحِبَّةٌ للشرور والآفات.

وحينئذ كيف يتسنَّى إطلاقُ القول بأنَّ عالَم الأمر الذي وُجد من غير مادةٍ خيرٌ محضٌ؟

وأيضاً قيل: إن الأرواح البشرية ـ على القول بتجرُّدها ـ منها ما هو شرِّيرٌ، فتَرِدُ عليه أيضاً، إلا أن يقال إنه حَمَل المجرَّد على ما ليس جسماً ولا متعلِّقاً به، وهو كما تَرى(١).

---

(١) من قوله: وحينئذٍ كيف يتسنى، إلى هذا الموضع، ليس في (م).

وبالجملة «ما خلق» أعمُّ من المجرَّد ـ على القول به ـ وغيره، والكلُّ مخلوقٌ له تعالى، أي: موجَدٌ بالاختيار بعد العدم، إلا أنَّ المراد الاستعاذةُ مما فيه شرٌّ من ذلك.

وقرأ عمرو بن فائد على ما في «البحر»: «من شرٍّ» بالتنوين[1]، وقال ابن عطية: هي قراءةُ عمرو بن عبيد وبعضِ المعتزلة القائلين بأنَّ الله تعالى لم يَخْلُقِ الشرَّ، وحملوا «ما» على النفي، وجعلوا الجملة في موضع الصفة، أي: من شرٍّ ما خَلَقه الله تعالى ولا أَوْجَدَه، وهي قراءةٌ مردودةٌ مبنيةٌ على مذهبٍ باطلٍ[2]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ القراءة بالرواية، ولا يتعيَّن في هذه القراءة هذا التوجيهُ، بل يجوز أن تكون «ما» بدلاً من «شَرّ» على تقدير محذوفٍ قد حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي: من شرٍّ شرِّ ما خلق[3].

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ تخصيصٌ لبعض الشرور بالذكر مع اندراجِه فيما قبلُ؛ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه؛ لكثرة وقوعه، ولأنَّ تعيين المستعاذ منه أدلُّ على الاغتناء بالاستعاذة، وأَدْعَى إلى الإعاذة.

والغاسقُ: الليل إذا اعتكر ظلامُه.

وأصلُ الغسق: الامتلاء؛ يقال: غَسقَتِ[4] العينُ: إذا امتلأتْ دمعاً. وقيل: هو السَّيلان، وغَسَقُ الليل: انصبابُ ظلامه، على الاستعارة، وغَسَقُ العين: سيلانُ دمعها.

وإضافة الشرِّ إلى الليل لملابسته له لحدوثه فيه، على حدِّ: نهارُه صائمٌ، وتنكيرُه لعموم شمول الشرِّ لجميع أفراده ولكلِّ أجزائه.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا دخل ظلامه في كلِّ شيء، وأصلُ الوقب: النقرةُ والحفرة، ثم استعمل في الدخول، ومنه قوله:

---

(١) البحر ٨/ ٥٣٠، وهي في القراءات الشاذة ص١٨٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٨.

(٣) فحذف «شر» الثاني لدلالة الأول عليه، أطلق أولاً ثم عمم ثانياً. ينظر البحر ٨/ ٥٣٠، والدر المصون ١١/ ١٥٨.

(٤) كضرب وسمع. القاموس (غسق).

وَقَبَ العذابُ عليهمُ فكأنَّهمْ لَحِقَتْهمُ نارُ السَّمومِ فأُخْمِدوا[١]

وكذا في المغيب؛ لِمَا أنَّ ذلك كالدخول في الوقب، أي: النقرة والحفرة، وقد فسِّر هنا بالمجيء أيضاً.

والتقييدُ بهذا الوقت لأنَّ حدوثَ الشرِّ فيه أكثر، والتحرُّز منه أصعب وأَعْسَرُ، ومن أمثالهم: الليل أخْفَى للويل[٢].

وتفسير الغاسق بالليل، والوقوبِ بدخول ظلامه، أخرجه ابنُ جرير وابن المنذر عن ابن عباس ومجاهد[٣]، وابنُ أبي حاتم عن الضحاك[٤]، وروي عن الحسن أيضاً، وإليه ذهب الزجَّاج، إلا أنه جعل الغاسق بمعنى البارد، وقال: أُطلق على الليل لأنه أبردُ من النهار[٥].

وقال محمد بن كعب: هو النهار، ووقب بمعنى دخل في الليل. وهو كما ترى.

وقيل: القمر إذا امتلأ نوراً، على أنَّ الغسق الامتلاء، وَوُقوبُه دخولُه في الخسوف واسودادُه.

وقيل: التعبير عنه بالغاسق لسرعة سيره وقَطْعِه البروجَ على أن الغسق مستعارٌ من السيلان. وقيل: التعبير عنه بذلك لأن جِرْمَه مظلمٌ، وإنما يستنيرُ من ضوء الشمس. ووقوبُه على القولين المحاقُ[٦] في آخر الشهر، والمنجِّمون يَعُدُّونه نحساً

(١) أنشده ابن عباس لنافع ابن الأزرق كما في الدر المنثور ٦/ ٤١٩، وهو في تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٧٤، والبحر ٨/ ٥٢٩ برواية: فأحصدوا، بدل: فأخمدوا.

(٢) جاء في هامش الأصل: أول مَن تكلَّم به سارية بن عويمر العقيلي، والمعنى: افعل فيه ما تريد فإنه أخفى لشرِّك، ولهذا الخفاء يَعْسُر الدفع. اهـ منه.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٤٦، والدر المنثور ٦/ ٤١٨ و٤١٩، وعنه نقل المصنف.

(٤) لم نقف على من عزاه لابن أبي حاتم، وأخرجه إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٧١٥ من طريق جويبر عن الضحاك قال: الغاسق: الليل.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٧٩.

(٦) المحاق مثلثة الميم: أن يستسرَّ القمر ليلتين، فلا يُرى غدوة ولا عشية، ويقال: هو ثلاث ليال من آخر الشهر. معجم متن اللغة (محق).

ولذلك لا تشتغلُ السحرة بالسحر المورِثِ للمرض إلا في ذلك الوقت، قيل: وهو المناسبُ لسبب النزول.

واستُدلَّ على تفسيره بالقمر بما أخرجه الإمام أحمد والترمذيُّ والحاكم وصححه وغيرُهم عن عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لَمَّا طلع، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله تعالى من شرِّ هذا، فإنَّ هذا الغاسقُ إذا وقب»(١) ومَن سلَّم صحة هذا لا ينبغي له العدولُ إلى تفسيرٍ آخَرَ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أنه قال: الغاسق إذا وقب: الشمسُ إذا غربت(٢). وكأنَّ إطلاق الغاسق عليها لامتلائها نوراً.

ونقل ابن زيد عن العرب أنَّ الغاسق الثريا، ووقوبها سقوطُها، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند ذلك(٣). ورَوَى تفسيرَه بذلك غيرُ واحدٍ عن أبي هريرة مرفوعاً(٤). وفي الحديث: «إذا طلع النجم ارتفعت العاهة»(٥)، وفي بعض الروايات زيادة: «عن جزيرة العرب»(٦). وفى بعضها: «ما طلع النجمُ ذات غداةٍ إلا رُفعت كلُّ آفةٍ أو عاهةٍ أو خفَّت»(٧)، وفيه رواياتٌ أخَرُ، فليُراجَعْ شرحُ المناوي الكبير للجامع الصغير(٨).

---

(١) مسند أحمد (٢٥٨٠٢)، وسنن الترمذي (٣٣٦٦)، والمستدرك ٢/ ٥٤٠. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤١٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤٧-٧٤٨، وفيه: وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤١٨ للطبري وأبي الشيخ وابن مردويه بلفظ: «النجم هو الغاسق، وهو الثريا»، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٧٤٨ بلفظ: «النجم الغاسق». قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (٨٤٩٥) بلفظ: «إذا طلع النجم ذا صباح رفعت العاهة».

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٠٠) بلفظ: «... عن كل بلد».

(٧) أخرج هذه الرواية أبو الشيخ في العظمة (٦٩٩)، وبنحوها أحمد (٩٠٣٩)، وابن عبد البر في التمهيد ٢/ ١٩٣.

(٨) ينظر فيض القدير ٥/ ٤٥٤.

وقيل: أريدَ بذلك: الحيَّة إذا لَدَغَتْ، وإطلاق الغاسق عليها لامتلائها سمًّا. وقيل: أريد سمُّها إذا دخل في الجسد، وأطلق عليه الغاسق لسيلانه من نابها. وكِلَا القولين لا يعوَّلُ عليه.

وقيل: هو كلُّ شرٍّ يعتري الإنسان، والشرُّ يوصَفُ بالظُّلمة والسواد، ووقوبُه هجومُه.

وذكر المجد الفيروزآبادي في «القاموس» في مادة «وقب» قولاً في معنى الآية زعم أنه حكاه الغزالي وغيرُه عن ابن عباس[١]، ولا أظنُّ صحة نسبته إليه؛ لظهور أنه عورةٌ بين الأقوال.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ أي: ومن شرِّ النفوس السواحر اللاتي يعقدن عُقَداً في خيوطٍ وينفثْنَ عليها، فالنفَّاثات صفةٌ للنفوس، واعتبر ذلك لمكان التأنيث، مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانُه منها.

وقدَّر بعضهم النساء موصوفاً، والأول أولى؛ ليشمل الرجالَ ويتضمَّنَ الإشارةَ السابقة، ويطابقَ سببَ النزول، فإنَّ الذي سَحَرَه ﷺ كان رجلاً على المشهور كما ستسمع إن شاء الله تعالى.

وقيل: أعانه بعضُ النساء، ولكون مثلِ ذلك من عمل النساء وكيدهنَّ غلِّب المؤنَّثُ على المذكَّر هنا، وهو جائزٌ على ما فصَّله الخفاجيُّ في «شرح درة الغوَّاص».

والنفث: النفخ مع ريق كما قال الزمخشري[٢].

وقال صاحب «اللوامح»[٣]: هو شبهُ النفخ يكون في الرُّقية ولا ريقَ معه، فإن كانْ بِرِيقٍ فهو تَفْلٌ.

---

(١) القاموس (وقب).

(٢) في الكشاف ٤/ ٣٠١.

(٣) كما في البحر ٨/ ٥٣٠.

والأول هو الأصحُّ؛ لِمَا نقله ابن القيم(١) من أنهم إذا سَحَروا استعانوا على تأثير فعلهم بنَفَسٍ يمازجُه بعضُ أجزاء أنفسهم الخبيثة.

وقرأ الحسن: «النُّفَّاثَات» بضمِّ النون. وقرأ هو أيضاً وابنُ عمر وعبد الله بن القاسم ويعقوب في روايةٍ: «النافثات». وأبو الربيع والحسن أيضاً: «النَّفِثات» بغير ألف كالحذرات(٢).

وتعريفُها إما للعهد أو للإيذان بشمول الشرِّ لجميع أفرادهنَّ وتمحُّضهنَّ فيه، وتخصيصُه بالذكر لِمَا رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ وابنُ ماجه عن عائشة ﵂ قالت: سُحِرَ رسول الله ﷺ حتى إنه ليُخَيَّلُ إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فَعَلَه، حتى إذا كان ذاتَ يوم ـ أو ذاتَ ليلةٍ ـ دعا اللهَ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: «أَشَعرْتِ يا عائشةُ أنَّ الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه» قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: «جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخَرُ عند رجليَّ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليَّ، أو الذي عند رجليَّ للذي عند رأسي: ما وجعُ الرجل؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: مَن طَبَّه؟ قال: لَبيدُ بنُ الأَعْصَم(٣). قال: في أيِّ شيء؟ قال: في مِشْطٍ ومُشاطةٍ، وجُفِّ طلعةٍ ذَكَرٍ. قال: فأين هو؟ قال: في بئرِ ذي أَرْوَان» قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناسٍ من أصحابه، ثم قال: «يا عائشة، والله لكأنَّ ماءها نُقاعةُ الحِنَّاء، ولكأنَّ نَخْلَها رؤوسُ الشياطين» قالت: فقلتُ: يا رسول الله، أفلا أَحْرَقْتَه؟ قال: «لا، أمَّا أنا فقد عافاني الله تعالى وكرهتُ أن أثير على الناس شرًّا، فأمرتُ بها فدُفنت»(٤).

---

(١) في زاد المعاد ٤/ ١٧٩.

(٢) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٨٢، والبحر ٨/ ٥٣١، وعنه نقل المصنف.

(٣) جاء في هامش الأصل: يهودي من يهود بني زريق، وكان يخدم النبي عليه الصلاة والسلام. اهـ منه. وينظر الكلام على لبيد بن الأعصم في فتح الباري ١٠/ ٢٢٦.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٦٥)، وصحيح مسلم (٢١٨٩)، واللفظ له، وسنن ابن ماجه (٣٥٤٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٣٠٠). قال السندي كما في حاشية المسند: قوله: مطبوب، أي: مسحور. وقوله: في مشط ومشاطة، المشط معروف، والمشاطة: شعر ساقط عند التسريح. وقوله: وجُفّ طلعة ذكر بضم جيم وتشديد فاء: وهو الغشاء الذي على طلع النخل، ويطلق النخل على الذكر والأنثى، ولذا قيّده بالذَّكر.

وهذان الملكان ـ على ما يدلُّ عليه رواية ابن مردويه[١] من طريق عكرمة عن ابن عباس ـ هما جبريلُ وميكائيل عليهما السلام.

ومن حديثها في «الدلائل» للبيهقي بعد ذكر حديث الملكين: فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا ومعه أصحابه إلى البئر، فدخل رجلٌ فاستخرج جُفَّ طلعةٍ من تحت الراعوفة، فإذ فيها مشطُ رسول الله ﷺ ومِن مُشاطةِ رأسه، وإذا تمثالٌ من شمعٍ تمثالُ رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبرٌ مغروزةٌ، وإذا وترٌ فيه إحدى عَشْرةَ عقدةً، فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوِّذتين فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وحلَّ عقدةً ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدةً، حتى فَرغَ منها وحلَّ العُقَدَ كلَّها، وجعل لا ينزعُ إبرةً إلَّا وجد ألماً ثم يجد بعد ذلك راحةً، فقيل: يا رسول الله، لو قتلتَ اليهوديَّ. قال: «قد عافاني الله تعالى، وما يراه من عذاب الله تعالى أشدُّ»[٢].

وفي روايةٍ: أنَّ الذي تولَّى السحر لبيد بن الأعصم وبناتُه[٣]، فمرض النبيُّ ﷺ، فنزل جبريل بالمعوِّذتين، وأخبره بموضع السحر وبِمَن سَحَره وبمَ سَحَره، فأرسل ﷺ عليًّا كرم الله تعالى وجهه والزبير وعماراً، فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحنَّاء، ثم رفعوا راعوفة البئر فأخرجوا أسنان المشط ومعها وترٌ قد عُقِدَ فيه إحدى عَشْرةَ عقدةً مغروزة بالإبر فجاؤوا بها النبيَّ ﷺ، فجعل يقرأ المعوِّذتين عليها، فكان كلما قرأ آيةً انحلَّت عقدةٌ، ووجد عليه الصلاة والسلام خفةً، حتى انحلَّت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام ﷺ كأنما أُنشط من عقال، الخبر[٤]. والروايةُ الأولى أصحُّ من هذه.

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٤١٧-٤١٨.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٩٢-٩٤، وإسناده ضعيف كما ذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٣٥.
قوله: الراعوفة، هي حجر يوضع على رأس البئر لا يستطاع قلعه، يقوم عليه المستقي، وقد يكون في أسفل البئر. وجاء في بعض روايات الحديث: رعوفه، دون ألف، وفي بعضها: رعوثة بمثلثة بدل الفاء، وفي النهاية: زعوبة بزاي وباء، وقال: هي بمعنى راعوفة. ينظر الفتح ١٠/ ٢٣٤.

(٣) جاء في هامش الأصل: وقيل: أعانته زينب اليهودية.

(٤) نقل المصنف هذه الرواية عن تفسير أبي السعود ٩/ ٢١٥. وذكَرها مطولة الثعلبي في تفسيره
=

ونقل الماتريدي[(١)] عن أبي بكر الأصمّ أنه قال: إن حديث السحر المروي هنا متروك؛ لِمَا يلزمه من صدق قول الكفرة: إنه عليه الصلاة والسلام مسحور، وهو مخالف لنصِّ القرآن العظيم[(٢)].

وقال الإمام المازريُّ[(٣)]: قد أنكر ذلك الحديثَ المبتدعةُ من حيث إنه يحطُّ منصبَ النبوَّة ويشكِّكُ فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع.

وأجيبَ: بأن الحديث صحيحٌ، وهو غيرُ مراغمٍ للنصِّ، ولا يلزم عليه حطُّ منصب النبوَّة والتشكيكُ فيها؛ لأنَّ الكفار أرادوا بقولهم: مسحور، أنه مجنونٌ وحاشاه، ولو سلِّم إرادةُ ظاهره فهو كان قبل هذه القصة، أو مرادهم أنَّ السحر أثَّر فيه، وأنَّ ما يأتيه من الوحي من تخيُّلات السحر، وهو كذبٌ أيضاً؛ لأنَّ الله عصمه فيما يتعلَّقُ بالرسالة.

وأما ما يتعلَّق ببعض أمور الدنيا التي لم يُبعث عليه الصلاة والسلام بسببها وهي مِمَّا يَعْرِضُ للبشر، فغيرُ بعيدٍ أن يخيَّل إليه من ذلك ما لا حقيقةَ له، وقد قيل: إنه إنما كان يخيَّل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئٍ، وقد يتخيَّل الإنسان مثل هذا في المنام، فلا يبعد تخيُّله في اليقظة. وقيل: إنه يخيَّل أنه فَعَله وما فَعَله، ولكن لا يعتقد صحةَ ما تَخيَّله، فتكون اعتقاداتُه عليه الصلاة والسلام على السَّداد.

وقال القاضي عياض[(٤)]: قد جاءت رواياتُ حديث عائشة مبيِّنةً أنَّ السحر إنما تسلَّطَ على جسده الشريف ﷺ وظواهِرِ جوارحه، لا على عَقْلِه عليه الصلاة

= ١٠/ ٣٣٨ عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هكذا أورده (يعني الثعلبي) بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم، والله أعلم.

(١) في تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٤٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٤١٦.

(٢) من قوله: ونقل الماتريدي، إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٣) في المُعْلِم بفوائد مسلم ٣/ ٩٣.

(٤) في إكمال المُعْلِم ٧/ ٨٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النووي في شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٧٥، وما قبله منه.

والسلام وقلبِه واعتقادِه، ويكون معنى ما في بعض الروايات: حتى يَظنّ أنه يأتي أهله ولا يأتيهنَّ، وفي بعضٍ: أنه يخيَّل إليه أنه.. إلخ، أنه يظهر له من نشاطه ومتقدِّم عادته القدرةُ عليهنَّ فإذا دنا منهنَّ أخذته أخذةُ السحر فلم يأتهنَّ ولم يتمكَّن من ذلك كما يعتري المسحور، وكلُّ ما جاء في الروايات من أنه عليه الصلاة والسلام يخيَّل إليه فعلُ شيءٍ ولم يفعله ونحوُه فمحمولٌ على التخيُّل بالصبر، لا لخللٍ تطرَّق إلى العقل، وليس في ذلك ما يُدخِلُ لبساً على الرسالة، ولا طعناً لأهل الضلالة[1]. انتهى.

وبعضهم أنكر أصل السحر ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالاتٍ باطلةٍ لا حقائق لها، ومذهبُ أهل السنَّة وعلماءِ الأمة على إثباته، وأنَّ له حقيقةً كحقيقة غيره من الأشياء؛ لدلالةِ الكتاب والسنَّة على ذلك، ولا يُستنكر في العقل أنَّ الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلامٍ ملفَّقٍ، أو تركيبِ أجسامٍ مخصوصةٍ أو المزجِ بين قوًى على ترتيبٍ لا يعرفه إلا الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعضَ الأجسام، منها قاتلةٌ كالسموم، ومنها مُسْقِمةٌ كالأدوية الحادَّة، ومنها مُضِرَّةٌ كالأدوية المضادَّة للمرض، لم يستبعد عقلُه أن ينفرد الساحر بعلم قوًى قتَّالةٍ، أو كلامٍ مهلكٍ، أو مؤدٍّ إلى التفرقة، ومع ذلك لا يخلو من تأثيرٍ نفسانيٍّ.

ثم إنَّ القائلين به اختلفوا في القَدْرِ الذي يقع به، فقال بعضهم: لا يزيد تأثيرُه على قَدْرِ التفرقة بين المرء وزوجه؛ لأنَّ الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً له، فلو وقع به أعظم منه لذَكَره؛ لأنَّ المَثَلَ لا يُضْرَبُ عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور. ومذهبُ الأشاعرة أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، وهو الصحيح عقلاً؛ لأنه لا فاعلَ إلا الله، وما يقع من ذلك فهو عادةٌ أجراها الله تعالى ولا تفترقُ الأفعال في ذلك، وليس بعضُها بأَوْلَى من بعضٍ، ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبةٍ لوَجَبَ المصيرُ إليه، ولكن لا يوجد شرعٌ قاطعٌ يوجب الاقتصار

(١) جاء في هامش الأصل: وقد جرى على الأنبياء عليهم السلام من العوارض البشرية الغير المخلَّة بالنبوة ما هو أعظم من هذا التأثر، وهو القتل ونحوه. اهـ منه.

على ما قاله القائل الأول، وذِكْرُ التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنصٍّ في منع الزيادة، وإنما النظرُ في أنه ظاهرٌ أم لا.

والفرقُ بين الساحر وبين النبيِّ والوليِّ ـ على قول الأشاعرة بأنه يجوز خَرْقُ العادة على يد الساحر ـ مبيَّنٌ في الكتب الكلامية، وغيرِها من شروح الصحاح.

وقيل في الآية: المرادُ بالنفث في العُقَدِ إبطالُ عزائم الرجال بالحيل، مستعارٌ من تليين العُقَدِ بنَفْثِ الرِّيقِ ليَسْهُلَ حَلُّها. وهو يَقْرُبُ من بِدَع التفاسير.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ أي: إذا أَظْهَرَ ما في نفسه من الحسد، وعَمِلَ بمقتضاه بترتيب مقدِّمات الشرِّ ومبادي الإضرار بالمحسود قولاً وفعلاً، ومن ذلك ـ على ما قيل ـ النظرُ إلى المحسود وتوجيهُ نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب، فإنَّ نفس الحاسد حينئذٍ تتكيَّفُ بكيفيةٍ خبيثةٍ ربما تؤثِّر في المحسود بحَسَب ضَعْفِه وقوَّةِ نَفْسِ الحاسد شرًّا قد يصل إلى حدِّ الإهلاك، ورُبَّ حاسدٍ يؤذي بنظره بعينِ حسده نحوَ ما يؤذي بعضُ الحيَّات بنظرهنَّ.

وذكروا أنَّ العائن والحاسد يشتركان في أنَّ كلًّا منهما تتكيَّفُ نفسه وتتوجَّه نحو مَن تريد أذاه، إلا أنَّ العائن تتكيَّفُ نفسه عند مقابلة العين والمعاينةِ، والحاسدُ يَحْصُلُ حَسَدُه في الغيبة والحضور.

وأيضاً العائنُ قد يَعِينُ من لا يحسده من حيوانٍ وزرعٍ، وإن كان لا ينفكُّ من حسد صاحبه[1].

والتقييد بذلك[2] إذ لا ضرر قبله، بل قيل: إنَّ ضرر الحسد قبلُ[3] إنما يَحيقُ بالحاسد لا غير، كما قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: لله درُّ الحسد ما أَعْدَلَه، بدأ بصاحبه فقتله. وقال ابن المعتز:

اصْبِرْ على حسد الحسو د فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ

(١) أي: صاحب الحيوان والزرع.
(٢) أي: بقوله: «إذا حسد».
(٣) قوله: قبل، ليس في (م).

فالنارُ تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله[1]

ولْيُعْلَمْ أنَّ الحسد يُطْلَقُ على تَمنِّي زوال نعمة الغير، وعلى تمنِّي استصحاب عدم النعمة ودوامِ ما في الغير من نقصٍ أو فقرٍ أو نحوه، والإطلاقُ الأول هو الشائعُ، والحاسدُ بِكِلَا الإطلاقين ممقوتٌ عند الله تعالى وعند عباده عز وجل، آتٍ باباً من الكبائر على ما اشتهر بينهم، لكن التحقيق أنَّ الحسد الغريزي الجِبِلِّي إذا لم يعمل بمقتضاه من الأذى مطلقاً، بل عامَلَ المتَّصفُ به أخاه بما يحبُّ الله تعالى مجاهداً نفسه، لا إثم فيه، بل يثابُ صاحبُه على جهاد نفسه وحُسْنِ معاملتِه أخاه ثواباً عظيماً، لما في ذلك من مشقَّةِ مخالفةِ الطبع كما لا يخفى.

ويطلق الحسد على الغبطة مجازاً، وكان ذلك شائعاً في العرف الأول، وهي تمنِّي أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة، من غير تمنِّي زوالها، وهذا مما لا بأس به، ومن ذلك ما صحَّ من قوله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله تعالى مالاً فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه الله تعالى الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها الناس»[2].

وقال أبو تمام:

هُمُ حَسَدُوه لا مَلومينَ مَجْدَه وما حاسدٌ في المكرُمات بحاسدِ[3]

وقال أيضاً:

واعْذِرْ حسودَك فيما قد خُصِصْتَ به إنَّ العُلا حَسَنٌ في مِثْلِها الحسدُ[4]

هذا، وقال الرئيس ابن سينا: الغاسق: القوةُ الحيوانية، فهي ظُلْمةٌ غاسقةٌ منكدرةٌ، على خلاف النفس الناطقة التي هي المستعيذةُ، فإنها خُلقت في جوهرها نقيةً صافيةً مبرَّأةً عن كدورات المادة وعلائقها، قابلةً لجميع الصور والحقائق، وإنما تتلوَّثُ من الحيوانية. والنفَّاثاتُ في العُقَد إشارةٌ إلى القوى النباتية من حيث

(١) ديوان ابن المعتز ص٣٤٤.
(٢) سلف ٣/ ٤٦٠.
(٣) ديوان أبي تمام ٢/ ٧٣.
(٤) ديوان أبي تمام ٢/ ٢١.

إنها تَزيدُ في المقدار من جميع جهاته: الطول والعَرْض والعمق، فكأنها تنفثُ في العُقَدِ الثلاث، ولَمَّا كانت العلاقةُ بين النفس الإنسانية والقُوى النباتية بواسطةِ الحيوانية، لا جَرَمَ قدّم ذكر القوى الحيوانية على القوى النباتية، والشرُّ اللازم من هاتين القوتين في جوهر النفس هو استحكامُ علائق البدن، وامتناعُ تغذّيها بالغذاء الموافق لها اللائقِ بجوهرها، وهو الإحاطةُ بملكوت السماوات والأرض، والانتقاش بالنقوش الباقية. وعُني بقوله تعالى: (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) النزاعُ الحاصل بين البدن وقواه وبين النفس، فالحاسدُ هو البدن من حيث له القوتان، والمحسودُ هو النفس، فالبدنُ وبالٌ عليها، فما أحسن حالَها عند الإعراض عنه، وما أعظم لذَّتها بالمفارقة إن لم تكن تلوَّثَتْ منه.

وقيل: الغاسق إشارةٌ إلى المعدن، والنفَّاثاتُ إلى النباتات، والحاسدُ إلى الحيوان، ولما كان الإنسان لا يتضرَّرُ عن الأجسام الفلكية وإنما يتضرَّرُ عن الأجسام العنصرية، وهي إما معدنٌ أو نباتٌ أو حيوانٌ، أُمِرَ بالاستعاذة من شرِّ كلٍّ منها.

وكِلَا القولين كما ترى، والله تعالى أعلم.

(١١٤) سورة الناس مكية وآياتها ست

سورة الناس مكية ، وهي ثاني المعوذتين ، وفيها الاستجارة برب الأرباب من شر أعدى الأعداء إبليس اللعين ، وأعوانه من شياطين الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء ، وقد ختم القرآن العظيم بالمعوذتين كما بُدئ بالفاتحة ، ليجمع بين حسن الافتتاح وحسن الاختتام ، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره ، فإنه يبدأ التلاوة بالتعوذ ويختم القرآن بالمعوذتين ، وهذا غاية الحسن والجمال ، وبالله التوفيق .

« تم بعونه تعالى كتاب إيجاز البيان في مقاصد سور القرآن وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين . السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٣٩٨ .

سورة الناس

وهي ست آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: (قل اعوذ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونظيره: (فخذ أربعة من الطير) وأيضًا أجمع القراء على ترك الإمالة في الناس، وروي عن الكسائي الإمالة في الناس إذا كان في موضع الخفض.

المسألة الثانية: أنه تعالى رب جميع المحدثات، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص، وذلك لوجوه: أحدها: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلهم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خَطْب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم. وثانيها: أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس. وثالثها: أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول: يا رب يا مُلِكي يا إلهي.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ هما عطف بيان، كقوله: سيرة أبي حفص عمر الفاروق، فوصف أولاً بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكًا وقد لا يكون، كما يقال: رب الدار ورب المتاع، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فلا جرم بيَّنه بقوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثم الملك قد يكون إلهًا وقد لا يكون، فلا جرم بيَّنه بقوله: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ لأن الإله خاص به، وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره، وأيضًا بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه، وهو من أوائل نعمه إلى أن رباه وأعطاه العقل فحينئذٍ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملكه، فثنى بذكر الملك، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وعرف أن معبوده مستحق لتلك العبادة، عرف أنه إله، فلهذا ختم به، وأيضًا أول ما يعرف العبد من ربه كونه مطيعًا لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة، وهذا هو الرب، ثم لا يزال يتنقل من معرفة هذه الصفات إلى معرفة جلالته واستغنائه عن الخلق، فحينئذٍ يحصل العلم بكونه ملكًا؛ لأن الملك هو الذي يفتقر إليه غيره ويكون هو غنيًّا عن غيره، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين، وأنه هو الذي ولهت العقول في عزته وعظمته، فحينئذٍ يعرفه إلهًا.

المسألة الرابعة:السبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار، ولأن هذا التكرير يقتضي مزيد شرف الناس، لأنه سبحانه كأنه عَرَّف ذاته بكونه ربًا للناس، ملكًا للناس، إلهًا للناس ولولا أن الناس أشر مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه ربًا وملكًا وإلهًا لهم.

المسألة الخامسة:لا يجوز ههنا مالك الناس، ويجوز: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في سورة الفاتحة، والفرق أن قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أفاد كونه مالكًا لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد أنه مالك، ومع كونه مالكًا فهو ملك، **فإن قيل**:أليس قال في سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيلزم وقوع التكرار هناك؟ **قلنا**:اللفظ دل على أنه رب العالمين، وهي الأشياء الموجودة في الحال، وعلى أنه مالك ليوم الدين أي قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شيء والمالك إلى شيء آخر فلم يلزم التكرير، وأما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شيء واحد، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق، وأيضًا فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس، وقد قرئ: (مالك) لكن في الشواذ.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قوله تعالى:﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر، كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه، نظيره قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦]والمراد ذو الوسواس، وتحقيق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]وأما الخناس فهو الذي عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر، كالعواج والنفاثات، عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

اعلم أن قوله: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ (الذي يوسوس) على أحد هذين الوجهين.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

ففيه وجوه:

أحدها: كأنه يقول: الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس، كما قال:

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى، فشيطان الإنس يكون كذلك، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه. **وثانيها:** قال قوم: قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قسمان مندرجان تحت قوله في: ﴿صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ كأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنسانًا والإنسان أيضًا يسمى إنسانًا، فيكون لفظ الإنسان واقعًا على الجنس والنوع بالاشتراك، والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روي أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم: من أنتم؟ فقالوا: أناس من الجن. أيضًا قد سماهم الله رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فجاز أيضًا أن يسميهم ههنا ناسًا، فمعنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخنث لا يقتصر على إضلال الإنس بل يضل جنسه وهم الجن، فجدير أن يحذر العاقل شره. وهذا القول ضعيف؛ لأن جعل الإنسان اسمًا للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جنًّا لاجتنانهم والإنسان إنسانًا لظهوره من الإيناس وهو الإبصار، وقال صاحب الكشاف: من أراد تقرير هذا الوجه فالأَوْلى أن يقول: المراد من قوله: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي في صدور الناسي كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] وإذا كان المراد من الناس الناسي، فحينئذٍ يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى. **وثالثها:** أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من الجميع الجنة والناس.

واعلم أن لهذه السورة لطيفة أخرى: وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والمَلِك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلّت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة «الناس»

مِثل «الفلق» لأنها إحدى المعوِّذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجُهنيّ عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل اللهُ عليَّ آياتٍ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[1]. ورواه مسلم[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكهم ومُصْلِح أُمورِهم. وإنما ذكر أنه ربُّ الناس، وإن كان ربّاً لجميع الخَلْق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس مُعَظَّمون، فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عُظِّموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأَعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ . إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيرَه، فذكر أنه إلههم ومعبودُهم[3]، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾

يعني: مِن شرِّ الشيطان ـ والمعنى: من شرِّ ذي الوسواس؛ فحذف المضاف ـ قاله الفرّاء[4]. وهو بفتح الواو بمعنى الاسم، أي: المُوسوِس. وبكسر الواو

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٠٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٣٠٣).

(٢) في صحيحه (٨١٤).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢ .

المصدر، يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النَّفْس. يقال: وَسْوَسَتْ إليه نَفْسُه وَسْوَسةً ووِسَوسَة، بكسر الواو. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُليّ: وَسْواس[1]. قال ذو الرُّمة:

فبات يُشئِزه ثَأْدٌ ويُسْهِرُهُ   تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ[2]

وقال الأعشى:

تسمع للحَلْيِ وَسْواساً إذا انصرفَتْ   كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[3]

وقيل: إن الوسواسَ الخنَّاس ابنٌ لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم فقال: ما هذا؟ قالت: جاء عدوُّنا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أَقُلْ لكِ: لا تُطيعيه في شيء، هو الذي غرَّنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعةَ أرباع، وعلَّق كلَّ ربع على شجرة، غيظاً له. فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم، فقال: يا خَنَّاس، فحيِيَ فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفُليه؛ فجاء آدم فحرَّقه بالنار، وذَرَّ رمادَه في البحر. فجاء إبليس فقال: يا حوّاء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدمَ إيَّاه، فذهب إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفُليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرَتْه. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردتُ، وهذا مسكنُك في صدر ولد آدم. فهو مُلتقِمٌ قلبَ ابن آدم ما دام غافلاً يُوسوس، فإذا ذكرَ الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه[4]. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (وسوس).

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٠ ، وفيه: تذاؤب، بدل: تذؤُّب. قال شارحه أبو نصر الباهلي: يريد: بات الثور. يُشئزه: يُقلقه. والثَّأد: الندى، تذاؤب الريح: هو أن تأتيه الريح من كل وجه. والهضب: المطر.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥ ، وسلف ٩/ ١٧٥ وينظر شرحه ثمة.

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

ووُصِف بالخناس لأنه كثيرُ الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللهَ، أي: يتأخَّر[١]. وفي الخبر: إنَّ الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غَفَل وَسْوس، وإذا ذكر اللهَ خَنَسَ[٢]، أي: تأخَّر وأقصر.

وقال قتادة: «الخَنَّاس» الشيطان له خُرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غَفَل الإنسانُ وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَس[٣]. يقال: خَنَسْتُهُ فخَنَس، أي: أخَّرته فتأخر. وأخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحَضْرميّ ـ أنشد رسول الله ﷺ ـ:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تَكرُّماً وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ[٤]

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطانَ واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خَنَس، وإذا نسي اللهَ التقمَ قَلْبَه فوسوس»[٥]. وقال ابن عباس: إذا ذكر اللهَ العبدُ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غَفَلَ التَقم قلبه فحدَّثه ومَنَّاه[٦]. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدأ الوسواس من قِبل الوضوء[٧]. وقيل: سُمّي خَنَّاسًا لأنه يرجع إذا غَفَلَ العبدُ عن ذكر الله. والخنس: الرجوعُ، وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ امتِعاسا يزدادُ إن حَيَّيْتُه[٨] خِناسا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ - ٧٥٥ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨.

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٧٤، واللسان (دحس).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٤٢، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٣٩: غريب.

(٦) سلف قريباً بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر المنثور ٦/ ٤٢٠.

(٨) في (د): جننته، وفي (ظ): خنسته، وهي غير معجمة في (ز)، والمثبت من (م)، والرجز في النكت والعيون ٦/ ٣٧٨، والبيت الثاني فيه: يزداد من خنسه خناسا.

وقد روى ابنُ جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغَفَل وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس، فعلى هذا يكون في تأويل الخناس] وجهان[١]: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجرى الدَّم»[٢]. وهذا يُصحِّحُ ما قاله مقاتل.

وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ قال: سألت الله عن أن يُريني الشيطانَ ومكانَه من ابن آدم، فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً[٣] كخطم الكلب، فإذا ذَكَر اللهَ خنس ونكس، وإذا سكت عن ذِكْر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصفَ أبو ثعلبة أنه متشعِّب في الجسد، أي: في كل عضو منه شعبة.

ورُوِي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنُّه ـ: ما أَمِنتُ الزنى، وما يُؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فَيُوتِدَه؟! فهذا القولُ يُنبئك أنه مُتشعِّبٌ في الجسد[٤]، وهذا معنى قول مقاتل.

---

(١) عبارة النسخ: وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وجهين.. وفي هذه العبارة سَقَطٌ وتحريف، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٧٩، والكلام منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ وفيه قصة، وسلف ١/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) الخَطْم: من الدابَّة: مقدَّم أنفها وفمها. القاموس (خطم).

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٤.

ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت(١).

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

أخبر أن المُوسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنِّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطانُ الإنس فيأتي علانية(٢). وقال قتادة: إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن(٣). وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل: هل تعوَّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَمِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢](٤).

وذهب قومٌ إلى أن الناس هنا يُراد به الجن. سُمُّوا ناساً كما سُمُّوا رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وقوماً ونفراً(٥). فعلى هذا يكون «والناسِ» عطفاً على «الجِنّةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وذُكر عن بعض العرب أنه قال وهو يُحدِّث: جاء قومٌ من الجن فوقفوا. فقيل: مَنْ أَنتمْ؟ فقالوا: ناسٌ من الجن. وهو معنى قول الفرّاء(٦).

وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: «من الجِنةِ» بيان أنه من الجن، «والناسِ» معطوف على الوسواس. والمعنى: قُلْ أعوذُ بربِّ الناس من شرِّ الوسواس، الذي هو

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩.

(٤) ذكره مختصراً من قول أبي ذر رضى الله الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٠٣، وسلف ٨/ ٥٠٢ مرفوعاً.

(٥) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وينظر الكلام في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨، وزاد المسير ٩/ ٢٧٩.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٨.

من الجِنة، ومن شرِّ الناس. فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ بالله من شرِّ الإنس والجن(١). والجِنَّة: جمع جِنّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة.

وقيل: إن إبليس يُوسوِس في صدور الجن، كما يُوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون «في صدور الناس» عامًّا في الجميع، و«من الجِنة والناس» بيانٌ لما يُوسوِس في صدره.

وقيل: معنى «مِن شر الوسواس» أي: الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديثُ النَّفْس. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ به أَنْفُسَها ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم(٢). فالله تعالى أعلمُ بالمرادِ من ذلك.

تمَّ الجزء الثاني والعشرون من تفسير القرطبي
وبه تمَّ الكتاب
والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) زاد المسير ٩/ ٢٧٩.

(٢) في صحيحه (١٢٧)، وسلف ٤/ ٤٨٧ وقوله: «أَنْفُسَها» قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢/ ١٤٧: ضبط العلماء «أنفسها» بالنصب والرفع، وهما ظاهران، إلا أن النصب أظهر وأشهر.

سُورَةُ النَّاسِ

مُختَلَفٌ فيها، وآيها سِتٌّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قُلۡ أَعُوذُ﴾ قُرِئَ في السُّورتينِ بحَذفِ الهمزةِ ونقلِ حركَتِها إلى اللامِ[1].

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لَمَّا كانت الاستعاذةُ في السُّورَةِ المُتقدِّمَةِ مِن المَضارِّ البَدنيَّةِ، وهي تعمُّ الإنسانَ وغيرَهُ، والاستعاذةُ في هذه السُّورَةِ مِن الأضرارِ التي تَعرِضُ النُّفوسَ البَشَريَّةَ وتَخصُّها= عَمَّمَ الإضافةَ ثَمَّ وخصَّصَها بالنَّاسِ هاهنا، وكأنَّه قيل: أعوذُ مِن شرِّ المُوَسوسِ إلى النَّاسِ بربِّهِم الذي يملكُ أمورَهُم ويستحقُّ عِبادَتَهُم.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عَطْفَا بيانٍ له؛ فإنَّ الرَّبَّ قد لا يكونُ مِلكًا، والملِكُ قد لا يكونُ إلهًا.

وفي هذا النَّظْمِ دلالةٌ على أنَّه حقيقٌ بالإعادةِ قادِرٌ عليها غيرُ مَمنوعٍ عَنْها، وإشعارٌ على مراتبِ النَّاظرِ في المعارفِ؛ فإنَّه يعلمُ أوَّلًا بما يَرى عليهِ مِن النِّعَمِ الظَّاهرَةِ والباطنةِ أنَّ له رَبًّا، ثمَّ يتغلغَلُ في النَّظَرِ حتَّى يَتحقَّقَ أنَّه غَنِيٌّ عن الكلِّ،

---

(١) هي قراءة ورش. انظر: «التيسير» (ص: ٣٥).

وذاتُ كلِّ شيءٍ له، ومصارفُ أمرِهِ مِنهُ، فهُو الملكُ الحقُّ، ثمَّ يَستَدِلُّ به على أنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ لا غير.

وتَدرَّجَ في وجوهِ الاستعاذةِ المعتادةِ تنزيلًا لاختلافِ الصِّفاتِ مَنزِلَةَ اختلافِ الذَّاتِ؛ إشعارًا بعظمِ الآفةِ المُستعاذِ مِنْها.

وتكريرُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لِمَا في الإظهارِ مِن مَزيدِ البَيَانِ والإشعارِ بشَرَفِ الإنسانِ.

(٤) - ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾؛ أي: الوسوسةِ؛ كالزَّلزالِ بمَعنى الزَّلزلةِ، وأمَّا المصدرُ فبالكسرِ كالزِّلزالِ، والمُرَادُ به: المُوَسوِسُ؛ سُمِّيَ بفعلِهِ مُبالغَةً.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي عادَتُه أن يَخنِسَ؛ أي: يتأخَّرَ إذا ذكرَ الإنسانُ ربَّهُ.

(٥) - ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غَفَلُوا عن ذكرِ رَبِّهم، وذلك كالقوَّةِ الوهميَّةِ فإنَّها تُساعِدُ العقلَ في المقدِّماتِ، فإذا آلَ الأمرُ إلى النَّتيجةِ خنَسَتْ وأخذت تُوسوِسُهُ وتُشكِّكُه.

ومحلُّ ﴿ٱلَّذِى﴾ الجرُّ على الصِّفَةِ، أو النَّصبُ أو الرَّفعُ على الذَّمِّ.

(٦) - ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أو لـ﴿ٱلَّذِى﴾، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾؛ أي: يوسوسُ في صُدورِهِم مِن جِهَةِ الجنَّةِ والنَّاسِ.

وقيل: بيانٌ لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ المرادَ به ما يعمُّ القبيلتينِ. وفيه تعسُّفٌ إلا أن يرادَ به النَّاسي، كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] فإنَّ نسيانَ حقِّ الله تَعالى يعمُّ الثَّقلينِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرَأَ المُعوِّذتينِ فكأنَّما قرأَ الكتبَ التي أنزلَها اللهُ تعالى»(١)(٢).

وقد اتفق إتمامُ تعليقِ سَوادِ هذا الكتابِ المُنْطوي على فَرائدِ فوائدِ ذوي الألباب، المشتملِ على خُلاصةِ أَقوالِ أكابرِ الأئمَّة، وصَفوةِ آراءِ أَعلامِ الأمَّة، في تفسيرِ القُرآنِ وتَحقيقِ مَعانيه، والكَشفِ عن عَويصاتِ أَلفاظِه ومُعجزاتِ مَبانيه، مع الإيجازِ الخالي عن الإخلال، والتَّلخيصِ العاري عن الإملال، الموسومِ

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٧٢)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» (٣/ ١١٤٢)، و«الفوائد المجموعة» (ص: ٢٩٦).

(٢) **جاء في خواتيم النسخ الخطية التي اعتمدناها في التحقيق لكتاب «تفسير البيضاوي»:**

في نسخة العلامة الفاروقي تلميذ المصنف ـ بعد قوله: «أنزلها الله تعالى» ـ والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، تم المجلد الثاني من كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل **آخر مصنفات الإمام** الأعظم المرحوم السعيد الشهيد قاضي قضاة المسلمين والحق والدين أبي سعيد عبد الله بن الإمام المعظم المغفور إمام الحق والدين عمر البيضاوي قدس الله أرواحهما المطهرة وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خيرا مع المجلد الأول على يدي العبد المذنب الفقير إلى رحمة الله تعالى عبد الصمد بن محمود بن عبد الصمد الفاروقي في أواسط جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وست مئة، **وقد انخرط المصنف سقى الله ثراه ورضي عنه وأرضاه في سلك الجواهر القدسية بتبريز** متعريًا عن جلباب الجسمية **في شوال لسنة إحدى وتسعين وست مئة**، أسأل الله تعالى له الرضوان ولنفسي الرحمة والغفران، والحمد لله حمدًا يكافي نعمه ويوافي مزيده وصلواته على محمد وآله».

وفي نسخة العلامة الخيالي: «والله أعلم تم النصف الأخير من هذا التفسير بعون الملك القدير في أواخر ذي القعدة من سنة ست وخمسين وثمان مئة هجرية».

وفي نسخة العلَّامة ناصرِ الدين الطبلاوي: «والله أعلم تم أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». وجاء على هامشها: «بلغ مقابلة على أصل صحيح، فصحَّ إن شاء الله وصار للناظر مريح».

بـ«أنـوارِ التَّنزيل وأسـرارِ التَّأويـلِ»[1] في آخر شـهرِ التَّوبةِ جمادى الآخرِ سـنةَ إحدى وتسـعين وسـتّ مئة.

وأسألُ الله تعالى أن يَعُمَّ نفعُه للطُّلابِ، ولا يُخلِّي سعيَ مَن يتعبُ فيه من الأجرِ والثَّواب، ويختم كلَّ خاتمةِ أمري يومَه بتمحيصي عن الآثامِ وتبليغي أعلى منازلِ دارِ السَّلام في جوارِ العليِّين مع النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وهو سبحانه حقيقٌ بأنْ يحقِّقَ رجاءَ الرَّاجينَ تحقيقاً.

* * *

(١) من قوله: «وقد اتفق إتمام...» إلى هنا كذا جاء في خاتمة نسخة العلَّامة التفتازاني بخطِّه، وقد انخرم تتمة كلامه في النسخة، وأتممناه من نسخة السلطان أحمد برقم (٣٦) وهي خاتمة مهمة متضمنة لتاريخ تأليف الكتاب.

(١١٤) سورة الناس مكية وآياتها ست

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عزَّ وجلَّ : (الربوبية) و (الملك) و (الإلهية) ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزيّن له الفواحش . ولا يألوه

جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح: « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه » قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: « نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ». وثبت في الصحيحين « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً – أو قال – شراً »[1]. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس »[2]. وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب. قال ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً، وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بيّنهم فقال: ﴿من الجنة والناس﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، وكما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال: « يا أبا ذر هل صليت؟ » قلت: لا، قال: « قم فصل »، قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ». قال، فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: « نعم »[3]، وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء، لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال، فقال النبي ﷺ: « الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة »[4]

[آخر التفسير، وقد تم والحمد لله رب العالمين]

* * *

استدراك: الحديث الوارد عند قوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ من سورة البقرة ص ٢٢٦/ج١ وهو قوله ﷺ: « الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون » لم تشر النسخ المطبوعة والمخطوطة إلى ضعفه. وقد أرشدني **فضيلة الشيخ عبد الله ابن حميد الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام** إلى أن الحديث ضعيف وأنه قد وجد ذلك

---

(١) أخرجه الشيخان في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف فلقيه رجلان فقال: « على رسلكما إنها صفية » الحديث.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة بلفظ أطول.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

في نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم الشريف. وقد رجعت بنفسي إلى المخطوطة فوجدت النص التالي: « روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن ثوبان – رفعَ الحديث – قال: لا يزال بكم سبعة تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله ». ثم ذكر بسنده عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ « لا يزال في أُمتي ثلاثون. بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة: وإني لأرجو أن يكون الحسن منهم. وهذان الحديثان ضعيفان وإسناد كل منهما لا يثبت. هكذا ورد في النسخة المخطوطة ج ١ ص ٦٤٦ ومع ملاحظة الفرق بين اللفظين (الأبدال في أُمتي ثلاثون) في النسخة المطبوعة و (لا يزال في أُمتي ثلاثون) الخ في المخطوطة فقد رأينا التنبيه إلى ذلك **وشكر الله لفضيلة الشيخ بن حميد مسعاه. وجزاه الله على إرشاده الكريم خير الجزاء.**

وكتبه محمد علي الصابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ .

هذه ثلاث صفات (١) من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية : فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ،وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً فى الخبال . والمعصوم من عَصَم الله، وقد ثبت فى الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وُكل به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعاننى عليه ، فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » (٢) ، وثبت فى الصحيح ، عن أنس فى قصة زيارة صفية النبى ﷺ وهو معتكف ،وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيى » .فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال :« إن الشيطان يجرى من ابن آدم(٣) مجرى الدم ،وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً ، أو قال : شراً » (٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن بحر ، حدثنا عدى بن أبى عمارة ، حدثنا زياداً (٥) النّميرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه (٦) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر (٧) خَنَس ، وإن نسى (٨) التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس »(٩) . غريب.

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعت أبا تميمة يُحَدث عن رَديف رسول الله ﷺ قال : عَثَر بالنبى ﷺ حماره ، فقلت : تَعِس الشيطان. فقال النبى ﷺ: « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظَم ، وقال : بقوتى صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » (١٠).

تفرد به أحمد ، إسناده (١١) جيد قوى ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفى ، حدثنا الضحاك بن عثمان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان فى المسجد ، جاءه الشيطان فأبس

(١) فى هـ : « صفة » والمثبت من م ، أ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « من الإنسان » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٧٤) وهو فى صحيح البخارى برقم (٢٠٣٥،٦٢١٩،٧١٧١) من حديث صفية ، رضى الله عنها .

(٥) فى م : « زياد » وهو الصواب .

(٦) فى أ : « خرطومه » .

(٧) فى أ : « ذكر الله » .

(٨) فى أ : « نسى الله » .

(٩) مسند أبى يعلى (٧/٢٧٨،٢٧٩) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/٧٤٢) : « إسناده ضعيف » ؛ وذلك لضعف زياد النميرى والكلام فى عدى بن أبى عمارة .

(١٠) المسند (٥/٥٩) .

(١١) فى م : « إسناد » .

به كما يُبَس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه ــ أو : ألجمه » . قال أبو هُرَيرة : وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلاً ــ كذا ــ لا يذكر الله ،وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ،قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خَنَس . وكذا قال مجاهد ،وقتادة .

وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ذُكرَ لى أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث فى قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ،فإذا ذكر الله خنس .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ ،قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس.

وقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، هل يختص هذا ببنى آدم ــ كما هو الظاهر ــ أو يعم بنى آدم والجن ؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا فى لفظ الناس تغليبا .

وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجَالٌ منَ الجنَ) فلا بدع فى إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ،هل هو تفصيل لقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾. وهذا يقوى القول الثانى. وقيل قوله: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾، تفسير للذى يُوسوس فى صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ،كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما قال الإمام أحمد :

حدثنا وَكِيع ، حدثنا المسعودى ، حدثنا أبو عُمَر الدمشقى ، حدثنا عبيد بن الخشخاش ، عن أبى ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست،فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت؟». قلت: لا .قال: « قم فصل » . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : « يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » .

قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . قال : قلت : يا رسول الله، الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قلت : يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : « فرض يجزئ ، وعند الله مزيد » .قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : «أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، أيها (٢) أفضل ؟ قال : « جُهد من مُقل ، أو سر إلى فقير». قلت :يا رسول الله ، أى الأنبياء كان أول ؟ قال :« آدم ». قلت : يا رسول الله ،ونبى (٣) كان ؟ قال : « نعم ، نبى مُكَلَّم » . قلت : يا رسول الله ،كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جَمًّاً غَفيراً ». وقال مرة : « خمسة عشر » . قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم؟

(١) المسند (٢/ ٢٣٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٤٢) : « رجاله رجال الصحيح » .
(٢) فى م : « فأيها » . (٣) فى م : « ونبياً » .

قال : « آية الكرسى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ » .

ورواه النسائى ، من حديث أبى عمر الدمشقى ، به [١]. وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، بطريق آخر ، ولفظ آخر مطول جداً [٢] ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن ذر بن عبد الله الهَمْدانى ، عن عبد الله بن شداد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أحدث [٣] نفسى بالشىء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبى ﷺ : «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » .

ورواه أبو داود والنسائى،من حديث منصور ــ زاد النسائى: والأعمش ــ كلاهما عن ذر ،به[٤].

آخر التفسير ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله رب العالمين[٥]. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين [٦] . ورضى الله عن الصحابة أجمعين [٧]. حسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان الفراغ منه فى العاشر من جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وثمانين . والحمد له وحده[٨] .

---

(١) المسند (٥/ ١٧٨) وسنن النسائى (٨/ ٢٧٥) .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٩٤) « موارد » ، (١/ ٢٨٧) « الإحسان » من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغسانى ، عن أبيه عن جده ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، وقد قال ابن عدى عن هذا الحديث : « هذا الحديث منكر من هذا الطريق » .

(٣) فى م : « لأحدث » .

(٤) المسند (١/ ٢٣٥) وسنن أبى داود برقم (٥١١٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٠٣) .

(٥) فى أ : « والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى » .

(٦) فى أ : « وسلم تسليماً أبداً دائماً إلى يوم الدين » .

(٧) فى أ : « ورضى الله عن أصحاب رسول الله » .

(٨) فى م :« آخر التفسير ويليه فضائل القرآن للمؤلف أيضاً ،وبه يتم الكتاب إن شاء الله ،ولله الحمد والمنة على التمام، إنه ولى الإنعام».
وقد جاء فى خاتمة النسخة « هـ » هذه الخاتمة للناسخ :

« الحمد لله الذى رفع السماء بغير عماد ، وبسط الأرض وثبتها بالأطواد ، ومنح معرفته ومحبته من شاء من العباد ، وأقام لدينه أولياء ينصرونه ويقومون به ، وجعل منهم النجباء والأقطاب والأوتاد ، وأعلى منار الدين بالعلماء العاملين ، وأوضح بهم طرق الرشاد ، وقَمَع بهم أهل الزيغ والأهواء والبدع والفساد ، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الإسناد ، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، المتعالى عن الشركاء والنظراء والأنداد ، المنزه عن الحلول والاتحاد والإلحاد .

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله ، وحبيبه وخليله ، سيد العباد ، صلى الله عليه وعلى آله النجباء الأمجاد ، وصحابته السادة الأبرار الأمجاد ، صلاة تدوم وتقوم ما قامت السموات والأرض بأمره ، وقابل البياض السواد .

وبعد ، فقد أمرنى السيد الجليل ، من وصل الله له جناح الصنيع الجميل ، وواصل عليه السّول ، وأوصل إليه المأمول ، وعَمّر بحبه ربوع أنسى ، وأمطر بفيضه ربيع نفسى ، مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله سبحانه الآمل الراجى عفوه الكريم وإحسانه ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ،نجم الدين حجة الإسلام والمسلمين، سيد العلماء فى العالمين ، بهاءُ الملة ، لسانُ الشريعة ،عزّ السنة ، حصْنُ الأمة، خطيب الخطباء ، إمام البلغاء ، غرة الزمان ، ناصر الإيمان شيخ شيوخ العارفين ، أبو حفص عمر ــ ابنُ سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ــ الشيخ الإمام العلامة ، والحَبْر الفهامة ، قدوة العلماء العاملين ، أبى محمد حجى السعدى الشافعى ــ أمر ــ أعلى الله أمره ، وأسد قدره ، من لا يتقلب إلا فى طاعته ، ولا يتصرف إلا فى مرضاته ــ أن يُكتَبَ برسم خزانة تفسيرُ الإمام العالم الكبير ، العلامة عماد الدين ابن كثير ــ رحمه الله وأرضاه ، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ،=

= وعددت هذا الأمر من أنفس البضاعة ، مع أنى فى الكتابة قليل الصناعة . فكتبت قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه . فإن صادفت قبولاً وبلغت مأمولاً، فيكون سعدى سعيداً ، ويقع سهمى سديداً . . .

فَإن وَقَفَتْ بى قُدْرَتى دُونَ هِمّتى ... فمبلغَ علْمى والمعاذيرُ تُقْبَلُ

قد جمعت هذه الخزانةُ الشريفةُ أشتات العلوم على الإطلاق ، من رام مثلها فهو مُقَصر عن روم أسباب اللَّحاق، خصوصاً إذا كان بها هذا التفسير الذى مادته سُنَن المصطفى المنبه على جوامع ما يزداد اللبيب بها بصيرة فى علمه النافع ، إذ كان ﷺ قد أوتى جوامع الكلام ، وعلّم فصل الخطاب . فلم يسمع الناس كلاماً أعم نفعا ، ولا أقصر لفظاً ، ولا أعدل وفراً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ﷺ .

فلله درُّ مولانا ؛ إذا جمع الفضائل ، ونظم آحاد العقائل ، وحاز من العلم الذرى والغوارب . فلا يخفى على ذى لب أنه أغْرقَ فى الفهم فُصولاً ، وأعرق فى العلم أصولاً ، فأقول مختصراً ، وعما يليق بمدحه معتذراً ، عسى يمر به من تضاعيف ثنائى عليه ما يبلغنى به الزلفى فى حبه ، والقربى من قلبه ، وتلك أمنيتى حين ألقى منيتى ، لا أتعداها ، ولا أتمنى سواها ولله در القائل :

إذا ابنُ حجى حادت لنا يدهُ ... لم يُحمد الأجودان البحر والمطرُ
وَإن أضاءت لنا أنوارُ غُرته ... تضاءل الأنوران الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو جَدّ عزمته ... تأخر الماضيان السيف والقدر
من لم يبت حذراً من خوف سطوته ... لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر؟
كأنه الدهر فى نعمى وفى نقم ... إذا تعاقب منه النفع والضرر
كأنه وزمام الدهر فى يده ... يدا عواقب ما يأتى وَمَا يذَر

فالحمد لله الذى جعل جمال منظرك موازياً لكمال مخبرك ، وشامخ فَرعكَ مقارناً لراسخ عنصرك ، والله حسبى فيك من كل ما يُعَوِّذ العبد به المولى :

واسلم وعش لا زلت فى نعمة ... أنت بها من غيرك الأولى

وصَلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه الفقير محمد بن على الصوفى البواب ، لمنعاه التضائية ، بدمشق المحروسة ، حامداً ومصلياً ، ومحسبلاً ومحوقلاً ، والحمد لله وحده » .

يقول الفقير إلى عفو ربه سامى بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة : وكان الانتهاء من تحقيق تفسير القرآن العظيم فجر يوم الأربعاء الثانى من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية فى مدينة الرياض ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الناس

مدنيّة،[1] وهي ستّ آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ﴾ وقُرئ في السورتين بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى "اللام".[2] ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالك أمورهم ومربّيهم، بإفاضة ما يصلحهم، ودَفْع ما يضرُّهم.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان، جيء به لبيان أنّ تربيته تعالى إيّاهم ليست بطريق تربية سائر المُلّاك / لِما تحت أيديهم مِن مماليكهم؛ بل بطريق المُلك الكامل، والتصرّف الكلّي، والسلطان القاهر. [٣٢٨ظ]

وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه لبيان أنّ مُلكه تعالى ليس بمجرّد الاستيلاء عليهم، والقيامِ بتدبير أمور سياستهم، والتولّي لترتيب مبادي حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك؛ بل هو بطريق المعبوديّة المؤسَّسة على الألوهيّة المقتضية للقدرة التامّة على التصرّف الكلّي فيهم إحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. وتخصيص الإضافة بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مع انتظام جميع العاملين في سِلك ربوبيّته تعالى وملكوته وألوهيّته للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضيّة عنده تعالى الحقيقةِ بالإعاذة؛ فإنّ توسّل العائذ بربّه وانتسابَه إليه تعالى بالمربوبيّة والمملوكيّة والعبوديّة في ضمن جنس هو فرد مِن أفراده مِن دواعي مزيدِ الرحمة والرأفة، وأمرُه تعالى بذلك مِن دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالةَ، ولأنّ المستعاذ منه شرُّ الشيطان المعروف بعداوتهم.

---

[1] س: مختلف فيها.

[2] قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٨.

ففي التنصيص على انتظامهم في سِلك عبوديّته تعالى وملكوته رمزٌ إلى إنجائهم مِن مَلَكة الشيطان وتسلّطِه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر، ٤٢/١٥]، فمَن جَعَل مدار تخصيص الإضافة مجرَّدَ كون الاستعاذة مِن المضارّ المختصّة بالنفوس البشريّة، فقد قصَّر في توفية المقام حقَّه، وأمّا جعلُ المستعاذ منه فيما سبق المضارّ البدنيّة فقد عرفتَ حاله، وتكريرُ المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة، وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأمّا المصدر فبالكسر، والمراد به الشيطان، سُمّي بفعله مبالغة؛ كأنّه نفس الوسوسة. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخّر إذا ذَكَر الإنسان ربّه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غفَلوا عن ذكره تعالى. ومحلُّ الموصول إمّا الجرّ على الوصف، وإمّا الرفع أو النصب على الذمّ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ على أنّه ضربان: جِنّي وإنسي، [٣٢٩و] / كما في[١] قوله[٢] تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام، ١١٢/٦]، أو متعلّق بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾، أي: يوسوس في صدورهم مِن جهة الجِنّ ومِن جهة الناس. وقد جُوّز أن يكون بيانًا لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على أنّه يُطلَق على الجنّ أيضًا حسب إطلاق "النفر" و"الرجال" عليهم،[٣] ولا تعويلَ عليه.[٤]

وأقرب منه أن يُراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الناسي، ويُجعَلَ سقوط "الياء" كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، ثمّ يُبيّن بـ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حقّ الله سبحانه،[٥] إلّا مَن تداركَه شوافعُ عصمته، وتناولَه واسعُ رحمته، عصمَنا الله عزّ وجلّ مِن الغفلة عن ذِكره، ووفّقَنا لأداء حقوق شكره.

---

١ س – في.

٢ س: قال.

٣ كما في الآية الأولى والسادسة مِن سورة الجنّ.

٤ هذا الوجه وتفصيل تضعيفه مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

٥ هذا الوجه مع تقويته مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

١١٤

سُورَةُ النَّاسِ

مكية أو مدنية، ستُّ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿قُل: أعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ﴾: خالقِهم ومالكهم ـ خُصُّوا بالذكر تشريفًا لهم ومناسبةً للاستعاذة من شرّ المُوَسوِس في صُدورهم ـ ٢ ـ ٣ ـ ﴿مَلِكِ النّاسِ، إلـٰـهِ النّاسِ﴾: بدلان أو صفتان أو عطفا بيان، وأُظهِر المضافُ إليه فيهما زيادةً للبيان، ٤ ـ ﴿مِن شَرِّ الوَسْواسِ﴾ أي: الشيطان سُمِّي بالحدَث لكثرة مُلابسته له ﴿الخَنّاسِ﴾ لأنه يخنِس: يتأخّر عن القلب كُلّما ذُكر اللهُ، ٥ ـ ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاسِ﴾: قُلوبهم إذا غفَلوا عن ذِكر الله، ٦ ـ ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ﴾: بيانٌ للشيطان المُوَسوِس أنه جنّيٌّ وإنسيّ كقوله تعالى:

قولُهُ: (خَالِقِهِم) قالَ البيضاويُّ[1]: قُرِئَ في السُّورَتينِ بحذفِ الهمزَةِ ونقلِ حركَتِها إلى اللّامِ، والحالُ أنّه قراءَةٌ مُتواتِرَةٌ لورش، وقاعدَةٌ مُطَّردَةٌ له وَقفاً ووَصلاً، ولحمزَةَ وَقفاً[2].

قولُهُ: (في صُدُورِهِم) وكأنَّهُ قيل: أعوذُ من شرِّ الموسوِسِ إلى النَّاسِ بربِّهِم الذي يملكُ أمورَهُم ويستحِقُّ عِبادَتَهم.

قولُهُ: (أو عَطفاً بَيَانٍ) الظَّاهرُ: عَطفَا بيَانٍ.

قولُهُ: (زِيَادَةً للبَيَانِ) وإشعاراً بشرَفِ الإنسانِ، وقيل: المرادُ بالأوَّلِ: الأطفالُ ويلائمُهُ معنى التَّربيَةِ، والثَّاني: الشَّبابُ ويُطابقُهُ معنى السَّلطنَةِ والسِّياسَةِ، والثَّالث: الشُّيوخُ ويناسبُهُ معنى العبوديَّةِ للألوهيَّةِ.

قولُهُ: (سُمِّيَ) أو أُريدَ.

قولُهُ: (بالحَدَثِ) أي: بفعلِهِ مُبالغَةً، أو معناهُ: الموَسوِسُ.

قولُهُ: (بَيَانٌ للشَّيطَانِ) أو الذي هذا، وقالَ الجاربرديُّ في حاشيتِهِ على «الكشاف»[3]: واختِتامُهُ بالاستعاذَةِ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٥٠).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٨٥، ٢٣٧).

(٣) هذه الحاشية لم تطبع بعد، ومصنفها: أحمد بن الحسن، فخر الدين، أبو المكارم الجاربردي، إمام فاضل وقور، صاحب =

«شَياطِينَ الإنسِ والجِنِّ»، أو «من الجنة»: بيان له «والناسِ»: عطف على الوسواس.

وعلى كُلٍّ شَمَلَ شرَّ لبيدٍ وبناته المذكورين. واعتُرِض الأوّل بأنّ الناس لا يُوسوسون في صدور الناس، إنما يُوسوس في صدورهم الجِنُّ. وأُجيب بأنّ الناس يُوسوسون أيضًا بمعنًى يليق بهم في الظاهر، ثمّ تصل وسوستهم إلى القلب وتثبت فيه بالطريق المُؤدّي إلى ذلك. والله ـ تعالى ـ أعلم.

أيضاً نعمةٌ، إمَّا لأنَّ مثلَ هذا القُرآنَ لمَّا نزلَ على العبادِ وقرؤُوهُ وعَمِلوا به كانَ مظنَّةً أن يزلَّهُم الشَّيطانُ بإيقاعِ العُجْبِ والكِبْرِ، فاختتَمَ بالمعوِّذتَينِ؛ لدفعِ ذلك، وإمَّا لأنَّ الكُفَّارَ كانوا يُصيبونَ بالعَينِ ويقصدونَ ذلك، قالَ تعالَى: ﴿وإِن يَكَادُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [القلم: ٥١].

وقالَ السَّيِّدُ السَّندُ[(١)]: فيه إشارةٌ لطيفةٌ، قالَ كمال باشا[(٢)]: وجهُ الإشارةِ أنَّ الاستعاذَةَ من شرائطِ بَدْءِ القراءَةِ بحُكمِ ﴿فَإِذَا قَرأتَ القُرآنَ﴾ [النحل: ٩٨]، وفي الختمِ بالاستعاذَةِ نوعُ تذكيرٍ لذلك الشَّرطِ فينتَقِلُ الذِّهنُ منه إلى المشروطِ، ويكون ذلك كالباعثِ لابتداءِ القراءَةِ مرَّةً أخرى، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على ذلكَ بقولِهِ: «رَحِمَ الله الرَّاحِلَ والمرتَحِلَ»[(٣)].

قلتُ: ومن الاتِّفاقيَّاتِ البديعيَّةِ والتَّوفيقاتِ الإلهيَّةِ ما وقَعَ في هذا التَّفسيرِ من انضِمامِ الفاتِحَةِ إلى الخاتِمَةِ.

وقالَ الكافيجيُّ: وأشارَ إليه بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فَاستَعِذ بالله﴾ [النحل: ٩٨] على أحَدِ الوجهينِ؛ يعني: على القَولِ بأنَّ الاستعاذَةَ عندَ خَتمِ القراءَةِ، قلتُ: فإذا ختَمَ وبَدأ يكونُ عامِلاً بالوَجهينِ، ويحصلُ له أجرُهُ مرَّتينِ، والله سبحانَهُ وتعالى أعلم.

* * *

= المصنفات البديعة، والمؤلفات المفيدة، أخذ العلم عن القاضي البيضاوي، (ت: ٧٤٦هـ). انظر: «الدرر الكامنة» (١/ ١٤٢)، و«طبقات المفسرين» للأدنه وي (ص: ٢٨١).

(١) جاء في «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٢٥): علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف، والسيد المسند، الجرجاني، الحنفي، عالم نحرير، قد حاز قصبات السبق في التحرير، فصيح العبارة، دقيق الإشارة، نظار فارس في البحث والجدل، ولد في جرجان، وت (٧١٦هـ)، وله حاشية على تفسير البيضاوي.

(٢) وهو: أحمد بن سليمان ابن كمال باشا، ت: (٩٤٠هـ)، الفقيه الحنفي المشهور صاحب التصانيف الكثيرة، ومنها «حاشية على الكشاف». انظر: «الفوائد البهية» (ص: ٢١).

(٣) روى الترمذي (٢٩٤٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٦٨) (١٢٧٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل» قال: يا رسول الله، وما الحال المرتحل؟ قال: «يضرب من أول القرآن، إلى آخره، ومن آخره إلى أوله».

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بالقوي.

سُورَةُ النَّاسِ

وتسمَّى مع ما قبلها - كما أشرنا إليه قبلُ - بالمعوِّذتين بكسر الواو، والفتحُ خطأ، وكذا بالمقشقشتين، وتقدَّم الكلام في أمر مكيتها ومدنيتها. وهي ستُّ آياتٍ، لا سبعٌ وإن اختاره بعضهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام كما قرئ: «فَخُذَ ارْبعة»[1] [البقرة: ٢٦٠].

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكِ أمورهم، ومربِّيهم بإفاضة ما يصلحهم ودَفْعِ ما يضرُّهم، وأمال «الناس» هنا أبو عمرو، والدوريُّ عن الكسائيِّ، وكذا في كلٍّ موضع وقع فيه مجروراً[2].

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ عطفُ بيانٍ على ما اختاره الزمخشريُّ[3]، جيء به لبيانِ أنَّ تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملَّاكِ لِمَا تحت أَيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل والتصرُّفِ الكلِّيِّ والسلطان القاهر. وكذا قولُه تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ فإنه لبيان أنَّ ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم،

---

(١) التيسير ص٣٥.

(٢) قال ابن مجاهد في السبعة ص٧٠٣: كلُّهم قرأ «الناس» غير ممالة إلا ما روى الحلواني عن أبي عمرو الدوري عن الكسائي أن قراءته كانت بإمالة النون من «الناس» في موضع الخفض، ولا يميل في الرفع والنصب.

(٣) في الكشاف ٤/ ٣٠٢.

والقيامِ بتدبير أمور سياستهم، والتولِّي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم، كما هو قُصارى أمرِ الملوك، بل هو بطريق المعبودية المؤسَّسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرُّف الكلِّي فيهم إحياءً وإماتةً، وإيجاداً وإعداماً. وجوَّزت البدلية أيضاً.

وقال أبو حيان: إنهما صفتان، وتعقَّب قول الزمخشري أنهما عطف بيان: بأنَّ عطف البيان المشهورُ أنه يكون بالجوامد، وأن ظاهر كلامه أنهما عَطْفَا بيانٍ لواحد، ولم أظفر من النحاة بشيءٍ في أمر عطف البيان، هل يجوز أن يتكرر لمعطوف عليه واحد أم لا يجوز[(١)]. وأنت تعلم أنه لا مانع منه عقلاً، ثم ما هنا وإن لم يكن جامداً فهو في حُكْمِه، ولعل الجزالة دعتْ إلى اختياره.

وتخصيصُ الإضافة إلى «الناس» مع انتظام جميع العالم في سلك ربوبيته تعالى وملكوتِه وألوهيته ـ على ما في «الإرشاد» ـ للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة الحقيقة بالإعاذة، فإنَّ توسُّلَ العائذ بربِّه وانتسابَه إليه بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضِمْنِ جنسٍ هو فردٌ من أفراده، من دواعي مزيدِ الرحمة والرأفة، وأَمْرُه تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالةَ، ولأنَّ المستعاذَ منه شرُّ الشيطان المعروفِ بعداوتهم، ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمزٌ إلى إنجائهم من ملْكة الشيطان وتسلُّطِه عليهم حَسْبَما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[(٢)] [الإسراء: ٦٥].

واقتصر بعض الأجلَّة في بيان وجه التخصيص على كون الاستعاذة هنا من شرِّ ما يخصُّ النفوسَ البشرية، وهي الوسوسةُ كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وبُحث فيه ـ بعد الإغماض عمَّا فيه من القصور في توفية المقامِ حقَّه ـ بأن شرَّ الموسوس كما يلحق النفوسَ يلحق الأبدان أيضاً، وفيه شيء سنشير إن شاء الله تعالى إليه.

---

(١) البحر ٨/ ٥٣١-٥٣٢. والكلام من قوله: وقال أبو حيان، إلى هذا الموضع ليس في (م).
(٢) إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١٦.

واختار هذا الباحثُ في ذلك أنه لَمَّا كانت الاستعاذة فيما سبق من شرِّ كلِّ شيءٍ، أُضيفَ الربُّ إلى كلِّ شيءٍ، أي: بناء على عموم «الفلق»، ولما كانت هنا من شرِّ الوسواس لم يُضَفْ إلى كلِّ شيءٍ، وكان النظر إلى السورة السابقة يقتضي الإضافة إلى الوسواس، لكنه لم يضف إليه حظًّا لدرجته عن إضافة الربِّ إليه، بل إلى المستعيذ، وكأنَّ في هذا الحظِّ رمزاً إلى الوعد بالإعاذة، وهو الذي يجعل لِمَا ذكر حظًّا في أداء حقِّ المقام.

وربما يقال: إنَّ في إضافة الربِّ إلى الناس في آخر سورةٍ من كتابه تذكيراً لأول أمرٍ عرفوه في عالم الذرِّ، وأُخِذَ عليهم العهد بالإقرار به فيما بعدُ، كما أشار إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] فيكون في ذلك تحريضٌ على الاستعاذة من شرِّ الوسواس لئلَّا يتدنَّسَ أمرُ ذلك العهد، وفيه أيضاً رمزٌ إلى الوعد الكريم بالإعاذة.

وذكر القاضي(١) أنَّ في النَّظْم الجليل إشعاراً بمراتب الناظر المتوجِّه لمعرفة خالقه، فإنه يعلم أولاً بما يَرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أنَّ له ربًّا، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقَّق أنه سبحانه غنيٌّ عن الكلِّ، وذاتُ كلِّ شيءٍ له، ومصارفُ أمره منه، فهو الملك الحقُّ، ثم يستدلُّ به على أنه المستحقُّ للعبادة لا غير، ويتدرَّج(٢) في وجوه الاستعاذة المعتادة(٣) تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات، فإنَّ عادةَ من ألَمَّ به همٌّ أن يرفع أمره لسيده ومربِّيه كوالديه، فإنْ لم يقدرا على رَفْعِه، رَفَعَه لملكه وسلطانه، فإنْ لم يُزِلْ ظلامتَه شكاه إلى ملك الملوك ومَن إليه المشتكَى والمفزَعُ(٤)، وفي ذلك إشارة إلى عظم الآفة المستعاذ منها.

---

(١) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٧-٤١٨.
(٢) في (م): ويندرج، وفي تفسير البيضاوي: وتدرَّج، والمثبت من الأصل.
(٣) قوله: المعتادة، صفة لقوله: وجوه. قاله الشهاب.
(٤) من قوله: فإن عادة من ألَمَّ به همٌّ، إلى هذا الموضع، ليس من كلام البيضاوي، وإنما هو من شرح الشهاب له.

ولابن سينا هاهنا كلامٌ تتحرَّج منه الأقلام، كما لا يخفى على مَن ألَمَّ به وكان له بالشريعةِ المطهَّرة أدنى إلمام.

وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة.

وقيل: لا تكرار؛ فإنه يجوز أن يراد بالعامِّ بعضُ أفراده، فالناسُ الأول بمعنى الأجِنَّة والأطفال المحتاجين للتربية، والثاني الكهول والشبان؛ لأنهم المحتاجون لمن يسوسُهم، والثالث الشيوخ المتعبِّدون المتوجِّهون لله تعالى. وهو على ما فيه يُبْعِدُه حديثُ إعادة الشيء معرفةً وإن كان أغلبيًّا.

وقال عصام الدين: استعاذ بربِّ الناس من الشرك الطاري بإسناد النعم إلى الأسباب الظاهرة، وبملك الناس من الشرك الطاري من إسناد السياسات ونظام المملكة إلى الملوك والسلاطين، وبإله الناس من الشرك الظاهر الذي يبتلى به المشرك. وسلك طريق الترقِّي وكرَّر الناس إظهاراً لمزيد الصفات الثلاثة على فرقة الناس. وليس بذاك[1].

والوسواس عند الزمخشري اسمُ مَصْدَرٍ بمعنى الوسوسة، والمصدرُ بالكسر، وهو صوت الحليِّ والهمسُ الخفيُّ، ثم استعمل في الخطرة الردية، وأريد به هاهنا الشيطان، سمِّي بفِعْلِه مبالغةً كأنه نفسُ الوسوسة، أو الكلام على حذفِ مضافٍ، أي: ذي الوسواس[2].

وقال بعض أئمة العربية: إنَّ فعلل ضربان: صحيحٌ كدَحْرَجَ، وثنائيٌّ مكرَّرٌ كصَلْصَلَ، ولهما مصدران مطَّردان: فَعْلَلَة، وفِعْلال بالكسر وهو أقيس، والفتح شاذٌّ لكنه كثُر في المكرَّر كتَمْتام وفَأْفاء، ويكون للمبالغة كفَعَّال في الثلاثي، كما قالوا: وَطواط للضعيف، وثَرْثار للمكثِر، والحقُّ أنه صفةٌ، فليُحْمَلْ عليه ما في الآية الكريمة من غير حاجةٍ إلى التجوُّز أو حَذْفِ المضاف. وقد تقدَّم في سورة الزلزال ما يتعلَّق بهذا المبحث، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

---

(١) من قوله: وقال عصام الدين، إلى هذا الموضع ليس في (م).
(٢) الكشاف ٤/ ٣٠٢ بنحوه.

والظاهر أنَّ المراد الاستعاذةُ من شرِّ الوسواس من حيث هو وسواسٌ، ومآلُه إلى الاستعاذة من شرِّ وسوسته.

وقيل: المراد الاستعاذةُ من جميع شروره، ولذا قيل: «من شر الوسواس» ولم يقل: من شرِّ وسوسة الوسواس. قيل: وعليه يكون القول بأنَّ شرَّه يلحق البدن كما يلحق النفس أظهرَ منه على الظاهر، وعُدَّ مِن شرِّه أنه ـ كما في «صحيح البخاري»[١] ـ يعقدُ على قافية رأس العبد إذا هو نام ثلاثَ عقدٍ، مرادُه بذلك منعُه من اليقظة، وفي عدِّ هذا من الشر البدني خفاءٌ.

وبعضهم عدَّ منه التخبُّط، إذ الحق عند أهل السنَّة أنه قد يكون من مسِّه كما تقدَّم في موضعه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغةُ مبالغةٍ أو نسبة، أي: الذي عادتُه أن يخنس ويتأخَّر إذا ذَكَر الإنسانُ ربَّه عز وجل؛ أخرج الضياء في «المختارة»، والحاكم وصحَّحه، وابن المنذر، وغيرُهم، عن ابن عباس قال: ما من مولودٍ يُولد إلا على قلبه الوسواسُ، فإذا عَقَل فذكر الله تعالى خَنَس، فإذا غَفَل وَسْوَسَ[٢]. وله على ما روي عن قتادة خرطومٌ كخرطوم الكلب[٣]. ويقال: إنَّ رأسه كرأس الحية.

وأخرج ابن شاهين عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ للوَسْوَاسِ خَطْماً[٤] كخَطْمِ الطائرِ، فإذا غَفَلَ ابنُ آدم وَضَعَ ذلك المنقارَ في أُذُن القلبِ يُوَسْوِس، فإنْ ذَكَرَ الله تعالى نَكَصَ وخَنَسَ، فلذلك سُمِّي الوسواس الخناس»[٥].

---

(١) برقم (١١٤٢)، وأخرجه أيضاً مسلم (٧٧٦)، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الأحاديث المختارة (١٧٢)، والمستدرك ٢/ ٥٤١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤١٠، والطبري ٢٤/ ٧٥٣-٧٥٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١٠.
(٤) الخَطْمُ: منقار الطائر. ومن الدابَّة: مقدَّم أنفِها وفمِها. القاموس (خطم).
(٥) عزاه لابن شاهين السيوطي في الدر ٦/ ٤٢٠، وأخرجه بنحوه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، ولفظه: «إن الشيطان واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خَنَسَ، وإن نَسِيَ التَقَم =

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ قيل: أُريد قلوبُهم مجازاً. وقال بعضهم: إنَّ الشيطانَ يدخُل الصدرَ الذي هو بمنزلة الدِّهْلِيز فيُلقي منه ما يريد إلقاءَه إلى القلب ويُوصِله إليه. ولا مانعَ عقلاً من دخوله في جوف الإنسان، وقد ورد السمعُ به كما سمعتَ فوجب قَبولُه والإيمانُ به، ومن ذلك: «إنَّ الشيطانَ ليَجْرِي من ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّم»[1].

ومن الناس مَن حمله على التمثيل، وقال في الآية: إنها لا تقتضي الدخولَ كما يُنادي عليه البيان الآتي.

وقال ابن سينا: الوسواس: القوَّةُ التي تُوقِع الوسوسةَ، وهي القوة المتخيّلة بحسب صيرورتها مستعملةً للنفس الحيوانية، ثم إنَّ حركتها تكون بالعكس، فإنَّ النفس وجهتها إلى المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيّلةُ إذا أخذتها إلى الاشتغال بالمادَّة وعلائقها فتلك القوَّةُ تَخْنُس، أي: تتحرَّك بالعكس وتَجذِب النفسَ الإنسانيةَ إلى العكس، فلذلك تسمَّى خنَّاساً.

ونحوه ما قيل: إنه القوة الوهميةُ، فهي تُساعِد العقلَ في المقدِّمات، فإذا آلَ الأمرُ إلى النتيجة خَنَسَتْ وأخذت تُوَسْوِسه وتشكِّكه.

ولا يخفى أنَّ تفسيرَ كلام الله تعالى بأمثالِ ذلك من شرِّ الوسواس الخناس. والقاضي[2] ذكر الأخيرَ على سبيل التنظير لا على وجه التمثيل والتفسير، بناءً على حُسن الظنِّ به.

ومحلُّ الموصول إما الجرُّ على الوصف، وإمَّا الرفعُ والنصبُ على الذمِّ والشتم. ويحسُن أن يقفَ القارئ على أحد هذَينِ الوجهين على «الخناس»، وأما على الأول ففي الكواشي أنه لا يجوز الوقف. وتعقَّبه الطيبيُّ بأنَّ في عدم الجواز نظراً؛ للفاصلة.

= قلبه، فذلك الوسواس الخناس». قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٩: فيه عدي بن عمارة، وهو ضعيف.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٨٥) (٢٤)، عن صفية ﵂، وقد سلف عند تفسير الآية (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٨.

وفي «الكشف» أنه إذا كان صفةً فالحُسنُ غيرُ مسلَّم، اللَّهم إلا على وجهٍ، وهو أنَّ الوقفَ الحسَنَ شاملٌ لمثله في فاصلةٍ خاصَّة.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ بيانٌ لـ «الذي يُوَسْوِس» على أنه ضربان: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، أو متعلق بـ «يُوَسْوِسُ»، و«مِنْ» لابتداء الغاية، أي: يُوَسْوِس في صدورهم من جهة الجنِّ مثل أن يُلقيَ في قلب المرء من جهتهم أنَّهم ينفَعُون ويضرُّون، ومن جهة الناس مثل أن يُلقي في قلبه من جهة المنجِّمين والكُهَّان أنَّهم يعلَمُون الغيبَ.

وجوِّز فيه الحاليةُ من ضمير «يُوَسْوِس»، والبدليةُ من قوله تعالى: (مِن شَرِّ) بإعادة الجارِّ وتقدير المضاف، والبدليةُ من «الوَسْواس» على أن «مِنْ» تبعيضيةٌ.

وقال الفراء[1] وجماعة: هو بيانٌ لـ «الناس» بناءً على أنه يُطلَق على الجنِّ أيضاً، فيقال كما نُقِل عن الكلبي: ناسٌ من الجنِّ. كما يقال: نفرٌ ورجال منهم.

وفيه أنَّ المعروفَ عند الناس خلافُه، مع ما في ذلك من شبه جعل قِسْم الشيء قَسيماً له، ومثلُه لا يناسِبُ بلاغةَ القرآن وإن سُلِّم صحَّتُه. وتعقِّب أيضاً بأنَّه يلزم عليه القولُ بأنَّ الشيطانَ يُوَسِوس في صدور الجنِّ كما يوسوس في صدور الإنس، ولم يقم دليلٌ عليه، ولا يجوز جعلُ الآية دليلاً؛ لِمَا لا يخفى.

وأقرب منه ـ على ما قيل ـ أن يراد بـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ [الآية: ٥] الناسيُّ بالياء، مثله في قراءة بعضهم: «مِنْ حَيْثُ أفاضَ الناسِ»[2] [البقرة: ١٩٩] بالكسر، ويُجعَل سقوطُ الياء كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] ثم يبيَّن بـ «الجنة والناس»، فإنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الفريقَينِ مُبتلًى بنسيان حقِّ الله تعالى إلا مَن تداركه شوافعُ عصمتِه وتناوَلَه واسعُ رحمته، جَعَلَنا الله ممن نال من عِصمته الحظَّ الأوفى، وكَالَ له مولاه من رحمته فأوفى.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢.

(٢) وهي قراءة سعيد بن جبير كما في القراءات الشاذة ص١٢.

ثم إنه قيل: إنَّ حروفَ هذه السورة غيرَ المكرَّر اثنان وعشرون حرفاً، وكذا حروفُ الفاتحة، وذلك بعدَدَ السنين التي أُنزِل فيها القرآنُ. فليُراجَع، وبعد أن يوجد الأمرُ كما ذُكر لا يخفى أنَّ كون سني النزول اثنتين وعشرين سنةً قولٌ لبعضهم، والمشهورُ أنَّها ثلاثٌ وعشرون(١).

ومثل هذا الرمز ما قيل: إنَّ أولَ حروفه الباءُ، وآخرها السينُ، فكأنه قيل: بَسْ(٢)، أي: حسب، ففيه إشارةٌ إلى أنه كافٍ عما سواه، ورمزٌ إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقد نظم ذلك بعضُ الفرس فقال:

أولُ وآخِرِ قُرآن زجه بـا آمَـد وسِـيـن   يَعْني أَنْدَرْ دو جَهَان رَهْبَرِ مَا قُرْآن بَسْ(٣)

ومثلُه من الرموز كثيرٌ، لكن قيل: لا ينبغي أن يقال: إنه مرادُ الله عز وجل، نعم قد أَرْشَد عز وجل في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه، كما أرشد جلَّ وعلا إليها في الفاتحة، بل لا يبعُد أن يكون مرادُه تعالى ـ على القولِ بأنَّ ترتيبَ السور بوحيه سبحانه ـ مِن خَتْمِ كتابه الكريم بالاستعاذة به تعالى من شرِّ الوسواس الإشارةَ ـ كما في الفاتحة ـ إلى جلالة شأن التقوى، والرمز إلى أنها ملاكُ الأمر كلِّه، وبها يحصل حسنُ الخاتمة، فسبحانه من مِلِكٍ جليلٍ ما أجلَّ كلمتَه، ولله درُّ التنزيل ما أحسن فاتحتَه وخاتمتَه.

❁ ❁ ❁

وبعد، فهذا والحمد لله تأويلُ رؤياي من قبل، قد جعلها ربِّي حقًّا، فأسعدني ـ وله الشكرُ ـ بالتوفيق لتفسير كتابه العزيز الذي لا يذلُّ مَن لَاذَ به ولا يشقى، فإذ وفَّقْتَني يا إلهي لتفسير عبارته، ووَقَفْتَني على ما شئتَ من مُضمَر

---

(١) ينظر الإتقان ١/ ١٢٩.

(٢) ورد في الأصل حاشية لهذه الكلمة: وهو عربي في قول كما في القاموس. اهـ منه. ينظر القاموس، وتاج العروس (بسس).

(٣) ومعناه: إن مجيء الباء والسين أول القرآن وآخره، معناه أن هادينا في العالمَيْنِ هو القرآن بَسْ (فقط لا غير).

إشارته، فاجعلني يا ربَّاه ممن يَعتصِم بمحكَم حبله؛ ويتمسَّكُ بعُروته الوُثقى، ويأوي من المتشابهات إلى حِرز معقِله، ويستظِلُّ بظِلالِ كَهْفه الأوقى، وأَعِذْني من وَساوِس الشيطان ومَكايِده، ومن الارتباك بشِبَاك غروره ومَصَايده؛ واجْعَلْه وسيلةً لي إلى أشرف منازل الكرامة، وسُلَّماً أَعرُج فيه إلى محلِّ السلامة. فطالما يا إلهي أَسْهَرَتْني آياتُه، حتى خَفَقَتْ برأسي سِنةُ الكرى، فلم أَفِقْ إلَّا وقد لطمَتْني من صِفاح صحائفِ سُوَره ذاتُ سِوَار. وكَم وكَم سَرَتْ بي يا مولاي عباراتُه، حتى حَقَّقَتْ لي دعوى: عند الصَّبَاح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى[1]. فلم أشعُر إلا وقد تلفَّعتْ نواعِسُ السوادي من فضلِ مِئزَرِ مَهاةِ الصُّبح بخمار، ولم أزل أسوِّد الأوراق في تحريرِ ما أَفَضْتَ عليَّ حتى بَيَّض نسخةَ عمري المشيبُ، وأجَدِّدُ النظرَ بتحديق الأحداق فيما أفضيتَ به من المشايخ إليَّ حتى بَلِيَ بُردُ شبابي القَشيبُ[2].

هذا مع ما قاسيتُه من خليلٍ غادرٍ، وجليلٍ جائرٍ، وزمانٍ غَشومٍ، وغُيومٍ وَابِلُها غُموم، إلى أمورٍ أنتَ بها يا إلهي أعلم، ولم يكن لي فيها سواك مَن يرحم. وأكثر ذلك يا إلهي قد كان حيثُ أَهَّلْتَني لخدمة كتابك، ومَنَنْتَ عليَّ من غير حدٍّ بالفحصِ عن مستودَعات خِطابك، فاكْفِني اللَّهمَّ بحُرمته مؤنةَ معرَّةِ العباد، وهَبْ لي أمْنَ يومِ المعاد، وأَعِذْني بلطفك، واغْذُني بنعمتك، ووفِّقني للتي هي أزكى، واستعمِلني بما هو أرضى، واسلُك بي الطريقةَ المُثْلى، وذوِّدني مَطياتِ الهُدى، وزوِّدني باقياتِ التُّقى. وأَصْلِح ذرِّيتي، وبَلِّغني بهم أُمنيتي، واجعلهم عُلماءَ عاملين، وهُداةً مَهديِّين، وكن لي ولهم في جميع الأمور، واحفَظْني واحفَظْهم من فِتَن دارِ الغُرور.

---

(١) مثلٌ يضرب لما يُنال بالمشقة ويُوصَل إليه بالتعب. وقال الزمخشري في المستقصى ٢/ ١٦٨: يضرب في الحثِّ على مزاولة الأمر بالصبر وتوطين النفس حتى تحمد عاقبته. اهـ. وهو في شعر نسب في المستقصى للجليح، وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٤٢ للجميح، وفي مجمع الأمثال ٢/ ٣ لخالد بن الوليد، وفي الحيوان ٦/ ٥٠٨ لبكر بن عبد الله المزني، وفي تفسير القرطبي ٢٢/ ١٨٣ لعبد الله بن رواحة، وبعده:

وتنقضي عنهم غياباتُ الكرى

(٢) القشيب: الجديد. القاموس (قشب).

وأيِّد اللَّهم خليفَتك في خليقتِك، ووفِّقه بحُرمة كلامك لإعلاء كلمتك. وصلِّ وسلِّم على روح معاني الممكنات على الإطلاق، ورُوح مغاني قلوب المؤمنين والمؤمنات في سائر الآفاق، وعلى آله وأصحابه، وكلِّ من سلك سَنَنَ سُنَّته واقتفى، وقال في ظِلالِ ظليلِ شريعته قائلاً: حَسبي ذلك وكفى.

وقد صادف تسليمُ القلم من ركوعه وسجوده، في ظُلَم دياجي المداد، واضطجاعِه في بيت الدواة، بعد قيامه على ساق الخدمة لكتاب ربِّ العباد، ليلةَ الثلاثاء، لأربعٍ خلون من شهر رَبيع الآخَر، سنةَ ألفٍ ومئتين وسبعٍ وستِّين، من هجرة سيِّد الأوائل والأواخر، صلَّى الله تعالى عليه وسلم. وجاء تأريخه: أكمل تفسيري روح المعاني(١).

والحمد لله باطناً وظاهراً، وله سبحانه الشكرُ أولاً وآخراً.

تم الجزء التاسع والعشرون من تفسير روح المعاني، وبه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

(١) وهي بحساب الجمَّل سنة (١٢٦٧هـ) كما ذكر المؤلف أعلاه.